(٢٦) سورة الشعراء مكية
وآياتها سبع وعشرون ومائتان

سورة الشعراء من السور المكية التي أُنزلت قبل الهجرة ، وتعرضت لنفس الأهداف والأغراض التي تناولتها السور المكية ، من الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والبعث بعد الفناء ، وموضوع الوحي والرسالة ، والتذكير والإنذار ، وقَصَص الأنبياء وأُخبار القرون الماضية مما هو من خصائص السور المكية .. سُميت سَورةَ الشعراء لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء ردًّا على المشركين في زعمهم أن محمداً ﷺ كان شاعراً وأنَّ ما جاء به إنما هو من قبيل الشعر ، فردَّ الله عليهم هذا الكذب والبهتان بقوله ﴿ والشعراءُ يتَّبِعُهم الغَاوُون . أَلَمْ تَرَ أَنَّهمْ في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون . وأَنَّهم يقولُونَ ما لا يَفْعلون﴾ ؟ وبذلك وضح الحقّ وبان بتمييز الرسل عن الشعراء ، تبرئةً لمقام الرسول عليه السلام ، لأن الشاعر إن كان كاذباً فهو رئيس الغُواه ولا يُتصور فيه الهداية والإرشاد ، وإن كان صادقاً فلا يُتصوَّر فيه الكذب والافتراء على الله ، وهذا من أعظم الدلائل على صدق النبي العظم عليه أفضل الصلاة والتسليم .

تبتدىء السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هدايةً للخلق ، وبَلْسَماً شافياً لأمراض البشرية ، وتذكر موقف المشركين منه ، فقد كفروا به مع وضوح آياته ، وسطوع براهينه وحججه ، وطلبوا آيةً أخرى غيرَ هذا القرآن ، وهو أكبر الآياتِ وأعظم المعجزات الدالة على صدق النبي الأمّي ﴿ طسم . تلكَ آياتُ الكتاب المبين . لَعلَّك

باخعٌ نَفْسَك ألاّ يكونوا مُؤْمنين . إنْ نَشأْ نُنَزّلْ عليهمْ من السَّماءِ آيةً فظلّتْ أَعْنَاقُهُم لها خَاضِعين . وما يأتيهم من ذِكْرٍ من الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إلا كانوا عنه مُعْرِضين . فقد كذَّبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ ومن الحديث عن القرآن ينتقل الحديث إلى الأنبياء والمرسلين ، الذين بعثهم الله لهداية الأنسانية على مَرِّ العصور ، وكَرِّ الدهور ، وتبتدىء بقصة « موسى الكليم » مع فرعون الطاغية الجبار ﴿ وإذْ نَادَى ربُّكَ موسَى أَنْ ائتِ القَوْمَ الظالمين . قومَ فرعونَ أَلاَ يتقون ؟ قال ربِّ إني أخافُ أَنْ يكذّبونِ . ويضيقُ صدري ولا ينطلق لساني فَأَرْسِلْ إلى هارون . ولهم عليَّ ذنبٌ فأخافُ أَنْ يقتلون﴾ وتتحدث السورة عمّا جرى من المحاورة والمداورة بين موسى وفرعون ، وتَعْرِضُ للحجة الدامغة التي أيَّد الله بها الكليم ، والسَّفهِ والمغالطة التي بدتْ في كلام فرعون بقصد إطفاء نور الحقّ ، استمع إلى هذه المحاورة التي حدَّث عنها القرآن الكريم ﴿ قال فرعونُ وما ربُّ العالمين ؟ قال : ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حَوْلَه : أَلاَ تستمعون ؟ قال ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أُرْسِلَ إليكم لمجنون . قال ربُّ المشرقِ والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذتَ إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ وتنتهي القصة ومعها العظة والعبرة بهلاك فرعون وجنوده بالغرق ، وإنجاء الله لموسى والمؤمنين . ويتضح المحقُّ والمبطل ، والفائز والهالك بعد انكشاف الغطاء عن حفظ الله لأوليائه وإهلاكه لأعدائه ﴿ فأَتْبَعوهم مشرقين . فلما تراءَ الجمعان قال أصحابُ موسى إنّا لَمُدْرَكونَ . قال كلاّ إنَّ معيَ ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أَنْ اضربْ بعصاك البحر ، فانفلق فكان كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيم . وأَزْلَفْنا ثَمَّ الآخرين . وأنجينا موسى ومَنْ معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخَرين . إن في ذلك الآية – أي لعبرة – وما كان أكثرُهم

مؤمنين﴾ وتنتقل السورة الكريمة إلى قصة الخليل إبراهيم السلام ، فتقرِّرُ دعوتَه الكريمة وهي « دعوةُ التوحيد » وموقفه من قومه وأبيه في عبادتهم للأوثان والأصنام ، وتقرِّر الحجة الدامغة التي جابههم بها في عبادتهم ما لا يسمع أو ينفع ثم دعوته لهم إلى عبادة الواحد القهار ﴿واتلُ عليهم نبأَ إبراهيم . إذْ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا نعبدُ أصناماً فنظلُّ لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذْ تدْعون ؟ أو ينْفعونكم أو يَضُرّون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ وبعد تلك المجادلة والمحاورة يقيم لهم الأدلة على وحدانية الله ، فليس هناك معبود إلا الذي بيده النفع والضُّرُ ، والإطعام والشفاء ، والإماتة والإحياء ﴿الذي خلقني فهو يَهْدين . والذي هو يُطْعِمني ويَسْقِين . وإذا مرضتُ فهو يَشْفِين . والذي يُميتني ثم يُحْيِين . والذي أَطْمعُ أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ ثم تنتقل السورة للحديث عن الجنة والنار ، وعن السعداء والأشقياء ، وعن أحوال أهل الجحيم وهم في دركاتها يذوقون أنواع العذاب والنكال ، وقد حُشروا مع جنود إبليس اللعين ﴿وأُزْلفتِ الجنة للمتّقين . وبُرّزت الجحيمُ للغاوينَ . وقيل لهم : أينَ ما كنتم تَعْبُدونَ من دونِ الله ، هل يَنْصرونكم أو يَنْتصرون ؟ فكبكبوا فيها هم والغاوُون . وجنودُ إبليس أجمعون﴾ .

وبعد أن تذكرَ السورةُ طائفةً من الرسل الكرام « نوح ، هود ، صالح ، لوط ، شعيب » وما نالَ أقوامَهم المكذبين من الخزي والعذاب والدمار نتيجة الكفر والتكذيب لرسل الله .. يأتي الحديث عن صدق القرآن ، المنزَّل بالحق من الرحمن ، وعن موقف كفار قريش منه وأنهم كذّبوه فسيحلُّ بهم ما حلَّ بمن سبقهم ﴿وإنه لتنزيلُ رب العالمين . نزل به الروحُ الأمين . على قلبك لتكونَ من المُنْذِرين بلسانٍ عربي مبين . وإنه لفي زُبُر الأولين . أو لم يكن آيةً أنْ يَعْلَمه علماء بني إسرائيل ؟ ولو

نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين . كذلك سلكناه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به حتى يَرَوْا العذاب الأليم﴾ .

ولقد زعم المشركون أن هذا القرآن من وحي الشياطين ، فجاءت السورة الكريمة تقرّر أن الشياطين معزولون عن السمع ، لا يستطيعون أن يصلوا إلى الملأ الأعلى ، وتأمر الرسول عليه السلام أن يُنذر ويُحذّر عشيرته الأقربين ، ولا يخشى من أذى المشركين فالله حافظه وناصره ﴿وما تنزَّلت به الشياطينُ . وما ينبغي لهم وما يستطيعونَ . إنهم عن السمعِ لمعزولون . فلا تَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخر فتكونَ من المُعَذَّبين . وأنذرْ عشيرتَكَ الأقْربين . واخفضْ جناحَك لمن اتَّبعَك من المؤمنين . فإن عَصَوْكَ فقلْ اني بريءٌ مما تعملون . وتوكَّلْ على العزيزِ الرحيم . الذي يراكَ حينَ تقُوم . وتقلُّبك في الساجدين﴾ وتختم السورةُ الكريمةُ بتنزيه القرآن عن ذلك الافتراء والبهتانَ الذي زعمه المشركون وهو أن الشياطين تنزّلتْ بالقرآن على سيد المرسلين ﴿هل أنبئكم على من تَنَزَّل الشياطين ؟ تَنَزَّل على كلّ أفَّاكٍ أثيم يُلْقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتَّبعُهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلِموا ، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون﴾

سورة الشعراء

[٦٧٣] أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال رؤى النبي [ﷺ] كأنه متحير فسألوه عن ذلك فقال: «ولم ورأيت عدوي يكون من أمتي بعدي» فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾(١) فطابت نفسه.

[٦٧٤] وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾(٢) بدأ بأهل بيته وفصيلته فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥﴾(٣).

[٦٧٥] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال تهاجى رجلان على عهد رسول الله [ﷺ] أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فأنزل الله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤﴾(٤) الآيات. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة نحوه.

[٦٧٦] وأخرج عن عروة قال: لما نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾(٥) إلى قوله: ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾(٦) قال عبدالله بن رواحة قد علم الله أني منهم فأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(٧) إلى آخر السورة.

[٦٧٧] وأخرج ابن جرير والحاكم عن أبي حسن البراد قال لما نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾(٨) الآية. جاء عبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت

---

[٦٧٣] (١) سورة الشعراء: الآية (٢٠٥ ـ ٢٠٧).
[٦٧٤] (٢) سورة الشعراء: الآية (٢١٤).
(٣) سورة الشعراء: الآية (٢١٥).
[٦٧٥] (٤) سورة الشعراء: الآية (٢٢٤).
[٦٧٦] (٥) سورة الشعراء: الآية (٢٢٤).
(٦) سورة الشعراء: الآية (٢٢٦).
(٧) سورة الشعراء: الآية (٢٢٧).
[٦٧٧] (٨) سورة الشعراء: الآية (٢٢٤).

فقالوا يا رسول الله والله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء هلكنا فأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1] الآية. فدعاهم رسول الله [ﷺ] فتلاها عليهم.

* * *

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٢٢٧).

سورة الشعراء

مكية إلا أربع آيات فإنها مدنية وهي ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] إلى آخرها وهي مئتان وست أو سبع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسم ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝﴾

الطاء إشارة إلى طرب قلوب العارفين، والسين سرور المحبين، والميم مناجاة المريدين.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ قتادة (باخع نفسه) على الإضافة، وقرئ (فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعَةً).

المسألة الثانية: البخع أن يبلغ بالذبح البخاع، وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وذلك أقصى حد الذابح، ولعل للإشفاق.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿طسم ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ معناه: آيات هذه السورة تلك آيات الكتاب المبين، وتمام تقريره ما مر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢] ولا شبهة في أن المراد بالكتاب هو القرآن والمبين وإن كان في الحقيقة هو المتكلم فقد يضاف إلى الكلام من حيث يتبين به عند النظر فيه، فإن قيل: القوم لما كانوا كفارًا فكيف تكون آيات القرآن مبيِّنة لهم ما يلزمهم، وإنما يتبيَّن بذلك الأحكام؟ قلنا: ألفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم أن يأتوا بمثله يمكن أن يستدل به على فاعل مخالف لهم كما يستدل بسائر ما لا يقدر العباد على مثله، فهو دليل التوحيد من هذا الوجه ودليل النبوة من حيث الإعجاز، ويعلم به بعد ذلك أنه إذا كان من عند الله تعالى فهو دلالة الأحكام أجمع، وإذا ثبت هذا صارت آيات القرآن كافية في كل الأصول والفروع أجمع، ولما ذكر الله تعالى أنه بيَّن الأمور قال بعده: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ منبهًا بذلك على أن الكتاب وإن بلغ في البيان كل غاية فغير مدخل لهم في الإيمان لما أنه سبق حكم الله بخلافه، فلا تبالغ في الحزن والأسف على ذلك؛ لأنك إن بالغت فيه كنت بمنزلة من يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك أصلاً فصبره وعزاه وعرفه أن غمه وحزنه لا نفع فيه كما أن وجود الكتاب على بيانه ووضوحه لا نفع لهم فيه، ثم بيَّن تعالى أنه قادر على أن ينزل آية يذلون عندها ويخضعون، فإن قيل: كيف صح مجيء ﴿خَاضِعِينَ﴾ خبرًا عن الأعناق؟ قلنا: أصل الكلام فظلوا لها خاضعين، فذكرت الأعناق لبيان موضع الخضوع، ثم ترك الكلام على أصله، ولما وصفت

بالخضوع الذي هوَّ للعقلاء، قيل: ﴿خَٰضِعِينَ﴾ كقوله: ﴿لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقيل: أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما يقال: هم الرءوس والصدور، وقيل: هم جماعات الناس، يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم.

المسألة الرابعة: نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الكهف: ٦] وقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٩﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ من تمام قوله: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم﴾ [الشعراء: ٤] فنبه تعالى على أنه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالإلجاء، رحيم بهم من حيث يأتيهم حالاً بعد حال بالقرآن، وهو الذكر ويكرره عليهم وهم مع ذلك على حد واحد في الإعراض والتكذيب والاستهزاء، ثم عند ذلك زجر وتوعد؛ لأن المرء إذا استمر على كفره فليس ينفع فيه إلا الزجر الشديد فلذلك قال: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾ أي بلغوا النهاية في رد آيات الله تعالى ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ وذلك إما عند نزول العذاب عليهم في الدنيا أو عند المعاينة أو في الآخرة، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [ص: ٨٨] وقد جرت العادة فيمن يسيء أن يقال له: سترى حالك من بعد، على وجه الوعيد، ثم إنه تعالى بيَّن أنه مع إنزاله القرآن حالاً بعد حال قد أظهر أدلة تحدث حالاً بعد حال فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ والزوج: هو الصنف (مِنَ النَّبَاتِ) والكريم: صفة لكل ما يُرْضَى ويُحْمَد في بابه، يقال: وجه كريم إذا كان مرضيًا في حسنه وجماله. وكتاب كريم: إذا كان مرضيًا في فوائده ومعانيه، والنبات الكريم: هو المرضي فيما يتعلق به من المنافع. وفي وصف الزوج بالكريم وجهان: أحدهما: أن النبات على نوعين نافع وضار، فذكر سبحانه كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وترك ذكر الضار. والثاني: أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعًا بالكرم، ونبه على أنه ما أنبت شيئًا إلا وفيه فائدة وإن غفل عنها الغافلون.

أما قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فهو كقوله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] والمعنى أن في ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أي مع كل ذلك يستمر أكثرهم على

كفرهم، فأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فإنما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم؛ لأنه لو لم يقدمه لكان ربما قيل: إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده، فإن الرحمة إذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعًا. والمراد أنهم مع كفرهم وقدرة الله على أن يعجل عقابهم لا يترك رحمتهم بما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات، ثم من إعطاء الصحة والعقل والهداية.

المسألة الثانية: أنه تعالى وصف الكفار بالإعراض أولاً، وبالتكذيب ثانيًا، وبالاستهزاء ثالثًا وهذه درجات من أخذ يترقى في الشقاوة، فإنه يعرض أولاً ثم يصرح بالتكذيب والإنكار إلى حيث يستهزىء به ثالثًا.

المسألة الثالثة: فإن قلت: ما معنى الجمع بين كم وكل، ولم لم يقل: كم أنبتنا فيها من زوج كريم؟ قلت: قد دل كل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة، فهذا معنى الجمع (رتَّبَهُ) على كمال قدرته، فإن قلت: فحين ذكر الأزواج ودل عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيب فكيف قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ وهلا قال: لآيات؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون ذلك مشارًا به إلى مصدر أنبتنا، فكأنه قال: إن في ذلك الإنبات لآية أي آية. والثاني: أن يراد أن في كل واحد من تلك الأزواج لآية.

المسألة الرابعة: احتجت المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ فقالوا: الذكر هو القرآن لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾[الأنبياء: ٥٠] وبيَّن في هذه الآية أن الذكر محدث فيلزم من هاتين الآيتين أن القرآن محدث، وهذا الاستد[illegible]له تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾[الزمر: ٢٣] وبقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[المرسلات: ٥٠] وإذا ثبت أنه محدث فله خالق فيكون مخلوقًا لا محالة. والجواب: أن كل ذلك يرجع إلى هذه الألفاظ ونحن نسلم حدوثها إنما ندعي قدم أمر آخر وراء هذه الحروف، وليس في الآية دلالة على ذلك.

القصة الأولى قصة موسى عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾

اختلف أهل السنة في النداء الذي سمعه موسى عليه السلام من الله تعالى، هل هو كلامه القديم أو هو ضرب من الأصوات، فقال أبو الحسن الأشعري: المسموع هو الكلام القديم، وكما أن ذاته تعالى لا تشبه سائر الأشياء، مع أن الدليل دل على أنها معلومة ومرئية فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والأصوات مع أنه مسموع، وقال أبو منصور الماتريدي: الذي سمعه

موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والأصوات، وذلك لأن الدليل لما دل على أنا رأينا الجوهر والعرض، ولا بد من علة مشتركة بينهما لصحة الرؤية، ولا علة إلا الوجود، حكمنا بأن كل موجود يصح أن يرى، ولم يثبت عندنا أنا نسمع الأصوات والأجسام حتى يحكم بأنه لا بد من مشترك بين الجسم والصوت، فلم يلزم صحة كون كل موجود مسموعًا فظهر الفرق، أما المعتزلة فقد اتفقوا على أن ذلك المسموع ما كان إلا حروفًا وأصواتًا، فعند هذا قالوا: إن ذلك النداء وقع على وجه علم به موسى عليه السلام أنه من قبل الله تعالى، فصار معجزًا علم به أن الله مخاطب له فلم يحتج مع ذلك إلى واسطة، وكفى في الوقت أن يحمله الرسالة التي هي ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لأن في بدء البعثة يجب أن يأمره بالدعاء إلى التوحيد، ثم بعده يأمره بالأحكام، ولا يجوز أن يأمره تعالى بذلك إلا وقد عرفه أنه ستظهر عليه المعجزات إذا طولب بذلك.

أما قوله تعالى: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فالمعنى أنه تعالى سجل عليهم بالظلم، وقد استحقوا هذا الاسم من وجهين: من وجه ظلمهم أنفسهم بكفرهم، ومن وجه ظلمهم لبني إسرائيل.

أما قوله: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ فقد عطف (قَوْمَ فِرْعَوْنَ) على (الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) عطف بيان، كأن القوم الظالمين وقوم فرعون لفظان يدلان على معنى واحد.

وأما قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ فقرئ (أَلاَ يَتَّقُونِ) بكسر النون، بمعنى ألا يتقونني، فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء بالكسرة، وقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ كلام مستأنف أتبعه تعالى إرساله إليهم للإنذار والتسجيل عليهم بالظلم، تعجيبًا لموسى عليه السلام من حالهم (التي شفت) في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم (وحذرهم من أيام اللَّه)، ويحتمل أن يكون ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ حالاً من الضمير في (الظَّالِمِينَ) أي يظلمون غير متقين الله وعقابه، فأدخلت همزة الإنكار على الحال، ووجه ثالث وهو أن يكون المعنى ألا يا ناس اتقون، كقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ [النمل: ٢٥]. وأما من قرأ (أَلاَ تَتَّقُونَ) على الخطاب، فعلى طريقة الالتفات إليهم وصرف وجوههم بالإنكار والغضب عليهم، كما يرى من يشكو ممن ركب جناية والجاني حاضر، فإذا اندفع في الشكاية وحمي غضبه، قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنفه به، ويقول له: ألا تتقي الله ألا تستحي من الناس.

فإن قلت: فما الفائدة في هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه السلام في وقت المناجاة، والملتفت إليهم غائبون لا يشعرون؟ قلتُ: إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى مسامعهم؛ لأنه (مُبَلِّغُهُمْ) ومنهيه إليهم، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى، وكم من آية نزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبرًا لها واعتبارًا بمواردها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى قوم فرعون، طلب موسى عليه السلام أن يبعث معه هارون إليهم، ثم ذكر الأمور الداعية له إلى ذلك السؤال وحاصلها أنه لو لم يكن هارون، لاختلت المصلحة المطلوبة من بعثة موسى عليه السلام، وذلك من وجهين: الأول: أن فرعون ربما كذبه، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حبسة؛ لأن عند ضيق القلب تنقبض الروح والحرارة الغريزية إلى باطن القلب، وإذا انقبضا إلى الداخل وخلا منهما الخارج ازدادت الحبسة في اللسان، فالتأذي من التكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب للحبسة، فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب، ثم ثنى بضيق الصدر، ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان. وأما هارون فهو أفصح لسانًا مني وليس في حقه هذا المعنى، فكان إرساله لائقًا. الثاني: أن لهم عندي ذنبًا فأخاف أن يبادروا إلى قتلي، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة. وأما هارون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة.

المسألة الثانية: قرئ (يَضِيقُ) و(يَنْطَلِقُ) بالرفع؛ لأنهما معطوفان على خبر (إِنَّ)، وبالنصب لعطفهما على صلة أن، والمعنى: أخاف أن يكذبون، وأخاف أن يضيق صدري، وأخاف أن لا ينطلق لساني، والفرق أن الرفع يفيد ثلاث علل في طلب إرسال هارون، والنصب يفيد علة واحدة، وهي الخوف من هذه الأمور الثلاثة، فإن قلت: الخوف غم يحصل لتوقع مكروه سيقع وعدم انطلاق اللسان كان حاصلاً، فكيف جاز تعلق الخوف به؟ قلت: قد بينًا أن التكذيب الذي سيقع يوجب ضيق القلب، وضيق القلب يوجب زيادة الاحتباس، فتلك الزيادة ما كانت حاصلة في الحال بل كانت متوقعة، فجاز تعليق الخوف عليها.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ فليس في الظاهر ذكر من الذي يرسل إليه، وفي الخبر أن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام إليه. قال السدي: إن موسى عليه السلام سار بأهله إلى مصر والتقى بهارون وهو لا يعرفه، فقال: أنا موسى، فتعارفا وأمره أن ينطلق معه إلى فرعون لأداء الرسالة، فصاحت أمهما لخوفها عليهما فذهبا إليه، ويحتمل أن يكون المراد أرسل إليه جبريل؛ لأن رسول الله إلى الأنبياء جبريل عليه السلام، فلما كان هو متعينًا لهذا الأمر حذف ذكره لكونه معلومًا، وأيضًا ليس في الظاهر أنه يرسل لماذا، لكن فحوى الكلام يدل على أنه طلبه للمعونة فيما سأل، كما يقال: إذا نابتك نائبة، فأرسل إلى فلان أي ليعينك فيها وليس في الظاهر أنه التمس كون هارون نبيًا معه، لكن قوله: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] يدل عليه.

اما قوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ فأراد بالذنب قتله القبطي، وقد ذكر الله تعالى هذه القصة مشروحة في سورة القصص.

واعلم أنه ليس في التماس موسى عليه السلام، أن يضم إليه هارون ما يدلّ على أنه استعفى من الذهاب إلى فرعون بل مقصوده فيما سأل أن يقع ذلك الذهاب على أقوى الوجوه في الوصول إلى المراد، واختلفوا فقال بعضهم: إنه وإن كان نبيًّا فهو غير عالم بأنه يبقى حتى يؤدي الرسالة؛ لأنه إنما أمر بذلك بشرط التمكين، وهذا قول الكعبي وغيره من البغداديين؛ لأنهم يجوزون دخول الشرط في تكليف الله تعالى العبد، والذي ذهب إليه الأكثرون أن ذلك لا يجوز لأنه تعالى إذا أمر فهو عالم بما يتمكن منه المأمور وبأوقات تمكنه، فإذا علم أنه غير متمكن منه فإنه لا يأمره به، وإذا صح ذلك فالأقرب في الأنبياء أنهم يعلمون إذا حملهم الله تعالى الرسالة أنه تعالى يمكنهم من أدائها وأنهم سيبقون إلى ذلك الوقت، ومثل ذلك لا يكون إغراء في الأنبياء وإن جاز أن يكون إغراء في غيرهم.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: قول موسى عليه السلام: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ هل يدل على صدور الذنب منه؟ جوابه: لا والمراد لهم عليَّ ذنب في زعمهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أن موسى عليه السلام طلب أمرين: الأول: أن يدفع عنه شرهم. والثاني: أن يرسل معه هارون فأجابه الله تعالى إلى الأول بقوله: ﴿كَلَّا﴾ ومعناه ارتدع يا موسى عما تظن وأجابه إلى الثاني بقوله: ﴿فَاذْهَبَا﴾ أي اذهب أنت والذي طلبته وهو هارون فإن قيل: علام عطف قوله: ﴿فَاذْهَبَا﴾ قلنا: على الفعل الذي يدل عليه (كَلَّا) كأنه قال: ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهارون.

وأما قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ فمن مجاز الكلام يريد: أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه، إذًا أحضر وأستمع ما يجري بينكما فأظهركما عليه وأعليكما وأكسر شوكته عنكما، وإنما جعلنا الاستماع مجازًا؛ لأن الاستماع عبارة عن الإصغاء وذلك على الله تعالى محال.

وأما قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ففيه سؤال وهو أنه هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] جوابه من وجوه: أحدها: أن الرسول اسم للماهية من غير بيان أن تلك الماهية واحدة أو كثيرة والألف واللام لا يفيدان إلا الوحدة لا الاستغراق، بدليل أنك تقول:

الإنسان هو الضحاك ولا تقول: كل إنسان هو الضحاك ولا أيضًا هذا الإنسان هو الضحاك، وإذا ثبت أن لفظ الرسول لا يفيد إلا الماهية وثبت أن الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وثانيها: أن الرسول قد يكون بمعنى الرسالة قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ مَا فُهْتُ عِنْدَهُمْ ... بِسِرٍّ وَلاَ أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ(١)

فيكون المعنى إنا ذو رسالة رب العالمين. وثالثها: أنهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الأخوة كأنهما رسول واحد. ورابعها: المراد كل واحد منا رسول. وخامسها: ما قاله بعضهم: أنه إنما قال ذلك لا بلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة وقوله: ﴿إِنَّا﴾ فكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٢] وهو ضعيف.

وأما قوله: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فالمراد من هذا الإرسال التخلية والإطلاق كقولك: أرسل البازي، يريد خلهم يذهبوا معنا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

اعلم أن في الكلام حذفًا وهو أنهما أتياه وقالا ما أمر الله به فعند ذلك قال فرعون ما قال. يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب: إن هاهنا إنسانًا يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك منه، فأديا إليه الرسالة؛ فعَرَّف موسى عليه السلام فعدد عليه نعمه أولاً، ثم إساءة موسى إليه ثانيًا، أما النعم فهي قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ والوليد: الصبي لقرب عهده من الولادة ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ﴾ وعن أبي عمرو بسكون الميم. (سِنِينَ) قيل: لبث عندهم ثلاثين سنة، وقيل: وكز القبطي وهو ابن اثنتي عشرة سنة وفر منهم (على أثرها)، والله أعلم بصحيح ذلك، وعن الشعبي (فِعلتك) بالكسر وهي قتله القبطي؛ لأنه قتله بالوكز وهو ضرب من القتل، وأما الفعلة فلأنها (كانت) وكزة واحدة عدد عليه نعمه من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك (وفظعه) بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾.

وأما قوله: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ففيه وجوه: أحدها: يجوز أن يكون حالاً أي: قتلته وأنت بذاك من الكافرين بنعمتي. وثانيها: وأنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة، وقد افترى عليه أو جهل أمره؛ لأنه كان (يعاشرهم) بالتقية فإن الكفر غير جائز على الأنبياء قبل النبوة وثالثها: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معناه وأنت ممن عادته كفران النعم ومن كان هذا حاله لم يستبعد منه قتل خواص ولي نعمته. ورابعها: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بفرعون وإلهيته أو من الذين (كانوا) يكفرون في دينهم فقد كانت لهم آلهة يعبدونها، يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]

(١) هذا البيت للشاعر كثير عزة وقد تقدمت ترجمته.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾

اعلم أن فرعون لما ذكر التربية وذكر القتل وقد كانت تربيته له معلومة ظاهرة، لا جرم أن موسى عليه السلام ما أنكرها، ولم يشتغل بالجواب عنها؛ لأنه تقرر في العقول أن الرسول إلى الغير إذا كان معه معجز وحجة لم يتغير حاله بأن يكون المرسَل إليه أنعم عليه أو لم يفعل ذلك، فصار قول فرعون لما قاله غير مؤثر ألبتة، ومثل هذا الكلام الإعراض عنه أولى ولكن أجاب عن القتل بما لا شيء أبلغ منه في الجواب وهو قوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ والمراد بذلك الذاهلين عن معرفة ما يؤول إليه من القتل؛ لأنه فعل الوكزة على وجه التأديب، ومثل ذلك ربما حسن وإن أدى إلى القتل فبيَّن له أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذ به أو يعد منه كافرًا أو كافرًا لنعمه، فأما قوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ فالمراد أني فعلت ذلك الفعل وأنا ذاهل عن كونه مهلكًا وكان مني في حكم السهو، فلم أستحق التخويف الذي يوجب الفرار ومع ذلك فررت منكم عند قولكم: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] فبيَّن بذلك أنه لا نعمة له عليه في باب تلك الفعلة، بل بأن يكون مسيئًا فيه أقرب من حيث خَوَّف تخويفًا أوجب الفرار، ثم بيَّن نعمة الله تعالى عليه بعد الفرار، فكأنه قال: أسأتم وأحسن الله إليَّ بأن وهب لي حكمًا وجعلني من المرسلين، واختلفوا في الحكم والأقرب أنه غير النبوة؛ لأن المعطوف غير المعطوف عليه، والنبوة مفهومة من قوله: ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فالمراد بالحكم العلم ويدخل في العلم العقل والرأي والعلم بالدين الذي هو التوحيد، وهذا أقرب؛ لأنه لا يجوز أن يبعثه تعالى إلا مع كماله في العقل والرأي والعلم بالتوحيد وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ كالتنصيص على أن ذلك الحكم من خلق الله تعالى، وقالت المعتزلة: المراد منه الألطاف وهو ضعيف جدًّا؛ لأن الألطاف مفعولة في حق الكل من غير بخس ولا تقصير، فالتخصيص لا بد فيه من فائدة، فأما قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فهو جواب قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] يقال: عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبدًا، فإن قيل: كيف يكون ذلك جوابه ولا تعلُّق بين الأمرين؟ قلنا: بيان التعلق من وجوه: أحدها: أنه إنما وقع في يده وفي تربيته؛ لأنه قصد تعبيد بني إسرائيل وذبح أبنائهم، فكأنه عليه السلام قال له: كنت مستغنيًا عن تربيتك لو لم يكن منك ذلك الظلم المتقدم علينا وعلى أسلافنا. وثانيها: أن هذا الإنعام المتأخر صار معاضًا بذلك الظلم العظيم على أسلافنا وإذا تعارضا تساقطا. وثالثها: ما قاله الحسن: إنك استعبدتهم وأخذت أموالهم ومنها أنفقت عليَّ فلا نعمة لك بالتربية. ورابعها: المراد أن الذي تولى تربيتي هم الذين قد استعبدتهم فلا نعمة لك علي؛ لأن التربية كانت من قبل أمي وسائر من هو من قومي ليس لك إلا أنك ما قتلتني، ومثل هذا لا يعد إنعامًا. وخامسها: أنك كنت تدعي أن بني إسرائيل

عبيدك ولا منة للمولى على العبد في أن يطعمه ويعطيه ما يحتاج إليه.

واعلم أن في الآية دلالة على أن كفر الكافر لا يبطل نعمته على من يحسن إليه ولا يبطل منته؛ لأن موسى عليه السلام إنما أبطل ذلك بوجه آخر على ما بينا، واختلف العلماء فقال بعضهم: إذا كان كافرًا لا يستحق الشكر على نعمه على الناس إنما يستحق الإهانة بكفره، فلو استحق الشكر بإنعامه والشكر لا يوجد إلا مع التعظيم فيلزم كونه مستحقًا للإهانة وللتعظيم معًا، واستحقاق الجمع بين الضدين محال، وقال آخرون: لا يبطل الشكر بالكفر وإنما يبطل بالكفر الثواب والمدح الذي يستحقه على الإيمان، والآية تدل على هذا القول الثاني.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): إنما جمع الضمير في (مِنْكُمْ) (وخِفْتُكُمْ) مع إفراده في (تَمُنُّها) (وعَبَّدْتَ) لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله، بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد، فإن قلت: (تِلْكَ) إشارة إلى ماذا (وأَنْ عَبَّدْتَ) ما محلها من الإعراب؟ قلت: (تِلْكَ) إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ما هي إلا بتفسيرها وهي ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ فإن ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ عطف بيان ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها عليَّ! وقال الزجاج: ويجوز أن يكون (أن) في موضع نصب، والمعنى إنما صارت نعمة عليَّ؛ لأن عبدت بني إسرائيل أي لو لم تفعل ذلك لكفاني أهلي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

اعلم أن فرعون لم يقل لموسى ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إلا وقد دعاه موسى إلى طاعة رب العالمين، يبين ذلك ما تقدم من قوله: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] فلا بد عند دخولهما عليه أنهما قالا ذلك، فعند ذلك قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

ثم هاهنا بحثان:

البحث الأول: أن فرعون يحتمل أن يقال إنه كان عارفًا بالله، ولكنه قال ما قال طلبًا للملك والرياسة، وقد ذكر الله تعالى في كتابه ما يدل على أنه كان عارفًا بالله، وهو قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فإذا قرئ بفتح التاء من (عَلِمْتَ)

فالمراد أن فرعون علم ذلك، وذلك يدل على أنه كان عارفًا بالله، لكنه كان يستأكل قومه بما يظهره من إلهيته، والقراءة الأخرى برفع التاء من (عَلِمْتُ) فهي تقتضي أن موسى عليه السلام هو الذي عرف ذلك، وأيضًا فإن فرعون إن لم يكن عاقلاً لم يجز من الله تعالى بعثة الرسول إليه، وإن كان عاقلاً فهو يعلم بالضرورة أنه ما كان موجودًا ولا حيًا ولا عاقلاً ثم صار كذلك، وبالضرورة يعلم أن كل ما كان كذلك فلا بد له من مؤثر، فلا بد وأن يتولد له من هذين العلمين علم ثالث بافتقاره في تركيبه وفي حياته وعقله إلى مؤثر موجد، ويحتمل أن يقال: إنه كان على مذهب الدهرية من أن الأفلاك واجبة الوجود في ذواتها ومتحركة لذواتها، وأن حركاتها أسباب لحصول الحوادث في هذا العالم، أو يقال: إنه كان من الفلاسفة القائلين بالعلة الموجبة لا بالفاعل المختار، ثم اعتقد أنه بمنزلة الإله لأهل إقليمه من حيث استعبدهم وملك ذماتهم وزمام أمرهم، ويحتمل أن يقال: إنه كان على مذهب الحلولية، القائلين بأن ذات الإله يتدرع بجسد إنسان معين، حتى يكون الإله سبحانه لذلك الجسد بمنزلة روح كل إنسان بالنسبة إلى جسده، وبهذه التقديرات كان يسمي نفسه إلهًا.

البحث الثاني:وهو أنه قال لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ؟ واعلم أن السؤال بما طلب لتعريف حقيقة الشيء، وتعريف حقيقة الشيء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة أو بشيء من أجزائها أو بأمر خارج عنها أو بما يتركب من الداخل والخارج. أما تعريفها بنفسها فمحال؛ لأن المعرف معلوم قبل المعرف، فلو عرف الشيء بنفسه لزم أن يكون معلومًا قبل أن يكون معلومًا وهو محال. وأما تعريفها بالأمور الداخلة فيها فهاهنا في حق واجب الوجود محال؛ لأن التعريف بالأمور الداخلة لا يمكن إلا إذا كان المعرف مركبًا، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركبًا؛ لأن كل مركب فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه فهو غيره، فكل مركب محتاج إلى غيره، وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته، وكل مركب فهو ممكن، فما ليس بممكن يستحيل أن يكون مركبًا، فواجب الوجود ليس بمركب، وإذا لم يكن مركبًا استحال تعريفه بأجزائه، ولما بطل هذان القسمان ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود إلا بلوازمه وآثاره، ثم إن اللوازم قد تكون خفية، وقد تكون جلية، ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية بل لا بد من تعريفها باللوازم الجلية، وأظهر آثار ذات واجب الوجود هو هذا العالم المحسوس وهو السموات والأرض وما بينهما فقد ثبت أنه لا جواب ألبتة لقول فرعون ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلا ما قاله موسى عليه السلام، وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما، فأما قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فمعناه: إن كنتم موقنين بإسناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته؛ لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته، ثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره، وثبت أن تلك الآثار لا بد وأن تكون أظهر آثاره، وأبعدها عن الخفاء وما

ذاك إلا السموات والأرض وما بينهما، فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال إلا هذا الجواب، ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق قال فرعون لمن حوله: ألا تستمعون، وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى، يعني أنا أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة، وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية، وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية، وذلك لأنا إذا قلنا في الشيء: إنه الذي يلزمه اللازم الفلاني، فهذا المذكور، إما أن يكون معروفًا لمجرد كونه أمرًا ما يلزمه ذلك اللازم أو لخصوصية تلك الماهية التي عرضت لها هذه الملزومية، والأول محال؛ لأن كونه أمرًا يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفًا فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معروفًا لنفسه وهو محال. والثاني محال؛ لأن العلم بأنه أمر ما يلزمه اللازم الفلاني لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة؛ لأنه لا يمتنع في العقل اشتراك الماهيات المختلفة في لوازم متساوية فثبت أن التعريف بالوصف الخارجي لا يفيد معرفة نفس الحقيقة فلم يكن كونه ربًّا للسماوات والأرض وما بينهما جوابًا عن قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فأجاب موسى عليه السلام: بأن ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والأرض إلى التعريف بكونه تعالى خالقًا لنا ولآبائنا، وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين واجبة لذواتها فهي غنية عن الخالق والمؤثر، ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وأبيه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم، لم أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ثم عدموا بعد الوجود، وما كان كذلك استحال أن يكون واجبًا لذاته، وما لم يكن واجبًا لذاته استحال وجوده إلا لمؤثر، فكان التعريف بهذا الأثر أظهر فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول إليه؛ فقال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ يعني المقصود من سؤال ما طلب الماهية وخصوصية الحقيقة والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد ألبتة تلك الخصوصية، فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه، فقال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثاني، وذلك لأنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار، والأمر ظاهر في أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب لا يتم إلا بتدبير مدبر وهذا بعينه طريقة إبراهيم عليه السلام مع نمروذ، فإنه استدل أولاً بالإحياء والإماتة وهو الذي ذكره موسى عليه السلام هاهنا بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فأجابه نمروذ بقوله: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾[البقرة: ٢٥٨] فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾[البقرة: ٢٥٨] وهو الذي ذكره موسى عليه السلام هاهنا بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

وأما قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فكأنه عليه السلام قال: إن كنت من العقلاء عرفت أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت؛ لأنك طلبت مني تعريف حقيقته بنفس حقيقته، وقد ثبت أنه لا يمكن تعريف

حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته، فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته، وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته فقد ثبت أن كل من كان عاقلاً يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته.

واعلم أنا قد بينا في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هي هي غير معقولة للبشر، وإذا كان كذلك استحال من موسى عليه السلام أن يذكر ما تعرف به تلك الحقيقة، إلا أن عدم العلم بتلك الخصوصية لا يقدح في صحة الرسالة فكان حاصل كلام موسى عليه السلام أن ادعاء رسالة رب العالمين تتوقف صحته على إثبات أن للعالمين ربًا وإلهًا ولا تتوقف على العلم بخصوصية الرب تعالى وماهيته المعينة، فكأن موسى عليه السلام يقيم الدلالة على إثبات القدر المحتاج إليه في صحة دعوى الرسالة، وفرعون يطالبه ببيان الماهية، وموسى عليه السلام كان يعرض عن سؤاله لعلمه بأنه لا تعلق لذلك السؤال نفيًا ولا إثباتًا في هذا المطلوب، فهذا تمام القول في هذا البحث والله أعلم، ثم إن موسى عليه السلام لما خشن في آخر الكلام بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فعند ذلك قال فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ فإنه لما عجز عن الحجاج عدل إلى التخويف، فعند ذلك ذكر موسى عليه السلام كلامًا مجملاً ليعلق قلبه به فيعدل عن وعيده فقال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي هل تستجيز أن تسجنني مع اقتداري على أن آتيك بأمر بيِّن في باب الدلالة على وجود الله تعالى وعلى أني رسوله؟ فعند ذلك قال: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهاهنا فروع: الفرع الأول: الآية تدل على أنه تعالى ليس بجسم؛ لأنه لو كان جسمًا وله صورة لكان جواب موسى عليه السلام بذكر حقيقته ولكان كلام فرعون لازمًا له لعدوله عن الجواب الحق. الثاني: الواجب على من يدعو غيره إلى الله تعالى أن لا يجيب عن السفاهة؛ لأن موسى عليه السلام لما قال له فرعون: إنه مجنون لم يعدل عن ذكر الدلالة وكذلك لما توعده أن يسجنه. الثالث: أنه يجوز للمسئول أن يعدل في حجته من مثال إلى مثال لإيضاح الكلام ولا يدل ذلك على الانقطاع. الرابع: إن قيل: كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالأول وهو قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ والمعجز لا يدل على الله تعالى كدلالة سائر ما تقدم؟ قلنا. بل يدل ما أراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده، وعلى أنه صادق في الرسالة فالذي ختم به كلامه أقوى من كل ما تقدم وأجمع. الخامس: فإن قيل: كيف قال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ على التثنية والمرجوع إليه مجموع؟ جوابه أريد ما بين الجهتين، فإن قيل: ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب الخلائق كلهم، فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب؟ جوابه: قد عمم أولاً ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم؛ لأن أقرب الأشياء من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من انتقاله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته من حالة إلى حالة أخرى، ثم خصص المشرق والمغرب؛ لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها على تقدير مستقيم في فصول السنة من أظهر الدلائل. السادس: فإن

قيل: لم قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ ولم يقل: لأسجننك مع أنه أخصر؟ جوابه: لأنه لو قال: لأسجننك لا يفيد إلا صيرورته مسجونًا. أما قوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ فمعناه أني أجعلك واحدًا ممن عرفت حالهم في سجوني، وكان من عادته أن يأخذ من يريد أن يسجنه فيطرحه في بئر عميقة فردًا لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل. السابع: الواو في قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه: أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين أي جائيًا بالمعجزة.

قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ الأعمش: (بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيم).

المسألة الثانية: اعلم أن قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠] يدل على أن الله تعالى قبل أن ألقى العصا عرَّفه بأنه يصيرها ثعبانًا، ولولا ذلك لما قال ما قال فلما ألقى عصاه ظهر ما وعده الله به فصار ثعبانًا مبينًا، والمراد أنه تبيَّن للناظرين أنه ثعبان بحركاته وبسائر العلامات، روي أنه لما انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون وجعلت تقول: يا موسى، مرني بما شئت، ويقول فرعون: يا موسى، أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها، فعادت عصا فإن قيل: كيف قال هاهنا: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ وفي آية أخرى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠] وفي آية ثالثة: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: ٣١] والجان مائل إلى الصغر والثعبان مائل إلى الكبر؟ جوابه: أما الحية فهي اسم الجنس ثم إنها لكبرها صارت ثعبانًا، وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها فصح الكلامان، ويحتمل أنه شبهها بالشيطان لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] ويحتمل أنها كانت أولاً صغيرة كالجان ثم عظمت فصارت ثعبانًا، ثم إن موسى عليه السلام لما أتى بهذه الآية قال له فرعون هل غيرها؟ قال نعم فأراه يده ثم أدخلها جيبه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء يضيء الوادي من شدة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس، فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر فيها أمورًا ثلاثة: أحدها: قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وذلك لأن الزمان كان زمان السحرة وكان عند كثير منهم أن الساحر قد يجوز أن ينتهي بسحره إلى هذا الحد فلهذا روَّج عليهم هذا القول. وثانيها: قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ وهذا يجري مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله، والمعنى

يريد أن يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم، ومعلوم أن مفارقة الوطن أصعب الأمور فنفرهم عنه بذلك، وهذا نهاية ما يفعله المبطل في التنفير عن المحق.
وثالثها: قوله لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: فما رأيكم فيه وما الذي أعمله؟ يظهر من نفسه أني متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم، ومثل هذا الكلام يوجب جذب القلوب وانصرافها عن العدو فعند هذه الكلمات اتفقوا على جواب واحد وهو قوله: ﴿أَرْجِهْ﴾ قرىء (أَرْجِئْهُ) و(أَرْجِهْ) بالهمز والتخفيف، وهما لغتان يقال: أرجأته وأرجيته إذا أخرته، والمعنى أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة، وقيل: احبسه وذلك محتمل؛ لأنك إذا حبست الرجل عن حاجته فقد أخَّرته. روي أن فرعون أراد قتله ولم يكن يصل إليه، فقالوا له: لا تفعل، فإنك إن قتلته أدخلت على الناس في أمره شبهة، ولكن أرجئه وأخاه إلى أن تحشر السحرة ليقاوموه فلا يثبت له عليك حجة، ثم أشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون السحرة، ظنًّا منهم بأنهم إذا كثروا غلبوه وكشفوا حاله وعارضوا قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بقولهم: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فجاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه وليسكنوا بعض قلقه، قال صاحب (الكشاف): فإن قلت: قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ ما العامل في ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾؟ قلت: هو منصوب نصبين: نصب في اللفظ، ونصب في المحل، والعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف، والعامل في النصب المحلي هو النصب على الحال.

قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٢﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اليوم المعلوم: يوم الزينة وميقاته وقت الضحى؛ لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة في قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] والميقات: ما وقت به أي حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الإحرام.

المسألة الثانية: اعلم أن القوم لما أشاروا بتأخير أمره وبأن يجمع له السحرة ليظهر عند حضورهم فسادُ قول موسى عليه السلام، رضي فرعون بما قالوه وعمي عما شاهده وحب الشيء يعمي ويصم فجمع السحرة ثم أراد أن تقع تلك المناظرة يوم عيد لهم؛ ليكون ذلك بمحضر الخلق العظيم وكان موسى عليه السلام يطلب ذلك لتظهر حجته عليهم عند الخلق العظيم وكان هذا أيضًا من لطف الله تعالى في ظهور أمر موسى عليه السلام.

أما قوله: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ فالمراد أنهم بعثوا على الحضور ليشاهدوا ما يكون من الجانبين.

وأما قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ فالمراد إنا نرجو أن يكون الغلبة لهم فنتبعهم فلما جاء السحرة ابتدأوا بطلب الجزاء، وهو إما المال وإما الجاه فبذل لهم ذلك وأكده بقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ لأن نهاية مطلوبهم منه البذل ورفع المنزلة فبذل كلا الأمرين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

اعلم أنهم لما اجتمعوا كان لا بد من أن يبدأ موسى أو يبدأوا ثم إنهم تواضعوا له فقدموه على أنفسهم، وقالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[طه: ٦٥] فلما تواضعوا له تواضع هو أيضًا لهم فقدمهم على نفسه، وقال: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ فإن قيل: كيف جاز لموسى عليه السلام أن يأمر السحرة بإلقاء الحبال والعصي وذلك سحر وتلبيس وكفر والأمر بمثله لا يجوز؟ الجواب: لا شبهة في أن ذلك ليس بأمر؛ لأن مراد موسى عليه السلام منهم كان أن يؤمنوا به ولا يقدموا على ما يجري مجرى المغالبة، وإذا ثبت هذا وجب تأويل صيغة الأمر وفيه وجوه: أحدها: ذلك الأمر كان مشروطًا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين كما في قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة: ٢٣]. وثانيها: لما تعين ذلك طريقًا إلى كشف الشبهة صار جائزًا. وثالثها: أن هذا ليس بأمر بل هو تهديد، أي إن فعلتم ذلك أتينا بما تبطله، كقول القائل: لئن رميتني لأفعلن ولأصنعن ثم يفوّق له السهم فيقول له: ارم فيكون ذلك منه تهديدًا. ورابعها: ما ذكرنا أنهم لما تواضعوا له وقدموه على أنفسهم فهو قدمهم على نفسه على رجاء أن يصير ذلك التواضع سببًا لقبول الحق ولقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب، وهذا تنبيه على أن اللائق بالمسلم في كل الأحوال التواضع؛ لأن مثل موسى عليه السلام لما لم يترك التواضع مع أولئك السحرة، فبأن يفعل الواحد منا أولى.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ فروي عن ابن عباس أنهم لما ألقوا حبالهم وعصيهم وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق والعصي مجوفة مملوءة من الزئبق فلما حميت اشتدت حركتها فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الأرض فهاب موسى عليه السلام ذلك، فقيل له: ألق ما في يمينك فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ثم فتحت فاها فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم حتى أكلت الكل ثم أخذ موسى عصاه، فإذا هي كما كانت فلما رأت السحرة ذلك قالت لفرعون: كنا نساحر الناس فإذا غلبناهم بقيت الحبال والعصي، وكذلك إن غلبونا ولكن هذا حق فسجدوا وآمنوا برب العالمين.

واعلم أن في الآثار اختلافًا فمنهم من كثّر الحبال والعصي، ومنهم من توسط، والله أعلم بعدد ذلك، والذي يدل القرآن عليه أنها كثيرة من حيث حشروا من كل بلد، ولأن الأمر بلغ عند

فرعون وقومه في العظم مبلغًا يبعد أن يدخر عنه ما يمكن من جمع السحرة.

وأما قوله: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فالمراد أنهم أظهروا ما يجري مجرى القطع على أنهم يغلبون، وكل ذلك لما ظهر كان أقوى لأمر موسى عليه السلام.

أما قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فالمراد من قوله: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم (ويزورونه) فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى، (بالتمويه على الناظرين أو إفكهم) وسمى تلك الأشياء إفكًا مبالغة.

أما قوله: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ فالمراد خروا سجدًا؛ لأنهم كانوا في الطبقة العالية من علم السحر، فلا جرم كانوا عالمين بمنتهى السحر، فلما رأوا ذلك وشاهدوه خارجًا عن حد السحر علموا أنه ليس بسحر، وما كان ذلك إلا ببركة تحقيقهم في علم السحر، ثم إنهم عند ذلك لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحًا، فإن قيل: فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به؟ جوابه: هو الله تعالى بما (حَصَلَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الدَّوَاعِي الْجَازِمَةِ الْخَالِيَةِ عَنِ الْمُعَارَضَاتِ وَلَكِنَّ الأَوْلَى) أن لا نقدر فاعلاً؛ لأن ألقى بمعنى خر وسقط.

أما قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ فهو عطف بيان لرب العالمين؛ لأن فرعون كان يدعي الربوبية فأرادوا عزله ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام أنه الذي دعا موسى وهارون عليهما السلام إليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

اعلم أنهم لما آمنوا بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول الناس: إن هؤلاء السحرة على كثرتهم وتظاهرهم لم يؤمنوا إلا عن معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون مثل طريقهم فلبس على القوم وبالغ في التنفير عن موسى عليه السلام من وجوه: أولها: قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ وهذا فيه إيهام أن مسارعتكم إلى الإيمان به دالة على أنكم كنتم مائلين إليه، وذلك يطرق التهمة إليهم فلعلهم قصروا في السحر حياله. وثانيها: قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وهذا تصريح بما رمز به أولاً، وغرضه منه أنهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى عليه السلام وقصروا في السحر ليظهر أمر موسى عليه السلام، وإلا ففي قوة السحرة أن يفعلوا مثل ما فعل موسى عليه السلام، وهذه شبهة قوية في تنفير من يقبل قوله. وثالثها: قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهو وعيد مطلق وتهديد شديد. ورابعها: قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ

أَجْمَعِينَ﴾ وهذا هو الوعيد المفصل وقطع اليد والرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والصلب معلوم، وليس في الإهلاك أقوى من ذلك وليس في الآية أنه فعل ذلك أو لم يفعل، ثم إنه أجابوا عن هذه الكلمات من وجهين: الأول: قولهم: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ الضر والضير واحد، وليس المراد أن ذلك إن وقع لم يضر وإنما عنوا بالإضافة إلى ما عرفوه من دار الجزاء.

واعلم أن قولهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ فيه نكتة شريفة وهي أنهم قد بلغوا في حب الله تعالى أنهم ما أرادوا شيئًا سوى الوصول إلى حضرته، وأنهم ما آمنوا رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب، وإنما مقصودهم محض الوصول إلى مرضاته والاستغراق في أنوار معرفته، وهذا أعلى درجات الصديقين. الجواب الثاني: قولهم: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ فهو إشارة منهم إلى الكفر والسحر وغيرهما، والطمع في هذا الموضع يحتمل اليقين كقول إبراهيم ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] ويحتمل الظن؛ لأن المرء لا يعلم ما سيجيء من بعد.

أما قوله: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمراد لأن كنا أول المؤمنين من الجماعة الذين حضروا ذلك الموقف، أو يكون المراد من السحرة خاصة، أو من رعية فرعون أو من أهل زمانهم، وقرىء (إن كنا) بالكسر، وهو من الشرط الذي يجيء به العدل (بأمره لصحته وهم كانوا متحققين أنهم أول المؤمنين)، ونظيره قول (القَائِلِ) لمن يؤخر جعله: إن كنت عملت لك فوفني حقي.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾

قرىء (أَسْرِ) بقطع الهمزة ووصلها وسر. لما ظهر أمر موسى عليه السلام بما شاهدوه من الآية، أمره الله تعالى بأن يخرج ببني إسرائيل لما كان في المعلوم من تدبير الله تعالى في موسى وتخليصه من القوم وتمليكه بلادهم وأموالهم، ولم يأمن وقد جرت تلك الغلبة الظاهرة أن يقع من فرعون ببني إسرائيل ما يؤدي إلى الاستئصال، فلذلك أمره الله تعالى أن يسري ببني إسرائيل، وهم الذين آمنوا وكانوا من قوم موسى، ولا شبهة أن في الكلام حذفًا وهو أنه أسرى بهم كما أمره الله تعالى، ثم إن قوم موسى عليه السلام قالوا لقوم فرعون: إن لنا في هذه الليلة عيدًا، ثم استعاروا منهم حليهم وحللهم بهذا السبب، ثم خرجوا بتلك الأموال في الليل إلى جانب البحر، فلما سمع ذلك فرعون أرسل في المدائن حاشرين، ثم إنه قوى نفسه ونفس

أصحابه بأن وصف قوم موسى بوصفين من أوصاف الذم، ووصف قوم نفسه بصفة المدح أما وصف قوم موسى عليه السلام بالذم.

فالصفة الأولى: قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ والشرذمة الطائفة القليلة، ومنه قولهم: ثوب شراذم للذي بلي، وتقطع قطعًا، ذكرهم بالاسم الدال على القلة، ثم جعلهم قليلاً بالوصف، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً واختار جمع السلامة الذي هو للقلة (وقد يجمع القليل على أقلة وقلل)، ويجوز أن يريد بالقلة الذلة (والقماءة) لا قلة العدد، والمعنى: أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم، ثم اختلف المفسرون في عدد تلك الشرذمة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا ستمائة ألف مقاتل لا شاب فيهم دون عشرين سنة، ولا شيخ يوفي على الستين سوى الحشم، وفرعون يقللهم لكثرة من معه، وهذا الوصف قد يستعمل في الكثير عند الإضافة إلى ما هو أكثر منه، فروي أن فرعون خرج على فرس أدهم حصان وفي عسكره على لون فرسه ثلثمائة ألف.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ يعني يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا، واختلفوا في تلك الأفعال على وجوه: **أحدها:** ما تقدم من أمر الحلي وغيره. **وثانيها:** خروج بني إسرائيل عن عبودية فرعون واستقلالهم بأنفسهم. **وثالثها:** مخالفتهم لهم في الدين وخروجهم عليهم. ورابعها: ليس إلا أنهم لم يتخذوا فرعون إلهًا. أما الذي وصف فرعون به قومه فهو قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ وفيه ثلاث قراءات (حَذِرُونِ) و(حاذِرُونَ) و(حَادِرُونَ) بالدال غير المعجمة.

واعلم أن الصفة إذا كانت جارية على الفعل وهي اسم الفاعل واسم المفعول كالضارب والمضروب أفادت الحدوث، وإذا لم تكن كذلك وهي الشبهة أفادت الثبوت، فمن قرأ (حَذِرُوْنِ) ذهب إلى إنا قوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم، ومن قرأ (حاذِرُونَ) فكأنه ذهب إلى معنى إنا قوم ما عهدنا أن نحذر إلا عصرنا هذا. وأما من قرأ (حَادِرُونَ) بالدال غير المعجمة فكأنه ذهب إلى نفي الحذر أصلاً، لأن الحادر هو المشمر، فأراد إنا قوم أقوياء أشداء، أو أراد إنا مدججون في السلاح، والغرض من هذه المعاذير أن لا يتوهم أهل المدائن أنه منكسر من قوم موسى أو خائف منهم.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم﴾ فالمراد إنا جعلنا في قلوبهم داعية الخروج فاستوجبت الداعية الفعل، فكان الفعل مضافًا إلى الله تعالى لا محالة.

وأما قوله: ﴿مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ﴾ فقال مجاهد: سماها كنوزًا؛ لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله تعالى، والمقام الكريم يريد المنازل الحسنة والمجالس البهية، والمعنى إنا أخرجناهم من بساتينهم التي فيها عيون الماء وكنوز الذهب والفضة، والمواضع التي كانوا يتنعمون فيها لنسلمها إلى بني إسرائيل. أما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فيحتمل ثلاثة أوجه: النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه. والجر على أنه وصف لمقام كريم، أي مقام كريم مثل ذلك المقام

الذي كان لهم. والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي الأمر كذلك.

أما قوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ أي فلحقوهم، وقرئ (فَاتَّبَعُوهُمْ)، ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت الشروق من أشرقت الشمس شروقًا إذا طلعت.

أما قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي رأى بعضهم بعضًا، قال أصحاب موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي لملحقون وقالوا: ياموسى ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩] كانوا يذبحون أبناءنا، من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يدركوننا، أي في الساعة فيقتلوننا، وقرئ (فلما تراءت الفئتان) (إنا لمدَّرِكون) بتشديد الدال وكسر الراء من أدرك الشيء إذا تتابع ففنى، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦] قال الحسن: جهلوا علم الآخرة، والمعنى إنا لمتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد، فعند ذلك قال لهم: ﴿كَلَّآ﴾ وذلك كالمنع مما توهموه، ثم قوى نفوسهم بأمرين: أحدهما: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة. والثاني: قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ والهدى هو طريق النجاة والخلاص، وإذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه، فقد بلغ النهاية في النصرة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] بيَّن تعالى بعده كيف هداه ونجاه، وأهلك أعداءه بذلك التدبير الجامع لنعم الدين والدنيا، فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ ولا شبهة في أن المراد فضرب فانفلق؛ لأنه كالمعلوم من الكلام إذ لا يجوز أن ينفلق من غير ضرب ومع ذلك يأمره بالضرب؛ لأنه كالعبث، ولأنه تعالى جعله من معجزاته التي ظهرت بالعصا ولأن انفلاقه بضربه أعظم في النعمة عليه، وأقوى لعلمهم أن ذلك إنما حصل لمكان موسى عليه السلام، واختلفوا في البحر، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر مع بني إسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا إلا يوشع بن نون فإنه ضرب دابته وخاض في البحر حتى عبر ثم رجع إليهم فأبوا أن يخوضوا فقال موسى: للبحر انفرق لي فقال: ما أمرت بذلك ولا يعبر عليَّ العصاة، فقال موسى: يا رب، قد أبى البحر أن ينفرق، فقيل له: اضرب بعصاك البحر؛ فضربه فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل العظيم وصار فيه اثنا عشر طريقًا لكل سبط منهم طريق فقال: كل سبط قتل أصحابنا فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربه فجعلها مناظر كهيئة الطبقات حتى نظر بعضهم إلى بعض على أرض يابسة، وعن عطاء بن السائب أن جبريل

عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون وكان يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم، ويستقبل القبط فيقول: رويدكم ليلحق آخركم، وروي أن موسى عليه السلام قال عند ذلك: «يَا مَنْ كَانَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَالْمُكَوِّنُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَالْكَائِنُ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ»(١).

فأما قوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ فالفرق الجزء المنفرق منه، وقرئ (كُلُّ فَلْقٍ) والمعنى واحد، والطود الجبل المتطاول أي المرتفع في السماء وهو معجز من وجوه: أحدها: أن تفرق ذلك الماء معجز. وثانيها: أن اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضًا؛ لأنه كان لا يمتنع في الماء الذي أزيل بذلك التفريق أن يبدده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار مؤكدًا لهذا الإعجاز. وثالثها: أنه إن ثبت ما روي في الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم فاحتبسوا القدر الذي يتكامل معه عبور بني إسرائيل فهو معجز ثالث. ورابعها: أن جعل الله في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم إلى بعض فهو معجز رابع. وخامسها: أن أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ **ففيه بحثان:**

البحث الأول: قال ابن عباس وابن جريج وقتادة والسدي ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي وقربنا ثم أي حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون ثم فيه ثلاثة أوجه: أحدها: قربناهم من بني إسرائيل. وثانيها: قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد. وثالثها: قدمناهم إلى البحر ومن الناس من قال: ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي حبسنا فرعون وقومه عند طلبهم موسى عليه السلام بأن أظلمنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم فوقفوا حيارى، وقرىء (وأزلقنا) بالقاف أي أزللنا أقدامهم والمعنى أذهبنا عزهم ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني إسرائيل يبسًا وأزلقهم.

البحث الثاني: أنه تعالى أضاف ذلك الإزلاف إلى نفسه مع أن اجتماعهم هنالك في طلب موسى كفر أجاب الجبائي عنه من وجهين: الأول: أن قوم فرعون تبعوا بني إسرائيل، وبنو إسرائيل إنما فعلوا ذلك بأمر الله تعالى فلما كان مسيرهم بتدبيره وهؤلاء تبعوا ذلك أضافه إلى نفسه توسعًا وهذا كما يتعب أحدنا في طلب غلام له فيجوز أن يقول أتعبني: الغلام لما حدث ذلك فعله. الثاني: قيل: ﴿الْعَظِيمِ﴾ أي أزلفناهم إلى الموت لأجل أنهم في ذلك الوقت قربوا من أجلهم وأنشد:

وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى أَوْ لَيْلَةٍ سَلَفَتْ ... فِيهَا النُّفُوسُ إِلَى الأَجَالِ تَزْدَلِفُ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في (التفسير) (١٠/ ٤٣٣)، حديث رقم (١٦٤٥٥) من طريق محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام: أن موسى عليه السلام... فذكره، وأحمد في (الزهد) (١/ ٦٦) من طريق عمران عن وهب... به، الثعلبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٤٢٥) من طريق محمد بن حمزة... به.

وأجاب الكعبي عنه من وجهين: الأول: أنه تعالى لما حلم عنهم، وترك البحر لهم يبسًا وطمعوا في عبوره جازت الإضافة كالرجل يسفه عليه صاحبه مرارًا فيحلم عنه، فإذا تمادى في غيه وأراه قدرته عليه قال له: أنا أحوجتك إلى هذا وصيرتك إليه بحلمي، لا يريد بذلك أنه أراد ما فعل الثاني: يحتمل أنه أزلفهم أي جمعهم ليغرقهم عند ذلك ولكي لا يصلوا إلى موسى وقومه. والجواب: عن الأول أن الذي فعله بنو إسرائيل هل له أثر في استجلاب داعية قوم فرعون إلى الذهاب خلفهم أوليس له أثر فيه فإن كان الأول فقد حصل المقصود؛ لأن لفعل الله تعالى أثرًا في حصول الداعية المستلزمة لذلك الإزلاف، وإن لم يكن له فيه أثر ألبتة فقد زال التعلق فوجب أن لا تحسن الإضافة، وأما إذا تعب أحدنا في طلب غلام له، فإنما يجوز أن يقول: أتعبني ذلك الغلام لما أن فعل ذلك الغلام صار كالمؤثر في حصول ذلك التعب؛ لأنه متى فعل ذلك الفعل فالظاهر أنه يصير معلومًا للسيد، ومتى علمه صار علمه داعيًا له إلى ذلك التعب ومؤثرًا فيه فصحت الإضافة. وبالجملة فعندنا القادر لا يمكنه الفعل إلا بالداعي فالداعي مؤثر في صيرورة القادر مؤثرًا في ذلك الفعل فلا جرم حسنت الإضافة. والجواب عن الثاني: وهو أنه أزلفهم ليغرقهم فهو أنه تعالى ما أزلفهم بل هم بأنفسهم ازدلفوا ثم حصل الغرق بعده، فكيف يجوز إضافة هذا الإزلاف إلى الله تعالى؟ أما على قولنا فإنه جائز؛ لأنه تعالى هو الذي خلق الداعية المستعقبة لذلك الازدلاف والجواب عن الثالث: وهو أن حلمه تعالى عنهم وحملهم على ذلك، فنقول: ذلك الحلم هل له أثر في استجلاب هذه الداعية أم لا؟ وباقي التقرير كما تقدم والجواب عن الرابع: هو بعينه الجواب عن الثاني، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ فالمعنى أنه تعالى جعل البحر يبسًا في حق موسى وقومه حتى خرجوا منه وأغرق فرعون وقومه؛ لأنه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا في ذلك الماء.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ فالمعنى أن الذي حدث في البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته؛ لأن أحدًا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته من حيث وقع ما كان مصلحة في الدين والدنيا، وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له، وعلى اعتبار المعتبرين به أبدًا فيصير تحذيرًا من الإقدام على مخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله، ويكون فيه اعتبار لمحمد ﷺ، فإنه قال عقيب ذلك: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وفي ذلك تسلية له فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على أن له أسوة بموسى وغيره، فإن الذي ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام التي تبهر العقول لم يمنع من أن أكثرهم كذبوه وكفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه في البحر وغيره. فكذلك أنت يا محمد، لا تعجب من تكذيب أكثرهم لك واصبر على إيذائهم فلعلهم أن يصلحوا ويكون في هذا الصبر تأكيد الحجة عليهم.

وأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فتعلقه بما قبله أن القوم مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا، ثم إنه تعالى كان عزيزًا قادرًا على أن يهلكهم، ثم إنه تعالى ما أهلكهم بل أفاض عليهم أنواع رحمته فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله.

القصة الثانية قصة إبراهيم عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة شدة حزن محمد ﷺ بسبب كفر قومه ثم إنه ذكر قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم عليه السلام ليعرف محمد أيضًا أن حزن إبراهيم عليه السلام بهذا السبب كان أشد من حزنه؛ لأن من عظيم المحنة على إبراهيم عليه السلام أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بقدر الدعاء والتنبيه فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وكان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول لتاجر الرقيق: ما مالك؟ وأنت تعلم أن ماله الرقيق، ثم تقول: الرقيق جمال وليس بمال. فأجابوا إبراهيم عليه السلام بقولهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ والعكوف: الإقامة على الشيء، وإنما قالوا: ﴿فَنَظَلُّ﴾ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، واعلم أنه كان يكفيهم في الجواب أن يقولوا: نعبد أصنامًا، ولكنهم ضموا إليه زيادة على الجواب وهي قولهم: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ وإنما ذكروا هذه الزيادة إظهارًا لما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادة الأصنام فقال إبراهيم عليه السلام منبهًا على فساد مذهبهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): لا بد في يسمعونكم من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة (هل يُسْمِعُونكم) أي هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم، وهل يقدرون على ذلك؟ وتقرير هذه الحجة التي ذكرها إبراهيم عليه السلام أن الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجيء إليه في المسألة؛ ليعرف مراده إذا سمع دعاءه ثم يستجيب له في بذل منفعة أو دفع مضرة، فقال لهم: فإذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم، ولو عرف ذلك لما صح أن يبذل النفع أو يدفع الضرر فكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه؟ فعند هذه الحجة القاهرة لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه الحجة فعدلوا إلى أن قالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال، إذ لو قلبنا الأمر فمدحنا التقليد

وذممنا الاستدلال لكان ذلك مدحًا لطريقة الكفار التي ذمها الله تعالى وذمًا لطريقة إبراهيم عليه السلام التي مدحها الله تعالى فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أراد به أن الباطل لا يتغير بأن يكون قديمًا أو حديثًا، ولا بأن يكون في فاعلية كثرة أو قلة.

أما قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **ففيه أسئلة:**

السؤال الأول: كيف يكون الصنم عدوًا مع أنه جماد؟ جوابه من وجهين: أحدهما: أنه تعالى قال في سورة مريم في صفة الأوثان ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] فقيل في تفسيره: إن الله يحيي ما عبدوه من الأصنام حتى يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم، فعلى هذا الوجه أن الأوثان ستصير أعداء لهؤلاء الكفار في الآخرة فأطلق إبراهيم عليه السلام لفظ العداوة عليهم على هذا التأويل. وثانيها: أن الكفار لما عبدوها وعظموها ورجوها في طلب المنافع ودفع المضار نزلت منزلة الأحياء العقلاء في اعتقاد الكفار، ثم إنها صارت أسبابًا لانقطاع الإنسان عن السعادة ووصوله إلى الشقاوة، فلما نزلت هذه الأصنام منزلة الأحياء وجرت مجرى الدافع للمنفعة والجالب للمضرة لا جرم جرت مجرى الأعداء، فلا جرم أطلق إبراهيم عليه السلام عليها لفظ العدو. وثالثها: المراد في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ عداوة من يعبدها، فإن قيل: فلم لم يقل: إن من يعبد الأصنام عدو لي ليكون الكلام حقيقة؟ جوابه: لأن الذي تقدم ذكره ما عبدوه دون العابدين.

السؤال الثاني: لم قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ ولم يقل فإنها عدو لكم؟ جوابه: أنه عليه السلام صور المسألة في نفسه على معنى إني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها، (وآثرت عبادة من الخير كله منه) وأراهم (بذلك) أنها نصيحة نصح بها نفسه، فإذا تفكروا قالوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، فيكون ذلك أدعى للقبول.

السؤال الثالث: لِمَ لَمْ يقل: فإنهم أعدائي؟ جوابه: العدو والصديق يجيئان في معنى الواحد والجماعة، قال:

وَقَوْمٍ عَلَيَّ ذَوِي مِرَّةٍ أَرَاهُمْ عَدُوًّا وَكَانُوا صَدِيقَا

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠] وتحقيق القول فيه ما تقدم في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦].

السؤال الرابع: ما هذا الاستثناء؟ جوابه: أنه استثناء منقطع كأنه قال: لكن رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾

اعلم أنه تعالى لما حُكِيَ عنه أنه استثنى رب العالمين، حُكِيَ عنه أيضًا ما وصفه به مما

يستحق العبادة لأجله، ثم حكى عنه ما سأله عنه، أما الأوصاف فخمسة: أولها: قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾.

واعلم أنه سبحانه أثنى على نفسه بهذين الأمرين في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣] واعلم أن الخلق والهداية بهما يحصل جميع المنافع لكل من يصح الانتفاع عليه، فلنتكلم في الإنسان فنقول: إنه مخلوق، فمنهم من قال: هو من عالم الخلق والجسمانيات، ومن قال: هو من عالم الأمر الروحانيات، وتركيب البدن الذي هو من عالم الخلق مقدم على إعطاء القلب الذي هو من عالم الأمر على ما أخبر عنه سبحانه في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢] فالتسوية إشارة إلى تعديل المزاج وتركيب الأمشاج، ونفخ الروح إشارة إلى اللطيفة الربانية النورانية التي هي من عالم الأمر، وأيضًا قال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون: ١٢] ولما تمم مراتب تغيرات الأجسام قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وذلك إشارة إلى الروح الذي هو من عالم الملائكة، ولا شك أن الهداية إنما تحصل من الروح، فقد ظهر بهذه الآيات أن الخلق مقدم على الهداية.

أما تحقيقه بحسب المباحث الحقيقية، فهو أن بدن الإنسان إنما يتولد عند امتزاج المني بدم الطمث، وهما إنما يتولدان من الأغذية المتولدة من تركب العناصر الأربعة وتفاعلها، فإذا امتزج المني بالدم فلا يزال ما فيها من الحار والبارد والرطب واليابس متفاعلاً، وما في كل واحد منها من القوى كاسرًا سَوْرَة كيفية الآخر، فحينئذ يحصل من تفاعلهما كيفية متوسطة تستحر بالقياس إلى البارد وتستبرد بالقياس إلى الحار، وكذا القول في الرطب واليابس، وحينئذ يحصل الاستعداد لقبول قوى مدبرة لذلك المركب فبعضها قوى نباتية وهي التي تجذب الغذاء، ثم تمسكه ثم تهضمه ثم تدفع الفضلة المؤذية، ثم تقيم تلك الأجزاء بدل ما تحلل منها، ثم تزيد في جوهر الأعضاء طولاً وعرضًا، ثم يفضل عن تلك المواد فضلة يمكن أن يتولد عنها مثل ذلك، ومنها قوى حيوانية بعضها مدركة كالحواس الخمس والخيال والحفظ والذكر، وبعضها فاعلة: إما آمرة كالشهوة والغضب أو مأمورة كالقوى المركوزة في العضلات، ومنها قوى إنسانية وهي إما مدركة أو عاملة، والقوى المدركة هي القوى القوية على إدراك حقائق الأشياء الروحانية والجسمانية والعلوية والسفلية، ثم إنك إذا فتشت عن كل واحدة من مركبات هذا العالم الجسماني، ومفرداتها وجدت لها أشياء تلائمها وتكمل حالها وأشياء تنافرها وتفسد حالها، ووجدت فيها قوى جذابة للملائم دفاعة للمنافي، فقد ظهر أن صلاح الحال في هذه الأشياء لا يتم إلا بالخلق والهداية. أما الخلق فبتصييره موجودًا بعد أن كان معدومًا، وأما الهداية فبتلك القوى الجذابة للمنافع والدفاعة للمضار فثبت أن قوله: ﴿خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ كلمة جامعة حاوية لجميع المنافع في الدنيا والدين، ثم هاهنا دقيقة وهو أنه قال: ﴿خَلَقَنِى﴾ فذكره بلفظ الماضي وقال: ﴿يَهۡدِينِ﴾ ذكره بلفظ المستقبل، والسبب في ذلك أن خلق الذات لا يتجدد في الدنيا،

بل لما وقع بقي إلى الأمد المعلوم. أما هدايته تعالى فهي مما يتكرر كل حين وأوان سواء كان ذلك هداية في المنافع الدنيوية، وذلك بأن تحكم الحواس بتمييز المنافع عن المضار أو في المنافع الدينية وذلك بأن يحكم العقل بتمييز الحق عن الباطل والخير عن الشر، فبيَّن بذلك أنه سبحانه هو الذي خلقه بسائر ما تكامل به خلقه في الماضي دفعة واحدة، وأنه يهديه إلى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولمحة. وثانيها: قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق، وذلك لأنه سبحانه إذا خلق له الطعام وملكه، فلو لم يكن معه ما يتمكن به من أكله والاغتذاء به من نحو الشهوة والقوة والتمييز لم تكمل هذه النعمة، وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ما عداهما. وثالثها: قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وفيه سؤال وهو أنه لم قال: (مرضت) دون أمرضني؟ وجوابه من وجوه:

الأول: أن كثيرًا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك، ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ما سبب آجالكم؟ لقالوا: التخم. الثاني: أن المرض إنما يحدث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض، وذلك الاستيلاء إنما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي. أما الصحة فهي إنما تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها وبقاؤها على اعتدالها، إنما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع، وعودها إلى الصحة إنما يكون أيضًا بسبب قاهر يقهرها على العود إلى الاجتماع والاعتدال بعد أن كانت بطابعها مشتاقة إلى التفرق والنزاع، فلهذا السبب أضاف الشفاء إليه سبحانه وتعالى، وما أضاف المرض إليه. وثالثها: وهو أن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم، والمرض مكروه وليس من النعم، وكان مقصود إبراهيم عليه السلام تعديد النعم، ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه إليه تعالى، فإن نقضته بالإماتة فجوابه: أن الموت ليس بضرر؛ لأن شرط كونه ضررًا وقوع الإحساس به، وحال حصول الموت لا يقع الإحساس به، إنما الضرر في مقدماته وذلك هو عين المرض، وأيضًا فلأنك قد عرفت أن الأرواح إذا كملت في العلوم والأخلاق كان بقاؤها في هذه الأجساد عين الضرر وخلاصتها عنها عين السعادة بخلاف المرض. ورابعها: قوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ والمراد منه الإماتة في الدنيا والتخلص عن آفاتها وعقوباتها، والمراد من الإحياء المجازاة. وخامسها: قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ فهو إشارة إلى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب.

واعلم أن إبراهيم عليه السلام جمع في هذه الألفاظ جميع نعم الله تعالى من أول الخلق إلى آخر الأبد في الدار الآخرة **ثم هاهنا أسئلة:**

السؤال الأول: لم قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ﴾ والطمع عبارة عن الظن والرجاء، وإنه عليه السلام كان قاطعًا بذلك؟ جوابه: أن هذا الكلام لا يستقيم إلا على مذهبنا، حيث قلنا: إنه لا يجب على الله لأحد شيء، وأنه يحسن منه كل شيء ولا اعتراض لأحد عليه في فعله، وأجاب الجبائي عنه من

وجهين: الأول: أن قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ أراد به سائر المؤمنين؛ لأنهم الذين يطمعون ولا يقطعون به. الثاني: المراد من الطمع اليقين، وهو مروي عن الحسن. وأجاب صاحب (الكشاف): بأنه إنما ذكره على هذا الوجه تعليمًا منه لأمته كيفية الدعاء.

واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة، أما الأول: فلأن الله تعالى حكى عنه الثناء أولاً والدعاء ثانيًا ومن أول المدح إلى آخر الدعاء كلام إبراهيم عليه السلام فجعل الشيء الواحد وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ كلام غيره مما يبطل نظم الكلام ويفسده، وأما الثاني: وهو أن الطمع هو اليقين فهذا على خلاف اللغة، وأما الثالث: وهو أن الغرض منه تعليم الأمة فباطل أيضًا؛ لأن حاصله يرجع إلى أنه كذب على نفسه لغرض تعليم الأمة، وهو باطل قطعًا.

السؤال الثاني: لِمَ أسند إلى نفسه الخطيئة مع أن الأنبياء منزعون عن الخطايا قطعًا؟ وفي جوابه ثلاثة وجوه: أحدها: أنه محمول على كذب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله لسارة: (إنها أختي)[1] وهو ضعيف؛ لأن نسبة الكذب إليه غير جائزة. وثانيها: أنه ذكره على سبيل التواضع وهضم النفس وهذا ضعيف؛ لأنه إن كان صادقًا في هذا التواضع فقد لزم الإشكال، وإن كان كاذبًا فحينئذ يرجع حاصل الجواب إلى إلحاق المعصية به لأجل تنزيهه عن المعصية. وثالثها: وهو الجواب الصحيح أن يحمل ذلك على ترك الأولى، وقد يسمى ذلك خطأ فإن من ملك جوهرة وأمكنه أن يبيعها بألف ألف دينار فإن باعها بدينار، قيل: إنه أخطأ، وترك الأولى على الأنبياء جائز.

السؤال الثالث: لِمَ علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، وإنما تغفر في الدنيا؟ جوابه: لأن أثرها يظهر يوم الدين وهو الآن خفي لا يعلم.

السؤال الرابع: ما فائدة (لي) في قوله: ﴿يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ ؟ وجوابه من وجوه: أحدها: أن الأب إذا عفا عن ولده والسيد عن عبده والزوج عن زوجته فذلك في أكثر الأمر إنما يكون طلبًا للثواب وهربًا عن العقاب أو طلبًا لحسن الثناء والمحمدة أو دفعًا للألم الحاصل من الرقة الجنسية وإذا كان كذلك لم يكن المقصود من ذلك العفو رعاية جانب المعفو عنه بل رعاية جانب نفسه، إما لتحصيل ما ينبغي أو لدفع ما لا ينبغي، أما الإله سبحانه فإنه كامل لذاته فيستحيل أن تحدث له صفات كمال لم تكن أو يزول عنه نقصان كان، وإذا كان كذلك لم يكن عفوه إلا رعاية لجانب المعفو عنه فقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى﴾ يعني هو الذي إذا غفر كان غفرانه لي ولأجلي لا لأجل أمر عائد إليه ألبتة. وثانيها: كأنه قال: خلقتني لا لي فإنك حين خلقتني ما

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء)، باب: (قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾) (٦/ ٤٤٧)، حديث رقم (٣٣٥٨)، ومسلم في كتاب (الفضائل)، باب: (فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام) (٤/ ١٥٤/ ١٨٤٠)، جميعًا من طريق محمد عن أبي هريرة... به.

كنت موجودًا وإذا لم أكن موجودًا استحال تحصيل شيء لأجلي ثم مع هذا فأنت خلقتني، أما لو عفوت كان ذلك العفو لأجلي، فلما خلقتني أولاً مع أني كنت محتاجًا إلى ذلك الخلق فلأن تغفر لي وتعفو عني حال ما أكون في أشد الحاجة إلى العفو والمغفرة كان أولى. وثالثها: أن إبراهيم عليه السلام كان لشدة استغراقه في بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات إلى الوسائط، ولذلك لما قال له جبريل عليه السلام: «أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا» فهاهنا قال: ﴿أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: لمجرد عبوديتي لك واحتياجي إليك تغفر لي خطيئتي لا أن تغفرها لي بواسطة شفاعة شافع.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

اعلم أن الله تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام ثناءه على الله تعالى ذكر بعد ذلك دعاءه ومسألته وذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات وتحقيق الكلام فيه أن هذه الأرواح البشرية من جنس الملائكة فكلما كان اشتغالها بمعرفة الله تعالى ومحبته والانجذاب إلى عالم الروحانيات أشد كانت مشاكلتها للملائكة أتم، فكانت أقوى على التصرف في أجسام هذا العالم، وكلما كان اشتغالها بلذات هذا العالم واستغراقها في ظلمات هذه الجسمانيات أشد كانت مشاكلتها للبهائم أشد فكانت أكثر عجزًا وضعفًا وأقل تأثيرًا في هذا العالم، فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدم عليه ثناء الله تعالى وذكر عظمته وكبريائه حتى أنه بسبب ذلك الذكر يصير مستغرقًا في معرفة الله ومحبته ويصير قريب المشاكلة من الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشاكلة قوة إلهية سماوية فيصير مبدأ لحدوث ذلك الشيء الذي هو المطلوب بالدعاء فهذا هو الكشف عن ماهية الدعاء وظهر أن تقديم الثناء على الدعاء من الواجبات وظهر به تحقيق قوله عليه السلام حكاية عن الله تعالى: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ» فإن قال قائل: لِمَ لَمْ يقتصر إبراهيم عليه السلام على الثناء، لا سيما ويروى عنه أيضًا أنه قال: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي؟»(١) فالجواب: أنه عليه السلام إنما ذكر ذلك حين كان مشتغلاً بدعوة الخلق إلى الحق ألا ترى أنه قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ

(١) ذكره الألباني في (الضعيفة) (١/ ٧٤)، حديث رقم (٢١).
وقال: لا أصل له وأورده بعضهم من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو من الإسرائيليات ولا أصل له في المرفوع.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ٧٧] ثم ذكر الثناء، ثم ذكر الدعاء؛ لأن الشارع لا بد له من تعليم الشرع، فأما حين ما خلا بنفسه، ولم يكن غرضه تعليم الشرع كان يقتصر على قوله: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي».

البحث الثاني: في الأمور التي طلبها في الدعاء وهي مطاليب:

المطلوب الأول: قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ولقد أجابه الله تعالى حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[البقرة: ١٣٠] وفيه مطالب: أحدها: أنه لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة؛ لأن النبوة كانت حاصلة فلو طلب النبوة لكانت النبوة المطلوبة، أما عين النبوة الحاصلة أو غيرها، والأول محال؛ لأن تحصيل الحاصل محال، والثاني محال لأنه يمتنع أن يكون الشخص الواحد نبيًّا مرتين، بل المراد من الحكم ما هو كمال القوة النظرية، وذلك بإدراك الحق ومن قوله ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كمال القوة العملية، وذلك بأن يكون عاملاً بالخير فإن كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، وإنما قدم قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ على قوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لما أن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف وبالذات، وأيضًا فإنه يمكنه أن يعلم الحق وإن لم يعلم بالخير وعكسه غير ممكن، ولأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن، ولما كان الروح أشرف من البدن كان العلم أفضل من العمل، وإنما فسرنا معرفة الأشياء بالحكم وذلك؛ لأن الإنسان لا يعرف حقائق الأشياء إلا إذا استحضر في ذهنه صور الماهيات، ثم نسب بعضها إلى بعض بالنفي أو بالإثبات، وتلك النسبة وهي الحكم، ثم إن كانت النسب الذهنية مطابقة للنسب الخارجية كانت النسب الذهنية ممتنعة التغير فكانت مستحكمة قوية، فمثل هذا الإدراك يسمى حكمة وحكمًا، وهو المراد من قوله عليه السلام: «أَرِنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ» وأما الصلاح فهو كون القوة العاقلة متوسطة بين رذيلتي الإفراط والتفريط، وذلك لأن الإفراط في أحد الجانبين تفريط في الجانب الآخر وبالعكس فالصلاح لا يحصل إلا بالاعتدال، ولما كان الاعتدال الحقيقي شيئًا واحدًا لا يقبل القسمة ألبتة والأفكار البشرية في هذا العالم قاصرة على إدراك أمثال هذه الأشياء، لا جرم لا ينفك البشر عن الخروج عن ذلك الحد وإن قلَّ، إلا أن خروج المقربين عنه يكون في القلة بحيث لا يحس به وخروج العصاة عنه يكون متفاحشًا جدًا فقد ظهر من هذا تحقيق ما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وظهر احتياج إبراهيم عليه السلام إلى أن يقول: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

المطلب الثاني: لما ثبت أن المراد من الحكم العلم، ثبت أنه عليه السلام طلب من الله أن يعطيه العلم بالله تعالى وبصفاته، وهذا يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل في قلب العبد إلا بخلق الله تعالى، وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يدل على أن كون العبد صالحًا ليس إلا بخلق الله تعالى وحمل هذه الأشياء على الألطاف بعيد؛ لأن عند الخصم كل ما في قدرة الله تعالى من الألطاف فقد فعله فلو صرفنا الدعاء إليه لكان ذلك طلبًا لتحصيل الحاصل وهو فاسد.

المطلب الثالث: أن الحكم المطلوب في الدعاء إما أن يكون هو العلم بالله أو بغيره والثاني باطل؛ لأن الإنسان حال كونه مستحضرًا للعلم بشيء لا يمكنه أن يكون مستحضرًا للعلم بشيء آخر فلو كان المطلوب بهذا الدعاء العلم بغير الله تعالى، والعلم بغير الله تعالى شاغل عن الاستغراق في العلم بالله كان هذا السؤال طلبًا لما يشغله عن الاستغراق في العلم بالله تعالى، وذلك غير جائز؛ لأنه لا كمال فوق ذلك الاستغراق فإذن المطلوب بهذا الدعاء هو العلم بالله، ثم إن ذلك العلم إما أن يكون هو العلم بالله تعالى الذي هو شرط صحة الإيمان أو غيره، والأول باطل؛ لأنه لما وجب أن يكون حاصلاً لكل المؤمنين فكيف لا يكون حاصلاً عند إبراهيم عليه السلام، وإذا كان حاصلاً عنده امتنع طلب تحصيله، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء درجات في معرفة الله تعالى أزيد من العلم بوجوده وبأنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز وبأنه عالم قادر حي، وما ذاك إلا الوقوف على صفات الجلال أو الوقوف على حقيقة الذات أو ظهور نور تلك المعرفة في القلب. ثم هناك أحوال لا يعبر عنها المقال ولا يشرحها الخيال، ومن أراد أن يصل إليها فليكن من الواصلين إلى العين، دون السامعين للأثر.

المطلوب الثاني: قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ **وفيه ثلاث تأويلات:**

التأويل الأول: أنه عليه السلام ابتدأ بطلب ما هو الكمال الذاتي للإنسان في الدنيا والآخرة وهو طلب الحكم الذي هو العلم، ثم طلب بعده كمالات الدنيا وبعد ذلك طلب كمالات الآخرة، فأما كمالات الدنيا فبعضها داخلية وبعضها خارجية، أما الداخلية فهي الخلق الظاهر والخلق الباطن والخلق الظاهر أشد جسمانية والخلق الباطن أشد روحانية، فترك إبراهيم عليه السلام الأمر الجسماني وهو الخلق الظاهر وطلب الأمر الروحاني وهو الخلق الباطن، وهو المراد بقوله: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وأما الخارجية فهي المال والجاه، والمال أشد جسمانية والجاه أشد روحانية فترك إبراهيم عليه السلام الأمر الجسماني وهو المال وطلب الأمر الروحاني وهو الجاه والذكر الجميل الباقي على وجه الدهر، وهو المراد بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وقد أعطاه ذلك بقوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٨] فإن قيل وأي غرض له في أن يثني عليه ويمدح؟ جوابه من وجهين: الأول: وهو على لسان الحكمة أن الأرواح البشرية قد بينا أنها مؤثرة في الجملة إلا أن بعضها قد يكون ضعيفًا فيعجز عن التأثير فإذا اجتمعت طائفة منها فربما قوي مجموعها على ما عجزت الآحاد عنه، وهذا المعنى مشاهد في المؤثرات الجسمانية، إذا ثبت هذا فالإنسان الواحد إذا كان بحيث يثني عليه الجمع العظيم ويمدحونه ويعظمونه، فربما صار انصراف هممهم عند الاجتماع إليه سببًا لحصول زيادة كمال له. الثاني: وهو على لسان الكمال أن من صار ممدوحًا فيما بين الناس بسبب ما عنده من الفضائل، فإنه يصير ذلك المدح وتلك الشهرة داعيًا لغيره إلى اكتساب مثل تلك الفضائل.

التأويل الثاني: أنه سأل ربه أن يجعل من ذريته في آخر الزمان من يكون داعيًا إلى الله تعالى،

وذلك هو محمد ﷺ فالمراد من قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ بعثة محمد ﷺ.

التأويل الثالث: قال بعضهم: المراد اتفاق أهل الأديان على حبه، ثم إن الله تعالى أعطاه ذلك؛ لأنك لا ترى أهل دين إلا ويتولّون إبراهيم عليه السلام، وقدح بعضهم فيه بأنه لا تقوى الرغبة في مدح الكافر. وجوابه: أنه ليس المقصود مدح الكافر من حيث هو كافر، بل المقصود أن يكون ممدوح كل إنسان ومحبوب كل قلب.

المطلوب الثالث: قوله: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ اعلم أنه لما طلب سعادة الدنيا طلب بعدها سعادة الآخرة وهي جنة النعيم، وشبهها بما يورث؛ لأنه الذي يغتنم في الدنيا، فشبه غنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا.

المطلوب الرابع: قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ واعلم أنه لما فرغ من طلب السعادات الدنيوية والأخروية لنفسه طلبها لأشد الناس التصاقًا به وهو أبوه فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ ثم فيه وجوه: الأول: أن المغفرة مشروطة بالإسلام وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ يرجع حاصله إلى أنه دعاء لأبيه بالإسلام. الثاني: أن أباه وعده الإسلام كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] فدعا له لهذا الشرط ولا يمتنع الدعاء للكافر على هذا الشرط ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وهذا ضعيف؛ لأن الدعاء بهذا الشرط جائز للكافر فلو كان دعاؤه مشروطًا لما منعه الله عنه. الثالث: أن أباه قال له: إنه على دينه باطنًا وعلى دين نمروذ ظاهرًا تقية وخوفًا، فدعا له لاعتقاده أن الأمر كذلك فلما تبيَّن له خلاف ذلك تبرأ منه، لذلك قال في دعائه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فلولا اعتقاده فيه أنه في الحال ليس بضال لما قال ذلك.

المطلوب الخامس: قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): الإخزاء من الخزي وهو الهوان، أو من الخزاية وهي الحياء وهاهنا أبحاث:

أحدها: أن قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ يدل على أنه لا يجب على الله تعالى شيء على ما بيناه في قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

وثانيها: أن لقائل أن يقول: لما قال أولاً: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ومتى حصلت الجنة، امتنع حصول الخزي، فكيف قال بعده: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ وأيضًا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧] فما كان نصيب الكفار فقط فكيف يخافه المعصوم؟ جوابه: كما أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فكذا درجات الأبرار دركات المقربين وخزي كل واحد بما يليق به.

وثالثها: قال صاحب (الكشاف): في (يبعثون) ضمير العباد؛ لأنه معلوم أو ضمير الضالين.

أما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ فاعلم أنه تعالى أكرمه بهذا الوصف حيث قال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤].

ثم في هذا الاستثناء وجوه: أحدها: أنه إذا قيل لك: هل لزيد مال وبنون؟ فتقول: ماله وبنوه سلامة قلبه، تريد نفي المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك، فكذا في هذه الآية. وثانيها: أن نحمل الكلام على المعنى ونجعل المال والبنين في معنى الغنى كأنه قيل: يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم؛ لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه. وثالثها: أن نجعل (من) مفعولاً لينفع أي لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله تعالى، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين، ويجوز على هذا ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من فتنة المال والبنين. أما السليم ففي ثلاثة أوجه: الأول: وهو الأصح أن المراد منه سلامة القلب عن الجهل والأخلاق الرذيلة، وذلك لأنه كما أن صحة البدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغي من المزاج والتركيب والاتصال ومرضه عبارة عن زوال أحد تلك الأمور فكذلك سلامة القلب عبارة عن حصول ما ينبغي له وهو العلم والخلق الفاضل ومرضه عبارة عن زوال أحدهما فقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أن يكون خاليًا عن العقائد الفاسدة والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها فإن قيل: فظاهر هذه الآية يقتضي أن من سلَّم قلبه كان ناجيًا وأنه لا حاجة فيه إلى سلامة اللسان واليد. جوابه: أن القلب مؤثر واللسان والجوارح تُبَّع فلو كان القلب سليمًا لكانا سليمين لا محالة، وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب. التأويل الثاني: أن السليم هو اللديغ من خشية الله تعالى. التأويل الثالث: أن السليم هو الذي سلم وأسلم وسالم واستسلم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤ ﴾

اعلم أن إبراهيم عليه السلام ذكر في وصف هذا اليوم أمورًا: أحدها: قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ والمعنى: أن الجنة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويفرحون بأنهم المحشورون إليها والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم يتحسرون على أنهم المسوقون إليها قال الله تعالى في صفة أهل الثواب: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] وقال في صفة أهل العقاب: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الملك: ٢٧] وإنما يفعل الله تعالى ذلك؛ ليكون سرورًا معجلاً للمؤمنين وغمًّا عظيمًا للكافرين. ثانيها: قوله:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ والمعنى: أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنهم وآلهتهم وقود النار؟! وهو قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ أي: الآلهة وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم، والكبكبة: تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ متبعوه من عصاة الإنس والجن. وثالثها: قوله: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٩٨ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾.

واعلم أن ظاهر ذلك أن من عَبَدَ خاصم المعبود وخاطبه بهذا الكلام، فليس يخلو حال الأصنام من وجهين إما أن يخلقها الله تعالى في الآخرة جمادًا يعذب بها أهل النار فحينئذ لا يصح أن تخاطب ويجب حمل قولهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على أنه ليس بخطاب لهم أو يقال: إنه تعالى يحييها في النار، وذلك أيضًا غير جائز؛ لأنه لا ذنب لها بأن عبدها غيرها. فالأقرب أنهم ذكروا ذلك لما رأوا صورها على وجه الاعتراف بالخطأ العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة، والذي يحمل على أنه خطاب في الحقيقة قولهم: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ وأرادوا بذلك من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجن والإنس وهو كقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] فأما قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾ كما نرى لهم أصدقاء؛ لأنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون، وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] أو ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١] من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى، وكان لهم أصدقاء من شياطين الإنس، أو أرادوا أنهم إن وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم، فقصدوا بنفيهم نفي ما تعلق بهم من النفع؛ لأن مالا ينفع فحكمه حكم المعدوم، والحميم: من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذي يهمه ما يهمك، أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخالص، وإنما جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، فإن الرجل الممتحن بإرهاق الظالم قد ينهض جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له، وأما الصديق وهو الصادق في ودادك، فأعز من بيض الأنوق، ويجوز أن يريد بالصديق الجمع ثم حكى تعالى عنهم قولهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأنهم تمنوا الرجعة إلى الدنيا، ولو في مثل هذا الوضع في معنى التمني كأنه قيل: فليت لنا كرة، وذلك لما بيّن معنى لو وليت من التلاقي في التقدير، ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت. قال الجبائي: إن قولهم ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس بخبر عن إيمانهم لكنه خبر عن عزمهم؛ لأنه لو كان خبرًا عن إيمانهم لوجب أن يكون صدقًا؛ لأن الكذب لا يقع من أهل الآخرة، وقد أخبر الله تعالى بخلاف ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا

﴿لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقد تقدم في سورة الأنعام بيان فساد هذا الكلام. ثم بيَّن سبحانه أن فيما ذكره من قصة إبراهيم عليه السلام لآية لمن يريد أن يستدل بذلك ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ والأكثرون من المفسرين حملوه على قوم إبراهيم ثم بيَّن تعالى أن مع كل هذه الدلائل فأكثر قومه لم يؤمنوا به فيكون هذا تسلية للرسول ﷺ، فيما يجده من تكذيب قومه.

فأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فمعناه أنه قادر على تعجيل الانتقام لكنه رحيم بالإمهال لكي يؤمنوا.

القصة الثالثة قصة نوح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا
عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾
فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قص على محمد ﷺ خبر موسى وإبراهيم تسلية له فيما يلقاه من قومه قص عليه أيضًا نبأ نوح عليه السلام، فقد كان نبؤه أعظم من نبأ غيره؛ لأنه كان يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، ومع ذلك كذبه قومه فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وإنما قال (كَذَّبَتْ) لأن القوم مؤنث وتصغيرها قويمة، وإنما حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين لوجهين: أحدهما: أنهم وإن كذبوا نوحًا لكن تكذيبه في المعنى يتضمن تكذيب غيره؛ لأن طريقة معرفة الرسل لا تختلف فمن حيث المعنى حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين. وثانيهما: أن قوم نوح كذبوا بجميع رسل الله تعالى، إما لأنهم كانوا من الزنادقة أو من البراهمة.

وأما قوله: ﴿أَخُوهُمْ﴾ فلأنه كان منهم، من قول العرب يا أخا بني تميم، يريدون يا واحدًا منهم، ثم إنه سبحانه حكى عن نوح عليه السلام أنه أولاً خوفهم، وثانيًا أنه وصف نفسه، أما التخويف فهو قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

واعلم أن القوم إنما قبلوا تلك الأديان للتقليد والمقلد إذا خوف خاف، وما لم يحصل الخوف في قلبه لا يشتغل بالاستدلال، فلهذا السبب قدم على جميع كلماته قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وأما وصفه نفسه فذاك بأمرين: أحدهما: قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وذلك لأنه كان فيهم مشهورًا بالأمانة كمحمد ﷺ في قريش فكأنه قال: كنت أمينًا من قبل، فكيف تتهموني اليوم؟ وثانيهما: قوله: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على ما أنا فيه من ادعاء الرسالة لئلا يظن به أنه دعاهم للرغبة، فإن قيل: ولماذا كرر الأمر بالتقوى؟ جوابه: لأنه في الأول أراد ألا تتقون مخالفتي وأنا رسول الله، وفي الثاني: ألا تتقون مخالفتي ولست آخذ منكم أجرًا فهو في المعنى مختلف ولا تكرار فيه، وقد يقول الرجل لغيره: ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيرًا! ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيرًا، وإنما قدم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بطاعته؛ لأن تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول، ثم إن نوحًا عليه السلام لما قال لهم ذلك أجابوه بقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾.

قال صاحب (الكشاف): وقرئ (وَأَتْبَاعُكَ الْأَرْذَلُونَ) جمع تابع كشاهد وأشهاد أو جمع تبع كبطل وأبطال والواو للحال وحقها أن يضمر بعدها قد في (وَاتَّبَعَكَ) وقد جمع أرذال على الصحة وعلى التكسير في قولهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] والرذالة الخسة، وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا، وقيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة.

واعلم أن هذه الشبهة في نهاية الركاكة؛ لأن نوحًا عليه السلام بُعِث إلى الخلق كافة، فلا يختلف الحال في ذلك بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب ودناءتها، فأجابهم نوع عليه السلام بالجواب الحق وهو قوله: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وهذا الكلام يدل على أنهم نسبوهم مع ذلك إلى أنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما آمنوا بالهوى والطمع كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧] ثم قال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ معناه لا نعتبر إلا الظاهر من أمرهم دون ما يخفى، ولما قال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ وكانوا لا يصدقون بذلك أردفه بقوله: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك كالدلالة على أن القوم سألوه إبعادهم لكي يتبعوه أو ليكونوا أقرب إلى ذلك، فبيَّن أن الذي يمنعه عن طردهم أنهم آمنوا به ثم بيَّن أن غرضه بما حمل من الرسالة يمنع من ذلك بقوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ والمراد إني أخوف من كذبني ولم يقبل مني، فمن قبل فهو القريب، ومن رد فهو البعيد، ثم إن نوحًا عليه السلام لما تمم هذا الجواب لم يكن منهم إلا التهديد، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ والمعنى أنهم خوفوه بأن يقتل بالحجارة، فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ۝١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ وليس الغرض منه إخبار الله تعالى بالتكذيب؛ لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم، ولكنه أراد إني لا أدعوك عليهم لما آذوني، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ﴾ أي فاحكم بيني وبينهم والفتاحة الحكومة، والفتاح الحاكم لأنه يفتح المستغلق،

والمراد من هذا الحكم إنزال العقوبة عليهم؛ لأنه قال عقبه: ﴿وَنَجِّنِى﴾ ولولا أن المراد إنزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى، وقد تقدم القول في قصته مشروحًا في سورة الأعراف وسورة هود.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ قال صاحب (الكشاف): الفُلْك السفينة وجمعه فَلَك قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢] فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد والمشحون المملوء يقال: شحنها عليهم خيلاً ورجالاً، فدل ذلك على أن الذين نجوا معه كان فيهم كثرة، وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم، وبيَّن تعالى أنه بعد أن أنجاهم أغرق الباقين وأن إغراقه لهم كان كالمتأخر عن نجاتهم.

القصة الرابعة قصة هود عليه السلام

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

اعلم أن فاتحة هذه القصة وفاتحة قصة نوح عليه السلام واحدة فلا فائدة في إعادة التفسير ثم إنه تعالى ذكر الأمور التي تكلم فيها هود عليه السلام معهم وهي ثلاثة: فأولها: قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ قرئ (بِكُلِّ رِيعٍ) بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع، ومنه قوله كم ريع أرضك؟ وهو ارتفاعها، والآية العلَم، ثم فيه وجوه: أحدها: عن ابن عباس أنهم كانوا يبنون بكل ريع علمًا يعبثون فيه بمن يمر في الطريق إلى هود عليه السلام. والثاني: أنهم كانوا يبنون في الأماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخرًا فنهوا عنه ونسبوا إلى العبث. والثالث: أنهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في طريقهم أعلامًا طوالاً فكان ذلك عبثًا؛ لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم. الرابع: بنوا بكل ريع بروج الحمام. وثانيها: قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ المصانع مآخذ الماء، وقيل: القصور المشيدة والحصون ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلد في الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد، وفي مصحف أُبَي:

(كأنكم)، وقرئ (تُخْلَدُونَ) بضم التاء مخففًا ومشددًا، واعلم أن الأول إنما صار مذمومًا لدلالته إما على السرف، أو على الخيلاء، والثاني: إنما صار مذمومًا لدلالته على الأمل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر. وثالثها: قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ بيّن أنهم مع ذلك السرف والحرص فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين، وقد بينا في غير هذا الموضع أن هذا الوصف في العباد ذم وإن كان في وصف الله تعالى مدحًا فكأن من يقدم على الغير لا على طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بأن بطشه بطش جبار. وحاصل الأمر في هذه الأمور الثلاثة أن اتخاذ الأبنية العالية، يدل على حب العلو، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو، فيرجع الحاصل إلى أنهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو وهذه صفات الإلهية، وهي ممتنعة الحصول للعبد، فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية، وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان كل كفر ومعصية [1]، ثم لما ذكر هود عليه السلام هذه الأشياء قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ زيادة في دعائهم إلى الآخرة وزجرًا لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر، ثم وصل بهذا الوعظ ما يؤكد القبول وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالإجمال أولاً ثم التفصيل ثانيًا فأيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم فصلها من بعد بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ فبلغ في دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية فكان جوابهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه، واستخفافهم بما أورده فإن قيل: لو قال: أوعظت أم لم تعظ، كان أخصر والمعنى واحد.

جوابه: ليس المعنى بواحد (وبينهما فرق) لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله (وَمُبَاشَرَتِهِ)، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أم لم

---

(١) **ضعيف:** حديث الدنيا رأس كل خطيئة، أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (٨/ ٣٣٨)، حديث رقم (١٠٥٠١) من طريق عباد بن العوام عن هشام أو عوف عن الحسن. . . به، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٤١٢)، حديث رقم (١٠٩٩).

وقال: رواه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلاً وذكره الديلمي في ولده بلا سند عن علي رفعه وقال ابن الغرس: الحديث ضعيف ورواه البيهقي أيضًا في الزهد وأبو نعيم من قول عيسى بن مريم وفي رواية لولد أحمد بلفظ «رأس الخطيئة حب الدنيا والنساء حبالة الشيطان والخمر مفتاح كل شر» ولأحمد في الزهد عن سفيان قال: كان عيسى بن مريم، رواه البيهقي في (الشعب) بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلا وذكره الديلمي في ولده بلا سند عند علي رفعه وقال ابن الغرس: الحديث ضعيف ورواه البيهقي أيضًا في الزهد وأبو نعيم من قول عيسى بن مريم وفي رواية لولد أحمد بلفظ «رأس الخطيئة حب الدنيا والنساء حبالة الشيطان والخمر مفتاح كل شر» ولأحمد في الزهد عن سفيان قال: كان عيسى بن مريم.

تعظ، ثم احتجوا على قلة اكتراثهم بكلامه بقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فمن قرأ ﴿خَلْقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالفتح فمعناه أن ما جئت به اختلاق الأولين، وتخرصهم كما قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كحياتهم ونموت كمماتهم ولا بعث ولا حساب، ومن قرأ (خلق) بضمتين وبواحدة، فمعناه ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم كانوا به يدينون ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر، أو ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من إنكار المعاد، فعند هذا بيَّن الله تعالى أنه أهلكهم، وقد سبق شرح كيفية الهلاك في سائر السور، والله أعلم.

القصة الخامسة قصة صالح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

اعلم أن صالحًا عليه السلام خاطب قومه بأمور: أحدها: قوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ أي: أتظنون أنكم تتركون في دياركم آمنين وتطمعون في ذلك وأن لا دار للمجازاة.

وقوله: ﴿فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعيم، ثم فسره بقوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهذا أيضًا إجمال ثم تفصيل، فإن قيل: لِمَ قال: ﴿وَنَخْلٍ﴾ بعد قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ والجنة تتناول النخل؟ جوابه من وجهين: الأول: أنه خص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهًا على فضله على سائر الأشجار. والثاني: أن يراد بالجنات غيرها من الشجر؛ لأن اللفظ يصلح لذلك، ثم يعطف عليها النخل، والطلع: هو الذي يطلع من النخلة

كنصل السيف في جوفه شماريخ، والهضيم: اللطيف أيضًا من قولهم: كشح هضيم، وقيل: الهضيم اللين النضيج كأنه قال: ونخل قد أرطب ثمره. وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ قرأ الحسن (وتنحَتون) بفتح الحاء، وقرئ (فرهين) و(فارهين) والفراهة: الكيس والنشاط، فقوله: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ حال من الناحتين.

واعلم أن ظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم هود هو اللذات الحالية، وهي طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة. وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وهذا إشارة إلى أنه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف، ولا يجوز التوسع في طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها، فإن قيل: ما فائدة قوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ؟ جوابه: فائدته بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شيء من الصلاح، كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح، ثم إن القوم أجابوه من وجهين: أحدهما: قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ وفيه وجوه: أحدها: المسحر هو الذي سحر كثيرًا حتى غلب على عقله. وثانيها: ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي من له سحر. وكل دابة تأكل فهي مسحرة، والسحر أعلى البطن، وعن الفراء المسحر من له جوف، أراد أنك تأكل الطعام وتشرب الشراب. وثالثها: عن المؤرج المسحر هو المخلوق بلغة بجيلة. وثانيهما: قولهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا يحتمل أمرين:

الأول: أنك بشر مثلنا فكيف تكون نبيًّا؟ وهذا بمنزلة ما كانوا يذكرون في الأنبياء أنهم لو كانوا صادقين، لكانوا من جنس الملائكة.

الثاني: أن يكون مرادهم إنك بشر مثلنا، فلا بد لنا في إثبات نبوتك من الدليل، فقال صالح عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ وقرئ بالضم، روي أنهم قالوا: نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقبًا، فقعد صالح يتفكر، فقال له جبريل عليه السلام: صل ركعتين وسل ربك الناقة، ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وحصل لها سقب مثلها في العظم، ووصاهم صالح عليه السلام بأمرين: **الأول:** قوله: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، وشربهم في اليوم الذي لا تشرب هي. **والثاني:** قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي بضرب أو عقر أو غيرهما ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عظم اليوم لحلول العذاب فيه، ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب؛ لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد، ثم إن الله تعالى حكى عنهم أنهم عقروها. روي أن (مصدعًا) ألجأها إلى مضيق (في شعب) فرماها بسهم (فأصاب رجلها) فسقطت، ثم ضربها قدار، فإن قيل: لم أخذهم العذاب وقد ندموا؟ **جوابه من وجهين:**

الأول: أنه لم يكن ندمهم ندم التائبين، لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل.

الثاني: أن الندم وإن كان ندم التائبين، ولكن كان ذلك في غير وقت التوبة، بل عند معاينة العذاب، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [النساء: ١٨] الآية. واللام في العذاب إشارة إلى عذاب يوم عظيم.

القصة السادسة قصة لوط عليه السلام

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

أما قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيحتمل عوده إلى الآتي: أي أنتم من جملة العالمين صرتم مخصوصين بهذه الصفة، وهي إتيان الذكران، ويحتمل عوده إلى المأتي، أي أنتم اخترتم الذكران من العالمين لا الإناث منهم.

وأما قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ فيصلح أن يكون تبيينًا لما خلق وأن يكون للتبعيض، ويراد بما خلق العضو المباح منهن، وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم، والعادي هو المعتدي في ظلمه، ومعناه أترتكبون هذه المعصية على عظمها ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ في جميع المعاصي فهذا من جملة ذاك، أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه الفاحشة، فقالوا له عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أي: لتكونن من جملة من أخرجناه من بلدنا، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوإ الأحوال، فقال لهم لوط عليه السلام: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ القلى البغض الشديد، كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أبلغ من أن يقول: إني لعملكم قال، كما يقال: فلان من العلماء فهو أبلغ من قولك: فلان عالم، ويجوز أن يراد من الكاملين في قلاكم، ثم قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ والمراد: فنجيناه وأهله من عقوبة عملهم ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فإن قيل: ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ صفة لها كأنه قيل: إلا عجوزًا غابرة، ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم. جوابه: معناه إلا عجوزًا مقدرًا غبورها، قيل: إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة، قال القاضي عبد الجبار في (تفسيره) في قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٦]:

دلالة على بطلان الجبر من جهات: أحدها: أنه لا يقال: تذرون إلا مع القدرة على خلافه، ولذلك لا يقال للمرء: لم تذر الصعود إلى السماء، كما يقال له: لم تذر الدخول والخروج. وثانيها: أنه قال: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ ولو كان خلق الفعل لله تعالى لكان الذي خلق لهم ما خلقه فيهم وأوجبه لا ما لم يفعلوه. وثالثها: قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ فإن كان تعالى خلق فيهم ما كانوا يعملون فكيف ينسبون إلى أنهم تعدوا، وهل يقال للأسود: إنك متعد في لونك؟ فنقول: حاصل هذه الوجوه يرجع إلى أن العبد لو لم يكن مُوجِدًا لأفعال نفسه لما توجه المدح والذم والأمر والنهي عليه، ولهذه الآية في هذا المعنى خاصية أَزْيَد مما ورد من الأمر والنهي والمدح والذم في قصة موسى عليه السلام وإبراهيم ونوح وسائر القصص، فكيف خص هذه القصة بهذه الوجوه دون سائر القصص، وإذا ثبت بطلان هذه الوجوه بقي ذلك الوجه المشهور فنحن نجيب عنها بالجوابين المشهورين: الأول: أن الله تعالى لما علم وقوع هذه الأشياء فعدمها محال؛ لأن عدمها يستلزم انقلاب العلم جهلاً وهو محال والمفضي إلى المحال محال، وإذا كان عدمها محالاً كان التكليف بالترك تكليفًا بالمحال. الثاني: أن القادر لما كان قادرًا على الضدين امتنع أن يترجح أحد المقدورين على الآخر إلا لمرجح وهو الداعي أو الإرادة وذلك المرجح محدث فله مؤثر وذلك المؤثر إن كان هو العبد لزم التسلسل وهو محال وإن كان هو الله تعالى فذلك هو الجبر على قولك، فثبت بهذين البرهانين القاطعين سقوط ما قاله، والله أعلم.

القصة السابعة قصة شعيب عليه السلام

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

قرىء (أَصْحَابُ الأَيْكَةِ) بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الإضافة وهو الوجه، ومن قرأ

بالنصب وزعم أن أيكة بوزن ليلة اسم بلد يعرف فَتَوهُّمٌ قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة (ص) بغير ألف لكن قد كتبت في سائر القرآن على الأصل والقصة واحدة على أن أيكة اسم لا يعرف، روي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف وتلك الشجر هي التي حمْلُها المقل، فإن قيل: هلا قال: أخوهم شعيب كما في سائر المواضع؟ جوابه: أن شعيبًا لم يكن من أصحاب الأيكة، وفي الحديث: «إِنَّ شُعَيْبًا أَخَا مَدْيَنَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَإِلَى أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ» ثم إن شعيبًا عليه السلام أمرهم بأشياء: أحدها: قوله: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ وذلك لأن الكيل على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء بقوله: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ولم يذكر الزائد؛ لأنه بحيث إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا إثم عليه، ثم إنه لما أمر بالإيفاء بيَّن أنه كيف يفعل فقال: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ قرئ (بالقسطاس) مضمومًا ومكسورًا وهو الميزان، وقيل: القرسطون. وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يقال: بخسه حقه إذا نقصه إياه وهذا عام في كل حق يثبت لأحد أن لا يهضم وفي كل ملك أن لا يغصب (علية) مالكه (ولا يتحيف منه) ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفًا شرعيًّا. وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يقال: عثا في الأرض وعثى وعاث وذلك نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزرع، وكانوا يفعلون ذلك مع توليتهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك. ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ وقرىء (الْجُبُلَّةَ) بوزن الأبلة وقرئ (الْجِبْلَةَ) بوزن الخلقة ومعناهن واحد أي ذوي الجبلة، والمراد أنه المتفضل بخلقهم وخلق من تقدمهم ممن لولا خلقهم لما كانوا مخلوقين، فلم يكن للقوم جواب إلا ما لو تركوه لكان أولى بهم وهو من وجهين: الأول: قولهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فإن قيل: هل اختلف المعنى بإدخال الواو هاهنا وتركها في قصة ثمود؟ جوابه: إذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم السحر والبشرية وإذا تركت الواو فلم يقصدوا إلا معنى واحدًا وهو كونه مسحرًا ثم قرره بكونه بشرًا مثلهم. الثاني: قولهم: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ومعناه ظاهر، ثم إن شعيبًا عليه السلام كان يتوعدهم بالعذاب إن استمروا على التكذيب فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قرئ (كسفا) بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة وهي القطعة والسماء السحاب أو الظلة، وهم إنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه؛ فعنده قال شعيب عليه السلام: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلم يدع عليهم بل فوض الأمر فيه إلى الله تعالى فلما استمروا على التكذيب أنزل الله عليهم العذاب على ما اقترحوا من عذاب يوم الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب، وإن أرادوا الظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم يروى أنه حبس عنهم الريح سبعًا وسلط عليهم الرمل فأخذ بأنفاسهم، لا ينفعهم ظل ولا ماء فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردًا ونسيمًا

فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا، وروي أن شعيبًا بعث إلى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلكت مدين بصيحة جبريل عليه السلام وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة، وهاهنا آخر الكلام في هذه القصص السبع التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة تسلية لمحمد ﷺ فيما ناله من الغم الشديد، **بقي هاهنا سؤالان:**

السؤال الأول: لِمَ لا يجوز أن يقال: إن العذاب النازل بعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ما كان ذلك بسبب كفرهم وعنادهم، بل كان ذلك بسبب قرانات الكواكب واتصالاتها على ما اتفق عليه أهل النجوم؟ وإذا قام هذا الاحتمال لم يحصل الاعتبار بهذه القصص؛ لأن الاعتبار إنما يحصل أن لو علمنا أن نزول هذا العذاب كان بسبب كفرهم وعنادهم.

الثاني: أن الله تعالى قد ينزل العذاب محنة للمكلفين وابتلاء لهم على ما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] ولأنه تعالى قد ابتلى المؤمنين بالبلاء العظيم في مواضع كثيرة وإذا كان كذلك لم يدل نزول البلاء بهم على كونهم مبطلين. والجواب: أن الله تعالى أنزل هذه القصص على محمد ﷺ تسلية وإزالة للحزن عن قلبه، فلما أخبر الله تعالى محمدًا أنه هو الذي أنزل العذاب عليهم، وأنه إنما أنزله عليهم جزاء على كفرهم، على محمد ﷺ أن الأمر كذلك، فحينئذ يحصل به التسلية والفرح له عليه السلام، واحتج بعض الناس على القدح في علم الأحكام بأن قال: المؤثر في هذه الأشياء، إما الكواكب أو البروج أو كون الكوكب في البرج المعين. والأول باطل، وإلا لحصلت هذه الآثار أين حصل الكوكب، والثاني أيضًا باطل، وإلا لزم دوام الأثر بدوام البرج، والثالث أيضًا باطل؛ لأن الفلك على قولهم بسيط لا مركب فيكون طبع كل برج مساويًا لطبع البرج الآخر في تمام الماهية، فيكون حال الكوكب وهو في برجه كحاله وهو في برج آخر، فيلزم أن يدوم ذلك الأثر بدوام الكوكب، وللقوم أن يقولوا: لِمَ لا يجوز أن يكون صدور الأثر عن الكوكب المعين موقوفًا على كونه مسامتًا مسامتة مخصوصة لكوكب آخر، فإذا فقدت تلك المسامتة فقد شرط التأثير فلا يحصل التأثير؟ ولهم أن يقولوا: هذه الدلالة، إنما تدل على أنها ليست مؤثرة بحسب ذواتها وطبائعها، ولكنها لا تدل على أنها ليست مؤثرة بحسب جري العادة، فإذا أجرى الله تعالى عادته بحصول تأثيرات مخصوصة عقيب اتصالات الكواكب وقراناتها وأدوارها لم يلزم من حصول هذه الآثار القطع بأن الله تعالى إنما خلقها لأجل زجر الكفار بل لعله تعالى خلقها تكريرًا لتلك العادات، والله أعلم.

القول فيما ذكره الله تعالى من أحوال محمد عليه الصلاة والسلام

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

اعلم أن الله تعالى لما ختم ما اقتصه من خبر الأنبياء ذكر بعد ذلك ما يدل على نبوته ﷺ وهو من

وجهين: الأول: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وذلك لأنه لفصاحته معجز فيكون ذلك من رب العالمين، أو لأنه إخبار عن القصص الماضية من غير تعليم ألبتة، فلا يكون ذلك إلا بوحي من الله تعالى، وقوله بعده: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كأنه مؤكد لهذا الاحتمال، وذلك لأنه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ما هي موجودة في زبر الأولين من غير تفاوت أصلاً مع أنه لم يشتغل بالتعلم والاستعداد، دل ذلك على أنه ليس إلا من عند الله تعالى، فهذا هو المقصود من الآية.

فأما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالمراد بالتنزيل المنزل، ثم قد كان يجوز في القرآن وهذه القصص أن يكون تنزيلاً من الله تعالى إلى محمد ﷺ بلا واسطة فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ والباء في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ﴾ و(نُزِّل به الروح) على القراءتين للتعدية، ومعنى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ﴾ جعل الله الروح نازلاً به ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي (حفظكه و) فهمك إياه وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] والروح الأمين جبريل عليه السلام وسماه روحًا من حيث خلق من الروح، وقيل: لأنه نجاة الخلق في باب الدين فهو كالروح الذي تثبت معه الحياة، وقيل: لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح وسماه أمينًا؛ لأنه مؤتمن على ما يؤديه إلى الأنبياء عليهم السلام، وإلى غيرهم.

وأما قوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ففيه قولان: الأول: أنه إنما قال: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وإن كان إنما أنزله عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن في قلبه لا يجوز عليه التغيير فيوثق بالإنذار الواقع منه الذي بيَّن الله تعالى أنه هو المقصود ولذلك قال: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ الثاني: أن القلب هو المخاطب في الحقيقة؛ لأنه موضع التمييز والاختبار، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول. أما القرآن فآيات: إحداها: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧] وقال هاهنا: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] وثانيها: أنه ذكر أن استحقاق الجزاء ليس إلا على ما في القلب من المساعي فقال: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] والتقوى في القلب؛ لأنه تعالى قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣] وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]. وثالثها: قوله حكاية عن أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] ومعلوم أن العقل في القلب والسمع منفذ إليه، وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] ومعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما إلا ما يؤديانه إلى القلب، فكان السؤال عنهما في الحقيقة سؤالاً عن القلب وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، ولم تخف الأعين إلا بما تضمر القلوب عند التحديق بها. ورابعها: قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩] فخص هذه الثلاثة بإلزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها، وقد قلنا: لا طائل في

السمع والأبصار إلا بما يؤديان إلى القلب؛ ليكون القلب هو القاضي فيه والمتحكم عليه، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦]فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجته، والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضي فيما يؤدي إليه السمع والبصر. وخامسها: قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]فجعل العذاب لازمًا على هذه الثلاثة وقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]وجه الدلالة أنه قصد إلى نفي العلم عنهم رأسًا، فلو ثبت العلم في غير القلب كثباته في القلب لم يتم الغرض فهذه الآيات ومشاكلها ناطقة بأجمعها أن القلب هو المقصود بإلزام الحجة، وقد بينا أن ما قرن بذكره من ذكر السمع والبصر فذلك لأنهما آلتان للقلب في تأدية صور المحسوسات والمسموعات.

وأما الحديث فما روى النعمان بن بشير قال: سمعته عليه السلام يقول: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ» (١). وأما المعقول فوجوه: أحدها: أن القلب إذا غشي عليه فلو قطع سائر الأعضاء لم يحصل الشعور به وإذا أفاق القلب فإنه يشعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات فدل ذلك على أن سائر الأعضاء تبع للقلب ولذلك فإن القلب إذا فرح أو حزن فإنه يتغير حال الأعضاء عند ذلك، وكذا القول في سائر الأعراض النفسانية. وثانيها: أن القلب منبع المشاق الباعثة على الأفعال الصادرة من سائر الأعضاء وإذا كانت المشاق مبادىء للأفعال ومنبعها هو القلب كان الآمر المطلق هو القلب. وثالثها: أن معدن العقل هو القلب وإذا كان كذلك كان الآمر المطلق هو القلب.

أما المقدمة الأولى: ففيها النزاع فإن طائفة من القدماء ذهبوا إلى أن معدن العقل هو الدماغ والذي يدل على قولنا وجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]وقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]أي عقل، أطلق عليه اسم القلب لما أنه معدنه. الثاني: أنه تعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب، وقال: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤]، ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]، ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان)، باب: (فضل من استبرأ لدينه) (١/ ١٥٣)، حديث رقم (٥٢) من طريق أبي نعيم. . . به، ومسلم في كتاب (المساقاة)، باب: (أخذ الحلال وترك الشبهات) (٣/ ١٠٧/ ١٢١٩) من طريق محمد بن عبد الله بن شمير الهمداني. . . . عن أبي كلاهما (أبو نعيم، محمد بن عبد الله) عن زكريا عن عامر قال: سمعت النعمان بن بشير. . . فذكره.

ﭐلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦] فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضًا هو القلب. الثالث: وهو أنا إذا جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة في ناحية القلب، ولذلك فإن الواحد منا إذا أمعن في الفكر وأكثر منه أحس من قلبه ضيقًا وضجرًا حتى كأنه يتألم بذلك، وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب، وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب؛ لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم. الرابع: وهو أن القلب أول الأعضاء تكونًا، وآخرها موتًا، وقد ثبت ذلك بالتشريح ولأنه متمكن في الصدر الذي هو أوسط الجسد، ومن شأن الملوك المحتاجين إلى الخدم أن يكونوا في وسط المملكة لتكتنفهم الحواشي من الجوانب فيكونوا أبعد من الآفات.

واحتج من قال: العقل في الدماغ بأمور: أحدها: أن الحواس التي هي الآلات للإدراك نافذة إلى الدماغ دون القلب. وثانيها: أن الأعصاب التي هي الآلات في الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب. وثالثها: أن الآفة إذا حلت في الدماغ اختل العقل. ورابعها: أن في العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل قيل: إنه خفيف الدماغ خفيف الرأس. وخامسها: أن العقل أشرف فيكون مكانه أشرف، والأعلى هو الأشرف وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ. والجواب عن الأول: لِمَ لا يجوز أن يقال: الحواس تؤدي آثارها إلى الدماغ، ثم إن الدماغ يؤدي تلك الآثار إلى القلب، فالدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلات بعيدة فالحس يخدم الدماغ، ثم الدماغ يخدم القلب وتحقيقه أنا ندرك من أنفسنا أنا إذا عقلنا أن الأمر الفلاني يجب فعله أو يجب تركه، فإن الأعضاء تتحرك عند ذلك، ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ. وعن الثاني: أنه لا يبعد أن يتأدى الأثر من القلب إلى الدماغ، ثم الدماغ يحرك الأعضاء بواسطة الأعصاب النابتة منه. وعن الثالث: لا يبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطًا لوصول تأثير القلب إلى سائر الأعضاء. وعن الرابع: أن ذلك العرف إنما كان؛ لأن القلب إنما يعتدل مزاجه بما يستمد من الدماغ من برودته، فإذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضًا، إما لازدياد حرارته عن القدر الواجب أو لنقصان حراراته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل. وعن الخامس: أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف، ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم والله أعلم.

فرع: اعلم أن المعاني التي بينا كونها مختصة بالقلوب قد تضاف إلى الصدر تارة وإلى الفؤاد أخرى، أما الصدر فلقوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[العاديات: ١٠] وقوله: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾[آل عمران: ١٥٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[هود: ٥] ، ﴿إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ﴾[آل عمران: ٢٩] وأما الفؤاد فقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾[الأنعام: ١١٠] ومن الناس من فرق بين القلب والفؤاد فقال: القلب هو العلقة السوداء في جوف الفؤاد دون ما يكتنفها من اللحم والشحم، ومجموع ذلك هو الفؤاد ومنهم من قال: القلب والفؤاد لفظان

مترادفان، وكيف كان فيجب أن يعلم أن من جملة العضو المسمى قلبًا وفؤادًا موضعًا هو الموضع في الحقيقة للعقل والاختيار، وأن معظم جرم هذا العضو مسخر لذلك الموضع، كما أن سائر الأعضاء مسخرة للقلب، فإن العضو قد تزيد أجزاؤه من غير ازدياد المعاني المنسوبة إليه أعني العقل والفرح والحزن وقد ينقص من غير نقصان في تلك المعاني، فيشبه أن يكون اسم القلب اسمًا للأجزاء التي تحل فيها هذه المعاني بالحقيقة، واسم الفؤاد يكون اسمًا لمجموع العضو، فهذا هو الكلام في هذا الباب والله الموفق للصواب.

وأما قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ فيدخل تحت الإنذار الدعاء إلى كل واجب من علم وعمل والمنع من كل قبيح؛ لأن في الوجهين جميعًا يدخل الخوف من العقاب.

وأما قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ فالباء إما أن تتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان، وهم خمسة هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد عليهم السلام، وإما أن تتعلق بنزل فيكون المعنى نزله باللسان العربي؛ لينذر به لأنه لو نزّله باللسان الأعجمي (لتجافوا عنه أهلاً و) لقالوا له: ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به، وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك؛ لأنك تفهمه ويفهمه قومك، ولو كان أعجميًا لكان نازلاً على سمعك دون قلبك؛ لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيحتمل هذه الأخبار خاصة، ويحتمل أن يكون المراد صفة القرآن، ويحتمل صفة محمد ﷺ، ويحتمل أن يكون المراد وجوه التخويف؛ لأن ذكر هذه الأشياء بأسرها قد تقدم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ المراد منه ذكر الحجة الثانية على نبوته عليه السلام وصدقه، وتقريره أن جماعة من علماء بني إسرائيل أسلموا ونصوا على مواضع في التوراة والإنجيل ذكر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام بصفته ونعته، وقد كان مشركو قريش يذهبون إلى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر، وهذا يدل دلالة ظاهرة على نبوته؛ لأن تطابق الكتب الإلهية على نعته ووصفه يدل قطعًا على نبوته، واعلم أنه قرئ (يكن) بالتذكير، وآية النصب على أنها خبره و(أَنْ يَعْلَمَهُ) هو الاسم، وقرىء (تكن) بالتأنيث وجعلت (آيَةٌ) اسمًا و(أَنْ يَعْلَمَهُ) خبرًا، وليست كالأولى لوقوع النكرة اسمًا والمعرفة خبرًا، ويجوز مع نصب الآية تأنيث

(يَكُنْ) كقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وأما قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ فاعلم أنه تعالى لما بيَّن بالدليلين المذكورين نبوة محمد ﷺ وصدق لهجته بيَّن بعد ذلك أن هؤلاء الكفار لا تنفعهم الدلائل ولا البراهين، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ يعني إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين، فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته، وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله، وانضم إلى ذلك بشارة كتب الله السالفة به، فلم يؤمنوا به وجحدوه، وسموه شعرًا تارة وسحرًا أخرى، فلو نزلناه على بعض الأعجمين الذي لا يحسن العربية لكفروا به أيضًا ولتمحلوا لجحودهم عذرًا، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم، وهكذا مكناه وقررناه فيها وكيفما فعل بهم فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الجحود والإنكار، وهذا أيضًا مما يفيد تسلية الرسول ﷺ؛ لأنه إذا عرف رسول الله إصرارهم على الكفر، وأنه قد جرى القضاء الأزلي بذلك حصل اليأس، وفي المثل: اليأس إحدى الراحتين.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يدل على أن الكل بقضاء الله وخلقه، قال صاحب (الكشاف): أراد به أنه صار ذلك التكذيب متكمنًا في قلوبهم أشد التمكن فصار ذلك كالشيء الجبلي. والجواب: أنه إما أن يكون قد فعل الله فيهم ما يقتضي رجحان التكذيب على التصديق أو ما فعل ذلك فيهم، فإن كان الأول فقد دللنا في سورة الأنعام على أن الترجيح لا يتحقق ما لم ينته إلى حد الوجوب وحينئذ يحصل المقصود، فإن لم يفعل فيهم ما يقتضي الترجيح ألبتة، امتنع قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ كما أن طيران الطائر لما لم يكن له تعلق بكفرهم، امتنع إسناد الكفر إلى ذلك الطيران.

المسألة الخامسة: قال صاحب (الكشاف): فإن قلت: ما موقع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ من قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ قلت: موقعه منه موقع الموضح (والمبين)؛ لأنه مسوق (لبيانه مؤكد للجحود) في قلوبهم، فاتبع ما يقرر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به حتى يعاينوا الوعيد.

قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن أنهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم، وأنه يأتيهم العذاب بغتة أتبعه بما يكون منهم عند ذلك على وجه الحسرة فقال: ﴿فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ كما يستغيث المرء عند تعذر الخلاص؛ لأنهم يعلمون في الآخرة أن لا ملجأ، لكنهم يذكرون ذلك استرواحًا.

فأما قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فالمراد أنه تعالى بيَّن أنهم كانوا في الدنيا يستعجلون العذاب، مع أن حالهم عند نزول العذاب طلب النظرة؛ ليعرف تفاوت الطريقين فيعتبر به، ثم بيَّن تعالى أن استعجال العذاب على وجه التكذيب إنما يقع منهم ليتمتعوا في الدنيا، إلا أن ذلك جهل، وذلك لأن مدة التمتع في الدنيا متناهية قليلة، ومدة العذاب الذي يحصل بعد ذلك غير متناهية، وليس في العقل ترجيح لذات متناهية قليلة على آلام غير متناهية، وعن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف، فقال له عظني، فلم يزد على تلاوة هذه الآية، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت، وقرئ (يُمْتَعُونَ) بالتخفيف، ثم بيَّن أنه لم يهلك قرية إلا وهناك نذير يقيم عليهم الحجة.

أما قوله تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ فقال صاحب (الكشاف): ذكرى منصوبة بمعنى تذكرة، إما لأن أنذر وذكر متقاربان، فكأنه قيل: مذكرون تذكرة، وإما لأنها حال من الضمير في ﴿مُنذِرُونَ﴾، أي ينذرونهم ذوي تذكرة، وإما لأنها مفعول له على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة، أو مرفوعة عل أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى، والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى، وجعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها، ووجه آخر وهو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولاً له، والمعنى وما أهلكنا من أهل قرية قوم ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم؛ ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم، ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنهلك قومًا غير ظالمين، وهذا الوجه عليه المعول، فإن قلت: كيف عزلت الواو عن الجملة بعد إلا، ولم تعزل عنه في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾[الحجر: ٤] قلت: الأصل عزل الواو؛ لأن الجملة صفة لقرية، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣﴾

اعلم أنه تعالى لما احتج على صدق محمدﷺ بكون القرآن تنزيل رب العالمين، وإنما يعرف ذلك لوقوعه من الفصاحة في النهاية القصوى، ولأنه مشتمل على قصص المتقدمين من غير تفاوت، مع أنه عليه السلام لم يشتغل بالتعلم والاستفادة، فكان الكفار يقولون: لم لا يجوز أن يكون هذا من إلقاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة؟، فأجاب الله تعالى عنه بأن ذلك لا يتسهل للشياطين؛ لأنهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء، ولقائل أن يقول: العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يحصل إلا بواسطة خبر النبي الصادق، فإذا أثبتنا كون محمدﷺ صادقًا بفصاحة القرآن وإخباره عن الغيب، ولا يمكن إثبات كون الفصاحة والإخبار عن الغيب معجزًا إلا إذا ثبت كون الشياطين ممنوعين عن ذلك، لزم

الدور وهو باطل. وجوابه: لا نسلم أن العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يستفاد إلا من قول النبي، وذلك لأنا نعلم بالضرورة أن الاهتمام بشأن الصديق أقوى من الاهتمام بشأن العدو، ونعلم بالضرورة أن محمدًا ﷺ كان يلعن الشياطين ويأمر الناس بلعنهم، فلو كان هذا الغيب إنما حصل من إلقاء الشياطين، لكان الكفار أولى بأن يحصل لهم مثل هذا العلم، فكان يجب أن يكون اقتدار الكفار على مثله أولى، فلما لم يكن كذلك عَلِمنا أن الشياطين ممنوعون عن ذلك، وأنهم معزولون عن تعرف الغيوب، ثم إنه تعالى لما ذكر هذا الجواب ابتدأ بخطاب الرسول ﷺ فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وذلك في الحقيقة خطاب لغيره؛ لأن من شأن الحكيم إذا أراد أن يؤكد خطاب الغير أن يوجهه إلى الرؤساء في الظاهر، وإن كان المقصود بذلك هم الأتباع، ولأنه تعالى أراد أن يتبعه ما يليق بذلك، فلهذه العلة أفرده بالمخاطبة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بالغ في تسلية رسوله أولاً، ثم أقام الحجة على نبوته، ثانيًا ثم أورد سؤال المنكرين، وأجاب عنه ثالثًا، أمره بعد ذلك بما يتعلق بباب التبليغ والرسالة وهو هاهنا أمور ثلاثة: الأول: قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وذلك لأنه تعالى بدأ بالرسول فتوعده إن دعا مع الله إلهًا آخر، ثم أمره بدعوة الأقرب فالأقرب، وذلك لأنه إذا تشدد على نفسه أولاً، ثم بالأقرب فالأقرب ثانيًا، لم يكن لأحد فيه طعن ألبتة وكان قوله أنفع وكلامه أنجع، وروي «أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ صَعِدَ الصَّفَا فَنَادَى الْأَقْرَبَ فالأقرب وقال: يا بني عبد المطلب، يَا بَنِي هَاشِمٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مُنَافٍ، يَا عَبَّاسُ عَمَّ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ مُحَمَّدٍ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّه شَيْئًا، سَلُونِي مِنَ الْمَالِ مَا شِئْتُمْ»(١) وروي «أَنَّهُ جَمَعَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلاً عَلَى رِجْلِ شَاةٍ وَقَعْبٍ مِنْ لَبَنٍ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَأْكُلُ الْجَذَعَةَ وَيَشْرَبُ الْعُسَّ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا، ثم قال: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ خَيْلاً، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ فَقَالَ: إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»(٢).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الوصايا)، باب: (هل يدخل النساء والولد في الرقاب؟) (٥/ ٤٤٩)، حديث رقم (٢٧٥٣) من طريق شعيب... به، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]) (١/ ٣٥١/ ١٩٢) من طريق يونس... به، كلاهما من طريق الزهري... به.

(٢) أصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه البخاري في (صحيحه) (٤/ ١٧٨٧) حديث رقم (٤٤٩٢) ومسلم في (صحيحه) (١/ ١٩٣/ ٢٠٨) كلاهما من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس... به.

الثاني: قوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾ واعلم أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كَسَرَ جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب، فإن قيل: المتبعون للرسول هم المؤمنون وبالعكس فلم قال: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؟ جوابه: لا نسلم أن المتبعين للرسول هم المؤمنون فإن كثيرًا منهم كانوا يتبعونه للقرابة والنسب لا للدين.

فأما قوله: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فمعناه ظاهر، قال الجبائي: هذا يدل على أنه عليه السلام كان بريئًا من معاصيهم، وذلك يوجب أن الله تعالى أيضًا بريء من عملهم كالرسول وإلا كان مخالفًا لله، كما لو رضي عمن سخط الله عليه لكان كذلك، وإذا كان تعالى بريئًا من عملهم فكيف يكون فاعلاً له ومريدًا له؟ الجواب: أنه تعالى بريء من المعاصي بمعنى أنه ما أمر بها بل نهى عنها، فأما بمعنى أنه لا يريدها فلا نسلم والدليل عليه أنه علم وقوعها، وعلم أن ما هو معلوم الوقوع فهو واجب الوقوع وإلا لانقلب علمه جهلاً وهو محال والمفضي إلى المحال محال، وعلم أن ما هو واجب الوقوع فإنه لا يراد عدم وقوعه فثبت ما قلناه. والثالث: قوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾ والتوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره، وقوله: ﴿عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي على الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته ثم أتبع كونه رحيمًا على رسوله ما هو كالسبب لتلك الرحمة، وهو قيامه وتقلبه في الساجدين وفيه وجوه: أحدها: المراد ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه في تصفح أحوال (الْمُجْتَهِدِينَ) ليطلع على أسرارهم، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه على ما يوجد منهم من الطاعات، فوجدها كبيوت الزنابير لما يسمع منها من دندنتهم بذكر الله تعالى والمراد بالساجدين المصلين. وثانيها: المعنى يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه في الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذ كان إمامًا لهم. وثالثها: أنه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين. ورابعها: المراد تقلب بصره فيمن (يُصَلِّي) خلفه من قوله ﷺ: «أتموا الركوع والسجود فو اللّه إِنّي لأَرَاكُم مِنْ خَلْفِي»(١) ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي لما تقوله ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي بما تنويه وتعمله، وهذا يدل عى أن كونه سميعًا أمر مغاير لعلمه بالمسموعات وإلا لكان لفظ العليم مفيدًا فائدته. واعلم أنه قرئ (ونقلبك).

واعلم أن الرافضة ذهبوا إلى أن آباء النبي ﷺ كانوا مؤمنين وتمسكوا في ذلك بهذه الآية وبالخبر، أما هذه الآية فقالوا: قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ يحتمل الوجوه التي ذكرتم ويحتمل أن يكون المراد أن الله تعالى نقل روحه من ساجد إلى ساجد كما نقوله نحن، وإذا

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الأيمان والنذور) باب (كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦/ ٢٤٤٩) حديث رقم (٦٢٦٨)، ومسلم في (صحيحه) (١/ ٣٢٠) حديث رقم (٤٢٥) كلاهما من طريق قتادة عن أنس... به.

احتمل كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل ضرورة أنه لا منافاة ولا رجحان، وأما الخبر فقوله عليه السلام: «لَمْ أَزَلْ أُنقَلُ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى أَرْحَامِ الطَّاهِرَاتِ»(١) وكل من كان كافرًا فهو نجس لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] قالوا: فإن تمسكتم على فساد هذا المذهب بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] قلنا: الجواب عنه أن لفظ الأب قد يطلق على العم كما قال أبناء يعقوب له: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] فسموا إسماعيل أبًا له مع أنه كان عمًّا له، وقال عليه السلام: «رُدُّوا عَلَيَّ أَبِي»(٢) يعني العباس، ويحتمل أيضًا أن يكون متخذًا لأصنام أب أمه فإن هذا قد يقال له الأب قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى قوله: ﴿وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٥] فجعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أن إبراهيم كان جده من قبل الأم.

واعلم أنا نتمسك بقوله تعالى: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] وما ذكروه صرف للفظ عن ظاهره، وأما حمل قوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ على جميع الوجوه فغير جائز لما بينا أن حمل المشترك على كل معانيه غير جائز، وأما الحديث فهو خبر واحد فلا يعارض القرآن.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

اعلم أن الله تعالى أعاد الشبهة المتقدمة وأجاب عنها من وجهين: الأول: قوله: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وذلك هو الذي قررناه فيما تقدم أن الكفار يدعون إلى طاعة الشيطان، ومحمدًا عليه السلام كان يدعو إلى لعن الشيطان والبراءة عنه. والثاني: قوله: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ والمراد أنهم كان يقيسون حال النبي ﷺ على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم: إن كان الأمر على ما ذكرتم فكما أن الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب أن يكون حال الرسول ﷺ كذلك أيضًا، فلما لم يظهر في إخبار الرسول ﷺ عن المغيبات إلا الصدق علمنا أن حاله بخلاف حال الكهنة، ثم إن المفسرين ذكروا في الآية وجوهًا: أحدها: أنهم الشياطين روي أنهم كانوا قبل أن حُجبوا بالرجم يسمعون إلى الملأ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ فيما (يُوحِي) به إليهم؛ لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا. وثانيها: يلقون إلى أوليائهم السمع أي المسموع من الملائكة. وثالثها: الأفّاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيلقون وحيهم إليهم. ورابعها: يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس، وأكثر الأفّاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم، فإن

---

(١) لم أجده.

(٢) **مرسل**: رواه ابن أبي شيبة في (المصنف) (١٤/ ٤٨١)، حديث رقم (٣٨٠٥٧)، والطحاوي في (شرح معاني الآثار) (٣/ ٢٩١)، كلاهما من طريق أيوب عن عكرمة... فذكره.

قلت: ﴿يُلْقُونَ﴾ ما محله؟ قلت: يجوز أن يكون في محل النصب على الحال أي تنزل ملقين السمع، وفي محل الجر صفة لكل أفاك لأنه في معنى الجمع، وأن لا يكون له محل بأن يستأنف كأن قائلاً قال: لِمَ تنزل على الأفَّاكين؟ فقيل: يفعلون كيت وكيت، فإن قلت: كيف قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ بعدما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك؟ قلت: الأفاكون هم الذين يكثرون الكذب، لا أنهم الذين لا ينطقون إلا بالكذب، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قَلَّ من يصدق منهم فيما يحكى عن الجن وأكثرهم يفتري عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

اعلم أن الكفار لما قالوا: لم لا يجوز أن يقال: إن الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء؟ ثم إنه سبحانه فرَّق بين محمد ﷺ وبين الكهنة، فذكر هاهنا ما يدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء، وذلك هو أن الشعراء يتبعهم الغاوون، أي الضالون، ثم بيَّن تلك الغواية بأمرين: الأول: ﴿أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ والمراد منه الطرق المختلفة كقولك: أنا في واد وأنت في واد، وذلك لأنهم قد يمدحون الشيء بعد أن ذموه وبالعكس، وقد يعظمونه بعد أن استحقروه وبالعكس، وذلك يدل على أنهم لا يطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف أمر محمد ﷺ، فإنه من أول أمره إلى آخره بقي على طريق واحد وهو الدعوة إلى الله تعالى والترغيب في الآخرة والإعراض عن الدنيا. الثاني: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وذلك أيضًا من علامات الغواة، فإنهم يرغبون في الجود ويرغبون عنه، وينفرون عن البخل ويصرون عليه، ويقدحون في الناس بأدنى شيء صدر عن واحد من أسلافهم، ثم إنهم لا يرتكبون إلا الفواحش، وذلك يدل على الغواية والضلالة.

وأما محمد ﷺ فإنه بدأ بنفسه حيث قال الله تعالى له: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٣] ثم بالأقرب فالأقرب حيث قال الله تعالى له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤] وكل ذلك على خلاف طريقة الشعراء، فقد ظهر بهذا الذي بيناه أن حال محمد ﷺ ما كان يشبه حال الشعراء، ثم إن الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة بيانًا لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور أربعة: أحدها: الإيمان وهو قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وثانيها: العمل الصالح وهو قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وثالثها: أن يكون شعرهم في التوحيد والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق، وهو قوله: ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾. ورابعها: أن لا يذكروا هجو أحد إلا على سبيل الانتصار ممن يهجوهم، وهو قوله: ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[النساء: ١٤٨] ثم إن الشرط فيه ترك الاعتداء

لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقيل: المراد بهذا الاستثناء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير؛ لأنهم كانوا يهجون قريشًا، وعن كعب بن مالك: أن رسول ﷺ قَالَ لَهُ: «اهْجُهُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ رَشْقِ النَّبْلِ» وكان يقول لحسان بن ثابت «قُلْ وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ».

فأما قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ فالذي عندي فيه والله أعلم أنه تعالىٰ لما ذكر في هذه السورة ما يزيل الحزن عن قلب رسوله ﷺ من الدلائل العقلية، ومن أخبار الأنبياء المتقدمين، ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام، ثم ذكر سؤال المشركين في تسميتهم محمدًا ﷺ تارة بالكاهن، وتارة بالشاعر، ثم إنه تعالى بيَّن الفرق بينه وبين الكاهن أولاً ثم بيَّن الفرق بينه وبين الشاعر ثانيًا ختم السورة بهذا التهديد العظيم، يعني إن الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات، والتأمل في هذه البينات فإنهم سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون وقال الجمهور: المراد منه الزجر عن الطريقة التي وصف الله بها هؤلاء الشعراء، والأول أقرب إلى نظم السورة من أولها إلى آخرها، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

سورة الشعراء

هي مكيةٌ في قول الجمهور. وقال مقاتل: منها مدنِيٌّ؛ الآية التي يُذكَرُ فيها الشعراء، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1]. وقال ابن عباس وقتادة: مكيةٌ إلَّا أربع آياتٍ منها نزلت بالمدينة، من قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرها[2]. وهي مئتان وسبعٌ وعشرون آية[3]. وفي رواية: سِتٌّ وعشرون[4]. وعن ابن عباسٍ: قال النبيُّ ﷺ: «أُعطيتُ السورةَ التي تُذكَرُ فيها البقرة من الذِّكْرِ الأوَّلِ، وأُعطيتُ طه وطسم من ألواح موسى، وأُعطيتُ فواتحَ القُرآنِ وخواتيمَ سورةِ البقرة من تحت العرش، وأُعطيتُ المُفصَّلَ نافلةً[5]». وعن البراء بن عازب، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تعالى أعطاني السَّبعَ الطِّوالَ مكانَ التوارةِ، وأعطاني المِئِين[6] مكانَ الإنجيل، وأعطاني الطَّواسين مكان الزبور، وفضَّلني بالحواميم والمُفصَّلِ ما قرأهُنَّ نبيٌّ قبلي[7]».

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٤.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٦٣، وزاد المسير ٦/ ١١٤.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩.

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ١١٩.

(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٨ إلى ابن مردويه. وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/ (٥٢٥) من حديث معقل بن يسار ﷺ، وفيه: «الطور» بدل «طسم». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٧٠: فيه عبيد الله بن أبي حميد، أجمعوا على ضعفه.

(٦) في (م): المبين.

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ إلى ابن نصر وابن مردويه من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه بغير هذا السياق أحمد (١٦٩٨٢) من حديث واثلة بن الأسقع ﷺ. وقال السندي في حاشيته على المسند: المئون: ما كان من سور القرآن عدد آيهِ مئة آية أو تزيد عليها شيئاً أو تنقص منها شيئاً يسيراً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ قرأ الأعمشُ ويحيى وأبو بكرٍ والمُفضَّلُ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: بإمالة الطَّاءِ مُشبعاً في هذه السورة وفي أُختيها[(١)]. وقرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ وشيبةُ والزُّهريُّ: بين اللفظين، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم[(٢)]. وقرأ الباقون بالفتح مُشبَعاً. قال الثَّعلبي: وهي كلُّها لغاتٌ فصيحة. وقد مضى في «طه»[(٣)] قولُ النَّحاسِ في هذا. قال النَّحَّاس[(٤)]: وقرأ المدنيون[(٥)] وأبو عمرو وعاصم والكسائي: «طسم» بإدغام النون في الميم، والقُرَّاء يقولون[(٦)] بإخفاء النون[(٧)]. وقرأ الأعمش وحمزة:

(١) السبعة ص٤٧٠ ، والتيسير ص١٦٥ عن حمزة والكسائي، والنشر ٢/ ٧٠ عنهما وعن خلف، والبغوي ٦/ ١١٤ عن المفضل.

(٢) نقل ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٤ عن أبي حاتم أنه اختار فتح الطاء .

(٣) ١٤/ ١٢-١٣ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٣ .

(٥) هي قراءة نافع، أما قراءة أبي جعفر فهي بإظهار النون مثل قراءة حمزة الآتية. النشر ٢/ ١٩ .

(٦) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧٣ ، والكلام منه، ووقع في غير (ظ): والفراء يقول.

(٧) يعني الإخفاء بمعناه اللغوي، وليس المراد الإخفاء الاصطلاحي. قال أبو البقاء العكبري في اللباب في علل البناء والإعراب ٢/ ٤٦٩ : أصل الإدغام في اللغة الإخفاء والإحكام.

«طسين ميم» بإظهار النون[١]. قال النَّحَّاس: للنون الساكنة والتنوين أربعةُ أقسامٍ عند سيبويه: يُبيَّنانِ عند حروف الحلق، ويُدْغَمانِ عند الرَّاءِ واللَّامِ والميمِ والواوِ والياء، ويُقلَبان ميماً عند الباءِ ويكونانِ من الخياشيم؛ أي: لا يُبيَّنان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التي نصَّها سيبويه لا تجوز هذه القراءة؛ لأنَّه ليس هاهنا حرفٌ من حروف الحلق فتُبيَّنُ النون عنده، ولكن في ذلك وُجَيْهٌ: وهو أنَّ حروفَ المعجم حكمُها أنْ يُوقَفَ عليها، فإذا وُقِفَ عليها تبيَّنَتِ النُّون. قال الثعلبيُّ: الإدغامُ اختيار أبي عبيدٍ وأبي حاتمٍ قياساً على كلِّ القرآن، وإنَّما أظهرها أولئك للتَّبيين والتَّمكين، وأدغمَها هؤلاء لمجاورتِها حروفَ الفم. قال النَّحَّاس[٢]: وحكى أبو إسحاق في كتابه «فيما يُجرى وفيما لا يُجرى» أنَّه يجوز أنْ يُقال: «طسينَ ميمُ» بفتح النون وضمِّ الميم، كما يُقال: هذا مَعْدي كربُ.

وقال أبو حاتم: قرأ خالد: «طسينَ ميمُ».

ابن عباس: «طسم» قَسَمٌ، وهو اسمٌ من أسماء الله تعالى[٣]، والمُقْسَمُ عليه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾. وقال قتادة: اسمٌ من أسماء القرآن أقسمَ اللهُ به. مجاهد: هو اسمُ السورة[٤]. الحسن[٥]: افتتاح السورة[٦]. الربيع: حساب مُدَّة قوم. وقيل: قارعةٌ تَحُلُّ بقوم. «طسم» و«طس» واحد. قال:

وَفاؤُكُمَا كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طاسِمُهْ بأن تُسْعِدا والدَّمعُ أَشْفاهُ ساجِمُهْ[٧]

---

(١) قراءة حمزة في السبعة ص٤٧٠، والتيسير ص١٦٥.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٣-١٧٤، وينظر الكتاب ٤/ ٤٤٥ فما بعده.

(٣) أسماء الله عز وجل توقيفية، يتوقف في إثباتها على ما صح من النصوص، ولم يثبت في ذلك نص.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٦٣، والوسيط ٣/ ٣٥٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧٩. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٣، والطبري ١٧/ ٥٤٢.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ويحسن.

(٦) النكت والعيون ٤/ ١٦٣.

(٧) قائله المتنبي، وهو في ديوانه ص٢٥٦. قال البرقوقي في شرحه ٤/ ٤٣: أشجاه: أشده شجواً، من =

وقال القُرظيُّ: أقسم الله بطَوْله وسنائه ومُلكه[١]. وقال عبد الله بن محمد بن عَقِيل: الطَّاءُ طورُ سيناء، والسِّينُ إسكندرية، والميم مكة[٢]. وقال جعفر بن محمد بن عليّ: الطَّاءُ شجرةُ طوبى، والسِّينُ سِدرةُ المنتهى، والميمُ محمدٌ ﷺ[٣]. وقيل: الطَّاء من الطَّاهر، والسِّينُ من القُدُّوس ـ وقيل: من السَّميع، وقيل: من السَّلام ـ والميمُ من المجيد. وقيل: من الرَّحيم. وقيل: من المَلِك[٤]. وقد مضى هذا المعنى في أول سورة «البقرة[٥]». والطَّوَاسيمُ والطَّواسينُ سُوَرٌ في القرآن جُمِعَتْ على غير قياس. وأنشد أبو عُبيدة:

وبالطَّواسيمِ التي قد ثُلِّثتْ وبالحواميمِ التي قد سُبِّعتْ

قال الجوهري: والصوابُ أن تُجمَعَ بذواتِ وتُضافَ إلى واحد، فيُقال: ذوات طسم، وذواتُ حم[٦].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ رفعٌ على إضمار مبتدإٍ، أي: هذه «تِلْكَ آياتُ الكتابِ الْمُبين» التي كنتُم وعِدتُم بها؛ لأنَّهم قد وُعِدوا في التوراة والإنجيل

= قولك: شجاني هذا الأمر، أي: أحزنني. والطاسم: الطامس الدارس. بأن تسعدا: أي: تساعدا وتعاونا. وسجم الدمع: سال وهطل. يخاطب خليليه اللذين عاهداه على أن يساعداه على البكاء عند ربع الأحبة يقول لهما: إن وفاءكما بأن تساعداني على البكاء كهذا الربع، فإن الربع كلما تقادم عهده كان أشجى لزائره وأشد لحزنه؛ لأنه لا يتسلّى به المحب، وكذلك وفاؤكما كلما ضعف وقلَّ إسعادكما لي على البكاء اشتدَّ حزني، إذ لا أجد من أتسلّى به. ثم قال: والدمع أشفاه ساجمه، كأنه يقول: إن لي العذر في البكاء، أما أنتما فخليّان، إذ لو كنتما محزونين مثلي لاستشفيتما بالدمع كما هو شأن المحزون مثلي.

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧٩، وزاد المسير ٦/ ١١٥.

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٣٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١١٥ عن علي مرفوعاً.

(٣) مجمع البيان ١٩/ ١٣٧، وزاد المسير ٦/ ١١٥.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٦٤.

(٥) ١/ ٢٣٥.

(٦) الصحاح (حمم) و(طسم).

بإنزال القرآن[١]. وقيل: «تِلْكَ» بمعنى هذه[٢].

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتلٌ نفسَك ومُهلِكُها. وقد مضى في «الكهف[٣]» بيانُه. ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لتركهم الإيمان. قال الفرَّاء[٤]: «أنْ» في موضع نصب؛ لأنَّها جزاء. قال النَّحَّاس[٥]: وإنَّما يُقال: «إنْ» مكسورةً؛ لأنَّها جزاء، كذا المُتعارف. والقول في هذا ما قاله أبو إسحاق في كتابه في القرآن؛ قال: «أنْ» في موضعِ نصبِ مفعولٍ من أجله، والمعنى: لعلَّكَ قاتِلٌ نفسَك لتركِهِمُ الإيمان.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي: معجزةً ظاهرةً وقدرةً باهرةً، فتصير معارفُهم ضروريةً، ولكِنْ سبقَ القضاءُ بأن تكون المعارفُ نظرية. وقال أبو حمزة الثُّماليُّ في هذه الآية: بلغني أنَّ هذه الآية صوتٌ[٦] يُسمَعُ من السماء في النِّصفِ من شهر رمضان، تخرجُ به العواتق من البيوت وتضِجُّ له الأرض[٧]. وهذا فيه بعدٌ؛ لأنَّ المُرادَ قريشٌ لا غيرَهم.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ أي: فتظَلُّ أعناقُهم[٨] ﴿لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ قال مجاهد: أعناقهم: كبراؤهم[٩]. وقال النَّحَّاس: ومعروفٌ في اللغة؛ يُقال: جاءني عُنُقٌ من النَّاس أي: رؤساءُ منهم. أبو زيد والأخفش: «أَعْنَاقُهُمْ» جماعاتهم؛ يقال: جاءني عُنُقٌ من الناس

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦١ .

(٣) ١٠/ ٣٤٨ .

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٥ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٦) في (م): بلغني أن لهذه الآية صوتاً. والمثبت من (ظ).

(٧) مجمع البيان ١٩/ ١٣٨ .

(٨) إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٨١ .

أي: جماعة[١]. وقيل: إنَّما أرادَ أصحابَ الأعناق، فحذفَ المضافَ وأقام المضافَ إليه مقامَه[٢]. وقال قتادة: المعنى: لو شاءَ لأنزلَ آيةً يذِلُّون بها، فلا يلوي أحدٌ منهم عُنُقَه إلى معصية[٣]. ابن عباس: نزلَتْ فينا وفي بني أمية، ستكون لنا عليهم الدُّوْلَةُ فتَذِلُّ لنا أعناقُهم بعد معاوية. ذكره الثَّعلبي والغزنوي[٤]، والله أعلم. وخاضعينَ وخاضعةً هنا سواء. قاله عيسى بن عمر واختاره المُبرِّد[٥]. والمعنى: إنَّهم إذا ذَلَّتْ رقابُهم ذَلُّوا؛ فالإخبارُ عن الرقاب إخبارٌ عن أصحابها، ويسوغُ في كلام العرب أن تتركَ الخبرَ عن الأولِ وتُخبِرَ عن الثاني؛ قال الراجز:

طولُ اللَّيالي أسرعتْ في نَقْضي ... طَوَيْنَ طُولي وطَوَيْنَ عَرْضي[٦]

فأخبر عن الليالي وترك الطول. وقال جرير[٧]:

أرَى مَرَّ السنينَ أَخَذْنَ مِنِّي ... كما أَخَذَ السِّرارُ من الهِلالِ

وإنما جاز ذلك؛ لأنَّه لو أسقط مرَّ وطُولَ من الكلام لم يفسُدْ معناه، فكذلك ردَّ الفعلَ إلى الكناية في قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ لأنَّه لو أسقطَ الأعناقَ لَما فسدَ الكلام، ولأدَّى ما بقي من الكلام عنه حتى يقول: فظلُّوا لها خاضعين. وعلى هذا اعتمد الفرَّاء وأبو عبيدة[٨]. والكسائيُّ يذهبُ إلى أنَّ المعنى: خاضِعيها هم، وهذا خطأٌ عند البصريِّين والفرَّاء. ومثل هذا الحذف لا يَقعُ في شيءٍ من الكلام. قاله النَّحَّاس[٩].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٢-٦٣.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٦٥.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٠. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٣، والطبري ١٧/ ٥٤٤-٥٤٥.

(٤) وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٣٨.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٣. واختيار المبرد في الكامل ٢/ ٦٦٨.

(٦) قائله الأغلب العجلي، وهو في خزانة الأدب ٤/ ٢٢٦.

(٧) في ديوانه ٢/ ٥٤٦، وقد سلف ٩/ ٣٠٤.

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٨٣.

(٩) في معاني القرآن له ٥/ ٦٢ و٦٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ تقدَّم في «الأنبياء[١]». ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي: أعرضوا، ومَنْ أعرضَ عن شيءٍ ولم يقبَلْه فهو تكذيبٌ له. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وعيدٌ لهم، أي: فسوفَ يأتيهم عاقبةُ ما كذَّبوا والذي استهزؤوا به.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نبَّهَ على عظمتِه وقدرتِه وأنَّهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لَعلِموا أنَّه الذي يستحِقُّ أن يُعبَدَ؛ إذ هو القادرُ على كلِّ شيء. والزوج: هو اللون. قاله الفرَّاء[٢]. و«كَرِيم»: حسنٌ شريف، وأصل الكرم في اللغة: الشرف والفضل، فنخلةٌ كريمةٌ أي: فاضلةٌ كثيرةُ الثمر، ورجلٌ كريمٌ: شريفٌ فاضلٌ صفوح[٣]. ونبتتِ الأرضُ وأنبتَتْ بمعنًى. وقد تقدَّم في سورة «البقرة[٤]»، والله سبحانه هو المُخرِجُ للنبات[٥] والمُنبِتُ له. ورُوي عن الشَّعبيِّ أنه قال: الناسُ من نباتِ الأرض، فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار إلى النار فهو لئيم[٦].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: فيما ذُكِرَ من الإنبات في الأرض؛ لدِلالتِه على أنَّ اللهَ قادرٌ، ولا يُعجِزُه شيء[٧]. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مُصَدِّقين لِما سبقَ من علمي فيهم. و«كَانَ» هنا صلة في قول سيبويه[٨]؛ تقديره: وما أكثرُهم مؤمنين. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يُريد: المنيعُ المنتقمُ من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه[٩].

---

(١) ١٤/ ١٧١-١٧٢.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٨.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٧٤.

(٤) بل في سورة النحل ١٢/ ٢٩٢.

(٥) كلمة «للنبات» ليست في (م).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٦.

(٧) الوسيط ٣/ ٣٥١.

(٨) الكتاب ١/ ٧٣.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ «إِذْ» في موضع نصب؛ والمعنى: واتْلُ عليهم ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ويدلُّ على هذا أنَّ بعده: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ذكره النَّحَّاس[١]. وقيل: المعنى: واذكُرْ إذ نادى، كما صرَّح به في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف:٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [ص:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم:١٦]. وقيل: المعنى: «وإِذْ نادى رَبُّكَ موسى» كان كذا وكذا. والنداء: الدعاء بيافلان، أي: قال ربُّكَ: يا موسى ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثمَّ أخبرَ مَنْ هم، فقال: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ فـ «قومَ» بدل[٢]، ومعنى «ألا يَتَّقونَ»: ألا يخافون عقابَ الله؟ وقيل: هذا من الإيماء إلى الشيء؛ لأنَّه أمرَه أنْ يأتيَ القومَ الظالمين، ودلَّ قولُه: «يَتَّقُونَ» على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى. وقيل: المعنى: قُلْ لهم: «ألا تَتَّقُونَ» وجاء بالياء؛ لأنَّهم غُيَّبٌ وقتَ الخطاب، ولو جاء بالتاء لجاز. ومثله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران:١٢] بالتاء والياء[٣]. وقد قرأ عبيد بن عُمير وأبو حازم: «أَلَا تَتَّقُونَ» بتاءين[٤]، أي: قُلْ لهم: «أَلَا تَتَّقُونَ». ﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي: قال موسى[٥]: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أي: في الرسالة والنبوة.

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٥ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٧٥ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) ورويت هذه القراءة عن عبد الله بن مسلم وحماد بن سلمة وأبي قلابة كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٦ ، والمحتسب ٢/ ١٢٧ ، والشاذة ص١٠٦ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢ .

﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِى﴾ لتكذيبهم إيَّاي[١]. وقراءة العامَّة «وَيَضيقُ» «وَلَا يَنْطَلِقُ» بالرفع على الاستئناف[٢]. وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة: «ويَضِيقَ» «وَلَا يَنْطَلِقَ» بالنصب فيهما ردًّا على قوله: «أَنْ يُكَذِّبُونِ»[٣]. قال الكسائي: القراءةُ بالرفع؛ يعني في ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ من وجهين: أحدهما الابتداء، والآخر بمعنى: وإنِّي يضيقُ صدري ولا ينطلق لساني، يعني: نسَقاً على «إنِّي أخافُ»[٤]. قال الفرَّاء: ويُقرأُ بالنَّصب[٥]. حُكيَ ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى بن عمر، وكلاهما له وجه. قال النَّحَّاس: الوجه الرفع؛ لأنَّ النَّصبَ عطفٌ على «يُكَذِّبُونِ» وهذا بعيدٌ يدلُّ على ذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِى يَفۡقَهُواْ قَوۡلِى﴾ [طه: ٢٧-٢٨] فهذا يدل على أن هذا[٦] كذا[٧]. ومعنى، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ في المُحاجَّةِ على ما أُحِبُّ؛ وكان في لسانه عُقْدةٌ على ما تقدَّم في «طه[٨]». ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أرسِلْ إليه جبريلَ بالوحي، واجعَلْه رسولاً معي ليؤازِرَني ويُظاهِرَني ويُعاونني[٩]. ولم يذكُرْ هنا لِيُعينني؛ لأنَّ المعنى كان معلوماً، وقد صرَّح به في سورة «طه» [الآية: ٢٩]: ﴿وَٱجۡعَل لِّى وَزِيرًا﴾ وفي القصص [الآية: ٣٤]: ﴿أرسله مَعِىَ رِدۡءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾، وكأنَّ موسى أذِنَ له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استِعْفاءً من الرسالة، بل طلبَ مَنْ يُعِينُه. ففي هذا دليلٌ على أنَّ من لا يستقِلُّ بأمرٍ، ويخافُ من نفسه تقصيراً، أن يأخذَ مَنْ يستعين به عليه، ولا

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٢، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٢، وزاد المسير ٦/ ١١٨.
(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٧١.
(٣) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٣٥.
(٤) إعراب القرآن ٣/ ١٧٥.
(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٨ ورجح وجه الرفع.
(٦) في (م): هذه.
(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٧٥.
(٨) ١٤/ ٥١ - ٥٢.
(٩) الوسيط ٣/ ٣٥١ بنحوه.

يَلْحَقُه في ذلك لَوْم.

﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ الذنبُ هنا قتلُ القِبطي[(١)]، واسمه فاثور على ما يأتي في «القصص» بيانه[(٢)]، وقد مضى في «طه» ذِكْرُه[(٣)]. وخاف موسى أن يقتلوه به، ودلَّ على أنَّ الخوفَ قد يصحَبُ الأنبياءَ والفُضَلاءَ والأولياءَ مع معرفتهم باللهِ، وأنْ لا فَاعِلَ إلا هو؛ إذ قد يُسلِّطُ من شاءَ على من شاء.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: كلَّا لن يقتلوك. فهو رَدْعٌ وزَجْرٌ عن هذا الظن[(٤)]، وأمْرٌ بالثِّقةِ بالله تعالى؛ أي: ثِقْ بالله، وانزجِرْ عن خوفِكَ منهم؛ فإنَّهم لا يقدرون على قَتْلِك، ولا يَقْوَون عليه. ﴿فَاذْهَبَا﴾ أي: أنتَ وأخوكَ، فقد جعلتُه رسولاً معك. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ببراهيننا وبالمعجزات. وقيل: أي: مع آياتنا. ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ يريدُ نفسَه سبحانه وتعالى. ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي: سامِعون ما يقولون وما يُجاوبون[(٥)]. وإنَّما أرادَ بذلك تقويةَ قلبَيْهما وأنه يُعينُهما ويحفظُهما. والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يُوصَفُ الباري سبحانه بذلك[(٦)]. وقد وصفَ سبحانَه نفسَه بأنَّه السَّميعُ البصير. وقال في «طه» [الآية: ٤٦]: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وقال: «مَعَكُمْ» فأجراهما مَجرى الجمع؛ لأنَّ الاثنين جماعة[(٧)]. ويجوزُ أن يكونَ لهما ولِمَنْ أُرسِلا إليه. ويجوزُ أن يكون لجميع بني إسرائيل[(٨)].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢.

(٢) ١٣/ ٢٥٩ وما بعده.

(٣) ١٤/ ٦٠ وما بعده.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٥.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥١.

(٦) تفسير الرازي ٢٤/ ١٢٤.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة(١)، والتقديرُ على هذا: إنَّا ذَوو رسالةِ ربِّ العالمين. قال الهُذليُّ:

أَلِكْني إليها وخَيرُ الرَّسُو ... لِ أعْلَمُهُمْ بنَواحي الخَبَرْ(٢)

أَلِكْني إليها معناه: أرسِلْني. وقال آخرُ:

لقد كَذَبَ الواشونَ ما بُحْتُ عندهمْ ... بِسِرٍّ ولا أرسلتُهمْ برسولِ(٣)

آخر:

أَلَا أَبْلِغْ بني عَمرٍو رسولاً ... بأنِّي عن فُتَاحَتِكُمْ غنيُّ(٤)

وقال العباس بن مِرْداس:

أَلَا مَنْ مُبلِغٌ عنِّي خُفَافاً ... رسولاً بَيتُ أهلِكَ مُنْتَهاها(٥)

يعني رسالةً؛ فلذلك أنَّثها. قال أبو عبيدة(٦): ويجوز أن يكون الرَّسولُ في معنى

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٨٤.

(٢) الهذلي: هو أبو ذُؤيب، والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١٤٦. قوله: أعلمهم بنواحي الخبر، أي: يعرف شواكل الأمور.

(٣) قائله كثير عزة، وهو في ديوانه ص٢٧٨، وفيه «ليلى» بدل «بسرٍّ» و«رسيل» بدل «رسول». قال ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٢٧٧: يروى بالوجهين.

(٤) قائله الأسعر الجعفي، وهو في اللسان (فتح) وفيه: «بني بكر بن عبد» بدل «بني عمرٍو رسولاً»، وفي تاج العروس (فتح) وفيه: «ألا مَنْ مُبلغٌ» بدل «ألا أبلغ بني»، ووقع في النسخ الخطية: «أبا» بدل «بني».

(٥) هو الحماسة البصرية ١/ ١٣، وخزانة الأدب ٤/ ٣٦٧.

(٦) في (د) و(ز) و(م): أبو عبيد.

الاثنين والجمع؛ تقول العرب: هذا رسولي ووكيلي، وهذان رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]. وقيل: معناه: إنَّ كلَّ واحدٍ منَّا رسولُ ربِّ العالمين. ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلِقْهم وخَلِّ سبيلَهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبِدْهم، وكان فرعونُ استعبدهم أربعَ مئةِ سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستَّ مئةِ ألفٍ وثلاثينَ ألفاً. فانطلقا إلى فرعون فلم يؤذَنْ لهما سنةً في الدخول عليه، فدخلَ البوَّابُ على فرعون فقال: هاهنا إنسانٌ يزعمُ أنَّه رسولُ ربِّ العالمين. فقال فرعون: ايذن له لعلَّنا نضحَكُ منه. فدخلا عليه وأدَّيا الرسالة[١]. وروى وَهْبٌ وغيرُه: أنَّهما لمَّا دخلا على فرعون وجَداه وقد أخرج سباعاً من أُسْدٍ ونُمورٍ وفُهودٍ يتفرَّج عليها، فخافَ سُوَّاسُها أن تبطِشَ بموسى وهارون، فأسرعوا إليها، وأسرعَتِ السِّباعُ إلى موسى وهارون، فأقبلَتْ تلحَسُ أقدامَهما، وتُبَصبِصُ إليهما بأذنابِها، وتُلْصِقُ خدودَها بفَخِذَيهما، فعجِبَ فرعونُ من ذلك فقال: ما أنتما؟ قالا: «إنَّا رَسولُ رَبِّ العالمين» فعرفَ موسى؛ لأنَّه نشأ في بيته.

ف ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ على جهة المَنِّ عليه والاحتقار، أي: ربَّيناكَ صغيراً ولم نقتُلْكَ في جُملةِ مَنْ قَتَلْنا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فمتى كان هذا الذي تدَّعيه؟ ثم قرَّره بقَتْلِ القِبْطيِّ بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ والفَعْلَةُ بفتح الفاء: المرَّةُ من الفِعْل[٢]. وقرأ الشَّعبيُّ: «فِعْلَتَكَ» بكسر الفاء[٣]، والفتح أولى؛ لأنَّها للمرَّةِ الواحدة، والكسرُ بمعنى الهيئة والحال، أي: فِعْلَتكَ التي تُعرَفُ، فكيف تَدَّعي مع عِلْمنا أحوالَكَ بأنَّ اللهَ أرسلَكَ؟ وقال الشاعر:

كأنَّ مِشيتَها مِنْ بيتِ جارتِها مَرُّ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ[٤]

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧.

(٣) المحتسب ٢/ ١٢٧، والشاذة ص١٠٦.

(٤) قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص٦.

ويقال: كان ذلك أيام الرِّدة والرَّدة[١]. ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال الضحَّاك: أي: في قتلِكَ القِبطي؛ إذ هو نفسٌ لا يحِلُّ قَتْلُه. وقيل: أي: بنعمتي التي كانت لنا عليكَ من التربية والإحسان إليك. قاله ابنُ زيد[٢]. الحسن: «مِنَ الكافرينَ» في أنِّي إلهُكَ. السُّدِّي: «مِنَ الكافرينَ» باللهِ؛ لأنَّكَ كنتَ معنا على ديننا هذا الذي تَعيبُه[٣]. وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتلَ القِبطيَّ وبين رجوعِه نبيًّا أحدَ عشرَ عاماً غيرَ أشهر[٤]. فـ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي: فعلتُ تِلْكَ الفَعْلَةَ يُريدُ قتلَ القِبطي ﴿وَأَنَا﴾ إذ ذاك ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: من الجاهلين[٥]، فنفى عن نفسِه الكفر، وأخبر أنَّه فعلَ ذلك على الجهل[٦]. وكذا قال مجاهد؛ «مِنَ الضَّالِّينَ»: من الجاهلين[٧]. ابن زيد: من الجاهلين بأنَّ الوَكْزةَ تبلُغُ القتل[٨]. وفي مصحف عبد الله: «مِن الجاهِلِين»، ويُقال لمِن جَهِلَ شيئاً: ضلَّ عنه[٩]. وقيل: «وأنا مِنَ الضَّالِّينَ»: من النَّاسين. قاله أبو عبيدة[١٠]. وقيل: «وأنا مِنَ الضَّالِّينَ» عن النبوّةِ[١١] ولم يأتِني عن اللهِ فيه شيء[١٢]، فليس عليَّ فيما فعلْتُه في تلك الحالة توبيخٌ. وبيَّنَ بهذا أنَّ التربيةَ فيهم لا تُنافي النبوَّةَ والحِلْمَ على

(١) من قوله: وقرأ الشعبي... إلى هذا الموضع في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧ بنحوه .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٣ . وأخرج الطبري ١٧/ ٥٥٦ قول السدي.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧ .

(٥) زاد المسير ٦/ ١١٩ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٦ .

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٤٥٩ ، وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٥٥٨ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨ .

(٩) تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٧ - ٥٥٨ .

(١٠) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٧١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١١٩ .

(١١) النكت والعيون ٤/ ١٦٧ .

(١٢) الوسيط ٣/ ٣٥٢ .

الناس، وأنَّ القتلَ خطأٌ، أو في وقتٍ لم يكن فيه شرعٌ لا يُنافي النبوَّةَ.

قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي: خرجتُ من بينكم إلى مَدْين[١] كما في سورة «القصص» [الآية: ٢١]: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ وذلك حين القتل. ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ يعني النبوَّة. عن السُّدِّيِّ وغيرِه[٢]. الزَّجَّاج: تعليمه[٣] التوراة التي فيها حكم الله[٤]. وقيل: علماً وفهماً[٥]. ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اختلف الناسُ في معنى هذا الكلام، فقال السُّدِّي والطَّبريُّ والفرَّاء: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهةِ الإقرار بالنعمة، كأنَّه يقول: نعم، وتربيتُكَ نعمةٌ عليَّ من حيث عبَّدتَ غيري وتركتني، ولكن لا يدفعُ ذلكَ رسالتي[٦]. وقيل: هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار، أي: أتمنُّ عليَّ بأن ربيَّتَني وليداً وأنتَ قدِ استعبدْتَ بني إسرائيل وقتلتهم؟! أي: ليست بنعمة؛ لأنَّ الواجبَ كان ألَّا تقتُلَهم ولا تستعبِدَهم فإنَّهم قومي، فكيف تذكُرُ إحسانَكَ إليَّ على الخصوص؟! قال معناه قتادة وغيره[٧]. وقيل: فيه تقديرُ استفهام، أي: أوَ تِلكَ نعمةٌ؟ قاله الأخفش والفرَّاء أيضاً[٨]، وأنكره النَّحَّاس وغيره. قال النَّحَّاس[٩]: وهذا لا يجوز، لأنَّ ألِفَ الاستفهامِ تُحدِثُ معنى، وحَذْفُها مُحالٌ،

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٥٩ عن السدي، وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤٧٢ وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٢٠ عن ابن السائب الكلبي.

(٣) في (م): تعليم.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٦.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥٢، وأبو الليث ٢/ ٤٧٢، والبغوي ٣/ ٣٨٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٢٠ عن مقاتل.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨. وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٩، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٩.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٦١، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨.

(٨) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٤٥ - ٦٤٦، وقول الفراء نقله عنه النحاس كما سيأتي قريباً.

(٩) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٦ - ١٧٧.

إلَّا أن يكون في الكلام أم، كما قال الشاعر:

تَـرُوحُ مِـن الـحـيِّ أن تَـبْـتَـكِـرْ[١]

ولا أعلَمُ بين النَّحْويِّين اختلافاً في هذا، إلَّا شيئاً قاله الفرَّاء؛ قال: يجوزُ حَذْفُ ألفِ الاستفهامِ في أفعالِ الشَّكِّ، وحُكي: تُرَى زيداً مُنطلِقاً؟ بمعنى: أتُرى. وكان علي بن سليمان يقول في هذا: إنَّما أخَذَه من ألفاظ العامَّة.

قال الثعلبيُّ: قال الفرَّاء: ومن قالَ: إنَّها إنكارٌ قال: معناه: أوَ تِلْكَ نعمةٌ؟ على طريق الاستفهام، كقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. قال الشاعر:

رَفَـوْنـي وقـالـوا يـا خُـوَيـلِـدُ لا تُـرَعْ فـقـلـتُ وأنـكـرتُ الـوجـوهَ هُـمُ هُـمُ[٢]

وأنشدَ الغَزنويُّ شاهداً على ترك الألف قولَهم:

لـم أنـسَ يـوم الـرَّحـيـلِ وِقْـفـتَـهـا وجَـفْـنُـهـا مـن دمـوعِـهـا شَـرِقُ
وقـولَـهـا والـرِّكـابُ واقـفـةٌ تَـركـتَـنـي هـكـذا وتَـنـطَـلِـقُ

قلتُ: ففي هذا حذفُ ألفِ الاستفهام مع عدمِ أم خلافَ قولِ النَّحَّاس. وقال الضحَّاك: إنَّ الكلام خرجَ مخرَجَ التبكيتِ، والتبكيتُ يكونُ باستفهامٍ وبغير استفهام[٣]، والمعنى: لو لم تَقتُلْ بني إسرائيلَ لرَبَّاني أبواي، فأيُّ نعمةٍ لكَ عليَّ؟! فأنت تمُنُّ عليَّ بما لا يجِبُ أن تمُنَّ به. وقيل: معناه: كيف تمنُّ عليَّ[٤] بالتربية وقد أهنتَ قومي؟ ومن أُهينَ قومُه ذَلَّ[٥]. و«أَنْ عَبَّدْتَ» في موضعِ رفعٍ على البدل من «نِعْمة». ويجوزُ أن تكونَ في موضع نصبٍ بمعنى: لِأَنْ عَبَّدْتَ بني إسرائيل[٦]، أي:

---

(١) هذا صدر بين عجزه: «وماذا يضيرُك لو تَنتظِرْ»، وقائله امرؤ القيس، وقد سلف ١/ ٢٨٣.
(٢) قائله أبو خراش الهذلي، وقد سلف ٦/ ٤٦٩.
(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٧٧.
(٤) كلمة «عليَّ» ليست في (م).
(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٤.
(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٧.

اتَّخذْتَهم عبيداً[١]. يُقال: عبَّدتَه وأعبدْتَه بمعنى. قاله الفرَّاء[٢]، وأنشد:

عَلَامَ يُعبِدُني قومي وقد كَثُرَتْ   فيهم أباعِرُ ما شاؤوا وعِبْدانُ[٣]

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لمَّا غلبَ موسى فرعونَ بالحُجَّةِ ولم

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٨٥.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٩.

(٣) قائله الفرزدق، وهو في اللسان (عبد).

يجِدِ اللعينُ من تقريرِهِ على التربية وغيرِ ذلكَ حُجَّةً رجع إلى معارضة موسى في قوله: «رسولُ ربِّ العالمين» فاستفهمه استفهاماً عن مجهولٍ من الأشياء. قال مكيٌّ وغيرُه: كما يُستفهَمُ عن الأجناس؛ فلذلك استفهمَ بـ «ما». قال مكي: وقد وردَ له استفهامٌ بـ «من» في موضعٍ آخر، ويُشبِهُ أنَّها مواطن، فأتى موسى بالصِّفاتِ الدالَّة على الله من مخلوقاته التي لا يُشارِكُه فيها مخلوق، وقد سأل فرعونُ عن الجنسِ ولا جِنْسَ للهِ تعالى؛ لأنَّ الأجناسَ مُحدَثة، فَعَلِمَ موسى جهلَه، فأضربَ عن سؤاله، وأعلَمَه بعظيم قدرة الله التي تُبيِّنُ للسامعِ أنَّه لا مشاركةَ لفرعونَ فيها. فقال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى الإغراءِ والتَّعجُّبِ من سفَهِ المقالةِ إذْ كانت عقيدةُ القومِ أنَّ فرعونَ ربُّهم ومعبودُهم، والفراعنةُ قبلَه كذلك. فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] فجاء بدليلٍ يفهمونه عنه؛ لأنَّهم يعلمون أنه قد كان لهم آباءُ، وأنَّهم قد فَنَوا، وأنَّه لابُدَّ لهم من مُغَيِّر، وأنَّهم قد كانوا بعدَ أن لم يكونوا، وأنَّهم لابُدَّ لهم من مُكَوِّن[2]. فقال فرعون حينئذٍ على جهةِ الاستخفاف: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[3] أي: ليس يجيبني عمَّا أسأل، فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأنْ قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي[4]: ليس ملكُه كمُلكِكَ؛ لأنَّكَ إنَّما تملِكُ بلداً واحداً لا يجوز أمرُكَ في غيره، ويموت من لا تُحِبُّ أن يموت، والذي أرسلني يملِكُ المشرقَ والمغرب ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5]. وقيل: عَلِمَ موسى عليه السلام أنَّ قصْدَه في السؤال معرفةُ مَنْ سألَ عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الربِّ اليوم.

ثم لمَّا انقطعَ فرعونُ ـ لعنَه الله ـ في باب الحُجَّةِ رجعَ إلى الاستعلاءِ والتغلُّبِ، فتوعَّدَ موسى بالسَّجْنِ، ولم يقُلْ: ما دليلُكَ على أنَّ هذا الإلهَ أرسلَكَ؛ لأنَّ فيه

(١) المحرر الوجيز ٤/٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢) إعراب القرآن ٣/١٧٨.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٢٢٩.

(٤) في (م): إن.

(٥) إعراب القرآن ٣/١٧٨.

الاعترافَ بأنَّ ثَمَّ إلهاً غيرُه. وفي تَوعُّدِه بالسَّجْنِ ضَعْفٌ . وكان فيما يُروى أنه يفزَعُ منه فزعاً شديداً حتى كان اللَّعينُ لا يُمسِكُ بولَه. ورُويَ أنَّ سَجْنَه كان أشدَّ من القتل. وكان إذا سجَنَ أحداً لم يُخرِجْه من سجنِهِ حتى يموت، فكان مَخُوفاً. ثم لمَّا كان عند موسى عليه السلام من أمرِ الله تعالى ما لا يُرِعْهُ تَوَعُّدُ فرعون ﴿قَالَ﴾ له على جهةِ اللُّطفِ به والطَّمعِ في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ فيتَّضِحُ لكَ به صدقي. فلمَّا سمعَ فرعون ذلك طمِعَ في أن يجِدَ أثناءه موضِعَ معارضة ﴿فَقَالَ﴾ له: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[1]. ولم يَحتَجِ الشَّرطُ إلى جوابٍ عند سيبويه؛ لأنَّ ما تقدَّم يكفي منه[2]. ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ من يدِه فكان ما أخبرَ الله من قصَّتِه. وقد تقدَّم بيانُ ذلك وشرحُه في «الأعراف[3]» إلى آخر القصة. وقال السَّحَرةُ لمَّا توعَّدهم فرعونُ بقَطْعِ الأيدي والأرجُلِ: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضرَرَ علينا فيما يَلْحَقُنا من عذاب الدنيا[4]، أي: إنَّما عذابُكَ ساعةٌ فنصبرُ لها وقد لقينا اللهَ مؤمنين. وهذا يدُلُّ على شِدَّةِ استبصارِهم وقُوَّةِ إيمانهم.

قال مالك: دعا موسى عليه السلام فرعونَ أربعين سنةً إلى الإسلام، وأنَّ السَّحَرةَ آمنوا به في يومٍ واحد[5]. يُقال: لا ضَيْرَ ولا ضَوْرَ ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَ ولا ضارُورَةَ بمعنًى واحد. قاله الهَرَوي[6]. وأنشدَ أبو عبيدة:

فإنَّكَ لا يَضُورُكَ بعدَ حَوْلٍ ... أظبيٌ كانَ أُمَّكَ أم حِمارُ[7]

وقال الجوهري[8]: ضَارَه يَضُورُه ويَضِيرُه ضَيْراً وضَوْراً، أي: ضَرَّه. قال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٩ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٧٨ .

(٣) ٩/ ٢٩٢-٢٩٩ .

(٤) الوسيط ٣/ ٣٥٣ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٣ .

(٦) وقاله الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٩١ دون قوله: ولا ضارورة.

(٧) قائله خداش بن زهير، وهو في خزانة الأدب ٩/ ٢٨٩ .

(٨) في الصحاح (ضور).

الكسائي: سمعتُ بعضَهم يقول: لا ينفعني ذلكَ ولا يَضُورني. والتَّضوُّرُ: الصِّياحُ والتَّلَوِّي عند الضرب أو الجوع. والضُّورَة بالضمِّ: الرَّجلُ الحقيرُ، الصغيرُ الشأن.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يُريدُ: نتقلبُ إلى ربٍّ كريمٍ رحيمٍ.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ، أي: لأنْ كُنَّا. وأجاز الفرَّاءُ كسْرَها على أن تكون مُجازاةً[1]. ومعنى: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون. الفرَّاء[2]: أول مؤمني زماننا. وأنكره الزَّجَّاج[3] وقال: قد رُويَ أنه آمنَ معه ستُّ مئة ألفٍ وسبعون ألفاً، وهم الشِّرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾. رُويَ ذلك عن ابن مسعودٍ وغيره[4].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ لمَّا كان من سُنَّتهِ تعالى في عباده إنجاءُ المؤمنين المُصدِّقين من أوليائه، المعترفينَ برسالة رسلهِ وأنبيائه،

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٠، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٨٠.

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٩١.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٧٣ عن ابن مسعود وأبي عبيدة.

وإهلاك الكافرين المُكذِّبين لهم من أعدائه، أمرَ موسى أن يخرُجَ ببني إسرائيل ليلاً وسمَّاهم عبادَه؛ لأنَّهم آمنوا بموسى. ومعنى: «إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» أي: يتَّبعكم فرعونُ وقومُه لِيَرُدُّوكم[١]. وفي ضمنِ هذا الكلام تعريفُهم أنَّ اللهَ يُنجيهم منهم، فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحَراً، فتركَ الطريقَ إلى الشام على يسارِه، وتوجَّه نحو البحر، فكان الرجلُ من بني إسرائيلَ يقول له في ترك الطريق، فيقول: هكذا أُمِرْتُ. فلمَّا أصبحَ فرعونُ وعَلِمَ بِسُرَى موسى ببني إسرائيل، خرج في أثرهم، وبعثَ إلى مدائن مصر لِتلحَقَه العساكر، فرُوِيَ أنَّه لحِقَه ومعه مئةُ ألفِ[٢] أدْهَمٍ من الخيل حاشى[٣] سائر الألوان. ورُوِيَ أنَّ بني إسرائيل كانوا ستَّ مئةِ ألفٍ وسبعينَ ألفاً. والله أعلمُ بصِحَّته، وإنَّما اللازمُ من الآيةِ الذي يُقطَعُ به أنَّ موسى عليه السلام خرجَ بجمعٍ عظيمٍ من بني إسرائيل، وأنَّ فرعونَ تَبِعَه بأضعافِ ذلك. قال ابن عباس: كان مع فرعونَ ألفُ جبَّارٍ كلُّهم عليه تاجٌ، وكلُّهم أميرُ خيل. والشِّرْذِمَةُ: الجمعُ القليلُ المحتقَرُ، والجمعُ الشَّراذِم[٤]. قال الجوهري: الشِّرذمة: الطائفةُ من الناس، والقِطعةُ من الشيء. وثوبٌ شراذمُ أي: قِطَع[٥]. وأنشدَ الثعلبيُّ قولَ الراجز:

جاءَ الشِّتاءُ وثِيابي أَخْلاقْ ... شَراذِمٌ يَضحَكُ منها النَّوَّاقْ

النَّوَّاقُ من الرجال: الذي يَروضُ الأمور ويُصلِحُها. قالَه في الصحاح[٦]. واللام في قوله: «لَشِرْذِمَةٌ» لامُ توكيدٍ، وكثيراً ما تدخلُ في خبرِ إنَّ، إلَّا أن الكوفيين لا يُجيزونَ: إنَّ زيداً لَسوفَ يقوم. والدليل على أنه جائزٌ قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ﴾

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٦.

(٢) في المحرر الوجيز: ست مئة ألف.

(٣) في (د) و(ز) و(م): سوى، وكلاهما بمعنى.

(٤) من قوله: فخرج موسى... إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٢٣١-٢٣٢.

(٥) الصحاح (شرذم).

(٦) (نوق)، ويروى بالتاء (التَّوَّاق) على أنه اسم ابنه. اللسان (توق).

وهذه لامُ التوكيد بعينِها وقد دخلت على سوف. قاله النَّحَّاس(١).

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: أعداءٌ لنا لمخالفتهم دينِنا وذهابِهم بأموالِنا التي استعاروها على ما تقدم. وماتت أبكارهم تلك الليلة. وقد مضى هذا في «الأعراف» و«طه(٢)» مستوفًى. يُقال: غاظني كذا وأغاظني. والغيظُ: الغضبُ، ومنه التغيُّظُ والاغتياظ. أي: غاظونا بخروجهم من غير إذن(٣). ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي: مُجتمِعٌ مُستعِدٌّ أخَذْنا حِذْرَنا وأسلِحَتنا. وقُرِئَ: «حاذِرُونَ» ومعناه معنى «حَذِرُونَ(٤)» أي: فَرِقونَ خائفون. قاله الجوهري(٥): وقُرِئَ: «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ» و «حَذِرُونَ» و«حَذُرونَ» بضمِّ الذَّالِ. حكاه الأخفش، ومعنى «حَاذِرُونَ»: مُتأهِّبون، ومعنى «حَذِرُونَ»: خائفون. قال النَّحَّاس: «حَذِرُونَ» قراءةُ المدنيين وأبي عَمرو، وقراءةُ أهلِ الكوفة: «حَاذِرُونَ»(٦) وهي معروفةٌ عن عبد الله بن مسعود وابن عباس، و«حَادِرُونَ» بالدَّالِ غيرِ المُعجَمةِ قراءةُ أبي عباد(٧)، وحكاها المهدَويُّ عن ابن أبي عمار، والماورديُّ والثعلبيُّ عن سُمَيْط بن عجلان(٨). قال النَّحَّاس: أبو عُبيدةَ يذهبُ إلى أنَّ معنى «حَذِرُونَ» و«حَاذِرُونَ» واحد. وهو قول سيبويه، وأجاز: هو حَذِرٌ زيداً، كما يُقال: حاذرٌ زيداً، وأنشد:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٠ .

(٢) ١٤/١٠٨-١١١ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٧ دون قوله: ومنه التغيظ والاغتياظ . قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٩٢ : من قال: أغاظني، فقد لحن .

(٤) وهو قول أبي عبيدة كما سيأتي .

(٥) في الصحاح (حذر).

(٦) السبعة ص٤٧١ ، والتيسير ص١٦٥ ، والنشر ٢/ ٣٣٥ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٨٠ ، لكن الذي في مطبوعه: عن ابن أبي عمار بدل أبي عباد .

(٨) هذه القراءة في المحتسب ٢/ ١٢٨ عن ابن أبي عمار، وفي الشاذة ص١٠٦ عن ابن أبي عمار ومحمد ابن السميفع، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢ عن ابن أبي عمار وسميط بن عجلان. وذكرها الأزهري في تهذيب اللغة ٤/ ٤٠٩ عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

حَذِرٌ أُموراً لا تَضِيرُ وآمِنٌ ما ليسَ مُنْجِيَهُ من الأقدارِ[١]

وزعم أبو عمر الجَرْميُّ أنه يجوز: هو حَذِرٌ زيداً على حَذْفِ مِنْ. فأمَّا أكثرُ النَّحْويِّينَ فيُفرِّقونَ بين حَذِرٍ وحاذِرٍ، منهم الكسائي والفرَّاء ومحمد بن يزيد، فيذهبون إلى أنَّ معنى حَذِرٍ: في خِلْقَتِه الحذرُ، أي: مُتيقِّظٌ مُتنبِّهٌ، فإذا كان هكذا لم يَتعدَّ، ومعنى حاذِرٍ مُستَعِدٌّ، وبهذا جاء التفسير عن المُتقدِّمين. قال عبد الله بن مسعود في قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾ قال: مُؤْدون في السلاحِ والكُراع مُقْوون، فهذا ذاك بعينِه. وقوله: مُؤْدون: معهم أداة. وقد قيل: إنَّ المعنى: معنا سلاحٌ وليس معهم سلاحٌ؛ يُحرِّضهم على القتال، فأمَّا «حادِرونَ» بالدَّال المهملة فمُشتَقٌّ من قولِهم: عينٌ حَدْرَةٌ أي: ممتلِئَةٌ، أي: نحن ممتلئون غيظاً عليهم[٢]، ومنه قول الشاعر:

وعَينٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ شُقَّتْ مآقيهما مِنْ أُخُرْ[٣]

وحكى أهل اللغة أنَّه يُقال: رجلٌ حادِرٌ إذا كان مُمتلئَ اللحم[٤]، فيجوز أن يكون المعنى: الامتلاءُ من السلاح. المَهْدَويُّ: الحادر: القويُّ الشديد.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني: من أرض مصر[٥]. وعن عبد الله ابن عَمرٍو قال: كانت الجنَّاتُ بحافتي النيل في الشِّقتين جميعاً من أسوانَ إلى رشيد، وبين الجنات زروعٌ. والنيل سبعةُ خِلجان: خليجُ الاسكندرية، وخليجُ سَخَا، وخليجُ دِمْياط، وخليجُ سَرْدُوس، وخليج مَنْف، وخليج الفيوم، وخليج المَنْهَى، متصلةٌ لا ينقطِعُ منها شيءٌ عن شيء، والزُّروعُ ما بين الخِلْجان كلِّها. وكانت أرضُ مصرَ كلُّها

---

(١) سلف ١٠/ ٢٨٨ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٨١ .

(٣) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٦ . قال شارحه: بدرة: تبدُر بالنظر. شُقَّت مآقيهما: تفتحت، فكأنها انشقت. من أُخُر: من مآخير العين.

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٤٠٧ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٤ .

تُروى من ستةَ عشرَ ذراعاً بما دبَّروا وقدَّروا من قناطِرها وجسورِها وخلجانها[١]؛ ولذلك سُمِّي النيلُ ـ إذا غلق ستةَ عشرَ ذراعاً ـ نيلَ السلطان، ويُخلَع على ابنِ أبي الردَّاد، وهذه الحال مستمِرَّةٌ إلى الآن. وإنما قيل: نيلُ السلطان؛ لأنَّه حينئذٍ يجب الخَراجُ على الناس. وكانت أرضُ مصرَ جميعُها تُروى من إصبعٍ واحدةٍ من سبعةَ عشرَ ذراعاً، وكانت إذا غلق النيلُ سبعةَ عشرَ ذراعاً ونُوديَ عليه إصبعٌ واحدٌ من ثمانيةَ عشرَ ذراعاً، ازدادَ في خَراجِها ألفُ ألفِ دينار. فإذا خرجَ عن ذلِكَ ونُوديَ عليه إصبعاً واحداً من تسعةَ عشرَ ذراعاً نقَصَ خَراجُها ألفُ ألفِ دينار. وسببُ هذا ما كان ينصرفُ في المصالح والخِلْجان والجسور والاهتمام بعمارتها. فأمَّا الآن فإنَّ أكثرَها لا يُروى حتى يُنادى إصبعٌ من تسعةَ عشرَ ذراعاً بمقياس مصر. وأمَّا أعمالُ الصعيد الأعلى، فإنَّ بها ما لا يتكاملُ رِيُّهُ إلَّا بعد دخول الماء في الذراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى[٢].

قلتُ: أمَّا أرضُ مصرَ فلا تُروى جيمعُها الآن إلَّا من عشرين ذراعاً وأصابع؛ لِعلُوِّ الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جُسورِها، وهو من عجائب الدنيا، وذلك أنَّه يزيد إذا انصبَّتِ المياهُ في جميع الأرض حتى يسيح على جميع أرض مصر، وتبقى البلادُ كالأعلامِ لا يُوصَلُ إليها إلا بالمراكبِ والقياسات.

ورويَ عن عبد الله بن عَمرو بن العاص أنَّه قال: نِيلُ مصرَ سيدُ الأنهار، سخَّر اللهُ له كلَّ نهرٍ بين المشرق والمغرب، وذلَّلَ اللهُ له الأنهار، فإذا أرادَ اللهُ أن يُجريَ نيلَ مصرَ أمرَ كلَّ نهرٍ أن يَمُدَّه، فأمدَّتْهُ الأنهارُ بمائها، وفجَّرَ الله له عيوناً، فإذا انتهى إلى ما أراد اللهُ عزَّ وجلَّ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كلِّ ماءٍ أن يرجع إلى عنصره.

وقال قيس بن الحجاج [عمَّن حدَّثه][٣]: لمَّا افتتحَتْ مصرُ أتى أهلُها إلى عَمرو

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨١.

(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٨١، وأخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٣.

(٣) ما بين حاصرتين من المصادر.

ابن العاص حين دخل بؤونةُ من أشْهُرِ العجم[١] فقالوا له: أيها الأميرُ، إنَّ لِنيلِنا هذا سُنَّةً لا يجري إلَّا بها. فقال لهم: وما ذاك؟ فقالوا: إذا كان لاثنتي عشرةَ ليلةً تخلو من هذا الشهر عَمَدْنا إلى جاريةٍ بِكْرٍ بين أبويها، فأرضَيْنا أبويها، وحَمَلْنا عليها من الحُليِّ والثيابِ أفضلَ ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عَمرو: هذا لا يكون في الإسلام؛ وإنَّ الإسلامَ يهدُمُ ما قبله. فأقاموا بؤونة وأبيب[٢] ومسرى لا يجري قليلٌ ولا كثير، وهمُّوا بالجَلاء، فلما رأى ذلك عَمرو بنُ العاص كتبَ إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فأعلَمه بالقِصَّة، فكتبَ إليه عُمر بن الخطاب: إنَّكَ قد أصبتَ بالذي فعلتَ، وإنَّ الإسلامَ يهدُمُ ما قبلَه، ولا يكونُ هذا. وبعثَ إليه ببطاقةٍ في داخلِ كتابه، وكتبَ إلى عَمرو: إني بعثتُ إليكَ ببطاقةٍ داخل كتابي، فألْقِها في النيل إذا أتاك كتابي. فلمَّا قَدِمَ كتابُ عُمر إلى عَمرو بن العاص أخذَ البطاقةَ ففتحَها فإذا فيها: من عبد الله أميرِ المؤمنين عمر إلى نيلِ مصر، أمَّا بعد: فإنْ كنتَ إنما تجري من قِبَلِكَ فلا تَجْرِ، وإنْ كان اللهُ الواحدُ القهَّارُ هو الذي يُجريكَ، فنسألُ اللهَ الواحدَ القهَّارَ أن يُجرِيَكَ. قال: فألقى البطاقة في النِّيل قبل الصليب بيوم واحد[٣]، وقد تهيَّأَ أهلُ مصر للجَلاء والخروجِ منها؛ لأنَّه لا تقومُ مصلحتُهم فيها إلَّا بالنِّيل. فلما ألقى البطاقةَ في النِّيل، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى في ليلةٍ واحدةٍ ستةَ عشر ذراعاً، وقطعَ اللهُ تلك السُّنَّةَ السُّوءَ[٤] عن أهل مصر من تِلكَ السَّنة[٥].

---

(١) في النسخ: القبط. والمثبت من المصادر.

(٢) في (د) و(م): فأقاموا أبيب.

(٣) كلمة «واحد» من (ظ).

(٤) المثبت من المصادر، وكلمة «السوء» ليست في النسخ، وفي (ظ): «السيرة» بدل: «السنة».

(٥) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٤، وأبو الشيخ في العظمة (٩٤١)، واللالكائي في كرامات الأولياء (٦٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٣٧/٤٤ من طريق ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، به. ابن لهيعة سيئ الحفظ. تهذيب التهذيب ٤١١/٢-٤١٣. وفي إسناده إبهام الراوي الذي روى عنه قيس بن الحجاج.

قال كعب الأحبار: أربعةُ أنهارٍ من الجنة وضعَها اللهُ تعالى في الدنيا: سَيْحان وجَيحانْ والنيل والفرات، فسَيْحانُ نهرُ الماءِ في الجنة، وجَيْحانُ نهرُ اللَّبنِ في الجنة، والنِّيلُ نهرُ العسلِ في الجنة، والفراتُ نهر الخمرِ في الجنة[(١)]. وقال ابن لَهيعَة: الدِّجلةُ نهرُ اللَّبنِ في الجنة.

قلت: الذي في الصحيح من هذا حديثُ أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحَانُ وجَيْحَانُ وَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ كُلٌّ من أنهار الجنة» لفظ مسلم[(٢)]. وفي حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعة رجلٍ من قومه قال: وحدَّث نبيُّ اللهِ ﷺ «أنَّه رأى أربعةَ أنهارٍ يخرجُ من أصلِها نهرانِ ظاهرانِ ونهرانِ باطنانِ، فقلتُ: يا جبريلُ ما هذه الأنهار؟ قال: أما النَّهرانِ الباطنانِ فنهرانِ في الجنة، وأمَّا الظَّاهرانِ فالنيلُ والفرات» لفظ مسلم[(٣)]. وقال البخاريُّ من طريق شَريك عن أنس: «فإذا هو في السماءِ الدُّنيا بنهرينِ يَطَّرِدان، فقال: ما هذانِ النَّهرانِ يا جبريل؟ قال: هذا النِّيلُ والفراتُ عنصرُهما، ثم مضى في السماء فإذا هو بنهرٍ آخرَ عليه قصرٌ من اللؤلؤِ والزَّبرجَدِ، فضرب بيده فإذا هو مِسْكٌ أذْفَرٌ، فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا هو الكوثر الذي خَبَأَ لكَ ربُّك». وذكر الحديث[(٤)]. والجمهورُ على أنَّ المُرادَ بالعيون عيونُ الماء. وقال سعيد بن جُبير: المرادُ عيون الذهب. وفي الدخان [٢٥-٢٦]: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ﴾. قيل: إنَّهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أوَّلِ مصرَ إلى آخرها[(٥)]. وليس في الدخان «وكنوز». «وكنوز» جمع كنز، وقد مضى هذا في سورة «براءة»[(٦)]. والمُرادُ بها هاهنا الخزائن. وقيل: الدفائن. وقال الضحَّاك:

---

(١) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٣ ، والحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (١٠٤٢).

(٢) في صحيحه (٢٨٣٩). وأخرجه أحمد (٩٦٧٤).

(٣) في صحيحه (١٦٤): (٢٦٥). وأخرجه أحمد (١٧٨٣٣).

(٤) صحيح البخاري (٧٥١٧). قوله: «يطَّرِدان» أي: يجريان. النهاية (طرد).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥١ .

(٦) ١٠/ ١٨١ .

الأنهار. وفيه نظر؛ لأنَّ العيونَ تشملها. ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد: المقام الكريم: المنابر. وكانت ألفَ مِنْبرٍ لألفِ جبَّارٍ يُعظِّمون عليها فرعونَ ومُلْكَه. وقيل: مجالس الرؤساء والأمراء. حكاه ابن عيسى، وهو قريبٌ من الأول. وقال سعيد بن جُبير: المساكن الحِسان[١]. وقال ابنُ لَهيعة: سمعتُ أنَّ المقام الكريم الفَيُّوم[٢]. وقيل: كان يوسفُ عليه السلام قد كتبَ على مجلسٍ من مجالسه: «لا إلهَ إلَّا اللهُ، إبراهيمُ خليلُ اللهِ» فسمَّاها اللهُ كريمةً بهذا. وقيل: مَرابِطُ الخيل، لتفرُّدِ الزُّعماء بارتباطها عُدَّةً وزينةً، فصار مقامُها أكرمَ منزلٍ بهذا. ذكره الماوردي[٣]. والأظهرُ أنَّها المساكنُ الحِسانُ كانت تُكرَمُ عليهم. والمَقامُ في اللغةِ يكون الموضعَ ويكون مصدراً. قال النَّحَّاس: المَقامُ في اللُّغةِ: الموضع؛ من قولك: قامَ يقومُ، وكذا المَقاماتُ واحِدُها مَقامة، كما قال:

وفيهم مَقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهُمْ وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ[٤]

والمقامُ أيضاً المصدَرُ من قامَ يقومُ. والمُقام بالضَّمِّ: الموضِعُ، مِنْ أقامَ. والمصدرُ أيضاً مِنْ أقامَ يُقيمُ[٥].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يريدُ أنَّ جميعَ ما ذكره اللهُ تعالى من الجنَّاتِ والعُيونِ والكنوزِ والمقامِ الكريمِ أورثَه اللهُ بني إسرائيل. قال الحسنُ وغيره: رجعَ بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاكِ فرعونَ وقومِه. وقيل: أرادَ بالوراثة هنا ما استعاروه من حُليِّ آلِ فرعونَ بأمر الله تعالى. قلتُ: وكلا الأمرين حصلَ لهم. والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٧٢ و٥/ ٢٥١، وفيه: الحسن بدل ابن عمر.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢.

(٣) في النكت والعيون ٤/ ١٧٢.

(٤) قائله زهير بن أبي سلمى، وسلف ٢/ ٣٧٤.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٢.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي: فتَبعَ فرعونُ وقومُه بني إسرائيل. قال السُّدِّيُّ: حين أشرقتِ الشَّمسُ بالشُّعاع. وقال قتادة: حين أشرقتِ الأرضُ بالضياء. قال الزَّجَّاج[1]: يقال: شَرَقَتِ الشمسُ إذا طلعَتْ، وأشرقَتْ إذا أضاءت.

واختُلِفَ في تأخُّرِ فرعونَ وقومِه عن موسى وبني إسرائيل على قولين: أحدهما ـ لاشتغالِهم بدَفْنِ أبكارِهم في تلك الليلة؛ لأنَّ الوباءَ في تلك الليلة وقعَ فيهم، فقوله: «مُشْرِقِينَ» حالٌ لقوم فرعون. الثاني ـ إنَّ سحابةً أظلَّتْهم وظُلْمة، فقالوا: نحنُ بَعْدُ في الليل، فما تقشَّعَتْ عنهم حتى أصبحوا. وقال أبو عبيدة: معنى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾: ناحية المشرق. وقرأ الحسن وعَمرو بن ميمون: «فَاتَّبَعُوهُمْ مُشَرِّقِينَ» بالتشديد وألف الوصل[2]؛ أي: نحو المشرق؛ مأخوذٌ من قولهم: شرَّقَ وغرَّبَ إذا سارَ نحوَ المشرقِ والمغربِ[3]. ومعنى الكلام: قدَّرْنا أن يرِثَها بنو إسرائيل فاتَّبعَ قومُ فرعونَ بني إسرائيل مُشَرِّقين فهلكوا، وورثَ بنو إسرائيلَ بلادَهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابلا[4]، بحيث يرى كلُّ فريقٍ صاحِبَه، وهو تفاعلٌ من الرؤية.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: قَرُبَ مِنَّا العدوُّ ولا طاقةَ لنا به[5]. وقراءةُ الجماعة: «لَمُدْرَكُونَ» بالتخفيف من أدرك. ومنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠]. وقرأ عُبيد بن عمير والأعرج والزُّهري: «لَمُدَّرَكُونَ» بتشديد الدال من ادَّرك[6]. قال الفرَّاء[7]: حفَرَ واحتفَرَ بمعنًى واحد، وكذلك «لَمُدْرَكُونَ» و«لَمُدَّرَكُونَ»

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٩٢.

(٢) الشاذة ص١٠٧ عن الحسن والذماري، وزاد المسير ٦/ ١٢٦ عن الحسن وأيوب السختياني.

(٣) من قوله: قال السدي... إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ١٧٣.

(٤) بعدها في النسخ: الجمعان.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٧.

(٦) المحتسب ٢/ ١٢٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣ عن عبيد بن عمير والأعرج، وهي قراءة شاذة.

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٠.

بمعنًى واحد. النَّحَّاس[١]: وليس كذلك يقولُ النَّحْويُّون الحُذَّاق، إنما يقولون: مُدْرَكون: مُلْحَقون، ومُدَّرَكون: مُجتَهَدٌ في لَحاقهم، كما يُقال: كسبتُ بمعنى أصبْتُ وظَفِرْتُ، واكتسبْتُ بمعنى اجتهدْتُ وطلبْتُ، وهذا معنى قول سيبويه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ لمَّا لحِقَ فرعونُ بجمعه جَمْعَ موسى وقَرُبَ منهم، ورأتْ بنو إسرائيلَ العدوَّ القويَّ والبحرَ أمامَهم ساءت ظُنونُهم، وقالوا لموسى على جهةِ التَّوبيخِ والجَفاء: «إِنَّا لَمُدْرَكُونَ»، فردَّ عليهم قولَهم وزَجَرهم وذكَّرهم وعْدَ اللهِ سبحانه له بالهداية والظَّفر[٢]. ﴿كَلَّآ﴾ أي: لم يُدْرِكوكم[٣] ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ أي: بالنصر على العدوِّ[٤]. ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ أي: سيدُلُّني على طريق النجاة[٥]، فلمَّا عَظُمَ البلاءُ على بني إسرائيل، ورأَوا من الجيوشِ ما لا طاقةَ لهم بها، أمرَ اللهُ تعالى موسى أنْ يضرِبَ البحرَ بعصاه، وذلك أنَّه عزَّ وجلَّ أرادَ أن تكون الآيةُ متصلةً بموسى ومُتعلِّقةً بفعلِ يفعله، وإلَّا فضَرْبُ العصا ليس بفارقٍ للبحر، ولا معينَ على ذلك بذاتِه إلَّا بما اقترنَ به من قدرةِ الله تعالى واختراعه[٦]. وقد مضى في «البقرة»[٧] قصةُ هذا البحر. ولمَّا انفلقَ صار فيه اثنا عشرَ طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقفَ الماءُ بينها كالطَّودِ العظيم، أي: الجبل العظيم[٨]. والطَّوْدُ: الجبل، ومنه قول امرئ القيس[٩]:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٨ ، وزاد المسير ٦/ ١٢٦ .

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٥٥ .

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٨ ، وزاد المسير ٦/ ١٢٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣ .

(٧) ٢/ ٨٩ - ٩٠ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣ .

(٩) في ديوانه ص٣١٠ .

فبينا المرءُ في الأحياءِ طَوْدٌ رَماهُ الناسُ عن كَثَبٍ فمالا[(١)]

وقال الأسود بن يَعْفُر:

حَلُّوا بأنقرةٍ يَسيلُ عليهمُ ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أطْوَادِ

جمع طود أي: جبل[(٢)]. فصارَ لموسى وأصحابِه طريقاً في البحر يَبَساً، فلمَّا خرجَ أصحابُ موسى وتكامل آخِرُ أصحاب فرعون على ما تقدَّم في «يونس»[(٣)] انصَبَّ عليهم وغَرِقَ فرعونُ، فقال بعضُ أصحاب موسى: ما غَرِقَ فرعونُ؛ فنبذَ على ساحلِ البحرِ حتى نظروا إليه.

وروى ابن القاسم عن مالك قال: خرجَ مع موسى عليه السلام رَجُلانِ من التُّجارِ إلى البحر، فلمَّا أتَوا إليه قالا له: بِمَ أمرَكَ الله؟ قال: أُمِرتُ أن أضرِبَ البحرَ بعصايَ هذه فيَجِفَّ[(٤)]. فقالا له: افعَلْ ما أمرك الله فلن يُخلِفَكَ. ثم ألْقَيا أنفُسَهما في البحر تصديقاً له، فما زالَ كذلك البحرُ حتى دخلَ فرعونُ ومَنْ معه، ثم ارتدَّ كما كان[(٥)]. وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة»[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: قرَّبناهم إلى البحر؛ يعني فرعونَ وقومه. قاله ابن عباس وغيره؛ قال الشاعر:

وكلُّ يومٍ مَضى أو ليلةٍ سلَفَتْ فيها النفوسُ إلى الآجالِ تَزْدَلِفُ[(٧)]

أبو عبيدة[(٨)]: «أَزْلَفْنَا»: جمعنا، ومنه قيل لليلة المزدلفة: ليلة جَمْع.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٧٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٥٨٥ ، والبيت ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٨٦ من غير نسبة.

(٣) ١١/ ٤٥ .

(٤) المثبت من (ظ) وأحكام القرآن لابن العربي، وفي (د) و(ز): فينغرق، وفي (م): فينغلق .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٣ .

(٦) ٢/ ٩٣ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ١٧٥ .

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ٨٧ .

وقرأ عبد الله بن الحارثِ وأُبيٌّ بن كعب وابن عباس: «وَأَزْلَقْنَا» بالقاف[(١)] على معنى أهلكناهم، من قوله: أزلقَتِ الناقةُ وأزلقَتِ الفرسُ فهي مُزْلِقٌ إذا أزلقَتْ ولدَها[(٢)].

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ يعني فرعون وقومه[(٣)].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: علامةً على قدرة الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأنَّه لم يؤمن من قوم فرعونَ إلَّا مؤمن آل فرعون واسمه حِزْقيل[(٤)]، وابنتُه آسية امرأة فرعون، ومريم بنت ذا موسى[(٥)] العجوز التي دلَّت على قبر يوسف الصِّدِّيق عليه السلام[(٦)]. وذلك أنَّ موسى عليه السلام لمَّا خرجَ ببني إسرائيل من مصر أظلمَ عليهم القمرُ فقالَ لقومه: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسفَ عليه السلام لمَّا حضره الموتُ أخذَ علينا موثقاً من الله ألَّا نَخرُجَ من مصر حتى نَنقُلَ عظامَه معنا. قال موسى: فأيُّكم يدري أين[(٧)] قبرُه؟ قال: ما يعلَمُه إلَّا عجوزٌ لبني إسرائيل. فأرسلَ إليها، فقال: دُلِّيني على قبر يوسف. قالت: لا واللهِ لا أفعَلُ حتى تُعطيني حُكمي. قال: وما حُكمها؟ قالت: حُكمي أنْ أكونَ معكَ في الجنة. فثَقُلَ عليه، فقيل له: أعطِها حُكمَها. فدلَّتهُمْ عليه، فاحتفَروه واستخرَجوا عظامَه، فلمَّا أقلُّوها، فإذا الطريقُ مثلُ ضوءِ النهار[(٨)]. في روايةٍ: فأوحى الله إليه أنْ أعطِها، ففعل، فأتَتْ بهم إلى بُحيرة، فقالت لهم: أنْضِبوا

---

(١) في المحتسب ٢/ ١٢٩ عن عبد الله بن الحارث، والشاذة ص١٠٧ عن أُبي وابن عباس رضي الله عنهما. وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٢٧ عن ابن مسعود وأبي رجاء والضحاك وابن يعمر.

(٢) تهذيب اللغة ٨/ ٤٣١ بنحوه.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٥.

(٤) في الوسيط: خربيل.

(٥) في الوسيط: موشا، وفي تفسير البغوي: مأمويا.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٥٥، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٨.

(٧) كلمة «أين» من (ظ).

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٧٤.

هذا الماء. فأنْضَبوه، واستخرجوا عظامَ يوسف عليه السلام، فتبيَّنت لهم الطريقُ مثلَ ضوءِ النهار[١]. وقد مضى في «يوسف»[٢].

وروى أبو بُردةَ عن أبي موسى، أنَّ رسول الله ﷺ نزلَ بأعرابيٍّ فأكرمَه، فقال رسول الله ﷺ: «حاجَتُكَ؟» قال: ناقةٌ أرحَلُها، وأعنزاً أحْلُبُها. فقال رسول الله ﷺ: «فَلِمَ عَجَزْتَ أن تكونَ مثلَ عجوزِ بني إسرائيل؟» فقال أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل؟ فذكر لهم حالَ هذه العجوز التي احتكمَتْ على موسى أن تكون معه في الجنة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ نبَّه المشركين على فَرْطِ جهلِهم إذْ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينِه وهو أبوهم. والنبأُ الخبر[٤]؛ أي: اقصُصْ عليهم يا محمدُ خبرَه وحديثَه وعَيْبَه على قومه ما يعبدون[٥]. وإنما قال ذلك مُلزِماً لهم الحُجَّة. والجمهورُ من القُرَّاء على تخفيف الهمزة الثانية، وهو أحسن الوجوه؛ لأنَّهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمةٍ واحدةٍ نحو آدم. وإن شئتَ حقَّقتَهما فقلتَ: «نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ». وإن شئتَ خفَّفتَهما فقلتَ: «نبا ابراهيم». وإن شئتَ خفَّفتَ الأولى. وثَمّ

(١) أخرجها أبو يعلى (٧٢٥٤)، وابن حبان (٧٢٣)، والحاكم ٢/ ٥٧١-٥٧٢ من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف.

(٢) ١١/ ٤٦٢.

(٣) هو تتمة حديث أبي موسى السالف.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٥.

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٥٨٩ بنحوه.

خامسٌ إلا أنَّه بعيدٌ في العربية، وهو أن تُدْغَمَ الهمزةُ في الهمزة كما يُقال: رأَّاس للذي يبيع الرؤوس، وإنما بَعُدَ لأنك تجمَعُ بين همزتين كأنَّهما في كلمةٍ واحدة، وحَسُنَ في فَعَّال؛ لأنه لا يأتي إلا مُدغماً[١].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: أيُّ شيءٍ تعبدون؟ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وكانت أصنامُهم من ذهبٍ وفضةٍ ونحاسٍ وحديدٍ وخشب. ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾أي: فنقيمُ على عبادتها. وليس المرادُ وقتاً معيَّناً، بل هو إخبارٌ عمَّا هم فيه. وقيل: كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، وكانوا في الليل يعبدون الكواكب. فيُقال: ظلَّ يفعل كذا، إذا فعلَه نهاراً، وبات يفعل كذا، إذا فعله ليلاً[٢].

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ قال الأخفش: فيه حذف، والمعنى: هل يسمعون منكم؟ أو: هل يسمعون دعاءكم؟ قال الشاعر:

القائدُ الخيلَ مَنْكُوباً دوابِرُها ... قد أُحْكِمتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقا[٣]

قال: والأَبَق الكَتَّان فحذف. والمعنى: وأُحكِمتْ حكماتِ الأَبَق[٤]. وفي الصحاح: والأَبَق بالتحريك: القِنَّب[٥]. ورُوي عن قتادة أنه قرأ: «هَلْ يُسْمِعُونَكُمْ» بضمِّ الياء، أي: هل يسمعونكم أصواتهم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾[٦]؟ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي: هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم، أو تملك لكم خيراً أو ضرًّا إن

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٢ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٨ ببعضه.

(٣) قائله زهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٤٩ . قال شارح الديوان: أي: قادها في الغزو فأبعد بها حتى نكبت دوابرها، والدوابر: مآخير الحوافر، أي: أكلت الأرضُ دوابرها. قد أُحكمت: أي: قد جُعل لها القِدُّ حَكَمات، والحَكَمة: التي تكون على الأنف.

(٤) نقله النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٨٢-١٨٣ عن الأخفش. وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٤٦ .

(٥) الصحاح (أبق).

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٨٣ ، وقراءة قتادة هذه في المحتسب ٢/ ١٢٩ ، والشاذة ص١٠٧ ، وفيه عن ابن يعمر أيضاً.

عصيتُم[١]؟! وهذا استفهامٌ لتقرير الحُجَّة، فإذا لم ينفعوكم ولم يضرُّوا فما معنى عبادتكم لها؟!

﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فزعوا[٢] إلى التقليد من غير حُجَّةٍ ولا دليل. وقد مضى هذا القولُ فيه[٣].

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾من هذه الأصنام[٤] ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ الأوَّلون[٥] ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ واحدٌ يؤدِّي عن جماعة، وكذلك يُقال للمرأة: هي عدوُّ الله وعدوَّةُ الله. حكاهما الفرَّاء. قال علي بن سليمان: من قال: عدوَّة الله وأثبتَ الهاء قال: هي بمعنى معادية، ومن قال: عدو للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب[٦]. ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدوٌّ لي إن عبَدْتُهم يوم القيامة، كما قال: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]. وقال الفرَّاء: هو من المقلوب، مجازُه: فإنِّي عدوٌّ لهم؛ لأنَّ مَنْ عاديتَه عاداك[٧].

ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الكلبيُّ: أي: إلَّا مَنْ عَبَدَ ربَّ العالمين، أي: إلا عابِدَ ربِّ العالمين، فحذف المضاف. قال أبو إسحاق الزَّجَّاج: قال النَّحويُّون: هو استثناءٌ ليس من الأوَّل، وأجاز أبو إسحاق أن يكون من الأوَّل على أنهم كانوا يعبدون اللهَ عزَّ وجلَّ، ويعبدون معه الأصنام، فأعلَمَهم أنه تبرَّأ مما يعبدون إلا الله. وتأوَّله الفرَّاء على الأصنام وحدَها، والمعنى عنده: فإنهم لو عبدتُهم عدوٌّ لي يوم

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٩٠ بنحوه.

(٢) في (م): فنزعوا.

(٣) ١٤/ ٢١٦.

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٥٩.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٩.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٨٣.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٩.

القيامة، على ما ذكرنا[١]. وقال الجُرْجاني: تقديرُه: أفرأيتُم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، إلَّا ربَّ العالمين، فإنهم عدوٌّ لي. وإلا بمعنى دون وسوى، كقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] أي: دون الموتة الأولى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: يرشدني إلى الدين[٢]. ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ أي: يرزقني[٣]. ودخول «هو» تنبيهٌ على أنَّ غيرَه لا يُطعِمُ ولا يسقي، كما تقول: زيدٌ هو الذي فعل كذا، أي: لم يفعَلْه غيرُه.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قال: «مَرِضْتُ» رعايةً للأدب، وإلا فالمرضُ والشِّفاءُ من الله عزَّ وجلَّ جميعاً. ونظير هذا[٤] قولُ فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[٥] [الكهف:٦٣]. ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ يريد البعثَ، وكانوا ينسِبون الموتَ إلى الأسباب، فبيَّن أنَّ الله هو الذي يميت ويُحيي.

وكلُّه بغير ياء: «يهدين» «يشفين»؛ لأنَّ الحذفَ في رؤوس الآيِ حسنٌ؛ لتتَّفِقَ كلُّها. وقرأ ابن أبي إسحاق على جلالته ومحلِّه من العربية هذه كلَّها بالياء؛ لأنَّ الياءَ

---

(١) من قوله قال أبو إسحاق... إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ١٨٣ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٩٣ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨١ .

(٢) الوسيط ٣/ ٣٥٥ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٥ .

(٤) في (م): ونظيره .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٩ ، وذكر الآية (٧٩) من الكهف ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، والآية (٨٢) ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ بدلاً من تلك الآية.

اسمٌ، وإنما دخلتِ النونُ لِعلّة[١]. فإن قيل: فهذه صفةٌ لجميع الخلق، فكيف جعلَها إبراهيمُ دليلاً على هدايته ولم يهتدِ بها غيره؟ قيل: إنما ذكرها احتجاجاً على وجوب الطاعة؛ لأنَّ من أنعَمَ وجبَ أن يُطاعَ ولا يُعصى ليلتزمَ غيرُه من الطاعة ما قد التزمَها، وهذا إلزامٌ صحيح. قلت: وتجوَّز بعضُ أهل الإشارات في غوامض المعاني، فعدلَ عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بداهة[٢] العقول من أنه ليس المرادُ من إبراهيم. فقال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ﴾ أي: يُطعمني لذَّةَ الإيمان ويسقيني حلاوةَ القبول. ولهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ وجهان: أحدهما ـ إذا مرضتُ بمخالفتِه شَفاني برحمته. الثاني ـ إذا مرضتُ بمقاساة الخلق، شفاني بمشاهدة الحقِّ[٣]. وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا مرضتُ بالذنوب شفاني بالتوبة[٤]. وتأوَّلوا قوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ على ثلاثة أوجه: فالذي يُميتني بالمعاصي يُحييني بالطاعات. الثاني: يُميتني بالخوف يُحييني بالرجاء. الثالث: يُميتني بالطمع ويُحييني بالقناعة[٥]. وقول رابع: يُميتني بالعدل ويُحييني بالفضل. وقول خامس: يُميتني بالفراق ويُحييني بالتَّلاق. وقول سادس: يُميتني بالجهل ويُحييني بالعقل، إلى غير ذلك مما ليس بشيءٍ منه مرادٌ من الآية؛ فإن هذه التأويلات الغامضة، والأمور الباطنة، إنما تكون لمن حذَقَ وعرفَ الحقَّ، وأما من كان في عمًى عن الحقِّ ولا يعرف الحقَّ، فكيف تُرمَزُ له الأمورُ الباطنة، وتُترَكُ الأمورُ الظاهرة؟ هذا محالٌ، والله أعلم.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٤ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): بداية. وفي (م): بدائه. والمثبت من النكت والعيون.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٧٥-١٧٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٥ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٧٦ .

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ «أَطْمَعُ» أي: أرجو[١]. وقيل: هو بمعنى اليقين في حقِّه، وبمعنى الرجاء في حقِّ المؤمنين سواه. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق: «خَطَايَايَ» وقال: ليست خطيئةً واحدة. قال النَّحَّاس: خطيئةٌ بمعنى خطايا معروفٌ في كلام العرب، وقد أجمعوا على التوحيد في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك: ١١] ومعناه: بذنوبهم. وكذا: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] معناه الصلوات، وكذا «خَطيئَتي» إن كانت خطايا. والله أعلم[٢]. قال مجاهد: يعني بخطيئتِه قولَه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقولَه: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وقولَه: إنَّ سارةَ أختُه[٣]. زاد الحسن: وقوله للكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾[٤] وقد مضى بيان هذا مستوفًى[٥]. وقال الزَّجَّاج: الأنبياء بشرٌ، فيجوز أن تقعَ منهم الخطيئة، نعم لا تجوز عليهم الكبائر؛ لأنَّهم معصومون عنها[٦].

﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء حيث يُجازى العبادُ بأعمالهم. وهذا من إبراهيم إظهارٌ للعبودية، وإن كان يعلم أنه مغفورٌ له. وفي «صحيح مسلم» عن عائشة، قلتُ: يا رسول الله، ابنُ جَدْعانَ كان في الجاهلية يصِلُ الرَّحم، ويُطعِمُ المسكين، فهل ذلك نافِعُه؟ قال: «لا ينفَعُه، إنه لم يقُلْ يوماً: رَبِّ اغْفِرْ لي خطِيئتي يومَ الدِّين»[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٨٤، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٧-٨٨. وأخرجه الطبري ١٧/ ٥٩٢-٥٩٣، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٤٦٢ - ٤٦٣. وقد سلف مرفوعاً ١٤/ ٢٢٢ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠.

(٥) ٨/ ٤٣٨.

(٦) معاني القرآن ٢/ ٩٤. قال الرازي في تفسيره ٢٤/ ١٤٦: الجواب الصحيح أن يُحمل ذلك على ترك الأولى، وقد يُسمَّى ذلك خطأً، فإن من ملك جوهرةً وأمكنه أن يبيعها بألف ألف دينار فإن باعها بدينار قيل: إنه أخطأ. وتركُ الأولى على الأنبياء جائز.

(٧) صحيح مسلم (٢١٤). وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢٤٦٢١)، وأخرجه أحمد (٢٤٨٩٢) بنحوه.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ «حُكماً» معرفةً بِكَ وبحدودِكَ وأحكامِكَ. قاله ابن عباس. وقال مقاتل: فهماً وعلماً؛ وهو راجعٌ إلى الأول. وقال الكلبي: نبوَّةً ورسالةً إلى الخلق. ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: بالنبيين من قبلي في الدرجة[1]. وقال ابن عباس: بأهل الجنة، وهو تأكيدُ قولِه: ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه. وقال مجاهد: هو الثناء الحسن[2]. قال ابن عطية: هو الثناءُ وخُلْدُ المكانةِ بإجماع المفسرين، وكذلك أجابَ اللهُ دعوتَه، وكلُّ أمةٍ تتمسَّكُ به وتُعظِّمه، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمدٌ ﷺ. قال مكي: وقيل: معناه: سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقول الحق، فأُجيبتِ الدعوةُ في محمدٍ ﷺ. قال ابن عطية: وهذا معنًى حسنٌ، إلَّا أنَّ لفظ الآية لا يُعطيه إلا بتحكُّمٍ على اللفظ[3]. وقال القُشيري: أرادَ الدعاءَ الحسنَ إلى قيام الساعة، فإنَّ زيادةَ الثوابِ مطلوبةٌ في حقِّ كلِّ أحد.

قلتُ: وقد فعلَ اللهُ ذلك؛ إذ ليس أحدٌ يُصلِّي على النبيِّ ﷺ إلا وهو يُصلِّي على إبراهيم، وخاصَّةً في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات، والصلاة دعاءٌ بالرحمة. والمراد باللسان القول، وأصلُه جارحةُ الكلام.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠ بنحوه، وذكر الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥٦ قول ابن عباس ومقاتل، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٣٠ قول مقاتل.

(٢) قول مجاهد في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٥.

قال القُتبيُّ: وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة، وقد تُكنِّي العربُ بها عن الكلمة؛ قال الأعشى(١):

إنِّـي أتَـتْـنـي لـسـانٌ لا أُسَـرُّ بِـهـا ... مِن عَلْوُ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ(٢)

قال الجوهري: يُروى مِن علوُ، بضمِّ الواو وفتحها وكسرها، أي: أتاني خبر من أعلى ـ والتأنيث للكلمة. وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر(٣). وروى أشهب عن مالكٍ قال: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ لا بأس أن يُحِبَّ الرجلُ أن يُثنى عليه صالحاً ويُرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجهَ الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾(٤) [طه: ٣٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي: حبًّا في قلوب عباده وثناءً حسناً، فنبَّه تعالى بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ على استحباب اكتساب ما يُورِثُ الذِّكرَ الجميل(٥). الليث بن سليمان: إذ هي الحياة الثانية. قيل:

قد ماتَ قومٌ وهُمْ في النَّاسِ أحْياءُ(٦)

قال ابن العربي(٧): قال المحقِّقون من شيوخ الزهد: في هذا دليلٌ على الترغيب في العمل الصالح الذي يُكسب الثناء الحسن؛ قال النبيُّ ﷺ: «إذا مات ابنُ آدم انقطعَ عملُه إلا من ثلاث» الحديث(٨). وفي روايةٍ: إنه كذلك في الغرس والزرع، وكذلك

---

(١) وهو أعشى باهلة كما في إصلاح المنطق ص٣٠، والكامل ٣/ ١٤٣١.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص١١١.

(٣) الصحاح (سخر) من قوله: والتأنيث للكلمة... إلى هذا الموضع.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٤.

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٣٣٣.

(٦) هذا عجز بيتٍ صدره: «موت التقيِّ حياةٌ لا انقطاع لها»، وقائله سابق بن عبد الله البربري، وهو في زهر الأكم في الأمثال والحكم ١/ ١٧٤-١٧٥.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٤.

(٨) كلمة الحديث من (م)، والحديث سلف ١/ ٨.

فيمن ماتَ مرابطاً يُكتَبُ له عملُه إلى يوم القيامة. وقد بيَّنَّاه في آخر «آل عمران»[١] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ دعاءٌ بالجنة وبمن يرثها، وهو يردُّ قولَ بعضهم: لا أسألُ جنةً ولا ناراً.

قوله تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ كان أبوه وعدَه في الظاهر أن يؤمن به، فاستغفرَ له لهذا، فلمَّا بانَ أنه لا يفي بما قال تبرَّأ منه. وقد تقدَّم هذا المعنى[٢]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: المشركين[٣]. و«كان» زائدة.

﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: لا تفضحني على رؤوس الأشهاد، ولا تعذبني يوم القيامة[٤]. وفي البخاري عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ إبراهيمَ يرى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرةُ والقَتَرةُ» والغبرة هي القتَرة. وعنه عن النبيِّ ﷺ قال: «يَلقى إبراهيمُ أباه فيقول: يا ربِّ، إنَّكَ وعدتَني ألَّا تُخزِني يومَ يُبعثون، فيقول الله تعالى: إنِّي حرَّمتُ الجنةَ على الكافرين» انفرد بهما البخاري رحمه الله[٥].

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ «يَوْمَ» بدلٌ من «يومَ» الأوَّل. أي: يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ أحداً[٦]. والمراد بقوله: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ الأعوانَ؛ لأنَّ الابنَ إذا لم ينفَعْ فغيرهُ متى ينفع؟! وقيل: ذكَرَ البنينَ؛ لأنَّه جرى ذِكْرُ والدِ إبراهيم، أي: لم ينفعه إبراهيم.

﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ هو استثناءٌ من الكافرين، أي: لا ينفعه مالُه ولا بنوه.

---

(١) ٥/٤٨٩ .

(٢) ١٠/٤٠٠-٤٠١ .

(٣) الوسيط ٣/٤٥٦ .

(٤) سلف هذا المعنى ٥/٤٧٧ .

(٥) في صحيحه (٤٧٦٨-٤٧٦٩) .

(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن للعكبري على هامش الفتوحات الإلهية ٤/١١٦ .

وقيل: هو استثناءٌ من غير الجنس، أي: لكن «مَنْ أَتَى اللهَ بقلبٍ سليمٍ» ينفعه لسلامة قلبه(١). وخصَّ القلبَ بالذكر؛ لأنه الذي إذا سَلِمَ سلِمَتِ الجوارح، وإذا فسدَ فسدَتْ سائرُ الجوارح. وقد تقدَّم في أوَّل «البقرة»(٢). واختُلِفَ في القلب السليم فقيل: من الشكِّ والشرك، فأما الذنوبُ فليس يسلَمُ منها أحد. قاله قتادة وابن زيد وأكثرُ المفسرين. وقال سعيد بن المسيِّب: القلبُ السليم: الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأنَّ قلبَ الكافرِ والمنافقِ مريضٌ؛ قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:٧]. وقال أبو عثمان النَّيسابوري(٣): هو القلبُ الخالي عن البدعة، المطمئن إلى السُّنَّة. وقال الحسين(٤): سليمٌ من آفة المال والبنين(٥). وقال الجُنيد: السليم في اللغة: اللديغ؛ فمعناه: أنه قلبٌ كاللديغ من خوف الله(٦). وقال الضَّحَّاك: السليم: الخالص(٧).

قلت: وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن، أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة، والله أعلم. وقد رُويَ عن عروة أنه قال: يا بَنِيَّ لا تكونوا لعَّانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئاً قط؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٨). وقال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور(٩). وفي «صحيح مسلم» من حديث

---

(١) الكشاف ٣/ ١١٨ .

(٢) ١/ ٢٨٦-٢٨٧ .

(٣) في (د) و(ز): الساري، وفي (ظ) و(م): السيَّاري، والصواب: أبو عثمان النيسابوري: واسمه سعيد بن أبي سعيد، المعروف بالعيَّار، وهو عالم زاهد، توفي سنة ٤٥٧هـ. السير ١٨/ ٨٦-٨٩ .

(٤) وهو ابن الفضل، وقد سلف مراراً. ووقع في (م): الحسن .

(٥) من قوله: واختلف في القلب السليم... إلى هذا الموضع في تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠ . وذكر الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥٦ قول ابن المسيب.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٥-٢٣٦ ، وزاد المسير ٦/ ١٣١ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ١٧٧ .

(٨) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٦٥ .

(٩) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٩٠ .

أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «يدخلُ الجنةَ أقوامٌ أفئدتُهم مثلُ أفئدةِ الطير»[١] يريد ـ والله أعلم ـ أنها مثلُها في أنَّها خاليةٌ من كلِّ ذنب، سليمةٌ من كلِّ عيب، لا خبرةَ لهم بأمور الدنيا، كما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ قال: «أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلْهُ» وهو حديث صحيح[٢]. أي: البُلْه عن معاصي الله. قال الأزهري[٣]: الأبلَهُ هنا: هو الذي طُبعَ على الخير، وهو غافلٌ عن الشَّرِّ لا يعرفه. وقال القُتبيُّ[٤]: البُلْهُ: هم الذين غلبَتْ عليهم سلامةُ الصُّدورِ وحسنُ الظَّنِّ بالناس.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قُرِّبت وأُدنِيتْ ليدخلوها[٥]. وقال

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٤٠). وأخرجه أحمد (٨٣٨٢).

(٢) بل هو ضعيف، فقد أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٩٨٣)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٩٨٢)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١٦٠، والقضاعي في مسند الشهاب (٩٩٠)، والبيهقي في الشعب (١٣٦٧) من طريق سلامة بن روح، عن عقيل، عن الزهري، عن أنس مرفوعاً. سلامة بن روح قال فيه أبو زرعة: منكر الحديث. وقال أبو حاتم: ليس بالقوي محله عندي محل الغفلة، وقد عدَّ هذا من منكراته، ثم هو لم يسمع من جد أبيه عقيل بن خالد، إنما أخذ من كتبه.
وأخرجه القضاعي (٩٨٩) من طريق عبد السلام بن محمد الأموي، عن سعيد بن كثير بن عفير، عن يحيى بن أيوب، عن عقيل، به. عبد السلام بن محمد قال فيه الدارقطني: ضعيف جداً. وقال الخطيب: صاحب مناكير.

(٣) في تهذيب اللغة ٦/ ٣١٢.

(٤) في غريب الحديث ١/ ١٠٩.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٨٧.

الزَّجّاج: قرب دخولهم إياها ونظرهم إليها.﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أي: أُظْهِرت[(١)] ﴿الْجَحِيمُ﴾ يعني جهنم. ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ أي: للكافرين الذين ضلُّوا عن الهدى. أي: تظهر جهنَّم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الرَّوعَ والحُزن، كما يستشعر أهلُ الجنة الفرحَ؛ لعِلْمِهم أنَّهم يدخلون الجنة.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد[(٢)] ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ من عذاب الله ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم[(٣)]. وهذا كلُّه توبيخ[(٤)].﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي: قُلبوا على رؤوسهم. وقيل: دُهْوِروا وأُلقيَ بعضُهم على بعض. وقيل: جُمعوا. مأخوذٌ من الكَبْكَبَة وهي الجماعة. قاله الهرويّ. وقال النحَّاس: هو مُشتقٌّ من كَوْكَبِ الشيءِ أي: مُعظمه. والجماعة من الخيل كَوْكَبٌ وكَبْكَبة[(٥)]. وقال ابن عباس: جُمِعوا فطُرِحوا في النار. وقال مجاهد: دُهْوِروا. وقال مقاتل: قُذِفوا[(٦)]. والمعنى واحد. تقول: دهورتَ الشيءَ إذا جمعته ثم قذفتَه في مَهْوَاةٍ. يُقال: هو يُدَهْوِرُ اللُّقَمَ إذا كبَّرها[(٧)]. ويقال في الدعاء: كَبَّ اللهُ عدوَّ المسلمين، ولا يُقال: أكَبَّه. وكَبْكَبَه. أي: كبَّه وقلَبَه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾[(٨)] والأصل: كُبِّبوا، فأُبدِلَ من الباء الوسطى كافٌ استثقالاً لاجتماع الباءات[(٩)]. قال السُّدِّي: الضمير في «كُبْكِبُوا» لمشركي العرب ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ الآلهة ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من كان من ذُرِّيته[(١٠)]. وقيل: كلُّ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٤ ، وعبارة: «ونظرهم إليها» منه، وفي نسخة (ظ): «ونظرهم إياها».

(٢) مجمع البيان ١٩/ ١٦١ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١ .

(٤) زاد المسير ٦/ ١٣١ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٩ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١ ، وقول ابن عباس ومجاهد أخرجهما الطبري ١٧/ ٥٩٧-٥٩٨ .

(٧) المحكم لابن سيده (دهر).

(٨) الصحاح (كبب) و(كبكب) و(قلب).

(٩) غريب القرآن لابن قتيبة ص٣١٨ .

(١٠) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٩ .

مَنْ دعاه إلى عبادة الأصنام فاتَّبعه[١]. وقال قَتادة والكلبي ومقاتل: «الْغَاوُونَ»: هم الشياطين[٢]. وقيل: إنَّما تُلقى الأصنامُ في النار وهي حديدٌ ونحاسٌ لِيُعذَّبَ بها غيرُهم.

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذٍ. ﴿تَٱللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خسارٍ وتَبارٍ وحَيْرةٍ عن الحقِّ بيِّنةٍ إذِ[٣] اتَّخذنا مع الله آلهةً فعبدناها كما يُعبَدُ، وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: في العبادة، وأنتم لا تستطيعون الآنَ نصْرَنا ولا نَصْرَ أنفسكم.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يعني الشياطين الذين زينوا لنا عبادةَ الأصنام. وقيل: أسلافنا الذين قلَّدناهم. قال أبو العالية وعكرمة: «المُجْرِمُونَ» إبليس وابن آدم القاتل هما أوّل من سنَّ الكفر والقتل وأنواع المعاصي. ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ﴾ أي: شفعاءَ يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين[٤]. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي: صديقٍ مُشفق[٥]. وكان عليٌّ ﷺ يقول: عليكم بالإخوان، فإنَّهم عُدَّةُ الدنيا وعُدَّةُ الآخرة، ألا تسمَعُ إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾. الزَّمخشري: وجَمَعَ الشافعَ؛ لكثرةِ الشافعين، ووحَّدَ الصديق؛ لقِلَّته، ألا ترى أنَّ الرجلَ إذا امتُحِنَ بإرهاق ظالمٍ مضَتْ جماعةٌ وافرةٌ من أهل بلده لشفاعته؛ رحمةً له وحسبةً، وإن لم تسبِقْ له بأكثرهم معرفة، وأما الصَّديق فهو الصادق في وِدادِكَ، الذي يُهِمُّه ما يُهِمُّك فأعَزُّ من بيض الأَنُوق[٦]؛ وعن بعض الحكماء أنه سُئِلَ عن الصَّديق فقال: اسمٌ لا

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨٤، وتفسير الطبري ١٧/ ٥٩٨ بنحوه.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١. وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٩١، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٧٨ عن قتادة. وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٥٩٨.

(٣) في (د) و(ز) و(م): إذا.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١ ونسب القول الأول لمقاتل والقول الثاني للكلبي. وقول عكرمة أخرجه الطبري ١٧/ ٥٩٩.

(٥) أخرجه الطبري ١٧/ ٦٠٠ عن مجاهد بلفظ: شفيق.

(٦) قال الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٤٤: الأنوق: الرَّخَمة، وعزَّ بيضُها لأنه لا يُظفر به؛ لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة.

معنى له . ويجوز أن يُريد بالصديق الجمع[١]. والحميم: القريبُ والخاصُّ، ومنه حامَّةُ الرجل، أي: أقرباؤه، وأصل هذا من الحميم: وهو الماء الحار، ومنه الحَمَّام والحُمَّى، فحامَّةُ الرَّجُلِ الذين يحرِقُهم ما أحرقَه؛ يقال: وهو حُزانَتُه، أي: يُحزِنُهم ما يُحزِنُه[٢]. ويقال: حُمَّ الشيء وأَحَمَّ إذا قَرُبَ، ومنه الحُمَّى؛ لأنها تُقَرِّبُ من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سُمِّيَ القريبُ حميماً؛ لأنَّه يَحْمَى لغضبِ صاحبه، فجعله مأخوذاً من الحَمِيَّة. وقال قتادة: يُذهِبُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ مودَّةَ الصَّديق ورِقَّةَ الحميم[٣]. ويجوز: «ولا صَديقٌ حَميمٌ» بالرفع على موضع «مِن شافعينَ»؛ لأنَّ «مِن شافعينَ» في موضع رفع، وجَمْعُ صديقٍ أصدِقاءُ وصُدَقاءُ وصِداق، ولا يُقال: صُدُقٌ؛ للفرق بين النعت وغيره. وحكى الكوفيُّون أنه يُقال في جمعه: صُدْقان. النَّحَّاس: وهذا بعيدٌ؛ لأنَّ هذا جمعُ ما ليس بنعتٍ، نحو: رغِيفٍ ورُغْفانٍ. وحكوا أيضاً: صديقٌ وأَصادِقُ. وأَفاعِلُ إنما هو جمع أَفْعَل إذا لم يكن نعتاً نحو: أشجَعُ وأشاجِعُ. ويُقال: صديقٌ للواحد والجماعة وللمرأة[٤]؛ قال الشاعر:

نَصَبْنَ الهوى ثم ارتمينَ قلوبَنا بأعْيُنِ أعداءٍ وهُنَّ صَديقُ[٥]

ويُقال: فلانٌ صُدَيِّقي، أي: أخَصُّ أصدقائي، وإنما يُصَغَّرُ على جهة المدح، كقول حُباب بن المنذر: (أنا جُذَيْلُها المُحكَّك، وعُذَيْقُها المرَجَّب) ذكره الجوهري[٦]. النَّحَّاس: وجَمْعُ حميم أحِمَّاء وأَحِمَّة، وكرهوا أَفِعْلاء للتضعيف. ﴿فَلَوْ

(١) الكشاف ٣/ ١١٩ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٠ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٧٨-١٧٩ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ١٨٥ .

(٥) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٧٢ ، وفيه: «بِأَسْهُمِ» بدل: «بأعيُنٍ». والمعنى كما يقول شارحه: استَمِلْنَ أهواءنا فمالَتْ إليهن .

(٦) في الصحاح (صدق). الجِذْل واحد الأجذال: وهي أصول الحطب العِظام، والجِذْل المحكك: الذي يُنصب في المعاطنِ لتُحكَّ به الإبل الجربى، أراد أنه يشفى برأيه وتدبيره. الصحاح (جذل) و(حكك). والعُذيق تصغير عَذْق: وهي النخلة. والترجيب هنا: إرفاد النخلة من جانب ليمنعها من السقوط . المحكم لابن سيده (رجب).

أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ «أنَّ» في موضع رفع، المعنى: ولو وقع لنا رجوعٌ إلى الدنيا لآمنَّا حتى يكون لنا شفعاء[١]. تمنَّوا حين لا ينفعُهم التمنِّي. وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون؛ قال جابر بن عبد الله: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليقول في الجنة: ما فَعَلَ فلانٌ وصديقُه في الجحيم[٢]، فلا يزالُ يشفَعُ له حتى يُشَفِّعَه اللهُ فيه، فإذا نجا قال المشركون: ﴿فما لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾»[٣]. وقال الحسن: ما اجتمعَ ملأٌ على ذِكْرِ الله، فيهم عبدٌ من أهل الجنة، إلَّا شفَّعَهُ اللهُ فيهم، وإنَّ أهلَ الإيمان لَيشفَعُ بعضُهم في بعضٍ وهم عند الله شافعونَ مُشَفَّعون. وقال كعب: إنَّ الرَّجُلينِ كانا صديقينِ في الدنيا، فيَمُرُّ أحدُهما بصاحبه وهو يُجَرُّ إلى النار، فيقول له أخوه: واللهِ ما بقي لي إلا حسنةٌ واحدةٌ أنجو بها، خُذْها أنتَ يا أخي فتنجو بها مما أرى، وأبقى أنا وإيَّاكَ من أصحاب الأعراف. قال: فيأمرُ اللهُ بهما جميعاً فيدخلان الجنة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدَّم والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال: «كَذَّبَتْ» والقومُ مُذكَّر؛ لأنَّ المعنى:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٥ .

(٢) في (م): الجحيم ، وكلاهما بمعنى .

(٣) الوسيط ٣/ ٣٥٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩١ .

كذَّبت جماعةُ قومِ نوح، وقال: «المُرْسَلين» لأنَّ مَنْ كذَّبَ رسولاً فقد كذَّب الرسل؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ يأمرُ بتصديقِ جميعِ الرسل. وقيل: كذَّبوا نوحاً في النبوَّة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده. وقيل: ذكَرَ الجنس والمُرادُ نوحٌ عليه السلام[١]. وقد مضى هذا في «الفرقان»[٢].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي: ابنُ أبيهم وهي أُخوَّةُ نسبٍ لا أُخوَّةَ دين[٣]. وقيل: هي أُخوَّةُ المجانسة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] وقد مضى هذا في «الأعراف»[٤]. وقيل: هو من قولِ العرب: يا أخا بني تميم. يُريدون: يا واحداً منهم. الزمخشري: ومنه بيتُ الحماسة:

لا يَسْألونَ أخاهم حِينَ يَنْدُبُهمْ ... في النَّائباتِ على ما قال بُرْهانا[٥]

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تتَّقون اللهَ في عبادة الأصنام.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: صادقٌ فيما أُبلِّغُكم عن الله تعالى. وقيل: «أمِينٌ» فيما بينكم؛ فإنهم كانوا عرفوا أمانتَه وصِدْقَه من قبل؛ كمحمدٍ ﷺ في قريش.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فاستَتِروا بطاعة الله تعالى من عقابه. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمُرُكم به من الإيمان.

﴿وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: لا طمَعَ لي في مالكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي: ما جزائي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرَّرَ تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ فيه مسألتان:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٥.

(٢) ١٥/ ٤١٠.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٥٧.

(٤) ٩/ ٢٦٢.

(٥) الكشاف ٣/ ١٢٠، والبيت في الحماسة البصرية ١/ ٢٩، وقائله قُريط بن أُنيف كما في خزانة الأدب ٧/ ٤٤١.

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ﴾ أي: نُصدِّقُ قولَك[١]؟ ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ الواو للحال، وفيه إضمارُ قد، أي: وقدِ اتَّبعَك[٢]. «الأَرْذَلُونَ» جمع الأرذَل، المُكَسَّر الأراذل، والأنثى الرُّذْلَى، والجمع الرُّذَّل. قال النحَّاس: ولا يجوز حذفُ الألفِ واللامِ في شيءٍ من هذا عند أحدٍ من النَّحْويين عَلِمْناه[٣]. وقرأ ابنُ مسعود والضحَّاك ويعقوب الحضرمي وغيرهم: «وَأَتْباعُكَ الأَرْذَلُون»[٤]. النحَّاس: وهي قراءةٌ حسنةٌ، وهذه الواو أكثر ما[٥] تتبعها الأسماء، والأفعال بعد. وأتباع جمع تَبَع، وتَبَع[٦] يكون للواحد والجمع؛ قال الشاعر:

لـه تَـبَـعٌ قـد يـعـلـمُ الـنـاسُ أنَّـهُ   عـلـى مـن يُـدانـي صَـيِّـفٌ ورَبِـيـعُ[٧]

وارتفاعُ «أَتْباعُكَ» يجوز أن يكون بالابتداء، و«الأَرْذَلُونَ» الخبر، التقدير: أنؤمِنُ لكَ وإنما أتباعك الأرذلون. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في قوله: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ﴾ والتقدير: أنؤمِنُ لكَ نحن وأتباعُكَ الأرذلون فنُعَدُّ منهم؛ وحَسُنَ ذلكَ الفصلُ بقوله: «لَكَ»[٨] وقد مضى القول في الأراذل في سورة «هود»[٩] مستوفًى. ونزيده هنا بياناً وهي:

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٧.

(٢) الكشاف ٣/ ١٢٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٨٦.

(٤) المحتسب ٢/ ١٣١، وذكر هذه القراءة أيضاً عن طلحة وابن السميفع وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري، وهي قراءة شاذة.

(٥) في (د) و(ز) و(م): أكثرها.

(٦) في (م): وتبيع.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٠ – ٩١، والبيت نُسب في المفضليات ص٢٧٢ إلى متمِّم بن نويرة.

(٨) المحتسب ٢/ ١٣١، ومجمع البيان ١٩/ ٦٤.

(٩) ١١/ ٩٨ – ١٠٠.

الثانية: فقيل: إنَّ الذين آمنوا به بَنوه ونساؤه وكَنَّاته وبنو أبيه[١]، واختُلِفَ هل كان معهم غيرهم أم لا؟ وعلى أن الوجهين كان فالكلُّ صالحون، وقد قال نوح: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والذين معه هم الذين اتَّبعوه، ولا يلحقهم من قول الكفرة شَيْنٌ ولا ذَمٌّ، بل الأرذلون هم المكذِّبون لهم. قال السُّهيلي: وقد أُغريَ كثيرٌ من العوام بمقالةٍ رُوِيَتْ في تفسير هذه الآية: هم الحاكَة والحجَّامون، ولو كانوا حاكةً كما زعموا لكان إيمانُهم بنبيِّ الله واتِّباعُهم له مشرِّفاً لهم[٢] كما تشرَّف بِلالٌ وسَلْمانُ بسبقِهما للإسلام، فهما من وجوهِ أصحابِ النبيِّ ﷺ ومن أكابرهم، فلا ذريةُ نوحٍ كانوا حاكةً ولا حجَّامين، ولا قولُ الكَفرةِ في الحاكة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أرذلون ما يلحق اليوم بحاكتِنا ذمًّا ولا نقصاً؛ لأنَّ هذه حكايةٌ عن قولِ الكفَرةِ إلَّا أن تُجعلَ الكفرةُ حجةً ومقالتُهم أصلاً، وهذا جهلٌ عظيم[٣]. وقد أعلم الله تعالى أنَّ الصناعات ليست بضائرةٍ في الدين[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «كان» زائدة، والمعنى: وما علمي بما يعملون، أي: لم أُكَلَّفِ العلمَ بأعمالهم، إنما كُلِّفتُ أن أدعوَهم إلى الإيمان[٥]، والاعتبار بالإيمان لا بالحِرَف والصَّنائع، وكأنَّهم قالوا: إنما اتَّبعك هؤلاء الضعفاءُ طمعاً في العِزَّةِ والمال، فقال: إني لم أقِفْ على باطن أمرهم، وإنما إليَّ ظاهِرُهم. وقيل: المعنى: إني لم أعلَمْ أنَّ اللهَ يهديهم ويُضِلُّكم، ويُرشِدُهم ويُغويكم، ويُوفِّقُهم ويخذلُكم[٦]. ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي: في أعمالهم وإيمانهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وجواب «لو» محذوف، أي: لو شعرتُم أنَّ حسابَهم على ربِّهم لَما عِبْتُموهم

(١) في (د) و(ز) و(م): ابنه.

(٢) كلمة «لهم» ليست في (د) و(ز) و(م).

(٣) التعريف والإعلام ص١٢٤-١٢٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٥.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥٧، وزاد المسير ٦/ ١٣٥.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٣.

بصنائعهم[١]. وقراءة العامَّة: «تَشْعُرُونَ» بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر. وقرأ ابن أبي عَبْلَة ومحمد بن السَّمَيْفَع: «لو يَشعرون» بالياء[٢]، كأنَّه خبرٌ عن الكفارِ وتركِ الخطاب لهم، نحو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]. ورُوِيَ أنَّ رجلاً سألَ سفيان عن امرأةٍ زنَتْ وقتلَتْ ولدَها وهي مسلمة هل يُقطَعُ لها بالنار؟ فقال: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لخساسة أحوالهم وأشغالهم. وكأنهم طلبوا منه طردَ الضُّعفاءِ كما طلبَتْه قريش.

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ يعني: إنَّ الله ما أرسلني أَخُصُّ ذَوي الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسولٌ أُبلِّغُكم ما أُرسِلْتُ به، فمن أطاعني فذلك السعيدُ عند الله وإن كان فقيراً.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ أي: عن سبِّ آلهتنا وعَيْبِ ديننا[٣] ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ أي: بالحجارة. قاله قتادة. وقال ابن عباس ومقاتل: من المقتولين[٤]. قال الثُّمالِيُّ: كلُّ رَجْمٍ[٥] في القرآن فهو القتل، إلا في مريم [الآية: ٤٦]: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ أي: لأُسبَّنَّكَ. وقيل: «مِنَ المَرْجُومِينَ»: من المشتومين. قاله السُّدِّي. ومنه قول أبي داود[٦].

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ . فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال ذلك

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ١٣٥.

(٢) وذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٠٧ عن الأعرج وأبي زرعة.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٠٣.

(٤) الوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ١٣٥.

(٥) في (د) و(ز) و(م): مرجومين.

(٦) في (م): أبي دؤاد. وهذا الكلام في النكت والعيون ٤/ ١٧٩، وقول أبي داود هو:

صدَّت غُواةُ معدٍّ أن تُراجِمني كما يصدون عن لب كجفانِ

لمَّا يئسَ من إيمانهم. والفتح الحكم وقد تقدم[(١)].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ يريدُ السفينة، وقد مضى ذِكْرُها[(٢)]. والمشحون: المملوء[(٣)]، والشحن: ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم[(٤)]. ولم يؤنِّثِ الفُلكَ هاهنا؛ لأنَّ الفُلكَ هاهنا واحدٌ لا جمع.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي: بعد إنجائنا نوحاً ومَنْ آمن[(٥)].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة[(٦)]. وتكذيبُهم المرسلين كما تقدَّم. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيِّنُ المعنى، وقد تقدَّم.

---

(١) ٢/ ٢١٤.

(٢) ٢/ ٤٩٤.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٥.

(٤) الوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ١٣٥.

(٥) المصادر السابقة.

(٦) مجمع البيان ١٩/ ١٦٩.

قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ الرِّيعُ: ما ارتفع من الأرض في قول ابن عباسٍ وغيره، جمع رِيعة. وكم رِيعُ أرضِكَ؟ أي: كم ارتفاعُها[١]. وقال قتادة: الرِّيع: الطريق. وهو قول الضحَّاك والكلبي ومقاتل والسُّدِّي. وقاله ابن عباسٍ أيضاً[٢]. ومنه قول المُسيَّب بن عَلَس:

فـي الآلِ يَـخْـفِـضُـهـا ويَـرفَـعُـهـا رِيـعٌ يَـلُـوحُ كـأنَّـهُ سَـحْـلُ[٣]

شبَّه الطريقَ بثوبٍ أبيض[٤]. النَّحَّاس: ومعروفٌ في اللغة[٥] أن يُقال لِما ارتفعَ من الأرض: رِيعٌ، وللطريق: رِيعٌ؛ قال الشاعر:

طِراقُ الخَوافي مشرقٌ فَوْقَ رِيعَةٍ نَدَى لَيلِهِ في رِيشِه يَتَرقْرَقُ[٦]

وقال عمارة: الرِّيع: الجبل، الواحد رِيعة، والجمع رِياع[٧]. وقال مجاهد: هو الفَجُّ بين الجبلين. وعنه: الثنية الصغيرة. وعنه: المنظرة[٨]. وقال عكرمة ومقاتل: كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا، فبنوا على الطريق أمثالاً طوالاً ليهتدوا بها؛ يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامة. وعن مجاهد: الرِّيع: بنيان الحَمَام؛ دليله: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: تلعبون[٩]؛ أي: تبنون بكلِّ مكانٍ مُرتفعٍ آيةً علَماً تلعبون بها على معنى

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٦.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٢، والنكت والعيون ٤/ ١٨٠، والوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣. وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٠٨ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) الصحاح (ريع) و(سحل).

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٨٠.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٩٢.

(٦) قائله ذو الرمَّة، وهو في ديوانه ١/ ٤٨٨، وفيه: «واقعٌ» بدل «مشرقٌ»، وقد قاله وهو يصف بازياً. قال شارحه: طِراق: بعضه على بعض. الخوافي: ما دون القوادم من جناح الطائر. يترقرق: يجيء ويذهب.

(٧) الصحاح (ريع).

(٨) أخرج تلك الأقوال الطبري ١٧/ ٦٠٨-٦٠٩.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٣. وأخرج قول مجاهد الطبري ١٧/ ٦١٠.

أبنية الحمام وبروجها. وقيل: تعبثون بمن يمرُّ في الطريق؛ أي: تبنون بكلِّ موضعٍ مُرتفعٍ لتشرفوا على السَّابلةِ فتسخروا منهم[(١)]. وقال الكلبي: إنَّه عبثُ العشَّارين بأموال من يَمرُّ بهم. ذكره الماوردي[(٢)]. وقال ابن الأعرابي: الرِّيع: الصَّومعة، والرِّيع: البرج من الحمام يكون في الصحراء. والرِّيع: التلُّ العالي. وفي الرِّيع لغتان: كسر الراء وفتحها، وجمعها أرياع. ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: منازل. قاله الكلبي. وقيل: حُصُوناً مُشَيَّدة. قاله ابن عباس ومجاهد[(٣)]. ومنه قول الشاعر:

تَـرَكْـنـا ديـارَهُـم مِـنـهـم قِـفَـاراً ... وهَـدَّمْـنـا الـمـصـانـعَ وَالـبُـرُوجـا

وقيل: قصوراً مُشيَّدة. وقاله مجاهد أيضاً. وعنه: بروج الحمام. وقاله السُّدِّي[(٤)].

قلت: وفيه بُعدٌ عن مجاهد؛ لأنَّه تقدَّم عنه في الرِّيع أنه بنيان الحمام، فيكون تكراراً في الكلام. وقال قتادة: مآجِلُ للماء تحت الأرض[(٥)]. وكذا قال الزَّجَّاج[(٦)]: إنها مصانع الماء، واحدتها مَصْنَعَةٌ ومَصْنَعٌ. ومنه قول لَبِيد[(٧)]:

بَلِينا وما تَبْلَى النجومُ الطوالِعُ ... وتَبقَى الجبالُ بَعْدَنا والمصانِعُ

الجوهري: المَصنَعةُ: كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنُعَة بضَمِّ النون، والمصانع: الحصون[(٨)]. وقال أبو عبيدة: يُقال لكل بناء: مصنعة[(٩)]. حكاه

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ١٣٦.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ١٨١.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٦١١ عن مجاهد.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٨١.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٨١، وزاد المسير ٦/ ١٣٦. وأخرجه بنحوه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٤، والطبري ١٧/ ٦١١.

(٦) في معاني القرآن له ٤/ ٩٦.

(٧) في ديوانه ص١٦٨.

(٨) الصحاح (صنع).

(٩) مجاز القرآن ٢/ ٨٨.

المَهْدَوي. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن: القصور العادية.

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: كي تخلدوا. وقيل: لعلَّ استفهامٌ بمعنى التوبيخ[١]، أي: فهل تَخْلُدونَ؟ كقولك: لعلَّكَ تشتمني، أي: هل تشتمني. رُوي معناه عن ابن زيد. وقال الفرَّاء: كيما تخلدون لا تتفكرون في الموت[٢]. وقال ابن عباس وقتادة: كأنكم خالدون باقون فيها[٣]. وفي بعض القراءات «كَأَنَّكُمْ تُخَلَّدُون» ذكره النحاس[٤]. وحكى قتادة: أنها كانت في بعض القراءات «كأنكم خالِدون»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ البطشُ: السَّطوةُ والأخذ بالعنف، وقد بَطَش به يبطُشُ ويبطِشُ بَطْشاً، وباطشَه مُباطشةً[٦]. وقال ابن عباس ومجاهد: البَطْشُ: العَسْفُ قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط[٧]. ومعنى ذلك: فعلتُم ذلك ظلماً. وقال مجاهد أيضاً: هو ضربٌ بالسياط[٨]. ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربي[٩]. وقيل: هو القتل بالسيف في غير حق. حكاه يحيى بن سَلَّام. وقال الكلبي والحسن: هو القتل على الغضب من غير تَثَبُّتٍ. وكلُّه يرجع إلى قول ابن عباس. وقيل: إنه المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفوٍ ولا إبقاء[١٠]. قال ابن العربي[١١]: ويؤيِّد ما قال مالك قولُ الله تعالى عن موسى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨١ دون عبارة: لا تتفكرون بالموت، وهي في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٦١٢ عنهما بنحوه.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٩٣، ونسبها في المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٨ إلى أُبيّ، وهي قراءة شاذة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٨١، وهي قراءة شاذة أيضاً.

(٦) الصحاح (بطش).

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٤ عن مجاهد.

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٨٢.

(٩) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٥.

(١٠) النكت والعيون ٤/ ١٨٢، وقول الكلبي ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨١.

(١١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٥.

بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩] وذلك أنَّ موسى عليه السلام لم يَسُلَّ عليه سيفاً ولا طعنَه بِرُمح، وإنما وَكَزه وكانت منيَّتُه في وَكْزَتِه. والبطش يكون باليد، وأقلُّه الوكز والدفع، ويليه السوط والعصا، ويليه الحديد، والكلُّ مذمومٌ إلا بحقٍّ.

والآية نزلت خبراً عمَّن تقدَّم من الأمم، ووعظاً من الله عزَّ وجلَّ لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمَّهم به وأنكره عليهم.

قلت: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثيرٍ من هذه الأمة، لا سيَّما بالديار المصرية منذ وَلِيَتْها البحرية[(١)]، فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق. وقد أخبر ﷺ أن ذلك يكون، كما في «صحيح مسلم»[(٢)] عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنفانِ من أهل النار لم أرَهُما: قومٌ معهم سِياطٌ كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مُميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهُنَّ كأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائلة، لا يدخُلْنَ الجنةَ ولا يَجِدْنَ ريحَها، وإنَّ ريحَها ليُوجَدُ من مسيرةِ كذا وكذا». وخرَّج أبو داود[(٣)] من حديث ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتُمْ بالعِينةِ، وأخذتُمْ أذناب البقر، ورضيتُم بالزرعِ، وتركتُم الجهادَ، سلَّطَ اللهُ عليكم ذلًّا لا ينزِعُه حتى ترجعوا إلى دينكم».

«جَبَّارِينَ»: قتَّالين. والجبَّار: القتَّال في غير حقٍّ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قاله الهروي. وقيل: الجبَّار: المتسلِّط العاتي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] أي: بمسلَّط. قال الشاعر:

سَلَبْنَا من الجبَّارِ بالسَّيفِ مُلْكَهُ ... عَشِيًّا وأطرافُ الرِّمَاحِ شَوَارِعُ

---

(١) هم جماعة من الأتراك المماليك اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، وجعلهم بطانته، وأمَّر بعضهم، وسبب تسميتهم البحرية أن التجار جلبوهم في البحر من بلاد القفجاق. السير ٢٣/ ١٩١-١٩٢.

(٢) (٢١٢٨)، وقد سلف ١٥/ ٣٤١.

(٣) في سننه (٣٤٦٢)، وقد سلف ٢/ ٢٩٦.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تقدَّم. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من الخيرات، ثم فسَّرها بقوله: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: سخَّر ذلك لكم وتفضَّل بها عليكم، فهو الذي يجب أن يُعبدَ ويُشكَر ولا يُكفرَ.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن كفرتُم به وأصررتُم على ذلك.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ كلٌّ ذلك عندنا سواءٌ، لا نسمع منك، ولا نلوي على ما تقولُه. وروى العباس عن أبي عمرو وبِشْر عن الكسائي: «أوَعَظتَّ» مدغمةَ الظَّاء في التاء[1]، وهو بعيد؛ لأنَّ الظَّاء حرفُ إطباق، إنما يُدغَمُ فيما قَرُبَ منه جدًّا وكان مثلَه ومخرجَه.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: دينُهم. عن ابن عباس وغيره[2]. وقال الفرَّاء[3]: عادةُ الأوَّلين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «خَلْقُ الأوَّلِينَ»، الباقون: «خُلُقُ»[4]. قال الهروي: وقولُه عز وجل: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: اختلافهم وكذبهم، ومن قرأ: «خُلُقُ الأوَّلِينَ» فمعناه عادتهم، والعرب تقول: حدَّثنا فلانٌ بأحاديثِ الخَلْق، أي: بالخرافات والأحاديث المفتعلة[5]. وقال ابن الأعرابي: الخلقُ: الدين، والخلقُ: الطبع، والخلقُ: المروءة. قال النَّحَّاس[6]: «خُلُقُ الأوَّلِينَ» عند الفرَّاء يعني: عادةُ الأولين. وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال: «خُلُقُ الأوَّلِينَ»: مذهبُهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر: والقولان متقاربان،

(١) وذكرها عنهما أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٣٣، وذكر أنها رُويت عن عاصم وقرأ بها ابن محيصن وهي قراءة شاذة.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٦١٤ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٢٨١.

(٤) السبعة ص٤٧٢، والتيسير ص١٦٦.

(٥) وقاله الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨١.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٦-١٨٧.

ومنه الحديث عن النبيِّ ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خلُقاً»[١] أي: أحسنُهم مذهباً وعادةً وما يجري عليه الأمرُ في طاعة الله عزَّ وجلَّ، ولا يجوز أن يكون مَنْ كان حسنَ الخُلُقِ فاجراً فاضلاً، ولا أن يكون أكملَ إيماناً من السَّيِّىء الخُلُقِ الذي ليس بفاجر. قال أبو جعفر: وحُكيَ لنا عن محمد بن يزيد أنَّ معنى «خُلُقُ الأَوَّلِينَ»: تكذيبُهم وتخرُّصُهم، غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى؛ لأنَّ فيها مدحَ آبائهم، وأكثرُ ما جاء القرآن في صفتهم مدحُهم لآبائهم، وقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وعن أبي قِلابةَ أنه قرأ: «خُلْق» بضمِّ الخاء وإسكان اللام تخفيف «خُلُقُ». ورواها ابن جُبير عن أصحاب نافع عن نافع[٢]. وقد قيل: إن معنى «خُلُقُ الأَوَّلِينَ»: دين الأوّلين[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] أي: دين الله. و«خُلُقُ الأَوَّلِينَ» عادة الأولين، حياةٌ ثم موتٌ ولا بعث[٤]. وقيل: ما هذا الذي أنكرتَ علينا من البنيان والبطش إلا عادةُ من قبلنا، فنحن نقتدي بهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نفعل.

وقيل: المعنى: خَلْقُ أجسام الأوّلين، أي: ما خَلْقُنا إلا كخَلْقِ الأوّلين الذين خُلِقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيءٌ مما تُحذِّرنا به من العذاب[٥].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي: بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ على ما يأتي في «الحاقة»[٦].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال بعضُهم: أسلمَ معه ثلاث مئة ألفِ

---

(١) أخرجه أحمد (٧٤٠٢)، وأبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة ﵁. وأخرجه أحمد (٢٤٢٠٤)، والترمذي (٢٦١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٩ ، وهي قراءة شاذة، والمشهور عن نافع مثل قراءة الجهمور: ﴿خُلُقُ الأوّلين﴾.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٨٢ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٧ بنحوه.

(٦) عند تفسير الآية (٦).

ومئون، وهلك باقيهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ذكر قصةَ صالحٍ وقومِه وهم ثمود؛ وكانوا يسكنون الحِجْر كما تقدَّم في «الحجر»[1] وهي ذواتُ نخلٍ وزروعٍ ومياه.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا﴾ يعني: في الدنيا ﴿آمِنِينَ﴾ من الموت والعذاب[2]. قال ابن عباس: كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم، ودلَّ على قوله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] فقرَّعهم صالحٌ ووبَّخهم وقال: أتظنُّون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾؟!

الزمخشري: فإن قلتَ: لِمَ قال: «ونَخْلٍ» بعد قوله: «في[3] جَنَّاتٍ» والجنةُ[4] تتناولُ النخلَ أوَّلَ شيءٍ كما يتناول النَّعمُ الإبلَ كذلك من بين الأزواج، حتى إنهم

---

(١) ١٢/ ٢٣٨.

(٢) زاد المسير ٦/ ١٣٨، ومجمع البيان ١٩/ ١٧٣.

(٣) في النسخ: «و» بدل «في».

(٤) في (د) و(ز) و(م): والجنات.

لَيذكرون الجنةَ ولا يقصدون إلا النَّخلَ، كما يذكرون النَّعم ولا يُريدون إلا الإبل؛ قال زهير:

كَـأَنَّ عَـيْـنَـيَّ فـي غَـرْبَـي مُـقَـتَّـلَـةٍ   من النَّواضِحِ تَسْقي جَنَّةً سُحُقا[1]

يعني النخل؛ والنخلة السَّحُوق: البعيدة الطول[2].

قلت[3]: فيه وجهان: أحدهما: أن يخُصَّ النخلُ بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على انفراده عنها بفضله عنها. والثاني: أن يريد بالجنَّاتِ غيرَها من الشجر؛ لأنَّ اللفظ يصلح لذلك، ثم يعطف عليها النَّخل. والطَّلْعَة: هي التي تطلع من النَّخلة كنصل السيف، في جوفه شماريخُ القِنوِ، والقِنو: اسمٌ للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشَماريخه[4]. و«هَضِيمٌ» قال ابن عباس: لطيفٌ ما دام في كُفُرَّاه. والهضيمُ: اللطيف الدقيق، ومنه قولُ امرئ القيس:

عَليَّ هَضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ[5]

الجوهري: ويُقال للطَّلع: هَضيم، ما لم يخرج من كُفُرَّاه؛ لدخول بعضه في بعض. والهضيمُ من النساء: اللطيفةُ الكَشْحين[6]. ونحوه حكى الهروي؛ قال: هو المُنضَمُّ في وعائه قبل أن يظهر، ومنه رجلٌ هضيمُ الجنبين أي: مُنضَمُّهما؛ هذا قول أهل اللغة.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٢٣، والبيت في ديوان زهير ص٣٧، قال شارحه: المقتَّلة: المذلَّلة يعني الناقة. يقول: كأنَّ عينيَّ من كثرة دموعهما في غربَي ناقةٍ يُنضح عليها، قد قُتِّلت بالعمل حتى ذلَّت.

(٢) ينظر الصحاح (سحق).

(٣) يعني الزمخشري.

(٤) الكشاف ٣/ ١٢٣.

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٥، وصدر البيت: «إذا قلتُ هاتي نوِّليني تمايَلَتْ». قال شارحه: نوِّليني من النوال: وهو العطية. تمايلت: عطفت. ريًّا: أي: ممتلئةً لحماً وشحماً في موضع الخلخال من ساقيها، أي: ليست بناتئة العظام.

(٦) الصحاح (هضم).

وحكى الماورديُّ وغيره في ذلك اثني عشر قولاً: أحدهما: أنه الرُّطَبُ اللَّيِّن. قاله عكرمة. الثاني: هو المُذَنِّبُ من الرُّطَبِ. قاله سعيد بن جُبَير. قال النَّحَّاس: وروى أبو إسحاق عن يزيد ـ هو ابن أبي زياد كوفيٌّ ويزيد بن أبي مريم شاميٌّ ـ «ونَخْلٌ طَلْعُها هَضيمٌ» قال: منه ما قد أَرْطَبَ ومنه مُذَنِّب. الثالث: أنه الذي ليس فيه نوى. قاله الحسن. الرابع: أنه المُتَهشِّمُ المُتفَتِّتُ إذا مُسَّ تَفتَّتَ. قاله مجاهد. وقال أبو العالية: يتهشَّمُ في الفم. الخامس: هو الذي قد ضَمَرَ بركوب بعضِه بعضاً. قاله الضحَّاك ومقاتل. السادس: أنَّه المتلاصقُ بعضُه ببعض. قاله أبو صخر. السابع: أنه الطَّلعُ حين يتفرَّقُ ويخضَرُّ. قاله الضحاك أيضاً. الثامن: أنَّه اليانِعُ النَّضيج. قاله ابن عباس. التاسع: أنَّه المُكتنِزُ قبل أن ينشَقَّ عنه القِشْرُ. حكاه ابن شجرة؛ قال:

كأنَّ حَمولةً تُجْلَى عليهِ هَضِيمٌ ما يُحَسُّ له شُقُوقُ

العاشر: أنه الرِّخو. قاله الحسن. الحادي عشر: أنه الرَّخْصُ اللطيف أوَّل ما يخرج، وهو الطَّلعُ النَّضِيدُ. قاله الهروي. الثاني عشر: أنه البَرْنِيُّ[1]. قاله ابن الأعرابي؛ فعيل بمعنى فاعل، أي: هنيءٌ مريءٌ من انهضام الطعام[2]. والطَّلع: اسمٌ مشتَقٌّ من الطُّلوع وهو الظهور، ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات[3].

قوله تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ النَّحتُ: النَّجْرُ والبَرْي؛ نحتَه يَنْحِتُه ـ بالكسر ـ نَحْتاً أي[4]: بَراه، والنُّحَاتةُ: البُرايَة. والمِنْحَتُ: ما يُنحَتُ به[5].

---

(١) وهو ضرب من التمر، أصفر مدوَّر، وهو أجود التمر. اللسان (برن).

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٨٢-١٨٣ دون القول الخامس والحادي عشر والثاني عشر. وذكر النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٨٧ القول الحادي عشر. وذكر البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٥ القول الأول والرابع والخامس والعاشر. وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٣٨ الأقوال الخمسة الأولى والقول الثامن والتاسع. وأخرج الطبري القول الأول والرابع والسادس والثامن. وقال النحاس في معاني القرآن ٥/ ٩٦ : هاضم مريء ولطيف.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٨٣ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): إذا.

(٥) الصحاح (نحت).

وفي «وَالصَّافَّاتِ» [٩٥] قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾. وكانوا ينحِتونها من الجبال لمَّا طالَتْ أعمارُهم وتهدَّم بناؤهم من المَدَرِ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع[١]: «فَرِهِينَ» بغير ألف، الباقون: «فَارِهِينَ» بألف[٢]، وهما بمعنًى واحدٍ في قول أبي عبيدة وغيره، مثل: «عِظَاماً نَخِرَةً» و «نَاخِرَة». وحكاه قطرب، وحكى: فَرُهَ يفرُهُ فهو فارِهٌ، وفَرِهَ يَفْرَهُ فهو فَرِهٌ وفارِهٌ إذا كان نشيطاً. وهو نصبٌ على الحال[٣]. وفرَّقَ بينهما قومٌ فقالوا: «فَارِهِينَ»: حاذقين بنَحْتِها. قاله أبو عبيدة[٤] ورُوِيَ عن ابن عباس وأبي صالح وغيرهما[٥]. وقال عبد الله بن شدَّاد: «فَارِهِينَ»: مُتجبِّرين[٦]. ورُوِيَ عن ابن عباس أيضاً أن معنى: «فَرِهِينَ» بغير ألف: أشِرِينَ بَطِرين. وقاله مجاهد[٧]. ورُوِيَ عنه: شرهين[٨]. الضحاك: كيِّسين[٩]. قتادة: مُعْجَبين. قاله الكلبي[١٠]. وعنه: ناعمين[١١]. وعنه أيضاً: آمنين. وهو قول الحسن. وقيل: مُتخيِّرين. قاله الكلبي والسُّدِّي. ومنه قول الشاعر:

إلى فَرِهٍ يُماجِدُ كلَّ أمرٍ قصدتُ له لأختبِرَ الطِّباعا

وقيل: مُتَعجِّبين. قاله خُصيف[١٢]. وقال ابن زيد: أقوياء[١٣]. وقيل: فَرِهين

---

(١) قوله: «ونافع» من (م).

(٢) السبعة ص٤٧٢، والتيسير ص١٦٦.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٨٨. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٨٩.

(٤) في مجاز القرآن ٢/ ٨٨.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ١٨٧، والنكت والعيون ٤/ ١٨٣: وأخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٦٢١.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٦، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢٢.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٨٧ ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٦ عن مجاهد، والنكت والعيون ٤/ ١٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦ عن ابن عباس ﷺ.

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٨٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦.

(٩) النكت والعيون ٤/ ١٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦. وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢٢.

(١٠) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٦ عن قتادة. وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٦٢٣.

(١١) ذكره البغوي ٣/ ٣٩٦ عن عكرمة.

(١٢) من قوله: وعنه أيضاً... إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ١٨٣.

(١٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠. وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢٣.

فَرِحين. قاله الأخفش. والعرب تُعاقِبُ بين الهاء والحاء؛ تقول: مَدَهْتُه ومَدَحْتُه[١]، فالفَرِهُ: الأشِرُ الفَرِحُ، ثم الفرح بمعنى المَرح مذمومٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

قوله تعالى[٢]: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: المُرادُ الذين عقَروا الناقة. وقيل: التسعةُ رهطٍ[٣] الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون[٤]. قال السُّدِّيُّ وغيره: أوحى الله تعالى إلى صالح: إنَّ قومَكَ سيَعْقِرون ناقتَك. فقال لهم ذلك، فقالوا: ما كُنَّا لِنَفْعل. فقال لهم صالح: إنَّه سيولَدُ في شهركم هذا غلامٌ يَعقِرُها ويكون هلاكُكم على يديه. فقالوا: لا يولَدُ في هذا الشهر ذَكَرٌ إلا قتلناه. فوُلِدَ لتسعةٍ منهم في ذلك الشهر، فذبحوا أبناءهم، ثم وُلِدَ للعاشر فأبى أن يذبح ابنه، وكان لم يولَدْ له قبل ذلك. وكان ابنُ العاشرِ أزرقَ أحمرَ، فنبتَ نباتاً سريعاً، وكان إذا مَرَّ بالتسعة فرأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياءً لكانوا مثل هذا. وغضبَ التسعة على صالح؛ لأنَّه كان سببَ قتْلِهم أبناءَهم، فتعصَّبوا وتقاسموا بالله لنُبيِّتَنَّه وأهلَه. قالوا: نخرجُ إلى سفرٍ فيرى الناسُ سفرَنا فنكونُ في غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالحٌ إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا: ما شَهِدْنا مَهلِكَ أهلِه وإنَّا لَصادقون، فيُصدِّقوننا ويعلمون أنَّا قد خرجنا إلى سفر. وكان صالحٌ لا ينام معهم في القرية، وكان يأوي إلى مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظَهم، فلمَّا دخلوا الغارَ أرادوا أن يخرجوا، فسقطَ عليهم الغارُ فقتلَهم، فرأى ذلك ناسٌ ممَّن كان قدِ اطلَّعَ على ذلك، فصاحوا في القرية: يا عبادَ الله، أما رضيَ صالحٌ أن أمرَ بقتل أولادِهم حتى قتلَهم. فأجمعَ أهلُ القرية على قتل الناقة. وقال ابن إسحاق: إنما اجتمعَ التِّسعةُ على سبِّ صالحٍ بعد

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٦.

(٢) هذه العبارة من (ظ).

(٣) في (م): الرهط.

(٤) هما قول واحد، وقد ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٦ عن مقاتل.

عَقْرِهُم الناقةَ وإنذارِهم بالعذاب[١] على ما يأتي بيانُه في سورة النمل[٢] إن شاء الله تعالى.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ هو من السِّحرِ في قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوي[٣]. أي: أُصِبتَ بالسِّحرِ فبَطَلَ عقلُكَ[٤]؛ لأنَّكَ بشرٌ مثلُنا فَلِمَ تدَّعي الرسالةَ دوننا؟ وقيل: من المعلَّلين بالطعام والشراب. قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضاً فيما ذكر الثعلبي[٥]. وهو على هذا القول من السَّحْرِ وهو الرئة[٦]، أي: بشَرٌ، لك سَحْرٌ أي: رئة، تأكل وتشرب مثلنا، كما قال لبيد[٧]:

فإنْ تسألينا فِيمَ نحنُ فإنَّنا عصافيرُ من هذا الأنامِ المُسَحَّرِ

قال امرؤ القيس[٨]:

ونُسْحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرابِ[٩]

﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في قولك.

﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال ابن عباس: إن كنتَ صادقاً فادْعُ اللهَ يُخرِجْ لنا من هذا الجبل ناقةً حمراءَ عُشَراء[١٠]، فتضعُ ونحن ننظر، وترِدُ

---

(١) عرائس المجالس ص٧٠-٧١ .

(٢) عند تفسير الآية (٤٨) وما بعدها.

(٣) وذكر هذا القول عنهما البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٦ ، وذكره عن مجاهد النحاس في معاني القرآن ٥/ ٩٧ .

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٧٣ .

(٥) وذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٦ عن ابن عباس ﷺ.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠ .

(٧) في (د) و(ز) و(ظ): امرؤ القيس ، والمثبت من (م).

(٨) في (د) و(ز) و(ظ): أيضاً، والمثبت من (م).

(٩) سلف وما قبله ٢/ ٢٧٢ .

(١٠) وهي التي بلغت في حملها عشرة أشهر. تهذيب اللغة ١/ ٤١٠ .

هذا الماء فتشرَبُ وتغدو علينا بمثله لبناً[١]. فدعا الله وفعل الله ذلك فـ ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ أي: حظٌّ من الماء[٢]، أي: لكم شِرْبُ يومٍ ولها شِرْبُ يوم، فكانت إذا كان يوم شِرْبِها شربت ماءَهم كلَّه أوَّلَ النهار، وتسقيهم اللَّبنَ آخِرَ النهار، وإذا كان يومُ شِرْبِهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم[٣]، ليس لهم في يوم وُرودِها أن يشربوا من شِرْبها شيئاً، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئاً. قال الفرَّاء: الشِّرب: الحظُّ من الماء[٤]. قال النَّحَّاس: فأمَّا المصدرُ فيقال فيه: شَرِبَ شَرْباً وشُرْباً وشِرْباً وأكثرها المضمومة؛ لأنَّ المكسورةَ والمفتوحةَ يشتركان مع شيءٍ آخر، فيكون الشِّرْبُ الحظَّ من الماء، ويكون الشَّرْبُ جمعَ شاربٍ، كما قال:

فقلتُ للشَّرْبِ في دُرْنَى وقد ثَمِلُوا[٥]

إلَّا أنَّ أبا عَمرو بن العلاء والكسائي يختاران الشَّرْبَ بالفتح في المصدر، ويحتجَّان برواية بعض العلماء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّها أيامُ أكلٍ وشَرْبٍ»[٦]. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا؛ لأنَّهما حرفان مُتحرِّكان من جنسٍ واحد. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جواب النهي، ولا يجوز حذفُ الفاءِ منه، والجزم كما جاء في الأمر إلَّا شيئاً رُويَ عن الكسائي أنه يجيزه. ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ أي: على عَقْرِها لـمَّا أيقَنوا بالعذاب، وذلك أنَّه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامةُ في كلِّ يوم، وندموا ولم ينفَعْهُم النَّدمُ عند مُعاينةِ العذاب. وقيل: لم ينفَعُهم النَّدمُ؛ لأنهم لم

(١) الوسيط ٣/ ٣٦٠.

(٢) قوله: «من الماء» من (م).

(٣) الوسيط ٣/ ٣٦٠ عن مقاتل.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٨.

(٥) هذا صدر بيت قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٧، وعجزه: «شيموا وكيف يشيب الشاربُ الثَّمِلُ».
قال الأصمعي: كانت دُرنى باباً من أبواب فارس دون الحيرة. وقال غيره: باليمامة. معجم ما استعجم ٢/ ٥٥٠.

(٦) سلف ٤/ ٤٦.

يتوبوا، بل طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه لمّا أيقنوا بالعذاب(١). وقيل: كانت ندامتُهم على تَرْكِ الولدِ إذْ لم يقتُلوه معها. وهو بعيد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إلى آخرها. تقدَّم. ويُقال: إنه ما آمنَ به من تلك الأمم إلا ألفان وثمانُ مئةِ رجلٍ وامرأة. وقيل: كانوا أربعةَ آلاف. وقال كعب: كان قومُ صالحٍ اثني عشَرَ ألفَ قبيلٍ، كلُّ قبيلٍ نحْو اثني عشَرَ ألفاً من سوى النساء والذُّرِّية، ولقد كان قومُ عادٍ مثلَهم ستَّ مرات.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ مضى معناه وقصته في «الأعراف»(٢) و«هود»(٣) مستوفًى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كانوا ينكحونهم في أدبارهم، وكانوا يفعلون ذلك بالغُرباء على ما تقدَّم في «الأعراف». ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يعني فروجَ النساء، فإنَّ الله خلقَها للنكاح(٤). قال إبراهيم بن مُهاجر: قال لي مجاهد: كيف يقرأ عبد الله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾؟ قلتُ:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٨.
(٢) ٨/ ٢٧٣ - ٢٨٠.
(٣) ١١/ ١٧٣ - ١٩٠.
(٤) الوسيط ٣/ ٣٦١.

«وتذرونَ ما أصلحَ لكم ربُّكم من أزواجِكم» قال: الفرج، كما قال: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾[1] [البقرة: ٢٢٢]. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: متجاوزون لحدود الله.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ عن قولك هذا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي: من بلدنا وقريتنا. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ يعني اللواط ﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أي: المُبغِضين[2]، والقِلى البغض؛ قلَيتُه أقليه قِلًى وقَلاءً[3]. قال:

فلستُ بمقليِّ الخِلالِ ولا قَالي[4]

وقال آخر:

عليكِ السلامُ لا مُلِلْتِ قريبةً ... ومَالَكِ عندي إنْ نأيتِ قَلاءُ[5]

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عذابِ عملهم[6]. دعا اللهَ لمَّا أَيِسَ من إيمانهم ألَّا يُصيبَه من عذابهم.

قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ولم يكن إلا ابنتاه على ما تقدَّم في «هود»[7]. ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ روى سعيد عن قتادة قال: غبرَتْ في عذاب الله عزَّ وجلَّ. أي: بَقيَتْ. وأبو عبيدة يذهب إلى أنَّ المعنى: من الباقين في الهَرَمِ، أي: بَقِيَتْ حتى هَرِمَتْ[8]. قال النَّحَّاس[9]: يُقال للذاهب: غابر، والباقي: غابر، كما قال:

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأغْبارِها ... إنَّكَ لا تَدْري مَنِ النَّاتِجُ[10]

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٨، وهذه القراءة شاذة.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٦١، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦، وزاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٣) الصحاح (قلا).

(٤) قائله امرؤ القيس، وقد سلف ١٢/ ١٤٣.

(٥) قائله نُصيب بن رباح، وهو في ديوانه ص٥٧.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٦١، وزاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٧) ١١/ ١٧٧.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨٩. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٨٩.

(٩) في معاني القرآن له ٥/ ٩٩.

(١٠) قائله الحارث بن حلزة، وقد سلف ١٢/ ٢٢٥.

وكما قال:

فـمـا وَنَـى مـحـمـدٌ مُـذْ أنْ غَـفَـرْ لـه الإلـهُ مـا مَـضَـى ومـا غَـبَـرْ[1]

أي: ما بقي. والأغبار: بقيّات الألبان.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: أهلكناهم بالخَسْفِ والحَصْبِ[2]؛ قال مقاتل: خسفَ اللهُ بقومِ لوطٍ، وأرسل الحجارةَ على مَنْ كان خارجاً من القرية.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ يعني الحجارة[3] ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾. وقيل: إنَّ جبريلَ خسَفَ بقريتهم وجعلَ عاليها سافلها، ثم أتبعَها اللهُ بالحجارة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لم يكن فيها مؤمنٌ إلا بيت لوطٍ وابنتاه.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الأيكُ: الشجرُ المُلتفُّ الكثيرُ، الواحدة أيكة. ومن قرأ: «أصحابُ الأيكَةِ» فهي الغَيضة. ومن قرأ: «لَيْكَةِ» فهو اسم

(١) الرجز للعجاج بن رؤبة، وقد سلف ٩/ ٢٧٩.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٦١، وزاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٣) زاد المسير ٦/ ١٤٠.

القرية . ويُقال: هما مثلُ بَكَّةَ ومكَّة. قاله الجوهري[١]. وقال النَّحَّاس[٢]: وقرأ أبو جعفر ونافع: «كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ» وكذا قرأا[٣] في «ص»[٤]. وأجمعَ القُرَّاءُ على الخفضِ في التي في سورة «الحِجرِ»[٥] والتي في سورة «ق»[٦]، فيجب أن يُرَدَّ ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذْ كان المعنى واحداً. فأمَّا ما حكاه أبو عبيد من أنَّ «لَيْكَةَ» هي اسمُ القرية التي كانوا فيها، وأنَّ «الأيكة» اسمُ البلد فشيءٌ لا يثبتُ ولا يُعرَفُ من قالَه فيثبُتُ علمُه، ولو عُرِفَ مَنْ قالَه لكان فيه نظر؛ لأنَّ أهل العلم جميعاً من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافِه.

وروى عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قَتادة قال: أُرسِلَ شعيبٌ عليه السلام إلى أُمَّتين: إلى قومِه من أهل مَدْيَن، وإلى أصحاب الأيكة؛ قال: والأيكةُ: غَيضَةٌ من شجرٍ مُلْتَفٍّ. وروى سعيد عن قَتادة قال: كان أصحابُ الأيكةِ أهلَ غَيضَةٍ وشَجَرٍ، وكانت عامَّةُ شجرِهم الدَّومَ، وهو شجَرُ المُقْل. وروى جُوَيبير[٧] عن الضَّحَّاك قال: خرجَ أصحابُ الأيكةِ ـ يعني حين أصابهم الحرُّ ـ فانضَمُّوا إلى الغَيضَةِ والشَّجر، فأرسلَ اللهُ عليهم سحابةً فاستَظَلُّوا تحتَها، فلمَّا تتامُّوا[٨] تحتَها أُحرقوا. ولو لم يكن هذا إلا ما رُوِيَ عن ابن عباس قال: والأيكةُ: الشَّجَرُ. ولا نعلمُ بين أهل اللغة اختلافاً أنَّ الأيكةَ الشَّجرُ المُلتَفُّ، فأمَّا احتجاجُ بعضٍ مِن احتَجَّ بقراءةِ مَنْ قرأَ في هذين الموضعين بالفتح أنَّه في الشواذِّ[٩] «ليكة» فلا حُجَّةَ له؛ والقول فيه: إنَّ

(١) في الصحاح (أيك).

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٩-١٩٠ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): قرأ .

(٤) الآية (١٣) ، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر أيضاً. السبعة ص٤٧٣ ، والتيسير ص١٦٦ ، والنشر ٢/ ٣٣٦ .

(٥) الآية (٧٨).

(٦) الآية (١٤).

(٧) في جميع النسخ: ابن جبير، والصواب ما أُثبت من إعراب القرآن .

(٨) في (د) و(ز) و(م): تكاملوا . وكلاهما بمعنى .

(٩) في (د) و(ز) و(م): السواد .

أصلَه «الأيكة» ثمَّ خُفِّفَتِ الهمزةُ فأُلقيَتْ حركتُها على اللام فسقطَتْ، واستغنيتَ[١] عن ألفِ الوصل؛ لأنَّ اللامَ قد تحرَّكتْ، فلا يجوز على هذا إلَّا الخفض، كما تقول: بالأحمر تُحقِّقُ الهمزةَ، ثم تُخفِّفُها: بِلَحْمرِ، فإن شئتَ كتبتَ في الخَطِّ على ما كتبتَه أوَّلاً، وإن شئتَ كتبتَه بالحذف، ولم يَجُزْ إلا الخفضُ. قال سيبويه[٢]: واعلم أنَّ ما لا ينصرفُ إذا دخلَتْ عليه الألفُ واللامُ أو أُضيفَ انصرفَ. ولا نعلمُ أحداً خالفَ سيبويه في هذا.

وقال الخليل[٣]: الأيكةُ: غَيْضَةٌ تُنبِتُ السِّدرَ والأراكَ ونحوَهما من ناعم الشجر.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقُلْ أخوهم شعيب؛ لأنَّه لم يكن أخاً لأصحابِ الأيكة في النَّسب، فلمَّا ذكر مَدْيَنَ قال: «أخاهُمْ شُعَيْباً»؛ لأنَّه كان منهم[٤]. وقد مضى في «الأعراف»[٥] القولُ في نسبه. قال ابنُ زيد: أرسلَ اللهُ شُعيباً رسولاً إلى قومِه أهلِ مدين، وإلى أهلِ البادية وهم أصحابُ الأيكة[٦]. وقاله قتادة، وقد ذكرناه[٧].

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ تخافون الله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ الآية. وإنَّما كان جوابُ هؤلاءِ الرُّسُلِ واحداً على صيغةٍ واحدة؛ لأنَّهم مُتَّفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع عن أخذ الأجر على تبليغ الرسالة[٨].

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين للكيلِ والوزن[٩]. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ

---

(١) في النسخ: واستغنت. والمثبت من إعراب القرآن.
(٢) في الكتاب ٣/ ٢٢١ .
(٣) في العين ٥/ ٤٢٣ .
(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٧ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٤١ عن مقاتل.
(٥) ٩/ ٢٨١ .
(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٣ .
(٧) ٩/ ٢٨٦ .
(٨) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٧ ، ومجمع البيان ١٩/ ١٧٩ بنحوه.
(٩) الوسيط ٣/ ٣٦٢ ، وزاد المسير ٦/ ١٤٢ .

﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: أعطوا الحقَّ. وقد مضى في «سبحان»[(١)] وغيرها.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تقدَّم في «هود»[(٢)] وغيرها. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال مجاهد: الجِبِلَّة: هي الخَليقة. وجُبِلَ فلانٌ على كذا، أي: خُلِقَ؛ فالخُلُقُ جِبِلَّةٌ وجُبُلَّةٌ وجِبْلَةٌ وجُبْلَةٌ وجَبْلَةٌ. ذكره النَّحّاس في «معاني القرآن»[(٣)]. «والجِبِلَّة» عطفٌ على الكاف والميم[(٤)]. قال الهروي: الجِبِلَّةُ والجُبْلَةُ والجِبِلُّ والجُبُلُّ والجَبْلُ لغات، وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]. قال النَّحّاس في كتاب «إعراب القرآن» له[(٥)]: ويُقال: جُبُلَّةٌ والجمعُ فيهما جَبَّالٌ، وتُحذَفُ الضَّمَّةُ والكسرةُ من الباء، وكذلك التشديدُ من اللام، فيُقال: جُبْلَةٌ وجُبَلٌ، ويُقال: جِبْلَةٌ وجِبالٌ، وتُحذَفُ الهاءُ من هذا كلِّه.

وقرأ الحسن باختلافٍ عنه: «والجُبُلَّةَ الأوَّلينَ» بضمِّ الجيم والباء؛ ورُوي عن شيبةَ والأعرج[(٦)]. الباقون بالكسر. قال:

والموتُ أعظمُ حادثٍ ... فيما يَمرُّ على الجِبِلَّه[(٧)]

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين يأكلون الطعامَ والشرابَ على ما تقدَّم. ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: ما نظنُّك إلَّا من الكاذبين في أنَّكَ رسولُ الله تعالى. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جانباً من السماء وقطعةً منه، فننظر إليه، كما

---

(١) ١٣/ ٧٦.
(٢) ١١/ ١٩٢.
(٣) ٥/ ١٠٢.
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٣٩١.
(٥) ٣/ ٣٩١.
(٦) المحتسب ٢/ ١٣٢ والشاذة ص١٠٧ عن الحسن وأبي حصين، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٢ عن الحسن وابن محيصن، وزاد المسير ٦/ ١٤٢ عن الحسن وأبي مجلز وأبي رجاء وابن يعمر وابن أبي عبلة.
(٧) قائله عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو في ديوانه ص٧٣.

قال: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾(١) [الطور: ٤٤]. وقيل: أرادوا: أنزِلْ علينا العذاب. وهو مبالغةٌ في التكذيب. قال أبو عبيدة: الكِسْفُ: جمع كِسْفةٍ مثل سِدْرٍ وسِدْرةٍ(٢). وقرأ السُّلَميُّ وحفص: «كِسَفاً» جمع كِسْفَة أيضاً: وهي القطعة والجانب، تقديره كِسْرة وكِسَر. قال الجوهري: الكِسْفة: القِطعة من الشيء؛ يُقال: أعطني كِسْفةً من ثوبك، والجمع كِسْفٌ وكِسَفٌ. ويُقال: الكِسْفُ والكِسْفَةُ واحد. وقال الأخفش: من قرأ «كِسْفاً» جعله واحداً، ومن قرأ: «كِسَفاً» جعله جمعاً. وقد مضى هذا في سورة «سبحان»(٣). وقال الهروي: ومن قرأ: «كِسْفاً» على التوحيد فَجمعُه أكساف وكسوف، كأنه قال: أو تُسقِطَه علينا طبقاً واحداً، وهو من كسفت الشيء كَسْفاً إذا غطَّيته(٤). ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تهديد؛ أي: إنَّما عليَّ التبليغُ وليس العذابُ الذي سألتُم إليَّ، وهو يُجازيكم(٥). ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ قال ابن عباس: أصابهم حرٌّ شديد، فأرسلَ اللهُ سبحانه سحابةً فهربوا إليه ليستَظِلُّوا بها، فلمَّا صاروا تحتَها صِيحَ بهم فهلَكوا(٦). وقيل: أقامَها اللهُ فوقَ رؤوسهم، وألهبَها حرًّا حتى ماتوا من الوَمَدِ(٧). وكان من أعظمِ يومٍ في الدنيا عذاباً. وقيل: بعثَ اللهُ عليهم سَموماً، فخرجوا إلى الأيكة يستظِلُّون بها، فأضرمَها اللهُ عليهم ناراً فاحترقوا.

وعن ابن عباسٍ أيضاً وغيرِه: إنَّ الله تعالى فتحَ عليهم باباً من أبواب جهنَّم،

---

(١) تفسير الطبري ١٧/٦٣٦، وأخرج عن ابن عباس ﷺ أنه قال: ﴿كِسَفًا﴾: قطعاً. وأخرج أيضاً عن الضحاك أنه قال: جانباً من السماء.

(٢) مجاز القرآن ٢/٩١.

(٣) عند تفسير الآية (٩٢).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٥. وقد سلف أيضاً في سورة الإسراء.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٦٢، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٧ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠٣.

(٧) في النسخ: الرمد. والوَمَدُ: الحر الشديد مع سكون الريح. تاج العروس (ومَدَ).

وأرسلَ عليهم هَدَّة(١) وحرًّا شديداً فأخذَ بأنفاسِهم، فدخلوا بيوتَهم، فلم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماءٌ، فأنضجهمُ الحرُّ، فخرجوا هرباً إلى البريَّة، فبعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ سحابةً فأظَلَّتْهم، فوجدوا لها برداً ورُوحاً وريحاً طيبةً، فنادى بعضُهم بعضاً، فلمَّا اجتمعوا تحتَ السحابة ألهبَها اللهُ تعالى عليهم ناراً، ورجفَتْ بهمُ الأرض، فاحترقوا كما يحترقُ الجرادُ في المقلى، فصاروا رَماداً، فذلك قولُه: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٩٤-٩٥]، وقولُه: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وقيل: إنَّ الله تعالى حبسَ عنهمُ الريحَ سبعةَ أيام، وسلَّط عليهم الحرَّ حتى أخذَ بأنفاسِهم، ولم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماءٌ، فكانوا يدخلون الأسرابَ ليتبرَّدوا فيها فيجدوها أشدَّ حرًّا من الظاهر، فهربوا إلى البريَّة، فأظلَّتهم سحابةٌ وهي الظُّلَّة، فوجدوا لها برداً ونسيماً، فأمطرَتْ عليهم ناراً فاحترقوا. وقال يزيد الجُرَيْرِيُّ: سلَّطَ اللهُ عليهم الحرَّ سبعةَ أيامٍ ولياليهنَّ، ثم رُفِعَ لهم جبلٌ من بعيد، فأتاه رجلٌ، فإذا تحتَه أنهارٌ وعيونٌ وشجرٌ وماءٌ بارد، فاجتمعوا كلُّهم تحته، فوقع عليهم الجبل وهو الظُّلَّة. وقال قتادة: بعثَ اللهُ شُعيباً إلى أُمتين: أصحاب مدين وأصحاب الأيكة، فأهلكَ اللهُ أصحابَ الأيكة بالظُّلَّة، وأمَّا أصحاب مدين فصاح بهم جبريلُ صيحةً فهلكوا أجمعين(٢). ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل: آمنَ بشعيبٍ من الفئتين تِسعُ مئة نفر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عادَ إلى ما تقدَّم بيانه(٣) في أوّل السُّورةِ من إعراض المشركين عن القرآن. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ «نَزَلَ» مخفَّفاً قرأ نافع

---

(١) الهَدَّة: صوتٌ ما يقع من السماء. تاج العروس (هدد).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ١٨٢.

(٣) كلمة «بيانه» من (م).

وابن كثير وأبو عمرو. الباقون: «نَزَّلَ» مشدَّداً «بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ» نصباً[١]، وهو اختيارُ أبي حاتم وأبي عبيد؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ﴾ وهو مصدر نزَّلَ. والحُجَّةُ لمن قرأ بالتخفيفِ أنْ يقول: ليس هذا بمصدر[٢]؛ لأنَّ المعنى: وإنَّ القرآنَ لَتنزيلُ ربِّ العالمين، نزَلَ به جبريلُ إليك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٣] [البقرة: ٩٧] أي: يتلوه عليكَ، فيعيه قلبُك. وقيل: ليثبُتَ قلبُكَ[٤]. ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي: لئلَّا يقولوا: لَسْنا نفهمُ ما تقول. ﴿وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وإنَّ ذِكْرَ نُزولهِ لَفي كُتُبِ الأوَّلين، يعني الأنبياء[٥]. وقيل: أي: إنَّ ذِكْرَ محمدٍ عليه الصلاة والسلام في كُتُبِ الأوَّلين، كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] والزُّبُر: الكُتُب، الواحد زَبُور، كرسول ورُسُل[٦]، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال مجاهد: يعني عبد الله بن سَلام وسلمان وغيرهما ممَّن أسلم[٧]. وقال ابن عباس: بَعثَ أهلُ مكة

---

(١) وقرأ عاصم في رواية حفص عنه «نزل» بالتخفيف و«الروح» بالرفع. السبعة ص٤٧٣، والحجة للقراء السبعة ٥/ ٣٦٩.

(٢) في (م): بمقدر.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٩١.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٣.

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٣ - ٦٤٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٤.

(٧) أخرجه الطبري ٧/ ٦٤٤ - ٦٤٥ بنحوه، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٤٦٦.

إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمدٍ عليه الصلاة والسلام، فقالوا: إنَّ هذا لَزمانُه، وإنَّا لَنجِدُ في التوراة نعتَه وصفتَه[١]. فيرجِعُ لفظُ العلماء إلى كلِّ من كان له عِلْمٌ بكتُبِهِم أسلمَ أو لم يُسلِمْ على هذا القول. وإنما صارت شَهادة أهلِ الكتاب حُجَّةً على المشركين؛ لأنَّهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب؛ لأنَّهم مظنونٌ بهم علمٌ.

وقرأ ابن عامر: «أوَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ». الباقون: «أوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً»[٢] بالنصب على الخبر، واسم يكن «أنْ يَعْلَمَهُ» والتقدير: أوَ لَمْ يكُنْ لهم عِلمُ علماءِ بني إسرائيل الذين أسلموا آيةً واضحةً؟ وعلى القراءة الأولى اسم كان «آيةٌ» والخبر «أنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ إسرائيل»[٣]. وقرأ عاصم الجَحْدَريُّ: «أنْ تَعْلَمَهُ عُلَماءُ بني إسرائيل»[٤].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ أي: على رجلٍ ليس بعربيِّ اللسان ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ بغيرِ لُغةِ العرب لَمَا آمنوا ولَقالوا: لا نفقَه، نظيرُه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ الآية [فصلت:٤٤]. وقيل: معناه: ولو نَزَّلناه على رجلٍ ليس من العرب لَما آمنوا به أَنَفَةً وكِبراً[٥]. يُقال: رجلٌ أعجمٌ وأعجميٌّ إذا كان غيرَ فصيحٍ وإن كان عربيًّا، ورجلٌ عجميٌّ وإن كان فصيحاً يُنسَبُ إلى أصله؛ إلا أنَّ الفرَّاءَ أجازَ أن يُقال: رجلٌ عجميٌّ بمعنى أعجميٍّ[٦].

وقرأ الحسن: «على بعضِ الأعْجَمِيِّينَ» مشدَّدةً بياءينِ جعلَه نِسْبةً. ومن قرأ: «الأعْجَمِينَ» فقيل: إنه جمع أعجم. وفيه بُعد؛ لأنَّ ما كانَ من الصفات الذي مؤنَّثه فعلاء لا يُجمَعُ بالواو والنون، ولا مؤنَّثُه[٧] بالألف والتاء؛ لا يُقال: أحمرون ولا

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٨، وزاد المسير ٦/ ١٤٥.

(٢) السبعة ص٤٧٣، والتيسير ص١٦٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٠١.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ١٩٢، والشاذة ص١٠٧، وزاد المسير ٦/ ١٤٥ وذكر هذه القراءة أيضاً عن الشعبي والضحاك.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٩٢. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٣.

(٧) كلمة «مؤنَّثه» من النسخ الخطية، وهي ليست في (م).

حَمْراوات. وقيل: إنَّ أصلَه الأعجميِّين[١] ـ كقراءة الحسن[٢] ـ ثم حُذِفَتْ ياءُ النَّسَب، وجُعِلَ جَمْعُه بالياءِ والنونِ دليلاً عليها. قاله أبو الفتح عثمان بن جِنِّي[٣]. وهو مذهب سيبويه[٤].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ يعني القرآن، أي: الكفر به ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾. وقيل: سلَكْنا التكذيبَ في قلوبهم، فذلك الذي منعَهم من الإيمان. قاله يحيى بن سلَّام. وقال عكرمة: القسوة[٥]. والمعنى متقارب، وقد مضى في «الحجر»[٦]. وأجاز الفرَّاء الجزمَ في «لا يُؤمنُونَ»؛ لأنَّ فيه معنى الشرط والمجازاة. وزعمَ أنَّ من شأن العرب إذا وضعتْ لا موضع كي لا في مثل هذا ربما جَزَمَتْ ما بعدها وربما رفعَتْ؛ فتقول: ربطتُ الفرسَ لا ينفلِت بالرفع والجزم؛ لأنَّ معناه: إنْ لم أربِطْه ينفلِتْ، والرفعُ بمعنى: كيلا ينفلِتُ[٧]. وأنشدَ لبعضِ بني عُقيل:

وحتى رأينا أحسنَ الفِعْلِ بيننا ... مُسَاكَنَةً لا يقرِفُ الشرَّ قارِفُ[٨]

بالرفعِ لمَّا حذَفَ كي. ومن الجزم قول الآخر:

لَطالَما حَلَّأْتُماها[٩] لا تَرِدْ ... فخلِّياها والسِّجالَ[١٠] تَبْتَرِدْ[١١]

---

(١) في (د) و(ز) و(م): الأعجمين. بياءٍ واحدة.

(٢) في النسخ: الجحدري، والصواب: الحسن، كما يقتضيه السياق.

(٣) في المحتسب ٢/ ١٣٢ دون قوله: (ومن قرأ: «الأعجمين» فقيل: إنه جمع أعجم) وقد ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٣.

(٤) الكتاب ٣/ ٦٤٥.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٨٨.

(٦) ١٢/ ١٨٣.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٣.

(٨) في (د) و(ز) و(ظ): «يقرب» و«قارب» بدل «يقرف» و«قارف»، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٣، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٠٥.

(٩) حلَّأتَ الإبل عن الماء: إذا حبستها عن الورود. تهذيب اللغة ٥/ ٢٣٧.

(١٠) جمع سَجْل: وهي الدلو الضخمة المملوءة ماءً. اللسان (سجل).

(١١) أي: تشرب الماء لتبرد به كبدها. اللسان (برد).

قال النَّحَّاس[(١)]: وهذا كلُّه في «يُؤْمِنُونَ» خطأٌ عند البصريِّين، ولا يجوزُ الجزمُ بلا جازم، ولا يكونُ شيءٌ يعملُ عملاً فإذا حُذِفَ عَمِلَ عملاً أقوى من عملِه وهو موجود، فهذا احتجاجٌ بيِّنٌ.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي العذاب[(٢)]. وقرأ الحسن: «فَتَأْتِيَهُمْ» بالتاء، والمعنى: فتأتيهم الساعةُ بغتةً، فأُضمِرَتْ لدلالة العذابِ الواقعِ فيها، ولكثرةِ ما في القرآن من ذِكْرِها[(٣)]. وقال رجلٌ للحسن وقد قرأ: «فَتَأْتِيَهُمْ»: يا أبا سعيد، إنَّما يأتيهم العذاب بغتة. فانتهرَه وقال: إنَّما هي الساعةُ تأتيهم بغتةً أي: فجأةً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها. ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي: مؤَخَّرون ومُمْهلون[(٤)]. يطلبون الرجعة هنالك فلا يُجابونَ إليها. قال القُشيري: وقوله: ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ ليس عطفاً على قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟﴾ بل هو جوابُ قولِه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلمَّا كان جواباً للنفي انتصب، وكذلك قوله: ﴿فَيَقُولُوا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال مقاتل: قال المشركون للنبيِّ ﷺ: يا محمد، إلى متى تَعِدُنا بالعذاب ولا تأتي به؟ فنزلت: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[(٥)].

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ يعني في الدنيا[(٦)]. والمرادُ أهلَ مكةَ في قول

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٩٣.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.

(٣) المحتسب ٢/ ١٣٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٤.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩، وزاد المسير ٦/ ١٤٦.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.

الضَّحَّاك وغيره. ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ من العذاب والهلاك ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ «ما» الأولى استفهامٌ معناه التقرير، وهو في موضع نصب بـ «أغنى»، و«ما» الثانية في موضع رفع، ويجوزُ أن تكون الثانيةُ نفياً لا موضِعَ لها[(١)]. وقيل: «ما» الأولى حرفُ نفيٍ، و«ما» الثانية في موضع رفعٍ بـ «أغنى»[(٢)] والهاء العائدة محذوفة. والتقدير: ما أغنى عنهم الزمانُ الذي كانوا يُمَتَّعونَه[(٣)]. وعن الزُّهري: إن عُمرَ بنَ عبد العزيزِ كانَ إذا أصبحَ أمسكَ بلحيتِه ثم قرأ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ . مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ ثم يبكي ويقول:

نهارُكَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... ولَيلُكَ نومٌ والرَّدَى لكَ لازمُ
فلا أنتَ في الأيقاظِ يقظانُ حازمٌ ... ولا أنتَ في النُّوَّامِ ناجٍ فسالمُ
تُسَرُّ بما يَفْنَى وتفرحُ بالمنى ... كما سُرَّ باللَّذاتِ في النومِ حالمُ
وتَسعى إلى ما سوف تكره غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تَعيشُ البهائمُ[(٤)]

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ «مِن» صلة، المعنى: وَمَا أَهْلَكْنا قرية[(٥)]. ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي: رسل[(٦)]. ﴿ذِكْرَىٰ﴾. قال الكِسائي: «ذِكْرَى» في موضعِ نصبٍ على الحال[(٧)]. النَّحَّاس: وهذا لا يُحَصِّل، والقول فيه قول الفرَّاء وأبي إسحاق أنها في موضع نصبٍ على المصدر؛ قال الفرَّاء: أي: يَذَّكَّرون ذِكْرَى؛ وهذا قولٌ صحيح؛ لأنَّ معنى ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾: إلَّا لها مُذَكِّرون. «وذِكْرَى» لا يتبيَّنُ فيه الإعراب؛ لأنَّ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٩٣.
(٢) البيان لابن الأنباري ٢/ ٢١٧.
(٣) الوسيط ٣/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.
(٤) أخرج هذه الأبيات أبو نعيم في الحلية ٥/ ٣١٩ - ٣٢٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٤٣.
(٥) مجمع البيان ١٩/ ١٨٥.
(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.
(٧) وقع في مطبوع إعراب القرآن ٣/ ١٩٣: في موضع نصبٍ على القطع، والصواب ما أثبتناه كما في مشكل إعراب القرآن ١/ ٥٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٤.

فيها ألفاً مقصورة. ويجوز «ذِكْرًى» بالتنوين، ويجوز أن يكون «ذِكرى» في موضعِ رفعٍ على إضمار مبتدأ. قال أبو إسحاق: أي: إنذارُنا ذكرى. وقال الفرَّاء: أي: ذلِكَ ذكرى، وتلِكَ ذكرى[1]. وقال ابن الأنباري[2]: قال بعض المفسِّرين: ليس في «الشعراء» وقفٌ تامٌّ إلَّا قولُه: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ وهذا عندنا وقفٌ حسن، ثم تبتدئ «ذِكْرَى» على معنى: هي ذكرى، أو[3]: يُذَكِّرهم ذكرى، والوقف على «ذِكْرَى» أجود.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في تعذيبهم حيثُ قدَّمنا الحُجَّةَ عليهم وأعذَرْنا إليهم[4].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ يعني القرآن، بل ينزل به الروح الأمين. ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي: برمي الشُّهُبِ كما مضى في سورة «الحِجرِ» بيانه[5]. وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمَيْفَع: «وما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطُون»[6] قال المهدَوي: وهو غيرُ جائزٍ في العربية ومخالفٌ للخطِّ. وقال النَّحَّاس[7]: وهذا غلطٌ عند جميع النَّحْويِّين، وسمعتُ علي بن سليمان يقول: سمعتُ محمد بن يزيد يقول: هذا غلطٌ عند العلماء، إنما يكون بدخول شبهة؛ لمَّا رأى الحسنُ في آخره ياءً ونوناً وهو في موضعِ رفعٍ اشتبه عليه بالجمع المُسَلَّمِ فغَلِطَ، وفي

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٩٣ -١٩٤ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٤ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٠٢-١٠٣ .

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٤ .

(٣) في (د) و(م): أي.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٩ .

(٥) ١٢/ ١٨٧-١٩٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥ ، وهي في إعراب القرآن ٣/ ١٩٤ ، والمحتسب ٢/ ١٣٣ عن الحسن، وفي الشاذة ص١٠٨ عن الحسن والأعمش.

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ١٩٤ .

الحديث: «احذروا زلَّة العالم»[١] وقد قرأ هو مع الناس: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]، ولو كان هذا بالواو في موضعِ رفعٍ لَوَجبَ حذفُ النُّونِ للإضافة.

وقال الثعلبي: قال الفرَّاء: غلِطَ الشيخُ ـ يعني الحسن ـ فقيل ذلك للنَّضرِ بن شُمَيل، فقال: إنْ جازَ أنْ يُحتَجَّ بقولِ رؤبة والعجَّاج وذويهما، جاز أن يُحتَجَّ بقول الحسن وصاحبه، مع أنَّا نعلَمُ أنَّهما لم يقرأا بذلك إلَّا وقد سمِعا في ذلك شيئاً[٢]. وقال المؤرِّج: إنْ كان الشيطانُ من شاطَ يشيطُ كان لقراءتِهما وجه. وقال يونس بن حبيب: سمعتُ أعرابيًّا يقول: دخَلْنا بساتينَ من ورائها بَساتون، فقلتُ: ما أشبهَ هذا بقراءة الحسن[٣]!

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ قيل: المعنى: قُلْ لِمَنْ كفر هذا. وقيل: هو مخاطبةٌ له عليه الصلاة والسلام وإن كان لا يفعل هذا؛ لأنَّه معصومٌ مختارٌ، ولكنَّه خُوطِبَ بهذا والمقصودُ غيره. ودلَّ على هذا قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: لئلَّا[٤] يتَّكِلوا[٥] على نسبِهم فيَدَعوا[٦] ما يجِبُ عليهم[٧].

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٨١، والبيهقي ١٠/ ٢١١ من حديث عمرو بن عوف ﵁، بلفظ: «اتقوا زلَّة العالم»، وفي إسناده كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، وهو متروك، واتهمه الشافعي وأبو داود بالكذب. ميزان الاعتدال ٣/ ٤٠٦-٤٠٧.

وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٠٢) من طريق الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن معاذ مرفوعاً بلفظ: «إن أخوف ما أخاف عليكم ثلاث: جدال منافق، وزلة عالم، ودينار تقطع أعناقكم». ثم قال: قال الدارقطني: وقد وقفه شعبة عن عمرو بن مرة، والموقوف هو الصحيح.

(٢) وذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٣١.

(٣) قول يونس بن حبيب أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥.

(٤) في النسخ: لا، والمثبت من إعراب القرآن.

(٥) في (م): يتكلون.

(٦) في (م): فيدعون.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خصَّ عشيرتَه الأقربين بالإنذار؛ لِتنحَسِمَ أطماعُ سائرِ عشيرتِه وأطماعُ الأجانبِ في مُفارقته إيَّاهم على الشِّرك[(١)]. وعشيرتُه الأقربون قريش. وقيل: بنو عبد مناف. ووقع في «صحيح مسلم»: «وأنذِر عشِيرتَكَ الأقربِينَ، ورَهطَكَ مِنهم المُخلَصِين»[(٢)]. وظاهرُ هذا أنَّه كان قرآناً يُتلى وأنه نُسِخَ؛ إذ لم يثبُتْ نقلُه في المصحفِ ولا تواتر، ويَلزَمُ على ثبوتِه إشكالٌ، وهو أنَّه كان يَلزَمُ عليه ألَّا يُنذِرَ إلَّا مَنْ آمنَ من عشيرتِه؛ فإنَّ المؤمنينَ هم الذين يُوصَفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حبِّ النبيِّ ﷺ لا المشركون؛ لأنَّهم ليسوا على شيءٍ من ذلك، والنبيُّ ﷺ دعا عشيرتَه كلَّهم مؤمِنَهم وكافِرَهم، وأنذَرَ جميعَهم ومَنْ معهم ومَنْ يأتي بعدَهم ﷺ، فلم يثبُتْ ذلك نقلاً ولا معنًى[(٣)]. وروى مسلمٌ من حديث أبي هريرةَ قال: لمَّا نزلَتْ هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعبِ بن لؤيٍّ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني مُرَّةَ بن كعب، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني عبدِ شمسٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني عبد مَنافٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني هاشمٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني عبدِ المُطَّلبِ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا فاطمةُ أنقذي نفسَكِ من النَّار، فإنِّي لا أملِكُ لكم من الله شيئاً غيرَ أنَّ لكم رَحِماً سأبُلُّها بِبَلالها»[(٤)].

---

(١) مجمع البيان ١٩/ ١٨٧ بنحوه.

(٢) صحيح مسلم (٢٠٨) من حديث عبد الله بن عباس ﷺ. وأخرجه البخاري أيضاً (٤٩٧٢).

(٣) المفهم ٧/ ٣٨٥ .

(٤) صحيح مسلم (٢٠٤). وأخرجه أحمد (٨٧٢٦). قال السندي في حاشيته على المسند: قوله: «بِبَلَالها» =

الثانية: في هذا الحديث والآية دليلٌ على أنَّ القُرْبَ في الأنساب لا ينفَعُ مع البُعدِ في الأسباب، ودليلٌ على جواز صِلَةِ المؤمنِ الكافرَ وإرشادِه ونصيحتِه؛ لقوله: «إنَّ لكم رَحِماً سأَبُلُّها ببِلالها»[١]، وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية [الممتحنة:٨]، على ما يأتي بيانُه هناكَ إن شاء الله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدَّم في سورة «الحِجرِ»[٣] و«سبحان»[٤] يُقال: خفضَ جناحَه إذا لانَ. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي: خالفوا أمرَكَ. ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بريءٌ من معصيتِكم إيَّايَ؛ لأنَّ عصيانَهم إيَّاه عصيانٌ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلَّا بما يرضاه، ومَنْ تبرَّأَ منه فقد تبرَّأَ اللهُ منه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: فَوِّضْ أمركَ إليه، فإنَّه العزيزُ الذي لا يُغالَبُ، الرَّحيمُ الذي لا يخذُلُ أولياءه[٦].

وقرأ العامَّة: «وتوكَّلْ» بالواو، وكذلك هو في مصاحفهم. وقرأ نافع وابن عامر: «فَتَوَكَّلْ» بالفاء، وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام[٧]. ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقومُ إلى الصلاة في قول أكثر المفسرين: ابن عباس وغيره. وقال مجاهد:

= قيل: بكسر الباء، جمع بَلَل: وهو كلُّ ما بلَّ الحلقَ من ماءٍ أو لبنٍ أو غيره. ويُروى بفتحها على المصدر، أي: أصِلُكم في الدنيا. قيل: شبَّه القطيعة بالحرارة تُطفأُ بالماء.

(١) المفهم ٧/ ٣٨٤ .

(٢) قوله: «إن شاء الله» من (م).

(٣) ١٢/ ٢٥٤-٢٥٥ .

(٤) ١٣/ ٥٩ - ٦٠ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥ .

(٦) مجمع البيان ١٩/ ١٨٩ .

(٧) السبعة ص٤٧٣ ، والتيسير ص١٦٧ .

يعني: حينَ تقومُ حيثُما كُنْتَ[١].

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: في المُصلِّين[٢]. وقال ابن عباس: أي في أصلاب الآباء، آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ حتى أخرجَه نبيًّا[٣]. وقال عكرمة: يراك قائماً وراكعاً وساجداً. وقاله ابنُ عباسٍ أيضاً[٤]. وقيل: المعنى: إنَّكَ ترى بقلبِكَ في صلاتِكَ مَنْ خلفَكَ كما ترى بعينِكَ مَنْ قُدَّامَكَ. ورُوِيَ عن مجاهد؛ ذكره الماورديُّ[٥] والثعلبيُّ. وكان عليه الصلاة والسلام يَرى مَنْ خلفَه كما يَرى مَنْ بين يديه، وذلك ثابتٌ في الصحيح[٦]، وفي تأويل الآية بعيد. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ إنَّما قال: «تَنَزَّلُ» لأنها أكثرُ ما تكون في الهواء، وأنها تمرُّ في الريح[٧].

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ تقدَّم في «الحجر»[٨]. فـ «يُلْقُونَ السَّمْعَ» صفةُ الشياطين «وَأَكْثَرُهُمْ» يرجِعُ إلى الكهنة[٩]. وقيل: إلى الشياطين[١٠].

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٦٥ . وأخرج الطبري ١٧/ ٦٦٦ قول مجاهد .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠٧ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٦٧-٦٦٨ عن مجاهد .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠٧ .

(٤) أخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٦٦٦-٦٦٧ .

(٥) في النكت والعيون ٤/ ١٨٩ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٦٧ .

(٦) صحيح البخاري (٧١٨)، وصحيح مسلم (٤٣٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه أحمد (١٢٠١١).

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥ .

(٨) ١٢/ ١٨٧-١٨٨ .

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤ .

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥ .

قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ **فيه ستُّ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ جمع شاعر، مثل جاهل وجُهَلاء. قال ابن عباس: هم الكفار يَتَّبِعُهُم ضُلَّالُ الجِنِّ والإنس[١]. وقيل ﴿الْغَاوُونَ﴾: الزائِلونَ عن الحقِّ، ودَلَّ بهذا أنَّ الشعراءَ أيضاً غاوون؛ لأنَّهم لو لم يكونوا غاوينَ ما كان أتباعُهم كذلك[٢]. وقد قدَّمنا في سورة «النور»[٣] أنَّ من الشِّعر ما يجوزُ إنشادُه، ويُكرَهُ، ويَحرُمُ. روى مسلمٌ من حديث عَمرو بن الشَّريد عن أبيه قال: رَدِفتُ رسولَ اللهِ ﷺ يوماً[٤] فقال: «هل معَك من شعرِ أُميَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ شيءٌ؟» قلتُ: نعم. قال: «هِيه» فأنشدتُه بيتاً. فقال: «هِيه» ثم أنشدتُه بيتاً، فقال: «هِيه» حتى أنشدتُه مئةَ بيت[٥]. هكذا صوابُ هذا السندِ وصحيحُ روايَتِه. وقد وقعَ لبعضِ رُواةِ كتابِ مُسلم: عن عمرو بن الشَّريد عن الشَّريدِ أبيه، وهو وَهَمٌ؛ لأنَّ الشَّريدَ هو الذي أردفَه رسولُ الله ﷺ، واسمُ أبي الشَّريدِ سُوَيْد. وفي هذا دليلٌ على حفظِ الأشعارِ والاعتناءِ بها إذا تضمَّنَتِ الحِكَمَ والمعاني المُستحسنةَ شرعاً وطبعاً، وإنَّما استكثَر النبيُّ ﷺ من شعر أمية؛ لأنَّه كان حكيماً؛ ألا ترى قولَه عليه الصلاة والسلام: «وكاد أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ أنْ يُسْلِمَ[٦]»

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٣، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٧٥.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦.

(٣) ١٥/ ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٤) كلمة «يوماً» من صحيح مسلم.

(٥) صحيح مسلم (٢٢٥٥). وأخرجه أحمد (١٩٤٧٦).

(٦) أخرجه البخاري (٦١٤٧)، ومسلم (٢٢٥٦) (٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن قوله: هكذا صواب هذا السند... إلى هذا الموضع من المفهم ٥/ ٥٢٦-٥٢٧. وقال مؤلفه: قوله: «هِيه» بكسر الهاء الأولى، وسكون الثانية للوقف. وهي «إيه» التي للاستزادة، وأبدل من الهمزة هاء، =

فأما ما تضمَّنَ ذِكْرَ اللهِ وحمدَه والثناءَ عليه فذلك مندوبٌ إليه، كقول القائل:

الحمدُ للهِ العليِّ المنان ... صارَ الثريدُ في رؤوس العيدان

أو ذِكْرَ رسولِ الله ﷺ أو مَدْحَه كقول العباس:

مِن قبلها طِبْتَ في الظِّلال وفي ... مُسْتودَعٍ حيثُ يُخصَفُ الورَقُ

ثمَّ هبطتَ البلادَ لا بشرٌ ... أنتَ ولا مُضغةٌ ولا عَلَقُ

بل نطفةٌ تركَبُ السَّفِينَ وقَدْ ... أَلْجَمَ نَسْراً وأهلَه الغَرَقُ

تُنقَلُ مِن صَالبٍ إلى رَحِمٍ ... إذا مَضَى عالَمٌ بَدا طَبَقُ

فقال له النبيُّ ﷺ: «لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ»[(١)].

أو الذبَّ عنه، كقول حسان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنهُ ... وعندَ اللهِ في ذاك الجزاءُ

وهي أبياتٌ ذكَرها مسلمٌ في «صحيحه»[(٢)] وهي في السير أتَمُّ.

أو الصلاةَ عليه، كما روى زيدُ بن أسلم: خرجَ عمرُ ليلةً يحرُسُ، فرأى مِصباحاً في بيتٍ، وإذا عجوزٌ تَنفِشُ صوفاً وتقول:

على محمدٍ صلاةُ الأبرارْ ... صلَّى عليه الطيِّبون الأخيارْ

قد كنتَ قوّاماً بُكاً بالأسحارْ ... يا ليتَ شِعْري والمنايا أطوارْ

هل يَجمَعنِّي وحبيبيَ الدارْ

يعني النبيَّ ﷺ؛ فجلس عمرُ يبكي[(٣)].

= وهي اسمٌ لفعل الأمر الذي هو: زِدْ. وهي مبنيةٌ على الكسر؛ لوقوعها موقع المبني الذي هو الأمر. وفي الصحاح: إذا قلت: إيهٍ يا رجل، فإنما تأمره بأن يزيدك من حديثه المعهود. وإن قلت: إيهٍ بالتنوين، كأنك قلت: هاتِ حديثاً؛ لأن التنوين تنكير.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٧ - ١٤٢٨ . وأخرجه الطبراني في الكبير (٤١٦٧)، والحاكم ٣/ ٣٢٨ وقال: هذا حديث تفرد به رواته الأعراب عن آبائهم، وأمثالهم من الرواة لا يضعون.

(٢) برقم (٢٤٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٠٢٤).

وكذلك ذِكْرَ أصحابِه ومَدْحَهم ﷺ؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيثُ قال:

إنِّي رضيتُ عليًّا للهُدَى عَلَماً ... كما رضيتُ عَتيقاً صاحبَ الغارِ
وقد رضيتُ أبا حفصٍ وشيعتَهُ ... وما رضيتُ بقتلِ الشيخِ في الدارِ
كلُّ الصحابةِ عندي قُدوةٌ عَلَمٌ ... فهل عليَّ بهذا القولِ من عارِ
إنْ كُنتَ تعلمُ أنِّي لا أحِبُّهمُ ... إلَّا مِنَ اجلِكَ فاعْتِقْني من النارِ(١)

وقال آخرُ فأحسَنَ:

حُبُّ النبيِّ رسولِ الله مُفْتَرَضٌ ... وحُبُّ أصحابِه نورٌ بِبُرهانِ
من كان يعلَمُ أنَّ اللهَ خالِقُهُ ... لا يَرمِيَنَّ أبا بكرٍ بِبُهتانِ
ولا أبا حفصٍ الفاروقَ صاحِبَهُ ... ولا الخليفةَ عثمانَ بنَ عفَّانِ
أمَّا عليٌّ فمشهورٌ فضائِلُهُ ... والبيت لا يَستوِي إلا بأركانِ

قال ابن العربي(٢): أمَّا الاستعاراتُ في التشبيهاتِ فمأذونٌ فيها وإنِ استغرَقَتِ الحدَّ وتجاوزتِ المُعتادَ؛ فبذلِكَ يضرِبُ المَلَكُ المُوكَّلُ بالرؤيا المثَلَ، وقد أنشد كعب بن زهير النبيَّ ﷺ:

بانَتْ سعادُ فقلبي اليومَ مَتبُولُ ... مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ
وما سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذ رَحلُوا ... إلا أغَنُّ غضيضُ الطَّرْفِ مَكحولُ
تَجلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ ... كأنَّهُ مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلولُ

فجاء في هذه القصيدة من الاستعاراتِ والتشبيهاتِ بكلِّ بديع، والنبيُّ ﷺ يسمع ولا يُنكِرُ في تشبيهه رِيقَها بالرَّاح.

وأنشد أبو بكر ﷺ:

فَقَدْنا الوحيَ إذْ وَلَّيتَ عنَّا ... وودَّعَنا مِنَ اللهِ الكلامُ

---

(١) الأبيات دون البيت الثالث في تاريخ ابن عساكر ٤٢/ ٥٣٣.
(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٤.

سوى ما قد تركتَ لنا رهيناً تَوارثَهُ القَراطيسُ الكرامُ
فقد أورَثْتَنا ميراثَ صِدْقٍ عليكَ به التَّحيةُ والسَّلامُ

فإذا كان رسولُ الله ﷺ يسمَعُه وأبو بكر يُنشِدُه، فهل للتقليدِ والاقتداءِ موضعٌ أرفَعُ من هذا؟! قال أبو عمر: ولا يُنكِرُ الحسَنَ من الشِّعرِ أحدٌ من أهل العلم ولا من أولي النُّهى، وليس أحدٌ من كبار الصَّحابةِ وأهلِ العلم وموضعِ القُدوةِ إلَّا وقد قال الشعر، أو تمثَّلَ به، أو سمِعَه فَرَضِيَه، ما كان حكمةً أو مباحاً، ولم يكن فيه فُحْشٌ ولا خنا ولا لمسلمٍ أذى، فإذا كان كذلِكَ فهو والمنثورُ من القول سواءٌ لا يحِلُّ سماعُه ولا قولُه. وروى أبو هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ على المنبر يقول: «أصدقُ كَلِمةٍ ـ أو أشْعَرُ كلمةٍ ـ قالَتْها العربُ قولُ لَبِيد:

أَلَا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ

أخرجه مسلم، وزاد: «وكادَ أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ أنْ يُسلِمَ»(١). ورُوي عن ابن سيرينَ أنه أنشدَ شعراً فقال له بعضُ جُلسائه: مثلُكَ يُنشِدُ الشِّعرَ يا أبا بكر؟! فقال: ويلَكَ يا لُكَع، وهلِ الشِّعرُ إلَّا كلامٌ لا يُخالِفُ سائرَ الكلامِ إلَّا في القوافي، فحَسَنُه حسنٌ وقبيحُه قبيح؟! قال: وقد كانوا يتذاكرون الشِّعر. قال: وسمعتُ ابنَ عُمرَ يُنشِدُ:

يُحِبُّ الخمرَ من مالِ النَّدامَى ويَكرهُ أنْ يُفارِقَهُ الغُلُوسُ(٢)

وكان عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود ـ أحدُ فُقهاءِ المدينةِ العشرة ثم المشيخةِ السبعة ـ شاعراً مجيداً مُقدَّماً فيه(٣). وللزُّبير بن بكَّار القاضي في أشعاره كتاب، وكانتْ له زوجةٌ حسنةٌ تُسمَّى عَثْمة، فعتِبَ عليها في بعض الأمر فطلقَّها، وله فيها أشعارٌ كثيرة، منها قوله:

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٥٦) (٣). وأخرجه أيضاً البخاري (٦١٤٧) بتلك الزيادة، وقد سلفت قريباً.

(٢) التمهيد ٢٢/ ١٩٤-١٩٥ . والغَلوس تصغير الغَلَس: وهو ظلمة آخر الليل. الصحاح (غلس). وأثر ابن سيرين أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٧١).

(٣) التمهيد ٩/ ٧ .

تغلغلَ حُبُّ عَثمةَ في فؤادي فباديهِ مع الخافي يَسيرُ
تغلغلَ حيثُ لم يبلُغْ شَرابٌ ولا حُزنٌ ولم يبلُغْ سُرورُ
أكادُ إذا ذكرتُ العهدَ منها أطيرُ لوَ انَّ إنساناً يَطيرُ[1]

وقال ابن شهاب: قلتُ له: تقول الشِّعَر في نُسكِكَ وفضلِكَ؟! فقال: إنَّ المصدورَ إذا نَفَثَ بَرَأ.

الثانية: وأمَّا الشِّعرُ المذمومُ الذي لا يَحِلُّ سماعُه وصاحبُه مَلومٌ، فهو المُتكلِّمُ بالباطل حتى يُفضِّلوا أجبنَ الناس على عنترة، وأشحَّهم على حاتم، وأن يَبهتوا البريء ويُفسِّقوا التَّقيَّ، وأن يُفرِّطوا في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبةً في تسلية النَّفْسِ وتحسينِ القول[2]، كما رُويَ عن الفَرَزدقِ أنَّ سليمانَ بنَ عبدِ الملك سمِعَ قولَه:

فبِتْنَ بجانبيَّ مُصَرَّعاتٍ وبِتُّ أَفُضُّ أغلاقَ الختامِ

فقال: قد وجبَ عليك الحَدُّ. فقال: يا أمير المؤمنين، قد درأَ اللهُ عني الحَدَّ بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[3]. وروي أنَّ النعمانَ بنَ عديِّ بنِ نَضْلةَ كان عاملاً لعمر بن الخطاب ﷺ فقال:

مَنْ مُبْلِغُ الحسناءِ أنَّ حليلَها بمَيْسَانَ[4] يُسقَى في زُجاجٍ وحَنْتَمِ
إذا شئتُ غنَّتْني دَهاقينُ[5] قريةٍ ورقَّاصةٌ تَجْذو[6] على كلِّ مَنْسِمِ[7]

(١) الأبيات سلفت ٢/ ٢٥٦ .

(٢) من قوله: أن يفرطوا... إلى هذا الموضع في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٩ .

(٣) الأغاني ٢١/ ٣٧٣ .

(٤) اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط . معجم البلدان ٥/ ٢٤٢ .

(٥) كلمة فارسية معرَّبة، جمع دهقان: وهو التاجر. اللسان (دهقن).

(٦) من الجُذو: وهو القيام على رؤوس الأصابع . اللسان (جذا).

(٧) أي: مِفْصل. اللسان (نسم).

فإن كنتَ نَدْماني فبالأكْبَرِ اسْقِني ... ولا تَسْقِني بالأصغرِ المُتثَلِّمِ[١]
لعَلَّ أميرَ المؤمنين يَسوءُه ... تَنادُمُنا بالجَوْسَقِ[٢] المُتهدِّمِ

فبلغَ ذلِكَ عُمرَ، فأرسلَ إليه بالقُدوم عليه. وقال: إي واللهِ إني ليَسوءُني ذلك. فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما فعلتُ شيئاً مما قلتُ، وإنَّما كانَتْ فضلةً من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فقال له عمر: أمَّا عُذرُكَ فقد درأَ عنكَ الحَدَّ، ولكِنْ لا تعمَلْ لي عملاً أبداً وقَدْ قُلتَ ما قُلتَ[٣]. وذكر الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ قال: حدَّثني مصعب بن عثمان أنَّ عُمرَ ابنَ عبد العزيز لمَّا وَليَ الخلافةَ لم يكن له هَمٌّ إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص، فكتبَ إلى عامله على المدينة: إنِّي قد عرفتُ عُمرَ والأحوصَ بالشَّرِّ والخُبثِ، فإذا أتاكَ كتابي هذا فاشدُدْ عليهما واحمِلْهما إليَّ. فلمَّا أتاه الكتابُ حملَهما إليه، فأقبل على عمر فقال: هِيه!

فلم أرَ كالتَّجميرِ منظَرَ ناظرٍ ... ولا كَليالي الحجِّ أفْلَتْنَ ذا هَوى
وكم مالئٍ عينيه من شيءِ غيرِه ... إذا راحَ نحوَ الجمرةِ البيضُ كالدُّمَى

أمَّا واللهِ لِو اهتممتَ بحجِّكَ لم تنظُرْ إلى شيءٍ غيرِك، فإذا لم يفلَتِ الناسُ منكَ في هذه الأيام فمتى يفلَتون؟! ثم أمر بنَفْيِه، فقال: يا أمير المؤمنين، أوَ خَيرٌ من ذلك؟ فقال: ما هو؟ قال: أُعاهِدُ اللهَ أنِّي لا أعودُ إلى مثل هذا الشِّعر، ولا أذكرُ النِّساءَ في شعرٍ أبداً، وأُجَدِّدُ توبةً، فقال: أوَ تفعَلُ؟ قال: نعم. فعاهدَ اللهَ على توبتِه وخلَّاه، ثم دعا بالأحوص، فقال: هِيه!

اللهُ بيني وبينَ قَيِّمِها ... يَفِرُّ منِّي بها وأَتَّبِعُ

بَلِ اللهُ بين قَيِّمِها وبينَك. ثم أمرَ بنَفْيِه، فكلَّمه فيه رجالٌ من الأنصار فأبى، وقال:

---

(١) من ثَلِمَ الإناء إذا كُسِرَ حرفُه. اللسان (ثلم).

(٢) وهو القصر. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٤٨ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٩-١٤٣٠ .

واللهِ لا أردُّه ما كان لي سلطان، فإنَّه فاسقٌ مُجاهِرٌ[١]. فهذا حُكم الشِّعرِ المَذْمومِ وحُكمُ صاحبِه، فلا يحِلُّ سماعُه ولا إنشادُه في مسجدٍ ولا غيرِه، كمنثورِ الكلامِ القبيحِ ونحوِه. وروى إسماعيل بن عَيَّاش، عن عبد الله بن عون، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «حَسَنُ الشِّعرِ كَحسَنِ الكلامِ، وقبيحُه كقَبيحِ الكلام[٢]» رواه إسماعيل عن عبد الله الشَّامي، وحديثُه عن أهل الشَّام صحيحٌ فيما قال يحيى بنُ مَعينٍ وغيرُه[٣]. وروى عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الشِّعرُ بمنزلةِ الكلامِ، حَسَنُه كحَسَنِ الكلام، وقبيحُه كَقبيحِ الكلام»[٤].

الثالثة: روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يمتلئَ جَوفُ أحدِكُمْ قَيْحاً يَرِيهِ[٥] خيرٌ مِنْ أنْ يمتلِئَ شِعْراً»[٦]، وفي الصحيح أيضاً عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ قال: بينا نحنُ نسيرُ مع رسولِ الله ﷺ إذْ[٧] عرَضَ شاعِرٌ يُنشِدُ، فقال رسول الله ﷺ: «خُذوا الشَّيطانَ ـ أو: أمْسِكوا الشَّيطان ـ لَأَنْ يمتلِئَ جوفُ رجلٍ قيحاً خيرٌ له مِنْ أنْ يمتلِئَ شِعراً»[٨]. قال عُلماؤنا: وإنما فعلَ النبيُّ ﷺ هذا مع هذا الشاعرِ لِما عَلِمَ من حاله، فلعلَّ هذا الشاعرَ كان مِمَّنْ قد عُرِفَ من حاله أنَّه قدِ اتَّخذَ الشِّعرَ طريقاً للتكسُّبِ، فُيفرِطُ في المدحِ إذا أُعطي، وفي الهَجْوِ والذَّمِّ إذا مُنِعَ، فيؤذي

(١) الأغاني ٩/ ٦٤-٦٥.

(٢) أخرجه الدارقطني (٤٣٠٩). وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو يعلى (٤٧٦٠)، والدارقطني (٤٣٠٦) و(٤٣٠٧).

(٣) تهذيب التهذيب ١/ ١٦٣.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٦٥)، والطبراني في الأوسط (٧٦٩٢)، والدارقطني (٤٣٠٨).

(٥) قبلها في (د) و(م): حتى.

(٦) صحيح مسلم (٢٢٥٧). وأخرجه أحمد (٧٨٧٤)، والبخاري (٦١٥٥).

(٧) في (م): إذا.

(٨) صحيح مسلم (٢٢٥٩). وأخرجه أحمد (١١٠٥٧).

الناسَ في أموالِهم وأعراضِهم، ولا خلافَ في أنَّ مَنْ كان على مِثْلِ هذه الحالة فكلُّ ما يكتسِبُه بالشِّعرِ حرام، وكلُّ ما يقولُه من ذلك حرامٌ عليه، ولا يحِلُّ الإصغاءُ إليه، بل يجبُ الإنكارُ عليه، فإنْ لم يمكِنْ ذلِكَ لمن خافَ من لسانه قطعاً تعيَّنَ عليه أن يُداريَه بما استطاع، ويُدافِعَه بما أمكن، ولا يحِلُّ أن[1] يُعطى شيئاً ابتداءً؛ لأنَّ ذلك عونٌ على المعصية، فإنْ لم يجِدْ من ذلك بُدًّا أعطاه بنيَّةِ وقاية العِرض، فما وَقَى به المرءُ عِرْضَه كُتِبَ له به صدقة. وقوله[2]: «لَأَنْ يمتلِئَ جوفُ أحدِكم قيحاً يَرِيه[3]» القيح: المِدَّة يُخالِطُها دم. يُقال منه: قاحَ الجُرْحُ يَقِيحُ وتَقيَّحَ وقَيَّحَ. و«يَرِيه» قال الأصمعي: هو من الوَرْيِ على مثال الرَّمْيِ، وهو أن يَدْوَى جوفُه، يُقال منه: رجلٌ مَوْرِيٌّ، مُشدَّدٌ غيرُ مهموز. وفي الصِّحاح: ورى القيحُ جوفَه يَرِيهِ وَرْياً إذا أكله[4]. وأنشد اليَزيديُّ:

قالتْ له وَرْياً إذا تَنحنَحا[5]

وهذا الحديث أحسنُ ما قيلَ في تأويله: إنَّه الذي قد غلَبَ عليه الشِّعرُ، وامتلأَ صدرُه منه دونَ عِلْمٍ سواه ولا شيءٍ من الذِّكْرِ مِمَّن يخوضُ به في الباطل، ويسلكُ به مسالكَ لا تُحمَدُ له، كالمُكثِرِ من اللَّغَطِ والهَذَرِ والغِيبةِ وقَبيحِ القول[6]. ومَنْ كان الغالبُ عليه الشِّعرُ لَزِمَتْه هذه الأوصافُ المذمومةُ الدَّنِيَّةُ، لحكم العادة الأدبيَّة. وهذا المعنى هو الذي أشارَ إليه البخاريُّ في «صحيحه» لمَّا بوَّبَ على هذا الحديث «باب ما يُكرَهُ أن يكون الغالِبُ على الإنسانِ الشِّعرُ». وقد قيل في تأويله: إنَّ المُرادَ بذلك

(١) قبلها في (م): له.

(٢) قبلها في (م): قلت.

(٣) قبلها في النسخ: حتى. وهي ليست في لفظ الحديث كما سلف.

(٤) الصحاح (ورى).

(٥) من قوله: قال علماؤنا... إلى هذا الموضع من المفهم ٥/٥٢٨-٥٢٩ .

(٦) التمهيد ٢٢/١٩٦ .

الشِّعرُ الذي هُجيَ به النبيُّ ﷺ أو غيرُه. وهذا ليس بشيء؛ لأنَّ القليلَ من هَجْوِ النبيِّ ﷺ وكثيرَه سواءٌ في أنَّه كفرٌ ومذموم، وكذلك هَجْوُ غيرِ النبيِّ ﷺ من المسلمين مُحرَّمٌ قليلُه وكثيرُه، وحينئذٍ لا يكون لتخصيص الذَّمِّ بالكثيرِ معنًى[1].

الرابعة: قال الشافعي: الشِّعرُ نوعٌ من الكلام، حَسَنُه كحسَنِ الكلام، وقبيحُه كقبيحِ الكلام، يعني أنَّ الشِّعرَ ليس يُكرَهُ لذاتِه، وإنَّما يُكرَهُ لمُضمَّناتِه، وقد كان عند العرب عظيمَ الموقع؛ قال الأوَّلُ منهم:

وجُرحُ اللِّسانِ كجُرْحِ اليدِ[2]

وقال النبيُّ ﷺ في الشِّعر الذي يَرُدُّ به حسَّان على المشركين: «إنَّه لأسرَعُ فيهم من رَشْقِ بالنَّبْل» أخرجه مسلم[3]. وروى التِّرمِذيُّ[4] وصحَّحه عن أنس[5] أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ مكَّةَ في عُمرة القضاء وعبدُ اللهِ بنُ رَوَاحةَ يمشي بين يديه ويقول:

خَلُّوا بني الكفَّارِ عن سبيلِهِ   اليومَ نَضرِبْكُمْ على تنزيلِهِ
ضرباً يُزيلُ الهامَ عن مَقيلِهِ   ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ

فقال عمر: يا ابن رَوَاحة، في حرَمِ اللهِ، وبينَ يدَيْ رسول الله ﷺ؟! فقال رسول الله ﷺ: «خَلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرَعُ فيهم من نَضْحِ النَّبْل»[6].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ لم يختلفِ القُرَّاءُ في رفع «وَالشُّعَرَاءُ» فيما علمتُ. ويجوز النصب على إضمار فعلٍ يُفسِّره «يَتَّبِعُهُمْ»[7]، وبه قرأ

---

(١) المفهم ٥/ ٥٣٠ .

(٢) عجز لبيت، صدره: ولو عن نثا غيره جاءني. قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٨٥ . والنَّثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن وسيئ. اللسان (نثا).

(٣) في صحيحه (٢٤٩٠).

(٤) في سننه (٢٨٤٧).

(٥) تحرف في النسخ إلى: ابن عباس.

(٦) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٩ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦ .

عيسى بن عمر؛ قال أبو عبيد: كان الغالبَ عليه حبُّ النصب؛ قرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة:٣٨] و﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد:٤] و﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور:١]. وقرأ نافعٌ وشيبةُ والحسن والسُّلَميّ: «يَتْبَعُهُمْ»[(١)] مُخففاً. الباقون «يَتَّبِعُهُمُ»[(٢)]. وقال الضَّحَّاك: تهاجى رَجُلانِ أحدُهما أنصاريٌّ والآخرُ مهاجريٌّ على عهد رسول الله ﷺ، مع كلِّ واحدٍ غُواةُ قومِه وهم السفهاء، فنزلت. وقاله ابن عباس[(٣)]. وعنه: هم الرُّواةُ للشِّعر[(٤)]. وروى عنه عليُّ بن أبي طلحة أنَّهم هم الكفار يَتْبعُهم ضُلَّالُ الجِنِّ والإنس. وقد ذكرناه. وروى غُضَيْف عن النبيِّ ﷺ: «من أحدثَ هجاءً في الإسلام فاقطعوا لسانه»[(٥)]. وعن ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا افتتحَ مكةَ رنَّ إبليسُ رنَّةً وجمع إليه ذُرِّيتَه، فقال: «ايئسوا أن تُريدوا أمةَ محمدٍ على الشِّركِ بعدَ يومِكم هذا، ولكِنْ أفْشوا فيهما ـ يعني مكة والمدينة ـ الشِّعْرَ[(٦)]».

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يقول: في كلِّ لغوٍ يخوضون[(٧)]، ولا يتَّبعون سَنَنَ الحقِّ؛ لأنَّ مَنِ اتَّبعَ الحقَّ وَعلِمَ أنَّه يُكتَبُ عليه ما يقولُه تَثَبَّتَ، ولم يكن هائماً يذهبُ على وجهه لا يُبالي ما قال[(٨)]. نزلت في عبد الله ابن الزِّبَعْرى ومُسافِعِ بن عبد مناف وأميَّة بن أبي الصلت[(٩)].

---

(١) الشاذة ص١٠٨، والكشاف ٣/ ١٣٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٦. وقراءة نافع في السبعة ص٤٧٤، والتيسير ص١١٥.

(٣) أخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٦٧٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٦٧٣.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨/ (٦٦١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٢٣: فيه إسحاق بن أبي فروة، وهو متروك.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٣١٨)، وفيه: «النَّوح» بدل «الشِّعر». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٣: رجاله موثقون.

(٧) أخرجه الطبري ١٧/ ٦٧٦ عن ابن عباس ﷺ. ونقله الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٩٠ عن قطرب.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٦.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول: أكثرهم يكذبون، أي: يدلُّون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه. وقيل: إنها نزلت في أبي عَزَّةَ الجُمَحيِّ حيث قال:

أَلَا أبلِغا عنِّي النبيَّ محمداً ... بأنَّكَ حقٌّ والمليكُ حَميدُ
ولَكنْ إذا ذُكِّرتُ بَدْراً وأهلَهُ ... تَأَوَّهَ منِّي أعْظُمٌ وجُلودُ[(١)]

ثم استثنى شعر المؤمنين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في كلامهم[(٢)] ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وإنما يكون الانتصار بالحقِّ، وبما حدَّه اللهُ عزَّ وجلَّ، فإن تجاوزَ ذلك فقدِ انتصرَ بالباطل[(٣)].

وقال أبو الحسن البرَّاد[(٤)] لمَّا نزلَتْ: «والشُّعراءُ»: جاءَ حسان وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: يا نبيَّ الله، أنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلمُ أنَّا شُعراءُ؟ فقال: «اقرؤوا ما بعدها: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ـ الآية ـ أنتم ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أنتم»[(٥)] أي: بالردِّ على المشركين.

قال النبيُّ ﷺ: «انْتَصِروا ولا تقولوا إلَّا حقًّا، ولا تذكروا الآباءَ والأُمَّهات» فقال حسان لأبي سفيان:

هجوتَ محمداً فأجَبْتُ عنهُ ... وعندَ اللهِ في ذاك الجزاءُ
وإنَّ أبي ووالدتي وعِرْضي ... لِعِرْضِ محمدٍ منكم وِقاءُ
أتشتُمُهُ ولستَ له بِكُفءٍ ... فشَرُّكما لخيرِكما الفِداءُ

---

(١) البيتان في طبقات فحول الشعراء ٢١/٢٥٣-٢٥٤، وجمهرة الأمثال ٢/٣٨٧.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/٤٨٧.

(٣) إعراب القرآن ٣/١٩٦.

(٤) واسمه سالم مولى تميم الداري كما وقعت تسميته في رواية الطبري، وقد ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/٣٥٦. وتحرف في النسخ إلى: المبرد.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/٥١٨، والطبري ١٧/٦٨٢.

لساني صارمٌ لا عيبَ فيهِ وبحري لا تُكدِّرهُ الدِّلاءُ[١]

وقال كعب: يا رسول الله، إنَّ الله قد أنزل في الشعر ما قَدْ علمتَ، فكيف ترى فيه؟ فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ المؤمنَ يُجاهِدُ بنفْسِه وسيفهِ ولسانهِ، والذي نفسي بيدِهِ لَكأنَّ ما ترمونَهم به نَضْحُ النَّبْل»[٢].

وقال كعب:

جاءت سَخِينةُ كي تُغالِبَ ربَّها ولَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلَّابِ

فقال النبيُّ ﷺ: «لقد مدحَكَ اللهُ يا كعبُ في قولِكَ هذا»[٣].

وروى الضَّحَّاك عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾: منسوخٌ بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٤]. قال المَهْدَويُّ: والصحيح[٥] عن ابن عباس أنَّه استثناء.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ في هذا تهديدٌ لمنِ انتصرَ بظلم[٦]. قال شُرَيح[٧]: سيعلَمُ الظالمون كيفَ يَخْلُصون من بين يَدي اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النُّصرةَ. وقرأ ابن عباس: «أَيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ» بالفاء والتاء[٨]، ومعناهما واحد. ذكره الثعلبي[٩].

---

(١) الأبيات في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٢٤ .

(٢) أخرجه أحمد (٢٧١٧٤) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

(٣) أخرجه الحاكم ٣/ ٤٨٩ من حديث البراء بن عازب ﷺ بنحوه. والسَّخينة: طعام حار يصنع من دقيق وسمن، أغلظُ من الحساء، وأرقُّ من العصيدة. اللسان (سخن).

(٤) ذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٧٢ . وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٧١)، وأبو داود (٥٠١٦) من طريق عكرمة، عن ابن عباس ﷺ.

(٥) في (م): وفي الصحيح.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦ .

(٧) قوله: «قال شريح» من (م).

(٨) زاد المسير ٦/ ١٥٢ .

(٩) الشاذة ص١٠٨ . وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٥٢ عن ابن عباس وأبي بن كعب وأبي =

ومعنى: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾: أيَّ مصيرٍ يصيرون، وأيَّ مَرْجِعٍ يرجعون؛ لأنَّ مصيرَهم إلى النَّار، وهو أقبَحُ مصير، ومرجِعُهم إلى العقاب[1] وهو شرُّ مَرْجِع. والفرق بين المُنقلَبِ والمَرجِعِ أنَّ المُنقلبَ الانتقالُ إلى ضِدٍّ ما هو فيه، والمرجعُ العَوْدُ من حالٍ هو فيها إلى حالٍ هو فيها إلى حالٍ كان عليها، فصار كلُّ مرجعٍ مُنقلَباً، وليس كلُّ مُنقلَبٍ مرجِعاً، والله أعلم، ذكره الماوردي[2]. و«أَيَّ» منصوبٌ بـ «يَنْقَلِبُونَ» وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوباً بـ «سَيَعْلَمُ» لأنَّ أيًّا وسائرَ أسماءِ الاستفهامِ لا يعمَلُ فيها ما قبلَها فيما ذكَر النَّحْويُّون؛ قال النَّحَّاس: وحقيقةُ القولِ في ذلك أنَّ الاستفهام معنًى وما قبله معنًى آخر، فلو عمِلَ فيه ما قبلَه لَدخَلَ بعضُ المعاني في بعض[3].

= العالية، وأبي مجلز، وأبي عمران الجوني، وعاصم الجحدري.

(١) في (م): العقاب.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ١٩١ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦ .

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مَكِّيَّةٌ، إلَّا قولَه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ...﴾ إلى آخرِها[1]

وهي مئتانِ وسِتٌّ ـ أو سَبعٌ ـ وعشرونَ آية[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿طسٓمٓ﴾ قرأَهُ حمزةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ بالإمالةِ، ونافعٌ بينَ بينَ كراهةَ العَوْدِ إلى الياءِ المهروبِ مِنْها، وأظهرَ نُونَهُ حمزةُ[3]؛ لأنَّه في الأصلِ مُنفَصِلٌ عمَّا بعدَه.

(٢) ـ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: الظَّاهِرِ إعجازُهُ وصِحَّتُه، والإشارةُ إلى السُّورَةِ أو القرآنِ على ما مرَّ في أوَّلِ البَقَرَةِ.

(٣) ـ ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: قاتِلٌ نفسَكَ، وأصلُ «البَخْعِ»: أَنْ يبلُغَ بالذَّبحِ البِخَاعَ، وهو عِرقٌ مسُتَبطِنُ الفِقارَ[4]، وذلك أقصى حدِّ الذَّبحِ.

---

(١) روي هذا القول عن ابن عباس وعطاء. انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٩٦).

(٢) المصدر السابق، وفيه: مئتان وست وعشرون آية في المدني الأخير والمكي والبصري، وسبع وعشرونَ في المدني الأول والكوفي والشامي.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٥).

(٤) قال ابن الأثير مشكِّكًا في كلام الزمخشري في معنى هذه الكلمة: هكذا ذكره في كتاب «الفائق =

وقُرِئَ: «باخِعُ نَفْسِكَ» بالإضافةِ[١].

و«لعلَّ» للإشفاقِ؛ أي: أَشْفِقْ على نَفسِكَ أَنْ تَقتُلَها ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ لئلَّا يُؤمِنُوا، أو: خيفةَ أَنْ لا يُؤمِنوا.

(٤) ـ ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾: دلالـةً مُلجِئَـةً إلـى الإيمـانِ، أو: بَلِيَّـةً قاسِـرَةً[٢] عليه.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾: مُنقادِينَ، وأصلُه: فظَلُّوا لها خاضِعينَ، فأُقحِمَت الأَعناقُ لبَيانِ مَوضعِ الخُضوعِ، وتُرِكَ الخبرُ على أصلِه.

وقيلَ: لَمَّا وُصِفَت الأَعناقُ بصِفاتِ العُقَلاءِ أُجرِيَتْ مُجراهُم.

وقيلَ: المرادُ بها الرُّؤساءُ أو الجماعاتُ؛ مِن قولِهم: «جاءَنا عُنُقٌ مِن النَّاسِ» لفَوْجٍ منهم[٣].

وقُرِئَ: «خاضِعَةً»[٤].

= في غريب الحديث»، وكتاب «الكشاف» في تفسير القرآن، ولم أجده لغيره، وطالما بحثت عنه في كتب اللغة والطب والتشريح فلم أجد البخاع ـ بالباء ـ مذكورًا في شيء منها. ونقله السيوطي في «حاشيته» (٩/ ٤٦٤)، ولم يرد عليه، بل نقل معنى «النُّخاع» عن أهل اللغة، وقد تبع في هذا الطيبي في «فتوح الغيب» (١١/ ٣١١ ـ ٣١٢)، ولعلَّه تلميح إلى أنه تصحف على الزمخشري . قلت: سبق إلى ذكره ابن فارس، فلا وجه للتوقف في صحته. انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (١/ ٢٠٧)، و«الفائق في غريب الحديث» للزمخشري (١/ ٨٢)، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (١/ ١٠٢).

(١) نسبت لقتادة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «قاصرة»، وفي هامشها نسخة مثل المثبت.

(٣) الأقوال الثلاثة لبيان وجهِ ورود جمع العقلاء ﴿خَٰضِعِينَ﴾ في خبر غير العاقل ﴿أَعْنَٰقُهُمْ﴾.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧) عن عيسى، ونسبت لابن أبي عبلة. انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٠/ ٢٦)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢٥).

﴿فَظَلَّتْ﴾ عطفٌ على ﴿نُنَزِّلْ﴾ عطفَ ﴿وَأَكُن﴾ على ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ [المنافقون: ١٠] [1]؛ لأنَّه لو قيلَ: «أنزَلْنَا» بدلَه صحَّ.

(٥) ـ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾: موعظةٍ، أو: طائفةٍ مِن القُرآنِ ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ يُوحيه [2] إلى نَبيِّه ﴿مُحْدَثٍ﴾: مُجدَّدٍ إنزالُه لتكريرِ التَّذكيرِ وتَنويعِ التَّقريرِ ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾: إلَّا جَدَّدُوا إعراضًا عنه وإصرارًا على ما كانُوا عليه.

(٦) ـ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾؛ أي: بالذِّكرِ بعدَ إعراضِهِم، وأَمعَنُوا في تَكذيبِه بحيثُ أَدَّى بهم إلى الاستهزاءِ به المخبَرِ به عَنْهُم ضِمنًا في قولِه:

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: إذا مَسَّهُم عذابُ اللهِ يومَ بَدرٍ أو يومَ القيامَةِ ﴿أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ مِن أنَّه كانَ حقًّا أم باطلًا، وكانَ حقيقًا بأَنْ يُصَدَّقَ ويُعظَّمَ قَدْرُه أو يُكذَّبَ فيستخفَّ أمرُه.

(٧) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾: أولَمْ يَنظُروا إلى عَجائِبِها ﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾: صنفٍ ﴿كَرِيمٍ﴾: محمودٍ كثيرِ المَنفعَةِ، وهو صِفَةٌ لكلِّ ما يُحمَدُ ويُرضَى، وهاهنا يحتمِلُ أن تكونَ مُقيِّدةً لِمَا يتضمَّنُ الدَّلالةَ على القُدرةِ، وأن تكون مُنبِئةً مُنبِّهةً على أنَّه ما مِن نبتٍ إلَّا ولَهُ فائدَةٌ إمَّا وحدَهُ أو مع غيرِه.

و﴿كُلِّ﴾ لإحاطَةِ الأزواجِ، و﴿كَمْ﴾ لكَثْرتِها.

---

(١) يعني: في قوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]، فالفعل الماضي ﴿فَظَلَّتْ﴾ عطفَ على ﴿نُنَزِّلْ﴾ المضارع الذي لو استعمل بدله الماضي لكان صحيحًا، كما أنَّ (أكُنْ) معطوفٌ على (أصَّدَّقَ)، على أنه لو قيل: (أصَّدقْ) مجزومًا؛ لكان صحيحًا. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٦٥)، وانظر: «فتوح الغيب» (١١/ ٣١٣).

(٢) في نسخة الفاروقي: «بوحيه».

(٨) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: إنَّ في إنباتِ تلكَ الأَصنافِ، أو: في كلِّ واحدٍ ﴿لَآيَةً﴾ على أنَّ مُنبتَها تامُّ القُدرةِ والحِكمَةِ، سابغُ النِّعمةِ والرَّحمةِ.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في علمِ اللهِ وقَضائِه، فلذلك لا ينفعُهم أمثالُ هذه الآياتِ العِظامِ.

(٩) ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الغالبُ القادِرُ على الانتقامِ مِن الكَفَرةِ ﴿الرَّحِيمُ﴾ حيثُ أَمْهلَهم.

أو: ﴿الْعَزِيزُ﴾ في انتقامِه ممَّن كَفَرَ ﴿الرَّحِيمُ﴾ لِمَن تابَ وآمَنَ.

(١٠ ـ ١١) ـ ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ مُقدَّرٌ بـ: اذكُر، أو ظرفٌ لِمَا بعدَه:

﴿أَنِ ائْتِ﴾: أي ائتِ، أو: بأَنِ ائتِ ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بالكُفرِ واستعبادِ بني إسرائيلَ وذبحِ أولادِهم ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ مِن الأَوَّلِ أو عَطفُ بيانٍ له، ولعَلَّ الاقتصارَ على القومِ للعلمِ بأنَّ فِرعونَ كانَ أَوْلَى بذلك.

﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استئنافٌ أتبعَهُ إرسالَهُ إليهم للإنذارِ تَعجيبًا له مِن إفراطِهم في الظُّلمِ واجترِائِهم عليه، وقُرِئَ بالتَّاءِ[١] على الالتفاتِ إليهم زجرًا لهم وغضبًا عليهم، وهُم وإنْ كانُوا غُيَّبًا حينئذٍ أُجروا مُجرى الحاضرينَ في كلامِ المُرْسَلِ إليهم مِن حَيثُ إنَّه مبلِّغُهُ إليهم وإسماعُه مَبدأُ إسماعِهِم، مع ما فيه[٢] مِن مزيدِ الحثِّ على التَّقوَى لِمَن تَدبَّرَه وتأمَّلَ مَورِدَه[٣].

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٢٧) عن عبد الله بن مسلم بن يسار وحماد بن سلمة.

(٢) أي: الالتفات.

(٣) قال الزمخشري: فيه لُطفٌ وحَثٌّ على زيادة التَّقوَى، وكم من آيةٍ أُنزلَت في شأن الكافرين وفيها أوفَرُ نَصيبٍ للمؤمنينَ تَدبُّراً لها واعتباراً بمَوردها. انظر: «الكشاف» (٦/ ٢٠٨).

وقُرِئَ بكسرِ النُّونِ[(١)] اكتفاءً بها عن ياءِ الإضافَةِ، ويحتملُ أن يكونَ بمعنى: ألا يا ناسُ اتَّقونِ؛ كقولِه: ﴿أَلَا يَا اسجُدُوا﴾ [النمل: ٢٥][(٢)].

(١٢ ـ ١٣) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ رتَّبَ استدعاءَ ضمِّ أخيه إليهِ وإشراكَه له في الأمرِ على الأُمورِ الثَّلاثةِ: خوفِ التَّكذيبِ، وضيقِ القَلبِ انفعالًا عنه، وازديادِ الحُبْسَةِ في اللِّسانِ بانقباضِ الرُّوحِ[(٣)] إلى باطنِ القَلْبِ عندَ ضِيقِهِ بحيثُ لا يَنطَلِقُ؛ لأَنَّها إذا اجتمَعَتْ مَسَّتِ الحاجَةُ إلى مُعينٍ يُقَوِّي قلبَهُ وينوبُ مَنابَه متى تعتريه حُبسَةٌ حتَّى لا تختلَّ دعوَتُه ولا تَنبَتِرَ[(٤)] حُجَّتُه، وليس ذلك تَعَلُّلًا[(٥)] منه وتَوقُّفًا في تَلَقِّي الأمرِ، بل طلبًا لِمَا يكونُ معونةً على امتثالِه، وتمهيدَ عُذرٍ فيه[(٦)].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٦/ ٢٠٧) دون نسبة، وقالَ في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧): أجازه عيسى.

(٢) قراءة الكسائي، يخفف (ألا) على أنها للتنبيه، ويقف على (يا)، ويبتدئ: (اسجدوا) على الأمر. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

(٣) المراد بالروح هنا: الروح الحيواني في اصطلاح الحكماء، وهو جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، وينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وقال الشهاب في تفسير سورة الأحزاب: هو البخار اللطيف النورانيّ الذي يتولد من دم رقيق فيه، وبه الإدراك عند الحكماء. وانظر: «التعريفات» للجرجاني (ص١١٢).

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «ولا تنبتر حجته»؛ أي: لا تنقطع بعد الشروع فيها، من «البتر» بالموحدة والمثناة الفوقية، وهو قطع الآخِر.

(٥) أي: طلبًا للأعذار، من «العلَّة» بمعنى العذر.

(٦) أي: في طلب المعونة.

وقـرأ يعقوبُ: ﴿ويضيـقَ... ولا يَنطلِـقَ﴾ بالنَّصبِ[١] عطفًـا على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾، فيكونـانِ مِـن جُملَةِ ما خـافَ منه.

(١٤) ـ ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾؛ أي: تَبِعةُ ذَنبٍ[٢]، فحُذِفَ المضافُ أو سُمِّيَ باسمِه، والمرادُ: قتلُ القِبطيِّ، وإنَّما سَمَّاهُ ذنبًا على زَعمِهِم، وهذا اختصارُ قصَّتِه المبسوطَةِ في مواضِعَ[٣].

﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بِهِ قبلَ أداءِ الرِّسالةِ، وهو أيضًا ليس تَعلُّلًا، وإنَّما هو استدفاعٌ للبَلِيَّةِ المتوقَّعَةِ، كما أنَّ ذاكَ استمدادٌ واستظهارٌ في أَمْرِ الدَّعوَةِ، وقولُه:

(١٥) ـ ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ إجابةٌ له إلى الطَّلِبتينِ؛ بوعدِه للدَّفعِ اللَّازمِ ردعَهُ عَن الخوفِ، وضَمِّ أخيه[٤] إليه في الإرسالِ، والخطابُ فـي ﴿فَاذْهَبَا﴾ عـلى تغليبِ الحاضرِ؛ لأنَّه مَعطوفٌ على الفعلِ الَّذي يدلُّ عليه ﴿كَلَّا﴾؛ كأنَّه قيلَ: ارتَدِعْ يا موسى عمَّا تَظُنُّ فاذهَبْ أنتَ والَّذي طلبتَه.

﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ يعني: موسى وهـارونَ وفـرعـونَ ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾: سامعونَ لِمَا يَجرِي بينكُما وبينَهُ فأُظهِرُكُما عليه، مثَّلَ نفسَهُ تَعالى بمَنْ حَضرَ مجادلةَ قومٍ استِمَاعًا لِمَا يَجْرِي بينَهُم، وتَرقُّبًا لإمدادِ أوليائِه مِنْهُم؛ مُبالغَةً في الوعدِ بالإعانَةِ، ولذلك

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٣٥).

(٢) في نسخة الفاروقي: «أي تبعته».

(٣) وستأتي في سورة القصص.

(٤) قوله: «بوعده...» متعلق بـ(إجابةٌ)، و«للدفع» مفعول (وعده)؛ أي: موسى عليه الصلاة والسلام، واللام للتقوية، وفي نسخة: (الدفعَ) بلا لامٍ، وفي أخرى: «بالدفع» فهو متعلِّق بـ(وعده)، و«اللازم» صفة لـ(الدفع)، و«ردعه» مفعول (اللازم)، ويجوز أن يكون فاعله؛ أي: اللازم له ردعُه، و«ضم أخيه» عطف على «وعده». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٦٧)، و«حاشية الخفاجي».

تُجوِّزَ بالاستماعِ الَّذي هو بمَعنى الإصغاءِ للسَّمعِ الَّذي هو مُطلَقُ[١] إدراكِ الحُروفِ والأصواتِ، وهو[٢] خبرٌ ثانٍ، أو الخبرُ وحَده و﴿مَعَكُم﴾ لَغوٌ[٣].

(١٦) ـ ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أفردَ «الرَّسولَ» لأنَّه مَصدَرٌ وُصِفَ به، فإنَّه مُشترَكٌ بينَ المُرسَلِ والرِّسالةِ[٤]، قالَ:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا فُهْتُ عِنْدَهُم ... بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ[٥]

ولذلك ثُنِّيَ تارةً وأُفرِدَ أُخرى[٦]، أو لاتِّحادِهما للأُخوَّةِ[٧]، أو لوحدةِ المرسِلِ والمرسَلِ به[٨]، أو لأنَّه أرادَ أنَّ كُلَّ واحدٍ مِنَّا.

(١٧) ـ ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي أرسِلْ[٩]، لتَضمُّنِ «الرَّسولِ» معنى الإرسالِ المُتضمِّنِ مَعنى القولِ، والمرادُ: خَلِّهِم يَذهَبُوا معنا إلى الشَّامِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «لمطلق».

(٢) وهو: ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾.

(٣) أي: ظرف متعلق بـ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٤/ ١٩٩).

(٤) قوله: «فإنه مشترك بين المرسل والرسالة»؛ أي: فجعل الرسول هنا بمعنى الرسالة، فجازت التسويةُ فيه إذا وُصف به بين الواحد والتثنية والجمع. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٦٧).

(٥) البيت لكثير عزة، وهو في «ديوانه» (ص: ٢٧٨)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٨٤)، و«تفسير الطبري» (١٧/ ٥٥٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٨٥).

(٦) أُفرد هنا، وثُنِّي في قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: ٤٧].

(٧) في نسخة الخيالي: «في الأخوة».

(٨) قوله: «المرسِل» اسم فاعل هو الله «والمرسل به» الشريعة والتوحيد. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٩) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «أي أرسل» يعني: ﴿أَنْ﴾ تفسيرية هنا، وأشار بما بعده إلى توفر شرطها عند النحاة، وهو تقدم ما تضمن معنى القول دون حروفه، وقد جوز فيها المصدريَّة بتقدير: بأن أرسل.

(١٨) ـ ﴿قَالَ﴾؛ أي: فرعونُ لِمُوسى بعدَما أَتَياهُ فقالا لهُ ذلك: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾: في مَنازِلِنا ﴿وَلِيدًا﴾: طفلًا، سُمِّيَ به لقُربِه مِن الوِلادةِ ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

قيلَ: لبثَ فيهِم ثلاثينَ سنةً، ثمَّ خرجَ إلى مَدْيَنَ عشرَ سنين [١]، ثمَّ عادَ إليهم يَدعوهُم إلى اللهِ ثلاثينَ، ثمَّ بَقِيَ بعد الغَرقِ خمسينَ.

(١٩) ـ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قَتْلَ القِبطيِّ، وبَّخَه به مُعظِّمًا إيَّاه بعدما عدَّدَ عليه نِعمتَهُ. وقُرِئَ: «فِعْلتكَ» [٢] بالكسرِ لأنَّها كانَت قِتلةً بالوكزِ [٣].

﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بنِعمَتِي حتَّى عمدْتَ إلى قتلِ خواصِّي، أو: ممَّنْ تُكَفِّرُهم الآن [٤]، فإنَّه عليه السَّلامُ كانَ يُعايِشُهُم بالتَّقِيَّةِ، فهو حالٌ مِن إحدى التَّاءينِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ حُكمًا مبتدأً عليه بأنَّه مِن الكافرينَ بإلهيَّتِه، أو بنِعمَتِه لمَّا عادَ عليه بالمُخالفَةِ، أو مِن الَّذينَ كانُوا يُكفِّرونَ في دِينِهم [٥].

---

(١) في نسخة الخيالي: «عشرين سنة».

(٢) نسبت للشعبي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٧)، و«الكشاف» (٦/ ٢١٤).

(٣) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «قِتلة» بكسر القاف، و«فِعْلةٌ» للهيئة والفعلِ المخصوص؛ كما أشار إليه بقوله: «بالوكز»، وهو الضرب بجمع كفه، وعلى الفتح هو للمرّة.
وعبارة «الكشاف» (٦/ ٢١٤): وعن الشَّعبيِّ: «فِعْلتكَ» بالكسْر، وهي قِتْلةُ القِبْطيِّ؛ لأنَّه قَتلهُ بالوَكزَةِ، وهو ضَرْبٌ من القَتل، وأما الفَعْلة فلأنَّها كانَت وَكزةً واحِدَةً.

(٤) أي: وأنتَ إذْ ذاك ممن تُكفِّرُهم السَّاعةَ، وقَد افترى عليه أو جَهِلَ أَمْرَه؛ لأنَّه كان يُعَايشُهم بالتَّقيَّة. انظر: «الكشاف» (٦/ ٢١٤).

(٥) قوله: «يكفَّرون» بضم الياء وفتح الكاف والفاء المشددة «في دينهم»؛ أي: دين فرعون وقومه؛ لعدم عبادته آلهتهم. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٦٧).

(٢٠) ـ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: مِن الجاهلينَ، وقد قُرِئَ به[1]، والمَعنى: مِن الفاعِلينَ فعلَ أولي الجهلِ والسَّفَهِ، أو: مِن المُخطئينَ؛ لأنَّه لم يتعمَّدْ قتلَهُ، أو: الذَّاهبينَ عمَّا يَؤولُ إليه الوكزُ؛ لأنَّه أرادَ به التَّأديبَ، أو: النَّاسينَ مِن قولِه: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

(٢١) ـ ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾: حكمةً ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ردَّ أوَّلًا بذلك ما وبَّخَه به قدحًا في نبوَّتِه، ثمَّ كرَّ على ما عدَّهُ عليه من النِّعمَةِ، ولم يُصَرِّح بردِّه لأنَّه كانَ صِدقًا غيرَ قادحٍ في دَعواهُ، بَلْ نبَّهَ على أنَّه كانَ في الحقيقةِ نقمةً لكونِه مُسبَّبًا عنها فقالَ:

(٢٢) ـ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: وتلكَ التَّربيَةُ نعمَةٌ تمنُّها عليَّ ظاهِرًا، وهي في الحقيقةِ تَعبيدُكَ بني إسرائيلَ وقَصدُهُم بذَبحِ أبنائِهِم، فإنَّه السَّببُ في وُقوعِي إليك وحُصولي في تَربيَتِك.

وقيلَ: إنَّه مُقدَّرٌ بهمزةِ الإنكارِ؛ أي: أوتلكَ نِعمَةٌ تمنُّها عليَّ وهي أَنْ عَبَّدْتَ.

ومحلُّ ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ الرَّفعُ على أنَّه خبرُ مَحذوفٍ، أو بدلُ ﴿نِعْمَةٌ﴾، أو الجرُّ بإضمارِ الباءِ، أو النَّصبُ بحَذفِها.

وقيلَ: ﴿تلك﴾ إشارةٌ إلى خَصْلَةٍ شَنعاءَ مُبهمَةٍ و﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ عطفُ بيانِها، والمعنى: تَعبيدُكَ بني إسرائيلَ نِعمَةٌ تمنُّها عليَّ.

وإنَّما وُحِّدَ الخِطابُ في ﴿تَمُنُّهَا﴾ وجُمِعَ فيما قبلَهُ؛ لأنَّ المِنَّةَ كانَتْ منه وحدَهُ[2]، والخوفَ والفرارَ منه ومِن مَلئِه.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧) عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم.

(٢) أي: فرعون وحده دون قومه.

(٢٣) ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ لَمَّا سَمِعَ جوابَ ما طعنَ بـه فيه، ورَأى أنَّـه لـم يَرْعَـوِ بذلـك، شـرعَ فـي الاعتـراضِ علـى دعـواهُ، فبـدأَ بالاستفسـارِ عـن حقيقةِ المُرسِـلِ.

(٢٤) ـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ عرَّفَه بأظهَرِ خواصِّه وآثارِه لَمَّا امتنع تَعريفُ الأفرادِ إلَّا بذكرِ الخواصِّ والأفعالِ، وإليه أشارَ بقولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ أي: إن كُنتم مُوقنينَ الأشياءَ مُحقِّقينَ لها، عَلِمْتُم أنَّ هذه الأجرامَ المَحسوسةَ مُمكنَةٌ لتركُّبِها وتعدُّدِها وتغيُّرِ أَحْوالِها، فلها مَبدأٌ واجِبٌ لذاتِه، وذلك المبدَأُ لا بدَّ وأَنْ يكونَ مبدأً لسائرِ المُمكِنَاتِ ما يُمكنُ أن يُحَسَّ بها وما لا يمكنُ، وإلَّا لزم تعدُّدُ الواجبِ أو استغناءُ بعضِ الممكناتِ عَنْه، وكلاهُما مُحالٌ، ثمَّ ذلك الواجِبُ لا يمكِنُ تَعريفُه إلَّا بلَوازِمِه الخارجيَّةِ؛ لامتناعِ التَّعريفِ بنَفسِهِ وبما هو داخِلٌ فيه لاستحالةِ التَّركيبِ في ذاتِه.

(٢٥) ـ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ جوابَه، سألتُهُ عن حقيقَتِه وهو يذكرُ أفعالَهُ[١]، أو يزعمُ أنَّه رَبُّ السَّماواتِ، وهي واجِبَةٌ مُتحرِّكَةٌ لذَواتِها كما هو مَذهَبُ الدَّهرِيَّةِ، أو غيرُ مَعلومٍ افتِقارُهَا إلى مُؤثِّرٍ.

(٢٦) ـ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عُـدولًا إلـى مـا لا يُمكِـنُ أن يُتوَهَّـمَ فيه مِثلُـه، ويُشـكَّ فـي افتقارِه[٢] إلى مُصَـوِّرٍ حَكيمٍ، ويكـونُ أقربَ إلـى النَّاظرِ وأوضحَ عنـدَ التَّأمُّلِ.

(٢٧) ـ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أسألُه عَن شيءٍ ويُجيبُني عن آخرَ، وسَمَّاه رَسُولًا على السُّخريةِ.

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «أحواله»، وذكر المثبت على هامش نسخة الطبلاوي على أنه نسخة.

(٢) في نسخة التفتازاني: «في احتياجه».

(٢٨) ـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ تشاهدونَ كلَّ يوم أنَّه يأتي بالشَّمسِ مِن المشرقِ، ويحرِّكُها على مَدارٍ غيرِ مَدارِ اليومِ الَّذي قبلَهُ، حتَّى يُبلِّغَها إلى المغربِ على وجهٍ نافِعٍ تَنتَظِمُ به أمورُ الكائناتِ.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: إن كانَ لَكُم عقلٌ عَلِمْتُم أَنْ لا جوابَ لَكُم فوقَ ذلك.

لايَنهم أوَّلًا، ثمَّ لَمَّا رأى شدَّةَ شَكِيمَتِهم[١] خاشَنَهُم وعارَضَهُم بمثلِ مَقالِهِم[٢].

(٢٩) ـ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ عُدولًا إلى التَّهديدِ عَن المحاجَّةِ بعدَ الانقطاعِ، وهكذا ديدَنُ المعانِدِ المَحجوجِ[٣].

واستُدلَّ به[٤] على ادِّعائِه للأُلوهيَّةِ وإنكارِه للصَّانعِ، وأنَّ تعجُّبَه بقولِه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ مِن نسبةِ الرُّبوبيَّةِ إلى غيرِه، ولعلَّه كانَ دهريًّا اعتقدَ أنَّ مَن ملكَ قُطرًا أو تولَّى[٥] أمرَهُ بقوَّةِ طالِعِهِ استحقَّ العبادةَ مِن أهلِه[٦].

واللَّامُ في ﴿ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ للعَهدِ؛ أي: ممَّن عرفتَ حالَهُم في سُجوني، فإنَّه كانَ يطرَحُهُم في هوَّةٍ عميقَةٍ حتَّى يَموتوا، ولذلك جُعلَ أبلغَ مِن «لَأَسْجنَنَّكَ».

---

(١) «الشَّكيمَةُ» في اللجام: الحديدة المعترِضةُ في فَم الفرس، و«فلان شديد الشكيمة»: إذا كان شديد النَفْس أَنِفاً أبيّاً، و«فلان ذو شَكيمَةٍ»: إذا كان لا ينقاد. انظر: «الصحاح» (٥/ ١٩٦١).

(٢) أي: عاملهم باللِّين والرِّفق لمَّا قال لهم: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، ثم خاشنهم وأغلظ في الردِّ عليهم بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وهو ردُّ قول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ بمثله. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٢١٧).

(٣) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: الديدن: العادة، والمحجوج: المغلوب بردِّ حجَّتِه.

(٤) أي: استُدلَّ بما ذُكر هنا من قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾... إلخ.

(٥) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «وتولى».

(٦) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: «القطر» بضم فسكون: جانب الأرض، وقوله: «بقوّة طالعه» بناء على زعمه في تأثير الكواكب كما تقول الدهرية. وانظر: «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٣/ ١٣٩٠).

(٣٠) ـ ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: أتفعَلُ ذلك ولو جِئتُكَ بشَيءٍ مُبينٍ صَدَّقَ دعوايَ؛ يعني: المعجزةَ؛ فإنَّها الجامعةُ بينَ الدلالةِ على وجودِ الصَّانعِ وحِكمَتِه، والدَّلالةِ على صدقِ مُدَّعي نبوَّتِه[1]، فالواوُ للحَالِ وَلِيَها الهَمزَةُ بعدَ حَذْفِ الفِعلِ[2].

(٣١) ـ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أنَّ لك بَيِّنَةً، أو: في دعواكَ؛ فإنَّ مُدَّعِيَ النُّبوَّةِ لا بُدَّ لهُ مِن حُجَّةٍ.

(٣٢) ـ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ ثُعبانِيَّتُه، واشتقاقُ الثُّعبانِ مِن «ثَعَبْتُ الماءَ فانْثَعَبَ»: إذا فَجرتَهُ فانفجَرَ.

(٣٣) ـ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ رُوِيَ: أنَّ فِرعونَ لَمَّا رأى الآيَةَ الأولى قالَ: فهَلْ غيرُها؟ فأخرجَ يدَه قالَ: فما فيها؟ فأدخلَها في إبطِهِ ثُمَّ نزعَهَا ولها شُعاعٌ يكادُ يُغْشي الأبصارَ ويَسُدُّ الأُفُقَ[3].

(٣٤ ـ ٣٥) ـ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾: مُستقرِّينَ حولَه، فهو ظرفٌ وقعَ مَوقِعَ الحالِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائقٌ في عِلْمِ السِّحرِ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بَهَرَهُ سُلطانُ المعجزةِ حتَّى حَطَّه عَن دَعْوَى الرُّبوبيَّةِ إلى مُؤامرةِ[4] القومِ وائتمارِهِم، وتَنفيرِهِم عَن موسى، وإظهارِ الاستشعارِ عَن ظُهورِه واستيلائِه على مُلكِه.

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «النبوة».

(٢) قال الطِّيبيُّ: يريد أنَّ عامل الحال وصاحبها ما دلَّ عليه قوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، فجَعلَ وعيدَه مَخْلَصًا للانتقالِ إلى نوعٍ آخرَ من الدَّليل. انظر: «فتوح الغيب» (١١/ ٣٤٨).

(٣) انظر: «الكشاف» (٦/ ٢٢٢).

(٤) المؤامرة: المشاورة. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٢٢١).

(٣٦) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾: أَخِّرْ أمرَهُما، وقيلَ: احبِسْهُما ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾: شُرَطًا يَحْشُرونَ السَّحرَةَ.

(٣٧) ـ ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾ يَفْضُلونَ عليه في هذا الفنِّ.

وأمالَها ابنُ عامرٍ وأبو عمرٍو والكِسائيُّ[1]، وقُرِئَ: «بكلِّ ساحرٍ»[2].

(٣٨) ـ ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾: لِمَا وقِّتَ به مِن ساعاتِ يومٍ مُعيَّنٍ، وهو وقتُ الضُّحَى من يومِ الزِّينةِ.

(٣٩) ـ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ﴾ فيه استبطاءٌ لهم في الاجتماعِ حَثًّا على مُبادرَتِهم إليهِ؛ كقَوْلِ تأبَّطَ شَرًّا:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا ... أَوْ عَبْدَ رَبٍّ أَخَا عَوْنِ بنِ مِخْرَاقِ[3]

أي: ابعَثْ أحدَهُما إلَينَا سَرِيعًا.

(٤٠) ـ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾: لَعلَّنا نَتَّبِعُهم في دينِهم إنْ غَلَبُوا، والتَّرجِّي باعتبارِ الغلبةِ المُقتَضيَةِ للاتِّباعِ، ومَقصودُهُم الأصليُّ أن لا يَتَّبِعُوا موسى لا أنْ يَتَّبعوا السَّحرَةَ، فساقوا الكَلامَ مساقَ الكِنايةِ لأنَّهم إذا اتَّبعوهُم لم يَتَّبِعُوا موسى.

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٥٤ ـ ٥٥)، وفيه: اتفق أبو عمرو من راوييه والكسائي من رواية الدوري على إمالة كل ألف بعدها راء متطرفة مجرورة سواء كانت الألف أصلية أم زائدة عنه، واختلف عن ابن ذكوان، وروى الأزرق عن ورش جميع الباب بين بين.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧) عن الأعمش.

(٣) البيت لتأبط شراً في ملحق «ديوانه» (ص: ٢٤٥)، و«الكشاف» (٦/ ٣١١)، وهو في «الكتاب» (١/ ١٧١) دون نسبة، وقال البغدادي في «خزانة الأدب» (٨/ ٢١٥): والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها، وقيل: هو لجابر بن رألان.

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ التزمَ لهم الأجرَ والقُربةَ عندَهُ زيادةً عليه إن غلَبُوا، فـ﴿إِذًا﴾ على ما تقتضيهِ من الجوابِ والجَزاءِ. وقُرِئَ: ﴿نَعِمْ﴾ بالكسرِ(١)، وهما لُغتَانِ.

(٤٣) ـ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ أي: بعدما قالوا له: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، ولم يُرِد بِهِ أمرَهُم بالسِّحرِ والتَّمويهِ، بل الإذنَ في تَقديمِ ما هم فاعِلوه لا محالةَ تَوسُّلًا به إلى إظهارِ الحَقِّ.

(٤٤) ـ ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أقسَمُوا بعِزَّتِه على أنَّ الغلبةَ لهم؛ لفَرطِ اعتِقادِهِم في أَنفُسِهِم وإتيانِهم بأقصى ما يُمكِنُ أن يُؤتَى به مِن السِّحرِ.

(٤٥) ـ ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾: تبتلِعُ، وقرأَ حفصٌ: ﴿تَلْقَفُ﴾ بالتَّخفيفِ(٢).

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾: ما يَقْلبونَه عن وَجهِهِ بتَمويهِهِم وتَزويرِهِم، فيخيِّلونَ حِبالَهُم وعِصيَّهُم أنَّها حيَّاتٌ تَسعَى، أو: إفكَهُم(٣)؛ تَسمِيَةً للمأفوكِ به مُبالغَةً.

(٤٦) ـ ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ لعِلْمِهِم بأنَّ مِثلَهُ لا يَتأَتَّى بالسِّحرِ، وفيه دليلٌ على أنَّ مُنتَهَى السِّحرِ تَمويهٌ وتَزويقٌ يُخيِّلُ شيئًا لا حقيقةَ له، وأنَّ التَّبحُّرَ في كلِّ فَنٍّ نافعٌ.

---

(١) هي قراءة الكسائي في كلِّ القرآن. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨١)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧١)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

(٣) فـ﴿مَا﴾ على هذا مصدريَّة، وعلى الأول موصولية. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٤/ ٢٢٧).

وإنَّما بدَّلَ الخُرورَ بالإلقاءِ ليُشاكِلَ ما قبلَهُ[1]، ويدلَّ على أنَّهم لَمَّا رَأَوْا ما رأوا لم يَتمالَكُوا أنفُسَهُم وكأنَّهم أُخِذُوا وطُرِحُوا على وُجوهِهِم، وأنَّه تَعالى ألقاهُم بما خَوَّلَهُم مِن التَّوفيقِ.

(٤٧) ـ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بدلٌ مِن: ﴿أُلۡقِيَ﴾ بدلَ الاشتمالِ، أو حالٌ بإضمارِ «قد».

(٤٨) ـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إبدالٌ للتَّوضيحِ ودفعِ التَّوهُّمِ، والإشعارِ على أنَّ الموجِبَ لإيمانِهم ما أجراهُ على أيديهِمَا.

(٤٩) ـ ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ فعَلَّمَكُم شيئًا دونَ شَيءٍ، ولذلك غَلَبَكُم، أو: فواعَدَكُم ذلك وتواطَأْتُم عليه، أرادَ به التَّلبيسَ على قَومِه؛ كيلا[2] يَعْتَقِدُوا أنَّهُم آمَنوا عن بَصيرَةٍ وظهورِ حَقٍّ.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ ورَوْحٌ: ﴿أَآمنتُمْ﴾ بهمزتينِ[3].

﴿فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ وبالَ ما فعَلْتُم، وقولُه: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ بيانٌ له.

(٥٠) ـ ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَ﴾: لا ضررَ عَلينا في ذلك؛ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ بما تُوْعِدُنا به[4]، فإنَّ الصَّبرَ عليه مَحَّاءٌ للذُّنوبِ مُوجِبٌ للثَّوابِ والقُربِ مِن اللهِ.

---

(١) قال: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ بدل: فخرُّوا ساجدين؛ ليشاكل ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾، فهو من المشاكلة المعروفة في علم البديع. انظر: «عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح» للسبكي (٢/ ٢٣٧).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «لئلا».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢١)، «التيسير» (ص: ١١٢)، وانظر: «النشر» (١/ ٣٦٨).

(٤) أي: بما تتوعدنا به.

أو: بسببٍ[1] مِن أَسبابِ المَوتِ، وقتلُكَ أنفعُها وأرجاها.

(٥١) ـ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ﴾: لأَنْ كُنَّا ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن أَتباعِ فِرعونَ، أو من أهلِ المشهَدِ، والجملةُ في المعنى تعليلٌ ثانٍ لنَفْيِ الضَّيرِ، أو تعليلٌ للعِلَّةِ المُتقدِّمَةِ.

وقُرِئَ: «إن كُنَّا»[2] على الشَّرطِ لهضمِ النَّفسِ وعدمِ الثِّقَةِ بالخاتمةِ، أو على طريقَةِ المُدِلِّ بأمرِه[3]: إنْ أحسنتُ إليكَ فلا تَنْسَ حقِّي[4].

(٥٢) ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ وذلك بعدَ سنينَ أقامَ بين أَظهُرِهِم يدعوهم إلى الحقِّ ويُظهِرُ لهم الآياتِ، فلَمْ يَزيدُوا إلَّا عُتُوًّا[5] وفَسَادًا.

وقرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ: ﴿أَنِ اسْرِ﴾[6] بكسرِ النُّونِ ووَصلِ الألفِ مِن «سَرَى».

وقُرِئَ: «أَنْ سِرْ»[7] مِن «السَّيرِ».

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: يتَّبعكُم فِرعونُ وجُنودُه، وهو عِلَّةُ الأمرِ بالإسراءِ؛ أي: أَسْرِ بهِمْ حتَّى إذا اتَّبعَكُم مُصبِحينَ كانَ لَكُم تقدُّمٌ عليهِم بحيثُ لا يُدرِكُونَكُم قبلَ وُصولِكُم إلى البَحرِ، بَلْ يَكونونَ على أَثرِكُم حين تَلِجونَ البحرَ، فيدخلونَ مدخلَكُم، فأُطبِقُه عليهم فأُغرِقُهُم.

---

(١) قوله: «أو بسبب» عطف على «بما توعدنا».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٨) عن بعضهم، و«المحتسب» (٢/ ١٢٧) عن أبان بن تغلب.

(٣) أي: الواثق به، يقال: «أدلَّ بالأمر» إذا وثق به، واعتمد عليه. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ٣٣٨).

(٤) في نسخة الطبلاوي: «بحقي».

(٥) في نسخة الفاروقي: «غيًّا».

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧١)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

(٧) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٨) عن اليماني.

(٥٣) ـ ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ حين أُخبرَ بسُراهِم ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ العساكرَ ليتَّبعوهُم.

(٥٤) ـ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ على إرادةِ القَوْلِ، وإنَّما استَقلَّهُم ـ وكانُوا ستَّ مئةٍ وسبعينَ ألفًا ـ بالإضافةِ إلى جُنودِه؛ إذ رُوِيَ أنَّه خرجَ وكانَت مُقدِّمَتُه سبعَ مئةِ ألفٍ.

والشِّرذِمَةُ: الطَّائفَةُ القَليلَةُ، ومنها: «ثوبٌ شُرَاذِمُ» لِمَا بَلِيَ وتَقطَّعَ.

و﴿قَلِيلُونَ﴾ باعتبارِ أنَّهُم أسباطٌ كلُّ سبطٍ مِنْهُم قليلٌ[1].

(٥٥) ـ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾: لفاعلونَ ما يَغيظُنا.

(٥٦) ـ ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾: وإنَّا لَجَمْعٌ من عادَتِنا الحَذرُ واستعمالُ الحَزمِ في الأمورِ.

أشارَ أوَّلًا إلى عدمِ ما يمنَعُ اتِّباعَهُم مِن شَوكَتِهِم، ثمَّ إلى تَحقُّقِ ما يدعو إليه من فَرْطِ عَداوَتِهم ووجوبِ التَّيقُّظِ في شأنِهم حثًّا عليه، أو اعتذرَ بذلك إلى أهلِ المدائنِ كيلا يُظنَّ به ما يَكسرُ سُلطانَه.

وقرأ ابنُ عامرٍ بروايةِ ابنِ ذكوانَ والكوفيُّونَ: ﴿حَٰذِرُونَ﴾[2]، والأوَّلُ للثَّباتِ، والثَّاني للتَّجدُّدِ.

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «و﴿قَلِيلُونَ﴾...» يعني: كان الظاهر: شرذمةٌ قليلةٌ، فجمع باعتبار أنّ الشرذمة مشتملة على الأسباط؛ أي: الفرق والقبائل من بني إسرائيل، وكل منهم قليل... ولذا ذكَرهم باسم دالّ على القلة، وهو شرذمة، ثم وصفهم بالقلة، ثم جمع القليل للإشارة إلى قلة كل حزب منهم، وأتى بجمع السلامة الدال على القلة، ويجوز أن يراد بالقلة: الذلة، لا قلة العدد؛ يعني: أنهم لقلتهم لا يُبالى بهم ولا يُتوقع غلبهم.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧١)، و«التيسير» (ص: ١٦٥). وذكر في «النشر» (٢/ ٣٣٥) خلافًا عن هشام. والكوفيُّونَ: حمزة والكسائي وعاصم.

وقيلَ: الحاذِرُ: المُؤْدِي في السِّلاحِ[(١)]، وهو أيضًا من الحَذَرِ؛ لأنَّ ذلك إنَّما يُفعَلُ حذرًا.

وقُرِئَ: «حادِرُونَ» بالدَّالِ[(٢)]؛ أي: أقوياءُ، قالَ:

أُحِبُّ الصَّبِيَّ السَّوءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ ... وَأُبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهوَ حَادِرُ[(٣)]

أو: تامُّوا السِّلاحِ؛ فإنَّ ذلك يوجبُ حدارَةً في أجسامِهِم.

(٥٧ ـ ٥٨) ـ ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ بأَنْ خَلَقْنَا داعيَةَ الخروجِ بهذا السَّببِ فحَمَلَتْهُم عليه ﴿مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: المنازلَ الحَسَنَةَ والمَجالِسَ البهيَّةَ.

(٥٩) ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الإخراجِ أخرَجْنَا، فهو مَصدرٌ، أو: مثلِ ذلك المَقامِ الَّذي كانَ لَهُم، على أنَّه صِفَةُ ﴿مَقامٍ﴾، أو: الأمرُ كذلك، فيكونُ خَبرًا لِمَحذوفٍ[(٤)]، ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

---

(١) قوله: «المؤدي في السلاح»؛ أي: ذي الأداة والعُدَّة من السلاح. انظر: «معاني القرآن للفراء» (٢/ ٢٨٠)، و«تهذيب اللغة» (٤/ ٢٦٧).

(٢) نسبت لابن أبي عمار ومحمد بن السميفع. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٢٤)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٨).

(٣) البيت دون نسبة في «العين» (٣/ ١٧٨)، و«الدلائل في غريب الحديث» للسرقسطي (٢/ ٦٧٠)، و«تهذيب اللغة» (٤/ ٢٣٦)، و«اللسان» (مادة: حدر). والحادر: الكثير اللحم الريان الكاسي القصب المستوي الخلق. انظر: «كتاب الألفاظ» لابن السكيت (ص٩٩)، والمعنى: إني أحب بعض الصبيان وإن كان قبيحًا لحب أمه، وقد أبغض بعضهم لبغض أمه وإن كان فتى قويًا يستحقُّ أن يُحبَّ.

(٤) لم يستسغ أبو حيان الوجه الأول والثاني؛ لأنه يؤول إلى تشبيه الشيء بنفسه، ولم يوافق على ذلك الحلبي، وقوى الوجه الأخير الطيبي. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (١١/ ٣٦٤)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١٦/ ٢٩٤)، و«الدر المصون» للسمين الحلبي (٨/ ٥٢٤).

(٦٠) ـ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ وقُـرِئَ: «فَاتَّبَعُوهُـم»[(١)] ﴿مُّشْرِقِينَ ﴾: داخلينَ في وَقتِ شُـروقِ الشَّمسِ.

(٦١) ـ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾: تَقارَبا بحيثُ رَأَى كلُّ واحدٍ[(٢)] مِنْهُما الآخرَ.

وقُرِئَ: «تَراءتِ الفِئتانِ»[(٣)].

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾: لمُلْحَقونَ، وقُـرِئَ: «لَمُدَّركونَ»[(٤)] مـن «ادَّرَكَ الشَّيءُ»: إذا تَتابعَ ففَنِيَ؛ أي: لَمُتتابعونَ في الهلاكِ على أيديهِم.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٨) عن الحسن والذماري.

(٢) «واحد»: ليس في نسخة التفتازاني.

(٣) «تراءت الفئتان» كذا في النسخ الخطية، ومثله في بعض نسخ «الكشاف» (٦/ ٢٣٣)، وفي نسخة أخرى من «الكشاف»: «ترات الفئتان» دون همز، وهو الموافق لما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٨) في هذه السورة عن الأعمش عن عاصم وقيدها بقوله: دون همز في (ترات). وذكر الكرماني في «شواذ القراءات» (ص: ٣٥٥) عن أبي البرهسم: (ترى الجمعان) بتليين الهمزة بين بين.

(٤) نسبت للأعرج وعبيد بن عمير. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٢٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٩)، و«تفسير الثعلبي» (٢٠/ ٥٤ ـ ٥٥)، وذكرها دون نسبة الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢٨٠)، ولم يقيد أحد من هؤلاءِ الراءَ بكسر ولا فتح، وقيدها بالكسر الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ٢٣٣)، وقال أبو حيان في «البحر» (١٦/ ٢٩٦): وهو لازم بمعنى الفناء والاضمحلال، يقال منه: «ادَّرك الشيءُ بنفسِه» إذا فني تتابعًا، ولذلك كُسرت الراء على هذه القراءة؛ نص على كسرها أبو الفضل الرازي في كتاب «اللوامح»، والزمخشري في «كشافه» وغيرهما، وقالَ أبو الفضل الرازي: وقد يكون (ادّرك) على (افتَعَل) بمعنى (أفعل) متعديًا، فلو كانت القراءة من ذلك لوجب فتح الراء، ولعلَّ في كلام الفراء والنحاس ما يفهم منه أنها عندهما بفتح الراء، قال الفراء: ﴿لَمُدْرَكُونَ﴾ و«لَمُدَّركونَ» مفتعَلونَ من الإدراك، كما تَقُولُ: «حفرت» و«احتفرت» بمعنًى واحد، فكذلك ﴿لَمُدْرَكُونَ﴾ و«لمدَّركون» معناهما واحد. وتعقبه النحاس بقوله: وليس كذا يقول النحويون الحذاق، إنما يقولون: (مُدْرَكون): ملحوقون، و(مدَّركون): مُجْتَهَدٌ في لحاقهم، كما يقال: (كَسَبتُ) بمعنى: أصبت وظفرت، و(اكتسبت) بمعنى: اجتهدت وطلبت. أما ابن جني فيفهم من كلامه في هذه القراءة أنها بكسر الراء، فقد شرحها بمثل ما سيأتي من كلام المؤلف والزمخشري، ولعل الزمخشري قد نقل كلامه فيها منه.

(٦٢) ـ ﴿قَالَ كَلَّآ﴾ لَنْ يُدرِكُوكُمْ؛ فإنَّ اللهَ وعدَكُم الخلاصَ مِنْهُم.

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالحفظِ والنَّصرِ ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ طريقَ النَّجاةِ مِنْهُم.

رُوِيَ: أنَّ مُؤمِنَ آلِ فِرعونَ كانَ بين يدَيْ مُوسى عليه السَّلامُ فقالَ: أينَ أُمِرْتَ؟ فهذا البَحرُ أمامكَ وقد غَشِيَكَ آلُ فِرعونَ، قالَ: أُمِرْتُ بالبحرِ ولَعلِّي أُومَرُ بما أصنعُ[1].

(٦٣) ـ ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾: القُلْزُمَ[2] أو النِّيلَ، ﴿فَٱنفَلَقَ﴾؛ أي: فضربَ فانفلَقَ وصارَ اثنَيْ عشرَ فِرْقًا بينَها مَسالِكُ، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: كالجبلِ المُنيفِ الثَّابتِ في مَقرِّه، فدَخلُوا في شِعَابِها، كلُّ سِبطٍ في شِعْبٍ.

(٦٤) ـ ﴿وَأَزۡلَفۡنَا﴾: وقَرَّبْنا ﴿ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ فرعونَ وقومَه حتَّى دَخلوا على أثرِهم مداخِلَهُم.

(٦٥) ـ ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ بحفظِ البَحرِ على تلكَ الهيئةِ إلى أن عبرُوا.

(٦٦) ـ ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ بإطباقِه علَيْهم.

(٦٧) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ وأيَّـةَ آيـةٍ ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ومـا تنبَّـهَ عليهـا أكثرُهُـم، إذ لـم يُؤمِـن بها أحـدٌ ممَّنْ بَقِـيَ في مِصرَ مِـن القِبْطِ، وبنو إسـرائيلَ بعدما نَجَـوا سـأَلُوا بقـرةً يَعبدونَهـا، واتَّخـذُوا العجـلَ، وقالـوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥].

(٦٨) ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ المنتقِمُ من أعدائِه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائِه.

(٦٩ ـ ٧٠) ـ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾: على مشركي العربِ ﴿نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ سألَهم ليُرِيَهُم أنَّ ما يَعبدونَهُ لا يستحقُّ العبادةَ.

---

(١) روى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٧٠) عن خالد بن عبد الله، وعن السدي.

(٢) وهو البحر الأحمر، وهو بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ٣٨٧).

(٧١) ـ ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ فأطالُوا جوابَهُم وشَرْحَ[١] حالِهِم معَهُ تبجُّحًا به وافتخارًا، و﴿نظلُّ﴾ هاهنا بمعنى: نَدُومُ، وقيلَ: كانُوا يعبدونَها بالنَّهارِ دونَ اللَّيـلِ[٢].

(٧٢) ـ ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾: يَسمَعونَ دُعاءَكُم، أو: يسمَعونكُم تدعونَ، فحذفَ ذلك لدَلالةِ: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه.

وقُـرِئَ: «يُسْمِعُونكُم»[٣]؛ أي: يُسمِعُونكُم الجوابَ عَـن دُعائِكُم، ومجيـئُه مُضارِعًا مع «إذ» على حكايةِ الحالِ الماضيَةِ استحضارًا لها.

(٧٣) ـ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ على عِبادَتِكُم لها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ مَن أعرضَ عنها.

(٧٤) ـ ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أضربُوا عـن أَنْ يكونَ لَهُم سَمعٌ، أو يُتوقَّعَ مِنْهُم ضرٌّ أو نفعٌ والتَجَؤوا إلى التَّقليدِ.

(٧٥ ـ ٧٦) ـ ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾ فـإنَّ التَّقدُّمَ لا يدلُّ على الصِّحَّةِ ولا ينقلبُ به الباطلُ حَقًّا.

(٧٧) ـ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ ﴾ يريدُ أنَّهُم أعداءٌ لعابدِيهِم مِن حيثُ إنَّهُم يَتضرَّرونَ مِن جِهَتِهِم فوقَ ما يتضرَّرُ الرَّجلُ من جهَةِ عَدوِّه، أو أنَّ المُغرِيَ بعِبادَتِهِم أعدى أعدائِهِم وهو الشَّيطانُ، لكنَّهَ صوَّرَ الأمرَ في نفسِه تعريضًا لهم فإنَّه أنفَعُ في النُّصحِ مِن التَّصريحِ، وإشعارًا بأنَّها نَصيحَةٌ بدأَ بها نَفسَهُ ليكونَ أَدْعَى إلى القَبولِ، وإفرادُ العدوِّ لأنَّه في الأصلِ مَصدَرٌ، أو بمعنى النَّسَبِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «بشرح».

(٢) هذا مختار الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ٢٣٧)، وهو مبني على «ظلَّ» على أصل معناه اللغوي، يقال: «ظللت أعمل كذا» إذا عملته بالنهار، والذي قبله خرج فيه الفعل «ظلَّ» عن معناه الأصلي.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٨)، و«المحتسب» (ص: ١٢٩) عن قتادة، وزاد ابن خالويه نسبتها ليحيى بن يعمر.

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناءٌ مُنقطِعٌ، أو متَّصِلٌ على أنَّ الضَّميرَ لكلِّ مَعبودٍ عَبَدوهُ وكانَ مِن آبائِهم مَن عَبَدَ اللهَ.

(٧٨) ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لأنَّه يَهدِي كلَّ مَخلوقٍ لِمَا خُلِقَ له مِن أمورِ المَعاشِ والمَعادِ؛ كما قالَ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] هدايةً مُدرَّجةً مِن مبدأِ إيجادِهِ إلى مُنْتَهى أَجلِه، يتمَكَّنُ بها مِن جَلبِ المَنافِعِ ودَفعِ المَضارِّ، مبدؤُها بالنِّسبَةِ إلى الإنسانِ هِدايَةُ الجَنينِ إلى امتصاصِ دمِ الطَّمْثِ مِن الرَّحِمِ، ومُنْتَهاها الهِدايَةُ إلى طريقِ الجنَّةِ والتَّنعُّمِ بلَذائذِهَا.

والفاءُ للسَّببيَّةِ إن جُعِلَ المَوصولُ مُبتدَأً، وللعَطفِ إن جُعِلَ صِفةَ ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فيكونُ اختلافُ النَّظمِ لتَقدُّمِ الخلقِ واستمرارِ الهِدايَةِ، وقولُه:

(٧٩) ـ ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ على الأوَّلِ[1] مُبتدَأٌ مَحذوفُ الخبرِ لدلالةِ ما قبلَهُ عليه، وكذا اللَّذانِ بعدَهُ، وتَكريرُ المَوصولِ على الوجهينِ للدَّلالةِ على أنَّ كُلَّ واحدَةٍ مِن الصِّلاتِ مُستقلَّةٌ باقتضاءِ الحكمِ.

(٨٠) ـ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ عطفٌ على ﴿يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ لأنَّه مِن رَوادِفِهما؛ مِن حيثُ إنَّ الصِّحَّةَ والمرضَ في الأغلبِ يتبعانِ المأكولَ والمَشروبَ.

وإنَّما لم يَنسُبِ المَرضَ إليه تعالى لأنَّ مَقصودَهُ تعديدُ النِّعَمِ، ولا يَنتقِضُ بإسنادِ الإماتَةِ إليه، فإنَّ المَوتَ مِن حيثُ إنَّه لا يُحَسُّ به لا ضررَ فيه، وإنَّما الضَّررُ في مُقدِّماتِه وهي المرضُ، ثمَّ إنَّه لأهلِ الكمالِ وُصلَةٌ إلى نيلِ المحابِّ الَّتي تُستَحْقَرُ دونَها الحياةُ

---

(١) قوله: «على الأوَّل» أي: كون ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ مبتدأ خبره ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، «مبتدأ محذوف الخبر» وهو فهو يهدين، و«كذا اللذان بعده»؛ أي: ﴿ٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾ و﴿ٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ﴾، وقوله: «على الوجهين» هما الابتدائية والوصفية. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

الدُّنيَوِيَّة، وخلاصٌ مِن أَنواعِ المِحَنِ والبَلِيَّة، ولأنَّ المرضَ في غالبِ الأمرِ إنَّما يَحدُثُ بتَفريطٍ مِن الإنسانِ في مَطاعمِهِ ومَشاربِه، وبما بين الأَخلاطِ والأَركانِ مِن التَّنافِي والتَّنافُرِ[1]، والصِّحَّةُ إنَّما تَحصُلُ باستحفاظِ اجتماعِهَا والاعتدالِ المخصوصِ عليها قهرًا، وذلك بقُدرَةِ العَزيزِ الحَكيمِ[2].

(٨١) ـ ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴾ في الآخرةِ.

(٨٢) ـ ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ ذكرَ ذلك هَضْمًا لنفسِه، وتعليمًا للأمَّةِ أَنْ يجتَنِبُوا المعاصيَ، ويَكونُوا على حذرٍ وطلبٍ لأَنْ يُغفرَ لهم ما يَفْرُطُ[3] مِنْهُم، واستغفارًا لِمَا عسى يَنْدُرُ[4] مِنْه من الصَّغائرِ، وحملُ الخَطيئَةِ على كلماتِه الثَّلاثِ: ﴿إِنِّى سَقِيمٞ﴾ [الصافات: ٨٩]، ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقولِه[5]: «هي أختي»[6] = ضعيفٌ؛ لأَنَّها مَعاريضُ وليسَتْ خَطايا.

---

(١) قوله: «وبما بين»: عطف على «بتفريط»، و«الأخلاط» هي أجسام رطبة سيَّالة يَستحِيلُ إليها الغذاءُ أوَّلًا، وهي الدم والصفراء والسوداء والبلغم، «والأركان» هي أجسام بسيطة هي أجزاء أولية لبدن الإنسان وغيره، وهي النارُ والهواء والماء والتراب. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

(٢) قوله: «باستحفاظ اجتماعها»؛ أي: الأخلاط والأركان، و«الاعتدالِ المخصوص» عطف على «اجتماعِها»، «عليها» متعلِّق بقوله: (قهرًا)، و«قهرًا» حال من (الاستحفاظ)، «وذلك»؛ أي: الاستحفاظ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

(٣) فرط في الأمر يفرُط فَرَطًا ـ بالفتح ـ: قصَّر به. انظر: «تاج العروس» (١٩/ ٥٢٧).

(٤) أي: يقع نادرًا، وأصل الندور: السقوط والشذوذ. انظر: «تاج العروس» (١٤/ ١٩٣).

(٥) «وقوله»: ليس في نسخة الخيالي.

(٦) هذه الثلاثة وردت في حديث رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أما تفسير الآية بها فرواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٩٣) عن عكرمة ومجاهد.

(٨٣) ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾: كمالًا في العلمِ والعملِ أستعِدُّ[١] به خلافةَ الحقِّ ورئاسةَ الخلقِ.

﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾: ووَفِّقْني للكمالِ في العملِ لأنتظِمَ[٢] به في عِدادِ الكاملينَ في الصَّلاحِ الَّذينَ لا يَشُوبُ صَلاحَهُم كبيرُ ذَنْبٍ ولا صَغيرُه.

(٨٤) ـ ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾: جاهًا وحُسنَ صيتٍ في الدُّنيا يبقى أثرُه إلى يومِ الدِّينِ، ولذلك ما مِن أُمَّةٍ إلَّا وهُم مُحِبُّونَ له مُثْنونَ عليه، أو: صادقًا من ذُرِّيَّتِي يجدِّدُ أصلَ ديني ويَدعُو النَّاسَ إلى ما كنتُ أَدْعُوهُم إليه، وهو محمَّدٌ صَلواتُ اللهِ عليهِ وسَلامُه.

(٨٥) ـ ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في الآخرةِ، وقد مرَّ مَعنى الوراثةِ فيها[٣].

(٨٦) ـ ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ بالهدايةِ والتَّوفيقِ للإيمانِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ طريقَ الحقِّ، وإن كانَ هذا الدُّعاءُ بعدَ مَوتِه فلعلَّه كانَ لظَنِّه أنَّه كانَ يُخفي الإيمانَ تَقِيَّةً مِن نُمْروذَ، ولذلك وعدَهُ به، أو لأنَّه لم يُمنَعْ بَعدُ مِن الاستغفارِ للكُفَّارِ.

(٨٧) ـ ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ بمُعاتَبتي على ما فَرَّطْتُ، أو بنقصِ رُتبَتِي عن رُتبَةِ بعضِ الوُرَّاثِ، أو بتَعذيبي لخَفاءِ العاقِبَةِ وجوازِ التَّعذيبِ عَقْلًا، أو بتَعذيبِ والِدِي، أو ببَعْثِه في عِدادِ الضَّالِّينَ، وهو مِن «الخِزيِ» بمَعْنى الهوانِ، أو مِن «الخَزَايَةِ» بمَعنى الحَياءِ.

﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضَّميرُ للعبادِ لأنَّهُم مَعلومونَ، أو للضَّالِّينَ.

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «أستعد به» ضمَّنه معنى: أُحصِّل به، ولذا عدَّاه بنفسه، وإن كان متعدِّيًا باللام.

(٢) في نسخة الفاروقي: «أنتظم».

(٣) انظر ما تقدَّم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

(٨٨ ـ ٨٩) ـ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ أي: لا ينفعانِ أَحَدًا إلَّا مُخلِصًا سليمَ القَلبِ عَن الكُفرِ وميلِ[1] المَعاصِي وسائرِ آفاتِه، أو لا ينفعانِ إلَّا مالُ مَن هذا شأنُه وبنُوه[2] حيثُ أنفقَ مالَهُ في سَبيلِ[3] البِرِّ، وأرشدَ بنيهِ إلى الحقِّ وحثَّهُم على الخيرِ وقصدَ بهم أن يكونوا عِبادَ الله مُطيعينَ شُفَعاءَ له يومَ القِيامَةِ.

وقيلَ: الاستثناءُ ممَّا دلَّ عليه المالُ والبَنونَ؛ أي: لا ينفعُ غِنًى إلَّا غِناهُ.

وقيلَ: مُنقطِعٌ، والمعنى: ولكن سلامةُ مَن أتى اللهَ بقَلبٍ سَليمٍ تنفعُه[4].

(٩٠) ـ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بحيثُ يَرَوْنَها مِن الموقفِ، فيَتبجَّحونَ[5] بأنَّهُم المَحشورونَ إلَيْها.

(٩١) ـ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ فيرَوْنَها مكشوفةً، ويتحسَّرونَ على أنَّهُم المسوقونَ إليها، وفي اختلافِ الفِعلَيْنِ[6] ترجيحٌ لجانبِ الوَعدِ.

(٩٢ ـ ٩٣) ـ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أينَ آلِهَتُكُم الَّذينَ تَزْعُمونَ أنَّهُم شُفعَاؤُكُم.

---

(١) في نسخة الخيالي: «ونيل».

(٢) «وبنوه»: ليس في نسخة الخيالي.

(٣) في نسخة الفاروقي: «سبل».

(٤) تبع في تقدير المضاف الزمخشري الذي عدَّ هذا التقدير ضروريًّا لسلامة المعنى فقال: ولا بُدَّ مِن تَقديرِ هذا المضافِ وإلا لم يَتحصَّل للاستثناءِ معنًى. انظر: «الكشاف» (٦/ ٢٤٢)، وانظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي (ص: ٥٠٧)، و«فتوح الغيب» (١١/ ٣٨٠).

(٥) أي: يُسرُّون سرورًا تامًّا. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٢٦٦).

(٦) أي: ذكر الفعل «أزلفت» مع المتقين، وهو يدل على التقريب لشيء مرئي، أما مع الغاوين فذكر الفعل «برزت»، وهو يدل على الظهور ولو من بعيد، فكان وعد المتقين أرجح من وعيد الغاوين. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٤/ ٢٦٦).

﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بدفعِ العَذابِ عَنْكُم ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بدَفعِه عَـن أنفُسِـهِم؛ لأَنَّهُم وآلهتَهُـم يَدخلونَ النَّـارَ كما قالَ:

(٩٤) ـ ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾؛ أي: الآلهةُ وعبدَتُهُم، و«الكَبْكَبَةُ»: تكريرُ الكَبِّ لتكريرِ مَعناه؛ كأنَّ مَن أُلقِيَ في النَّارِ ينكبُّ مرةً بعدَ أُخرَى حتَّى يَستَقِرَّ في قَعرِهَا.

(٩٥ ـ ٩٨) ـ ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾: مُتَّبعُوه مِن عُصاةِ الثَّقَلينِ، أو شَياطينُه ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيدٌ للجُنودِ إن جُعِلَ[١] مُبتدأً خبرُه ما بعدَهُ، وإلَّا للضَّميرِ وما عُطفَ عليه[٢]، وكذا الضَّميرُ المُنفَصِلُ وما يعودُ إليهِ في قولِه: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ على أنَّ اللهَ يُنطِقُ الأَصنامَ فتخاصمُ العبدَةَ، ويُؤيِّدُه الخطابُ في قولِه: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: في استحقاقِ العِبادَةِ.

ويجـوزُ أَنْ تكـونَ الضَّمائِـرُ للعَبَدةِ كمَا فـي ﴿قَالُوا﴾، والخِطـابُ للمُبالغَةِ في التَّحسُّـرِ والنَّدامَـةِ، والمعنـى: أَنَّهُـم مـع تَخاصُمِهِـم فـي مَبـدأِ ضَلالِهِـم مُعترفـونَ بانهِمَاكِهِـم فـي الضَّلالـةِ مُتحسِّـرُونَ عَليْها.

(٩٩ ـ ١٠١) ـ ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ كمـا للمؤمنيـنَ[٣] مِـن الملائكـةِ والأَنبيـاءِ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾؛ إذ الأَخِـلَّاءُ يومئـذٍ بعضُهُـم لبَعـضٍ عدوٌّ إلَّا المُتَّقين.

أو: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ﴾ ممَّنْ نعدُّهُم شفعاءَ وأَصدِقاءَ.

أو: وقَعْنا في مَهْلَكَةٍ لا يخلِّصُنا منها شافعٌ ولا صديقٌ.

---

(١) نائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على ﴿جنودُ﴾.

(٢) أي: ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾.

(٣) «كما للمؤمنين» من نسخة الفاروقي والتفتازاني والطبلاوي.

وجمعُ الشَّافعِ ووحدةُ الصَّديقِ[1] لكَثرةِ الشُّفعاءِ في العادةِ وقِلَّةِ الصَّديقِ، ولأنَّ الصَّديقَ الواحِدَ يَسعَى أكثرَ ممَّا يَسْعَى الشُّفعاءُ، أو لإطلاقِ الصَّديقِ على الجمعِ كالعَدُوِّ؛ لأنَّه في الأصلِ مَصدرٌ كـ«الحَنينِ» و«الصَّهيلِ».

(١٠٢) ـ ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ تَمَنٍّ للرَّجعةِ، وأقيمَ فيهِ «لو» مقامَ «ليت» لتَلاقيهِمَا في مَعنى التَّقديرِ، أو شرطٌ حُذِفَ جوابُه.

﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جوابُ التَّمنِّي، أو عطفٌ على ﴿كَرَّةً﴾؛ أي: لو أَنَّ لَنا أَنْ نكرَّ فنكونَ.

(١٠٣) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: فيمَا ذُكرَ مِن قصَّةِ إبراهيمَ ﴿لَآيَةً﴾: لحُجَّةً وعِظَةً لِمَن أرادَ أَنْ يَستَبْصِرَ بها ويَعتَبِرَ؛ فإنَّها جاءَتْ على أنظمِ تَرتيبٍ وأحسَنِ تَقريرٍ، يتفطَّنُ المُتأمِّلُ فيها لَغزارَةِ عِلمِه؛ لِمَا فيهَا مِن الإشارةِ إلى أُصولِ العُلومِ الدِّينيَّةِ والتَّنبيهِ على دلائِلِها، وحُسنِ دَعوَتِه للقَوْمِ، وحُسنِ مُخالَفَتِه مَعَهُم، وكَمالِ إشفاقِهِ عَلَيهِم، وتصويرِ الأمرِ في نفسِهِ، وإطلاقِ الوعدِ والوَعيدِ على سَبيلِ الحِكايَةِ تَعريضًا وإيقاظًا لهم ليَكونَ أَدْعَى لَهُم إلى الاستماعِ والقَبُولِ.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أكثرُ قَومِه ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ بِهِ.

(١٠٤) ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: القادرُ على تَعجيلِ الانتِقامِ ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالإمهالِ لكَي يُؤمِنُوا هم أو أحدٌ مِن ذُرِّيَّتِهِم.

(١٠٥) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ «القومُ» مُؤنَّثةٌ، ولذلك تُصغَّرُ على «قويمةٍ»، وقد مرَّ الكَلامُ في تكذيبِهِم المُرسَلينَ.

(١٠٦) ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ لأنَّـه كانَ مِنْهُـم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللهَ، فتتركـوا عبـادةَ غيـرِه.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «وجمعَ الشَّافعَ ووحَّدَ الصَّديقَ».

(١٠٧) ـ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مَشهورٌ بالأمانةِ فيكُم.

(١٠٨) ـ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمرُكُم به مِن التَّوحيدِ والطَّاعةِ للهِ.

(١٠٩) ـ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: على ما أنا عليهِ مِن الدُّعاءِ والنُّصحِ **﴿مِن أجرٍ إنْ أَجْرِيْ إلَّا على ربِّ العالَمِينَ﴾**.

(١١٠) ـ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرَّرَه للتَّأكيدِ والتَّنبيهِ على دلالةِ كلِّ واحدٍ مِن أَمانَتِه وحسمِ طَمعِهِ على وُجوبِ طاعتِه فيما يَدعوهُمْ إليه، فكيفَ إذا اجتمعَا؟

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ وأبو عَمرٍو وحفصٌ بفتحِ الياءِ في ﴿أَجْرِيَ﴾ في الكلمات الخمسِ[١].

(١١١ ـ ١١٢) ـ ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾: الأقلُّونَ جاهًا ومالًا، جمعُ «الأَرْذَلِ» على الصِّحَّةِ، وقرأَ يعقوبُ: ﴿وأَتباعُكَ﴾[٢] وهو جمعُ تابعٍ كـ«شَاهِدٍ» و«أَشهادٍ»، أو تَبَعٍ كـ«بَطَلٍ» و«أَبْطَالٍ».

وهذا مِن سَخافَةِ عَقلِهم وقُصورِ رَأيِهم على الحُطامِ الدُّنيَوِيِّ[٣] حتَّى جَعَلُوا اتِّباعَ المُقِلِّينَ فيها مانعًا عَن اتِّباعِهم، وإيمانَهم بما يَدعوهُم إليه دليلًا على بُطلانِه.

وأشاروا بذلك إلى أنَّ اتِّباعَهُم ليسَ عَنْ نَظرٍ وبَصيرَةٍ، وإنَّما هو لتَوقُّعِ مالٍ ورِفعَةٍ، فلذلك ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَنَّهُم عَمِلوهُ إخلاصًا أو طمعًا في طُعْمةٍ، وما عَلَيَّ إلَّا اعتبارُ الظَّاهرِ.

---

(١) أي: من سورة الشعراء. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٧).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٣٥).

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي والطبلاوي: «الدنيوية»، والمثبت من نسخة الفاروقي، وهو الذي رجحه الأنصاري فقال: «على الحطام الدنيوية» الأولى: (الدنيوي)؛ لأن الحطام مفرد، وكأنه ضمَّنه معنى الحطمة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٨٥).

(١١٣) ـ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾: ما حِسابُهُم على بَواطِنِهم إلَّا على اللهِ فإنَّه المُطَّلِعُ عَلَيها ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ لعَلِمْتُم ذلك، ولكنَّكُم تَجهَلُونَ فتَقولونَ ما لا تَعلمونَ.

(١١٤ ـ ١١٥) ـ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جوابٌ لِمَا أوهمَ قولُهم مِن استِدعاءِ طَردِهِم وتوقيفِ إيمانِهِم عليه، حيثُ جَعَلُوا اتِّباعَهُم المانعَ عنهُ، وقولُه: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كالعِلَّةِ له؛ أي: ما أنا إلَّا رَجُلٌ مَبعوثٌ لإنذارِ المُكلَّفينَ عَنِ الكُفرِ والمَعاصي سواءٌ كانُوا أَعِزَّاءَ أو أَذِلَّاءَ، فكيفَ يَليقُ بي طردُ الفُقَراءِ لاستِتباعِ الأَغنِيَاءِ؟ أو: ما عليَّ إلَّا إنذارُكُم إنذارًا بَيِّنًا بالبرهانِ الواضِحِ، فلا عليَّ أَنْ أَطرُدَهُم لاستِرضَائِكُم.

(١١٦) ـ ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عمَّا تَقولُ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾: مِنَ المَشتومِينَ، أو: المَضروبينَ بالحجارةِ.

(١١٧) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ إظهارًا لِمَا يَدعُو عليهِم لأجلِه، وهو تكذيبُ الحَقِّ، لا تخويفُهُم له واستخفافُهُم عليه.

(١١٨) ـ ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾: فاحكُمْ بيني وبينَهُم، من «الفُتَاحَة»[1].

﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن قَصدِهِم أو شُؤمِ عَمَلِهِم.

(١١٩ ـ ١٢٠) ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: المَملوءِ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بعدَ إنجائِه ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ مِن قَومِه.

(١٢١ ـ ١٢٢) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ شاعَتْ وتَواتَرَتْ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(١٢٣) ـ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أَنَّثَه باعتبارِ القَبيلَةِ، وهو في الأصلِ اسمُ أَبيهِمْ[2].

---

(١) هي الحكومة بين الخصمين. «تاج العروس» (٧/ ٦).

(٢) فيجوز في العربية أن يُذكَّر أو يؤنث باختلاف الاعتبار. انظر: «الكتاب» (٣/ ٢٤٦).

(١٢٤ ـ ١٢٧) ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تصديرُ القَصصِ بها دلالةٌ على أنَّ البعثةَ مَقصورةٌ على الدُّعاءِ إلى معرفَةِ الحقِّ والطَّاعةِ فيما يُقرِّبُ المَدعوَّ إلى ثوابِهِ ويُبعِدُه عَن عِقابِه، وكانَ الأنبياءُ متَّفِقينَ على ذلك ـ وإن اختَلَفُوا في بعضِ التَّفاريعِ ـ مُبرَّئينَ[1] عن المطاعمِ الدَّنيَّةِ والأغراضِ الدُّنيَوِيَّةِ.

(١٢٨) ـ ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾: بكلِّ مَكانٍ مُرتفعٍ، ومِنه: «رِيعُ الأَرضِ» لارتِفاعِها.

﴿آيَةً﴾: عَلَمًا للمارَّةِ ﴿تَعْبَثُونَ﴾ ببنائِها؛ إذ كانُوا يَهتدونَ بالنُّجومِ في أَسفارِهِم فلا يحتاجونَ إليها، أو: بروجَ[2] الحمامِ، أو: بنيانًا يجتمعونَ إليها للعَبثِ بمَنْ يمرُّ علَيْهِم، أو: قصورًا يَفتَخِرُونَ بها.

(١٢٩) ـ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾: مآخذَ الماءِ، وقيلَ: قُصورًا مُشيَّدَةً وحُصونًا[3] ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ فتُحكِمُونَ بُنيانَها.

(١٣٠) ـ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ بسَوْطٍ أو سَيْفٍ ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾: مُتَسلِّطينَ غاشِمينَ بلا رَأفةٍ ولا قصدِ تأديبٍ ونظرٍ في العاقِبَةِ.

(١٣١) ـ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بتركِ هذه الأشياءِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أَدعوكُم إليه؛ فإنَّه أنفَعُ لكم.

(١٣٢) ـ ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ كرَّره مُرَتَّبًا على إمدادِ اللهِ إيَّاهم بما

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «وكأنَّ الأنبياء متفقون... مبرؤون»، وقال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: وقع في نسخة: «وأن الأنبياء... ».

(٢) معطوف على «علمًا للمارة».

(٣) هذا أظهر من الوجه الذي قبله؛ فبناء القصور أدلُّ على التمسك بالدنيا من مآخذ الماء. انظر: «تفسير الرازي» (٢٤/ ٥٢٣)، و«فتوح الغيب» (١١/ ٣٩٥).

يعرفونَه مِن أنواعِ النِّعَم تعليلًا وتنبيهًا على الوعدِ عليه بدوامِ الإمدادِ، والوَعيدِ على تركِه بالانقطاعِ، ثمَّ فَصَّلَ بعضَ تلكَ النِّعَمِ كما فصَّلَ بعضَ مَساوئِهِم المَدلولِ عليها إجمالًا بالإنكارِ في ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُبالغَةً في الإيقاظِ والحثِّ على التَّقوَى فقالَ[1]:

(١٣٣ ـ ١٣٤) ـ ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ ثـمَّ أَوعدَهُم فـقالَ:

(١٣٥) ـ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدُّنيا والآخرةِ، فإنَّه كما قَدَرَ على الإنعامِ قَدَرَ على الانتقامِ.

(١٣٦) ـ ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ فإنَّـا لا نَرْعَـوِي عمَّـا نحـن عليـه، وتغييرُ شـقِّ النَّفـيِ عمَّـا تَقتَضيـهِ المُقابلَـةُ للمُبالغَةِ فـي قِلَّـةِ اعتِدادِهِم بوَعظِه[2].

(١٣٧) ـ ﴿إنْ هذا إلَّا خَلْقُ الأوَّلينَ﴾: ما هذا الَّذي جِئتَنا به إلَّا كَذِبُ الأوَّلينَ، أو: ما خَلْقُنا هذا إلَّا خَلْقُهم نحيا ونموتُ مِثلَهُم ولا بعثَ وَلا حِسابَ.

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصِمٌ وحمزَةُ: ﴿خُلُقُ﴾ بضمَّتينِ[3]؛ أي: ما هذا الَّذي جئتَ بِهِ إلَّا عادةُ الأوَّلينَ كانُوا يُلَفِّقُونَ مِثلَه، أو: ما هذا الَّذي نحنُ عليه مِن الدِّينِ إلَّا خلقُ الأوَّلينَ وعادَتُهم ونحنُ بِهِم مُقتَدونَ، أو: ما هذا الَّذي نحنُ عليه مِن الحياةِ والمَوتِ إلَّا عادَةٌ قديمَةٌ لم يَزل النَّاسُ عَلَيها.

(١٣٨) ـ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نحنُ عليه.

---

(١) «فقال» من نسخة التفتازاني.

(٢) تقتضي المقابلة بين شقي النفي أن يُقال: أوعظت أم لم تعِظْ، لكنهم عدلوا عن ذلك مبالغة في إظهار عدم الاهتمام بوعظه، فقالوا: سواء وعظُك وعدم كونِك من جملة الواعظين أصلًا، ودخول «كان» في قولهم: «أم لم تكن» أفاد استمرار النفي ودوامه. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٢٨٦).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

(١٣٩ ـ ١٤٠) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بسببِ التَّكذيبِ بريحٍ صَرْصَرٍ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

(١٤١ ـ ١٤٦) ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝١٤١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٤٣ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٤٤ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٤٥ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ إنكارٌ لأَنْ يُترَكُوا كذلك، أو تَذكيرٌ بالنِّعمةِ في تخليَةِ اللهِ إيَّاهُم وأسبابَ[١] تَنعُّمِهم آمنينَ، ثمَّ فَسَّرَه بقَولِه:

(١٤٧ ـ ١٤٨) ـ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾: لطيفٌ لَيِّنٌ للُطفِ الثَّمَرِ، أو لأنَّ النَّخلَ أُنْثَى، وطَلْعُ إناثِ النَّخلِ ألطَفُ، وهو ما يَطْلُعُ مِنْهَا كنَصْلِ السَّيفِ في جَوْفِه شَماريخُ القِنْوِ[٢]، أو مُتدَلٍّ مُنكَسِرٌ مِن كثرةِ الحَملِ، وإفرادُ النَّخلِ لفَضلِهِ على سائرِ أَشجارِ الجنَّاتِ، أو لأنَّ المُرادَ بها غيرُهَا[٣] مِن الأشجارِ.

(١٤٩) ـ ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾: بَطِرينَ، أو: حاذِقينَ، مِن «الفَراهةِ» وهي النَّشاطُ، فإنَّ الحاذِقَ يعمَلُ بنَشاطٍ وطِيبِ قَلبٍ.

وقرأَ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو[٤]: ﴿فَرِهِينَ﴾[٥]، وهو أبلَغُ من الأوَّلِ.

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: «أسباب» بالنصب معطوف على «إياهم» أو مفعول معه.

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: القنو للنخل كالعنقود للعنب، وتفاريعه: شماريخ، وأصله عرجون. فـ«الشماريخ» جمع واحِده: شِمْرَاخ وشُمروخ، وهو: الَّذي يكون عليه البُسْر. انظر: «كفاية المتحفظ» لابن الأجدابي (ص: ٢٠٧).

(٣) قوله: «لأنَّ المُرادَ بها غيرُهَا»؛ أي: المراد بالجنات ما كان شجره غير النخيل.

(٤) في نسخة الطبلاوي: «وقُرِئَ» بدل «وقرأَ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

(١٥٠ ـ ١٥١) ـ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ استُعيرَ الطاعَةُ ـ الَّتي هي انقيادُ الأمرِ[1] ـ لامتثالِ الأمرِ، أو نُسبَ حكمُ الآمرِ إلى أمرِه مجازًا[2].

(١٥٢) ـ ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وصفٌ موضحٌ لإسرافِهم، ولذلك عُطِفَ ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ على ﴿ يُفْسِدُونَ ﴾ دلالةً على خُلوصِ فَسادِهم.

(١٥٣ ـ ١٥٤) ـ ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الَّذينَ سُحِرُوا كثيرًا حتَّى غلبَ على عُقولِهم، أو مِن ذَوِي السَّحْرِ، وهي الرِّئَةُ؛ أي: مِن الأَناسيِّ، فيكونُ ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ تأكيدًا له.

﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في دَعواكَ.

(١٥٥) ـ ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ ﴾؛ أي: بعدما أخرجَها اللهُ مِن الصَّخرةِ بدُعائِه كما اقترحُوها.

﴿ لَهَا شِرْبٌ ﴾ نصيبٌ مِن الماءِ؛ كـ«السِّقْيِ» و«القِيتِ» للحَظِّ مِن السَّقيِ والقُوتِ، وقُرِئَ بالضَّمِّ[3].

﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ فاقتَصِرُوا على شِرْبِكُم، ولا تُزاحِمُوها على شِرْبها.

(١٥٦) ـ ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ كضَرْبٍ وعَقْرٍ ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ عظَّمَ اليومَ لعِظَمِ ما يحلُّ فيه، وهو أبلَغُ مِن تَعظيمِ العَذابِ.

(١٥٧ ـ ١٥٩) ـ ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أُسنِدَ العقرُ إلى كلِّهم لأنَّ عاقِرَها إنَّما عَقَرَ برِضاهُم، ولذلك أُخِذُوا جَميعًا، ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ على عَقْرِها خوفًا من

---

(١) كذا في النسخ الخطية، ولو قيل: «هي انقيادٌ للآمر» لكان أظهر، والله أعلم.

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: لو قال: «الإطاعة» لكان أظهر ؛يعني: أنّ الإطاعة للآمر لا للأمر، فجعلها للأمر إمّا استعارة للامتثال، أو تجوُّز في النسبة.

(٣) انظر: «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٦١١) عن ابن أبي عبلة.

حلولِ العَذابِ لا توبةً، أو عندَ مُعاينةِ العَذابِ، ولذلك لم يَنْفَعْهُم، ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾؛ أي: العَذابُ المَوعودُ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ في نَفيِ الإيمانِ عَن أكثَرِهم في هذا المَعرِضِ إيماءٌ بأنَّهُ لو آمنَ أكثَرُهم أو شَطْرُهُم لَمَا أُخِذُوا بالعذابِ، وأنَّ قُريشًا إنَّما عُصِمُوا عَن مثلِهِ ببركَةِ مَن آمنَ مِنْهُم.

(١٦٠ ـ ١٦٥) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ أي: أتأتونَ مِن بينِ مَن عَداكُمْ مِن العالَمِينَ الذُّكرانَ لا يُشارِكُكُم فيهِ غيرُكُم، أو: أتأتونَ الذُّكرانَ مِن أولادِ آدمَ مع كَثرَتِهم وغلبةِ الإناثِ فيهِم كأنَّهنَّ قد أعوزْنَكُم؛ فالمرادُ بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على الأوَّلِ: كلُّ من يُنْكَحُ، وعلى الثَّاني: النَّاسُ.

(١٦٦) ـ ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم ﴾ لأجلِ استمتاعِكُم ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ لبيانِ ﴿مَا﴾ إنْ أُريدَ به جنسُ الإناثِ، أو للتَّبعيضِ إن أريدَ به العضوُ المباحُ مِنْهنَّ، فيكونُ تعريضًا بأنَّهم كانُوا يفعلونَ ذلك بنسائِهِم أيضًا.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾: مُتجاوِزونَ عَن حدِّ الشَّهوَةِ، حيثُ زادُوا على سائرِ النَّاسِ بَل الحيواناتِ، أو: مُفرِطونَ في المعاصي، وهذا مِن جملةِ ذاكَ، أو: أَحِقَّاءُ بأَنْ تُوصَفُوا بالعدوانِ لارتكابِكُم هذه الجريمةَ.

(١٦٧) ـ ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عمَّا تَدَّعيهِ، أو: عَن نَهْيِنا، أو: عَنْ تَقبيحِ أَمْرِنا.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾: مِن المَنْفيِّينَ مِن بينِ أَظْهُرِنا، ولعلَّهُم كانُوا يُخرِجُونَ مَن أخرجوهُ على عنفٍ وسُوءِ حالٍ.

(١٦٨) ـ ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾: مِن المُبغضينَ غايةَ البُغضِ، لا أَقِفُ عَن الإنكارِ عليهِ بالإيعادِ[1]، وهو أبلَغُ مِن أَنْ يقولَ: إنِّي لعمَلِكُم قَالٍ؛ لدلالتِه على أنَّه مَعدودٌ في زُمرَتِهم مَشهورٌ بأنَّه مِن جُملَتِهم[2].

(١٦٩ ـ ١٧٠) ـ ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: مِن شُؤمِه وعَذابِه ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾: أهلَ بيتِهِ والمُتَّبِعينَ له على دينِهِ، بإخراجِهم مِن بينِهم وقتَ حُلولِ العَذابِ بِهِم.

(١٧١) ـ ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي امرأةُ لوطٍ ﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: مُقدَّرةً في الباقينَ في العذابِ؛ إذ أصابَها حَجَرٌ في الطَّريقِ فأهلكَها؛ لأنَّها كانَتْ مائلَةً إلى القومِ راضِيَةً بفعلِهِم[3].

وقيلَ: كائنةً فيمَنْ بَقِيَ في القَريَةِ، فإنَّها لم تَخْرُج مع لوطٍ.

(١٧٢ ـ ١٧٣) ـ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾: أهلَكْنَاهُم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ قيلَ: أمطرَ اللهُ على شُذَّاذِ القومِ حِجارَةً فأهلَكَهُم ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ اللَّامُ فيه للجنسِ حتَّى يَصِحَّ وقوعُ المُضافِ إليه فاعلَ «ساء»، والمخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ وهو: مطرُهُم.

---

(١) أي: إني وإن أوعدتموني بالإخراج لا أنتهي عن الإنكار عليكم فالوقوف بمعنى: الرجوع والانتهاء. انظر «حاشية الخفاجي».

(٢) قال الشهاب في «الحاشية»: لأنَّه إذا قيل: (فاعل) لم يفد أكثر من تلبسه بالفعل، واذا قيل: (من الفاعلين) أفاد أنه مع تلبسه به من قوم عُرفوا أو اشتهروا به، فيكون راسخ القدم عريق العرق فيه. وذكر ابن المنير أن التعبير بالصفة وجعل الموصوف واحدًا من جمع يُفهم منه أن ذلك سمة للموصوف ثابتة التعلق به كاللقب المشهور. انظر: «الانتصاف» لابن المنير بهامش «الكشاف» (٣/ ٣٣٠).

(٣) وهذا على القول بأنها خرجت مع لوط وبقية أهله من القرية، لكنها عندما سمعت صوت العذاب خالفت أمر الله فالتفتت، فأصابها حجر فأهلكها.

(١٧٤ ـ ١٧٥) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

(١٧٦ ـ ١٧٧) ـ ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأَيْكَةُ: غيضةٌ تُنبتُ ناعمَ الشَّجرِ، يريدُ: غيضَةً بقربِ مَدْيَنَ تسكنُها طائِفَةٌ، فبعثَ اللهُ إليهم شعيبًا كما بُعِثَ إلى مَدْيَنَ، وكانَ أَجنَبِيًّا منهم فلذلك قالَ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل: أَخوهُم شُعَيبٌ.

وقيلَ: الأَيْكَةُ: شَجَرٌ مُلتَفٌّ، وكانَ شجرُهُم الدَّومَ، وهو المُقْلُ[(١)].

وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ بحَذفِ الهمزةِ وإلقاءِ حَركَتِهَا على اللَّامِ، وقُرِئَت لذلك مفتوحةً[(٢)] على أَنَّها «لَيْكَةَ» وهي اسمُ بَلَدتهِم، وإنَّما كُتِبَت هاهنا وفي ﴿ص﴾ بغيرِ أَلِفٍ اتِّباعًا للَّفظِ[(٣)].

---

(١) هو من شجر البادية يشبه صغار النخل. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «وقرئت كذلك مفتوحة»، والمثبت من نسخة الخيالي والطبلاوي، وعليه تكون اللام للتعليل والمعنى: أنه لأجل إلقاءِ حَركَة الهمزة على اللامِ قرئت اللام مفتوحة، وهو الأولى، فقد قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بلام مفتوحة من غير همزة بعدها ولا ألف قبلها وفتحِ التاء، والباقون بالألف واللام مع الهمزة وخفضِ التاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

أما على كون العبارة: «وقرئت كذلك مفتوحة» فقد قال الشهاب في «الحاشية»: هذا يقتضي أنّ ما قبله بالكسر، وليس كذلك، فإنّ فيها ثلاثَ قراءات: قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر: ﴿ليكةَ﴾ بفتح التاء، وقراءة غيرهم على الأصل: ﴿الأيكة﴾ وقرئ شاذًا: «لِيكة» بكسر التاء.

(٣) قوله: «اتباعًا للفظ» غير صحيح كما قال الشهاب، قال: والذي غرَّه كلام الزمخشريّ، وأنه ليس في كلام العرب مادة (ل ي ك)، وليس بشيء، والأسماء المرتجلة لا منع منها، وذكر البخاريّ أنّ ليكة بمعنى الأيكة، وناهيك به.

وكان الشهاب قد نقل عن أبي عبيد قوله: وجدتها في مصحف عثمان الذي يقال له «الإمام» في =

(١٧٨ ـ ١٨١) ـ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾: أَتمُّوهُ ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ حقوقَ النَّاسِ بالتَّطفيفِ.

(١٨٢) ـ ﴿وزِنُوا بالقُسْطاسِ المُستَقِيمِ﴾: بالميزانِ السَّوِيِّ، وهو إنْ كانَ عَرَبيًّا[1]؛ فإن كانَ مِن «القِسْطِ» ففُعْلَاسٌ[2]..............................

= الحِجْر و﴿ق﴾: ﴿الأيكة﴾، وفي الشعراء و﴿ص﴾: ﴿ليكة﴾، وعلى هذا قرّاء المدينة.

قال الشهاب: وهذا ردٌّ على ما قاله النحاة، فإنهم نسبوا القراءة إلى التحريف، وليس بشيء، فلا عبرة بإنكار الزمخشريّ ومن تبعه كالمصنف، وقوله في هذه القراءة: إنها على النقل، غير صحيح.

وقد نقل أبو شامة في «إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص٦٢١) قول أبي عبيد، وناقشه، وذكر قول المبرد والفراء وابن قتيبة والزجاج والنحاس وغيرهم في دفعه، فلينظر.

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «إن كان عربيًّا» إشارةٌ إلى قول آخر فيه، وهو أنه معرَّب روميُّ الأصل، ومعناه: العدل أيضًا كـ«القسط»، فهو من توافق اللغتين. وقال العسكري في «التلخيص في معرفة أسماء الأشياء» (ص٢٠٧): القسطاسُ: الميزانُ، روميٌّ مُعرَّبٌ. وقيلَ: هوَ القرسطونُ، وقيلَ: القسطاسُ عربيٌّ صحيحٌ، وأصلهُ منَ القسطِ، وهوَ العدلُ.

(٢) قوله: «ففعلاس»، ومثله في «الكشاف» (٦/ ٢٦٥)، قال الطيبي في «فتوح الغيب» (١١/ ٤١٢): قيل: فيه نظرٌ، والصواب أن وزنه: فعلاع، لأن التكرير يقتضي أن يوزن بما قبله... وانظر باقي كلامه ثمة، وقد نقله أبو حيان في «البحر» (١٦/ ٣٤٠) عن الزمخشري فجاء في بعض نسخه: «فعلاع».

والظاهر أن في نسخ البيضاوي اختلافًا؛ فقد جاءت في «حاشية الخفاجي»: «فعلاع»، وعليه شرح فقال: قوله: «ففعلاع بتكرير العين»؛ يعني: شذوذًا؛ إذ هي لا تكرّر وحدها مع الفصل باللام، ومَن قال: إنها مكررة صورة لا حقيقة فقد وهم؛ لأنّه يتحد مع القول الثاني، ولذا قال الزمخشريّ: «وزنه فُعْلاس» كما وقع في بعض النسخ تحقيقًا لزيادتها.

قلت: الذي يفيده كلام الشهاب أنها عند الزمخشري «فعلاس» وعند المصنف «فعلاع»، بخلاف الشيخ زكريا الأنصاري حيث قال في «الحاشية» (٤/ ٢٩٣): «ففعلاس» تبع فيه «الكشاف» وصوابه: ففعلاع؛ لأن المكرَّر يُوزَن بما قبله.

بتكريرِ العينِ، وإلَّا ففُعْلَالٌ[١].

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ بكسرِ القافِ[٢].

(١٨٣ ـ ١٨٤) ـ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: ولا تُنقِصُوا شيئًا من حُقوقِهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقَتلِ والغَارَةِ وقطعِ الطَّريقِ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: وذَوِي الجِبلَّةِ الأوَّلين؛ يعني: من تَقدَّمَهم مِن الخلائقِ.

(١٨٥ ـ ١٨٧) ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أَتوا بالواوِ للدَّلالةِ على أنَّه جامعٌ بين وصفَيْنِ مُنافِيَينِ للرِّسالةِ مُبالغَةً في تكذيبِه.

﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دَعْواكَ[٣] ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: قِطعَةً مِنْها، ولعلَّه جَوابٌ لِمَا أشعرَ به الأمرُ بالتَّقوى مِن التَّهديدِ. وقرأ حفصٌ بفَتحِ السِّينِ[٤].

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دَعْواكَ.

(١٨٨) ـ ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وبعذابِه المُنْزَلِ عليكُمْ ممَّا أوجبَهُ لَكُم عليه في وَقتِه المقدَّرِ له لا محالةَ.

(١٨٩ ـ ١٩١) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ على نحوِ ما اقترحُوا، بأَنْ سلَّطَ اللهُ عليهِم الحرَّ سبعَةَ أيَّامٍ حتَّى غَلَتْ أنهارُهُم، فأظَلَّتْهُم سحابَةٌ فاجتَمَعُوا

---

(١) قوله: «وإلا» بأن كان مأخوذًا من الرباعي «ففعلال»؛ أي: بتكرير اللام، وعلى الأول فهو مأخوذ من الثلاثي. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٩٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

(٣) والظنُّ في قولهم في معنى اليقين، ولذلك أدخلوا فيه «إنْ» واللام. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (١١/ ٤١٤).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

تحتَها، فأمطَرَتْ عليهِم نـارًا فاحـترَقُوا، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

هذا آخرُ القصصِ السَّبعِ المذكورةِ على سبيلِ الاختِصارِ تَسلِيَةً لرَسولِ اللهِ ﷺ وتهديدًا للمُكذِّبينَ به.

واطِّرادُ نُزولِ العَذابِ على تكذيبِ الأُمَمِ بعد إنذارِ الرُّسُلِ بهِ واقتراحِهِم له استهزاءً وعدَمَ مُبالاةٍ بهِ يدفَعُ أن يقالَ: إنَّهُ كانَ بسببِ اتِّصالاتٍ فَلَكيَّةٍ، أو كانَ ابتلاءً لَهُم لا مُؤاخذَةً على تَكذيبِهِم[1].

(١٩٢ ـ ١٩٤) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ تقريرٌ لحَقِّـيَّـةِ تـلك القصصِ، وتنبيهٌ على إعجازِ القرآنِ ونبوَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ؛ فإنَّ الإخبارَ عنها ممَّنْ لم يَتعَلَّمْها لا يكونُ إلَّا وحيًا مِن اللهِ عزَّ وجلَّ.

و«القلبُ» إنْ أرادَ به الرُّوحَ فذاكَ، وإنْ أرادَ بهِ العُضوَ فتَخصيصُه لأنَّ المَعانِيَ الرُّوحانيَّةَ إنَّما تنزلُ أَوَّلًا على الرُّوحِ، ثمَّ تَنتَقِلُ منه إلى القَلْبِ لِمَا بينَهُما مِن التَّعلُّقِ، ثمَّ تَتصعَّدُ مِنه إلى الدِّماغِ فيَنْتَقِشُ بها لوحُ المُتخيِّلَةِ[2].

والرُّوحُ الأَمينُ: جبريلُ؛ فإنَّه أمينُ اللهِ على وَحيِه.

---

(١) هذا تلخيص لإيراد ذكره الرازي مع جوابه. انظر: «تفسير الرازي» (٢٤/ ٥٢٩).

(٢) هذا مبني على كلام الحكماء، ولهم في الكلام على الروح وعلاقتها بالقلب والدماغ كلام منبنٍ على فلسفتهم. وانظر: «مفاتيح العلوم» (ص١٦٠)، و«الإمتاع والمؤانسة» للتوحيدي (ص١٨٦)، و«المقابسات» له أيضًا (ص٣٣٨)، وقد نقل الواحدي أقوالًا عن الروح ومسكنها ثم قال: وهذا كله إذا رجعت إلى التحقيق ضرب من التكلُّف. انظر: «التفسير البسيط» (١٣/ ٤٧٠).

وقـرأ ابـنُ عامرٍ وأبو بكـرٍ وحمزةُ والكِسـائيُّ بتَشـديدِ الزَّايِ ونصـبِ ﴿الرُّوحَ الأمينَ﴾(١)(٢).

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ عمَّا يُؤدِّي إلى عَذابٍ مِن فعلٍ أو تَرْكٍ.

(١٩٥) ـ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾: واضحِ المَعنى لئلَّا يَقولوا: ما نصنَعُ بما لا نَفْهَمُه؟ فهو مُتَعلِّقٌ بـ﴿نَزَلَ﴾، ويجوزُ أن يتعلَّقَ بـ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ أي: لتكونَ ممَّنْ أَنذَرُوا بلُغَةِ العربِ، وهم هودٌ وصالحٌ وإسماعيلُ وشُعَيبٌ ومحمَّدٌ عليهِم السَّلامُ.

(١٩٦) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: وإنَّ ذِكرَهُ أو معناه لَفِي الكُتبِ المُتقدِّمَة.

(١٩٧) ـ ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ على صِحَّةِ القُرآنِ أو نبوَّةِ مُحمَّدٍ عليهِ السَّلامُ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أن يعرفوهُ بنَعتِه المَذكورِ في كُتبِهِم، وهو تقريرٌ لكونِه دليلًا.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿تكُنْ﴾ بالتَّاءِ و﴿آيةٌ﴾ بالرَّفعِ(٣) على أنَّها الاسمُ والخبرُ ﴿لَّهُمْ﴾ و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ بدلٌ، أو: الفاعِلُ(٤) و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ بدلٌ و﴿لَّهُمْ﴾ حالٌ، أو: أنَّ الاسمَ ضَميرُ القِصَّةِ و﴿آيةٌ﴾ خبرُ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ والجملةُ خبرُ ﴿تكُنْ﴾.

(١٩٨ ـ ١٩٩) ـ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ كما هو(٥) زيادةً في إعجازِه، أو بلُغَةِ العجمِ ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ لفَرطِ عِنادِهِم واستِكبارِهِم، أو لعَدمِ فَهمِهِم واستِنكافِهِم مِن اتِّباعِ العَجَمِ.

---

(١) «وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي بتشديد الزاي ونصب الروح الأمين»: ليس في نسخة الفاروقي.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

(٤) معطوف على «الاسمُ».

(٥) قوله: «كما هو»؛ أي: على حاله من الإعجاز مع كونه عربيًا. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٣١٣).

و﴿ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾: جمعُ أَعجَمِيٍّ على التَّخفيفِ، ولذلكَ جُمِعَ جَمْعَ السَّلامَةِ[١].

(٢٠٠) ـ ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَـٰهُ﴾: أدخلناهُ ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، والضَّميرُ للكُفرِ المَـدلولِ عليه بقولِه: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ فتَدلُّ الآيةُ على أنَّه بخلقِ اللهِ.

وقيلَ: للقُرآنِ؛ أي: أدخلناهُ فيها فعرفُوا معانيَهُ وإعجازَهُ ثمَّ لَمْ يؤمِنُوا به عِنادًا[٢].

(٢٠١) ـ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ المُلجِئَ إلى الإيمانِ.

(٢٠٢ ـ ٢٠٣) ـ ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً﴾ في الدُّنيا والآخرةِ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بإتيانِه ﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾ تَحَسُّرًا وتأسُّفًا.

(٢٠٤) ـ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ فيقولونَ: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠]، وحالُهم عندَ نُزولِ العذابِ طَلَبُ النَّظِرَةِ[٣].

(٢٠٥ ـ ٢٠٧) ـ ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَـٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾: لم يُغنِ عَنْهُم تَمتُّعُهم المُتطاولُ في دَفعِ العَذابِ وتَخفيفِه.

(٢٠٨ ـ ٢٠٩) ـ ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أَنذرُوا أهلَها إلزامًا للحُجَّةِ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾: تَذكرةً، ومَحلُّها النَّصبُ على العِلَّةِ[٤]، أو المصدرِ لأنَّها في مَعنى الإنذارِ،

---

(١) قوله: «جمع أعجمي»؛ أي: بياء النسب «على التخفيف»؛ أي: بحذفها من الجمع، «ولذلك»؛ أي: ولكونه جمعَ أعجمي «جُمع جمعَ السلامة»؛ لأنَّه حينئذ ليس من باب (أفعل فعلاء)، بخلاف ما لو كان جمع (أعجم) فإن مؤنثه (عجماء) بوزن (أفعل فعلاء)، وهو عند البصريين لا يُجمع هذا الجمعَ إلَّا لضرورة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٩٦).

(٢) وهو اختيار الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ٢٧٢).

(٣) أي: الإمهال.

(٤) ذكر أبو حيان أن هذا مخالف لمذهب الجمهور، وإنما يتخرج على مذهب الكسائي والأخفش. انظر: «البحر المحيط» (١٦/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦).

أو الرَّفعُ على أنَّها صِفَةُ ﴿مُنذِرُونَ﴾ بإضمارِ «ذَوُو»، أو بجَعْلِهم ذِكرَى لإمعانِهِم في التَّذكِرَةِ، أو خبرُ مَحذوفٍ والجُملَةُ اعتراضِيَّةٌ.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنُهلكَ غيرَ الظَّالمينَ، وقبلَ الإنذارِ.

(٢١٠ ـ ٢١١) ـ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ كما زَعَمتِ المشركونَ أنَّه مِن قبيلِ ما يُلْقِي الشَّياطينُ على الكهنَةِ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾: وما يَصِحُّ لهم أَنْ يتنزَّلوا[١] بِهِ ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: وما يقدرونَ.

(٢١٢) ـ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لكلامِ الملائكةِ ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ لأنَّه مَشروطٌ بمُشاركَةٍ في صَفاءِ الذَّاتِ، وقَبولِ فيضانِ الحقِّ، والانتقاشِ بالصُّوَرِ الملكوتيَّةِ، ونُفوسُهُم خبيثَةٌ ظُلمانيَّةٌ شرِّيرةٌ بالذَّاتِ لا تَقبَلُ ذلك، والقرآنُ مُشتمِلٌ على حقائقَ ومُغيَّباتٍ لا يمكنُ تَلقِّيها إلَّا مِن الملائكةِ.

(٢١٣) ـ ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ تَهييجٌ لازديادِ الإخلاصِ، ولطفٌ لسائرِ المكلَّفينَ[٢].

(٢١٤) ـ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الأقربَ مِنْهم فالأقربَ، فإنَّ الاهتمامَ بشَأنِهِم أهمُّ.

رُوِيَ: أنَّه لَمَّا نزلَتْ صَعِدَ الصَّفَا فناداهُم فَخْذًا فَخْذًا حتَّى اجتَمَعُوا إليه فقالَ: «لو أخبرتكُم أن بسفحِ هذا الجبلِ خيلًا أكُنتُمْ مُصدِّقيَّ» قالُوا: نعم، قالَ: «فإنِّي نذيرٌ لَكُم بين يَدَي عذابٍ شَديدٍ»[٣].

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي والطبلاوي: «ينزلوا».

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: وجه اللطف فيه: أنه إيقاظ لهم من سِنة الغفلة بألطف وجه حيث لم يواجهوا به، ولو خوطبوا به لخافوا من أن يكونوا متهمين به أو محتملًا صدوره منهم في القابل عند الله، فأتى به على منوال: إياك أعني فاسمعي يا جاره، وهذا وجه بديع في مثله.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٩٧١)، ومسلم في «صحيحه» (٢٠٨).

(٢١٥) ـ ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: لَيِّنْ جانِبَكَ لَهُم، مُستعارٌ مِن خَفضِ الطَّائرِ جناحَهُ إذا أرادَ أنْ يَنحَطَّ[1]، و﴿مِنَ﴾ للتَّبيينِ؛ لأنَّ مَن اتَّبعَ أعمُّ ممَّن اتَّبعَ لدينٍ أو غيرِه، أو للتَّبعيضِ على أنَّ المُرادَ مِن المؤمنينَ: المشارفونَ للإيمانِ، أو: المُصدِّقونَ باللِّسانِ[2].

(٢١٦) ـ ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ ولم يتَّبعوكَ ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ممَّا تعملونَهُ، أو: من أعمالِكُم.

(٢١٧) ـ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ الَّذي يقدِرُ على قهرِ أعدائِهِ ونصرِ أَوليائِه، يَكْفِكَ شرَّ مَن يَعصيكَ منهم ومن غيرِهِم.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿فتوَكَّلْ﴾[3] على الإبدالِ مِن جوابِ الشَّرطِ.

(٢١٨ ـ ٢١٩) ـ ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إلى التَّهجُّدِ ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ وتردُّدَكَ في تصفُّحِ أحوالِ المُتهجِّدينَ؛ كما رُوِيَ أنَّه لَمَّا نُسِخَ فرضُ قيامِ اللَّيلِ طافَ تلكَ اللَّيلةَ ببيوتِ أَصحابِه لينظرَ ما يَصْنعونَ حِرصًا على كثرةِ طاعاتِهِم، فوجدَها كبيوتِ الزَّنابيرِ لِمَا سَمِعَ لها مِن دَنْدَنتِهِم بذكرِ اللهِ والتِّلاوةِ[4].

---

(١) قال الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ٢٧٩): الطَّائرُ إذا أرادَ أن ينحطَّ للوُقوع كسَر جَناحَه وخَفَضَه، وإذا أراد أن ينهَض للطَّيرانِ رَفَع جَناحه، فجُعل خَفْضُ جَناحِه عند الانحطاطِ مَثَلاً في التَّواضُع ولِيْنِ الجانبِ.

(٢) وهذا خلاف الظاهر ؛ لأن مقتضاه أن يكون هناك مؤمنون غير متبعين للنبي ﷺ، وهذا بعيد مع اشتراط الله سبحانه اتباعه دليلًا على حبِّه ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾. وانظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٣٢٢).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

(٤) لم أقف عليه في مظانه، وقد ذكره الزمخشري، وذكره المفسرون بعده. انظر: «الكشاف» (٦/ ٢٨٠).

أو: تَصرُّفَك فيما بينَ المُصلِّينَ بالقيامِ والرُّكوعِ والسُّجودِ والقُعودِ إذا أَمَمْتَهم.

وإنَّما وصفَهُ اللهُ تعالى بعلمِه بحالِه الَّتي بها يستأهلُ وِلايتَه بعدَ وَصفِه بأنَّ مِن شأنِهِ قهرَ أَعدائِه ونصرَ أَوليَائِه؛ تحقيقًا للتَّوكُّلِ وتطمينًا لقلبِهِ عليه.

(٢٢٠) ـ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِمَا تقولُه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تَنويه.

(٢٢١ ـ ٢٢٣) ـ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ لَمَّا بيَّـنَ أنَّ القُـرآنَ لا يَصِحُّ أن يكونَ ممَّا تنزَّلَت بهِ الشَّياطينُ، أكَّدَ ذلك بأَنْ بيَّنَ أنَّ مُحمَّدًا عليه السَّلامُ لا يصلحُ لأَنْ يَتنزَّلُوا عليه مِن وَجهَيْنِ:

أحدُهُما: أنَّه إنَّما يَكونُ على شِرِّيرٍ كذَّابٍ كثيرِ الإثمِ، فإنَّ اتِّصالَ الإنسانِ بالغائباتِ لِمَا بينَهُمَا مِن التَّناسُبِ والتَّوادِّ، وحالُ مُحمَّدٍ ﷺ على خلافِ ذلك.

وثانيهما: قولُه: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾؛ أي: الأفَّاكون يلقونَ السَّمعَ إلى الشَّياطينِ فيتلقَّونَ مِنْهُم ظنونًا وأَماراتٍ لنقصانِ عِلْمِهم، فيضمُّونَ إليها على حسبِ تَخيُّلاتِهِم أشياءَ لا يطابقُ أكثرُها الواقعَ؛ كما جاءَ في الحديثِ: «الكَلِمةُ يخطَفُها[1] الجنِّيُّ فيَقُرُّها في أُذُنِ وَلِيِّه، فيزيدُ فيها أكثرَ مِن مئةِ كذبةٍ»[2]، ولا كذلك محمَّدٌ ﷺ؛ فإنَّه أخبرَ عَن مُغَيَّباتٍ كثيرةٍ لا تُحصَى، وقد طابقَ كلُّها.

وقد فُسِّرَ الأكثرُ بالكلِّ؛ لقولِه: ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ﴾، والأظهَرُ أنَّ الأكثريَّةَ باعتبارِ أقوالِهم على مَعنى: أنَّ هؤلاءِ قلَّ مَن يَصْدُقُ منهم فيما يَحكي عن الجنِّيِّ.

وقيلَ: الضَّمائرُ للشَّياطينِ؛ أي: يلقونَ السَّمعَ إلى الملأِ الأعلى قبلَ أَنْ يُرجموا، فيختطفونَ مِنهم بعضَ المُغيَّباتِ ويُوحونَ بهِ إلى أوليائِهم، أو يلقونَ مَسموعَهُم منهم

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني والخيالي: «يحفظها»، والمثبت من نسخة الطبلاوي، وهو الموافق لما في «الصحيحين».

(٢) رواه بنحوه البخاري في «صحيحه» (٦٢١٣)، ومسلم في «صحيحه» (٢٢٢٨) عن عائشة رضي الله عنها.

إلى أَوليائِهِم، وأكثرُهُم كاذِبونَ فيما يُوحونَ به إليهِم؛ إذ يُسمعونَهُم لا على نحوِ ما تكلَّمَت به الملائِكةُ؛ لشرارَتِهم، أو لقُصورِ فَهمِهِم، أو ضَبطِهِم، أو إفهامِهِم[١].

(٢٢٤) ـ ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ وأتباعُ مُحمَّدٍ عليه السَّلامُ لَيسُوا كذلك، وهو استئنافٌ أبطلَ كونَه شاعرًا، وقرَّرَه بقولِه:

(٢٢٥) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ لأنَّ أكثرَ مُقدِّماتِهِم خيالاتٌ لا حَقيقةَ لها، وأغلَبَ كلماتِهِم في النَّسيبِ بالحُرَمِ[٢] والغزلِ والابتهارِ[٣]، وتمزيقِ الأَعراضِ، والقَدحِ في الأنسابِ، والوَعدِ الكاذبِ، والافتِخارِ الباطلِ، ومَدحِ مَن لا يَستَحِقُّه والإطراءِ فيه، وإليه أشارَ بقولِه:

(٢٢٦) ـ ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وكأنَّه لَمَّا كانَ إعجازُ القُرآنِ مِن جهَةِ المعنى واللَّفظِ، وقَدْ قَدحُوا في المَعنى بأنَّه ممَّا تَنزَّلَت به الشَّياطينُ، وفي اللَّفظِ بأنَّه مِن جنسِ كلامِ الشُّعراءِ= تكلَّمَ في القِسمَيْنِ وبيَّنَ منافاةَ القرآنِ لهما ومُضادَّةَ حالِ الرَّسولِ لحالِ أَربابِهما.

وقرأَ نافعٌ: ﴿يَتْبَعُهُم﴾ على التَّخفيفِ[٤]، وقُرِئَ بالتَّشديدِ وتسكينِ العينِ[٥] تَشبيهًا لـ«بِعُه» بعَضُد[٦].

---

(١) بكسر الهمزة. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٣٢٩).

(٢) بضم الحاء وفتح الراء جمع حُرْمَة، وحُرْمَة الرجل أهله، والحرم: النساء. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٤/ ٣٣٠).

(٣) الابتهار: ادعاء الشيء كذبًا. انظر: «الصحاح» (مادة: بهر) (٢/ ٥٩٩).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٤)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٥) أي: «يَتَّبِعْهم». انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٩) عن الحسن وعن عبد الوارث عن أبي عمرو.

(٦) قوله: «تشبيهًا لـ(بعه)»، هو حكايةٌ لبعض حروف ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾، وقد قال الزمخشري كما في هامش =

(٢٢٧) ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ استثناءٌ للشُّعراءِ المؤمنينَ الصَّالحينَ الَّذينَ يُكثِرُونَ ذِكرَ اللهِ، ويكونُ أكثَرُ أَشعارِهِم في التَّوحيدِ والثَّناءِ على اللهِ والحثِّ على طاعَتِه، ولو قالوا هَجْوًا أرادُوا به الانتصارَ ممَّنْ هجَاهُم ومُكافحةَ هُجاةِ المُسلمينَ؛ كعبدِ اللهِ بنِ رواحةَ وحسَّانِ بن ثابتٍ والكعبان[١]، وكانَ عليه السَّلامُ يقول لحسَّانَ: «قُلْ وروحُ القُدُسِ مَعَك»[٢].

وعن كعبِ بن مالكٍ أنَّه عليه السَّلامُ قالَ له: «اهجُهُم فوالَّذي نفسي بيدِهِ لَهُوَ أشَدُّ عليهِمْ مِن النَّبْلِ»[٣].

﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ تهديدٌ شَديدٌ لِمَا في ﴿سَيعْلَمُ﴾ مِن الوعيدِ البليغِ، وفي ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ من الإطلاقِ والتَّعميمِ، وفي ﴿أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾

= بعض نسخه الخطية التي أثبتت في حواشي مطبوعة دار اللباب: لما غيَّروا الضمة في (عَضُد) واقعةً بعد الفتحة، فلأن يغيِّروها واقعةً بعد الكسرة أولى. انظر: «الكشاف» (٦/ ٢٨٦)، و«فتوح الغيب» (١١/ ٤٤٥).

(١) كعبُ بن مالك وكعبُ بن زهَيْر. انظر: «الكشاف» (٦/ ٢٨٧).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (٣٢١٣)، ومسلم في «صحيحه» (٢٤٨٦) عن البراء بن عازب رضي الله عنه بلفظ: «اهجهم، أو هاجهم، وجبريل معك».

(٣) رواه بنحوه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٧٨٥) و(١٥٧٨٦) و(٢٧١٧٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٠٧)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

ورواه عبد الرزاق كما في «جامع معمر» (٢٠٥٠٠) عن كعب بن مالك: أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل، قال: «إن المؤمن يجاهد بنفسه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنما يرمون فيهم به نضح النبل».

وروى مسلم (٢٤٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها: «اهجُوا قريشًا، فإنه أشدُّ عليها من رَشْقٍ بالنَّبْل»، وانظر حديث البراء في التعليق السابق.

ـ أي: بعدَ الموتِ ـ مِن الإبهامِ والتَّهويلِ. وقد تَلاها أبو بكرٍ لعُمَرَ رضيَ اللهُ عَنهما حينَ عَهِدَ إليه[١].

وقُرئ: «أيَّ مُنفَلَتٍ يَنفَلِتُونَ»[٢] من «الانفلاتِ» وهو النَّجاةُ، والمعنى: أنَّ الظَّالمين يطمَعونَ أَنْ يَنفَلِتُوا عن عَذابِ اللهِ، وسيعلمونَ أنْ ليسَ لهم وَجهٌ مِن وُجوهِ الانفلاتِ.

عَن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورَةَ الشُّعراءِ كانَ له مِن الأَجرِ عشرُ حَسناتٍ بعَددِ مَن صدَّقَ بنوحٍ وكذَّبَ به، وهودٍ وصالحٍ وشُعيبٍ وإبراهيمَ، وبعددِ مَن كذَّبَ بعِيسى، وصَدَّقَ بمُحمَّدٍ عليهِم السَّلامُ»[٣].

***

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٣٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٤٩).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٢) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٨٩٠)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٢٦) سورة الشعراء مكية وآياتها سبع وعشرون ومائتان

(ووقع في تفسير مالك المروى عنه تسميتها سورة الجامعة)

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم ﴿١﴾ تلك آيات الكتاب المبين ﴿٢﴾ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴿٣﴾ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴿٤﴾ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴿٥﴾ فقد كذبوا فسيأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزءون ﴿٦﴾ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴿٧﴾ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿٨﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿٩﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي هذه آيات القرآن المبين، أي البيِّن الواضح الجلي، الذي يفصل بين الحق والباطل والغي والرشاد، وقوله تعالى: ﴿لعلك باخع﴾ أي مهلك ﴿نفسك﴾ أي مما تحرص وتحزن عليهم ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾، وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾، كقوله: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ الآية. قال مجاهد وعكرمة ﴿لعلك باخع نفسك﴾: أي قاتل نفسك، ثم قال تعالى: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ أي لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الايمان قهراً، ولكن لا نفعل ذلك لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري، وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾، وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ الآية، فنفذ قدره ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، ثم قال تعالى: ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾ أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾، وقال تعالى: ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾ الآية. ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين، ثم نبَّه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره، وهو القاهر العظيم القادر

الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان، قال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم، ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض، ورفع بناء السماء ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله، وقوله: ﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ أي الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، ﴿الرحيم﴾ أي بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، قال أبو العالية: العزيز في نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره الرحيم بمن تاب إليه وأناب.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾
قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ
وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى
حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه (موسى بن عمران) عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى: ﴿أن ائت القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون * قال رب إني أخاف أن يكذبون * ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون * ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه ﴿قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري - إلى قوله - قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾، وقوله تعالى: ﴿ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ أي بسبب قتل القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر، ﴿قال كلا﴾ أي قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك، كقوله: ﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً﴾، ﴿فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون﴾، كقوله: ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ أي إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي، ﴿فائتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إنا رسولا ربك﴾ أي كل منا أرسل إليك، ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ أي أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون وحزبه المخلصون، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية، ونظر إليه بعين الازدراء والغَمْص[1] فقال: ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾ الآية، أي أما أنت الذي ربيناه فينا وفي بيتنا وعلى فراشنا، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلاً وجحدت نعمتنا عليك، ولهذا قال: ﴿وأنت من الكافرين﴾ أي الجاحدين

(١) الغمص الاحتقار.

﴿ قال فعلتها إذاً﴾ أي في تلك الحال ﴿ وأنا من الضالين﴾ أي قبل أن يوحى إليّ وينعم الله عليّ بالرسالة والنبوة، قال ابن عباس ﴿ وأنا من الضالين﴾ أي الجاهلين، ﴿ ففررت منكم لما خفتكم﴾ الآية، أي انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك فإن أطعته سلمت، وإن خالفته عطبت، ثم قال موسى: ﴿ وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبَّدت بني إسرائيل﴾ أي وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخدماً، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أَفَيَفِي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟ أي ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله: ﴿ وما رب العالمين﴾، وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿ ما علمت لكم من إله غيري﴾ ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه﴾ وكانوا يجحدون الصانع جلَّ وعلا، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: إني رسول رب العالمين، قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قال فمن ربكما يا موسى﴾ فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما﴾ أي خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه، وإلهه لا شريك له، هو الذي خلق الأشياء كلها من بحار وقفار، وجبال وأشجار، ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطير، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون ﴿ إن كنتم موقنين﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلاً على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿ ألا تستمعون﴾؟ أي ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ أي خالقكم وخالق آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه، ﴿ قال﴾ أي فرعون لقومه ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ أي ليس له عقل في دعواه أنَّ ثمّ رباً غيري، ﴿ قال﴾ أي موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ أي هو الذي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً، كما قال تعالى: ﴿ قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فائت بها من المغرب﴾ الآية، ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى عليه السلام، فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

* قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ

فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾، فعند ذلك قال موسى: ﴿أولو جئتك بشيء مبين﴾؟ أي ببرهان قاطع واضح، ﴿قال فائت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج، ﴿ونزع يده﴾ أي من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي تتلألأ كقطعة من القمر، فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد، فقال للملأ حوله: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ أي بارع في السحر، فروّج عليهم أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به، فقال: ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾ الآية، أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه ماذا أصنع به؟ ﴿قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم﴾ أي أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك، وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد فأجابهم إلى ذلك، وكان هذا من تسخير الله تعالى، ليجتمع الناس في صعيد واحد، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة.

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ
ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾

لما جاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم، وكان السحرة جمعاً كثيراً وجماً غفيراً، قيل: كانوا اثني عشر ألفاً، وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: غير ذلك، والله أعلم بعدتهم. واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾، ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم ﴿فلما جاء السحرة﴾ أي إلى مجلس فرعون، وقد جمع خدمه وحشمه، ووزراءه ورؤساء دولته، وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم إن غلبوا فقالوا: ﴿أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين﴾ أي وأخص مما

تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي، فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا﴾ وقد اختصر هذا ههنا فقال لهم موسى: ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ وهذا كما تقول الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً هذا بثواب فلان، ﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ أي تخطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً. قال الله تعالى: ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ فكان هذا أمراً عظيماً، وبرهاناً قاطعاً للعذر، وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا غُلبوا، وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحاً جريئاً عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم، ويقول: ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾، وقال: ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ الآية.

* قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيده به وجعله له حجة، ودلالة على صدق ما جاء به من ربه، ولهذا لما قال لهم فرعون ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾؟ أي كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ولا تفتاتوا عليَّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾. وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل، ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب، فقالوا ﴿ لا ضير﴾ أي لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به، ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي المرجع إلى الله عزَّ وجلَّ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء، ولهذا قالوا: ﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾ أي ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر، ﴿ أن كنا أول المؤمنين﴾ أي بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان، فقتلهم كلهم.

* وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك

يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عزَّ وجلَّ. خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً، وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر، وأن موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته معهم، وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم، فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون، واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين، أي من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم: ﴿إن هؤلاء﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لشرذمة قليلون﴾ أي لطائفة قليلة، ﴿وإنهم لنا لغائظون﴾ أي كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا، ﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ أي نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم، قال الله تعالى: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم﴾ أي فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا، ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾، كما قال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ الآية.

فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ أي وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها، ﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾، وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر، وهو بحر القلزم فصار أمامهم البحر، وقد أدركهم فرعون بجنوده، فلهذا قالوا: ﴿إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين﴾ أي لا يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد، وكان هارون عليه السلام في المقدمة، ومعه (يوشع بن نون) ومؤمن آل فرعون، وموسى عليه السلام في الساقة، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر فضربه، وقال: انفلق بإذن الله. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن سلام: أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء، والمكون لكل شيء، والكائن بعد كل شيء، اجعل لنا مخرجاً، فأوحى الله إليه: ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾. وقال محمد بن إسحاق: أوحى الله - فيما ذكر لي - إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له، قال: فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضاً فرقاً من الله تعالى وانتظاراً

لما أمره الله، وأوحى الله إلى موسى ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾ فضربه بها، ففيها سلطان الله الذي أعطاه فانفلق، قال الله تعالى: ﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ أي كالجبل الكبير[1]، قاله ابن عباس، وقال عطاء الخراساني: هو الفج بين الجبلين. وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق؛ وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حيله كالحيطان، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار يبساً كوجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً * لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾، وقال في هذه القصة ﴿وأزلفنا ثم الآخرين﴾ أي هنالك. قال ابن عباس ﴿وأزلفنا﴾ أي قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه، ﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين﴾ أي أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك. عن عبد الله ابن مسعود قال: فلما خرج آخر أصحاب موسى وتكامل أصحاب فرعون انطم عليهم البحر، فما رئي سواد أكثر من يومئذ، وغرق فرعون لعنه الله، ثم قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ تقدم تفسيره

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من صغره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجلّ، ﴿فقال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾؟ أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين﴾ أي مقيمين على عبادتها ودعائها، ﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يهرعون، فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ أي إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير، فلتخلص إليّ بالمساءة، فإني عدو لها لا أبالي بها ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ الآية. وقال هود عليه السلام ﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾، وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم، قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾.

---

(١) قاله ابن عباس وابن مسعود والضحاك وقتادة وغيرهم.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾: أي هو الخالق الذي قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه فكل يجري على ما قدر له، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ أي هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً، كما قال الجن: ﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾، وكذا قال إبراهيم: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ إي إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه، ﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ أي هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبديء ويعيد ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ وهو الفعال لما يشاء.

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكماً، قال ابن عباس: وهو العلم، وقال عكرمة: هو اللب، وقال مجاهد: هو القرآن، وقال السدي: هو النبوة، وقوله: ﴿وألحقني بالصالحين﴾ أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم في الرفيق الأعلى»، قالها ثلاثاً. وفي الحديث: «اللهم أحينا مسلمين، وأمتنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبدلين»، وقوله: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ أي واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به ويقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين﴾. قال مجاهد وقتادة: يعني الثناء الحسن، قال ليث ابن أبي سليم: كل ملة تحبه وتتولاه، وقوله تعالى: ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ أي أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم، وقوله: ﴿واغفر لأبي﴾ الآية، كقوله: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه - إلى قوله - إن إبراهيم لأواه حليم﴾، وقوله: ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ أي أجرني من الخزي يوم القيامة، ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقترة».

وفي رواية أخرى: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل

لك لا تعصني، فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين؛ ثم يقول: يا إبراهيم انظر تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»[1]. وقوله: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ أي لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿ولا بنون﴾ أي ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، ولهذا قال: ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ أي سالم من الدنس والشرك، قال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وقال ابن عباس: القلب السليم أن يشهد أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد والحسن: ﴿بقلب سليم﴾ يعني من الشرك، وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾ قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنّة.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وأزلفت الجنة﴾ أي قربت وأدنيت من أهلها مزخرفة مزينة لناظريها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها وعملوا لها في الدنيا، ﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾ أي أظهرت وكشف عنها، وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر، وقيل لأهلها تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾؟ أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون، وقوله: ﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون﴾ قال مجاهد: يعني فدهوروا فيها، والمراد أنه ألقي بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك، ﴿وجنود إبليس أجمعون﴾ أي ألقوا فيها عن آخرهم، ﴿قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين﴾ أي يقول الضعفاء للذين استكبروا وقد عادوا على أنفسهم بالملامة: ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين﴾ أي نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين وعبدناكم مع رب العالمين، ﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾ أي ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون، ﴿فما لنا من شافعين﴾ قال بعضهم يعني من الملائكة، كما يقولون ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾؟ وكذا قالوا: ﴿فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم﴾ أي قريب، قال قتادة:

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً ورواه النسائي في التفسير، قال ابن كثير: والذيخ هو الذكر من الضباع.

يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع ﴿لو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين﴾، وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، والله تعالى يعلم أنهم لو ردوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار، ثم قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد ﴿لآية﴾ أي لدلالة واضحة جلية على أن لا إله إلا الله، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾

هذا إخبار من الله عزَّ وجلَّ عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، فبعثه الله ناهياً عن ذلك ومحذراً من وبيل عقابه، فكذبه قومه فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى، ونزّل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل، فلهذا قال تعالى: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني الله به، أبلغكم رسالات ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص منها ﴿فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر﴾ الآية، أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم بل أدخر ثواب ذلك عند الله، ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله به وائتمنني عليه.

* قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾

يقولون: لا نؤمن لك ولا نتبعك ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأرذلين، الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا، ولهذا ﴿قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمي بما كانوا يعملون﴾ أي وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه، لا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأَكِلَ سرائرهم إلى الله عزَّ وجلَّ، ﴿إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين﴾ كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ويتابعوه فأبى عليهم ذلك، وقال ﴿وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي إنما بعثت نذيراً، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وأنا منه، سواء كان شريفاً أو وضيعاً، أو جليلاً أو حقيراً.

قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ أي لئن لم تنته عن دعوتك إيانا إلى دينك ﴿لتكونن من المرجومين﴾ أي لنرجمنك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه فقال: ﴿رب إن قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ الآية، كما قال في الآية الأخرى ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾ إلى آخر الآية، وقال ههنا ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين﴾ والمشحون هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، أي أنجينا نوحاً ومن اتبعه كلهم وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله (هود) عليه السلام أنه دعا قومه عاداً، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت متاخمة بلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة﴾، وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد، والأموال والجنات والأنهار، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هوداً إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً فدعاهم إلى الله وحده وحذرهم نقمته وعذابه، فقال لهم ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾؟ الريع: المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً، ولهذا قال: ﴿أتبنون بكل ريع آية﴾ أي معلماً بناء مشهوراً، ﴿تعبثون﴾ أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام، لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾. قال مجاهد: والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد، وفي رواية عنه: بروج الحمام. وقال قتادة: هي مأخذ الماء، ﴿لعلكم تخلدون﴾ أي لكي تقيموا فيها أبداً، وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم، روي أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادى يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون، ألا تستحيون، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون

فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً، وركاباً فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين[1] ؟ وقوله: ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ أي يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت، ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ أي اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم، ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال: ﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ۞ أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ۞ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم.

قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له، بعدما حذرهم وأنذرهم وبيَّن لهم الحق ووضحه ﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ أي لا نرجع عما نحن عليه، ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين﴾ وهكذا الأمر، فإن الله تعالى قال: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ الآية، وقولهم ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾، كما قال المشركون، ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾، وقال: ﴿وقيل للذين كفروا ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾ ﴿خُلُق الأولين﴾ بضم الخاء واللام، يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا ﴿وما نحن بمعذبين﴾، قال ابن عباس: ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾ يقول: دين الأولين[2]، وقوله تعالى: ﴿فكذبوه فأهلكناهم﴾ أي استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده فأهلكهم الله، وقد بيَّن سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن، بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية، أي ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً، فكان سبب إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد ۞ إرم ذات العماد﴾، وقال تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة؟﴾ فسلكت الريح فحصبت بلادهم، فحصبت كل شيء لهم كما قال تعالى: ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صر صر عاتية﴾ إلى قوله: ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ أي بقوا أبداناً بلا رؤوس، وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه، كأنهم أعجاز نخل منقعر، وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً، ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فكذبوه فأهلكناهم﴾ الآية.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) وهو قول عكرمة وعطاء وقتادة وعبد الرحمن بن أسلم واختاره ابن جرير.

وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾

وهذا إخبار من الله عزَّ وجلَّ عن عبده ورسوله (صالح) عليه السلام أنه بعثه إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة، وكانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام، فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عزَّ وجلَّ أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، وأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عزَّ وجلَّ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال

أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

يقول لهم واعظاً لهم ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة، وأنبت لهم من الجنات، وفجر لهم من العيون الجاريات، وأخرج لهم من الزروع والثمرات، ولهذا قال: ﴿ونخل طلعها هضيم﴾ قال ابن عباس: أينع وبلغ فهو هضيم، وعنه يقول: معشبة، وقال مجاهد: هو الذي إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر، وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿ونخل طلعها هضيم﴾ قال: حين يطلع تقبض عليه فتهضمه، فهو من الرطب الهضيم، ومن اليابس الهشيم، تقبض عليه فتهشمه، وقال عكرمة وقتادة: الهضيم الرطب اللين، وقال الضحاك: إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضاً فهو هضيم، وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له، وقال أبو صخر: ما رأيت الطلع حين ينشق عنه الكم فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض فهو الهضيم. وقوله: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني حاذقين، وفي رواية عنه: شرهين أشرين، وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم، ولهذا قال: ﴿واتقوا الله وأطيعون﴾ أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم، لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ يعني رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق.

قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم (صالح) عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة ربهم عزَّ وجلَّ أنهم ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ قال مجاهد وقتادة: يعنون من المسحورين، يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك، ثم قالوا ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ يعني فكيف أوحي إليك دوننا، كما قالوا في الآية الأخرى ﴿ أألنزل عليه الذكر من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر﴾ ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم بـه من ربهم ، وقـد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هـذه الصخرة ناقة عشراء ، وأشاروا إلى صخرة عندهم ، من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله عزَّ وجلَّ أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ يعني ترد ماءكم يوماً ويوماً تردونه أنتم، ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء، وتأكل الورق والمرعى وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً؛ فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالأوا على قتلها وعقرها ﴿ فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام، وكانوا يسكنون (سدوم) وأعمالها التي أهلكهم الله بها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور متاخمة لجبال البيت المقدس، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله من إتيان الذكور دون الإناث، ولهذا قال تعالى :

أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟
لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ
﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ
فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله

لهم ما كان جوابهم له إلا أن قالوا ﴿ لئن لم تنته يا لوط﴾ أي عما جئتنا به ﴿ لتكونن من المخرجين﴾ أي ننفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم تبرأ منهم، وقال: ﴿ إني لعملكم من القالين﴾ أي المبغضين لا أحبه ولا أرضى به وإني بريء منكم، ثم دعا الله عليهم، فقال: ﴿ رب نجني وأهلي مما يعملون﴾، قال الله تعالى: ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين﴾ أي كلهم ﴿ إلا عجوزاً في الغابرين﴾ وهي امرأته، وكانت عجوز سوء، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً - إلى قوله - وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ .

* كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾

هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم « أهـل مدين » على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب وإنما قال: ﴿ إذ قال لهم شعيب﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسباً، ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء، وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

* أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾

يأمرهم عليه السلام بإيفاء المكيال والميزان وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال: ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين﴾ أي إذا دفعتم للناس فكملوا الكيل لهم، ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافياً، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ والقسطاس هو الميزان، قال مجاهد: ﴿ القسطاس المستقيم﴾ هو العدل بالرومية، وقال قتادة: القسطاس العدل، وقوله: ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أي لا تنقصوهم أموالهم ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ يعني قطع الطريق كما قال في الآية الأخرى ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾، وقوله: ﴿ واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى عليه السلام ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ والجبلة الأولين﴾ يقول: خلق الأولين، وقرأ ابن زيد ﴿ ولقد أضل منكم جبلا كثيراً﴾ .

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٩١﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم حيث قالوا: ﴿إنما أنت من المسحرين﴾ يعنون من المسحورين كما تقدم، ﴿وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ أي تتعمد الكذب فيما تقوله لا أن الله أرسلك إلينا، ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾ قال قتادة: قطعاً من السماء، وقال السدي: عذاباً من السماء، وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾. وقوله: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية. وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾ الآية، ﴿قال ربي أعلم بما تعملون﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم، وهكذا وقع بهم كما سألوا جزاء وفاقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾. قال قتادة: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها، فأصاب تحتها برداً وراحة، فأعلم بذلك قومه، فأتوها جميعاً، فاستظلوا تحتها، فأججت عليهم ناراً، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: بعث الله إليهم الظلة، حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى، وقال محمد بن جرير عن يزيد الباهلي سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ الآية، قال: بعث الله عليهم رعدة وحراً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً. قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ۝ وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿وإنه﴾ أي القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث﴾ الآية. ﴿لتنزيل رب العالمين﴾ أي أنزله الله عليك وأوحاه إليك ﴿نزل به الروح الأمين﴾ وهو جبريل[1] عليه السلام، قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه﴾ ﴿على قلبك لتكون من المنذرين﴾ أي نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى ﴿على قلبك﴾ يا محمد سالماً من الدنس والزيادة والنقص، ﴿لتكون من المنذرين﴾ أي لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له، وقوله تعالى: ﴿بلسان عربي مبين﴾ أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، دليلا إلى المحجة. وقال سفيان الثوري: لم ينزل وحي إلا بالعربية، ثم ترجم كل نبي لقومه، واللسان يوم القيامة بالسريانية، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية .

وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملئه بالبشارة بأحمد ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ والزبر ههنا هي الكتب، وهي جمع زبور، وكذلك الزبور وهو كتاب داود، قال الله تعالى: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ أي مكتوب عليهم في صحف الملائكة، ثم قال تعالى: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ أي أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل، يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم كـ (عبد الله بن سلام) و (سلمان الفارسي) ومن شاكلهم، قال الله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ الآية؛ ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن: إنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ كما أخبر عنهم في الآية الأخرى، ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ۝ لقالوا إنما سكرت أبصارنا﴾ الآية؛ وقال تعالى: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ الآية .

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾

---

(١) تفسير الروح الأمين بجبريل قاله غير واحد من السلف: ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك وغيرهم .

﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد، أي أدخلناه في قلوب المجرمين ﴿لا يؤمنون به﴾ أي بالحق ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ﴿فيأتيهم بغتة﴾ أي عذاب الله فجأة ﴿وهم لا يشعرون * فيقولوا هل نحن منظرون﴾ أي يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا في زعمهم بطاعة الله، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً؛ هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾ فأثرت هذه الدعوة في فرعون فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الله الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ إنكار عليهم وتهديد لهم، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً: ائتنا بعذاب الله، كما قال تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ الآيات، ثم قال: ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأمليناهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾، وقال تعالى: ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر﴾، وقال تعالى: ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردّى﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾. وفي الحديث الصحيح: «يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت خيراً قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا والله يا رب». ثم قال تعالى مخبراً عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم، وقيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين﴾ كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾، وقال تعالى: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا - إلى قوله - وأهلها ظالمون﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد: أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾، ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها أنه ما ينبغي لهم لأن سجاياهم الفساد، وإضلال العباد، وهذا فيه نور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وما ينبغي لهم﴾، وقوله تعالى: ﴿وما يستطيعون﴾ أي ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الأمر، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه

ولرسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ كما قال تعالى مخبراً عن الجن ﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ومخبراً أن من أشرك به عذبه. ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين أي الأدنين إليه، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه عزَّ وجلَّ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾، وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾، وقال تعالى: ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾، وقال تعالى: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾، كما قال تعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾، وفي صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار». وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة، فلنذكرها، **الحديث الأول**: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى: «يا صباحاه»، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟» قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾[1]، **الحديث الثاني**: روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: لما نزلت: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم»[2]. **الحديث الثالث**: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها»[3]. وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله، يا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت رسول الله اشتريا أنفسكما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق بمثله.

(٢) أخرجه أحمد ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه مسلم وأحمد والترمذي

من الله، فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما »(١) وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: « يا بني قصي، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد »(٢)، **الحديث الرابع**: قال الإمام أحمد عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو قالا: لما نزلت: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد رسول الله ﷺ رضمة من جبل على أعلاها حجر فجعل ينادي: « يا بني عبد مناف إنما أنا نذير، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله رجاء أن يسبقوه فجعل ينادي ويهتف يا صباحاه »(٣)؟

وقوله تعالى: ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ أي في جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلي كلمتك، وقوله تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم﴾ أي هو معتن بك، كما قال تعالى: ﴿فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾، قال ابن عباس ﴿الذي يراك حين تقوم﴾: يعني إلى الصلاة. وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده، وقال الحسن: إذا صليت وحدك، وقال الضحاك: أي من فراشك أو مجلسك، وقال قتادة ﴿الذي يراك﴾ قائماً وجالساً وعلى حالاتك، وقوله تعالى: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾، قال قتادة: ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين﴾ قال: في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع. وعن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي، حتى أخرجه نبياً، وقوله تعالى: ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ الآية.

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رِئي الجان، فنزه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قبل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة. ولهذا قال الله تعالى: ﴿هل أنبئكم﴾ أي أخبركم ﴿على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم﴾ أي كذوب في قوله وهو الأفاك ﴿أثيم﴾ وهو الفاجر في أفعاله، فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة ﴿يلقون السمع﴾ أي يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس، فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب

---

(١) تفرد به من هذا الوجه الإمام أحمد. (٢) أخرجه الحافظ أبو يعلى. (٣) أخرجه مسلم والنسائي والإمام أحمد.

صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما روى البخاري عن عروة بن الزبير قال، قالت عائشة رضي الله عنها: سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال: «إنهم ليسوا بشيء»، قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون، فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة». وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنها سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض - وصفه سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[1].

وقوله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ قال ابن عباس: يعني الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن؛ وكذا قال مجاهد رحمه الله، وقال عكرمة: كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فئام من الناس، ولهذا فئام من الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾. وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ: «خذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان -، لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً»[2]. وقوله تعالى: ﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون﴾ قال ابن عباس: في كل لغو يخوضون، وقال الضحاك عن ابن عباس: في كل فن من الكلام، وكذا قال مجاهد وغيره. وقال الحسن البصري: قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها مرة في شتيمة فلان ومرة في مديحة فلان، وقال قتادة: الشاعر يمدح قوماً بباطل ويذم قوماً بباطل، وقوله تعالى: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ قال ابن عباس: كان رجلان على عهد رسول الله أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين، وإنهما تهاجيا فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء، فقال الله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه، وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه هو الواقع في نفس الأمر، فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيتكثرون بما ليس لهم، ولهذا جاء في الحديث: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً يريه خير له من أن يمتلئ شعراً»، **والمراد من** هذا أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر، لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾، وقال تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين﴾ وهكذا قال ههنا ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين﴾، إلى أن قال: ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون﴾، إلى أن قال: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون *

---

(١) تفرد به البخاري ورواه مسلم قريباً منه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

والشعراء يتبعهم الغاوون » ألم تر أنهم في كل واد يهيمون؟ وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾. وقوله: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً﴾ الآية.

قال محمد بن إسحاق: لما نزلت ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلا النبي ﷺ: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال: « أنتم » ﴿وذكروا الله كثيراً﴾ قال: « أنتم »، ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ قال: « أنتم »[1]. وروى أيضاً عن عروة قال: لما نزلت ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾، إلى قوله: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله قد علم الله أني منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ الآية، وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً﴾ قيل: معناه ذكروا الله كثيراً في كلامهم، وقيل: في شعرهم، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق، وقوله تعالى: ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين؛ وهذا كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان: « اهجهم - أو قال - هاجهم وجبريل معك ». وقال الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ إن الله عزَّ وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فقال رسول الله ﷺ: « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل »[2]، وقوله تعالى: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾، كقوله تعالى: ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ الآية، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »، قال قتادة: يعني من الشعراء وغيرهم وقيل: المراد بهم أهل مكة، وقيل الذين ظلموا من المشركين، والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم، كما قال ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كتب أبي في وصيته سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر، وينتهي الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾.

[آخر تفسير سورة الشعراء، والحمد لله رب العالمين]

* * *

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من رواية ابن إسحاق.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

تفسير سورة الشعراء

وهى مكية . ووَقع فى تفسير مالك المروى عنه تسميتُها : سورة الجامعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فقد تكلمنا عليه فى أول تفسير سورة البقرة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى : هذه آيات القرآن المبين ، أى : البين الواضح ، الذى يفصل بين الحق والباطل ، والغى والرشاد .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ أى : مهلك ﴿ نَّفْسَكَ ﴾ أى : مما تحرص [عليهم] (١) وتحزن عليهم ﴿ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهذه تسلية من الله لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ، كما قال تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ، وقال : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] .

قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وعطية ، والضحاك : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أى : قاتل نفسك . قال الشاعر (٢) :

ألاَ أيّهذاَ البَاخعُ الحُزنُ نفسَه ... لشيء(٣) نَحتْهُ عَنْ يَديَه المَقَادرُ

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ أى : لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا ، ولكنَّا لا نفعل ذلك ؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى؛ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩]، وقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٨، ١١٩] ، فنفَذ قدَرُه ، ومضت (٤) حكمته ، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم .

---

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) هو ذو الرمة ، والبيت فى تفسير الطبرى (١٩ / ٣٧) .

(٣) فى ف : « بشىء » .

(٤) فى ف ، أ : « وقضت » .

ثم قال : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أي : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس ، كما قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، وقال : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس : ٣٠] ، وقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٤] ؛ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

ثم نبه تعالى على عظمته فى سلطانه وجلالة قدره وشأنه ، الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر ، الذى خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم ، من زروع وثمار وحيوان .

قال سفيان الثورى ، عن رجل ، عن الشعبى : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ أى : دلالة على قدرة الخالق للأشياء ، الذى بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره (١) وارتكبوا زواجره .

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى : الذى عزّ كلَّ شيء وقهره وغلبه ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أي : بخلقه، فلا يعجل على من عصاه ، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

قال أبو العالية ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، و [محمد (٢)] بن إسحاق : العزيز فى نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره .

وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأناب .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ .

---

(١) فى أ : « أوامره » .
(٢) زيادة من ف ، أ .

يقول تعالى مخبراً عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ، صلوات الله وسلامه عليه، حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون ﴾: هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه ، كما قال فى سورة طه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَٰرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا . إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٦] .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون ﴾ أى : بسبب ماكان [من] (١) قتل ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر. ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أى : قال الله له : لا تخف من شىء من ذلك كما قال: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى : برهانا ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾[القصص : ٣٥] .

﴿ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُون ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[طه: ٤٦] أى: إننى معكما بحفظى وكلاءتى ونصرى وتأييدى .

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِين ﴾ ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾[طه : ٤٧] أى : كل منا رسول الله إليك ، ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون ، وهم معك فى العذاب المهين . فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية ، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . [وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِين](٢)﴾ [أى : أما أنت الذى ربيناه فينا (٣)] ، وفى بيتنا وعلى فراشنا [وغذيناه (٤)] ، وأنعمنا عليه مدة من السنين ، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ، أن قتلت منا رجلا ، وجحدت نعمتنا عليك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِين ﴾ أى :الجاحدين . قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير .

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا ﴾ أى : فى تلك الحال ، ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّين ﴾ أى :قبل أن يوحَى إلىّ وينعم الله على بالرسالة والنبوة (٥) .

قال ابن عباس ، رضى الله عنهما ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم : ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّين﴾ أى : الجاهلين .

قال ابن جُرَيْج :وهى كذلك فى قراءة عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه .

﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِين ﴾ أى : الحال الأول انفصل

(١ـ٤) زيادة من ف ، أ .   (٥) فى ف : « بالنبوة والرسالة » .

وجاء أمر آخر ، فقد أرسلنى الله إليك ، فإن أطعته سَلمت ، وإن خالفته عَطبت .

ثم قال موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : وما أحسنت إلى وربَّيْتنى مقابل ما أسأتَ إلى (١) بنى إسرائيل ، فجعلتهم عبيداً وخدماً ، تصرفهم فى أعمالك ومشاق رعيتك ، أفَيَفى إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم ؟ أى : ليس ما ذكرتَه شيئاً بالنسبة إلى ما فعلتَ بهم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون ، وتمرده وطغيانه وجحوده ، فى قوله :﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟ وذلك أنه كان يقول لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] ، ﴿ فَاسْتَخَفَّ (٢) قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وكانوا يجحدون الصانع ـ تعالى ـ ويعتقدون أنه لارب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزخرف : ٤٦] ، قال له : ومن هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف ، حتى قال السدى : هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن (٣) رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه : ٤٩ ، ٥٠] .

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم ؛ أن هذا سؤال عن الماهية ، فقد غلط ؛ فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية (٤) ، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر ، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه ، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى : خالق جميع ذلك ومالكه ، والمتصرف فيه وإلهه ، لاشريك له ، هو الله الذى خلق الأشياء كلها، العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ، وما بين ذلك من الهواء والطيور ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع (٥) عبيد له خاضعون ذليلون .

﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أى : إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة . فعند ذلك التفت فرعون إلى مَن حوله من مَلَئه ورؤساء دولته قائلا لهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أى : ألا تعجبون مما يقول هذا فى زعمه : أن لكم إلها غيرى ؟ فقال لهم موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ أى : خالقكم وخالق آبائكم الأولين (٦) ، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه . ﴿ قَالَ ﴾ أى : فرعون لقومه : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى: ليس

---

(١) فى ف ، أ : « على » .
(٢) فى أ : « واستخف » .
(٣) فى ف ، أ : « ومن » وهو خطأ .
(٤) فى أ : « ماهيته » .
(٥) فى ف : « والجميع » .
(٦) فى أ : « الأوائل » .

له عقل فى دعواه أن ثمّ ربا غيرى .﴿ **قَالَ** ﴾ أى : موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة ، فأجاب موسى بقوله : ﴿ **رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ أى : هو الذى جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه[1] الكواكب ، ثوابتها وسياراتها ، مع هذا النظام الذى سخّرها فيه وقدّرها ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً ، والمغرب مشرقاً ، كما أخبر تعالى عن ﴿ **الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة:٢٥٨] ؛ ولهذا لما غُلب فرعون وانقطعت حجته ، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى ، عليه السلام ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿ **قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)** ﴾ .

لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل ، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه ، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال[2] ، فقال : ﴿ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** ﴾ . فعند ذلك قال موسى: ﴿ **أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ** ﴾ ؟ أى : ببرهان قاطع واضح ،﴿ **قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ** ﴾ أى : ظاهر واضح فى غاية الجلاء والوضوح والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير ، وشكل هائل مزعج ،﴿ **وَنَزَعَ يَدَهُ** ﴾ أى : من جيبه ، ﴿ **فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** ﴾ أى : تتلألأ كقطعة من القمر . فبادر فرعون ــ بشقائه ــ إلى التكذيب والعناد ، فقال للملأ حوله : ﴿ **إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ أى : فاضل بارع فى السحر . فَرَوَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته ، والكفر به . فقال :﴿ **يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** ﴾ ؟ أى : أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ ﴿ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ**[3] **عَلِيمٍ** ﴾ [أى :أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم] [4] يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد . فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله تعالى

---

(١) فى ف ، أ : « منه » .
(٢) فى هـ : « مقام » والمثبت من ف ، أ .
(٣) فى أ : « ساحر ».
(٤) زيادة من ف ، أ .

لهم فى ذلك ؛ ليجتمع الناس فى صعيد واحد ، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾ .

ذكر [الله] [١] تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقبط فى « سورة الأعراف » وفى « سورة طه»، وفى هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى [٢] الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهذا شأن الكفر والإيمان ، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان ، **﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾** [الأنبياء : ١٨] ، **﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾** [الإسراء : ٨١] ،ولهذا لما جاء السحرة ، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا فى ذلك ، وكان السحرة جمعاً كثيراً ، وجماً غفيراً ، قيل : كانوا اثنى عشر ألفاً .وقيل : خمسة عشر ألفاً . وقيل : سبعة عشر ألفاً وقيل : تسعة عشر ألفا . وقيل : بضعة وثلاثين ألفاً . وقيل : ثمانين ألفاً . وقيل غير ذلك، والله أعلم بعدتهم .

قال ابن إسحاق : وكان أمرهم راجعاً إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم : وهم : ساتور وعازور [٣] وحطحط [٤] ويصقى .

واجتهد [٥] الناس فى الاجتماع ذلك اليوم ،وقال قائلهم :**﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ . [قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ] [٦] ﴾** ، ولم يقولوا : نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم . **﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴾** أى : إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقاً ، وجمع حشمه وخدمه [وأمراءه] [٧] ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته ، فقام السحرة بين يدى فرعون [٨] ، يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا ، أى هذا الذى جمعتنا من أجله، فقالوا : **﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾** أى:وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندى وجلسائى . فعادوا إلى مقام المناظرة **﴿ قَالُوا [٩] يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾** [طه : ٦٥ ، ٦٦] ،وقد اختصر هذا ههنا. فقال لهم موسى: **﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ . فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾** ، وهذا كما يقوله

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « فيأبى » . (٣) فى ف ، أ : « وعادون » .
(٤) فى أ . « وحطحة » . (٥) فى أ : « وحشر » . (٦) زيادة من ف .
(٧) زيادة من أ . (٨) فى ف ، أ : « بين يديه » . (٩) فى أ : « فقالوا » وهو خطأ

الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً : هذا بثواب فلان . وقد ذكر الله فى « سورة الأعراف » : أنهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦] ،وقال فى « سورة طه »: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٦ ـ ٦٩] . وقال ههنا : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى: تختطفه (١) وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئا ، قال تعالى : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ . وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٨ـ١٢٢] وكان هذا أمرا عظيما جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعذر وحجة دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا ، قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى فى الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، الذى أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فَغُلب فرعون غَلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً عليه لعنة اللّه ، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل ، فشرع يتهددهم ويتوعدهم، ويقول: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [طه : ٧١] ، وقال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] .

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

تهددهم فلم يقطع ذلك فيهم ، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليما . وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر ، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم ، من أن هذا الذى جاء به موسى لا يصدر عن بشر ، إلا أن يكون الله قد أيده به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه؛ ولهذا لما قال لهم فرعون : ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ ؟ أى : كان ينبغى أن تستأذنونى فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا عليَّ فى ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإنى أنا الحاكم المطاع ؛ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل .

ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدى والأرجل والصلب ، فقالوا : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أى : لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالى به ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أى : المرجع (٢) إلى الله ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ؛ ولهذا قالوا (٣) : ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ أى : ما قارفناه (٤) من الذنوب ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان . فقتلهم (٥) كلهم .

---

(١) فى ف ، أ : « تخطفه » . (٢) فى ف ، أ : « الرجوع » . (٣) فى ف ، أ : « قال » .
(٤) فى أ : « ما فرقناه » . (٥) فى ف ، أ : « قبلهم » .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) ﴾ .

لما طال مقُام موسى ، عليه السلام ، ببلاد مصر ، وأقام بها حُجَج الله [١] وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر اللّه موسى ، عليه السلام، أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا من مصر ، وأن يمضى بهم حيث يؤُمرَ ، ففعل موسى ، عليه السلام ، ما أمره به ربه ، عز وجل . خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، وكان خروجه بهم ، فيما ذكر غير واحد من المفسرين ، وقت طلوع القمر . وذكر مجاهد ، رحمه اللّه ، أنه كُسف القمر تلك الليلة ، فاللّه أعلم ، وأن موسى ، عليه السلام ، سأل عن قبر يوسف ، عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بنى إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذى حمله بنفسه ، عليهما السلام ، وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه [٢] معهم ، وقد ورد فى ذلك حديث رواه ابن أبى حاتم ، رحمه الله ، فقال :

حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عبد الله بن عمر [٣] بن أبان بن صالح ، حدثنا ابن فضيل [٤] ، عن عبد الله[٥] بن أبى إسحاق، عن ابن أبى بردة ، عن أبيه ، عن أبى موسى قال : نزل رسول الله ﷺ بأعرابى فأكرمه ، فقال له رسول الله ﷺ : تعاهدنا . فأتاه الأعرابى فقال له رسول الله ﷺ : «ما حاجتك ؟ » قال [٦]: ناقة برحلها وأعنز [٧] يحتلبها أهلى ، فقال : « أعجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل ؟ » . فقال له أصحابه : وما عجوز بنى إسرائيل يا رسول اللّه ؟ قال : « إن موسى لما أراد أن يسير ببنى إسرائيل أضل الطريق ، فقال لبنى إسرائيل : ما هذا ؟ فقال له علماء بنى إسرائيل : نحن نحدثك أن يوسف، عليه السلام ، لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى : فأيكم يدرى أين قبر يوسف ؟ قالوا : ما يعلمه إلا عجوز لبنى إسرائيل . فأرسل إليها فقال [٨] لها : دلينى على قبر يوسف . فقالت : واللّه لا أفعل حتى تعطينى حكمى . قال لها : وما حكمك ؟ قالت [٩] : حكمى أن أكون معك فى الجنة . فكأنه ثقل عليه ذلك ، فقيل له : أعطها حكمها. قال : فانطلقت معهم إلى بحيرة ـ مستنقع ماء ـ فقالت لهم : انضبوا هذا الماء . فلما أنضبوه قالت : احتفروا [١٠] ، فلما احتفروا استخرجوا قبر يوسف ، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار [١١] » .

---

(١) فى ف : « وأقام حجج الله بها » . (٢) فى أ : « يحتملوه » . (٣) فى هـ : « عبد الله بن عمر بن محمد بن أبان » .
(٤) فى هـ : « فضل » والمثبت من أ . (٥) فى أ : « يونس » . (٦) فى ف ، أ : « فقال » .
(٧) فى أ : « وأعنق » . (٨) فى أ : « وقال ». (٩) فى أ : « قال » .
(١٠) فى أ : « احفروا » .
(١١) ورواه أبو يعلى فى مسنده (١٣/ ٢٣٦) وابن حبان فى صحيحه برقم (٢٤٣٥) « موارد » ، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٧١) من طريق محمد بن فضيل ، عن يونس بن أبى إسحاق ، عن أبى بردة عن أبى موسى به . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٧٠): « رجال أبى يعلى رجال الصحيح » .

هذا حديث غريب جداً ، والأقرب أنه موقوف ، والله أعلم .

فلما أصبحوا وليس فى ناديهم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل؛ لما يريد اللّه به من الدمار ، فأرسل سريعاً فى بلاده حاشرين ، أى : من يحشر الجندَ ويجمعه ، كالنّقباَء والحُجَّاب ، ونادى فيهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ ﴾ - يعنى : بنى إسرائيل - ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أى : لطائفة قليلة ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أى :كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا ،﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ أى : نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإنى أريد أن أستأصل شأفتهم ، وأبيد خَضْراءهم . فجوزى فى نفسه وجنده بما أراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أى: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا ،﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف :١٣٧]، وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾ .

ذكر غير واحد من المفسرين : أن فرعون خرج فى جحفل عظيم وجمع كبير (١) ، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية فى زمانه ،أولى الحل والعقد والدول ، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فأما ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات ، من أنه خرج فى ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألف على خيل دُهْم ، وقال كعب الأحبار : فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم ــ ففى ذلك نظر. والظاهر أنه من مجازفات بنى إسرائيل ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم . والذى أخبر به هو النافع ، ولم يعين عدتهم ؛ إذ لا فائدة تحته ، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أى : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أى : رأى كل من الفريقين صاحبه ، فعند ذلك ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر ، وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وفرعون قد أدركهم بجنوده ، فلهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى : لا يصل إليكم

(١) فى أ : « كثير » .

شيء مما تحذرون ، فإن اللّه ، سبحانه ، هو الذى أمرنى أن أسير ههنا بكم ، وهو لا يخلف الميعاد .

وكان هارون ، عليه السلام ، فى المقدمة ، ومعه يوشع بن نون ، [ومؤمن آل فرعون وموسى، عليه السلام ، فى الساقة ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين : أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون ، وجعل يوشع بن نون] (١) ، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى ، عليه السلام : يا نبى الله ، ههنا أمرك اللّه أن تسير ؟ فيقول : نعم ، واقترب فرعون وجنوده ، ولم يبق إلا القليل . فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه ، وقال : انفلق بإذن الله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد ، حدثنا (٢) محمد بن حمزة [بن محمد] (٣) بن يوسف بن عبد اللّه بن سلام : أن موسى ، عليه السلام ، لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء ، والكائن قبل كل شيء ، اجعل لنا مخرجاً . فأوحى الله إليه : ﴿ **أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ** ﴾ .

وقال قتادة : أوحى اللّه تلك الليلة إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع ، فبات البحر تلك الليلة ، وله اضطراب (٤) ، ولا يدرى من أىّ جانب يضربه موسى ، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون : يا نبى اللّه ، أين أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن أضرب البحر . قال: فاضربه .

وقال محمد بن إسحاق : أوحى الله ـ فيما ذكر لى ـ إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له. قال : فبات البحر يضرب بعضه بعضاً ، فرقا من الله تعالى ، وانتظاراً لما أمره اللّه ، وأوحى الله إلى موسى : ﴿ **أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ** ﴾ ، فضربه بها ، وفيها (٥)سلطان اللّه الذى أعطاه ، فانفلق .

وذكر غير واحد أنه كناه فقال : انفلق علىّ أبا خالد بحول اللّه (٦) .

قال الله تعالى : ﴿ **فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ أى : كالجبل الكبير . قاله ابن مسعود، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم .

وقال عطاء الخراسانى : هو الفَجّ بين الجبلين .

وقال ابن عباس : صار البحر اثنى عشر طريقاً ، لكل سبط طريق ـ وزاد السدى : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان ، وبعث اللّه الريح على قعر البحر فلفحته ، فسار يَبَساً (٧) كوجه الأرض ، قال اللّه تعالى : ﴿ **فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى** ﴾ [طه : ٧٧] ، وقال فى هذه القصة : ﴿ **وَأَزْلَفْنَا** ﴾ أى : هنالك (٨) ﴿ **الْآخَرِينَ** ﴾ .

قال ابن عباس ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى : ﴿ **وَأَزْلَفْنَا** ﴾ أى : قربنا فرعون وجنوده

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « عن » .
(٣) زيادة من الجرح والتعديل (٣/ ٢/ ٢٣٦) والدر المنثور (٥/ ٨٦) .
(٤) فى أ : « اتكل » . (٥) فى أ : « ففيها » . (٦) فى ف ، أ : « بإذن الله » .
(٧) فى أ : « يابساً » . (٨) فى ف : « هناك » .

من البحر وأدنيناهم إليه .

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أي : أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك [1] منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ، فلم يبق منهم رجل [2] إلا هلك .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا شبابة ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ أن موسى ، عليه السلام ، حين أسرى ببني إسرائيل بلغ فرعون ذلك ، فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال: لا ، والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إليّ ستمائة ألف من القبط . فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر ، فقال له : انفرق . فقال البحر : لقد استكبرت يا موسى ، وهل انفرقت [3] لأحد من ولد [4] آدم فأنفرق [5] لك ؟ قال : ومع موسى رجل على حصان له ،فقال له ذلك الرجل : أين أمرتَ يا نبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه [يعني : البحر ، فأقحم فرسه ، فسبح به فخرج ، فقال : أين أمرت يانبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه] [6] . قال : والله ما كَذَبت ولا كُذبت. ثم اقتحم الثانية فسبح ، ثم خرج فقال : أين أمرت يا نبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه ؟ قال : والله ما كَذَبت [7] ولا كُذبت . قال : فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه موسى بعصاه ، فانفلق ، فكان فيه اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يتراؤون ، فلما خرج أصحاب موسى وتَتَامّ أصحابُ فرعون ، التقى البحر عليهم فأغرقهم .

وفي رواية إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله قال : فلما خَرَج آخر أصحاب موسى ، وتكامل أصحاب فرعون ، اضطم عليهم البحر ، فما رُئِيَ سواد أكثر من يومئذ، وغرق فرعون لعنه الله .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي : في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين ؛ لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ .وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى [8] عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء،أمر الله رسوله محمدا، صلوات الله وسلامه عليه ، أن يتلوه على أمته ، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله ؛ فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل ، أي : من صغره إلى كبره،فإنه من وقت نَشَأ وشَب،أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله، عز وجل، فقال:

(١) في أ : « نهلك » . (٢) في ف : « رجل منهم » . (٣) في ف ، أ : « فرقت » .
(٤) في أ : « بني » . (٥) في أ : « فأفرق » . (٦) زيادة من ف ، أ .
(٧) في أ : « ما كذب » . (٨) في أ : « عز وجل » .

﴿ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ أى : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ أى : مقيمين على عبادتها ودعائها ، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : اعترفوا بأن[1] أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك ، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فهم على آثارهم يُهرعون . فعند ذلك قال لهم إبراهيم : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير ، فَلْتَخلُص إلى بالمساءة ، فإنى عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها . وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح ، عليه السلام : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] ، وقال هود ، عليه السلام : ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ ـ ٥٦] . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ [الأنعام : ٨١] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦ ـ ٢٨] يعنى : لا إله إلا الله .

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ .

يعنى : لا أعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء ، ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى : هو الخالق الذى قدر قدراً ، وهدى الخلائق إليه ، فكل يجرى على [ما] [2] قدّر ، وهو الذى يهدى من يشاء ويُضل من يشاء . ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى : هو خالقى ورازقى ، بما سخر ويَسَّر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المُزْنَ ، وأنزل الماء ، وأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأنزل الماء عذباً زلالا لـ ﴿ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا[3] أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٩] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا ، كما قال تعالى آمراً للمصلى أن يقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ، ٧] فأسند الإنعام إلى الله ، سبحانه وتعالى ، والغضب حُذف فاعله أدباً ، وأسند الضلال إلى العبيد ، كما قالت الجن : ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] ؛ ولهذا[4] قال

---

(١) فى ف ، أ : « أن » .
(٢) زيادة من أ .
(٣) فى م : « ليسقيه مما خلق » وهو خطأ .
(٤) فى ف ، أ : « وهكذا » .

إبراهيم : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أى : إذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره ، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ، ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أى : هو الذى يحيى ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذى يبدئ ويعيد ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أى : هو الذى لا يقدر على غَفْرْ الذنوب فى الدنيا والآخرة ، إلا هو ، ومن يغفر الذنوب إلا اللّه ، وهو الفعال لما يشاء .

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ .

وهذا سؤال من إبراهيم ، عليه السلام ،أن يؤتيه ربه حُكْما .

قال ابن عباس : وهو العلم . وقال عكرمة : هو اللب . وقال مجاهد : هو القرآن . وقال السدى : هو النبوة . وقوله : ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أى : اجعلنى مع [1] الصالحين فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى ﷺ عند الاحتضار :« [اللهم الرفيق الأعلى » قالها ثلاثاً [2] . وفى الحديث فى الدعاء] [3] :« اللهم أحينا مسلمين ،وأمتنا مسلمين ،وألحقنا بالصالحين،غيرخزايا ولا مبدلين»[4] .

وقوله : ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى : واجعل لى ذكراً جميلاً بعدى أذكَرَ به ، ويقتدى بى فى الخير ، كما قال تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات : ١٠٨ ـ ١١٠] .

قال مجاهد ، وقتادة: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ يعنى : الثناء الحسن . قال مجاهد: وهو كقوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧]، وكقوله : ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل : ١٢٢] .

قال ليث بن أبى سليم : كل ملة تحبه وتتولاه . وكذا قال عكرمة .

وقوله : ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أى : أنعم عَلَىَّ فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى ، وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم .

وقوله : ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ كقوله : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم : ٤١]، وهذا مما رجعَ عنه إبراهيم ، عليه السلام ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن

(١) فى أ : « من » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٥٠٩) ومسلم فى صحيحه برقم (٢١٩١) من حديث عائشة ، رضى الله عنها ، وليس عندهما أنه قالها ثلاثاً ، وإنما فيهما ما يفيد أنها مرتين ، والله أعلم .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٣ / ٤٢٤) من حديث الزرقى ، وعنده : « غير خزايا ولا مفتونين » .

مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] . وقد قطع [الله] (١) تعالى الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقوله : ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى : أجرنى من الخزى يوم القيامة و [يوم] (٢) يبعث الخلائق أولهم وآخرهم .

قال البخارى فى قوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ : وقال إبراهيم بن طهمان ، عن ابن أبى ذئب، عن سعيد بن أبى سعيد المقبُرىّ ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرَةُ والقَتَرَةُ » (٣) .

حدثنا إسماعيل ، حدثنا أخى ، عن ابن أبى ذئب ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا رب ، إنك وعدتنى أنك لا تخزينى (٤) يوم يبعثون. فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين » .

هكذا رواه عند هذه الآية (٥) . وفى أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به ، ولفظه : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لاتعصنى (٦) ؟ فيقول أبوه (٧) : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتنى ألا تخزينى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يُقال : يا إبراهيم ، ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار (٨) .

وقال أبو عبد الرحمن النسائى فى التفسير من سننه الكبير قوله : ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾: أخبرنا أحمد بن حفص (٩) بن عبد الله ، حدثنى أبى ، حدثنى إبراهيم بن طَهْمَان ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبَرِى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرة والقتَرَة ، وقال (١٠) له : قد نهيتك عن هذا فعصيتنى . قال : لكنى اليوم لا أعصيك واحدة . قال : يا رب ، وعدتنى ألا تخزينى يوم يبعثون ، فإن (١١) أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد . قال :يا إبراهيم ، إنى (١٢) حرمتها على الكافرين . فأخذ منه ، قال: يا إبراهيم ، أين أبوك ؟ قال : أنت أخذته منى . قال : انظر أسفل منك . فنظر (١٣) فإذا ذيخ يتمرغ (١٤) فى نتنه ، فأخذ بقوائمه فألقى فى النار (١٥) » .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٨) .
(٤) فى ف ، أ : « أن لا تخزنى » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٩) ولفظه : « وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون » .
(٦) فى ف : « لا تعصينى » . (٧) فى ف : « أباه » وهو خطأ .
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٣٥٠) .
(٩) فى ف : « جعفر » . (١٠) فى ف : « فقال » . (١١) فى أ : « فأى » .
(١٢) فى أ : « فإنى» . (١٣) فى ف ، أ : « فينظر » . (١٤) فى ف : « متمرغ » .
(١٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٥) .

هذا إسناد [١] غريب ، وفيه نكارة .

والذيخ [٢] : هو الذكر من الضباع ، كأنه حول آذر إلى صورة ذيخ متلطخ بَعذرته[٣] ، فيلقى فى النار كذلك .

وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ،عن أبى هُرَيرة، عن النبى ﷺ ، وفيه غرابة . ورواه أيضاً من حديث قتادة ، عن جعفر بن عبد الغافر ، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ ، بنحوه .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴾ أى :لا يقى المرء [٤] من عذاب اللّه ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ،﴿وَلا بَنُونَ ﴾ ولو افتدى بمن فى الأرض جميعا ، ولا ينفعُ يومئذ إلا الإيمانُ باللّه ، وإخلاص الدين له ، والتبرى من الشرك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أى : سالم من الدنس والشرك .

قال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن اللّه حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن اللّه يبعث من فى القبور .

وقال ابن عباس : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ حَيِى [٥] يشهد أن لا إله إلا اللّه .

وقال مجاهد ، والحسن ، وغيرهما : ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ يعنى : من الشرك .

وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب [الكافر و][٦] المنافق مريض ، قال اللّه : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : ١٠] .

وقال أبو عثمان النيسابورى : هو القلب الخالى من البدعة ، المطمئن على السنة .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾ .

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ أى :قربت الجنة وأدنيت [٧] من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة [٨] لناظريها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها ، وعملوا لها [عملها] [٩] فى الدنيا .﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أى:

(١) فى ف : « سياق » .
(٢) فى أ : « والذابح » .
(٣) فى أ : « بقذرته » .
(٤) أ : « المؤمن » .
(٥) فى ف ، أ : « يعنى » .
(٦) زيادة من ف ، أ .
(٧) فى ف : « أدنيت وقربت » .
(٨) فى ف ، أ : « مزينة مزخرفة » .
(٩) زيادة من ف ، أ .

أظهرت وكُشف [١] عنها ، وبدت منها عُنقٌ ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب [إلى] [٢] الحناجر ، وقيل لأهلها تقريعا وتوبيخا : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ [٣]. مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾؟ أى: ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله ، من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ؛ فإنكم وإياها اليوم حَصَبُ جَهَنم أنتم لها واردون .

وقوله : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ : قال مجاهد : يعنى : فَدُهْوِرُوا [٤] فيها .

وقال غيره : كببوا فيها . والكاف مكررة ، كما يقال : صرصر . والمراد : أنه ألقى بعضهم على بعض ، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ، ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ أى: ألقوا فيها عن آخرهم . ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ. تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقول الضعفاء الذين استكبروا : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ [غافر : ٤٧] . ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ، ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى : ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ، ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴾ قال بعضهم : يعنى من الملائكة ، كما يقولون: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف: ٥٣]. وكذا قالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ. وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أى : قريب .

قال قتادة : يعلمون ـ والله ـ أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحا شفع .

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون [٥] إلى الدار الدنيا ، ليعملوا بطاعة ربهم ـ فيما يزعمون ـ وهو ، سبحانه وتعالى ، يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقد أخبر تعالى [٦] عن تخاصم [٧] أهل النار فى سورة « ص » ، ثم قال: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص : ٦٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن فى محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج [٨] عليهم فى التوحيد لآية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ﴾ .

هذا إخبار من الله ، عز وجل ،[٩] عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ، وهو أول رسول بُعث

---

(١) فى ف ، أ : « وكشفت » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى ف ، أ : « تشركون » .
(٤) فى أ : « صوروا » . (٥) فى ف : « أن يردون » ، وفى أ : « أن يردوا » . (٦) فى أ : « الله » وهو خطأ .
(٧) فى أ : « بتخاصم » . (٨) فى ف : « الحجة » . (٩) فى ف ، أ : « تعالى » .

إلى الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد ، بعثه الله ناهياً عن ذلك ، ومحذراً من وَبِيل عقابه ، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم ، ويتنزل [١] تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل ؛ ولهذا قال : ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُون** ﴾ أى: ألا [٢] تخافون الله فى عبادتكم غيره ؟ ﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِين** ﴾ أى : أنى رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثنى به ، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها ، ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ [إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِين]** [٣]﴾ أى : لا أطلب منكم جزاء على نصحى لكم ، بل أدخر ثواب ذلك عند الله ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ فقد وضح لكم وبان صدقى ونصحى وأمانتى فيما بعثنى به وائتمننى عليه .

﴿ **قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُون (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِين (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(١١٥)** ﴾ .

يقولون : أنؤمن لك ونتبعك ، ونتساوى فى ذلك بهؤلاء الأراذل [٤] الذين اتبعوك وصدقوك ، وهم أراذلنا [٥] ؛ ولهذا قالوا : ﴿ **أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون . قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ؟ أى : وأى شىء يلزمنى من اتباع هؤلاء لى ، ولو كانوا على أى شىء كانوا عليه لا يلزمنى التنقيب عنه والبحث والفحص ، إنما علىَّ أن أقبل منهم تصديقهم [٦] إياى ، وأكل سرائرهم إلى الله ، عز وجل، ﴿ **إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُون . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِين** ﴾ ، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه [٧] ، فأبى عليهم ذلك ، وقال : ﴿ **مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِين . إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِين** ﴾ أى : إنما بعثت نذيراً ، فمن أطاعنى واتبعنى وصدقنى كان منى وكنت منه ، سواء كان شريفاً أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً .

﴿ **قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُون (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)** ﴾ .

لما طال مقام نبى الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، وجهراً وإسراراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد ، وقالوا فى الآخر : ﴿ **لَئِن لَّمْ تَنتَهِ** ﴾ أى: عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿ **لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِين** ﴾ أى : لنرجمنك [٨] . فعند ذلك دعا

---

(١) فى أ : « وتنزل » .
(٢) فى أ : « لا » .
(٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى أ : « الأرذال » .
(٥) فى أ : « أرذالنا »
(٦) فى أ : « صدقهم » .
(٧) فى ف : « ليتابعون » ، وفى أ : « ليبايعوه » .
(٨) فى أ : « لنرجمك » .

عليهم دعوة استجاب اللّه منه ، فقال : ﴿ **رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ، كما قال فى الآية الآخرى : ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ** ﴾ [القمر : ١٠ ـ ١٤] ، وقال ههنا : ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ** ﴾ . والمشحون : هو المملوء بالأمتعة والأزواج التى حمل فيه من كل زوجين اثنين ، أى : نجيناه (١) ومن معه (٢) كلهم ، وأغرقنا من كذبه وخالف أمره كلهم ، ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ .

﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)** ﴾ .

وهذا إخبار من [اللّه تعالى عن] (٣) عبده ورسوله هود ، عليه السلام ، أنه دعا قومه عاداً ، وكانوا قوماً يسكنون الأحقاف ، وهى : جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت متاخمة (٤) لبلاد اليمن، وكانوا زمانهم بعد قوم نوح ، [كما قال فى « سورة الأعراف » : ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**] (٥) **وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً** ﴾ [الأعراف:٦٩] ، وذلك أنهم كانوا فى غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارة ، والأموال والجنات (٦) والعيون، والأبناء والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير اللّه معه ، فبعث اللّه إليهم رجلا منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى اللّه وحده ، وحذرهم نقمته وعذابه فى مخالفته ، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال : ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ** ﴾ ، اختلف المفسرون فى الريع بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة . تبنون هنالك بناء محكما باهراً هائلاً ؛ ولهذا قال: ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً** ﴾ أى : معلما بناء مشهوراً ، تعبثون ، وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه ؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ؛ ولهذا أنكر عليهم نبيهم ، عليه السلام ، ذلك ؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان فى غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدى فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ثم قال : ﴿ **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** ﴾ ، قال مجاهد المصانع : البروج المشيدة ، والبنيان المخلد . وفى رواية عنه : بروج الحمام .

---

(١) فى أ : « نجينا نوحاً » . (٢) فى أ : « اتبعه » . (٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى ف : « متخمة » . (٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى أ : « والجنان » .

وقال قتادة : هى مأخذ الماء . قال قتادة : وقرأ بعض القراء [١] : «وتتخذون مصانع كأنكم خالدون » .

وفى القراءة المشهورة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُون ﴾ أى: لكى تقيموا فيها أبداً ، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم ، كما زال عمن كان قبلكم .

وقال ابن أبى حاتم ، رحمه الله : حدثنا أبى ، حدثنا الحكم بن موسى ، حدثنا الوليد ، حدثنا ابن عَجْلان ، حدثنى عَوْن بن عبد الله بن عتبة ، أن أبا الدرداء ، رضى الله عنه ، لما رأى ما أحدث المسلمون فى الغُوطة من البنيان ونصب الشجر ، قام فى مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :ألا تستحيون ! ألا تستحيون ! تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون مالا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، إنه كانت قبلكم [٢] قرون ، يجمعون فيرعُون ،ويبنون فيوثقون [٣] ، ويأملون فيطيلون،فأصبح أملهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم [٤] قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً ، فمن يشترى منى ميراث عاد بدرهمين ؟

وقوله : ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِين﴾ :وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أى: اعبدوا ربكم ، وأطيعوا رسولكم .

ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُون. أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم ﴾ أى : إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، فما نفع فيهم .

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له ، بعدما حذرهم وأنذرهم ، وَرَغَّبَهُم ورهبهم ، وبين لهم الحق ووضحه : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِين ﴾ أى : لا نرجع عما نحن فيه، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِين ﴾ [هود : ٥٣] . وهكذا الأمر ؛ فإن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُون ﴾ [البقرة : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُون. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] .

وقولهم : ﴿ إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِين ﴾ : قرأ بعضهم : « إن هذا إلا خَلْق » بفتح الخاء وتسكين

(١) فى ف : « الكوفيين » .
(٢) فى ف : « قد كانت قبلكم » ، وفى أ : « قد كانت لكم » .
(٣) فى أ : « فيوبقون » .
(٤) فى ف : « منازلهم » .

اللام .

قال ابن مسعود ، والعوفى عن عبد الله بن عباس ، وعلقمة ، ومجاهد : يعنون ما هذا الذى جئتنا به إلا أخلاق الأولين . كما قال المشركون من قريش : ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين [اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْه بُكْرَةً وَأَصِيلا ﴾ [الفرقان : ٥] ، وقال :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْه قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين ﴾ [الفرقان: ٤ ، ٥] ، وقال : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم (١) مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين ﴾] (٢)[النحل : ٢٤] .

وقرأ آخرون : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِين ﴾ ـ بضم الخاء واللام ـ يعنون : دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد . ونحن تابعون لهم ، سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِين ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِين ﴾ يقول : دين الأولين . وقاله عكرمة، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير (٣) .

قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُم ﴾ أى : فاستمروا على تكذيب نبى الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله ، وقد بين سبب إهلاكه إياهم فى غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، أى : ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً ، فكان إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شىء وأجبره ، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ، كما قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ [ذَاتِ الْعِمَاد] (٤) ﴾ [الفجر : ٦ ، ٧]، وهم عاد الأولى ، كما قال : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى ﴾ [النجم : ٥٠] ، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح . ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ أى : الذين كانوا يسكنون العَمَد . ومن زعم أن « إرم » مدينة ، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب ، وليس لذلك أصل أصيل .ولهذا قال:﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاد ﴾ [الفجر : ٨] ، أى: لم يخلق مثل هذه القبيلة فى قوتهم وشدتهم وجبروتهم ، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال : التى لم يبن مثلها فى البلاد، وقال : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُون ﴾ [فصلت : ١٥] .

وقد قَدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور ، عتت على الخزنة ، فأذن(٥) الله لها فى ذلك ، وسلكت وحصبت بلادهم ، فحصبت كل شىء لهم ، كما قال تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ (٦) إِلا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ الآية [الأحقاف : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٦ ، ٧] ، أى : كاملة ، ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة :٧]، أى: بقوا أبداناً بلا رؤوس؛

(١) فى ف ، أ : « وقيل للذين كفروا » وهو خطأ .
(٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) تفسير الطبرى (١٩/ ٦٠) .
(٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى أ : « بإذن » .
(٦) فى ف ، أ : « لا ترى » .

وذلك أن الريح كانت تأتى الرجل منهم فتقتلعه وترفعه فى الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه ، كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا تحصنوا فى الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم فى الأرض إلى أنصافهم ، فلم يغن عنهم ذلك [١]من أمر الله شيئاً ، ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾ .

وهذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن عبده ورسوله صالح ، عليه السلام: أنه بعثه إلى قوم ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجْر ، التى بين وادى القُرَى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة . وقد قدمنا فى « سورة الأعراف » [٢] الأحاديث المروية فى مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزْوَ الشام ، فوصل [٣] إلى تَبُوك ، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك . وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل ، عليه السلام . فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه . فأخبرهم أنه لا يبتغى بدعوتهم أجرا منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ، عز وجل ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) ﴾ .

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً إياهم نقم [٤] الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارّة ، وجعلهم فى أمن من المحذورات . وأنبت لهم من الجنات [٥] . وأنبع لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ؛ ولهذا قال: ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ . قال العوفى ، عن ابن عباس : أينع وبَلَغ ، فهو هضيم .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ يقول : مُعشبة .

[و] [٦] قال إسماعيل بن أبى خالد ، عن عمرو بن أبى عمرو ـ وقد أدرك الصحابة ـ عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : إذا رطُب واسترخى . رواه ابن أبى حاتم ، قال : ورُوى عن أبى صالح نحو هذا .

---

(١) فى ف ، أ : « لم يغن ذلك عنهم » .
(٢) عند الآيات : ٧٣ ـ ٧٨ .
(٣) فى أ : « فدخل » .
(٤) فى ف ، أ : « نقمة » .
(٥) فى أ : « الحبات » .
(٦) زيادة من أ .

وقال أبو إسحاق ، عن أبى العلاء : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : هو المذنب من الرطب .

وقال مجاهد : هو الذى إذا كُبِس [١] تهشم وتفتت وتناثر .

وقال ابن جريج : سمعت عبد الكريم أبا أمية ، سمعت مجاهد يقول : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : حين يطلعُ تقبض عليه فتهضَمه ، فهو من الرطب الهضيم ، ومن اليابس الهشيم ، تقبض عليه فتهشمه .

وقال عكرمة ، وقتادة : الهضيم : الرطب اللين .

وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة [٢] ، وركب بعضه بعضاً ، فهو هضيم .

وقال مرة : هو الطَّلْعُ حين يتفرق ويخضر .

وقال الحسن البصرى : هو الذى لا نوى له .

وقال أبو صخر : ما [٣] رأيت الطلعَ حين يُشق [٤] عنه الكمّ ، فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض، فهو الهضيم ، وقوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ قال ابن عباس ، وغير واحد : يعنى : حاذقين . وفى رواية عنه : شرهين أشرين [٥] . وهو اختيار مجاهد وجماعة . ولا منافاة بينهما ؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة فى الجبال أشراً وبطراً وعبثاً ، من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين [٦] متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ؛ولهذا قال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أى : أقبلوا على عَمَل ما يعود نفعُه عليكم [٧] فى الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا ،﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ يعنى :رؤساءهم وكبراءهم ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ، ومخالفة الحق .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن ثمودَ فى جوابهم لنبيهم صالح ، عليه السلام ، حين دعاهم إلى عبادة ربهم ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ . قال مجاهد ، وقتادة : يعنون من المسحورين .

وروى [٨] أبو صالح ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ [٩] ﴾ : يعنى من المخلوقين ، واشتشهد بعضهم على هذا القول بما قال الشاعر [١٠] .

---

(١) فى ف ، أ : « مس » . (٢) فى ف ، أ : « حمل النخلة المثمرة » . (٣) فى ف ، أ : « أما » .
(٤) فى ف ، أ : « يتشقق » . (٥) فى ف : « أشرين شرهين » . (٦) فى أ : « صادقين » .
(٧) فى ف ، أ : « عليكم نفعه » . (٨) فى ف : « وقال » . (٩) فى ف ، أ : « المسحورين » .
(١٠) هو لبيد بن ربيعة ، والبيت فى ديوانه ص (٥٦) أ . هـ ، مستفاداً من ط . الشعب .

يعنى الذين لهم سُحور ، والسَّحر : هو الرئة .

والأظهر فى هذا قول مجاهد وقتادة : أنهم يقولون : إنما أنت فى قولك هذا مسحور لا عقل لك.

ثم قالوا : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يعنى : فكيف أوحى إليك دوننا ؟ كما قالوا فى الآية الأخرى : ﴿ أَؤُلْقِيَ[1] الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِر. سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِر﴾ [القمر: ٢٥ ، ٢٦] .

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ، ليعلموا صدقه بما [2] جاءهم به من ربهم فطلبوا منه ـ وقد اجتمع ملؤهم ـ أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة عندهم ـ ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا . فعند ذلك أخذ عليهم نبى اللّه صالح العهود والمواثيق ، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤمنَنّ به ، [وليصدقنه] [3] ، وليتبعنه ، فأنعموا بذلك . فقام نبى اللّه صالح ، عليه السلام، فصلى، ثم دعا اللّه ، عز وجل ، أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عُشَراء ، على الصفة التى وصفوها . فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ، ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُوم ﴾ يعنى : ترد ماءكم يوما ، ويوماً تردونه أنتم ، ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيم ﴾ فحذرهم نقمة اللّه إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى . وينتفعون بلبنها ، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم ، تمالؤوا على قتلها وعقرها ، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ . فَأَخَذَهُمُ الْعَذَاب ﴾ وهو أن أرضهم زُلزلت زلزالاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط ، عليه السلام ، وهو : لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم ، وكانوا يسكنون « سدُوم » وأعمالها التى أهلكها الله بها ،وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ،وهى مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال البيت [4] المقدس ، بينها وبين بلاد الكَرَك والشَّوبَك . فدعاهم إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذى بعثه اللّه إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه فى العالم ، مما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله ، من إتيان الذكْران دون الإناث ؛ ولهذا قال تعالى :

---

(١) فى ف ، أ : « وأنزل » وهو خطأ .

(٢) فى أ : « فيما » .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ف ، أ : « بيت ».

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) ﴾ .

لما نهاهم نبى الله عن إتيانهم الفواحش ، وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتى خلقهن الله لهم ـ ما كان جواب قومه له إلا أن قالوا : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ ﴾ يعنون: عما جئتنا [١] به، ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أى: ننفيك من بين أظهرنا ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا [٢] كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم [٣] مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] ، فلما رأى أنَّهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم ، تبرأ منهم فقال : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ أى : المُبغضين ، لا أحبه ولا أرضى به ؛ فأنا برىء منكم . ثم دعا الله عليهم قال : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : كلهم ، ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ ، وهى امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت[٤] مع من بقى من قومها ، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم فى « سورة الأعراف » و « هود » ، وكذا فى « الحجْر » حين أمره الله أن يسرى بأهله إلا امرأته ، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه ، فصبروا لأمر الله واستمروا ، وأنزل الله على أولئك العذاب الذى عمّ جميعهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيلٍ منضود ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾ .

هؤلاء ـ أعنى أصحاب الأيكة ـ هم أهل مدين على الصحيح . وكان نبى الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغَيضة ، كانوا يعبدونها ؛ فلهذا لما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، لم يقل : « إذ قال لهم أخوهم شعيب » ، وإنما قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ،فقطع نسبة الأخوة بينهم ؛ للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً . ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير

---

(١) فى ف : « يعنى مما جئتنا » .
(٢) فى ف ، أ : « فما » وهو خطأ .
(٣) فى جميع النسخ : « أخرجوا آل لوط » والصواب ما أثبتناه .
(٤) فى ف ، أ : « مهلكة ».

أهل مدين ، فزعم أن شعيباً ، عليه السلام ، بعثه الله إلى أمتين ، ومنهم من قال : ثلاث أمم .

وقد روى إسحاق بن بشر الكاهلى ـ وهو ضعيف ـ حدثنى ابن السدى ، عن أبيه ـ وزكريا بن عمر [١] ، عن خَصِيف ، عن عكْرِمة قالا : ما بعث اللّه نبياً مرتين إلا شعيباً ، مرة إلى مدين فأخذهم اللّه بالصيحة ، ومرة إلى أصحابَ الأيكة فأخذهم اللّه بعذاب يوم الظُّلَّة .

وروى أبو القاسم البغوى ، عن هُدْبَة ، عن هَمَّام ، عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَصْحَابُ الرَّس** ﴾. [ق : ١٢] قوم شعيب ، وقوله : ﴿ **وَأَصْحَابُ الأَيْكَة** ﴾ . [ق : ١٤] قوم شعيب .

قال إسحاق بن بشر : وقال غير جُوَيْبر : أصحاب الأيكة ومدين هما واحد . واللّه أعلم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة « شعيب » ، من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، عن أبيه ، عن معاوية بن هشام ، عن هشام بن سعد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان ، بعث [٢] اللّه إليهما شعيباً النبى ، عليه السلام » [٣] .

وهذا غريب ، وفى رفعه نظر ، والأشبه أن يكون موقوفا . والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا فى كل مقام بشىء ؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء [٤] ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة [٥] .

﴿ **أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤)** ﴾ .

يأمرهم تعالى[٦] بإيفاء المكيال [٧] والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما ، فقال : ﴿ **أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ** ﴾ أى : إذا دفعتم إلى الناس فكملوا [٨] الكيل لهم ، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا ،وتأخذوه ـ إذا كان لكم ـ تاماً وافياً ، ولكن خذوا كما تعطون ، واعطوا كما تأخذون.

﴿ **وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ** ﴾ : والقسطاس هو : الميزان ، وقيل : القَبَّانُ . قال بعضهم : هو معرب من الرومية .

وقال مجاهد : القسطاس المستقيم : العدل ـ بالرومية . وقال قتادة : القسطاس : العدل .

وقوله : ﴿ **وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ** ﴾ أى : تَنْقُصوهم أموالهم ، ﴿ **وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ**

(١) فى ف، أ « عمرو » .
(٢) فى ف ، أ : « فبعث » .
(٣) انظر : مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٠/٣٠٩) .
(٤) فى أ : « سواء » .
(٥) فى أ : « فدل ذلك على أنهما واحدة » .
(٦) فى ف ، أ : « عليه السلام » .
(٧) فى ف ، أ : « الكيل » .
(٨) فى أ : « فكلوا » .

مُفْسِدِينَ ﴾ يعنى : قطع الطريق ، كما فى الآية الأخرى : ﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُون [وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ به] (١) ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾ : يخوفهم بأس اللّه الذى خلقهم وخلق آباءهم الأوائل ، كما قال موسى ، عليه السلام : ﴿ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِين ﴾ [الصافات : ١٢٦] . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسُّدِّى ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِين﴾ يقول : خلق الأولين . وقرأ ابن زيد : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ [يس : ٦٢] .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِين (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) ﴾ .

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها (٢) ـ تشابهت قلوبهم ـ حيث قالوا: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِين ﴾ يعنون : من المسحورين ، كما تقدم . ﴿ وَمَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : تتعمد الكذب فيما تقوله ، لا أن الله أرسلك إلينا ، ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء ﴾: قال الضحاك : جانبا من السماء . وقال قتادة : قطعا من السماء . وقال السدى: عذابًا من السماء . وهذا شبيه بما قالت قُرَيش فيما أخبر اللّه عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ ، إلى أن قالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّه وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا ﴾ [الإسراء : ٩٠ـ ٩٢] . وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُون ﴾ يقول : اللّه أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم ، وكذلك وقع بهم كما سألوا ، جزاءً وفاقًا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من جنس ما سألوا ، من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله، سبحانه وتعالى ، جعل عقوبتهم (٣) أن أصابهم حر شديد جدا مدة سبعة أيام لا يكُنُّهم منه شيء ، ثم

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى ف ، أ : « لرسلها » .
(٣) فى أ : « عقوبته » .

أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ،فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر،فلما اجتمعوا [كلهم](١) تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ، ولهباً ووهجاً عظيماً ، ورَجَفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن (٢) ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ؛وذلك لأنهم قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف : ٨٨] ، فأرجفوا بنبى الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفى سورة هود قال : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ [هود : ٩٤] ؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبى الله فى قولهم : ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] . قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم،فقال: ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ (٣).وههنا قالوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال قتادة : قال عبد الله بن عمر (٤) ، رضى الله عنه : إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شىء ، ثم إن الله أنشأ لهم سحابة ، فانطلق إليها أحدهم واستظل (٥) بها ، فأصاب تحتها برداً وراحة ، فأعلم بذلك قومة ، فأتوها جميعاً ، فاستظلوا تحتها ، فأجَّجَتْ عليهم ناراً .

وهكذا روى عن عِكْرِمَة ، وسعيد بن جُبَير ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، بعث الله إليهم الظلة ، حتى إذا اجتمعوا كلهم ، كشف الله عنهم الظلة ، وأحمى عليهم الشمس ، فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المَقْلَى.

وقال محمد بن كعب القُرَظىّ : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة فى دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، فَفَرقُوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة ، فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كاليوم ظلاً (٦) أطيب ولا أبرد من هذا . هلموا أيها الناس . فدخلوا جميعاً تحت الظلة ، فصاح بهم صيحة واحدة ، فماتوا جميعاً . ثم تلا محمد بن كعب : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقال ابن جرير : حدثنى الحارث ، حدثنى الحسن ، حدثنى سعيد بن زيد ـ أخو حماد بن زيد ـ حدثنى حاتم بن أبى صغيرة (٧) ، حدثنى يزيد الباهلى : سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : بعث الله عليهم وَمَدَةً (٨) وحرا شديدا ، فأخذ

---

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى أ : « مواضع » .
(٣) فى ف : « فأخذتهم الصيحة » .
(٤) فى ف ، أ : « عمرو » .
(٥) فى ف ، أ : « فاستظل » .
(٦) فى ف : « ما رأيت ظلا كاليوم » .
(٧) فى أ : « ضفيرة » .
(٨) فى ف ، أ : « رعدة » .

بأنفاسهم [فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت ، فأخذ بأنفاسهم] (١) ، فخرجوا من البيوت هراباً إلى البرية ، فبعث اللّه سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذة ، فنادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها (٢) اللّه عليهم ناراً . قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم (٣) .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى : العزيز فى انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذى أنزله على عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى : القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ (٤) مُحْدَثٍ ﴾ [الآية] (٥) . ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : أنزله اللّه عليك وأوحاه إليك ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ وهو جبريل ، عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وقتادة ، وعطية العوفى ، والسدى ، والضحاك ، والزهرى ، وابن جريج . وهذا ما لا نزاع فيه .

قال الزهرى : وهذه كقوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الآية [البقرة: ٩٧] .

وقال مجاهد : من كلمه الروح الأمين لا تأكله (٦) الأرض .

﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [أى : نزل به ملك كريم أمين ، ذو مكانة عند اللّه ، مطاع فى الملأ الأعلى ، ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ يا محمد ، سالماً من الدنس والزيادة والنقص؛ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾](٧) أى :لتنذر به بأس اللّه ونقمته على من خالفه وكذبه ،وتبشر به المؤمنين المتبعين له.

وقوله : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ أى : هذا القرآن الذى أنزلناه إليك [أنزلناه] (٨) بلسانك العربى الفصيح الكامل الشامل ،ليكون بيِّناً واضحاً ظاهراً ، قاطعاً للعذر ،مقيماً للحجة ، دليلاً إلى المحجة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد اللّه بن أبى بكر العَتَكىّ ، حدثنا عباد بن عباد المُهَلَّبى، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمى ، عن أبيه قال : بينما رسول اللّه ﷺ مع أصحابه فى يوم دَجْن إذ قال لهم : « كيف ترون بواسقها ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها . قال : «فكيف ترون قواعدها ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها . قال : « فكيف ترون جَوْنَها (٩) ؟ » . قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . قال : « فكيف ترون رحاها استدارت (١٠) ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد

---

(١) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .

(٢) فى ف ، أ : « أرسل » .

(٣) تفسير الطبرى (١٩/ ٦٧) .

(٤) فى ف ، أ : « ربهم » وهو خطأ .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) فى ف : « لا يأكله » .

(٧، ٨) زيادة من ف ، أ .

(٩) فى ف ، أ : « حرنا » .

(١٠) فى ف : « رحلها استدار » .

استدارتها . قال : « فكيف ترون برقها ، أومَيض أم خَفْو [١] أم يَشُق شقّا [٢] ؟ » . قالوا : بل يشق شقاً. قال : « الحياء الحياء إن شاء الله » . قال : فقال رجل : يا رسول الله، بأبى وأمى ماأفصحك، ما رأيت الذى هو أعربُ منك . قال : فقال : « حق لى ، وإنما أنزل [٣] القرآن بلساني، والله يقول : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ » [٤] .

وقال سفيان الثورى : لم ينزل وحى إلا بالعربية ، ثم تَرْجم كل نبى لقومه ، واللسان يوم القيامة بالسريانية ، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية . رواه ابن أبى حاتم .

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾ .

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم ، الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيباً فى ملئه بالبشارة بأحمد : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] ، والزبر ههنا هى الكتب وهى جمع زَبُور [٥] ، وكذلك الزبور ، وهو كتاب داود . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر : ٥٢] أى : مكتوب عليهم فى صحف الملائكة .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك : أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها ؟ والمراد : العدول منهم ، الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته ، كما أخبر بذلك مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم. وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ الآية [الأعراف : ١٥٧] .

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن ؛ أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم، ممن لا يدرى من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته ، لا يؤمنون به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما أخبر عنهم في الآية الآخرى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤، ١٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] .

---

(١) فى أ : « خفق » . (٢) فى أ : « شقاقا » . (٣) فى ف : « نزل » .
(٤) ورواه الرامهرمزى فى أمثال الحديث ص (١٥٥) من طريق عبد الله بن محمد الأموى ، عن عباد بن عباد المهلبى به .
(٥) فى ف ، أ : « زبرة » .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) ﴾ .

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد ، أى : أدخلناه فى قلوب المجرمين، ﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : بالحق ، ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ أى : حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أى : عذاب الله بغتة ، ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ ؟ أى : يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلا ليعملوا [من فزعهم] [(١)] بطاعة الله، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ، ندم ندماً شديداً هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ .قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا [فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ] [(٢)] ﴾ [يونس : ٨٨، ٨٩] ، فأثرت هذه الدعوة فى فرعون ، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ ، ٩١] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ الآية [غافر :٨٤، ٨٥] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ : إنكار عليهم ، وتهديد لهم ؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً : ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت :٢٩] ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الآيات [العنكبوت : ٥٣] .

ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ أى : لو أخرناهم وأنظرناهم ، وأملينا لهم برهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله ، أى شيء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعم ، ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ [البقرة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ [الليل : ١١] ؛ ولهذا قال: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ .

وفى الحديث الصحيح : « يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة [(٣)] ، ثم يقال له : هل رأيت

(١، ٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) فى ف : « فيغمس غمسة فى النار » .

خيراً قط ؟ هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول : لا [والله يا رب] [(١)] . ويؤتى بأشد الناس بؤسًا كان فى الدنيا، فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا والله يا رب » أى : ما كأن شيئاً كان[(٢)]. ولهذا كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت :

كأنَّك لَمْ تُوتِر من الدهْر لَيْلَةً إذا أنْتَ أدركْتَ الذى كنتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله فى خلقه : أنَّه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم ، والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم وقيام الحجج عليهم ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنذِرُونَ . ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِين** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولا** ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا [وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ][(٣)] وَأَهْلُهَا ظَالِمُون** ﴾ [القصص : ٥٩] .

﴿ **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ(٢١٢)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد : أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ، ﴿ **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِين** ﴾ . ثم ذكر أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه ما [(٤)] ينبغى لهم ، أى : ليس هو من بُغْيَتهم ولا من طلبتهم ؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَنبَغِي لَهُم** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وَمَا يَسْتَطِيعُون** ﴾ أى : ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّه** ﴾ [الحشر : ٢١] .

ثم بين أنه لو انبغى [(٥)] لهم واستطاعوا حمله وتأديته ، لما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشُهبا فى مُدّة إنزال القرآن على رسوله ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه ، لئلا يشتبه الأمر . وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأييده لكتابه ولرسوله ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُون** ﴾ ،كما قال تعالى مخبراً عن الجن : ﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا** ﴾ [الجن :٨ ـ ١٠] .

﴿ **فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)**

(١) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/٢٠٣) من حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه .

(٣) زيادة من ف ، أ . وفى هـ: « إلى قوله » . (٤) فى ف : « لا » . (٥) فى ف : « ابتغى » .

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) ﴾ .

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبراً أنّ من أشرك به عذبه .

ثم قال تعالى آمراً لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه [(١)] أن ينذر عشيرته الأقربين ، أى : الأدنين إليه ، وأنه لا يُخَلِّص أحداً منهم إلا إيمانهُ بربه ، عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وهذه النِّذارة الخاصة لا تنافى العامة ، بل هى فرد من أجزائها ، كما قال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس:٦] ،وقال:﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى:٧] ، وقال : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام :٥١] ،وقال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] ، وقال : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩]، كما قال : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] .

وفى صحيح مسلم : «والذى نفسى بيده،لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة،يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة ، فلنذكرها :

الحديث الأول :

قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا عبد الله ، بن نُمَيْر ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى : « يا صباحاه » . فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، صدقتمونى ؟ » . قالوا: نعم . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [سورة المسد] .

ورواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى ، من طرق ، عن الأعمش ، به [(٢)] .

الحديث الثانى :

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا هشام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قام رسول الله ﷺ فقال : « يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ،لا أملك لكم من الله شيئا ،سلونى من مالى ما شئتم » .انفرد بإخراجه مسلم [(٣)] .

---

(١) فى ف ، أ : « صلوات الله عليه وسلامه » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٠١) وصحيح مسلم برقم (٢٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٧١٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٦٣).

(٣) المسند (٦/ ١٨٧) وصحيح مسلم برقم (٢٠٥) .

الحديث الثالث :

قال أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثنا عبد الملك بن عُمَير ، عن موسى بن طلحة ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ، دعا رسول اللّه ﷺ [قريشا] [١] ، فعم وخص ، فقال : « يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بنى كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بنى عبد المطلب ،أنقذوا أنفسكم من النار. [يا فاطمة بنت محمد ، أنقذى نفسك من النار] [٢] ، فإنى ـ والله ـ ما أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن لكم رَحماً سأبُلها ببِلالها » .

ورواه مسلم والترمذى ، من حديث عبد الملك بن عمير ، به [٣] . وقال الترمذى : غريب من هذا الوجه . ورواه النسائى من حديث موسى بن طلحة مرسلا ، لم يذكر فيه أبا هريرة [٤] . والموصول هو الصحيح . وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة [٥] .

وقال الإمام أحمد :حدثنا يزيد ، حدثنا محمد ـ يعنى ابن إسحاق ـ عن أبى الزنَاد ، عن الأعرج، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، اشتروا أنفسكم من اللّه . يا صفية عمة رسول اللّه ، ويا فاطمة بنت رسول اللّه ، اشتريا أنفسكما من اللّه ، لا أُغنى عنكما من اللّه شيئاً ، سلانى من مالى ماشئتما » .

تفرد به من هذا الوجه [٦] ، وتفرد به أيضاً ، عن معاوية ، عن زائدة ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحوه [٧] . ورواه أيضاً عن حسن ، ثنا ابن لِهَيعة ، عن [٨] الأعرج : سمعت أبا هريرة مرفوعا [٩] .

وقال أبو يعلى : حدثنا سُوَيد بن سَعيد ، حدثنا [١٠] ضِمَام بن إسماعيل ، عن موسى بن وَرْدَان، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « يا بنى قصى ، يا بَنى هَاشم ، يا بنى عبد مناف . أنا النذير والموت المغير . والساعة الموعد » [١١] .

الحديث الرابع :

قال أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا التيمى ، عن أبى عثمان ، عن قَبِيصة بن مُخَارق

(١ ، ٢) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٣) المسند (٢/ ٣٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٠٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٨٥) .

(٤) سنن النسائى (٦/ ٢٤٨) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٧١) وصحيح مسلم برقم (٢٠٦) .

(٦) المسند (٢/ ٤٤٨) .

(٧) المسند (٢/ ٣٩٨) .

(٨) فى ف : « ثنا » .

(٩) المسند (٢/ ٣٥٠) .

(١٠) فى ف : « عن » .

(١١) مسند أبى يعلى (١١/ ١٠) وسويد بن سعيد متكلم فيه .

وزُهَير بن عمرو قالا : لما نزلت : ﴿ **وَأَنذرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ ، صَعد رسول اللّه ﷺ رَضْمَةً من جبل على أعلاها حجر ، فجعل ينادى : « يا بنى عبد مناف ، إنما أنا نذير ، إنما مثلى ومثلكم كرجل رأى العدو ، فذهب يربأ أهله ، يخشى أن يسبقوه ، فجعل ينادى ويهتف : يا صباحاه » .

ورواه مسلم والنسائى ، من حديث سليمان بن طَرْخان التيمى ، عن أبى عثمان عبد الرحمن بن مُل النَّهْدىّ ، عن قَبيصة وزُهَير بن عَمْرو الهلالى ، به(١) .

الحديث الخامس :

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا شَرِيك عن الأعمش ، عن المِنْهَال ، عن عباد بن عبد اللّه الأسدى ، عن على ،رضى اللّه عنه ،قال :لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وَأَنذرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ ، جمع النبى ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم : « من يَضْمَنُ عَنى دينى ومواعيدى ، ويكون معى فى الجنة ، ويكون خليفتى فى أهلى ؟ » . فقال رجل ـ لم يسمه شريك ـ : يا رسول اللّه ، أنت كنت بحراً (٢) ، من يقوم بهذا ؟ قال : ثم قال الآخر ، قال : فعرض ذلك على أهل بيته ، فقال عَلىٌ : أنا (٣) .

طريق أخرى بأبسط من هذا السياق : قال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن عثمان بن المغيرة ، عن أبى صادق ، عن ربيعة بن ناجذ ، عن على ، رضى اللّه عنه ، قال : جمع رسول اللّه ﷺ ـ أو دعا رسول اللّه ﷺ ـ بنى عبد المطلب ، وهم رَهْطٌ ، كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرَق ـ قال : وصنع (٤) لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا ـ قال : وبقى الطعام كما هو كأنه لم يمس . ثم دعا بغُمَرٍ (٥) فشربوا حتى رووا ، وبقى الشراب كأنه لم يمس ـ أو لم يشرب ـ وقال : « يا بنى عبدالمطلب ، إنى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ، فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ؟ » . قال : فلم يقم إليه أحد . قال : فقمتُ إليه ـ وكنت أصغر القوم ـ قال : فقال : « اجلس » . ثم قال ثلاث مرات ، كل ذلك أقومُ إليه فيقول لى : «اجلس» . حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى (٦) .

طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر : قال الحافظ أبو بكر البيهقى فى «دلائل النبوة » : أخبرنا محمد بن عبد اللّه الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا يُونُس بن بُكَيْر ، عن محمد بن إسحاق قال : فحدثنى من سمع عبد اللّه بن الحارث بن نوفل ـ واستكتمنى اسمه ـ عن ابن عباس ، عن على بن أبى طالب ، رضى اللّه عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية على رسول اللّه ﷺ : ﴿ **وَأَنذرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ،قال رسول اللّه ﷺ : « عرفت أنّى إن بادأتُ بها قومى ، رأيت منهم ما أكره ،

---

(١) المسند (٥/ ٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٠٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٩).

(٢) فى أ : « تجرى » .

(٣) المسند (١/ ١١١) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٣٠٢) : « رجال أحمد رجال الصحيح ، غير شريك وهو ثقة » .

(٤) فى ف ، أ : « فصنع » . (٥) فى ف ، أ : « بعس » .

(٦) المسند (١/ ١٥٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٣٠٢) : « رجاله ثقات » .

فَصَمَتُّ . فجاءني جبريل ، عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك ربك » . قال على ، رضى اللّه عنه : فدعانى فقال : « يا على ، إن اللّه قد أمرنى [أن] [١] أنذر عشيرتى الأقربين ، فعرفت أنى إن بادأتهم بذلك رأيت منهم ما أكره ، فَصَمت عن ذلك ، ثم جاءنى جبريل فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك . فاصنع لنا يا على شاة على صاع من طعام ، وأعدّ لنا عُسَّ لبن ، ثم اجمع لى [٢] بنى عبد المطلب » . ففعلتُ فاجتمعوا له ، وهم يومئذ أربعون رجلاً ، يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً . فيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب الكافر الخبيث . فقدّمت إليهم تلك الجَفْنَةَ ، فأخذ رسول اللّه ﷺ منها حذْيَة فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها ، وقال : « كلوا بسم اللّه » . فأكل القومُ حتى نَهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم : واللّه إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها . ثم قال رسول اللّه ﷺ : « اسقهم يا على » . فجئت بذلك القَعب فشربوا منه حتى نَهلُوا جميعاً ، وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول اللّه ﷺ أن يكلمهم ، بَدَره أبو لهب إلى الكلام فقال : لَهَدّ ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلّمهم رسول اللّه ﷺ . فلما كان الغدُ قال رسول اللّه ﷺ : « يا على ، عُدْ لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب ؛ فإن هذا الرجلّ قد بَدَرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم » . ففعلت ، ثم جمعتهم له ، فصنع رسول اللّه ﷺ كما صنع بالأمس ، فأكلوا حتى نَهلُوا عنه ، وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها . ثم قال رسول اللّه ﷺ : « اسقهم يا على ». فجئت بذلك القَعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً . وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول اللّه ﷺ أن يكلمهم بَدَره أبو لهب بالكلام فقال : لَهَدَّ ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول اللّه . فلما كان الغد قال رسول اللّه ﷺ : « يا على ، عد لنا بمثل الذى كنت صنعتَ لنا بالأمس من الطعام والشراب ؛ فإن هذا الرجل قد بَدَرنى إلى ما سمعتَ قبل أن أكلم القوم». ففعلت ، ثم جمعتهم له فصنع رسول اللّه ﷺ [كما صنع] [٣] بالأمس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه ، وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها، ثم قال رسول اللّه ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، إنى ـ واللّه ـ ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة » .

قال أحمد بن عبد الجبار : بلغنى أن ابن إسحاق إنما [٤] سمعه من عبد الغفار بن القاسم أبى مريم، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد اللّه بن الحارث [٥] .

وقد رواه أبو جعفر بن جرير ، عن ابن حميد ، عن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الغفار ابن القاسم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد اللّه بن الحارث ، عن ابن عباس ، عن على بن أبى طالب ، فذكر مثله ، وزاد بعد قوله : « إنى جئتكم بخير الدنيا والآخرة » . « وقد أمرنى اللّه أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى [٦] على هذا الأمر على أن يكون أخى ، وكذا وكذا » ؟ قال : فأحجم

---

(١) زيادة من ف ، أ ، ودلائل النبوة .

(٢) فى ف : « لنا » .

(٣) زيادة من ف ، أ ، ودلائل النبوة .

(٤) فى ف : « لما » .

(٥) دلائل النبوة (٢/١٧٨) .

(٦) فى ف : « وازرنى » .

القوم عنها جميعاً ، وقلت ـ وإنى لأحدثهم سناً ، وأرمصُهم عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأحمشهم ساقا. أنا يا نبى الله ، أكون وزيرك عليه ، فأخذ يرَقْبتى ثم قال : « إن هذا أخى ، وكذا وكذا ، فاسمعوا له وأطيعوا » . قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع (١) .

تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبى مريم ، وهو متروك كذاب شيعى ، اتهمه على ابن المدينى وغيره بوضع الحديث ، وضعفه الأئمة رحمهم الله .

طريق أخرى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا الحسين بن عيسى بن مَيْسَرة الحارثى ، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث قال: قال على ، رضى الله عنه : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ ، قال لى رسول الله ﷺ : « اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبنا » . قال : ففعلت ، ثم قال :« ادع بنى هاشم » . قال : فدعوتهم وإنهم يومئذ لأربعون غير رجل ـ أو : أربعون ورجل ـ قال : وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذَعَة بإدامها . قال : فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول الله ﷺ من ذروَتها ثم قال : « كلوا » ، فأكلوا حتى شبعوا ، وهى على هيئتها (٢) لم يرزؤوا منها إلا يسيراً ، قال : ثم أتيتهم بالإناء فشربوا حتى رَوُوا . قال : وفَضَلَ فَضْلٌ ، فلما فرغوا أراد رسول الله ﷺ أن يتكلم ، فبدرُوه الكلام، فقالوا : ما رأينا كاليوم فى السحر . فسكت رسول الله ﷺ ، ثم قال : « اصنع [لى](٣) رجل شاة بصاع من طعام » .فصنعت ، قال : فدعاهم ، فلما أكلوا وشربوا ، قال : فبدروه فقالوا مثل مقالتهم الأولى ، فسكت رسول الله ﷺ ثم قال لى : « اصنع [لى] (٤) رجل شاة بصاع من طعام . فصنعت ، قال : فجمعتهم ، فلما أكلوا وشربوا بَدَرهم رسول الله ﷺ الكلام فقال : « أيكم يقضى عنى دَينى (٥) ويكون خليفتى فى أهلى ؟ » . قال: فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله ، قال : وسكتُّ أنا لسنّ العباس . ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس ، فلما رأيت ذلك قلت : أنا يا رسول الله . [فقالَ : « أنت »](٦) قال : وإنى يومئذ لأسوأهم هيئة ، وإنى لأعمش العينين ، ضخم البطن ، حَمْش الساقين .

فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن على ، رضى الله عنه. ومعنى سؤاله ، عليه الصلاة والسلام(٧) ، لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه فى أهله، يعنى إن قتل فى سبيل الله، كأنه خشى إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل ، ولما أنزل الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾[المائدة : ٦٧] ، فعند ذلك أمن . وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ .ولم يكن فى بنى هاشم إذ ذاك أشدّ إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول الله ﷺ من على ، رضى الله عنه ؛ ولهذا (٨) بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسولُ الله ﷺ ، ثم كان بعد هذا ـ والله أعلم ـ دعاؤه الناس جَهرةً على الصفا، وإنذاره لبطون قريش عموما وخصوصا ، حتى سَمّى من سمى من أعمامه وعماته وبناته ، لينبه بالأدنى على الأعلى ، أى : إنما أنا نذير ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

(١) تفسير الطبرى (١٩/ ٤٠) .

(٢) فى ف : « وهى كهيئتها » .

(٣، ٤) زيادة من ف.

(٥) فى ف : « دينى عنى » .

(٦) زيادة من ف .

(٧) فى ف : « ﷺ » .

(٨) فى ف : « فلهذا » .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الواحد الدمشقى ـ غير منسوب ـ من طريق عمرو بن سَمُرَةَ ، عن محمد بن سُوقَةَ ، عن عبدالواحد الدمشقى قال : رأيت أبا الدرداء ، رضى اللّه عنه، يحدث الناس ويفتيهم ، وولده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون ، فقيل له: ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم ، وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال : لأنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:« أزهد الناس فى الدنيا الأنبياء ، وأشدهم عليهم الأقربون » . وذلك فيما أنزل اللّه ، عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ، ثم قال : « إن أزهد الناس فى العالم أهله حتى يفارقهم». ولهذا قال [اللّه تعالى] (١) : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى : فى جميع أمورك ؛ فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومُعْلٍ كلمتك .

وقوله : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُوم ﴾ أى :هو معتن بك ، كما قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ (٣) لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨].

قال ابن عباس : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُوم ﴾ يعنى : إلى الصلاة .

وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده .

وقال الحسن : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُوم ﴾ : إذا صليت وحدك .

وقال الضحاك : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُوم ﴾ أى : من فراشك أو مجلسك .

وقال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ ﴾ :قائما وجالسا وعلى حالاتك .

وقوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِين ﴾ :قال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُوم . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِين ﴾ قال : فى الصلاة ، يراك وحدك ويراك فى الجَمْع . وهذا قول عكرمة ، وعطاء الخراسانى ، والحسن البصرى .

وقال مجاهد : كان رسول اللّه ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه ؛ ويشهد لهذا ما صح فى الحديث : « سَوّوا صفوفكم ؛ فإنى أراكم من وراء ظهرى » (٤) .

وروى البزار وابن أبى حاتم ، من طريقين ، عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : يعنى تقلبه من صلب نبى إلى صلب نبى ، حتى أخرجه نبيا .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ

---

(١) زيادة من أ .

(٢) تاريخ دمشق (١٠/٥٨٧ المخطوط) .

(٣) فى جميع النسخ : « فاصبر » والصواب ما أثبتناه .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٣) .

تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ الآية [يونس : ٦١] .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس حقا ، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رئيّ من الجن ، فنزه الله ، سبحانه ، جناب رسوله عن قولهم وافترائهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو [الحق] [١] من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قَبيل الشياطين ،فإنهم ليس لهم رغبة فى مثل هذا القرآن العظيم،وإنما ينزلون [٢] على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ؛ ولهذا قال الله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم ﴾ أى : أخبركم ﴿ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أى :كذوب فى قوله ،وهو الأفاك الأثيم ،أى [٣]: الفاجر فى أفعاله . فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة .

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ أى : يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها ، فيصدقهم الناس فى كل ما قالوه، بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى سمعت من السماء ،كما صح بذلك الحديث ، كما رواه البخارى، من حديث الزهرى :أخبرنى يحيى بن عُروَةَ بن الزبير ،أنه سمع عُروَةَ بن الزبير يقول : قالت عائشة، رضى الله عنها : سأل ناس النبىّ ﷺ عن الكهان ، فقال : « إنهم ليسوا بشىء » . قالوا : يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشىء يكون حقا ؟ فقال النبى ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها [٤] الجنى، فَيُقَرْقِرها فى أذن وليه كقَرْقَرة الدجاجة ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » [٥] .

وقال البخارى أيضا : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله ، كأنها [٦] سلسلة على صَفْوان ، حتى إذا فُزِع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق وهو العلى الكبير . فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع ، هكذا بعضهم فوق بعض » . ووصف سفيان بيده فَحَرفها ، وبَدّدَ بين أصابعه « فيسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخرُ إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر ـ أو الكاهن ـ فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا :كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمع [٧] من السماء ».انفرد به البخارى [٨] .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى أ : « يتنزلون » . (٣) فى ف : « وهو » .
(٤) فى ف ، أ : « يحفظها » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٧٥٦١) .
(٦) فى ف : « كأنه » . (٧) فى هـ ، ف ، أ : « سمعت » والصواب ما أثبتناه من البخارى .
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٠) .

وروى مسلم من حديث الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس ، عن رجال من الأنصار قريباً من هذا . وسيأتى عند قوله تعالى فى سبأ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم ﴾ الآية [سبأ : ٢٣] ، [إن شاء الله تعالى] (١) .

وقال البخارى : وقال الليث : حدثنى خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال : أن أبا الأسود أخبره ، عن عروة ، عن عائشة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تَحَدَّث فى العَنَان ــ والعَنَان: الغَمَام ــ بالأمر [يكون] (٢) فى الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة ، فتقرّها فى أذن الكاهن كما تُقَرّ القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة » (٣) .

وقال البخارى فى موضع آخر من كتاب « بدء الخلق » عن سعيد بن أبى مريم ، عن الليث ، عن عبد الله بن أبى جعفر ،عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن ،عن عروة ، عن عائشة ،بنحوه (٤) .

وقوله : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُون ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى : الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن . وكذا قال مجاهد ، رحمه الله ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما .

وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان ، فينتصر لهذا فِئَامٌ من الناس ،ولهذا فئَامٌ من الناس ، فأنزل الله : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُون ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قُتَيْبَةُ ، حدثنا لَيث ، عن ابن الهاد ، عن يُحَنَّس (٥) ــ مولى مصعب ابن الزبير ــ عن أبى سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعَرْج ، إذ عَرَض شاعر يُنشد ، فقال النبى ﷺ : « خذوا الشيطان ـ أو امسكوا الشيطان ـ لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً » (٦) .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فى كل لغو يخوضون .

وقال الضحاك عن ابن عباس : فى كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره .

وقال الحسن البصرى : قد ـ والله ـ رأينا أوديتهم التى يهيمون فيها ، مرة فى شتمة (٧) فلان ، ومرة فى مدحة (٨) فلان .

وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُون ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : كان رجلان على عهد رسول الله ، أحدهما من الأنصار ، والآخر من قوم آخرين ، وإنهما تهاجيا ، فكان (٩) مع كل

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .
(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٨٨) وقد وصله أبونعيم فى المستخرج من طريق أبى حاتم الرازى عن أبى صالح كاتب الليث عنه ، كما فى الفتح (٦/ ٤٣٢) .
(٤) صحيح البخارى رقم (٢٢١٠) .
(٥) فى ف : « محنش » .
(٦) المسند (٣ / ٨) .
(٧) فى ف : « شتيمة ».
(٨) فى ف : « مديحة » .
(٩) فى ف : « وكان ».

واحد منهما غوّاة من قومه ـ وهم [(١)] السفهاء ـ فقال الله تعالى : ﴿ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ** ﴾ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه .

وهذا الذى قاله ابن عباس ، رضى الله عنه ، هو الواقع فى نفس الأمر ؛ فإن الشعراء يتبجّحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم ؛ ولهذا اختلف العلماء ، رحمهم الله ، فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حدًّا : هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ، لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين . وقد ذكر محمد بن إسحاق ، ومحمد بن سعد فى الطبقات ، والزبير بن بكّار فى كتاب الفكاهة : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، استعمل النعمان بن عدى بن نَضْلَة على « ميسان» ـ من أرض البصرة ـ وكان يقول الشعر ، فقال :

ألاَ هَل أتَى الحَسْنَاءَ أنّ حَليلَها ... بمَيْسَانَ ، يُسقَى فى زُجاج وَحَنْتَم
إذَا شئْتُ غَنَّتْنى دَهاقينُ قَرْيَة ... وَرَقَّاصَةٌ تَجذُو على كل مَنْسم [(٢)]
فإنْ كُنتَ نَدْمانى فَبالأكْبرَ اسْقنى ... وَلاَ تَسْقنى بالأصْغَر المُتَثَلم [(٣)]
لَعَلَ أميرَ المؤمنينَ يَسُوؤه ... تَنادُمُنا بالجَوْسَق المُتَهَدَم

فلما بلغ [ذلك] [(٤)] أمير المؤمنين قال : إى والله ، إنه ليسوؤنى ذلك ، ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته. وكتب إليه : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . حمٓ . تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [غافر : ١ ـ ٣] ، أما بعد فقد بلغنى قولك :

لَعَلَّ أمير المُؤمنينَ يَسُوؤُه ... تَنَادُمُنَا بالجَوْسق [(٥)] المُتَهَدّم

وايم الله ، إنه ليسوؤنى وقد عزلتك. فلما قدم على عمر بكّته بهذا الشعر ، فقال : والله ـ ياأمير المؤمنين ـ ما شربتها قَطّ ، وما ذاك الشعر إلا شىء طَفَح على لسانى . فقال عمر : أظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لى على عمل أبداً ، وقد قُلتَ ما قلتَ [(٦)] .

فلم يُذكر أنه حَدّه على الشراب ، وقد ضمنه شعره ؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه [(٧)] ذمه عمر ، رضى الله عنه ، ولامه على ذلك وعزله به . ولهذا جاء فى الحديث : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ، يَرِيه خير له من أن يمتلئ شعراً » [(٨)].

والمراد من هذا : أن [(٩)] الرسول ﷺ [(١٠)] الذى أنزل عليه [(١١)] القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ؛

(١) فى ف : « فهم » . (٢) فى ف ، أ : « مبسم » . (٣) فى ف : « المتلثم » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف ، أ : « فى الجوسق » .
(٦) الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٦٦) والطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ١٤٠) .
(٧) فى ف : « ولكن » .
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٥٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .
(٩) فى ف ، أ : « أن هذا الرسول » .
(١٠) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (١١) فى ف ،أ : «عليه هذا القرآن ». .

لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِين ﴾ [يس : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٠ ــ ٤٣] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ . وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد [1] بن عبدالله ابن قُسَيْط ، عن أبى الحسن سالم البرّاد ــ مولى تميم الدارى ـ قال : لما نزلت : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ ،جاء حسان بن ثابت ،وعبد الله بن رَوَاحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ، وهم يبكون فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبى ﷺ : ﴿ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال : « أنتم » ، ﴿ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قال : « أنتم » ، ﴿ وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ قال : « أنتم » .

رواه ابن أبى حاتم . وابن جرير ، من رواية ابن إسحاق [2] .

وقد روى ابن أبى حاتم أيضا ، عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، عن الوليد بن كثير ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبى الحسن مولى بني نوفل ؛ أن حسان بن ثابت ،وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين نزلت : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ يبكيان ، فقال رسول الله ﷺ ، وهو يقرؤها عليهما : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، قال: « أنتم » [3] .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة [4] ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن عروة قال : لما نزلت : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، قد علم الله أنى منهم . فأنزل الله : ﴿ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

وهكذا قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وزيد بن أسلم ، وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم . ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآية [فى] [5] شعراء الأنصار ؟ فى ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها ، والله أعلم ، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ، ورجع وأقلع ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً فى

---

(١) فى ف : « زيد » .

(٢) تفسير الطبرى (١٩/ ٧٩) .

(٣) ورواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٨٨) من طريق أبى أسامة به .

(٤) فى ف ، أ : « أبو مسلم » .

(٥) زيادة من ف .

مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتدح الإسلام وأهله فى مقابلة ما كذب [١] بذمه ، كما قال عبد الله بن الزبَعْرَى حين أسلم :

يَا رَسُولَ المَلِيك ، إنّ لِسَانِى رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أجَارِى الشَّيْطَانَ فى سَنَن الغَـ ـىِّ ، وَمَن مَالَ مَيْلَه مَثْبُورٌ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ ، وهو ابن عمه ، وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه . وهكذا روى مسلم فى صحيحه ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ، ثلاث أعطنيهن قال : «نعم». قال : معاوية تجعله كاتبا بين يديك . قال : « نعم » . قال : وتُؤمرنى حتى أقاتل الكفار ، كما كنت أقاتل المسلمين . قال :« نعم » . وذكر الثلاثة [٢] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ قيل : معناه : ذكروا الله كثيراً فى كلامهم . وقيل : فى شعرهم ، وكلاهما صحيح مكَفّر لما سبق .

وقوله : ﴿ **وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** ﴾ : قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . وهذا كما ثبت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهجهم ـ أو قال : هاجهم ـ وجبريل معك » [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك ، عن أبيه أنه قال للنبى ﷺ : إن الله ، عز وجل ، قد أنزل فى الشعْر ما أنزل ، فقال : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده ، لكأن ما ترمونهم به نَضْح النبْل » . [٤] .

وقوله : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾[غافر : ٥٢] وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » [٥] .

وقال قتادة بن دِعَامَة فى قوله : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾ يعنى: من الشعراء وغيرهم .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا إياس بن أبى تميمة ، قال : حضرت الحسن ومُرَّ عليه بجنازة نصرانى، فقال الحسن : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾ .

وقال عبد الله بن رَبَاح ، عن صفوان بن مُحْرز : أنه كان إذا قرأ هذه الآية ـ بكى حتى أقول : قد اندق قَضِيب زَوره ـ : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾ .

---

(١) فى ف ، أ : « ما كان » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٠١) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٦١٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٦) من حديث البراء بن عازب ، رضى الله عنه .

(٤) المسند (٣٨٧/٦) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٨) من حديث جابر ، رضى الله عنه ، ولفظه : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وقال ابن وهب : أخبرنى [١] ابن سُرَيج الإسكندرانى ، عن بعض المشيخة : أنهم كانوا بأرض الروم ، فبينما هم ليلة على نار يشتون [٢] عليها ـ أو : يصطلون ـ إذا بركاب[٣] قد أقبلوا ، فقاموا إليهم ، فإذا فضالة بن عبيد فيهم ، فأنزلوه فجلس معهم ـ قال : وصاحب لنا قائم يصلى ـ قال : حتى مرّ بهذه الآية : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ قال فضالة بن عبيد : هؤلاء الذين يخربون البيت .

وقيل : المراد بهم أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة فى كل ظالم ، كما قال ابن أبى حاتم : ذُكر عن زكريا بن يحيى الواسطى : حدثنى الهيثم بن محفوظ أبو سعد [٤] النهدى ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المجير [٥] ، حدثنا هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كتب أبى وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبى قُحَافة ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، وينتهى الفاجر ، ويَصدُق الكاذب : إنى استخلفت عليكم عُمَر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظنى به ، ورجائى فيه، وإن يَجُر ويبدل فلا أعلم الغيب ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

آخر تفسير سورة « الشعراء » والحمد لله رب العالمين

(١) فى ف ، أ : « حدثنا » .
(٢) فى أ : « يشوون » .
(٣) فى ف ، أ : « بركبان » .
(٤) فى ف ، أ : « أبو سعيد » .
(٥) فى أ : « الحبر » .

سورة الشعراء

مكيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾... إلى آخر السورة [الشعراء، ٢٦/٢٢٤-٢٢٧]، وهي مائتان وسبع وعشرون آيةً، وفي رواية ستّ وعشرون.[١]

/ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [٢١٧و]

﴿طسٓمٓ ①﴾

﴿طسٓمٓ﴾ بتفخيم الألف،[٢] وبإمالتها،[٣] وإظهار النون، وبإدغامها في الميم.[٤] وهو إمّا مسرود على نمط التعديد بطريق التحدّي على أحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة، فلا محلّ له مِن الإعراب، وإمّا اسم للسورة كما عليه إطباق الأكثر، فمحلّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، وهو أظهر مِن الرفع على الابتداء، وقد مرّ وجهه في مطلع سورة يونس عليه السلام، أو النصبُ بتقدير فعلٍ لائقٍ بالمقام، نحو: "اذكر" أو "اقرأ".

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ②﴾

و﴿تِلۡكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ إشارة إلى السورة سواء كان ﴿طسٓمٓ﴾ مسرودًا على نمط التعديد، أو اسمًا للسورة حسبما مرّ تحقيقه هناك.[٥] وما في اسم الإشارة مِن معنى البعد للتنبيه على بُعد مَنزلة المُشار إليه

---

١ م - سورة الشعراء، مكيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾... إلى آخر السورة [الشعراء، ٢٦/٢٢٤-٢٢٧]، وهي مائتان وسبع وعشرون آيةً، وفي رواية ستّ وعشرون.

٢ أي: بتفخيم ألف "طا" مع فتحها. وقرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحفص. النشر لابن الجزري، ٢/٧٠.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٧٠.

٤ قرأ حمزة وأبو جعفر بالإظهار، لكن أبو جعفر على أصله مِن السكت بين الحروف. وقرأ باقي القرّاء العشر بالإدغام. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/١٩.

٥ وفي هامش م: أي: في سورة يونس عليه السلام. «منه».

في الفخامة. ومحلّه الرفع على أنّه مبتدأ خبره ما بعده. وعلى[١] تقدير كون ﴿طسٓمٓ﴾ مبتدأً فهو مبتدأٌ ثانٍ، أو بدَل مِن الأوّل.

والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن، وبـ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ الظاهرُ إعجازه، على أنّه مِن "أَبانَ" بمعنى "بانَ"، أو المُبيِّنُ للأحكام الشرعيّة وما يتعلّق بها، أو الفاصلُ بين الحقّ والباطل. والمعنى: هي آيات مخصوصةٌ منه مُتَرجَمةٌ باسم مستقلّ. والمراد[٢] ببيان كونِها بعضًا منه وصفُها بما اشتهر به الكلّ مِن النعوت الفاضلة.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتل. وأصلُ "البَخْع" أن يبلغ بالذبح البِخاعَ، وهو عِرقٌ مستبطِن الفَقار، وذلك أقصى حدّ الذبح. وقُرئ: "بَاخِعُ نَفْسِكَ"[٣] على الإضافة، و"لعلّ" للإشفاق، أي: أَشفِق على نفسك أن تقتلها حسرةً على ما فاتك مِن إسلام قومك.

﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لعدم إيمانهم بذلك الكتاب المبين، أو خِيفةَ أن لا يؤمنوا به.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ﴾... إلخ استئناف مَسوق لتعليل ما يُفهم مِن الكلام مِن النهي عن التحسّر المذكور ببيان أنّ / إيمانهم ليس ممّا تعلّقت به مشيئة الله [٢١٧ظ] تعالى حَتمًا، فلا وجه للطمع فيه والتألّم مِن فواته. ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمونَ الجزاء، أعني: قوله تعالى: ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي: ملجئةً لهم إلى الإيمان قاسرة عليه، وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي: منقادين. وأصله: فظلّوا لها خاضعين، فأُقحِمت الأعناقُ لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع، وتُرِك الخبرُ على حاله.

---

١ س: أو على.

٢ ط س: والمقصود.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن علي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٢.

وقيل: لمّا وُصفت الأعناق بصفات العقلاء أُجريَت مُجراهم في الصيغة أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف، ٤/١٢]. وقيل: أُريدَ بها الرؤساء والجماعات، مِن قولهم: "جاءَنا عُنُق مِن الناس" أي: فوج منهم. وقُرِئ: "خَاضِعَةً".[١]

وقوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ﴾ معطوف[٢] على ﴿نُنَزِّلْ﴾ باعتبار محلّه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بيان لشدّة شَكيمتهم، وعدمِ ارعِوائهم عمّا كانوا عليه مِن الكفر والتكذيب بغير ما ذُكر مِن الآية المُلجِئة لصَرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الحرص على إسلامهم وقَطع رجائه عنه. و﴿مِن﴾ الأُولى مزيدة لتأكيد العموم، والثانية لابتداء الغاية مجازًا متعلّقةٌ بـ﴿يَأْتِيهِم﴾، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿ذِكْرٍ﴾. وأيًّا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرَفه وشَناعة ما فعلوا به.

والتعرّض لعنوان الرحمة لتغليظ شَناعتهم، وتهويل جنايتهم، فإنّ الإعراض عمّا يأتيهم مِن جنابه عزّ وجلّ على الإطلاق شَنيع قبيح، وعمّا يأتيهم بموجَب رحمته تعالى لمحض منفعتهم أشنع وأقبح، أي: ما يأتيهم مِن موعظة مِن المواعظ القرآنيّة، أو مِن طائفةٍ نازلة مِن القرآن تذكّرهم أكملَ تذكير، وتنبّههم عن الغفلة أتمّ تنبيه، كأنّها نفس الذِكر مِن جهته تعالى، بمقتضى رحمته الواسعة مجدَّدٍ تنزيله حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة، إلّا جدّدوا إعراضًا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء، وإصرارًا على ما كانوا عليه مِن الكفر والضلال.

والاستثناء / مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، محلّه النصب على الحاليّة مِن مفعول ﴿يَأْتِيهِم﴾ بإضمار "قد" أو بدونه على الخلاف المشهور، أي: ما يأتيهم مِن ذكر في حال مِن الأحوال إلّا حالَ كونهم معرضين عنه. [٢١٨و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٢.

٢ ط س: عطف.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⑥﴾

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي: كذّبوا بالذكر الذي يأتيهم تكذيبًا صريحًا مقارِنًا للاستهزاء به، ولم يكتفوا بالإعراض عنه، حيث جعلوه تارةً سِحرًا، وأخرى أساطيرَ، وأخرى شعرًا.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. و"السين" لتأكيد مضمون الجملة وتقريره، أي: فسيأتيهم البتّة مِن غير تخلّف أصلًا ﴿أَنْبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عدلٌ عمّا يقتضيه ظاهر ما سلف مِن الإعراض والتكذيب للإيذان بأنّهما كانا مقارِنين للاستهزاء كما أشيرَ إليه حسبما وقع في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم[1] مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام، ٦/٤-٥].

و"أنباؤه" ما سيحيق بهم مِن العقوبات العاجلة والآجلة، عُبّر عنها بذلك إمّا لكونها ممّا أنبأ بها القرآن الكريم، وإمّا لأنّهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن، كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء. وفيه تهويل له لأنّ النبأَ لا يطلق إلّا على خبرٍ خَطِرٍ[2] له وقع عظيمٌ، أي: فسيأتيهم لا محالةَ مِصداق ما كانوا[3] يستهزئون به قبلُ مِن غير[4] أن يتدبّروا في أحواله ويقفوا عليها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ "الهمزة" للإنكار التوبيخي، و"الواو" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أَفعلوا ما فعلوا مِن الإعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إلى عجائبها الزاجرة عمّا فعلوا، الداعيةِ إلى الإقبال على ما أعرضوا عنه وإلى الإيمان به.

وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ استئناف مبيّن لِما في الأرض مِن الآيات الزاجرة / عن الكفر الداعية إلى الإيمان. و﴿كَمْ﴾ خبريّة [٢١٨ظ]

---

١ م: يأتيهم.
٢ ط س: خطير.
٣ س + به.
٤ س: عير.

منصوبة بما بعدها على المفعوليّة، والجمعُ بينها وبين ﴿كُلِّ﴾ لإفادة الإحاطة والكثرة معًا، و﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صِنفٍ؛ تمييزٌ، و"الكريم" مِن كلّ شيء مَرضيُّه ومحمودُه، أي: كثيرًا مِن كلّ صِنف مرضيٍّ كثيرِ المنافع أنبتنا فيها. وتخصيصُ إنباته بالذكر دون ما عداه مِن الأصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معًا.

ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعِها وضارِّها، ويكونَ وصف الكلّ بالكرَم للتنبيه على أنّه تعالى ما أنبت شيئًا إلّا وفيه فائدة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢٩/٢]، فإنّ الحكيم لا يكاد يفعل فعلًا إلّا وفيه حكمة بالغة وإن غفل عنها الغافلون، ولم يتوصّل إلى معرفة كُنهها العاقلون.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿أَنۢبَتْنَا﴾، أو إلى كلّ واحد مِن تلك الأزواج، وأيًا ما كان فما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلته في الفضل. ﴿لَـَٔايَةً﴾ أي: آيةً عظيمةً دالّة على كمال قدرة مُنبتها، وغايةِ وُفور علمه وحِكمته، ونهايةِ سَعةِ رحمته موجبةً للإيمان وازِعة عن الكفر.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثرُ قومه عليه السلام ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل: أي: في علم الله تعالى وقضائه، حيث علِم أزلًا أنّهم سيُصرفون فيما لا يزال اختيارهم الذي عليه يدور أمر التكليف إلى جانب الشرّ، ولا يتدبّرون في هذه الآيات العظام.

وقال سيبويه: «﴿كَانَ﴾ صلة،[١] والمعنى: وما أكثرهم مؤمنين»،[٢] وهو الأنسب بمقام بيان عتوّهم وغلوّهم في المكابرة والعناد مع تعاضد موجِبات الإيمان مِن جهته تعالى. / وأمّا نسبة كفرهم إلى علمه تعالى وقضائه فربّما يُتوهّم منها [٢١٩و]
كونُهم معذورين فيه بحسب الظاهر؛ لأنّ ما أشيرَ إليه مِن التحقيق ممّا خفي على مَهرة العلماء المتقنين، كأنّه قيل: إنّ في ذلك لآية باهرةً موجِبةً للإيمان،

---

[١] وفي هامش م: أي: زائدة. «منه».

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٩/٧؛ اللباب لابن عادل، ٧/١٥.

وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك، لِغاية تماديهم في الكفر والضلالة، وانهماكِهم في الغَيّ والجهالة. ونسبةُ عدم الإيمان إلى أكثرهم لأنّ منهم مَن سيؤمن.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالبُ على كلّ ما يريده مِن الأمور التي مِن جملتها الانتقام مِن هؤلاء، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالِغ في الرحمة، ولذلك يُمهلهم ولا يؤاخذهم بغتةً بما اجترءوا عليه مِن العظائم الموجِبة لفنون العقوبات. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه والعِدَة الخفيّة بالانتقام مِن الكفرة ما لا يخفى.

﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾

﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما قبله مِن إعراضهم عن كلّ ما يأتيهم مِن الآيات التنزيليّة، وتكذيبِهم بها إثرَ بيان إعراضهم عمّا يشاهدونه مِن الآيات التكوينيّة.

و﴿إِذۡ﴾ منصوب على المفعوليّة بمُضمَر خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[1] أي: واذكر لأولئك المعرضين المكذّبين وقتَ ندائه تعالى إيّاه عليه السلام، وذكّرهم بما جرى على قوم فرعونَ بسبب تكذيبهم إيّاه زجرًا لهم عمّا هم عليه مِن التكذيب، وتحذيرًا مِن أن يَحيق بهم مثلُ ما حاق بأضرابهم المكذّبين الظالمين حتّى يتّضح لك أنّهم لا يؤمنون بما يأتيهم مِن الآيات، لكن لا بقياس[2] حال هؤلاء بحال أولئك فقط؛ بل بمشاهدة إصرارهم على ما هم عليه بعد سماع الوحي الناطق بقصّتهم، وعدمِ اتّعاظهم بذلك، كما يلوّح به تكريرُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ / وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ عقيب كلّ قصّةٍ. [٢١٩ظ]

وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ سرّه مرارًا.

---

[1] س: عليه السلام.

[2] وفي هامش م: يقال: قاسَه به، وعليه. «منه».

﴿أَنِ ٱئْتِ﴾ بمعنى: أي ائتِ، على أنّ ﴿أن﴾ مفسِّرة، أو بأنِ ائتِ، على أنّها مصدريّة حُذِف عنها الجارّ. ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: بالكفر واستعباد بني إسرائيل وذبحِ أبنائهم. وليس هذا مَطلعَ ما ورد في حيّز النداء، وإنّما هو ما فُصِّل في سورة طه مِن قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه، ٢٠/١٢-٢٣].

وإيراد ما جرى في قصّة واحدة مِن المقالات بعبارات شتّى وأساليبَ مختلفة قد مرّ تحقيقه في أوائل سورة الأعراف عند قوله تعالى:[١] ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ﴾ [الأعراف، ٧/١٤].

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ مِن الأوّل، أو عطفُ بيان له، جيء به للإيذان بأنّهم عَلَمٌ في الظلم، كأنّ معنى ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٢] وترجَمتَه: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾. والاقتصار على ذكر قومه للإيذان بشهرة أنّ نفسه أوّلُ داخلٍ في الحكم.

﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استئناف جيء به إثرَ إرساله عليه السلام إليهم للإنذار تعجيبًا مِن غُلوّهم في الظلم وإفراطهم في العدوان. وقُرئ بتاء الخطاب[٣] على طريقة الالتفات المُنبئ عن زيادة الغضب عليهم، كأنّ ذكرَ ظلمهم أدّى إلى مشافهتهم بذلك، وهم وإن كانوا حينئذ غُيّبًا لكنّهم قد أُجروا مُجرى الحاضرين في كلام المرسَل إليهم مِن حيث إنّه مبلّغه إليهم، وإسماعَه مَبدأ إسماعهم، مع ما فيه مِن مزيد الحثّ على التقوى لِمَن تدبّر وتأمّل.

وقُرئ بكسر النون[٤] اكتفاءً به عن ياء المتكلّم، وقد جُوّز أن يكون بمعنى "ألا يا ناسُ اتّقونِ"، نحو: "أَلَا يَا اسْجُدُوا".[٥]

---

١ س – تعالى.

٢ في الآية السابقة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسلم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٣.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٠١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٣٤.

٥ في قراءة الكسائي وأبي جعفر ورُويس في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ [النمل، ٢٧/٢٥]، حيث قرءوا بتخفيف اللام، ووقفوا في الابتداء "ألا يا"، وابتدءوا "أُسْجُدُوا" بهمزة مضمومة على الأمر، على معنى: ألا يا هؤلاء، أو يا أيها الناس اسجدوا، فحُذفت همزة الوصل بعد "يا" وقبل السين مِن الخطّ على مراد الوصل دون الفصل. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٧.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية ما مضى، كأنّه قيل: فماذا قال موسى عليه السلام؟ فقيل: قال متضرّعًا إلى الله تعالى:[١] ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ مِن أوّل / الأمر. [٢٢٠و]

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣﴾

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ معطوفان على ﴿أَخَافُ﴾.[٢] ﴿فَأَرْسِلْ﴾ أي: جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ ليكون معي، وأتعاضدَ به في تبليغ الرسالة.

رتّب عليه السلام استدعاءَه ذلك على الأمور الثلاثة: خوفِ التكذيب، وضيقِ الصدر، وازديادِ ما كان فيه عليه السلام مِن حَبسة اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق؛ لأنّها إذا اجتمعت تمسّ الحاجة إلى مُعِين يقوّي قلبَه وينوب مَنابَه إذا اعتراه حَبسة، حتّى لا يختلّ دعوته، ولا ينقطع حجّته. وليس هذا مِن التعلّل والتوقّف في تلقّي الأمر في شيء، وإنّما هو استدعاء لِما يُعِينه على الامتثال به، وتمهيدِ عذرٍ فيه.

وقُرئ: "وَيَضِيقَ"، "وَلَا يَنْطَلِقَ" بالنصب[٣] عطفًا على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾،[٤] فيكونان مِن جملة ما يَخاف منه.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ أي: تَبِعةُ ذنبٍ، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، أو سُمّي باسمه. والمراد به قتل القبطي، وتسميته ذنبًا بحسب زعمِهم، كما ينبئ عنه قوله تعالى:[٥] ﴿لَهُمْ﴾. وهذا إشارة إلى قصّة مبسوطة في غير موضع.[٦]

﴿فَأَخَافُ﴾ أي: إن أتيتهم وَحدي ﴿أَن يَقْتُلُونِ﴾ بمقابلته، قبل أداء الرسالة كما ينبغي. وليس هذا أيضًا تعلّلًا، وإنّما هو استدفاع للبليّة المتوقّعة قبل وقوعها.

---

١ س: عزّ وجلّ.
٢ في الآية السابقة.
٣ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.
٤ في الآية السابقة.
٥ س - تعالى.
٦ انظر على سبيل المثال: القصص، ٢٨/١٥.

﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ۝١٥﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَا﴾ حكاية لإجابته تعالى إلى الطِّلبتين: الدفعِ المفهوم مِن الردع عن الخوف، وضمّ أخيه المفهومِ مِن توجيه الخطاب إليهما بطريق التغليب، فإنّه معطوف على مُضمَر يُنبئ عنه الردع، كأنّه قيل: ارتدع يا موسى عمّا تظنّ، فاذهب / أنت ومَن استدعيتَه. [٢٢٠ظ]

وفي قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ رمز إلى أنّها تَدفع ما يخافه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ تعليل للردع عن الخوف، ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه، ٤٦/٢٠]. وحيث كان الموعود بمَحضرٍ مِن فرعونَ اعتُبر ههنا في المعيّة. وقيل: أُجريا مُجرى الجماعة،[1] ويأباه ما قبله وما بعده مِن ضمير التثنية.

أي: سامعون ما[2] يجري بينكما وبينه فنُظهِركما عليه. مُثِّل حاله تعالى بحال ذي شوكة قد حضر مجادلةَ قوم يستمع ما يجري بينهم، ليُمِدَّ أولياءَه ويظهرهم على أعدائهم مبالغةً في الوعدِ بالإعانة، أو استُعيرَ الاستماع الذي هو بمعنى الإصغاء للسمع الذي هو العلمُ بالحروف والأصوات. وهو خبر ثانٍ، أو خبرٌ وحدَه، و﴿مَعَكُم﴾ ظرف لغوٌ.

﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن الوعد الكريم. وليس هذا مُجرّدَ تأكيدٍ للأمر بالذهاب؛ لأنّ معناه الوصول إلى المأتيّ، لا مجرّدُ التوجّه إليه كالذهاب. وإفرادُ "الرسول" إمّا باعتبار رسالة كلّ منهما، أو لاتّحاد مطلبهما، أو لأنّه مصدر وُصِفَ به.

---

[1] انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٣٥١/٣؛ واللباب لابن عادل، ١٢/١٥.

[2] ط س: بما.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾

و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مفسِّرة لتضمّن الإرسال المفهوم مِن "الرسول" معنى القول. ومعنى إرسالِهم تخليتُهم وشأنَهم ليذهبوا معهما إلى الشام.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون لموسى عليه السلام بعد ما أتياه وقالا له ما أُمِرَا به.

يُروى أنّهما انطلقا إلى باب فرعون، فلم يُؤذن لهما سنةً، حتّى قال البوّاب: إنّ ههنا إنسانًا يزعمُ أنّه رسول ربّ العالمين، فقال: ائذَنْ له لعلّنا نضحكُ، فأدّيا إليه الرسالة، فعرف موسى عليه السلام،[١] / فقال عند ذلك: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ في [٢٢١و] حَجرِنا ومنازلنا ﴿وَلِيدًا﴾ أي: طفلًا. عُبّر عنه بذلك لقُرب عهده بالولادة.

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل: لبِثَ فيهم ثلاثين سنةً، ثمّ خرج إلى مدين، وأقام به عشر سنين، ثمّ عاد إليهم يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ ثلاثين سنةً، ثمّ بقي بعد الغرق خمسين.[٢] وقيل: وكَز القبطي وهو ابن ثنتي عشرة سنةً، وفرّ منهم على إثر ذلك،[٣] والله تعالى[٤] أعلم.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتلَ القبطي. بعد ما عدّد عليه نعمته مِن تربيته وتبليغه مبلغَ الرجال وَبّخه بما جرى عليه مِن قتل خبّازه، وعظّم ذلك وفظّعه. وقُرئ: "فِعْلَتَكَ" بكسر الفاء؛[٥] لأنّها كانت نوعًا مِن القتل.

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: بنعمتي حيث عمَدتَ إلى قتل رجلٍ مِن خواصّي، أو أنت حينئذ ممّن تُكفّرهم الآن. وقد افترى عليه عليه السلام، أو جَهِل أمرَه عليه السلام

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٣.
[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٥/٤.
[٣] الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٣.
[٤] س - تعالى.
[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الشعبي. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٤٦/٨.

حيث كان يعايشهم بالتقيّة، وإلّا فأين هو عليه السلام مِن مشاركتهم في الدين، فالجملة حينئذ حال مِن إحدى التاءين، ويجوزُ أن يكون حكمًا مبتدأً عليه بأنّه مِن الكافرين بإلهيّته، أو ممّن يُكفِّرون في دينهم، حيث كانت لهم آلهة يعبدونهم، أو مِن الكافرين بالنِّعم المعتادين لِغَمطها، ومَن اعتادَ ذلك لا يكون مثلُ هذه الجناية بِدْعًا منه.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾

﴿قَالَ﴾ مُجيبًا له مصدّقًا له في القتل، ومكذّبًا فيما نسبه إليه مِن الكفر: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: مِن الجاهلين، وقد قُرئ كذلك،[١] لا مِن الكافرين كما زعمتَ افتراءً، أي: مِن الفاعلين فِعلَ الجهَلة والسفهاء، أو مِن المُخطئين؛ لأنّه لم يتعمّد قتلَه؛ بل أراد تأديبَه، أو الذاهبين عمّا يؤدّي إليه الوَكْز، أو الناسين كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ / إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة، ٢٨٢/٢]. [٢٢١ظ]

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ إلى ربّي ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تصيبوني بمضرّة، وتؤاخذوني بما لا أستحقّه بجِنايتي مِن العقاب، ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أي: حِكمةً، أو نبوّةً،[٢] ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ردَّ أوّلًا بذلك ما وَبّخه به قَدْحًا في نبوّته، ثمّ كَرّ على ما عدّه عليه مِن النعمة، ولم يصرّح بردّه حيث كان صِدقًا غيرَ قادح في دعواه؛ بل نبّه على أنّ ذلك كان في الحقيقةِ نِقمة، فقال:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: تلك التربية نعمة تَمُنّ بها عليّ ظاهرًا، وهي في الحقيقة تعبيدك بني إسرائيل، وقصدك إيّاهم بذبح أبنائهم، فإنّه السبب في وقوعي عندك، وحصولي في تربيتك.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٣.

[٢] وفي هامش م: مقاتل.

وقيل: إنّه مقدّر بهمزة الإنكار، أي: أوَتلك نعمة تمنّها عليّ، وهي أن عبَّدت بني إسرائيل؟ ومحلّ ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أو بدل مِن ﴿نِعْمَةٌ﴾، أو الجرُّ بإضمار "الباء"، أو النصبُ بحذفها.

وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى خَصلة شنعاء مبهمة، و﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ عطف بيان لها، والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمةٌ تَمُنّها عليّ. وتوحيد الخطاب في ﴿تَمُنُّهَا﴾ وجمعُه فيما قبله؛ لأنّ المِنّة منه خاصّة، والخوفَ والفرارَ منه ومِن مَلَئه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لمّا سمع منه عليه السلام تلك المقالة المتينة وشاهد تَصلّبه في أمره وعدمَ تأثّره بما قدّمه مِن الإبراق والإرعاد شرَع في الاعتراض على دعواه عليه السلام فبدأ بالاستفسار عن المرسِل فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حكايةً لِما وقع في عبارته عليه السلام، أي: أيُّ شيء ربّ العالمين الذي تدّعي[١]
[٢٢٢و] أنّك رسوله منكِرًا لِأن يكون للعالمين / ربٌّ سواه حسبما يُعرِب عنه قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات، ٧٩/٢٤]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص، ٢٨/٣٨]، وينطق به وعيده عند تمام أجوبته عليه السلام.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام مجيبًا له: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بتعيين ما أراد بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] وتفصيلِه لزيادة التحقيق والتقرير، وحَسمِ مادّة تزوير اللعين وتشكيكِه بحمل "العالَمين" على ما تحت مملكته.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم موقنين بالأشياء محقّقين لها علمتم ذلك، أو إن كنتم موقنين بشيء مِن الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره وإنارة دليله.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون عند سماع جوابه عليه السلام خوفًا مِن تأثيره في قلوب

---

١ ط س: ادّعيت.

٢ في الآية السابقة.

قومه وإذعانهم له ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ مِن أشراف قومه. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كانوا[١] خمسمائة عليهم الأساور، وكانت للملوك خاصّةً».[٢]

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ مرائيًا لهم أنّ ما سمعوه مِن جوابه عليه السلام مع كونه ممّا لا يليق بأن يُعتدّ به أمرٌ حقيق بأن يُتعجّبَ منه، كأنّه قال: ألا تستمعون ما يقوله؟ فاستمعوه وتعجّبوا منه حيث يدّعي خلاف أمرٍ محقَّق لا اشتباه فيه، يريد به ربوبيّة نفسه.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ٢٦﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام تصريحًا بما كان مندرجًا تحت جوابيه السابقين: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وحَطًّا له مِن ادّعاء الربوبيّة إلى مَرتبة المَربوبيّة.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ٢٧﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون، لمّا واجهه موسى عليه السلام بما ذُكر غاظَه ذلك وخاف مِن تأثّر قومه منه، فأراهم أنّ ما قاله عليه السلام ممّا لا يصدر عن العقلاء صدًّا لهم عن قَبوله، فقال مؤكّدًا لِمقالته الشنعاء بحرفَي التأكيد: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ لِيفتِنهم بذلك ويَصرِفهم عن قَبول الحقّ. وسمّاه "رسولًا" بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطَبيه ترفعًا مِن أن يكون مرسَلًا إلى نفسه.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ٢٨﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قاله عليه السلام تكميلًا لجوابه الأوّل / وتفسيرًا له، وتنبيهًا على جهلهم، وعدمِ فهمهم لمعنى [٢٢٢ظ] مقالته، فإنّ بيان ربوبيّته تعالى للسماوات والأرض وما بينهما وإن كان متضمّنًا لبيان ربوبيّته تعالى للخافقين وما بينهما، لكن لمّا لم يكن فيه تصريح باستناد

---

١ ط س: وكانوا.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٠٨؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/١٥٠.

حركات السماوات وما فيها وتغيّرات أحوالها وأوضاعها وكونِ الأرض تارةً مظلمة وأخرى منوَّرةً إلى الله تعالى، أرشدهم إلى طريق معرفة ربوبيّته تعالى لِما ذُكر، فإنّ ذكر ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مُنبئ عن شروق الشمس وغروبها المَنوطَين بحركات السماوات وما فيها على نمطٍ بديع يترتّب عليه هذه الأوضاع الرصينة، وكلُّ ذلك أمور حادثة مفتقِرة إلى مُحدِث قادر عليم حكيم، لا كذَوات السماوات والأرض التي ربّما يَتوهّم جهلة المتوهّمين باستمرارها استغناءَها عن الموجد المتصرّف.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن كنتم تعقلون شيئًا مِن الأشياء، أو إن كنتم مِن أهل العقل علمتم أنّ الأمر كما قلته. وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر بحيث لا يشتبه على مَن له عَقل في الجملة، وتلويح بأنّهم بمَعزِل مِن دائرة العقل، وأنّهم المتّصفون بما رمَوه به عليه السلام[1] مِن الجنون.

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩﴾

﴿قَالَ﴾ لمّا سمع اللعينُ منه عليه السلام هذه[2] المقالاتِ المبنيّة على أساس الحِكَمِ البالغة، وشاهَدَ شدّة حزمه وقوّةَ عزمه على تمشية أمره، وأنّه ممّن لا يجارَى في حَلْبة[3] المحاورة، ضرَبَ صَفْحًا عن المقاولة بالإنصاف، ونَأَى بجانبه إلى عُدوة الجَور والاعتساف، فقال مُظهِرًا لِما كان يُضمره عند السؤال والجواب: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ لم يقتنع منه عليه السلام بترك دعوى الرسالة وعدمِ التعرّض له حتّى كلّفه عليه السلام أن يتّخذه إلهًا لغاية عتوّه وغلوّه فيما فيه مِن دعوى الألوهيّة، وهذا صريح في أنّ تعجّبه وتعجيبه مِن الجواب الأوّل ونسبتَه عليه السلام إلى الجنون في الجواب الثاني كان لنسبته عليه السلام الربوبيّة إلى غيره.

وأمّا ما قيل مِن أنّ سؤاله كان عن حقيقة المرسِل، وتعجّبَه مِن جوابه كان لعدم مطابقته له / لكونه يذكر أحواله،[4] فلا يساعده النظم الكريم، ولا حالُ فرعونَ ولا مقالُه. [٢٢٣و]

---

[1] ط س + به.

[2] م ط س: تلك ["صح" في هامش م].

[3] س: حلبه.

[4] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٦/٤.

واللام في ﴿ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ للعهد، أي: لأجعلنّك ممّن عرفت أحوالهم في سجوني، حيث كان يطرحهم في هُوّة عميقة حتّى يموتوا، ولذلك لم يقل: لَأسجُننك.

﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ۝٣٠﴾

﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ أي: أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين، أي: موضِح لصِدق دعواي؟ يريد به المعجزة، فإنّها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحِكمته وبين الدلالة على صدق دعوى مَن ظهرت على يده. والتعبير عنها بـ"الشيء" للتهويل.

قالوا: "الواو" في ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ﴾ للحال، دخلت عليها همزة الاستفهام، أي: جائيًا بشيء مبين،[١] وقد سلف منّا مرارًا أنّها للعطف، وأنّ كلمة "لو" ليست لانتفاء الشيء في الزمان الماضي لانتفاء غيره فيه، فلا يلاحظُ له جواب قد حُذف تعويلًا على دلالة ما قبلها عليه ملاحظةً قصديّة إلّا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعيّة؛ بل هي لبيان تحقّق ما يفيده الكلام السابق مِن الحُكم الموجَب أو المنفيّ على كلّ حال مفروضٍ مِن الأحوال المقارِنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدِّها منافاةً له، ليَظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوتُه أو انتفاؤه مع ما عداه مِن الأحوال بطريق الأولويّة، لِما أنّ الشيء متى تحقّق مع المنافي القويّ، فلَأن يتحقّق مع غيره أولى، ولذلك لا يُذكر معه شيء مِن سائر الأحوال، ويُكتَفى عنه بذكر العاطف للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملةِ لجميع الأحوال المغايرةِ لها عند تعدّدها؛ ليظهر ما ذُكر مِن تحقّق الحُكم على جميع الأحوال.

فإنّك إذا قلت: "فلان جواد يعطي ولو كان فقيرًا" تريد بيان تحقّق الإعطاء منه على كلّ حال مِن أحواله المفروضة، فتُعلِّق الحكمَ بأبعدها منه ليَظهر بتحقّقه معه تحقّقُه مع ما عداه مِن الأحوال التي لا منافاةَ بينها وبين الحُكم

---

[١] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ مِن سورة البقرة [البقرة، ٢/١٧٠]، وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ مِن سورة الأعراف [الأعراف، ٧/٨٨]، وفي غيرهما مِن المواقع. «منه».

بطريق الأولويّة المصحِّحة للاكتفاء بذكر العاطف عن تفصيلها، كأنّك قلت: "فلان جواد يعطي لو لم يكن فقيرًا ولو كان فقيرًا"، أي: يعطي حالَ كونه غنيًّا وحالَ كونه فقيرًا، فالحال في الحقيقة كلتا الجملتين المتعاطفتين، لا المذكورةُ على أنّ الواو للحال.

وتصدير المجيء بما ذُكر مِن[1] كلمة[2] "لو" دون "إن" ليس لبيان استبعاده في نفسه؛ بل بالنسبة إلى فرعون. والمعنى: أتفعل بي ذلك حال عدم مَجيئي [٢٢٣ظ] / بشيء مبين، وحالَ مجيئي به؟

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢﴾

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فيما يدلّ عليه كلامك مِن أنّك تأتي بشيء مبين موضّح لصِدق دعواك، أو في دعوى الرسالة. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهرٌ ثعبانيتُه، لا أنّه شيء يشبهه. واشتقاق "الثعبان" مِن "ثَعَبْتُ الماءَ فَانْثَعَب"، أي: فجّرتُه فانفجر، وقد مرّ بيان كيفيّة الحال في سورة الأعراف[3] وسورة طه.[4]

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣﴾

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ مِن جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ قيل: لمّا رأى فرعون الآية الأولى قال: «هل لكَ غيرها؟» فأخرج يده، فقال: «ما هذه؟» قال فرعون: «يدُك، فما فيها؟» فأدخلها في إبطه ثمّ نزعها ولها شعاع يكاد يُغشي الأبصار ويسدّ الأفق.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ أي: مستقرّين حوله، فهو ظرف وقع موقع الحال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائقٌ في فنّ السحر.

---

١ ط س - مِن.
٢ ط س: بكلمة.
٣ الأعراف، ٧/١٠٧.
٤ طه، ٢٠/٢٠.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥﴾

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ قَسْرًا ﴿مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بَهَرَه سلطان المعجزة، وحيّره حَتّى حطّه عن ذروة ادّعاء الربوبيّة إلى حضيض الخضوع لعبيده في زعمه، والامتثال بأمرهم، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعدما كان مستقلًا في الرأي والتدبير، وأظهر استشعار الخوف مِن استيلائه على مُلكه ونسبةَ الإخراج والأرض إليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦﴾

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أخِّر أمرهما، وقيل: احبسهما ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي: شُرَطًا[1] يَحشرون السحرة.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧﴾

﴿يَأْتُوكَ﴾ أي: الحاشرون ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فائق في فنّ السحر. وقُرئ: "بِكُلِّ سَاحِرٍ".[2]

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ هو ما عيّنه موسى عليه السلام بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه، ٥٩/٢٠].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ قيل لهم ذلك استبطاءً لهم في الاجتماع، وحثًا لهم على المبادرة إليه.

/ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي: نتّبعهم في دينهم إن كانوا هم الغالِبين، لا موسى عليه السلام،[3] وليس مرادهم بذلك أن يتّبعوا دينهم حقيقة، [٢٢٤و]

---

١ وفي هامش م: جمع شُرْطة، وهم عمّال الولاة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وعاصم. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٥٤/٨.

٣ م – عليه السلام.

وإنّما هو أن لا يتّبعوا موسى عليه السلام، لكنّهم ساقوا كلامهم مَساق الكناية حملًا لهم على الاهتمام والجِدّ في المغالبة.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: أجرًا عظيمًا ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لا موسى عليه السلام.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم ذلك، ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك ﴿إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي. قيل: قال لهم: تكونون أوّلَ مَن يدخل عليّ، وآخرَ مَن يخرج عنّي. وقُرئ: "نَعِمْ" بكسر العين[1] وهما لغتان.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ أي: بعدما قال له السحرة: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٦٥]. ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ ولم يُرِد به الأمر بالسحر والتمويه؛ بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه البتّة توسّلًا به إلى إظهار الحقّ وإبطال الباطل.

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ﴾ أي: وقد قالوا عند الإلقاء: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ قالوا ذلك لفَرْط اعتقادهم في أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به مِن السحر.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ أي: تَبتلعُ بسرعة. وقُرئ: "تَلَقَّفُ"[2] بحذف إحدى التاءين مِن "تَتَلقّفُ" ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما يَقلبونه مِن[3] وجهه وصورته

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

٢ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧١.

٣ ط س: عن.

بتمويههم وتزويرهم، فيُخيِّلون حبالهم وعصيّهم أنّها حيّات تسعى، أو إفكَهم، تسميةً للمأفوك به مبالغةً.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ أي: إثرَ ما شاهدوا ذلك مِن غير تَلعثُمٍ وتردّدٍ غيرَ متمالِكين، كأنّ مُلقِيًا ألقاهم، لعلمهم بأنّ مثل ذلك خارج عن حدود السحر، وأنّه أمر إلهي قد ظهر على يده عليه السلام لتصديقه. وفيه دليل على أنّ قُصارى ما ينتهي إليه هِمَم السحرة هو التمويه والتزوير وتخييلُ شيء لا حقيقةَ له.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بدل اشتمال، مِن "أُلقِي"، أو حال بإضمار "قد".

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بدل مِن ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للتوضيح ودفع توهّم إرادة فرعونَ حيث كان قومه الجهلة يسمّونه بذلك، وللإشعار بأنّ الموجِب لإيمانهم به تعالى ما أجراه على أيديهما مِن المعجزة القاهرة.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: بغير أن آذن لكم -في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨]- لا أنّ الإذن منه ممكن أو متوقَّع. ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم، أو علّمكم شيئًا دون شيء، فلذلك غلبكم. أراد بذلك التلبيس على قومه كيلا يعتقدوا أنّهم آمنوا عن بصيرة وظهورِ حقٍّ. وقُرئ: "أَآمَنْتُمْ" بهمزتين.[1]

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وبالَ ما فعلتم. وقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بيانٌ لِما أوعدهم به.

---

[1] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص ورويس وورش مِن طريق الأصبهاني، وهم في الهمزة الثانية على أصولهم في التسهيل والتحقيق، فقرأها بالتسهيل قالون وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وابن ذكوان وهشام بخلف عنه وورش مِن طريق الأزرق، وحقّقها الباقون، وقرأ قنبل في حالة الوصل بإبدال الهمزة الأولى واوًا، واختُلف عنه في تسهيل الهمزة الثانية. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٨/١.

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠﴾

﴿قَالُوا۟﴾ أي: السحرة: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر فيه علينا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ / تعليل لعدم الضير، أي: لا ضيرَ في ذلك؛ بل لنا فيه نفع عظيم، [٢٢٤ظ]
لِما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله تعالى مِن تكفير الخطايا والثواب العظيم، أو لا ضيرَ علينا فيما تتوعّدنا به مِن القتل، إنّه لا بدّ لنا مِن الانقلاب إلى ربّنا بسببٍ مِن أسباب الموت، والقتلُ أهونُها وأرجاها.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ﴾ أي: لِأَن كنّا ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مِن أتباع فرعون، أو مِن أهل المَشهَد. تعليل ثانٍ لنفي الضير، أي: لا ضيرَ علينا في قتلك، إنّا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا لكوننا أوّلَ المؤمنين. وقُرئ: "إنْ كُنَّا"[١] على الشرط لِهضم النفس، وعدمِ الثقة بالخاتمة، أو على طريقة قول المُدِلّ بأمره، كقول العامل لمستأجِرٍ أخَّر أجرته: "إن كنتُ عملتُ لك فوفّني حقّي".

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ وذلك بعد بِضع سنين أقام بين أظهُرِهم يدعوهم إلى الحقّ، ويُظهِر لهم الآيات، فلم يزيدوا إلّا عُتوًّا وعِنادًا، حسبما فصّل في سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ الآيات [الأعراف، ١٣٠/٧]. وقُرئ بكسر النون ووصل الألِف،[٢] مِن "سَرَى"،[٣] وقُرئ: "أَنْ[٤] سِرْ" مِن "السَّير".[٥]

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ تعليل للأمر بالإسراء، أي: يتّبعكم فرعونُ وجنوده مصبحين،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٤.
٢ أي: "أَنِ اسْرِ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.
٣ ط س: السَّير.
٤ ط س - أن.
٥ ط س - مِن "السَّير".

فأَسْرِ بمَن معك حتّى لا يُدرِكوكم قبل الوصول إلى البحر، فيدخلوا مَداخِلكم، فأُطبِقَه عليهم فأُغرِقَهم.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أُخبِر بمسيرهم ﴿فِى الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ جامعين للعساكرِ ليتّبعوهم.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يريد بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ استقلّهم -وهم ستُّمائة ألفٍ وسبعون ألفًا- بالنسبة إلى جنوده، إذ رُوي أنّه أرسلَ في أثَرهم ألفَ ألفٍ وخمسَمائةِ مَلِكٍ مُسَوَّرٍ،[1] مع كلّ مَلِكٍ ألفٌ، وخرَج فرعونُ في جمع عظيم، وكانت مقدِّمته سبعَمائة ألفِ رجلٍ على حصان، وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى[2] عنهما خرج فرعونُ في ألفِ ألفِ حِصان سوى الإناث.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾

/ ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: فَاعلون ما يَغيظُنا. [٢٢٥و]

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ يريد أنّهم لقِلَّتهم لا يُبالَى بهم، ولا يُتوقّع غلبتهم وعلوّهم، ولكنّهم يفعلون أفعالًا تُغيظنا، وتضيّق صدورَنا، ونحن قوم مِن عادتنا التيقّظ والحذَر واستعمالُ الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى إطفاء ثائرة فساده، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلّا يُظَنّ به ما يكسِر مِن قهره وسلطانه.

وقُرئ: "حَذِرُونَ"،[3] فالأوّل دالّ على التجدّد، والثاني على الثبات. وقيل: "الحاذِر" المُؤدِّي في السلاح. وقُرئ: "حَادِرُونَ" بالدال المُهملة،[4] أي: أقوياء وأشدّاء. وقيل: مدجَّجون في السلاح، قد كسبهم ذلك حَدارةً في أجسامهم.

---

١ وفي هامش م: مِن السوار. «منه».

٢ ط س - تعالى.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وهشام بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد بن قيس عن أبي عمارة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٤.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ بأن خلقنا فيهم داعيةَ الخروج بهذا السبب فحملَتْهم عليه ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ كانت لهم جملة ذلك.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إمّا مصدر تشبيهي لـ"أخرَجْنا"، أي: مِثل ذلك الإخراج العجيب أخرجناهم، أو صفة لـ﴿مَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، أي: مِن مقام كريم، كائنٍ كذلك، أو خبر لمبتدإٍ محذوف، أي: الأمر كذلك.

﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: ملّكناها إيّاهم على طريقة تمليك مال المورِّث للوارث، كأنّهم مَلَكوها مِن حين خروج أربابها منها قبل أن يَقبضوها ويتسلّموها.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾

﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ أي: فلَحِقوهم. وقُرئ: "فاتَّبَعُوهُمْ"[١] ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شُروق الشمس، أي: طلوعها.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ تقارَبا بحيث رأى كلّ واحدٍ منهما الآخَر. وقُرئ: "تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ".[٢] ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ جاءوا بالجملة الاسميّة مؤكَّدة بحرفَي التأكيد للدلالة على تحقّق الإدراك واللحاق وتَنجّزهما. وقُرئ: "لَمُدَّرِكُونَ" بتشديد الدال،[٣] مِن "ادَّرَكَ الشَّيْءَ" إذا تتابعَ ففَني، أي: لَمُتَتابِعُون في الهلاك على أيديهم.

﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعمرو بن عبيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٤.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٦/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٠/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وعبيد بن عمير. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ١٦٠/٨.

﴿قَالَ كَلَّآ﴾ ارتدِعوا عن ذلك، فإنّهم لا يُدركونكم، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالنصرة والهداية ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ البتّةَ إلى طريق النجاة منهم بالكلّيّة. رُوي أنّ يوشع عليه السلام / قال: «يا كليم الله، أين أُمِرتَ، فقد غشِيَنا فرعونُ والبحرُ أمامَنا؟» قال عليه السلام: «ههنا»، فخاض يوشَع الماءَ، وضرَب موسى عليه السلام بعصاه البحر، فكان ما كان.[١] [٢٢٥ظ]

ورُوي أنّ مؤمنًا مِن آل فرعونَ كان بين يدَي موسى عليه السلام، فقال: «أين أُمرتَ، فهذا البحر أمامك، وقد غشيك آل فرعونَ؟» قال عليه السلام:[٢] «أُمِرتُ بالبحر، ولعلّي أُومَر بما أصنع»، فأُمِر بما أُمِر به.[٣]

وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ القلزم أو النيل، ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ الفاء فصيحة، أي: فضرَب فانفلَق، فصارَ اثني عشر مَسلكًا[٤] بعدَد الأسباط،[٥] ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ﴾ حاصلٍ بالانفلاق[٦] ﴿كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ كالجبل المنيف الثابت في مقرّه، فدخلوا في شِعابها، كلُّ سِبط في شِعب منها.

﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٦﴾

﴿وَأَزۡلَفۡنَا﴾ أي: قرّبنا ﴿ثَمَّ[٧] ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ أي: فرعون وقومه حتّى دخلوا على أثرهم مداخلَهم.

﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا إلى البَرّ.

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ بإطباقه عليهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٦٧﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في جميع ما فُصِّل ممّا صدر عن موسى عليه السلام،

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٣.

٢ س – عليه السلام.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٠/٤.

٤ ط س: فرقًا.

٥ ط س + بينهنّ مسالك.

٦ ط س – حاصلٍ بالانفلاق. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٧ م ط س: ثمّه.

وظهر على يديه مِن المعجزات القاهرة، وممّا فَعل فرعونُ وقومُه مِن الأقوال والأفعال، وما فُعِل بهم مِن العذاب والنَّكال.

وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد لتهويل أمر المشار إليه وتفظيعه، كتنكير "الآية" في قوله تعالى: ﴿لَآيَةً﴾ أي: آيةَ آيةٍ، وآيةً عظيمةً لا تكاد تُوصَف موجِبةً لأن يَعتبر بها المعتبِرون، ويقيسوا شأنَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بشأن موسى عليه السلام، وحالَ أنفسِهم بحال أولئك المُهلَكين، ويجتنبوا تعاطِيَ ما كانوا يتعاطَونه مِن الكفر والمعاصي ومخالفةِ الرسولِ، ويؤمنوا بالله تعالى، ويطيعوا رسولَه كيلا يحلّ بهم مثلُ ما حلّ بأُولئك.

أو إنّ فيما فُصِّل مِن القصّة مِن حيث حكايتُه عليه السلام إيّاها على ما هي عليه مِن غير أن يسمعها مِن أحدٍ لآيةً عظيمةً دالّة على أنّ ذلك بطريق الوحي الصادق موجِبةً للإيمان بالله تعالى وحده وطاعةِ رسوله عليه السلام.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثرُ هؤلاء الذين سمعوا قصّتَهم منه عليه السلام ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ لا بأن يقيسوا شأنَه بشأن موسى عليهما السلام وحالَ أنفسهم بحال أولئك المكذّبين المهْلَكِين، / ولا بأن يتدبّروا في حكايته عليه السلام لقصّتهم مِن غير أن يسمعها مِن أحد مع كون كلٍّ مِن الطريقين ممّا يؤدّي إلى الإيمان قطعًا. [٢٢٦و]

ومعنى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ما أكثرهم مؤمنين، على أنّ ﴿كَانَ﴾ زائدة كما هو رأي سيبويه، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف، ١٢/١٠٣]، وهو إخبار منه تعالى بما سيكون مِن المشركين بعدما سمعوا الآياتِ الناطقةَ بالقصّة تقريرًا لِما مرّ مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا﴾... إلخ [الشعراء، ٢٦/٥-٦]. وإيثارُ الجملة الاسميّة للدلالة على استقرارهم على عدم الإيمان، واستمرارِهم عليه.

ويجوز أن يُجعل ﴿كَانَ﴾ بمعنى "صار" كما فُعِل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة، ٢/٣٤]، فالمعنى: وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا مِن الآية العظيمة الموجِبة له بما ذُكِر مِن الطريقين، فيكون الإخبار

بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحقّقه وتقرّره، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ [النحل، ١/١٦].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالبُ على كلّ ما يريده مِن الأمور التي مِن جملتها الانتقام مِن المكذّبين. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة، ولذلك يُمهلهم، ولا يعجّل عقوبتَهم بعدم إيمانهم بعد مشاهدة هذه الآية العظيمة بطريق الوحي، مع كمال استحقاقهم لذلك. هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم مِن مَطلع السورة الكريمة إلى آخر القَصص السبع؛ بل إلى آخر السورة الكريمة اقتضاءً بيّنًا لا ريب فيه.

وأمّا ما قيل مِن أنّ ضمير ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ لأهل عصر فرعونَ مِن القِبط وغيرهم، وأنّ المعنى: وما كان أكثر أهل مِصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم إلّا آسية، وحزقيل، ومريم ابنة ياموشا التي دلّت على تابوت يوسف عليه السلام، وبنو إسرائيل بعد ما نجَوا سألوا بقرةً يعبدونها، واتّخذوا العجل، وقالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة، ٥٥/٢]،[١] فبمَعزِل مِن التحقيق.

كيف لا، ومَساق كلّ قصّة مِن القَصص الواردة في السورة الكريمة سوى قصّة إبراهيم عليه السلام إنّما هو لبيان حال طائفةٍ معيّنةٍ قد عتَوا عن أمر ربّهم وعصَوا رسله عليهم السلام، كما يُفصح عنه تصدير القَصص بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدوا بأيديهم مِن الآيات العظام ما يوجب عليهم الإيمان، ويزجرهم عن الكفر والعصيان، وأصرّوا على ما هم عليه مِن التكذيب، فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيويّة، وقَطَع دابرهم بالكلّيّة، فكيف يمكن أن يُخبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم لا سيّما بعد الإخبار بهلاكهم؟[٢] وعَدُّ المؤمنين[٣] مِن جملتهم أوّلًا

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٠/٤.

٢ ط س: بإهلاكهم.

٣ وفي هامش م: أي: مِن كلّ طائفة مِن الطوائف المعدودة قبل تكامل الآيات التي معظمها وأقواها إلجاءً للإيمان هلاك المكذّبين. «منه».

وإخراجُهم منها آخرًا مع عدم مشاركتهم لهم في شيء ممّا حُكِي عنهم مِن الجنايات أصلًا ممّا يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله، فتدبّر.[١]

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ عطفٌ على المُضمَر المقدّر عاملًا لـ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾،[٢] أي: واتلُ على المشركينَ ﴿نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: خبَره العظيم الشأنِ حسبما أوحي إليك لتقف على ما ذُكر مِن عدم إيمانهم بما يأتيهم مِن الآيات بأحد الطريقين.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠﴾

﴿إِذۡ قَالَ﴾ منصوب إمّا على الظرفيّة للنبأ، أي: نبأَه وقتَ قوله ﴿لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ أو على المفعوليّة لـ﴿ٱتۡلُ﴾ على أنّه بدل مِن ﴿نَبَأَ﴾، أي: واتلُ عليهم وقتَ قوله لهم: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ على أنّ المتلوّ ما قاله لهم في ذلك الوقت. سألَهم عليه السلام عن ذلك لِيَبنِيَ على جوابهم أنّ ما يعبدونه بمَعزِل مِن استحقاق العبادة بالكلّيّة.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا: ﴿أَصۡنَامًا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [البقرة، ٢١٩/٢]، وقولِه تعالى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرًا﴾[٣] [النحل، ٣٠/١٦]، ونظائرِهما، بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل.

وعطفُ دوام عكوفهم على أصنامهم قصدًا إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة مِن الابتهاج والافتخار بذلك. / والمراد بالظلول الدوام. وقيل: كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل. [٢٢٦ظ]

---

[١] وفي هامش م: وعدّ بني إسرائيل ههنا مِن المؤمنين الناجين مع موسى عليه السلام يأباه التعرّض لبيان ما سيكون منهم مِن الكفر والفسوق. «منه».

[٢] ط س + إلخ. | الشعراء، ١٠/٢٦.

[٣] م ط س: قالوا الحقّ. | وهو في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [سبأ، ٢٣/٣٤].

وصلة العُكوف كلمة "على"، وإيرادُ "اللام" لإفادة معنى زائد، كأنّهم قالوا: فنظلّ لأجلها مقبلين على عبادتها، أو مستديرين حولها، وهذا أيضًا مِن جملة إطنابهم.

﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن تفصيل جوابهم: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ﴾ أي: هل يسمعون دعاءكم؟ على حذف المضاف، أو يسمعونكم تدعون؟ كقولك: "سمعت زيدًا يقول: كيتَ وكيتَ"، فحُذف لدلالة قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَدۡعُونَ﴾ عليه.

وقُرِئ: "هَلْ يُسْمِعونكُمْ"[١] مِن "الإسماع"، أي: هل يُسمِعونكم شيئًا مِن الأشياء، أو الجوابَ عن دعائكم؟ وهل يقدرون على ذلك؟

وصيغة المضارع مع ﴿إِذۡ﴾ على حكاية الحال الماضية لاستحضار صوَرتها، كأنّه قيل لهم: استحضروا الأحوالَ الماضية التي كنتم تدعونها فيها، وأجيبوا: هل سَمعوا؟ أو أَسَمعوا قطّ؟

﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ۝٧٣﴾

﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ﴾ بسبب عبادتكم لها ﴿أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ أي: يضرّونكم بترككم لعبادتها؛ إذ لا بدّ للعبادة لا سيّما عند كونها على ما وَصفتم مِن المبالغة فيها مِن جلب نفع أو دفع ضرّ.

﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٧٤﴾

﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ اعترفوا بأنّها بمَعزِل ممّا ذُكر مِن السمع والمنفعة والمضرّة بالمرّة، واضطرّوا إلى إظهار أن لا سندَ لهم سوى التقليد، أي: ما علمنا أو ما رأينا منهم ما ذُكر مِن الأمور؛ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، أي: مثل عبادتنا يعبدون فاقتدينا بهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٥.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي: أَنَظرتم فأبصرتم، أو أَتَأمّلتم فعلمتم ما كنتم تعبدونه ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ حقّ الإبصار، أو حقّ العلم؟

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ بيان لحال ما يعبدونه بعد التنبيه على عدم علمهم بذلك، أي: فاعلموا أنّهم أعداء لعابديهم الذين يحبّونهم كحبّ الله تعالى، لِما أنّهم يتضرّرون مِن جهتهم فوق ما يتضرّر الرجل مِن جهة عدوّه، أو لأنّ مَن يغريهم على عبادتهم ويحملهم عليها الشيطان الذي هو أعدى عدوّ الإنسان، لكنّه عليه السلام صوّر الأمر في نفسه تعريضًا بهم، فإنّه أنفع في النصيحة مِن التصريح، وإشعارًا بأنّها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القبول. والعدوّ والصديق / يجيئان في معنى الواحد والجمع، ومنه قوله [٢٢٧و] تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف، ١٨/٥٠]، شُبِّها بالمصادر للموازنة، كـ"القَبول" و"الوَلوع" و"الحَنين" و"الصَّهيل".

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن ربُّ العالمين ليس كذلك؛ بل هو وَلِيّي في الدنيا والآخرة، لا يزال يتفضّل عليّ بمنافعِهما حسبما يُعرِب عنه ما وصفه تعالى به مِن أحكام الولاية، وقيل: متّصل، وهو قول الزجّاج،[١] على أنّ الضمير لكلّ معبود، وكان مِن آبائهم مَن عبدَ الله تعالى.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ صفة لـ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وجعلُه مبتدأً وما بعده خبرًا[٢] غيرُ حقيق بجزالة التنزيل. وإنّما وصفَه تعالى بذلك وبما عطفه عليه مع اندراج الكلّ تحتَ ربوبيّته تعالى للعالمين تصريحًا بالنعم الخاصّة به عليه السلام وتفصيلًا لها، لكونها أدخل في اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى، وقصرِ الالتجاء في جلب المنافع الدينيّة والدنيويّة ودفع المضارّ العاجلة والآجلة عليه تعالى.

---

١ انظر: **معاني القرآن** للزجّاج، ٤/٩٣.

٢ انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/١٤١.

﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ أي: هو يهديني وحده إلى كلّ ما يُهمّني ويُصلحني مِن أمور الدين والدنيا هدايةً مُتّصِلةً بحينِ الخلق ونفخِ الروح متجدّدةً على الاستمرار، كما ينبئ عنه "الفاء" وصيغة المضارع، فإنّه تعالى يَهدي كلَّ ما خَلقَه لِما خُلِق له مِن أمور المعاش والمعاد هدايةً متدرّجةً مِن مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكّن بها مِن جلب منافعه ودفع مضارّه، إمّا طَبعًا، وإمّا اختيارًا مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هدايةُ الجنين لِامْتِصاصِ دمِ الطَّمْثِ، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنّة والتنعّم بنعيمها المقيم.

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١﴾

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ عطفٌ على الصفة الأولى. وتكرير الموصول في المواقع الثلاثة مع كفاية عطف ما وقع في حيّز الصلة مِن الجمل الستّ على صلة الموصول الأوّل للإيذانِ بأنّ كُلّ / واحدةٍ مِن تلك الصلات نعتٌ [٢٢٧ظ] جليل له تعالى مستقِلّ في استيجاب الحكم، حقيقٌ بأن تُجرَى عليه تعالى بحِيالِها، ولا تُجعلَ مِن روادِف غيرها.

﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ عطفٌ على ﴿يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾،[١] نُظِم معهما في سِلك الصلة لموصولٍ واحدٍ، لِما أنّ الصحّة والمرض مِن متفرّعات الأكل والشرب غالبًا.

ونسبةُ المرض إلى نفسه والشفاءِ إلى الله تعالى مع أنّهما منه تعالى لمراعاةِ حُسن الأدب، كما قال الخَضِر عليه السلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف، ٧٩/١٨]، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف، ٨٢/١٨].

وأمّا الإماتَة فحيث كانت مِن معظم خصائصه تعالى كالإحياء بدءًا وإعادةً وقد نِيطَت أمورُ الآخرة جميعًا بها وبما بعدها مِن البعث، نظمَهما في سِمطٍ[٢] واحدٍ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ على أنّ الموت لكونه ذريعةً إلى نيله عليه السلام للحياة الأبديّة بمَعزِل مِن أن يكون غيرَ مطبوع عنده عليه السلام.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] السِمْط: الخَيط ما دام فيه الخَرزُ، وإلّا فهو سِلْك. الصحاح للجوهري، «سمط».

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ ذَكره عليه السلام هَضمًا لنفسه، وتعليمًا للأمّة أن يجتنبوا المعاصي، ويكونوا على حذرٍ وطلبِ مغفرةٍ لِما يفرط منهم، وتَلافِيًا لِما عسى يَندُر منه عليه السلام مِن الصغائر، وتنبيهًا لأبيه وقومه على أن يتأمّلوا في أمرهم، فيقِفُوا على أنّهم مِن سوء الحال في درجةٍ لا يُقادَرُ قدرُها، فإنّ حاله عليه السلام مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادته في الغاية القاصية حيث كانت بتلك المثابة، فما ظنّك بحال أولئك المغمورين في الكفر وفنون المعاصي والخطايا؟

وحملُ "الخطيئة" على كلماته الثلاث: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات، ٨٩/٣٧]، ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ [الأنبياء، ٦٣/٢١]، وقولِه لسارة: «هي أُختي»،[١] ممّا لا سبيلَ إليه؛ لأنّها مع كونها معاريضَ لا مِن قَبيل الخطايا المفتقِرةِ إلى الاستغفار، إنّما صدَرتْ عنه عليه السلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه. أمّا الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه السلام إلى الشام، وأمّا الأُولَيان فلأنّهما وقعتا مكتنِفتَين[٢] بكسر الأصنام، / ومن البيّن أنّ جريان هذه المقالات فيما بينهم كان في مبادئ الأمر. [٢٢٨و]

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع أنّها إنّما تُغفَر في الدنيا لأنّ أثرها يومئذ يتبيّن، ولأنّ في ذلك تهويلًا له وإشارةً إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تُغفَر.

﴿رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٨٣﴾

﴿رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا﴾ بعدما ذَكر عليه السلام لهم فنونَ الألطاف الفائضة عليه مِن الله عزّ وجلّ مِن مبدأ خلقه إلى يوم بعثه حَمَلَه ذلك على مناجاته تعالى ودعائه، لربط العَتيد، وجلب المزيد. و"الحُكم" الحِكمة التي هي الكمال في العلم والعمل بحيث يتمكّن به مِن خِلافة الحقّ ورياسة الخلق.

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٣.

٢ وفي هامش م: يقال: اكتنف الشيءَ، أي: أحاط به، و"الباء" لتضمين معنى الإحاطة. «منه».

﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ووفِّقني مِن العلوم والأعمال والملَكات لِما يُرَشِّحُني للانتظام في زُمرة الكاملين الراسخين في الصلاح، المنزّهين عن كبائر الذنوب وصغائرها، أو اجمع بيني وبينهم في الجنّة. ولقد أجابه تعالى حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة، ١٣٠/٢].

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٨٤ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥﴾

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي: جاهًا وحُسنَ صيتٍ في الدنيا، بحيث يبقى أثره إلى يوم الدين، ولذلك لا ترى أمّةً مِن الأمم إلّا وهي محِبّة له ومُثنية عليه، أو صادقًا مِن ذرّيّتي يجدّد أصل ديني، ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه مِن التوحيد، وهو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولذلك قال عليه السلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام».[١]

﴿وَٱجْعَلْنِى﴾ في الآخرة ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وقد مرّ معنى "الوِراثة" في سورة مريم.[٢]

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦﴾

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان كما يلوّح به تعليله بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: طريقَ الحقّ، وقد مرّ تحقيق المقام في تفسير سورة التوبة[٣] وسورة مريم[٤] بما لا مزيد عليه.

﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧﴾

﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ بمعاتبتي على ما فرّطتُ، أو بنقصِ رُتبتي عن بعض الوُرّاث، أو بتعذيبي، لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلًا، كلّ ذلك مبنيّ على هضم النفس منه عليه السلام، أو بتعذيب والدِي، أو ببَعثه في عداد الضالّين

١ مسند أحمد، ٥٩٦/٣٦ (٢٢٢٦٢)؛ المستدرك للحاكم، ٦٥٦/٢ (٤١٧٤).
٢ مريم، ٦/١٩.
٣ التوبة، ١١٤/٩.
٤ مريم، ٤٧/١٩.

[٢٢٨ظ] بعدمِ / توفيقه للإيمان. وهو مِن "الخِزْي" بمعنى الهَوان، أو مِن "الخِزاية" بمعنى الحَياء.

﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: الناس كافّةً. والإضمار قبل الذكر لِما في عموم البعث مِن الشهرة الفاشية المُغنية عنه، وتخصيصه بالضالّين[١] ممّا يخلّ بتهويل اليوم.

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ بدل مِن ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾،[٢] جيء به تأكيدًا لِلتهويل، وتمهيدًا لِما يَعقُبه مِن الاستثناء، وهو مِن أعمّ المفاعيل، أي: لا ينفع مالٌ -وإن كان مَصروفًا في الدنيا إلى وجوه البِرّ والخيرات- ولا بنونَ -وإن كانوا صلحاءَ مستأهِلين للشفاعة- أحدًا. ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ أي: عن مَرَضي الكفر والنفاق ضرورةَ اشتراط نفع كلّ منهما بالإيمان. وفيه تأييدٌ لِكون استغفاره عليه السلام لأبيه طلبًا لهدايته إلى الإيمان، لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرًا مع علمه عليه السلام بعدم نفعه؛ لأنّه مِن باب الشفاعة.

وقيل: هو استثناء مِن فاعل ﴿يَنفَعُ﴾[٣] بتقدير المضاف، أي: إلّا مالُ مَن أو بَنُو مَن أتى اللهَ... الآيةَ. وقيل: المضاف المحذوف ليس مِن جنس المستثنى منه حقيقةً؛ بل بضَربٍ مِن الاعتبار، كما في قوله:

تـحـيّـةُ بـينِـهـم ضـربٌ وجـيـعُ[٤]

أي: إلّا حالُ مَن أتى الله بقلب سليم، على أنّها عبارة عن سلامة القلب، كأنّه قيل: إلّا سلامة قلب مَن أتى اللهَ... الآيةَ.

وقيل: المضاف المحذوف ما دلّ عليه "المال والبَنون" مِن الغِنَى، وهو المستثنى منه، كأنّه قيل: يوم لا ينفع غِنًى إلّا غِنَى مَن أتى اللهَ... الآيةَ؛ لأنّ غِنَى المرء في دينه بسلامة قلبه. وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لكن سلامةُ قلبه تَنفعه.

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٢٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٤٢.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] صدره:

وخيـلٍ قـد دَلِـفْـت لـهـا بـخيـلٍ

لعمرو بن معدي كرب في ديوانه، ص ١٤٩.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَنفَعُ﴾،[1] وصيغةُ الماضي فيه وفيما بعده مِن الجمل المنتظَمة معه في سِلك العطف للدلالة على تحقّق الوقوع وتقرّره، كما أنّ صيغة المضارع في المعطوف عليه للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقامُ / التهويل والتفظيع، أي: قُرِّبَتِ الجنّة للمتّقين [٢٢٩و] عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها مِن الموقف، ويَقِفُون على ما فيها مِن فُنون المحاسن، فيَبتهجون بأنّهم المَحشورون إليها.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ الضالّين عن طريق الحقّ الذي هو الإيمان والتقوى، أي: جُعِلَت بارزةً لهم بحيث يَرونها مع ما فيها مِن أنواع الأحوال[2] الهائلة، ويُوقِنون بأنّهم مُواقِعوها ولا يجدون عنها مَصرفًا.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤﴾

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنّهم شفعاؤُكم في هذا الموقف. ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بدفعِه عن أنفسهم، وهذا سؤال تقريعٍ وتبكيت، لا يُتَوَقَّع له جواب، ولذلك قيل: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ أي: أُلقوا في الجحيم على وجوههم مرّةً بعد أخرى إلى أن يستقرّوا في قَعرها، ﴿هُمْ﴾ أي: آلِهتُهم ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ الذين كانوا يعبدونهم. وفي تأخير ذكرِهم عن ذكر آلهتهم رَمزٌ إلى أنّهم يؤخَّرون عنها في الكَبكَبة ليُشاهِدوا سوءَ حالها، فيزدادوا غمًّا إلى غمّهم.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ أي: شياطينه الذين كانوا يُغوُونَهم، ويُوسوِسون إليهم، ويسوّلون لهم ما هم عليه مِن عبادة الأصنام، وسائرِ فنون الكفر والمعاصي،

---

[1] الشعراء، ٨٨/٢٦.

[2] ط س: الأهوال.

لِيجتمعوا في العذاب حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه. وقيل: متّبعوه مِن عُصاة الثقلين، والأوّلُ هو الوجه. ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للضمير وما عُطف عليه.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟﴾... إلخ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأَ مِن حكاية حالهم، كأنّه قيل: ماذا قالوا حين فُعِل بهم ما فُعِل؟ فقيل: قال العَبَدة ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: قالوا معترفين بخطَئِهم في انهماكهم في الضلالة، متحسّرين
[٢٢٩ظ] مُعَيِّرين لأنفسهم، والحالُ / أنّهم في الجحيم بصدد الاختصام مع مَن معهم مِن المذكورين، مُخَاطِبين لِمَعْبودِيهم على أنّ الله تعالى يجعل الأصنام صالحةً للاختصام بأن يُعطيَها القدرةَ على الفهم والنطق: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إن﴾ مخفّفة مِن الثقيلة، قد حُذف اسمها الذي هو ضمير الشأن، و"اللام" فارِقة بينها وبين النافية، أي: إنّ الشأن كنّا في ضلال واضح لا خفاءَ فيه.

ووصفهم له بالوضوح للإشباع في إظهار ندَمهم وتحسُّرهم، وبيانِ عِظَم خطئهم في رأيهم مع وضوح الحقّ، كما يُنبئ عنه تصديرُ قَسَمهم بحرف "التاء" المشعِرة بالتعجّب.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ظرف لكونهم في ضلال مبين. وقيل: لِما دلّ عليه الكلام، أي: ضَلَلنا. وقيل: للضلال المذكور، وإن كان فيه ضعف صناعي مِن حيث إنّ المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف. وقيل: ظرف لـ﴿مُبِينٍ﴾.[١] وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية، أي: تاللهِ لقد كنّا في غاية الضلال الفاحش وقتَ تسويتنا إيّاكم أيّها الأصنام في استحقاق العبادة بربّ العالمين الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذَلُّهم وأعجزُهم.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

وقولهم: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم، لكن لا على معنى قصر الإضلال على المجرمين دون مَن عَداهم؛ بل على معنى قَصر ضلالهم على كونه بسبب إضلالهم مِن غير أن يَستقِلّوا

---

[١] في الآية السابقة.

في تحقّقه أو يكونَ بسبب إضلال الغير، كأنّه قيل: وما صدر عنّا ذلك الضلال الفاحش إلّا بسبب إضلالهم.

والمراد بـ"المجرمين" الذين أضلّوهم رؤساؤهم وكُبراؤهم، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب، ٦٧/٣٣]. وعن السُّدّي رحمه الله: «الأوّلون الذين اقتدَوا بهم».[١]

وأيًا ما كان ففيه أوفَرُ نصيبٍ مِن التعريض للذين قالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.[٢] وعن ابن جريج: «إبليس وابن آدم القاتلُ»؛[٣] لأنّه أوّل مَن سَنّ القتلَ وأنواعَ المعاصي.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمؤمنين مِن الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.[٤]

[٢٣٠و] ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ / كما نرى[٥] لهم أصدقاءَ، أو فما لنا مِن شافعين ولا صديقٍ حميم مِن الذين كنّا نعدّهم شفعاءَ وأصدقاءَ، على أنّ عدمهما كناية عن عداوتهما، كما أنّ عدم المحبّة في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة، ٢٠٥/٢] كناية عن البغض حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف، ٦٧/٤٣]؛ أو وَقَعْنا في مَهلكة لا يخلّصنا منها شافع ولا صديق، على أنّ المراد بعدمهما عدمُ أثَرهما.

وجمع "الشافع" لكثرة الشفعاء عادةً، كما أنّ إفراد "الصَّديق" لقِلّته، أو لصحّة إطلاقه على الجمع كالعدوّ تشبيهًا لهما بالمصادر، كـ"الحَنين" و"القَبول".

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

وكلمة ﴿لَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ للتمنّي كـ"لَيت"، لِما أنّ بين مَعنَيَيهما تلاقِيًا في معنى الفرض والتقدير، كأنّه قيل: فليت لنا كرّةً، أي:

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٧٠/٨.

٢ الشعراء، ٧٤/٢٦.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٧٠/٨. وهو في جامع البيان للطبري، ٥٩٩/١٧، عن ابن جريج عن عكرمة.

٤ س: عليهم السلام.

٥ ط س: يرى.

رجعةً إلى الدنيا. وقيل: هي على أصلها مِن الشرط، وجوابُه محذوف، كأنّه قيل: فَلو أنّ لنا[١] كرّةً لَفعلنا مِن الخيرات كَيتَ وكَيتَ،[٢] ويأباه قوله تعالى: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِتَحَتّم كونِه جوابًا للتمنّي مُفيدًا لِترتّب إيمانهم على وقوع الكرّة البتّة بلا تخلّفٍ كما هو مقتضى حالِهم.

وعطفُه على ﴿كَرَّةً﴾ على طريقة:

لَــلُــبْــسُ عَــبــاءةٍ وتَــقــرّ عيــنــي[٣]

كما يستدعيه كونُ ﴿لَوْ﴾ على أصلها إنّما يُفيد تحقّق مضمون الجواب، على تقدير تحقّق كَرّتهم وإيمانهم معًا مِن غير دلالة على استلزام الكَرّة للإيمان أصلًا مع أنّه المقصود حتمًا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن نبأِ إبراهيم عليه السلام المشتمِل على بيان بطلان ما كان عليه أهل مكّة مِن عبادة الأصنام، وتفصيلِ ما يئول إليه أمرُ عَبَدتها يوم القيامة مِن اعترافهم بخطئهم الفاحش، وندَمِهم وتحسّرِهم على ما فاتهم مِن الإيمان، وتمنّيهم الرجعةَ إلى الدنيا ليكونوا مِن المؤمنين عند مشاهدتهم لِما أُزلفت لهم جنّات النعيم، وبُرّزت لِأنفسِهم الجَحيم، وغَشيهم ما غَشيهم مِن ألوان العذاب وأنواع العقاب.

﴿لَآيَةً﴾ أي: آيةً عظيمةً لا يُقادَر قَدرُها موجبةً على عَبَدة الأصنام كافّةً لا سيّما على أهل مكّة الذين يدّعون أنّهم على ملّة إبراهيم عليه السلام أن يجتنبوا كلّ الاجتناب ما كانوا عليه مِن عبادتها خوفًا أن يَحيق بهم مثلُ ما حاق بأولئك مِن العذاب بحُكم الاشتراك فيما يوجبه، أو أنّ في ذكرِ نَبَئِه وتلاوته عليهم على ما هو عليه مِن غير أن تسمعَه مِن أحدٍ لآيةً عظيمةً دالّةً على أنّ ما تَتلوه عليهم / وحي صادق نازل مِن جهة الله تعالى موجبةً للإيمان به قطعًا. [٢٣٠ظ]

---

١ س: كنا.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٢٣.

٣ وفي هامش م: آخره:

أحــبُّ إلــيّ مِــن لُبــس الشفــوفِ

البيت لميسون بنت بَحدل الكلابيّة في لسان العرب لابن منظور، «مسن».

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: أكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم النبأ مؤمنين؛ بل هم مُصِرّون على ما كانوا عليه مِن الكفر والضلال. وأمّا أنّ ضمير ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ لقوم إبراهيم عليه السلام كما توهّموا[١] فممّا لا سبيل إليه أصلًا، لظهور أنّهم ما ازدادوا بما سمعوا منه عليه السلام إلّا طغيانًا وكفرًا حتّى اجترأوا على تلك العظيمة التي فعلوا به عليه السلام، فكيف يُعبَّر عنهم بعدم إيمان أكثرهم، وإنّما آمَن له لوط فنجّاهما الله عزّ وجلّ إلى الشّام؟ وقد مرّ بقيّة الكلام في آخر قصّة موسى عليه السلام.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٠٧ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك، ولكنّه يمهلهم بحكم رحمته الواسعة، ليؤمن بعض منهم، أو مِن ذرّيّاتهم.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ "القوم" مؤنّث، ولذلك يصغّر على "قُوَيۡمة"، وقيل: "القوم" بمعنى "الأُمّة". وتكذيبُهم للمرسلين إمّا باعتبار إجماع الكلّ على التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار، وإمّا لأنّ المراد بالجمع الواحد كما يقال: "فلان يركب الدوابّ، ويلبس البُرود"، وما له إلّا دابّة وبُردة.

و﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ﴾ ظرف للتكذيب على أنّه عبارة عن زمان مديدٍ وقع فيه ما وقع مِن الجانبين إلى تمام الأمر، كما أنّ تكذيبهم عبارة عمّا صدَر عنهم مِن حين ابتداء دعوته عليه السلام إلى انتهائها. ﴿أَخُوهُمۡ﴾ أي: نَسِيبُهم ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله حيث تعبدون غيرَه. ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ﴾ مِن جهته تعالى ﴿أَمِينٞ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمُركم به مِن التوحيد والطاعة لله تعالى.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠﴾

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: على ما أنا متَصدٍّ له مِن الدعاء والنصح ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ أصلًا، ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾ فيما أتولّاه ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٣/٤.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن تنزّهه عليه السلام مِن الطمع، كما أنّ نظيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على أمانته. والتكرير للتأكيد والتنبيه على أنّ كلًّا منهما مستقِلّ في إيجاب التقوى والطاعة، فكيف إذا اجتمعا؟ وقُرئ: "إِنْ أَجْرِيَ" بسكون "الياء".[١]

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١١٢﴾

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ أي: الأقلّون جاهًا ومالًا، جمع "الأرذل" على الصحّة، فإنّه بالغلبة صار جاريًا مَجرى الاسم، كـ"الأكبر" و"الأكابر". وقيل: جمع "أَرْذُل" جمعِ "رَذْلٍ"، كـ"أكَالِب" و"أَكْلُب" و"كَلْب".

[٢٣١و] وقُرِئ: "وَأَتْبَاعُكَ"،[٢] وهو / جمع "تابع"، كـ"شاهد" و"أشْهَاد"، أو جمع "تَبَعٍ"، كـ"بَطَلٍ" و"أبطال".

يعنون أنّه لا عبرةَ باتّباعهم لك، إذ ليس لهم رَزانةُ عقل ولا إصابةُ رأي، وقد كان ذلك منهم في بادي الرأي، كما ذُكر في موضع آخر، وهذا مِن كمال سخافة عقولهم، وقَصْرِهم أنظارَهم على حطام الدنيا، وكونِ الأشرف عندهم مَن هو أكثر منها حظًّا، و"الأرذل" مَن حُرِمَها، وجهلِهم بأنّها لا تَزِن عند الله تعالى جناحَ بعوضة، وأنّ النعيم هو نعيم الآخرة، والأشرفُ مَن فَازَ بِه، والأرذَلُ مَن حُرِمَه.

﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ جواب عمّا أشيرَ إليه مِن قولهم: إنّهم لم يؤمنوا عن نظَر وبَصيرة، أي: ما وظيفتي إلّا اعتبارُ الظواهر وبناءُ الأحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم والشقّ عن قلوبهم.

﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ۝١١٣﴾

﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ﴾ أي: ما محاسبةُ أعمالِهم والتنقير عن كيفيّاتها البارزة والكامنة ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾ فإنّه المُطلِع على السرائر والضمائر ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ أي:

---

١ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٦.

٢ قرأ بها يعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.

بشيء مِن الأشياء، أو لو كنتم مِن أهل الشعور لَعلمتم ذلك، ولكنّكم لَستُم كذلك، فتقولون ما تقولون.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١١٥﴾

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب عمّا أوهمه كلامُهم مِن استدعاءِ طَرْدِهم وتعليقِ إيمانِهم بذلك حيث جَعَلوا اتّباعهم مانِعًا عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كالعلّة له، أي: ما أنا إلّا رسول مَبعوث لإنذار المكلَّفين وزجرِهم عن الكفر والمعاصي، سواء كانوا مِن الأعزّاء أو الأذلّاء، فكيف يتسنّى لي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟ أو ما عليّ إلّا إنذاركم بالبرهان الواضح، وقد فعلتُه، وما عليّ استرضاء بعضِكم بطرد الآخرين.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٨﴾

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عمّا تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ / مِن [٢٣١ظ]
المَشْتومين، أو المَرميّين بالحجارة، قالوه قاتلهم الله تعالى في أواخر الأمر.

ومعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ تَمُّوا على تكذيبي وأصَرّوا على ذلك بعد ما دعوتُهم هذه الأزمنةَ المتطاولةَ، ولم يزدهم دعائي إلّا فِرارًا، كما يُعرِب عنه دعاؤه بقوله: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي: احْكُم بيننا بما يستحقّه كلّ واحد منّا، وهذه حكاية إجماليّة لدعائه المفصَّل في سورة نوح.

﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مِن قَصدِهم، أو مِن شُؤم أعمالهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ١٢٠ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٢﴾

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ حسب دعائه ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المَملوء بهم وبما لا بدّ لهم منه.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعدَ إنجائهم ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ أي: مِن قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ، خلا أنّ حَمْل ﴿أَكْثَرُهُم﴾ على أكثر قوم نوح أبعد مِن السداد وأبعد.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أُنِث ﴿عَادٌ﴾ باعتبار القبيلة، وهو اسم أبيهم الأقصى.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الكلام في أنّ المراد بتكذيبهم وبما وقع فيه مِن الزمان ماذا كما مرّ في صدر قصّة نوح عليه السلام، أي: ألا تتّقون الله تعالى، فتفعلون ما تفعلون.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ. وتَصدير القصص به للتنبيه على أنّ مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحقّ، والطاعة فيما يقرّب المدعوّ إلى الثواب، ويبعّده مِن العقاب، وأنّ / الأنبياء عليهم السلام مجمِعون على ذلك [٢٣٢و] وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار، وأنّهم متنزِّهون عن المطامع الدنيّة، والأغراض الدنيويّة بالكلّيّة.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: مكانٍ مرتفع، ومنه "رِيع الأرض" لارتفاعها. ﴿ءَايَةً﴾ علَمًا للمارّة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ ببنائها، إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم، فلا يحتاجون إليها، أو بروجَ الحَمام، أو بنيانًا يجتمعون إليه لِيَعبثوا بمَن مرّ عليهم، أو قصورًا عالية يفتخرون بها.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩﴾

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: مآخذ الماء. وقيل: قصورًا مُشيّدةً وحصونًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: راجين أن تَخلُدوا في الدنيا، أي: عاملين عملَ مَن يرجو ذلك، فلذلك تُحكِمون بنيانها.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بسَوطٍ أو سيف ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ مسلِّطين غاشمين بلا رأفة، ولا قصدِ تأديب، ولا نظرٍ في العاقبة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١﴾

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واتركوا هذه الأفعال ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه، فإنّه أنفع لكم.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ١٣٣﴾

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن ألوان النَّعماء، وأصناف الآلاءِ. أجمَلَها أوّلًا ثمّ فصّلها بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ بإعادة الفعل لزيادة التقرير، فإنّ التفصيل بعد الإجمال والتفسيرَ إثرَ الإبهام أدخَلُ في ذلك.

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣٥﴾

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تقوموا بشكر هذهِ النعم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإنّ كُفران النعمة مستتبع للعذاب، كما أنّ شُكرها مستلزِم لزيادتها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم، ١٤/٧].

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ١٣٦ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ فإنّا لن نَرعَويَ عمّا نحن
عليه. وتغييرُ الشِّقّ الثاني عن مقابِله للمبالغة في / بيان قِلّة اعتدادهم بوَعظه، [٢٣٢ظ]
كأنّهم قالوا: أم لم تكن مِن أهل الوعظ ومباشريه أصلًا.

﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ ما هذا الذي جئتَنا به ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: عادتهم، كانوا يلفِّقون مثلَه ويسطّرونه، أو ما هذا الذي نحن عليه مِن الدين إلّا خُلُق الأوّلين وعادتهم، ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه مِن الموت والحياة إلّا عادة قديمة لم يزَل الناس عليها. وقُرئ: "خَلْقُ الأَوَّلِينَ" بفتح "الخاء"،[١] أي: اختلاقُ الأوّلين، كما قالوا: "أساطير الأوّلين"، أو ما خَلقُنا هذا إلّا خَلقُهم، نَحْيَى كما حَيُوا، ونَمُوت كما ماتوا، ولا بعثَ ولا حسابَ، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نحن عليه مِن الأعمال.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: أصَرّوا على ذلك، ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ بسببه بريح صَرصَر. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨﴾

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۞ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۞ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ إنكار ونفي لِأن يُترَكوا فيما هم فيه مِن النعمة، أو تذكير للنعمة في تخليته تعالى إيّاهم وأسبابَ تنعّمهم آمنين.

وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۞ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ تفسير لِما قبله مِن المبهم. و"الهَضيم": اللّطيف الليّن للطف الثمر، أو لأنّ النخل أنثى،

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.

وطلعُ الإناث ألطف، وهو ما يطلع منها كنَصل السيف، في جوفه شماريخ القِنو،[١] أو مُتَدَلٍّ متكسّر مِن كَثرة الحمل. وإفرادُ النخل لفضله على سائر أشجار الجنّات، أو لأنّ المراد بها غيرُها مِن الأشجار.

﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ۝١٥٢﴾

﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ بَطِرِين، أو حاذقين، مِن "الفَراهة"، وهي النشاط، فإنّ الحاذق يعمل بنشاطٍ وطِيب قلب. وقُرئ: "فَرِهِينَ"،[٢] وهو أبلَغ.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ استعير الطاعة التي هي انقيادُ الأمِر لامتثال الأمر وارتسامِه، أو نُسِب حكم الآمِر إلى أمْره مجازًا.

﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وصفٌ موضّح لإسرافهم، ولذلك عُطف ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ على ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ لبيان خلوص إفسادهم عن مخالطة / الإصلاح. [٢٣٣و]

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤﴾

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أي: الذين سُحِّرُوا حتّى غلب على عقولهم، أو مِن ذَوي السَّحر، أي: الرئة، أي: مِن الإنس، فيكون قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ تأكيدًا له. ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في دعواك.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝١٥٥﴾

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ﴾ أي: بعدما أخرجها الله تعالى مِن الصخرة بدعائه عليه السلام حسبما مرّ تفصيله في سورة الأعراف[٣] وسورة هود،[٤] ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ أي:

---

[١] "شَماريخ" جمع شُمْرُوخ، وهو غُصن دقيق يكون في أعلى الغُصن الغليظ. والقِنو: العِذق بما فيه مِن الرطب. انظر: لسان العرب لابن منظور، «شمرخ»؛ «قنو».

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٦.

[٣] الأعراف، ٧/٧٣.

[٤] هود، ١١/٦٤.

نصيب مِن الماء، كـ"السِقْي" و"القِيتِ" للحظّ مِن "السَّقي" و"القُوت". وقُرئ بالضمّ.[١] ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ فاقتنِعوا بشِربكم، ولا تزاحِموا على شِربها.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ۝١٥٧﴾

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ كضَرْبٍ وعَقْرٍ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وُصِف اليوم بالعِظَم لعِظَم ما يحلّ فيه، وهو أبلغ مِن تعظيم العذاب.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أسندَ العَقْر إلى كلّهم لِما أنّ عاقرها عقَرها برأيهم، ولذلك عمّهم العذاب، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ﴾ خوفًا مِن حلول العذاب، لا توبةً، أو عند معاينتهم لمَباديه، ولذلك لم ينفعهم الندم وإن كان بطريق التوبة.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٥٩﴾

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: العذاب الموعود.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قيل: في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المَعرِض إيماءٌ إلى أنّه لو آمَن أكثرهم أو شَطرهم لَما أُخِذوا بالعذاب، وأنّ قريشًا إنّما عُصِموا مِن مِثله ببَركة مَن آمَن منهم،[٢] وأنت خبير بأنّ قريشًا هم المشهورون بعدم إيمان أكثرهم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٦٢ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٤ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٥﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٨٣/٨.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٧/٤.

/﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أتأتون مِن بَين مَن عَداكم[1] مِن العالمين [٢٣٣ظ] الذُّكرانَ لا يشارككم فيه غيركم، أو أتأتون الذُّكرانَ[2] مِن أولاد آدم مع كَثرتهم وغَلبةِ النساء فيهم[3] مع كونهنّ أليقَ بالاستمتاع. فالمراد بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على الأوّل كلُّ ما يُنكح مِن الحيوان،[4] وعلى الثاني الناسُ.[5]

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ لأجل استمتاعكم. وكلمة ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ للبيان إن أريدَ بها جنس الإناث، وهو الظاهر، وللتبعيض إن أريدَ بها العضو المباحُ منهنّ، تعريضًا بأنّهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم أيضًا.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ متعدّون متجاوزون الحدَّ في جميع المعاصي، وهذا مِن جملتها. وقيل: متجاوزون عن حدّ الشهوة حيث زادوا على سائر الناس؛ بل الحيوانات.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ أي: عن تقبيح أمرنا، أو نَهْينا عنه، أو عن دعوى النبوّة التي مِن جملة أحكامها التعرّضُ لنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أي: مِن المَنفيّين مِن قريتنا، وكأنّهم كانوا يُخرِجون مَن أخرجوه مِن بينهم على عنف وسُوءِ حال.

---

[1] ط س: بني آدم. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[2] ط س: أو أتأتونهم. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[3] م ط س - فيهم ["صح" في هامش م].

[4] وفي هامش م: وبـ﴿ٱلذُّكْرَانَ﴾ ذكرانُه، و﴿مِن﴾ متعلّقة بـ﴿تَأْتُونَ﴾ على أنّ المراد به إثباتًا بحسب المنطوق ونفيًا بحسب المفهوم إتيانُ كلّ عالمٍ لذكرانه، لا لذكران غيره. «منه».

[5] وفي هامش م: وبـ﴿ٱلذُّكْرَانَ﴾ ذكرانُهم، و﴿مِن﴾ متعلّقة بـ﴿ٱلذُّكْرَانَ﴾، والمنكر على كِلا الوجهين إتيانهم الرجل قطعًا كما في قوله تعالى: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ الآية [الأعراف، ٨١/٧]، خلا أنّ في الأوّل إشباعًا في التوبيخ، والتعبير ببيان أنّهم أسوأ حالًا ممّن عداهم مِن العقلاء وغيرهم جميعًا حيث يفعلون ما لا يفعله أحد منهم. «منه».

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩﴾

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي: مِن المُبغِضين غايةَ البُغض، كأنّه يُقلَى الفؤاد والكبد لشدّته، وهو أبلغ مِن أن يقال: إنّي لِعملكم قالٍ، لدلالته على أنّه عليه السلام مِن زُمرة الراسخين في بُغضه المشهورين في قَلاه، ولعلّه عليه السلام أراد إظهار الكراهة مِن مُساكَنتهم، والرغبةِ في الخلاص مِن سوء جِوارهم، ولذلك أعرض عن محاورتهم، وتوجّه إلى الله تعالى قائلًا: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: مِن شؤم عملهم وغائلته.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ١٧١﴾

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أهلَ بيته ومَن اتّبعه في الدين بإخراجهم مِن بينهم عند مشارفة حلول العذاب بهم.

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي امرأة لوط، استُثنيت مِن أهله، فلا يضرّه كونها كافرة؛ لأنّ لها شركةً في الأهليّة بحقّ الزواج. ﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: مقدّرًا كونُها مِن
[٢٣٤و] الباقين في العذاب؛ لأنّها كانت مائلةً / إلى القوم، راضيةً بفعلهم، وقد أصابها الحَجَر في الطريق فأهلكها كما مرّ في سورة الحِجر[1] وسورة هود.[2] وقيل: كانت فيمَن بقيَ في القرية، ولم تخرج مع لوط عليه السلام.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٧٥﴾

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أهلكناهم أشدَّ إهلاك وأفظعَه.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: مطَرًا غير معهود. قيل: أمطَر الله تعالى على شُذّاذ القوم حجارة فأهلكتْهم، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ "اللام" فيه للجنس، وبه يتسنّى وقوعُ المضاف إليه فاعلَ ﴿سَآءَ﴾، والمخصوص بالذمّ محذوف، وهو مطَرهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

---

[1] الحجر، ٦٠/١٥.
[2] هود، ٨١/١١.

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾

﴿كَذَّبَ[1] أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ "الأيكة" الغيضة التي تُنبت ناعم الشجر، وهي غَيضة بقرب مَديَن يسكنها طائفة، وكانوا ممّن بُعِث إليهم شعيب عليه السلام، وكان أجنبيًّا منهم، ولذلك قيل: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يُقل: "أخوهم". وقيل: "الأَيكة" الشجرُ الملتَفّ، وكان شجرهم الدَّوْمَ، وهو المُقْل.

وقُرئ بحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على اللام.[2] وقُرئت كذلك مفتوحةً[3] على أنّها "لَيكَة"، وهي اسم بلدهم، وإنّما كُتبت ههنا وفي "ص"[4] بغير ألف اتّباعًا للَفظ اللافظ.

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١﴾

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أتِمّوه ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ أي: حقوقَ الناس بالتطفيف.

﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢﴾

﴿وَزِنُواْ﴾ أي: المَوزونات ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ بالميزان السويّ، وهو إن كانَ عربيًّا، فإن كان مِن "القِسْط" فـ"فِعْلَاس" بتكرير العين، وإلّا فـ"فِعلال". وقُرئ بضمّ القاف.[5]

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ / أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي: لا تنقُصوا شيئًا مِن حقوقهم، أيّ حقّ كان، وهذا تعميم بعد تخصيص بعضِ الموادّ بالذكر لغاية انهماكهم فيها، [٢٣٤ظ]

---

[1] م ط س: كذّبت.

[2] بجرّ التاء قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٦.

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٦.

[4] ص، ١٣/٣٨.

[5] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وذَوي الجِبِلّة الأوّلين، وهم مَن تقدّمهم مِن الخلائق. وقُرئ بضمّ "الجيم" و"الباء"،[1] وبكسر "الجيم" وسكون الباء كـ"الخِلقة".[2]

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۞ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إدخال "الواو" بين الجملتين للدلالة على أنّ كلًّا مِن التسحير والبشريّة مُنافٍ للرسالة مبالغةً في التكذيب، ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما تدّعيه مِن النبوّة.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قِطَعًا. وقُرئ بسكون السين،[3] وهو أيضًا جمع "كِسفة". وقيل: "الكِسْفُ" و"الكِسْفَة" كـ"الرِّيع" و"الرِّيعَة"، وهي القِطعة. والمراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ إمّا السحاب أو المظِلّة. ولعلّه جواب لِما أشعر به الأمر بالتقوى مِن التهديد.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، ولم يكن طلبُهم ذلك إلّا لتصميمهم على الجحود والتكذيب، وإلّا لَما أخطروه ببالهم فضلًا أن يطلبوه.

﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن الكفر والمعاصي، وبما تستحقّون بسببه مِن العذاب، فسيُنزِله عليكم في وقته المقدّر له لا محالةَ.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي حصين. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٨٧/٨.

٣ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: فتمّوا على تكذيبه، وأصرّوا عليه، ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ حسبما اقترحوا. أمّا إن أرادوا بـ﴿السَّمَآءِ﴾ السحابَ فظاهر، وأمّا إن أرادوا المُظِلّة، فلِأنّ نزول العذاب مِن جهتها.

وفي[١] إضافة "العذاب" إلى ﴿يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ دون نفسها إيذانٌ بأنّ لهم يومئذ عذابًا آخر غيرَ عذاب الظُّلّة، وذلك بأن سلّط الله عليهم الحَرَّ سبعةَ أيّام ولياليَها، فأخذهم بأنفاسهم لا يَنفعهم ظلّ ولا ماءٌ ولا سَرَبٌ،[٢] فاضطرُّوا إلى أن خرجوا إلى البَرّيّة، فأظلّتهم سحابة وجدوا لها بَردًا ونسيمًا، فاجتمعوا تحتها فأمطَرَتْ عليهم نارًا، فاحترقوا جميعًا.[٣]

رُوي أنّ شعيبًا عليه السلام بُعِث إلى أُمّتَين، أصحابِ مَديَن، وأصحابِ الأيكة، فأُهلِكَتْ مَديَن / بالصيحة والرجفة، وأصحابُ الأيكة بعذاب يوم الظلّة. [٢٣٥و]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: في الشدّة والهَوْل وفَظاعة ما وقع فيه مِن الطامّة والداهية التامّة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝١٩١﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ هذا آخر القصص السبع التي أُوحِيت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لصَرفه عليه السلام عن الحِرص على إسلام قومه، وقطعِ رجائه عنه، ودفع تحسّره على فواته، تحقيقًا لِمضمون ما مرّ في مطلع السورة الكريمة مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ الآيةَ [الشعراء، ٢٦/٥-٦].

فإنّ كلّ واحدة مِن هذه القصص ذِكر مستقلّ متجدّد النزول قد أتاهم مِن جهته تعالى بموجَب رحمته الواسعة، وما كان أكثرهم مؤمنين بعد ما سمعوها على التفصيل قصّةً بعد قصّة، لا بأن يتدبّروا فيها، ويعتبروا بما في كلّ واحدة منها

[١] س + وفي.
[٢] السَّرَبُ: بيتٌ في الأرض. انظر: **الصحاح** للجوهري، «سرب».
[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٣٣٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/١٤٩.

مِن الدواعي إلى الإيمان، والزواجرِ عن الكفر والطغيان، ولا بأن يتأمّلوا في شأن الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هي عليه مع علمهم بأنّه عليه السلام لم يسمع شيئًا منها مِن أحدٍ أصلًا، واستمرّوا على ما كانوا عليه مِن الكفر والضلال، كأن لم يسمعوا شيئًا يَزجرهم عن ذلك قطعًا، كما حُقّق في خاتمة قصّة موسى عليه السلام.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: ما ذُكِر مِن الآيات الكريمة الناطقة بالقَصص المَحكيّة، أو القرآن الذي هي مِن جملته ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مُنَزَّل مِن جهته تعالى، سمّي به / مبالغةً. ووصفُه تعالى بربوبيّة العالمين للإيذان بأنّ تنزيله مِن أحكام تربيته تعالى ورأفته للكلّ، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧/٢١]. [٢٣٥ظ]

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾

﴿نَزَلَ بِهِ﴾ أي: أنزله ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: جبريل عليه السلام، فإنّه أمينُ وحيه تعالى، ومُوصلُه إلى أنبيائه عليهم السلام. وقُرئ بتشديد "الزاء"، ونصبِ ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾،[1] أي: جعل الله تعالى الروحَ الأمينَ نازلًا به.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: روحِك، وإن أُريدَ به العضو فتَخصيصُه به لأنّ المعاني الروحانيّة تَنزل أوّلًا على الروح، ثمّ تنتقل منه إلى القلب، لِما بينهما مِن التعلّق، ثمّ تتصعّد إلى الدماغ، فينتقش بها لَوح المخيّلة.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ متعلّق بـ﴿نَزَلَ بِهِ﴾، أي: أنزله لتنذرهم بما في تضاعيفه مِن العقوبات الهائلة. وإيثارُ ما عليه النظم الكريم للدلالة على انتظامه عليه السلام في سِلك أولئك المنذِرين المشهورين في حقّيّة الرسالة، وتقرّرِ وقوع العذاب المُنذَر.

---

[1] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٦/٢.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ واضح المعنى، ظاهر المدلول؛ لئلّا يبقى لهم عذر ما، وهو أيضًا متعلّق بـ﴿نَزَلَ بِهِ﴾. وتأخيرُه للاعتناء بأمر الإنذار، وللإيماء إلى أنّ مدارَ كونه مِن جملة المنذِرين المذكورين عليهم السلام مجرّدُ إنزالِه عليه السلام، لا إنزالُه باللسان العربي.

وجعلُه متعلّقًا بـ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾ كما جوّزه الجمهور يؤدّي إلى أنّ غاية الإنزال كونُه عليه السلام مِن جملة المنذِرين باللغة العربيّة فقط مِن هود وصالح وشعيب عليهم السلام،[1] ولا يخفى فساده، كيف لا والطامّة الكبرى في باب الإنذار ما أنذره نوح وموسى عليهما السلام، وأشدّ الزواجر تأثيرًا في قلوب المشركين ما أنذره إبراهيم عليه السلام لانتمائهم إليه وادّعائهم أنّهم على مِلّته عليه السلام.

/ ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وإنّ ذِكره أو معناه لَفِي الكتب المتقدّمة، فإنّ [٢٣٦و]
أحكامه التي لا تحتمل النسخ والتبديل بحسب تبدّل الأعصار مِن التوحيد وسائرِ ما يتعلّق بالذات والصفات مسطورةٌ فيها، وكذا ما في تضاعيفه مِن المواعظ والقصص. وقيل: الضمير لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وليس بواضح.[2]

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ "الهمزة" للإنكار والنفي، و"الواو" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، كأنّه قيل: أَغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آيةً دالّةً على أنّه تنزيل مِن ربّ العالمين، وأنّه في زُبُر الأوّلين؟ على أنّ ﴿لَهُمْ﴾ متعلّق بالكون، قُدِّم على اسمه وخبره للاهتمام به، أو بمحذوف هو حال مِن ﴿ءَايَةً﴾ قدِّمت عليها لكونها نكرة، و﴿ءَايَةً﴾ خبر للكون، قُدِّم على اسمه الذي هو قوله تعالى: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لِما مرَّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر، أي: أن يعرفوه بنُعوته المذكورة في كُتبهم، ويعرفوا مَن أُنزل عليه.

---

[1] س - عليهم السلام.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٣٥.

وقُرئ: "تَكُنْ"[١] بالتأنيث، وجعلت "آيَةٌ" اسمًا، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ خبرًا، وفيه ضعفٌ حيث وقع النكرة اسمًا، والمعرفة خبرًا، وقد قيل: في "تَكُن" ضمير القصّة، و"آيَةٌ أنْ يَعلَمَه" جملة واقعة موقع الخبر، ويجوز أَن[٢] يكون ﴿لَهُمْ ءَايَةٌ﴾ هي جملة الشأن، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ بدلًا مِن "آيَةٌ"، ويجوز مع نصب ﴿ءَايَةً﴾ تأنيث "تَكُن"، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ [الأنعام، ٢٣/٦]. وقُرئ: "تَعْلَمَهُ" بالتاء.[٣]

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨﴾

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾ كما هو بنظمه الرائق المُعجز ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يقدرون على التكلّم بالعربيّة. وهو جمع "أعجَمي" على التخفيف، ولذلك جُمِع جمعَ السلامة. وقُرئ: "الْأَعْجَمِيِّينَ"،[٤] وفي لفظ "البعض" إشارة إلى كون ذلك واحدًا مِن عُرض تلك الطائفة كائنًا مَن كان.

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١٩٩﴾

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ قراءةً صحيحةً خارقةً للعادات ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء، لِفَرْط عنادهم، وشدّة شَكيمتهم في المكابرة. وقيل: المعنى: ولو نزّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجَم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين، لعدم فهمهم، واستنكافِهم مِن اتّباع العجَم،[٥] وليس بذاك، فإنّه بمَعزِل مِن المناسبة لمقام بيانِ تماديهم في المكابرة والعناد.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٢٠١﴾

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أي: مثلَ ذلك السَّلك البديع المذكور سَلكناه، أي: أدخلنا القرآن ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ففهِموا معانيَه، وعرفوا فصاحته، / وأنّه خارج [٢٣٦ظ] عن القوى البشريّة مِن حيث النظم المعجِز، ومِن حيث الإخبار عن الغيب،

---

١ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٣٦/٢.

٢ م + أن.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.

٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٠/٤.

وقد انضمّ إليه اتّفاق علماء أهل الكتب المنزَلة قبله على تضمّنها للبِشارة بإنزالِه وبِعثةِ مَن أُنزِل عليه بأوصافه.

فقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان أنّهم لا يتأثّرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به؛ بل يستمرّون على ما هم عليه ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الملجئَ إلى الإيمان به حين لا ينفعهم الإيمان.

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فُجاءةً[1] في الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ تحسُّرًا على ما فات مِن الإيمان، وتمنّيًا للإمهال لتلافي ما فرّطوه.

وقيل: معنى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾[2] مثلَ تلك الحالِ وتلك الصفةِ مِن الكفر به[3] والتكذيبِ له وضعناه في قلوبهم. وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[4] في موقع الإيضاح والتلخيص له، أو في موقع الحال، أي: سلكناه فيها غيرَ مؤمَنٍ به. والأوّل هو الأنسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضُدِ أدلّة الإيمان، وتآخُذِ مبادي الهداية والإرشاد، وانقطاعِ أعذارهم بالكلّيّة.

وقيل: ضمير ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾[5] للكفر المدلول عليه بما قبله مِن قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.[6] ونُقل عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[7] عنهما والحسن ومجاهد رحمهما الله: «أدخلنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين».[8]

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ[9] عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا

---

١ س: فجأة.
٢ الشعراء، ٢٠٠/٢٦.
٣ وفي هامش م: أي: مكفورًا به. «منه».
٤ الشعراء، ٢٠١/٢٦.
٥ الشعراء، ٢٠٠/٢٦.
٦ الشعراء، ١٩٩/٢٦.
٧ س - تعالى.
٨ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٦٣/٣؛ اللباب لابن عادل، ٨٥/١٥.
٩ م ط س: أَمطِر.

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨]، وقولِهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف، ٧٠/٧]، ونحوِهما. وحالهم عند نزول العذاب كما وُصِف مِن طلب الإنظار. / فـ"الفاء" [٢٣٧و] للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَيَكون حالُهم كما ذُكِر مِن الاستنظار عند نزول العذاب الأليم، فيستعجلون بعذابنا، وبينهما مِن التنافي ما لا يخفى على أحد؟ أو أَيَغفُلون عن ذلك مع تحقّقه وتقرّره فيستعجلون... إلخ؟

وإنّما قُدِّم الجارّ والمجرور للإيذان بأنّ مَصبّ الإنكار والتوبيخ كونُ المستعجَل به عذابَه تعالى، مع ما فيه مِن رعاية الفواصل.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ لمّا كانت الرؤية مِن أقوى أسباب الإخبار بالشيء وأشهرها شاعَ استعمال "أَرَأَيتَ" في معنى "أَخبِرنِي". والخِطاب لكلّ مَن يَصلح له، كائنًا مَن كان. و"الفاء" لترتيب الاستخبار على قولهم: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾،[1] وما بينهما اعتراض للتوبيخ والتبكيت، وهي متقدّمة في المعنى على "الهمزة"، وتأخيرها عنها صورةً لاقتضاء "الهمزة" الصدارةَ كما هو رأي الجمهور، أي: فأخبِرني ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ متطاولة بطول الأعمار وطيب المعايِش ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ مِن العذاب.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أيَّ شيء، أو أيَّ إغناءٍ أغنى عنهم ﴿مَا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ أي: كونُهم ممتَّعِين ذلك التمتيعَ المديدَ، على أنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أو ما كانوا يُمتَّعون به مِن متاع الحياة الدنيا، على أنّها موصولة حُذف عائدها، وأيًّا ما كان فالاستفهام للإنكار والنفي.

وقيل: ﴿مَا﴾ نافية أي: لم يُغنِ عنهم تمتّعهم المتطاوِل في دفع العذاب وتخفيفه، والأوّل هو الأولى لكونه أوفقَ لصورة الاستخبار، وأدلَّ على انتفاء الإغناء على أبلغ وجه وآكَدِه، كأنَّ كلَّ مَن مِن شأنه الخطابُ قد كُلِّف أن يُخبِر بأنّ تمتيعهم ماذا أفادهم، وأيّ شيء أغنى عنهم فلم يقدر أحد على أن يُخبِر بشيء مِن ذلك أصلًا. وقُرئ: "يُمْتَعُونَ"[2] مِن الإمتاع.

---

[1] الشعراء، ٢٠٣/٢٦.

[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٣٨/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ١٩٤/٨.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٠٩﴾

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ مِن القرى المهلَكة ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ قد أنذروا أهلَها إلزامًا للحجّة.

﴿ذِكۡرَىٰ﴾ أي: تذكِرةً. ومحلّها النصب على العلّة، أو المصدر؛ لأنّها في معنى "الإنذار"، كأنّه قيل: مُذكّرون ذِكرى، أو على أنّه مصدر مؤكِّد لفعل هو صفة لـ﴿مُنذِرُونَ﴾،[1] أي: إلّا لها منذِرون يذكّرونَهم ذكرى، أو الرفع على أنّها صفة ﴿مُنذِرُونَ﴾[2] بإضمار "ذَوُو"، أو بجعلهم ذِكرَى لإمعانهم في التذكرة، أو خبر مبتدأ محذوف، والجملة اعتراضيّة. وضمير ﴿لَهَا﴾[3] للقرى المدلولِ عليها بمفردها الواقعِ في حيّز النفي، على معنى أنّ للكلّ منذرين أَعمُّ مِن أن يكون لكلّ قرية منها منذر واحد أو أكثر.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنُهلِكَ غيرَ الظالمين وقبلَ الإنذار. والتعبير عن ذلك بنفي الظالميّة مع أنّ / إهلاكهم قبل الإنذار ليسْ بظلمٍ أصلًا على ما تقرّر مِن [٢٣٧ظ]
قاعدة أهل السنّة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره[4] بصورة ما يستحيل صدورُه عنه تعالى مِن الظلم، وقد مرّ في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عمران، ١٨٢/٣].

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ردّ لِما زعمه الكفرة في حقّ القرآن الكريم مِن أنّه مِن قَبيل ما يُلقيه الشياطين على الكهَنة بعد تحقيق الحقّ ببيان أنّه نَزَل به الروح الأمين.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ أي: وما يصحّ وما يستقيم لهم ذلك ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ ذلك أصلًا.

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة.
[4] س: بتصويرة.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة في صفاء الذوات، والاستعدادِ لقَبول فيضان أنوار الحقّ، والانتقاشِ بصور العلومِ الربّانيّة والمعارفِ النورانيّة، كيف لا ونفوسُهم خبيثة ظلمانيّة شرّيرة بالذات غيرُ مستعدّة إلّا لقبول ما لا خير فيه أصلًا مِن فنون الشرور؟ فمِن أين لهم أن يَحوموا حولَ القرآن الكريم المنطوي على الحقائق الرائعة الغيبيّة التي لا يمكن تلقّيها إلّا مِن الملائكة عليهم السلام؟

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع ظهور استحالة صدور المنهيّ عنه عليه السلام تهييجًا وحثًّا على ازدياد الإخلاص ولُطفًا لسائرِ المكلَّفين ببيان أنّ الإشراك مِن القبح والسوء بحيث يُنهَى عنه مَن لا يمكن صدوره عنه، فكيف بمَن عداه؟

﴿وَأَنذِرْ﴾ العذابَ الذي يستتبعه الشرك والمعاصي ﴿عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الأقربَ منهم فالأقربَ، فإنّ الاهتمام بشأنهم أهمّ.

رُوي أنّه لمّا نزلت صَعِد الصفا، وناداهم فَخِذًا فَخِذًا حتّى اجتمعوا إليه، [٢٣٨و] فقال: «لو أخبرتكم أنّ بسفح هذا الجبلِ خيلًا أكنتم مصَدِّقِيَّ؟» / قالوا: نعم، قال: «فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد».[١] ورُوي أنّه قال: «يا بني عبدِ المطّلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف؛ افتدوا أنفسكم مِن النار، فإنّي لا أغني عنكم شيئًا»، ثمّ قال: «يا عائشة بنت أبي بكر، ويا حفصة بنت عمر، ويا فاطمة بنت محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ويا صفيّة عمّة محمّد؛ اشترِينَ أنفسكنّ مِن النار، فإنّي لا أغني عنكنّ شيئًا».[٢]

---

[١] صحيح البخاري، ١٧٩/٦ (٤٩٧١)؛ صحيح مسلم، ١٩٣/١ (٢٠٨).

[٢] بنحوه: صحيح البخاري، ٦/٤ (٢٧٥٣)؛ صحيح مسلم، ١٩٢/١ (٢٠٦).

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لَيِّن جانبك لهم. مستعار مِن حال الطائر، فإنّه إذا أراد أن ينحطَّ خفض جناحه. و﴿مِنۡ﴾ للتبيين؛ لأنّ مَن اتّبع أعمّ ممّن اتّبع لدين أو لغيره، أو للتبعيض على أنّ المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان، أو المصدّقون باللسان فحسب.

﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ﴾ ولم يتّبعوك ﴿فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: ممّا تعملونه، أو مِن أعمالكم.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه، يَكْفِكَ شرّ مَن يعصيك منهم ومِن غيرهم. وقُرئ: "فَتَوَكَّلْ"[١] على أنّه بدل مِن جواب الشرط.

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: إلى التهجّد.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وتردّدك في تصفّح أحوال المتهجّدين، كما رُوي أنّه لمّا نُسخ فرض قيام الليل طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حِرصًا على كثرة طاعتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لِما سمع منها مِن دَنْدَنَتهم بذكر الله تعالى والتلاوة.[٢]

أو تصرّفَك فيما بين المصلّين بالقيام والركوع والسجود / والقعود إذا أمَمتَهم. [٢٣٨ظ]
وإنّما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحاله عليه السلام التي بها يستأهل ولايته

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر، وكذلك هي في مصاحف المدينة والشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٦.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٤١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٥١.

بعد أن عبّر عنه بما ينبئ عن قهر أعدائه ونصر أوليائه مِن وصفَي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تحقيقًا للتوكّل، وتوطينًا لقلبه عليه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بما تقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تنويه وتعمَله.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي: تتنزّل، بحذف إحدى التاءين، وهو استئناف مَسوق لبيان استحالة تنزُّلِ الشياطين على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد بيان امتناع تنزّلهم بالقرآن. ودخول حرف الجرّ على ﴿مَن﴾ الاستفهاميّة لِما أنّها ليست موضوعة للاستفهام، بل الأصل "أمَنْ" فحُذف حرف الاستفهام، واستمرَّ الاستعمال على حذفه كما حُذف مِن "هل"، والأصل "أهَلْ".

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ قَصرٌ لتَنَزُّلِهم على كلّ مَن اتّصف بالإفك الكثير والإثم الكبير مِن الكهنة والمتنبّئة، وتخصيصٌ له بهم بحيث لا يتخطّاهم إلى غيرهم، وحيث كانت ساحة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منزّهةً مِن أن يحوم حولها شائبةُ شيء مِن تلك الأوصاف اتّضح استحالة تنزّلهم عليه عليه السلام.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

﴿يُلْقُونَ﴾ أي: الأفّاكون ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ إلى الشياطين، فيتلقّون منهم أوهامًا وأماراتٍ لنقصان علمِهم، فيضمّون إليها بحسب تخيّلاتهم الباطلة خُرافاتٍ لا يطابق أكثرها الواقع، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما قالوه مِن الأقاويل، وقد ورد في الحديث: «الكلمة يخطَفها الجنّي فيَقُرُّها في أُذُن وَلِيّه، فيزيد فيها أكثرَ مِن مائة كَذْبة».[1]

أو يُلقون السمعَ -أي: المسموعَ- مِن الشياطين إلى الناس، وأكثرهم كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يُوحوا إليهم. والأظهر أنّ الأكثريّة باعتبار أقوالهم،

---

[1] صحيح البخاري، ٤٧/٨ (٦٢١٣)؛ صحيح مسلم، ١٧٥٠/٤ (٢٢٢٨).

على معنى أنّ هؤلاء قلّما يَصدُقون فيما يَحكون عن الجنّي، وأمّا في أكثره فهم كاذبون. ومآله وأكثر أقوالهم كاذبة، لا باعتبار ذواتهم حتّى يلزَم مِن نسبة الكذب إلى أكثرهم كونُ أقلّهم صادقين على الإطلاق. / وليس معنى "الأفّاك" [٢٣٩و] مَن لا ينطق إلّا بالإفك حتّى يمتنع منه الصدق؛ بل مَن يُكثِر الإفك، فلا ينافيه أن يصدق نادِرًا في بعض الأحايين.

وقيل: الضمير لـ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، أي: يُلقون السمعَ -أي: المسموعَ- مِن الملأ الأعلى قَبل أن رُجِموا مِن بعض المغيّبات إلى أوليائهم، وأكثرُهم كاذبون فيما يوحون به إليهم، إذ لا يسمعونهم على نحو ما تكلّمت به الملائكة لشرارتهم، أو لقصور فهمهم، أو ضبطهم، أو إفهامِهم.

ولا سبيل إلى حمل "إلقاءِ السمع" على تَسمُّعِهم وإنصاتِهم إلى الملأ الأعلى قبل الرجم كما جوّزه الجمهور، لِما أنّ ﴿يُلْقُونَ﴾ كما صرّحوا به إمّا حال مِن ضمير ﴿تَنَزَّلُ﴾[١] مفيدة لمقارَنةِ التنزّل للإلقاء، أو استئناف مُبيِّن للغرض مِن التنزّل مبنيّ على السؤال عنه. ولا ريبَ في أنّ إلقاء السمع إلى الملأ الأعلى بمَعزِل مِن احتمال أن يقارِنَ التنزّلَ أو يكونَ غرَضًا منه، لتقدّمه عليه قطعًا، وإنّما المحتمِلُ لهما الإلقاءُ بالمعنى الأوّل، فالمعنى على تقدير كونه حالًا: تنزَّل الشياطين على الأفّاكين مُلقِين إليهم ما سمِعوه مِن الملأ الأعلى، وعلى تقدير كونه جوابًا على سؤالِ مَن قال: لِمَ تَنَزّل عليهم؟ وماذا يفعلون بهم؟: يُلقون إليهم ما سمعوه.

وحملُه على استئناف الإخبار -كما فعله بعضهم-[٢] غيرُ سديد؛ لأنّ ذِكر حالهم السابقة على تنزّلهم المذكور قبله غير خَليق بجزالة التنزيل.

وأمّا على تقدير كون ضمير ﴿يُلْقُونَ﴾ للأفّاكين، فهو صفة لكلّ أفّاك، لأنّه في معنى الجمع، / سواء أريدَ بإلقاء السمع الإصغاءُ إلى الشياطين، أو إلقاءُ [٢٣٩ظ] المسموع إلى الناس. ويجوز أن يكون استئنافَ إخبارٍ بحالهم على كِلا التقديرين،[٣]

---

١ في الآية السابقة.
٢ وفي هامش م: أبو حيّان. | انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ١٩٩/٨.
٣ س: التقدير.

لِما أنّ كُلًّا مِن تلقّيهم مِن الشياطين وإلقائِهم إلى الناس يكون بَعد التنزُّل، وأن يكون استئنافًا مبنيًّا على السؤال على التقدير الأوّل فقط، كأنّه قيل: ما يفعلون عند تنزّل الشياطين عليهم؟ فقيل: يُلقون إليهم أسماعهم ليحفظوا ما يوحون به إليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ على التقدير الأوّل استئناف فقط، وعلى الثاني يحتمل الحاليّة مِن ضمير ﴿يُلْقُونَ﴾، أي: يُلقُون ما سمعوه مِن الشياطين إلى الناس، والحال أنّهم في أكثر أقوالهم كاذبون، فتدبّر.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ استئناف مَسوق لإبطال ما قالوا في حقّ القرآن العظيم مِن أنّه مِن قَبيل الشعر وأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية لحاله صلّى الله عليه وسلّم بعد إبطال ما قالوا: إنّه مِن قبيل ما يُلقي الشياطين على الكهَنة مِن الأباطيل؛ بما مرّ مِن بيان أحوالهم المُضادّة لأحواله عليه السلام. والمعنى: أنّ الشعراء يَتّبِعُهم -أي: يُجارِيهم ويَسلكُ مَسلكَهم، ويكون مِن جُملتهم- الغاوون الضالُّون عن السَّنن، الحائرون فيما يأتون وما يذرون، لا يستمرّون على وتيرة واحدة في الأفعال والأقوال والأحوال، لا غيرُهم مِن أهل الرشد المهتدين إلى طريق الحقّ الثابتين عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ استشهاد على أنّ الشعراء إنّما يتبعهم الغاوون، وتقريرٌ له، والخطابُ لكلّ مَن يتأتّى منه الرؤية للقصد إلى أنّ حالهم مِن الجلاء والظهور بحيث لا يختصّ برؤيةِ راءٍ دون راء، أي: ألَم ترَ أنّ الشعراء في كلّ وادٍ مِن أودية القيل والقال، وفي كلّ شِعْبٍ مِن شِعاب الوَهم والخيال، وفي كلّ مَسلك مِن مَسالك الغيّ والضلال يَهيمون على وجوههم، لا يهتدون إلى سبيلٍ معيّن مِن السبل؛ / بل يتحيّرون في فَيافي الغواية والسفاهة، [٢٤٠و]
ويتيهون في تِيه المُجون والوقاحة، دَيدنهم تمزيق الأعراض المحميّة، والقَدْحُ

في الأنساب الطاهرة السنيّة، والنسيبُ بالجُرَمِ،[١] والغَزَلُ،[٢] والابتهارُ،[٣] والتردّدُ بين طرفَي الإفراط والتفريط في المدح والهِجاء.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ مِن الأفاعيل غيرَ مبالين بما يستتبعه مِن اللوائم، فكيف يُتوهّم أن يتّبعهم في مَسلكهم ذلك، ويلتحقَ بهم، وينتظمَ في سِلكهم مَن تَنَزَّهَت ساحته عن أن يحوم حولَها شائبة الاتّصاف بشيء مِن الأمور المذكورة، واتَّصف بمحاسن الصفات الجليلة، وتخلّقَ بمكارم الأخلاق الجميلة، وحازَ جميع الكمالات القدسيّة، وفاز بجملة المَلَكات الأنسيّة، مستقِرًّا على المنهاج القويم، مستمِرًّا على الصراط المستقيم، ناطقًا بكلّ أمر رشيد، داعيًا إلى صراط العزيز الحميد، مؤيّدًا بمعجزات قاهرة، وآياتٍ ظاهرة، مشحونةٍ بفنون الحِكَم الباهرة، وصنوف المعارف الزاهرة، مستقلَّةٍ بنظم رائقٍ أعجَز كلّ مِنطِيقٍ[٤] ماهر، وبكّت كلّ مُفْلِقٍ[٥] ساحر.

هذا وقد قيل في تنزيهه عليه السلام مِن أن يكون مِن الشعراء: إنّ أتباعَ الشعراء الغاوُون، وأتباعُ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ليسوا كذلك. ولا ريب في أنّ تعليل عدم كونه عليه السلام منهم بكون أتباعه عليه السلام غيرَ غاوين ممّا لا يليق بشأنه العالي.

وقيل: ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾ الراوُون. وقيل: الشياطين. وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزِّبَعْرَى، وهُبَيرة بن أبي وهب المخزومي،[٦] ومسافع بن عبد مناف،[٧]

---

١ وفي هامش م: نَسَب الشاعر بالمرأة ينسِب نَسيبًا إذا شَبَّب بها. صحاح. | الصحاح للجوهري، «نسب».

٢ وفي هامش م: مغازلة النساء: محادثتهنّ ومراودتهنّ، والاسم الغَزَل. صحاح. | الصحاح للجوهري، «غزل».

٣ وفي هامش م: الابتِهار: ادّعاء الشيء كذبًا، وابتُهِر فلان بفلانة شُهِر بها. صحاح. | الصحاح للجوهري، «بهر».

٤ المِنطِيق: البليغ. الصحاح للجوهري، «نطق».

٥ شاعر مُفْلِق: مُجيد، يَجيء بالعجائب في شعره. لسان العرب لابن منظور، «فلق».

٦ هو هُبَيرة بن أبي وهب بن عامر بن عائذ بن عمران بن مخزوم، كان زوجَ أمّ هانئ بنت أبي طالب، فأسلمت وثبتَ هو على الشرك، وكان شاعرًا مِن رجال قريش المعدودين، وكان شديد العداوة لله ولرسوله فأخمله الله، ولمّا دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكّةَ هرَب هُبيرةُ إلى نَجران. انظر: الاشتقاق لابن دريد، ص ١٥٢؛ وطبقات فحول الشعراء لابن سلّام، ١/٢٣٥-٢٥٧؛ ومعرفة الصحابة لأبي نعيم، ٣/١٦٦٢.

٧ هو مسافع بن عبد مناف بن عُمير بن وَهب بن حذافة بن جمح، الشاعر، وهو الذي خرج يوم أحُد

وأبو عَزّة الجُمَحي،[١] ومِن ثقيف: أميّة بن أبي الصلت، قالوا: نحن نقول مثلَ قول محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

وقُرئ: "وَالشُّعَرَاءَ" بالنصب[٢] على إضمار فعل يفسّره الظاهر. وقُرئ: "يَتْبَعُهُمْ" على التخفيف،[٣] / و"يَتَّبِعْهُمْ" بسكون العين[٤] تَشْبِيهًا لِـ"بِعْهُ" بـ"عَضْدٍ". [٢٤٠ظ]

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يُكثِرون ذكر الله عزّ وجلّ، ويكون أكثر أشعارِهم في التوحيد والثناء على الله تعالى، والحثّ على طاعته، والحكمة والموعظة، والزهد في الدنيا، والترغيب عن الركون إليها، والزجر عن الاغترار بزخارفها، والافتتان بملاذّها الفانية، ولو وقع منهم في بعض الأوقات هجوٌ وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممّن هجاهم.

وقيل: المراد بالمستثنَيْنَ عبد الله بن رَواحة، وحسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير بن أبي سُلمى، والذين كانوا ينافِحون عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويكافحون هُجاة قريش.

وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى[٥] عنهم[٦] أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

إلى بني مالك بن كنانة يحرّضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال في ذلك شعرًا. انظر: سيرة ابن هشام، ٦١/٢؛ ونسب قريش للزبيري، ص ٩٢.

١ هو عمرو بن عبد الله، أبو عَزّة الجُمَحي، كان شاعرًا يحرّض بشعره على قتال المسلمين، وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مَنّ عليه يومَ بدر، فذهب إلى مكّة، وقال: «سَخِرتُ بمحمّد»، فلمّا كان يوم أُحُد حضرَ وحرّض بشعره على قتال المسلمين، فقتله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم صَبْرًا. تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ٥٣٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة وابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.

٣ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢٧٤/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٠٠/٨.

٥ س - تعالى.

٦ س: عنه.

قال له: «اهجُهم، فوَالذي نفسي بيده لَهُو أَشَدُّ عليهم مِن النَّبل».[١] وكان يقول لحسّان: «قُل ورُوح القدس معك».[٢]

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، لِما في ﴿سَيَعْلَمُ﴾ مِن تهويل متعلَّقه، وفي ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ مِن الإطلاق والتعميم، وفي ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ مِن الإبهام والتهويل، وقد قاله أبو بكر لعُمر رضي الله تعالى عنهما حين عَهِد إليه.[٣] وقُرئ: "أَيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ"[٤] مِن الانفلات بمعنى النجاة، والمعنى: إنّ الظالمين يطمعون أن ينفلتوا مِن عذاب الله تعالى، وسيعلمون أن ليس لهم وجه مِن وجوه الانفلات.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الشعراء كان له عشر حسنات بعدد مَن صدّق بنُوح وكذَّب به وهود وصالح وشعيب وإبراهيم، وبعدد مَن كذّب بعيسى وصدّق بمحمّد عليهم الصلاة والسلام».[٥]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٤٥/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٢/٤. ونحوه في مسند أحمد، ١٤٨/٤٥ (٢٧١٧٥).

٢ مسند أحمد، ٥٩٧/٣٠ (١٨٦٤١)؛ المستدرك للحاكم، ٥٥٥/٣ (٦٠٦٢).

٣ أخرج البيهقي في السنن الكبرى، ٢٥٧/٨-٢٥٨ (١٦٥٧٦)، أنّ أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه أوصى في مرضه، فقال لعثمان رضي الله عنه: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قُحافة عند آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وأوّل عهده بالآخرة داخلًا فيها، حين يَصدق الكاذب، ويؤدّي الخائن، ويؤمن الكافر، إنّي أستخلف بعدي عمرَ بن الخطّاب، فإن عدَل فذلك ظنّي به ورجائي فيه، وإن بدّل وجار فلا أعلم الغيب، ولكلّ امرئ ما اكتسب، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٥/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٥٠/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٢٦

سورة الشعراء

مكيّة إلاّ «والشعراء» إلى آخرها فمدني، وهي مِائَتان وسبع وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿طسم﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

٢ ـ ﴿تِلكَ﴾ أي: هذه الآياتُ ﴿آياتُ الكِتابِ﴾: القُرآنِ ـ والإضافة بمعنى: مِن ـ ﴿المُبِينِ﴾: المُظهِرِ الحقَّ من الباطل. ٣ ـ ﴿لَعَلَّكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿باخِعٌ نَفسَكَ﴾: قاتلُها غمًّا من أجل ....

سورة الشعراء

قولُه: (**اللهُ أَعلَمُ بِمُرَادِهِ**) عن ابنِ عبَّاسٍ: عجزَتِ العلماءُ عن تفسيرِها[١].

وقيل: أقسمَ اللهُ بطَوْلِهِ وسنائِهِ ومُلكِهِ[٢].

قيل: الطَّاءُ: طَرَبُ الطَّائرينَ في مَيدانِ اللُّطفِ، والسِّينُ: سُرورُ السَّائرينَ في مَيدانِ السَّترِ، والميمُ: مقامُ المحبِّينَ في ميدانِ الملكِ.

قولُه: (**هَٰذِهِ الآيَاتُ**) إشارةٌ إلى السُّورةِ.

قولُه: (**المُظْهِرِ**) أو: الظَّاهِرِ إعجازُه وصحَّتُه.

قولُه: (**مِنْ أَجْلِ**) أو: خيفَةَ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٠/ ١٤)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٤٦١) وغيرهما عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) نسب لمحمد بن كعب القرظي. انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٤٦٢).

﴿أَلاَّ يَكُونُوا﴾ أي: أهلُ مكّة ﴿مُؤْمِنِينَ﴾. ولعلّ هنا: للإشفاق، أي: أشفِقْ عليها بتخفيف هذا الغمّ ـ ٤ ـ ﴿إِن نَشَأْ نُنَزِّلْ عليهِم مِنَ السَّماءِ آيةً، فظَلَّتْ﴾ بمعنى المضارع، أي: تَظلَّل، أي: تدومُ ﴿أعناقُهُم لَها خاضِعِينَ﴾ فيُؤمنون. ولمّا وُصفَتِ الأعناقُ بالخُضوع الذي هو لأربابها جُمعَتِ الصفةُ منه جمعَ العُقَلاء ـ ٥ ـ ٦ ـ ﴿وما يأتِيهِم مِن ذِكرٍ﴾: قُرآنٍ ﴿مِنَ الرَّحمنِ مُحدَثٍ﴾: صفةٌ كاشفة ﴿إلاّ كانُوا عَنهُ مُعرِضِينَ. فقَد كَذَّبُوا﴾ به، ﴿فَسَيأْتِيهِم أنباءُ﴾: عواقبُ ﴿ما كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾.

٧ ـ ﴿أَوَلَم يَرَوا﴾: ينظروا ﴿إِلَى الأرضِ، كَم أَنبَتْنا فِيها﴾ أي: كثيرًا ﴿مِن كُلِّ زَوجٍ كَرِيمٍ﴾: نوعٍ حسَنٍ؟! ٨ ـ ﴿إِنَّ في ذلِكَ لآيَةً﴾: دلالة على كمال قُدرته ـ تعالى ـ ﴿وما كانَ أكثَرُهُم مُؤمِنِينَ﴾ في...

قولُه: (للإِشْفَاقِ) أي: إشفاقِ المخاطَبِ، فإنَّ اللهَ تعالى مُنزَّهٌ عن الخوفِ[1]، وتأويلُهُ بالأمرِ: أنّه لم يكُنْ فيه إشفاقٌ حتى يصحَّ الخبرُ[2].

قولُه: (عَلَيهَا) أن تَقتُلَها.

قولُه: (بِمَعنَى المُضَارِعِ) لأنَّ الماضِيَ في سياقِ الشَّرطِ مُضارِعٌ معنًى، فصحَّ عطفُهُ على: ﴿نُنَزِّلْ﴾.

قولُه: (أي: تَظَلَّ) أي: تَدومُ، كما في نُسخَةٍ[3] هي أصحُّ.

قولُه: (الَّذِي هُو) أي: صِفةٌ.

قولُه: (قُرآنٍ) أي: طائِفةٍ من القُرآنِ، أو: موعِظةٍ، وقيلَ: ذاكِر.

قولُه: (صِفَةٌ كَاشِفَةٌ) أي: مُحدَثٍ إتيانُهُ، وقيل: مجدَّدٍ إنزاله؛ لتكريرِ التَّذكيرَ، وتكثيرِ التَّقريرِ.

قولُه: (بِهِ) أي: بالذِّكرِ بعدَ إعراضِهِم واستهزائِهِم.

قولُه: (عَوَاقِبُ) أو: أخبارُ عظمتِهِ ورفعتِهِ.

قولُه: (حَسَنٍ) كثيرِ النَّفعِ.

قولُه: (قُدرَتِهِ) وحكمتِهِ ورحمَتِه.

---

(١) يعني: (لعل) في مثل هذا الموضع لإشفاق المتكلم، ولما استحال في حقه سبحانه جعلوه متوجها إلى المخاطب. انظر: «روح المعاني» (١٠/ ٥٩).

(٢) يعني: لما كان الإشفاق غير واقع من المخاطب أيضاً قالوا: المراد الأمر به لدلالة الإنكار المستفاد من سوق الكلام عليه. المصدر السابق.

(٣) وهي كذلك في النسخ المعتمدة في المتن.

عِلم الله تعالى ـ و«كان» قال سيبويه: زائدةٌ ـ ٩ ـ ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ﴾: ذو العِزّة ينتقم من الكافرين ﴿الرَّحِيمُ﴾ يرحم المؤمنين.

١٠ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ـ يا مُحمّد ـ لقومك ﴿إذ نادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ ليلة رأى النار والشجرة ﴿أنِ﴾ أي: بأنِ ﴿ائتِ القَومَ الظَّالِمِينَ﴾ رسولاً ١١ ـ ﴿قَومَ فِرعَونَ﴾ معه ظلموا أنفسهم بالكُفر بالله وبني إسرائيل باستعبادهم، ﴿ألا﴾ ـ الهمزة: للاستفهام الإنكاريّ ـ ﴿يَتَّقُونَ﴾ اللهَ بطاعته فيوحّدونه؟ ١٢ ـ ١٣ ـ ﴿قالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبِّ، إنِّيَ أخافُ أن يُكَذِّبُونِ، ويَضِيقُ صَدرِي﴾ من تكذيبهم لي ﴿ولا يَنطَلِقُ لِسانِي﴾ بأداء الرسالة للعُقدة التي فيه ـ ﴿فأرسِلْ إلَى﴾ أخي ﴿هارُونَ﴾ معي ـ ١٤ ـ ﴿ولَهُم عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ بقتل القِبطيّ منهم،..............................

قولُه: (عِلْمِ اللهِ) وقضائِه، فلذلكَ لا ينفَعُهُم أمثالُ هذه الآياتِ.

قولُه: (زائِدَةٌ) أشارَ إلى ضَعفِه وإن نُسِبَ إلى جَليلٍ، فإنَّ القولَ بالزِّيادةِ المجرَّدةِ في كلامِ اللهِ تعالى نقصانٌ؛ لأنَّه موهِمٌ للنَّقصِ.

قولُه: (ذُو العِزَّةِ) أي: الغالِبُ القادِرُ.

قولُه: (يَرحَمُ) أو: حيثُ أمهلَ الكافِرينَ.

قولُه: (بأَنْ) أو: أي، فمصدَريَّةٌ، أو تفسيريَّةٌ.

قولُه: (رَسُولاً) حالٌ.

قولُه: (مَعَهُ) ولعلَّ الاقتصارَ في العبارَةِ على القومِ للعِلمِ بأنَّه كانَ أولى بذلك، فإنَّه رأسُ الضُّلَّالِ، ومنشَأُ الإضلالِ، ورئيسُ الظَّالِمينَ على نفسِهِ وغيرِه.

قولُه: (الإِنْكَارِيُّ) على وجهِ التَّوبيخِ.

قولُه: (اللهَ) حقُّهُ التَّقديمُ، فإنَّه مفعولُ ﴿يَتَّقُونَ﴾.

قولُه: (أَخِي) أي: الوَحيَ[1]، أو جِبريلَ.

قولُه: (مَعِي) حال؛ أي: مُصاحِباً لي.

قولُه: (بِقَتْلِي) أي: عليَّ تَبِعتُهُ[2]، فحُذفَ المضافُ، أو سُمِّي باسمِه[3]، وإنَّما سمَّاهُ ذَنباً على زعمِهِم.

---

(١) مفعول به؛ بتقدير: فأرسل الوحيَ.

(٢) أي: ولهم علي تبعة ذنب، فحذف المضاف الذي هو «تبعة».

(٣) أي: أو سُمِّي تَبِعةُ الذَّنبِ ذنباً كما سمِّي جزاءُ السَّيِّئةِ سيِّئةً.

﴿فأخافُ أن يَقتُلُونِ﴾ به.

١٥ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى: ﴿كَلاَّ﴾ أي: لا يقتلونك. ﴿فاذهَبا﴾ أي: أنت وأخوك، ففيه تغليب الحاضر على الغائب، ﴿بِآياتِنا ـ إنّا مَعَكُم مُستَمِعُونَ﴾ ما تقولون وما يقال لكم. أُجرِيا مُجرى الجماعة ـ ١٦ ـ ﴿فائتِيا فِرعَونَ، فقُولا: إنّا﴾ كُلًّا منّا ﴿رَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ﴾ إليك، ١٧ ـ ﴿أنْ﴾ أي: بأن ﴿أرسِلْ مَعَنا﴾ إلى الشام ﴿بَنِي إسرائيلَ﴾. فأتَياه فقالا له ما ذُكر.

١٨ ـ ﴿قالَ﴾ فِرعون لمُوسَى: ﴿ألَم نُرَبِّكَ فِينا﴾ أي: في منازلنا ﴿وَلِيدًا﴾ صغيرًا...............

قولُه: (بِهِ) أي: بسَبَبِهِ، أو: بَدَله، وما كانَ هذا تعلُّلاً منهُ، بل طَلَباً للمَعونَةِ على امتثالِهِ، وتمهيدَ عذرٍ في طَلَبِها.

قولُه: (لا يَقتُلُونَكَ) الظَّاهِرُ: أنَّه رَدعٌ عن الخَوفِ مُطلَقاً.

قولُه: (الحَاضِرِ) فإنَّه أقوى، وسيَّما هو الأصلُ هنا.

وقولُهُ تعالى: (﴿مُستمعون﴾) بمعنى: سامِعونَ، ولعلَّه للمُبالغَةِ.

قولُه: (مُجْرَى الجَمَاعَةِ) ويُؤَيِّدُه قولُه تعالى: ﴿إنني معكما﴾ [طه: ٤٦]، أو: معكَ ومع أخيكَ بالعَونِ والنُّصرةِ، ومع مَن أرسِلتُما إليه بالعِلمِ والقُدرَةِ.

قولُه: (أي: كُلًّا) إشارَةٌ إلى وجهِ إفرادِ الرَّسولِ، أو لاتِّحادِهِما في الأخوَّةِ، أو في الرِّسالَةِ، أو في الشَّريعةِ، أو لأنَّ فَعولاً يستَوي فيه الواحِدُ والتَّثنيةُ والجمعُ كالعَدوِّ، أو لأنَّه مَصدرٌ في الأصلِ وُصِفَ به.

قولُه: (أي: بِأَنْ) فـ﴿إنْ﴾ مصدَريَّةٌ، أو: أي أرسِل[1]؛ لتضَمُّنِ الرَّسولِ مَعنى الإرسالِ المتضَمِّنِ مَعنى القَولِ، والمعنى: خَلِّهم يذهَبُوا معنا.

قولُه: (فأَتَيَاهُ) في «المدارِكِ»: فأتَيا بابَهُ فلم يُؤذَن لهما سَنةً، حتَّى قالَ البوَّابُ: إنَّ هاهُنا إنساناً يزعُمُ أنَّه رسولُ ربِّ العالمينَ، فقالَ: ائذَنْ له لعلَّنا نضحَكُ منه[2].

وقيل: كان على بابِهِ أُسُدٌ للحراسَةِ في اللَّيلِ، فبمُجرَّدِ رُؤيَةِ موسى وعَصاهُ شَردنَ[3]، فَدخَلا عليه.

قولُه: (صَغِيراً) في «القامُوسِ»: الوليدُ: المولودُ والصبيُّ[4].

---

(١) فهي تفسيرية.

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٥٧).

(٣) في (م): «شرد منه».

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٣٢٧).

قريبًا من الوِلادة بعد فِطامه، ﴿وَلَبِثتَ فِينا مِن عُمُرِكَ سِنِينَ﴾: ثلاثين سنة، يلبَس من ملابس فِرعون، ويركب من مراكبه وكان يُسمّى ابنه، ١٩ ـ ﴿وفَعَلتَ فَعلَتَكَ الَّتِي فَعَلتَ﴾ ـ هي قتلُه القِبطيَّ ـ ﴿وأنتَ مِنَ الكافِرِينَ﴾: الجاحدين لنِعمتي عليك بالتربيةِ وعدمِ الاستعباد؟ ٢٠ ـ ﴿قالَ﴾ مُوسَى: ﴿فَعَلتُها إذًا﴾ أي: حينئذ ﴿وأنا مِنَ الضّالِّينَ﴾ عمّا آتاني اللهُ بعدها من العلم والرسالة، ٢١ ـ ٢٢ ـ ﴿ففَرَرتُ مِنكُم لَمّا خِفتُكُم، فوَهَبَ لِي رَبِّي حُكمًا﴾: عِلمًا، ﴿وجَعَلَنِي مِنَ المُرسَلِينَ. وتِلكَ نِعمَةٌ، تَمُنُّها عَلَيَّ﴾ ـ أصله: تمنُّ بها عليَّ ـ ﴿أن عَبَّدتَ بَنِي إسرائيلَ﴾: بيانٌ لـ «تلك»، أي: اتّخذتَهم عبيدًا، ولم تستعبدني؟ لا نعمةَ لك بذلك لظُلمك باستعبادهم. وقدّر بعضهم أوّلَ الكلام همزة استفهام للإنكار.

٢٣ ـ ﴿قالَ فِرعَونُ﴾ لمُوسَى: ﴿وما رَبُّ العالَمِينَ﴾ الذي قلتَ: إنك رسوله، أي: أيُّ شيء هو؟ ولمّا لم يكن سبيل للخلق إلى معرفة حقيقته ـ تعالى ـ وإنما يعرفونه بصِفاته أجابه مُوسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ببعضها،...

وفي البيضاويِّ: طِفلاً؛ سُمِّي به لقُربِهِ من الوِلادَةِ[١].

فقَولُه: (بَعْدَ فِطَامِهِ) لا يُناسِبُه المعنى اللُّغَويُّ، ولا الحالُ الواقِعيُّ، فإنَّ فرعَونَ ربَّاهُ قبلَ الفِطامِ وبعدَه، كما هو منصوصٌ عليهما.

قولُـه: (ثَلاثِينَ سَنةٍ) قيل: لبِثَ فيهم ثلاثينَ سَنةٍ، ثمَّ خرجَ إلى مَدْينَ عشْرَ سنينَ، ثمَّ عادَ إليهم يدعوهُم إلى اللهِ ثلاثينَ، ثمَّ بقيَ بعدَ الغَرقِ خمسينَ.

قولُه: (وعَدَمِ) أي: بعدَمِ الاستِعبادِ؛ يعني: حيثُ عمدْتَ إلى قتلِ بعضِ خواصِّي، أو: حيثُ خالَفْتَني.

قولُه: (مِنَ العِلمِ) يعني: من الجاهِلينَ، وقد قُرِئَ به[٢].

قولُه: (عِلماً) أو: ولايَةَ حُكْمٍ، أو: حكمةً.

قولُه: (تَمُنُّ بِهَا) ففيه حذفٌ وإيصالٌ.

قولُه: (بَيَانٌ) لُغويٌّ، أو اصطِلاحيٌّ.

وقَولُه: (لِـ﴿تِلْكَ﴾) أي: لتلكَ النِّعمةِ، أو للَفظِ ﴿تِلْكَ﴾، فالأوّلُ على أنّه خبرُ محذوفٍ، أو بَدلُ ﴿نِعمَة﴾، والثّاني على أنَّ ﴿تلكَ﴾ إشارَةٌ إلى خَصْلةٍ شَنْعاءَ مُبهَمةٍ، و﴿أَنْ عَبَّدْتَ﴾ عَطفُ بيانِها.

قولُه: (أَيْ: أَيُّ شَيءٍ) و(مَا) للسُّؤالِ عن الحقيقةِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٣٥).

(٢) أي: (وأنا من الجاهلين). انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٠٧) عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم.

٢٤ ـ ﴿قالَ: رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ وما بَينَهُما﴾ أي: خالقُ ذلك، ﴿إن كُنتُم مُوقِنِينَ﴾ بأنه ـ تعالى ـ خالقُه فآمنوا به وحده.

٢٥ ـ ﴿قالَ﴾ فِرعون ﴿لِمَن حَولَهُ﴾ من أشراف قومه: ﴿ألا تَستَمِعُونَ﴾ جوابه الذي لم يُطابِقِ السؤالَ؟ ٢٦ ـ ﴿قالَ﴾ مُوسى: ﴿رَبُّكُم ورَبُّ آبائكُمُ الأوَّلِينَ﴾. وهذا، وإن كان داخلاً فيما قبله، يغيظ فرعون. ولذلك ٢٧ ـ ٢٨ ـ ﴿قالَ: إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرسِلَ إلَيكُم لَمَجنُونٌ. قالَ﴾ مُوسى: ﴿رَبُّ المَشرِقِ والمَغرِبِ وما بَينَهُما، إن كُنتُم تَعقِلُونَ﴾ أنه كذلك فآمنوا به وحده.

٢٩ ـ ﴿قالَ﴾ فِرعون لمُوسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذتَ إلـٰـهًا غَيرِي لَأجعَلَنَّكَ مِنَ المَسجُونِينَ﴾. كان سِجنه شديدًا، يَحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده، لا يُبصِر ولا يَسمع فيه أحدًا. ٣٠ ـ ﴿قالَ﴾ له مُوسى ﴿: أوَلَو﴾ أي: أتفعل ذلك ولو ﴿جِئتُكَ بِشَيءٍ مُبِينٍ﴾ أي: برهان بيِّن على رسالتي؟ ٣١ ـ ﴿قالَ﴾ فِرعون له: ﴿فائتِ بِهِ، إن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ فيه.

٣٢ ـ ﴿فألقَى عَصاهُ، فإذا هِيَ ثُعبانٌ مُبِينٌ﴾: حيّة عظيمة، ٣٣ ـ ﴿ونَزَعَ يَدَهُ﴾: أخرجها من جيبه، ﴿فإذا هِيَ بَيضاءُ﴾ ذات شُعاع ﴿لِلنّاظِرِينَ﴾ خِلافَ ما كانت عليه من الأُدمة.

قولُه: (فآمِنُوا) إشارَةٌ إلى أنَّ جوابَ الشَّرطِ مقدَّرٌ مُؤخَّرٌ، وقيل: هو شَرطٌ مُستَغنٍ عن الجزاءِ اجتِزاءً بما مَضى.

قولُه: (وهَذَا...إلخ) أو: عُدولٌ إلى ما يكونُ أقرَبَ إلى النَّاظرِ، وأوضَحَ عندَ المتأمِّلِ.

قولُه: (ولذَلِكَ) الغَيظِ سمَّاهُ مجنوناً؛ أي: أسألُهُ عن شَيءٍ ويُجيبُني عن آخرَ، ويُكرِّرُهُ، وأمَّا تسميتُه رسولاً فعلى السُّخريةِ، وهذا طريقُ الجاهِلِ إذا قعدَ عن الحُجَّةِ قامَ بالسَّفاهَةِ.

قولُه: (كَانَ سَجْنُهُ) بالفتحِ، مصدَرٌ.

قولُه: (أَحَداً) ولا يخرجُ حيًّا، ولهذا هدَّدَهُ به دونَ القَتلِ.

قولُه: (﴿وَلَوْ﴾) الواو للحالِ، وليَها الهمزةُ للتَّوبيخِ بعدَ حذفِ الفعلِ، و﴿لو﴾ وَصليَّة.

قولُه: (فِيْهِ) أي: في أنَّ لكَ بيِّنَةً، أو: في دَعْواكَ.

قولُه: (حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ) فاتِحةٌ فمَها، رافِعةٌ رَأسَها، قائلةٌ: مُرني يا موسى بما شِئتَ.

قولُه: (مِنْ جَيْبِهِ) أو: من تحتِ إبْطِهِ.

قولُه: (الأُدْمَةِ) لَونٌ مُشْرَبٌ سَوادًا وبَياضاً[1].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٧٤).

٣٤ ـ ﴿قالَ﴾ فِرعون ﴿لِلمَلَأِ حَولَهُ: إنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في عِلم السِّحر، ٣٥ ـ ٣٦ ـ ﴿يُرِيدُ أن يُخرِجَكُم مِن أرضِكُم بِسِحرِهِ. فماذا تأمُرُونَ؟ قالُوا: أرجِئهُ وأخاهُ﴾: أخِّرْ أمرهما، ﴿وابعَثْ في المَدائِنِ حاشِرِينَ﴾: جامعين، ٣٧ ـ ﴿يأتُوكَ بِكُلِّ سَحّارٍ عَلِيمٍ﴾ يفضُل مُوسى في عِلم السِّحر.

٣٨ ـ ﴿فجُمِعَ السَّحَرةُ لِمِيقاتِ يَومٍ مَعلُومٍ﴾ ـ وهو وقت الضُّحى من يوم الزينة ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿وقِيلَ لِلنّاسِ: هَل أنتُم مُجتَمِعُونَ، لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرةَ، إن كانُوا هُمُ الغالِبِينَ﴾؟ الاستفهام للحثّ على الاجتماع والترجّي على تقدير غلبتهم ليستمرّوا على دِينهم فلا يتبعوا مُوسى.

٤١ ـ ٤٢ ـ ﴿فلَمّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرعَونَ: أإنَّ﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ ألف بينهما على الوجهين ـ ﴿لَنا لَأجْرًا، إن كُنّا نَحنُ الغالِبِينَ؟ قالَ: نَعَم، وإنَّكُم إذًا﴾ أي: حينئذٍ ﴿لَمِنَ المُقَرَّبِينَ﴾.

٤٣ ـ ﴿قالَ لَهُم مُوسَى﴾، بعد ما قالوا له: «إمّا أن تُلقِيَ، وإمّا أن نَكُونَ نَحنُ المُلقِينَ»: ﴿ألقُوا ما أنتُم مُلقُونَ﴾. فالأمر منه للإذن بتقديم إلقائهم توسّلاً به إلى إظهار الحق..............

قولُه: (أَخِّرْ أَمْرَهُمَا) وقيل: احبِسهُما.

قولُه: (جَامِعِينَ) أي: شُرَطاً يجمَعونَ السَّحرَةَ.

قولُه: (وهُوَ وَقتُ الضُّحَى) والتَّقديرُ: لِمَا وقِّتَ فيه من ساعاتِ يومٍ مُعيَّنٍ.

قولُه: (للحَثِّ) أي: استِبطاءً لهم في الاجتماعِ حَثًّا على مُبادَرتِهم إليه، وحاصلُه: أنَّه استفهامٌ بمعنى الأمرِ.

قولُه: (فَلا يتَّبِعُوا مُوسَى) يعني: هذا مقصودُهُم الأصليُّ، لا أن يَتْبَعوا السَّحرةَ.

قولُه: (بِتَحقِيْقِ) مرَّ تحقيقُهُ مِراراً[1].

قولُه: (أي: حِينَئِذٍ) قالَ البيضاويُّ: وقُرِئَ: (نَعِمْ) بالكسرِ[2]؛ أي: بكسرِ العينِ، وهو سهوٌ؛ لأنَّه قراءَةُ الكِسائيِّ[3].

قولُه: (تَوَسُّلاً) يعني: ولم يُرِد به أمرَهُم بالسِّحرِ.

---

(١) انظر: (الرعد: ٥) عند قوله: وفي الهمزتين... إلخ.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٣٨).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨١)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٨٢).

وفي «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» (ص: ٢٨٣): لغة صحيحة لكنانة وهذيل، خلافاً لم طعن فيها، وافقه الشنبوذي.

٤٤ ـ ٤٥ ـ ﴿فألقَوا حِبالَهُم وعِصِيَّهُم، وقالُوا: بِعِزَّةِ فِرعَونَ إنّا لَنَحنُ الغالِبُونَ. فألقَى مُوسَى عَصاهُ، فإذا هِيَ تَلَقَّفُ﴾، بحذف إحدى التاءين من الأصل: تبتلعُ ﴿ما يأفِكُونَ﴾: يقلبونه بتمويههم فيُخيّلون أنّ حبالهم وعصيّهم حيّاتٌ تسعى، ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ﴿فأُلقِيَ السَّحَرةُ ساجِدِينَ، قالُوا: آمَنّا بِرَبِّ العالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وهارُونَ﴾ لِعِلمهم بأنّ ما شاهدوه من العصا لا يتأتّى بالسِّحر.

٤٩ ـ ٥٠ ـ ﴿قالَ﴾ فِرعون: ﴿آآمَنتُم﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وإبدالِ الثانية ألفًا ـ ﴿لَهُ﴾: لِمُوسى ﴿قَبلَ أن آذَنَ﴾ أنا ﴿لَكُم؟ إنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحرَ﴾، فعلّمكم شيئًا منه وغلبكم بآخَر. ﴿فلَسَوفَ تَعلَمُونَ﴾ ما ينالكم منّي، ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أيدِيَكُم وأرجُلَكُم مِن خِلافٍ﴾ أي: يدَ كُلّ واحد اليُمنى ورِجلَه اليُسرى، ﴿ولَأُصَلِّبَنَّكُم أجمَعِينَ. قالُوا: لا ضَيرَ﴾: لا ضررَ علينا في ذلك. ﴿إنّا إلَى رَبِّنا﴾ بعد موتنا، بأيّ وجه كان، ﴿مُنقَلِبُونَ﴾: راجعون في الآخرة. ٥١ ـ ﴿إنّا نَطمَعُ﴾: نرجو ﴿أن يَغفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا، أنْ﴾ أي: بأن ﴿كُنّا أوَّلَ المُؤمِنِينَ﴾ في زماننا.

٥٢ ـ ﴿وأوحَينا إلَى مُوسَى﴾ بعد سنين أقامها بينهم، يدعوهم بآيات الله إلى الحقّ، فلم يزيدوا إلاّ عُتوًّا: ﴿أنْ أسرِ بِعِبادِيَ﴾ بني إسرائيل ـ..........

قولُه: (مِنَ الأَصلِ) والبَزِّيُّ بالتَّشديدِ وَصْلاً، وحَفصٌ بالتَّخفيفِ(١).

قولُه: (يَقلِبُونَهُ) أي: عن وجهِهِ، وهي الجَماديَّةُ.

قولُه: (بتَمْوِيهِهِمْ) وتَزويرِهِم.

قولُه: (بتَحْقِيق) عُرِفَ في الأعرافِ.

قولُه: (أَنَا) مرَّ أيضاً.

قولُه: (بآخَرَ) أو: فواعدكُم ذلك وتواطأْتُم عليه.

قولُه: (بأَيِّ وَجْهٍ) أي: سَببٍ من أسبابِ الموتِ، وقتلُك أنفَعُها وأرجَاها.

قولُه: (أي: بِأَنْ) والأظهرُ: لأَنْ.

قولُه: (في زَمَانِنَا) أي: من أهلِ المشهَدِ، أو: من أتباعِ فرعَونَ.

قولُه: (يَدْعُوهُم) ويُظهِرُ لهم الآياتِ.

قولُه: (عُتُوًّا) وفساداً.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٧١)، و«حجة القراءات» (ص: ٥١٧).

وفي قراءة بكسر النون ووصل همزة «اسرِ» من سَرَى: لغة في أسرَى ـ أي: سِرْ بهم ليلاً إلى البحر. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: يتّبعكم فِرعون وجُنوده، فيَلِجُون وراءكم البحر، فأُنجيكم وأُغرِقُهم. ٥٣ ـ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أُخبر بسيرهم ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ ـ قيل: كان له ألفُ مدينةٍ واثنا عشَرَ ألفَ قريةٍ ـ ﴿حَاشِرِينَ﴾: جامعين الجيش، قائلاً: ٥٤ ـ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ﴾: طائفة ﴿قَلِيلُونَ﴾ ـ قيل: كانوا ستَّمِائةِ ألفٍ وسبعين ألفًا، ومُقدّمةُ جيشه سبعُمِائةِ ألفٍ، فقلّلهم بالنظر إلى كثرة جيشه ـ ٥٥ ـ ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾: فاعلون ما يغيظنا، ٥٦ ـ ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾: مُتيقّظون. وفي قراءة: «حاذِرُونَ»: مُستعدّون.

٥٧ ـ قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ أي: فِرعونَ وجنوده من مصرَ ليلحقوا مُوسى وقومَه ﴿مِّن جَنَّاتٍ﴾: بساتينَ كانت على جانبَي النيل، ﴿وَعُيُونٍ﴾: أنهار جارية في الدُّور من النيل، ٥٨ ـ ﴿وَكُنُوزٍ﴾: أموال ظاهرة من الذهب والفِضّة، وسُمّيت كنوزًا لأنه لم يُعطَ حقُّ الله ـ تعالى ـ منها ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: مجلس حسنٍ للأُمراء والوُزراء يحفّه أتباعهم ـ..

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) للحِرْميَّين[1].

قولُه: (بِسَيْرِهِمْ) أي: في اللَّيلِ.

قولُه: (الجَيْشَ) ليتبَعوهُم.

قولُه: (قَائِلاً) أو: قالَ لهم بعدما اجتمَعوا.

قولُه: (طَائِفَةٌ) و﴿قليلونَ﴾ باعتبارِ أنَّهم أسباطٌ، كُلُّ سبطٍ منهم قليلٌ.

قولُه: (فَاعِلُونَ) و﴿لَنَا﴾ مُتعلِّقٌ بمضمونِ ﴿غَائِظونَ﴾ لا بلَفظِهِ، فإنَّ ما بعدَ اللَّامِ لا يعمَلُ فيما قَبلَه.

قولُه: (مُتَيَقِّظُونَ) أي: لجَمْعٌ كبيرٌ من عادَتِنا الحذرُ للمُبالَغةِ.

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) لابنِ ذَكوانَ والكُوفيِّ[2].

قولُه: (مُسْتَعِدُّونَ) ومع هذا نَطلُبُ زيادَةَ الاستعدادِ، فالأوَّلُ للثَّباتِ، والثَّاني للتَّجدُّدِ.

قولُه: (وجُنُودَهُ) بأن خلقْنَا داعيةَ الخُروجِ بهذا السَّببِ المذكورِ قبلُ، فحمَلتْهم عليه.

قولُه: (ظَاهِرَةٍ) أو باطِنةٍ مَدفونةٍ زيادَةً على الأموالِ الظَّاهِرَةِ.

قولُه: (للأُمَرَاءِ) ولا مانعَ لحملِهِ على الكُلِّ، والحُسنُ إضافيٌّ، ولو بالإضافَةِ إلى النَّارِ، كما قيل في قولِهِ

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٧١).

(٢) انظر المصدر السابق.

٥٩ ـ ﴿كَذلِكَ﴾ أي: إخراجُنا كما وصفنا ـ ﴿وأورَثناها بَني إسرائيلَ﴾ بعد إغراق فِرعون وقومه ـ ٦٠ ـ ﴿فأتبَعُوهُم﴾: لحِقوهم ﴿مُشرِقِينَ﴾: وقتَ شُروق الشمس.

٦١ ـ ﴿فلَمّا تَراءَى الجَمعانِ﴾: رأى كُلّ منهما الآخَرَ ﴿قالَ أصحابُ مُوسَى: إنّا لَمُدرَكُونَ﴾: يُدرِكنا جمعُ فِرعون، ولا طاقة لنا به. ٦٢ ـ ﴿قالَ﴾ مُوسى: ﴿كَلاّ﴾ أي: لن يُدركونا. ﴿إنَّ مَعِي رَبِّي﴾ بنصره، ﴿سَيَهدِينِ﴾ طريقَ النجاة.

٦٣ ـ قال تعالى: ﴿فأوحَينا إلَى مُوسَى: أنِ اضرِبْ بِعَصاكَ البَحرَ﴾. فضربه، ﴿فانفَلَقَ﴾: انشقّ اثني عشرَ فِرقًا، ﴿فكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّودِ العَظِيمِ﴾: الجبل الضخم، بينها مسالك سلكوها، لم يبتلّ منها سرجُ الراكب ولا لِبْدُه، ....

ﷺ: «الدُّنيَا سِجنُ المؤمِنِ، وجَنَّةُ الكَافِرِ»[١].

قولُه: (إِخرَاجُنَا) فهو مصدَرٌ، أو: الأمرُ [كذلك]؛ أي: أمرُ الإخراجِ، فهو خبرٌ لمحذوفٍ.

قولُه: (وَقْتَ) حالٌ؛ أي: داخِلينَ في وَقتٍ.

قولُه: (أي: رَأَى) يعني: تَقارَبا.

قولُه: (لَن يُدْرِكُونَا) فإنَّ الله وعدَكُم الخَلاصَ.

قولُه: (بنَصْرِهِ) وعلمِهِ وهدايَتِهِ، والمعيَّةُ من المتَشابِهِ عندَ السَّلفِ.

قولُه: (طَرِيْقَ النَّجَاةِ) أي: أو[٢] منهُم، والسينُ للتَّحقيقِ والتَّأكيدِ.

قولُه: (فَضَرَبَهُ) وهو النِّيلُ، أو القُلْزُم[٣] الَّذي يتوَّصَلُ أهلُ مصرَ منه إلى الطُّورِ، وإلى مكَّةَ المشرَّفَةَ، والثَّاني: هو الأظهَرُ للمَعنى البَحريِّ، وللصَّلابةِ والسَّعةِ، وزيادَةِ عَذابِ الملوحَةِ.

قولُه: (الضَّخمِ) بكسرِ الخاءِ، والأظهرُ: المتينِ المرتَفِعِ

(بينَها مسالِكُ) قالهُ القاضي[٤]، فوقعَ مباحِثُ هنالكَ، ويرتفِعُ الإشكالُ بإرجاعِ الضَّمائرِ إلى الفِرقِ بدونِ اعتِبارِ العَدَدِ، هذا خَطرَ لي أثناءَ الكِتابَةِ.

قولُه: (لِبْدُهُ) بفتح اللَّامِ وكسرِ الباءِ: جلُّهُ.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤)، وابن ماجه (٤١١٣)، وأحمد في «مسنده» (٨٢٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كذا في النسخ، والصواب إسقاطها، ففي البيضاوي: ﴿سيهدين﴾ طريق النجاة منهم.

(٣) هو البحر الأحمر. وانظر: «معجم البلدان» (١/ ٣٤٤).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٤٠).

٦٤ ـ ﴿وأزلَفْنا﴾: قرَّبنا ﴿ثَمَّ﴾: هناكَ ﴿الآخَرِينَ﴾: فِرعونَ وقومه حتّى سلكوا مسالكهم، ٦٥ ـ ﴿وأنجَينا مُوسَى ومَن مَعَهُ أجمَعِينَ﴾ بإخراجهم من البحر على الهيئة المذكورة، ٦٦ ـ ﴿ثُمَّ أغرَقْنا الآخَرِينَ﴾: فِرعونَ وقومه بإطباق البحر عليهم، لمّا تمّ دُخولُهم البحرَ وخُروجُ بني إسرائيل منه.

٦٧ ـ ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ أي: إغراقِ فِرعونَ وقومه ﴿لَآيَةً﴾: عِبرةً لِمَن بعدَهم، ﴿وما كانَ أكثَرُهُم مُؤمِنِينَ﴾ بالله تعالى ـ لم يُؤمن منهم غيرُ آسية امرأةِ فِرعون وحِزقيلَ مؤمنِ آلِ فِرعون ومريمَ بنتِ ناموسَى التي دلّت على عِظام يوسف عليه السلام ـ ٦٨ ـ ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ﴾ فانتقم من الكافرين بإغراقهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين فأنجاهم من الغرَق.

٦٩ ـ ﴿واتلُ علَيهِم﴾ أي: كُفّارِ مكّة ﴿نَبَأَ﴾: خبرَ ﴿إبراهِيمَ﴾، ويبدل منه: ٧٠ ـ ٧١ ـ ﴿إذ قالَ لِأبِيهِ وقَومِهِ: ما تَعبُدُونَ؟ قالُوا: نَعبُدُ أصنامًا﴾، صرّحوا بالفِعل ليعطفوا عليه: ﴿فنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ﴾ أي: نُقيم نهارًا على عِبادتها. زادوه في الجواب افتخارًا به......................................

قولُه: (هُنَاكَ) يعني: ﴿ثَمَّ﴾ ظَرفٌ يُشارُ به إلى البَعيدِ.

قولُه: (فِرعَوْنَ وقَوْمَهُ) أي: من بَني إسرائيلَ، أو منَ البحرِ، أو بعضِهم من بعضٍ.

قولُه: (بإخرَاجِهِمْ) وتخليصِهم من الغَرقِ، أو: من شَرِّ فرعَونَ.

قولُه: (لَمَّا) ظَرفٌ لـ(إطبَاقِ)، أو لـ﴿أغرَقنَا﴾.

قولُه: (أي: إغرَاقِ) أو: إنجاءِ موسَى ومن معَهُ، أو: ما ذُكرَ.

قولُه: (لَعِبْرَةً) أي: عِبرةً.

قولُه: (لَم يُؤمِنْ مِنهُم) فالضَّميرُ للقِبْطِ، أو الضَّميرُ لهم ولبَني إسرائيلَ، إذ لم يؤمِنْ بها أحَدٌ ممَّن بَقيَ من مِصرَ من القِبْطِ، وبنو إسرائيلَ بعدَما نَجَوا سألوا بقرةً يَعبُدونَها، واتَّخذوا العِجلَ، وقالوا: لن نؤمِنَ لك حتى نَرى اللهَ جهرة.

وقيلَ: وما أكثَرُ النَّاسَ.

قولُه: (دَلَّتْ) يعني: مُوسى.

قولُه: (أي: كُفَّارِ مَكَّةَ) يعني: أوَّلاً.

قولُه: (نَهاراً) قيل: كانوا يعبدونَها بالنَّهارِ دونَ الليلِ، والأظهرُ: أنَّه بمَعنى لُزوم.

قولُه: (زَادُوْهُ) حيثُ لم يقتَصِروا على أصناماً، وشَرَحوا حالَهُم معها.

قولُه: (افْتِخَاراً) وتَبَجُّحاً، وهو إظهارُ الفَرحِ.

قولُه: (به) أي: بفعْلِهِم.

٧٢ ـ ٧٣ ـ ﴿قالَ: هَل يَسمَعُونكُم إذ﴾: حينَ ﴿تَدعُونَ أو يَنفعُونكُم﴾ إن عبدتموهم ﴿أو يَضُرُّونَـ﴾ ـكُم إن لم تعبدوهم؟ ٧٤ ـ ﴿قالُوا: بَل وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفعَلُونَ﴾ أي: مِثلَ فِعلنا.

٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ﴿قالَ: أفرَأيتُم ما كُنتُم تَعبُدُونَ أنتُم وآباؤُكُم الأقدَمُونَ؟ فإنَّهُم عَدُوٌّ لِيَ﴾ لا أعبدُهم، ﴿إلاّ﴾: لكنْ ﴿رَبَّ العالَمِينَ﴾ فإني أعبده، ٧٨ ـ ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهدِينِ﴾ إلى الدِّين، ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ﴿والَّذِي هُوَ يُطعِمُنِي ويَسقِينِ، وإذا مَرِضتُ فهُوَ يَشفِينِ، والَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحيِينِ، والَّذِي أطمَعُ﴾: أرجو ﴿أن يَغفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَومَ الدِّينِ﴾: الجزاءِ.

٨٣ ـ ﴿رَبِّ، هَبْ لِي حُكمًا﴾: عِلمًا، ﴿وألحِقْنِي بِالصّالِحِينَ﴾ أي: النبيّين، ٨٤ ـ ﴿واجعَلْ لِي لِسانَ صِدقٍ﴾: ثناءً حسنًا ﴿في الآخِرِينَ﴾ الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة، ٨٥ ـ ﴿واجعَلْنِي مِن وَرَثةِ جَنّةِ النَّعِيمِ﴾ أي: ممّن يُعطاها، ٨٦ ـ ﴿واغفِرْ لِأبِيَ ـ إنَّهُ كانَ مِنَ الضّالِّينَ﴾، بأن تتوب عليه فتغفر له. وهذا قبل أن يتبيّن له أنه عدوّ لله كما ذُكر في سورة «براءة» ـ.........

قولُه: (حِيْنَ) أي: هل يسمَعونَ دُعاءَكُم؟

قولُه: (كُمْ) إشارةٌ إلى أنَّ مفعولَ: ﴿يَضُرُّونَ﴾ وكذا مَفعولُ: ﴿تَدعُونَ﴾ ـ وهو: هم ـ مَتروكٌ للفاصِلةِ.

قولُه: (مِثْلَ فِعلِنَا) أي: فِعلاً مثلَ ذلكَ الفِعلِ، فنصبُهُ على أنّه صفةُ مَصدرٍ مَحذوفٍ، يعني: التَجَؤوا إلى التَّقليدِ.

قولُه: (لَكِنْ) يَعني: الاستِثْناءُ مُنقَطِعٌ.

قولُه: (إلَى الدِّيْنِ) لأنّهُ يَهدي كُلَّ مَخلوقٍ لِمَا خُلِقَ له من أمورِ المَعاشِ والمَعادِ.

وقَولُه تعالى: (﴿وإذا مرضت﴾) فيه رِعايَةُ حُسنِ أَدبٍ، حيثُ لم يقُل: أمرَضَني.

قولُه: (﴿أَطمَعُ﴾) قيل: أخرَجَ سؤالَهُ على حُكمِ الأدبِ، حيثُ لم يحكُم على ربِّه بالمغفِرةِ، ولكنَّه قالَ: أطمَعُ طمَعَ العَبيدِ في مَواليهم وإن لم يستَحِقُّوا شيئاً.

قولُه: (يَومَ الجَزَاءِ) وحسناتُ الأبرارِ سيِّئاتُ المقرَّبينَ، أو هَضْماً لنفسِهِ، وتعليماً لغيرِهِ.

قولُه: (عِلْماً) كَمالًا في العِلمِ والعَمَلِ.

قولُه: (أي: النَّبِيِّيْنَ) يعني: الكامِلينَ في الصَّلاحِ.

قولُه: (ثَنَاءً) مَجازٌ بذكرِ آلَةِ الثَّناءِ وإرادتِهِ، وأضيفَ الموصوفُ إلى الصِّفَةِ.

قولُه: (يُعطَاهَا) يعني: من غيرِ كَدٍّ وتعبٍ ومحنَةٍ بكَ، بل بالفضلِ والرَّحمةِ.

٨٧ ـ ﴿ولا تُخزِنِي﴾: تَفضحْني ﴿يَومَ يُبعَثُونَ﴾ أي: الناسُ.

٨٨ ـ قال تعالى فيه: ﴿يَومَ لا يَنفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ﴾ أحدًا، ٨٩ ـ ﴿إلاّ﴾: لكنْ ﴿مَن أتَى اللهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشِّركِ والنِّفاق ـ وهو قلب المؤمن ـ فإنه ينفعه ذلك، ٩٠ ـ ﴿وأُزلِفَتِ الجَنَّةُ﴾: قُرِّبتْ ﴿لِلمُتَّقِينَ﴾ فيرونها، ٩١ ـ ﴿وبُرِّزَتِ الجَحِيمُ﴾: أُظهِرتْ ﴿لِلغاوِينَ﴾: الكافرين، ٩٢ ـ ٩٣ ـ ﴿وقِيلَ لَهُم: أينَ ما كُنتُم تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه من الأصنام؟ ﴿هَل يَنصُرُونكُم﴾ بدفع العذاب عنكم، ﴿أو يَنتَصِرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم؟ لا. ٩٤ ـ ٩٥ ـ ﴿فكُبكِبُوا﴾: أُلقُوا ﴿فِيها هُم والغاوُونَ، وجُنُودُ إبلِيسَ﴾: أتباعُه ومن أطاعه من الجنّ والإنس ﴿أجمَعُونَ﴾.

قولُه: (تَفضَحْنِي) بنقصِ رُتبَتي عن الصَّالِحينَ، أو بمُعاتبَتي على سيِّئاتي.

قولُه: (أي: النَّاسُ) الأولى: العبادُ، وإن لم يُسبَق ذِكرُهم؛ لأنَّهم معلومونَ.

قولُه: (فِيهِ) أي: في شأنِ ذلك اليومِ، والظَّاهرُ: أنَّه من تتمَّةِ كلامِ الليلِ بَدلاً من: ﴿يَومِ يُبعَثُون﴾.

قولُه: (لكِن) يعني: الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ، والمعنى: ولكنْ سَلامةُ مَن أتى اللهَ بقلبٍ سَليمٍ تنفعُه، أو الاستثناءُ مُتَّصلٌ؛ أي: لا ينفَعانِ أحداً إلا مُخلِصاً سليمَ القَلبِ عن الكُفرِ والمعاصِي وسائرِ آفاتِهِ؛ لأنَّه أنفَقَ مالهُ في الخيرِ، وأرشَدَ بنيهِ إلى الحقِّ.

قولُه: (فيَرَونَهَا) من الموقفِ، فيفرَحونَ بأنَّهم المحشُورونَ إليها.

قولُه: (الكَافِرِينَ) فيَرونَها مكشُوفَةً، ويتحَسَّرونَ على أنَّهم المسوقونَ إليها، واللَّامُ للاختصاصِ، أو للمُشاكَلةِ، أو للتَّهكُّمِ، والظَّاهرُ: أنَّ كُلًّا يرونَ مكانَهُ فقط، ويُمكِنُ أن يَرى كلٌّ كلًّا ليَزيدَ السُّرورُ للأبرارِ، وليتضاعفَ الحُزنُ على الفُجَّارِ، كما وردَ في القَبرِ(١)، والله أعلمُ.

قولُه: (منَ الأَصْنَامِ) التي كنتُم تزعُمونَ أنَّها شُفعاءُ.

قولُه: (أُلْقُوا) يعني: الآلهَةَ وعبدتُهم.

قولُه: (أَتبَاعُهُ) أو شياطينُهُ، وهو مُقدَّمهُم، فلا يتخلَّفُ عنهُم، ولذا لم يُذكَر كما لم يُذكَر فرعونُ في كثيرٍ من المواضعِ اكتفاءً بذِكرِ قومِهِ.

---

(١) روى ابن ماجه (٤٢٦٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٣١١٣)، والحاكم في «المستدرك» (١٤٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «...ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقال له: هذا مقعدك منها، وما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسروراً، ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال له: هذا مقعدك منها، وما أعد الله لك فيها لو عصيته، فيزداد غبطة وسروراً...»، ثم قال في الكافر: «...ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال له: هذا مقعدك من النار، وما أعدَّ الله لك فيها، فيزداد حسرة وثبوراً، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقال له: ذلك مقعدك من الجنة، وما أعد الله لك فيه لو أطعته فيزداد حسرة وثبوراً...» الحديث.

٩٦ ـ ﴿قالُوا﴾ أي: الغاوون، ﴿وهُم فِيها يَختَصِمُونَ﴾ مع معبوديهم: ٩٧ ـ ﴿تاللهِ، إنْ﴾: مُخفّفةٌ من الثقيلة واسمها محذوف، أي: إنّه ﴿كُنّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيّن، ٩٨ ـ ﴿إذْ﴾: حيثُ ﴿نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العالَمِينَ﴾ في العِبادة، ٩٩ ـ ﴿وما أضَلَّنا﴾ عن الهُدى ﴿إلاّ المُجرِمُونَ﴾ أي: الشياطينُ أو أوّلونا الذين اقتدَينا بهم! ١٠٠ ـ ﴿فما لَنا مِن شافِعِينَ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والنبيّين والمؤمنين، ١٠١ ـ ﴿ولا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي: يُهمّه أمرنا. ١٠٢ ـ ﴿فلَو أنَّ لَنا كَرَّةً﴾: رجعةً إلى الدنيا، ﴿فنكُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ﴾. «لو» هنا: للتمني، ونكون: جوابه.

١٠٣ ـ ١٠٤ ـ ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ من قِصّة إبراهيم وقومه ﴿لآيَةً، وما كانَ أكثَرُهُم مُؤمِنِينَ، وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

١٠٥ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَومُ نُوحٍ المُرسَلِينَ﴾ بتكذيبهم له لاشتراكهم في المجيء بالتوحيد، أو لأنه لطول لَبثه فيهم كأنه رُسُلٌ ـ وتأنيثُ «قوم» باعتبار معناه وتذكيرُه باعتبار لفظه ـ..........

قولُه: (أي: الغَاوُونَ) يعني: العبدَة.

قولُه: (مَعَ معبُودِيهِم) بأن أنْطقَ اللهُ الأصنامَ.

قولُه: (حَيثُ) ظرفيّةٌ، أو تعليليّةٌ.

قولُه: (أي: الشَّياطِينُ) أو الرُّؤساءُ.

قولُه: (مِنَ المَلائِكَةِ) بيانٌ لـ﴿شَافِعِين﴾.

قولُه: (يُهِمُّهُ) أي: قَريبٍ، أو مُهتَمٍّ، أو خَاصَّةٍ؛ إذ الأخلاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلَّا المتَّقينَ، وجمَعَ الشَّافعَ ووحَّدَ الصَّديقَ لإطلاقِ الصَّديقِ على الجمعِ كالعدوِّ؛ لأنّه في الأصلِ مصدَرٌ، والعُدولُ لكَثْرةِ الشُّفعاءِ في العادَةِ وقلَّةِ الصَّديقِ[1].

قولُه: (وقَوْمِهِ) وهو مَرجِعُ ضَميرِ: ﴿أكثرُهم﴾.

قولُه: (مَعنَاهُ) وهو الجماعَةُ، أو الأمَّةُ.

قولُه: (وتَذكِيرُهُ) يعني: أنَّ القومَ يذكَّرُ ويؤنَّثُ بالاعتبارَين.

---

(١) قوله: «والعدول» كذا في النسخ، ولعل الصواب: «أو العدول» يعني: هو وجه آخر في تعليل جمع الشافع وتوحيد الصديق، هكذا ذكرهما الزمخشري والبيضاوي وجهين في التعليل، وعبارة الزمخشري: فإن قلتَ: لم جُمِع الشافِعُ ووُحِّد الصَّديقُ؟ قلتُ: لكَثْرة الشفعَاءِ في العادة وقلَّةِ الصَّديق، ألا تَرَى أنَّ الرَّجل إذا امتُحِنَ بإرْهَاقِ ظَالمٍ نهَضَت جماعةٌ وافرةٌ من أهل بَلدِه لشَفاعتِه رَحْمةً له وحِسْبةً وإن لم تَسبِقْ له بأكثرِهم مَعْرِفةٌ، وأمَّا الصَّديقُ وهو الصَّادِقُ في وِدادك الَّذي يُهِمُّهُ ما أهمَّكَ فأعَزُّ مِن بَيْضِ الأنُوقِ. ويجوز أن يُريدَ بالصَّديق: الجَمع.

١٠٦ ـ ﴿إذ قالَ لَهُم أخُوهُم﴾ نَسَبًا ﴿نُوحٌ: ألا تَتَّقُونَ﴾ اللهَ ١٠٧ ـ ﴿إنّي لَكُم رَسُولٌ أمِينٌ﴾ على تبليغ ما أُرسلتُ به. ١٠٨ ـ ﴿فاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من توحيد الله وطاعته ـ ١٠٩ ـ ١١٠ ـ ﴿وما أسألُكُم علَيهِ﴾: على تبليغه ﴿مِن أجرٍ. إنْ﴾: ما ﴿أجرِيَ﴾ أي: ثوابي ﴿إلاّ علَى رَبِّ العالَمِينَ ـ فاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ﴾ كرّره تأكيدًا.

١١١ ـ ﴿قالُوا: أنُؤمِنُ﴾: نُصدّق ﴿لَكَ﴾: لقولك، ﴿واتَّبَعَكَ﴾ ـ وفي قراءة: «وأتباعُكَ»: جمع تابع مبتدأ ـ ﴿الأرذَلُونَ﴾: السَّفَلة كالحاكة والأساكفة؟ ١١٢ ـ ١١٣ ـ ﴿قالَ: وما عِلمِي﴾: أيُّ عِلمٍ لي ﴿بِما كانُوا يَعمَلُونَ؟ إنْ﴾: ما ﴿حِسابُهُم إلاّ علَى رَبِّي﴾ فيُجازيهم ـ ﴿لَو تَشعُرُونَ﴾: تعلمون ذلك ما عيَّرتموهم ـ ١١٤ ـ ١١٥ ـ ﴿وما أنا بِطارِدِ المُؤمِنِينَ. إنْ﴾: ما ﴿أنا إلاّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنُ الإنذار.

١١٦ ـ ﴿قالُوا: لَئِنْ لَم تَنتَهِ ـ يا نُوحُ﴾ عمّا تقول لنا ـ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ المَرجُومِينَ﴾ بالحِجارة أو بالشتم. ١١٧ ـ ١١٨ ـ ﴿قالَ﴾ نوح: ﴿رَبِّ، إنَّ قَومِي كَذَّبُونِ. فافتَحْ بَينِي وبَينَهُم فَتحًا﴾ أي: احكُم،

قولُه: (نَسَباً) لأنَّه كان منهم، قيل: وُلِدَ نوحٌ في زمنِ آدمَ.

قولُه: (اللهَ) فتترُكوا عبادَةَ غيرِه؛ أي: مُخالَفتَه، أو عقابَهُ.

قولُه: (على تَبْلِيغِ) أي: مشهُورٌ بالأمانَةِ فيكُم.

قولُه: (تَأكِيداً) وتنبيهاً على دلالةِ كُلٍّ واحدٍ من أمانتِهِ وقطعِ طمَعهِ على وجوبِ طاعتِهِ، فكيف إذا اجتَمعا؟

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) ليَعقوبَ[1]، وهو من العشَرةِ، فخرجَ الشَّيخُ عن طريقَتِه.

قولُه: (السَّفَلَةُ) أي: الأقلُّونَ جاهاً ومالاً.

قولُه: (أي: لا عِلْمَ لِي) بأنَّهُم عمِلوهُ إخلاصاً أو طَمَعاً في طُعمَةٍ، وما عليَّ إلا اعتبارُ الظَّاهرِ.

قولُه: (فيُجَازِيهم) ببواطِنِهم.

قولُه: (مَا عَبَدتُّمُوهُم) تصحيفٌ، والصَّوابُ: ما عيَّرتُموهُم[2] بالخُمولِ والفقرِ.

قولُه: (الإِنْذَارِ) أي: للمُكلَّفينَ عُموماً سواءٌ كانوا أعزَّاءَ أو أذلاءَ، فكيف يليقُ بي طَردُ الفقراءِ لاستتباعِ الأغنياءِ كما استَدْعيتُم[3]؟!

---

(١) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٣٢٧)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٣٥).

(٢) وهكذا هو في النسخ المعتمدة في المتن.

(٣) أي: استدعيتم طردهم وطلبتموه ووقفتم إيمانكم عليه.

﴿ونَجِّني ومَن مَعِي مِنَ المُؤمِنِينَ﴾.

١١٩ ـ قال تعالى: ﴿فأنجَيناهُ ومَن مَعَهُ في الفُلكِ المَشحُونِ﴾: المملوء من الناس والحيوان والطير، ١٢٠ ـ ﴿ثُمَّ أغرَقنا بَعدُ﴾: بعدَ إنجائهم ﴿الباقِينَ﴾ من قومه. ١٢١ ـ ١٢٢ ـ ﴿إنَّ في ذلِكَ لآيَةً، وما كانَ أكثَرُهُم مُؤمِنِينَ، وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

١٢٣ ـ ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧ ـ ١٢٨ ـ ﴿كَذَّبَتْ عادٌ المُرسَلِينَ إذ قالَ لَهُم أخُوهُم هُودٌ: ألا تَتَّقُونَ. إنِّي لَكُم رَسُولٌ أمِينٌ. فاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ. وما أسألُكُم علَيهِ مِن أجرٍ. إنْ﴾: ما ﴿أجرِيَ إلاّ علَى رَبِّ العالَمِينَ. أتَبنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾: مكانٍ مُرتفع ﴿آيَةً﴾: بناءً عَلَمًا للمارّة، ﴿تَعبَثُونَ﴾ بمن يمرّ بكم وتسخرون منهم ـ والجملة: حال من ضمير «تبنون» ـ ١٢٩ ـ ﴿وتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ﴾ للماء تحت الأرض، ﴿لَعَلَّكُم﴾: كأنّكم ﴿تَخلُدُونَ﴾ فيها لا تموتون، ....

وقَولُه: (﴿ونَجِّني﴾) أي: من قصدِهِم، أو من شُؤمِ عملِهِم.

قولُهُ تعالى: (﴿كذبت عاد﴾) أنَّثَ باعتبارِ القبيلةِ، وهو في الأصلِ اسمُ أبيهِم، وفي تصديرِ القصَصِ بها دَلالةٌ على أنَّ البعثَةَ مُنحَصِرةٌ في الدُّعاءِ إلى المعرفَةِ والطَّاعةِ فيما يُقرِّبُ إلى الثَّوابِ ويبعِّدُ عن العِقابِ، وأنَّ الأنبياءَ متَّفِقونَ على ذلك وإن اختَلَفوا في بعضِ التَّفاريعِ، وأنَّهم مبرَّؤُونَ عن المطامعِ الدُّنيَويَّةِ والأغراضِ الدَّنِيَّةِ، والعلماءُ ورثةُ الأنبياءِ[1]، فيَنبَغي أن يكونوا كذلك في جميعِ ما هنالِك.

قولُه: (بِنَاءً) مفعولٌ مُطلقٌ.

وقولُـه: (عَلَمًا) علَّـةٌ، أو: (بناءً)؛ بمعنى: بُنْياناً، والواو بمعنى: أو، وهـو الظَّاهرُ المفهومُ من كَلامِ القاضِي، فإنَّـه قـال: عَلمـاً للمـارَّةِ ﴿تعبَثـونَ﴾ ببنائِهـا؛ إذ كانـوا يهتَـدونَ بالنُّجومِ في أسـفارِهِم فـلا يحتاجـونَ إليها[2]. وفيه نظرٌ ظاهرٌ.

ثمَّ قال: أو بُنياناً يجتَمِعونَ إليها للعبثِ بمن يمرُّ عليهم، أو قُصوراً يفتَخِرونَ بها[3].

قولُه: (للمَاءِ) أي: مآخذَ الماءِ، وقيل: قُصوراً مُشَيَّدَةً وحُصُوناً.

قولُه: (لا تَمُوتُونَ) فتُحكِمون بُنيانَها.

(١) روى أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وفيه: «إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر».

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٤٥).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٤٥).

١٣٠ ـ ﴿وإذا بَطَشتُم﴾ بضربٍ أو قتلٍ ﴿بَطَشتُم جبّارِينَ﴾ من غيرِ رأفة؟ ١٣١ ـ ﴿فاتَّقُوا اللهَ﴾ في ذلك، ﴿وأطِيعُونِ﴾ فيما أمرتكم به، ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ ١٣٤ ـ ﴿واتَّقُوا الَّذِي أمَدَّكُم﴾: أنعم عليكم ﴿بِما تعلَمُونَ، أمَدَّكُم بِأنعامٍ وبَنِينَ وجَنّاتٍ﴾: بساتينَ ﴿وعُيُونٍ﴾: أنهار. ١٣٥ ـ ﴿إنِّيَ أخافُ علَيكُم عَذابَ يَومٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، إن عصيتموني.

١٣٦ ـ ﴿قالُوا: سَواءٌ علَينا﴾: مُستوٍ عندنا ﴿أوَعَظتَ أم لَم تَكُن مِنَ الواعِظِينَ﴾ أصلاً أي: لا نَرْعَوِي لِوَعظك. ١٣٧ ـ ﴿إنْ﴾ ما ﴿هذا﴾ الذي خوّفتنا به ﴿إلاّ خَلْقُ الأوَّلِينَ﴾ أي: اختلاقهم وكذبهم ـ وفي قراءة بضمّ الخاء واللام، أي: ما هذا الذي نحن عليه من أنْ لا نُبعثُ إلاّ خُلق الأوّلين أي: طبيعتهم وعادتهم ـ ١٣٨ ـ ١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ﴿وما نَحنُ بِمُعَذَّبِينَ. فكَذَّبُوهُ﴾ بالعذاب، ﴿فأهلَكْناهُم﴾ في الدنيا بالريح. ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآيَةً، وما كانَ أكثَرُهُم مُؤمِنِينَ، وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قولُه: (بضَرْبٍ أَوْ قَتْلٍ) وقيل: بسَوطٍ أو سَيفٍ، والبَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، ولذا قالَ في «المدارِك»: أَخَذتُم أَخْذًا بعُقوبَة، والجبّارُ: الَّذي يضرِبُ ويقتُلُ على الغضبِ[1].

قولُه: (مِنْ غَيرِ رَأفَةٍ) ورِقَّةٍ ورَحمَةٍ، ولا قَصْدِ تأديبٍ ونظَرٍ في العاقِبةِ.

قولُه: (فِي ذَلِكَ) بتَركِ ما ذُكرَ من ذلك وأمثالِهِ.

قولُه: (أَنهَارٍ) تفصيلٌ لبعضِ النِّعمِ المجملَةِ.

قولُه: (إِنْ عَصَيتُمُونِي) فإنَّه كما قَدرَ على الإنعامِ قدرَ على الانتِقامِ.

قولُه: (لا نَرْعَوِي) أي: لا نرجِعُ عمَّا نحنُ عليه.

قولُه: (وكَذِبُهُمْ) أو: ما خَلقُنا هذا إلا خَلقُهُم نَحيا ونَموتُ مثلَهُم، ولا بَعثٌ ولا حسابٌ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ وعاصمٍ وحمزَةَ[2].

قولُه: (وعَادَتُهُم) ونحنُ بهم مُقتَدونَ، أو: ما هذا الَّذي جئتَ به إلا عادةُ الأوَّلينَ كانوا يزوِّرونَ مثلَهُ، أو: ما هذا الذي نحنُ عليه من الحياةِ والموتِ إلا عادةٌ قديمةٌ لم يزلْ عليها النَّاسُ، والأولى تطبيقُ القِراءتَين.

قولُه: (بالعَذَابِ) أي: بمجيئِهِ.

قولُه: (بالرِّيحِ) الصَّرصَرِ.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٧٤).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٧٢).

١٤١ ـ ١٤٢ ـ ١٤٣ ـ ١٤٤ ـ ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٤٧ ـ ١٤٨ ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ المُرسَلِينَ إذ قالَ لَهُم أخُوهُم صالِحٌ: ألا تَتَّقُونَ. إنِّي لَكُم رَسُولٌ أمِينٌ. فاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ ـ وما أسألُكُم علَيهِ مِن أجرٍ. إن﴾: ما ﴿أجرِيَ إلاّ علَى رَبِّ العالَمِينَ. أتُترَكُونَ فِيما هٰهُنا﴾ من الخيرات ﴿آمِنِينَ في جَنّاتٍ وعُيُونٍ وزُرُوعٍ ونَخلٍ طَلعُها هَضِيمٌ﴾: لطيف ليّن، ١٤٩ ـ ﴿وتَنحِتُونَ مِنَ الجِبالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾: بَطِرين؟ وفي قراءة: «فارِهِينَ»: حاذِقين ـ ١٥٠ ـ ﴿فاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ﴾ فيما آمرُكم به، ١٥١ ـ ١٥٢ ـ ﴿ولا تُطِيعُوا أمرَ المُسرِفِينَ الَّذِينَ يُفسِدُونَ في الأرضِ﴾ بالمعاصي، ﴿ولا يُصلِحُونَ﴾ بطاعة الله.

١٥٣ ـ ﴿قالُوا: إنَّما أنتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ﴾ الذين سُحِّروا كثيرًا حتّى غُلب على عقلهم. ١٥٤ ـ ﴿ما أنتَ﴾ أيضًا ﴿إلاّ بَشَرٌ مِثلُنا. فائتِ بِآيَةٍ، إن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ في رِسالتك. ١٥٥ ـ ١٥٦ ـ ﴿قالَ: هٰذِهِ ناقَةٌ، لَها شِربٌ﴾: نصيب من الماء، ﴿ولَكُم شِربُ يَومٍ مَعلُومٍ. ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ، فيأخُذَكُم عَذابُ يَومٍ عَظِيمٍ﴾ بعِظَم العذاب. ١٥٧ ـ ﴿فعَقَرُوها﴾ أي: عقرها بعضهم برضاهم، ﴿فأصبَحُوا نادِمِينَ﴾ على عقرها، ١٥٨ ـ ١٥٩ ـ ﴿فأخَذَهُمُ العَذابُ﴾ الموعود به فهلكوا. ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآيَةً، وما كانَ أكثَرُهُم مُؤمِنِينَ، وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قولُه: (مِنَ الخَيرِ) إنكارٌ لأن يُترَكوا كذلك.

قولُه: (لطِيفٌ) للُطفِ الثَّمرِ، فالطَّلعُ مجازٌ عن الثَّمرِ.

قولُه: (لَيِّنٌ) نضيجٌ، كأنَّه قال: ونَخلٌ قد أَرطَبَ ثَمَرُه، وإفرادُ النَّخلِ لفَضْلهِ على سائرِ أشجارِ الجنَّاتِ، أو المرادُ بها: غيرُها من الأشجارِ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) شاميٌّ وكوفيٌّ[1].

قولُه: (حَاذِقِيْنَ) المعنيانِ[2] لكُلٍّ منهما لا فرقَ بينهُما، إلا أنَّ الأوَّلَ أبلَغُ.

قولُه: (بطَاعَةِ اللهِ) فالعطفُ للدَّلالَةِ على خُلوصِ فسادِهِم.

قولُه تعالى: (﴿ولا تمسُّوها بسوء﴾) كمزاحَمَةٍ في شُربِها، وكضَربٍ وعَقْرٍ.

قولُه: (لعِظَمِ العَذَابِ) أي: عظَّمَ اليومَ لعِظَمِ ما يحلُّ فيه، و[هو] أبلغُ من تعظيمِ العذابِ.

قولُه: (برِضَاهُم) ولذلك أُسندَ العَقْرُ إلى كُلِّهم، وأُخِذوا جميعاً.

قولُه: (عَلَى عَقْرِهَا) خَوفاً من حُلولِ العَذابِ لا تَوبةً، أو: عندَ مُعايَنةِ العَذابِ، ولذلك لم ينفَعْهُم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٧٢).

(٢) أي: بطرين وحاذقين.

١٦٠ ـ ١٦١ ـ ١٦٢ ـ ١٦٣ ـ ١٦٤ ـ ١٦٥ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَومُ لُوطٍ المُرسَلِينَ إذ قالَ لَهُم أخُوهُم لُوطٌ: ألا تَتَّقُونَ. إنّي لَكُم رَسُولٌ أمِينٌ. فاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ. وما أسألُكُم علَيهِ مِن أجرٍ. إن﴾: ما ﴿أجرِيَ إلاّ علَى رَبِّ العالَمِينَ. أتأتُونَ الذُّكرانَ مِنَ العالَمِينَ﴾ أي: الناسِ، ١٦٦ ـ ﴿وتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُم رَبُّكُم مِن أزواجِكُم﴾ أي: أقبالَهنّ؟ ﴿بَل أنتُم قَومٌ عادُونَ﴾: مُتجاوزون الحلال إلى الحرام.

١٦٧ ـ ﴿قالُوا: لَئِنْ لَم تَنتَهِ ـ يا لُوطُ﴾ ـ عن إنكارك علينا ﴿لتكُونَنَّ مِنَ المُخرَجِينَ﴾ من بلدتنا. ١٦٨ ـ ﴿قالَ﴾ لوط: ﴿إنِّي لِعَمَلِكُم مِنَ القالِينَ﴾: المُبغضِين. ١٦٩ ـ ﴿رَبِّ، نَجِّنِي وأهلِي مِمّا يَعمَلُونَ﴾ أي: من عذابه.

١٧٠ ـ ١٧١ ـ ﴿فنَجَّيناهُ وأهلَهُ أجمَعِينَ إلاّ عَجُوزًا﴾ امرأتَه ﴿في الغابِرِينَ﴾:..................

قولُه: (أي: النَّاسِ) أي: أتأتونَ الذُّكرانَ من أولادِ آدمَ مع كثرَتِهم وغلبَةِ الإناثِ فيهم كأنَّهُنَّ قَد أعوَزنَكم، أو: أتأتونَ من بَينِ مَن عَداكُم من العالمينَ الذُّكرانَ لا يُشاركُكم فيه غيرُكم، فالمرادُ بـ﴿العَالَمِينَ﴾: كُلُّ من يَطأُ، وهذا أظهرُ مَعنًى، والأوَّلُ أنسَبُ لكلامِ المصنِّف.

قولُه: (أي: أقْبَالهنَّ) فـ﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ، والمرادُ بـ﴿مَا خَلَقَ﴾: العُضوُ المباحُ منهنَّ، فيكونُ تعريضاً بأنَّهُم كانوا يفعلونَ مثلَ ذلك بنسائِهم أيضاً، كذا قيل، ويرِدُ عليه شيئانِ: عَرضُ لوطٍ بناتَهُ عليهم، وجوابُهم: ﴿لقدْ عَلِمتَ مَا لنَا في بَنَاتِكَ مِن حَقٍ وإنَّك لَتَعلَمُ مَا نُريدُ﴾ [هود: ٧٩]، فالأصحُّ أنَّ ﴿مِن﴾ لبيانِ ﴿مَا﴾ وأُريدَ به جنسُ الإناثِ.

قولُه: (الحَلالَ) أو: مُتَجاوِزونَ عن حدِّ الشَّهوةِ حيثُ زادوا على سائرِ النَّاسِ بل الحيَواناتِ، أو: مفرِطونَ في المعاصي، وهذا من جملَةِ ذلك.

قولُه: (إنْكَارِكَ) أي: نهيِنا، أو تقبيحِ أمرِنا، أو: عمَّا تدَّعيهِ.

قولُه: (مِن بلدَتِنَا)(١) ولعلَّهُم كانوا يُخرِجونَ من أخرَجوهُ على عُنفٍ وسوءِ حالٍ.

قولُه: (المُبغِضِينَ) غايةَ البُغضِ، فإنَّ القِلَى هو البُغضُ الشَّديدُ كأنَّه بُغْضٌ يَقلي الفُؤادَ والكَبِدَ؛ أي: يشويهما.

قولُه: (عَذَابِهِ) أي: عذابِ عملِهم وشُؤمِهِ.

قولُهُ تعالى: (﴿وأهلَه﴾) أي: أهلَ بيتِهِ، والمتَّبِعينَ له على دينِه بإخراجِهم من بينِهم وقت قُربِ حُلولِ العذابِ بهم.

---

(١) في (د): «بلدنا».

الباقين أهلكناها، ١٧٢ ـ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنا الآخَرِينَ﴾: أهلكناهم، ١٧٣ ـ ﴿وأمطَرْنا علَيهِم مَطَرًا﴾: حِجارة من جُملة الإهلاك، ﴿فساءَ مَطَرُ المُنذَرِينَ﴾ مطرُهم! ١٧٤ ـ ١٧٥ ـ ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآيةً، وما كانَ أكثَرُهُم مُؤمِنِينَ، وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

١٧٦ ـ ١٧٧ ـ ١٧٨ ـ ١٧٩ ـ ١٨٠ ـ ١٨١ ـ ﴿كَذَّبَ أصحابُ الأَيْكةِ﴾ ـ وفي قراءة بحذفِ الهمزة وإلقاءِ حركتها على اللام وفتحِ الهاء ـ ....

قولُه: (البَاقِيْنَ) أي: مُقدَّرةً في الباقينَ في العذابِ إذ أصابَها حَجرٌ في الطَّريقِ فأهلَكَها؛ لأنَّها كانت مائلةً إلى القومِ راضيةً بفعلِهم.

وقيل: كانت فيمَن بقيَ في القريَةِ، فإنَّها لم تخرُجْ مع لوطٍ.

قولُه: (مِنْ جُمْلَةِ الإهلَاكِ) إذ من جُملَتِه جعلُ عالِيْها سافِلَها، وقيل: أمطَرَ اللهُ على شُذَّاذِ القومِ حجارَةً فأهلَكهُم.

قولُه: (مَطَرُهُم) يعني: المخصُوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) للحِرْميِّين والشَّاميِّ[1].

قولُه: (وفَتْحِ الهَاءِ) تبعَ الشَّيخُ في هذا الإعلالِ البَيضاويَّ[2]، وهو يشكِلُ بفتحِ التَّاءِ إلا على لُغةِ مَن يقولُ: مَرَرْتُ بِلَحْمَرَ، في: بني الأحمَرِ، بفَتحِ الآخِرِ[3]، إلا أنَّ عبارَةَ البيضاويِّ مُشعرَةٌ بأنَّ هذهِ القراءةَ مع كسرِ التَّاءِ، ولذا قال: وقُرِئَت كذلك مفتوحَةً على أنَّها (ليكة)، وهي اسمُ بلدَتِهم.

فقلَبَ البَيضاويُّ الشَّاذةَ مُتواترةً، والمتواتِرةَ شاذَّةً[4]، وحملَ الشَّيخُ القِراءَةَ على محمَلٍ ضعيفٍ[5].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٧٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥١٩).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٤٨).

(٣) انظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١٥/ ٧٢).

(٤) وهذا على ما وقع في نسخ المصنف، لكن وقع في غيرها: «وقرئت لذلك مفتوحة»، وعليه تكون اللام للتعليل، والمعنى: أنه لأجل إلقاءِ حَركَةِ الهمزة على اللامِ قرئت اللام مفتوحة، فلا إشكال.

أما على كون العبارة: «وقرئت كذلك مفتوحة» كما ذكرها المصنف فقد قال الشهاب في «الحاشية» (٧/ ٢٦): هذا يقتضي أنّ ما قبله بالكسر، وليس كذلك فإنّ فيها ثلاثَ قراءات: قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر: ﴿ليكةَ﴾ بفتح التاء، وقراءة غيرهم على الأصل: ﴿الأيكة﴾ وقرئ شاذاً: (ليكة) بكسر التاء.

(٥) قال القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٣٤): وأما ما حكاه أبو عبيد من أن (ليكة) هي اسم القرية التي كانوا فيها، وأن (الأيكة) اسم البلد فشيء لا يثبت، ولا يعرف من قاله، فيثبت علمه، ولو عرف من قاله لكان فيه نظر؛ لأن أهل العلم جميعاً من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه.

هي غَيضة شجرة قربَ مَدْيَنَ ﴿المُرسَلِينَ إذ قالَ لَهُم شُعَيبٌ﴾، لم يقل «أخوهم» لأنه لم يكن منهم: ﴿ألا تَتَّقُونَ. إنِّي لكُم رَسُولٌ أمِينٌ. فاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ. وما أسألُكُم علَيهِ مِن أجرٍ. إنْ﴾: ما ﴿أجرِيَ إلاّ علَى رَبِّ العالَمِينَ. أَوفُوا الكَيلَ﴾: أتِمُّوه، ﴿ولا تَكُونُوا مِنَ المُخسِرِينَ﴾: الناقصين، ١٨٢ ـ ﴿وزِنُوا بِالقِسطاسِ المُستَقِيمِ﴾: المِيزان السويّ، ١٨٣ ـ ﴿ولا تَبخَسُوا النّاسَ أشياءَهُم﴾: لا تَنقُصوهُم من حقّهم شيئًا، ﴿ولا تَعثَوا في الأرضِ مُفسِدِينَ﴾ بالقتل وغيره ـ من «عَثِيَ» بكسر المُثلّثة: أفسدَ. ومفسدين: حال مُؤكِّدة لمعنى عاملها «تعثوا» ـ ١٨٤ ـ ﴿واتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُم والجِبِلّةَ﴾: الخليقة ﴿الأوَّلِينَ﴾.

١٨٥ ـ ١٨٦ ـ ١٨٧ ـ ﴿قالُوا: إنَّما أنتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ، وما أنتَ إلاّ بَشَرٌ مِثلُنا، وإنْ﴾: مُخفّفة من الثقيلة واسمها محذوف، أي: إنّه ﴿نَظُنُّكَ لَمِنَ الكاذِبِينَ. فأسقِطْ علَينا كِسْفًا﴾، بسكون السين وفتحها: قطعةً ﴿مِنَ السَّماءِ، إن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ في رِسالتك. ١٨٨ ـ ﴿قالَ: رَبِّيَ أعلَمُ بِما تَعمَلُونَ﴾ فيُجازيكم به.

قولُه: (غَيْضَةُ) تسكُنُها طائفةٌ، فبُعثَ إليهم شُعَيبٌ كما بُعثَ إلى مديَن، وكان أجنبيًّا منهم.

قولُه: (النَّاقِصِينَ) حُقوقَ النَّاسِ، وهو أعَمُّ.

قولُه: (المِيزَانِ) وفي قراءَةِ حفصٍ وحمزةَ والكِسائيِّ بالكسرِ(١).

قولُه: (وغَيرِهِ) كالغارَةِ وقطعِ الطَّريقِ.

قولُه: (الخَلِيقَةَ) أي: الخَلْقَ، كما في «المدارِك»(٢)، وهو حاصِلُ المعنى، إذ معنى الجِبلَّةِ: الخلقَةُ والطَّبيعَةُ على ما في «القَامُوسِ»(٣)، ولذا قالَ القاضي: أي: ذَوِي الجبلَّةِ؛ يعني: مَن تقدَّمَهُم من الخَلائقِ(٤).

قولُه: (وفَتحِهَا) حَفصٌ(٥).

قولُه: (فِي رِسَالَتِكَ) أي: دَعواها.

قولُه: (فيُجَازِيْكُم) أو: بعَمِلِكُم وبعذابِهِ، فيُنزِلُ عليكُم ما أوجَبهُ عليكُم به في وقتِهِ المقدَّرِ.

---

(١) أي: ﴿بالقِسطاس﴾ انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٠٢).

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٨٠) وعبارته: اتقوا الذى خلقكم وخلق الجبلة.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٩٧٤).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٤٩).

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٢٠).

١٨٩ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾. هي سحابة أظلّتهم بعد حرّ شديد أصابهم، فأمطرت عليهم نارًا، فاحترقوا. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. ١٩٠ ـ ١٩١ ـ ١٩٢ ـ ١٩٣ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً، وما كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآنَ ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾: جبريل ١٩٤ ـ ١٩٥ ـ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾: بيّنٍ ـ وفي قراءة بتشديدِ «نَزَّلَ» ونصبِ «الرُّوحَ» والفاعلُ الله ـ ١٩٦ ـ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: ذِكرَ القرآنِ المُنزّل على مُحمّد ﴿لَفِي زُبُرِ﴾: كُتبِ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ كالتوراة والإنجيل. ١٩٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾: لِكُفّار مكّة ﴿آيَةً﴾ على ذلك ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ممّن آمنوا؟ فإنهم يُخبِرون بذلك. «ويكن» بالتحتانيّة ونصب «آيةً»، وبالفَوقانيّة ورفع «آيةٌ».

قوله: (هِيَ سَحَابَةٌ) على نحوِ ما اقترَحوا.

قولُه: (أَصَابَهُم) سبعةَ أيّامٍ حتّى غَلَت أنهارُهُم فاجتَمَعوا تحتَها، وهذا آخِر القصَصِ السَّبعِ المذكورَةِ على الاختصارِ، تسليةً للنَّبيِّ المختارِ، والمؤمِنينَ الأبرارِ، وتهديداً للكُفَّارِ.

واطِّرادُ نُزولِ العذابِ على تكذيبِ الأُمَمِ بعد إنذارِ الرُّسلِ به، يَدفَعُ أن يُقالَ: إنَّه كانَ بسببِ اتِّصالاتٍ فلكيَّةٍ كما يزعُمُه الأحكاميُّونَ[1]، أو كانَ ابتِلاءً لهُم كما يُبتَلى المؤمِنونَ، لا مؤاخَذةً على تكذيبِهِم.

قولُه: (أَي: القُرْآنَ) تقريرٌ لحقيَّة تلكَ القصصِ، وتنبيهٌ على إعجازِ القُرآنِ، ونبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ.

قولُه: (جِبْرِيلُ) أمينُ اللهِ على وَحيِهِ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لشَّاميٍّ وكوفيٍّ إلا حَفصاً[2].

قولُه: (أَي: القُرآنَ) أي: ذكرَهُ، أو مَعناهُ.

قولُه: (عَلَى ذَلِكَ) أي: صحَّةِ القُرآنِ؛ يعني: مَع قَطعِ النَّظرِ عن دلالَةِ إعجازِهِ، أو صحَّةِ نُبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ.

قولُه: (فإِنَّهُم يُخبِرُونَ) ويعرِفونَهُ كما يَعرِفونَ أبناءَهُم.

قولُه: (ونَصْبِ ﴿آية﴾) لغَيرِ الشَّاميِّ[3].

قولُه: (ورَفْعِ ﴿آية﴾) على أنَّها الاسمُ، والخبرُ: ﴿لَهُم﴾، و﴿أَنْ يَعلَمَهُ﴾ بدلٌ من الآيةِ، أو التَّقديرُ: هي أن يعلمَهُ.

---

(١) وهم أصحاب علم أحكام النجوم؛ أي: المنجمون، انظر: «مفتاح دار السعادة» (٣/ ١١٧٥).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٧٣).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٧٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٢١).

١٩٨ ـ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾: جمع أعجم، ١٩٩ ـ ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم﴾ أي: كُفّارِ مكّة، ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أنفةً من اتّباعه. ٢٠٠ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ إدخالنا التكذيبَ به بقراءة الأعجم ﴿سَلَكْنَاهُ﴾: أدخلنا التكذيب به ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كُفّارِ مكّة، بقراءة النبيّ. ٢٠١ ـ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ المُلجِئَ لهم ـ قيل: هو الموت ـ ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ـ ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَيَقُولُوا: هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾: مُمهَلون لنؤمن؟ فيقال لهم: لا.

قالوا: متى هذا العذاب؟ قال تعالى:........................

قولُه: (جَمْع: أَعجَمَ) فيه أنَّ أفعلَ فَعْلاءَ لا يُجمَعُ جمعَ السَّلامَةِ، فالوَجهُ أنّه جمعُ أعجَميٍّ على التَّخفيفِ في الجمعِ حيثُ حذفَ ياءَ النِّسبةِ، وقُرِئَ بالتَّشديدِ(١).

والمعنى: أنّه لو نزَّلناهُ على بعضِ الأعجَمينَ بلُغةِ العربِ زيادةً في الإعجازِ، أو بلُغةِ العَجَمِ.. الخ(٢).

قولُه: (أَنَفَةً) أي: استِنكافاً.

قولُه: (مِنِ اتِّبَاعِهِ) لفَرطِ عنادِهِم واستنكارِهِم واستكبارِهِم، أو لعدَمِ فهمِهِم، وهذا مَدحٌ عظيمٌ لطائفَةِ العجمِ حيثُ انقادُوا واجتَهدوا في طلَبِ الفَهمِ والمرادِ إلى أن وَصلوا مرتبَةَ الاجتهادِ، ولهذا قالَ ﷺ: «لو كانَ العِلمُ في الثُّريَّا لنَالَهُ رجَالٌ مِن فَارِس»(٣).

قولُه: (بقِرَاءَةِ الأَعْجَمِ) فيه: أن الشَّرطيَّةَ غيرُ مُقتَضيةٍ للوُقوعِ، والتَّكذيبُ غيرُ واقِعٍ في الخارجِ والذِّهنِ، فكيف يكونُ مُشارًا إليه؟ ولذا قالَ صاحبُ «المداركِ» يعني: مثلَ هذا السَّلكِ أدخَلْنا التَّكذيبَ أو الكُفرَ، وهو مَدلولُ قولِهِ: ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ [الشعراء: ١٩٩](٤).

قولُه: (لنُؤمِنَ) قالوهُ تحسُّراً وتأسُّفاً، فلا يحتاجُ إلى جوابٍ، ولذا قالَ صاحبُ «المَدارِك»: ﴿فَيَقُولُوا﴾ و﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ مَعطوفانِ على: ﴿يَرَوا﴾؛ أي: يسألونَ النَّظرَةَ والإمهالَ طرفَةَ عَينٍ فلا يُجابونَ إليها(٥).

وقولُه: (قَالُوا مَتَى) موهِمٌ أنَّ الضَّميرَ في (قَالُوا) راجعٌ إلى ضميرِ ﴿فَيَقُولُوا﴾، وليسَ كذلك، بل هذا

---

(١) أي: (بعض الأعجميِّين) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر شواذ القرآن» (ص: ١٠٩) ونسبت للحسن.

(٢) «إلخ» من (م)، والمراد تمام الآية، ففي البيضاوي عقب قوله: «أو بلغة العجم»: ﴿فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ لفَرطِ عِنادِهِم واستِكبارِهِم، أو لعَدمِ فَهمِهِم واستِنكافِهِم مِن اتِّباعِ العَجَمِ.

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٧٩٥٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٣٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورواه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) من حديث أبي هريرة بلفظ: «الإيمان» بدل: «العلم».

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٨٣) بتصرف عنه.

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٨٤).

٢٠٤ ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ـ ﴿أفبِعَذابِنا يَستعجِلُونَ؟ أفرَأَيتَ﴾: أخبِرني، ﴿إن مَتَّعْناهُم سِنِينَ، ثُمَّ جاءَهُم ما كانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب، ٢٠٧ ـ ﴿ما﴾ استفهامية، بمعنى: أيَّ شيء، ﴿أغنَى عَنهُم ما كانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ في دفعِ العذاب أو تخفيفِه؟ أي: لم يُغْنِ. ٢٠٨ ـ ﴿وما أهلَكْنا مِن قَرْيةٍ إلاّ لَها مُنذِرُونَ﴾: رُسلٌ تُنذر أهلها، ٢٠٩ ـ ﴿ذِكرَى﴾: عظةً لهم، ﴿وما كُنّا ظالِمِينَ﴾ في إهلاكهم بعد إنذارهم.

ونزل، ردًّا لقول المشركين، ٢١٠ ـ ٢١١ ـ ﴿وما تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾: بالقُرآن ﴿الشَّياطِينُ، وما يَنبَغِي﴾: يصلح ﴿لَهُم﴾ أن يَنزِلوا به، ﴿وما يَستَطِيعُونَ﴾ ذلك. ٢١٢ ـ ﴿إنَّهُم عَنِ السَّمعِ﴾ لِكلامِ الملائكة ﴿لَمَعزُولُونَ﴾: محجوبون بالشُّهب.

٢١٣ ـ ﴿فلا تَدعُ مَعَ اللهِ إلـٰهًا آخَرَ، فتَكُونَ مِنَ المُعَذَّبِينَ﴾، إن فعلت ذلك الذي دعوك إليه، ٢١٤ ـ ﴿وأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقرَبِينَ﴾ ـ وهم بنو هاشم وبنو المُطّلب.........

ابتداءُ كلامٍ، وسببُ نُزولٍ لِمَا بعدَه؛ أي: قالَ بعضُ الكفَّارِ ممَّن لم يرَ العذابَ استهزاءً: متى هذا العذابُ؟ كقولِهِ تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ [يونس: ٤٨].

قولُه: (أي: لَمْ يُغْنِ) عن ميمونِ بنِ مهرانَ أنَّه لقيَ الحَسنَ في الطَّوافِ ـ وكانَ يَتمنَّى لقاءَهُ ـ فقالَ له: عِظْني، فلم يزِدْهُ على تلاوةِ هذهِ الآيةِ، فقال ميمونُ: لقد وَعظْتَ فَأبلَغْت.

قولُه: (عِظَةً) علَّةٌ، أو مَصدرٌ؛ لأنَّها في مَعنى الإنذارِ.

قولُه: (أي: بَعْدَ إِنْذَارِهِم) أي: خُصوصاً بعدَه، ولذا قيل: أي: وما كُنَّا ظالمينَ لو عَذَّبنا قبلَ الإنذارِ، والشَّيخُ تَبِعَ القاضي في قولِهِ: فنُهلِكَ غيرَ الظَّالمينَ وقبلَ الإنذارِ[1].

قولُه: (لِقَولِ المُشرِكِينَ) أنَّه من قَبيلِ ما يُلقي الشَّيطانُ على الكَهنةِ.

قولُه: (يَصْلُحُ) ويَصِحُّ.

قولُه: (أنْ يَنزِلُوا) بفتحِ الياءِ.

قولُه: (ذَلِكَ) أي: النُّزولُ به.

قولُه: (لكَلامِ المَلائكَةِ) يعني: كَلامَهم الَّذي هو الوَحيُ النَّازِلُ للأنبياءِ.

قولُه: (إنْ فَعَلْتَ) الظَّاهرُ: إن دعوتَهُ معهُ.

[**قوله**]: (وبَنُو المُطَّلِبِ) والظَّاهرُ: أنَّ الإنذارَ غيرُ مخصوصٍ بهما، كما يدلُّ عليه الحديثُ الآتي، فالمرادُ: وغيرُهما الأقرَبُ فالأقرَبُ؛ لأنَّ الاهتمامَ بشأنِهم أهمُّ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٥١).

وقد أنذَرَهُم جِهارًا. رواه البخاريّ ومسلم ـ ٢١٥ ـ ﴿واخفِضْ جَناحَكَ﴾: أَلِنْ جانبك، ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: الموحّدين، ٢١٦ ـ ﴿فإن عَصَوكَ﴾ أي: عشيرتُك ﴿فقُلْ﴾ لهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعمَلُونَ﴾ من عِبادة غير الله. ٢١٧ ـ ﴿وتَوَكَّلْ﴾ ـ بالواو والفاء ـ ﴿علَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾: فوّضْ إليه جميع أمرك، ٢١٨ ـ ﴿الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى الصلاة، ٢١٩ ـ ﴿وتَقَلُّبَكَ﴾ في أركان الصلاة قائمًا وقاعدًا وراكعًا وساجدًا ﴿في السّاجِدِينَ﴾ أي: المُصلّين. ٢٢٠ ـ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾.

قولُه: (رَوَاهُ البُخَارِيُّ ومُسلِمٌ) أنّه لمَّا نزلَت صَعِدَ الصَّفا، وناداهُم فَخذاً فَخذاً ـ أي: قَبيلةً قَبيلةً ـ حتى اجتَمَعوا إليه، فقالَ: «لَو أَخبَرتُكُم أَنَّ بسَفحِ هذَا الجبَلِ خَيلاً أَكُنتُم مُصدِّقيَّ؟» قالوا: نعمْ، قال: «فإِنِّي نَذِيرٌ لَكُم بَينَ يَدي عَذَابٍ شَدِيد»[1].

قولُه: (أَلِنْ جَانِبَكَ) كنايَةٌ عن الرِّفقِ والتَّواضعِ وحُسنِ الخُلُق.

قولُه: (المُوَحِّدِينَ) زادَ في «المدارِك»: من عَشيرتِكَ وغيرِهِم[2].

و﴿مِن﴾ للبَيانِ؛ لأنَّ مَن اتَّبعَ أعمُّ ممن اتَّبع لدينٍ أو غيرِهِ.

قولُه: (أي: عَشِيْرَتُكَ) وغيرُهُم.

قولُه: (مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ) وغيرِها.

قولُه: (والفَاءِ) نافِعٌ وشاميٌّ[3].

قولُه: (إِلَى الصَّلاةِ) أو التَّهجُّدِ.

قولُه: (أَي: المُصَلِّينِ) أو: تَردُّدكَ في تَصَفُّحِ أحوالِ المتهجدينَ[4]، وقيلَ: حينَ تقومُ وحدَكَ إلى الصَّلاةِ، وتصرُّفكَ بأركانِ الصَّلاةِ فيما بينَ المصلِّينَ؛ يعني: نَراكَ إذا صَلَّيتَ مُنفرداً، وإذا صَلَّيتَ في جماعَةٍ، وهذا قولُ عكرِمَةَ[5]، وعَطاءِ الخُراسانيِّ[6]، والحَسنِ البصريِّ[7].

أو تصرُّفَكَ وذهابَكَ ومجيئَكَ في أصحابِكَ المؤمنينَ.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٨٦).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٧٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٢٢).

(٤) في (م) و(ن): «المجتهدين».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٠٣٢) بنحوه.

(٦) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٠٢٤) و(١٦٠٣٣) بنحوه.

(٧) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٠٢٢) و(١٦٠٣٥).

٢٢١ ـ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ ـ أي: كُفَّارَ مكَّة ـ ﴿عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾؟ بحذف إحدى التاءين من الأصل. ٢٢٢ ـ ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ﴾: كذّاب، ﴿أَثِيمٍ﴾: فاجرٍ مِثل مُسيلِمةَ وغيره من الكهنة. ٢٢٣ ـ ﴿يُلْقُونَ﴾ أي: الشياطينُ ﴿السَّمْعَ﴾ أي: ما سمعوه من الملائكة إلى الكهنة، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ يضمّون إلى المسموع كذبًا كثيرًا. وكان هذا قبل أن حُجِبَتِ الشياطين عن السماء.

٢٢٤ ـ ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ في شِعرهم، فيقولون به ويروونه عنهم..................

قولُه: (أي: كُفَّارَكُم) تفسيريَّةٌ، أو ندائيَّةٌ.

قولُه: (بِحَذْفِ) كما في ما بعدَه، وقرأَ قُنبُلٌ بالتَّشديدِ[1].

قولُه: (مِنَ الكَهَنَةِ) والمنَجِّمينَ.

قولُه: (مَا سَمِعُوْهُ) على أنَّ المصدرَ بمعنى المفعولِ.

قولُه: (كَذِباً) ولا كذلكَ محمَّدٌ ﷺ، فإنَّه أخبرَ عن مُغَيَّباتٍ كثيرةٍ، وقد طابقَ كلُّها، وقد فُسِّرَ الأكثَرُ بالكُلِّ، والأظهرُ: أنَّ الأكثريَّةَ باعتبارِ أقوالِهم الخاصَّةِ على مَعنى: أنَّ هؤلاءِ قلَّ مَن يصدُقُ منهم فيما يحكي.

قولُه: (كَثِيْراً) عن قتادَةَ وغيره: يستَرِقُ الشَّياطينُ السَّمْعَ من السَّماءِ، فيختطِفونَ كلِمةً منَ الملائكةِ، ثمَّ يُلقونَها إلى أوليائِهم من الإنسِ مع مائةِ كِذْبَةٍ[2].

قولُه: (وكَانَ هَذَا...إلخ) في الحديثِ رواهُ البخاريُّ ومسلِمٌ: «رُبَّما أدرَكَهُ الشِّهابُ قبلَ أن يُلقِيهَا، ورُبَّما أَلقَاها قَبلَ أَنْ يُدرِكَهُ»[3]، وهذا يدلُّ على أنَّ هذا الاستِراقَ حينَئذٍ أيضاً واقِعٌ، نعم لا يتمكَّنونَ من اختِطافِ خبرٍ مُفيدٍ وكلامٍ تامٍّ من غيرِ انضِمامِ كَذِباتٍ، وعلى هذا لا مُنافاةَ بينَ هذه الآيةِ والتي قَبلَها، وهي ﴿إِنَّهُم عنِ السَّمعِ لَمَعزُولُونَ﴾.

قولُه: (فِي شِعرِهِم) وأتباعُ محمَّدٍ ليسوا كذلك، أَو ﴿الغَاوُونَ﴾؛ أي: الضَّالُّونَ؛ يعني: شُعراءَ الكفَّارِ الَّذينَ يهجونَ النبيَّ ﷺ، ويقولونَ: نحنُ نقولُ مثلَ ما يقولُ محمَّدٌ، يجتمِعُ إليهم غُواةٌ يستمِعونَ ويَروونَ عنهم،

---

(١) هي رواية البزي، ولم أجد لقنبل ذكر هنا، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٨٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٤٣)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٤١).

(٢) رواه عن قتادة عبد الرزاق في «تفسيره» (٢١٤٠)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٠٤٣).
وروى البخاري (٥٧٦٢)، ومسلم (٢٢٢٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رسول الله ﷺ ناس عن الكهان، فقال: «ليس بشيء» فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحياناً بشيء فيكون حقًّا، فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحقِّ، يخطفها من الجني، فيقرها في أذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة».

(٣) رواه البخاري (٤٨٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنهما، ولم أقف عليه عند مسلم.

فهم مذمومون. ٢٢٥ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: تعلمْ ﴿أَنَّهم في كُلِّ وادٍ﴾ من أودية الكلام وفُنونه ﴿يَهِيمُونَ﴾: يمضون، فيُجاوزون الحدّ مدحًا وهجْوًا، ٢٢٦ ـ ﴿وأَنَّهم يَقُولُونَ﴾: فَعَلْنا ﴿ما لا يَفعَلُونَ﴾ أي: يكذبون؟ ـ ٢٢٧ ـ ﴿إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ من الشعراء ﴿وذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا﴾ أي: لم يَشغلهمُ الشعر عن الذكر، ﴿وانتَصَرُوا﴾ بهجوهم الكُفّارَ ﴿مِن بَعدِ ما ظُلِمُوا﴾ بهجْو الكُفّار لهم في جُملة المؤمنين، فليسوا مذمومين. قال الله تعالى: «لا يُحِبُّ اللهُ الجَهرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَولِ إلاّ مَن ظُلِمَ»، «فمَنِ اعتَدَى علَيكُم فاعتَدُوا علَيهِ بمِثلِما اعتَدَى علَيكُم».

﴿وسَيَعلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من الشعراء وغيرهم ﴿أيَّ مُنقَلَبٍ﴾: مَرجِعٍ ﴿يَنقَلِبُونَ﴾: يَرجِعون بعد الموت!

كذا قالَهُ ابنُ عبَّاسٍ[(١)] ومُجاهِدٌ[(٢)] وكثيرٌ من السَّلفِ.

قولُه: (يَمْضُونَ) أي: يذهبونَ، كالمجنونِ، والمعنى: يخوضونَ في كُلِّ لَغوٍ، فيمدَحونَ ويَهجونَ بباطِلٍ.

قولُه: (الحَدَّ) أي: ولو كانَ مدحُهُم وهجوُهُم في الحقِّ، فبالمجاوَزةِ عن الحدِّ يصيرُ باطِلاً.

قولُه: (مِنَ الشُّعَرَاءِ) كعبدِ اللهِ بنِ رواحَةَ، وحسَّانِ بنِ ثابتٍ، وكعبِ بنِ مالِكٍ، وكعبِ بن زُهيرٍ.

قولُه: (عنِ الذِّكْرِ) إذْ يكونُ أكثرُ أشعارِهم في الثَّناءِ على اللهِ، ونَعتِ النَّبيِّ ﷺ، والتَّرغيبِ على الطَّاعةِ، والتَّرهيبِ عن المعصيَةِ.

قولُه: (وغَيرِهِم) يعني: سياقُ الآيةِ وإن كانَ في الكفَّارِ وشُعرائِهم، لكن عامٌّ لكُلِّ ظالمٍ، ولذا تلاها أبو بكرٍ لعُمرَ رضي اللهُ عنهُما حين عهَدَ إليه[(٣)]، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٥٧١)، و«البسيط» (١٧/ ١٤٧).

(٢) وروى ابن أبي حاتم عنه قوله: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ [الشعراء: ٢٢٤] قال: الشيطان.

(٣) روى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٠٨٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٦/ ٥٣٤) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كتب أبي وصية سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر، ويتقي الفاجر، ويصدق الكاذب، أني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه، وإن بدَّل وجار فلا أعلم الغيب، ولكل امرئ ما اكتسب، ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾.

سورة الشعراء

وفي تفسير الإمام مالكٍ تسميتُها بسورة الجامعة[(١)]. وقد جاء في رواية ابن مردويه عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم إطلاقُ القول بمكِّيتها[(٢)]. وأخرج النحاس عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت بمكةَ سوى خمسِ آياتٍ من آخرها نزلت بالمدينة: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرها [الآية: ٢٢٤][(٣)]. وروي ذلك عن عطاءٍ وقتادةَ. وقال مقاتل: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ الآية [١٩٧] مدنيةٌ أيضاً.

قال الطبرسيُّ: وعِدَّةُ آياتها مئتان وسبعٌ وعشرون آيةً في الكوفيِّ والشاميِّ والمدنيِّ الأوَّلِ، ومئتان وستٌّ وعشرون في الباقي[(٤)].

ووجهُ اتِّصالها بما قبلَها اشتمالُها على بَسْطٍ وتفصيلٍ لبعض ما ذُكر فيما قبلُ، وفيها أيضاً من تسليته ﷺ ما فيها، وقد افتُتِحَتْ كلتا السورتين بما يفيد مدحَ القرآن الكريم وخُتِمتَا بإيعاد المكذِّبين به كما لا يخفى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١﴾ تقدَّم الكلام في أمثاله إعراباً وغيرَه، والكلامُ هنا كالكلام هناك، بَيْدَ أنه أخرج ابنُ أبي حاتم عن محمد بن كعب أنه قال في هذا: الطاءُ من ذي الطَّوْل، والسينُ من القدُّوس، والميمُ من الرحمن[(٥)].

---

(١) الإتقان ١/ ١٧٣، وذكر ذلك أيضاً ابن كثير في أول هذه السورة.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٨٢، وأخرجه عن ابن عباس أيضاً ابن الضريس في فضائل القرآن ص٢٣-٢٤.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧١.

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٣٤.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٧.

وأمال فتحةَ الطاء حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر[١]. وقرأ نافع كما رَوَى عنه أبو عليٍّ الفارسيُّ في «الحجة» بينَ بين ولم يُمِلْ صِرْفاً[٢]، لأنَّ الألف منقلبةٌ عن ياءٍ، فلو أمِيلت إليها انتقضَ غرضُ القَلْبِ، وهو التخفيف.

ورَوَى بعضٌ عنه أنه قرأ كباقي السبعة من غير إمالة أصلاً[٣]، نظراً إلى أنَّ الطاء حرفُ استعلاءٍ يمنع من الإمالة.

وقرأ حمزةُ بإظهار نونِ «سين»[٤] لأنه في الأصل لكونه أحدَ أسماء الحروف المقطَّعةِ منفصلٌ عمَّا بعده، وأدغمها الباقون لمَّا رأوها متصلةً في حُكْم كلمةٍ واحدةٍ، خصوصاً على القول بالعَلَمية.

وقرأ عيسى بكَسْرِ الميم من «طسم» هنا وفي «القصص»، وجاء كذلك عن نافعٍ[٥].

وفي مصحف عبد الله: «ط س م» من غير اتِّصالٍ، وهي قراءةُ أبي جعفر[٦].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ إشارةٌ إلى السورة، وما في ذلك من معنى البُعْد للتنبيه على بُعْد منزلةِ المشار إليه في الفخامة. والمرادُ بالكتاب: القرآنُ، وبالمبين: الظاهرُ إعجازُه على أنه من أَبانَ بمعنى بان، والكلامُ على تقدير مضافٍ أو على أنَّ الإسناد فيه مجازيٌّ. وجوِّز أن يكون «المبين» من أبان المتعدِّي ومفعولُه محذوفٌ، أي: الأحكامَ الشرعية، أو الحقَّ. والأولُ أنسبُ بالمقام.

والمعنى: هذه آياتٌ مخصوصةٌ من القرآن، مترجَمةٌ باسم مستقلٍّ. والمرادُ ببيان كونها بعضاً منه وَصْفُها بما اشتهر به الكلُّ من النعوت الجليلة.

---

(١) التيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ٧٠، وأمالها أيضاً خلف من العشرة.

(٢) الحجة ٥/ ٣٥٥، وقال صاحب النشر ٢/ ٧٠: انفرد أبو القاسم الهذلي عن نافع ببين اللفظين، ووافقه في ذلك صاحب العنوان، إلا أنه عن قالون ليس من طريقنا. اهـ. وينظر العنوان في القراءات السبع لأبي طاهر إسماعيل بن خلف المقرئ الأندلسي الأنصاري ص ١٤٢.

(٣) التيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ٧٠.

(٤) التيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ١٩.

(٥) البحر ٧/ ٥.

(٦) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ٥. ومذهب أبي جعفر هو السكت على كل حرف من حروف الفواتح. النشر ١/ ٢٤١ و٢/ ١٩.

وقيل: الإشارةُ إلى القرآن، والتأنيثُ لرعاية الخبر، والمرادُ بالكتاب السورةُ، والمعنى: آيات هذا القرآن المؤلَّف من الحروف المبسوطة كآيات هذه السورة المتحدَّى بها، فأنتم عجزتُم عن الإتيان بمثل هذه السورة، فحُكْمُ تلك الآيات كذلك. وهو كما ترى.

ومن الناس مَن فسَّر «الكتاب المبين» باللوح المحفوظ، ووَصْفُه بالمبين لإظهاره أحوالَ الأشياء للملائكة عليهم السلام. والأَوْلَى ما سمعتَه أوَّلاً.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتلٌ إياها من شدَّةِ الوَجْدِ كما قال الليث، وأنشد قولَ الفرزدق[1]:

أَلَا أيُّهذا الباخعُ الوَجْدُ نفسَه لشيءٍ نَحَتْه عن يديه المَقادِرُ[2]

وقال الأخفش والفرَّاء[3]: يقال: بَخَع يَبْخَعُ بَخْعاً وبُخوعاً، أي: أهلكَ من شدَّة الوَجْدِ، وأصلُه الجهد. ومنه قول عائشةَ في عمر ﵄: بَخَعَ الأرضَ[4]. أي: جَهَدَها حتى أَخَذَ ما فيها من أموال الملوك.

وقال الكسائيُّ: بَخَع الأرضَ بالزراعة: جَعَلَها ضعيفةً بسببِ متابعة الحراثة. وقال الزمخشريُّ وتبعه المطرّزيُّ: أصل البَخْعِ أن تَبْلُغَ بالذبح البِخَاع بكَسْرِ الباء، وهو عِرْقٌ مستبطنُ الفَقَارِ، وذلك أقصى حدِّ الذبح[5]. ولم يطَّلِعْ على ذلك ابنُ الأثير مع مزيد بَحْثِه[6]، ولا ضَيْرَ في ذلك.

---

(١) كذا ذكر، والصواب أنه لذي الرمة على ما يأتي.

(٢) ديوان ذي الرمة ٢/ ١٠٣٧، والعين ١/ ١٢٣ و٣/ ٣٠٣، وسلف عند تفسير الآية (٦) من سورة الكهف. قال شارح الديوان: نَحَتْه المقادر، أي: حَرَفَتْه المقادر، فاصبر أن لا تكون نِلْتَه.

(٣) كما في البحر ٦/ ٩٢، وعنه نقل المصنف. وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٤ و٢٧٥.

(٤) الخبر في تهذيب اللغة ١/ ١٦٨، والنهاية (بخع)، وغريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٥٨، والكلام من البحر٦/ ٩٢.

(٥) الكشاف ٣/ ١٠٤، والمُغرِب في ترتيب المُعْرِب لأبي الفتح ناصر الدين الخوارزمي الحنفي المشهور بالمطرزي ص٢٩٣. وسلف كلام الزمخشري عند تفسير الآية (٦) من سورة الكهف.

(٦) النهاية (بخع)، وفيه بعد نَقْلِ كلام الزمخشري في الفائق والتفسير: ولم أجده لغيره - يعني الزمخشري - وطالما بحثت عنه في كتب اللغة والطب والتشريح فلم أجد البخاع - بالباء - مذكوراً في شيء منها. اهـ. وينظر تاج العروس (بخع).

وقرأ زيد بن عليٍّ وقتادةُ رحمهم الله تعالى: «باخعُ نَفْسِكَ»[(١)] بالإضافة على خلافِ الأصل؛ فإنَّ الأصل في اسم الفاعل إذا استوفى شروطَ العمل أن يعمل، على ما أشار إليه سيبويه في «الكتاب»[(٢)]. وقال الكسائيُّ: العملُ والإضافةُ سواءٌ. وذهب أبو حيان إلى أنَّ الإضافة أحسنُ من العمل[(٣)].

و«لعل» في مثل هذا الموضع لإشفاق المتكلِّم، ولمَّا استحال في حقِّه سبحانه جعلوه متوجِّهاً إلى المخاطب، ولمَّا كان غير واقعٍ منه أيضاً قالوا: المراد الأمرُ به لدلالة الإنكار المستفاد من سوق الكلام عليه، فكأنه قيل: أَشْفِقْ على نفسك أن تقتُلها وَجْداً وحَسْرةً على ما فاتك من إسلام قومك.

وقال العسكريُّ: هي في مثل هذا الموضع موضوعةٌ موضعَ النهي، والمعنى: لا تَبْخَعْ نفسَك[(٤)].

وقيل: وُضِعَتْ موضعَ الاستفهام، والتقدير: هل أنت باخعٌ. وحُكي مثلُه عن ابن عطية، إلا أنه قال: المراد الإنكارُ، أي: لا تكن باخعاً نفسَك[(٥)].

﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝﴾ تعليلٌ للبَخْع، ولمَّا لم يَصِحَّ كونُ عَدَم كونهم في المستقبل مؤمنين ـ كما يفيدُه ظاهرُ الكلام ـ علَّةً لذلك لعدم المقارَنة، والعلَّةُ ينبغي أن تُقارِنَ المعلولَ، قدَّروا: خِيفة، فقالوا: أي[(٦)]: خيفةَ أنْ لا يؤمنوا بذلك الكتاب المبين.

ومن الأجلَّة مَن لم يقدِّر ذلك بناءً على أنَّ المراد: لاستمرارهم على عدم قبول الإيمان بذلك الكتاب؛ لأنَّ كلمة «كان» للاستمرار، وصيغةُ الاستقبال لتأكيده، وأُريدَ استمرارُ النفي.

وجوِّز أن يكون الكونُ بمعنى الصحة، والمعنى: لامتناع إيمانهم. والقولُ بأنَّ فِعْلَ الكون أُتي به لأَجْلِ الفاصلة، ليس بشيءٍ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ٥.
(٢) سلف قوله عند تفسير الآية (٦) من سورة الكهف.
(٣) البحر ٦/ ٩٨، وسلف عند تفسير الآية (٦) من سورة الكهف.
(٤) البحر ٦/ ٩٨، وسلف عند تفسير الآية (٦) من سورة الكهف.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٦، وسلف عند تفسير الآية (٦) من سورة الكهف.
(٦) قوله: أي، ليس في (م).

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ﴾ إلخ استئنافٌ لتعليل الأمر بإشفاقه على نفسه ﷺ، أو النهي عن البَخْعِ، ومفعول المشيئة محذوف، وهو على المشهور ما دلَّ عليه مضمونُ الجزاء، وجوِّز أن يكون مدلولاً عليه بما قَبلُ، أي: إن نشأ إيمانَهم ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ مُلْجئةً لهم إلى الإيمان قاسِرةً عليه، كما نتق الجبل فوق بني إسرائيل. وتقديمُ الظرفين على المفعول الصريح لِمَا مرَّ مراراً من الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

وقرأ أبو عمرو في رواية هارون عنه: «إنْ يَشأْ يُنزِّلْ» على الغيبة، والضمير له تعالى[(١)]. وفي بعض المصاحف: «لو شئنا لأنزلنا»[(٢)].

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ أي: منقادين، وهو خبرٌ عن الأعناق، وقد اكْتَسبتِ التذكيرَ وصِفَةَ العقلاء من المضاف إليه، فأخبر عنها لذلك بجَمْعِ مَن يَعْقِلُ كما نقله أبو حيان عن بعض أجلَّة علماء العربية[(٣)].

واختصاصُ جوازِ مِثْلِ ذلك في[(٤)] الشعر كما حكاه السيرافيُّ عن النحويين مما لم يَرْتَضِه المحقِّقون، ومنهم أبو العباس، وهو ممن خرَّج الآية على ذلك.

وجوِّز أن يكون ذلك لِمَا أنَّها وُصِفَتْ بفِعْلٍ لا يكونُ مقصوداً إلا للعاقل وهو الخضوعُ، كما في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وأن يكون الكلامُ على حذفِ مضافٍ وقد رُوعيَ بعد حَذْفِه، أي: أصحابُ أعناقِهم، ولا يخفى أنَّ هذا التقدير ركيكٌ مع الإضافة إلى ضميرهم.

وقال الزمخشريُّ: أصلُ الكلام: فظلُّوا لها خاضعين، فأُقْحِمَتِ الأعناقُ لبيانِ موضعِ الخضوع؛ لأنه يتراءى قبل التأمُّل لظهور الخضوع في العنق بنحوِ الانحناء أنه هو الخاضعُ دون صاحبه، وتُرِكَ الجمعُ بعد الإقحام على ما كان عليه قبلُ[(٥)].

---

(١) البحر ٧/ ٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ٥.
(٣) البحر ٧/ ٦.
(٤) قوله: في، ليس في (م).
(٥) بنحوه في الكشاف ٣/ ١٠٤.

وقال الكسائي: إنَّ «خاضعين» حالٌ للضمير المجرور لا للأعناق.

وتعقَّبه أبو البقاء فقال: هو بعيدٌ في التحقيق لأنَّ «خاضعين» يكون جارياً على غير فاعل «ظلَّت»، فيفتقرُ إلى إبراز ضمير الفاعل، فكان يجب أن يكون: خاضعين هم[١]، فافهم.

وقال ابن عباس ومجاهد وابن زيد والأخفش[٢]: الأعناق: الجماعات؛ يقال: جاءني عنقٌ من الناس، أي: جماعةٌ، والمعنى: ظلَّت جماعاتُهم، أي: جملتُهم.

وقيل: المراد بها الرؤساءُ والمقدَّمون مجازاً، كما يقال لهم: رؤوس وصدور، فيثبت الحكم لغيرهم بالطريق الأولى. وظاهرُ كلامهم أنَّ إطلاق العنق على الجماعة مطلقاً رؤساء أم لا حقيقةٌ، وذكر الطيبي عن «الأساس» أنَّ من المجاز: أتاني عنقٌ من الناس، للجماعة المتقدِّمة. وجاؤوا رَسَلاً رَسَلاً وعُنقاً عُنقاً، والكلامُ يأخذ بعضُه بأعناقِ بعضٍ[٣]. ثم قال: يُفْهَم من تَقابُلِ رَسَلاً رَسَلاً لقوله: عنقاً عنقاً أنَّ في إطلاق الأعناق على الجماعات اعتبارَ الهيئة المجتمعة، فيكون المعنى: فظلُّوا خاضعين مجتمعين على الخضوع، متَّفقين عليه لا يخرجُ أحدٌ منهم عنه[٤].

وقرأ عيسى وابنُ أبي عبلة: «خاضعةً»[٥] وهي ظاهرةٌ على جميع الأقوال في الأعناق، بيدَ أنه إذا أُريدَ بها ما هو جمعُ العنق بمعنى الجارحةِ، كان الإسناد إليها مجازيًّا.

و«لها» في القراءتين صلةُ «ظلت»، أو الوصفِ، والتقديمُ للفاصلة أو نحوِ ذلك لا للحصر.

---

(١) الإملاء ٤/١٠٨-١٠٩، وتعقبه السمين في الدر ٨/٥١٢ بأن «خاضعين» لم يجر في اللفظ والمعنى إلا على من هو له، وهو الضمير في «أعناقهم»، والمسألة التي قالها هي أن يجري الوصف على غير مَن هو له في اللفظ دون المعنى. على أنه لو كان كذلك لم يلزم ما قاله؛ لأن الكسائي والكوفيين لا يوجبون إبراز الضمير في هذه المسألة إذا أمن اللبس.

(٢) في معاني القرآن له ٢/٦٤٣-٦٤٤.

(٣) أساس البلاغة (عنق).

(٤) في الأصل: عنهم.

(٥) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/٦.

و«ظلَّت» عطفٌ على «ننزِّل»، ولا بدَّ من تأويل أحد الفعلين بما هو من نوع الآخر؛ لأنه وإن صحَّ عطفُ الماضي على المضارع إلا أنه هنا غيرُ مناسبٍ؛ فإنه لا يترتَّبُ الماضي على المستقبل بالفاء التعقيبية أو السببية، ولا يُعْقَلُ ذلك، والمعقولُ عكسُه، وبتأويلِ أحد الفعلين يُدْفَعُ ذلك، لكن اختار بعضُهم تأويلَ «ظلَّت» بـ: تَظَلُّ، وكأنَّ العدول عنه إليه ليؤذِنَ الماضي بسرعة الانفعال، وأنَّ نزول الآية ـ لقوة سلطانه وسرعةِ ترتُّب ما ذُكر عليه ـ كأنه كان واقعاً قبله. وبعضُهم تأويلَ «ننزِّل» بـ: أنزلنا، ولعل وَضْعَه مَوْضِعَه لاستحضارِ صورةِ إنزالِ تلك الآيةِ العظيمةِ المُلجِئةِ إلى الإيمان، وحصولِ خضوعِ رقابِهم عند ذلك في ذهن السامع ليَتَعَجَّبَ منه، فتأمَّل.

وقرأ طلحة: «فتَظْلَلْ» بفكِّ الإدغام والجزمِ[1]، وضعَّف الحريريُّ في «درَّة الغوَّاص» الفكَّ في مثل ذلك[2]. ورجَّح صاحبُ «الكشف» القراءةَ بأنها أبلغُ؛ لإفادة الماضي ما سمعْتَه آنفاً.

هذا، والظاهرُ أنه لم يتحقَّق إنزالُ هذه الآيةِ لأنَّ سنَّة الله تعالى تكليفُ الناس بالإيمان من دون إلجاءٍ، نعم إذا قيل: المرادُ: آيةٌ مذلَّةٌ لهم ـ كما روي عن قتادة ـ جاز أن يقال بتحقُّق ذلك. ولعل ما رُوي عن ابن عباس كما في «البحر» و«الكشاف» من قوله: نزلتْ هذه الآيةُ فينا وفي بني أمية، ستكونُ لنا عليهم الدولةُ، فتَذِلُّ أعناقُهم بعد صعوبةٍ ويلحقُهم هوانٌ بعد عزَّةٍ[3]، ناظرٌ إلى هذا.

وعن أبي حمزة الثماليِّ: أنَّ الآيةَ صوتٌ يُسْمَعُ من السماء في نصفِ شهرِ رمضان، وتخرجُ له العواتقُ من البيوت. وهذا قولٌ بتحقُّق الإنزال بعدُ، وكأنَّ ذلك زمانَ المهديِّ رضي الله عنه.

ومن صحة ما ذُكر من الأخبار في القلب شيءٌ، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ بيانٌ لشدَّة شكيمتهم وعَدَم ارْعِوائهم عمَّا كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ما ذُكر من الآية الملجئة، تأكيداً لصَرْفِ رسولِ الله ﷺ عن الحرص على إسلامهم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ٥.

(٢) درة الغواص ص١١٣-١١٦.

(٣) البحر ٧/ ٦، والكشاف ٣/ ١٠٥، وعزاه القرطبي ١٦/ ١٠ للثعلبي والغزنوي.

و«مِن» الأولى مزيدةٌ لتأكيد العموم. وجوِّز أن تكون تبعيضيةً، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لمقدَّرٍ، كما نشير إليه إن شاء الله تعالى. والثانيةُ لابتداءِ الغاية مجازاً متعلِّقةٌ بـ «يأتيهم» أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ «ذِكْرٍ»، وأيًّا ما كان ففيه دلالةٌ على فَضْلِه وشَرَفِه وشناعةِ ما فعلوا به.

والتعرُّضُ لعنوان الرحمة؛ لتغليظِ شناعتهم وتهويلِ جنايتهم؛ فإنَّ الإعراضَ عمَّا يأتيهم من جنابه جلَّ وعلا على الإطلاق شنيعٌ قبيحٌ، وعمَّا يأتيهم بموجب رحمته تعالى لِمَحْضِ منفعتهم أشنعُ وأقبحُ، أي: ما يأتيهم تذكيرٌ وموعظةٌ، أو طائفةٌ من القرآن، من قِبَلِه عزَّ وجلَّ بمقتضَى رحمته الواسعة، مجدَّدٌ[1] تنزيلُه حَسْبَما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ، إلا جدَّدوا إعراضاً عنه، واستمرُّوا على ما كانوا عليه.

والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، محلُّه النصبُ على الحالية من مفعول «يأتيهم» بإضمارِ «قد» أو بدونه على الخلاف المشهور، أي: ما يأتيهم من ذِكْرٍ في حالٍ من الأحوال إلا حالَ كونهم مُعْرِضين عنه.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي: بالذِّكر الذي يأتيهم، تكذيباً صريحاً مقارِناً للاستهزاء به، ولم يكتفوا بالإعراض عنه، حيث جعلوه تارةً سحراً، وتارة أساطيرَ الأوَّلين، وأخرى شِعْراً.

وقال بعض الفُضَلاء: أي: فقد تمُّوا على التكذيب وكان تكذيبُهم مع ورود ما يوجبُ الإقلاعَ من تكرير إتيان الذِّكر كتكذيبهم أوَّلَ مرَّةٍ، وللتنبيه على ذلك عبِّر عنه بما يعبَّر عن الحادث.

ويُشعر باعتبارِ مقارنةِ الاستهزاء حَسْبَما أشير إليه قولُه تعالى: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾ لاقتضائه تقدُّمَ الاستهزاء. وقيل: إنَّ ذاك لدلالة الإعراض والتكذيب على الاستهزاء.

والمرادُ بأنباءِ ذلك: ما سيحيقُ بهم من العقوباتِ العاجِلَةِ والآجلةِ، وكلٌّ آت قريب. وقيل: مِن عذابِ يومِ بدرٍ، أو يومِ القيامة.

---

(١) في (م): يجدد، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٤.

والأوَّلُ أَوْلَى، وعبَّر عن ذلك بالأنباء لكونه مما أنبأ به القرآنُ العظيم، أو لأنهم بمشاهدته يقفون على حقيقة حالِ القرآن، كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء. وفيه تهويلٌ له؛ لأن النبأ يطلقُ على الخبر الخطير الذي له وقعٌ عظيمٌ، أي: فسيأتيهم لا محالةَ مِصْداقُ ما كانوا يستهزؤون به قبلُ من غير أن يتدبَّروا في أحواله ويقفوا عليها.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ بيانٌ لإعراضهم عن الآيات التكوينية بعد بيانِ إعراضهم عن الآياتِ التنزيلية، والهمزةُ للإنكار التوبيخيِّ، والواوُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ، أي: أأصرُّوا على ما هم عليه من الكفر بالله تعالى وتكذيب ما يَدْعوهم إلى الإيمان به عزَّ وجلَّ ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرةِ لهم عن ذلك، والداعيةِ إلى الإيمان به تعالى.

وقال أبو السعود بعد جَعْلِ الهمزة للإنكار، والعَطْفِ على مقدَّرٍ يقتضيه المقام: أي: أفَعَلوا ما فَعَلوا من الإعراض عن الآيات والتكذيبِ والاستهزاءِ بها ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرةِ عمَّا فعلوا، والداعيةِ إلى الإقبال على ما أَعْرَضوا عنه(١). انتهى.

وهو ظاهرٌ في أنَّ الآية مرتبطةٌ بما قبلها من قوله تعالى: (وَمَا يَأْتِيهِم) إلخ، وهو قريبٌ بحسب اللَّفظ، إلَّا أنَّ فيه أنَّ النظر إلى عجائب الأرض لا يَظْهرُ كونُه زاجراً عن التكذيب بكونِ القرآن منزلاً من الله عزَّ وجلَّ، وداعياً إلى الإقبال إليه.

وقال ابن كمال: التقديرُ: ألم يتأمَّلوا في عجائب قدرته تعالى ولم ينظروا. انتهى. والظاهر أن الآية عليه ابتداءُ كلامٍ، فافهم.

وقيل: هو بيانٌ لتكذيبهم بالمعاد إثرَ بيانِ تكذيبهم بالمبدأ وكُفْرِهم به عزَّ وجلَّ، والعطفُ على مقدَّرٍ أيضاً، والتقديرُ: أكذَّبوا بالبعث ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة عن التكذيب بذلك. والأوَّلُ أَوْلَى وأظهرُ.

وأيًّا ما كان فالكلامُ على حَذْفِ مضافٍ كما أُشيرَ إليه، وجوِّز أن يراد من الأرض عجائبُها مجازاً.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٥.

وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لِمَا في الأرض من الآيات الزاجرة عن الكُفْرِ الدَّاعيةِ إلى الإيمان.

و«كم» خبريةٌ في موضع نَصْبٍ على المفعولية بما بعدها، وهي مفيدةٌ للكثرة، وجيء بـ «كلّ» معها لإفادة الإحاطة والشمولِ، فيفيدانِ[1] كثرةَ أفرادِ كلِّ صنفٍ صنفٍ، فيكونُ المعنى: أنبتنا فيها شيئاً كثيراً من كلِّ صنفٍ، على أنَّ «مِن» تبعيضيةٌ، أو كثرةَ الأصناف، فيكون المعنى: أنبتنا فيها شيئاً كثيراً هو كلُّ صنفٍ، على أنَّ «من» بيانيةٌ. وأيًّا ما كان فلا تكرار بينهما.

وقد يقال: المعنى: أوَ لم ينظروا إلى نفسِ الأرض التي هي طبيعةٌ واحدةٌ كيف جعلناها مَنْبتاً لنباتاتٍ كثيرةٍ مختلفةِ الطبائع، وحينئذٍ ليس هناك حذفُ مضافٍ ولا مَجازٌ، ويكونُ قولُه تعالى: ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ إلخ بَدَلَ اشتمالٍ بحسب المعنى، وهو وجهٌ حَسَنٌ فافْهَمْه لئلَّا تظنَّ رجوعَه إلى ما تقدَّم، واحتياجَه إلى ما احتاجَ إليه من الحذف أو التجوُّز.

والزوجُ: الصِّنفُ، كما أَشَرْنا إليه. وذكر الراغب: أنَّ كلَّ ما في العالم زوجٌ من حيث إنَّ له ضدّاً ما، أو مِثْلاً ما، أو تركيباً ما، بل لا ينفكُّ بوجهٍ من تركيب[2].

والكريمُ من كلِّ شيءٍ مَرْضيُّه ومحمودُه، ومنه قوله:

حتى يشقَّ الصفوفَ من كَرَمِه[3]

فإنه أراد: من كونه مرضيّاً في شجاعته. وهو صفةٌ لـ «زوج»، أي: من كلِّ زوجٍ كثيرِ المنافع، وهي تحتملُ التخصيصَ والتوضيحَ، ووجهُ الأول دلالتُه على ما يدلُّ عليه غيرُه في شأن الواجب تعالى وزيادة، حيث يدلُّ على النعمة الزاجرة لهم عمَّا هم عليه أيضاً، ووجهُ الثاني التنبيهُ على أنه تعالى ما أنبت شيئاً إلَّا وفيه فائدةٌ، كما يؤذن به قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

---

(١) في (م): فيفيد أن.
(٢) مفردات الراغب (زوج).
(٣) وصدره: ولا يَخِيمُ اللقاءَ فارسهم، وهو لبعض شعراء حمير كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٣٣٣.

وأيًّا ما كان فالظاهرُ عدمُ دخول الحيوان في عموم المُنْبَتِ، وذهب بعضٌ إلى دخوله بناءً على أنَّ خَلْقَه من الأرض إنباتٌ له كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح:١٧].

وعن الشعبيِّ التصريحُ بدخولِ الإنسان فيه، فقد روي عنه أنه قال: الناسُ من نبات الأرض، فَمَن صار إلى الجنة فهو كريم، ومَن صار إلى النار فبِضِدِّ ذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الإنباتِ أو المُنْبَتِ ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾ عظيمةً دالَّةً على ما يجب عليهم الإيمانُ به من شؤونه عزَّ وجلَّ، وما أَلْطَفَ ما قيل في وصف[١] النرجس:

تـأمَّـل فـي ريـاضِ الـوَرْدِ وانْـظُـرْ إلـى آثـارِ مـا صَـنَـعَ الـمـلـيـكُ
عـيـونٌ مـن لُـجـيـنٍ شـاخـصـاتٌ عـلـى أهـدابـهـا ذَهَـبٌ سَـبـيـكُ
عـلـى قُـضُـبِ الـزَّبَـرْجَـدِ شـاهـداتٌ بـأنَّ الله لـيـس لـه شـريـكُ[٢]

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ⑧﴾ قيل: أي: وما كان في عِلْم الله تعالى ذلك. واعتُرض ـ بناءً على أنه يفهم من السياق العلِّيةُ ـ بأنَّ علمه تعالى ليس علَّةً لعدم إيمانهم؛ لأنَّ العلم تابعٌ للمعلوم لا بالعكس.

ورُدَّ بأنَّ معنى كونِ عِلْمِه تعالى تابعاً للمعلوم: أنَّ عِلْمَه سبحانه في الأزل بمعلومٍ معينٍ حادثٍ تابعٌ لماهيته، بمعنى أنَّ خصوصيةَ العلم وامتيازَه عن سائر العلوم إنما هو باعتبار أنه علمٌ بهذه الماهية، وأمَّا وجودُ الماهية فيما لا يزالُ فتابعٌ لعلمه تعالى الأزليِّ التابعِ لماهيته، بمعنى أنه تعالى لمَّا عَلِمَها في الأزل على هذه الخصوصية لزم أن تتحقَّق وتُوجَدَ فيما لا يزال كذلك، فنفسُ موتهم على الكفر وعَدَمُ إيمانهم متبوعٌ لعلمه الأزليِّ، ووقوعُه تابعٌ له.

ونقل عن سيبويه[٣] أنَّ «كان» صلةٌ، والمعنى: وما أكثرُهم مؤمنين، فالمرادُ الإخبارُ عن حالهم في الواقع لا في عِلْمِ الله تعالى الأزليِّ.

---

(١) في (م): صف، وهو تصحيف.
(٢) سلفت هذه الأبيات ٢/ ٢٧-٢٨.
(٣) كما في تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٥، وينظر الكتاب ١/ ٧٣.

وارتضاه شيخ الإسلام، وقال[1]: هو الأنسبُ بمقام بيانِ عتوِّهم وغلوِّهم في المكابرة والعنادِ مع تَعاقُدِ[2] موجباتِ الإيمان من جهته عزَّ وجلَّ، وأما نسبةُ كفرهم إلى عِلْمِه تعالى فربما يُتَوهَّمُ منها كونُهم معذورين فيه بحسب الظاهر، ويحتاجُ حينئذٍ إلى تحقيق عَدَمِ العُذْرِ بما يَخْفَى على العلماء المُتْقِنِينَ، والمعنى على الزيادة: وما أكثرُهم مؤمنين مع عظم الآية الموجبة للإيمان؛ لغايةِ تماديهم في الكفر والضلالةِ، وانهماكِهم في الغي والجهالة.

ويجوز على قياس ما مرَّ عن بعض الأجلَّةِ[3] في قوله تعالى: (أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) أن يقال: إنَّ «كان» للاستمرار واعتُبِرَ بعد النفي، فالمرادُ استمرارُ نفي إيمان أكثرهم مع عظم الآية الموجبة لإيمانهم، وفيه من تقبيح حالهم ما فيه.

وهذا المعنى وإنْ تأتَّى على تقديرِ إسقاطِ «كان» بأن يُعتبر الاستمرار الذي تفيدُه الجملةُ الاسمية بعد النفي أيضاً، إلَّا أنه فَرْقٌ بين الاستمرارين بعد اعتبار «كان» قوةً وضَعْفاً فتدبَّر. ونسبةُ عَدَمِ الإيمان إلى أكثرهم لأنَّ منهم مَن لم يكن كذلك.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالبُ على كلِّ ما يريده من الأمور التي من جملتها الانتقامُ من هؤلاء الكفرة. ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ أي: البالغُ في الرحمة، ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتةً بما اجترؤوا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات.

أو «العزيزُ» في انتقامه ممن كَفَر، «الرحيمُ» لمن تاب وآمَنَ. أو «العزيزُ» في انتقامه من الكفرة، «الرحيم» لك بأن يقدِّرَ مَن يؤمنُ بك إن لم يؤمن هؤلاء.

و[في][4] التعرُّضُ لوَصْفِ الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من تشريفه عليه الصلاة والسلام والعِدَةِ الخفيَّةِ له ﷺ ما لا يخفى.

---

(١) في تفسيره ٦/ ٢٣٥.
(٢) في تفسير أبي السعود: تعاضد.
(٣) ص٥٩ من هذا الجزء.
(٤) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٥، والكلام منه.

وتقديمُ «العزيز» لأنَّ ما قبله أظهرُ في بيان القدرة، أو لأنه أدلُّ على دَفْعِ المضارِّ الذي هو أهمُّ من جَلْبِ المصالح.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مقرِّرٌ لسوء حالهم، ومسلٍّ له ﷺ أيضاً، لكن بنوعٍ آخَرَ من أنواع التسلية على ما قيل. و«إذ» منصوبٌ على المفعولية بمقدَّرٍ خوطب به النبيُّ ﷺ معطوفٍ على ما قبله عَطْفَ القصة على القصة.

والتقديرُ عند بعضٍ: واذْكُرْ في نفسك وقتَ ندائه تعالى أخاك موسى عليه السلام، وما جرى له مع قومه من التكذيب مع ظهورِ الآيات وسُطوعِ المعجزات؛ لتعلم أنَّ تكذيبَ الأمم لأنبيائهم ليس بأول قارورةٍ كسرت، ولا بأولِ صحيفةٍ نُشرت، فيهونُ عليك الحالُ، وتستريحُ نفسُكَ مما أنت فيه من البلبال.

وعند شيخ الإسلام[١]: واذكر لقومك وقتَ ندائه تعالى موسى عليه السلام، وذكِّرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم إياه عليه السلام زجراً[٢] لهم عمَّا هم عليه من التكذيب، وتحذيراً من أنْ يحيقَ بهم مثلُ ما حاق بهم، حتى يتَّضح لديك أنهم في غاية العناد والإصرار[٣]، لا يَرْدَعُهم أَخْذُ أضرابِهم من المكذِّبين الأشرار، ولا يؤثِّرُ فيهم الوعظُ والإنذار.

وهذا التقديرُ يناسِبُ صَدْرَ القصة الآتية، أعني قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ والأول يناسبُ القصصَ المصدَّرة بـ «كذَّبَتْ» على ما قيل.

والأظهرُ عندي تقديرُ: واذكر لقومك؛ لوضوح اقتضاءِ «واتلُ عليهم» له. ولا نسلِّمُ اقتضاءَ تلك القصص المصدَّرةِ بـ «كذَّبَتْ» تقديرَ: اذْكُر في نفسك، وأمرُ المناسبةِ مشتركٌ، وإن سُلِّم اختصاصُها به فهي لا تقاوِمُ الاقتضاءَ المذكور. نعم الأظهرُ أن يكون وجه التسلِّي بما ذُكر كونَه عليه الصلاة والسلام ليس بِدْعَاً من الرسل، ولا قومُه بدعاً من الأقوام في التكذيب مع ظهور الآيات وسطوعِ المعجزات، وقد تضمَّن الأمرُ بذِكْرِ ذلك لهم الأمرَ بالتسلِّي به على أتمِّ وجهٍ، فتدبَّر.

---

(١) في تفسيره ٦/ ٢٣٦.
(٢) في (م): زاجراً.
(٣) في الأصل: في غاية الفساد والإضرار.

وأيًّا ما كان فوجهُ توجيهِ الأمرِ بالذِّكر إلى الوقت مع أنَّ المقصودَ ذِكْرُ ما فيه قد مرَّ مراراً.

وقيل: إنَّ ذلك المقدَّرَ معطوفٌ على مقدَّرٍ آخَر، أي: خُذِ الآياتِ ـ أو: ترقَّبْ إتيانَ الأنباء ـ واذْكُر. وهو تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه.

وقيل: «إذ» ظرفٌ لـ «قال» بعدُ. وليس بذاك.

ومعنى «نادى»: دعا. وقيل: أَمَر.

﴿أَنِ ٱئْتِ﴾ أي: بأنِ ائْتِ، على أنَّ «أن» مصدريةٌ حُذِفَ عنها حرفُ الجرِّ، أو: أي ائتِ، على أنها مفسِّرة. ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠﴾ بالكفر والمعاصي، واستِعْباد بني إسرائيل، وذَبْحِ أبنائهم.

وليس هذا مطلعُ ما وَرَدَ في حيِّز النداء، وإنما هو ما فصِّل في سورة «طه» من قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [الآيات: ١٢-٢٣]، وسنَّةُ القرآن الكريم إيرادُ ما جرى في قصةٍ واحدة من المقالات بعباراتٍ شتَّى وأساليبَ مختلفةٍ؛ لاقتضاء المقام ما يكون فيه من العبارات، كما حقِّق في موضعه[(١)].

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ﴾ عطفُ بيانٍ لـ «القوم الظالمين» جيءَ به للإيذان بأنهم عَلَمٌ في الظلم، كأنَّ معنى «القوم الظالمين» وترجمتَه قوم فرعون. وقال أبو البقاء: بدلٌ منه[(٢)]. ورجَّح أبو حيان[(٣)] الأولَ بأنه أَقْضَى لحقِّ البلاغةِ؛ لإيذانه بما سمعتَ.

ولعل الاقتصارَ على القوم للعِلْم بأنَّ فرعون أَوْلَى بما ذُكِر[(٤)]، وقد خصَّ في بعض المواضع للدلالة على ذلك. وجوِّز أن يقال: «قوم فرعون» شاملٌ له شمولَ بني آدمَ آدمَ عليه السلام.

﴿أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾ حالٌ بتقديرِ القول، أي: ائتهم قائلاً لهم: أَلَا يتقون[(٥)].

---

(١) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٥) من سورة الأعراف.
(٢) الإملاء ٤/ ١٠٩.
(٣) في البحر ٧/ ٧.
(٤) أي: من الإتيان، أو الوصف بالظلم. حاشية الشهاب ٧/ ٥.
(٥) في الأصل: تتقون.

وقرأ عبد الله بنُ مسلم بنِ يسار وشقيق بنُ سلمة وحماد بنُ سلمة وأبو قلابةَ بتاء الخطاب[١]، ويجوزُ في مِثْلِ ذلك الخطابُ والغيبةُ، فيقال: قل لزيد: تعطي عَمْراً كذا، و: يعطي عمراً كذا.

وقرئ بكَسْرِ النون مع الخطاب والغيبةِ[٢]، والأصلُ: يتقونني، فحُذفت إحدى النونين لاجتماع المِثْلَينِ وحُذفتْ ياءُ المتكلِّم اكتفاءً بالكسرة. وقولُ موسى عليه السلامُ ذلك بطريق النيابة عنه عزَّ وجلَّ نظيرُ ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦] فكأنه قيل: ائتهم قائلاً قولي لهم: ألا تتقونني.

وقال الزمخشريُّ[٣]: هو كلامٌ مستأنفٌ أتْبعَه عزَّ وجلَّ إرسالَه إليهم؛ للإنذار والتسجيلِ عليهم بالظلم تعجيباً لموسى عليه السلام من حالهم التي شَنُعت في الظلم والعسف، ومن أمْنِهم العواقبَ وقلة خوفهم وحَذَرِهم من أيام الله عزَّ وجلَّ. وقراءةُ الخطاب على طريقة الالتفاتِ إليهم وجَبْهِهم وضَرْبِ وجوههم بالإنكار والغضبِ عليهم، وإجراءُ ذلك في تكليم المرسَل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه في مسامعهم لأنه مبلِّغُه ومُنْهِيه وناشرُه بين الناس، فلا يضرُّ كونُهم غُيَّباً حقيقةً في وقت المناجاة، وفيه مزيدُ حثٍّ على التقوى لمن تدبَّر وتأمَّل. انتهى.

والاستئناف عليه، قيل: بيانيٌّ بتقديرِ: لـِمَ هذا الأمر؟ وقيل: هو نحويٌّ؛ إذ لا حاجةَ إلى هذا السؤال بعد ذِكْرِهم بعنوان الظلم، ودفع بالعناية. ولعل ما ذكرناه أسرعُ تبادُراً إلى الفهم.

وقال أيضاً[٤]: يحتمل أن يكون «لا يتقون» حالاً من الضمير في «الظالمين»، أي: يظلمون غيرَ متَّقين اللهَ تعالى وعقابَه عزَّ وجلَّ،فأدخلت همزةُ الإنكار على الحال دلالةً على إنكارِ عَدَمِ التقوى والتوبيخِ عليه؛ ليفيد إنكارَ الظلم من طريق الأولى، فإنَّ فائدةَ الإتيانِ بهذه الحال الإشعارُ بأن عدمَ التقوى هو الذي جرَّأهم على الظلم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والمحتسب ٢/ ١٢٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٢٦، والبحر ٧/ ٧.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٦، والكشاف ٣/ ١٠٦، والبحر ٧/ ٧.
(٣) في الكشاف ٣/ ١٠٦.
(٤) في الكشاف ٣/ ١٠٦.

وتعقَّبه أبو حيان بأنه خطأٌ فاحشٌ؛ لأنَّ فيه مع الفَصْلِ بين العامل والمعمول بالأجنبيِّ لزومَ إعمالِ ما قَبْلَ الهمزة فيما بعدها[1].

وأُجيبَ بمنع كون الفاصلِ أجنبيًّا، وأنه يُتوسَّعُ في الهمزة. وهو كما ترى.

وجوَّز أيضاً في «ألا يتقون» بالياء التحتية وكَسْرِ النون أن يكون بمعنى: ألا يا ناسُ اتَّقونِ، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾[2] [النمل: ٢٥]. فتكون «ألا» كلمةً واحدةً للعَرْضِ، و«يا» ندائية سقطت أَلِفُها لالتقاءِ الساكنينِ وحذف المنادى، وما بعده فعلُ أمرٍ، ويكونُ إسقاطُ الألفين مخالفاً للقياس.

ولا يخفى أنه تخريجٌ بعيدٌ، وأنَّ الظاهر أنَّ «ألا» للعَرْضِ المضمَّنِ الحضَّ على التقوى في جميع القراءات.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا قال موسى عليه السلام؟ فقيل: قال متضرِّعاً إلى الله عزَّ وجلَّ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾ مِن أوَّل الأمر.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ معطوفان على خبر «إنَّ»، فيفيدُ أنَّ فيه عليه السلام ثلاثَ عللٍ: خوفَ التكذيب، وضِيقَ الصدر، وامتناعَ انطلاقِ اللسان.

والظاهرُ ثبوتُ الأمرين الأخيرين في أنفسهما غيرَ متفرِّعَينِ على التكذيب ليدخلا تحت الخوف، لكنْ قرأ الأعرجُ وطلحةُ وعيسى وزيد بنُ عليٍّ وأبو حيوةَ، وزائدةُ عن الأعمش، ويعقوبُ، بنصب الفعلين عَطْفاً على «يكذبون»[3]، فيفيدُ دخولَهما تحت الخوف.

ولأنَّ الأصل توافُقُ القراءتين قيل: إنهما متفرِّعان على ذلك، كأنه قيل: ربِّ إنِّي أخاف تكذيبَهم إيَّاي، ويضيق صدري انفعالاً منه، ولا ينطلق لساني من سجن اللُّكنة وقيدِ العِيِّ بانقباض الروح الحيوانيِّ الذي تتحرَّكُ به العضلاتُ، الحاصِلِ عند ضيقِ الصدرِ واغتمامِ القلب.

---

(١) البحر ٧/٧.

(٢) الكشاف ٣/١٠٦. وما بعده من حاشية الشهاب ٧/٦.

(٣) النشر ٢/٣٣٥ عن يعقوب، وذكرها عنهم أبو حيان في البحر ٧/٧.

والمرادُ حدوثُ تَلَجْلُجِ اللسان له عليه السلام بسبب ذلك، كما يشاهَدُ في كثيرٍ من الفُصَحاءِ إذا اشتدَّ غمُّهم وضاقَتْ صدورُهم، فإنَّ ألسنتهم تتلَجْلَجُ حتى لا تكاد تُبِينُ عن مقصودٍ. هذا إن قلنا: إنَّ هذا الكلامَ كان بعد دعائه عليه السلام بحَلِّ العقدة، واستجابةِ الله تعالى له بإزالتها بالكلِّية.

أو المرادُ ازديادُ ما كان فيه عليه السلام إن قلنا: إنه كان قبل الدعاء، أو بعده لكنْ لم تَزُل العقدةُ بالكلِّية، وإنما انحلَّ منها ما كان يمنعُ من أن يُفْقَهَ قولُه عليه السلام فصار يُفْقَهُ قولُه مع بقاءِ يسيرِ لُكْنةٍ.

وقال بعضهم: لا حاجةَ إلى حديث التفرُّع، بل هما داخلان تحت الخوف بالعطف على «يكذِّبون» كما في قراءة النصب، وذلك بناءً على ما جوَّزه البقاعيُّ[1] من كونِ «أخاف» بمعنى أعلم أو أظنُّ، فتكون «أنْ» مخفَّفةً من الثقيلة لوقوعها بعد ما يفيدُ علماً أو ظنًّا. ويُلْتزَمُ على هذا كونُ «أخاف» في قراءة النصب على ظاهره لئلَّا تأبى ذلك، ويُدعَى اتحاد المآل.

وحَكَى أبو عمرو الداني عن الأعرج أنه قرأ بنصبِ «يضيق» ورَفْع «ينطلق»[2]، والكلامُ في ذلك يُعْلَم مما ذكر.

وأيًّا ما كان فالمرادُ من ضيقِ الصَّدْرِ ضيقُ القلب، وعبَّر عنه بما ذُكِرَ مبالغةً، ويراد منه الغمُّ.

ثم هذا الكلامُ منه عليه السلام ليس تشبُّثاً بأذيال العِلَلِ والاستعفاءِ عن امتثال أمره عزَّ وجلَّ وتَلَقِّيهِ بالسمع والطاعة، بل هو تمهيدُ عذرٍ في استدعاء عونٍ له على الامتثال وإقامةِ الدعوة على أتمِّ وجهٍ؛ فإنَّ ما ذكره ربَّما يوجبُ اختلالَ الدعوة وانتباذَ الحجَّةِ.

وقد تضمَّن هذا الاستدعاءُ قولَه تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣﴾ كأنه قال: أَرْسِلْ جبريلَ عليه السلام إلى هارون واجْعَلْه نبيًّا، وآزِرْني به واشْدُدْ به عَضُدي،

---

(١) في نظم الدرر ١٤/١٦، وذكره عنه أيضاً الشهاب في الحاشية ٧/٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٢٦، والبحر ٧/٧.

لأنَّ في الإرسالِ إليه عليه السلامُ حصولَ هذه الأغراضِ كلِّها، لكنْ بُسِطَ في سورة القصص واكتُفي ها هنا بالأصل عما في ضِمْنه.

ومن الدليل على أنَّ المعنى على ذلك لا أنه تعلُّلٌ وقوعُ «فأرْسِلْ» معترضاً بين الأوائل والرابعة، أعني «ولهم» إلخ، فأذِنَ بتعلُّقه بها، ولو كان تعلُّلاً لأُخِّر، وليس أمرُه بالإتيان مستلزماً لِمَا استَدْعاه عليه السلام.

وتقديرُ مفعولِ «أَرْسِلْ» ما أشرنا إليه، قد ذهب إليه غيرُ واحدٍ. وبعضُهم قدَّر: مَلَكاً؛ إذ لا جَزْمَ في أنه عليه السلام كان يعلمُ إذ ذاك أن جبريل عليه السلام رسولُ الله عزَّ وجلَّ إلى من يستنبئُه سبحانه من البشر.

وفي الخبر: أنَّ الله تعالى أرسل موسى إلى هارون وكان هارونُ بمصر حين بعث الله تعالى موسى نبيّاً بالشام.

وأخرج ابن أبي حاتم(١) عن السدِّيِّ قال: أَقْبلَ موسى عليه السلام إلى أهله(٢) فسار بهم نحو مصرَ حتى أتاها ليلاً، فتَضيَّفَ على أمِّه - وهو لا يعرفهم - في ليلةٍ كانوا يأكلون [فيها] الطَّفَيْشَلَ(٣)، فنزل(٤) في جانب الدار، فجاء هارونُ عليه السلام فلمَّا أبصر ضيفه سأل عنه أمَّه فأخبرته أنه ضيفٌ، فدعاه فأكل معه، فلمَّا قعدا تحدَّثا فسأله هارون: من أنت؟ قال: أنا موسى. فقام كلُّ واحدٍ منهما إلى صاحبه فاعتنقه، فلمَّا أنْ تعارَفا قال له موسى: يا هارون، انْطَلِقْ معي إلى فرعونَ فإنَّ الله تعالى قد أرسلنا إليه. قال هارون: سَمْعاً وطاعةً. فقامت أمُّهم فصاحت وقالت: أَنشدُكما بالله تعالى أنْ لا تَذْهَبا إلى فرعونَ فيقتلكما. فأبَيا، فانطلقا إليه ليلاً، الخبرَ والله تعالى أعلمُ بصحَّتِه.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ أي: تبعةُ ذنبٍ، فحُذِفَ المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مقامَه،

---

(١) في تفسيره ٨/ ٢٦٩٣، وذكره عنه السيوطي في الدر ٥/ ٨٣، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

(٢) في الدر: بأهله، بدل: إلى أهله.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): الطفيشل كسَمَيْذَع نوع من المرق. وزاد في (م): قاموس. والكلام في القاموس (طفل).

(٤) في الأصل و(م): فنزلت، والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم والدر المنثور.

أو سمِّي باسمه مجازاً بعلاقةِ السببية، والمراد به قَتْلُ القِبْطيِّ خبَّازِ فرعونَ بالوَكْزَةِ التي وَكَزَها، وقصتُه مبسوطةٌ في غير موضعٍ، وتسميتُه ذنباً بحَسَبِ زَعْمِهم كما[1] ينبئُ عنه قوله تعالى: (وَلَهُمْ).

﴿فَأَخَافُ﴾ إنْ أتيتُهم وحدي ﴿أَن يَقْتُلُونِ ⑭﴾ بسبب ذلك، ومرادُه عليه السلام بهذا استدفاعُ البليةِ خوفَ فواتِ مصلحةِ الرسالة وانتشارِ أمرها، كما هو اللائقُ بمقام أُولي العَزْمِ من الرُّسُل عليهم السلام، فإنهم يتوقون لذلك كما كان يفعلُ ﷺ حتى نزل عليه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولعلَّ الحقَّ أنَّ قَصْدَ حِفْظِ النفسِ معه لا يُنافي مقامَهم.

وفي «الكشاف»: أنه عليه السلامُ فَرِقَ أنْ يُقتَلَ قبل أداء الرسالة[2]. وظاهرُه أنه وإن كان نبيّاً غيرُ عالمٍ بأنه يبقى حتى يؤدِّيَ الرسالةَ، وإليه ذهب بعضُهم لاحتمالِ أنه إنما أُمر بذلك بشرطِ التمكين مع أنَّ له تعالى نَسْخَ ذلك قبله.

وقال الطيبيُّ: الأقربُ أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام يعلمون إذا حَمَلَهم الله تعالى على أداء الرسالة أنه سبحانه يمكِّنُهم، وأنهم سيبقَوْنَ إلى ذلك الوقتِ. وفيه منعٌ ظاهر.

وفي «الكشف»: أنه على القولين يصحُّ قولُ الزمخشريِّ: فَرِقَ.. إلخ؛ لأنَّ ذلك كان قبل الاستنباء، فإنَّ النداء كان مقدِّمتَه. ولا أظنُّك تقول به.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ إجابةٌ له عليه السلام إلى الطلبتين، حيث وعده عزَّ وجلَّ دَفْعَ بليةِ الأعداء بردْعِه عن الخوف. وضمَّ إليه أخاه بقوله: «اذهبا»، فكأنَّه قال له عزَّ وجلَّ: ارْتَدِعْ عن خوف القتل فإنك بأعيننا، فاذْهَبْ أنت وأخوك هارونُ الذي طَلَبْتَه. وجاء النشرُ على عَكْسِ اللَّفِّ لاختصاصِ ما قدِّم بموسى عليه السلام.

وظاهرُ السياق يقتضي عَدَمَ حضورِ هارون، ففي الخطاب المذكور تغليبٌ، والفعلُ معطوفٌ على الفعل الذي يدلُّ عليه «كلَّا» كما أشرنا إليه. وقيل: الفاءُ فصيحةٌ.

---

(١) في الأصل و(م): بما، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٧، والكلام منه.
(٢) الكشاف ٣/ ١٠٧.

والمرادُ بالآيات ما بعثهما الله تعالى به من المعجزات، وفيها رمزٌ إلى أنها تَدفعُ ما يخافُه.

وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ تعليلٌ للرَّدْعِ عن الخوف، ومزيدُ تسليةٍ لهما بضمانِ كمالِ الحفظ والنصرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦] والخطابُ لموسى وهارون ومَن يتَّبِعُهما من بني إسرائيل، فيتضمَّنُ الكلام البشارةَ بالإشارة إلى علوِّ أمرهما واتِّباع القوم لهما.

وذهب سيبويه(١) إلى أنه لهما عليهما السلام، ولشرفهما وعظمتهما عند الله تعالى عُومِلَا في الخطاب معَاملةَ الجمع. واعتُرض بأنه يأباه ما بعده وما قبله من ضمير التثنية.

وقيل: هو لهما عليهما السلام ولفرعونَ، واعتُبِرَ لكون الموعود بمحضرٍ منه، وإن شئتَ ضُمَّ إلى ذلك قوم فرعون أيضاً.

واعتُرِضَ بأنَّ المعية العامةَ ـ أعني المعيَّةَ العِلْمِيةَ ـ لا تختصُّ بأحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة:٧] والمعيَّةُ الخاصَّةُ وهي معيَّةُ الرأفة والنصرة لا تليقُ بالكافر ولو بطريق التغليب.

وأجيب بأنَّ خصوص المعيَّة لا يلزم أن يكون بما ذُكر، بل بوجهٍ آخَر وهو تخليصُ أحدِ المتخاصمين من الآخر بنصرة المُحِقِّ والانتقام من المبطِلِ.

وأيًّا ما كان فالظرفُ في موضع الخبر لـ «إنَّ» و«مستمعون» خبرٌ ثانٍ، أو الخبرُ «مستمعون» والظرفُ متعلِّقٌ به، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من ضميره، وتقديمُه للاهتمام، أو الفاصلة، أو الاختصاص بناءً على أنْ يرادَ بالمعية معيَّةٌ مخصوصةٌ على ما هو اللائق بالمقام، وهي في ذلك وكذا في المعيَّة العامةِ مجازٌ، ومثلُها(٢) الاستمَاعُ في حقِّه عزَّ وجلَّ، وهو مجازٌ عن السمع اختير للمبالغة لأنَّ فيه تَلَمُّساً(٣) للإدراك، وهو ممَّا ينزَّه الله تعالى عنه سواءٌ كان بحاسَّةٍ أم لا، فسقط ما قيل من أنَّ

---

(١) كما في البحر ٧/ ٨.

(٢) من قوله: معية مخصوصة، إلى هذا الموضع ساقط من (م).

(٣) في (م): تسلماً، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٧، والكلام منه.

السمع في الحقيقة إدراكٌ بحاسةٍ فإنْ أريدَ به مطلقُ الإدراك فالاستماعُ مثلُه فلا حاجةَ إلى التجوُّز فيه.

وإلى التجوُّز هنا ذهب غيرُ واحدٍ، وقال بعضهم: «إنَّا معكم مستمعون» جملتُه[1] استعارةٌ تمثيليةٌ؛ مثَّل سبحانه حالَه عزَّ وجلَّ بحالِ ذي شوكةٍ قد حضر مجادلةَ قومٍ يستمع ما يجري بينهم؛ ليمدَّ أولياءه ويُظْهِرَهم على أعدائهم، مبالغةً في الوعد بالإعانة. وحينئذٍ لا تجوُّز في شيءٍ من مفرداته، ولا يكون «مستمعون» مُطْلَقاً عليه تعالى، فلا يُحتاجُ إلى جَعْلِه بمعنى سامعين، إلَّا أن يقال: إنه في المستعارِ منه كذلك؛ لأنَّ المقصود السمعُ دون الاستماع الذي قد لا يوصل إليه، لكنه كما ترى.

وجوِّز أن يكون «إنا معكم» فقط تمثيلاً لحاله عزَّ وجلَّ في نَصْرِه وإمدادِه بحالِ مَن ذُكِرَ، ويكون الاستماعُ مجازاً عن السمع، وهو بحسب ظاهره ـ لِكونه لم يُطلَقْ عليه سبحانه كالسمع ـ كالقرينةِ وإن كان مجازاً، والقرينةُ في الحقيقة عقليةٌ، وهي استحالةُ حضوره تعالى شأنُه في مكان. ولا بدَّ على هذا من أن يقال: إنَّ الاستماع المذكورَ في تقريرِ التمثيل ليس هو الواقعَ في النظم الكريم، بل هو من لوازم حضورِ الحكم للخصومة، وفيه بعدٌ.

ثم إنَّ ما ذكروه وإن كان مبنيًّا على جَعْلِ الخطاب لموسى وهارون وفرعون، يمكنُ إجراؤه على جَعْلِه لهما عليهما السلام ولمن يتَّبعُهما، أوْ لهما فقط أيضاً بأدنى عنايةٍ، فافهم ولا تغفل.

وزعم بعضهم أنَّ المعيَّة والاستماعَ على حقيقتهما ولا تمثيل، والمراد: إنَّ ملائكتنا معكم مستمعون. وهو ممَّا لا ينبغي أن يُسْتَمع، ولا بدَّ في الكلام على هذا التقدير من إرادةِ الإعانة والنصرة، وإلَّا فبمجرَّدِ معيَّةِ الملائكة عليهم السلام واستماعِهم لا يَطِيبُ قلبُ موسى عليه السلام.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد الكريم، وليس هذا مجرَّدَ تأكيدٍ للأمر بالذهاب؛ لأنَّ معناه الوصولُ إلى المأتيِّ، لا مجرَّدُ التوجُّهِ إلى المأتيِّ كالذهاب.

---

(١) في (م): جملة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب.

وأفرد الرسول هنا لأنه مصدرٌ بحسب الأصل وُصِفَ به كما يوصَفُ بغيره من المصادر للمبالغة، كـ: رجل عَدْل، فيجري فيه ما[1] يجري فيه من الأَوْجُه، ولا يخفى الأَوْجَهُ منها، وعلى المصدرية ظاهرُ قول كُثيِّر عزَّة:

لقد كَذَبَ الواشُونَ ما فُهْتُ عندهم ... بسرٍّ ولا أَرْسَلْتُهم برسولِ[2]

وأظهرُ منه قولُ العباس بن مرداس:

ألَا مَن مُبْلِغٌ عنِّي خُفَافاً ... رسولاً بيتُ أَهْلِك مُنْتَهاها[3]

أو لاتِّحادهما للأخوَّةِ، أو لوحدة المرسِلِ أو المرسَلِ به[4]، أو لأنَّ قوله تعالى: (إنَّا) بمعنى: إنَّ كلًّا منَّا، فصحَّ إفرادُ الخبر كما يصحُّ في ذلك، وفائدتُه الإشارةُ إلى أنَّ كلًّا منهما مأمورٌ بتبليغ ذلك ولو منفرداً.

وفي التعبير بـ «ربِّ العالمين» ردٌّ على اللَّعين، ونَقْضٌ لِمَا كان أَبْرَمَه من ادِّعاء الألوهية، وحَمْلٌ لطيفٌ له على امتثالِ الأمر.

و«أنْ» في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ مفسِّرةٌ؛ لتضمُّنِ الإرسال المفهومِ من الرسول معنى القول. وجوَّز أبو حيان كونَها مصدريةً، على معنى: إنَّا رسولُه عزَّ وجلَّ بالأمر بالإرسال، وهو بمعنى الإطلاق والتَّسريح، كما في قولك: أرسلتُ الحجر من يدي، وأرسل الصقر[5].

والمراد: خلِّهم يذهبوا معنا إلى فلسطين، وكانت مسكنهما عليهما السلام، وكان بنو إسرائيل قد استُعبدوا أربعَ مئةِ سنةٍ، وكانت عِدَّتُهم حين أُرْسِلَ موسى عليه

---

(١) في (م): كما، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٨، والكلام منه.

(٢) ديوان كثير عزة ص٢٧٨، والكشاف ٣/ ١٠٧، وتفسير القرطبي ١٦/ ١٥، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٨، قال الشهاب: المعنى: ما أرسلتهم برسالة. ورواية الديوان: بليلى، بدل: بسرٍّ. وبرسيل، بدل: برسول، ويروى بالوجهين كما قال ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٢٧٧.

(٣) الحماسة البصرية ١/ ١٣، وتفسير القرطبي ١٦/ ١٥، والخزانة ٤/ ٣٦٧. وجاء في هامش (م) عند قوله منتهاها: حيث أنَّث الضمير باعتبار الرسالة.

(٤) المرسَل به: الشريعةُ والتوحيد. حاشية الشهاب ٧/ ٨.

(٥) البحر ٧/ ٨-٩.

السلام ستَّ مئةٍ وثلاثين ألفاً، على ما ذكره البغوي[١].

﴿قَالَ﴾ أي: فرعونُ لموسى عليه السلام بعدَ ما أَتَياه وقالا له ما أُمِرا به. ويُرْوَى أنهما انطلقا إلى باب فرعون، فلم يُؤْذَنْ لهما سنةً حتى قال البوَّابُ: إنَّ ها هنا إنساناً يزعمُ أنه رسولُ ربِّ العالمين. فقال: ائذنْ له لعلَّنا نضحكُ منه. فأَذِنَ له، فدخلا فأدَّيا إليه الرسالة، فعَرَفَ موسى عليه السلام فقال عند ذلك: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[٢].

وفي خبرٍ آخَرَ: أنهما أَتَيا ليلاً فقرعا[٣] الباب، ففزع فرعونُ وقال: مَن هذا الذي يضربُ بابي هذه الساعة؟ فأشرف عليهما البوَّابُ فكلَّمهما، فقال له موسى: إنَّا رسولُ ربِّ العالمين. فأتى فرعونَ وقال: إنَّ ها هنا إنساناً مجنوناً يزعمُ أنه رسولُ ربِّ العالمين. فقال: أَدْخِلْه، فدخل فقال ما قصَّ الله تعالى[٤].

وأراد اللَّعينُ من قوله: «ألم نربِّك» إلخ الامتنانَ. و«فينا» على تقدير المضاف، أي: منازِلنا. والوليدُ فعيلٌ بمعنى مفعول، يقال لمن قَرُبَ عهدُه بالولادة، وإن كان ـ على ما قال الراغب ـ يصحُّ في الأصل لمن قرب عهدُه أو بَعُدَ، كما يقالُ لِمَا قَرُبَ عهدُه بالاجْتِنَاءِ: جَنيٌّ، فإذا كبر سقط عنه هذا الاسم[٥].

وقال بعضهم: كأن دلالته على قُرْبِ العهد من صيغة المبالغة، وكونِ الولادة لا تفاوُتَ فيها نفسها.

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ⑱﴾ قيل: لبث فيهم ثلاثين سنةً ثم خرج إلى مَدْيَنَ وأقام به عشر سنين، ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثين سنة، ثم بقي بعد الغرق خمسين.

وقيل: لبث فيهم اثنتي عَشْرَة سنةً، ففرَّ بعد أن وَكَزَ القِبْطيَّ إلى مَدْيَنَ فأقام به عشر سنين يَرْعَى غَنَم شعيبٍ عليه السلام، ثم ثماني عَشْرةَ سنةً بعد بنائه على امرأته

---

(١) في تفسيره ٣/ ٣٨٢.
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٣.
(٣) في (م): فقرع.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي كما في الدر المنثور ٥/ ٨٣.
(٥) مفردات الراغب (ولد).

بنتِ شعيبٍ، فكَملَ له أربعون سنةً، فبعثه الله تعالى وعاد إليهم يدعوهم إليه عزَّ وجلَّ، والله تعالى أعلم.

وقرأ أبو عمرو في روايةٍ: «من عُمْرِكَ» بإسكان الميم[١]. والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال من «سنين» كما هو المعروفُ في نَعْتِ النكرة إذا قدِّم.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يعني قَتْلَ القِبْطيِّ؛ وبَّخه به بَعْدَ ما امتنَّ، وعظَّمه عليه بالإبهام الذي في الموصول، وأراد في ذلك القَدْحَ في نبوَّته عليه السلام.

وقرأ الشعبيُّ: «فِعْلَتك» بكَسْرِ الفاء[٢]، يريد الهيئةَ، وكانت قِتْلَةً بالوَكْزِ[٣]. والفتحُ في قراءة الجمهور لإرادةِ المرَّة.

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: بنعمتي، حيث عَمَدْتَ إلى قتلِ رجلٍ من خواصِّي، كما روي عن ابن زيد.

أو: وأنت حينئذ من جملة القوم الذين تدَّعي كُفْرَهم الآن، كما حُكي عن السدِّيِّ، وهذا الحكم منه بناء على ما عرفه من ظاهرِ حاله عليه السلام إذ ذاك؛ لاختلاطه بهم، والتقيَّةِ معهم بعَدَمِ الإنكار عليهم، وإلَّا فالأنبياء عليهم السلام معصومون عن الكفر قبل النبوَّةِ وبعدها.

وقيل: كان ذلك افتراءً منه عليه عليه السلام. واستُبْعِدَ بأنه لو عَلِمَ بإيمانه أوَّلاً لسَجَنه أو قَتَله.

والجملةُ على الاحتمالين في موضع الحالِ من إحدى التاءين في الفعلين السابقين.

وجوِّز أن يكون ذلك حُكماً مبتَدأً عليه عليه السلام بأنه من الكافرين بإلهيَّته، كما روي عن الحسن، أو ممن يكفرون في دينهم حيث كانت لهم آلهةٌ يعبدونهم، أو من الكافرين بالنعم المعتادين لغَمْطِها، ومَن اعتاد ذلك لا يكون مِثْلُ هذه الجناية بِدْعاً منه، فالجملةُ مستأنفةٌ أو معطوفةٌ على ما قبلها.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١٠، وينظر السبعة ص٤٧١.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٦، والمحتسب ٢/ ١٢٧، والبحر ٧/ ١٠.
(٣) وهو الضربُ بجَمْعِ كفِّه. حاشية الشهاب ٧/ ٩.

والأَوْلَى عندي ما تقدَّم من جَعْلِ الجملةِ حالاً؛ لتكون مع نظيرتها في الجواب على طرزٍ واحدٍ؛ لتعيُّنِ الحالية هناك.

ولمَّا تضمَّن[1] كلامُ اللعينِ أمرين تَصَدَّى عليه السلام لردِّهما على سبيل اللَّفِّ والنَّشْرِ المشوَّشِ، فردَّ أوَّلاً ما وبَّخه به قدحاً في نبوَّته، أعني قوله: «وفعلت فعلتك» إلخ، اعتناءً بذلك واهتماماً به، وذلك بما حكاه سبحانه عنه بقوله جلَّ وعلا: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ﴾ أي: تلك الفَعْلَةَ ﴿إِذًا﴾ أي: إذ ذاك، على ما آثَرَه بعضُ أفاضل[2] المحقِّقين سَقَى اللهُ تعالى ثَرَاه، من أنَّ «إذاً» ظرفٌ مقطوعٌ عن الإضافة مؤثَراً فيه الفتحة على الكسرة لخفَّتها وكثرة الدَّور.

وأقرَّ عليه السلامُ بالقتل لثقته بحِفْظِ الله تعالى له، وقيَّد الفِعْلَ بما يَدْفَعُ كونَه قادحاً في النبوَّة، وهو جملةُ ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: من الجاهلين، وقد جاء كذلك في قراءة ابن عباس وابن مسعود كما نقله أبو حيان في «البحر» لكنه قال: ويَظْهَرُ أنَّ ذاك تفسيرٌ للضالِّين لا قراءةٌ مرويَّةٌ عن الرسول ﷺ[3].

وأراد عليه السلامُ بذلك ـ على ما روي عن قتادة ـ أنه فَعَل ذلك جاهلاً به غيرَ متعمِّدٍ إيَّاه، فإنَّه عليه السلامُ إنما تعمَّد الوَكْزَ للتأديب، فأدَّى إلى ما أدَّى، وفي معنى ما ذُكر ما رُوي عن ابن زيدٍ من أنَّ المعنى: وأنا من الجاهلين بأنَّ وَكْزتي تأتي على نَفْسِه.

وقيل: المعنى: فعلتُها مُقْدِماً عليها من غير مبالاةٍ بالعواقب، على أنَّ الجهل بمعنى الإقدام من غير مبالاةٍ، كما فسِّر بذلك في قوله:

أَلَا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا ... فنَجْهَلَ فوق جَهْلِ الجاهِلِينا[4]

وهذا مما يحسُنُ على بعض الأوجُهِ في تقرير الجواب المذكور.

قيل[5]: إنَّ الضلال ها هنا المحبةُ، كما فسِّر بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَفِى

---

(١) في (م): يتضمن.
(٢) قوله: أفاضل، ليس في (م).
(٣) البحر ٧/ ١١، والقراءة ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٦.
(٤) سلف عند تفسير الآية (١٧) من سورة النساء.
(٥) في الأصل: وما قيل.

ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥] وعَنَى عليه السلام أنه قَتَل القِبْطيَّ غيرةً لله تعالى، حيث كان عليه السلام من المحبِّين له عزَّ وجلَّ. وهو كما ترى.

ومثله ما قيل: أراد: من الجاهلين بالشرائع، وفسِّر الضلال بذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

وقال أبو عبيدة(١): من النَّاسِينَ، وفسّر الضلال بالنسيان في قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:٢٨٢] وعليه قيل: المرادُ: فعلتُها ناسياً حُرْمَتَها. وقيل: ناسياً أنَّ وَكْزي ذلك مما يفضي إلى القتل عادةً.

والذي أميلُ إليه من بين هذه الأقوالِ ما رُوي عن قتادةَ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة القصص ما يتعلَّقُ بهذا المقام.

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن [جرير عن ابن] جريج عن ابن مسعود أنه قرأ: «فعلتُها إذ أنا من الضالِّين»(٢).

﴿فَفَرَرْتُ﴾ أي: خرجتُ هارباً ﴿مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي: حين توقَّعْتُ مكروهاً يُصِيبُني منكم، وذلك حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:٢٠] ومن هنا يعلم وجهُ جمع ضمير الخطاب، وقرأ حمزةُ في روايةٍ: «لِمَا» بكسر اللام وتخفيفِ الميم(٣) على أنَّ اللامَ حرفُ جرٍّ و«ما» مصدرية، أي: لخوفي إياكم.

﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي: نبوَّةً، أو علماً وفَهْماً للأشياء على ما هي عليه. والأولُ مرويٌّ عن السدِّي، وتأوَّل بعضُهم ذلك بأنه أراد علماً هو من خواصِّ النبوة، فيكونُ الحُكْمُ بهذا المعنى أخصَّ منه بالمعنى الثاني. وقرأ عيسى: «حُكُماً» بضم الكاف(٤).

---

(١) كما في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٧١، وزاد المسير ٦/ ١١٩، والبحر ٧/ ١١.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٨٣، وما بين حاصرتين منه، وفيه: «فعلتها إذاً وأنا من الجاهلين». وهي كذلك في فضائل القرآن لأبي عبيد ص١٨٠، وتفسير الطبري ١٧/ ٥٥٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١١.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١١.

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ إشارةٌ على ظاهر الأول من تفسيري الحكم إلى تفضُّله تعالى عليه برتبةٍ هي فوقَ رتبةِ النبوَّة، أعني رتبةَ الرسالة، ولم يقل: فوهب لي ربِّي حكماً ورسالةً، أو: وجعلني رسولاً، إعظاماً لأمر الرسالة، وتنبيهاً لفرعون على أنَّ رسالته عليه السلام ليس أمراً مبتدعاً، بل هو مما جَرَتْ به سنَّةُ الله تعالى شأنُه.

وحاصلُ الردِّ: إنَّ ما ذكرتَ من نِسْبةِ القتل إليَّ مسلَّمٌ، لكنه ليس مما أُوبَّخُ به ويقْدَحُ في نبوَّتي؛ لأنه كان قبل النبوَّة من غيرِ تعمُّدٍ، حيث كان الوَكْزُ للتأديب وتَرتَّبَ عليه ذلك.

وردَّ ثانياً امتنانَه الذي تضمَّنه قولُه: «ألم نربك فينا وليداً» إلخ فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: التربيةُ المفهومةُ من قوله: «ألم نربك» إلخ ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا﴾ أي: تُنْعِمُ بها ﴿عَلَيَّ﴾ فهو من باب الحذف والإيصال، و«تمنُّ» من المنَّةِ بمعنى الإنعام، والمضارعُ لاستحضارِ الصورة. وجوِّز أن يكون من المنِّ، والمعنى: تلك نعمةٌ تَعُدُّها عليَّ، فليس هناك حذف وإيصال، والمضارعُ قيل: على ظاهره من الاستقبال، وفيه منعٌ ظاهر.

﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ذلَّلْتَهم واتَّخَذْتَهم عبيداً، يقال: عبَّدتُ الرجل وأَعْبَدْتُه: إذا اتخذته عبداً، قال الشاعر:

عَلَامَ يُعْبِدُني قومي وقد كَثُرتْ فيهم أباعرُ ما شاؤوا وعُبْدانُ[1]

و«أنْ» وما بعدها في تأويل مصدرٍ مرفوعٍ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ والجملةُ حاليةٌ أو مفسِّرةٌ، أو على أنه بدلٌ من «تلك» أو «نعمةٌ»، أو عطفٌ[2]، أو منصوبٌ على أنه بدلٌ من الهاء في «تمنُّها». أو مجرورٌ بتقديرِ الباء السببيةِ أو اللَّام على أحد القولين في محلِّ «أنْ» وما بعدها بعد حَذْفِ الجارِّ، والقولُ الآخَرُ أنَّ محلَّه النصبَ.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٩، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٣٣، والصحاح وأساس البلاغة (عبد)، والكشاف ٣/ ١٠٩، واللسان والتاج (عبد). وذكره صاحب اللسان أيضاً شاهداً على تعدية عَبِد يَعْبَد ـ بمعنى غضب ـ بغير حرف، وعزاه للفرزدق، وليس في ديوانه.

(٢) أي: عطف بيان. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ١٠.

وحاصلُ الردِّ: إنَّ ما ذَكَرْتَ نعمةٌ ظاهراً، وهي في الحقيقة نقمةٌ حيث كانت بسبب إذلال قومي وقَصْدِكَ إياهم بذبح أبنائهم، ولولا ذلك لم أَحْصُلْ بين يديك، ولم أكن في مهد تربيتك.

وقيل[1]: «تلك» إشارةٌ إلى خصلةٍ شنعاءَ مبهمةٍ لا يُدْرَى ما هي إلا بتفسيرها، و«أن عبَّدْتَ» عطفُ بيانٍ لها، والمعنى: تعبيدُك بني إسرائيل نعمةٌ تمنُّها عليَّ، وحاصل الردِّ إنكارُ ما امتَنَّ به أيضاً.

ويؤيِّد[2] حَمْلَ الكلام على ردِّ كونِ ذلك نعمةً في الحقيقة قراءةُ الضَّحَّاك: «وتلك نعمةٌ ما لَكَ أنْ تمنَّها عليَّ»[3]، وإلى ذلك ذهب قتادةُ، وكذا الأخفشُ والفرَّاءُ إلَّا أنَّهما قالا بتقديرِ همزةِ الاستفهام للإنكار بعد الواو، والأصل: وأتلك[4] نعمةٌ.. إلخ.

وأبى بعضُ النحاة حَذْفَ حرفِ الاستفهام في مثل هذا الموضع[5].

وقال أبو حيان: الظاهرُ أنَّ هذا الكلامَ إقرارٌ منه عليه السلام بنعمة فرعونَ، كأنه يقول: وتربيتُك إياي نعمةٌ عليَّ من حيث إنك عبَّدْتَ غيري وتركتني واتَّخَذْتَني ولداً، لكنْ لا يدفعُ ذلك رسالتي، وإلى هذا التأويل ذهب السدِّيُّ والطبريُّ[6]. وليس بذاك.

وأيًّا ما كان فالآيةُ ظاهرةٌ في أنَّ كُفْرَ الكافر لا يُبْطِلُ نعمته. وذهب بعضُهم

---

(١) هو قول الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٠٩.

(٢) في (م): ويريد، وهو تصحيف، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨، والبحر ٧/ ١١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨، والبحر ٧/ ١١.

(٤) كذا ذكر المصنف، والذي في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٤٦: أوتلك، فقدَّر الهمزة قبل الواو، وكذا نُقل عنه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧٦، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨، والبحر ٧/ ١١، وفيه: وقال الأخفش والفراء: قَبْلَ الواو همزةُ استفهامٍ يُراد به الإنكارُ، وحُذفت لدلالة المعنى عليها.

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧٦، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨. وقال النحاس بعد أن ذكر قول الأخفش: وهذا لا يجوز؛ لأن ألف الاستفهام تُحْدِثُ معنًى، وحذفها محال، إلا أن يكون في الكلام «أم» فيجوز حذفها في الشعر.

(٦) البحر ٧/ ١١، وكلام الطبري في تفسيره ١٧/ ٥٥٩ و٥٦٢.

إلى[1] أنَّ الكفر يُبْطِلُ النعمةَ لئلَّا يجتمع استحقاقُ المدحِ واستحقاقُ الذمِّ. وفيه أنه لا ضير في ذلك لاختلاف جهتي الاستحقاقين.

هذا وذهب الزمخشريُّ[2] إلى أنَّ «إذاً» في قوله تعالى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ جوابٌ وجزاءٌ، وبيَّن وجهَ كونِ الكلام جزاءً بقوله: قولُ [فرعون]: «وفَعَلْتَ فَعْلَتَك» فيه معنى: أنك جازيتَ نعمتي بما فَعَلْتَ، فقال له موسى عليه السلام: نعم فعلتُها مُجازياً لك، تسليماً لقوله، كأنَّ[3] نعمته عنده جديرةٌ بأن تُجازى بنحو ذلك الجزاء.

واعتُرِض بأنَّ هذا لا يلائم قوله: «وأنا من الضالين» لأنه يدلُّ على أنه اعترف بأنه فَعَلَ ذلك جاهلاً أو ناسياً.

وفي «الكشف»: تحقيقُ ما ذكره الزمخشريُّ أنَّ الترتيب الذي هو معنى الشرطِ والجزاء حاصلٌ، ولمَّا كانا ماضيين كان ذلك تقديريًّا، كأنه قال: إنْ كان ذلك كفراناً بنعمتك فقد فعلتُه جزاءً، ولكنَّ الوصفَ ـ أي: كونَه كفراناً ـ غير مُسلَّم، وأمدَّه بقوله: «وتلك نعمةٌ تمنُّها»، وفيه القولُ بالموجب أيضاً. وقولُه: «وأنا من الضالين» على هذا كأنه اعتذارٌ ثانٍ، أي: كنتَ تستحقُّ ذلك عندي، وأيضاً كنتَ من الحائدين عن منهج الصواب لا في اعتقاد استحقاقِ مكافأةِ صنيعك بمثل تلك، ولكن في الإقدام قبل الإذن من الملك العلَّام.

والحاصلُ أنه نَسَبَه إلى مقابلة الإحسان بالإساءة، وقرَّرها بكونه كافراً، فأجاب عليه السلام بأنَّ المقابلة حاصلةٌ، ولكنْ أين الإحسان، وما كنتُ كافراً بك ـ فإنه عينُ الهدى ـ بل ضالاً في الإقدام على الفعل، وما كنتُ كافراً لنعمةِ منعمٍ أصلاً، ولكن كنتُ فاعلاً لذلك خطأً. ومنه ظهر أنَّ قوله: «وأنا من الضالِّين» لا ينافي تقريرَ الزمخشريِّ بل يؤيِّدُه. اهـ.

---

(١) قوله: إلى، ليس في (م).

(٢) في الكشاف ٣/ ١٠٩، ونقله عنه أيضاً أبو حيان في البحر ٧/ ١٠-١١، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

(٣) في مطبوع الكشاف: لأن.

ولا يخفى أنَّ الأَوْفَقَ بحديث الجزاء أن يكون المرادُ بقوله: فعلتُها وأنا من الضالِّين: فعلتُها مُقْدِماً عليها من غير مبالاةٍ، على أنَّ الضلال بمعنى الجهل المفسَّر بالإقدام من غيرِ مبالاةٍ، لكنَّ التزامَ كونِ «إذاً» هنا للجواب والجزاء التزامُ ما لا يَلْزمُ، فإنَّ الصحيح الذي قال به الأكثرون أنها قد تتمحَّض للجواب، وفي «البحر»: أنهم حَمَلوا ما في هذه الآية على ذلك[1]، وتوجيهُ كونها للجزاء فيها بما ذُكِرَ لا يخلو عن تكلُّفٍ.

والأظهرُ عندي معنًى ما آثره بعضُ أفاضل المحقِّقين[2] من أنها ظرفٌ مقطوعٌ عن الإضافة، ولا أرى فيه ما يقال سوى أنه معنًى لم يذكره أكثر علماء العربية، وهم لم يُحيطوا بكلِّ شيءٍ علماً. وإن أبيتَ هذا فهي للجواب فقط.

ومن العجيب قولُ ابن عطية: إنَّها هنا صلةٌ في الكلام، ثم قولُه: وكأنها بمعنى حينئذٍ[3]. ولو اكتفى به على أنه تفسيرُ معنًى لكان له وجهٌ، فتأمل، والله تعالى أعلم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مستفهماً عن المرسِلِ سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وتحقيقُ ذلك على ما قال العلَّامةُ الطيبيُّ: أنه عزَّ وجلَّ لمَّا أمرهما بقوله سبحانه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآيتان: ١٦-١٧] فلا بدَّ أن يكونا ممتثلين مؤدِّيين لتلك الرسالة بعينها عند اللَّعين، فلمَّا أُدِّيتْ عنده اعترَضَ أوَّلاً بقوله: «ألم نربك فينا وليدا» إلى آخره، وثانياً بقوله: «وما رب العالمين»، ولذلك جيءَ بالواو العاطفة، وكرَّر «قال» للطُّول، فكأنه قال: أأنت الرسولُ، وما ربُّ العالمين؟.

وقال الزمخشريُّ: إنَّ اللعين لمَّا قال له بوَّابُه: إنَّ هاهنا مَن يزعمُ أنه رسولُ ربِّ العالمين. قال له عند دخوله: وما ربُّ العالمين؟

واعتُرِضَ بأنه نَظْمٌ مختلٌّ؛ لسَبْق المقاوَلة بينهم كما أشار إليه هو في سابق كلامه.

---

(١) البحر ٧/ ١١.

(٢) سلف كلامه ص١٥٦ من هذا الجزء.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨.

وانتصر له صاحب «الكشف» فقال: أراد أنه تعالى ذَكَر مرَّةً: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ﴾[1] [طه:٤٧] وأخرى: (فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) والقصةُ واحدةٌ والمجلسُ واحدٌ، فحمله على أنَّ الثانيَ ما أدَّاه البوَّاب من لسانه عليه السلام، والأول ما خاطبه به موسى عليه السلام مُشافهةً، وأنَّ اللعين أخذ أوَّلاً في الطعن فيه، وأن مثلَه ممن قُرِفَ[2] برذائل الأخلاق لا يُرشَّحُ لمنصبٍ عالٍ فَضْلاً عمَّا ادَّعاه. وثانياً في السؤال عن شأنِ مَن ادَّعى الرسالة عنه استهزاءً. ومن هذا تبيَّن أنَّ سَبْقَ المقاولةِ لا يدلُّ على اختلالِ النَّظْمِ الذي أشار إليه. انتهى.

وجوَّز بعضُهم وقوعَ الأمر مرَّتين، وأنَّ فرعون سأل أولاً بقوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٩] وسأل ثانياً بقوله: (وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقد قصَّ الله تعالى الأولَ فيما أنزله[3] جلَّ وعلا أولاً وهو سورةُ طه، والثاني فيما أنزله سبحانه ثانياً وهو سورةُ الشعراء، فقد روي عن ابن عباس أنَّ سورة طه نزلت، ثم الواقعة، ثم «طسم» الشعراء.

وقال آخر: يحتمل أنهما إنما قالا: (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) والاقتصارُ في سورة طه على ذِكْرِ ربوبيته تعالى لفرعون؛ لكفايته فيما هو المقصودُ.

وعلى القول بوقوع الأمر مرَّتين قيل: إنَّ فرعون سأل في المرة الأولى بقوله: «مَن ربُّكما» طلباً للوصف المشخِّصِ كما يقتضيه ظاهرُ الجواب، خلافاً للسكاكيِّ[4] في دعواه أنه سؤالٌ عن الجنس، كأنه قال: أبَشرٌ هو أم مَلَكٌ أم جنيٌّ؟ والجوابُ من الأسلوب الحكيم، وأخرى بـ«ما ربُّ العالمين» طلباً للماهية والحقيقة، انتقالاً لِمَا هو أصعبُ؛ ليتوصَّل[5] بذلك إلى بعض أغراضه الفاسدةِ حَسْبَما قصَّ الله تعالى بعدُ.

و«ما» يُسأل بها عن الحقيقة مطلقاً سواءٌ كان المسؤول عن حقيقته مِن أُولي

(١) في الأصل و(م): أن أرسل، بدل: فأرسل.
(٢) أي: اتُّهم. القاموس (قرف).
(٣) في (م): أنزل.
(٤) في مفتاح العلوم ص٣١١.
(٥) في الأصل: ليتوسَّل.

العلم أوْ لا، فلا يتوهَّم أنَّ حقَّ الكلام حينئذٍ أن يقال: من ربُّ العالمين؟ حتى يوجَّه بأنه لإنكارِ اللَّعين له عزَّ وجلَّ عبَّر بـ «ما».

ولمَّا كان السؤالُ عن الحقيقة مما لا يليقُ بجنابه جلَّ وعلا ﴿قَالَ﴾ عليه السلام عادلاً عن جوابه إلى ذِكْرِ صفاته عزَّ وجلَّ على نَهْجِ الأسلوب الحكيم إشارةً إلى تعذُّرِ بيانِ الحقيقة: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ والكلامُ في امتناع معرفةِ الحقيقة وعَدَمِه قد مرَّ عليك فتذكَّر[1].

ورُفع «ربُّ» على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما من العناصر والعنصريات.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إن كنتم موقنين بالأشياء محقِّقين لها علمتُم ذلك، أو: إن كنتُم موقنين بشيءٍ من الأشياء فهذا أَوْلَى بالإيقان لظهوره وإنارةِ دليله، فإنَّ هذه الأجرامَ المحسوسةَ ممكنةٌ لتركُّبِها وتعدُّدِها وتغيُّرِ أحوالها، فلها مبدأ واجبٌ لذاته، ثم ذلك المبدأُ لا بدَّ أن يكون مبدأً لسائر الممكنات، ما يمكن أن يُحَسَّ بها وما لا يمكن، وإلَّا لَزِمَ تعدُّد الواجب أو استغناءُ بعضِ الممكنات عنه، وكلاهما محالٌ. وجوابُ «إنْ» محذوفٌ كما أشرنا إليه.

﴿قَالَ﴾ فرعونُ عند سماع جوابه عليه السلام خوفاً من أن يَعْلَقَ منه في قلوب قومه شيءٌ ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من أشراف قومه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا خمسَ مئةِ رجلٍ عليهم الأساورُ، وكانت للملوك خاصةً:

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ جوابَه، يريدُ التعجيب[2] منه والإزراءَ بقائله، وكان ذلك لعَدَمِ مطابقته للسؤال حيث لم يبيِّن فيه الحقيقةَ المسؤولَ عنها، وكونِه في زعمه - نظراً لِمَا عليه قومُه من الجهالة - غيرَ واضحٍ في نفسه؛ لخفاء العلم بإمكان ما ذُكِر أو حدوثِه - الذي هو علَّةُ الحاجة إلى المبدأ الواجب لذاته - عليهم، وقد بالغ اللَّعين في الإشارة إلى عدم الاعتداد بالجواب المذكورِ، حيث أَوْهَم أنَّ مجرَّد استماعِهِم له كافٍ في ردِّه وعدمِ قبوله.

---

(١) ينظر ما سلف ١٦/ ٢٣٠ وما بعدها.
(٢) في الأصل: التعجب.

وكأنَّ موسى عليه السلام لمَّا استشعر ذلك من اللعين ﴿قَالَ﴾ عُدولاً إلى ما هو أوضحُ وأقربُ، إعطاءً لمنصب الإشارة حقَّه حَسبَ الإمكان؛ لتعذُّرِ الوقوف على الحقيقة كما سمعتَ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ فإنَّ الحدوثَ والافتقارَ إلى واجبٍ مصوِّرٍ حكيم في المخاطبين وآبائهم الذين ذهبوا وعُدِمُوا أظهرُ، والنظرُ في الأنفس أقربُ وأوضحُ من النظر في الآفاق.

ولمَّا رأى اللعينُ ذلك، وقَوِيَ عنده خوفُ فتنةِ قومه ﴿قَالَ﴾ مبالغاً في الردِّ والإشارةِ إلى عدم الاعتداد بذلك، مصرِّحاً بما ينفِّرُ قلوبَهم عن قائله وقبول ما يجيءُ به: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ حيث يُسألُ عن شيءٍ ويجيبُ عن شيءٍ آخَرَ، وينبَّه على ما في جوابه ولا يَنْتَبِهُ.

وسمَّاه رسولاً بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطَبيه ترفُّعاً من أن يكون مرسَلاً إلى نفسه، وأكَّد ذلك بالوصف، وفيه إثارةٌ لغضبهم، واستدعاءٌ لإنكارهم رسالتَه بعد سماع الخبر؛ ترفُّعاً بأنفسهم عن أن يكونوا أهلاً لأنْ يُرسَلَ إليهم مجنونٌ.

وقرأ مجاهد وحميد والأعرج: «أَرْسَلَ» على بناء الفاعل(١)، أي: الذي أَرْسَله ربُّه إليكم.

وكأنَّه عليه السلام لمَّا رأى خشونةً في ردِّ اللَّعينِ، وإيماءً منه إلى(٢) أنه عليه السلام لم يتنبَّه لِمَا في جوابه الأولِ من الخفاء عند قومه، بل كان عدولُه عنه إلى الجواب الثاني لِمَا رماه به عليه اللَّعنةُ ﴿قَالَ﴾ عليه السلام تفسيراً لجوابه الأولِ، وإزالةً لخفائه ليُعْلِمَ أنَّ العدول ليس إلا لظهور ما عَدَلَ إليه ووضوحِه وقُرْبِه إلى الناظر، لا لِمَا رُمي به وحاشاه، مع الإشارة إلى تعذُّر بيانِ الحقيقة أيضاً بالإصرار على الجواب بالصفات:

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وذلك لأنه لم يكن في الجواب الأول تصريحٌ باستنادِ حركات السماواتِ وما فيها، وتغيُّراتِ أحوالها وأوضاعها، وكونِ الأرض

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١٣.

(٢) في (م): إلا، وهو تصحيف.

تارةً مظلمةً وأخرى منوّرةً، إلى الله تعالى. وفي هذا إرشادٌ إلى ذلك، فإنَّ ذِكْرَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ منبئٌ عن شروق الشمس وغروبها المَنوطَيْنِ بحركات السماوات وما فيها على نمطٍ بديعٍ يترتَّبُ عليه هذه الأوضاعُ الرصينةُ، وكلُّ ذلك أمورٌ حادثةٌ لا شكَّ في افتقارها إلى مُحْدِثٍ قادرٍ عليمٍ حكيم.

وارْتَكَبَ عليه السلام الخشونةَ كما ارْتُكِبَ معه بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: إن كنتم تعقلون شيئاً من الأشياء، أو: إن كنتم من أهل العقل، عَلِمتُم أنَّ الأمر كما قلتُه وأشَرْتُ إليه، فإنَّ فيه تلويحاً إلى أنهم بمعزلٍ من دائرة العقل، وأنهم الأحقَّاءُ بما رمَوه به عليه السلام من الجنون.

وقرأ عبد الله وأصحابُه والأعمش: «ربُّ المشارق والمغارب» على الجمع فيهما[1].

ولمَّا سمع اللَّعينُ منه عليه السلام تلك المقالات المبنية[2] على أساس الحِكَم البالغة، وشاهَدَ شدَّةَ حَزْمِه وقوَّةَ عَزْمِه على تمشيةِ أمره، وأنَّه ممن لا يُجارَى في حلبة المُحاوَرةِ ﴿قَالَ﴾ ضارباً صفحاً عن المقاوَلةِ إلى التهديد، كما هو دَيْدنُ المحجوج العنيد:

﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وفيه مبالغةٌ في ردِّه عن دعوى الرسالة، حيث أراد منه ما أراد ولم يَقْنَعْ منه عليه السلام بتَرْكِ دعواها وعَدَمِ التعرُّض له، وفيه أيضاً عتوٌّ آخرُ حيث أَوْهَمَ أنَّ موسى عليه السلام متَّخذٌ له إلهاً في ذلك الوقت، وأنَّ اتِّخاذَه غيره إلهاً بعدُ مشكوك، وبالَغ في الإيعاد[3] على تقدير وقوع ذلك، حيث أكَّد الفعلَ بما أكَّد. وعَدَلَ عن: لأسجُنَنَّكَ ـ الأخصر ـ لذلك أيضاً، فإن «أل» في «المسجونين» للعهد، فكأنه قال: لأجعلنَّك ممن عَرفْتَ أحوالهم في سجوني، وكان عليه اللعنةُ يطرحُهم في هوَّةٍ عميقةٍ ـ قيل: عمقُها خمسُ مئةِ ذراعٍ، وفيها حياتٌ وعقاربُ ـ حتى يموتوا.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١٣.

(٢) في (م): المبينة، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٤٠.

(٣) في (م): الإبعاد.

هذا وقال بعضهم: السؤالُ هنا وفي سورة طه عن الوصف، والقصةُ واحدةٌ والمجلسُ واحدٌ، واختلافُ العبارات فيها لاقتضاءِ كلِّ مقامٍ ما عبِّر به فيه، ويُلتزمُ القول بأنَّ الواقع هو القَدْرُ المشتركُ بين جميع تلك العباراتِ، وبهذا ينحلُّ إشكالُ اختلافِ العبارات مع دعوى اتِّحادِ القصة والمجلسِ، لكن تعيين القَدْرِ المشتركِ الذي يصحُّ أن يعبَّر عنه بكلٍّ من تلك العبارات يحتاجُ إلى نظرٍ دقيق مع مزيدِ لُطْفٍ وتوفيقٍ.

ثم إنَّ العلماء اختلفوا في أنَّ اللَّعين: هل كان يعلم أنَّ للعالَم ربًّا هو الله عزَّ وجلَّ أوْ لا؟.

فقال بعضهم: كان يعلمُ ذلك بدليلِ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. ومنهم مَن استدلَّ بطلبه شَرْحَ الماهيةِ زَعْماً منه أنَّ فيه الاعترافَ بأصلِ الوجود، وذكروا أنَّ ادِّعاءه الألوهيةَ وقولَه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] إنما كان إرهاباً لقومه الذين استخفَّهم، ولم يكن ذلك عن اعتقاد، وكيف يَعتقِدُ أنه ربُّ العالَم وهو يعلمُ بالضرورة أنه وُجِدَ بعد أنْ لم يكن، ومضى على العالم ألوفٌ من السنين وهو ليس فيه، ولم يكن له إلَّا ملكُ مصرَ؟ ولذا قال شعيبٌ لموسى عليهما السلام لمَّا جاءه في مدين: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وقال بعضُهم: إنه كان جاهلاً بالله تعالى، ومع ذلك لا يعتقدُ في نفسه أنه خالقُ السماواتِ والأرضِ وما فيهما، بل كان دهريًّا نافياً للصانع سبحانه، معتقِداً وجوبَ الوجودِ بالذات للأفلاك، وأنَّ حركاتها أسبابٌ لحصول الحوادث، ويعتقد أنَّ مَن مَلَكَ قُطْراً وتولَّى أَمْرَه لقوَّةِ طالِعِه استحقَّ العبادةَ من أهله وكان ربًّا لهم، ولهذا خصَّص ألوهيته وربوبيته ولم يعمِّمْهما[1]، حيث قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] و: (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ).

وجوِّز أن يكون من الحلولية القائلين بحلولِ الربِّ سبحانه وتعالى في بعض الذَّوَاتِ، ويكون معتقداً حلولَه عزَّ وجلَّ فيه، ولذلك سمَّى نفسه إلهاً.

---

(١) في (م): يعممها.

وقيل: كان يدَّعي الألوهيةَ لنفسه ولغيره، وهو ما كان يعبدُه من دون الله عزَّ وجلَّ، كما يدلُّ عليه ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧]. وهو وكذا ما قبلَه بعيدٌ.

والذي يغلبُ على الظنِّ ويقتضيه أكثر الظواهر أنَّ اللَّعينَ كان يعرفُ الله عزَّ وجلَّ، وأنه سبحانه هو خالقُ العالَم، إلا أنه غلبتْ عليه شقوتُه وغرَّتْه دولتُه، فأَظْهَر لقومه خلافَ عِلْمِه، فأذْعَنَ منهم له مَن كَثُر جَهْلُه ونَزُرَ عَقْلُه، ولا يَبْعُدُ أن يكون في الناس مَن يُذْعِنُ بمثل هذه الخرافات ولا يعرفُ أنَّها مخالفةٌ للبديهيات.

وقد نَقَلَ لي مَن أثقُ به أنَّ رجلين من أهل نجدٍ قبل ظهورِ أمرِ الوهَّابيِّ فيما بينهم بينما هما في مزرعةٍ لهما إذ مرَّ بهما طائرٌ طويلُ الرجلين لم يَعْهَدَا مثلَه في تلك الأرض، فنزل بالقرب منهما، فقال أحدُهما للآخَرِ: ما هذا؟ فقال له: لا ترفع صوتَك هذا ربُّنا. فقال له معتقداً صِدْقَ ذلك الهذيان: سبحانه ما أطولَ كراعيه وأعظمَ جناحيه.

وأمَّا مَن له عقلٌ منهم ولا يَخْفَى عليه بطلانُ مثلِ ذلك فيحتمل أن يكون قد وافَقَ ظاهراً؛ لمزيدِ خوفه من فرعون، أو مزيدِ رغبته بما عنده من الدنيا، كما نشاهد كثيراً من العقلاء وفَسَقةِ العلماء وافقوا جبابرةَ الملوك في أباطيلهم العِلْميَّةِ والعَمَليَّةِ حبًّا للدنيا الدنيَّةِ، أو خوفاً مما يتوهَّمونه من البليَّة، ويحتملُ أن يكون قد اعتقد ذلك حقيقةً بضَرْبٍ من التوجيه وإن كان فاسداً، كزَعْم الحلول ونحوه. والمنكرُ على القائل: أنا الحقُّ، والقائلِ: ما في الجبَّةِ إلا الله[1]، يزعُمُ أنَّ معتقدي صِدْقِهما كمعتقدي صِدْقِ فرعونَ في قوله: (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ).

وسؤالُ اللعين لموسى عليه السلام حكايةً لِمَا وقع في عبارته بقوله: «ما ربُّ العالمين» كان لإنكاره الظاهرِ[2] أن يكون للعالمين ربٌّ سواه. وجوابُ موسى عليه السلام له لم يكن إلَّا لإبطال ما يدَّعيه ظاهراً، وإرشادِ قومه إلى ما هو الحقُّ الحقيقُ بالقبول، ولذا لم يقصُرِ الخطابَ في الأجوبة عليه. والتعجيبُ المفهومُ من قوله:

---

(١) هو طيفور بن عيسى أبو يزيد البسطامي، كما في سير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٨.
(٢) في (م): لظاهر.

«ألا تستمعون»؛ لزَعْمِه ظاهراً أنه عليه السلام ادَّعى خلافَ أمرٍ محقَّقٍ، وهي ربوبيةُ نَفْسِه.

ولمَّا داخَلَه من خوفِ إذعانِ قومه لِمَا قاله موسى عليه السلام ما داخَلَه بالَغَ في صَرْفِهم عن قبول الحقِّ بقوله: «إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون». ولمَّا رأى أنَّ ذلك لم يُفِدْ في دَفْعِ موسى عليه السلام عن إظهار الحقِّ وإبطالِ ما كان يُظْهِرُه من الباطل، ذبَّ عن دعواه الباطلةِ بالتهديد وتشديدِ الوعيد فقال: «لئن اتَّخذْتَ إلهاً غيري لأجعلنَّكَ من المسجونين».

ولعل أجوبتَه عليه السلام مشيرةٌ إلى إبطال اعتقادِ نحو الحلول، بأنَّ فيه الترجيحَ بلا مرجِّحٍ، وبأنه يستلزمُ المربوبيةَ لِمَا فيه من التغيُّر.

وبعدَ هذا القول عندي قولُ بعضهم: إنه عليه اللعنة كان دهريًّا إلى آخر ما سمعتَه آنفاً، والتعجيب؛ لزَعْمِه حقيقةً أنه عليه السلام ادَّعى خلافَ أمرٍ محقَّقٍ وهو ربوبيةُ نفسِه عليه اللعنة، والله تعالى أعلم.

ولمَّا رأى عليه السلام فظاظةَ فرعون ﴿قَالَ﴾ على جهة التلطُّفِ به والطمعِ في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: تفعلُ ذلك ولو جئتُك بشيءٍ مبين، أي: موضِّحٍ لصِدْقِ دعوايَ، يريد به المعجزةَ فإنها جامعةٌ بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صِدْقِ دعوى مَن ظهرتْ على يده، والتعبيرُ عنها بـ «شيء» للتهويل.

والواوُ للعطف على جملةٍ مقابِلةٍ للجملة المذكورة، ومجموعُ الجملتين المتعاطفتين في موضع الحال، و«لو» لبيان[١] تحقيق ما يفيدُه الكلامُ السابقُ من الحُكْم على كلِّ حالٍ مفروضٍ من الأحوال المقارِنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدِها منه وأشدِّها منافاةً له، ليَظْهَرَ تَحقُّقُه مع ما عَدَاه من الأحوال بطريقِ الأولوية، أي: أتفعلُ فيَّ ذلك حالَ عَدَمِ مجيئي بشيءٍ مبينٍ وحالَ مجيئي به. وتصديرُ المجيء بـ «لو» دون «إنْ» ليس لبيانِ استبعاده في نفسه بل بالنسبة إلى فرعون.

---

(١) في (م): للبيان، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٤٠، والكلام منه.

وجَعَل بعضهم الواوَ للحال على معنى أنَّ الجملة التي بعدها حال، أي: أتفعلُ فيَّ ذلك جائياً بشيءٍ مبينٍ، وهو ظاهرُ كلام «الكشاف» هنا[1]. وظاهرُ كلام «الكشف» أنَّ الاستفهام للإنكار، على معنى: لا تقدِرُ على فِعْلِ ذلك مع أنِّي نبيٌّ بالمعجزة. والظاهرُ تعلُّقُ هذا الكلام بالوعيد الصادر من اللعين، فذلك في تفسيره إشارةٌ إلى جَعْلِه عليه السلام من المسجونين، فكأنه قال: أتجعلُني من المسجونين إن اتَّخذتُ إلهاً غيرَك ولو جئتك بشيءٍ مبين؟.

وعلى ذلك حَمَلَ الطيبي كلام «الكشاف»، ثم قال: يمكن أن يقال: إنَّ الواو عاطفةٌ، وهي تستدعي معطوفاً عليه، وهو ما سبق في أول المكالمة بين نبيِّ الله تعالى وعدوِّه، والهمزةُ مُقْحَمةٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه للتقرير، والمعنى: أتُقِرُّ بالوحدانية وبرسالتي إن جئتُك بعد الاحتجاج بالبراهين القاهرةِ والمعجزاتِ الباهرةِ الظاهرة، و«لو» بمعنى: إنْ عزَّ بزَّ، ويؤيِّد هذا التأويلَ ما في «الأعراف»: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۞ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الآيتان: ١٠٥-١٠٦] انتهى.

وهو كما ترى، وفيه جَعْلُ «مُبين» مِن أبانَ اللَّازمِ بمعنى بان. وجَعْلُه مِن أبان المتعدِّي وحَذْفُ المفعول كما أشرنا إليه أنسبُ للمقام.

ولمَّا سمع فرعونُ هذا الكلامَ من موسى عليه السلام ﴿قَالَ﴾ حيث طَمِعَ أن يجد موضعَ معارَضةٍ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ أي: بشيءٍ مبين ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: فيما يدلُّ عليه كلامُك من أنَّكَ تأتي بشيءٍ موضحٍ لصِدْقِ دعواك، أو من الصادقين في دعوى الرسالةِ من ربِّ العالمين، وجوابُ الشرط محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، أي: إن كنتَ من الصادقين فأتِ به. وقدَّره الزمخشريُّ: أتيتَ به. والمشهورُ تقديرُه من جنس الدليل.

وقال الحوفيُّ: يجوز أن يكون ما تقدَّم هو الجوابَ، وجاز تقديمُ الجوابِ لأنَّ حَرْفَ[2] الشرط لم يعمل في اللفظ شيئاً.

---

(١) الكشاف ٣/ ١١٠.

(٢) في (م): حذف.

وقد بَهَتَ الزمخشريُّ عامَلَه الله تعالى بعَدْلِه أهلَ السنة بما هم منه بُرآءُ[1]، كما بيَّنه صاحب «الكشف» وغيره فارْجعْ إليه إنْ أَرَدْتَه.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى بعد أنْ قال له فرعونُ ذلك ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ ظاهرٌ ثعبانيَّتُه، أي: ليس بتمويهٍ وتخييلٍ كما يفعلُه السَّحرةُ، والثعبانُ أعظمُ ما يكون من الحيَّات، واشتقاقُه من ثَعَبَ الماءُ بمعنى: جَرَى جَرْياً متَّسعاً، وسمِّي به لجَرْيِه بسرعةٍ من غيرِ رِجْلٍ كأنه ماءٌ سائل.

والظاهرُ أنَّ نفس العصا انقلبت ثعباناً، وليس ذلك بمُحَال إذا كان بسَلْبِ الوَصْفِ الذي صارت به عصاً، وخَلْقِه الوَصْفَ الذي تصيرُ به ثعباناً[2]، بناءً على رأي بعض المتكلِّمين من تجانُسِ الجواهر واستوائها في قبول الصفات، إنما المحالُ انقلابُها ثعباناً مع كونها عصاً؛ لامتناع كونِ الشيء الواحدِ في الزمن الواحد عصاً وثعباناً.

وقيل: إنَّ ذلك بخَلْقِ الثعبانِ بَدَلَها، وظواهرُ الآيات تُبْعِدُ ذلك.

وقد جاء في الأخبار ما يدلُّ على مزيدِ عظم هذا الثعبان، ولا يُعْجِزُ الله تعالى شيءٌ، وقد مرَّ بيانُ كيفيةِ الحالِ[3].

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: بياضُها يجتمعُ النَّظَّارةُ على النظر إليه لخروجه عن العادة، وكان بياضاً نُورانيًّا. رُوي أنه لـمَّا أَبصر أمر

---

(١) حيث قال: وفي قوله: «إن كنت من الصادقين» أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه؛ لأنَّ المعجزة تصديقٌ من الله لمدَّعي النبوَّة، والحكيم لا يصدِّق الكاذب، ومن العَجَبِ أن مثل فرعون لم يَخْفَ عليه هذا، وخفي على ناسٍ من أهل القبلة، حيث جوَّزوا القبيح على الله تعالى. وتعقبه ابن المنير بقوله: ليته سلَّم وجهَ تصنيفه من ثآليل هذه الأباطيل، وكَلَفِ هذا التكلُّف في كيده لأهل السنة وإن كيده لفي تضليل، بينا هو يعرِّض بتفضيل فرعون عليهم إذا هو قد حتَّم على إخوانه القدرية أنهم فراعنة... لأنهم يعتقدون أن أفعالهم خَلْقَهم، وأنهم لها مبدعون خالقون... إلى آخر كلامه. الكشاف مع الانتصاف ٣/ ١١٠-١١١.

(٢) في (م): وخلقه وصف الذي يصير ثعباناً.

(٣) ينظر ما سلف ٩/ ٢٨٠-٢٨١، و١٦/ ٢٧٤-٢٧٥.

العصا قال: هل لك غيرُها؟ فأخرج عليه السلام يده فقال: ما هذه؟ قال: يدك. فأَدْخَلَها في إبطه ثم نزعها ولها شعاعٌ يكادِ يُغْشِي[١] الأبصار ويسدُّ الأفق.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ﴾ أشراف قومه ﴿حَوْلَهُۥ﴾ منصوبٌ لفظاً على الظرفية، وهو ظرفٌ مستقرٌّ وقع حالاً، أي: مستقرِّين حولَه. وجوِّز أن يكونَ في موضع الصفة للملأ على حدِّ:

ولـقـد أمـرُّ عـلـى الـلـئـيـم يَـسُـبُّـنـي[٢]

والأول أسهلُ وأنسبُ.

ومن العجيب ما نقله أبو حيان عن الكوفيين أنهم يجعلون «الملأ» اسمَ موصول و«حوله» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صلةً له، كأنه قيل: قال للذين استقروا حوله[٣]:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ فائقٌ في عِلْمِ السحر ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ قسراً ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾ التي نشأتُم فيها وتَوطَّنْتُموها ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ وفي هذا غايةُ التنفيرِ عنه عليه السلام، وابتغاءُ الغوائلِ له؛ إذ من أصعب الأشياء على النفوس مفارقةُ الوطن، لا سيما إذا كان ذلك قسراً، وهو السرُّ في نسبةِ الإخراج والأرضِ إليهم.

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: أيَّ أمرٍ تـأمـرون، فـمَـحَـلُّ «مـاذا» الـنـصـبُ عـلـى المصدرية، و«تأمرون» من الأمر ضدِّ النهي، ومفعولُه محذوفٌ: أي: تأمروني. وفي جَعْلِه عبيدَه بزَعْمِه آمِرِينَ له مع ما كان يظهرُه لهم من دعوى الألوهيةِ والربوبية ما يدلُّ على أنَّ سلطانَ المعجزةِ بَهَرَه وحيَّره حتى لا يدري أيّ طرفيه أطول، فزَلَّ عنه[٤] ذكرُ دَعْوَى الألوهيَّةِ، وحطَّ عن منكبيه كبرياءَ الربوبيةِ، وانحطَّ عن ذروةِ الفَرْعَنةِ إلى حضيض المَسْكَنةِ، ولهذا أظهر استشعارَ الخوفِ من استيلائه عليه السلام على ملكه.

وجوِّز أن يكون «ماذا» في محلِّ النصب على المفعولية، وأن يكون «تأمرون» من المؤامرةِ بمعنى المُشاورةِ لأمرِ كلٍّ بما يقتضيه رأيه، ولعلَّ ما تقدَّم أَوْلَى.

---

(١) في (م): يغش.
(٢) وعجزه: فمضيتُ ثمة قلت ما يعنيني، وسلف ٧/ ٤٦٧.
(٣) البحر ٧/ ١٥.
(٤) في (م): عند.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخِّرْ أمرَهما إلى أنْ تأتِيَكَ السحرةُ، من أَرْجَأْتُه: إذا أخَّرته. ومنه المرجِئةُ، وهم الذين يؤخِّرون العملَ لا يأتونه، ويقولون: لا يضرُّ مع الإيمان معصيةٌ كما لا ينفعُ مع الكفر طاعةٌ.

وقرأ أهل المدينة والكسائيُّ وخلفٌ: «أَرْجِهِ» بكَسْرِ الهاء[١]. وعاصمٌ وحمزةُ «أَرْجِهْ» بغيرِ همزٍ وسكونِ الهاء، والباقون: «أَرْجِئْهُ» بالهمز وضمِّ الهاء[٢]. وقال أبو عليٍّ: لا بدَّ من ضمِّ الهاء مع الهمزةِ، ولا يجوزُ غيرُه، والأحسن أن لا يبلغَ بالضمِّ إلى الواو[٣].

ومَن قرأ بكسر الهاء ف «أرجه» عنده من أَرْجَيْتُه بالياء دون الهمزة، والهمزُ على ما نقل الطيبيُّ أفصحُ. وقد تُوْصَلُ الهاءُ المذكورةُ بياءٍ فيقال: أرجهي، كما يقال: مررتُ بهي.

وذكر الزجَّاج أنَّ بعضَ الحُذَّاقِ بالنحو لا يجوِّزُ إسكانَ نحوِ هاءِ «أرجه» أعني هاءَ الإضمار، وزعم بعضُ النحويين جوازَ ذلك، واستَشْهدَ عليه ببيت مجهولٍ[٤]، ذكره الطبرسيُّ وقال: هو شعرٌ لا يُعْرَفُ قائلُه، والشاعر يجوز أن يخطئ[٥].

وقال بعض الأجلَّة: الإسكانُ ضعيفٌ؛ لأنَّ هذه الهاءَ إنما تُسكَّنُ في الوقف، لكنه أجرى الوصل مجرى الوقف.

وقيل: المعنى: احْبِسْه، ولعلَّهم قالوا ذلك لفَرْطِ الدهشة، أو تجلُّداً ومداهنةً لفرعون، وإلا فكيف يمكنه أن يحبسه مع ما شاهد منه من الآيات؟

---

(١) التيسير ص١١١، والنشر ١/ ٣١٢، وروى قالون عن نافع، وابن وردان عن أبي جعفر اختلاس الكسرة.

(٢) قرأ ابن كثير وهشام بإشباع الضم، وأبو عمرو ويعقوب بالاختلاس. وقرأ ابن ذكوان: «أرجئهِ» بكسر الهاء والاختلاس. التيسير ص١١١، والنشر ١/ ٣١١-٣١٢.

(٣) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٤/ ٦٠.

(٤) وهو:

لـمـا رأى ألّا دَعَـهْ ولا شِـبَـعْ   مـالَ إلـى أرطـاةِ حِـقْـفٍ فـالـطـجـع

معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٦٥، والبيت في سر صناعة الإعراب ١/ ٣٢١، والخصائص ٣/ ٣٢٦، وشرح شواهد الشافية ٤/ ٢٧٤-٢٧٥.

(٥) مجمع البيان ٩/ ١٤٠، وأصل الكلام للزجاج قاله إثر البيت المذكور.

﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦)﴾ شُرطاً يَحْشُرون السَّحَرة ويجمعونهم عندك. ﴿يَأْتُوكَ﴾ مجزومٌ في جواب الأمر، أي: إن تبعثْهم يأتوك ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ كثيرِ العملِ بالسحر ﴿عَلِيمٍ (٣٧)﴾ فائقٍ في عِلْمِه. ولكون المهمِّ هنا هو العملَ أتوا بما يدلُّ على التفضيل فيه. وقرأ الأعمش وعاصمٌ في رواية: «بكلِّ ساحرٍ عليم»[١].

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ﴾ أي: المعهودون، على أنَّ التعريف كما في «المفتاح» عهديٌّ[٢]. وقال الفاضل المحقِّقُ: إنَّ المعهود قد يكون عامًّا مستغرقاً كما هنا، ولا منافاة بينهما كما يتوهَّم، وفيه بحثٌ فتأمَّل.

﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨)﴾ لِمَا وُقِّتَ به من ساعاتِ يوم معيَّنٍ، وهو وقتُ الضُّحى من يوم الزينةِ، على أنَّ الميقات من صفات الزمان. وفي «الكشاف»: هو ما وقِّتَ به، أي: حدِّد من زمانٍ أو مكانٍ، ومنه مواقيتُ الإحرام[٣].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ استبطاءً لهم في الاجتماع، وحثًّا على التبادُرِ إليه: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩)﴾ في ذلك الميقاتِ، فالاستفهامُ مجازٌ عن الحثِّ والاستعجالِ، كما في قول تأبَّط شرًّا:

هل أنت باعثُ دينارٍ لحاجتنا ... أو عبدَ ربٍّ أخا عون بنِ مخراق[٤]

فإنه يريد: ابعَثْ أحدَهما إلينا سريعاً ولا تُبْطِئْ به.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ أي: في دينهم ﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠)﴾ لا موسى عليه السلام. وليس مرادُهم بذلك إلَّا أن لا يتَّبعوا موسى عليه السلام في دينه، لكنْ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١٥.

(٢) مفتاح العلوم ص١٨٦.

(٣) الكشاف ٣/ ١١٢.

(٤) جاء في هامش الأصل و(م): دينار اسم رجل، وعبد ربٍّ منصوب بالعطف على محلِّه، وهو اسم رجلٍ أيضاً، وأخا عون منادى لا نعتٌ، ويجوز أن يكون عطف بيان لعبد رب. اهـ منه. وينظر حاشية الشهاب ٧/ ١٢. والبيت في ملحق ديوان تأبط شرّاً ص٢٤٥، وهو من شواهد الكتاب ١/ ١٧١، والخزانة ٨/ ٢١٥.
قال البغدادي: البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها، وقال ابن خلف: وقيل: هو لجابر بن خلف السِّنْبِسي. ونسبه غير خَدَمة سيبويه إلى جرير، وإلى تأبط شرّاً، وإلى أنه مصنوع. اهـ.

ساقوا كلامهم مساقَ الكناية حَمْلاً للسحرة على الاهتمام والجدِّ في المُغالبةِ.

وجوَّز أن يكون مرادُهم اتِّباعَ السحرة، أي: الثباتَ على ما كانوا عليه من الدِّين، ويدَّعى أنهم كانوا على ما يريد فرعون من الدِّين.

والظاهرُ أنَّ فرعون غيرُ داخلٍ في القائلين، وعلى تقديرِ دخوله لم يجوِّز بعضُهم إرادةَ المعنى الحقيقيِّ لهذا الكلام؛ لامتناع اتِّباع مدَّعي الإلهية السحرةَ. وجوَّزه آخرون لاحتمال أن يكون قال ذلك لِمَا استولى عليه من الدهشة من أمر موسى عليه السلام، كما طلب الأمرَ ممن حوله لذلك.

ولعل إتيانَهم بـ «إنْ» للإلهاب، وإلَّا فالأوفَقُ بمقامهم أن يقولوا: إذا كانوا هم الغالبين.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: لأجراً عظيماً ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾ لا موسى عليه السلام، ولعلهم أخرجوا الشرط على أسلوبِ ما وقع في كلام القائلين موافقةً لهم، وإلَّا فلا يناسبُ حالَهم إظهارُ الشكِّ في غلبتهم.

﴿قَالَ﴾ فرعونُ لهم: ﴿نَعَمْ﴾ لكم ذلك ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك ﴿إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ عندي. قيل: قال لهم: تكونون أولَ مَن يدخل عليَّ وآخِرَ مَن يخرج عني.

و«إذاً» عند جمعٍ على ما تقتضيه في المشهور من الجواب والجزاء، ونقل الزركشيُّ في «البرهان»(١) عن بعض المتأخِّرين أنها هنا مركَّبةٌ من «إذا»(٢) التي هي ظرفُ زمانٍ ماضٍ، والتنوينِ الذي هو عوضٌ عن جملةٍ محذوفةٍ بعدها، وليست هي الناصبة للمضارع.

وقد ذهب إلى ذلك في نظير الآية الكافيجيُّ، والقاضي تقيُّ الدين بنُ رزين(٣)، وأنا ممن يقول بإثبات هذا المعنى لها، والمعنى عليه: وإنَّكم إذا غلبتم ـ أو إذا كنتم الغالبين ـ لمن المقرَّبين.

---

(١) ٤/ ١٨٧، وسلف ١٣/ ٤٠٧-٤٠٨.

(٢) في البرهان: إذ، والمذكور أعلاه موافق لما في الإتقان ١/ ٤٧٥ نقلاً عن البرهان.

(٣) سلف كلام الكافيجي ١١/ ٣١٣، و١٣/ ٤٠٧-٤٠٨، وكلام القاضي تقي الدين ١٣/ ٤٠٧-٤٠٨، ونقل المصنف قولهما عن الإتقان ١/ ٤٧٥.

وقرئ: «نَعِم» بفَتْحِ النون وكَسْرِ العين[١]، وذلك لغةٌ في «نعم».

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ أي: بعد ما قال له السَّحَرة: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ لم يُرِدْ عليه السلام الأمرَ بالسِّحر والتمويهِ حقيقةً؛ فإنَّ السِّحر حرامٌ وقد يكون كفراً، فلا يليقُ بالمعصوم الأمرُ به، بل الإذنَ بتقديم ما عَلِمَ بإلهامٍ أو فراسةٍ صادقةٍ أو قرائنِ الحال أنهم فاعلوه البتة، ولذا قال: «ما أنتم ملقون» ليتوسَّل[٢] بذلك إلى إبطاله.

وهذا كما يؤمرُ الزنديقُ بتقرير حجَّته لتُردَّ، وليس في ذلك الرضا الممتنع فإنه الرضا على طريق الاستحسان، وليس في الإذن المذكور، ومطلقُ الرضا غيرُ ممتنع، وما اشتهر من قولهم: الرضا بالكفر كفرٌ، ليس على إطلاقه كما عليه المحقِّقون من الفقهاء والأصوليين.

﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟﴾ أي: وقد قالوا عند الإلقاء: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: بقوَّته التي يمتنعُ بها من الضيم، من قولهم: أرض عَزَازٌ، أي: صلبةٌ. ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ لا موسى عليه السلام.

والظاهرُ أنَّ هذا قَسَمٌ منهم بعزَّته عليه اللعنةُ على الغلبة، وخصُّوها بالقَسَم هنا لمناسبتها للغلبة، وقسمُهم على ذلك لفَرْطِ اعتقادِهم في أنفسهم، وإتيانِهم بأقصى ما يمكنُ أنْ يؤتَى به من السحر. وفي ذلك إرهابٌ لموسى عليه السلام بزَعْمِهم. وعدلوا عن الخطاب إلى الغيبة في قولهم: (بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ) تعظيماً له.

وهذا القسَمُ من نوع أقسام الجاهلية، وقد سلك كثيرٌ من المسلمين في الأيمان ما هو أشنعُ من أيمانهم، لا يرضون بالقسم بالله تعالى وصفاتِه عزَّ وجلَّ، ولا يعتدُّون بذلك، حتى يحلفَ أحدُهم بنعمة السلطان، أو برأسه، أو برأسِ المحلِّف، أو بلحيته، أو بترابِ قبر أبيه، فحينئذٍ يستوثقُ منه، ولهم أشياءُ يعظِّمونها ويحلفون بها غير ذلك. ولا يَبْعدُ أن يكون الحَلِفُ بالله تعالى كذباً أقلَّ إثماً من

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٢، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٤٢.

(٢) في (م): ليتوصل، والمثبت من الأصل، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٢، والكلام منه.

الحَلِفِ بها صدقاً، وهذا ممَّا عمَّتْ به البَلْوَى، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله تعالى العليِّ العظيم.

وقال ابن عطيةَ[١] بعد أنْ ذَكَر أنه قَسَمٌ: والأحرى أن يكون على جهة التعظيم والتبرُّكِ باسمه إذ[٢] كانوا يعبدونه، كما تقول إذا ابتدأتَ بشيءٍ: بسم الله تعالى، وعلى بركة الله[٣]، ونحو ذلك.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أي: تبتلعُ بسرعةٍ، وأصلُ التلقُّفِ: الأخذُ بسرعةٍ. وقرأ أكثر السبعة: «تَلَقَّفُ» بفتح اللام والتشديدِ[٤]، والأصلُ: تتلقَّفُ، فحُذِفَتْ إحدى التاءين. والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة[٥] والدلالةِ على الاستمرار.

﴿مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: الذي يَقْلبونه من حاله الأولِ وصورتِه بتمويههم وتزويرِهم، فيخيِّلون حبالَهم وعصيَّهم أنها حياتٌ تسعى، فـ «ما» موصولةٌ حُذِفَ عائدُها للفاصلة، وجوِّز أن تكون مصدريةً، أي: تلقفُ إفْكَهم، تسميةً للمأفوك به مبالغةً.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: خرُّوا ساجدينَ إثر ما شاهدوا ذلك من غير تلعثُمٍ وتردُّدٍ؛ لعِلْمِهم بأنَّ مثلَ ذلك خارجٌ عن حدود السِّحر، وأنه أمرٌ إلهيٌّ قد ظهر على يده عليه السلام لتصديقه.

وعبَّر عن الخرور بالإلقاء لأنه ذُكر مع الإلقاءات، فسلك به طريق المشاكلة، وفيه أيضاً مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنْ رَمَوا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أُخذوا فطُرحوا طرحاً، فهناك استعارةٌ تبعيةٌ زاد[٦] حُسْنَها المشاكلةُ.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٠، ونقله عنه أيضاً أبو حيان في البحر ٧/ ١٥.

(٢) في (م): إذا، وهو تصحيف.

(٣) في الأصل و(م): وعلى بركة رسول الله ﷺ، والمثبت من المحرر والبحر.

(٤) قرأ حفص: «تَلْقَفُ» بسكون اللام وتخفيف القاف، والباقون: «تَلَقَّفُ»، وشدد البزي التاء وصلاً. وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١١٧) من سورة الأعراف.

(٥) في (م): السورة، وهو تصحيف.

(٦) في (م): زادت.

وبَحَثَ في ذلك بعضُهم بأنَّ الله تعالى خالقُ خرورِهم عند أهلِ الحقِّ، وخَلْقُه هو الإلقاء، فلا حاجة إلى التجوُّز. وأنت تعلم أنَّ إيجاد خرورهم وخَلْقَه فيهم لا يسمَّى إلقاءً حقيقةً ولغةً.

ثم ظاهرُ كلامِهم أن فاعل الإلقاء ـ لو صرّح به ـ هو الله عزَّ وجلَّ بما خوَّلهم من التوفيق، وجوَّز الزمخشريُّ(١) أن يكون إيمانَهم، أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة، ثم قال: ولك أن لا تقدِّر فاعلاً؛ لأنَّ «ألقوا» بمعنى: خرُّوا وسقطوا.

وتعقَّب هذا أبو حيان بأنه ليس بشيءٍ، إذ لا يمكن أن يُبْنَى الفعلُ للمفعول الذي لم يسمَّ فاعلُه إلَّا وقد حُذِفَ الفاعلُ فناب ذلك عنه، أمَّا أنه لا يقدَّرُ فاعلٌ فقولٌ ذاهبٌ عن الصواب(٢).

ووجَّه ذلك صاحبُ «الكشف»: بأنه أراد أنه لا يحتاجُ إلى تقديرِ فاعلٍ آخَر غيرِ مَن أُسْنِدَ إليه المجهولُ؛ لأنه فاعلُ الإلقاء، ألا ترى أنك لو فسَّرتَ سقط بـ: ألقى نفسِه لصحَّ؟.

والطيبيُّ: بأنه أراد أنه لا يحتاج إلى تعيين فاعلٍ؛ لأنَّ المقصود المُلْقَى لا تعيينُ من ألقاه، كما تقول: قُتل الخارجيُّ.

وأنت تعلم أنَّ التعليل الذي ذكره الزمخشريُّ إلى ما اختاره صاحب «الكشف» أقرب. وبالجملةِ لا بدَّ من تأويل كلام صاحب «الكشاف»، فإنه أجلُّ من أن يريد ظاهرَه الذي يَرِدُ عليه ما أَوْرَدَه أبو حيان.

وفي سجود السحرة وتسليمِهم دليلٌ على أنَّ منتهى السحر تمويهٌ وتزويقٌ يخيِّل شيئاً لا حقيقة له؛ لأنَّ السحر أقوى ما كان في زمن موسى عليه السلامِ، ومن أتى به فرعونُ أعلمُ أهلِ عَصْرِه به، وقد بَذَلوا جهدهم، وأظهروا أعظم ما عندهم منه، ولم يأتوا إلا بتمويهٍ وتزويقٍ، كذا قيل. والتحقيقُ أنَّ ذلك هو الغالبُ في السحر، لا أنَّ كلَّ سحرٍ كذلك.

---

(١) في الكشاف ٣/ ١١٣.

(٢) البحر ٧/ ١٦.

وقولُ القزوينيِّ: إنَّ دعوى أنَّ في السحر تبديلَ صورةٍ حقيقةً من خرافات العوامِّ وأسمار النسوة؛ فإن ذلك مما لا يمكن في سِحْرٍ أبداً = لا يخلو عن مجازفةٍ.

واستُدِلَّ بذلك أيضاً على أنَّ التبحُّر في كلِّ علمٍ نافعٌ، فإنَّ أولئك السَّحرةِ لتبحُّرهم في علم السحر علموا حقِّيةَ[1] ما أتى به موسى عليه السلام وأنه معجزةٌ، فانتفعوا بزيادة عِلْمِهم لأنه أدَّاهم إلى الاعتراف بالحقِّ والإيمان؛ لفَرْقِهم بين المعجزة والسحر.

وتعقِّب بأنَّ هذا إنما يُثْبِتُ حكماً جزئيًّا كما لا يخفى.

وذكر بعضُ الأجلَّةِ أنهم إنما عرفوا حقِّيةَ ذلك بعد أن أخذ موسى عليه السلام العصا فعادت كما كانت، وذلك أنهم لم يروا لحبالِهم وعصيِّهم بعدُ أثراً، وقالوا: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالُنا وعصيُّنا. ولعلها على هذا صارت أجزاءً هَبَائيَّة وتفرَّقَتْ أو عُدِمَتْ لانقطاع تعلُّق الإرادة بوجودها.

وقال الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه في الباب السادس عَشَرَ والبابِ الأربعين من «الفتوحات»[2]: إنَّ العصا لم تَلْقَفْ إلَّا صُوَرَ الحيَّات من الحبال والعصيِّ، وأمَّا هي فقد بقيت ولم تعدم كما توهَّمه بعض المفسِّرين، ويدل عليه قوله تعالى: (تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟) وهم لم يصنعوا إلا الصُّوَرَ، ولولا ذلك لوقعت الشبهةُ للسحرة في عصا موسى عليه السلام فلم يؤمنوا. انتهى ملخَّصاً فتأمَّل.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾ بدلُ اشتمالٍ من «ألقي»؛ لِمَا بَيْنَ الإلقاءِ المذكورِ وهذا القولِ من الملابَسة، أو حالٌ بإضمار «قد» أو بدونه، ويحتمل أن يكون استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فما قالوا؟ فقيل: «قالوا آمنا برب العالمين».

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾ عطفُ بيانٍ لـ «ربِّ العالمين» أو بدلٌ منه، جيء به لدَفْعِ توهُّم إرادةِ فرعونَ، حيث كان قومُه الجهلةُ يسمُّونه بذلك، وللإشعارِ بأنَّ الموجبَ لإيمانهم به تعالى ما أجراه سبحانه على أيديهما من المعجزة القاهرة. ومعنى كونه تعالى ربَّهما أنه جلَّ وعلا خالقهما ومالِكُ أمرِهما.

---

(١) في الأصل: حقيقة.

(٢) الفتوحات المكية ١/ ١٥٨، ٢٣٤.

وجوِّز أن يكون إضافةُ الربِّ إليهما باعتبار وَصْفِهما له سبحانه بما تقدَّم من قول موسى عليه السلام: «ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما» وقوله: «ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين» وقوله: «ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما»، فكأنهم قالوا: آمنَّا بربِّ العالمين الذي وَصَفَه موسى وهارون. ولا يَخْفَى ما فيه وإن سلِّم سماعُهم للوصف المذكور بعد أن حُشروا من المدائن.

﴿قَالَ﴾ فرعونُ للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: بغير أنْ آذَنَ[1] لكم بالإيمان له، كما في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩] إلَّا أنَّ الإذن منه ممكنٌ أو متوقَّعٌ.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فتواطأتُم على ما فعلتُم، فيكون كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ إلخ [الأعراف:١٢٣]، أو علَّمكم شيئاً دون شيءٍ فلذلك غلبكم كما قيل، ولا يَرِدُ عليه أنه لا يتوافَقُ الكلامان حينئذٍ، إذ يجوزُ أن يكون فرعون قال كلّاً منهما وإن لم يُذْكَرا معاً هنا. وأراد اللعين بذلك التلبيسَ على قومه كيلا يعتقدوا أنّهم آمنوا عن بصيرةٍ وظهورِ حقٍّ.

وقرأ الكسائيُّ وحمزةُ وأبو بكر وروح: «أآمنتم» بهمزتين[2].

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وَبالَ ما فعلتُم. واللامُ قيل: للابتداء دخلت الخبر لتأكيد مضمون الجملةِ، والمبتدأ محذوف، أي: فلَأنتم سوف تعلمون. وليست للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلّا مع النون المؤكِّدة. وجمعُها مع «سوف» للدلالة على أنَّ العلم كائنٌ لا محالةَ، وإن تأخَّر لداعٍ.

وقيل: هي للقسم، وقاعدةُ التلازُمِ بينها وبين النون فيما عدا صورةَ الفَصْلِ بينها وبين الفعل بحرف التنفيس، وصورةَ الفَصْلِ بينهما بمعمولِ الفعل، كقوله تعالى: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:١٥٨].

وقال أبو عليٍّ: هي اللامُ التي في لأقومنَّ، ونابَتْ «سوف» عن إحدى نوني التأكيد، فكأنه قيل: فلَتَعلمُنَّ.

---

(١) في الأصل: بغير إذن، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٤٣، والكلام منه.
(٢) سلفت هذه القراءة عند تفسير الآية (١٢٣) من سورة الأعراف.

وقولُه تعالى حكايةً عنه: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ بيانٌ لمفعولِ «تعلمون» المحذوفِ الذي أشرنا إليه، وتفصيلٌ لِمَا أُجْمِلَ، ولذا فُصِلَ وعُطِفَ بالفاء في محلٍّ آخر[١]. وقد مرَّ معنى «من خلافٍ»[٢].

﴿قَالُوا﴾ أي: السَّحَرةُ: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لاضَرَرَ علينا فيما ذَكَرْتَ مِن قَطْعِ الأيدي وما معه. والضيرُ مصدرُ ضارَ، وجاء مصدرُه أيضاً: ضَوْراً، وهو اسمُ «لا»، وخبرُها محذوفٌ، وحَذْفُه في مثل ذلك كثيرٌ.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ أي: الذي آمنَّا به ﴿مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ تعليلٌ لنفي الضير، أي: لا ضير في ذلك، بل لنا فيه نفعٌ عظيمٌ لِمَا يَحْصُلُ لنا من الصبر عليه لوجهِ الله تعالى من الثواب العظيم.

أو لا ضير علينا فيما تفعلُ لأنه لا بدَّ من الموت بسببٍ من الأسباب، والانقلابِ إلى الله عزَّ وجلَّ:

ومَن لم يَمُتْ بالسيفِ مات بغيره تعدَّدتِ الأسبابُ والموتُ واحد[٣]

وحاصلُه نفيُ المبالاة بالقتل معلّلاً بأنه لا بدَّ من الموت، ونظيرُ ذلك قولُ عليٍّ كرم الله وجهه: لا أبالي أَوَقعْتُ على الموت أم وقع الموتُ عليَّ.

أو: لا ضيرَ علينا في ذلك؛ لأنَّ مصيرنا ومصيرَكَ إلى ربٍّ يحكمُ بيننا فينتقم لنا منك، وفي معنى ذلك قولُه:

إلى ديَّانِ يومِ الدِّينِ نمضي وعندَ الله تجتمعُ الخصومُ[٤]

ولم يَرْتَضِه بعضُهم لأنَّ فيه تفكيكَ الضمائر لكونها للسحرة فيما قبلُ وبعدُ، ومُنِعَ بدخولهم في ضمير الجمع، فتأمَّل.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا﴾ أي: لِأَنْ كنَّا ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ تعليلٌ ثانٍ لنفي الضَّيرِ، ولم يعطف إيذاناً بأنه مما يستقلُّ بالعلِّية.

---

(١) في الآية (٧١) من سورة طه.
(٢) عند تفسير الآية (١٢٤) من سورة الأعراف.
(٣) سلف عند تفسير الآية (١٢٥) من سورة الأعراف.
(٤) سلف عند تفسير الآية (١٢٥) من سورة الأعراف.

وقيل: إنَّ عدم العطف لتعلُّق التعليل بالمعلَّل الأولِ مع تعليله، وجوِّز أن يكون تعليلاً للعلَّة. والأول أظهر، أي: لا ضيرَ علينا في ذلك إنَّا نطمعُ أن يغفر لنا ربُّنا خطايانا لكوننا أولَ المؤمنين.

والطمع إمَّا على بابه كما استظهَره أبو حيان[1]؛ لعَدَمِ الوجوب على الله عزَّ وجلَّ، وإمَّا بمعنى التيقُّنِ كما قيل به في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

وقولُهم: «أول المؤمنين» يحتملُ أنهم أرادوا به: أول المؤمنين من أتباع فرعونَ، أو: أولَ المؤمنين من أهل المَشْهَدِ، أو: أولَ المؤمنين من أهل زمانهم. ولعل الإخبار بكونهم كذلك لعَدَمِ علمهم بمؤمنٍ سبقهم بالإيمان، فهو إخبارٌ مبنيٌّ على غالب الظنِّ، ولا محذورَ فيه، كذا قيل.

وقيل: أرادوا: أولَ مَن أَظْهَرَ الإيمانَ بالله تعالى وبرسوله عند فرعون كفاحاً بعد الدعوةِ وظهورِ الآية، فلا يَرِدُ مؤمنُ آلِ فرعون وآسيةُ، وكذا لا يَرِدُ بنو إسرائيل - لأنهم كما في «البحر» كانوا مؤمنين قبلهم[2] - إمَّا لعدم عِلْمِ السحرة بذلك، أو لأنَّ كلّاً من المذكورين لم يُظْهِرِ الإيمانَ بالله تعالى ورسوله عند فرعون كفاحاً بعد الدعوة وظهورِ الآية، فتأمل.

وقرأ أبان بن تغلب وأبو معاذ: «إنْ كنَّا» بكَسْرِ همزة «إنْ»[3]، وخرِّج على أنَّ «إنْ» شرطيةٌ والجوابُ محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله، أي: إن كنَّا أولَ المؤمنين فإنَّا نطمعُ. وجَعَل صاحب «اللوامح»[4] الجوابَ «إنَّا نطمعُ» المتقدِّمَ، وقال: جاز حذف الفاء منه لتقدُّمه. وهو مبنيٌّ على مذهب الكوفيين وأبي زيد والمبرِّد، حيث يجوِّزون تقديمَ جوابِ الشرط. وعلى هذا فالظاهرُ أنهم لم يكونوا متحقِّقين بأنهم أولَ المؤمنين.

(١) في البحر ٧/ ١٦.
(٢) البحر ٧/ ١٧.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٦، والمحتسب ٢/ ١٢٧، والبحر ٧/ ١٦.
(٤) كما في البحر ٧/ ١٦، وعنه نقل المصنف.

وقيل: كانوا متحقِّقينَ ذلك، لكنهم أبرزوه في صورة الشكِّ لتنزيل الأمر المعتمد منزلةَ غيره تمليحاً وتضرُّعاً لله تعالى، وفي ذلك هضمُ النفس، والمبالغةُ في تحرِّي الصدق، والمشاكلةُ مع «نطمع» على ما هو الظاهرُ فيه.

وجوَّز أبو حيان أن تكون «إنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة، ولا يُحتاج إلى اللام الفارقة لدلالة الكلام على أنهم مؤمنون، فلا احتمالَ للنفي. وقد ورد مثلُ ذلك في الفصيح؛ ففي الحديث: إنْ كان رسول الله ﷺ يحبُّ العَسَل[1]. وقال الشاعر:

ونحن أباةُ الضيم من آل مالكٍ وإنْ مالكٌ كانت كرامَ المعادنِ[2]

وعلى هذا الوجه يكونون جازمين بأنهم أولُ المؤمنين أتمَّ جَزْمٍ.

واختُلف في أنَّ فرعونَ هل فَعَل بهم ما أقسم عليه أوْ لا؟ والأكثرون على أنه لم يفعل؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]. وبعضُ هؤلاء زعم أنهم لمَّا سجدوا رأوا الجناتِ والنيرانَ وملكوتَ السماواتِ والأرضِ، وقُبضت أرواحُهم وهم ساجدون. وظواهرُ الآياتِ تكذِّبُ أمرَ الموتِ في السجود، وأمَّا أمرُ رؤيةِ[3] ما ذُكر فلا جَزْمَ عندي بصِدْقِه، والله تعالى أعلم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ وذلك بعد سنينَ أقامَ بين ظهرانيهم يدعوهم إلى الحقِّ، ويُظْهِرُ لهم الآيات، فلم يزيدوا إلّا عُتوًّا وعناداً حَسْبَما فصِّل في سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ الآيات [الأعراف: ١٣٠].

وقرئ: «أنِ اسْرِ» بكسر النون ووَصْلِ الألف من سَرَى[4]. وقرأ اليمانيُّ: «أنْ سِرْ»[5] أمراً من سار يسير.

---

(١) البحر ٧/ ١٦، والحديث أخرجه البخاري (٥٢٦٨) عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: كان رسول الله ﷺ يحب العسل والحلوى، وكان إذا انصرف. . . . الحديث، ولم نقف عليه برواية البحر.

(٢) البحر ٧/ ١٦، والبيت للطرمَّاح، وهو في ديوانه ص٥١٢، برواية: أنا ابنُ أباةِ. . . .

(٣) في (م): وأما رؤية أمر.

(٤) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠ عن نافع وابن كثير وأبي جعفر.

(٥) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١٧.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾ تعليلٌ للأمر بالإسراء، أي: يتَّبعكم فرعونُ وجنودُه مُصْبِحينَ، فأَسْرِ ليلاً بمن معك حتى لا يدركوكم قبل الوصول إلى البحر، بل يكونون على أَثَرِكم حين تَلِجُون البحرَ، فيدخلون مداخِلَكم، فأطبقُه عليهم فأُغْرِقُهم.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ الفاءُ فصيحةٌ، أي: فأَسْرَى بهم وأُخْبِرَ فرعونُ بذلك فأرسل ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ أي: مدائنِ مصر ﴿حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾ جامعينَ للعساكر ليتبعوهم.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يريد بني إسرائيلَ، والكلامُ على إرادة القول، والظاهرُ أنه حالٌ، أي: قائلاً: إنَّ هؤلاء ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ أي: طائفةٌ من الناس. وقيل: هي السَّفِلةُ منهم. وقيل: بقيةُ كلِّ شيءٍ خسيسٍ، ومنه: ثوبٌ شراذمُ وشراذمة[1]، أي: خَلِقٌ مقطَّعٌ، قال الراجز:

جاء الشتاءُ وقميصي أخلاقْ
شراذمٌ يضحك منه التَّوَّاقْ[2]

وقرئ: «الشرُّ ذمَّةٍ» بإضافة «شر» مقابلِ خير إلى «ذمة»، قال أبو حاتم: وهي قراءةُ مَن لا يؤخَذُ منه. ولم يَرْوِها أحدٌ عن رسول الله ﷺ[3].

﴿قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾ صفةُ «شرذمة» وكان الظاهر: قليلةٌ، إلا أنه جُمِعَ باعتبار أنَّ الشرذمة مشتملةٌ على أسباطٍ، كلُّ سبطٍ منهم قليل، وقد بالَغَ اللعينُ في قلَّتهم حيث ذَكَرهم أوَّلاً باسم دالٍّ على القلَّة وهو «شرذمة»، ثم وَصَفَهم بالقلَّة، ثم جَمَعَ القليلَ للإشارة إلى قلَّةِ كلِّ حزبٍ منهم، وأتى بجمع السلامة وقد ذُكر أنه دالٌّ على القلة؛ واستقلَّهم بالنسبة إلى جنوده.

---

(١) في الأصل و(م): شرذام وشرذامة، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ١٤، والكلام منه، وهو الموافق لما في كتب اللغة. ينظر مادة (شرذم) في الصحاح ومفردات الراغب واللسان وغيرها.

(٢) العين ٦/ ٣٠٢، وتهذيب اللغة ٧/ ٣٠ و٩/ ٢٥٦، والصحاح (نوق)، واللسان (توق). ورواية الصحاح: النوَّاق بالنون، وهما روايتان كما ذكر صاحب اللسان. قال الجوهري: النَّوَّاق من الرجال: الذي يَروض الأمور ويصلحها. وقال الأزهري: التوَّاق: الذي تتوق نفسه إلى كل دناءة. وقيل: التوَّاق اسم ابنه. اهـ.

(٣) البحر ٧/ ١٨.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن السديِّ أنَّ موسى عليه السلام خرج في ستِّ مئةِ ألفٍ وعشرين ألفاً لا يُعدُّ فيهم ابنُ عشرين لصغره، ولا ابنُ ستِّين لكبره، وتَبِعَهم فرعونُ على مقدِّمته هامان في ألفِ ألفٍ وسبعِ مئةِ ألفِ حصان[١].

وقيل: أرسلَ فرعونُ في أثرهم ألفَ ألفٍ وخمسَ مئةِ ألفِ مَلِكٍ مسوَّرٍ، مع كلِّ مَلِكٍ ألفٌ، وخرج هو في جمعٍ عظيمٍ، وكانت مقدِّمتُه سبعَ مئة ألفِ رجلٍ، كلُّ رجلٍ على حصانٍ وعلى رأسه بيضة، وهم كانوا ـ على ما روي عن ابن عباس ـ ستَّ مئة ألفٍ وسبعين ألفاً.

وأنا أقول: إنهم كانوا أقلَّ من عساكر فرعون، ولا أجزِمُ بعددٍ في كِلَا الجمعين، والأخبارُ في ذلك لا تكاد تصحُّ، وفيها مبالَغاتٌ خارجةٌ عن العادة.

والمشهورُ عند اليهود أنَّ بني إسرائيل كانوا حين خرجوا من مصر ستَّ مئةِ ألفِ رجلٍ خلا الأطفالَ، وهو صريحُ ما في التوراة التي بأيديهم[٢].

وجوِّز أن يُراد بالقلَّة الذلةُ لا قلَّةُ العدد، بل هي مستفادةٌ من «شرذمة»، يعني أنهم لقلَّتهم أذلَّاء لا يُبَالَى بهم ولا يُتوقَّعُ غلبتُهم.

وقيل: الذلَّة مفهومةٌ من «شرذمة» بناءً على أنَّ المراد منها بقيةُ كلِّ شيءٍ خسيسٍ، أو السَّفِلَةُ من الناس، و«قليلون» إمَّا صفةٌ لها أو خبرٌ بعد خبرٍ لـ «إنَّ». والظاهرُ ما تقدَّم.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ لفاعلون ما يغيظُنا، من مخالفةِ أمرنا، والخروجِ بغير إذْننا، مع ما عندهم من أموالنا المستعارَةِ، فقد روي أنَّ الله تعالى أمرهم أن يستعيروا الحلي من القِبْطِ، فاستعاروه وخرجوا به. وتقديمُ «لنا» للحَصْرِ والفاصلةِ، واللامُ للتقوية أو تنزيلِ المتعدِّي منزلةَ اللَّازم.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: إنَّا لجمعٌ[٣] من عاداتنا الحذرُ والاحترازُ

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨١.

(٢) العهد القديم، سفر الخروج ص١٧٢.

(٣) في الأصل: لجميع، والمثبت من (م) وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٤، والكلام منه. قال الشهاب قوله: لجمع، إشارة إلى أن جميع بمعنى الجمع وليست التي يؤكد بها.

واستعمالُ الحَزْمِ في الأمور. أشار أوّلاً إلى عدم ما يمنع اتِّباعَهم من شوكتهم، ثم إلى تحقُّقِ ما يدعو إليه من فَرْطِ عداوتهم ووجوبِ التيقُّظ في شأنهم؛ حثّاً عليه، أو اعتذاراً بذلك إلى أهل المدائن كيلا يُظَنَّ به ـ عليه اللعنةُ ـ ما يكسِرُ سلطانه.

وقرأ جمعٌ من السبعة وغيرهم: «حَذِرون» بغير ألفٍ[(١)]. وفُرِّق بين حاذِرٍ بالألف وحَذِرٍ بدونها بأنَّ الأول اسمُ فاعلٍ يفيد التجدُّدَ والحدوثَ، والثاني صفةٌ مشبَّهةٌ تفيدُ الثباتَ، وقريبٌ منه ما رُوي عن الفرَّاء والكسائيِّ، أنَّ الحَذِر من كان الحَذَرُ في خِلْقتِه، فهو متيقِّظٌ مُنْتَبِهٌ[(٢)]. وقال أبو عبيدة: هما بمعنًى واحدٍ[(٣)]. وذهب سيبويه إلى أن حذراً يكون للمبالغة، وأنه يعملُ كما يعملُ حاذِر، فينصب المفعولَ به، وأنشد:

حَـذِرٌ أمـوراً لا تَـضِـيـرُ وآمِـنٌ ... مـا لـيـس مُـنْـجِـيَـه مـن الأقـدارِ[(٤)]

وقد نُوزِعَ في ذلك بما هو مذكورٌ في كتب النحو.

وعن ابن عباسٍ وابن جُبيرٍ والضَّحَّاك وغيرِهم: أنَّ الحاذِرَ التامُّ السلاح. وفسَّروا ما في الآية بذلك، وكأنه بمعنى: صاحب حذرٍ، وهي آلةُ الحرب سمِّيت بذلك مجازاً، وحُمِلَ على ذلك قولُه تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

---

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وهشام، وقرأ بها من العشرة أبو جعفر ويعقوب. التيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ٣٣٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٠، ونقله المصنف عنه وعن الكسائي بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٨.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٨٦، والبحر ٧/ ١٨.

(٤) الكتاب ١/ ١١٣، والبحر ٧/ ١٨، والكلام منه، والمقتضب ٢/ ١١٦، والحلل للبَطَلْيَوْسي ص١٣١، والخزانة ٨/ ١٦٩. قال المبرد: هذا بيت موضوع محدَث. وقال السمين في الدر المصون ٦/ ٨٠: قيل: إنه مصنوع، وهو فاسدٌ أُتقنت حكايته في شرح التسهيل. وقال البطليوسي: هذا البيت مصنوع ليس بعربي، ولأجل هذا رُدَّ على سيبويه.
قال البغدادي: إن طُعن على سيبويه بهذا البيت فقد استُشهد ببيت آخر لا مطعن فيه، وهو قول لبيد:

أو مِسْحَلٌ شَنِجٌ عِضَادةَ سَمْحَجٍ ... بِسَراته نَدَبٌ لها وكُلومُ

وكذا ذكر البطليوسي بيتاً آخر لزيد الخيل لا مطعن فيه.

وقرأ سميط بن عجلان وابنُ أبي عمار وابن السميفع: «حادِرون» بالألف والدالِ المهملة[١]، من قولهم: عينٌ حَدْرةٌ، أي: عظيمة، وفلانٌ حادِرٌ، أي: متورِّم.

قال ابن عطية: والمعنى: ممتلئون غيظاً وأنفةً[٢]. وقال ابن خالويه: الحادِر: السمينُ القويُّ الشديد[٣]. والمعنى: أقوياء أشدَّاء، ومنه قولُ الشاعر:

أحبُّ الصبيَّ السَّوْءَ من أجل أمِّه وأُبْغضُه من بُغْضِها وهو حادِرُ[٤]

وقيل: المعنى: تامُّو السلاح، على هذه القراءة أيضاً، أَخْذاً من الحَدَارة بمعنى الجَسَامةِ والقوة، فإنَّ تامَّ السلاح يَتقوَّى به كما يَتقوَّى بأعضائه.

و«جميع» على جميع القراءات والمعاني بمعنى الجمع، وليست التي يؤكَّد بها كما أشرنا إليه، ولو كانت هي المؤكِّدةَ لنُصِبَتْ.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ أي: فرعونَ وجنودَه، أي: خلقنا فيهم داعيةَ الخروجِ بهذا السبب الذي تضمَّنته الآياتُ الثلاث، فحَمَلَتْهم عليه، أو: خَلَقْنا خُروجَهم.

﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾ كانت لهم بحافتي النيل، كما روي عن ابن عمر[٥] وغيره.

﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي: أموالٍ كَنَزوها وخزنوها تحت الأرض. وخُصَّتْ بالذِّكر لأنَّ الأموال الظاهرةَ أمورٌ لازمةٌ لهم؛ لأنها من ضروريات معاشِهم، فإخراجُهم عنها معلومٌ بالضرورة.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والمحتسب ٢/ ١٢٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢، والبحر ٧/ ١٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢، والبحر ٧/ ١٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١٨.

(٤) العين ٣/ ١٧٦، وتهذيب اللغة ٤/ ٤٠٨، والكشاف ٣/ ١١٤، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٤، والبحر ٧/ ١٨، واللسان (حدر). قال الشهاب يقول: إني أحب بعض الصبيان وإن كان قبيحاً لحبِّ أمِّه، وقد أبغض بعض الصبيان لبغض أمه وإن كان حسناً، فكنى عن حسنه بكونه حادراً.

(٥) كذا في الأصل و(م) والبحر ٧/ ١٨: ابن عمر، وأخرجه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٨١ مطولاً من طريق ابن لهيعة، عن واهب بن عبد الله المعافري، عن عبد الله بن عمرو ﵄. وكذا ذكره عن عبد الله بن عمرو القرطبي ١٦/ ٢٦، وابن كثير عند تفسير الآية (٢٦) من سورة الدخان.

وقيل: لأنَّ أموالهم الظاهرةَ قد انطمستْ بالتدمير.

وتعقِّب بأنَّ الإخراج قبل الانطماس، إذ من جملة الأموال الظاهرة الجناتُ، والإخبارُ عنهم بأنهم أُخْرِجوا منها بعنوانِ كونِها جناتٍ، والأصلُ فيه الحقيقة.

وعلى تقديرِ تسليم أنه بَعْدُ يَرِدُ أنَّ المدمَّر ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه وما كانوا يعرشون، وهو مفسَّرٌ بالقصور والعمارات والجنان، فيبقى ما سوى ذلك غيرَ محكومٍ عليه بالتدمير من الأموال الظاهرة، مع أنهم أُخرجوا منه أيضاً، فيُحتاج توجيه عدم التعرُّضِ له بغير ما ذكر.

وقيل: المراد بالكنوز أموالُهم الباطنةُ والظاهرةُ، وأُطلق عليها ذلك لأنها لم يُنْفَقْ منها في طاعة الله تعالى، ونُقل ذلك عن مجاهد، والأولُ أوفقُ باللغة.

وأكثرُ جَهَلةِ أهلِ مصر يزعمون أنَّ هذه الكنوزَ في المقَطَّم(١) من أرض مصر، وأنها موجودةٌ إلى الآن، وقد بذلوا على إخراجها أموالاً كثيرةً لشياطينِ المغاربة وغيرِهم فلم يظفروا إلا بالتراب، أو حجر الكذَّان(٢).

وقال ابن جبير: المراد بالعيون عيونُ الذهب. وهو خلافُ المتبادر. ومِثْلُه ما قاله الضحاك، من أنَّ المراد بالكنوز الأنهار.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ هي المساكنُ الحِسانُ كما قال النقَّاشُ(٣). وعن ابن لهيعة: أنها كانت بالفيوم من أرض مصر. وقيل: مجالس الأمراء والأشراف والحكَّام التي تحفُّها الأتْباعُ.

وقيل: الأسرَّة في الكلل. وحكى الماورديُّ أنها مرابطُ الخيل(٤). وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك أنها المنابر للخطباء.

---

(١) هو الجبل المشرف على القرافة مقبرةِ فسطاطِ مصرَ والقاهرة، وهو جبلٌ يمتد من أسوان على شاطئ النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة، ويسمى في كل موضع باسم. معجم البلدان ٥/ ١٧٦.

(٢) الكذَّان: حجارة رِخوة، وربما كانت نخرة، وقيل: هي الحجارة التي ليست بصلبة. اللسان (كذذ). والكلام منقول من البحر ٧/ ١٨-١٩ باختصار.

(٣) البحر ٧/ ١٩، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٧٢ عن سعيد بن جبير.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٧٢، ونقله عنه المصنف بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٩.

وقرأ قتادةُ والأعرج: «ومُقام» بضمِّ الميم من أقام[(١)].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إمَّا في موضع نصبٍ على أنْ يكون صفةً لمصدرٍ مقدَّرٍ، أي: إخراجاً مثلَ ذلك الإخراجِ أخرجنا، والإشارةُ إلى مصدرِ الفعل. أو في موضع جرٍّ على أن يكون صفة لـ «مقام»، أي: مقامٍ كريمٍ مثل ذلك المقَام الذي كان لهم.

وعلى الوجهين لا يَرِدُ أنه يلزمُ تشبيهُ الشيء بنفسه كما زعم أبو حيان[(٢)]؛ لِمَا مرَّ تحقيقه.

أو في موضع رفعٍ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمرُ كذلك، والمرادُ تقريرُ الأمرِ وتحقيقُه.

واختار هذا الطيبيُّ فقال: هو أقوى الوجوه؛ ليكون قولُه تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ ـ أي: ملَّكناها لهم تمليكَ الإرثِ ـ عَطْفاً عليه، والجملتان معترضتان بين المعطوف عليه وهو «فأخرجناهم»، والمعطوفِ وهو قولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾؛ لأنَّ الإتباع عقبَ الإخراج لا الإيراث؛ قال الواحديُّ: إنَّ الله تعالى ردَّ بني إسرائيل إلى مصر بعد ما أغرق فرعون وقومَه، فأعطاهم جميعَ ما كان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن[(٣)]. وعلى غير هذا الوجه يكون «أورثنا» عطفاً على «أخرجنا»، ولا بدَّ من تقدير نحوِ: فأردنا إخراجهم وإيراثَ بني إسرائيل ديارَهم، فخرجوا وأتبعوهم. انتهى.

ويُفْهم من كلام بعضهم أنَّ جملة «أورثناها» إلخ معترضةٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه في جميع الأوجُهِ. وما ذُكر عن الواحديِّ من أنَّ الله تعالى ردَّ بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعونَ وقومه، ظاهرُه وقوعُ ذلك بعد الغرق من غير تطاوُلِ مدَّة.

وأظهرُ منه في هذا ما رُوي عن الحسن قال: كما عبروا البحر رجعوا[(٤)] وورثوا ديارهم وأموالهم.

---

(١) البحر ٧/ ١٩.

(٢) في البحر ٧/ ١٩.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٥٤.

(٤) في (م): ورجعوا، والمثبت من الأصل والبحر ٧/ ١٩، وعنه نقل المصنف.

ورأيتُ في بعضِ الكتب أنهم رجعوا مع موسى عليه السلام، وبَقُوا معه في مصر عَشْرَ سنين.

وقيل: إنه رجع بعضُهم بعد إغراق فرعونَ، وهم الذين أُورِثوا أموال القِبْطِ، وذهب الباقون مع موسى عليه السلام إلى أرض الشام.

وقيل: إنَّهم بعد أن جاوزوا البحرَ ذهبوا إلى الشام، ولم يدخلوا مصرَ في حياة موسى عليه السلام، ومَلَكوها زمنَ سليمان عليه السلام.

والمذكورُ في التوراة[1] التي بأيدي اليهود اليومَ صريحٌ في أنهم بعد أنْ جاوَزوا البحر توجَّهوا إلى أرض الشام، وقد فصلت قصة ذهابهم إليها، وأكثرُ التواريخ على هذا. وظواهرُ كثيرٍ من الآيات تقتضي ما ذكره الواحديُّ، والله تعالى أعلم.

ومعنى «أتبعوهم»: لحقوهم؛ يقال: تَبِعْتُ القومَ فأَتْبَعْتُهم[2]، أي: تلوتُهم فلحقتُهم، كأن المعنى: فجعلتُهم تابعين لي بعدما كنتُ تابعاً لهم، مبالَغةً في اللحوق. وضميرُ الفاعل لقوم فرعون، والمفعولِ لبني إسرائيل.

وقرأ الحسن: «فاتَّبعوهم» بوَصْلِ الهمزة وشدِّ التاء[3].

﴿مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ أي: داخلين في وقت شروق الشمس، أي: طلوعِها، من أَشْرقَ زيدٌ: دَخَلَ في وقت الشروق، كأصبح: دَخَلَ في وقت الصباح، وأمسى: دَخَلَ في وقت المساء.

وقال أبو عبيدةَ[4]: هو من أَشْرقَ: توجَّه نحو الشرق، كأَنْجَدَ توجَّه نحو نجد، وأَغْرقَ توجَّه نحو العراق. أي: فأتبعوهم متوجِّهين نحو الشرق. والجمهورُ على الأول.

وعن السديِّ: أنَّ الله تعالى ألقى على القِبْطِ الموتَ ليلةَ خرج موسى عليه السلام بقومه، فمات كلُّ بِكْر رجلٍ منهم، فشُغلوا عن طلبهم بدفنهم حتى طلعت

---

(١) ينظر العهد القديم، سفر الخروج ص١٧٩ وما بعدها.

(٢) في(م): فأتبعهم.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ١٩.

(٤) كما في البحر ٧/ ١٩.

الشمس. ومثلُ ذلك في التوراة بزيادةِ موتِ أبكار بهائمهم أيضاً[١].

والوصفُ حالٌ من الفاعل. وقيل: هو حالٌ من المفعول؛ ومعنى «مشرقين»: في ضياء، بناءً على ما روي أنَّ بني إسرائيل كانوا في ضياء، وكان فرعونُ وقومُه في ضبابٍ وظلمةٍ تحيَّروا فيها حتى جاوز بنو إسرائيل البحرَ، ولا يكاد يصحُّ ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تقارَبا بحيث رأى كلٌّ واحدٍ منهما الآخر. نعم ذُكر في التوراة ما حاصلُه أنَّ بني إسرائيل لمَّا خرجوا كان أمامهم نهاراً عمودٌ من غمام، وليلاً عمودٌ من نارٍ؛ ليدلَّهم على الطريق، فلمَّا طلبهم فرعونُ ورأوا جنودَه خافوا جدًّا، ولاموا موسى عليه السلام في الخروج، وقالوا له: أَمِنْ عَدَمِ القبور بمصر أخرجتنا لنموت في البرِّ؟ أمَا قلنا لك: دعنا نخدُم المصريين فهو خيرٌ من موتنا في البرِّ؟ فقال لهم موسى: لا تخافوا، وانظروا إغاثَة الله تعالى لكم. ثم أَوْحَى الله تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر، فتحوَّل عمودُ الغمام إلى ورائهم، وصار بينهم وبين فرعون وجنودِه، ودخل الليلُ ولم يتقدَّم أحدٌ من جنود فرعون طولَ الليل، وشقَّ البحر ثم دخل بنو إسرائيل[٢]. وليس في هذا ما يصحِّح أمرَ الحالية المذكورة، فتأمَّل.

وقرأ الأعمش وابنُ وثَّاب: «ترا» بغير همزٍ على مذهب التخفيف بين بين، ولا يصحُّ تحقيقُها بالقلب؛ للزومِ ثلاثِ أَلِفاتٍ متَّسقةٍ، وذلك مما لا يكون أبداً؛ قاله أبو الفضل الرازيُّ[٣].

وقال ابن عطية: وقرأ حمزةُ: «تريئى» بكسر الراء وبمدٍّ ثم بهمزٍ، وروي مثلُه عن عاصم، وروي عنه أيضاً: «تراءى» بالفتح والمد[٤].

وقال أبو جعفر أحمد بن عليٍّ الأنصاريُّ في كتابه «الإقناع»: «تراءى الجمعان» في «الشعراء» إذا وقف عليها حمزةُ والكسائيُّ أمالا الألفَ المنقلبةَ عن لام الفعل،

---

(١) العهد القديم، سفر الخروج ص١٧٢.

(٢) العهد القديم، سفر الخروج ص١٧٥-١٧٧.

(٣) البحر ٧/ ١٩، وذكر القراءة أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٧ دون نسبة.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣. والمشهور عن عاصم تخليص فتحة الراء والهمزة، وينظر ما سيأتي.

وحمزةُ يُميلُ ألفَ تَفاعَلَ وصلاً ووقفاً كإمالة الألف المنقلبة(١).

وقرئ: «فلما ترات الفئتان»(٢).

﴿قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: لملحَقون، جاؤوا بالجملة الاسمية مؤكَّدةً بحرفي التأكيد للدلالة على تحقُّق الإدراك واللحاقِ وتَنْجيزِهما، وأرادوا بذلك التحزُّنَ وإظهارَ الشكوى طلباً للتدبير.

وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير: «لمُدَّرِكون» بفَتْحِ الدَّالِ مشدَّدة وكَسْرِ الراء(٣)، من الادِّراك بمعنى الفناء والاضمحلال، يقال: ادَّرَكَ الشيءُ: إذا فَنِيَ تتابُعاً، وأصلُه التتابعُ وهو ذهابُ أحدٍ على إثرِ آخَرَ، ثم صار في عُرْفِ اللغة بمعنى الهلاك، وأن يفنَى شيئاً فشيئاً حتى يذهبَ جميعُه، وقد جاء التتابُعُ بهذا المعنى في قول الحماسيِّ:

أَبَعْدَ بني أمِّي الذين تتابعوا أُرَجِّي حياةً أم من الموتِ أَجْزَعُ(٤)

والمعنى: إنَّا لهالِكونَ على أيديهم شيئاً فشيئاً.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام رَدْعاً لهم عن ذلك، وإرشاداً إلى أنَّ تدبير الله عزَّ وجلَّ يغني عن تدبيره: ﴿كَلَّآ﴾ لن يُدْرِكوكم ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ بالحفظ والنصرة ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ قريباً إلى ما فيه نجاتُكم منهم ونصرُكم عليهم.

---

(١) نقله المصنف عن الإقناع بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٩، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٦٥-١٦٦، وذكر الداني أن حمزة إذا وقف أمال الهمزة مع جَعْلِها بين بين على أصله.

(٢) الآية (٤٨) من سورة الأنفال، وهذه القراءة في القراءات الشاذة ص١٠٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٧، والمحتسب ٢/ ١٢٩، والكشاف ٣/ ١١٥، والبحر ٧/ ٢٠. وذكر أبو حيان أنها من ادَّرك اللازم؛ قال: ولذلك كسرت الراء، نصَّ على كسرها أبو الفضل الرازي في «اللوامح»، والزمخشري في كشافه، وغيرهما، وقال أبو الفضل الرازي: وقد يكون ادَّرك على افتَعَلَ بمعنى أَفْعَلَ متعدياً، فلو كانت القراءة من ذلك لوجب فتح الراء، ولم يبلغني ذلك عنهما. يعني عن الأعرج وعبيد بن عمير. اهـ.

(٤) البيت للبراء بن رِبْعيٍّ الفَقْعَسيِّ كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨٤٩، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص١١٩، وهو دون نسبة في الكشاف ٣/ ١١٥، والبحر ٧/ ٢٠.

ولم يُشْرِكْهم عليه السلام في المعيَّةِ والهدايةِ إخراجاً للكلام على حَسَبِ ما أشاروا إليه في قولهم: «إنَّا لمدركون» من طلب التدبير منه عليه السلام.

وقيل: لمَّا كان عليه السلامُ هو الأصلَ وغيرُه تبعٌ له محفوظون منصورون بواسطته وشرفه وكرامته، قال: «معي» دون: معنا، وكذا قال: «سيهدين» دون: سيهدينا.

وقيل: قال ذلك جزاءً على غَفْلَتِهم عن قوله تعالى له عليه السلام: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص:٣٥] حتى خافوا فقالوا ما قالوا؛ فإنَّ الظاهر أنهم سمعوا ذلك من موسى عليه السلام في مدَّةِ بقائهم معه في مصر، أو غَفْلَتِهم عن عناية الله تعالى بهم حين كانوا مع القِبْطِ في مصر، حيث لم يُصِبْهم ما أصابهم من الدم ونحوه من الآيات المقتضيةِ بواسطة حُسْنِ الظنِّ إنجاءَهم منهم حين أمروا بالخروج فلحقوهم، وكان تأديبه لهم على ذلك بمجرَّد عَدَمِ إشراكهم فيما ذكر، لا أنه نفاه عنهم كما يُتوهَّم من تقديم الخبر، فإنَّ تقديمه لأجل الاهتمام بأمر المعية التي هي مدارُ النجاة المطلوبة. وقيل: للحصر، لكنْ بالنسبة إلى فرعونَ وجمعِه.

وقيل على القول الثاني في توجيهِ عدم إشراكهم: إنه للحصر بالنسبة إليهم أيضاً، على معنى: إنَّ معي أوَّلاً وبالذات ربِّي لا معكم كذلك.

وقيل: قدَّم المعية هنا وأخرتْ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] لأنَّ المخاطب هنا بنو إسرائيلَ، وهم أغبياءُ يعرفون الله عزَّ وجلَّ بعد النظر والسماع من موسى عليه السلام، والمخاطَبُ هناك الصدِّيقُ ﷺ، وهو ممن يرى الله تعالى قبل كلِّ شيءٍ، ولاختلاف المقام نَظَمَ نبيُّنا ﷺ صاحبه معه في المعية ولم يقدِّم له ردعاً وزجراً، وخاطبه على نحو مخاطبة الله تعالى له عليه الصلاة والسلام عند تسليته بما صورتُه النهيُ عن الحزن، وأتى بالاسم الجامع وهو لفظ: الله، دون اسمٍ مشعِرٍ بصفةٍ واحدةٍ مثلاً، ولم يكن كلامُ موسى عليه السلام ومخاطبته لقومه على هذا الطرز، وسبحانَ مَن فضَّل بعضَ العالَمين على بَعْضٍ.

وزعم بعضُهم أنَّ في الكلام حذفاً، والتقدير: إنَّ معي وَعْدَ ربِّي، ولذلك قال: «معي» دون: معنا، وفيه ما فيه.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ هو القُلْزُمُ[١] على الصحيح. وقيل: بحرٌ من وراء مصر يقال له: إساف. وقيل: النيل.

والظاهرُ أنَّ هذا الإيحاءَ كان بعد القول المذكورِ، ولم يكن مأموراً بالضرب يومَ الأمر بالإسراء، فقد أخرج ابنُ عبد الحكم عن مجاهدٍ: أنه لما انتهى موسى عليه السلام وبنو إسرائيل إلى البحر قال مؤمنُ آل فرعون: يا نبيَّ الله أين أُمِرْتَ، فإنَّ البحر أمامك وقد غَشِيَنا آل فرعون؟ فقال: أمرتُ بالبحر. فاقتحم مؤمنُ آلِ فرعون فرسَه فردَّه التيَّارُ، فجعل موسى عليه السلام لا يدري كيف يصنع، وكان الله تعالى قد أَوْحَى إلى البحر: أنْ أَطِعْ موسى، وآيةُ ذلك إذا ضربك بعصاه، فأَوْحَى الله تعالى إلى موسى أنِ اضْرِبْ بعصاك البحر[٢].

وأخرج أيضاً من طريق الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس بأنَّ موسى لمَّا انتهى إلى البحر أقبل يوشع بنُ نون على فرسه فمشى على الماء واقتحم غيرُه خيولَهم فَرَسَوْا في الماء، وقال أصحاب موسى: «إنَّا لمدرَكون»، فدعا موسى ربَّه فغشيَتْهم ضبابةٌ حالت بينهم وبينه، وقيل له: اضْرِبْ بعصاك البحر[٣].

وأخرج ابنُ جَريرٍ وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس أنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى: أنِ اضْرِبْ بعصاك البحر، وأوحى إلى البحر: أنِ اسْمَعْ لموسى وأَطِعْ إذا ضربك. فبات البحرُ له أَفْكَل ـ أي: رعدةٌ ـ لا يدري من أيِّ جوانبه يَضْرِبُه[٤].

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام: أنَّ موسى عليه السلام لمَّا انتهى إلى البحر قال: يا مَن كان قبل كلِّ شيءٍ، والمكوِّنُ لكلِّ شيء، والكائنُ بعد كلِّ شيء، اجْعَلْ لنا مخرجاً. فأَوْحَى الله تعالى إليه: أنِ اضْرِبْ بعصاك البحر[٥].

---

(١) يعني البحر الأحمر.
(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص٨٥-٨٦.
(٣) فتوح مصر ص٨٣، وفيه: فرسبوا، بدل: فرسوا.
(٤) تفسير الطبري ١/ ٦٥٨-٦٥٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٧١.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٧١.

وروي أنه عليه السلام قال: اللهمَّ لك الحمدُ، وإليك المشتكَى، وإليك المستغاثُ، وأنت المستعانُ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم. وفي «الدر المنثور» من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً ما يدلُّ على أنه عليه السلام قال ذلك حين الانفلاق[١].

﴿فَانفَلَقَ﴾ أي: فَضَرَبه فانفلق، فالفاءُ فصيحةٌ. وزعم ابن عصفور في مثل هذا التركيب أنَّ المحذوف هو «ضَرَبَ» وفاءُ «انفلق»، والفاءُ الموجودة هي فاءُ «ضرب»[٢]، وهذا أشبهُ شيءٍ بِلَغَا[٣] العصافير، وكأنه كان سكرانَ حين قاله.

وفي هذا الحذف إشارةٌ إلى سرعة امتثاله عليه السلام، وإنما أُمر عليه السلام بالضَّرب فضرب وترتُّب الانفلاقُ عليه؛ إعظاماً لموسى عليه السلام بجَعْلِ هذه الآية العظيمةِ مترتِّبةً على فِعْلِه، ولو شاء عزَّ وجلَّ لفَلَقه بدون ضَرْبِه بالعصا. ويُروَى أنه لم ينفلق حتى كناه بأبي خالد، فقال: انْفَلِق أبا خالد. وكان بأمر الله تعالى إياه بذلك.

وعن قيس بن عباد أنه عليه السلام حين جاءه قال له: انْفَلِقْ أبا خالد. فقال: لن أَنْفَلِقَ لك يا موسى، أنا أقدمُ منك وأشدُّ خَلْقاً. فنودي عند ذلك: اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق[٤].

وفي روايةٍ عن ابن مسعود أنه عليه السلام حين انتهى إليه قال: انفَرِقْ. فقال له: لقد استكبرتَ يا موسى، وهل انفرقتُ لأحدٍ من ولد آدم؟ فأوحَى الله تعالى إليه: أن اضْرِبْ بعصاك البحر. فضربه فانفلق[٥].

---

(١) الدر المنثور ٥/٨٦، وفيه: وإليك المتكل، بدل: وإليك المشتكى، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣٣٩٤) دون قوله: وإليك المستغاث، والصيداوي في معجم الشيوخ ص٣٣٨-٣٣٩، وفيه: وبك المستغاث، بدل: وإليك المستغاث.

(٢) المقرب لابن عصفور ١/٢٣٦، والبحر ٧/٢٠.

(٣) اللغا واللغو: السَّقط، وما لا يعتد به من كلام وغيره. القاموس (لغو).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/٥٢٧، وابن أبي حاتم ٨/٢٧٧٢.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/٥٢٨-٥٢٩، وابن أبي حاتم ٨/٢٧٧٤. وجاء عند ابن أبي شيبة: استكثرت، بدل: استكبرت.

وفي حديثٍ أخرجه الخطيبُ في «المتفق والمفترق» عن أبي الدرداء مرفوعاً: أنه عليه السلام ضربه فتأطَّطَ كما يتأطَّطُ العرشُ، ثم ضربه الثانيةَ فمثل ذلك، ثم ضربه الثالثة فانْصَدَعَ[1]. وهذا صريحٌ في أن الضرب كان ثلاثاً.

وقيل: ضربه مرةً واحدة فانفلق. وقيل: ضربه اثنتي عَشْرةَ مرةً فانفلق في كلِّ مرةٍ عن مسلكٍ لسِبْط.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير أنه قال: كان البحر ساكناً لا يتحرَّكُ، فلمَّا كان ليلةَ ضَرَبه موسى بالعصا صار يمدُّ ويجزرُ[2]. ولا أظنُّ لهذا صحةً، والظاهرُ أنَّ المدَّ والجَزْرَ كانا قبل أن يخلق الله تعالى موسى عليه السلام، ولا ينبغي لعاقلٍ اعتقادُ غيره، ومثلُ هذا عندي كثيرٌ من الأخبار السابقة. والأسلمُ الاقتصارُ على ما قَصَّ الله تعالى من أنه أوحى سبحانه إلى موسى أنِ اضْرِبْ بعصاك البحر، فضربه، فانفلق.

﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ أي: كالجبل المُنيفِ الثابت في مقرِّه. وظاهرُ الآية أنَّ الطَّوْدَ مطلقُ الجبل، وقال في «الصحاح»: الطودُ: الجبلُ العظيم[3]. والمراد بالفِرْقِ قطعةٌ من الماء ارتفعتْ فصار ما تحتها كالسرداب، على ما ذكره بعضُ الأجِلَّة، وحينئذٍ لا إشكال في قولِ مَن قال: إنَّ الفروق اثنا عَشَر[4] والمسالكَ كذلك، بعِدَّةِ أسباطِ بني إسرائيل، وقد سَلَكَ كلُّ سبطٍ منهم في مسلكٍ منها.

والمشهورُ أنَّ الفِرْقَ قطعةٌ انفصلتْ من الماء عمَّا يقابلُها، وحينئذٍ لا يتأتَّى ذلك القولُ، بل لا بدَّ عليه - على ما قيل - من كون الفروق ثلاثةَ عَشَر حتى يحصل في خلالها اثنا عشر مسلكاً بعدد الأسباط.

---

(١) المتفق والمفترق ٢/ ١٢٦٤-١٢٦٥، وذكره عنه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٨٦، وفيه: الفرش، بدل: العرش. وسيأتي الحديث بتمامه عند تفسير الآية (٦٧) من هذه السورة.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٧١.

(٣) الصحاح (طود).

(٤) في (م): عشرة.

وقيل: إذا كانت الفروقُ اثني عشر فلا بدَّ أن تكون المسالكُ ثلاثة عَشَرَ؛ لأنَّ الفِرْقَ الأولَ والثانيَ عشر لا بدَّ أن يكونا منفصلين عما يحاذيهما من البحر، فيكون بين كلٍّ منهما وبين ما يحاذيه من البحر مسلكٌ وإن لم يكن كسائر المسالك بين فرقين، إذ لو اتَّصلا لم يميزا عنه ولم يتحقَّق حينئذٍ اثنا عشر فِرْقَاً، بل أقلّ.

ولا بُعْدَ في أنْ يُختارَ كونُ الفروقِ اثني عشر والمسالكِ ثلاثةَ عَشَرَ بجعل الفِرْقِ الأول والثاني عشر منفصلين عما يحاذيهما من البحر بين كلٍّ منهما وبينه مسلك.

ويقال: إنَّ كلَّ سِبْطٍ من الأسباط الاثني عَشَرَ سَلَكَ في مَسْلكٍ وسَلَكَ في الثالثِ عَشَرَ مَن آمنَ بموسى عليه السلام من القِبْطِ. انتهى.

وأُورد عليه أنه لم يُذكر في الآثار أنَّ المسالك ثلاثةَ عَشَرَ، وإنَّما المذكورُ فيها أنَّها اثنا عشر، ومَن ادَّعى ذلك فعليه البيان.

والأبعدُ عن القيل والقال ما تقدَّم عن بعض الأجلَّةِ، وأثرُ قدرة الله تعالى عليه أعظم، وخَلْقُ الداعيةِ إلى سلوك ذلك في قلوب الداخلين لاسيما قوم فرعونَ أغربُ، وكذا الاحتياجُ إلى الكُوَى أَظْهرُ. فقد روي أنَّ بني إسرائيل قالوا: نخاف أن يغرق بعضُنا ولا نشعر، فجعل الله تعالى بينهم كُوًى حتى يرى بعضُهم بعضاً.

نعم قيل عليه: إنَّ في بعض الآثار ما يأباه، فقد أخرج أبو العباس محمد بن إسحاق السَّراج في «تاريخه» وابنُ عبد البرِّ في «التمهيد» من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ صاحب الروم[1] كتب إلى معاوية يسأله عن أشياء، منها: مكانٌ طلعتْ فيه الشمس لم تَطْلُعْ قبلُ ولا بعدُ فيه، فلم يعلم معاويةُ جوابَ ذلك، فكتب يسأل ابنَ عباس، فأجاب عن كلٍّ إلى أن قال: وأمَّا المكان الذي طلعت فيه الشمسُ لم تطلع قبلُ ولا بعدُ فيه فالمكانُ الذي انفلق من البحر لبني إسرائيل[2]. فإنَّ كونَ الفِرْقِ مقبَّباً كالسرداب مانعٌ من طلوع الشمس وشروقها على الأرض من غير واسطة كما هو الظاهر من السؤال.

---

(١) في (م): الردم، وهو تصحيف.

(٢) التمهيد ٦/ ٤٩، وعزاه للسراج السيوطي في الدر ٥/ ٨٦. وأخرج القصة أيضاً عبد الرزاق في المصنف (٩٠٨٠) عن مجاهد، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٢٠ عن سعيد بن جبير.

وأجيب بأنه بعد تسليم صحة الخبر لا إباءَ لجواز شروق الشمس على أرض الفِرْقِ المقبَّب من غير واسطةٍ من جهة المدخل والمخرج، أو شروقها على أرض البحر قبل التقبيب.

ولم يتعرَّض المفسِّرون هنا فيما وقفتُ عليه لكيفية الانفلاق[1]، وقد رأيتُ فيما ينسب إلى «كليات» أبي البقاء: أنه قد ورد أنَّ بني إسرائيل لمَّا دخلوا البحر خرجوا من الجانب الذي دخلوا منه، وحينئذٍ لا يتأتَّى ذلك على كون الانفلاق خطِّياً، وإنما يتأتَّى على كونه قوسيّاً.

ثم إنه ذُكر في عدَّةِ الفروق والمسالك كلاماً ظاهرُه الاختلالُ، وقد تصدَّى بعضُ الفضلاء لشرحه وتوجيهه بما لا يخلو عن تعسُّفٍ، وحاصلُ ما ذكره ذلك البعضُ مع زيادةٍ ما: أنه يحتمل إذا كان انفلاقُ البحر إلى اثني عَشَر فِرْقاً أن يكون الفِرْقُ الأولُ والثاني عشر متَّصلين بالبرِّ الشطيِّ بأن يكون الماء الواقعُ حذاءَ كلٍّ منهما من جهة البرِّ مرتفعاً ومنضمًّا إلى كلٍّ، ومعدود[2] من أجزائه، بحيث يصير الماء المرتفع المنضمُّ والفِرْقُ الأصليُّ المنضمُّ إليه فِرْقاً واحداً متَّصلاً طرفُه بالبرِّ من غير فَصْلٍ بينه وبينه بشيء.

وأُورد عليه أنه يلزم عليه أن تكون المسالكُ أحد عشر، فيحتاجُ إلى سلوك سبطين معاً أو متعاقباً في مسلكٍ واحدٍ أوسعَ من سائر المسالك أو مساوٍ له، ولا خفاءَ في أنه خلافُ الظاهر والمأثور.

وأيضاً يلزمُ أن يكون كلٌّ من الفِرْقينِ الأولِ والثاني عَشَرَ أعظمَ غلظاً من كلٍّ من البواقي؛ لِمَا سمعتَ من الانضمام، والظاهرُ تساويها فيه.

وأيضاً يلزمُ خروجُ الماء الملاصق للبرِّ عمَّا الأصل فيه من غير داعٍ إليه.

ويحتمل أن يكون الماء الواقعُ حذاءَ كلٍّ من الأول والثاني عَشَرَ من جهة البرِّ مرتفعاً بمعنى ذاهباً، ويكون الفرقان المذكوران متَّصلينِ بالبرِّ باعتبارِ أنهما متَّصلان بالمسلكين الظاهرين من تحت الماء الذاهب المتَّصلينِ بالبرّ.

---

(١) في (م): الانطلاق، وهو تصحيف.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: ومعدوداً.

ويَرِدُ عليه بعضُ ما وَرَدَ على سابقه، وبقاءُ سبطٍ من بني إسرائيل أو سبطين بلا حاجبٍ لهم عن فرعون وجنوده من الماء.

ويحتمل أن يكونا منفصلين عن البرِّ بأن يبقى الماء المتصلُ به على حاله بحراً من غير ارتفاع، وحينئذٍ يحتمل أن تكون المسالك ثلاثةَ عَشَرَ باعتبارِ انكشافِ الأرض بين الفِرْقِ الأول والبحرِ الباقي على حاله المتَّصلِ بالبرِّ، فيكون هذا المسلكُ خارجَ الطود الأول، وانكشافِها بين الفرق الثاني عشر والبحرِ الباقي على حاله المتصل بالبرِّ من الجانب الآخر، فيكون هذا المسلكُ خارجَ الفِرْقِ الثاني عشر.

وعلى هذا الاحتمال يلزمُ تعطُّلُ أحد المسالك، أو التزامُ سلوكِ مَن آمَنَ من القبط فقط فيه.

ويحتمل أن تكون المسالكُ اثني عشر كالفروق، بأنْ يكون الانكشافُ بين الفِرْقِ الأولِ والبحرِ الباقي على حاله المتصلِ بالبرِّ من جهة فرعون وجنوده فقط، أو يكون الانكشافُ بين الفرق الثاني عشر والبحر الباقي على حاله من الجانب الآخر فقط.

وهذا بعيدٌ؛ لعظم هذا القوس المنكشف جدّاً، وطولِ زمان قَطْعِه. فالظاهرُ وقوعُ احتمالِ كون الانكشافِ بين الفِرْقِ الأوَّلِ والبحر الباقي على حاله من جهة فرعون.

وبالجملة احتمالُ انفصالِ الفرقين الأول والأخير، وكون الانكشافِ بين الأولِ والبحرِ مما يلي فرعون دون الأخير والبحرِ مما يلي الجانب الآخر، واتحاد المسالك والفروق في كون كلٍّ اثني عشر = هو الأقربُ للوقوع. اهـ.

ولا يخفى أنه يلزم عليه أن لا يكون جميعُ المسالك في خلال الفروق، فإنْ لم يتعيَّن القولُ بكون جميعها فيه ـ إذ ليس في الآثار أكثرُ من كون المسالك اثني عشر مسلكاً ـ فلا بأس به، وإن استحسنتَ ما تقدَّم عن بعض الأجلَّة في المراد بالفِرْقِ فاعتَبِرْه على تقدير كون الانفلاق قوسيّاً أيضاً.

ثم إنَّ ما ذُكر من كون الخروج من جهة الدخول، لم أره في غير ما يُنسَبُ إلى

«كليات» أبي البقاء، وهو أوفقُ بالقول برجوع موسى عليه السلام وقومِه إلى مصر بعد الخروج من البحر وإغراقِ فرعونَ وجنودِه فيه، وتوقُّفِ ذلك على كون الانفلاق قوسيّاً؛ لأنه لو كان خطِّيّاً يلزم أن يكون الرجوعُ في طريق الدخول، وهو ظاهرُ البطلان؛ لأنَّ الأعداء في أثرهم.

واحتمالُ أن تكون المسالكُ الخطيةُ ثلاثةَ عشر، وأنَّ بني إسرائيل سلكوا اثني عشر منها وأتبعهم فيها فرعونُ وجنودُه، وخرجوا قبل أن يصلوا إليهم، ودخلوا جميعاً في المسلك الثالثِ عَشَرَ من الجانب المخالف لجانب دخولهم متوجِّهين فيه إلى جانب دخولهم، فلم يخرجوا حتى صار جميع أعدائهم في تلك المسالك الاثني عشر التي أتبعوهم فيها، فخرجوا وغَشِيَ أعداءهم من اليمِّ ما غشيهم = لا يخفى ما فيه.

والقولُ بالعود إلى مصرَ مع القول بأنَّ الانفلاق كان خطيّاً يتوقَّفُ على هذا، أو على الانفلاق مرةً أخرى، أو على العبور بالسفن، أو سلوكِ طريقٍ إلى مصر غيرِ الطريق الذي سلكوه خارجينَ منها إلى البحر. والظاهرُ أنه لم يكن شيءٌ من ذلك.

ولا بأس ـ على ما قيل ـ بالقول بكون الانفلاق قوسيّاً سواءٌ قلنا بالرجوع إلى مصر أم لا.

وما يقال عليه من أنه يلزمُ حينئذٍ أن تكون مداخلُ تلك المسالك ومخارجُها في جانب فرعون وجنوده، وذلك ممَّا يوجبُ خوفَ بني إسرائيل من الدخول؛ لاحتمالِ أن يدخل عليهم أعداؤهم من الطرف الآخر الذي هو محلُّ الخروج، فيلاقوهم في الطريق = على طرف الثمام(١) كما لا يَخْفَى على ذوي الأفهام.

وجوَّز على القول بأنَّ الانفلاق كان قوسيّاً أن يكون دخول موسى عليه السلامُ وقومِه من أحد طرفي القوس، ودخولُ فرعون وجنودِه من الطرف الآخر ليلاقوا موسى عليه السلام وقومَه، حتى إذا كمل الجمعان دخولاً رجع موسى عليه السلام

---

(١) الثمام: نبت، ويقال لما لا يعسُرُ تناوله: على طرف الثمام؛ لأن الثمام لا يطول فيشقَّ على المتناول. المستقصى ٢/ ٣٨٧، والقاموس (ثمم).

وقومُه القهقرى، حتى إذا خرجوا جميعاً أغرق الله تعالى فرعونَ وجنودَه، أو حتى إذا كمل جمعُ موسى عليه السلام دخولاً وبانَ لهم أولُ الداخلين لملاقاتهم رجعوا القهقرى، حتى إذا خرجوا جميعاً وقد كمل جمع فرعون دخولاً أهلك الله تعالى عدوَّهم، فغشِيَه من اليمِّ ما غشيه، وهو كما ترى.

والذي ذهب إليه أهلُ الكتاب أنَّ الانفِلاقَ كان خطِّيّاً وأن المسالك اثنا[1] عشر مسلكاً، لكلِّ سبطٍ مسلكٌ، ولا تقبيبَ هناك، وأنه قد فُتحت لهم كوًى ليرى القريبُ قريبَه، ويرى الرجلُ من سبطٍ زوجتَه من سبطٍ آخَرَ، وأنهم خرجوا من الجهة المقابِلة لجهة دخولهم وتوجَّهوا إلى أرض الشام. وليس في كتابنا ما هو نصٌّ في تكذيبه، بل في الأخبار ما يشهدُ بصحة بعضه.

واتحادُ الفروقِ والمسالك في العدد يحتاجُ إلى نقلٍ صحيح يثبته، والآيةُ هنا لا تدلُّ على أكثر من تعدُّدِ الفروق، والله تعالى أعلم.

وحكى يعقوبُ عن بعض القرَّاء أنه قرأ: «كلُّ فِلْقٍ» باللام بدلَ الراء[2]، قال الراغب: الفرْقُ يقارِبُ الفلْقَ، لكنَّ الفلْقَ يقال اعتباراً بالانشقاق، والفرْق يقال اعتباراً بالانفصال. ومنه الفِرقةُ للجماعة المنفردة من الناس[3].

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ عطفٌ على «أوحينا». وقيل: على محذوفٍ يقتضيه السياقُ، والتقدير: فأدخلنا بني إسرائيل فيما انفلق من البحر وأزلفنا ﴿ثَمَّ﴾ أي: هنالك ﴿الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: فرعون وجنودَه، أي: قرَّبناهم من قوم موسى عليه السلام حتى دخلوا على إثرهم مَداخلَهم. وجوِّز أن يراد: قرَّبنا بعضَهم من بعضٍ وجمعناهم لئلَّا ينجوَ منهم أحد.

أخرج ابن عبد الحكم عن مجاهد قال: كان جبريلُ عليه السلام بين الناس، بين بني إسرائيل وبين آلِ فرعون، فجعل يقول لبني إسرائيل: ليلحَقْ آخرُكم بأوَّلكم. ويستقبلُ آلَ فرعون فيقول: رويدكم ليلحقَكم آخركم. فقالت بنو إسرائيل: ما رأينا

---

(١) في (م): اثني، وهو خطأ.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ٢٠.

(٣) مفردات الراغب (فرق).

سائقاً أحسنَ سياقاً من هذا. وقال آل فرعون: ما رأينا وازعاً أحسنَ زعةً من هذا[١].

وقرأ الحسن وأبو حيوة: «وزَلَفْنا» بدون همزة[٢]. وقرأ أبيٌّ وابن عباس وعبد الله بن الحارث: «وأزْلَقْنا» بالقاف عوضَ الفاء[٣]، أي: أزلقنا أقدامهم، والمعنى: أذهبنا عزَّهم كقوله:

تداركتُما عبساً وقد ثُلَّ عرشُها وذبيان إذ زلَّتْ بأقدامها النعلُ[٤]

ويحتملُ أن يجعل الله تعالى طريقهم في البحر على خلافِ ما جعله لبني إسرائيل يَبَساً، فيزلقهم فيه.

هذا، وقال صاحب «اللوامح»: قيل: مَن قرأ[٥] بالقاف أراد بـ «الآخَرين» فرعونَ وقومَه، ومَن قرأ بالفاء أراد بهم موسى عليه السلام وأصحابَه، أي: جمعنا شملَهم وقرَّبناهم بالنجاة.

ولا يخفى أنه يُبْعِدُ إرادةَ موسى عليه السلام وأصحابِه من «الآخَرين» قولُه سبحانه: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥﴾ أي: وأنجيناهم من الهلاك في أيدي أعدائهم، ومن الغَرَقِ في البحر بحِفْظِه على تلك الهيئة إلى أن خرجوا إلى البرِّ.

وقيل: «ومَن معه» للإشارة إلى أنَّ إنجاءهم كان ببركة مصاحبةِ موسى عليه السلام ومتابعتِه.

وقيل: لينتظم مَن آمَن به عليه السلام من القِبْطِ؛ إذ لو قيل: وقومَه، لتَبادَرَ منه بنو إسرائيل، وفيه بحثٌ.

---

(١) فتوح مصر ص٨٥-٨٦.
(٢) البحر ٧/ ٢٠.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٧، والمحتسب ٢/ ١٢٩، والبحر ٧/ ٢٠.
(٤) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص١٠٩ برواية: تداركتما الأحلاف قد ثلّ...، قال الشارح: الأحلاف: عبس وفزارة. وثُلَّ عرشها: هذا مَثَلٌ، أي: أصابها ما كسرها وهدمها.
(٥) كذا ذكر المصنف، والذي في البحر ٧/ ٢٠ يشير إلى أن هذا الكلام هو لصاحب البحر، ففيه: «أزلقنا» بالقاف، أي: أزللنا؛ قاله صاحب «اللوامح». قيل: من قرأ ....

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٦٦﴾ فرعونَ وجنودَه بإطباق البحر عليهم بعد خروج موسى عليه السلام ومَن معه، وكان له وجبةٌ؛ روي عن ابن عباس: أنَّ بني إسرائيلَ لمَّا خرجوا سمعوا وجبةَ البحر، فقالوا: ما هذا؟ فقال موسى عليه السلام: غَرِقَ فرعونُ وأصحابه. فرجعوا ينظرون، فألقاهم البحرُ على الساحل.

والتعبيرُ عن فرعون وجنوده بـ «الآخَرين» للتحقير. والظاهر أنَّ «ثُم» للتراخي الزماني، ولعل الأولى حملُها على التراخي المعنوي لِمَا بين المعطوفين من المباعَدةِ المعنوية.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من القصة، وما فيه من معنى البُعْدِ لتعظيم شأن المشارِ إليه. وقيل: لبُعْدِ المسافة بالنظر إلى مبدأ القصة. ﴿لَآيَةً﴾ أي: لآيةً عظيمةً تُوْجِبُ الإيمانَ بموسى عليه السلام، وتصديقَه بما جاء به. وأريدَ بها ـ على ما قيل ـ انقلابُ العصا ثعباناً، وخروجُ يدِه عليه السلام بيضاءَ للناظرين، وانفلاقُ البحر، وأُفرِدتْ لاتِّحاد المدلول.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧﴾ أي: أكثرُ قوم فرعونَ الذين أُمِرَ موسى عليه السلام أن يأتيهم، وهم القِبْطُ على مااستظهره أبو حيان(١)، حيث لم يؤمن منهم سوى مؤمنِ آلِ فرعون، وآسيةَ امرأةِ فرعون، وبعضِ السحرة على القول بأنَّ بعضَهم من القِبْطِ لا كلِّهم كما عليه أهلُ الكتاب، وهو الذي يقتضيه ظاهرُ كلام بعضٍ منَّا، والعجوزِ التي دلَّت موسى على قبرِ يوسفَ عليهما السلام ليلةَ الخروج من مصر ليحمِلَ عظامه معه.

وقيل: المراد بالآية ما كان في البحر من إنجاء موسى عليه السلام ومَن معه وإغراقِ الآخَرين، وضميرُ «أكثرهم» للناس الموجودين بعد الإغراق والإنجاءِ من قوم فرعونَ الذين لم يخرجوا معه لعذرٍ ومن بني إسرائيل، والمراد بالإيمان المنفيِّ عنهم التصديقُ اليقينيُّ الجازم الذي لا يقبل الزوال أصلاً، أي: وما كان أكثر الناس الموجودين بعد تحقُّق هذه الآية العظيمة وظهورِها مصدِّقين تصديقاً يقينياً جازماً لا يقبلُ الزوال، فإنَّ الباقين في مصر من القِبْطِ لم يؤمن أحدٌ منهم مطلقاً،

---

(١) في البحر ٧/ ٢١.

وأكثرُ بني إسرائيل كانوا غير متيقِّنين، ولذا سألوا بقرةً يعبدونها وعبدوا العجلَ، فلا يقال لهم مؤمنون بالمعنى المذكور، ويكفي في إيمان البعض الذي يدلُّ عليه المفهومُ كونُ البعضِ المؤمنِ من بني إسرائيل، وحيث كان المراد: وما كان أكثرهم بعد تحقُّقِ آيتي الإغراق والإنجاء وظهورِهما مؤمنين، لا يصحُّ جَعْلُ الضمير للقِبْطِ إلا ببيانِ الأقلِّ المؤمنِ والأكثرِ الكافر منهم بعد تحقُّقِ الآيتين، وما ذكر في بيان الأقلِّ المؤمنِ منهم ليس كذلك؛ إذ إيمانُ مَن ذُكِرَ كان في ابتداء الرسالة، على أنَّ العجوز من بني إسرائيل كما جاء في حديثٍ أخرجه الفريابيُّ وعبد بن حميد وابنُ أبي حاتم والحاكمُ وصحَّحه عن أبي موسى مرفوعاً[(١)]، بل أخرج ابن عبد الحكم من طريق الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها شارح ابنة أشير بن يعقوب عليه السلام[(٢)]. فهي بنتُ أخي يوسف عليه السلام، فتكونُ أقربَ من موسى عليه السلام إلى إسرائيل.

وأجيب بأنَّ مَن يُرْجِعُ الضميرَ على القِبْطِ لا يلزمُه أن يفسِّر الآيةَ بالإغراق والإنجاء، بل يقول: المراد بها المعجزاتُ من العصا واليدِ وانفلاقِ البحر، ويقول: إنَّ إيمان الأقلِّ بعد تحقُّقِ بعضها كافٍ لاتِّحاد مدلولها في تحقُّق المفهوم.

وأمَّا إرجاعُ الضمير على الناس الموجودين بعد الإغراق والإنجاءِ من بني إسرائيل وقومِ فرعونَ الذين لم يخرجوا معه فخلافُ الظاهر.

وكذا حَمْلُ الإيمان على ما ذُكر، وجَعْلُ أكثر بني إسرائيل المخصوصين بالإنجاء غيرَ مؤمنين، وإنْ حَصَلَ منهم عند وقوع بعض الآيات ما لا ينبغي صدُوره من المؤمنين فإنهم لم يستمرُّوا عليه؛ فقد أخرج الخطيب في «المتفق والمفترق» عن أبي الدرداء: جَعَلَ النبيُّ ﷺ يصفِّق بيديه ويعجَبُ من بني إسرائيل وتعنُّتِهم، لمَّا

---

(١) المستدرك ٢/ ٤٠٤-٤٠٥ و٥٧١-٥٧٢، وعزاه لعبد بن حميد والفريابي وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ٨٧-٨٨. وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٧٢٥٤)، وابن حبان (٧٢٣). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٧١: رجال أبي يعلى رجال الصحيح. اهـ. وذكره ابن كثير عند تفسير الآيات (٥٢-٥٩) من سورة الشعراء بإسناده عن ابن أبي حاتم وقال: هذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف.

(٢) فتوح مصر ص٨١، وفيه: آشار، بدل: أشير، وذكره عنه السيوطي في الدر ٥/ ٨٨، وفيه: آشي. وجاء في حاشية (م): وذكر بعضهم أن اسم هذه العجوز مريم بنت ياموشا. اهـ منه.

حضروا البحرَ وحضر عدوُّهم جاؤوا موسى عليه السلام فقالوا: قد حَضَرَنا العدوُّ فماذا أمرتَ؟ قال: أن أنزل ها هنا، فإمَّا أنْ يفتحَ لي ربِّي ويهزمَهم، وإمَّا أن يَفْرقَ لي هذا البحرَ. فانطلق نفرٌ منهم حتى وقعوا في البحر، فأوحى الله تعالى إلى موسى: أنِ اضْرِبْ بعصاك البحر، فضَربه فتأطَّط كما يتأطَّطُ العرشُ، ثم ضربه الثانيةَ فمثل ذلك، ثم ضربه الثالثةَ فانصدع، فقالوا: هذا عن غير سلطانِ موسى. فجازُوا البحرَ، فلم يُسمَعْ بقومٍ أعظمَ ذنباً ولا أسرعَ توبةً منهم[1].

ومتى حُمِلَ الإيمانُ على ما ذُكر، وصحَّ نفيُ الإيمان عمَّن صدر منه ما يدلُّ على عدم رسوخه، جاز إرجاع الضمير على بني إسرائيل خاصة، فإنَّ أكثرهم لم يكونوا راسخين فيه. وظاهرُ عبارةِ بعضهم يوهمُ إرجاعَه إليهم، وليس ذاك بشيء.

وقد سلك شيخ الإسلام[2] في تفسير الآية مسلكاً تفرَّد في سلوكه فيما أظنُّ، فقال: «إنَّ في ذلك»، أي: في جميع ما فُصِّل مما صَدَرَ عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة، ومما فعل فرعونُ وقومُه من الأقوال والأفعال، وما فُعِلَ بهم من العذاب والنكال، «لآيةً» أي: آيَةَ آيةٍ، أو آيةً[3] عظيمة لا تكاد توصفُ، مُوجِبةً لأنْ يَعْتبِرَ بها المعتبرون، ويقيسوا شأنَ النبيِّ ﷺ بشأن موسى عليه السلام، وحالَ أنفسِهم بحال أولئك المهلَكين، ويجتنبوا تعاطيَ ما كانوا يتعاطَوْنه من الكفر والمعاصي ومخالفةِ الرسولِ، ويؤمنوا بالله تعالى، ويطيعوا رسولَه ﷺ؛ كيلا يحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك.

أو: إنَّ فيما فصِّل من[4] القصة من حيث حكايتُه عليه السلام إياها على ما هي عليه من غير أن يسمعها من أحدٍ، «لآيةً» عظيمةً دالَّةً على أنَّ ذلك بطريق الوحي الصادقِ، موجبةً للإيمان بالله تعالى وحدَه وطاعةِ رسوله ﷺ، «وما كان أكثرهم»

---

(١) المتفق والمفترق ٢/ ١٢٦٤-١٢٦٥، وسلف بعضه ص٨٦ من هذا الجزء. وذكره عن الخطيب السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٨٦، وفيه: الفرش، بدل: العرش. وجاء في مطبوع المتفق والمفترق: ويقينهم، بدل: وتعنتهم. و: وقفوا، بدل: وقعوا.

(٢) في تفسيره ٦/ ٢٤٦.

(٣) في الأصل و(م): وآية، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٤) في (م): في، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

أي: أكثرُ هؤلاء الذين سمعوا قصَّتهم منه عليه الصلاة والسلام «مؤمنين» لا بأنْ يقيسوا شأنه ﷺ بشأن موسى عليه السلام، وحالَ أنفسهم بحالِ أولئك المكذِّبين المهلَكينَ، ولا بأنْ يتدبَّروا في حكايته عليه الصلاة والسلام لقصَّتهم من غير أن يسمعها من أحد، مع كون كلٍّ من الطريقين ممَّا يؤدِّي إلى الإيمان قطعاً.

ومعنى «ما كان أكثرهم مؤمنين»: ما أكثرهم مؤمنين، على أنَّ «كان» زائدةٌ كما هو رأي سيبويه[1]، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وهو إخبارٌ منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد سماع الآيات الناطقة بالقصة تقريراً لِمَا مرَّ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ * فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾ إلخ [الشعراء: ٥-٦]. وإيثارُ الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الإيمان، واستمرارِهم عليه.

ويجوز أن تُجعل «كان» بمعنى «صار» كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤] فالمعنى: وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمةِ الموجبة للإيمان بما ذُكر من الطريقين، فيكون الإخبارُ بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحقُّقه وتَقَرُّرِه، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل:١].

وادَّعى أن هذا التفسيرَ هو الذي تقتضيه جزالةُ النظم الكريم من مطلع السورة الكريمة إلى آخرِ القصص السبع، بل إلى آخر السورة الكريمة اقتضاءً بيِّناً.

ثم قال: وأمَّا ما قيل من أنَّ ضمير «أكثرهم» لأهل عَصْرِ فرعون من القِبْطِ وغيرهم، وأنَّ المعنى: وما كان أكثرُ أهلِ مصرَ مؤمنين حيث لم يؤمن منهم إلَّا آسيةُ ومؤمنُ آلِ فرعون والعجوزُ التي دلَّت على قبر يوسفَ عليه السلام، وبنو إسرائيل بعد ما نَجَوا سألوا بقرةً يعبدونها، واتَّخذوا العجل، وقالوا: «لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً» = فبمعزلٍ عن التحقيق، كيف لا ومساقُ كلِّ قصةٍ من القصص الواردة في السورة الكريمة سوى قصةِ إبراهيم عليه السلام إنما هو لبيان حالِ طائفةٍ معيَّنةٍ قد عَتَوا عن أمر ربِّهم وعَصَوا رسلَه، كما يُفصِحُ عنه تصديرُ القصص بتكذيبهم

---

(١) في الكتاب ١/ ٧٣.

المرسَلين بعد ما شاهدوا[١] بأيديهم من الآيات العظام ما يوجبُ عليهم الإيمان، ويزجرُهم عن الكفر والعصيان، وأصرُّوا على ما هم عليه من التكذيب، فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية، وقطع دابرهم بالكلِّية، فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم، لا سيما بعد الإخبار بهلاكهم؟ وعدُّ المؤمنين من جملتهم أوَّلاً، وإخراجُهم منها آخِراً، مع عدم مشاركتهم لهم في شيء مما حكي عنهم من الجنايات أصلاً، مما يجب تنزيهُ التنزيل عن أمثاله.

ورجوعُ ضمير «أكثرهم» في قصة إبراهيم عليه السلام إلى قومه مما لا سبيلَ إليه أيضاً أصلاً؛ لظهورِ أنهم ما ازدادوا بما سمعوه منه إلا طغياناً وكفراً، حتى اجترؤوا على تلك العظيمة التي فعلوها به، فكيف يعبَّر عنهم بعدم إيمان أكثرهم وإنما آمَنَ له لوطٌ فنجَّاهما الله تعالى إلى الشام، فتدبَّر[٢]. اهـ.

وتعقِّب بأنَّ فيه[٣] محذوراً من عدَّة أوجهٍ:

أمَّا أوَّلاً: فلِأنَّ حَمْلَ «كان» على الصلة مع ظهورِ الوجه الصحيح غيرُ صحيح. وقد لزم هنا بعد هذا حَمْلُ الجملة الاسمية باعتبارِ الاستمرار على أنهم لا يكونون بعد نزول هذه الآية مؤمنين. وإن جُعِلَ بمعنى «صار» يلزمُ جَعْلَه مضارعاً، لكن عدل عنه للدلالة على كمال التحقُّق. وهذا أيضاً ـ مع إمكان المعنى العاري عن الاحتياج لذلك ـ غيرُ مناسب.

وأمَّا ثانياً: فلأنَّ إرجاع ضمير «أكثرهم» إلى قوم نبيِّنا ﷺ صَرْفٌ عن مرجعه المتقدِّم المذكورِ لفظاً سيَّما في القصص الآتية المصدَّرةِ بـ «كذَّبتْ».

وأمَّا ثالثاً: فلأنَّ قوله: لا بأن يقيسوا شأنه عليه الصلاة والسلام بشأن موسى عليه السلام.. إلخ. لا يخلو عن صعوبةٍ؛ إذ الأمرُ المشترك بينهما عليهما الصلاة والسلام ليس إلَّا أنَّ كلاًّ منهما نبيٌّ مؤيَّدٌ بالمعجزات مطلقاً، وأمَّا إنْ نُظِرَ إلى خصوصيات المعجزات فلا يخفى أنه لا مشاركةَ بينهما. وكذا قياسُ حالهم على حال فرعون وقومِه لا يخلو عنها على هذا القياس.

---

(١) بعدها في الأصل و(م): ما، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/٢٥٣-٢٥٤.

(٣) في (م): فيها.

وأما رابعاً: فلأنَّ قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً) إلخ قد ذكر على هذا النسق في سبعة مواضع، ولا بد من تنسيق تفسيره على نظام واحد فيها مهما أمكن. ومن جملة ذلك ما في قصة نبيِّ الله تعالى لوطٍ عليه السلام وقد ذُكر فيها من حالِ قومه فِعْلُهم الشنيعُ المعهود ثم إهلاكُ جميعهم. وما في قصة نبيِّ الله تعالى شعيبٍ عليه السلام وقد ذكر فيها من حال أصحاب الأيكة عملُهم المتعلِّقُ بالكيل والوزن ثم إهلاكُ جميعهم، من غير تصريحٍ بحيثيةِ كُفْرِ كلِّ قومٍ، فلا يناسب فيهما أن يقال: إنَّ في ذلك لآيةً موجبةً لإيمان قريش بأن يقيسوا حالَ أنفسهم بحال أولئك المهلكين، ويجتنبوا تعاطيَ ما كانوا يتعاطون من المعاصي.

هذا على الطريق الأول. وأما الطريقُ الثاني ففيه أيضاً عدَّةُ محذورات:

أما أوّلاً وثانياً فلِمَا ذُكر أوّلاً وثانياً.

وأما ثالثاً: فلأنَّ كلّاً من كلتا القصتين ذُكر هنا على وجه الإجمال، وذُكر مفصَّلاً في سورةٍ أخرى، وكلٌّ منهما ذِكْرٌ مُحْدَثٌ بحسب نزوله، فلا وجاهةَ في أنْ يقال: وما أكثرهم مؤمنين بك بأنْ يتدبَّروا في حكايتك لقصتهم من غير أن تسمعها من أحدٍ، بناءً على أنهم قد سمعوها منه عليه الصلاة والسلام مفصَّلةً قبل نزول هذه الآية، مع أنَّ كون حكايته ﷺ ذلك من غير أن يسمعه من أحدٍ مما يؤدِّي إلى إيمانهم قطعاً محلُّ تردُّدٍ.

وأمَّا رابعاً: فلأنَّ آخِرَ هذه القصة قولُه تعالى: (وَأَنجَيْنَا) (ثُمَّ أَغْرَقْنَا) وكذا آخرُ قصةِ لوطٍ عليه السلام قولُه تعالى: (فَنَجَّيْنَٰهُ) (ثُمَّ دَمَّرْنَا) (وَأَمْطَرْنَا) فالمتبادرُ أن تكون الإشارةُ إلى نفس المحكيِّ المشتملِ على الأفعال العجيبة الإلهية لا إلى حكايتها.

وأما ما قاله في تزييف ما قيل فليس بشيءٍ أيضاً؛ لأنَّ نسبة التكذيب إلى كلِّ قومٍ من الأقوام الذين نسب إليهم إنما هي باعتبارِ الأكثر، كما يرشد إليه قولُه تعالى في قصة قوم نوح عليه السلام حكايةً عنهم بعد أن قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. وقولُه عز وَّجلَّ بعد ذلك حكايةً عن نوح عليه السلام ما قال في جوابهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤] فيكون ضمير «أكثرهم» راجعاً إلى القوم غير ملاحظٍ فيهم ذلك.

ومثله كثيرٌ في الكلام، ويرادُ بالأكثر في المواضع السبعة جمعٌ موصوفون بزيادة الكثرة، سواءٌ كان البعض المؤمنُ واحداً أو أكثر، فلا يَرِدُ أنه كيف يعبر عن قوم إبراهيم عليه السلام بعدم إيمان أكثرهم وإنما آمن له لوط عليه السلام، فتأمل. انتهى.

ولا يخفَى ما فيه من الغثِّ والسمين.

وأنا أختار كما اختار شيخُ الإسلام رجوعَ الضمير إلى قوم نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وأولُ السورة الكريمة وآخِرُها في الحديث عنهم، وتسليتِه ﷺ عما قالوه في شأن كتابه الأكرم، ونَهْيِه صريحاً وإشارةً عن أن يذهب بنفسه الشريفة عليهم حسرات، وكلُّ ذلك يقتضي اقتضاءً لا ريبَ فيه رجوعَ الضمير إلى قومه عليه الصلاة والسلام، ويهوِّن أمرَ عدمِ رجوعه إلى الأقرب لفظاً، ويكون الارتباط على هذا بينَ الآيات أقوى.

وأختار أنَّ الإشارة إلى ما تضمَّنَتْه القصةُ، وأنَّ المعنى: إنَّ فيما تضمَّنَتْه هذه القصةُ لآيةً عظيمةً دالَّةً على ما يجب على قومك الإيمانُ به من شؤونه عزَّ وجلَّ، وما كان أكثرُهم مؤمنين بذلك.

وكذا يقال في جميع ما يأتي إن شاء الله تعالى، وكلُّ ذلك على نمطِ ما تقدَّم. وكذا الكلامُ في «كان» وما يتعلَّق بالجملة، والكلامُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ كالكلام فيما تقدَّم أيضاً، ولعل تخريج ما ذُكر على هذا الوجه أحسنُ من تخريج شيخ الإسلام، فتأمَّل، واللهُ تعالى أعلم بحقائق ما أنزله من الكلام.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ عطفٌ على المضمَرِ العامل في «إذ نادى» إلخ، أي: اذكُر ذلك لقومك واتْلُ عليهم ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: خبرَه العظيمَ الشأنِ حَسْبَما أُوحِيَ إليك؛ ليتأكَّد عندك ـ لعَدَمِ تأثُّرهم بما فيه ـ العلمُ بشدَّةِ عنادِهم.

وتغييرُ الأسلوب لمزيد الاعتناء بأمر هذه القصة؛ لأنَّ عدم الإيمان بعد وقوفهم على ما تضمَّنته أقوى دليلٍ على شدة شكيمتهم؛ لِمَا أنَّ إبراهيم عليه السلام جدُّهم الذي يفتخرون بالانتساب إليه والتأسِّي به عليه السلام.

﴿إِذْ قَالَ﴾ منصوبٌ على الظرفية لـ «نبأ» على ما ذهب إليه أبو البقاء[1]، أي: نبأه وقتَ قوله ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾. أو على المفعولية لـ «اتل» على أنه بدلٌ من «نبأ» على ما يقتضيه كلام الحوفيّ[2]، أي: اُتل عليهم وقتَ قوله لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ على أنَّ المتلوَّ ما قاله عليه السلام لهم في ذلك الوقت.

وضمير «قومه» عائدٌ على إبراهيم. وقيل: عائدٌ على أبيه ليوافق قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٧٤]. ويلزمُ عليه التفكيك.

وسألهم عليه السلام عمَّا يعبدون ليبنيَ على جوابهم أنَّ ما يعبدونه بمعزلٍ عن استحقاق العبادة بالكلِّيةِ، لا للاستعلام؛ إذ ذلك معلومٌ مشاهَدٌ له عليه السلام.

﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأنْ يقولوا: أصناماً، كما في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ [النحل:٣٠] ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة:٢١٩] إلى غير ذلك، بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل وعَطْفِ دوام عكوفهم على أصنامهم مع أنه لم يَسأل عنه؛ قصداً إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثةِ من الابتهاج والافتخارِ بذلك. وهو على ما في «الكشف» من الأسلوب الأحمق.

والمرادُ بالظلول الدوامُ، كما في قولهم: لو ظلَّ الظلمُ هلك الناس. وتكون «ظلَّ» على هذا تامةً. وقد قال بمجيئها كذلك ابنُ مالك[3]، وأنكره بعضُ النحاة.

وقيل: فِعْلُ الشيءِ نهاراً، فقد كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، فتكون «ظلَّ» على هذا ناقصةً دالَّةً على ثبوت خبرها لاسمها في النهار.

واختار بعضُ الأجلَّةِ الأولَ لتبادُرِ الدوام، وكونِه أبلغَ مناسباً لمقام الابتهاج والافتخار، واختار الزمخشريُّ[4] الثاني لأنه أصلُ المعنى، وهو مناسبٌ للمقام أيضاً؛ لأنه يدلُّ على إعلانهم الفعلَ لافتخارهم به.

و«عاكفين» على الأول حالٌ، وعلى الثاني خبرٌ، والجارُّ متعلِّقٌ به. وإيرادُ اللام

---

(١) في الإملاء ٤/١١٣.
(٢) كما في البحر ٧/٢٢.
(٣) في التسهيل ص٥٣.
(٤) في الكشاف ٣/١١٦، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/١٦.

دون «على» لإفادةِ معنًى زائدٍ، كأنهم قالوا: نظلُّ لأَجْلِها مُقْبِلين على عبادتها، أو مستديرين حولها. وهذا أيضاً ـ على ما قيل ـ من جملةِ إطنابهم.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من تفصيل جوابهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ دَخَلَ فِعْلُ السماع على غيرِ مسموعٍ. ومذهبُ الفارسيِّ[1] أنه حينئذٍ يتعدَّى إلى اثنين، ولا بدَّ أن يكون الثاني مما يدلُّ على صوتٍ، فالكافُ هنا عنده مفعولٌ أولُ، والمفعولُ الثاني محذوفٌ، والتقدير: هل يسمعونكم تدعون، وحُذِفَ لدلالة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ عليه.

ومذهبُ غيره أنه حينئذٍ متعدٍّ إلى واحد، وإذا وقعت بعده جملةٌ ملفوظةٌ أو مقدَّرةٌ فهي في موضع الحال منه إن كان معرفةً، وفي موضع الصفة له إن كان نكرةً. وجوِّز فيها البدليةُ أيضاً.

وإذا دخل على مسموعٍ تعدَّى إلى واحدٍ اتفاقاً، ويجوز أن يكون ما هنا داخلاً على ذلك على أنَّ التقدير: هل يسمعون دعاءكم، فحُذِفَ المضافُ لدلالة «إذ تدعون» أيضاً عليه.

وقيل: السماع هنا بمعنى الإجابة، كما في قوله ﷺ: «اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من دعاءٍ لا يُسْمَع»[2]، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨]، أي: هل يجيبونكم، وحينئذٍ لا نزاعَ في أنه متعدٍّ لواحدٍ ولا يحتاج إلى تقديرِ مضافٍ.

والأَوْلَى إبقاؤه على ظاهرِ معناه فإنه أنسبُ بالمقام. نعم ربما يقال: إنَّ ما قيل أوفقُ بقراءةِ قتادة ويحيى بن يعمر: «يُسْمِعونكم» بضم الياء وكَسْرِ الميم من أَسْمَعَ[3]، والمفعولُ الثاني محذوفٌ تقديره: الجوابَ.

---

(١) كما في البحر ٧/ ٢٣.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٦٥٥٧)، والترمذي(٣٤٨٢)، والنسائي ٨/ ٢٥٤-٢٥٥ عن عبد الله بن عمرو. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
وأخرجه أحمد (٨٤٨٨)، وأبو داود (١٥٤٨)، والنسائي ٨/ ٢٦٣، وابن ماجه (٣٨٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٧، والمحتسب ٢/ ١٢٩، والبحر ٧/ ٢٣.

و«إذ» ظرفٌ لِمَا مضى، وجيء بالمضارع لاستحضارِ الحالِ الماضية وحكايتها. وأمَّا كونُ «هل» تخلِّصُ المضارعَ للاستقبال فلا يضرُّ هنا؛ لأنَّ المعتبرَ زمانُ الحُكْمِ لا زمانُ التكلُّم، وهو هنا كذلك لأنَّ السماع بعد الدعاء.

وقال أبو حيان: لا بدَّ من التجوُّز في «إذ» بأن تُجعلَ بمعنى «إذا»، أو التجوُّز في المضارع بأنْ يُجعلَ بمعنى الماضي[1]. واعتبارُ الاستحضارِ أبلغُ في التبكيت.

وقرئ بإدغام ذال «إذ» في تاء «تدعون» وذلك بقَلْبِها تاءً وإدغامها في التاء[2].

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ بسبب عبادتكم لهم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣﴾ أي: يضرُّونكم بتَرْكِكُم لعبادتهم؛ إذ لا بدَّ للعبادة - لا سيما عند كونها على ما وصفتُم من المبالغة فيها - من جَلْبِ نَفْعٍ أو دفع ضرٍّ. وتُرِكَ المفعولُ للفاصلة، ويدلُّ عليه ما قبله. وقيل: المراد: أو يضرُّون مَن أعرضَ عن عبادتهم كائناً مَن كان، وهو خلافُ الظاهر الذي يقتضيه العطفُ.

﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾ أَضْرَبوا عن أن يكون لهم سمعٌ أو نفعٌ أو ضرٌّ اعترافاً بما لا سبيل لهم إلى إنكاره، واضطرُّوا إلى إظهار أنْ لا سَنَدَ لهم سوى التقليدِ، فكأنهم قالوا: لا يسمعون، ولا ينفعوننا ولا يضرُّون، وإنما وجدْنا آباءنا يفعلون مثلَ فِعْلِنا، ويعبدونهم مثلَ عبادتنا، فاقتدينا بهم. وتقديمُ المفعول المطلقِ للفاصلة.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥﴾ أي: أَنَظرتُم فأَبْصرتُم، أو: أتأمَّلتم[3] فعلمتُم أيَّ شيءٍ استدمتُم على عبادته، أو: أيَّ شيءٍ تعبدونه ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦﴾ والكلامُ إنكارٌ وتوبيخٌ يتضمَّن بطلانَ آلهتهم وعبادتِها، وأنَّ عبادتها ضلالٌ قديمٌ لا فائدةَ في قِدَمِه إلا ظهورُ بطلانِه، كما يؤذِنُ بهذا وصفُ آبائهم بالأقدمين. وقولُه

---

(١) البحر ٧/ ٢٣، وقال أبو حيان أيضاً: وقد ذكر أصحابنا أن من قرائن صرف المضارع إلى الماضي إضافة «إذ» إلى جملة مصدَّرة بالمضارع، ومثَّلوا بقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي: وإذ قلت.

(٢) وهي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي وهشام وخلف. التيسير ص٤١-٤٢، والنشر ٢/ ٢-٣.

(٣) في (م): تأملتم.

تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ قيل: تعليلٌ لِمَا يُفهم من ذلك من أني لا أعبدهم، أو لا تصحُّ عبادتهم. وقيل: خبرٌ لـ «ما كنتم» إذ المعنى: أفأخبِرُكم وأُعْلِمُكم بمضمون هذا.

واختار بعض الأجلَّةِ أنه بيانٌ وتفسيرٌ لحالِ ما يعبدونه، التي لو أحاطوا بها علماً لَمَا عبدوه، أي: فاعلموا أنهم أعداءٌ لعابِدِيهم الذين يحبُّونهم كحبِّ الله تعالى؛ لما أنهم يتضرَّرون من جهتهم تضرُّرَ الرجل من جهة عدوِّه، فإطلاقُ العدوِّ عليهم من باب التشبيه البليغ.

وجوَّز أن يكون من باب المجازِ العقليِّ بإطلاق وَصْفِ السَّبب على المسبَّب من حيث إن المُغْرِيَ والحاملَ على عبادتهم هو الشيطانُ الذي هو عدوٌّ مبينٌ للإنسان. والأول أظهر.

والداعي للتأويل أنَّ الأصنام لكونها جماداتٍ لا تصلحُ للعداوة. وما قيل: إنَّ الكلامَ على القلب، والأصل: فإني عدوٌّ لهم، ليس بشيء. وقال النسفي: العدوُّ اسمٌ للمُعادي والمُعادَى جميعاً[1]، فلا يحتاجُ إلى تأويل ويكون كقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وصوَّر الأمر في نفسه تعريضاً لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢] ليكون أبلغَ في النصح، وأدْعَى للقبول.

ومن هنا استعمل الأكابرُ التعريضَ في النصح، ومنه ما يُحكَى عن الشافعيِّ رضي الله عنه أنَّ رجلاً واجهه بشيءٍ، فقال: لو كنتُ بحيث أنتَ لاحتجتُ إلى أدب. وسمع رجلٌ ناساً يتحدَّثون في الحِجْرِ فقال: ما هو بيتي ولا بيتُكم[2].

وضميرُ «إنهم» عائدٌ على «ما» وجُمع مراعاةً لمعناها، وإفرادُ العدوِّ مع أنه خبرٌ عن الجمع إمَّا لأنه مصدرٌ في الأصل، فيطلقُ على الواحد المذكَّر وغيرِه، أو لاتِّحاد الكلِّ في معنى العداوة، أو لأن الكلام بتقديرِ: فإنَّ كلاًّ منهم، أو لأنه بمعنى النسب، أي: ذو كذا، فيستوي فيه الواحدُ وغيره[3]، كما قيل.

---

(١) لم نقف عليه في تفسير النسفي.

(٢) ذكرهما الزمخشري في الكشاف ٣/ ١١٦.

(٣) كما في قولك: هم ذو عداوة. حاشية الشهاب ٧/ ١٧.

وقوله سبحانه ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ استثناءٌ منقطعٌ من ضمير «إنهم» عند جماعةٍ منهم الفرَّاء[(١)]، واختاره الزمخشريُّ[(٢)]، أي: لكن ربُّ العالمين ليس كذلك؛ فإنه جلَّ وعلا وليُّ مَن عَبَدَه في الدنيا والآخرة، لا يزال يتفضَّلُ عليه بالمنافع.

وقال الزجَّاج: هو استثناءٌ متَّصلٌ من ذلك الضمير العائدِ على «ما تعبدون»، ويُعتبر شمولُه لله عزَّ وجلَّ، وفي آبائهم الأقدمين مَن عَبَدَ الله جلَّ وعلا من غير شكٍّ. أو يقال: إنَّ المخاطبين كانوا مشركين وهم يعبدون الله تعالى والأصنام[(٣)]. وتخصيصُ الأصنام هنا بالذكر للردِّ، لا لأنَّ عبادتهم مقصورةٌ عليها، ولو سلِّم أنه لذلك فهو باعتبارِ دوام العكوف، وذلك لا ينافي عبادتَهم إياه عزَّ وجلَّ أحياناً.

وقال الجرجانيُّ[(٤)]: إنَّ الاستثناء من «ما كنتم تعبدون»، و«إلا» بمعنى «دون» و«سوى»، وفي الآية تقديمٌ وتأخيرٌ، والأصل: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلَّا ربَّ العالمين - أي: دون ربِّ العالمين - فإنَّهم عدوٌّ لي. ولا يَخْفَى ما فيه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ صفةٌ لـ «رب العالمين»، ووَصَفَه تعالى بذلك وبما عُطِفَ عليه مع اندراجِ الكلِّ تحت ربوبيته تعالى للعالمين زيادةٌ في الإيضاح في مقام الإرشاد.

وقيل: تصريحاً بالنعم الخاصَّةِ به عليه السلام وتفصيلاً لها؛ لكونها أَدْخَلَ في اقتضاءِ تخصيصِ العبادة به تعالى، وقَصْرِ الالتجاء في جَلْبِ المنافع الدينية والدنيوية ودَفْعِ المضارِّ العاجلة والآجلة عليه تعالى.

﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ عطفٌ على الصلة، أي: فهو يهديني وحده جلَّ شأنُه إلى كلِّ ما يهمُّني ويُصْلِحُني من أمور المعاش والمعادِ هدايةً متصلةً بحين الخَلْقِ ونَفْخِ الروح، متجدِّدةً على الاستمرار كما ينبئ عنه الفاء وصيغةُ المضارع. فإنه تعالى يهدي كلَّ ما خَلَقَه لِمَا خُلِقَ له هدايةً متدرِّجةً من مبتدأ إيجاده إلى منتهى أجَلِه،

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢٨١، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٢٤.

(٢) في الكشاف ٣/ ١١٧.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٣ بذكر الوجه الثاني فقط، وهو كون المخاطبين كانوا يعبدون الله تعالى والأصنام.

(٤) كما في تفسير القرطبي ١٦/ ٣٨، والبحر ٧/ ٢٤، والدر المصون ٨/ ٥٣٠.

يتمكَّن بها من جَلْبِ منافعه ودَفْعِ مَضارِّه إمَّا طبعاً وإمَّا اختياراً، مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هدايةُ الجنين لامتصاص دم الطمث في المشهور، ومنتهاها الهدايةُ إلى طريق الجنة والتنعُّمِ بنعيمها المقيم.

وجوَّز الحوفيُّ وغيرُه كونَ الموصول مبتدأً، وجملة «هو يهديني» خبره، ودخلت الفاء في خبره لتَضمُّنه معنى الشرط، نحو: الذي يأتيني فله درهمٌ.

وتعقَّبه أبو حيان: بأنَّ الفاء إنما يؤتى بها في خبر الموصول لتضمُّنه معنى الشرط إذا كان عامًّا، وهنا لا يُتخيَّل فيه العموم، فليس ما نحن فيه نظيرَ المثال. وأيضاً الفعلُ الذي هو «خلق» ممَّا لا يمكنُ فيه تجدُّدٌ بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام، فلعل ذلك على مذهب الأخفش من جواز زيادة الفاء في الخبر مطلقاً، نحو: زيدٌ فاضْرِبْه[1].

وأجيب بأن اشتراط العموم غير مسلَّم ـ كما فصَّله الرضيُّ ـ وإنما هو أغلبيٌّ. وبأنَّ مطلق الخلق مما يمكن فيه التجدُّدُ، وهو ممكنُ الإرادة وإن ظهر في صورة المخصوص. وتَسبُّبُ الخَلْقِ للهداية بمقتضى الحكمة[2]، وقيل: إنه سببٌ للإخبار بها لتحقُّقِها، وليس بشيء.

ويلزمُ على الإعراب المذكور أن يكون الموصولُ في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾ مبتدأً محذوفَ الخبر لدلالة ما قبله عليه، وكذا اللَّذانِ بعده. ولا يخفى ما في ذلك لفظاً ومعنًى، فاللائقُ بجزالةِ التنزيل الإعرابُ الأول، وعليه يكون الموصول عطفاً على الموصول الأول. وإنما كرَّر الموصول في المواضع الثلاثة، مع كفاية عَطْفِ ما في حيِّز الصلة من الجمل الستِّ على صلة الموصول الأول؛ للإيذان بأنَّ كلَّ واحدةٍ من تلك الصلات نعتٌ جليلٌ له تعالى، مستقلٌّ في استيجاب الحُكْمِ؛ حقيقٌ بأنْ تجريَ عليه عزَّ وجلَّ بحيالها ولا تُجعلَ من روادف غيرها.

---

(١) بنحوه في البحر ٧/ ٢٤.

(٢) يشير المصنف بهذا إلى أن الفاء في «فهو يهدين» للسببية على القول بأن الموصول مبتدأ دخلت الفاء في خبره لتضمنه معنى الشرط. حاشية الشهاب ٧/ ١٨.

والظاهرُ أنَّ المراد إطعامُ الطعام المعروف، وسَقْيُ الشراب المعهود، وجيءَ بـ «هو» هنا دون الخلق؛ لشيوع إسناد الإطعام والسَّقْي إلى غيره عزَّ وجلَّ بخلافِ الخَلْقِ. وعلى هذا القياسُ فيما جيء فيه بـ «هو» وما تُرِكَ مما يأتي إنْ شاء الله تعالى.

وعن أبي بكر الورَّاقِ أنَّ المعنى: يطعمني بلا طعامٍ، ويسقيني بلا شرابٍ، كما جاء: «إني أَبِيتُ يطعمني ربِّي ويسقين»(١) وهو مشربٌ صوفيٌّ.

وأتي بهذين الصفتين بعد ما تقدَّم لِمَا أنَّ دوام الحياة وبقاءَ نظام خَلْقِ الإنسان بالغذاء والشراب ما سَلَكَ فيهما مَسْلَكَ العدل، وهو أشدُّ احتياجاً إليهما منه إلى غيرهما، ألا ترى أنَّ أهل النار وهم في النار لم يشغلهم ما هم فيه من العذاب عن طلبهما فقالوا: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠].

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ عطفٌ على «يطعمني ويسقين» نُظم معهما في سلك الصلة لموصولٍ واحد؛ لِمَا أنَّ الصحة والمرضَ من متفرِّعات الأكل والشرب غالباً:

فإنَّ الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب(٢)

وقالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ما سببُ آجالكم؟ لقالوا: التُّخَمُ.

ونسبةُ المرض الذي هو نقمةٌ إلى نفسه، والشفاء الذي هو نعمةٌ إلى الله جلَّ شأنُه؛ لمراعاة حُسْنِ الأدب كما قال الخضر عليه السلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

ولا يَرِدُ إسنادُه الإماتةَ ـ وهي أشدُّ من المرض ـ إليه عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ لإمكان الفَرْقِ بأنَّ الموت قد عُلِمَ واشتَهَر أنه قضاءٌ محتومٌ من الله عزَّ وجلَّ على سائر البشر، وحكمٌ عامٌّ لا يُخَصُّ، ولا كذلك المرضُ، فكم من معافىً منه إلى أنْ يَبْغتَه الموتُ. فالتأسِّي بعموم الموت يُسْقِطُ أثَرَ كونِه نقمةً، فيَسُوغُ [في] الأدب نسبتُه إليه، وأمَّا المرضُ فلمَّا كان يُخَصُّ به بعضُ البشر دون

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه ١/ ٢٣١، وفيه: يحول، بدل: يكون.

بعضٍ كان نقمةً محقَّقةً، فاقتضى العلوُّ في الأدب أن ينسبه الإنسانُ إلى نفسه باعتبار السبب الذي لا يخلو منه. ويؤيِّد ذلك أنَّ كلَّ ما ذُكر مع غير المرض أخبر عن وقوعه بتّاً وجزماً؛ لأنه أمرٌ لا بدَّ منه، وأمَّا المرضُ فلمَّا كان قد يتَّفق وقد لا، أورده مقروناً بشَرْطِ «إذا»، فقال: «وإذا مرضتُ»، وكان يمكنه أن يقول: والذي أمْرضُ[1] فيشفيني، كما قال في غيره، فما عدل عن المطابقة والمجانسة المأثورة إلا لذلك، كذا قاله ابن المنير[2].

وقال الزمخشريُّ: إنما قال: «مرضتُ» دونَ: أَمْرَضَني؛ لأنَّ كثيراً من أسباب المرض يَحْدثُ بتفريطٍ من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغيرِ ذلك[3].

وكأنه إنما عَدَلَ في التعليل عن حُسْنِ الأدب لمَّا رأى أنه عليه السلام أضاف الإماتة إليه عزَّ وجلَّ، وهي أشدُّ من المرض، ولم يخطُر له الفرقُ بما مرَّ أو نحوِه، وغفل عن أنَّ المعنى الذي أبداه في المرض ينكسِرُ بالموت أيضاً، فإنَّ المرض كما يكون بسببِ تفريط الإنسان في المطعم وغيره، كذلك الموتُ الناشئ عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان، وقد أضاف عليه السلام الإماتةَ مطلقاً إليه عزَّ شأنهُ[4].

وقال بعضُ الأجلَّة[5] بعد التعليل بحُسْنِ الأدب في وجهِ إسناد الإماتة إليه تعالى: إنها حيث كانت [من] معظم خصائصه عزَّ وجلَّ كالإحياء بدءاً وإعادةً، وقد نيطتْ أمورُ الآخرةِ جميعاً بها وبما بعدها من البعث، نَظَمهما في سمطٍ واحدٍ في قوله: «والذي يُميتني ثم يُحْيِين»، على أنَّ الموت لكونه ذريعةً إلى نَيْلِه عليه السلام للحياة الأبدية بمعزلٍ من أن يكون غيرَ مطبوعٍ عنده عليه السلام. انتهى.

وأَوْلَى من هذه العلاوةِ ما قيل: إنَّ الموت لأهل الكمال وصلةٌ إلى نيل المَحَابِّ الأبدية، التي تُسْتَحْقَرُ دونها الحياة الدنيوية، وفيه تخليصُ العاصي من اكتساب المعاصي.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والذي في الانتصاف ١١٧/٣ (والكلام منه): والذي يُمرضني.
(٢) في الانتصاف ١١٧/٣، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٣) الكشاف ٣/ ١١٧.
(٤) الانتصاف ٣/ ١١٧.
(٥) هو أبو السعود في تفسيره ٦/ ٩٧، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

ثم إنَّ حَمْلَ المرض والشفاء على ما هو الظاهرُ منهما هو الذي ذهب إليه المفسِّرون. وعن جعفر الصادقِ ﷺ أنَّ المعنى: وإذا مرضتُ بالذنوب فهو يشفيني بالتوبة. ولعله لا يصحُّ، وإن صحَّ فهو من باب الإشارة لا العبارة.

و«ثم» في قوله: «ثم يحيين» للتراخي الزمانيِّ؛ لأنَّ المراد بالإحياء: الإحياءُ للبعث، وهو متراخٍ عن الإماتة في الزمان في نفس الأمر، وإنْ كان كلُّ آتٍ قريبٌ.

وأثبتَ ابنُ أبي إسحاق ياء المتكلِّم في «يهديني» وما بعده، وهي روايةٌ عن نافع[1].

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ استَعْظَم عليه السلام ما عسى يَنْدُرُ منه من فِعْلِ خلافِ الأَوْلَى حتى سمَّاه خطيئة.

وقيل: أراد بها قولَه: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩]، وقولَه ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]، وقولَه لسارة: هي أختي[2]. ويدلُّ على أنه عليه السلام عدَّها من الخطايا ما ورد في حديث الشفاعة من امتناعه عليه السلام من أن يَشْفَعَ حياءً من الله عزَّ وجلَّ لصدور ذلك عنه[3].

وفيه أنه وإنْ صحَّ عدُّها من الخطايا بالنظر إليه عليه السلام لِمَا قالوا: إنَّ حسناتِ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين، إلَّا أنه لا يصحُّ إرادتُها هنا لِمَا أنها إنما صَدَرتْ عنه عليه السلام بعد هذه المقاوَلةِ الجارية بينه وبين قومه: أمَّا الثالثةُ فظاهرةٌ؛ لوقوعها بعد مهاجرته عليه السلام إلى الشام، وأمَّا الأُوليان فلأنهما وقعتا مُكْتَنَفتين بكَسْرِ الأصنام، ومن البيِّن أنَّ جريان هذه المقالات فيما بينهم كان في مبادي الأمر.

وهذا أولى ممَّا قيل: إنها من المعاريض، وهي لكونها في صورة الكذب يمتنعُ لها مَن تَصْدُرُ عنه من الشفاعة، ولكونها ليست كذباً حقيقةً لا تفتقر إلى الاستغفار،

---

(١) [illegible]حر ٧/ ٢٥، وهي خلاف المشهور عن نافع.

(٢) وردت هذه الثلاثة في حديث أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٩٢٤١)، والبخاري (٣٣٥٧) و(٣٣٥٨) و(٥٠٨٤)، ومسلم (٢٣٧١)، والترمذي (٣١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٦١)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فلا يصحُّ إرادتُها هنا؛ لأنَّ ذلك الامتناعَ ليس إلا لعدِّه إياها من الخطايا، ومتى عدَّتْ منها افتقرت إلى الاستغفار.

وقيل: أراد بها ما صَدَرَ عنه عند رؤية الكوكب والقمر والشمس من قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦] وكان ذلك قبل هذه المقاولة كما لا يخفى. وقد تقدَّم أنَّ ذلك ليس من الخطيئة في شيء[1].

وقيل: أراد بها ما عسى يندرُ منه من الصغائر، وهو قريبٌ مما تقدَّم.

وقيل: أراد بها خطيئة مَن يؤمِنُ به عليه السلام، كما قيل نحوُه في قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]، وهو كما ترى.

والطمعُ على ظاهره، ولم يَجْزِمْ عليه السلام لعِلْمِه أنْ لا وجوبَ على الله عزَّ وجلَّ. وعن الحسن أنَّ المراد به اليقين، وليس بذاك.

والظرفان متعلِّقان بـ «يغفر»، والإتيانُ بالأول للإشارة إلى أنَّ نَفْعَ مغفرته تعالى إنما يعود إليه عليه السلام. وتعليقُ المغفرةِ بيوم الدين مع أنَّ الخطيئة إنما تُغفَرُ في الدنيا لأنَّ أثرها يتبيَّنُ يومئذٍ، ولأنَّ في ذلك تهويلاً لذلك اليوم، وإشارةً إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تُغفر. وفي هذه الجملة من التلطُّفِ بأبيه وقومه في الدعوة إلى الإيمان ما فيها.

وقرأ الحسن: «خطاياي» على الجمع[2].

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ لمَّا ذَكَر لهم من صفاته عزَّ وجلَّ مما يدلُّ على كمالِ لُطْفِه تعالى به ما ذَكَر حَمَله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لرَبْطِ العتيد وجَلْبِ المزيد.

والمراد بالحُكْم على ما اختاره الإمام[3]: الحكمةُ التي هي كمالُ القوة العِلْميةِ، بأن يكون عالماً بالخير لأجل العمل به.

---

(١) ينظر ما سلف ٨/ ٢٥٩ وما بعدها.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ٢٥.

(٣) هو الرازي في تفسيره ٢٤/ ١٤٧-١٤٨ بنحوه.

وقيل: الأَوْلَى أن يفسَّر بكمال العلم المتعلِّق بالذات والصفات، وسائرِ شؤونه عزَّ وجلَّ وأحكامِه التي يُتعبَّد بها.

وقيل: هي النبوَّة. ورُدَّ بأنها كانت حاصلةً له عليه السلام، فالمطلوبُ إمَّا عينُ الحاصل، وهو محالٌ ضرورةَ امتناعِ تحصيل الحاصل، أو غيرُه وهو محالٌ أيضاً لأنَّ الشخص الواحد لا يكون نبيًّا مرتين.

وأجيب بمنع كونها حاصلةً وقت الدعاء، سلَّمنا ذلك إلا أنه لا محذورَ؛ لجوازِ أن يكون المرادُ طلبَ كمالِها، ويكونُ بمزيدِ القرب والوقوف على الأسرار الإلهية، والأنبياءُ عليهم السلام متفاوتون في ذلك.

وجوِّز أن يكون المرادُ طلبَ الثبات، ولا يجبُ على الله تعالى شيء.

والمراد بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ طلبُ كمالِ القوَّة العَمَليةِ، بأنْ يكون موفَّقاً لأعمالٍ ترشِّحه للانتظام في زمرة الكاملين، الراسخين في الصلاح، المنزَّهينَ عن كبائر الذنوب وصغائرِها.

وقدِّم الدعاء الأولُ على الثاني لأنَّ القوة العِلْمية مقدَّمةٌ على القوة العَمَلية؛ لأنه يمكن أن يعلم الحقَّ وإن لم يعمل به، وعَكْسُه غيرُ ممكنٍ، ولأنَّ العلم صفةُ الروح، والعملَ صفةُ البدن، فكما أنَّ الروح أشرفُ من البدن، كذلك العلمُ أشرفُ من العمل.

وقيل: المراد بالحُكْمِ الحكمةُ التي هي الكمالُ في العلم والعمل، والمرادُ بقوله: «وألحقني» إلخ طلَبُ الكمال في العمل، وذِكْرُه بعد ذلك تخصيصٌ بعد تعميم؛ اعتناءً بالعمل من حيث إنه النتيجةُ والثمرةُ للعلم.

وقيل: المراد بالأول ما يتعلَّقُ بالمعاش، وبالثاني ما يتعلَّق بالمعاد.

وقيل: المراد بالحُكْمِ رياسةُ الخَلْقِ، وبالإلحاق بالصالحين التوفيقُ للعَدْلِ فيما بينهم مع القيام بحقوقه تعالى. وقيل: المراد بهذا: الجمعُ بينه عليه السلام وبين الصالحين في الجنة. وأنت تعلمُ أنه لا يَحْسُنُ بعد هذا الدعاءِ طلبُه أن يكون من ورثة جنة النعيم.

والأَوْلَى عندي أن يفسَّر الحكمُ بالحكمة بمعنى الكمالِ في العلم والعمل، والإلحاقُ بالصالحين بجَعْلِ منزلته كمنزلتهم عنده عزَّ وجلَّ، والمراد بطلب ذلك أن يكون عِلْمُه وعملُه مقبولَيْنِ، إذ ما لم يُقْبَلا لا يُلْحَقُ صاحبهما بالصالحين، ولا تُجعَلُ منزلتُه كمنزلتهم، وكأنه لذلك عدل عن قول: ربِّ هَبْ لي حكماً وصلاحاً، أو: ربِّ هَبْ لي حكماً واجعلني من الصالحين، إلى ما في النظم الكريم، فتأمل ولا تغفل.

﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: اجْعَلْ لنفعي ذكراً صادقاً في جميع الأمم إلى يوم القيامة، وحاصلُه: خَلِّدْ صِيْتِي وذكري الجميلَ في الدنيا، وذلك بتوفيقه للآثار الحسنةِ، والسننِ المَرْضِيَّةِ لديه تعالى، المستحسَنةِ التي يقتدي بها الآخرون، ويَذْكُرونه بسببها بالخير وهم صادقون.

فاللسانُ مجازٌ عن الذِّكر بعلاقةِ السببية، واللامُ للنفع، ومنه يستفادُ الوصفُ بالجميل. وتعريفُ «الآخرين» للاستغراق.

والكلامُ مستلزمٌ لطلب التوفيق للآثار الحسنةِ التي أشرنا إليها، وكأنه المقصودُ بالطلب على أبلغ وجهٍ.

ولا بأس بأنْ يريدَ تخليدَ ذِكْرِه الجميل، ومَدْحَه بما كان عليه عليه السلام في زمانه. ولكون الثناء الحَسَنِ مما يدلُّ على محبة الله تعالى ورضائه كما ورد في الحديث[1]، يَحْسُنُ طلبُه من الأكابر من هذه الجهة، والقَصْدُ كلُّ القصد هو الرضا.

ويحتمل أن يُراد بـ «الآخِرين» آخِرُ أمةٍ يُبعَثُ فيها نبيٌّ، وأنه عليه السلام طلب الصيتَ الحسن والذِّكْرَ الجميل فيهم ببعثة نبيٍّ فيهم يجدِّدُ أصلَ دينه، ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه من التوحيد، معلِّماً لهم أنَّ ذلك مِلَّةَ إبراهيم عليه السلام، فكأنه طَلَبَ بعثةَ نبيٍّ كذلك في آخر الزمان لا تُنْسَخُ شريعتُه إلى يوم القيامة، وليس ذلك إلا نبيَّنا محمداً ﷺ، وقد طَلَبَ بعثتَه عليهما الصلاة والسلام بما هو أصرحُ

(١) الذي أخرجه مسلم (٢٦٤٢) عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

ممَّا ذُكر، أعني قولَه: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩] إلخ، ولذا قال ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام»(١).

وقيل: إذا أريدَ ذلك فلا بدَّ من تقدير مضافٍ في كلامه عليه السلام، أي: اجْعَلْ لي صاحبَ لسانِ صدقٍ في الآخِرين، أو جَعْلِ اللسان مجازاً عن الدَّاعي بإطلاق الجزء على الكلِّ؛ لأنَّ الدعوة باللسان، فكأنه قال: اجْعَلْ لي داعياً إلى الحقِّ صادقاً في الآخرين. ولا يخفى أنَّ فيما ذكرناه غنًى عن ذلك كلِّه.

وفي تعليقات شيخ مشايخنا العلَّامةِ صبغةِ الله الحيدريِّ - طاب ثراه - على تفسير البيضاويِّ في هذه الآية كلامٌ ناشئٌ من قلَّة إمعانِ النظر فلا تغترَّ به.

واستدلَّ الإمامُ مالكٌ بهذه الآية على أنه لا بأس أن يحبَّ الرجلُ أن يُثنى عليه صالحاً. وفائدةُ ذلك بعد الموت - على ما قال بعضُ الأجلَّة - انصرافُ الهمم إلى ما به يحصُلُ له عند الله تعالى زُلْفَى، وأنه قد يصير سبباً لاكتساب المُثْني أو غيرِه نحوَ ما أَثْنَى به، فيثابُ فيشاركُه فيه المُثْنَى عليه، كما هو مقتضَى: «مَن سَنَّ سُنَّةً حسنةً فلَهُ أَجْرُها وأَجْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القيامة»(٢). ولا يخفَى عليك أنَّ الأمور بمقاصدها.

﴿وَٱجۡعَلۡنِي﴾ في الآخرة ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ قد مرَّ معنى وراثة الجنة(٣) فتذكَّر. واستُدِلَّ بدعائه عليه السلام بهذا بعد ما تقدَّم من الأدعية على أنَّ العمل الصالح لا يوجبُ دخولَ الجنة، وكذا كونُ العبدِ ذا منزلةٍ عند الله عزَّ وجلَّ، وإلَّا لاستَغْنَى عليه السلام بطلب الكمال في العلم والعمل وكذا بطلب الإلحاق

---

(١) في (م): أنا دعوة إبراهيم عليه السلام. والحديث أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١/١٦٦، وابن سعد ١/ ١٥٠، والحاكم ٢/ ٦٠٠ من طريق خالد بن معدان عن النبي ﷺ. قال الحاكم: خالد بن معدان من خيار التابعين، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة، فإذا أسند حديثاً إلى الصحابة فإنه صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه. وله شاهد من حديث العرباض بن سارية ﷺ، عند أحمد (١٧١٥٠) وآخر من حديث أبي أمامة عند أحمد أيضاً (٢٢٢٦١).

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧) عن جرير بن عبد الله ﷺ.

(٣) عند تفسير الآيتين (١٠-١١) من سورة المؤمنون.

بالصالحين ذوي الزُّلْفَى عنده تعالى عن طلب ذلك. وأنت تعلم أنه تَحسُنُ الإطالةُ في مقام الابتهال، ولا يُسْتَغْنى بملزومٍ عن لازمٍ في المقال، فالأَوْلَى الاستدلالُ على ذلك بغيرِ ما ذُكِر، وهو كثيرٌ مشتهر.

هذا وفي بعض الآثار ما يدلُّ على مزيدِ فَضْلِ هذه الأدعية، أخرج ابن أبي الدنيا في «الذكر» وابنُ مردويه من طريق الحسن عن سَمُرةَ بنِ جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضَّأ العبدُ لصلاةٍ مكتوبةٍ فأسْبغَ الوضوءَ، ثم خرج من باب داره يريدُ المسجد، فقال حين يخرج: بسم الله الذي خلقني فهو يهدين، هداه الله تعالى للصواب ـ ولفظُ ابن مردويه: لصواب الأعمال ـ والذي هو يُطْعِمُني ويَسْقين، أطعمه الله تعالى من طعام الجنة، وسقاه من شراب الجنة، وإذا مرضتُ فهو يشفين، شفاه الله تعالى وجَعَلَ مرضه كفارةً لذنوبه، والذي يُميتني ثم يحيين، أحياه الله تعالى حياةَ السعداء وأماته ميتةَ الشهداء، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يومَ الدِّين، غفر الله تعالى له خطاياه كلَّها ولو كانت مِثْلَ زَبَدِ البحر، ربِّ هَبْ لي حُكماً وألْحِقْني بالصالحين، وَهَبَ الله تعالى له حكماً وألْحقه بصالحِ مَن مَضَى وصالحِ مَن بقيَ، واجْعَلْ لي لسانَ صِدْقٍ في الآخرين، كُتب في ورقةٍ بيضاءَ أنَّ فلانَ بنَ فلانٍ من الصادقين، ثم يوفِّقُه الله تعالى بعد ذلك للصِّدق، واجْعَلْني من ورثة جنة النعيم، جَعَلَ الله تعالى له القصورَ والمنازلَ في الجنة» وكان الحسن ﷺ يزيد فيه: واغفر لوالديَّ كما ربَّياني صغيراً[(١)]. وكأنه أخذ من قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ قال ابن عباس كما أخرج عنه ابن أبي حاتم: أي: امنُنْ عليه بتوبةٍ يستحقُّ بها مغفرتَك[(٢)]. وحاصلُه: وفِّقْه للإيمان، كما يَلُوحُ به تعليلُه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وهذا ظاهرٌ إذا كان هذا الدعاء قبل موته، وإن كان بعد الموت فالدعاءُ بالمغفرة على ظاهره، وجاز الدعاءُ بها لمشركٍ ـ والله تعالى لا يغفر أن يُشْرَكَ به ـ لأنه لم يُوْحَ إليه عليه السلام بذلك إذ ذاك، والعقلُ لا يحكم بالامتناع.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٨٦، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٢/ ٤٦٨-٤٦٩. قال الذهبي في الميزان ١/ ٣٥٠: وهو موضوع.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٨٢.

وفي «شرح مسلم» للنووي[1] أنَّ كونه عزَّ وجلَّ لا يغفرُ الشركَ مخصوصٌ بهذه الأمة، وكان قبلهم قد يُغفر، وفيه بحثٌ.

وقيل: لأنه كان يُخفي الإيمانَ تَقيَّةً من نمروذ، ولذلك وَعَده بالاستغفار، فلمَّا تبيَّن عداوتَه للإيمان في الدنيا بالوَحْي، أو في الآخرة، تبرَّأ منه.

وقوله على هذا: «من الضالين» بناءً على ما ظهر لغيره من حاله، أو معناه: من الضالِّين في كتم إيمانه وعَدَمِ اعترافه بلسانه تقيةً من نمروذ، والكلامُ في هذا المقام طويلٌ، وقد تقدَّم شيءٌ منه فتذكَّرْ.

﴿وَلَا تُخۡزِنِي﴾ بتعذيبِ أبي، أو ببَعْثِه في عداد الضالِّين بعدم توفيقه للإيمان، أو بمعاتبتي على ما فرَّطْتُ، أو بنَقْصِ رتبتي عن بعض الورَّاث، أو بتعذيبي، وحيث كانت العاقبةُ مجهولةً وتعذيبُ مَن لا ذنبَ له جائزٌ عقلاً صحَّ هذا الطلبُ منه عليه السلام. وقيل: يجوزُ أن يكون ذلك تعليماً لغيره. وهو من الخزي بمعنى الهوان، أو من الخَزاية بفتح الخاء بمعنى الحياء.

﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ۝٨٧﴾ أي: الناسُ كافةً، والإضمارُ وإن لم يسبق ذكرهم لِمَا في عموم البعث من الشهرة الفاشِيَةِ المغنية عنه. وقيل: الضمير للضالِّين، والكلامُ من تتمَّةِ الدعاء لأبيه، كأنه قال: لا تُخْزِني يومَ يُبعَثُ الضالُّون وأبي فيهم. ولا يَخْفَى أنه يجوزُ على الأول أن يكون من تتمَّةِ الدعاء لأبيه أيضاً، واستُظْهِرَ ذلك لأنَّ الفَصْلَ بالدعاء لأبيه بين الدعوات لنفسه خلافُ الظاهر، وعلى ما ذُكِرَ يكون قد دعا لأشدِّ الناس التصاقاً به بعد أن فرغ من الدعاء لنفسه.

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨﴾ بدلٌ من (يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ) جيءَ به تأكيداً لتهويلِ ذلك اليوم، وتمهيداً لِمَا يعقبُه من الاستثناء، وهو إلى قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ) إلخ من كلام إبراهيم عليه السلام.

وابنُ عطية بعد أن أَعْرَبَ الظَّرفَ بدلاً من الظرف الأول قال: إنَّ هذه الآياتِ عندي منقطعةٌ عن كلام إبراهيم عليه السلام، وهي إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ تتعلَّقُ

(١) جاء في هامش الأصل و(م): نقله الشهاب. اهـ منه. والكلام في حاشية الشهاب ٧/ ١٩، وشرح صحيح مسلم ٧/ ٧٢.

بصفة ذلك اليوم الذي طلب إبراهيمُ أنْ لا يُخْزِيَه الله تعالى فيه[١]. ولا يَخْفَى عدمُ صحة ذلك مع البَدَلية.

والمرادُ بالبنون معناه المتبادرُ. وقيل: المرادُ بهم جميعُ الأعوان. وقيل: المعنى: يوم لا ينفعُ شيءٌ من محاسن الدنيا وزينتها، واقْتَصَر على ذكر المال والبنين لأنهما معظمُ المحاسن والزينة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ استثناءٌ من أعمِّ المفاعيل، و«مَن» في[٢] محلِّ نصبٍ، أي: «يومَ لا ينفعُ مالٌ» وإن كان مصروفاً في الدنيا إلى وجوه البرِّ والخيرات «ولا بنونَ» وإن كانوا صُلَحاءَ مستأهلين للشفاعة أحداً إلَّا مَن أتى الله بقلبٍ سليم عن مرضِ الكفر والنفاق، ضرورةَ اشتراطِ نَفْعِ كلٍّ منهما بالإيمان. وفي هذا تأييدٌ لكون استغفارِه عليه السلام لأبيه طلباً لهدايته إلى الإيمان؛ لاستحالةِ طلب مغفرته بعد موته كافراً مع عِلْمِه عليه السلام بعَدَمِ نَفْعِه لأنه من باب الشفاعة.

وقيل: هو استثناءٌ من فاعل «ينفع»، و«مَن» في محلِّ رفع بدلٍ منه، والكلامُ على تقدير مضافٍ إلى «مَن»، أي: لا ينفع مالٌ ولا بنونَ إلا مالُ وبنو مَن أتى الله بقلبٍ سليم، حيث أنفق ماله في سبيل البرِّ، وأَرْشَدَ بَنِيْه إلى الحقِّ، وحثَّهم على الخير، وقَصَدَ بهم أن يكونوا عباداً لله تعالى مطيعين شُفَعاءَ له يوم القيامة.

و قيل: هو استثناءٌ مما دلَّ عليه المالُ والبنون دلالةَ الخاصِّ على العامِّ، أعني مطلقَ الغِنَى، والكلامُ بتقدير مضافٍ أيضاً، كأنه قيل: يوم لا ينفع غنًى إلَّا غِنَى مَن أتى الله بقلبٍ سليم، وغِناه سلامةُ قلبه، وهو من الغنى الدينيِّ، وقد أُشير إليه في بعض الأخبار؛ أخرج أحمد والترمذيُّ وابنُ ماجه عن ثوبان قال: لمَّا نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ الآية [التوبة: ٣٤] قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: لو علمنا أيّ المال خيرٌ اتَّخذناه. فقال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُه لسانٌ ذاكرٌ، وقلبٌ شاكرٌ، وزوجةٌ صالحةٌ تُعِينُ المؤمنَ على إيمانه»[٣].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٦.

(٢) قوله: في، ليس في (م).

(٣) مسند أحمد (٢٢٣٩٢)، وسنن الترمذي (٣٠٩٤)، وسنن ابن ماجه (١٨٥٦)، من طريق

وقيل: هو استثناءٌ منقطعٌ من «مال»، والكلامُ أيضاً على تقدير مضافٍ، أي: لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلا حال مَن أتى الله بقلبٍ سليم، والمرادُ بحاله: سلامةُ قلبه، قال الزمخشريُّ: ولا بدَّ من تقدير المضاف، ولو لم يقدَّر لم يَحْصُلْ للاستثناء معنًى(١).

ومنع ذلك أبو حيان بأنه لو قدِّر مثلاً: لكنْ مَن أتى الله بقلبٍ سليم يَسْلَم أو ينتفع، يستقيم المعنى(٢).

وأجاب عنه في «الكشف» بأنَّ المراد أنه على طريق الاستثناء من «مال» لا يتحصَّلُ المعنى بدون تقدير المضاف، وما ذَكَره المانعُ استدراكٌ من مجموع الجملة إلى جملةٍ أخرى، وليس من المبحث في شيء، ولمَّا لم يكن هذا مناسباً للمقام جَعَلَه الزمخشريُّ مفروغاً عنه، فلَمْ يُلَم عليه بوجهٍ.

وقد جوّز اتصال الاستثناء بتقدير الحال، على جَعْلِ الكلام من باب:

تحيةُ بينِهم ضربٌ وَجيع(٣)

ومثالُهُ أن يقال: هل لزيدٍ مالٌ وبنونَ؟ فتقول: مالهُ وبنوه سلامةُ قلبه، تريد نفيَ المال والبنين عنه، وإثباتَ سلامةِ القلب بدلاً عن ذلك.

هذا وكونُ المراد من القلب السليم: القلبَ السليمَ عن مرض الكفر والنفاق، هو المأثورُ عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ وقتادةَ وابن سيرين وغيرهم.

وقال الإمام: هو الخالي عن العقائد الفاسدة، والميلِ إلى شهوات الدنيا ولذَّاتها، ويَتْبعُ ذلك الأعمال الصالحات، إذ من علامة سلامة القلب تأثيرُها في الجوارح(٤).

= سالم بن أبي الجعد عن ثوبان به. قال الترمذي: هذا حديث حسن. سألت محمد بن إسماعيل: سالم بن أبي الجعد سمع من ثوبان؟ قال: لا.

(١) الكشاف ٣/ ١١٨.

(٢) البحر ٧/ ٢٦، وحاشية الشهاب ٧/ ٢٠.

(٣) الكشاف ٣/ ١١٨. وصدر البيت: وخيلٍ قد دلفتُ لها بخَيْلٍ، وقائله عمرو بن معدي كرب، وسلف ٤/ ٩٢.

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ١٥١.

وقال سفيان: هو الذي ليس فيه غيرُ الله عزَّ وجلَّ.

وقال الجنيد قدِّس سرُّه: هو اللَّديغُ من خشية الله تعالى، القلقُ المنزعجُ من مخافة القطيعة. وشاع إطلاقُ السليم في لسان العرب على اللَّديغ.

وقيل: هو الذي سَلِمَ من الشرك والمعاصي، وسلَّم نفسه لحُكْمِ الله تعالى، وسالَمَ أولياءه وحارَبَ أعداءه، وأَسْلَم حيث نَظَر فعرف، واستسلم وانقاد لله تعالى وأذعن لعبادته سبحانه.

والأنسبُ بالمقام المعنى المأثور، وما ذُكر من تأويلات الصوفية. وقال في «الكشاف» فيما نُقِلَ عن الجنيد قدِّس سرُّه وما بعده: إنه من بِدَعِ التفاسير[١]. وصدَّقه أبو حيان بذلك في شأن الأول[٢].

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ عطفٌ على «لا ينفع»، وصيغةُ الماضي فيه وفيما بعده من الجمل المنتظِمةِ معه في سلك العطف للدلالة على تحقُّقِ الوقوع وتقرُّرِه، كما أنَّ صيغة المضارع في المعطوف عليه للدلالة على الاستمرار، وهو متوجِّهٌ إلى النفع، فيدلُّ الكلام على استمرار انتفاءِ النفع واستمراره[٣] حَسْبَما يقتضيه مقامُ التهويل، أي: قرِّبتِ الجنةُ للمتقين عن الكفر ـ وقيل: عنه وعن سائر المعاصي ـ بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن، فيبتهجون بأنهم المحشورون[٤] إليها.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ الضالِّين عن طريق الحقِّ وهو التقوى والإيمان، أي: جُعلت بارزةً لهم بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلةِ، ويتحَسَّرون على أنهم المسوقون إليها.

وفي اختلافِ الفعلين على ما ذكره بعض المحقِّقين ترجيحٌ لجانب الوعد؛ لأنَّ التعبير بالإزلاف ـ وهو غايةُ التقريب ـ يشيرُ[٥] إلى قرب الدخول وتحقُّقِه، ولذا قدِّم

---

(١) الكشاف ٣/ ١١٨.

(٢) البحر ٧/ ٢٧.

(٣) في تفسير أبي السعود ٦/ ٢٥١ (والكلام منه): ودوامه، بدل: واستمراره.

(٤) في الأصل و(م): المحشرون، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٥) في الأصل: يشعر، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٢٠، والكلام منه.

لِسَبْقِ رحمته تعالى، بخلافِ الإبراز وهو الإراءةُ ولو مِن بُعْدٍ، فإنه مُطْمِعٌ في النجاة، كما قيل: من العمود إلى العمود فَرَجٌ.

وقال ابن كمال: في اختلاف الفعلين دلالةٌ على أنَّ أرض الحشر قريبةٌ من الجحيم، وحاصلهُ أنَّ الجنة بعيدةٌ من أرض المحشر بُعداً مكانيًّا، والنار قريبةٌ منها قرباً مكانياً، فلذا أسند الإزلاف ـ أي: التقريب ـ إلى الجنة دون الجحيم.

قيل: ولعله مبنيٌّ على أنَّ الجنة في السماء، وأنَّ النار تحت الأرض، وأنَّ تبديل الأرض يومَ القيامة بمدِّها وإذهابِ كُرَيَّتها؛ إذ حينئذٍ يظهر أمرُ البُعْدِ والقُرْب.

لكن لا يخفى أنَّ كون الجنة في السماء مما يعتقده أهل السُّنة، وليس في ذلك خلافٌ بينهم يعتدُّ به، وأمَّا كونُ النار تحت الأرض ففيه توقُّفٌ؛ قال الجلال السيوطيُّ في «إتمام الدراية»: نعتقد أنَّ الجنة في السماء، ونقفُ عن النار ونقول: محلُّها حيث لا يعلمه إلَّا اللهُ تعالى، فلم يثبت عندي حديثٌ أعتمدُه في ذلك، وقيل: تحت الأرض(١). انتهى.

وكونُ تبديل الأرض بمدِّها وإذهابِ كريَّتها قولٌ لبعضهم، واختار الإمام القرطبيُّ ـ بعد أن نقل في «التَّذْكِرة» أحاديثَ كثيرةً ـ أنَّ تبديلَ الأرض بمعنى أنَّ الله سبحانه يخلقُ أرضاً أخرى بيضاءَ من فضةٍ لم يُسْفَكْ عليها دمٌ حرامٌ، ولا جرى فيها ظلمٌ قطُّ(٢).

والأولى أن يقال في بُعْدِ الجنة وقُرْبِ النار من أرض المحشر: إنَّ الوصول إلى الجنة بالعبور على الصراط، وهو منصوبٌ على متن جهنم كما نطقتْ به الأخبارُ(٣)، فالوصولُ إلى جهنم أولاً وإلى الجنة آخِراً بواسطة العبور، وهو ظاهرٌ في القُرْبِ والبعد.

ثم إنَّ ظاهر الآية يقتضي أنَّ الجنة تُنقَلُ عن مكانها اليوم يومَ القيامة، إذ

---

(١) إتمام الدراية لقراء النقاية ص١٥.

(٢) التذكرة ص١٩١و١٩٢و٢٠٣.

(٣) ينظر حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٥٧٣) باب: الصراط جسر جهنم، ومسلم (١٨٢).

التقريبُ يستدعي النقلَ، وليس في الأحاديث على ما نعلم ما يدلُّ على ذلك، نعم جاء فيها ما يدلُّ على نقل النار.

ففي «التذكرة»: أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول ﷺ: «يؤتَى بجهنَّم يومئذٍ لها سبعون ألفَ زمامٍ مع كلِّ زمام سبعون ألف مَلَكٍ»[(١)]، والظاهرُ أنَّ معنى «يؤتى بها»: يجاء بها من المحلِّ الذي خلقها الله تعالى فيه، وقد صرَّح بذلك في «التذكرة»[(٢)].

وقال أبو بكر الرازيُّ في أسئلته[(٣)]: فإنْ قيل: قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قرِّبت، والجنة لا تنتقل عن مكانها ولا تحوَّل.

قلنا: معناه: وأُزلفتِ المتَّقون إلى الجنة، وهذا كما يقول[(٤)] الحاجُّ إذا دنوا إلى مكة: قربَتْ مكةُ منَّا. وقيل: معناه أنها كانت محجوبةً عنهم، فلمَّا رُفِعَتِ الحجُبُ بينها وبينهم كان ذلك تقريباً. انتهى.

ويَرِدُ على الأخير أنه يمكن أن يقال مثلُه في الجحيم، وحينئذٍ يُسألُ عن وجه اختلاف الفعلين.

ويَرِدُ على القول بأنَّ الجنة لا تنتقل عن مكانها أنه خلافُ ظاهرِ الآية، ولا يلزمُ لصحةِ القول به نقلُ حديثٍ يدلُّ على نقلها يومئذٍ، فلا مانع من القول به وتفويضِ الكيفية إلى عِلْمِ مَن لا يُعْجِزُه شيءٌ وهو بكلِّ شيءٍ عليم، وإذا أُريدَ التأويلُ فليكن ذلك بحَمْلِ التقريب على التقريب بحَسَبِ الرؤية وإن لم يكن هناك نقلٌ، فقد يُرى الشيء قريباً وإن كان في نفس الأمر في غاية البعد كما يشاهَدُ ذلك في النجوم، وقد يقرَّبُ البعيد في الرؤية بواسطة المناظر والآلات الموضوعة لذلك، وقد ينعكسُ الحال بواسطتها أيضاً فيُرى القريبُ بعيداً، ومتى جاز وقوعُ ذلك بواسطة الآلات

---

(١) التذكرة ص٣٨٧، والحديث في صحيح مسلم (٢٨٤٢).

(٢) ص٣٨٨.

(٣) واسمه: أسئلة القرآن وأجوبتها، لأبي بكر محمد بن أبي بكر الرازي صاحب مختار الصحاح، المتوفى سنة (٦٦٠هـ)، وهي ألف ومئتا سؤال. كشف الظنون ١/٩٢.

(٤) في (م): قال.

في هذه النشأة جاز أن يقع في النشأة الأخرى بما لا يعلمُه إلا اللطيف الخبير، فتأمَّلْ والله تعالى أعلم.

وقرأ الأعمش: «فبرِّزت» بالفاء. وقرأ مالك بن دينار: «وبَرَزَت» بالفتح والتخفيف، و«الجحيمُ» بالرفع على الفاعلية(١).

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾﴾ تستمرُّون على عبادته ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاؤكم في هذا الموقف.

﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بدَفْعِ ما تشاهدون من الجحيم وما فيها من العذاب ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ بدَفْعِ ذلك عن أنفسهم.

وهذا سؤالُ تقريعٍ لا يُتَوقَّعُ له جوابٌ، ولذلك قيل: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي: أُلقوا في الجحيم على وجوههم مرةً بعد أخرى إلى أن يستقرُّوا في قَعْرِها، فالكبكبةُ تكريرُ الكبِّ، وهو مما ضُوعِفَ فيه الباء(٢) كما قال الزجَّاج(٣) وجمهور البصريين(٤).

وذهب الكوفيون إلى أنَّ الثالث بدلٌ من مِثْلِ الثاني، فأصلُ كَبْكَبَ عندهم: كبَّبَ، فأُبدِلَ من الباء الثانية كافٌ.

وضمير الجمع لِمَا يعبدون من دون الله وهم الأصنام، وأكِّد بالضمير المنفصل أعني: ﴿هُمْ﴾ وكِلَا الضميرين للعقلاء، واستعملا في الأصنام تهكُّماً، أو بناءً على

---

(١) القراءتان في المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٦، والبحر ٧/ ٢٧. قال أبو حيان عن قراءة الأعمش: جعل تبريز الجحيم بعد تقريب الجنة يعقبه، وهو من تقديم الرحمة على العذاب، وهو حسنٌ لولا أنَّ رسم المصحف بالواو.

(٢) في الأصل و(م): الفاء، والمثبت من البحر ٧/ ٣، والكلام منه، ومثله في تفسير الثعالبي ٣/ ١٤٩.

(٣) البحر ٧/ ٣، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٤، وفيه: وحقيقة ذلك في اللغة تكرير الانكباب، كأنه إذا ألقي ينكبُّ مرةً بعد مرَّةٍ حتى يستقر فيها.

(٤) كذا ذكر المصنف، والذي في البحر ٧/ ٣، والدر المصون ٨/ ٥٣٤، وتفسير الثعالبي ٣/ ١٤٩ أن مذهب البصريين هو أن كبكب حروفه كلها أصلية. ففيها ثلاثة مذاهب كما ذكر السمين: الأول مذهب الزجَّاج، والثاني مذهب البصريين، والثالث مذهب الكوفيين، وسيأتي.

إعطائها الفَهْمَ والنطق، أي: كُبْكِبَ فيها الأصنامُ ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ الذين عبدوها، والتعبيرُ عنهم بهذا العنوان دون «العابدون» للتسجيل عليهم بوَصْفِ الغواية. وفي تأخير ذِكْرِهم عن ذِكْرِ آلهتهم رمزٌ إلى أنهم يؤخَّرون في الكبكبة عنها ليشاهدوا سوءَ حالها، فينقطع رجاؤهم قبل دخول الجحيم.

وعن السديِّ أنَّ ضمير «كبكبوا» ومؤكِّدُه لمشركي العرب، و«الغاوون» سائرُ المشركين.

وقيل: الضميرُ للمشركين مطلقاً ويرادُ بهم التَّبَعةُ، و«الغاوون» هم القادةُ المتَّبَعُون.

وقيل: الضمير لمشركي الإنس مطلقاً، و«الغاوون» الشياطين. والكلُّ كما ترى.

ويُبْعِدُ الأخيرَ قولهُ تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ فإنَّ الظاهر أنَّ المراد منه الشياطينُ، وأنه عَطْفٌ على ما قبله، والعطفُ يقتضي المغايرةَ بالذات في الأغلب، ولا حاجةَ إلى تخريجه على الأقلِّ وجَعْلِه من باب:

إلى الملك النَّدْبِ وابنِ الهمام[1]

وقيل: المراد بجنود إبليس متَّبِعوه من عصاة الثَّقَلين.

واختار بعضُ الأجلَّةِ الأولَ، وادَّعى أنه الوجهُ لأنَّ السياق والسباقَ في بيانِ سوءِ حالِ المشركين في الجحيم، وقد قال ذلك إبراهيم عليه السلام لقومه المشركين، فلا وجاهةَ لذكر حال قومٍ آخرين في هذا الحال، بل لا وجودَ لهم في القصة، وذِكْرُ الشياطين مع المشركين لكونهم المسوِّلين لهم عبادةَ الأصنام، ولا يخفى أن للتعميم وجهاً أيضاً من حيث إنَّ فيه مزيدَ تهويلٍ لذلك اليوم.

وقوله تعالى: ﴿أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ تأكيدٌ للضمير وما عُطِفَ عليه.

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟﴾ إلخ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤالٍ نشأ عمَّا قبله، كأنه لمَّا قيل: كُبْكِبَ الآلهةُ والغاوون عَبَدتُها والشياطينُ الداعون إليها، قيل: فما وقع؟

---

(١) وعجزه: وليث الكتيبة في المزدحم، وسلف ١/ ٣٤٠ و١٣/ ٨٦ برواية: القرم، بدل: الندب. والندب: الخفيف في الحاجة الظريف النجيب. القاموس (ندب).

فقيل: قالوا، أي: العَبدةُ الغاوون ﴿وَهُمْ﴾ أي: الغاوون ﴿فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: يخاصمون مَن معهم من الأصنام والشياطين.

والجملةُ في موضع الحال، والمراد: قالوا معترفين بخطئهم وانهماكهم في الضلالة متحسِّرين معيِّرين لأنفسهم، والحالُ أنهم بصَدَدِ مخاصمةِ مَن معهم، مخاطبين لآلهتهم حيث يجعلها الله تعالى أهلاً للخطاب:

﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ «إنْ» مخففةٌ من المثقَّلة، واسمُها ـ على ما قيل ـ ضميرُ الشأن محذوفٌ، واللامُ فارقةٌ بينها وبين النافية كما ذهب إليه البصريون، أي: إنه ـ أي: الشأنُ ـ كنَّا في ضلالٍ مبين. وذهب الكوفيون إلى أنَّ «إنْ» نافيةٌ، واللام بمعنى «إلَّا»، أي: ما كنَّا إلا في ضلالٍ واضح لا خفاء فيه. ووصفُهم له بالوضوح للمبالغة في إظهار ندمهم وتحسُّرهم، وبيانِ خطئهم في رأيهم مع وضوح الحقِّ، كما ينبئُ عنه تصديرُهم قَسَمَهم بحرف التاء المشعِرةِ بالتعجُّب على ما قيل.

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ ظرفٌ لكونهم في ضلال مبين. وقيل: لمحذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ، أي: ضَلَلْنا، وقيل: للضلال المذكور وإن كان فيه ضعفٌ صناعيٌّ من حيث إنَّ المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف، ويهوِّنُ أمرَ ذلك كونُ المعمول ظرفاً. وقيل: ظرفٌ لـ «مبين».

وجوِّز أن تكون «إذ» تعليليةً، كما قيل به في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

وصيغةُ المضارع لاستحضار الصورة الماضية، أي: تالله لقد كنَّا في غاية الضلال الفاحش وقتَ تسويتِنا إياكم ـ أو: لأنَّا سوَّيْناكم ـ أيها الأصنام في استحقاق العبادة بربِّ العالمين الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذلُّهم وأَعْجَزُهم.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ الظاهرُ بناءً على ما تقدَّم من أنَّ الاختصام مع الأصنام والشياطين أن يكون المراد بالمجرمين الشياطينَ؛ ليكون ذلك من الاختصام معهم وإنْ لم يُورَدْ على وجه الخطاب، كما أنَّ ما تقدَّم من الاختصام مع الأصنام، وكونُ المرادِ بهم ذلك مرويٌّ عن مقاتل.

وفي «إرشاد العقل السليم»[١]: أنه بيانٌ لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم. والمرادُ بالمجرمين رؤساؤهم وكبراؤهم، كما في[٢] قوله تعالى ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧].

وعن السديِّ: هم الأوَّلون الذين اقتدوا بهم.

وقيل: مَن دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجنِّ والإنس. وعن ابن جريج: أنهم إبليس وابنُ آدم القاتلُ؛ لأنه أوَّلُ مَن سنَّ القتلَ والمعاصي.

والقَصْرُ قيل: بالنسبة إلى الأصنام، ولعلهم أرادوا بنفي الإضلال عنها إهانتَها بأنها لا قدرةَ لها، وفيه تأكيدٌ لكونهم في ضلال مبين، ولعل الأَوْلى كونُه قَصْراً حقيقيّاً بادِّعاء أنهم الأوحديُّون في سببيةِ الإضلال، حتى إنَّ سببيةَ غيرهم له كَلَا سببيةٍ، وهذا واضحٌ في الشياطين لأنَّ إضلال غيرهم من الكبراء ونحوهم بواسطة إضلالهم؛ لأنهم الذين يزيِّنون الباطلَ للمتبوع والتابع، ويمكن أن يعتبر في غيرهم بضربٍ من التأويل، وذلك إذا أريد بالمجرمين غيرُهم. ثم إن المشركين لا يزالون في حيرةٍ يومَ القيامة لا يدرون بم يتشبَّثون، فلا يضرُّ إسنادُهم الإضلالَ تارةً إلى شيءٍ، وأخرى إلى غيره، على أنَّ الإسناد إلى كلٍّ باعتبارٍ هذا.

وجوِّز أن يكون الاختصامُ بين العَبَدةِ بعضِهم مع بعضٍ، والخطابُ في «نسوِّيكم» للأصنام من غيرِ التزامِ القول بجَعْلِهم أهلاً له، بل هو كخطاب المضطرِّ للحَجَر والشجر، وفيه مبالغةٌ في التحسُّر والندامة، والمعنى: إنَّ العبدة مع تخاصُم بعضهم مع بعضٍ بأن يقول أحدهم للآخر: أنت مبدأ ضلالي ولولا أنت لكنتُ مؤمناً، اعترفوا بجرمهم وتعجَّبوا وبيَّنوا سببه.

وجوِّز أيضاً أن يكون من الأصنام، يُنْطِقُهم الله تعالى فيخاصمون العبدةَ، فضمير «هم» عائدٌ عليهم، والمعنى: قال العبدةُ معترفين بضلالهم متعجِّبين منه مبيِّنين سببه: إن كنَّا.. إلخ، والحالُ أنَّ الأصنام يخاصمونهم قائلين: نحن جماداتٌ متبرِّئون عن جميع المعاصي، وأنتم اتَّخذْتُمونا آلهةً فألقيتمونا في هذه الورطة.

---

(١) ٦/٢٥٢.

(٢) في (م): وفي، بدل: كما في، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

وهذا كلُّه على تقدير كون جملة «قالوا» مستأنفةً كما هو الظاهر. وجوِّز أن يكون «جنود إبليس» مبتدأ، وجملةُ «قالوا» إلخ خبره، وضمير «قالوا» وكذا ما بعده عائدٌ عليه.

وأنت تعلم أنه مع كونه خلافَ الظاهر لا يتسنَّى على تقديرِ أنْ يرادَ بجنود إبليس الشياطينُ لِمَا أنَّ المقول المذكور لا يصحُّ أن يكون منهم، وإذا أُريدَ بهم متَّبعوه من عصاة الثَّقَلَيْنِ عَبَدةِ الأصنام وغيرهم يَرِدُ أنَّ المقولَ المذكورَ قولُ فرقةٍ منهم وهي العبدةُ، فإسنادهُ إلى الجميع خلافُ الظاهر.

ويَبْعُدُ كلَّ البُعْدِ ـ بل لو قيل بفساده لم يَبعُدْ ـ احتمالُ كونِ كلِّ شخصٍ سواءٌ كان من عبدة الأصنام أو غيره يخاصمُ مع كلِّ مَن يصادفهُ، من غيرِ صلاحية الآخَر للاختصام، ويقول ما ذكر للأصنام لغاية الحيرة والضجرة.

نعم لو أريدَ بجنود إبليس ـ على تقديرِ كونه مبتدأً، ورجوعِ الضمائر إليه ـ الغاوون بعينهم، وتكونُ الإضافة للعهد، والتعبيرُ عنهم بهذا العنوان بعد التعبير عنهم بالعنوان السابق لتذليلهم = لم يَبْعُدْ جدًّا.

ومن الناس مَن جوَّز الابتدائية والخبريةَ المذكورتين، وفسَّر الجنودَ بالعصاة مطلقاً، وجَعَل ضمير «قالوا» لـ «الغاوون»، وضميرَ «هم» و«يختصمون» للجنود أو للأصنام. وفيه مع خروج الآية عليه عن حُسْنِ الانتظام ما لا يخفى على ذوي الأفهام.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ مرتَّبٌ على ما اعترفوا به من عظم الجناية وظهورِ الضلالة. والمراد التلهُّفُ والتأسُّفُ على فَقْدِ شفيعٍ يشفعُ لهم مما هم فيه، أو صديقٍ شفيقٍ يهمُّه ذلك.

وقد ترقَّوا ـ لمزيد انحطاط حالهم ـ في التأسُّفِ، حيث نَفَوا أولاً أن يكون لهم مَن ينفعُهم في تخليصهم من العذاب بشفاعته، ونفوا ثانياً أن يكون لهم مَن يَهمُّه أمرُهم ويُشْفِقُ عليهم ويتوجَّعُ لهم وإن لم يخلِّصهم.

وأتي بالشافع في سياق النفي جمعاً، وإن كان حكمُ هذا الجمع في الاستغراق لمكان «من» الزائدةِ حُكْمَ المفرد بلا خلافٍ، إنَّما الخلاف فيما إذا لم تُزَدْ «مِن» بعدَ النفي داخلةً على الجمع، رعايةً لِمَا كانوا يأتون به في الإثبات من الجمع.

وقال في «الكشاف»: جُمِعَ الشافعُ لكثرة الشفعاء ووحِّد الصديقُ لقلَّتِه، ألا ترى أنَّ الرجل إذا امتُحِنَ بإرهاقِ ظالمٍ نهضت جماعةٌ وافرةٌ من أهل بلده رحمةً له وحسبةً وإن[1] لم تسبق له بأكثرهم معرفةٌ، وأمَّا الصديقُ الصادقُ في ودادك الذي يهمُّه ما يهمُّك فهو أعزُّ من بيض الأنوق. ويجوز أن يريد بالصديق الجمع[2]. أي: فإنه يُطلَقُ عليه لِمَا أنه على زِنةِ المصدر، بخلاف الشافع.

وذكر البيضاويُّ في توحيد الصديق وجهاً آخر أيضاً، وهو أنَّ الصديق الواحدَ يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء[3]. وحاصلُه أنَّ الواحد في معنى الجمع بحسب العادة، فلذا اكتفى به لما فيه من المطابقة المعنوية، كما قيل:

والناسُ ألفٌ منهمُ كواحدٍ ... وواحدٌ كالألف إنْ أمرٌ عَنَا[4]

وقال بعضُ الكَملة: إنَّ إيراد الشافعين بصيغة الجمع لمجرَّد مصلحةِ الفاصلة، وأمَّا إيرادُ الصديق مفرداً فلأنَّ المقامَ مقامُ المفرد، ومصلحةُ الفاصلة حصلتْ قبله. وهو كما ترى.

وقال سعدي[5] أفندي: لا يبعُدُ أن يكون جمعُ الأول وإفرادُ الثاني إشارةً إلى أنه لا فرق بين الاستغراقين.

وفيه أنَّ إيثار صيغةٍ لإفادة مسألةٍ عربيةٍ ليس من دَأْبِ القرآن المجيد.

والذي أميلُ إليه أنَّ الإفراد على الأصل، والجمعُ وإن أدى مؤدَّاه على سَنَنِ ما كانوا يقولونه ويزعمونه في الدنيا من تعدُّدِ الشفعاء، ولا يضرُّ في ذلك كونُ المنفيِّ هنا أعمَّ من المثبت هناك، من حيث شمولُه للأصنام والكبراء والملائكة والأنبياء عليهم السلام كما هو المتبادرُ إلى الفهم.

---

(١) في (م): إن، والمثبت من الأصل والكشاف.
(٢) الكشاف ٣/ ١١٩.
(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢١، وما بعده من كلام الشهاب.
(٤) سلف ٧/ ٤٣٥.
(٥) في (م): سعد. وسعدي أفندي هو سعد الله بن عيسى، له حاشية على تفسير البيضاوي من أول سورة هود إلى آخر القرآن، توفي سنة(٩٤٥هـ). كشف الظنون ١/ ١٩١.

وأخرج ابنُ جريرٍ وابنُ المنذر عن عكرمةَ عن ابن جُرَيْجٍ[١] أنَّ المعنى: فما لنا من شافعين من أهل السماء، ولا صديقٍ حميم من أهل الأرض.

وزعم بعضهم أنهم عَنَوا بالشافعين هنا ما عَنَوا بالمجرمين من كبرائهم وساداتهم، وفرَّعوا النفي على قولهم: «ما أضلَّنا إلا المجرمون» فكأنهم قالوا: سادتُنا وكبراؤنا الذين أضلُّونا مجرمون معذَّبون مثلنا، فلم يقدروا على السعي في نَفْعِنا والشفاعةِ لنا.

وفي «الكشاف»: «فما لنا من شافعين» كما نرى المؤمنين لهم شفعاءُ من الملائكة والنبيِّين، «ولا صديقٍ» كما نرى لهم أصدقاء، فإنه لا يتصادقُ في الآخرة إلا المؤمنون، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. أو فما لنا من شافعين ولا صديقٍ حميم من الذين كنَّا نعدُّهم شفعاءَ وأصدقاءَ؛ لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى، وكان لهم الأصدقاءُ من شياطين الإنس، أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكةٍ علموا أنَّ الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم، فقصدوا بنفيهم نفيَ ما يتعلَّق بهم من النفع؛ لأنَّ مالا ينفع حُكْمُه حُكْمُ المعدوم[٢]. انتهى.

والظاهرُ على هذا الأخير أنَّ الكلام كنايةٌ عن شدَّة الأمر بحيث لا ينفعُ فيه أحدٌ ولو أدنى نفعٍ، وهو وجهٌ وجيهٌ.

والوجهُ الأولُ لا يكاد يَتَسنَّى على مذهب المعتزلة الذين لا يجوِّزون الشفاعةَ في الخلاص من النار بعد دخولها أو قبله؛ لأنَّ الظاهر من قولهم: فما لنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين: فما لنا من شافعين يخلِّصونا من النار كما نرى المؤمنين لهم شفعاءُ من الملائكة والنبيين يخلِّصونهم منها، فارتضاءُ الزمخشريِّ لهذا الوجه غريبٌ، اللَّهمَّ إلَّا أن يقال: المرادُ التشبيهُ

---

(١) كذا ذكر المصنف، والصواب أنهما خبران أخرجهما ابن جرير وابن المنذر: الأول عن عكرمة، والثاني ـ وهو المذكور هنا ـ عن ابن جريج. ينظر الدر المنثور ٥/ ٩١، وخبر ابن جريج في تفسير الطبري ٥/ ٩١.

(٢) الكشاف ٣/ ١١٩.

باعتبار مطلق الشفاعة، والمعتزلة يجوِّزون بعض أصنافها، كالشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة، لكنْ لا يخلو عن بُعْدٍ، واللهُ تعالى أعلم.

و«لو» في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ مستعملةٌ في التمنِّي بدليلِ نصبِ قوله سبحانه: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ في جوابها، وأصلُها «لو» الامتناعية، وحيث إنَّ التمنِّي يكون لِمَا يَمتنِعُ أُريدَ بها ذلك مجازاً مرسلاً أو استعارةً تبعيةً، ثم شاع حتى صارت كالحقيقة في ذلك. وقيل: هي حقيقةٌ فيما ذكر. وقيل: أصلُها المصدرية، وليس بشيء.

والمعنى: فليت لنا رجعةً إلى الدنيا فأنْ نكونَ من المؤمنين فلا ينالنا إذا متنا فبُعِثْنا مثلُ ما نحن فيه من العذاب الذي لا ينفع فيه أحد.

وجوِّز كونُ «لو» شرطيةً وجوابُها محذوفٌ، والتقدير: لفعلنا من الخيرات كيتَ وكيتَ، أو: لخلصْنا من العذاب، أو: لكان لنا شفعاءُ وأصدقاءُ، أو: ما أضلَّنا المجرمون. والتقديرُ الأول أَجْزَلُ، ويقدَّر المحذوفُ بعد «فنكون» إلخ لأنَّ المصدر المتحصّلَ منه معطوفٌ على «كرة»، أي: فلو أنَّ لنا كرةً فكوناً[1] من المؤمنين لفعلنا.. إلخ.

وتعقَّب شيخُ الإسلام ذلك بأنه إنما يفيدُ تحقُّقَ مضمون الجواب على تقدير تحقُّقِ كرَّتِهم وإيمانهم معاً، من غير دلالةٍ على استلزام الكرَّة للإيمان أصلاً مع أنه المقصود حتماً[2].

وفي قوله: من غير دلالةٍ.. إلخ، بحثٌ على ما قيل، حيث يمكن أن يقال: حاصلُ الآية: إنْ تيسَّر لنا الرجعةُ والإيمانُ المتعقِّب إياها لفعلنا من عبادات أهل الإيمان ما يقصر عنه العبارة، والتزامُ ثمرات الإيمان التزامٌ للإيمان أولاً، ومقصودُهم بيانُ استلزامِ الرجعة لفعل الخيرات كلِّها، وأمَّا نفسُ الإيمان بعد هذه المشاهدة فلا يحتاج إلى البيان.

وقال بعض الناس: إن قولهم: «فنكونَ من المؤمنين» بمعنى: فنكون من

(١) في (م): فنكونا، وهو تصحيف.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٥٣.

المقبول إيمانُهم، وقبولُ الله تعالى إيمانَهم لا يترتَّب على رجعتهم البتةَ، بل يجوزُ أن يتخلَّف، فلا بدَّ أن يكون مرادهم: إنْ تيسَّر لنا الرجعةُ وإن قُبِلَ إيمانُنا لفعلنا.. إلخ، فليس المقصودُ الدلالةَ على استلزام الكرَّة للإيمان كما زعم شيخ الإسلام. ونوقش فيه بأنَّ تيسُّر الرجعةِ إنما يكون لرحمة الله تعالى وعفوِه، وهي تستلزمُ قبولَ إيمانهم.

والحقُّ أنه لا ينبغي الالتفاتُ إلى احتمال شرطيةِ «لو» والتكلُّفُ له، مع جزالةِ المعنى الظاهرِ المتبادر.

والكلامُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ قد تقدَّم آنفاً فلا حاجة إلى إعادته، وقد علمتَ مختارَنا في ذلك فتذكَّر فما في العهد من قِدَمٍ.

ولشيخ الإسلام[١] كلامٌ في هذه الآية لا يَخْفَى ما فيه على المتأمِّل، فتأمَّل.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ القومُ كما في «المصباح» يذكَّر ويؤنَّث، وكذلك كلُّ اسمِ جمعٍ لا واحدَ له من لَفْظِه، نحو: رَهْط ونَفَر[٢]، ولذا يصغَّر على قُوَيْمة.

وقيل: هو مذكَّرٌ، ولحقتْ فعلَه علامةُ التأنيث على إرادةِ الأمة والجماعةِ منه.

وتكذيبُهم المرسلين باعتبار إجماع الكلِّ على التوحيد وأصولِ الشرائع، التي لا تختلف باختلافِ الأزمنة والأعصار.

وجوِّز أن يراد بالمرسلين نوحٌ عليه السلام بجَعْلِ اللام للجنس، فهو نظيرُ قولك: فلانٌ يركب الدوابَّ ويلبسُ البُرودَ. وما له إلَّا دابةٌ واحدةٌ وبُرْدٌ واحد.

و«إذ» في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ ظرفٌ للتكذيب على أنه عبارةٌ عن زمانٍ مديدٍ وقع فيه ما وقع من الجانبين إلى تمام الأمر، كما أنَّ تكذيبهم عبارةٌ عمَّا صدر منهم من حين ابتداءِ دعوته عليه السلام إلى انتهائها.

وزعم بعضهم أن «إذ» للتعليل، أي: كذَّبَتْ لأَجْلِ أنْ قال لهم ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾

(١) في تفسيره ٦/ ٢٥٣.
(٢) المصباح المنير (قوم).

أي: نسيبهم، كما يقال: يا أخا العرب، ويا أخا تميم، وعلى ذلك قولُه:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا[١]

والضميرُ لقوم نوح. وقيل: هو للمرسلين، والأخوَّةُ: المجانسةُ، وهو خلافُ الظاهر.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ اللهَ عزَّ وجلَّ حيث تعبدون غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله تعالى أرسلني لمصلحتكم ﴿أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ مشهورٌ بالأمانة فيما بينكم. وقيل: أمينٌ على أداء رسالته جلَّ شأنه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعةِ لله تعالى. وقدَّم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بالطاعة لأنَّ تقوى الله تعالى سببٌ لطاعته عليه السلام.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما أنا متصدٍّ له من الدعاء والنصح ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ما أطلبُ منكم على ذلك أجراً أصلاً، لا مالاً ولا غيرَه ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ فيما أتولَّاه ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ فهو سبحانه الذي يؤجِرُني في ذلك تفضُّلاً منه، لا غيرُه.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تَنزُّهِه عليه السلام من الطمع، كما أنَّ نظيرتها السابقةَ لترتيب ما بعدها على كونه رسولاً من الله تعالى بما فيه نَفْعُ الدارين مع أمانته، والتكريرُ للتأكيد والتنبيهِ على أنَّ كلّاً منهما مستقلٌّ في إيجاب التقوى والطاعة، فكيف إذا اجتمعا؟

وقرئ: «إنْ أَجريْ» بسكون الياء[٢]، وهو والفتحُ لغتان مشهورتان في مثل ذلك اختلف النحاةُ في أيتهما الأصل.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي: وقد اتَّبعك، على أنَّ الجملة في موضع الحال، و«قد» لازمةٌ فيها إذا كان فعلها ماضياً، وكثيرٌ من الأجلَّة لا يوجبُ ذلك.

وقرأ عبد الله وابنُ عباس والأعمشُ وأبو حيوةَ والضحَّاك وابنُ السَّمَيْفَع وسعيد بنُ

---

(١) البيت لقريط بن أنيف، وسلف ١٠/ ٣٥٦.

(٢) هي قراءة حمزة والكسائي وابن كثير وشعبة ويعقوب وخلف. التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٦.

أبي سعيد الأنصاريُّ وطلحةُ ويعقوبُ: «وأتباعُك»[1] جمعُ تابعٍ، كصاحبٍ وأصحاب. وقيل: جمع تَبيعٍ، كشريف وأشراف. وقيل: جمع تَبَعٍ، كبَطل وأبطال. وهو مرفوعٌ على الابتداء، و«الأرذلون» خبرُه، والجملةُ في موضع الحال أيضاً.

وقيل: معطوفٌ على الضمير المستتر في «نؤمن» وحَسُنَ ذلك للفصل بـ «لك»، و«الأرذلون» صفتُه. ولا يخفى أنه ركيكٌ معنًى.

وعن اليماني: «وأتباعِكَ» بالجرِّ عطفاً على الضمير في «لك»، وهو قليل، وقاسه الكوفيون، و«الأرذلون» رفعٌ بإضمارِ «هم»[2]. وهو جمعُ الأرذل على الصحة، والرذالةُ: الخسَّةُ والدناءة.

والظاهر أنهم إنما استرذلوا المؤمنين به عليه السلامُ لسوءِ أعمالهم، يدلُّ عليه قولهُ في الجواب: ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢﴾ أي: ما وظيفتي إلا اعتبارُ الظواهر وبناءُ الأحكام عليها، دون التجسُّسِ والتفتيش عن البواطن.

و«ما» استفهاميةٌ. وقال الحوفيُّ والطبرسيُّ[3]: نافيةٌ، وعليه يكون في الكلام حذفٌ، أي: وما عِلْمي بما كانوا يعملون ثابتٌ.

﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ﴾ أي: ما محاسبتُهم على ما يعملون ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾ فاعتبارُ البواطنِ من شؤونه عزَّ وجلَّ وهو المطَّلعُ عليها ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣﴾ أي: بشيءٍ من الأشياء، أو: لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك لكنكم لستم كذلك فلذا قلتم ما قلتم، و«أل» على هذا الوجه للجنس.

وقال جمعٌ: إنَّ استرذالهم إياهم لقلَّة نصيبهم من الدنيا.

وقيل: لكونهم من أهل الصناعات الدنيئة، وقد كانوا كما روي عن عكرمة حاكةً وأساكفة.

وقيل: لاتِّضاع نسبهم.

---

(١) النشر ٢/ ٣٣٥ عن يعقوب، وذكرها عن الباقين ابن جني في المحتسب ٢/ ١٣١، وأبو حيان في البحر ٧/ ٣١.

(٢) البحر ٧/ ٣١.

(٣) في مجمع البيان ١٩/ ١٦٥، وذكره عن الحوفي أبو حيان في البحر ٧/ ٣١.

ومنشأ ذلك على الجميع سخافةُ عقولهم وقصورُ أنظارهم؛ لأنَّ الفقر ليس من الرذالة في شيء:

قد يُدرِكُ المجدَ الفتى ورداؤه خلقٌ وجيبُ قميصِه مَرْقوعُ[١]

وكذا خسَّةُ الصناعة لا تزري بالشرف الأخرويِّ، ولا تلحق التقيّ نقيصة عند الله عز وجل، وقد أنشد أبو العتاهية:

وليس على عبدٍ تقيٍّ نَقيصةٌ إذا صحَّحَ التقوى وإنْ حاكَ أو حَجَمْ[٢]

ومثلُها ضعةُ[٣] النسب، فقد قيل:

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواه إذا افْتَخَروا بقيسٍ أو تميمِ[٤]

وما ذكره الفقهاء في باب الكفاءة مبنيٌّ على عُرْفِ العامَّةِ لانتظام أمرِ المعاش ونحوِه، على أنه روي عن الإمام مالكٍ عَدَمُ اعتبارِ شيء من ذلك أصلاً، وأنَّ المسلمين كيفما كانوا أَكْفاءَ بعضهم لبعض.

و«أل» على هذه الأقوال للعهد.

والجواب بما ذُكر عمَّا[٥] أشاروا إليه بقولهم ذلك من أنَّ إيمانهم لم يكن عن نظرٍ وبصيرةٍ وإنما كان لحظٍّ نفسانيٍّ، كحصولِ شوكةٍ بالاجتماع ينتظمون بها في سِلْكِ ذوي الشرفِ، ويُعدُّون بها في عدادهم، وحاصلهُ: وما وظيفتي إلَّا اعتبارُ الظواهر دون الشَّقِّ عن القلوب، والتفتيشِ عمَّا في السرائر، فما يضرُّني[٦] عدمُ إخلاصهم في إيمانهم كما تزعمون.

---

(١) البيت لإبراهيم بن هرمة، وهو في ديوانه ص١٤٣ برواية: قد يدرك الشرفَ الفتى...

(٢) ديوان أبي العتاهية ص٣٤٩.

(٣) في (م): صفة.

(٤) البيت لنهار بن تَوْسِعةَ كما في الكامل ٣/ ١٠٩٧، والحلل للبطليوسي ص٢١٢، والشعر والشعراء ١/ ٥٣٧، وفيه:... إذا هتفوا ببكرٍ أو تميم. ونسبه المرزباني في معجم الشعراء ص٩٦ لعيسى بن فاتك.

(٥) قوله: عما، متعلق بخبر محذوف، والمبتدأ هو قوله: الجواب.

(٦) في الأصل: يضرُّ في.

وجوِّز أن يقال: إنَّهم لمَّا قالوا: «واتَّبعك الأرذلون» وعَنَوا: الذين لا نصيب لهم من الدنيا، أو الذين اتَّضعتْ أنسابهم، أو كانوا من أهل الصنائع الدنيَّة[1]، تَغابَى عليه السلام عن مرادهم، وخيَّل لهم أنهم عَنَوا بالأرذلين مَن لا إخلاصَ له في العمل ولم يُؤْمِنْ عن نظرٍ وبصيرةٍ، فأجابهم بما ذُكر كأنه ما عَرَفَ من الأرذلين إلَّا ذلك. ولو جُعِل هذا نوعاً من الأسلوب الحكيم لم يَبعُدْ عندي، وفيه مِن لُطْفِ الردِّ عليهم وتقبيحِ ما هم عليه ما لا يخفى.

وزعم بعضُهم أنهم عَنَوا بالأرذلين نساءَه عليه السلام وبَنِيهِ وكَنَّاتِه وبني بَنيه. واسترذالهم لضعة[2] النسب لا يتصوَّر في جميعهم حقيقةً كما لا يخفى، فلا بدَّ عليه من اعتبارِ التغليب ونحوِه.

وقرأ الأعرج وأبو زرعةَ وعيسى بن عمر الهمذانيُّ: «يشعرون» بياء الغيبة[3].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ جوابٌ عمَّا أَوْهَمه كلامُهم من استدعاء طَرْدِهم وتعليقِ إيمانهم بذلك، حيث جعلوا اتِّباعَهم مانعاً عنه، وقد نُزِّلوا لذلك منزلةَ مَن يدَّعي أنه عليه السلام ممن يطردُ المؤمنين، وأنه ممن يُشْتَرِكُ معه فيه، فقدِّم المسندُ إليه وأُوْلِيَ حرفَ النفي لإفادة أنَّ ذلك ليس شأنَه بل شأنُ المخاطَبين. وجوِّز أن يكون التقديم للتقوِّي، وهو أقلُّ مؤونةً كما لا يخفى.

وقيل: إنَّهم طلبوا منه عليه السلام طردَهم فأجابهم بذلك، كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ طَرْدَ مَن آمَنَ به من الضعفاء فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الأنعام:٥٢]. وقولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ كالعلَّة له، أي: ما أنا إلَّا رسولٌ مبعوثٌ لإنذارِ المكلَّفين وزَجْرِهم عمَّا لا يرضيه سبحانه وتعالى، سواءٌ كانوا من الأشرفين أو الأرذلين، فكيف يتسنَّى لي طردُ مَن زعمتُم أنهم أرذلون. وحاصلُه: أنا مقصورٌ على إنذار المكلَّفين لا أتعدَّاه إلى طَرْدِ الأرذلين منهم.

---

(١) في (م): الدنيئة.

(٢) في (م): لعضة، وهو تصحيف.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ٣١.

أو: ما عليَّ إلا إنذارُكم بالبرهان الواضح، وقد فعلتُه، وما عليَّ استرضاءُ بعضكم بطرد الآخرين، وحاصله: أنا مقصورٌ على إنذاركم لا أتعدَّاه إلى استرضائكم.

وقيل: إنَّ مجموع الجملتين جوابٌ، وإنَّ إيلاء الضميرِ حرفَ النفي يدلُّ على أنهم زعموا أنه عليه السلام موصوفٌ بصفتين: إحداهما اتِّباعُ أهوائهم بطَرْدِ المؤمنين لأجْلِ أن يؤمنوا، وثانيتُهما أنه نذيرٌ مبينٌ، فقصر الحكم على الثاني دون الأول. ولا يخلو عن بحث.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عمَّا أنت عليه ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ أي: المَرميِّينَ بالحجارة، كما روي عن قتادة. وهو توعُّدٌ بالقتل، كما روي عن الحسن.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدِّي أنَّ المعنى: من المشتومين[1]، على أنَّ الرجم مستعارٌ للشتم كالطعن.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنهم - قَاتَلَهم الله تعالى - قالوا ذلك في أواخِرِ الأمر، ومعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾: استمرُّوا على تكذيبي، وأصرُّوا عليه بعد ما دعوتُهم هذه الأزمنةَ المتطاولةَ، ولم يَزِدْهم دعائي إلَّا فراراً[2].

وهذا ليس بإخبارٍ بالاستمرار على التكذيب؛ لِعِلْمِه عليه السلام أنَّ عالِمَ الغيب والشهادة أعلمُ؛ ولكنه أراد إظهارَ ما يدعو عليهم لأجْله وهو تكذيبُ الحقِّ، لا تخويفُهم له واستخفافُهم به في قولهم: «لئن لم تَنتهِ يا نوحُ لتكوننَّ من المرجومين»، تلطُّفاً في فتح باب الإجابة؛ وقيل: لدَفْعِ توهُّم الخَلْقِ فيه التجاوُزَ[3] أو الحدَّة.

وقيل: إنه خبرٌ لم يُقْصَدْ منه الإعلامُ أصلاً، وإنما أُورِدَ لغَرَضِ التحزُّنِ والتفجُّع كما في قوله:

قومي هُمُ قتلوا أميمَ أخي ... فلئن رَمَيتُ يُصيبُني سَهْمي[4]

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٨٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٥٥.
(٣) في(م): المتجاوز، وفي حاشية الشهاب ٧/ ٢٢: التجاري.
(٤) سلف ٤/ ١٣٦.

ويُبعِدُ ذلك في الجملة تفريعُ الدعاء عليهم بقوله تعالى: ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾ على ذلك، أي: احكم بيننا بما يستحقُّه كلُّ واحدٍ منَّا، من الفتَّاحة[1] بمعنى الحكومة. و«فتحاً» مصدر، وجوِّز أن يكون مفعولاً به على أنه بمعنى مفتوحاً. وهذه حكايةٌ إجماليةٌ لدعائه عليه السلام المفصَّلِ في سورة نوح.

﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾ أي: من قَصْدِهم، أو شؤمِ أعمالهم، وفيه إشعارٌ بحلول العذاب بهم.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ على حَسَبِ دعائه عليه السلام ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩﴾ أي: المملوء بهم وبما يحتاجون إليه: حالاً كالطعام، أو مآلاً كالحيوان.

والفلكُ يستعمل واحداً وجمعاً، وحيث أتى في القرآن الكريم فاصلةً استُعْمِل مفرداً، أو غيرَ فاصلةٍ استُعمِلَ جمعاً، كما في «البحر»[2].

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ﴾ أي: بعدَ إنجائهم، و«ثم» للتفاوتِ الرُّتْبيِّ، ولذا قال سبحانه بعدُ: (بَعۡدُ). ﴿ٱلۡبَاقِينَ ١٢٠﴾ أي: من قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٢﴾ الكلامُ فيه نظيرُ الكلام فيما تقدَّم.

وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣﴾ بيدَ أنَّ تأنيث الفعل هنا باعتبارِ أنَّ المراد بـ «عادٍ» القبيلةُ، وهو اسمُ أبيهم الأقصى، وكثيراً ما يعبَّر عن القبيلة إذا كانت عظيمةً بالأب، وقد يعبَّر عنها ببني أو بآلٍ مضافاً إليه، فيقال: بنو فلان أو آلُ فلان.

وكذا الكلامُ في قوله سبحانه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧﴾.

---

(١) بضم الفاء وكسرها. القاموس (فتح).

(٢) ٧/ ٣٢.

وحكايةُ الأمر بالتقوى والإطاعة، ونفي سؤال الأجر في القصص الخمس، وتصديرُها بذلك؛ للتنبيه على أنَّ مَبْنَى البعثة هو الدعاءُ إلى معرفة الحقِّ والطاعةِ فيما يقرِّبُ المدعوَّ إلى الثواب، ويُبْعِدُه من العقاب، وأنَّ الأنبياء عليهم السلام مجتمعون على ذلك وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفةِ باختلاف الأزمنة والأعصار، وأنهم عليهم السلامُ منزَّهون عن المطامع الدنيوية بالكلِّية.

ولعله لم يسلك هذا المسلك في قصتي موسى وإبراهيم عليهما السلام تفنُّناً مع ذكر ما يُشْعِرُ بذلك. وقيل: إن ما ذُكر ثَمةَ أهمّ.

وكانت منازلُ عادٍ بين عُمان وحضرموت، وكانت أخصبَ البلاد وأَعْمَرَها، فجعلها الله تعالى مفاوِزَ ورمالاً، ويشير إلى عمارتها قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: طريق، كما روي عن ابن عباس وقتادة.

وأخرج ابن جَريرٍ وجماعةٌ عن مجاهدٍ: أنَّ الرِّيع الفجُّ بين الجبلين[1].

وعن أبي صخر[2]: أنه الجبلُ والمكان المرتفع عن الأرض.

وعن عطاء: أنه عينُ الماء.

والأكثرون على أنه المكانُ المرتفع، وهو روايةٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومنه ريعُ النبات: وهو ارتفاعُه بالزيادة والنماء.

وقرأ ابن أبي عبلة: «رَيْعٍ» بفتح الراء[3].

﴿ءَايَةً﴾ أي: عَلَماً، كما رُوي عن الحبر رضي الله عنه. وقيل: قصراً عالياً مَشِيداً كأنه عَلَمٌ، وإليه ذهب النقَّاش وغيرُه، واستَظْهره ابن المنير[4]، ويمكن حَمْلُ ما روي عن

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٠٨.

(٢) هو حميد بن زياد بن أبي المخارق الخراط، مدني سكن مصر، ويقال: هو حميد بن صخر أبو مودود الخراط، توفي سنة (١٩٨هـ)، من رجال التهذيب. وكلامه في تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٧٩٣.

(٣) البحر ٧/ ٣٢، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٢١ دون نسبة. وقال ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٧: حكاه الكسائي على أنه لغة، فتح الراء.

(٤) في الانتصاف ٣/ ١٢١.

الحبر عليه، وحينئذٍ فقولُه تعالى: ﴿تَعۡبَثُونَ ۝١٢٨﴾ على معنى: تعبثون ببنائها؛ لِمَا أنَّهم لم يكونوا محتاجينَ إليها، وإنما بَنَوْها للفَخْرِ بها.

والعبثُ ما لا فائدةَ فيه حقيقةً أو حُكْماً، وقد ذُمَّ رفعُ البناء لغيرِ غَرَضٍ شرعيٍّ في شريعتنا أيضاً.

وقيل: إنَّ عبثهم في ذلك من حيث إنهم بَنَوْها ليهتدوا بها في أسفارهم، والنجومُ تُغني عنها. واعتُرِضَ بأنَّ الحاجة تدعو لذلك، لغيم مطبق أو ما يجري مجراه.

وأجيب بأنَّ الغيم نادرٌ لا سيما في ديارِ العرب، مع أنه لو احتيجَ إليها لم يُحْتَجْ إلى أنْ تُجعَلَ في كلِّ ريعٍ، فيكون بناؤها كذلك عبثاً.

وقال الفاضل اليمنيُّ: إنَّ أماكنها المرتفعةَ تغني عنها، فهي عبثٌ.

وقيل: كانوا يبنون ذلك ليُشْرِفوا على المارَّة والسابلةِ فيَسْخَروا منهم ويَعْبَثوا بهم، وروي ذلك عن الكلبيِّ والضحاك.

وعن مجاهدٍ وابن جُبير: أنَّ الآية برجُ الحمام، كانوا يبنون البروج في كلِّ ريعٍ ليلعبوا بالحمام ويَلْهُوا به.

وقيل: بيت العشَّار، يبنونه بكلِّ رأس طريقٍ فيجلسون فيه ليعشِّروا مالَ مَن يمرُّ بهم. وله نظيرٌ في بلادنا اليوم، ولا مستعانَ إلَّا بالله العليِّ العظيم.

والجملةُ في موضع الحال، وهي حالٌ مقدَّرةٌ على بعض الأقوال.

﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾ أي: تعملون ﴿مَصَانِعَ﴾ أي: مآخذَ للماء، ومجاريَ تحت الأرض، كما روي عن قتادة. وفي روايةٍ أخرى عنه: أنها بِرَكُ الماء، وعن مجاهدٍ: أنها القصورُ المَشيدة.

وقيل: الحصونُ المُحكَمةُ، وأنشدوا قول لبيد:

وتبقى جبالٌ بعدنا ومصانعُ[1]

وليس بنصٍّ في المدَّعى.

---

(١) ديوان لبيد ص١٦٨ برواية:

بَلِينا وما تَبْلَى النجومُ الطَّوالعُ   وتبقى الجبالُ بعدنا والمصانع

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: راجينَ أنْ تَخْلُدوا في الدنيا، أو عاملينَ عملَ مَن يرجو الخلودَ فيها، فـ «لعل» على بابها من الرجاء.

وقيل: هي للتعليل، وفي قراءة عبد الله: «كي تخلدون»[١].

وقال ابن زيد: هي للاستفهام على سبيل التوبيخ والهزء بهم، أي: هل أنتم تخلدون. وكونُ «لعل» للاستفهام مذهبٌ كوفيٌّ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: كأنكم خالدون، وقرئ بذلك كما روي عن قتادة[٢]، وفي حرف أبيٍّ: «كأنكم تخلدون»[٣].

وظاهرُ ما ذُكر أنَّ «لعل» هنا للتشبيه، وحَكَى ذلك صريحاً البغويُّ عن الواقديِّ[٤]، وفي «البرهان»: هو معنًى غريبٌ لم يذكره النحاة، ووقع في «صحيح البخاريِّ» أنَّ «لعلَّ» في الآية للتشبيه[٥]. انتهى.

وقرأ قتادة: «تُخْلَدون» مبنيًّا للمفعول مخفَّفاً[٦]، ويقال: خَلَدَ الشيءُ وأَخْلَده غيرُه.

وقرأ أبيٌّ وعلقمة: «تخلَّدون» مبنيًّا للمفعول مشدَّداً[٧]، كما قال الشاعر:

هل يَعِمَنْ إلَّا سعيدٌ مخلَّدٌ قليلُ همومٍ ما يبيتُ بأوجالِ[٨]

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ أي: أردتُم البطشَ بسوطٍ أو سيف ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ مسلَّطين

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٨، والبحر ٧/ ٣٢، والدر المصون ٨/ ٥٣٩.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٨١، وتفسير القرطبي ١٦/ ٥٧، وهي في البحر ٧/ ٣٢ دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٨، والبحر ٧/ ٣٢.

(٤) في الأصل و(م): الواقدي عن البغوي، وهو سبق قلم من المصنف رحمه الله، والكلام من البرهان ٤/ ٣٩٤، وسلف ١٨/ ١٤١.

(٥) البرهان ٤/ ٣٩٤، وجاء في صحيح البخاري قبل الحديث (٤٧٦٨): قال ابن عباس: «لعلكم تخلدون»: كأنكم.

(٦) المحتسب ٢/ ١٣٠، والبحر ٧/ ٣٢، وينظر القراءات الشاذة ص١٠٧.

(٧) القراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ٣٢.

(٨) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٧ برواية: قليل الهموم...، وقال الشارح: الأوجال جمع وَجَل، وهو الفزع.

غاشمين بلا رأفةٍ ولا قَصْدِ تأديبٍ ولا نظرٍ في العاقبة. وأوِّل الشرطُ بما ذُكر ليصحَّ التسبُّبُ، وتقييدُ الجزاءِ بالحال لا يصحِّحه؛ لأنَّ المطلق ليس سبباً للمقيَّد.

وقيل: لا يضرُّ الاتحادُ لقَصْدِ المبالغة. وقيل: الجزائيةُ باعتبارِ الإعلام والإخبار. وهو كما ترى. ونظيرُ الآية قولُه:

متى تَبْعثوها تَبْعثوها دَمِيمةً(١)

ودلَّ توبيخُه عليه السلام إياهم بما ذُكر على استيلاء حبِّ الدنيا والكِبْرِ على قلوبهم، حتى أخرجهم ذلك عن حدِّ العبودية.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واتركوا هذه الأفعالَ ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ فيما أَدْعوكم إليه فإنه أنفعُ لكم.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: بالذي تعرفونه من النعم، فـ «ما» موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ، والعِلْمُ بمعنى المعرفة، وقولهُ تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ منزَّلٌ منزلةَ بَدَلِ البعضِ، كما ذكره غيرُ واحدٍ من أهل المعاني، ووجهُه عندهم: أنَّ المراد التنبيهُ على نِعَم الله تعالى، والمقامُ يقتضي اعتناءً بشأنه لكونه مطلوباً في نفسه، أو ذريعةً إلى غيره من الشكر بالتقوى، وقولُه سبحانَه: (أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ) إلخ أَوْفى بتأديةِ ذلك المرادِ؛ لدلالته على النعم بالتفصيل من غير إحالةٍ على علم المخاطَبين المعانِدين، فوزانُه وزانُ «وَجْهه» في: أعجبني زيدٌ وَجْهُه؛ لدخول الثاني في الأول، لأنَّ «ما تعلمونَ» يشمل الأنعامَ وما بعدها من المعطوفات، ولا يَخْفَى ما في التفصيل بعد الإجمال من المبالغة.

وفي «البحر»: أن قوله تعالى: (بِأَنْعَامٍ) على مذهبِ بعض النحويين بدلٌ من قوله سبحانه: (بِمَا تَعْلَمُونَ)، وأعيدَ العامل كقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس: ٢٠-٢١] والأكثرون لا يجعلون مثلَ هذا إبدالاً، وإنما هو عندهم من تكرار الجمل وإنْ كان المعنى واحداً، ويسمَّى التتبيع، وإنما يجوزُ أنْ

(١) وعجزه: وتَضْرَ إذا ضرَّيتموها فتَضْرَم، والبيت لزهير، وهو في ديوانه ص١٩ برواية: ذميمة. وهما روايتان، وذميمة، أي: مذمومة. ودميمة: حقيرة. وتبعثوها، أي: تثيروها، يعني الحرب. شرح المعلقات للنحاس ١/ ١١٣، وللتبريزي ص١٤١.

يعادَ العاملُ عندهم إذا كان حرفَ جرٍّ دون ما يتعلَّق به، نحو: مررتُ بزيدٍ بأخيك[1]. انتهى. ونُقل نحوُه عن السفاقسيِّ[2].

وقال أبو حيان[3]: الجملة مفسِّرةٌ لِمَا قبلها ولا موضعَ لها.

وبدأ بذِكْرِ الأنعام لأنها تحصلُ بها الرياسةُ والقوةُ على العدوِّ، والغِنَى الذي لا تكملُ اللذةُ بالبنين وغيرهم في الأغلب إلا به، وهي أحبُّ الأموال إلى العرب، ثم بالبنين لأنهم مُعينوهم على الحفظ والقيام عليها، ومن ذلك يُعْلَم وجهُ قَرْنِهما.

ووَجْهُ قَرْنِ الجنات والعيون في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ ظاهرٌ، وكذا وجهُ قَرْنِهما مع الأنعام.

وقولُه سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلخ في موضع التعليل، أي: إنِّي أخاف عليكم إنْ لم تتَّقوا وتقوموا بشكر هذه النعم ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾﴾ في الدنيا والآخرة، فإنَّ كفران النعمة مستتبِعٌ للعذاب، كما أنَّ شكرها مستلزمٌ لزيادتها؛ قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧] وعلّل بما ذُكر دون استلزامِ التقوى للزيادة لأنَّ زوال النعمة يُحزِنُ فوق ما تسرُّ زيادتُها، ودَرْءُ المضارِّ مقدَّمٌ على جَلْبِ المنافع.

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ فإنَّا لا نرعوي عمَّا نحن عليه، قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف وعَدَم المبالاة بما خوَّفهم به عليه السلام، وعدلوا عن: أَمْ لَمْ تَعِظْ ـ الذي يقتضيه الظاهرُ ـ للمبالغة في بيان قلَّةِ اعتدادهم بوعظه عليه السلام؛ لما في كلامهم على ما في النظم الجليل من استواء وَعْظِه والعَدمِ الصِّرفِ البليغ، وهو عدمُ كونه من عِدادِ الواعظين وجنسهم.

وقيل في وجه المبالغة: أفادت[4] «كان» الاستمرارَ، و«الواعظين» الكمالَ،

---

(١) البحر ٧/ ٣٣.

(٢) نقله عنه الشهاب في الحاشية ٧/ ٢٢.

(٣) كذا ذكر المصنف، ولم نقف عليه في البحر، ولعل الصواب: أبو البقاء، كما في حاشية الشهاب ٧/ ٢٢، وهو في الإملاء ٣/ ١١٩.

(٤) في (م): إفادة.

واعتبارُهما بقرينة المقام بعد النفي، أي: سواءٌ علينا أَوَعَظْتَ أم استمرَّ انتفاء كونك من زمرة مَن يَعِظُ انتفاءً كاملاً بحيث لا يُرْجَى منك نقيضُه.

وقال في «البحر»: إنَّ المقابلة بما ذُكر لأَجْلِ الفاصلة، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف:١٩٣] وكثيراً ما يَحْسُنُ مع الفواصل ما لا يَحْسُنُ دونه[(١)]. وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وروي عن أبي عمرو والكسائيِّ إدغامُ الظاء في التاء في «وعظت»، وبالإدغام قرأ ابن محيصن والأعمشُ، إلا أن الأعمش زاد ضمير المفعول فقرأ: «أوعظتنا» وينبغي أن يكون إخفاءً، لأنَّ الظاء مجهورةٌ مطبقةٌ والتاء مهموسةٌ منفتحةٌ، فالظاءُ أقوى منها، والإدغامُ إنما يحسُنُ في المتماثلين، أو في المتقاربَيْنِ إذا كان الأولُ أنقصَ من الثاني. وأما إدغام الأقوى في الأضعف فلا يحسُن، وإذا جاء شيءٌ من ذلك في القرآن بنقل الثقات وَجَبَ قبولُه وإن كان غيرُه أفصحَ وأَقْيَسَ[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ تعليلٌ لِمَا ادَّعوه من المساواة أي: ما هذا الذي جئتنا به إلّا عادةُ الأوَّلين، يلفِّقون مثلَه ويَدْعُون إليه، أو: ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلَّا عادةٌ قديمةٌ لم يَزَلِ الناسُ عليها، أو: ما هذا الذي نحن عليه من الدِّين إلَّا عادةُ الأوَّلين الذين تقدَّمونا من الآباء وغيرِهم ونحن بهم مقتدون.

وقرأ أبو قلابةَ والأصمعيُّ عن نافع: «خُلْقُ» بضمِّ الخاء وسكونِ اللام[(٣)]، والمعنى عليه كما تقدَّم.

وقرأ عبد الله وعلقمةُ والحسن وأبو جعفر وأبو عمرو وابن كثير والكسائي: «خَلْقُ» بفتح الخاء وسكون اللام[(٤)]، أي: ما هذا إلا اختلاقُ الأوَّلين وكذبُهم،

---

(١) البحر ٧/ ٣٣.
(٢) البحر ٧/ ٣٣. وذكر قراءة أبي عمرو والكسائي أيضاً القرطبي ١٦/ ٥٩.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣٩، والبحر ٧/ ٣٤، والكلام منه.
(٤) التيسير ص١٦٦، والنشر ٢/ ٣٣٥ عن أبي عمرو وابن كثير والكسائي ويعقوب وأبي جعفر، ونقلها المصنف عن البحر ٧/ ٣٣.

ويؤيِّد هذا المعنى ما رَوَى علقمةُ عن عبد الله أنه قرأ: «إلا اختلاقُ الأولين»[(١)] ويكونُ هذا كقول سائر الكفرة: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]. أو: ما خَلْقُنا هذا إلَّا خَلْقُ الأوَّلين، نَحْيا كما حَيَوْا ونموتُ كما ماتوا، ومرادُهم إنكارُ البعث والحساب المفهوم من تهديدهم بالعذاب، ولعل قولَهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ أي: على ما نحن عليه من الأعمال، أصرحُ في ذلك.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: أصرُّوا على تكذيبه عليه السلام ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بسببه بريحٍ صَرْصَرٍ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ هو اسمٌ عجميٌّ عند بعضٍ، والأكثرون على أنه عربيٌّ، وتُرِكَ صَرْفُه لأنه اسمُ قبيلة، وهو فعولٌ من الثَّمْدِ: وهو الماء القليل الذي لا مادَّة له، ومنه قيل: فلان مثمودٌ ثَمدَتْه النساءُ، أي: قَطَعْنَ مادَّة مائه لكثرة غشيانه لهنَّ، ومثمودٌ: إذا كثر عليه السؤال حتى نفدَ مادةُ ماله. أو ما يبقى في الجلد، أو ما يظهرُ في الشتاء ويذهبُ في الصيف.

وفي «القاموس»: ثمود قبيلةٌ، ويُصْرَفُ، وتُضمُّ الثاء، وقرئ به أيضاً[(٢)].

وفي «سبائك الذهب»[(٣)]: أنه في الأصل اسمٌ لأبي القبيلة، ثم نُقلَ وجُعِلَ اسماً لها.

ووجهُ تأنيث الفعل هنا نظيرُ ما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾، وكذا الكلامُ في قوله سبحانه:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ كالكلام فيما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ إنكارٌ لأنْ يُتْركوا فيما هم فيه

---

(١) البحر ٧/ ٣٤.

(٢) القاموس (ثمد). وذكر القراءة بضم الثاء الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٤٩، عند تفسير الآية (١٧) من سورة فصلت.

(٣) سبائك الذهب في أنساب العرب للشيخ محمد أمين بن علي بن محمد سعيد السويدي البغدادي الحنفي المتوفى سنة (١٢٤٦هـ). إيضاح المكنون ٢/ ٢.

من النعمة آمنين من[1] عذاب يوم عظيم، فالاستفهامُ مثلُه في قوله تعالى السابق: (أَتَبْنُونَ) وقولِه تعالى اللاحقِ: (أَتَأْتُونَ)، وكأنَّ القوم اعتقدوا ذلك فأنكره عليه السلام عليهم.

وجوَّز أن يكون الاستفهامُ للتقرير، تذكيراً للنعمة في تخليته تعالى إياهم وأسبابَ نَفْعِهِم آمنين من العدوِّ ونحوه، واستدعاءً لشكر ذلك بالإيمان. وفي «الكشف» أنَّ هذا أوفقُ في هذا المقام.

و«ما» موصولةٌ، و«ههنا» إشارةٌ إلى المكان الحاضر القريب، أي: أتتركون في الذي استقرَّ في مكانكم هذا من النعمة.

وقولُه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ بدلٌ من «ما ههنا» بإعادة الجارِّ كما قال أبو البقاء[2] وغيرُه، وفي الكلام إجمالٌ وتفصيلٌ نحو ما تقدَّم في قصة عاد.

وجوِّز أن يكون ظرفاً لـ «آمنين» الواقع حالاً، وليس بذاك.

والهضيم: الداخلُ بعضُه في بعض كأنه هُضِم، أي: شُدِخَ. وسأل عنه نافع بنُ الأزرق ابنَ عباس رضي الله عنهما، فقال له: المنضمُّ بعضُه إلى بعض. فقال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعتَ قولَ امرئ القيس:

دارٌ لبيضاءِ العَوَارضِ طَفْلةٍ ... مهضومةِ الكَشْحَيْنِ ريَّا المِعْصَمِ[3]

وقال الزهريُّ: هو [الرَّخْصُ] اللطيف أول ما يخرج[4].

---

(١) في (م): عن.

(٢) في الإملاء ٤/ ١٢٠.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٩٣. ولم نقف على البيت في ديوان امرئ القيس، ونسب في المفضليات ص٣٤٦، وجمهرة أشعار العرب ١/ ٥٠٨، ومنتهى الطلب ٢/ ٢٧٥ لبشر بن أبي خازم، وهو في ديوانه ص١٩٠. والعوارض: عوارض الأسنان، وهي ما يعرض من الشفتين جميعاً، وقيل: هي مقدم الفم، والمراد أنها نقية الثغر. والطفلة: الناعمة الرَّخْصة. والمهضومة: الخميصةُ البطن. والريا: الممتلئة. شرح المفضليات للتبريزي ٣/ ١٤٤٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠، والبحر ٧/ ٣٤، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

وقال الزجَّاج: هو الذي رُطَبُه بغير نوى[١]. وروي عن الحسن.

وقيل: هو المتدلِّي لكثرة ثمره.

وقيل: هو النضيجُ من الرُّطب، وروي عن عكرمة.

وقيل: الرُّطَبُ المذنِّب، وروي عن يزيد بن أبي زياد.

فوَصْفُ الطلع بالهضيم إمَّا حقيقةٌ، أو مجازٌ وهو حقيقةٌ وصفٌ لثمره. وجَعَل بعضُهم على بعض الأقوال الطَّلعَ مجازاً عن الثمر لأَوْلِه إليه.

والنخل اسمُ جنسٍ جمعيٌّ يذكَّرُ كما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] ويؤنَّثُ كما هنا، وليس ذلك لأنَّ المراد به الإناثُ؛ فإنه معلومٌ بقرينة المقام[٢] ولو ذكِّر الضمير.

وإفرادُه بالذكر مع دخوله في الجنات لفَضْلِه على سائر أشجارها، أو لأن المراد بها غيره من الأشجار.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي: أَشِرِينَ بَطِرِينَ كما روي عن ابن عباس ومحمد بن العلاء. وجاء في روايةٍ أخرى عن ابن عباس تفسيرُه بنَشِطينَ مهتمِّين. وقال أبو صالح: أي: حاذقين، وبذلك فسَّره الراغب[٣]. وقال ابن زيد: أي: أقوياء.

وأنت تعلم أن هذه الجملة داخلةٌ في حيِّز الاستفهام السابق، والأوفقُ به على القول الأول القولُ الأول، وعلى القول الثاني كلٌّ من الأقوال الباقية، وكلُّها سواءٌ في ذلك، إلَّا أنه يُفْهَمُ من كلام بعضهم أنَّ الفراهة حقيقةٌ في النشاط مجازٌ في غيره، وعليه يترجَّحُ تفسيره بنَشِطينَ إذا أُريد التذكير.

وقرأ أبو حيوة وعيسى والحسن: «تَنْحَتون» بفتح الحاء. وقرئ: «تَنْحاتون» بألفٍ بعد الحاء إشباعاً. وعن عبد الرحمن بن محمد عن أبيه أنه قرأ: «يَنْحِتون»

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٦.

(٢) أي: بقرينة ذكرها في سياق الامتنان بها؛ لأنها هي المثمرة. حاشية الشهاب ٧/ ٢٣.

(٣) في مفرداته (فره).

بالياء آخِرِ الحروف وكَسْرِ الحاء. وعن أبي حيوة والحسن أيضاً أنهما قرأا بالياء التحتية وفتح الحاء[١].

وقرأ عبد الله وابن عباس وزيد بن عليٍّ والكوفيون وابنُ عامر: «فارهين» بألفٍ بعد الفاء[٢]، وقراءة الجمهور أبلغُ لِمَا ذكروا في حاذرٍ وحَذِرٍ[٣]. وقرأ مجاهد: «متفرِّهين»[٤].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ كأنه عَنَى بالخطاب جمهورَ قومه، وبالمسرفين كبراءَهم وأعلامَهم في الكفر والإضلال، وكانوا تسعةَ رهطٍ. ونسبةُ الإطاعة إلى الأمر مجازٌ وهي للآمِرِ حقيقةٌ، وفي ذلك من المبالغة ما لا يخفى، وكونُه لا يناسب المقام فيه بحثٌ.

ويجوز أن تكون الإطاعةُ مستعارةً للامتثال؛ لِمَا بينهما من الشَّبه في الإفضاء إلى فِعْلِ ما أُمر به، أو مجازاً مرسلاً عنه لِلُزومه له. ويحتمل أن يكون هناك استعارةٌ مكنية وتخييلية، وجوِّز عليه أن يكون الأمرُ واحدَ الأمور، وفيه من البعد ما فيه.

والإسرافُ: تجاوُزُ الحدِّ في كلِّ فِعْلٍ يفعلُه الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أَشْهَر، والمراد به هنا زيادةُ الفساد، وقد أوضحَ ذلك على ما قيل بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ولعل المراد ذمُّهم بالضلال في أنفسهم بالكفر والمعاصي، وإضلالِهم غيرَهم بالدعوة لذلك.

وللإيماء إلى عدم اختصاص شؤم فعلهم بهم حثّاً على امتثال النهي قيل: «في الأرض» والمراد بها أرضُ ثمود، وقيل: الأرضُ كلُّها.

ولمَّا كان «يفسدون» لا ينافي إصلاحَهم أحياناً أُرْدِفَ بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ لبيانِ كمالِ إفسادهم وأنه لم يخالطه إصلاحٌ أصلاً.

---

(١) ذكر جميع هذه القراءات ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٧، وأبو حيان في البحر ٧/ ٣٥.

(٢) التيسير ص١٦٦، والنشر ٢/ ٢٣٦ عن الكوفيين وابن عامر، والكلام من البحر ٧/ ٣٥.

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٥٦) من هذه السورة.

(٤) البحر ٧/ ٣٥.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ أي: الذين سُحِروا كثيراً حتى غَلَبَ على عقولهم. وقيل: أي: من ذوي السَّحْر، أي: الرئة، فهو كنايةٌ عن كونه من الأناسيِّ، فقولهُ تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ على هذا تأكيدٌ له، وعلى الأول هو مستأنفٌ للتعليل، أي: أنت مسحورٌ لأنك بشرٌ مثلُنا لا تَميُّزَ لك علينا، فدعواك إنما هي لخللٍ في عقلك.

﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ أي: بعلامةٍ على صحة دعواك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ فيها.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾ أي: بعد ما أخرجها الله تعالى بدعائه.

روي أنهم اقترحوا عليه ناقةً عُشَراءَ تخرجُ من صخرةٍ عيَّنوها ثم تَلِدُ سَقْباً[(١)]، فقعد عليه السلام يتفكَّر[(٢)]، فقال له جبريل عليه السلام: صلِّ ركعتين وسَلْ ربَّك. ففعل فخرجت الناقةُ وبركتْ بين أيديهم ونُتِجَتْ سَقْباً مثلَها في العظم، فعند ذلك قال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ أي: نصيبٌ مشروبٌ من الماء، كالسِّقْي والقِيْتِ للنصيب من السَّقي والقوتِ، وكان هذا الشِّربُ من عينٍ عندهم.

وفي «مجمع البيان» عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: أنَّ تلك العينَ أولُ عينٍ نبعَتْ في الأرض، وقد فجَّرها الله عزَّ وجلَّ لصالح عليه السلام[(٣)].

﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ فاقتنِعوا بشِرْبِكم ولا تُزاحموها على شِرْبها.

وقرأ ابنُ أبي عبلةَ: «شُرب» بضم الشين فيهما[(٤)]. واستُدلَّ بالآية على جوازِ قِسْمةِ ماءٍ نحوِ الآبار على هذا الوجه.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ كضربٍ وعَقْرٍ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحلُّ فيه، وهو أبلغُ من عظم العذاب، وهذا من المجاز في النسبة.

وجَعْلُ «عظيم» صفةَ «عذابُ» والجرّ للمجاورة، نحو: هذا جُحْرُ ضبٍّ خربٍ، ليس بشيءٍ.

---

(١) السقب: ولد الناقة. القاموس (سقب).
(٢) في (م): يتذكر، والمثبت من الأصل والبحر ٧/ ٣٥، والكلام منه.
(٣) مجمع البيان ١٩/ ١٧٤.
(٤) البحر ٧/ ٣٥.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ نُسب العقر إليهم كلِّهم مع أنَّ عاقرها واحدٌ منهم ـ وهو قدار بن سالف، وكان نسَّاجاً على ما ذكره غيرُ واحد، وجاء في روايةٍ أنَّ مسطعاً ألجأها إلى مضيقٍ في شِعْبٍ، فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت، ثم ضربها قدارٌ ـ لِمَا رُوي أن عاقرها قال: لا أعقرها حتى تَرْضَوا أجمعين. فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها، فيقول: أترضَيْنَ؟ فتقول: نعم. وكذلك الصبيان، فَرَضُوا جميعاً.

وقيل: لأنَّ العقر كان بأمرهم ومعاونتهم جميعاً كما يُفْصِحُ عنه قولُه تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩]. وفيه بحث.

﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ خوفاً من حلول العذاب كما قال جمعٌ، وتعقِّب بأنه مردودٌ بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: بعدما عَقَروها: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

وأجيب بأنَّ قوله: بعدما عقروها، في حيِّز المنع؛ إذ الواوُ لا تدلُّ على الترتيب، فيجوزُ أن يريدوا: بما تَعِدُنا من المعجزة. أو الواو حاليةٌ، أي: والحالُ أنهم طلبوها من صالح ووعدوه الإيمانَ بها عند ظهورها.

مع أنه يجوز نَدَمُ بعضٍ وقولُ بعضٍ آخَرَ ذلك؛ بإسنادِ ما صدر من البعض إلى الكلِّ لعدم نهيهم عنه أو نحوِ ذلك، أو ندموا كُلُّهم أوَّلاً خوفاً ثم قَسَتْ قلوبهم وزال خوفُهم، أو على العكس.

وجوِّز أن يقال: إنهم ندموا على عَقْرِها ندمَ توبةٍ، لكنه كان عند مُعاينةِ العذاب، وعند ذلك لا ينفعُ الندم.

وقيل: لم ينفعهم ذلك لأنهم لم يتلافَوْا ما فعلوا بالإيمان المطلوب منهم.

وقيل: ندموا على ترك سَقْبِها. ولا يخفى بعدُه.

ومثلُه ما قيل: إنهم ندموا على عَقْرِها لِمَا فاتهم به من لبنها، فقد روي أنه إذا كان يومُها أَصْدَرَتْهم لبناً ما شاؤوا.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الموعودُ، وكان صيحةً خمدتْ لها أبدانُهم، وانشقَّتْ قلوبُهم، وماتوا عن آخرهم، وصبَّ عليهم حجارة خلال ذلك.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ وكانوا من أصهاره عليه السلام ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ إنكارٌ وتوبيخ، والإتيانُ كنايةٌ عن الوَطْء، و«الذكران» جمعُ ذَكَرٍ مقابلَ الأنثى، والظاهرُ أنَّ «من العالمين» متصلٌ به، أي: أتأتون الذكران من أولاد بني آدم على فرطِ كثرتهم وتفاوُتِ أجناسهم وغَلَبةِ إناثهم على ذُكْرانِهم كأنَّ الإناث قد أَعْوَزَتْكم. فالمرادُ بـ «العالمين» الناسُ؛ لأنَّ المأتيَّ الذكورُ منهم خاصةً، والقرينةُ إيقاعُ الفعل، والجمعُ بالواو والنون من غير نظرٍ إلى تغليب. وأمَّا خروج المَلَكِ والجنِّ فمن الضرورة العقلية.

ويجوز أن يكون متصلاً بـ «تأتون» أي: أتأتون من بين مَن عَداكم من العالمين الذكران لا يشارِكُكم فيه غيرُكم، فالمراد بالعالمين كلُّ مَن يتأتَّى منه الإتيانُ. والعالَمُ على هذا ما يُعلَمُ به الخالق سبحانه، والجمعُ للتغليب، وخروجُ غيره لِمَا مرَّ. ولا يضرُّ كونُ الحمار والخنزير يأتيان الذكور في أمر الاختصاص؛ للندرة، أو لإسقاطهما عن حيِّز الاعتبار.

وجوِّز أن يراد بالعالمين على الوجه الثاني الناسُ أيضاً.

وإذا قيل بشمولهم لمن تقدَّم من العالمين تفيدُ الآية أنهم أوّلُ مَن سنَّ هذه السنَّةَ السيئةَ، كما يُفْصِحُ عنه قولهُ تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ لأجْلِ استمتاعِكم، وكلمةُ «من» في قوله تعالى ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ للبيان إن أريد بـ «ما» جنسُ الإناث، ولعل في الكلام حينئذٍ مضافين محذوفين، أي: وتذرون إتيانَ فروجِ ما خلق لكم. أو للتبعيض إنْ أُريد بـ «ما» العضوُ المباحُ من الأزواج، ويؤيِّده قراءةُ ابن مسعود: «ما أصلح لكم ربُّكم من أزواجكم»(١) وحينئذٍ يُكتفَى بتقدير مضافٍ واحد، أي: وتذرون إتيانَ ما خَلَق. ويكون في الكلام ـ على ما قيل ـ تعريضٌ بأنَّهم كانوا يأتون نساءهم أيضاً في

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٨، والكشاف ٣/ ١٢٤.

محاشهنَّ، ولم يصرِّح بإنكاره كما صرَّح بإنكار إتيانِ الذكران؛ لأنه دونه في الإثم. وهو على المشهور عند أهل السنة حرامٌ بل كبيرةٌ، وقيل: هو مباح، وقد تقدَّم الكلام في ذلك مبسوطاً عند الكلام في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾(1) [البقرة: ٢٢٣].

وقيل: ليس في الكلام مضافٌ محذوفٌ أصلاً، والمرادُ ذمُّهم بتَرْكِ ما خَلَقَ لهم وعَدَمِ الالتفات إليه بوجهٍ من الوجوه، فضلاً عن الإتيان. وأنت تعلم أنَّ المعنى ظاهر(2) على التقدير.

وقولهُ تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ، والعادِي: المتعدِّي في ظلمه، المتجاوزُ فيه الحدَّ، ومتعلّقُه مقدَّرٌ، وهو إما عامٌّ أو خاصٌّ، أي: بل أنتم قومٌ متعدُّون متجاوِزون الحدَّ في جميع المعاصي وهذا من جملتها، أو متجاوزون عن حدِّ الشهوة حيث زدتُم على سائر الناس، بل أكثر الحيوانات.

وقيل: متجاوزون الحدَّ في الظلم حيث ظلمتُم بإتيان ما لم يُخْلَقْ للإتيان، وتَرْكِ إتيانِ ما خُلِقَ له.

وفي «البحر»: أنَّ تصدير الجملة بضمير الخطاب تعظيماً لِفعْلِهم، وتنبيهاً على أنهم مختصُّون بذلك، كأنه قيل: بل أنتم قومٌ عادون لا غيرُكم.

---

(1) جاء في حاشية (م): بَيْدَ أنِّي وقفتُ عند كتابتي في هذا الموضع على كلام العز بن عبد السلام في «أماليه» في هذا المبحث، حاصله: أنَّ حرمة إتيان الزوجة في المحلِّ المكروه ليست إجماعية، إلَّا أنَّ معظم أهل الإسلام على تحريمه كما قال الطَّرسوسيُّ، والخلافُ فيه يسيرٌ جدّاً كالذي لا عبرة به. ويُذكَرُ أن ابن عبد الحكم نَقَل حِلَّه عن الشافعي، وأنَّ الربيع قال: كَذَبَ واللهِ ابنُ عبد الحكم. وقد نصَّ الإمام على تحريمه في ستِّ كتب. ولم يُحفَظْ عن مالك شيءٌ في إباحته البتة، ونَقْلُه من كتاب «السرِّ» غيرُ صحيح، بل في كتاب «البيان والتحصيل» لابن رشد الأندلسيِّ النصُّ على خلاف ذلك، وروايةُ الطحاوي عن أبي الفرج عن ابن القاسم حلَّه لا يعوَّل عليها ولا تصح. وأما إباحة زيد بن أسلم ونافع لذلك فلا يؤخذ بها، فنافعٌ إمامٌ في القراءات وليس معدوداً في الفقهاء أهلِ الحَلِّ والعقد، وأما زيدٌ فصاحبُ تفسيرٍ لا يعتدُّ لخلافه، فلْيُحفظ. اهـ منه. وينظر البيان والتحصيل لابن رشد ٤/٤٤٦.

(2) في الأصل: ظاهراً.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عن توبيخنا وتقبيح أمرنا، أو عمَّا أنت عليه من دعوى الرسالةِ ودعوتِنا إلى الإيمان وإنكارِ ما أنكرْتَه من أمرنا.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ أي: من المَنْفيِّينَ من قريتنا، المعهودين. وكأنهم كانوا يُخْرِجون مَن غَضِبوا عليه بسببٍ من الأسباب ـ وقيل: بسببِ إنكارِ تلك الفاحشة ـ من بينهم على عنفٍ وسوءِ حالٍ، ولهذا هدَّدوه عليه السلام بذلك، وعَدَلوا عن: لنُخرجَنَّكَ، الأخصَرِ إلى ما ذُكر، ولا يخفَى ما في الكلام من التأكيد.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: من المُبْغِضينَ غايةَ البُغْض. قال الراغب: يقال: قَلَاه [يَقْلُوْه] وَيَقْلِيهِ، فَمَنْ جعَلَه من الواو فهو من القَلْو، أي: الرَّمي، من قولهم: قَلَتِ الناقةُ براكبها قَلْواً، وقَلَوْتُ بالقلَّةِ: إذا رميتها، فكأنَّ المَقْلوَّ يقذفهُ القلبُ مِن بُغْضِه فلا يَقْبَلُه. ومَن جعَله من الياء فهو من قَلَيْتُ السَّويقَ على المقلاة. فكأنَّ شدَّة البُغْض تَقْلي الفؤادَ والكبدَ وتَشْويهما[1]. فقول أبي حيان: إنَّ قَلَى بمعنى أَبْغَضَ يائيٌّ، والذي بمعنى طَبَخَ وشَوَى واويٌّ[2]، ناشٍ من قلَّةِ الاطِّلاع.

والعدولُ عن: قالي، إلى ما في النظم الجليل لأنه أبلغُ، فإنه إذا قيل: قالي، لم يُفِدْ أكثر من تَلَبُّسِه بالفعل، بخلافِ قوله: «من القالين» إذ يفيدُ أنه ـ مع تلبُّسه ـ من قومٍ عُرِفوا واشْتَهَروا به، فيكون راسخَ القدم عريقَ العرق[3] فيه، وقد صرَّح بذلك ابنُ جنِّي وغيرُه.

واللام في «لعملكم» قيل: للتبيين كما في: سقياً لك، فهو متعلِّقٌ بمحذوفٍ، أعني: أعني. وقيل: هي للتقوية، ومتعلَّقُها عند مَن يرى تعلُّق حرفِ التقوية محذوفٌ، أي: إنِّي من القالين لعملكم من القالين. وقيل: هي متعلِّقة بـ «القالين» المذكورِ ويُتوسَّعُ في الظروف ما لا يتوسَّعُ في غيرها، فتقدَّمُ حيث لا يقدَّمُ غيرُها.

والمراد بعملهم إمَّا ما أنكره عليه السلام عليهم من إتيان الذكران وتَرْكِ ما خَلَق ربُّهم سبحانه لهم، وإمَّا ما يشملُ ذلك وسائرَ ما نهاهم عنه وأَمَرَهم بضدِّه من الأعمال القلبية والقالبية.

---

(١) مفردات الراغب (قلى)، وحاشية الشهاب ٧/ ٢٥، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٢) البحر ٧/ ٣٦.

(٣) في (م): العرف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٢٥، والكلام منه.

وقابَلَ عليه السلام تهديدهم ذلك بما ذُكر تنبيهاً على عدم الاكتراث به، وأنه راغبٌ في الخلاص من سوء جوارهم لشدة بغضه لعملهم، ولذلك أعْرضَ عن مُحاوَرَتهم وتوجَّه إلى الله تعالى قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: من شؤم عملهم، أو: الذي يعملونه وعذابه الدنيويِّ.

وقيل: يحتمل أن يكون دعاءً بالنجاة من التلبُّس بمثل عملهم، وهو بالنسبة إلى الأهل دونه عليه السلام؛ إذ لا يخشى تلبُّسه بذلك لمكان العصمة.

واعتُرض بأنَّ العذاب كذلك؛ إذ لا يعذَّب مَن لم يَجْنِ، وفيه منعٌ ظاهر، كيف وقد قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقيل: قد يدعو المعصومُ بالحفظ عن الوقوع فيما عُصِمَ عنه، كما يدلُّ عليه قولُه تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وهو مسلَّمٌ، إلا أنَّ الظاهر أنَّ المراد النجاةُ مما ينالُهم بسبب عملهم من العذاب الدنيويِّ، ويؤيِّدُه ظاهرُ قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

والظاهرُ أنَّ المراد بأهله أهلُ بيته، وجوِّز أن يكون المراد بهم مَن تَبِعَ دينَه مجازاً، فيشملُ أهلَ بيتِهِ المؤمنين وسائرَ مَن آمن به.

وقيل: لا حاجةَ إلى هذا التعميم إذ لم يؤمن به عليه السلام إلَّا أهلُ بيته.

والمراد بهذه العجوزِ امرأتُهُ عليه السلام، وكانت كافرةً مائلةً إلى القوم راضيةً بفِعْلِهم. والتعبيرُ عنها بالعجوز للإيماء إلى أنه مما لا يشقُّ أمرُ هلاكها على لوط عليه السلام وسائرِ أهله بمقتضى الطبيعة البشرية.

وقيل: للإيماء إلى أنها قد عَسِيَتْ[1] في الكفر ودامتْ فيه إلى أنْ صارت عجوزاً.

والغابرُ: الباقي بعد مضيِّ مَن معه، وأنشد ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك قولَ عبيد بن الأبرص:

---

(١) عَسَا الشيخُ يعسو عَسْواً: كَبِرَ. القاموس (عسا).

ذهبوا وخلَّفني المخلِّفُ فيهم فكأنَّني في الغابرين غريبُ(١)

والمراد: فنجَّيناه وأهلَه من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلاً عند مُشارَفةِ حُلولِه بهم، إلا عجوزاً مقدَّرةً في الباقين في العذاب بعد سلامةِ مَن خرج.

وإنما اعتُبر البقاءُ في العذاب دون البقاء في الدار لِمَا رُوي أنها خرجت مع لوطٍ عليه السلام فأصابها حجرٌ في الطريق فهلكت.

وقيل: المراد: من الباقين في الدار، بناءً على أنها لهلاكها كأنها ممن بقي فيها، أو أنها خَرجَتْ ثم رَجعَتْ فهَلكَتْ كما في بعض الروايات، أو أنها لم تخرج مع لوط عليه السلام أصلاً كما في البعض الآخر منها.

وقيل: الغابر: طويلُ العمر، وكأنه إنما أُطلق عليه ذلك لبقائه مع مُضيِّ مَن كان معه. والمرادُ وصفُ العجوز بأنها طاعنةٌ في السن.

وقرأ عبد الله كما رَوَى عنه مجاهد: «وواعَدْنا أنْ نُؤْتِيَه أهلَه أجمعين إلَّا عجوزاً في الغابرين»(٢).

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أهلكناهم أشدَّ إهلاكٍ وأَفْظَعَه، وكان ذلك بالائتفاك(٣). والظاهرُ العطفُ على «نجينا»، والتدميرُ متراخٍ عن التنجية من مطلق العذاب، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ المراد: أَرَدْنا تَنْجِيتَه، أو: حَكَمْنا بها، أو معنى «فنجَّيناه»: فاستَجَبنا دعاءه في تَنْجِيتِه، وكلُّ ذلك خلافُ الظاهر.

وجوَّز الطيبيُّ كون «ثم» للتراخي في الرتبة.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: نوعاً من المطر غيرَ معهودٍ، فقد كان حجارةً من سجِّيلٍ، كما صرَّح به في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢].

---

(١) أخرجه الطستي كما في الدر المنثور ٥/ ٩٣، ولم نقف على البيت في ديوان عبيد بن الأبرص.

(٢) أخرجها سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٥/ ٩٣ بلفظ: «وواعدناه أن نؤمنه أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين».

(٣) في (م): الائتفاك. والائتفاك: الانقلاب. اللسان (أفك).

وجُمِعَ الأمران لهم زيادةً في إهانتهم. وقيل: كان الائتفاكُ لطائفةٍ والإمطارُ لأخرى منهم، وكانت هذه ـ على ما روي عن مقاتل ـ للذين كانوا خارجينَ من القرية لبعض حوائجهم، ولعله مرادُ قتادةَ بالشُّذَّاذ فيما رُوي عنه.

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ اللامُ فيه للجنس، وبه يتسنَّى وقوعُ المضاف إليه فاعلَ «ساء» بناءً على أنهما بمعنى بئس، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ، وهو: مطرُهم، وإذا لم تكن «ساء» كذلك جاز كونُها للعهد.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ الأَيْكَة: الغيضةُ التي تُنبتُ ناعمَ الشجر، وهي غيضةٌ من ساحل البحر إلى مدينَ يسكنُها طائفةٌ، وكانوا ممن بُعث إليهم شعيبٌ عليه السلام، وكان أجنبيًّا منهم ولذلك قيل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ ولم يقل: أخوهم.

وقيل: «الأيكة»: الشجر الملتفُّ، وكان شجرُهم الدَّوم وهو المُقْلُ[1].

وعلى القولين «أصحاب الأيكة» غيرُ أهلِ مدينَ، ومن غريب النقل عن ابن عباس أنهم هم أصحابُ مدين.

وقرأ الحِرْمِيَّان وابنُ عامر: «لَيْكَةَ» بلامٍ مفتوحةٍ بعدها ياءٌ بغير ألفٍ ممنوع الصرف، هنا وفي «ص»[2]؛ قال أبو عبيد[3]: وجَدْنا في بعض كتب التفسير أنَّ «لَيْكَةَ» اسمٌ للقرية، و«الأيكة» البلادُ كلُّها، كمكةَ وبكَّة، ورأيتها في الإمام مصحفِ عثمان رضي الله عنه في «الحجر» و«ق»: «الأيكة»، وفي «الشعراء» و«ص»: «لَيْكَةَ»، واجتَمَعَتْ مصاحفُ الأمصار كلُّها بعد ذلك ولم تختلف.

وفي «الكشاف»: مَن قرأ بالنصب، وزَعَم أنَّ «لَيْكة» بوزن لَيْلة اسم بلد، فتَوَهُّمٌ

---

(١) المُقل: ثمر شجر الدوم، يُنْضَج ويؤكل، وهو قابض بارد مقوٍّ للمعدة. والدوم: شجر عظام من الفصيلة النخيلية، يكثر في صعيد مصر وفي بلاد العرب. ينظر القاموس(مقل)، والمعجم الوسيط(دوم).

(٢) التيسير ص١٦٦، والنشر ٢/ ٣٣٦، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

(٣) في الأصل و(م): عبيدة، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٨، والكشف عن وجوه القراءات لمكي بن أبي طالب ٢/ ٣٢، وإبراز المعاني لأبي شامة ص٦٢١، والبحر ٧/ ٣٧، والدر المصون ٨/ ٥٤٤، وحاشية الشهاب ٧/ ٢٥، ونقله المصنف عن البحر.

قاد إليه خطُّ المصحف، حيث وُجِدَتْ مكتوبةً هنا وفي «ص» بغير ألف، وفي المصحف أشياءُ كُتبتْ على خلافِ الخطِّ المصطلح عليه، وإنما كُتبت في هاتين السورتين على حُكْمِ لَفْظِ اللّافظِ كما يَكتبُ أصحاب النحو: الآن: لان، والأُولَى: لُولَى، لبيان لَفْظِ المخفَّف، وقد كُتبت في سائر القرآن على الأصل والقصةُ واحدةٌ، على أنَّ «لَيْكة» اسمٌ لا يُعرَف[1]. انتهى.

وتعقِّب[2] بأنه دعوى من غيرِ ثبتٍ، وكفى ثبتاً للمخالف ثبوتُ القراءة في السبعة وهي متواترةٌ، كيف وقد انضمَّ إليه ما سمعتَ عن بعض كتب التفسير، وإن لم تعوِّل عليه فما روى البخاري في صحيحه: «الأيكة» و«ليكة»: الغيضة[3]. هذا وإنَّ الأسماء المرتَجَلةَ لا مَنْعَ منها.

وفي «البحر»: أنَّ كون مادة (ل ي ك) مفقودةٌ في لسان العرب، كما تشبَّثَ به مَن أنكر هذه القراءة المتواترةَ، إن صحَّ لا يضرُّ وتكونُ الكلمة عجميةً، وموادُّ كلام العجم مخالفةٌ في كثيرٍ موادَّ كلام العرب، فيكون قد اجتمع على مَنْعِ صَرْفِها العَلَميةُ والعجمةُ والتأنيثُ، وبالجملة إنكارُ الزمخشريِّ صحةَ هذه القراءة يقرُبُ من الردَّة والعياذُ بالله تعالى، وقد سبقه في ذلك المبرِّدُ وابنُ قتيبةَ والزجَّاج والفارسيُّ والنحاس[4].

وقرئ: «ليكةِ» بحَذْفِ الهمزةِ وإلقاءِ حركتها على اللام والجرِّ بالكسرة[5]، وتُكتب على حُكْم لفظِ اللّافظِ بدون همزةٍ، وعلى الأصل بالهمزة، وكذا نظائرُها.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٨٠ أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي: أتِمُّوه ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝١٨١﴾ أي: حقوقَ

(١) الكشاف ٣/ ١٢٦.
(٢) في الأصل: وقد تعقب.
(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، قبل حديث (٤٧٦٨)، وينظر فتح الباري ٨/ ٤٩٧.
(٤) البحر ٧/ ٣٧. وينظر معاني القرآن للزجَّاج ٤/ ٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨٩-١٩٠، والحجة للفارسي ٥/ ٣٦٧-٣٦٨، وإبراز المعاني لأبي شامة ص٦٢١-٦٢٢، والكشف لمكي ٢/ ٣٢.
(٥) الكشاف ٣/ ١٢٦، والإملاء ٤/ ١٢٠، وتفسير الرازي ٢٤/ ١٦٣، وهي قراءة شاذة كما ذكر الشهاب في الحاشية ٧/ ٢٦.

الناس بالتطفيف، ولعل المبالغة المستفادةَ من التركيب متوجِّهةٌ إلى النهي، أو أنه لا يعتبر المفهومُ؛ لنحو ما قيل في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰا أَضْعَافًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وأيًّا ما كان ففي النهي المذكور تأكيدٌ للأمر السابق عليه.

﴿وَزِنُوا﴾ الموزونات ﴿بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ أي: بالميزان السويِّ.

وقيل: القسطاسُ: القبَّان، وروي ذلك عن الحسن.

وهو عند بعضٍ معرَّبٌ روميُّ الأصل، ومعناه: العدل، وروي ذلك عن مجاهد. وعند آخرين عربيٌّ، فقيل: هو من القِسْطِ، ووزنه فِعْلاع بتكرير العين شذوذاً؛ إذ هي لا تكرَّر وحدها مع الفصل باللام. وقيل: مِن قَسطَسَ، وهو رباعيٌّ ووزنه فِعْلال.

والمراد الأمرُ بوفاء الوزن وإتمامِه، والنهيُ عن النقص دون النهي عن الزيادة، والظاهرُ أنه لم يُنْهَ عنها ولم يُؤْمَرْ بها في الكيل والوزن، وكأنَّ ذلك دليلٌ على أنَّ مَن فَعَلَها فقد أَحْسَنَ ومَن لم يَفْعَلْها فلا عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ معنى «وزِنُوا» إلخ: وعدِّلوا أمورَكم كلَّها بميزانِ العدل الذي جَعَلَه الله تعالى لعباده. والظاهرُ ـ إذ عادَلَ سبحانه به «أوفوا الكيل» ـ ما تقدَّم.

وقرأ أكثر السبعة: «بالقُسطاس» بضم القاف(١).

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: لا تنقصوهم شيئاً من حقوقهم أيَّ حقٍّ كان، فإضافةُ «أشياء» جنسيةٌ، ويجوزُ أن تكون للاستغراق، والمراد مقابلةُ الجمع بالجمع، فيكون المعنى: لا تبخسوا أحداً شيئاً.

وجوِّز أن يكون الجمع للإشارة إلى الأنواع، فإنهم كانوا يبخسون كلَّ شيءٍ جليلاً كان أو حقيراً، وهذا تعميمٌ بعد تخصيص بعض المراد بالذكر لغاية انهماكهم فيه.

وقيل: المراد بأشيائهم الدراهمُ والدنانيرُ، وبَخْسُها بالقَطْعِ من أطرافها، ولولاه لم يُجمع.

---

(١) هي قراءة نافع وابن عامر وأبي عمرو وابن كثير وشعبة من السبعة. التيسير ص١٤٠، والنشر ٣٠٧/٢، وقرأ بها من العشرة أبو جعفر ويعقوب.

وبَخَسَ مما يتعدَّى إلى اثنين، فالمنصوبان مفعولاه. وقيل: هو متعدٍّ لواحدٍ، فالثاني بدلُ اشتمالٍ.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق ونحوِ ذلك. والعثوُّ: الفساد أو أشدُّه، و«مفسدين» حالٌ مؤكِّدةٌ. وجوّز أن يكون المراد: مفسدين آخرتكم، فتكون حالاً مؤسِّسةً.

﴿وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ أي: وذوي الجبلَّة، أي: الخِلْقة والطبيعة، أو: والمجبولين على أحوالهم التي بُنوا عليها، وسُبُلهم التي قُيِّضوا لسلوكها، المتقدِّمين عليكم من الأمم.

وجاء في روايةٍ عن ابن عباس: أنَّ الجبلَّة الجماعةُ إذا كانت عشرة آلافٍ. كأنها شبِّهتْ ـ على ما قيل ـ بالقطعة العظيمة من الجبل.

وقيل: هي الجماعةُ الكثيرةُ مطلقاً، كأنها شبِّهت بما ذُكر أيضاً.

وقرأ أبو حصينٍ والأعمشُ والحسنُ بخلافٍ عنه: «الجُبُلَّة» بضم الجيم والباء وشدِّ اللام[1]. وقرأ السُّلميُّ: «الجِبْلَة» بكسر الجيم وسكونِ الباء كالخِلْقة، وفي نسخةٍ عنه: بفتح الجيم وسكون الباء[2]. قيل: وتشديدُ اللام في القراءتين للمبالغة.

﴿قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ الكلامُ فيه نظيرُ ما تقدَّم في قصة ثمود، بيد أنه أَدْخَلَ الواو بين الجملتين هنا للدلالة على أنَّ كلًّا من التسحير والبشرية مُنافٍ للرسالة، فكيف إذا اجتمعا. وأرادوا بذلك المبالغةَ في التكذيب، ولم تدخل هناك حيث لم يُقْصَدْ إلَّا معنًى واحدٌ، وهو كونُه مسحَّراً، ثم قرَّر بكونه بشراً مثلهم، كذا في «الكشاف»[3].

وفي «الكشف» أنَّ فيه ما يلوح إلى اختصاص كلٍّ بموضعه، وأنَّ الكلام هنالك في كونه مثلَهم غيرَ ممتازٍ بما يوجب الفضيلةَ، ولهذا عقَّبوه بقولهم: «فأتِ بآيةٍ»، فدلَّ على أنهم لم يجعلوا البشرية منافيةً للنبوَّة، وإنما جعلوا الوصفَ تمهيداً

---

(١) المحتسب ٢/ ١٣٢، والقراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ٣٨، والكلام منه.
(٢) البحر ٧/ ٣٨، والثانية في القراءات الشاذة ص١٠٧.
(٣) ٣/ ١٢٧.

للاشتراك، وأنه أَبْدَعَ في دعواه. وهاهنا ساقوا ذلك مساق ما ينافي النبوةَ، فجعلوا كلَّ واحدٍ صفةً مستقلَّةً في المنافاة ليكون أبلغَ، وجعلوا إنكار النبوَّة أمراً مفروغاً، ولذا عقَّبوه بقولهم: «وإنْ نظنُّك» إلخ.

وقال النيسابوريُّ في وجه الاختصاص: إنَّ صالحاً عليه السلام قلَّل في الخطاب فقلَّلوا في الجواب، وأَكْثَرَ شعيبٌ عليه السلام في الخطاب ـ ولهذا قيل له: خطيبُ الأنبياء ـ فأكثروا في الجواب[1]. ولعله أراد أنَّ شعيباً عليه السلام بالَغَ في زَجْرهم فبالغوا في تكذيبه، ولا كذلك صالحٌ عليه السلام مع قومه. فتأمَّل.

و«إنْ» في قوله سبحانه: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦﴾ هي المخفَّفة من الثقيلة، واللامُ في «لمن» هي الفارقة. وقال الكوفيون: «إنْ» نافيةٌ، واللام بمعنى «إلا». وهو خلافٌ مشهورٌ.

أي: وإن الشأنَ نظنُّك من الكاذبين في الدعوى، أو: ما نظنُّك إلَّا من الكاذبين فيها.

ومرادُهم أنه عليه السلام ـ وحاشاه ـ راسخ القدم في الكذب في دعواه الرسالةَ، أو: فيها وفي دعوى نزولِ العذاب الذي يُشْعِرُ به الأمرُ بالتقوى من التهديد. وظاهرُ حالهم إنهم عَنَوا بالظنِّ الإدراكَ الجازم.

وقولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧﴾ من الاقتراح الذي تحته كلُّ الإنكار، على نحو: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال:٣٢] ولعلهم قابلوا به ما أشعر به الأمرُ بالتقوى ممَّا ذكرنا.

و«كِسَفاً» أي: قِطعاً ـ كما رُوي عن ابن عباس وقتادة ـ جمعُ كِسْفةٍ كقِطْعةٍ.

وقرأ الأكثرون: «كِسْفاً» بكَسْرِ الكاف وسكون السين[2]، وهو أيضاً جمعُ كِسْفةٍ، مثل سِدْرةٍ وسِدْرٍ، وقيل: الكِسْفُ والكِسْفَةُ كالرِّيْع والرِّيعة، وهي القطعة.

---

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ١٩/ ٧١.

(٢) هي قراءة الجميع عدا حفصاً. التيسير ص١٦٦، والنشر ٢/ ٣٠٩.

والمرادُ بالسماء إمَّا المُظِلَّةُ ـ وهو الظاهر ـ وإما السحابُ. والظاهرُ أنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لِمَا قبله، وتعلُّقه بـ «أَسْقِطْ» في غاية السقوط، وجوِّز عليه أن يراد بالسماء جهةُ العلوِّ.

وجواب «إنْ» محذوفٌ دلَّ عليه «فأَسْقِطْ»، ومَن جوَّز تقدُّم الجواب جَعَلَه الجواب.

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أي: هو تعالى أعلمُ بأعمالكم من الكفر والمعاصي، وبما تستَوْجِبون عليها من العذاب، فسيُنْزِلهُ عليكم حَسْبَما تستَوْجِبون في وقته المقدَّرِ له لا محالة.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فاستمرُّوا على تكذيبه، وكذَّبوه تكذيباً بعد تكذيب.

﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ وذلك على ما أخرج عبد بن حميد وابنُ جرير وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس: أنَّ الله تعالى بعث عليهم حرّاً شديداً فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم، فخرجوا منها هراباً إلى البرية، فبعث الله تعالى عليهم سحابةً فأظلَّتهم من الشمس، وهي الظلَّة، فوجدوا لها برداً ولذةً، فنادى بعضُهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقطها الله عزَّ وجلَّ عليهم ناراً فأكلتهم جميعاً[١].

وجاء في كثيرٍ من الروايات أنَّ الله عز وجلَّ سلَّط عليهم الحرَّ سبعةَ أيامٍ ولياليهنَّ، ثم كان ما كان من الخروج إلى البرية وما بعده، وكان ذلك على نحوِ ما اقترحوه، لا سيما على القول بأنهم عَنَوا بالسماء السحابَ.

وفي إضافة العذاب إلى يوم الظلَّة دون نفسها إيذانٌ بأنَّ لهم عذاباً آخر غيرَ عذابِ الظلَّةِ، وفي ترك بيانه تعظيمٌ لأمره.

وقد أخرج ابن جرير والحاكم وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مَن حدَّثك من العلماء ما عذابُ يومِ الظلَّة فكذِّبه[٢]. وكأنه أراد بذلك مجموعَ عذابِ

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨١٤، والمستدرك ٢/ ٥٦٨-٥٦٩، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٩٣-٩٤ وعنه نقل المصنف.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨١٥، والمستدرك ٢/ ٥٦٩.

الظلَّة الذي ذُكر في الخبر السابقِ، والعذابِ الآخر الذي آذَنَتْ به الإضافةُ إلى اليوم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩﴾ أي: في الشدة والهولِ، وفظاعةِ ما وقع فيه من الطامَّة والداهية التامَّة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٩١﴾ هذا آخر القصص السبع التي سيقَتْ لِمَا عَلِمْتَه سابقاً، ولعل الاقتصار على هذا العدد ـ على ما قيل ـ لأنه عددٌ تامٌّ، وأنا أفوِّضُ العلم بسرِّ ذلك، وكذا العلم بسرِّ ترتيب القصص على هذا الوجه، لحضرة علَّام الغيوب جلَّ شأنُه.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢﴾ إلخ عَوْدٌ لِمَا في مطلع السورة الكريمة من التنويه بشأن القرآن العظيم، وردٌّ ما قال المشركون فيه، فالضميرُ راجعٌ إلى القرآن.

وقيل: هو تقريرٌ لحقِّيةِ تلك القصص، وتنبيهٌ على إعجاز القرآن ونبوَّةِ محمدٍ ﷺ، فإنَّ الإخبار عنها ممن لم يتعلَّمها لا يكون إلَّا وحياً من الله عزَّ وجلَّ، فالضميرُ لِمَا ذُكِرَ من الآيات الكريمة الناطقةِ بتلك القصص المحكية. وجوَّز أن يكون للقرآن الذي هي من جملته، والإخبارُ عن ذلك بـ «تنزيل» للمبالغة، والمراد: إنه لمنزَّلٌ من الله تعالى.

ووَصْفُه سبحانه بربوبية(١) العالمين للإيذان بأنَّ تنزيله من أحكام تربيته عزَّ وجلَّ، ورأفته بالكلِّ.

﴿نَزَلَ بِهِ﴾ أي: أنزله، على أنَّ الباء للتعدية. وقال أبو حيان وابنُ عطية: هي للمصاحبة، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ﴾(٢) [المائدة: ٦١]، أي: نزل مصاحباً له.

﴿ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣﴾ يعني جبرائيل عليه السلام، وعبَّر عنه بالرُّوح لأنه يحْيا به الخَلْقُ في باب الدِّين، أو لأنه رُوحٌ كلُّه، لا كالناس الذين في أبدانهم روحٌ.

---

(١) في الأصل: بربوبيته، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٦٣، والكلام منه.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٣، والبحر نقلاً عن المحرر ٧/ ٤٠.

ووُصف عليه السلام بالأمين لأنه أمينُ وَحْيِه تعالى، ومُوصِلُه إلى مَن شاء مِن عباده جلَّ شأنُه من غيرِ تغييرٍ وتحريفٍ أصلاً.

وقرأ حمزة والكسائيُّ وأبو بكر وابن عامر: «نزَّلَ به الروحَ الأمينَ» بتشديد الزاي ونَصْبِ «الروح» و«الأمين»[١]، أي: جَعَل الله تعالى الروح الأمين نازلاً به.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ متعلِّقٌ بـ «نزل» لا بـ «الأمين».

والمراد بالقلب إمَّا الروح، وهو أحدُ إطلاقاته كما قال الراغب[٢]، وكونُ الإنزال عليه ـ على ما قال غيرُ واحد ـ لأنه المدرِكُ والمكلَّفُ دون الجسد.

وقد يقال: لمَّا كان له ﷺ جهتان: جهةٌ مَلَكية يستفيضُ بها، وجهةٌ بشريةٌ يفيضُ بها، جُعِلَ الإنزالُ على روحه ﷺ؛ لأنها المتَّصفةُ بالصفات الملكية التي يستفيضُ بها من الروح الأمين. وللإشارة إلى ذلك قيل: «على قلبك» دون: عليك، الأخْصَرِ.

وقيل: إنَّ هذا لأنَّ القرآن لم ينزل في الصحف كغيره من الكتب.

وإمَّا العضوُ المخصوصُ، وهو الإطلاقُ المشهور، وتخصيصهُ بالإنزال عليه، قيل: للإشارة إلى كمال تعقُّله ﷺ وفَهْمِه ذلك المنزَل، حيث لم تُعتبر واسطةٌ في وصوله إلى القلب الذي هو محلُّ العقل، كما يقتضيه ظاهرُ كثيرٍ من الآيات والأحاديث، ويشهدُ له العقلُ، على مالا يخفى على مَن كان له قلبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيد.

وقد أطال في الانتصار لذلك الإمامُ في تفسيره، ورَدَّ على من ذهب إلى أنَّ الدماغ محلُّ العقل[٣].

وقيل: للإشارة إلى صلاح قلبه عليه الصلاة والسلام وتقدُّسه حيث كان مَنْزِلاً لكلامه تعالى؛ ليُعْلَم منه حالُ سائر أجزائه ﷺ؛ فإنَّ القلب رئيسُ جميع الأعضاء ومَلِكُها، ومتى صَلَحَ المَلِكُ صَلَحتِ الرعيةُ، وفي الحديث: «أَلَا وإنَّ في الجسد

---

(١) التيسير ص١٦٦، والنشر ٢/٣٣٦. وهي قراءة يعقوب وخلف.

(٢) في مفرداته (قلب).

(٣) تفسير الرازي ٢٤/١٦٦-١٦٨.

مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألَا وهي القلب»[١].

وقد يقال: يجوزُ أن يكون التخصيصُ لأنَّ الله تعالى جَعَلَ لقلب رسوله ﷺ سمعاً مخصوصاً يسمعُ به ما ينزلُ عليه من القرآن، تمييزاً لشأنه على سائر ما يسمعه ويَعِيه، على حدِّ ما قيل وذكره النوويُّ في «شرح صحيح مسلم» في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١] من أنَّ الله عزَّ وجلَّ جَعَلَ لفؤاده عليه الصلاة والسلام بصراً فرآه به سبحانه ليلةَ المعراج[٢].

وهذا كلُّه على القول بأنَّ جبرائيل عليه السلام ينزل بالألفاظ القرآنيةِ المحفوظةِ له بعد أنْ نزل القرآنُ جملةً من اللَّوح المحفوظ إلى بيت العزة، أو التي يحفظها من اللوح عند الأمر بالإنزال، أو التي يوحَى بها إليه، أو التي يسمعها منه سبحانه على ما قاله بعضُ أجلَّة السلف عنده، فيلقيها إلى النبيِّ ﷺ على ما هي عليه من غير تغييرٍ أصلاً. وكذا على القول بأنَّ جبرائيل عليه السلام أُلقي عليه المعاني القرآنية، وأنه عبَّر عنها بهذه الألفاظ العربية، ثم نزل بها كذلك فألقاها إلى النبيِّ ﷺ.

وأمَّا على القول بأنه عليه السلام إنما نزل بالمعاني خاصةً إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وأنه عليه الصلاة والسلام علم تلك المعانيَ وعبَّر عنها بلغةِ العرب، فقيل: إنَّ القلب بمعنى العضو المخصوص لا غير، وتخصيصهُ لأنَّ المعاني إنما تُدْرَكُ بالقوة المودَعةِ فيه. وقيل: يجوزُ أن يراد به الروحُ، وروحُه عليه الصلاة والسلام لغايةِ تقدُّسها وكمالِها في نفسها تدركُ المعانيَ من غير توسُّطِ آلةٍ.

ومن الناس مَن ذهب إلى هذا القول، وجَعَل الآيةَ دليلاً له، وهو قولٌ مرجوحٌ. ومثلهُ القولُ بأنَّ جبرائيل عليه السلام ألقي عليه المعاني فعبَّر عنها بألفاظٍ فنزل بما عبَّر هو به.

والقول الراجحُ أنَّ الألفاظ منه عزَّ وجلَّ كالمعاني لا مدخل لجبرائيل عليه السلام فيها أصلاً، وكان النبيُّ ﷺ يسمعها ويَعيها بقوًى إلهيةٍ قُدْسيةٍ لا كسماع

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٣/٦ نقلاً عن الواحدي.

البشر إياها منه عليه الصلاة والسلام، وتنفعلُ عند ذلك قواه البشرية، ولهذا يظهر على جسده الشريفِ ﷺ ما يظهر، ويقال لذلك: بُرَحَاء الوحي، حتى يُظَنّ في بعض الأحايين أنه أُغمي عليه عليه الصلاة والسلام.

وقد يُظَنُّ أنه ﷺ أَغْفَى، وعلى هذا يخرَّجُ ما رواه مسلم عن أنس قال: بَيْنَا رسول الله ﷺ بين أَظْهُرِنا، إذا أغفى إغفاءةً، ثم رفع رأسه متبسِّماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: «أنزل علي آنفاً سورةٌ»، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾»[1].

ولا يحتاجُ مَن قال: إنَّ الأشبه أنَّ القرآن كلَّه نزل في اليقظة، إلى تأويل هذا الخبر بأنه عليه الصلاة والسلام خَطَر له في تلك الإغفاءة سورةُ الكوثر التي نزلت قبلها في اليقظة، أو عُرِضَ عليه «الكوثر» الذي أنزلت فيه السورة فقرأها عليهم.

ثم إنه على ما قيل من أنَّ بعض القرآن نزل عليه عليه الصلاة والسلام وهو نائمٌ استدلالاً بهذا الخبر، يبقى ما قلناه من سماعه عليه الصلاة والسلام ما ينزل إليه ﷺ ووَعْيِه إياه بقوَّى إلهيةٍ قدسيةٍ، ونومُه عليه الصلاة والسلام لا يمنع من ذلك، كيف وقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «تنام عيني ولا ينامُ قلبي»[2].

وقد ذَكَر بعضُ المتصدِّرين في محافل الحكمة من المتأخِّرين في بيانِ كيفيةِ نزول الكلام وهبوطِ الوحي من عند الله تعالى بواسطة الملك على قلب النبيِّ ﷺ: أنَّ الروح الإنسانيَّ إذا تجرَّد عن البدن، وخرج عن وثاقه من بيت قالبه وموطنِ طَبْعِه مهاجراً إلى ربِّه سبحانه لمشاهدةِ آياته الكبرى، وتطهَّر عن درن المعاصي واللذات والشهواتِ والوساوسِ العاديةِ والمتعلّقات، لاح له نورُ المعرفة والإيمان بالله تعالى ومَلَكوتِه الأعلى، وهذا النورُ إذا تَأكَّدَ وتَجَوْهَرَ كان جوهراً قدسيًّا يسمَّى في لسان الحكمة النظرية بالعقل الفعَّال، وفي لسان الشريعة النبوية بالروح القدسيِّ.

---

(١) صحيح مسلم (٤٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٠٧٣)، والبخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨): (١٢٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وبهذا النور الشديد العقليِّ يتلألأ فيه أسرارُ ما في الأرض والسماء، ويتراءى منه حقائقُ الأشياء كما يتراءى بالنور الحسيِّ البَصَريِّ الأشباحُ المثاليةُ في قوة البصر إذا لم يمنع حجاب، والحجابُ هاهنا هو آثارُ الطبيعة وشواغلُ هذه الأولى. فإذا عَريَتِ النفس عن دواعي الطبيعة والاشتغالِ بما تحتها من الشهوة والغضب والحسِّ والتخيُّل، وتوجَّهتْ بوجهها شَطْرَ الحقِّ وتلقاءَ عالمَ الملكوت الأعلى، اتَّصلت بالسعادة القصوى، فلاح لها سرُّ الملكوت، وانعكس عليها قُدسُ اللاهوت، ورأت عجائبَ آيات الله تعالى الكبرى.

ثم إنَّ هذه الروحَ إذا كانت قدسيةً شديدةَ القوى، قوية الآثار لقوَّةِ اتِّصالها بما فوقها، فلا يشغلُها شأنٌ عن شأنٍ، ولا يمنعها جهة فوقها عن جهة تحتها، فتضبطُ الطرفين، وتَسعُ قوتُها الجانبين؛ لشدة تمكُّنها في الحدِّ المشترك بين الملك والملكوت، كالأرواح الضعيفة التي إذا مالت إلى جانبٍ غاب عنها الجانبُ الآخر، وإذا رَكَنتْ إلى مَشْعَرٍ من المشاعر ذهلتْ عن المَشْعَرِ الآخرَ.

وإذا توجَّهت هذه الروحُ القدسيةُ التي لا يشغلُها شأنٌ عن شأنٍ، ولا تَصْرِفُها نشأةٌ عن نشأةٍ، وتلقَّت المعارفَ الإلهية بلا تعلُّم بشريٍّ بل من الله تعالى، يتعدّى تأثيرها إلى قواها، ويتمثَّلُ لروحه البشريِّ صورةٌ ما بروحه القدسيِّ، وتبرزُ منها إلى ظاهر الكون فتتمثَّلُ للحواسِّ الظاهرة، سيَّما السمع والبصر لكونهما أشرفَ الحواسِّ الظاهرةِ، فيرى ببصره شخصاً محسوساً في غاية الحُسْنِ والصَّبَاحةِ، ويسمعُ بسمعه كلاماً منظوماً في غاية الجودة والفصاحة، فالشخصُ هو المَلَكُ النازلُ بإذن الله تعالى، الحاملُ للوحي الإلهيِّ، والكلامُ هو كلام الله تعالى، وبيده لوحٌ فيه كتابٌ هو كتابُ الله تعالى.

وهذا الأمر المتمثِّلُ بما معه أو فيهِ ليس مجرَّدَ صورةٍ خياليةٍ لا وجودَ لها في خارج الذهن والتخيُّل، كما يقوله مَن لا حظَّ له من علم الباطن، ولا قدَم له في أسرار الوحي والكتاب، كبعض أتباع المشَّائين، معاذ الله تعالى عن هذه العقيدة الناشئة عن الجهل بكيفية الإنزال والتنزيل.

ثم قال: إنارة قلبية وإشارة عقلية، عليك أنْ تعلم أنَّ للملائكة ذواتٍ حقيقيةً وذواتٍ إضافيةً مضافةً إلى ما دونها إضافةَ النفس إلى البدن الكائنِ في النشأة

الآخرة، فأما ذواتُها الحقيقيةُ فإنما هي أَمْرِيَّةٌ قضائيةٌ قوليةٌ، وأما ذواتُها الإضافيةُ فإنما هي خَلْقيةٌ قَدَريةٌ تنشأ منها الملائكةُ اللّوْحيةُ، وأعظمُهم إسرافيل عليه السلام، وهؤلاء الملائكة اللوحيةُ يأخذون الكلام الإلهيَّ والعلوم اللَّدُنيةَ من الملائكة القَلَمية ويثبتونها في صحائف ألواحهم القدرية الكتابية.

وإنما كان يلاقي النبيُّ ﷺ في معراجه الصنفَ الأولَ من الملائكة، ويشاهدُ روحَ القُدُسِ في اليقظة، فإذا اتَّصلتِ الروحُ النبويةُ بعالَمهم عالَمِ الوحي الربانيِّ يسمعُ كلامَ الله تعالى، وهو إعلامُ الحقائق بالمكالمة الحقيقية، وهي الإفاضةُ والاستفاضةُ في مقامِ قاب قوسين أو أدنى، وهو مقامُ القُرْبِ، ومقعدُ الصِّدقِ، ومعدنُ الوحي والإلهام.

وكذا إذا عاشر النبيُّ الملائكةَ الأعْلَيْنَ يسمعُ صريفَ أقلامهم وإلقاء كلامهم، وهو كلامُ الله تعالى النازلُ في محلِّ معرفتهم، وهي ذواتُهم وعقولُهم لكونهم في مقام القرب. ثم إذا نزل عليه الصلاة والسلام إلى ساحة الملكوت السماويِّ يتمثّلُ له صورةُ ما عَقَلَه وشاهَدَه في لوح نفسه الواقعةِ في عالم الأرواح القدرية السماوية، ثم يتعدَّى منه الأثر إلى الظاهر، وحينئذٍ يقع للحواسِّ شبهُ دهشٍ ونومٍ؛ لِمَا أنَّ الروح القدسيةَ لضَبْطِها الجانبين تستعملُ المشاعرَ الحسِّيةَ، لكن لا في الأغراض الحيوانية بل في سبيل السلوك إلى الربِّ سبحانه، فهي تُشايعُ الروحَ في سبيل معرفته تعالى وطاعته.

فلا جَرَمَ إذا خاطبه الله تعالى خطاباً من غير حجابٍ خارجيٍّ، سواءٌ كان الخطاب بلا واسطةٍ أو بواسطةِ المَلَكِ، واطَّلع على الغيب فانْطَبَع في فصِّ نفسه النبوية نَقْشُ الملكوت وصورةُ الجبروت، تنجذبُ قوةُ الحسِّ الظاهرِ إلى فوق، ويتمثَّل لها صورةٌ غيرُ منفكَّةٍ عن معناها وروحِها الحقيقيِّ، لا كصورةِ الأحلامِ والخيالات العاطلة عن المعنى، فيتمثَّل لها حقيقةُ المَلَكِ بصورته المحسوسة بحسب ما يحتملها، فيرى مَلَكاً على غير صورته التي كانت له في عالم الأمر؛ لأن الأمر إذا نزل صار خَلْقاً مقدَّراً، فيرى صورته الخَلْقية القدرية، ويسمعُ كلاماً مسموعاً بعد ما كان وحياً معقولاً، أو يرى لوحاً بيده مكتوباً. فالمُوْحَى إليه يتَّصل بالمَلَكِ أولاً بروحه العقليِّ، ويتلقَّى منه المعارفَ الإلهيةَ، ويشاهدُ ببصره العقليِّ

آياتِ ربِّه الكبرى، ويسمعُ بسَمْعِه العقليِّ كلام ربِّ العالمين من الروح الأعظم. ثم إذا نزل عن هذا المقام الشامخ الإلهيِّ يتمثَّلُ له الملكُ بصورةٍ محسوسة بحسبه، ثم ينحدرُ إلى حسِّه الظاهر، ثم إلى الهواء. وهكذا الكلامُ في كلامه، فيسمع أصواتاً وحروفاً منظومةً مسموعةً يختصُّ هو بسماعها دون غيره، فيكون كلٌّ من المَلَكِ وكلامه وكتابه قد تأدَّى من غيبه إلى شهادته، ومن باطنِ سرِّه إلى مشاعره.

وهذه التأديةُ ليست من قبيل الانتقال والحركة للمَلَكِ المُوْحي من موطنه ومقامه، إذ كلٌّ له مقامٌ معلومٌ لا يتعدَّاه ولا ينتقلُ عنه، بل مرجعُ ذلك إلى انبعاثِ نفسِ[1] النبيِّ عليه الصلاة والسلام من نشأة الغيب إلى نشأة الظهور، ولهذا كان يَعْرِضُ له شبهُ الدَّهشِ والغَشْي، ثم يَرَى ويَسْمَعُ، ثم يقعُ منه الإنباءُ والإخبارُ. فهذا معنى تنزيلِ الكتاب وإنزالِ الكلام من ربِّ العالمين. انتهى.

وفيه ما تأباه الأصولُ الإسلامية مما لا يخفى عليك. وقد صرَّح غيرُ واحدٍ من المحدِّثين والمفسِّرين وغيرهم بانتقال الملك، وهو جسمٌ عندهم، ولمْ يؤوِّل أحدٌ منهم نزولَه فيما نعلم.

نعم أوَّلوا نزولَ القرآن وإنزالَه؛ قال الأصفهاني في أوائل تفسيره[2]: اتَّفق أهلُ السنةِ والجماعةِ على أنَّ كلام الله تعالى منزلٌ، واختلفوا في معنى الإنزال؛ فمنهم مَن قال: إظهار القراءة. ومنهم مَن قال: إنَّ الله تعالى ألْهمَ كلامه جبريلَ عليه السلام وهو في السماء، وعلَّمه قراءته، ثم جبريلُ أدَّاه في الأرض، وهو يهبطُ في المكان، وفي ذلك طريقتان: إحداهما: أنَّ النبيَّ ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة المَلَكية وأخذه من جبريل عليه السلام. وثانيتُهما: أنَّ الملك انخلع إلى البَشَرية حتى يأخذه النبيُّ ﷺ منه. والأولى أصعبُ الحالين. انتهى.

وقال الطيبيُّ: لعل نزولَ القرآن على الرسول عليه الصلاة والسلام أنْ يتلقَّفه الملكُ تلقُّفاً روحانيّاً، أو يحفظَه من اللوح المحفوظ، فينزلَ به إلى الرسول ويُلقيه عليه.

---

(١) في (م): نفسي.

(٢) كما في الإتقان ١/١٣٨، وعنه نقل المصنف، وكذا ما سيأتي من أقوال.

وقال القطب في «حواشي الكشاف»: الإنزالُ في اللغة: الإيواء، وبمعنى تحريك الشيء من علوٍ إلى سفل، وكلاهما لا يتحقَّقان في الكلام، فهو مستعملٌ بمعنًى مجازيٍّ، فمن قال: القرآنُ معنًى قائمٌ بذاتِ الله تعالى، فإنزالهُ أنْ توجد[1] الكلمات والحروف الدالَّة على ذلك المعنَى ويثبتها في اللوح المحفوظ. ومَن قال: القرآنُ هو الألفاظُ الدالَّةُ على المعنى القائم بذاته تعالى، فإنزالهُ مجرَّدُ إثباتهِ في اللوح المحفوظ، وهذا المعنى مناسبٌ لكونه مجازاً عن أوّل المعنيين اللغويين. ويمكن أن يكون المرادُ بإنزاله إثباته في السماء الدنيا بعد الإثبات في اللوح المحفوظ، وهذا مناسبٌ للمعنى الثاني.

والمراد بإنزالِ الكتب على الرسل أن يتلقَّفها الملكُ من الله تعالى تلقُّفاً روحانياً، أو يَحْفَظَها من اللوح المحفوظ وينزلَ بها فيُلْقيها عليهم. انتهى، وفيه بحثٌ لا يخفى.

وعندي: أنَّ إنزاله إظهارُه في عالَم الشهادة بعد أنْ كان في عالَم الغيب.

ثم إنَّ ظاهر الآية يقتضي أنَّ جميع القرآن نزل به الروحُ الأمينُ على قلبه الشريف ﷺ، وهذا ينافي ما قيل: إنَّ آخِرَ سورةِ البقرة كلَّمه الله تعالى بها ليلةَ المعراج حيث لا واسطةَ، احتجاجاً بما أخرجه مسلم عن ابن مسعود: لمَّا أُسريَ برسول الله ﷺ انتهى إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، الحديثَ، وفيه: فأعطيَ رسول الله ﷺ الصلواتِ الخمسَ، وأُعطيَ خواتيمَ سورة البقرة، وغُفِرَ لمن لا يشركُ من أمته بالله تعالى شيئاً المقحِمات[2].

وأجيب بعد تسليم أنْ يكون ما ذُكر دليلاً لذلك: يجوزُ أن يكون قد نزل جبريل عليه السلام بما ذُكر أيضاً تأكيداً وتقريراً، أو نحو ذلك، وقد ثبت نزولهُ عليه السلام بالآية الواحدةِ مرَّتين لِمَا ذُكر.

وجوَّز أن تكون الآيةُ باعتبارِ الأغلب. واعتَبر بعضُهم كونَها كذلك لأمرٍ آخَرَ،

---

(١) في الإتقان: يوجد.

(٢) صحيح مسلم (١٧٣)، وهو عند أحمد (٣٦٦٥). والمُقْحِمات: الذنوب العظام التي تُقْحِم أصحابها في النار، أي: تُلْقيهم فيها.

وهو أنَّ من القرآن ما نزل به إسرافيلُ عليه السلام، وهو ما كان في أول النبوَّة. وفيه أنَّ ذلك لم يثبت أصلاً.

وفي «الإتقان»: أخرج الإمامُ أحمد في «تاريخه» من طريق دواد بن أبي هند عن الشعبيِّ قال: أُنزل على النبيِّ ﷺ النبوَّةُ وهو ابنُ أربعين سنةً، فقُرِنَ بنبوَّته إسرافيل عليه السلام ثلاثَ سنين، فكان يعلِّمه الكلمةَ والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلمَّا مضت ثلاثُ سنين قُرِنَ بنبوَّتِه جبريلُ عليه السلام، فنزل عليه القرآن على لسانه عشر سنين[1]. انتهى. وهو صريحٌ في خلاف ذلك، وإن كان فيه ما يخالفُ الصحيحَ المشهورَ من أنَّ جبريلَ عليه السلام هو الذي نزل عليه عليه الصلاة والسلام بالوحي من أول الأمر[2]، إلا أنه نزل عليه ﷺ غيرُه عليه السلام من الملائكة أيضاً ببعض الأمور، وكثيراً ما ينزلون لتشييع الآيات القرآنية مع جبريل عليه وعليهم السلام[3].

ومن الناس مَن اعتبر كونَها باعتبارِ الأغلب؛ لأنَّ إنزال جبريل عليه السلام قد لا يكون على القلب، بناءً على ما ذكره الشيخ محيي الدين قدِّس سرُّه في الباب الرابع عشر من «الفتوحات» من قوله: اعلم أنَّ المَلَكَ يأتي النبيَّ عليه الصلاة والسلام بالوحي على حالين: تارةً ينزل بالوحي على قلبه، وتارةً يأتيه في صورةٍ جسديةٍ من خارجٍ، فيُلْقي ما جاء به إلى ذلك النبيِّ على أذنه فيَسمعُه، أو يلقيه على بصره فيُبْصِرُه، فيَحصلُ له من النظر ما يحصل من السمع سواء[4].

وتعقِّب بأنه لا حاجةَ إلى ما ذكر، وما نُقل عن محيي الدين قدِّسَ سرُّه لا يدلُّ

(١) الإتقان ١/ ١٤٣. ومن طريق الإمام أحمد أخرجه البيهقي في الدلائل ٢/ ١٣٢، وابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ٧١. وجاء في جميع هذه المصادر: عشرين سنة، بدل: عشر سنين. وأخرجه أيضاً ابن سعد في الطبقات ١/ ١٩١. وصحح إسناده إلى الشعبي ابن كثير في البداية والنهاية ٤/ ١٠، والخبر بنحوه في العلل ومعرفة الرجال لأحمد ٢/ ٣٣٧.

(٢) ينظر حديث عائشة عند البخاري (٦٩٨٢). وذكر ابن سعد ١/ ١٩١ أنه ذكر خبر الشعبي للواقدي فقال: ليس يَعْرِفُ أهل العلم ببلدنا أن إسرافيل قُرن بالنبي ﷺ، وإن علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون: لم يُقرن به غيرُ جبريلَ من حين أُنزل عليه الوحي إلى أن قبض.

(٣) ينظر ما سلف ٨/ ٦.

(٤) الفتوحات المكية ١/ ١٥٠.

على أنَّ نزول الوحي إلى كلِّ نبيٍّ يكون على هذين الحالين، فيجوزُ أن يكون نزولُ الوحي إلى نبيِّنا ﷺ على الحال الأولى فقط.

سلَّمنا دلالتَه على العموم، وأنَّ نزول الوحي إلى نبيِّنا عليه الصلاة والسلام قد يكون بتمثُّلِ الملك بناءً على بعض الأخبار الصحيحة في ذلك[١]، لكنْ لا نسلِّم أنه يدلُّ على أنَّ نزول الوحي إذا كان الموحَى قرآناً يكون على الحال الثانية.

سلَّمنا دلالته على ذلك، لكنْ لا نسلِّم صحةَ جَعْلِه مبنًى لتأويلِ الآية، وكيف يؤوَّلُ كلام الله تعالى لكلامٍ منافٍ لظاهره صَدَر من غير معصوم، ويكفي محيي الدِّين قدِّس سرُّه من علماء الشريعة أن يؤوِّلوا كلامه ليوافقَ كلامَ الله عزَّ وجلَّ، فيَسْلَمَ من الطعن.

ولعل مَن يؤوِّلُ في مثل ذلك يُحْسِنُ الظنَّ بمحيي الدِّين قدِّس سرُّه، ويقول: إنه لم يقل ذلك إلا لدليلٍ شرعيٍّ، فقد قال قدِّس سرُّه في الكلام على الإذن[٢] من «الفتوحات»: اعلم أنِّي لم أقرِّر بحمد الله تعالى في كتابي هذا ولا غيرِه قطُّ أمراً غيرَ مشروعٍ، وما خرجتُ عن الكتاب والسنَّة في شيءٍ من تصانيفي[٣].

وقال في الباب السادس والستين وثلاثِ مئة من الكتاب المذكور: جميعُ ما أتكلَّم به في مجالسي وتأليفي إنما هو من حضرة القرآن العظيم، فإنِّي أُعطيتُ مفاتيحَ العلم فيه، فلا أستمدُّ قطُّ في علمٍ من العلوم إلَّا منه، كلُّ ذلك حتى لا أخرج من مجالسة الحقِّ تعالى في مناجاته بكلامه أو بما تضمَّنه كلامُه سبحانه[٤]. إلى غير ذلك، فالداعي للتأويل في الحقيقة ذلك الدليلُ، لا نفسُ كلامه قدِّس سرُّه العزيز، وهو اللائقُ بالمسلمين الكاملين.

---

(١) منها ما أخرجه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: «...وأحياناً يتمثل لي المَلَكُ رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول». وينظر ما سلف ٨/ ٤٩، و١٤/ ١٢٤-١٢٥.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: الأذان، لأنَّ كلامه ورد بنحوه في فصول الأذان والإقامة من الفتوحات.

(٣) بنحوه في الفتوحات ١/ ٤٠٤.

(٤) بنحوه في الفتوحات ٣/ ٣٣٤.

وقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ متعلِّقٌ بـ «نَزَل»، أي: نزل به لتنذرهم بما في تضاعيفه من العقوبات الهائلة. وإيثارُ ما في النظم الكريم للدلالة على انتظامه ﷺ في سِلْكِ أولئك المنذِرين المشهورين في حقِّية الرسالة وتقرُّرِ العذاب المنذَرِ به.

وكذا قولُه سبحانه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ متعلِّقٌ بـ «نزل» عند جمعٍ من الأجلَّة، ويكون حينئذٍ ـ على ما قال الشهاب ـ بدلاً من «به» بإعادة العامل[(١)]. وتقديم «لتكون» إلخ للاعتناء بأمر الإنذار، ولئلَّا يُتوهَّم أنَّ كونه عليه الصلاة والسلام من جملة المنذرين المذكورين متوقِّفٌ على كون الإنزال بلسان عربيٍّ مبين.

واستُحْسِنَ كونُ الباء للملابَسة، والجارُّ والمجرور في موضع الحال من ضمير «به»، أي: نزل به ملتبساً بلغةٍ عربيةٍ واضحةِ المعنى ظاهرةِ المدلول؛ لئلا يبقى لهم عذرٌ. وقيل: بلغةٍ مبيِّنةٍ لهم ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم على أنَّ «مبين» من أبان المتعدِّي، والأولُ أظهر.

وجوِّز أنْ يعلَّق الجارُّ والمجرور بـ «المنذرين»، أي: لتكون من الذين أَنذروا بلغة العرب، وهم هودٌ وصالحٌ وإسماعيلُ وشعيبٌ ومحمدٌ ﷺ، وزاد بعضهم: خالد بن سنان[(٢)]، وصفوان بن حنظلة[(٣)] عليهما السلام.

وتعقِّب[(٤)] بأنه يؤدِّي إلى أنَّ غاية الإنذار كونُه عليه السلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط، من هودٍ وصالحٍ وشعيبٍ عليهم السلام، ولا يَخْفَى فساده، كيف لا والطامَّةُ الكبرى في باب الإنذار ما أنذره نوح وموسى عليهما السلام، وأشدُّ الزَّواجر تأثيراً في قلوب المشركين ما أنذره إبراهيم عليه السلام؛ لانتمائهم إليه وادِّعائهم أنهم على ملَّته عليه السلام.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٧.

(٢) سلفت قصته ٧/ ١٢٧-١٢٨.

(٣) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٧/ ٢٧، والصواب: حنظلة بن صفوان كما سلف ١٧/ ٣٤٨، وكذا في التعريف والإعلام للسهيلي ص١١٢، وتاريخ ابن عساكر ١/ ١٢، والإكمال ٧/ ٥٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩١ و٣٦٩، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٨، وزاد المسير ٦/ ٩٠، وتفسير القرطبي ١٤/ ١٨١، واللسان (عنق).

(٤) المتعقِّب هو أبو السعود في تفسيره ٦/ ٢٦٤.

وذكر بعضُهم أنَّ المراد على هذا الوجه: إنك أنذرتهم كما أُنذر آباؤهم الأوَّلون، وإنك لستَ بمبتدع بهذا، فكيف كذَّبوك.

والحقُّ أنَّ الوجه المذكور دون الوجهِ السابق، وأمَّا أنه فاسدٌ معنًى كما يقتضيه كلام المتعقِّب فلا.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أي: وإنَّ ذِكْرَ القرآن لفي الكتب المتقدِّمة، على أنَّ الضمير للقرآن والكلامَ على حذفِ مضافٍ، وهذا كما يقال إنَّ فلاناً في دفتر الأمير.

وقيل: المراد: وإنَّ معناه لفي الكتب المتقدِّمة، وهو باعتبارِ الأغلب، فإنَّ التوحيد وسائرَ ما يتعلَّقُ بالذات والصفات وكثيراً من المواعظ والقصص مسطورٌ في الكتب السابقة، فلا يضرُّ أنَّ منه ما ليس في ذلك بحسب الظنِّ الغالب، كقصة الإفك، وما كان في نكاح امرأةِ زيد، وما تضمَّنه صدرُ سورة التحريم، وغيرِ ذلك.

واشتهر عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه جوَّز قراءة القرآن بالفارسية والتركية والهندية، وغيرِ ذلك من اللغات مطلقاً، استدلالاً بهذه الآية. وفي روايةٍ: تخصيصُ الجواز بالفارسية لأنها أشرفُ اللغات بعد العربية؛ لخبر: لسانُ أهلِ الجنة العربيُّ والفارسيُّ الدرِّي(١).

وفي روايةٍ أخرى: أنها إنما تجوزُ بالفارسية إذا كان ثناءً كسورة الإخلاص، أمَّا إذا كان غيرَه فلا تجوز.

وفي أخرى: أنها إنما تجوز بالفارسية في الصلاة إذا كان المصلِّي عاجزاً عن العربية وكان المقروءُ ذكراً وتنزيهاً، أمَّا القراءة بها في غير الصلاة، أو في الصلاة وكان القارئُ يُحْسِنُ العربية، أو في الصلاة وكان القارئُ عاجزاً عن العربية لكنْ كان المقروء من القصص والأوامر والنواهي، فإنها لا تجوز. وذُكر أنَّ هذا قولُ صاحبيه، وكان رضي الله عنه قد ذهب إلى خلافه ثم رجع عنه إليه، وقد صحَّح رجوعَه عن القول بجواز القراءة بغير العربية مطلقاً جمعٌ من الثقات المحقِّقين(٢).

---

(١) حديث موضوع كما سلف ١٢/ ١٨٣ والدرِّي: الفصيح. ينظر حاشية ابن عابدين ١/ ٤٨٣.
(٢) سلف الكلام في هذه المسألة ١٢/ ١٨١-١٨٣.

وللعلَّامة حسن الشُّرنبلالي رسالةٌ في تحقيق هذه المسألة سماها: «النفحةُ القُدْسيةُ في أحكام قراءة القرآنِ وكتابتهِ بالفارسية»(١) فَمَنْ أراد التحقيق فليرجع إليها. وكأنَّ رجوعَ الإمام عليه الرحمةُ عمَّا اشتهر عنه لضَعْفِ الاستدلال بهذه الآية عليه، كما لا يخفى على المتأمِّل.

وفي «الكشف»: أنَّ القرآن كان هو المُنْزَلُ للإعجاز، إلى آخر ما يُذْكَر في معناه، فلا شكَّ أنَّ الترجمة ليست بقرآنٍ وإنْ كان هو المعنى القائمَ بصاحبه، فلا شكَّ أنه غيرُ ممكنِ القراءة.

فإن قيل: هو المعنى المعبَّرُ عنه بأيِّ لغةٍ كان.

قلنا: لا شكَّ في اختلاف الأسامي باختلاف اللغات، وكما لا يسمَّى القرآن بالتوراة لا يسمَّى التوراةُ بالقرآن، فالأسماءُ لخصوص العبارات فيها مدخلٌ لا أنها لمجرَّدِ المعنى المشترك. اهـ.

وفيه بحث، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ [فصلت: ٤٤] يستلزمُ تسميتَه قرآناً أيضاً لو كان أعجميّاً، فليس لخصوص العبارة العربية مدخلٌ في تسميته قرآناً، والحقُّ أنَّ «قرآناً» المنكَّرَ لم يُعْهَدْ فيه نقلٌ عن المعنى اللغويِّ، فيتناولُ كلَّ مقروء، أمَّا القرآنُ باللام فالمفهومُ منه العربيُّ في عُرْفِ الشَّرْعِ، فلخصوص العبارة مدخلٌ في التسمية نظراً إليه، وقد جاء كذلك في الآية الدالَّة على وجوب القراءة، أعني قوله سبحانه: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠] وبذلك تمَّ المقصود. وجَعْلُ «مِن» فيه للتبعيض، وإرادةُ المعنى من هذا البعض، لا يخفى ما فيه.

وقيل: ضمير «إنه» عائدٌ على رسول الله ﷺ، وليس بواضح.

وقرأ الأعمش: «زُبْرِ» بسكون الباء(٢).

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ الهمزةُ للتقريرِ، أو للإنكار والنفي، والواوُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ، كأنه قيل: أَغَفَلوا عن ذلك ولم يكن لهم آيةً دالَّةً على أنه تنزيلُ

---

(١) سلف بعضٌ من كلام الشرنبلالي في هذه الرسالة ١٢/ ١٨٢.
(٢) البحر ٧/ ٤١.

ربِّ العالمين وأنه في[1] زُبُر الأوَّلين، على أنَّ «لهم» متعلِّقٌ بالكون قدِّم على اسمه وخبرِه للاهتمام، أو بمحذوفٍ هو حالٌ من «آيَةً» قدِّمت عليها لكونها نكرةً و«آيةً» خبرٌ للكون قدِّم على اسمه الذي هو قولُه تعالى: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ لِمَا مرَّ مراراً من الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

والعلمُ بمعنى المعرفة، والضميرُ للقرآن، أي: أَلَمْ يكن لهم آيةً معرفةُ علماء بني إسرائيل القرآنَ بنعوته المذكورةِ في كتبهم. وعن قتادة: أنَّ الضمير للنبيِّ ﷺ.

وقيل: العلم على معناه المشهورِ، والضميرُ للحُكْم السابق في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤] إلخ، وفيه بُعْدٌ كما لا يخفى.

وذكر الثعلبيُّ[2] عن ابن عباس أنَّ أهل مكةَ بعثوا إلى أحبار يثربَ يسألونهم عن النبيِّ، فقالوا: هذا زمانهُ، وذكروا نعتَه وخلَّطوا في أمر محمدٍ ﷺ، فنزلت الآيةُ في ذلك. وهو ظاهرٌ في أنَّ الضمير له عليه الصلاة والسلام، ويؤيِّده كونُ الآية مكيةً. وقال مقاتل: هي مدنيَّة. وعلماءُ بني إسرائيل عبدُ الله بنُ سلام ونحوُه، كما روي عن ابن عباس ومجاهد. وذلك أنَّ جماعةً منهم أسلموا ونصُّوا على مواضعَ من التوراة والإنجيل فيها ذكر الرسول ﷺ.

وقيل: علماؤهم مَن أسلم منهم ومَن لم يُسْلِمْ.

وقيل: أنبياؤهم، فإنهم نبَّهوا على ذلك، وهو خلافُ الظاهر.

ولعل أظهرَ الأقوال كونُ المراد به معاصريه ﷺ من علماء أهل الكتابين المسلمين وغيرهم.

وقرأ ابن عامر والجحدريُّ: «تكُنْ» بالتأنيث، و«آيةٌ» بالرفع[3]، وجُعِلَتْ اسمَ «تكن» و«أنْ يعلمه» خبرها. وضعِّف بأنَّ فيه الإخبارَ عن النكرة بالمعرفة، ولا يدفعُه كونُ النكرة ذات حالٍ بناءً على أحد الاحتمالين في «لهم».

(١) في الأصل و(م): لفي، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٦٤، والكلام منه.
(٢) كما في البحر ٧/ ٤١، وعنه نقل المصنف.
(٣) التيسير ص١٦٦، والنشر ٢/ ٣٣٦ عن ابن عامر. وذكرها عنهما أبو حيان في البحر ٧/ ٤١.

وجوِّز أن يكون «آيةٌ» الاسمَ، و«لهم» متعلِّقاً بمحذوفٍ هو الخبر، و«أن يعلمه» بدلاً من الاسم أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ.

وأن يكون الاسم ضميرَ القصة، و«لهم آيةٌ» مبتدأً وخبراً[1]، والجملة خبر «تكن»، و«أن يعلمه» بدلاً أو خبرَ مبتدأ محذوف.

وأن يكون الاسم ضمير القصة، و«آيةٌ» خبر «أن يعلمه»، والجملة خبر «تكن».

وأن تكون «تكن» تامةً، و«آيةٌ» فاعلاً، و«أن يعلمه» بدلاً أو خبراً لمحذوف، و«لهم» إما حالاً أو متعلِّقاً بـ «تكن».

وقرأ ابن عباس: «تكن» بالتأنيث و«آيةً» بالنصب[2]، كقراءة مَن قرأ: «ثم لم تكن» بالتأنيث «فتنتَهم» بالنصب «إلَّا أنْ قالوا»[3]، وكقول لبيد يصفُ العيرَ والأتان:

فمَضَى وقدَّمها وكانت عادةً ... منه إذا هي عرَّدَتْ إقدامُها[4]

وذلك إمَّا على تأنيث الاسم لتأنيث الخبر، وإمَّا لتأويل «أنْ يعلَمه» بالمعرفة. وتأويلِ «أنْ قالوا» بالمقالة. وتأويلِ الإقدام بالتقدمة؛ ودعوى اكتسابِ التأنيث فيه من المضاف إليه ليس بشيءٍ؛ لفَقْدِ شَرْطِه المشهور[5].

وقرأ الجحدري: «تَعْلَمَه» بالتأنيث[6] على أنَّ المراد جماعةُ علماء بني إسرائيل.

---

(١) في(م): وخبر.

(٢) البحر ٧/ ٤١، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٤٤ عن أبي عمران الجوني وقتادة.

(٣) الآية (٢٣) من سورة الأنعام، والقراءة المذكورة هي قراءة نافع وأبي عمرو وعاصم في رواية شعبة وأبي جعفر وخلف. التيسير ص١٠١-١٠٢، والنشر ٢/ ٢٥٧.

(٤) ديوان لبيد ص٣٠٦. قال الشارح: عرَّدت: حادت عن الطريق. إقدامها: تقديمها.

(٥) وهو أن يكون المضاف صالحاً للحذف وإقامة المضاف إليه مقامه، ويفهم منه ذلك المعنى، نحو: قُطِعَتْ بعضُ أصابعه، فصح تأنيث «بعض» لإضافته إلى أصابع وهو مؤنَّث؛ لصحة الاستغناء بأصابع عنه، فتقول: قطعت أصابعه. شرح الألفية لابن عقيل ٢/ ٤٩-٥٠.

(٦) القراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ٤١.

وكتب في المصحف «علمؤا» بواو بين الميم والألف ووجِّه ذلك بأنه على لغةِ مَن يُميل ألفَ «علماء» إلى الواو، كما كتبوا «الصلوة» و«الزكوة» و«الربو» بالواو على تلك اللغة[1].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن كما هو بنَظْمِه الرائق المُعْجِز ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾ الذين لا يقدرون على التكلُّم بالعربية، وهو جمعُ أعجميٍّ كما في «التحرير»[2] وغيرِه، إلا أنه حُذِفَ ياءُ النَّسبِ منه تخفيفاً، ومثلُه الأشعرين جمع أشعريٍّ في قول الكميت:

ولــو جــهَّــزْتُ قــافــيــةً شَــروداً ... لـقـد دَخَـلَـتْ بـيـوتَ الأشـعـريـنـا[3]

وقد قرأه الحسن وابن مقسم بياء النسب على الأصل[4].

وقال ابن عطية: هو جمع أعجم، وهو الذي لا يُفْصِحُ وإن كان عربيَّ النسب، والعجميُّ هو الذي نسبتُه في العجم خلاف العرب وإن كان أفصحَ الناس[5]. انتهى.

واعتُرِضَ: بأنَّ أعجم مؤنَّثه عَجْماء، وأَفعلُ فَعْلاء لا يُجمَعُ جَمْعَ سلامةٍ.

وأجيبَ: بأنَّ الأعجم في الأصل البهيمةُ العجماء لعدم نُطْقِها، ثم نُقل أو تجوِّز به عمَّا ذُكر، وهو بذلك المعنى ليس له مؤنَّثٌ على فعلاء، فلذلك جُمِعَ جَمْعَ السلامة.

وتعقِّب: بأنه قد صرَّح العلَّامة محمد بن أبي بكر الرازيُّ في كتابه «غرائب القرآن»[6] بأن الأعجم هو الذي لا يُفْصِحُ، والأنثى: العجماء، ولو سلِّم أنه ليس له بذلك المعنى مؤنَّثٌ فالأصلُ مراعاة أصله.

---

(١) البحر ٧/ ٤١.

(٢) لعله التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير، لأبي عبد الله محمد بن سليمان المعروف بابن النقيب، المتوفى سنة (٦٩٨هـ). ينظر كشف الظنون ١/ ٣٥٨.

(٣) ديوان الكميت ص٤٨١، قال أبو رياش شارح القصيدة: يعني قافية أهجوكم بها. وشروداً: قد شردت أو تشرَّدت في البلاد، وأراد ببيوت الأشعرين أبا موسى الأشعري ورهطه.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٧، والمحتسب ٢/ ١٣٢، والبحر ٧/ ٤٢.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٣.

(٦) واسمه: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، ومؤلفه محمد بن =

وفيه: أنَّ كونَ ارتفاع المانع لعارضٍ مجوِّزاً مما صرَّح به النحاة. ثم إنَّ كون أفعل فعلاء لا يُجمَعُ جمعَ سلامةٍ مذهبُ البصريين والفرَّاءِ[١]، وغيرُه من الكوفيين يجوِّزونه، فلعل مَن قال: إنه جمعُ أعجم قاله بناءً على ذلك.

وظاهرُ الجمع المذكور يقتضي أن يكون المرادُ به العقلاء. وعن بعضهم أنه جَمْعُ أعجم مراداً به ما لا يعقِلُ من الدوابِّ العُجْم، وجُمِعَ جَمْعَ العقلاء لأنه وُصِفَ بالتنزيل عليه، وبالقراءة في قوله تعالى: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم﴾ فإنَّ الظاهر رجوعُ ضمير الفاعل إلى «بعض الأعجمين»، وهما من صفات العقلاء.

والمراد بيانُ فَرْطِ عنادِهم وشدَّةِ شكيمتهم في المكابرة، كأنه قيل: ولو نزَّلناه بهذا النظم الرائق المعجِزِ على مَن لا يقدرُ على التكلُّم بالعربية، أو على ما ليس من شأنه التكلُّمُ أصلاً من الحيوانات العُجْم، فقرأه عليهم قراءةً صحيحةً خارقةً للعادة ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء.

وقيل: المراد بالأعجمين جمعُ أعجم أعمّ من أن يكون عاقلاً أو غيره، ونقل ذلك الطبرسيُّ عن عبد الله بن مطيع، وذكر أنه روي عن ابن مسعودٍ أنه سئل عن هذه الآية وهو على بعير، فأشار إليه وقال: هذا من الأعجمين[٢]. والطبري على ما في «البحر» يروي نحو هذا عن ابن مطيع[٣]. والمراد أيضاً بيانُ فَرْطِ عنادهم.

وقيل: هو جمع أعجم مراداً به ما لا يعقل، وضمير الفاعل في «قرأه» للنبيِّ ﷺ، وضمير «عليهم» لبعض الأعجمين، وكذا ضمير «كانوا»، والمعنى: لو نزَّلنا القرآن على بعض البهائم، فقرأه محمد ﷺ على أولئك البهائم، ما كانوا ـ أي: أولئك البهائم ـ مؤمنين به، فكذلك هؤلاء لأنهم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً. ولا يخفى ما فيه.

= أبي بكر الرازي هو صاحب مختار الصحاح، المتوفى سنة(٦٦٦هـ)، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٢٧.

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٢٧، ونقل أبو حيان في البحر ٧/ ٤٢ عن الفراء: الأعجمين جمع أعجم أو أعجمي على حذف ياء النسب، كما قالوا: الأشعرين.

(٢) مجمع البيان ١٩/ ١٨٤-١٨٥.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٧، والبحر ٧/ ٤١.

وقيل: المراد: ولو نزَّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم، فقرأه عليهم[١]، ما كانوا به مؤمنين لعدم فَهْمِهم ما فيه، وأخرج ذلك عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة[٢]، وهو بعيدٌ عمَّا يقتضيه مقامُ بيانِ تماديهم في المكابرة والعناد.

واستند بعضُهم بالآية عليه في مَنْعِ أَخْذِ العربية في مفهوم القرآن؛ إذ لا يتصوَّر على تقديرِ أَخْذِها فيه تنزيلُه بلغة العجم؛ إذ يستلزم ذلك كونَ الشيءِ الواحد عربيّاً وعجميّاً، وهو محال.

وأجيب بأنَّ ضمير «نزلناه» ليس راجعاً إلى القرآن المخصوص المأخوذِ في مفهومه العربيةُ، بل إلى مطلق القرآن، ويرادُ منه ما يُقرأ أعمّ من أن يكون عربيًّا أو غيرَه، وهذا نحوُ رجوع الضمير للعامِّ في ضمن الخاصِّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ الآية [فاطر:١١] فإنَّ ضمير «عمره» راجعٌ إلى شخصٍ بدون وَصْفِه بمعمَّر؛ إذ لا يتصوَّر نقصُ عمرِ المعمَّر كما لا يخفى.

وقال بعضهم في الجواب: إنَّ الكلام على حَذفِ مضافٍ، والمراد: ولو نزَّلنا معناه بلغة العجم على بعض الأعجمين، فتدبَّر.

وفي لفظ «بعض» على كلِّ الأقوال إشارةٌ إلى كون ذلك المفروضِ تنزيلهُ عليه واحداً من عرض تلك الطائفة كائناً مَن كان.

و«به» متعلِّقٌ بـ «مؤمنين»، ولعل تقديمه عليه للاهتمام وتوافُقِ رؤوس الآي.

والضميرُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ على ما يقتضيه انتظامُ الضمائر السابقة واللاحقة في سلكٍ واحدٍ للقرآن، وإليه ذهب الرمَّانيُّ[٣] وغيرُه، والمعنى على ما قيل: مثلَ ذلك السَّلْكِ[٤] البديع المذكور سلكناه، أي: أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه خارجٌ عن

---

(١) أي: على العرب.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٧٦، وتفسير الطبري ١٧/ ٦٤٧، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٩٥، ولفظه: لو أنزله الله أعجميًّا كانوا أخسَّ الناس به؛ لأنهم لا يعرفون العجمية.

(٣) كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٤، والبحر ٧/ ٤٢.

(٤) في الأصل: المسلك، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود، والكلام منه.

القوى البشرية، وقد انضمَّ إليه علمُ أهل الكتابين بشأنه، وبشارةُ الكتب المنزلةِ بإنزاله، فقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مسوقةٌ لبيان أنهم لا يتأثَّرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به، بل يستمرُّون على ما هم عليه ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ المُلْجِئَ إلى الإيمان به، وحينئذٍ لا ينفعُهم ذلك.

والمراد بـ «المجرمين» المشركون الذين عادت عليهم الضمائر من «لهم» و«عليهم» و«كانوا»، وعدل عن ضميرهم إلى ما ذكر تأكيداً لذمِّهم.

وقال الزمخشريُّ[(١)] في معنى ذلك: أي: مثلَ هذا السلكِ[(٢)] سلكناه في قلوبهم، وهكذا مكَّنَّاه وقرَّرناه فيها، وعلى مِثْلِ هذه الحالِ وهذه الصفةِ من الكفر به والتكذيبِ له وضعناه فيها، فكيفما[(٣)] فُعِلَ بهم وصُنِعَ، وعلى أيِّ وجهٍ دبِّر أمرُهم، فلا سبيلَ إلى أنْ يتغيَّروا عمَّا هم عليه من جحوده وإنكاره، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]. وموقعُ قوله تعالى: (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ) إلخ ممَّا قبله موقع الموضِّح والملخِّص؛ لأنه مسوقٌ لثباته مكذَّباً مجحوداً في قلوبهم، فأتبع ما يقرِّر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد. ويجوز أن يكون حالاً، أي: سلكناه فيها غيرَ مؤمَنٍ به. اهـ.

وتعقِّب بأنَّ الأول هو الأنسبُ بمقام بيان غايةِ عنادِهم ومكابرتهم مع تعاضُدِ أدلَّةِ الإيمانِ، وتَناجُدِ مبادي الهداية والإرشاد، وانقطاعِ أعذارهم بالكلِّية.

وقد يقال: إنَّ هذا التفسير أوفقُ بتسليته ﷺ التي هي كالمَبْنَى لهذه السورة الكريمة، وبها صدِّرت حيث قال سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] كأنه جلَّ وعلا بعد أن ذكر فَرْطَ عنادهم وشدَّةَ شكيمتهم في المكابرة، وهو[(٤)] تفسيرٌ واضحٌ في نفسه، فهو عندي أولى مما تقدم.

---

(١) في الكشاف ٣/ ١٢٩.

(٢) في الأصل: المسلك.

(٣) في (م): فكيف ما.

(٤) جاء فوقها في الأصل تضبيب، ولعلها إشارة إلى وجود سقط في الكلام. ينظر تفسير أبي السعود ٦/ ٢٦٥، وحاشية الشهاب ٧/ ٢٨.

وفي «المطلع» أنَّ الضمير للتكذيب والكفرِ المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، وبه قال يحيى بن سلام، وروي عن ابن عباس والحسن، والمعنى: وكذلك سَلَكْنا التكذيبَ بالقرآن والكفرَ به في قلوب مشركي مكةَ ومكَّنَّاه فيها، وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلخ واقعٌ موقعَ الإيضاح لذلك. ولا يظهرُ على هذا الوجه كونُه حالاً، ولا أرى لهذا المعنى كثرةَ بُعْدٍ عن قولِ مَن قال: أي: على مثل هذا السَّلْكِ سلكنا القرآن، وعلى مثل هذه الحالِ وهذه الصفةِ من الكفر به والتكذيب له وضعناه في قلوبهم. وحاصلُ الأول: كذلك سَلَكْنا التكذيب بالقرآن في قلوبهم. وحاصل هذا: وكذلك سَلَكْنا القرآن بصفةِ التكذيب به في قلوبهم فتأمل.

وجوِّز جَعْلُ الضمير للبرهان الدالِّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية: ١٩٧]، وهو بعيدٌ لفظاً ومعنًى.

هذا وذهب بعضُهم إلى أنَّ المراد بالمجرمين غيرُ الكفرة المتقدِّمين الذين عادت عليهم الضمائر، وهم مشركو مكة من المعاصرين لهم وممن يأتي بعدهم، و«ذلك» إشارةٌ إلى السَّلْكِ في قلوب أولئك المشركين، أي: مثلَ ذلك السَّلكِ في قلوب مشركي مكةَ سلكناه في قلوب المجرمين غيرِهم؛ لاشتراكهم في الوصف، وقولُه سبحانه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إلخ بيانٌ لحال المشركين المتقدِّمين الذين اعتُبروا في جانب المشبَّهِ به، أو إيضاحٌ لحال المجرمين وبيانٌ لِمَا يقتضيه التشبيهُ، وهو كما ترى.

ونَقَل في «البحر» عن ابن عطية: أنه أريد مجرمي كلِّ أمةٍ، أي: إنَّ سنَّةَ الله تعالى فيهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب، فلا ينفعهم الإيمانُ بعد تلبُّس العذابِ بهم، وهذا على جهة المثال لقريش، أي: هؤلاء كذلك. وكشف الغيب بما تضمَّنتْه الآية يومَ بدر[1]. انتهى.

وكأنه جَعَل ضمير «سلكناه» لمطلَقِ الكفر لا للكفر بالقرآن، وضمير «به» لله تعالى أو لما أُمروا بالإيمان به [لا][2] للقرآن، وإلَّا فلا يكاد يتسنَّى ذلك، وعلى كلِّ حالٍ لا ينبغي أن يعوَّل عليه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٤، والبحر ٧/ ٤٢.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ أي: العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ أي: بإتيانه ﴿فَيَقُولُوا﴾ أي: تحسُّراً على ما فات من الإيمان، وتَمنِّياً للإمهال لتلافي ما فرَّطوه: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ أي: مؤخَّرون.

والفاء في الموضعين عاطفةٌ، وهي كما يدلُّ عليه كلام «الكشاف»[(١)] للتعقيب الرُّتبيِّ دون الوجوديِّ، كأنه قيل: حتى تكون[(٢)] رؤيتهم للعذاب الأليم فما هو أشدُّ منها وهو مفاجأتُه، فما هو أشدُّ منه وهو سؤالهم النَّظِرة[(٣)]، نظير ما في قولك: إنْ أسأتَ مَقَتَكَ الصالحون فمَقَتَكَ الله تعالى، فلا يَرِدُ أنَّ البَغْتَ من غير شعورٍ لا يصحُّ تعقُّبه للرؤية في الوجود.

وقال سريُّ الدين المصريُّ عليه الرحمةُ في توجيه ما تدلُّ عليه الفاءُ من التعقيب: إنَّ رؤية العذاب تكون تارةً بعد تقدُّم أماراته وظهورِ مقدِّماته ومشاهدةِ علاماته، وأخرى بغتةً لا يتقدَّمها شيءٌ من ذلك، فكانت رؤيتُهم العذابَ محتاجةً إلى التفسير، فعطف عليها بالفاء التفسيرية قوله تعالى: «يأتيهم بغتة»، وصحَّ بينهما معنى التعقيبِ لأنَّ مرتبة المفسِّر في الذِّكر أن يقع بعد المفسَّر كما فُعل في التفصيل بالقياس إلى الإجمال، كما يُستفاد من تحقيقات الشريف في «شرح المفتاح».

ويمكنُ أن تكونَ الآيةُ من باب القَلْبِ كما هو أحدُ الوجوه في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] للمبالغة في مفاجأةِ رؤيتهم العذابَ، حتى كأنهم رأوه قبل المفاجأة، والمعنى: حتى يأتيهم العذاب الأليم بغتةً فيروه. انتهى.

وجعلها بعضُهم للتفصيل، واعتَرَضَ على ما قال صاحب «الكشاف» بأنَّ العذاب الأليم منطوٍ على شدَّة البَغْتِ، فلا يصحُّ الترتيبُ والتعقيبُ الرتبي، وهو وهمٌ كما لا يخفى.

---

(١) ٣/ ١٢٩.
(٢) في (م): يكون، والمثبت من الأصل والكشاف.
(٣) النَّظِرة: التأخير في الأمر. القاموس (نظر).

والظاهر أنَّ جملة «وهم لا يشعرون» حالٌ مؤكِّدةٌ لِمَا يفيده «بغتةً»، فإنها كما قال الراغب: مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب[١].

ثم إنَّ هذه الرؤيةَ وما بعدها إنْ كانت في الدنيا كما قيل فإتيانُ العذاب الأليم فيها بغتةً مما لا خفاءَ فيه؛ لأنه قد يفاجئهم فيها ما لم يكن يمرُّ بخاطرهم على حين غفلة، وإن كانت في الآخرة فوجهُ إتيانه فيها بغتةً ـ على ما زعمه بعضهم ـ أنَّ المراد به أن يأتيهم من غير استعدادٍ له وانتظارٍ، فافهم.

واختار بعضهم أنَّ ذلك أعمُّ من أن يكون في الدنيا أو في الآخرة.

وقرأ الحسن وعيسى: «فتأتيهم» بتاء التأنيث[٢]، وخرَّج ذلك الزمخشريُّ على أنَّ الضمير للساعة[٣]. وأبو حيان عن أنه للعذاب بتأويل العقوبة[٤].

وقال أبو الفضل الرازي[٥]: للعذاب، وأنِّثَ لاشتماله على الساعة فاكتسى منها التأنيث، وذلك لأنهم كانوا يسألون عذابَ القيامةِ تكذيباً بها. انتهى.

وهو في غاية الغرابة، وكأنه اعتبر إضافةَ العذاب إلى الساعة معنًى، بناءً على أنَّ المراد بزَعْمِه: حتى يروا عذابَ الساعةِ الأليم، وقال باكتسائه التأنيثَ منها بسبب إضافته إليها؛ لأنَّ الإضافة إلى المؤنث قد تكسي المضافَ المذكَّر التأنيث، كما في قوله:

كما شَرِقتْ صَدْرُ القناة من الدم[٦]

ولم أرَ أحداً سبقه إلى ذلك.

---

(١) مفردات الراغب (بغت).
(٢) المحتسب ٢/ ١٣٣، والكشاف ٣/ ١٢٩، والبحر ٧/ ٤٢. ووقع في الأصل و(م): تأتيهم.
(٣) الكشاف ٣/ ١٢٩.
(٤) البحر ٧/ ٤٢.
(٥) كما في البحر ٧/ ٤٣.
(٦) وصدره: وتَشْرَقَ بالقولِ الذي قد أَذَعْتَه، والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٧٣، والكتاب ١/ ٥٢، وسلف ٤/ ٣٦٦.

وقرأ الحسن: «بَغَتَةً» بالتحريك[١]. وفي حرف أبيٍّ ﷺ: «ويروه بغتة»[٢].

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٢٠٤﴾ أي: يطلبونه قبل أوانه، وذلك قولُهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولُهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] ونحوهما.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أي: فأَخْبِرْ ﴿إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥﴾ أي: مدَّةً من الزمان، بطولِ الأعمار وطيبِ المعاش، أو: عمر الدنيا، على ما روي عن عكرمة. وعبَّر عن ذلك بما ذُكر إشارةً إلى قلَّته.

﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٢٠٦﴾ أي: الذي[٣] كانوا يُوْعَدونه من العذاب ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أي: أيَّ شيءٍ، أو: أيَّ غناءٍ[٤] أغنى عنهم ﴿مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ أي: كونُهم ممتَّعين ذلك التمتيعَ المديد، على أنَّ «ما» مصدرية كما هو الأَوْلَى، أو: الذي كانوا يمتَّعونه من متاع الحياة الدنيا، على أنها موصولةٌ حُذِفَ عائدُها. وأيّاً ما كان فالاستفهام للنفي والإنكار.

وقيل: «ما» نافية، أي: لم يُغْنِ عنهم ذلك في دَفْعِ العذاب أو تخفيفِه. والأولُ أَوْلَى لكونه أوْفَقَ لصورة الاستخبار، وأدلَّ على انتفاء الإغناء على أبلغ وجهٍ وآكَدِهِ.

وفي رَبْطِ النَّظْمِ الكريم ثلاثةُ أوجُهٍ كما في «الكشاف»:

الأول: أن قوله سبحانه: (أَفَرَءَيْتَ) إلخ متصلٌ بقوله تعالى: (هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ)، وقوله جلَّ وعلا: (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) معترضٌ للتبكيت، وإنكارِ أنْ يَستعجِلَ العذابَ مَن هو مُعْرَّضٌ لعذابٍ يسألُ فيه النَّظِرةَ والإمهالَ طرفةَ عينٍ فلا يُجابُ إليها[٥].

والمعنى على هذا كما في «الكشف»: أنه لمَّا ذكر أنهم لا يؤمنون دون

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٤٣.

(٢) الكشاف ٣/ ١٢٩.

(٣) في(م): الذين، وهو خطأ.

(٤) في تفسير أبي السعود ٦/ ٢٦٦ (والكلام منه): إغناء.

(٥) الكشاف ٣/ ١٣٠.

مشاهدةِ العذاب، قال سبحانه: إنَّ هذا العذابَ الموعودَ وإنْ تأخَّر أياماً قلائلَ فهو لاحقٌ بهم لا محالةَ، وهنالك لا ينفعُهم ما كانوا فيه من الاغترار المُثْمِرِ لعَدَمِ الإيمان، وأصلُ النظم الكريم: لا يؤمنون حتى يروا العذاب وكيتَ وكيتَ، فإنْ متَّعناهم سنين ثم جاءهم هذا العذابُ الموعود فأيَّ شيءٍ أو فأيَّ غناءٍ يُغني عنهم تمتيعُهم تلك الأيامَ القلائلَ، فجيء بفعل الرؤية والاستفهام ليكون في معنى: أَخْبِرْ، إفادةً لمعنى التعجُّب والإنكار، وأنَّ مِن حقِّ هذه القصة أنْ يُخْبَرَ بها كلُّ أحدٍ حتى يَتَعجَّب. ووسَّط «أفبعذابنا يستعجلون» للتبكيت، والهمزةُ فيه للإنكار، وجيءَ بالفاء دلالةً على ترتُّبه على السابق، كأنه لمَّا وُصِفَ العذاب قيل: أيَستعجِلُ هذا العذابَ عاقلٌ؟!

وفي «الإرشاد» اختيارُ أنَّ قوله تعالى: (أَفَرَءَيْتَ) متصلٌ بقوله سبحانه: (هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ)، وجعل الفاء لترتيب الاستخبار على ذلك القول، وهي متقدِّمةٌ على الهمزة معنًى، وتأخيرُها عنها صورة لاقتضاءِ الهمزةِ الصدارةَ، وأنَّ «أفبعذابنا يستعجلون» معترضٌ للتوبيخ والتبكيت، وجعل الفاء فيه للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الأليم فيستعجلون بعذابنا، وبينهما من التنافي ما لا يَخْفَى على أحدٍ، أو: أيغفلون عن ذلك مع تحقُّقِه وتقرُّرِه فيستعجلون.. إلخ[(١)].

وصاحب «الكشف» بعد أن قرَّر كما ذكرنا، قال: إنَّ العطف على مقدَّرٍ في هذا الوجهِ لا وَجْهَ له. ولعل المُنْصِفَ يقول: لكلٍّ وجهةٌ.

والثاني: أن قوله تعالى: (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) كلامٌ يوبَّخون به يومَ القيامة عند قولهم فيه: «هل نحن منظرون» حُكي لنا لطفاً، و«يستعجلون» عليه في معنى: استعجلتم[(٢)]؛ إذ كذلك يقال لهم ذلك اليوم، وكأنَّ أمر الترتيب أو العطفِ على مقدَّرٍ، وارتباط «أفرأيت» إلخ بقولهم: «هل نحن منظرون» على نحو ما تقدَّم في الوجه السابق.

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ٢٦٦.

(٢) بنحوه في الكشاف ٣/ ١٣٠.

والثالث: أنَّ قوله تعالى: (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) متصلٌ بما بعده غيرُ مترتِّبٍ على ما قبله، وذلك أنَّ استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غيرُ كائنٍ ولا لاحِقٍ بهم، وأنهم ممتَّعون بأعمارٍ طوال في سلامةٍ وأَمْنٍ، فقال عزَّ وجل: (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) أشراً وبطراً واستهزاءً، واتكالاً على الأمل الطويل، ثم قال سبحانه: هَبْ أنَّ الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم، فإذا لحقهم الوعيدُ بعد ذلك ما ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم وطِيبِ معايشهم[1].

وعلى هذا يكون «فبعذابنا» إلخ عطفاً على مقدَّرٍ بلا خلافٍ، نحو: أيستهزؤون فبعذابنا يستعجلون، وقولهُ تعالى: (أَفَرَءَيْتَ) إلخ تعجُّباً من حالهم مترتِّباً على الاستهزاء والاستعجال، والكلامُ نظيرُ ما تقول لمخاطبك: هل تغترُّ بكثرة العشائر والأموال، فاحسب أنها بلغت فوق ما تؤمِّلُ أليس بعده الموتُ وتَرْكُهما على حسرة؟ وهذا الوجهُ أظهر من الوجه الذي قبله.

وأيّاً ما كان فقولُه سبحانه: «بعذابنا» متعلِّقٌ بـ «يستعجلون» قدِّم عليه للإيذان بأنَّ مَصَبَّ الإنكار والتوبيخ كونُ المستعجَلِ به عذابَه جلَّ جلالُه، مع ما فيه ـ على ما قيل ـ من رعاية الفواصل.

وقرئ: «يُمْتَعون» من الإمتاع[2].

وفي الآية موعظةٌ عظيمةٌ لمن له قلبٌ؛ روي عن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنَّى لقاءه، فقال له: عِظْني، فلم يَزِدْه على تلاوةِ هذه الآية، فقال ميمون: لقد وَعَظْتَ فأَبْلَغْتَ.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ من القرى المهلَكةِ ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ قد أُنذروا أهلها إلزاماً للحجة. والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع خبراً مقدَّماً، و«منذرون» مبتدأ. والجملة في موضع الحال من «قرية»، قاله أبو حيان ثم قال: الأَعْرَبُ أن يكون «لها» في موضع الحال، وارتفع «منذرون» بالجارِّ والمجرور، أي: إلا كائناً

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٤٤.

لها منذرون، فيكون من مجيء الحال مفرداً لا جملةً، ومجيءُ الحال من المنفيِّ كقولك: ما مررتُ بأحدٍ إلا قائماً، فصيحٌ[١]. انتهى.

وفي الوجهين مجيءُ الحال من النكرة، وحسَّن ذلك ـ على ما قيل ـ عمومُها؛ لوقوعها في حيِّز النفي مع زيادةِ «مِن» قبلها، وكأنَّ هذا القائل جَعَلَ العموم مسوِّغاً لمجيءِ الحال قياساً على جَعْلِهم إياه مسوِّغاً للابتداء بالنكرة لاشتراك العلة.

وذهب الزمخشريُّ إلى أنَّ «لها منذرون» جملةٌ في موضع الصفة لـ «قرية»[٢].

ولم يجوِّز أبو حيان كونَ الجملة الواقعة بعد «إلا» صفةً، ثم قال: مذهبُ الجمهور أنه لا تجيءُ الصفة بعد «إلا» معتمدةً على أداة الاستثناء، نحو: ما جاءني أحدٌ إلا راكبٌ، وإذا سُمع خرِّج على البدل، أي: إلَّا رجلٌ راكبٌ، ويدلُّ على صحةِ هذا المذهب أنَّ العرب تقول: ما مررتُ بأحدٍ إلّا قائماً، ولا يُحفَظُ من كلامها: ما مررتُ بأحدٍ إلاَّ قائمٍ، فلو كانت الجملة في موضع الصفة للنكرة لورد المفردُ بعد «إلا» صفةً لها، فإن كانت الصفة غيرَ معتمدةٍ على الأداة جاءت الصفة بعد «إلا»، نحو: ما جاءني أحدٌ إلا زيدٌ خيرٌ من عمرو، فإنَّ التقدير: ما جاءني أحدٌ خيرٌ من عمرو إلا زيدٌ[٣]. انتهى فتذكَّر.

وأيّاً ما كان فضميرُ «لها» للقرية التي هي ـ لِمَا سمعت ـ في معنى الجمع، فكأنه قيل: وما أهلكنا القرى إلَّا لها منذورن، على [أنَّ][٤] معنى أنَّ للكلِّ منذرين أعمّ من أن يكون لكلِّ قريةٍ منها منذرٌ واحدٌ أو أكثر.

وقوله تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ منصوبٌ على الحال من الضمير في «منذرون» عند الكسائيِّ، وعلى المصدر عند الزجَّاج[٥]. فعلى الحال إمَّا أن يقدَّر: ذوي ذكرى، أو يقدَّر: مذكِّرين، أو يبقى على ظاهره اعتباراً للمبالغة. وعلى المصدر فالعامل

---

(١) البحر ٧/ ٤٤.
(٢) الكشاف ٣/ ١٣٠.
(٣) البحر ٧/ ٤٤.
(٤) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ١٣٢.
(٥) في معاني القرآن ٤/ ١٠٢، ونقله المصنف عنه وعن الكسائي بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٤٤.

«منذرون»؛ لأنه في معنى: مذكِّرون، فكأنه قيل: مذكِّرون ذكرى، أي: تذكرة.

وأجاز الزمخشريُّ أن يكون مفعولاً له، على معنى أنهم ينذرون لأجْلِ الموعظة والتذكرة.

وأن يكون مرفوعاً على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ بمعنى: هذه ذكرى، والجملةُ اعتراضيةٌ.

أو صفةٌ بمعنى: منذرون ذوو ذكرى، أو: مذكِّرون[١]، أو جُعلوا نفسَ الذكرى مبالغةً؛ لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها.

وجوَّز أيضاً أن يكون متعلِّقاً بـ «أهلكنا» على أنه مفعولٌ له، والمعنى: ما أهلكنا من قريةٍ ظالمين إلَّا بعدما ألزمناهم الحجةَ بإرسال المنذرين إليهم ليكونَ إهلاكُهم تذكرةً وعبرةً لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم، ثم قال: وهذا هو الوجهُ المعوَّلُ عليه[٢].

وبيَّن ذلك في «الكشف» بقوله: لأنه وعيدٌ للمستهزئين، وبأنهم يستحقُّون أن يُجعلوا نكالاً وعبرةً لغيرهم كالأمم السوالف، حيث فَعَلوا مثل فِعْلِهم من الاستهزاء والتكذيب، فجُوزوا بما جُوزوا، وحينئذ يتلائم الكلام. انتهى.

وتعقِّب[٣] بأنَّ مذهب الجمهور أنَّ ما قبلَ «إلا» لا يعملُ فيما بعدها إلا أن يكون مستثنًى، أو مستثنًى منه، أو تابعاً له غيرَ معتمدٍ على الأداة، والمفعولُ له ليس واحداً من هذه الثلاثة، فلا يجوز أن يتعلق بـ «أهلكنا». ويتخرَّج جوازُ ذلك على مذهب الكسائيِّ والأخفش وإن كانا لم ينصبا على المفعول له هنا، وكأنَّ ذلك لِمَا في نَصْبِهِ عليه من التكلُّف، وأمرُ الالتئام سهلٌ كما لا يخفى.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ أي: ليس شأْنُنا أن يَصْدُرَ عنَّا بمقتضَى الحكمة ما هو في صورة الظلم لو صَدَرَ من غيرنا، بأنْ نهلك أحداً قبل إنذاره، أو بأنْ نعاقب مَن

(١) في الأصل و(م): مذكرين، والصواب ما أثبتناه، وهو على وقوع المصدر موقع اسم الفاعل كما ذكر السمين في الدر ٨/ ٥٦١.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٠.

(٣) المتعقب هو أبو حيان في البحر ٧/ ٤٤.

لم يظلم. ولإرادة نفي أن يكون ذلك من شأنه عزَّ شأنهُ قال: (وَمَا كُنَّا) دون: وما نظلم.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إلخ [الآية: ١٩٢]، وهو ردٌّ لقول مشركي قريشٍ: إنَّ لمحمدٍ ﷺ تابعاً من الجنِّ يخبرهُ كما تُخْبِرُ الكهنةُ، وإنَّ القرآن مما ألقاه إليه عليه الصلاة والسلام. والتعبيرُ بالتفعيل لأنَّ النزول لو وقع لكان بالاستراق التدريجيِّ.

وقرأ الحسن وابن السميفع: «الشياطونَ»(١)، فقال أبو حاتم(٢): هو غلطٌ من الحسن أو عليه. وقال النحاس: هو غلطٌ عند جميع النحويين(٣). وقال المهدويُّ: هو غيرُ جائزٍ في العربية. وقال الفرَّاء: غَلِطَ الشيخ، ظنَّ أنها النون التي على هجاءَيْن(٤).

وقال النضر بن شميل: إنْ جاز أن يُحتجَّ بقول العجَّاج ورؤبةَ فهلَّا جاز أن يُحتجَّ بقول الحسن وصاحبه، مع أنَّا نعلمُ أنهما لم يقرأا به إلَّا وقد سَمعا فيه.

وقال يونس بن حبيب: سمعتُ أعرابيّاً يقول: دخلتُ بساتينَ من ورائها بساتون. فقلت: ما أَشْبهَ هذا بقراءة الحسن! انتهى.

ووجِّهت هذه القرءاة بأنه لمّا كان آخرُه كآخِرِ يبرين وفلسطين، وقد قيل فيهما: يبرون وفِلَسْطون، أُجري فيه نحو ما أجري فيهما، فقيل: الشياطون؛ وحقُّه على هذا على ما في «الكشاف» أن يُشتقَّ من الشيطوطة، وهي الهلاك(٥).

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٩٤، والكشاف ٣/ ١٣١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥، والقراءات الشاذة ص١٠٨، والمحتسب ٢/ ١٣٣، والبحر ٧/ ٤٦.

(٢) كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥، والبحر ٧/ ٤٦، وعنه نقل المصنف ما سيأتي من أقوال.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٩٤.

(٤) الكشاف ٣/ ١٣١، والبحر ٧/ ٤٦، والدر المصون ٨/ ٥٦٢، والعبارة في معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٢٨٥: وجاء عن الحسن: «الشياطون» وكأنه مِن غَلَطِ الشيخ ظن أنه بمنزلة المسلمين والمسلمون.

(٥) الكشاف ٣/ ١٣١، ويبرين ويقال: أبرين: قرية كثيرة النخل بالبحرين. معجم البلدان (أبرين) و(يبرين).

وفي «البحر» نقلاً عن بعضهم: إن كان اشتقاقه من شاط ـ أي: احترق ـ يشيطُ شوطةً، كان لقراءتهما وجهٌ. قيل: ووجهُها أنَّ بناء المبالغة منه شيَّاط، وجمعه الشيَّاطون، فخفَّفا الياء، وقد رُوي عنهما التشديد، وقرأ به غيرُهما[1].

وقال بعض: إنه جمعُ شِياط مصدر شاط، كخاط خِياطاً، كأنهما رَدَّا الوصف إلى المصدر بمعناه مبالغةً ثم جمعا. والكلُّ كما ترى.

وقال صاحب «الكشف»: لا وجهَ لتصحيح هذه القراءة البتة. وقد أطنب ابن جنِّي في تصحيحها ثم قال: وعلى كلِّ حال فالشياطون غلط[2].

وأبو حيان لا يرضى بكونه غلطاً، ويقول: قرأ به الحسن وابن السَّمَيْفَع والأعمشُ، ولا يمكن أن يقال: غلطوا؛ لأنهم من العلم ونَقْلِ القرآن بمكانٍ[3]، والله تعالى أعلم.

والذي أراه أنه متى صحَّ رفعُ هذه القراءة إلى هؤلاء الأجلَّةِ لزم توجيهُها، فإنهم لا يقرؤون إلا عن روايةٍ كغيرهم من القرَّاء في جميع ما يقرؤونه عندنا. وزعم المعتزلة أنَّ بعض القراءات بالرأي.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ أي: وما يصحُّ وما يستقيم لهم ذلك ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١﴾ أي: وما يقدرون على ذلك أصلاً.

﴿إِنَّهُمۡ﴾ أي: الشياطين ﴿عَنِ ٱلسَّمۡعِ﴾ لِمَا يتكلَّم به الملائكةُ عليهم السلام في السماء ﴿لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾ أي: ممنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكَّنين، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا * وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: ٨-٩] والمرادُ تعليلُ ما تقدَّم على أبلغ وجهٍ؛ لأنهم إذا كانوا ممنوعين عن سماع ما تتكلَّم به الملائكة في السماء، كانوا ممنوعين من أَخْذِ القرآن المجيد من اللوح المحفوظ، أو من بيت العزَّة، أو من سماعه إذ يُظْهِرُه الله عزَّ وجلَّ لمن شاء في سمائه، من بابِ أَوْلَى.

---

(١) البحر ٧/ ٤٦.
(٢) المحتسب ٢/ ١٣٣.
(٣) البحر ٧/ ٤٦.

وقيل: المعنى: إنهم لمعزولون عن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام، لأنه مشروطٌ بالمشاركة في صفات الذات وقبولِ فيضان الحقِّ، والانتقاشِ بالصور الملكوتية، ونفوسُهم خبيثةٌ ظلمانيةٌ شرِّيرةٌ بالذات لا تقبلُ ذلك، والقرآنُ الكريم مشتملٌ على حقائقَ ومغيَّباتٍ لا يمكنُ تلقِّيها إلا من الملائكة عليهم السلام.

وتعقِّب بأنه إن أراد أن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام مطلقاً مشروطٌ بصفاتٍ هم متَّصفون بنقائضها، فهو غيرُ مسلَّم، كيف وقد ثبت أنَّ الشياطين كانوا يَسْتَرِقون السمع، وظاهرُ الآيات أنهم إلى اليومَ يَسْتَرِقُونه ويَخْطَفون الخطفةَ فيتبعهم شهابٌ ثاقب.

وأيضاً لو كان ما ذكر شرطاً للسمع وهو منتفٍ فيهم، فأيُّ فائدةٍ للحرس، ومَنْعِهم عن السمع بالرجوم؟!

وأيضاً لو صحَّ ما ذكر لَمْ يتأتَّ لهم سماعُ القرآن العظيم من الملائكة عليهم السلام سواءٌ كان مشتملاً على الحقائق والمغيَّبات أم لا، فما فائدة في قوله: والقرآن مشتمل.. إلخ، إلى غير ذلك.

وإنْ أراد أنَّ السمع لكلام الملائكة عليهم السلام إذا كان وحياً منزلاً على الأنبياء عليهم السلام مشروطٌ بما ذكر، فهو مع كونه خلافَ ظاهر الكلام غيرُ مسلَّم أيضاً، كيف وقد ثبت أنَّ جبريل عليه السلام حين ينزل بالقرآن ينزل معه رَصَدٌ حِفْظاً للوحي من الشيطان[1]، وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

وأيضاً ظاهرُ العزل عن السمع يقتضي أنهم كانوا ممكَّنين منه قبلُ ثم مُنعوا عنه، فيلزمُ على ما ذكر أنهم كانوا يسمعون الوحي من قبلُ مع أنَّ نفوسهم خبيثةٌ ظلمانيةٌ شريرةٌ بالذات، فيَبْطُلُ كونُ المشاركة المذكورة شرطاً للسمع، فإن ادَّعى أنَّ الشرط كان موجوداً إذ ذاك ثم فُقِدَ، والتَزَمَ القول بجواز تغيُّرِ ما بالذات، فهو مما لم يَقُمْ عليه دليلٌ. وقياسُ جميع الشياطين على إبليس عليه اللعنةُ مما لا يخفى حالُه، فتدبر.

(١) ينظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٢٧) من سورة الجن.

وبالجملة الذي أميلُ إليه في معنى الآية ما ذكرتُه أوَّلاً، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما يتعلَّق بذلك.

وجوِّز كونُ ضمير «إنهم» للمشركين، والمراد: إنهم لا يصغون للحقِّ لعنادهم، وفي الآية شمة من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧] وهو بعيدٌ جدّاً.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ خوطب به النبيُّ ﷺ مع استحالة صدور المنهيِّ عنه عليه الصلاة والسلام تهييجاً وحثّاً لازدياد الإخلاص، فهو كنايةٌ عن: أَخْلِصْ في التوحيد حتى لا ترى معه عزَّ وجلَّ سواه. وفيه لطفٌ لسائر المكلَّفين ببيان أنَّ الإشراك من القبح والسوء بحيث يُنْهَى عنه مَن لم يُمْكِنْ صدورُه عنه، فكيف بِمَن عَدَاه؟ وكأنَّ الفاء فصيحةٌ، أي: إذا علمت ما ذُكر فلا تَدْعُ مع الله إلهاً آخَرَ.

﴿وَأَنذِرْ﴾ العذابَ الذي يستتبعه الشركُ والمعاصي ﴿عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ أي: ذوي القرابة القريبة، أو الذين هم أكثر قرباً إليك من غيرهم.

والعشيرة على ما قال الجوهريُّ: رَهْطُ الرجل الأَدْنَوْنَ[1]. وقال الراغب: هم أهلُ الرجل الذين يتكثَّرُ بهم، أي: يصيرون له بمنزلةِ العدد الكامل، وهو العشرة[2].

واشتهر أن طبقات الأنساب ستٌّ:

الأولى: الشَّعْبُ بفتح الشين، وهو النَّسبُ الأبعد كعدنان.

الثانية: القبيلةُ، وهي ما انقسم فيه الشعب كربيعة ومضر.

الثالثة: العِمَارةُ بكسر العين، وهي ما انقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة.

الرابعة: البطنُ، وهو ما انقسم فيه أنسابُ العمارة، كبني عبد مناف وبني مخزوم.

---

(١) كذا نقل المصنف عن الجوهري، والذي في الصحاح (عشر): العشيرة: القبيلة. وما ذكره المصنف قاله الجوهري في العترة والفصيلة كما في الصحاح (عتر) و(فصل). وفي اللسان (عشر): عشيرة الرجل: بنو أبيه الأدنون، وقيل: قبيلته. ومثله في التاج (عشر).

(٢) مفردات الراغب (عشر).

الخامسة: الفَخِذُ، وهو ما انقسم فيه أنسابُ البطن، كبني هاشم وبني أمية.

السادسة: الفصيلة، وهي ما انقسم فيه أنسابُ الفخذ، كبني العباس وبني عبد المطلب(١)، وليس دون الفصيلة إلَّا الرجلُ وولده.

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبيِّ عن أبيه تقديمَ الشَّعْبِ، ثم القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العِمَارة، ثم الفَخِذ(٢)، فأقام الفصيلة مقام العمارة في ذكرها بعد القبيلة، والعمارةَ مقام الفصيلة في ذكرها قبل الفخذ، ولم يَحْكِ ما يخالفُه، ولم يذكر في الترتيبين العشيرة.

وفي «البحر» أنها تحت الفخذ فوق الفصيلة(٣). والظاهرُ أنَّ ذلك على الترتيب الأول.

وحَكَى بعضُهم بعد أن نقل الترتيبَ المذكور عن النوويِّ عليه الرحمةُ أنه قال في «تحرير التنبيه»: وزاد بعضُهم العشيرة قبل الفصيلة.

ويُفْهَمُ من كلام البعض أنَّ العشيرة إذا وُصفَتْ بالأقرب اتَّحدتْ مع الفصيلة التي هي سادسةُ الطبقات، وأنت تعلم أنَّ الأقربية إذا كانت مأخوذةً في مفهومها كما يُفهم من كلام الجوهري(٤) تستغني دعوى الاتِّحاد عن الوصف المذكور.

وفي «كلِّيات» أبي البقاء: كلُّ جماعةٍ كثيرةٍ من الناس يرجعون إلى أبٍ مشهورٍ بأمرٍ زائدٍ فهو شعبٌ كعدنان، ودونه القبيلةُ وهي ما انقسمتْ فيها أنسابُ الشعب كربيعة ومضر، ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها أنسابُ القبيلة كقريش وكنانة، ثم

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص٥٣١-٥٣٢، وفيه: وبني أبي طالب، وهو أنسب بالسياق من: بني عبد المطلب.

(٢) كذا نقل المصنف عن الصحاح (شعب)، والذي في الغريب المصنف ١/ ٥٤ عن ابن الكلبي عن أبيه: الشعب أكثر من القبيلة، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ. وكذا نقله عن أبي عبيد عن ابن الكلبي الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ٤٤٢، ومثله عن ابن الكلبي في أدب الكاتب ص١٧٥، وأمالي القالي ١/ ٢١. وقال ابن قتيبة: وقال غيره: الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة.

(٣) البحر ٧/ ٤٦.

(٤) سلفت الإشارة إلى أن هذا الكلام ليس للجوهري، وأنه مذكور في اللسان والتاج (شعب).

البطن وهي ما انقسمت فيها أنسابُ العمارة كبني عبد مناف وبني مخزوم، ثم الفَخِذُ وهي ما انقسمت فيها أنساب البطن كبني هاشم وبني أمية، ثم العشيرة وهي ما انقسمت فيها أنسابُ الفخذ كبني العباس وبني أبي طالب. والحيُّ يَصْدُقُ على الكلِّ؛ لأنه للجماعة المتنازلين بِمَرْبَع منهم[١]. انتهى.

ولم يذكر فيه الفصيلة، وكأنه يذهبُ إلى اتِّحادها بالعشيرة.

ووجهُ تخصيص عشيرته ﷺ الأقربينَ بالذِّكر مع عموم رسالته عليه الصلاة والسلام دَفْعُ توهُّم المحاباة، وأنَّ الاهتمام بشأنهم أهمُّ، وأنَّ البداءة تكونُ بِمَن يلي ثم مَن بَعْدَه كما قال سبحانه: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وفي كيفية الإنذار أخبارٌ كثيرة، منها ما أخرجه البخاريُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النبيُّ ﷺ على الصَّفَا فجَعَلَ ينادي: «يا بني فِهْرٍ، يا بني عديٍّ» لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أنْ يَخْرجَ أَرْسلَ رسولاً ليَنْظُرَ ما هو، فجاء أبو لهب وقريشٌ، فقال: «أرأيتَكم لو أَخْبَرْتُكم أنَّ خيلاً بالوادي تُريدُ أنْ تُغِيرَ عليكم أكُنْتُم مُصَدِّقيَّ؟» قالوا: نعم ما جرَّبْنا عليك إلَّا صدقاً. قال: «فإنِّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد» فقال أبو لهب: تبًّا لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنا!؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾[٢].

ومنها ما أخرجه أحمد وجماعةٌ عن أبي هريرة قال: لمَّا نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسولُ الله ﷺ قريشاً وعَمَّ وخَصَّ، فقال: «يا معشر قريش، أنقِذوا أنفسكم من النار فإنِّي لا أملكُ لكم ضرًّا ولا نفعاً، يا معشر بني كعب بن لؤيٍّ أنقذوا أنفسَكم من النار فإنِّي لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً، يا معشر بني قصيٍّ أنقذوا أنفسكم من النار فإنِّي لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً، يا معشر بني عَبْدِ مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنِّي لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإنِّي لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، يا فاطمةُ بنت محمدٍ

---

(١) الكليات ص٥٢٤.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٧٠)، وهو عند مسلم (٢٠٨).

أنقذي نفسَكِ من النار فإني لا أملك لك ضرّاً ولا نفعاً، ألا إنَّ لكم رحماً وسَأَبُلُّها بِبَلَالِها»[(١)].

وجاء في بعض الروايات: أنه ﷺ لمَّا نزلت الآيةُ جَمَعَ عليه الصلاة والسلام بني هاشم فأجلسهم على الباب، وجمع نساءه وأهله فأجلسهم في البيت ثم اطَّلع عليهم فأنذرهم[(٢)].

وجاء في بعضٍ آخَر منها أنه عليه الصلاة والسلام أَمَرَ عليًّا كرم الله تعالى وجهه أن يصنع طعاماً ويجمعَ له بني عبد المطلب، ففعل وجَمَعَهم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، فبعد أن أكلوا أراد ﷺ أن يكلِّمهم، بَدَرَه أبو لهب إلى الكلام، فقال: لقد سَحَركم صاحبكم. فتفرَّقوا، ثم دعاهم من الغد إلى مثل ذلك، ثم بَدَرَهم بالكلام فقال: يا بني عبد المطلب إنِّي أنا النذيرُ إليكم من الله تعالى والبشيرُ، قد جئتُكم بما لم يَجِئْ به أحدٌ، جئتكم بالدنيا والآخرة، فأسْلِموا تَسْلَموا، وأطيعوا تهتدوا»[(٣)].

إلى غير ذلك من الأخبار والروايات، وإذا صحَّ الكلُّ فطريقُ الجمع أن يقال بتعدُّد الإنذار.

ومن الروايات ما يتمسَّكُ به الشيعةُ فيما يدَّعونه في أمرِ الخلافة، وهو مؤوَّلٌ أو ضعيفٌ أو موضوعٌ.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ورَهْطَكَ منهم المُخْلَصين ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥﴾ أمرٌ له ﷺ بالتواضُع على سبيل الاستعارة التبعية أو التمثيلية، أو

---

(١) مسند أحمد (٨٤٠٢) و(٨٧٢٦)، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٠٤). وأخرجه بنحوه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦). قوله: ببلالها، قال النووي في شرح صحيح مسلم ٣/ ٨٠: ضبطناه بفتح الباء الثانية وكسرها، والبلال الماء، ومعنى الحديث: سأصِلُها، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة، ومنه: بلُّوا أرحامكم، أي: صِلُوها.

(٢) قطعة من خبر طويل أخرجه الطبراني في الكبير (٧٨٩٠) عن أبي أمامة رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٨٦: فيه علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك.

(٣) أخرجه مطولاً ابن إسحاق في السير والمغازي ص١٤٥، والطبري ١٧/ ٦٦١-٦٦٣، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٢٦، والبيهقي في الدلائل ٢/ ١٧٩ من حديث علي رضي الله عنه.

المجاز المرسل وعلاقتُه اللزوم. ويستعمل في التكبُّر رَفْعُ الجناح، وعلى ذلك جاء قولُ الشاعر:

وأنت الشهير بخفْضِ الجناح فلا تكُ في رفعه أجدلا[1]

و«من» قيل: بيانية؛ لأنَّ «مَن اتَّبع» في أصل معناه أعمُّ ممن اتَّبع لدينٍ أو غيره، ففيه إبهامٌ، وبذِكْرِ المؤمنين المرادِ بهم المتَّبِعون للدِّين زال ذلك.

وقيل: للتبعيض، بناءً على شيوع مَن اتَّبع فيمَن اتَّبع للدِّين، وحَمْلِ المؤمنين على مَن صدَّق باللسان ولو نفاقاً، ولا شكَّ أنَّ المتَّبعين للدِّين بعضُ المؤمنين بهذا المعنى، وجوِّز أن يُحمل على مَن شارف وإن لم يؤمن، ولا شكَّ أيضاً أنَّ المتَّبِعين المذكورين بعضُهم.

وفي الآية على القولين أمرٌ بالتواضُع لمن اتَّبع للدين.

وقال بعضهم على تقدير كونها بيانيةً: إن «المؤمنين» يرادُ بهم الذين لم يؤمنوا بعدُ وشارَفوا لأَنْ يؤمنوا كالمؤلَّفة مجازٌ باعتبار الأَوْل، وكان «مَن اتَّبعك» شائعاً فيمَن آمَنَ حقيقةً ومَن آمَنَ مجازاً، فبيَّن بقوله تعالى: «من المؤمنين» أنَّ المراد بهم: المُشارِفون، أي: تَواضَعْ للمشارفين استمالةً وتأليفاً. وعلى تقدير كونها تبعيضيةً يراد بالمؤمنين: الذين قالوا آمنَّا، وهم صنفان: صنفٌ صَدَّقَ واتَّبع، وصنفٌ ما وُجِدَ منهم إلَّا التصديق، فقيل: «من المؤمنين» وأريد بعضُ الذين صدَّقوا واتَّبعوا، أي: تَواضَعْ لبعض المؤمنين، وهم الذين اتَّبعوك محبةً ومودةً.

وعلى هذا يكون الذين أُمر ﷺ بالتواضُع لهم على تقدير البيان غيرَ الذين[2] أُمر عليه الصلاة والسلام بالتواضُع لهم على تقدير التبعيض.

وقال بعض الأَجِلَّة: الاتِّباع والإيمانُ توأمان؛ إذ المتبادرُ من اتِّباعه عليه الصلاة والسلام اتِّباعُه الدينيُّ، وكذا المتبادرُ من الإيمان الإيمانُ الحقيقيُّ، وذكر «من المؤمنين» لإفادة التعميم كذِكْرِ: «يطير بجناحيه» بعد «طائر» في قوله تعالى:

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣١، والبحر ٧/ ٤٦.

(٢) في (م): الذي.

﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام:٣٨] وتفيدُ الآية الأمرَ بالتواضع لكلِّ مَن آمَنَ من عشيرته ﷺ وغيرهم.

وقال الطيبيُّ: الأَجْرَى[1] على أفانين البلاغة أن يُحمَلَ الكلام على أسلوبِ وَضْعِ المُظْهَرِ موضعَ المضمَرِ، وأنَّ الأصل: وأنذر عشيرتك الأقربين، واخْفِضْ جناحك لمن اتَّبعك منهم، فعدل إلى المؤمنين ليعمَّ ويؤذِنَ أنَّ صفةَ الإيمان هي التي يستحقُّ أن يُكْرَم صاحبُها ويتواضع لأَجْلِها مَن اتَّصف بها سواءٌ كان من عشيرتك أو غيرهم.

وليس هذا بالبعيد، لكنِّي أختارُ كونَ «من» بيانيةً، وأنَّ عموم «مَن اتَّبعك» باعتبارِ أصل معناه. وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال: لما نزلت (وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ) بدأ ﷺ بأهل بيته وفصيلته، فشقَّ ذلك على المسلمين، فأنزل الله تعالى: (وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)[2].

﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ الظاهر أنَّ الضمير المرفوع في «عصوك» عائدٌ على مَن أنذر ﷺ بإنذارهم وهم العشيرة، أي: فإنْ عَصَوْك ولم يتَّبعوك بعد إنذارهم فقل: إنِّي بريءٌ من عملكم، أو: الذي تعملونه، من دعائكم مع الله تعالى إلهاً آخر. وجوِّز أن يكون عائداً على الكفار المفهوم من السياق.

وقيل: هو عائدٌ على مَن اتَّبع من المؤمنين، أي: فإن عَصَوْكَ يا محمدُ في الأحكام وفروع الإسلام بعد تصديقك والإيمان بك وتواضُعِكَ لهم، فقل: إني بريءٌ مما تعملون من المعاصي، أي: أَظْهِرْ عَدَمَ رضاك بذلك وإنكارَه عليهم. وذُكِرَ على هذا أنه ﷺ لو أُمر بالبراءة منهم ما بقي شفيعاً للعصاة يوم القيامة.

والآيةُ على غير هذا القول منسوخةٌ؛ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال: أمره سبحانه بهذا ثم نَسَخه فأمره بجهادهم[3]. وفي «البحر»: هذه موادَعةٌ، نسختها آيةُ السيف[4].

---

(١) في (م): الإجراء.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٦٥، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٩٨.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٢٧.
(٤) البحر ٧/ ٤٧.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ فهو سبحانه يقهرُ مَن يعصيك منهم ومِن غيرِهم بعزَّته، وينصرُك برحمته. وتقديمُ وصفِ العزةِ قيل: لأنه أوفقُ بمقام التسلِّي عن المشاقِّ اللَّاحقةِ من القوم إليه ﷺ. وجوِّز أن يكون ذلك لأنَّ العزة كالعلَّة المصحِّحةِ للتوكُّل، والرحمة كالعلَّة الداعية إليه.

وفسَّره غيرُ واحدٍ بتفويض الرجل أمرَه إلى مَن يملكُ أمرَه ويَقْدِرُ على أن ينفعه ويضرَّه، وقالوا: المتوكِّلُ مَن إن دَهَمَه أمرٌ لم يحاول دفعَه عن نفسه بما هو معصيةٌ لله تعالى. وذكر بعضُهم أنَّ هذا مِن أحَطِّ مراتب التوكُّل وأدناها.

ونقل عن بعض العارفين أنه فيما بين الناس على ثلاث درجاتٍ:

الأولى: التوكُّل مع الطلب ومُعاطاةِ السبب على نية شغل النفس ونَفْعِ الخَلْقِ وتَرْكِ الدعوى.

والثانية: التوكُّل مع إسقاط الطلب وغضِّ العين عن السبب اجتهاداً في تصحيح التوكُّل، وَقَمْعِ تشرُّفِ النفس تفرُّغاً إلى حِفْظِ الواجبات.

والثالثة: التوكُّل مع معرفة التوكُّلِ النازعة إلى الخلاص من علَّة التوكُّل، وذلك أنْ يعلَمَ أنّ الله تعالى لم يترك أمراً مهمَلاً، بل فرغ من الأشياء كلِّها وقدَّرها، وشأنُهُ سبحانه سوقُ المقادير إلى المواقيت، فالمتوكِّلُ مَن أراح نفسه من كدِّ النظر ومطالعةِ السبب سكوناً إلى ما سبق من القسمة، مع استواء الحالين، وهو أن يعلم أنَّ الطلب لا ينفع والتوكُّلَ لا يمنع. ومتى طالع بتوكُّله عوضاً كان توكُّله مدخولاً وقَصْدُه معلولاً، وإذا خلص من رقِّ الأسباب، ولم يلاحظْ في توكُّله سوى خالصِ حقِّ الله تعالى، كفاه الله تعالى كلَّ مهمٍّ.

وبيَّن العلَّامةُ الطيبيُّ أنَّ في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ إلخ إشارةٌ إلى المراتب الثلاث بما فيه خفاء.

وفي مصاحف أهل المدينة والشام: ﴿فَتَوَكَّلْ﴾ بالفاء، وبه قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو جعفر وشيبة[1]، وخرِّج على الإبدال من جواب الشرط. وجَعَلَ في

(١) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٦ عن نافع وابن عامر وأبي جعفر، وذكرها عنهم وعن شيبة أبو حيان في البحر ٧/ ٤٧.

«الكشاف» الفاءَ للعطف، وما بعده معطوفاً على «فقل» أو «فلا تدع»[١]. وما ذُكر أوَّلاً أظهر.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ أي: إلى الصلاة ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ أي: ويرى سبحانه تغيُّرك من حالٍ كالجلوس والسجود إلى آخَرَ كالقيام. ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ أي: فيما بين المصلِّين إذا أَمَمْتَهم، وعبَّر عنهم بالساجدين لأنَّ السجود حالةُ مزيدِ قُرْبِ العبد من ربِّه عزَّ وجلَّ، وهو أفضلُ الأركان على ما نصَّ عليه جمعٌ من الأئمة، وتفسيرُ هذه الجملة بما ذُكر مرويٌّ عن ابن عباس وجماعةٍ من المفسِّرين، إلَّا أنَّ منهم مَن قال: المراد: حين تقومُ إلى الصلاة بالناس جماعةً.

وقيل: المعنى: يراك حين تقومُ للتهجُّد، ويرى تقلُّبك، أي: ذهابك ومجيئك فيما بين المتهجِّدين؛ لتتصفَّح أحوالهم وتطَّلع عليهم من حيث لا يشعرون، وتستَبْطِنَ سرائرهم وكيف يعملون لآخرتهم، كما رُوي أنه لمَّا نُسخ فرضُ قيام الليل طاف ﷺ تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت النحل لِمَا سمع لها من دندنتهم بذِكْرِ الله تعالى والتلاوةِ[٢].

وعن مجاهدٍ أنَّ المراد بقوله سبحانه: (وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ) تقلُّبَ بَصَره عليه الصلاة والسلام فيمَن يصلِّي خَلْفَه، فإنه ﷺ كان يرى مِن خَلْفِه. ففي «صحيح البخاريِّ» عن أنس قال: أُقيمت الصلاة، فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «أقيموا صفوفَكم وتراصُّوا، فإني أراكم من وراء ظهري»[٣].

وفي رواية أبي داود عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «اسْتَوُوا اسْتَوُوا، والذي نفسي بيده إنِّي لأراكم مِن خَلْفي كما أراكم من بين يديَّ»[٤].

ولا يَخْفَى بُعْدُ حَمْلِ ما في الآيةِ على ما ذُكر.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٢.

(٢) ذكره البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٩.

(٣) صحيح البخاري (٧١٨)، وهو عند أحمد (١٢٠١١)، ومسلم (٤٣٤).

(٤) لم نقف عليه، وأخرجه النسائي في المجتبى ٢/ ٩١ بهذا اللفظ من حديث أنس رضي الله عنه.

وقيل: المراد بـ «الساجدين»: المؤمنون، والمعنى: يراك حين تقوم لأداء الرسالة، ويرى تقلُّبك وتردُّدك فيما بين المؤمنين أو معهم فيما فيه إعلانُ أمرِ الله تعالى وإعلاءُ كلمته سبحانه. وتفسيرُ «الساجدين» بالمؤمنين مرويٌّ عن ابن عباس وقتادةَ، إلَّا أنَّ كون المعنى ما ذُكر لا يخلو عن خفاء.

وعن ابن جبير: أنَّ المراد بهم الأنبياءُ عليهم السلام، والمعنى: ويرى تقلُّبَكَ كما يتقلَّبُ غيرُكَ من الأنبياء عليهم السلام في تبليغ ما أُمروا بتبليغه. وهو كما ترى، وتفسيرُ «الساجدين» بالأنبياء رواه جماعةٌ منهم الطبرانيُّ والبزَّارُ وأبو نعيم عن ابن عباس أيضاً، إلَّا أنه ﷺ فسَّر التقلُّبَ فيهم بالتنقُّل في أصلابهم حتى ولدته أمُّه عليه الصلاة والسلام[1].

وجوِّز على حَمْلِ التقلُّبِ على التنقُّل في الأصلاب أن يراد بالساجدين المؤمنون.

واستُدلَّ بالآية على إيمان أبويه ﷺ كما ذهب إليه كثيرٌ من أجلَّة أهل السنَّة، وأنا أخشى الكفرَ على مَن يقول فيهما ﵄ - على رَغْم أنفِ عليٍّ القاري وأضرابه - بضدِّ ذلك[2]، إلَّا أنِّي لا أقولُ بحجِّيةِ الآيةِ على هذا المطلب.

ورؤيةُ الله تعالى انكشافٌ لائقٌ بشأنه عزَّ شأنهُ غيرُ الانكشاف العِلْميِّ، ويتعلَّق بالموجود والمعدوم الخارجيِّ عند العارفين، وقالوا: إنَّ رؤية الله تعالى للمعدوم نظيرُ رؤية الشخص القيامةَ ونحوها في المنام. وكثيرٌ من المتكلِّمين أنكروا تعلُّقها بالمعدوم، ومنهم مَن أَرْجَعها إلى صفة العلم، وتحقيقُ ذلك في محلِّه.

وفي وَصْفِه تعالى برؤيته حالَه ﷺ التي بها يستأهلُ ولايَته بعد وَصْفِه بما تقدَّم تحقيقٌ للتوكُّل، وتَوْطينٌ لقلبه الشريف - عليه الصلاة والسلام - عليه.

وقرأ جناح بن حبيش: «ويقلِّبك» مضارع قلَّب مشدَّداً[3]. وخرَّج ذلك أبو حيان

---

(١) المعجم الكبير (١٢٠٢١)، ومسند البزار (٢٢٤٢- كشف)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (١٧)، وأخرجه أيضاً ابن سعد ١/ ٢٥، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٢٨. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٨٦: رواه البزار والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح غير شبيب بن بشر، وهو ثقة.

(٢) سلف الكلام في هذه المسألة ٢/ ٤١٥-٤١٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٤٧.

على العطف على «يراك»[1]، وجوّز العطف على «تقوم». وفي الكلام على هذه القراءة إشارةٌ إلى وقوع تقلُّبه ﷺ في الساجدين على وجه الكمال، وكمالُ التقلُّب في الصلاة كونُه بخشوعٍ يغفلُ معه عمَّا سوى الله تعالى.

﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بكلِّ ما يصحُّ تعلُّقُ السمع به، ويندرجُ فيه ما يقوله ﷺ. ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ بكلِّ ما يصحُّ تعلُّق العلم به، ويندرجُ فيه ما يعملهُ أو يَنْوِيه عليه الصلاة والسلام.

وفي الجملة الاسمية إشارةٌ إلى أنه سبحانه متَّصفٌ بما ذكر أزلاً وأبداً، ولا توقُّفَ لذلك على وجود المسموعات والمعلومات في الخارج. والحصرُ فيها حقيقيٌّ، أي: هو تعالى كذلك لا غيرُه سبحانه وتعالى.

وكأنَّ الجملة متعلِّقة بالجملتين الواقعتين في حيِّز الجزاء جيء بها للتحريض على القول السابق والتوكُّل. وجوّز أن تكون متعلِّقةً بما في حيِّز الصلة، والمراد منها التحريضُ على إيقاع الأقوال والأفعال التي في الصلاة على أكمل وجهٍ، فتأمَّل.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ إلخ مسوقٌ لبيان استحالةِ تنزُّلِ الشياطين على رسول الله ﷺ بعد بيان امتناع تنزُّلهم بالقرآن. وهذه الجملةُ وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إلخ [الآية: ١٩٢] وقولُه سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ إلخ [الآية: ٢١٠] أخواتٌ، وفرِّق بينهنَّ بآياتٍ ليست في معناهنَّ ليرجعَ إلى المجيء بهنَّ وتَطْرِيةِ ذِكْرِ ما فيهنَّ كرَّةً بعد كَرَّةٍ، فيدل بذلك على أنَّ المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدَّت عنايةُ الله تعالى بها، ومثاله أن يحدِّث الرجلُ بحديث وفي صدره اهتمامٌ بشيءٍ منه وفَضْلُ عنايةٍ، فتراه يُعيد ذِكْرَه ولا ينفكُّ عن الرجوع إليه.

والاستفهامُ للتقرير، و«على مَن» متعلِّقٌ بـ «تنزَّل» قدِّم عليه لصدارة المجرور، وتقديمُ الجارِّ لا يضرُّ كما بيِّن في النحو.

---

(١) البحر ٧/ ٤٧.

وقال الزمخشريُّ[1] في ذلك: إنَّ «مَن» متضمِّنةٌ معنى الاستفهام، وليس معنى التضمُّنِ أنَّ الاسم دلَّ على معنيين معاً: معنى الاسم ومعنى الحرف، وإنما معناه أنَّ الأصل: أَمَن، فحذف حرفُ الاستفهام واستمرَّ الاستعمالُ على حَذْفِه كما حُذِفَ من «هل»، والأصل: أَهَل، كما قال:

سائِلْ فوارسَ يربوعٍ بشدَّتنا أَهَلْ رَأَوْنا بسَفْحِ القاع ذي الأكم[2]

فإذا أَدْخَلْتَ حرفَ الجرِّ على «مَن» فقدِّر الهمزةَ قبل حرف الجرِّ في ضميرك، كأنك تقول: أَعَلى مَن تنزَّلُ الشياطين، كقولك: أَعَلى زيدٍ مررت. اهـ.

وتعقَّبه صاحب «الفرائد» بقوله: يُشْكِلُ ما ذَكَر بقولهم: من أين أنت؟ ومن أين جئت؟ وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس:١٨] وقولهم[3]: فيمَ وبمَ وممَّ وحتَّام، ونحوها.

وأجاب صاحب «الكشف» بأنه لا إشكال في نحو: مِن أين أنت؟ لأنَّ التقدير: أَمِنَ البصرةِ أم من الكوفة، مثلاً، ولا يَخْفَى أنه لا يحتاج ـ على ما حقَّقه النحاة ـ إلى جميع ذلك.

وجملة «على مَن تنزَّلُ» إلخ في موضع نَصْبٍ بـ «أنبِّئكم» لأنه معلَّقٌ بالاستفهام، وهي إمّا سادَّةٌ مسدَّ المفعول الثاني إن قدَّرتَ الفعل متعدِّياً لاثنين، ومسدَّ مفعولين إن قدَّرته متعدِّياً لثلاثة، والمراد: هل أُعْلِمُكم جوابَ هذا الاستفهام، أعني: «على مَن تنزَّلُ الشياطين». وأصل «تَنزَّلُ»: تتنزَّلُ فحذف إحدى التاءين.

---

(١) في الكشاف ٣/ ١٣٢.

(٢) البيت لزيد الخيل الطائي، وهو في ديوانه ص١٠٠، والمقتضب ١/ ٤٤، والخصائص ٢/ ٤٦٣، وأمالي ابن الشجري ١/ ١٦٣، والمغني ص٤٦٠، والخزانة ١١/ ٢٦١. والبيت من أبيات قالها الشاعر في إغارة أغارها على بني يربوع، ويربوع أبو حيٍّ من تميم، والباء بمعنى «عن»، والشَّدة بفتح الشين: الحملة، وروي بكسرها. والقاع: المستوي من الأرض. والأكَم جمع أَكَمة، وهي ما ارتفع من الأرض. شرح شواهد المغني للبغدادي ٦/ ٧٢. ويروى: بسفح القُف، وهو ما ارتفع من الأرض في صلابة كما قال ابن الشجري.

(٣) في (م): وقوله.

والكلام على معنى القول عند أبي حيان، كأنه قيل: قل يا محمد: هل أنبئكم على مَن تنزَّلُ الشياطين[1].

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ أي: كثيرِ الإفك، وهو الكذب ﴿أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ كثيرِ الإثم. و«كلّ» للتكثير، وجوِّز أن تكون للإحاطة، ولا بُعْدَ في تنزُّلها على كلِّ كاملٍ في الإفك والإثم كالكهنة، نحو: شقّ بنِ رهم بن نذير، وسطيح بن ربيعة بن عدي[2].

والمراد ـ بواسطة التخصيص في معرض البيان، أو السياقِ، أو مفهومِ المخالفة عند القائل به ـ قَصْرُ تنزُّلهم على كلِّ مَن اتَّصفَ بما ذُكر من الصفات، وتخصيصٌ له بهم لا يتخطَّاهم إلى غيرهم. وحيث كانت ساحةُ رسول الله ﷺ منزَّهةً عن أن يحومَ حولها شائبةُ شيءٍ من تلك الأوصاف، اتَّضح استحالةُ تنزُّلِهم عليه عليه الصلاة والسلام.

﴿يُلْقُونَ﴾ أي: الأفَّاكون ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ أي: سَمْعَهم إلى الشياطين، وإلقاءُ السمع مجازٌ عن شدة الإصغاء للتلقِّي، فكأنه قيل: يُصْغون أشدَّ إصغاءٍ إلى الشياطين فيتلقَّون منهم ما يتلقَّون.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أي: الأفاكين ﴿كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ فيما يقولونه من الأقاويل. والأكثريةُ باعتبار أقوالهم، على معنى أنَّ هؤلاء قلَّما يَصْدُقون في أقوالهم، وإنما هم في أكثرها كاذبون، ومآلُه: وأكثرُ أقوالهم كاذبةٌ، لا باعتبار ذواتهم حتى يلزمَ من نسبة الكذب إلى أكثرهم كونُ أقلِّهم صادقين على الإطلاق، ويُلتزمُ لذلك كونُ الأكثر بمعنى الكلّ. وليس معنى الأفَّاكِ مَن لا ينطقُ إلا بالإفك حتى يمتنعَ منه الصدقُ، بل مَن يُكثر الإفك، فلا ينافيه أن يَصْدُقَ نادراً في بعض الأحايين.

وجوِّز أن يكون السمع بمعنى المسموع، وإلقاؤه مجازٌ عن ذِكْرِه أن[3] يلقي

---

(١) البحر ٧/ ٤٧-٤٨.

(٢) اسم سطيح هو: ربيع بن ربيعة بن مسعود، وشق هو ابن صعب بن يشكر بن رُهْم بن أَفْرك، ويقال إن خالد بن عبد الله القسري كان من سلالته، وذكر السهيلي أن شَقًّا وسهيلاً ولدا في يوم واحد، وكان يومَ ماتت طريفة بنت الخير الحميرية، ويقال: إنها تَفَلَتْ في فم كلٍّ منهما، فورث الكهانة عنها. البداية والنهاية ٣/ ١١٧-١١٨.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: أي. ينظر تفسير أبي السعود ٦/ ٢٦٩.

الأفَّاكون إلى الناس المسموعَ من الشياطين، وأكثرُهم كاذبون فيما يَحْكُون عن الشياطين، ولم يَرْتَضِه بعضُهم لبُعْدِه، أو لقلَّة جَدْوَاه على ما قيل.

واختُلف في سبب كون أكثر أقوالهم كاذبةً؛ فقيل: هو بعد البعثة كونهم يتلقَّون منهم ظنوناً وأماراتٍ؛ إذ ليس لهم من علم الغيب نصيبٌ، وهم محجوبون عن خبر السماء، ولعدم صفاء نفوسهم قلَّما تَصْدُقُ ظنونُهم، ومع ذلك يَضُم الأفَّاكون إليها لعدم وفائها بمرادهم على حَسَب تخيُّلاتهم أشياءَ لا يطابقُ أكثرها الواقع. وقبل البعثة إذ كانوا غيرَ محجوبين عن خبر السماء، وكانوا يسمعون من الملائكة عليهم السلام ما يسمعونه من الأخبار الغيبية، يحتمل أن يكون كثرة غَلَطِ الأفَّاكين في الفهم لقصور فهمهم عنهم. ويحتمل أن يكون ضمُّهم إلى ما يفهمونه من الحقِّ أشياءَ من عند أنفسهم لا يطابقُ أكثرها الواقع، ويحتمل أن يكون كثرةَ غلطِ الشياطين الذين يوحون إليهم في الفهم عن الملائكة عليهم السلام؛ لقصور فهمهم عنهم، ويحتمل أن يكون ضمَّ الشياطين إلى ما يفهمونه من الحقِّ من الملائكة عليهم السلام أشياءَ من عند أنفسهم لا يطابق أكثرُها الواقعَ، ويحتمل أن يكون مجموعَ ما ذكر.

وقيل: هو قبل البعثة يحتمل أن يكون أحدَ هذه الأمور، وأما بعد البعثة فهو كثرةُ خَلْطِهم الكذبَ فيما تَخْطَفُه الشياطين عند استراقهم السمعَ من الملائكة ويُلقونه إليهم.

فقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ وابن مردويه عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سأل أناسٌ النبيَّ ﷺ عن الكهَّان، فقال: «إنهم ليسوا بشيء» فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدِّثون أحياناً بالشيء يكون حقًّا. قال: «تلك الكلمة من الحقِّ[1] يحفظها الجنيُّ فيقذفها في أذن وليِّه، فيَخْلِطون فيها أكثر من مئة كذبة»[2].

---

(١) جاء في هامش الأصل: وفي رواية: من الجن بجيم ونون، وهي رواية صحيحة. اهـ منه. وفي حاشية (م): وورواية من الجن بجيم ونون بدله رواية صحيحة. اهـ منه. ووردت هذه الرواية عند مسلم (٢٢٢٨): (١٢٣).

(٢) صحيح البخاري (٥٧٦٢)، وصحيح مسلم (٢٢٢٨): (١٢٢)، وفيهما: يخطفها، بدل: يحفظها. قال ابن حجر في الفتح: ١٠/٢١٩: يخطفها بخاء معجمة وطاء مفتوحة وقد تكسر =

وقيل: هو قبل البعثة وبعدها كثرةُ خَلْطِ الأفَّاكين الكَذِبَ فيما يتلقَّوْنَه من الشياطين؛ أمَّا كثرتُه قبل البعثة فلظاهر الخبر المذكور، وأما كثرتُه بعد البعثة فلِمَا أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في هذه الآية: كانت الشياطين تصعدُ إلى السماء فتستمعُ، ثم تنزل إلى الكهنة فتخبرُهم، فتحدِّثُ الكهنةُ بما أنزلت به الشياطين من السمع، وتخلط به الكهنةُ كذباً كثيراً فيحدِّثون به الناس، فأمَّا ما كان من سمع السماء فيكون حقًّا، وأمَّا ما خلطوه به من الكذب فيكون كذباً[1].

ولا يَخْفَى أنَّ القول بأنَّ الشياطين بعد البعثة يُلْقُون ما يَسْتَرِقونه من السمع إلى الكهنة غيرُ مُجْمَعٍ عليه، ومِن القائلين به مَن يجوِّز أن يكون ضمير «يُلقون» في الآية راجعاً إلى الشياطين، والمعنى: يُلقي الشياطينُ المسموعَ من الملأ الأعلى قبل أن يُرجَموا من بعض المغيبات إلى أوليائهم، وأكثرُهم كاذبون فيما يُوحون به إليهم، إذ لا يُسْمِعونهم على نحو ما تكلَّمت به الملائكة عليهم السلام، لشرارتهم أو لقصور فَهْمِهم أو ضبطِهم أو إفهامهم.

وقيل: المعنى عليه: يُنْصِتُ الشياطين ويستمعون إلى الملأ الأعلى قبل الرجم، وأكثرُهم كاذبون فيما يوحون به إلى أوليائهم بعدُ؛ لشرارتهم أو لأنهم لا يَسمعون في أنفسهم أو لا يُسمعون أولياءهم بعد ذلك السمع[2] كلام الملائكة عليهم السلام على وجهه.

وجملة «يلقون» على تقدير كون الضمير للأفَّاكين صفةٌ لـ «كلّ أفَّاك» لأنه في معنى الجمع، سواءٌ أريد بإلقاء السمع الإصغاءُ إلى الشياطين، أو إلقاءُ المسموع إلى الناس.

= بعدها فاء، ومعناه الأخذ بسرعة، وفي رواية الكُشْمِيهَني: «يحفظها» بتقديم الفاء بعدها ظاء معجمة، والأول هو المعروف، والله أعلم.

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٧٨، وتفسير الطبري ١٧/ ٦٧١، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣٠-٢٨٣١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٩٩، وعنه نقل المصنف، وهو عند عبد الرزاق والطبري مختصر.

(٢) في الأصل: التسمع.

وجوِّز أن تكون استئنافاً إخباراً بحالهم على كِلَا التقديرين، لِمَا أنَّ كلًّا من تلقِّيهم من الشياطين وإلقائهم إلى الناس يكونُ بعد التنزُّل، واستُظهر تقدير المبتدأ على هذا. وأن تكون استئنافاً مبنيًّا على السؤال، كأنه قيل: ما يفعلون عند تنزُّل الشياطين، أو: ما يفعلون بعد تنزلهم؟ فقيل: يُلْقُون إليهم أسماعَهم ليحفظوا ما يوحون به إليهم، أو: يلقون ما يسمعونه منهم إلى الناس.

وجوِّز أن تكون حالاً منتظرةً على التقديرين أيضاً.

وهي على تقدير كون الضمير للشياطين، والمعنى ما سمعتَ أولاً، قيل: تحتملُ أن تكون استئنافاً مبيِّناً للغرض من التنزُّل مبنيًّا على السؤال عنه، كأنه قيل: لِم تنزلُ عليهم؟ فقيل: يُلقون إليهم ما سمعوه. وأن تكون حالاً منتظرةً من ضمير الشياطين، أي: تنزَّلُ على كلِّ أفاكٍ أثيم مُلْقينَ ما يسمعونه من الملأ الأعلى إليهم.

وعلى ذلك التقدير، والمعنى ما سمعت ثانياً، قيل: لا يجوز أن تكون استئنافاً نظير ما ذكر آنفاً، ولا أن تكون حالاً أيضاً؛ لأن إلقاء السمع بمعنى الإنصاتِ مقدَّمٌ على التنزُّل المذكورِ، فكيف يكون غرضاً منه أو حالاً مقارِنةً أو منتظرةً؟ ويتعيَّنُ كونُها استئنافاً للإخبار بحالهم.

وتعقِّب بأنه غير سديدٍ؛ لأنَّ ذِكْرَ حالِهم السابقةِ على تنزُّلهم المذكورِ قبله غيرُ خليقٍ بجزالة التنزيل، ومن هنا قيل: إنَّ جَعْلَ الضمير للشياطين وحَمْلَ إلقاء السمع على إنصاتهم وتسمُّعهم إلى الملأ الأعلى مما لا سبيلَ إليه. وفيه نظر.

وجملة «هم[1] كاذبون» استئنافيةٌ، أو تَحتَمِلُ الاستئنافيةَ والحاليةَ.

هذا، واعلم أنَّ ها هنا إشكالاً وارداً على بعض الاحتمالات في الآية؛ لأنها عليه تفيدُ أنَّ الشياطين يسمعون من الملائكة عليهم السلام ما يسمعونه ويلقونه إلى الأفَّاكين، وقد تقدَّم ما يدلُّ على منعهم عن السمع، أعني قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢].

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والمقصود: أكثرهم، وينظر البحر ٤٨/٧.

وأجيبَ بأنَّ المراد بالسمع فيما تقدَّم السمعُ المعتدُّ به، وفيما ها هنا السمعُ في الجملة، ويراد به الخطفةُ المذكورةُ في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: ١٠] والكلمةُ المذكورةُ في خبر الصحيحين وابنِ مردويه السابقِ آنفاً.

واعتُرِضَ بأنَّ مَن خَطِفَ لا يبقى حيًّا إلى أن يوصِلَ ما خطفه إلى وليِّه؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] فإنَّ ظاهره أنه يهلك بالشهاب الذي لحقه.

وأجيب بأنَّ نفي بقائه حيًّا غيرُ مسلَّم، ولا نسلِّم أنَّ الآية ظاهرةٌ فيما ذكر؛ إذ ليس فيها أكثرُ من إتْباع الشهاب الثاقب إياه، وهو يحتملُ الزَّجْرَ كما يحتملُ الإهلاك، فليُرَدْ إتباعه للزَّجر مع بقائه حيًّا، فإنَّ الخبر المذكور يقتضي بقاءه كذلك. وجاء عن ابن عباس أنَّ الشياطين كانوا لا يُحجَبون عن السماوات، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها، فيُلْقون إلى الكهنة، فلمَّا ولد عيسى عليه السلام مُنعوا من ثلاث سماوات، فلمَّا وُلد محمدٌ ﷺ منعوا من السماوات كلِّها، فما منهم من أحدٍ يريد اسْتِراقَ السمع إلا رُمي بشهابٍ ـ وهو الشعلة من النار ـ فلا يخطئ أبداً، فمنهم مَن يقتلُه، ومنهم مَن يُحْرِقُ وجهَه، ومنهم مَن يَخْبلُه فيصير غولاً يُضِلُّ الناسَ في البراري[١].

وقيل: إنَّ المراد بالسمع فيما تقدَّم سمعُ الوحي، وفيما هنا سمعُ المغيبات غيرِه، وهم غيرُ ممنوعينَ عنه قبل البعثة وبعدها. وهذا مأخوذٌ من كلام عبد الرحمن بن خلدون في «مقدِّمة» تاريخه التي لم يُنْسَجْ على منوالها ـ وإن كان للطعن فيها مجالٌ ـ قال: إنَّ الآيات إنما دلَّتْ على منع الشياطين من نوعٍ واحدٍ من أخبار السماء، وهو ما يتعلَّقُ بخبر البعثة، ولم يُمنعوا ممَّا سوى ذلك[٢]. بل ربما يقال: إنَّ في كلامه بعدُ إشعاراً ما بأنَّ المنع إنما كان بين يدي النبوَّة فقط، لا قبلَ ذلك ولا بعدَه[٣].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٥-٤٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون ١/ ١٤٣.

(٣) المصدر السابق، وفيه: وأيضاً فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه، وهذا هو الظاهر.

ولا يَخْفَى أنَّ الظواهر تشهدُ بمنعهم مطلقاً إلى يوم القيامة، بل قد يُدَّعى أنَّ في الآيات ما يدلُّ على أنَّ حِفْظَ السماء بالكواكب لم يحدث وإن خلقها لذلك، وهو ظاهرٌ في أنهم كانوا ممنوعين أيضاً قبل ولادته ﷺ من خبر السماء. ويُشْكِلُ هذا على ظاهر العزل، إلَّا أن يُدَّعَى أنَّ المنع قبلُ لم يكن بمثابة المنع بعدُ، فالعزلُ عمَّا كان بجعل[1] المنع شديداً بالنسبة إليه.

وفي «اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر» لمولانا عبد الوهاب الشعرانيِّ عليه الرحمة: الصحيحُ أنَّ الشياطين ممنوعون من السمع منذُ بعث رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة، وبتقدير استراقهم فلا يَتَوصَّلون إلى الإنس ليخبروهم بما استرقوه، بل تُحرِقهم الشهبُ وتُفنيهم. انتهى.

قيل: ويلزم القائلين بهذا حملُ ما في خبر الصحيحين على كهَّانٍ كانوا قبل البعثة وقد أدركهم السائلون، وهو الذي يقتضيه كلام القاضي أيضاً، فقد نقل النوويُّ عنه في «شرحه صحيح مسلم» أنه قال: كانت الكهانةُ في العرب ثلاثةَ أضرُبٍ؛ أحدها: أن يكون للإنسان وليٌّ من الجنِّ يخبره بما يسترقُه من السمع من السماء، وهذا القسمُ بطلَ من حين بُعث نبيُّنا ﷺ[2]، إلى آخر ما قال، وهو ظاهرُ كلام البوصيريِّ حيث يقول:

بعث الله عند مبعثه الشُّهـ ... ـبَ حراساً وضاق عنها الفضاءُ
تطردُ الجنَّ عن مقاعدَ للسَّمْـ ... ـع كما يَطْرُدُ الذئابَ الرعاءُ
فمحتْ آيةَ الكهانةِ آيا ... تٌ من الوحي ما لهنَّ انمحاءُ

وقد قيل في الجواب عن الإشكال نحوُ هذا، وهو أنَّ تنزُّلَ الشياطين وإلقاءَهم ما يسمعونه من السماء إلى أوليائهم حَسْبَما تفيده الآيةُ المذكورة في أحد محاملها إنما كان قبل البعثة، حيث لم يكن حينئذٍ منعٌ، أو كان لكنه لم يكن شديداً. والمنع من السمع الذي يفيده قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الآية: ٢١٢] إنما كان بعد البعثة، وكان على أتمِّ وجه.

---

(١) في (م): يجعل.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٤/ ٢٢٣، والقاضي هو عياض وكلامه في كتابه إكمال المعلم بفوائد مسلم ٧/ ١٥٣.

وهذا مشكلٌ عندي بابن الصياد وما كان منه، فإنهم عَدُّوه من الكهَّان، وقد صحَّ أنه قال للنبيِّ عليه الصلاة والسلام حين سأله عن أمره: يأتيني صادقٌ وكاذبٌ. وأنَّ النبيَّ ﷺ امتَحَنه، فأضمَر له آية «الدخان» ـ وهي قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الآية: ١٠] ـ وقال ﷺ: «خَبَأْتُ لكَ خبأ» فقال ابن الصياد: هو الدُّخُّ، أي: الدخان، وهي لغةٌ فيه كما ذهب إليه الجمهور، فقال له النبيُّ ﷺ: «اخْسَأ فلن تَعْدُوَ قَدْرَكَ»[1].

وقد قال القاضي كما نقل النوويُّ عنه أيضاً: أصحُّ الأقوال أنه لم يهتدِ من الآية التي أضمرها النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلَّا لهذا اللفظِ الناقص، على عادة الكهَّان إذا ألقَى الشيطان إليهم بقَدْرِ ما يَخْطَفُ قبل أن يدركه الشهابُ، ويدلُّ عليه قوله ﷺ: «اخسأ فلن تَعْدُوَ قَدْرَكَ» أي: القَدْرَ الذي يدركُه الكهَّان من الاهتداء إلى بعض الشيء، وما لا يبينُ منه حقيقتُه، ولا يصلُ به إلى بيانٍ وتحقيقِ أمور الغيب[2].

وقد يقال في دَفْعِ هذا الإشكال: إنَّ ابن الصياد كان من الضرب الثاني من الكهَّان، وهم الذين تُخبرهم الشياطين بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض وما خَفِيَ عنهم ممَّا قَرُبَ أو بَعُدَ، والصحيحُ جوازُ وجودهم بعد البعثة، خلافاً للمعتزلة وبعضِ المتكلِّمين حيث قالوا باستحالة وجود هذا الضرب، وكذا الضربُ السابق آنفاً[3].

وأنه يحتمل أن يكون النبيُّ ﷺ قد أسرَّ إلى بعض أصحابه الذين كانوا معه ما أَضْمَره، أو كانت سورةُ الدخان مكتوبةً في يده ﷺ، أو كَتَبَ الآيةَ وحدها في يده عليه الصلاة والسلام.

وكلا القولين الأخيرين حكاهما الداوديُّ عن بعض العلماء كما في «شرح صحيح مسلم»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٦٣٦٠)، والبخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٨/ ٤٩، وكلام القاضي عياض في إكمال المعلم ٨/ ٤٧٢.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ١٤/ ٢٢٣، وإكمال المعلم ٧/ ١٥٣.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ١٨/ ٤٩، ونقله النووي عن الداودي بواسطة القاضي عياض، وهو في إكمال المعلم ٨/ ٤٧١ عن الداودي من قوله.

وأيًّا ما كان يكون ابن الصياد قد أخبر بأمرٍ طارئ تَطَّلعُ عليه الشياطين بدون استراق السمع من السماء، وليس ذلك من الاطِّلاع على ما في القلب في شيء، ومع ذلك لم يُخْبِرْ به تامًّا، بل أخبر به على نحوِ إخبارِ الكهَّان السابقين على زمن البعثة، الذين هم من الضرب الأول في النقص.

ولعل مراد القاضي بقوله: إنه لم يهتد من الآية التي أضمرها ﷺ إلَّا لهذا اللفظِ الناقص على عادة الكهَّان إذا ألقى الشيطان إليهم بقَدْرِ ما يَخْطَفُ.. إلخ. تشبيهُ حاله مع أنه من الضرب الثاني بحالِ مَن تقدَّمه من الكهَّان الذين هم من الضرب الأول، وإلا لأشْكَلَ كلامُه هذا مع ما نقلناه عنه أولاً كما لا يخفى، وكأنه يقول برَجْمِ المسترِقينَ للسمع قبل البعثة أيضاً، إلَّا أنه لم يكن بمثابةِ ما كان بعد البعثة، وقد ذهب إلى هذا جمع من المحدِّثين.

ومن الناس مَن قال: إنَّ الشيطان إذا خَطِفَ الخَطْفَةَ فأتْبَعَه شهابٌ ثاقبٌ، أَلْقَى ما يَخْطَفُه إلى مَن تحته قبل أن يدركه الشهاب، ثم إنَّ مَن تحته يُوْصِلُ ذلك إلى الكاهن. ولا يكاد يصحُّ ذلك.

وقيل: إنَّ ما يلقيه الشياطين إلى الكهنة بعد البعثة هو ما يَسمعونه من الملائكة عليهم السلام في العَنان، وهو المرادُ بقوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، وما هم ممنوعون عنه هو السمعُ من الملائكة عليهم السلام في السماء، وهو المرادُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

واستدلَّ لذلك بما أخرجه البخاريُّ وابنُ المنذر عن عائشة رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ قال: «الملائكةُ تَحدَّثُ في العَنان ـ والعَنانُ الغمام ـ بالأمر في الأرض، فيسمعُ الشيطانُ الكلمةَ فيُقِرُّها في أذن الكاهن كما تُقَرُّ القارورة، فيزيدون معها مئةَ كذبةٍ»[1].

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٨٨)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٩٩. وهو عند البخاري معلق، قال الحافظ في الفتح ٦/ ٣٤٢: وصله أبو نعيم في المستخرج. اهـ. وقد أخرجه البخاري متصلاً بنحوه (٣٢١٠). وقوله: «كما تقر القارورة» أي: كما يسمع صوت الزجاجة إذا حلت على شيء أو ألقي فيها شيء. أو المعنى: أنه يكون لما يلقيه الجني إلى الكاهن حسٌّ كحسِّ القارورة إذا حركت باليد أو على الصفا. وقال الخطابي: المعنى أنه يُطْبِقُ به كما يطبق رأس القارورة برأس الوعاء الذي يُفْرَغ فيه منها ما فيها.

ولا يخفَى أنه ليس في الخبر تعرُّضٌ للسمع من الملائكة عليهم السلام في السماء بالمعنى المعروف، لا نفياً ولا إثباتاً.

وقد يُختار القولُ بأنَّ الشياطين إنما مُنعوا بعد البعثة عن سمع ما يعتدُّ به من علم الغيب من ملائكة السماء أو العنان، ومَن خَطِفَ خَطْفةً يعتدُّ بها من ذلك أتبعه الشهاب وأهلكه، ولم يَدَعْه يوْصِلُها بوجهٍ من الوجوه إلى الكهنة، وأمّا سمعُ ما لا يعتدُّ به فقد يقع لهم ويُوْصِلُونه إلى الكهنة، فيخلطون به من الكذب ما يخلطون، فحيث حُكم عليهم بالعزل عن السمع أريد بالسمع السمعُ الكاملُ المعتدُّ به، وحيث حُكِمَ عليهم بإلقاء السمع أريدَ بالسمع السمعُ في الجملة، وأدنى ما يَصْدُقُ عليه أنه سمعٌ، والظاهر أنَّ ما حصل لابن الصياد كان من هذا السمع، ولا يكاد يُعْدَلُ عن ذلك ويقال: إنه كان من الضرب الثاني للكهانة، إلَّا إنْ ثبت أحدُ الشقوق الثلاثة، وفي ثبوت ذلك كلامٌ، نعم قولُه ﷺ: «خَبأْتُ» ظاهرٌ في أنَّ هناك ما يُخْبَأ في كفٍّ أو كمٍّ أو نحوهما، والآية ما لم تُكتب لا تكونُ كذلك، ولهذا احتاج القائلون بأنه ﷺ إنَّما أَضمر له الآيةَ في قلبه إلى تأويل «خَبأْتُ» بـ : أَضْمَرْتُ.

ويمكن أن يقال على بُعْدٍ: إنَّ الشياطين قد مُنعوا بعد البعثة عن السمع مطلقاً بالشهب المحرِقةِ لهم، وإرجاعُ ضمير «يُلْقون» إلى الشياطين ضعيفٌ؛ لأنَّ المقام في بيانِ مَن يتنزَّلون عليه لا بيانِ حالهم. أو إلقاءُ سمعهم بمعنى إصغائهم إلى الملأ الأعلى، و«أكثرهم» بمعنى: كلّهم، والتعبير به للإشارة إلى أنَّ الأكثرية المذكورةَ كافيةٌ في المقصود، والمرادُ: يصغون ليسمعوا فلا يَسْمعون، إلا أنه أقيم «وأكثرهم كاذبون» مقامَ: لا يَسْمعون. أو إلقاءُ السمع بمعنى إلقاءِ ما يسمعه الناس من الأفَّاكين إليهم، ولا يلزمُ من ذلك أن يكونوا سمعوه من الملائكة عليهم السلام؛ إذ يجوز أن يكونوا اخترعوه من عند أنفسهم ظنًّا وتخميناً وأَلْقَوْه على أوليائهم، ولا يَبعُدُ صدقُهم في بعضه، والأمرُ في تسميته مسموعاً هيِّنٌ، وما ورد في حديث الصحيحين وابنِ مردويه محمولٌ على ما كان قبل البعثة، ويقال: إنهم كانوا يسمعون في الجملة، وقد يُحمل ما في الآية على ذلك، وإليه ذهب بعضهم. وحَمْلُ خَطْفِ الكلمة فيه على حَدْسِها بواسطة بعض الأوضاع الفلكية ونحوِ ذلك ليجُوزَ

اعتبارُ كونه بعد البعثة، ممَّا لا أظنُّ أحداً يرتضيه، وليس في قصة ابن الصياد ما هو نصٌّ في أنَّ ما قاله كان عن سمعٍ من الملائكة عليهم السلام ألقاه الشيطان إليه، وكأنِّي بك تستبعدُ تحدُّثَ الملائكة عليهم السلام في السماء بما أضمره ﷺ، وصعودَ الشياطين حين السؤالِ من غير ريثٍ، واستراقَهم ونزولَهم في أسرع وقتٍ بما أجاب به ابنُ الصياد، وما هو إلا ضربٌ من ضروب الكهانة.

وتحقيقُ أمرها على ما ذكره الفاضل عبد الرحمن بن خلدون[١]: أنَّ للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ عن البشرية إلى الروحانية التي فوقها، ويحصلُ من ذلك لمحةٌ للبشر من صنف الأتقياء بما فُطروا عليه من ذلك، ولا يحتاجون فيه إلى اكتسابٍ ولا استعانةٍ بشيءٍ من المدارك، ولا من التصوُّرات، ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركةً، ولا بأمرٍ من الأمور.

ويعطي التقسيم العقليُّ أنَّ هاهنا صنفاً آخَرَ من البشر ناقصاً عن رتبة هذا الصنف نقصانَ الضدِّ عن ضدِّه الكاملِ، وهو صنفٌ من البشر مفطورٌ على أن تتحرَّك قوَّته العقليةُ حركتَها الفكريةَ بالإرادة عندما يبعثها[٢] النزوع لذلك وهي ناقصةٌ عنه[٣]، فيتشبَّثُ لإعمال الحيلة بأمورٍ جزئيةٍ محسوسةٍ أو متخيَّلةٍ، كالأجسام الشفافة، وعظامِ الحيوان، وسَجْعِ الكلام، وما سنح من طيرٍ أو حيوانٍ، ويُديمُ ذلك الإحساس والتخيُّل مستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده، ويكون كالمُشيعِ له، وهذه القوةُ التي هي مبدأ في هذا الصنف لذلك الإدراك هي الكهانةُ.

ولكون هذه النفوسِ مفطورةً على النقص والقصورِ عن الكمال كان إداركُها الجزئياتِ أكثرَ من إدراكها الكلِّيات، وتكون مشتغلةً بها غافلةً عن الكلِّيات، ولذلك كثيراً ما تكون المتخيلة[٤] فيهم في غاية القوة، وتكون الجزئيات عندها حاضرةً عتيدةً، وهي لها كالمرآة تنظر فيها دائماً، ولا يقوَى الكاهنُ على الكمال في إدراك المعقولات؛ لأنَّ نقصانه فطريٌّ ووحيه شيطانيٌّ.

---

(١) في مقدمته ١/ ١٤١.
(٢) في الأصل و(م): يتبعها، والمثبت من المقدمة.
(٣) بعدها في المقدمة: بالجبلَّة.
(٤) في المقدمة: المخيلة.

وأرفعُ أحوال هذا الصِّنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السَّجْعُ والمُوازَنةُ ليشتغل به عن الحواسِّ، ويَقْوَى في الجملة على ذلك الانسلاخ الناقص، فيهجس في قلبه من تلك الحركة والذي يُشيعُها من ذلك الأجنبيِّ ما يُقْذَفُ على لسانه، وربما صَدَقَ ووافَقَ الحقَّ، وربما كَذَبَ لأنه يتمِّم أمر نَقْصِهِ بأجنبيٍّ عن ذات المدارك ومُباينٍ لها غيرِ ملائم، فيَعْرِضُ له الصدقُ والكذب جميعاً، ويكون غيرَ موثوقٍ به، وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزَعْمِه، وتمويهاً على السائلين.

ولمَّا كان انسلاخُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام عن البشرية واتِّصالهُ بالملأ الأعلى من غير مُشيعٍ ولا استعانةٍ بأجنبيٍّ كان صادقاً في جميع ما يأتي به، وكان الصدقُ من خواصِّ النبوَّةِ، ولهذا قال ﷺ لابن الصياد حين سأله كاشفاً عن حاله بقوله عليه الصلاة والسلام: «كيف يأتيك هذا الأمر؟» فقال: يأتيني صادق وكاذب: «خُلِّطَ عليك الأمرُ»[1]، يريدُ عليه الصلاة والسلام نفيَ النبوَّة عنه بالإشارة إلى أنها مما لا يعتبر فيه الكذبُ بحالٍ.

وإنما قيل: أرفعُ أحوال هذا الصنف السجعُ؛ لأنَّ مُعِينَ السَّجْعِ أخفُّ من سائر المُعِينات من المرئيَّات والمسموعات، وتدلُّ خفَّةُ المعينِ على قُرْبِ ذلك الانسلاخِ والاتِّصالِ، والبُعْدِ فيه عن العجز في الجملة.

ولا انحصارَ لعلوم الكهَّان فيما يكون من الشياطين، بل كما تكون من الشياطين تكونُ من أنفسهم، بانسلاخها انسلاخاً غيرَ تامٍّ واتِّصالِها في الجملة بواسطة بعض الأسباب بعالَمٍ لا تُحجب عنه الحوادث المستقبلة وغيرُها، فانقطاعُ خبر السماء بعد البعثة عن الشياطين بالرجم إن سلِّم، لا يدلُّ على انقطاع الكهانة.

ثم إنَّ هؤلاء الكهَّانَ إذا عاصروا زمن النبوَّة فإنهم عارفون بصدق النبيِّ ودلالةِ معجزته؛ لأنَّ لهم بعضَ الوجدان من أمر النبوة، ولا يصدُّهم عن الإيمان ويدعوهم إلى العناد إلا وساوسُ المطامع بحصول النبوَّة لهم، كما وقع لأميةَ بن أبي الصلت؛ فإنه كان يطمع أن يكون نبيًّا، وكذا وقع لابن الصياد ومسيلمة وغيرهما.

---

(١) قطعة من حديث ابن عمر الذي سلف ص٣١٤ من هذا الجزء.

وربما تنقطعُ تلك الأمانيُّ فيؤمنون أحسنَ إيمانٍ، كما وقع لطليحةَ الأسدي وقارب بن الأسود[١]، وكان لهما في الفتوحات الإسلامية من الآثار ما يشهد بحُسْنِ الإيمان.

وذَكَر في بيانِ استعداد بعض الأشخاص ـ أعم من أن يكونوا كهاناً أو غيرَهم ـ للإخبار بالأمور الغيبية قبل ظهورها كلاماً طويلاً، حاصلهُ: أنَ النفس الإنسانية ذاتُ روحانيةٍ، ولها بذاتها الإدراكُ من غير واسطة، لكنها محجوبةٌ عنه بالانغماس في البدن والحواسِّ وشواغلها؛ لأن الحواسَّ أبداً جاذبةٌ لها إلى الظاهر بما فُطرت عليه من الإدراك الجسماني، وربما تنغمسُ عن الظاهر إلى الباطن فيرتفعُ حجابُ البدن لحظةً؛ إما بالخاصِّية التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم، أو بالخاصية[٢] الموجودة في بعض الأشخاص كالكهنة أهلِ السَّجع، وأهل الطَّرْقِ بالحصى والنَّوى، والناظرين في الأجسام الشفَّافة من المرايا والمياه وقلوبِ الحيوانات وأكبادها وعظامها، وقد يلحق بهم المجانين، أو بالرياضة الدينية مثل أهل الكشف من الصوفية، أو السحريةِ مثل أهل الكشف من الجوكية[٣]، فتلتفتُ حينئذٍ إلى الذوات التي فوقها من الملأ الأعلى لِمَا بَيْنَ أُفقِها وأُفقِهم من الاتصال في الوجود، وتلك الذواتُ إدراكٌ محضٌ وعقولٌ بالفعل، وفيها صورُ الموجودات وحقائقُها كما قرِّر في محلِّه، فيتجلَّى فيها شيءٌ من تلك الصور وتقتبس منها علماً[٤]، وربما وقعت تلك الصورُ المدركة إلى الخيال فيصرفُها[٥] في القوالب المعتادة[٦]، ثم تراجع الحسَّ بما أدركت إما مجرَّداً أو في قوالبه فتخبر به. انتهى.

ولا يخفى أنَّ فيه ذهاباً إلى ما يقوله الفلاسفة في الملأ الأعلى، وكثيراً ما يسمُّونه عالم المجرَّدات، وقد يسمُّونه عالمَ العقول، وهي محصورةٌ في المشهور

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وهو خطأ، والصواب: سواد بن قارب كما في المقدمة، وقارب بن الأسود صحابي آخر ولا علاقة له بالكهانة، ينظر الإصابة ٤/ ٢٩٤، و٨/ ١٢٤.

(٢) في الأصل و(م): بالخاصة، في الموضعين، والمثبت من المقدمة ١/ ١٤٨.

(٣) الجوكية: طائفة من رهبان الهنود.

(٤) في المقدمة: علوماً.

(٥) في الأصل: فيصير، وفي المقدمة: فتصرفه.

(٦) في (م): المتعادة، وهو تصحيف.

عنهم في عشرة، ولا دليلَ لهم على هذا الحصر، ولذا قال بعضُ متأخِّريهم بأنها لا تكاد تُحصى. وللمتكلِّمين والمحقِّقين من السَّلَف في ذلك كلامٌ لا يتَّسع هذا الموضعُ لذكره.

وأنا أقول، ولا ينكرُه إلَّا جَهُول: لله عزَّ وجل خواصٌّ في الأزمنة والأمكنةِ والأشخاص، ولا يبعدُ ـ بعد انقطاعِ خبر السماء عن الشياطين بالرَّجم ـ أن يجعل لبعض النفوس الإنسانية خاصية التكلُّم بما يَصْدُقُ كلًّا أو بعضاً، مع اطِّلاعٍ وكشفٍ يفيد العلمَ بما أخبر به، أو بدون ذلك بأنْ يُنْطِقَه سبحانه بشيءٍ فيتكلَّم به من غير علم بالمخبَرِ به ويوافقُ الواقع.

وقد اتَّفق لي ذلك وعمري نحو خمس سنين، وذلك أنِّي رجعتُ من الكتَّاب إلى البيت وشرعتُ ألعبُ فيه على عادة الأطفال، فنهتْني والدتي رحمها الله تعالى عن ذلك، وأمرتْني بالنوم لأستيقظ صباحاً فأَذْهَبَ إلى الكتَّاب، فقلتُ لها: غداً يُقتَلُ الوزير ولا أَذهبُ إلى الكتَّاب، وهو ممَّا لا يكاد يمرُّ بفكرٍ، فلم تلتفت إلى ذلك وأَنامتْني، فلمَّا أصبحتُ تأهَّبْتُ للذهاب، فجاء ابنُ أختٍ لها وأسرَّ إليها كلاماً لم أسمعه، فتغيَّر حالُها ومنعتني عن الذهاب ولا أدري لِمَ ذلك، فأردتُ الخروجَ إلى الدرب لألعب مع أمثالي فمنعتني أيضاً، فقعدتْ وهي مضطربةُ البال تطلبُ أحداً يخبرها عن حال والدي عليه الرحمةُ، حيث ذهب قبيل طلوع الشمس إلى المدرسة، فخرجتُ إلى الدرب على حين غفلةٍ منها، فوجدتُ الناسَ بينَ راكضٍ ومُسْرِعٍ يتحدَّثون بأنَّ الوزير قتله بعضُ خدمه وهو في صلاة الفجر، فرجعتُ إليها مسرعاً مسروراً بصِدْقِ كلامي، وكنتُ قد أُنسِيتُه ولم يخطر ببالي حتى سمعتُ الناس يتحدَّثون بذلك.

وفي «اليواقيت والجواهر» للشعرانيِّ عليه الرحمة في بحث الفرق بين المعجزة والكهانة: أنَّ الكهانة كلماتٌ تجري على لسان الكاهن ربَّما تُوافِقُ وربَّما تُخالِفُ، وفيه شمةٌ مما ذكرنا.

هذا ـ والله تعالى أعلم ـ والظاهرُ على ما قيل أنَّ قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ إلخ كلامٌ مسوقٌ منه تعالى لبيانِ تنزيهِ النبيِّ ﷺ عن أن يكون ـ وحاشاه ـ ممن تَنزَّلُ عليه الشياطين، وإبطالٌ لقولهم في القرآن: إنه من قَبيل ما يُلْقَى إلى الكهنة.

وفي «البحر» ما هو ظاهرٌ في أنه على معنى القول، أي: قل يا محمدُ هل أنبِّئكم.. إلخ[1]، وهو مسوقٌ للتنزيه والإبطال المذكورَيْنِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ مسوقٌ لتنزيهه عليه الصلاة والسلام أيضاً عن أن يكون ـ وحاشاه ـ من الشعراء، وإبطالُ زَعْمِ الكفرة أنَّ القرآن من قبيل الشعر.

والمتبادرُ منه: الكلامُ المنظومُ المقفَّى، ولذلك قال كثيرٌ من المفسرين: إنهم رَمَوْه عليه الصلاة والسلام بكونه آتياً بشعرٍ منظومٍ مقفًّى، حتى تأوَّلوا عليه ما جاء في القرآن مما يكون موزوناً بأدنى تصرُّفٍ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٣] ويكون بهذا الاعتبار شطراً من الطويل، وكقوله سبحانه: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧٦] ويكون من المديد[2]، وكقوله عز وجل: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ويكون من البسيط، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] ويكون من الوافر، وقوله جل وعلا: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] ويكون من الكامل. إلى غير ذلك مما استخرجوه منه من سائر البحور. وقد استخرجوا منه ما يشبه البيتَ التامَّ[3]، كقوله تعالى: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

وتعقِّب ذلك بأنهم لم يقصدوا هذا المقصد فيما رَمَوْه به ﷺ؛ إذ لا يخفى على الأغبياء من العجم فضلاً عن بُلَغاءِ العرب أنَّ القرآن الذي جاء به ﷺ ليس على أساليب الشعر، وهم ما قالوا فيه عليه الصلاة والسلام شاعر إلَّا لمَّا جاءهم بالقرآن، واستخراجُ ما ذكر ونحوِهِ منه ليس إلَّا لمزيدِ فصاحته وسلاسته، ولم يؤتَ به لقَصْدِ النظم. ولو اعتُبِرَ في كون الكلام شعراً إمكانُ استخراج كلام منظوم منه لكان كثيرٌ من الأطفال شعراء، فإنَّ كثيراً من كلامهم يمكن فيه ذلك، والظاهرُ أنهم إنما قصدوا رميه ﷺ بأنه ـ وحاشاه ثم حاشاه ـ يأتي بكلامٍ مخيَّلٍ لا حقيقةَ له، ولمَّا كان ذلك غالباً في الشعراء الذين يأتون بالمنظوم من الكلام عبَّروا عنه عليه الصلاة والسلام بشاعرٍ، وعمَّا جاء به بالشعر.

---

(١) البحر ٧/ ٤٧-٤٨، وقال أبو حيان: وهذا استفهامُ توقيف وتقرير.
(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: من الخفيف.
(٣) ويكون من البحر الوافر. مفتاح العلوم للسكاكي ص٥٩٩.

ومعنى الآية: والشعراءُ يُجاريهم ويَسْلكُ مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالُّون عن السَّنن، الحائرون فيما يأتون وما يَذَرون، ولا يستمرُّون على وتيرةٍ واحدةٍ في الأفعال والأقوال والأحوال، لا غيرُهم من أهل الرشد المهتدين إلى طريق الحقِّ الثابتين عليه. والحصرُ مستفادٌ من بناء «يتَّبعهم» إلخ على الشعراء عند الزمخشريِّ، كما قرَّره في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[1] [المزمل: ٢٠]. ومَن لا يرى الحصر في مثل هذا التركيب يأخذه من الوصف المناسب، أعني أنَّ الغواية جُعِلَتْ علَّةً للاتِّباع فإذا انتفَت انْتَفى.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ استشهادٌ على أنّ الشعراء إنما يتَّبعُهم الغاوون، وتقريرٌ له. والخطابُ لكلِّ مَن تتأتَّى منه الرؤيةُ؛ للإشارة إلى أنَّ حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا يختصُّ برؤيته راءٍ دون راءٍ.

وضميرُ الجمع للشعراء، أي: ألم تَرَ أنَّ الشعراء في كلِّ وادٍ من أودية القيل والقال، وفي كلِّ شِعْبٍ من شعاب الوهم والخيال، وفي كلِّ مسلكٍ من مسالك الغيِّ والضلال، يهيمون على وجوههم، لا يهتدون إلى سبيلٍ معيَّنٍ من السُّبل، بل يتحيَّرون في سباسب الغواية والسفاهة، ويتيهون في تيهِ الصَّلفِ والوقاحة، ديدنُهم تمزيقُ الأعراض المحميَّة، والقَدْحُ في الأنساب الطاهرة السَّنِيَّةِ، والنسيبُ بالحُرَم[2]، والغَزَلُ والابتهارُ[3]، والتردُّدُ بين طرفي الإفراط والتفريط في المدح والهجاء.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ من الأفاعيل غيرَ مكترثين بما يستتبعه من اللوم، فكيف يُتوهَّمُ أن يتَّبعهم في مسلكهم ذلك ويلحقَ بهم ويَنْتَظِمَ في سلكهم مَن تنزَّهتْ ساحتُه عن أن يحوم حولها شائبةُ الاتِّصافِ بشيءٍ من الأمور المذكورة، واتَّصَفَ بمحاسن الصفات الجليلة، وتخلَّقَ بمكارِمِ الأخلاق الجميلة، وحاز جميع

---

(١) الكشاف ١/ ١٨٧ و٤/ ١٧٨-١٧٩.

(٢) النسيب: ذكر محاسن الحسان، وإظهار التعشُّق والهيام بها. والحُرَم: جمع حُرمة، وهي المرأة المحرَّمة على غير زوجها. حاشية الشهاب ٧/ ٣٠.

(٣) الابتهار: الكذب بادِّعاء الوصول إلى المحبوبة. حاشية الشهاب ٧/ ٣٠.

الكمالات القُدْسيةِ، وفاز بجُمْلةِ المَلَكاتِ السَّنِيَّةِ الإنسية، مستقرًّا على أَقْوَمِ منهاجٍ، مستمرًّا على صراطٍ مستقيم لا يرى له العقلُ السليم مِن هاجٍ، ناطقاً بكلِّ أمرٍ رشيدٍ، داعياً إلى صراط الله تعالى العزيز الحميد، مؤيَّداً بمعجزاتٍ قاهرةٍ، وآياتٍ ظاهرةٍ، مشحونةٍ بفنون الحِكَم الباهرة، وصنوفِ المعارف الزاهرة(١)، مستقلَّةٍ بنَظْمٍ رائقٍ وأسلوبٍ فائق أَعْجَزَ كلَّ مِنْطيقٍ ماهرٍ، وبَكَّتَ كلَّ مُفلِقٍ ساحرٍ.

هذا وقد قيل في تنزيهه ﷺ عن أن يكون من الشعراء: إنَّ أتباع الشعراء الغاوون، وأتباعُه عليه الصلاة والسلام ليسوا كذلك.

وتعقِّب بأنه لا ريبَ في أنَّ تعليلَ عَدَمِ كونه ﷺ منهم بكونِ أتباعه عليه الصلاة والسلام غيرَ غاوين مما لا يليقُ بشأنه العَالي.

وقيل: ضمير الجمع للغاوين. وتعقِّب بأنَّ المحدَّث عنهم الشعراء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الغاوين هم الرواة الذين يحفظون شعر الشعراء ويروونه عنهم مبتهجين به. وفي روايةٍ أخرى عنه: أنهم الذين يستحسنون أشعارهم وإن لم يحفظوها.

وعن مجاهد وقتادة: أنهم الشياطين.

وروي عن ابن عباس أيضاً أنَّ الآية نزلت في شعراء المشركين: عبد الله بن الزِّبَعْرَى، وهبيرة بن وهب المخزوميّ، ومسافع بنِ عبد مناف، وأبو عَزَّةَ الجمحي، وأمية بن أبي الصلت، قالوا: نحن نقول مثل قول محمدٍ، وكانوا يَهْجُونه ويجتمع إليهم الأعرابُ من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم، وهم الغاوون الذين يتَّبعونهم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضاً أنه قال: تَهاجَى رجلان على عَهْدِ رسول الله ﷺ، أحدُهما من الأنصار والآخرُ من قومٍ آخَرين، وكان مع كلٍّ واحدٍ منهما غُواةٌ من قومه وهم السفهاء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ الآيات(٢). وفي القلب من صحّةِ الخبر شيءٌ، والظاهرُ من السياق أنها

---

(١) في الأصل و(م): الباهرة، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٧٠، والكلام منه.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٧٤-٦٧٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣٣، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٩٩.

نزلت للردِّ على الكفرة الذين قالوا في القرآن ما قالوا.

وقرأ عيسى بن عمر: «والشعراءَ» بالنصب على الاشتغال[١].

وقرأ السلميُّ، والحسنُ بخلافٍ عنه: «يَتْبعُهم» مخفَّفاً[٢]. وقرأ الحسن، وعبدُ الوارث عن أبي عمرو: «يتَّبِعْهم» بالتشديد وتسكين العين تخفيفاً[٣]، وقد قالوا: عَضْد بسكون الضاد، فغيَّروا الضمةَ واقعةً بعد الفتحة، فلأَنْ يغيِّروها واقعةً بعد الكسرة أَوْلَى.

وروى هارونُ فتحَ العين عن بعضهم[٤]، واستشكله أبو حيان[٥]. وقيل: إنه للتخفيف أيضاً، واختيارُه على السكون لحصول الغرض به، مع أن فيه مراعاةَ الأصل في الجملة؛ لِمَا بين الحركتين من المشاركة الجنسية، ولا كذلك ما بين الضمِّ والسكون، وهو غريب كما لا يخفى.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ استثناءٌ للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يُكْثِرون ذِكْرَ الله عزَّ وجلَّ، ويكونُ أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله سبحانه وتعالى، والحثِّ على الطاعة والحكمة والموعظة، والزهدِ في الدنيا، والترهيبِ عن الرُّكون إليها، والاغترارِ بزخارفها، والافتتانِ بملاذِّها الفانية، والترغيبِ فيما عند الله تعالى، ونَشْر محاسن رسوله ﷺ ومَدْحِه، وذِكْرِ معجزاته ليتغلغل حبُّه في سويداء قلوب السامعين، وتزدادَ رغباتُهم في اتِّباعه، ونَشْرِ مدائح آله وأصحابه وصُلَحاءِ أمته لنحو ذلك، ولو وقع منهم في بعض الأوقات هجوٌ وقع بطريق الانتصار ممن هجاهم من غير اعتداءٍ ولا زيادةٍ، كما يشير إليه قراءةُ بعضهم: «وانتصروا بمثل ما ظلموا»[٦].

وقيل: المراد بالمستَثْنَيْنَ شعراءُ المؤمنين الذين كانوا ينافحون عن رسول الله ﷺ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٨، والكشاف ٣/ ١٣٣، والبحر ٧/ ٤٨.

(٢) البحر ٧/ ٤٨، وهي قراءة نافع كما في التيسير ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٤٨.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٤٨-٤٩.

(٥) في البحر ٧/ ٤٩.

(٦) أخرجها ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣٦ عن قتادة.

ويكافحون هُجاةَ المشركين، واستُدلَّ لذلك بما أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة: أنَّ هذه الآية نزلت في رَهْطٍ من الأنصار هاجَوْا عن رسول الله ﷺ، منهم: كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت[١]. وعن السدِّي نحوه.

وبما أخرج جماعةٌ عن أبي حسن سالم البرَّاد أنه قال: لمَّا نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ الآيةَ، جاء عبدُ الله بنُ رواحةَ وحسانُ بنُ ثابتٍ وكعب بنُ مالكٍ وهم يبكون، فقالوا: يا رسول الله، لقد أنزل الله تعالى هذه الآية وهو يعلم أنَّا شعراءُ، هَلَكْنا. فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلخ، فدعاهم رسول الله ﷺ فتلاها عليهم[٢].

وأنت تعلمُ أنَّ العبرة لعموم اللَّفظِ لا لخصوص السبب. وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى آخر الصفات، فقال: هم أبو بكر وعمرُ وعليٌّ وعبد الله بن رواحة[٣]. ولعله من باب الاقتصار على بعض ما يدلُّ عليه اللفظُ فقد جاء عنه في بعض الروايات ما يُشْعِرُ بالعموم.

هذا واستُدلَّ بالآية على ذمِّ الشعر والمبالغةِ في المدح والهَجْوِ وغيرهما من فنونه، وجوازِه في الزهد والأدب ومكارم الأخلاق، وجوازِ الهَجْوِ لمن ظُلم انتصاراً، كذا قيل.

واعلم أنَّ الشعر بابٌ من الكلام حَسَنُه حَسَنٌ وقبيحُه قبيحٌ، وفي الحديث: «إنَّ من الشعر لحكمة»[٤]. وقد سمع رسول الله ﷺ الشعرَ وأجاز عليه، وقال عليه الصلاة والسلام لحسان رضي الله عنه: «اهجهم - يعني المشركين - فإنَّ روح القدس

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣٥، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ١٠٠. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٧٨، والطبري ١٧/ ٦٧٩، دون قوله: منهم كعب...

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٥١٨-٥١٩، والطبري ١٧/ ٦٧٨، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣٤-٢٨٣٥.

(٣) تاريخ ابن عساكر ٢٨/ ٩٢، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٩٩.

(٤) أخرجه أحمد (٢١١٥٤)، والبخاري (٦١٤٥) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

سيُعِينُكَ»[١]. وفي روايةٍ: «اهجُهم وجبريلُ معك»[٢].

وأخرج ابن سعد عن ابن بُريدةَ أنَّ جبريل عليه السلام أعان حساناً على مدحته النبيَّ ﷺ بسبعين بيتاً[٣].

وأخرج أحمد والبخاريُّ في «التاريخ» وأبو يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك أنه قال للنبيِّ ﷺ: إنَّ الله تعالى أنزل في الشعراء ما أنزل، فكيف تَرى فيه؟ فقال: «إنَّ المؤمنَ يُجاهِدُ بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لَكَأنَّ ما تَرْمُونَهم به نَضْحُ النَّبْلِ»[٤].

وأخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين قال: [قال] رسول الله ﷺ ليلةً وهم في سفر: «أين حسان بنُ ثابت؟» فقال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: خُذْ، فجعل يُنْشِدُه ويُصغي إليه حتى فرغ من نشيده، فقال رسول الله ﷺ: «لهذا أشدُّ عليهم من وقع النبل»[٥].

ويُروى عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ﵂: أنَّ النبيَّ ﷺ بنى لحسان بن ثابتٍ منبراً في المسجد ينشد عليه الشعر[٦].

وأخرج الديلميُّ عن ابن مسعود ﵁ مرفوعاً: «الشعراءُ الذين يموتون في الإسلام يأمرُهم الله تعالى أن يقولوا شعراً يتغنَّى به الحورُ العين لأزواجهنَّ في الجنة، والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل والثُّبور في النار»[٧].

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء ١/ ٩٤ من حديث عائشة ﵂، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٩٧-٢٩٨ من حديث جابر ﵁.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٢٣)، ومسلم (٢٤٨٦) من حديث البراء بن عازب ﵁.

(٣) طبقات ابن سعد ٤/ ٣٢٦ (طبعة الخانجي).

(٤) مسند أحمد (٢٧١٧٤)، والتاريخ الكبير ٥/ ٣٠٤-٣٠٥، وعزاه لأبي يعلى وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٩٩، ورواه عن أبي يعلى ابن حبان (٤٧٠٧). وأخرج مسلم (٢٤٩٠) من حديث عائشة ﵂: «اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليهم من رشق النبل».

(٥) طبقات ابن سعد ٤/ ٣٢٥-٣٢٦ (طبعة الخانجي)، وما بين حاصرتين منه.

(٦) أخرجه الترمذي (٢٨٤٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٧) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٣٦٢، وذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/ ٣٨٨ وقال: وفيه لاحق بن الحصين. اهـ. وذكره أيضاً الفتني في تذكرة الموضوعات ص٦٨ وقال: فيه لاحق بن الحصين كذاب وضَّاع.

وقد أنشد كلٌّ من الخلفاء الراشدين ﷺ أجمعين الشعرَ، وكذا كثيرٌ من الصحابة ﷺ، فمِن شعر أبي بكر ﷺ[(١)]:

أَمِنْ طَيْفِ سَلْمَى بالبطاح الدَّمائثِ[(٢)] ... أَرِقْتَ وأمرٍ في العشيرة حادثِ
تَرى من لؤيٍّ فرقةً لا يَصُدُّها ... عن الكفر تذكيرٌ ولا بعثُ باعثِ
رسولٌ أتاهم صادقٌ فتكذَّبوا ... عليه وقالوا لستَ فينا بماكثِ
ولمَّا دعوناهم إلى الحقِّ أدبروا ... وهرُّوا هريرَ المُجْحَراتِ اللَّوَاهثِ[(٣)]
فكم قد مثلنا[(٤)] فيهمُ بَقَرابةٍ ... وتَرْكُ التُّقَى شيءٌ لهم غيرُ كارِثِ[(٥)]
فإنْ يَرْجِعوا عن كُفْرِهم وعُقوقهم ... فما طيِّباتُ الحِلِّ مثلُ الخبائثِ
وإنْ يركبوا طغيانَهم وضلالَهم ... فليس عذابُ الله عنهم بلابِثِ
ونحن أناسٌ من ذؤابة غالبٍ ... لنا العزُّ منها في الفروع الأثائثِ[(٦)]
فأُولي بربِّ الراقصات عشيةً ... حَرَاجِيجُ تَخْدِي في السَّريح الرَّثَائِثِ[(٧)]
كأُدْم ظباءٍ حول مكَّة عكَّفٍ ... يَرِدْنَ حياضَ البئر ذاتِ النَّبائثِ[(٨)]

---

(١) كما في السيرة النبوية لابن هشام ١/٥٩٢، والعمدة لابن رشيق ١/٣٢. وقال ابن إسحاق: وأكثر أهل العلم ينكر هذه القصيدة لأبي بكر.

(٢) الدمائث: الرمال اللينة. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ٢/٢٧، وعنه نقلنا جميع ما سيأتي من شرح الغريب.

(٣) قوله: وهروا. . .، أي: وثبوا كما تثب الكلاب. والمجحرات: الكلاب التي أُجْحِرت وألجئت إلى مواضعها. واللواهث: التي أخرجت ألسنتها وتابعت أنفاسها.

(٤) كذا في الأصل و(م)، وفي المصادر: متتنا، قال أبو ذر: متتنا، أي: اتَّصلنا.

(٥) أي: غير مُحْزِن.

(٦) الفروع الأثائث: هي الكثيرة المجتمعة.

(٧) قوله: أُولي، معناه: أَحْلِف وأُقسم. والراقصات: الإبل، والرقص ضربٌ من المشي. وحراجيج، أي: طوال، واحدها: حرجوج، ومن رواه: عناجيج، فهي الحسان. وتَخْدي: تسرع. وقوله: في السريح، السريح: قطع جلود تربط على أخفافها مخافة أن تصيبها الحجارة. والرثائث: البالية الخلقة.

(٨) قوله: كأدم ظباء، الأُدْمُ من الظباء: السُّمْرُ الظهورِ، البيضُ البطون. وعكَّف: مقيمة. والنبائث: جمع نبيثة، وهي تراب يخرج من البئر إذا نُقِبت.

لئن لم يُفيقوا عاجلاً من ضلالهم ... ولستُ إذا آليتُ يوماً[(١)] بحانثِ
لَتبتدرنَّهم غارةٌ ذاتُ مَصْدَقٍ ... تُحرِّمُ أطهارَ النساءِ الطَّوامثِ[(٢)]
تغادرُ قتلى تَعْصِبُ[(٣)] الطيرُ حولَهم ... ولا تَرْأفُ الكفارَ رَأفَ ابنِ حارثِ
فأَبْلِغْ بني سهم لديك رسالةً ... وكلَّ كفورٍ يبتغي الشرَّ باحثِ
فإن تَشْعَثوا[(٤)] عِرْضي على سوء رأيكم ... فإنِّيَ من أعراضكم غيرُ شاعثِ

ومن شِعرِ عمر ﷺ، وكان من أَنْقَدِ أهلِ زمانه للشعر وأَنفَذِهم فيه معرفةً:

تَوعَّدني كعبٌ ثلاثاً يعدُّها ... ولا شَكَّ أنَّ القول ما قاله كعبُ
وما بيَ خوفُ الموتِ إنِّي لميتٌ ... ولكن خوف الذنب يتبعُه الذنب[(٥)]

وقوله، ويُروَى للأعور الشَّنِّيِّ[(٦)]:

هوِّنْ عليك فإنَّ الأمور ... بكفِّ الإله مقاديرُها
فليس بآتيك مَنْهيُّها ... ولا قاصرٌ عنك مأمورُها[(٧)]

ومنه ـ وقد لبس بُرْداً جديداً فنظر الناس إليه ـ ويُروَى لورقة بن نوفل من أبيات:

لا شيء ممَّا ترى تبقى بشاشتُه ... يبقى الإلهُ ويَفْنَى المالُ والولدُ

---

(١) في المصادر: قولاً.
(٢) جمع طامث، وهي الحائض.
(٣) أي: تجتمع.
(٤) تشعثوا: تغيروا وتفرَّقوا.
(٥) العمدة ١/ ٣٤، ووردا ضمن قصة جرت بين كعب الأحبار وعمر ﷺ، كما أخرج ابن شبَّة في تاريخ المدينة ٣/ ٨٩١-٨٩٢. وفيه: ولكنما في الذنب يتبعه الذنب.
(٦) في الأصل و(م): الثني، والصواب ما أثبتناه، والأعور الشَّنِّي هو بشر بن منقذ أحد بني شَنّ بن أفصى بن عبد القيس، ويكنى أبا منقذ، وكان مع عليٍّ ﷺ يوم الجمل. الشعر والشعراء ٢/ ٦٣٩، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٤٥، واللآلي ٢/ ٨٢٧.
(٧) العمدة ١/ ٣٣، وعنه نقل المصنف. وذكرهما أبو عبيد في الأمثال ص١٩٣ وقال: وهذا الشعر نرويه عن عمر أنه تمثَّل به على المنبر. وعزاه للأعور الشَّنِّي سيبويه في الكتاب ١/ ٦٣-٦٤، والبصري في الحماسة ٢/ ٢، والبكري في فصل المقال ص٢٨٦. وورد البيتان ضمن خبر أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء ص١٥٨ منسوبين لعبد الله بن الزبير ﷺ.

لـم تُـغْـنِ عـن هـرمـزٍ يـومـاً خـزائـنـهُ والـخـلـد حـاوَلَـه عـادٌ فـمـا خَـلَـدوا
ولا سـلـيـمـان إذ تـجـري الـريـاح لـه والإنـسُ والـجـنُّ فـيـمـا بـيـنـهـا تَـرِدُ
حـوضٌ هـنـالـك مـورودٌ بـلا كـذبٍ لابـدَّ مـن وِرْدِه يـومـاً كـمـا وَرَدوا(١)

ومن شعر عثمان رضي الله عنه:

غِنَى النفسِ يُغْني النفسَ حتى يكفَّها وإنْ عضَّها حتى يضرَّ بها الفقرُ(٢)

ومن شعر عليٍّ كرم الله تعالى وجهه ـ وكان مجوِّداً حتى قيل: إنه أشعرُ الخلفاء رضي الله عنهم ـ يذكر همدان ونصرهم إياه في صفين:

ولـمَّـا رأيـتُ الـخـيـلَ تَـزْحَـمُ بـالـقـنـا نـواصـيُّـهـا حـمـرُ الـنـحـورِ دَوَامـي
وأَعْـرضَ نـقـعٌ فـي الـسـمـاء كـأنـه عـجـاجـةُ دَجْـنٍ مـلـبَّـسٍ بـقَـتَـامِ
ونادى ابنُ هند في الكلاع وحمير وكـنـدة فـي لـخـم وحـيٍّ جـذامِ
تـيـمَّـمـتُ هـمـدانَ الـذيـن هـمُ هـمُ إذا نـاب دهـرٌ جُـنَّـتـي وسـهـامـي
فـجـاوبـنـي مـن خـيـل هـمـدان عـصـبـةٌ فـوارسُ مـن هـمـدانَ غـيـرُ لـئـامِ
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها وكـانـوا لـدى الـهـيـجـا كـشـربِ مـدامِ
فـلـو كـنـتُ بـوَّابـاً عـلـى بـاب جـنـةٍ لـقـلـتُ لـهـمـدانَ ادخـلـوا بـسـلامِ(٣)

وقد جمعوا ما نسب إليه رضي الله عنه من الشعر في ديوان كبير ولا يصح منه إلا اليسير.
ومن شعر ابنه الحسن رضي الله عنهما وقد خرج على أصحابه مختضباً:

نـسـوِّد أعـلاهـا وتـأبـى أصـولُـهـا فليت الذي يَسْوَدُّ منها هو الأصلُ(٤)

ومن شعر الحسين رضي الله عنه وقد عاتبه أخوه الحسن رضي الله عنه في امرأته:

---

(١) العمدة ١/ ٣٣-٣٤، وبهجة المجالس لابن عبد البر ٢/ ٣٤٠.
(٢) العمدة ١/ ٣٤، وزهر الآداب للقيرواني ١/ ٣٩.
(٣) العمدة ١/ ٣٤، والديوان المنسوب لعلي رضي الله عنه ص١١٣. وجاء بدل: تزحم، في العمدة: ترجم، وفي الديوان: تقرع، وفيه: وأقبل رهج في السماء كأنه...
(٤) العمدة ١/ ٣٥. وأخرج صدره عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ابنُ أبي شيبة ٨/ ٨٣٤، وابن حبان في الثقات ٣/ ٢٨٠. وابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٨٥ وقال: وهو بيت محفوظ له (أي: لعقبة)، ثم ذكر عجزه برواية: ولا خير في الأعلى إذ فسد الأصل.

لَـعَـمْـرُكَ إنَّـنـي لَأُحِـبُّ داراً تَـحُـلُّ بـهـا سُـكـيـنـةُ والـرَّبـابُ
أحـبُّـهـمـا وأبـذلُ جُـلَّ مـالـي ولـيـس لِـلائـمـي عـنـدي عـتـابُ[1]

ومن شعر فاطمة رضي الله عنها قالته يومَ وفاةِ أبيها عليه الصلاة والسلام:

مـاذا عـلـى مَـن شَـمَّ تـربـةَ أحـمـدٍ أنْ لا يـشـمَّ مـدى الـزمـانِ غَـوَالـيـا
صُـبَّـتْ عـلـيَّ مـصـائـبٌ لـو أنـهـا صبَّتْ على الأيام صِرْنَ ليـاليـا[2]

ومن شعر العباس رضي الله عنه يوم حنين يفتخر بثبوته مع رسول الله ﷺ:

ألَا هل أَتَى عِرسي[3] مَكَرِّي ومَوْقفي بـوادي حُـنَـيـنٍ والأسـنَّـةُ تُـشْـرَعُ
وقَوْلي إذا ما النفسُ جاشت لها قَدي وهـامٌ تَـدَهْـدَى والـسـواعـدُ تُـقْـطَـعُ
وكـيـف رَدَدْتُ الـخـيـلَ وهـي مـغـيـرةٌ بـزوراءَ تُـعـطـي بـالـيـديـن وتَـمـنَـعُ
نَصَرْنا رسول الله في الحرب سبعةً وقـد فـرَّ مَن قد فرَّ عنه فأَقْشَعوا[4]

ومن شعر ابنه عبد الله رضي الله عنهما:

إذا طـارقـاتُ الـهـمِّ ضـاجَـعَـتِ الـفـتـى وأَعْـمـلَ فِـكْـرَ الـلـيـلِ والـلـيـلُ عـاكـرُ
وبـاكَـرَنـي فـي حـاجـةٍ لـم يَـجِـدْ لـهـا سـوايَ ولا مِـن نـكـبـةِ الـدهـر نـاصـرُ
فَـرَجْـتُ بـمـالـي هـمَّـه مـن مـقـامـه وزايَـلَـه هـمٌّ طَـروقٌ مُـسـامِـرُ
وكـان لـه فـضـلٌ عـلـيَّ بـظـنِّـه بيَ الـخـيـرَ إنِّـي لـلَّـذي ظـنَّ شـاكـرُ[5]

وهلمَّ جرًّا إلى حيث شئتَ، وليس من بني عبد المطلب ـ كما قيل ـ رجالاً ولا نساءً مَن لم يقل الشعر، حاشا النبيَّ ﷺ؛ ليكون ذلك أبلغَ في أمره عليه الصلاة والسلام.

---

(١) الأغاني ١٦/ ١٣٦، والعمدة ١/ ٣٥-٣٦.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٣٤، وقال الذهبي: وهو مما ينسب لعائشة ولا يصح. والثاني منهما ذكره المرزباني في معجم الشعراء ص٤٠٣ عن أبي منصور الباخرزي، واسمه محمد بن إبراهيم.
(٣) العِرس: امرأة الرجل. القاموس (عرس).
(٤) العمدة ١/ ٣٦، والاستيعاب ٦/ ٨، والبيت الأخير في أسد الغابة ١/ ١٨٩.
(٥) العمدة ١/ ٣٦-٣٧، والعقد الفريد ١/ ٢٣٠، وتاريخ ابن عساكر ٤/ ٣٦٦. وجاء في العقد وتاريخ ابن عساكر: وزايله الهم الطروق المساوِرُ.

ولأجلَّة التابعين ومَن بعدهم من أئمة الدين وفقهاء المسلمين شعرٌ كثيرٌ أيضاً، ومن ذلك قولُ الشافعيِّ رضي الله عنه:

ومُتْعِبِ العيس مرتاحٌ إلى بلدٍ ... والموتُ يطلبه في ذلك البلدِ
وضاحكٍ والمنايا فوق هامته ... لو كان يعلمُ غيباً مات من كمد
مَن كان لم يؤتَ علماً في بقاء غدٍ ... فما يفكِّر في رزقٍ لبَعْدِ غَدِ[1]

والاستقصاءُ في هذا الباب يحتاجُ إلى إفراده بكتابٍ، وفيما ذُكر كفايةٌ.

وقد مدحه أيضاً غيرُ واحدٍ من الأجلَّة، فعن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى أبي موسى الأشعريِّ: مُرْ مَن قِبَلَكَ بتعلُّم الشعر، فإنه يدلُّ على معالي الأخلاق، وصوابِ الرأي، ومعرفةِ الأنساب.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: الشعرُ ميزانُ العقول.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إذا قرأتُم شيئاً من كتاب الله تعالى فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب فإنَّ الشعر ديوان العرب[2].

وما أخرجه أحمد وابن أبي شيبة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بينما نحن نسيرُ مع رسول الله ﷺ إذ عَرَضَ شاعرٌ يُنْشِدُ، فقال النبيُّ ﷺ: «لأَنْ يمتلئ جوفُ أحدكم قيحاً خيرٌ من أن يمتلئ شعراً»[3]، حمله الشافعيُّ[4] عليه الرحمةُ على الشعر المشتملِ على الفحش.

ورُوي نحوُه عن عائشةَ رضي الله عنها، فقد أخرج الكلبيُّ عن أبي صالح عن ابن عباس عن عائشة أنه بلغها أنَّ أبا هريرة يروي عن رسول الله ﷺ: «لأَنْ يمتلئ جوفُ أحدكم» الحديثَ، فقالت: رحم الله تعالى أبا هريرةَ، إنما قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قيحاً خيرٌ له من أَنْ يمتلئ شعراً من

(١) العمدة ١/ ٤٠، وفيه: ماذا تفكُّره لرزق بعد غدِ.
(٢) ذكر هذه الأخبار ابن رشيق في العمدة ١/ ٢٨ و٣٠، وخبر عليٍّ فيه بلفظ: الشعر ميزان القول، وفي رواية: ميزان القوم.
(٣) مسند أحمد (١١٠٥٧)، ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٧٢٠، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٢٥٩).
(٤) كما في الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي ٢/ ٢٠٤، وعنه نقل المصنف.

الشعر الذي هُجيتُ به»[١]، يعني نفسَه الشريفةَ عليه الصلاة والسلام. ذَكَر ذلك المرشديُّ[٢] في «فتاواه» نقلاً عن كتاب «بستان الزاهدين».

ولا يخفَى أنه يُبعِدُ الحملَ المذكور التعبيرُ بـ «يمتلئ»، فإنَّ الكثير والقليل مما فيه فحشٌ أو هجوٌ لسيِّد الخَلْق ﷺ سواءٌ، وما أحسنَ قول الماورديِّ[٣]: الشعرُ في كلام العرب مستحبٌّ ومباحٌ ومحظورٌ، فالمستحبُّ ما حذَّر من الدنيا ورغَّب في الآخرة وحثَّ على مكارم الأخلاق، والمباحُ ما سَلِمَ من فحشٍ أو كذبٍ، والمحظور نوعان: كذبٌ وفحشٌ، وهما جرحٌ في قائله، وأما مُنْشِدُه فإن حكاه اضطراراً لم يكن جرحاً، أو اختياراً جرح.

وتبعه على ذلك الرُّوْيانيُّ، وجَعَلَ الرويانيُّ ما فيه الهجوُ لمسلم سواءٌ كان بصدقٍ أو كذبٍ من المحظور أيضاً، ووافقه جماعةٌ، إلا أنَّ إثم الصادق أخفُّ من إثم الكاذب كما قال القَمُوليُّ[٤]. وإثم الحاكي على ما قال الرافعيُّ دون إثم المُنْشِدِ.

وقال الأذرعيُّ: ليس هذا على إطلاقه، بل إذا استوى الحاكي والمنشدُ، أمَّا إذا أنشده ولم يُذِعْه فأذاعه الحاكي فإثمه أشدُّ بلا شكٍّ.

---

(١) ذكره الذهبي في الميزان ٣/ ٥٥٨ من طريق أبي يوسف القاضي عن الكلبي به. وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢١٣١ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يَرِيه خير له من أن يمتلئ شعراً هجيت به» والكلبي متروك، وروى البخارى عن سفيان: قال لي الكلبي: كلُّ ما حدَّثتك عن أبي صالح فهو كذب. وحديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٧٨٧٤)، والبخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٢٥٧) بمثل حديث أبي سعيد السالف.

(٢) هو: عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد، أبو الوجاهة العمري، المعروف بالمرشدي الحنفي، مفتي الحرم المكي، توفي مقتولاً سنة (١٠٣٧هـ). خلاصة الأثر ٢/ ٣٦٩.

(٣) كما في الزواجر ٢/ ٢٠٤، وعنه نقل المصنف ما سيأتي من أقوال.

(٤) هو: أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكيِّ بن ياسين، أبو العباس نجم الدين، له: البحر المحيط في شرح الوسيط، وشرح مقدمة ابن الحاجب، وله تكملة على تفسير الفخر الرازي، توفي سنة (٧٢٧هـ). طبقات الشافعية ٩/ ٣٠، وطبقات المفسرين للأدنەوي ص٢٦٨. وكلامه من كتابه جواهر البحر كما في الزواجر ٢/ ٢٠٢.

واحترُز بقيد المسلم عمَّا فيه الهجوُ لكافرٍ؛ فإنَّ فيه تفصيلاً، وفصَّل بعضُهم ما فيه الهجوُ لمسلم أيضاً، وذلك أنَّ كثيراً من العلماء أطلقوا جوازَ هجوِ الكافر استدلالاً بأمره ﷺ حسَّاناً ونحوَه بهجوِ المشركين. وقال بعضهم: محلُّ ذلك الكفارُ على العموم، وكذا المعيَّنُ الحربيُّ ميتاً كان أو حيًّا حيث لم يكن له قريبٌ معصومٌ يتأذَّى به، وأما الذمِّي أو المعاهَدُ أو الحربيُّ الذي له قريبٌ ذمِّيٌّ أو مسلمٌ يتأذَّى به، فلا يجوزُ هجوه كما قال الأذرعيُّ وابن العماد وغيرُهما، وقالوا: إنَّ هجوَ حسان وإن كان في معيَّنٍ لكنه في حربيٍّ، وعلى التنزُّل فهو ذبٌّ عن رسول الله ﷺ، فيكون من القُرَبِ فضلاً عن المباحات.

وألحق الغزاليُّ[1] وتبعه جمعٌ المبتدعَ بالحربيِّ، فيجوز هَجْوُه ببدعته، لكنْ لمقصدٍ شرعيٍّ كالتحذير من جهته.

وجوَّز ابنُ العماد هَجْوَ المرتدِّ دون تارك الصلاة والزاني المحصَن. وما قاله في المرتدِّ واضحٌ لأنه كالحربيِّ بل أقبح، وفي الأخيرين محلُّه حيث لم يتجاهَرْ[2]، أمَّا المتجاهِرُ بفسقه فيجوزُ هَجْوُه بما تجاهَرَ به فقط؛ لجواز غيبته بذلك فقط.

وقال البلقينيُّ: الأرجحُ تحريمُ هَجْوِ المتَجاهر المذكورِ لا لقَصْدِ[3] زَجْرِه؛ لأنه قد يتوبُ وتبقى وصمةُ الشعر السائر عليه، ولا كذلك الكافرُ إذا أسلم.

وردَّ بأنَّ مجاهرته بالمعصية وعدمَ مبالاته بالناس وكلامهم فيه صيَّراه غير محترمٍ ولا مراعًى، فهو المهدِرُ لحرمة نفسه بالنسبة لِمَا تَجاهَر به، فلَمْ يبالِ ببقاء تلك الوصمة عليه.

نعم لو قيل بحرمة إنشاده بعد التوبة إذا كان يتأذَّى به هو أو قريبُه المسلم أو الذميُّ، أو بعد موته إذا كان يتأذَّى به مَن ذُكر لم يَبْعُدْ.

وذَكَر جماعةٌ أنَّ من جملة المحظور أيضاً ما فيه تشبيبٌ بغلامٍ ولو غيرَ معيَّنٍ مع ذِكْرِ أنه يعشقُه، أو بامرأةٍ أجنبيةٍ معيَّنةٍ وإن لم يذكرها بفحشٍ، أو بامرأةٍ مبهمةٍ مع

---

(١) في الإحياء ٢/ ٢٨٢، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في الزواجر ٢/ ٢٠٣.

(٢) في الزواجر: يتجاهرا.

(٣) في الزواجر: إلا لقصد.

ذِكْرِها بالفحش، ولم يفرِّقوا بين إنشاء ذلك وإنشاده. واعتبر بعضُهم التعيينَ في الغلام كالمرأة، فلا يحرمُ التشبيب بمبهَمٍ؛ قال الأذرعيُّ: وهو الأقربُ، والأول ضعيفٌ جدّاً.

وقال أيضاً: يجب القطعُ بأنه إذا شبَّب بحليلته ولم يذكر سوى المحبةِ والشوقِ، أو ذكر شيئاً من التشبيهات الظاهرة، أنه لا يضرُّ، وكذا إذا ذكر امرأةً مجهولةً ولم يذكر سوءاً.

وفي «الإحياء»(١): في حرمةِ التشبيب بنحو وَصْفِ الخدود والأصداغ وسائر أوصاف النساء نظرٌ، والصحيحُ أنه لا يحرُمُ نَظْمُه ولا إنشادُه بصوتٍ وغيرِ صوتٍ(٢)، وعلى المستمع أن [لا] ينزله على امرأةٍ معيَّنةٍ، فإنْ نزَّله على حليلته جاز، أو على غيرها فهو العاصي بالتنزيل، ومَن هذا وصفُه فينبغي أن يجتنب السماع.

وذكر بعضُ الفضلاء أنَّ ما يحرُم إنشاؤه قد لا تحرُم روايتهُ، فإنَّ المغازيَ رُوي فيها قصائدُ الكفار الذين هاجَوا فيها الصحابةَ ﷺ، ولم ينكر ذلك أحدٌ، وقد روي أنه ﷺ أذن في الشعر الذي تقاوَلَتْ به الشعراءُ في يوم(٣) بدر وأُحُد وغيرهما، إلا قصيدةَ ابن أبي الصلت الحائية(٤). انتهى.

قال الأذرعيُّ: ولا شكَّ في هذا إذا لم يكن فيه فحشٌ ولا أذًى لحيٍّ أو ميتٍ من المسلمين، ولم تَدْعُ حاجةٌ إليه، وقد ذَمَّ العلماء جريراً والفرزدقَ في

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٨٢، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في الزواجر ٢/ ٢٠١، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

(٢) في الإحياء: بلحن وغير لحن.

(٣) في (م): يومي، والمثبت من الأصل والزواجر ٢/ ٢٠٢.

(٤) أخرجه أبو يعلى (٦٠٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: رخَّص رسول الله ﷺ في شعر الجاهلية إلا قصيدة أمية بن أبي الصلت في أهل بدر، وقصيدة الأعشى في ذكر عامر وعلقمة. وفي إسناده أبو بكر الهذلي، قال عنه ابن حبان في المجروحين ١/ ٣٠٩: يروي عن الأثبات الأشياء الموضوعات. وقصيدة أمية الحائية هي التي رثى بها من قتل من المشركين ببدر، فكان من رؤوسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وهما ابنا خاله. الخزانة ١/ ٢٥١.

تَهاجِيهما ولم يذمُّوا مَن اسْتَشْهَد بذلك على إعرابٍ وغيرِه من علم اللسان، ويجب حَمْلُ كلام الأئمة على غير ذلك مما هو عادةُ أهل اللعب والبطالة، وعلى إنشاد شعر شعراء العصر إذا كان إنشاؤه حراماً؛ إذ ليس فيه إلا أذًى أو وقيعةٌ في الأحياء، أو إساءة الأحياء في أمواتهم، أو ذكرُ مساوي الأموات، وغير ذلك، وليس مما يُحتجُّ به في اللغة ولا غيرها، فلم يبق إلا اللعبُ بالأعراض.

وزاد بعضٌ حرمةَ شعرٍ فيه تعريضٌ، وجَعَلَ التعريضَ في الهجو كالتصريح، وله وجهٌ وجيه.

وقال آخر: إنَّ ما فيه فخرٌ مذمومٌ، وقليلُه ككثيرِه، والحقُّ أنَّ ذلك إن تضمَّن غرضاً شرعيًّا فلا بأس به، وللسلف شعرٌ كثيرٌ من ذلك، وقد تقدَّم لك بعضٌ منه.

وحمل الأكثرون الخبرَ السابق على ما إذا غلب عليه الشعرُ ومَلَكَ نفسَه، حتى اشتغل به عن القرآن والفقه ونحوِهما، ولذلك ذكر الامتلاء، والحاصل أنَّ المذموم امتلاءُ القلب من الشعر بحيث لا يتَّسع لغيره، ولا يلتفتُ إليه.

وليس في الخبر ذمُّ إنشائه ولا إنشاده لحاجةٍ شرعيةٍ وإلَّا لوقع التعارُضُ بينه وبين الأخبار الصحيحة الدالَّة على حِلِّ ذلك، وهي أكثر من أن تُحْصَى، وأبعدُ من أن تقبل التأويل كما لا يخفى، وما رُوي عن الإمام الشافعيِّ من قوله:

ولولا الشعرُ بالعلماء يزري لكنتُ اليومَ أَشْعَرَ من لبيدِ[1]

محمولٌ على نحو ما حَمَلَ الأكثرون الخبرَ عليه، وإلا فما قاله شعرٌ، وفي معناه قولُ شيخنا علاء الدين علي أفندي تغمَّده الله تعالى برحمته مخاطباً خاتمةَ الوزراء في الزوراء دواد باشا من أبيات:

ولو لداعيه يرضى الشعر منقبةً لقُمْتُ ما بين مُنْشِيهِ ومُنْشِدِه

هذا وسيأتي إن شاء الله تعالى كلامٌ يتعلَّق بهذا البحث أيضاً عند الكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى﴾ [يس: ٦٩].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٧٢.

ومن اللطائف أنَّ سليمان بن عبد الملك سمع قول الفرزدق:

فبِتْنَ بجانبيَّ مُصَرَّعاتٍ وبتُّ أفضُّ أغلاقَ الختام

فقال له: قد وجب عليكَ الحدّ. فقال: يا أمير المؤمنين، قد درأ الله تعالى عني الحدَّ بقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[(١)].

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ؛ لِمَا في «سيعلم» من تهويل متعلّقه، وفي «الذين ظلموا» من الإطلاق والتعميم، وقد كان السلف الصالحُ يتواعظون بها، وختم بها أبو بكرٍ رضي الله عنه وصيَّته حين عهد لعمر رضي الله عنه، وذلك أنه أمر عثمان رضي الله عنه أن يكتب في مرض موته حينئذٍ: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عَهِدَ به أبو بكر بن أبي قُحافةَ عند آخِرِ عَهْدِه بالدنيا وأولِ عَهْدِه بالآخرة، في الحال التي يؤمنُ فيها الكافرُ ويتّقي فيها الفاجرُ، ويَصْدُقُ فيها الكاذب، أنِّي قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب، فإنْ يعدل فذاك ظنِّي به ورجائي فيه، وإن يَجُرْ ويبدِّل فلا عِلْمَ لي بالغيب، والخيرَ أردتُ، ولكلِّ امرئ ما اكتسب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[(٢)].

وتفسير الظلم بالكفر وإن كان شائعاً في عدَّة مواضعَ من القرآن الكريم إلَّا أنَّ الأنسب على ما قيل هنا الإطلاقُ؛ لمكان قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾.

وقال الطيبيُّ: سياقُ الآية بعد ذكر المشركين الذين آذوا رسول الله ﷺ، وما لقي منهم من الشدائد كما مرَّ من أول السورة، يؤيِّد تفسيرَ الظلم بالكفر.

وروى محيي السنَّةِ: «الذين ظلموا»: أشركوا وهَجَوا رسول الله ﷺ[(٣)].

وقرأ ابن عباس، وابن أرقم عن الحسن: «أيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتون» بالفاء والتاء الفوقية[(٤)]، من الانفلات بمعنى النجاة، والمعنى: إن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى، وسيعلمون أنْ ليس لهم وجهٌ من وجوه الانفلات.

---

(١) الأغاني ٢١/ ٣٧٣، والكشاف ٣/ ١٣٣.

(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ٢/ ٦٧٢، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣٦-٢٨٣٧.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٠٥.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٤٩، والكلام منه.

و«سيعلم» هنا معلَّقة، و«أيَّ» استفهام مضافٌ إلى «منقلب»، والناصبُ له «ينقلبون»، والجملة سادَّةٌ مسدَّ المفعولين، كذا في «البحر»(١). وقال أبو البقاء: (أَىَّ مُنقَلَبٍ) مصدرٌ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، والعاملُ (يَنقَلِبُونَ) أي: ينقلبون انقلاباً أيَّ منقلبٍ، ولا يعملُ فيه (يَعْلَمُ) لأنَّ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله(٢).

وتعقِّب(٣) بأنه تخليط؛ لأنَّ (أَيًّا) إذا وصف بها لم تكن استفهاماً، وقد صرَّحوا بأنَّ الموصوف بها قسيمُ الاستفهامية، وتحقيقُ انقسام (أَىّ) يُطلب من كتب النحو، والله تعالى أعلم.

❀ ❀ ❀

ومما قيل في بعض الآيات من باب الإشارة: ﴿طسٓمٓ﴾ قال الجنيد: الطاءُ طَرَبُ التائبين في ميدان الرحمة، والسينُ سرورُ العارفين في ميدان الوصلة، والميم مقامُ المحبِّين في ميدان القربة.

وقيل: الطاءُ طهارةُ القدم من الحدثان، والسين سناءُ صفاتِه تعالى التي تكشفُ في مرايا البرهان، والميم مَجْدُه سبحانه الذي ظهر بوصف البهاء في قلوب أهل العرفان.

وقيل: الطاءُ طهارةُ قلبِ نبيِّه ﷺ عن تعلُّقات الكونين، والسينُ سيادتهُ ﷺ على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، والميم مشاهدتهُ عليه الصلاةُ والسلام جمالَ ربِّ العالمين.

وقيل: الطاءُ شجرة طُوبَى، والسينُ سِدْرةُ المنتهى، والميمُ محمدٌ ﷺ. وقيل غيرُ ذلك.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى كمال شفقته ﷺ على أمته، وأنَّ الحرص على إيمان الكافر لا يمنع سوابقَ الحُكْم.

---

(١) ٧/ ٤٩.
(٢) الإملاء ٤/ ١٢٥.
(٣) المتعقب هو أبو حيان في البحر ٧/ ٥٠.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ إلى آخر القصة، فيه إشارةٌ إلى حُسْنِ التعاضُدِ في المصالح الدينية، والتلطُّفِ بالضالِّ في إلزامه بالحجج القطعية، وأنه لا ينبغي عدمُ الاحتفال بمن ربَّيته صغيراً، ثم رأيته وقد مَنَحَه الله تعالى ما مَنَحَه من فضله كبيراً.

وقال بعضهم: إن فيه إشارةً إلى ما في الأنفس، وجَعَلَ موسى إشارةً إلى موسى القلب، وفرعونَ إشارةً إلى فرعون النفس، وقومَه إشارةً إلى الصفات النفسانية، وبني إسرائيل إشارةً إلى الصفات الروحانية، والفَعْلَةَ إشارةً إلى قتل قبطيِّ الشهوة، والعصا إشارةً إلى عصا الذِّكر، أعني: لا إله إلا الله، واليدَ إشارةً إلى يد القدرةِ، وكونَها بيضاء إشارةً إلى كونها مؤيَّدةً بالتأييد الإلهي، والناظرين إشارةً إلى أرباب الكشف الذين ينظرون بنور الله تعالى، والسَّحرةَ إشارةً إلى الأوصاف البشرية والأخلاق الرديَّة، والناسَ إشارةً إلى الصفات الناسوتية، والأجرَ إشارةً إلى الحظوظ الحيوانية، والحبالَ إشارةً إلى حبال الحيل، والعصيَّ إشارةً إلى عصيِّ التمويهات والمخيّلات، والمدائن إشارةً إلى أطوار النفس، وهكذا.

وعلى هذا الطريق سلكوا في الإشارة في سائر القصص، فجعلوا إبراهيم إشارةً إلى القلب، وأباه وقومَه إشارةً إلى الروح وما يتولَّد منها، والأصنامَ إشارةً إلى ما يلائم الطباع من العُلْوِيَّات والسُّفْليات، وهكذا مما لا يخفى على مَن له قلب أو ألقَى السَّمْعَ وهو شهيد.

وللشيخ الأكبر قدِّس سرُّه في هذه القصص كلامٌ عجيبٌ مَن أراده فليطلبه في كتبه، وهو قدِّس سرُّه ممن ذهب إلى أنَّ خطيئة إبراهيم عليه السلام التي أرادها بقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ كانت إضافةَ المرض إلى نفسه في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقد ذكر قدِّس سرُّه أنه اجتمع مع إبراهيم عليه السلام فسأله عن مراده بها فأجابه بما ذُكر. وقال في باب أسرار الزكاة من «الفتوحات»: إنَّ قول الرسول: «إن أجري إلا على ربِّ العالمين» لا يقدحُ في كمال عبوديته، فإنَّ قوله ذلك لأنْ يُعْلِمَ أنَّ كلَّ عملٍ خالصٍ يطلب الأجر بذاته، وذلك لا يُخْرِجُ العبدَ عن أوصاف العبودية، فإنَّ العبد في صورة الأجير وليس

بأجيرٍ حقيقةً، إذ لا يستأجِرُ السيدُ عبدَه بل يَسْتأجِرُ الأجنبيَّ وإنما العملُ نفسُه يقتضي الأجرة، وهو لا يأخذها وإنما يأخذها العامل وهو العبدُ، فهو قابضُ الأجرة من الله تعالى، فأشْبهَ الأجيرَ في قبض الأجرة وخالفه بالاستئجار[1]. اهـ.

وحقَّق أيضاً ذلك في الباب السادس عشر والثلاث مئة من «الفتوحات»[2]. وذكر في الباب السابع عشر والأربع مئة منها أنَّ أجر كلِّ نبيٍّ يكون على قَدْرِ ما ناله من المشقَّة الحاصلة له من المخالفين[3].

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ❁ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ❁ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنه ليس للشيطان قوةُ حَمْلِ القرآن؛ لأنه خُلِقَ من نارٍ وليس لها قوةُ حَمْلِ النور، ألا ترى أنَّ نار الجحيم كيف تستغيثُ عند مرور المؤمن عليها، وتقول: «جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورُك لَهبي»[4]؟ ولنحو ذلك ليس له قوةٌ على سمعه، وهذا بالنسبة إلى أول مراتب ظهوره، فلا يَرِدُ أنه يلزم على ما ذُكر أن الشياطين لا يسمعون آيات القرآن إذا تلوناها ولا يحفظونها، وليس كذلك. نعم ذُكر أنهم لا يقدرون أن يسمعوا آية الكرسيِّ وآخر «البقرة»، وذلك لخاصيةٍ فيهما.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فيه إشارة إلى أنَّ النسب إذا لم ينضمَّ إليه الإيمانُ لا ينفع شيئاً، ولمَّا كان حجابُ القرابة كثيفاً أُمر ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هم أهلُ النسب المعنويِّ الذي هو أقرب من النسب الصُّوري، كما أشار إليه ابنُ الفارض قدِّس سرُّه بقوله:

نَسَبٌ أقربُ في شَرْعِ الهوى   بيننا من نَسَبٍ من أَبَوَي[5]

وأنا أَحْمَدُ الله تعالى كما هو أهلُه على أنْ جَعَلني من الفائزين بالنسبين، حيث

---

(١) بنحوه في الفتوحات ١/ ٥٧٥.

(٢) الفتوحات ٣/ ٦٣.

(٣) الفتوحات ٤/ ٢٣.

(٤) سلف ١٦/ ١٤٩.

(٥) ديوان ابن الفارض ص١٩.

وَهَبَ لي الإيمان، وجعلني من ذرِّية سيد الكونين ﷺ، فها أنا من جهةِ أمِّ أبي من ذرِّية الحسن، ومن جهة أبي من ولد الحسين رضي الله عنهما:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى نوراً ومن فَلَق الصباح عمودا

والله عزَّ وجل هو وليُّ الإحسان المتفضِّل بصنوف النعم على نوع الإنسان، والصلاةُ والسلامُ على سيد العالمين وآله وصحبه أجمعين.

(٢٧) سُورَةُ النَّمْلِ مَكِّيَّة
وآياتها ثلاث وتسعون

سورةُ النمل من السور المكيّة التي عالجت أصول الدين من التوحيد ، والرسالة ، والبعث . وهي إحدى سورٍ ثلاث نزلت متتالية ، ووُضعتْ في المصحف الشريف متتالية وهي « الشعراء ، والنمل ، والقَصَص » ويكاد يكون منهاجها واحداً في سلوك مسلك العظة والعبرة عن طريق قَصَص الغابرين . سُميت سورة النمل لأن الله تعالى ذكر فيها حديث النملة وكلامها حين مرَّ سليمان بجنوده على وادي النمل فسمع كلامها وفهم مرادها ، وفي هذا أعظم الدلالة على علم الحيوانِ وتخاطبه فيما بينه ، وأنَّ الله تعالى أعطى سليمان علم منطق الطير والحيوان ، وفي هذا يقول القرآن الكريم ﴿ وحُشر لسليمانَ جنودُه من الجنّ والإنس والطير فهم يُوزعون . حتى إذا أتَوا على وادي النملِ قالت نملةٌ يا أيها النملُ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمَل صالحاً ترضاه ، وأَدْخلْني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ **تبتدىء السورة الكريمة بَدْءاً له شبهٌ بسورة** الشعراء ، وذلك بإثبات عظمة القرآن وصدق النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ طسٓ تلكَ آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبين . هُدىً وبُشْرى للمؤمنين . الذين يُقيمون الصلاة ويُؤتون الزكاةَ وهم بالآخرةِ هم يوقنون ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وإنكَ لتُلَقّى القُرآنَ من لَدُنْ حكيم

عليم﴾ ثم تتحدث عن قصة موسى عليه السلام .. والجدير بالذكر أنه تكرَّر القَصص في القرآن الكريم ، وبخاصة قصة موسى مع فرعون ولكنه جاء في أعلى درجات الفصاحة والبيان ، في كل موطنٍ من المواطن التي تتناول فيها القرآن قصصه ، وأفصحُ الفصحاء ، وأبلغ البلغاء لا يستطيع أن يعرِض الموضوع الواحد بأساليب مختلفة مع المحافظة على الجوهر وعلى قوة الأسلوب والبيان ، إذ ليس ذلك من الأمور السهلة التي هي في متناول البشر ، وإنما ذلك من خصائص الأسلوب القرآني ، للإشارة إلى إعجاز القرآن ، أضفْ إلى ذلك أَنَّ ما جاء مُجْملاً في مكان جاء مفصلاً في مكان آخر ، وأنَّ القرآن يورد جزءاً من القصة للعظة والعبرة ثم يورد تمام القصة في مكانٍ آخر لأن المقام يقتضيه .. وهكذا ذكر تعالى هنا قصة موسى بإيجاز بدءاً من تكليفه بالرسالة وإمداده بالمعجزات الباهرة ، إلى أَنْ أُمِر بتبليغ الدعوة إلى فرعون رأسِ الطغيان ، ثم يأتي التعقيب المباشر بعد سرد القصة بقوله ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحرٌ مبين . وجحدوا بها واستيْقَنَتْها أنفسُهم ظلماً وعُلُوّاً ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ ثم تتحدث السورة عن « داود » وولده « سليمان » وكلاهما نبيٌ كريم من الأنبياء العظام ، وقد خصهما الله بخصائص كريمة وأعطاهما مع النُبوَّة المُلْك ﴿ ولقد آتينا داودَ وسليمانَ علماً وقالا الحمدُ للهِ الذي فضَّلَنَا على كثيرٍ من عبادِهِ المؤمنين . وورثَ سليمانُ داودَ وقال يا أيها الناسُ عُلِّمْنَا منطقَ الطيرِ ، وأُوتينَا مِنْ كلِّ شيءٍ ، إنَّ هذا لَهُوَ الفَضْلُ المبين﴾ وتذكر السورة قصة سليمان مع بلقيس مِلِكَةِ سبأ ، وهي قصة رائعة فيها مغزى دقيق للملوك والعظماء ، وفيها بيانٌ لسَعَة مُلكِ سليمانَ حيث امتدَّ من بيت المقدس إلى أقاصي اليمن ، ودانت له الملوك والأمراء ، وقد اتخذ المُلْك وسيلة لدعوة الناس إلى الله ، فلم يترك

مَلِكاً كافراً ، ولا حاكماً جائراً ، ولا سلطاناً ذا بأسٍ وقوة إلاّ ودعاه إلى الدخول في الإسلام ، فمن لم يجبه كان السيف هو الحَكَم الفَصْل ، وهكذا كان شأنه مع بلقيس ﴿ قالت يا أيها الملأ إني أُلْقيَ إليَّ كتابٌ كريم . إنه من سليمانَ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . أَلاَّ تعلُوا عليَّ وَأْتُوني مسلمين . قالتْ يا أَيُّها الملأُ أَفْتُوني في أَمْري ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تَشْهدون . قالوا نحن أُولو قوةٍ وأُولو بأسٍ شديد والأمرُ إليكِ فانظري ماذا تأمرين﴾ وتنتهي القصة بدخول بلقيس في الإسلام ، وتركها لعبادة الأوثان وتأتي مع جندها إلى سليمان طائعة خاضعة ﴿ وصدَّها ما كانتْ تعبد من دون الله إنها كانتْ من قوم كافرين . قيل لها ادخلي الصَّرْحَ فلما رأتْه حسبتْه لُجَّةً وكشفَتْ عن ساقَيْها ، قال إنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير ، قالت ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سليمان لله ربِّ العالمين﴾ وتنتقل السورة الكريمة لذكر قصَصَ بعض الأنبياء بإيجاز كقصة صالح وقصة لوط ثم تُعقِّب بذكر الدلائل والبراهين على وحدانية الله ووجوده من آثاره ومخلوقاته ﴿ قل الحمدُ للهِ وسلامٌ على عبادِهِ الذينَ اصْطفى ، آللهُ خيرٌ أَمَّا يُشْركون ؟ أَمَّنْ خلق السمواتِ والأرضَ وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائقَ ذاتَ بهجة ، ما كان لكم أن تُنْبِتُوا شجرها ؟ إِإلهٌ مع الله ؟ بل هم قومٌ يعدلون . أَمَّنْ جعل الأرضَ قراراً ، وجعل خِلاَلَها أنهاراً ، وجعل لها رواسيَ وجَعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أَمَّنْ يجيب المضطَّرَ إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإلهٌ مع الله ؟ قليلاً مَّا تَذَكَّرُون﴾ . وعرَضت السورة إلى ما يختص بجانب البعث وإنكار القوم له وسخريتهم به ، وذكَّرتهم بعاقبة أسلافهم المكذبين ﴿ وقال الذين كفروا إئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لَمُخْرَجون ؟ لقد وُعِدْنا هذا نحنُ وآباؤنا من قبلُ ، إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين . قل سيروا في الأرض

مكتبة المحتسب ... المدينة المنورة ١٤٣٠هـ وقف على المكتبة العامة

فانظروا كيف كان عاقبةُ المجرمين﴾ ثم تسوق السورة بعض الأهوال والمشاهد التي يراها الظالمون في ذلك اليوم الرهيب ، يوم الحشر الأكبر حيث يفزعون ويضطربون ، ويأتون ربهم داخرين ذليلين ﴿ويومَ يُنفخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ إلاّ مَنْ شاء اللهُ ، وكلٌّ أَتَوْه داخرين . وترى الجبالَ تَحْسَبُها جَامدةً وهي تَمرُّ مَرَّ السحابِ ، صُنْعَ اللهِ الذي أَتْقَنَ كلَّ شيءٍ ، إنه خبيرٌ بما تفعلون﴾ ثم تختم السورةُ الكريمة ببيان انقسام الناس إلى فريقين : فريقِ السعداء الآمنين من عذاب الله ، وفريق الأشقياء الذين يُكَبُّون على وجوههم في جهنم ، وتأمر الرسول ﷺ أن يُعلن عبوديته لله ، واستمساكَه بالإسلام ، وأنَّ من اهتدى فلنفسه ومَنْ ضلَّ فعليها ، وحسابُ الخلائق إلى الله تعالى ﴿من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها وهم من فَزَعٍ يومئذٍ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكُبَّتْ وجوههم في النار ، هل تُجزون إلا ما كنتم تعملون . إنما أُمرتُ أن أعبد ربَّ هذه البلدة الذي حرَّمها وله كلُّ شيء وأُمرتُ أن أكون من المسلمين . وأن أتلوَ القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضلَّ فقل إنما أنا من المنذرين . وقل الحمد لله سيريكم آياتِه فتعرفونها ، وما ربُّك بغافلٍ عما تعملون﴾

سورة النمل

تسعون وثلاث او اربع او خمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۞ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ ﴾

اعلم أن قوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ وإبانته أنه قد خط فيه كل ما هو كائن، فالملائكة الناظرون فيه يبينون الكائنات، وإنما نكر الكتاب المبين ليصير مبهمًا بالتنكير فيكون أفخم له كقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] وقرأ ابن أبي عبلة: (وَكِتَابٌ مُّبِينٌ) بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فإن قلت: ما الفرق بين هذا وبين قوله: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]؟ قلت: لا فرق؛ لأن واو العطف لا تقتضي الترتيب.

أما قوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو في محل النصب أو الرفع فالنصب على الحال أي هادية ومبشرة، والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة، والرفع على ثلاثة أوجه على معنى هي هدى وبشرى، وعلى البدل من الآيات، وعلى أن يكون خبرًا بعد خبر، أي جمعت آياتها آيات الكتاب وأنها هدى وبشرى، واختلفوا في وجه تخصيص الهدى بالمؤمنين على وجهين: الأول: المراد أنه يهديهم إلى الجنة وبشرى لهم كقوله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥] فلهذا اختص به المؤمنون. الثاني: المراد بالهدى الدلالة ثم ذكروا في تخصيصه بالمؤمنين وجوهًا: أحدها: أنه إنما خصه بالمؤمنين؛ لأنه ذَكَرَ مع الهدى البشرى، والبشرى إنما تكون للمؤمنين. وثانيها: أن وجه الاختصاص أنهم تمسكوا به فخصهم بالذكر كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]. وثالثها: المراد من كونها ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] أنها زائدة في هداهم، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

أما قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فالأقرب أنها الصلوات الخمس؛ لأن التعريف بالألف واللام يقتضي ذلك، وإقامة الصلاة أن يؤتى بها بشرائطها، وكذا القول في الزكاة فإنها هي الواجبة، وإقامتها وضعها في حقها.

أما قوله: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ففيه سؤال وهو: أن المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لا بد وأن يكونوا متيقنين بالآخرة، فما الوجه من ذكره مرة أخرى؟ جوابه من وجهين:

الأول: أن يكون من جملة صلة الموصول، ثم فيه وجهان: الأول: أن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته، والخبر لأجل العمل به، وأما عرفان الحق فأقسام كثيرة لكن الذي يستفاد منه طريق النجاة، معرفة المبدأ، ومعرفة المعاد، وأما الخير الذي يعمل به فأقسام كثيرة وأشرفها قسمان: الطاعة بالنفس والطاعة بالمال فقوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى معرفة المبدأ، وقوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إشارة إلى الطاعة بالنفس والمال، وقوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إشارة إلى علم المعاد فكأنه سبحانه وتعالى جعل معرفة المبدأ طرفًا أولاً، ومعرفة المعاد طرفًا أخيرًا وجعل الطاعة بالنفس والمال متوسطًا بينهما. الثاني: أن المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، منهم من هو جازم بالحشر والنشر، ومنهم من يكون شاكًا فيه إلا أنه يأتي بهذه الطاعات للاحتياط، فيقول: إن كنت مصيبًا فيها فقد فزت بالسعادة، وإن كنت مخطئًا فيها لم يفتني إلا خيرات قليلة في هذه المدة اليسيرة، فمن يأتي بالصلاة والزكاة على هذا الوجه لم يكن في الحقيقة مهتديًا بالقرآن، أما من كان حازمًا بالآخرة كان مهتديًا به، فلهذا السبب ذكر هذا القيد الثاني: أن يجعل قوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ جملة اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة، وهذا هو الأقرب ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذي هو (هُمْ) حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن ما للمؤمنين من البشرى أتبعه بما على الكفار من سوء العذاب فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، واختلف الناس في أنه كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته مع أنه أسنده إلى الشيطان في قوله: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[النحل: ٦٣]؟ فأما أصحابنا فقد أجروا الآية على ظاهرها وذلك؛ لأن الإنسان لا يفعل شيئًا ألبتة إلا إذا دعاه الداعي إلى الفعل والمعقول من الداعي هو العلم والاعتقاد والظن بكون الفعل مشتملاً على منفعة، وهذا الداعي لا بد وأن يكون من فعل الله تعالى لوجهين: الأول: أنه لو كان من فعل العبد لافتقر فيه إلى داع آخر ويلزم التسلسل وهو محال. الثاني: وهو أن العلم إما أن يكون ضروريًا أو كسبيًا، فإن كان ضروريًا فلا بد فيه من تصورين والتصور يمتنع أن يكون مكتسبًا؛ لأن المكتسب إن كان شاعرًا به فهو متصور له، وتحصيل الحاصل محال وإن لم يكن شاعرًا به كان غافلاً عنه والغافل عن الشيء يمتنع أن يكون طالبًا له، فإن قلت: هو مشعور به من وجه دون وجه، قلت: فالمشعور به غير ما هو غير مشعور به فيعود التقسيم المتقدم في كل واحد من هذين الوجهين، وإذا ثبت أن التصور غير مكتسب ألبتة والعلم الضروري هو الذي يكون حضور كل واحد من

تصوريه كافيًا في حصول التصديق، فالتصورات غير كسبية وهي مستلزمة للتصديقات، فإذن متى حصلت التصورات حصل التصديق لا محالة، ومتى لم تحصل لم يحصل التصديق ألبتة، فحصول هذه التصديقات البديهية ليس بالكسب، ثم إن التصديقات البديهية إن كانت مستلزمة للتصديقات النظرية لم تكن التصديقات النظرية كسبية؛ لأن لازم الضروري ضروري، وإن لم تكن مستلزمة لها لم تكن تلك الأشياء التي فرضناها علومًا نظرية كذلك بل هي اعتقادات تقليدية؛ لأنه لا معنى لاعتقاد المقلد إلا اعتقاد تحسيني يفعله ابتداء من غير أن يكون له موجب فثبت بهذا أن العلوم بأسرها ضرورية، وثبت أن مبادىء الأفعال هي العلوم فأفعال العباد بأسرها ضرورية، والإنسان مضطر في صورة مختار، فثبت أن الله تعالى هو الذي زين لكل عامل عمله. والمراد من التزيين هو أنه يخلق في قلبه العلم بما فيه من المنافع واللذات ولا يخلق في قلبه العلم بما فيه من المضار والآفات، فقد ثبت بهذه الدلائل القاطعة العقلية وجوب إجراء هذه الآية على ظاهرها، أما المعتزلة فإنهم ذكروا في تأويلها وجوهًا: أحدها: أن المراد بينا لهم أمر الدين وما يلزمهم أن يتمسكوا به وزيناه بأن بينا حسنه وما لهم فيه من الثواب؛ لأن التزيين من الله تعالى للعمل ليس إلا وصفه بأنه حسن وواجب وحميد العاقبة، وهو المراد من قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] ومعنى ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يدل على ذلك؛ لأن المراد فهم يعدلون وينحرفون عما زينا من أعمالهم. وثانيها: أنه تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق جعلوا إنعام الله تعالى بذلك عليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وعدم الانقياد لما يلزمهم من التكاليف، فكأنه تعالى زين بذلك أعمالهم وإليه إشارة الملائكة عليهم السلام في قولهم: ﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ [الفرقان: ١٨] وثالثها: أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فأسند إليه. والجواب: عن الأول أن قوله تعالى: ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ صيغة عموم توجب أن يكون الله تعالى قد زين لهم كل أعمالهم حسنًا كان العمل أو قبيحًا ومعنى التزيين قد قدمناه، وعن الثاني أن الله تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق فهل لهذه الأمور أثر في ترجيح فاعلية المعصية على تركها أوليس لها فيه أثر، فإن كان الأول فقد دللنا على أن الترجيح متى حصل فلا بد وأن ينتهي إلى حد الاستلزام وحينئذ يحصل الغرض وإن لم يكن فيه أثر صارت هذه الأشياء بالنسبة إلى أعمالهم كصرير الباب ونعيق الغراب، وذلك يمنع من إسناد فعلهم إليها وهذا بعينه هو الجواب عن التأويل الثالث الذي ذكروه، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ فالعمه التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق.

أما قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ففيه وجهان: الأول: أنه القتل والأسر يوم بدر. والثاني: مطلق العذاب سواء كان في الدنيا أو في الآخرة والمراد بالسوء شدته وعظمه.

وأما قوله: ﴿هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ **ففيه وجهان:**

الأول: أنه لا خسران أعظم من أن يخسر المرء نفسه بأن يسلب عنه الصحة والسلامة في الدنيا

ويسلم في الآخرة إلى العذاب العظيم .

الثاني: المراد أنهم خسروا منازلهم في الجنة لو أطاعوا، فإنه لا مكلف إلا وعين له منزل في الجنة لو أطاع فإذا عصى عدل به إلى غيره فيكون قد خسر ذلك المنزل .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

أما قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ فمعناه لتؤتاه (وَتُلَقَّاهُ) من عند أي حكيم وأي عليم، وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص، و(إِذْ) منصوب بمضمر وهو اذكر كأنه قال على أثر ذلك: خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى، ويجوز أن ينتصب بعليم فإن قيل: الحكمة أما أن تكون نفس العلم، والعلم إما أن يكون داخلاً فيها، فلما ذكر الحكمة فلم ذكر العلم؟ جوابه: الحكمة هي العلم بالأمور العملية فقط والعلم أعم منه؛ لأن العلم قد يكون عمليًا وقد يكون نظريًا والعلوم النظرية أشرف من العلوم العملية، فذكر الحكمة المشتملة على العلوم العملية، ثم ذكر العليم وهو البالغ في كمال العلم وكمال العلم يحصل من جهات ثلاثة وحدته وعموم تعلقه بكل المعلومات وبقاؤه مصونًا عن كل التغيرات، وما حصلت هذه الكمالات الثلاثة إلا في علمه سبحانه وتعالى .

واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه السورة أنواعًا من القصص .

القصة الأولى قصة موسى عليه السلام

أما قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ فيدل على أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته ابنة شعيب عليه السلام، وقد كنى الله تعالى عنها بالأهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله ﴿ٱمْكُثُوٓا۟﴾ [القصص: ٢٩].

أما قوله: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ فالمعنى أنهما كانا يسيران ليلاً، وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفي مثل هذا الحال تقوى النفس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة في أمر الطريق، ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء فلذلك بشرها فقال: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ وقد اختلفوا فقال بعضهم: المراد أبصرت ورأيت، وقال آخرون: بل المراد صادفت ووجدت فآنست به، والأول أقرب؛ لأنهم لا يفرقون بين قول القائل آنست ببصري ورأيت ببصري .

أما قوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فالخبر ما يخبر به عن حال الطريق؛ لأنه كان قد ضل، ثم في الكلام حذف وهو أنه لما أبصر النار توجه إليها وقال: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ يعرف به الطريق .

أما قوله: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ فالشهاب الشعلة والقبس النار المقبوسة. وأضاف الشهاب إلى القبس؛ لأنه يكون قبسًا وغير قبس ومن قرأ بالتنوين جعل القبس بدلاً أو صفة لما فيه من معنى القبس ثم هاهنا أسئلة:

السؤال الأول: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ و ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩] كالمتدافعين لأن أحدهما ترجٍّ والآخر تيقن؟ نقول: جوابه: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

السؤال الثاني: كيف جاء بسين التسويف؟ جوابه: عِدَة منه لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة.

السؤال الثالث: لماذا أدخل (أو) بين الأمرين وهلا جمع بينهما لحاجته إليهما معًا؟ جوابه: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بهذين المقصودين ظفر بأحدهما، إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار ثقة بعادة الله تعالى؛ لأنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده.

وأما قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ فالمعنى لكي تصطلون وذلك يدل على حاجة بهم إلى الاصطلاء وحينئذ لا يكون ذلك إلا في حال برد.

أما قوله تعالى: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ **ففيه أبحاث:**

البحث الأول: (أن) هي المفسرة؛ لأن النداء فيه معنى القول، والمعنى قيل له: بورك.

البحث الثاني: اختلفوا فيمن في النار على وجوه: أحدها: ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ بمعنى تبارك والنار بمعنى النور والمعنى تبارك من في النور، وذلك هو الله سبحانه ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني الملائكة وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وإن كنا نقطع بأن هذه الرواية موضوعة مختلفة وثانيها: ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ هو نور الله، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الملائكة، وهو مروي عن قتادة والزجاج. وثالثها: أن الله تعالى ناداه بكلام سمعه من الشجرة في البقعة المباركة فكانت الشجرة محلاً للكلام، والله هو المكلم له بأن فعله فيه دون الشجرة. ثم إن الشجرة كانت في النار ومن حولها ملائكة فلذلك قال: ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وهو قول الجبائي. ورابعها: ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ هو موسى عليه السلام لقربه منها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني الملائكة، وهذا أقرب؛ لأن القريب من الشيء قد يقال: إنه فيه. وخامسها: قول صاحب (الكشاف): ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ أي من في مكان النار ومن حول مكانها هي البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠] ويدل عليه قراءة أُبيّ (تَبَارَكَتِ الأَرْضُ وَمَنْ حَوْلَهَا) وعنه أيضًا (بُورِكَتِ النَّارُ).

البحث الثالث: السبب الذي لأجله بوركت البقعة، وبورك من فيها وحواليها حدوث هذا الأمر العظيم فيها وهو تكليم الله موسى عليه السلام وجعله رسولاً وإظهار المعجزات عليه ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة بالبركات في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا

﴿لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] وحقت أن تكون كذلك فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم، ومهبط الوحي وكفاتهم أحياء وأمواتًا.

البحث الرابع: أنه سبحانه جعل هذا القول مقدمة لمناجاة موسى عليه السلام فقوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ يدل على أنه قد قضى أمر عظيم تنتشر البركة منه في أرض الشام كلها. وقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيه فائدتان: **إحداهما:** أنه سبحانه نزَّه نفسه عما لا يليق به في ذاته وحكمته؛ ليكون ذلك مقدمة في صحة رسالة موسى عليه السلام. **الثانية:** أن يكون ذلك إيذانًا بأن ذلك الأمر مريده ومكونه رب العالمين تنبيهًا على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الوقائع.

اما قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فقال صاحب (الكشاف) الهاء في (إِنَّهُ) يجوز أن يكون ضمير الشأن و﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صفتان للخبر، وأن يكون راجعًا إلى ما دل عليه ما قبله يعني أن مكلمك ﴿أَنَا﴾ والله بيان لأنا والعزيز الحكيم صفتان (لِلتَّعْيِينِ) وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية، الفاعل (كل) ما أفعله بحكمة وتدبير. فإن قيل: هذا النداء يجوز أن يكون من عند غير الله تعالى، فكيف علم موسى عليه السلام أنه من الله؟ جوابه: لأهل السنة فيه طريقان: الأول: أنه سمع الكلام المنزه عن مشابهة الحروف والأصوات فعلم بالضرورة أنه صفة الله تعالى. الثاني: قول أئمة ما وراء النهر وهو أنه عليه السلام سمع الصوت من الشجرة فنقول: إنما عرف أن ذلك من الله تعالى لأمور: أحدها: أن النداء إذا حصل في النار أو الشجرة علم أنه من قبل الله تعالى؛ لأن أحدًا منا لا يقدر عليه وهو ضعيف لاحتمال أن يقال: الشيطان دخل في النار والشجرة ثم نادى. وثانيها: يجوز في نفس النداء أن يكون قد بلغ في العظم مبلغًا لا يكون إلا معجزًا، وهو أيضًا ضعيف؛ لأنا لا نعرف مقادير قوى الملائكة والشياطين فلا قدر إلا ويجوز صدوره منهم. وثالثها: أنه قد اقترن به معجز دل على ذلك، فقيل: إن النار كانت مشتعلة في شجرة خضراء لم تحترق فصار ذلك كالمعجز، وهذا هو الأصح، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١١ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤﴾

اعلم أن أكثر ما في هذا الآيات قد مر شرحه، ولنذكر ما هو من خواص هذا الموضع: يقال علام عطف قوله: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾؟ جوابه: على ﴿بُورِكَ﴾ [النمل: ٨]؛ لأن المعنى: نودي أن بورك

من في النار وأن ألق عصاك، كلاهما تفسير لنودي.

أما قوله: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ فالجان الحية الصغيرة، سميت جانًا؛ لأنها تستتر عن الناس، وقرأ الحسن (جأن) على لغة من يهرب من التقاء الساكنين، فيقول: شأبة ودأبة.

أما قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ معناه لم يرجع، يقال: عقب المقاتل إذا (مَرَّ) بعد الفرار، وإنما خاف لظنه أن ذلك لأمر أريد به، ويدل عليه ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وقال بعضهم: المراد إني إذا أمرتهم بإظهار معجز فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلق بإظهار ذلك وإلا فالمرسل قد يخاف لا محالة.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ معناه لكن من ظلم وهو محمول على ما يصدر من الأنبياء من ترك الأفضل أو الصغيرة، ويحتمل أن يكون المقصود منه التعريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات اللطيفة. قال الحسن رحمه الله: كان والله موسى ممن ظلم بقتل القبطي ثم بدل، فإنه عليه السلام قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] وقرئ (أَلاَ مَنْ ظَلَمَ) بحرف التنبيه.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فالمراد حسن التوبة وسوء الذنب، وعن أبي بكر في رواية عاصم (حَسَنًا). أما قوله: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ فهو كلام مستأنف، وحرف الجر فيه يتعلق بمحذوف، والمعنى اذهب في تسع آيات إلى فرعون، ولقائل أن يقول: كانت الآيات إحدى عشرة، اثنتان منها اليد والعصا، والتسع: الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم.

أما قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ فقد جعل الإبصار لها، وهو في الحقيقة لمتأملها، وذلك بسبب نظرهم وتفكرهم فيها، أو جعلت كأنها لظهورها تبصر فتهتدي. وقرأ علي بن الحسين وقتادة (مَبْصرة) وهو نحو مجبنة ومبخلة، أي: مكانًا يكثر فيه التبصر.

أما قوله: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ فالواو فيها واو الحال، وقد بعدها مضمرة وفائدة ذكر الأنفس أنهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم، والاستيقان أبلغ من الإيقان.

أما قوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ فأي ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات بينة من عند الله تعالى، ثم كابر بتسميتها سحرًا بينًا. وأما العلو فهو التكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى كقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦] وقرئ (عُلِيًّا) و(عِلِيًّا) بالضم والكسر، كما قرئ ﴿عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨، ٦٩]، والله أعلم.

القصة الثانية قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ

وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ
ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا
مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ
أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

أما قوله تعالى: ﴿عِلْمًا﴾ فالمراد طائفة من العلم أو علمًا سنيًّا (عزيزًا)، فإن قيل: أليس هذا موضع الفاء دون الواو، كقولك: أعطيته فشكر (ومنعته فصبر)؟ جوابه: أن الشكر باللسان إنما يحسن موقعه إذا كان مسبوقًا بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية، وبعمل الجوارح وهو الاشتغال بالطاعات، ولما كان الشكر باللسان يجب كونه مسبوقًا بهما فلا جرم صار كأنه قال: ولقد آتيناهما علمًا، فعملا به قلبًا وقالبًا، وقالا باللسان: الحمد لله الذي فعل كذا وكذا.

وأما قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ **ففيها أبحاث:**

أحدها: أن الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علمًا أو من لم يؤت مِثل علمهما، وفيه أنهما فُضّلا على كثير وفُضِّل عليهما كثير. وثانيها: في الآية دليل على علو مرتبة العلم؛ لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم. وثالثها: أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع. ورابعها: أن الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم، ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على هذا العلم، ثم إن هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سببًا لفضيلتهم على المؤمنين فإذن الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جليًّا بحيث يصير المرء مستغرقًا فيه بحيث لا يخطر بباله شيء من الشبهات ولا يغفل القلب عنه في حين من الأحيان ولا ساعة من الساعات.

أما قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ فقد اختلفوا فيه، فقال الحسن: المال؛ لأن النبوة عطية مبتدأة ولا تورث، وقال غيره: بل النبوة، وقال آخرون: بل الملك والسياسة، ولو تأمل الحسن لعلم أن المال إذا ورثه الولد فهو أيضًا عطية مبتدأة من الله تعالى، ولذلك يرث الولد إذا كان مؤمنًا ولا يرث إذا كان كافرًا أو قاتلًا، لكن الله تعالى جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت على شرائط، وليس كذلك النبوة؛ لأن الموت لا يكون سببًا لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته ومما يبين ما قلناه أنه تعالى لو فصَّل فقال: وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله:

﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ معنى، وإذا قلنا: وورث مقامه من النبوة والملك حسن ذلك؛ لأن تعليم منطق الطير يكون داخلاً في جملة ما ورثه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ لأن وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ لا يليق أيضًا إلا بما ذكرنا دون المال الذي قد يحصل للكامل والناقص، وما ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده لا يليق إلا بما ذكرناه، فبطل بما ذكرنا قول من زعم أنه لم يرث إلا المال، فأما إذا قيل: ورث المال والملك معًا فهذا لا يبطل بالوجوه التي ذكرناها، بل بظاهر قوله عليه السلام: «نَحْنُ معاشر الأنبياء لا نورث»[(١)].

فأما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فالمقصود منه تشهير نعمة الله تعالى والتنويه بها ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، قال صاحب (الكشاف): المنطق كل ما يصوّت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد، وقد ترجم يعقوب كتابه «بِإِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ» وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم، وقالت العرب: نطقت الحمامة (وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته) فالذي علِّم سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من مقاصده وأغراضه.

أما قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ فالمراد كثرة ما أوتي وذلك؛ لأن الكل والبعض الكثير يشتركان في صفة الكثرة، والمشاركة سبب لجواز الاستعارة فلا جرم يطلق لفظ الكل على الكثير ومثله قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣].

أما قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ فهو تقرير لقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ والمقصود منه الشكر والمحمدة كما قال عليه السلام: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ» فإن قيل: كيف قال: ﴿عُلِّمْنَا﴾، ﴿وَأُوتِينَا﴾ وهو من كلام المتكبرين؟ جوابه من وجهين: الأول: أن يريد نفسه وأباه. والثاني: أن هذه النون يقال لها: نون الواحد المطاع وكان ملكًا مطاعًا، وقد يتعلق بتعظيم الملك مصالح فيصير ذلك التعظيم واجبًا.

وأما قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ فالحشر هو الإحضار والجمع من الأماكن المختلفة، والمعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده ولا يكون كذلك إلا بأن يتصرف على مراده، ولا يكون كذلك إلا مع العقل الذي يصح معه التكليف، أو يكون بمنزلة المراهق الذي قد قارب حد التكليف فلذلك قلنا: إن الله تعالى جعل الطير في أيامه مما له عقل، وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وإن كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصت بالحاجة إليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة)، باب: (مناقب قرابة رسول الله ﷺ) (٧/ ٩٧)، حديث رقم (٣٧١١/ ٣٧١٢) من طريق شعيب... به، ومسلم في كتاب (الجهاد والسير)، باب: (قوله ﷺ: لا نورث ما تركناه فهو صدقة) (٣/ ٥٢/ ١٣٨٠) من طريق عقيل... به. كلاهما (شعيب، عقيل) عن الزهري... به.

وأما قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ معناه: يحبسون وهذا لا يكون إلا إذا كان في كل قبيل منها وازع، ويكون له تسلط على من يرده ويكفه ويصرفه، فالظاهر يشهد بهذا القدر والذي جاء في الخبر من أنهم كانوا يمنعون من يتقدم ليكون مسيره مع جنوده على ترتيب فغير ممتنع.

أما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ فقيل هو واد بالشام كثير النمل، ويقال: لم عدى ﴿أَتَوۡاْ﴾ بعلى؟ فجوابه من وجهين: الأول: أن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء. والثاني: أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم: أتى على الشيء إذا (أنفذه و) بلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي، وقرئ (نَمُلة يا أيها النُّمُل) بضم الميم وبضم النون والميم وكان الأصل النمل بوزن الرجل والنمل الذي عليه الاستعمال تخفيف عنه (كقولهم السبع في السبع).

أما قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ فالمعنى أنها تكلمت بذلك وهذا غير مستبعد، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق فيها العقل والنطق. وعن قتادة: أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال: سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضرًا وهو غلام حدث فقال: سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرًا أم أنثى؟ فسألوه فأُفْحِم، فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: كانت أنثى فقيل له: من أين عرفت؟ فقال: من كتاب الله تعالى وهو قوله: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ ولو كان ذكرًا لقال: (قَالَ نَمْلَةٌ)، وذلك لأن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم: حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي.

أما قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ فاعلم أن النملة لما قاربت حد العقل، لا جرم ذكرت بما يذكر به العقلاء فلذلك قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ فإن قلت: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ ما هو؟ قلت: يحتمل أن يكون جوابًا للأمر وأن يكون نهيًا بدلاً من الأمر، والمعنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمنكم على طريقة: لا أرينك هاهنا. وفي هذه الآية تنبيه على أمور: أحدها: أن من يسير في الطريق لا يلزمه التحرز، وإنما يلزم من في الطريق التحرز. وثانيها: أن النملة قالت: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ كأنها عرفت أن النبي معصوم فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات إلا على سبيل السهو، وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الأنبياء عليهم السلام. وثالثها: ما رأيت في بعض الكتب أن تلك النملة إنما أمرت غيرها بالدخول؛ لأنها خافت على قومها أنها إذا رأت سليمان في جلالته، فربما وقعت في كفران نعمة الله تعالى وهذا هو المراد بقوله: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾ فأمرتها بالدخول في مساكنها؛ لئلا ترى تلك النعم فلا تقع في كفران نعمة الله تعالى، وهذا تنبيه على أن مجالسة أرباب الدنيا محذورة. ورابعها: قرئ (مَسْكَنَكُمْ) و(لاَ يَحْطِمَنْكُمْ) بتخفيف النون، وقرئ (لاَ يَحْطَمَنَّكُمْ) بفتح الطاء وكسرها وأصلها يحطمنكم.

أما قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ يعني تبسم شارعًا في الضحك (وآخذًا فيه)، يعني أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك، وإنما ضحك لأمرين: أحدهما: إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده (وشفقتهم) وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى، وذلك

قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. والثاني: سروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحدًا من سماعه لكلام النملة وإحاطته بمعناه.

أما قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ فقال صاحب (الكشاف): حقيقة أوزعني: اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وأكفه عن أن ينقلب عني، حتى أكون شاكرًا لك أبدًا، وهذا يدل على مذهبنا فإن عند المعتزلة كل ما أمكن فعله من الألطاف فقد صارت مفعولة وطلب تحصيل الحاصل عبث.

وأما قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فذلك لأنه عد نعم الله تعالى على والديه نعمة عليه. ومعنى قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ طلب الإعانة في الشكر وفي العمل الصالح، ثم قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فلما طلب في الدنيا الإعانة على الخيرات طلب أن يُجعل في الآخرة من الصالحين، وقوله: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ يدل على أن دخول الجنة برحمته وفضله لا باستحقاق من جانب العبد واعلم أن سليمان عليه السلام طلب ما يكون وسيلة إلى ثواب الآخرة أولاً ثم طلب ثواب الآخرة ثانيًا، أما وسيلة الثواب فهي أمران: أحدهما: شكر النعمة السالفة. والثاني: الاشتغال بسائر أنواع الخدمة، أما الاشتغال بشكر النعمة السالفة، فهي قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ ولما كان الإنعام على الآباء إنعامًا على الأبناء؛ لأن انتساب الابن إلى أب شريف نعمة من الله تعالى على الابن، لا جرم اشتغل بشكر نعم الله على الآباء بقوله: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ وأما الاشتغال بسائر أنواع الخدمة، فقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ وأما طلب ثواب الآخرة فقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فإن قيل: درجات الأنبياء أعظم من درجات الأولياء والصالحين، فما السبب في أن الأنبياء يطلبون جعلهم من الصالحين فقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وقال سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؟ جوابه: الصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ
٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ
ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ ٢٤﴾

اعلم أن سليمان عليه السلام لما تفقد الطير أوهم ذلك أنه إنما تفقده لأمر يختص به ذلك الطير، واختلفوا فيما لأجله تفقده على وجوه: أحدها: قول وهب: أنه أخل بالنوبة التي كان

ينوبها فلذلك تفقده. وثانيها: أنه تفقده؛ لأن مقاييس الماء كانت إليه، وكان يعرف الفصل بين قريبه وبعيده، فلحاجة سليمان إلى ذلك طلبه وتفقده. وثالثها: أنه كان يظله من الشمس، فلما فقد ذلك تفقده.

أما قوله: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ فأم هي المنقطعة نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال: ما لي لا أراه، على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له، ومثله قولهم: إنها لإبل أم شاء.

أما قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ فهذا لا يجوز أن يقوله إلا فيمن هو مكلف أو فيمن قارب العقل فيصلح لأن يؤدب، ثم اختلفوا في قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ فقال ابن عباس: إنه نتف الريش والإلقاء في الشمس، وقيل: أن يطلى بالقطران ويشمس، وقيل: أن يلقى للنمل فتأكله، وقيل: إيداعه القفص، وقيل: التفريق بينه وبين إلفه، وقيل: لألزمنه صحبة الأضداد، وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد، وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه.

أما قوله: ﴿فَمَكَثَ﴾ فقد قرئ بفتح الكاف وضمها، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (غير زمان بَعِيدٍ) كقولك: عن قريب، ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفًا من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخرًا له.

أما قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ففيه تنبيه لسليمان على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علمًا بما لم يحط به، فيكون ذلك لطفًا في ترك الإعجاب والإحاطة بالشيء علمًا أن يعلم من جميع جهاته.

أما قوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فاعلم أن سبأ قرئ بالصرف ومنعه، وقد روي بسكون الباء، وعن ابن كثير في رواية سبا بالألف كقولهم: ذهبوا أيدي سبا وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فمن جعله اسمًا للقبيلة لم يصرف، ومن جعله اسمًا للحي أو للأب الأكبر صرف، ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، والنبأ الخبر الذي له شأن.

وقوله: ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ وشرط حسنه صحة المعنى، ولقد جاء هاهنا زائدًا على الصحة فحسن لفظًا ومعنى، ألا ترى أنه لو وضع مكان (بِنَبَإٍ) بخبر لكان المعنى صحيحًا، ولكن لفظ النبأ أولى لما فيه من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

أما قوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ فالمرأة بلقيس بنت شراحيل، وكان أبوها ملك أرض اليمن وكانت هي وقومها مجوسًا يعبدون الشمس، والضمير في تملكهم راجع إلى سبأ، فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر، وإن أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها.

وأما قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ ففيه سؤال وهو أنه كيف قال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مع

قول سليمان ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦] فكأن الهدهد سوى بينهما؟ جوابه: أن قول سليمان عليه السلام يرجع إلى ما أوتي من النبوة والحكمة، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا، وأما قول الهدهد فلم يكن إلا إلى ما يتعلق بالدنيا.

وأما قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ففيه سؤال، وهو أنه كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان؟ وأيضًا فكيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الله تعالى في الوصف بالعظيم؟ والجواب عن الأول: يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش، ويجوز أن لا يكون لسليمان مع جلالته مثله كما قد يتفق لبعض الأمراء شيء لا يكون مثله عند السلطان. وعن الثاني: أن وصف عرشها بالعظم تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. **واعلم أن هاهنا بحثين:**

البحث الأول: أن الملاحدة طعنت في هذه القصة من وجوه: أحدها: أن هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدهد تكلما بكلام لا يصدر ذلك الكلام إلا من العقلاء وذلك يجر إلى السفسطة، فإنا لو جوزنا ذلك لما أمنا في النملة التي نشاهدها في زماننا هذا، أن تكون أعلم بالهندسة من إقليدس، وبالنحو من سيبويه، وكذا القول في القملة والصئبان، ويجوز أن يكون فيهم الأنبياء والتكاليف والمعجزات، ومعلوم أن من جوز ذلك كان إلى الجنون أقرب. وثانيها: أن سليمان عليه السلام كان بالشام فكيف طار الهدهد في تلك اللحظة اللطيفة من الشام إلى اليمن ثم رجع إليه؟ وثالثها: كيف خفي على سليمان عليه السلام حال مثل تلك الملكة العظيمة مع ما يقال: إن الجن والإنس كانوا في طاعة سليمان، وإنه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت راية بلقيس على ما يقال اثنا عشر ألف ملك تحت راية كل واحد منهم مائة ألف، ومع أنه يقال: إنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد إلا مسيرة ثلاثة أيام. ورابعها: من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟ والجواب عن الأول: أن ذلك الاحتمال قائم في أول العقل، وإنما يدفع ذلك بالإجماع. وعن البواقي أن الإيمان بافتقار العالم إلى القادر المختار يزيل هذه الشكوك.

البحث الثاني: قالت المعتزلة قوله: ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يدل على أن فِعْل العبد من جهته لأنه تعالى أضاف ذلك إلى الشيطان بعد إضافته إليهم ولأنه أورده مورد الذم ولأنه بيَّن أنهم لا يهتدون. والجواب من وجوه: أحدها: أن هذا قول الهدهد فلا يكون حجة. وثانيها: أنه متروك الظاهر، فإنه قال: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ وعندهم الشيطان ما صد الكافر عن السبيل إذ لو كان مصدودًا ممنوعًا لسقط عنه التكليف، فلم يبق هاهنا إلا التمسك بفصل المدح والذم، والجواب قد تقدم عنه مرارًا فلا فائدة في الإعادة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ قراءات: أحدها: قراءة من قرأ بالتخفيف (أَلاَ) للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف، كما حذفه من قال:

ألاَ يَا أسلمي يا دارَ ميّ عَلَى البِلَى (وَلاَ زَالَ مُنهَلاً بِجَرْعَائِكِ القَطْرُ)[1]

وثانيها: بالتشديد أراد فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا، فحذف الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة، ويكون المعنى فهم لا يهتدون (إلاّ) أن يسجدوا. وثالثها: وهي حرف عبد الله و(هي) قراءة الأعمش هلا بقلب الهمزة هاء، وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب ورابعها: قراءة أُبيّ (ألا يسجدون لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم سركم وما تعلنون).

المسألة الثانية: قال أهل التحقيق: قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ يجب أن يكون بمعنى الأمر؛ لأنه لو كان بمعنى المنع من السجدة لم يكن لوصفه تعالى بما يوجب أن يكون السجود له وهو كونه قادرًا على إخراج الخبء عالمًا بالأسرار معنى.

المسألة الثالثة: الآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم، أما القدرة فقوله: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وسمي المخبوء بالمصدر، وهو يتناول جميع أنواع الأوراق والأموال وإخراجه من السماء بالغيث، ومن الأرض بالنبات. وأما العلم فقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتحرير الدلالة هكذا: الإله يجب أن يكون قادرًا على إخراج الخبء وعالمًا بالخفيات، والشمس ليست كذلك فهي لا تكون إلهًا وإذا لم تكن إلهًا لم يجز السجود لها، أما أنه سبحانه وتعالى يجب أن يكون قادرًا عالمًا على الوجه المذكور، فلما أنه واجب لذاته فلا تختص قادريته وعالميته ببعض المقدورات والمعلومات دون البعض، وأما أن الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناه، وكل ما كان متناهيًا في الذات كان متناهيًا في الصفات، وإذا كان كذلك فحينئذ لا يعلم كونها قادرة على إخراج

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل لأبي نواس وقد تقدمت ترجمته.

الخبء عالمة بالخفيات، فإذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار، فرجع حاصل الدلالة إلى ما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] وفي قوله: ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وجه آخر وهو أن هذا إشارة إلى ما استدل به إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وفي قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وذلك لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الشمس من المشرق بعد أفولها في المغرب فهذا هو إخراج الخبء في السموات وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ومن قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ومن قوله موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] وحاصله يرجع إلى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر فكانت العبادة لقاهرها والمتصرف فيها أولى، وأما إخراج الخبء من الأرض فهو يتناول إخراج النطفة من الصلب والترائب وتكوين الجنين منه، فإن قيل: إن إبراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلالة الأنفس على دلالة الآفاق فإن إبراهيم قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ثم قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وموسى عليه السلام قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] ثم قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] فلم كان الأمر هاهنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء الأرض؟ جوابه: أن إبراهيم وموسى عليهما السلام ناظرا مع من ادعى إلهية البشر، فلا جرم ابتدأ بإبطال إلهية البشر ثم انتقلا إلى إبطال إلهية السموات، وهاهنا المناظرة مع من ادعى إلهية الشمس لقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤] فلا جرم ابتدأ بذكر السماويات ثم بالأرضيات.

أما قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فالمراد منه أنه سبحانه لما بيَّن افتقار السموات والأرض وما بينهما إلى المدبر ذكر بعد ذلك أن ما هو أعظم الأجسام فهي مخلوقة ومربوبة وذلك يدل على أنه سبحانه هو المنتهى في القدرة والربوبية إلى ما لا يزيد عليه، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قيل: من ﴿أَحَطتُ﴾ إلى ﴿الْعَظِيمِ﴾ كلام الهدهد وقيل: كلام رب العزة.

المسألة الخامسة: الحق أن سجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعًا وهو قول الشافعي وأبي حنيفة رحمة الله عليهما؛ لأنهم أجمعوا على أن سجدات القرآن أربع عشرة سجدة، وهذا واحد منها ولأن مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك فثبت أن الذي ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد غير ملتفت إليه.

المسألة السادسة: يقال هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ جوابه: نعم، إذا خفف وقف على

﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤] ثم ابتدأ بـ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ وإن شاء وقف على (ألا يا) ثم ابتدأ ﴿اسْجُدُوا﴾ وإذا شدد لم يقف إلا على ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

أما قوله: ﴿سَنَنظُرُ﴾ فمن النظر الذي هو التأمل، وأراد صدقت أم كذبت إلا أن ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أبلغ؛ لأنه إذا كان معروفًا بالكذب كان متهمًا بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به، وإنما قال: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ على لفظ الجمع؛ لأنه قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ [النمل: ٢٤] فقال: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى الذين هذا دينهم.

أما قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه؛ ليكون ما يقولونه بمسمع منك و﴿يَرْجِعُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣٠] ويقال: دخل عليها من كوة وألقى إليها الكتاب وتوارى في الكوة.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ بمعنى أن يقال: إن الهدهد ألقى إليها الكتاب فهو محذوف كأنه ثابت، روي أنها كانت إذا رقدت غلّقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية، وقيل: نقرها فانتبهت فزعة.

أما قوله: ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ففيه ثلاثة أوجه: أحدها: حسن مضمونه وما فيه. وثانيها: وصفته بالكريم؛ لأنه من عند ملك كريم. وثالثها: أن الكتاب كان مختومًا وقال عليه السلام: **«كَرَمُ الْكِتَابِ خَتْمُهُ»** (١) وكان عليه السلام **«يَكْتُبُ إِلَى الْعَجَمِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لاَ يَقْبَلُونَ إِلاَّ كِتَابًا عَلَيْهِ خَاتَمٌ فَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ خَاتَمًا»** (٢).

أما قوله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ **ففيه أبحاث:**

البحث الأول: أنه استئناف وتبيين لما ألقى إليها كأنها لما قالت: إني ألقي إليَّ كتاب كريم قيل

---

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٤/ ١٦٢)، حديث رقم (٣٨٧٢)، والقضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٥٨)، حديث رقم (٣٩)، كلاهما من طريق محمد بن مروان السدى عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس... به، والثعلبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٤٨١) من طريق جبعويه بن محمد قال: حدثنا صالح بن محمد بن محمد بن مروان عن ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ١٨٦)، وقال: رواه الطبراني في (الأوسط) وفيه محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٦/ ١٥١/ ٥٦٠٢)، والترمذي في (سننه) (٥/ ٦٩)، حديث رقم (٢٧١٨)، كلاهما من طريق قتادة عن أنس... بنحوه.

لها: ممن هو وما هو؟ فقالت: إنه من سليمان وإنه كيت وكيت، وقرأ عبد الله ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ عطفًا على ﴿إِنِّي﴾ وقرئ (أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَأَنَّهُ) بالفتح وفيه وجهان: أحدهما: أنه بدل من كتاب كأنه قيل: ألقي إليَّ أنه من سليمان. وثانيهما: أن يريد أن من سليمان ولأنه بسم الله كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله وقرأ أُبيّ (إنْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإنْ بِسْمِ اللَّه) على أن المفسرة، وأن في (ألا تَعْلُوا) مفسرة أيضًا ومعنى لا تعلوا لا تتكبروا كما تفعل الملوك، وقرأ ابن عباس بالغين معجمة من الغلو وهي مجاوزة الحد.

البحث الثاني: يقال: لِمَ قدم سليمان اسمه على قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ؟ جوابه: حاشاه من ذلك بل ابتدأ هو ببسم الله الرحمن الرحيم، وإنما ذكرت بلقيس أن هذا الكتاب من سليمان ثم حكت ما في الكتاب والله تعالى حكى ذلك فالتقديم واقع في الحكاية.

البحث الثالث: أن الأنبياء عليهم السلام لا يطيلون بل يقتصرون على المقصود، وهذا الكتاب مشتمل على تمام المقصود، وذلك لأن المطلوب من الخلق، إما العلم أو العمل والعلم مقدم على العمل فقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مشتمل على إثبات الصانع سبحانه وتعالى وإثبات كونه عالمًا قادرًا حيًّا مريدًا حكيمًا رحيمًا.

وأما قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ﴾ فهو نهي عن الانقياد لطاعة النفس والهوى والتكبر.

وأما قوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فالمراد من المسلم إما المنقاد أو المؤمن، فثبت أن هذا الكتاب على وجازته يحوي كل ما لا بد منه في الدين والدنيا، فإن قيل: النهي عن الاستعلاء والأمر بالانقياد قبل إقامة الدلالة على كونه رسولاً حقًّا يدل على الاكتفاء بالتقليد. جوابه: معاذ الله أن يكون هناك تقليد وذلك لأن رسول سليمان إلى بلقيس كان الهدهد ورسالة الهدهد معجز، والمعجز يدل على وجود الصانع وعلى صفاته ويدل على صدق المدعي فلما كانت تلك الرسالة دلالة تامة على التوحيد والنبوة لا جرم لم يذكر في الكتاب دليلاً آخر.

أما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي﴾ فالفتوى هي الجواب في الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتي في السن أي أجيبوني في الأمر الفتي، وقصدت بالانقطاع إليهم واستطلاع رأيهم تطييب قلوبهم ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي لا أبت أمرًا إلا بمحضركم.

أما قوله: ﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ﴾ فالمراد قوة الأجسام وقوة الآلات (والعدد) والمراد بالبأس النجدة (والثبات) في الحرب، وحاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين: أحدهما: إظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر أنها إن أرادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد، والآخر: قولهم: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ وفي ذلك إظهار الطاعة لها إن أرادت السلم، ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

اعلم أنها لما عرضت الواقعة على أكابر قومها وقالوا ما تقدم أظهرت رأيها، وهو أن الملوك إذا دخلوا قرية بالقهر أفسدوها، أي خربوها وأذلوا أعزتها، فذكرت لهم عاقبة الحرب.

وأما قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فقد اختلفوا أهو من كلامها أو من كلام الله تعالى كالتصويب لها والأقرب أنه من كلامها، وأنها ذكرته تأكيدًا لما وصفته من حال الملوك. فأما الكلام في صفة الهدية فالناس أكثروا فيها لكن لا ذكر لها في الكتاب وقولها: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فيه دلالة على أنها لم تثق بالقبول وجوزت الرد، وأرادت بذلك أن ينكشف لها غرض سليمان، ولما وصلت الهدايا إلى سليمان عليه السلام ذُكِرَ أمرين: الأول: قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ فأظهر بهذا الكلام قلة الاكتراث بذلك المال.

اما قوله: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ففيه ثلاثة أوجه: أحدها: أن الهدية اسم للمهدي، كما أن العطية اسم للمعطي، فتضاف إلى المهدي وإلى المهدى إليه، والمضاف إليه هاهنا هو المهدى إليه، والمعنى أن الله تعالى آتاني الدين الذي هو السعادة القصوى، وآتاني من الدنيا ما لا مزيد عليه، فكيف يستمال مثلي بمثل هذه الهدية؟! بل أنتم تفرحون بما يهدى إليكم، لكن حالي خلاف حالكم. وثانيها: بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون من حيث إنكم قدرتم على إهداء مثلها. وثالثها: كأنه قال: بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها.

الثاني: قوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ فقيل: ارجع خطاب للرسول، وقيل: للهدهد محملاً كتابًا آخر.

أما قوله تعالى: ﴿لَّا قِبَلَ﴾ أي لا طاقة، وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة، أي لا يقدرون أن يقابلوهم. وقرأ ابن مسعود: (لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهِمْ)، والضمير في (مِنْهَا) لسبأ، والذل أن يذهب عنهم ما كان عندهم من العز والملك، والصغار أن يقعوا في أسر واستعباد، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكًا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا

عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

اعلم أن في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ دلالة على أنها عزمت على اللحوق بسليمان، ودلالة على أن أمر ذلك العرش كان مشهورًا، فأحب أن يحصل عنده قبل حضورها، واختلفوا في غرض سليمان عليه السلام من إحضار ذلك العرض على وجوه: أحدها: أن المراد أن يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى وعلى نبوة سليمان عليه السلام، حتى تنضم هذه الدلالة إلى سائر الدلائل التي سلفت. وثانيها: أراد أن يُؤتى بذلك العرش فيغيِّر وينكر، ثم يُعْرض عليها حتى أنها هل تعرفه أو تنكره، والمقصود اختبار عقلها، وقوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ [النمل: ٤١] كالدلالة على ذلك. وثالثها: قال قتادة: أراد أن يأخذه قبل إسلامها، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها. ورابعها: أن العرش سرير المملكة، فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه.

أما قوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فالعفريت من الرجال الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه، ومن الشياطين الخبيث المارد.

أما قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ فالمعنى من مجلسك، ولا بد فيه من عادة معلومة حتى يصح أن يؤقت، فقيل: المراد مجلس الحكم بين الناس، وقيل: الوقت الذي يخطب فيه الناس، وقيل: إلى انتصاف النهار.

وأما قوله: ﴿لَقَوِىٌّ﴾ أي على حمله ﴿أَمِينٌ﴾ آتي به كما هو لا أختزل منه شيئًا.

أما قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ **ففيه بحثان:**

الأول: اختلفوا في ذلك الشخص على قولين: قيل: كان من الملائكة، وقيل: كان من الإنس. فمن قال بالأول اختلفوا، قيل: هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام، ومن قال بالثاني اختلفوا على وجوه: أحدها: قول ابن مسعود: إنه الخضر عليه السلام. وثانيها: وهو المشهور من قول ابن عباس: إنه آصف بن برخيا وزير سليمان، وكان صديقًا يعلم الاسم الأعظم إذا دعا به أجيب. وثالثها: قول قتادة: رجل من الإنس كان يعلم اسم الله الأعظم. ورابعها: قول ابن زيد: كان رجلاً صالحًا في جزيرة في البحر، خرج ذلك اليوم ينظر إلى سليمان. وخامسها: بل هو سليمان نفسه والمخاطب هو العفريت الذي كلمه، وأراد سليمان عليه السلام إظهار معجزة فتحداهم أولاً، ثم بيَّن للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت، وهذا القول أقرب لوجوه: أحدها: أن لفظة (الَّذِي) موضوعة في اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام، فوجب انصرافه إليه، أقصى

ما في الباب أن يقال: كان آصف كذلك أيضًا لكنا نقول: إن سليمان عليه السلام، كان أعرف بالكتاب منه؛ لأنه هو النبي، فكان صرف هذا اللفظ إلى سليمان عليه السلام أولى. الثاني: أن إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية، فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام، وأنه غير جائز. الثالث: أن سليمان عليه السلام، لو افتقر في ذلك إلى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق. الرابع: أن سليمان قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان.

البحث الثاني: اختلفوا في الكتاب، فقيل: اللوح المحفوظ، والذي عنده علم منه جبريل عليه السلام. وقيل: كتاب سليمان، أو كتاب بعض الأنبياء، ومعلوم في الجملة أن ذلك مدح، وأن لهذا الوصف تأثيرًا في نقل ذلك العرش، فلذلك قالوا: إنه الاسم الأعظم وإن عنده وقعت الإجابة من الله تعالى في أسرع الأوقات.

أما قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ **ففيه بحثان:**

الأول: (آتيك) في الموضعين، يجوز أن يكون فعلاً واسم فاعل.

الثاني: اختلفوا في قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ على وجهين: الأول: أنه أراد المبالغة في السرعة، كما تقول لصاحبك. افعل ذلك في لحظة، وهذا قول مجاهد. الثاني: أن نجريه على ظاهره، والطرف تحريك الأجفان عند النظر، فإذا فتحت الجفن فقد يتوهم أن نور العين امتد إلى المرئي، وإذا أغمضت الجفن فقد يتوهم أن ذلك النور ارتد إلى العين، فهذا هو المراد من ارتداد الطرف وهاهنا سؤال: وهو أنه كيف يجوز والمسافة بعيدة أن ينقل العرش في هذا القدر من الزمان، وهذا يقتضي إما القول بالطفرة أو حصول الجسم الواحد دفعة واحدة في مكانين؟ جوابه: أن المهندسين قالوا: كرة الشمس مثل كرة الأرض مائة وأربعة وستين مرة، ثم إن زمان طلوعها زمان قصير فإذا قسمنا زمان طلوع تمام القرص على زمان القدر الذي بين الشام واليمن كانت اللمحة كثيرة فلما ثبت عقلاً إمكان وجود هذه الحركة السريعة، وثبت أنه تعالى قادر على كل الممكنات زال السؤال، ثم إنه عليه السلام لما ﴿رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ والكلام في تفسير الابتلاء قد مر غير مرة، ثم إنه عليه السلام بيَّن أن نفع الشكر عائد إلى الشاكر لا إلى الله تعالى، أما أنه عائد إلى الشاكر فلوجوه: أحدها: أنه يخرج عن عهدة ما وجب عليه من الشكر. وثانيها: أنه يستمد به المزيد على ما قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبرهيم: ٧]، وثالثها: أن المشتغل بالشكر مشتغل باللذات الحسية وفرق ما بينهما كفرق ما بين المنعم والنعمة في الشرف، ثم قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ غني عن شكره لا يضره كفرانه، كريم لا يقطع عنه نعمه بسبب إعراضه عن الشكر.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٤٣ ﴾

اعلم أن قوله: ﴿ نَكِّرُوا۟ ﴾ معناه اجعلوا العرش منكرًا مغيرًا عن شكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه، وذلك لأنه لو ترك على ما كان لعرفته لا محالة، وكان لا تدل معرفتها به على ثبات عقلها وإذا غير دلت معرفتها أو توقفها فيه على فضل عقل، ولا يمتنع صحة ما قيل: إن سليمان عليه السلام أُلقي إليه أن فيها نقصان عقل لكي لا يتزوجها أو لا تحظى عنده على وجه الحسد، فأراد بما ذكرنا اختبار عقلها.

أما قوله: ﴿ نَنظُرْ ﴾ فقرئ بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف، واختلفوا في ﴿ أَتَهْتَدِىٓ ﴾ على وجهين: أحدهما: أتعرف أنه عرشها أم لا؟ كما قدمنا. الثاني: أتعرف به نبوة سليمان أم لا ولذلك قال: ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ وذلك كالذم ولا يليق إلا بطريقة الدلالة، فكأنه عليه السلام أحب أن تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار منتقلاً من المكان البعيد إلى هناك، وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام، ويعرف بذلك أيضًا فضل عقلها لأغراض كانت له، فعند ذلك سألها.

أما قوله: ﴿ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ فاعلم أن هكذا ثلاث كلمات، حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الإشارة، ولم يقل: أهذا عرشك؟ ولكن أمثل هذا عرشك؟ لئلا يكون تلقينًا فقالت: ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ ولم تقل: هو هو، ولا ليس به وذلك من كمال عقلها حيث توقفت في محل التوقف.

أما قوله: ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا ﴾ ففيه سؤالان، وهو أن هذا الكلام كلام من؟ وأيضًا فعلى أي شيء عطف هذا الكلام؟ وعنه جوابان: الأول: أنه كلام سليمان وقومه، وذلك لأن بلقيس لما سئلت عن عرشها، ثم إنها أجابت بقولها: ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ فالظاهر أن سليمان وقومه قالوا: إنها قد أصابت في جوابها وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الإسلام، ثم عطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته قبل علمها ويكون غرضهم من ذلك شكر الله تعالى في أن خصهم بمزية التقدم في الإسلام. الثاني: أنه من كلام بلقيس موصولاً بقولها: ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ والمعنى: وأوتينا العلم بالله وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة، ثم أن قوله: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية يكون من كلام ربّ العزة.

أما قوله تعالى: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ففيه وجهان: الأول: المراد: وصدها عبادتها لغير الله عن الإيمان. الثاني: وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل، وقرئ أنها بالفتح على أنه بدل من فاعل صدَّ وبمعنى لأنها، واحتجت المعتزلة بهذه الآية فقالوا: لو كان تعالى خلق الكفر فيها لم يكن الصاد لها كفرها المتقدم ولا كونها من جملة

الكفار، بل كان يكون الصاد لها عن الإيمان تجدد خلق الله الكفر فيها. والجواب: أما على التأويل الثاني فلا شك في سقوط الاستدلال، وأما على الأول فجوابنا أن كونها من جملة الكفار صار سببًا لحصول الداعية المستلزمة للكفر، وحينئذ يبقى ظاهر الآية موافقًا لقولنا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى إقامتها على الكفر مع كل ما تقدم من الدلائل ذكر أن سليمان عليه السلام أظهر من الأمر ما صار داعيًا لها إلى الإسلام وهو قوله ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ والصرح القصر كقوله: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦] وقيل: صحن الدار، وقرأ ابن كثير عن (سأقيها) بالهمز ووجهه أنه سمع سؤقًا فأجرى عليه الواحد، والممرد المملس، روي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبني له على طريقها قصر من زجاج أبيض كالماء بياضًا، ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الإنس والجن والطير، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظامًا لأمره وتحققًا لنبوته، وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي إليه بأسرارهم؛ لأنها كانت بنت جنِّية، وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد فيجتمع له فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد، فقالوا: إن في عقلها نقصانًا وإنها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها، ومعلوم من حال الزجاج الصافي أنه يكون كالماء فلما أبصرت ذلك ظنته ماءًا راكدًا فكشفت عن ساقيها لتخوضه، فإذا هي أحسن الناس ساقًا وقدمًا، وهذا على طريقة من يقول: تزوجها، وقال آخرون كان المقصود من الصرح تهويل المجلس وتعظيمه، وحصل كشف الساق على سبيل التبع، فلما قيل لها: هو صرح ممرد من قوارير استترت، وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ فيما تقدم بالثبات على الكفر ثم قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقيل: حسبت أن سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة، فقالت: ظلمت نفسي بسوء ظني سليمان، واختلفوا في أنه هل تزوجها أم لا؟ وأنه تزوجها في هذه الحال أو قبل أن كشفت عن ساقيها، والأظهر في كلام الناس أنه تزوجها، وليس لذلك ذكر في الكتاب، ولا في خبر مقطوع بصحته، ويروى عن ابن عباس أنها لما أسلمت قال لها: اختاري من قومك من أزوجك منه، فقالت: مثلي لا ينكح الرجال مع سلطاني، فقال: النكاح من الإسلام، فقالت: إن كان كذلك فزوجني ذا تُبَّع ملك همدان فزوجها إياه ثم ردهما إلى اليمن، ولم يزل بها ملكًا، والله أعلم.

القصة الثالثة قصة صالح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قرىء (أَنُ اعْبُدُوا اللَّهَ) بالضم على إتباع النون الباء.

أما قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ ففيه قولان: أحدهما: المراد فريق مؤمن وفريق كافر. الثاني: المراد قوم صالح قبل أن يؤمن منهم أحد.

أما قوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ فالمعنى أن الذين آمنوا إنما آمنوا؛ لأنهم نظروا في حجته فعرفوا صحتها، وإذا كان كذلك فلا بد وأن يكون خصمًا لمن لم يقبلها، وإذا كان هذا الاختصام في باب الدين دل ذلك على أن الجدال في باب الدين حق وفيه إبطال التقليد.

أما قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ ففيه بحثان: الأول: في تفسير استعجال السيئة قبل الحسنة وجهان: أحدهما: أن الذين كذبوا صالحًا عليه السلام لما لم ينفعهم الحجاج توعدهم صالح عليه السلام بالعذاب فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] على وجه الاستهزاء، فعنده قال صالح: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ والمراد أن الله تعالى قد مكنكم من التوصل إلى رحمة الله تعالى وثوابه، فلماذا تعدلون عنه إلى استعجال عذابه. وثانيهما: أنهم كانوا يقولون لجهلهم: إن العقوبة التي يعدها صالح إن وقعت على زعمه أتينا حينئذ واستغفرنا فحينئذ يقبل الله توبتنا ويدفع العذاب عنا، فخاطبهم صالح على حسب اعتقادهم، وقال: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر.

البحث الثاني: أن المراد بالسيئة العقاب وبالحسنة الثواب، فأما وصف العذاب بأنه سيئة فهو

مجاز وسبب هذا التجويز، إما لأن العقاب من لوازمه أو لأنه يشبهه في كونه مكروهًا، وأما وصف الرحمة بأنها حسنة فمنهم من قال: إنه حقيقةٌ، ومنهم من قال: إنه مجاز والأول أقرب، ثم إن صالحًا عليه السلام لما قرر هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد، وهو قولهم: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ أي: تشاءمنا بك؛ لأن الذي يصيبنا من شدة وقحط فهو بشؤمك وبشؤم من معك.

قال صاحب (الكشاف): كان الرجل يخرج مسافرًا فيمر بطائر فيزجره فإن مر سانحًا تيمن وإن مر بارحًا تشاءم فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان للخير والشر وهو قدر الله وقسمته، فأجاب صالح عليه السلام بقوله: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي السبب الذي منه يجيء خيركم وشركم عند الله وهو قضاؤه وقدره إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم وقيل: بل المراد إن جزاء الطيرة منكم عند الله وهو العقاب، والأقرب الوجه الأول؛ لأن القوم أشاروا إلى الأمر الحاصل فيجب في جوابه أن يكون فيه لا في غيره، ثم بيَّن أن هذا جهل منهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ فيحتمل أن غيرهم دعاهم إلى هذا القول، ويحتمل أن يكون المراد أن الشيطان يفتنكم بوسوسته، ثم إنه سبحانه قال: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والأقرب أن يكون المراد تسعة جمع إذ الظاهر من الرهط الجماعة لا الواحد، ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل، ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفتهم وأحوالهم لا لاختلاف السبب، فبيَّن تعالى أنهم يفسدون في الأرض ولا يمزجون ذلك الفساد بشيء من الصلاح، فلهذا قال: ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ثم بيَّن تعالى أن من جملة ذلك ما هموا به من أمر صالح عليه السلام.

أما قوله: ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ فيحتمل أن يكون أمرًا أو خبرًا في محل الحال بإضمار قد، أي: قالوا متقاسمين، والبيات متابعة العدو ليلاً.

أما قوله: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ يعني لو اتهمنا قومه حلفنا لهم أنا لم نحضر. وقرىء (مَهْلَكَ) بفتح الميم واللام وكسرها من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك، ويحتمل المصدر والمكان والزمان، ثم إنه سبحانه قال: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقد اختلفوا في مكر الله تعالى على وجوه: أحدها: أن مكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة، روي أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه، فقالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه، ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله تعالى صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فهلكوا وهلك الباقون بالصيحة. وثانيها: جاؤا بالليل شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة، يرون الأحجار ولا يرون راميًا. وثالثها: أن الله تعالى أخبر صالحًا بمكرهم فتحرز عنهم فذاك مكر الله تعالى في حقهم.

أما قوله: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ استئناف، ومن قرأ بالفتح رفعه بدلاً من العاقبة أو خبر مبتدأ محذوف

تقديره هي تدمرهم أو نصبه على معنى لأنا أو على أنه خبر كان أي كان عاقبة مكرهم الدمار.

أما قوله: ﴿خَاوِيَةً﴾ فهو حال عمل فيها ما دل عليه تلك، وقرأ عيسى بن عمر (خاوية) بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف، والله أعلم.

القصة الرابعة قصة لوط عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قال صاحب (الكشاف): واذكر لوطًا أو أرسلنا لوطًا بدلالة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ [النمل: ٤٥] عليه، و(إذ) بدل على الأول ظرف على الثاني.

أما قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فهو على وجه التنكير وإن كان بلفظ الاستفهام وربما كان التوبيخ بمثل هذا اللفظ أبلغ.

أما قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ففيه وجوه: **أحدها:** أنهم كانوا لا يتحاشون من إظهار ذلك على وجه الخلاعة ولا يتكاتمون وذلك أحد ما لأجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر في توبيخه لهم ماله عظم ذلك الفعل. **وثانيها:** أن المراد بصر القلب أي تعلمون أنها فاحشة لم تُسْبَقوا إليها وأن الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر فهي مضادة لله في حكمته. **وثالثها:** تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم، فإن قلت: فسرت (تُبْصِرُونَ) بالعلم وبعده ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فكيف يكونون علماء وجهلاء؟ قلت: أراد تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها، ثم إنه تعالى بيَّن جهلهم بأن حكى عنهم أنهم أجابوا عن هذا الكلام بما لا يصلح أن يكون جوابًا له فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فجعلوا الذي لأجله يخرجون أنهم يتطهرون من هذا الصنيع الفاحش وهذا يوجب تنعيمهم وتعظيمهم أولى لكن في المفسرين من

قال: إنما قالوا ذلك على وجه الهزء، ثم بيَّن تعالى أنه نجاه وأهله إلا امرأته وأهلك الباقين وقد تقدم كل ذلك مشروحًا، والله أعلم، وهاهنا آخر القصص في هذه السورة، والله أعلم.

القول في خطاب الله عز وجل مع محمد ﷺ

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

في هذه الآية قولان: الأول: أنه متعلق بما قبله من القصص والمعنى الحمد لله على إهلاكهم وسلام على عباده الذين اصطفى بأن أرسلهم ونجاهم. الثاني: أنه مبتدأ فإنه تعالى لما ذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام وكان محمد ﷺ كالمخالف لمن قبله في أمر العذاب؛ لأن عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه، أمره تعالى بأن يشكر ربه على ما خصه بهذه النعم، وبأن يسلم على الأنبياء عليهم السلام الذين صبروا على مشاق الرسالة.

فأما قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فهو تبكيت للمشركين وتهكم بحالهم، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى، ولا يؤثر عاقل شيئًا على شيء إلا لزيادة خير ومنفعة، فقيل لهم هذا الكلام تنبيهًا على نهاية ضلالهم وجهلهم وقرئ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء والتاء، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: «بَلِ اللَّه خَيْرٌ وَأَبْقَى وَأَجَلُّ وَأَكْرَمُ»[(١)].

ثم اعلم أنه سبحانه وتعالى تكلم بعد ذلك في عدة فصول:

الفصل الأول: في الرد على عبدة الأوثان، ومدار هذا الفصل على بيان أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لأصول النعم وفروعها، فكيف تحسن عبادة ما لا منفعة منه ألبتة ثم إنه سبحانه وتعالى ذكر أنواعًا:

النوع الأول: ما يتعلق بالسموات

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): الفرق بين أم وأم في ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ و﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ أن الأولى متصلة؛ لأن المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل، والحديقة: البستان عليه سور من الإحداق وهو الإحاطة، وقيل ﴿ذَاتَ﴾ لأن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة، كما يقال: النساء ذهبت، والبهجة الحسن؛ لأن الناظر يبتهج به ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أغيره يقرن به ويجعل

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٧٢)، حديث رقم (٢٠٨٢) من طريق جابر الجعفي عن أبي جعفر قال: كان علي بن حسين يذكر عن النبي ﷺ . . . فذكره. وهذا مرسل مع ضعيف جابر الجعفي، وأورده السيوطي في (جامع الأحاديث)، وقال: رواه البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن الحسين مرسلاً وقال: هذا حديث منقطع وإسناده ضعيف.

شريكًا له وقرئ (أَإِلَهًا مَعَ اللَّه) بمعنى (تَدْعُونَ أَوْ تُشْرِكُونَ).

المسألة الثانية: أنه تعالى بيَّن أنه الذي اختص بأن خلق السموات والأرض، وجعل السماء مكانًا للماء، والأرض للنبات، وذكر أعظم النعم وهي الحدائق ذات البهجة، ونبه تعالى على أن هذا الإنبات في الحدائق لا يقدر عليه إلا الله تعالى؛ لأن أحدنا لو قدر عليه لما احتاج إلى غرس ومصابرة على ظهور الثمرة وإذا كان تعالى هو المختص بهذا الإنعام وجب أن يخص بالعبادة، ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ وقد اختلفوا فيه فقيل: يعدلون عن هذا الحق الظاهر وقيل: يعدلون بالله سواه ونظير هذه الآية أول سورة الإنعام.

المسألة الثالثة: يقال: ما حكمة الالتفات في قوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ ؟ جوابه: أنه لا شبهة للعاقل في أن خالق السموات والأرض ومنزل الماء من السماء ليس إلا الله تعالى، وربما عرضت الشبهة في أن منبت الشجرة هو الإنسان، فإن الإنسان يقول: أنا الذي ألقى البذر في الأرض الحرة وأسقيها الماء وأسعى في تشميسها، وفاعل السبب فاعل للمسبب، فإذن أنا المنبت للشجرة فلما كان هذا الاحتمال قائمًا، لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة إلى قوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ وقال: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ لأن الإنسان قد يأتي بالبذر والسقي والكرب والتشميس ثم لا يأتي على وفق مراده والذي يقع على وفق مراده فإنه يكون جاهلاً بطبعه ومقداره وكيفيته فكيف يكون فاعلاً لها، فلهذه النكتة حسن الالتفات هاهنا.

النوع الثاني: ما يتعلق بالأرض

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

قال صاحب (الكشاف): ﴿أَمَّن جَعَلَ﴾ وما بعده بدل من ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ [النمل: ٦٠] فكان (حكمها) حكمه.

واعلم أنه تعالى ذكر من منافع الأرض أمورًا أربعة:

المنفعة الأولى: كونها قرارًا وذلك لوجوه: الأول: أنه دحاها وسواها للاستقرار. الثاني: أنه تعالى جعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة فليست في الصلابة كالحجر الذي يتألم الإنسان بالاضطجاع عليه وليست في الرخاوة كالماء الذي يغوص فيه. الثالث: أنه تعالى جعلها كثيفة غبراء ليستقر عليها النور، ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها، ولو لم يستقر النور عليها لصارت من شدة بردها بحيث تموت الحيوانات. الرابع: أنه سبحانه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من سمت الرأس، ولولا ذلك لما اختلفت الفصول، ولما حصلت المنافع. الخامس: أنه سبحانه وتعالى جعلها ساكنة فإنها لو كانت متحركة لكانت إما متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة، وعلى التقديرين لا يحصل

الانتفاع بالسكنى على الأرض. السادس: أنه سبحانه جعلها كفاتًا للأحياء والأموات وأنه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح.

المنفعة الثانية الأرض: قوله: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ فاعلم أن أقسام المياه المنبعثة عن الأرض أربعة: الأول: ماء العيون السيالة وهي تنبعث من أبخرة كثيرة المادة قوية الاندفاع تفجر الأرض بقوة، ثم لا يزال يستتبع جزء منها جزءًا. الثاني: ماء العيون الراكدة وهي تحدث من أبخرة بلغت من قوتها أن اندفعت إلى وجه الأرض ولم تبلغ من قوتها وكثرة مادتها أن يطرد تاليها سابقها. الثالث: مياه القنى والأنهار وهي متولدة من أبخرة ناقصة القوة على أن تشق الأرض، فإذا أزيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الأبخرة منفذًا تندفع إليه بأدنى حركة. الرابع: مياه الآبار وهي نبعية كمياه الأنهار إلا أنه لم يجعل له سيل إلى موضع يسيل إليه ونسبة القنى إلى الآبار نسبة العيون الراكدة فقد ظهر أنه لولا صلابة الأرض لما اجتمعت تلك الأبخرة في باطنها إذ لولا اجتماعها في باطنها لما حدثت هذه العيون في ظاهرها.

المنفعة الثالثة للأرض: قوله: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ والمراد منها الجبال، فنقول: أكثر العيون والسحب والمعدنيات إنما تكون في الجبال أو فيما يقرب منها، أما العيون فلأن الأرض إذا كانت رخوة نشفت الأبخرة عنها فلا يجتمع منها قدر يعتد به، فإذن هذه الأبخرة لا تجتمع إلا في الأرض الصلبة والجبال أصلب الأرض، فلا جرم كانت أقواها على حبس هذا البخار حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة للعيون ويشبه أن يكون مستقر الجبل مملوءًا ماء، ويكون الجبل في حقنه الأبخرة مثل الأنبيق الصلب المعد للتقطير لا يدع شيئًا من البخار يتحلل ونفس الأرض التي تحته كالقرعة والعيون كالأذناب والبخار كالقوابل، ولذلك فإن أكثر العيون إنما تنفجر من الجبال وأقلها في البراري، وذلك الأقل لا يكون إلا إذا كانت الأرض صلبة. وأما أن أكثر السحب تكون في الجبال فلوجوه ثلاثة: **أحدها:** أن في باطن الجبال من النداوات مالا يكون في باطن الأرضين الرخوة. **وثانيها:** أن الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الأنداء ومن الثلوج ما لا يبقى على ظهر سائر الأرضين. **وثالثها:** أن الأبخرة الصاعدة تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل، وإذا ثبت ذلك ظهر أن أسباب كثرة السحب في الجبال أكثر؛ لأن المادة فيها ظاهرًا وباطنًا أكثر، والاحتقان أشد السبب المحلل وهو الحر أقل، فلذلك كانت السحب في الجبال أكثر. وأما المعدنيات المحتاجة إلى أبخرة يكون اختلاطها بالأرضية أكثر وإلى بقاء مدة طويلة يتم النضج فيها فلا شيء لها في هذا المعنى كالجبال.

المنفعة الرابعة للأرض: قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ فالمقصود منه أن لا يفسد العذب بالاختلاط، وأيضًا فلينتفع بذلك الحاجز، وأيضًا المؤمن في قلبه بحران بحر الإيمان والحكمة، وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزًا لكي لا يفسد أحدهما بالآخر، وقال بعض الحكماء في قوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] قال: عند عدم البغي

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[الرحمن: ٢٢] فعند عدم البغي في القلب يخرج الدين والإيمان بالشكر، فإن قيل: ولم جعل البحر ملحًا؟ قلنا: لولا ملوحته لأجن وانتشر فساد أجونته في الأرض وأحدث الوباء العام، واعلم أن اختصاص البحر بجانب من الأرض دون جانب أمر غير واجب بل الحق أن البحر ينتقل في مدد لا تضبطها التواريخ المنقولة من قرن إلى قرن؛ لأن استمداد البحر في الأكثر من الأنهار، والأنهار تستمد في الأكثر من العيون، وأما مياه السماء فإن حدوثها في فصل بعينه دون فصل، ثم لا العيون ولا مياه السماء يجب أن تتشابه أحوالها في بقاع واحدة بأعيانها تشابهًا مستمرًا فإن كثيرًا من العيون يغور، وكثيرًا ما تقحط السماء فلا بد حينئذ من نضوب الأودية والأنهار فيعرض بسبب ذلك نضوب البحار، وإذا حدثت العيون من جانب آخر حدثت الأنهار هناك فحصلت البحار من ذلك الجانب، ثم إنه سبحانه لما بيَّن أنه هو المختص بالقدرة على خلق الأرض التي فيها هذه المنافع الجليلة وجب أن يكون هو المختص بالإلهية، ونبه بقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على عظم جهلهم بالذهاب عن هذا التفكر.

النوع الثالث: ما يتعلق باحتياج الخلق إليه سبحانه

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

اعلم أنه سبحانه نبه في هذه الآية على أمرين: أحدهما: قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ قال صاحب (الكشاف): الضرورة الحالة المحوجة إلى الالتجاء والاضطرار افتعال منها يقال: اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر، واعلم أن المضطر هو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى التضرع إلى الله تعالى، وعن السدي: الذي لا حول له ولا قوة، وقيل: المذنب إذا استغفر، فإن قيل: قد عم المضطرين بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وكم من مضطر يدعو فلا يجاب؟ جوابه: قد بينا في أصول الفقه أن المفرد المعرف لا يفيد العموم وإنما يفيد الماهية فقط، والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهية، وأيضًا فإنه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال وتمام القول في شرائط الدعاء والإجابة مذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠] فأما قوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما دفع إليه من فقر إلى غنى ومرض إلى صحة وضيق إلى سعة إلا القادر الذي لا يعجز والقاهر الذي لا ينازع. وثانيهما: قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ فالمراد توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنًا بعد قرن وأراد بالخلافة الملك والتسلط، وقرئ (يذكرون) بالياء مع الإدغام وبالتاء مع الإدغام وبالحذف وما مزيدة أي يذكرون تذكرًا قليلاً، والمعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي.

النوع الرابع: ما يتعلق أيضًا باحتياج الخلق ولكنه حاجة خاصة في وقت خاص

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى نبه في هذه الآية على أمرين: الأول: قوله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ والمراد يهديكم بالنجوم في السماء والعلامات في الأرض إذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر. الثاني: قوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ فإنه سبحانه هو الذي يحرك الرياح فتثير السحاب ثم تسوقه إلى حيث يشاء، فإن قيل: لا نسلم أنه تعالى هو الذي يحرك الرياح، فإن الفلاسفة قالت: الرياح إنما تتولد عن الدخان وليس الدخان كله هو الجسم الأسود المرتفع مما احترق بالنار، بل كل جسم أرضي يرتفع بتصعيد الحرارة سواء كانت الحرارة حرارة النار أو حرارة الشمس فهو دخان. قالوا: وتولد الرياح من الأدخنة على وجهين أحدهما أكثري، والآخر أقلي، أما الأكثري فهو أنه إذا صعدت أدخنة كثيرة إلى فوق فعند وصولها إلى الطبقة الباردة إما أن ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء أو لا ينكسر فإن انكسر فلا محالة يثقل وينزل فيحصل من نزولها تموج الهواء فتحدث الريح، وإن لم ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء فلا بد وأن يتصاعد إلى أن يصل إلى كرة النار المتحركة بحركة الفلك وحينئذ لا يتمكن من الصعود بسبب حركة النار فترجع تلك الأدخنة وتصير ريحًا، لا يقال: لو كان اندفاع هذه الأدخنة بسبب حركة الهواء العالي لما كانت حركتها إلى أسفل بل إلى جهة حركة الهواء العالي؛ لأنا نقول: الجواب من وجهين: أحدهما: أنه ربما أوجبت هيئة صعود تلك الأدخنة وهيئة لحوق المادة بها أن يتحرك إلى خلاف جهة المتحرك المانع، كالسهم يصيب جسمًا متحركًا فيعطفه تارة إلى جهته إن كان الحابس كما يقدر على صرف المتحرك عن متوجهه يقدر أيضًا على صرفه إلى جهة حركة نفسه وتارة إلى خلاف تلك الجهة إذا كان المفارق يقدر على الحبس ولا يقدر على الصرف. الثاني: أنه ربما كان صعود بعض الأدخنة من تحت مانعًا للأدخنة النازلة من فوق إلى أن يتسفل ذلك فلأجل هذا السبب يتحرك إلى سائر الجوانب، واعلم أن لأهل الإسلام هاهنا مقامين: الأول: أن يقيم الدلالة على فساد هذه العلة وبيانه من وجهين: الأول: أن الأجزاء الدخانية أرضية فهي أثقل من الأجزاء البخارية المائية، ثم إن البخار لما يبرد ينزل على الخط المستقيم مطرًا فالدخان لما برد فلماذا لم ينزل على الخط المستقيم بل ذهب يمنة ويسرة؟ الثاني: أن حركة تلك الأجزاء إلى أسفل طبيعية وحركتها يمنة ويسرة عرضية والطبيعية أقوى من العرضية، وإذا لم يكن أقوى فلا أقل من المساواة، ثم إن الريح عند حركتها يمنة ويسرة ربما تقوى على قلع الأشجار ورمي الجدار بل الجبال، فتلك الأجزاء الدخانية عندما تحركت حركتها الطبيعية التي لها وهي الحركة إلى السفل وجب أن تهدم السقف، ولكنا نرى الغبار الكثير ينزل من الهواء ويسقط على السقف ولا يحس بنزوله فضلاً عن أن يهدمه فثبت فساد

ما ذكروه. المقام الثاني: هب أن الأمر كما ذكروه ولكن الأسباب الفاعلية والقابلية لها مخلوقة لله سبحانه وتعالى، فإنه لولا الشمس وتأثيرها في تصعيد الأبخرة والأدخنة ولولا طبقات الهواء، وإلا لما حدثت هذه الأمور، ومعلوم أن من وضع أسبابًا فأدته إلى منافع عجيبة وحكم بالغة فذلك الواضع هو الذي فعل تلك المنافع، فعلى جميع الأحوال لا بد من شهادة هذه الأمور على مدبر حكيم واجب لذاته، قطعًا لسلسلة الحاجات.

النوع الخامس: ما يتعلق بالحشر والنشر

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما عدد نعم الدنيا أتبع ذلك بنعم الآخرة بقوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لأن نعم الآخرة بالثواب لا تتم إلا بالإعادة بعد الابتداء والإبلاغ إلى حد التكليف فقد تضمن الكلام كل هذه النعم، ومعلوم أنها لا تتم إلا بالأرزاق فلذلك قال: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ منكرًا لما هُمْ عليه، ثم بيَّن بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن لا برهان لكم فإذن هم مبطلون، وهذا يدل على أنه لا بد في الدعوى من وعلى فساد التقليد، فإن قيل: كيف قيل لهم: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وهم منكرون للإعادة؟ جوابه: كانوا معترفين بالابتداء، ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة ظاهرة قوية، فلما كان الكلام مقرونًا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر في الإنكار، وهاهنا آخر الدلائل المذكورة على كمال قدرة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن أنه المختص بالقدرة فكذلك بيَّن أنه هو المختص بعلم الغيب، وإذا ثبت ذلك ثبت أنه هو الإله المعبود؛ لأن الإله هو الذي يصح منه مجازاة من يستحق الثواب على وجه لا يلتبس بأهل العقاب، فإن قيل: الاستثناء حكمه إخراج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت المستثنى منه ودلت الآية هاهنا على استثناء الله سبحانه وتعالى عمن في السموات والأرض فوجب كونه ممن في السموات والأرض وذلك يوجب كونه تعالى في المكان. والجواب: هذه الآية متروكة الظاهر؛ لأن من قال إنه تعالى في المكان زعم أنه فوق السموات، ومن قال: إنه ليس في مكان فقد نزهه عن كل الأمكنة، فثبت بالإجماع أنه تعالى ليس في

السموات والأرض فإذن وجب تأويله فنقول: إنه تعالى ممن في السموات والأرض كما يقول المتكلمون: الله تعالى في كل مكان على معنى أن علمه في الأماكن كلها، لا يقال: إن كونه في السموات والأرض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وإرادة المتكلم بعبارة واحدة ومجازًا غير جائزة؛ لأنا نقول: كونهم في السموات والأرض، كما أنه حاصل حقيقة وهو حصول ذواتهم في الأحياز فكذلك حاصل مجازًا، وهو كونهم عالمين بتلك الأمكنة فإذا حملنا هذه الغيبة على المعنى المجازي وهو الكون فيها بمعنى العلم دخل الرب سبحانه وتعالى والعبيد فيه فصح الاستثناء.

أما قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فهو صفة لأهل السموات والأرض نفى أن يكون لهم علم الغيب وذكر في جملة الغيب متى البعث بقوله: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فأيان بمعنى متى وهي كلمة مركبة من أي والآن وهو الوقت وقرىء (إيان) بكسر الهمزة.

أما قوله: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ فاعلم أن كلام صاحب (الكشاف) فيه مرتب على ثلاثة أبحاث:

البحث الأول: فيه اثنتا عشرة قراءة بل أدرك بل أدرك بل ادارك بل تدارك بل أأدرك بهمزتين بل آأدرك بألف بينهما بل آدرك بالتخفيف والنقل بل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام بلى أدرك بلى أأدرك أم تدارك أو أدرك.

البحث الثاني: ادارك أصله تدارك فأدغمت التاء في الدال وادَّرك افتعل.

البحث الثالث: معنى ادَّرك علمهم انتهى وتكامل وأدرك تتابع واستحكم ثم فيه وجوه: أحدها: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيها قد حصلت لهم ومكنوا من معرفتها وهم شاكون جاهلون، وذلك قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ يريد المشركين ممن في السماوات والأرض؛ لأنهم لما كانوا من جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع كما يقال: بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم. فإن قيل: الآية سيقت لاختصاص الله تعالى بعلم الغيب وإن العباد لا علم لهم بشيء منه وإن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به، فكيف ناسب هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة؟ والجواب: كأنه سبحانه قال: كيف يعلمون الغيب مع أنهم شكوا في ثبوت الآخرة التي دلت الدلائل الظاهرة القاهرة عليها فمن غفل عن هذا الشيء الظاهر كيف يعلم الغيب الذي هو أخفى الأشياء. الوجه الثاني: أن وصفهم باستحكام العلم تهكم بهم كما تقول لأجهل الناس: ما أعلمك، على سبيل الهزء وذلك حيث شكوا في إثبات ما الطريق إليه واضح ظاهر. الوجه الثالث: أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك: أدركت الثمرة؛ لأن تلك غايتها التي عندها تعدم وقد فسره الحسن باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك، أما وجه قراءة من قرأ بل أأدرك على الاستفهام فهو أنه استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم وكذا من قرأ أم أدرك وأم تدارك؛ لأنها أم هي التي بمعنى بل والهمزة وأما

من قرأ بلى أدرك فإنه لما جاء ببلى بعد قوله : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ كان معناه بلى يشعرون ثم فسر الشعور بقوله : أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم، فكأنه قال : شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها فيرجع إلى نفي الشعور على أبلغ ما يكون، وأما من قرأ بلى أأدرك على الاستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون، ثم أنكر علمهم بكونها وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها . فإن قلت : هذه الإضرابات الثلاث ما معناها؟ قلت : ماهي إلا بيان درجاتهم، وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى وفيه نكتة وهي أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم فلذلك عداه بمن دون عن؛ لأن الفكر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما تكلم في حال المبدأ تكلم بعده في حال المعاد، وذلك لأن الشك في المعاد لا ينشأ إلا من الشك في كمال القدرة، أو في كمال العلم فإذا ثبت كونه تعالى قادرًا على كل الممكنات، وعالمًا بكل المعلومات، ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن أجزاء بدن غيره، وثبت أنه قادر على أن يعيد التركيب والحياة إليها وإذا ثبت إمكان ذلك ثبت صحة القول بالحشر فلما بيّن الله تعالى هذين الأصلين فيما قبل هذه الآية، لا جرم لم يحكه في هذه الآية، فحكى عنهم أنهم تعجبوا من إخراجهم أحياء وقد صاروا ترابًا وطعنوا فيه من وجهين : الأول : قولهم : ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ أي هذا كلام كما قيل لنا فقد قيل لمن قبلنا، ولم يظهر له أثر فهو إذن من أساطير الأولين يريدون ما لا يصح من الأخبار، فإن قيل : ذكر هاهنا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ وفي آية أخرى : ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ [المؤمنون : ٨٣] فما الفرق؟ قلنا : التقديم دليل على أن المقدم هو المقصود الأصلي وأن الكلام سيق لأجله، ثم إنه سبحانه لما كان قد بيّن الدلالة على هذين الأصلين، ومن الظاهر أن كل من أحاط بهما فقد عرف صحة الحشر والنشر ثبت أنهم أعرضوا عنها ولم يتأملوها، وكان سبب ذلك الإعراض

حب الدنيا وحب الرياسة والجاه وعدم الانقياد للغير، لا جرم اقتصر على بيان أن الدنيا فانية زائلة فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ **وفيه سؤالان:**

السؤال الأول: لِمَ لَمْ يقل: كيف كانت عاقبة المجرمين؟ جوابه: لأن تأنيثها غير حقيقي ولأن المعنى كيف كان آخر أمرهم.

السؤال الثاني: لِمَ لَمْ يقل: عاقبة الكافرين؟ جوابه: الغرض أن يحصل التخويف لكل العصاة ثم إنه تعالى صبَّر رسوله على ما يناله من هؤلاء الكفار فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فجمع بين إزالة الغم عنه بكفرهم وبين إزالة الخوف من جانبهم، وصار ذلك كالتكفل بنصرته عليهم وقوله: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ أي في حرج قلب يقال: ضاق الشيء ضيقًا وضيقًا بالفتح والكسر والضيق تخفيف الضيق، ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم. الوجه الثاني: للكفار قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ دل على أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية فأجاب الله تعالى بقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهو عذاب يوم بدر، فزيدت اللام للتأكيد كالباء في ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥] أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وأزف لكم، ومعناه تبعكم ولحقكم، وقرأ الأعرج (رَدَف لكم) بوزن ذهب وهما لغتان، والكسر أفصح **وهاهنا بحثان:**

البحث الأول: أن عسى ولعل في وعد الملوك ووعيدهم يدلان على صدق الأمر، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم، وأنهم لا يعجلون بالانتقام لوثوقهم بأن عدوهم لا يفوتهم، فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده.

البحث الثاني: أنه قد ثبت بالدلائل العقلية أن عذاب الحجاب أشد من عذاب النار، ولذلك قال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦] فقدم الحجاب على الجحيم، ثم إنهم كانوا محجوبين في الحال، فكان سبب العذاب بكماله حاصلًا، إلا أن الاشتغال بالدنيا ولذاتها كالعائق عن إدراك ذلك الألم، كما أن العضو الخدر إذا مسته النار، فإن سبب الألم حاصل في الحال، لكنه لا يحصل الشعور بذلك الألم لقيام العائق، فإذا زال العائق عظم البلاء، فكذا هاهنا إذا زال البدن عظم عذاب الحجاب، فقوله سبحانه: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني المقتضي له والمؤثر فيه حاصل، وتمامه إنما يحصل بعد الموت، ثم إنه سبحانه بين السبب في ترك تعجيل العذاب فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ والفضل الإفضال ومعناه أنه متفضل عليهم بتأخير العقوبة، وأكثرهم لا يعرفون هذه النعمة ولا يشكرونها، وهذه الآية تبطل قول من قال: إنه لا نعمة لله على الكفار ثم بيَّن سبحانه أنه مطلع على ما في قلوبهم فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وهاهنا بحث عقلي، وهو أنه قدم ما تكنه صدورهم على ما يعلنون من العلم، والسبب أن ما تكنه صدورهم هو الدواعي والقصود، وهي أسباب لما يعلنون، وهي أفعال الجوارح، والعلم بالعلة علة للعلم بالمعلول،

فهذا هو السبب في ذلك التقديم، قرئ (تَكُنُّ) يقال: كننت الشيء وأكننته إذا سترته وأخفيته، يعني أنه تعالى يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة الرسول ومكايدهم.

اما قوله: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ فقال صاحب (الكشاف): سمى الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية، فكانت التاء فيها بمنزلتها في العاقبة والعافية والنطيحة والذبيحة والرمية في أنها أسماء غير صفات، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية في قولهم: ويل للشاعر من راوية السوء، كأنه تعالى قال: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء، إلا وقد علمه الله تعالى وأحاط به، وأثبته في اللوح المحفوظ. والمبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما تمم الكلام في إثبات المبدأ والمعاد، ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة، ولما كانت العمدة الكبرى في إثبات نبوة محمد ﷺ هو القرآن، لا جرم بيَّن الله تعالى أولاً كونه معجزة من وجوه: أحدها: أن الأقاصيص المذكورة في القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والإنجيل مع العلم بأنه عليه الصلاة والسلام كان أميًا، وأنه لم يخالط أحدًا من العلماء ولم يشتغل قط بالاستفادة والتعلم، فإذن لا يكون ذلك إلا من قِبَل الله تعالى، واختلفوا فقال عضهم: أراد به ما اختلفوا فيه وتباينوا، وقال آخرون: أراد به ما حرفه بعضهم، وقال بعضهم: بل أراد به أخبار الأنبياء، والأول أقرب. وثانيها: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك لأن بعض الناس قال: إنا لما تأملنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقلية على التوحيد والحشر والنبوة، وشرح صفات الله تعالى وبيان نعوت جلاله ما لم نجده في شيء من الكتب، ووجدنا ما فيه من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها، وجدناه مبرًّأ عن التناقض والتهافت، فكان هدى ورحمة من هذه الجهات ووجدنا القوى البشرية قاصرة على جمع كتاب على هذا الوجه، فعلمنا أنه ليس إلا من عند الله تعالى، فكان القرآن معجزًا من هذه الجهة. وثالثها: أنه هدى ورحمة للمؤمنين، لبلوغه في الفصاحة إلى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز، ثم إنه تعالى لما بيَّن كونه معجزًا دالاً على الرسالة ذكر بعده أمرين: الأول: قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ والمراد أن القرآن وإن كان يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، لكن لا تكن أنت في قيدهم، فإن ربك هو الذي يقضي بينهم، أي بين المصيب

والمخطىء منهم، وذلك كالزجر للكفار فلذلك قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القادر الذي لا يمنع العليم بما يحكم فلا يكون إلا الحق، فإن قيل: القضاء والحكم شيء واحد فقوله: ﴿يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ كقوله: يقضي بقضائه ويحكم بحكمه. والجواب: معنى قوله: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي بما يحكم به وهو عدله؛ لأنه لا يقضي إلا بالعدل، أو أراد بحكمه، ويدل عليه قراءة من قرأ (بِحِكَمِهِ) جمع حكمة. الثاني: أنه تعالى أمره بعد ظهور حجة رسالته بأن يتوكل على الله، ولا يلتفت إلى أعداء الله، ويشرع في تمشية مهمات الرسالة بقلب قوي، فقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثم علل ذلك بأمرين: أحدهما: قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ وفيه بيان أن المحق حقيق بنصرة الله تعالى وأنه لا يخذل. وثانيهما: قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وإنما حسن جعله سببًا للأمر بالتوكل، وذلك لأن الإنسان ما دام يطمع في أحد أن يأخذ منه شيئًا فإنه لا يقوى قلبه على إظهار مخالفته، فإذا قطع طمعه عنه قوي قلبه على إظهار مخالفته، فالله سبحانه وتعالى قطع محمدًا ﷺ عنهم بأن بيَّن له أنهم كالموتى وكالصم وكالعمى فلا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل، وهذا سبب لقوة قلبه عليه الصلاة والسلام على إظهار الدين كما ينبغي، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ جوابه: هو تأكيد لحال الأصم؛ لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن تولى عنه مدبرًا كان أبعد عن إدراك صوته.

أما قوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فالمعنى ما يجدي إسماعك إلا الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته، أي يصدقون بها فهم مسلمون، أي: مخلصون من قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] يعني جعله سالمًا لله تعالى خالصًا له، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

اعلم أن الله تعالى بيَّن بالدلائل القاهرة كمال القدرة وكمال العلم، ثم فرع عليهما القول بإمكان الحشر، ثم بيَّن الوجه في كون القرآن معجزًا، ثم فرع عليه نبوة محمد ﷺ ثم تكلم الآن في مقدمات قيام القيامة، وإنما أخر تعالى الكلام في هذا الباب عن إثبات النبوة، لما أن هذه الأشياء لا يمكن معرفتها إلا بقول النبي الصادق وهذا هو النهاية في جودة الترتيب. واعلم أنه تعالى ذكر تارة ما يكون كالعلامة لقيام القيامة، وتارة الأمور التي تقع عند قيام القيامة، فذكر أولاً من علامات القيامة دابة الأرض، والناس تكلموا فيها من وجوه:

أحدها: في مقدار جسمها، وفي الحديث أن طولها ستون ذراعًا [١]، وروي أيضًا أن رأسها تبلغ السحاب. وعن أبي هريرة ما بين قرنيها فرسخ للراكب [٢].

وثانيها: في كيفية خلقتها، فروي أن لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان. وعن ابن جريج في وصفها: رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن إيَّل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة (بقرة) وذنب كبش وخف بعير. وثالثها: في كيفية خروجها، عن علي عليه السلام أنه تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها. وعن الحسن: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام. ورابعها: في موضع خروجها، سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَيْنَ تَخْرُجُ الدَّابَّةُ؟ فَقَالَ: «مِنْ أَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ حُرْمَةً عَلَى اللَّه تَعَالَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» [٣] وقيل: تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية. وخامسها: في عدد خروجها، فروي أنها تخرج ثلاث مرات، تخرج بأقصى اليمن، ثم تكمن، ثم تخرج بالبادية، ثم تكمن دهرًا طويلًا، فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد، فقوم يهربون وقوم يقفون (نظارة).

واعلم أنه لا دلالة في الكتاب على شيء من هذه الأمور، فإن صح الخبر فيه عن الرسول ﷺ قُبِلَ وإلا لم يلتفت إليه.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ فالمراد من القول متعلقه وهو ما وعدوا به من قيام الساعة ووقوعه حصوله، والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها، أما دابة الأرض فقد عرفتها.

وأما قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ فقرىء (تَكْلَمُهُمْ) من الكَلْم وهو الجرح، روي أن الدابة تخرج من الصفا ومعها عصا موسى عليه السلام وخاتم سليمان، فتضرب المؤمن بين عينيه بعصا موسى عليه السلام فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضيء لها وجهه، وتنكت الكافر في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه. واعلم أنه يجوز أن يكون تُكَلِّمُهُم من الكَلْم أيضًا على معنى التكثير يقال: فلان مكلَّم، أي مجرح. وقرأ أُبيّ (تُنَبِّئُهُمْ)، وقرأ ابن مسعود (تكلمهم بأن الناس)، والقراءة بإن مكسورة حكاية لقول الدابة ذلك، أو هي حكاية لقول الله تعالى بين به أنه أخرج الدابة لهذه العلة. فإن قيل: إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف يقول (بِآيَاتِنَا)؟ جوابه: أن

---

(١) رواه الثعالبي في (الكشف والبيان) (١٠/ ٩) من طريق سفيان الثوري عن شهاب بن عبد ربه عن صادق بن عبد الرحمن عن ربعي بن خراش عن حذيفة... به.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم في (التفسير) (١١/ ٢٠٥)، حديث رقم (١٧٣٥٧) من طريق أبي صالح حدثني معاوية بن صالح عن أبي مريم أنه سمع أبا هريرة... فذكره، في إسناده أبي صالح عبد الله بن صالح، وقال في التقريب: صدوق كثير الغلط ثبت في كتابه وكانت فيه غفلة.

(٣) أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٢/ ١٧٦)، حديث رقم (١٦٣٥) من طريق سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد أراه رفعه قال... فذكره، والطبري في (تفسيره) (١٩/ ٤٩٨) من طريق منصور بن المعتمر عن ربعي بن خراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول... فذكره.

قولها حكاية لقول الله تعالى، أو على معنى بآيات ربنا، أو لاختصاصها بالله تعالى أضافت آيات الله إلى نفسها، كما يقال: بعض خاصة الملك خيلنا وبلادنا، وإنما هي خيل مولاه وبلاده، ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار، أي تكلمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون.

وأما قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فاعلم أن هذا من الأمور الواقعة بعد قيام القيامة، فالفرق بين من الأولى والثانية، أن الأولى للتبعيض، والثانية للتبيين كقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

أما قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ معناه يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار، وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه، كما وصفت جنود سليمان بذلك وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ فهذا وإن احتمل معجزات الرسل كما قاله بعضهم، فالمراد كل الآيات فيدخل فيه سائر الكفار الذين كذبوا بآيات الله أجمع أو بشيء منها.

أما قوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ فالواو للحال كأنه قال: أكذبتم بها، بادي الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها.

أما قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فالمراد لما لَمْ تشتغلوا بذلك العمل المهم، فأي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك؟! كأنه قال: كل عمل سواه فكأنه ليس بعمل، ثم قال: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ يريد أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب تكذيبهم بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥] ثم إنه سبحانه بعد أن خوَّفهم بأحوال القيامة ذكر كلامًا يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أما وجه دلالته على التوحيد فلما ظهر في العقول أن التقليب من النور إلى الظلمة، ومن الظلمة إلى النور، لا يحصل إلا بقدرة قاهرة عالية. وأما وجه دلالته على الحشر فلأنه لما ثبتت قدرته تعالى في هذه الصورة على القلب من النور إلى الظلمة وبالعكس، فأي امتناع في ثبوت قدرته على القلب من الحياة إلى الموت مرة، ومن الموت إلى الحياة أخرى. وأما وجه دلالته على النبوة فلأنه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين، وفي بعثة الأنبياء والرسل إلى الخلق منافع عظيمة، فما المانع من بعثتهم إلى الخلق لأجل تحصيل تلك المنافع؟ فقد ثبت أن هذه الكلمة الواحدة كافية في إقامة الدلالة على تصحيح الأصول الثلاثة التي منها منشأ كفرهم واستحقاقهم العذاب، ثم في الآية سؤالان:

السؤال الأول: ما السبب في أن جعل الإبصار للنهار وهو لأهله؟ جوابه: تنبيهًا على كمال هذه الصفة فيه.

السؤال الثاني: لما قال: ﴿جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ فلم لم يقل: والنهار لتبصروا فيه؟ جوابه: لأن السكون في الليل هو المقصود من الليل، وأما الإبصار في النهار فليس هو المقصود بل هو وسيلة إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية.

وأما قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خص المؤمنين بالذكر، وإن كانت أدلة للكل من حيث اختصوا بالقبول والانتفاع على ما تقدم في نظائره.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾

اعلم أن هذا هو العلامة الثانية لقيام القيامة.

أما قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ففيه وجوه: أحدها: أنه شيء شبيه بالقرن، وأن إسرافيل عليه السلام ينفخ فيه بإذن الله تعالى، فإذا سمع الناس ذلك الصوت وهو في الشدة بحيث لا تحتمله طبائعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون وهو كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] وهذا قول الأكثرين. وثانيها: يجوز أن يكون تمثيلاً لدعاء الموت فإن خروجهم من قبورهم كخروج الجيش عند سماع صوت الآلة. وثالثها: أن الصور جمع الصورة، وجعلوا النفخ فيها نفخ الروح والأول أقرب لدلالة الظاهر عليه ولا مانع يمنع منه.

أما قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ فاعلم أنه إنما قال: (ففزع) ولم يقل: فيفزع للإشعار بتحقيق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به والمراد فزعهم عند النفخة الأولى.

أما قوله: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ فالمراد إلا من ثبَّت الله قلبه من الملائكة قالوا: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وملك الموت، وقيل: الشهداء، وعن الضحاك: الحور وخزنة النار وحملة العرش، وعن جابر: موسى منهم؛ لأنه صعق مرة ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] وليس فيه خبر مقطوع، والكتاب إنما يدل على الجملة.

أما قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ فقرئ (أتوه) و(أتاه) ودخرين وداخرين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر الصاغر، وقيل: معنى الإتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية، ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمر الله وانقيادهم له.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

اعلم أن هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة وهي تسيير الجبال، والوجه في حسبانهم أنها جامدة فلأن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد في السمت والكيفية ظن الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مرًا حثيثًا.

أما قوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ فهو من المصادر المؤكدة كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٩٥] و﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨] إلا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ، والمعنى أنه لما قدم ذكر هذه الأمور

التي لا يقدر عليها سواه جعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب. قال القاضي عبد الجبار: فيه دلالة على أن القبائح ليست من خلقه وإلا وجب وصفها بأنها متقنة ولكن الإجماع مانع منه. والجواب: أن الإتقان لا يحصل إلا في المركبات فيمتنع وصف الأعراض بها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم في علامات القيامة شرح بعد ذلك أحوال المكلفين بعد قيام القيامة والمكلف إما أن يكون مطيعًا أو عاصيًا، أما المطيع فهو الذي جاء بالحسنة وله أمران: أحدهما: أن له ما هو خير منها وذلك هو الثواب، فإن قيل: الحسنة التي جاء العبد بها يدخل فيها معرفة الله تعالى والإخلاص في الطاعات والثواب، إنما هو الأكل والشرب فكيف يجوز أن يقال: الأكل والشرب خير من معرفة الله؟ جوابه من وجوه: أحدها: أن ثواب المعرفة النظرية الحاصلة في الدنيا هي المعرفة الضرورية الحاصلة في الآخرة، ولذة النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى، وقد دلت الدلائل على أن أشرف السعادات هي هذه اللذة، ولو لم تحمل الآية على ذلك لزم أن يكون الأكل والشرب خيرًا من معرفة الله تعالى وأنه باطل. وثانيها: أن الثواب خير من العمل من حيث إن الثواب دائم والعمل منقضي ولأن العمل فعل العبد، والثواب فعل الله تعالى. وثالثها: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي له خير حاصل من جهتها وهو الجنة.

السؤال الثاني: الحسنة لفظة مفردة معرفة، وقد ثبت أنها لا تفيد العموم بل يكفي في تحققها حصول فرد، وإذا كان كذلك فلنحملها على أكمل الحسنات شأنًا وأعلاها درجة وهو الإيمان، فلهذا قال ابن عباس من أفراد الحسنة كلمة الشهادة، وهذا يوجب القطع بأن لا يعاقب أهل الإيمان. وجوابه: ذلك الخير هو أن لا يكون عقابه مخلدًا. الأمر الثاني للمطيع: هو أنهم آمنون من كل فزع، لا كما قال بعضهم: إن أهوال القيامة تعم المؤمن والكافر، فإن قيل: أليس أنه تعالى قال في أول الآية: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[النمل: ٨٧] فكيف نفى الفزع هاهنا؟ جوابه: أن الفزع الأول هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس لشدة تقع وهو يفجأ من رعب وهيبة وإن كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر إليه كما قيل: يدخل الرجل بصدر هياب وقلب وجاب، وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة، وأما الثاني فالخوف من العذاب. أما قراءة من قرأ (من فزع) بالتنوين فهي تحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب، وأما ما يلحق الإنسان من الهيبة والرعب عند مشاهدة الأهوال فلا ينفك منه أحد، وفي الأخبار ما يدل عليه، ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتنهه الوصف، وهو خوف النار. وأمن يعدي بالجار وبنفسه كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾[الأعراف: ٩٩] فهذا شرح حال المطيعين، أما

شرح حال العصاة فهو قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قيل: السيئة الإشراك وقوله: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ فاعلم أنه يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة فكأنه قيل: فكبوا في النار كقوله: ﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾ [الشعراء: ٩٤] ويجوز أن يكون ذكر الوجوه إيذانًا بأنهم يلقون على وجوههم فيها (مكبوبين).

أما قوله: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيجوز فيه الالتفات، وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بيَّن المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب، وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال: قل يا محمد: إني أمرت بأشياء: الأول: أني أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكًا، وأن الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه أمر محمدًا بأن يقول لهم هذه الدلائل التي ذكرتها لكم إن لم تفد لكم القول بالتوحيد فقد أفادت لي ذلك فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها، فإني مصر عليها غير مرتاب فيها ثم إنه وصف الله تعالى بأمرين: أحدهما: أنه رب هذه البلدة والمراد مكة وإنما اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنها أحب بلاده إليه وأكرمها عليه وأشار إليها إشارة تعظيم لها دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه.

أما قوله: ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ فقرىء (الَّتِي حَرَّمَهَا)، وإنما وصفها بالتحريم لوجوه: أحدها: أنه حرم فيها أشياء على من يحج. وثانيها: أن اللاجيء إليها آمن. وثالثها: لا ينتهك حرمتها إلا ظالم ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها وإنما ذكر ذلك؛ لأن العرب كانوا معترفين بكون مكة محرمة وعلموا أن تلك الفضيلة ليست من الأصنام بل من الله تعالى، فكأنه قال: لما علمت وعلمتم أنه سبحانه هو المتولي لهذه النعم وجب عليَّ أن أخصه بالعبادة. وثانيها: وصف الله تعالى بقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ وهذا إشارة إلى ما تقدم من الدلائل المذكورة في هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقًا لجميع النعم فأجمل هاهنا تلك المفصلات، وهذا كمن أراد صفة بعض الملوك بالقوة فيعد تلك التفاصيل ثم بعد التطويل يقول: إن كل العالم له وكل الناس في طاعته. الثاني: أمر بأن يكون من المسلمين. الثالث: أمر بأن يتلو القرآن عليهم، ولقد قام بكل ذلك صلوات الله عليه أتم قيام فمن اهتدى في هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهي التوحيد

والحشر والنبوة ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ أي منفعة اهتدائه راجعة إليه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ فلا عليَّ وما أنا إلا رسول منذر، ثم إنه سبحانه ختم هذه (السورة) بخاتمة في نهاية الحسن وهي قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أعطاني من نعمة العلم والحكمة والنبوة أو على ما وفقني من القيام بأداء الرسالة وبالإنذار ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القاهرة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ لكن حين لا ينفعكم الإيمان ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لأنه من وراء جزاء العاملين، والله أعلم.

سورة النمل

مكيةٌ كلُّها في قول الجميع، وهي ثلاثٌ وتسعون آية. وقيل: أربعٌ وتسعون آية[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ⑤ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥﴾

قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مضى الكلام في الحروف المُقطَّعة في «البقرة»[2] وغيرها. و«تِلْكَ» بمعنى هذه، أي: هذه السورةُ آياتُ القرآن وآياتُ كتابٍ مبين[3]. وذَكَرَ القرآنَ بلفظ المعرفة، وقال: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بلفظ النَّكرة، وهما في معنى المعرفة؛ كما تقول: فلانٌ رجلٌ عاقل، وفلانٌ الرجلُ العاقلُ.

والكتاب: هو القرآن، فجمَعَ له بين الصِّفتين: بأنَّه قرآنٌ وأنَّه كتاب؛ لأنَّه ما يظهر بالكتابة، ويظهر بالقراءة[4]. وقد مضى اشتقاقُهما في «البقرة»[5]. وقال في سورة الحجر [١-٢]: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ فأخرجَ الكتابَ بلفظ المعرفة والقرآنَ بلفظِ النَّكِرة؛ وذلك لأنَّ القرآنَ والكتابَ اسمانِ يصلُحُ لكلٍّ واحدٍ منهما أن يُجعَلَ معرفةً، وأن يُجعَلَ صفةً.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٤ .

(٢) ١/ ٢٣٧-٢٤٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١١٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٩٢ .

(٥) ١/ ١٦١-١٦٢ و ٢٤٥ .

ووصفَه بالمبين لأنَّه بَيَّنَ فيه أمرَه ونهيَه وحلالَه وحرامَه ووعدَه ووعيدَه[١]، وقد تقدّم[٢].

قوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ «هُدًى» في موضع نصبٍ على الحال من الكتاب، أي: تلكَ آياتُ الكتابِ هاديةً ومُبَشِّرة[٣]. ويجوزُ فيه الرفعُ على الابتداء، أي: هو هدى[٤]. وإن شئتَ على حذفِ حرف الصِّفة، أي: فيه هدى. ويجوزُ أن يكون الخبرُ «لِلْمُؤْمِنِينَ».

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وقد مضى في أوّل «البقرة»[٥] بيانُ هذا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لا يُصدِّقون بالبعث. ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ قيل: أعمالَهم السيئةَ حتى رأَوها حسنة[٦]. وقيل: زيَّنَّا لهم أعمالَهم الحسنةَ فلم يعملوها. وقال الزَّجّاج[٧]: جعلنا جزاءَهم على كفرهم أنْ زيَّنَّا لهم ما لهم فيه. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتردَّدون في أعمالهم الخبيثة، وفي ضلالتهم. عن ابن عباس. أبو العالية: يتمادَون. قتادة: يلعبون. الحسن: يتحيَّرون؛ قال الراجز:

وَمَهْمَهٍ أطرافُهُ في مَهْمَهِ ... أعْمَى الهُدى بالحائرينَ العُمَّهِ[٨]

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو جهنم. ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ

(١) النكت والعيون ٤/ ١٩٢ .

(٢) ١١/ ٢٤١ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٠٧ .

(٤) يعني: في موضع رفع على خبر ابتداءٍ مضمر كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٨ .

(٥) ١/ ٢٥١ - ٢٧٤ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٦٨ .

(٧) في معاني القرآن له ٤/ ١٠٨ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٩٣ . والرجز قائله رؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه في مجموع أشعار العرب ص١٦٦ .

﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. «فِي الآخِرَةِ» تبيينٌ وليس بمتعلِّقٍ بالأخسرين، فإنَّ من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم، فهم أخسَرُ كلِّ خاسِرٍ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يُلقى عليك فتلَقَّاه وتعلَّمُه وتأخذُه[1]. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ «لَدُنْ» بمعنى عند، إلَّا أنَّها مبنيَّةٌ غيرُ مُعرَبة؛ لأنَّها لا تتمكَّن[2]، وفيها لغاتٌ ذُكِرَتْ في «الكهف»[3]. وهذه الآية بساطٌ وتمهيدٌ لِما يُريد أن يسوق من الأقاصيص[4]، وما في ذلك من لطائفِ حكمتِه، ودقائقِ علمِه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ «إِذْ» منصوبٌ بِمُضمَرٍ وهو اذْكُرْ؛ كأنَّه قال على أثر قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾: خُذْ يا محمدُ من آثار حكمتِه وعلمِه قصةَ موسى إذ قال لأهله[5]: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرتُها من بعد. قال الحارث بن حِلِّزَة:

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٢٢ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٩٨ .

(٣) عند تفسير الآية (٦٥).

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٠ .

(٥) الكشاف ٣/ ١٣٧ .

آنَستْ نَبْأَةً وَأفزَعَها القُنَّـ ـاصُ عصراً وقد دَنا الإمساءُ[١]

﴿سَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «بِشِهابٍ قَبَسٍ» بتنوين «شِهابٍ». والباقون بغير تنوين على الإضافة[٢]، أي: بشعلة نار[٣]. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وزعمَ الفرَّاءُ في ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم: ولَدارُ الآخرة، ومسجد الجامع، وصلاة الأولى، يضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلفت أسماؤه. قال النحَّاس: إضافةُ الشيء إلى نفسِه مُحالٌ عند البصريين؛ لأنَّ معنى الإضافة في اللغة: ضمُّ شيءٍ إلى شيءٍ، فمُحالٌ أن يُضَمَّ الشيءُ إلى نفسه، وإنَّما يُضافُ الشيءُ ليتبيَّنَ به معنى الملك أو النوع، فمُحالٌ أن يتبيَّنَ أنه مالِكٌ نفسَه أو من نوعها. و«شِهابِ قبسٍ» إضافةُ النوع إلى الجنس[٤]، كما تقول: هذا ثوبُ خَزٍّ، وخاتمُ حديدٍ، وشبهه. والشهابُ: كلُّ ذي نُور، نحو: الكوكبُ والعُود الموقَدُ. والقَبسُ: اسمٌ لما يُقتَبس من جمرٍ وما أشبهه؛ فالمعنى: بشهاب من قبس. يقال: قبست[٥] قبساً؛ والاسم قبس. كما تقول: قبضت قبضاً. والاسم القبض. ومن قرأ: «بِشِهابٍ قَبَسٍ» جعله بدلاً منه[٦]. المهدوي: أو صفة له؛ لأن القبس يجوز أن يكون اسماً غير صفة، ويجوز أن يكون صفة؛ فأما كونه غير[٧] صفة فلأنهم قالوا: قبسته أقبسه قبساً والقبس المقبوس؛ وإذا كان صفةً فالأحسن أن يكون نعتاً. والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن. وهي إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وشبهه. ولو قرئ

---

(١) سلف ١٥/ ١٨٩ .

(٢) السبعة ص٤٧٨ ، والتيسير ١٦٧ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٣٧ .

(٤) في النسخ: والجنس. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) في (د): اقتبست. وفي (ظ) و(م): أقبست. والمثبت من إعراب القرآن.

(٦) من قوله: وزعم الفراء... إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ١٩٨-١٩٩ . وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٦ .

(٧) كلمة «غير» يقتضيها السياق، وهي من (م)، وليست في بقية النسخ.

بنصب قبس على البيان أو الحال لجاز[(١)]. النَّحَّاس[(٢)]: ويجوز في غير القرآن بشهابٍ قبساً على أنه مصدر أو بيان أو حال. «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» أصل الطاء تاءً فأبدلَ منها هنا طاءً؛ لأنَّ الطاءَ مُطبَقَةٌ والصادَ مُطبَقَةٌ فكان الجمعُ بينهما حسناً.

ومعناه: يستدفئون من البرد[(٣)]. يقال: اصطلى يصطلي إذا استدفأ. قال الشاعر:

النَّارُ فاكهةُ الشِّتاءِ فمن يُرِدْ أكلَ الفواكهِ شاتياً فليصْطَلِ

الزَّجَّاج[(٤)]: كل أبيض ذي نُور فهو شهاب. أبو عبيدة[(٥)]: الشهاب النار. قال أبو النَّجم:

كأنَّما كان شهاباً واقِدا أضاءَ ضوءاً ثُمَّ صارَ خامِدا

أحمد بن يحيى: أصلُ الشهاب: عُودٌ في أحدِ طَرفيه جمرةٌ والآخرُ لا نارَ فيه، وقولُ النحَّاسِ فيه حسن. والشهابُ: الشُّعاعُ المُضيء، ومنه الكوكب الذي يمدُّ ضوءَه في السماء. وقال الشاعر:

في كفِّهِ صَعْدَةٌ مُثقَّفةٌ فيها سِنانٌ كشُعلةِ القَبَسِ[(٦)]

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي: فلمَّا جاءَ موسى الذي ظنَّ أنَّه نارٌ وهي نور؛ قال[(٧)] وهب بن مُنبِّه: فلمَّا رأى موسى النَّارَ وقفَ قريباً منها، فرآها تخرجُ من فرع شجرةٍ خضراءَ شديدةِ الخُضْرةِ يُقال لها: العُلَّيق، لا تزدادُ النَّارُ إلَّا عِظَماً وتضرُّماً،

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: كان. وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٥٣١ .

(٢) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: أحسن. والكلام الآتي في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٩٩ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٩ .

(٤) في معاني القرآن له ٤/ ١٠٨ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٩٢ .

(٦) قائله أبو زبيد الطائي كما في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦١٠ ، ولفظه فيه:

فجالَ في كفِّه مُثقَّفةٌ تلمعُ فيها كشعلةِ القبسِ

(٧) في النسخ: قاله. والمثبت من النكت والعيون.

ولا تزدادُ الشَّجرةُ إلا خُضرةً وحُسناً، فعجب منها وأهوى إليها بضِغْثٍ في يده ليقتبِسَ منها، فمالَتْ إليه، فخافَها، فتأخَّرَ عنها، ثم لم تزَلْ تُطْمِعهُ ويطمَعُ فيها إلى أن وَضَحَ أمرُها على أنَّها مأمورةٌ لا يُدرى مَنْ أمَرَها، إلى أن ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[١]. وقد مضى هذا المعنى في «طه»[٢]. ﴿نُودِيَ﴾ أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢].

﴿أَنْ بُورِكَ﴾ قال الزَّجَّاج: «أنْ» في موضعِ نصب، أي: بأنه. قال: ويجوزُ أن تكون في موضعِ رَفْعٍ جعلها اسمَ ما لم يُسَمَّ فاعِلُهُ. وحكى أبو حاتم أنَّ في قراءة أُبيٍّ وابنِ عبَّاسٍ ومجاهد: «أن بُورِكَتِ النَّارُ ومَنْ حولها»[٣]. قال النحَّاس: ومِثْلُ هذا لا يوجَدُ بإسنادٍ صحيح، ولو صَحَّ لكان على التفسير، فتكونُ البركةُ راجعةً إلى النَّارِ ومَنْ حولَها الملائكة وموسى. وحكى الكسائيُّ عن العرب: باركَكَ اللهُ، وباركَ فيك[٤]. الثعلبي: العربُ تقول: باركَكَ الله، وبارَكَ فيك، وبارَكَ عليك، وبارَكَ لكَ، أربع لغات[٥]. قال الشاعر:

فَبُورِكْتَ مولوداً وبُورِكْتَ ناشِئاً ... وبُورِكْتَ عند الشَّيْبِ إذْ أنتَ أشْيَبُ[٦]

الطبري: قال: «بُورِكَ مَنْ في النَّارِ» ولم يقُلْ: بُورِكَ في مَنْ في النار[٧]، على لغةِ من يقول: باركَكَ الله[٨]. ويُقال: بارَكَه اللهُ، وبارَكَ له، وبارَكَ عليه، وبارَكَ فيه

(١) من قوله: والشهاب الشعاع... إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ١٩٤-١٩٥ .

(٢) ١٤/ ١٨-١٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠ عن أبيٍّ وحده، وهي قراءة شاذة.

(٤) من قوله: أن بورك... إلى هذا الموضع من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٩٩ . وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٠٩.

(٥) وذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨٦ ثلاث لغات، يعني: لم يذكر الأخيرة.

(٦) قائله الكميت، وهو في ديوانه ٢/ ١٨٧ (طبعة عالم الكتب).

(٧) في النسخ: بورك على النار. والمثبت من تفسير الطبري.

(٨) تفسير الطبري ١٨/ ١٢ .

بمعنًى، أي: بُورِكَ على مَنْ في النَّار وهو موسى، أو على مَنْ في قُرْبِ النَّار، لا أنَّه كان في وسطها ـ وقال السُّدِّي: كان في النار ملائكة ـ فالتبريكُ عائدٌ إلى موسى والملائكة، أي: بُورِكَ فيكَ يا موسى وفي الملائكة الذين هم حولها. وهذا تحيةٌ من الله تعالى لموسى وَتكْرِمَةٌ له، كما حيَّا إبراهيمَ على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه؛ قال: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[1] [هود: ٧٣]. وقولٌ ثالثٌ قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جُبَير: قُدِّس مَنْ في النار، وهو الله سبحانه وتعالى، عنى به نفسَه تقدَّس وتعالى[2]. قال ابن عباس ومحمد بن كعب: النَّارُ نورُ الله عزَّ وجلَّ[3]، نادى الله موسى وهو في النور[4]، وتأويل هذا: أنَّ موسى عليه السلام رأى نوراً عظيماً فظنَّه ناراً[5]؛ وهذا لأنَّ الله تعالى ظهرَ لموسى بآياتِه وكلامِه من النَّار لا أنَّه يتحيَّزُ في جهة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]. لا أنَّه يتحيَّزُ فيهما، ولكن يظهر في كلِّ فعلٍ فيعلَمُ به وجودَ الفاعل. وقيل على هذا: أي: بُورِكَ مَنْ في النار سلطانُه وقدرتُه[6]. وقيل: أي: بُورِكَ ما في النَّارِ من أمرِ الله تعالى الذي جعلَه علامةً.

قلتُ: ومما يدلُّ على صِحَّة قولِ ابن عباس ما خرَّجه مسلمٌ في «صحيحه»، وابن ماجه في «سننه» واللفظ له عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْطَ ويرفَعُه، حجابُه النُّور، لو كشفَها لأحرقَتْ سُبحاتُ وجهِه كلَّ شيءٍ أدركَهُ بصَرُه» ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٦٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٦ بنحوه. وقول السدي في النكت والعيون ٤/ ١٩٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٠٧.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦١٢٦) و(١٦١٢٧) عن ابن عباس، و(١٦١٣٤) عن محمد بن كعب.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١٣١) عن سعيد بن جبير.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٦٩.

(٦) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٩٩.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أخرجه البيهقي أيضاً. ولفظُ مسلم عن أبي موسى قال: قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ بخمسِ كلمات، فقال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينام، يخفِضُ القِسْطَ ويرفعُه، يُرفَعُ إليه عملُ الليلِ قبلَ عملِ النَّهار، وعملُ النهار قبلَ عملِ الليل، حجابُه النور ـ وفي رواية أبي بكر[١]: النار ـ لو كشفَه لأحرقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بصرُه مِنْ خَلْقِه»[٢] قال أبو عبيد[٣]: يقال: السُّبُحات إنَّها جلالُ وَجْهِه، ومنها قيل: «سُبحانَ اللهِ» إنَّما هو تعظيمٌ له وتنزيه. وقوله: «لو كشفَها» يعني: لو رفعَ الحجابَ عن أعينهم ولم يُثَبِّتْهم لرؤيته لاحترقوا وما استطاعوا لها[٤].

قال ابن جُرَيج: النارُ حِجابٌ من الحُجُب وهي سبعة حُجُب: حِجابُ العِزَّة، وحِجابُ المُلْك، وحِجابُ السلطان، وحِجاب النَّار، وحِجابُ النُّور، وحِجابُ الغمام، وحِجابُ الماء. وبالحقيقة فالمخلوق المحجوب، واللهُ لا يَحجُبه شيء[٥]، فكانتِ النارُ نوراً، وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأنَّ موسى حسِبَه ناراً، والعربُ تضَعُ أحدَهما موضِعَ الآخر.

وقال سعيد بن جُبَير: كانتِ النَّارُ بعينِها، فأسمعَه تعالى كلامَه من ناحيتِها، وأظهرَ له ربوبيتَه من جهتِها. وهو كما رُويَ أنَّه مكتوبٌ في التوراة: «جاء اللهُ من سيناء، وأشرفَ من ساعير، واستعلى من جبال فاران». فمجيئه من سيناء بِعثةُ موسى منها، وإشرافُه من ساعير بِعثةُ المسيحِ منها، واستعلاؤه من فاران بِعثةُ محمدٍ ﷺ، وفاران مكة[٦]. وسيأتي في «القصص» بإسماعه سبحانَه كلامَه من الشجرة زيادةُ بيانٍ

---

(١) يعني ابن أبي شيبة، وهي رواية عند مسلم.

(٢) صحيح مسلم (١٧٩): (٢٩٣)، وسنن ابن ماجه (١٩٦)، والأسماء والصفات للبيهقي (٣٩١) و(٣٩٢). وأخرجه أحمد (١٩٦٣٢) بلفظ مسلم، و(١٩٥٨٧) بلفظ ابن ماجه.

(٣) في غريب الحديث ٣/ ١٧٣.

(٤) إكمال المعلم ١/ ٥٣٧ بنحوه.

(٥) واضح في النص أعلاه إثبات الحجاب لله، وأنه النور أو النار وقد تكلم ابن أبي زمنين في هذه المسألة في كتابه: أصول السنة ص ١٠٦. فليراجع.

إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنزيهاً وتقديساً للهِ ربِّ العالمين. وقد تقدَّم في غير موضع، والمعنى: أي: ويقول مَنْ حولها: «وسُبْحانَ اللهِ» فحذف. وقيل: إنَّ موسى عليه السلام قاله حين فرغَ من سماع النداء؛ استعانةً بالله تعالى وتنزيهاً له. قاله السُّدِّي. وقيل: هو من قول الله تعالى. ومعناه: وبُورِكَ فيمَنْ سبَّحَ اللهَ تعالى ربَّ العالمين. حكاه ابن شجرة[(١)].

قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الهاء عمادٌ وليست بكنايةٍ في قول الكوفيين[(٢)]. والصحيح أنَّها كنايةٌ عن الأمرِ والشأن[(٣)] «أَنا اللهُ العزيزُ» الغالبُ الذي ليس كمثله شيء «الحَكِيمُ» في أمرِه وفِعْلِهِ[(٤)]. وقيل: قال موسى: يا ربِّ، مَنِ الذي نادى؟ فقال له: «إِنَّهُ» أي: إنِّي أنا المُنادي لك، أَنا اللهُ[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ قال وهب بن مُنبِّه: ظَنَّ موسى أنَّ الله أمرَه أنْ يرفُضَها فرفَضَها[(٦)]. وقيل: إنَّما قال له ذلك؛ ليعلم موسى أنَّ المُكَلِّمَ له هو الله، وأنَّ موسى رسوله؛ وكلُّ نبيٍّ لابُدَّ له من آيةٍ في نفسه يعلم بها نبوَّتَه.

وفي الآية حذف: أي: وألْقِ عصاكَ، فألقاها من يدِه فصارت حَيَّةً[(٧)] تهتز كأنَّها جانٌّ: وهي الحيَّةُ الخفيفةُ الصغيرةُ الجسم[(٨)]. وقال الكلبي: لا صغيرةً ولا كبيرةً[(٩)].

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٩٥ .

(٢) وهو قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠ . ونقل الطبري ١٨/ ١٤ عن بعض نحويِّي الكوفة أنهم يسمُّونها الهاء المجهولة.

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٩٩ بنحوه .

(٥) زاد المسير ٦/ ١٥٦ عن السدي .

(٦) النكت والعيون ٤/ ١٩٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠ ، وزاد المسير ٦/ ١٥٦ .

(٨) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٤ .

(٩) وقاله الفراء في معاني القراء ٢/ ١٨٧ .

وقيل: إنَّها قُلِبَتْ له أوّلاً حيَّةً صغيرةً، فلمَّا أنَسَ منها قُلِبَتْ حيَّةً كبيرة[١]. وقيل: انقلبت مرَّةً حيَّةً صغيرة، ومرَّةً حيَّةً تسعى وهي الأنثى، ومرَّةً ثعباناً وهو الذَّكرُ الكبيرُ من الحيَّات. وقيل: المعنى: انقلبَتْ ثعباناً تهتزُّ كأنَّها جانٌّ، لها عِظَمُ الثُّعبان وخِفَّةُ الجانِّ واهتزازُه وهي حيَّةٌ تسعى[٢]. وجمع الجانِّ جِنَّان[٣]؛ ومنه الحديث: نهى عن قتل الجِنَّانِ التي في البيوت[٤]. ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ خائفاً على عادة البشر ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجِعْ. قاله مجاهد[٥]. وقال قتادة: لم يلتفِتْ[٦]. ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي: من الحية وضررها. ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وتمَّ الكلامُ ثم استثنى استثناءً منقطعاً فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾. وقيل: إنه استثناءٌ من محذوف، والمعنى: إنِّي لا يخافُ لديَّ المرسلون، وإنَّما يخاف غيرُهم مِمَّن ظَلم ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فإنَّه لا يخاف. قاله الفرَّاء.

قال النَّحَّاس: استثناءٌ من محذوفٍ مُحال؛ لأنَّه استثناءٌ من شيءٍ لم يُذكَرْ، ولو جازَ هذا لجازَ: إنِّي لأضرِبُ القومَ إلَّا زيداً، بمعنى: إنِّي لا أضرِبُ القومَ، وإنَّما أضرِبُ غيرَهم إلَّا زيداً، وهذا ضِدُّ البيان، والمجيءُ بما لا يُعرَفُ معناه. وزعَمَ الفرَّاء أيضاً أنَّ بعضَ النَّحْويِّين يجعل إلَّا بمعنى الواو، أي: ولا مَنْ ظلم؛ قال:

وكُلُّ أخٍ مُفارِقُه أخوهُ لَعَمْرُ أبيكَ إلَّا الفَرْقَدانِ[٧]

قال النَّحَّاس: وكَوْنُ «إلَّا» بمعنى الواو لا وجهَ له، ولا يجوز في شيءٍ من الكلام، ومعنى «إلَّا» خلافُ الواو؛ لأنَّكَ إذا قلتَ: جاءني إخوتُكَ إلَّا زيداً ممَّا دخلَ

---

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٢٦ .

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢٠٠ .

(٣) الصحاح (جنن).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٥٤٧)، والبخاري (٣٣١٢)، ومسلم (٢٢٣٣) من حديث أبي لبابة ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٥ ، وهو في تفسيره ٢/ ٤٦٩ .

(٦) أخرجه عبد الرازق في تفسيره ٢/ ٧٩ ، والطبري ١٨/ ١٥ .

(٧) سلف ١١/ ٥٤ .

فيه الإخوةُ، فلا نِسبةَ بينهما ولا تقارُبَ[١]. وفي الآية قولٌ آخر: وهو أن يكون الاستثناءُ متصلاً، والمعنى: إلَّا مَنْ ظلَمَ من المرسلين بإتيان الصغائرِ التي لا يَسلَمُ منها أحد، سوى ما رُويَ عن يحيى بن زكريا عليهما السلام، وما ذكره الله تعالى في نبيِّنا عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ذكره المَهدَويُّ واختاره النحَّاس، وقال: عَلِمَ اللهُ من عصى منهم يُسِرُّ الخيفةَ[٢]، فاستثناه فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فإنه يخافُ وإنْ كنتَ قد غفرتَ له[٣]. الضَّحَّاك: يعني آدمَ وداودَ عليهما السلام. الزَّمخشري[٤]: كالذي فَرَطَ من آدمَ ويونسَ وداودَ وسليمانَ وإخوةِ يوسف، ومن موسى عليه السلام بِوَكزِه القِبطي.

فإن قال قائلٌ: فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة؟ قيل له: هذه سبيلُ العلماءِ بالله عزَّ وجلَّ أن يكونوا خائفين من معاصيهم وَجِلين، وهم أيضاً لا يأمنون أن يكون قد بقي من أشراط التوبة شيءٌ لم يأتوا به، فهم يخافون من المُطالبةِ به[٥]. وقال الحسن وابن جُريج: قال الله لموسى: إني أَخَفْتُكَ لقتلِكَ النفس. قال الحسن: وكانتِ الأنبياءُ تُذنِبُ فتُعاقَبُ[٦]. قال الثعلبي والقشيري والماوردي[٧] وغيرهم: فالاستثناء على هذا صحيح، أي: إلَّا مَنْ ظلَمَ نفسَه من النبيِّين والمرسلين فيما فعَلَ من صغيرةٍ قبلَ النبوة. وكان موسى خافَ من قتل القِبطيِّ وتابَ منه. وقد قيل: إنَّهم

(١) من قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾... إلى هذا الموضع دون ذكر البيت من إعراب القرآن ٣/ ١٩٩-٢٠٠. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٧.

(٢) قوله: «يُسِرُّ الخيفة» من إعراب القرآن وهو ليس في النسخ.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٠.

(٤) في الكشاف ٣/ ١٣٨.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٠.

(٦) هذا بتمامه من قول الحسن وحده كما أخرجه الطبري ١٨/ ١٦، أما قول ابن جريج فلفظه: لا يُخيف الله الأنبياء إلا بذنبٍ يصيبُه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يأخذه منه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ١٩٧ بنحو ما سيرد.

بعد النبوة معصومونَ من الصغائر والكبائر. وقد مضى هذا في «البقرة»[١].

قلتُ: والأوّلُ أصَحُّ لِتنصُّلِهم من ذلك في القيامة كما في حديث الشفاعة، فإذا أحدثَ المُقرَّبُ حدَثاً فهو وإنْ غُفِرَ له ذلك الحدَثُ فأثرُ ذلك الحدثِ باقٍ، وما دام الأثرُ والتُّهمَةُ قائمةً فالخوف كائنٌ، لا خَوْفَ العقوبةِ ولكِنْ خَوْفَ العَظِمةِ، والمُتَّهمُ عند السلطان يجِدُ لِلتُّهمَةِ حزازةً تؤدِّيه إلى أن يُكَدِّر عليه صفاءُ الثقة. وموسى عليه السلام قد كان منه الحدَثُ في ذلك الفِرعوني، ثم استغفر وأقَرَّ بالظلم على نفسه، ثم غفَرَ له، ثم قال بعد المغفرة: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] ثم ابتُليَ من الغدِ بالفرعونيِّ الآخَرِ وأراد أن يبطِشَ به، فصار حدَثاً آخر بهذه الإرادة. وإنَّما ابتُليَ من الغدِ؛ لقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وتلك كلمةُ اقتدارٍ من قولهِ: لن أفعل، فعُوقِبَ بالإرادة حينَ أرادَ أن يبطِشَ ولم يفعل، فسُلِّطَ عليه الإسرائيليُّ حتى أفشى سرَّه؛ لأنَّ الإسرائيليَّ لمَّا رآه تشمَّرَ للبطش ظنَّ أنه يُريدُه، فأفشى عليه فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] فهربَ الفِرعونيُّ وأخبر فرعونَ بما أفشى الإسرائيليُّ على موسى، وكان القتيلُ بالأمس مكتوماً أمرُه لا يُدْرَى مَنْ قتَلَه، فلمَّا عَلِمَ فرعونُ بذلك، وجَّه في طلب موسى يقتُلَه، واشتدَّ الطَّلَبُ، وأخذوا مَجامِعَ الطُّرُق؛ جاءَ رجلٌ يسعى فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الآية [القصص: ٢٠]، فخرج كما أخبر الله. فَخوفُ موسى إنَّما كان من أجل هذا الحدَثِ، فهو وإن قَرَّبه ربُّه وأكرَمَه واصطفاه بالكلام فالتُّهمَةُ الباقيةُ ولَّتْ به ولم يُعقِّبْ.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ تقدَّم في «طه»[٢] القولُ فيه. ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ قال النَّحَّاس[٣]: أحسَنُ ما قيل فيه أنَّ المعنى: هذه الآيةُ داخلةٌ

---

(١) ١/٤٥٨ - ٤٦٠.

(٢) ١٤/٤٩ - ٥٠.

(٣) في إعراب القرآن ٣/٢٠١.

في تسع آيات. المهدَويُّ: المعنى: «أَلْقِ عَصاكَ» «وأدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ»، فهما آيتانِ من تسع آيات[(١)]. وقال القُشَيريُّ: معناه: كما تقول: خرجتُ في عشرة نَفَرٍ وأنتَ أحَدُهم. أي: خرجتُ عاشِرَ عشرة.

ف «في» بمعنى «من» لِقُرْبها منها، كما تقول: خُذْ لي عشراً من الإبل فيها فحلان أي: منها. وقال الأصمعيُّ في قول امرئ القيس:

وهل يَنْعَمَنْ مَنْ كان آخِرُ عهدِهِ ثلاثينَ شهراً في ثلاثةِ أحوالِ[(٢)]

في بمعنى من. وقيل: في بمعنى مع[(٣)]، فالآيات عشرةٌ منها اليد، والتسع: الفَلْقُ والعصا والجرادُ والقُمَّلُ والطُّوفانُ والدَّمُ والضفادعُ والسِّنينَ والطَّمْسُ. وقد تقدَّم بيانُ جميعِه[(٤)]. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ قال الفرَّاء: في الكلام إضمارٌ لدِلالةِ الكلامِ عليه، أي: إنك مبعوثٌ أو مُرسلٌ إلى فرعونَ وقومه[(٥)]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: واضحةً بيِّنة[(٦)]. قال الأخفش[(٧)]: ويجوزُ مَبْصَرة وهو مصدر، كما يُقال: الولدُ مَجْبَنة. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ جَرَوا على عادتهم في التكذيب؛ فلهذا قال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي: تيقَّنوا أنَّها من عند الله وأنَّها ليست سحراً، ولكنَّهم كفروا بها وتكبَّروا أن يؤمنوا بموسى[(٨)]. وهذا يدلُّ على أنهم كانوا مُعانِدين. و«ظُلْماً» و«عُلُوًّا» منصوبان على نعتِ

---

(١) وقاله النحاس في معاني القرآن ٥/ ١١٨ .
(٢) ديوان امرئ القيس ص٢٧ ، وفيه: وهل يَعِمَنْ من كان أحدثَ عهدِهِ .
(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١١٨ .
(٤) عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الإسراء .
(٥) معاني القرآن للفراء ٤/ ٢٨٨ بنحوه .
(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٠٨ ، وزاد المسير ٦/ ١٥٨ .
(٧) فيما نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٠١ .
(٨) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١١ بنحوه .

مصدرٍ محذوف، أي: وجَحدوا بها جُحوداً ظلماً وعُلُوًّا. والباء زائدة، أي: وجحدوها. قاله أبو عبيدة[١]. ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: آخِرُ أمرِ الكافرين الطاغين، انظر ذلك بِعَينِ قلبِكَ وتدَبَّرْ فيه. الخطابُ له والمُرادُ غيرُه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ أي فهماً. قاله قتادة. وقيل: علماً بالدين والحكم وغيرهما كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقيل: صنعة الكيمياء. وهو شاذ[٣]. وإنَّما الذي آتاهما اللهُ النبوَّةُ والخلافةُ في الأرض والزَّبورُ. ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي الآية دليلٌ على شرف العلم وإنافةِ مَحلِّه وتَقدُّمِ حَمَلتهِ وأهلهِ، وأنَّ نعمةَ العلم من أجَلِّ النِّعَمِ وأجْزَلِ القِسَمِ، وأنَّ مَنْ أُوتِيَه فقد أُوتيَ فضلاً على كثيرٍ من عباد الله المؤمنين؛ ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١]. وقد تقدَّم هذا في غيرِ موضع.

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾ قال الكلبي: كان لداودَ ﷺ تسعةَ عشرَ ولداً، فوَرِثَ سليمانُ من بينهم نُبوَّتَه ومُلْكَه، ولو كان وراثةَ مال لَكانَ جميعُ أولادِه فيه سواء[٤]. وقاله ابنُ العربي[٥]؛ قال: فلو كانت وراثةَ مالٍ لانقسمَتْ على العدد، فَخصَّ اللهُ سليمانَ بما كان لداودَ

---

(١) فيما نقله عنه الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢٠٢.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٤ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٩٧ - ١٩٨. وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦١٧٩).

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٩٨.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٦.

من الحكمة والنبوَّة، وزادَه من فضله ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده. قال ابن عطية[١]: داودُ من بني إسرائيل، وكان ملِكاً، وورِثَ سليمانُ مُلكَه ومنزلَتَه من النبوَّة، بمعنى: صار إليه ذلكَ بعد موتِ أبيه، فسُمِّي ميراثاً تجوُّزاً، وهذا نحوُ قوله: «العلماءُ ورَثَةُ الأنبياء»[٢]. ويَحتمِلُ قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّا معشَرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ»[٣] أنْ يُريدَ أنَّ ذلِكَ مِنْ فِعْلِ الأنبياءِ وسيرتِهم، وإن كان فيهم مَنْ وُرِثَ مالُه كزكرياء على أشهرِ الأقوال فيه، وهذا كما تقول: إنَّا معشرَ المسلمين إنَّما شغَلَتْنا العبادةُ، والمُرادُ أنَّ ذلِكَ فِعْلُ الأكثر. ومنه ما حكى سيبويه: إنَّا معشرَ العربِ أقرى النَّاسِ لِلضَّيف.

قلتُ: قد تقدَّم هذا المعنى في «مريم»[٤] وأنَّ الصحيحَ القولُ الأوَّلُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّا معشرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ» فهو عامٌّ، ولا يخرجُ منه شيءٌ إلَّا بدليل.

قال مقاتل: كان سليمانُ أعظمَ مُلكاً من داودَ وأقضى منه، وكان داودُ أشدَّ تعبُّداً من سليمان[٥]. قال غيرُه: ولم يبلُغْ أحدٌ من الأنبياء ما بلَغَ ملكُه؛ فإنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى سخَّر له الإنسَ والجِنَّ والطيرَ والوحشَ، وآتاه ما لم يُؤْتِ أحداً من العالمين، وورِثَ أباه في المُلْكِ والنبوَّة، وقام بعدَه بشريعتِه، وكلُّ نبيٍّ جاء بعد موسى مِمَّنْ بُعِثَ أو لم يُبعَثْ فإنَّما كان بشريعة موسى، إلى أن بُعِثَ المسيحُ عليه السلام فنسخَها. وبينَه وبينَ الهجرة نحوٌ من ألفٍ وثمانِ مئة سنة. واليهودُ تقول: ألفٌ وثلاثُ مئةٍ واثنتانِ وسِتُّون سنة. وقيل: إنَّ بين موتِه وبينَ مولدِ النبيِّ ﷺ نحواً من ألفٍ وسبعِ مئة، واليهودُ تُنقِصُ منها ثلاثَ مئةِ سنة، وعاش نَيِّفاً وخمسين سنة.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣.

(٢) سلف ٥/ ٦٤.

(٣) سلف ١١/ ٧٨.

(٤) عند تفسير الآية (٦).

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩١، وعرائس المجالس ص٢٩٤، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: قال سليمانُ لبني إسرائيل على جهةِ الشُّكرِ لنِعَمِ الله: «عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ» أي: تفضَّلَ اللهُ علينا على ما ورَّثنا من داود من العلمِ والنبوَّةِ والخلافةِ في الأرض في أنْ فهَّمَنا من أصواتِ الطيرِ المعاني التي في نفوسنا.

قال مقاتلٌ في الآية: كان سليمانُ جالساً ذاتَ يومٍ إذْ مرَّ به طائرٌ يطوف، فقال لجُلسائه: أتدرونَ ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لي: السلامُ عليكَ أيُّها الملِكُ المُسَلَّطُ والنبيُّ لبني إسرائيل، أعطاكَ اللهُ الكرامةَ، وأظهركَ على عدوِّكَ، إني منطلِقٌ إلى أفراخي ثم أمُرُّ بكَ الثانية ـ وإنه سيرجعُ إلينا الثانية ـ ثمَّ رجعَ فقال: إنَّه يقول: السلامُ عليكَ أيُّها الملِكُ المُسَلَّطُ، إنْ شئتَ أن تأذَنَ لي كيما أكتسِبَ على أفراخي حتى يشِبُّوا، ثم آتيكَ فافعَلْ بي ما شئتَ. فأخبرَهم سليمانُ بما قال، وأذِنَ له فانطلَقَ. وقال فَرْقَد السَّبَخِيُّ: مرَّ سليمانُ على بلبلٍ فوقَ شجرةٍ يُحرِّكُ رأسَه ويُميلُ ذَنَبَه، فقال لأصحابه: أتدرونَ ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: لا يا نبيَّ الله. قال: إنَّه يقول: أكلتُ نِصْفَ تمرةٍ فعلى الدنيا العَفَاء[1].

ومرَّ بهُدهدٍ فوق شجرة وقد نصبَ له صبيٌّ فخًّا، فقال له سليمان: احذَرْ يا هُدْهُدُ. فقال: يا نبيَّ الله، هذا صبيٌّ لا عقْلَ له فأنا أسخَرُ به. ثم رجعَ سليمانُ فوجدَه قد وقَعَ في حِبالةِ الصبيِّ وهو في يده، فقال: هُدْهُدُ ما هذا؟ قال: ما رأيتُها حتى وقعتُ فيها يا نبيَّ الله. قال: ويحك! فأنتَ ترى الماء تحتَ الأرض أما ترى الفَخَّ؟! قال: يا نبيَّ الله، إذا نزلَ القضاءُ عميَ البصرُ[2].

وقال كعب: صاحَ وَرَشان[3] عند سليمانَ بنِ داود، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: لِدُوا للموتِ وابْنوا للخراب. وصاحَتْ فاختة[4]، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: ليتَ هذا الخَلْقَ لم يُخلَقوا، وليتَهم إذْ خُلِقوا عَلِموا

---

(١) عرائس المجالس ص٢٩٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩.

(٢) سيرد نحوه عند تفسير الآية (٢٠).

(٣) الوَرَشان: طائر يشبه الحمامة. اللسان (ورش).

(٤) جمعها فواخت: وهي ضربٌ من الحمام المُطوَّق. اللسان (فخت).

لماذا خُلِقوا. وصاح عنده طاوس، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّه يقول: كما تَدينُ تُدان. وصاح عنده هُدهد، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: فإنَّه يقول: من لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ. وصاحَ صُرَدٌ عنده، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: استغفِروا اللهَ يا مذنبين، فمِنْ ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتله ـ وقيل: إن الصُّرَدَ هو الذي دلَّ آدمَ على مكان البيت، وهو أوَّلُ من صام؛ ولذلك يُقال للصُّردِ: الصوَّام. رُويَ عن أبي هريرة ـ وصاحت عنده طِيطَوى[1]، فقال: أتدرونَ ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: كلُّ حيٍّ ميِّتٌ، وكلُّ جديدٍ بالٍ. وصاحت خُطَّافةٌ عنده، فقال: أتدرونَ ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: قدِّموا خيراً تجدوه. فمِنْ ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتلها ـ وقيل: إنَّ آدمَ خرجَ من الجنة فاشتكى إلى اللهِ الوَحشة، فآنَسَه اللهُ تعالى بالخُطَّافِ وألزمَها البيوت، فهي لا تُفارقُ بني آدمَ أُنساً لهم. قال: ومعها أربعُ آياتٍ من كتاب اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ [الحشر: ٢١] إلى آخرِها وتمدُّ صوتَها بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ـ وهدرَتْ حمامةٌ عند سليمانَ فقال: أتدرونَ ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: سُبحانَ ربيَ الأعلى عدد ما في سماواتِه وأرضِه. وصاح قُمْريٌّ عند سليمان، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّه يقول: سُبحان ربيَ العظيم المهيمن[2]. وقال كعب: وحدَّثَهم سليمانُ فقال: الغرابُ يقول: اللهمَّ الْعَنِ العَشَّار. والحِدأَةُ تقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾. والقَطاةُ تقول: مَنْ سكتَ سَلِمَ. والببغاءُ تقول: ويلٌ لمن الدُّنيا هَمُّه. والضفدع يقول: سُبحانَ ربِّيَ القُدُّوس. والبازي يقول: سُبحانَ ربِّي وبحمدِه. والسرطان[3] يقول: سُبحانَ المذكورِ بكلِّ لسانٍ في كلِّ مكان[4].

وقال مكحول: صاحَ دُرَّاجٌ[5] عند سليمان، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا.

---

(١) الطيطوى: طائر من طيور الماء لا يفارق الآجام وكثرة الماء. معجم متن اللغة ٣/٦٤٨ .

(٢) في عرائس المجالس: «سبحان الحي الذي لا يموت أبداً» وفي تفسير البغوي: «سبحان ربي الأعلى».

(٣) في عرائس المجالس: والعصفور. وفي تفسير البغوي: والضفدعة.

(٤) عرائس المجالس ص٢٩٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩ . وما بين اعتراض ليس فيهما.

(٥) الدُّرَّاج: طائرٌ ظاهرُ جناحه أغبر، وباطنه أسود، وهو شبيهٌ بالحجل. معجم متن اللغة (درج).

قال: إنه يقول: الرَّحمنُ على العرشِ استوى[(١)]. وقال الحسن: قال النبي ﷺ: «الديك إذا صاح قال: اذكروا الله يا غافلين[(٢)]». وقال الحُسين[(٣)] بن علي بن أبي طالب: قال النبيُّ ﷺ: «النَّسرُ إذا صاحَ قال: يا ابنَ آدمَ، عِشْ ما شئتَ فآخِرُكَ الموتُ. وإذا صاحَ العُقَابُ قال: في البُعْدِ من النَّاسِ الرَّاحة. وإذا صاحَ القُنْبرُ قال: إلهي الْعَنْ مُبغِضي آلِ محمدٍ. وإذا صاحَ الخُطَّاف قرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى آخرها، فيقول: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ويمدُّ بها صوتَه كما يمدُّ القارئ»[(٤)].

قال قَتادة والشَّعبي: إنَّما هذا الأمرُ في الطير خاصَّةً؛ لقوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ والنَّملةُ طائرٌ إذ قد يُوجَدُ له أجنحة. قال الشَّعبي: وكذلِكَ كانت هذه النَّملةُ ذاتَ جناحين. وقالت فرقةٌ: بل كان في جميع الحيوان، وإنَّما ذكر الطير؛ لأنَّه كان جُنداً من جند سليمان يحتاجه في التَّظليلِ عن الشمس وفي البعث في الأمور، فخُصَّ بالذِّكرِ لكثرة مداخَلتِه، ولأنَّ أمْرَ سائرِ الحيوان نادرٌ وغيرُ مُتردِّدٍ تَرداد أمرِ الطير[(٥)].

وقال أبو جعفر النَّحَّاس[(٦)]: والمنطِقُ قد يقَعُ لِما يُفهِمُ بغير كلام، واللهُ جلَّ وعزَّ أعلَمُ بما أراد. قال ابن العربي[(٧)]: من قال: إنه لا يعلم إلَّا منطقَ الطير فنُقصانٌ عظيم، وقدِ اتَّفقَ الناسُ على أنَّه كان يفهمُ كلامَ مَنْ لا يتكلَّمُ ويُخلَقُ له فيه القولُ من النبات، فكان كلُّ نبتٍ يقول له: أنا شجَرُ كذا، أنفَعُ من كذا، وأضُرُّ من كذا، فما ظنُّكَ بالحيوان؟!

---

(١) عرائس المجالس ص٢٩٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩.

(٢) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٢٩٧ من طريق صالح بن بشير المري، عن الحسن ـ وهو البصري ـ مرفوعاً. إسناده منقطع، وصالح المري ضعيف. تهذيب التهذيب ٢/ ١٨٩-١٩٠. وذكره الديلمي في الفردوس (٣١٢٩) موقوفاً، وقال: عن الحسن، وربما هو ابن علي.

(٣) في النسخ: الحسن. والمثبت من المصادر.

(٤) هو في عرائس ص٢٩٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩ موقوف على الحسين ﷺ.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠١.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٩.

قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ﴾ «حُشِرَ» جُمِعَ[١]، والحَشْرُ: الجَمْعُ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧]. واختلفَ الناسُ في مقدارِ جُنْدِ سليمانَ عليه السلام، فيُقال: كان معسكرُه مئةَ فرسَخٍ في مئة: خمسةٌ وعشرون للجنِّ، وخمسةٌ وعشرون للإنس، وخمسةٌ وعشرون للطير، وخمسةٌ وعشرون للوحش، وكان له ألفُ بيتٍ من قواريرَ على الخشب، فيها ثلاثُ مئةِ منكوحةٍ وسبعُ مئة سُرِّيَّة[٢]. ابن عطية: واختُلِفَ في مُعسكرِه ومقدارِ جُنْدِهِ اختلافاً شديداً، غيرَ أنَّ الصحيحَ أنَّ مُلْكَه كان عظيماً مِلأَ الأرض، وانقادت له المعمورةُ كلُّها. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ معناهُ: يُرَدُّ أوَّلهُم إلى آخرهم ويُكَفُّون. قال قتادة: كان لكلِّ صنفٍ وَزَعةٌ في رتبتهم ومواضعهم من الكرسيِّ ومن الأرض إذا مَشَوا فيها[٣]. يقال: وزِعْتُه أُوزِعُه وزَعاً أي: كفَفْتُه. والوازِعُ في الحرب: المُوكَلُ بالصفوف يزَعُ مَنْ تَقدَّمَ منهم[٤]. روى محمد بن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكرٍ قالت: لمَّا وقفَ رسولُ الله ﷺ بذي طُوى - تعني يوم الفتح - قال أبو قُحافة - وقد كُفَّ بصرُه يومئذٍ - لابنتِه: اظْهَري بي على أبي قُبَيْس. قالت: فأشَرفْتُ به عليه، فقال: ما تَرَيْنَ؟ قالت: أرى سواداً مُجتمِعاً. قال: تلكَ الخَيلُ. قالت: وأرى رجلاً من السَّواد مُقبِلاً ومُدبِراً. قال: ذلِكَ الوازِعُ يمنعُها أن تنتشِرَ. وذكر تمام الخبر[٥]. ومن هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «ما رُؤِيَ الشيطانُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٠ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٧٢ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٤١٠ عن محمد بن كعب القرظي.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣ .

(٤) تهذيب اللغة ٣/ ٩٩ .

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن عبد البر في التمهيد ١/ ١١٧-١١٨ . وأخرجه أحمد (٢٦٩٥٦).

يوماً هو فيه أصغَرَ ولا أدْحَرَ ولا أحقَرَ ولا أغْيَظَ منه في يوم عرفةَ، وما ذاكَ إلَّا لِما رأى من تَنزُّلِ الرحمةِ وتَجاوُزِ اللهِ عن الذنوبِ العِظامِ، إلَّا ما رأى يومَ بدر» قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: «أما أنَّه رأى جبريلَ يَزَعُ الملائكة» خرَّجه الموطأ[1].

ومن هذا المعنى قولُ النَّابغة[2]:

على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبا وقلتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ

آخر:

ولمَّا تلاقَينا جَرَتْ من جُفونِنا دموعٌ وَزَعْنا غَرْبَها بالأصابعِ[3]

آخر:

ولا يَزَعُ النَّفْسَ اللَّجوجَ عن الهوى من النَّاسِ إلَّا وافِرُ العقلِ كامِلُهْ

وقيل: هو من التوزيع، بمعنى التفريق. والقوم أوزاع، أي: طوائف.

وفي القصة: إنَّ الشياطين نسجَتْ له بساطاً فرسخاً في فرسخٍ ذهباً في إبريسِمَ، وكان يُوضَعُ له كرسيٌّ من ذهبٍ وحولَه ثلاثةُ آلافِ كُرسيٍّ من ذهبٍ وفضَّةٍ، فيقعدُ الأنبياءُ على كراسيِّ الذَّهب، والعلماءُ على كراسيِّ الفِضَّة[4].

الثانية: في الآية دليلٌ على اتِّخاذِ الإمامِ والحُكَّام وَزَعةً يكُفُّون الناسَ ويمنعونَهم من تطاولِ بعضِهم على بعض؛ إذ لا يُمكِنُ الحكام ذلك بأنفسهم.

وقال ابن عون: سمعتُ الحسنَ يقول وهو في مجلس قضائه لمَّا رأى ما يصنعُ الناسُ قال: واللهِ ما يُصلِحُ هؤلاء الناسَ إلا وَزَعةٌ[5]. وقال الحسنُ أيضاً: لا بُدَّ

---

(١) ١/ ٤٢٢ ، وقد سلف ٣/ ٣٣٩ .

(٢) وهو الذبياني، وقد سلف ٨/ ٣٠٨ .

(٣) قائله المعلوط السعدي كما في التمهيد ١/ ١١٧ . وذكر البيت الذي يليه من غير نسبة.

(٤) عرائس المجالس ص٢٩٦ .

(٥) التمهيد ١/ ١١٨ .

للناس من وازع، أي: من سلطانٍ يَكُفُّهم[١]. وذكرَ ابنُ القاسم قال: حدَّثنا مالكٌ أنَّ عثمانَ بن عفان كان يقول: ما يَزَعُ الإمامُ أكثرُ ممَّا يَزعُ القرآن، أي: من الناس. قال ابن القاسم: قلتُ لمالك: ما يَزَعُ؟ قال: يَكُفُّ[٢]. قال القاضي أبو بكر ابن العربي[٣]: وقد جهِلَ قومٌ المُرادَ بهذا الكلام، فظنُّوا أنَّ المعنى فيه[٤] أنَّ قُدرة السلطانِ تردَعُ الناسَ أكثرَ ممَّا تردَعُهم حدودُ القرآن، وهذا جهلٌ باللهِ وحكمتِه. قال: فإنَّ اللهَ ما وضعَ الحدودَ إلَّا مصلحةً عامَّةً كافَّةً قائمةً لِقوامِ الخلق، لا زيادةَ عليها، ولا نقصانَ معها، ولا يصلُحُ سواها، ولكنَّ الظَّلَمةَ خاسوا بها، وقَصَّروا عنها، وأَتوا ما أتوا بغير نية، ولم يقصِدوا وجهَ الله في القضاء بها، فلم يرتدِعِ الخلقُ بها، ولو حكموا بالعدل، وأخلصوا النية، لاستقامَتِ الأمور، وصلَحَ الجمهور.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ قال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّه وادٍ بأرض الشام. وقال كعب: هو بالطائف. ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ قال الشَّعبي: كان للنملةِ جناحانِ فصارت من الطير؛ فلذلِكَ عَلِمَ منطِقَها، ولولا ذلك لَما عَلِمَه[٥]. وقد مضى هذا ويأتي. وقرأ سليمان التَّيمي بمكة: «نَمُلَةٌ» و«النَّمُلُ» بفتح النون وضمِّ الميم.

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩١ .

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ١١٨ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٨-١٤٣٩ .

(٤) كلمة «فيه» من (م) ومن أحكام القرآن.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٩٩ .

وعنه أيضاً ضَمُّهما جميعاً[(١)]. وسُمِّيتِ النَّملةُ نملةً لتنمُّلِها وهو كثرةُ حركتِها وقِلَّةِ قرارِها[(٢)]. قال كعب: مرَّ سليمانُ عليه السلام بوادي السَّدير من أوديةِ الطائف، فأتى على وادي النمل، فقامت نملةٌ تمشي وهي عرجاءُ تتكاوس[(٣)]، [وكانت[(٤)]] مثلَ الذِّئب في العِظَم، فنادت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ الآية[(٥)]. الزمخشري: سمعَ سليمانُ كلامَها من ثلاثةِ أميال، وكانت تمشي وهي عرجاءُ تتكاوس. وقيل: كان اسمُها طاخية[(٦)].وقال السُّهيلي[(٧)]: ذكروا اسمَ النَّملةِ المُكلِّمةِ لسليمانَ عليه السلام، وقالوا: اسمها حرميا، ولا أدري كيف يُتَصَوَّرُ للنملة اسمُ عَلمٍ، والنمل لا يُسمِّي بعضُهم بعضاً، ولا الآدميُّون يمكنهم تسمية واحدةٍ منهم باسم عَلَم؛ لأنَّه لا يتميَّز للآدميين بعضُهم من بعض، ولا هم أيضاً واقعون تحت ملكة بني آدم كالخيل والكلاب ونحوها، فإنَّ العلَميةَ فيما كان كذلك موجودةٌ عند العرب. فإن قلتَ: إنَّ العلمية موجودةٌ في الأجناس كثُعَالة وأُسَامة وجَعَارِ وقَثَامِ في الضَّبع ونحو هذا كثير، فليس اسمُ النملةِ من هذا؛ لأنَّهم زعموا أنه اسمُ عَلَمٍ لنملةٍ واحدةٍ معينةٍ من بين سائر النمل، وثُعالةُ ونحوُه لا يختَصُّ بواحدٍ من الجنس، بل كلُّ واحدٍ رأيتَه من ذلك الجنس فهو ثُعالة، وكذلك أُسامة وابن آوى وابن عرس وما أشبه ذلك. فإنْ صَحَّ ما قالوه فله وجه، وهو أن تكون هذه النملةُ الناطقةُ قد سُمِّيتْ بهذا الاسم في التوراة أو

---

(١) المحتسب ٢/ ١٣٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣، وهما قراءتان شاذتان. والقراءة الأولى ذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٠٨ عن طلحة بن مصرف والمعتمر بن سليمان، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦١ عن طلحة وأبي مجلز وأبي رجاء وعاصم الجحدري.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٠٠.

(٣) من الكَوْس: وهو المشي على رجلٍ واحدة، ومن ذوات الأربع على ثلاث قوائم. اللسان (كوس).

(٤) كلمة «وكانت» من عرائس المجالس.

(٥) عرائس المجالس ص٢٩٨-٢٩٩.

(٦) الكشاف ٣/ ١٤١. وهكذا وردت تسمية النملة في عرائس المجالس ص٢٩٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤١١ عن الضحاك.

(٧) في التعريف والإعلام ص١٢٦-١٢٧.

في الزَّبور أو في بعض الصُّحُف سمَّاها اللهُ تعالى بهذا الاسم، وعرَفَها به الأنبياءُ قبل سليمانَ أو بعضُهم. وخُصَّتْ بالتسمية لنطقها وإيمانِها، فهذا وجه. ومعنى قولنا: بإيمانها أنها قالت للنمل: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ التفاتةُ مؤمن.أي: مِنْ عدل سليمانَ وفضلِه وفضلِ جنوده لا يحطمون نملةً فما فوقها إلا بألَّا يشعروا. وقد قيل: إن تبسُّمَ سليمانَ سرورٌ بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكَّدَ التبُّسمَ بقوله: ﴿ضَاحِكًا﴾ إذ قد يكون التبسُّمُ من غيرِ ضحكٍ ولا رضا، ألا تراهم يقولون: تبسَّمَ تبسُّمَ الغضبان، وتبسَّمَ تبسُّمَ المستهزئين. وتبسُّمُ الضحكِ إنَّما هو عن سرور، ولا يُسَرُّ نبيٌّ بأمر دنيا، وإنما سُرَّ بما كان من أمر الآخرة والدِّين. وقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارةٌ إلى الدِّين والعدل والرأفة. ونظيرُ قولِ النَّملةِ في جندِ سليمانَ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قولُ اللهِ تعالى في جند محمدٍ ﷺ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥] التفاتاً إلى أنهم لا يقصدون هَدْرَ مؤمن. إلَّا أنَّ المُثني على جندِ سليمانَ هي النملة بإذن الله تعالى، والمُثني على جندِ محمدٍ ﷺ هو اللهُ عزَّ وجلَّ بنفسِه؛ لِما لجنودِ محمدٍ ﷺ من الفضل على جندِ غيرِه من الأنبياء، كما لمحمدٍ ﷺ فضلٌ على جميع النبيِّين صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

وقرأ شهر بن حَوْشب: «مَسْكَنَكُمْ» بسكون السين على الإفراد. وفي مصحف أُبيٍّ: «مَسَاكِنَكُنَّ لا يَحْطِمَنْكُمْ»(١). وقرأ سليمان التَّيمي: «مَسَاكِنَكُنَّ(٢) لَا يَحْطِمَنْكُنَّ» ذكره النَّحَّاس(٣). أي: لا يكسِرُنَّكم بوَطْئِهم عليكم وهم لا يعلمون بكم(٤).

قال المهدوي: وأفهمَ اللهُ تعالى النملةَ هذا لتكون معجزةً لسليمان. وقال وهب:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ ، وقراءة شهر في الشاذة ص١٠٨ ، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦١ عن أبي بن كعب وأبي المتوكل وعاصم الجحدري.

(٢) في النسخ: مساكنكم. والمثبت من معاني القرآن للنحاس.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ١٢١ .

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٨ .

أمر اللهُ تعالى الريحَ ألَّا يتكلم أحد بشيء إلا طرحته في سمع سليمان؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيده. وقد قيل: إن هذا الوادي كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد. قاله الكلبيّ. وقال نَوْف الشامي وشَقيق بن سَلَمة: كان نمل ذلك الوادي كهيئة الذئاب في العظم[1]. وقال بُرَيْدَة الأسلمي: كهيئة النعاج[2]. قال محمد بن علي التِّرمذي: فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت، وإنما افتقد صوت النمل لصغر خلقها، وإلا فالأصوات في الطيور والبهائم كائنة، وذلك منطقهم، وفي تلك المناطق معاني التسبيح وغير ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قلت: وقوله «لَا يَحْطِمَنَّكُمْ» يدلُّ على صحة قول الكلبي؛ إذ لو كانت لهيئة الذئاب والنعاج لما حطمت بالوطء؛ والله أعلم. وقال: «ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ» فجاءَ على خطاب الآدميِّين؛ لأنَّ النملَ هاهنا أُجْرِيَ مجرى الآدميِّين حين نطَقَ كما ينطِقُ الآدميُّون. قال أبو إسحاق الثعلبي: ورأيتُ في بعض الكتب أنَّ سليمانَ قال لها: لِمَ حذَّرتِ النَّملَ؟ أخِفْتِ ظلمي؟ أما علِمْتِ أني نبيٌّ عدل؟ فَلِمَ قلتِ: ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾؟ فقالتِ النَّملةُ: أما سمعتَ قولي: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مع أني لم أُرِدْ حَطْمَ النفوس، وإنَّما أردتُ حَطْمَ القلوبِ خشيةَ أن يتمنَّينَّ مثلَ ما أُعطيتَ، أو يُفتتَنَ بالدنيا، ويشتغِلَنَّ بالنظر إلى مُلكِكَ عن التسبيح والذِّكر. فقال لها سليمان: عِظيني. فقالتِ النَّملة: أما علمتَ لِمَ سُمِّي أبوكَ داود؟ قال: لا. قالت: لأنه داوى جراحةَ فؤاده؛ هل علمتَ لِمَ سُمِّيتَ سليمان؟ قال: لا. قالت: لأنك سليمُ الناحية على ما أوتيتَه بسلامةِ صدرك، وحُقَّ[3] لكَ أن تلحق بأبيك داود[4]. ثم قالت: أتدري لِمَ سخَّرَ اللهُ

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٨ عن نوف.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦١ من غير نسبة.

(٣) في النسخ: وإن. والمثبت من عرائس المجالس.

(٤) كلمة داود من عرائس المجالس.

لكَ الريح؟ قال: لا. قالت: أخبركَ أنَّ الدُّنيا كلَّها ريح. ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ مُتعجِّباً[١]. ثم مضت مُسرعةً إلى قومها، فقالت: هل عندكم من شيءٍ نُهديه إلى نبيِّ الله؟ قالوا: وما قَدْرُ ما نُهدي له؟ واللهِ ما عندنا إلَّا نَبقةٌ واحدة! قالت: حسنة، ايتوني بها. فأتَوها بها، فحملَتْها بفيها، فانطلقَتْ تجرُّها، فأمر اللهُ الرِّيحَ فحملَتْها، وأقبلت تشُقُّ الإنس والجِنَّ والعلماء والأنبياءُ على البساط، حتى وقعت بين يديه، ثم وضعتْ تلك النَّبقةَ من فيها في كفِّه، وأنشأت تقول:

ألم تَرنا نُهدِي إلى اللهِ مَالَهُ ... وإن كان عنه ذا غنًى فهو قابِلُهْ
ولو كان يُهدَى للجليلِ بقَدْرِهِ ... لَقصَّرَ عنه البحرُ يوماً وساحِلُهْ
ولكنَّنا نُهدي إلى مَنْ نُحبُّهُ ... فيَرضى به عنَّا ويشكرُ فاعِلُهْ
وما ذاكَ إلا من كريمٍ فِعالُهُ ... وإلَّا فما في مُلْكِنا ما يُشاكِلُهْ

فقال لها: باركَ اللهُ فيكم. فهم بتلك الدعوة أشكرُ خلْقِ الله وأكثرُ خلْقِ الله. وقال ابن عباس: نهى النبيُّ ﷺ عن قتلِ أربعٍ من الدواب: الهدهد، والصُّرَد، والنَّملة، والنحلة. خرَّجه أبو داود[٢]، وصحَّحه أبو محمد عبد الحق[٣]. ورُويَ من حديث أبي هريرة، وقد مضى في «الأعراف»[٤]. فالنملة أثنتْ على سليمانَ وأخبرت بأحسنَ ما تقدِرُ عليه بأنهم لا يشعرون إنْ حطموكم، ولا يفعلون ذلك عن عمدٍ منهم، فنفَتْ عنهم الجور؛ ولذلك نهى عن قتلِها، و عن قتل الهدهد؛ لأنَّه كان دليلَ سليمانَ على الماء ورسولَه إلى بِلقيس. وقال عكرمة: إنما صرف اللهُ شرَّ سليمان عن الهدهد؛ لأنه كان بارًّا بوالديه.

والصُّرَد يقال له: الصوَّام. ورُويَ عن أبي هريرة قال: أوَّلُ من صامَ الصُّرَد، ولمَّا

(١) كلام الثعلبي من أوله إلى هذا الموضع من عرائس المجالس ص٢٩٩، وما بعده لم نجده فيه.
(٢) في سننه (٥٢٦٧).
(٣) في الأحكام الوسطى ٤/ ٢٤٩، والأحكام الصغرى ٢/ ٨٤٨.
(٤) ٩/ ٣١٣.

خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم في بناء البيت كانت السَّكِينةُ معه والصُّرد، فكان الصُّرد دليلَه على الموضع، والسَّكِينةُ مقدارَه، فلمَّا صار إلى البقعة وقعت السَّكِينةُ على موضع البيت ونادت وقالت: ابْنِ يا إبراهيم على مقدار ظِلِّي(١). وقد تقدَّم في «الأعراف»(٢) سببُ النهيِ عن قتل الضفدع، وفي «النحل»(٣) النهيُ عن قتل النحل. والحمد لله.

الثانية: قرأ الحسن: «لا يَحَطِّمَنَّكُمْ»، وعنه أيضاً: «لا يَحِطِّمَنَّكُمْ»، وعنه أيضاً وعن أبي رجاء: «لا يُحَطِّمَنَّكُمْ»(٤) والحَطْمُ: الكسر(٥). حطَمتُه حَطْماً أي: كسَرْتُه وتَحطَّم، والتَّحطيمُ: التكسير(٦).

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يجوز أن يكون حالاً من سليمانَ وجنودِه، والعاملُ في الحال «يَحْطِمَنَّكُمْ». أو حالاً من النَّملة، والعامل «قَالَتْ»، أي: قالت ذلكَ في حال غفلةِ الجنود، كقولك: قمتُ والناسُ غافلون. أو حالاً من النمل أيضاً، والعامل «قَالَتْ» على أنَّ المعنى: والنَّملُ لا يشعرون أنَّ سليمانَ يفهَمُ مقالَتها. وفيه بُعْدٌ، وسيأتي.

الثالثة: روى مسلمٌ من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ «أنَّ نملةً قرصَتْ نبيًّا من الأنبياء فأمر بقريةِ النَّملِ فأُحرِقَتْ، فأوحى الله تعالى إليه: أفي أنْ قرصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أمةً من الأمم تُسبِّحُ؟!(٧)» وفي طريقٍ آخر: «فهَلَّا نملةً واحدةً»(٨). قال

(١) نوادر الأصول ص١٣٢.
(٢) ٩/ ٣١٣.
(٣) ١٢/ ٣٦٥.
(٤) هذه القراءات الثلاث كلها شاذة، والأولى في المحتسب ٢/ ١٣٧، والشاذة ص١٠٨. والثانية في المحتسب ٢/ ١٣٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤، وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦٢ نسبتها إلى أبي المتوكل وأبي مجلز. والقراءة الثالثة في الشاذة ص١٠٨ عن الحسن وحده، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ عن الحسن وأبي رجاء.
(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤١١، وزاد المسير ٦/ ١٦٢.
(٦) الصحاح (حطم).
(٧) صحيح مسلم (٢٢٤١): (١٤٨). وأخرجه أحمد (٩٢٢٩)، والبخاري (٣٠١٩).
(٨) صحيح مسلم (٢٢٤١): (١٤٩) و(١٥٠). وأخرجه أحمد (٨١٣٠)، والبخاري (٣٣١٩).

علماؤنا: يقال: إنَّ هذا النبيَّ هو موسى عليه السلام، وإنه قال: يا ربِّ، تُعذِّبُ أهلَ قريةٍ بمعاصيهم وفيهم الطائع. فكأنَّه أحبَّ أن يُريَهُ ذلك من عنده، فسلَّط عليه الحرَّ حتى التجأ إلى شجرةٍ مُستَرْوِحاً إلى ظِلِّها، وعندها قرية النمل، فغلبَه النوم، فلمَّا وجدَ لذَّةَ النَّومِ لدَغَتْه النَّملةُ فأضجَرتْه، فدلكهُنَّ بقدمِه فأهلكهُنَّ، وأحرق تلك الشجرةَ التي عندها مساكنهم، فأراه الله العبرة في ذلك آيةً: لمَّا لدَغَتْكَ نملةٌ فكيفَ أصبتَ الباقين بعقوبتها؟! يريد أن يُنبِّهه أنَّ العقوبةَ من الله تعالى تعُمُّ فتصيرُ رحمةً على المطيع وطهارةً وبركةً، وشرًّا ونِقمةً على العاصي. وعلى هذا فليس في الحديث ما يدلُّ على كراهةٍ ولا حَظْرٍ في قتل النمل؛ فإنَّ مَنْ آذاكَ حَلَّ لك دفعه عن نفسك، ولا أحدَ مِنْ خَلْقِه أعظَمُ حرمةً من المؤمن، وقد أُبيحَ لك دَفْعُه عنكَ بقتلٍ وضربٍ على المقدار، فكيف بالهوامِّ والدوابِّ التي قد سُخِّرَتْ لكَ وسُلِّطتَ عليها، فإذا آذاكَ أُبيحَ لك قَتْلُه. ورُويَ عن إبراهيم: ما آذاك من النمل فاقتُلْه. وقولُه: «ألا نملةً واحدة» دليلٌ على أنَّ الذي يُؤذي يُؤذَى ويُقتَلُ، وكلَّما كان القتلُ لنفعٍ أو دفعِ ضررٍ فلا بأس به عند العلماء. وأطلق له نملةً ولم يَخُصَّ تلكَ النملةَ التي لدغت من غيرِها؛ لأنَّه ليس المرادُ القصاصَ؛ لأنَّه لو أرادَه لَقالَ: ألا نملتَكَ التي لدغَتْكَ؟ ولكن قال: ألا نملةً مكانَ نملةٍ؟ فعَمَّ البريءَ والجاني بذلك؛ ليعلم أنَّه أرادَ أن يُنبِّهه لمسألته ربَّه في عذاب أهل قريةٍ وفيهم المطيع والعاصي. وقد قيل: إنَّ هذا النبيَّ كانت العقوبةُ للحيوانِ بالتحريقِ جائزةٌ في شرعه؛ فلذلك إنَّما عاتبَهُ اللهُ تعالى في إحراق الكثيرِ من النَّملِ لا في أصل الإحراق. ألا ترى قولَه: «فهلَّا نملةً واحدةً» أي: هلَّا حرقْتَ نملةً واحدة. وهذا بخلافِ شرعِنا، فإنَّ النبيَّ ﷺ قد نهى عن التعذيب بالنار، وقال: «لا يُعذِّبُ بالنَّارِ إلا الله»[1]. وكذلك أيضاً كان قتلُ النملِ مُباحاً في شريعة ذلك النبيِّ؛ فإنَّ اللهَ لم يُعتِبْه على أصلِ قتلِ النَّمل. وأمَّا شرعُنا فقد جاء من حديث ابن عباس وأبي هريرة النهيُ عن ذلك. وقد كرِهَ مالكٌ قتلَ النَّملِ إلَّا أن يضُرَّ ولا يقدِرَ على دفعِه إلَّا بالقتل. وقد

(١) أخرجه أحمد (٨٠٦٨)، والبخاري (٣٠١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قيل: إنَّ هذا النبيَّ إنَّما عاتبَه اللهُ حيثُ انتقمَ لنفسِه بإهلاك جَمْعٍ آذاهُ واحدٌ [منه[١]]، وكان الأَوْلى الصبرُ والصَّفحُ، لكن وقع للنبيِّ أنَّ هذا النوعَ مُؤذٍ لبني آدم، وحرمةُ بني آدمَ أعظمُ من حُرمةِ غيرِهِ من الحيوان غيرِ الناطق، فلو انفردَ له هذا النَّظرُ ولم ينضمَّ إليه التشفِّي الطبيعي[٢] لم يُعاتَب. والله أعلم. لكن لمَّا انضافَ إليه التشفِّي الذي دلَّ عليه سياقُ الحديثِ عُوتِبَ عليه.

الرابعة: قوله: «أفي أن قرصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أمةً من الأممِ تُسبِّحُ» مقتضى هذا أنَّه تسبيحٌ بمقالٍ ونُطْقٍ، كما أخبر اللهُ عن النَّملِ أنَّ لها منطقاً، وفَهِمَه سليمانُ عليه السلام ـ وهذا معجزةٌ له ـ وتبسَّمَ من قولِها. وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً أنَّ للنَّملِ نُطقاً وقولاً، لكن لا يسمَعُه كلُّ أحد، بل مَنْ شاء الله تعالى مِمَّن خرقَ له العادةَ من نبيٍّ أو وليٍّ. ولا يُنكَرُ[٣] هذا مِنْ حيثُ أنَّا لا نسمع ذلك؛ فإنَّه لا يلزَمُ مِنْ عَدَمِ الإدراكِ عَدَمُ المُدرَكِ في نفسه. ثم إنَّ الإنسانَ يجِدُ في نفسِه قولاً وكلاماً ولا يُسمَعُ منه إلَّا إذا نطَقَ بلسانِه. وقد خرقَ اللهُ العادةَ لنبيِّنا محمدٍ ﷺ فأسمعَه كلامَ النَّفْسِ من قومٍ تحدَّثوا مع أنفسهم وأخبرهم بما في نفوسهم، كما قد نقلَ منه الكثيرَ أئِمَّتُنا[٤] في كتب معجزاتِ النبيِّ ﷺ، وكذلك قد[٥] وقع لكثيرٍ ممَّنْ أكرَمه اللهُ تعالى من الأولياء مثلُ ذلِكَ في غير ما قضية. وإيَّاه عنى النبيُّ ﷺ بقوله: «إنَّ في أمتي مُحدَّثين وإنَّ عمرَ منهم»[٦]. وقد مضى هذا المعنى في تسبيح[٧] الجمادِ في «سبحان»[٨] وأنَّه تسبيحُ لسانٍ ومقالٍ لا

---

(١) ما بين حاصرتين من المفهم.

(٢) في (م): الطبعي.

(٣) في (م): ننكر.

(٤) قبلها في (د) و(ز) و(م): من.

(٥) كلمة «قد» من (ظ) والمفهم.

(٦) أخرجه أحمد (٢٤٢٨٥)، ومسلم (٢٣٩٨) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها. ومن قوله: وقد قيل: إن هذا النبي كانت العقوبة... إلى هذا الموضع من المفهم ٥/ ٥٤٢ - ٥٤٣ .

(٧) كلمة «تسبيح» من (م).

(٨) ١٣/ ٩٢ .

تسبيح دلالةِ حال. والحمد لله.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وقرأ ابن السَّمَيفَع: «ضحكاً» بغير ألف[١]، وهو منصوبٌ على المصدر بفعلٍ محذوفٍ يدلُّ عليه تبسَّمَ، كأنَّه قال: ضَحِكَ ضحكاً، هذا مذهب سيبويه. وهو عند غير سيبويه منصوب بنفس «تَبَسَّمَ»؛ لأنَّه في معنى ضحك. ومن قرأ: «ضَاحِكاً» فهو منصوبٌ على الحال من الضمير في «تَبَسَّمَ»[٢]. والمعنى: تبسَّم مقدارَ الضَّحِك؛ لأنَّ الضَّحِكَ يستغرِقُ التبسُّمَ، والتبسُّمُ دون الضَّحك، وهو أوَّله. يقال: بَسَمَ (بالفتح) يَبْسِمُ بَسْماً فهو باسمٌ وابتسمَ وتبسَّم، والمَبْسِمُ: الثَّغْرُ، مثل المجلس من جلَسَ يجلِسُ، ورجلٌ مِبسامٌ وبسَّامٌ كثيرُ التبسُّمِ[٣]، فالتبسُّم ابتداءُ الضَّحِك، والضَّحِكُ عبارةٌ عن الابتداء والانتهاء، إلَّا أنَّ الضَّحِكَ يقتضي مزيداً على التبسُّم، فإذا زاد ولم يضبِطِ الإنسانُ نفسَه قيل: قَهْقَهَ.

والتبسُّم ضَحِكُ الأنبياء عليهم السلام في غالب أمرهم[٤]. وفي الصحيح عن جابر بن سَمُرة وقيل له: أكنتَ تُجالِسُ النبيَّ ﷺ؟ قال: نعم كثيراً، كان لا يقومُ من مُصلَّاه الذي يصلِّي فيه الصبحَ ـ أو الغداةَ ـ حتى تطلعَ الشَّمسُ، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدَّثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسَّمُ[٥]. وفيه عن سعد قال: كان رجلٌ من المشركين قد أحرق المسلمين[٦]، فقال له النبيُّ ﷺ: «ارمِ فِداكَ أبي وأمِّي» قال: فنزعتُ له بسهمٍ ليس فيه نَصْلٌ فأصبتُ جنبَه، فسقط فانكشفَتْ عورَتُه، فضحِكَ رسولُ الله ﷺ حتى نظرتُ إلى نواجذِه[٧]. فكان عليه الصلاة والسلام في أكثر

---

(١) المحتسب ٢/ ١٣٩ ، وهي قراءة شاذة.

(٢) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ بنحوه.

(٣) الصحاح (بسم) ببعضه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ .

(٥) صحيح مسلم (٦٧٠) و(٢٣٢٢). وأخرجه أحمد (٢٠٨٤٤).

(٦) أي: أثخن فيهم، وعمل فيهم ما تفعله النار. وقد يكون معناه: أغاظهم. إكمال المعلم ٧/ ٤٢٣ .

(٧) صحيح مسلم (٢٤١٢).

أحواله يتبسم، وكان أيضاً يضحك في أحوالٍ أُخَرَ ضحِكاً أعلى من التبسُّم وأقلَّ من الاستغراق الذي تبدو فيه اللَّهوات، وكان في النادر عند إفراطِ تعجُّبِه رُبما ضحِكَ حتى بدَتْ نواجِذُه. وقد كرِهَ العلماءُ منه الكثرة، كما قال لقمان لابنه: يا بنيَّ، إياكَ وكثرةَ الضَّحكِ فإنَّه يُميتُ القلبَ. وقد رُويَ مرفوعاً من حديث أبي ذرٍّ وغيره[١]. وضَحِكُ النَّبيِّ ﷺ حتى بدَتْ نواجِذُه حين رمى سعدٌ[٢] الرجلَ فأصابه، إنما كان سروراً بإصابتِه لا بانكشافِ عورَتِه؛ فإنَّه المُنَزَّهُ عن ذلك ﷺ.

السادسة: لا اختلافَ عند العلماء أنَّ الحيواناتِ كلَّها لها أفهامٌ وعقول. وقد قال الشافعيُّ: الحمامُ أعقَلُ الطير[٣]. قال ابن عطية[٤]: والنَّملُ حيوانٌ فَطِنٌ قويٌّ شمَّامٌ جِدًّا، يدَّخِرُ ويتَّخِذُ القِرى، ويشقُّ الحبَّ بقطعتين لئلاً ينبُتَ، ويشقُّ الكُزْبُرَةَ بأربع قطع؛ لأنَّها تَنبتُ إذا قُسِمتْ شِقَّتين، ويأكل في عامه نصفَ ما جمع ويستبقي سائِرَه عُدَّة. قال ابن العربي[٥]: وهذه غوامض[٦] العلومِ عندنا، وقد أدركَتْها النَّملُ بِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ لها؛ قال الأستاذ أبو المظفَّر شاهنور الإسفرايني: ولا يَبعُدُ أن تُدرِكَ البهائمُ حدوثَ العالَمِ، وحدوثَ المخلوقات، ووحدانيةَ الإله، ولكنَّنا لا نفهَمُ عنها ولا تفهَمُ عنَّا، أمَّا أنَّا نطلبُها وهي تفِرُّ مِنَّا فبِحُكمِ الجنسية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فـ«أن» مصدرية. و«أَوزِعْني» أي: ألهِمْني ذلك. وأصلُه من وزَعَ، فكأنَّه قال: كُفَّني عما يُسخِط[٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٩٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في (م): سعداً.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٣٧ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٧ .

(٦) في النسخ: خواص، والمثبت من أحكام القرآن.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٢-١١٣ بنحوه.

وقال محمد بن إسحاق: يزعُمُ أهلُ الكتاب أنَّ أمَّ سليمانَ هي امرأة أوريا التي امتحنَ اللهُ بها داود، أو أنَّه بعد موت زوجها تزوَّجها داودُ فولَدَتْ له سليمانَ عليه السلام. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة «صٓ»[١] إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مع عبادك. عن ابن زيد[٢]. وقيل: المعنى: في جملة عبادك الصالحين[٣].

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه ثمانية عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ ذكر شيئاً آخر مما جرى له في مسيرِهِ الذي كان فيه من النَّمل ما تقدَّم. والتفقُّدُ: تطلُّبُ ما غابَ عنكَ من شيء. والطير: اسمٌ جامعٌ، والواحد طائر، والمرادُ بالطَّيرِ هنا جِنسُ الطَّيرِ وجماعتُها. وكانت تصحبُه في سفره وتُظِلُّهُ بأجنحتها[٤]. واختلفَ الناسُ في معنى تفقُّدِه للطَّير، فقالت فرقةٌ: ذلك

---

(١) عند تفسير الآية (٢١) منها.

(٢) مجمع البيان ١٩/ ٢٠٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٩ .

(٣) الوسيط ٣/ ٣٧٣ .

(٤) الوسيط ٣/ ٣٧٣ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٣ .

بحسبِ ما تقتضيه العنايةُ بأمور الملك، والتَّهمُّمِ بكل جزءٍ منها، وهذا ظاهر الآية.

وقالت فرقةٌ: بل تفقَّدَ الطيرَ لأنَّ الشمسَ دخلتْ من موضع الهُدهُدِ حين غاب، فكان ذلك سببَ تفقُّدِ الطير؛ ليتبيَّنَ من أين دخلتِ الشمس. وقال عبد الله بن سَلَام: إنَّما طلبَ الهُدْهُدَ لأنه احتاجَ إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض؛ لأنَّه كان نزل في مفازةٍ عُدِمَ فيها الماء، وأنَّ الهُدهُدَ كان يرى باطِنَ الأرضِ وظاهِرَها؛ فكان يُخبرُ سليمانَ بموضع الماء، ثم كانتِ الجِنُّ تُخرجُه في ساعةٍ يسيرة، تَسلَخُ عنه وجهَ الأرض كما تُسلَخُ الشاة. قاله ابن عباس فيما روى عن ابن سَلَام[1]. قال أبو مِجْلَز: قال ابن عباس لعبد الله بن سَلَام: أُريدُ أنْ أسألكَ عن ثلاثِ مسائل. قال: أتسألُني وأنتَ تقرأ القرآن؟ قال: نعم. ثلاث مرات. قال: لِمَ تَفَقَّدَ سليمانُ الهدهدَ دون سائرِ الطير؟ قال: احتاج إلى الماء ولم يعرِفْ عُمقَه ـ أو قال: مسافته ـ وكان الهدهدُ يعرِفُ ذلك دونَ سائرِ الطير فتفقَّدَه[2]. وقال في كتاب النَّقَّاش: كان الهُدهُد مهندساً.

ورُويَ أنَّ نافع بن الأزرق سمعَ ابنَ عباسٍ يذكر شأنَ الهُدهُدِ فقال له: قِفْ يا وقَّاف، كيف يرى الهُدهُدُ باطِنَ الأرض وهو لا يرى الفَخَّ حين يقع؟! فقال له ابن عباس: إذا جاء القَدَر عَمِيَ البصر[3]. وقال مجاهد: قيل لابن عباس: كيف تفقَّدَ الهُدْهُدَ من الطير؟ فقال: نزل منزلاً ولم يَدْرِ ما بُعْدُ الماء، وكان الهُدهُدُ مهتدياً إليه، فأراد أن يسأله. قال مجاهد: فقلت: كيفَ يهتدي والصبيُّ يضَعُ له الحِبَالةَ فيصيدُه؟! فقال: إذا جاء القَدَرُ عَمِيَ البصر[4]. قال ابن العربي[5]: ولا يقدِرُ على هذا الجواب إلَّا عالمُ القرآن.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٢-١٢٣ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٦٦-٥٦٧ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٨/ ٣٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ . وأثر ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ٣٠ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢١٣).

(٤) أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢١١).

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٣ .

قلت: هذا الجوابُ قد قاله الهُدْهُدُ لسليمانَ كما تقدَّم. وأنشدوا:

إذا أرادَ اللـــهُ أمــراً بــامــرئٍ ... وكــانَ ذا عــقــلٍ ورأيٍ ونَــظَــرْ
وحيـلـةٍ يـعـمـلُـهـا فـي دَفْـعِ مـا ... يـأتـي بِـهِ مـكـروهُ أسـبـابِ الـقَـدَرْ
غَـطَّـى عـلـيـه سـمـعَـهُ وعـقـلَـهُ ... وسَـلَّـهُ مـن ذهـنِـه سـلَّ الـشَّـعَـرْ
حـتـى إذا أنـفَـذَ فـيـه حُـكـمَـهُ ... ردَّ عـلـيـه عـقـلَـهُ لِـيـعـتـبِـرْ

قال الكلبي: لم يكن في مسيره إلَّا هُدْهدٌ واحد. والله أعلم.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على تفقُّدِ الإمامِ أحوالَ رعيَّتِه، والمحافظةِ عليهم. فانظر إلى الهدهد مع صِغَرِه كيف لم يَخْفَ على سليمانَ حالُه، فكيف بعظام المُلْك. ويرحَمُ اللهُ عمرَ فإنه كان على سيرته؛ قال: لو أنَّ سخلةً على شاطئ الفرات أخذَها الذئبُ لَيُسأَلُ عنها عمر[١]. فما ظنُّك بوالٍ تذهَبُ على يديه البلدان، وتضيع الرَّعيةُ ويضيع الرُّعيان[٢]. وفي الصحيح عن عبد الله بن عباس أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ خرجَ إلى الشام، حتى إذا كان بِسَرْغٍ[٣] لقيَه أمراءُ الأجناد: أبو عبيدة وأصحابُه، فأخبروه أنَّ الوباءَ قد وقع بالشام. الحديث[٤]. قال علماؤنا: كان هذا الخروجُ من عمر بعد ما فتحَ بيتَ المقدس سنة سبعَ عشْرَةَ على ما ذكره خليفة بن خياط، وكان يتفقَّدُ أحوالَ رعِيَّته وأحوالَ أمرائِه بنفسه[٥]. فقد دلَّ القرآنُ والسُّنَّةُ وبيَّنا ما يجب على الإمام مِنْ تفقُّدِ أحوالِ رعِيَّته، ومباشرةِ ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال. ورحِمَ اللهُ ابنَ المبارك حيث يقول:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ١٣٧ ، والبيهقي في الشعب (٧٤١٥) عن الأوزاعي قال: بلغني أن عمر ابن الخطاب قال ... فذكره بنحوه. إسناده فيه انقطاع.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٢ .

(٣) سَرْغ: قرية بوادي تبوك. وقيل: هي آخر عمل الحجاز الأول. وقيل: مدينة بالشام. إكمال المعلم ٦/ ١٣٦ .

(٤) صحيح البخاري (٥٧٢٩)، وصحيح مسلم (٢٢١٩) (٩٨). وأخرجه أحمد (١٦٨٣).

(٥) المفهم ٥/ ٦١٥ .

وهـل أفـسـدَ الـديـنَ إلّا الـمـلـوكُ وأحـبـارُ سـوءٍ ورهـبـانُـهـا[١]

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ أي: ما لِلهُدهُدِ لا أراه، فهو من القَلْبِ الذي لا يُعرَفُ معناه، وهو كقولك: ما لي أراكَ كئيباً؟ أي: ما لَكَ؟ والهُدهدُ: طيرٌ معروف[٢]، وهَدْهَدَتُه صوتُه. قال ابن عطية[٣]: إنَّما مقصِدُ الكلامِ: الهُدهدُ غابَ لكنَّه أخذَ اللازمَ عن مَغيبِه وهو أن لَّا يراه، فاستفهمَ على جهة التوقيفِ على اللّازمِ، وهذا ضَرْبٌ من الإيجاز، والاستفهام الذي في قوله: ﴿مَا لِيَ﴾ نابَ مَنابَ الألفِ التي تحتاجُها أَمْ. وقيل: إنما قال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾؛ لأنَّه اعتبرَ حالَ نفسِه، إذْ عَلِمَ أنَّه أُوتيَ المُلكَ العظيم، وسُخِّرَ له الخلق، فقد لزِمَه حقُّ الشكر بإقامة الطاعة وإدامةِ العمل[٤]، فلما فقَدَ نِعمةَ الهُدْهُدِ توقَّعَ أن يكون قَصَّرَ في حقِّ الشكر، فلأجله سُلِبَها فجعل يتفقَّد نفسه، فقال: ﴿مَا لِيَ﴾. قال ابن العربي[٥]: وهذا يفعله شيوخُ الصوفية إذا فقدوا ما لهم[٦]، تفقَّدوا أعمالَهم، هذا في الآداب، فكيف بنا اليوم ونحن نُقصِّر في الفرائض؟!

وقرأ ابنُ كثير وابن مُحَيصِن وعاصم والكسائي وهشام وأيوب: «مَا لِيَ» بفتح الياء، وكذلك في «يس» [الآية:٢٢]: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾. وأسكنَها حمزة ويعقوب. وقرأ الباقون المدنيون وأبو عمرو بفتح التي في «يس»، وإسكان هذه[٧]. قال أبو عمرو: لأن هذه التي في «النمل» استفهام، والأخرى انتفاء. واختار أبو حاتم

(١) سلف ١٠/ ١٧٧ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤١٢ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٣ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

(٤) في (د) و(ز): للعدل، وفي (ظ) و(م): العدل. والمثبت من المحرر الوجيز.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٢ .

(٦) في أحكام القرآن: آمالهم.

(٧) السبعة ص٤٧٩ ، والتيسير ص٦٨ ، والنشر ٢/ ١٧٤-١٧٥ .

وأبو عبيد الإسكان «فقالَ مَا ليْ». وقال أبو جعفر النَّحاس[1]: زعمَ قومٌ أنَّهم أرادوا أن يُفرِّقوا بين ما كان مبتدأً، وبين ما كان معطوفاً على ما قبله، وهذا ليس بشيء، وإنَّما هي ياءُ النَّفْس، من العربِ من يفتَحُها ومنهم من يُسكِنُها، فقرؤوا باللغتين، واللغة الفصيحة في ياء النَّفْس أن تكون مفتوحةً؛ لأنَّها اسمٌ وهي على حرفٍ واحد، وكان الاختيار ألا تُسكنَ فيُجْحَفَ بالاسم[2]. ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ بمعنى: أَبَلْ[3].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ دليلٌ على أنَّ الحدَّ على قَدْرِ الذَّنْبِ لا على قَدْرِ الجسد، أما إنه يُرفَقُ بالمحدود في الزمان والصفة[4]. رُويَ عن ابن عباس ومجاهد وابن جُريج أنَّ تعذيبَه للطير كان بأن ينتُفَ ريشَه. قال ابن جُريج: ريشه أجمع. وقال يزيد بن رومان: جناحاه. فعلَ سليمان هذا بالهدهدِ إغلاظاً على العاصين، وعقاباً على إخلالهِ بنَوْبته ورتبته[5]. وكأنَّ اللهَ أباحَ له ذلك، كما أباحَ ذبح البهائم والطير للأكلِ وغيرهِ من المنافع[6]. والله أعلم. وفي «نوادر الأصول» قال: حدَّثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادي، قال: حدَّثنا عون بن عُمارة، عن الحسين الجُعْفيِّ، عن الزُّبير بن الخِرِّيت، عن عكرمة، قال: إنَّما صرفَ اللهُ شرَّ سليمانَ عن الهدهدِ لأنَّه كان بارًّا بوالديه. وسيأتي.

وقيل: تعذيبُه أن يُجعَلَ مع أضدادهِ. وعن بعضهم: أضيَقُ السجونِ معاشرةُ الأضداد. وقيل: لَألزِمَنَّه خِدمةَ أقرانِه. وقيل: إيداعُه القفص[7]. وقيل: بأن يجعلَه

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٢ .

(٢) في (م): الاسم.

(٣) في (د) و(م): بل.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ . والقول الأول أخرجه الطبري ١٨/ ٣٣ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٢٤) عن ابن عباس ﷺ. وقول يزيد بن رومان أخرجه الطبري ١٨/ ٣٤ ، وابن أبي حاتم (١٦٢٢٩).

(٦) الكشاف ٣/ ١٤٣ .

(٧) الكشاف ٣/ ١٤٣ ، وتفسير الرزاي ٢٤/ ١٨٩ ، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦٤ القول الأخير عن الثعلبي.

للشمس بعد نتفِه[١]. وقيل: بتبعيده عن خدمتي، والملوك يؤدِّبون بالهجرانِ الجسدَ بتفريقِ إلْفِه[٢].

وهو مؤكَّدٌ بالنون الثقيلة، وهي لازمة هي أو الخفيفة. قال أبو حاتم: ولو قُرِئَتْ: «لَأُعَذِّبَنْهُ عَذاباً شَديداً أَوْ لَأَذْبَحَنْهُ» جاز[٣]. ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجةٍ بيِّنة[٤]. وليست اللامُ في «لَيَأْتيَنِّي» لامَ القسم؛ لأنَّه لا يُقسِمُ سليمانُ على فعل الهدهد، ولكن لمَّا جاء في أثر قوله: «لَأُعَذِّبَنَّهُ» وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه. وقرأ ابن كثير وحدَه «لَيَأْتيَنَّني» بنونين[٥].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي الهدهد[٦]. والجمهور من القُرَّاء على ضمِّ الكاف، وقرأ عاصم وحدَه بفتحها[٧]. ومعناه في القراءتين أقام[٨]. قال سيبويه: مَكَث يمكُث مُكُوثاً كما قالوا: قعد يقعد قعوداً. قال: ومَكُث مثل ظَرُف[٩]. قال غيره: والفتحُ أحسنُ؛ لقوله تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ [الكهف:٣] إذ هو من مَكَث؛ يقال: مَكَثَ يَمكُثُ فهو ماكثٌ، ومَكُثَ يمكُث مثل عَظُمَ يعظُمُ فهو مكِيثٌ؛ مثل عظيم. ومَكُث يَمكُثُ فهو ماكثٌ، مثل حَمُضَ يَحمُضُ فهو حامِض.

والضمير في «مَكَثَ» يَحْتَمِلُ أن يكون لسليمان[١٠]، والمعنى: بقي سليمانُ بعد

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٤، وزاد المسير ٦/ ١٦٤ عن عبد الله بن شداد.

(٢) ذكر هذا المعنى البغوي ٣/ ٤١٢، والزمخشري في الكشاف ٣/ ١٤٣.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٢.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٤.

(٥) السبعة ص٤٧٩، والتيسير ص١٦٧.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٠٢.

(٧) السبعة ص٤٨٠، والتيسير ص١٦٧.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥.

(٩) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٣.

(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥.

التفقُّدِ والوعيدِ غيرَ طويلٍ، أي: غيرَ وقتٍ طويل[١]. ويَحتَمِلُ أن يكون للهدهد[٢] وهو الأكثر. فجاء: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وهي:

السادسة: أي: علمتُ ما لم تعلَمْه من الأمر[٣]، فكان في هذا ردٌّ على مَنْ قال: إنَّ الأنبياءَ تعلَمُ الغيب. وحكى الفرَّاء «أَحَطُّ» يُدغِمُ التَّاءَ في الطَّاء. وحكى «أَحَتُّ» بقلب الطاء تاءً وتُدغَمُ[٤].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أعلَمَ سليمانَ ما لم يكُنْ يعلَمُه، ودفعَ عن نفسِه ما توعَّدَه من العذاب والذبح. وقرأ الجمهور: «سبإٍ» بالصَّرف، وابن كثير وأبو عمرو: «سَبَأَ» بفتح الهمزة وتَرْكِ الصَّرف[٥]، فالأوَّلُ على أنَّه اسمُ رجلٍ نُسِبَ إليه قوم، وعليه قول الشاعر:

الـــواردونَ وتَـــيْـــمٌ فـــي ذُرَا ســـبـــإٍ قد عَضَّ أعناقَهُمْ جِلْدُ الجواميسِ[٦]

وأنكر الزَّجَّاجُ أن يكونَ اسمَ رجلٍ، وقال: «سبأ»: اسمُ مدينةٍ تُعرَفُ بمأربِ باليمن، بينها وبين صنعاء مسيرةُ ثلاثةِ أيام.

قلتُ: وقع في عيون المعاني للغزنوي: ثلاثة أميال. قتادة والسدي: بعثَ إليه اثنا عشر نبيًّا[٧]. وأنشدَ للنابغة الجَعْدي[٨]:

مِـــن سَـبَـــأَ الـــحـــاضِـــريـــنَ مَـــأرِبَ إذْ يَـبْـنُـــونَ مِـــن دونِ سَـيْـلِـهِ الـعَـرِمَـا

قال: فمن لم يصرِفْ قال: إنَّه اسمُ مدينة، ومن صَرَفَ وهو الأكثر فلأنَّه اسمُ

---

(١) مجمع البيان ١٩/ ٢١٣.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٣، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٩.
(٥) السبعة ص ٤٨٠، والتيسير ص١٦٧.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥، والبيت قائله جرير، وسلف ١٢/ ٣٣٤.
(٧) من قوله: وقع في... إلى هنا من (م).
(٨) في ديوانه ص١٣٤، ويُنسب البيت أيضاً إلى امرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٩٠.

البلد، فيكون مُذَكَّراً سُمِّي به مُذَكَّر[١]. وقيل: اسم امرأة سُمِّيتْ بها المدينة[٢]. والصحيح أنَّه اسمُ رجل[٣]، كذلك في كتاب الترمذي من حديث فَرْوةَ بنِ مُسَيْكٍ المرادي عن النبيِّ ﷺ، وسيأتي إن شاء الله تعالى[٤]. قال ابن عطية: وخَفيَ هذا الحديث على الزَّجَّاجِ فخبطَ عشواء[٥]. وزعمَ الفرَّاءُ أنَّ الرُّؤاسيَّ سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبإ فقال: ما أدري ما هو. قال النَّحَّاس: وتأوَّلَ الفرَّاءُ على أبي عمرو أنَّه منعَه من الصرف لأنَّه مجهول، وأنَّه إذا لم يعرفِ الشيء لم ينصرف. وقال النَّحَّاس: وأبو عمرو أجَلُّ من أن يقول مثلَ هذا، وليس في حكاية الرُّؤاسي عنه دليلٌ أنَّه إنَّما منعَه من الصَّرفِ لأنَّه لم يعرِفه، وإنَّما قال: لا أعرِفُه، ولو سُئِلَ نَحْويٌّ عن اسمٍ فقال: لا أعرِفُه، لم يكن في هذا دليلٌ على أنه يمنعُه من الصرف، بلِ الحقُّ على غير هذا، والواجب إذا لم يعرِفْه أن يصرِفَه؛ لأنَّ أصلَ الأسماء الصَّرفُ، وإنَّما يُمنعُ الشيءُ من الصَّرفِ لِعلَّةٍ داخلةٍ عليه، فالأصل ثابتٌ بيقينٍ فلا يزولُ بما لا يُعرَفُ. وذكر كلاماً كثيراً عن النُّحاةِ وقال في آخره: والقولُ في «سبإ» ما جاء التوقيفُ فيه أنَّه في الأصلِ اسمُ رجل، فإن صرَفْتَه فلأنَّه قد صار اسماً للحيِّ، وإن لم تصرِفْه جعلْتَه اسماً للقبيلة مثل ثمود، إلَّا أنَّ الاختيارَ عند سيبويه الصرفُ، وحُجَّته في ذلك قاطعةٌ؛ لأنَّ هذا الاسمَ لمَّا كان يقع له التَّذكيرُ والتأنيثُ كان التذكيرُ أولى؛ لأنَّه الأصلُ والأخَفُّ[٦].

الثامنة: وفي الآية دليلٌ على أنَّ الصغيرَ يقول للكبيرِ والمتعلِّمَ للعالِمِ: عندي ما ليسَ عندك، إذا تحقَّق ذلك وتيَقَّنه[٧]. هذا عمر بن الخطاب مع جلالتِه ـ ﷺ ـ وعلمِه

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٤ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٠٣ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٤ .

(٤) عند تفسير الآية (١٥) من سورة سبأ. والحديث في سنن الترمذي (٣٢٤٢).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٣-٢٠٤ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٤ .

لم يكن عندَه علمٌ بالاستئذان. وكان عِلْمُ التيمم عند عمَّارٍ وغيره، وغابَ عن عمر وابن مسعود حتى قالا: لا يتيمَّم الجُنب. وكان حكم الإذنِ في أن تنفِرَ الحائضُ عند ابن عباس، ولم يعلَمْه عمرُ ولا زيدُ بن ثابت. وكان غَسْلُ رأسِ المُحرِمِ معلوماً عند ابن عباس وخَفيَ عن المِسْوَر بن مَخْرَمة. ومثلُه كثيرٌ فلا يُطوَّلُ به.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ لمَّا قال الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ قال سليمان: وما ذلِكَ الخبر؟ قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل تملِكُ أهل سبأ[1]. ويُقال: كيفَ خَفِيَ على سليمان مكانَها وكانت المسافةُ بين مَحطِّهِ وبين بلدها قريبة، وهي من مسيرة ثلاثٍ بين صنعاء ومأرب؟ والجواب: أنَّ اللهَ تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة، كما أخفى على يعقوبَ مكان يوسف[2]. ويُروى أنَّ أحدَ أبوَيها كان من الجنِّ[3]. قال ابن العربي[4]: وهذا أمرٌ تُنكِره المُلْحِدة، ويقولون: الجِنُّ لا يأكلون ولا يَلِدون، كذَبوا لعنهم الله أجمعين، ذلك صحيحٌ، ونكاحُهُم جائزٌ عقلاً، فإن صَحَّ نقلاً فَبِها ونِعْمَتْ.

قلتُ: خرَّج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنَّه قال: قَدِمَ وفدٌ من الجِنِّ على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، انْهَ أُمَّتكَ أن يستنجوا بعَظْمٍ أو رَوْثةٍ أو حُمَمَةٍ[5]، فإنَّ الله تعالى جاعِلٌ لنا فيها رزقاً[6]. «وفي صحيح مسلم»: فقال «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه يقع في أيديكم أوفَرَ ما يكونُ لحماً، وكلُّ بَعْرةٍ علَفٌ

(١) المصدر السابق، والنكت والعيون ٤/ ٢٠٣ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٤ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٤٩) عن قتادة، وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٠٣ أن أمها جنيَّة، واسمها فارعة، وأنها بنت أربعين ملِكاً.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٤ .

(٥) في النسخ: جمجمة، والمثبت من سنن أبي داود. والحُمَمُ: الفحم وما أُحرِقَ من الخشب والعظام ونحوهما. معالم السنن ١/ ٢٧ .

(٦) سنن أبي داود (٣٩).

لِدوابِّكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستَنْجوا بهما، فإنَّهما طعامُ إخوانكم الجن»[١] وفي البخاري من حديث أبي هريرة قال: فقلتُ: ما بالُ العَظْمِ والرَّوثةِ؟ فقال: «هما من طعام الجنِّ، وإنَّه أتاني وفدُ جِنِّ نَصِيبين ـ ونِعْمَ الجِنُّ ـ فسألوني الزَّادَ، فدعوتُ اللهَ تعالى ألَّا يمرُّوا بعظمٍ ولا رَوْثةٍ إلَّا وجدوا عليها طعاماً»[٢]. وهذا كلُّه نَصٌّ في أنهم يَطعمون، وأما نكاحهم فقد تقدَّمتِ الإشارةُ إليه في «سبحان» عند قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الآية: ٦٤]. وروى وُهَيب بن جَرير بن حازم، عن الخليل بن أحمد، عن عثمان بن حاضر قال: كانت أمُّ بلقيس من الجِنِّ يُقال لها بلقمة[٣] بنت شيصان[٤]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

العاشرة: روى البخاريُّ من حديث أبي بَكْرة[٥] أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا بلَغَه أنَّ أهلَ فارس قد ملَّكوا بنتَ كسرى قال: «لن يُفلِحَ قومٌ وَلَّوا أمرَهم امرأة»[٦] قال القاضي أبو بكر بن العربي[٧]: هذا نصٌّ في أنَّ المرأةَ لا تكون خليفةً، ولا خِلافَ فيه، ونُقِلَ عن محمد بن جرير الطبري أنَّه يُجَوِّزُ أن تكون المرأةُ قاضيةً، ولم يصِحَّ ذلك عنه، ولعلَّه نُقِلَ عنه كما نُقِلَ عن أبي حنيفة أنها إنَّما تقضي فيما تشهدُ فيه وليس بأن تكون قاضيةً على الإطلاق، ولا بأن يُكتَبَ لها مسطورٌ[٨] بأنَّ فلانةَ مُقدَّمةٌ على الحُكم، وإنَّما سبيلُ ذلك التحكيمُ[٩] والاستنابةُ في القضية الواحدة، وهذا هو الظَّنُّ بأبي حنيفة

---

(١) صحيح مسلم (٤٥٠). وأخرجه أحمد (٤١٤٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٨٦٠).

(٣) في (د): تلعمة، وفي (م): بلعمة. والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الدر المنثور.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٠٥ إلى الحكيم الترمذي وابن مردويه.

(٥) تحرف في النسخ إلى: ابن عباس. والتصويب من صحيح البخاري.

(٦) صحيح البخاري (٤٤٢٥)، وسلف ٢/ ٤٢ .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٥-١٤٤٦ .

(٨) في أحكام القرآن: منشور.

(٩) في (ظ) وأحكام القرآن: ذلك كسبيل التحكيم.

وابن جرير. وقد رُوِيَ عن عمر أنه قدَّم امرأةً على حِسبةِ السوق، ولم يصِحَّ فلا تلتفتوا إليه، فإنَّما هو من دسائس[١] المبتدعة في الأحاديث. وقد تناظرَ في هذه المسألة القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج بن طَرَار شيخ الشافعية، فقال أبو الفرج: الدليلُ على أنَّ المرأة يجوزُ أن تحكُمَ أنَّ الغرضَ من الأحكام تنفيذُ القاضي لها، وسماعُ البيِّنةِ عليها، والفصلُ بين الخصوم فيها، وذلك ممكنٌ من المرأة كإمكانه من الرجل. فاعترض عليه القاضي أبو بكر، ونقضَ كلامه بالإمامة الكبرى؛ فإنَّ الغرضَ منه حِفْظُ الثُّغور، وتدبيرُ الأمور، وحمايةُ البَيْضة، وقبضُ الخَراج وردُّه على مستحِقِّه، وذلك لا يتأتَّى من المرأة كتأتِّيه من الرجل. قال ابن العربي: وليس كلامُ الشيخين في هذه المسألة بشيء؛ فإنَّ المرأةَ لا يتأتَّى منها أن تبرُزَ إلى المجلس، ولا تُخالِطَ الرجال، ولا تفاوضَهم مفاوضةَ النَّظير للنظير؛ لأنَّها إن كانت فتاةً حَرُمَ النَّظرُ إليها وكلامُها، وإن كانت بَرْزَةً[٢] لم يجمَعْها والرجالَ مجلسٌ واحدٌ تزدحِمُ فيه معهم، وتكون مناظرةً لهم، ولن يُفلِحَ قَطُّ مَنْ تصوَّرَ هذا ولا منِ اعتقدَه.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبالغة، أي: ممَّا تحتاجُه المملكة[٣]. وقيل: المعنى: أُوتيت من كلِّ شيءٍ في زمانها شيئاً فُحذِفَ المفعول؛ لأنَّ الكلام دلَّ عليه.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سرير[٤]، ووصفه بالعِظَمِ في الهيئة ورُتبةِ السلطان[٥]. قيل: كان من ذهبٍ تجلس عليه[٦]. وقيل: العرش هنا: المُلك[٧]، والأوَّل أَصحُّ؛

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): وساوس. والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٢) أي: إذا كانت كهلةً لا تحتجب احتجاب الشوابِّ، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم. اللسان (برز).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ عن قتادة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٦) زاد المسير ٦/ ١٦٥ عن قتادة.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ عن ابن بحر، ومجمع البيان ١٩/ ٢١٤ عن أبي مسلم.

لقوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾. الزمخشري: فإن قلتَ: كيفَ سوَّى الهُدهدُ بين عرشِ بِلْقيس وعرشِ الله في الوصف بالعظيم؟ قلتَ: بين الوصفين بَوْنٌ عظيم؛ لأنَّ وَصْفَ عرشِها بالعظيم تعظيمٌ له بالإضافة إلى عروش أبناء جِنْسِها من الملوك، ووَصْفَ عرشِ الله بالعظيم تعظيمٌ له بالنسبة إلى ما خلق من السماوات والأرض[١]. قال ابن عباس: كان طولُ عرشِها ثمانينَ ذراعاً، وعرضُه أربعينَ ذراعاً، وارتفاعُه في السماء ثلاثينَ ذراعاً، مُكلَّلٌ بالدُّرِّ والياقوتِ الأحمر، والزَّبَرْجَدِ الأخضر[٢]. قتادة: وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستَّراً بالديباج والحرير، عليه سبعة مغاليق[٣]. مقاتل: كان ثمانينَ ذراعاً، في ثمانينَ ذراعاً[٤]، وارتفاعُه من الأرض ثمانونَ ذراعاً، وهو مُكلَّلٌ بالجواهر[٥]. ابن إسحاق: وكان يخدِمُها النساء، وكان معها لخدمتها ستُّ مئة امرأة[٦]. قال ابن عطية[٧]: واللازمُ من الآية أنَّها امرأةٌ مُلِّكَتْ على مدائن اليمن، ذاتُ مُلكٍ عظيم، وسريرٍ عظيم، وكانت كافرةً من قومٍ كُفَّار.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قيل: كانت هذه الأمَّةُ ممَّن يعبد الشمس؛ لأنَّهم كانوا زنادقةً فيما يُروى. وقيل: كانوا مجوساً يعبدون الأنوار. ورُويَ عن نافعٍ أنَّ الوقْفَ على «عرش»[٨]. قال المَهْدَوي: فعظيمٌ على هذا متعلِّقٌ بما بعده، وكان ينبغي على هذا أن يكون: عظيمٌ أن وَجدتُّها،

(١) هذا كلام الرازي في تفسيره ٢٤/ ١٩٠ ، وأما كلام الزمخشري فهو في الكشاف ٣/ ١٤٤ بغير هذا السياق.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤١٥ ، ومجمع البيان ١٩/ ٢١٤ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ .

(٤) قوله: «في ثمانين ذراعاً» من (م).

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤١٥ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ .

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٨) المصدر السابق.

أي: عظيمٌ[(١)] وجودي إيَّاها كافرة. وقال ابن الأنباري[(٢)]: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وقفٌ حسن، ولا يجوز أن يقِفَ على «عرش» ويبتدئ «عَظِيمٌ وَجَدْتُها» إلَّا على من فتح؛ لأنَّ عظيماً نعتٌ للعرش[(٣)] فلو كان متعلِّقاً بوَجَدْتُها لقُلتَ: عظيمةٌ وجدتُها، وهذا مُحالٌ من كلِّ وجه. وقد حدَّثني أبو بكر محمد بن الحسين بن شَهْرَيار، قال: حدَّثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود العِجليُّ، عن بعض أهل العلم أنه قال: الوقف على «عرش» والابتداء «عظيم» على معنى: عظيمٌ عبادَتُهم الشمسَ والقمر. قال: وقد سمعت مَنْ يُؤيِّدُ هذا المذهب، ويَحتَجُّ بأنَّ عرشَها أحقرُ وأدقُّ شأناً من أن يصِفَه الله بالعظيم. قال ابن الأنباري: والاختيارُ عندي ما ذكَرْتُه أوَّلاً؛ لأنَّه ليس على إضمارِ عبادةِ الشمسِ والقمرِ دليلٌ. وغيرُ مُنكَرٍ أن يصِفَ الهدهدُ عرشَها بالعظيم إذ رآه مُتناهي الطولِ والعرض؛ وجَرْيُه على إعراب «عرش» دليلٌ على أنَّه نَعْتُه.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ما لهم فيه من الكفر. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق التوحيد. وبيَّن بهذا أنَّ ما ليسَ بسبيل التوحيد فليسَ بسبيلٍ ينتفع به على التحقيق. ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الله وتوحيده.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة: «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ» بتشديد «ألَّا»[(٤)]؛ قال ابن الأنباري[(٥)]: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ غيرُ تامٍّ لمن شدَّد «ألَّا»؛ لأنَّ المعنى: وزيَّنَ لهم الشيطانُ ألَّا يسجدوا. قال النَّحَّاس: هي «أن» دخلَتْ عليها «لا» و«أن» في موضع نصب؛ قال الأخفش: بـ «زين» أي: وزيَّنَ لهم لئِلَّا يسجدوا لله. وقال الكسائي: بـ «فَصدَّهم» أي: فصَدَّهم ألَّا يسجدوا.

---

(١) كلمة «عظيم» ليست في (م)، وأثبتت من باقي النسخ.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٥-٨١٦ .

(٣) في (م): لعرش. والمثبت من باقي النسخ.

(٤) السبعة ص٤٨٠ ، والتيسير ص١٦٨ .

(٥) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٦ .

وهو في الوجهين مفعولٌ له. وقال اليزيدي وعلي بن سليمان: «أن» بدل من «أعمالهم» في موضع نصب. وقال أبو عمرو: و«أن» في موضع خَفْضٍ على البدل من السبيل[(١)].

وقيل: العامل فيها «لا يَهْتَدُونَ» أي: فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، أي: لا يعلمون أنَّ ذلك واجبٌ عليهم. وعلى هذا القول «لا» زائدة[(٢)]، كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] أي: ما منعكَ أنْ تسجُدَ. وعلى هذه القراءة فليس بموضع سجدة؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود، إما بالتزيين، أو بالصدّ، أو بمنع الاهتداء[(٣)].

وقرأ الزهري والكسائي وغيرهما: «أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ»[(٤)] بمعنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا؛ لأن «يا» ينادى بها الأسماء دون الأفعال. وأنشد سيبويه:

يا لعنةُ اللهِ والأقوامِ كلِّهِمِ والصَّالحين على سِمْعَانَ من جَارِ

قال سيبويه: «يا» لغير اللعنة؛ لأنَّه لو كان للَّعنةِ لنَصَبَها؛ لأنه كان يصير مُنادًى مُضافاً، ولكن تقديره: يا هؤلاء، لعنةُ اللهِ والأقوامِ على سِمْعان[(٥)]. وحكى بعضُهم سماعاً عن العرب: ألا يا ارحموا ألا يا اصدقُوا. يريدون: ألا يا قومُ ارحموا اصدُقوا، فعلى هذه القراءة «اسْجُدُوا» في موضع جزمٍ بالأمر، والوقف على «أَلَا يَا»،

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٦ بنحوه دون قوله: «وهو في الوجهين مفعول له» وهو في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ . وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٤٩ .

(٢) البيان ٢/ ٢٢١ ، والكشاف ٣/ ١٤٥ .

(٣) هذا معنى قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩٠ .

(٤) قراءة الكسائي في السبعة ص٤٨٠ ، والتيسير ص١٦٧ . وذكر النحاس هذه القراءة في معاني القرآن ٥/ ١٢٦ ، وإعراب القرآن ٣/ ٢٠٦ عن الكسائي والزهري وابن عباس وأبي جعفر وأبي عبد الرحمن السلمي والحسن وحميد الأعرج وطلحة. وزاد عليه ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦٦ : عن قتادة وأبي العالية والأعمش وابن أبي عبلة.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٦ ، وإعراب القرآن ٣/ ٢٠٦ ، وتأويل مشكل القرآن ص١٧٢ . وينظر الكتاب لسيبويه ٢/ ٢١٩-٢٢٠ .

ثم تبتدئ فتقول: «اسْجُدُوا»[١]. قال الكسائي [عن عيسى الهَمْداني قال:[٢]]: ما كنتُ أسمَعُ الأشياخ يقرؤونها إلَّا بالتخفيف على نيَّة الأمر. وفي قراءة عبد الله: «هلَّا[٣] تَسْجُدُونَ لِلَّهِ» بالتاء والنون. وفي قراءة أبيٍّ: «أَلَا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ» فهاتان القراءتان حُجَّةٌ لمن خَفَّف[٤]. الزَّجّاج: وقراءةُ التخفيف تقتضي وجوبَ السجود دون التشديد[٥]. واختار أبو حاتم وأبو عبيد[٦] قراءة التَّشديد. وقال: التخفيف وجهٌ حسنٌ إلَّا أنَّ فيه انقطاعَ الخبر من أمر سبأ، ثم رجع بَعْدُ إلى ذِكْرِهم، والقراءةُ بالتشديد خبرٌ يتبعُ بعضُه بعضاً لا انقطاعَ في وسطه[٧]. ونحوه قال النحاس؛ قال: قراءةُ التَّخفيفِ بعيدة؛ لأنَّ الكلامَ يكون معترِضاً، وقراءةُ التشديدِ يكون الكلامُ بها مُتَّسقاً، وأيضاً فإنَّ السَّوادَ على غير هذه القراءة؛ لأنَّه قد حُذِفَ منها ألِفان، وإنَّما يُختصَرُ مثلُ هذا بحَذْفِ ألفٍ واحدةٍ نحو: يا عيسى بن مريم[٨]. ابن الأنباري: وسقطت ألِفُ «اسجدوا» كما تسقطُ مع هؤلاءِ إذا ظهر، ولمَّا سقطت ألفُ «يا» واتَّصلت بها ألفُ «اسْجُدُوا» سقطت، فَعُدَّ سقوطُها دِلالةً على الاختصارِ وإيثاراً لِما يَخِفُّ وتَقِلُّ ألفاظُه. وقال الجوهري في آخر كتابه[٩]: قال بعضهم: إن «يا» في هذا الموضع إنَّما هو للتنبيهِ، كأنَّه قال: ألا اسجدوا للهِ، فلمَّا أَدخَلَ عليه «يا» للتنبيه سقطتِ الألفُ التي

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤١٥ بنحوه.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في النسخ، وأُثبتَ من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٠ .

(٣) في (ظ): «هل»، وفي (م): «ألا هل»، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٠ ، وإيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٧٤ ، والكشاف ٣/ ١٤٥ .

(٤) من قوله: قال الكسائي... إلى هذا الموضع من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٠ . قلنا: وكلا القراءتين شاذَّتان لا حُجَّة فيهما.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٥ .

(٦) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: أبو عبيدة.

(٧) نقله عنه ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٧٣-١٧٤ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٠٧ .

(٩) الصحاح (يا).

في «اسْجُدُوا»؛ لأنَّها أَلِفُ وَصْلٍ، وذهبتِ الألفُ التي في «يا» لاجتماع الساكنين؛ لأنَّها والسين ساكنتان. قال ذو الرُّمَّة[١]:

أَلَا يا اسْلَمِي يا دارَ مَيٍّ على البِلَى ولا زَالَ مُنْهَلًّا بَجَرْعَائِكِ القَطْرُ

وقال الجُرجانيُّ: هو كلامٌ معترِضٌ من الهُدهُدِ أو سليمانَ أو من الله[٢]. أي: لا لِيسجدوا، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] قيل: إنه أمرٌ، أي: ليغفِروا. وتنتظم على هذا كتابةُ المصحف، أي: ليس هاهنا نداء. قال ابن عطية[٣]: قيل هو من كلام الهدهد إلى قوله: «العظِيم» وهو قول ابن زيد وابن إسحاق، ويُعترَضُ بأنَّه غيرُ مخاطَبٍ فكيف يتكلم في معنى شرع؟! ويَحتمِلُ أن يكون من قول سليمان لَمَّا أخبره الهدهد عن القوم. ويَحتمِلُ أن يكون من قول[٤] الله تعالى، فهو اعتراضٌ بين الكلامين، وهو الثابتُ مع التأمُّلِ، وقراءةُ التشديد في «أَلَّا» تُعطي أنَّ الكلامَ للهدهد، وقراءة التخفيف تمنعه، والتخفيفُ يقتضي الأمرَ بالسجودِ لله عزَّ وجلَّ للأمرِ على ما بيَّنَّاه. وقال الزَّمخشري[٥]: فإن قلتَ: أَسَجدةُ التلاوةِ واجبةٌ في القراءتين جميعاً أم في إحداهما؟ قلتُ: هي واجبةٌ فيهما جميعاً؛ لأنَّ مواضِعَ السجدة إمَّا أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها، أو ذمٌّ لمن تركها، وإحدى القراءتين أمرٌ بالسجود والأخرى ذَمٌّ للتارك.

قلتُ: وقد أخبرَ اللهُ عن الكفَّار بأنهم لا يسجدون كما في «الانشقاق»، وسجدَ النبيُّ ﷺ فيها، كما ثبت في البخاريِّ وغيره[٦]، فكذلك «النمل». والله أعلم. الزمخشري[٧]: وما ذكَرهُ الزَّجَّاجُ من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغيرُ

---

(١) في ديوانه ١/ ٥٥٩ .

(٢) وذكر هذا الكلام الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢١٥ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٤) كلمة «قول» من (م) والمحرر الوجيز.

(٥) في الكشاف ٣/ ١٤٥ .

(٦) صحيح البخاري (٧٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٧١٤٠)، ومسلم (٥٧٨).

(٧) في الكشاف ٣/ ١٤٥ .

مَرجوعٍ إليه.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ خَبْءُ السماء: قَطْرُها، وخَبْءُ الأرض: كنوزُها ونباتها. وقال قتادة: الخَبْءُ: السِّرُّ. النحَّاس: وهذا أولى. أي: ما غاب في السماوات والأرض، ويدلُّ عليه ﴿مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[1]. وقرأ عكرمة ومالك بن دينار: «الخَبَ» بفتح الباء من غير همز[2]. قال المهدوي: وهو التخفيف القياسي، وذُكِرَ مَنْ يترُكُ الهمزَ في الوقف. وقال النَّحَّاس[3]: وحكى أبو حاتم أنَّ عكرمةَ قرأ: «الَّذي يُخْرِجُ الخَبَا» بألف غير مهموزة[4]، وزعمَ أنَّ هذا لا يجوز في العربية، واعتلَّ بأنَّه إن خفَّفَ الهمزةَ ألقى حركتَها على الباء وحذفها[5] فقال: «الْخَبَ في السَّماواتِ والأرْضِ» وأنَّه إنْ حوَّلَ الهمزةَ قال: الْخَبْيَ بإسكان الباء وبعدها ياء. قال النَّحَّاس: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: كان أبو حاتم دونَ أصحابِه في النَّحْوِ ولم يلحَقْ بهم، إلَّا أنَّه إذا خرجَ من بلدهِ لم يُلْقَ أعلمَ منه. وحكى سيبويه عن العرب أنها تُبدِلُ من الهمزة أَلِفاً إذا كان قبلَها ساكنٌ وكانت مفتوحة، وتُبدِلُ منها واواً إذا كان قبلَها ساكنٌ وكانت مضمومة، وتُبدِلُ منها ياءً إذا كان قبلها ساكنٌ وكانت مكسورة، فتقول: هذا الْوَثْوُ[6]، وعجبتُ من الوَثْيِ، ورأيتُ الْوَثَا، وهذا من وَثِئَتْ يدُه، وكذلك هذا الْخَبْوُ، وعجبتُ من الْخَبْي، ورأيت الخَبَا؛ وإنَّما فُعِلَ هذا لأنَّ الهمزةَ خفيفةٌ، فأُبدِلَ منها هذه الحروف. وحكى سيبويه عن قومٍ من بني تميم وبني أسد أنهم يقولون: هذا الخبُؤُ، يضمُّون الساكنَ إذا كانت الهمزةُ مضمومةً،

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٧ .

(٢) الشاذة ص١٠٩ عن عيسى: وهو ابن عمر الهمداني، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ عن أبي بن كعب.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٧-٢٠٨ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ ، وذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٠٩ عن مالك بن دينار، وسترد قريباً من قراءة ابن مسعود.

(٥) كلمة «وحذفها» ليست في (م).

(٦) والوثءُ: الضرب حتى يَرْهَصَ الجلدُ اللحمُ ويصل الضربُ إلى العظم من غير أن ينكسر. اللسان (وثأ).

ويُثْبِتون الهمزة ويكسرون الساكن إذا كانت الهمزةُ مكسورةً، ويفتحون الساكن إذا كانت الهمزةُ مفتوحةً. وحكى سيبويه أيضاً أنهم يكسرون وإن كانت الهمزةُ مضمومةً، إلّا أنَّ هذا عن بني تميم، فيقولون: الرِّدِيءُ، وزعمَ أنَّهم لم يضُمُّوا الدَّالَ لأنَّهم كرِهوا ضمةً ما قبلها كسرة؛ لأنَّه ليس في الكلام فِعُلٌ. وهذه كلُّها لغاتٌ داخلةٌ على اللغة التي قرأ بها الجماعة.

وفي قراءة عبد الله «الَّذي يُخْرِجُ الْخَبَا مِنَ السَّماواتِ» و «من» و «في» يتعاقبان؛ تقول العرب: لأستخرجنَّ العِلمَ فيكم يريدُ منكم. قاله الفرَّاء[١]. ﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قراءة العامة فيهما بياء الغائب[٢]، وهذه القراءةُ تعطي أنَّ الآيةَ من كلام الهدهد[٣]، وأنَّ الله تعالى خصَّه من المعرفة بتوحيدِه ووجوبِ السجود له، وإنكارِ سجودهم للشمس، وإضافتِه للشيطان، وتزيينِه لهم، ما خَصَّ به غيره من الطيور وسائر الحيوان؛ من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقولُ الراجحةُ تهتدي لها. وقرأ الجَحْدرِيُّ وعيسى بن عمر وحفص والكسائي: «تُخْفُونَ» و«تُعْلِنُونَ» بالتاء على الخطاب، وهذه القراءة[٤] تعطي أن الآية من خطاب الله عز وجل لأمة محمد ﷺ[٥].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قرأ ابن مُحَيصِن: «العظِيمُ» رفعاً[٦] نعتاً لله. الباقون: بالخفض نعتاً للعرش. وخُصَّ بالذِّكرِ لأنه أعظمُ المخلوقات، وما عداه في ضمنِه وقبضتِه[٧].

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٢٩١ . وقراءة عبد الله بن مسعود في الشاذة ص١٠٩ ، وذكرها المصنف قريباً عن عكرمة.

(٢) كلمة «الغائب» من (م).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ .

(٤) قراءة حفص والكسائي في السبعة ص٤٨١ ، وفي التيسير ص١٦٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ .

(٦) الشاذة ص١٠٩ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٦ ونسبها أيضاً إلى الضحاك.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر الذي هو التأمُّلُ والتصفُّح[١]. ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في مقالتِك[٢]. و«كنت» بمعنى أنت. وقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ ولم يقل: سننظر في أمرك؛ لأنَّ الهدهدَ لمَّا صرَّحَ بفخر العلم في قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ صرَّحَ له سليمان بقوله: ﴿سننظر أصدقت أم كذبت﴾ فكان ذلك كُفؤاً[٣] لما قالَه.

الخامسة عشرة: في قوله: «أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» دليلٌ على أنَّ الإمام يجب عليه أن يقبلَ عذرَ رعيَّته، ويدرأ العقوبةَ عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم[٤]؛ لأنَّ سليمان لم يُعاقبِ الهُدهدَ حين اعتذر إليه، وإنَّما صارَ صدقُ الهدهدِ عذراً؛ لأنَّه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حُبِّبَ إليه الجهاد. وفي الصحيح: «ليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أنزلَ الكتابَ وأرسلَ الرُّسلَ[٥]». وقد قبِلَ عمرُ عذرَ النُّعمان بنَ عديٍّ ولم يُعاقِبْه[٦]. ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلَّق به حكمٌ من أحكام الشريعة، كما فعل سليمان؛ فإنه لمَّا قال الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ لم يستفِزَّه الطمع، ولا استجَرَّه حُبُّ الزيادة في الملك إلى أن يعرض له حتى قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فغاظَه حينئذٍ ما سمع، وطلبَ الانتهاءَ إلى ما أخبر، وتحصيلَ علمِ ما غابَ عنه من ذلك، فقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[٧]، ونحوٌ منه ما رواه الصحيح عن المِسْور بن مَخْرَمة، حين استشارَ عمرُ

---

(١) الكشاف ٣/ ١٤٥.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٤.

(٣) في (م): كفاء. وفي بقية النسخ: حقاً. والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٧.

(٥) صحيح البخاري (٧٤١٦)، وصحيح مسلم (٤١٩٩) بنحوه من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ. وهو في مسند أحمد (١٨١٦٨).

(٦) وقد سلفت قصته ١٦/ ٩٠ - ٩١.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٦.

الناسَ في إملاصِ المرأة ـ وهي التي يُضرَبُ بطنُها فتلقي جنينَها ـ فقال المغيرةُ بنُ شعبة: شهدتُ النبيَّ ﷺ قضى فيه بغرَّةٍ عبدٍ أو أمة. قال: فقال عمر: ايتني بمَنْ يشهدُ معك. قال: فشهِدَ له محمد بن مسلمة[١]. وفي روايةٍ فقال: لا تبرَحْ حتى تأتيَ بالمخرَجِ من ذلك. فخرجتُ فوجدتُ محمد بن مسلمة، فجئتُ به فشَهِدَ[٢]. ونحوه حديثُ أبي موسى في الاستئذان[٣]، وغيرُه.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزَّجَّاج: فيها خمسةُ أوجه: «فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ» بإثبات الياء في اللفظ. وبحذف الياء وإثبات الكسرة دالَّةً عليها «فَأَلْقِهِ إِلَيْهِم». وبضَمِّ الهاء وإثبات الواو على الأصل «فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ». وبحذف الواو وإثبات الضمَّة «فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ». واللغة الخامسة قرأ بها حمزة بإسكان الهاء «فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ». قال النَّحَّاس: وهذا عند النَّحْويِّين لا يجوزُ إلَّا على حيلةٍ بعيدةٍ تكون: يُقدَّر الوقف. وسمعتُ علي بن سليمان يقول: لا تلتفِتْ إلى هذه اللغة[٤]، ولو جازَ أن يصِلَ وهو ينوي الوقف لجاز أن يحذِفَ الإعرابَ من الأسماء[٥]. وقال: «إليهِم» على لفظ الجمع، ولم يقُلْ: إليها؛ لأنَّه قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ فكأنه قال: فألقِه إلى الذين هذا دينهم؛ اهتماماً منه بأمر الدِّين، واشتغالاً به عن غيره، وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك[٦].

---

(١) صحيح مسلم (١٦٨٣). وأخرجه أحمد (١٨٢١٣).

(٢) صحيح البخاري (٦٣١٧).

(٣) سلف ١٥/ ١٩٠ .

(٤) في (م): العلة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٠٨-٢٠٩ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١١٦ . والقراءة الأولى والثانية والخامسة من القراءات السبعة المشهورة، فالقراءة الأولى قرأ بها ابن كثير والكسائي وابن عامر في رواية هشام عنه، ونافع في رواية ورش عنه. والقراءة الثانية قرأ بها ابن عامر في رواية ابن ذكوان عنه، ونافع في رواية قالون عنه. والقراءة الخامسة قرأ بها حمزة وعاصم وأبو عمرو. وأما القراءتان الثالثة والرابعة فهما شاذتان، وذكر ابن خالويه القراءة الثالثة في الشاذة ص١٠٩ عن مسلم بن جندب.

(٦) الكشاف ٣/ ١٤٦ .

ورُويَ في قصص هذه الآية أنَّ الهدهدَ وصل فألفى دون هذه الملكة حُجب جدران فعمدَ إلى كُوَّةٍ كانت بِلْقيسُ صنَعْتها لتدخل منها الشمسُ عند طلوعها لمعنى عبادتها إيَّاها، فدخَلَ منها ورمى الكتاب على بِلْقيسَ وهي ـ فيما يُروى ـ نائمة، فلمَّا انتبهَتْ وجَدَتْه فراعَها، وظنَّتْ أنَّه قد دخل عليها أحد، ثم قامَتْ فوجدَتْ حالها كما عهِدَتْ، فنظرَتْ إلى الكُوَّةِ تَهمُّماً بأمر الشمس، فرأَتِ الهدهدَ فعلِمَتْ[١]. وقال وهب وابن زيد: كانت لها كُوَّةٌ مستقبلةَ مطلع الشمس، فإذا طلعت سجدت، فسدَّها الهدهدُ بجناحه، فارتفعتِ الشمسُ ولم تعلم، فلما استبطأَتِ الشمسَ قامتْ تنظرُ، فرمى الصحيفةَ إليها، فلما رأتِ الخاتمَ ارتعدَتْ وخضعَتْ؛ لأنَّ مُلك سليمان عليه السلام كان في خاتمه، فقرأَتْه، فجمعتِ الملأ من قومها فخاطَبتْهم بما يأتي بعد[٢]. وقال مقاتل: حملَ الهدهدُ الكتابَ بمنقارِه، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولَها الجنود والعساكر، فرفرف ساعةً والناس ينظرون إليه، فرفعتِ المرأةُ رأسَها فألقى الكتاب في حجرها[٣].

السابعة عشرة: في هذه الآية دليلٌ على إرسالِ الكتبِ إلى المشركين وتبليغِهم الدعوة، ودعائِهم إلى الإسلام. وقد كتبَ النبيُّ ﷺ إلى كسرى وقيصرَ وإلى كلِّ جبَّار كما تقدَّم في «آل عمران»[٤].

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أمْرُه بالتولِّي حُسْنُ أدبٍ ليتنحَّى حسْبَ ما يتأدَّبُ به مع الملوك. بمعنى: وكُنْ قريباً حتى ترى مراجعتَهم. قاله وهب بن منبِّه. وقال ابن زيد: أمْرُه بالتولِّي بمعنى الرجوع إليه، أي: ألقِهِ وارجِعْ. قال: وقوله ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التقديم على قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ واتِّساقُ رتبةِ الكلامِ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ - ٢٥٨ عن وهب بن منبه.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤١٦ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٤ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٧ - ١٦٨ .

(٤) ٥/ ١٦١ .

أظهر؛ أي: ألقِهِ ثم تولَّ، وفي خلالِ ذلك فانظر[١] أي: انتظر. وقيل: فاعلم، كقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] أي: اعلم ماذا يرجعون، أي: يُجيبون وماذا يردُّون من القول. وقيل: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يتراجعون بينهم من الكلام.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ في الكلام حَذْفٌ، والمعنى: فذهبَ فألقاه إليهم، فسمعها وهي تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾[٢]. ثم وصفتِ الكتابَ بالكريم إمَّا لأنَّه من عند عظيمٍ في نفسِها ونفوسِهم، فعظَّمته إجلالاً لسليمان عليه السلام. وهذا قول ابن زيد. وإمَّا أنها أشارت إلى أنَّه مطبوعٌ عليه بالخاتم، فكرامةُ الكتابِ خَتْمُه، ورُوِيَ ذلك عن رسول الله ﷺ[٣]. وقيل: لأنَّه بدأ فيه بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وقد قال ﷺ: «كلُّ كلامٍ لا يُبدَأُ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجْذَم»[٤]. وقيل: لأنَّه بدأ فيه بنفسِه، ولا يفعلُ ذلكَ إلا الجُلَّة. وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك ابن مروان يبايعه: مِنْ عبد الله لعبد الملك بن مروان أميرِ المؤمنين، إنِّي أُقِرُّ لكَ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٨ .

(٣) سيرد لفظه قريباً.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ . والحديث أخرجه أحمد (٨٧١٢)، وأبو داود (٤٨٤٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٩٤)، وابن ماجه (١٨٩٤)، وابن حبان (١) وغيرهم من طريق قرة بن عبد الرحمن، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: «بحمد الله»، وفي رواية أبي داود: «أجذم»، ورواية أحمد: «أبتر» أو «أقطع»، ورواية الباقين: «أقطع». وقرة بن عبد الرحمن ضعيف.

وأخرجه النسائي (٤٩٥) و(٤٩٦) و(٤٩٧) من طرق عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً، بلفظ: «بذكر الله». ورجَّح الدارقطني في سننه ١/ ٤٢٧ وفي العلل ٨/ ٣٠ هذه الرواية المرسلة على الموصولة. قلنا: ومراسيل الزهري غير معتبرة عند جمهور أهل العلم.

وللحديث طرق أخرى معلولة تنظر في مسند أحمد.

بالسمع والطاعة ما استطعتُ، وإن بَنيَّ قد أقرُّوا لكَ بذلك[(١)]. وقيل: توهَّمَتْ أنَّه كتابٌ جاء من السماء؛ إذ كان الموصِّل طيراً. وقيل: «كَرِيمٌ»: حسن، كقوله: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨] أي: مجلسٍ حسن. وقيل: وصَفَتْه بذلك؛ لِما تضمَّنَ من لينِ القول والموعظةِ في الدعاء إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ، وحُسنِ الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سَبّاً ولا لَعْناً، ولا ما يُغيِّرُ النفس، ومن غير كلامٍ نازلٍ ولا مُستغْلَق؛ على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ألا ترى إلى قولِ الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. وكلُّها وجوه حسان وهذا أحسَنُها.

وقد روي أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحدٌ قبل سليمان[(٢)]. وفي قراءة عبد الله: «وَإِنَّهُ مِنْ سُليمان» بزيادة واو[(٣)].

الثانية: الوصف بالكريم في الكتب غاية الوصف؛ ألا ترى قولَه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ وأهلُ الزَّمانِ يصفون الكتابَ بالخطير وبالأثير وبالمبرور؛ فإن كان لملِكٍ قالوا: العزيز، وأسقطوا الكريم غفلةً، وهو أفضلُها خَصلةً. فأمَّا الوصْفُ بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢] فهذه عِزَّتُه وليست لأحدٍ إلا له، فاجتنبوها في كتبكم، واجعلوا بدلَها العالي؛ توفيةً لحَقِّ الولاية، وحياطةً للديانة. قاله القاضي أبو بكر بن العربي[(٤)].

الثالثة: كان رسمُ المتقدِّمين إذا كتبوا أن يبدؤوا بأنفسهم: من فلانٍ إلى فلان،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٧ - ١٤٤٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ ، والكشاف ٣/ ١٤٦ ، وهي قراءة شاذة. ووقع في (د) و(ز) و(ظ): وفي قراءة أبي: «وإنه» بزيادة واو. والمثبت من (م).

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٨ .

وبذلك جاءت الآثار. وروى الربيع عن أنس قال: ما كانَ أحدٌ أعظمَ حُرمةً من النبيِّ ﷺ، وكان أصحابُه إذا كتبوا بدؤوا بأنفسهم[١]. وقال ابن سيرين: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أهلَ فارس إذا كتبوا بدؤوا بعُظَمائهم فلا يبدأِ الرجلُ إلَّا بنفسِه»[٢]. قال أبو الليث في كتاب «البستان» له: ولو بدأ بالمكتوبِ إليه جاز[٣]؛ لأنَّ الأمةَ قد اجتمعَتْ عليه وفعلوه لمصلحةٍ رأوا في ذلك، أو نسخ ما كان من قبل؛ فالأحسنُ في زمانِنا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه، ثم بنفسه؛ لأنَّ البدايةَ بنفسِه تُعَدُّ منه استخفافاً بالمكتوب إليه، وتكبُّراً عليه، إلَّا أنْ يكتبَ إلى عبدٍ من عبيدِه، أو غُلامٍ من غِلْمانِه.

الرابعة: وإذا وردَ على إنسانٍ كتابٌ بالتحية أو نحوِها ينبغي أن يرُدَّ الجواب؛ لأنَّ الكتابَ من الغائبِ كالسلامِ من الحاضر. ورُويَ عن ابن عباسٍ أنَّه كان يرى رَدَّ الكتابِ واجباً كما يرى رَدَّ السلام. والله أعلم.

الخامسة: اتَّفقوا على كَتْبِ «بسم الله الرحمن الرحيم» في أوَّل الكتب والرسائل، وعلى ختْمِها؛ لأنَّه أبعَدُ من الرِّيبة، وعلى هذا جرى الرَّسمُ، وبه جاء الأثرُ عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: أيُّما كتابٍ لم يكن مختوماً فهو أغلَفُ. وفي الحديث: «كَرمُ الكتابِ خَتْمُه»[٤]. وقال بعض الأدباء هو ابن المُقَفَّع: مَنْ كتبَ إلى أخيه كتاباً فقدِ استخَفَّ به[٥]؛ لأنَّ الختمَ حَتْمٌ[٦]. وقال أنس: لمَّا أرادَ النبيُّ ﷺ أن

---

(١) وأخرجه الطبراني في الكبير (٦١٠٨) من حديث سلمان ﷺ.

(٢) إسناده منقطع؛ محمد بن سيرين تابعي، وقد رواه عن النبي ﷺ دون ذكر الصحابي.

(٣) في (م): لجاز.

(٤) من بداية المسألة الثالثة إلى هذا الموضع من بستان العارفين ص٦٣ -٦٤. والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٨٤) عن ابن عباس ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٩٩: فيه محمد بن مروان السدي الصغير، وهو متروك. وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٣٩) وفيه السدي، وفيه الكلبي وهو متروك أيضاً.

(٥) الكشاف ٣/ ١٤٦.

(٦) في (م): ختم.

يكتُبَ إلى العجم فقيل له: إنَّهم لا يقبلون إلَّا كتاباً عليه ختم. فاصطنعَ خاتماً، ونقشَ على فَصِّه: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكأنِّي أنظرُ إلى وَبِيصِه[١] وبياضِه في كَفِّه[٢].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ «وَإِنَّهُ» بالكسر فيهما، أي: وإنَّ الكلام، أو: إن مُبتدأ الكلامِ «بسم الله الرحمن الرحيم». وأجازَ الفرَّاءُ «أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ» بفتحِهما جميعاً على أن يكونا في موضع رفع بدلٍ من الكتاب بمعنى: ألقى إليَّ أنه من سليمان. وأجاز أن يكونا في موضع نصبٍ على حذف الخافض[٣]، أي: لأنَّه من سليمان ولأنَّه؛ كأنَّها علَّلتْ كَرمَه بكونه من سليمان وتصديرِه بسم الله. وقرأ الأشهب العُقَيليُّ ومحمد بن السَّمَيْفع: «أَلَّا تَغْلُوا» بالغين المعجمة. ورُويَ عن وهب بن مُنبِّه[٤]؛ من غلا يغلو إذا تجاوزَ وتكبَّر[٥]. وهي راجعةٌ إلى معنى قراءة الجماعة ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُنقادين طائعين مؤمنين[٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ الملأُ: أشرافُ

---

(١) الوبيص: البريق. اللسان (وبص).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٢٧٣٨)، والبخاري (٥٨٧٢)، ومسلم (٢٠٩٢). وفي الحديث أن النقش كان: محمد رسول الله.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٩ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ عن الأشهب العقيلي، والمحتسب ٢/ ١٣٩ ، والشاذة عن وهب بن منبه، وذكرا أنها قراءة ابن عباس.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٩ .

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ١١٦ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٨ ، والكشاف ٣/ ١٤٦ .

القوم[١]. وقد مضى في سورة «البقرة»[٢] القولُ فيه. قال ابن عباس: كان معها ألفُ قَيْل. وقيل: اثنا عشرَ ألفِ قَيْل مع كل قَيْلٍ مئة ألف[٣]. والقَيْلُ: الملِكُ دون الملِكِ الأعظم[٤]. فأخذت في حُسنِ الأدبِ مع قومها، ومشاورتِهم في أمرها، وأعلَمتْهم أنَّ ذلك مُطَّرِدٌ عندها في كلِّ أمرٍ يَعرِضُ، بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ فكيفَ في هذه النازلة الكبرى. فراجَعَها الملأُ بما يُقِرُّ عينَها، من إعلامهم إيَّاها بالقوَّة والبأس، ثم سلَّموا الأمرَ إلى نظَرِها؛ وهذه محاورةٌ حسنةٌ من الجميع[٥]. قال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّه كان لها ثلاثُ مئة وثلاثةَ عشَر رجلاً هم أهلُ مشورَتِها، كلُّ رجلٍ منهم على عشرة آلاف[٦].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على صِحَّةِ المشاورة. وقد قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ في «آل عمران» [الآية: ١٥٩] إمَّا استعانةً بالآراء، وإمَّا مُداراةً للأولياء. وقد مدحَ اللهُ تعالى الفُضَلاءَ بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٧] [الشورى: ٣٨]. والمشاورةُ من الأمر القديم وخاصَّةً في الحرب، فهذه بلقيس امرأةٌ جاهليةٌ كانت تعبد الشمس ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ لتختبِرَ عَزْمَهم على مقاومة عدوِّهم، وحَزْمَهم فيما يُقيمُ أمرَهم، وإمضاءَهم على الطاعةِ لها، بعلمها بأنَّهم إن لم يبذُلوا أنفُسَهم وأموالَهم ودماءَهم دونها لم يكن لها طاقةٌ بمقاومة عدوِّها، وإن لم يجتمع أمرُهم وحزمُهم وجِدُّهم كان ذلك عوناً لعدوِّهم عليهم، وإن لم تختبِرْ

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٧٧ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٨ .

(٢) ٤/ ٢٢٨ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤١٦ . وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ٥١ . والقول الثاني أخرجه الطبري ١٨/ ٥٠ - ٥١ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٢٠) عن مجاهد. قال الألوسي في روح المعاني ١٩/ ١٩٨ : ولعمري إن أرض اليمن لتكاد تضيق عن العدد الذي تضمَّنه الخبر .

(٤) الصحاح (قول).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤١٦ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٨ .

ما عندهم، وتعلَمْ قَدْرَ عزمِهم لم تكن على بصيرةٍ من أمرِهم، وربما كان في استبدادِها برأيها وَهْنٌ في طاعتها، ودخيلةٌ في تقديرِ أمرِهم، وكان في مشاورتهم وأخْذِ رأيهم عونٌ على ما تريده من قوَّةِ شوكَتِهم، وشِدَّةِ مُدافعتِهم؛ ألا ترى إلى قولهم في جوابهم: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا۟ قُوَّةٍ وَأُوْلُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. قال ابن عباس: كان من قُوَّةِ أحدِهم أنه يَركُضُ فرسَه حتى إذا احتدَّ ضَمَّ فَخِذَيه فحبسه بِقُوَّته.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ سلَّموا الأمرَ إلى نظرِها ـ مع ما أظهروا لها من القوَّةِ والبأسِ والشِّدَّة ـ فلمَّا فعلوا ذلك أخبرَتْ عند ذلِكَ بفِعْلِ الملوكِ بالقُرى التي يتغلَّبون عليها. وفي هذا الكلام خَوفٌ على قومِها، وحيطةٌ لهم[(١)]، واستعظامٌ لأمر سليمان عليه السلام. ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قيل: هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذي أرادَتْه. وقال ابن عباس: هو من قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ مُعرِّفاً لمحمدٍ ﷺ وأمَّتِه بذلِكَ ومُخبِراً به[(٢)]. وقال وهب: لمَّا قرأَتْ عليهم الكتابَ لم تعرفِ اسمَ الله، فقالت: ما هذا؟! فقال بعضُ القوم: ما نظُنُّ هذا إلَّا عفريتاً عظيماً من الجِنِّ يقتدِرُ به هذا الملِكُ على ما يُريده. فسكَّتوه. وقال آخر[(٣)]: أراهُمْ ثلاثةً من العفاريت. فسكَّتوه، فقال شابٌّ قد عَلِمَ: يا سيِّدةَ الملوك، إنَّ سليمانَ مَلِكٌ قد أعطاه مَلِكُ السماء مُلْكاً عظيماً، فهو لا يتكلَّم بكلمةٍ إلَّا بدأ فيها بتسمية إلهه، واللهُ اسمُ مَليكِ السماء، والرَّحمنُ الرحيمُ نعوتُه. فعندها قالت: ﴿أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ فقالوا: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا۟ قُوَّةٍ﴾ في القتال ﴿وَأُوْلُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[(٤)] في الحربِ واللقاء ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ ردُّوا أمرَهم إليها لمَّا جرَّبوا على رأيها من البركة ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فـ ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أهانوا شُرفاءَها لتستقيمَ لهم الأمور،

---

(١) كلمة «لهم» ليست في (م)، وأثبتت من باقي النسخ.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٥٨.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: الآخر.

(٤) قبلها في (م) كلمة: قوة.

فصدقَ اللهُ قولَها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وقال ابن الأنباري[(١)]: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ هذا وقفٌ تامٌّ. فقال الله عزَّ وجلَّ تحقيقاً لقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وشبيهٌ به في سورة «الأعراف» [١٠٩-١١٠]: «قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ» تمَّ الكلام، فقال فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾. وقال ابن شجرة[(٢)]: هو قول بلقيس، فالوقف ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي: وكذلك يفعل سليمانُ إذا دخلَ بلادَنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ هذا من حُسنِ نظَرِها وتدبيرِها، أي: إنّي أُجرِّبُ هذا الرجل بهدية، وأُعطيه فيها نفائسَ الأموال[(٣)]، وأُغرِبُ عليه بأمور المملكة، فإن كان ملكاً دُنياويًّا أرضاه المالُ وعمِلْنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبيًّا لم يُرضِهِ المالُ ولازَمَنا في أمر الدِّين، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتَّبِعَه على دينه، فبعثَتْ إليه بهديةٍ عظيمةٍ أكثرَ الناسُ في تفصيلها[(٤)]، فقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس: أرسلَتْ إليه بلَبِنةٍ من ذهب، فرأتِ الرسلُ الحيطان من ذهبٍ فصَغُر عندهم ما جاؤوا به[(٥)]. وقال مجاهد: أرسلَتْ إليه بمئتي غلامٍ ومئتي جارية[(٦)]. ورُوي عن ابن عباس: باثنتي عشرةَ وصيفةً مُذكَّرين قد ألبسَتْهُم زيَّ الغِلمان، واثني عشر غلاماً مُؤنَّثين قد ألبسَتْهُم زيَّ النِّساء، وعلى يد الوصائف أطباقُ مِسْكٍ وعنبر، وباثنتي عشرةَ

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٧ .

(٢) فيما نقل عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٠٦ .

(٣) قبلها في (م): من.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٩ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢١٠ .

(٦) عرائس المجالس ص ٣١٧ ، والوسيط ٣/ ٣٧٧ .

نَجيبةٍ تحمِلُ لَبِنَ الذَّهب، وبخرزتين إحداهما غيرُ مثقوبة، والأخرى مثقوبةٌ ثَقْباً مِعْوَجًّا، وبقدحٍ لا شيء فيه، وبعصًا كان يتوارثها ملوكُ حِمْيَر، وأنفذَتِ الهديةَ مع جماعةٍ من قومها. وقيل: كان الرسولُ واحداً، ولكن كان في صحبتِه أتباعٌ وخدم. وقيل: أرسلت رجُلاً من أشرافِ قومِها يُقال له: المنذر بن عمرو، وضمَّتْ إليه رجالاً ذَوي رأيٍ وعقل، والهدية مئةُ وصيفٍ ومئةُ وصيفة، قد خُولِفَ بينهم في اللباس، وقالت للغلمان: إذا كلَّمَكم سليمانُ فكلِّموه بكلامٍ فيه تأنيثٌ يُشبِهُ كلامَ النساء، وقالت للجواري: كلِّمْنَه بكلامٍ فيه غِلَظٌ يشبه كلام الرجال، فيُقال: إنَّ الهُدهدَ جاء وأخبر سليمان بذلك كلِّه. وقيل: إنَّ اللهَ أخبرَ سليمانَ بذلك، فأمرَ سليمانُ عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بِلَبنات الذهب والفضة، ثم قال: أيُّ الدوابِّ رأيتُم أحسنُ في البرِّ والبحر؟ قالوا: يا نبيَّ الله، رأينا في بحرِ كذا دوابَّ مُنقَّطةً مختلفةً ألوانُها، لها أجنحةٌ وأعرافٌ ونواصي. فأمَرَ بها فجاءت فشُدَّت على يمين الميدان وعلى يساره، وعلى لبِنات الذهب والفضة، وألقَوا لها علوفاتها، ثم قال للجنِّ: عليَّ بأولادكم. فأقامهم ـ أحسنَ ما يكون من الشباب ـ عن يمين الميدان ويساره. ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيِّه في مجلسه، ووضعَ له أربعةَ آلاف كرسيٍّ من ذهبٍ عن يمينه ومثلَها عن يساره، وأجلَسَ عليها الأنبياءَ والعلماء، وأمرَ الشياطينَ والجِنَّ والإنسَ أن يَصطَفُّوا صفوفاً فراسِخَ، وأمرَ السِّباعَ والوحوشَ والهوامَّ والطيرَ فاصطَفُّوا فراسخَ عن يمينه وشماله، فلما دنا القومُ من الميدان ونظروا إلى مُلك سليمان، ورأوا الدوابَّ التي لم ترَ أعينُهم أحسنَ منها تَروثُ على لَبِناتِ الذهبِ والفضة، تقاصرت إليهم أنفسُهم، ورَموا ما معهم من الهدايا. وفي بعض الروايات: إنَّ سليمانَ لما أمرهم بفرش الميدان بلَبِناتِ الذهبِ والفضة أمرَهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قَدْرِ موضعِ بساطٍ من الأرض غيرَ مفروش، فلمَّا مَرُّوا به خافوا أن يُتَّهموا، بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلمَّا رأوا الشياطينَ رأوا منظراً هائلاً فظيعاً ففزعوا وخافوا، فقالت لهم الشياطين: جُوزُوا لا بأسَ عليكم. فكانوا

يمرُّون على كُرْدُوسٍ كُرْدُوسٍ من الجِنِّ والإنسِ والبهائمِ والطيرِ والسِّباعِ والوحوشِ حتى وقفوا بين يدَي سليمان، فنظر إليهم سليمانُ نظراً حسناً بوجهٍ طَلْقٍ - وقد[١] كانت قالت لرسولها: إنْ نظرَ إليك نظَرَ مُغْضَبٍ فاعلَمْ أنَّه مَلِكٌ فلا يهولنَّك منظرُه فأنا أعَزُّ منه، وإنْ رأيتَ الرجلَ بَشّاً لطيفاً فاعلم أنه نبيٌّ مرسلٌ، فتفهَّمْ قولَه ورُدَّ الجواب - فأخبر الهدهدُ سليمانَ بذلك على ما تقدَّم. وكانت عمدت إلى حُقَّةٍ من ذهبٍ فجعلت فيها دُرَّةً يتيمةً غيرَ مثقوبة، وخرزةً مُعْوَجَّة الثَّقْبِ، وكتبت كتاباً مع رسولها تقول فيه: إنْ كنتَ نبيّاً فميِّزْ بين الوُصفاءِ والوصائف، وأخبِرْ بما في الحُقَّة، وعَرِّفني رأسَ العصا من أسفلها، وأَثقُبِ الدُّرَّةَ ثَقْباً مستوياً، وأدخِلْ خيطَ الخرزة، واملأِ القدحَ ماءً من ندًى ليس من الأرض ولا من السماء، فلمَّا وصلَ الرسولُ ووقف بين يدَي سليمانَ أعطاهُ كتابَ المِلكة فنظر فيه، وقال: أين الحُقَّة؟ فأتى بها فحرَّكها، فأخبره جبريل بما فيها، ثم أخبرهم سليمان، فقال له الرسول: صدقْتَ، فاثقُبِ الدُّرَّة، وأدخلِ الخيطَ في الخَرَزة. فسأل سليمانُ الجِنَّ والإنسَ عن ثَقْبها فعجزوا، فقال للشياطين: ما الرأيُ فيها؟ فقالوا: تُرسلُ إلى الأَرَضة، فجاءتِ الأَرضةُ فأخذت شعرةً في فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتُكِ؟ قالت: تصيرُ رزقي في الشجرة. فقال لها: لكِ ذلك. ثم قال سليمان: مَنْ لهذه الخَرَزة يسلُكها الخيط؟ فقالت دودةٌ بيضاء: أنا لها يا نبيَّ الله. فأخذتِ الدودةُ الخيطَ في فيها ودخلتِ الثَّقْبَ حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتُكِ؟ قالت: تجعل رزقي في الفواكه. قال: ذلكَ لكِ. ثم ميَّز بين الغلمان والجواري[٢]. قال السُّدِّيُّ: أمرَهم بالوضوء، فجعلَ الرجلُ يَحدُرُ الماءَ على اليدِ والرجل حَدْراً، وجعل الجواري يَصبُبْنَ من اليد اليسرى على اليد اليمنى، ومن اليمنى على اليسرى، فميَّزَ بينهم بهذا. وقيل: كانتِ الجاريةُ تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها، ثم تحمِلُه على الأخرى، ثم

(١) كلمة «قد» ليست في (م)، وأثبتت من باقي النسخ.

(٢) كلمة «والجواري» من (م) ومن المصادر.

تضرِبُ به على الوجه، والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به في الوجه، والجاريةُ تصُبُّ على بطن ساعدها، والغلامُ على ظهر الساعد، والجاريةُ تصُبُّ الماءَ صبًّا، والغلام يحدُرُ على يديه؛ فميَّزَ بينهم بهذا[١]. وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جُبير قال: أرسلت بلقيس بمئتي وصيفةٍ ووصيفٍ، وقالت: إنْ كان نبيًّا فسيعلم الذكورُ من الإناث.فأمرهم فتوضَّؤوا، فمَنْ توضَّأ منهم فبدأ بمِرْفَقِه قبل كفِّه قال: هو من الإناث، ومَنْ بدأ بكفِّه قبل مِرْفَقِه قال: هو من الذُّكور[٢]. ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال: أيُّ الرأسين سبقَ إلى الأرض فهو أصلُها، وأمر بالخيل فأُجْرِيتْ حتى عَرِقتْ ومُلِأَ القدحُ من عَرَقِها[٣]، ثم ردَّ سليمان الهدية[٤]، فرُوي أنَّه لمَّا صرف الهدية إليها وأخبرها رسولُها بما شهد؛ قالت لقومها: هذا أمر من السماء.

الثانية: كان النبيُّ ﷺ يقبل الهديةَ ويُثيب[٥] عليها ولا يقبل الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائرُ الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وإنَّما جَعلَتْ بِلقيسُ قبولَ الهدية أو ردَّها علامةً على ما في نفسها، على ما ذكرناه من كونِ سليمانَ مِلكاً أو نبيًّا؛ لأنه قال لها في كتابه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ وهذا لا تُقبلُ فيه فدية، ولا يُؤخذُ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذي تَقرَّر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل، وإنَّما هي رِشوةٌ وبيعُ الحقِّ بالباطل، وهي الرِّشوة التي لا تحِلُّ. وأما الهديةُ المُطلَقةُ للتحبُّبِ والتواصل فإنَّها جائزةٌ من كلِّ أحدٍ وعلى كلِّ حال، وهذا ما لم يكن من مشرك.

---

(١) عرائس المجالس ص٣١٨ - ٣١٩ ، وتفسير البغوي ٣/٤١٧ - ٤١٩ .قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات، والظاهر أن سليمان لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية ولا اعتنى به، بل أعرض عنه.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢١٠ ، ومجمع البيان ١٩/ ٢٢٢ .

(٤) عرائس المجالس ص٣١٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤١٩ .

(٥) في (م): ويثبت.

الثالثة: فإن كانت من مشركٍ ففي الحديث: «نُهِيتُ عن زَبْدِ المشركين» يعني رِفدَهم وعطاياهم[١]. ورُوِيَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قبِلها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الدِّيليِّ[٢] وغيره[٣]، فقال جماعةٌ من العلماء بالنسخ فيهما، وقال آخرون: ليس فيها ناسخٌ ولا منسوخ، والمعنى فيها: أنه كان لا يقبل هديةَ من يطمع بالظهورِ عليه وأخْذِ بلده ودخولِه في الإسلام[٤]. وبهذه الصفة كانت حالةُ سليمان عليه السلام، فعَنْ مثل هذا نهى أن تُقبَلَ هديَّته حملاً على الكفِّ عنه، وهذا أحسنُ تأويلٍ للعلماء في هذا؛ فإنَّه جمعَ بين الأحاديث. وقيل غير هذا.

الرابعة: الهدية مندوبٌ إليها، وهي مما تُورِثُ المودةَ وتُذهِبُ العداوة؛ روى مالكٌ عن عطاء بن عبد الله الخُراساني قال: قال رسول الله ﷺ: «تَصافحوا يَذهبِ الغِلُّ، وتَهادوا تحابُّوا وتذهَبِ الشَّحناء»[٥]. وروى معاوية بن الحكم قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تَهادوا فإنَّه يُضعِّفُ الوُدَّ، ويَذهَبُ بغوائلِ الصَّدر». وقال

---

(١) من بداية المسألة الثانية إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٩ . والحديث بهذا اللفظ أخرجه أبو داود (٣٠٥٧)، والترمذي (١٥٧٧) من حديث عياض بن حمار ﷺ. وقال: حديث حسن صحيح. وهو في مسند أحمد (١٧٤٨٢) بلفظ: «إنا لا نقبل زبد المشركين».

(٢) موطأ مالك ٢/ ٤٥٩ عن ثور بن زيد الديلي، عن أبي الغيث سالم مولى ابن مطيع، عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر... فأهدى رفاعة بن زيد لرسول الله صلى لله عليه وسلم غلاماً أسود يقال له: مِدْعَم... الحديث. وقد أخرجه بنحوه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم(١١٥). وينظر الاستذكار ١٤/ ٢٠١ .

(٣) أخرج أحمد (١٣١٤٨)، والبخاري (٢٦١٥ - ٢٦١٦)، ومسلم (٢٤٦٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، أن أكيدر دومة الجندل أهدى للنبي ﷺ جُبَّةً من سندس.

(٤) التمهيد ٢/ ١٢ ، والاستذكار ١٤/ ٢٠٢ .

(٥) الموطأ ٢/ ٩٠٨ .وإسناده مرسل، ولكن قوله: «تهادوا تحابُّوا» له شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وأبو يعلى (٦١٤٨). وقوله: «وتذهب الشحناء» له شاهد من حديث أبي هريرة ـ أيضاً ـ أخرجه أحمد (٩٢٥٠)، والترمذي (٢١٣٠) بلفظ: «تهادوا فإن الهدية تذهب وغَرَ ـ أو: وَحَرَ ـ الصدر».

الدَّارَقُطْنيُّ: تفرَّدَ به ابن بَحير[١] عن أبيه عن مالك، ولم يكن بالرَّضيِّ، ولا يصِحُّ عن مالكٍ ولا عن الزُّهري. وعن ابن شهاب قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «تَهادوا بينكم فإنَّ الهديةَ تُذهِبُ السَّخِيمة». قال ابن وَهْب: سألتُ يونس عن السَّخيمة ما هي؟ فقال: الغِلُّ. وهذا الحديثُ وصلَه الوقَّاصي عثمان عن الزُّهري وهو ضعيف. وعلى الجملة: فقد ثبتَ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقبل الهدية، وفيه الأُسوة الحسنة. ومن فضل الهدية مع اتباع السُّنَّةِ أنَّها تزيلُ حزازاتِ النفوس، وتُكسِبُ المُهدي والمُهدَى إليه رنَّةً[٢] في اللقاء والجلوس. ولقد أحسَنَ مَنْ قال:

هدايا الناسِ بعضِهمُ لبعضٍ ... تُوَلِّدُ في قلوبهمُ الوِصالا

وتزرعُ في الضمير هَوًى ووُدّاً ... وتُكسِبُهمْ إذا حضروا جَمالا[٣]

آخر:

إنَّ الهدايا لها حَظٌّ إذا وَرَدتْ ... أحظى من الابن عند الوالدِ الحَدِبِ[٤]

الخامسة: رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «جُلساؤكم شُركاؤكم في الهدية» واختُلِفَ في معناه، فقيل: هو محمولٌ على ظاهره. وقيل: يُشاركهم على وجه الكرم والمروءة، فإن لم يفعل فلا يُجبَرُ عليه[٥]. وقال أبو يوسف: ذلك في الفواكه ونحوها. وقال بعضهم: هم شركاؤه في السرور لا في الهدية. والخبر محمولٌ في أمثال أصحاب الصُّفَّة والخوانق والرِّباطات؛ أمَّا إذا كان فقيهاً من الفقهاء اختصَّ بها فلا شركةَ فيها لأصحابه، فإنْ أشرَكَهم فذلك كرمٌ وجودٌ منه.

السادسة: قوله تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أي: منتظرة[٦] ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾قال قتادة:

---

(١) في (م): بجير.

(٢) هكذا في النسخ، ولم يتضح لنا معناها، ولعلها: رغبة.

(٣) قائلهما دعبل الخزاعي، وهما في ديوانه ص١٢٠ .

(٤) المسألة كلها في التمهيد ٢١/ ١٧ - ١٩ سوى قوله: ومن فضل الهدية.... في اللقاء والجلوس.

(٥) من بداية المسألة إلى هنا من التمهيد ٢١/ ١٢٤ ، وقال ابن عبد البر عن الحديث: إسناده فيه لين.

(٦) معجم البيان ١٩/ ٢٢٠ .

يَرحمُها الله أن كانت لَعاقلةً في إسلامها وشركها؛ قد علمت أنَّ الهديةَ تقع مَوقعاً من الناس[١]. وسقطتِ الألفُ في «بِم» للفرق بين «ما» الخبرية. وقد يجوز إثباتُها[٢]؛ قال:

علـى مـا قـامَ يـشـتـمـنـي لـئـيـمٌ   كـخـنـزيـرٍ تـمـرَّغ فـي رَمـادِ[٣]

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي: جاء الرسولُ سليمانَ بالهدية[٤]. قال: «أتُمِدُّونَني بِمالٍ». قرأ حمزة ويعقوب والأعمش: بنونٍ واحدةٍ مشدَّدةٍ وياءٍ ثابتةٍ بعدها[٥]. الباقون بنونين، وهو اختيارُ أبي عبيد؛ لأنَّها في كلِّ المصاحف بنونين[٦]. وقد روى إسحاق عن نافع أنه كان يقرأ: «أتُمِدُّونِ» بنونٍ واحدةٍ مُخفَّفةٍ بعدها ياءٌ في اللفظ[٧]. قال ابن الأنباري: فهذه القراءة يجب فيها إثباتُ الياء عند

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٠٩.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٠ - ٢١١. ومذهب جواز إثباتها مذهب الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٢.

(٣) قائله حسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص١٩٩.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٣.

(٥) قراءة حمزة في السبعة ص٢٨٤، والتيسير ص١٧٠، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٤٠.

(٦) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٦٧.

(٧) الشاذة ص١٠٩، وزاد المسير ٦/ ١٧٢.

الوقف؛ ليصِحَّ لها موافقةُ هجاء المصحف. والأصل في النون التشديد، فُخفِّفَ التشديدُ من ذا الموضع كما خُفِّفَ من: أشهدُ أنْكَ عالِمٌ، وأصله: أنَّكَ عالم. وعلى هذا المعنى بنى الذي قرأ: «يُشَاقُّونِ فِيهِم»[1]، «أَتُحَاجُّونِ فِي اللهِ»[2]. وقد قالتِ العرب: الرجالُ يضربونِ ويقصدونِ، وأصله: يضربونِّي ويقصدونِّي؛ لأنَّه إدغامُ يضربونني ويقصدونني؛ قال الشاعر:

تَرْهبينِ والجِيدُ مِنكِ لِلَيْلَى والحَشَا والبُغَامُ[3] والعينانِ

والأصلُ ترهبينني فخُفِّفَ. ومعنى «أَتُمِدُّونَنِي»: أتزيدونني مالاً إلى ما تشاهدونه من أموالي.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: فما أعطاني من الإسلام والملك والنبوَّة خيرٌ مما أعطاكم، فلا أفرَحُ بالمال[4]. و«آتانِ» وقعت في كلِّ المصاحف بغير ياء. وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص: «آتانِيَ اللهُ» بياءٍ مفتوحة، فإذا وقفوا حذفوا. وأما يعقوب فإنه يُثبِتُها في الوقف ويحذِفُ في الوصل لالتقاء الساكنين. الباقون بغير ياء في الحالين[5]. ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم أهلُ مفاخرةٍ ومُكاثرةٍ في الدنيا[6].

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: قال سليمان للمنذر بن عمرو أمير الوفد: ارجع إليهم بهديتهم[7]. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لامُ قسَمٍ، والنونُ لها لازمة. قال النَّحَّاس[8]: وسمعتُ أبا الحسن بن كيسان يقول: هي لامُ توكيد، وكذا كان عنده أنَّ

(١) سلف ١٢/ ٣١٥ .

(٢) سلف ٨/ ٤٤٣ .

(٣) هو صوت الناقة. اللسان (بغم).

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤١٩ .

(٥) السبعة ص٤٨٢ ، والتيسير ص٧٠ وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٤٠ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤١٩ .

(٧) المصدر السابق.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢١١ .

اللاماتِ كلِّها ثلاثٌ لا غير؛ لام توكيد، ولام أمر، ولام خفض، وهذا قول الحُذَّاقِ من النَّحْويِّين؛ لأنهم يردُّون الشيء إلى أصله، وهذا لا يتهيَّأ إلا لمن درب في العربية. ومعنى ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقةَ لهم عليها. ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي: من أرضهم ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ وقيل: «مِنهَا» أي: من قرية سبأ[1].

وقد سبق ذكر القرية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾. ﴿أَذِلَّةً﴾ قد سُلِبوا مُلكَهم وعِزَّهم. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: مُهانون أذلَّاءُ ـ من الصَّغَرِ: وهو الذلُّ ـ إن لم يُسلِموا، فرجعَ إليها رسولُها فأخبرها، فقالت: قد عرفتُ أنَّه ليس بملِكٍ ولا طاقةَ لنا بقتال نبيٍّ من أنبياء الله. ثم أمرَتْ بعرشِها فُجعلَ في سبعة أبياتٍ بعضُها في جوف بعض، في آخر قصرٍ من سبعة قصور، وغلَّقتِ الأبواب، وجعلتِ الحرسَ عليه، وتوجَّهت إليه في اثني عشر ألف قَيْلٍ من ملوك اليمن، تحت كل قَيْلٍ مئة ألف. قال ابن عباس: وكان سليمانُ مَهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فنظر ذات يومٍ رَهَجاً[2] قريباً منه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: بِلقيسُ يا نبيَّ الله[3]. فقال سليمان لجنوده ـ وقال وهب وغيره: للجنِّ ـ ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ وقال عبد الله بن شداد: كانت بِلقيسُ على فرسَخٍ من سليمان لمَّا قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾[4] وكانت خلَّفَتْ عرشَها بسبأ، ووكَّلت به حَفَظة. وقيل: إنَّها لمَّا بعثت بالهدية بعثت رسُلَها في جندها لِتُغافِصَ[5] سليمان عليه السلام بالقتل قبل أن يتأهَّبَ سليمانُ لها إن كان طالِبَ مُلْكٍ، فلمَّا علم ذلك قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾. قال ابن عباس: كان أمرُه بالإتيان بالعرش قبل أن يكتُبَ الكتابَ إليها، ولم يكتُبْ إليها حتى جاءه العرش.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٩.

(٢) الرهج: الغبار. اللسان (رهج).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤١٩، ومجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ بنحوه.

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٤٧٠.

(٥) أي: أخذه على غرة. اللسان (غفص).

وقال ابن عطية: وظاهر الآيات أنَّ هذه المقالةَ من سليمان عليه السلام بعد مجيء هديَّتها وردِّه إيَّاها، وبَعْثِه الهدهدَ بالكتاب، وعلى هذا جمهور المتأوِّلين. واختلفوا في فائدة استدعاء عرشها، فقال قتادة: ذُكِرَ له بعِظَمٍ وجَوْدة، فأراد أَخْذَه قبل أن يعصِمَها وقومَها الإسلامُ ويحميَ أموالَهم؛ والإسلامُ على هذا: الدِّين. وهو قول ابن جُريج. وقال ابن زيد: استدعاه ليُرِيَها القدرةَ التي هي من عند الله، ويجعلَه دليلاً على نبوَّتِه؛ لأخذه من بيوتها[1] دون جيشٍ ولا حرب، و«مسلِمِينَ» على هذا التأويل بمعنى مستسلمين. وهو قول ابن عباس[2]. وقال ابن زيد أيضاً: أراد أن يختبر عقلَها؛ ولهذا قال: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾[3]. وقيل: خافتِ الجنُّ أن يتزوَّجَ بها سليمانُ عليه السلام فيولَدُ له منها ولد[4]، فلا يزالون في السُّخرة والخِدمة لنسلِ سليمان، فقالت لسليمان: في عقلِها خلل. فأراد أن يمتحِنَها بعرشها[5]. وقيل: أراد أن يختبر صِدْقَ الهدهدِ في قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. قاله الطبري[6]. وعن قتادة: أحبَّ أن يراه لمَّا وصفَه الهدهد. والقول الأوَّلُ عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، ولأنَّها لو أسلمت لحظَرَ عليه مالُها فلا يُؤتى به إلَّا بإذنها[7]. رُويَ أنه كان من فضةٍ وذهبٍ مُرصَّعاً بالياقوت الأحمر والجوهر، وأنه كان في جوف سبعة أبياتٍ عليه سبعة أغلاق[8].

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ كذا قرأ الجمهور، وقرأ أبو رجاء وعيسى

(١) في (ظ): ثقافها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٣) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ .

(٤) كلمة «ولد» من (م).

(٥) الوسيط ٣/٣٧٨ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، وهو في تفسير الطبري ١٨/ ٦٢ .

(٧) تفسير الطبري ١٨/ ٦٢ - ٦٤ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

الثقفي: «عِفْرِيَةٌ» ورُوِيَتْ عن أبي بكر الصديق ﷺ[١]. وفي الحديث: «إنَّ الله يُبغِضُ العِفرِيَةَ النِّفرِية»[٢]. النِّفرية إتباعٌ لعفرية[٣]. قال قتادة: هي الداهية. قال النَّحَّاس: يُقال للشديد إذا كان معه خُبْثٌ ودهاءٌ: عِفْرٌ وعِفْرِيَةٌ وعِفرِيتٌ وعُفَارِيَةٌ. وقيل: «عفريت» أي: رئيس[٤]. وقرأت فِرقة: «قال عِفْرٌ» بكسر العين. حكاه ابن عطية[٥]؛ قال النَّحَّاس: من قال: عِفْرِيةٌ جمَعَه على عِفارٍ، ومن قال: عِفريتٌ كان له في الجمع ثلاثةُ أوجه؛ إن شاء قال: عفاريت، وإن شاء قال: عَفار؛ لأنَّ التَّاءَ زائدة، كما يُقال: طواغٍ في جمع طاغوت، وإن شاء عوَّضَ من التاء ياءً فقال: عَفارِي[٦]. والعفريت من الشياطين: القويُّ المارد، والتاء زائدة. وقد قالوا: تَعَفْرَتَ الرجلُ. إذا تخلَّقَ بخُلُقِ الأذاية[٧]. وقال وهب بن منبّه: اسم هذا العفريت كودن. ذكره النحّاس[٨]. وقيل: ذكوان. ذكره السُّهيلي[٩]. وقال شعيب الجُبَّائي: اسمه دعوان[١٠]. ورُوِيَ عن ابن عباس أنه صخر الجِنّي. ومن هذا الاسم قولُ ذي الرُّمَّة:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، وهذه القراءة في المحتسب عن أبي رجاء وعيسى الثقفي، وفي الشاذة ص١٠٩ عن أبي رجاء وأبي السمال.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في الأمثال (١٣٨) من طريق عاصم الأحول، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، مرفوعاً.

وأخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٢٤٨)، والبيهقي في الشعب (٩٩١٠) من طريق عاصم الأحول، عن أبي عثمان، عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، وهي قراءة شاذة.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

(٨) في معاني القرآن ٥/ ١٣٣ .

(٩) في التعريف والإعلام ص١٢٨ .

(١٠) أخرج الطبري ١٨/ ٦٦ - ٦٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٦٧) عن شعيب الجبائي أن اسم العفريت: كوزن.

كـأنَّـه كـوكـبٌ فـي إِثْـرِ عِـفْـرِيَـةٍ مُصَوَّبٌ في سوادِ الليل مُنْقَضِبُ(١)

وأنشد الكسائيُّ:

إذ قـالَ شـيـطـانُـهُـمُ الـعِـفْـريـتُ لـيـسَ لـكـمْ مُـلـكٌ ولا تـثـبِـيـتُ(٢)

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ عِفريتاً من الجِنِّ جعل يَفْتِكُ(٣) عليَّ البارحةَ ليقطعَ عليَّ الصلاةَ، وإنَّ اللهَ أمكنني منه فَذَعَتُّه»(٤) وذكر الحديث، وفي البخاري: «تفلَّت عليَّ البارحةَ» مكان «جعَل يَفْتِكُ»(٥). وفي «الموطأ» عن يحيى بن سعيد أنه قال: أُسرِيَ برسول الله ﷺ، فرأى عِفريتاً من الجِنِّ يطلبه بشعلةٍ من نار، كُلَّما التفتَ رسولُ الله ﷺ رآه، فقال جبريل: أفلا أُعلِّمكَ كلماتٍ تقولُهنَّ إذا قُلتَهنَّ طُفِئتْ شُعلَتُه وخَرَّ لِفيه؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى» فقال: أعوذُ باللهِ الكريمِ وبكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ التي لا يُجاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ من شرِّ ما ينزل من السماء، وشرِّ ما يَعرُجُ فيها، وشرِّ ما ذرأ في الأرض، وشرِّ ما يخرجُ منها، ومن فتَنِ الليل والنهار، ومن طوارقِ الليلِ والنهارِ، إلَّا طارقاً يَطرُقُ بخيرٍ يا رحمن(٦).

قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني: في مجلسه الذي يحكم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠، والبيت في ديوان ذي الرمة ١/ ١١١، وفيه «مسوَّم» بدل «مصوَّب». قال شارحه: «مسوم» يريد: الكوكبُ مُعلَّم، ويكون بمعنى: مُخلًّى عنه و«منقضب»: مُنقضٌّ.

(٢) قائله رؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه في مجموع أشعار العرب ص٢٦.

(٣) من الفتك، وأصله: القتل على غفلةٍ وغرَّة. إكمال المعلم ٢/ ١٥٠.

(٤) أي: خنقتُه، والذَّعتُ والدَّعتُ بالذال والدال: الدفع العنيف، والذعتُ أيضاً: المعك في التراب. النهاية (ذعتَ).

(٥) صحيح البخاري (١٢١٠)، وصحيح مسلم (٥٤١). وهو في مسند أحمد (٧٩٦٩). بلفظ البخاري.

(٦) الموطأ ٢/ ٩٥٠ - ٩٥١. وإسناده معضل. وقد رُوي موصولاً فيما أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٣) عن أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن الأوزاعي، عن إبراهيم بن طريف، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً. قلنا: أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة له مناكير فيما قاله الذهبي في الميزان ١/ ١٥١.

وللحديث شاهد ضعيف أخرجه أحمد (١٥٤٦٠) من حديث عبد الرحمن بن خنبش ﷺ.

فيه[١]. ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾ أي: قويٌّ على حمله، أمينٌ على ما فيه[٢]. ابن عباس: أمينٌ على فرج المرأة. ذكره المَهدوي[٣]. فقال سليمان: أُريدُ أسرعَ من ذلك. ف ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أكثرُ المفسِّرين على أنَّ الذي عنده علمٌ من الكتاب آصف بن بَرْخيا وهو من بني إسرائيل، وكان صِدِّيقاً يحفظُ اسمَ الله الأعظم الذي إذا سُئِلَ به أَعْطى، وإذا دُعيَ به أجاب[٤]. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «إنَّ اسمَ اللهِ الأعظَمَ الذي دعا به آصف بن بَرْخيا: يا حيُّ يا قيُّوم»[٥] قيل: وهو بلسانهم: أهيا شراهيا. وقال الزُّهري: دعاء الذي عنده اسم الله الأعظم: يا إلهنا وإله كلِّ شيءٍ إلهاً واحداً لا إله إلا أنتَ، ايتني بعرشها. فمثُلَ بين يديه. وقال مجاهد: دعا فقال: يا إلهنا وإله كلِّ شيء، يا ذا الجلال والإكرام[٦]. قال السُّهَيليُّ[٧]: الذي عنده علمٌ من الكتاب هو آصف بن بَرْخيا ابن خالة سليمان، وكان عنده اسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى. وقيل: هو سليمانُ نفسُه. ولا يصِحُّ في سياق الكلام مثلُ هذا التأويل. قال ابن عطية[٨]: وقالت فرقة: هو سليمان عليه السلام، والمخاطبة في هذا التأويل للعفريت لمَّا قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ كأنَّ سليمانَ استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ واستَدَلَّ قائلو هذه المقالة بقول سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ عن مجاهد وقتادة وابن منبِّه، وأخرجه الطبري عنهم ١٨/ ٦٧ - ٦٨ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢١٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

(٣) وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢١٣ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٦٨ .

(٤) عرائس المجالس ص٣٢٠ ، وهذا القول في تفسير الرازي ٢٤/ ١٩٧ ، ومجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ عن ابن عباس ﷺ. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٩٠) من كلام ابن إسحاق.

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد (١٢٦١١) بسياق آخر من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٦) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ ، وقول الزهري ومجاهد أخرجهما الطبري ١٨/ ٦٩ - ٧٠ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٨٢) و(١٦٣٨٣).

(٧) في التعريف والإعلام ص١٢٨ .

(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦١ .

قلتُ: ما ذكره ابنُ عطية قاله النحَّاسُ في «معاني القرآن»[١] له، وهو قولٌ حسنٌ إن شاء الله تعالى. قال ابن[٢] بحر: هو مَلَك[٣] بيده كتاب المقادير، أرسله الله عند قول العفريت. قال السُّهيليُّ[٤]: وذكر محمد بن الحسن المقرئ أنه ضَبَّة بن أُدّ، وهذا لا يصِحُّ البتَّة؛ لأنَّ ضَبَّة هو ابن أُدّ بن طابخة، واسمه عمرو بن إلياس بن مُضر بن نِزار بن مَعَدّ، ومَعدٌّ كان في مدة بَخْتَنَصَّر، وذلك بعد عهد سليمان بدهرٍ طويل، فإذا لم يكن مَعَدٌّ في عهد سليمان، فكيف ضَبَّةُ بن أُدّ وهو بعده بخمسة آباء؟! وهذا بَيِّنٌ لمن تأمَّله.

ابن لَهِيعة: هو الخَضِر عليه السلام[٥]. وقال ابن زيد: الذي عنده علم من الكتاب رجلٌ صالحٌ كان في جزيرةٍ من جزائر البحر، خرجَ ذلك اليوم ينظرُ مَنْ ساكِنُ الأرض، وهل يعبدُ اللهَ أم لا؟ فوجد سليمان، فدعا باسمٍ من أسماء الله تعالى فجيء بالعرش[٦]. وقول سابع: إنَّه رجلٌ من بني إسرائيل اسمه يمليخا كان يعلم اسمَ الله الأعظم. ذكره القُشيري[٧]. وقال ابنُ أبي بَزَّةَ: الرجل الذي كان عنده علمٌ من الكتاب اسمه أسطوم، وكان عابداً في بني إسرائيل. ذكره الغَزنوي[٨]. وقال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمان عليه السلام؛ أما إنَّ الناسَ يرَونَ أنَّه كان معه اسمٌ وليس ذلك كذلك، إنَّما كان رجلٌ من بني إسرائيل عالمٌ آتاه الله عِلْماً وفِقْهاً قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال: هات. قال: أنت نبيُّ الله ابن نبيِّ الله، فإن دعوتَ

(١) ٥/ ١٣٤ .

(٢) كلمة «ابن» ليست في (ز) و(م).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢١٤ .

(٤) في التعريف والإعلام ص١٢٨ - ١٢٩ .

(٥) كرامات الأولياء للالكائي ص٧٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٢١٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦١ .

(٦) عرائس المجالس ص٣٢١ ، وزاد المسير ٦/ ١٧٥ .

(٧) وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢٢٦ عن مجاهد.

(٨) وأخرجه اللاكائي في كرامات الأولياء (٢٤) . وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٢١ .

اللهَ جاءك به، فدعا اللهَ سليمانُ فجاءه اللهُ بالعرش[١]. وقول ثامن: إنه جبريلُ عليه السلام. قاله النَّخَعي ورُويَ عن ابن عباس[٢]. وعِلْمُ الكتاب على هذا: عِلْمُه بكتب اللهِ المُنزَّلة، أو بما في اللوح المحفوظ. وقيل: علم كتاب سليمان إلى بلقيس[٣]. قال ابن عطية: والذي عليه الجمهور من الناس أنَّه رجلٌ صالحٌ من بني إسرائيل اسمه آصف بن بَرْخيا؛ روي أنه صلَّى ركعتين، ثم قال لسليمان: يا نبيَّ الله، امدُدْ بصرَكَ. فمدَّ بصرَه نحو اليمن، فإذا بالعرش، فما ردَّ سليمانُ بصرَه إلَّا وهو عنده[٤]. قال مجاهد: هو إدامةَ النَّظرِ حتى يرتدَّ طَرْفُه خاسئاً حسيراً[٥]. وقيل: أرادَ مقدار ما يفتح عينَه ثم يطرف، وهو كما تقول: افعل كذا في لحظة عين. وهذا أشبه[٦]؛ لأنَّه إن كان الفعلُ من سليمان فهو معجزة، وإنْ كان من آصف أو من غيرِه من أولياء الله فهي كرامة، وكرامةُ الوليِّ معجزةُ النبيِّ. قال القشيريُّ: وقد أنكرَ كراماتِ الأولياء مَنْ قال: إنَّ الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب هو سليمان، قال للعفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ﴾. وعند هؤلاء ما فعل العفريتُ فليس من المعجزات ولا من الكرامات، فإنَّ الجِنَّ يقدرون على مثل هذا. ولا يقطعُ جوهرٌ في حالٍ واحدةٍ مكانين، بل يُتَصوَّرُ ذلك بأنْ يَعدِمَ اللهُ الجوهرَ في أقصى الشرق ثم يُعيده في الحالة الثانية، وهي الحالة التي بعد العدم في أقصى الغرب. أو يعدِمُ الأماكنَ المتوسطة ثم يعيدُها. قال القشيري: ورواه ابن[٧] وهب عن مالك. وقد قيل: بل جيء به في الهواء.

(١) عرائس المجالس ص٣٢١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٠ ، وزاد المسير ٦/ ١٧٥ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦١ .

(٣) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦١ .

(٥) الوسيط ٣/ ٣٧٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٠ ، وزاد المسير ٦/ ١٧٥ . وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٩٤).

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٢١ .

(٧) كلمة «بن» من (ز) و(ظ).

قاله مجاهد. وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة(١). وقال مالك: كانت باليمن وسليمان عليه السلام بالشام(٢). وفي التفاسير: انخرقَ بعرشِ بلقيس مكانُه الذي هو فيه، ثم نبعَ بين يدَي سليمان(٣)؛ قال عبد الله بن شدَّاد: وظهر العرشُ من نفقٍ تحت الأرض(٤). فالله أعلم أيُّ ذلك كان.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: ثابتاً عنده. ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: هذا النصر والتمكين من فضل ربي(٥). ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ قال الأخفش: المعنى: لينظر ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾. وقال غيره: معنى «لِيَبْلُوَني» ليتعبَّدني، وهو مَجاز(٦). والأصل في الابتلاء: الاختبار، أي: ليختبرني أأشكرُ نعمتَه أم أكفرُها ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: لا يرجع نَفْعُ ذلك إلَّا إلى نفسه، حيث استوجبَ بشُكرِهِ تمامَ النعمةِ ودوامَها والمزيدَ منها. والشكرُ قيدُ النعمةِ الموجودة، وبه تُنالُ النعمةُ المفقودة(٧). ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ أي: عن الشكر ﴿كَرِيمٌ﴾ في التفضُّل(٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيِّروه. قيل: جعل أعلاه أسفله، وأسفله

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢١٤ . وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٨٦) و(١٦٤٠٣).

(٣) الوسيط ٣/ ٣٧٨ عن ابن إسحاق. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٨٩).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٦ . وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٩١).

(٥) الوسيط ٣/ ٣٧٨ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ . وكلام الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٥٠ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٠ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢١٤ .

أعلاه. وقيل: غُيِّر بزيادةٍ أو نقصان[١]. قال الفرَّاء وغيره: إنَّما أمر بتنكيره لأنَّ الشياطين قالوا له: إنَّ في عقلِها شيئاً فأراد أن يمتحنها[٢]. وقيل: خافتِ الجنُّ أن يتزوَّج بها سليمان فيولَد له منها ولدٌ، فيبقون مسخَّرين لآل سليمان أبداً، فقالوا لسليمان: إنَّها ضعيفةُ العقل، ورِجلُها كرجل الحمار. فقال: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ لنعرف عقلها[٣]. وكان لسليمان ناصحٌ من الجِنّ، فقال: كيف لي أن أرى قدمَيها من غير أن أسألَها كشفَها؟ فقال: أنا أجعلُ في هذا القصر ماءً، وأجعلُ فوق الماء زجاجاً، تظنُّ أنه ماءً فترفع ثوبها فترى قدميها، فهذا هو الصرح الذي أخبر الله تعالى عنه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ يريد بلقيس، ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ شبَّهته به لأنها خلَّفته تحت الأغلاق، فلم تُقِرَّ بذلك ولم تُنكِرْ، فعَلِمَ سليمانُ كمالَ عقلها. قال عكرمة: كانت حكيمةً فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾. وقال مقاتل: عرَفَتْه ولكن شَبَّهَتْ عليهم كما شَبَّهوا عليها، ولو قيل لها: أهذا عرشك لقالت: نعم هو[٤]. وقاله الحسين[٥] بن الفضل أيضاً[٦]. وقيل: أراد سليمان أن يُظهرَ لها أنَّ الجنَّ مُسَخَّرون له، وكذلك الشياطين لتعرفَ أنها نبوَّةٌ وتؤمن به. وقد قيل: هذا في مقابلة تعميتِها الأمرَ في باب الغلمان والجواري.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ قيل: هو من قول بلقيس، أي: أوتينا العلمَ بصحة نبوَّة سليمانَ من قبل هذه الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ مُنقادينَ لأمره. وقيل: هو من قول

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٦ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٤ .

(٣) عرائس المجالس ص٣٢١ عن وهب بن منبه ومحمد بن كعب.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٢١ .

(٥) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: الحسن.

(٦) عرائس المجالس ص٣٢٢ .

سليمان، أي: أوتينا العلم بقدرة اللهِ على ما يشاء من قَبْلِ هذه المرأة[١]. وقيل: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بإسلامها ومجيئها طائعةً من قَبْلِ مجيئها[٢]. وقيل: هو من كلام قومِ سليمان[٣]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الوقف على «مِنْ دُونِ اللهِ» حسنٌ، والمعنى: منعَها من أن تعبُدَ اللهَ ما كانت تعبدُ من الشمس والقمر، فـ «ما» في موضع رفع[٤]. النحّاس[٥]: المعنى: أي: صدَّها عبادتُها من دون الله وعبادتُها إيَّاها عن أن تعلَمَ ما عَلِمناه عن أن تُسلم[٦]. ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصب، ويكون التقدير: وصدَّها سليمانُ عمَّا كانت تعبد من دون الله، أي: حالَ بينها وبينَه. ويجوز أن يكون المعنى: وصدَّها الله، أي: منعَها اللهُ عن عبادتها غيرَه، فحُذِفَتْ «عن» وتعدَّى الفعل. نظيره ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه. وأنشد سيبويه:

ونُبِّئْتُ عبدَ الله بالجوِّ أصبحتْ كِراماً مواليها لئيماً صَميمُها[٧]

وزعم أنَّ المعنى عنده نُبِّئْتُ عن عبد الله. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ قرأ سعيد بن جبير: «أنها» بفتح الهمزة[٨]، وهي في موضع نصبٍ بمعنى: لأنَّها. ويجوز أن يكون بدلاً من «ما» فيكون في موضع رفعٍ إن كانت «ما» فاعلةَ الصَّدِّ. والكسرُ على الاستئناف.

---

(١) في (م): المرة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢١، وزاد المسير ٦/ ١٧٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢١٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٥.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ – ٢١٣.

(٦) عبارة: «عن أن تسلم» من (م) وإعراب القرآن.

(٧) الكتاب ١/ ٣٩ ونسبه للفرزدق. وصميم الشيء: خالصه. الصحاح (صمم).

(٨) وهي في الشاذة ص١١٠.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ التقدير عند سيبويه: ادخلي إلى الصَّرح، فحذَفَ إلى وعدَّى الفعل. وأبو العباس يُغلِّطه في هذا؛ قال: لأنَّ دخلَ يدلُّ على مدخول[١]. وكان الصَّرحُ صحناً من زجاجٍ تحتَه ماءٌ وفيه الحيتان[٢]، عمله لِيُريَها مُلكاً أعظمَ من مُلكِها. قاله مجاهد[٣]. وقال قتادة: كان من قوارير خلفه ماء ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: ماء[٤]. وقيل: الصرح القصر. عن أبي عبيدة[٥]. كما قال:

تَحسِبُ أعلامَهنَّ الصُّروحَا[٦]

وقيل: الصَّرْح: الصَّحْن، كما يُقال: هذه صَرحةُ الدَّارِ وقاعتُها، بمعنًى. وحكى أبو عبيد[٧] في الغريب المُصنَّف أنَّ الصَّرحَ: كلُّ بناءٍ عالٍ مرتفعٍ من الأرض، وأنَّ الممرَّدَ: الطويلُ. النحَّاس: أصلُ هذا أنَّه يُقال لكلِّ بناءٍ عُمِلَ عملاً واحداً: صرح؛ من قولهم: لبنٌ صريح إذا لم يَشُبه ماء، ومن قولهم: صَرَّحَ بالأمر، ومنه: عربيٌّ صريح[٨]. وقيل: عَمِلَه ليختبرَ قولَ الجِنِّ فيها: إنَّ أمَّه من الجن، ورِجلَها رِجلُ حمار. قاله وهب بن مُنبِّه[٩]. فلمَّا رأتِ اللُّجَّةَ فزِعَتْ وظنَّتْ أنَّه قصدَ بها الغرق، وتعجَّبتْ من

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢١٣ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٢ .

(٣) ذكره ابن الجوزي ٦/ ١٧٨ عن وهب بن منبه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٢ ، والطبري ١٨/ ٨٣ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٩٥ .

(٦) عجز لبيت، صدره: على طُرُقٍ كنحورِ الظِّباء. وقائله أبو ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٣٦ .

(٧) في(م): أبو عبيدة.

(٨) من قوله: وقال قتادة... إلى هذا الموضع من معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٨ - ١٣٩ .

(٩) عرائس المجالس ص٣٢١ .

كونِ كرسيِّه على الماء، ورأتْ ما هالَها، ولم يكن لها بُدٌّ من امتثال الأمر. ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ فإذا هي أحسنُ الناسِ ساقاً، سليمةٌ ممَّا قالتِ الجنُّ، غيرَ أنَّها كانت كثيرةَ الشَّعر، فلمَّا بلغت هذا الحدَّ، قال لها سليمان بعد أن صرفَ بصرَه عنها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ والممرد: المحكوكُ المملَّس، ومنه الأمرد[1]. وتمرَّدَ الرجلُ إذا أبطأ خروجُ لحيتِه بعد إدراكه. قاله الفراء. ومنه الشجرة المرداءُ التي لا ورقَ عليها. ورملةٌ مرداءُ إذا كانت لا تُنْبِتُ. والممرد أيضاً: المُطوَّل، ومنه قيل للحصن: مارد[2]. أبو صالح: طويلٌ على هيئة النخلة[3]. ابن شجرة: واسعٌ في طوله وعرضه. قال:

غـدَوتُ صبـاحـاً بـاكـراً فـوجـدتُـهـمْ قُبيلَ الضُّحى في السَّابريِّ[4] المُمرَّدِ[5]

أي: الدروع الواسعة. وعند ذلك استسلمتْ بِلْقيسُ وأذعنت وأسلمت وأقرَّتْ على نفسها بالظلم، على ما يأتي.

ولمَّا رأى سليمانُ عليه السلام قدمَيها قال لِناصحِه من الشياطين: كيفَ لي أن أقلَع هذا الشَّعرَ من غير مضرَّةٍ بالجسد؟ فدلَّه على عمل النُّورَة، فكانتِ النُّورَةُ والحمَّاماتُ من يومئذٍ[6]. فيُروى أنَّ سليمان تزوَّجها عند ذلك وأسكنَها الشام. قاله الضحاك. وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقَّاش: تزوَّجها وردَّها إلى ملكها باليمن، وكان يأتيها على الريح كلَّ شهرٍ مرة؛ فولدت له غلاماً سمَّاه داود ماتَ في زمانه[7]. وفي بعض الأخبار أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كانت بِلْقيسُ من أحسنِ نساء العالمين ساقين، وهي من أزواج سليمان عليه السلام في الجنة» فقالت عائشة: هي أحسَنُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٩.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٤٤٤) بلفظ: الممرد الطويل.

(٤) أي: الرقيق من الثياب. اللسان (سبر).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢١٧.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٧٩.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٢.

ساقينِ منِّي؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أنتِ أحسَنُ ساقينِ منها في الجنة» ذكره القُشيري[(١)]. وذكر الثعلبي[(٢)] عن أبي موسى أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أوَّلُ منِ اتَّخذَ الحمَّاماتِ سليمانُ بن داود، فلمَّا ألصقَ ظهرَه إلى الجدارِ فمسَّه حرُّها قال: أوَّاهٌ من عذاب الله»[(٣)]. ثم أحبَّها حباً شديداً وأقرَّها على مُلكِها باليمن، وأمرَ الجنَّ فبَنوا لها ثلاثةَ حصونٍ لم يرَ الناسُ مثلَها ارتفاعاً: سَلْحون وبَيْنون وغُمْدان، ثم كان سليمانُ يزورها في كلِّ شهرٍ مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام.

وحكى الشعبيُّ أنَّ ناساً من حِمْير حفروا مقبرة الملوك، فوجدوا فيها قبراً معقوداً، فيه امرأةٌ عليها حُلَلٌ منسوجةٌ بالذَّهب، وعند رأسها لوحُ رخامٍ فيه مكتوب:

يا أيُّها الأقوامُ عُوجُوا معا ... وأَرْبِعوا في مَقْبَري العِيسا
لتعلموا أنِّيَ تلكَ التي ... قد كنتُ أُدعَى الدهرَ بِلْقِيسا
شَيَّدْتُ قصرَ الْمُلْكِ في حِمْيرٍ ... قَوْمِي وقِدْماً كان مأنوسا
وكنتُ في مُلْكي وتدبيرِهِ ... أُرْغِمُ في اللهِ المَعَاطِيسا
بَعْلي سليمانُ النبيُّ الذي ... قد كان للتوراةِ دِرِّيسا
وسُخِّرَ الريحُ له مركباً ... تَهُبُّ أحياناً رَوامِيسا
مع ابنِ داودَ النبيِّ الذي ... قَدَّسهُ الرحمنُ تَقْديسا[(٤)]

وقال محمد بن إسحاق ووهب بن مُنبِّه: لم يتزوَّجْها سليمانُ، وإنَّما قال لها:

---

(١) وذكره أبو الليث في تفسيره ٤٩٨/٢ من غير إسناد.

(٢) في عرائس المجالس ص٣٢٣.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ١٤٠، والعقيلي في الضعفاء ١/ ٦٨ و٨٤، والطبراني في الأوسط (٤٦٤)، وابن عدي في الكامل ١/ ٢٨٣، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٥٦٦) من طريق إبراهيم بن مهدي، عن عمر بن عبد الرحمن، عن إسماعيل بن عبد الرحمن الأودي، عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه مرفوعاً. قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وإسماعيل أحاديثه منكرة، وإبراهيم بن مهدي ضعيف.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢١٧ - ٢١٨.

اختاري زوجاً. فقالت: مثلي لا يُنكَحُ وقد كان لي من الملك ما كان. فقال: لابُدَّ في الإسلام من ذلك. فاختارت ذا تُبَّع ملك هَمْدَان، فزوَّجه إيَّاه ورَدَّها إلى اليمن، وأمر زَوبعةَ أميرَ جِنِّ اليمن أن يُطيعه، فبنى له المصانع، ولم يزَلْ أميراً حتى مات سليمان عليه السلام[١]. وقال قومٌ: لم يَرِدْ فيه خبرٌ صحيحٌ لا في أنه تزوَّجها ولا في أنَّه زوَّجها. وهي بِلْقيس بنت السرح بن الهداهد بن شراحيل بن أدد بن حدر بن السرح بن الحارث[٢] بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفشخذ[٣] بن سام بن نوح. وكان جدُّها الهداهد ملكاً عظيمَ الشأن قد وُلِدَ له أربعون ولداً كلُّهم ملوك، وكان ملِكَ أرضِ اليمن كلِّها، وكان أبوها السَّرح يقول لملوك الأطراف: ليس أحدٌ منكم كفؤاً لي، وأبى أن يتزوَّج منهم، فزوَّجوه امرأةً من الجِنِّ يقال لها ريحانة بنت السكن، فولدت له بِلْقَمة وهي بِلْقيس، ولم يكن له ولدٌ غيرها. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «كان أحدُ أبَوي بِلْقيسَ جِنِّياً»[٤] فمات أبوها، واختلف عليها قومُها فرقتين، وملَّكوا أمرَهم رجلاً فساءت سيرتُه، حتى فجَرَ بنساء رعيته، فأدركت بلقيسَ الغَيْرةُ، فعرضت عليه نفسَها فتزوَّجها، فسَقَتْه الخمر حتى حزَّتْ رأسَه، ونصبَتْه على باب دارها، فملَّكوها. وقال أبو بَكرة: ذُكِرَتْ بِلقيسُ عند النبيِّ ﷺ فقال: «لا يُفلِحُ قومٌ ولَّوا أمرَهم امرأةً»[٥]. ويُقال: إنَّ سببَ تزوُّجِ أبيها من الجِنِّ أنه كان وزيراً لملكٍ عاتٍ يغتصب نساء الرعية، وكان الوزير غيوراً فلم يتزوَّج، فصحِبَ مرَّةً في الطريق رجلاً لا يعرفه، فقال: هل لكَ من زوجة؟ فقال: لا أتزوَّجُ أبداً، فإنَّ مَلِكَ بلدِنا يغتصب النساءَ من أزواجهنَّ. فقال: لئِنْ تزوجتَ ابنتي لا

(١) عرائس المجالس ص٣٢٣.

(٢) في (م): الحرس.

(٣) في (م): أرفخشذ.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٨٣ ، وابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٠٩ ، وأبو الشيخ في العظمة (١١١٣). وفي إسناده سعيد بن بشير، وهو ضعيف. التقريب.

(٥) عرائس المجالس ص٣١٥ ، والحديث سلف ٢/ ٤٢ .

يغتصِبُها أبداً. قال: بل يغتصِبُها. قال: إنَّا قومٌ من الجِنِّ لا يقدِرُ علينا. فتزوَّجَ ابنتَه، فولدت له بِلْقيس، ثم ماتتِ الأمُّ وابتنَتْ بِلْقيسُ قصراً في الصحراء، فتحدَّثَ أبوها بحديثها غلطاً، فنُميَ للملك خبرُها، فقال له: يا فلان، تكون عندكَ هذه البنت الجميلة وأنت لا تأتيني بها، وأنت تعلم حُبِّي للنساء؟! ثم أمر بحبسه، فأرسلت بِلْقيسُ إليه أني بين يديك. فتجهَّز للمسير إلى قصرها، فلما همَّ بالدخول بمَنْ معه أخرجت إليه الجواري من بنات الجنِّ مثلَ صورة الشمس، وقُلْنَ له: ألا تستحي؟! تقول لكَ سيدتُنا: أتَدخلُ بهؤلاء الرجال معكَ على أهلك؟! فأذِنَ لهم بالانصراف ودخل وحده، وأغلقت عليه الباب وقتَلتْه بالنِّعال، وقطعت رأسه، ورمت به إلى عسكره، فَأَمَّرُوها عليهم، فلم تزَلْ كذلك إلى أن بلَّغ الهدهدُ خبرَها سليمانَ عليه السلام. وذلك أنَّ سليمان لمَّا نزل في بعض منازله قال الهدهد: إنَّ سليمان قد اشتغل بالنزول، فأرتَفِعُ نحوَ السماء فَأُبصِر طولَ الدنيا وعرضَها. فأبصرَ الدنيا يمناً وشمالاً، فرأى بستاناً لبلقيس فيه هدهد، وكان اسمُ ذلك الهدهد عُفير، وكان اسمُ هدهد سليمان يعفور[1]، فقال عُفير اليمن ليعفورِ سليمان: مِنْ أين أقبلتَ؟ وأين تريد؟ قال: أقبلتُ من الشَّام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام. قال: ومَن سليمان؟ قال: مَلِكُ الجِنِّ والإنس والشياطين والطير والوحش والريح وكلِّ ما بين السماء والأرض. فمن أين أنت؟ قال: من هذه البلاد؛ ملكها امرأةٌ يُقال لها: بِلْقيس، تحتَ يدِها اثنا عشر ألف قَيْل، تحتَ يدِ كلِّ قَيْلٍ مئةُ ألفِ مقاتلٍ من سوى النساء والذَّراري، فانطلقَ معه ونظر إلى بِلْقيس ومُلكِها، ورجع إلى سليمانَ وقت العصر، وكان سليمانُ قد فقده وقتَ الصلاةِ فلم يجِدْه، وكانوا على غير ماء. قال ابن عباس في رواية: وقعت عليه نفحةٌ من الشمس. فقال لوزير الطير: هذا موضع مَنْ؟ قال: يا نبيَّ الله، هذا موضع الهدهد. قال: وأينَ ذهب؟ قال: لا أدري أصلحَ اللهُ الملك. فغضب سليمان وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الآية. ثم دعا بالعُقَاب سيدِ الطير وأصرَمِها وأشدِّها بأساً

---

(١) عبارة: «وكان اسم هدهد سليمان يعفور» من (ظ).

فقال: ما تريدُ يا نبيَّ الله؟ فقال: عليَّ بالهدهد الساعة. فرفع العقابُ نفسَه دون السماء حتى لزق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدَي أحدكم، فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو(١) اليمن، فانقضَّ نحوَه، وأنشَبَ فيه مِخْلَبه. فقال له الهدهد: أسألُكَ بالله الذي أقدرَكَ وقوَّاكَ عليَّ إلَّا رحِمْتني. فقال له: الويلُ لك، وثكِلَتْك أمُّك! إنَّ نبيَّ الله سليمانَ حلَفَ أن يُعذِّبكَ أو يذبحَكَ. ثم أتى به فاستقبلَتْه النُّسورُ وسائرُ عساكر الطير. وقالوا: الويل لك، لقد توعَّدكَ نبيُّ الله. فقال: وما قدري وما أنا؟ أما استثنى؟ قالوا: بلى، إنه قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ثم دخل على سليمانَ فرفع رأسه، وأرخى ذنبه وجناحيه تواضعاً لسليمان عليه السلام، فقال له سليمان: أين كنتَ عن خدمتِكَ ومكانِكَ؟ لأُعذِّبَنَّكَ عذاباً شديداً أو لأذبحنَّكَ. فقال له الهدهد: يا نبيَّ الله، اذكُرْ وقوفكَ بين يدَيِ الله بمنزلة وقوفي بين يديك. فاقشعَرَّ جِلدُ سليمانَ وارتعدَ، وعفا عنه. وقال عكرمة: إنَّما صرف اللهُ سليمانَ عن ذبح الهدهد أنه كان بارًّا بوالديه، ينقل الطعام إليهما فيزقُّهما. ثم قال له سليمان: ما الذي أبطأ بِكَ؟ فقال الهدهد ما أخبرَ اللهُ عن بِلْقيسَ وعرشِها وقومِها(٢) حسبما تقدَّم بيانه. قال الماوردي(٣): والقولُ بأنَّ أمَّ بِلْقيسَ جِنِّيةٌ مُستنكَرٌ من العقول؛ لِتَبايُنِ الجنسين، واختلافِ الطَّبْعين، وتفاوت الجِسْمين(٤)؛ لأنَّ الآدميَّ جسمانيٌّ والجِنَّ روحانيٌّ، وخلقَ اللهُ الآدميَّ من صلصالٍ كالفخَّار، وخلقَ الجانَّ من مارجٍ من نار، ويمتنع(٥) الامتزاجُ مع هذا التبايُن، ويستحيل التناسلُ مع هذا الاختلاف.

قلتُ: قد مضى القول في هذا، والعقلُ لا يُحيله مع ما جاء من الخبر في ذلك،

---

(١) في(م): نحن.

(٢) من قوله: وذلك أن سليمان لما نزل... إلى هذا الموضع من عرائس المجالس ص٣١٣ - ٣١٤.

(٣) في النكت والعيون ٤/ ٢١٦.

(٤) المثبت من النكت والعيون. وفي (د): وتعارف الجسمين. وفي (ز): وتفارق الجسمين. وفي (ظ): وتفارق الجنسين. وفي (م): وتفارق الحِسَّين.

(٥) المثبت من النكت والعيون و(ظ). وفي بقية النسخ: ويمنع.

وإذا نظر في أصل الخلق فأصلُه الماء على ما تقدَّم بيانه، ولا بُعْدَ في ذلك، والله أعلم. وفي التنزيل: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤] وقد تقدَّم. وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ على ما يأتي في «الرحمن» [الآية: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بالشرك الذي كانت عليه. قاله ابن شجرة. وقال سفيان: أي: بالظنِّ الذي توهَّمَتْه في سليمان؛ لأنَّها لمَّا أُمرت بدخول الصرح حسِبَتْه لُجَّةً، وأنَّ سليمان يريد تغريقها فيه. فلمَّا بانَ لها أنه صرحٌ مُمرَّدٌ من قواريرَ علمت أنَّها ظلمت نفسَها بذلك الظن[١]. وكُسِرتْ «إنَّ» مُبتدَأةً بعد القول. ومن العرب مَنْ يفتحُها فيُعمِلُ فيها القول. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذا سكَّنتَ «مع» فهي حرفٌ جاء لمعنى بِلا اختلاف بين النَّحْويين، وإذا فتَحْتَها ففيها قولان: أحدهما: أنه بمعنى الظرف اسمٌ. والآخَر: أنه حرفٌ خافضٌ مبنيٌّ على الفتح. قاله النحَّاس[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تقدَّم معناه[٣]. ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال مجاهد: أي: مؤمن وكافر. قال: والخصومةُ ما قصَّهُ اللهُ تعالى في قوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]. وقيل: تخاصُمُهم أنَّ كلَّ فرقةٍ قالت: نحن على الحقِّ دونكم[٤].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢١٧.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٣.

(٣) ٩/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٩-١٤٠، والنكت والعيون ٤/ ٢١٨. وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٨٦.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قال مجاهد: بالعذاب قبل الرحمة[١]؛ المعنى: لِمَ تؤخِّرون الإيمانَ الذي يجلب إليكم الثواب، وتُقدِّمون الكفرَ الذي يُوجبُ العقاب، فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار: ايتنا بالعذاب. وقيل: أي: لِمَ تفعلون ما تستحِقُّون به العقاب، لا أنَّهم التمسوا تعجيل العذاب.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: هلَّا تتوبون إلى الله من الشرك[٢]. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكي تُرحموا. وقد تقدم[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تشاءمنا[٤]. والشُّؤم النَّحس. ولا شيءَ أضرُّ بالرأي ولا أفسدَ للتدبير من اعتقاد الطِّيَرة، ومن ظنَّ أنَّ خُوارَ بقرةٍ أو نَعيقَ غرابٍ يردُّ قضاءً، أو يدفعُ مقدوراً، فقد جهل. وقال الشاعر:

طِيرةُ الدَّهرِ[٥] لا تَرُدُّ قضاءً ... فاعْذِرِ الدَّهرَ لا تَشُبْهُ بِلَومِ
أيُّ يومٍ تَخُصُّهُ بسعودٍ ... والمنايا ينزِلْنَ في كلِّ يومِ
ليس يومٌ إلَّا وفيه سعودٌ ... ونحوسٌ تجري لقومٍ فقومِ

وقد كانتِ العربُ أكثرَ الناس طِيرةً، وكانت إذا[٦] أرادت سفراً نفرت طائراً، فإذا طار يَمنةً سارت وتيمَّنتْ، وإن طارَ شمالاً رجعت وتشاءمت، فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك وقال: «أَقِرُّوا الطيرَ على وُكُناتِها»[٧] على ما تقدَّم بيانُه في «المائدة»[٨].

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٨٠، وزاد المسير ٦/ ١٨٠.

(٣) ١/ ٣٤٢ و٥/ ٣١٢.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٠ عن مجاهد

(٥) في أدب الدنيا والدين: الناس.

(٦) في أدب الدنيا والدين: وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة، وكانت العرب إذا.

(٧) أدب الدنيا والدين ص٢٨٧ - ٢٨٨. والحديث سلف ٩/ ٣٠٦ بلفظ: «أقروا الطير على وكناتها». والوَكْنُ: مأوى الطير في غير عش. اللسان (وكن).

(٨) ٧/ ٢٩٠- ٢٩١.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مصائبكم[١]. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: تُمتحنون. وقيل: تُعذَّبون بذنوبكم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: في مدينة صالحٍ وهي الحِجر[٣] ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: تسعة رجالٍ من أبناء أشرافهم[٤]. قال الضحَّاك: كان هؤلاء التسعةُ عظماءَ أهل المدينة، وكانوا يفسدون في الأرض ويأمرون بالفساد، فجلسوا عند صخرةٍ عظيمةٍ فقلَبَها اللهُ تعالى عليهم[٥]. وقال عطاء بن أبي رباح: بلغني أنَّهم كانوا يُقرِضون الدنانير والدراهم[٦]. وذلك من الفساد في الأرض. وقاله سعيد بن المسيِّب. وقيل: فسادُهم أنَّهم يتبعون عوراتِ الناس ولا يسترون عليهم[٧]. وقيل غيرُ هذا. واللازمُ من الآية ما قاله الضحَّاك وغيره أنهم كانوا من أوجَهِ القوم وأقناهم وأغناهم، وكانوا أهلَ كفرٍ ومعاصٍ جمَّةٍ، وجملةُ أمرِهم أنهم يفسدون ولا يصلحون.

والرَّهطُ اسمٌ للجماعة، فكأنَّهم كانوا رؤساءَ يتبَعُ كلَّ واحدٍ منهم رهطٌ. والجمع أرْهُط وأراهِط. قال:

يــا بــؤسَ لــلــحــربِ الــتــي وضــعــتْ أراهِــطَ فــاســتــراحــوا[٨]

(١) النكت والعيون ٤/ ٢١٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٨٨ عن ابن عباس ﵄.

(٢) الكشاف ٣/ ١٥١ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٩ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٣ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢١٤ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٣ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٢٠ .

(٨) تهذيب اللغة ٦/ ١٧٦ . والبيت قائله سعد بن مالك بن ضبيعة، وهو في معجم الشعراء ص١٤ ، وشرح ديوان الحماسة ٢/ ٥٠٠ .

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قُدار عاقرِ الناقة. ذكره ابن عطية[١].

قلتُ: واختُلِفَ في أسمائهم، فقال الغزنوي: وأسماؤهم: قُدَار بن سالف ومِصْدَع وأسلم ودهمى ودهيم ودعمى ودعيم وقتال وصداق. ابن إسحاق: رأسهم قُدار بن سالف ومِصْدَع بن مِهْرَع، فاتبعهم سبعة، هم: بلع بن ميلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تُعرَفْ أسماؤهم. وذكر الزمخشري[٢] أسماءَهم عن وهب ابن منبِّه: الهذيل بن عبد رب، غنم بن غنم، رياب بن مهرج، مصدع بن مهرج، عمير ابن كردبة، عاصم بن مخرمة، سبيط بن صدقة، سمعان بن صفي، قُدار بن سالف، وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عُتاةَ قومِ صالح وكانوا من أبناء أشرافهم. السُّهيلي[٣]: ذكر النقَّاش التسعةَ الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وسمَّاهم بأسمائهم، وذلك لا ينضبط برواية، غيرَ أني أذكُره على وجه الاجتهاد والتخمين، ولكِنْ نذكرُه على ما وجدناه في كتاب محمد بن حبيب، وهم: مِصْدَع بن دهر ـ ويقال: دهم ـ وقُدار بن سالف، وهريم وصواب ورياب وداب ودعمى وهرمى ورعين بن عمير.

قلت: وقد ذكر الماوردي[٤] أسماءهم عن ابن عباس فقال: هم دعمى ودعيم وهرمى وهريم وداب وصواب ورياب ومِسْطَح وقُدار، وكانوا بأرض الحجر وهي أرض الشام.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ يجوز أن يكون «تَقَاسَمُوا» فِعلاً مستقبلاً وهو أمر، أي: قال بعضهم لبعض: احلفوا. ويجوز أن يكون ماضياً في معنى الحال، كأنَّه قال: قالوا متقاسمين بالله، ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله: «يُفْسِدُون في الأرضِ ولا يُصْلِحون. تَقاسَموا باللهِ» وليس فيها «قالوا»[٥]. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٣ .

(٢) في الكشاف ٣/ ١٥١ - ١٥٢ .

(٣) في التعريف والإعلام ص١٢٩ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٢١٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٣ نقله عن الطبري، وهو في تفسيره ١٨/ ٩٠ -٩١ بنحوه. وقراءة عبد الله =

﴿لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ قراءة العامَّة بالنون فيهما، واختاره أبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء فيهما، وضمِّ التَّاءِ واللَّام على الخطاب[١] أي: أنهم تخاطبوا بذلك. واختاره أبو عبيد. وقرأ مجاهد وحُميد بالياءِ فيهما، وضمِّ الياءِ واللَّامِ على الخبر[٢]. والبَياتُ: مُباغتةُ العدوِّ ليلاً[٣]. ومعنى ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لرهط صالح الذي له ولاية الدم. ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ما حضرنا، ولا ندري مَنْ قتلَه وقتَلَ أهله. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في إنكارنا لقتله[٤]. والمُهْلَك بمعنى الإهلاك، ويجوز أن يكون الموضع[٥]. وقرأ عاصم[٦] والسُّلميُّ بفتح الميم واللام، أي: الهلاك؛ يُقال: ضربَ يضرِبُ مَضْرَباً أي: ضرباً. وقرأ المُفضَّل وحفص[٧] بفتح الميم وجَرِّ اللام، فيكونُ اسمَ المكان[٨]، كالمجلس لموضع الجلوس، ويجوز أن يكون مصدراً، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مكرُهم ما رُوي أنَّ هؤلاءِ

= هذه شاذة.

(١) السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٦٨.

(٢) زاد المسير ٦/ ١٨١ - ١٨٢ ونقلها أيضاً عن أبي رجاء، وهي قراءة شاذة.

(٣) الكشاف ٣/ ١٥٢.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٠.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢١٥.

(٦) في رواية أبي بكرٍ عنه كما في السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٤٤. ووقع في النسخ: وقرأ حفص. وهو خطأ؛ لأنَّ حفصاً يقرأ بفتح الميم وكسر اللام كما سيأتي.

(٧) في النسخ: وأبو بكر. والتصويب من السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٤٤.

(٨) الوسيط ٣/ ٣٨٠ - ٣٨١، وزاد المسير ٦/ ١٨٢.

التِّسعةَ لمَّا كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة، وقد أخبرهم صالحٌ بمجيء العذاب، اتَّفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دارَ صالحٍ ليلاً ويقتلوه وأهلَه المختَصِّين به؛ قالوا: فإن كان كاذباً في وعيده أوقَعْنا به ما يستحِقُّ، وإن كان صادقاً كنَّا عجِلْناه قبلنا، وشَفَينا نفوسَنا. قاله مجاهد وغيره[١]. قال ابن عباس: أرسلَ اللهُ تعالى الملائكةَ تلك الليلة، فامتلأت بهم دارُ صالح، فأتى التسعةُ دارَ صالحٍ شاهرينَ سيوفَهم، فقتَلَتْهم الملائكةُ رَضْخاً بالحجارة، فيَرَونَ الحجارةَ ولا يَرَونَ مَنْ يرميها[٢]. وقال قتادة: خرجوا مُسرِعين إلى صالح، فسلَّط عليهم ملَكٌ بيده صخرةٌ فقتلَهم[٣]. وقال السُّدِّي: نزلوا على جرفٍ من الأرض، فانهار بهم فأهلكهم اللهُ تحتَه. وقيل: اختفَوا في غارٍ قريبٍ من دار صالح، فانحدرت عليهم صخرةٌ شدَخَتْهم جميعاً، فهذا ما كان من مكرهم[٤]. ومكرُ اللهِ مجازاتُهم على ذلك.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: بالصيحة التي أهلكَتْهم[٥]. وقد قيل: إنَّ هلاكَ الكلِّ كان بصيحة جبريل[٦]. والأظهر أن التسعةَ هلكوا بعذابٍ مُفرَد، ثم هلكَ الباقون بالصيحة والدمدمة. وكان الأعمشُ والحسن وابن أبي إسحاق وعاصم وحمزة والكسائي يقرؤون: «أَنَّا» بالفتح. وقال ابن الأنباري[٧]: فعلى هذا المذهب لا يحسُنُ الوقفُ على «عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ» لأنَّ «أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ» خبرُ كان. ويجوز أن تجعلَها في موضع رفعٍ على الإتباع للعاقبة. ويجوز أن

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ من غير نسبة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٣، والطبري ١٨/ ٩٤ بنحوه

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٨١.

(٧) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٨ - ٨١٩، وما قبله منه دون نسبة القراءة إلى الحسن. وقد نُسبت إليه وإلى البقية دون نسبتها إلى الأعمش في إعراب القرآن ٣/ ٢١٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤. وقراءة عاصم وحمزة والكسائي في السبعة ص٤٨٤، والتيسير ص١٦٨.

تجعلَها في موضع نصبٍ من قول الفرَّاء، وخفضٍ من قول الكسائي على معنى: بأنَّا دمَّرْناهم. ويجوز أن تجعلَها في موضع نصبٍ على الإتباع لموضع «كَيْفَ» فمِنْ هذه المذاهب لا يحسُنُ الوقفُ عل «مَكْرِهِمْ». وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ» بكسر الألف على الاستئناف[١]، فعلى هذا المذهب يحسُنُ الوقفُ على «مَكْرِهِمْ».

قال النحَّاس[٢]: ويجوز أن تنصِبَ «عَاقِبَةُ» على خبر «كان» ويكون «إِنَّا» في موضع رفعٍ عل أنَّها اسمُ «كان». ويجوز أن تكون في موضع رفعٍ على إضمارِ مبتدإٍ تبييناً للعاقبة، والتقدير: هي إنَّا دمَّرْناهم؛ قال أبو حاتم: وفي حرف أُبَيٍّ: «أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ» تصديقاً لفتحها[٣].

قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ قراءةُ العامَّةِ بالنَّصبِ على الحال عند الفرَّاء والنحَّاس[٤]، أي: خاليةً عن أهلها خراباً ليس بها ساكن[٥]. وقال الكسائي وأبو عبيدة: «خَاوِيَةً» نصبٌ على القطع، مجازه: فتلكَ بيوتُهم الخاوية، فلما قُطِعَ منها الألف واللام نُصِبَ على الحال، كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢].

وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجَحدري: بالرفع[٦] على أنَّها خبرٌ عن «تِلْكَ» و«بُيُوتُهُمْ» بدلٌ من «تِلْكَ»، ويجوز أن تكون «بُيُوتُهُمْ» عطفَ بيان و«خَاوِيَةٌ» خبراً عن «تِلْكَ»، ويجوز أن يكون رفعُ «خَاوِيَةٌ» على أنها خبرُ ابتداءٍ محذوف، أي: هي خاوية، أو بدلٌ من «بُيُوتُهُمْ»؛ لأنَّ النَّكِرةَ تُبدَلُ من المعرفة[٧]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

(١) السبعة ص٤٨٤ ، والتيسير ص١٦٨ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٣) قراءة أُبي في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ ، وهي قراءة شاذة.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٠ بنحوه.

(٦) الكشاف ٣/ ١٥٣ عن عيسى بن عمر، وهي قراءة شاذة.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢١٦ ، والبيان ٢/ ٢٢٥ .

﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بصالح ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الله ويخافون عذابه. قيل: آمنَ بصالحٍ قَدْرُ أربعةِ آلاف رجل[١]، والباقون خرجَ بأبدانهم ـ في قول مقاتلٍ وغيره ـ خُرَاجٌ مثلُ الحِمِّص، وكان في اليوم الأوَّل أحمرَ، ثم صار من الغدِ أصفرَ، ثم صار في الثالث أسودَ، وكان عَقْرُ الناقةِ يومَ الأربعاء، وهلاكُهم يومَ الأحد[٢]. قال مقاتل: فقعت تلك الخراجات، وصاح جبريلُ بهم خلال ذلك صيحةً فخمدوا، وكان ذلك ضَحوةً. وخرجَ صالحٌ بمن آمن معه إلى حَضْرَمَوت، فلمَّا دخلَها مات صالحٌ؛ فسُمِّيتْ حَضْرَمَوت[٣]. قال الضحَّاك: ثم بنى الأربعةُ الآلاف مدينةً يقال لها: حاضورا، على ما تقدَّم بيانُه في قصة أصحاب الرسِّ.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: وأرسلنا لوطاً، أو: اذكُرْ لوطاً[٤]. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهم أهل سدوم. وقال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفِعْلةَ القبيحةَ الشنيعة[٥]. ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنها فاحشة، وذلك أعظمُ لذنوبكم. وقيل: يأتي بعضُكم بعضاً وأنتم تنظرون إليه[٦]. وكانوا لا يستترون عُتوًّا منهم وتمرُّداً[٧]

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٢٣٥ .
(٢) عرائس المجالس ص٧٢ بنحوه.
(٣) من قوله: وخرج صالح... إلى هذا الموضع من مجمع البيان ١٩/ ٢٣٥ .
(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ ، وإعراب القرآن ٣/ ٢١٦ .
(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .
(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ .
(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أعادَ ذِكْرَها لفرط قُبحِها وشنعتِها .﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إمَّا أمر التحريم أو العقوبة.

واختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من «أَئِنَّكُمْ»فأمَّا الخطُّ فالسبيل فيه أن يُكتبَ بألِفَين على الوجوه كلِّها؛ لأنَّها همزةٌ مُبتدأةٌ دخلت عليها ألفُ الاستفهام[1].

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: عن أدبار الرجال. يقولون ذلك استهزاءً منهم. قاله مجاهد. وقال قتادة: عابوهم واللهِ بغير عيبٍ بأنَّهم يتطهَّرون من أعمال السوء[2].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وقرأ عاصم[3]: «قَدَرْنا» مخففاً، والمعنى واحد[4]. يقال: قد قَدَرتُ الشيءَ قَدْراً وقَدَراً وقدَّرتُه.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: من أُنذِرَ فلم يقبل الإنذار. وقد مضى بيان هذا في «الأعراف»[5] و«هود»[6].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ قال الفرَّاء: قال أهل

---

(١) إعراب القرآن ٣/٢١٦ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/١٤٣ .

(٣) في رواية أبي بكر عنه كما في السبعة ص٤٨٤ ، والتيسير ص١٣٦ .

(٤) زاد المسير ٦/١٨٣.

(٥) ٩/٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٦) ١١/١٨٥ - ١٩٠ .

المعاني: قيل للوط: «قُلِ الْحَمْدُ للهِ» على هلاكهم. وخالف جماعةٌ من العلماء الفرَّاءَ في هذا وقالوا: هو مخاطبةٌ لنبينا محمدٍ ﷺ، أي: قُلْ: الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية. قال النحَّاس: وهذا أولى؛ لأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ على النبي ﷺ، وكل ما فيه فهو مخاطبٌ به عليه الصلاة والسلام إلَّا ما لم يصِحَّ معناه إلَّا لغيره[(١)]. وقيل: المعنى: أي: ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ يعني أمته عليه السلام؛ قال الكلبي: اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته[(٢)]. وقال ابن عباس وسفيان: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ[(٣)]. وقيل: أمرَ رسولَ الله ﷺ أنْ يتلوَ هذه الآياتِ الناطقةَ بالبراهين على وحدانيَّتِه وقدرتِه على كلِّ شيء وحكمتِه، وأن يستفتحَ بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطَفَين من عباده. وفيه تعليمٌ حسن، وتوقيفٌ على أدبٍ جميل، وبعثٌ على التيمُّنِ بالذِّكرين والتبرُّكِ بهما، والاستظهارُ بمكانهما على قبول ما يُلقى إلى السامعين، وإصغائِهم إليه، وإنزالِه من قلوبهم المنزلةَ التي يبغيها المستمع. ولقد توارثَ العلماءُ والخطباءُ والوُعَّاظُ كابراً عن كابرٍ هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله ﷺ أمامَ كلِّ علمٍ مُفاد، وقبل كلِّ عِظَةٍ، وفي مُفتَتحِ كلِّ خطبة، وتبِعَهم المترسِّلون فأجْرَوا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغيرِ ذلك من الحوادث التي لها شأن[(٤)].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اختار، أي: لرسالته[(٥)]، وهم الأنبياء عليهم السلام؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[(٦)] [الصافات: ١٨١].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢١٧. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٧.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٨٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣ عن سفيان والسدي. وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ عن ابن عباس. وزاد المسير ٦/ ١٨٥ عن ابن عباس والسدي.

(٤) الكشاف ٣/ ١٥٤.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠١.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٥.

﴿ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ وأجازَ أبو حاتم «أألله خَيْرٌ» بهمزتين. النحّاس: ولا نعلم أحداً تابعَه على ذلك؛ لأنَّ هذه المَدَّةَ إنَّما جيء بها فرقاً بين الاستفهام والخبر، وهذه ألفُ التوقيف، و«خَيْرٌ» هاهنا ليس بمعنى: أفضل منك، وإنَّما هو مِثلُ قولِ الشاعر:

أتهجوهُ ولستَ له بِكُفءٍ فَشَرُّكما لخيرِكما الفِداءُ[1]

فالمعنى: فالذي فيه الشرُّ منكما للذي فيه الخير الفداءُ. ولا يجوز أن يكون بمعنى من؛ لأنَّكَ إذا قلت: فلانٌ شرٌّ من فلان، ففي كلٍّ واحدٍ منهما شرّ[2]. وقيل: المعنى: آلخيرِ في هذا أم في هذا الذي تشركونه في العبادة؟! وحكى سيبويه: السعادةُ أحبُّ إليك أم الشقاء؛ وهو يعلم أنَّ السعادةَ أحبُّ إليه. وقيل: هو على بابه من التفضيل، والمعنى: آللهُ خيرٌ أم ما تشركون، أي: أثَوابُه خيرٌ أم عقابُ ما تشركون[3]. وقيل: قال لهم ذلك؛ لأنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ في عبادة الأصنام خيراً، فخاطبهم الله عزَّ وجلَّ على اعتقادهم[4]. وقيل: اللفظ لفظ الاستفهام ومعناه الخبر[5]. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: «يُشْرِكُونَ» بياء على الخبر. الباقون بالتاء على الخطاب[6]، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. فكان النبيُّ ﷺ إذ قرأ هذه الآية يقول: «بلِ اللهُ خيرٌ وأبقى وأجلُّ وأكرَمُ»[7].

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قال أبو حاتم: تقديره: آلهتكم خيرٌ أم

---

(١) قائله حسان بن ثابت، وقد سلف ١/ ٣٤٩ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٧ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣ - ١٤٤ بنحوه.

(٤) مشكل إعراب القرآن ١/ ٥٣٨ بنحوه.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠١ .

(٦) السبعة ص٣٢٤ ، والتيسير ص١٦٨ ، والنشر ٢/ ٣٣٨ .

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠١ ، والكشاف ٣/ ١٥٤ . وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٠٨٢) من طريق جابر ابن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر ـ وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ عن أبيه علي ابن الحسين مرفوعاً. إسناده منقطع. وفيه جابر الجعفي، وهو ضعيف عند الأكثرين، وقد اتهمه بعضهم بالكذب. ميزان الاعتدال ١/ ٣٧٩ - ٣٨٠ .

من خلقَ السماوات والأرض. وقد تقدَّم. ومعناه: قَدَرَ على خلقِهِنَّ. وقيل: المعنى: أعبادةُ ما تعبدون من أوثانكم خيرٌ أم عبادةُ مَنْ خلَقَ السماوات والأرض؟[١] فهو مردودٌ على ما قبله من المعنى، وفيه معنى التوبيخ لهم، والتنبيه على قدرة الله عزَّ وجلَّ وعَجْزِ آلهتهم. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ الحديقةُ: البستان الذي عليه حائط. والبهجةُ: المنظر الحسن[٢]. قال الفَرَّاء[٣]: الحديقةُ: البستان المحظر عليه حائط، وإن لم يكن عليه حائطٌ فهو البستان وليس بحديقة. وقال قتادة وعكرمة: الحدائق: النخل ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ والبهجةُ: الزِّينةُ والحُسن؛ يبهج به من رآه[٤]. ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ «ما» للنفي[٥]، ومعناه الحظرُ والمنعُ من فِعْلِ هذا، أي: ما كان للبشر، ولا يتهيَّأُ لهم، ولا يقعُ تحت قدرتهم أن ينبتوا شجرها؛ إذ هم عَجَزةٌ عن مثلها؛ لأنَّ ذلكَ إخراجُ الشيء من العدم إلى الوجود[٦]. قلت: وقد يُستَدَلُّ من هذا على منع تصوير شيء، سواءٌ كان له روح أم لم يكن. وهو قول مجاهد[٧]. ويعضِدُه قوله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: ومَنْ أظلمُ ممَّن ذهبَ يخلُقُ خلقاً كَخلقي، فليخلقوا ذَرَّةً، أو ليخلقوا حبَّةً، أو ليخلقوا شعيرةً» رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله عزَّ وجلَّ...» فذكره[٨]. فعَمَّ بالذمِّ والتهديد والتقبيح كلَّ مَنْ تعاطى تصوير شيءٍ ممَّا خلقه اللهُ وضاهاه في التشبيه في خلقه فيما انفردَ به سبحانه من الخلق والاختراع، وهذا

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٠٠ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢٩٧ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢١٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ .

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٣٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ .

(٧) المفهم ٥/ ٤٣٢ .

(٨) صحيح مسلم (٢١١١). وأخرجه أحمد (٧١٦٦)، والبخاري (٧٥٥٩).

واضح. وذهبَ الجمهورُ إلى أنَّ تصويرَ ما ليس فيه روحٌ يجوز هو والاكتساب به[١]. وقد قال ابن عباس للذي سأله أن يصنع الصور: إنْ كنتَ لابُدَّ فاعلاً فاصنَعِ الشجرَ وما لا نفسَ له. خرَّجه مسلم أيضاً[٢]. والمنعُ أولى ـ والله أعلم ـ لِما ذكرنا. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في «سبأ»[٣] إن شاء الله تعالى.

ثم قال على جهة التوبيخ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: هل معبودٌ مع الله يُعينُه على ذلك؟[٤] ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ بالله غيره[٥]. وقيل: «يَعْدِلُونَ» عن الحقِّ والقصد، أي: يكفرون[٦]. وقيل: «إِلَٰهٌ» مرفوعٌ بـ «مع» تقديره: أَمَعَ اللهِ ـ وَيلَكم ـ إِلَٰهٌ؟ والوقف على «مَعَ اللهِ» حسن[٧].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مُستقرًّا. ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي: وسطها، مثل: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]. ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ يعني جبالاً ثوابتَ تُمسكها وتمنعها من الحركة. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ مانعاً من قدرته؛ لئلَّا يختلطَ الأُجاجُ بالعذب[٨]. وقال ابن عباس: سلطاناً من قدرته، فلا هذا يُغيِّرُ ذاكَ ولا ذاكَ يُغيِّرُ هذا. والحَجْزُ: المنع. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا ثبتَ أنه لا يقدِرُ على هذا غيرُه فلِمَ يعبدون ما لا يضرُّ ولا ينفع. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: كأنهم يجهلون اللهَ فلا يعلمون ما يجِبُ له من الواحدانية.

---

(١) المفهم ٥/ ٤٣٢.

(٢) في صحيحه (٢١١٠).

(٣) عند تفسير الآية (١٣).

(٤) الوسيط ٣/ ٣٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣.

(٧) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٩.

(٨) الوسيط ٣/ ٣٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥، وزاد المسير ٦/ ١٨٦.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ قال ابن عباس: هو ذو الضرورة المجهود. وقال السُّدِّيّ: الذي لا حولَ له ولا قوَّة. وقال ذو النون: هو الذي قطعَ العلائق عمَّا دون الله. وقال أبو جعفر وأبو عثمان النَّيسابوري: هو المفلس. وقال سهل بن عبد الله: هو الذي إذا رفعَ يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلةٌ من طاعةٍ قدَّمها. وجاء رجلٌ إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألُكَ بالله أن تدعوَ لي فأنا مضطر. قال: إذاً فاسأله فإنَّه يجيبُ المضطرَّ إذا دعاه؛ قال الشاعر:

وإنِّي لأدعُو اللهَ والأمرُ ضَيِّقٌ عليَّ فما ينفَكُّ أن يتفرَّجا
ورُبَّ أخٍ سُدَّت عليه وُجوهُهُ أصابَ لها لمَّا دعا اللهَ مَخْرَجا

الثانية: وفي «مسند أبي داود الطيالسي» عن أبي بَكرةَ قال: قال رسول الله ﷺ في دعاء المضطر: «اللهمَّ رحمتَكَ أرجو فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عينٍ وأصلِحْ لي شأني كلَّه لا إله إلَّا أنت»[1].

الثالثة: ضَمِنَ اللهُ تعالى إجابة المضطرِّ إذا دعاه، وأخبرَ بذلك عن نفسه؛ والسببُ في ذلك أنَّ الضرورة إليه باللَّجاء ينشأ عن الإخلاصِ، وقطعِ القلب عمَّا سواه؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقِعٌ وذِمَّة، وُجِدَ من مؤمنٍ أو كافر، طائعٍ أو فاجر، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ

(١) مسند الطيالسي (٨٦٩). وأخرجه أحمد (٢٠٤٣٠).

عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فيجيبُ المضطرَّ لموضع اضطرارِه وإخلاصِه. وفي الحديث: «ثلاثُ دعواتٍ مُستجاباتٍ لا شَكَّ فيهنَّ: دعوةُ المظلوم، ودعوةُ المسافر، ودعوةُ الوالدِ على ولده» ذكره صاحب «الشهاب»، وهو حديث صحيح[(١)]. وفي «صحيح مسلم» عن النبيِّ ﷺ أنه قال لمعاذ لمَّا وجَّهه إلى أرض اليمن: «واتَّقِ دعوةَ المظلومِ فليس بينها وبينَ اللهِ حجاب»[(٢)] وفي كتاب «الشهاب»: «اتَّقوا دعوةَ المظلومِ فإنَّها تُحمَلُ على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى: وعِزَّتي وجلالي لأنصُرَنَّكِ ولو بعد حين» وهو صحيحٌ أيضاً[(٣)]. وخرَّجَ الآجُرِّي من حديث أبي ذَرٍّ عن النبيِّ ﷺ: «فإنِّي لا أرُدُّها ولو كانت من فَمِ كافر»[(٤)] فيُجيبُ المظلومَ لموضع إخلاصِه بضرورتِه بمقتضى كرمه، وإجابةً لإخلاصه وإن كان كافراً، وكذلك إن كان فاجراً في دينه؛ ففجورُ الفاجر وكفرُ الكافر لا يعودُ منه نقصٌ ولا وهنٌ على مملكة سيِّده، فلا يمنعه ما قضى للمضطرِّ من إجابته. وفُسِّرَ إجابةُ دعوة المظلوم بالنُّصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهرٍ له، أو اقتصاصٍ منه، أو تسليطِ ظالمٍ أخرَ عليه يقهره كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ

(١) مسند الشهاب (٣١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٥١٠).

(٢) صحيح مسلم (١٩) من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٠٧١)، والبخاري (١٤٩٦).

(٣) مسند الشهاب (٧٣٣) من حديث خزيمة بن ثابت ﷺ. وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٨٠٤٣).

(٤) لم نقف عليه عند الآجري في الشريعة، وأخرجه ابن حبان (٣٦١)، وفي إسناده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، كذبه أبو حاتم كما في الجرح والتعديل ٢/ ١٤٢ ، وكذبه أبو زرعة كما في الميزان ١/ ٧٣ .

وله شاهد ضعيف لا يفرح به عن أنس بن مالك ﷺ، وهو في مسند أحمد (١٢٥٤٩).

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا﴾ [الأنعام:١٢٩] وأكَّدَ سرعةَ إجابتها بقوله: «تُحمل على الغمام» ومعناه والله أعلم: أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُوكِّلُ ملائكتَه بتلقِّي دعوةِ المظلوم وبحملِها على الغمام، فيعرجوا بها إلى السماء ـ والسماء قبلةُ الدعاء ـ ليراها الملائكةُ كلُّهم، فيظهر منه معاونةُ المظلوم، وشفاعةٌ منهم له في إجابة دعوته، رحمةً له. وفي هذا تحذيرٌ من الظُّلمِ جملةً؛ لِما فيه من سخطِ الله ومعصيتِه ومخالفةِ أمره؛ حيث قال على لسان نبيه في «صحيح مسلم» وغيره: «يا عبادي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلتُه بينكم مُحرَّماً فلا تظالموا» الحديث[1]. فالمظلوم مضطرٌّ، ويقرب منه المسافر؛ لأنَّه مُنقطعٌ عن الأهل والوطن، مُنفرِدٌ عن الصديق والحميم، لا يسكنُ قلبه إلى مُسعِدٍ ولا مُعينٍ لِغُربته، فتصدُقُ ضرورتُه إلى المولى، فيُخلِصُ إليه في اللَّجاء، وهو المجيبُ للمضطرِّ إذا دعاه، وكذلك دعوةُ الوالدِ على ولده، لا تصدرُ منه مع ما يعلم من حنَّته عليه وشفقته، إلَّا عند تكاملِ عَجْزِه عنه، وصدقِ ضرورتِه، وإياسِه عن برِّ ولده، مع وجود أذيَّته، فيُسرِعُ الحقُّ إلى إجابته.

قوله تعالى: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: الضُّرَّ. وقال الكلبي: الجَور[2]. ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: سُكَّانَها يُهلِكُ قوماً ويُنشئ آخرين[3]. وفي كتاب النقَّاش: أي: ويجعل أولادَكم خلَفاً منكم. وقال الكلبي: خلَفاً من الكفار ينزلون أرضهم، وطاعة الله بعد كفرهم[4]. ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ على جهة التوبيخ، كأنه قال: أمَعَ الله ـ ويلَكم ـ إلهٌ؟ فـ «إلهٌ» مرفوعٌ بـ «مع»، ويجوز أن يكونَ مرفوعاً بإضمار أإلهٌ مع الله يفعل ذلك فتعبدوه. والوقف على «مَعَ اللهِ» حسن[5]. ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ. وأخرجه أحمد (٢١٣٦٧).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٣ .

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٩ .

ويعقوب: «يَذَّكَّرُونَ» بالياء على الخبر، كقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فأخبرَ فيما قبلها وبعدها، واختاره أبو حاتم. الباقون بالتاء خطاباً لقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يرشدكم الطريق ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾إذا سافرتم إلى البلاد التي تتوجَّهون إليها بالليل والنهار. وقيل: وجعل مفاوز البر التي لا أعلامَ لها، ولُججَ البحار كأنَّها ظلمات؛ لأنه ليس لها عَلَمٌ يُهتدى به. ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: قُدَّام المطر باتفاق أهل التأويل[٢]. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يفعل ذلك ويُعينه عليه ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من دونه.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كانوا يُقِرُّون أنه الخالق الرازق، فألزمهم الإعادة، أي: إذا قدِرَ على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة، وهو أهون عليه. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويبدئ ويعيد. ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: حُجَّتكم أنَّ لي شريكاً، أو: حُجَّتكم في أنَّه صنعَ أحدٌ شيئاً من هذه الأشياء غير الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وعن بعضهم: أخفى غيبَه على الخلق، ولم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ، لئلَّا يأمنَ أحدٌ من عبيده مكرَه. وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا النبيَّ ﷺ عن قيام الساعة[٤]. و«مَنْ» في موضع رفع،

(١) السبعة ص٤٨٤، والتيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ - ٤٢٦.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٨٣.

(٤) الكشاف ٣/ ١٥٦.

والمعنى: قُلْ: لا يعلَمُ أحدٌ الغيبَ إلَّا الله، فإنه بدَلٌ من «مَن». قاله الزجَّاج[(١)]. الفرَّاء[(٢)]: وإنما رفَعَ ما بعد «إلا» لأنَّ ما قبلها جحدٌ، كقوله: ما ذهبَ أحدٌ إلَّا أبوك. والمعنى واحد. قال الزجَّاج[(٣)]: ومَنْ نصبَ نصبَ على الاستثناء؛ يعني: في الكلام. قال النحَّاس[(٤)]: وسمعتُه يحتجُّ بهذه الآية على مَنْ صدَّق منجِّماً، وقال: أخافُ أن يكفر بهذه الآية.

قلت: وقد مضى هذا في «الأنعام»[(٥)] مستوفى. وقالت عائشة: مَنْ زعمَ أنَّ محمداً يعلم ما في غدٍ فقد أعظَمَ على الله الفِرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ خرَّجه مسلم[(٦)]. ورُويَ أنه دخل على الحجَّاجِ منجِّمٌ فاعتقله الحجَّاج، ثم أخذ حَصياتٍ فعدَّهُنَّ، ثم قال: كم في يدي من حصاة؟ فحسبَ المنجِّم ثم قال: كذا؛ فأصاب، ثم اعتقلَه فأخذ حَصياتٍ لم يَعدَّهُنَّ فقال: كم في يدي؟ فحسبَ فأخطأ، ثم حسبَ فأخطأ، ثم قال: أيها الأمير، أظنُّك لاتعرفُ عددَها؟ قال: لا. قال: فإني لا أُصيب. قال: فما الفرق؟ قال: إنَّ ذلك أحصيتَه فخرج عن حدِّ الغيب، وهذا لم تُحصِه فهو غيبٌ، و﴿لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ وقد مضى هذا في «آل عمران»[(٧)] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وَثَّاب والأعمش وحمزة والكسائي[(٨)]. وقرأ أبو جعفر وابن

---

(١) فيما نقل عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢١٨ ، وهو في معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٢٧ بنحوه.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ١٢٧ .

(٤) في إعراب القرآن ١٣/ ١٨ .

(٥) ٨/ ٤٠٠ - ٤٠٧ .

(٦) في صحيحه (١٧٧)، وقد سلف ٨/ ٤٠١ .

(٧) ٥/ ٢٧ .

(٨) قراءة عاصم ونافع وحمزة والكسائي في السبعة ص٤٨٥، والتيسير ص١٦٨ .

كثير وأبو عمرو وحميد: «بَلْ أَدْرَكَ» من الإدراك[١]. وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش: «بَلَ ادَرَكَ» غير مهموزٍ مشدَّداً[٢]. وقرأ ابن مُحيصن: «بَلْ آدْرَكَ»[٣] على الاستفهام. وقرأ ابن عباس: «بَلَى» بإثبات الياء «أَدَّارَكَ» بهمزة قطع والدال مشدَّدة وألف بعدها؛ قال النحَّاس: وإسناده إسنادٌ صحيح، هو من حديث شُعبة يرفعه إلى ابن عباس. وزعم هارون القارئ أنَّ قراءة أبيٍّ «بَلْ تَدارَكَ عِلْمُهُمْ»[٤]. وحكى الثعلبيُّ أنها في حرف أبيٍّ: «أم تدارك» والعرب تضعُ (بَلْ) موضع (أم) و(أم) موضع (بل) إذا كان في أوّل الكلام استفهامٌ، كقول الشاعر:

فواللهِ لا أدري أسلمى تغوَّلَتْ[٥] أمِ القولُ أم كلٌّ إليَّ حبيبُ

أي: بل كلٌّ[٦]. قال النحَّاس[٧]: القراءة الأولى والأخيرة معناهما واحد؛ لأنَّ أصل «ادَّارَكَ» تدارك؛ أُدغمتِ الدالُ في التاء، وجيء بألف الوصل؛ وفي معناه قولان: أحدهماأنَّ المعنى: بل تكامَلَ علمهم في الآخرة؛ لأنَّهم رأوا كلَّ ما وُعِدوا به معاينةً، فتكاملَ عِلمُهم به. والقول الآخر: أنَّ المعنى: بل تتابعَ عِلمُهم اليومَ في الآخرة، فقالوا: تكون، وقالوا: لا تكون. القراءة الثانية فيها أيضاً قولان: أحدهما

---

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٤٨٥، والتيسير ص١٦٨. وقراءة أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٣٩. قلنا: وما سوى هذه القراءة والتي قبلها فهو من القراءات الشاذة.

(٢) بل بغير تشديدٍ هنا؛ لأن قراءة التشديد سيذكرها المصنف قريباً، وهي ـ بالتخفيف والتشديد ـ في المحتسب ٢/ ١٤٢ عن سليمان بن يسار وعطاء بن السائب.

(٣) وقع في (م): «آآدَّرَكَ»، والمثبت من المصادر. وهي في الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٢ وزاد في نسبتها إلى أبي رجاء والحسن وقتادة، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٨ وزاد في نسبتها إلى ابن عباس والحسن.

(٤) وهي في المحتسب ٢/ ١٤٢، والشاذة ص١١٠.

(٥) في (م): تقولت، والتصويب من معاني القرآن للفراء ١/ ٧٢ و٢/ ٢٩٩، وتفسير الطبري ٢/ ٤١٣ و١٨/ ١١١. تغولت المرأة: تلونت. اللسان (غول).

(٦) وحكاه الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩٩. وقراءة أُبي في الشاذة ص١١٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٨.

(٧) من قوله: وحكى الثعلبي:... إلى هذا الموضع من (م).

أنَّ معناه: كمل في الآخرة، وهو مثل الأوّل؛ قال مجاهد: معناه: يدرك علمهم في الآخرة ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذِّبين. والقول الآخر أنه على معنى الإنكار، وهو مذهب أبي إسحاق؛ واستدلَّ على صحة هذا القول بأنَّ بعده ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾[1] أي: لم يُدرِكْ علمُهم علمَ الآخرة. وقيل: بل ضلَّ وغابَ علمُهم في الآخرة فليس لهم فيها علم. والقراءة الثالثة: «بَلِ ادَّرَكَ» فهي بمعنى «بَلِ ادَّارَكَ» وقد يجيء افتعل وتفاعل بمعنى[2]؛ ولذلك صُحِّح ازدوجوا حين كان بمعنى تزاوجوا. القراءة الرابعة: ليس فيها إلَّا قولٌ واحدٌ يكون فيه معنى الإنكار، كما تقول: أ أنا قاتلتُكَ؟! فيكون المعنى: لم يدرك، وعليه ترجع قراءةُ ابن عباس؛ قال ابن عباس: «بَلَى أَدَّارَكَ عِلْمُهُمْ في الْآخرَةِ» أي: لم يُدرِكْ. قال الفرَّاء: وهو قولٌ حسنٌ، كأنَّه وجَّهه إلى الاستهزاء بالمكذبين بالبعث، كقولك لرجلٍ تُكذِّبه: بَلَى لعمري قد أدركتَ السَّلَفَ فأنت تَروي ما لا أروي! وأنت تُكذِّبه[3]. وقراءةٌ سابعة: «بَلَ ادَّرَكَ» بفتح اللام؛ عدل إلى الفتحة لخِفَّتِها. وقد حُكي نحوُ ذلك عن قطرب في ﴿قُمِ اَلَّيْلَ﴾ فإنه عدل إلى الفتح. وكذلك و(بعَ الثوبَ) ونحوه[4]. وذكر الزمخشري في الكتاب[5]: وقُرئ «بَلْ أَأَدَّرَكَ» بهمزتين «بَلْ آ أَدَّرَكَ» بألف بينهما «بَلَى أَ أَدَّرَكَ» «أَمْ تَدَارَكَ» «أَمْ أَدَّرَكَ» فهذه ثنتا عشرة قراءة، ثم أخذ يُعلِّلُ وجوهَ القراءات وقال: فإنْ قلتَ: فما وجهُ قراءة «بَلْ أَ أَدَّرَكَ» على الاستفهام؟ قلتَ: هو استفهامٌ على وجه الإنكار لإدراك علمهم، وكذلك من قرأ: «أَمْ أَدَّرَكَ» و«أَمْ تَدَارَكَ» لأنها أم التي

(١) من بداية تفسير الآية إلى هذا الموضع ـ سوى ما حكاه الثعلبي وقول مجاهد ـ من إعراب القرآن ٣/٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٦٨ . وذُكرتْ هذه القراءة في السبعة ص٤٨٥ عن الأعشى عن أبي بكر عن عاصم. وهي في الشاذة ص١١٠ عن الحسن والأعرج.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/٢٩٩ .

(٤) المحتسب ٢/١٤٣ .

(٥) الكشاف ٣/١٥٦ - ١٥٧ .

بمعنى بل والهمزة، وأما من قرأ: «بَلَى أَ أَدَّرَكَ» على الاستفهام فمعناه: بلى يشعرون متى يبعثون، ثم أنكر عِلْمَهم بكونها، وإذا أنكر عِلْمَهم بكونها لم يتحصَّلْ لهم شعورٌ وقتَ كونها؛ لأنَّ العلمَ بوقت الكائن تابعٌ للعلم بكون الكائن. «في الْآخرَةِ» في شأن الآخرة ومعناها.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: في الدنيا. ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: بقلوبهم، واحدهم عمو. وقيل: عَمٍ[1]، وأصله عميون؛ حُذِفَتِ الياءُ لالتقاء الساكنين، ولم يَجُزْ تحريكُها لثِقَلِ الحركةِ فيها[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني مشركي مكة[3]. ﴿إذا كُنَّا تُراباً وآباؤُنا أيِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ هكذا يقرأ نافع هنا وفي سورة: «العنكبوت»[4]. وقرأ أبو عمرو باستفهامين، إلا أنَّه خفَّف الهمزة. وقرأ عاصم وحمزة أيضاً باستفهامين إلَّا أنهما حقَّقا الهمزتين، وكلُّ ما ذكرناه في السورتين جميعاً واحد. وقرأ الكسائي وابن عامر ورُويس ويعقوب: «أَئِذَا» بهمزتين «إِنَّنَا» بنونين على الخبر في هذه السورة، وفي سورة «العنكبوت» باستفهامين[5]؛ قال أبو جعفر النحَّاس[6]: القراءةُ «إذاَ كُنَّا تُراباً وآباؤُنا آيِنَّا لَمُخْرَجُونَ» موافقةٌ للخطِّ حسنةٌ، وقد عارض فيها أبو حاتم فقال: وهذا معنى كلامه: «إذَا» ليس باستفهام و«آيِنَّا» استفهام، وفيه «إنَّ» فكيف يجوز أن يعمل ما في

(١) الوسيط ٣/ ٣٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٦.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٩.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٧.

(٤) الآية (٢٩).

(٥) السبعة ص٤٨٥ و٤٩٩، والتيسير ص١٦٩ و١٧٣، والنشر ١/ ٣٧٣.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠، وما قبله منه.

حيِّزِ الاستفهام فيما قبله؟! فإذا كان فيه استفهامٌ كان أبعد، وهذا إذا سُئِلَ عنه كان مُشكلاً لِما ذكره. وقال أبو جعفر: وسمعت محمد بن الوليد يقول: سألنا أبا العباس عن آيةٍ من القرآن صعبةٍ مُشكِلةٍ، وهي قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٨] فقال: إن عمل في «إذَا» «ينبئكم» كان مُحالاً؛ لأنه لا يُنبِّئهم ذلك الوقت، وإن عمل فيه ما بعد «إنَّ» كان المعنى صحيحاً وكان خطأً في العربية أن يعمل ما قبل «إنَّ» فيما بعدها؛ وهذا سؤالٌ بيِّنٌ رأيتُ أن يُذكَرَ في السورة التي هو فيها، فأما أبو عبيد فمالَ إلى قراءة نافع وردَّ على مَنْ جمع بين استفهامين، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وبقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وهذا الردُّ على أبي عمرو وعاصم وحمزة وطلحة والأعرج لا يلزَمُ منه شيء، ولا يُشبه ما جاء به من الآيةِ شيئاً، والفرق بينهما أنَّ الشرطَ وجوابَه بمنزلة شيءٍ واحد، ومعنى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾: أفإن مِتَّ خلدوا. ونظير هذا: أَزَيْدٌ مُنطلِقٌ، ولا يُقال: أزيدٌ أمنطلقٌ؛ لأنها بمنزلة شيءٍ واحدٍ وليس كذلك الآية؛ لأنَّ الثاني جملةٌ قائمةٌ بنفسها فيصلح فيها الاستفهام، والأوَّلُ كلامٌ يصلح فيه الاستفهام، فأمَّا مَنْ حذَفَ الاستفهامَ من الثاني وأثبته في الأول فقرأ: «أئِذَا كُنَّا تُراباً وَآبَاؤُنَا إِنَّنَا» فحذفَه من الثاني؛ لأنَّ في الكلام دليلاً عليه بمعنى الإنكار.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقدَّم في سورة «المؤمنون»[1]. وكانت الأنبياء يُقرِّبون أمر البعث مبالغةً في التحذير، وكلُّ ما هو آتٍ فقريب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: «قُلْ» لهؤلاءِ الكفار «سِيرُوا» في بلاد

(١) ١٥/٧٨.

الشام والحجاز واليمن. ﴿فَانظُرُوا﴾ أي: بقلوبكم وبصائركم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ المكذِّبين لرسلهم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على كفار مكة إن لم يؤمنوا ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ في حرج[١] ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عِقاب مكة[٢]، وقد تقدَّم ذِكْرُهم[٣]. وقرئ: «فِي ضِيقٍ» بالكسر، وقد مضى في آخر «النحل»[٤]. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أي: وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي: اقترب لكم ودنا منكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: من العذاب. قاله ابن عباس[٥]. وهو من رَدِفَه إذا تبعه وجاء في أثره، وتكون اللام أُدخِلَتْ لأنَّ المعنى: اقترب لكم ودنا لكم. أو تكون متعلقةً بالمصدر[٦]. وقيل: معناه: معكم. وقال ابن شجرة: تبعكم، ومنه رِدْفُ المرأة؛ لأنه تَبَعٌ لها من خلفها، ومنه قول أبي ذُؤيب:

عادَ السوادُ بياضاً في مَفارِقِهِ ... لا مَرْحباً ببياضِ الشَّيْبِ إذْ رَدِفا[٧]

قال الجوهري[٨]: وَأَرْدَفه أمرٌ لغةٌ في رَدِفَه، مثل تَبِعَه وأتبَعَه بمعنى؛ قال خُزيمة

(١) الكشاف ٣/ ١٥٨ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٧ .

(٣) ١٢/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٤) ١٢/ ٤٦٤ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٧ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥ .

(٨) في الصحاح (ردف).

ابن مالك بن نَهد:

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثُّريَّا ظَننتُ بآلِ فاطمةَ الظنُّونا[١]

يعني فاطمة بنت يَذْكُر بن عَنَزة أحدِ القارِظَيْن.

وقال الفرَّاء[٢]: «رَدِفَ لَكُمْ»: دنا لكم؛ ولهذا قال: «لَكُمْ». وقيل: رَدِفه ورَدِف له بمعنًى فتُزاد اللامُ للتوكيد. عن الفرَّاء أيضاً[٣]. كما تقول: نقَدْتُه ونقَدْتُ له، وكِلْتُه ووَزَنْتُه، وكِلْتُ له ووزَنْتُ له، ونحو ذلك. ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مِن العذابِ، فكان ذلك يوم بدر. وقيل: عذاب القبر[٤]. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في تأخير العقوبة وإدرار الرزق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضلَه ونِعَمَه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: تخفي صدورهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يُظهِرون من الأمور. وقرأ ابن مُحيصن وحميد: «مَا تَكُنُّ» من كننتُ الشيء إذا سترتُه، هنا وفي «القصص»[٥] تقديرُه: ما تَكُنُّ صدورُهم عليه، وكأنَّ الضميرَ الذي في الصدور كالجسم الساتر. ومن قرأ: «تُكِنُّ» فهو المعروف؛ يقال: أكننتَ الشيء إذا أخفيتَه في نفسك[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قال الحسن: الغائبة: هنا: القيامة. وقيل: ما غابَ عنهم من عذاب السماء والأرض. حكاه النقَّاش. وقال ابن شجرة: الغائبة هنا: ما أخفى الله تعالى عن خلقِه وغيَّبه عنهم،

(١) البيت في الأمثال لأبي عبيد ص٣٤٥، وجمهرة الأمثال ١/ ١٢٣.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٩.

(٣) نقله عنه البغوي في تفسيره ٣/ ٤٢٧ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥.

(٥) عند الآية (٦٩).

(٦) المحتسب ٢/ ١٤٤ بنحوه، وقد نسب القراءة إلى ابن محيصن وابن السميفع اليماني، وكذلك في الشاذة ص١١٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٩.

وهذا عام[١]. وإنَّما دخلتِ الهاءُ في «غَائِبَةٍ» إشارة إلى الجمع، أي: ما من خَصْلةٍ غائبةٍ عن الخلق إلَّا واللهُ عالِمٌ بها قد أثبتها في أمِّ الكتاب عنده، فكيف يخفى عليه ما يُسِرُّ هؤلاء وما يُعلِنونه. وقيل: أي: كلُّ شيءٍ هو مُثبَتٌ في أمِّ الكتاب يُخرجه للأجل المؤجَّلِ له، فالذي يستعجلونه من العذاب له أجلٌ مضروبٌ لا يتأخَّر عنه ولا يتقدَّم عليه. والكتاب: اللوح المحفوظ، أثبتَ اللهُ فيه ما أراد؛ لِيُعلِمَ بذلك من يشاء من ملائكته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك أنَّهم اختلفوا في كثيرٍ من الأشياء حتى لعن بعضُهم بعضاً، فنزلت. والمعنى: إنَّ هذا القرآن يُبيِّن لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به[٢]، وذلك ما حرَّفوه من التوراة والإنجيل، وما سقط من كتبهم من الأحكام. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن[٣] ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصَّ المؤمنين لأنهم المنتفعون به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ﴾ أي: يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه في الآخرة، فيُجازي المُحِقَّ والمُبطل[٤]. وقيل: يقضي بينهم في الدنيا فيُظهِرُ ما حرَّفوه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الغالب الذي لا يُرَدُّ أمره ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٠.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٨٤، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٧.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١١٧.

شيء[١].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فوِّضْ إليه أمرَك واعتمِدْ عليه؛ فإنَّه ناصِرُك[٢]. ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الظاهر[٣]. وقيل: المُظهِرُ لمن تدبَّرَ وجه الصواب. ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني الكفار؛ لتركهم التَّدبُّر، فهم كالموتى لا حِسَّ لهم ولا عقل. وقيل: هذا فيمن علم أنه لا يؤمن. ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يعني الكفار الذين هم بمنزلة الصُّمِّ عن قبول المواعظ، فإذا دُعوا إلى الخير أعرضوا وولَّوا كأنهم لا يسمعون، نظيره: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ كما تقدَّم[٤].

وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبي إسحاق وعباس عن أبي عمرو: «وَلا يَسْمَعُ» بفتح الياء والميم «الصُّمُّ» رفعاً على الفاعل[٥]. الباقون: «تُسْمِعُ» مضارعُ أسمعتَ «الصُّمَّ» نصباً.

مسألة: وقد احتجَّت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أنَّ النبيَّ ﷺ أسمعَ موتى بدرٍ بهذه الآية، فنظرتْ في الأمر بقياسٍ عقليٍّ ووقفت مع هذه الآية. وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما أنتم بِأَسْمَعَ مِنْهم»[٦] قال ابن عطية: فيُشبه أنَّ قصةَ بدرٍ خرقُ عادةٍ لمحمدٍ ﷺ في أنْ رَدَّ الله إليهم إدراكاً سمعوا به مقالَه، ولولا إخبارُ رسول الله ﷺ بسماعهم لَحملنا نداءه إيَّاهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفَرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٧ .

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١١٦ .

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٢٤٩ .

(٤) ١/ ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٥) قراءة ابن كثير ورواية عباس عن أبي عمرو في السبعة ص٤٨٦ ، وعن ابن كثير وحده في التيسير ص١٦٩ .

(٦) سلف ٩/ ٢٧٣ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠ .

قلت: روى البخاري ﷺ: حدَّثني عبد الله بن محمد سمع رَوْح بن عُبادة قال: حدَّثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قَتادةَ قال: ذَكَر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أنَّ نبيَّ الله ﷺ أمرَ يوم بدرٍ بأربعةٍ وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقُذِفوا في طَوِيٍّ من أطواء بدرٍ خَبيثٍ مُخْبِث، وكان إذا ظهرَ على قومٍ أقام بالعَرْصَةِ ثلاثَ ليال، فلمَّا كان ببدرٍ اليومَ الثالثَ أمرَ براحلتِه فشُدَّ عليها رحلُها ثم مشى وتبعه أصحابُه، قالوا: ما نُرَى ينطلق إلَّا لبعض حاجته، حتى قام على شفير الرَّكيِّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فُلانَ بنَ فُلانٍ، ويا فُلانَ بن فلانٍ، أيَسُرُّكم أنَّكم أطعتُم اللهَ ورسوله؛ فإنَّا قد وجدنا ما وَعَدنا ربُّنا حقًّا، فهل وجدتُم ما وَعَد رَبُّكم حقًّا؟» قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكلِّمُ من أجسادٍ لا أرواحَ لها! فقال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده ما أنتم بأسمَعَ لِما أقولُ منهم» قال قتادة: أحياهم اللهُ حتى أسمعهم قولَه توبيخاً وتصغيراً ونِعمةً وحسرةً وندماً. خرَّجه مسلم أيضاً[1]. قال البخاري: حدَّثنا عثمان قال: حدَّثنا عَبْدة، عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر قال: وقفَ النبيُّ ﷺ على قَلِيب بدر فقال: «هل وجدتُم ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً؟» ثم قال: «إنهم الآن يسمعون ما أقول» فذُكر ذلك لعائشة فقالت: إنما قال النبي ﷺ: «إنَّهم الآن لَيعلمونَ أنَّ الذي كنتُ أقولُ لهم هو الحقُّ» ثم قرأتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية[2]. وقد عُورِضَتْ هذه الآية بقصة بدرٍ وبالسلام على القبور، وبما رُوِيَ في ذلك من أنَّ الأرواح تكون على شفير القبور في أوقات، وبأنَّ الميت يسمع قَرْعَ النِّعال إذا انصرفوا عنه، إلى غير ذلك، فلو لم يسمَعِ الميتُ لم يُسلَّمْ عليه[3]. وهذا واضحٌ وقد

---

(١) صحيح البخاري (٣٩٧٦)، وصحيح مسلم (٢٨٧٥). وأخرجه أحمد (١٦٣٥٩).

قال السندي في حاشيته على المسند: «في طَوِيٍّ»: في بئرٍ طَوِيٍّ بالحجارة أو غيرها. «مُخْبِث»: اسم فاعل من أخبث: إذا صاحب الخُبَثاء، أي: كان خبيثاً في ذاته، ثم صار أصحابه خبثاء أيضاً. «الرَّكي»: البئر. «أسرَّكم» أي: أظهَرَ لكم أنكم لو أطعتم كان خيراً. «ما تُكلِّمُ» أي: أيُّ كلامٍ تكلم وما فائدته.

(٢) صحيح البخاري (٣٩٨٠ - ٣٩٨١). وأخرجه أحمد (٤٩٥٨)، ومسلم (٩٣٢): (٢٦). ورواية أحمد ليس فيها قراءة الآية.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠ .

بيَّناه في كتاب «التذكرة»[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾ أي: كفرهم، أي: ليس في وُسعِكَ خلق الإيمان في قلوبهم.

وقرأ حمزة: «وما أَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ عَنْ ضَلالَتِهِمْ» كقوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [يونس: ٤٣]. الباقون: «بِهَادِي الْعُمْيِ» وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم وفي «الروم»[٢] مثله[٣]. وكلُّهم وقفَ على «بِهَادِي» بالياء في هذه السورة وبغير ياء في «الروم» اتباعاً للمصحف، إلَّا يعقوب فإنه وقفَ فيهما جميعاً بالياء[٤]. وأجاز الفرَّاء وأبو حاتم: «وما أَنْتَ بهَادٍ الْعُمْيَ» وهي الأصل. وفي حرف عبد الله: «وَما أَنْ تَهْدِي الْعُمْيَ». ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي: ما تسمع[٥]. ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ قال ابن عباس: أي: إلَّا من خلقتَه للسعادة فهم مخلصون في التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ اختُلِفَ في معنى وقع القول وفي الدابة، فقيل: معنى «وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ»: وجَبَ الغضبُ عليهم. قاله قتادة. وقال مجاهد: أي: حَقَّ القولُ عليهم بأنهم لا يؤمنون. وقال ابن عمر وأبو

(١) ١/١٤٤ - ١٤٥.

(٢) عند الآية (٥٣).

(٣) السبعة ص٤٨٦، والتيسير ص١٦٩.

(٤) النشر ٢/١٣٨ و١٣٩.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٠ -٢٢١.

سعيد الخدريّ رضي الله عنهما: إذا لم يأمُروا بالمعروف ويَنْهَوا عن المنكر وجَبَ السَّخطُ عليهم[١]. وقال عبد الله بن مسعود: وَقْعُ القولِ يكون بموت العلماء، وذهابِ العلم، ورفعِ القرآن. قال عبدالله: أكثروا تلاوةَ القرآن قبل أن يُرفَعَ. قالوا: هذه المصاحف تُرفَعُ فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: يُسرَى عليه ليلاً فيصبحون منه قَفْراً، وينسون لا إله إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم، وذلك حين يقع القولُ عليهم.

قلتُ: أسنده أبو بكر البزَّار قال: حدَّثنا عبد الله بن يوسف الثَّقَفي قال: حدَّثنا عبد المجيد بن عبد العزيز، عن موسى بن عُبيدة، عن صفوان بن سليم، عن [ناجية ابن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود ﷺ][٢] أنه قال: أكْثِروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرفَع ويَنسى الناسُ مكانَه، وأكْثِروا تلاوةَ القرآن من قبل أن يُرفَع. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذه المصاحفُ تُرفَعُ فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: فيُصبحون فيقولون: كنَّا نتكلَّم بكلامٍ ونقول قولاً، فيرجعون إلى شعرِ الجاهلية وأحاديثِ الجاهلية، وذلك حين يقَعُ القولُ عليهم[٣].

وقيل: القولُ: هو قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة:١٣] فوقوعُ القولِ وجوبُ العقاب على هؤلاء، فإذا صاروا إلى حَدٍّ لا تُقبَلُ توبتُهم ولا يولَدُ لهم ولدٌ مؤمنٌ فحينئذٍ تقوم القيامة. ذكره القُشيري.

وقول سادس: قالت حفصة بنت سيرين: سألتُ أبا العالية عن قول الله تعالى:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٢٦ . وقول ابن عمر أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٥ ، والطبري ١٨/ ١٢٠ و١٢١، ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٨٥).

(٢) في جميع النسخ: «ابنٍ لعبد الله بن مسعود عنه عن أبيه» والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) أخرجه الدارمي (٣٣٤١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٨٦) من طريق موسى بن عبيدة، به.
وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٠٢٦) من طريق موسى بن سعد، عن ناجية، به.
وأخرجه عبد الرزاق (٥٩٨١)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٤ ، والطبراني في الكبير (٨٦٩٨ و٨٦٩٩ و٨٧٠٠)، والحاكم ٤/ ٥٠٤ من طريق شداد بن معقل، عن ابن مسعود بنحوه. وصححه الذهبي في التلخيص.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ فقال: أوحى الله إلى نوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وكأنَّما كان على وجهي غطاءٌ فكُشِفَ. قال النحّاس: وهذا من حُسن الجواب؛ لأنَّ الناس مُمتَحَنون ومُؤخَّرون؛ لأنَّ فيهم مؤمنين وصالحين، ومَنْ قد عَلِمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنه سيؤمن ويتوب؛ فلهذا أُمهِلوا وأُمِرْنا بِأخْذِ الجزية، فإذا زالَ هذا وجبَ القولُ عليهم، فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾(١).

قلت: وجميعُ الأقوال عند التأمُّلِ ترجع إلى معنًى واحد. والدليلُ عليه آخِرُ الآية: «إنَّ النَّاسَ كانُوا بآياتِنا لا يُوقِنُونَ». وقُرِئ: «أَنَّ» بفتح الهمزة، وسيأتي. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ إذا خَرَجْنَ لا ينفَعُ نفساً إيمانُها [لم تكُنْ آمنَتْ من قبلُ أو كسبَتْ في إيمانها خيراً](٢): طلوعُ الشمس من مغربها، والدجال، ودابَّةُ الأرض» وقد مضى(٣). واختُلِفَ في تعيين هذه الدابة وصِفَتِها ومِنْ أين تخرجُ اختلافاً كثيراً، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»(٤)، ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفًى. فأوّل الأقوال أنَّه فَصِيلُ ناقة صالح وهو أصحُّها ـ والله أعلم ـ لِما ذكره أبو داود الطيالسي في «مسنده» عن حذيفة قال: ذكرَ رسولُ الله ﷺ الدابَّة فقال: «لها ثلاث خَرَجاتٍ من الدهر: فتخرجُ في أقصى البادية، ولا يدخلُ ذِكْرُها القرية ـ يعني مكة ـ ثم تكمنُ زماناً طويلاً، ثم تخرجُ خرجةً أخرى دون ذلك فيفشو ذِكْرُها في البادية، ويدخل ذِكْرُها القرية ـ يعني مكة ـ» قال رسول الله ﷺ: «ثمَّ بينما الناسُ في أعظم المساجد على الله حُرمةً خيرِها وأكرمِها على الله المسجدِ الحرامِ، لم يَرُعْهُم إلَّا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفُضُ عن رأسِها التراب،

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٢١ وقول حفصة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٣، والطبري ١٨/ ١٢٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩١).

(٢) ما بين حاصرتين من صحيح مسلم، وهو ليس في النسخ.

(٣) صحيح مسلم (١٥٨)، وقد سلف ٩/ ١٢٨.

(٤) ٢/ ٦٩٦ - ٧٠٢.

فارفَضَّ[١] الناسُ معها[٢] شتَّى ومعاً، وتثبتُ عصابةٌ من المؤمنين، وعرفوا أنهم لن يُعجزوا اللهَ، فبدأتْ بهم فجَلَّتْ وُجوهَهم حتى جعلَتْها كأنَّها الكوكبُ الدُّرِّيُّ، ووَلَّتْ في الأرض لا يُدرِكُها طالبٌ، ولا ينجو منها هارب، حتى إنَّ الرَّجلَ لَيَتعوَّذُ منها بالصلاة فتأتيه مِنْ خلِفه فتقول: يا فلان، الآن تُصلِّي؟ فتُقبِلُ عليه فتَسِمُه في وجهه، ثم تنطلِقُ، ويشترك الناسُ في الأموال، ويصطحبون[٣] في الأمصار، يُعرَفُ المؤمنُ من الكافر، حتى إنَّ المؤمن يقول: «يا كافر اقْضِ حَقِّي»[٤] وموضعُ الدليلِ من هذا الحديث أنَّه الفصيل قولُه: «وهي ترغو» والرُّغاء إنما هو للإبل؛ وذلك أنَّ الفصيلَ لمَّا قتلت الناقة هرب، فانفتح له حجرٌ فدخل في جوفه، ثم انطبق عليه، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عزَّ وجلَّ. ورُويَ أنَّها دابةٌ مزغبةٌ شعراء، ذاتُ قوائم[٥]، طولُها ستون ذراعاً[٦]، ويقال: إنها الجساسة. وهو قول عبد الله بن عمر[٧]. ورُوي عن ابن عمر

(١) أي: تفرق. النهاية (رفض).

(٢) في النسخ: منها. والمثبت من مسند الطيالسي والمصادر.

(٣) في النسخ: ويصطلحون. والمثبت من مسند الطيالسي والمصادر.

(٤) مسند الطيالسي (١٠٦٩). بإسنادين: الأول: عن جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن رجل من آل مسعود، عن حذيفة بن أسيد مرفوعاً. في إسناده إبهام الراوي عن حذيفة. والثاني: عن طلحة بن عمرو، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبي الطفيل، عن حذيفة مرفوعاً. طلحة بن عمرو متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ٣٤٠ - ٣٤٢ .وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩٣) من طريق الطيالسي، بالإسنادين معاً.

وأخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢٣٤٥)، والطبراني في الكبير (٣٠٣٥)، والحاكم ٤/ ٤٨٤ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٢٨ من طريق طلحة بن عمرو، به.

وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٤ والطبري ١٨/ ١٢٢ - ١٢٣ من طريق واصل مولى ابن عيينة، كلاهما عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد موقوفاً، والفاكهي (٢٣٤٤)، والحاكم ٤/ ٤٨٤ من طريق قيس بن سعد، والطبري ١٨/ ١٢٢ - ١٢٣ وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٢٦ عن ابن عباس ﷺ، وزاد المسير ٦/ ١٩١ عن مقاتل.

(٦) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٠ عن حذيفة بن اليمان ﷺ مرفوعاً.

(٧) الكشاف ٣/ ١٥٩ .

أنها على خِلقة الآدميين، وهي في السحاب، وقوائمها في الأرض. ورُويَ أنها جُمِعتْ من خلقِ كلِّ حيوان[١].

وذكر الماوردي[٢] والثعلبي: رأسُها رأسُ ثور، وعينُها عينُ خنزير، وأذنُها أذنُ فيل، وقرنُها قرنُ أيل، وعنقُها عنقُ نعامة، وصدرُها صدرُأسد، ولونُها لونُ نمر، وخاصرتها خاصرةُ هِرّ، وذنبُها ذنبُ كبش، وقوائمُها قوائمُ بعير، بين كلِّ مَفْصلٍ اثنا عشر ذراعاً ـ الزمخشري[٣]: بذراع آدم عليه السلام ـ ويخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان، فتنكتُ في وجه المسلم بعصا موسى نكتةً بيضاء فيبيَضُّ وجهُه، وتنكتُ في وجه الكافر بخاتم سليمان عليه السلام فيسوَدُّ وجهُه. قاله أبو الزبير[٤].

وفي كتاب النقَّاش عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ الدابةَ الثعبانُ المشرفُ على جدار الكعبة التي اقتلعَتْها العُقاب حين أرادت قريشٌ بناءَ الكعبة[٥].

وحكى الماورديُّ[٦] عن محمد بن كعب عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه سُئِلَ عن الدابةِ فقال: أما واللهِ ما لها ذنَبٌ وإنَّ لها لَلِحية. قال الماوردي: وفي هذا القول منه إشارةٌ إلى أنَّها من الإنس وإن لم يُصرِّحْ به.

قلت: ولهذا ـ والله أعلم ـ قال بعض المتأخرين من المفسرين: إنَّ الأقربَ أن تكون هذه الدابةُ إنساناً متكلِّماً يُناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا، فيهلِكَ من هَلَكَ عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة. قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٦، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٩٠، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩٧).

(٣) في الكشاف ٣/ ١٦٠.

(٤) وهو محمد بن مسلم بن تدرس، وقد وقع في النسخ: ابن الزبير، والتصويب من تفسير ابن أبي حاتم وزاد المسير.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧١.

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٦، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩٦).

القرطبي في كتاب «المفهم»[(١)] له: وإنَّما كان عند هذا القائلِ الأقربُ لقوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وعلى هذا فلا يكون في هذه الدابة آيةٌ خاصةٌ خارقةٌ للعادة، ولا يكون من العشر الآياتِ المذكورة في الحديث؛ لأنَّ وجودَ المُناظرين والمُحتَجِّين على أهل البدع كثيرٌ، فلا آيةَ خاصةٌ بها، فلا ينبغي أن تُذكَرَ مع العشر، وترتفعُ خصوصيةُ وجودِها إذا وقعَ القولُ، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظرِ الفاضلِ العالمِ الذي على أهل الأرض أن يُسمُّوه باسم الإنسان أو بالعالم أو بالإمام إلى أن يُسمَّى بدابَّة، وهذا خروجٌ عن عادة الفُصحاء، وعن تعظيم العُلماء، وليس ذلك دأبُ العقلاء، فالأولى ما قاله أهل التفسير، والله أعلم بحقائق الأمور.

قلتُ: قد رفعَ الإشكالَ في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليُعتمَدْ عليه. واختُلِفَ من أيِّ موضع تخرج، فقال عبد الله بن عمر: تخرج من جبلِ الصفا بمكة؛ يتصدَّعُ فتخرج منه[(٢)]. قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال: لو شئتُ أن أضعَ قدمي على موضع خروجِها لفعلتُ[(٣)]. وروى في خبرٍ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الأرضَ تنشَقُّ عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى، وأنَّها تخرج من الصفا فتَسِمُ بين عينَي المؤمن هو مؤمن سِمةً كأنها كوكب دُرِّيٌّ، وتَسِمُ بين عينَي الكافر نكتةً سوداء كافر» وذكر في الخبر أنها ذاتُ وبرٍ وريش. ذكره المهدوي[(٤)]. وعن ابن عباس أنَّها تخرج من شعْبٍ فتَمسُّ رأسَها السحابُ ورجلاها في الأرض لم تخرجا[(٥)]، وتخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام[(٦)].

(١) ٧/ ٢٤٠ - ٢٤١، وما قبله منه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢١، وزاد المسير ٦/ ١٩١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٤.

(٤) وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٤ - ١٢٥ من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (٧٩٣٧)، والترمذي (٣١٨٧)، وابن ماجه (٤٠٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً. وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ - ١٢٧ عن عبد الله بن عمرو ﷺ موقوفاً.

وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ - ١٢٧ عن عبدالله بن عمرو ﷺ موقوفاً.

وعن حذيفة: تخرجُ ثلاث خرجات: خرجةٌ في بعض البوادي ثم تَكمُن، وخرجةٌ في القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء، وخرجةٌ من أعظم المساجد وأكرمِها وأشرفِها وأفضلِها(١). الزمخشري: تخرج من بين الركن حِذاءَ دارِ بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد؛ فقومٌ يهربون، وقومٌ يقفون نَظّارة(٢). ورُويَ عن قتادة أنَّها تخرج في تهامة. ورُويَ أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فارَ تنُّور نوحٍ عليه السلام(٣). وقيل: من أرض الطائف؛ قال أبو قَبيل: ضرب عبد الله بن عمرو أرضَ الطائف برجله وقال: مِنْ هنا تخرجُ الدابَّةُ التي تُكلِّم الناس. وقيل: من بعض أودية تهامة. قاله ابن عباس. وقيل: من صخرة من شِعْب أجياد. قاله عبد الله بن عمرو. وقيل: من بحر سَدُوم. قاله وهب بن مُنبِّه. ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة الماوردي في كتابه(٤). وذكر البغويُّ أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدَّثنا عليُّ بن الجَعْد، عن فُضيل بن مرزوق الرَّقاشيِّ الأغرِّ ـ وسُئِلَ عنه يحيى بن مَعين فقال: ثقة ـ عن عطية العوفي، عن ابن عمر قال: تخرجُ الدابَّةُ من صدعٍ في الكعبة كجَرْيِ الفرس ثلاثةَ أيامٍ لا يخرجُ ثلُثها(٥).

قلت: فهذه أقوالُ الصحابة والتابعين في خروج الدابَّةِ وصفتِها، وهي تردُّ قولَ مَنْ قال من المفسرين: إنَّ الدابَّةَ إنما هي إنسانٌ متكلِّمٌ يناظرُ أهلَ البدع والكفر. وقد روى أبو أُمامةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تخرجُ الدابَّةُ فتَسِمُ الناسَ على خراطيمهم» ذكره الماوردي(٦). «تُكَلِّمُهُم» بضمِّ التاء وشدِّ اللام المكسورة ـ من الكلام ـ قراءةُ العامَّةُ،

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ١٢٣ وغيره، وقد سلف تخريجه قريباً.

(٢) الكشاف ٣/ ١٦٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٧ .

(٥) أخرجه علي بن الجعد في مسنده (٢٠٩١)، والطبري ١٨/ ١٢١ - ١٢٢ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٦٠١)، والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٣٠ . وفي إسناده عطية بن سعد العوفي، وهو ضعيف. ميزان الاعتدال ٣/ ٧٩ - ٨٠ .

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٧ . وأخرجه أحمد (٢٢٣٠٨).

يدلُّ عليه قراءة أُبيٍّ: «تُنَبِّئُهُمْ»[١] وقال السُّدِّي: تُكلِّمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام[٢]. وقيل: تكلِّمهم بما يسوءهم[٣]. وقيل: تُكلِّمهم بلسانٍ ذَلِقٍ فتقول بصوتٍ يسمعه مَنْ قَرُبَ وبَعُد: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: بخروجي؛ لأنَّ خروجَها من الآيات. وتقول: ألا لعنةُ الله عل الظالمين[٤].

وقرأ أبو زُرْعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء: «تَكْلِمُهُمْ» بفتح التاء[٥] من الكَلْمِ وهو الجرح؛ قال عكرمة: أي: تَسِمُهم. وقال أبو الجوزاء: سألتُ ابن عباس عن هذه الآية «تُكَلِّمُهُمْ» أو «تَكْلِمُهُمْ»؟ فقال: هي واللهِ تُكَلِّمُهُمْ وتَكْلِمُهُم؛ تُكلِّم المؤمن وتَكْلِم الكافر والفاجر أي: تجرحه. وقال أبو حاتم. «تُكَلِّمُهُمْ» كما تقول: تُجَرِّحهم؛ يذهب إلى أنه تكثيرٌ من «تَكْلمُهُم». ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وقرأ الكوفيون وابن أبي إسحاق ويحيى: «أن» بالفتح[٦]. وقرأ أهل الحرمين وأهل الشام وأهل البصرة: «إن» بكسر الهمزة[٧]. قال النحَّاس[٨]: في المفتوحة قولان وكذا المكسورة؛ قال الأخفش[٩]: المعنى بأنَّ. وكذا قرأ ابن مسعود «بأنَّ»[١٠]. وقال أبو عبيد[١١]:

(١) المحتسب ٢/ ١٤٥ ، وهي قراءة شاذة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٨ ، وزاد المسير ٦/ ١٩٣ .

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥١ .

(٤) الكشاف ٣/ ١٦٠ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢١ - ٢٢٢ عن أبي زرعة وابن عباس وعاصم الجحدري وعكرمة وطلحة. وفي المحتسب ٢/ ١٤٤ عن أبي زرعة وابن عباس وعاصم الجحدري ومجاهد وسعيد بن جبير. وفي الشاذة ص١١٠ عن أبي زرعة وابن عباس ومجاهد. وفي تفسير البغوي عن أبي رجاء ومجاهد وسعيد بن جبير.

(٦) قراءة الكوفيين ـ وهم عاصم وحمزة والكسائي ـ في السبعة ص٤٨٧ ، والتيسير ص١٦٩ .

(٧) هي قراءة نافع وابن عامر وأبي عمرو البصري، وهي في السبعة ص٤٨٧ ، والتيسير ص١٦٩ .

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٢ ، وما قبله منه.

(٩) في معاني القرآن له ٢/ ٦٥١ .

(١٠) المحتسب ٢/ ١٤٥ ، والشاذة ص١١٠ ، وزاد المسير ٦/ ١٩٣ ونسبها أيضاً إلى أبي عمران الجوني.

(١١) في (د) و(م): أبو عبيدة. والمثبت من (ز) و(ظ) وإعراب القرآن.

موضعها نصبٌ بوقوع الفعل عليها، أي: تُخبرهم أنَّ الناس. وقرأ الكسائي والفَّراء: «إنَّ النَّاسَ» بالكسر على الاستئناف. وقال الأخفش: هي بمعنى تقول: إن الناس؛ يعني الكفار.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ يعني: بالقرآن وبمحمدٍ ﷺ، وذلك حين لا يقبل اللهُ من كافرٍ إيماناً ولم يبقَ إلا مؤمنون وكافرون في علم الله قبل خروجها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي: زمرةً وجماعةً[١]. ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني: بالقرآن وبأعلامنا الدالَّةِ على الحق.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُدفَعون ويُساقون إلى موضع الحساب؛ قال الشَّماخ:

وكَم وَزَعْنَا من خَميسٍ جَحْفَلٍ   وكَمْ حَبَوْنَا من رئيسٍ مِسْحَلِ[٢]

وقال قتادة: «يُوزَعُون» أي: يُردُّ أولُهم على آخرهم[٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ﴾ أي: قال الله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ التي أنزلتُها على رسلي، وبالآيات التي أقمتُها دلالةً على توحيدي. ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ أي: ببطلانها حتى تعرضوا عنها، بل كذَّبتم جاهلين غير مُستَدِلِّين. ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقريعٌ وتوبيخٌ، أي: ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكَّروا ما فيها؟

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾أي: وجبَ العذابُ عليهم بظلمهم. أي: بشركهم ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: ليس لهم عذرٌ ولا حجةٌ. وقيل: يختم على أفواههم فلا ينطقون. قاله أكثر المفسرين[٤].

---

(١) زاد المسير ٦/ ١٩٤ .

(٢) ملحق ديوان الشماخ ص٤٥٣. الخميس الجحفل: الجيش الكثير. والمِسْحَل: الشجاع. اللسان (خمس) و(جحفل) و(سحل).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٢٨ ، وما قبله منه.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٣١ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: يستقِرُّون فيناموِن. ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: يُبصَر فيه لسعي الرزق[1]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ باللهِ، ذَكَرَ الدّلالةَ على إلهيته وقدرته، أي: ألم يعلموا كمالَ قُدرتِنا فيؤمنوا؟.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾أي: واذكُرْ يومَ، أو: ذَكِّرهمْ يومَ ينفخ في الصور. ومذهبُ الفرَّاء أنَّ المعنى: وذلكم يومَ ينفخ في الصور، وأجاز فيه الحذف[2]. والصحيح في الصور أنه قرنٌ من نورٍ ينفخ فيه إسرافيل. قال مجاهد: كهيئة البوق. وقيل: هو البوق بلغة أهل اليمن[3]. وقد مضى في «الأنعام»[4] بيانُه وما لِلعلماء في ذلك. ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ قال أبو هريرة: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ لمَّا فرغَ من خلق السماوات خلقَ الصُّورَ فأعطاه إسرافيلَ، فهو واضِعُه على فيه، شاخصٌ ببصرِه إلى العرش، ينتظر متى يؤمَرُ بالنفخة» قلتُ: يا رسولَ الله، ما الصُّور؟ قال: «قَرْنٌ واللهِ عظيمٌ، والذي بعثني بالحقِّ إنَّ عِظَمَ دارةٍ فيهِ كعرض السماء والأرض، فينفخُ فيه ثلاثَ نفخات: النفخةُ الأولى نفخةُ الفزع، والثانيةُ نفخةُ الصَّعْق، والثالثةُ نفخةُ البعثِ والقيامِ لربِّ العالمين» وذكر الحديث. ذكره

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٨٦، وزاد المسير ٦/ ١٩٤.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٢.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٠٧، وزاد المسير ٣/ ٦٨.

(٤) ٨/ ٤٣١ - ٤٣٢.

علي بن معبد[١] والطبري والثعلبي وغيرهم[٢]، وصحَّحه ابن العربي! وقد ذكرتُه في كتاب «التذكرة»[٣] وتكلَّمنا عليه هناك، وأنَّ الصحيح في النفخ في الصُّور أنَّهما نفختان لا ثلاث، وأنَّ نفخة الفزع إنما تكون راجعةً إلى نفخة الصَّعق؛ لأنَّ الأمرين لازمان لهما، أي: فزعوا فزعاً ماتوا منه، أو: إلى نفخة البعث. وهو اختيار القشيري وغيره؛ فإنَّه قال في كلامه على هذه الآية: والمراد النفخة الثانية، أي: يحيون فَزِعين يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس:٥٢] ويعاينون من الأمر ما يهولُهم ويُفزعهم، وهذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق في أرض الجزاء. قاله قتادة[٤]. وقال الماورديّ[٥]: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾: هو يوم النشور من القبور؛ قال: وفي هذا الفزع قولان: أحدُهما أنَّه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم: فزِعتُ إليك في كذا إذا أسرعتُ إلى ندائك في معونتك. والقول الثاني: إنَّ الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحزن؛ لأنَّهم أُزعِجوا من قبورهم ففزعوا وخافوا. وهذا أشبه القولين.

قلتُ: والسُّنةُ الثابتةُ من حديثِ أبي هريرة وحديثِ عبد الله بن عَمرو تدلُّ على

---

(١) هو علي بن معبد بن نوح البغدادي ثم المصري، إمام حافظ، توفي سنة ٢٥٩ هـ. السير ١٠/ ٦٣٢ - ٦٣٤.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٤ من طريق إسماعيل بن رافع المدني، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة مرفوعاً. إسماعيل بن رافع ضعيف الحفظ كما قال الحافظ في التقريب. قلنا: وقد اختلف عليه في إسناده اختلافاً كبيراً؛ قال الحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٨ : مدار إسناده على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه، فرواه عن محمد بن كعب القرظي تارةً بلا واسطة، وتارةً بواسطة رجل مبهم ومحمد عن أبي هريرة، وتارةً بلا واسطة، وتارةً بواسطة رجل من الأنصار مبهم أيضاً. وينظر مصادر تخريجه في تفسير الطبري ٣/ ٦١٣ .

(٣) ١/ ١٧٣ .

(٤) عبارة: «قاله قتادة» من (م)، وهي ليست في باقي النسخ.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٩ .

أنهما نفختان لا ثلاث: خرَّجهما مسلم[١]، وقد ذكرناهما في كتاب «التذكرة»[٢] وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان؛ قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨] فاستثنى هنا كما استثنى في نفخة الفزع، فدلَّ على أنهما واحدة. وقد روى المبارك[٣] عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «بينَ النفختين أربعون سنةً؛ الأولى يُميت اللهُ بها كلَّ حيٍّ، والأُخرى يُحيي اللهُ بها كلَّ ميت»[٤] فإن قيل: فإن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ إلى أن قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [النازعات:٦-١٣] وهذا يقتضي بظاهره أنَّها ثلاث. قيل له: ليس كذلك، وإنَّما المرادُ بالزَّجرة النفخةُ الثانيةُ التي يكون عنها خروج الخلق من قبورهم. كذلك قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وابن زيد وغيرهم.

قال مجاهد: هما صيحتان؛ أمَّا الأولى فتُميتُ كلَّ شيءٍ بإذن الله، وأمَّا الأُخرى فتُحيي كلَّ شيءٍ بإذن الله. وقال عطاء: «الرَّاجِفَةُ»: القيامة، و«الرادِفَةُ»: البعث[٥]. وقال ابن زيد: «الراجفة»: الموت، و«الرادفة»: الساعة. والله أعلم[٦].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ثم اختُلِفَ في هذا المُستثنى مَنْ هم؛ ففي حديث أبي هريرة أنَّهم الشهداءُ عند ربهم يرزقون، إنَّما يصل الفزعُ إلى الأحياء. وهو قول سعيد بن

---

(١) في صحيحه (٢٣٧٣) و(٢٩٤٠)، وهما في مسند أحمد (٩٨٢١) و(٩٥٥٥).

(٢) ص١٦٥-١٦٧ .

(٣) في جميع النسخ: ابن المبارك، وهو خطأ قديم في النسخ. والتصويب من السنن الواردة في الفتن.

(٤) أخرجه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٧٢١) من طريق المبارك ـ وهو ابن فضالة ـ عن الحسن البصري، به. وإسناده مرسل. لكن أخرج البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتُ. «ثم يُنزِلُ الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل».

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ و٤٤٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١ .

جُبير أنَّهم الشهداء مُتقلِّدون السيوف حول العرش[١]. وقال القشيري: الأنبياء داخلون في جملتهم؛ لأنَّ لهم الشهادةَ مع النبوَّة. وقيل: الملائكة. قال الحسن: استثنى طوائفَ من الملائكة يموتون بين النفختين. قال مقاتل: يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت[٢]. وقيل: الحور العين[٣]. وقيل: هم المؤمنون؛ لأنَّ الله تعالى قال عُقيب هذا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾. وقال بعض علمائنا: والصحيحُ أنَّه لم يَرِدْ في تعيينهم خبرٌ صحيحٌ والكلُّ مُحتَمِلٌ.

قلت: خفيَ عليه حديثُ أبي هريرة وقد صحَّحه القاضي أبو بكر بن العربي فليُعَوَّلْ عليه؛ لأنَّه نصٌّ في التعيين، وغيرُه اجتهاد. والله أعلم. وقيلَ غيرُ هذا على ما يأتي في «الزُّمَر»[٤].

وقوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ماضٍ، و«يُنْفَخُ» مستقبلٌ، فيُقال: كيف عطفَ ماضٍ على مستقبل؟ فزعمَ الفرَّاء أنَّ هذا محمولٌ على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إذا نفخ في الصور ففزع. «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ» نصبٌ على الاستثناء. ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ونافع وابن عامر وابن كثير: «آتُوهُ» جعلوه فعلاً مستقبلاً. وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة وحفص عن عاصم: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ» مقصوراً على الفعل الماضي[٥]، وكذلك قراءة ابن مسعود[٦]. وعن قتادة: «وَكُلٌّ أَتَاهُ دَاخِرِينَ»[٧]. قال النحَّاس[٨]: وفي كتابي عن أبي إسحاق في القراءات: [من قرأ][٩]: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ»

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٣١ .

(٢) قول مقاتل في الوسيط٣/ ٣٨٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣١ ، وزاد المسير ٦/ ١٩٥ .

(٣) زاد المسير ٦/ ١٩٥ .

(٤) عند تفسير الآية (٦٨) .

(٥) السبعة ص ٤٨٧ ، والتيسير ص١٦٩ دون قراءة الأعمش ويحيى.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٢ .

(٧) المحتسب ٢/ ١٤٥ ، والشاذة ص١١١ .

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٢ - ٢٢٣ ، وما قبله منه سوى قراءة ابن مسعود وقتادة.

(٩) ما بين حاصرتين من إعراب القرآن، وهو ليس في النسخ.

وحَّده على لفظ «كُلّ»، ومن قرأ: «آتُوهُ» جمع على معناها، وهذا القول غلطٌ قبيح؛ لأنَّه إذا قال: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ» فلم يوحِّدْ وإنَّما جمع، ولو وحَّد لقال: «أَتَاهُ» ولكن من قال: «أَتَوْهُ» جمعَ على المعنى وجاء به ماضياً، لأنَّه رَدَّه إلى «فَفَزِعَ»، ومن قرأ: «وَكُلٌّ آتُوهُ» حملَه على المعنى أيضاً وقال: «آتُوهُ» لأنها جملةٌ منقطعةٌ من الأول.

قال ابن نصر: قد حكى عن أبي إسحاق رحمه الله ما لم يَقُلْه، ونصُّ أبي إسحاق: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ» ويقرأ: «آتُوهُ» فمن وحَّد فللفظ «كُلّ» ومن جمع فلمعناه؛ يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيد خبر «كلّ» فعلى اللفظ، أو جمعَ فعلى المعنى؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى. قال المهدوي: ومن قرأ: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ» فهو فعلٌ من الإتيان وحمل على معنى «كل» دون لفظها، ومن قرأ: «وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخرِينَ» فهو اسم الفاعل من أتى، يدلُّكَ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]. ومن قرأ: «وَكُلٌّ أَتَاهُ» حملَه على لفظ «كلّ» دون معناها وحمل «دَاخِرِينَ» على المعنى، ومعناه: صاغرين. عن ابن عباس وقتادة. وقد مضى في «النحل»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ قال ابن عباس: أي: قائمةً وهي تسير سيراً حثيثاً[(٢)]. قال القُتبي[(٣)]: وذلك أنَّ الجبال تُجمَع وتُسيَّر، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير، وكذلك كلُّ شيءٍ عظيمٍ وجَمْعٍ كثيرٍ يَقصُرُ عنه النظر؛ لكثرته وبُعدِ ما بين أطرافه، وهو في حُسبان النَّاظرِ كالواقف وهو يسير. قال النابغة في وصف جيش:

بِأَرْعَنَ مثل الطَّودِ تَحسِبُ أنَّهمْ ... وُقوفٌ بِحَاجٍ والرِّكابُ تُهملِجُ[(٤)]

---

(١) ١٢/ ٣٣٤.

(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٦.

(٣) في تأويل مشكل القرآن ص٤ – ٥.

(٤) ديوان النابغة الجعدي ص١٨٧. الجيش الأرعن: المضطرب لكثرته. وتهملج من الهملجة: وهو حسن سير الدابة في سرعة. اللسان (رعن) و(هملج).

قال القُشيريّ: وهذا يوم القيامة، أي: هي لكثرتها كأنَّها جامدة، أي: واقفة في مرأى العين وإن كانت في أنفُسِها تسير سير السحاب، والسحابُ المتراكمُ يظنُّ أنها واقفةٌ وهي تسير، أي: تمرُّ مَرَّ السحاب حتى لا يبقى منها شيء، فقال الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]. ويُقال: إنَّ الله تعالى وصف الجبال بصفاتٍ مختلفةٍ ترجع كلُّها إلى تفريغ الأرض منها، وإبراز ما كانت تواريه، فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة، ثم تصير كالعِهن المنفوش، وذلك إذا صارتِ السماءُ كالمُهْل، وقد جمع الله بينهما فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ . وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨-٩]. والحالة الثالثة أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطَّع بعد أن كانت كالعهن. والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدِّمة قارَّةٌ في مواضعها والأرض تحتها غيرُ بارزةٍ فتنسف عنها لتبرز، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها. والحالة الخامسة أنَّ الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بُعْدٍ حسِبَها لتكاثفها أجساداً جامدة، وهي بالحقيقة مارَّةٌ إلاَّ أنَّ مرورَها من وراء الرياح كأنها مُندكَّةٌ مُتفتِّتة. والحالة السادسة أن تكون سراباً، فمن نظر إلى مواضعها لم يجِدْ فيها شيئاً منها كالسراب. قال مقاتل: تقعُ على الأرض فتُسوَّى بها. ثم قيل: هذا مَثَلٌ. قال الماوردي[(١)]: وفيما[(٢)] ضُرِبَ له ثلاثةُ أقوال: أحدُها أنه مَثَلٌ ضربَه اللهُ تعالى للدنيا، يظنُّ الناظرُ إليها أنها واقفةٌ كالجبال، وهي آخذةٌ بحظِّها من الزوال كالحساب. قاله سهل بن عبد الله. الثاني: أنه مثلٌ ضربَه اللهُ للإيمان تحسبه ثابتاً في القلب وعملُه صاعدٌ إلى السماء. الثالث: أنه مثلٌ ضربَه اللهُ للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: هذا من فِعْلِ الله، و[ما][(٣)] هو فعل منه فهو

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٢٣٠ .

(٢) في (م): وفيهما.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيه الكلام.

متقَن[١]. و«تَرَى» من رؤية العين، ولو كانت من رؤية القلب لتعدَّت إلى مفعولين. والأصلُ تَرْأَى، فأُلقِيَتْ حركةُ الهمزة على الراء فتحرَّكتِ الرَّاءُ وحُذفَتِ الهمزة، وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن، إلَّا أن التخفيف لازمٌ لِتَرى. وأهل الكوفة يقرؤون: «تَحْسَبُها» بفتح السين وهو القياس؛ لأنَّه من حَسِبَ يَحسَبُ إلَّا أنه قد رُويَ عن النبيِّ ﷺ خلافُها أنه قرأ بالكسر في المستقبل، فتكون على فَعِلَ يفعِلُ مثل نَعِمَ يَنعِمُ وبَئِسَ يبئِسُ، وحُكي: يَئِسَ يَيئِسُ من السالم، لا يُعرَفُ في كلام العرب غيرُ هذه الأحرف. «وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» تقديرُه: مَرّاً مِثْلَ مَرِّ السحاب، فأُقيمتِ الصفةُ مقامَ الموصوف، والمضافُ مقامَ المضاف إليه؛ فالجبال تُزالُ من أماكنها من على وجه الأرض، وتُجمع وتُسيَّر كما تُسيَّر السحاب، ثم تُكسَّر فتعود إلى الأرض كما قال: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]. ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ عند الخليل وسيبويه منصوبٌ على أنه مصدر؛ لأنَّه لمَّا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ دلَّ على أنه قد صنعَ ذلكَ صنعاً. ويجوز النصبُ على الإغراء، أي: انظروا صُنْعَ الله[٢] فيوقف على هذا «السَّحَابِ» ولا يوقف عليه على التقدير الأوّل. ويجوز رفعُه على تقدير: ذلكَ صنعُ الله[٣]. ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ﴾ أي: أحكمه، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «رحمَ اللهُ من عمِلَ عملاً فأتقَنه»[٤]. وقال قتادة: معناه: أحسن كلَّ شيء[٥]. والإتقان: الإحكام؛ يُقال: رجلُ تِقْنٌ أي: حاذِقٌ بالأشياء. وقال الأزهري[٦]: أصلُه من ابن تِقْن، وهو رجلٌ من

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣١ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤ دون قوله: فالجبال تزال... إلى قوله: «وبسَّتِ الجبال بسّاً».

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٠ .

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه أبو يعلى (٤٣٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً بلفظ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٩٨: فيه مصعب بن ثابت، وثَّقه ابن حيان، وضعَّفه جماعة.

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٧ .

(٦) تحرف في النسخ إلى: الزهري، وكلام الأزهري الآتي في تهذيب اللغة ٩/ ٦٠ - ٦١ ، وما قبله منه أيضاً.

عاد لم يكُنْ يسقط له سهمٌ فضُرِبَ به المثل؛ يُقال: أَرمَى من ابن تِقْن، ثم يُقال لكلِّ حاذقٍ بالأشياء: تِقْنٌ.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾[١] بالتاء على الخطاب قراءةُ الجمهور، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء[٢].

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: الحسنةُ: لا إله إلا الله[٣]. وقال أبو معشر: كان إبراهيم يحلِفُ بالله الذي لا إله إلا هو ولا يستثني أنَّ الحسنةَ لا إله إلا الله محمدٌ رسولُ الله[٤]. وقال علي بن الحسين بن علي ﷺ: غزا رجلٌ، فكان إذا خلا بمكانٍ قال: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، فبينما هو في أرض الروم في أرضٍ جلفاءَ وبَرْدى رفع صوتَه فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فخرجَ عليه رجلٌ على فرس عليه ثيابٌ بِيضٌ، فقال له: والذي نفسي بيده إنها الكلمةُ التي قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾[٥]. وروى أبو ذَرٍّ قال: قلتُ: يا رسول الله أوصني. قال: «اتَّقِ اللهَ، وإذا عَمِلتَ سيئةً فأتبِعْها حسنةً تَمْحُها» قال: قلتُ: يا رسول الله، أمنَ الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «من أفضل الحسنات» وفي رواية: قال: «نعم، هي أحسَنُ الحسنات» ذكره البيهقي[٦]. وقال قتادة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾: بالإخلاص والتوحيد[٧]. وقيل: أداء الفرائض كلها[٨].

(١) بعدها في (م) زيادة عبارة: والباقون تفعلون.

(٢) السبعة ص٤٨٧ ، والتيسير ص١٦٩ .

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ١٤٠ عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٦٦٤٤) عن ابن مسعود.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ١٤١ ، وذكره البغوي ٣/ ٤٣٢ .

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٤١ - ١٤٢ .

(٦) في الأسماء والصفات (٢٠٢). وأخرجه أحمد (٢١٤٨٧).

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٢ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٢٥٧ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٣١ .

قلت: إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها ـ على ما تقدَّم بيانُه في سورة إبراهيم[(١)] ـ فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض. ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال ابن عباس: أي: وصل إليه الخير منها[(٢)]. وقاله مجاهد. وقيل: فله الجزاء الجميل وهو الجنة. وليس «خير» للتفضيل[(٣)]. قال عكرمة وابن جُريج: أمَّا أن يكونَ له خيرٌ منها يعني من الإيمان فلا؛ فإنَّه ليس شيءٌ خيراً ممن قال: لا إله إلا الله، ولكن له منها خير. وقيل: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ للتفضيل، أي: ثواب الله خيرٌ من عملِ العبد وقولِه وذِكْرِه، وكذلك رضوان الله خيرٌ للعبد من فعل العبد. قاله ابن عباس. وقيل: يرجع هذا إلى الإضعاف، فإنَّ الله تعالى يُعطيه بالواحدة عشراً، وبالإيمان في مدَّة يسيرةٍ الثوابَ الأبديّ. قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد[(٤)]. ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ قرأ عاصم والكسائي «من فزعٍ يومَئذٍ» بالتنوين وفَتْحِ الميم. نافعٌ بفتح الميم من غير تنوين. الباقون: «من[(٥)] فَزَعِ يَوْمَئِذٍ» بالإضافة[(٦)] قال أبو عبيد: وهذا أعجبُ إليَّ؛ لأنَّه أعَمُّ التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وإذا قال: «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» صار كأنَّه فَزَعٌ دون فَزَعٍ دون فَزَعٍ. قال القشيري: وقُرئ: «مِنْ فَزَعٍ» بالتنوين، ثم قيل: يعني به فزعاً واحداً، كما قال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وقيل: عن الكثرةَ؛ لأنه مصدرٌ، والمصدر صالحٌ للكثرة.

قلت: فَعَلى هذا تكون القراءتان بمعنى. قال المهدوي: ومن قرأ: «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» بالتنوين انتصبَ «يَوْمَئِذٍ» بالمصدر الذي هو «فَزَعٍ»[(٧)]. ويجوز أن يكون صفةً

---

(١) ١٢/ ١٣٢.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٢.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٦.

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٧ بنحوه.

(٥) ما بعد قوله: والكسائي... إلى هذا الموضع من (ظ)، وهو ليس في بقية النسخ.

(٦) السبعة ص٤٨٧، والتيسير ص١٧٠.

(٧) وقاله ابن الأنباري في البيان ٢/ ٢٢٨.

لفزع ويكون متعلقاً بمحذوف؛ لأنَّ المصادرَ يُخبَرُ عنها بأسماء الزمان وتُوصَفُ بها، ويجوز أن يتعلَّقَ باسم الفاعل الذي هو «آمِنُونَ». والإضافة على الاتساع في الظروف. ومَنْ حذفَ التنوينَ وفتحَ الميمَ بناه؛ لأنَّه ظرفُ زمان، وليس الإعراب في ظرف الزمان متمكناً، فلمَّا أُضيفَ إلى غير متمكِّنٍ ولا مُعرَبٍ بنى. وأنشد سيبويه[١]:

على حينَ ألْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ فَنَدلاً زُرَيْقُ المالِ نَدْلَ الثَّعَالِبِ[٢]

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالشرك. قاله ابن عباس والنَّخعيّ وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن، وهو إجماعٌ من أهل التأويل في أنَّ الحسنةَ لا إله إلا الله، وأن السيئةَ الشرك في هذه الآية[٣]. ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ قال ابن عباس: أُلقيت. وقال الضحَّاك: طُرِحت؛ يقال: كببتُ الإناءَ أي: قلبتُه على وجهه، واللازمُ منه أكَبَّ، وقلَّما يأتي هذا في كلام العرب. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي: يُقال لهم: هل تُجزَون. ثم يجوز أن يكون من قول الله، ويجوز أن يكون من قول الملائكة. ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلَّا جزاءَ أعمالِكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ يعني مكة التي عظَّمَ اللهُ حرمتَها، أي: جعلها حرماً آمناً، لا يُسفَكُ فيها دم، ولا يُظلَمُ فيها أحد، ولا يُصادُ فيها صيد، ولا يُعضَدُ فيها شجر[٤]، على ما تقدَّم بيانُه في غير موضع. وقرأ

---

(١) في الكتاب ١/ ١١٦ .

(٢) من قوله: ويجوز أن يتعلق... إلى هذا الموضع في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٥ بنحوه. والبيت قائله أعشى همدان كما في الكامل ١/ ٢٣٩ . والمراد بالندل السرعة، وزريق اسم قبيلة. اللسان (ندل).

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٤٠ - ١٤٣ ، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٣٥ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ .

ابن عباس: «الَّتي حَرَّمَهَا» نعتاً للبلدة[١]. وقراءةُ الجماعة: «الَّذي» وهو في موضع نصبِ نعتٍ لـ «رب»، ولو كان بالألفِ واللامِ لقُلتَ: المحرِّمَها؛ فإنْ كانت نعتاً للبلدة قُلتَ: المحرِّمِها هو؛ لابُدَّ من إظهار المُضمَرِ مع الألف واللام؛ لأنَّ الفعلَ جرى على غيرِ مَنْ هو له، فإن قُلتَ: الذي حرَّمها لم تحتَجْ أن تقول: هو[٢]. ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقاً ومُلكاً[٣]. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من المنقادين لأمره، الموحِّدين له.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: وأُمِرتُ أن أتلوَ القرآن، أي: أقرأه. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فله ثواب هدايته. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ فليس عليَّ إلا البلاغ؛ نسخَتْها آيةُ القتال[٤]. قال النحَّاس[٥]. «وَأَنْ أَتْلُوَ» نصب بأن. قال الفرَّاء: وفي إحدى القراءتين «وَأَنِ اتْلُ»[٦] وزعمَ أنَّه في موضع جزمٍ بالأمر، فلذلك حذفَ منه الواو، قال النحَّاس: ولا نعرفُ أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفةٌ لجميع المصاحف.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على نعمه وعلى ما هدانا. ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: في أنفسكم وفي غيركم كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[٧] [فصلت: ٥٣]. ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السماوات وفي الأرض؛ نظيره قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٤ عن ابن عباس وابن مسعود، وفي الشاذة ص١١١ عن ابن مسعود، وفي زاد المسير ٦/ ١٩٨ عن ابن مسعود وأبي عمران الجوني.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٥ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٥.

(٦) وهي في الشاذة ص١١١ عن ابن مسعود وأُبي

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ .

عن عاصم بالتاء على الخطاب[١]؛ لقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ فيكون الكلامُ على نسقٍ واحد. الباقون بالياء على أن يُرَدَّ إلى ما قبله ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فأخبر عن تلك الآية[٢].

كملت السورة والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) السبعة ص٤٨٨، والتيسير ص١٢٦ .

(٢) إعراب القرآن ٣/٢٢٦ .

سُورَةُ النَّمْلِ

مَكِّيَّةٌ، وهي ثلاثٌ أو أربعٌ وتسعونَ آيةً[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارةُ إلى آيِ السُّورةِ، والكتابُ المُبينُ:

ـ إمَّا اللوحُ، وإبانَتُه: أنَّه خُطَّ فيه ما هو كائنٌ فهو يُبينُهُ للنَّاظرينَ فيه، وتأخيرُه[2] باعتبارِ تَعلُّقِ عِلْمِنا به، وتَقديمُه في «الحِجْرِ»[3] باعتبارِ الوُجودِ.

ـ أو القرآنُ، وإبانَتُه لِمَا أُوْدِعَ فيه مِن الحِكَمِ والأحكامِ، أو لصِحَّتِه بإعجازِهِ، وعَطفُه على ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ كعَطفِ إحدى الصِّفَتينِ على الأخرى، وتنكيرُهُ للتَّعظيمِ.

وقُرِئَ: «وكتابٌ» بالرَّفعِ[4] على حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه.

---

(١) قال الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص١٩٩): هي تسعون وثلاث آيات في الكوفي، وأربع بصري وشامي، وخمس في المدنيين والمكي.

(٢) أي: تأخير الكتاب المراد به اللوح على القرآن الكريم.

(٣) في قوله: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾، فقد تقدَّم الكتاب المراد به اللوح على القرآن الكريم.

(٤) نسبت لابن أبي عبلة. انظر: «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٦١٢)، و«الكشاف» (٦/ ٢٩٤).

(٢) ـ ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ حالانِ مِن الآياتِ، والعامِلُ فيهـما مَعنى الإشارةِ، أو بدلانِ مِنْها، أو خبرانِ آخرانِ، أو خبرانِ لِمَحذوفٍ.

(٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ الَّذينَ يَعملونَ الصَّالحاتِ مِن الصَّلاةِ والزَّكاةِ.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ من تتمَّةِ الصِّلةِ[١]، والواوُ للحالِ أو للعَطفِ، وتَغييرُ النَّظمِ للدَّلالةِ على قوَّةِ يَقينِهِم وثَباتِه وأنَّهم الأَوحدونَ[٢] فيه[٣].

أو جملةٌ اعتراضيةٌ[٤]؛ كأنَّه قيلَ: وهؤلاءِ الَّذينَ يُؤمِنونَ ويعملونَ الصَّالحاتِ هم الموقنونَ بالآخرةِ؛ فإنَّ تَحمُّلَ المَشاقِّ إنَّما يَكونُ لخوفِ العاقِبَةِ والوُثوقِ على المحاسبَةِ.

وتَكريرُ الضَّميرِ للاختِصاصِ[٥].

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «الصلاة».

(٢) في نسخة الخيالي: «الأوحديّون».

(٣) قوله: «تغيير النظم»؛ أي: كانت الصلة جملة فعلية في قوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾، وهنا صارت اسمية، والاسمية أفادت ثبات يقينهم، والضمير المكرر أفاد قوته، أما اختصاصهم به فمن تقدم الجار والمجرور ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ على الفعل ﴿يُوقِنُونَ﴾.

(٤) الاعتراض هنا لم يُرد به المعنى المصطلح عليه في علم النحو، وإنما أريد أنه اعتراض من حيث المعنى وسياق الكلام. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٦/ ٣٧٧)، و«الدر المصون» للسمين الحلبي (٨/ ٥٧١).

(٥) إفادة تكرير الضمير الاختصاص محلُّ تأمُّل، والتكرير يفيد تأكيد الإسناد أو المسند أو المسند إليه، لا تأكيد الاختصاص، إلا أن يقال: تأكيد ما يفيد الاختصاص يؤكد الاختصاص. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٣٣٩).

(٤) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾: زيَّنَ أعمالَهُم القبيحةَ بأَنْ جَعَلَها مُشتهاةً للطَّبعِ مَحبوبةً للنَّفسِ، أو الأعمالَ الحسنَةَ الَّتي وجبَ عليهم أن يَعملُوها بترتُّبِ المَثوباتِ عليها[1]، ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ عنها، لا يدركونَ ما يتبعُها مِن ضرٍّ أو نَفعٍ.

(٥) ـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ كالقتلِ والأسرِ يومَ بدرٍ ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾: أَشدُّ النَّاسِ خسرانًا؛ لفَواتِ المَثوبةِ واستِحقاقِ العُقوبَةِ[2].

(٦) ـ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾: لتُؤْتاهُ ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أيِّ حَكيمٍ وأيِّ عليمٍ، والجمعُ بينَهُما ـ مع أنَّ العِلمَ داخِلٌ في الحكمةِ ـ لعمومِ العِلْمِ، ودلالةِ الحكمَةِ على إتقانِ الفِعلِ، والإشعارِ بأنَّ عُلومَ القرآنِ مِنْها ما هي حِكمةٌ كالعَقائدِ والشَّرائعِ ومِنْها ما ليسَ كذلك كالقصصِ والإخبارِ عن المُغيَّباتِ.

ثمَّ شرعَ في بَيانِ بعضِ تلكَ العُلومِ بقولِه:

(٧) ـ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾؛ أي: اذكُرْ قِصَّتَه إذ قالَ، ويجوزُ أن يتعلَّقَ بـ﴿عَلِيمٍ﴾.

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾؛ أي: عن حالِ الطَّريقِ؛ لأنَّه قد ضلَّهُ.

وجمعُ الضَّميرِ ـ إن صَحَّ أنَّه لم يَكُن معه غيرُ امرأتِه ـ لِمَا كَنَى عَنْها بالأهلِ، والسِّينُ[3] للدَّلالةِ على بعدِ المسافةِ، أو الوعدِ بالإتيانِ وإن أبطأَ.

---

(١) ونسبة التزيين إلى الله سبحانه وتعالى حقيقة عند أهل السنة؛ لأنه سبحانه خالق كلِّ شيء، أما الزمخشري فقد جعله مجازًا على طريقة المعتزلة. انظر: «الكشاف» (٦/ ٢٩٦)، و«حاشية القونوي» (١٤/ ٣٣٩).

(٢) في نسخة التفتازاني: «العذاب».

(٣) أي: حرف الاستقبال في ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾.

﴿أو آتِيكُم بِشِهَابِ قَبَسٍ﴾ شعلةِ نارٍ مَقبوسَةٍ، وإضافةُ الشِّهابِ إليه لأنَّه يكونُ قبسًا وغيرَ قَبَسٍ، ونَوَّنَه الكوفِيُّون ويعقوبُ[1] على أنَّ القبسَ بدلٌ منه، أو وصفٌ له؛ لأنَّه بمعنى المقبوسِ.

والعِدَتانِ على سبيلِ الظَّنِّ، ولذلك عبَّرَ عنهما بصيغَةِ التَّرجِّي في ﴿طه﴾، والتَّرديدُ للدَّلالَةِ على أنَّه إن لم يَظْفَر بِهِمَا لم يَعْدَمْ أحدَهُما؛ بناءً على ظاهرِ الأمرِ، وثِقَةً بعادةِ اللهِ أنَّه لا يكادُ يجمعُ حِرْمَانَيْنِ على عبدِه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ رجاءَ أَنْ تَستَدْفِئُوا بها، والصِّلَاءُ[2]: النَّارُ العَظيمةُ.

(٨) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ﴾: أي بُورِكَ، فإنَّ النِّداءَ فيه مَعنى القولِ، أو: بأَنْ بورِكَ، على أنَّها مَصدريَّةٌ أو مُخفَّفةٌ مِن الثَّقيلةِ، والتَّخفيفُ وإن اقتضَى التَّعويضَ بـ«لا» أو «قد» أو السِّينِ أو «سوفَ» لكنَّه دعاءٌ، وهو يُخالِفُ غيرَهُ في أحكامٍ كَثيرَةٍ.

﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: مَن في مَكانِ النَّارِ ـ وهو البُقعَةُ المُباركَةُ المذكورةُ في قولِه تَعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠] ـ ومَنْ حولَ مكانِها، والظَّاهرُ أنَّه عامٌّ في كُلِّ مَن في ذلكَ الوادي وحواليه مِن أرضِ الشَّامِ الموسومةِ بالبركاتِ لكَوْنِها مبعثَ الأنبياءِ وكِفاتَهُم[3] أحياءً وأمواتًا، وخصوصًا تلك البقعَةُ الَّتي كلَّمَ اللهُ فيها مُوسَى عليه السَّلامُ.

وقيلَ: المرادُ موسى والملائكةُ الحاضرونَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٦٧)، و«النشر» (٢/ ٣٣٧).

(٢) في نسخة التفتازاني: «والصَّلى». وكلاهما صواب؛ قال الشهاب في «حاشيته»: «الصلاء» بكسر الصاد والمدّ، ويفتح بالقصر كما في «القاموس»: هو الدنوّ من النار لتسخين البدن، وهو الدفء ودفع ألم البرد، ويطلق على النار نفسها كما ذكره أهل اللغة، أو هو بالكسر الدفء وبالفتح النار.

(٣) أي: مقرَّهم. انظر: «حاشية الخفاجي».

وتصديرُ الخطابِ بذلك بشارةٌ بأنَّه قد قُضي له أمرٌ عَظيمٌ تنتشرُ بركتُهُ في أقطارِ الشَّامِ.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مِن تَمامِ ما نُودِيَ به؛ لئلَّا يُتوهمَ مِن سماعِ كلامِه تَشبيهًا، وللتَّعجيبِ من عظمةِ ذلك الأمرِ، أو تَعجُّبٌ مِن مُوسَى لِمَا دَهاهُ مِن عَظَمتِه.

(٩) ـ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ الهاءُ للشَّأنِ، و﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ جملةٌ مُفسِّرَةٌ له، أو للمُتكلِّمِ[1]، و﴿أَنَا﴾ خبرُه و﴿ٱللَّهُ﴾ بيانٌ له.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صِفتانِ للهِ ممهِّدتانِ لِمَا أرادَ أن يُظهرَهُ، يريدُ: أنا القَوِيُّ القادرُ على ما يَبعدُ مِن الأَوهامِ كقلبِ العصا حَيَّةً، الفاعِلُ كلَّ ما يفعَلُه[2] بحكمَةٍ وتَدبيرٍ.

(١٠) ـ ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطفٌ على ﴿بُورِكَ﴾؛ أي: نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن في النَّارِ، وأن ألقِ عَصاكَ، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١] بعد قولِه: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠] بتكريرِ «أنْ».

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾: تتحرَّكُ باضطرابٍ ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: حيَّةٌ خفيفةٌ سَريعةٌ.

وقُرِئَ: «جَأَنٌّ»[3] على لغةِ مَن جَدَّ في الهربِ مِن التقاءِ السَّاكِنَيْنِ.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: ولم يَرْجِع، مِن «عَقَّبَ المُقاتِلُ»: إذا كرَّ بعدَ الفِرارِ، وإنَّما رُعبَ لظَنِّه أنَّ ذلك لأمرٍ أُريدَ بِهِ، ويدلُّ عليهِ قولُه:

﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾؛ أي: مِن غيري ثقةً بي[4]، أو: مطلقًا؛ لقولِه: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ

---

(١) في نسخة الفاروقي والخيالي: «للمكلم».

(٢) في نسخة الخيالي: «أفعله».

(٣) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٣٥) عن الحسن وعمرو بن عبيد.

(٤) في نسخة الفاروقي: «فيَّ».

﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: حينَ يُوحَى إليهِم مِن فَرطِ الاستغراقِ فإنَّهُم أخوَفُ النَّاسِ مِن اللهِ، أو: لا يكونُ لهم عندي سُوءُ عاقِبَةٍ فيخافونَ منه.

(١١) ـ ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استثناءٌ مُنقَطِعٌ استدركَ بـه ما يَختلِجُ في الصَّدرِ مِن نَفْيِ الخَوفِ عن كلِّهِم، وفيهِم مَن فَرطَتْ مِنهُ صَغيرَةٌ، فإنَّهُم ـ وإن فَعَلُوها ـ أَتبعُوا فِعلَها ما يُبطِلُها ويَستَحقُّونَ به مِن اللهِ مَغفِرَةً ورحمةً، وقُصدَ تعريضُ موسى بوكزِه القِبطيَّ.

وقيلَ: مُتَّصِلٌ، و﴿ثُمَّ﴾ بدلٌ مستأنفٌ معطوفٌ على مَحذوفٍ؛ أي: مَن ظلمَ ثمَّ بدلَ ذنبَهُ بالتَّوبةِ.

(١٢) ـ ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ لأنَّه كانَ مِدْرَعَةَ صوفٍ لا كمَّ له[١].

وقيلَ: الجَيبُ: القَمِيصُ؛ لأنَّه يُجَابُ؛ أي: يُقطَعُ.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: آفَةٍ كبَرَصٍ ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾: في جُملَتِها أو مَعها، على أنَّ التِّسعَ هي: الفَلْقُ[٢]، والطُّوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، والطَّمسةُ، والجَدْبُ في بوادِيهِم، والنُّقصانُ في مَزارِعِهم، ولِمَن عدَّ العَصا واليدَ مِن التِّسعِ أن يَعُدَّ الأُخيرَينِ واحدًا، ولا يَعُدَّ الفَلْقَ لأنَّه لم يُبْعَث به إلى فِرعونَ.

أو: اذهَبْ في تسعِ آياتٍ، على أنَّه استئنافٌ بالإرسالِ فيَتعلَّقُ به ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾، وعلى الأوَّلَيْنِ[٣] يَتعلَّقُ بنَحوِ: مَبعوثًا ومُرسَلًا.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تَعليلٌ للإرسالِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «لها».

(٢) أي: انفلاق البحر عندما ضربه موسى بعصاه وهو خارج بقومه من مصر.

(٣) أي: الوجهين الأولين في تفسير قوله تعالى: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾، وهما: «في جُملَتِها، أو مَعها».

(١٣) - ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا ﴾ بأَنْ جاءَهُم مُوسى بها ﴿مُبْصِرَةً﴾: بَيِّنَةً، اسمُ فاعلٍ أُطلِقَ للمَفعولِ إشعارًا بأنَّها لفَرطِ اجتِلائِها للأبصارِ بحيثُ تكادُ تبصِرُ نفسَها لو كانَتْ ممَّا يبصِرُ، أو ذات تبصُّرٍ[1] مِن حيثُ إنَّها تُهدَى[2]، والعُمْيُ لا تهتدي فضلًا أن تَهدِيَ، أو مُبصِرةً كلَّ مَن نظرَ إليها وتأمَّلَ فيها.

وقُرِئَ: «مَبْصَرَةً»[3] أي: مكانًا يكثرُ فيه التَّبصُّرُ.

﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ واضِحٌ سحريَّتُه.

(١٤) - ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾: وكذَّبُوا بها ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾: وقد استَيْقَنَتْها؛ لأنَّ الواوَ للحالِ ﴿ظُلْمًا﴾ لأَنفُسِهِم ﴿وَعُلُوًّا﴾: ترفُّعًا عن الإيمانِ، وانتصابُهُما على العِلَّةِ مِن ﴿جَحَدُوا﴾.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وهو الإغراقُ في الدُّنيَا والإحراقُ في الأخرى.

(١٥) - ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾: طائفةً مِن العلمِ، وهو علمُ الحُكمِ والشَّرائعِ، أو: عِلمًا أيَّ علمٍ.

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عطفَهُ بالواوِ إشعارًا بأنَّ ما قالاهُ بعضُ ما أَتيَا بِهِ في مُقابلَةِ هذه النِّعمَةِ؛ كأنَّه قالَ: ففعَلَا شكرًا له ما فعلَا ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: مَن لم يُؤتَ عِلمًا، أو مثلَ عِلْمِهما، وفيه دليلٌ على فضلِ العلمِ وشرفِ أهلِهِ حيثُ شَكَرَا على العلمِ وجَعَلاهُ أَساسَ

---

(١) في نسخة الفاروقي والخيالي: «بصر».

(٢) في نسخة الفاروقي: «تَهدي».

(٣) نسبت لعلي بن الحسين وقتادة. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٣٧)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٥٨) وفيه: بفتح وكسر.

الفَضلِ، ولم يَعتَبِرَا دونَه ما أُوتِيَا مِن الملكِ الَّذي لم يُؤتَ غيرُهُما، وتحريضٌ[١] للعالِمِ على أَنْ يحمدَ اللهَ على ما آتاهُ مِن فَضلِهِ، وأن يتواضعَ ويعتقدَ أنَّه وإن فُضِّلَ على كثيرٍ فقَدْ فُضِّلَ عليهِ كثيرٌ.

(١٦) ـ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ النُّبوَّةَ، أو العلمَ، أو الملكَ، بأَنْ قامَ مقامَهُ في ذلك دونَ سائرِ بَنيهِ وكانُوا تِسعةَ عشرَ.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ تشهيرًا لِنعمَةِ اللهِ وتَنويهًا بها، ودعاءً للنَّاسِ إلى التَّصديقِ بذكرِ المعجزةِ الَّتي هيَ علمُ مَنطقِ الطَّيرِ، وغيرُ ذلك مِن عَظائمِ ما أُوتِيَه.

و«النُّطقُ» و«المنطقُ» في التَّعارُفِ: كلُّ لفظٍ يُعبَّرُ به عمَّا في الضَّميرِ مُفردًا كانَ أو مُركَّبًا، وقد يُطلَقُ لكلِّ ما يُصَوَّتُ به على التَّشبيهِ أو التَّبَعِ؛ كقولِهم: نَطَقتِ الحمامَةُ، ومنه: «النَّاطِقُ والصَّامِتُ» للحَيَوانِ والجمادِ[٢]، فإنَّ الأصواتَ الحيوانيَّةَ مِن حيثُ إنَّها تابعَةٌ للتَّخيُّلاتِ مُنزَّلَةٌ مَنزِلَةَ العِباراتِ، سِيَّمَا وفيها ما يَتفاوَتُ باختلافِ الأغراضِ بحيثُ يَفهَمُها ما مِن جنسِهِ.

ولعلَّ سُليمانَ عليهِ السَّلامُ مَهْما سَمِعَ صوتَ حيوانٍ عَلِمَ بقُوَّتِه القُدسيَّةِ التَّخيُّلَ الَّذي صوَّتَه والغرضَ الَّذي تَوخَّاهُ به، ومِن ذلك ما حُكِيَ أنَّه مَرَّ ببُلْبُلٍ يصوِّتُ ويترقَّصُ فقالَ: يقولُ: إذا أكلتُ نِصفَ تمرَةٍ فعَلى الدُّنيا العَفَاءُ، وصاحَت فاخِتَةٌ[٣] فقالَ: إنَّها تَقولُ: ليتَ الخَلْقَ لم يُخلَقُوا[٤].

---

(١) «تحريضٌ» معطوف على «دليلٌ».

(٢) انظر: «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني (ص٨١١).

(٣) «الفاختة»: ضرب من الحمام المطوَّق. انظر: «تاج العروس» (٥/ ٢٣).

(٤) رواه مطولاً الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٨٧) من طريق الكلبي عن رجل عن كعب الأحبار، وذكره =

فلعلَّه كانَ صوتُ البلبلِ عَن شبعٍ وفراغِ بالٍ، وصِياحُ الفاخِتَةِ عن مُقاساةِ شِدَّةٍ وتَألُّمِ قلبٍ[١].

والضَّميرُ في ﴿عُلِّمْنَا﴾ و﴿أُوتِينا﴾ له ولأبيهِ، أو لَهُ وحدَهُ على عادةِ الملوكِ لِمُراعاةِ قواعدِ السِّياسَةِ.

والمرادُ مِن ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾: كثرةُ ما أُوتيَ؛ كقولِكَ: فلانٌ يقصِدُهُ كلُّ أحدٍ، ويعلَمُ كلَّ شَيءٍ.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ الَّذي لا يَخْفَى على أحدٍ.

(١٧) ـ ﴿وَحُشِرَ﴾: وجُمِعَ ﴿لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحبَسونَ بحبسِ أوَّلِهم على آخرِهم ليتلاحَقُوا.

(١٨) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾: وادٍ بالشَّامِ كثيرِ النَّملِ.

وتَعديَـةُ الفعـلِ إليـه بـ﴿عَلَىٰ﴾ إمَّـا لأنَّ إتيانَهُـم كانَ مِـن عَـلٍ[٢]، أو لأنَّ المرادَ قِطعُـه، مِـن قولِهـم: «أَتَـى علـى الشَّـيءِ»: إذا أنفَـدَهُ وبلـغَ آخـرَهُ، كأنَّهُـم أرادوا أن ينزلـوا أُخريَـاتِ الوادي.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ كأنَّهـا لَمَّـا رَأَتْهُـم مُتوجِّهيـنَ إلـى الـوادي فـرَّت عنهم مخافـةَ حَطْمِهِـم، فتَبِعَها غيرُها، فصاحَـتْ صيحَـةً تَنبَّهَتْ بها ما

= عن كعب أيضًا البغوي في «تفسيره» (٦/ ١٤٨). وظاهر أنه من أقاصيص أهل الكتاب.

(١) والأولى إجراء قضية فهم سليمان كلام الطير كما جاءت، وأنها من المعجزات، فلا شيء يدعو لمثل هذه التأويلات لما ثبت في الآيات أو صحيح الآثار والروايات، لكن ما ذكره هنا من حكايات أهل الكتاب، والبحث فيها لا طائل تحته أصلًا.

(٢) في نسخة الخيالي: «عال»، وفي نسخة الطبلاوي: «عُلي».

بحَضْرَتِهـا مـن النِّمـالِ فتبِعَتْها، فشُـبِّهَ ذلك بمخاطبَـةِ العقـلاءِ ومُناصحَتِهم، ولذلك أُجْـرُوا مجراهُـم، مـع أنَّـه لا يَمتَنِعُ خلـقُ اللهِ فيها العَقـلَ والنُّطقَ.

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ نهيٌ لَهُم عَن الحَطْمِ، والمرادُ: نَهْيُها عن التَّوقُّفِ بحيثُ يَحطِمُونها[1]؛ كقولِهم: «لا أرينَّكَ هاهنا» فهو استئنافٌ، أو بدلٌ مِن الأمرِ[2] لا جوابَ له؛ فإنَّ النُّونَ لا تَدخلُه في السَّعَةِ.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّهُم يَحطِمُونكُم، إذ لو شَعَرُوا لم يَفْعَلُوا؛ كأنَّها شعرَتْ عِصمَةَ الأنبياءِ مِن الظُّلمِ والإيذاءِ.

وقيلَ: استئنافٌ؛ أي: فَهِمَ سُليمانُ والقومُ لا يَشعرونَ.

(١٩) ـ ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تَعجُّبًا مِن حَذَرِها وتَحذيرِهَا واهتِدائِهَا إلى مَصالِحِها، أو سُرورًا ممَّا خصَّهُ اللهُ بهِ مِن إدراكِ هَمْسِها وفهمِ غَرضِها، ولذلك سأَلَ تَوفيقَ شُكرِهِ ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾: اجعَلْني أزعُ شكرَ نِعمَتِكَ عندِي؛ أي: أكفُّهُ[3] وأرتَبِطُه لا ينفلِتُ عنِّي بحيثُ لا أنفَكُّ عنه.

وقرأَ البَزِّيُّ وورشٌ بفتحِ ياءِ ﴿أَوْزِعْنِيَ﴾[4].

---

(١) قوله: «نهيٌ لَهُم» أي: لسليمان وجنوده، لكن المراد نهي النمل عن المكث لئلا تحطم. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٣٦٥).

(٢) أنكر هذا أبو حيان، ولم يسلم الحلبي منعه. انظر: «البحر المحيط» (١٦/ ٤٠٢)، و«الدر المصون» للسمين الحلبي (٨/ ٥٨٨).

(٣) الكف المراد هنا: المنع عن الانفلات، لا المنع عن الحصول، ويوضحه قوله: «وأرتبطه»؛ أي: أكفه عن الانفلات وأربطه في قلبي. انظر: «حاشية ابن التمجيد» و«حاشية القونوي» (١٤/ ٣٦٧).

(٤) انظر: «التيسير» (ص: ١٧٠).

﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أدرجَ فيه ذكرَ والِدَيهِ تكثيرًا للنِّعمَةِ، أو تَعميمًا لها؛ فإنَّ النِّعمةَ عليهِمَا نِعمَةٌ عليه، والنِّعمَةُ عليه يرجعُ نفعُهَا إليهِمَا سيَّما الدِّينيَّة.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ تمامًا للشُّكرِ واستدامةً للنِّعمَةِ ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ في عدادِهِم الجنَّةَ.

(٢٠) ـ ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾: وتعرَّفَ الطَّيرَ[1] فلم يَجِد فيها الهُدهُدَ ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ﴿أَمْ﴾ مُنقَطِعَةٌ[2]؛ كأنَّه لَمَّا لَمْ يرَهُ ظنَّ أنَّه حاضِرٌ ولا يراهُ لساترٍ أو غيرِهِ فقالَ: ما لي لا أراهُ؟ ثمَّ احتاطَ فلاحَ له أنَّه غائبٌ، فأضرَبَ عن ذلك وأخذَ يقولُ[3]: أهُوَ غائِبٌ؟ كأنَّه يسألُ عن صحَّةِ ما لاحَ له.

(٢١) ـ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كنَتْفِ ريشِهِ، وإلقائِهِ في الشَّمسِ أو حيثُ النَّملُ يَأكلُهُ، أو جعْلِه مع ضدِّهِ في قَفَصٍ[4].

﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ ليَعتبرَ به أبناءُ جِنسِهِ ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بحُجَّةٍ تبينُ

---

(١) «وتعرف الطير»: ليست في نسخة التفتازاني.

(٢) تبع في هذا الزمخشري، وخالف فيه ابن عطية، فجعلها متصلة، ورجح أبو حيان أنها منقطعة. انظر: «الكشاف» (٦/ ٣١٦)، و«المحرر الوجيز» لابن عطية (٤/ ٢٥٥)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١٦/ ٤٠٦).

(٣) في نسخة الفاروقي: «فأضرب عن ذاك وقال».

(٤) هذه الأقاويل يغني البيان القرآني عن معرفتها، وأشهرها أنه نتف ريشه، وقد رواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر إن شئت ما ذكر المصنف وغيره من الأقاويل في «تفسير الطبري» (١٨/ ٣٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٨٦٢)، و«تفسير الثعلبي» (٢٠/ ٢٠٩)، و«المستدرك» (٣٥٢٦)، و«الكشاف» (٦/ ٣١٧ ـ ٣١٨). وقال القشيري في «لطائف الإشارات» (٣/ ٣٣): والأولى في هذا أن يقال: من العذاب الشديد كيت وكيت، وألا يقطع بشيء دون غيره على وجه القطع.

عُذرَهُ، والحلفُ في الحقيقَةِ على أحدِ الأوَّلَيْنِ بتقديرِ عدمِ الثَّالثِ، لكن لَمَّا اقتَضى ذلك وقوعَ أحدِ الأُمورِ الثَّلاثةِ ثلَّثَ المحلوفَ عليه بعَطفِهِ عليهما.

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنَّنِي﴾ بنُونَينِ الأُولى مفتوحَةٌ مشدَّدةٌ[1].

(٢٢) - ﴿فَمَكُثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾: زمانًا غيرَ بَعيدٍ[2]، يريدُ به الدلالةَ على سُرعةِ رُجوعه خوفًا مِنه. وقرأَ عاصِمٌ بفَتحِ الكافِ[3].

﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ يعني: حالَ سَبَأٍ، وفي مُخاطبَتِه إيَّاه بذلك تنبيهٌ له على أنَّ في أدنى خلقِ اللهِ مَن أحاطَ علمًا بما لم يُحِط به؛ لتَتحاقرَ إليه نفسُه ويتصاغرَ لديهِ عِلمُهُ.

وقُرِئَ بإدغامِ الطَّاءِ في التَّاءِ بإطباقٍ وبغيرِ إطباقٍ[4].

﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ﴾ وقرأَهُ ابنُ كثيرٍ بِروايَةِ البَزِّيِّ وأبو عمرٍو غيرَ مَصروفٍ على تأويلِ القبيلةِ أو البلدةِ، والقوَّاسُ بهمزةٍ ساكنَةٍ[5].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «مديد».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

(٤) الثَّابت عند القراء هو الإدغام مع الإطباق. انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» للداني (٢/ ٦٦٥)، وفيه: وأجمعوا على إدغام الطاء في التاء مع تبقية إطباق الطاء؛ لئلا يختل بذلك صوتُها في نحو قوله: ﴿أَحَطتُ﴾ و﴿فَرَّطتُمۡ﴾ [يوسف: ٨٠] و﴿بَسَطتَ﴾ [المائدة: ٢٨] وما أشبهه.
ومثله قول الصفاقسي في «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٤٥): لا خلاف بينهم أن الطاء مدغمة في التاء مع إطباق الطاء لئلا تشتبه بالطاء المدغمة.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧). وقد قرأ قنبل بإسكانها على نِيَّة الوقف، والقواس: أبو الحسن أحمد بن محمد بن عون شيخ قنبل الذي يروي من طريقه قراءة ابن كثير. وقوله: «والقواس بهمزة ساكنة»: ليس في نسخة الفاروقي والتفتازاني.

﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾: بخبرٍ مُحقَّقٍ.

رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ لَمَّا أتمَّ بناءَ بيتِ المَقدسِ تجهَّزَ للحَجِّ، فوافى الحرمَ وأقامَ بها ما شاءَ، ثمَّ توجَّهَ إلى اليمنِ فخرجَ من مكَّةَ صباحًا، فوافى صنعاءَ ظهيرةً، فأعجَبَتْهُ نزاهَةُ أرضِهَا فنزلَ بها، ثمَّ لم يَجِد الماءَ وكانَ الهدهدُ رائِدَه لأنَّه يُحسِنُ طلبَ الماءِ فتَفقَّدَه لذلك، فلم يَجِدْه إذ حلَّقَ حين نزلَ سليمانُ، فرأى هدهدًا واقعًا فانحطَّ إليه، فتواصفَا وطارَ معه لينظُرَ ما وصفَ له، ثمَّ رجعَ بعد العصرِ وحكَى ما حكى(١).

ولعلَّ في عَجائبِ قُدرَةِ اللهِ تعالى وما خصَّ به خاصَّةَ عبادِه أشياءَ أعظَمُ مِن ذلك يستكبرُها مَن يَعرِفُها ويَستَنْكِرُها مَن يُنكِرُها.

(٢٣) ـ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني: بِلْقيسَ بنتَ شراحيلَ بنِ مالكِ بنِ الرَّيَّانِ، والضَّميرُ لسَبَأ أو لأهلِها.

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحتاجُ إليه الملوكُ.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ عظَّمَهُ بالنِّسبةِ إليها، أو إلى عُروشِ أمثالِها.

وقيلَ: كانَ ثلاثينَ ذِراعًا في ثلاثينَ عرضًا وسمكًا، أو ثمانينَ في ثمانينَ، مِن ذهبٍ وفضَّةٍ مُكلَّلًا بالجواهرِ(٢).

(٢٤) ـ ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كأنَّهُم كانُوا يعبدونَها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: عبادةَ الشَّمسِ وغيرَها مِن مَقابحِ أفعالِهِم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيلِ الحَقِّ والصَّوابِ ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

---

(١) رواه دون قصة الحج: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٨٥٢)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٠)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ٣٨٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (٣/ ٣٠١).

(٢٥) ـ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ فصَدَّهُم لأَنْ لا يَسجدُوا، أو: زَيَّنَ لهم أَنْ لا يَسجدُوا، على أنَّه بَدلٌ مِن ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أو: لا يَهتدونَ إلى أَنْ يَسجُدُوا، بزيادةِ «لا».

وقرأَ الكِسائيُّ ويَعقوبُ: ﴿أَلَا﴾ بالتَّخفيفِ[1] على أَنَّها للتَّنبيهِ، و«يا» للنِّداءِ، ومُناداهُ مَحذوفٌ؛ أي: «أَلَا يا قومُ اسجدُوا»[2]؛ كقولِه:

وَقَالَتْ أَلَا يَا اسْمَعْ نَعِظْكَ بِخُطَّةٍ فَقُلْتُ: سَمِيعًا فَانْطِقِي وَأَصِيبِي[3]

وعلى هذا صَحَّ أن يكونَ استئنافًا مِن اللهِ، أو مِن سُلَيمانَ والوقفُ على ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾، ويكونُ أمرًا بالسُّجودِ، وعلى الأَوَّلِ ذَمًّا على تركِهِ، وعلى الوَجْهَينِ يَقتَضِي وُجوبَ السُّجودِ في الجملَةِ[4] لا عندَ قِراءَتِها.

وقُرِئَ: «هَلَّا» و«هَلَا» بقلبِ الهمزةِ هاءً[5].

---

(١) قرأ الكسائي وأبو جعفر ورويس بتخفيف اللام ووقفوا في الابتداء (ألا يا) وابتدؤوا (اسجدوا) بهمزة مضمومة على الأمر، على معنى: ألا يا هؤلاء، أو يا أيها الناس اسجدوا، فحذفت همزة الوصل بعد (يا) وقبل السين من الخط على مراد الوصل دون الفصل. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧ ـ ١٦٨)، و«النشر» (٢/ ٣٣٧).

(٢) وقد ذهب أبو حيان إلى أن حرفي تنبيه قد اجتمعا في هذا التركيب، فقال: فـ«يا» عندي في تلك التراكيبِ حَرفُ تَنبيهٍ أُكِّدَ بِهِ «ألا» التي للتَّنبيهِ، وجازَ ذلك لاختلافِ الحَرفينِ ولقَصدِ المُبالغةِ في التَّأكيدِ. انظر: «البحر المحيط» (١٦/ ٤٢٠).

(٣) البيت للنمر بن تولب في «ديوانه» (ص: ٤٥)، و«نوادر أبي زيد» (ص: ٢٢)، وبلا نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٠٢)، و«الوقف والابتداء» لأبي بكر بن الأنباري (١/ ١٧٢)، و«الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٥٨). ورواية «الديوان»:

وقالت ألا فاسمع نعظك بخطبة فقيرًا سمعنا فانطقي وأصيبي

(٤) أي: ولو مرة في العمر، سواء قرأها أو لا. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٣٧٧).

(٥) نسبت لابن مسعود والأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٠)، و«الكشاف» (٦/ ٣٢٤).

و: «أَلَا تَسجُدُونَ»[١] و: «هَـلَا تَسجدونَ»[٢] على الخطابِ.

﴿ٱلَّذِى يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا يُخۡفُونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ وصفٌ له بما يُوجِبُ اختصاصَهُ باستحقاقِ السُّجودِ مِن التَّفرُّدِ بكمالِ القُدرَةِ والعلمِ حَثًّا على سُجودِهِ ورَدًّا على مَن يسجدُ لغيرِهِ.

و«الخَبْءُ»: ما خَفِيَ في غَيرِه، وإخراجُه: إظهارُه، وهو يَعُمُّ إشراقَ الكواكبِ وإنزالَ الأَمطارِ وإنباتَ النَّباتِ، بل الإنشاءَ فإنَّه إخراجُ ما في الشَّيءِ بالقوَّةِ إلى الفعلِ، والإبداعَ فإنَّه إخراجُ ما في الإمكانِ والعَدمِ إلى الوُجوبِ والوُجودِ، ومَعلومٌ أنَّه يَختَصُّ بالواجبِ لذَاتِه.

وقرأَ حفصٌ والكِسائيُّ: ﴿مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ بالتَّاءِ[٣].

(٢٦) ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الَّذي هو أوَّلُ الأجرامِ وأعظَمُها والمحيطُ بجُمْلَتِها، فبين العَظِيمَيْنِ[٤] بَوْنٌ عَظيمٌ.

(٢٧) ـ ﴿قَالَ سَنَنظُرُ﴾: سنَتعرَّفُ، مِن «النَّظرِ» بمَعنى التَّأمُّلِ ﴿أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؛ أي: أَمْ كَذَبْتَ، والتَّغييرُ للمُبالغَةِ ومُحافظَةِ الفَواصِلِ.

(٢٨) ـ ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾: ثمَّ تَنحَّ عَنْهُم إلى مكانٍ قَرِيبٍ تَتوارَى فيه ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾: ماذا يَرجِعُ بعضُهُم إلى بعضٍ مِن القَوْلِ.

---

(١) نسبت لأبي بن كعب. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٠)، و«الكشاف» (٦/ ٣٢٤)، ولفظها: «أَلَا تَسجُدُونَ لله الذي يُخرِج الخَبْءَ من السماء والأَرض ويَعلمُ سرَّكُم وما تُعلِنُون».

(٢) نسبت لعبد الله بن مسعود. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٠)، و«تفسير الثعلبي» (٢٠/ ٢٣١)، و«الكشاف» (٦/ ٣٢٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠ ـ ٤٨١)، و«التيسير» (ص: ١٦٨).

(٤) هما عرش الله وعرش بلقيس.

(٢٩) ـ ﴿قَالَتۡ﴾؛ أي: بعدَما أُلْقِيَ إليها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ لكرمِ مَضمُونِه، أو مُرْسِلِه، أو لأنَّه كانَ مَختومًا، أو لغرابةِ شأنِه؛ إذ كانَتْ مُستلقِيَةً في بيتٍ مُغلقَةِ الأبوابَ، فدخلَ الهدهدُ مِن كُوَّةٍ وألقاهُ على نحرِها بحيثُ لم تَشْعُر بهِ.

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ استئنافٌ؛ كأنَّه قيلَ لها: مِمَّنْ هو؟ أو: ما هو[1]؟ فقالَت: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ الكِتابَ أو العنوانَ مِن سُلَيمانَ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: وإنَّ المكتوبَ أو المضمونَ ـ وقُرِئَا بالفتح[2] على الإبدالِ مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾ أو التَّعليلِ لكرمِه ـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾ «أنْ» مُفسِّرَةٌ، أو مَصدرِيَّةٌ، فيكونُ بصِلَتِه[3] خبرَ مَحذوفٍ؛ أي: هو أو المقصودُ أَنْ لا تَعْلُوا، أو بدلٌ مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾.

﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾: مؤمنينَ، أو: مُنقادينَ.

وهذا كلامٌ في غايةِ الوَجازَةِ مع كمالِ الدَّلالةِ على المقصودِ؛ لاشتمالِه على البَسملَةِ الدَّالَّةِ على ذاتِ الصَّانعِ وصِفاتِه صَريحًا أو التزامًا، والنَّهيِ عن التَّرفُّعِ الَّذي هو أمُّ الرَّذائلِ، والأَمرِ بالإسلامِ الجامعِ لأُمَّهاتِ الفَضائلِ، وليسَ الأمرُ فيه بالانقيادِ قبلَ إقامةِ[4] الحُجَّةِ على رِسالَتِه حتَّى يكونَ استدعاءً للتَّقليدِ، فإنَّ إلقاءَ الكِتابِ إليها على تلكَ الحالةِ مِن أَعظَمِ الدَّلالَةِ.

(٣٢) ـ ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾: أجيبوني في أمرِي الفَتيِّ[5]، واذكرُوا ما

---

(١) «أو ما هو»: ليس في نسخة الخيالي.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٠ ـ ١١١) عن عكرمة، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٥٨) عن ابن أبي عبلة، و«البحر» (١٦/ ٤٢٧) عنهما معًا.

(٣) أي: الحرف المصدري مع صلته.

(٤) في نسخة التفتازاني: «للانقياد قبل قيام».

(٥) في نسخة الخيالي: «الفتوى»، وفي نسخة الطبلاوي: «بالفتوى». و«الفتيّ»: الحادث؛ أخذًا من الفتوى، فإنها جواب الحادثة، وجواب الحادثِ حادثٌ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣١٥).

تَسْتَصوِبُونَ فيه ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾: ما أَبُتُّ أَمْرًا ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾: إلَّا بمحضرِكُم، استَعْطفَتْهُم بذلك ليُمالِئوها على الإجابةِ.

(٣٣) ـ ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ﴾ بالأَجسادِ والعُدَدِ[1] ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: نجدةٍ وشَجاعَةٍ[2].

﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ موكولٌ ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ مِن المقاتلَةِ والصُّلحِ، نُطِعْكِ ونتَّبِعْ رأيَكِ.

(٣٤) ـ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ تزييفٌ لِمَا أحسَّتْ مِنْهُم مِن الميلِ إلى المقاتلَةِ بادِّعائِهِم القُوَى الذَّاتيَّةَ والعَرَضيَّةَ، وإشعارٌ بأَنَّها ترى الصُّلْحَ مخافةَ أن يتخطَّى سُليمانُ خُطَطَهُم، فيُسرِعَ إلى إفسادِ ما يُصادِفُه مِن أموالِهم وعماراتِهم، ثمَّ إنَّ الحربَ سِجالٌ لا تُدرَى عاقِبَتُها.

﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ بنهبِ أَموالِهم وتخريبِ ديارِهم، إلى غير ذلك مِن الإهانةِ والأسرِ.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيدٌ لِمَا وَصفَتْ مِن حالِهم، وتقريرٌ بأَنَّ ذلك مِن عاداتِهم الثَّابتَةِ المُستَمرَّةِ[3]، أو تصديقٌ لَها مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ.

(٣٥) ـ ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ بيانٌ لِمَا ترَى تَقديمَه في المصالحةِ، والمعنى: إنِّي مُرسِلَةٌ رُسُلًا بهَدِيَّةٍ أدفعُهُ[4] بها عَن ملكِي ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ مِن حالِه حتَّى أعملَ بحسبِ ذلك.

---

(١) العُدد: جمع عُدَّة، وهي ما يعدُّ من آلات الحرب. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٣٨٥).

(٢) عطف الشجاعة على النجدة من باب عطف التفسير؛ فإن النجدة تجيء بمعنى الشجاعة. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٤/ ٣٨٥).

(٣) فهذه الجملة على هذا القول من تتمة كلامها، وعلى ما بعده استئناف من كلام الله تعالى.

(٤) الضمير لسليمان عليه السلام. وفي نسخة التفتازاني والطبلاوي: «أدفع».

رُوِيَ أَنَّها بعَثَتْ مُنذِرَ بنَ عمرٍو في وفدٍ، فأرسلَتْ مَعَهُم غِلمانًا على زيِّ الجوارِي، وجَوارِيَ على زيِّ الغِلمانِ، وحُقًّا فيه دُرَّةٌ عَذراءُ وجَزْعَةٌ معوجَّةُ الثَّقْبِ[١]، وقالَت: إنْ كانَ نَبيًّا مَيَّزَ بينَ الغِلمانِ والجَوارِي، وثَقَبَ الدُّرَّةَ ثَقْبًا[٢] مُستوِيًا، وسلكَ في الخَرَزةِ[٣] خيطًا، فلَمَّا وَصَلُوا إلى مُعَسْكَرِه ورَأَوا عظمَةَ شأنِه تقاصرَت إليهِمْ نفوسُهُم، فلمَّا وَقَفوا بين يديهِ ـ وقَد سبقَهُم جبريلُ بالحالِ ـ طلبَ[٤] الحُقَّ وأَخبرَ عمَّا فيه، فأمرَ الأَرضةَ فأخذَتْ شَعرَةً ونفذَتْ في الدُّرَّةِ، وأمر دودةً بيضاءَ فأخذَتِ الخَيطَ ونفذَتْ في الجزعةِ، ودعا بالماءِ فكانَتِ الجاريَةُ تأخذُ الماءَ بيَدِهَا فتَجعَلُه في الأخرى ثمَّ تَضرِبُ به وجهَها، والغلامُ كما يَأخذُهُ يضربُ به وَجهَهُ، ثمَّ رَدَّ الهديَّةَ[٥].

(٣٦) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾؛ أي: الرَّسولُ، أو ما أهدَتْ إليهِ. وقُرِئَ «فلَمَّا جاؤُوا»[٦].

﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾ خطابٌ للرَّسولِ ومَن مَعه، أو للرَّسولِ والمرسِلِ على تغليبِ المخاطَبِ. وقَـرَأَ حمزَةُ ويَعقوبُ بالإدغامِ، وقُرِئَ بنونٍ واحدةٍ وبنونينِ وحذفِ الياءِ[٧].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «النقب».

(٢) في نسخة الفاروقي: «ونقب الدرة نقبًا».

(٣) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «الجزعة».

(٤) في نسخة التفتازاني والخيالي: «وطلب»، وفي نسخة الطبلاوي: «فطلب»، والمثبت من نسخة الفاروقي، ولم تصل هذا النسخة للشهاب فقال في «الحاشيته»: هو بالواو في النسخ، والظاهر حذفها جواب «لما».

(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» عند هـذه الآية ثم قال: والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات، والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية ولا اعتنى به بل أعرض عنه.

(٦) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٣).

(٧) قرأ حمزة ويعقوب بنون واحدة مُشدّدة وبياء في الوصل والوقف، والباقون بنونين ظاهرتين، وأثبت =

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ مِن النُّبوَّةِ والملكِ الَّذي لا مزيدَ عليه.

قرأ نافعٌ وأبو عـمـرٍو وحفصٌ بإسكانِ الياءِ، وبإِسقاطِها الباقونَ، وبإمالتِها الكِسائيُّ وحدَه[1].

﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ فلا حاجةَ بي إلى هَدِيَّتِكُم، ولا وَقْعَ لها عندي.

﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنَّكُم لا تعلمونَ إلَّا ظاهِرًا من الحياةِ الدُّنيا، فتفرَحُونَ بما يُهدَى إليكم حُبًّا لزيادةِ أموالِكُم، أو بما تُهدونَهُ افتِخارًا على أمثالِكُم.

والإضرابُ عَن إنكارِ الإمدادِ بالمالِ عليه وتَعليلِه إلى بيانِ ما حملَهُم عليه، وهو قياسُ حالِه على حالِهِم في قصورِ الهِمَّةِ بالدُّنيَا والزِّيادَةِ فيها[2].

(٣٧) ـ ﴿ٱرْجِعْ﴾ أيُّها الرَّسولُ ﴿إِلَيْهِمْ﴾: إلى بِلْقيسَ وقومِها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾: لا طاقةَ لهم بمُقاومَتِها ولا قدرةَ على مقاتَلَتِها. وقُرِئَ: «بهم»[3].

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾: مِن سَبأَ ﴿أَذِلَّةً﴾ بذهابِ ما كانُوا فيه مِن العزِّ ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾: أُسراءُ مُهانونَ.

= الياء في الحالين ابن كثير وحمزة ويعقوب، وأثبتها في الوصل نافع وأبو عمرو، وقرأ عاصم وابن عامر والكسائي: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ بغير ياء في وصل ولا وقف. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٠)، و«النشر» (١/ ٣٠٣) و(٢/ ٣٤٠).

(١) أثبتها مفتوحة في الوصل ساكنة في الوقف قالون وحفص وأبو عمرو بخلاف عنهم في الوقف، وفتحها في الوصل وحذفها في الوقف ورش، وحذفها الباقون في الحالين. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٠).

(٢) الإنكار في قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِي بِمالٍ﴾، والتعليل في قوله: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾، وقد أضرب عن الأمرين لينتقل إلى بيان سبب تصرُّفهم، وهو أنهم ظنُّوه من ملوك الدنيا الذين يرغبون بالزيادة من ثرواتها.

(٣) نسبت لابن مسعود. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٣).

(٣٨) ـ ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ أرادَ بذلك أَنْ يُرِيَها بعضَ ما خصَّهُ اللهُ بـه مِن العَجائبِ الدَّالَّةِ على عظيمِ[1] القُدرَةِ وصدقِه في دَعْوَى النُّبوَّةِ، ويختبرَ عَقْلَها بأن ينكِّرَ عَرْشَها فينظرَ أَتَعرِفُه أم تُنكِرُه؟

﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فإنَّها إذا أَتَتْ مُسلِمَةً لم يَحِلَّ أَخذُه إلَّا برِضاها.

(٣٩) ـ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ خبيثٌ ماردٌ ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ بيانٌ له؛ لأنَّه يقالُ للرَّجُلِ الخَبيثِ المنكَرِ المُعفِّرِ أقرانَهُ، وكانَ اسمُه ذَكْوَانَ أو صَخْرًا[2]:

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾: مِن مَجلسِكَ للحُكومَةِ، وكانَ يجلسُ إلى نصفِ النَّهارِ ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾: على حَمْلِه ﴿لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ لا أختزِلُ منهُ شَيئًا ولا أبدِّلُه.

(٤٠) ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ آصَفُ بنُ بَرْخِيا[3] وزيرُه، أو الخضرُ، أو جبريلُ، أو مَلَكٌ أَيَّدَه اللهُ به، أو سليمانُ نَفسُهُ، فيكونُ التَّعبيرُ عنه بذلك للدَّلالةِ على شرفِ العلمِ، وأنَّ هذه الكرامةَ كانَتْ بسببِه، والخطابُ في: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ للعفريتِ؛ كأنَّه استبطأَهُ فقالَ له ذلك، أو أرادَ إظهارَ مُعجِزَةٍ في نقلِه فتحَدَّاهُم أوَّلًا ثمَّ أراهُم أنَّه يَتأتَّى لَه ما لا يَتهيَّأُ لعَفاريتِ الجنِّ فَضلًا عن غيرِهم.

والمرادُ بالكتابِ: جِنسُ الكُتبِ المُنزلَةِ، أو اللَّوحُ.

و﴿ءَاتِيكَ﴾ في الموضعينِ صالِحٌ للفِعليَّةِ والاسميَّةِ.

والطَّرْفُ: تَحريكُ الأَجفانِ للنَّظرِ، فوُضعَ مَوضِعَه، ولَمَّا كانَ النَّاظرُ يُوصَفُ بإرسالِ الطَّرفِ؛ كمَا في قولِه:

---

(١) في نسخة الخيالي: «عظم».

(٢) رُوي الأول عن شعيب الجبائي، والثاني عن ابن عباس. انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٠/ ٢٦٠)، و«الهداية الى بلوغ النهاية» (٨/ ٥٤٣١).

(٣) في نسخة الفاروقي: «آصف بن حنان».

وَكُنْــتَ إِذَا أَرْسَــلْتَ طَرْفَــكَ رَائِدًا لِقَلْبِــكَ يَوْمًــا أَتْعَبَتْــكَ المَنَاظِــرُ[١]

وُصِفَ بِرَدِّ الطَّرفِ، والطَّرفُ بالارتدادِ، والمعنى: أنَّكَ ترسِلُ طرفَكَ نحوَ شيءٍ فقبْلَ أَنْ تَرُدَّهَ أُحضِرُ عرشَها بين يديكَ، وهذا غايةٌ في الإسراعِ ومَثَلٌ فيه.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾: رأى العرشَ ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾: حاصِلًا بينَ يديهِ ﴿قَالَ﴾ تَلقِّيًا للنِّعمةِ بالشُّكرِ على شاكِلَةِ المُخلصينَ مِن عبادِ اللهِ:

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ تفضَّلَ به عليَّ مِن غيرِ استحقاقٍ، والإشارةُ إلى التَّمكُّنِ مِن إحضارِ العرشِ في مُدَّةِ ارتدادِ الطَّرفِ مِن مَسيرةِ شهرينِ بنفسِه أو غيرِه[٢]، والكلامُ في إمكانِ مثلِه قد مرَّ في آيةِ «الإسراءِ»[٣].

﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ﴾ بأَنْ أراهُ فضلًا مِن اللهِ بلا حولٍ مِنِّي ولا قُوَّةٍ وأقومَ بحقِّهِ ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجِدَ نَفسي في البَيْنِ[٤]، أو أُقصِّرَ في أداءِ مَواجِبِهِ، ومَحلُّهُما[٥] النَّصبُ على البدلِ مِن الياءِ.

---

(١) البيت أحد بيتين أنشدتهما جارية حسنة الوجه لأبي الغصن الأعرابي لما طلب منها أن تسفر عن وجهها، روى القصة ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (٤/ ٢٣)، والسراج في «مصارع العشاق» (٢/ ١٩٤)، وورد البيتان دون القصة وبلا نسبة في «الحماسة» بشرح المرزوقي (ص: ٨٦٩)، و«لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٦٠٦)، و«التذكرة الحمدونية» (٦/ ١٦٥)، والبيت رواه الخرائطي في «اعتلاء القلوب» (١/ ١٣٨) عن الأعصمي عن جارية.

(٢) قوله: «بنفسه» على القول الأخير في تفسير ﴿ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهو أنه سليمان نفسه، و«غيره» على الأقوال الأربعة قبله.

(٣) قوله: «قد مرَّ في آية الإسراء»؛ أي: في آية أول سورة الإسراء. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣١٩).

(٤) قوله: «في البين»؛ أي: البعد. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣١٩).

(٥) في نسخة الطبلاوي: (ومحلَّها)، وقد أشار القونوي إلى النسختين فقال: «ومحلها»؛ أي: محل الجملة، وفي نسخة: «ومحلهما»؛ أي: محل ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، «على البدل من الياء» بدل الكلِّ، وكلٌّ واحد بدل البعض. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٣٩٧).

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنَّه به يَستَجْلِبُ لها دوامَ النِّعمَةِ ومزيدَها، ويَحُطُّ عنها عِبءَ الواجبِ، ويحفَظُها عَن وَصمَةِ الكُفرانِ.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عَن شُكرِه ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإنعامِ عليه ثانيًا.

(٤١) ـ ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ بتَغييرِ هيئَتِهِ وشَكلِه ﴿نَنظُرْ﴾ جوابُ الأَمرِ، وقُرِئَ بالرَّفعِ على الاستئنافِ(١).

﴿أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى مَعرِفَتِه، أو الجوابِ الصَّوابِ.

وقيلَ: إلى الإيمانِ باللهِ ورَسولِه إذا رَأَتْ تقدُّمَ عَرشِهَا وقد خلَّفَتْهُ مُغلَّقَةً عليه الأبوابَ موكَّلَةً عليها الحُرَّاسَ.

(٤٢) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ تَشبيهًا عليها زيادةً في امتحانِ عَقْلِها؛ إذ ذُكِرَت عندَهُ بسخافةِ العَقلِ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ ولم تَقُل: هو؛ لاحتمالِ أن يكونَ مِثلَهُ، وذلك مِن كمالِ عَقلِها.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ مِن تتمَّةِ كلامِها؛ كأنَّها ظَنَّت أنَّه أرادَ بذلك اختبارَ عقلِها وإظهارَ مُعجِزَةٍ لها، فقالت: أوتينا العِلمَ بكَمالِ قُدرَةِ اللهِ وصِحَّةِ نُبوَّتِكَ قبلَ هذه الحالةِ أو المعجزةِ بما تقدَّمَ مِن الآياتِ.

وقيلَ: إنَّه كلامُ سُليمانَ وقومِه؛ عَطفوهُ على جوابِها؛ لِمَا فيه مِن الدَّلالةِ على إيمانِها باللهِ ورسولِه حيثُ جوَّزَتْ أن يكونَ ذلك عرشَها تَجْويزًا غالبًا، وإحضارُه ثَمَّ مِن المُعجِزاتِ الَّتي لا يقدرُ عليها غيرُ اللهِ، ولا تَظهَرُ إلَّا على الأنبياءِ؛ أي: وأُوتينا العِلمَ باللهِ وقُدرَتِه وصِحَّةِ ما جاءَ مِن عندِه قَبْلَها، وكُنَّا مُنقادينَ لِحُكمِه، ولم نَزَلْ على دينِه، فيكونُ غَرَضُهُم فيه التَّحدُّثَ بما أنعمَ اللهُ عَليهِم مِن التَّقدُّمِ في ذلك شُكرًا له.

---

(١) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١).

(٤٣) ـ ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: وصَدَّهَا عِبادَتُها الشَّمسَ عَن التَّقدُّمِ إلى الإسلامِ، أو: صَدَّها اللهُ عَن عبادَتِها بالتَّوفيقِ للإيمانِ.

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ وقُرِئَ بالفَتحِ[1] على الإبدالِ مِن فاعلِ «صَدَّ» على الأوَّلِ؛ أي: صَدَّهَا نُشوؤُهَا بين أظهُرِ الكفَّارِ، أو التَّعليلِ[2] له.

(٤٤) ـ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾: القَصْرَ، وقيلَ: عَرصةَ الدَّارِ.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ رُوِيَ أنَّه أمَرَ قبلَ قُدومِها فبُنِيَ قَصرٌ صَحنُهُ مِن زُجَاجٍ أَبيضَ، وأُجْرِيَ مِن تَحتِه الماءُ، وأُلْقِي فيهِ حيواناتُ البحرِ، ووُضِعَ سَريرُهُ في صدرِه فجلَسَ عليه، فلَمَّا أَبْصَرَتْهُ ظنَّتْ ماءً راكِدًا فكشَفَتْ عَن ساقَيْها.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ بروايةِ قُنبُلٍ: ﴿سَأْقَيْهَا﴾ بالهمزِ[3]، حملًا على جمعِهِ: «سُؤْقٍ» و«أَسْؤُقٍ»[4].

﴿قَالَ إِنَّهُ﴾: إنَّ ما تظنِّينَه ماءً ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾: مُمَلَّسٌ ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ مِن الزُّجَاجِ.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعِبادةِ[5] الشَّمسِ، وقيلَ: بِظَنِّي بسُلَيمَانَ، فإنَّها حَسِبَت أنَّه يُغرِقُها في اللُّجَّةِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١) عن سعيد بن جبير.

(٢) معطوف على «الإبدال».

(٣) هي رواية قنبل عن ابن كثير كما في «التيسير» (ص: ١٦٨). ورواية أبي الإخريط عنه كما في «السبعة» (ص: ٤٨٣). وأبو الإخريط هو وهب بن واضح المكي القارئ، ويكنى أيضًا أبا القاسم، توفي سنة (١٩٠هـ). انظر: «معرفة القراء الكبار» للذهبي (١/ ٣٠٨).

(٤) ويجمع على «سُؤُوق» أيضًا. انظر: «تاج العروس» (٢٥/ ٤٨٢).

(٥) في نسخة الفاروقي: «بعبادتي».

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيمَا أمرَ بهِ عبادَهُ، وقد اختُلِفَ في أنَّه تزوَّجَها أو زَوَّجَها مِن ذي تُبَّعٍ ملكِ هَمْدانَ[١].

(٤٥) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: بأَنِ اعبُدُوه. وقُرِئَ بضمِّ النُّونِ على إتباعِهَا الباءَ[٢].

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾: ففاجَؤُوا التَّفرُّقَ والاختصامَ؛ فآمنَ فريقٌ وكفرَ فريقٌ، والواوُ لِمَجموعِ الفَريقَيْنِ[٣].

(٤٦) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: بالعُقوبَةِ فتقولونَ: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: قبلَ التَّوبةِ فتُؤَخِّرونَها إلى نُزولِ العقابِ، فإنَّهُم كانُوا يقولونَ: إنْ صدقَ إيعادُه تُبْنَا حينئذٍ.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ قبلَ نزولِه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقَبُولِها، فإنَّها لا تُقبَلُ حينئذٍ.

(٤٧) ـ ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا﴾: تشاءَمْنَا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ إذ تَتابَعَتْ علينَا الشَّدائِدُ، أو: وقعَ بينَنا الافتراقُ مُذ اخترَعْتُم دينكُم.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾: سَبَبُكم[٤] الَّذي جاءَ مِنه شَرُّكُم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو قَدَرُهُ، أو عَملُكُم المكتوبُ عِندَه.

---

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (١/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥)، و«تفسير الثعلبي» (٢٠/ ٢٨٣).

(٢) قراءة نافع والكسائي وابن عامر وابن كثير. انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٢)، و«التيسير» (ص: ٧٨).

(٣) هذا لبيان وجه قوله تعالى: ﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، وليس: فريقان يختصمان.

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: لمَّا كان المسافر من العرب إذا خرج مرّ به طائر سانحًا وهو ما وليه بميسرته أو بارحاً وهو ما وليه بميمنته، تيمنوا بالأوّل وتشاءموا بالثاني، ونسبوا الخير والشر إلى الطائر، ثم استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته، أو من عمل العبد الذي هو سبب الرحمة والنقمة. وفي نسخة الخيالي: «سيئكم».

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾: تُختبرونَ بتَعاقُبِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والإضرابُ مِن بيانِ طائرِهِم الَّذي هو مبدأُ ما يحيقُ بهم إلى ذكرِ ما هو الدَّاعِي إليه.

(٤٨) ـ ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾: تِسعَةُ أنفُسٍ، وإنَّما وقعَ[١] تمييزًا للتِّسعَةِ باعتبارِ المعنى، والفرقُ بينَهُ وبينَ النَّفَرِ: أنَّه مِن الثَّلاثَةِ أو السَّبعَةِ إلى العشرةِ، والنَّفرُ مِن الثَّلاثةِ إلى التِّسعَةِ[٢].

﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ أي: شأنُهم الإفسادُ الخالصُ عَن شَوبِ الصَّلاحِ[٣].

(٤٩) ـ ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قالَ بَعضُهُم لبَعضٍ: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أمرٌ مَقُولٌ، أو خبرٌ وقَعَ بدلًا، أو حالًا بإضمارِ «قد»[٤].

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾: لنُباغِتَنَّ صالِحًا وأهلَه ليلًا، وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بالتَّاءِ على خطابِ بَعضِهِم لِبعضٍ[٥]، وقُرِئَ بالياءِ[٦] على أَنَّ ﴿تَقَاسَمُوا﴾ خبرٌ.

---

(١) الفاعل ضمير مستتر راجع إلى لفظ ﴿رَهْطٍ﴾.

(٢) تبع في هذا الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ٣٤٣)، والأشهر أن النفر والرهط بمعنى، وذهب بعضهم إلى التفريق من جهة العدد، وذهب العسكري إلى التفريق بحسب أصل المعنى الذي اشتق منه الاسم مع الاتفاق في العدد. انظر: «كتاب الألفاظ» لابن السكيت (ص٢٥)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ١٠١)، و«الفروق اللغوية» للعسكري (ص٢٨٠).

(٣) في نسخة التفتازاني: «شوائب الإصلاح».

(٤) مقول القول يبدأ بـ﴿تَقَاسَمُوا﴾ على الوجه الأول، وبـ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ على الوجهين الثاني والثالث، و﴿تَقَاسَمُوا﴾ فعل أمر على الوجه الأول، وفعل ماض على الوجهين الثاني والثالث. انظر: «مشكل إعراب القرآن» لمكي (٢/ ٥٣٦)، و«الكشاف» للزمخشري (٦/ ٣٤٤)، و«التبيان» لأبي البقاء العكبري (٢/ ١٠١٠)، و«فتوح الغيب» للطيبي (١١/ ٥٤٢).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٨).

(٦) نسبت لمجاهد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١).

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ فيه القِراءاتُ الثَّلاثُ[١] ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾: لوَلِيِّ دَمِه: ﴿مَا شَهِدْنَا مُهْلَكَ أَهْلِهِۦ﴾ فَضْلًا أَنْ تَوَلَّيْنَا إِهلاكَهُم، وهو يحتمِلُ المَصدرَ والزَّمانَ والمكانَ، وكذلك ﴿مَهْلِكَ﴾ في قراءةِ حَفصٍ؛ فإنَّ مَفْعِلًا قد جاءَ مَصدرًا كـ«مَرْجِعٍ»، وقرأَ أبو بكرٍ بالفَتحِ[٢]، فيكونُ مَصدَرًا.

﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾: ونحلفُ إنَّا لَصادِقونَ، أو: والحالُ أنَّا لَصادِقُونَ فيما ذكَرْنا؛ لأنَّ الشَّاهِدَ للشَّيءِ غيرُ المباشرِ له عُرفًا.

أو: لأنَّا ما شَهِدْنَا مَهْلِكَهُم وحدَهُ بَلْ مَهلِكَهُ ومَهْلِكَهُم؛ كقولِك: ما رَأَيْتُه[٣] ثَمَّ رَجُلًا بَلْ رَجُلَيْنِ[٤].

(٥٠) ـ ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ بهذِه المُواضَعةِ[٥] ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بـأَنْ جَعَـلْناها سَـببًا لإِهْلَاكِهِم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

---

(١) أي: بالنون والتاء والياء. انظر المصادر السابقة.

(٢) قرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام، وأبو بكر بفتحهما، وباقي السبعة بضم الميم وفتح اللام. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

(٣) كذا في النسخ الخطية، ومعناه ظاهر، لكن حذف الضمير أظهر، وقد وقع كذلك في المطبوع مع «حاشية شيخ زاده» و«حاشية القونوي».

(٤) هذا الوجه الأخير تبع به المصنف الزمخشري مع أن فيه دسيسة اعتزالية، فقد ذكره الزمخشري ليسوِّق مذهبه في تصحيح قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل إذ استقبح القومُ الكذب بعقولهم لا بالشرع لأنهم لا يَعرِفُونَ الشَّرعَ ونوَاهِيَهُ ولا يَخطرُ ببَالِهِم، قال في «الكشاف» (٦/ ٣٤٥): أَلَا تَرَى أَنَّهُم قصَدُوا قَتْلَ نبيِّ اللهِ ولم يَرْضَوا لأنفُسهم بأنْ يكُونوا كاذِبِيْنَ حَتَّى سَوَّوْا لِلصِّدْق في خَبَرهم حِيْلَةً يَتفصَّون بها عن الكَذِب؟ ورد عليه صاحب «الانتصاف» (٣/ ٣٧٢) بقوله: وأنى يتم له ذلك أو لهم، وهم كاذبون صريح الكذب في قولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾... وانظر باقي كلامه ثمة.

(٥) أي: الحيلة في ادعاء الصدق المذكور.

رُوِيَ: أنَّه كانَ لصالِحٍ في الحِجْرِ مَسجِدٌ في شِعْبٍ يُصَلِّي فيه، فقَالوا: زعمَ أنَّه يَفْرُغُ مِنَّا إلى ثلاثٍ، فنفرغُ مِنْه ومِن أهلِه قبلَ الثَّلاثِ، فذَهَبُوا إلى الشِّعبِ ليَقتُلُوه فوقعَ عليهم صَخرَةٌ حيالَهُم فطبَّقَتْ عليهِمْ فمَ الشِّعبِ فهلَكُوا ثَمَّةَ، وهلكَ الباقونَ في أماكِنِهم بالصَّيحَةِ؛ كما أشارَ إليهِ قولُه:

(٥١) ـ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ و﴿كَانَ﴾ إنْ جُعِلَت ناقصَةً فخبرُها ﴿كَيْفَ﴾، و﴿إِنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ استئنافٌ أو خبرُ مَحذوفٍ، لا خبرُ ﴿كَانَ﴾ لعَدمِ العائدِ، وإن جُعلتْ تامَّةً فـ﴿كَيْفَ﴾ حالٌ.

وقرأَ الكُوفيُّونَ ويَعقوبُ: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ بالفتحِ[1] على أنَّه خبرُ مَحذوفٍ، أو بدلٌ مِن اسمِ ﴿كَانَ﴾، أو خبرٌ له و﴿كَيْفَ﴾ حالٌ.

(٥٢) ـ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾: خاليَةً، مِن «خَوَى البَطنُ»: إذا خَلَا، أو ساقِطَةً مُنهَدِمَةً مِن «خَوَى النَّجمُ»: إذا سقطَ، وهي حالٌ عَمِلَ فيها معنى الإشارةِ، وقُرِئَ بالرَّفعِ[2] على أنَّه خبرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ.

﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾: بسببِ ظُلمِهِم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيَتَّعِظُونَ.

(٥٣) ـ ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: صالِحًا ومَن مَعه ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الكُفرَ والمَعاصيَ، فلذلك خُصُّوا بالنَّجاةِ.

(٥٤) ـ ﴿وَلُوطًا﴾ واذكُرْ لوطًا، أو: وأَرْسَلْنا لوطًا لدلالةِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ [الأنعام: ٤٢] عليه.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ بـدلٌ على الأوَّلِ ظـرفٌ على الثَّانِي:

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٣ ـ ٤٨٤)، و«التيسير» (ص: ١٦٨)، و«النشر» (٢/ ٣٣٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١) عن أبي معاذ.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾: تعلمُونَ فُحشَهَا، مِن بَصَرِ القلبِ، واقترافُ القبائحِ مِن العالِمِ بقُبحِها أقبَحُ، أو: يبصرُهَا بَعضُكُم مِن بَعضٍ لأنَّهُم كانُوا يُعلِنُونَ بها فتكونُ أَفحَشَ.

(٥٥) ـ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ بيانٌ لإتيانِهِم الفاحشَةَ، وتَعليلُهُ بالشَّهوةِ للدَّلالَةِ على قُبحِهِ، والتَّنبيهِ على أنَّ الحِكمَةَ في المواقعَةِ طلبُ النَّسلِ لا قضاءُ الوَطَرِ.

﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ اللاتي خُلِقْنَ لذلك.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: تَفعَلونَ فِعلَ مَن يَجهَلُ قُبحَها، أو يكونُ سَفِيهًا لا يميزُ بينَ الحسنِ والقَبيحِ، أو: تجهلونَ العاقِبةَ[1]، والتَّاءُ فيه لكَوْنِ المَوصوفِ به في مَعْنَى المُخاطَبِ.

(٥٦) ـ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: يتنَزَّهونَ عَن أفعالِنا، أو عَن الأقذارِ ويَعُدُّونَ فِعلَنا قذرًا.

(٥٧) ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: قَدَّرْنا كونَها مِن الباقينَ في العَذابِ.

(٥٨) ـ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مَرَّ مِثْلُه.

(٥٩) ـ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أَمرَ رسولَهُ عليهِ السَّلامُ ـ بعدما قصَّ عليه القصصَ الدَّالَّةَ على كمالِ قُدرَتِه وعظمِ شأنِهِ وما خصَّ به رسلَهُ مِن الآياتِ الكُبرَى والانتصارِ من العِدَا ـ بتَحميدِهِ، والسَّلامِ على المُصطفَينَ مِن عبيدِه؛ شكرًا على ما أنعمَ عليهِم، وعلَّمه ما جهلَ مِن أحوالِهم، وعرفانًا لفَضلِهم وحقِّ تَقدُّمِهم واجتهادِهم في الدِّينِ.

---

(١) لم يرتض الطيبي هذا التقدير. انظر: «فتوح الغيب» (١١/ ٥٤٧ ـ ٥٤٨).

أو: لوطًا بأَنْ يَحْمَدَهُ على هلاكِ كَفَرةِ قومِه ويسلِّمَ على مَن اصطفاهُ بالعِصمَةِ مِن الفَواحشِ والنَّجاةِ مِن الهَلاكِ.

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ﴾ إلزامٌ لهم وتهكُّمٌ بهم وتَسفيهٌ لرَأْيِهم؛ إِذْ مِن المَعلومِ أَنْ لا خيرَ فيما أشركوهُ رَأسًا حتَّى يوازنَ بينَهُ وبين مَن هو مَبدأُ كلِّ خيرٍ.

وقرأ أبو عَمْرٍو وعاصِمٌ ويعقوبُ بالياءِ[1].

(٦٠) ـ ﴿أَمَّنْ﴾: بل أَمَّنْ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الَّتي هي أُصول الكائناتِ ومبادئُ المنافعِ. وقُرِئَ «أَمَنْ» بالتَّخفيفِ[2] على أنَّه بدلٌ مِن ﴿ءَآللَّهُ﴾.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾: لأجلِكُم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ عدلَ بهِ مِن الغَيْبَةِ إلى التَّكلُّمِ لتأكيدِ اختصاصِ الفعلِ بذاتِه، والتَّنبيهِ على أنَّ إنباتَ الحَدائقِ البَهيَّةِ المُختلفَةِ الأنواعِ المتباعدَةِ الطِّباعِ مِن الموادِّ المُتشابِهَةِ لا يقدرُ عليه غيرُه؛ كما أشارَ إليه بقولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾: شجرَ الحَدائقِ، وهي البَساتينُ، مِن «الإحداقِ»، وهو الإحاطَةُ.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: أغيرُه يُقرَنُ بهِ ويُجعَلُ لَه شَريكًا، وهو المُنفَرِدُ[3] بالخلقِ والتَّكوينِ؟!

وقُرِئَ: «أَإِلهًا»[4] بإضمارِ فعلٍ مثل: تدعونَ أو تشركونَ، وتَوسيطِ[5] مَدَّةٍ بين الهَمزتينِ، وإخراجِ الثَّانيَةِ بينَ بينَ[6].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٤)، و«النشر» (٢/ ٣٣٨).

(٢) نسبت للأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٢).

(٣) في نسخة الفاروقي: «المتفرد».

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١) عن بعض المصاحف.

(٥) معطوف على «بإضمار».

(٦) قرأ بالأولى أبو عمرو وأبو جعفر وقالون وهشام بخلاف عنه وبالثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو =

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ عن الحقِّ الَّذي هو التَّوحيدِ[١].

(٦١) ـ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ بدلٌ مِن ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[٢]، وجعلُها قرارًا: إبداءُ بعضِها مِن الماءِ، وتَسويتُها بحيثُ يَتأتَّى استقرارُ الإنسانِ والدَّوابِّ عَلَيْها.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾: أوساطَها[٣] ﴿أَنْهَٰرًا﴾ جاريةً.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾: جبالًا تتكوَّنُ فيها المعادِنُ، وتنبعُ مِن حضيضِها المنابعُ.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العذبِ والمالحِ، أو خليجَيْ فارِس والرُّومِ ﴿حَاجِزًا﴾: برزخًا، وقد مرَّ بَيانُه في «الفُرقانِ».

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ فيُشرِكُون به.

(٦٢) ـ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطرُّ: الَّذي أحوَجَهُ شِدَّةُ ما بِهِ إلى اللَّجأِ إلى اللهِ، مِن «الاضطرارِ»، وهو افتِعَالٌ من الضَّرورةِ، واللَّامُ فيه للجِنسِ لا للاستغراقِ، فلا يَلزَمُ منهُ إجابةُ كُلِّ مُضطَرٍّ.

= وأبو جعفر ورويس. انظر: «التيسير» (ص: ٣٢)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ٥٣٣)، و«النشر» (ص: ٣٧٤)، و«حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٢٥).

(١) أي: يجورون على عمد منهم لذلك، وقال مكي بعد ذكر هذا: يجوز أن يكون المعنى: بل هو قوم يعدلون بالله الأوثان. انظر: «الهداية الى بلوغ النهاية» (٨/ ٥٤٥٤).

(٢) قال الطِّيبيُّ: إذا أخذتَ مجموعَ الآيتين وخُلاصتَهما وكونَهما دالَّتينِ على اختصاص الله تعالى بهذه الأفعال التي لا يقدرُ عليها غيرُه، فإنَّها دالَّةٌ على التَّوحيد ونفي الضِّدِّ والنِّدِّ = كان حكمُ الثّاني حكمَ الأوَّلِ، فيَصِحُّ الإبدالُ، ولا ينبغي أن تعتبرَ مفرداتهما في الإبدال؛ لعدم استقامة المعنى. انظر: «فتوح الغيب» (١١/ ٥٥٧).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «وسطها».

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾: ويدفعُ عن الإنسانِ ما يسوءُه.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ خُلفاءَ فيها بأَنْ وَرَّثَكم سُكناهَا والتَّصرفَ فيها مِمَّنْ قبلَكُم.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الَّذي حفَّكُم بهذِه النِّعَمِ العامَّةِ والخاصَّةِ.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تذكَّرونَ آلاءَهُ تَذكُّرًا قليلًا، و﴿ما﴾ مزيدةٌ، والمرادُ بالقِلَّةِ العدمُ أو الحقارةُ المُزيحَةُ للفائِدَةِ.

وقرأَ أبو عَمرٍو ورَوْحٌ بالياءِ، وحمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ بالتَّاءِ وتَخفيفِ الذَّالِ[1].

(٦٣) ـ ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بالنُّجومِ وعَلاماتِ الأَرضِ.

والظُّلماتُ: ظُلماتُ اللَّيالِي أضافَها إلى البرِّ والبَحرِ للمُلابَسَةِ، أو مُشتبِهاتُ الطُّرقِ، يُقالُ: «طريقَةٌ ظَلْمَاءُ وعَمْيَاءُ» للَّتي لا منارَ بها.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشْرًا[2] بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾[3] يعني: المطرَ، ولو صَحَّ أَنَّ السَّببَ الأَكثَرِيَّ في تكوُّنِ الرِّيحِ مُعاودَةُ الأَدخِنَةِ الصَّاعدَةِ مِن الطَّبقَةِ الباردَةِ لانكِسَارِ حَرِّهَا وتَمويجِهَا الهواءَ، فَلا شَكَّ أَنَّ الأسبابَ الفاعِلِيَّةَ والقابِلِيَّةَ لذلك مِن خَلقِ اللهِ، والفاعِلُ للسَّببِ فاعِلٌ للمُسبَّبِ.

---

(١) قرأ أبو عمرو وهشام وروح بالغيب، وقرأ الباقون بالخطاب، قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بتخفيف الذال حيث جاء، وقرأ الباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٤)، و«التيسير» (ص: ١٦٨)، و«النشر» (٢/ ٣٣٨)، و(٢/ ٢٦٦).

(٢) في نسخة التفتازاني: «بشرى».

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿نُشُرًا﴾ بضم النون والشين، وابن عامر: ﴿نُشْرًا﴾ بضم فسكون، وعاصم: ﴿بُشْرًا﴾ بالباء، وقرأ الباقون: ﴿نَشْرًا﴾ بفتح فسكون. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٥)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يقدِرُ على مثلِ ذلك؟

﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تعالى القادِرُ الخالِقُ عن[1] مُشاركَةِ العاجزِ المَخلوقِ.

(٦٤) ـ ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ والكفرَةُ وإن أنكرُوا الإعادةَ فهم مَحجوجونَ بالحُجَجِ الدَّالَّةِ عليها.

﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: بأسبابٍ سماويَّةٍ وأَرضِيَّةٍ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يفعَلُ ذلك؟ ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ على أنَّ غيرَه يقدِرُ على شيءٍ مِن ذلك ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في إشراكِكُم، فإنَّ كَمالَ القُدرَةِ مِن لَوازِمِ الأُلوهِيَّةِ.

(٦٥) ـ ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لَمَّا بيَّنَ اختصاصَهُ بالقُدرةِ التَّامَّةِ الفائقَةِ العامَّةِ أتبعَهُ ما هو كاللَّازمِ له، وهو التَّفرُّدُ بعلمِ الغَيبِ.

والاستثناءُ مُنقَطِعٌ، ورفعُ المُستثنى على اللُّغةِ التَّميميَّةِ[2]؛ للدَّلالةِ على أنَّه تَعالى إن كانَ ممَّنْ في السَّماواتِ والأرضِ ففيها مَن يَعلَمُ الغيبَ مُبالغَةً في نفيِه عَنهُم، أو مُتَّصِلٌ على أنَّ المُرادَ ممَّنْ في السَّماواتِ والأرضِ مَن تعلَّقَ عِلمُه بها واطَّلَعَ عليها اطِّلاعَ الحاضرِ فيها، فإنَّه[3] يَعُمُّ اللهَ تعالى وأولي العلمِ مِن خَلْقِه، وهو مَوصولٌ أو مَوصوفٌ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «على».

(٢) يريد أن اقتطاع المستثنى يوجب نصبه على مذهب جمهور النحاة، فرفعه هنا على اللغة التميمية، وقد تبع في هذا الزمخشري. انظر: «الكتاب» لسيبويه (٢/ ٣١٩)، و«الكشاف» (٦/ ٣٥٦)، و«حاشية ابن التمجيد» (١٤/ ٤٣١).

(٣) في نسخة الخيالي: «وأنه».

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: مَتى يُنشَرونَ، مُرَكَّبةٌ مِن «أيّ» و«آنَ». وقُرِئَت بكسرِ الهمزةِ[١].

والضَّميرُ لِـ﴿مَن﴾، وقيلَ: للكَفرةِ.

(٦٦) ـ ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ لَمَّا نَفَى عنهُم علمَ الغيبِ، وأكَّدَ ذلك بنَفْيِ شُعورِهِم بما هو مآلُهُم لا محالةَ، بالغَ فيه بأَنْ أضرَبَ عنهُ وبيَّنَ أنَّ ما انتهَى وتكامَلَ فيه أسبابُ عِلْمِهم مِنَ الحُجَجِ والآياتِ ـ وهو أنَّ القِيامَةَ كائنةٌ لا محالةَ ـ لا يَعْلَمونَه كما يَنبَغِي ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ كمَنْ تَحيَّرَ في أمرٍ لا يَجِدُ عليه دليلًا ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ لا يُدرِكُونَ دَلائِلَها لاختلالِ بَصيرَتِهم.

وهذا[٢] وإن اختصَّ بالمُشركينَ ممَّنْ في السَّماواتِ والأرضِ نُسِبَ إلى جَميعِهِم كما يُسنَدُ فعلُ البَعضِ إلى الكُلِّ.

والإضراباتُ الثَّلاثُ تنزيلٌ لأحوالِهم.

وقيلَ: الأوَّلُ إضرابٌ عَن نفيِ الشُّعورِ بوَقتِ القِيامَةِ عَنْهُم، ووَصفَهم باستحكامِ علمِهِم في أَمرِ الآخرةِ تَهكُّمًا بهم.

وقيلَ: ﴿أدركَ﴾ بمعنى: انتَهى واضمَحَلَّ، مِن قَولِهِم: أَدْرَكَتِ الثَّمَرَةُ؛ لأنَّها تلك غايَتُها الَّتي عندَها تعدَمُ.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ وحمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾[٣] بمعنى: تتابَعَ

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٤٢) عن السلمي.

(٢) قوله: «وهذا..» إشارة لما تضمنته الآيات الثلاث الأخيرة من إنكار البعث. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٤/ ٤٣٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٦٨).

حتَّى استحكَمَ، أو تتابعَ حتَّى انقطعَ، مِن «تدارَكَ بنو فُلانٍ»: إذا تَتابَعُوا في الهلاكِ، وأبو بكر: «ادَّرَكَ»(١)، وأصلُهما: تَفاعَلَ وافتَعَلَ.

وقُرِئَ: «أأَدْرَكَ» بهمزتينِ، و: «آأَدْرَكَ» بألفٍ بينَهُما، و: «بلَ ادَّرَكَ»(٢)، و: «بل تَدَارَكَ»، و: «بلى أَدْرَكَ»، و: «بلى آأدْرَكَ»، و: «أَم أَدْرَكَ»، و: «أَمْ تَدارَكَ»(٣).

وما فيه استفهامٌ صريحٌ أو مُضَمَّنٌ من ذلك فإنكارٌ، وما فيه «بلى» فإثباتٌ لشُعورِهم وتفسيرٌ له بالإدراكِ على التَّهكُّمِ، وما بعده إضرابٌ عن التَّفسيرِ مُبالغَةً في نفيِه ودلالةً على أنَّ شُعورَهُم بها أنَّهم شاكُّون فيها بل أنَّهم مِنْهَا عَمُونَ، أو رَدٌّ وإنكارٌ(٤) لشعورِهم.

(٦٧) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ كالبَيانِ لعَمَهِهِم.

والعاملُ في «إذا» ما دلَّ عليه ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ وهو: نُخْرَجُ، لا «مُخرَجُونَ»؛ لأنَّ كُلًّا مِن الهمزةِ و«إنَّ» واللَّامِ مانعَةٌ مِن عَملِه فيما قبلَها، وتكريرُ الهمزَةِ(٥) للمُبالغَةِ في الإنكارِ.

والمرادُ بالإخراجِ: الإخراجُ مِن الأجداثِ، أو مِن حالِ الفناءِ إلى الحياةِ.

---

(١) ذكرها ابن مجاهد رواية عن أبي بكر وهي خلاف المشهور عنه. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٥).

(٢) «بلَ ادَّرَكَ» بفتح اللاَّم وتَشدِيدِ الدَّالِ وَأَصْلُه: «بل أَدْرَكَ» على الاستِفهَام. انظر: «الكشاف» (٦/ ٣٥٨).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٢)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٦٣)، و«الكشاف» (٦/ ٣٥٨)، وانظر شرحها وتفصيلها ونسبة كل منها لقائله في «البحر» (١٦/ ٤٧٢ ـ ٤٧٤).

(٤) «أو ردٌّ وإنكار» عطف على «إضرابٌ».

(٥) أي: همزة الاستفهام في قوله: ﴿أَئِنَّا﴾ بعد قوله: ﴿أَءِذَا﴾.

وقرأ نافِعٌ: ﴿إذا كُنَّا﴾ بهمزةٍ واحدَةٍ مكسورةٍ، وقرأ ابنُ عامرٍ والكِسائيُّ: ﴿إنَّنا لَمُخرجونَ﴾ بنونينِ[1] على الخبرِ.

(٦٨) ـ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ وَعدِ مُحمَّدٍ عليهِ السَّلامُ، وتَقديمُ ﴿هَٰذَا﴾ على ﴿نَحْنُ﴾ نظرًا إلى الاهتمامِ[2]؛ لأنَّ المَقصودَ بالذِّكرِ هو البَعثُ، وحيثُ أُخِّرَ فالمَقصودُ به المبعوثُ[3].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الَّتي هي كالأَسْمَارِ[4].

(٦٩) ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تهديدٌ لَهُم على التَّكذيبِ، وتَخويفٌ بأن ينزلَ بهم مثلُ ما نـزلَ بالمُكذِّبينَ قبلَهُم، والتَّعبيرُ عَنْهُم بالمُجرمينَ ليَكونَ لطفًا للمُؤمنينَ في تركِ الجرائمِ[5].

(٧٠) ـ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: على تكذيبِهِم وإعراضِهِم ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾: في حرجِ صَدْرٍ.

وقرَأَ ابنُ كثيرٍ بكسرِ الضَّادِ[6]، وهما لُغتَانِ، وقُرِئَ: «ضَيِّق»[7] أي: أمرٍ ضَيِّقٍ.

﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: مِن مَكرِهِم؛ فإنَّ اللهَ يَعصِمُكَ مِن النَّاسِ.

(٧١) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: العَذابُ الموعودُ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٦٩).

(٢) «نظرًا إلى الاهتمام» من نسخة التفتازاني، وقد ألحقت في نسخة الطبلاوي في آخر الفقرة.

(٣) كما في قوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ [المؤمنون: ٨٣].

(٤) جمع «سَمَر»، وهو الحديث الذي يُتلهَّى به ليلاً. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٤٣٨).

(٥) في نسخة التفتازاني: «الحرام».

(٦) انظر: «التيسير» (ص: ١٣٩).

(٧) نسبت لابن مقسم. انظر: «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٨٦).

(٧٢) ـ ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: تَبِعَكُم ولَحِقَكُم، واللَّامُ مَزِيدَةٌ للتَّأكيدِ، أو الفعلُ مُضمَّنٌ معنى فعلٍ يُعَدَّى باللَّامِ مثل: دَنَا[١]، وقُرِئَ بالفَتحِ[٢]، وهو لغَةٌ فيه.

﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حُلولَهُ، وهو عذابُ يومِ بَدرٍ.

و«عَسى» و«لعَلَّ» و«سوفَ» في مواعيدِ الملوكِ كالجَزْمِ بها، وإنَّما يُطلِقُونَه إظهارًا لوَقارِهِم، وإشعارًا بأنَّ الرَّمزَ مِنْهُم كالتَّصريحِ مِن غيرِهِم، وعليهِ جَرَى وعدُ اللهِ ووَعيدُه[٣].

(٧٣) ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتأخيرِ عُقوبَتِهِم على المعاصي، والفَضْلُ والفَاضِلَةُ: الإفضَالُ، وجَمْعُهُما: فُضُولٌ وفَواضِلُ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾: لا يعرفونَ حقَّ النِّعمَةِ فيه فلا يشكرونَه، بل يَستعجِلُونَ بجَهْلِهِم وُقوعَه.

(٧٤) ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: ما تُخفيهِ، وقُرِئَ بفتحِ التَّاءِ[٤] مِن «كَنَنْتُ»؛ أي: سَتَرْتُ.

---

(١) ذكر الزجاجي هذه اللام في باب اللام التي تكون موصلة لبعض الأفعال إلى مفعوليها وقد يجوز حذفها، وقال: تقدير ﴿رَدِفَ لَكُم﴾: ردفكم، والمعنى واحد، وأهل التفسير يقولون: معناه دنا لكم. انظر: «اللامات» (ص١٤٧). وانظر: «المقتضب» للمبرد (٢/ ٣٧).

(٢) أي: (رَدَفَ) بوزنِ ذَهَبَ، نسبت للأعرج. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٤٣).

(٣) هذا من قول الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ٣٦٤): و«عَسَى» و«لعَلَّ» و«سَوْفَ» في وَعْدِ المُلوكِ ووَعيْدِهِمْ يدُلُّ على صِدْقِ الأمْرِ وَجِدِّه، وما لا مجالَ للشَّكِّ بَعْدَهُ، وإنَّما يَعْنُونَ بذلك: إظهارَ وَقارهم، وأنَّهم لا يَعْجَلُونَ بالانتِقام؛ لإدْلالِهِم بقَهْرِهم وغَلَبَتِهِمْ، وَوُثُوقِهِمْ بأنَّ عَدُوَّهُم لا يَفُوتُهُم، وأنَّ الرَّمْزَةَ إلى الأغراضِ كافِيَةٌ مِن جهَتِهِمْ، فعَلى ذلك جَرَى وَعْدُ اللهِ ووَعيْدُهُ.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٤)، عن ابن السميفع وابن محيصن.

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من عداوتك فيُجازيهم عليه.

(٧٥) ـ ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: خافيَةٍ فيهما، وهما من الصِّفاتِ الغالبَةِ، والتَّاءُ[1] فيهما للمُبالغَةِ؛ كما في «الرَّاويَةِ»، أو اسمانِ لِمَا يَغيبُ ويَخْفَى كالتَّاءِ في: «عاقبَةٍ» و«عافيَةٍ».

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: بيِّنٍ، أو مُبينٍ ما فيه لِمَن يُطالِعُه، والمرادُ: اللَّوحُ، أو القَضاءُ على الاستعارةِ.

(٧٦) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كالتَّشبيهِ والتَّنزيهِ وأحوالِ الجنَّةِ والنَّارِ وعُزَيرٍ والمَسيحِ.

(٧٧) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنَّهُم المُنتَفِعُونَ به.

(٧٨) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾: بين بني إسرائيلَ ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾: بما يحكمُ به وهو الحقُّ، أو: بحكمَتِه، ويدلُّ عليه أنَّه قُرِئ: «بحِكَمِهِ»[2].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يُرَدُّ قَضاؤُه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحقيقةِ ما يَقضي فيه وحُكمِه.

(٧٩) ـ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تُبالِ بمُعاداتِهم ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ وصاحِبُ الحقِّ حَقيقٌ بالوُثوقِ بحفظِ اللهِ ونَصرِه.

(٨٠) ـ ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تعليلٌ آخَرُ للأمرِ بالتَّوكُّلِ مِن حيثُ إنَّه يقطَعُ طمعَهُ عن مُشايعَتِهم ومُعاضَدتِهم رأسًا، وإنَّما شُبِّهُوا بالموتى لعَدمِ انتِفاعِهم باستماعِ ما يُتلَى عليهم؛ كما شُبِّهُوا بالصُّمِّ في قولِه: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾؛ فإنَّ إسماعَهُم في هذه الحالِ أبعَدُ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «والهاء».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٢) عن جناح بن حبيش.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ﴾[1].

(٨١) ـ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾ حيثُ الهِدايَةُ لا تحصلُ إلَّا بالبصرِ.

وقرأ حمزةُ وحدَهُ: ﴿وما أنتَ تَهْدِي العُمْيَ﴾[2].

﴿إِن تُسْمِعُ﴾؛ أي: ما يُجدِي إسماعُكَ ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ مَن هوَ في علمِ اللهِ كذلك ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾: مُخلِصُونَ، مِن: أسلمَ وجهَهُ للهِ.

(٨٢) ـ ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾: إذا دَنا وقـوعُ مَعناه، وهو ما وُعِدُوا به مِن البَعثِ والعَذابِ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الجسَّاسَةُ، رُوِيَ أنَّ طُولَها سِتُّونَ ذِراعًا[3]، ولها قوائِمُ وزغَبٌ وريشٌ وجَناحانِ، لا يفوتُها هاربٌ ولا يُدرِكُها طالبٌ[4].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٩).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٩). وقوله: «وقرأ حمزة وحده ﴿وما أنتَ تَهْدِي العُمْيَ﴾» ليس في نسخة الفاروقي.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٢٧ـ٣٢٨) عن حذيفة.

(٤) قوله: «لها قوائِمُ وزغَبٌ وريشٌ وجَناحانِ» ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٣١٧). ورواه دون ذكر الجناحين يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٥٦٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢١٧٦)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١٨٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا. وقوله: «لا يدركها طالب...» ورد ضمن حديث رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٢٤)، ومن طريقه الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٣٨)، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعًا، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: إسناده لا يصح.

ورواه الطيالسي في «مسنده» (١١٦٥)، ومن طريقه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٣)، عن أبي سريحة حذيفة بن أسيد رضي الله عنه مرفوعًا. وللحديث عندهما إسنادان: الأول فيه إبهام الراوي عن حذيفة، والثاني فيه طلحة بن عمرو وهو متروك. ورواه بالإسناد الثاني الطبراني في «الكبير» (٣٠٣٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦)، والحاكم في «المستدرك» (٨٤٩٠) وقال: صحيح الإسناد! وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٧): فيه طلحة بن عمرو وهو متروك. =

ورُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ سُئِلَ: مِن أينَ مخرَجُها؟ فقالَ «مِن أعظَمِ المَساجِدِ حُرمَةً على اللهِ»[1]؛ يعني: المسجدَ الحرامَ.

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ مِن الكلامِ، وقيلَ: مِن الكَلْمِ، إذْ قُرِئَ: «تَكْلِمُهُم»[2].

ورُوِيَ: أنَّها تَخرُجُ ومعَها عَصا مُوسى وخاتمُ سُلَيمانَ، فتنكتُ بالعَصا في مَسجِدِ المؤمنِ نكتةً بيضاءَ فيبيَضُّ وجهُه، وبالخاتمِ في أنفِ الكافرِ نُكتةً سَوداءَ فيسوَدُّ وَجهُه[3].

= ورواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢١٧٥)، ونعيم في «الفتن» (١٨٦٨)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ٣٩١)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٣٤٤)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٢٢ ـ ١٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (٨٤٩١) وصححه، من طريق أبي الطفيل عن حذيفة رضي الله عنه موقوفًا. ووقع عند عبد الرزاق: حذيفة بن اليمان، وعند الفاكهي والطبري: حذيفة بن أسيد، وفي باقي المصادر: حذيفة، دون تعيين. وأبو الطفيل هو عامر بن واثلة يروي عن حذيفة بن اليمان وعن حذيفة بن أسيد، كما في «تهذيب الكمال» (١٤/ ٧٩ ـ ٨٠). وسواء كان هذا أو هذا، فمثله لا يقال بالرأي، والله أعلم.

(١) قطعة من حديث رواه الطبراني في «الأوسط» (١٦٣٥) من رواية أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد أُراه رَفَعه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨): رجاله ثقات.
ووردت أيضًا ضمن حديث رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٢٤)، ومن طريقه الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٣٨)، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعًا، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: إسناده لا يصح. وقد تقدمت قطعة منه قريبًا.

(٢) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٥١ ـ ١٥٢)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٤).

(٣) روى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (٧٩٣٧)، والترمذي (٣١٨٧) وحسنه، وابن ماجه (٤٠٦٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي إسناده علي بن زيد بن جُدْعان ضعيف، وأوس بن خالد مجهول، ولفظ الحديث: «تخرجُ الدَّابةُ ومعها خاتمُ سليمان، وعصا موسى، فتجلو وجهَ المؤمن، وتخطمُ أنفَ الكافرِ بالخاتم، حتَّى إنَّ أهلَ الخوانَ ليجتمعون، فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر، ويقول هذا: يا كافر، ويقول هذا: يا مؤمن».

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: خروجِها وسائرِ أحوالِها؛ فإنَّها مِن آياتِ اللهِ، وقيلَ: القرآنِ.

وقرأَ الكوفِيُّونَ: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بالفتحِ[1].

﴿لَا يُوقِنُونَ﴾: لا يَتيقَّنونَ. وهو حِكايَةُ مَعنى قولِها، أو حِكايَتُها لقولِ اللهِ، أو عِلَّةُ خُروجِها أو تكلُّمِها على حذفِ الجارِّ[2].

(٨٣) ـ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ يعني: يومَ القِيامَةِ ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بيانٌ للفَوجِ؛ أي: فَوْجًا مُكَذِّبينَ، و﴿مِن﴾ الأولى للتَّبعيضِ؛ لأنَّ أُمَّةَ كُلِّ نَبِيٍّ وأهلَ كُلِّ قرنٍ شاملٌ للمُصدِّقينَ والمُكذِّبينَ.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يُحبَسُ أَوَّلُهم على آخرِهم ليَتلاحَقُوا، وهو عبارةٌ عَن كثرَةِ عدَدِهم وتَباعُدِ أطرافِهم.

(٨٤) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى المحشرِ ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ الواوُ للحَالِ؛ أي: أكذَّبتُمْ بها باديءَ الرَّأيِ غيرَ ناظرينَ فيها نظرًا يُحيطُ علمُكم بكُنهِهَا وأنَّها حقيقَةٌ بالتَّصديقِ أو التَّكذيبِ؟ أو للعطفِ[3]؛ أي: أَجَمعْتُم بينَ التَّكذيبِ بها وعدمِ إلقاءِ الأذهانِ لتَحقُّقِها؟

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٦ ـ ٤٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٩). الكوفيُّونَ: حمزة وعاصم والكسائي.

(٢) قوله: «وهو حِكايَةُ مَعنى قولِها، أو حِكايَتُها لقولِ اللهِ» على القراءة بكسر همزة (إنَّ)، «أو عِلَّةُ خُروجِها أو تكلُّمِها» يعني: أو علة لخروجها أو علة لتكلمها على القراءة بفتح الهمزة «على حذفِ الجارِّ» وهو اللام التي هي للتعليل؛ والتقدير: لأن الناس. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٤/ ٤٥٠).

(٣) على الحال يكون المنكر التكذيب المقيَّد بقيد عدم التدبُّر، أما على العطف فالمنكر كل واحد من التكذيب وعدم التدبر على الاستقلال، ويكون الإنكار أشد على الجمع بينهما.

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أم أيَّ شيءٍ كُنتم تَعمَلونَهُ بعد ذلك؟ وهو للتَّبكيتِ إذْ لم يَفعَلُوا غيرَ التَّكذيبِ مِن الجَهلِ، فلا يقدرونَ أَنْ يَقُولوا: فَعَلْنا غيرَ ذلك.

(٨٥) ـ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾: حلَّ بهم العَذابُ الموعودُ وهو كَبُّهُم في النَّارِ بعدَ ذلك ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾: بسببِ ظُلمِهِم، وهو التَّكذيبُ بآياتِ اللهِ، ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ باعتذارٍ لشغلِهِم بالعَذابِ.

(٨٦) ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ليتحقَّقَ لَهُم التَّوحيدُ، ويُرشِدَهُم إلى تجويزِ الحَشْرِ وبعثةِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ تَعاقُبَ النُّورِ والظُّلمَةِ على وَجهٍ مَخصوصٍ غيرِ مُتعيِّنٍ بذاتِه[1] لا يكونُ إلَّا بقُدرَةٍ قاهِرَةٍ، وأنَّ مَن قدَرَ على إبدالِ الظُّلمَةِ بالنُّورِ في مادَّةٍ واحِدَةٍ قدَرَ على إبدالِ الموتِ بالحياةِ في مَوادِّ الأبدانِ، وأنَّ مَن جعلَ النَّهارَ ليُبصِرُوا فيه سَبَبًا مِن أَسبابِ مَعاشِهِم لعلَّه لا يُخِلُّ بما هو مَناطُ جميعِ مَصالِحِهِم في مَعاشِهِم ومَعادِهِم.

﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ بالنَّومِ والقَرارِ ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فإنَّ أصلَه: ليُبصِروا فيه، فبُولِغَ فيه بجعلِ الإبصارِ حالًا مِن أَحوالِه المجعولِ عليها بحيثُ لا يَنفَكُّ عنها[2].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لدلالَتِها على الأمورِ الثَّلاثَةِ.

---

(١) قوله: «غير متعين بذاته» يعني: لأنَّه حادث ممكن يحتاج إلى الغير. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٤٥٣).

(٢) وقدره أبو حيان: جعلنا الليل مظلمًا لتسكنوا فيه، والنهار مبصرًا لتتصرفوا فيه. قال السيوطي: وهو نوع بديعي يسمى الاحتباك. قلت: وقد سبق بيانه. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٦/ ٤٩٠)، و«التعريفات» للجرجاني (ص: ١٢)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (١/ ٢٢٥)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» للسيوطي (١/ ٢٤٢)، و«حاشية السيوطي» (٩/ ٥٨٠).

(٨٧) ـ ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾: في الصُّوَرِ[١] أو القَرنِ، وقيلَ: إنَّه تمثيلٌ لانبعاثِ الموتى بانبعاثِ الجَيشِ إذا نُفِخَ في البوقِ.

﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الهَولِ، وعبَّرَ عنه بالماضي لتَحقُّقِ وُقوعِه.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أن لا يفزعَ بأَنْ يُثبِّتَ قلبَهُ.

قيلَ: هُم جِبريلُ ومِيكائيلُ وإسرافيلُ وعَزرائيلُ.

وقيلَ: الحورُ والخَزَنَةُ وحَمَلةُ العَرشِ[٢].

وقيلَ: الشُّهداءُ[٣].

وقيلَ: مُوسَى عليه السَّلامُ لأنَّه صَعِقَ مَرَّةً[٤]. ولعلَّ المرادَ ما يعمُّ ذلك.

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾: حاضرونَ الموقِفَ بعدَ النَّفخَةِ الثَّانيَةِ، أو: راجعونَ إلى أمرِه.

---

(١) قوله: «في الصوَر» بضم الصاد وفتح الواو جمع صورة بناء على أنّ (الصور) بسكون الواو بمعناه. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٤٥٤).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ١٣٢) بلفظ: هم رضوان والحور ومالك والزبانية.

(٣) رواه إسحاق بن راهويه في «مسنده» (١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٤٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٠)، والطبراني في «الأحاديث الطوال» (٣٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. ورواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٥٦٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفًا عليه، ولعل الصواب وقفه.

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ١٣٠) عن جابر رضي الله عنه موقوفًا، وعزاه في «الدر المنثور» (٧/ ٢٥١) لابن المنذر. وروى البخاري (٢٤١١)، واللفظ له، ومسلم (٢٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا تخيِّروني على موسى؛ فإن الناس يَصعَقون يوم القيامة، فأُصعَق معهم، فأكون أوَّل مَن يَفيق، فإذا موسى باطشٌ جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صُعِق فأفاق قبلي، أو كان ممَّن استثنى الله».

وقرأَ حمزَةُ وحفصٌ: ﴿أَتَوْهُ﴾ على الفعلِ[١]، وقُرِئَ: «أَتَاهُ»[٢] لتَوحيدِ لفظِ الكُلِّ.

﴿دَاخِرِينَ﴾: صاغرينَ، وقُرِئَ: «دَخِرينَ»[٣].

(٨٨) ـ ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾: ثابتةً في مَكانِها ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ في السُّرعةِ، وذلك لأنَّ الأجرامَ الكبارَ إذا تحرَّكَت في سَمْتٍ واحدٍ لا تكادُ تتبيَّنُ حركتُها[٤].

﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ مصدرٌ مُؤكِّدٌ لنفسِهِ[٥]، وهو لِمَضمونِ[٦] الجملَةِ المتقدِّمَةِ؛ كقولِه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٩٥].

﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وسوَّاهُ على ما يَنبَغي.

﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾: عالمٌ بظَواهرِ الأفعالِ وبَواطِنِها فيُجازِيهم عليها؛ كما قالَ:

(٨٩) ـ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ إذ ثبتَ له الشَّريفُ بالخسيسِ، والباقي بالفانِي، وسبعُ مئةٍ بواحدٍ.

وقيلَ: ﴿خَيْرٌ مِنْهَا﴾؛ أي: خيرٌ حاصِلٌ مِن جِهَتِها، وهو الجنَّةُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٩).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٥)، عن قتادة.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٢) عن الحسن.

(٤) انظر: «تفسير الرازي» (٢٤/ ٥٧٤).

(٥) يعني: أن قوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ مفعول مطلق وجب حذف عامله لكونه تأكيدًا لمضمون الجملة المتقدمة. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ٤٢٣).

(٦) في نسخة الفاروقي: «مضمون».

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وهِشامٌ: ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا يَفعَلُونَ﴾ بالياءِ(١).

﴿وهُمْ مِن فَزَعٍ يَوْمئِذٍ آمِنُون﴾ يعني به: خوفَ عذابِ يومِ القيامَةِ، وبالأوَّلِ(٢): ما يَلحقُ الإنسانَ مِن التَّهيُّبِ لِمَا(٣) يرى مِن الأهوالِ والعَظائمِ، ولذلك يعمُّ الكافرَ والمُؤمِنَ، وقرأ الكوفِيُّونَ بالتَّنوينِ؛ لأنَّ المرادَ فزعٌ واحِدٌ مِن أفزاعِ ذلك اليومِ.

و«أمِنَ» يُعدَّى بالجارِّ وبنفسِه؛ كقولِه: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقرأ الكوفِيُّونَ ونافِعٌ: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بفتحِ الميمِ، والباقونَ بكَسرِها(٤).

(٩٠) ـ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قيلَ: بالشِّركِ ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾: فكُبُّوا فيها على وُجوهِهِم.

ويجوزُ أَنْ يُرادَ بالوُجوهِ أنفسُهُم؛ كما أُريدَت بالأَيدِي في قولِه: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ على الالتفاتِ، أو بإضمارِ القولِ؛ أي: قيلَ لَهُم في ذلك.

(٩١) ـ ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أُمِرَ الرَّسولُ عليهِ السَّلامُ بأن يقولَ لهم ذلك بعد ما بيَّنَ المبدأَ والمعادَ وشَرَحَ أحوالَ القيامَةِ، إشعارًا بأنَّه قد أَتَمَّ الدَّعوةَ وقد كملَتْ، وما عليه بعدُ إلَّا الاشتغالُ بشأنِه والاستغراقُ في عبادةِ رَبِّه، وتَخصيصُ مَكَّةَ بهذه الإضافةِ تَشريفٌ لها وتعظيمٌ لشَأنِها.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٩).

(٢) وهو المذكور في قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل: ٨٧].

(٣) في نسخة التفتازاني: «مما».

(٤) قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ بالتنوين ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بفتح الميم، وقرأ الباقون بغيرِ تنوين، وفتَح الميمَ نافع وخفضها الباقون. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٧٠).

وقُرِئَ: «التي حَرَّمَها»[١].

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ خَلْقًا وملكًا.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: المنقادينَ، أو الثَّابتينَ على مِلَّةِ الإسلامِ.

(٩٢) ـ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾: وأن أواظِبَ على تِلاوَتِه لتنكشِفَ لي حقائقُه في تِلاوَتِه شيئًا فشيئًا، أو اتِّباعِه[٢]، وقُرِئَ: «واتلُ عَلَيهِم»[٣]، «وأَنْ أَتلُ»[٤].

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ باتِّباعِه إِيَّايَ في ذلك ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾: فإنَّ مَنافِعَه عائدةٌ إليه.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ لِمُخالفَتِي[٥] ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، فلا عليَّ مِن وَبالِ ضَلالِه شيءٌ؛ إذ ما على الرَّسولِ إلَّا البلاغُ وقد بلَّغتُ.

(٩٣) ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمةِ النُّبوَّةِ، أو: على ما علَّمَني ووَفَّقَني للعملِ به.

﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القاهرةَ في الدُّنيا كوَقعَةِ بَدرٍ وخُروجِ دابَّـةِ الأَرضِ، أو في الآخرةِ.

﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾: فتَعرفونَ أنَّها آياتُ اللهِ، ولكن حينَ لا تَنْفَعُكُم المَعرِفَةُ.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تَحسبُوا أنَّ تأخيرَ عَذابِكُم لغَفلَتِه عن أعمالِكُم.

---

(١) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٢)، وله ولابن عباس رضي الله عنهم في «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٦٤).

(٢) معطوف على «تلاوته».

(٣) لفظها: «وَاتْلُ عَلَيْهِم هذا القرآنَ» نسبت لأُبيٍّ رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٢).

(٤) نسبت لابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٢).

(٥) في نسخة الفاروقي: «بمخالفتي».

وقُرِئَ في السَّبعةِ بالياءِ(١).

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ ﴿طسٓ﴾ كانَ لهُ مِن الأَجرِ عَشرُ حَسَناتٍ بعددِ مَن صدَّقَ سليمانَ وكذَّبَ بِهِ، وهودٍ وصالحَ وإبراهيمَ وشُعيبٍ، ويخرجُ مِن قبرِه وهو ينادي: لا إلهَ إلَّا اللهُ»(٢).

***

(١) قرأ بتاء المخاطبة نافع وابن عامر وحفص، والباقون بياء المغايبة. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٦).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٥٩) من حديث أبي رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٨٩٢)، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٢٧) سورة النمل مكية
وآياتها ثلاث وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ
عَلِيمٍ ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله تعالى: ﴿تلك آيات﴾ أي هذه آيات ﴿القرآن وكتاب مبين﴾ أي بيِّن واضح، ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن، لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وأيقن بالدار الآخرة، والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً﴾، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي يكذبون بها ويستبعدون وقوعها، ﴿زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾ أي حسنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم، فهم يتيهون في ضلالهم، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ الآية، ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ أي ليس يخسر سواهم من أهل المحشر، وقوله تعالى: ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي ﴿وإنك﴾ يا محمد ﴿لتلقى﴾ أي لتأخذ ﴿القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي من عند حكيم عليم أي حكيم في أمره ونهيه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾.

* إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ
إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ
لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ
يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾
فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام، كيف اصطفاه الله وكلمه وناجاه، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه فجحدوا بها وكفروا، فقال تعالى: ﴿إذ قال موسى لأهله﴾ أي اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق وذلك في ليل وظلام، فآنس من جانب الطور ناراً، أي رأى ناراً تأجج وتضطرم، فقال: ﴿لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر﴾ أي عن الطريق، ﴿أو آتيكم منها بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾ أي تستدفئون به وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾ أي فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء، قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج، وفي رواية عنه نور رب العالمين، فوقف موسى متعجباً مما رأى ﴿فنودي أن بورك من في النار﴾ قال ابن عباس: تقدس ﴿ومن حولها﴾ أي من الملائكة، روى ابن أبي حاتم عن أبي موسى رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل»، زاد المسعودي: «وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره» ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ أي الذي يفعل ما يشاء ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسماوات، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات.

وقوله تعالى: ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه، العزيز الذي عزَّ كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أقواله وأفعاله، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده، ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة، في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ والجان ضرب

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري وأصل الحديث في صحيح مسلم.

من الحيات أسرعه حركة وأكثره اضطراباً، فلما عاين موسى ذلك ﴿ولى مدبراً ولم يعقب﴾ أي لم يلتفت من شدة فرقه ﴿يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ أي لا تخف مما ترى فإني أريد أن أصطفيك رسولا، وأجعلك نبياً وجيهاً، وقوله تعالى: ﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيء، ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾، وقوله تعالى: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف، وقوله تعالى: ﴿في تسع آيات﴾ أي هاتان ثنتان من تسع آيات، أؤيدك بهن وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ كما تقدم تقرير ذلك هنالك، وقوله تعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ أي بينة واضحة ظاهرة ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ أي علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظلماً وعلواً﴾، أي ظلماً من أنفسهم ﴿وعلواً﴾ أي استكباراً عن اتباع الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم، وفحوى الخطاب، يقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى، فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه (داود) وابنه (سليمان) عليهما السلام، من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والنبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾، وقوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود﴾ أي في الملك والنبوة، وليس المراد وراثة المال إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ

في قوله: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة»، ﴿وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء﴾ أي أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير؛ وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً على اختلاف أصنافها، ولهذا قال تعالى: ﴿علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء﴾ أي ما يحتاج إليه الملك، ﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾ أي الظاهر البين لله علينا، وقوله تعالى: ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾ أي وجمع لسليمان جنوده من الجن، والإنس والطير، يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة، في الإنس وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها، وقوله ﴿فهم يوزعون﴾ أي يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته، قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة لئلا يتقدموا في السير كما يفعل الملوك اليوم.

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل﴾ أي حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ أي خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها، ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾، أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي عملاً تحبه وترضاه، ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ أي إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك. **والغرض** أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسم ضاحكاً من ذلك وهذا أمر عظيم جداً، وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال: خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك، وإلا تسقنا تهلكنا، فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم. وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قرصت نبياً من الأنبياء نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه، أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبّح؟ فهلا نملة واحدة؟»[1]

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾

قال ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾ حدث يوماً ابن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج يقال له (نافع

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً.

ابن الأزرق) وكان كثير الاعتراض على ابن عباس فقال له: قف يا ابن عباس غلبت اليوم، قال: ولم ؟ قال: إنك تخبر أن الهدهد يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ، ويحثو على الفخ تراباً فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي، فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول رددت على ابن عباس لما أجبته، ثم قال له: ويحك إنه إذا نزل القدر عمي البصر وذهب الحذر، فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً، وقال محمد بن إسحاق: كان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير، وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿ فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾ أخطأه بصري من الطير أم غاب فلم يحضر ؟ وقوله: ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً﴾ قال ابن عباس يعني نتف ريشه، وكذا قال غير واحد من السلف إنه نتف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر والنمل، وقوله: ﴿ أو لأذبحنه﴾ يعني قتله ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ بعذر بين واضح، وقال سفيان بن عيينة: لما أقدم الهدهد قالت له الطير: ما خلفك فقد نذر سليمان دمك، فقال: هل استثنى ؟ قالوا: نعم، قال: ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ قال: نجوت إذاً

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ فمكث﴾ الهدهد ﴿ غير بعيد﴾ أي غاب زماناً يسيراً ثم جاء فقال لسليمان ﴿ أحطت بما لم تحط به﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾ أي بخبر صدق حق يقين، وسبأ هم ملوك اليمن، ثم قال: ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم﴾ قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ، وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم﴾ كانت من بيت مملكة وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل، وكانت بأرض يقال لها (مأرب) على ثلاثة أميال من صنعاء، وقوله: ﴿ وأوتيت من كل شيء﴾ أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ ولها عرش عظيم﴾ يعني سرير تجلس عليه عظيم هائل، مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآليء، قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من مشرقه، ومثلها من مغربه، وقد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحاً ومساء، ولهذا قال: ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾ أي عن طريق الحق ﴿ فهم لا يهتدون﴾، وقوله: ﴿ ألا يسجدوا لله﴾ أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾ .

وقوله تعالى: ﴿الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ قال ابن عباس: يعلم كل خبيئة في السماء والأرض، وقال سعيد بن المسيب: الخبء الماء، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خبء السماوات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق، المطر من السماء والنبات من الأرض، وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها، وقوله: ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله تعالى: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾، وقوله: ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده، نهي عن قتله، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد[1]

* قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان للهدهد، حين أخبره عن أهل سبأ وملكهم ﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ أي أصدقت في إخبارك هذا ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ في مقالتك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾، وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها، وأعطاه ذلك الهدهد فحمله وذهب إلى بلادهم، فجاء إلى قصر بلقيس فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة فتحيرت مما رأت وهالها ذلك ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها ثم قالت لهم: ﴿يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم﴾ تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره، كون طائر ذهب به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدباً وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ولا سبيل لهم إلى ذلك ثم قرأته عليهم ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين﴾ فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام، وأنه لا قبل لهم به وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها. قال العلماء: لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام. وقوله: ﴿أن لا تعلوا عليّ﴾ قال قتادة يقول: لا تتجبروا علي ﴿وأتوني مسلمين﴾، وقال ابن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا عليّ وأتوني مسلمين، قال ابن عباس: موحدين، وقال غيره: مخلصين، وقال سفيان بن عيينة: طائعين .

قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه قال ابن كثير: وإسناده صحيح .

شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها، ولهذا قالت: ﴿يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ أي حتى تحضرون وتشيرون ﴿قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد﴾ أي منّوا عليها بعددهم وعددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾؟ أي نحن أشداء إن شئت أن تقصديه وتحاربيه فما لنا عاقة عنه، وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا رأيك نمتثله ونطيعه، قال الحسن البصري: فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم رأياً منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إليّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا، ولهذا قالت: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾، قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه أي خربوه، ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أي وقصدوا من فيها من الولاة والجنود فأهانوهم غاية الهوان إما بالقتل أو بالأسر، قال ابن عباس، قالت بلقيس: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾، قال الرب عزَّ وجلَّ: ﴿وكذلك يفعلون﴾، ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة فقالت: ﴿وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ أي سأبعث إليه بهدية تليق بمثله، وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا، قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس، وقال ابن عباس: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أنها بعثت إليه بهدية عظيمة، من ذهب وجواهر ولآلىء وغير ذلك، والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب، فلم ينظر سليمان إلى ما جاءوا به بالكلية ولا اعتنى به بل أعرض عنه، وقال منكراً عليهم ﴿أتمدونن بمال؟﴾ أي أتصانعونني بمال لأترككم على شركم وملككم؟ ﴿فما آتاني الله خير مما آتاكم﴾ أي الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود، خير مما أنتم فيه ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ أي أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف، قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة، فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا؟ وفي هذا جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد ﴿ارجع إليهم﴾ أي بهديتهم، ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها﴾ أي لا طاقة لهم بقتالهم ﴿ولنخرجنهم منها أذلة﴾ أي ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة، ﴿وهم صاغرون﴾ أي مهانون مدحورون، فلما رجعت إليها رسلها بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة

ذليلة معظمة لسليمان ناوية متابعته في الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ووفودهم إليه فرح بذلك وسره .

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

قال محمد بن إسحاق: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرته شيئاً، وبعثت إليه إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل في سبعة أبيات، ثم أقفلت عليه الأبواب، ثم قالت: لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما قبلك وسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يرينه أحد حتى آتيك، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده، فقال: ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾. وقال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه، وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستراً بالديباج والحرير، وكانت عليه تسعة مغاليق فكره أن يأخذه بعد إسلامهم، وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم، فقال: ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾، وهكذا قال عطاء الخراساني والسدي ﴿قبل أن يأتوني مسلمين﴾ فتحرم علي أموالهم بإسلامهم، ﴿قال عفريت من الجن﴾ أي مارد من الجن، ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ قال ابن عباس: يعني قبل أن تقوم من مجلسك، وقال مجاهد: مقعدك، وقال السدي وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات من أول النهار إلى أن تزول الشمس، ﴿وإني عليه لقوي أمين﴾ قال ابن عباس: أي قوي على حمله ﴿أمين﴾ على ما فيه من الجوهر، فقال سليمان عليه السلام: أريد أعجل من ذلك، ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم، أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك، ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ قال ابن عباس: وهو (آصف) كاتب سليمان عليه السلام.

وكذا روي عن يزيد بن رومان أنه (آصف بن برخياء) وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم، وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنس واسمه آصف[1] من بني إسرائيل، وقوله: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ أي ارفع

(١) وكذا قال أبو صالح والضحاك وزاد قتادة: كان مؤمناً من بني إسرائيل .

بصرك وانظر فإنه لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك، وقال وهب بن منبه: أمدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به، ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى، قال مجاهد: قال ياذا الجلال والإكرام. وقال الزهري قال: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها، قال: فتمثل بين يديه، فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقراً عنده ﴿قال هذا من فضل ربي﴾ أي هذا من نعم الله علي ﴿ليبلوني﴾ أي ليختبرني ﴿أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾، كقوله: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾، وكقوله: ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾، وقوله: ﴿ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ أي هو غني عن العباد وعبادتهم، كريم: أي كريم في نفسه وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾، وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها، فقال: ﴿نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ قال مجاهد: أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر، وما كان أخضر جعل أحمر، وغير كل شيء عن حاله، وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا ﴿فلما جاءت قيل أهكذا عرشك﴾ أي عرض عليها عرشها وقد غير ونكر وزيد فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر، فقالت ﴿كأنه هو﴾ أي يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم. وقوله: ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ قال مجاهد: يقوله سليمان، وقوله تعالى: ﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين﴾، هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام في قول مجاهد أي قال سليمان ﴿أوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾، وهي كانت قد صدها أي منعها من عبادة الله وحده ﴿ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين﴾[1]

قلت: ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي، وقوله: ﴿قيل لها ادخلي

(١) هذا الذي قاله مجاهد هو قول سعيد بن جبير وقد اختاره ابن جرير وابن كثير.

الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها﴾، وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصراً عظيماً من قوارير أي من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه، قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان: ثم قال لها ادخلي الصرح ليريها ملكاً هو أعز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها، فلما رأته حسبته لجة، وكشفت عن ساقيها لا تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها ﴿إنه صرح ممرد من قوارير﴾ فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله وحده وعاتبها في عبادة الشمس من دون الله، قالت: ﴿رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ فأسلمت وحسن إسلامها(١).

وأصل الصرح في كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع، قال الله سبحانه وتعالى إخباراً عن فرعون لعنه الله ﴿ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب﴾ الآية، والصرح قصر في اليمن عالي البناء، والممرد المبني بناء محكماً أملس ﴿من قوارير﴾ أي زجاج، والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج، لهذه الملكة ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله عزَّ وجلَّ، وقالت: ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾ أي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ أي متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له، الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها (صالح) عليه السلام، حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ قال مجاهد: مؤمن وكافر. ﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته، ولهذا قال: ﴿لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾ أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه، قال مجاهد: تشاءموا بهم، وهذا كما قال الله تعالى إخباراً عن قوم فرعون ﴿وإن تصبهم سيئة يطَّيروا بموسى ومن معه﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ٭ قل كل من عند الله﴾ أي بقضائه وقدره، وقال تعالى: ﴿قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ٭ قالوا طائركم معكم﴾ الآية، وقال هؤلاء ﴿اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله﴾ أي الله يجازيكم على ذلك ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية، والظاهر أن المراد بقوله ﴿تفتنون﴾ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال.

---

(١) روى ابن أبي شيبة أثراً غريباً عن ابن عباس ثم قال: ما أحسنه من حديث، وقد ضربنا صفحاً عنه لغرابته ونكارته ولأنه من الإسرائيليات، وهو كما قال ابن كثير: منكر جداً من أوهام عطاء بن السائب عن ابن عباس.

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر، وعقروا الناقة وهموا بقتل صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك. فقال تعالى: ﴿وكان في المدينة﴾ أي مدينة ثمود ﴿تسعة رهط﴾ أي تسعة نفر ﴿يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم، قال ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله ولعنهم[1]، **والغرض** أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها.

وقوله تعالى: ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله﴾ أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله (صالح) عليه السلام من لقيه ليلا غيلة، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين، وقال محمد بن إسحاق: قال هؤلاء التسعة، بعدما عقروا الناقة هلم فلنقتل صالحاً، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته، فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك. وقال ابن أبي حاتم: لما عقروا الناقة قال لهم صالح: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث، وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف أي غار هناك ليلاً فقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم، فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل بقومهم: فعذب الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا وأنجى الله صالحاً ومن معه، ثم قرأ: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية﴾ أي فارغة ليس فيها أحد ﴿بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

---

(١) قال السهيلي: ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وسماهم بأسمائهم، وذلك لا ينضبط برواية، ولا فيه كبير فائدة، غير أني أذكرهم على وجه الاجتهاد والتخمين، وهم: مصدع بن دهر، ويقال دهم، وقدار ابن سالف، وهريم، وصواب، ورياب، وراب، ودعمي، وهي، ورعين بن عمرو.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (لوط) عليه السلام أنه أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة، التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي (إتيان الذكور) دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، فقال ﴿ أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ أي يرى بعضكم بعضاً وتأتون في ناديكم المنكر ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون﴾ أي لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾ ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ أي يتحرجون من فعل ما تفعلونه ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم، فعزموا على ذلك فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، قال الله تعالى: ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين﴾ أي من الهالكين مع قومها، لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم، وقوله تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال: ﴿ فساء مطر المنذرين﴾ أي الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا بإخراجه من بينهم .

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول: ﴿ الحمد لله﴾ أي على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم رسله وأنبياؤه الكرام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام، هكذا قال عبد الرحمن بن أسلم هم الأنبياء، قال: وهو كقوله ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾، وقال الثوري والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم أجمعين[1] ، ولا منافاة فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا

(١) وروي نحو هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما .

على عباده المصطفين الأخيار، وقد روى أبو بكر البزار عن ابن عباس ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ قال: هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه رضي الله عنهم. وقوله تعالى: ﴿آلله خير أم ما يشركون﴾؟ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى. ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى: ﴿أمن خلق السموات﴾ أي خلق تلك السماوات في ارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، والنجوم الزاهرة، والأفلاك الدائرة، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار، والفيافي والقفار، والزروع والأشجار، والثمار والبحار، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من السماء ماء﴾ أي جعله رزقاً للعباد ﴿فأنبتنا به حدائق﴾ أي بساتين ﴿ذات بهجة﴾ أي منظر حسن وشكل بهي ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ أي لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به المشركون ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله﴾ أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، ولهذا قال تعالى: ﴿أإله مع الله؟﴾ أي أإله مع الله يعبد، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق، ومن المفسرين من يقول: معنى قوله ﴿أإله مع الله﴾ فعل هذا؟ وهو يرجع إلى معنى الأول، لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثَمّ أحد فعل هذا معه بل هو المتفرد به فيقال: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ كما قال تعالى: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ الآية، وقوله تعالى ههنا: ﴿أمن خلق السموات والأرض﴾ ﴿أمن﴾ في هذه الآيات كلها تقديره أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر، ثم قال: ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ أي يجعلون لله عدلاً ونظيراً، وهكذا قال تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾ أي أمن هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾.

أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى: ﴿أمن جعل الأرض قراراً﴾ أي قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً، ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء﴾، ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة، شقها في خلالها وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم، حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ﴿وجعل لها رواسي﴾ أي جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم ﴿وجعل بين البحرين حاجزاً﴾ أي جعل بين المياه العذبة والمالحة ﴿حاجزاً﴾ أي مانعاً يمنعها من الاختلاط،

لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلَهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالا يسقى منها الحيوان والنبات والثمار، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً لئلا يفسد الهواء بريحها، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿أإله مع الله﴾؟ أي فعل هذا أو يعبد على القول الأول والآخر؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي في عبادتهم غيره.

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾، وقال تعالى: ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه؟ قال الإمام أحمد عن أبي تميمة الهجيمي عن رجل من هجيم[1] قال: قلت يا رسول الله إلام تدعو؟ قال: «أدعوا إلى الله وحده، الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك» قال: قلت أوصني، قال: «لا تسبن أحداً ولا تزهدن في المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، واتزر إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة»، وفي رواية أخرى لأحمد عن جابر بن سليم الهجيمي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو محتب بشملة وقد وقع هدبها على قدميه، فقلت: أيكم محمد رسول الله؟ فأومأ بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله أنا من أهل البادية وفيَّ جفاؤهم فأوصني، قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه فإنه يكون لك أجره وعليه وزره، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة، ولا تسبن أحداً» قال: فما سببت بعده أحداً ولا شاة ولا بعيراً. وقال وهب بن منبه: قرأت في الكتاب الأول: إن الله تعالى يقول: بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السماوات بمن فيهن، والأرض بمن فيها، فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي، فإني أخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء فأكله إلى نفسه.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر (محمد بن داود الدينوري) المعروف بالدقي الصوفي، قال هذا الرجل: كنت أكاري على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني، فركب معي ذات مرة رجل، فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة، فقال لي: خذ في هذه فإنها أقرب، فقلت: لا خبرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر وواد عميق وفيه قتلى كثيرة، فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل، فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكيناً معه وقصدني ففررت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله،

(١) قوله عن رجل من هجيم ورد اسم الرجل في رواية أخرى ذكرها الإمام أحمد وهو جابر بن سليم الهجيمي.

وقلت: خذ البغل بما عليه، فقال: هو لي، وإنما أريد قتلك، فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه، وقلت إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين فقال: عجل فقمت أصلي، فأرتج عليّ القرآن، فلم يحضرني منه حرف واحد فبقيت واقفاً متحيراً، وهو يقول: هيه افرغ، فأجرى الله على لساني قوله تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة، فرمى بها الرجل، فما أخطأت فؤاده فخر صريعاً، فتعلقت بالفارس، وقلت: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً(١)

وقوله تعالى: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي يخلف قرناً لقرن قبلهم وخلفاً لسلف، كما قال تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾، وهكذا هذه الآية: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض، ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة ويجعلهم أمماً بعد أمم، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعدهم عداً، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله، ولهذا قال تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله﴾ أي يقدر على ذلك، أو أإله مع الله بعد هذا! وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له؟ ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

* أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى: ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال تعالى: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ الآية، ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين القنطين ﴿أإله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون﴾.

* أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

(١) أخرج القصة ابن عساكر وذكر قصة أخرى مشابهة تدل على إكرام الله لأوليائه وعباده الصالحين قال صاحب الجوهرة:

واثبتن للأولياء الكرامة   ومن نفاها فانبذن كلامه

أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إنه هو يبديء ويعيد﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض، كما قال تعالى: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾، فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً، فيسلكه ينابيع في الأرض، ثم يخرج به أنواع الزروع والثمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوان شتى ﴿كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿أإله مع الله﴾ أي فعل هذا وعلى القول الآخر بعد هذا ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ﴿إن كنتم صادقين﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلٰهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾.

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله. وقوله تعالى: ﴿إلا الله﴾ استثناء منقطع أي لا يعلم أحد ذلك إلا الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث﴾ إلى آخر السورة، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تعالى: ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أي وما يشعر الخلائق الساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة، كما قال تعالى: ﴿ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أي ثقل علمها على أهل السماوات والأرض، وقالت عائشة رضي الله عنها: من زعم أنه يعلم - يعني النبي ﷺ - ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، لأن الله تعالى يقول: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾[1]، وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن أناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب، وقضى الله تعالى أنه ﴿لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾[2]

وقوله تعالى: ﴿بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها﴾ أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها. قال ابن عباس ﴿بل ادّارك علمهم﴾ أي غاب، وقال قتادة ﴿بلى ادارك علمهم في الآخرة﴾ يعني بجهلهم بربهم، يقول: لم ينفذ لهم علم في الآخرة، هذا قول، وقال ابن جريج عن ابن عباس ﴿بل ادارك علمهم في الآخرة﴾ حين

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً قال ابن كثير: وهو كلام جليل متين صحيح

لم ينفع العلم، وبه قال عطاء والسدي: أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾، وكان الحسن يقرأ ﴿بل أدرك علمهم﴾ قال: اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة، وقوله تعالى: ﴿بل هم في شك منها﴾ عائد على الجنس والمراد الكافرون، كما قال تعالى: ﴿بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً﴾ أي الكافرون منكم، وهكذا قال ههنا: ﴿بل هم في شك منها﴾ أي شاكون في وجودها ووقوعها، ﴿بل هم منها عمون﴾ أي في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين، أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً، ثم قال: ﴿لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل﴾ أي ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً، وقولهم: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ يعنون ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أي أخذه قوم عمن قبلهم من كتب، يتلقاه بعض عن بعض وليس له حقيقة، قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي المكذبين بالرسل وبما جاءوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين؟ فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته، ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﷺ: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾ أي في كيدك ورد ما جئت به، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك، ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟ قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ قال ابن عباس: أن يكون قرب أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون، كقوله تعالى: ﴿ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً﴾، وقال تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾، وإنما دخلت اللام في قوله: ﴿ردف لكم﴾ لأنه ضمّن معنى عجّل لكم، كما قال مجاهد في رواية عنه ﴿عسى أن يكون ردف

لكم﴾ عُجّل لكم. ثم قال الله تعالى: ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ أي في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم، ﴿وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ أي يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به﴾، ﴿يعلم السر وأخفى﴾، ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السماوات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه، فقال تعالى: ﴿وما من غائبة﴾ قال ابن عباس: يعني وما من شيء ﴿في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾، وهذه كقوله: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾.

* إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان، أنه يقص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾، وقوله: ﴿وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ أي هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم، ثم قال تعالى: ﴿إن ربك يقضي بينهم﴾ أي يوم القيامة ﴿بحكمه وهو العزيز﴾ أي في انتقامه ﴿العليم﴾ بأفعال عباده وأقوالهم ﴿فتوكل على الله﴾ أي في جميع أمورك وبلغ رسالة ربك، ﴿إنك على الحق المبين﴾ أي أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة، وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ أي لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة وفي آذانهم وقر الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ۞ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ۞ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب، الخاضع لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام.

* وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض. قيل: من مكة، وقيل من غيرها كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى، فتكلم الناس على ذلك، قال ابن عباس والحسن وقتادة: تكلمهم كلاماً أي تخاطبهم مخاطبة، وقال عطاء الخراساني: تكلمهم فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، ويروى هذا عن علي واختاره ابن جرير، وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث

وآثار كثيرة، فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان، روى الإمام أحمد: عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا»[١]. **حديث آخر**: قال مسلم بن الحجاج عن عبد الله ابن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً». **حديث آخر**: وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، وخاصة أحدكم، وأمر العامة»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام، فتخطم أنف الكافر بالعصا، وتجلي وجه المؤمن بالخاتم حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر»[٢]. وعن وهب بن منبه أنه حكى من كلام عزير عليه السلام أنه قال: وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها، وتضع الحبالى قبل التمام، ويعود الماء العذب أجاجاً ويتعادى الأخلاء وتحرق الحكمة ويرفع العلم وتكلم الأرض التي تليها، وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يبلغون، ويتعبون فيما لا ينالون، ويعملون فيما لا يأكلون[٣]

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة، وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله، ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقريعاً وتصغيراً وتحقيراً، فقال تعالى: ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾ أي من كل قوم وقرن فوجاً أي جماعة ﴿ممن يكذب بآياتنا﴾، كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾، وقوله تعالى: ﴿فهم يوزعون﴾ قال ابن عباس: يدفعون، وقال قتادة: يرد أولهم على آخرهم، وقال عبد الرحمن بن زيد: يساقون ﴿حتى إذا جاءوا﴾ ووقفوا بين يدي الله عزَّ وجلَّ في مقام المساءلة ﴿قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه كذلك مسلم وأهل السنن وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي بهذا اللفظ وأخرجه الإمام أحمد بمثله إلا أنه قال: فتخطم أنف الكافر بالخاتم، وتجلو وجه المؤمن بالعصا حتى ان أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن، ويقول هذا يا كافر.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وقد ورد في بعض الآثار أن الدابة تخرج من موضع بالبادية قريباً من مكة، ويروى عن ابن عباس أنها تخرج من بعض أودية تهامة، وعن ابن مسعود: أنها تخرج من صدع بالصفا.

ماذا كنتم تعملون﴾ أي فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم، فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم، ﴿فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى﴾ فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال الله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ الآية، وهكذا قال ههنا ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم جواب، لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية، ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع: ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه﴾ أي في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم ﴿والنهار مبصراً﴾ أي منيراً مشرقا، فبسبب ذلك يتصرفون في المعايش والمكاسب والأسفار والتجارات، وغير ذلك من شئونهم التي يحتاجون إليها ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور، وفي حديث الصور: إن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع من في السماوات ومن في الأرض ﴿إلا من شاء الله﴾ وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وفي حديث مسلم الطويل قال: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارٌّ رزقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا. قال – وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله – أو قال ينزل الله – مطراً كأنه الطل – أو قال الظل، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ ثم يقال: أخرجوا بعث النار. فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون قال: فذلك يوم يجعل الولدان شيباً وذلك يوم يكشف عن ساق»(١). وقوله: ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا. الليت هو صفحة العنق أي أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً، فهذه (نفخة الفزع) ثم بعد ذلك (نفخة الصعق) وهو الموت، ثم بعد ذلك (نفخة القيام لرب العالمين) وهو النشور من القبور لجميع الخلائق، ولهذا قال تعالى: ﴿وكل أتوه داخرين﴾ أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾.

---

(١) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو بطوله، وهذا جزء من الحديث الصحيح.

وقال تعالى: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ وفي حديث الصور: أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في ثقب في الصور، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعدما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج، أرواح المؤمنين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقول الله عزَّ وجلَّ: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها، فتجيء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السم في اللديغ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾، وقوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب أي تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يوم تمور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً﴾، وقال تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾، وقال تعالى: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة﴾، وقوله تعالى: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿الذي أتقن كل شيء﴾ أي أتقن كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إنه خبير بما يفعلون﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه أتم الجزاء. ثم بيَّن تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾، قال قتادة: بالإخلاص، وقال زين العابدين: هي لا إله إلا الله. وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾، وقال تعالى: ﴿أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾، وقال تعالى: ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾، وقوله تعالى: ﴿ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار﴾ أي من لقي الله مسيئاً لا حسنة له أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه، ولهذا قال تعالى: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾. وقال ابن مسعود وابن عباس والضحاك والحسن وقتادة في قوله ﴿ومن جاء بالسيئة﴾: يعني بالشرك.

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله وآمراً له أن يقول: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾، وقوله تعالى: ﴿الذي حرمها﴾ أي الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس، قال، قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه» الحديث بتمامه. وقوله تعالى: ﴿وله كل شيء﴾ من باب عطف العام على الخاص أي هو رب هذه البلدة ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو، ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾

أي الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له، وقوله: ﴿وأن أتلو القرآن﴾ أي على الناس أبلغهم إياه، كقوله تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾، وكقوله تعالى: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق﴾ الآية، أي أنا مبلغ ومنذر، ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾ أي لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة، كقوله تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾، وقال: ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾، ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾ أي لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سيريكم آياته فتعرفونها﴾، كما قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾، وقوله تعالى: ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ أي بل هو شهيد على كل شيء.

عن عمر بن عبد العزيز قال: لو كان الله مُغْفلاً شيئاً لأغفل ما تعفي الرياح من أثر قدمي ابن آدم، وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب

[آخر تفسير سورة النمل، ولله الحمد والمنة]

* * *

[تم بعون الله وفضله المجلد الثاني ويليه المجلد الثالث مبدوءاً بسورة القصص]

تفسير سورة النمل

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) ﴾.

قد تقد الكلام فى « سورة البقرة » على الحروف المتقطعة(١) فى أوائل السُّوَر .

وقوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ أى: هذه آيات ﴿ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أى: بين واضح، ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمن (٢) بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] . وقال: ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ أى : يكذبون بها ، ويستبعدون وقوعها ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى: حَسَّنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم فى غيهم فهم يَتيهون فى ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] ، ﴿ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة، ﴿ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يامحمد ـ قال قتادة : ﴿ لَتُلَقَّى ﴾ أى : لتأخذ ـ ﴿ الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى أوامره ونواهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً [لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ] (٣) ﴾ [الأنعام : ١١٥] .

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

(١) فى ف : « المقطعة » . (٢) فى ف : « وأيقن » . (٣) زيادة من ف ، أ .

تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ (١) ، مذكراً له ما كان من أمر موسى ، كيف اصطفاه اللّه وكلمه ، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ﴾ أى : اذكر حين سار موسى بأهله ، فأضل الطريق ، وذلك فى ليل وظلام ، فآنس من جانب الطور ناراً ، أى : رأى ناراً تأجج (٢) وتضطرم ، فقال ﴿لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أى : عن الطريق ، ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أى : تتدفؤون به . وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيماً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى : فلما أتاها رأى (٣) منظراً هائلا عظيماً ، حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم فى شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعَنان السماء .

قال ابن عباس وغيره : لم تكن ناراً ، إنما كانت نوراً (٤) يتوَهَّج .

وفى رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوقف موسى متعجباً مما رأى ، فنودى أن بورك من فى النار . قال ابن عباس : [أى] (٥) قُدّس .

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى : من الملائكة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ـ [و] (٦) هو الطيالسى ـ حدثنا شعبة والمسعودى ، عن عمرو بن مُرَّة ، سمع أبا عُبَيْدة يحدث ، عن أبى موسى ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل (٧) ». زاد المسعودى : « وحجابه النور ـ أو النار ـ لو كشفها لأحْرَقَتْ سُبُحات وجهه كل شىء أدركه بصره » . ثم قرأ أبو عبَيدة : ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ

---

(١) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (٢) فى ف ، أ : « تتأجج » . (٣) فى ف : « ورأى » .
(٤) فى ف : « وإنما نور » . (٥ ، ٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف : « عمل الليل بالنهار وعمل النهار بالليل » .

وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (١) . وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيح لمسلم ، من حديث عمرو بنُ مرَّة ، به(٢).

وقوله : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى : الذى يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئا من مخلوقاته ، ولا يحيط به شىء من مصنوعاته ، وهو العلى العظيم ، المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد ، المنزه عن مماثلة المحدثات .

وقوله : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾: أعلمه (٣) أن الذى يخاطبه ويناجيه هو ربه اللّه العزيز ، الذى عز كل شىء وقهره وغلبه ، الحكيم فى أفعاله وأقواله .

ثم أمره أن يلقى عصاه من يده ؛ليظهر له دليلا واضحاً على أنه الفاعل المختار ، القادر على كل شىء . فلما ألقى موسى تلك العصا (٤) من يده انقلبت فى الحال حَيَّةً عظيمة هائلة فى غاية الكبر ، وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجان : ضرب من الحيات ، أسرعه حركة ، وأكثره اضطرابا ـ وفى الحديث نَهْىُ عن قتل جِنَّان (٥) البيوت (٦) ـ فلما عاين موسى ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى :لم يلتفت من شدة فرقه ، ﴿يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أى : لا تخف مما ترى ، فإنى أريد أن أصطَفيك رسولا ، وأجعلك نبياً وجيهاً .

وقوله : ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على [عمل] (٧) شىء ثم أقلع عنه ، ورجع وأناب ، فإن اللّه يتوب عليه ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه : ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ١١٠] والآيات فى هذا كثيرة جداً .

وقوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾: هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة اللّه الفاعل المختار ، وصدْق من جعل له معجزة ، وذلك أن اللّه ـ تعالى ـ أمره أن يُدخل يده فى جيب درْعِه ، فإذا أدخلها وأخرجها خَرجت بيضاء ساطعة ، كأنها قطعة قمر ، لها لمعان يتلألأ (٨) كالبرق الخاطف .

وقوله : ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أى : هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن ، وأجعلهن برهانا لك إلى فرعون وقومه ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

وهذه هى الآيات التسع التى قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء : ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك. وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أى : بينة واضحة ظاهرة ،

---

(١) ورواه أحمد فى مسنده (٤٠١/٤) من طريق وكيع عن المسعودى بنحوه .
(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٩) .
(٣) فى ف : « اعلم » . (٤) فى ف ، أ : « العصاة » . (٥) فى ف ، أ : « حيات » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٢٩٨) من حديث ابن عمر ،رضى الله عنهما .
(٧) زيادة من أ . (٨) فى ف : « تتلألأ » .

﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا [هنالك] (١) وانقلبوا صاغرين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أى : فى ظاهر أمرهم ، ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أى : علموا فى أنفسهم أنها حق (٢) من عند اللّه، ولكن جَحَدُوها وعاندوها وكابروها ، ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أى : ظلما من أنفسهم ، سَجِيَّة ملعونة ، ﴿وَعُلُوًّا﴾ أى: استكباراً عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى : انظر يا محمد كيف كان عاقبة كُفرهم (٣) ، فى إهلاك اللّه إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم فى صبيحة واحدة.

وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون بمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى ؛ فإن محمداً ، صلوات اللّه وسلامه عليه (٤) ، أشرف وأعظم من موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى ، بما آتاه اللّه من الدلائل المقترنة بوجوده فى نفسه وشمائله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ المواثيق له ، عليه (٥) من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان ، عليهما من اللّه السلام ، من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام فى الدنيا ، والنبوة والرسالة فى الدين ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن أبى حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن تمام (٦) : أخبرنى أبى ، عن جدى قال : كتب عمر بن عبد العزيز : إن اللّه لم ينعم على عَبد نعمة فحمد اللّه عليها ، إلا كان حَمْدُهُ أفضل من نعمته (٧) ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب اللّه المنزل ؛ قال اللّه تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وأى نعمة أفضل مما أوتى داود

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « صدق » . (٣) فى ف ، أ : « أمرهم » . (٤) فى ف : « ﷺ » .
(٥) فى ف : « عليهم » . (٦) فى ف : « هشام » . (٧) فى ف : « نعمه » .

وسليمان ، عليهما السلام .

وقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ أى : فى الملك والنبوة ، وليس المراد وراثةَ المال ؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائةُ امرأة . ولكن المراد بذلك وراثةُ الملك والنبوة ؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ [فى قوله](١): « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة (٢) » (٣) .

وقوله (٤): ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ(٥) ﴾، أى: أخبر سليمان بنعم الله عليه ، فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سَخَّر له الإنس والجن والطير . وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شىء لم يُعطَه أحد من البشر ـ فيما علمناه ـ مما أخبر الله به ورسوله . ومن زعم من الجهلة والرّعاع أنّ الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود ـ كما يتفوه به كثير من الناس ـ فهو قولٌ بلا علم . ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ، ويعرف ما تقول ، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، بل لم تزل (٦) البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خُلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله ، سبحانه وتعالى ، كان قد أفهم سليمان ، عليه السلام ، ما يتخاطب به الطيور فى الهواء ، وما تنطق (٧) به الحيوانات على اختلاف أصنافها ؛ولهذا قال : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : مما يحتاج إليه الملك ، ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ أى: الظاهر البين لله علينا .

قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : « كان داود ، عليه السلام ، فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب ، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع » . قال : «فخرج ذات يوم وأغلقت (٨) الأبواب ، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار ، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل ، والدار مغلقة ؟ والله لنفتضحن بداود ، فجاء داود، عليه السلام ، فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟ قال : الذى لا يهاب الملوك ، ولا يمتنع من الحجاب . فقال داود : أنت والله إذاً ملك الموت . مرحباً بأمر الله ، فتزمل داود ، عليه السلام ، مكانه حتى قبضت نفسه ، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس ، فقال سليمان ، عليه السلام ، للطير : أظلى على داود ، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض ،

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « ماتركناه فهو صدقة » .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٧٢٧) من حديث عائشة بلفظ : « لا نورث ما تركناه صدقة » . قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (١٢/٨) : وأما ما اشتهر فى كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » فقد أنكره جماعة من الأئمة ، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ : « نحن » ، وانظر بقية كلامه وحمله لمعنى الحديث فى الفتح .

(٤) فى ف : « وقال » . (٥) بعدها فى ف ، أ : « إن هذا لهو الفضل المبين » . (٦) فى ف : « بل نزل » .

(٧) فى ف : « وما ينطق » . (٨) فى ف : « وغلقت » .

فقال لها سليمان : اقبضى جناحا جناحا » قال أبو هريرة : يارسول الله ، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله ﷺ يده ، وغلبت عليه يومئذ المضرَحية (١) (٢) .

قال أبو الفرج بن الجَوْزىّ : المَضْرَحيّة (٣) : النسور الحُمر .

وقوله تعالى : ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى : وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، يعنى : ركب فيهم فى أبهة وعظمة (٤) كبيرة فى الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه ، والجن وهم بعدهم [يكونون] (٥) فى المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها .

وقوله : ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى : يكف أولهم على آخرهم ؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له .

قال مجاهد : جعل على كل صنف وزَعة ، يردون أولاها على أخراها ، لئلا يتقدموا فى المسير ، كما يفعل الملوك اليوم .

وقوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِى النَّمْلِ﴾ أى : حتى إذا مر سليمان ، عليه السلام ، بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل ، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ .

أورد (٦) ابن عساكر ، من طريق إسحاق بن بشر ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن : أن اسم هذه النملة حرس ، وأنها من قبيلة يقال لهم : بنو الشيصان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت بقدر الذّيب (٧) .

أى : خافت على النمل أن تحطمها (٨) الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها (٩) ، ففهم ذلك سليمان ، عليه السلام ، منها (١٠) ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أى : ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على ، من تعليمى منطق الطير والحيوان ، وعلى والدى بالإسلام لك ، والإيمان بك ، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أى : عملا تحبه وترضاه ، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أى : إذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك .

ومن قال من المفسرين : إن هذا الوادى كان بأرض الشام أو بغيره ، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب ، أو غير ذلك من الأقاويل ، فلا حاصل لها .

---

(١) فى ف : « المصرحية » .

(٢) المسند (٢/٤١٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٢٠٦) : « فيه المطلب بن عبد الله بن حنطب وثقه أبو زرعة وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٣) فى هـ ، ف ، أ : « المصرحية » والمثبت من لسان العرب ، مادة « ضرح » . (٤) فى ف : « عظيمة » .

(٥) زيادة من ف . (٦) فى ف ، أ : « فأورد » . (٧) فى ف : « الذئب » .

(٨) فى ف : « يحطمها » . (٩) فى ف : « مساكنهم » . (١٠) فى ف : « عنها » .

وعن نَوْف البكَالى أنه قال : كان نمل سليمان أمثال الذئاب . هكذا رأيته مضبوطا بالياء المثناه من تحت . وإنما هو بالباء الموحدة ، وذلك تصحيف ، والله أعلم .

والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، فهم قولها ، وتبسم ضاحكاً من ذلك (١) ، وهذا أمر عظيم جدًا .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا مِسْعَر، عن زيد العَمّى ، عن أبى الصديق الناجى قال : خرج سليمان (٢) ، عليه(٣) السلام ، يستسقى، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها إلى السماء ، وهى تقول : اللهم ، إنا خلق من خلقك ، ولا غنى بنا عن سقياك ، وإلا تسقنا تهلكنا . فقال سليمان ، عليه السلام : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وقد ثبت فى الصحيح ـ عند مسلم ـ من طريق عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن همام ، عن أبى هريرة ،عن النبى ﷺ [قال] (٤) : « قَرَصَت نبيا من الأنبياء نملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه ، أفى (٥) أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تُسَبِّح ؟ فهلا نملة واحدة ! » (٦) .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما ، عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندسا ، يدل سليمان ، عليه السلام ، على الماء ، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء فى تخوم الأرض ، كما يرى الإنسان الشىء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان ، عليه السلام ، الجان فحفروا له ذلك المكان ، حتى يستنبط (٧) الماء من قراره ، فنزل سليمان ، عليه السلام [يوما] (٨)، بفَلاَة من الأرض ، فتفقد الطير ليرى الهدهد ، فلم يره ، **﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾** .

حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا ، وفى القوم رجل من الخوارج ، يقال له :« نافع بن الأزرق » ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس ، فقال له : قف يا ابن عباس ، غُلبت اليوم ! قال: ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء فى تخوم الأرض ، وإن الصبى ليضع له الحبة فى الفخ ، ويحثو على الفخ تراباً ، فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع فى الفخ ، فيصيده الصبى . فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس ، لما أجبته . فقال (٩) له : ويحك ! إنه إذا نزل القَدَر عَمى البصر ، وذهب الحَذَر . فقال له نافع : والله لا أجادلك فى شىء من القرآن

---

(١) فى ف : « من قولها » . (٢) فى ف ، أ : « سليمان بن داود » . (٣) فى ف : « عليهما » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف ، أ : « أى » .
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٢٤١) .
(٧) فى ف : « يستنبطوا » . (٨) زيادة من ف ، أ . (٩) فى ف ، أ : « ثم قال » .

أبداً [١] .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عبد اللّه البَرْزىّ ـ من أهل « بَرْزَة » من غوطة دمشق، وكان من الصالحين يصوم [يوم] [٢] الإثنين والخميس ، وكان أعور قد بلغ الثمانين ـ فروى ابن عساكر بسنده إلى أبى سليمان بن زيد : أنه سأله عن سبب عَوَره ، فامتنع عليه ، فألح عليه شهوراً ، فأخبره أن رجلين من أهل خراسان نزلا عنده جمعة فى قرية برزة ، وسألاه عن واد بها ، فأريتهما إياه، فأخرجا مجامر وأوقدا فيها بخوراً كثيراً ، حتى عجعج الوادى بالدخان ، فأخذا يَعْزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما ، فلا يلتفتان إلى شىء منها ، حتى أقبلت حية نحو الذراع ، وعيناها توقدان مثل الدينار . فاستبشرا بها عظيما ، وقالا : الحمد اللّه الذى لم يُخَيب سفرنا من سنة، وكسرا المجامر ، وأخذا الحية فأدخلا فى عينها ميلا فاكتحلا به ، فسألتهما أن يكحلانى ، فأبيا ، فألححت عليهما وقلت : لابد من ذلك ، وتوعدتهما بالدولة ، فكحلا عينى الواحدة اليمنى ، فحين وقع فى عينى نظرت إلى الأرض تحتى مثل المرآة ، أنظر ما تحتها كما تُرى المرآة ، ثم قالا لى : سر معنا قليلا ، فسرت معهما وهما يحدثان ، حتى إذا بعدت عن القرية ، أخذانى فكتفانى ، وأدخل أحدهما يده فى عينى ففقأها ، ورمى بها ومضيا . فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً ، حتى مر بى نفر ففك وَثَاقى. فهذا ما كان من خبر عينى [٣] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن عمرو الغسانى ، حدثنا عَبّاد بن مَيْسَرة المِنْقَرِىّ ، عن الحسن قال : اسم هدهد سليمان ، عليه السلام : عنبر.

وقال محمد بن إسحاق : كان سليمان ، عليه السلام ، إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه: تفقد الطير ، وكان فيما يزعمون يأتيه نُوَبٌ مِن كل صنف من الطير ، كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلّها من حَضَره إلا الهدهد ، ﴿ **فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ** ﴾ أخطأه بصرى من الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟

وقوله : ﴿ **لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا** ﴾: قال الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد ، عن ابن عباس : يعنى نتف ريشه .

وقال عبد اللّه بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه، وتركه مُلْقىً يأكله الذر والنمل .

وقوله : ﴿ **أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ** ﴾ يعنى : قتله ، ﴿ **أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ﴾ أى : بعذر واضح بين .

وقال سفيان بن عيينة ، وعبد اللّه بن شداد : لما قدم الهدهد قال له الطير : ما خلفك ، فقد نذر سليمان دمك ! فقال : هل استثنى ؟ فقالوا : نعم ، قال : ﴿ **لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي**

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٠٥) من طريق المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير بنحوه .
(٢) زيادة من ف .
(٣) تاريخ دمشق (١٩/ ١٣٠ « المخطوط ») .

بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ، فقال : نجوت إذاً .

قال مجاهد : إنما دفع [الله] (١) عنه ببره بأمه (٢).

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) ﴾.

يقول تعالى : ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي : غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي : بخبر صدق حق يقين .

وسبأ هم : حِمْير، وهم ملوك اليمن .

ثم قال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ ، قال الحسن البصرى : وهى بلقيس بنت شَرَاحيل ملكة سبأ .

وقال قتادة : كانت أمها جنية ، وكان مُؤخَّر قدميها مثل حافر الدابة ، من بيت مملكة .

وقال زهير بن محمد : هى بلقيس بنت شَرَاحيل بن مالك بن الريان ، وأمها فارعة الجنية .

وقال ابن جُرَيْج : بلقيس بنت ذى شرخ ، وأمها يلتقة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا سفيان ـ يعنى ابن عيينة ـ عن عطاء بن السائب ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كان مع صاحبة (٣) سليمان ألف قَيْل ، تحت كل قيل مائة ألف [مقاتل] (٤) .

وقال الأعمش ، عن مجاهد : كان تحت يدى ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل ، تحت كل قَيْل : مائة ألف مقاتل .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا (٥) مَعْمَر ، عن قتادة فى قوله : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾: كانت من بيت مملكة ، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر رجلا ، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل . وكانت بأرض يقال لها مأرب ، على ثلاثة أميال من صنعاء .

وهذا القول هو أقرب ، على أنه كثير على مملكة اليمن ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى : من متاع الدنيا ما (٦) يحتاج إليه الملك المتمكن ،﴿وَلَهَا

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « أمه » . (٣) فى ف : « كان لصاحبة » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف : « عن » . (٦) فى ف : « مما » .

عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعنى : سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب ، وأنواع الجواهر واللآلىء .

قال زهير بن محمد : كان من ذهب صفحتاه ، مرمول بالياقوت والزبرجد . [طوله ثمانون ذراعاً ، وعرضه أربعون ذراعاً .

وقال محمد بن إسحاق : كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد] (١) واللؤلؤ ، وكان إنما يخدمها النساء ، لها ستمائة امرأة تلى الخدمة (٢) .

قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير فى قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم ، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه (٣) ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها ،فيسجدون لها صباحاً ومساء ؛ولهذا قال : ﴿ **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ أى: عن طريق الحق، ﴿ **فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ** ﴾.

وقوله : ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ** ﴾ [معناه : ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ** ﴾] (٤) أى : لا يعرفون سبيل الحق التى هى إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شىء من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [فصلت : ٣٧] .

وقرأ بعض القراء : « ألا يا اسجدوا لله » ، جعلها « ألا » الاستفتاحية ، و« يا » للنداء ، وحذف المنادى ، تقديره عنده :« ألا يا قوم ، اسجدوا لله ».

وقوله: ﴿ **الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾: قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: يعلم كل خبيئة فى السماء والأرض . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة، وغير واحد .

وقال سعيد بن المسيب : الخَبْء : الماء . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : خبء السموات والأرض : ما جعل فيها من الأرزاق : المطر من السماء ، والنبات من الأرض .

وهذا مناسب من كلام الهدهد ، الذى جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره ، من أنه يرى الماء يجرى فى تخوم الأرض ودواخلها .

وقوله : ﴿ **وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** ﴾ أى : يعلم ما يخفيه العباد ، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال .وهذا كقوله تعالى: ﴿ **سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ** ﴾ [الرعد : ١٠] .

---

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى ف : « امرأة تليها » .

(٣) فى ف : « من شرقية ومثلها من غربية » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

وقوله: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أى: هو المدعو اللّه، وهو الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذى ليس فى المخلوقات أعظم منه.

ولما كان الهدهد داعيا إلى الخير، وعبادة اللّه وحده والسجود له، نهى عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن أبى هريرة، رضى اللّه عنه، قال: نهى النبى ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرَدَ. وإسناده صحيح [١].

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) ﴾.

يخبر تعالى عن قيل سليمان، عليه السلام، للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى: أصدقت [٢] فى إخبارك هذا، ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى مقالتك، فتتخلص [٣] من الوعيد الذى أوعدتك؟ ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ وذلك أن سليمان، عليه السلام، كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها. وأعطاه لذلك الهدهد فحمله، قيل: فى جناحه كما هو عادة الطير، وقيل: بمنقاره. وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التى كانت تختلى فيها بنفسها، فألقاه إليها من كُوَّة هنالك [٤] بين يديها، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ تعنى بكرمه: ما رأته من عجيب أمره، كون طائر أتى به [٥] فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم، ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾. فعرفوا أنه من نبى اللّه سليمان، وأنه لا قِبَل لهم به. وهذا الكتاب فى غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حَصّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتب أحد ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قبل سليمان، عليه السلام.

وقد روى ابن أبى حاتم فى ذلك حديثاً فى تفسيره، حيث قال: حدثنا أبى، حدثنا هارون بن الفضل [٦] أبو يعلى الحناط [٧]، حدثنا أبو يوسف، عن سلمة بن صالح، [عن عبد الكريم] [٨] أبى أمية، عن ابن بُرَيدة، عن أبيه قال: كنت أمشى مع رسول اللّه ﷺ فقال: « إنى أعلم آية لم

---

(١) لم أجده من حديث أبى هريرة إلا عند ابن ماجة فى السنن برقم (٣٢٢٣) بلفظ: « نهى رسول الله ﷺ عن قتل الصرد والضفدع والنملة والهدهد ». وهو بهذا اللفظ من حديث ابن عباس فى مسند الإمام أحمد (١/ ٣٣٢) وسنن أبى داود برقم (٥٢٦٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٢٢٤).

(٢) فى ف: « صدقت ». (٣) فى ف: « لتتخلص ». (٤) فى ف، أ: « هناك ».

(٥) فى ف، أ: « جاء به ». (٦) فى أ: « المفضل ». (٧) فى ف، أ: « الخياط ». (٨) زيادة من ف، أ.

تنزل على نبى قبلى بعد سليمان بن داود » . قال : قلت : يارسول الله ، أى آية ؟ قال : «سأعلمكها قبل أن أخرج من المسجد» . قال : فانتهى إلى الباب ، فأخرج إحدى قدميه ، فقلت : نسى ، ثم التفت إلى وقال : ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(١) .

هذا حديث غريب ، وإسناده ضعيف .

وقال ميمون بن مهْرَان : كان رسول الله ﷺ يكتب : باسمك اللهم ، حتى نزلت هذه الآية ، فكتب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾.

وقوله : ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾: يقول (٢) قتادة : لا تجبروا على ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا تمتنعوا ولا تتكبروا على .

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾: قال ابن عباس : موحدين . وقال غيره : مخلصين . وقال سفيان بن عُيَيْنَة: طائعين .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾.

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم فى أمرها ، وما قد نزل بها ؛ ولهذا قالت :﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أى :حتى تحضرون وتشيرون . ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أى : مَنُوْا إليها بعَدَدهم وعددهم وقوتهم ، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أى : نحن ليس لنا عاقة [ولا بنا بأس ، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه ، فما لنا عاقة] (٣) عنه . وبعد هذا فالأمر (٤) إليك ، مرى فينا برأيك (٥) نمتثله ونطيعه .

قال الحسن البصرى ، رحمه الله : فوضوا أمرهم إلى علْجة تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا ، كانت هى أحزم رأياً منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه (٦) لا قبل لها بجنوده وجيوشه ، وما سُخّر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهَدَت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعا ، فقالت لهم : إنى أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه ، فيقصدنا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلىّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا ؛ ولهذا قالت :﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾.

---

(١) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصفهان (٢/١٨٧) من طريق الحسين بن حفص عن أبى يوسف به .

(٢) فى ف : « قال » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى أ : « وبعدها فالأمر » .

(٥) فى ف : « رأيك » . (٦) فى ف : « وأنها » .

قال ابن عباس : أى إذا دخلوا بلداً (١) عَنْوَة أفسدوه ، أى : خرّبوه ، ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أى : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر .

قال ابن عباس : قالت بلقيس : ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً (٢)﴾، قال الرب،عز وجل : ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة ، فقالت : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أى : سأبعث إليه بهدية تليق به (٣) وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك ، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا ، أو يضرب علينا خَرَاجا نحمله إليه فى كل عام ، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا . قال قتادة : رحمها اللّه ورضى عنها، ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها !! علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس .

وقال ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه .

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين ، من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك . وقال بعضهم : أرسلت إليه بلَبِنَة من ذهب . والصحيح أنها أرسلت [إليه] (٤) بآنية من ذهب .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما : وأرسلت جوارى فى زى الغلمان ، وغلمان فى زى الجوارى ، وقالت : إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبى . قالوا : فأمرهم [سليمان] (٥) ، عليه السلام ، أن يتوضؤوا ، فجعلت الجارية تُفرغ على يدها من الماء ، وجعل الغلام يغترف ، فميزهم بذلك .

وقيل : بل جعلت الجارية تغسل باطن (٦) يدها قبل ظاهرها ، والغلام بالعكس .

وقيل : بل جعلت الجوارى يغتسلن (٧) من أكفهن إلى مرافقهن ، والغلمان من مرافقهم إلى أكفهم . ولا منافاة بين ذلك كله ، واللّه أعلم .

وذكر بعضهم : أنها أرسلت إليه بقدح ليملأه ماء رواء ، لا من السماء ولا من الأرض ، فأجرى الخيل حتى عرقت ، ثم ملأه من ذلك . وبخرزة وسلك ليجعله فيها ، ففعل ذلك . واللّه أعلم أكان ذلك أم لا ، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات . والظاهر أن سليمان ، عليه السلام ، لم ينظر إلى ما

---

(١) فى أ : « بلدة » . (٢) فى ف ، أ : « أذلة وكذلك يفعلون » . (٣) فى ف : « بمثله » .
(٤ ، ٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « بطن » . (٧) فى ف : « يغسلن » .

جاؤوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكراً عليهم : ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أى: أتصانعوننى بمال لأترككم على شرككم وملككم ؟! ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ أى : الذى أعطانى الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أى : أنتم الذين (١) تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف .

قال الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة . فلما رأت رسلها ذلك قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا . وفى هذا دلالة على جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد .

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أى : بهديتهم ، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أى : لا طاقة لهم بقتالهم ، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا﴾ أى : من بلدهم ، ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أى : مهانون مدحورون.

فلما رجعت إليها رسلُها بهديتها ، وبما قال سليمان ، سمعت وأطاعت هى وقومها ، وأقبلت تسير إليه فى جنودها خاضعة ذليلة ، معظمة لسليمان ، ناوية متابعته فى الإسلام . ولما تحقق سليمان ، عليه السلام ، قدومهم عليه ووفودهم إليه ، فرح(٢) بذلك وسَرَّه .

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾.

قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومَان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد ـ والله ـ عرفتُ ، ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وما نصنع بمكاثرته (٣) شيئاً . وبعثت إليه: إنى قادمة عليك بملوك قومى ، لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه ـ وكان من ذهب مفَصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ ـ فجعل فى سبعة أبيات ، بعضها فى بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ، ثم قالت لمن خَلَفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك ، وسرير ملكى ، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يَرَينَّه أحد حتى آتيك . ثم شَخَصَت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قَيْل من ملوك اليمن ، تحت يدى كل قَيْل منهم ألوف كثيرة . فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دَنت جمع من عنده من الجن والإنس ، ممن تحت يديه ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وقال قتادة : لما بلغ سليمان أنها جائية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه ، وكان من ذهب ،

(١) فى أ : « الذى » . (٢) فى ف : « ففرح » .
(٣) فى هـ : « بمكابرته »، والمثبت من ف ، أ ، والطبرى (١٩/ ١٠٠) .

وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مستراً بالديباج والحرير ، وكانت عليه تسعة مغاليق (١) ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبى الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دمائهم فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ .

وهكذا قال عطاء الخراسانى ، والسُّدِّى ، وزُهير بن محمد : ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فتحرم على أموالهم بإسلامهم .

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ : قال مجاهد : أى مارد من الجن .

قال شُعَيب الجبائى : وكان اسمه كوزن . وكذا قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان . وكذا قال أيضا وهب بن منبه .

قال أبو صالح : وكان كأنه جبل .

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ : قال ابن عباس : يعنى : قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك ، وقال السدى ، وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام (٢) من أول النهار إلى أن تَزول الشمس .

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ : قال ابن عباس : أى قوى على حمله ، أمين على ما فيه من الجوهر .

فقال سليمان ، عليه السلام : أريد أعجل من ذلك . ومن ههنا يظهر أن النبى سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك ، وسَخَّر له من الجنود ، الذى لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده . وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها ؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتى بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يَقْدموا عليه . هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة . فلما قال سليمان : أريد أعجل من ذلك ، ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ـ قال ابن عباس : وهو آصف كاتب سليمان . وكذا رَوَى محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان : أنه آصف بن برخياء ، وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم .

وقال قتادة : كان مؤمناً من الإنس ، واسمه آصف . وكذا قال أبو صالح ، والضحاك ، وقتادة : إنه كان من الإنس ـ زاد قتادة : من بنى إسرائيل .

وقال مجاهد : كان اسمه أسطوم .

وقال قتادة ـ فى رواية عنه ـ : كان اسمه بليخا .

وقال زهير بن محمد : هو رجل من الأندلس (٣) يقال له : ذو النور .

وزعم عبد الله بن لَهيعة : أنه الخضر . وهو غريب جداً .

وقوله : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أى : ارفع بصرك وانظر مُدّ بصرك مما تقدر عليه ، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك .

---

(١) فى ف : « معاليق » . (٢) فى ف ، أ : « والطعام » . (٣) فى أ : « الإنس » .

وقال وهب بن منبه : امدد بصرك ، فلا يبلغ مداه حتى آتيك به .

فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التى فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فتوضأ ، ودعا اللّه عز وجل .

قال مجاهد : قال : ياذا الجلال والإكرام . وقال الزهرى : قال : يا إلهنا وإله كل شيء ، إلهاً واحداً ، لا إله إلا أنت ، ائتنى بعرشها . قال : فتمثل له بين يديه .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن إسحاق ، وزهير بن محمد ، وغيرهم : لما دعا اللّه، عز وجل ، وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس ـ وكان فى اليمن ، وسليمان ، عليه السلام ، ببيت المقدس ـ غاب السرير ، وغاص فى الأرض ، ثم نبع من بين يدى سليمان ، عليه السلام .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه . قال : وكان هذا الذى جاء به من عُبَّاد البحر ، فلما عاين سليمان ومَلَؤه ذلك ، ورآه مستقراً عنده ، ﴿**قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي**﴾ أى : هذا من نعم اللّه على ، ﴿**لِيَبْلُوَنِي**﴾ أى : ليختبرنى، ﴿**أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ**﴾، كقوله : ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**﴾ [فصلت : ٤٦] ، وكقوله :﴿**وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ**﴾ [الروم : ٤٤].

وقوله : ﴿**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ أى : هو غنى عن العباد وعبادتهم ، ﴿**كَرِيمٌ**﴾ أى : كريم فى نفسه ، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة (١) إلى أحد ، وهذا كما قال موسى:﴿**إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [إبراهيم : ٨] .

وفى صحيح مسلم : « يقول اللّه تعالى : يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم [ثم أوفيكم إياها] (٢) فمن وجد خيرا فليحمد اللّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٣) .

﴿**قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ**

---

(١) فى أ : « تفتقر » . (٢) زيادة من ف ، أ ، وصحيح مسلم .
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر الغفارى ،رضى الله عنه.

سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾.

لما جيء سليمان، عليه السلام، بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يغير بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به، فقال: ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُون ﴾.

قال ابن عباس: نزع عنه فصوصه ومرافقه.

وقال مجاهد: أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر: وما كان أخضر جعل أحمر، غير كل شيء عن حاله.

وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا.

[وقال قتادة: جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره، وزادوا فيه ونقصوا] (١).

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أى: عرض عليها عرشها، وقد غير ونُكِّر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لُب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غير وبدل ونكر، فقالت: ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أى: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية فى الذكاء والحزم.

وقوله: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾: قال مجاهد: سليمان يقوله.

وقوله: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِين ﴾: هذا من تمام كلام سليمان، عليه السلام ـ فى قول مجاهد، وسعيد بن جبير، رحمهما الله ـ أى: قال سليمان: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾، وهى كانت قد صدها، أى: منعها من عبادة الله وحده. ﴿ مَا(٢) كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِين ﴾. وهذا الذى قاله مجاهد وسعيد حَسَنٌ (٣)، وقاله ابن جرير أيضا.

ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون فى قوله: ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان، أو إلى الله، عز وجل، تقديره: ومنعها، ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: صدها عن عبادة غير الله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِين ﴾.

قلت: ويؤيد قول مجاهد: أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما سيأتى.

وقوله: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ وذلك أن سليمان، عليه السلام، أمر الشياطين فبنوا له قصراً عظيما من قوارير، أى: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذى لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشى وبينه. واختلفوا فى السبب الذى دعا

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ف: « بل » وهو خطأ. (٣) فى أ: « سعيد بن جبير أيضا ».

سليمان ، عليه السلام ، إلى[١] اتخاذه ، فقيل : إنه لما عزم على تزويجها واصطفائها لنفسه؛ ذكر له جمالها وحسنها ، ولكن فى ساقيها هُلْبٌ[٢] عظيم ، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة . فساءه ذلك ، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا ؟ ـ هذا قول محمد بن كعب القُرَظى ، وغيره ـ فلما دخلت وكشفت عن ساقيها ، رأى أحسن الناس وأحسنه قدماً ، ولكن رأى على رجليها شعراً ؛ لأنها ملكة ليس لها بعل [٣] ، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها : الموسى ؟ فقالت : لا أستطيع ذلك . وكره سليمان ذلك ، وقال [٤] للجن : اصنعوا شيئاً غير الموسى يذهب به هذا الشعر ، فصنعوا له النُورَةَ . وكان أول من اتخذت له النّورَة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظى ، والسدى ، وابن جُرَيْج ، وغيرهم .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومان : ثم قال لها : ادخلى الصرح ، ليريها مُلْكاً هو أعزّ من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها . فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، فقيل لها : إنه صرح مُمَرّد من قوارير . فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة اللّه وعاتبها فى عبادتها الشمس [٥] من دون اللّه .

وقال الحسن البصرى : لما رأت العلْجَةُ الصرح عرفت ـ واللّه ـ أن قد رأت ملكاً أعظم من ملكها.

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن منبه قال : أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج ، كأنه الماء بياضا . ثم أرسل الماء تحته ، ثم وضع له فيه سريره ، فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، ثم قال : ادخلى الصرح ، ليريها ملكا هو أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها ، ﴿**فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا**﴾ ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، قيل لها : ﴿**إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ**﴾، فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة اللّه،عز وجل ، وعاتبها فى عبادتها الشمس من دون اللّه . فقالت بقول الزنادقة ، فوقع سليمان ساجداً إعظاما لما قالت ، وسجد معه الناس ، فسقط فى يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع ، فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ! ماذا قلت ؟ ـ قال : [٦] وأنسيت ما قالت [٧] ـ فقالت : ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، فأسلمت وحسن إسلامها .

وقد روى الإمام أبو بكر بن أبى شيبة فى هذا أثراً غريبا عن ابن عباس ، قال : [٨] حدثنا الحسين ابن على ، عن زائدة ، حدثنى عطاء بن السائب ، حدثنا مجاهد ـ ونحن فى الأزد ـ قال : حدثنا ابن عباس قال : كان سليمان ، عليه السلام ، يجلس على سريره ، ثم تُوضَعُ كراسى حوله ، فيجلس عليها الإنس ، ثم يجلس [٩] الجن ، ثم الشياطين ، ثم تأتى الريح فترفعهم ، ثم تظلهم الطير، ثم

---

(١) فى ف : « فى » . (٢) فى أ : « هلف » (٣) فى ف ، أ : « زوج » .
(٤) فى ف : « وقال سليمان » . (٥) فى ف ، أ : « الشيطان » . (٦) فى ف : « قالت » .
(٧) فى ف : « ما قلت ». (٨) فى ف : « فقال » . (٩) فى ف : « تجلس » .

يغدون قدر ما يشتهى الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهراً ، قال : فبينما هو ذات يوم فى مسير له ، إذ تفقد الطير ففقد الهدهد فقال (١) : ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ، قال : فكان عذابه إياه أن ينتفه ، ثم يلقيه فى الأرض ، فلا يمتنع من نملة ولا من شىء من هوام الأرض .

قال عطاء : وذكر سعيد بن جُبَير عن ابن عباس مثل حديث مجاهد ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ـ فقرأ حتى انتهى إلى قوله ـ : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا ﴾ وكتب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، إلى بلقيس : ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ، فلما ألقى الهدهد بالكتاب (٢) إليها ، ألقى فى رُوعها : إنه كتاب كريم ، وإنه من سليمان ، وأن لا تعلوا على وائتونى مسلمين . قالوا : نحن أولو قوة . قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وإنى مرسلة إليهم بهدية . فلما جاءت الهدية سليمان قال : أتمدوننى بمال ، ارجع إليهم . فلما نظر إلى الغبار ـ أخبرنا ابن عباس قال : وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة ، قال عطاء : ومجاهد حينئذ فى الأزد ـ قال سليمان : أيكم يأتينى بعرشها ؟ قال : وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين ، ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ ـ قال : وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس ، كما يجلس الأمراء ثم يقوم ـ قال (٣) : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ ، قال سليمان : أريد أعجل من ذلك . فقال الذى عنده علم من الكتاب : أنا أنظر فى كتاب ربى ، ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . قال : [فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه رد سليمان بصره] (٤) ، فنبع عرشها من تحت قدم سليمان ، من تحت كرسى كان سليمان يضع عليه رجله ، ثم يصعد إلى السرير . قال : فلما رأى سليمان عرشها [مستقرًا عنده] (٥) قال : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ ، ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ ، فلما جاءت قيل لها : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو . قال : فسألته عن أمرين ، قالت لسليمان : أريد ماء [من زبد رواء] (٦) ليس من أرض ولا من سماء ـ وكان سليمان إذا سئل عن شىء ، سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين . [قال] (٧) فقالت الشياطين : هذا هين ، أجْرِ الخيلَ ثم خذ عرقها ، ثم املأ منه الآنية . قال : فأمر بالخيل (٨) : فأجريت ، ثم أخذ عرقها فملأ منه الآنية . قال : وسألت عن لون اللّه ، عز وجل . قال : فوثب سليمان عن سريره ، فخر ساجداً ، فقال : يارب ، لقد سألَتْنى عن أمر إنه يتكايد (٩) ، أى : يتعاظم فى قلبى أن أذكره لك . قال : ارجع فقد كفيتَكهم ، قال : فرجع إلى سريره فقال : ما سألت عنه ؟ قالت : ما سألتك إلا عن الماء . فقال لجنوده : ما سألت عنه ؟ فقالوا : ما سألتك إلا عن الماء . قال : ونَسوه كلّهم . قال : وقالت الشياطين لسُلَيمان : تُريدُ أن تتخذها لنفسك (١٠) ، فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد ، لم ننفك من عبوديته . قال : فجعلوا صرحاً ممرداً من قوارير ، فيه السمك . قال : فقيل لها :

---

(١) فى ف : « قال وتفقد الهدهد قال » . (٢) فى ف ، أ : « هذا الكتاب » . (٣) فى ف ، أ : « فقال » .
(٤ ، ٥) زيادة من ف ، أ . (٦ ، ٧) زيادة من ف . (٨) فى ف : « أمر الخيل » . (٩) فى ف ، أ : « ليتكابر » .
(١٠) فى ف ، أ : « يريد أن يتخذها لنفسه » .

ادخلى الصرح. فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، فإذا هى شَعْرَاء . فقال سليمان : هذا قبيح ، ما يذهبه ؟ فقالوا : تذهبه (١) المواسى . فقال : أثر الموسى (٢) قبيح ! قال : فجعلت الشياطين النورَة. قال : فهو أول من جُعلت له النورة .

ثم قال أبو بكر بن أبى شيبة : ما أحسنه من حديث .

قلت : بل هو منكر غريب جداً ، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ، والله أعلم. والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما يوجد فى صحفهم ، كروايات كعب ووهب ـ سامحهما الله تعالى ـ فيما نقلا إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد(٣) والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله ، سبحانه، عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، ولله الحمد والمنة .

أصل الصرح فى كلام العرب : هو القصر ، وكل بناء مرتفع ، قال الله ، سبحانه وتعالى ، إخباراً عن فرعون ـ لعنه الله ـ أنه قال لوزيره هامان : ﴿ **ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى**﴾ الآية [غافر : ٣٦ ، ٣٧] . والصرح: قصر فى اليمن عالى البناء ، والممرد أى : المبنى بناء محكما أملس﴿ **مِّن قَوَارِيرَ**﴾ أى: زجاج . وتمريد البناء تمليسه . ومارد : حصن بدومة الجندل .

والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، اتخذ قصرا عظيما منيفا من زجاج لهذه الملكة ؛ ليريها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله ، تعالى ، وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت فى أمره انقادت لأمر الله (٤) وعرَفت أنه نبى كريم ، وملك عظيم ، فأسلمت لله ، عز وجل ، وقالت : ﴿ **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي**﴾ أى : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس (٥) من دون الله،﴿ **وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أى : متابعة لدين سليمان فى عبادته لله (٦) وحده ، لا شريك له ، الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً .

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)** ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ، عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له،﴿ **فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ**﴾ ـ قال مجاهد: مؤمن وكافر ـ كقوله تعالى: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٧٥ ، ٧٦].

---

(١) فى ف ، أ: « يذهبه » . (٢) فى أ : « المواسى » . (٣) فى أ : « النوادر » .
(٤) فى أ : « لأوامر الله » . (٥) فى ف : « للشمس » .
(٦) فى ف : « فى عبادة الله » .

﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ** ﴾ ،أي : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته ؟ ولهذا قال : ﴿ **لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ** ﴾ أي : ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرًا . وذلك أنهم ـ لشقائهم ـ كان لا يصيب أحداً منهم سوءٌ إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه .

قال مجاهد : تشاءموا بهم . وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون : ﴿ **فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ** ﴾ [الأعراف : ١٣١] . وقال تعالى : ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [النساء : ٧٨] أي : بقضاء الله وقدره (١) . وقال مخبرًا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿ **قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ** ﴾ [يس:١٨ ،١٩] . وقال هؤلاء : ﴿ **اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ** ﴾ أي : الله يجازيكم على ذلك ﴿ **بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ** ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية .

والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ **تُفْتَنُونَ** ﴾ أي : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾.

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم ، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح ، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهموا بقتل صالح أيضاً ، بأن يبيتوه فى أهله ليلا فيقتلوه غيْلَة ، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه : إنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به ، من أنهم لم يشاهدوا ذلك ،فقال تعالى : ﴿ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ** ﴾ أي : مدينة ثمود، ﴿ **تِسْعَةُ رَهْطٍ** ﴾ أي : تسعة نفر ،﴿ **يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ** ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ؛ لأنهم كانوا كبراء فيهم ورؤساءهم.

قال العَوْفى ، عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، أى : الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم ـ قبحهم الله ولعنهم ـ وقد فعل ذلك .

وقال السُّدِّى ، عن أبى مالك ، عن ابن عباس : كان أسماء هؤلاء التسعة : دعمى ، ودعيم ،

---

(١) فى ف ، أ : « بقدر الله وقضائه » .

وهرما ، وهريم ، وداب ، وصواب ، ورياب ، ومسطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة ، أى : الذى باشر ذلك بيده . قال اللّه تعالى : ﴿ **فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ** ﴾ [القمر : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ **إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا** ﴾ [الشمس : ١٢] .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا يحيى بن ربيعة الصنعانى ، سمعت عطاء ـ هو ابن أبى رباح ـ يقول : ﴿ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ** ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم(١)، يعنى : أنهم كانوا يأخذون منها ، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً ، كما كان العرب يتعاملون .

وقال الإمام مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : قَطْع الذهب والورق من الفساد فى الأرض (٢) .

وفى الحديث ـ الذى رواه أبو داود وغيره ـ : أن رسول اللّه ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس (٣) .

والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة ، كان من صفاتهم الإفساد فى الأرض بكل طريق يقدرون عليها، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك .

وقوله : ﴿ **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ** ﴾ أى : تحالفوا وتبايعوا على قتل نبى اللّه صالح ، عليه السلام ، من لقيه ليلا غيلة. فكادهم اللّه ، وجعل الدائرة عليهم .

قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا (٤) على هلاكه ، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين .

وقال قتادة : توافقوا على أن يأخذوه ليلا فيقتلوه ، وذكر لنا أنهم بينما هم مَعَانيق إلى صالح ليفتكوا به ، إذ بعث اللّه عليهم صخرة فأهمدتهم .

وقال العوفى ،عن ابن عباس :هم الذين عقروا الناقة،قالوا حين عقروها : نُبَيِّت صالحا [وأهله](٥) وقومه فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئاً ، وما لنا به علم . فدمرهم اللّه أجمعين .

وقال محمد بن إسحاق : قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة : هَلُم فلنقتل صالحاً ، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته ! فأتوه ليلا ليبيِّتوه فى أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطؤوا على أصحابهم ، أتوا مَنْزل صالح ، فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ، ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ، ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : واللّه لا تقتلونه أبداً ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون . فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٧٠) .
(٢) الموطأ (٢/ ٦٣٥) .
(٣) سنن أبى داود برقم (٣٤٤٩) .
(٤) فى ف : « تحالفوا » .
(٥) زيادة من أ .

وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم : لما عقروا الناقة وقال لهم صالح : ﴿ **تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** ﴾ [هود : ٦٥]، قالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام ، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث . وكان لصالح مسجد فى الحِجْر عند شعب هناك يصلى فيه ، فخرجوا إلى كهف، أى : غار هناك ليلا ، فقالوا : إذا جاء يصلى قتلناه[1]، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ، ففرغنا منهم . فبعث اللّه صخرة من الهضَب حيالهم ، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا [2] فانطبقت عليهم الصخرة وهم فى ذلك الغار ، فلا يدرى قومهم أين هم . ولا يدرون ما فعل بقومهم . فعذب اللّه هؤلاء ههنا ، وهؤلاء ههنا ، وأنجى اللّه صالحاً ومن معه ، ثم قرأ :﴿ **وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً** ﴾ أى : فارغة ليس فيها أحد ﴿ **بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾.

﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨)** ﴾.

يخبر تعالى عن عبده لوط ، عليه السلام ، أنه أنذر قومه نقمة اللّه بهم ، فى فعلهم الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم ، وهى إتيان الذكور دون الإناث ، وذلك فاحشة عظيمة ، استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ـ قال[3] : ﴿ **أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ** ﴾ أى : يرى بعضكم بعضاً ، وتأتون فى ناديكم المنكر ؟ ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾ أى : لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً ، كما قال فى الآية الأخرى :﴿ **أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ** ﴾ [الشعراء : ١٦٥، ١٦٦] .﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾ أى : يتحرجون [4] من فعل ما تفعلونه ، ومن إقراركم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم فى بلادكم . فعزموا على ذلك ، فدمر اللّه عليهم وللكافرين أمثالها ، قال اللّه تعالى : ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ** ﴾ أى : من الهالكين مع قومها ؛ لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم ، وعلى طريقتهم فى رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت [5] تدل قومها على ضيفان لوط ، ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش [6] تكرمة لنبى اللّه ﷺ [7] لا كرامة لها [8] .

---

(١) فى ف ، أ : « فقلناه » . (٢) فى ف ، أ : « فبادروا » . (٣) فى ف : « فقال » . (٤) فى أ : « يخرجون » .
(٥) فى ف : « وكانت » . (٦) فى أ : « الفاحشة » . (٧) فى ف : « صلوات الله عليه وسلامه » .
(٨) فى أ : « بها » .

وقوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أى : حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ؛ ولهذا قال : ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أى : الذين قامت عليهم الحجة ، ووصل إليهم الإنذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه، وهموا بإخراجه من بينهم .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى : على نعَمه على عباده ، من النعم التى لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العُلى والأسماء الحسنى ، وأن يُسَلِّم على عباد اللّه الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبياؤه الكرام ، عليهم من اللّه الصلاة والسلام ، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى : هم الأنبياء ، قال : وهو كقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] .

وقال الثورى ، والسدى : هم أصحاب محمد ﷺ ورضى [الله] (١) عنهم أجمعين ، وروى نحوه عن ابن عباس .

ولا منافاة ، فإنهم إذا كانوا من عباد اللّه الذين اصطفى ، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى ، والقصد أن اللّه تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم (٢) ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزى والنكال والقهر ، أن يحمدوه على جميع (٣) أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار .

وقد قال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن عمارة بن صَبِيح ، حدثنا طَلْق بن غنام ، حدثنا الحكم ابن ظُهَيْر ، عن السدى ـ إن شاء اللّه ـ عن أبى مالك ، عن ابن عباس : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ قال : هم أصحاب محمد ﷺ ، اصطفاهم اللّه لنبيه،رضى اللّه عنهم (٤) .

وقوله : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ : استفهام إنكار على المشركين فى عبادتهم مع اللّه آلهة أخرى ، ثم شرع تعالى يبين (٥) أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره ، فقال : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى : تلك السموات بارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة ، والأرض باستفالها وكثافتها ، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول ، والفيافى والقفار ، والأشجار والزروع ، والثمار والبحور (٦) ، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « بعد ذكره لهم » . (٣) فى ف : « جميل » .
(٤) مسند البزار برقم (٢٢٤٣) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٨٧) : « وفيه الحكم بن ظهير ، وهو متروك » .
(٥) فى ف : « شرع يبين تعالى » . (٦) فى ف : « والبحار » .

وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي: جعله رزقاً للعباد، ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ﴾ أي: بساتين ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي: منظر حسن وشكل بهي، ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف [(١)] به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦٣] أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يُفرَدَ بالعبادة مَن هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أي: أإله مع الله يعبد. وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعرفون [(٢)] به أيضاً أنه الخالق الرازق.

ومن المفسرين من يقول: معنى قوله: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ [أي: أإله مع الله] [(٣)] فعل هذا. وهو يرجع إلى معنى الأول؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثَمَّ أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به. فيقال: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والتدبير؟ كما قال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧].

وقوله ههنا: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾: ﴿ أَمَّنْ ﴾ في هذه الآيات [كلها] [(٤)] تقديره: أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك، وقد قال: ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

ثم قال في آخر الآية: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أي: يجعلون الله عدلا ونظيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩] أي: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿ أَفَمَنْ [(٥)] هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيره، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها؟ ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [الرعد: ٣٣]، وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها.

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾.

---

(١) في ف: «كما يعرف». (٢) في ف، أ: «يعترفون». (٣، ٤) زيادة من ف، أ.
(٥) في جميع النسخ: «أمن»، والصواب ما أثبتناه.

يقول : ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى : قارة ساكنة ثابتة ، لا تميد ولاتتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر : ٦٤] .

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أى : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها فى خلالها ، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم فى أرجاء الأرض ، سير لهم[1] أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أى : جبالاً شامخة ترسى الأرض وتثبتها ؛لئلا تميد بكم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أى : جعل بين المياه العذبة والمالحة [2] حاجزاً ، أى : مانعاً يمنعها من الاختلاط ، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا ، فإن الحكمة الإلهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه ، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس . والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالا تسقى الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار : من كل جانب ، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً ، لئلا يفسد الهواء بريحها ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان : ٥٣] ؛ ولهذا قال : ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أى : فعل هذا ؟ أو يعبد على [3] القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى : فى عبادتهم غيره .

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾.

ينبه تعالى أنه هو المدعوّ عند الشدائد ، المرجُوّ عند النوازل ، كما قال :﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل : ٥٣] . وهكذا قال ههنا : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أى : من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا وُهَيب ، حدثنا خالد الحَذّاء ، عن أبى تميمة الهُجَيْمى ، عن رجل من بلهجيم قال : قلت : يارسول اللّه ، إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى اللّه وحده ، الذى إن مَسّك ضر فدعوته كشف عنك ، والذى إن أضْلَلْت بأرض قَفْر فدعوتَه رَدّ عليك ، والذى إن أصابتك سَنة فدعوتَه أنبتَ لك » .قال : قلت : أوصنى . قال : « لاتَسُبَّنَّ أحداً ، ولا تَزْهَدَنّ فى المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ، ولو أن تُفرغَ من دَلْوك فى إناء المستقى ،

(١) فى أ : « إليهم » . (٢) فى ف ، أ : « والملحة » . (٣) فى ف ، أ : « أو بعد هذا » .

واتزر إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلى الكعبين . وإياك وإسبال الإزار ، فإن إسبال الإزار من المخيلة، [وإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يحب المخيلة] (١) » (٢) .

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر ، فذكر اسم الصحابى فقال : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ،حدثنا يونس ـ هو ابن عبيد ـ حدثنا عبيدة الهُجَيمى (٣) ، عن أبى تَميمَةَ الهُجَيمى ، عن جابر ابن سُلَيم الهُجَيمى قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو مُحتَبٍ بشَمْلَة ، وقد وقع هُدْبها على قدميه ، فقلت : أيكم محمد ـ أو : رسول الله ؟ ـ فأومأ بيده إلى نفسه ، فقلت : يارسول الله ، أنا من أهل البادية ، وفىَّ جفاؤهم ، فأوصنى . فقال : « لا تحقرَنّ من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك مُنْبَسِط ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، وإن امرؤ شتَمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه ، فإنه يكون لك أجره وعليه وزْرَه . وإياك وإسبال الإزار ،فإن إسبال الإزار من المَخيلَة ، وإن الله لا يحب المخيلة ، ولا تَسُبَّنّ أحداً » . قال : فما سببت بعده أحداً ، ولاشاة ولا بعيراً (٤) .

وقد روى أبو داود والنسائى لهذا الحديث طرقا ، وعندهما طرف صالح منه (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم (٦) ، حدثنا عبدَةَ بن نوح ، عن عمر بن الحجاج ، عن عبيد الله بن أبى صالح قال : دخل علىَّ طاوس يعودنى ، فقلت (٧) له : ادع الله لى يا أبا عبد الرحمن .فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

وقال وهب بن منبه : قرأت فى الكتاب الأول : إن الله يقول : بعزتى إنه من اعتصم بى فإن كادته السموات ومن (٨) فيهن ، والأرض بمن فيها ، فإنى (٩) أجعل له من بين ذلك مخرجاً . ومن لم يعتصم بى فإنى (١٠) أخسف به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله فى الهواء ، فأكله إلى نفسه .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رجل ـ حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدِّينَوَرى ، المعروف بالدّقّيِّ الصوفى ـ قال هذا الرجل (١١) : كنت أكارى على بغل لى من دمشق إلى بلد الزَّبَدَانى ، فركب معى ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق ، على طريق غير مسلوكة ، فقال لى : خذ فى هذه، فإنها أقرب . فقلت : لا خبرَة لى فيها ، فقال : بل هى أقرب . فسلكناها فانتهينا إلى مكان وَعْر وواد عميق ، وفيه قتلى كثير ، فقال لى : أمسك رأس البغل حتى أنزل . فنزل وتشمر ، وجمع عليه ثيابه، وسل سكينا معه وقصدنى ، ففررت من بين يديه وتبعنى ، فناشدته الله وقلت : خذ البغل بما عليه . فقال : هو لى ، وإنما أريد قتلك . فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه وقلت : إن رأيت أن تتركنى حتى أصلى ركعتين ؟ فقال : [صل] (١٢) وعجل. فقمت أصلى فَأرْتِج

(١) زيادة من ف ، أ ،والمسند .
(٢) المسند (٥/٦٤) .
(٣) فى هـ ، ف ، أ : « الهجيمى عن أبيه » .
(٤) المسند (٥/٦٣) .
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٠٨٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٦٠١ ـ ١٠٥٢) .
(٦) فى أ : « هشام » . (٧) فى ف ، أ : « قال » . (٨) فى ف : « بمن » . (٩) فى ف : « أن » ، وفى أ : « أى » .
(١٠) فى ف : « فإنه » . (١١) فى ف : « بالرجل » . (١٢) زيادة من ف .

عليَّ القرآن فلم يَحضرنى منه حرف واحد، فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول: هيه. افرُغ. فأجرى الله على لسانى قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾، فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى، وبيده حربة، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده، فخر صريعًا، فتعلقت بالفارس وقلت: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول [الله] (١) الذى يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء. قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالما.

وذكر فى ترجمة « فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية »، قالت: هزم الكفار يوما المسلمين فى غزاة، فوقف جَوَاد جَيِّد بصاحبه، وكان من ذوى اليسار ومن الصلحاء، فقال للجواد: مالك؟ ويلك. إنما كنت أعدّك لمثل هذا اليوم. فقال له الجواد: ومالى لا أقصّر وأنت تَكلُ علوفتى إلى السّواس فيظلموننى ولا يطعموننى (٢) إلا القليل؟ فقال: لك علىَّ عهد الله أنى لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا فى حِجْرى. فجرى الجواد عند ذلك، ونجّى صاحبه، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا فى حِجره. واشتهر أمره بين الناس، وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك، وبلغ ملك الروم أمرُه، فقال: ما تُضَام (٣) بلدة يكون هذا الرجل فيها. واحتال ليحصّله فى بلده، فبعث إليه رجلا من المرتدين عنده، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حَسُنت نيته فى الإسلام وقومه، حتى استوثق، ثم خرجا يوما يمشيان على جنب الساحل، وقد واعد شخصا آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره، فلما اكتنفاه ليأخذاه رَفَع طرفه إلى السماء وقال: اللهم، إنه إنما خَدَعنى بك فاكفنيهما بما شئت، قال: فخرج سبعان إليهما فأخذاهما، ورجع الرجل سالما (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أى: يُخلفُ قَرنا لقرن قبلهم وخَلَفاً لسلف، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، أى قوماً يخلف بعضهم بعضا كما قدمنا تقريره. وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أى: أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم. ولو شاء لأوجدهم كلهم فى وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم (٥) كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب. ولو شاء أن يجعلهم بعضَهم من ذرية بعض (٦)، ولكن لا يميت أحدا حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض (٧)، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض. ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة، ويذرأهم فى الأرض، ويجعلهم قرونا بعد قرون، وأمما بعد أمم، حتى ينقضى الأجل وتفرغ البَرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعَدّهم عَدًا، ثم يقيم (٨) القيامة، ويُوفى كلّ عامل عمله إذا بلغ الكتاب

---

(١) زيادة من ف، أ.
(٢) فى ف، أ: « فيظلمونى ولا يطعمونى »
(٣) فى ف، أ: « ما نظام ».
(٤) تاريخ دمشق (١٩/ ٤٨٩ « المخطوط »).
(٥) فى أ: « لجعلهم ».
(٦) فى ف، أ: « من ذرية بعضهم بعضا ».
(٧) فى ف: « تضيق الأرض عليهم ».
(٨) فى ف: « يوم ».

أجله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أى : يقدر على ذلك ، أو إله مع الله يُعْبَد ، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿قَلِيلاً مَّا يَذَّكَّرُونَ(١)﴾ أى : ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾ .

يقول : ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل : ١٦]،وقال تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الآية [الأنعام : ٩٧] .

﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أى : بين يدى السحاب الذى فيه مطر ، يغيث به عباده المُجْدِبِيْنْ الأزلين القنطين ، ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ .

أى : هو الذى بقدرته وسلطانه يبدأ (٢) الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى في الآية الأخرى:﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : ١٢ ، ١٣] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم : ٢٧] .

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أى : بما ينزل من مطر السماء ،وينبت من بركات الأرض،كما قال :﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق : ١١ ، ١٢] ، وقال :﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [الحديد : ٤] ،فهو ،تبارك وتعالى، ينزل من السماء مباركاً فيسكنه في الأرض ، ثم يخرج به [منها] (٣) أنواع الزروع والثمار والأزاهير ، وغير ذلك من ألوان شتى ، ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ [طه : ٥٤] ؛ ولهذا قال:﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أى: فعل هذا . وعلى القول الآخر : يعبد ؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما تدعونه (٤) من عبادة آلهة أخرى ، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال [الله] (٥) : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٧] .

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ

---

(١) فى ف ، أ : « ماتذكرون » . (٢) فى ف ، أ : « بدأ » . (٣) زيادة من ف .
(٤) فى أ : « من يدعونه » . (٥) زيادة من أ .

ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: أنه لايَعْلَم أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ استثناء منقطع، أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله، عز وجل، فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له، كما قال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ٣٤] ، والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أى : وما يشعر الخلائق الساكنون فى السموات والأرض بوقت الساعة ، كما قال : ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى، حدثنا على بن الجَعْد ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن داود بن أبى هند ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : من زعم أنه يعلم ـ يعنى لنبى ﷺ ـ ما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفِرْية ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (١) .

وقال قتادة : إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات (٢) : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً [للشياطين](٣) ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به . وإن ناساً جَهَلَة بأمر الله ، قد (٤) أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعْرَس بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن سافر بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن ولد بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والدميم ، وما علْمُ هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشىء من الغيب! وقضى الله: أنه لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون .

رواه ابن أبى حاتم عنه بحروفه ، وهو كلام جليل متين صحيح ، وقوله : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ(٥) عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أى : انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها .

وقرأ آخرون : « بل أدرك (٦) علمهم » أى: تساوى علمهم فى ذلك، كما فى الصحيح لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل ـ وقد سأله عن وقت الساعة ـ: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل (٧) ، أى: تساوى فى العجز عن دَرْك ذلك علم المسؤول والسائل .

---

(١) أصله فى الصحيحين لكن فيهما الشاهد قوله تعالى : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ بدل هذه الآية : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ ﴾ .

(٢) فى ف ، أ : « خصال » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « فقد » .

(٥) فى أ : « أدرك » . (٦) فى أ : « ادارك » .

(٧) صحيح مسلم برقم (٨) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ أى : غاب .

وقال قتادة : ﴿بَلِ ادَّارَكَ (١) عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ يعنى : يُجهِّلَم(٢) ربهم ، يقول : لم ينفذ (٣) لهم إلى الآخرة علم ، هذا قول .

وقال ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : « بل أدرك علمهم فى الآخرة » ، حين لم ينفع العلم ، وبه قال عطاء الخراسانى ، والسدّى : أن علمهم إنما يُدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم : ٣٨] .

وقال سفيان ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن أنه كان يقرأ : « بل أدرك علمهم » ، قال : اضمحل علمهم فى الدنيا ، حين عاينوا الآخرة .

وقوله : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ عائد على الجنس ، والمراد الكافرون ، كما قال تعالى : ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٨] أى : الكافرون منكم (٤) . وهكذا قال ههنا : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أى : شاكون فى وجودها ووقوعها ،﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أى: فى عماية وجهل كبير فى أمرها وشأنها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن منكرى البعث من المشركين : أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً ، ثم قال :﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أى : ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً .

وقولهم: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾: يعنون : ما هذا الوعد بإعادة الأبدان، ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أى : أخذه (٥) قوم عمن قبلهم ، مَنْ قبلهم (٦) يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة . قال اللّه تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد : ﴿ قُلْ ﴾ ـ يامحمد ـ لهؤلاء : ﴿ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى : المكذبين بالرسل وما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره ، كيف حلت بهم نقَمُ اللّه وعذابه ونكاله ، ونجى اللّه من بينهم رسلَه الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته .

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ، صلوات اللّه وسلامه عليه : ﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أى : المكذبين بما جئت به ، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ،﴿ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أى :

---

(١) فى أ : « أدرك » . (٢) فى أ : « بجهلهم » . (٣) فى ف : « يتقدم » . (٤) فى ف ، أ : « منهم » .
(٥) فى ف : « يأخذه » ، وفى أ : « أخذ » . (٦) فى أ : « كتبهم » .

فى كيدك ورَدّ ما جئت به ، فإن اللّه مؤيدك وناصرك ، ومظهرٌ دينَك على من خالفه وعانده فى المشارق والمغارب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ،فى سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال اللّه مجيباً لهم :﴿ قُلْ ﴾ يامحمد ﴿ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾. [قال ابن عباس أن يكون قرب ـ أو : أن يقرب ـ لكم بعض الذى تستعجلون][1]. وهكذا [2] قال مجاهد ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ،والسدى .

وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٥٤] .

وإنما دخلت « اللام » فى قوله :﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ ؛ لأنه ضُمن معنى « عَجِل لكم » ، كما قال مجاهد فى رواية عنه : ﴿ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾: عجل لكم .

ثم قال اللّه تعالى :﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى : فى إسباغه نعمَه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : يعلم السرائر والضمائر ، كما يعلم الظواهر ،﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ ﴾ [الرعد: ١٠] ،﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ، ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود : ٥] .

ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ـ وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه ـ فقال: ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: وما من شىء، ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى ف : « وعنده » .

إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز ، وما اشتمل عليه من الهدى والبينات والفرقان (١) : أنه يقص على بنى إسرائيل ـ وهم حملة التوارة والإنجيل ـ ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا ، والنصارى غَلَوا ، فجاء [إليهم] (٢) القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد اللّه وأنبيائه ورسله الكرام ،عليه [أفضل] (٣) الصلاة والسلام ،كما قال تعالى :﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم : ٣٤] .

وقوله :﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : هدى لقلوب المؤمنين ، ورحمة لهم فى العمليات .

ثم قال :﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾ أى :يوم القيامة ﴿ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فى انتقامه ،﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى أمورك ، وبَلّغ رسالة ربك ، ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى : أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ، ممن كتبت (٤) عليه الشقاوة وحَقَّت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية؛ولهذا قال : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أى : لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفى آذانهم وَقْر الكفر ؛ ولهذا قال : ﴿ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [أى] (٥) :إنما يستجيب لك من هو سميع بصير ، السمع والبصر النافع فى القلب والبصيرة الخاضع لله ، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل ،عليهم السلام .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ (٨٢) ﴾.

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتَرْكِهم أوامر اللّه وتبديلهم الدين الحق ، يخرج اللّه لهم دابة من الأرض ـ قيل : من مكة . وقيل : من غيرها . كما سيأتى تفصيله ـ فَتُكَلِّم الناس على ذلك .

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ـ ورُوى عن على ، رضى اللّه عنه ـ : تكلمهم كلاما أى: تخاطبهم مخاطبة .

وقال عطاء الخراسانى : تكلمهم فنقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . ويروى هذا عن على ، واختاره ابن جرير . وفى هذا [القول] (٦) نظر لا يخفى ، واللّه أعلم .

---

(١) فى ف : « والبيان » . (٢ ، ٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « كتب » . (٥) زيادة من ف ، أ .
(٦) زيادة من ف ، أ .

وقال ابن عباس ـ فى رواية ـ : تجرحهم . وعنه رواية ، قال : كلاً [١] تفعل يعنى هذا وهذا، وهو قولٌ حسن ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة ، فلنذكر ما تيسر منها ، والله المستعان :

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن فُرَات ، عن أبى الطفيل ، عن حُذَيفة بن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تَرَوا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قَعر عدن تسوق ـ أو : تحشر ـ الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » [٢] .

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن ، من طرق ، عن فُرَات القزاز ، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، عن حُذَيفة موقوفا [٣] . وقال الترمذى : حسن صحيح [٤] . ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز ابن رُفَيْع ، عن أبى الطفيل ، عنه مرفوعاً [٥] [٦] . والله أعلم .

طريق أخرى : قال أبو داود الطيالسى ، عن طلحة بن عمرو ، وجرير بن حازم ، فأما طلحة فقال : أخبرنى عبد الله بن عبيد الله بن عمَير الليثى : أن أبا الطفيل حدثه ، عن حذَيفة بن أسيد الغفارى أبى سَريحَةَ ، وأما جرير فقال : عـن عبد الله بن عبُيد ، عن رجل من آل عبد الله بن مسعود ـ وحديث طلحة أتم وأحسن ـ قال : ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ الدابة فقال : «لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خَرجة من أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية ـ يعنى : مكة ـ ثم تكمن زماناً طويلا ، ثم تخرج خَرْجة أخرى دون تلك ، فيعلو ذكرها فى أهل البادية ، ويدخل ذكرها القرية» يعنى : مكة . قال رسول الله ﷺ : « ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها : المسجد الحرام ، لم يَرُعْهم إلا وهى تَرْغو [٧] بين الركن والمقام ، تنفض عن رأسها التراب . فارفض الناس عنها شتَّى ومعاً ، وبقيت عصابة من المؤمنين ، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله ، فبدأت بهم فجلَت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرّى ، وولت فى الأرض لا يدركها طالب ، ولا ينجو منها هارب ، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة ، فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان ، الآن تصلى ؟

---

(١) فى ف : « كل » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (٦/٤) ولكن باختلاف فى الألفاظ ، وهذا اللفظ هو سياق حديث ابن مهدى عن سفيان وهو فى المسند (٧/٤) .

(٣) فى ف ، أ : « به مرفوعا » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١) وسنن أبو داود برقم (٤٣١١) وسنن الترمذى برقم (٢١٨٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٠٤١) .

(٥) فى ف ، أ : «موقوفا » .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١) .

(٧) فى أ : « تربو » .

فيقبل عليها فَتَسِمُه (١) في وجهه ، ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ، ويصطحبون في الأمصار ، يعرف المؤمن مَن الكافر ، حتى إن المؤمن ليقول : يا كافر ، اقضنى حقى . وحتى إن الكافر ليقول : يا مؤمن ، اقضنى حقى» (٢) .

ورواه ابن جرير من طريقين ، عن حذيفة بن أُسَيْد موقوفاً (٣) . فالله أعلم . ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً ، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم ، وهو يطوف بالبيت ، ولكن إسناده لا يصح (٤) .

حديث آخر : قال مسلم بن الحجاج : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا محمد بن بشر ، عن أبى حَيَّان ، عن أبى زُرْعَةَ ، عن عبد الله بن عمرو قال : حَفِظْتُ من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه(٥) بعد : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضُحى ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى (٦) على أثرها قريباً»(٧).

حديث آخر : روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب ـ مولى الحُرَقَة ـ عن أبيه : عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستا (٨) : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة » (٩) . وله من حديث قتادة ، عن الحسن ، عن زياد بن رباح ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :« بادروا بالأعمال ستا : الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة وخُويصة أحدكم » (١٠) .

حديث آخر : قال ابن ماجه : حدثنا حَرْمَلَة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عَمْرُو بن الحارث وابن لَهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سِنَان بن سعد ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، ودابة الأرض ، والدجال ،وخُوَيصَّة أحدكم ، وأمر العامة » . تفرد به (١١) .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسى أيضاً : حدثنا حماد بن سلمة ،عن على بن زيد ،عن أوس(١٢) بن خالد ،عن أبى هريرة ،رضى الله عنه ، قال : قال رسول ﷺ : « تخرج دابة الأرض ، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، عليهما السلام ، فتخطم أنف الكافر بالعصا ، وتُجلى وجه المؤمن

(١) فى أ : « فتشمه » .
(٢) مسند الطيالسى برقم (١٠٦٩) .
(٣) تفسير الطبرى (٢٠/ ١٠) .
(٤) تفسير الطبرى (٢٠/ ١١) .
(٥) فى ف : « لم أنساه » . (٦) فى ف : « والأخرى » .
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٤١) .
(٨) فى ف ، أ : « ستة » .
(٩ ، ١٠) صحيح مسلم برقم (٢٩٤٧) .
(١١) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٥٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٥٦) :« هذا إسناد حسن ،سنان بن سعد مختلف فيه وفى اسمه » .
(١٢) فى هـ ، ف ، أ : « أويس » والمثبت من المسند .

بالخاتم ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر » .

ورواه الإمام أحمد ، عن بَهْز وعفان ويزيد بن هارون ، ثلاثتهم عن حماد بن سلمة ، به (١) . وقال : « فتخطم أنف الكافر بالخاتم ، وتجلو وجه المؤمن بالعصا ، حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا : يا مؤمن ،ويقول هذا : يا كافر » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يونس بن محمد المؤدب ، عن حماد بن سلمة، به (٢) .

حديث آخر : قال ابن ماجه : حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو ، حدثنا أبو تُمَيْلة ، حدثنا خالد ابن عُبَيْد ، حدثنا عبد الله بن بُرَيدة ، عن أبيه قال : ذهب بى رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية ، قريب من مكة ، فإذا أرض يابسة حولها رمل ، فقال رسول الله ﷺ : « تخرج الدابة من هذا الموضع. فإذا فِتْر فى شبر » .

قال ابن بُرَيدة : فحججت بعد ذلك بسنين ، فأرانا عصاً له ، فإذا هو بعَصاى هذه (٣) ، كذا وكذا(٤) .

وقال عبد الرزاق عن مَعْمَر ، عن قتادة ؛ أن ابن عباس قال : هى دابةٌ ذات زَغَب ، لها أربع قوائم ، تخرج من بعض أودية تهامة (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن رَجَاء ، حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية قال : قال عبد الله : تخرج الدابة من صِدْع من الصفا كجَرْى الفرس ثلاثة أيام ، لم يخرج ثلثها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن أبَان بن صالح قال : سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة ، فقال : الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد ، والله لو كنت معهم ـ أو لو شئت بعصاى الصخرة التى تخرج الدابة من تحتها . قيل : فتصنعُ ماذا يا عبد الله بن عمرو ؟ قال : تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفُذُه، ثم تستقبل الشام فتصرخ (٦) صرخة تنفذه ، ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تروح من مكة فتصبح (٧) بعسفان . قيل : ثم ماذا ؟ قال : لا أعلم .

وعن عبد الله بن عمر ، أنه قال : تخرج الدابة ليلة جَمْع (٨) . ورواه ابن أبى حاتم . وفى

(١) مسند الطيالسى برقم (٢٥٦٤) والمسند (٢/ ٢٩٥) من حديث عفان ويزيد ، و(٢/ ٢٩١) من حديث بهز .

(٢) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٦٦) .

(٣) فى ف ، أ : « هذا » .

(٤) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٦٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٥٩) : « هذا إسناد ضعيف » .

(٥) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٧١) .

(٦) فى أ : « ثم تصرخ » .

(٧) فى أ : « فتضع » .

(٨) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٥/ ١٨٠) من طريق عبد الملك بن المغيرة ،عن ابن البيلمان ، عن ابن عمر قال : « تخرج الدابة ليلة جمع والناس يسيرون إلى منى فتحملهم بين عجزها وذنبها فلا يبقى منافق إلا خطمته ، قال : وتمسح المؤمن ، قال : فيصبحون وهم أشر من الدجال ».

إسناده ابن البيلمان [١] .

وعن وهب بن منبه : أنه حكى من كلام عُزَير ، عليه السلام ، أنه قال : وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها ، وتضع الحبالى قبل التمام ، ويعود الماء العذب أجاجاً ، ويتعادى الأخلاء ، وتُحرَقُ الحكمة ، ويُرفَعُ العلم ، وتكلم الأرض التى تليها . وفى ذلك الزمان يرجو الناس مالا يبلغون ، ويتعبون فيما لا ينالون ، ويعملون فيما لا يأكلون . رواه ابن أبى حاتم، عنه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ـ كاتب الليث ـ حدثنى معاوية بن صالح ، عن أبى مريم : أنه سمع أبا هريرة ، رضى الله عنه ، يقول : إن الدابة فيها من كل لون ، ما بين قرنيها فرسخ [٢] للراكب .

وقال ابن عباس : هى مثل الحربة الضخمة .

وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، أنه قال : إنها دابة لها ريش وزغب وحافر ، وما لها ذنب ، ولها لحية ، وإنها لتخرج حُضْر الفرس الجواد ثلاثا ، وما خرج ثلثها [٣] . ورواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جُرَيْج ، عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيَّل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نَمر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنا [عشر] [٤] ذراعاً ، تخرج معها عصا موسى ،وخاتم سليمان ، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت فى وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء ، فتفشو تلك النكتة حتى يبيضّ لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا نكتَت فى وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان ، فتفشوا تلك النكتة حتى يسود لها وجهه ، حتى إن الناس يتبايعون فى الأسواق : بكم ذا يا مؤمن ، بكم ذا يا كافر ؟ وحتى إنّ أهل البيت يجلسون على مائدتهم ، فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ، ثم تقول لهم الدابة : يافلان ، أبشر ، أنت من أهل الجنة ؟ ويافلان ، أنت من أهل النار . فذلك قول الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُون** ﴾[٥] .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) ﴾ .

---

(١) فى ف : « البيلمانى » . (٢) فى أ : « فرح » . (٣) فى ف ، أ : « ثلثاها » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا من الإسرائيليات مما لا فائدة من ذكره ، وأوصاف الدابة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .

يقول تعالى مخبرًا عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين المكذبين (١) بآيات الله ورسله إلى بين يدى الله، عز وجل ، ليسألهم عما فعلوه فى الدار الدنيا ، تقريعاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً فقال : ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا** ﴾ أى : من كل قوم وقرن (٢) فوجاً ، أى : جماعة ، ﴿ **مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا** ﴾، كما قال تعالى :﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ** ﴾ [الصافات : ٢٢] ،وقال تعالى :﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** ﴾ [التكوير : ٧] .

وقوله : ﴿ **فَهُمْ يُوزَعُونَ** ﴾: قال ابن عباس،رضى الله عنهما : يدفعون . وقال قتادة : وَزَعَةٌ ترد(٣) أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون .

﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا** ﴾ أى : أوقفوا بين يدى الله ،عز وجل،فى مقام المساءلة ، ﴿ **قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ ؟ أى : ويسألون (٤) عن اعتقادهم ، وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة ،وكانوا كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ **فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ . وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ** ﴾ [القيامة: ٣١ ، ٣٢] ، فحينئذ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ، كما قال تعالى: ﴿ **هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ . وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [المرسلات : ٣٥ ـ ٣٧] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ **وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ** ﴾ أى : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى (٥) عليه خافية .

ثم قال تعالى منبهًا على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وشأنه الرفيع الذى تجب طاعته والانقياد لأوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذى لا مَحيد عنه ، فقال : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ** ﴾ أى : فيه ظلام تسكن (٦) بسببه حركاتهم ، وتهدأ أنفاسهم ، ويستريحون من نَصَب التعب فى نهارهم. ﴿ **وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** ﴾ أى : منيراً مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعايش والمكاسب، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التى يحتاجون إليها ، ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) ﴾.

---

(١) فى ف ، أ : « الظالمين مع المكذبين » . (٢) فى ف : « قرن وقوم » . (٣) فى ف ، أ : « يرد » .
(٤) فى ف : « فيسألون » . (٥) فى ف : « لا يخفى » . (٦) فى ف : « يسكن » .

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفَزَع فى الصُّور ، وهو كما جاء فى الحديث : « قرن ينفخ فيه ». وفى حديث (الصُّور) أن إسرافيل هو الذى ينفخ فيه بأمر اللّه تعالى ، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها، وذلك فى آخر عمر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض﴿ **إلاَّ مَن شَاءَ اللَّه** ﴾، وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا عبيد اللّه (١) بن مُعاذ العنبرى ، حدثنا أبى ، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم : سمعت يعقوب بن عاصم بن عُرْوَه بن مسعود الثقفى ، سمعت عبد اللّه بن عمرو ، رضى اللّه عنه ، وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذى تَحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان اللّه ـ أو : لا إله إلا الله ـ أو كلمة نحوهما ـ لقد هممت ألا أحدث أحدا شيئا أبدا ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت ، ويكون ويكون . ثم قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين ـ [لا أدرى أربعين] (٢) يوماً ، أو أربعين شهرًا ، أو أربعين عاماً ـ فيبعث اللّه عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل اللّه ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم دخل فى كَبَد جبل لدخَلَتْه (٣) عليه حتى تقبضه » . قال : سمعتها من رسول اللّه ﷺ ، قال : « فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم فى ذلك (٤) دار رزقهم ، حسنٌ عيشهم . ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً [ورفع ليتا] (٥) » . قال : « وأول من يسمعه رجل يَلُوط حوض إبله » . قال : « فَيَصْعَقُ ويَصعقُ الناس ، ثم يرسل اللّه ـ أو قال : ينزل اللّه مطرًا كأنه الطَّل ـ أو قال : الظل ـ نعمان الشاك ـ فتنبت (٦) منه أجساد الناس ، ثم ينفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . ثم يقال : يأيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون . ثم يقال : أخرجوا بعث النار . فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » . قال : « فذلك (٧) يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يكشف عن ساق» (٨) .

وقوله(٩) : « ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا » ، الليت (١٠) : هو صفحة العنق ، أى : أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً .

فهذه نفخة الفزع . ثم بعد ذلك نفخة الصعق ، وهو الموت . ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين ، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ؛ ولهذا قال :﴿ **وَكُلٌّ آتَوْهُ دَاخِرِين** ﴾ ـ قُرِئ بالمد ، وبغيره (١١) على الفعل ، وكلٌ بمعنى واحد ـ و﴿ **دَاخِرِين** ﴾ أى : صاغرين مطيعين ، لا يتخلف أحد

(١) فى أ : « عبد الله » . (٢) زيادة من ف ، أ ، وصحيح مسلم . (٣) فى ف ، أ : « لدخلت » .
(٤) فى أ : « وهى فى تلك » . (٥) زيادة من ف ، وصحيح مسلم . وفى أ : « أصغى ليثا ورفع ليثا » .
(٦) فى ف : « فينبت » . (٧) فى أ : « فكذلك » .
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٩٤٠) .
(٩) فى ف ، أ : « فقوله » . (١٠) فى أ : « إلا أصغى ليثا ورفع ليثا الليث » .
(١١) فى ف : « وغيره » .

عن أمره ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٥٢] ، وقال : ﴿ ثم إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] . وفى حديث الصور : أنه فى النفخة الثالثة يأمر اللّه الأرواح ، فتوضع فى ثقب [١] فى الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت [٢] الأجساد فى قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح ، تتوهج أرواح المؤمنين نوراً ، وأرواح الكافرين ظُلمة ، فيقول اللّه ، عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح [٣] إلى جسدها . فتجىء الأرواح إلى أجسادها ، فتدب فيها كما يَدب السم في اللديغ ، ثم يقومون فينفضون التراب من قبورهم، قال اللّه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أى : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهي تمر مر السحاب ، أى : تزول عن أماكنها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور : ٩ ، ١٠] ، وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ ـ ١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف: ٤٧] .

وقوله : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى : يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذى قد أتقن كُلَّ ما خلق ، وأودع فيه [٤] من الحكمة ما أودع ، ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى : هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه .

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ ـ قال قتادة : بالإخلاص . وقال زين العابدين : هى لا إله إلا اللّه ـ وقد بين فى المكان [٥] الآخر [٦] أن له عَشْر أمثالها . ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ، وقال : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت : ٤٠] ، وقال: ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] .

وقوله : ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أى : من لقى اللّه مسيئاً لا حسنة له ، أو : قد رجحت سيئاته على حسناته ، كل بحسبه [٧] ؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس ، رضى اللّه عنهم ، وأنس بن مالك ، وعطاء ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، وإبراهيم النَّخَعى ، وأبو وائل ، وأبو صالح ، ومحمد بن كعب ، وزيد ابن أسلم، والزهرى ، والسُّدِّى ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، فى قوله: ﴿ وَمَن جَاءَ

---

(١) فى أ : « نقب » . (٢) فى أ : « ما نبتت » . (٣) فى ف : « كل ريح » .
(٤) فى ف : « به » . (٥) فى أ : « الموضع » .
(٦) يشير ابن كثير ـ رحمه الله ـ إلى الآية : ١٦٠ من سورة الأنعام ، وهى قوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ .
(٧) فى أ : « الحسنة » .

بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعنى : بالشرك .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً رسوله وآمراً له أن يقول : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ ، كما قال : ﴿ قُلْ(١) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٤] .

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها ، كما قال :﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[قريش : ٣ ، ٤].

وقوله : ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ أى : الذى إنما صارت حراماً قدراً وشرعاً ، بتحريمه لها ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه اللّه يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة اللّه إلى يوم القيامة ، لا يُعضَد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لُقَطَتُه إلا لمن عرفها ، ولا يختلى خلاها » الحديث بتمامه . وقد ثبت فى الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع (٢) ، كما هو مبين فى موضعه من(٣) كتاب الأحكام ، وللّه الحمد .

وقوله :﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾: من باب عطف العام على الخاص ، أى : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شىء ومليكه ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى : الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له .

وقوله :﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ أى : على الناس أبلغهم إياه ، كقوله : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران:٥٨] ،وكقوله:﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٣] أى : أنا مبلغ ومنذر،﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أى : لى سوية الرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخَلَصُوا من عهدتهم ، وحساب أممهم على اللّه ، كقوله تعالى :﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠] ، وقال:﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود :١٢] .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أى : للّه الحمد الذى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة

---

(١) فى هـ : « قال » والمثبت من ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) وسنن أبى داود برقم (٢٠١٨) وسنن الترمذى برقم (١٥٩٠) وسنن النسائى (٥/٢٠٣) والمسند (١/٢٥٩) .

(٣) فى ف : « فى » .

عليه ، والإعذار إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بل هو شهيد على كل شىء .

قال ابن أبى حاتم : ذكر عن أبى عمر الحوضى حفص بن عمر : حدثنا أبو أمية بن يعلى الثقفى، حدثنا سعيد بن أبى سعيد ، سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « يأيها الناس ، لايَغْتَرَّنَّ أحدكم بالله ؛ فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرة » (١) .

[قال أيضا] (٢) : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا نصر بن على ، قال أبى : أخبرنى خالد بن قيس ، عن مطر ، عن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مغفلا شيئاً لأغفل ما تعفى الرياح من أثر قدمى ابن آدم .

وقد ذكر عن الإمام أحمد ، رحمه الله ، أنه كان ينشد هذين البيتين ، إما له أو لغيره :

إذَا مَا خَلَوتَ الدهْرَ يَوماً فَلا تَقُل ... خَلَوتُ ولَكن قُل عَلَىّ رَقيب
وَلا تَحْسَبَن اللَّه يَغْفَل سَاعَة ... وَلا أن مَا يَخفى عَلَيْه يَغيب

---

(١) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٨١٦٧) من طريق أبى أمية بن يعلى به .

(٢) زيادة من ف ، أ .

/ سورة النمل [٢٤١و]

مكّيّة، وهي ثلاث أو أربع[١] وتسعون آيةً.[٢]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾

﴿طسٓ﴾ بالتفخيم، وقُرئ بالإمالة.[٣] والكلام فيه كالذي مرّ في نظائره مِن الفواتح الشريفة. ومحلّه على تقدير كونه اسمًا للسورة -وهو الأظهر الأشهر- الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا ﴿طسٓ﴾، أي: مسمًّى به. والإشارة إليه قبل ذِكره قد مرّ وجهُها في فاتحة سورة يونس وغيرها. ورفعُه بالابتداء على أنّ ما بعده خبرُه ضعيفٌ لِما ذُكِر هناك.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى نفس السورة؛ لأنّها التي نُوّهَت بذكر اسمها، لا إلى آياتها؛ لعدم ذكرها صريحًا، ولأنّ إضافتها إليها تأبى إضافتها إلى القرآن كما سيأتي. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في الفضل والشرف. ومحلّه الرفع على الابتداء، خبره: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ والجملة مستأنَفة مقرِّرة لِما أفاده التسمية مِن نَباهة شأن المسمّى.

و﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ عبارة عن الكلّ، أو عن الجميعِ المنزَّل عند نزول السورة حسبما ذُكر في فاتحة فاتحة الكتاب، أي: تلك السورة آيات القرآن المعروفِ بعلوّ الشأن، أي: بعض منه مترجَم مستقلّ باسم خاصّ.

---

١ ط س – أو أربع.

٢ ط س + وقيل: أربع وتسعون آيةً.

٣ قرأ بإمالة الطاء حمزة والكسائي وخلف وشعبة، وقرأ باقي القرّاء العشر بفتحها. انظر: النشر لابن الجزري، ٧٠/٢.

﴿وَكِتَابٍ﴾ أي: كتابٍ عظيم[1] الشأن ﴿مُبِينٍ﴾ مظهِر لِما في تضاعيفه مِن الحِكَم والأحكام وأحوالِ الآخرة التي مِن جملتها الثواب والعقاب، أو لسبيل الرشد والغيّ، أو فارقٍ بين الحقّ والباطل، والحلالِ والحرام، أو ظاهرِ الإعجاز؛ على أنّه مِن "أَبانَ" بمعنى "بانَ". ولقد فُخِّم شأنه الجليل بما جُمِع فيه مِن وصف القرآنيّة المُنبئة عن كونه بديعًا في بابه، ممتازًا عن غيره بالنظم المعجز، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر، ٢٨/٣٩]، ووصفِ الكتابيّة المُعرِبة عن اشتماله على صفات كمال الكتب الإلهيّة، فكأنّه كلّها.

وقُدِّم الوصف الأوّل ههنا نَظَرًا إلى تقدّم حال القرآنيّة على حال الكتابيّة،[2] وعُكِس في سورة الحِجر نظَرًا إلى ما ذُكر هناك مِن الوجه.

وما قيل مِن أنّ "الكتاب" هو اللوح المحفوظ، وإبانتُه أنّه خُطَّ فيه ما هو كائن، فهو يُبيِّنُه للناظرين فيه،[3] لا يساعده إضافةُ الآيات إليه، إذ لا عهدَ باشتماله على الآيات، ولا وصفُه بالهداية والبشارة، إذ هما باعتبار إبانته، فلا بدّ مِن اعتبارها بالنسبة إلى الناس الذين مِن جملتهم المؤمنون، لا إلى الناظرين فيه، وقُرئ: "وَكِتَابٌ"،[4] بالرفع على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مُقامه، أي: وآياتُ كتابٍ مبين.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في حيّز النصب على الحاليّة مِن "الآيات"[5] على أنّهما مصدران / أُقيما مُقام الفاعل للمبالغة، كأنّها نفس الهدى والبشارة، والعامل [٢٤١ظ]
معنى الإشارة، أي: هاديةً ومبشّرةً، أو الرفعِ على أنّهما بدَلان مِن الآيات، أو خبران آخران لـ﴿تِلْكَ﴾، أو لمبتدإٍ محذوف. ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون أنّها تزيدهم هدًى، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة، ١٢٤/٩]،

---

١ س: عظم.
٢ س: الكتابة.
٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٤/٤.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.
٥ في الآية السابقة.

وأمّا معنى تبشيرها إيّاهم فظاهر؛[١] لأنّها تبشّرهم برحمة مِن الله ورضوان وجنّاتٍ لهم فيها نعيم مقيم.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صفة مادحة لهم، وتخصيصُهما بالذِّكر لأنّهما قَرينتا الإيمان، وقُطْرَا العباداتِ البدنيّة والماليّة مُستتبِعتان لسائر الأعمال الصالحة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ جملة اعتراضيّة، كأنّه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقِنون بالآخرة حقَّ الإيقان، لا مَن عداهم؛ لأنّ تحمّل مشاقّ العبادات لخوف العقاب ورجاء الثواب، أو هو مِن تتمّة الصلة، والواو حاليّة أو عاطفة له على الصلة الأولى، وتغيير نظمه للدلالة على قوّة يقينهم وثباته، وأنّهم أوحديّون فيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بيان لأحوال الكفرة بعد بيان أحوال المؤمنين، أي: لا يؤمنون بها وبما فيها مِن الثواب على الأعمال الصالحة، والعقاب على السيّئات، حسبما ينطق به القرآن. ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ القبيحة حيث جعلناها مشتهاةً للطبع محبوبة للنفس، كما يُنبئ عنه قوله عليه السلام: «حُفَّتِ النارُ بالشهوات»،[٢] أو الأعمالَ الحسنةَ ببيان حُسنِها في أنفسها حالًا، واستتباعِها لفنون المنافع مآلًا. وإضافتُها إليها باعتبار أمرهم بها وإيجابِها عليهم.

﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ يتحيّرون ويتردّدون على التجدّد والاستمرار في الاشتغال بها، والانهماك فيها، مِن غير ملاحظة لِما يتبعها مِن نفع وضرّ، أو في الضلال والإعراض عنها. و"الفاء" على الأوّل لترتيب المسبَّب على السبب،

---

١ س: فظ [اختصار "فظاهر"].

٢ صحيح البخاري، ١٠٢/٨ (٦٤٨٧)؛ صحيح مسلم، ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٢). ولفظ البخاري: "حُجبت".

وعلى الثاني لترتيب ضدّ المسبَّب على السبب، كما في قولك: "وَعظتُه فلم يتّعِظ". وفيه إيذان بكمال عُتوّهم ومُكابرتهم وتعكيسهم في الأمور.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين. وهو مبتدأ خبرُه الموصول بعده، أي: أولئك الموصوفون بالكفر والعمَهِ ﴿ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: في الدنيا، كالقتل والأسر يوم بدر، ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ / هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ أي: أشدّ الناس خُسرانًا لفوت [٢٤٢و]
الثواب واستحقاق العقاب.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ كلام مستأنَف قد سِيق بعد بيان بعض شئون القرآن الكريم تمهيدًا لِما يعقُبه مِن الأقاصيص. وتصديره بحرفَي التأكيد لإبراز كمال العناية بمَضمونه، أي: لَتُؤتاه بطريق التَّلْقية والتلقين ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: أيِّ حكيم وأيِّ عليم، وفي تفخيمهما تفخيمٌ لشأن القرآن، وتنصيصٌ على علوّ طبقته عليه السلام في معرفته والإحاطة بما فيه مِن الجلائل والدقائق، فإنّ مَن تَلَقَّى العلوم والحِكمَ مِن مِثل ذلك الحكيم العليم يكون عَلمًا في رصانة العلم والحكمة.

والجمع بينهما مع دخول العلم في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل، وللإشعار بأنّ ما في القرآن مِن العلوم منها ما هو حكمة، كالعقائد والشرائع، ومنها ما ليس كذلك، كالقصص والأخبار الغيبيّة.

﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ﴾ منصوب على المفعوليّة بمُضمَر، خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأُمِر بتلاوة بعضٍ مِن القرآن الذي يُلَقّاه عليه السلام مِن لَدُنه عزّ وجلّ تقريرًا لِما قبله وتحقيقًا له، أي: اذكر لهم

وقتَ قوله عليه السلام لأهله في وادي طوى، وقد غشِيَتْهم ظلمة الليل، وقدَحَ فأَصْلَد زَنْدُه،[١] فبَدا له مِن جانب الطور نار: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: عن حال الطريق، وقد كانوا ضَلُّوه، و"السين" للدلالة على نوع بُعدٍ في المسافة وتأكيدِ الوعد. والجَمعُ -إن صحّ أنّه لم يكن معه عليه السلام إلّا امرأته- لِما كُنِي عنها بالأهل، أو لِلتعظيم مبالغةً في التسلية.

﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ بتنوينهما على أنّ الثاني بدل مِن الأوّل، أو صفة له لأنّه بمعنى "مَقبوس"، أي: بشعلة نارٍ مَقبوسة، أي: مأخوذة مِن أصلها. وقُرِئ بالإضافة،[٢] وعلى التقديرين فالمراد تعيين المقصود الذي هو القبَس الجامع لمنفعتَي الضياءِ والاصطلاء؛ لأنّ مِن النار ما ليس بقبَسٍ كالجَمْر. وكلتا العِدَتَين منه عليه السلام بطريق الظنّ، كما يفصح عن ذلك ما في سورة طه[٣] مِن صيغة الترجّي.

والترديد للإيذان بأنّه إن لم يظفر بهما لم يَعدَم أحدَهما بناء على ظاهر الأمر وثِقةً[٤] بسنّة الله تعالى، فإنّه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانَين.

﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ رجاءَ أن تستدفِئُوا بها، / و"الصِّلاء": النار العظيمة. [٢٤٢ظ]

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ﴾ مِن جانب الطور ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ معناه: أي: بُورِك، على أنّ ﴿أَن﴾ مفسّرة لِما في النداء مِن معنى القول، أو بأن بُورِك، على أنّها مصدريّة حُذف عنها الجارّ جَريًا على القاعدة المستمرّة. وقيل: مخفّفة مِن الثقيلة، ولا ضيرَ في فقدان التعويض بـ"لا" أو "قد" أو "السين" أو "سوف"، لِما أنّ الدعاء يخالف غيرَه في كثير مِن الأحكام.

﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي: مَن في مكان النار -وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله سبحانه: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾

---

١ صَلَدَ الزَنْدُ يَصْلِدُ -بالكسر- صُلودًا؛ إذا صَوَّتَ ولم يُخرِج نارًا. وأَصْلَدَ الرجلُ: أي صَلَدَ زَنْدُه. **الصحاح** للجوهري، «صلد».

٢ أي: "بِشِهَابِ قَبَسٍ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٣٧.

٣ طه، ٢٠/١٠.

٤ س: ثقةً.

[القصص، ٢٨/٣٠]- ومَن حولَ مكانها. وقُرئ: "تَبَارَكَتِ الْأَرْضُ وَمَنْ حَوْلَهَا".[١] والظاهر عمومه لكلّ مَن في ذلك الوادي وحَواليهِ مِن أرض الشام الموسومة بالبركات؛ لكونها مَبعثَ الأنبياء عليهم السلام، وكِفَاتَهم[٢] أحياءً وأمواتًا، ولا سيّما تلك البقعة التي كلّم الله تعالى موسى.

وقيل: المراد موسى والملائكة الحاضرون، وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنّه قد قُضِي له أمر عظيم ديني ينتشر بركاته في أقطار الشام، وهو تكليمه تعالى إيّاه عليه السلام، واستنباؤه له، وإظهار المعجزات على يدِه عليه السلام.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعجيب لموسى عليه السلام مِن ذلك، وإيذانٌ بأنّ ذلك مُريدُه ومُكَوِّنُه ربُّ العالمين تنبيهًا على أنّ الكائن مِن جلائل الأمور، وعظائمِ الشئون، ومِن أحكام تربيته تعالى للعالمين.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ استئناف مَسوق لبيان آثار البركة المذكورة. والضمير إمّا للشأن، و﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ جملة مفسّرة له، وإمّا راجع إلى المتكلّم، و﴿أَنَا﴾ خبره، و﴿ٱللَّهُ﴾ بيان له.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان لله تعالى ممهّدتانِ لِما أريدَ إظهارُه على يده مِن المعجزة، أي: أنا القويُّ القادر على ما لا يناله الأوهام مِن الأمور العظام التي مِن جملتها أمر العصا واليد، الفاعِلُ، كلُّ ما أفعله بحكمة بالغة وتدبير رَصين.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾

﴿وَأَلْقِ﴾ عطفٌ على ﴿بُورِكَ﴾[٣] منتظِم معه في سِلك تفسير النداء، أي: نودي أن بُورك وأن ألقِ ﴿عَصَاكَ﴾ حسبما نطق به قوله تعالى: / ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [٢٤٣و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٤٩.

٢ الكِفات: الموضع الذي يُكفَتُ فيه شيء، أي: يُضمّ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات، ٧٧/٢٥-٢٦].

٣ في الآية السابقة.

[القصص، ٣١/٢٨] بتكرير حرف التفسير، كما تقول: "كتبتُ إليه أن حُجَّ وأنِ اعتَمِر"، وإن شئتَ "أن حُجَّ واعتمِر".

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فصيحة تفصِح عن جملةٍ قد حُذِفَت ثِقةً بظهورها، ودلالةً على سرعة وقوع مضمونها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف، ٣١/١٢]، كأنّه قيل: فألقاها فَانقَلبَتْ حيّةً تسعَى فأبصرها،[1] فلمّا أبْصَرَها متحرِّكةً بسرعة واضطراب.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي: حيّةٌ خفيفة سريعة الحركة، جملةٌ حاليّة، إمّا مِن مفعول "رأى" مثل ﴿تَهْتَزُّ﴾ كما أشيرَ إليه، أو مِن ضمير ﴿تَهْتَزُّ﴾ على طريقة التداخل. وقُرئ: "جَأْنٌّ"[2] على لغة مَن جدّ في الهرب مِن التقاء الساكنين.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ مِن الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع على عقبه، مِن "عَقَّب المقاتل" إذا كَرَّ بعد الفرّ. وإنّما اعتراه الرُّعب لظنّه أنّ ذلك لأمرٍ أُريدَ به، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي: مِن غيري ثِقةً بي، أو مطلقًا لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فإنّه يدلّ على نفي الخوف عنهم مطلقًا، لكن لا في جميع الأوقات؛ بل حين يُوحَى إليهم كوقت الخطاب، فإنّهم حينئذ مستغرِقون في مطالعة شئون الله عزّ وجلّ، لا يخطر ببالهم خوفٌ مِن أحدٍ أصلًا، وأمّا في سائر الأحيان فهم أخوف الناس منه سبحانه، أو لا يكون لهم عندي سوءُ عاقبة ليخافوا منه.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑪﴾

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استثناء منقطع، استُدرِك به ما عسى يختلجُ في الخَلَد مِن نفي الخوف عن كلّهم مع أنّ منهم مَن فرطَتْ منه صغيرة ما ممّا يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،[3] فإنّهم وإن صدر عنهم شيء مِن ذلك فقد فعلوا عقيبَه ما يبطله

---

[1] م ط س - فأبصرها ["صح" في هامش م].

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والزهري وعمرو بن عبيد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢١٣/٨.

[3] س: عليهم السلام.

ويستحقّون به مِن الله تعالى مغفرةً ورحمةً، وقد قُصِد به التعريضُ بما وقع مِن موسى عليه السلام مِن وَكزة القبطي والاستغفار. وتسميتُها ظلمًا لقوله عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥ﴾ [القصص، ١٦/٢٨].

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢﴾

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ لأنّه كان مِدرعةَ صوف لا كُمَّ لها. وقيل: "الجَيب" القميص؛ لأنّه يُجاب، أي: يُقطع. / ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: آفةٍ، كبَرَص ونحوه. [٢٤٣ظ]

﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ في جملتها، أو معها على أنّ التِسع هي: الفَلْق، والطوفان، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، والطَّمْسة، والجَدْب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم. ولِمَن عدّ العصا واليد مِن التسع أن يعدّ الأخيرين واحدًا، ولا يعدّ الفَلْقَ منها؛ لأنّه لم يُبعث به إلى فرعون، أو اذهب في تسع آيات، على أنّه استئناف بالإرسال، فيتعلّق به: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦ﴾، وعلى الأوّلَين يتعلّق بنحو: مبعوثًا أو مرسلًا.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال، أي: خارجين عن الحدود في الكفر والعدوان.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ وظهَرت على يد موسى ﴿مُبْصِرَةً﴾ بيّنةً، اسم فاعل أُطلق على المفعول إشعارًا بأنّها لِفَرْط وضوحها وإنارتها كأنّها تُبصِر نفسَها لو كانت ممّا يُبصِر، أو ذاتَ تَبصّر مِن حيث إنّها تهدي، والعُمْيُ لا تَهتدي فضلًا عن الهداية، أو مُبصِرةً كلَّ مَن ينظر إليها ويتأمّل فيها. وقُرِئ: "مَبْصَرَةٌ"،[١] أي: مكانًا يكثُر فيه التبصّر.

﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضحٌ سِحريّته.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وعلي بن الحسين. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٨.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤﴾

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: كذّبوا بها ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ "الواو" للحال، أي: وقد استيقَنَتْها، أي: علِمتْها أنفسهم علمًا يقينيًا ﴿ظُلْمًا﴾ أي: للآيات، كقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف، ٩/٧]، ولقد ظلَموا[١] أيَّ ظلم حيث حطُّوها عن رتبتها العالية وسمَّوها سِحرًا. وقيل: ظلمًا لأنفسهم،[٢] وليس بذاك.

﴿وَعُلُوًّا﴾ أي: استكبارًا عن الإيمان بها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ﴾ [الأعراف، ٣٦/٧]. وانتصابُهما إمّا على العلّة مِن ﴿جَحَدُواْ بِهَا﴾، أو على الحاليّة مِن فاعله، أي: جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مِن الإغراق على الوجه الهائل الذي هو عِبرة للعالمين، وإنّما لم يُذكر تَنبيهًا على أنّه عُرضة لكلّ ناظر مشهور فيما بين كلّ بادٍ وحاضر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ / كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما سبق مِن [٢٤٤و]
أنّه عليه السلام يُلَقَّى القرآنَ مِن لدن حكيمٍ عليم، فإنّ قصّتهما عليهما السلام مِن جملة **القرآن الكريم** لُقِّيَهُ عليه السلام مِن لدنه تعالى، كقِصّة موسى عليه السلام. وتصديره بالقسَم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: آتينا كلّ واحد منهما طائفةً مِن العلم لائقةً به مِن علم الشرائع والأحكام وغير ذلك ممّا يختصّ بكلٍ منهما، كصنعة لَبوسٍ، ومَنطق الطير، أو عِلمًا سنيًّا غزيرًا.

﴿وَقَالَا﴾ أي: قال كلّ واحدٍ منهما شكرًا لِما أُوتِيَه مِن العلم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا مِن العِلم ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنّ عبارة كلٍ منهما: "فضّلَني"، إلّا أنّه عُبّر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلّم مع الغير إيجازًا، فإنّ حكاية الأقوال المتعدّدة سواء كانت صادرةً عن المتكلّم أو عن غيره

---

١ ط س + بها.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٦/٤.

بعبارة جامعة للكلّ ممّا ليس بعزيز، ومِن الأوّل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣]، وقد مرّ في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. وبهذا ظهَر حُسن موقع العطف بـ"الواو"، إذ المتبادر مِن العطف بـ"الفاء" ترتّب حمد كلّ منهما على إيتاء ما أوتي كلٌّ منهما، لا على إيتاء ما أوتي نفسه فقط.

وقيل: في العطف بـ"الواو" إشعار بأنّ ما قالاه بعضُ ما أحدث فيهما، إيتاءُ العلم وشيء مِن مواجبه، فأُضمِر ذلك ثمّ عُطف عليه التحميد، كأنّه قيل: ولقد آتيناهما عِلمًا فعمِلا به وعلّماه وعرَفا حقّ النعمة فيه وقالا: الحمد لله... الآية، فتأمّل.

والكثير المفضّل عليه مَن لم يُؤتَ مثلَ علمهما. وقيل: مَن لم يُؤتَ عِلمًا،[١] ويأباه تبيين الكثير بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنّ خلوّهم مِن العلم بالمرّة ممّا لا يمكن. وفي تخصيصهما الأكثرَ بالذكر رَمْز إلى أنّ البعض مفضَّلون عليهما.

[٢٤٤ظ] وفيه أوضح دليل على / فضل العلم وشرف أهله حيث شَكَرا على العلم، وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبرا دونه ما أوتيا مِن المُلك الذي لم يُؤتَهُ غيرهما، وتحريضٌ للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم مِن فضله، ويتواضعوا، ويعتقدوا أنّهم وإن فُضّلوا على كثير فقَد فُضِّل عليهم كثير، وفوق كلّ ذي علمٍ عليمٌ، ونِعمّا قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: «كلّ الناس أفقه مِن عمر».[٢]

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: النبوّةَ والعلمَ، أو المُلكَ بأن قام مقامَه في ذلك دون سائر بَنيه، وكانوا تسعة عشر. ﴿وَقَالَ﴾ تشهيرًا لنعمة الله تعالى، وتنويهًا بها، ودعاءً للناس إلى التصديق بذِكر المعجزات الباهرة التي أُوتِيَها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٦/٤.

٢ سنن سعيد بن منصور، ١٩٥/١ (٥٩٨)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٣٨٠/٧ (١٤٣٣٦).

﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ "المنطق" في المتعارَف كلّ لفظ يعبَّر به عمّا في الضمير مفردًا أو مركّبًا، وقد يطلق على كلّ ما يُصَوَّت به مِن المفرد والمؤلَّف، المفيدِ وغيرِ المفيد، يقال: "نَطَقَت الحمامة".

وكلّ صنف مِن أصناف الطير يتفاهم أصواتَه، والذي عُلِّمَه سليمان عليه السلام مِن مَنطِق الطير هو ما يَفهم بعضُه مِن بعض مِن معانيه وأغراضه.

ويُحكى أنّه مرّ على بلبلٍ في شجرة يُحرّك رأسه ويُميل ذنَبَه، فقال لأصحابه: «أتدرون ما يقول؟» قالوا: «الله ونبيّه أعلم»، قال: يقول: «إذا أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العَفاء». وصاحت فاخِتة، فأَخبَر أنّها تقول: «ليت ذا الخلقَ لم يُخْلَقُوا». وصاح طاوس، فقال: يقول: «كما تَدِينُ تُدانُ». وصاح هُدهُد، فقال: يقول: «استغفروا اللهَ يا مذنبون». وصاح طِيطُوي، فقال: يقول: «كلّ حيّ ميّت، وكلّ جديدٍ بالٍ». وصاح خطّاف، فقال: يقول: «قدّموا خيرًا تجدوه». وصاح قُمريّ، فأخبَر أنّه يقول: «سبحان ربّي الأعلى». وصاحت رَخَمَة، فقال: تقول: «سبحان ربّي الأعلى مِلأَ سمائه وأرضه».

وقال: الحِدأ يقول: «كلّ شيء هالك إلّا الله»، والقَطاة تقول: «مَن سكت سَلِم»، / والبَبَّغاء تقول: «ويل لمَن الدّنيا همّه»،[1] والديك يقول: «اذكروا الله يا غافلون»، والنَّسر يقول: «يا ابن آدم عِش ما شئتَ، آخرُكَ الموت»، والعُقاب يقول: «في البُعد مِن الناس أُنس»، والضِّفدَع يقول: «سبحان ربّي القدّوس».[2] [٢٤٥و]

وأراد عليه السلام بقوله: ﴿عُلِّمْنَا﴾ و﴿أُوتِينَا﴾ بـ"النون" التي يقال لها: "نون الواحد المطاع" بيانَ حالِه وصفتِه مِن كونه مَلِكًا مُطاعًا، لكن لا تَكبّرًا وتَجبّرًا؛ بل تمهيدًا لِما أراد منهم مِن حسن الطاعة والانقياد له في أوامره ونواهيه حيث كان على عزيمة المسير.

وبقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ كثرةَ ما أُوتِيَه، كما يقال: "فلان يقصده كلّ أحد، ويعلم كلّ شيء"، ويراد به كثرةُ قُصّاده وغَزارةُ علمه. ومثله قوله تعالى:

---

[1] م ط س: لمن همّه الدنيا ["صح" في هامش م].

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٣/٣.

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل، ٢٣/٢٧]. وقال ابن عبّاس: «كلّ ما يهمّه مِن أمر الدنيا والآخرة».[١] وقال مقاتل: «يعني: النبوّةَ والمُلكَ وتسخيرَ الجنّ والإنس والشياطين والريح».[٢]

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما ذكِر مِن التعليم والإيتاء ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ والإحسانُ مِن الله تعالى ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ الواضح الذي لا يخفى على أحد.

أو إنّ هذا الفضل الذي أُوتِيَه لهو الفضل المبين، على أنّه عليه السلام قالَه على سبيل الشكر والمَحْمَدة، كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا سيّد ولد آدم ولا فَخر»،[٣] أي: أقول هذا القولَ شكرًا لا فخرًا، ولعلّه عليه السلام رَتّبَ على كلامه ذلك دعوةَ الناس إلى الغَزْو، فإنّ إخبارهم بإيتاءِ كلّ شيء مِن الأشياء التي مِن جملتها آلات الحرب وأسباب الغزو ممّا يُنبئ عن ذلك.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧﴾

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ جُمع له عساكره ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ بمباشرة مُخاطَبِيه، فإنّهم كانوا رُؤساءَ مملكته وعظماءَ دَولته مِن الثقلين وغيرهم، بتعميم الناس للكلّ تغليبًا. وتقديم ﴿ٱلْجِنِّ﴾ على ﴿ٱلْإِنسِ﴾ في البيان للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوّة مُلكه وعزّة سلطانه مِن أوّل الأمر، لِما أنّ الجنّ طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة مِن الحشر والتسخير.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحبَس أوائلهم على أواخرهم، أي: يُوقَف سُلّافُ العسكر حتّى يلحقهم التوالي، فيكونوا مجتمعين لا يتخلّف منهم أحد، وذلك للكثرة العظيمة. ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد في العساكر. وفيه إشعار بكمال مسارعتهم إلى السير.

---

١ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٧٢/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ١٢٤/١٥.

٢ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٧٢/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ١٢٤/١٥.

٣ **سنن الترمذي**، ٣٠٨/٥ (٣١٤٨)؛ **سنن ابن ماجه**، ٣٦٢/٥ (٤٣٠٨).

وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سَوق أواخرهم مع أنّ التلاحق يحصل بذلك أيضًا لِما أنّ أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم مِن السير السريع، وهذا إذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح في الجوّ.

رُوي أنّ مُعَسكَره عليه السلام كان مائةَ فرسخ في مائةٍ، خمسة وعشرون للجنّ، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له عليه السلام ألف بيتٍ مِن قواريرٍ على الخشب، فيها ثلاثُمائة منكوحةٍ، وسبعُمائة سُرِّيّةٍ، وقد نَسجَتْ له الجنّ بساطًا مِن ذهب وأُبْريسَمٍ فرسخًا في فرسخ، وكان يُوضَعُ مِنبره في وسطه -وهو مِن ذهب- فيقعد عليه وحوله ستُّمائة / ألفِ كرسيٍّ مِن ذهب وفضّة، فيقعد الأنبياء عليهم السلام على [٢٤٥ظ] كراسيّ الذهب، والعلماء على كراسيّ الفضّة، وحولَهم الناس، وحولَ الناس الجنّ والشياطين، وتُظلُّه الطير بأجنحتها حتّى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصَّبا البساطَ فتسيرُ به مَسيرةَ شهر.[١]

ويُروى أنّه كان يأمر الريحَ العاصف تحمِله، ويأمر الرُّخاءَ تُسَيّره، فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض: «إنّي قد زِدْتُ في مُلكك؛ لا يتكلّم أحد بشيء إلّا ألقَتْه الريح في سمعك»، فيُحكَى أنّه مرّ بحرّاث فقال: «لقد أُوتِي آلُ داود مُلكًا عظيمًا»، فألقَتْهُ الريح في أُذُنه، فنزل ومشى إلى الحرّاث، وقال: «إنّما مشيتُ إليك لِئَلّا تتمنّى ما لا تقدر عليه»، ثمّ قال: «لَتَسبيحةٌ واحدة يقبلها الله تعالى خير ممّا أُوتِيَ آلُ داود».[٢]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ حتّى هي التي يُبتدَأُ بها الكلام، ومع ذلك هي غاية لِما قبلها كالتي في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ﴾

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٤/٣.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٥/٣.

الآيةَ [هود، ٤٠/١١]، وهي ههنا غاية لِما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ مِن السير، كأنّه قيل: فساروا حتّى إذا أتَوا... إلخ.

و"وادي النمل" وادٍ بالشام كثيرُ النمل على ما قاله مقاتل،[١] وبالطائف على ما قاله كعب.[٢] وقيل: هو وادٍ تسكنه الجنّ، والنمل مراكبهم. وتعدية الفعل إليه بكلمة ﴿عَلَىٰ﴾ إمّا لِأنّ إتيانهم كان مِن فوق، وإمّا لأنّ المراد بالإتيان عليه قطعُه، مِن قولهم: "أتَى على الشيء" إذا أنفَدَه وبلغ آخره، ولعلّهم أرادوا أن يَنزلوا عند منتهى الوادي؛ إذ حينئذ يخافُهم ما في الأرض، لا عند سيرهم في الهواء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ جواب ﴿إِذَآ﴾، كأنّها لمّا رأتهم متوجّهين إلى الوادي فرّت منهم، فصاحت صيحةً تَنبّهتْ بها ما بحَضْرَتها مِن النمل لِمرادها، فتَبِعَها في الفرار، فَشُبّهَ / ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم فأُجْرُوا مُجراهم، [٢٤٦و] حيث جُعلَت هي قائلةً، وما عداها مِن النمل مقولًا لهم، حيث قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ مع أنّه لا يمتنع أن يخلُق الله تعالى فيها النطقَ، وفيما عداها العقلَ والفهمَ.

وقُرئ: "نَمُلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمُلُ" بضمّ الميم،[٣] وهو الأصلُ، كـ"الرجُل"، وتسكينُ الميم تخفيف منه، كـ"السَّبْع" في "السَّبُع". وقُرئ بضمّ النون والميم.[٤]

قيل: كانت نملةً عرجاءَ تمشي وهي تَتَكاوَسُ،[٥] فنادت بما قالت، فسمع سليمان عليه السلام كلامَها مِن ثلاثة أميال. وقيل: كان اسمُها طاخيةً. وقُرئ: "مَسْكَنَكُمْ".[٦]

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧٣/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٢٧/١٥. وهو في الكشّاف للزمخشري، ٣٥٥/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٧/٤، مِن غير عزو إلى مقاتل.

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧٣/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٢٧/١٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وطلحة ومعتمر بن سليمان وسليمان التيمي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٢٠/٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان التيمي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٢٠/٨.

٥ مِن "الكَوس"، وهو المشي على رِجل واحدة، ومِن ذوات الأربع على ثلاث قوائم. انظر: لسان العرب لابن منظور، «كوس».

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن شَهر بن حوشب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٢٠/٨.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهي في الحقيقة للنمل عن التأخّر في دخول مساكنهم وإن كان بحسب الظاهر نهيًا له عليه السلام ولجنوده عن الحَطْم، كقولهم: "لا أَرَيَنّك ههنا"، فهو استئناف، أو بدل مِن الأمر، كقول مَن قال:

فقلتُ لَه: ارْحَلْ لا تقيمنَّ عندنا[1]

لا جواب له، فإنّ النون لا تدخله في السَّعة. وقُرئ: "لَا يَحْطِمَنْكُمْ" بالنون الخفيفة.[2] وقُرئ: "لَا يَحِطِّمَنَّكُمْ" بفتح الحاء وكسرِها،[3] وأصله: "لَا يَحْتَطِمَنَّكُمْ".

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ مفيدة، لتقييد الحَطْم بحالِ عدم شعورهم بمكانهم، حتّى لو شعروا بذلك لم يَحْطِموا. وأرادت بذلك الإيذانَ بأنّها عارفة بشئون سليمان وسائر الأنبياء عليهم السلام في عصمتهم عن الظلم والإيذاء. وقيل: هو استئناف، أي: فَهِمَ سليمان ما قالته، والقوم لا يشعرون بذلك.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تعجّبًا مِن حذَرِها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها، وسرورًا بشُهرة حاله وحالِ جنوده في باب التقوى والشَّفَقة فيما بين أصناف المخلوقات التي هي أبعدها مِن إدراك أمثال هذه الأمور، وابتهاجًا بما خصّه الله تعالى به مِن إدراك هَمسها وفهم مرادها. رُوي أنّها أحسّت بصوت الجنود ولا تعلم أنّهم في الهواء، فأمر سليمان عليه السلام الريح فوقفَت لئلّا يُذْعَرْنَ حتّى دخلن مساكنهنّ.[4]

---

[1] تمامه:

وإلّا فكُن في السِّرّ والجهر مسلمًا

وهو بغير نسبة في مفتاح العلوم للسكّاكي، ١/٢٥٩؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٢/٨٣٩.

[2] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٦.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٩.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٥٨.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أي: اجعلني أَزَعُ شكرَ نعمتك عندي وأكفُّه وأرتَبِطه بحيث لا ينفلت عنّي، حتّى لا أنفكّ عن شكرك أصلًا. وقُرئ بفتح ياء ﴿أَوْزِعْنِي﴾.[١] ﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ / أدرج فيه ذكرَهما تكثيرًا [٢٤٦ظ]
للنعمة، فإنّ الإنعام عليهما إنعام عليه مستوجب للشكر.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ إتمامًا لِلشكر واستدامةً للنعمة ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في جملتهم الجنّةَ التي هي دار الصالحين.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠﴾

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي: تعرّف أحوال الطير، فلم يَرَ الهُدهُدَ فيما بينها، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ كأنّه قال أوّلًا: ما لي لا أراه؟ لِساتر ستَره أو لسبب آخر، ثمّ بَدَا له أنّه غائب، فأضرَبَ عنه، فأخذَ يقول: أَهُو غائب؟

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل: كان تعذيبه للطير بنتف ريشه وتشميسه. وقيل: بجَعله مع ضدّه في قفص. وقيل: بالتفريق بينه وبين إلْفه. ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة تبيّن عذره. والحَلف في الحقيقة على أحد الأوّلين على تقدير عدم الثالث. وقُرئ: "لَيَأْتِيَنَّنِي" بنونين أولاهما مفتوحة مشدّدة.[٢]

قيل: إنّه عليه السلام لمّا أتمّ بناء بيت المقدس تجهّز للحجّ بحَشْره[٣] فَوافى الحرمَ وأقامَ به ما شاء، وكان يقرّب كلَّ يومٍ طُولَ مُقامِه بخمسة آلاف ناقة، وخمسةِ آلاف بقرةٍ، وعشرين ألفَ شاةٍ، ثمّ عزَم على السير إلى اليمن، فخرج مِن مكّة صباحًا يَؤُمُّ سُهَيلًا، فوافى صنعاءَ وقت الزوال، وذلك مسيرةُ شهرٍ، فرأى أرضًا حسناءَ أعجبته خُضرتُها، فنزل لِيتغدّى ويُصلّي، فلم يجدوا الماءَ،

---

[١] قرأ بها البزّي وورش مِن طريق الأزرق. النشر لابن الجزري، ١٦٦/٢.

[٢] قرأ بها ابن كثير، وكذلك هي في مصاحف أهل مكّة. النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

[٣] وفي هامش م: الحشر: المحشور. «منه».

وكان الهُدهُد قُنَاقِنَه،[١] وكان يرى الماء مِن تحت الأرض كما يُرى الماءُ في الزجاجة، فيجيء الشياطين فيَسلخونها كما يُسلَخ الإهابُ، ويستخرجون الماء، فتفقّده لذلك، وقد كان حين نزل سليمان عليه السلام حَلَّقَ الهُدهُد، فرأى هُدهُدًا واقعًا، فانحطّ إليه، فوصف له مُلك سليمان عليه السلام وما سُخِّر له مِن كلّ شيء، وذَكر له صاحبةُ مُلك بِلْقِيس، وأنّ تحتَ يدها اثني عشر ألف قائد، تحت يدِ كلّ قائد مائةُ ألفٍ، وذهب معه لينظر، فما رجع إلّا بعد العصر.[٢] وذلك قوله تعالى:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: زمانًا غير مَديد. وقُرئ بضمّ الكاف.[٣] وذُكِر أنّه وقَعَتْ / نفحة مِن الشمس على رأس سليمان عليه السلام،[٤] فنظر فإذا موضع الهُدهُد خالٍ، فدعا عِرّيفَ الطير -وهو النسر- فسأله عنه، فلم يجد عنده علمَه، ثمّ قال لسيّد الطير -وهو العُقاب-: عليَّ به، فارتفعَتْ فنظرَتْ، فإذا هو مُقبل فقصدَتْه، فناشدها اللهَ تعالى،[٥] وقال: بحقّ الله[٦] الذي قوّاكِ وأقدَركِ عليّ إلّا رَحِمتِني، فتركَتْه. وقالت: ثَكِلَتكَ أمّك، إنّ نبيّ الله قد حلَف ليعذّبنّكَ، قال: وما استثنى، قالت: بلى، قال: أو لَيأتينّي بعذر مبين، فلمّا قَرُب مِن سليمان عليه السلام أرخى ذنَبَه وجناحَيه يجرّها على الأرض تواضعًا له، فلمّا دَنا منه أخذ عليه السلام برأسه فمدّه إليه، فقال: يا نبيّ الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فارتعد سليمان عليه السلام، وعفا عنه، ثمّ سأله،[٧] ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: علمًا ومعرفةً، وحفظتُه مِن جميع جهاته. وقُرئ: "أَحَطتُّ" بإدغام الطاء في التاء، بإطباقٍ[٨] وبغير إطباقٍ.[٩] [٢٤٧و]

١ وفي هامش م: "القُنَاقِنُ" مَن يعرف مَنابط الماء، والجمعُ "قَنَاقِن". «منه».

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٣.

٣ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير عاصم وروح. النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

٤ س - عليه السلام.

٥ م - تعالى.

٦ س - الله.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠١/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٣.

٨ قرأ بالإدغام مع المحافظة على إطباق الطاء جميع القرّاء العشر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٢٠/١.

٩ أي: بالإدغام الكامل، قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري والبيضاوي بغير نسبة وعزاها الشهاب الخفاجي إلى ابن محيصن. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٥٩/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٨/٤؛ وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤٠/٧.

ولا خفاءَ في أنّه لم يُرِد بما ادّعى الإحاطةَ به ما هو مِن حقائق العلوم ودقائق المعارف التي يكون معرفتُها والإحاطةُ بها مِن وَظائف أرباب العلم والحكمة، لتوقّفها على علم رصين وفضل مبين، حتّى يكون إثباتُها لنفسه بين يدي نبيّ الله سليمان عليه السلام تعدّيًا عن طَوره، وتجاوزًا عن دائرة قدره، ونَفيُها عنه عليه السلام جنايةً على جنايةٍ، فيُحتاجَ إلى الاعتذار عنه بأنّ ذلك كان منه بطريق الإلهام، فكافحه عليه السلام بذلك مع ما أوتي عليه السلام مِن فضل النبوّة والحكمة والعلوم الجمّة والإحاطةِ بالمعلومات الكثيرة ابتلاءً له عليه السلام في علمه، وتنبيهًا على أنّ في أدنى خلقه تعالى وأضعفِهم مَن أحاط علمًا بما لم يُحط به، ليتحاقرَ إليه نفسُه، ويتصاغرَ إليه عِلمُه، ويكونَ لطفًا له في
[٢٤٧ظ] ترك الإعجاب الذي هو فِتنةُ العلماء؛ بل أراد به ما هو مِن الأمور / المحسوسة التي لا يُعَدُّ الإحاطة بها فضيلة، ولا الغفلةُ عنها نقيصة، لعدمِ توقّفِ إدراكها إلّا على مجرّد إحساسٍ يستوي فيه العقلاء وغيرُهم.

وقد عَلِم أنّه عليه السلام لم يشاهِده، ولم يسمَع خبرَه مِن غيره قطعًا، فعَبَّر عنه بما ذُكِرَ لِترويج كلامه عنده عليه السلام وترغيبِه في الإصغاء إلى اعتذاره واستمالةِ قلبه نحو قبوله، فإنّ النفس للاعتذارِ المُنبِئ عن أمرٍ بديع أَقْبَلُ، وإلى تَلَقّي ما لا تعلمه أَمْيَلُ، ثمّ أيّده بقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ حيث فسّر إبهامَه نوعَ تفسيرٍ وأراه عليه السلام أنّه كان بصَدد إقامة خدمةٍ مهمّةٍ له حيث عبّر عمّا جاء به بالنبأ الذي هو الخبر الخطير والشأن الكبير، ووصَفَه بما وصفَه، وإلّا فماذا صَدَر عنه عليه السلام مع ما حُكِي عنه ما حُكِي مِن الحمد والشكر، واستدعاء الإيزاع[1] حتّى يليقَ بالحكمة الإلهيّة تنبيهه عليه السلام على تركه.

و﴿سَبَإٍ﴾ منصرف على أنّه اسمٌ لحَيّ، سُمُّوا باسم أبيهم الأكبر، وهو سَبأُ بنُ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بنِ قَحطان. قالوا: اسمُه عبد شمس، لُقِب به لكونه أوّلَ مَن سبَى. وقُرئ بفتح الهمزة[2] غيرَ منصرف على أنّه اسم للقبيلة ثمّ سُمِّيَت

---

[1] وفي هامش م: بقوله: ﴿أَوْزِعْنِي﴾. «منه». | أي: مِن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل، ٢٧/١٩].

[2] قرأ بها أبو عمرو والبزّي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٧.

مدينة مَأرِبَ بِسَبَإٍ، وبينها وبين صنعاءَ مسيرة ثلاث. وعلى هذه القراءة يجوز أن يُراد به القبيلة والمدينة، وأمّا على القراءة الأولى فالمراد هو الحيّ لا غير.

وعدم وقوف سليمان عليه السلام على نبئهم قبل إنباءِ الهُدهُد ليس بأمر بديع لا بدّ له مِن حِكمةٍ داعية إليه البتّة، وإن استحال خلوّ أفعاله تعالى مِن الحِكم والمصالح، لِما أنّ المسافة بين محطّه عليه السلام وبين مَأرِب وإن كانت قصيرة لكن مدّةَ ما بين نزوله عليه السلام هناك وبين مجيء الهُدهُد بالخبر أيضًا قصيرة. نعم اختصاص الهُدهُد بذلك مع كون الجنّ أقوى منه مبنيّ على حِكم بالغة، يستأثر بها علّام الغيوب.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ استئناف ببيان ما جاء به مِن النبأ، وتفصيلٌ له إثرَ الإجمال، وهي بِلْقِيسُ بنتُ شراحيل بن مالك بن ريّان. وكان أبوها مَلِكَ أرضِ اليمن كلّها، وُرّثَ المُلكَ مِن أربعين أبًا، ولم يكن له ولد غيرها، فغلبَتْ بعده على المُلكِ، / ودانَت لها الأمّة. وكانت هي وقومُها مجوسًا [٢٤٨و]
يعبدون الشمس.

وإيثارُ ﴿وَجَدتُّ﴾ على "رأيتُ" لِما أشيرَ إليه مِن الإيذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه السلام بإبراز نفسه في معرِض مَن يتفقّدُ أحوالَها ويتعرَّفُها كأنّها طَلِبَتُه وضالَّتُه لِيَعْرِضَها على سليمان عليه السلام. وضمير ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ لـ﴿سَبَإٍ﴾ على أنّه اسم الحيّ، أو لأهلها المدلول عليهم بذِكر مدينتهم على أنّه اسم لها.

﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: مِن الأشياء التي يحتاج إليها الملوك ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ قيل: كان ثلاثين ذراعًا في ثلاثين عرضًا وسَمكًا، وقيل: ثمانين في ثمانين، مِن ذهب وفضّةٍ مُكلَّلًا بالجواهر، وكانت قوائمه مِن ياقوت أحمر وأخضر،

ودرّ وزمرّد، وعليه سبعة أبيات على كلّ بيت باب مغلق. واستعظام الهُدهُد لعرشها مع ما كان يشاهده مِن مُلك سليمان عليه السلام، إمّا بالنسبة إلى حالها، أو إلى عروش أمثالها مِن الملوك. وقد جُوِّز أن لا يكون لسليمان عليه السلام مِثلُه.

وأيًا ما كان فوصفُه بذلك بين يديه عليه السلام لِما مرّ مِن ترغيبه عليه السلام في الإصغاء إلى حديثه، وتوجيهِ عزيمته عليه السلام نحو تسخيرها، ولذلك عقَّبه بما يوجبُ غزْوَها مِن كفرها وكفر قومها حيث قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: يعبدونها متجاوزين عبادةَ اللهِ تعالى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي هي عبادةُ الشمسِ ونظائرها مِن أصناف الكفر والمعاصي. ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيلِ الحقّ والصواب، فإنّ تزيين أعمالهم لا يُتصوّر بدون تقويم طرق كفرهم وضلالهم، ومِن ضرورته
[٢٤٨ظ] نسبةُ / طريق الحقّ إلى العِوَج. ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ مفعول له، إمّا للصَّدِّ، أو للتزيين، على حذف اللام منه، أي: فصدّهم لِأنْ لا يَسجُدوا له تعالى، أو زيّن لهم أعمالهم لِأن لا يَسجُدوا، أو بدل على حاله مِن ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾،[١] وما بينهما اعتراض، أي: زُيّن لهم أن لا يسجدوا. وقيل: هو في موقع المفعول لـ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بإسقاط الخافض، و﴿لَا﴾ مَزيدة كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد، ٢٩/٥٧]، والمعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا له تعالى.

وقُرئ: "أَلَا يَا اسْجُدُوا"،[٢] على التنبيه والنداء، والمنادى محذوف، أي: أَلَا يا قومُ اسجدوا، كما في قوله:

ألا يـا اسلَـمي يـا دارَ مَـيّ عَـلَى البِلَى[٣]

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] قرأ بها أبو جعفر والكسائي ورويس. النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

[٣] تمامه:
ولا زالَ مُنهلًا بجَرعائِك القَطرُ
لذي الرمّة في ديوانه، ٥٥٩/١.

ونظائرِه. وعلى هذا يحتمل أن يكون استئنافًا مِن جهة الله عزّ وجلّ، أو مِن سليمان، ويوقَفُ على ﴿لا يهتدون﴾، ويكونُ أمرًا بالسجود، وعلى الوجوه المتقدّمة ذمًّا على تركه، وأيًا ما كان فالسجود واجب. وقُرئ: "هَلَّا"، و"هَلَا"[1] بقلب الهمزتين "هاءً". وقُرئ: "هَلَّا تَسْجُدُونَ"[2] بمعنى "ألا تسجدون" على الخطاب.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ[3] فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُظهر ما هو مَخبُوءٌ ومخفيّ فيهما كائنًا ما كان، وتخصيصُ هذا الوصف بالذكر بصدد بيان تفرّده تعالى باستحقاق السجود له مِن بين سائر أوصافه الموجبة لذلك لِما أنّه أرسخ في معرفته والإحاطةِ بأحكامه بمشاهدة آثاره التي مِن جملتها ما أودعه الله تعالى في نفسه مِن القدرة على معرفة الماءِ تحت الأرض.

وأشار بعطف قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ على ﴿يُخْرِجُ﴾ إلى أنّه تعالى يُخرج ما في العالم الإنساني مِن الخفايا كما يُخرج ما في العالم الكبير مِن الخبايا، لِما أنّ المراد يُظهِر ما تخفونه مِن الأحوال فيجازيكم بها. وذِكر ﴿مَا تُعْلِنُونَ﴾ لتوسيع دائرة العلم، أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهي. وقُرئ: "مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ"[4] على صيغة الغيبة بلا التفات.

و"إخراجُ الخَبْءِ" / يَعُمّ إشراقَ الكواكب، وإظهارَها مِن آفاقها بعد [٢٤٩و] استتارها وراءَها، وإنزالَ الأمطار، وإنباتَ النبات؛ بل الإنشاءَ الذي هو إخراج ما في الشيء بالقوّة إلى الفعل، والإبداعَ الذي هو إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجود، وغيرَ ذلك مِن غيوبه عزّ وجلّ.

وقُرئ: "الْخَبَ" بتخفيف الهمزة بالحذف.[5] وقُرئ: "الْخَبَا"[6] بتخفيفها

---

[1] قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن ابن مسعود رضي الله عنه والأعمش. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦٢.

[3] م ط س: الخبأ.

[4] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير الكسائي وحفص. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٧.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة ومالك بن دينار والزهري والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٩.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٩.

بالقلب. وقُرئ: "أَلَا[١] تَسْجُدُونَ للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[٢] مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ".[٣]

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي هو أوّل الأجرام وأعظمها. وقُرئ: "الْعَظِيمُ" بالرفع[٤] على أنّه صفة "الربّ".

واعلم أنّ ما حُكي مِن الهُدهُد مِن قوله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾[٥] إلى هنا ليس داخلًا تحت قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾.[٦] وإنّما هو مِن العلوم والمعارف التي اقتبسها مِن سليمان عليه السلام، أورده بيانًا لِما هو عليه، وإظهارًا لِتَصلّبه في الدين. وكلّ ذلك لتوجيه قلبه عليه السلام نحوَ قَبول كلامه، وصرفِ عَنان عزيمته عليه السلام إلى غزوها وتسخير ولايتها.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية كلام الهُدهُد، كأنّه قيل: فماذا فعل سليمان عليه السلام عند ذلك، فقيل: قال: ﴿سَنَنظُرُ﴾ أي: فيما ذكرتَه، مِن "النظر" بمعنى التأمّل، و"السين" للتأكيد، أي: سنتعرّف بالتجربة البتّة ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كان مقتضى الظاهر "أم كذبتَ"، وإيثارُ ما عليه النظم الكريم للإيذان بأنّ كذبه في هذه المادّة يستلزم انتظامه في سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه، فإنّ مساق هذه الأقاويل الملفّقة على ترتيب أنيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها مِن غير أن يكون لها مصداق أصلًا -لا سيّما بين يدي نبيّ عظيم الشأن- لا يكاد يصدر إلّا عمّن له قدم راسخ في الكذب / والإفك. [٢٤٩ظ]

---

١ وفي هامش م: للتحضيض.
٢ م ط س: الخبأ.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٢٩.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن وجماعة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٣٢.
٥ في الآية السابقة.
٦ النمل، ٢٧/٢٢.

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ استئناف مبيِّن لكيفيّة النظر الذي وعده عليه السلام، وقد قاله عليه السلام بعدما كتبَ كتابَه في ذلك المجلس أو بعده. وتخصيصه عليه السلام إيّاه بالرسالة دون سائر ما تحت مُلكه مِن أمناء الجنّ الأقوياء على التصرّف والتعرّف لِما عايَنَ فيه مِن مخائل العلم والحكمة وصحّةِ الفراسة، ولئلّا يبقى له عذر أصلًا.

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: تَنَحَّ إلى مكان قريب تتوارى فيه ﴿فَٱنظُرْ﴾ أي: تأمَّلْ وتعرَّفْ ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ماذا يرجع بعضُهم إلى بعض مِن القول. وجمعُ الضمائر لِما أنّ مضمون الكتاب الكريم دعوة الكلّ إلى الإسلام.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩﴾

﴿قَالَتْ﴾ أي: بعدما ذهب الهُدهُد بالكتاب فألقاه إليهم وتنحّى عنهم حسبما أُمر به، وإنّما طُوِي ذكره إيذانًا بكمال مسارعته إلى إقامة ما أُمِر به مِن الخدمة، وإشعارًا باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره.

رُوي أنّه عليه السلام كتب كتابه، وطبعَه بالمِسك، وختمَه بخاتَمه، ودفعَه إلى الهُدهُد، فوجدها الهُدهُد راقدةً في قصرها بمأرِبَ، وكانت إذا رقدت غلَّقت الأبوابَ، ووضعت المفاتيح تحت رأسها، فدخل مِن كُوّة، وطرح الكتاب على نَحرها وهي مستلقية.[1]

وقيل: نقرَها فانتبهت فَزِعةً. وقيل: أتاها والقادةُ والجنودُ حَوالَيها فرَفرَفَ ساعةً والناسُ ينظرون حتّى رفعَت رأسها، فألقى الكتاب في حِجرها، وكانت قارئة كاتبةً عربيّة مِن نَسل تُبّع الحِمْيَري كما مَرّ، فلمّا رأت الخاتم ارتعدَت وخضعَت،[2] فعند ذلك قالت لأشراف قومِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾
وصَفَتْه بالكرَم لِكرَم مضمونه، أو لكونه / مِن عند مَلِك كريم، أو لكونه مختومًا، [٢٥٠و]

[1] جامع البيان للطبري، ١٨/٤٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦٤.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٠٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦٤.

أو لغَرابة شأنه ووصولِه إليها على مِنهاجٍ غير معتاد.

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ استئناف وقع جوابًا لِسؤال مقدّر، كأنّه قيل: ممّن هو؟ وماذا مضمونه؟ فقالت: إنّه مِن سليمان، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: مضمونه والمكتوبُ فيه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وفيه إشارة إلى سبب وصفِها إيّاه بالكرَم.

وقُرئ: "أَنَّهُ"... "وَأَنَّهُ" بالفتح[١] على حذف اللام، كأنّها علّلَت كرَمه بكونه مِن سليمان، وبكونه مصدَّرًا باسم الله تعالى. وقيل: على أنّه بدل مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾.[٢] وقُرئ: "أَنْ مِن سُلَيْمَانَ وَأَنْ بِسْمِ اللهِ"،[٣] على "أَن" المفسِّرة.

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾ "أن" مفسِّرة، و"لا" ناهية، أي: لا تَتكبّروا كما يفعل جبابرة الملوك. وقيل: مصدريّة ناصبة للفعل، و"لا" نافية محلّها الرفعُ على أنّها بدل مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾،[٤] أو خبر لمبتدأ مضمر يليق بالمقام، أي: مضمونُه: ألّا تعلوا، أو النصبُ بإسقاط الخافض، أي: بأن لا تعلوا عليّ. وقُرئ: "أَلَّا تَغْلُوا" بـ"الغين" المعجمة،[٥] أي: لا تجاوِزوا حدّكم.

﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ أي: مؤمنين. وقيل: منقادين. والأوّل هو الأليق بشأن النبيّ عليه السلام على أنّ الإيمان مستتبع للانقياد حتمًا.

يُروى أنّ نسخة الكتاب: «مِن عبدِ الله سليمان بن داود إلى بِلْقِيس ملكةِ سبأ، السلام على مَن اتّبع الهدى، أمّا بعدُ فلا تَعلوا عليّ وائتوني مسلمين»،[٦] وليس الأمر فيه بالإسلام قبل إقامة الحجّة على رسالته حتّى يتوهّم كونه استدعاءً

---

١ قراءة شاذّة، أجازها الزجّاج ولم يسندها إلى أحد. انظر: **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ١١٨/٤.

٢ في الآية السابقة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦٤/٣؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٣٤/٨.

٤ النمل، ٢٩/٢٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٠.

٦ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٤/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦٤/٣.

للتقليد، فإنّ إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة معجزة باهرة دالّة على رسالة مرسلِها دلالةً بيّنةً.

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢﴾

﴿قَالَتْ﴾ كُرّرتْ حكايةُ قولها للإيذانِ بغاية اعتنائها / بما في حيّزه مِن قولها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أي: أجيبوني في أمري الذي حَزَبَني وذكرتُ لكم خلاصتَه. وعَبّرتْ عن الجواب بـ"الفتوى" الذي هو الجواب في الحوادث المشكِلة غالبًا تهويلًا للأمر ورفعًا لمحلّهم بالإشعار بأنّهم قادرون على حلّ المشكِلات المُلِمّة. [٢٥٠ظ]

وقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي: مِن الأمور المتعلّقة بالمُلك ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي: إلّا بمَحضركم وبموجَب آرائكم، استعطافٌ لهم واستمالة لقلوبهم؛ لئلّا يخالفوها في الرأي والتدبير.

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤﴾

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأَ مِن حكاية قولها، كأنّه قيل: فماذا قالوا في جوابها؟ فقيل: قالوا: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ في الأجساد والآلات والعُدَد ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: نَجدةٍ وشجاعةٍ مُفرِطة وبلاءٍ في الحرب. ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أي: هو موكول إليكِ، ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ونحن مطيعون لكِ، فمُرِينا بأمرِكِ نَمتَثِلْ به، ونَتَّبِعْ رَأيَكِ.

أو أرادوا: نحن مِن أبناءِ الحرب، لا مِن أبناء الرأي والمشورة، وإليكِ الرأي والتدبير، فانظري ماذا ترين نَكُنْ في الخدمة.

فلمّا أحسّتْ منهم الميلَ إلى الحِراب والعدولَ عن سَنن الصواب شرَعَت في تزييف مَقالتهم المبنيّة على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام. وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ مِن القرى على منهاج المقاتَلة والحِراب

﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بتخريب عِماراتها، وإتلاف ما فيها مِن الأموال، ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ بالقتل والأسر والإجلاء وغير ذلك مِن فنون الإهانة والإذلال.

[٢٥١و] ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيد لِما وصفَتْ / مِن حالهم بطريق الاعتراض التذييلي، وتقرير له بأنّ ذلك عادتهم المستمرّة. وقيل: تصديق لها مِن جهة الله تعالى، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨] إثرَ قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨].

﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦﴾

﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ تقرير لرأيها بعدما زيّفَتْ آراءَهم. وأتت بالجملة الاسميّة الدالّة على الثبات المصدَّرة بحرف التحقيق للإيذان بأنّها مُزْمِعَةٌ على رأيها، لا يَلويها عنه صارِف، ولا يَثنِيها عاطِف، أي: وإنّي مرسلة إليهم رسُلًا بهديّةٍ عظيمة، ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ حتّى أعمل بما يقتضيه الحال.

رُوي أنّها بعثت خمسَمائة غلامٍ عليهم ثياب الجواري، وحُلِيُّهنّ الأساور والأطواقِ والقِرَطة، راكبي خيل مغشّاة بالديباجِ، مُحلّاةِ اللُّجُمِ والسروج بالذهب المرصَّع بالجواهر، وخمسَمائة جاريةٍ على رِماك[١] في زيّ الغِلمان، وألفَ لبنةٍ مِن ذهب وفضّة، وتاجًا مكلَّلًا بالدُّرّ والياقوت المرتفع، والمسك والعنبر، وحُقًّا فيه دُرّة عذراءُ، وجذعةٌ معوجّة الثقب، وبعَثَت رجلًا مِن أشراف قومها المنذرَ بنَ عمرو وآخرَ ذا رأيٍ وعقلٍ، وقالت: «إن كان نبيًّا ميّزَ بين الغلمان والجواري، ونقَبَ الدرّ نَقْبًا مستويًا، وسَلَك في الخَرزة خيطًا»، ثمّ قالت للمنذر: «إن نظرَ إليك نظرَ غضبانٍ فهو ملِك، فلا يهولنّك، وإن رأيته بشًّا لطيفًا فهو نبيّ».

فأقبل الهُدهُد فأخبر سليمان عليه السلام بذلك، فأمر الجنَّ فضربوا لَبِنَ الذهب والفضّة، وفرشوه في ميدانٍ بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول [٢٥١ظ] الميدان حائطًا شُرُفاتُه مِن الذهب والفضّة، وأمر بأحسن الدوابّ / في البرّ والبحر

---

١ الرمكة: الأنثى مِن البراذين، والجمع رِماك. الصحاح للجوهري، «رمك».

فربطوها عن يمين الميدان ويسارِه على اللبِن، وأمر بأولاد الجنّ -وهم خلق كثير- فَأُقِيموا على اليمين واليسار، ثمّ قعد على سريره، والكراسيّ مِن جانبيه، واصطفّت الشياطين صفوفًا فراسخ، والإنسُ صفوفًا فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوامّ كذلك.

فلمّا دنا القومُ ونظروا بُهِتُوا ورأَوا الدوابّ تَرُوث على اللبِن، فتعاصَرت[١] إليهم نفوسهم، ورمَوا بما معهم، ولمّا وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجهٍ طَلْقٍ، وقال: «ما وراءكم؟» وقال: «أين الحُقّ؟» وأخبره جبريل عليهما السلام بما فيه، فقال لهم: «إنّ فيه كذا وكذا»، ثمّ أمر بالأَرَضَة فأخذتْ شعرةً ونفذت في الدرّة، فجُعِل رزقها في الشجرة، وأخذت دودة بيضاءُ الخيطَ بفيها ونفذت في الجذعة، فجُعل رزقها في الفواكه، ودعا بالماء، فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثمّ تضرب به وجهَها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهَه، ثمّ ردّ الهديّة.[٢]

وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ أي: الرسولُ ﴿قَالَ﴾ أي: مخاطبًا للرسول والمُرسِل تغليبًا للحاضر على الغائب. وقيل: للرسول ومَن معه، ويؤيّده أنّه قُرئ: "فَلَمَّا جَاءُوا"،[٣] والأوّل أولى لِما فيه مِن تشديد الإنكار والتوبيخ وتعميمِهما لبِلقيس وقومها، ويؤيّده الإفراد في قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾.[٤]

﴿أَتُمِدُّونَنِ[٥] بِمَالٖ﴾ وهو إنكارٌ لإمدادِهم إيّاه عليه السلام بالمال مع علوّ شأنه وسَعة سلطانه، وتوبيخٌ لهم بذلك. وتنكيرُ ﴿مَالٖ﴾ للتحقير.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ[٦] ٱللَّهُ﴾ أي: ممّا رأيتم آثارَه مِن النبوّة والمُلك الذي لا غاية وراءه ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: مِن المال الذي مِن جملته ما جئتم به، فلا حاجة لي إلى هديّتكم، ولا وقعَ لها عندي. تعليلٌ للإنكار، ولعلّه عليه السلام

---

١ ط س: فتقاصرت.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٦٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ١٨/٥٧.

٤ في الآية التالية.

٥ م: أتُمِدُّونَني.

٦ م ط س: آتاني.

إنّما قال لهم هذه المقالةَ إلى آخرها بعد ما جرى بينه وبينهم ما حُكِي مِن قصّة الحُقِّ وغيرها كما أُشيرَ إليه، لا أنّه عليه السلام خاطبَهم بها أوّلَ ما جاءوه كما يفهم مِن ظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾... إلخ. وقُرئ: "أَتُمِدُّونِّي" بالإدغام،[١] وبنونٍ واحدةٍ،[٢] وبنونين وحذفِ الياء.[٣]

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إضراب عمّا ذُكر مِن إنكار الإمداد بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديّتهم التي أهدَوها إليه عليه السلام فرَحَ افتخارٍ وامتنانٍ واعتدادٍ بها، كما يُنبئ عنه / ما ذُكِر مِن حديث الحُقِّ والجَذْعة [٢٥٢و] وتغييرِ زيّ الغِلمان والجواري وغيرِ ذلك.

وفائدة الإضراب التنبيه على أنّ إمداده عليه السلام بالمال منكَر قبيح، وعدَّ ذلك -مع أنّه لا قدر له عنده عليه السلام- ممّا يتنافس فيه المتنافسون أقبحُ، والتوبيخُ به أدخلُ. وقيل: المضاف إليه المُهدَى إليه، والمعنى: بل أنتم بما يُهدَى إليكم تفرحون حُبًّا لزيادة المال، لِما أنّكم لا تعلمون إلّا ظاهرًا مِن الحياة الدنيا.

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿ارْجِعْ﴾ أُفرِدَ الضميرُ ههنا بعد جَمْعِ الضمائر الخمسة فيما سبق لاختصاص الرجوع بالرسول، وعمومِ الإمداد ونحوِه للكلّ، أي: ارجع أيّها الرسول ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى بِلقيس وقومها، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ أي: فوَاللهِ لنأتينّهم ﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقةَ لهم بمقاومتها، ولا قدرةَ لهم على مقابَلَتها. وقُرئ: "بِهِمْ".[٤]

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ عطفٌ على جواب القسم ﴿مِّنْهَا﴾ مِن سَبأ ﴿أَذِلَّةً﴾ أي: حالَ كونهم أذلّةً بعد ما كانوا فيه مِن العزّ والتمكين. وفي جمعِ القلّة تأكيد لذِلّتهم.

---

١ قرأ بها حمزة ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٣/١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن المسيّبي عن نافع. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٣٧/٨.

٣ قرأ بها ابن عامر وعاصم والكسائي وخلف. وقرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بإثبات الياء وصلًا، وحذفها وقفًا. انظر: النشر لابن الجزري، ١٨٢/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣٦٦/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٣٨/٨.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: أُسارَى مهانون، حال أخرى مفيدة لكون إخراجهم بطريق الأسر، لا بطريق الإجلاء. وعدمُ وقوع جواب القسم لأنّه كان معلّقًا بشرطٍ قد حُذف عند الحكاية ثقةً بدلالة الحال عليه، كأنّه قيل: ارجع إليهم فلْيأتوا مسلمين وإلّا فلَنأتينّهم... إلخ.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ قاله عليه السلام لمّا دَنا مجيءُ بلقيس إليه عليه السلام.

يُروَى أنّه لمّا رجعَت رسلُها إليها بما حُكِي مِن خبر سليمان عليه السلام قالت: «قد علمتُ واللهِ ما هذا بملِك، ولا لنا به مِن طاقة»، وبعثَتْ إلى سليمان: «إنّي قادمة عليك بملوك قومي حتّى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه مِن دينك»، ثمّ آذنَت / بالرحيل إلى سليمان عليه السلام، فشَخَصَت إليه في اثنَي عشر ألف قَيلٍ،[1] تحت كُلّ قَيلٍ ألوف.[2] [٢٥٢ظ]

ويُروَى أنّها أمرَتْ فجُعل عرشُها في آخر سبعة أبيات بعضُها في بعضٍ، في آخر قصر مِن قصورٍ سبعةٍ لها، وغلّقت الأبواب، ووكّلتْ به حَرَسًا يحفظونه،[3] ولعلّه أوحي إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها مِن عرشها، فأراد أن يُرِيَها بعضَ ما خصَّه الله تعالى[4] عزّ سلطانُه به مِن إجراء التعاجيب على يده مع إطْلاعها على عظيم قدرته تعالى، وصحّةِ نبوّتِه عليه السلام، ويَختبِر عَقلَها بأن يُنكِّر عرشَها فينظرَ أتعرفه أم لا.

وتقييد الإتيان به بقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ لِما أنّ ذلك أَبْدَعُ وأغربُ وأبعد مِن الوقوع عادةً، وأدلّ على عِظَم قدرة الله تعالى وصحّةِ نبوّته عليه السلام، وليكونَ إخبارُها وإطلاعُها على بدائع المعجزات في أوّل مجيئها. وقيل: لأنّها إذا أتَتْ مسلمةً لم يحلّ له أخذ مالها بغير رضاها.

---

[1] القَيل: ملِك مِن ملوكِ حِمْيَر دونَ الملك الأعظم، والمرأةُ قَيْلة، وأصله "قَيِّل" بالتشديد، كأنّه الذي له قَول، أي يَنفُذ قولُه. **الصحاح للجوهري**، «قيل».

[2] **جامع البيان للطبري**، ٦٢/١٨؛ **الكشف والبيان للثعلبي**، ٢٠٩/٧.

[3] **جامع البيان للطبري**، ٦٢/١٨؛ **الكشف والبيان للثعلبي**، ٢٠٩/٧.

[4] م – تعالى.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ أي: مارد خبيث ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ بيان له، إذ يقال للرجل الخبيث المنكَر المُعَفِّر لأقرانه، وكان اسمه ذكوان أو صَخْرًا: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ أي: بعرشها ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: مِن مجلسك للحكومة، وكان يجلس إلى نصف النهار. و﴿ءَاتِيكَ﴾ إمّا صيغةُ المضارع، أو الفاعل، وهو الأنسب لمقام ادّعاء الإتيان به لا محالةَ، وأوفقُ لِما عُطف عليه مِن الجملة الاسميّة، أي: أنا آتٍ به في تلك المدّة البتّةَ. ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ أي: على الإتيان به ﴿لَقَوِىٌّ﴾ لا يَثقُل عليَّ حِمله ﴿أَمِينٌ﴾ لا أختزل منه شيئًا ولا أبدّله.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فُصِل عمّا قبله للإيذان بما بين القائلَين ومَقالَيهما وكَيفِيَّتَي قدرتهما على الإتيان به مِن كمال التبايُن، أو لإسقاطِ الأوّل عن درجة الاعتبار. قيل: هو آصفُ بن برخيا وزير سليمان عليه السلام. وقيل: رجل كان عنده اسم الله الأعظمُ الذي إذا سُئل به أجاب. وقيل: الخَضِر، أو جبريل، أو ملَك أيّده الله عزّ وجلّ به عليهم السلام. وقيل: هو سليمان نفسه عليه السلام،[1] وفيه بُعد لا يخفى.

والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ الجنس المنتظِم لجميع الكتب المنزلة أو اللوح، وتنكير ﴿عِلْمٌ﴾ للتفخيم والرمزِ إلى أنّه عِلمٌ غير معهود، و﴿مِن﴾ ابتدائيّة.

[٢٥٣و] ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ "الطَّرْفُ" تحريك الأجفان / وفَتْحُها للنظر إلى شيء، وارتدادُه انضمامُها، ولكونه أمرًا طبيعيًّا غيرَ مَنوط بالقصد أُوثِرَ الارتدادُ على الردّ، ولمّا لم يكن بين هذا الوعد وإنجازِه مدّةٌ ما كما في وعدِ

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦٧.

العفريت استُغنِي عن التأكيد، وطُوِيَ عند الحكاية ذِكرُ الإتيانِ به للإيذان بأنّه أمر متحقِّقٌ غنيّ عن الإخبار به.

وجيءَ بالفاء الفصيحة -لا داخلةً على جملة معطوفة على جملة مقدّرة دالّةٍ على تحقّقه فقط، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَنِ[١] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦] ونظائرِه؛ بل داخلةً على الشرطيّة- حيث قيل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: رأى العرش حاضرًا لديه كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف، ٣١/١٢]؛ للدلالة[٢] على كمال ظهور ما ذُكر مِن تحقّقه واستغنائه عن الإخبار به ببيانِ ظهورِ ما يَترتّبُ عليه مِن رؤية سليمان عليه السلام إيّاه، واستِغنائِه أيضًا عن التصريح به، إذ التقدير: فأتاه به فرآه، فلمّا رآه... إلخ، فحُذفَ ما حُذفَ لِما ذُكر، وللإيذان بكمال سرعة الإتيان به، كأنّه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه السلام إيّاه شيء ما أصلًا.

وفي تقييد رؤيته باستقراره عنده عليه السلام تأكيد لهذا المعنى، لإيهامِهِ أنّه لم يتوسّط بينهما ابتداءُ الإتيان أيضًا، كأنّه لم يَزَلْ موجودًا عنده، مع ما فيه مِن الدلالة على دوام قراره عنده منتظِمًا في سِلك ملكه.

﴿قَالَ﴾ أي: سليمان عليه السلام تلقّيًا للنعمة بالشكر جريًا على سَنن أبناء جنسه مِن أنبياء الله تعالى عليهم السلام وخُلّص عبادِه: ﴿هَٰذَا﴾ أي: حضورُ العرش بين يديه في هذه المدّة القصيرة، أو التمكّنُ مِن إحضاره بالواسطة أو بالذات -كما قيل- ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أي: تفضّله عليّ مِن غير استحقاقٍ له مِن قِبَلي.

﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾ بأن أراه محضَ فضله تعالى مِن غير حول مِن جهتي ولا قوّةٍ، وأقومَ بحقّه، ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أَجِد لنفسي مدخلًا في البَين، أو أقصّر في إقامة مواجبه كما هو شأن سائر النعم / الفائضة على العباد. [٢٥٣ظ]

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنّه يرتبط به عَتيدها، ويستجلب به مزيدَها، ويحطّ به عن ذمّته عِبْءَ الواجب، ويتخلّص عن وصمة الكفران،

---

[١] م ط س: فقلنا.

[٢] السياق: وجيءَ بالفاء... للدلالة...

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: لم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بترك تعجيل العقوبة والإنعامِ مع عدم الشكر أيضًا.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: سليمان عليه السلام، كُرِّرتِ الحكاية مع كونِ المَحكي سابقًا ولاحقًا مِن كلامه عليه السلام تنبيهًا على ما بين السابق واللاحق مِن المخالفة، لِما أنّ الأوّل مِن باب الشكر لله تعالى، والثاني أمرٌ لِخَدَمه.

﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيّروا هَيْئتَه بوجهٍ مِن الوجوه ﴿نَنظُرْ﴾ بالجزم على أنّه جواب الأمر، وقُرئ بالرفع[1] على الاستئناف. ﴿أَتَهْتَدِي﴾ إلى معرفته، أو إلى الجواب اللائق بالمقام. وقيل: إلى الإيمان بالله تعالى ورسولِه عند رؤيتها لِتَقدّمِ عرشها مِن مسافة طويلة في مدّة قليلة، وقد خَلّفَته مُغلَقةً عليه الأبواب مُوَكّلةً عليه الحُرّاس والحُجّاب،[2] ويأباه تعليق النظر المتعلِّق بالاهتداء بالتنكير، فإنّ ذلك ممّا لا دخلَ فيه للتنكير.

﴿أَمْ تَكُونُ﴾ أي: بالنسبة إلى علمنا ﴿مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى ما ذُكر مِن معرفة عرشها، أو الجوابِ الصواب، فإنّ كونها في نفس الأمر منهم وإن كان أمرًا مستمرًّا لكنّ كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه أمرٌ حادث يظهر بالاختبار.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ شروع في حكاية التجربة التي قصدها سليمان عليه السلام، أي: فلمّا جاءت بلقيسُ سليمانَ عليه السلام وقد كان العرش بين يديه ﴿قِيلَ﴾ أي: مِن جهة سليمان عليه السلام بالذات أو بالواسطة: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ لم يُقل:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٤٢/٨.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٣٦٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦١/٤.

"أهذا عرشكِ؟" لئلّا يكون تلقينًا لها / فيفوتَ ما هو المقصود مِن الأمر بالتنكير [٢٥٤و]
مِن إبراز العرش في معرِض الإشكال والاشتباه حتّى يتبيّن حالُها، وقد ذُكِرَت عنده عليه السلام بسَخافة العقل.

﴿قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ فأنبأت عن كمال رَجاحة عقلها، حيث لم تقل: "هُو هُو" -مع علمها بحقيقة الحال- تلويحًا بما اعتراه بالتنكير مِن نوع مُغايَرةٍ في الصفات مع اتّحاد الذات، ومراعاةً لحُسن الأدب في محاورته عليه السلام.

﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ مِن تتمّة كلامها، كأنّها ظنّت أنّه عليه السلام أراد بذلك اختبار عقلها وإظهارَ معجزة لها، فقالت: أُوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصِحّة نبوّتك مِن قبل هذه المعجزة التي شاهدناها بما سمعناه مِن المنذر مِن الآيات الدالّة على ذلك، وكُنّا مسلمين مِن ذلك الوقت. وفيه مِن الدلالة على كمال رَزانةِ رأيها ورَصانة فِكرها ما لا يخفى.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان مِن جهته تعالى لِما كان يمنعها مِن إظهارِ ما ادَّعَته مِن الإسلام إلى الآن، أي: صدّها عن ذلك عبادتُها القديمةُ للشمس.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ تعليل لسببيّة عبادتها المذكورة لِلصدّ، أي: إنّها كانت مِن قوم راسخين في الكفر؛ ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهي بين ظَهْرانَيهم إلى أن دخلَت تحت مَلَكةِ سليمان عليه السلام. وقُرِئ: "أَنَّهَا" بالفتح[١] على البدليّة مِن فاعل "صَدَّ"، أو على التعليل بحذف "اللام".

هذا، وأمّا ما قيل[٢] مِن أنّ قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ﴾[٣] إلى قوله تعالى: ﴿مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ مِن كلام سليمان عليه السلام ومَلَئه، كأنّهم لمّا سمعوا قولَها:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٠.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٣٦٩.

٣ في الآية السابقة.

﴿كأنّه هو﴾ تفطّنوا لإسلامها، فقالوا استحسانًا لشأنها: أصابت في الجواب وعلِمَت قدرةَ الله تعالى وصحّةَ النبوّة بما سمعت مِن المنذر مِن الآيات المتقدّمة، وبما عاينَتْ مِن هذه الآية الباهرة مِن أمر عرشها، ورُزِقت الإسلامَ، فعَطَفُوا على ذلك قولَهم: وأُوتينا العلمَ... إلخ، / أي: وأوتينا نحن العِلمَ بالله [٢٥٤ظ]
تعالى وبقدرته وبصحّة ما جاء مِن عنده قبل علمِها، ولم نزَل على دين الإسلام شكرًا لله تعالى على فضلهم عليها وسَبْقهم إلى العلم بالله تعالى والإسلامِ قبلها، وصدُّها عن التقدّم إلى الإسلام عبادةُ الشمس، ونشؤُها بين ظهرانَي الكفَرة؛ فممّا لا يخفى ما فيه مِن البُعد والتعسّف.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ الصرح: القَصر. وقيل: صحنُ الدار. رُوي أنّ سليمان عليه السلام أَمَر قبل قُدومها فبُني له على طريقها قَصر مِن زجاج أبيض، وأُجري مِن تحته الماء، وأُلقي فيه مِن دوابّ البحرِ السمكِ وغيرِه، ووُضع سريره في صدره، فجلس عليه، وعَكَف عليه الطير والجنّ والإنس، وإنّما فعل ذلك ليزيدها استعظامًا لِأمرِه، وتحقّقًا لنبوّته وثباتًا على الدين.[١]

وزعموا أنّ الجنّ كرهوا أن يتزوّجها فتُفضِيَ إليه بأسرارهم؛ لأنّها كانت بنتَ جنّيّة. وقيل: خافوا أن يولَد له منها ولد تجتمع له فطنة الجنّ والإنس، فيخرجوا مِن مُلك سليمان إلى مُلكٍ هو أَشَدُّ وأفظع، فقالوا: إنّ في عقلها شيئًا، وهي شَعْراء الساقَين، ورِجلها كحافر الحمار، فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتّخذ الصَّرح ليتعرّف ساقَها ورِجلَها.[٢]

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ وهو حاضر بين يدَيها -كما يُعرِب عنه الأمر بدخولها- وأحاطت بتفاصيل أحواله خُبْرًا ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ وتشمّرت لئلّا يبتلّ أذيالُها،

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٠؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٦٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢١٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٠.

فإذا هي أحسن الناس ساقًا وقدمًا خلا أنّها شَعْراء. قيل: هي السبب في اتّخاذ النُّورة، أمر بها الشياطينَ فاتّخذوها، واستنكحها عليه السلام، وأمر الجنَّ فبنَوا لها سيلحين[١] وغُمدان،[٢] وكان يزورها في الشهر مرّة، ويقيم عندها ثلاثة أيّام.[٣]

وقيل: بل زوّجها ذا تُبَّع مَلِك هَمْدان، وسلَّطه على اليمن، وأمرَ زَوْبَعةَ أميرَ جنِّ اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع.[٤]

وقُرئ: "سَأْقَيْهَا"[٥] حَملًا للمفرد على الجمع في "سُؤْق" و"أَسْؤُقٍ".

﴿قَالَ﴾ عليه السلام حين رأى ما اعتراها مِن الدهشة والرعب: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: ما توهّمتِه ماءً ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي: مُملّس ﴿مِن قَوَارِيرَ﴾ مِن الزجاج، / ﴿قَالَتْ﴾ [٢٥٥و]
حين عاينت تلك المعجزة أيضًا: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بما كنت عليه إلى الآن مِن عبادة الشمس. وقيل: بظنّي بسليمان، حيث ظنّت أنّه يُريد إغراقها في اللُّجّة،[٦] وهو بعيد.

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ تابعةً له مقتديةً به. وما في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مِن الالتفات إلى الاسمِ الجليل ووصفِه بربوبيّة العالمين لإظهار معرفتها بألوهيّته تعالى، وتفرُّدِه باستحقاق العبادة، وربوبيّته لجميع الموجوداتِ التي مِن جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك مِن الشمس.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾،[٧] مَسوق لِما سيق هو له مِن تقرير أنّه عليه السلام يُلَقّى القرآنَ مِن لدن حكيم عليم،[٨] فإنّ هذه القصّة أيضًا مِن جملة القرآن الكريم الذي لُقِّيَهُ عليه السلام.

---

١ وفي هامش م: اسم بلدة. «منه».

٢ وفي هامش م: قصرٌ بصنعاء. «منه».

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٠. وانظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢١٤.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢١٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٠.

٥ قرأ بها قنبل عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٨.

٦ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٦٢.

٧ النمل، ٢٧/١٥.

٨ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل، ٢٧/٦].

و"اللام" جواب قسم محذوف، أي: وبالله لقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مفسِّرة لِما في الإرسال مِن مَعنى القول، أو مصدريّة حُذف عنها "الباء". وقُرئ بضمّ "النون"[١] إتباعًا لها للباء.

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ففاجئُوا التفرّق والاختصام، فآمَن فريقٌ، وكفر فريقٌ. و"الواو" لمجموع الفريقين.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للفريق الكافر منهم بعدما شاهد منهم ما شاهد مِن نهاية العتوّ والعِناد حتّى بلَغوا مِن المكابَرة إلى أن قالوا له عليه السلام: "يا صالح ائتِنا بما تعِدنا إن كنت مِن الصادقين":[٢] ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة السيّئة ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: التوبةِ، فتؤخّرونها إلى حين نزولها، حيث كانوا مِن جهلهم وغَوايتهم يقولون: إن وقع إيعاده تُبنا حينئذ، وإلّا فنحن على ما كنّا عليه.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ هلّا تستغفرونه تعالى قبل نزولها ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقَبولها، إذ لا إمكان للقَبول عند النزول.

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا﴾ أصله: "تَطَيّرنا"، و"التطيُّر": التشاؤم، عُبّر عنه بذلك لِما أنّهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرّون بطائر يزجُرونه، فإن مرّ سانِحًا تيمّنوا، وإن مرّ بارِحًا[٣] تشاءَموا، فلمّا نسبوا الخير والشرَّ إلى الطائر استُعير لِما كان سبَبًا لهما مِن قدَر الله تعالى وقِسمته، أو مِن عمل العبد، أي: تشاءَمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر والكسائي وخلف. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٥

[٢] لفظه في الآية: ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف، ٧/٧٧].

[٣] السانِح: ما أتاك عن يمينك مِن ظبي أو طائر أو غير ذلك، والبارح: ما أتاك مِن ذلك عن يَسارك؛ قال أبو عبيدة: سأل يونس رُؤبةَ -وأنا شاهد- عن السانح والبارح، فقال: السانح ما ولّاك مَيامِنه، والبارح ما ولّاك مَياسره. لسان العرب لابن منظور، «سنح».

في دينك حيث تتابَعَت علينا الشدائد، وقد كانوا قُحِطوا، أو لم نزَل في اختلاف وافتراق مُذ اخترعتم دينكم.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ أي: سببُكم الذي / منه ينالكم ما ينالكم مِن الشرّ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو قَدَره، أو عملُكم المكتوبُ عنده. [٢٥٥ظ]

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: تُختَبَرون بتعاقُب السرّاء والضرّاء، أو تعذَّبون، أو يفتِنكم الشيطان بوَسوسته إليكم الطيرة. إضرابٌ مِن بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يَحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهي الحِجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: أشخاصٍ، وبهذا الاعتبار وقع تمييزًا لِلتسعة، لا باعتبار لفظه. والفرق بينه وبين "النَّفَر" أنّه مِن الثلاثة، أو مِن السبعة إلى العشرة، و"النَّفَر" مِن الثلاثة إلى التسعة، وأسماؤُهم حسبما نُقِل عن وَهْب: الهُذَيلُ بن عبد ربٍّ، وغَنْم بن غَنْم، ورِئابُ بن مِهْرَج، ومِصْدَع بنُ مهْرَج، وعُمَير بن كُرْدُبةَ، وعاصم بن مَخرمة، وسُبَيطُ بن صدقة، وسِمعان[١] بن صفيّ، وقُدَارُ بن سالف، وهم الذين سَعَوا في عَقْر الناقة، وكانوا عُتاةَ قوم صالح، وكانوا مِن أبناء أشرافهم.

﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا في المدينة فقط، إفسادًا بَحتًا، لا يخالطه شيء ما مِن الإصلاح، كما يَنطق به قوله تعالى: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: لا يفعلون شيئًا مِن الإصلاح، أو لا يصلحون شيئًا مِن الأشياء.

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف ببيان بعض ما فعلوا مِن الفساد، أي: قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمرِ صالح عليه السلام، وكان ذلك غِبَّما أنذرهم بالعذاب،

---

١ س: وشمعان.

وقوله: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾... إلخ [هود، ٦٥/١١]: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ إمّا أمرٌ مَقول لـ﴿قَالُواْ﴾، أو ماضٍ وَقع بَدلًا منه، أو حالًا مِن فاعله بإضمار "قد".

وقوله تعالى: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: لَنُباغِتَنّ صالحًا وأهلَه ليلًا ونقتُلَنّهم. وقُرئ بـ"التاء"[١] على خطاب بعضهم لبعض. وقُرئ بياء الغيبة وضمّ "التاء"[٢] على أنّ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ فعلٌ ماض، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لوليّ صالح. وقُرئ بـ"التاء"[٣] و"الياء"[٤] كما قبله.

[٢٥٦و] ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ / أي: ما حَضرنا هلاكَهُم، أو وقتَ هلاكهم، أو مكانَ هلاكهم، فضلًا أن نَتولّى إهلاكَهم. وقُرئ: "مَهْلَكَ" بفتح "اللام"،[٥] فيكون مصدرًا.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ مِن تمام القول، أو حال، أي: نقول ما نقول والحالُ إنّا صادقون في ذلك؛ لأنّ الشاهد للشيء غير المباشر له عُرفًا، أو لأنّا ما شَهِدنا مَهلِكَهم وحده؛ بل مَهلِكَه ومَهلِكَهم جميعًا، كقولك: "ما رأيت ثمّةَ رجلًا؛ بل رجلَين".

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ بهذه المواضعة ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أي: أهلكناهم إهلاكًا غيرَ مَعهود، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أو جازينا مَكرَهم مِن حيث لا يحتسبون.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ شروع في بيان ما ترتّب على ما باشروه مِن المَكر، و﴿كَيْفَ﴾ معلِّقة لفعلِ النظر، ومحلّ الجملة النصب بنَزع الخافض، أي: فتفكّر في أنّه كيف كان عاقبة مكرهم.

---

[١] أي: "لَتُبَيِّتُنَّهُ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.

[٣] أي: "لَتَقُولُنَّ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.

[٥] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ إمّا بدل مِن ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ على أنّه فاعل ﴿كَانَ﴾، وهي تامّة، و﴿كَيْفَ﴾ حال، أي: فانظر كيف حصل، أي: على أيّ وجهٍ حدث تدميرنا إيّاهم. وإمّا خبر لمبتدأ محذوف، والجملة مُبيّنة لِما في ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ مِن الإبهام، أي: هي تدميرُنا إيّاهم ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ الذين لم يكونوا معهم في مباشرة التبييتِ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بحيث لم يشذَّ منهم شاذٌّ. وإمّا تعليل لِما يُنبئ عنه الأمرُ بالنظر في كيفيّة عاقبة مكرهم مِن غاية الهَول والفظاعة بحذف الجارّ، أي: لأنّا دمّرناهم... إلخ.

وقيل: ﴿كَانَ﴾ ناقصة، اسمُها ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾، خبرها ﴿كَيْفَ كَانَ﴾، فالأوجَه حينئذ أن يكون قوله تعالى: ﴿أنّا دمّرناهم﴾... الخ تعليلًا لِما ذكر. وقُرئ: "إِنَّا دَمَّرْنَا"... إلخ[١] بالكسر على الاستئناف.

رُوي أنّه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحِجر في شِعبٍ يُصَلِّي فيه، فقالوا: زعَم صالح أنّه يفرُغ منّا إلى ثلاثٍ، فنحن نفرُغ منه ومِن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشِّعب، وقالوا: إذا جاء يصلّي قتلناهُ، ثمّ رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله تعالى صخرةً مِن الهَضْب حِيالَهم، فبادَروا فطَبَّقَت الصخرةُ عليهم فمَ الشِّعب، فلم يَدرِ قومُهم أين هم، ولم يَدرُوا ما فُعِل بقَومهم، وعذّب الله تعالى كلًّا منهم في مكانه، ونجّى صالحًا ومَن معه. وقيل: جاءوا بالليل شاهري سُيوفهم، وقد أرسل الله تعالى الملائكةَ مِلْءَ[٢] دارِ صالح، فدَمغوهم بالحجارة، يرون الحجارةَ ولا يرون راميًا.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ جملة مقرِّرة لِما قَبلها. وقوله تعالى: ﴿خَاوِيَةً﴾ أي: خاليةً، أو ساقطةً متهدّمةً ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: بسبب ظلمهم المذكور، حال مِن ﴿بُيُوتُهُمْ﴾، والعامل معنى الإشارة. وقُرئ: "خَاوِيَةٌ" بالرفع[٣] على أنّه خبر لمبتدأ محذوف.

---

١ قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

٢ م: مِلأَ.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.

[٢٥٦ظ] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر / مِن التدمير العجيب بظلمهم ﴿لَآيَةً﴾ لعبرةً عظيمةً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما مِن شأنِه أن يُعلَم مِن الأشياء، أو لقوم يتّصفون بالعلم.

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صالحًا، ومَن معه مِن المؤمنين. ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي: الكفرَ والمعاصي اتّقاءً مستمرًّا، فلذلك خُصّوا بالنجاة.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بمُضمِر معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾[١] في صدر قصّة صالح، داخل معه في حيّز القسَم، أي: وأرسلنا لوطًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ظرف للإرسال، على أنّ المراد به أمر ممتدّ وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين قومه مِن الأقوال والأحوال. وقيل: انتصاب ﴿لُوطًا﴾ بإضمار "اذكُر"، و﴿إِذْ﴾ بدل منه. وقيل: بالعطف على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾،[٢] أي: وأنجينا لوطًا،[٣] وهو بعيد.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الفِعلةَ المتناهية في القُبح والسَّماجة. وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جملة حاليّة مِن فاعل ﴿تَأْتُونَ﴾ مفيدة لتأكيد الإنكار وتشديدِ التوبيخ، فإنّ تَعاطِيَ القبيح مِن العالِم بقبحه أقبَح وأشنَع. و﴿تُبْصِرُونَ﴾ مِن "بَصَر القلب"، أي: أتفعلونها والحال أنكم تعلمون عِلمًا يقينيًّا بكونها كذلك. وقيل: يُبصِرها بعضكم مِن بعض لِما كانوا يُعلِنون بها.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ تثنيةٌ للإنكار، وتكريرٌ للتوبيخ، وبيانٌ لِما يأتونه مِن الفاحشة بطريق التصريح. وتحلية الجملة بحرفَي التأكيد للإيذان بأنّ مضمونها ممّا لا يُصَدِّق وقوعَه أحدٌ، لكمال بُعده مِن العقول. وإيراد المفعول

---

[١] النمل، ٢٧/٤٥.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٥٤؛ واللباب لابن عادل، ١٥/١٨٣.

بعنوان الرجوليّة لتربية التقبيح، وتحقيقِ المبايَنة بينها وبين الشهوة التي عُلِّل بها الإتيان.

﴿مِن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ متجاوزين النساءَ اللاتي هنّ محالّ الشهوة؛ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون فِعلَ الجاهلين بقُبحه، أو تجهلون العاقبةَ، أو "الجهلُ" بمعنى السفاهة والمُجون، أي: بل أنتم قوم سفهاء / ماجِنُون. و"التاء" فيه مع كونه [٢٥٧و]
صفة لـ﴿قَوْمٌ﴾ لكونهم في حيّز الخطاب.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزّهون عن أفعالنا، أو عن الأقذار، ويعدّون فعلنا قذِرًا. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه استهزاء.[1] وقد مرّ في سورة الأعراف[2] أنّ هذا الجواب هو الذي صدر عنهم في المرّة الأخيرة مِن مرّات مواعظ لوط عليه السلام بالأمر والنهي، لا أنّه لم يصدر عنهم كلام آخر غيره.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا﴾ أي: قدّرنا أنّها ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ غيرَ مَعهود، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ قد مرّ بيان كيفيّة ما جرى عليهم مِن العذاب غير مرّة.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ إثرَ ما قَصّ الله تعالى على رسوله صلّى الله عليه وسلّم قِصص الأنبياء المذكورين عليهم السلام، وأخبارَهم الناطقةَ

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٤. وفي جامع البيان للطبري، ١٨/٩٧، عن مجاهد.

[2] الأعراف، ٧/٨٢.

بكمال قدرته تعالى وعِظَمِ شأنه، وبما خصّهم به مِن الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالّة على جلالة أقدارهم، وصحّةِ أخبارهم، وبيّن على ألسنتهم حقّيّةَ الإسلام والتوحيد، وبُطلانَ الكفر والإشراك، وأنّ مَن اقتدى بهم فقد اهتدى، ومَن أعرض عنهم فقد تردّى في مَهاوي الرَّدَى، وشرَح صدره عليه السلام بما في تضاعيف تلك القِصص مِن فنون المعارف الربّانيّة، ونوّر قلبه بأنوار المَلَكات السُّبحانيّة الفائضة مِن عالَم القُدس، وقرّر بذلك فَحوى ما نطق به قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل، ٦/٢٧]؛ أمرَه[١] صلّى الله عليه وسلّم بأن يحمده تعالى على ما أفاض عليه مِن تلك النعم التي لا مَطمعَ وراءها لطامِع، ولا مَطمحَ مِن دونها لطامح، ويسلّمَ على كافّة الأنبياء الذين مِن جملتهم الذين قُصّت عليه أخبارهم التي هي مِن جملة المعارف التي أُوحِيت إليه عليه السلام أداءً لحقِّ تقدّمهم واجتهادهم في الدين.

وقيل: هو أمرٌ للوطٍ عليه السلام بأن يحمده تعالى على إهلاك كفَرة قومه، ويسلّم على مَن اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك،[٢] ولا يخفى بُعدُه.

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا[٣] يُشْرِكُونَ﴾ أي: آللهُ الذي ذُكرت شئونه العظيمة خير أم ما يشركونه به تعالى مِن الأصنام؟

ومرجعُ الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفَرة مِن جهتِه تعالى، وتَسفِيهِ آرائهم الرَّكيكة، والتَّهكّمِ بهم؛ إذ مِن البَيِّن أن ليس فيما أشركوه به تعالى شائبةُ خيرٍ ما حتّى يمكن أن يُوازَنَ بينه وبينَ مَن لا خيرَ إلّا خيرُه ولا إلهَ غيرُه.

وقُرئ: "تُشْرِكُونَ" بالتاء الفوقانيّة[٤] بطريق تلوين الخطاب وتوجيهِه إلى الكفَرة، وهو الأليَق بما بعده مِن سياق النظم الكريم المبنيّ على خطابهم.

---

١ السياق: إثرَ ما قَصّ الله تعالى... أمرَه...

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٨/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٥/٣.

٣ م ط س: أم ما.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

وجعلُه مِن جملة القول المأمور به[١] يأباه قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾... إلخ،[٢] فإنّه صريح في أنّ التبكيت مِن قِبَله عزّ وعلا بالذات. وحَملُه على أنّه حكاية منه عليه السلام لِما أُمِرَ به بعبارته، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الزمر، ٥٣/٣٩]؛ تعسّفٌ ظاهر مِن غير داعٍ إليه.

﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠﴾

و"أَمْ" في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ منقطعة، وما فيها مِن كلمة "بل" على القراءة الأولى[٣] للإضراب والانتقالِ مِن التبكيت تعريضًا إلى التصريح به خطابًا على وجهٍ أظهرَ منه، لمزيد التأكيد والتشديد، وأمّا على القراءة الثانية[٤] فلتثنيةِ التبكيت، وتكريرِ الإلزام، كنظائرها الآتية. / و"الهمزةِ" لتقريرهم، [٢٥٧ظ] أي: حملهم على الإقرار بالحقّ على وجه الاضطرار، فإنّه لا يتمالك أحد ممّن له أدنى تمييز، ولا يَقدِر على أن لا يعترف بخيريّة مَن خلق جميع المخلوقات، وأفاض على كلّ منها ما يليق به مِن منافعه مِن أخسّ تلك المخلوقات وأدناها؛ بل بأن لا خَيريّةَ فيه بوجه مِن الوجوه قطعًا.

و﴿مَنۡ﴾ مبتدأ خبره محذوف مع "أَم" المعادِلة للهمزة تعويلًا على ما سبَق في الاستفهام الأوّل، خَلَا أنّ "تُشْرِكُونَ" ههنا[٥] بتاء الخطاب على القراءتين معًا، وهكذا في المواضع الأربعة الآتية. والمعنى: بل أمَّن خَلَق قُطْرَيِ العالَم الجسماني ومَبدأَي منافع ما بينهما.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ التفات إلى خطاب الكفَرة على القراءة الأولى، لتشديدِ التبكيت والإلزام، أي: أنزل لأجلكم ومنفعتكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي: نوعًا منه، هو المطر. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين محدَقةً ومُحاطةً بالحوائط ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ أي: ذات حُسن ورَوْنق، يبتهج به النُّظّار.

---

١ جعله كذلك أبو البقاء في التبيان، ١٠١١/٢.

٢ في الآية التالية.

٣ أي: "يُشْرِكُونَ" بالياء.

٤ أي: "تُشْرِكُونَ" بالتاء.

٥ عبارة الألوسي: «خَلَا أنّ "تُشْرِكُونَ" المقدَّر ههنا»... روح المعاني للألوسي، ٢١٥/١٠.

﴿مَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي: ما صحّ وما أمكن لكم ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَا﴾ فضلًا عن ثمرها وسائرِ صفاتها البديعة، خيرٌ أم ما تُشركون.

وقُرئ: "أَمَن" بالتخفيف، على أنّه بدل مِن ﴿ٱللَّهُ﴾.[١]

وتقديم صِلَتَي الإنزالِ على مفعوله لِما مرّ مرارًا مِن التشويق إلى المؤخَّر. والالتفاتُ إلى التكلّم في قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى، والإيذانِ بأنّ إنباتَ تلك الحدائق المختلفة الأصنافِ والأوصافِ والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع ما لها مِن الحُسن البارع والبهاءِ الرائع بماءٍ واحد ممّا لا يكاد يَقدِر عليه إلّا هو وحده، حسبما يُنبئ عنه تقييدها بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ﴾... إلخ، سواء كانت صفة لها أو حالًا.

وتوحيد وصفها الأوّلِ -أعني: ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾- لِما أنّ المعنى: جماعةَ حدائقَ ذاتَ بَهجة، على نهجِ قولهم: "النساءُ ذهبَتْ"، وكذا الحال في ضمير ﴿شَجَرَهَا﴾.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أَإِلهٌ آخَرُ كائن مع الله الذي ذُكِر بعضُ أفعاله التي لا يكاد يقدر عليها غيره / حتّى يُتوهَّمَ جعله شريكًا له تعالى في العبادة؟ وهذا [٢٥٨و] تبكيت لهم بنَفي الألوهيّة عمّا يشركونه به تعالى في ضِمن النفي الكلّي على الطريقة البرهانيّة بعدَ تبكيتهم بنفي الخيريّة عنه بما ذُكر مِن الترديد، فإنّ[٢] أحدًا ممّن له تمييز في الجملة كما لا يقدر على إنكار انتفاء الخيريّة عنه بالمرّة لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء الألوهيّة عنه رأسًا، لا سيّما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عمّا سواه تعالى، وهكذا الحال في المواقع الأربعة الآتية.

وقيل: المراد نفي أن يكون معه تعالى إلهٌ آخَر فيما ذُكر مِن الخلق وما عُطِف عليه، لكن لا على أنّ التبكيت بنفس ذلك النفي فقط، كيف لا وهم لا يُنكِرونه، حسبما يَنطِق به قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان، ٣١/٢٥]؛ بل بإشراكهم به تعالى في العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته

---

١ م ط س - وقُرئ: "أَمَن" بالتخفيف، على أنّه بدل مِن ﴿ٱللَّهُ﴾. ["صح" في هامش م]. | قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.

٢ م + فإنّ.

له تعالى فيما ذُكر من لوازم الألوهيّة، كأنّه قيل: أإلهٌ آخَرُ معه[1] تعالى[2] في خواصّ الألوهيّة حتّى يُجعل شريكًا له تعالى في العبادة؟

وقيل: المعنى: أغَيرُه يُقْرَن به ويُجعل له شريكًا في العبادة، مع تفرّده تعالى بالخلق والتكوين؟ فالإنكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقّق المُنكَرِ دون النفي، كما في الوجهين السابقين.

والأوّل هو الأظهر الموافق لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون، ٩١/٢٣]، والأَوْفَى بحقّ المقام؛ لإفادته نَفْيَ وجود إلهٍ آخَرَ معه تعالى رأسًا، لا نفيَ مَعِيّته في الخلق وفروعه فقط.

وقُرِئَ: "آإِلَهٌ" بتوسيط مدّة بين الهمزتين،[3] وبإخراج الثانية بين بين.[4] وقُرِئَ: "أَإِلَهًا"[5] بإضمارِ فعلٍ يناسب المقام، مثل: "أَتَدعون"، أو "أَتُشرِكون".

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ مِن تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم وحكايتِه لغيرهم، أي: بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحقّ بالكلّيّة، والانحرافُ عن الاستقامة في كلّ أمر مِن الأمور، فلذلك يفعلون ما يفعلون مِن العدول عن الحقّ الواضح الذي هو التوحيد، والعكوفِ على الباطل البيّن الذي هو الإشراك.

وقيل: يَعدِلون به تعالى غيرَه،[6] وهو بعيد خالٍ عن الإفادة.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

/ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ قيل: هو بدل مِن ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾... إلخ،[7] [٢٥٨ظ]

---

١ س: مع الله.

٢ س - تعالى.

٣ قرأ بذلك أبو عمرو وأبو جعفر وقالون عن نافع وهشام عن ابن عامر بخُلف عنه. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١.

٤ قرأ بذلك نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ورُويس عن يعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١.

٥ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٧٦/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥٨/٨.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٦/٣.

٧ في الآية السابقة.

وكذا ما بعده مِن الجُمل الثلاث، وحكمُ الكلّ واحد. والأظهر أنّ كلّ واحدة منها إضراب وانتقال مِن التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجه آخرَ أدخلَ في الإلزام بجهةٍ مِن الجهات، أي: جعلها بحيث يستقرّ عليها الإنسان والدوابّ بإبداء بعضها مِن الماء، ودَحْوِها وتسويتِها حسبما يدور عليه منافعهم.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَا﴾ أوساطَها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ جارية ينتفعون بها، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ثوابتَ تمنعها أن تَميد بأهلها، ويتكوّن فيها المعادن، وينبع في حضيضها الينابيع، ويتعلّق بها مِن المصالح ما لا يحصى، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: العذب والمالح، أو خليجَي فارس والروم ﴿حَاجِزًا﴾ بَرزخًا مانعًا مِن الممازجة، وقد مرّ في سورة الفرقان.[١] والجَعل في المواقع الثلاثة الأخيرة إبداعي، وتأخيرُ مفعوله عن الظرف لِما مرّ مرارًا مِن التشويق.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ في الوجود، أو في إبداع هذه البدائع على ما مرّ. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه مِن الشرك مع كمال ظهوره.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وهو الذي أحوجَته شدّةٌ مِن الشدائد، وألْجأَته إلى اللَّجَأ والضراعة إلى الله عزّ وجلّ، اسمُ مفعول مِن "الاضطرار" الذي هو "افتِعال" مِن "الضرورة". وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو المجهود».[٢] وعن السدّي رحمه الله: «مَن لا حولَ له ولا قوّةَ».[٣] وقيل: المذنب إذا استغفر. و"اللام" للجنس، لا للاستغراق حتّى يلزمَ إجابة كلّ مضطرّ.

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وهو الذي يعتري الإنسان ممّا يسوءه، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلفاءَ فيها بأن وَرَّثكم سُكناها والتصرّفَ فيها مِمَّن قبلكم مِن الأمم،

---

١ الفرقان، ٥٣/٢٥.
٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٩/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٧/٣.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٩/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٧/٣.

وقيل: المراد بـ"الخلافة" الملكُ والتسلّط.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الذي يُفيض على كافّة الأنام هذه النعم الجِسام، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكّرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تتذكّرون، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد معنى القِلّة التي أُريدَ بها العدمُ، أو ما يجري مَجراه في الحقارة وعدمِ الجدوى.

وفي تذييل الكلام بنفي التذكّر عنهم إيذان بأنّ مضمونَهُ مَركوز في ذهن كلّ ذكيّ وغبيّ، وأنّه مِن الوضوح بحيث لا يتوقّف إلّا على التوجّه إليه وتذكّره. وقُرِئ: "تَتَذَكَّرُونَ"[١] على الأصل، و"تَذَّكَّرُونَ"،[٢] و"يَذَّكَّرُونَ"[٣] بـ"التاء" و"الياء" مع الإدغام.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: في ظلمات الليالي فيهما، على أنّ الإضافة للملابسة، أو في مشتبِهات الطرُق، يقال: "طريقة ظَلماء وعَمياء" للّتي لا مَنارَ بها.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ وهي المطر، ولئن صحّ أنّ السبب الأكثري في تكوّن الريح معاودةُ الأدخنة الصاعدة مِن الطبقة الباردة لانكسار حرّها وتمويجِها للهواء فلا ريبَ في أنّ الأسبابَ الفاعليّةَ والقابليّةَ / لذلك كُلِّه [٢٥٩و] مِن خلق الله عزّ وعلا، والفاعل للسبب فاعل للمسبَّب قطعًا. ﴿أإله مَّعَ الله﴾ نفيٌ لأن يكون معه إلهٌ آخر.

وقوله تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقرير وتحقيق له. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار للإشعارِ بعلّة الحكم، أي: تعالى وتنزّه بذاته المتفرّدة بالألوهيّة، المستتبِعةِ لجميع صفات الكمال ونعوتِ الجمال والجلال،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٢.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر وشعبة عن عاصم ورُويس عن يعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦-٣٣٨.

٣ قرأ بها أبو عمرو وهشام عن ابن عامر ورَوح عن يعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦-٣٣٨.

المقتضيةِ لكون كلّ المخلوقات مقهورًا تحت قدرته؛ عمّا يشركون، أي: عن وجود ما يشركونه به تعالى، لا مطلقًا، فإنّ وجوده ممّا لا مردّ له؛ بل عن وجودِه بعنوان كونه إلهًا وشريكًا له تعالى، أو عن إشراكهم.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: بل أمَن يبدأ الخلق ثمّ يعيده بعد الموت بالبعث ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بأسباب سماويّة وأرضيّةٍ قَد رَتّبها على ترتيبٍ بديع يقتضيه الحكمة التي عليها بُنِي أمرُ التكوين؛ خيرٌ أم ما تشركونه في العبادة مِن جماد لا يُتوهّم قدرتُه على شيء ما أصلًا؟

﴿أَءِلَٰهٌ﴾ آخر موجود ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ حتّى يُجعل شريكًا له في العبادة؟

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أمرٌ له عليه السلام بتبكيتهم إثرَ تبكيتٍ، أي: هاتوا برهانًا عقليًا أو نقليًا يدلّ على أنّ معه تعالى إلهًا، لا على أنّ غيره تعالى يَقدِر على شيء ممّا ذُكر مِن أفعاله تعالى كما قيل،[1] فإنّهم لا يدّعونه صريحًا، ولا يلتزمون كونه مِن لوازم الألوهيّة، وإن كان منها في الحقيقة، فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم ممّا لا وجه له. وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكّم بهم، لِما فيها مِن إيهام أنّ لهم برهانًا، وأنّى لهم ذلك.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في تلك الدعوى.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بعدَ ما حُقِّق تفرّده تعالى بالألوهيّة ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة التامّة والرحمةِ الشاملة العامّة عُقِّبَ بذِكر ما هو مِن لوازمه -وهو اختصاصه بعلم الغيب- تكميلًا لِما قبله، وتمهيدًا لِما بعدَه مِن أمر البعث.

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/١٦٥.

/ والاستثناء منقطع، ورفع المستثنى على اللغة التميميّة للدلالة على استحالة علم الغيب مِن أهل السماوات والأرض بتعليقه بكونه سبحانه وتعالى منهم، كأنّه قيل: إن كان الله تعالى ممّن فيهما ففيهم مَن يعلم الغيب، أو متّصل على أنّ المراد مِن ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مَن تعلّق علمه بهما، واطّلع عليهما اطّلاعَ الحاضر فيهما، فإنّ ذلك معنًى مجازي عامّ له تعالى ولأُولي العلم مِن خلقه، و﴿مَن﴾ موصولة، أو موصوفة. [٢٥٩ظ]

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: متى يُنشرون مِن القبور، مع كونه ممّا لا بدّ لهم منه، ومِن أهمّ الأمور عندهم. و﴿أَيَّانَ﴾ مركّبة مِن "أيّ" و"آن". وقُرئ بكسر الهمزة.[١] والضمير للكفَرة -وإن كان عدم الشعور بما ذُكر عامًّا- لئلّا يلزم التفكيك بينه وبين ما سيأتي مِن الضمائر الخاصّة بهم قطعًا. وقيل: الكلّ لِـ﴿مَن﴾، وإسناد خواصّ الكفَرة إلى الجميع مِن قَبيل قولهم: "بَنو فلان فعلوا كذا"، والفاعلُ بعض منهم.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لَمّا نُفِي عنهم علمُ الغيب وأُكِّد ذلك بنفي شعورهم بوقت ما هو مصيرهم لا محالةَ بُولِغ في تأكيده وتقريره بِأن أُضرِب عنه، وبُيِّن أنّهم في جهلٍ أفحشَ مِن جهلهم بوقت بعثهم، حيث لا يعلمون أحوال الآخرة مطلقًا مع تعاضد أسباب معرفتها، على أنّ معنى ﴿ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تَدارَك وتتابَع علمهم في شأن الآخرة التي ما ذُكر مِن البعث حال مِن أحوالها حتّى انقطع ولم يبقَ لهم علم بشيء ممّا سيكون فيها قطعًا، لكن لا على معنى أنّه كان لهم علم بذلك على الحقيقة ثمّ انتفى شيئًا فشيئًا؛ بل على طريقة المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه مِن الدلائل العقليّة والسمعيّة منزلةَ نفسه، وإجراءِ تساقُطِها عن درجة اعتبارهم كلّما لاحَظوها مُجرى تتابعها إلى الانقطاع.

ثمّ أُضرِبَ وانتُقلَ عن بيان عدم علمهم بها إلى بيان ما هو أَسوأُ منه، وهو حَيرتهم في ذلك، حيث قيل: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَا﴾ أي: في شكٍّ مريبٍ

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٢.

مِن نفس الآخرة وتَحقّقِها، كمَن تَحيّر في أمر لا يجد عليه دليلًا فضلًا عن الأمور التي ستقع فيها، ثمّ أُضرِب عن ذلك إلى بيان أنّ ما هم فيه أشدّ وأفظع مِن الشكّ، حيث قيل: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ بحيث لا يكادون يدركون دلائلَها لاختلال بصائرهم بالكلّيّة.

وقُرئ: "بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ"[١] بمعنى: انتهى وفَنِي. وقد فسّره الحسن البصري رضي الله عنه[٢] بـ«اضمَحلّ عِلمهم».[٣]

وقيل: كِلتَا الصيغتين على معناها الظاهر، أي: تكامل واستحكَم، أو تمّ أسبابُ علمهم / بأنّ القيامة كائنة لا محالةَ مِن الآيات القاطعة والحجج الساطعة، وتمكّنوا مِن المعرفة فضلَ تمكّن، وهم جاهلون في ذلك. [٢٦٠و]

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ إضراب وانتقال مِن وصفهم بمطلق الجهل إلى وصفهم بالشكّ. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ إضراب مِن وصفهم بالشكّ إلى وصفهم بما هو أشدّ منه وأفظعُ مِن العمى. وأنت خبير بأنّ تنزيل أسباب العلم منزلةَ العلم سَنَنٌ مَسلوك، لكنّ دلالة النظم الكريم على جهلهم حينئذٍ ليست بواضحة.

وقيل: المراد بوصفهم باستحكام العلم وتكامله التهكّمُ بهم، فيكون وصفًا لهم بالجهل مبالغةً، والإضرابان على ما ذُكِر.

وأصل ﴿ادَّارَكَ﴾ "تَدَارَكَ"، وبه قرأ أُبيّ،[٤] فأُبدلتِ "التاء" دالًا وسُكّنت، فتعذّر الابتداء فاجتُلِبت "همزة الوصل"، فصار ﴿ادَّارَكَ﴾.

وقُرئ: "بَلِ ادَّرَكَ"،[٥] وأصله "افتَعَل"، و"بَلْ أَأَدَّرَكَ" بهمزتين،[٦] و"بَلْ آأَدَّرَكَ"[٧]

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٩.

[٢] ط س - رضي الله عنه.

[٣] تفسير ابن أبي حاتم، ٩/٢٩١٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٩.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢/١٤٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. المحتسب لابن جنّي، ٢/١٤٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

[٧] س: آأدْرَك.

بألف بينهما،[١] و"بَلَ ادْرَكَ" بالتخفيفِ والنقل،[٢] و"بَلَ ادَّرَكَ" بفتح اللام وتشديد الدال،[٣] وأصله "بَلْ أَدْرَكَ" على الاستفهام، و"بَلَى أَدْرَكَ"، و"بَلَى آأَدْرَكَ"،[٤] و"أَمْ تَدَارَكَ"،[٥] و"أَمِ ادَّرَكَ".[٦]

فهذه ثنتا عشرة قراءةً، فما فيه استفهام صريح أو مُضمَّن مِن ذلك فهو إنكار ونفي، وما فيه "بَلَى" فإثبات لشعورهم، وتفسير له بالإدراك على وجه التهكّم الذي هو أبلغ وجوه النفي والإنكار، وما بعده إضراب عن التفسير مبالغةً في النفي، ودلالةً على أنّ شعورهم بها أنّهم شاكّون فيها؛ بل إنّهم منها عمون، أو ردٌّ وإنكارٌ لشعورهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بيان لجهلهم بالآخرة، وعَمَهِهم منها بحكاية إنكارهم للبعث. ووضعُ الموصول موضعَ ضميرهم لذمِّهم بما في حيّز صلته، والإشعارِ بعِلّة حكمهم الباطل في قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ أي: أَنُخْرَج مِن القبور إذا كنّا ترابًا كما يُنبئ عنه ﴿مُخۡرَجُونَ﴾، ولا مساغَ لأن يكون هو العامل في ﴿إِذَا﴾ لِاجتماع موانِعَ[٧] لو تفرّد واحد منها لكفَى في المنع.

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٢٦٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان بن يسار وعطاء بن يسار. **المحتسب** لابن جنّي، ٢/١٤٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان بن يسار وعطاء بن يسار. **المحتسب** لابن جنّي، ٢/١٤٢.

[٤] قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، واختلفت المصادر في ضبطهما، فهما كذلك في **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٣٨٠. وفي **جامع البيان** للطبري، ١٨/١٠٧: «وكان ابن عبّاس رضي الله عنهما -فيما ذُكر عنه- يقرأ بإثبات ياء في "بل"، ثمّ يبتدئ: "أَدَّارَكَ" بفتح ألِفها على وجه الاستفهام وتشديد الدال». ومثله في **معاني القرآن** للفرّاء، ٢/٢٩٩؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٦/١٧٤؛ و**تفسير القرطبي**، ١٣/٢٢٦. وفي **المحتسب** لابن جنّي، ٢/١٤٢: «"بَلَى" بياء "آذرَك" ممدودًا». وفي **اللباب** لابن عادل، ١٥/١٩٤: «وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما: "بَلَى أَدْرَكَ" بحرف الإيجاب أخت نعم، و"بَلَى آأَدْرَكَ" بألف بين همزتين».

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. انظر: **جامع البيان** للطبري، ١٨/١٠٧.

[٧] وفي هامش م: هي "الهمزة" و"أنّ" و"اللام". «منه».

وتقييد الإخراج بوقت كونهم ترابًا ليس لتخصيص الإنكار بالإخراج حينئذ فقط، فإنّهم منكرون للإحياء بعد الموت مطلقًا، وإن كان البدَن على حاله؛ بل لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج في حالة منافية له.

[٢٦٠ظ] / وقوله تعالى: ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾ عطفٌ على اسم "كان"، وقام الفصل مع الخبر مقامَ الفصل بالتأكيد. وتكرير "الهمزة" في ﴿أَئِنَّا﴾ للمبالغة والتشديد في الإنكار. وتحلية الجملة بـ"إنّ" و"اللام" لتأكيد الإنكار، لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم، فإنّ تقديم "الهمزة" لاقتضائها الصدارة -كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] ونظائره- على رأي الجمهور، فإنّ المعنى عندهم تعقيبُ الإنكار، لا إنكارُ التعقيب كما هو المشهور. وقُرئ: "إِذَا كُنَّا" بهمزة واحدة مكسورة.[١] وقُرئ: "إِنَّا لَمُخْرَجُونَ"[٢] على الخبر.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي: الإخراجَ ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قَبل وَعْدِه عليه السلام. وتقديم الموعود على ﴿نَحْنُ﴾ لأنّه المقصود بالذكر، وحيث أُخِر قُصِد به المبعوث. والجملة استئناف مَسوق لتقرير الإنكار، وتصديرُها بالقَسَم لمَزيد التأكيد. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقرير إثرَ تقرير.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب تكذيبهم للرسل عليهم السلام فيما دَعَوْهم إليه مِن الإيمان بالله عزّ وجلّ وحدَه وباليوم الآخر الذي تُنكرونه، فإنّ في مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لأُولي الأبصار، وفي التعبير عن المكذّبين بـ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لطفٌ بالمؤمنين في ترك الجرائم.

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

[٢] قرأ بها ابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿وَلَا تَكُن[١] فِي ضَيۡقٖ﴾ في حرجِ صَدرٍ ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ مِن مَكرهم، فإنّ الله يَعصمك مِن الناس. وقُرئ بكسر الضاد،[٢] وهو أيضًا مصدر، ويجوز أن يكون المفتوح مخفَّفًا مِن "ضَيِّقٍ"، وقد قُرئ كذلك،[٣] أي: لا تكُ في أمرٍ ضيّق.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٧١﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ أي: العذاب العاجل الموعود ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في إخباركم بإتيانه. والجمع باعتبار شِركة المؤمنين في الإخبار بذلك.

﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٢﴾

/ ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي: تَبِعكم ولَحِقَكم. و"اللام" مزيدة للتأكيد كـ"الباء" في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢]، أو الفعلُ مضمَّن معنى فعلٍ يعدَّى بـ"اللام". وقُرئ بفتح الدال،[٤] وهي لغة فيه. [٢٦١و]

﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ وهو عذاب يوم بدر. و"عسى" و"لعلّ" و"سوف" في مواعيد الملوك بمنزلة الجَزم بها، وإنّما يطلقونها إظهارًا للوقار، وإشعارًا بأنّ الرمز مِن أمثالهم كالتصريح ممّن عداهم، وعلى ذلك مَجرى وعد الله تعالى ووعيده. وإيثارُ ما عليه النظم الكريم على أن يقال: عسى أن يَردَفَكم... إلخ لكونه أدلَّ على تحقّق الوعد.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لَذُو إفضال وإنعام على كافّة الناس، ومِن جملة إنعاماته تأخيرُ عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه مِن المعاصي التي مِن جملتها

---

١ م ط س: ولا تكُ.

٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠٥/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقسم. الكامل للهذلي، ص ٥٨٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

استعجال العذاب. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يَعرفون حقّ النعمة فيه، فلا يشكرونه؛ بل يستعجلون بجهلهم وقوعه كدأب هؤلاء.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ما تخفيه. وقُرئ بفتح التاء،[1] مِن "كَنَنْتُ الشَّيءَ"، أي: سترتُ. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مِن الأفعال والأقوال التي مِن جملتها ما حُكي عنهم مِن استعجال العذاب. وفيه إيذان بأنّ لهم قبائح غيرَ ما يظهرونه، وأنّه تعالى يجازيهم على الكلّ. وتقديم السرّ على العَلَن قد مرّ سِرّه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة، ٧٧/٢].

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

[٢٦١ظ] / ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِن خافية فيهما. وهما مِن الصفات الغالبة، و"التاء" للمبالغة، كما في "الرَّاوِية"، أو اسمان لِما يغيب ويخفى، و"التاء" للنقل إلى الاسميّة. ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بَيِّنٍ، أو مُبيِّنٍ لِما فيه لمَن يطالعه، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: هو القضاء العدل بطريق الاستعارة.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن جملته ما اختلفوا في شأن المسيح، وتحزّبوا فيه أحزابًا، وركبوا متن العتوّ والغلوّ في الإفراط والتفريط، والتشبيهِ والتنزيه، ووقع بينهم التناكد في أشياء حتّى بلغت المُشاقّة إلى حيث لعن بعضهم بعضًا، وقد نزل القرآن الكريم ببيان كُنْه الأمر لو كانوا في حيّز الإنصاف.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على الإطلاق فيدخل فيهم مَن آمنَ مِن بني إسرائيل دُخولًا أوّليًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٨ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أي: بين بني إسرائيل ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ بما يحكم به، وهو الحقّ، أو بحِكمته، ويؤيّده أنّه قُرئ: "بِحِكَمِهِ".[1] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يُردّ حكمُه وقضاؤه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء التي مِن جملتها ما يُقضى به.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لترتيب الأمر على ما ذُكر مِن شئونه عزّ وجلّ، فإنّها موجِبة للتوكّل عليه، وداعية إلى الأمر به، أي: فتوكّل على الله الذي هذا شأنه، فإنّه موجِب على كلّ أحد أن يتوكّل عليه، ويُفوّض جميع أموره إليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ تعليل صريح للتوكّل عليه تعالى بكونه عليه السلام على الحقّ البَيّن، أو الفاصلِ بينه وبين الباطل، أو بين المُحقّ والمبطل، فإنّ كونه / عليه السلام كذلك ممّا يوجب الوثوق بحِفظه تعالى [٢٦٢و]
ونصرته وتأييده لا محالةَ.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾... إلخ تعليل آخَر للتوكّل الذي هو عبارة عن التبتّل إلى الله تعالى، وتفويضِ الأمر إليه، والإعراضِ عن التسبّب بما سواه، وقد عُلِّل أوّلًا بما يوجبه مِن جهته تعالى، أعني: قضاءَه بالحقّ وعزّتَه وعلمَه تعالى، وثانيًا بما يوجبه مِن جهته عليه السلام على أحد الوجهين، أعني: كونَه عليه السلام على الحقّ، ومِن جهته تعالى على الوجه الآخر، أعني: إعانتَه تعالى وتأييدَه للمحقّ.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حبيش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٦٧/٨.

ثمّ عُلّل ثالثًا بما يوجبه، لكن لا بالذات؛ بل بواسطة إيجابه للإعراض عن التسبّب بما سواه تعالى، فإنّ كونهم كالموتى والصُّمّ والعُمي موجِب لقَطع الطمع عن مشايَعتهم ومعاضَدتهم رأسًا، وداعٍ إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى، وهو المعنيّ بالتوكّل عليه تعالى.

وإنّما شُبّهوا بالموتى لعدم تأثّرهم بما يُتلى عليهم مِن القوارع. وإطلاقُ "الإسماعِ" عن المفعول لبيان عدمِ سماعهم لشيءٍ مِن المسموعات، ولعلّ المرادَ تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذُكر مِن عدم الشعور، فإنّ القلب مَشعر مِن المَشاعر أشيرَ إلى بطلانه بالمرّة، ثمّ بُيّن بطلانُ مَشعرَي الأذن والعين، كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف، ١٧٩/٧]، وإلّا فبَعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصمّ والعُمي مزيدُ مزيّة.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: الدعوةَ إلى أمر مِن الأمور. وتقييدُ النفي بقوله تعالى ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ لتكميل التشبيه، وتأكيدِ النفي، فإنّهم مع صمَمهم
[٢٦٢ظ] عن الدعاء إلى الحقّ مُعرِضون عن / الداعي، موَلّون على أدبارهم، ولا ريب في أنّ الأصمّ لا يسمع الدعاء مع كون الداعي بمقابلة صِماخه قريبًا منه، فكيف إذا كان خلفه بعيدًا منه. وقُرئ: "وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ".[١]

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ هدايةً موصلةً إلى المطلوب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص، ٥٦/٢٨]، فإنّ الاهتداء مَنوط بالبصر، و﴿عَن﴾ متعلّقة بالهداية باعتبار تضمّنه معنى الصرف. وقيل: بـ﴿ٱلْعُمْىِ﴾، يقال: "عَمِيَ عن كذا"،[٢] وفيه بُعد. وإيراد الجملة الاسميّة للمبالغة في نفي الهداية. وقُرئ: "وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ".[٣]

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٣٩/٢.
٢ انظر: التبيان لأبي البقاء، ١٠١٤/٢.
٣ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣٣٩/٢.

﴿إِن تُسۡمِعُ﴾ أي: ما تُسمِع سماعًا يُجدي السامعَ نفعًا ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: مَن مِن شأنهم الإيمانُ بها. وإيراد الإسماع في النفي والإثبات دون الهداية مع قُربها بأن يقال: إن تَهدي إلّا مَن يؤمِن... إلخ لِما أنّ طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيليّة.

﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ تعليل لإيمانهم بها، كأنّه قيل: فإنّهم مُنقادون للحقّ. وقيل: مُخلصون لله تعالى، مِن قوله تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة، ١١٢/٢].

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢﴾

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بيان لِما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾[١] مِن بقيّة ما يستعجلونه مِن الساعة ومباديها. والمراد بـ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ ما نَطق مِن الآيات الكريمة بمجيء الساعة، وما فيها مِن فنون الأهوال التي كانوا يستعجلونها، وبوقوعه قيامُها وحصولُها، عُبِّر عن ذلك به للإيذان بشدّة وَقْعها وتأثيرها. وإسناده إلى ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ لِما أنّ المراد بيانُ وقوعها مِن حيث إنّها مِصداق للقول[٢] الناطق بمجيئها، وقد أريدَ بالوقوع دُنوُّه واقترابه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل، ١/١٦]، أي: إذا دنا وقوعُ مدلول القول المذكور الذي لا يكادون يسمعونه ومصداقِه / ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهي "الجسّاسة".[٣] [٢٦٣و]
وفي التعبير عنها باسم الجنس وتأكيدِ إبهامه بالتنوين التفخيمي مِن الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى.

وقد ورد في الحديث: «أنّ طولها ستّون ذراعًا، لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب».[٤] ورُوي أنّ لها أربع قوائم، وله زَغَب وريش وجناحان.[٥]

---

١ النمل، ٧٢/٢٧.

٢ س: القول.

٣ "الجسّاسة" هي الدابّة التي ظهرت للصحابي تميم الداري رضي الله عنه في جزيرة في البحر، ففي الحديث: «فدخلوا الجزيرةَ فلقيتهم دابّة أهلَبُ كثيرُ الشعر، لا يدرون ما قُبله مِن دُبره مِن كثرة الشعر، فقالوا: "ويلكِ ما أنت؟" فقالت: "أنا الجسّاسة"» الحديث. انظر: صحيح مسلم، ٢٢٦٢/٤ (٢٩٤٢).

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٤/٣. وهو في المستدرك للحاكم، ٥٣٠/٤ (٨٤٩٠)، دون قوله: «طولها ستّون ذراعًا».

٥ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ١٢٦/١٨؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٨٥/٣.

وعن ابن جريج في وصفها: «رأسُ ثَور، وعين خنزير، وأُذُن فيل، وقَرن إِيَّلٍ،[١] وعنُق نعامة، وصدر أسد، ولون نمِر، وخاصرة هِرّة، وذنَب كبش، وخُفّ بعير، وما بين المَفصِلَين اثنا عشر ذراعًا بذراع آدم عليه السلام».[٢]

وقال وَهْب: «وجهُها وجهُ الرجل، وباقي خَلقها خَلق الطير».[٣]

ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: «ليس بدابّة لها ذنَب، ولكن لها لِحية»،[٤] كأنّه يشير إلى أنّه رجل، والمشهور أنّها دابّة.

ورُوي: لا تُخرج إلّا رأسَها، ورأسُها يبلغ أعنان السماء،[٥] أو[٦] يبلغ السحاب.[٧]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «فيها كلّ لون، ما بين قرنَيها فرسخ للراكب».[٨] وعن الحسن رضي الله عنه: «لا يتمّ خروجها إلّا بعد ثلاثة أيّام».[٩] وعن عليّ رضي الله عنه: «أنّها تخرج ثلاثة أيّام، والناس ينظرون، فلا يخرج إلّا ثلثها».[١٠] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه سُئل: مِن أين تخرج الدابّة؟ فقال: «مِن أعظم المساجد حرمةً على الله تعالى»،[١١] يعني: المسجدَ الحرامَ.

ورُوي أنّها تخرج ثلاث خرجات؛ تخرج بأقصى اليمن، ثمّ تتكمّن، ثمّ تخرج بالبادية، ثم تتكمّن دهرًا طويلًا، فبينا الناس في أعظم المساجد / حرمةً على الله تعالى [٢٦٣ظ]
وأكرمِها فما يهولهم إلّا خروجُها مِن بين الركن حِذاءَ دار بني مخزومٍ عن يمين الخارج مِن المسجد، فقوم يَهربون، وقوم يقفون نظّارة.[١٢] وقيل: تخرج مِن الصفا.[١٣]

---

١ الإِيَّل: الذَّكَر مِن الأَوعال. الصحاح للجوهري، «أيل».
٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤. وهو في تفسير ابن أبي حاتم، ٩/٢٩٢٤، عن ابن جريج عن أبي الزبير.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٢٥؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٤.
٤ تفسير ابن أبي حاتم، ٩/٢٩٢٤؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٣.
٥ أعنان السماء: صفائحها وما اعترض مِن أقطارها، كأنه جمع "عَنَن". والعامّة تقول: "عنان السماء". الصحاح للجوهري، «عنن».
٦ وفي هامش م: شكّ راوي. «منه».
٧ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤.
٨ تفسير ابن أبي حاتم، ٩/٢٩٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤.
٩ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤؛ تفسير الرازي، ٢٤/٥٧٢.
١٠ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤؛ تفسير الرازي، ٢٤/٥٧٢.
١١ جامع البيان للطبري، ١٨/١٢٤؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٢٥.
١٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤؛ تفسير الرازي، ٢٤/٥٧٢.
١٣ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤؛ تفسير الرازي، ٢٤/٥٧٢.

ورُوي: بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذا تَضطرب الأرض تحتهم تُحرِّك القنديل، وتنشقّ الصفا ممّا يلي المَسعى، فتخرج الدابّة مِن الصفا، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام، فتضرب المؤمن في مسجده بالعصا، فتنكُت نُكتة بيضاء، فتفشو حتّى يضيء لها وجهه، وتكتب بين عينيه مؤمن، وتنكُتُ الكافر بالخاتم في أنفه، فتفشو النُّكتة حتّى يسوَدُّ لها وجهه، وتكتب بين عينيه كافر، ثمّ تقول لهم: أنت يا فلان مِن أهل الجنّة، وأنت يا فلان مِن أهل النار.[1]

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قرَع الصفا بعصاه وهو مُحرِم، وقال: «إنّ الدابّة لَتَسمع قرعَ عصاي هذه».[2]

وروى أبو هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «بئس الشِّعب شِعب جياد» مرّتين أو ثلاثًا، قيل: «ولِمَ ذاك يا رسول الله؟» قال: «تخرج منه الدابّة، فتصرخ ثلاث صرخات، يَسْمعُها مَن بين الخافقين»،[3] فتتكلّم بالعربيّة بلسان ذَلْق، وذلك قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: تكلّمهم بأنّهم كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى الناطقةِ بمجيء الساعة ومباديها، أو بجميع آياته التي مِن جملتها تلك الآيات. وقيل: بآياته التي مِن جملتها خروجُها بين يدي الساعة. والأوّل هو الحقّ كما ستحيط به علمًا. وقُرئ: "بِأَنَّ النَّاسَ" الآيةَ.[4]

وإضافة "الآيات" إلى نون العظمة لأنّها حكاية منه تعالى لمعنى قولها، لا لِعين عبارتها. وقيل: لأنّها / حكاية منها لقول الله عزّ وجلّ. وقيل: لاختصاصها [٢٦٤و]
به تعالى وأَثَرتِها عنده، كما يقول بعض خواصّ المَلِك: "خَيلُنا وبلادنا"، وإنّما الخَيل والبلاد لمولاه. وقيل: هناك مضاف محذوف، أي: بآيات ربّنا.

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤. ونحوه في جامع البيان للطبري، ١٨/١٢٤؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٢٥.

[2] التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٨٥؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٣.

[3] التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٨٥؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٣.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

ووصفهم بعدم الإيقان بها مع أنّهم كانوا جاحدين بها للإيذان بأنّه كان مِن حقّهم أن يوقنوا بها ويقطعوا بصحّتها وقد اتّصفوا بنقيضه.

وقُرئ: "إِنَّ النَّاسَ" بالكسر[١] على إضمار القول، أو إجراء الكلام مُجراه. والكلام في الإضافة كالذي سبق. وقيل: هو استئناف مَسوق من جهتِه تعالى لتعليل إخراجها أو تكليمها،[٢] ويردّه الجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل، فإنّه صريح في كونه حكايةِ لعدم إيقانهم السابق في الدنيا.

والمراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ إمّا الكفَرة على الإطلاق، أو مشركو مكّة. وقد رُوي عن وَهْب «أنّها تُخبر كلَّ مَن تراه أنّ أهل مكّة كانوا بمحمّد والقرآنِ لا يوقنون».[٣]

وقُرئ: "تَكْلِمُهُم"[٤] مِن "الكَلْم" الذي هو الجُرح. والمراد به ما نُقل مِن الوسم بالعصا والخاتم، وقد جُوّز كون القراءة المشهورة أيضًا منه لمعنى التكثير،[٥] ولا يخفى بُعده.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ بيان إجمالي لحالِ المكذِّبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها. و﴿يَوْمَ﴾ منصوب بمُضمَر خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. والمراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلّي الشامل لكافّة الخلق.

وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ بيان سرّه مرارًا، أي: واذكر لهم وقتَ حشرنا -أي: جمعِنا- مِن كلّ أمّة مِن أمم الأنبياء عليهم السلام، أو مِن أهل كلّ قَرن مِن القرون جماعةً كثيرةً. فـ﴿مِن﴾ تبعيضيّة؛ لأنّ كلّ أمّة منقسمة إلى مصدِّق ومكذِّب.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٨٥/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٨/٤.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٥/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٠٤/١٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير ومجاهد وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٨٥/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٨/٤.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ / بيان للفَوج، أي: فَوجًا مكذّبين بها، [٢٦٤ظ]
﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحبَس أوّلهم على آخرهم حتّى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ والمناقشة. وفيه مِن الدلالة على كثرة عددهم وتباعدِ أطرافهم ما لا يخفى.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة؛ يساقون بين يدي أهل مكّة»،[١] وهكذا يُحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب ﴿قَالَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ موبِخًا لهم على التكذيب، والالتفاتُ لتربية المهابة: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ الناطقة بلقاء يومكم هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ جملة حاليّة مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغايةِ قُبحه، ومؤكّدةٌ للإنكار والتوبيخ، أي: أكذّبتم بها بادئ الرأي غيرَ ناظرين فيها نظَرًا يؤدّي إلى العلم بكُنهها، وأنّها حقيقةٌ بالتصديق حتمًا، وهذا نصّ في أنّ المراد بـ"الآيات" فيما سَلَف في الموضعين هي الآيات القرآنيّة؛ لأنّها هي المنطوية على دلائل الصحّة وشواهد الصدق التي لم يحيطوا بها علمًا مع وجوب أن يتأمّلوا ويتدبّروا فيها، لا نفسُ الساعة وما فيها.

وقيل: هو معطوف على ﴿كَذَّبْتُم﴾، أي: أَجَمَعتم بين التكذيب وعدم التدبّر فيها؟ ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أمْ أيَّ شيء كنتم تعملون بها؟ أو أم أيَّ شيء كنتم تعملون غير ذلك؟ بمعنى أنّه لم يكن لهم عمل غير ذلك، كأنّهم لم يُخلَقوا إلّا للكفر والمعاصي، مع أنّهم ما خُلِقوا إلّا للإيمان والطاعة،

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٥. وهو في البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٧٠، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

يخاطَبون بذلك تَبكيتًا ثم يُكبَّون في النار، وذلك قوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي: حلّ بهم العذاب الذي هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله / ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ بسبب ظلمهم الذي هو تكذيبهم بآيات الله، ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [٢٦٥و] لانقطاعهم عن الجواب بالكلّيّة، وابتلائهم بشغلٍ شاغل مِن العذاب الأليم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ الرؤية قلبيّة، لا بصريّةٌ، لأنّ نفس الليل والنهار وإن كانا مِن المُبصَرات لكن جعلُهما كما ذُكر مِن قَبيل المعقولات، أي: ألَم يعلموا أنّا جعلنا الليل بما فيه مِن الإظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: ليُبصروا بما فيه مِن الإضاءة طرُقَ التقلّب في أمور المعاش.

فبُولغ فيه حيث جُعل الإبصار الذي هو حال الناس حالًا له ووصفًا مِن أوصافِه التي جُعل عليها بحيث لا ينفكّ عنها، ولم يُسلَك في الليل هذا المسلك، لِما أنّ تأثير ظلام الليل في السكون ليس بمَثابة تأثير ضوء النهار في الإبصار.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في جعلهما كَما وُصِفا. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للإشعار ببُعد درجته في الفضل. ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: عظيمةً كثيرةً ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دالّةً على صحّة البعث وصدقِ الآيات الناطقة به دلالةً واضحةً، كيف لا، وإنّ مَن تأمّل في تعاقب الليل والنهار واختلافِهما على وجوهٍ بديعة مبنيّة على حِكَم رائقة يَحار في فهمها العقول، ولا يحيط بها إلّا الله عزّ وعلا، وشاهدَ في / الآفاق تبدّلَ ظلمة الليل المُحاكية للموت بضياء النهار المضاهي للحياة، [٢٦٥ظ] وعايَنَ في نفسه تبدّلَ النوم الذي هو أخو الموت بالانتباه الذي هو مثل الحياة؛ قضَى بأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث مَن في القبور قضاءً متقَنًا، وجزَم بأنّه تعالى قد جعل هذا أُنموذجًا له، ودليلًا يُستدلّ به على تحقّقه، وأنّ الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهانًا عليه وسائرَ الآيات كلّها حقٌّ نازل مِن عند الله تعالى.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ إمّا معطوف على ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾[1] منصوب بناصبه، أو بمُضمَر معطوف عليه. و﴿ٱلصُّورِ﴾ هو القَرْن الذي يَنفخ فيه إسرافيل عليه السلام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «لمّا فرَغ الله تعالى مِن خلق السماوات والأرض خلقَ الصُور فأعطاه إسرافيل عليه السلام، فهو واضعه على فيه، شاخصٌ بصره إلى العرش متى يؤمر»، قال: «قلت: يا رسول الله، ما الصُور؟» قال: «القَرْن»، قال: «قلت: كيف هو؟» قال: «عظيم، والذي نفسي بيده، إنّ عِظَمَ دارةٍ فيه كعَرض السماوات والأرض، فيُؤمَر بالنفخ فيه، فينفخ نفخةً لا يبقى عندها في الحياة أحد غيرَ مَن شاء الله تعالى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [الزمر، ٦٨/٣٩]، ثمّ يؤمر بأُخرى، فينفخُ نفخةً لا يبقى معها ميّتٌ إلّا بُعث وقام، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ/ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر، ٦٨/٣٩]».[2] [٢٦٦و]

والذي يستدعيه سباق النظم الكريم وسياقه أنّ المراد بالنفخ ههنا هي النفخة الثانية، وبالفزَع في قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ما يعتري الكلّ عند البعث والنشور بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق مِن الرعب والتهيّب الضروريَّين الجِبِلّيَّين.

وإيراد صيغة الماضي مع كون المعطوف عليه -أعني: ﴿يُنفَخُ﴾- مضارعًا للدلالة على تحقّق وقوعه إثرَ النفخ. ولعلّ تأخيرَ بيان الأحوال الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان ما يقع بعدها مِن حشر المكذّبين مِن كلّ أمّة لتثنية التهويل بتكرير التذكير إيذانًا بأنّ كلّ واحد منهما طامّة كبرى وداهية دَهياء حقيقة بالتذكير على حيالها، ولو رُوعي الترتيب الوقوعي لربّما تُوهِّم أنّ الكلّ داهيةٌ واحدة قد أُمِر بذكرها كما مرّ في قصّة البقرة.

---

١ النمل، ٨٣/٢٧.

٢ جامع البيان للطبري، ٤١٩/١٥؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٣٢٥٦/١٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٧/٧.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: أن لا يَفزَع. قيل: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام. وقيل: الحور والخزَنة وحمَلة العرش.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحد مِن المَبعوثين عند النفخة ﴿أَتَوْهُ﴾ حضروا المَوقف بين يدَي ربِّ العزّة جلّ جلاله للسؤال والجواب والمناقشة والحساب. وقُرئ: "أَتَاهُ"[١] باعتبار لفظ "الكلّ" كما أنّ القراءة الأولى باعتبار معناه. وقُرئ: "آتُوهُ"،[٢] أي: حاضِروه ﴿دَٰخِرِينَ﴾ أي: صاغِرين. وقُرئ: "دَخِرِينَ".[٣]

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ عطفٌ على ﴿يُنفَخُ﴾ داخلٌ في حكم التذكير. وقوله عزّ وعلا: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: ثابتة في أماكنها، إمّا بدل منه، أو حال مِن ضمير ﴿تَرَى﴾، أو مِن مفعوله.

[٢٦٦ظ] وقوله تعالى: / ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ حال مِن ضمير ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ في ﴿تَحْسَبُهَا﴾، أو في ﴿جَامِدَةً﴾، أي: تراها رأيَ العين ساكنةً، والحالُ أنّها تمرّ مرّ السحاب الذي تُسَيِرها الرياح سيرًا حثيثًا. وذلك أنّ الأجرام العظام إذا تحرّكت نحو سَمْتٍ لا يكاد يتبيّن حركتها، وعليه قول مَن قال:

بِأَرْعَنَ مثلِ الطَّوْدِ تحسب أنّهم ... وُقوفٌ لِحاجٍ والركابُ تُهَمْلِجُ[٤]

وقد أُدمِجَ في هذا التشبيه تشبيهُ حال الجبال بحال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشِها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة، ١٠١/٥].

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧٢/٨.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/ ٣٣٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٤.

٤ للنابغة الجعدي في ديوانه، ٢٨٥/٨. يقال: "جيشٌ أرعَن"، وهو المضطرب لكثرته. و"الطُّور": الجبل العظيم. "الحاج": جمع الحاجة. و"الركاب" لا واحد له مِن لفظه، و"الهِملاج" مِن البراذين، واحد "الهَماليج"، ومَشيها "الهَملجة"، فارسي معرّب، وهي مشيٌ سهلٌ. يقول: حاربنا العدوّ بجيش مِثلَ الجبل العظيم، تحسب أنّهم وقوفٌ لِحاجٍ، والحال أنّ الركاب تُهملِج وتُسرع. فتوح الغيب للطيبي، ٥٩٢/١١.

وهذا أيضًا ممّا يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدّل الله عزّ وجلّ الأرضَ غيرَ الأرض، ويُغَيِّر هيأتها، ويسيِّر الجبال عن مقارِّها على ما ذُكر مِن الهيئة الهائلة ليشاهدَها أهلُ المحشر، وهي وإنِ انْدَكَّتْ وتصدّعت عند النفخة الأولى لكنّ تَسْيِيرَها وتسويةَ الأرض إنّما يكونان بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۞ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۞ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۞ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ [طه، ٢٠/١٠٥-١٠٨]، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم، ١٤/٤٨].

فإنّ اتّباع الداعي الذي هو إسرافيل عليه السلام، وبروزَ الخلق لله تعالى، لا يكون إلّا بعد النفخة الثانية، وقد قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف، ١٨/٤٧]: إنّ صيغة الماضي في المعطوف مع كون المعطوف عليه مستقبلًا للدلالة على تقدّم الحشر على التسيير والرؤية، كأنّه قيل: وحَشرناهم قبل ذلك.

هذا، وقد قيل: إنّ المراد هي النفخة الأولى، و"الفزَعُ" هو الذي يستتبع الموت لغاية شدّة الهول، كما في قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ [الزمر، ٣٩/٦٨]، فيختصّ أثرها بمَن كان حيًّا عند / وقوعها دون [٢٦٧و] مَن مات قبل ذلك مِن الأمم.

وجُوّز أن يُراد بالإتيان داخرين رجوعُهم إلى أمره تعالى، وانقيادُهم له،[1] ولا ريبَ في أنّ ذلك ممّا ينبغي أن يُنَزَّه ساحة التنزيل عن أمثاله. وأبعدُ مِن هذا ما قيل:[2] إنّ المراد بهذه النفخة نفخةُ الفزع التي تكون قبل نفخة الصعق، وهي التي أريدت بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص، ٣٨/١٥]، «فيُسيّر الله تعالى عندها الجبال فتمرّ مرّ السحاب، فتكون سرابًا، وتُرَجُّ الأرض بأهلها رجًّا، فتكون كالسفينة الموثقة في البحر، أو كالقنديل المعلّق

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٦٨.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ١٨/١٣٢؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٢٧.

ترجّجه الأرواحُ»،[١] فإنّه ممّا لا ارتباط له بالمقام قطعًا، والحقُّ الذي لا مَحيد عنه ما قدّمناه، وممّا هو نصّ في الباب ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.[٢]

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكِّد لِمضمون ما قبله، أي: صَنعَ الله ذلك صُنعًا على أنّه عبارة عمّا ذُكر مِن النفخ في الصور وما ترتّب عليه جميعًا، قُصِد به التنبيهِ على عِظَم شأن تلك الأفاعيل وتهويل أمرها، والإيذانُ بأنّها ليست بطريق إخلال نظام العالم وإفساد أحوال الكائنات بالكلّيّة مِن غير أن يَدعُوَ إليها داعية، أو يكون لها عاقبة؛ بل هي مِن قَبيل بدائع صُنع الله تعالى المبنيّة على أساس الحكمة المستتبِعة للغايات الجميلة، التي لأجلها رُتّبت مقدّمات الخلق ومبادي الإبداع على الوجه المتين، والنهج الرَّصين، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحكم خلقَه وسوّاه على ما يقتضيه الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تعليل لكون ما ذُكر صنعًا محكَمًا له تعالى ببيان أنّ علمه تعالى بظواهر أفعال / المكلّفين وبواطنها ممّا يدعو إلى إظهارها [٢٦٧ظ]
وبيانِ كيفيّاتها على ما هي عليه مِن الحُسن والسوء، وترتيبِ أجزيتها عليها بعد بَعثهم وحشرهم، وجعلِ السماوات والأرض والجبال على وفق ما نطق به التنزيل، ليتحقّقوا بمشاهدة ذلك أنّ وعد الله حقّ لا ريبَ فيه. وقُرئ: "خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ".[٣]

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ بيان لِما أشيرَ إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم مِن ترتيب أجزيتها عليها، أي: مَن جاء منكم أو مِن أولئك الذين أَتَوه تعالى بالحسنة فله مِن الجزاء ما هو خير منها، إمّا باعتبار أنّه أضعافها، وإمّا باعتبار دوامه وانقضائها. وقيل: فله خير حاصل مِن جهتها، وهو الجنّة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «"الحسنة" كلمة الشهادة».[٤]

---

١ جزء مِن حديث طويل أخرجه الطبري في جامع البيان، ١٣٢/١٨؛ وابن أبي حاتم في التفسير، ٢٩٢٩/٩.

٢ في الآية التالية.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم بخُلف عنهما. النشر لابن الجزري، ٣٣٩/٢.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٨/٣؛ اللباب لابن عادل، ٢٠٩/١٥.

﴿وَهُم﴾ أي: الذين جاءوا بالحسنات ﴿مِن فَزَعٍ﴾ أي: عظيم هائل لا يُقادَر قدرُه، وهو الفزع الحاصل مِن مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيّئات، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء، ١٠٣/٢١]. وعن الحسن رضي الله عنه: «حين يؤمر بالعبد إلى النار».[١] وقال ابن جريج: «حين يُذبح الموت، وينادي المنادي: يا أهل الجنّة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت».[٢]

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يُنفخ في الصور ﴿ءَامِنُونَ﴾ لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل، ولا يلحقهم ضرره أصلًا، وأمّا الفزع الذي يعتري كلَّ مَن في السماوات ومَن في الأرض غيرَ مَن استثناه الله تعالى فإنّما هو التهيّب والرعب الحاصل في ابتداء النفخة مِن معاينة فنون الدواهي والأهوال، ولا يكاد يخلو منه أحد بحُكم الجِبلّة، وإن كان آمنًا مِن لحوق الضرر.

والأمن يستعمل بالجارّ وبدونه، / كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [٢٦٨و] [الأعراف، ٩٩/٧]. وقُرئ: "مِن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ" بالإضافة مع كسر "الميم"،[٣] وفتحِها[٤] أيضًا، والمراد هو الفزع المذكور في القراءة الأولى، لا جميعُ الأفزاع الحاصلة يومئذ. ومدار الإضافة كونه أعظمَ الأفزاع وأكبرَها، كأنّ ما عداه ليس بفزَع بالنسبة إليه.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قيل: هو الشرك ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: كُبّوا فيها على وجوههم منكوسين، أو كُبّت فيها أنفسهم، على طريقة: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢].

---

١ جامع البيان للطبري، ٤٢٢/١٦ (الأنبياء، ١٠٣/٢١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٦ (الأنبياء، ١٠٣/٢١).

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٦ (الأنبياء، ١٠٣/٢١)؛ اللباب لابن عادل، ٦١١/١٣ (الأنبياء، ١٠٣/٢١). وحديث ذبح الموت أخرجه البخاري في صحيحه، ١١٣/٨ (٦٥٤٥)؛ ومسلم في صحيحه، ٢١٨٨/٤ (٢٨٤٩).

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٤٠/٢.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٤٠/٢.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الالتفات للتشديد، أو على إضمار القول، أي: مَقولًا لهم ذلك.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أُمِر عليه السلام بأن يقول لهم ذلك بعد ما بيّن لهم أحوال المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة تنبيهًا لهم على أنّه قد أتمّ أمر الدعوة بما لا مزيدَ عليه، ولم يبقَ له عليه السلام بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله عزّ وجلّ، والاستغراقِ في مراقبته غيرَ مبالٍ بهم ضَلُّوا أم رَشَدُوا، صَلَحُوا أو فسَدوا؛ ليحملهم ذلك على أن يهتمّوا بأمور أنفسهم، ولا يتوهّموا مِن شدّة اعتنائه عليه السلام بأمر دعوتهم أنّه عليه السلام يُظهر لهم ما يُلجئُهم إلى الإيمان لا محالةَ، ويشتغلوا بتدارك أَحوالهم، ويتوجّهوا نحو التدبّر فيما شاهدوه مِن الآيات الباهرة.

و﴿ٱلْبَلْدَةِ﴾ هي مكّة المعظّمة، وتخصيصُها بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها، والتعرّضُ لتحريمه تعالى إيّاها تشريفٌ لها بعد تشريف، وتعظيمٌ إثرَ تعظيم، مع ما فيه مِن الإشعار بعلّة الأمر وموجِبِ الامتثال به، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش، ١٠٦/٣-٤]، ومِن الرمزِ إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها، ألا يُرى أنّهم مع كونها محرّمةً مِن أن تُنْتَهكَ حرمتُها باختلاءِ خَلاها، وعَضْدِ شجَرِها، وتنفيرِ صيدها، وإرادةِ الإلحاد فيها بوجه مِن الوجوه، قد استمرّوا فيها على تعاطي أفجر أفراد الفجور، وأشنعِ آحاد الإلحاد، حيث تركوا عبادة ربّها، ونَصَبُوا فيها الأوثان، وعكَفُوا على عبادتها، قاتلهم الله أنّى يُؤفكُون.

وقُرئ: "حَرَمَهَا" بالتخفيف.[١]

---

١ قراءة شاذّة، ولم أجِد مَن ذكرها غير أبي السعود.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي: خَلقًا ومُلكًا وتصرّفًا مِن غير أن يشاركه شيءٌ في شيءٍ مِن ذلك؛ تحقيقٌ للحقّ، وتنبيهٌ على أنّ إفراد مكّة بالإضافة لِما ذُكر مِن التفخيم / والتشريف مع عموم الربوبيّة لجميع الموجودات. [٢٦٨ظ]

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أَثْبُتَ على ما كنتُ عليه مِن كَونِي مِن جملة الثابتين على ملّة الإسلام والتوحيد، أي: الذين أسلموا وجوههم لله خالصةً، مِن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء، ٤/١٢٥].

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أُواظب على تلاوته؛ لينكشفَ لي حقائقه الرائعة المخزونة في تضاعيفه شيئًا فشيئًا، أو على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الإرشاد، فيكونَ ذلك تنبيهًا على كفايته في الهداية والإرشاد مِن غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى. فمعنى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ حينئذ: فمَن اهتدى بالإيمان به والعمل بما فيه مِن الشرائع والأحكام. وعلى الأوّل: فمَن اهتدى باتّباعه إيّايَ فيما ذُكر مِن العبادة والإسلام وتلاوةِ القرآن فإنّما منافع اهتدائه عائدةٌ إليه، لا إلَيّ.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به والإعراضِ عن العمل بما فيه، أو بمخالفتي فيما ذُكر ﴿فَقُلْ﴾ في حقّه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ وقد خرجتُ عن عهدة الإنذار، فليس عليّ مِن وَبالِ ضلاله شيء، وإنّما هو عليه فقط.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما أفاض عليّ مِن نَعمائه التي أجلُّها نعمةُ النبوّة المستتبِعةُ لفنون النعم الدينيّة والدنيويّة، ووفّقَني لتحمّل أعبائها وتبليغ أحكامها إلى كافّة الورى بالآيات البيّنة والبراهينِ النيّرة.

وقوله تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مِن جملة الكلام المأمور به، أي: سيُريكم البتّةَ في الدنيا آياتِه الباهرة التي نطق بها القرآن، كخروج الدابّة، وسائر الأشراط،

وقَد عُدّ منها وقعةُ بدر،[1] ويأباه قوله تعالى: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: فتعرفون أنّها آيات الله تعالى حين لا ينفعكم المعرفة؛ لأنّهم لا يعترفون بكون وقعة بدر كذلك. وقيل: سيُريكم في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ كلام مَسوق مِن جهته تعالى بطريق التذييل، مقرِّر لِما قبله، متضمّن للوعد والوعيد، كما يُنبئ عنه إضافة الربّ إلى ضمير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وتخصيص الخطاب أوّلًا به[2] عليه السلام، وتعميمُه ثانيًا للكفَرة تغليبًا، أي: وما ربّك بغافل عمّا تعمل أنت مِن الحسنات، وما تعملون أنتم أيّها الكفَرة مِن السيّئات، فيجازي كلًّا منكم بعمله لا محالةَ.

وقُرئ: "عَمَّا يَعْمَلُونَ"[3] على الغيبة، فهو وعيدٌ مَحض، والمعنى: وما ربّك بغافل عن أعمالهم، فسيعذّبهم البتّة، فلا يحسبوا أنّ تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم الموجِبة له، والله تعالى[4] أعلم.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ ﴿طسٓ﴾ كان له مِن الأجر عشرُ حسنات بعدد مَن صدّق بسليمان وهود وصالح وإبراهيم وشعيب عليهم السلام، ومَن كذّب بهم، ويَخرج مِن قبره وهو ينادي: "لا إلٰه إلّا الله"».[5]

---

[1] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣١/٧؛ واللباب لابن عادل، ٢١١/١٥.

[2] م - به.

[3] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر ابن الجزري، ٢٦٣/٢.

[4] س - تعالى.

[5] الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٨/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٦٨/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٢٧

سُورَةُ النَّمْلِ

مكية، وهي ثلاثٌ أو أربع أو خمس وتسعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - ﴿طس﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه الآيات ﴿آياتُ القُرآنِ﴾: آياتٌ منه، ﴿وكِتابٍ مُبِينٍ﴾: مُظهِرٍ للحقّ من الباطل -عطفٌ بزيادة صفة - ٢ - هو ﴿هُدًى﴾ أي: هادٍ من الضلالة ﴿وبُشْرَى لِلمُؤمِنِينَ﴾: المُصدّقين به بالجنّة، ٣ - ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾: يأتون بها على وجهها، ﴿ويُؤتُونَ﴾: يُعطُون ﴿الزَّكاةَ، وهُم بِالآخِرةِ هُم يُوقِنُونَ﴾: يعلمونها بالاستدلال...

سُورَةُ النَّمْلِ

قولُه: (أي: هذِهِ الآيَاتُ) الإشارةُ إلى آي السُّورةِ.

قولُه: (عَطْفٌ بزِيادَةِ صِفَةٍ) على الاسمِ، وقيل: الكتابُ: اللَّوحُ.

قولُه: (هُوَ) يعني: أنَّ ﴿هُدًى﴾ خبرٌ لمحذوفٍ، وقيل: خبرٌ آخرُ، وقيل: حالٌ من الآياتِ.

قولُه: (أيْ: هَادٍ) على أنَّ المصدرَ بمعنى الفاعلِ، أو بتقدير مضافٍ؛ أي: ذو هدايةٍ، أو للمبالغةِ كـ: رجُلٌ عدلٌ، والمرادُ: أصلُ الهدايةِ، أو زيادتُها.

قولُه: (يُعْطُونَ) على وجهِ التَّمليكِ، لا على طريقِ الإباحَةِ.

قولُه: (بالاستِدْلَالِ) بالآياتِ القرآنيَّةِ، والأحاديثِ النَّبويَّة، أو بالتَّقليدِ للعلماءِ الرَّبَّانيَّةِ، فإنَّ إيمانَ المقلِّدِ صحيحٌ على الصَّحيحِ[1].

---

(١) انظر: «أصول الدين» لجمال الدين الغزنوي (ص: ٢٥٨)، وتوسع في المسألة مع ترجيح صحة الإيمان ابن تيمية في «درء =

وأُعيد «هم» لمّا فُصل بينه وبين الخبر.

٤ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرةِ زَيَّنَّا لَهُم أعمالَهُم﴾ القبيحةَ بتركيب الشهوة، حتّى رأَوها حسنة ـ ﴿فهُم يَعمَهُونَ﴾: يتحيّرون فيها لِقُبحها عِندنا ـ ٥ ـ ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَهُم سُوءُ العَذابِ﴾: أشدُّه في الدنيا القتلُ والأسر، ﴿وهُم في الآخِرةِ هُمُ الأخسَرُونَ﴾ لمصيرهم إلى النار المؤبّدة عليهم، ٦ ـ ﴿وإنَّكَ﴾ ـ خِطابٌ للنبيّ ـ ﴿لَتُلَقَّى القُرآنَ﴾: يُلقَى عليك بشِدّة، ﴿مِن لَدُنْ﴾: من عِند ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ في ذلك.

٧ ـ اذكرْ ﴿إذ قالَ مُوسَى لِأهلِهِ﴾ زوجته عِند مسيره من مَدْيَنَ إلى مِصرَ: ﴿إنِّي آنَستُ﴾: أبصرت من بعيد ﴿نارًا، سآتِيكُم مِنها بِخَبَرٍ﴾ عن حال الطريق ـ وكان قد ضلّها ـ ﴿أو آتِيكُم بِشِهابٍ قَبَسٍ﴾،

قولُه: (لَمَّا فُصِلَ) بل لتأكيدِ الاختصاصِ، والواو للعطفِ أو للحالِ.

قولُه: (بتَركِيبِ الشَّهوَةِ) فيه: أنَّ تركيبَ الشَّهوةِ عامٌّ، فالوجهُ أن يقالَ: بجَعلِها مشتهاةً للطَّبعِ محبوبةً للنَّفسِ.

قولُه: (يَتَحَيَّرُونَ فِيهَا) أي: في الآخرةِ، والأظهرُ: في الدُّنيا، لاتِّباعِهِمُ الظَّنَّ، أو يَعمَونَ عنها لا يُدرِكونَ قباحَتَها، أو ما يتبعُها مِن ضرٍّ أو نَفعٍ، والعَمَهُ: صفةُ القلبِ.

قولُه: (لمَصِيرِهِم) وفوتِهِم منزلَةَ الأبرارِ، أو لخسارَتِهِم في الدَّارَينِ؛ كقوله تعالى: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

قولُه: (يُلْقَى) أي: لتُؤتاهُ وتُلقَّنَهُ، لَقِيَ متعَدٍّ إلى واحدٍ، والتَّضعيفُ للتَّعديةِ إلى آخرَ.

قولُه: (فِي ذَلِكَ) وفي غيرِ ذلكَ، أيُّ حَكيمٍ وأيُّ عليمٍ! ولهذا المعنى نكَّرهُما، فكم من لطائفِ حُكَمِهِ وعِلْمِهِ[1] في القرآنِ.

قولُه: (اذْكُرْ) أي: قصَّتَهُ.

قولُه: (مَصِيرِهِ) أي: مَرجعِهِ، وفي نسخة: «مَسيرِهِ» من السَّيرِ.

قولُه: (مِنْ بَعِيدٍ) أمرٌ واقعيٌّ لا معنًى لغويٌّ.

قولُه: (عَن حَالِ الطَّرِيقِ) مِن أهلِ النَّارِ.

قولُه: (ضَلَّهَا) أي: الطَّريقَ؛ لأنه يذكَّرُ ويؤنَّثُ، والأَولى: ضلَّهُ، وجَمعُ الضَّميرِ من بابِ التَّعظيمِ؛ إذ لم يكن معهُ غيرُ امرأتِهِ.

= تعارض العقل والنقل» (٧/ ٤٤١) فانظره.

(١) في (ص): «حكمية وعلمية».

بالإضافةِ للبيان وتركِها، أي: شُعلةٍ نار في رأس فتيلةٍ أو عُودٍ، ﴿لَعَلَّكُم تَصطَلُونَ﴾: تستدفئون من البرد. والطاء بدل من تاء الافتعال، من: صَلي بالنار، بكسر اللام وفتحها.

٨ ـ ﴿فلَمّا جاءَها نُودِيَ أنْ﴾ أي: بأنْ ﴿بُورِكَ﴾ أي: باركَ اللهُ ﴿مَن في النّارِ﴾ أي: مُوسَى ﴿ومَن حَولَها﴾ أي: الملائكةُ، أو العكس ـ وباركَ: يتعدّى بنفسه وبالحرف. ويُقدَّر بعدَ «في»: «مكانِ» ـ ﴿وسُبحانَ اللهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾ من جُملة ما نُودي، ومعناه: تنزيهُ اللهِ من السوء! ٩ ـ ١٠ ـ ﴿يا مُوسَى، إنَّهُ﴾ أي: الشأنَ ﴿أنا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ. وألْقِ عَصاكَ﴾، فألقاها ﴿فلَمّا رآها تَهتَزُّ﴾: تتحرّك، ﴿كأنَّها جانٌّ﴾: حيّةٌ خفيفة،..

قولُه: (بالإِضَافَةِ) لغيرِ الكوفيِّ[1].

قولُه: (للبَيَانِ) من إضافَةِ الخاصِّ إلى العامِّ؛ لأنه يكونُ قَبَساً وغير قَبَسٍ.

قولُه: (وتَرْكِهَا) على أنَّ القَبَسَ بدلٌ منهُ، أو وصفٌ له؛ لأنَّهُ بمعنى: المقبوسِ.

قولُه: (في رَأْسٍ) أي: مقبوسَةٍ مأخوذَةٍ.

قولُه: (صَلِيَ بالنَّارِ) سخَّنَها[2].

قولُه: (بأَنْ) على أنَّها مصدَريَّةٌ، أو: تفسيريَّةٌ فإنَّ النِّداءَ فيه معنَى القَولِ[3].

قولُه: (أي: المَلائِكَةُ) الحاضِرونَ.

قولُه: (بالحَرْفِ) وهو: (في) و(اللَّامُ) و(على).

قولُه: (مَكَانِ) أي: مَن في مكانِ النَّارِ، وهو البُقعَةُ المباركةُ، أو التَّقديرُ: مَن في طَلَبِ النَّارِ.

قوله: (من جملة) ويجوزُ أن يكونَ طَلَباً أو خَبراً؛ أي: نزِّهَ، أو تَنَزَّهَ.

قولُه: (تَنْزِيه اللهِ) لئلَّا يُتَوهَّمَ من سماعِ كلامِهِ تَشبيهاً، أو تَعجيبٌ مِن عظمَةِ ذلكَ الأمرِ.

قولُه: (فَأَلقَاهَا) و﴿أَلْقِ﴾ عطفٌ على: ﴿بُورِكَ﴾.

قولُه: (تَتَحَرَّكُ) باضطِرابٍ.

قولُه: (خَفِيفَةٌ) سريعةٌ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٧٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٢٢).

(٢) قوله: «سخنها» كذا النسخ، ولم أجد من ذكر هذا المعنى، وأقرب شيء إليه ما ذكره أبو حيان في «البحر» (٣/ ٤٩٢): صلي بالنار: تسخن بها. وفي «الدر المصون» (٣/ ٥٩٥): صلي بالنار: تسخن بقربها.

(٣) والتقدير على التفسيرية: «أي بورك» كما قال البيضاوي، و: «قيل له بورك» كما قال الزمخشري.

﴿وَلَّى مُدبِرًا ولَم يُعقِّبْ﴾: يَرجِعْ.

قال تعالى: ﴿يا مُوسَى، لا تَخَفْ﴾ منها ـ ﴿إنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ﴾: عِندي ﴿المُرسَلُونَ﴾ من حيّة أو غيرها. ١١ ـ ﴿إلاّ﴾: لكن ﴿مَن ظَلَمَ﴾ نفسَه، ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسنًا﴾: أتاه ﴿بَعدَ سُوءٍ﴾ أي: تاب، ﴿فإنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: أقبلُ التوبةَ وأغفر له ـ ١٢ ـ ﴿وأدخِلْ يَدَكَ في جَيبِكَ﴾: طوقِ قميصك، ﴿تَخرُجْ﴾ خِلافَ لونها من الأُدمة ﴿بَيضاءَ مِن غَيرِ سُوءٍ﴾: برَصٍ لها شُعاع يُغشّي البصر، آيةً ﴿في تِسعِ آياتٍ﴾، مُرسَلاً بها ﴿إلَى فِرعَونَ وقَومِهِ. إنَّهُم كانُوا قَومًا فاسِقِينَ﴾.

١٣ ـ ﴿فلَمّا جاءَتْهُم آياتُنا مُبصِرةً﴾ أي: مُضيئة واضحة ﴿قالُوا: هذا سِحرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنٌ ظاهر.
١٤ ـ ﴿وجَحَدُوا بِها﴾ أي: لم يُقِرُّوا،...

قولُه: (يَرجِعْ) وإنَّما خافَ لظَنِّهِ أنه أمرٌ أُريدَ به.

قولُه: (مِنْهَا) أو: مِن غَيري ثِقةً بي.

قولُه: (أَتَاهُ) تفسيرٌ لـ﴿بدَّلَ﴾، و(تَابَ) تفسيرٌ لـ«أَتَاهُ».

قولُه: (وأَغْفِرُ لَهُ) أي: ذنوبَهُ، وأرحمُهُ بالتَّفضُّلِ عليه بتبديلِ سيِّئاتِهِ حَسَناتٍ.

قولُه: (طَوْقِ قَمِيْصِكَ) لأنَّه كانَ مِدْرَعةٌ[1] صوفٍ لا كُمَّ له، وقيل: الجيبُ: القميصُ؛ لأنَّه يُجابُ؛ أي: يُقطَعُ، فالفعلُ بمعنى: المفعولِ، والمضافُ مُقدَّرٌ.

قولُه: (بَرَصٍ) أي: آفَةٍ كبَرَصٍ.

قولُه تعالى: ﴿فِي تِسْعِ﴾ أي: في جُملَتِها، وهي منظومةٌ في قوله:

عَصاً سَنَةٌ بَحرٌ جَرادٌ وقُمَّلٌ ... دَمٌ ويَدٌ بعدَ الضَّفادعِ طُوفانُ[2]

قولُه: (مُرسَلاً بِهَا) قدَّرَه ليتعلَّقَ به: ﴿إِلَى فِرْعَونَ﴾. وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ﴾ تعليلٌ للإرسالِ.

قولُه: (مُضِيئَةً) أو: مُبصِرةً كلَّ مَن نظرَ إليها وتأمَّلَ فيها، متعدِّي بَصُرَ[3].

قولُه: (ظَاهِرٌ) سِحريَّتُه.

قولُه: (أيْ: لَمْ يُقِرُّوا) لأنَّ الجحدَ معناه: الإنكارُ، وهو ضِدُّ الإقرارِ، وإنَّما فسَّرهُ بالضِّدِّ لتعديَتِهِ بالباءِ، يقالُ: جحدَهُ حقَّهُ وبحقِّهِ؛ أنكرهُ.

(١) هو ثوب ولا يكون إلا من صوف. «القاموس المحيط» (ص: ٧١٤).

(٢) قائله: الفيروزآبادي، انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٧٠٧).

(٣) في (ص): «يتعدى بصره».

﴿وَ﴾ قد ﴿اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أي: تيقّنوا أنها من عِند الله، ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾: تكبّرًا عن الإيمان بما جاء به مُوسَى. راجعٌ إلى الجحد. ﴿فَانظُرْ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾: التي علمتَها من إهلاكهم؟

١٥ ـ ١٦ ـ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ابنَه ﴿عِلْمًا﴾ بالقضاء بين الناس ومنطقِ الطير وغير ذلك، ﴿وَقَالَا﴾ شكرًا لله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ بالنبوّة وتسخير الجنّ والإنس والشياطينِ ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ النبوّةَ والعِلم، ﴿وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي: فهمَ أصواته، ....

وقيل: ﴿جحدُوا﴾ بمعنى: كَذَّبوا؛ لأنَّهم أنكَروا التَّصديقَ بعد اليقينِ.

قولُه: (قَدْ) قدَّرَهُ لأنَّ الواو للحالِ.

قولُه: (تَكَبُّراً) وتَرَفُّعاً تفسيرٌ لـ﴿عُلُوًّا﴾. وقولُه تعالى: ﴿ظُلْمًا﴾ أي: لأنفُسِهم.

قولُه: (رَاجِعٌ إلى الجَحْدِ) أي: انتصابُهُما على العلَّةِ من: ﴿جَحَدُوا﴾ لا من الاستيقانِ.

قولُه: (يَا مُحَمَّدُ) يعني: فأهلَكناهُم فانظُر.

قولُه: (مِنْ إِهْلَاكِهِم) بيانٌ للعاقبَةِ، وهو الإغراقُ في الدُّنيا، والإحراقُ في العُقبى.

قولُه: (وغَيْرِ ذَلِكَ) من العلومِ الشَّرعيَّةِ والمعارفِ اللَّدنيَّةِ، وتنكيرُ: ﴿عِلْمًا﴾ للتَّعظيمِ.

قولُه: (شُكْراً) أي: قاما بالشُّكرِ قَلباً وفِعلاً وقالاً.

قولُه: (والعِلْمَ) زيادةٌ على عِلمِهِ؛ أي: قَرَنَ بين علمِ الرَّبِّ وعلمِ الأبِ، وعلمي الوهبِ والكسب.

وقيلَ: الملْكَ بأنْ قامَ مقامَهُ في ذلكَ دونَ سائرِ بَنِيهِ، وكانُوا تسعةَ عشرَ.

والمعنى: بَقِيَ سليمانُ بعدَ والدِهِ نبيًّا كاملاً عالماً عاملاً، أو مَلِكاً عادلاً، فلا يخالِفُ: «نحنُ معاشرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ»[1].

قولُه تعالى: (﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾) قالَ الأوزاعيُّ: هم أهلُ العلمِ[2].

قولُه: (أي: فَهْمَ أَصْوَاتِهِ) وهو مُعجِزةٌ، ومن ذلك ما حُكيَ: أنه مرَّ ببلبلٍ يُصوِّتُ ويترقَّصُ فقال: يقول: إذا أكلتُ نصفَ تمرةٍ فعلى الدُّنيا العَفاءُ، وهو بالفتحِ والمد: التُّرابُ[3]، ....

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٦٢٧٥) من حديث عمر رضي الله عنه.

ورواه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧) عنه، دون قوله: «نحن معاشر الأنبياء».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦١٨٦).

(٣) انظر: «تاج العروس» (٣٩/ ٧١). والأثر رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٣٩) عن فرقد السبخي.

﴿وأُوتِينا مِن كُلِّ شَيءٍ﴾، يُؤتاه الأنبياءُ والمُلوك. ﴿إِنَّ هذا﴾ المُؤتَى ﴿لَهُوَ الفضلُ المُبِينُ﴾: البيِّن الظاهر. ١٧ ـ ﴿وحُشِرَ﴾: جُمع ﴿لِسُلَيمانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطَّيرِ﴾ في مسير له، ﴿فهُم يُوزَعُونَ﴾: يُجمعون ثمّ يُساقون.

١٨ ـ ﴿حَتَّى إذا أَتَوا علَى وادِ النَّملِ﴾ ـ هو بالطائف أو بالشام، نملُه صِغار أو كِبار ـ ﴿قالَتْ نَمْلَةٌ﴾ مِلكة النمل، وقد رأت جُند سليمان: ﴿يا أَيُّها النَّملُ، ادخُلُوا مَساكِنَكُم، لا يَحطِمَنَّكُم﴾: يكسِرنكم....

وصاحَت فاختةٌ[١] فقال: إنَّها تقولُ: ليتَ الخَلقَ لم يُخلَقوا[٢].

وضميرُ الجمعِ في: ﴿عُلِّمْنَا﴾ على عادةِ الملوكِ لمراعاةِ قواعدِ السِّياسةِ لا للتَّكبُّرِ.

قولُه: (**الظَّاهِرُ**) الَّذي لا يخفى على أحَدٍ.

قولُه: (**ثُمَّ يُسَاقُونَ**) أي: يُحبسُ أوَّلُهم على آخرِهم ليتلاحَقوا.

قولُه: (**هُوَ**) أي: وادي النَّملِ؛ لكثرتِهِ فيه.

قولُه: (**مَلِكَةُ النَّمْلِ**) عرجاءُ اسمُها: عَيْجَلوفُ، أو طاخِيةُ[٣]، ولما دخلَ قتادةُ الكوفةَ قال للنَّاسِ: سَلوني عمَّا شئتُم، وكان في القومِ أبو حنيفَةَ ـ وهو حَدَثٌ ـ فقال: سلُوهُ عن نملةِ سليمانَ أذكرٌ أم أُنثَى؟ فأُفحِمَ، فقال أبو حنيفَةَ: هي أُنثى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ لا للتَّاءِ فيها؛ لأنَّها للوحدةِ كما في حمامَةٍ[٤].

قولُه: (**يَكسِرَنَّكُم**) نهيٌ لهم عن الحَطمِ، والمرادُ: نَهيُها عن التَّوقُّفِ بحيثُ يحطِمونَها؛ كقوله: لا أرينَّكَ هاهنا.

---

(١) هو طائر، ضرب من الحمام. «تاج العروس» (٥/ ٢٣).

(٢) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٠/ ١٨٦) (٢٠٧٧) عن الكلبي عن رجل.

قال العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١٦٥): أخرجه الثعلبي في تفسيره بإسناد واه جدًّا.

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٧٨).

(٤) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٣٥٦ـ٣٥٧)، وقال ابن عجيبة في «البحر المديد» (٤/ ١٨٥): هو غير صحيح لما تقدم عن الرضي، وقول الرضي ـ كما ساقه قبل صفحتين ـ: تكون التاء للفرق بين المذكر والمؤنث، وتكون لآحاد الجنس، كنحلة ونحل، وثمرة وثمر، وبطة وبط، ونملة ونمل، فيجوز أن تكون النملة مذكراً، والتاء للوحدة، وأنث الفعل باعتبار تأنيث اللفظ. وتعقب القصة أيضا ابن المنير في «الانتصاف» (٣/ ٣٥٦)، والآلوسي في «روح المعاني» (١٩/ ٣٩٠)، لكن ذكر الطيبي في «فتوح الغيب» (١١/ ٤٨٧) بحثاً عن العلماء ما بين معارض للقصة وموافق لما في فيها، وختم ذلك بقوله: «فظهر أن القول ما قالت حذام، والمذهب ما سلكه الإمام» ـ يعني أبا حنيفة ـ موردًا عقبه بعض ما قاله الأئمة كالشافعي ومالك في مناقب الإمام أبي حنيفة رحمه الله وغزارة علمه.

﴿سُلَيمانُ وجُنُودُهُ، وهُم لا يَشعُرُونَ﴾ بهلاككم. ونُزِّل النمل منزلة العُقلاء في الخِطاب بخطابهم.

١٩ ـ ﴿فتبَسَّمَ﴾ سُليمان ابتداء ﴿ضاحِكًا﴾ انتهاء ﴿مِن قولِها﴾، وقد سمعه من ثلاثة أميال، حملته إليه الريح، فحبس جُنده حين أشرف على واديهم، حتّى دخلوا بُيوتَهم، وكان جنده رُكبانًا ومُشاة في هذا المسير، ﴿وقالَ: رَبِّ، أوزِعْنِيَ﴾: ألهِمني ﴿أن أشكُرَ نِعْمتَكَ الَّتِي أنعَمتَ﴾ بها ﴿علَيَّ وعلَى والِدَيَّ، وأن أعمَلَ صالِحًا تَرضاهُ، وأدخِلْنِي بِرَحْمتِكَ في عِبادِكَ الصّالِحِينَ﴾: الأنبياء والأولياء.

٢٠ ـ ﴿وتَفَقَّدَ الطَّيرَ﴾ ليرى الهُدهدَ الذي يرى الماء تحت الأرض، ويدلُّ عليه بنقره فيها، فتستخرجه الشياطين لاحتياج سليمان إليه للصلاة، فلم يرَه ﴿فقالَ: مالِيَ لا أرَى الهُدهُدَ﴾ أي: أعَرَضَ لي ما منعني من رؤيته؟ ﴿أم كانَ مِنَ الغائبِينَ﴾ فلم أره لغَيبته؟.........

قولُه: (بهَلَاكِكُم) إذ لو شَعَروا لم يفعَلوا، وكأنَّها شعرَت عِصمَةَ الأنبياءِ من الظُّلمِ والإيذاءِ مباشرةً وتسبُّباً.

قولُه تعالى: ﴿مِنْ قَولِهَا﴾ أي: تعجُّباً من حذرِها وتحذيرِها واهتدائِها إلى مصالحها وبيانِ عُذرِها، أو: سروراً بما خصَّهُ الله به من إدراكِ هَمسِها وفهْمِ غرضِها، ولذلكَ سأَلَ توفيقَ شُكرِهِ.

قولُه: (ومُشَاةً) ويمكنُ أن يكون المرادُ: ﴿لا يحطِمَنَّكُم﴾ على تقديرِ النُّزولِ.

قولُه: (أَلْهِمْنِي) ووَفِّقني، وقولُه: ﴿وَالِدَيَّ﴾ هما داود وأوريا[1]، أدرجهُما تكثيراً للنِّعمةِ، أو تعميماً لها، فإنَّ النِّعمَةَ عليهما نعمةٌ له، والنِّعمةُ عليه يرجعُ نفعُها إليهما سيِّما الدِّينيَّة. وقولُه: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾ تماماً للشُّكرِ واستدامَةً للنِّعمةِ.

قولُه: (الأَنْبِيَاءِ) أي: في عدادِهِم الجنَّةَ[2].

قولُه: (لِيَرَى) أي: تعرَّفَ الطَّيرَ.

قولُه: (فَلَمْ يَرَهُ) أي: لم يجدهُ؛ لأنَّ الفقدَ عدمُ الوجدان.

قولُه: (مَا مَنَعَنِي) من ساترٍ وغيره.

قولُه: (فَلَمْ أَرَهُ) فـ﴿أَمْ﴾ معادِلةٌ للهمزةِ المقدَّرةِ، وقيل: ﴿أَمْ﴾ منقطِعةٌ، ومعناها: الإضرابُ، وقيل: ميم زائدة عند الكوفيِّينَ، كأنَّه يسأَلُ عن صحَّةِ ما لاحَ له.

---

(١) ذكره السيوطي في «مفحمات الأقران» (ص: ٧٨). قال القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٧٦): وقال محمد بن إسحاق: يزعم أهل الكتاب أن أم سليمان هي امرأة أوريا التي امتحن الله بها داود، أو أنه بعد موت زوجها تزوجها داود فولدت له سليمان عليه السلام.

قلت: وبهذا يتبين أن أوريا اسم للرجل الذي امتحن نبي الله بزوجته، وهي قصة من الإسرائيليات لا يثبت شيء منها.

(٢) في (ص): «الوجدان».

فلمّا تحقَّقها. قال: ٢١ ـ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا﴾ أي: تعذيبًا ﴿شَدِيدًا﴾ بنتف ريشه وذنبه، ورميه في الشمس فلا يمتنع على الهوامّ، ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ بقطع حُلقومه، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ ـ بنون شديدة مكسورةٍ أو مفتوحةٍ يليها نون مكسورة ـ ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾: برهان بيّن ظاهر على عُذره.

٢٢ ـ ٢٣ ـ ﴿فَمَكُثَ﴾ ـ بضمّ الكاف وفتحها ـ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: يسيرًا من الزمان، وحضر لسُليمانَ مُتواضعًا برفع رأسه وإرخاء ذنبه وجناحيه، فعفا عنه وسأله عمّا لقي في غَيبته، ﴿فَقَالَ: أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي: اطّلعت على ما لم تطّلع عليه، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ ـ........

قولُه: (فَلَمَّا تَحَقَّقَهَا) أي: الغيبةَ.

قولُه: (فِي الشَّمْسِ) أو حيثُ تأكلهُ النَّملُ، أو جَعْلِه مع ضدِّهِ في قفصٍ.

قولُه: (بِقَطْعِ حُلْقُومِهِ) ليعتبرَ به أبناءُ جنسهِ.

قولُه: (بِنُونٍ مشَدَّدَةٍ) غيرُ المكيِّ(١).

قولُه: (ظَاهِرٍ) أو يُظهرُ عذرَهُ، والحَلِفُ في الحقيقة على أحدِ الأوَّلينِ بتقديرِ عدمِ الثَّالثِ، فكلمةُ ﴿أَوْ﴾ بين الأوَّلينِ للتَّخييرِ، وفي الثَّالثِ للتَّرديدِ بينه وبينهما.

قولُه: (وفَتْحِهَا) عاصمٌ(٢).

قولُه: (زَمَاناً يَسِيْراً) أي: غيرَ مديدٍ، أو: ﴿غيرَ بعيدٍ﴾ من زمانِ التَّهديدِ، يريد به الدَّلالةَ على سرعةِ رجوعهِ خوفاً منه.

قولُه: (أي: اطَّلعْتُ) قال البيضاويُّ: وقُرئ بإدغامِ الطاءِ في التاءِ بإطباقٍ وبغيرِ إطباقٍ(٣). المتواترُ: هو الإدغامُ مع بقاءِ صفةِ الإطباقِ(٤)، ونحوه: ﴿بَسَطْتَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ووقعَ الخُلفُ بـ﴿نَخْلُقْكُمْ﴾ [٢٠] في المرسلاتِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٧٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٢٤).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٢٥).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٥٨).

(٤) انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٢/ ٦٦٥). وفيه: «وأجمعوا على إدغام الطاء في التاء مع تبقية إطباق الطاء؛ لئلا يختل بذلك صوتُها في نحو قوله: ﴿أحطت﴾ و﴿فرّطتم﴾ [يوسف: ٨٠] و﴿بسطتَ﴾ وما أشبهه». ومثله قول الصفاقسي في «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٤٥): «لا خلاف بينهم أن الطاء مدغمة في التاء مع إطباق الطاء لئلا تشتبه بالطاء المدغمة».

بالصرف وتركه: قبيلةٌ باليمن سُمّيت باسم جدٍّ لهم باعتباره صُرِفَ ـ ﴿بِنَبَإٍ﴾: بخبر ﴿يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أي: هي ملِكة لهم اسمها بِلقيس، ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك من الآلة والعُدّة، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾: سرير ﴿عَظِيمٌ﴾، طوله ثمانون ذِراعًا وعرضه أربعون ذِراعًا وارتفاعه ثلاثون ذِراعًا، مضروب من الذهب والفضّة، مُكلّل بالدرّ والياقوت الأحمر والزَّبَرجَد الأخضر والزمرّد، وقوائمه من الياقوت الأحمر والزَّبَرجَد الأخضر والزمرّد، عليه سبعة أبواب، على كُلّ بيت باب مغلق.

٢٤ ـ ٢٥ ـ ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾: طريقِ الحقّ، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ أي: أن يسجدوا له ـ فزيدتْ «لا» وأُدغم فيها نون «أن» كما في قوله تعالى:..............................

قولُه: (وتَرْكِهِ) لمكّيٍّ وبصريٍّ، إلا أن قُنبُلاً سكَّن الهمزة[1].

قولُه: (قَبِيلَةٌ) أو بلدةٌ.

قولُه: (باعْتِبَارِهِ صُرِفَ) كذا في نسخةٍ؛ أي: باعتبارِ أصلِ اسمِ الجدِّ، ويمكنُ أن يكون الصَّرفُ باعتبارِ الحيِّ أو المكانِ.

قولُه: (بِلْقِيسُ) بالكسر، بنتُ شَراحيلَ ـ بفتح الشين ـ ، وأحدُ أبوَيها من الجنِّ[2]، والضَّميرُ لـ﴿سبأ﴾ إن أُريدَ به الحيُّ أو القبيلةُ، أو لأهلها إن أُريدَ الموضعُ أو البلدةُ.

قولُه: (سَرِيرٌ) وعظَمهُ بالنِّسبةِ إليها أو إلى عروشِ أمثالِها، لا إلى سليمانَ.

قولُه: (مَضْرُوبٌ) أي: مصوغٌ.

قولُه: (عَلَيْهِ) أي: مبنيٌّ عليه.

قولُه: (سَبْعَةُ أَبوَابٍ) والصَّوابُ: بيوتٍ.

قولُه: (طَرِيقِ الحَقِّ) الأولى: سبيلِ الحقِّ.

قولُه: (أيْ: أنْ يَسْجُدُوا) أو: فصَدَّهُم لئلَّا يسجُدوا، وهو الظَّاهرُ، وقرأَ الكسائيُّ: (أَلَا يا اسْجُدُوا)[3] فـ(ألا) بالتَّخفيفِ للتَّنبيهِ، والمنادى محذوف وهو: عبادي، أو قوم، استئنافاً من الله تعالى، أو من سليمانَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٠).

(٢) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢١٥٥)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٥١، ٤٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٢٤٩) عن قتادة. ورواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١٠٥٧) من قول عثمان بن حاضر.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٢٦).

«لئلاّ يَعلَمَ أهلُ الكِتابِ». والجملة: في موضع مفعول «يهتدون» بإسقاط «إلى» ـ ﴿الَّذِي يُخرِجُ الخَبْءَ﴾: مصدرٌ بمعنى المخبوء من المطر والنبات، ﴿في السَّماواتِ والأرضِ، ويَعلَمُ ما يُخفُونَ﴾ في قُلوبهم ﴿وما يُعلِنُونَ﴾ بألسنتهم. ٢٦ ـ ﴿اللهُ لا إلــٰـهَ إلاّ هُوَ، رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ﴾. استئنافُ جملةِ ثناءٍ مُشتملٍ على عرش الرحمن في مُقابلة عرش بِلقيس، وبينهما بون عظيم.

٢٧ ـ ﴿ قالَ﴾ سُليمان للهُدهد: ﴿سَنَنظُرُ: أَصَدَقتَ﴾ فيما أخبرتَنا به، ﴿أم كُنتَ مِنَ الكاذِبِينَ﴾ أي: من هذا النوع؟ فهو أبلغ من: أم كذبتَ فيه. ثمّ دلّهم على الماء فاستُخرج، وارتوَوا وتوضّؤوا وصلَّوا، ثمّ كتب سُليمان كِتابًا صُورته: «مِن عَبد اللهِ سُلَيمانَ بنِ داوُدَ إلى بِلقِيسَ مَلِكةِ سَبأٍ. بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ. السَّلامُ علَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى. أمّا بَعدُ فلا تَعلُوا علَيَّ، وائتُونِي مُسلِمِينَ»، ....

قولُه: (بأَلسِنَتِهِم) وحفصٌ والكسائيُّ بالخطابِ فيهما[1].

قولُه: (استِئنَافُ جُملَةِ ثَنَاءٍ) بالإضافتينِ.

قولُه: (عَرشِ الرَّحمَنِ) الذي هو أولُ الأجرامِ وأعظمُها، والمحيطُ بجملتِها.

قولُه: (بَوْنٌ) فَرقٌ.

قولُه: (فيمَا أَخبَرْتَنَا) أي: ستتعرَّفُ، من النَّظرِ بمعنى: التَّأمُّلِ.

قولُه: (أَكَذَبْتَ) الصَّوابُ: أم كَذَبْتَ[2]، أو كَذَبْتَ[3]، فالتَّغييرُ للمبالغةِ أو للفاصلةِ.

قولُه: (وائتُونِي مُسْلِمِيْنَ) كذا نقلهُ الزَّمخشريُّ عن بعضِهم[4]، فكأنَّ سائلاً يقولُ بعدَ ما قالت: ﴿أُلقِيَ إليَّ﴾: ما فيه؟ فقالت: إن مضمونَهُ وما فيه: ﴿إنه من سليمانَ﴾ وإن فيه ﴿بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ﴾.

وتركُ الواو في ﴿أنْ لا تَعْلُوا عليَّ﴾ ليدلَّ على أنه المقصودُ من الكتابِ؛ لأن ما بعدَ البسملَةِ يكونُ هو المقصودَ، فلو أتى بالواو لكان عطفاً على البسملة، فلا تكونُ البسملةُ للشُّروعِ في المقصودِ.

ونقلَ الشَّيخُ المحدِّثُ عمادُ الدِّينِ ابنُ كثيرٍ: أن عبارةَ الكتابِ: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الآيةَ[5]. فعلى هذا لمَّا قالت: ﴿أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ []، فحينئذٍ كأنَّ سائلاً قال: بيِّن لي مضمونَهُ ومكتوبَهُ، فأجابَتْ وقرأَتْ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨١)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٢٨).

(٢) وهكذا هي في النسخ المعتمدة في المتن.

(٣) كذا في النسخ ولعل الصواب: «أو: أو كذبت».

(٤) انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٦٣).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٨٨).

ثمّ طبعه بالمِسك وختمه بخاتَمه، ثمّ قال للهُدهد: ٢٨ ـ ﴿اذهَبْ بِكِتابِي هذا، فألقِهْ إلَيهِم﴾: إلى بِلقيس وقومها، ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾: انصرِفْ ﴿عَنهُم﴾ وقفْ قريبًا منهم، ﴿فانظُرْ: ماذا يَرجِعُونَ﴾: يردّون من الجواب؟

فأخذه وأتاها، وحولَها جُندُها، فألقاه في حَجرها، فلما رأته أُرعِدَت وخَضعت خوفًا، ثمّ وقفت على ما فيه، ثمّ ٢٩ ـ ﴿قالَتْ﴾ لأشراف قومها: ﴿يا أيُّها المَلَأُ، إنِّيَ﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وقلبِ الثانية واوًا ـ ﴿أُلقِيَ إلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ﴾: مختوم. ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿إنَّهُ مِن سُلَيمانَ، وإنَّهُ﴾ أي: مضمونَه ﴿بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ. ألَّا تَعلُوا علَيَّ، وائتُونِي مُسلِمِينَ. قالَتْ: يا أيُّها المَلَأُ، أفتُونِي﴾ ـ بتحقيق الهمزتين، وقلبِ الثانية واوًا ـ أي: أشيروا عليَّ ....

وقيل: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ بيانٌ لعُنوانِ الكتابِ، وكذا قولُه: من عبدِ اللهِ سليمانَ إلى مَلِكةِ سبإٍ، وليسَ من أصلِ الكتابِ، كذا قالَهُ الإمامُ، فسؤالُ تقديمِ سليمانَ اسمَهُ على اسم الله ساقِطٌ[1]، كذا أفادَهُ السَّيِّدُ الصَّفويُّ[2].

قولُه: (يَرُدُّونَ) أو: ماذا يرجعُ بَعضُهم إلى بعضٍ من القولِ.

قولُه: (لأَشْرَافِ قَومِهَا) بعد ما أُلقيَ إليها.

قولُه: (وتَسهِيلِ الثَّانيةِ... إلخ)[3] الوجهانِ الأخيرانِ للحِرْميَّينِ والبصريِّ[4].

قولُه: (مَختُومٌ) أي: كريمٌ لأنه كان مختوماً، وفي الحديثِ: «إكرامُ الكِتَابِ خَتْمُهُ»[5] أو لكرمِ مَضمونِهِ، أو مرسلِهِ، وكانت عالمةً بعِظَمِ شأنِ سليمانَ.

قولُه: (وقَلْبِ الثَّانِيَةِ) لمكيٍّ ومدنيٍّ وبصريٍّ[6].

قولُه: (أَشِيرُوا عَلَيَّ) يعني: أجيبوني في أمري الفَتيِّ الحادثِ، واذكُروا ما تستصوبون فيه، ومنه: الفتوى، وهو جوابٌ في الحادثةِ؛ لأنه مشتقٌّ من الفَتَى، كذا في «المعرِّبِ»[7].

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (١/ ١٥٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» للإيجي (٣/ ٢١٤).

(٣) هذا وجه ثالث لم يرد في نسخ المتن المعتمدة، وهو تسهيل الثانية كالياء، وهو وثاني وجهي المتن للحرميين والبصري كما سيأتي.

(٤) انظر: «غيث النفع» (ص: ٤٤٦).

(٥) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٨٧٢)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٠/ ٢٣٩) (٢٠٨٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٩)، والواحدي في «التفسير الوسيط» (٦٨٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنها.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩٩): فيه محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك.

(٦) انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٢/ ٥٤١).

(٧) انظر: «المغرب» (ص: ٣٥١).

﴿في أمري. ما كُنتُ قاطِعةً أمرًا﴾: قاضيته ﴿حَتَّى تَشهَدُونِ﴾: تَحضُرونِ.

٣٣ ـ ﴿قالُوا: نَحنُ أُولُو قُوّةٍ، وأُولُو بأسٍ شَدِيدٍ﴾: أصحابُ شِدّة في الحرب، ﴿والأمرُ إلَيكِ. فانظُرِي: ماذا تأمُرِينَـ﴾ ـنا؟ نُطِعْك. ٣٤ ـ ﴿قالَتْ: إنَّ المُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَرْيةً أفسَدُوها﴾ بالتخريب، ﴿وجَعَلُوا أعِزّةَ أهلِها أذِلّةً ـ وكَذلِكَ يَفعَلُونَ﴾ أي: مُرسلو الكتاب ـ ٣٥ ـ ﴿وإنِّي مُرسِلةٌ إلَيهِم بِهَدِيّةٍ، فناظِرةٌ: بِمَ يَرجِعُ المُرسَلُونَ﴾ من قَبول الهديّة أو ردّها؟ إن كان مِلِكًا قبلها، أو نبيًّا لم يقبلها.

فأرسلت خَدَمًا ذكورًا وإناثًا ألفًا بالسويّة، وخمسَمِائةِ لَبِنةٍ من الذهب وتاجًا مُكلّلاً بالجواهر ومِسكًا وعنبرًا وغير ذلك، مع رسول بكتاب. فأسرع الهُدهد إلى سُليمان، يُخبره الخبر،........

قولُه: (قَاضِيَتَهُ) وفاصلتهُ.

قولُه: (أَصْحَابُ شِدَّةٍ) أي: بلاءٍ[١] ونجدةٍ، وأصحابُ قُوَّةٍ بالأجسادِ والعَددِ والعُدَدِ. وقولُه: ﴿والأمرُ إلَيْكِ﴾ أي: موكولٌ.

قولُه: (بالتَّخْرِيبِ) والنَّهبِ والإهانةِ والأسرِ؛ يعني: إذا دخَلوها عنوةً وقَهراً، ذكرت لهم عاقبةَ الحَربِ فإنَّها سجالٌ.

قولُه: (أي: مُرسِلُو الكِتَابِ) الظاهِرُ: أي: ﴿الْمُلُوكَ﴾ تأكيدٌ لِمَا وصَفَتْ من حالِهم، وتقريرٌ بأن ذلك من عاداتِهم الثَّابتةِ المستمرَّةِ، أو تصديقاً لها من الله؛ يعني: اعتراضيَّة حكاها الله لنبيِّنا ﷺ بين كلاميها المحكيَّينِ له.

قولُه: (قَبِلَهَا) فنحاربُهُ.

قولُه: (لَمْ يَقبَلْهَا) فنتبَعُهُ، كذا نقلَ عن ابن عباسٍ وغيرِهِ[٢].

قولُه: (بِالسَّوِيَّةِ) أي: في العَدَدِ بالتَّنصيفِ، قيل: أرسَلَتْ غلماناً على زيِّ الجواري، وبالعكسِ، وحُقًّا[٣] فيه دُرَّةٌ عذراءُ وجَزَعَةٌ[٤] معوجَّةُ الثقبِ للامتحانِ[٥].

قولُه: (فَأَسْرَعَ الهُدْهُدُ) أو سبقَهُم جبريلُ بالحالِ.

---

(١) في (ص): «صلابة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٣٣٩) بنحوه.

(٣) هو وعاء من خشب. «القاموس المحيط» (ص: ٨٧٥).

(٤) الجَزع، ويكسر: الخرز اليماني الصيني فيه سواد وبياض. «القاموس المحيط» (ص: ٧٠٩).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٣٣٤) عن السدي بأتم مما هنا.

فأمر أن تُضرب لَبِناتُ الذهب والفِضّة، وأن تُبسط من موضعه إلى تسعة فراسخَ مَيدانًا، وأن يبنوا حوله حائطًا مُشرفًا من الذهب والفِضّة، وأن يُؤتى بأحسن دوابّ البرّ والبحر مع أولاد الجِنّ عن يمين المَيدان وشِماله.

٣٦ - ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ الرسول بالهديّة، ومعه أتباعُه، ﴿سُلَيمانَ قَالَ: أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ؟ فَمَا آتَانِيَ اللهُ﴾ من النبوّة والمُلك ﴿خَيرٌ مِمَّا آتَاكُم﴾ من الدنيا. ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُم تَفرَحُونَ﴾ لفخركم بزخارف الدنيا.

قولُه: (مَيْدَانًا) بالفتح ويكسرُ[١].

قولُه: (بالهَدِيَّةِ) أمر الأرَضَةَ فأخذَتْ شعرةً ونفذَتْ في الدُّرَّةِ، وأمَرَ دودةً بيضاءَ فأخذتِ الخيطَ ونفذَتْ في الخَرَزَةِ، ودعا بالماءِ فكانتِ الجاريةُ تأخذُ الماءَ بيدِها فتجعلهُ في الأخرى ثمَّ تضربُ به وجهَها، والغلامُ كما يأخذهُ يضربُ به وجههُ[٢].

قولُه: (ومَعَهُ أَتبَاعُهُ) أي: الخطابُ في ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للرَّسولِ ومن معَه، وقيل: للرسولِ والمرسِلِ على تغليبِ المخاطَبِ.

وقرأ حمزةُ بالإدغام[٣]، وقولُ القاضي: وقُرئَ بنونٍ واحدةٍ وبنونين وحذفِ الياء[٤]. خلطٌ بين الشَّاذِّ وهو الأوَّلُ[٥]، والمتواترِ وهو الثَّاني قراءةُ الجمهورِ، بل الكلِّ؛ إذ منهم مَن يُدغِمُ وهو حمزةُ، ومنهم مَن يحذفُ الياءَ وهو الشَّاميُّ وعاصمٌ والكسائيُّ، ومنهم مَن يثبتُ الياءَ وهم الباقونَ على خلافٍ في وصلِهم ووقفِهم يُعرف تفصيلهُ والقراءات في ﴿فما آتاني الله﴾ من كتبِ القراءاتِ[٦].

قولُه: (مِنَ النُّبُوَّةِ) المقتضيةِ لملكِ القناعةِ.

قولُه: (والمُلْكِ) والمالِ الذي لا مزيدَ عليه.

قولُه: (مِنَ الدُّنْيَا) فلا حاجةَ لي إلى هَدِيَّتِكُم، ولا وقعَ لها عندي.

قولُه: (لِفَخْرِكُم) أي: بهديَّتِكُم التي يرسلُ بها بعضُكُم إلى بعضٍ؛ لأنَّكُم لا تعلمونَ إلَّا ظاهراً من الحياةِ الدُّنيا فتفرَحونَ بما يُهدى إليكُم حُبًّا لزيادةِ أموالكُم، أو بما تُهدونهُ افتخاراً على أمثالكُم.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٣٢١).

(٢) جاء نحوه فيما تقدم عند ابن أبي حاتم عن السدي.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٢).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦٠).

(٥) قرأ المسيبي عن نافع (أتمدون) بنون واحدة خفيفة، انظر: «شواذ القرآن» (ص: ١١١)، وذكرها أيضاً ابن مجاهد في «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٢).

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٢).

٣٧ ـ ﴿ارجِعْ إلَيهِم﴾ بما أتيتَ به من الهديّة. ﴿فلَنأتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ﴾: لا طاقة ﴿لَهُم بِها، ولَنُخرِجَنَّهُم مِنها﴾ من بلدهم سبأ ـ سُمّيت باسم أبي قبيلتهم ـ ﴿أذِلَّةً وهُم صاغِرُونَ﴾، إن لم يأتوني مُسلمين.

فلمّا رَجَعَ إليها الرسول بالهديّة جعلت سريرها داخل سبعة أبواب داخل قصرها، وقصرُها داخلَ سبعة قصور، وأغلقت الأبواب وجعلت عليها حرسًا، وتجهّزت للمسير إلى سُليمان، لتنظر ما يأمرها به. فارتحلت في اثني عشرَ ألفَ قَيلٍ، مع كل قَيلٍ ألوفٌ كثيرة، إلى أن قرُبت منه على فرسخ شعر بها.

٣٨ ـ ﴿قالَ: يا أيُّها المَلأُ، أيُّكُم﴾ ـ في الهمزتين ما تقدّم ـ ﴿يأتِيني بِعَرشِها قَبلَ أن يأتُوني مُسلِمِينَ﴾ أي: منقادِين طائعين؟ فلي أخذُه قبلَ ذلك لا بعده. ٣٩ ـ ﴿قالَ عِفرِيتٌ مِنَ الجِنِّ﴾ هو القويّ الشديد: ﴿أنا آتِيكَ بِهِ قَبلَ أن تَقُومَ مِن مَقامِكَ﴾ الذي تجلس فيه للقضاء، وهو من الغداة إلى نصف النهار، ﴿وإنِّي عَلَيهِ لَقَوِيٌّ﴾ أي: على حمله ﴿أمِينٌ﴾ على ما فيه من الجواهر وغيرها.

قال سُليمان: أريد أسرع من ذلك. ٤٠ ـ ﴿قالَ الَّذِي عِندَهُ عِلمٌ مِنَ الكِتابِ﴾ المُنزَل، ....

قولُه: (بِمَا أَتَيْتَ) أيُّها الرَّسولُ إلى بلقيسَ وقومِها.

قولُه: (لا طَاقَةَ) بمقاومتِها.

قولُه: (سُمِّيَتْ) مستدركٌ، تقدَّمَ في محلِّهِ[1].

قولُه: (إنْ لَمْ يَأْتُوْنِي) بالغيبةِ.

قولُه: (دَاخِلَ سَبعَةِ أَبْوَابٍ دَاخِلَ قَصْرِهَا) الصَّوابُ: داخلَ قصرها وعليه سبعةُ أبوابٍ.

قولُه: (حَرَساً) جمعُ: حارسٍ؛ كخدمٍ جمعُ: خادمٍ، أو كركَّعٍ جمعُ: راكعٍ.

قولُه: (قَيْلٍ) القَيلُ: ملِكٌ من مُلوكِ حِميرَ، أو هو دونَ الملكِ الأعلى، وأصلهُ: قَيِّلٌ كفَيْعِلٍ، سُمِّي به لأنه يقولُ ما يشاء فيَنْفذُ[2].

قولُه: (شَعَرَ) أي: علمَ سليمانُ بمَأتاها.

قولُه: (أيْ: مُنقَادِيْنَ) أو مؤمنينَ، فإنَّها إذا أتتْ مُسلِمةً لم يحلَّ أخذهُ إلَّا برِضاها.

قولُه: (هُوَ) أي: العِفْريتُ، و﴿مِنَ﴾ بيانٌ له.

قولُه: (المُنْزَلِ) جنسٌ، أو إفرادٌ، أو اللَّوحُ.

---

(١) انظر الآية رقم: (٢٢).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٥١).

وهو آصِفُ بنُ بَرْخَيا، كان صِدّيقًا يعلم اسم الله الأعظمَ الذي إذا دُعي به أجاب: ﴿أنا آتِيكَ بِهِ قَبلَ أن يَرتَدَّ إِلَيكَ طَرْفُكَ﴾، إذا نظرت به إلى شيء ما. قال له: انظر إلى السماء. فنظر إليها ثمّ ردَّ بطرفه، فوجده موضوعًا بين يديه. ففي نظره إلى السماء دعا آصف بالاسم الأعظم أن يأتي الله به، فحصل بأن جرى تحت الأرض حتى ارتفع عند كرسيّ سليمان.

﴿فلَمّا رآهُ مُستَقِرًّا﴾ أي: ساكنًا ﴿عِندَهُ قالَ: هذا﴾ أي: الإتيان لي به ﴿مِن فَضلِ رَبِّي، لِيَبلُوَنِي﴾: ليختبرني: ﴿أأشكُرُ﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وإبدالِ الثانية ألفًا، وتسهيلِها، ....

قولُه: (آصِفُ) وزيرُهُ، أو كاتبُهُ، أو الخَضِرُ، أو جبريلُ، أو مَلَكٌ أيَّدَهُ اللهُ تعالى به، و﴿آتِيكَ﴾ في الموضعينِ صالحٌ للفعليَّةِ والاسميَّةِ.

قولُه: (إذا نَظَرْتَ) والمعنى: أنَّك ترسلُ نظركَ نحو شيءٍ، فقَبْلَ أن ترُدَّهُ أُحضِرُ عرشَها بين يديكَ، وهذا غايةٌ في الإسراعِ ومَثَلٌ فيه؛ أي: في الإسراعِ، وإن كانَ حقيقةً فيما هنا؛ كقولهِ ﷺ: «اللَّهمَّ لا تكلنِي إلى نَفسِي طرفَةَ عينٍ»[1].

قولُه: (حَتَّى نَبَعَ) ويمكنُ أنه جَرى بين السَّماءِ والأرضِ حتَّى نزلَ، مع احتمالِ رؤيتِهِ وعدمِها قبلَ النُّزولِ.

قولُه: (سَاكِناً) أي: ثابتاً غيرَ متحرِّكٍ، وهو الصَّوابُ ـ خلافاً للقاضي حيث قال: أي: حاصلاً بين يديه[2] ـ لأن الظَّرفَ إذا وقع خبراً، أو حالاً، أو صفةً، أو صلةً؛ وجبَ حذفُ متعلَّقِهِ إن كان كوناً عامًّا أو خاصًّا دلَّ عليه دليلٌ، وإلَّا وجبَ ذكرهُ كما هنا.

قولُه: (لِيَخْتَبِرَنِي) هل أراهُ فضلاً من اللهِ أو أجدُ نفسي في الوسطِ[3]؟ أو: هل أقومُ بحقِّ مولى النِّعمةِ أو أقصِّرُ في أداءِ مواجبه؟

قولُه: (بتَحْقِيْقِ) تقدَّمَ مراراً ذكرهُ وتحقيقهُ[4] مع أنه لا دخلَ للتَّفسيرِ في مثلِهِ سيَّما هذا المختصَرُ.

---

(١) هو طرف من حديث رواه أبو داود في «سننه» (٥٠٩٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤١٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٤٣٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٧٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦١).

(٣) في النسخ: «أو اجد نفسه في الوسط» والمثبت من «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦١)، وفيه: «﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾ بأن أراه فضلًا من الله تعالى بلا حول مني ولا قوة وأقوم بحقه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجد نفسي في البين».

قال الشهاب في «الحاشية على تفسير البيضاوي» (٧/ ٤٧): قوله: «بأن أجد نفسي في البين»؛ أي: بأن أثبت لنفسي وجوداً وتصرّفاً في ذلك.

(٤) انظر: سورة الرعد آية: (٥) عند قوله: وفي الهمزتين... إلخ.

وإدخالِ ألف بين المسهّلة والأخرى، وتركِه ـ ﴿أم أكفرُ﴾ النِّعمة؟ ﴿ومَن شَكَرَ فإنَّما يَشكُرُ لِنَفسِهِ﴾ أي: لأجلها لأنّ ثواب شُكره له، ﴿ومَن كَفَرَ﴾ النِّعمة ﴿فإنَّ رَبِّي غَنيٌّ﴾ عن شُكرِه ﴿كَريمٌ﴾ بالإفضال على من يكفرها.

٤١ ـ ﴿قالَ: نَكِّرُوا لَها عَرشَها﴾ أي: غيّروه إلى حالٍ تُنكره إذا رأته، ﴿نَنظُرْ: أتَهتَدِي﴾ إلى معرفته ﴿أم تَكونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهتَدُونَ﴾ إلى معرفة ما يُغيّر عليهم؟ قصد بذلك اختبار عقلها لِما قيل له: إن فيه شيئًا. فغيّروه بزيادة أو نقص أو غير ذلك.

٤٢ ـ ٤٣ ـ ﴿فلَمّا جاءَتْ قِيلَ﴾ لها: ﴿أهكَذا عَرشُكِ﴾ أي: أمِثلُ هذا عرشُكِ؟ ﴿قالَتْ: كأنَّهُ هُوَ﴾ أي: فعرفتْه، وشَبّهت عليهم كما شبّهوا عليها، إذ لم يُقل: أهذا عرشك؟ ولو قيل «هذا» قالت: نعم. قال سُليمان لمّا رأى لها معرفة وعِلمًا: ﴿وأُوتِينا العِلمَ مِن قَبلِها، وكُنّا مُسلِمِينَ. وصَدَّها﴾ عن عِبادة الله ﴿ما كانَتْ تَعبُدُ، مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه. ﴿إنَّها كانَت مِن قَومٍ كافِرِينَ﴾.

٤٤ ـ ﴿قِيلَ لَها﴾ أيضًا: ﴿ادخُلِي الصَّرحَ﴾. هو سطح من زُجاجٍ أبيضَ شفّافٍ، تحته ماء جارٍ، فيه سمك اصطنعه سُليمان، لِما قيل له: إنّ ساقَيها ورجلَيها كقَدَمَي حِمار........................

قولُه: (النِّعْمَةَ) ومحلُّهُما النَّصبُ على البدلِ من الياء.

قولُه: (علَى مَنْ يَكْفُرُهَا) الظَّاهرُ: من لم يَكْفُرْها؛ أي: بالإنعامِ عليه ثانياً.

قولُه: (حَالٍ) أي: هيئةٍ وشكلٍ؛ أي: تغييراً في الجملةِ لا مطلقاً.

قولُه: (إلى مَعرِفَتِهِ) أو الجوابِ الصَّوابِ.

قولُه: (قالَتْ: نَعَمْ) أو: هو هو، والأظهرُ أنَّها لم تقُل: هو هو، مع ظَنِّها الغالبِ؛ لاحتمالِ أن يكونَ مثلَهُ، وذلك من كمالِ عَقلِها.

قولُه: (قالَ سُلَيْمَانُ) أي: وحدهُ، أو مع قومِهِ، عطفاً لكلامِهِم على جوابِها للتَّحدُّثِ بما أنعمَ اللهُ عليهم من التَّقدُّمِ في ذلك شكراً.

وقيل: إنه من تتمَّةِ كلامِها، وضمير: ﴿قَبْلِهَا﴾ راجعٌ إلى هذه المعجزةِ، وهو إحضارُ العرشِ بالوصفِ المذكورِ فيما تقدَّمَ من مسيرَةِ شهرَينِ في طَرفةِ عَينٍ.

قولُه: (هُو سَطْحٌ) أي: صحنٌ، والصَّرحُ: قيل: القصرُ، وقيل: عَرْصةُ الدَّارِ[1].

قولُه: (سَمَكٌ) وغيرُهُ من حيواناتِ الماءِ.

---

(١) انظر: «لسان العرب» (٢/ ٥١١).

﴿فلَمّا رأتْهُ حَسِبَتْهُ لُجّةً﴾ من الماء، ﴿وكَشَفَتْ عَن ساقَيها﴾ لتخوضه. وكان سُليمان على سريره في صدر الصرح، فرأى ساقيها وقدميها حِسانًا. ﴿قالَ﴾ لها: ﴿إنَّهُ صَرحٌ مُمَرَّدٌ﴾: مُملّس ﴿مِن قَوارِيرَ﴾ أي: زجاج. ودعاها إلى الإسلام. ﴿قالَتْ: رَبِّ، إنِّي ظَلَمتُ نَفسِي﴾ بعِبادة غيرك، ﴿وأسلَمتُ﴾ كائنة ﴿مَعَ سُلَيمانَ رَبِّ العالَمِينَ﴾.

وأراد تزوّجها فكره شعر ساقيها، فعملت له الشياطين النُّورةَ فأزالته بها، فتزوجها وأحبّها وأقرّها على مُلكها، وكان يزورها في كلّ شهر مرّة، ويُقيم عِندها ثلاثة أيام. وانقضى مُلكها بانقضاء مُلك سُليمان. رُوي أنه ملكَ وهو ابن ثلاثَ عشْرةَ سنةً، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة. فسُبحان مَن لا انقضاء لدوام مُلكه.

٤٥ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا إلَى ثَمُودَ أخاهُم﴾ من القبيلة ﴿صالِحًا أنِ﴾ أي: بأن ﴿اعبُدُوا اللهَ﴾: وحّدوه، ﴿فإذا هُم فَرِيقانِ يَختَصِمُونَ﴾ في الدِّين: فريقٌ مؤمنون من حين إرساله إليهم وفريق كافرون.
٤٦ ـ ﴿قالَ﴾ للمُكذّبين: ﴿يا قَومِ، لِمَ تَستَعجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبلَ الحَسَنةِ﴾ أي: بالعذاب قبل الرحمة، ...

قولُه: (مِنَ المَاءِ) أي: ماءً عظيماً راكداً، فعزمَت على الدُّخولِ امتثالاً للأمرِ فشمَّرَتْ وكشَفَتْ.

قولُه: (مُمَلَّسٌ) أي: ما تظُنينَهُ ماءً.

قولُه: (فتَزَوَّجَها) وقيل: زَوَّجَها من ذي تُبَّعٍ ملكِ همدانَ.

قولُه: (بِأَنْ) قال القاضي: وقُرِئَ بضم النون على إتباعها الباء[1]. والحالُ أنه قراءةُ الحِرْميَّينِ والشَّاميِّ والكسائيِّ[2].

قولُهُ: (مِنْ حِيْنِ إِرْسَالِهِ) يفهمُ من (إذا) الفجائيَّةَ، والواو[3] لمجموعِ الفريقَينِ، والاختصامُ جاء مفسَّراً في سورةِ الأعرافِ[4].

قولُه: (بالعَذَابِ..) أي: بطلبِهِ قبلَ طلبِ الرَّحمةِ؛ يعني: كان اللَّائِقُ طلبَ الرَّحمةِ وتقديمَهُ للتَّخليصِ من العذابِ.

أو: بالعقوبةِ قبل التَّوبةِ، فتؤخِّرونَها إلى نزولِ العقابِ، فإنَّهم كانوا يقولونَ: إن صدقَ إيعادهُ تُبْنا حينئذٍ

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦٢).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٧٨).

(٣) أي في: ﴿يختصمون﴾.

(٤) انظر: سورة الأعراف: (٣٩).

حيثُ قلتم: إن كان ما أتيتَنا به حقًّا فائتِنا بالعذاب؟ ﴿لَوْلا﴾: هلاّ ﴿تَستَغفِرُونَ اللهَ﴾ من الشِّرك، ﴿لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ﴾ فلا تُعذَّبون.

٤٧ ـ ﴿قالُوا: اطَّيَّرنا﴾ ـ أصله: «تَطيَّرنا»، أُدغمت التاء في الطاء، واجتُلبت همزة وصل ـ أي: تشاءمنا ﴿بِكَ وبِمَن مَعَكَ﴾ أي: المؤمنين، حيثُ قُحِطوا المطرَ وجاعوا. ﴿قالَ: طائرُكُم﴾: شُؤمكم ﴿عِندَ اللهِ﴾ أتاكم به. ﴿بَل أنتُم قَومٌ تُفتَنُونَ﴾: تختبَرون بالخير والشرّ.

٤٨ ـ ﴿وكانَ في المَدِينةِ﴾ مدينةِ ثمودَ ﴿تِسعةُ رَهطٍ﴾ أي: رجالٍ، ﴿يُفسِدُونَ في الأرضِ﴾ بالمعاصي، منها قرضهم الدنانيرَ والدراهم، ﴿ولا يُصلِحُونَ﴾ بالطاعة. ٤٩ ـ ﴿قالُوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿تَقاسَمُوا﴾ أي: احلِفوا ﴿بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ ـ بالنونِ، والتاءِ وضمّ التاء الثانية ـ ﴿وأهلَهُ﴾ أي: مَن آمن به، أي: نقتلُهم ليلاً، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ ـ بالنونِ، والتاءِ وضمّ اللام الثانية ـ ﴿لِوَلِيِّهِ﴾ أي: وليّ دمه: ﴿ما شَهِدْنا﴾: حضرنا ﴿مُهلَكَ أهلِهِ﴾، بضمِّ الميم وفتحِها،..........................

فائتِنا بالعذابِ، حيثُ قالوا: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

قولُه: (مِنَ الشِّركِ) قبل نزولِ العذابِ.

قولُه: (تَشَاءَمْنَا) من التَّفعُّلِ أو التَّفاعُلِ.

قولُه: (شُؤْمُكُم) الظَّاهرُ: ما يصيبكُم من الخيرِ والشَّرِّ ﴿عندَ اللهِ﴾ بأمرِهِ وقضائِهِ وقدرِهِ، وهو مكتوبٌ عليكُم، وسُمِّي طائراً لسُرعةِ نزولِهُ بالإنسانِ، فإنه لا شيءَ أسرعُ من قضاءٍ محتومٍ.

قولُه: (أيْ: رِجَالٍ) وهو أحسنُ من عبارةِ البيضاويِّ: أي: أنفُسٍ[١]. فإنَّ النَّفسَ مؤنَّثٌ سماعيٌّ، وإنَّما وقعَ تمييزًا لـ﴿تِسْعَةُ﴾ باعتبارِ المعنى، وإلَّا فالقياسُ أن يقالَ: تسعةٌ من الرِّجالِ.

قولُه: (أيْ: احْلِفُوا) أمرٌ مقولٌ، وقيل: أو خبرٌ وقعَ بدلاً من: ﴿قَالُوا﴾، أو حالاً بإضمارِ (قد) عندَ البصريِّينَ، وبدونهِ عندَ الكوفيِّينَ، ولو قالَ الشَّيخُ: أقسَمُوا، لاحتَمَلَ القولَينِ، فلعلَّهُ اختارَ أنه الأمرُ، والأمرُ كذلك.

قولُه: (والتَّاءِ) صوابهُ: وبالتاء، حمزةُ والكسائيُّ فيه وفيما بعدهُ[٢].

قولُه: (بِضَمِّ المِيمِ) أي: مع فتحِ اللَّامِ لغيرِ عاصمٍ (وفَتْحِهَا) أي: فتح الميم مع فتح اللام، لشعبةَ، ومع كسر اللام لحفصٍ[٣].

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦٢).

(٢) أي: وفي (ثم لتقولن)، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٣).

(٣) انظر المصدر السابق.

أي: إهلاكَهم أو هلاكَهم. فلا ندري: مَن قتلهم؟ ﴿وإنّا لَصادِقُونَ﴾.

٥٠ ـ ٥١ ـ ﴿ومَكَرُوا﴾ في ذلك ﴿مَكرًا، ومَكَرْنا مَكرًا﴾ أي: جازيناهم بتعجيل عُقوبتهم، ﴿وهُم لا يَشعُرُونَ. فانظُرْ: كَيفَ كانَ عاقِبةُ مَكرِهِم؟ إنّا دَمَّرْناهُم﴾: أهلكناهم ﴿وقَومَهُم أجمَعِينَ﴾ بصيحة جِبريل أو برمي الملائكة بحِجارة يرونها ولا يرونهم ـ ٥٢ ـ ﴿فتِلكَ بُيُوتُهُم خاوِيةً﴾: خالية، ونصبه على الحال والعاملُ فيها معنى الإشارة، ﴿بِما ظَلَمُوا﴾: بظُلمهم أي: كُفرهم.........

قولُه: (أيْ: إهْلاكَهُم وهَلاكَهُم) لفٌّ ونشرٌ؛ يعني: أنَّهما مصدرانِ، ويحتملانِ الزَّمانَ والمكانَ أيضاً، إلا قراءةَ شعبةَ فإنه مصدرٌ لا غيرُ، والمعنى: ما شهدناهُ فضلاً أنا باشَرْنا إهلاكَهُم، وقولُه: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي: ونحلفُ إنَّا لصَادِقونَ؛ يعني: وهم كاذِبونَ، أو: والحالُ إنَّا لصادقونَ، فإنَّ الحضورَ غيرُ المباشرةِ عُرفاً، أو: لأنَّا ما شهدنا مهلكَهُم فقط، بل مَهلِكَهُ ومَهلِكَهُم.

قولُه: (فِي ذَلِكَ) بهذه المواضعَةِ.

قولُه: (أَهلَكْنَاهُم) قرأَ الكوفيُّونَ بالفتحِ على أنَّه خبرُ محذوفٍ، أو بدلٌ من اسمِ كانَ، والباقي بالكسرِ استئنافاً[1].

قولُه: (أو بِرَمْيِ المَلَائِكَةِ) الظَّاهرُ: أو لرَمي، وظاهرُ كلامِهِ أنَّ الخلافَ في عذابِهِم وقَومِهِم، وليسَ الأمرُ كذلكَ، ففي «المعالمِ»: قالَ ابنُ عبَّاسٍ: أرسلَ اللهُ الملائكةَ تلك اللَّيلةَ إلى دارِ صالحٍ يحرُسونهُ، فأتى التِّسعةُ دارَ صالحٍ شاهِرينَ سيوفَهُم، فرمَتهُمُ الملائكةُ بحجارَةٍ[2]، وقال مقاتلٌ: نزَلوا في سَفحِ جَبلٍ ينتظرُ بعضُهُم بعضاً ليأتوا دارَ صالحٍ، فجثَمَ عليهِم الجبلُ فأهلكَهُم[3].

والحاصلُ: أنَّ المفسِّرينَ اختَلفُوا في كيفيَّةِ هلاكِ التِّسعةِ، واتَّفقُوا على أنَّ هلاكَ قومِهم بالصَّيحةِ مع أنَّه لا مانعَ من الجمعِ بين العذابَينِ للتِّسعةِ، بل الباعثُ موجودٌ وهو زيادةُ طُغيانِهم، وهذا هو الظَّاهرُ، واللهُ أعلمُ بالسَّرائرِ.

قولُه: (خَالِيَةً) أو: ساقِطةً منهَدمةً.

قولُه: (بِظُلْمِهِم) والباءُ: سببيَّةٌ، و﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٤).

(٢) لم أقف عليه مسنداً عن ابن عباس رضي الله عنهما، وجاء بنحوه من قول ابن إسحاق، رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٣٦)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٤٦٨).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥٠٩).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾: لَعِبرةً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قُدرتنا فيتّعظون ـ ٥٣ ـ ﴿وأنجَينا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بصالح، وهم أربعة آلاف، ﴿وكانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشِّرك.

٥٤ ـ ﴿ولُوطًا﴾: منصوب بـ«اذكرْ» مُقدّرًا قبله، ويُبدل منه: ﴿إذ قالَ لِقَومِهِ: أتأتُونَ الفاحِشةَ﴾ أي: اللِّواطَ، ﴿وأنتُم تُبصِرُونَ﴾ أي: يُبصر بعضكم بعضًا انهماكًا في المعصية؟ ٥٥ ـ ﴿أإنَّكُم﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ ألف بينهما على الوجهين ـ ﴿لَتأتُونَ الرِّجالَ شَهْوةً مِن دُونِ النِّساءِ؟ بَل أنتُم قَومٌ تَجهَلُونَ﴾ عاقبةَ فِعلكم.

٥٦ ـ ﴿فَما كانَ جَوابَ قَومِهِ إلاّ أن قالُوا: أخرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾: أهلَه ﴿مِن قَرْيتِكُم. إنَّهُم أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ من أدبار الرجال. ٥٧ ـ ﴿فأنجَيناهُ وأهلَهُ إلاّ امرأتَهُ، قَدَّرْناها﴾: جعلناها بتقديرنا ﴿مِنَ الغابِرِينَ﴾: الباقين في العذاب، ٥٨ ـ ﴿وأمطَرْنا علَيهِم مَطَرًا﴾، هو حجارة السِّجّيل أهلكتْهم، ﴿فساءَ﴾: بئس ﴿مَطَرُ المُنذَرِينَ﴾ بالعذاب مطرُهم!

٥٩ ـ ﴿قُلِ﴾ يا مُحمّد: ﴿الحَمدُ لِلهِ﴾ على هلاك كُفّار الأُمم الخالية، ﴿وسَلامٌ علَى عِبادِهِ الَّذِينَ اصطَفَا﴾ هُم..................................

قولُه: (بصَالِحٍ) فهو بطريقِ الأولى، وقالَ القاضِي: صالحاً ومَن معه[1].

قولُه: (الشِّرْكَ) والمعاصيَ.

قولُه: (ويُبْدَلُ) بدلَ اشتمالٍ.

قولُه: (يُبصِرُ) أو: يعلمُونَ فُحشَها، من بَصَرِ القلبِ، واقترافُ القبائحِ من العالِمِ بقُبحِها أقبَحُ.

قولُه: (عَاقِبَةَ فِعْلِكُم) والتَّاءُ في ﴿تَجْهَلُونَ﴾ لكونِ الموصُوفِ به وهو ﴿قَوْمٌ﴾ في معنَى المخاطبِ.

قولُه: (مِنْ أَدْبارِ الرِّجالِ) أي: يتنزَّهونَ عن أفعالِنا، أو: عن الأقذارِ، ويَعُدُّونَ فِعلَنا قذراً.

قولُه: (جَعَلْنَاهَا) وقالَ القاضي: قدَّرنا كونَها[2]، فقدَّرَ المضافَ لأنه متعلَّقُ التَّقديرِ لا نفسُ الذَّاتِ، وقرأ شعبةُ بتخفيفِ الدَّالِ[3].

قولُه: (يَا مُحَمَّدُ) وقيلَ: الخطابُ للوطٍ بتقديرِ: قُلنا له.

قولُه: (﴿اصطفَا﴾هُم) بالرِّسالةِ وبالعِصمةِ من الفواحشِ والنَّجاةِ من الهلاكِ.

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦٣).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦٤).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٤).

﴿آللهُ﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وإبدالِ الثانية ألفًا وتسهيلِها، وإدخالِ ألف بين المُسهّلة والأُخرى وتركِه ـ ﴿خَيرٌ﴾ لمن يعبده ﴿أم ما يُشرِكُونَ﴾، بالياء والتاء، أي: أهلُ مكّة به الآلهةَ، خيرٌ لعابديها؟

٦٠ ـ ﴿أم مَن خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، وأنزَلَ لَكُم مِنَ السَّماءِ ماءً فأنبَتْنا﴾ ـ فيه التفاتٌ من الغَيبة إلى التكلّم ـ ﴿بِهِ حَدائقَ﴾: جمع حديقة، وهو البستان المُحوّط، ﴿ذاتَ بَهْجةٍ﴾: حُسنٍ، ﴿ما كانَ لَكُم أن تُنبِتُوا شَجَرَها﴾ لعدم قُدرتكم عليه؟ ﴿أإلـٰهٌ﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ ألف بينهما على الوجهين، ....

قولُه: (بتَحقِيقِ الهَمْزَتَينِ) لا تصحُّ هذه الوجوهُ عن أحدٍ من القُرَّاءِ في هذا المحلِّ، والصَّوابُ: بإبدالِ الثَّانيةِ ألفًا ممدوداً للسَّاكِنَينِ، وبتسهيلِها مَقصوراً، وهذانِ الوجهانِ للكُلِّ، والأوَّلُ أولى[1].

قولُه: (لِمَنْ يَعبُدُهُ) إلزامٌ لهم بإرخاءِ العنانِ، أو تهكُّمٌ بهم، أو تَسفيةٌ لرأيِهم؛ إذ من المعلومِ أن لا خيرَ فيما أشرَكوهُ رأساً حتَّى يوازنَ بينهُ وبينَ من هو مبدأُ كلِّ خيرٍ.

قولُه: (بالياءِ) التَّحتيَّةِ بصريٌّ وعاصمٌ[2].

قولُه: (أَيْ) تفسيريَّةٌ على الأولى، ونِدائيَّةٌ على الثَّانيةِ.

قولُه: (بِهِ) أي: باللهِ.

قولُه: (الآلِهَةَ) تفسيرٌ لـ﴿ما﴾ فتنصب، والظَّاهرُ تقديمُها على الجارِّ والمجرورِ.

قولُه: (جَمْعُ حَدِيقَةٍ) من الإحداقِ، وهو الإحاطَةُ.

قولُه: (حُسْنٍ) وإفراد ﴿ذَاتَ﴾ بتأويلِ الجماعةِ، كما تقولُ: النِّساءُ ذَهبَتْ.

قولُه: (بتَحْقِيقِ الهَمزَتَينِ) ابنُ ذكوانَ وكوفيٌّ[3].

قولُه: (وتَسهِيْلِ الثَّانِيَةِ) الحِرميَّانِ والبَصريُّ.

قولُه: (وإدْخَالِ ألِفٍ) قالونُ وبصريٌّ وهشامٌ بخُلفٍ عنهُ، ولقد سَها البيضاويُّ حيثُ قال: وقُرِئَ بتوسيطِ مَدَّةٍ بينَ الهمزتَينِ وإخراجِ الثَّانيةِ بينَ بينَ[4]. لِمَا ذكَرنا فتأمَّل، فإنه موضِعُ زَلل، واللهُ هو العاصمُ، والمعصومُ هو الرَّسولُ.

---

(١) انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٢/ ٥٢٤).

(٢) انظر: «تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص: ٤٩٣).

(٣) انظر هذا وما سيأتي: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٣٢)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص:١٧٣).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦٤).

في مواضعه السبعة ـ ﴿مَعَ اللهِ﴾ أعانه على ذلك؟ أي: ليس معه إلـهٌ. ﴿بَل هُم قَومٌ يَعدِلُونَ﴾: يُشركون بالله غيرَه.

٦١ ـ ﴿أم مَن جَعَلَ الأرضَ قَرارًا﴾ أي: لا تميد بأهلها، ﴿وجَعَلَ خِلالَها﴾ فيما بينها ﴿أنهارًا، وجَعَلَ لَها رَواسِيَ﴾: جِبالاً أثبتَ بها الأرض، ﴿وجَعَلَ بَينَ البَحرَينِ حاجِزًا﴾: بين العذب والمِلح، لا يختلط أحدهما بالآخر؟ ﴿أإلـهٌ مَعَ اللهِ؟ بَل أكثرُهُم لا يَعلَمُونَ﴾ توحيدَه.

٦٢ ـ ﴿أم مَن يُجِيبُ المُضطَرَّ﴾: المكروب الذي مسّه الضُّرُّ ﴿إذا دَعاهُ، ويَكشِفُ السُّوءَ﴾ عنه وعن غيره، ﴿ويَجعَلُكُم خُلَفاءَ الأرضِ﴾ ـ الإضافةُ بمعنى «في» ـ أي: يَخلُفُ كُلُّ قرن القرنَ الذي قبله؟ ﴿أإلـهٌ مَعَ اللهِ؟ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾: تتّعظون. بالفَوقانيّة والتحتانيّة،.........................

قولُه: (مَواضِعِهِ السَّبعَةِ) الصَّوابُ: الخمسةِ؛ لأنَّ ضميرَ «مواضعِهِ» راجعٌ إلى قولِه: ﴿أَإِلَهٌ﴾، وإن أرادَ انضمامَ ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا﴾ [الرعد: ٥] مع ما بعدَهُ، فحكمُهُ غيرُ ما ذكَرنا، وقد تقدَّمَ في الرَّعدِ[١].

قولُه: (أَعَانَهُ) أو: شاركَهُ.

قولُه: (يُشرِكُونَ) حاصلُ المعنى والتَّفسيرِ: يُسَوُّونَ به غيرَهُ، أو: يَعدِلونَ عن الحقِّ الذي هو التَّوحيدُ.

قولُه: (لا تَمِيْدُ) لا تتحرَّكُ، ومنه: المائدةُ.

قولُه: (أَثبَتَ) وكوَّنَ فيها المعادِنَ، وأنبعَ من حَضِيضهَا المنابعَ، وغيرَ ذلكَ مِن المنافِعِ.

قولُه: (والمِلْحِ) بَرزَخاً ومانِعاً حسيًّا أو معنويًّا.

قولُه: (المَكْرُوبَ) قالَ القاضي: اللَّامُ للجِنسِ لا للاستِغراقِ، فلا يلزمُ منه إجابةُ كُلِّ مُضطَرٍّ[٢].

وأقولُ: الظَّاهرُ أنه يُجيبُ كلَّ مضطَرٍّ إذا دعاهُ بصدقِ التجاءٍ ونسيانِ ما سِواهُ.

قولُه: (وعَن غَيْرِهِ) ولذا قالَ القاضِي: ويدفَعُ عن الإنسانِ ما يسوءهُ[٣]. لكنَّ الأولى: «يَرْفَعُ» بدلَ: «يَدْفَعُ».

قولُه: (تَتَّعِظُونَ) أو: تَذكُرونَ آلاءَهُ تَذَكُّراً قليلاً.

قولُه: (والتَّحتانيَّةِ) بصريٌّ وشاميٌّ[٤].

---

(١) عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦٥).

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٥٧).

وفيه إدغام التاء في الذال، وما: زائدة لتقليل القليل.

٦٣ ـ ﴿أم مَن يَهدِيكُم﴾: يُرشدُكم إلى مقاصدكم ﴿في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ﴾ بالنجوم ليلاً وبعلامات الأرض نهارًا، ﴿ومَن يُرسِلُ الرِّياحَ نُشْرًا بَينَ يَدَي رَحمتِهِ﴾ أي: قُدّامَ المطر؟ ﴿أإلـٰهٌ مَعَ اللهِ؟ تَعالَى اللهُ عَمّا يُشرِكُونَ﴾ به غيرَه!

٦٤ ـ ﴿أم مَن يَبدأُ الخَلقَ﴾ في الأرحام من نُطفة، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد الموت، وإن لم تعترفوا بالإعادة لقيام البراهين عليها؟ ﴿ومَن يَرزُقُكُم مِنَ السَّماءِ﴾ بالمطر ﴿والأرضِ﴾ بالنبات؟ ﴿أإلـٰهٌ مَعَ اللهِ﴾؟ أي: لا يفعل شيئًا ممّا ذُكر إلاّ الله، ولا إلـٰهَ معه. ﴿قُلْ﴾ يا مُحمّد: ﴿هاتُوا بُرهانَكُم﴾: حُجّتكم، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ أن معي إلـٰهًا، فعل شيئًا ممّا ذُكر.

وسألوه عن وقت قيام الساعة، فنزل: ٦٥ ـ ﴿قُلْ: لا يَعلَمُ مَن في السَّماواتِ والأرضِ﴾ من الملائكة والناس ﴿الغَيبَ﴾ أي: ما غاب عنهم ﴿إلاّ﴾: لكن ﴿اللهُ﴾ يعلمه، ....

قولُه: (وفِيْهِ) أي: في ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على القراءتَينِ.

قولُه: (إدْغَامُ التَّاءِ) خلافاً لحفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ[1].

قولُه: (لِتَقْلِيلِ القَلِيلِ) والمرادُ بالقِلَّةِ: العدمُ، أو الحقارةُ المزيحةُ للفائدَةِ، إذ فائدةُ التَّذَكُّرِ هي توحيدُ اللهِ تعالى بالعبادةِ، ولا ترتيبَ على تذكُّرِهم تلك الفائدةِ.

قولُه: (نَهَاراً) والظُّلماتُ مشتبِهاتُ الطُّرقِ.

قولُه: (وإنْ لَمْ تَعترِفُوا بالإِعَادَةِ) فهم محجوجونَ.

قولُه: (البَرَاهِيْنِ) أي: الأدلَّةِ الظَّاهرةِ.

قولُه: (أنَّ مَعِيَ) الصَّوابُ: معه.

قولُه: (لكِنَّ) قالَ القاضِي: الاستثناءُ مُنقَطِعٌ، ورفعُ المستثنى على اللُّغةِ التَّميميَّةِ على البدلِ؛ يعني: ﴿مَنْ﴾ للدَّلالةِ على أنه تعالى إن كان ممَّن في السَّمواتِ والأرضِ، ففيهما من يعلَمُ الغيبَ مبالغةً في نفيِهِ عنهُم[2].

فقولُه: «ففيهِمَا مَنْ يَعلَمُ الغيبَ»؛ أي: هو اللهُ، لكن معلومٌ أنه تعالى ليسَ فيهما، فلا يكونُ فيهما من يعلَمُ الغيبَ، فيكونُ الاستثناءُ منقَطِعاً، وحاصِلُ الكلامِ: جعلُهُ سبحانهُ وتعالى مِن جِنسِ من فيهما ادِّعاءً؛ لتحصيلِ هذه الدَّلالةِ مبالغةً، كما في قولِ الشَّاعرِ:

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٨)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٢٢).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦٥).

﴿وما يَشعُرُونَ﴾ أي: الكُفّارُ كغيرهم: ﴿أيَّانَ﴾: وقتَ ﴿يُبعَثُونَ﴾.

٦٦ ـ ﴿بَلِ﴾ بمعنى: هل ﴿أدرَكَ﴾ ـ وزنُ «أكرَمَ». وفي قراءة أُخرى: «ادّارَكَ» بتشديد الدال، وأصله «تَدارَكَ» أُبدلت التاء دالاً وأُدغمت في الدال واجتُلبت همزة الوصل ـ أي: بلغَ ولحق، أو تتابع وتلاحقَ ﴿عِلمُهُم في الآخِرةِ﴾ أي: بها، حتّى سألوا عن وقت مجيئها؟ ليس الأمر كذلك، ....

وبَلــدَةٍ ليــسَ بهَــا أَنِيــسُ إلَّا اليَعافِيــرُ وإلَّا العِيْــسُ[1]

فالاستثناءُ منقطعٌ تحقيقاً، متَّصلٌ تأويلاً.

قولُه: (أيْ: الكُفَّارُ) والظَّاهرُ أن الضَّميرَ لـ﴿مَنْ﴾ وقيل: للكفَرةِ.

قولُه: (وَقْتَ) هو مُركَّبٌ من: (أي) و(آن) بمعنى: وقت؛ أي: مَتى.

قولُه: (﴿بَلْ﴾ بِمَعنَى: هَلْ) هذا غيرُ معروفٍ.

قولُه: (فِي قِرَاءَةٍ) لمكِّيٍّ وبصريٍّ[2].

قولُه: (بَلَغَ ولَحِقَ) أي: انتَهى وتكامَلَ.

قولُه: (أَو تَتَابَعَ) «أو» للتَّنويعِ على اللَّفِّ والنَّشرِ؛ أي: تتابَعَ حتَّى استحكَمَ وانقطَعَ، وقولُ القاضي: وأبو بكرٍ (إدَّرَك) على افتعلَ[3]، روايةٌ شاذَّةٌ عنه[4].

وقوله: حفصٌ، صوابهُ: عاصمٌ[5].

قولُه: (لَيسَ الأَمرُ كَذَلِكَ) يعني: أنَّ (هل) للاستفهامِ الإنكاريِّ على ما قدَّمهُ، والصَّوابُ أنَّ ﴿بَل﴾ للانتقالِ، والهمزةُ مقدَّرةٌ، ويؤيِّدهُ أنه قُرئَ: (أَأَدْرَكَ) بهمزتَينِ، و(آادارَكَ) بألِفٍ بينهما[6]، بل ادَّعى ابنُ مالِكٍ في «شرحِ كافيَّتِهِ»: أنَّها لا تقعُ في التَّنزيلِ إلا للانتقالِ من غَرضٍ إلى آخرَ[7].

---

(١) هكذا سياق البيت في كثير من المصنفات، وقائله: عامر بن الحارث، انظر: «ديوانه» (ص: ٥٢) وسياقه فيه:

الذئـب أو ذو لبـد هموس بسابسـا ليـس بـه أنيـس

إلا اليعافيـر وإلا العيـس وبقــر ملمــع كنــوس

(٢) قول المصنف هذا يوهم أن ﴿ادَّارك﴾ هي قراءة مكي وبصري، والصواب أن (أدرك) هي قراءتهما، وأما ﴿ادَّارك﴾ فهي قراءة الباقين، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٥)، «حجة القراءات» (ص: ٥٣٥).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦٦).

(٤) هي من رواية الأعشى عنه، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٣٣٤).

(٥) انظر المصادر السابقة.

(٦) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٦٢، ٣٦٣).

(٧) انظر: «شرح الكافية الشافية» (٣/ ١٢٣٣).

﴿بَل هُم في شَكٍّ مِنها، بَل هُم مِنها عَمُونَ﴾: مِن عَمَى القلبِ، وهو أبلغ ممّا قبله. والأصل «عَمِيُونَ» استُثقلت الضمّة على الياء، فنُقلت إلى الميم بعد حذف كسرتها.

٦٧ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أيضًا في إنكار البعث: ﴿أإذا كُنّا تُرابًا وآباؤُنا أإنّا لَمُخرَجُونَ﴾ من القبور؟ ٦٨ ـ ﴿لَقَد وُعِدْنا هذا نَحنُ وآباؤُنا مِن قَبلُ. إنْ﴾: ما ﴿هذا إلاّ أساطِيرُ الأوَّلِينَ﴾: جمع أُسطورة بالضمّ، أي: ما سُطر من الكذب. ٦٩ ـ ﴿قُلْ: سِيرُوا في الأرضِ، فانظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المُجرِمِينَ﴾ بإنكارهم، وهي هلاكهم بالعذاب؟ ٧٠ ـ ﴿ولا تَحزَنْ علَيهِم، ولا تَكُنْ في ضَيقٍ مِمّا يَمكُرُونَ﴾ ـ تسلية للنبيّ ـ أي: لا تهتمّ بمكرهم عليك، فأنا ناصرُك عليهم.

٧١ ـ ﴿ويَقُولُونَ: مَتَى هذا الوَعدُ﴾ بالعذاب، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ فيه؟ ٧٢ ـ ﴿قُلْ: عَسَى أن يَكُونَ رَدِفَ﴾: قَرُبَ ﴿لَكُم بَعضُ الَّذِي تَستَعجِلُونَ﴾...

قولُه: (أَبلَغُ) لأنَّ الشَّكَّ: استواءُ العلمِ والجهلِ، بخلافِ العَمى.

قولُه: (فنُقِلَتْ) وحُذفَتِ الياءُ للالتِقاءِ هنا، وهذه الأحوالُ وإنِ اختَصَّت بالمشركِينَ ممَّن في السَّماواتِ والأرضِ نُسبَت إلى جميعِهِم كما يُنسَبُ[1] فعلُ البعضِ إلى الكلِّ.

قولُه: (مِنَ القُبُورِ) أو: من حالِ الفَناءِ، وقرأ نافعٌ والشَّاميُّ: (إنَّنا) بنونينِ، والباقونَ على أصولِهِم[2].

قولُه: (أَيْ: مَا سُطِرَ مِنَ الكَذِبِ) كالأَسمارِ.

قولُه: (بِإِنكَارِهِم) أي: البَعثَ.

قولُه: (وهِيَ) أي: العاقِبَةُ.

قولُه تعالى: (﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيهِمْ﴾) أي: على تكذيبِهِم وإعراضِهِم، أو (على) تعليليَّةٌ.

قولُه: (لا تَهْتَمَّ) وابنُ كَثيرٍ بكسرِ الضَّادِ[3]، وهما لغتانِ؛ بمعنَى: حَرَجِ صَدرٍ.

قولُه: (بالعَذَابِ) أو: العَذابُ الموعودِ.

قولُه: (قَرُبَ) بضمِّ الرَّاءِ لازمٌ، وبكَسرِها متعدٍّ، والظَّاهرُ أن مُرادَهُ الأوَّلُ، وأنَّ اللَّامَ غيرُ زائدةٍ، والفعلُ مضمَّنٌ معنى فِعْلٍ يُعدَّى باللَّامِ، مثلَ: دنا وقرُبَ.

وقيلَ: تَبِعَكُم ولَحِقَكُم، واللَّامُ مزيدةٌ للتَّأكيدِ.

---

(١) في (م): «يسند».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٥).

(٣) انظر المصدر السابق.

فحصل لهم القتل ببدر، وباقي العذاب يأتيهم بعد الموت.

٧٣ ـ ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضلٍ علَى النّاسِ﴾، ومنه تأخير العذاب عن الكُفّار، ﴿ولكِنَّ أكثرَهُم لا يَشكُرُونَ﴾ ـ فالكُفّار لا يشكرون تأخير العذاب لإنكارهم وقوعَه ـ ٧٤ ـ ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَيَعلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُم﴾: تُخفيه ﴿وما يُعلِنُونَ﴾ بألسنتهم، ٧٥ ـ ﴿وما مِن غائبَةٍ في السَّماءِ والأرضِ﴾ ـ الهاء: للمُبالغة ـ أي: شيءٍ في غاية الخفاء على الناس، ﴿إلاّ في كِتابٍ مُبِينٍ﴾: بيِّنٍ، هو اللوحُ المحفوظُ ومكنونُ عِلمه ـ تعالى ـ ومنه تعذيب الكُفّار.

٧٦ ـ ﴿إنَّ هذا القُرآنَ يَقُصُّ علَى بَنِي إسرائيلَ﴾ الموجودين في زمان نبيّنا ﴿أكثَرَ الَّذِي هُم فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾ أي: ببيانِ ما ذُكر..

قولُه: (فحَصَلَ) عَسَى ولعلَّ وسَوفَ في مواعيدِ الملوكِ كالجَزْمِ، وإنَّما يُطلِقونَها إظهاراً لوقارِهِم، وإشعاراً بأنَّ التَّلويحَ منهم كالتَّصريحِ من غَيرِهِم، وعليه جَرَى وعدُ اللهِ ووعيدُهُ.

قولُه: (ومِنْهُ) أي: من فَضلِهِ وإنعامِهِ.

قولُه: (عَنِ الكُفَّارِ) والفُجَّارِ.

قولُه: (بتأْخِيرِ) الظَّاهرُ: تأخيرُ[1]، وأمَّا الفُجَّارُ فلا يشكرونَ؛ لطولِ الأمَلِ وتسويفِ الأجلِ، والاعتمادِ على كَرَمِ الأزلِ، وقِلَّةِ العِلمِ المقتَضِي للعملِ، قال سَهلٌ: مَنْعُهُ فَضْلٌ وعطاءٌ، ولكن لا يَعرِفُ مواضِعَ فَضلِهِ في المنْعِ إلَّا خواصُّ الأولياءِ[2].

وقالَ بعضُهُم[3]: إنَّ من العِصمَةِ أن لا تقدر.

ومِن حكَمِ ابنِ العطاءِ: ربَّما أعطاكَ فمنعَكَ، ورُبَّما منعَكَ فأعطاكَ[4].

قولُه: (للمُبَالَغَةِ) كما في الرَّاوِيةِ.

قولُه: (ومَكْنُونُ) الظَّاهرُ، أو الواوُ بمعنى: أو؛ يعني: العِلْمَ الأزَليَّ.

قولُه: (أيْ: بِبَيَانِ) متعلِّقٌ بـ﴿يَقُصُّ﴾ والباءُ بيانيَّةٌ، والمعنى: يُبيِّنُ بالتَّصريحِ والتَّنصِيصِ.

---

(١) وهو هكذا في النسخ المعتمدة في المتن.

(٢) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١١٧).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٣٢) عن المعتمر.

(٤) انظر: «الحكم العطائية/ مع شرح ابن عباد» (ص: ٢٦٠).

على وجهين، الرافعِ للاختلاف بينهم لو أخذوا به وأسلموا، ٧٧ ـ ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب. ٧٨ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ كغيرهم يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِ﴾ أي: عدله، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الغالب ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يحكم به. فلا يُمكن أحدًا مُخالفتُه كما خالف الكُفّار في الدنيا أنبياءه.

٧٩ ـ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾: ثق به. ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أي: الدِّين البيِّن. فالعاقبة لك بالنصر على الكُفّار. ثمّ ضربَ أمثالاً لهم بالموتى والصُّمّ والعُمي، فقال: ٨٠ ـ ٨١ ـ ﴿إِنَّكَ لا تُسمِعُ الْمَوْتَى، وَلا تُسمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وتسهيلِ الثانية بينها وبين الياء ـ ﴿وَلَّوا مُدبِرِينَ، وما أنتَ بِهادِي العُمْيِ عَن ضَلالَتِهِم. إنْ﴾: ما ﴿تُسمِعُ﴾ سماعَ إفهام وقَبول ﴿إِلاّ مَن يُؤمِنُ بِآياتِنا﴾:......

قولُه: (على وجهِه)(١) كالتَّشْبيهِ والتَّنزيهِ، وعُزَيرٍ والمسيحِ، وأحوالِ الجنَّةِ والنَّارِ.

قولُه: (الرَّافِعِ) صفةٌ للبيانِ.

قولُه: (مِنَ الضَّلالَةِ) وخُصَّ المؤمنونَ لأنَّهم المنتَفِعونَ.

قولُه: (كغَيْرِهِم) أي: بني إسرائيلَ.

قولُه: (أيْ: عَدْلِهِ) إشارةٌ إلى جوابِ ما يقالُ: كيفَ ورَدَ ﴿يقضِي﴾ ولا يقالُ: زيدٌ يضرِبُ بضربِهِ؟ يعني: أنَّ الحُكمَ بمعنى المحكومِ وهو الحقُّ والعدلُ، والباءُ للملابسةِ.

وقيل: بحكمتِهِ، ويدلُّ عليه أنَّهُ قُرِئَ: (بحِكَمِهِ)(٢).

قولُه: (الغَالِبُ) فلا رادَّ لقضائِهِ.

قولُه: (فلا يُمْكِنُ) تفريعٌ على الغالبِ، ويمكنُ تعلُّقهُ بهما.

قولُه: (أَحَداً) الظَّاهرُ: لأحَدٍ.

قولُه: (ثِقْ بِهِ) ولا تبالِ بغيرِهِ.

قولُه: (والعُمْيِ) لعدَمِ انتفاعِهِم بما يُتْلى عليهم.

قولُه: (بتَحقِيقِ الهَمزَتَينِ) للشَّاميِّ والكوفيِّ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ: (ولَا يَسْمَعُ الصُّمُّ)، وحمزةُ:(تَهْدِي العُمْيَ)(٣).

(١) في المتن: «على وجهين» وهذا الذي ذكره الشارح أولى.

(٢) هي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١١٢) ونسبت لجناح بن حبيش.

(٣) انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٢/ ٥٢٩)، و(٤/ ١٤٤١).

القُرآنِ، ﴿فهُم مُسلِمُونَ﴾: مُخلصون بتوحيد الله.

٨٢ ـ ﴿وإذا وَقَعَ القَولُ علَيهِم﴾: حقَّ العذابُ أن يَنزل بهم في جُملة الكُفّار ﴿أخرَجْنا لَهُم دابّةً مِنَ الأرضِ، تُكَلِّمُهُم﴾ أي: تُكلّم الموجودين حين خُروجها بالعربيّة، تقول لهم من جُملة كلامها عنّا: ﴿إنَّ النّاسَ﴾ أي: كُفّارَ مكّة ـ وعلى قراءة فتح همزة «أنّ» تُقدّر الباء بعد «تكلّمهم» ـ ﴿كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يُؤمنون بالقُرآن المُشتمل على البعث والحِساب والعِقاب. وبخُروجها ينقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،.......................................

قولُه: (القُرآنِ) أي: مَن هو في عِلمِ اللهِ كذلك.

قولُه: (مُخلِصُونَ) مَن أسلمَ وجهَهُ للهِ.

قولُه: (حَقَّ العَذَابُ) أي: إذا دنَا وقوعُ مُقتَضى القَولِ، وهو ما وُعِدوا به مِن البَعثِ والعَذابِ.

قولُه: (بِهم) أي: بكفَّارِ بني إسرائيلَ، أو بكفَّارِ مكَّةَ.

قولُه: (أيْ: تُكَلِّمُ) من الكَلامِ، وقيل: من الكَلْمِ؛ إذ قُرِئَ: (تَكْلِمُهُمْ)(١)، ورُوِيَ مرفوعاً: «أنَّهَا تخرجُ ومعهَا عصا موسى وخاتمُ سليمانَ، فتنكتُ بالعصا في مَسجِدِ المؤمنِ ـ وهو بفتحِ الجيمِ: جبهتُهُ ـ نكتةً بيضاءَ فيبيَضُّ وجهُهُ، وبالخاتمِ في أنفِ الكافرِ نكتةً سوداءَ، فيسودُّ وجهُهُ»(٢)، وتفصيلُ أحوالِها مذكورةٌ في «المعالمِ»(٣) وغيرِهِ.

قولُه: (عنَّا) أي: ناقِلةً، وهذا مُصحِّحٌ لقولِها: ﴿بِآيَاتِنَا﴾؛ يعني: تقولُ لهم: قال الله سبحانَهُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ...﴾ الآيَةَ.

قولُه: (وَعَلَى قِرَاءَةٍ) أي: للكوفيِّ(٤).

قولُه: (تُقدَّرُ البَاءُ) وقُرِئَ به(٥)، وقيل: بتقديرِ اللَّامِ، وقيل: لا تقديرَ، وهو علَّةٌ لـ﴿أَخْرَجْنَا﴾.

قولُه: (يَنقَطِعُ) ينبَغِي أن يُحملَ على ما قالَ ابنُ عمرَ: وذلك حينَ لا يُؤمَرُ بمعروفٍ، ولا يُنهى عن منكرٍ(٦).

---

(١) هي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١١٢) ونسبت لابن عباس ومجاهد وغيرهما.

(٢) روى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (٧٩٣٧)، والترمذي (٣١٨٧) وحسنه، وابن ماجه (٤٠٦٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي إسناده علي بن زيد بن جُدْعان ضعيف، وأوس بن خالد مجهول، ولفظ الحديث: تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان، وعصا موسى، فتجلو وجه المؤمن، وتخطم أنف الكافر بالخاتم، حتى إن أهل الخوان ليجتمعون، فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر، ويقول هذا: يا كافر، ويقول هذا: يا مؤمن».

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥١٣).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٧).

(٥) أي: (بأن الناس) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١١٢) ونسبت لابن مسعود.

(٦) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢١٧٨)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٥٧٥)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٩٦)، وابن =

ولا يبقى مُنيب ولا تائب، ولا يُؤمن كافر كما أوحى الله إلى نُوح: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾.

٨٣ ـ ﴿وَ﴾ اذكرْ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾: جماعة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ ـ وهم رُؤساؤهم المتبوعون ـ ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُجمعون بردّ آخرهم إلى أوّلهم ثمّ يُساقون. ٨٤ ـ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ مكانَ الحِساب ﴿قَالَ﴾ تعالى لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم﴾ أنبيائي ﴿بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا﴾ من جِهة تكذيبكم ﴿بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا﴾ ـ فيه «ما» الاستفهاميّة ـ ﴿ذَا﴾: موصولٌ،........................

(ولا يَبقَى مُنِيبٌ ولا تَائِبٌ) كذا في نسخةٍ، والفرقُ بينهما: أنَّ التَّوبةَ رجوعٌ عن المعصيةِ، والإنابةَ عنِ الغفلةِ.

قولُه: (ولا يُؤمِنُ كَافِرٌ) لا دلالةَ على ذلك، بل لفظةُ: (كان) تأباهُ، والمرويُّ عن السَّلفِ في معنى الآيةِ: أنَّ أهلَ مكَّةَ لم يُؤمِنوا بالقرآنِ والبَعثِ[1]، أو: لا يوقِنونَ قبلَ خُروجِها، نعم حاصِلُ ما وردَ في الأحاديثِ: أنَّه يُعرَفُ الكافرُ من المؤمنِ[2].

قولُه: (جَمَاعَةً) يعني: يومَ القيامةِ.

قولُه: (وهُم رُؤَسَاؤُهُم) لا وجهَ للتَّخصِيصِ، ففي «المعالمِ»: ليسَ ﴿مِنْ﴾ هاهنا للتَّبعيضِ؛ لأنَّ جميعَ المكذِّبينَ يُحشَرونَ[3].

فالصَّوابُ: أنَّ ﴿مِنْ﴾ الثَّانيةَ بيانيَّةٌ؛ أي: فوجاً مُكَذِّبينَ، والأولى تبعيضيَّةٌ؛ لأنَّ ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ شاملٌ للمصدِّقينَ والمكذِّبينَ.

قولُه: (بِرَدِّ آخِرِهِم) وهو عبارَةٌ عن كَثرةِ عَدَدِهم وتباعُدِ أطرافِهم.

قولُه: (أَنبِيائِي) هذا التَّقديرُ غيرُ مُحتاجٍ إليه؛ إذ المعنَى: كَذَّبتُم بالآياتِ المتلُوَّةِ والمعجزاتِ المظهَرةِ على يدِ الأنبياءِ، ويلزمُ من تكذيبِ الآياتِ تكذيبُ الأنبياءِ، والباءُ على هذا صلَةُ التَّكذيبِ، وعلى تقديرِه سَبَبيَّةٌ، فيحتاجُ ـ لصحَّةِ المعنى ـ إلى تكلُّفٍ بل تعسُّفٍ.

قولُه: (مِنْ جِهَةِ) الأظهرُ: أنَّ الواوَ للحالِ؛ أي: أكذَّبتُم بها باديَ الرَّأيِ؟

= أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٥٨٥)، والحاكم في «المستدرك» (٨٦٤٢).

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤) وفيه: قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ قال مقاتل: تكلمهم بالعربية فتقول: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ يعني: أهل مكة ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ قال ابن عباس: بالبعث والثواب والعقاب ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ وقيل: تُخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن.

(٢) أي: بوسم الدابة لهم، كما تقدم في الحديث قريباً.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥١٧).

أي: ما الذي ﴿كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ ممّا أُمرتم به؟ ٨٥ ـ ﴿ووَقَعَ القَولُ﴾: حقَّ العذابُ ﴿علَيهِم بِما ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا، ﴿فهُم لا يَنطِقُونَ﴾ إذ لا حُجّة لهم.

٨٦ ـ ﴿أَلَم يَرَوا أَنّا جَعَلْنا﴾: خلقنا ﴿اللَّيلَ لِيَسكُنُوا فِيهِ﴾ كغيرهم، ﴿والنَّهارَ مُبصِرًا﴾ بمعنى: يُبصَرُ فيه ليتصرّفوا فيه؟ ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ﴾: دلالاتٍ على قُدرته ـ تعالى ـ ﴿لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾: خُصّوا بالذكر لانتفاعهم بها في الإيمان بخِلاف الكافرين.

٨٧ ـ ﴿ويَومَ يُنفَخُ في الصُّورِ﴾: القرنِ النفخةَ الأُولى من إسرافيل، ﴿ففَزِعَ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ﴾ أي: خافوا الخوف المُفضيَ إلى الموت كما في آية أُخرى: «فصَعِقَ» ـ والتعبير فيه بالماضي لتحقّق وقوعه ـ ﴿إلاّ مَن شاءَ اللهُ﴾ أي: جِبريلَ ومِيكائيلَ وإسرافيلَ وملَكَ الموت، وعن ابن عبّاس: هم الشُّهداء إذ هم «أحياءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرزَقُونَ»، ﴿وكُلٌّ﴾ ـ تنوينه عوض عن المُضاف إليه ـ أي: كلهم بعد إحيائهم يوم القيامة ﴿أتَوهُ﴾،..

وقيل: للعطفِ؛ أي: جمعتُم بين التَّكذيبِ بها وعدَمِ إلقاءِ الأذهانِ لتحقُّقِها؟

قولُه: (مِمَّا أُمِرْتُم بِهِ) وهو للتَّبكِيتِ؛ إذ لم يفعَلوا غيرَ التَّكذيبِ، فلا يقدرونَ أن يقولوا: فَعَلنا غيرَ ذلك.

قولُه: (حَقَّ) أي: ثبَتَ ووجَبَ، أو: حَلَّ بهم.

قولُه: (العَذَابُ) أي: الموعودُ، ولذا عبَّرَ عنه بالقولِ، وهو كَبُّهُم في النَّارِ بعدَ ذلك.

قولُه: (أَشْرَكُوا) الظَّاهرُ: كذَّبوا؛ لأنَّ الكلامَ فيه مع كونِهِ أعَمَّ.

قولُه: (إِذْ لا حُجَّةَ) أو: باعتذارٍ لشغلِهِم بالعَذابِ.

قولُه: (خَلَقْنَا) لتَعديتِهِ إلى مفعولٍ واحدٍ.

قولُه: (كغَيْرِهِم) يعني: المكذِّبينَ، والظَّاهرُ: أنَّ هذا ابتداءُ كلامٍ، والضَّميرُ راجعٌ إلى النَّاسِ جميعاً.

قولُه: (أيْ: جِبْرِيْلَ...) إلخ، ثمَّ يقبِضُ الله أرواحَهُم.

قولُه: (إذْ هُم ﴿أَحْيَاءٌ﴾) لا يَصِلُ الفزَعُ إليهِم.

قولُه: (بَعْدَ إِحيَائِهِم) بالنَّفخةِ الثَّانيةِ، وفي الحديثِ: «ما بينَ النَّفخَتَينِ أَربعُونَ سنةً»[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وليس فيه التقييد بـ«سنة».

قال البيهقي في «إثبات عذاب القبر» (ص: ١٢٩): وأهل التَّفسيرِ يقولون: هي أربعون سنةً.

وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٥٥٢): وزعم بعض الشراح أنه وقع عند مسلم: «أربعين سنة» ولا وجود لذلك، نعم أحرج =

بصيغة الفعل واسم الفاعل، ﴿داخِرِينَ﴾: صاغرين. والتعبير في الإتيان بالماضي لتحقّق وقوعه.

٨٨ـ ﴿وتَرَى الجِبالَ﴾: تُبصرها وقت النفخة، ﴿تَحسِبُها﴾: تظنّها ﴿جامِدَةً﴾: واقفة مكانها لعِظمها، ﴿وهْيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ﴾: المطرِ إذا ضربتْه الريح، أي: تسيرُ سيرَه حتّى تقع على الأرض، فتستوي بها مبسوسة، ثمّ تصير كالعِهن، ثمّ تصير هباء منثورًا، ﴿صُنْعَ اللهِ﴾ ـ مصدرٌ مُؤكّد لمضمون الجملة قبله أُضيف إلى فاعله بعد حذف عامله ـ أي: صَنَعَ اللهُ ذلك صُنعًا، ﴿الَّذِي أتقَنَ﴾: أحكمَ ﴿كُلَّ شَيءٍ﴾ صنَعَه. ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بما يَفعَلُونَ﴾، بالياء والتاء، أي: أعداؤه من المعصية وأولياؤه من الطاعة.

قولُه: (بصِيغَةِ الفِعْلِ) حمزةُ وحفصٌ[1].

قولُه: (بالمَاضِي) أي: على قِراءَتِهِ.

قولُه: (واقِفَةً) أي: ثابتةً في مَكانِها.

قولُه: (المَطَرِ) هذا تفسيرٌ غَريبٌ لا يُوافقُ اللُّغةَ ولا المنقولَ، ولا المعقولَ الَّذي هو التَّشبيهُ، ووجهُهُ قالَ القاضِي: أي: تَمرُّ مَرَّ السَّحابِ في السُّرعةِ، وذلك لأنَّ الأجرامَ الكِبارَ إذا تحرَّكَتْ في سَمتٍ واحدٍ لا تَكادُ تتبَيَّنُ حَرَكتُها[2].

قولُه: (سَيْرَهُ) في «المعالمِ»: تسيرُ سيرَ السَّحابِ حتَّى تقعَ... إلى آخرِهِ، ثمَّ قالَ: وذلكَ أنَّ كلَّ شيءٍ عظيمٍ وجمعٍ كثيرٍ يَقصرُ عنه البصَرُ لكثرتِهِ وبُعدِ أطرافِهِ، فهو في حُسبانِ النَّاظرِ واقِفٌ، وهو سائرٌ، كذلك سَيرُ الجبالِ لا يُرَى يومَ القيامةِ لعَظَمَتِها، كما أنَّ سيرَ السَّحابِ لا يُرى لعظمتِهِ وهو سائرٌ[3]، انتهى. وهو توضيحٌ لكلامِ القاضِي وتصريحٌ للمقصُودِ[4].

قولُه: (صَنَعَهُ) فيه صُنْعَه؛ إذ يحتَمِلُ المضيَّ والمصدَرَ، وعلى الأوَّلِ صفةُ: ﴿شَيءٍ﴾، وعلى الثَّاني: مضافٌ مُقدَّرٌ.

قولُه: (بالياءِ) الغيبةُ مكِّيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ[5].

= ابن مردويه من طريق سعيد بن الصلت عن الأعمش في هذا الإسناد: «أربعون سنة» وهو شاذٌّ، ومن وجه ضعيف عن ابن عباس قال: (ما بين النفخة والنفخة أربعون سنة).

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٧).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦٩).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥١٩).

(٤) في (ص): «المقصوده».

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٧).

٨٩ ـ ٩٠ ـ ﴿مَن جاءَ بِالحَسَنةِ﴾ أي: «لا إلـٰه إلاّ الله» يوم القيامة ﴿فلَهُ خَيرٌ﴾: ثوابٌ ﴿مِنها﴾ أي بسببها ـ وليس للتفضيل إذ لا فعل خيرٌ منها. وفي آية أُخرى «عَشرُ أمثالِها» ـ ﴿وهُم﴾ أي: الجاؤون بها ﴿مِن فَزَعِ يَومِئذٍ﴾، بالإضافة وكسرِ الميم وفتحِها، و«فَزَعٍ» منوّنًا وفتح الميم، ﴿آمِنُونَ، ومَن جاءَ بِالسَّيِّئةِ﴾ أي: الشِّرك ﴿فكُبَّتْ وُجُوهُهُم في النّارِ﴾ بأن وَلِيَتْها ـ وذُكرَتِ الوجوهُ لأنها موضع الشرف من الحواسّ، فغيرها من باب أَولى ـ ويقال لهم تبكيتًا: ﴿هَل﴾ أي: ما ﴿تُجزَونَ إلاّ﴾ جزاءَ ﴿ما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ من الشِّرك والمعاصي؟

٩١ ـ قل لهم: ﴿إنَّما أُمِرتُ أن أعبُدَ رَبَّ هذِهِ البَلدةِ﴾ أي: مكّةَ، ﴿الّذِي حَرَّمَها﴾ أي: جعلها حَرَمًا آمنًا، لا يُسفك فيها دم إنسان ولا يُظلم فيها أحد، ....

قولُه: (أيْ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ) عليه جمهورُ السَّلفِ[١]، وقيل: كلُّ طاعَةٍ؛ إذ ثبتَ له الشَّريفُ بالخسيسِ، والباقي بالفاني، وسبعُ مئةٍ بواحدٍ، وهو مختارُ القاضي[٢].

قولُه: (وَفِي آيَةٍ أُخْرَى) لكنَّ المرادَ بها مُطلَقُ الطَّاعةِ بلا خِلافٍ.

قولُه: (بالإِضَافَةِ) الحرميَّانِ والبصريُّ والشَّاميُّ[٣].

قولُه: (وفَتحِهَا) يعني: بفتحِ الميمِ مع الإضافةِ: نافعٌ.

قولُه: (و(فَزَعٍ)... إلخ) كوفيٌّ، والمرادُ بالفزعِ هنا: خَوفُ عذابِ يومِ القيامةِ.

قولُه: (أيْ: الشِّركِ) كذا في «المعالمِ»[٤] وعبَّرَ القاضي عنه بـ(قيلَ)[٥].

قولُه: (بأنْ وَلِيَتْهَا) أي: قَرِبَتِ النَّارُ الوجوهَ، أو بالعكسِ، والظَّاهرُ: أُلقوا على وجوهِهِم، فالإسنادُ مجازيٌّ، أو يرادُ بالوجوهِ أنفسُهُم.

قولُه: (أيْ: مَكَّةَ) وتخصِيصُها بهذه الإضَافةِ تشريفٌ لها وتعظيمٌ لشأنِها، ويشيرُ إليه قولُه: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيءٍ﴾.

قولُه: (أي: جَعَلَهَا حَرَماً) وقُرِئَ: (الَّتِي حَرَّمَهَا)[٦].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٠٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٩٣٤).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦٩).

(٣) انظر هذا وما بعده: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٧).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥٢٠).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٦٩).

(٦) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١١٢) ونسبت لابن مسعود.

ولا يُصاد صيدها ولا يُختلى خلاها ـ وذلك من النِّعم على قُريش أهلِها في رفع الله عن بلدهم العذابَ والفتنَ الشائعة في جميع بلاد العرب ـ ﴿ولَهُ﴾ تعالى ﴿كُلُّ شَيءٍ﴾، فهو ربّه وخالقه ومالكه، ﴿وأُمِرتُ أن أكُونَ مِنَ المُسلِمِينَ﴾ للهِ بتوحيده، ٩٢ ـ ﴿وأن أتلُوَ القُرآنَ﴾ عليكم تِلاوة الدعوة إلى الإيمان. ﴿فمَنِ اهتَدَى﴾ له ﴿فإنَّما يَهتَدِي لِنَفسِهِ﴾ أي: لأجلها لأنّ ثواب اهتدائه له، ﴿ومَن ضَلَّ﴾ عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى ﴿فقُلْ﴾ له: ﴿إنَّما أنا مِنَ المُنذِرِينَ﴾: المُخوِّفين، فليس عليَّ إلاّ التبليغ. وهذا قبل الأمر بالقتال.

٩٣ ـ ﴿وقُلِ: الحَمدُ لِلهِ. سَيُرِيكُم آياتِهِ فتَعرِفُونَها﴾. فأراهم الله يوم بدر القتلَ والسبيَ، وضرْبَ الملائكةِ وُجوهَهم وأدبارَهم، وعجّلهم الله إلى النار. ﴿وما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا يَعمَلُونَ﴾، بالياء والتاء، وإنّما يُمهلهم لوقتهم.

قولُه: (ولا يُختَلَى) أي: لا يُقتطَعُ، والخلا ـ مقصورٌ ـ: النَّباتُ ما دامَ رَطْباً، فإذا يبسَ فهو حَشيشٌ[1].

قولُه: (في بِلَادِ العَرَبِ) أي: خُصوصاً.

قولُه: (للهِ) أي: المنقادينَ له، أو: الثَّابتينَ على ملَّةِ الإسلامِ.

قولُه: (عَلَيكُم) أو: أواظِبَ على تلاوتِهِ لكَشفِ الحقائقِ وزيادةِ المراتِبِ، أو: على اتباعِهِ.

قولُه: (لَهُ) الظَّاهرُ: به؛ أي: بالقُرآنِ.

قولُه: (وهَذَا) يعني: باعتِبارِ مفهومِ الحَصرِ.

قولُه: (القَتْلَ) فالمرادُ بـ﴿آيَاتِهِ﴾: القاهِرَةُ.

قولُه: (والتَّاءِ) الخطابُ لنافعٍ وشاميٍّ وحفصٍ[2]، فلا يحسُنُ تعبيرُ القاضي بـ«قُرِئَ»[3]، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١٤/ ٢٤٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٨٨).

(٣) لم أقف على هذا التعبير فيه، انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧٠).

سُورَةُ النَّمْلِ

وتسمَّى أيضاً كما في «الدر المنثور»[1] سورةَ سليمان. وهي مكيةٌ كما روي عن ابن عباس وابن الزبير ﷺ[2]. وذهب بعضُهم إلى مدنيَّةِ بعضِ آياتها كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وعددُ آياتها خمسٌ وتسعون آيةً حجازيٌّ وأربعٌ بصريٌّ وشاميٌّ وثلاثٌ كوفيٌّ.

ووجهُ اتصالها بما قبلها أنها كالتتمة لها، حيث زاد سبحانه فيها ذكر داود وسليمان، وبَسَط فيها قصةَ لوط عليه السلام أبسطَ مما هي قبلُ، وقد وقع فيها: (إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا) إلخ، وذلك كالتفصيل لقوله سبحانه فيما قبل: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3] [الشعراء: ٢١].

وقد اشتمل كلٌّ من السورتين على ذكر القرآن وكونه من الله تعالى، وعلى تسليته ﷺ، إلى غير ذلك.

وروي عن ابن عباس وجابر بن زيد أنَّ «الشعراء» نزلت ثم «طس» ثم «القصص»[4].

---

(١) كذا ذكر، والصواب أن ذلك في الإتقان ١/ ١٧٣.

(٢) أخرجه عن ابن عباس النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٧٤، وعن ابن الزبير ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ١٠٢.

(٣) تناسق الدرر للسيوطي ص٧١.

(٤) المصدر السابق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓ﴾ قرئ بالإمالة وعَدَمِها[1]، والكلامُ فيه كالكلام في نظائره من الفواتح.

﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى السورة المذكورة، وأداةُ البُعْدِ للإشارة إلى بُعْدِ المنزلة في الفضل والشرف، أو إلى الآيات التي تُتلى بعدُ، نظير الإشارة في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢]، أو إلى مطلق الآيات، ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبرُه قولُه تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ والجملةُ مستأنفةٌ، أو خبرٌ لقوله تعالى: ﴿طسٓ﴾.

وإضافة «آيات» إلى «القرآن» لتعظيم شأنها، فإنَّ المراد به: المنزلُ المباركُ، المصدِّق لِمَا بين يديه، الموصوف بالكمالات التي لا نهايةَ لها. ويطلق على كلِّ المنزَلِ عليه ﷺ للإعجاز، وعلى بعضٍ منه، وجوِّز هنا إرادةُ كلٍّ من المعنيين، وإذا أريد الثاني فالمراد بالبعض جميعُ المنزل عند نزول السورة.

وقولُه تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ عطفٌ على «القرآن»، والمرادُ به القرآنُ، وعَطفُه عليه مع اتِّحاده معه في الصدق كعطف إحدى الصفتين على الأخرى كما في قولهم: هذا فِعْلُ السخيِّ والجوادِ الكريم، وتنوينهُ للتفخيم.

و«المبين» إما من أبان المتعدِّي، أي: مُظْهِر ما في تضاعيفه من الحِكَم والأحكام، وأحوالِ القرون الأولى، وأحوالِ الآخرة التي من جملتها الثوابُ والعقابُ، أو سبيلَ الرشدِ[2] والغيِّ، أو نحو ذلك، والمشهور في أمثال هذا الحذف أنه يفيدُ العمومَ. وإما من أبانَ اللازم بمعنى بان، أي: ظاهر الإعجاز، أو ظاهر الصحة للإعجاز. وهو على الاحتمالين صفةٌ مادحةٌ لـ «كتاب»، مؤكِّدةٌ لِمَا أفاده التنوين من الفخامة.

ولمَّا كان في التنكير نوعٌ من الفخامة وفي التعريف نوعٌ آخَرُ، وكان الغرضُ

---

(١) أمال الطاء شعبة وحمزة والكسائي وخلف. التيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ٧٠.

(٢) أي: أو مُظْهِرٌ سبيلَ الرشد، ينظر تفسير أبي السعود ٥/ ٦٣، و٦/ ٢٧١.

الجمعَ للاستيعاب الكامل، عرّف «القرآن» ونكّر «الكتاب»، وعكس في «الحجر»، وقدّم المعرَّف في الموضعين لزيادة التنويه. ولمَّا عقبه سبحانه بالحديث عن الخصوص ها هنا قدَّم كونه قرآناً؛ لأنه أدلُّ على خصوص المنزَلِ على محمد ﷺ للإعجاز، كذا في «الكشف».

وقال بعض الأجلَّة[1]: قدِّم الوصف الأول ها هنا نظراً إلى حال تقدُّم القرآنية[2] على حال الكتابية، وعُكِس هنالك لأنَّ المراد تفخيمُه من حيث اشتمالُه على كمال[3] جنس الكتب الإلهية حتى كأنه كلُّها، ومن حيث كونه ممتازاً عن غيره نسيجَ وحده بديعاً في بابه، والإشارةُ إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالاتِ غيره من الكتب أَدْخَلُ في المدح؛ لئلا يُتَوَهَّم من أول الأمر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصافٍ خاصةٍ به من غير اشتماله على نعوتِ كمالِ سائرِ الكتب الكريمة.

وفي هذا حملُ «أل» على الجنس في «الكتاب»، والظاهر أنها في «القرآن» للعهد، فيختلفُ معناها في الموضعين، وإليه يشير ظاهر كلام «الكشاف» كما قيل[4]. واعتُذِرَ له بأنه إذا رجع المعنيان إلى التفخيم فلا بأس بمثل هذا الاختلاف. وجوّز أن تكون في الموضعين للعهد، وأن تكون فيهما للجنس فتأمَّل.

وقيل: إنَّ اختصاص كلٍّ من الموضعين بما اختصَّ به من تعيين الطريق.

وجوِّز أن يراد بالكتاب اللوحُ المحفوظ، وإبانتهُ أنه خُطَّ فيه ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فهو يبيِّنه للناظرين فيه، وتأخيرهُ هنا عن القرآن باعتبار تعلُّق عِلْمِنا به، وتقديمهُ في «الحِجْر» عليه باعتبارِ الوجود الخارجيِّ؛ فإنَّ القرآن بمعنى المقروء لنا مؤخَّرٌ عن اللوح المحفوظ. ولا يخفى أنَّ إرادة غير اللوح من الكتاب أظهر.

وقال بعضهم[5]: لا يساعد إرادةَ اللوح منه ها هنا إضافةُ الآيات إليه؛ إذ

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٥/ ٦٣ و٦/ ٢٧١-٢٧٢، وينظر ما سلف ١٣/ ٣٧٧-٣٧٨.
(٢) في تفسير أبي السعود: إلى تقدم حال القرآنية.
(٣) في تفسير أبي السعود: على صفات كمال.
(٤) ينظر الكشاف ٢/ ٣٨٥ و٣/ ١٣٤-١٣٥، وينظر ما سلف ١٣/ ٣٧٨.
(٥) هو أبو السعود في تفسيره ٦/ ٢٧٢.

لا عَهْدَ باشتماله على الآيات، ولا وَصْفُه بالهداية والبشارةِ؛ إذ هما باعتبارِ إبانته، فلا بدَّ من اعتبارها بالنسبة إلى الناس الذين من جملتهم المؤمنون، لا إلى الناظرين فيه.

وقرأ ابن أبي عبلة: «وكتابٌ مبينٌ» برفعهما(١)، وخرِّج على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مقامه، أي: وآياتُ كتابٍ، وقيل: يجوزُ عدمُ اعتبار الحذف، والكتابُ لكونه مصدراً في الأصل يجوز الإخبارُ به عن المؤنَّث.

وقيل: رُبَّ شيءٍ يجوزُ تبعاً ولا يجوزُ استقلالاً، ألا ترى أنهم حظروا: جاءتني زيدٌ، وأجازوا: جاءتني هندٌ وزيدٌ؟

وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ في حيِّز النصب على الحالية من «آيات»، على إقامة المصدر مقام الفاعل فيه للمبالغة، كأنها نفسُ الهدى والبشارة، والعاملُ معنى الإشارة، وهو الذي سمَّته النحاة عاملاً معنوياً. وجوَّز أبو البقاء على قراءة الرفع في «كتاب» كونَ الحال منه، ثم قال: ويَضْعفُ أن يكون من المجرور، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في «مبين» على القراءتين(٢).

وجوَّز أبو حيان كونَ النصب على المصدرية، أي: تَهْدي هُدًى وتُبشِّر بُشْرَى، أو الرفع على البدلية من «آيات» - واشتراطُ الكوفيين في إبدال النكرة من المعرفة شرطين: اتحاد اللفظ، وأن تكون النكرةُ موصوفةً نحو قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾ [العلق: ١٥-١٦]، غيرُ صحيح كما في «شرح التسهيل»؛ لشهادة السماع بخلافه - أو على أنه خبرٌ بعد خبرٍ لـ «تلك»، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هي هدىً وبشرى(٣).

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ يحتمل أن يكون قيداً للهدى والبشرى معاً، ومعنى هدايةِ الآيات لهم وهم مهتدون أنها تزيدُهم هدًى؛ قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) الكشاف ٣/ ١٣٥، والبحر ٧/ ٥٣.
(٢) الإملاء ٤/ ١٢٧.
(٣) البحر ٧/ ٥٣. وقوله: واشتراط الكوفيين... إلى قوله: لشهادة السماع بخلافه، نقله المصنف عن حاشية الشهاب ٧/ ٣٢.

﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وأما معنى تبشيرِها إياهم فظاهرٌ؛ لأنها تبشِّرهم برحمةٍ من الله تعالى ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم، كذا قيل، وفي «الحواشي الشهابية»: أنَّ الهدى على هذا الاحتمال إمَّا بمعنى الاهتداء، أو على ظاهره، وتخصيصُ المؤمنين لأنهم المنتفعون به وإن كانت هدايتُها عامةً، وجَعْلُ المؤمنين بمعنى الصائرين للإيمان تكلُّفٌ، كحَمْلِ هداهم على زيادته[1].

ويحتمل أن يكون قيداً للبشرى فقط، ويبقى الهدى على العموم وهو بمعنى الدلالة والإرشاد، أي: هدًى لجميع المكلَّفين وبشرى للمؤمنين.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ صفةٌ مادحةٌ للمؤمنين، وكنى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة عن عمل الصالحات مطلقاً، وخُصَّا لأنهما على ما قيل أُمَّا العبادةِ البدنية والمالية. والظاهرُ أنه حمل الزكاة على الزكاة المفروضة.

وتعقَّب بأنَّ السورة مكيةٌ، والزكاةُ إنما فُرضت بالمدينة.

وقيل: كان في مكة زكاةٌ مفروضةٌ، إلا أنها لم تكن كالزكاة المفروضة بالمدينة، فلْتُحْمَل في الآية عليها.

وقيل: الزكاةُ هنا بمعنى الطهارةِ من النقائص وملازمةِ مكارم الأخلاق، وهو خلافُ المشهور في الزكاة المقرونةِ بالصلاة، ويُبعِدهُ تعليقُ الإيتاء بها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون معطوفاً على جملة الصلة، ويَحْتَمِلُ أن يكون في موضع الحال من ضمير الموصول.

ويحتمل أن يكون استئنافاً جيء به للقصد إلى تأكيد ما وُصِفَ المؤمنون به، من حيث إنَّ الإيقان بالآخرة يستلزمُ الخوفَ المستلزمَ لتحمُّل مشاقِّ التكليف، فلا بدَّ من إقامة الصلاة وإيتاءِ الزكاة، وقد أقيم الضمير فيه مقام اسم الإشارة المفيدِ لاكتساب الخَلَاقةِ بالحكم باعتبار السوابق، فكأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٢.

وسمَّى الزمخشريُّ هذا الاستئنافَ اعتراضاً، وكونُه لا يكون إلَّا بين شيئين يتعلَّقُ أحدهما بالآخر ـ كالمبتدأ والخبر ـ غيرُ مسلَّمٍ عنده. واختار هذا الاحتمالَ فقال: إنه الوجه، ويدلُّ عليه أنه عَقَدَ الكلامَ جملةً ابتدائيةً، وكرَّر فيها المبتدأ الذي هو «هم»، حتى صار معناها: وما يوقنُ بالآخرة حقَّ الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعملِ الصالح، لأنَّ خوف العاقبة يَحْمِلُهم على تحمُّل المشاقِّ[1]. انتهى.

وأنكر ابن المنير إفادةَ نحوِ هذا التركيب الاختصاصَ، وادَّعى أنَّ تكرار الضمير للتَّطْرِيةِ؛ لمكان الفَصْلِ بين الضميرين بالجارِّ والمجرور[2].

والحقُّ أنه يفيد ذلك كما صرَّحوا به في نحو: هو عرفَ، وكذا يفيدُ التأكيد لِمَا فيه من تكرار الضمير.

وزعم أبو حيان أنَّ فيما ذكره الزمخشريُّ دسيسةَ الاعتزال[3]. ولا يخفَى أنه ليس في كلامه أكثر من الإشارة إلى أنَّ المؤمن العاصيَ لم يُوْقِنْ بالآخرة حقَّ الإيقان، ولعل جَعْلَ ذلك دسيسةً مبنيٌّ على أنه بنى ذلك على مذهبه في أصحاب الكبائر وقوله فيهم بالمنزلة بين المنزلتين. وأنت تعلم أنَّ القول بما اختاره في الآية لا يتوقَّفُ على القول المذكور.

وتغييرُ النظم الكريم على الوجهين الأوَّلين لِمَا لا يخفى، وتقديمُ «بالآخرة» في جميع الأوجُه لرعاية الفاصلة، وجوِّز أن يكون للحصر الإضافي كما في «الحواشي الشهابية»[4].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ بيانٌ لأحوال الكفرة بعد أحوال المؤمنين، أي: لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الأعمال الصالحة والعقاب على الأعمال السيئة، حَسْبَما ينطقُ به القرآن.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٥-١٣٦.
(٢) الانتصاف ٣/ ١٣٥.
(٣) البحر ٧/ ٥٣.
(٤) ٧/ ٣٢.

﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحةَ بما رَكَّبنا فيهم من الشهوات والأماني، حتى رأوها حسنةً.

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ يتحيَّرون ويتردَّدون [على التجدُّد][1] والاستمرارِ في الاشتغال بها والانهماكِ فيها من غير ملاحظةٍ لِمَا يتبعها. والفاءُ لترتيب المسبَّب على السبب.

ونسبةُ التزيين إليه عزَّ وجلَّ عند الجماعة حقيقةٌ وكذا التزيينُ نفسُه، وذهب الزمخشريُّ إلى أنَّ التزيين إمَّا مستعارٌ للتمتيع بطول العمر وسعةِ الرزق، وإما حقيقةٌ وإسنادهُ إليه سبحانه وتعالى مجازٌ وهو حقيقةٌ للشيطان كما في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] والمصحِّح لهذا المجاز إمهالُه تعالى الشيطانَ وتخليتُه حتى يزيِّن لهم[2]. والداعي له إلى أحد الأمرين إيجابُ رعاية الأصلح عليه عزَّ وجلَّ.

ونسب إلى الحسن أنَّ المراد بالأعمال: الأعمالُ الحسنةُ[3]، وتزيينُها بيانُ حُسْنِها في أنفسها حالاً، واستتباعِها لفنون المنافع مآلاً، أي: زينَّا لهم الأعمالَ الحسنة فهم يتردَّدون في الضلال والإعراض عنها. والفاء عليه لترتيب ضدِّ المسبَّب على السبب، كما في قولك: وعظتُه فلم يتَّعظ. وفيه إيذانٌ بكمال عتوِّهم ومكابرتهم وتعكيسِهم الأمورَ.

وتعقِّب[4] هذا القولُ بأنَّ التزيين قد ورد غالباً في غير الخير، نحو قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤] ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢] ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٧] إلخ، ووروده في الخير قليلٌ نحو قوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] ويُبْعِدُ حَمْلَ الأعمال على الأعمال الحسنة إضافتُها إلى ضميرهم وهم لم يعملوا حسنةً أصلاً. وكونُ إضافتها إلى ذلك باعتبار أمرِهم بها، وإيجابها عليهم، لا يدفعُ البُعْدَ.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٧٢، والكلام منه.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٦.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٣٦.

(٤) المتعقب هو ابن المنير في الانتصاف ٣/ ١٣٦.

وذكر الطيبيُّ أنه يؤيِّد ما ذُكر أولاً أنَّ وزانَ فاتحةِ هذه السورة إلى ها هنا وزانُ فاتحةِ «البقرة»، فقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:٦] وقولُه سبحانه: (زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ) كقوله جل وعلا: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧].

وقد سبق بيانُ وجهِ دلالة ذلك على مذهب الجماعة هناك، وأنَّ التركيب من باب تحقيق الخبر، وأنَّ المعنى استمرارُهم على الكفر، وأنهم بحيث لا يُتوقَّع منهم الإيمانُ ساعةً فساعةً أمارة لرَقْمِ الشقاء عليهم في الأزل والختم على قلوبهم، وأنه تعالى زيَّن لهم سوءَ أعمالهم فهم لذلك في تيهِ الضلال يتردَّدون، وفي بيداء الكفر يعمهونَ. ودلَّ على هذا التأويلِ إيقاعُ لَفْظِ المضارع في صلة الموصول والماضي في خبره، وترتيبُ قوله تعالى: (فَهُمْ يَعْمَهُونَ) بالفاء عليه، واختصاصُ الخطاب بما يدلُّ على الكبرياء والجبروت من باب تحقيق الخبر، نحو قول الشاعر:

إنَّ التي ضربَتْ بيتاً مهاجرةً بكوفةِ الجند غالتْ ودَّها غولُ[(١)]

وفي الأخبار الصحيحة ما ينصرُ هذا التأويلَ أيضاً[(٢)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين الموصوفين بالكفر والعَمَهِ، وهو مبتدأٌ خبرُه ﴿ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، يحتملُ أن يكون المراد: لهم ذلك في الدنيا، بأنْ يُقتلوا أو يؤسَروا أو تُشدَّد عليهم سكراتُ الموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾.

ويحتمل أن يكون المرادُ: لهم ذلك في الدارين، وهو الذي استظهره أبو حيان[(٣)]، ويكون قولُه تعالى: (هُمُ) إلخ لبيانِ أنَّ ما في الآخرة أعظمُ العذابين، بناءً على أنَّ الأخسرين أفعلُ تفضيل، والتفضيلُ باعتبار حاليهم في الدارين، أي:

(١) البيت لعبدة بن الطبيب، وسلف عند تفسير الآية (٩١) من سورة آل عمران.
(٢) قال أبو السعود في تفسيره ٦/ ٢٧٢: «زينَّا لهم أعمالهم» القبيحة، حيث جعلناها مشتهاةً للطبع محبوبة للنفس، كما ينبئ عنه قوله ﷺ: «حفَّت النار بالشهوات». اهـ. والحديث أخرجه أحمد (٧٥٣٠)، والبخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٣) عن أبي هريرة ﷺ.
(٣) في البحر ٧/ ٥٤.

هم في الآخرة أخسرُ منهم في الدنيا لا غيرُهم، كما يدُّل عليه تعريف الجزأين، على معنى أنَّ خسرانهم في الآخرة أعظمُ من خسرانهم في الدنيا، من حيث إنَّ عذابهم في الآخرة غيرُ منقطعٍ أصلاً وعذابهم في الدنيا منقطعٌ، ولا كذلك غيرُهم من عصاة المؤمنين؛ لأنَّ خسرانهم في الآخرة ليس أعظمَ من خسرانهم في الدنيا من هذه الحيثية، فإنَّ عذابهم في الآخرة ينقطعُ ويعقبه نعيمُ الأبد، حتى يكادوا لا يَخْطُرُ ببالهم أنهم عذِّبوا، كذا قيل.

وقال بعضهم: إنَّ التفضيل باعتبار ما في الآخرة، أي: هم في الآخرة أشدُّ الناس خسراناً لا غيرُهم؛ لحرمانهم الثوابَ واستمرارِهم في العقاب، بخلافِ عصاة المؤمنين، ويلزمُ من ذلك كونُ عذابهم في الآخرة أعظمَ من عذابهم في الدنيا، ويكفي هذا في البيان.

وقال الكرمانيُّ: إنَّ أفعل هنا للمبالغة لا للشركة؛ قال أبو حيان[1]: كأنه يقول: ليس للمؤمن خسرانٌ البتةَ حتى يَشْركَه فيه الكافر ويَزيدَ عليه، ولم يتفطَّنْ لكون المراد أنَّ خسران الكافر في الآخرة أشدُّ من خسرانه في الدنيا، فالاشتراكُ الذي يدلُّ عليه أفعل إنما هو بَيْنَ ما في الآخرة وما في الدنيا. اهـ كلامهُ. وكأنه يسلِّمُ أنْ ليس للمؤمن خسرانٌ البتةَ، وفيه بحثٌ لا يخفى.

وتقديم «في الآخرة» إما للفاصلة أو للحصر.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيقَ بعد بيانِ بعض شؤون القرآن الكريم تمهيداً لِمَا يعقبُه من الأقاصيص، وتصديرُه بحَرْفي التأكيد لإبراز كمالِ العنايةِ بمضمونه، وبُني الفعلُ للمفعول وحُذِفَ الفاعلُ وهو جبريلُ عليه السلام؛ للدلالة عليه في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. ولقي المخفَّفُ يتعدَّى لواحد، والمضاعَفُ يتعدَّى لاثنين، وهما هنا نائبُ الفاعل و«القرآن»، والمراد: وإنَّك لتُعْطَى القرآنَ تُلقَّنُه ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ أي: أيِّ حكيم وأيِّ عليم، وفي تفخيمهما تفخيمٌ لشأن القرآن، وتنصيصٌ على علوِّ طبقته عليه الصلاة والسلام في معرفته والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق.

---

(١) في البحر ٧/ ٥٤، وعنه نقل المصنف قول الكرماني.

والحكمةُ ـ كما قال الراغب ـ من الله عزَّ وجل معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفةُ الموجودات وفعلُ الخيرات[١]. وجمع بينها وبين العلم مع أنه داخلٌ في معناها لغةً كما سمعتَ؛ لعمومه ـ إذ هو يتعلَّق بالمعدومات ويكون بلا عملٍ ـ ودلالةِ الحكمة على إحكام العمل وإتقانه، وللإشعار بأنَّ ما في القرآن من العلوم منها ما هو حكمةٌ كالشرائع، ومنها ما هو ليس كذلك كالقصص والأخبار الغيبية.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ منصوبٌ على المفعولية بمضمَرٍ خُوطبَ به النبيُّ ﷺ، وأُمر بتلاوة بعضٍ من القرآن الذي تلقَّاه ﷺ من لدنه عز وجلَّ تقريراً لما قبله وتحقيقاً له، أي: اذكر لهم وقتَ قولِ موسى عليه السلام لأهله.

وجوِّز أن تكون «إذ» ظرفاً لـ «عليم». وتعقَّبه في «البحر» بأنَّ ذلك ليس بواضحٍ؛ إذ يصيرُ الوصفُ مقيَّداً بالمعمول[٢].

وقال في «الكشف»: ما يتوهَّم من دَخل التقييد بوقتٍ معَّينٍ مندفعٌ؛ إذ ليس مفهوماً معتبراً عند المعتبِر، ولأنه لمَّا كان تمهيداً لقصةٍ حَسُنَ أن يكون قيداً لها، كأنه قيل: ما أَعْلَمَه حيث فُعِلَ بموسى عليه السلام ما فُعِلَ، ولمَّا كان ذلك من دلائل العلم والحكمة على الإطلاق لم يضرَّ التقييدُ، بل نَفَعَ لرجوعه بالحقيقة إلى نوعٍ من التعليل والتذكير. اهـ.

ولا يخفى أنَّ الظاهر مع هذا هو الوجهُ الأول.

ثم إنَّ قولَ موسى عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ كان في أثناء سيره خارجاً من مدينَ عند وادي طُوى، وكان عليه السلام قد حاد عن الطريق في ليلةٍ باردةٍ مظلمةٍ، فَقَدحَ فأَصْلَدَ زَنْدَه، فبدا له من جانب الطور نارٌ.

والمراد بالخبر الذي يأتيهم به من جهة النار الخبرُ عن حال الطريق؛ لأنَّ مَن يذهبُ لضوءِ نارٍ على الطريق يكون كذلك. ولم يجرِّدِ الفعلُ عن السين إما للدلالة على بُعْدِ مسافة النار في الجملة حتى لا يستوحشوا إن أبطأ عليه السلام عنهم، أو

(١) مفردات الراغب (حكم).
(٢) البحر ٧/ ٥٤.

لتأكيد الوعد بالإتيان؛ فإنها كما ذكره الزمخشريُّ تدخل في الوعد لتأكيده وبيانِ أنه كائنٌ لا محالةَ وإنْ تأخَّر[١].

وما قيل من أنَّ السين للدلالة على تقريب المدَّة دفعاً للاستيحاش، إنما ينفعُ ـ على ما قيل ـ في اختياره على «سوف»، دون التجريد الذي يتبادرُ من الفعل معه الحالُ الذي هو أتمُّ في دفع الاستيحاش. ولعل الأَوْلَى اعتبارُ كونه للتأكيد.

لا يقال: إنه عليه السلام لم يتكلَّم بالعربية، وما ذُكر من مباحثها؛ لأنَّا نقول: ما المانع من أن يكون في غير اللغة العربية ما يؤدِّي مؤدَّاها، بل حكايةُ القول عنه عليه السلام بهذه الألفاظ يقتضي أنه تكلَّم في لغته بما يؤدِّي ذلك ولابدَّ.

وجمع الضمير ـ إنْ صحَّ أنه لم يكن معه عليه السلام غيرُ امرأته ـ للتعظيم، وهو الوجهُ في تسمية الله تعالى شأنُه امرأةَ موسى عليه السلام بالأهل مع أنهم[٢] جماعةُ الأتباع.

﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي: بشعلةِ نارٍ مقبوسة، أي: مأخوذةٍ من أصلها، فـ «قبسٍ» صفةُ «شهاب» أو بدلٌ منه، وهذه قراءةُ الكوفيين ويعقوب، وقرأ باقي السبعة والحسن: «بشهابِ قبسٍ» بالإضافة[٣]، واختارها أبو الحسن[٤]، وهي إضافةٌ بيانيةٌ لِمَا بينهما من العموم والخصوص، كما في: ثوبِ خزٍّ، فإن الشهاب يكون قَبساً وغيرَ قبس.

والعِدَتَان على سبيل الظنِّ، ولذلك عبَّر عنهما بصيغة الترجِّي في سورة طه، فلا تَدَافُعَ بين ما وقع هنا وما وقع هناك، والترديدُ للدلالة على أنه عليه السلام إن لم يظفر بهما لم يَعْدَمْ أحدهما، بناءً على ظاهر الأمر، وثقةً بسنَّةِ الله عز وجل أنه لا يكادُ يجمع حرمانين على عبده.

---

(١) الكشاف ١/ ٣١٥ عند تفسير الآية (١٣٧) من سورة البقرة، و٢/ ٢٠٢ و٢١٠ عند تفسير الآية (٧١) والآية(٩٩) من سورة التوبة، وينظر حاشية الشهاب ٧/ ٣٣.

(٢) في (م): أنه.

(٣) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧.

(٤) هو الأخفش، وكلامه في الحجة للفارسي ٥/ ٣٧٧.

وقيل: يجوز أن يقال: الترديدُ لأنَّ احتياجه عليه السلام إلى أحدهما لا لهما؛ لأنه كان في حالِ الترحال وقد ضلَّ عن الطريق، فمقصودهُ أن يجد أحداً يهدي إلى الطريق فيستمرَّ في سفره، فإنْ لم يجده يقتبسُ ناراً ويوقدها ويدفعُ ضرر البرد في الإقامة.

وتعقِّب بأنه قد ورد في القصة أنه عليه السلام كان قد ولد له عند الطور ابنٌ في ليلةٍ شاتيةٍ وظلمةٍ مثلجةٍ، وقد ضلَّ الطريق وتفرَّقتْ ماشيتهُ، فرأى النار فقال لأهله ما قال، وهو يدلُّ على احتياجه لهما معاً لكنه تحرَّى عليه السلام الصدق فأتى بـ «أو».

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ⑦﴾ أي: رجاءَ أو لأَجلِ أنْ تستدفئوا بها، والصِّلاءُ بكسرِ الصاد والمدِّ، ويُفتَح بالقصر: الدنوُّ من النار لتسخين البدن، وهو الدفء، ويطلق على النار نفسِها، أو هو بالكسر الدفءُ، وبالفتح النار.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي: النارَ التي قال فيها: «إنِّي آنستُ ناراً». وقيل: الضمير للشجرة، وهو كما ترى، وما ظنَّه داعياً ليس بداعٍ لِمَا أَشَرْنا إليه.

﴿نُودِىَ﴾ أي: موسى عليه السلام من جانب الطور: ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ معناه: أي بورك، على أنَّ «أنْ» مفسِّرةٌ لِمَا في النداء من معنى القول دون حروفه.

وجوِّز أن تكون «أنْ» المخففةَ من الثقيلة واسمُها ضميرُ الشأن. ومَنَعه بعضُهم لعدم الفصل بينها وبين الفعل بـ «قد» أو السين أو «سوف» أو حرف النفي، وهو مما لابدَّ منه إذا كانت مخفَّفةً؛ لِمَا في «الحجة» لأبي عليٍّ الفارسيِّ أنها لمَّا كانت لا يليها إلا الأسماءُ استقبحوا أن يليها الفعلُ من غير فاصلٍ[1].

وأجيب بأنَّ ما ذكر ليس على إطلاقه، فقد صرَّحوا بعدم اشتراط الفصل في مواضعَ، منها ما يكون الفعلُ فيه دعاءً، فلعل مَن جوَّز كونها المخفَّفة ها هنا جَعَل «بورك» دعاءً، على أنه يجوز أن يدَّعي أنَّ الفصل بإحدى المذكورات في غير ما استثني أغلبيٌّ لقوله:

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٤.

عـلـمـوا أنْ يـؤمَّـلـون فـجـادوا   قـبـل أن يُـسـألـوا بـأعـظـم سـؤل[١]

وجوّز أن تكون المصدريةَ الناصبة للأفعال، و«بورك» حينئذٍ إمَّا خبرٌ أو إنشاء للدعاء.

وادَّعى الرضيُّ أنَّ «بورك» إذا جُعِلَ دعاءً ف «أنْ» مفسِّرةٌ لا غير؛ لأنَّ المخفَّفةَ لا يقع بعدها فعلٌ إنشائيٌّ إجماعاً، وكذا المصدرية، وهو مخالفٌ لِمَا ذكره النحاة، ودعوى الإجماع ليست بصحيحةٍ، والقولُ بأنه يفوتُ معنى الطلب بعد التأويل بالمصدر قد تقدَّم ما فيه[٢].

وفي «الكشف» يَمنع عن جَعْلِها مصدريةً عدمُ سدادِ المعنى؛ لأنَّ «بورك» إذ ذاك ليس يصلحُ بشارةً، وقد قالوا: إنَّ تصدير الخطاب بذلك بشارةٌ لموسى عليه السلام أنه قد قُضي له أمرٌ عظيم تنتشرُ منه في أرض الشام كلِّها البركةُ، وهذا بخلافِ ما إذا كان «بورك» تفسيراً للشأن. اهـ. وفيه نظر.

وعلى الوجهين الكلامُ على حذف حرف الجرِّ، أي: نودي بأنْ.. إلخ، والجارُّ والمجرور متعلّقٌ بما عنده وليس نائبَ الفاعل، بل نائبُ الفاعل ضميرُ موسى عليه السلام. وقيل: هو نائبُ الفاعل ولا ضمير.

وقال بعضهم في الوجه الأول أيضاً: إنَّ الضمير القائم مقام الفاعل ليس لموسى عليه السلام، بل هو لمصدرِ الفعل، أي: نودي هو، أي: النداء، وفسَّر النداء بما بعده.

والأظهرُ في الضمير رجوعُه لموسى، وفي «أنْ» أنها مفسِّرةٌ، وفي «بورك» أنه خبرٌ، وهو من البركة وقد تقدَّم معناها[٣]. وقيل هنا: المعنى: قدِّس وطهِّر وزِيدَ خيراً.

﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ذهب جماعةٌ إلى أنَّ في الكلام مضافاً مقدَّراً في موضعين، أي: مَن في مكان النار ومَن حول مكانها، قالوا: ومكانُها البقعة التي

---

(١) سلف ١٣/ ٢٤٠.

(٢) عند تفسير الآية (١٩٣) من سورة آل عمران.

(٣) ١١/ ٤٩٢-٤٩٣.

حصلت فيها، وهي البقعةُ المباركةُ المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠] وتدلُّ على ذلك قراءةُ أُبيٍّ: «تباركت الأرضُ ومَن حولها»[١].

واستُظْهِرَ عمومُ «من» لكلِّ مَن في ذلك الوادي وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعثَ الأنبياء عليهم السلام وكِفَاتَهم[٢] أحياءً وأمواتاً، ولا سيما تلك البقعة التي كلَّم الله تعالى موسى عليه السلام فيها.

وقيل: «مَن في النار» موسى عليه السلام، و«مَن حولها» الملائكةُ الحاضرون عليهم السلام، وأيِّد بقراءة أُبيٍّ فيما نَقَل أبو عمرو الداني، وابنُ عباس ومجاهدٌ وعكرمةُ: «ومن حولها من الملائكة»[٣]، وهي عند كثيرٍ تفسيرٌ لا قراءةٌ لمخالفتها سوادَ المصحف المجمَع عليه.

وقيل: الأول الملائكة، والثاني موسى عليهم السلام.

واستغنى بعضهم عن تقدير المضاف بجَعْلِ الظرفية مجازاً عن القرب التام، وذهب إلى القول الثاني في المراد بالموصولَين. وأيّاً ما كان فالمرادُ بذلك بشارةُ موسى عليه السلام.

والمراد بقوله تعالى على ما قيل: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾ تعجيبٌ له عليه السلام من ذلك، وإيذانٌ بأنَّ ذلك مُريدُه ومكوِّنُه ربُّ العالمين، تنبيهاً على أنَّ الكائن من جلائِل الأمور وعظائم الشؤون، ومن أحكام تربيته تعالى للعالمين. أو خبرٌ له عليه السلام بتنزيهه سبحانه؛ لئلا يُتوَهَّم من سماع كلامه تعالى التشبيهُ بما للبشر. أو طلبٌ منه عليه السلام لذلك.

وجوِّز أن يكون تعجُّباً صادراً منه عليه السلام بتقدير القول، أي: وقال: سبحان الله.. إلخ.

وقال السديُّ: هو من كلام موسى عليه السلام، قاله لَمَّا سمع النداء من

---

(١) المحتسب ٢/ ١٣٤.

(٢) أي: مقرَّهم. حاشية الشهاب ٧/ ٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠، والبحر ٧/ ٥٦.

الشجرة تنزيهاً لله تعالى عن سمات المُحْدَثين. وكأنه على تقدير القول أيضاً، وجعل المقدَّر عطفاً على «نودي».

وقال ابن شجرة[١]: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: وبورك مَن سبَّح الله تعالى ربَّ العالمين. وهذا بعيدٌ من دلالة اللفظ جدًّا.

وقيل: هو خطابٌ لنبيِّنا ﷺ مرادٌ به التنزيهُ، وجُعِلَ معترضاً بين ما تقدَّم وقولِه تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ فإنه متَّصلٌ معنًى بذلك.

والضمير للشأن، وقولهُ سبحانهُ: «أنا الله» مبتدأٌ وخبر، و«العزيزُ الحكيمُ» نعتان للاسم الجليل ممهِّدتان لِمَا أريد إظهارهُ على يده من المعجزة، أي: أنا الله القويُّ القادرُ على ما لا تنالُه الأوهام من الأمور العظام، التي من جملتها أمرُ العصا واليد، الفاعلُ كلَّ ما أفعلهُ بحكمةٍ بالغةٍ وتدبيرٍ رصين، والجملة خبر «إنَّ» مفسِّرةٌ لضمير الشأن.

وجوِّز أن يكون الضمير راجعاً إلى ما دلَّ عليه الكلام، وهو المكلِّم المنادي، و«أنا» خبر، أي: إنَّ مكلِّمك المنادي لك أنا، والاسمُ الجليل عطفُ بيانٍ لـ «أنا»، وتجوزُ البدليةُ عند مَن جوَّز إبدالَ الظاهر من ضمير المتكلِّم بدلَ كلٍّ، ويجوز أن يكون «أنا» توكيداً للضمير، و«الله» الخبر.

وتعقَّب أبو حيان إرجاعَ الضمير للمكلِّم المنادي بأنه إذا حُذف الفاعل وبُني فعلُه للمفعول لا يجوزُ عَوْدُ ضمير على ذلك المحذوف؛ لأنه نقضٌ للغرض من حذفه، والعزمِ على أن لا يكون محدَّثاً عنه[٢].

وفيه أنه لم يقل أحدٌ إنه عائدٌ على الفاعل المحذوف، بل على ما دلَّ عليه الكلام، ولو سلِّم فلا امتناعَ في ذلك إذا كان في جملةٍ أخرى[٣]. وأيضاً قولُه: والعزمِ على أن لا يكون محدَّثاً عنه، غيرُ صحيح، لأنه قد يكون محدَّثاً عنه ويحذفُ

---

(١) كما في البحر ٧/ ٥٦، والكلام منه.

(٢) البحر ٧/ ٥٦.

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ ثم قال: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الذي عفا، وهو ولي الدم. حاشية الشهاب ٧/ ٣٥، والكلام منه.

للعلم به وعدمِ الحاجة إلى ذكره. ثم إنَّ الحمل مفيدٌ من غير رؤية، لأنه عليه السلام عَلِمَه سبحانه عِلْمَ اليقين بما وقر في قلبه، فكأنه رآه عزَّ وجلَّ.

هذا، وفي قوله تعالى: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ إلخ أقوالٌ أُخَرُ:

الأول: أنَّ المراد بمن في النار نورُ الله تعالى، وبمن حولها الملائكة عليهم السلام، وروي ذلك عن قتادة والزجَّاج[1].

والثاني: أنَّ المراد بمن في النار الشجرةُ التي جعلها الله تعالى محلًّا للكلام، وبمن حولها الملائكةُ عليهم السلام أيضاً، ونقل هذا عن الجبائيِّ. وفي ما ذكر إطلاق «مَن» على غير العالِم.

والثالث: ما أخرجه ابن جَريرٍ وابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه عن ابن عباس، قال في قوله تعالى: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: يعني تبارَكَ وتعالى نفسَه، كان نورُ ربِّ العالمين في الشجرة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني الملائكة عليهم السلام[2]. واشتهر عنه كونُ المراد بمن في النار نفسَه تعالى، وهو مرويٌّ أيضاً عن الحسن وابن جبير وغيرهما، كما في «البحر»[3].

وتعقَّب ذلك الإمامُ بأنَّا نقطعُ بأنَّ هذه الرواية عن ابن عباس موضوعةٌ مختلَقةٌ[4].

وقال أبو حيان: إذا ثبت ذلك عن ابن عباس ومَن ذُكر أُوِّلَ على حذفٍ، أي: بورك مَن قدرتُه وسلطانُه في النار[5].

وذهب الشيخ إبراهيم الكورانيُّ في رسالته: «تنبيهُ العقول على تنزيهِ الصوفية عن اعتقاد التجسيم والعينية والاتحادِ والحلول» إلى صحة الخبر عن الحبر ﷺ، وعَدَم احتياجه إلى التأويل المذكور، فإنَّ الذي دعا المؤوِّلين أو الحاكِمينَ بالوضع

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٠٩.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٠ و١٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٤٥ و٢٨٤٦-٢٨٤٧، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٠٢.

(٣) ٧/ ٥٥.

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٢.

(٥) البحر ٧/ ٥٦.

إلى التأويل أو الحُكم بالوضع ظَنُّ دلالَتِه على الحلول المستحيل عليه تعالى، وليس كذلك بل ما يدلُّ عليه هو ظهورُه سبحانه في النار وتجلِّيه فيها، وليس ذلك من الحلول في شيء؛ فإنَّ كون الشيء مُجَلًّى لشيءٍ ليس كونه محلًّا له، فإنَّ الظاهر في المرآة مثلاً خارجٌ عن المرآة بذاته قطعاً، بخلاف الحالِّ في محلٍّ فإنه حاصلٌ فيه، ثم إنَّ تجلِّيَه تعالى وظهورَه في المَظاهِرِ يجامع التنزيه.

ومعنى الآية عنده: فلمَّا جاءها نودي أن بورك، أي: قُدِّسَ ـ أو نحو ذلك ـ من تجلَّى وظهر في صورة النار لما اقتضته الحكمةُ لكونها مطلوبةً لموسى عليه السلام، ومَن حولها من الملائكة، أو منهم ومن موسى عليهم السلام، وقوله تعالى: «وسبحان الله» دفعٌ لِمَا يوهمُه التجلِّي في مظهر النار من التشبيه، أي: وسبحان الله عن التقيُّد بالصورة والمكان والجهة وإن ظهر فيها بمقتضى الحكمة؛ لكونه موصوفاً بصفةِ «ربِّ العالمين» الواسع القدوس الغنيِّ عن العالمين، ومَن هو كذلك لا يتقيَّد بشيءٍ من صفات المحدَثات، بل هو جلَّ وعلا باقٍ على إطلاقه حتى عن قيدِ الإطلاق في حال تجلِّيه وظهوره فيما شاء من المَظاهِر؛ ولهذا ورد في الحديث الصحيح: «سبحانك حيث كنتَ»[1] فأثبت له تعالى التجلِّيَ في الحيث، ونزَّهه عن أن يتقيَّد بذلك، «يا موسى إنه» أي: المنادي المتجلِّي في النار «أنا الله العزيزُ» فلا أتقيَّدُ بمظهرٍ للعزة الذاتية، لكنِّي الحكيم ومقتضَى الحكمة الظهورُ في صورة مطلوبك. وذَكَر أنَّ تقدير المضاف كما فعل بعضُ المفسِّرين عدولٌ عن الظاهر لظنِّ المحذور فيه، وقد تَبيَّن أنْ لا محذورَ، فلا حاجةَ إلى العدول. انتهى.

وكأني بك تقول: هذا طورُ ما وراءَ طورِ العقول.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الطبراني في الكبير (١١٤٧٦)، وفي الأوسط (٦٤٤٢) من حديث ابن عباس ﵄، قال ابن كثير عند تفسير الآية (٨٥) من سورة الإسراء: هذا حديث غريب بل منكر. وقال عند تفسير الآية(٣٨) من سورة النبأ: هذا حديث غريب جدًّا، وفي رفعه نظر، وقد يكون موقوفاً على ابن عباس، ويكون مما تلقاه من الإسرائيليات.
وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٦٥٠٣) من طريق عبد الله بن المنكدر بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جده، عن أنس، عن النبي ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٠: رواه الطبراني في الأوسط وقال: تفرد به عبد الله بن المنكدر، قلت: هو وأبوه ضعيفان. اهـ.

ثم إنه لا مانع على أصول الصوفية أن يريدوا بـ «من حولها» الله عزَّ وجلَّ أيضاً؛ إذ ليس في الدار عندهم غيرُه سبحانه ديَّار.

ولا بُعْدَ في أن تكون الآية عند ابن عباس ـ إنْ صحَّ عنه ما ذكر ـ من المتشابه، والمذاهبُ فيه معلومةٌ عندك.

والأوفقُ بالعامة التأويلُ، بأن يقال: المراد: أنْ بورك مَن ظَهَر نورُه في النار، ولعل في خبر الحبر السابق ما يشير إليه.

وإضافةُ النور إليه تعالى لتشريف المضاف، وهو نورٌ خاصٌّ كان مَظْهَراً لعظيم قدرته تعالى وعظمته.

وسمعتُ من بعض أجلَّةِ المشايخ يقول: إنَّ هذا النور لم يكن عيناً ولا غيراً، على نحو قول الأشعريِّ في صفاته عزَّ وجلَّ الذاتية، وهو أيضاً منزعٌ صوفيٌّ يرجع بالآخرة إلى حديث التجلِّي والظهور كما لا يخفى، فتأمَّل.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على «بورك» مُنْتظِمٌ معه في سلك تفسير النداء، أي: نودي أنْ بورك وأنْ ألقِ عصاك، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص:٣١] بعد قوله سبحانه: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص:٣٠] بتكرير «أنْ»؛ فإنَّ القرآن يفسِّر بعضُه بعضاً، وهذا ما اختاره الزمخشريُّ[1].

وأُورد عليه أنَّ تجديد النداء في قوله تعالى: (يَـٰمُوسَىٰٓ) إلخ يأباه.

وُردَّ بأنه ليس بتجديدِ نداءٍ لأنه من جملة تفسير النداء المذكور.

وقيل: لا يأباه لأنه جملةٌ معترضةٌ. وفيه بحث.

واعترض أيضاً بأنَّ «بورك» إخبارٌ و«ألق» إنشاء، ولا يُعْطَفُ الإنشاءُ على الإخبار، ومن هنا قيل: إنَّ العطف على ذلك بتقديرِ: وقيل له: ألق، أو العطف على مقدَّرٍ، أي: افعل ما آمرُك وألق.

وفيه أنه في مثل هذا يجوزُ عطف الإنشاء على الإخبار؛ لكون النداء في معنى

(١) في الكشاف ٣/١٣٨.

القول، بل أجاز سيبويه[١]: جاء زيد ومَن عمرو؟ بالعطف.

ولا يَرِدُ هذا أصلاً على مَن يجعل «بورك» إنشاءً، ويَرِدُ على مَن جَعَلَ العطف على «اِفْعَلْ» محذوفاً أنَّ الظاهر حينئذ: فألْقِ بالفاء.

واختار أبو حيان[٢] كونَ العطف على جملةِ «إنه أنا الله العزيز الحكيم»، ولم يُبالِ باختلاف الجملتين اسميةً وفعليةً، وإخباريةً وإنشائية، لِمَا ذُكر أنَّ الصحيح عدمُ اشتراطِ تناسُبِ الجملتين المتعاطفتين في ذلك؛ لمَا سمعتَ آنفاً عن سيبويه.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فصيحةٌ تُفْصِحُ عن جملةٍ قد حُذِفتْ ثقةً بظهورها، ودلالةً على سرعة وقوع مضمونها، كأنه قيل: فألقاها فانقلبت حيةً فلما أبصرها تتحرَّك بشدةِ اضطرابٍ، وجملةُ «تهتزُّ» في موضع الحال من مفعول «رأى»، فإنها بَصَريةٌ كما أشرنا إليه، لا عِلْميةٌ كما قيل.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ في موضع حالٍ أخرى منه، أو هو حالٌ من ضمير «تهتزُّ» على طريقة التداخُلِ.

والجانُّ: الحيَّة الصغيرة السريعةُ الحركةِ، شبَّهها سبحانه في شدة حركتها واضطرابها مع عظم جثتها بصغار الحيات السريعة الحركة، فلا ينافي هذا قوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٠٧].

وقيل: يجوز أن يكون الإخبار عنها بصفاتٍ مختلفةٍ باعتبار تنقُّلها فيها.

وقرأ الحسن والزهريُّ وعمرو بن عبيد: «جَأَنٌّ» بهمزةٍ مفتوحةٍ[٣] هرباً من التقاء الساكنين وإن كان على حدِّه، كما قيل: دَأَبَّة وشَأَبة.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أي: انهزم ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولـمْ يَرْجِعْ على عَقِبِه، من عقَّب المقاتل: إذا كرَّ بعد الفرار، قال الشاعر:

فما عقَّبوا إذ قيل هل مِن مُعقِّبِ ولا نزلوا يومَ الكريهة مَنْزِلا[٤]

(١) كما في البحر ٧/ ٥٦.
(٢) في البحر ٧/ ٥٦.
(٣) المحتسب ٢/ ١٣٥، والبحر ٧/ ٥٦.
(٤) الكشاف ٣/ ١٣٨، والبحر ٧/ ٥٧، والدر المصون ٨/ ٥٧٧.

وهذا مرويٌّ عن مجاهد. وقريبٌ منه قولُ قتادة: أي: لم يلتفت. وهو الذي ذكره الراغب[١].

وكان ذلك منه عليه السلام لخوفٍ لَحِقَه؛ قيل: لمقتضَى البشرية؛ فإنَّ الإنسان إذا رأى أمراً هائلاً جدّاً يخاف طبعاً، أو لِمَا أنه ظنَّ أنَّ ذلك لأمرٍ أُريد وقوعُه به، ويدلُّ على ذلك قولُه سبحانه: (يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ) أي: من غيري أيَّ مخلوقٍ كان حيَّةً أو غيرَها، ثقةً بي واعتماداً عليَّ، أو: لا تخف مطلقاً، على تنزيلِ الفعل منزلةَ اللازم، وهذا إما لمجرَّد الإيناس دون إرادة حقيقة النهي، وإما للنهي عن منشأ الخوف، وهو الظنُّ الذي سمعتَه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ تعليل للنهي عن الخوف، وهو ـ على ما قيل ـ يؤيِّد أنَّ الخوف كان للظنِّ المذكور، وأنَّ المراد: لا تخف مطلقاً. والمراد من «لديَّ»: في حضرة القُرْبِ منِّي، وذلك حين الوحي، والمعنى: إنَّ الشأن لا ينبغي للمرسلين أن يخافوا حين الوحي إليهم، بل لا يخطر ببالهم الخوفُ وإنْ وُجِدَ ما يُخاف منه لفَرْطِ استغراقهم إلى تلقِّي الأوامر وانجذابِ أرواحهم إلى عالم الملكوت. والتقييد بـ «لديَّ» لأنَّ المرسلين في سائر الأحيان أخوفُ الناسِ من الله عزَّ وجلَّ، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] ولا أعلم منهم بالله تعالى شأنُهُ.

وقيل: المعنى: لا تخف من غيري، أو: لا تخف مطلقاً؛ فإنَّ الذي ينبغي أن يَخاف منه أمثالُك المرسلون إنما هو سوءُ العاقبة، وإنَّ الشأن لا يكون للمرسلين عندي سوءُ عاقبةٍ ليخافوا منه. والمراد بسوء العاقبة ما في الآخرة لا ما في الدنيا، لئلا يَرِدَ قتلُ بعض المرسلين عليهم الصلاة والسلام. والمراد بـ «لدي» على ما قال الخفاجيُّ: عند لقائي[٢]، و: في حكمي، على ما قال ابن الشيخ.

وأيًّا ما كان يلزمُ مما ذُكر أنَّ المرسلين عليهم السلام لا يخافون سوءَ العاقبة؛ لأنَّ الله تعالى آمَنَهم من ذلك، فلو خافوا لَزِمَ أن لا يكونوا واثقين به عزَّ وجلَّ،

(١) في مفرداته (عقب).
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٣٦.

وهذا هو الصحيح ـ كما في «الحواشي الشهابية» ـ عند الأشعريِّ[(١)].

وظاهرُ الآثار يقتضي أنهم عليهم السلام كانوا يخافون ذلك، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يُكْثِر أن يقول: «يا مقلِّب القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك» فقالت له عائشة رضي الله عنها يوماً: يا رسول الله إنك تُكْثِرُ أن تدعوَ بهذا الدعاء، فهل تخشى؟ فقال ﷺ: «وما يُؤْمِنُني يا عائشةُ وقلوب العباد بين أُصْبُعينِ من أصابع الرحمن، إذا أراد يقلِّب قَلْبَ عبده [قلَّبه]»[(٢)].

وظاهرُ بعض الآيات يقتضي ذلك أيضاً، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وكونُ الله تعالى آمنهم من ذلك، إن أريد به ما جاء في ضمن تبشيرهم بالجنة، فقد صحَّ أنَّ المبشَّرين بالجنة من الصحابة رضي الله عنهم كانوا يخافون من سوء العاقبة مع علمهم ببشارته تعالى إياهم بالجنة، ويُعلم منه أنَّ الخوف يجتمع مع البشارة، ولا يلزمُ من ذلك عدمُ الوثوق به عزَّ وجلَّ؛ لأنه لاحتمال أن يكون هناك شرطٌ لم يُظْهِرْه الله تعالى لهم؛ للابتلاء ونحوِه من الحِكَم الإلهية. وإن أريد به ما كان بصريح: آمَنتُكم من سوء العاقبة، كان هذا الاحتمالُ قائماً أيضاً فيه، ويحصل الخوف من ذلك.

وإن أريد به ما اقتضاه جَعْلُه تعالى إياهم معصومين من الكفر ونحوِه، وَرَدَ أنَّ الملائكة عليهم السلام جعلهم الله تعالى معصومين من ذلك أيضاً وهم يخافون، ففي الأثر: لمَّا مُكِر بإبليس بكى جبرائيل وميكائيل عليهما السلام، فقال الله عزَّ وجلَّ لهما: ما يبكيكُما؟ قالا: يا ربِّ، ما نأمن مكرك. فقال تعالى: هكذا كونا لا تأمنَا مكري[(٣)].

ولعل ذلك لأنَّ العصمة عندنا على ما يقتضيه أصلُ استنادِ الأشياء كلِّها إلى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه أحمد (٢٦١٣٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٤)، وأبو يعلى (٤٦٦٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، وما بين حاصرتين من هذه المصادر، وله شاهد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخرجه أحمد (٦٥٦٩)، ومسلم (٢٦٥٤).

(٣) أخرجه بنحوه أبو الشيخ في العظمة (٣٨٥) عن عبد العزيز بن أبي رواد قوله.

الفاعل المختار ابتداءً، كما في «المواقف» وشَرْحِه الشريفِ الشريفيِّ: أنْ لا يخلقَ الله تعالى في الشخص ذنباً. وعند الحكماء بناءً على ما ذهبوا إليه من القول بالإيجاب واعتبارِ استعداد القوابل: ملكةٌ تمنعُ الفجورَ وتحصُل ابتداءً بالعلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات، وتتأكَّد بتتابُع الوحي بالأوامر والنواهي[1].

وهي بكِلَا المعنيين لا تقتضي استحالةَ الذنب؛ أمَّا عدمُ اقتضائها ذلك بالمعنى الأول فِلأَنَّ عدمَ خَلْقِه تعالى إياه ليس بواجبٍ عليه سبحانه ليكون خلقُه مستحيلاً عليه تعالى، ومتى لم يكن الخلقُ مستحيلاً عليه تعالى فكيف يحصل الأمن من المكر؟ وأما عدمُ اقتضائها ذلك بالمعنى الثاني فلأنَّ زوال تلك الملكة ممكنٌ أيضاً، واقتضاءُ العلم بالمثالب والمناقب إياها ابتداءً وتأكُّدُها بتتابع الوحي ليس من الضرورات العقلية، ومتى كان الأمر كذلك لا يحصل الأمنُ بمجرَّد حصول الملكة.

نعم قال قوم: العصمةُ تكون خاصِّيةً في نفس الشخص أو في بدنه، يمتنع بسببها صدورُ الذنب عنه[2]. وقد يستند إليه مَن يقول بالأمن، ولا يخفى أنه لو سلِّم تمامُ الاستدلال به على هذا المطلب فهو في حدِّ ذاته غيرُ صحيح.

ففي «المواقف» وشرحه: أنه يكذِّبُ هذا القولَ أنه لو كان صدورُ الذنب ممتنعاً لمَا استحقَّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام المدحَ بتَرْكِ الذنب؛ إذ لا مدحَ بترك ما هو ممتنعٌ؛ لأنه ليس بمقدورٍ[3] داخلاً تحت الاختيار.

وأيضاً فالإجماع على أن الأنبياء عليهم السلام مكلَّفون بترك الذنوب مثابون به، ولو كان صدورُ الذنب ممتنعاً عنهم لما كان الأمر كذلك.

وأيضاً فقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] يدلُّ على مماثلتهم عليهم السلام لسائر الناس فيما يرجع إلى البشرية، والامتيازُ بالوحي، فلا يمتنعُ صدورُ الذنب عنهم كما لا يمتنع صدوره عن سائر البشر[4]. اهـ.

وذكر الخفاجيُّ في «شرح الشفاء» عن ابن الهمام أنه قال في «التحرير»:

---

(١) شرح المواقف للشريف علي بن محمد الجرجاني ٨/ ٢٨٠-٢٨١.

(٢) شرح المواقف: ٨/ ٢٨١.

(٣) في شرح المواقف: مقدوراً.

(٤) شرح المواقف ٨/ ٢٨١.

العصمةُ عدمُ القدرة على المعصية، أو خَلْقٌ[1] مانعٍ عنها غير ملجئ، ثم قال: وهو مناسبٌ لقول الماتُريدي: العصمةُ لا تُزيل المحنةَ، أي: الابتلاءَ المقتضيَ لبقاء الاختيار، ومعناه كما في «الهداية»: أنها لا تُجبره على الطاعة ولا تُعْجِزُه عن المعصية، بل هي لطفٌ من الله تعالى يحملُه على فعله ويزجُره عن الشرِّ، مع بقاءِ الاختيار تحقيقاً للابتلاء[2]. اهـ.

وهو ظاهر في[3] عدم الاستحالة الذاتية لصدور الذنب، ولعل ما وقع في كلام بعض الأجلَّة من استحالة وقوع الذنب منهم عليهم السلام محمولٌ على الاستحالة الشرعية، كما يؤذنُ به كلامُ العلَّامة ابنِ حجر في «شرح الهمزية».

وبالجملة: الذي تقتضيه الظواهرُ ويشهدُ له العقل أنَّ الأنبياء عليهم السلام[4] يخافون ولا يأمنون مكر الله تعالى؛ لأنه وإن استحال صدورُ الذنب عنهم شرعاً لكنه غيرُ مستحيلٍ عقلاً، بل هو من الممكنات التي يصحُّ تعلُّقُ قدرة الله تعالى بها.

ومع ملاحظة إمكانه الذاتيِّ، وأنَّ الله تعالى لا يجب عليه شيءٌ، وقيامِ احتمال تقييد المطلق بما لم يصرّح به لحكمةٍ كالمشيئة، لا يكاد يأمنُ معصومٌ من مكر الملك الحيِّ القيوم، فالأنبياءُ والملائكة كلُّهم خائفون، ومن خشيته سبحانه عز وجل مشفقون.

وليس لك أن تخصَّ خوفهم بخوف الإجلال؛ إذ الظاهرُ العموم، ولا دليل على الخصوص يعوَّلُ عليه عند فحول الرجال، نعم قد يقال بإمكان حصول الأمن من المكر، وذلك بخَلْقِ الله تعالى علماً ضرورياً في العبد بعدم تحقُّق ما يخاف منه في وقتٍ من الأوقات أصلاً؛ لِعلْمِ الله تعالى عَدَمَ تحقُّقِه كذلك وإن كان ممكناً ذاتيًّا، ولعله يحصل لأهل الجنة لتتمَّ لَذَّتُهم فيها، فقد قيل:

فإنْ شئتَ أن تحيا حياةً هنيةً ... فلا تتَّخِذْ شيئاً تخافُ له فَقْدَا

ولا يبعدُ حصوله لمن شاء الله تعالى من عباده يومَ القيامة قبل دخولها أيضاً،

---

(١) في (م): وخلق، والمثبت من الأصل وشرح الشفا.

(٢) شرح الشفا ٣٩/٤. ووقع في (م): وتحقيق، بدل: تحقيقاً، وهو تصحيف.

(٣) في (م): على.

(٤) قوله: السلام، ساقط من (م).

ولم تقم أمارةٌ عندي على حصوله في هذه النشأة لأحدٍ، واللهُ تعالى أعلم، فتأمَّل ذاك والله تعالى يتولَّى هداك.

وروى الإمام عن بعضهم أنه قال في معنى الآية: إنِّي إذا أمرْت المرسلين بإظهارِ معجزٍ فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلَّق بإظهار ذلك، وإلَّا فالمرسَلُ قد يخاف لا محالةَ[1].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ الاستثناءُ فيه منقطعٌ عند كثيرٍ، إلا أنه رُوي[2] عن الفرَّاء والزجَّاج وغيرِهما أنَّ المراد بمن ظلم: مَن أذنب من غير الأنبياء عليهم السلام[3]؛ قال صاحب «المطلع»: والمعنى عليه: لكنْ مَن ظلم من سائر العباد ثم تاب فإنِّي أغفرُ له.

وقال جماعة: إن المراد به: مَن فرطتْ منه صغيرةٌ ما، وصدر منه خلافُ الأَوْلَى بالنسبة إلى شأنه من المرسلين عليهم السلام. والمراد استدراكُ ما يختلجُ في الصدر من نفي الخوف عن كلِّهم وفيهم مَن صدر منه ذلك، والمعنى عليه: لكنْ مَن صدر منه[4] منهم ما هو في صورة الظلم ثم تاب فإنِّي أغفر له، فلا ينبغي أن يخاف أيضاً. وهو شاملٌ ـ على ما قيل ـ لمن فعل منهم شيئاً من ذلك قبل رسالته، وخصَّه بعضُهم بمن صدر منه شيءٌ من ذلك قبل النبوة، وقال: يؤيِّده لفظةُ «ثم» فإنها ظاهرةٌ في التراخي الزماني. ولعل الظاهر كونُه خاصًّا بمن صدر منه بعد الرسالة؛ لظهور المرسَل في المتلبِّس بالرسالة لا فيمَن يتلبَّس بها بعدُ، أو الأعمّ. وكأنَّ فيما ذكر على الوجهين الأوَّلين[5] تعريضاً بما وقع من موسى عليه السلام من

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٤.

(٢) كذا جاء: إلا أنه روي، والصواب: وقد روي، فإن ما سيأتي مؤيِّدٌ لانقطاع الاستثناء، وينظر البحر ٦/ ٥٧.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٧، ونقله عنه أبو حيان في البحر٦/ ٥٧، وقول الزجَّاج في معاني القرآن له ٤/ ١٠: «إلَّا» استثناء ليس من الأول، والمعنى والله أعلم: لكن من ظلم ثم تاب من المرسلين وغيرهم.

(٤) قوله: منه، ساقط من (م).

(٥) ويعني بهما: القولُ بشموله لمن فعل منهم شيئاً من ذلك قبل الرسالة، والقول بتخصيصه بما قبل النبوة.

وَكْزِه القبطيَّ واستغفارِه، وتسميتُه ظلماً مشاكلةٌ لقوله عليه السلام: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [القصص: ١٦].

ولم يجعلوه على هذا متصلاً مع دخول المستثنى في المستثنى منه أعني المرسلين مطلقاً؛ لأنه لو كان متصلاً لزم إثباتُ الخوف لمن فرطت منه صغيرةٌ ما منهم لاستثنائه من الحكم وهو نفي الخوف عنهم، ونفيُ النفي إثباتٌ، وذلك خلافُ المراد، فلا يكون متَّصلاً بل هو شروعٌ في حكم آخر.

ورجَّح الطيبيُّ ما قاله الجماعة بأنَّ مقام تَلقِّي الرسالة وابتداءِ المكالمة مع الكليم يقتضي إزالةَ الخوف بالكلِّية، وهو ظاهرٌ على ما قالوه.

وروي عن الحسن ومقاتلٍ وابن جُريجٍ والضحَّاك ما يقتضي أنه استثناءٌ متَّصلٌ، والظاهر أنهم أرادوا بـ «مَن» مَن أراده الجماعة، وفي اتصاله على ما سمعت خفاءٌ.

وربما يقال: إنَّ مَن يطلقُ الاتِّصال عليه في رأي الجماعة يكتفي في الاتصال بمجرَّدِ كون المستثنى من جنس المستثنى منه، فإنْ كَفَى فذاك، وإلا يُلتزم[١] إثباتُ الخوف، ويُجعل «بدَّل» عطفاً على مستأنفٍ محذوفٍ، كأنه قيل: إلا مَن فرطت منه صغيرةٌ فإنه يخاف، فمن فرط ثم تاب غُفر له فلا يخاف. وحاصلُه: إلا مَن ظلم فإنه يخاف أولاً ويزولُ عنه الخوف بالتوبة آخِراً.

وعن الفرَّاء في روايةٍ أخرى عنه أنه استثناءٌ متَّصلٌ من جملة محذوفة، والتقدير: وإنما يخافُ غيرُهم إلَّا مَن ظلم[٢].

وردَّه النحاس بأنَّ الاستثناء من محذوفٍ لا يجوزُ، ولو جاز هذا لجاز أن يقال: لا تضرب القومَ إلَّا زيداً، على معنى: وإنما اضْرِبْ غيرَهم إلا زيداً، وهذا ضدُّ البيان والمجيءُ بما لا يعرف معناه[٣]. انتهى، وهو كما قال. ولا يجدي نفعاً القولُ باعتبار مفهوم المخالفة.

---

(١) في الأصل: يلزم.
(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٧.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٠٠.

وقالت فرقةٌ: إنَّ «إلا» بمعنى الواو، والتقديرُ: ولا من ظلم[1].. إلخ.

وتعقَّبه في «البحر» بأنه ليس بشيءٍ؛ للمباينة التامَّة بين «إلا» والواو، فلا تقع إحداهما موقعَ الأخرى[2]. وحُسْنُ الظنِّ يجوِّزُ أنهم لم يصرِّحوا بكون «إلا» بمعنى الواو، وإنما فَهِمَ مَن نَسَبه إليهم من تقديرهم، وهو يحتمل أن يكون تقديرَ معنىً لا إعراب، فلا تغفل.

والظاهرُ انقطاعُ الاستثناء، ولعل الأَوْفَقَ بشأن المرسلين أن يراد بـ «مَن ظلم»: مَن ارتكب ذنباً كبيراً أو صغيراً من غيرهم، و«ثم» يحتمل أن تكون للتراخي الزمانيِّ فتفيدُ الآيةُ المغفرةَ لمن بدَّل على الفور من باب أَوْلَى، ويحتمل أن تكون للتراخي الرُّتبيِّ وهو ظاهرٌ بين الظلم والتبديل المذكور.

والتبديلُ قد يتعدَّى إلى مفعولين بنفسه، نحو: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] وقد يتعدَّى إلى أحدهما بنفسه وإلى الآخر بالباء أو بـ «مِن» وهو المذهوبُ به والمبدَلُ منه، نحو: بدَّله بخوفه ـ أو: من خوفه ـ أمناً، وقد يتعدَّى إلى واحدٍ نحو: بدَّلت الشيءَ، أي: غيَّرتُه، ومنه: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ [البقرة: ١٨١].

والمعنى هنا على المتعدِّي إلى مفعولين، وقد تعدَّى إلى أحدهما وهو المبدَلُ منه بالباء أو بـ «مِن»، فكأنه قيل: ثم بدَّل بظلمه ـ أو من ظلمه ـ حسناً، ويشير إليه قولُه تعالى: ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ وحاصلُه: ثم ترك الظلم وأتى بحُسْنٍ، والمراد به التوبةُ، فيكون المعنى في الآخرة: إلا مَن ظلم ثم تاب، وعدل عنه إلى ما في النظم الجليل لأنه أوفقُ بمقام الإيناس، كذا قيل، والظاهرُ عليه أنَّ إسناد التبديل إلى مَن ظَلَم حقيقيٌّ.

وقيل: إنَّ المعنى: ثم رفع الظلم والسوء ومَحَاه من صحيفة أعماله ووضع مكانه الحسنَ بسبب توبته، نظير ما في قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وإسنادُ التبديل إلى مَن ظلم على هذا مجازيٌّ؛ لأنه سببٌ لتبديل الله تعالى له بتوبته. وكأني بك تختار الأول.

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨٧ عن بعض النحويين.
(٢) البحر ٧/ ٥٧.

ومحلُّ «مَن» على كلٍّ من تقديري انقطاعِ الاستثناء واتِّصاله ظاهرٌ[١]. والظاهر أنها موصولة في التقديرين، ولا يخفى أنها إذا اعتُبِرتْ منصوبةَ المحلِّ على الاستثناء، أو مرفوعتَه على البدل[٢]، تكون جملة «فإني» إلخ مستأنفةً. ومَن قدَّر في الكلام محذوفاً، وعطف عليه «بدَّل»، وقال: التقديرُ: فمن[٣] ظلم ثم بدَّل، جعل الجملةَ خبر «مَن».

وجوَّز بعضهم أن تكون شرطيةً وجملةُ «فإنِّي» إلخ جوابُها، فتأمَّل ولا تغفل.

وقرأ أبو جعفر وزيد بن أسلم: «أَلَا مَن ظَلَمَ» بفتح الهمزة وتخفيفِ اللام[٤] على أنَّ «أَلَا» حرفُ استفتاح. وجَعَل أبو حيان «مَن» على هذه القراءة شرطيةً[٥]، ولا أراه واجباً.

وقرأ محمد بن عيسى الأصبهانيُّ: «حُسْنَى»[٦] على وزن فُعْلَى ممنوع الصرف. وقرأ ابن مقسم: «حُسُناً» بضم الحاء والسين منوَّناً[٧].

وقرأ مجاهدٌ وأبو حيوةَ وابنُ أبي ليلى[٨] والأعمشُ وأبو عمرو في رواية الجعفيِّ وعصمة وعبد الوارث وهارون وعيَّاش: «حَسَناً» بفتح الحاء والسين مع التنوين.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أي: جيب قميصك، وهو مدخلُ الرأس منه، المفتوحُ إلى الصدر، لا ما يوضع فيه الدراهم ونحوُها كما هو معروفٌ الآن؛ لأنه مولَّد،

---

(١) هو على الانقطاع منصوب على لغة الحجاز، وعلى لغة تميم يجوز فيه النصب والرفع على البدل من الفاعل قبله، وأما على الاتصال فيجوز فيه الوجهان على اللغتين، ويكون الاختيار البدل؛ لأن الكلام غير موجَبٍ. الدر المصون ٨/ ٥٧٨.

(٢) في الأصل: البدلية.

(٣) في (م): من.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٨، والمحتسب ٢/ ١٣٦، والبحر ٧/ ٥٧.

(٥) البحر ١٠/ ٥٧.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥١، والبحر ٧/ ٥٧.

(٧) البحر ٧/ ٥٧.

(٨) في الأصل و(م): وابن أبي علي، والمثبت من القراءات الشاذة ص١٠٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥١، والبحر ٧/ ٥٧.

ولم يقل سبحانه: في كمِّك؛ لأنه عليه السلام كان لابساً إذ ذاك مِدْرَعةً[1] من صوفٍ لا كمَّ لها.

وقيل: الجيب القميصُ نفسُه؛ لأنه يجاب، أي: يُقْطَع، فهو فَعْلٌ بمعنى مفعول.

وقال السديُّ: «في جيبك» أي: تحت إبطك. ولعل مراده أنَّ المعنى: أَدْخِلْها في جيبك وضَعْها تحت إبطك. وكانت مِدْرَعتُه عليه السلام على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما لا أزرار لها.

وقد ورد في بعض الآثار أنَّ نبيَّنا ﷺ كان مطلقَ القميص في بعض الأوقات، ففي «سنن أبي داود»: باب في حلِّ الأزرار، ثم أخرج فيه من طريق معاويةَ بنِ قرَّة قال: حدثني أبي، قال: أتيتُ رسول الله ﷺ في رَهْطٍ من مُزينةَ، فبايعناه وإنَّ قميصه لمطلق - وفي روايةِ البغويِّ في «معجم الصحابة»: لمطلق الأزرار - قال: فبايعتُه ثم أدخلت يدي في جيب قميصه فَمَسِسْتُ الخاتمَ. قال عروة: فما رأيتُ معاويةَ ولا أباه قطُّ إلا مُطْلِقي أزرارِهما، ولا يزرَّانها أبداً[2].

وجاء أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام أمر بزرِّ الأزرار؛ فقد أخرج الطبراني عن زيد بن أبي أوفى: أنَّ رسول الله ﷺ نظر إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فإذا أزرارُه محلولةٌ، فزرَّها رسول الله ﷺ بيده وقال: «اجْمَعْ عِطْفَيْ ردائِكَ على نَحْرِكَ»[3].

وفي هذين الأثرين ما هو ظاهرٌ في أنَّ جيب القميص كان إذ ذاك على الصدر كما هو اليوم عند العرب، وهو يُبْطِلُ القولَ بأنه خلاف السنَّةِ، وأنه من شعائر اليهود.

---

(١) المدرعة بكسر الميم وسكون الدال: لباس لا أكمام له. حاشية الشهاب ٧/ ٣٦.

(٢) سنن أبي داود (٤٠٨٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٥٥٨١)، وعزاه للبغوي ابن حجر في الإصابة ٨/ ١٥٣-١٥٤. ورواية أبي داود توافق رواية البغوي. وعروة هو ابن عبد الله بن قشير أبو مَهَل الجعفي، وهو الراوي عن معاوية بن قرة.

(٣) قطعة من حديث طويل، وهو في المعجم الكبير (٥١٤٦)، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في العلل (٣٤٤) وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

وأَمْرُه تعالى إياه عليه السلام بإدخال يده في جيبه ـ مع أنه سبحانه قادرٌ على أن يجعلها بيضاءَ من غير إدخالٍ ـ للامتحان، وله سبحانه أن يمتحنَ عباده بما شاء.

والظاهرُ أنَّ قوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ﴾ جوابُ الأمر؛ لأنَّ خروجها مترتِّبٌ على إدخالها.

وقيل: في الكلام حذفٌ تقديره: وأَدْخِلْ يدك في جيبك تَدْخُلْ، وأَخْرِجْها تَخْرُجْ، فحذف من الأول ما أثبت مقابله في الثاني، ومن الثاني ما أثبت مقابله في الأول، فيكون في الكلام صنعةُ الاحتباك. وهو تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه.

وقوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ﴾ حالٌ، وكذا قولُه تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ وهو احتراسٌ، وقد تقدَّم الكلامُ فيه.

وكذا قولُه سبحانه: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أي: آيةً معدودةً من جملة تسعِ آيات، أو معجزةً لك معها، على أن التسع هي: الفَلْق، والطُّوفان، والجرادُ، والقمَّلُ، والضفادعُ، والدم، والطمسةُ وهي جَعْلُ أسبابهم حجارةً، والجَدْبُ في بواديهم، والنقصان في مزارعهم.

ولمن عدَّ العصا واليد من التسع أن يعدَّ الجدبَ والنقصان في المزارع واحداً ولا يعدّ الفَلْقَ منها؛ لأنه عليه السلام لم يُبعث به إلى فرعون وإن تقدَّمه بيسير؛ ومَن عدَّه يقول: يكفي معاينتُه له في البعث به، أو هو بعثٌ به لمن آمن من قومه ولمن تخلَّفَ من القِبْطِ ولم يؤمن.

وفي «التقريب»: أنَّ الطمسة والجدب والنقصان يرجع إلى شيءٍ واحد، فالتسعُ: هذا الواحد، والعصا، واليد، وما بقي من المذكورات.

وذهب صاحب «الفرائد» إلى أنَّ الجراد والقمَّل واحد، والجدبَ والنقصان واحد.

وجوِّز أن يكون «في تسع» منقطعاً عمَّا قبله متعلِّقاً بمحذوفٍ، أي: اذهب في تسع آيات، ويدلُّ على ذلك قولُه تعالى بعدُ: (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا) و«في» بمعنى «مع»، ونظير هذا الحذف ما في قوله:

أَتَـوا نـاري فـقـلـتُ مَـنُـونَ أنـتـمْ   فـقـالـوا الـجـنُّ قـلـتُ عِـمُـوا ظَـلَامـا
وقـلـتُ إلـى الـطـعـام فـقـال مـنـهـم   فـريـقٌ يـحـسـد الإنـسَ الـطـعـامـا(١)

فإنَّ التقدير: هلمُّوا إلى الطعام.

ويتعلَّق بهذا المحذوف قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ وعلى ما تقدَّم يتعلَّق بمحذوفٍ وقع حالاً، أي: مبعوثاً أو مرسَلاً إلى فرعون، وأيًّا ما كان فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ مستأنفٌ استئنافاً بيانيًّا، كأنه قيل: لمَ أرسلت إليهم بما ذكر؟ فقيل: إنهم.. إلخ.

والمراد بالفسق إمَّا الخروجُ عمَّا ألزمهم الشرعُ إياه إن قلنا بأنهم قد أُرسِلَ قبل موسى عليه السلام مَن يَلْزَمُهم اتِّباعُه، وهو يوسف عليه السلام، وإمَّا الخروجُ عما ألزمه العقلُ واقتضاءُ الفطرة إن قلنا بأنه لم يرسَل إليهم أحدٌ قبله عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: ظهرتْ لهم على يد موسى عليه السلام، فالمجيءُ مجازٌ عن الظهور، وإسنادُه إلى الآيات حقيقيٌّ. وقال بعض الأَجِلَّة: المجيءُ حقيقةٌ، وإسناده إلى الآيات مجازيٌّ، وهو حقيقةٌ لموسى عليه السلام، ولِمَا بينهما من الملابسة لكونها معجزةً له عليه السلام ساغ ذلك.

ولعل النكتة في العدول عن: فلمَّا جاءهم موسى بآياتنا، إلى ما في النظم الجليل الإشارةُ إلى أنَّ تلك الآيات خارجةٌ عن طوقه عليه السلام كسائر

---

(١) نسبهما أبو زيد في النوادر ص١٢٤ لشمير بن الحارث الضبِّي. وورد البيت الأول برواية: عموا صباحاً، كما ذكر ابن السيد في الحلل ص٣٩٠ وقال: الشعر الذي على قافية الميم ينسب إلى شمير بن الحارث وينسب إلى تأبط شرًّا، وأما الشعر الذي على قافية الحاء فلا خلاف أنه لجذع بن سنان الغساني. اهـ. وقد ورد البيت الأول في الكتاب ٢/ ٤١١، والخزانة ٦/ ١٦٧، شاهداً على جمع «مَن» (في قوله: منون أنتم) في الوصل، وإنما تجمع في الوقف. ينظر شرح شواهد الكتاب للأعلم ص٣٨٦. وجملة: يَحسد، صفة لفريق، ويروى: نحسد، فالجملة مقول القول، ذكر أن الجن طرقته وقد أوقد ناراً لطعامه، فدعاهم إلى الأكل منه فلم يجيبوه، وزعموا أنهم يحسدون الإنس في الأكل، وأنهم فضَّلوا عليهم بأكل الطعام. الخزانة ٦/ ١٧٢-١٧٣.

المعجزات، وأنه لم يكن له عليه السلام تصرُّفٌ في بعضها، وكونهُ معجزةً له لإخباره به ووقوعِه بدعائه ونحوه.

ولا ينافي هذا الإسنادَ إليه ـ لكونها جاريةً على يديه للإعجاز ـ في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [القصص:٣٦] في محلٍّ آخر. وقد بيَّن بعضُهم وجهاً لاختصاص كلٍّ منهما بمحلِّه، بأنَّ ثمةَ ذُكر مقاولتُه عليه السلام ومجادلتُهم معه، فناسَبَ الإسناد إليه، وهنا لمَّا لم يكن كذلك ناسبَ الإسنادَ إليها؛ لأن المقصود بيانُ جحودهم بها. وإضافةُ الآياتِ للعهد، وفي إضافتها إلى ضمير العظمة ما لا يخفى من تعظيم شأنها.

﴿مُبْصِرَةً﴾ حالٌ من الآيات، أي: بينةً واضحةً، وجُعِلَ الإبصارُ لها ـ وهو حقيقة لمتأمِّليها ـ للملابسة بينها وبينهم؛ لأنهم إنما يبصرون بسبب تأمُّلهم فيها، فالإسنادُ مجازيٌّ من باب الإسناد إلى السبب.

ويجوزُ أن يراد: مُبْصِرةً كلَّ مَن نظر إليها من العقلاء، أو من فرعون وقومِه لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤] أي: جاعِلَته بصيراً، من أَبْصَرَه المتعدِّي بهمزةِ النقل مِن بصر، والإسنادُ أيضاً مجازيٌّ.

ويجوز أن تُجعل الآياتُ كأنها تُبْصِرُ فتَهْدِي؛ لأن العُمْيَ لا تقدرُ على الاهتداء فضلاً أنْ تهديَ غيرها، فيكون في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ تخييليةٌ مرشحة، قال في «الكشف»: وهذا الوجه أبلغ.

وقيل: إنَّ فاعلاً أُطْلِقَ للمفعول، فالمجازُ إما في الطَّرف أو في الإسناد، فتأمل.

وقرأ قتادة وعلي بن الحسين رضي الله عنهما: «مَبْصَرةً» بفتح الميم والصاد على وزن مَسْبَعَة[1]، وأصل هذه الصيغة أن تصاغ في الأكثر لمكانٍ كثُر فيه مبدأ الاشتقاق، فلا يقال: مَسْبعة مثلاً إلا لمكانٍ يَكْثُرُ فيه السباع، لا لِمَا فيه سبعٌ واحدٌ، ثم تجوَّز بها عمَّا هو سببٌ لكثرة الشيء وغَلَبته، كقولهم: الولد مجبنةٌ ومَبْخَلَة، أي: سببٌ لكثرة جُبْنِ الوالد وكثرةِ بُخْلِه، وهو المراد هنا، أي: سبباً لكثرة تبصُّر الناظرين

---

(١) المحتسب ٢/ ١٣٦، والبحر٧/ ٥٨.

فيها. وقال أبو حيان: هو مصدرٌ أقيم مقام الاسم، وانتصب على الحال أيضاً[1].

﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ أي: الذي نراه، أو نحوه ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: واضحُ سِحْرِيَّتِه، على أنَّ «مبين» من أبان اللازم.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: وكذَّبوا بها ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: عَلِمَتْ علماً يقينيًّا أنها آياتٌ من عند الله تعالى. والاستيقانُ أبلغُ من الإيقان.

وفي «البحر»: أنَّ استفعل هنا بمعنى تفعَّل، كاستكبر بمعنى تكبَّر[2].

والأبلغُ أن تكون الواوُ للحال، والجملةُ بعدها حاليةٌ إما بتقديرِ «قد» أو بدونها.

﴿ظُلْمًا﴾ أي: للآيات، كقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩] وقد ظلموا بها أيَّ ظُلْم، حيث حَطُّوها عن رتبتها العاليةِ وسمَّوها سحراً. وقيل: ظلماً لأنفسهم. وليس بذاك.

﴿وَعُلُوًّا﴾ أي: ترفُّعاً واستكباراً عن الإيمان بها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وانتصابُهما إمَّا على العلِّية من «جحدوا»، وهي على ما قيل باعتبار العاقبة والادِّعاء، كما في قوله:

لِدُوا للموت وابنوا للخراب[3]

وإما على الحال من فاعله، أي: جَحَدوا بها ظالمين عالين.

ورجِّح الأول بأنه أبلغُ وأنسبُ بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

---

(١) البحر ٧/ ٥٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وعجزه: فكلُّكم يصير إلى تراب، والبيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص٣٣. وورد في الديوان المنسوب لعليٍّ رضي الله عنه ص٢٩ عجزاً لبيت صدره: له ملكٌ ينادي كلَّ يوم. وروي ضمن حديث لأبي هريرة رضي الله عنه كما في العظمة (٥١٩)، وشعب الإيمان (١٠٧٣٠)، قال عنه الإمام أحمد: هو مما يدور في الأسواق، ولا أصل له. وينظر كشف الخفاء ١/ ١٨٣-١٨٤.

﴿ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤﴾ أي: ما آل إليه فرعونُ وقومُه من الإغراق على الوجه الهائل الذي هو عبرةٌ للظالمين، وإنما لم يُذْكَر تنبيهاً على أنه عرضةٌ لكلِّ ناظرٍ، مشهورٌ لدى كلِّ بادٍ وحاضرٍ، وأَدْخَلَ بعضهم في العاقبة حالَهم في الآخرة من الإحراق والعذاب الأليم. وفي إقامة الظاهر مقام الضمير ذمٌّ لهم وتحذيرٌ لأمثالهم.

وقرأ عبد الله وابن وثاب والأعمشُ وطلحةُ وأبان بن تغلب: و«عِلِيًّا» بقَلْبِ الواو ياء وكَسْرِ العين واللام[1]، وأصلهُ فُعول لكنهم كسروا العين إتباعاً[2]، ورُوي ضمُّها عن ابن وثاب والأعمش وطلحة[3].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لتقرير ما سبق من أنه عليه السلام تلقَّى القرآن من لَدُنْ حكيمٍ عليم، كقصة موسى عليه السلام، وتصديرُه بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه، أي: آتينا كلَّ واحدٍ منهما طائفةً من العلم لائقةً به من عِلْمِ الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختصُّ بكلٍّ منهما كصنعةِ لَبوسٍ ومَنْطِقِ الطير، وخصَّها مقاتلٌ بعلم القضاء، وابنُ عطاءٍ بالعلم بالله عزَّ وجلَّ، ولعل الأَوْلَى ما ذكر. أو علماً سنيًّا غزيراً.

فالتنوينُ على الأول للتقليل، وهو أوفقُ بكون القائل هو الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ كلَّ علمٍ عنده سبحانه قليل، وعلى الثاني للتعظيم والتكثير، وهو أوفقُ بامتنانه جلَّ جلالُه؛ فإنه سبحانه الملكُ العظيم، فاللائقُ بشأنه الامتنانُ بالعظيم الكثير، فلكلٍّ وجهة، وربما يرجَّح الثاني.

ومما ينبغي أن لا يُلتفت إليه كونُ التنوين للنوعية، أي: نوعاً من العلم، والمرادُ به علم الكيمياء.

﴿وَقَالَا﴾ أي: قال كلٌّ منهما شكراً لِمَا أوتيه من العلم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا من العلم ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥﴾ على أنَّ عبارة كلٍّ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٥٨، وعنه نقل المصنف.

(٢) أي: إتباعاً للّام، وينظر تفصيل ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، وينظر كذلك الدر المصون ٧/ ٥٧٠، و٨/ ٥٨١.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٥٨.

منهما: فضَّلني، إلَّا أنه عبَّر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلِّم مع الغير إيجازاً. وحكايةُ الأقوالِ المتعدِّدةِ سواءٌ كانت صادرةً عن المتكلِّم أو عن غيره بعبارةٍ جامعةٍ للكلِّ مما ليس بعزيز، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون:٥١] قيل: وبهذا ظهر حُسْنُ موقع العطف بالواو دون الفاء؛ إذ المتبادرُ من العطف بالفاء ترتُّبُ حَمْدِ[1] كلٍّ منهما على إيتاء ما أُوتي كلٌّ منهما، لا على إيتاء ما أوتي نفسه فقط.

وتعقِّب بأنه إذا سلِّم ما ذكر فالعطفُ بالواو أيضاً يتبادر معه كونُ حَمدِ كلٍّ منهما على إيتاء ما أوتي كلٌّ منهما، فما يمنعُ من ذلك مع الواو يمنع نحوه مع الفاء.

وقال العلَّامة الزمخشريُّ: عطف بالواو دون الفاء مع أنَّ الظاهر العكسُ كما في قولك: أعطيته فشكر؛ إشعاراً بأنَّ ما قالاه بعضُ ما أَحْدَثَ فيهما إيتاءُ العلم وشيءٌ من مواجبه، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد، كأنه قال سبحانه: ولقد آتيناهما علماً فعملا فيه وعَلِماه وعَرَفا حقَّ النعمة فيه والفضيلة، وقالا: الحمد لله الذي فضَّلنا[2].

وحاصلُه أنَّ إيتاء العلم من جلائل النعم وفواضل المنح يستدعي إحداثَ الشكر أكثر ممَّا ذُكر، فجيء بالواو لأنها تستدعي إضماراً، فيُضْمَرُ ما يقتضيه موجبُ الشكر من قوله: فعملا به وعلماه، فإنه شكرٌ فعليٌّ، وقولِه: وعَرَفا حقَّ النعمة فيه والفضيلةِ، فإنه شكرٌ قلبيٌّ، وبقوله تعالى: «وقالا» إلخ تتمُّ أنواع الشكر لأنه شكرٌ لسانيٌّ، وفي الطيِّ إيماءٌ بأنَّ المَطْويَّ جاوَزَ حدَّ الإحصاء.

ويُعلم ممَّا ذُكر أنَّ هذا الوجه لاختيارِ العطف بالواو أَوْلَى مما ذهب إليه السكاكيُّ[3] من تفويض الترتُّبِ إلى العقل، لأنَّ المقام يستدعي الشكر البالغ، وهو ما يستوعبُ الأنواع، وعلى ما ذهب إليه يكون بنوع القوليِّ منها وحده.

(١) في (م): حمل، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٧٦، والكلام منه.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٩.

(٣) في مفتاح العلوم ص٢٧٨، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٣٨.

وهو أَوْلَى مما قيل أيضاً: إنه لم يَعْطِفْ بالفاء لأنَّ الحمد على نعمٍ عظيمةٍ من جملتها العلمُ، ولو عَطَفَ بالفاء لكان الحمد عليه فقط. لأنَّ السياق ظاهرٌ في أنَّ الحمد عليه، لا على ما يدخل هو في جملته.

وهل هناك على ما ذكره العلَّامة تقديرٌ حقيقةً، أم لا؟ قولان، وممَّن ذهب إلى الأول مَن يسمِّي هذه الواوَ الواوَ الفصيحة.

والظاهر أن المراد من الكثير المفضَّلِ عليه مَن لم يُؤْتَ مثلَ عِلْمِهما عليهما السلام. وقيل: ذاك، ومَن لم يؤتَ علماً أصلاً. وتعقِّب بأنه يأباه تبيينُ الكثير بعباده تعالى المؤمنين، فإنَّ خلوَّهم عن العلم بالمرة مما لا يمكن.

وفي تخصيصهما الكثير بالذكر إشارةٌ إلى أنَّ البعض مفضَّلون عليهما، كذا قيل، والمتبادر من البعض القليل. وفي «الكشاف»: أنَّ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾ أنهما فضِّلَا على كثيرٍ وفضِّل عليهما كثيرٌ[1].

وتعقِّبَ بأنَّ فيه نظراً؛ إذ يدلُّ بالمفهوم على أنهما لم يفضَّلا على القليل، فإمَّا أن يفضَّل القليلُ عليهما، أو يساوياه فلا، بل يحتمل الأمرين.

وردَّه صاحب «الكشف» بأنَّ الكثير لا يقابله القليل في مثل هذا المقام، بل يدلُّ على أنَّ حكم الأكثر بخلافه، ولَمَّا بَعُدَ تساوي الأكثر من حيثُ العادةُ، لا سيما والأصلُ التفاوتُ، حَكَم صاحب «الكشاف» بأنه يدل على أنه فضِّل عليهما أيضاً كثير. على أنَّ العُرْفَ طرحُ التساوي في مثله عن الاعتبار، وجَعْلُ التقابُلِ بين المفضَّل والمفضَّل عليه، ألا ترى أنهم إذا قالوا: لا أَفْضَلَ من زيدٍ، فُهِمَ أنه أفضلُ من الكلِّ. انتهى.

وفي الآية أوضحُ دليلٍ على فضل العلم وشَرَفِ أهله، حيث شكرا على العلم وجعلاه أساسَ الفضل، ولم يعتبرا دونه مما أوتياه من الملك العظيم، وتحريضٌ للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله، وأن يتواضعوا ويعتقدوا أنَّ في عباد الله تعالى مَن يَفْضُلُهم في العلم.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٩.

ونِعْمَ ما قال أميرُ المؤمنين عُمر بنُ الخطاب ﷺ حين نهى على المنبر عن التغالي في المهور، فاعترَضَتْ عليه عجوزٌ بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠] الآية: كلُّ الناس أفقهُ من عمر[١]. وفيه من جَبْرِ قلبِ العجوز وفَتْحِ باب الاجتهاد ما فيه. وجَعْلُ الشيعةِ له من المثالب من أَعْظَمِ المثالب وأَعْجَبِ العجائب.

ولعل في الآية إشارةً إلى جواز أن يقول العالم: أنا عالم. وقد قال ذلك جملةٌ من الصحابة ﷺ منهم: أميرُ المؤمنين عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وعبدُ الله بنُ عباس ﷺ، وما شاع من حديث: «مَن قال: أنا عالمٌ، فهو جاهلٌ»[٢] إنما يُعرف من كلام يحيى بن أبي كثير موقوفاً عليه[٣]، على ضَعْفٍ في إسناده، ويحيى هذا من صغار التابعين، فإنه رأى أنس بنَ مالك وحده، وقد وهم بعضُ الرواة فرفعه إلى النبيِّ ﷺ، وتحقيقُه في «أعذب المناهل» للجلال السيوطي[٤].

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: قام مقامه في النبوَّة والمُلْك، وصار نبيًّا ملكاً بعد موت أبيه دواد عليهما السلام، فوراثتُه إياه مجازٌ عن قيامه مقامه - فيما ذكر - بعد موته.

وقيل: المرادُ وراثةُ النبوَّةِ فقط. وقيل: وراثة الملك فقط.

وعن الحسن ونَسَبه الطبرسيُّ إلى أئمة أهل البيت: أنها وراثة المال[٥]. وتعقِّب بأنه قد صحَّ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»[٦]، وقد ذكره الصدِّيقُ والفاروقُ ﷺ

---

(١) سلف الخبر ٥/ ٣٩٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٨٤٦) من حديث ابن عمر ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٦: فيه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (١٧٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٦: فيه محمد بن أبي عطاء الثقفي ضعفه أحمد، وقال: هو منكر الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، ومع ذلك فهو من قول يحيى موقوفاً عليه.

(٤) أعذب المناهل في حديث: «مَن قال أنا عالم فهو جاهل»، ضمن كتاب الحاوي ٢/ ٤٥، وعنه نقل المصنف.

(٥) مجمع البيان ١٩/ ٢٠٥.

(٦) صحيح البخاري (٤٠٣٤)، وصحيح مسلم (١٧٥٨) من حديث عائشة ﷺ بلفظ: «لا نورث، ما تركنا صدقة»، وقد سلف تخريجه عند تفسير الآية (٨٥) من سورة البقرة.

بحضرةِ جَمْعٍ من الصحابة، وهم الذين لا يخافون في الله تعالى لومةَ لائم، ولم ينكره أحدٌ منهم عليهما.

وأخرج أبو داود والترمذيُّ عن أبي الدرداء قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ العلماءَ وَرَثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً ولكنْ ورَّثوا العلمَ، فَمَنْ أَخَذَه أَخَذَ بحظٍّ وافرٍ»(١).

وروى محمد بن يعقوب الرازي في «الكافي» عن أبي البختري عن أبي عبد الله جعفر الصادق أنه قال ذلك أيضاً(٢).

ومما يدلُّ على أنَّ هذه الوراثةَ ليست وراثةَ المال ما روى الكُلينيُّ عن أبي عبد الله: أنَّ سليمان ورث داود، وأنَّ محمداً ورث سليمان ﷺ.

وأيضاً وراثةُ المال لا تختصُّ بسليمان عليه السلام؛ فإنه كان لداود عدَّةُ أولادٍ غيرِه كما رواه الكلينيُّ عنه أيضاً. وذكر غيره أنه عليه السلام تُوفِّي عن تسعةَ عشر ابناً(٣)، فالإخبارُ بها عن سليمان ليس في كثيرُ نفعٍ، وإن كان المرادُ الإخبارَ بما يلزمُها من بقاء سليمان بعد داود عليهما السلام، فما الداعي للعدول عمَّا يفيده من غير خفاءٍ مثل: وقال سليمانُ بعد موت أبيه داود: «يا أيها الناس» إلخ؟

وأيضاً السياقُ والسباقُ يأبيان أن يكون المرادُ وراثةَ المال كما لا يخفى على منصِفٍ، والظاهرُ أنَّ الرواية عن الحسن غيرُ ثابتةٍ، وكذا الروايةُ عن أئمة أهل البيت ﵃، فقد سمعتَ في رواية الكُلينيِّ عن الصادق ﵁ ما ينافي ثبوتَها.

ووراثةُ غير المال شائعةٌ في الكتاب الكريم فقد قال عزَّ من قائل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ [فاطر:٣٢]، وقال سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الأعراف:١٦٩] ولا يضرُّ تفاوتُ القرينة فافهم.

---

(١) سنن أبي داود (٣٦٤١)، وسنن الترمذي (٢٦٨٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٧١٥)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) سلف ٤/٢١٨، ومحمد بن يعقوب الرازي هو أبو جعفر الكُليني بضم الكاف، من فقهاء الشيعة والمصنِّفين في مذهبهم. توفي سنة (٣٢٨هـ). الإكمال ٧/١٨٦.

(٣) البحر ٧/٥٩.

وكان عمرُه يوم توفِّي دواد عليهما السلام اثنتي عَشْرةَ سنةً أو ثلاثَ عَشْرةَ، وكان داود قد أوصى له بالملك، فلما توفِّي ملك وعمرُه ما ذكر.

وقيل: إنَّ داود عليه السلام ولَّاه على بني إسرائيل في حياته، حكاه في «البحر»[1].

﴿وَقَالَ﴾ تشهيراً لنعمة الله تعالى، وتعظيماً لقَدْرِها، ودعاءً للناس إلى التصديق بنبوَّته بذِكْرِ المعجزات الباهرات التي أوتيها، لا افتخاراً: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الظاهرُ عمومُه جميعَ الناس الذين يمكن عادةً مخاطبتُهم. وقال بعض الأجلَّة: المراد به رؤساء مملكته وعظماءُ دولته من الثَّقَلين وغيرهم، والتعبيرُ عنهم بما ذكر للتغليب.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعيِّ أنه قال: الناسُ عندنا أهلُ العلم[2].

﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: نُطْقَه، وهو في المتعارَفِ: كلُّ لفظٍ يعبَّر به عما في الضمير مفرداً أو مركباً. وقد يطلَقُ على كلِّ ما يصوَّتُ به على سبيل الاستعارةِ المصرّحة، ويجوزُ أن يعتبر تشبيهُ المصوِّت بالإنسان[3]، ويكون هناك استعارةٌ بالكناية وإثبات النطق تخييلاً[4].

وقيل: يجوز أيضاً أن يراد بالنطق مطلقُ الصوت على أنه مجازٌ مرسَلٌ، وليس بذاك.

ويحتملُ الأوجهَ الثلاثة قولُه:

لم يَمنعِ الشربَ منها غيرَ أنْ نَطَقَتْ حمامةٌ في غصونٍ ذاتِ أَوْقالِ[5]

وقد يطلق على ذلك للمشاكلة، كما في قولهم: الناطقُ والصامت، للحيوان والجماد.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٥٥.
(٣) في الأصل: بالإسناد، وهو تصحيف، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٣٨، والكلام منه.
(٤) في حاشية الشهاب: تخييل.
(٥) سلف ١٨/ ٥٢٦.

والذي عُلِّمه عليه السلام من منطق الطير هو ـ على ما قيل ـ ما يُفْهَم بعضُه من بعضٍ من معانيه وأغراضه، ويُحكى أنه عليه السلام مرَّ على بلبلٍ في شجرةٍ يحرِّكُ رأسَه ويُميلُ ذَنَبَه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: اللهُ تعالى ونبيُّه أعلم. قال: يقول: أكلتُ نصفَ ثمرةٍ فعلى الدنيا العَفَاءُ. وصاحت فاختة[١]، فأخبَر أنها تقول: ليت ذا الخَلْقَ لم يُخلقوا. وصاح طاووسٌ فقال: يقول: كما تدينُ تُدان. وصاح هدهدٌ فقال: يقول: استغفروا الله تعالى يا مذنبون. وصاح طِيطَوى[٢] فقال: يقول كلُّ حيٍّ ميتٌ وكلُّ جديدٍ بالٍ. وصاح خُطَّافٌ[٣] فقال: يقول: قدِّموا خيراً تجدوه. وصاحت رَخْمةٌ فقال: تقول: سبحان ربيِّ الأعلى مِلءَ سمائه وأرضه. وصاح قُمْريٌّ فأخبر أنه يقول: سبحان ربِّي الأعلى.

وقال: الحدأة تقول: كلُّ شيء هالكٌ إلا الله تعالى، والقطاة تقول: مَن سَكَتَ سَلِم، والببغاءُ يقول: ويلٌ لمن الدنيا همُّه، والديكُ يقول: اذكروا الله تعالى يا غافلون، والنسر يقول: يا ابن آدم عشْ ما شئت، آخِرُك الموت. والعُقاب يقول: في البعد من الناس أنسٌ، والضفدع يقول: سبحان ربِّي القدُّوس. والقنبرةُ[٤] تقول: اللهم الْعَنْ مُبغِضَ محمدٍ وآل محمد، والزرزور يقول: اللهمَّ إنِّي اسألك قوتَ يوم بيومٍ يا رزَّاق، والدُّرَّاج يقول: الرحمنُ على العرش استوى[٥]. انتهى، ونَظْمُ الضفدع في سلك المذكورات من الطير ليس في محلِّه، ومع هذا اللهُ تعالى أعلمُ بصحة هذه الحكاية.

وقيل: كانت الطير تكلِّمُه عليه السلام معجزةً له، نحو ما وقع من الهدهد في القصة الآتية.

---

(١) ضربٌ من الحمام المطوَّق، إذا مشى توسَّع في مشيه وباعد بين جناحيه وإبطيه وتمايل. المعجم الوسيط (فخت).

(٢) الطِّيطوى: طائر من طيور الماء لا يفارق الآجام وكثرة الماء. معجم متن اللغة ٣/ ٦٤٨.

(٣) كرُمَّان: طائر أسود. القاموس (خطف).

(٤) كذا في الأصل و(م)، قال البلطليوسي في شرح أدب الكاتب ص١٨١ (القسم الثاني): هي لغة فصيحة. وقال الفيروزآبادي في القاموس (قبر): القُبر كسُكَّر وصُرَد طائر، الواحدة بهاء، ويقال: القُنْبَراء، ولا تقل: قُنْبُرة كقُنْفُذَة.

(٥) عرائس المجالس للثعلبي ص٢٩٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩.

وقيل: عُلِّمَ عليه السلام ما تقصدُه الطير في أصواتها في سائر أحوالها، فيفهم تسبيحَها ووَعْظَها وما تخاطبه به عليه السلام، وما يخاطبُ به بعضها بعضاً.

وبالجملة علم من مَنْطِقها ما علم الإنسان من منطق بني صنفه. ولا يُستبعد أن يكون للطير نفوسٌ ناطقةٌ ولغاتٌ مخصوصةٌ تؤدِّي بها مقاصدَها كما في نوع الإنسان، إلا أنَّ النفوس الإنسانية أقوى وأكملُ، ولا يبعُدُ أن تكون متفاوتةً تفاوُتَ النفوس الإنسانية الذي قال به مَن قال.

ويجوزُ أن يعلِّم الله تعالى منطقَها مَن شاء من عباده ولا يختصُّ ذلك بالأنبياء عليهم السلام، ويجري ما ذكرناه في سائر الحيوانات، وذهب بعض الناس إلى أنَّ سليمان عليه السلام علِّم منطقها أيضاً إلا أنه نصَّ على الطير لأنها كانت جنداً من جنوده يحتاج إليها في التظليل من الشمس، وفي البعث في الأمور، ولا يَخْفَى أنَّ الآية لا تدلُّ على ذلك، فيَحتاجُ القولُ به إلى نقلٍ صحيح.

وزعم بعضُهم أنه عليه السلام علِّم أيضاً منطقَ النبات، فكان يمرُّ على الشجرة فتذكرُ له منافعها ومضارَّها، ولم أجد في ذلك خبراً صحيحاً. وكثير من الحكماء مَن يعرف خواصَّ النبات بلونه وهيئته وطعمه وغير ذلك، ولا يحتاج في معرفتها إلى نُطْقِه بلسان القال.

والضمير في «علِّمنا» و«أوتينا» قيل: له ولأبيه عليهما السلام، وهو خلافُ الظاهر، والأَوْلَى كونُه له عليه السلام. ولمَّا كان ملكاً مطاعاً خاطب رعيَّته على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة من التمهيد لِمَا يُراد من الرعية من الطاعة والانقياد في الأوامر والنواهي، ولم يكن ذلك تَعاظُماً وتكبُّراً منه عليه السلام.

ومراعاةُ قواعد السياسة للتوصُّل بها إلى ما فيه رضا الله عزَّ وجلَّ من الأمور المهمة، وقد أَمَر نبيُّنا ﷺ العباس بحبْسِ أبي سفيان حتى تمرَّ عليه الكتائبُ يومَ الفتح لذلك.

و«كلّ» في الأصل للإحاطة، وتَرِدُ للتكثير كثيراً، نحو قولك: فلانٌ يقصده كلُّ أحدٍ، ويَعْلَم كلَّ شيء، وهي كنايةٌ في ذلك أو مجازٌ مشهور، وهذا المعنى هو المرادُ هنا إذا جُعِلَتْ «مِن» صلةً، وهو المناسبُ لمقام التحدُّثِ بالنعم، وإنْ لم

تُجْعَلْ صلةً فهي على أصلها فيما قيل. وأنت تعلم أنه لا يتسنَّى ذلك إلّا إذا أُريد الكلُّ المجموعيُّ، وهو كما ترى.

وفي «البحر»: أنَّ قوله تعالى: (عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ) إشارةٌ إلى النبوَّة، وقوله سبحانه: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ إشارةٌ إلى الملك، والجملتان كالشرح للميراث[1].

وعن مقاتل: أنه أريد بما أوتيه النبوَّةُ والملكُ، وتسخيرُ الجنِّ والإنس والشياطين والريح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو ما يهمُّه عليه السلام من أمر الدنيا والآخرة. وقد يقال: إنه ما يحتاجه الملك من آلات الحرب وغيرها.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من التعليم والإيتاء ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ والإحسانُ من الله تعالى ﴿ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ الواضحُ الذي لا يَخْفَى على أحدٍ.

﴿ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾أو: إنَّ هذا الفضلَ الذي أوتيتهُ لهو الفضلُ المبين، فيكون من كلامه عليه السلام قطعاً، ذيَّل به ما تقدَّم منه ليدلَّ على أنه إنما قال ما قال على سبيل الشكر، كما قال ﷺ: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فَخْر»[2] بالراء المهملة آخره كما في الرواية المشهورة، أي: أقولُ هذا القول شكراً لا فخراً. ويقرُب من هذا المعنى: «ولا فخز» بالزاي، كما في الرواية الغير المشهورة[3].

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ أي: جُمِعَ له عساكرهُ من الأماكن المختلفة ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ بيانٌ للجنود كما في «البحر» وغيره[4]. ولا يلزم من ذلك أن يكون الجنودُ المحشورون له عليه السلام جميعَ الجنِّ وجميعَ الإنس وجميعَ الطير، إذ يأبى ذلك ـ مع قَطْعِ النظر عن العقل ـ قصةُ بلقيس الآتيةُ بعدُ، وكذا قصةُ الهدهد.

(١) البحر ٧/ ٥٩.
(٢) أخرجه أحمد (١٠٩٨٧)، والترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو عند مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه دون قوله: «ولا فخر».
(٣) ذكرها ابن عربي في الباب العاشر من الفتوحات ١/ ١٣٤، ولم نقف عليها عند غيره.
(٤) البحر ٧/ ٦٠، والدر المصون ٨/ ٥٨١.

ونُقل عن بعضهم أنه عليه السلام كان يأتيه من كلٍّ صنفٍ من الطير واحدٌ، وهو نصٌّ في أنَّ المحشور ليس جميعَ الطير.

ولا يكاد يصحُّ إرادةُ الجميع في الجميع على ما ذكره الإمام في الآية أيضاً[1]، وهو أنَّ المعنى أنه جعل الله تعالى كلَّ هذه الأصناف جنودَه لأنه وإن لم يستدع الحضورَ والاجتماعَ في موضع واحدٍ بل يكفي فيه مجرَّد الانقيادِ والدخولِ في حيطة تصرُّفه والاتِّباعِ له حيث كانوا؛ لإباء قصة بلقيس أيضاً عنه، فإنَّ المناسب الإخبارُ بهذا الجعل بعد الإخبارِ بدخولها ومَن معها في حيطة تصرُّفه.

والظاهرُ أنَّ هذا الحشرَ ليس إلَّا جمعَ العساكر ليذهب بهم إلى محاربة مَن لم يدخل في ربقة طاعته عليه السلام، وكونُه ليذهب بهم إلى مكة شكراً على ما وفِّق له من بناء بيت المقدس خلافُ الظاهر، لكنْ إذا صحَّ فيه خبرٌ قُبِلَ. وأنَّ المجموع من الأنواع المذكورة ما يليقُ بشأنه وأُبَّهتِهِ وعظمتِه سواءٌ جُعِلَتْ «من» بيانيةً أو تبعيضيةً.

وكونُه عليه السلام أحدَ المؤمنَيْنِ اللذينِ مَلَكا المعمورةَ بأسرها، إذا سلَّمنا صحةَ الخبر الدالِّ عليه وسلامتَه من المُعارِض وأنه نصٌّ في المطلوب، لا يستدعي سوى دخولِ سكّان المعمورة في عداد رعيته وحيطةِ ملكته. وليس ذلك دفعيًّا، بل هو إن صحَّ كان بحسب التدريج، وقد ذكر بعض المؤرِّخين أنَّ بلقيس إنما دخلت تحت طاعته في السنة الخامسة والعشرين من ملكه، وكانت مدةُ ملكه عليه السلام أربعين سنةً، وكذا كانت مدةُ ملكِ أبيه داود عليهما السلام.

والظاهرُ أنَّ الحاشر لكلِّ نوعٍ من الأنواع الثلاثة أشخاصٌ منهم، فيكون من كلِّ نوعٍ أشخاصٌ مأمورون بذلك معدُّون له، ولا تَسْتَبعد[2] ذلك في الطير إذا كنت من المؤمنين بقصة الهدهد.

ولا يلزمُك التزامُ ما قاله الإمام من أنَّ الله تعالى جعل للطير عقلاً في أيام سليمان عليه السلام ولم يجعل لها ذلك في أيامنا[3]، فما عليك بأسٌ إذا قلتَ بأنها

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٧.
(٢) في (م): تستعبد، وهو تصحيف.
(٣) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٧.

على حالةٍ واحدة اليومَ وذلك اليوم. ولا نعني بعقلها إلا ما تهتدي به لأغراضها، ووجودُ ذلك اليومَ فيها وكذا في غيرها من سائر الحيوانات مما لا ينكره إلا مكابِرٌ. وما علينا أن نقول: إنَّ عقولها من حيث هي كعقول الإنسان من حيث هي. ولعل فيها مَن يهتدي إلى مالا يهتدي إليه الكثيرُ[1] من بني آدم، كالنحل، ولَعَمْري إنها لو كانت خاليةً من العقل كما يقال وفرض وجود العقل فيها لا أظنُّ أنها تَصنعُ بعدَ وجوده أحسنَ ممَّا تصنعُه اليوم وهي خاليةٌ منه.

ولا يجب أن يكون كلُّ عاقلٍ مكلَّفاً، فلتكن الطيورُ كسائر العقلاء الذين لم يُبْعَثْ إليهم نبيٌّ يأمرهم وينهاهم، ويجوزُ أيضاً أن تكون عارفةً بربِّها مؤمنةً به جلَّ وعلا من غير أن يبعث إليها نبيٌّ، كمَن ينشأ بشاهِقِ جبلٍ وحده ويكون مؤمناً بربِّه سبحانه، بل كونُها مؤمنةً بالله تعالى مسبِّحةً له وكذا سائرُ الحيوانات ممّا تشهدُ له ظواهرُ الآيات والأخبار، وقد قدَّمنا بعضاً من ذلك[2]، وليس عندنا ما يجب له التأويل.

وبالغ بعضهم فزعم أنها مكلَّفةٌ، وفيها وكذا في غيرها من الحيوانات أنبياءُ لهم شرائعُ خاصةٌ، واستَدلَّ عليه بما استَدلَّ، والمشهورُ إكفارُ مَن زعم ذلك. وقد نصَّ على إكفاره جمعٌ من الفقهاء.

وتخصيصُ الأنواع الثلاثة بالذكر ظاهرٌ في أنه عليه السلام لم يسخَّر له الوحش، وفي خبرٍ أخرجه الحاكم عن محمد بن كعب ما هو ظاهرٌ في تسخيره له عليه السلام أيضاً، وسنذكره قريباً إن شاء الله تعالى، لكنه لا يعوَّل عليه.

وتقديم الجنِّ للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه عليه السلام وعزَّةِ سلطانه من أول الأمر؛ لِمَا أنَّ الجنَّ طائفةٌ عاتيةٌ، وقبيلةٌ طاغيةٌ ماردةٌ بعيدةٌ من الحشر والتسخير. ولم يقدَّم الطيرُ على الإنس مع أنَّ تسخيرها أشقُّ أيضاً وأدلُّ على قوة الملك وعزَّةِ السلطان؛ لئلَّا يُفْصَلَ بين الجنِّ والإنس المتقابلَيْنِ والمشتركَيْنِ في كثير من الأحكام.

---

(١) في الأصل: كثير.

(٢) ينظر ما سلف ١٤/٥٢٨ وما بعدها.

وقيل في تقديم الجنِّ: إنَّ مقام التسخير لا يخلو من تحقيرٍ، وهو مناسبٌ لهم. وليس بشيءٍ لأنَّ التسخير للأنبياء عليهم السلام شرفٌ؛ لأنه في الحقيقة لله عزَّ وجلَّ الذي سخَّر كلَّ شيءٍ. وإذا اعتبر في نفسه فالتعليلُ بذلك غيرُ مناسبٍ للمقام، ويكفي هذا في عدم قبوله.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: يُحْبَسُ أوَّلُهم ليَلْحَقَ آخرُهم، فيكونوا مجتمعين لا يتخلَّفُ منهم أحدٌ، وذلك للكثرة العظيمة. ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد في العساكر، والأول أولى، وفيه مع الدلالة على الكثرة والإشعارِ بكمال مسارعتهم إلى السير الدلالةُ على أنهم كانوا مَسُوسينَ غيرَ مهملين لا يتأذَّى أحدٌ بهم.

وأصلُ الوَزْعِ: الكفُّ والمنع، ومنه قولُ عثمان ﷺ: ما يَزَعُ السلطانُ أكثرُ مما يَزَعُ القرآن[١]. وقولُ الحسن: لابدَّ للقاضي من وَزَعَةٍ. وقول الشاعر:

ومَن لَمْ يَزَعْه لبُّه وحياؤه فليس له من شيب فَوْدَيْهِ وازِعُ[٢]

وتخصيص حَبْسِ أوائلهم بالذكر دون سَوْقِ أواخرهم مع أنَّ التلاحُقَ يحصل بذلك أيضاً؛ لأنَّ في ذلك شفقةً على الطائفتين، أمَّا الأوائلُ فمن جهةِ أن يستريحوا في الجملة بالوقوف عن السير، وأمَّا الأواخرُ فمن جهة أن لا يُجْهِدوا أنفسهم بسرعة السير.

وقيل: إنَّ ذلك لِمَا أنَّ أواخرهم غيرُ قادرين على ما يقدر عليه أوائلُهم من السير السريع، وأخرج الطبرانيُّ والطستيُّ في «مسائله» عن ابن عباس ﷺ أنه يُحبسُ أوَّلهم على آخرهم حتى تنامَ الطير[٣]. والله تعالى أعلم بصحة الخبر. والظاهر أنَّ هذا الوزعَ إذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح في الجوِّ.

---

(١) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ٣/ ٩٨٨، وابن عبد البر في التمهيد ١/ ١١٨.

(٢) البيت لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي في رثاء الإمام الشافعي رحمه الله، كما في تاريخ بغداد ٢/ ٧١، وتهذيب الكمال ٢٤/ ٣٧٧. قوله: فوديه، الفَوْد: ناحية الرأس. القاموس (فود).

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٠٤.

والأخبارُ في قصته عليه السلام كثيرة؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كان يوضعُ لسليمان ثلاثُ مئةِ ألفِ كرسيٍّ، فيجلس مؤمني الإنس مما يليه ومؤمني الجن من ورائهم، ثم يأمر الطير فتظلُّه، ثم يأمر الريح فتحملُه، فيمرُّون على السنبلة فلا يحركونها(١).

وأخرج الحاكم عن محمد بن كعب قال: بَلَغَنا أنَّ سليمان عليه السلام كان معسكره مئةَ فرسخ: خمسةٌ وعشرون للإنس، وخمسةٌ وعشرون للجنِّ، وخمسةٌ وعشرون للوحش، وخمسةٌ وعشرون للطير، وكان له ألفُ بيتٍ من قوارير على الخشب فيها ثلاث مئةِ منكوحةٍ وسبع مئة سُرِّيةٍ، فيأمر الريح العاصف فترفعهُ، ثم يأمر الرُّخاءَ فتسير به، وأوحى الله عز وجل إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إنِّي قد زدتُك في ملكك أنه لا يتكلَّم أحدٌ من الخلائق بشيء إلا جاءت به الريح إليك، وألقته في سمعك(٢).

ويُروى أنَّ الجنَّ نَسَجَتْ له عليه السلام بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ، ومنبرُه في وسطه من ذهب، فيصعد عليه وحوله ستُّ مئة ألف كرسيٍّ من ذهب وفضةٍ فتقعد الأنبياءُ عليهم السلام على كراسيِّ الذهب، والعلماءُ على كراسيِّ الفضة، وحولَهم الناسُ، وحول الناس الجنُّ والشياطين، وتُظِلُّه الطير بأجنحتها، وترفعُ ريحُ الصبا البساطَ فتسير به مسيرة شهر(٣).

وأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وابنُ المنذر عن وهب بن منبه قال: مرَّ سليمانُ عليه السلام وهو في ملكه وقد حملته الريح على رجلٍ حرَّاثٍ من بني إسرائيل، فلمَّا رآه قال: سبحان الله! لقد أُوتيَ آل داود ملكاً. فحملتها الريحُ فوضعتها في أذنه فقال: ائتوني بالرجل، قال: ماذا قلت؟ فأخبره، فقال سليمان: إني خشيتُ عليك الفتنة، لَثَوَابُ «سبحان الله» عند الله يومَ القيامةِ أعظمُ ممَّا رأيتَ آلَ داود أُوتوا. فقال الحرَّاث: أَذْهَب الله تعالى همَّك كما أذهبت همِّي.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢٨٥٥).

(٢) المستدرك ٢/ ٥٨٩.

(٣) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٢٩٦ عن مقاتل، وفيه: ثلاثة آلاف كرسي، بدل: ست مئة ألف كرسي.

وفي بعض الروايات أنه عليه السلام نزل ومشى إلى الحرَّاث وقال: إنما مشيتُ إليك لئلا تتمنَّى ما لا تقدرُ عليه، ثم قال: لتسبيحةٌ واحدةٌ يقبلها الله تعالى خيرٌ مما أُوتي آل داود[1].

وأكثرُ الأخبار في هذا الشأن لا يعوَّلُ عليها، فعليك بالإيمان بما نطق به القرآن ودلَّت عليه الأخبار الصحيحة، وإياك من الانتصار لِمَا لا صحةَ له مما يذكره كثيرٌ من القُصَّاص والمؤرِّخين، مما فيه مبالغاتٌ شنيعةٌ بمجرَّدِ أنها أمورٌ ممكنةٌ يصحُّ تعلُّق قدرته عزَّ وجلَّ بها، فتفتح بذلك بابَ السخرية بالدين والعياذُ بالله تعالى. ولا يَبعُدُ أن يكون أكثر ما تضمَّن مثلُ ذلك من وضع الزنادقة يريدون به التنفير عن دين الإسلام.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ «حتى» هي التي يبتدأ بها الكلام، ومع ذلك هي غايةٌ لِمَا قبلها، وهي ها هنا غايةٌ لِمَا يُنْبِئُ عنه قوله تعالى: (فَهُمۡ يُوزَعُونَ) من السير، كأنه قيل: فساروا حتى إذا أتوا.. إلخ.

ووادي النمل وادٍ بأرض الشام كثيرُ النمل، على ما روي عن قتادة ومقاتل.

وقال كعب: هو وادي السدير من أرض الطائف.

وقيل: وادٍ بأقصى اليمن، وهو معروفٌ عند العرب مذكورٌ في أشعارها.

وقيل: هو وادٍ تسكنُه الجنُّ، والنملُ مراكبُهم. وهذا عندي مما لا يُلتفت إليه.

وتعديةُ الفعل إليه بكلمة «على» مع أنه يتعدَّى بنفسه أو بـ «إلى»؛ إمَّا لأنَّ إتيانهم كان من جانبٍ عالٍ، فعدِّي بها للدلالة على ذلك، كما قال المتنبي:

ولـشـدَّ مـا جـاوَزْتَ قَـدْرَكَ صـاعـداً ... ولَـشـدَّ مـا قَـرُبَـتْ عـلـيـك الأنـجـمُ[2]

لمَّا كان قربُ الأنجم ـ وإن أراد بها أبياتَ شعره ـ من فوق. وإمَّا لأنَّ المراد بالإتيان عليه قَطْعُه وبلوغُ آخره، من قولهم: أتى على الشيء، إذا أنفده[3] وبلغ

---

(١) الزهد ص٥١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٣، ولفظ الرواية الأولى موافق لما في الدر، ولفظ الثانية موافق لما في الزهد.

(٢) ديوان المتنبي ٤/ ٢٥٩.

(٣) بالدال المهملة، بمعنى: أفناه، ومنه: «لَنَفِدَ البحر». حاشية الشهاب ٧/ ٣٩.

آخره. ثم الإتيانُ عليه بمعنى قَطْعِه مجازٌ عن إرادة ذلك، وإلّا لم يكن للتحذير من الحَطْمِ الآتي وجهٌ؛ إذ لا معنى له بعد قَطْعِ الوادي الذي فيه النملُ ومُجاوَزَتِه.

والظاهرُ على الوجهين أنهم أتوا عليه مشاةً، ويحتملُ أنهم كانوا يسيرون في الهواء فأرادوا أن ينزلوا هناك فأحسَّت النملة بنزولهم فأنذرت النمل.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ جوابُ «إذا»، والظاهر أنها صوَّتَتْ بما فهم سليمانُ عليه السلام منه معنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ وهذا كما يَفهم عليه السلام من أصوات الطير ما يفهم، ولا يقدح في ذلك أنه عليه السلام لم يعلم إلّا منطق الطير؛ إمَّا لأنها كانت من الطير ذات جناحين كما أخرج ابنُ أبي حاتم عن الشعبيِّ، وهو وعبدُ الرزاق وعبدُ بن حميد وابنُ المنذر عن قتادة[1]. وكم رأينا نملةً لها جناحان تطيرُ بهما، وكونُ ذلك لا يقتضي عدَّها من الطير محلُّ نظرٍ. وإمّا لأنَّ فَهْمَ ما ذكر وقع له عليه السلام هذه المرةَ فقط، ولم يطَّرِدِ كَفَهْم أصوات الطير. وليس في الآية السابقة ولا في الأخبار ما ينفي فَهْمَ ما يقصدُه غيرُ الطير من الحيوانات بدون اطِّراد.

وقال ابن بحر: إنها نطقتْ بذلك معجزةً لسليمان عليه السلام كما نطق الضبُّ والذِّراع لرسول الله ﷺ[2].

قال مقاتل: وقد سمع عليه السلام قولَها من ثلاثة أميالٍ. ويلزمُ على هذا أنها أحسَّتْ بنزولهم من هذه المسافة، والسمعُ من سليمان منها غيرُ بعيدٍ؛ لأنَّ الريح كما جاء في الآثار تُوْصِلُ الصوت إليه، أو لأنَّ الله تعالى وهبه إذ ذاك قوةً قدسيةً

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٧٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٥٥، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر٥/ ١٠٤.

(٢) حديث الضب أخرجه مطولاً الطبراني في الأوسط (٥٩٩٦)، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٣٦-٣٨ من حديث عمر ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٩٤: رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن شيخه محمد بن علي بن الوليد، قال البيهقي: والحمل في هذا الحديث عليه. اهـ. وقال الذهبي في الميزان ٣/ ٦٥١: صدق والله البيهقي فإنّه خبر بالحل. وقال ابن دحية كما في تخريج أحاديث الشفا ص١٣٠ للسيوطي: حديث الضب موضوع. وقد سلف ١/ ١٠٠، و٧/ ١٦٦.

وحديث تكليم الذراع له ﷺ سلف ١٨/ ١٢٩.

سمع بها، إلا أنَّ إحساس النملة من تلك المسافة بعيدٌ، والمشهورُ عند العرب بالإحساس من بعيد القراد، حتى ضربوا به المثل(١). وأنت تعلم أنه لا ضَرَرَ في إنكار صحة هذا الخبر.

وقيل: إنه عليه السلام لم يسمع صوتاً أصلاً، وإنما فهم ما في نفس النملة إلهاماً من الله تعالى. وقال الكلبي: أخبره مَلَكٌ بذلك. وإلى أنه لم يسمع صوتاً يشيرُ قول جرير:

لو كنتُ أوتيتُ كلامَ الحُكْلِ ... عِلْمَ سليمان كلامَ النمل(٢)

فإذا أراد بالحُكْل مالا يُسمَعُ صوته.

وقال بعضهم: كأنها لمَّا رأتهم متوجِّهين إلى الوادي فرَّتْ عنهم مخافةَ حَطْمِهم، فتبعها غيرُها وصاحتْ صيحةً تنبَّهتْ بها ما بحضرتها من النمل فتبعتها، فشبِّه ذلك بمخاطبة العقلاء ومُناصَحتِهم، ولذلك أُجْرُوا مجراهم، حيث جُعِلتْ هي قائلةً وما عَدَاها من النمل مقولاً له، فيكون الكلام خارجاً مخرج الاستعارة التمثيلية، ويجوزُ أن يكون فيه استعارةٌ مكنيةٌ.

وأنت تعلمُ أنه لا ضرورةَ تدعو إلى ذلك. ومَن تتبَّع أحوال النمل لا يستبعدُ أن تكون له نفسٌ ناطقةٌ؛ فإنه يدَّخر في الصيف ما يقتاتُ به في الشتاء، ويشقُّ ما يدَّخره من الحبوب نصفين مخافةَ أن يصيبه الندى فينبتَ، إلَّا الكزبرةَ والعدسَ فإنه يقطع الواحدة منهما أربع قِطَعٍ ولا يكتفي بشقِّها نصفين؛ لأنها تنبتُ كما تنبت إذا لم تُشقَّ. وهذا وأمثالهُ يحتاج إلى علمٍ كلِّيٍّ استدلاليٍّ، وهو يحتاج إلى نفسٍ ناطقةٍ. وقد برهن شيخُ الأشراف على ثبوت النفس الناطقة لجميع الحيوانات، وظواهرُ

---

(١) حيث قالوا: أسمع من قراد، وذلك أنه يسمع وطء أخفاف الإبل من مسيرة يوم فيتحرك لها. حياة الحيوان (قرد).

(٢) لم نقف عليه لجرير، وعزاه ابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٦٣٦، والجاحظ في الحيوان ٤/ ٨، والأزهري في تهذيب اللغة ٤/ ١٠٠-١٠١ لرؤبة، وهو في ديوانه ص١٣١. وقال ابن بري كما في اللسان (حكل): الرجز للعجاج. ورواية الديوان وتهذيب اللغة واللسان: لو أنني أُعطيت عِلْمَ الحُكْل، وفي المعاني: لو كنت علِّمتُ كلام الحكل. وقال ابن بري: صوابه: أو كنت. وجاء بينهما في الديوان: علمت منه مُسْتَسِرَّ الدَّخْلِ. وهو في البحر ٧/ ٦٠ بلفظ المصنف دون نسبة.

الآيات والأخبارُ الصحيحة تقتضيه كما سمعتَ قديماً وحديثاً، فلا حاجة بك إلى أن تقول: يجوز أن يكون الله تعالى قد خلق في النملة إذ ذاك النطق وفيما عَدَاها من النمل العقلَ والفَهْمَ، وأما اليومَ فليس في النمل ذلك.

ثم إنه ينبغي أن يُعلم أنَّ الظاهر أنَّ علم النملة بأنَّ الآتيَ هو سليمانُ عليه السلام وجنودهُ كان عن إلهام منه عزَّ وجلَّ، وذلك كعلم الضبِّ برسول الله ﷺ حين تكلَّم معه وشهد برسالته عليه الصلاة والسلام. والظاهرُ أيضاً أنها كانت كسائر النمل في الجثة، وفيه اليومَ ما يقربُ من الذبابة، ويسمَّى بالنمل الفارسي. وبالغَ بعضُ القصَّاص في كبرها، ولا يصحُّ له مستند.

وفي بعض الآثار أنها كانت عرجاء، واسمُها: طاخية، وقيل: جُرْمَى. وفي «البحر»: اختُلف في اسمها العَلَم، ما لَفْظُه؟ وليتَ شعري مَن الذي وضع لها لفظاً يخصُّها، أبنوا آدم أم النمل[1]؟! انتهى.

والذي يذهب إلى أنَّ للحيوانات نفوساً ناطقةً لا يمنع أن تكون لها أسماءٌ وَضَعها بعضُها لبعضٍ، لكنْ لا بألفاظٍ كألفاظنا بل بأصواتٍ تؤدَّى على نحوٍ مخصوصٍ من الأداء، ولعله يشتملُ على أمورٍ مختلفةٍ كلٌّ منها يقومُ مقام حرفٍ من الحروف المألوفة لنا، إذا أراد أن يُتْرجِم عنها مَن عَرَفَها مِن ذوي النفوس القدسية تَرْجَمها بما نعرفُ، ويقرِّبُ هذا لك أنَّ بعض كلام الإفرنج وأشباههم لا نسمعُ منه إلا كما نسمع من أصوات العصافير ونحوها، وإذا تُرجم لنا بما نعرفُه ظهر مشتملاً على الحروف المألوفة.

والظاهرُ أنَّ تاء «نملة» للوحدة، فتأنيث الفعل لمراعاة ظاهر التأنيث، فلا دليل في ذلك على أنَّ النملة كانت أنثى؛ قاله بعضهم.

وعن قتادة أنه دخل الكوفةَ فالتفَّ عليه الناس، فقال: سَلُوا عما شئتم. وكان أبو حنيفةَ رضي الله عنه حاضراً وهو غلامٌ حَدَثٌ، فقال: سلوه عن نملة سليمان، أكانت ذكراً أم أنثى؟ فسألوه فأُفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى، فقيل له: من أين عرفتَ؟ فقال: من كتاب الله تعالى، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ ولو كان ذكراً لقال سبحانه: قال نملة، وذلك أنَّ النملة مثلُ الحمامة والشاة في وقوعها على

---

(١) البحر ٧/ ٦١.

الذكر والأنثى، فيميَّز بينهما بعلامةٍ، نحو قولهم: حمامةٌ ذَكَر وحمامةٌ أنثى، وهو وهي، كذا في «الكشاف»[(١)].

وتعقَّبه ابن المنير فقال: لا أدري العجبُ منه أم من أبي حنيفة إن ثَبَتَ ذلك عنه، وذلك أنَّ النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس، فيقال: نملةٌ ذكرٌ ونملةٌ أنثى، كما يقولون: حمامةٌ ذكرٌ وحمامةٌ أنثى، وشاةٌ ذكرٌ وشاةٌ أنثى، فلفظُها مؤنَّثٌ ومعناها محتمِلٌ، فيمكن أن تؤنَّث لأَجلِ لفظها وإن كانت واقعةً على ذَكَرٍ، بل هذا هو الفصيح المستعمل، ألا ترى قوله ﷺ: «لا يضحَّى بعوراء ولا عمياء ولا عجفاء»[(٢)] كيف أخرج عليه الصلاة والسلام هذه الصفات على اللفظ مؤنَّثةً، ولا يعني ﷺ الإناث من الأنعام خاصةً، فحينئذ قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ رُوعيَ فيه تأنيثُ اللفظ، وأمَّا المعنى فيحتمل التذكيرَ والتأنيثَ على حدٍّ سواء. وكيف يَسأل أبو حنيفةَ رضي الله عنه بهذا ويفحِمُ به قتادةَ مع غزارة عِلْمِه، والأشبهُ أنَّ ذلك لا يصحُّ عنهما[(٣)]. اهـ.

وقال ابن الحاجب عليه الرحمة: التأنيثُ اللفظيُّ هو أن لا يكون بإزائه ذَكَرٌ في الحيوان كظلمة وعين، ولا فرق بين أن يكون حيواناً أو غيره كدجاجة وحمامة إذا قُصِدَ به مذكَّرٌ فإنه مؤنَّثٌ لفظيٌّ، ولذلك كان قولُ مَن زعم أنَّ النملة في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ أنثى لورود تاء التأنيث في «قالت» وهماً؛ لجوازِ أن يكون مذكَّراً في الحقيقة، وورود تاء التأنيث كورودها في الفعل المؤنَّث اللفظيِّ، نحو: جاءت الظلمة.

وأجاب بعض فضلاء ما وراء النهر وقال: لعمري إنه قد تعسَّفَ ها هنا ابنُ الحاجب وترك الواجب، حيث اعترض على إمام أهل الإسلام، واعتراضُه بقوله: وورود تاء التأنيث كورودها.. إلخ، ليس بشيءٍ؛ إذ لو كان جائزاً أن يؤتى بتاء التأنيث في الفعل لمجرَّد صورة التأنيث في الفاعل المذكَّر الحقيقيِّ لكان ينبغي جوازُ أن يقال: جاءتني طلحةُ، مع أنه لا يجوز.

---

(١) ٣/ ١٤١-١٤٢.

(٢) أخرجه الترمذي (١٤٩٧) بنحوه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) الانتصاف ٣/ ١٤١ دون قوله: وكيف يسأل أبو حنيفة... إلخ.

وجوابهُ عن ذلك في شرحه بقوله: وليس ذلك كتأنيث أسماء الأعلام؛ فإنها لا يعتبر فيها إلا المعنى دون اللفظ خلافاً للكوفيين، والسرُّ فيه هو أنهم نقلوها عن معانيها إلى مدلولٍ آخر فاعتبروا فيها المدلول الثاني، ولو اعتبروا تأنيثها لكان اعتباراً للمدلول الأول فيفسد المعنى، فلذلك لا يقال: أعجبتني طلحةُ = تناقُضٌ محضٌ، كأنَّه نسي ما أمضى في صدر كتابه من قوله: فإن سمِّي به مذكَّرٌ فشرطُه الزيادةُ، يعني فإنْ سمِّي بالمؤنَّث المعنويِّ فشرطُه الزيادة على ثلاثة أحرفٍ، فلا يخفى على مَن له أدنى مسكةٍ أنَّ عقرب مع أنَّ علامةَ التأنيث فيه مقدَّرةٌ، العَلَميةُ لا تمنعها عن اعتبار تأنيثها حتى تمنع من الصرف، فكيف تمنع العَلَمية عن اعتبار التأنيث في طلحة مع أنَّ علامة التأنيث فيه لفظية، فإذن ليس طرحُ التاء عن الفعل إلا لأنَّ التاء إنما يُجاء بها علامةً لتأنيث الفاعل، والفاعل ها هنا مذكَّرٌ حقيقيٌّ، فكذا النملةُ لو كان مذكَّراً لكان هو مع طلحة حَذْوَ القذةِ بالقذة.

وينصر قول أبي حنيفة ﵁ ما نقل عن ابن السكيت: هذا بطةٌ ذَكَر، وهذا حمامة ذَكَر، وهذا شاة: إذا عَنَيْتَ كبشاً، وهذا بقرة: إذا عنيت ثوراً، فإنْ عنيتَ به أنثى قلت: هذه بقرة[1]. اهـ. وارتضاه الطيبيُّ، ثم قال: فظهر أنَّ القول ما قالت حَذَامِ، والمذهب ما سلكه الإمام.

وفي «الكشف»: إنَّ التاء في «نملة» للوحدة، فهي في حكم المؤنَّث اللفظيِّ جاز أن تعامل معاملته كتمر وتمرة، على ما نصَّ عليه في «المفصَّل»[2]. ولا يُشْكِلُ بنحو طلحة حيث لم يجز إلحاق فعله التاءَ لأنَّ أسماء الأعلام يُعتبر فيها المعنى دون اللفظ، خلافاً للكوفيين، إلى آخر ما ذكره ابن الحاجب، ولا نقض باعتبار التأنيث في عقرب إن سمِّي به مذكَّرٌ، ولا في طلحة نفسِه باعتبار منع الصرف على ما ظنَّه بعضُ فضلاء ما وراء النهر.

وصوَّبه شيخنا الطيبيُّ لأنَّ اعتبار المعنى هو فيما يرجع إلى المعنى لا فيما يرجع إلى اللفظ، وإلحاق العلَامةِ باعتبار الفاعل إمَّا للتأنيث الحقيقيِّ وإما لشَبهِ التأنيث من الوحدة أو الجمعية ونحوها، فإذا لم يبق المعنى أعني التأنيثَ وشبهَ التأنيث فلا وجه للإلحاق. وأما منعُ الصرف فلا نظر فيه إلى معنى التأنيث، بل إلى هذه

---

(١) إصلاح المنطق ص٣٩٦.

(٢) شرح المفصل ٥/ ٧١.

الزيادة لفظاً أو تقديراً، وذلك غيرُ مختلفٍ في المنقول والمنقولِ عنه، وكفاك دليلاً لاعتبار اللفظ وحده في هذا الحكم تَفْرِقتُهم في «سقر» بين تسمية المذكَّر به والمؤنث، دون عقرب، فلو تأمَّل المناقضُ لكان ما أورده عليه لا له، هذا وإن الإمام ﷺ كوفيٌّ، والقاعدة على أصله مهدومةٌ. انتهى، وهو كلام متين.

والحزمُ القولُ بعدم صحة هذه الحكاية، فأبو حنيفةَ ﷺ مَن عرفْتَ وإن كان إذ ذاك غلاماً حَدَثاً، وقتادةُ بن دعامةَ السدوسيُّ بإجماع العارفين بالرجال كان بصيراً بالعربية، فيبعُدُ كلَّ البعد وقوعُ ما ذكر منهما، والله تعالى أعلم.

والحَطْمُ: الكسر، والمراد به الإهلاك. والنهيُ في الظاهر لسليمان عليه السلامُ وجنودِه، وهو في الحقيقة نهيٌ على طريق الكناية للنمل عن التوقُّف حتى تُحطم؛ لأن الحطم غيرُ مقدورٍ لها، نحو قولك: لا أرينَّك هاهنا، فإنه في الظاهر نهيٌ للمتكلِّم عن رؤية المخاطب، والمقصودُ نهيُ المخاطَبِ عن الكون بحيث يراه المتكلِّم، فالجملة استئنافٌ، أو بدلُ اشتمالٍ من جملة «ادخلوا مساكنكم». وقول بعضهم: إذا كان المعنى النهيَ عن التوقُّف حتى تُحطَم يحصلُ الاتِّحاد بين الجملتين. يقتضي أنه بدلُ كلٍّ من كلٍّ؛ بناءً على أنَّ الأمر بالشيء عينُ النهي عن ضدِّه، وعلى ما ذكر لا حاجة إليه. وبالجملة اعتراضُ أبي حيان[1] على وجه الإبدال باختلافِ مدلولَي الجملتين ليس في محلِّه.

وجوَّز الزمخشريُّ كون «لا يحطمنكم» جواباً للأمر[2]. أعني: «ادخلوا»، و«لا» حينئذٍ نافيةٌ.

وتعقِّب بأنَّ دخول النون في جواب الشرط مخصوصٌ بضرورةِ الشعر، كقوله:

فمهما[3] تَشَأْ منه فزارة تُعْطِه ومهما تَشَأْ منه فزارة تَمنعا[4]

---

(١) في البحر ٧/ ٦٢.

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٢.

(٣) في الأصل و(م): مهما، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٤) نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ٥١٥، وابن عصفور في الضرائر ص٣٠ لابن الخَرِع، وهو عوف بن عطية بن الخرع، وقال البغدادي في الخزانة ١١/ ٣٩٨: والبيت غير موجود في ديوان ابن الخرع، وإنما هو من قصيدة للكميت بن ثعلبة. اهـ. وهو دون نسبة في معاني =

وفي «الكتاب»: وهو قليل في الشعر شبَّهوه بالنهي حيث كان مجزوماً غير واجب[١].

وأرادت النملة على ما في «الكشاف»: لا يحطمنَّكم جنودُ سليمان، فجاءت بما هو أبلغ، ونحوُه قولُه:

عـجـبـتُ مـن نـفـسـي ومـن إشـفـاقـهـا[٢]

حيث أراد: عجبتُ من إشفاق نفسي، فجاء بما هو أبلغ للإجمال والتفصيل.

وتعقَّب ذلك في «البحر» بأنَّ فيه القولَ بزيادة الأسماء، وهي لا تجوز، بل الظاهرُ إسنادُ الحَطْمِ إليه عليه السلام وإلى جنوده، والكلامُ على حذف مضافٍ، أي: خَيْل سليمان وجنوده، أو نحو ذلك مما يصحُّ تقديره[٣]. وللبحث فيه مجالٌ.

وجملة «وهم لا يشعرون» حالٌ من مجموع المتعاطفين والضميرُ لهما. وجوِّز أن تكون حالاً من الجنود والضميرُ لهم. وأيّاما كان ففي تقييد الحطم بعدم الشعور بمكانهم، المشعِرِ بأنه لو شعروا بذلك لم يحطموا، ما يُشْعِرُ بغايةِ أدب النملة مع سليمان عليه السلام وجنودِه، وليت مَن طعن في أصحاب النبيِّ ﷺ ورضي الله عنهم تأسَّى بها فكفَّ عن ذلك وأَحْسَنَ الأدب.

ورُوي أن سليمان عليه السلام لمَّا سمع قول النملة: «يا أيها النمل» إلخ قال: ائتوني بها. فأتوا بها فقال: لمَ حذَّرْتِ النملَ ظلمي؟ أما عَلِمْتِ أني نبيّ عدل، فلمَ قلتِ: لا يَحْطِمنَّكم سليمان وجنودُه. فقالت: أمَا سمعتَ قولي: وهم لا يشعرون،

= القرآن للفراء ١/ ١٦٢، والبحر ٧/ ٦٢، والدر المصون ٨/ ٥٨٧ دون نسبة، وروايته في المصادر عدا البحر: تعطكم، بدل: تعطه. وقال أبو حيان: وإذا لم يجز ذلك في جواب الشرط إلا في الشعر فأحرى أن لا يجوز في جواب الأمر إلا في الشعر، وكونه في جواب الأمر متنازع فيه على ما قرِّر في النحو.

(١) الكتاب ٣/ ٥١٥، والبحر ٧/ ٦٢.

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٢، وبعده: ومن طِرادي الطير عن أرزاقها. والرجز لأبي البلاد خليفة بن بلاد كما في أنساب الأشراف ١١/ ٤٩٢، وفي غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٦٦-٦٧: هو لأعرابي كان يطرد الطير عن زرعه في سنة جَدْبٍ.

(٣) البحر ٧/ ٦٢.

ومع ذلك إني لمْ أُرِدْ حَطْمَ النفوس وإنما أردتُ حَطْمَ القلوب، خشيتُ أن يروا ما أنعم الله تعالى به عليك من الجاه والملك العظيم فيقعوا في كفران النعم، فلا أقلَّ من أن يشتغلوا بالنظر إليك عن التسبيح. فقال لها سليمان: عِظيني، فقالت: أعلمتَ لمَ سمِّي أبوك داود؟ قال: لا. قالت: لأنه داوى جراحة قلبه، وهل تدري لمَ سُميِّتَ سليمان؟ قال: لا. قالت: لأنك سليمُ القلب والصدر. ثم قالت: أتدري لمَ سخَّر الله تعالى لك الريح؟ قال: لا. قالت: أخبرك الله تعالى بذلك أنَّ الدنيا كلَّها ريحٌ، فَمَنْ اعتمد عليها فكأنما اعتمد على الريح.

وهذا ظاهرُ الوضع كما لا يخفى، وفيه ما يُشْبِهُ كلام الصوفية.

واللهُ تعالى أعلمُ بصحَّةِ ما روي من أنها أهدتْ إليه نَبْقةً(١)، وأنه عليه السلام دعا للنمل بالبركة.

وجوِّز أن تكون جملة «هم لا يشعرون» في موضع الحال من النملة، والضميرُ للجنود كالضمائر السابقة في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا﴾، وهي من كلامه تعالى، أي: قالت ذلك في حال كون الجنود لا يشعرون به. وليس بشيء.

وقد يَقرُبُ منه ما قيل: إنه يجوز أن تكون الجملة معطوفة على مقدَّرٍ، وهي من كلامه عزَّ وجلَّ كأنّه قيل: فَهِمَ سليمانُ ما قالت والجنودُ لا يشعرون بذلك.

وقرأ الحسن وطلحة ومعتمر بن سليمان وأبو سليمان(٢) التيمي: «نَمُلَةٌ» بضم الميم كسَمُرة. وكذلك «النَّمُل»، كالرَّجْل والرَّجُل لغتان، وعن سليمان(٣) التيمي:

---

(١) النبقة: مفرد النَّبْق، وهو حمل السِّدْر، وأشبه شيء به العنَّاب قبل أن تشتد حمرته، ونبق هجر بأرض العرب هو أشد نبقٍ يعلم حلاوةً، وأطيبه رائحة، ويفوِّح فم آكله وثياب مُلابسه كما يفوح العطر. معجم متن اللغة (نبق).

(٢) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٧/ ٦١، وفي المحتسب ٢/ ١٣٧، وتفسير القرطبي ١٦/ ١١٩: سليمان التيمي، بدل: أبو سليمان، وهو الصواب، ويؤيده أن في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤: وقرأ المعتمر بن سليمان عن أبيه. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٨ عن المفضل وطلحة والمعتمر بن سليمان.

(٣) في الأصل و(م): وعن أبي سليمان، والمثبت من المحتسب ٢/ ١٣٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤، وتفسير القرطبي ١٦/ ١٢٠، والبحر ٧/ ٦١، والكلام منه.

«نُمْلة» و«نُمُل» بضم النون والميم.

وقرأ شهر بن حوشب: «مَسْكَنكم» على الإفراد(١).

وعن أبيٍّ: «ادخُلْنَ مساكنكنَّ لا يَحطِمُنْكنَّ» مخفَّفةَ النون التي قبل الكاف(٢).

وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى بن عمر الهمدانيُّ الكوفيُّ ونوح القاضي بضم الياء وفتح الحاء وشدِّ الطاء والنون مضارع حطَّم مشدَّداً(٣).

وعن الحسن بفتح الياء وإسكان الحاء وشدِّ الطاء، وعنه كذلك مع كَسْرِ الحاء، وأصله يحتطمنَّكم من الاحتطام(٤).

وقرأ ابن أبي إسحاق وطلحةُ ويعقوبُ وأبو عمرو في روايةِ عبيدٍ كقراءة الجمهور إلا أنهم سكَّنوا نون التأكيد(٥).

وقرأ الأعمش بحذف النون وجزم الميم(٦). ولا خلافَ على هذه القراءة في جواز أن يكون الفعلُ مجزوماً في جواب الأمر.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تفريعٌ على ما تقدَّم، فلا حاجةَ إلى تقدير معطوفٍ عليه، أي: فسمعها فتبسَّم، وجَعْلِ الفاء فصيحةً كما قيل. ولعله عليه السلام إنما تبسَّم من ذلك سروراً بما أُلْهِمَتْ من حُسْنِ حاله وحالِ جنوده في باب التقوى والشفقة، وابتهاجاً بما خصَّه الله تعالى به من إدراك ما هو همسٌ بالنسبة إلى البشر، وفَهْمِ مُرادِها منه.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤، والبحر ٧/ ٦١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤، والبحر ٧/ ٦١.

(٣) أي: «يُحَطِّمَنَّكم»، والكلام من البحر ٧/ ٦١، وهي في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ عن الحسن وأبي رجاء.

(٤) البحر ٧/ ٦١، والدر المصون ٨/ ٥٨٩. وقال السمين: وإسكان الحاء مشكل تقدم نظيره في ﴿لَّا يَهِدِّيَ﴾ [يونس: ٣٥]. والثانية ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٣٧، وذكر عن الحسن أيضاً أنه قرأ «يَحَطِّمنَّكم» بفتح الياء والحاء.

(٥) هي رواية رويس عن يعقوب كما في النشر ٢/ ٢٤٦، والكلام من البحر ٧/ ٦١.

(٦) أي: «يَحْطِمْكم». البحر ٧/ ٦١، والدر المصون ٨/ ٥٨٧.

وجوّز أن يكون ذلك تعجُّباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها. والأولُ أَظْهَرُ مناسبةً لِمَا بَعْدُ من الدعاء.

وانتصب «ضاحكاً» على الحال، أي: شارعاً في الضحك، أعني: قد تجاوز حدَّ التبسُّم إلى الضحك، أو مقدّر الضحك، بناءً على أنه حالٌ مقدَّرةٌ كما نقله الطيبيُّ عن بعضهم.

وقال أبو البقاء: هو حالٌ مؤكِّدةٌ[1]، وهو يقتضي كونَ التبسُّم والضحكِ بمعنًى، والمعروفُ الفرقُ بينهما. قال ابن حجر: التبسُّم: مبادئُ الضحك من غير صوت، والضحكُ: انبساطُ الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوتٍ خفيٍّ، فإن كان فيه صوتٌ يسمع من بعيدٍ فهو القهقهة[2]. وكأنَّ مَن ذهب إلى اتِّحاد التبسُّم والضحك خصَّ ذلك بما كان من الأنبياء عليهم السلام، فإنَّ ضحكهم تبسُّمٌ، وقد قال البوصيري في مدح نبيِّنا ﷺ:

سيدٌ ضِحْكُه التبسُّمُ والمـ ... ـشيُ الهوينا ونومهُ الإغفاءُ[3]

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيتهُ ﷺ مُسْتَجْمِعاً قطُّ ضاحكاً ـ أي: مقبلاً على الضحك بكلِّيته ـ إنما كان يتبسَّم[4].

والذي يدلُّ عليه مجموعُ الأحاديث أنَّ تبسُّمه عليه الصلاة والسلام أكثرُ من ضحكه، وربما ضحك حتى بَدَتْ نواجِذُه. وكونُه ضَحِكَ كذلك مذكورٌ في حديثِ آخرِ أهلِ النار خروجاً منها، وأهلِ الجنة دخولاً الجنةَ. وقد أخرجه البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ[5]. وكذا في حديثٍ أخرجه البخاريُّ في المُواقِع أهلَه في رمضان[6]، وليس في حديث عائشةَ السابقِ أكثرُ من نَفْيِها رؤيتَها إياه ﷺ

---

(١) لم نقف عليه في الإملاء، وذكره السمين في الدر ٨/ ٥٩٠.
(٢) فتح الباري ١٠/ ٥٠٤.
(٣) قصائد البوصيري ص١٣.
(٤) صحيح البخاري(٦٠٩٢).
(٥) صحيح البخاري (٦٥٧١)، وصحيح مسلم (١٨٦)، وسنن الترمذي (٢٥٩٥) و(٢٥٩٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٦) صحيح البخاري (٦٠٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو عند مسلم (١١١١).

مستجمِعاً ضاحكاً، وهو لا ينافي وقوع الضحك منه في بعض الأوقات حيث لم تره.

وأوَّلَ الزمخشريُّ ما رُوي من أنه ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذُه بأنَّ الغرض منه المبالغةُ في وصف ما وُجد منه عليه الصلاة والسلام من الضحك النبويِّ، وليس هناك ظهورُ النواجذ ـ وهي أواخرُ الأضراس ـ حقيقةً[١].

ولعله إنما لم يقل سبحانه: فتبسَّم من قولها، بل جاء جلَّ وعلا بـ «ضاحكاً» نصباً على الحال ليكون المقصودُ بالإفادة التجاوزَ إلى الضحك، بناءً على أنَّ المقصود من الكلام الذي فيه قيدٌ إفادةُ القيد نفياً أو إثباتاً، وفيه إشعارٌ بقوة تأثير قولها فيه عليه السلام، حيث أدَّاه ما عراه منه إلى أن تجاوز حدَّ التبسُّم آخِذاً في الضحك، ولم يكن حاله التبسُّمَ فقط.

وكأنه لمَّا لم يكن قولُ: فضحك من قولها، في إفادة ما ذكرنا مِثْلَ ما في النظم الجليل، لم يُؤْتَ به.

وفي «البحر»[٢]: أنه لمَّا كان التبسُّم يكون للاستهزاء وللغضب، كما يقولون: تبسَّم تبسُّم الغضبان، وتبسَّم تبسُّم المستهزئ، وكان الضحك إنما يكون للسرور والفرح، أتى سبحانه بقوله تعالى: (ضَاحِكًا) لبيان أنَّ التبسُّم لم يكن استهزاءً ولا غضباً. انتهى.

ولا يخفى أنَّ دعوى أن الضحك لا يكون إلا للسرور والفرح يكذبها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩] فإنَّ هذا الضحك كان من مشركي قريش استهزاءً بفقرائهم، كعمارٍ وصهيبٍ وخبَّابٍ وغيرِهم كما ذكره المفسرون، ولم يكن للسرور والفرح. وكذا قولُه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤] كما هو الظاهر، وإن هُرِعْتَ إلى التأويل قلنا: الواقعُ يكذِّبها، فإنْ أَنْكَرْتَ ضحكَ منك أولو الألباب، وفيه أيضاً غيرُ ذلك، فتأمل والله تعالى الهادي إلى صوب الصَّواب.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٤٢.

(٢) ٧/ ٦٢.

وقرأ ابن السميفع[1]: «ضَحِكاً»[2] على أنه مصدرٌ في موضع الحال، وجوِّز أن يكون منصوباً على أنه مفعولٌ مطلقٌ، نحو: شكراً، في قولك: حَمِدَ شكراً.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أي: اجعلني أَزَعُ شكر نعمتك، أي: أكفُّه وأرتبطهُ لا ينفلتُ عنِّي، وهو مجازٌ عن ملازمةِ الشكر والمداوَمةِ عليه، فكأنه قيل: ربِّ اجعلني مُداوماً على شكر نعمتك. وهمزةُ أَوْزِعْ للتعدية، ولا حاجةَ إلى اعتبار التضمين وكونِ التقدير: ربِّ يسِّر لي أن أشكر نعمتك وازعاً إياه.

وعن ابن عباس أنَّ المعنى: اجعلني أشكر. وقال ابن زيد: أي: حرِّضني. وقال أبو عبيدة: أي: أَوْلعني[3]. وقال الزجَّاج فيما قيل: أي: ألهمني. وتأويلُه في اللغة: كُفَّني عن الأشياء التي تُباعِدُني عنك[4]. قال الطيبيُّ: فعلى هذا هو كنايةٌ تلويحيةٌ، فإنه طلب أن يكفَّه عمَّا يؤدِّي إلى كفران النعمة بأنْ يُلْهِمَه ما به تقيَّدُ النعمة من الشكر. وإضافة النعمة للاستغراق، أي: جميع نعمك.

وقرئ: «أَوْزِعنيَ» بفتح الياء[5].

﴿الَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ أي: أَنعَمْتَها، وأصلهُ: أنعمتَ بها، إلَّا أنه اعتُبِر الحذفُ والإيصال لفَقْدِ شَرْطِ حَذْفِ العائد المجرور، وهو أن يكون مجروراً بمثل ما جُرَّ به الموصولُ لفظاً ومعنًى ومتعلَّقاً، ومَن لا يقول باطِّراد ذلك لا يعتبرُ ما ذكر، ولا أرى فيه بأساً.

﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أَدْرَجَ ذِكْرَ والديه تكثيراً للنعمة؛ فإنَّ الإنعام عليهما إنعامٌ عليه من وجهٍ مستوجب للشكر، أو تعميماً لها فإنَّ النعمة عليه عليه السلام يرجع

---

(١) جاء في هامش الأصل: بفتح السين والفاء، وقد تضم.

(٢) المحتسب ٢/١١٩، والبحر ٧/٦٢.

(٣) نقل المصنف هذه الأقوال عن البحر ٧/٦٣. وفي مجاز القرآن ٢/٩٢: «أوزعني أن أشكر نعمتك» مجازه: سدِّني إليه، ومنه قولهم: وَزَعني الحلم عن السفاه، أي: منعني. وقال أيضاً ٢/٢١٣: «أوزعني»: أَلهِمْني. ونقل ذلك عنه ابن حجر في الفتح ٨/٥٠٥. وتصحف: سددني، في مطبوع المجاز إلى: شددني.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/١١٢-١١٣.

(٥) هي قراءة ورش والبزي. التيسير ص١٧٠، والنشر ٢/٣٤٠.

نفعُها إليهما، والفرق بين الوجهين ظاهر. واقْتَصر على الثاني في «الكشاف»[(١)]، وهو أوفقُ بالشكر وكونِ الدعاء المذكور بعد وفاة والديه عليهما السلام قطعاً، ورجَّح الأول بأنه أوفقُ بقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣] بعد قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ إلخ [سبأ:١٠] وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ إلخ [سبأ:١٢] فتدبَّر فإنه دقيق.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا﴾ عطف على «أنْ أَشْكُرَ»، فيكونُ عليه السلام قد طلب جَعْلَه مداوماً على عمل العمل الصالح أيضاً. وكأنه عليه السلام أراد بالشكر الشكرَ باللسان المستلزمَ للشكر بالجَنان، وأردفه بما ذكر تتميماً له؛ لأنَّ عَمَلَ الصالح شكرٌ بالأركان.

وفي «البحر»: أنه عليه السلام سأل أولاً شيئاً خاصًّا وهو شكرُ النعمة، وثانياً شيئاً عاماً وهو عملُ الصالح[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ قيل: صفةٌ مؤكِّدةٌ، أو مخصِّصةٌ إنْ أُريدَ به كمالُ الرضا، واختير كونُه صفةً مخصِّصةً، والمراد بالرضا القبول، وهو ليس من لوازم العمل الصالح أصلاً، لا عقلاً ولا شرعاً.

﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: في جملتهم، والكلام عند[(٣)] الزمخشريِّ كنايةٌ عن جَعْلِه من أهل الجنة[(٤)]. وقدَّر بعضهم: الجنةَ، مفعولاً ثانياً لـ «أدخلني»، وعلى كونه كنايةً لا حاجةَ إلى التقدير، والداعي لأحد الأمرين ـ على ما قيل ـ دفعُ التكرار مع ما قبلُ؛ لأنه إذا عمل عملاً صالحاً كان من الصالحين البتة؛ إذ لا معنى للصالح إلا العاملُ عملاً صالحاً، وأردف طلبَ المداومة على عمل الصالح بطلب إدخاله الجنةَ لعدم استلزام العمل الصالح بنفسه إدخالَ الجنة، ففي الخبر: «لن يُدْخِلَ أحدَكم الجنةَ عملُه» قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:

---

(١) ٣/ ١٤٢.
(٢) البحر ٧/ ٦٣.
(٣) في (م): عن.
(٤) الكشاف ٣/ ١٤٢.

«ولا أنا، إلا أنْ يتغمدَّني اللهُ تعالى برحمته»(١). وكأنَّ في ذكر «برحمتك» في هذا الدعاء إشارةٌ إلى ذلك.

ولا يأبى ما ذكر قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] لأنَّ سببية العمل للإيراث برحمة الله تعالى.

وقال الخفاجيُّ: لك أن تقول: إنه عليه السلام عدَّ نفسه غير صالح تواضعاً(٢)، أي: فلا يحتاج إلى التقدير، ولا إلى نظم الكلام في سلك الكناية، ولا يخفى أنَّ هذا لا يدفع السؤال بإغناء الدعاء بالمداومة على عمل الصالح عنه.

وقيل: المراد أن يجعله سبحانه في عداد الأنبياء عليهم السلام، ويُثبِتَ اسمه مع أسمائهم، ولا يعزلَه عن منصب النبوة الذي هو منحةٌ إلهيةٌ لا تُنال بالأعمال، ولذا ذكر الرحمة في البين، ونقل الطبرسيُّ عن ابن عباس ما يلوِّحُ بهذا المعنى(٣).

وقيل: المراد: أدخلني في عداد الصالحين، واجعلني أُذكَرُ معهم إذا ذُكروا، وحاصلهُ طلبُ الذكر الجميل الذي لا يستلزمُه عمل الصالح، إذ قد يتحقَّق من شخصٍ في نفس الأمر ولا يَعُدُّه الناس في عداد الصالحين. وفي هذا الدعاء شمةٌ من دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] ومقاصدُ الأنبياء في مثل ذلك أخرويةٌ.

وقيل: يحتمل أنه أراد بعمل الصالح القيامَ بحقوق الله عزَّ وجلَّ، وأراد بالصلاح في قوله: «في عبادك الصالحين» القيامَ بحقوقه تعالى وحقوقِ عباده، فيكون من قبيل التعميم بعد التخصيص.

وتعيينُ ما هو الأَوْلَى من هذه الأقوال مفوَّضٌ إلى فكرك، والله تعالى الهادي.

وكان دعاؤه عليه السلام على ما في بعض الآثار بعد أن دخل النملُ مساكنهنَّ، قال في «الكشاف»: روي أنَّ النملة أحسَّتْ بصوت الجنود ولا تعلمُ أنهم في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٤١.
(٣) مجمع البيان ١٩/ ٢٠٨.

الهواء، فأمر سليمان عليه السلام الريحَ فوقفت لئلا يُذْعَرْنَ حتى دَخَلْنَ مساكنهنَّ، ثم دعا بالدعوة[١].

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي: أراد معرفة الموجودِ منها من غيره، وأصل التفقُّد معرفةُ الفَقْدِ، والظاهرُ أنه عليه السلام تفقَّد كلَّ الطير، وذلك بحسب ما تقتضيه العنايةُ بأمور الملك والاهتمامُ بالرعايا لا سيما الضعفاء منها؛ قيل: وكان يأتيه من كلِّ صنفٍ واحدٌ، فلم يَرَ الهدهد.

وقيل: كانت الطير تظلُّه من الشمس، وكان الهدهدُ يستر مكانه الأيمن، فمسَّته الشمسُ فنظر إلى مكانِ الهدهد فلم يَرَه.

وعن عبد الله بن سلام: أنَّ سليمان عليه السلام نزل بمفازةٍ لا ماء فيها، وكان الهدهدُ يرى الماء في باطن الأرض فيخبرُ سليمان بذلك، فيأمر الجنَّ فتسلخ الأرض عنه في ساعة كما تُسلخ الشاة، فاحتاجوا إلى الماء، فتفقَّد لذلك الطيرَ فلم يَرَ الهدهد[٢].

﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ وهو طائرٌ معروفٌ مُنْتِنٌ يأكل الدمَ فيما قيل، ويُكْنَى بأبي الأخبار، وأبي الربيع، وأبي ثمامة، وبغير ذلك مما ذكره الدميري[٣]. وتصغيرهُ على القياس هُدَيْهِد، وزعم بعضُهم أنه يقال في تصغيره: هُدَاهِد، بقَلْبِ الياء ألفاً، وأنشدوا:

كهُدَاهِدٍ كسر الرماة جناحه[٤]

ونظير ذلك: دُوابَّة وشُوابَّة في دُوَيبَّة وشُوَيبَّة.

والظاهرُ أنَّ قوله عليه السلام ذلك مبنيٌّ على أنه ظنَّ حضوره ومَنَع مانعٌ له من رؤيته، أي: عدمُ رؤيتي إياه مع حضوره لأيِّ سببٍ، أَلِسَاترٍ أم لغيره؟ ثم لاح له أنه غائبٌ، فأضْرَبَ عن ذلك وأخذ يقول: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ كأنه يَسألُ عن

(١) الكشاف ٣/ ١٤٢.
(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٦٦-٥٦٧، والطبري ١٨/ ٣٠.
(٣) في حياة الحيوان ٢/ ٣٧٨.
(٤) وعجزه: يدعو بقارعة الطريق هديلا، والبيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص٢٣٨.

صحة ما لاح له، فـ «أم» هي المنقطعة، كما في قولهم: إنها لإبلٌ أم شاءٌ.

وقال ابن عطية: مقصدُ الكلام: الهدهد غاب، ولكنه أخذ اللازم من مغيبه وهو أن لا يراه، فاستفهم على جهة التوقيف عن اللازم، وهذا ضربٌ من الإيجاز، والاستفهامُ الذي في قوله: «مالي» ناب منابَ الهمزة التي تحتاجها «أم»[١]. انتهى.

وظاهره أنَّ «أم» متصلةٌ والهمزةُ قائمةٌ مقام همزة الاستفهام[٢]، فالمعنى عنده: أغاب عنّي الآن فلم أره حالَ التفقُّد، أم كان ممن غاب قبلُ ولم أشعر بغيبته. والحقُّ ما تقدَّم.

وقيل: في الكلام قلبٌ، والأصل: ما للهدهد لا أراه، ولا يخفى أنه لا ضرورةَ إلى ادِّعاء ذلك، نعم قيل: هو أوفقُ بكون التفقُّد للعناية.

وذُكر أنَّ اسم هذا الهدهد يعفور. وكونُ الهدهد يرى الماء تحت الأرض رواه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصحَّحه عن ابن عباس رضي الله عنهما[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم وسعيد بن منصور عن يوسف بن ماهك، أنَّ ابن عباس حين قال ذلك اعترض عليه نافع بنُ الأزرق كعادته، بأنه كيف ذاك والهدهدُ يُنْصَبُ له الفخُّ ويوضع فيه الحبة وتُستَرُ بالتراب فيُصْطاد؟ فقال رضي الله عنه: إنَّ البصر ينفع ما لم يأت القدر، فإذا جاء القدر حال دون البصر. فقال ابن الأزرق: لا أجادلُك بعدها بشيء[٤].

ولا مانع من أن يقال: يجوزُ أن يرى الحبة أيضاً، إلا أنه لا يعرف أنَّ التقاطها من الفخِّ يوجبُ اصطياده، وكثيرٌ من الطيور وسائر الحيوانات يُصْطاد بما يَراه بنوع حيلة.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥.

(٢) كذا وقعت العبارة عند المصنف، وجاء في البحر ٦/ ٦٤ (والكلام فيه بنحوه): فظاهر هذا الكلام(يعني كلام ابن عطية) أن «أم» متصلة، وأن الاستفهام الذي في قوله:«ما لي» ناب مناب ألف الاستفهام.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٥٩، والمستدرك ٢/ ٤٠٥، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٤.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٥٩-٢٨٦٠، وعزاه لسعيد بن منصور السيوطي في الدر ٥/ ١٠٤.

ويجوز أيضاً أن يراها ويعرفَ المكيدةَ في وضعها إلَّا أنَّ القدر يغلبُ عليه فيظنُّ أنه ينجو إذا التقطها بأحد وجوهٍ يتخيَّلُها، فيكون نظيرَ مَن يخوض المهالك لظنِّ النجاة مع مشاهدةِ هلاك الكثير ممن خاضها قبله، وإذا أراد الله تعالى بقومٍ أمراً سلب من ذوي العقول عقولَهم.

نعم إنَّ رؤيته الماء تحت الأرض وإن جاز على ما تقتضيه أصول الأشاعرة أمرٌ يستبعدُه العقل جداً، ولا جَزْمَ لي بصحة الخبر السابق، وتصحيحُ الحاكم محكومٌ عليه عند المحدِّثين بما تعلم، ومثلُه ما تقدمَّ عن ابن سلام، وكذا غيرُه من الأخبار التي وقفتُ عليها في هذا الشأن، وليس في الآية إشارةٌ إلى ذلك، بل الظاهرُ بناءً على ما يقتضيه حالُ سليمان عليه السلام أنَّ التفقُّد كان منه عليه السلام عنايةً بأمور ملكه، واهتماماً بضعفاء جنده، وكأنه عليه السلام أخرج كلامه كما حكاه النظمُ الجليل لغلبة ظنِّه أنه لم يُصِبْه ما أهلكه، وليكون ذلك مع التفقُّد من باب الجمع بين صفتي الجمال والجلال، وهو الأكملُ في شأن الملوك.

ولعل ما وقع من حديث النملة كان كالحالة المذكِّرة له عليه السلام للتفقُّد.
وعلى ما تقدَّم عن ابن سلام أنَّ الحالةَ المذكِّرة بل الداعية هي النزولُ في المفازة التي لا ماء فيها، وكونُ الهدهد قُنَاقِنَه(١)، ويحكون في ذلك أنَّ سليمان عليه السلام حين تمَّ له بناءُ بيتِ المقدس تجهَّز ليحجَّ بحَشْرِه، فوافَى الحرمَ وأقام به ما شاء، وكان يقرِّب كلَّ يوم طولَ مقامه خمسةَ آلافِ بقرةٍ، وخمسةَ آلافِ ناقةٍ، وعشرين ألفَ شاةٍ، وقال لأشرافِ مَن معه: إنَّ هذا مكانٌ يخرج منه نبيٌّ عربيٌّ صفتُه كذا وكذا، يُعْطَى النصرَ على مَن عاداه، ويُنصَرُ بالرعب من مسيرة شهرٍ، القريبُ والبعيدُ عنده سواءٌ في الحقِّ، لا تأخذُه في الله تعالى لومةُ لائمٍ. قالوا: فبأيِّ دينٍ يَدِيْنُ يانبيَّ الله؟فقال: بدينِ الحنيفية، فطوبى لمن آمنَ به وأدركه، فقالوا: كما بيننا وبين خروجه؟ قال: مقدارُ ألفِ عامٍ، فلْيبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ فإنه سيدُ الأنبياء وخاتَمُ الرسل عليهم السلام. ثم عزم على السير إلى اليمن، فخرج من مكة صباحاً يؤمُّ سهيلاً، فوافى صنعاء وقتَ الزوال وذلك مسيرةُ شهرٍ، فرأى أرضاً أعجبته خضرتُها

(١) القُناقِن بالضم: البصير بالماء في حفر القُنِيِّ، جمعها بالفتح. القاموس (قنن).

فنزل ليتغذَّى ويصلِّي، فلم يجدوا الماء فكان ما كان[١].

وفي بعض الآثار ما يعارضُ حكايةَ الحجِّ، فقد روي عن كعبِ الأحبار[٢] أنَّ سليمان عليه السلام سار من إصْطَخْرَ يريدُ اليمن، فمرَّ على مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال: هذه دارُ هجرة نبيٍّ يكون آخِرَ الزمان، طوبى لمن اتَّبعه. ولمَّا وصل إلى مكة رأى حول البيت أصناماً تُعبد، فجاوزه فبكى البيتُ، فأوحى الله تعالى إليه: ما يبكيك؟ قال: يا ربِّ، أبكاني أنَّ هذا نبيٌّ من أنبيائك ومعه قومٌ من أوليائك، مرُّوا عليَّ ولم يهبطوا ولم يصلُّوا عندي، والأصنامُ تُعبد حولي من دونك. فأوحى الله تعالى إليه: لا تَبْكِ فإنِّي سوف أُبكيك[٣] وجوهاً سجَّداً، وأُنْزِلُ فيك قرآناً جديداً، وأبعثُ منك نبياً في آخر الزمان أَحَبَّ أنبيائي إليَّ، وأجعلُ فيك عمَّاراً من خَلْقي يعبدونني، وأفرضُ عليهم فريضةً يرفُّون إليك رفيفَ النسر إلى وكره، ويحنُّون إليك حنينَ الناقة إلى ولدها، والحمامةِ إلى بيضها، وأطهِّرُك من الأوثان وعَبَدةِ الشيطان. ثم مضى سليمان حتى أتى على وادي النمل.

ولا يظهرُ الجمع بين الخبرين، ولعل المقدار الذي يصحُّ من الأخبار أنه عليه السلام لمَّا تمَّ له بناءُ بيت المقدس حجَّ، وأكثرَ من تقريب القرابين، وبشَّر بالنبيِّ ﷺ، وقَصَدَ اليمن، وتفقَّد الطير فلم يَرَ الهدهدَ فتوعَّده بقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل: بِنَتْفِ ريشه، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج. والظاهرُ أنَّ المراد جميعُ ريشه.

وقال يزيد بن رومان: بنتفِ ريش جناحيه. وقال ابن وهب: بنتفِ نصف ريشه. وزاد بعضهم مع النتف إلقاءه للنمل، وآخرُ تركَه في الشمس.

وقيل: ذلك بطَلْيِه بالقَطِران وتشميسه. وقيل: بحبسه في القفص، وقيل: بجمعه مع غير جنسه، وقيل: بإبعاده من خدمة سليمان عليه السلام، وقيل: بالتفريق بينه وبين إلْفِه، وقيل: بإلزامه خدمةَ أقرانه.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤١٢، وبنحوه في عرائس المجالس ص٣١٢-٣١٣.
(٢) كما في تفسير البغوي ٣/ ٤١٠-٤١١.
(٣) في تفسير البغوي: أملؤك.

وفي «البحر»: الأجودُ أن يجعل كلٌّ من الأقوال من باب التمثيل وهذا التعذيبُ للتأديب، ويجوز أن يبيح الله تعالى له ذلك لِمَا رأى فيه من المصلحة والمنفعة، كما أباح سبحانه ذَبْحَ البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع، وإذا سخّر له الطير ولم يتم ما سخّر من أجله إلا بالتأديب والسياسةِ جاز أن يباح له ما يُسْتَصْلَح به[1].

وفي «الإكليل» للجلال السيوطيِّ: قد يستدلُّ بالآية على جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها في المشي أو إسراعها أو نحو ذلك، وعلى جوازِ نتفِ ريش الحيوان لمصلحةٍ بناءً على أنَّ المراد بالتعذيب المذكور نتفُ ريشه.

وذَكَر فيه أنَّ ابن العربيِّ استدلَّ بها على أنَّ العذاب على قَدْرِ الذنب لا على قَدْرِ الجسد، وعلى أنَّ الطير كانوا مكلَّفين؛ إذ لا يعاقَبُ على ترك فعل إلا مَن كلِّف به[2]. اهـ فلا تغفل.

﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ كالترقِّي من الشديد إلى الأشدِّ، فإنَّ في الذبح تجريعُ كأسِ المنيَّةِ، وقد قيل: كلُّ شيءٍ دون المنية سهلٌ.

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: بحجَّةٍ تُبينُ عُذْرَهُ في غيبته. وما ألطفَ التعبيرَ بالسلطان دون الحجة هنا؛ لَما أنَّ ما أتى به من العذر انجرَّ إلى الإتيان ببلقيس وهي سلطان.

ثم إنَّ هذا الشقَّ وإنْ قُرِنَ بحرف القَسَم ليس مُقْسَماً عليه في الحقيقة، وإنما المقسَمُ عليه حقيقةً الأوَّلان، وأدخل هذا في سلكهما للتقابل، وهذا كما في «الكشف» نوعٌ من التغليب لطيفُ المسلك، ومآلُ كلامه عليه السلام: ليكوننَّ أحدُ الأمور، على معنى: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيبٌ ولا ذبحٌ، وإن لم يكن كان أحدُهما، فـ «أو» في الموضعين للترديد.

وقيل: هي في الأول للتخيير بين التعذيب والذبح، وفي الثاني للترديد بينهما وبين الإتيان بالسلطان، وهو كما ترى.

---

(١) بنحوه في البحر ٦/ ٦٥.
(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص٢٠١، وكلام ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٣.

وزعم بعضهم أنها في الأول للتخيير وفي الثاني بمعنى «إلا»، وفيه غفلةٌ عن لام القَسَم.

وجوِّز أن تكون الأمورُ الثلاثة مقسماً عليها حقيقةً، وصحَّ قَسَمُه عليه السلام على الإتيان المذكور لعِلْمِه بالوحي أنه سيكون، أو غلبةِ ظنِّه بذلك لأمرٍ قام عنده يفيدُها.

وإلَّا فالقسمُ على فِعْلِ الغير في المستقبل من دون علم أو غلبةِ ظنٍّ به لا يكاد يَسُوغُ في شريعةٍ من الشرائع.

وتعقِّب بأن قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الآية: ٢٧] ينافي حصول العلم وما حاكاه له. ودفع المنافاة بأنه يجوز أن يأتي بحجَّةٍ لا يعلمُ سليمان عليه السلام ولا يظنُّ صدقَها وكذبها غيرُ سديدٍ؛ إذ قوله: «مبين» يأباه.

وبالجملة الوجهُ ما ذُكر أوَّلاً. فتأمَّل.

وقرأ عيسى بن عمر: «ليأتينَّ» بنونٍ مشدَّدةٍ مفتوحةٍ بغير ياء[1]. وكُتب في الإمام: «لا أذبحنه» بزيادة ألفٍ بين الذال والألف المتَّصلةِ باللام[2]، ولا يعلمُ وجهه كأكثر ما جاء فيه مما يخالفُ الرسم المعروف. وقيل: هو التنبيهُ على أنَّ الذبح لم يقع.

وقال ابن خلدون في «مقدمة» تاريخه: إنَّ الكتابة العربيةَ كانت في غاية الإتقان والجودة في حِمْيرَ، ومنهم تعلَّمها مُضر، إلا أنهم لم يكونوا مُجيدين لبعدهم عن الحضارة، وكان الخطُّ العربيُّ أولَ الإسلام غيرَ بالغٍ إلى الغاية من الإتقان والجودة وإلى التوسُّط؛ لمكان العرب من البداوة والتوحُّش وبُعْدِهم عن الصنائع، وما وقع في رسم المصحف من الصحابة ﵃ من الرسوم المخالِفَةِ لِمَا اقتضته أقيسةُ رسوم الخطِّ وصناعته عند أهلها كزيادة الألف في «لا اذبحنه» من قلَّة الإجادة لصنعة الخطِّ، واقتفاءُ السَّلَفِ رَسْمَهم ذلك من باب التبرُّك.

وتوجيهُ بعض المغفَّلين تلك المخالفةَ بما وجَّهه بها ليس بصحيح، والداعي له

---

(١) البحر ٧/ ٦٥.

(٢) المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار لأبي عمرو الداني ص٨٨، والوسيلة إلى كشف العقيلة لعَلَم الدين السخاوي ص٤٠و ١٥٧.

إلى ذلك تنزيهُ الصحابة عن النقص لما زعم أنَّ الخطَّ كمالٌ، ولم يتفطَّن لأنَّ الخطَّ من جملة الصنائع المدنية المعاشية، وذلك ليس بكمال في حقِّهم؛ إذ الكمالُ في الصنائع إضافيٌّ وليس بكمالٍ مطلقٍ؛ إذ لا يعودُ نقصُه على الذات في الدين ونحوه، وإنما يعود على أسباب المعاش.

وقد كان النبيُّ عليه الصلاة والسلام أميًّا، وكان ذلك كمالاً في حقِّه وبالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام. ومِثْلُ الأمية تَنزُّهُه عليه الصلاة والسلام عن الصنائع العملية التي هي أسبابُ المعاش والعمران، ولا يُعدُّ ذلك كمالاً في حقِّنا؛ إذ هو ﷺ منقطعٌ إلى ربِّه عز وجل، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام: «أنتم أعلمُ بأمور دنياكم». انتهى ملخَّصاً[(١)].

وأنت تعلم أنَّ كون زيادة الألف في «لا اذبحنه» لقلَّة إجادتهم ﷺ صنعةَ الكتابة في غاية البعد، وتعليلُ ذلك بما تقدَّم من التنبيه على عدم وقوع الذبح كذلك، وإلا لزادوها في «لأعذبنه» لأنَّ التعذيب لم يقع أيضاً.

وما أشار إليه من أنَّ الإجادة في الخطِّ ليس بكمالٍ في حقِّهم، إن أراد به أنَّ تحسين الخطِّ وإخراجَه على صورٍ متناسبةٍ يستحسنُها الناظر وتميلُ إليها النفوسُ كسائر النقوش المستحسنة ليس بكمالٍ في حقِّهم ولا يضرُّ بشأنهم فَقْدُه فمسلَّم، لكنَّ هذا شيءٌ وما نحن فيه شيءٌ. وإن أراد به أنَّ الإتيان بالخطِّ على وجهه المعروفِ عند أهله، من وَصْلِ ما يَصِلونه وفَصْلِ ما يفصلونه، ورَسْمِ ما يرسمونه وتَرْكِ ما يتركونه، ليس بكمال فهذا محلُّ بحثٍ، ألا ترى أنه لا يُعترَض على العالم بقبح الخطِّ وخروجِه عن الصور الحسنة والهيئات المستحسنة، ويُعترضُ عليه بوَصْلِ ما يُفْصَلُ وفَصْلِ ما يُوْصَلُ، ورَسْمِ ما لا يُرْسَمُ وعَدَمِ رَسْمِ ما يُرْسَمُ، ونحوِ ذلك، إن لم يكن ذلك لنكتة.

والظاهر أنَّ الصحابة الذين كتبوا القرآن كانوا متقنين رسمَ الخطِّ، عارفين ما يقتضي أن يكتب وما يقتضي أن لا يكتب، وما يقتضي أن يُوْصَلَ، وما يقتضي أن لا يُوْصَلَ، إلى غير ذلك، لكنْ خالفوا القواعد في بعض المواضع لحكمةٍ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢/ ٥٠٣-٥٠٦، دون الحديث، والحديث سلف ١٤/ ٢٦٣.

ويُستأنَسُ لذلك بما أخرجه ابن الأبّار[1] في كتابه «التكملة» عن عبد الله بن فرُّوخ [عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن أبيه] قال: قلت لابن عباس: يا معشر قريش، أخبروني عن هذا الكتاب العربي، هل كنتم تكتبونه قبل أن يَبعث الله تعالى محمداً ﷺ، تجمعون منه ما اجتمع وتفرِّقون منه ما افترق، مثل الألف واللام [والميم] والنون؟ قال: نعم. قلت: وممن أخذتُموه؟ قال: من حرب بن أمية. قلت: وممن أخذه حربٌ؟ قال: من عبد الله بن جدعان. قلت: وممن أخذه عبد الله بن جدعان؟ قال: من أهل الأنبار. قلت: وممن أخذه أهلُ الأنبار؟ قال: من طارئٍ طرأ عليهم من أهل اليمن. قلت: وممن أخذ ذلك الطارئ؟ قال: من الخلجان بن القسم كاتبِ الوحي لهودٍ النبيِّ عليه السلام، وهو الذي يقول:

أفي كلِّ عامٍ سنَّةٌ تُحْدِثونها ... ورأيٌ على غير الطريق يعبِّرُ
ولَلْموْتُ خيرٌ من حياةٍ تسبُّنا ... بها جرهُم فيمَن يَسُبُّ وحِمْيرُ[2]

انتهى.

وفي كتاب «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر»[3] أنَّ أول مَن اشتهر بالكتابة في الإسلام من الصحابة أبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ وأبي بنُ كعب وزيد بنُ ثابت ﷺ، والظاهر أنهم لم يشتهروا في ذلك إلا لإصابتهم فيها.

والقولُ بأنَّ هؤلاء الأجلَّةَ وسائرَ الصحابة لم يعرفوا مخالفةَ رَسْمِ الألف هنا لِمَا

---

(١) في الأصل و(م): ابن الأنباري، وهو تصحيف، والصواب ما أثبتناه، وهو الموافق لما في مقدمة ابن خلدون ٢/ ٥٠٤، والكلام منه. وابن الأبار هو محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعيُّ الأندلسيُّ البَلَنسيُّ، أبو عبد الله الحافظ المقرئ، ويقال له: الأبار وابن الأبار، له: تكملة الصلة، وتحفة القادم، والمعجم، وغيرها، مات مقتولاً سنة (٦٥٨هـ). سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٣٦.

(٢) التكملة ٢/ ٢٢٨، ومقدمة ابن خلدون ٢/ ٥٠٤، وذكره أيضاً ابن الجوزي في المنتظم ١١/ ١٩٦، وما سلف بين حاصرتين من المصادر.

(٣) لعلي دَدَه بن مصطفى الموستاري ثم السكتواري، علاء الدين الملقب بشيخ التربة، فاضل بوسنوي ولد في بلدة موستار، وتوفي سنة (١٠٠٧هـ). كشف الظنون ١/ ٤٨٣ و٢/ ١٦١٠، والأعلام ٤/ ٢٨٧.

يقتضيه قوانينُ أهل الخطِّ، وكذا سائر ما وقع من المخالفة، ممَّا لا يُقْدِمُ عليه مَن له أدنى أدبٍ وإنصاف.

ومثلُ هذا القولُ بأنه يحتمل أنه عَرف ذلك مَن عرف منهم إلا أنه ترك تغييره إلى الموافق للقوانين أو وافقه على الغلط للتبرُّك.

ومن الناس مَن جوَّز أن يكون ما وقع من الصحابة من الرسم المخالفِ بسبب قلَّة مهارةِ مَن أخذوا عنه صنعةَ الخطِّ، فيكون هو الذي خالف في مثل ذلك ولم يعلموا أنه خالف، فالقصورُ ـ إن كان ـ ممن أخذوا عنه، وأمَّا هم فلا قصورَ فيهم إذ لم يُخلُّوا بالقواعد التي أخذوها، وإخلالُهم بقواعدَ لم تصل إليهم ولم يعلموا بها لا يعدُّ قصوراً، وهذا قريبٌ مما تقدَّم إلا أنه ليس فيه ما فيه من البشاعة.

ثم إن الإنصاف بعد كلِّ كلامٍ يقتضي الإقرار بقوة دعوة أنَّ المخالفة لضَعْفِ صناعة الكتابة إذ ذاك إن صحَّ أنها وقعت أيضاً في غير الإمام من المكاتبات وغيرها، ولعله لم يصحَّ وإلا لَنُقِلَ، فتأمَّل والله تعالى يتولَّى هداك.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ الظاهرُ أنَّ الضمير للهدهد، و«بعيد» صفةُ زمانٍ، والكلامُ بيانٌ لمقدَّرٍ، كأنه قيل: ما مضى من غيبته بعد التهديد؟ فقيل: مكث غير بعيد، أي: مكث زماناً غيرَ مديدٍ، ووَصْفُ زمانِ مكثه بذلك للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان عليه السلام، وليعلم كيف كان الطير مسخراً له.

وقيل: الضميرُ لسليمان. وهو كما ترى.

وقيل: «بعيد» صفةُ مكانٍ، أي: فمكث الهدهدُ في مكانٍ غير بعيدٍ من سليمان. وجَعْلُه صفةَ الزمان أولى.

ويُحكى أنه حين نزل سليمان عليه السلام حلَّق الهدهدُ فرأى هدهداً ـ واسمه فيما قيل: عفير ـ واقعاً، فانحطَّ إليه فوصف له ملكَ سليمان وما سخِّر له من كلِّ شيءٍ، وذكر له صاحبُه مُلْكَ بلقيس، وذهب معه لينظر، فما رجع إلَّا بعد العصر.

وفي بعض الآثار أنه عليه السلام لَّما لم يره دعا عريف الطير وهو النسر، فسأله فلم يجد عنده عِلْمَه، ثم قال لسيد الطير وهو العُقاب: عليَّ به. فارتفعتْ فنظرتْ فإذا هو مقبلٌ، فقصدته فناشدها الله تعالى وقال: بحقِّ الله الذي قوَّاك

وأَقْدَرِكِ عليَّ إلا رحمتني. فتركته وقالت: ثكلتك أُمُّك إن نبيَّ الله تعالى قد حلف ليعذِّبنَّك أو ليذبحنَّك. قال: وما استثنى؟ قالت: بلى، قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ فقال: نجوتُ إذاً. فلما قَرُبَ من سليمان أرخى ذَنَبه وجناحيه يجرُّها على الأرض تواضُعاً له، فلمَّا دنا منه أخذ برأسه فمدَّه إليه، فقال: يا نبيَّ الله تعالى، اذْكُرْ وقوفك بين يدي الله عزَّ وجلَّ. فارْتَعدَ سليمانُ وعفا عنه(١).

وعن عكرمةَ أنه إنما عفا عنه لأنه كان بارًّا بأبويه يأتيهما بالطعام فيزقُّهما(٢) لكبرهما.

ثم سأله: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: علماً ومعرفةً، وحفظتُه من جميع جهاته، وابتداءُ كلامه بذلك لترويجه عنده عليه السلام، وترغيبِه في الإصغاء إلى اعتذاره، واستمالةِ قلبه نحوَ قبوله؛ فإنَّ النفس للاعتذار المنبئ عن أمرٍ بديعٍ أَقْبلُ، وإلى تلقِّي ما لا تعلمهُ أَمْيلُ.

وأيَّد ذلك بقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ حيث فسَّر إبهامَه السابق نوعَ تفسيرٍ، وأراه عليه السلام أنه كان بصدد إقامةِ خدمةٍ مهمَّةٍ له، حيث عبَّر عما جاء به بالنبأ الذي هو الخبرُ الخطيرُ والشأنُ الكبير، ووصفه بما وصفه.

وقال الزمخشريُّ: إنَّ الله تعالى أَلْهَم الهدهدَ فكافح سليمانَ بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوَّة والحكمة والعلومِ الجمَّة، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة، ابتلاءً له في علمه، وتنبيهاً على أنَّ في أدنى خَلْقِه وأضعفِه مَن أحاط علماً بما لم يُحِط به، لتتحاقَر إليه نفسُه، ويصغر إليه علمه، ويكون لطفاً به في ترك الإعجاب الذي هو فتنةُ العلماء وأَعْظِمْ بها فتنة(٣). انتهى.

وتعقِّب بأنَّ ما أحاط به من الأمور المحسوسة التي لا تعدُّ الإحاطةُ بها فضيلةً، ولا الغفلةُ عنها نقيصةً؛ لعدم توقُّف إدراكها إلَّا على مجرَّدِ إحساسٍ يستوي فيه العقلاء وغيرُهم، وماذا صدر عنه عليه السلامُ مع ما حُكي عنه ما حُكي من الحمد والشكر والدعاء حتى يليقَ بالحكمة الإلهية تنبيهُه عليه السلام على تركه؟!

---

(١) عرائس المجالس ص٣١٤-٣١٥.

(٢) زَقَّ الطائرُ فرخَه: أطعمه بفِيْه. مختار الصحاح (زقق).

(٣) الكشاف ٣/ ١٤٣.

واعتُرِض بأنَّ قوله: «أحطتُ» إلخ ظاهرٌ في أنه كلامُ مدلٍّ بعِلْمِه مصغِّرٍ لِمَا عند صاحبه، وأنَّ العلم بالأمور المحسوسة وإن لم يكن فضيلةً إلا أنَّ فَقْدَه بالنسبة إلى سليمان عليه السلام وملكِه، وإلقاءِ الريح الأخبارَ في سمعه، يدلُّ على ما يدل، وفي التنبيه المذكور تثبيتٌ منه تعالى له عليه السلام على الحمد والشكر، وهو مما يناسبُ دعاءه السابقَ بقوله: «ربِّ أوزِعْني أنْ أشكرَ نعمَتك»، ولعل الأَوْلَى والأظهرُ مع هذا ما ذكر أوَّلاً.

و«سبأ» منصرفٌ على أنه لِحَيٍّ من الناس سُمُّوا باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وفي حديث فروةَ وغيره عن رسول الله ﷺ أنَّ سبأ اسمُ رجلٍ وَلَدَ عشرةً من الولد، تَيامَنَ منهم ستةٌ وتشاءَمَ أربعةٌ، والستة: حِمْيرٌ وكِنْدَةُ والأَزْدُ وأَشْعَرُ وخَثْعَم، والأربعة: لَخْمٌ وجُذامٌ وعاملةُ وغسَّان(١).

وقيل: سبأ لقبٌ لأبي هذا الحيِّ من قحطان، واسمهُ: عبد شمس، وقيل: عامر، ولقِّب بذلك لأنه أولُ مَن سَبَى.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «من سَبَأَ» بفتح الهمزة غير مصروف(٢)، على أنه اسمٌ للقبيلة، ثم سمِّيتْ به مأرب: سبأ، وبينها وبين صنعاء مسيرةُ ثلاثٍ، وجوِّز أن يراد به على الصرف الموضعُ المخصوصُ، وعلى منع الصرف المدينةُ المخصوصةُ، وأنشدوا على صَرْفِه قولهُ:

الـواردون وتـيـمٌ فـي ذُرَا سـبـأٍ ... قد عَضَّ أعناقهم جِلْدُ الجواميسِ(٣)

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٠٠٩/٨٩)، والترمذي (٣٢٢٢) وقال: حديث حسن غريب. وجاء فيهما أن الستة الذين تيامنوا: «الأزْدُ والأشعريون وحميرٌ ومَذْحَجٌ وأنمارٌ وكندةُ» وفي آخره: فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خثعمٌ وبجيلةُ».

(٢) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧، وهي عن ابن كثير من رواية البزي، وستأتي رواية قنبل عنه.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ١٣٠، والكشاف ٣/ ١٤٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥، وزاد المسير ٤/ ٤٥٢، والبحر ٧/ ٦٦، وتفسير القرطبي ١٦/ ١٣٥ ورواية الديوان:
تدعوك تيمٌ وتيمٌ في قرى سبأ . . . ، أراد أنهم أسرى وفي أعناقهم أطواق من جلد الجواميس.

وقرأ قنبل من طريق النبال بإسكان الهمزة[١]، وخرِّج على إجراء الوصل مجرى الوقف، وقال مكِّي: الإسكانُ في الوصل بعيدٌ غيرُ مختارٍ ولا قويٍّ[٢].

وقرأ الأعمش: «من سَباءِ» بكسر الهمزة من غير تنوينٍ، حكاها عنه ابن خالويه وابن عطية[٣]، وخرِّجت على أنَّ الجرَّ بالكسرة لرعاية ما نقل عنه، فإنه في الأصل اسمُ الرجل أو مكانٌ مخصوصٌ، وحذف التنوين لرعاية ما نُقل إليه، فإنه جُعل اسماً للقبيلة أو للمدينة، وهو كما ترى.

وقرأ ابن كثير في روايةٍ: «من سَبًى» بتنوين الباء على وزن رحًى، جَعَله مقصوراً مصروفاً. وذكر أبو معاذ أنه قرأ: «من سَبْأَى» بسكون الباء وهمزةٍ مفتوحة غيرِ منَّونةٍ على وزن فَعْلَى، فهو ممنوعٌ من الصرف للتأنيث اللازم[٤].

وروى ابن حبيب عن اليزيديِّ: «من سبا» بألفٍ ساكنة، كما في قولهم: تفرَّقوا أيدي سبا[٥].

وقرأت فرقة: «بنبا» بالألف عوض الهمزة، وكأنها قراءةُ من قرأ «سبا» بالألف؛ لتوازنَ الكلمتان كما توازنتْ في قراءة مَن قرأهما بالهمزة المكسورة والتنوين.

وفي «التحرير»: أنَّ مِثْلَ: «من سبأ بنبأ» يسمَّى تجنيسَ التصريف، وهو أن تنفرد كلٌّ من الكلمتين بحرفٍ، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥] وحديثِ: «الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخيرُ»[٦].

وقال الزمخشريُّ[٧]: إنَّ قوله تعالى: (مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ) من جنس الكلام الذي سمَّاه المحدَثون: البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلَّق باللفظ، بشرط أن يجيءَ

---

(١) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧، والبحر ٧/ ٦٦.
(٢) الكشف عن وجوه القراءات لمكي بن أبي طالب ٢/ ١٥٦، والبحر ٧/ ٦٦.
(٣) القراءات الشاذة ص ١٠٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥، والبحر ٧/ ٦٦.
(٤) القراءتان في القراءات الشاذة ص١٠٩، والبحر ٧/ ٦٦، والكلام منه.
(٥) أي: تفرَّقوا تفرُّقاً لا اجتماع بعده. مجمع الأمثال ٢/ ٢٧٥، والكلام من البحر ٧/ ٦٦.
(٦) أخرجه أحمد (٥١٠٢)، والبخاري (٨٩٩)، ومسلم (٤٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، والكلام من البحر ٧/ ٦٦.
(٧) في الكشاف ٣/ ١٤٤.

مطبوعاً أو يَصِيغَه[١] عالمٌ بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسدادَه، ولقد جاء هاهنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنًى، ألا ترى لو وضع مكان «بنبأ»: بخبر، لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصحُّ؛ لمَا في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصفُ الحال. اهـ.

وهذه الزيادةُ كونُ الخبر ذا شأنٍ. وكونُ النبأ بمعنى الخبر الذي له شأنٌ ممَّا صرَّح به غيرُ واحدٍ من اللغويين، والظاهر أنه معنًى وضعيٌّ له. وزعم بعضهم أنه ليس بوضعيٍّ، وليس بشيءٍ. وقول المحدِّثين: أنبأنا، أحطُّ درجةً من: أخبرنا، غيرُ واردٍ لأنه اصطلاحٌ لهم.

وقرأ الجمهور: «فمكُث» بضم الكافِ. والفتحُ قراءةُ عاصم، وأبي عمرو في رواية الجعفيِّ، وسهلٍ وروح[٢].

وقرأ أبيٌّ: «فمكث ثم قال». وعبد الله: «فمكث فقال». وكلتا القراءتين في الحقيقة ـ على ما في «البحر» ـ تفسيرٌ لا قراءةٌ؛ لمخالفتها سوادَ المصحف[٣].

وقرئ في السبعة: «أحطت» بإدغام التاء في الطاء مع بقاء صفة الإطباق، وليس بإدغامٍ حقيقيٍّ. وقرأ ابن محيصن بإدغامٍ حقيقيٍّ[٤].

واعترض ابنُ الحاجب القراءةَ الأولى بأنَّ الإطباق، وهو رفعُ اللسان إلى ما يحاذيه من الحنك للتصويت بصوتِ الحرف المخرَج، لا يستقيم إلا بنفس الحرف وهو الطاءُ هنا، والإدغامُ يقتضي إبدالها تاءً وهو ينافي وجود ذلك؛ لأنه يقتضي أن تكون موجودةً وغيرَ موجودةٍ، وهو تناقضٌ، فالتحقيقُ أن نحو: «أحطتُ» بالإطباق ليس فيه إدغامٌ، ولكنه لمَّا أَمْكَنَ النطقُ بالثاني مع الأول من غير ثقلٍ على اللسان كان كالنطق بالمِثْلِ بعد المِثْلِ فأطلق عليه الإدغام توسُّعاً، قاله الطيبيُّ.

---

(١) في الكشاف: يصنعه.

(٢) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧ عن عاصم وروح، وقرأ باقي العشرة بضمّ الكاف، والكلام من البحر ٧/ ٦٥.

(٣) البحر ٧/ ٦٥، ووقع فيه: فيمكث، في القراءتين.

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ٤١، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٩.

وفي «النشر» أنَّ التاء تُدغم في الطاء في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾[1] [هود: ١١٤]، وفي «التسهيل» أنه إذا أُدْغِمَ المُطْبَقُ يجوزُ إبقاء الإطباق وعدُمه[2]. وقال سيبويه: كلٌّ كلامٌ عربيٌّ[3]، كذا في[4] الحواشي الشهابية[5]، فتأمَّل.

وفي قوله تعالى: (أَحَطتُ) إلخ دليلٌ بإشارةِ النصِّ والإدماج على بطلان قول الرافضة: إنَّ الإمام ينبغي أن لا يخفى عليه شيءٌ من الجزئيات. ولا يَخْفَى أنهم إن عَنَوا بذلك أنه يجب أن يكون الإمامُ عالماً على التفصيل بأحكام جميع الحوادث الجزئية التي يمكن وقوعُها، وأن يكون مستحضراً الجوابَ الصحيحَ عن كلِّ ما يُسأل عنه، فبطلانُ كلامهم في غاية الظهور، وقد سئل عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وهو على منبر الكوفة عن مسألةٍ فقال: لا أدري. فقال السائل: ليس مكانُك هذا مكانَ مَن يقول: لا أدري. فقال الإمام كرم الله تعالى وجهه: بلى واللهِ، هذا مكانُ مَن يقول: لا أدري، وأمَّا مَن لا يقول ذلك فلا مكان له. يعني به اللهَ عزَّوجلَّ.

وإنْ عَنَوا أنه يجب أن يكون عالماً بجميع القواعد الشرعية وبكثيرٍ من الفروع الجزئية لتلك القواعد بحيث لو حَدَثَتْ حادثةٌ ولا يُعلم حكمُها يكون متمكِّناً من استنباط الحكم فيها على الوجه الصحيح، فذاك حقٌّ وهو في معنى قول الجماعة: يجبُ أن يكون الإمام مجتهداً. وتمامُ الكلام في هذا المقام يُطلَبُ من محلِّه.

وقوله تعالى ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾ ـ أي: تتصرَّفُ بهم ولا يَعترضُ عليها أحدٌ ـ استئنافٌ لبيان ما جاء به من النبأ، وتفصيلٌ له إثر إجمالٍ، وعَنَى بهذه المرأة بلقيس[6] بنت شَراحيل بن مالك بن ريان من نسل يعرب بن قطحان، ويقال: من نسل تبَّع الحميريِّ.

---

(١) النشر ١/ ٢٨٩، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٤٢.

(٢) ينظر التسهيل ص٣٢٣، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٤٢.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٦٠، وحاشية الشهاب ٧/ ٤٢.

(٤) قوله: في، ساقط من (م).

(٥) ٧/ ٤٢.

(٦) جاء في هامش (م): بكسر الباء معرَّب، وهو قبل التعريب بفتحها. اهـ منه، وذكره الشهاب في الحاشية ٧/ ٤٢ نقلاً عن الطيبي.

وروى ابن عساكر عن الحسن أنَّ اسم هذه المرأة ليلى[١]، وهو خلافُ المشهور.

وقيل: اسم أبيها السَّرْحُ بن الهداهد.

ويحكى أنه كان أبوها ملك أرض اليمن كلِّها، ووَرِث المُلْكَ من أربعين أباً، ولم يكن له ولدٌ غيرُها، فغَلَبَتْ بعده على الملك ودانت لها الأمة.

وفي بعض الآثار أنه لما مات أبوها طمعت في الملك، وطلبت من قومها أن يبايعوها، فأطاعها قومٌ وأبى آخرون، فملَّكوا عليهم رجلاً يقال: إنه ابن عمِّها، وكان خبيثاً فأساء السيرة في أهل مملكته، حتى كان يفجُرُ بنساء رعيته، فأرادوا خَلْعَه فلم يقدروا عليه، فلما رأت ذلك أدركتها الغيرةُ، فأرسلت إليه تعرضُ نفسَها عليه، فأجابها وقال: ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأسُ منك. قالت: لا أغربُ عنك لأنك كفؤٌ كريمٌ، فاجمع رجال أهلي واخطبني. فجمعهم وخطبها، فقالوا: لا نراها تفعل. فقال: بلى إنها رغبت فيَّ، فذكروا لها ذلك فقالت: نعم. فزوَّجوها منه، فلما زُفَّت إليه خرجت مع أناسٍ كثيرٍ من حشمها وخدمها، فلمَّا خَلَتْ به سقته الخمر حتى سكر، فقتلته وحزَّتْ رأسه وانصرفت إلى منزلها، فلمَّا أصبحت أرسلت إلى وزرائه وأحضرتهم وقرَّعتهم، وقالت: أما كان فيكم مَن يأنَفُ من الفجور بكرائم عشيرته؟! ثم أرتهم إياه قتيلاً، وقالت: اختاروا رجلاً تملِّكوه عليكم. فقالوا: لا نرضى غيرك. فملَّكوها وعَلِموا أن ذلك النكاح كان مكراً وخديعةً منها.

واشتهر أنَّ أمَّها جنيَّة، وقد أخرج ذلك ابنُ أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد[٢]، والحكيم الترمذيُّ وابن مردويه عن عثمان بن حاضر: أنَّ أمَّها امرأةٌ من الجنِّ يقال لها: بلقمة بنت شيصا[٣]. وابن أبي حاتم عن زهير بن محمد: أنَّ أمَّها فارعة الجنيَّة[٤].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٠٥.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٠٥ بلفظ: صاحبة سبأ كانت أمها جنية، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣٩ دون قوله: أمها.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٠٥-١٠٦، وفيه: شيصان بالنون.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٦٥.

وفي التفسير الخازنيِّ: أن أباها شراحيل كان يقول لملوك الأطراف: ليس أحدٌ منكم كفؤاً لي، وأَبَى أن يتزوَّج فيهم، فخطب إلى الجنِّ فزوَّجوه امرأةً يقال لها: ريحانة بنت السكن. وسببُ وصوله إلى الجنِّ حتى خطب إليهم ـ على ما قيلَ ـ أنه كان كثيرَ الصيد، فربما اصطاد الجنَّ وهم على صور الظباء فيخلِّي عنهم، فظهر له مَلِك الجنِّ وشكره على ذلك واتَّخذه صديقاً، فخطب ابنته فزوَّجه إياها.

وقيل: إنه خرج متصيِّداً فرأى حيَّتين يقتتلان بيضاء وسوداء، وقد ظهرت السوداء على البيضاء، فقَتل السوداء وحمل البيضاء وصبَّ عليها الماء فأفاقت فأطلقها، فلمَّا رجع إلى داره جلس وحده منفرداً، فإذا هو معه شابٌ جميلٌ فخاف منه، فقال: لا تخف، أنا الحيةُ البيضاء الذي أحييتني، والأسودُ الذي قتلته هو عبدٌ لنا تمرَّد علينا وقتل عدَّةً منَّا، وعرض عليه المال، فقال: لا حاجة لي به، ولكن إن كان لك بنتٌ فزوِّجْنيها. فزوَّجه ابنته فولدت له بلقيس[(١)]. انتهى.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في «العظمة» وابن مردويه وابن عساكر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أحدُ أبوي بلقيس كان جنيّاً»[(٢)]. والذي ينبغي أن يعوَّل عليه عدمُ صحة هذا الخبر.

وفي «البحر»: قد طوَّلوا في قصصها ـ يعني بلقيس ـ بما لم يثبت في القرآن ولا الحديث الصحيح[(٣)].

وإنَّ ما ذكر من الحكايات أشبهُ شيءٍ بالخرافات، فإنَّ الظاهر ـ على تقدير وقوع التناكُح بين الإنس والجنِّ، الذي قيل: يُصْفَعُ السائلُ عنه لحماقته وجهله ـ أن لا يكون توالدٌ بينهما، وقد ذكر عن الحسن فيما رَوى ابن عساكر أنه قيل بحضرته:

---

(١) تفسير الخازن ٥/ ١٤٢.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٨٣، والعظمة (١١١٣)، وتاريخ ابن عساكر ٦٩/ ٦٧، وهو فيه دون إسناد، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٠٥، وقال المناوي في فيض القدير ١/ ١٨٦: وفيه سعيد بن بشر، قال في الميزان عن ابن معين: ضعيف، وعن ابن مسهر: لم يكن ببلدنا أحفظ منه، وهو ضعيف منكر الحديث. ثم ساق من مناكيره هذا الخبر.

(٣) البحر ٧/ ٦٧.

إنَّ ملكة سبأ أحدُ أبويها جنِّي، فقال: لا يتوالدون، أي: أن المرأة من الإنس لا تلد من الجنِّ، والمرأة من الجنِّ لا تلدُ من الإنس(١).

نعم رُوي عن مالك ما يقتضي صحة ذلك؛ ففي «الأشباه والنظائر» لابن نجيم: روى أبو عثمان [سعيد بن العباس الرازي في كتاب «الإلهام والوسوسة» فقال: حدثنا مقاتل، حدثني] سعيد بن داود الزبيديُّ قال: كتب قوم من أهل اليمن إلى مالكٍ يسألونه عن نكاح الجنِّ، وقالوا: إنَّ هاهنا رجلاً من الجنِّ زعم أنه يريد الحلال. فقال: ما أرى بأساً في الدِّين، ولكنْ أكره إذا وُجِدَتِ امرأةٌ حاملٌ قيل لها: مَن زوجُك؟ قالت: من الجنِّ، فيكثر الفساد في الإسلام بذلك(٢). انتهى، ولعله لم يثبت عن مالك لظهور ما يَردُ على تعليل الكراهة.

ثم ليت شعري، إذا حملت الجنِّيةُ من الإنسيِّ، هل تبقى على لطافتها فلا تُرى والحملُ على كثافته فيُرى، أو يكونُ الحمل لطيفاً مثلها فلا يُرَيان، فإذا تمَّ أمره تكثف(٣) وظهر كسائر بني آدم، أو تكونُ متشكِّلةً بشَكْلِ نساءِ بني آدم ما دام الحملُ في بطنها، وهو فيه يتغذَّى وينمو بما يصل إليه من غذائها؟ وكلٌّ من الشقوق لا يخلو عن استبعادٍ كما لا يخفى.

وإيثارُ «وجدتُ» على: رأيتُ، لِمَا أُشير إليه فيما سبق من الإيذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه السلام، بإبرازِ نفسه في معرض مَن يتفقَّد أحوالها ويتعرَّفُها: كأنها طِلْبتُه وضالَّتُه، لِيَعْرِضَها على سليمان عليه السلام، وقيل: للإشعار بأنَّ ما ظفر به أمرٌ غيرُ معلومٍ أوّلاً؛ لأن الوجدان بعد الفَقْدِ، وفيه رمزٌ بغرابة الحال.

وضمير «تملكهم» لسبأ على أنه اسمٌ للحيِّ، أو لأهلها المدلولِ عليهم بذكر مدينتهم على أنها اسمٌ لها. وليس في الآية ما يدلُّ على جواز أن تكون المرأة ملكةً، ولا حجةَ في عمل قومٍ كفرةٍ على مثل هذا المطلب؛ وفي «صحيح البخاريِّ»

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٦٩/ ٦٧.

(٢) الأشباه والنظائر ص٣٩٠، وذكره أيضاً الشبلي في أحكام الجان ص٩٧، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٣) في الأصل: تكشف.

من حديث أبي بكرة[١]، أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا بلغه أنَّ أهل فارس قد ملَّكوا بنتَ كسرى، قال: «لن يُفلِحَ قومٌ ولَّوا أمرَهم امرأة»[٢].

ونقل عن محمد بن جرير[٣] أنه يجوز أن تكون المرأة قاضيةً، ولم يصحَّ عنه.

وفي «الأشباه»: لا ينبغي أن تولَّى القضاءَ وإن صحَّ منها بغير الحدود والقصاص[٤].

وذكر أبو حيان أنه نُقل عن أبي حنيفة عليه الرحمةُ أنها تقضي فيما تَشْهَدُ فيه، لا على الإطلاق، ولا أَنْ يُكتَبَ لها منشورٌ بأنَّ فلانة مُقْدِمةٌ على الحكم وإنما ذلك على سبيل التحكيم لها[٥].

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من الأشياء التي تحتاجُ إليها الملوك، بقرينةِ «تملِكهُم»، وقد يقال: ليس الغرض إلا إفادةَ كثرة ما أوتيت. والجملةُ تحتمل أن تكون عطفاً على جملة «تملكهم»، وأن تكون حالاً من ضمير «تملكهم» المرفوعِ، بتقدير «قد» أو بدونه.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال ابن عباس كما أخرجه عنه ابن جرير وابن المنذر: أي: سريرٌ كريمٌ من ذهبٍ وقوائمه من جوهرٍ ولؤلؤ، حَسَنُ الصنعة غالي الثمن[٦]. وروي عنه أيضاً أنه كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين ذراعاً، وكان طولُه في السماء ثلاثين ذراعاً أيضاً. وقيل: كان طوله ثمانين في ثمانين، وارتفاعه ثمانين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد: أنه سريرٌ من ذهبٍ، وصفحتاه مرصَّعتان بالياقوت والزَّبَرْجَد، طولُه ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً[٧].

---

(١) في الأصل و(م) والبحر: ابن عباس، والتصويب من صحيح البخاري.
(٢) صحيح البخاري (٤٤٢٥)، وهو عند أحمد (٢٠٤٣٨).
(٣) كما في البحر ٧/ ٦٧، وعنه نقل المصنف.
(٤) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص٣٨٥.
(٥) البحر ٧/ ٦٧.
(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٤٠، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٦.
(٧) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٦٧.

وقيل: كان من ذهب مكلَّلاً بالدرِّ والياقوت الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر، وقوائمه من الياقوت والزُّمرُّد، وعليه سبعةُ أبياتٍ على كلِّ بيتٍ بابٌ مغلقٌ.

وقيل غيرُ ذلك، واللهُ تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

وبالجملة فالظاهرُ أن المراد بالعرش السرير، وقال أبو مسلم: المرادُ به المُلْكُ، ولا داعي إليه.

واستعظامُ الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهدُه من مُلْكِ سليمان عليه السلام، إمَّا بالنسبة إلى حالها، أو إلى عروش أمثالها من الملوك. وجوِّز أن يكون ذلك لأنه لم يكن لسليمان عليه السلام مثلُه وإن كان عظيم الملك، فإنه قد يوجدُ لبعض أمراء الأطراف شيءٌ لا يكون للمَلِكِ الذي هم تحت طاعته.

وأيّاً ما كان فوصفُه بذلك بين يديه عليه السلام لِما ذُكر أوَّلاً من ترغيبه عليه السلام في الإصغاء إلى حديثه، وفيه توجيهٌ لعزيمته عليه السلام نحو تسخيرها، ولذلك عقبه بما يُوجبُ غزوَها من كُفرِها وكُفْرِ قومها، حيث قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى. قال الحسن كانوا مجوساً يعبدون الأنوار. وقيل: كانوا زنادقة.

والظاهر أنَّ هذه الجملة استئنافُ كلامٍ، وأنَّ الوقف على «عظيم»، قال صاحب «المرشد»: ولا يُوْقَفُ على «عرش»، وقد زعم بعضهم جوازَه، وقال: معناه: عظيم عند الناس. وقد أنكر هذا الوقف أبو حاتم وغيرُه من المتقدِّمين، ونسبوا القائل به إلى الجهل. وقولُ مَن قال: معناه: عظيمٌ عبادتهم للشمس من دون الله تعالى، قولٌ ركيكٌ لا يُعتَدُّ به، وليس في الكلام ما يدل عليه.

وفي «الكشاف»: من نَوْكَى القصَّاص مَن وقف على «عرش» يريد: عظيمٌ أنْ وجدتُها، فرَّ من استعظام الهدهدِ عرشَها، فوقع في عظيمةٍ وهي نسخُ كتاب الله تعالى[1].

---

(١) الكشاف ٤/ ١٤٤، وفيه: مسخ، بدل: نسخ، وكذا نقل عنه السمين في الدر ٨/ ٥٩٧. وقال السمين: النوكى: الحمقى، جمع أحمق، وهذا الذي ذكره من أمر الوقف نقله الداني عن نافع وقرَّره، وأبو بكر بن الأنباري عن بعض أهل العلم، فلا ينبغي أن يقال: نوكى القصاص.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي هي عبادةُ الشمس، ونظائرُها من أصناف الكفر والمعاصي. والجملة تحتمل العطفَ على جملة «يسجدون»، والحاليةَ من الضمير على نحو ما مرَّ آنفاً.

﴿فَصَدَّهُمْ﴾ أي: الشيطان، وجوّز كونُ الضمير للتزيين المفهوم من الفعل، أي: فصدَّهم تزيينُ الشيطان ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيل الحقِّ والصوابِ ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إليه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي: لئلا يسجدوا، واللامُ للتعليل، وهو متعلِّقٌ بـ «صدَّهم» أو «زين». والفاء في «فصدَّهم» لا يلزم أن تكون سببيةً؛ لجواز كونها تفريعيةً أو تفصيلية. أي: فصدّهم عن ذلك لأجل أن لا يسجدوا لله عز وجل، أو: زيَّن لهم ذلك لأجل أن لا يسجدوا له تعالى.

وجوّز أن تكون «أن» وما بعدها في تأويل مصدرٍ وقع بدلاً من «أعمالهم» وما بينهما اعتراضٌ، كأنه قيل: وزيَّن لهم الشيطان عَدَمَ السجود لله تعالى. وتعقِّب بأنه ظاهرٌ في عدِّ عدم السجود من الأعمال، وهو بعيد.

وجوّز أن يكون ذلك بدلاً من السبيل، و«لا» زائدة مثلها في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد:٢٩]، كأنه قيل: فصدَّهم عن السجود لله تعالى.

وجوّز أن يكون بتقدير «إلى» و«لا» زائدة أيضاً، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «يهتدون»، كأنه قيل: فهم لا يهتدون إلى السجود له عز وجل.

وأنت تعلم أنَّ زيادة «لا» وإن وقعت في الفصيح خلافُ الظاهر.

وجوّز أن لا يكون هناك تقديرٌ، والمصدرُ خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: دأبُهم عدمُ السجود. وقيل: التقدير: هي ـ أي: أعمالُهم ـ عدمُ السجود، وفيه ما مرَّ آنفاً.

وقرأ ابن عباس وأبو جعفر والزهريُّ والسُّلميُّ والحسن وحميد والكسائيُّ: «أَلَا» بالتخفيف[1]، على أنها للاستفتاح، و«يا» حرفُ نداء، والمنادى محذوف،

---

(١) التيسير ص١٦٧-١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٧ عن الكسائي وأبي جعفر ورويس عن يعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٦٨.

أي: أَلَا يا قوم اسجدوا، كما في قوله:

ألا يا اسلمي ذاتَ الدمالج والعِقْدِ(١)

ونظائرِه الكثيرة. وسقطت ألفُ «يا» وألفُ الوصل في «اسجدوا» وكتبت الياء متصلةً بالسين على خلاف القياس، ووقف الكسائيُّ في هذه القراءة على «يا» وابتدأ بـ «اسجدوا»(٢)، وهو وقفُ اختيارٍ.

وفي «البحر»(٣): الذي أذهبُ إليه أنَّ مثل هذا التركيب الواردِ عن العرب ليست «يا» فيه للنداء والمنادى محذوف؛ لأنَّ المنادى عندي لا يجوزُ حذفُه؛ لأنه قد حُذِفَ الفعلُ العامل في النداء وانحذف فاعلُه لحذفه، فلو حذفنا المنادى لكان في ذلك حذْفُ جملة النداء وحَذْفُ متعلَّقِه وهو المنادَى، وإذا لم نحذفه كان دليلاً على العامل فيه وهو جملةُ النداء، وليس حرفُ النداء حرفَ جوابٍ كـ: نَعَم وبلى ولا وأَجَلْ، فيجوز حذف الجملة بعده كما يجوز حذفها بعدهنَّ لدلالة ما سبق من السؤال على الجملة المحذوفة، فـ «يا» عندي في تلك التراكيب حرفُ تنبيهٍ أُكِّد به «ألا» التي للتنبيه، وجاز ذلك لاختلاف الحرفين، ولقصد المبالغة في التوكيد. وإذا كان قد وُجِدَ التأكيد في اجتماع الحرفين المختلفي اللفظِ العاملَيْنِ في قوله:

فأصبحن لا يسألنني عن بما به(٤)

---

(١) وعجزه: وذاتَ الثنايا الغُرِّ والفاحِم الجَعْدِ، والبيت لأبي الأخيل العجلي كما في منتهى الطلب ٨/ ١٧٦، ونُسب للعُدَيْل بن الفرخ العجلي كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٧٢٩، وللتبريزي ٢/ ١٢٦، وقال أبو رياش كما نقل عنه التبريزي: ليست هذه الأبيات للعُديل، وهي قصيدة طويلة لأبي الأخيل العجلي قالها في آخر أيام بني أمية، وجاء في المصادر: الدماليج، بدل: الدمالج، قال المرزوقي: الدماليج: جمع الدملوج: وهي المِعْضَد.

(٢) التيسير ص١٦٧-١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٧، والكلام من البحر ٧/ ٦٩.

(٣) ٧/ ٦٩.

(٤) وعجزه: أَصَعَّد في عُلْوِ الهوى أم تَصَوَّبا، والبيت للأسود بن يعفر كما في المقاصد النحوية للعيني بهامش الخزانة ٤/ ١٠٣ (طبعة دار صادر)، وهو دون نسبة في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢١، وسر صناعة الإعراب ١/ ١٣٦، والضرائر ص٧٠ و٣٠٣، والخزانة ٩/ ٥٢٧. وجاء في بعض المصادر: يسألنه.

والمتَّفِقَي اللفظِ العاملين أيضاً في قوله:

فــلا واللهِ لا يُــلْــفَــى لــمــا بــي ولا لِــلِــمَــا بــهــم أبــداً دواءُ(١)

وجاز ذلك وإن عَدُّوْه ضرورةً أو قليلاً، فاجتماعُ غير العاملين وهما مختلفا اللفظ يكون جائزاً. وليس «يا» في قوله:

يــا لــعــنــةُ الله والأقــوام كــلِّــهــم(٢)

حرفَ نداءٍ عندي، بل حرفَ تنبيهٍ جاء بعده المبتدأ وليس مما حذف فيه المنادى لمَا ذكرناه. انتهى، وللبحث فيه مجال.

وعلى هذه القراءةِ يحتملُ أن يكون الكلام استئنافاً من كلام الهدهد إما خطاباً لقوم سليمان عليه السلام للحثِّ على عبادة الله تعالى، أو لقوم بلقيس لتنزيلهم منزلةَ المخاطبين، ويحتمل أن يكون استئنافاً من جهة الله عزَّ وجلَّ، أو من سليمان عليه السلام كما قيل، وهو حينئذٍ بتقدير القول.

ولعل الأظهرَ احتمالُ كونه استئنافاً من جهته عزَّ وجلَّ خاطب سبحانه به هذه الأمة، والجملةُ معترضةٌ.

ويوقَف على هذه القراءة على «يهتدون» استحساناً، ويوجبُ ذلك زيادةَ عدَّةِ آيات هذه السورة على ما قالوه فيها عند بعض، وقيل: لا يوجبها، فإنَّ الآيات توقيفيةٌ ليس مدارُها على الوقف وعدمِه، فتأمل.

والفرق بين القراءتين معنًى: أنَّ في الآية على الأولى ذمًّا على ترك السجود، وفيها على الثانية أمراً بالسجود. وأيًّا ما كان فالسجودُ واجب عند قراءة الآية،

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٦٨، والخصائص ٢/ ٢٨٢، وشرح المفصل لابن يعيش ٧/ ١٧ و٨/ ٤٣، والخزانة ٢/ ٣٠٨. قال البغدادي: وهذا البيت من قصيدة لمسلم بن معبد الوالبي شاعر إسلامي في الدولة الأموية.

(٢) وعجزه: والصالحين على سمعان من جار، وهو في الكتاب ٢/ ٢١٩، والإنصاف ١/ ١١٨، ومغني اللبيب ص٤٨٨، وشرح المفصل ٢/ ٢٤، وفيه: ويروى: والصالحون والصالحين مرفوعاً ومخفوضاً.

وزعم الزجَّاج وجوبه على القراءة الثانية[١]، وهو مخالفٌ لِمَا صرَّح به الفقهاء، ولذا قال الزمخشريُّ: إنه غيرُ مرجوعٍ إليه[٢].

وقرأ الأعمش: «هلَّا يسجدون»[٣] على التحضيض وإسنادِ الفعل إلى ضمير الغائبين. وفي قراءة أبيٍّ: «ألا تسجدون» على العَرْض وإسنادِ الفعل إلى ضمير المخاطبين. وفي حرف عبد الله: «ألا هل تسجدون» بـ «ألا» الاستفتاحية و«هل» الاستفهامية، وإسنادِ الفعل إلى ضمير المخاطبين، قاله ابن عطية[٤]. وفي «الكشاف» ما فيه مخالفةٌ ما له[٥]، والعالم بحقيقة الحال هو الله عز وجل.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُظْهِرُ الشيءَ المخبوءَ فيهما كائناً ما كان، فالخبءُ مصدرٌ أريدَ به اسمُ المفعول. وفسره بعضهم هنا بالمطر والنبات، ورُوي ذلك عن ابن زيد.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب أنه فسَّره بالماء[٦].

والأَوْلَى التعميم كما رَوَى ذلك جماعةٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

و«في السماوات» متعلِّقٌ بـ «الخبء». وعن الفرَّاء أنَّ «في» بمعنى «مِن»[٧]، فالجارُّ والمجرورُ على هذا متعلِّقٌ بـ «يُخرج»، والظاهرُ ما تقدم.

واختيارُ هذا الوصف لِمَا أنه أوفقُ بالقصة، حيث تضمَّنَتْ ما هو أشبهُ شيءٍ بإخراج الخَبْءِ وهو إظهارُ أمرِ بلقيس وما يتعلَّق به. وعلى هذا القياس اختيارُ ما ذكر بعدُ من صفاته عزَّ وجل.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٥، وفيه: ومن قرأ بالتخفيف فهو موضع سجدة من القرآن، ومن قرأ بالتشديد فليس بموضع سجدة.

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٥، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٤٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧، وذكرها السمين في الدر المصون ٨/ ٦٠٤ دون نسبة.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧، والبحر ٧/ ٦٨، وقراءة أبيّ ذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩٠، والزمخشري في الكشاف ٣/ ١٤٥.

(٥) الكشاف ٣/ ١٤٥، وقد ورد فيه اختلافٌ في ألفاظ هذه القراءات ونسبتها.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٦٨.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩١.

وقيل: إنَّ تخصيص هذا الوصف بالذكر لِمَا أنَّ الهدهد أرسخُ في معرفته والإحاطةِ بأحكامه بمشاهدة آثاره التي مَن جملتها ما أودعه الله تعالى في نفسه من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض. وأنت تعلم أنَّ كون الهدهد أُوْدِعَ فيه القدرةُ على ما ذُكر مما لم يجئ فيه خبرٌ يعوَّلُ عليه.

وأيضاً التعليلُ المذكورُ لا يتسنَّى على قراءة ابن عباس والستةِ الذين معه: «ألا يسجدوا» بالتخفيف، إذا جُعِلَ الكلام استئنافاً من جهته عزَّ وجلَّ، أو من جهة سليمان عليه السلام.

وقرأ أبيٌّ وعيسى: «الخبَ» بنقل حركة الهمزة إلى الباء وحذف الهمزة[١]. وحكى ذلك سيبويه عن قوم من بني تميم وبني أسد[٢].

وقرأ عكرمة بألفٍ بدل الهمزة، فلزم فتحُ ما قبلها، وهي قراءة عبد الله ومالك بن دينار[٣]، وخرِّجَتْ على لغةِ مَن يقول في الوقف: هذا الخبو، ومررت بالخبي، ورأيتُ الخبا، وأجري الوصل مجرى الوقف.

وأجاز الكوفيون أن يقال في المرأة والكمأة: المراة والكماة، بإبدال الهمزة ألفاً وفتحِ ما قبلها، وذُكر أنَّ هذا الإبدالَ لغةٌ، وجوَّز أن يكون «الخبء»[٤] من ذلك، ومنعه الزمخشريُّ مدَّعياً أنَّ ذلك لغةٌ ضعيفةٌ مسترذلةٌ[٥]. وعلَّل بأنَّ الهمزة إذا سكن ما قبلها فطريقُ تخفيفها الحذفُ لا القلبُ، كما يقال في الكمْءِ[٦]: كمه.

وتعقَّبه في «الكشف» فقال: تخريجه على الوقف فيه ضَعْفان؛ لأنَّ الوقف على ذلك الوجه ليس من لغة الفصحاء، وإجراءُ الوصل مجرى الوقف فيما لا يكثر استعماله كذلك، وأما تلك اللغة فعن الكوفيين أنها قياس. انتهى.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧، والبحر ٧/ ٦٩.
(٢) الكتاب ٣/ ٥٤٥ و٤/ ١٧٧، والكلام من البحر ٧/ ٦٩.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧، والكشاف ٣/ ١٤٥، والبحر ٧/ ٦٩، والكلام منه.
(٤) في الأصل: الخبا.
(٥) الكشاف ٣/ ١٤٥.
(٦) في الأصل: الكماء.

وزعم أبو حاتم أنَّ «الخبا» بالألف لا يجوز أصلاً، وهو من قُصور العلم؛ قال المبرِّد: كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو، ولم يلحق بهم، إلا أنه إذا خرج من بلدتهم لم يلْقَ أعلم منه[1].

وأشير بعطف قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ على «يُخْرِجُ» إلى أنه تعالى يُخْرِجُ ما في العالَم الإنسانيِّ من الخفايا كما يُخْرِجُ ما في العالم الكبير من الخبايا؛ لما أنَّ المراد: يُظهر ما تُخفونه من الأحوال فيجازيكم بها، وذكر «ما تعلنون» لتوسيع دائرة العلم، أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهي، كذا قيل.

ويُشْعِرُ كلام بعضهم بأنه أشير بما تقدَّم إلى كمال قدرته تعالى، وبهذا إلى كمال علمه عزَّ وجلَّ، وأنه استوى فيه الباطن والظاهر، وقدّم «ما تُخْفون» لذلك، مع مناسبته لِمَا قبله من «الخبء»، وقدّم وصفه تعالى بإخراج الخبء من السماوات لأنه أشدُّ ملاءمةً للمقام.

والخطاب على ما قيل: إما للناس، أو لقوم سليمان، أو لقوم بلقيس. وفي الكلام التفاتٌ.

وقرأ الحِرْميَّان والجمهور: «ما يخفون وما يعلنون» بياء الغيبة[2].

وفي «الكشاف» عن أبيٍّ أنه قرأ: «ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون»[3].

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ في معنى التعليل لوَصْفِه عزَّ وجلَّ بكمال القدرة وكمال العلم. و«العظيم» بالجرِّ صفةُ العرش، وهو نهايةُ الأجرام فلا جرمَ فوقه، وفي الآثار مِن وَصْفِ عظمه ما يبهرُ العقول، ويكفي في ذلك أنَّ

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٧ عن علي بن سليمان عن محمد بن يزيد المبرد، ونقله المصنف من البحر ٧/ ٦٩.

(٢) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٧، وقرأ بالخطاب حفص والكسائي.

(٣) الكشاف ٣/ ١٤٥.

الكرسيَّ الذي نطق الكتابُ العزيز بأنه وَسِعَ السماواتِ والأرضَ بالنسبة إليه كحلقة في فلاة[١].

وهو عند الفلاسفة محدَّدُ الجهات، وذهبوا إلى أنه جسمٌ كريٌّ خالٍ عن الكواكب، محيطٌ بسائر الأفلاك، محرِّكٌ لها قسراً من المشرق إلى المغرب، ولا يَكاد يَعلم مقدارَ ثخنه إلا الله تعالى. وفي الأخبار الصحيحة ما يأبى بظاهره بعضَ ذلك[٢]. وأيًّا ماً كان فبين عِظَمِه وعِظَمِ عَرْشِ بلقيس بونٌ عظيم.

وقرأ ابن محيصن وجماعة: «العظيمُ» بالرفع[٣]، فاحتمل أن يكون صفةً للعرش مقطوعةً بتقديرِ هو، فتستوي القراءتان معنًى، واحتمل أن يكون صفةً للرَّب.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا فعل سليمان عليه السلام عند قوله ذلك؟ فقيل: قال: ﴿سَنَنظُرُ﴾ أي: فيما ذكرتَه، من النظر بمعنى التأمُّل والتفكُّر، والسينُ للتأكيد، أي: سنتعرَّفُ بالتجربة البتة ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ جملةٌ معلَّقٌ عنها الفعلُ للاستفهام.

وكان مقتضَى الظاهر: أم كذبتَ، وإيثارُ ما عليه النظم الكريم للإيذان بأنَّ كذبه في هذه المادة يستلزمُ انتظامَه في سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه، فإنَّ مساق هذه الأقاويل الملفَّقة مع ترتيبٍ أنيقٍ يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداقٌ أصلاً، لا سيما بين يدي نبيٍّ عظيمٍ تُخشى سطوتُه، لا يكاد يَصْدُر إلَّا عمن رسختْ قدمُه في الكذب والإفك، وصار سجيةً له حتى لا يملك نفسه عنه في أيِّ موطنٍ كان. وزَعَم بعضُهم أنَّ ذاك لمراعاة الفاصلة، وليس بشيءٍ أصلاً.

---

(١) أخرجه الطبري ٤/ ٥٣٩، وأبو الشيخ في العظمة (٢٢٤) من طريق زيد بن أسلم عن أبي ذرٍّ ﷺ مرفوعاً، وإسناده منقطع، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢٥٠) عن مجاهد قوله.

(٢) منها ما أخرجه أحمد (٨٤١٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه: فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن. . .، وعن عبادة بن الصامت عند أحمد أيضاً (٢٢٦٩٥) نحوه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٩، والبحر ٧/ ٧٠.

وفي الآية على ما في «الإكليل» قبولُ الوالي عذرَ رعيته، ودرءُ العقوبة عنهم، وامتحانُ صدقهم فيما اعتذروا به(١).

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفية النظر الذي وَعَده عليه السلام بعدما كتب كتابه في ذلك المجلس أو بعده، فـ «هذا» إشارةٌ إلى الحاضر. وتخصيصُه عليه السلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجنِّ الأقوياء على التصرُّف والتعرُّف؛ لِمَا عاين فيه من مخايل العلم والحكمة، ولئلَّا يبقى له عذرٌ أصلاً.

وفي الآية دليلٌ على جواز إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام لإبلاغ الدعوة والدعاء إلى الإسلام. وقد كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وغيرِهما من ملوك العرب.

وقرئ في السبعة: «فألقه» بكسر الهاء وياءٍ بعدها، وباختلاس الكسرة، وبسكون الهاء(٢). وقرأ مسلم بن جندب بضم الهاء وواو بعدها(٣).

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: تَنحَّ، وحُمِلَ على ذلك لأنَّ التولِّيَ بالكلِّية ينافي قوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إلَّا أنْ يُحمل على القَلْبِ كما زعم ابن زيد وأبو عليٍّ(٤)، وهو غيرُ مناسبٍ.

وأَمْرُه عليه السلام إياه بالتنحِّي من باب تعليم الأدب مع الملوك كما روي عن وهب.

والنظر بمعنى التأمُّل والتفكُّر، و«ماذا» إمَّا كلمةُ استفهامٍ في موضع المفعول

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص٢٠١.

(٢) قرأ بسكون الهاء أبو عمرو وعاصم وحمزة وأبو جعفر، وباختلاس الكسرة قالون ويعقوب وهشام بخلف عنه، وبكسر الهاء وبالياء الباقون، وهو الوجه الثاني لهشام. النشر ١/ ٣٠٥-٣٠٦.

(٣) البحر ٧/ ٧٠.

(٤) البحر ٧/ ٧٠، وفيه: قال ابن زيد: أمره بالتولِّي بمعنى الرجوع إليه، أي: ألقه وارجع، قال: وقوله: «فانظر ماذا يرجعون» في معنى التقديم مع قوله: «ثم تولَّ عنهم». وقاله أبو علي، ولا ضرورة تدعو إلى التقديم والتأخير. اهـ.

لـ «يرجعون»، ورجع تكون متعدِّيةً كما تكون لازمةً، أو مبتدأ وجملة «يرجعون» خبره. وإمَّا أن تكون «ما» استفهاميةً مبتدأ، و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي» خبره، وجملة «يرجعون» صلة الموصول والعائد محذوفٌ. وأيًّا ما كان فالجملةُ معلَّقٌ عنها فعلُ القلب فمحلُّها النصبُ على إسقاط الخافض.

وقيل: النظر بمعنى الانتظار، كما في قوله تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] فلا تعليق، بل كلمة «ماذا» موصولٌ في موضع المفعول، كذا قيل، والظاهر أنه بمعنى التأمُّل، وأنَّ المراد: فتأمَّل وتعرَّف ماذا يردُّ بعضُهم على بعض من القول. وهذا ظاهرٌ في أنَّ الله تعالى أعطى الهدهد قوةً يفهم بها ما يسمعه من كلامهم. والتعبير بالإلقاء لأنَّ تبليغه لا يمكن بدونه. وجمع الضمير لأنَّ المقصود تبليغُ ما فيه لجميع القوم، والكشف عن حالهم بعده.

﴿قَالَتْ﴾ أي: بعد ما ذهب الهدهدُ بالكتاب فألقاه إليهم وتنحَّى عنهم حَسْبَما أُمِرَ به، وإنما طوي ذِكْرُه إيذاناً بكمال مسارعته إلى إقامة ما أُمر به من الخدمة، وإشعاراً بالاستغناء عن التصريح به لغاية ظهوره.

روي أنه عليه السلام كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد، فذهب به فوجدها راقدةً في قصرها بمَأْرِب، وكانت إذا رقدتْ غلَّقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها، فدخل من كوَّةٍ وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية، وفي رواية: بين ثدييها. وقيل: نقرها فانتبهت فزعة.

وقيل: أتاها والقادةُ والجنودُ حواليها، فرفرف ساعةً والناسُ ينظرون حتى رفعت رأسها، فألقى الكتاب في حِجْرها، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، فقالت ما قالت.

وقيل: كانت في البيت كوَّةٌ تقع الشمس منها كلَّ يومٍ، فإذا نظرت إليها سجدت، فجاء الهدهد فسدَّها بجناحيه، فرأت ذلك وقامت إليه فألقى الكتاب إليها، وكانت قارئةً كاتبةً عربيةً من نسل يعرب بن قحطان، واشتهر أنها من نسل تُبَّع الحميريِّ، وكان الخطُّ العربيُّ في غاية الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة، وهو المسمَّى بالخط الحميريِّ، وكان بحِمْير كتابةٌ تسمَّى المسند حروفُها مفصَّلةٌ،

وكانوا يَمنعون من تعليمها إلا بإذنهم، ومن حمير تعلَّم مضر، وقد تقدَّم بعضُ الكلام في ذلك(١).

واختار ابن خلدون القول بأنه تعلَّم الكتابة العربية من التبابعة وحمير أهلُ الحيرة، وتعلَّمها منهم أهلُ الحجاز(٢).

وظاهرُ كونِ بلقيس من العرب وأنها قرأت الكتاب يقتضي أنَّ الكتاب كان عربيًّا، ولعل سليمان عليه السلام كان يعرف العربيَّ وإن لم يكن من العرب، ومَن علِّم منطِقَ الطير لا يَبْعُدُ أن يعلم منطق العرب الذي هو أشرفُ منطق. ويحتمل أن يكون عنده مَن يعرِفُ ذلك، وكذا مَن يعرف غيره من اللغات، كعادة الملوك يكون عندهم مَن يتكلَّم بعدَّة لغاتٍ ليترجم لهم ما يحتاجونه.

ويجوزُ أن يكون الكتاب غيرَ عربيٍّ، بل بلغة سليمان عليه السلام وقلمِه، وكان قلمُه كما نقل عن الإمام أحمد البوني(٣) كاهنيًّا، وكان عند بلقيس من ترجَمَه لها وأَعْلَمها بما فيه، فجمعت أشرافَ قومها وأخبرتهم بذلك، واستشارتهم كما حَكَى سبحانه عنها بقوله جلَّ وعلا: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ إلخ. وأَقْدَمَ سليمانَ عليه السلام على كتابة الكتاب إليها كذلك قولُ الهدهد: «وأُتِيتْ من كلِّ شيءٍ»، والمترجِمُ من الأشياء التي يحتاج إليها الملك، وأنَّ اللائق بشأنه وعظمته أن لا يترك لسانه ويتشبَّهَ بها في لسانها. ويحتملُ أنها كانت بنفسها تعرفُ تلك الكتابة فقرأت الكتاب لذلك.

ورجِّح احتمالَ أن يكون الكتابُ غيرَ عربيٍّ بأنَّ الكتابة لها بالعربية تستدعي الوقوف على حالها، وهو عليه السلام ما وقف عليه بعد.

وتعقِّب بأنه دلَّه على كونها عربيةً قولُ الهدهد: «جئتك من سبأ بنبأ يقين إنِّي

---

(١) ص١٨٤ من هذا الجزء.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٢/ ٥٠٣.

(٣) هو: أحمد بن علي بن يوسف البوني، تقي الدين، أبو العباس القرشي، من مصنفاته: أسرار الحروف والكلمات، شمس المعارف ولطائف العوارف، ولطائف الإشارات في أسرار الحروف العلويات، وغيرها، توفي سنة (٦٢٢هـ). هدية العارفين ١/ ٩٠، وكرامات الأولياء ١/ ٣٠٦.

وجدتُ امرأة تملكُهم» فإنه عليه السلام ممن لا يخفَى عليه كون سبأ من العرب، والظاهرُ كونُ ملكتهم منهم.

ووَصَفتِ الكتاب بالكرم لكونه مختوماً، ففي الحديث: «كرمُ الكتاب خَتْمُه»[١]. وفي «شرح أدب الكاتب»: يقال: أكرمتُ الكتاب فهو كريمٌ، إذا ختمته[٢]. وقال ابن المقنع[٣]: مَن كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخفَّ به. وقد فسَّر ابنُ عباس وقتادةُ وزهير بن محمد «الكريم» هنا بالمختوم، وفيه ـ كما قيل ـ استحبابُ ختم الكتب[٤].

أو[٥]: لكرم مضمونه وشرفه.

أو: لكرم مُرسِله وعلوِّ منزلته، وعلمتْ ذلك بالسماع، أو بكون كتابه مختوماً باسمه على عادة الملوك والعظماء، أو بكون رسوله به الطير، أو لبداءته باسم الله عز وجل، أو لغرابة شأنه ووصوله إليها على منهاجٍ غيرِ معتاد.

وقيل: إنَّ ذلك لظنِّها إياه ـ بسبب أنَّ الملقيَ له طير ـ أنه كتاب سماويٌّ. وليس بشيء.

وبناء «أُلقي» للمفعول لعدم الاهتمام بالفاعل. وقيل: لجهلها به أو لكونه حقيراً. وقال الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه في «الفصوص»: من حكمة بلقيس كونُها لم تذكر مَن ألقى إليها الكتاب، وما ذاك إلا لتُعْلِم أصحابها أنَّ لها اتِّصالاً إلى أمورٍ لا يعلمون طريقها، وفي ذلك سياسةٌ منها أَوْرثَتِ الحذر منها في أهل مملكتها وخواصِّ مدبِّريها، وبهذا استحقَّت التقديمَ عليهم. انتهى.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «كرامة الكتاب...». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٩٩: فيه محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك.

(٢) الاقتصاب في شرح أدب الكتاب للبطليوسي ١/ ١٨٧.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفيض القدير ٤/ ٥٥٠، وحاشية الشهاب ٧/ ٤٤، والكلام منه، وفي الكشاف ٣/ ١٤٦، وتفسير القرطبي ١٦/ ١٥٢: المقفع.

(٤) في (م): الكتاب.

(٥) قوله: أو، ساقط من (م).

وتأكيدُ الجملة للاعتناء بشأن الحكم، وأمَّا التأكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ فلذاك أيضاً، أو لوقوعه في جواب سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنه قيل: ممَّن هذا الكتاب، وماذا مضمونُه؟ فقيل: إنه من سليمان.. إلخ، ويَحسُنُ التأكيد بـ «إنَّ» في جواب السؤال، ولا أرى فرقاً في ذلك بين المحقَّق والمقدَّر. ويعلم مما ذكر أنَّ ضمير «إنه» الأولَ للكتاب، وضميرَ «إنه» الثاني للمضمون وإنْ لم يذكر.

وليس في الآية ما يدلُّ على أنه عليه السلام قدَّم اسمه على اسم الله عز وجل، وعِلْمُها بأنه من سليمان يجوزُ أن يكون لكتابة اسمه بعدُ، وقد أخرج ابن أبي حاتم(١) عن يزيد بن رومان أنه قال: كتب سليمانُ: بسم الله الرحمن الرحيم، من سليمان بن داود إلى بلقيس ابنة ذي شرح وقومِها «أنْ لا تعلوا» إلخ.

وجوِّز أن يكون لكتابته في ظاهر الكتاب، وكان باطنُ الكتاب «بسم الله» إلخ.

وقيل: ضمير«إنه» الأول للعنوان، وإنه عليه السلام عَنْوَنَ الكتاب باسمه مقدِّماً له، فكتب: من سليمان «بسم الله» إلخ، واستظهر هذا أبو حيان ثم قال: وقدَّم عليه السلامُ اسمه لاحتمال أن يبدر منها ما لا يليق إذ كانت كافرة، فيكون اسمه وقاية لاسم الله عز وجل(٢). وهو كما ترى.

وكتابة البسملة في أوائل الكتب مما جرت به سنَّة نبيِّنا ﷺ بعد نزول هذه الآية بلا خلاف، وأما قبله فقد قيل: إنَّ كُتُبَه عليه الصلاة والسلام لم تُفتتح بها، فقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وغيرُهما عن الشعبيِّ قال: كان أهل الجاهلية يكتبون: باسمك اللهم، فكتب النبيُّ ﷺ أولَ ما كتب: باسمكَ اللهم، حتى نزلت: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود:٤١] فكتب: بسم الله، ثم نزلت: ﴿ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ [الإسراء:١١٠] فكتب: بسم الله الرحمن، ثم نزلت آية «النمل»: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ الآية، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم(٣).

---

(١) في تفسيره ٩/ ٢٨٧٢-٢٨٧٣.

(٢) البحر ٧/ ٧٢.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٨١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٦.

وأخرج أبو داود في «مراسيله» عن أبي مالك قال: كان النبيُّ ﷺ يكتب: باسمك اللهم، فلما نزلت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ الآية كتب: بسم الله.. إلخ(١).

وروي نحوُ ذلك عن ميمون بن مهران وقتادة. وهذا عندي مما لا يكاد يتسنَّى مع القول بنزول البسملة قبل نزول هذه الآية، وهذا القول مما لا ينبغي أن يُذهَبَ إلى خلافه، فقد قال الجلال السيوطيُّ في «إتقانه»(٢): اختلف في أول ما نزل من القرآن على أقوال: أحدها وهو الصحيح: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ واحتجَّ له بعدَّة أخبارٍ منها خبرُ الشيخين في بدء الوحي(٣)، وهو مشهور. وثانيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. وثالثها: سورة الفاتحة. ورابعها: البسملة. ثم قال: وعندي أنَّ هذا لا يعدُّ قولاً برأسه، فإنه من ضرورة نزول السورة نزولُ البسملة معها، فهي أول آيةٍ نزلت على الإطلاق. اهـ.

وهو يقوِّي ما قلناه، فإنَّ البسملة إذا كانت أولَ آيةٍ نزلت كانت هي المفتتح لكتاب الله تعالى، وإذا كانت كذلك كان اللائقُ بشأنه ﷺ أن يفتتح بها كتبه، كما افتتح الله تعالى بها كتابه وجَعَلَها أولَ المنزلِ منه.

والقولُ بأنها نزلت قبلُ، إلا أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلم مشروعيتها في أوائل الكتب والرسائل حتى نزلت هذه الآيةُ المتضمِّنة لكتابة سليمان عليه السلام إياها في كتابه إلى أهل سبأ، مما لا يقدِمُ عليه إلا جاهل بقَدْرِه عليه الصلاة والسلام.

وذَكَرَ بعضُ الأجلَّة أنها إذا كتبت في الكتب والرسائل فالأولى أن تُكتَب سطراً وحدها.

وفي «أدب الكتاب» للصُّولي: أنهم يختارون أن يبدأ الكاتب بالبسملة من حاشية القرطاس، ثم يكتب الدعاء مساوياً لها، ويستقبحون أن يخرج الكلام عن البسملة فاضلاً بقليل، ولا يكتبونها وسطاً ويكون الدعاء فاضلاً(٤). اهـ، وما ذُكر من كتابة

---

(١) المراسيل (٣٥).

(٢) ١/٧٦-٨٠.

(٣) صحيح البخاري (٣)، وصحيح مسلم (١٦٠) من حديث عائشة ﵂.

(٤) أدب الكتاب ص٣٦. والصولي هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله البغدادي صاحب =

الدعاء بعدها لم يكن في الصدر الأول، وإنما كان فيه كتابةُ: من فلان إلى فلان.

وتقديم اسم الكاتب على اسم المكتوب له مشروعٌ وإن كان الأول مفضولاً والثاني فاضلاً، ففي «البحر» عن أنس: ما كان أحدٌ أعظمَ حرمةً من رسول الله ﷺ، وكان أصحابُه إذا كتبوا إليه كتاباً بدؤوا بأنفسهم(١).

وقال أبو الليث في «البستان» له: ولو بدأ بالمكتوب إليه جاز؛ لأنَّ الأمة قد أجمعت عليه وفعلوه(٢). انتهى.

وظاهر الآية أنَّ البسملة ليست من الخصوصيات، وقال بعضهم: إنَّها منها لكنْ باللفظ العربيِّ والترتيب المخصوص، وما في كتاب سليمان عليه السلام لم تكن باللفظ العربي وتُرجمت لنا به، وليس ذلك ببعيد.

وقرأ عبد الله: «وإنه من سليمان» بزيادة واو، وخرَّجه أبو حيان على أنها عاطفةٌ للجملة بعدها على جملةِ: «إنِّي ألقي»(٣). وقيل: هي واو الحال، والجملةُ حالية.

وقرأ عكرمة وابنُ أبي عبلة: «أنه من سليمان وأنه» بفتح همزة «أنَّ» في الموضعين(٤)، وخرِّج على الإبدال من «كتاب»، أي: أُلقيَ إليَّ أنه.. إلخ، أو على أن يكون التقدير: لأنه.. إلخ، كأنها علَّلت كرم الكتاب بكونه من سليمان، وبكونه مصدّراً باسم الله عز وجل.

وقرأ أبيٌّ: «أنْ من سليمان وأنْ بسم الله» بفتح الهمزة وسكون النون، وخرِّج على أنَّ «أنْ» هي المفسِّرة؛ لأنه قد تقدَّمت جملةٌ فيها معنى القول، أو على أنها المخفَّفة من الثقيلة وحذفت الهاء(٥).

= التصانيف، حدث عن أبي داود السجستاني وثعلب والمبرد وغيرهم، توفي سنة(٣٣٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٠٢.

(١) البحر ٧/ ٧٢، وعزاه العجلوني في كشف الخفاء ١/ ١٠٠ للبيهقي، وأخرجه الطبراني في الكبير (٦١٠٨) من حديث سلمان ﷺ.

(٢) بستان العارفين ص٦٣، والكلام من البحر ٧/ ٧٢.

(٣) البحر ٧/ ٧٢، وقاله أيضاً الزمخشريُّ في الكشاف ٣/ ١٤٦.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٩، والبحر ٧/ ٧٢، والكلام منه.

(٥) البحر ٧/ ٧٢، وقراءة أبيٍّ في القراءات الشاذة ص١٠٩.

و«أنْ» في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ يحتمل أن تكون مفسِّرةَ و«لا» ناهية، ويحتمل أن تكون مصدريةً ناصبةً للفعل و«لا» نافية، وقيل: يجوز كونُها ناهيةً أيضاً[١].

ومحلُّ المصدر الرفعُ على أنه بدلٌ من «كتاب»، أو خبرٌ لمبتدأ مضمَرٍ يليقُ بالمقام، أي: مضمونُه أن لا تعلوا عليَّ، أي: أن لا تتكبَّروا عليَّ كما يفعل جبابرة الملوك.

وقرأ ابن عباس ﵄ في رواية وهب بن منبِّهٍ والأشهبُ العقيليُّ: «أن لا تغلوا» بالغين المعجمة[٢]، من الغلوِّ وهو[٣] مجاوزةُ الحدِّ، أي: أنْ لا تتجاوزوا حدَّكم.

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ عطف على ما قبله، فإن كانت فيه «لا» ناهيةً فعطفُ الأمر عليه ظاهرٌ، وإن كانت نافيةً و«أن» مصدرية فعَطْفُه عليه من عَطْفِ الإنشاء على الإخبار، والكلامُ فيه مشهور، والأكثرون على جوازه في مثل هذا.

والمراد بالإسلام الإيمانُ، أي: وأتوني مؤمنين، وقيل: المراد به الانقياد، أي: ائتوني منقادين مستسلمين. والدعوةُ على الأول دعوةُ النبوَّة، وعلى الثاني دعوةُ الملك. واللائقُ بشأنه عليه السلام هو الأول، وفي بعض الآثار ـ كما ستعلم إن شاء الله تعالى ـ ما يؤيِّده.

ولا يَرِدُ أنه يلزمُ عليه أن يكون الأمرُ بالإيمان قبل إقامة الحجة على رسالته فيكون استدعاءً للتقليد؛ لأنَّ الدعوة المذكورة هي الدعوةُ الأولى التي لا تستدعي إظهار المعجزة وإقامةَ الحجة، وعادةُ الأنبياء عليهم السلام الدعوةُ إلى الإيمان أولاً، فإذا عُورضوا أقاموا الدليل وأظهروا المعجزة، وفيما نحن فيه لم يَصْدُرْ معارضة.

---

(١) ذكر القولين في «لا» السمين في الدر ٨/ ٦١٠ ثم قال: القول بأنها للنفي لا يظهر؛ إذ يصير المعنى على الإخبار منه عليه السلام بأنهم لا يعلون عليه، وليس هذا مقصوداً، وإنما المقصود أن ينهاهم عن ذلك.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٩، والمحتسب ٢/ ١٣٩، والبحر ٧/ ٧٢.

(٣) في (م): وهي.

وقيل: إنَّ الدعوة ما كانت إلا مقرونةً بإقامة الحجة؛ لأنَّ إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة التي ذكرت فيما مرَّ أوّلاً معجزةٌ باهرةٌ دالَّةٌ على رسالته عليه السلام دلالةً بيِّنةً.

وتعقِّب بأنَّ كون الإلقاء المذكور معجزةً غيرُ واضحٍ، خصوصاً وهي لم تقارن التحدِّي.

ورجِّح الثاني بأنَّ قولها: «إنَّ الملوك» إلخ صريحٌ في دعوة الملك والسلطنة.

وأجيب بأنَّ ذاك لعدم تيقُّنها رسالته عليه السلام حينئذٍ، أو هو من باب الاحتيال لجَلْبِ القوم إلى الإجابة، بإدخال الرَّوْعِ عليهم من حيثيةِ كونه عليه السلام ملكاً، وهذا كما ترى.

والظاهر أنه لم يكن في الكتاب أكثرُ مما قَصَّ الله تعالى، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد. وثانيتهما أنَّ فيه: السلامُ على مَن اتَّبع الهدى، أمَّا بعد فلا تَعْلُوا عليَّ وأتوني مسلمين.

وفي بعض الآثار أنَّ نسخة الكتاب: من عبد الله سليمانَ بن داود إلى بلقيس ملكةِ سبأ، السلامُ على مَن اتَّبع الهدى، إلى آخر ما ذكر[(١)]. ولعلها على ما هو الظاهرُ عرفتْ أنهم المعنيُّون بالخطاب من قرائن الأحوال.

وقد تضمَّن ما قصَّه سبحانه: البسملةَ التي هي هي في الدلالة على صفاته تعالى صريحاً والتزاماً، والنهيَ عن الترفُّع الذي هو أمُّ الرذائل، والأمرَ بالإسلام الجامعِ لأمَّهات الفضائل، فيا له كتابٌ في غاية الإيجاز ونهايةِ الإعجاز.

وعن قتادة: كذلك كانت الأنبياء عليهم السلام تكتب جملاً لا يطيلون ولا يُكْثِرون.

هذا ولم أرَ في الآثار ما يُشْعِرُ بأنه عليه السلامُ كتب ذلك على الكاغَد[(٢)] أو الرقِّ أو غيرهما، واشتهر على ألسنة الكتَّاب أنَّ الكتاب كان من الكاغَدِ المعروف،

---

(١) وهي أيضاً رواية عن مجاهد أخرجها عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٥/ ١٠٦.

(٢) الكاغَد والكاغِد والكاغَذ والكاغِط: القرطاس، فارسي أو صيني معرب، يتخذ من الخرق والقنَّب ونحو ذلك. معجم متن اللغة (كغد).

وأنَّ الهدهد أخذه من طرفه بمنقاره فابتلَّ ذلك الطرفُ بريقه وذهب منه شيءٌ، وكان ذلك الزاوية اليمنى من جهة أسفل الكتاب. وزعموا أنَّ قَطْعَهم شيئاً من القرطاس من تلك الزاوية تشبيهاً لِمَا يكتبونه بكتاب سليمان عليه السلام، وهذا مما لا يعوَّل عليه، ولسائرِ أربابِ الصنائع والحِرَفِ حكاياتٌ من هذا القبيل، وهي عند العقلاء أحاديثُ خرافةٍ.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ كرِّرَت حكايةُ قولها للإيذان بغايةِ اعتنائها بما في حيِّزها. والإفتاءُ على ما قال صاحب «المطلع»: الإشارة على المستفتي فيما حدث له من الحادثة بما عند المفتي من الرأي والتدبير، وهو إزالةُ ما حدث له من الإشكال، كالإشكاء: إزالة الشكوى. وفي «المُغْرِب»: اشتقاق الفتوى من الفتى؛ لأنها جوابٌ في حادثةٍ، أو إحداثُ حكمٍ، أو تقويةٌ لبيان مُشْكلٍ[1].

وأيًّا ما كان فالمعنى: أشيروا عليَّ بما عندكم من الرأي والتدبير فيما حدث لي وذكرْتُ لكم خلاصتَه، وقصدتْ بما ذكرتْ استعطافَهم وتطييبَ نفوسهم ليساعدوها ويقوموا معها، وأكَّدت ذلك بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ما أَقْطَعُ أمراً من الأمور المتعلِّقة بالملك إلا بمحضَركم وبموجبِ آرائكم، والإتيانُ بـ «كان» للإيذان بأنها استمرَّت على ذلك، أوْ لم يقع منها غيرَه في الزمن الماضي، فكذا في هذا، و«حتى تشهدون» غايةٌ للقطع.

واستُدلَّ بالآية على استحباب المشاورة والاستعانة بالآراء في الأمور المهمَّة. وفي قراءة عبد الله: «ما كنتُ قاضيةً أمراً»[2].

﴿قَالُوا۟﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكاية قولها، كأنه قيل: فماذا قالوا في جوابها؟ فقيل: قالوا: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ في الأجساد والعدد ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: نجدةٍ وشجاعةٍ مُفْرِطةٍ وبلاءٍ في الحرب، قيل: كان أهلُ مشورتها ثلاثَ مئةٍ واثني عشر رجلاً، كلُّ واحدٍ على عشرة آلاف، وروي ذلك عن قتادة.

---

(١) المغرب ٢/ ١٢٢.

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٦، والبحر ٧/ ٧٣.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان لصاحبة سليمان اثنا عشر ألف قيلٍ، تحت يدِ كلِّ قيلٍ مئة ألف[1].

وقيل: كان تحت يدها أربعُ مئةِ مَلِكٍ، كلُّ ملكٍ على كورةٍ، تحت يدِ كلِّ ملكٍ أربعُ مئةِ ألفِ مقاتلٍ، ولها ثلاث مئة وزيرٍ يُدبِّرون ملكَها، ولها اثنا عشر ألفَ قائدٍ، كلُّ قائد تحت يده اثنا عَشَرَ ألف مقاتلٍ.

وهذه الأخبارُ إلى الكذب أقربُ منها إلى الصدق، ولعمري إنَّ أرض اليمن لتكاد تضيقُ عن العدد الذي تضمَّنه الخبران الأخيران، وليت شعري ما مقدارُ عدد رعيتها الباقين الذين تحتاج إلى هذا العسكر والقوَّاد والوزراءِ لسياستهم وضبطِ أمورهم وتنظيم أحوالهم؟!

﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ تسليمٌ للأمر إليها بعد تقديم ما يدلُّ على القوة والشجاعة، حتى لا يُتوهَّم أنه من العجز. والأمرُ بمعناه المعروفِ، أو المعنى: الشأنُ، وهو مبتدأ و«إليك» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع خبراً له، ويقدَّر مؤخَّراً ليفيد الحصر المقصودَ لفَهْمِه من السياق، أي: والأمرُ إليكِ موكولٌ.

﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ من الصلح والمقاتلة، نُطِعْكِ ونتَّبعْ رأيَكِ.

وقيل: أرادوا: نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة، وإليك الرأيُ والتدبير فانظري ماذا ترين نكنْ في الخدمة.

فلمَّا أحسَّتْ منهم الميل إلى الحرب، والعدولَ عن السَّنَنِ الصَّوابِ، شَرَعَتْ في تزييف مقالتهم المنبئةِ عن الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام حَسْبَما تعتقدُه، وذلك قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ من القرى على منهاج المقاتَلةِ والحرب ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بتخريب عماراتها وإتلافِ ما فيها من الأموال ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ بالقتل والأسر والإجلاء وغيرِ ذلك من فنون الإهانة والإذلال، ولم يقل: وأذلُّوا أعزَّة أهلها، مع أنه أخصر؛ للمبالغة في التصيير والجعل.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٧٥، والخبر فيه عن مجاهد، وليس عن ابن عباس كما ذكر المصنف.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ تصديقٌ لها من جهته عزَّ وجلَّ على ما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]، أو هو من كلامها جاءت به تأكيداً لِمَا وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييليِّ وتقريراً[2] له بأنَّ ذلك عادتُهم المستمرَّةُ، فالضمير للملوك.

وقيل: هو لسليمان ومَن معه، فيكون تأسيساً لا تأكيداً. وتعقِّب بأنَّ التأكيد لازمٌ على ذلك أيضاً؛ للاندراج تحت الكلِّية. وكأنها أرادت على ما قيل: إنَّ سليمان ملكٌ والملوكُ هذا شأنُهم، وغَلَبَتُنا عليه غيرُ محقَّقةٍ، ولا اعتمادَ على العدد والعدَّةِ والشجاعة والنجدة، فربما يغلبنا فيكون ما يكون، فالصُّلْحُ خيرٌ.

وقيل: إنها غَلَبَ على ظنِّها غَلَبَتُه، حيث رأت أنه سخِّر له الطيرُ فجَعَلَ يرسله بأمرٍ خاصٍّ إلى شخصٍ خاصٍّ مُغَلَّقٍ عليه الأبوابُ، فأشارت لهم إلى أنه يغلبُ عليهم إذا قاتلوه، فيُفْسِدُ القرى ويذلُّ الأعزَّةَ.

وأفسدت بذلك رأيهم وما أحسَّته منهم من الميل إلى مقاتلتِه عليه السلام، وقرَّرت رأيها بقولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ حتى أعمل بما يقتضيه الحال، وهذا ظاهرٌ في أنها لم تثق بقبوله عليه السلام هديَّتها.

وروي أنها قالت لقومها: إن كان ملكاً دنياويًّا أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبيًّا لم يُرضِه المال، وينبغي أن نتَّبعه على دينه.

والهدية: اسمٌ لِمَا يُهْدَى، كالعطية اسمٌ لِمَا يُعْطَى، والتنوينُ فيها للتعظيم. و«ناظرة» عطف على «مرسلة»، و«بم» متعلِّقٌ بـ «يرجع»، ووقع للحوفيِّ أنه متعلِّق بـ «ناظرة»، وهو وهمٌ فاحشٌ كما في «البحر»[3]، والنظر معلَّقٌ، والجملةُ في موضع المفعول به له، والجملة الاسمية الدالَّةُ على الثبات المصدَّرة بحرفِ التحقيق للإيذان بأنها مُزْمِعةٌ على رأيها لا يلويها عنه صارفٌ، ولا يُثْنيها عاطفٌ.

واختلف في هديتها؛ فعن ابن عباس أنها كانت مئةَ وصيفٍ ومئةَ وصيفة. وقال

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٧٧.
(٢) في (م): وتقرير، وهو خطأ.
(٣) ٧/ ٧٤.

وهب وغيره: عمدتْ بلقيس إلى خمس مئة غلام وخمسِ مئة جاريةٍ، فألبست الجواريَ لبسَ الغلمان؛ الأقبيةَ والمناطق، وألبست الغلمانَ لباس الجواري، وجعلت في أيديهم أساوِرَ الذهب، وفي أعناقهم أطواقَ الذهب، وفي آذانهم أقرطةً وشنوفاً[(١)] مرصَّعة بأنواع الجواهر، وحَمَلتِ الجواريَ على خمس مئة رمكةٍ، والغلمانَ على خمس مئة برذون، على كلِّ فرس سرجٌ من الذهب مرصَّعٌ بالجوهر، وعليه أغشيةُ الديباج، وبعثت إليه لَبناتٍ من ذهب ولبناتٍ من فضة، وتاجاً مكلَّلاً بالدرِّ والياقوت، وأرسلت بالمسك والعنبر والعود، وعمدت إلى حُقٍّ فجعلت فيه درةً عذراء وخَرْزَةَ جزْعٍ معوجَّة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له: المنذر بن عمرو، وضمَّت إليه رجالاً من قومها أصحابَ رأي وعقل، وكتبت معه كتاباً تذكرُ فيه الهديةَ، وقالت فيه: إنْ كنت نبيًّا ميِّز بين الغلمان والجواري، وأخبِرْ بما في الحُقِّ قبل أن تفتحه، ثم قالت للرسول: فإن أخبر فقل له: اثقب الدرة ثقباً مستوياً، وأَدْخِلْ في الخرزة خيطاً من غير علاج إنسٍ ولا جنٍّ. وقالت للغلمان: إذا كلَّمكم سليمان فكلِّموه بكلامٍ فيه تأنيثٌ وتخنُّثٌ يشبه كلامَ النساء، وأمرت الجواريَ أن يكلِّموه بكلامٍ فيه غِلْظةٌ يشبه كلامَ الرجال. ثم قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلتَ، فإن نظر إليك نظراً فيه غضبٌ فاعلم أنه ملكٌ، فلا يهولنَّك منظرُه فأنا أعزُّ منه، وإن رأيتَ الرجل بشاشاً لطيفاً، فاعلم أنه نبيٌّ فتفهَّمْ منه قولَه وردَّ الجواب.

فانطلق الرجل بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان فأخبره الخبر، فأمر عليه السلام الجنَّ أن يضربوا لبناً من الذهب والفضة ففعلوا، وأمرهم بعمل ميدانٍ مقدارَ تسعِ فراسخَ، وأن يفرشوا فيه لَبِنَ الذهب والفضة وأن يُخلُّوا قَدْرَ تلك اللَّبِنات التي معهم، وأن يعملوا حول الميدان حائطاً مشرفاً من الذهب والفضة، ففعلوا، ثم قال: أيُّ دوابِّ البرِّ والبحر أحسن؟ فقالوا: يا نبيَّ الله، ما رأينا أحسنَ من دوابَّ في البحر يقال لها كذا وكذا مختلفة ألوانُها، لها أجنحةٌ وأعرافٌ ونواصٍ، قال: عليَّ بها الساعة. فأتوه بها، قال: شدُّوها عن يمين الميدان وشماله. وقال للجنِّ:

---

(١) جمع شَنْف: القرط الأعلى، أو ما علِّق في أعلى الأذن، وأما ما علِّق في أسفلها فقرط. القاموس (شنف).

عليَّ بأولادكم، فاجتمع منهم خَلْقٌ كثير، فأقامهم على يمين الميدان وعلى شماله، وأمر الجنَّ والإنسَ والشياطين والوحوش والسباع والطير، ثم قعد في مجلسه على سريره ووضع أربعة آلافِ كرسيٍّ على يمينه وعلى شماله، وأمر جميع الإنس والجنِّ والشياطين والوحوش والسباع والطير، فاصطفُّوا فراسخَ عن يمينه وشماله.

فلمَّا دنا القوم من الميدان، ونظروا إلى ملك سليمان عليه السلام، ورأوا الدوابَّ التي لم يروا مثلها تَروثُ على لبن الذهب والفضة، تصاغرت إليهم أنفسُهم، وخبَّؤوا ما كان معهم من الهدايا.

وقيل: إنهم لمَّا رأو ذلك الموضع الخَاليَ من اللَّبنات خالياً، خافوا أن يُتَّهموا بذلك، فوضعوا ما معهم من اللبن فيه. ولمَّا نظروا إلى الشياطين هالَهم ما رأوا وفزعوا، فقالت لهم الشياطين: جُوْزوا لا بأس عليكم. وكانوا يمرُّون على كراديس الجنِّ والوحش والطير، حتى وقفوا بين يدي سليمان، فأقبل عليهم بوجهٍ طَلْقٍ وتلقَّاهم ملقًى حسناً، وسألهم عن حالهم، فأخبره رئيسُ القوم بما جاؤوا فيه، وأعطاه الكتاب، فنظر فيه وقال: أين الحُقُّ؟ فأُتيَ به فحرَّكه، فجاء جبريل عليه السلام فأخبره بما فيه، فقال لهم: إنَّ فيه درَّةً غيرَ مثقوبةٍ وجَزْعةً معوجَّةَ الثقب. قال الرسول: صدقتَ، فاثقُبِ الدرَّة وأدْخِل الخيطَ في الجزعة. فقال سليمان عليه السلام: مَن لي بثَقْبِها؟ وسأل الجنَّ والإنس، فلم يكن عندهم علمُ ذلك، ثم سأل الشياطين فقالوا: نُرسل إلى الأَرَضَة، فلما جاءت أخذت شعرةً بفيها ونفذت في الدرَّة حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها: ما حاجتُك؟ قالت: تصيِّر رزقي في الشجر. فقال: لكِ ذلك، ثم قال: مَن لهذه الخرزة؟ فقالت دودةٌ بيضاء: أنا لها يا نبي الله. فأخذت الخيطَ بفيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر. فقال: ما حاجتُك؟ قالت: يكون رزقي في الفواكه. فقال: لك ذلك، ثم ميَّز بين الغلمان والجواري؛ أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها وتضربُ بها الأخرى وتغسلُ وجهها، والغلامُ يأخذ الماء بيديه ويضرب به وجهه، وكانت الجارية تصبُّ الماء على باطن ساعديها، والغلامُ على ظاهره، ثم ردَّ سليمان عليه السلام الهديةَ كما أخبر الله تعالى.

وقيل: إنها أنفذتْ مع هداياها عصاً كان يتوارثها ملوك حمير، وقالت: أريد أنْ

تعرِّفني رأسها من أسفلها. وبقدح ماء وقالت: تملؤه ماءً رواءً ليس من الأرض ولا من السماء. فأرسل عليه السلام العصا إلى الهواء. وقال: أيُّ الطرفين سبق إلى الأرض فهو أصلُها. وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها، وقال: هذا ليس من ماء الأرض ولا من ماء السماء[١]. اهـ.

وكلٌّ ذلك أخبارٌ لا يُدْرَى صحتُها ولا كذبها، ولعل في بعضها ما يميل القلب إلى القول بكذبه، والله تعالى أعلم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ في الكلام حذف، أي: فأرسلت الهدية فلمَّا جاء.. إلخ، وضمير «جاء» للرسول: وجوِّز أن يكون لِمَا أهدت إليه، والأولُ أولى.

وقرأ عبد الله: «فلمَّا جاؤوا»[٢] أي: المرسلون.

﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ خطابٌ للرسول والمرسِل تغليباً للحاضر على الغائب، وإطلاقاً للجمع على الاثنين، وجوِّز أن يكون للرسول ومَن معه، وهو أوفقُ بقراءة عبد الله، ورجِّح الأول لِمَا فيه من تشديد الإنكار والتوبيخِ المستفادين من الهمزة على ما قيل، وتعميمهما لبلقيس وقومها، وأيِّد بمجيء قوله تعالى: (ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ) بالإفراد، وتنكيرُ «مال» للتحقير.

وقرأ جمهور السبعة: «تمدونن» بنونين، وأثبت بعضٌ الياء، وقرأ حمزة بإدغام نون الرفع في نون الوقاية وإثباتِ ياء المتكلِّم[٣]. وقرأ المسيبي عن نافع بنون واحدةٍ خفيفةٍ[٤]، والمحذوفُ نونُ الوقاية، وجوِّز أن يكون الأولى، فرَفْعُه بعلامةٍ مقدَّرةٍ كما قيل في قوله:

---

(١) عرائس المجالس ص٣١٨-٣١٩، وتفسير البغوي ٣/٤١٧-٤١٩. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الاسرائيليات، والظاهر أن سليمان لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية ولا اعتنى به، بل أعرض عنه.

(٢) الكشاف ٣/١٤٧، والبحر ٧/٧٤.

(٣) وهي قراءة يعقوب من العشرة، وقرأ بنونين باقي العشرة، وأثبت الياء في الوصل نافع وأبو جعفر وأبو عمرو، وأثبتها في الحالين ابن كثير، وكذلك حمزة ويعقوب إلا أنهما يدغمان النون كما تقدم. التيسير ص١٧٠، والنشر ٢/ ٣٤٠

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٩، والبحر ٧/ ٧٤.

أَبِيتُ أَسْرِي وتَبِيتِي تَدْلُكِي وجهَك بالعنبر والمِسْكِ الذكي(١)

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ أي: من النبوَّة والملك الذي لا غايةَ وراءه ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: من المال الذي جملته ما جئتم به.

وقيل: عَنَى بما آتاه المالَ؛ لأنه المناسبُ للمفضَّل عليه. والأولُ أَوْلَى لأنه أبلغ.

والجملةُ تعليلٌ للإنكار، والكلام كنايةٌ عن عدم القبول لهديتهم، وليس المراد منه الافتخارَ بما أوتيه، فكأنه قيل: أُنكر إمدادكم إياي بمالٍ لأنَّ ما عندي خيرٌ منه، فلا حاجةَ لي إلى هديتكم، ولا وَقْعَ لها عندي.

والظاهر أنَّ الخطاب المذكور كان أول ما جاؤوه، كما يؤذِنُ به قولُه تعالى: (فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ) إلخ، ولعل ذلك لمزيد حرصه على إرشادهم إلى الحقِّ. وقيل: لعله عليه السلام قال لهم ما ذكر بعد أن جرى بينهم وبينه ما جرى مما في خبر وهب وغيره.

واستُدلَّ بالآية على استحباب ردِّ هدايا المشركين، والظاهر أنَّ الأمر كذلك إذا كان في الردِّ مصلحةٌ دينيةٌ، لا مطلقاً.

وإنما لم يقل: وما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم، لتكون الجملة حالاً؛ لِمَا أنَّ مثل هذه الحال وهي الحالُ المقرِّرة للإشكال يجبُ أن تكون معلومةً، بخلافِ العلة، وهي هنا ليست كذلك(٢).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إضرابٌ عمَّا ذكر من إنكار الإمداد بالمال وتعليله، إلى بيان ما حملهم عليه من قياس حاله عليه السلام على حالهم،

---

(١) الخصائص ١/٣٨٨، والخزانة ٨/٣٣٩، قال البغدادي: وهذا البيت لم أعرف قائله.

(٢) قال الزمخشري في الكشاف ٣/١٤٨: فإن قلت: ما الفرق بين قولك: أتمدُّني بمال وأنا أغنى منك، وبين أن تقوله بالفاء؟ قلت: إذا قلتُه بالواو فقد جعلتُ مخاطبي عالماً بزيادتي عليه في الغنى واليسار وهو مع ذلك يمدُّني بالمال، وإذا قلتُه بالفاء فقد جعلتُه ممن خفيت عليه حالي فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده، كأني أقول له: أُنكر عليك ما فعلت فأنا أغنى منك.

وهو قصورُ همَّتهم على الدنيا والزيادةِ فيها، فالمعنى: أنتم تفرحون بما يُهدَى إليكم لقصور همتكم على الدنيا، وحبِّكم الزيادةَ فيها، ففي ذلك من الحطِّ عليهم مالا يخفى، والهديةُ مضافةٌ إلى المهدَى إليه، وهي تضاف إلى ذلك كما تضافُ إلى المهدي.

أو إضرابٌ عن ذلك إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التي أَهدَوْها إليه عليه السلام فَرَحَ افتخارٍ وامتنانٍ واعتدادٍ بها، وفائدةُ الإضراب التنبيهُ على أنَّ إمداده عليه السلام بالمال منكَرٌ قبيحٌ، وعدُّ ذلك مع أنه لا قَدْر له عنده عليه السلام مما يتنافس فيه المتنافسون أقبح، والتوبيخ به أَدْخَل.

قيل: ويُنْبِئُ عن اعتدادهم بتلك الهدية التنكيرُ في قول بلقيس: «وإنِّي مُرْسِلةٌ إليهم بهديةٍ» بعد عدِّها إياه عليه السلام مَلِكاً عظيماً. وكذا ما تقدَّم في خبر وهب وغيره من حديث الحُقِّ والجَزْعةِ، وتغيير زيِّ الغلمان والجواري، وغيرِ ذلك.

وقيل: فرحُهم بما أهدَوْه إليه عليه السلام من حيث توقُّعُهم به ما هو أزيَدُ منه، فإنَّ الهدايا للعظماء قد تفيد ما هو أزيدَ منها مالاً أو غيره، كمنع تخريب ديارهم هنا.

وقيل: الكلامُ كنايةٌ عن الردِّ، والمعنى: أنتم من حقِّكم أن تفرحوا بأخذ الهدية لا أنا، فخذوها وافرحوا، وهو معنًى لطيفٌ إلَّا أنَّ فيه خفاءً.

﴿ٱرْجِعْ﴾ أمرٌ للرسول، ولم يَجْمَعِ الضميرَ كما جَمَعه فيما تقدَّم من قوله: «أتُمدونني» إلخ لاختصاص الرجوع به، بخلاف الإمداد ونحوه.

وقيل: هو أمرٌ للهدهد محمَّلاً كتاباً آخر، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد[1]. وتعقِّب بأنه ضعيف درايةً وروايةً.

وقرأ عبد الله: «ارجعوا»[2] على أنه أمرٌ للمرسَلين.

والفعلُ هنا لازمٌ، أي: انْقَلِبْ وانْصَرِفْ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى بلقيس وقومِها

---

(١) في الأصل و(م): زهير بن زهير، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨١، والدر المنثور ٥/ ١٠٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٩، والبحر ٧/ ٧٤.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ أي: فوالله لنأتينَّهم ﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقةَ لهم بمقاومتها، ولا قدرةَ لهم على مقابلتها، وأصلُ القِبَل المقابلةُ، فجُعل مجازاً أو كنايةً عن الطاقة والقدرة عليها. وقرأ عبد الله: «بهم»[1].

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ عطفٌ على جواب القَسَم ﴿مِّنْهَآ﴾ أي: من سبأ ﴿أَذِلَّةً﴾ أي: حالَ كونهم أذلةً بعد ما كانوا فيه من العزِّ والتمكين، وفي جمع القلَّة تأكيدٌ لذلَّتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ حالٌ أخرى، والصَّغار وإن كان بمعنى الذلِّ إلَّا أنَّ المراد به هنا وقوعُهم في أسرٍ واستعبادٍ، فيفيد الكلام أنَّ إخراجهم بطريق الأَسْرِ لا بطريق الإجلاء، وعدمُ وقوع جواب القَسَم لأنه كان معلَّقاً بشرطٍ قد حُذف عند الحكاية ثقةً بدلالة الحال عليه، كأنه قيل: ارجِعْ إليهم فليأتوني مسلمين وإلَّا فلنأتينَّهم.. إلخ.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ في الكلام حذفٌ، أي: فرجع الرسول إليها وأخبرها بما أقسم عليه سليمان، فتجهَّزت للمسير إليه إذ علمت أنه نبيٌّ ولا طاقةَ لها بقتاله، فرُوي أنها أمرت عند خروجها فجُعِل عرشُها في آخرِ سبعةِ أبياتٍ بعضُها في جوف بعضٍ، في آخرِ قصرٍ من قصورها، وغلَّقت الأبوابَ ووكَّلت به حرَّاساً يحفظونه، وتوجَّهت إلى سليمان في أقيالها وأتباعهم، وأرسلت إلى سليمان: إنِّي قادمةٌ عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرُك، وما تدعو إليه من دينك. قال عبد الله بن شدَّاد: فلمَّا كانت على فرسخٍ من سليمان قال: أيُّكم يأتيني بعرشها؟

وعن ابن عباس: كان سليمان مهيباً لا يُبتدأ بشيءٍ حتى يكون هو الذي يَسأل عنه، فنظر ذاتَ يوم رهجاً قريباً منه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: بلقيس. فقال: أيُّكم.. إلخ.

ومعنى «مسلمين» على ما روي عنه: طائعين. وقال بعضهم: هو بمعنى مؤمنين.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٤٨، والبحر ٧/ ٧٤.

واختلفوا في مقصوده عليه السلام من استدعائه عرشَها؛ فعن ابن عباس وابن زيد: أنه عليه السلام استدعى ذلك ليُرِيَها القدرةَ التي هي من عند الله تعالى، وليُغْرِبَ[١] عليها. ومن هنا قال في «الكشاف»: لعله أُوحي إليه عليه السلام باستيثاقها من عرشها، فأراد أن يُغْرِبَ عليها، ويريَها بذلك بعضَ ما خصَّه الله تعالى به من إجراء العجائب على يده، مع إطلاعها على عظيم قُدرة الله تعالى، وعلى ما يشهد لنبوَّة سليمان عليه السلام ويصدِّقها[٢]. انتهى.

وتقييدُ الإتيان بقوله: «قَبْلَ» إلخ لِمَا أنَّ ذلك أبدعُ وأغربُ وأبعدُ من الوقوع عادةً، وأدلُّ على عظيم قدرة الله عزَّ وجلَّ، وصحةِ نبوَّتِه عليه السلام، وليكون إطلاعُها على بدائع المعجزات في أول مجيئها.

وقال الطبريُّ: أراد عليه السلام أن يختبر صدقَ الهدهد في قوله: «ولها عرشٌ عظيم»[٣]. واستُبعِدَ ذلك لعدم احتياجه عليه السلام إلى هذا الاختبار، فإنَّ أمارة الصدق في ذلك في غاية الوضوح لديه عليه السلام، لا سيما إذا صحَّ ما روي عن وهب وغيرِه.

وقيل: أراد أن يؤتَى به فيُنكَّرَ ويغيَّر، ثم ينظر أَتُثْبِتُهُ أم تُنْكِره، اختباراً لعقلها.

وقال قتادة وابن جُريجٍ: إنه عليه السلام أراد أخذه قبل أن يعصمها وقومَها الإيمان، ويُمنعَ أَخْذَ أموالهم. قال في «الكشف»: فيه أنَّ حِلَّ الغنائم مما اختصَّ به نبيُّنا ﷺ. وقال في «التحقيق»: لا يناسبُ ردَّ الهدية وتعليلَه بقوله: «فما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم».

وأجيب بأنَّ هذا ليس من باب أَخْذِ الغنائم، وإنما هو من باب أخذ مال الحربيِّ والتصرُّفِ [فيه][٤] بغير رضاه، مع أنَّ الظاهر أنه بوحي، فيجوزُ أنه من

---

(١) أَغْرَبَ: جاء بالشيء الغريب. المعجم الوسيط (غرب).

(٢) الكشاف ٣/١٤٨.

(٣) تفسير الطبري ١٨/٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/٧٦، وقد اختار الطبري بعد ذلك مثل ما نقل المصنف عن الزمخشري.

(٤) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/٤٧، والكلام فيه بنحوه.

خصوصياته لحكمةٍ، ولم يكن ذلك هديةً لها حتى لا يناسبَ الردَّ السابق، وفيه بحث.

ولعلَّ الألصق بالقلب أنَّ ذاك لينكِّره فيمتحنَها اختباراً لعقلها، مع إراءتها بعض خوارقه الدالَّةِ على صحة نبوَّته وعظيم قدرة الله عز وجل.

ثم الظاهرُ أنَّ هذا القول بعد ردِّ الهدية، وهو الذي عليه الجمهور، وفي رواية عن ابن عباس: أنه عليه السلام قال ذلك حين ابتدأ النظر في صدق الهدهد من كذبه لمَّا قال: «ولها عرشٌ عظيم» ففي ترتيب القصص تقديمٌ وتأخيرٌ، وأظنُّ أنه لا يصحُّ هذا عن ابن عباس.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ أي: خبيثٌ ماردٌ ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ بيانٌ له؛ إذ يقال للرجل الخبيث المنكَرِ الذي يعفِّر أقرانه. وقرأ أبو حيوة: «عَفريت» بفتح العين[1]. وقرأ أبو رجاء وأبو السَّمَّال وعيسى ورُويت عن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه: «عِفْرِيَةٌ» بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء بعدها ياء مفتوحة بعدها تاء التأنيث[2]، وقال ذو الرُّمَّة:

كأنه كوكبٌ في إثْرِ عِفْرِيَةٍ مصوَّبٌ في سواد الليل مُنْقَضِبُ[3]

وقرأت فرقةٌ: «عِفْر» بلا ياء ولا تاء[4]، ويقال في لغة طيئ وتميم: عفراة بألف بعدها تاء التأنيث، وفيه لغة سادسة عُفَارِيَة. وتاء عفريت زائدة للمبالغة في المشهور، وفي «النهاية»: الياء في عِفْرِيَة وعُفَارِيَة للإلحاق بشِرْذِمَة وعُذَافِرَة، والهاءُ فيهما للمبالغة، والتاءُ في عفريت للإلحاق بقنديل[5]. اهـ.

---

(١) البحر ٧/ ٧٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٩، والمحتسب ٢/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠، والبحر ٧/ ٧٦، والكلام منه.

(٣) ديوان ذي الرمَّة ١/ ١١١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠، والبحر ٧/ ٧٦، ورواية الديوان: مسوَّمٌ، بدل: مصوَّب. وجاء في شرح الديوان: يصف ثوراً، فيقول: كأن الثور في سرعته كوكبٌ في إثر شيطان. ومسوَّم، يريد: الكوكب مُعلمٌ، مسوَّم بالبياض في سواد الليل، ويكون بمعنى: مخلًّى عنه. ومنقضب: منقضٌّ.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠.

(٥) النهاية (عفر).

واسم هذا العفريت على ما أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس: صخر(١).

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن شعيب الجبائيِّ أن اسمه كوزن(٢). وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان أن اسمه كوزي(٣). وقيل: اسمه ذكوان.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ أي: بعرشها، و«آتي» يحتمل أن يكون مضارعاً، وأن يكون اسمَ فاعلٍ؛ قيل: وهو الأنسبُ بمقام ادِّعاء الإتيان به في المدة المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ أي: من مجلسك الذي تجلس فيه للحكومة، وكان عليه السلام يجلس من الصبح إلى الظهر في كلِّ يوم؛ قاله قتادة ومجاهد ووهب وزهير بن محمد.

وقيل: أي: قبل أن تستويَ من جلوسك قائماً.

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾ لا يَثْقلُ عليَّ حمله، والقوةُ صفةٌ تَصْدُرُ عنها الأفعالُ الشاقَّة، ويُطيق بها مَن قامت به تَحمُّلَ(٤) الأجرام العظيمة، ولذا اختير «قوي» على قادر هنا. وظاهرُ كلام بعضهم أنَّ في الكلام حذفاً، فمنهم مَن قال: أي: على حَمْلِه، ومنهم قال: أي: على الإتيان به. ورجِّح الثاني بالتبادرِ نظراً إلى أول الكلام، والأولُ بأنه أنسبُ بقوله: «القويّ».

﴿أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ لا أقتطعُ منه شيئاً ولا أبدِّله.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فَصَله عمَّا قبله للإيذان بما بين القائلَين ومقالتيهما وكيفيتي قدرتيهما على الإتيان به من كمال التبايُن، أو لإسقاط الأول عن درجة الاعتبار.

واختلف في تعيين هذا القائل، فالجمهورُ ومنهم ابن عباس ويزيد بن رومان والحسن على أنه آصف بن برخيا بن شمعيا بن منكيل، واسم أمِّه باطورا من بني

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٥، وعزاه للطبري وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٨.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٦٦-٦٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٤.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٤.
(٤) في الأصل و(م): لتحمل، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٤٧، والكلام منه.

اسرائيل، كان وزيرَ سليمان على المشهور، وفي «مجمع البيان»(١): أنه وزيره وابن أخته، وكان صدِّيقاً يعلم الاسم الأعظم. وقيل: كان كاتبه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد: أنه رجل اسمه أسطوم(٢). وقيل: أسطورس.

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد أنه رجل يقال له: ذو النور. وأخرج هو أيضاً عن ابن لهيعة أنه الخَضِر عليه السلام(٣).

وعن قتادة أنَّ اسمه مليخا. وقيل: ملخ. وقيل: تمليخا. وقيل: هود.

وقالت جماعةٌ: هوضبة بن أُدّ جدُّ بني ضبة من العرب(٤)، وكان فاضلاً يخدم سليمان، كان على قطعة من خيله.

وقال النخعيُّ: هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو مَلَكٌ آخر أيَّد الله تعالى به سليمان عليه السلام.

وقال الجبائي: هو سليمان نفسُه عليه السلام. ووجه الفصل عليه واضحٌ، فإنَّ الجملة حينئذٍ مستأنفةٌ استئنافاً بيانيّاً، كأنه قيل: فما قال سليمان عليه السلام حين قال العفريت ذلك؟ فقيل: قال.. إلخ، ويكون التعبير عنه بما في النظم الكريم للدلالة على شرف العلم، وأنَّ هذه الكرامةَ كانت بسببه، ويكون الخطاب في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ للعفريت، وإنما لم يأتِ به أولاً بل استفهم القومَ بقوله: «أيُّكم يأتيني بعرشها» ثم قال ما قال وأتى به؛ قصداً لأنْ يُريَهم أنه يتأتَّى له ما لا يتهيَّأ لعفاريت الجنِّ، فضلاً عن غيرهم. وتخصيصُ الخطاب بالعفريت لأنه الذي تصدَّى لدعوى القدرة على الإتيان به من

---

(١) ١٩/ ٢٢٥.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٦.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٥.

(٤) ذكره السهيلي في التعريف والإعلام ص١٢٨ عن النقاش، ثم تعقبه بقوله: وهذا لا يصح البتة؛ لأن ضبة هو ابن أد بن طابخة واسمه عمرو بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدٍّ، ومعدٌّ كان في زمان بختنصر، وذلك بعد عهد سليمان بزمن طويل، فإذا لم يكن معد في عهد سليمان فكيف ضبة بن أد، وهو بعده بخمسة آباء.

بينهم، وجَعْلَه لكلِّ أحدٍ كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء: ٣] غيرُ ظاهر بالنسبة إلى ما ذكر.

وآثر هذا القول الإمامُ، وقال: إنه أقربُ لوجوهٍ:

الأول: أنَّ الموصول موضوعٌ في اللغة لشخصٍ معيَّنٍ بمضمون الصلة المعلومة عند المخاطب، والشخصُ المعلومُ بأنَّ عنده علمُ الكتاب هو سليمان، وقد تقدَّم في هذه السورة ما يُستأنس به لذلك، فوجب إرادتُه وصَرْفُ اللفظ إليه، وآصف وإن شاركه في مضمون الصلة لكن هو فيه أتمُّ لأنه نبيٌّ، وهو أعلم بالكتاب من أمته.

الثاني: أنَّ إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجةٌ عاليةٌ، فلو حصلت لأحدٍ من أمته دونه لاقتضى تفضيلَ ذلك عليه عليه السلام، وأنه غير جائز.

الثالث: أنه لو افتقر في إحضاره إلى أحدٍ من أمته لاقْتضَى قصورَ حاله في أعين الناس.

الرابع: أن ظاهر قوله عليه السلام فيما بعد: «هذا من فَضْلِ ربّي» إلخ يقتضي أنَّ ذلك الخارق قد أظهره الله تعالى بدعائه عليه السلام(١). اهـ، وللمناقشة فيه مجال.

واعتَرضَ على هذا القول بعضُهم بأنَّ الخطاب في «آتيك» يأباه، فإنَّ حقَّ الكلام عليه أن يقال: أنا آتي به قبل أن يرتَّد إلى الشخص طرفُه مثلاً، وقد علمتَ دَفْعَه. وبأنَّ المناسب أن يقال فيما بعد: فلمَّا أَتَى به، دون «فلما رآه» إلخ. وأجيب عن هذا بأنَّ قوله ذاك للإشارة إلى أنه لا حولَ ولا قوةَ له فيه.

ولعل الأظهر أنَّ القائل أحدُ أتباعه، ولا يلزمُ من ذلك أنه عليه السلام لم يكن قادراً على الإتيان به كذلك، فإنَّ عادة الملوك تكليفُ أتباعهم بمصالحَ لهم لا يُعْجِزُهم فعلُها بأنفسهم، فليكن ما نحن فيه جارياً على هذه العادة، ولا يضرُّ في ذلك كونُ الغرض ممَّا يتمُّ بالقول وهو الدعاء ولا يحتاج إلى إعمال البدن وإتعابه، كما لا يخفى.

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ١٩٧-١٩٨.

وفي «فصوص الحكم»: كان ذلك على يد بعض أصحاب سليمان عليه السلام؛ ليكون أعظم لسليمان في نفوس الحاضرين.

وقال القيصريُّ[(١)]: كان سليمان قطبَ وقته ومتصرِّفاً وخليفةً على العالم، وكان آصف وزيرَه، وكان كاملاً، وخوارقُ العادات قلما تَصْدُر من الأقطاب والخلفاء، بل من ورَّاثهم وخلفائهم؛ لقيامهم بالعبودية التامة، واتِّصافهم بالفقر الكليِّ، فلا يتصرَّفون لأنفسهم في شيءٍ، ومن منن الله تعالى عليهم أن يرزقهم صحبة العلماء الأمناء يحملون منهم أثقالهم وينفِّذون أحكامهم وأقوالهم. اهـ، وما في الفصوص أقربُ لمشرب أمثالنا، على أنَّ ما ذُكر لا يخلو عن بحثٍ على مشرب القوم أيضاً.

وفي «مجمع البيان»: روى العياشيُّ بإسناده قال: الْتَقَى موسى بن محمد بن علي بن موسى ويحيى بن أكثم، فسأله عن مسائل منها: هل كان سليمانُ محتاجاً إلى علم آصف؟ فلم يُجب حتى سأل أخاه علي بن محمد، فقال: اكتب له: لم يَعْجز سليمانُ عن معرفة ما عرف آصف، لكنه عليه السلام أحبَّ أن يعرِّف أمتَه من الجنِّ والإنس أنه الحُجَّةُ من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمرِ الله ففهَّمه الله تعالى ذلك لئلَّا يُختلف في إمامته، كما فهَّم سليمان في حياة داود لتُعرَفَ إمامتُه من بعده، لتأكيد الحُجَّة على الخَلْق[(٢)]. اهـ، وهو كما ترى.

والمراد بالكتاب: الجنسُ المنتظِمُ لجميع الكتب المنزلة. وقيل: اللوح المحفوظ، وكونُ المراد به ذلك على جميع الأقوال السابقة في الموصول بعيد جدّاً. وقيل: المراد به: الذي أُرسل إلى بلقيس.

و«من» ابتدائية، وتنكيرُ «عِلْم» للتفخيم والرمزِ إلى أنه علمٌ غيرُ معهود؛ قيل: كان ذلك: العِلْمُ باسم الله تعالى الأعظم الذي إذا سئل به أجاب، وقد دعا ذلك العالِمُ به فحصل غرضُه، وهو: يا حيُّ يا قيُّوم. وقيل: يا ذا الجلال والإكرام. وقيل: الله الرحمن. وقيل: هو بالعبرانية: آهيا شراهيا.

---

(١) هو شرف الدين داود بن محمود القيصري المتوفى سنة (٧٥١هـ)، له: شرح التائية لابن الفارض، ومطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم. كشف الظنون ١/ ٢٦٦ و٢/ ١٧٢٠.

(٢) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٩-٢٣٠.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الزهريِّ أنه دعا بقوله: يا إلهنا وإله كلِّ شيءٍ إلهًا واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها[1].

والطرفُ: تحريكُ الأجفان وفتحُها للنظر إلى شيءٍ، ثم تجوِّز به عن النظر. وارتدادُه انقطاعه بانضمام الأجفان، ولكونه أمراً طبيعيّاً غيرَ منوطٍ بالقَصْدِ أُوثر الارتدادُ على الرَّدِّ، فالمعنى: آتيك به قبل أن ينضم جفنُ عينك بعد فتحه.

وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار التجوُّز في الطرف؛ إذ المراد: قبل ارتداد تحريك الأجفان بطبقها بعد فتحها، وفيه نظر.

والكلامُ جارٍ على حقيقته، وليس من باب التمثيل للسرعة، فقد روي أنَّ آصف قال لسليمان عليه السلام: مدَّ عينيك حتى ينتهي طَرْفُك، فمدَّ طَرْفَه فنظر نحو اليمن، فقبل أن يرتد إليه حضر العرش عنده.

وقيل: هو من باب التمثيل، فيحتمل أن يكون قد أتى به في مدة طلوع درجةٍ أو درجتين، أو نحو ذلك.

وعن ابن جبير وقتادة أنَّ الطَّرْفَ بمعنى المطروف، أي: مَن يقع إليه النظر، وأنَّ المعنى: قبل أن يصل إليك مَن يقع طَرْفُك عليه في أبعدِ ما ترى إذا نظرت أمامك. وهو كما ترى.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: فلما رأى سليمانُ عليه السلامُ العرشَ ساكناً عنده قارًّا على حاله التي كان عليها ﴿قَالَ﴾ تلقِّياً للنعمة بالشكر، جرياً على سَنَنِ إخوانه الأنبياء عليهم السلام وخُلَّصِ عباد الله عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰذَا﴾ أي: الإتيانُ بالعرش أو حضورُه بين يديَّ في هذه المدة القصيرة. وقيل: أي: التمكُّن من إحضاره بالواسطة أو بالذات ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أي: تفضُّلِه جلَّ شأنهُ عليَّ مِن غير استحقاقٍ ذاتيٍّ لي له، ولا عملٍ منِّي يُوجِبُه عليه سبحانه وتعالى.

وفي الكلام حذف، أي: فأتاه به فرآه فلمَّا رآه.. إلخ، وحَذْفُ ما حُذِفَ للدلالة على كمال ظهوره، واستغنائه عن الإخبار به، وللإيذان بكمال سرعة الإتيان

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٦٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٦.

به، كأنه لم يقع بين الوعد به ورؤيته عليه السلام إياه شيءٌ ما أصلاً، وفي تقييد رؤيته باستقراره عنده تأكيدٌ لهذا المعنى؛ لإيهامه أنه لم يتوسَّط بينهما ابتداء الإتيان أيضاً، كأنه لم يزل موجوداً عنده. فـ «مستقرّاً» منتصبٌ على الحال، و«عنده» متعلِّقٌ به، وهو على ما أشرنا إليه كونٌ خاصٌّ، ولذا ساغ ذكرُه. وظنَّ بعضهم أنه كونٌ عامٌّ فأَشْكَلَ عليهم ذكرُه مع قول جمهور النحاة: إنَّ متعلَّقَ الظرف إذا كان كوناً عامًّا وجب حذفهُ، فالتزم بعضُهم لذلك كونَ الظرف متعلِّقاً بـ «رآه» لا به. ومنهم مَن ذهب كابن مالكٍ إلى أنَّ حَذْفَ ذلك أغلبيٌّ وأنه قد يظهر، كما في هذه الآيةِ، وقوله:

لـك الـعـزُّ إنْ مـولاك عـزَّ وإنْ يَـهـنْ فأنت لدى بحبوحةِ الهون كائنُ[1]

وأنت تعلم أنه يمكن اعتبارُ ما في البيت كوناً خاصّاً كالذي في الآية.

وفي كيفية وصول العرش إليه عليه السلام حتى رآه مستقرّاً عنده خلاف؛ فأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن عساكر عن ابن عباس أنه قال: لم يَجْرِ عرشُ صاحبة سبأ بين السماء والأرض، ولكن انشقَّت به الأرضُ فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان[2]. وإلى هذا ذهب مجاهدٌ وابنُ سابطٍ وغيرهما.

وقيل: نزل بين يدي سليمان عليه السلام من السماء.

وكان عليه السلام إذ ذاك في أرض الشام ـ على ما قيل ـ رجع إليها من صنعاء، وبينها وبين مأرب محلِّ العرش نحوٌ من مسافة شهرين. وعلى القول بأنه كان في صنعاء فالمسافةُ بين محلِّه ومحلِّ العرش نحو ثلاثة أيام.

وأيّاً ما كان فقَطْعُه المسافة الطويلة في الزمن القصير أمرٌ ممكنٌ، وقد أخبر بوقوعه الصادقُ فيجب قبوله. وقد اتفق البرُّ والفاجرُ على وقوع ما هو أعظمُ من ذلك، وهو قطعُ الشمس في طرفة عين آلافاً من الفراسخ، مع أنَّ نسبة عرش بلقيس إلى جرمها نسبةَ الذرة إلى الجبل.

(١) البحر ٧/ ٧٧، والمغني ص٥٨٢، وشرح ابن عقيل ١/ ٢١١.
(٢) تاريخ ابن عساكر ٦٩/ ٧٧، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٩.

وقال الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه: إنَّ آصف تصرَّف في عين العرش، فأعدمه في موضعه وأوجده عند سليمان من حيث لا يشعر أحدٌ بذلك إلا مَن عرف الخلق الجديد الحاصل في كلِّ آنٍ، وكان زمانُ وجوده عينَ زمانِ عَدَمِه، وكلٌّ منهما في آنٍ، وكان عينُ قول آصف عينَ الفعل في الزمان، فإنَّ القول من الكامل بمنزلة «كن» من الله تعالى. ومسألةُ حصول العرش من أشكل المسائل، إلَّا عند مَن عرف ما ذكرناه من الإيجاد والإعدام، فما قَطَعَ العرشُ مسافةً، ولا زُوِيتْ له أرضٌ، ولا خَرَقها. اهـ ملخَّصاً. وله تتمةٌ ستأتي إن شاء الله تعالى.

وما ذكره من أنه كان بالإعدام والإيجاد مما يجوز عندي وإن لم أقل بتجدُّد الجواهر تجدُّدَ الأعراضِ عند الأشعري، إلا أنه خلافُ ظاهرِ الآية. واستدلَّ بها على ثبوت الكرامات، وأنت تعلم أنَّ الاحتمال يسقط الاستدلال.

وعلَّل عليه السلام تفضُّلَه تعالى بذلك عليه بقوله: ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ أي: ليعاملَني معاملةَ المبتلي، أي: المختبِر ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ على ذلك بأنْ أراه محضَ فَضْلِه تعالى من غير حولٍ من جهتي ولا قوةٍ، وأقُومَ بحقِّه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأنْ أجدَ لنفسي مدخلاً في البين، أو أقصِّرَ في إقامة مواجبه كما هو شأنُ سائر النعم الفائضة على العباد.

وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن جُريجٍ أنَّ المعنى: ليبلوَني أأشكرُ إذا أتيتُ بالعرش أم أكفر إذا رأيتُ مَن هو أدنى منِّي في الدنيا أعلمَ مني[١]. ونقل مثله في «البحر» عن ابن عباس[٢]، والظاهر عدمُ صحته.

وأبعدُ منه عن الصحة ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السديِّ أنه قال: لمَّا رآه مستقراً عنده جزع وقال: رجلٌ غيري أَقْدَرُ على ما عند الله عزَّ وجلَّ منِّي[٣]. ولعل الحقَّ الجزمُ بكذب ذلك.

وجملة «أأشكر» إلخ في موضع نصبٍ على أنها مفعولٌ ثانٍ لفعل البلوى، وهو معلَّقٌ بالهمزة عنها إجراءً له مجرى العلم وإن لم يكن مرادفاً له.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٧٤-٧٥، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٩، وهو عند الطبري من طريق ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس.

(٢) البحر ٧/ ٧٧.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٩.

وقيل: محلُّه النصب على البدل من الياء.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: لنَفْعِها؛ لأنه يربطُ به العتيد[1]، ويستجلبُ المزيدَ، ويحطُّ به عن ذمته عبءَ الواجب، ويتخلَّصُ عن وَصْمَةِ الكفران.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: لم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ بتَرْكِ تعجيل العقوبة، والإنعامِ مع عدم الشكر أيضاً. والظاهر أنَّ «مَن» شرطيةٌ، والجملةُ المقرونةُ بالفاء جوابُ الشرط.

وجوِّز أن يكون الجواب محذوفاً دلَّ عليه ما قبله من قسيمه، والمذكورُ قائمٌ مقامه، أي: ومَن كفر فعَلَى نفسِه، أي: فضررُ كفرانه عليها. وتعقِّب بأنه لا يناسب قولَه: «كريم».

وجوِّز أيضاً أن تكون «مَن» موصولةً، ودخلت الفاء في الخبر لتضمُّنها معنى الشرط.

﴿قَالَ﴾ أي: سليمان عليه السلام، كرِّرت الحكايةُ مع كون المحكيِّ سابقاً ولاحقاً من كلامه عليه السلام تنبيهاً على ما بين السابق واللاحق من المخالفة؛ لِمَا أنَّ الأول من باب الشكر لله عزَّ وجلَّ والثاني أمرٌ لخدمه:

﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: اجعلوه بحيث لا يُعرف، ولا يكون ذلك إلَّا بتغييره عمَّا كان عليه من الهيئة والشكل، ولعل المراد التغيير في الجملة. روي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك أنه كان بالزيادة فيه والنقصِ منه. وقيل: بنَزْعِ ما عليه من الجواهر. وقيل: بجعل أسفله أعلاه، ومقدَّمِه مؤخَّرَه. ولام «لها» للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف:٢٣]، فيدلُّ على أنها المرادة خاصةً بالتنكير.

﴿نَنظُرْ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر، وقرأ أبو حيوة بالرفع على الاستئناف[2].

---

(١) في (م): القيد، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٨٧. والعتيد: الحاضر المهيأ. القاموس (عتد).

(٢) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٧٨.

﴿اَهْتَدِيَ﴾ إلى معرفته، أو إلى الجواب اللائق بالمقام. وقيل: إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله عليه السلام إذا رأت تقدُّم عرشها وقد خلَّفته مغلَّقةً عليه الأبواب، موكَّلةً عليه الحرَّاس والحجَّاب، وحكاه الطبرسيُّ عن الجبائي(١). وفيه أنه لا يَظْهَرُ مدخليةُ التنكير في الإيمان.

﴿أَمْ تَكُونُ﴾ أي بالنسبة إلى عِلْمِنا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: إلى ما ذُكر من معرفة عَرْشِها، أو الجواب اللائق بالمقام، فإنَّ كونها في نفس الأمر منهم وإن كان أمراً مستمرّاً، لكنَّ كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومِه أمرٌ حادث يظهر بالاختبار.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ شروعٌ في حكاية التجربة التي قصدها سليمان عليه السلام، أي: فلما جاءت بلقيس سليمانَ وقد كان العرشُ منكَّراً بين يديه ﴿قِيلَ﴾ أي: من جهة سليمان، بالذات أو بالواسطة ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ﴾ أي: أمثلُ هذا العرشِ الذي تَرَيْنَه عرشُك الذي تركتيه ببلادك؟

ولم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها، فيفوت ما هو المقصودُ من الأمر بالتنكير، من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبيَّن لديه عليه السلام حالُها، وقد ذُكرت عنده عليه السلام بسخافة العقل.

وفي بعض الآثار أنَّ الجنَّ خافوا من أن يتزوَّجها فيُرْزَقَ منها ولداً يَحوزُ(٢) فطنةَ الإنس وخفَّة الجنِّ حيث كانت لها نسبةٌ إليهم، فيضبطهم ضبطاً قويّاً، فرمَوْها عنده بالجنون، وأنَّ رِجْليها كحوافر البهائم، فلذا اختبرها بهذا، وبما يكون سبباً للكشف عن ساقيها.

ومَن لم يقل بنسبتها إلى الجنِّ يقول: لعلها رماها حاسدٌ بذلك، فأراد عليه السلام اختبارها ليقف على حقيقة الحال.

ومنهم مَن يقول: ليس ذاك إلا ليقابلها بمثل ما فعلتْ هي، حيث نكَّرت الغلمانَ والجواريَ، وامتحنته عليه السلام بالدرَّة العذراء والجَزْعةِ المعوجَّة الثقبِ،

---

(١) مجمع البيان ١٩/٢٢٧.

(٢) في الأصل: فيحوز، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/٤٨، والكلام منه.

وكونُ ذلك في عرشها الذي يَبعُدُ كلَّ البعد إحضارُه مع بُعْدِ المسافة وشدَّة محافظتها له أتمُّ وأقوى، ويتضمَّن أيضاً من إظهار المعجزة ما لا يخفى، وهذا عندي ألصقُ بالقلب من غيره.

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ أجابت بما أنبأ عن كمالِ رجاحةِ عقلها، حيث لم تَجْزِمْ بأنه هو لاحتمال أن يكون مثلَه، بل أتت بـ «كأنَّ» الدالَّةِ كما قيل على غلبة الظنِّ في اتِّحاده معه مع الشكِّ في خلافه، وليست «كأنّ» هنا للدلالة على التشبيه كما هو الغالب فيها.

وذكر ابن المنير في «الانتصاف» ما يدلُّ على أنها تُفيد قوَّة الشَّبه، فقال: الحكمةُ في عدول بلقيس في الجواب عن: هكذا هو، المطابقِ للسؤال إلى «كأنه هو»: أنَّ «كأنه هو» عبارةُ مَن قَوِيَ عنده الشَّبَهُ حتى شكَّك نفسَه في التغاير بين الأمرين وكاد يقول: هو هو، وتلك حالُ بلقيس، وأمَّا: هكذا هو، فعبارةُ جازمٍ بتغايُرِ الأمرين، حاكمٍ بوقوع الشبه بينهما لا غير، فلا تُطابِقُ حالها، فلذا عَدَلَتْ عنها إلى ما في النظم الجليل[1].

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ من تتمَّة كلامها على ما اختاره جمعٌ من المفسرين، كأنها استَشْعَرتْ مما شاهدته اختبارَ عقلها وإظهارَ معجزةٍ لها، ولمَّا كان الظاهر من السؤال هو الأول سارعتْ إلى الجواب بما أنبأ عن كمال رجاحة عقلها، ولمَّا كان إظهارُ المعجزة دون ذلك في الظهور ذكرت ما يتعلَّق به آخِراً، وهو قولُها: «وأوتينا» إلخ، وفيه دلالةٌ على كمال عقلها أيضاً، ومعناه: وأوتينا العلمَ بكمال قدرة الله تعالى وصحةِ نبوَّتِكَ من قَبْلِ هذه المعجزة، أو من قبل هذه الحالة، بما شاهدناه من أمر الهدهد، وما سمعناه من رسلنا إليك، من الآيات الدالَّة على ذلك، وكنَّا مؤمنين من ذلك الوقت، فلا حاجةَ إلى إظهار هذه المعجزة.

ولك أن تجعله من تتمة ما يتعلَّق بالاختبار، وحاصلهُ: لا حاجة إلى الاختبار لأني آمنتُ قبلُ، وهذا كافٍ في الدلالة على كمال عقلي.

(١) الانتصاف ٣/ ١٤٩-١٥٠.

وجوِّز أن يكون لبيانِ منشأ غلبة الظنِّ بأنّه عرشها، والداعي إلى حُسْنِ الأدب في محاورته عليه السلام، أي: وأوتينا العلم بإتيانك بالعرش من قَبْلِ الرؤية أو من قبل هذه الحالة بالقرائن أو الأخبار، وكنَّا من ذلك الوقت مؤمنين.

والتعبيرُ بنون العظمة جارٍ على سَنَنِ تعبيرات الملوك، وفيه تعظيمٌ لأمر إسلامها، وليس ذاك لإرادةِ نفسها ومَن معها من قومها؛ إذ يبعده قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهو بيانٌ من جهته عزَّ وجلَّ لِمَا كان يمنعها من إظهار ما ادَّعتْ من الإسلام إلى الآن، أي: صدَّها عن إظهار ذلك يومَ أُوتيت العلم الذي يقتضيه عبادتُها القديمةُ للشمس، فـ «ما» مصدرية والمصدرُ فاعلُ «صَدَّ»، وجوِّز كونُها موصولةً واقعةً على الشمس، وهي فاعلٌ أيضاً، والإسناد مجازيٌّ على الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ۝٤٣﴾ تعليلٌ لسببية عبادتها المذكورة للصدِّ، أي: إنها كانت من قوم راسخين في الكفر، فلذلك لم تكن قادرةً على إظهار إسلامها وهي بين ظهرانيهم، إلى أن حضرت بين يدي سليمان عليه السلام.

وقرأ سعيد بن جبير وابن أبي عبلة: «أنها» بفتح الهمزة[1] على تقدير لام التعليل، أي: لأنها، أو جَعْلِ المصدر بدلاً من فاعلِ «صدَّ» بدلَ اشتمالٍ.

وقيل: قوله تعالى: (وَأُوتِينَا) إلخ من كلام قوم سليمان عليه السلام، كأنهم لمَّا سمعوها أجابت السؤال بقولها: «كأنه هو»، قالوا: قد أصابت في جوابها فطبَّقتِ المَفصِلَ[2]، وهي عاقلةٌ لبيبةٌ، وقد رُزِقَتِ الإسلام، وعَلِمتْ قدرةَ الله عزَّ وجلَّ وصحَّة النبوَّةِ بالآيات التي تقدَّمت، وبهذه الآية العجيبة من أمرِ عَرْشِها، وعطفوا على ذلك قولَهم: وأُوتينا العلمَ بالله تعالى وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده سبحانه قبلَ عِلْمِها، ولم نَزَلْ على دين الإسلام، وكان هذا منهم شكراً لله تعالى

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٧٩.

(٢) المَفْصِل: طبق العظمين، أي: ملتقاهما، وأصل التطبيق: إصابة المفصل، وطبَّق فلان، أي أصاب سيفُه المفصل فأبان العضوَ، ويقال للبليغ من الرجال: قد طبَّق المَفْصِلَ فأغناك عن المفسر. النهاية والمعجم الوسيط (طبق)، والصناعتين لأبي هلال العسكري ص٤٨.

على فضلهم عليها، وسَبْقِهم إلى العلم بالله تعالى والإسلام قبلها، ويومئُ إلى هذا المطويِّ جَعْلُ عِلْمِهم وإسلامِهم قَبْلَها. وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا﴾ إلخ على هذا يحتمل أن يكون من تتمة كلام القوم، ويحتمل أن يكون ابتداءَ إخبارٍ من جهته عزَّ وجلَّ.

وعن مجاهد وزهير بن محمد أنَّ «وأوتينا» من كلام سليمان عليه السلام، وفي «وَصَدَّها» إلخ عليه أيضاً احتمالٌ.

ولا يخفى ما في جَعْلِ «وأوتينا» إلخ من كلام القوم أو من كلام سليمان عليه السلام من البعد والتكلُّف، وليس في ذلك جهةُ حُسْنٍ سوى اتِّساقِ الضمائر المؤنَّثة.

وقيل: إنَّ «وأوتينا» إلخ من تتمَّة كلامها، وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا﴾ إلخ ابتداءُ إخبارٍ من جهته تعالى لبيانِ حُسْنِ حالها، وسلامةِ إسلامها عن شَوْبِ الشرك، بجَعْلِ فاعلِ «صدَّها» ضميرَه عزَّ وجلَّ أو ضميرَ سليمان عليه السلام، و«ما» مصدريةٌ أو موصولةٌ قبلها حرفُ جرٍّ مقدَّرٍ، أي: صدَّها الله تعالى أو سليمانُ عن عبادتها من دون الله، أو عن الذي تعبده من دونه تعالى.

ونقل ذلك أبو حيان عن الطبريِّ وتعقَّبه بقوله: وهو ضعيفٌ لا يجوز إلّا في الشعر نحو قوله:

تـمـرُّون الـديـار ولـم تَـعُـوجُـوا[1]

وليس من مواضع حَذْفِ حرف الجر[2]. وأنت تعلم أنَّ المعنى مع هذا مما لا ينشرحُ له الصدر.

وأَبْعَدَ بعضهم كلَّ البعد فزعم أنَّ قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا﴾ إلخ متصلٌ بقوله سبحانه: ﴿أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ والواو فيه للحال، و«قد» مضمَرة. وفي

---

(١) وعجزه: كلامكم عليَّ إذاً حرامُ، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٢٧٨، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٠، واللسان (مرر)، والخزانة ٩/ ١٢١، وصدره في الديوان:

أتـمـضـون الـرسـومَ ولا تُـحـيَّـى

(٢) البحر ٧/ ٧٩، وكلام الطبري في تفسيره ١٨/ ٨٠.

«البحر» أنه قولٌ مرغوبٌ عنه لطول الفصل بينهما[١]، ولأنَّ التقديم والتأخير لا يُذْهَبُ إليه إلَّا عند الضرورة[٢].

ولَعَمْري مَن أنْصفَ رأى أنَّ ما ذكر مما لا ينبغي أن يخرَّج عليه كلامُ الله تعالى المجيد.

وأنا أقول بعد القيل والقال: إنَّ وجه رَبْطِ هذه الجمل مما يحتاج إلى تدقيق النظر، فليتأمل، والله تعالى الموفِّق.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا قيل لها بعد الامتحان المذكور؟ فقيل: «قيل لها ادخلي» إلخ، ولم يعطف على قوله تعالى: (أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ) لئلا يفوتَ هذا المعنى. وجيء بـ «لها» هنا دون ما مرَّ لمكان أمرها.

و«الصرح»: القصرُ وكلُّ بناءٍ عالٍ، ومنه: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦] وهو من التصريح: وهو الإعلان البالغ.

وقال مجاهد: «الصرح» هنا البِرْكةُ[٣]. وقال ابن عيسى: الصحن، وصرحةُ الدار ساحتُها.

وروي أنَّ سليمان عليه السلامُ أمر الجنَّ قبل قدومها فبنوا له على طريقها قصراً من زجاجٍ أبيضَ، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه من دوابِّ البحر السمكَ وغيرَه. وفي رواية: أنهم بنوا له صرحاً، وجعلوا له طوابيقَ من قواريرَ كأنها الماءُ، وجعلوا في باطن الطوابيق كلَّ ما يكون من الدوابِّ في البحر، ثم أطبقوه. وهذا أوفقُ بظاهر الآية. ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكفت عليه الطير والجنُّ والإنس.

وفعل ذلك امتحاناً لها أيضاً على ما قيل. وقيل: ليزيدها استعظاماً لأمره وتحقيقاً لنبوَّته وثباتاً على الدين. وقيل: لأنَّ الجنَّ قالوا له عليه السلام: إنها شَعْراءُ الساقين، ورجْلُها كحافر الحمار، فأراد الكشف عن حقيقة الحال بذلك.

---

(١) في (م): بينها.

(٢) البحر ٧/ ٧٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٨٢ بلفظ: «الصرح»: بركة من ماء، ضرب عليها سليمان قوارير، ألبسها.

وقال الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه ما حاصله: إنه أراد أن ينبِّهها بالفعل على أنها صَدَقَتْ في قولها في العرش: «كأنه هو»، حيث إنه انعدم في سبأ ووُجد مثلهُ بين يديه، فجعل لها صرحاً في غاية اللطف والصفاء كأنه ماءٌ صافٍ وليس به، وهذا غايةُ الإنصاف منه عليه السلام. ولا أظنُّ الأمر كما قال، والله تعالى أعلم.

واستُدلَّ بالآية على القول بأنَّ أَمْرَها بدخول الصرح ليتوصَّل به إلى كشف حقيقة الحال على إباحة النظر قبل الخطبة، وفيه تفصيلٌ مذكورٌ في كتب الفقه.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي: رأت صَحْنَه، بناءً على أنَّ الصَّرح بمعنى القصر ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: ظنَّته ماءً كثيراً ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لئلَّا تبتلَّ أذيالُها، كما هو عادةُ مَن يريد الخوض في الماء.

وقرأ ابن كثير برواية قنبل: «سأقيها» بهمز ألفِ ساق[1] حملاً له على جمعه سُؤْق وأسْؤُق، فإنه يطَّرد في الواو المضمومة هي أو ما قَبْلَها قَلْبُها همزةً، فانجرَّ ذلك بالتبعية إلى المفرد الذي في ضمنه.

وفي «البحر»[2]: حكى أبو عليٍّ[3] أنَّ أبا حيَّةَ النميريَّ كان يهمز كلَّ واوٍ قبلها ضمَّةٌ، وأنشد:

أحـبُّ الـمـؤقِـدَيْـنِ إلـيَّ مـؤسـى[4]

وفي «الكشف»: الظاهر أنَّ الهمز لغةٌ في «ساق»، ويشهد له هذه القراءة الثابتةَ في السبعة. وتعقَّب بأنه يأباه الاشتقاق. وأيًّا ما كان فقولُ مَن قال: إنَّ هذه القراءة لا تصحُّ، لا يصحُّ.

---

(١) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨.
(٢) ٧/ ٨٠.
(٣) في الحجة ٥/ ٣٩٢.
(٤) البحر ٧/ ٨٠، والحجة ١/ ٢٣٩، و٥/ ٣٩٢، والخصائص لابن جني ٢/ ١٧٥. وعجزه: وجعدةُ لو أضاءهما الوقود، ورواية الحجة والخصائص: لحبُّ المؤقدان، والبيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ١/ ٢٨٨ برواية: لحب الواقدان إليَّ موسى. قال الشارح: موسى ابنه، وجعدة ابنته.

﴿قَالَ﴾ أي: سليمان عليه السلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة والرعب. وقيل: القائلُ هو الذي أمرها بدخول الصَّرْحِ، وهو خلافُ الظاهر.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: ما حَسبته لجَّةً ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي: مملَّسٌ، ومنه الأمردُ للشاب الذي لا شعر في وجهه، وشجرةٌ مرداء: لا ورقَ عليها، ورملةٌ مرداء: لا تُنبِتُ شيئاً، والماردُ: المتعرِّي من الخير. ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من الزجاج، وهو جمعُ قارورة.

﴿قَالَتْ﴾ حين عايَنَتْ هذا الأمرَ العظيم: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أي: بما كنتُ عليه من عبادة الشمس. وقيل: بظنِّي السوءَ بسليمان عليه السلام، حيث ظنَّتْ أنه يريد إغراقها في اللجَّة، وهو بعيد. ومثلهُ ما قيل: أرادت: ظلمتُ نفسي بامتحاني سليمانَ حتى امتحنني لذلك بما أوجب كشفَ ساقيَّ بمرأى منه.

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ تابعةً له مقيَّدةً، وما في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ من الالتفات إلى الاسم الجليل لإظهارِ معرفتها بألوهيته تعالى، وتفرُّده باستحقاق العبادة، وربوبيَّتِهِ لجميع الموجودات، التي من جملتها ما كانت تعبدُه قبل ذلك من الشمس، وكأنَّ هذا القولَ تجديدٌ لإسلامها على أتمِّ وجهٍ، وقد أخرجته مخرجاً لا أنانيةَ فيه ولا كبرَ أصلاً، كما لا يخفى.

واختلف في أمرها بعد الإسلام؛ فقيل: إنه عليه السلام تزوَّجها وأحبَّها وأقرَّها على ملكها، وأمر الجنَّ فبنوا لها سيلحين[1] وغُمْدَان، وكان يزورُها في الشهر مرةً، فيقيم عندها ثلاثةَ أيام، وولدتْ له.

وأخرج ابن عساكر عن مَسْلمةَ[2] بنِ عبد الله بن ربعيٍّ أنه عليه السلام أمهرها بعلبك.

وذكر غير واحدٍ أنها حين كشفت عن ساقيها أبصر عليهما شعراً كثيراً، فكره أن

---

(١) ذكرها ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٢٣٥: سَلْحين بفتح أوله وسكون ثانيه، ثم حاء مهملة مكسورة ثم ياء: حصن عظيم بأرض اليمن، ثم قال: وسيلحين بعد السين ياء: موضع قرب بغداد.

(٢) في الأصل و(م) والدر المنثور ٥/ ١١٢: سلمة، والمثبت من تاريخ ابن عساكر ٦٩/ ٦٧، وهو الصواب.

يتزوَّجها كذلك، فدعا الإنس فقال: ما يَذهَبُ بهذا؟ فقالوا: يا رسول الله المواسي. فقال: المواسي تقطع ساقي المرأة.

وفي رواية: أنه قيل لها ذلك، فقالت: لَمْ يمسسني الحديد قطُّ. فكره سليمان المواسي وقال: إنها تقطع ساقيها. ثم دعا الجنَّ فقالوا مثل ذلك، ثم دعا الشياطين فوضعوا له النُّورة. قال ابن عباس: وكان ذلك اليومُ أولَ يومٍ رُئيت فيه النُّورة. وعن عكرمة: أنَّ أول من وضع النُّورةَ شياطينُ الإنس، وضعوها لبلقيس، وهو خلافُ المشهور.

ويُروَى أنَّ الحمَّامَ وضع يومئذ؛ وفي «تاريخ» البخاري عن أبي موسى الأشعريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «أوَّلُ مَن صُنِعتْ له الحمَّاماتُ سليمان»[(١)]. وأخرج الطبرانيُّ وابن عديٍّ في «الكامل» والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عنه أيضاً قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أولُ من دخل الحمَّام سليمانُ، فلمَّا وجد حرَّه قال: أوَّه من عذاب الله تعالى»[(٢)].

وروي عن وهبٍ أنه قال: زعموا أنَّ بلقيس لمَّا أسلمت قال لها سليمان: اختاري رجلاً من قومك أُزَوِّجْكِه. فقالت: أمِثْلي يا نبيَّ الله تَنْكِحُ الرجال، وقد كان [لي] في قومي من الملك والسلطان ما كان؟ قال: نعم إنه لا يكون في الإسلام إلَّا ذلك، وما ينبغي لك أن تُحرِّمي ما أحلَّ الله تعالى لك. فقالت: زوِّجني إن كان لابدَّ من ذلك ذا تُبَّع ملكَ هَمْدان. فزوَّجها إياه، ثم ردَّها إلى اليمن وسلَّط زوجها ذا تبَّع على اليمن، ودعا زوبعةَ أميرَ جنِّ اليمن فقال: اعمل لذي تبَّع

---

(١) التاريخ الكبير ١/ ٣٦٢ عن حسن بن صباح، عن ابراهيم بن مهدي، عن أبي حفص الأبار، عن إسماعيل بن عبد الرحمن، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه به. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) المعجم الأوسط (٤٦١)، والكامل ١/ ٢٨٣، والشعب (٧٧٧٨)، وأخرجه أيضاً العقيلي في الضعفاء ١/ ٦٨ و٨٤، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٥٦٦) من طرق عن إبراهيم بن مهدي بالإسناد المذكور آنفاً. قال البيهقي: تفرد به إسماعيل بن عبد الرحمن الأزدي، قال البخاري: لا يتابع عليه، وقال مرة: فيه نظر. اهـ وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وإسماعيل أحاديثه منكرة، قال أبو بكر الخطيب: وإبراهيم بن مهدي فيه ضعف.

ما استعملك فيه. فلم يزل بها ملكاً يعمل له فيها حتى مات سليمان، فلما أن حال الحول وتبيَّن الجنُّ موته عليه السلام أقبل رجلٌ منهم فسلك تهامةَ حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته: يا معشر الجنّ، إنَّ الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديَكم. فرفعوا أيديَهم وتفرَّقوا، وانقضى ملك ذي تبَّع وملكُ بلقيس مع ملك سليمان عليه السلام(١).

وقال عون بن عبد الله: سأل رجل عبد الله بن عتبة: هل تزوَّج سليمان بلقيس؟ فقال: انتهى أمرُها إلى قولها: «أسلمتُ مع سليمانَ للهِ ربِّ العالمين» قيل: يعني: لا عِلْمَ لنا وراء ذلك.

والمشهورُ أنه عليه السلام تزوَّجها، وإليه ذهب جماعةٌ من أهل الأخبار؛ وأخرج البيهقيُّ في «الزهد» عن الأوزاعيِّ قال: كُسِرَ برجٌ من أبراج تدمر، فأصابوا فيه امرأةً حسناء دعجاء مدمجةً كأنَّ أعطافها طيُّ الطوامير، عليها عمامةٌ طولُها ثمانون ذراعاً، مكتوبٌ على طرف العمامة بالذهب: بسم الله الرحمن الرحيم أنا بلقيس ملكة سبأ زوجةُ سليمان بن داود عليها السلام، ملكتُ من الدنيا كافرةً ومؤمنةً ما لم يملكه أحدٌ قبلي، ولا يملكه أحدٌ بعدي، صار مصيري إلى الموت فاقْصِروا يا طالبي الدنيا(٢). والله تعالى أعلم بصحة الخبر.

وكم في هذه القصة من أخبارٍ اللهُ تعالى أعلمُ بالصحيح منها، والقصةُ في نفسها عجيبةٌ، وقد اشتملت على أشياءَ خارقةٍ للعادة، بل يكاد العقل يُحيلها في أول وهلة.

وممَّا يُستغرَبُ ـ ولله تعالى فيه سرٌّ خفيٌّ ـ خفاءُ أمر بلقيس على سليمان عدَّةَ سنين ـ كما قاله غيرُ واحدٍ ـ مع أنَّ المسافة بينه وبينها لم تكن في غاية البعد، وقد سخَّر الله تعالى له من الجنِّ والشياطين والطير والريح ما سخر، وهذا أغربُ من

---

(١) عرائس المجالس للثعلبي ص٣٢٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٣، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١١٢، ولم نقف عليه في مطبوع الزهد، وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٩/ ٧٨.

خفاءِ أمر يوسف على يعقوب عليهما السلام بمراتب، وسبحان مَن لا يَعْزبُ عن علمه مثقالُ ذرةٍ في السماوات وفي الأرض.

هذا وللصوفية في تطبيق ما في هذه القصة على ما في الأنفس كلام طويل، ولعل الأمر سهلٌ على مَن له أدنى ذوقٍ بعد الوقوف على بعض ما مرَّ من تطبيقاتهم ما في بعض القصص على ذلك، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا) مسوقٌ لِمَا سيق هو له، واللام واقعةٌ في جواب قسمٍ محذوف، أي: وبالله لقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ وإنما أقسم على ذلك اعتناءً بشأن الحكم، و«صالحاً» بدلٌ من «أخاهم» أو عطفُ بيانيٌّ.

و«أنْ» في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مفسِّرةٌ لِمَا في الإرسال من معنى القول دون حروفه. وجوِّز كونُها مصدريةً حُذف منها حرفُ الجر، أي: بأنْ، وقيل: لأنْ. ووصلُها بالأمر جائزٌ لا ضير فيه كما مر.

وقُرئ بضم النون إتباعاً لها للباء[(١)].

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: فاجأ إرسالنا تفرُّقُهم واختصامُهم، فآمن فريقٌ وكَفَر فريقٌ، وكان ما حكى الله تعالى في محلٍّ آخَرَ بقوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ الآية [الأعراف: ٧٥].

ف «إذا» فجائيةٌ والعاملُ فيها مقدَّرٌ، لا «يختصمون»، خلافاً لأبي البقاء لأنه صفةُ «فريقان» كما قال[(٢)]. ومعمولُ الصفة لا يتقدَّم على الموصوف، وقيل: هذا حيث لا يكون المعمول ظرفاً. وضمير «يختصمون» لمجموع الفريقين، ولم يقل: يختصمان، للفاصلة، ويُوهم كلامُ بعضهم أنَّ الجملة خبرٌ ثانٍ، وهو كما ترى.

---

(١) هي قراءة نافع وابن كثير والكسائي وابن عامر وأبي جعفر وخلف. التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٥.

(٢) الإملاء ٣/ ١٣٤-١٣٥، وفيه: «إذا» هنا للمفاجأة فهي مكان، و«هم» مبتدأ، و«فريقان» الخبر، و«يختصمون» صفة، وهي العاملة في «إذا».

و«هم» راجعٌ إلى «ثمود» لأنه اسمٌ للقبيلة. وقيل: إلى هؤلاء المذكورين ليشمل صالحاً عليه السلام، والفريقان حينئذٍ أحدُهما صالحٌ وحده وثانيهما قومُه. والحاملُ على هذا كما ذكره ابن عادل: العطفُ بالفاء؛ فإنها تُؤْذِنُ أنهم عقيبَ الإرسال بلا مهلةٍ صاروا فريقين، ولا يصيرُ قومه عليه السلام فريقين إلا بعد زمانٍ[1].

وفيه أنه يأباه قولُه تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ وتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسَبِه، على أنه يجوز كونُ الفاء لمجرَّد الترتيب.

ولعل فريق الكفرة أكثرُ، ولذا ناداهم بقوله: «يا قوم» كما حكي عنه في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ﴾ لجَعْلِه في حكم الكلِّ، أي: قال عليه السلام للفريق الكافر منهم بعد ما شاهد منهم ما شاهد من نهاية العتوِّ والعناد حتى بلغوا من المكابرة إلى أن قالوا له عليه السلام: ﴿يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] متلطِّفاً بهم: ﴿يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة التي تسوءُكم ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: التوبة، فتؤخِّرونها إلى حين نزولها، حيث كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون: إنْ وقع إيعاده تُبنا حينئذٍ، وإلا فنحن على ما نحن عليه. ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ أي: هلَّا تستغفرونه تعالى قبل نزولها ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦)﴾ بقبولها؛ إذ سنَّةُ الله تعالى عدمُ القبول عند النزول.

وقد خاطبهم عليه السلام على حَسَب تخمينهم وجهلهم في ذلك بأنَّ ما خمَّنوه من التوبة إذ ذاك فاسدةٌ، وأن استعجالهم ذلك خارجٌ من المعقول. والتقابلُ بين السيئة والحسنة بالمعنى الذي سمعت حاصلٌ من كون أحدهما حسناً والآخرِ سيئاً.

وقيل: المراد بالسيئة تكذيبهم إياه عليه السلام وكفرُهم به، وبالحسنة تصديقُهم وإيمانهم، والمراد من قوله: «لم تستعجلون» إلخ لومُهم على المسارعة إلى تكذيبهم إياه وكفرِهم به، وحضُّهم على التوبة من ذلك بترك التكذيب والإيمان. وحاصلُه لومُهم على إيقاع التكذيب عند الدعوة دون التصديق، وحضُّهم على تَلَافي ذلك. وإيهامُ الكلام انتفاء اللوم على إيقاع التكذيب بعد التصديق مما لا يكاد يُلتفت إليه.

(١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ١٥/ ١٧٥.

ولا يخفى بعد طيِّ الكشح عن المناقشة فيما ذكر أنَّ المناسب لِمَا حكى الله تعالى عن القوم في سورة «الأعراف» ولِمَا جاء في الآثار هو المعنى الأول، ومن هنا ضعِّف ما روي عن مجاهد من تفسير الحسنة برحمة الله تعالى، لتُقابِلَ السيئة المفسَّرةَ بعقوبته عزَّ وجلَّ، ويكون المراد من استعجالهم بالعقوبة قبل الرحمة طلبَهم إياها دون الرحمة، فتأمل.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا﴾ أصلُه: تطيَّرنا، وقرئ به[1]، فأدغمت التاء في الطاء وزيدتْ همزةُ الوصل ليتأتَّى الابتداء. والتطيُّر: التشاؤم، عبَّر عنه بذلك لِمَا أنهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرُّون بطائر يَزْجُرونه، فإن مرَّ سانحاً بأنْ مرَّ من مَيَامِنِ الشخص إلى مياسره تيمَّنوا، وإن مرَّ بارحاً بأن مرَّ من المياسر إلى الميامن تشاءموا؛ لأنه لا يمكن للمارِّ به كذلك أن يرميه حتى ينحرف، فلمَّا نسبوا الخير والشر إلى الطائر استُعير لِمَا كان سبباً لهما من قَدَرِ الله تعالى وقسمته عزَّ وجل، أو من عمل العبد الذي هو سببُ الرحمة والنعمة. أي: تشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ في دينك، حيث تتابَعَتْ علينا الشدائد ـ وقد كانوا قحطوا ـ ولم نَزَلْ في اختلافٍ وافتراق مذ اخترعتُم دينكم. وتشاؤمهم يحتمل أن يكون من المجموع، وأن يكون من كلٍّ من المتعاطفين.

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ﴾ أي: سببُكم الذي منه ينالكم ما ينالُكم من الشر ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وهو قَدَرُه سبحانه، أو عملُكم المكتوبُ عنده عزَّ وجل.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ إضرابٌ من بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يَحيقُ بهم إلى ذِكْرِ ما هو الداعي إليه، أي: بل أنتم قومٌ تُختَبرون بتعاقُبِ السرَّاء والضرَّاء، أو تعذَّبون، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرةَ.

وجاء «تفتنون» بتاء الخطاب على مراعاة «أنتم»، وهو الكثير في لسان العرب، ويجوز في مثل هذا التركيب: يفتنون، بياء الغيبة على مراعاة لفظ «قوم»، وهو قليلٌ في لسانهم.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينةِ ثمود وقريتهم وهي الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ هو اسم

(١) الكشاف ٣/ ١٥١، والبحر ٧/ ٨٢.

جمع يُطلق على العصابة دون العشرة كما قال الراغب[١]، وفي «الكشاف»: هو من الثلاثة أو من السبعة إلى العشرة[٢]. وقيل: بل يقال إلى الأربعين، وليس بمقبول. وأصله على ما نُقل عن الكرمانيِّ من الترهيط، وهو تعظيمُ اللُّقَم وشدَّةُ الأكل.

وقد أضيف العددُ إليه، وقد اختلف في جواز إضافته إلى اسم الجمع؛ فذهب الأخفش إلى أنه لا ينقاس، وما ورد من الإضافة إليه فهو على سبيل الندور، وقد صرَّح سيبويه أنه لا يقال: ثلاثُ غَنَمٍ[٣].

وذهب قومٌ إلى أنه يجوز ذلك وينقاسُ، وهو مع ذلك قليل.

وفصَّل قوم بين أن يكون اسمُ الجمع[٤] للقليل كرَهطٍ ونَفَرٍ وذَوْدٍ، فيجوز أن يضاف إليه إجراءً له مجرى جمع القلَّة، أو للكثير، أو يُستعمل لهما، فلا يجوز إضافته إليه، بل إذا أُريد تمييزه به جيء به مقروناً بـ «من» كـ: خمسةٍ من القوم، وقال تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وهو قول المازنيِّ.

واختار غيرُ واحدٍ أنّ إضافة «تسعة» إلى «رهط» هاهنا باعتبار أنَّ «رهطاً» لكونه اسمَ جمعٍ للقليل في حكم أشخاص ونحوِه من جموع القلَّة، وهي يضاف إليها العدد، كتسعة أشخاصٍ، وتسع أنفُسٍ، وهذا معنى قولهم: إنَّ وقوع «رهط» تمييزاً لـ «تسعة» باعتبار المعنى، فكأنه قيل: تسعة أشخاص.

وقيل: أي: تسعةُ أنفُسٍ، وتأنيثُ العدد لأنَّ المذكور في النظم الكريم «رهط» وهو مذكَّر، فليس ذاك من غير الفصيح كقوله:

ثــلاثــةُ أنــفــسٍ وثــلاثُ ذَوْدٍ[٥]

---

(١) في مفرداته (رهط).
(٢) الكشاف ٣/ ١٥١.
(٣) الكتاب ٣/ ٥٦٢. ونقل المصنف كلامه وكلام الأخفش بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٨٣.
(٤) في (م): الجميع.
(٥) وعجزه: لقد جار الزمان على عيالي، والبيت للحطيئة، وهو في ديوانه ص٣٩٥، والكتاب ٣/ ٥٦٥، والخزانة ٧/ ٣٦٤. ورواية الديوان: ونحن ثلاثةٌ وثلاثُ ذودٍ.
قال البغدادي: أنشده سيبويه شاهداً على تأنيث ثلاثة أنفس، وكان القياس: ثلاث أنفس، لأن النفس مؤنثة، لكن أنّث لكثرة إطلاق النفس على الشخص.

نعم تقدير ما تقدَّم أسلمُ من المناقشة. وأمَّا ما قيل: أي: تسعةُ رجال، ففيه الغفلةُ عمَّا أشرنا إليه، ثم إنه ليس المراد أنَّ الرهط بمعنى الشخص أو بمعنى النفس، بل أنَّ التسعة من الأشخاص أو من الأنفس هي الرَّهْطُ، فليس المعدودُ بالتسعة ما دلَّ عليه الرهط من الجماعة ليكون هناك تسعُ جماعاتٍ لا تسعةُ أفراد.

وقال الإمام: الأقربُ أن يكون المراد: تسعة جَمْعٍ؛ إذ الظاهر من الرهط الجماعةُ، ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل، ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفاتهم وأحوالهم، لا لاختلاف النسب[١]. اهـ.

وقيل: كان هؤلاء التسعةُ رؤساءَ، مع كلِّ واحدٍ منهم رَهْطٌ، ولذا قيل: «تسعة رهط» وأسماؤهم عن وهب: الهذيل بن عبد ربٍّ، وغنم بن غنم، ورياب[٢] بن مهرج، [ومصدع بن مهرج]، وعمير بن كردبة، وعاصم بن مخرمة، وسبيط بن صدقة، وسمعان بن صفي، وقدار بن سالف، وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عتاةَ قومِ صالح ومن أبناء أشرافهم[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّ أسماءهم: دعمي، ودعيم، وهرمي، وهريم، ودواب، وصواب، ودياب، ومسطح، وقدار وهو الذي عقر الناقة[٤].

﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا في المدينة فقط، إفساداً بحتاً لا يخالطه شيءٌ من الصلاح، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: لا يفعلون شيئاً من الإصلاح، أو: لا يصلحون شيئاً من الأشياء، والمراد أنَّ عادتهم المستمرةَ ذلك الإفساد كما يؤذِنُ به المضارع، والجملة في موضع الصفة لـ «رهط» أو لـ «تسعة».

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٠٣.

(٢) في (م): ودباب.

(٣) ذكره عن وهب الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٥١-١٥٢، والقرطبي ١٦/ ١٨٣، وما سلف بين حاصرتين منهما. قال السهيلي في التعريف والإعلام ص١٢٩: ذكر النقاش التسعة وسماهم بأسمائهم، وذلك لا ينضبط برواية، غير أني أذكره على وجه الاجتهاد والتخمين، ولكن نذكره على رسم وجدناه في كتاب محمد بن حبيب [المسمى: المحبَّر، وكلامه فيه ص٣٥٧]. . .، ثم ذكر أسماءهم باختلافٍ عما روي عن وهب.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٠٠، باختلاف يسير.

﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ ببيانِ بعض[1] ما فعلوا من الفساد، أي: قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه السلام، وكان ذلك على ما رُوي عن ابن عباس بعد أن عقروا الناقة وأنذرهم بالعذاب، وقوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ إلخ [هود: ٦٥].

﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أمرٌ من التقاسمُ، أي: التحالُف، وقع مقولَ القول، وهو قول الجمهور.

وجوِّز أن يكون فعلاً ماضياً بدلاً من «قالوا»، أو حالاً من فاعله بتقديرِ «قد» أو بدونها، أي: قالوا متقاسمين، ومقولُ القول: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ إلخ، وجوَّز أبو حيان على هذا أن يكون «بالله» من جملة المقول[2].

والبَيَاتُ: مباغتةُ العدوِّ ومفاجأتهُ بالإيقاع به ليلاً وهو غافل. وأرادوا قتله عليه السلام وأهلَه ليلاً وهم غافلون. وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال: ليس من آيين الملوك استراقُ الظَّفر[3].

وقرأ ابن أبي ليلى: «تقسَّموا» بغير ألف وتشديدِ السين[4]، والمعنى كما في قراءة الجمهور.

وقرأ الحسن وحمزة والكسائي: «لتُبيِّتُنَّه» بالتاء[5] على خطاب بعضهم لبعض.

وقرأ مجاهد وابن وثاب وطلحةُ والأعمش: «ليبيتُنَّه» بياء الغيبة[6]، و«تقاسموا» على هذه القراءة لا يصحُّ إلا أن يكون خبراً، بخلافه على[7] القراءتين الأوْلَيين فإنه

---

(١) في الأصل: لبعض، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٠، والكلام منه.
(٢) البحر ٧/ ٨٤.
(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٥٢، وآيين وآئين كلمة فارسية معناها: عادة، سيرة، طبيعة، طبع، دأب، قانون، نظام، أسلوب. . .، وذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٨٤ وفيه: ليس من عادة الملوك. . .
(٤) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٨٣.
(٥) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨ عن حمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة، وذكرها عن الحسن أبو حيان في البحر ٧/ ٨٤.
(٦) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٨٤.
(٧) في (م): عن.

يصحُّ أن يكون خبراً كما يصحُّ أن يكون أمراً. وذلك لأنَّ الأمر خطابٌ، والمقسمُ عليه بعده لو نظر إلى الخطاب وجب تاءُ الخطاب، ولو نظر إلى صيغة قولهم عند الحلف وجب النون، فأمَّا ياء الغائب فلا وجه له، وأما إذا جُعل خبراً فهو على الغائب، كما تقول: حلف ليَفْعَلَن.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لوليِّ صالح. والمراد به طالبُ ثأره من ذوي قرابته إذا قتل. وقرأ: «لتقولُن» بالتاء مَن قرأ «لتُبيِّتُنَّه» كذلك. وقرأ «ليقولُنَّ» بياء الغيبة مَن قرأ بها فيما تقدَّم.

وقرأ حميد بن قيس الأولَ بياء الغيبة وهذا بالنون[1]، قيل: والمعنى على ذلك: قالوا متقاسمين بالله: ليبيِّتُنَّه قومٌ منَّا ثم لنقولنَّ جميعنا لوليه.

﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ما حضرنا هلاكهم، على أن «مهلك» مصدرٌ كمرجع، أو: مكانَ هلاكهم، على أنه للمكان، أو: زمانَ هلاكهم على أنه للزمان. والمراد نفيُ شهود الهلاك الواقع فيه. واختاروا نفي شهود مهلك أهله على نفي قتلهم إياهم قصداً للمبالغة، كأنهم قالوا: ما شهدنا ذلك فضلاً عن أن نتولَّى إهلاكهم، ويُعلم من ذلك نفيُ قتلهم صالحاً عليه السلام أيضاً لأنَّ مَن لم يقتل أتباعه كيف يقتله.

وقيل: في الكلام حذف، أي: ما شهدنا مهلكَ أهله ومهلكَه. واستظهره أبو حيان[2] ثم قال: وحذفُ مثلِ هذا المعطوف جائزٌ في الفصيح كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد، وقال الشاعر:

فما كان بين الخير لو جاء سالماً ... أبو حُجُرٍ إلَّا ليالٍ قلائلُ[3]

أي: بين الخير وبيني. اهـ، وفيه ما لا يخفى.

وقيل: الضمير في «أهله» يعود على الوليّ، والمراد بأهل الوليّ صالحٌ وأهلُه.

---

(١) البحر ٧/ ٨٤.
(٢) في البحر ٧/ ٨٤.
(٣) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٩٠.

واعترض بأنه لو أريد أهلُ الوليِّ لقيل: أهلِكَ، أو: أهلِكم[(١)].

ومُنع بأنَّ ذلك غيرُ لازم، فقد قرئ: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون﴾ [آل عمران:١٢] بالخطاب والغيبة[(٢)]، ووجهُ ذلك ظاهرٌ. نعم رجوعُ الضمير إلى الوليِّ خلافُ الظاهر كما لا يخفى.

وقرأ الجمهور: «مُهْلَكَ» بضم الميم وفتح اللام[(٣)] من أَهْلَكَ، وفيه الاحتمالات الثلاث. وقرأ أبو بكر: «مَهْلَكَ» بفتحهما على أنه مصدر.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ عطف على «ما شهدنا» كما ذهب إليه الزجَّاج[(٤)]، والمعنى: ونحلف إنَّا لصادقون. وجوِّز أن تكون الواو للحال، أي: والحالُ إنَّا لصادقون فيما ذكرنا.

واستشكل ادِّعاؤهم الصدق في ذلك وهم عقلاء ينفرون عن الكذب ما أمكن. وأجيب بأنَّ حضور الأمر غيرُ مباشرته في العرف؛ لأنه لا يقال لمن قتل رجلاً: إنه حضر قتله، وإن كان الحضورُ لازماً للمباشرة، فحلفوا على المعنى العرفيِّ على العادة في الأيمان، وأَوْهَموا الخصم أنهم أرادوا معناه اللغويَّ، فهم صادقون غيرُ حانثين، وكونُهم من أهل التعارُفِ أيضاً لا يضرُّ، بل يفيد فائدةً تامةً.

وقال الزمخشريُّ: كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيَّتوا صالحاً وبيَّتوا أهله فجمعوا بين البياتين، ثم قالوا: ما شهدنا مهلك أهله، فذكروا أحدهما، كانوا صادقين؛ لأنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدَهما[(٥)].

وتعقِّب[(٦)] بأنَّ مَن فعل أمرين وجَحَد أحدَهما لم يكن في كذبه شبهةٌ، وإنما تتمُّ الحيلةُ لو فعلوا أمراً واحداً وادُّعي عليهم فعلُ أمرين فجحدوا المجموع. ولذا لم

---

(١) في الأصل و(م): أهله، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٥١.

(٢) سلفت ٤/ ٥٢.

(٣) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١. وهي قراءة العشرة سوى عاصم، فقد روى عنه حفص «مهلِك» بفتح الميم وكسر اللام، وستأتي رواية أبي بكر عنه.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ١٢٤.

(٥) الكشاف ٣/ ١٥٢.

(٦) في الانتصاف ٣/ ١٥٢.

يختلف العلماء في أنَّ من حلف: لا أضرب زيداً، فضرب زيداً وعَمْراً، كان حانثاً، بخلاف مَن حلف: لا أضرب زيداً وعَمْراً، ولا آكل رغيفين، فأكل أحدهما، فإنه محلُّ خلافٍ للعلماء في الحنث وعدمه.

والحقُّ أنَّ تبرئتهم من الكذب فيما ذكر غيرُ لازمةٍ حتى يتكلَّف لها[1]، وهم الذين كذبوا على الله تعالى ورسولِه عليه السلام، وارتكبوا ما هو أقبحُ من الكذب فيما ذكر، ومقصودُ الزمخشريِّ تأييدُ ما يزعمه هو وقومه من قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل بموافقة قوم صالح عليها، ولا يكاد يتمُّ له ذلك.

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ بهذه المواضعة ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً غيرَ معهودٍ، أو جازينا مكرَهم من حيث لا يحتسبون.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ شروعٌ في بيانِ ما ترتَّب على ما باشروه من المكر، والظاهرُ أن «كيف» خبرٌ مُقدَّمٌ لـ «كان»، و«عاقبة» الاسم، أي: كان عاقبة مكرهم واقعةً على وجهٍ عجيب يُعتبر به، والجملة في محلِّ نصبٍ على أنها مفعولُ «انظر»، وهي معلَّقة لمكان الاستفهام، والمراد: تَفَكَّرْ في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ في تأويل مصدرٍ وقع بدلاً من «عاقبة مكرهم»، أو خبر مبتدأ محذوفٍ هو ضميرُ العاقبة، والجملةُ مبيِّنةٌ لِمَا في «عاقبة مكرهم» من الإبهام، أي: هو ـ أو هي ـ تدميرُنا وإهلاكُنا إياهم ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ الذين لم يكونوا منهم في مباشرة التبييت ﴿أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾ بحيث لم يشذَّ منهم شاذٌّ. أو هو على تقدير الجارِّ، أي: لتدميرنا إياهم، أو بتدميرنا إياهم، ويكون ذلك تعليلاً لما ينبئُ عنه الأمر بالنظر في كيفية عاقبة أمرهم من الهول والفظاعة.

وجوَّز بعضُهم كونَه بدلاً من «كيف». وقال آخرون: لا يجوزُ ذلك؛ لأنَّ البدل عن الاستفهام يلزمُ فيه إعادةُ حرفه، كقولك: كيف زيدٌ أصحيحٌ أم مريض؟.

وجوَّز أن يكون هو الخبر لـ «كان»، وتكون «كيف» حينئذٍ حالاً والعاملُ فيها «كان» أو ما يدلُّ عليه الكلام من معنى الفعل.

---

(١) في الأصل: لهم.

ويجوزُ أن تكون «كان» تامةً، و«كيف» عليه حالٌ لا غير، والاحتمالاتُ الجائزة في «أنَّا دمَّرناهم» لا تخفى[١].

وقرأ الأكثر: «إنَّا» بكسر الهمزة[٢]. فـ «كيف» خبرُ «كان»، و«عاقبة» اسمها، وجملة «إنَّا دمَّرناهم» استئنافٌ لتفسير العاقبة.

وجوَّز أن تكون خبرَ مبتدأ محذوف؛ قال الخفاجي: الظاهرُ أنه الشأن أو ضميره، لا شيءٌ آخَرُ مما يحتاج للعائد ليُعترَضَ عليه بعدم العائد. ولا يَرِدُ عليه أنَّ ضمير الشأن المرفوع مَنَعَ كثيرٌ من النحويين حَذْفَه، فإنه غيرُ مسلَّمٍ[٣]. ويجوز أن تكون «كان» تامةً و«كيف» حال كما تقدَّم.

ولم يجوِّز الجمهور كونَها ناقصةً والخبر جملة «إنا دمرناهم» لعدم الرابط. وقيل: يجوز، ويكفي للربط وجودُ ما يرجع إلى متعلَّق المبتدأ إذ رجوعُه إليه نفسِه غيرُ لازمٍ، وهو تكلُّفٌ وإنما يتمشى على مذهب الأخفش القائل: إذا قام بعض الجملة مقام مضافٍ إلى العائد اكتُفي به، وغيره من النحاة يأباه.

وجوَّز أبو حيان[٤] على كلتا القراءتين أن تكون «كان» زائدةً، و«عاقبة» مبتدأ، و«كيف» خبر مقدَّم له.

وقرأ أُبيّ: «أنْ دمَّرناهم»[٥] بـ «أنْ» التي من شأنها أن تنصب المضارع، ويجري في المصدر الاحتمالاتُ السابقة فيه على قراءة «أنَّا» بفتح الهمزة.

هذا وفي كيفية التدمير خلافٌ؛ فروي أنه كان لصالح عليه السلام مسجدٌ في الحجر في شعبٍ يصلِّي فيه، فقالوا: زعم صالحٌ أنه يفرغُ منَّا بعد ثلاثٍ، فنحن نفرغُ منه ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه

---

(١) وهي الثلاث التي ذكرها المصنف أولاً، أي: كونه بدلاً، أو خبراً لمبتدأ محذوف، أو على تقدير الجارِّ، فيجوز مع هذه الأوجه الثلاثة أن تكون «كان» تامة.

(٢) هي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر. التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٥٢.

(٤) في البحر ٧/ ٨٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤، والبحر ٧/ ٨٦.

ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم. فبعث الله تعالى صخرةً من الهضب حيالهم، فبادروا فطبقت عليهم فمَ الشعب، فلم يَدْرِ قومُهم أين هم، ولم يدروا ما فُعل بقومهم، وعذَّب الله تعالى كلاً منهم في مكانه ونجَّى صالحاً ومَن معه.

وقيل: جاؤوا بالليل شاهري سيوفهم، وقد أرسل الله تعالى ملائكةً ملءَ دارِ صالح عليه السلام فرموهم بالحجارة يرونها ولا يرون رامياً وهلك سائر القوم بالصيحة.

وقيل: إنهم عزموا على تبييته عليه السلام وأهله، فأخبر الله تعالى بذلك صالحاً، فخرج عنهم، ثم أهلكهم بالصيحة وكان ذلك يومَ الأحد.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ جملةٌ مقرِّرةٌ لِمَا قبلها. وقولُه تعالى: ﴿خَاوِيَةً﴾ أي: خاليةً أو ساقطةً متهدِّمةً أعاليها على أسافلها، كما روي عن ابن عباس ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: بسبب ظلمهم المذكور، حالٌ من «بيوتهم»، والعاملُ فيها معنى الإشارة.

وقرأ عيسى بن عمر: «خاويةٌ» بالرفع[1] على أنه خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هي خاويةٌ، أو خبرٌ بعد خبرٍ لـ «تلك»، أو خبرٌ لها و«بيوتهم» بدلٌ.

و«بيوتُهم» هذه هي التي قال فيها ﷺ لأصحابه عام تبوك: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلَّا أن تكونوا باكين» الحديث[2]. وهي بوادي القرى بين المدينة والشام.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من التدمير العجيب بظُلْمِهم ﴿لَءَايَةً﴾ لعبرةً عظيمةً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما من شأنه أن يُعلم من الأشياء، أو: لقومٍ يتَّصفون بالعلم. وقيل: لقوم يعلمون هذه القصة. وليس بشيء.

وفي هذه الآية ـ على ما قيل ـ دلالةٌ على الظلم يكون سبباً لخراب الدور؛ وروي عن ابن عباس أنه قال: أجدُ في كتاب الله تعالى أنَّ الظلم يخرِّبُ البيوت، وتلا هذه الآية. وفي التوراة: ابنَ آدم لا تظلم يخرب بيتك. قيل: وهو إشارةٌ إلى هلاك الظالم؛ إذ خرابُ بيته متعقِّبٌ هلاكَه.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٥٣، والبحر ٧/ ٨٦.

(٢) أخرجه أحمد (٤٥٦١)، والبخاري(٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولا يخفى أنَّ كون الظلم بمعنى الجور والتعدِّي على عباد الله تعالى سبباً لخراب البيوت مما شوهد كثيراً في هذه الأعصار، وكونُه بمعنى الكفر كذلك ليس كذلك، نعم لا يَبعدُ أن يكون على الكفرة يومٌ تخرَّبُ فيه بيوتُهم إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صالحاً ومَن معه من المؤمنين ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾ من الكفر والمعاصي اتِّقاءً مستمرًّا، فلذا خُصُّوا بالنجاة. روي أنَّ الذين آمنوا به عليه السلام كانوا أربعةَ آلافٍ، خرج بهم صالح إلى حضرموت، وحين دخلها مات ولذلك سميت بهذا الاسم، وبنى المؤمنون بها مدينةً يقال لها: حاضورا، وقد تقدَّم الكلام في ذلك(١)، فتذكَّر.

﴿وَلُوطًا﴾ منصوبٌ بمضمرٍ معطوفٍ على «أرسلنا» في صدر قصة صالح عليه السلام، داخلٍ معه في حيِّز القسم، أي: وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ظرفٌ للإرسال، على أنَّ المراد به أمرٌ ممتدٌّ وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين قومه من الأحوال والأقوال.

وجوِّز أن يكون منصوباً بإضمارِ: اذكر، معطوفاً على ما تقدَّم عطفَ قصةٍ على قصة، و«إذ» بدلٌ منه بدلَ اشتمالٍ. وليس بذاك.

وقيل: هو معطوفٌ على «صالحاً». وتعقِّب بأنه غيرُ مستقيم؛ لأنَّ «صالحاً» بدلٌ أو عطفُ بيان لـ «أخاهم» وقد قيِّد بقيدٍ مقدَّمٍ عليه وهو «إلى ثمود»، فلو عطف عليه تقيَّد به، ولا يصحُّ لأنَّ لوطاً عليه السلام لَم يرسَل إلى ثمود، وهو متعيِّنٌ إذا تقدَّم القيد بخلافِ ما لو تأخَّر.

وقيل: إنَّ تعيُّنه غيرُ مسلَّمٍ إذ يجوز عطفُه على مجموع القيد والمقيَّد، لكنه خلافُ المألوف في الخطابيات، وارتكابُ مثله تعسُّفٌ لا يليق.

وجوِّز أن يكون عطفاً على «الذين آمنوا».

وتعقِّب بأنه لا يناسبُ أساليبَ سَرْدِ القصص، مِن عَطْفِ إحدى القصتين على الأخرى لا على تتمة الأولى وذيلها كما لا يخفى.

---

(١) ١٧/١٦٧.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: أتفعلون الفعلةَ المتناهيةَ في القبح والسماجة، والاستفهامُ إنكاريٌّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾ جملةٌ حاليةٌ من فاعل «تأتون» مفيدةٌ لتأكيد الإنكار، فإنَّ تعاطيَ القبيح من العالِم بقبحه أقبحُ وأشنعُ. و«تبصرون» من بَصَرِ القلب، أي: أتفعلونها والحالُ أنتم تعلمون علماً يقينيًّا كونَها كذلك.

ويجوز أن يكون من بَصَرِ العين، أي: وأنتم ترون وتشاهدون كونَها فاحشةً، على تنزيل ذلك ـ لظهوره ـ منزلةَ المحسوس. وقيل: مفعولُ «تبصرون» من المحسوسات حقيقةً، أي: وأنتم تبصرون آثارَ العصاةِ قبلكم، أو: وأنتم ينظرُ بعضكم بعضاً لا يستتِرُ ولا يتحاشى من إظهار ذلك؛ لعدم اكتراثكم به. ووجهُ إفادة الجملة على الاحتمالين تأكيدَ الإنكار أيضاً ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ تثنيةٌ للإنكار، وبيانٌ لِمَا يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام، وتحليةُ الجملة بحرفي التأكيد للإيذان بأنَّ مضمونها مما لا يصدِّقُ وقوعَه أحدٌ لكمال شناعته، وإيرادُ المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية لتربية[1] التقبيح، وبيانِ اختصاصه ببني آدم.

وتعليلُ الإتيان بالشهوة تقبيحٌ على تقبيحٍ، لِمَا أنها ليست في محلِّها، وفيه إشارةٌ إلى أنهم مخطئون في محلِّها فعلاً، وفي قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ ـ أي: متجاوزين النساءَ اللاتي هُنَّ محالُّ الشهوة ـ إشارةٌ إلى أنهم مخطئون فيه تركاً. ويُعلم مما ذكرنا أنَّ «شهوة» مفعولٌ له للإتيان، وجوِّز أن يكون حالاً.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ أي: تفعلون فعلَ الجاهلين بقبح ذلك، أو تجهلون العاقبةَ. أو الجهلُ بمعنى السفاهةِ والمجون، أي: بل أنتم قومٌ سفهاءُ ماجنون، كذا في «الكشاف»، وأيًّا ما كان فلا ينافي قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[2].

ولم يرتضِ ذلك الطيبيُّ، وزعم أنَّ كلمة الإضراب تأباه، ووجَّه الآية بأنه تعالى

---

(١) في (م): لتربيته.
(٢) الكشاف ٣/١٥٣.

لمَّا أنكر عليهم فعلَهم على الإجمال وسمَّاه فاحشةً، وقيَّده بالحال المقرِّرةِ لجهة الإشكال تتميماً للإنكار بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، أراد مزيدَ ذلك التوبيخ والإنكار، فكشف عن حقيقة تلك الفاحشة، وأشار سبحانه إلى ما أشار، ثم أَضْرَبَ عن الكلِّ بقوله سبحانه: «بل أنتم» إلخ، أي: كيف يقال لمن يرتكبُ هذه الفحشاءَ: وأنتم تعلمون، فأَوْلَى حرفَ الإضراب ضميرَ «أنتم» وجعلهم قوماً جاهلين، والتفتَ في «تجهلون» موبِّخاً معيِّراً. اهـ، وفيه نظر.

والقولُ بالالتفات هنا مما قاله غيره أيضاً، وهو التفاتٌ من الغيبة التي في «قوم» إلى الخطاب في «تجهلون». وتعقَّبه الفاضلُ السيالكوتي بأنه وهم، إذ ليس المراد بـ «قوم» قومَ لوطٍ، حتى يكون المعبَّر عنه في الأسلوبين واحداً كما هو شرطُ الالتفات، بل معنًى كلِّيٌّ حُمِلَ على قوم لوط عليه السلام.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ الخطاب فيه مع أنه صفةٌ لـ «قوم» ـ وهو اسم ظاهرٌ ـ من قبيل الغائب؛ لمراعاة المعنى؛ لأنه متَّحدٌ مع «أنتم» لحمله عليه.

وجَعَله غيرُ واحدٍ مما غلِّب فيه الخطاب. وأُورد عليه أنَّ في التغليب تجوُّزاً ولا تجوُّز هنا. وأجيب بأنَّ نحو «تجهلون» موضوعٌ للخطاب مع جماعةٍ لم يذكروا بلفظ غيبةٍ، وهنا ليس كذلك، فكيف لا يكون فيه تجوُّزٌ؟ وقيل: قولهم إنَّ في التغليب تجوُّزاً خارجٌ مخرج الغالب.

وقال الفاضل السيالكوتي: إنَّ قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ إلخ من المجاز باعتبار ما كان، فإن المخاطب في «تجهلون» باعتبارِ كون القوم مخاطبين في التعبير بـ «أنتم»، فلا يَرِدُ أنَّ اللفظ لم يستعمل فيه في غير ما وضع له ولا الهيئة التركيبية، ولم يسند الفعل إلى غير ما هو له فيكون هناك مجاز، فافهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي: مَن اتَّبع دينَه، وإخراجُه عليه السلام يُعلم من باب أَوْلَى. وقال بعض المحققين: المراد بـ «آل لوط» هو عليه السلام ومَن تَبِعَ دينه، كما يراد من «بني آدَمَ» آدمُ وبنوه. وأيًّا ما كان فلا تدخل امرأتُه عليه السلام فيهم.

وقوله سبحانه: «إلا» إلخ، استثناءٌ مفرَّغٌ واقعٌ في موقع اسم «كان». وقرأ

الحسن وابن أبي إسحاق: «جوابُ» بالرفع[1]، فيكون ذاك واقعاً موقعَ الخبر، وقد مرَّ تحقيق الكلام في مثل هذا التركيب[2].

وفي قوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ بإضافة القرية إلى «كم» تهوينٌ لأمر الإخراج.

وقولُه جلَّ وعلا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ تعليلٌ للأمر على وجهٍ يتضمَّنُ الاستهزاء، أي: إنهم أناسٌ يزعمون التطهُّر والتنزُّه عن أفعالنا أو عن الأقذار، ويَعُدُّون فِعْلَنا قذراً، وهم متكلِّفون بإظهار ما ليس فيهم. والظاهرُ أنَّ هذا الجوابَ صدر عنهم في المرة الأخيرة من مراتب مواعظه عليه السلام بالأمر والنهي، لا أنه لم يصدر عنهم كلامٌ آخَرُ غيرُه.

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي: بعد إهلاك القوم، فالفاء فصيحةٌ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا﴾ أي: قدَّرنا كونَها ﴿مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: الباقين في العذاب. وقدِّر المضافُ لأنَّ التقدير يتعلَّقُ بالفعل لا بالذات، وجاء في آيةٍ أخرى ما يقتضي ذلك، وهو قولُه تعالى: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠].

وقرأ أبو بكر: «قَدَرناها» بتخفيف الدال[3].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ غيرَ معهودٍ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: فبئس مطر المنذرين مطرُهم، وقد مرَّ مثلُ هذا فارْجِعْ إلى ما ذكرناه عنده[4].

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ إثر ما قصَّ سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ قصص الأنبياء المذكورين وأخبارَهم الناطقةَ بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه سبحانه، وبما خصَّهم به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالَّة على جلالة أقدارهم وصحة أخبارهم، وقد بيَّن على ألسنتهم صحةَ الإسلام والتوحيدِ، وبطلانَ الكفر والإشراك، وأنَّ مَن اقتدى بهم فقد اهتدى، ومَن أعرض عنهم فقد

---

(١) المحتسب ٢/ ١٤١، والبحر ٧/ ٨٦.

(٢) ينظر ما سلف ٥/ ٥٠، والآية (٨٢) من سورة الأعراف.

(٣) التيسير ص١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢.

(٤) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة الشعراء.

تردَّى في مهاوي الرَّدَى، وشَرَحَ صدره الشريفَ ﷺ بما في تضاعيف تلك القصص من فنون المعارف الربانية، ونوَّر قلبه بأنوار الملكات السبحانية الفائضةِ من عالم القدس، وقرَّر بذلك فحوى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦] أمره[1] ﷺ أن يحمده بأتمِّ وجهٍ على تلك النعم، ويسلِّم على كافة الأنبياء عليهم السلام، الذين من جملتهم مَن قصَّت أخبارُهم وشُرِحَتْ آثارهم؛ عرفاناً لفضلهم، وأداءً لحقِّ تقدُّمهم واجتهادهم في الدين، فالمرادُ بالعباد المصطفَيْنَ الأنبياءُ عليهم السلام؛ لدلالة المقام، وقولِه تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٨١].

وقيل: هذا أمرٌ له ﷺ بحمده تعالى على هلاك الهالكين من كفار الأمم، والسلامِ على الأنبياء وأتباعهم الناجين ﷺ. والسلامُ على غير الأنبياء عليهم السلام إذا لم يكن استقلالاً مما لا خلافَ في جوازه، ولعل المنصفَ لا يرتابُ في جوازه على عباد الله تعالى المؤمنين مطلقاً.

وقيل: أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بالحمد على ما خصَّه جلَّ وعلا به من رفع عذاب الاستئصال عن أمته، ومخالفتِهم لمن قبلهم ممن ذُكرت قصتُه من الأمم المستأصَلة بالعذاب، وبالسلام على الأنبياء الذين صبروا على مشاقِّ الرسالة، فالمراد بالمصطفين الأنبياءُ خاصةً.

وأخرج عبد بن حميد والبزَّارُ وابنُ جريرٍ وغيرُهم عن ابن عباس أنه قال فيهم: هم أصحابُ محمد ﷺ، اصطفاهم الله تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام[2]. وأخرج عبد بن حميد وابن جَريرٍ عن سفيان الثوريِّ أنه قال في «وسلام» إلخ: نزلت في أصحاب محمد ﷺ خاصةً[3]. وهذا ظاهرٌ في القول بجواز السلام على غير الأنبياء استقلالاً، كما هو مذهبُ الحنابلة وغيرهم.

---

(١) في الأصل و(م): أمر، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٣، والكلام منه.

(٢) البزار (٢٢٤٣ - كشف الأستار)، وتفسير الطبري ١٨/ ٩٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٠٦، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ١١٣. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٨٧: فيه الحكم بن ظهير، وهو متروك.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٩٩، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ١١٣.

والكلام على جميع هذه الأقوال متصلٌ بما قبله، وجعله الزمخشريُّ من باب الاقتضاب كأنه خطبةٌ مبتدأةٌ، حيث قال: أَمَرَ رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقةَ بالبراهين على وحدانيته تعالى وقدرته على كلِّ شيءٍ وحكمته ـ أعني قوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ﴾ إلخ ـ وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفَيْنَ من عباده. وفيه تعليمٌ حَسَنٌ، وتوقيفٌ على أدبٍ جميلٍ، وبعثٌ على التيمُّن بالذكرين والتبرُّكِ بهما، والاستظهارِ بمكانهما على قبول ما يُلقَى إلى السامعين وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلةَ التي يبغيها المُسْمِعُ، ولقد توارثت العلماءُ والخطباء والوُعَّاظ كابراً عن كابرٍ هذا الأدب، فحمدوا الله تعالى وصلَّوا على رسول الله ﷺ أمامَ كلِّ عِلْمٍ مُفادٍ، وقبل كلِّ موعظةٍ وتذكرةٍ، وفي مُفتَتَحِ كلِّ خطبةٍ، وتبعهم المتراسلون فأَجْرَوا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغير ذلك من الحوادث التي لها شَأنٌ[(١)]. انتهى، ولعل جَعْلَ ذلك تخلُّصاً من قصص الأنبياء عليهم السلام إلى ما جرى له ﷺ مع المشركين أَوْلَى.

وأبعدُ الأقوال القولُ باتِّصاله بما قبله، وجَعْلُ ذلك أمراً للوطٍ عليه السلام بأن يحمده تعالى على إهلاك كَفَرةِ قومه، وأن يسلِّم على مَن اصطفاه بالعصمة عن الفواحش، والنجاةِ عن الهلاك = لعدم ملاءمته لِمَا بعده، واحتياجِه إلى تقديرِ: وقلنا له، وعزا هذا القولَ ابن عطية للفرَّاء، وقال: هذه عجمةٌ من الفرَّاء[(٢)].

والظاهر أنَّ «سلام» مبتدأ وما بعده خبرُه، والجملةُ معطوفةٌ على «الحمد لله» داخلةٌ معه في حيِّز القول. وقرأ أبو السَّمَّال: «[قلَ]الحمد لله» بفتح اللام[(٣)].

﴿ءَآللَّهُ﴾ بالمدِّ لقَلْبِ همزةِ الاستفهام ألفاً، والأصلُ: أَأَلله ﴿خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾، والظاهرُ أنَّ «ما» موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ، أي: آلله الذي ذُكرت شؤونه العظيمةُ خيرٌ أم الذي يشركونه من الأصنام؟! و«خير» أفعلُ تفضيل،

---

(١) الكشاف ٣/ ١٥٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٦، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٥، والبحر ٧/ ٨٨، والدر المصون ٨/ ٦٢٩، واللباب ٢/ ١٨٤، وما بين حاصرتين من هذه المصادر. قال ابن عطية: وكذلك في آخر السورة. يعني قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ﴾.

ومرجعُ الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته عزَّ وجلَّ، وتسفيهِ آرائهم الركيكةِ، والتهكُّمِ بهم؛ إذ من البيِّن أنْ ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبةُ خيرٍ حتى يمكن أن يوازَنَ بينه وبين مَن هو خيرٌ محضٌ.

وقيل: «خير» ليست للتفضيل، مثلُها في قولك: الصلاةُ خيرٌ، تعني خيراً من الخيور.

والمختارُ الأول، واستظهره أبو حيان، وقال: كثيراً ما يجيء هذا النوعُ من أفعل التفضيل حيث يُعلَمُ ويتحقَّق أنه لا شركةَ هناك، وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبيهه على الخطأ، ويقصد بالاستفهام في مثل ذلك إلزامُه الإقرارَ بحصر التفضيل في جانب واحدٍ وانتفائه عن الآخر.

واستظهر أيضاً كونَ المراد بالخيرية الخيريةَ في الذات، وقيل: الخيرية فيما يتعلَّق بها، وفي الكلام حذفٌ في موضعين، والتقدير: أعبادةُ الله تعالى خيرٌ أم عبادةُ ما يشركون؟! وقيل: «ما» مصدرية، والحذفُ في موضع واحد، والتقدير: أتوحيدُ الله خيرٌ أم إشراكُهم[1]؟! ولا داعي لجميع ذلك.

وأيًّا ما كان فضميرُ الغائب لقريشٍ ونحوِهم من المشركين. وقيل: لأولئك المهلَكين، وليس بشيءٍ.

وقرأ الأكثرون: «تشركون» بالتاء الفوقانية[2] على توجيه الخطاب لمن ذكرنا من الكفرة، وهو الأليق بما بعده من سياق النظم الكريم.

وجعلَ أبو البقاء هذه الجملةَ من جملة القول المأمور به[3]. وتعقِّب بأنه يأباه قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ إلخ فإنه صريحٌ في أنَّ التبكيت من قبله عزَّ وجل بالذات.

وحَمْلُه على أنه حكايةٌ منه عليه الصلاة والسلام لِمَا أمرَ به بعبارته[4] كما في

---

(١) البحر ٧/ ٨٨.

(٢) هي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وأبي جعفر. التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨.

(٣) الإملاء ٤/ ١٣٧.

(٤) في الأصل و(م): بعبادته، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٣، والكلام منه.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] = تعسُّفٌ ظاهرٌ من غير داعٍ إليه.

وفي بعض الآثار أنه ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «بل اللهُ خيرٌ وأبقى، وأَجَلُّ وأكرمُ»(١).

و«أم» في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ منقطعةٌ، لا متَّصلةٌ كالسابقة. و«بل» المقدَّرةُ على القراءة الأولى ـ وهي قراءة الحسن وقتادة وعاصم وأبي عمرو ـ للإضراب والانتقالِ من التبكيت تعريضاً إلى التصريح به خطاباً على وجهٍ أظهرَ منه لمزيد التأكيد والتشديد، وأما على القراءة الثانية فلتثنية التبكيت وتكريرِ الإلزام كنظائرها الآتية، والهمزةُ لحملهم على الإقرار بالحقِّ الذي لا محيصَ لمن له أدنى تمييزٍ عن الإقرار به.

و«مَن» مبتدأ، خبرُه محذوفٌ مع «أم» المعادِلةِ للهمزة؛ تعويلاً على ما سبق في الاستفهام الأول، خلا أنَّ «تشركون» المقدَّرِ ها هنا بتاء الخطاب على القراءتين معاً، وهكذا في المواضع الأربعة الآتية، والمعنى: أم مَن خَلَق قطري العلم الجسمانيِّ ومبدأي منافع ما بينهما.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ التفاتٌ إلى خطاب الكفرة على القراءة الأولى؛ لتشديد التبكيت والإلزام، واللامُ تعليليةٌ، أي: وأنزل لأَجْلكم ومنفعتكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: نوعاً منه وهو المطر ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ بمقتضَى الحكمة، لا أنَّ الإنبات موقوفٌ عليه عقلاً، وقيل: أي: أنبتنا عنده ﴿حَدَآئِقَ﴾ جمعُ حديقةٍ، وهي كما في «البحر»: البستانُ سواءٌ أحاط به جدارٌ أم لا(٢)، وهو ظاهرُ إطلاق تفسير ابن عباس، حيث فسَّر الحدائقَ لابن الأزرق بالبساتين(٣) ولم يقيِّد.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البيهقي في الشعب (٢٠٨٢) من طريق جابر الجعفي، عن أبي جعفر، عن أبيه علي بن الحسين مرفوعاً. وإسناده منقطع، وجابر الجعفي ضعيف عند الأكثرين، واتهمه بعضهم بالكذب. الميزان ١/ ٣٧٩-٣٨٠.

(٢) البحر ٧/ ٨١.

(٣) أخرجه الطستي كما في الدر المنثور ٥/ ١١٣.

وقال الزمخشريُّ: هي البستانُ عليه حائطٌ، من الإحداق وهو الإحاطةُ[1]. وهو مرويٌّ عن الضحاك.

وقال الراغب: هي قطعةٌ من الأرض ذاتُ ماءٍ، سمِّيت حديقةً تشبيهاً بحدقةِ العين في الهيئة وحصولِ الماء فيها[2].

ولعل الأظهر ما في «البحر»، وكأنَّ وجه تسمية البستان عليه حديقةً أنَّ من شأنها أن تُحدَقَ بالحيطان، أو تُصْرَفَ نحوها الأحداق وتَنْظُرَ إليها.

﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: ذاتَ حُسْنٍ ورونقٍ يبتهجُ به الناظر ويُسَرُّ ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ أي: ما صحَّ وما أمكن لكم ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ فضلاً عن خَلْقِ ثمرها وسائرِ صفاتها البديعة = خيرٌ[3] أم ما تشركون؟! وتقديرُ الخبر هكذا هو ما اختاره الزمخشريُّ[4] وتبعه غيره. وقال ابن عطية: يقدَّر الخبر: يُكْفَرُ بنعمته ويُشْرَكُ به، ونحو هذا في المعنى[5].

وقال أبو الفضل الرازي في كتاب «اللوامح»[6] له: ولا بدَّ من إضمارِ معادلٍ، وذلك المضمَرُ كالمنطوق لدلالة الفحوى عليه، والتقدير: أم مَن خلق السماوات والأرض كمن لم يخلق، وكذلك يقدَّر في أخواتها، وقد أظهر في غير هذا الموضع ما أضمر هنا، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] انتهى. ولعل الأَوْلَى ما اختاره جارُ الله، وكذا يقال فيما بعدُ.

وقرأ الأعمش: «أَمَنْ» بالتخفيف[7]، على أنَّ الهمزة للاستفهام، و«مَن» بدلٌ من الاسم الجليل. وتقديمُ صلتي الإنزال على مفعوله لِمَا مرَّ مراراً من التشويق إلى المؤخَّر، والالتفاتُ إلى التكلُّم بنون العظمة لتأكيد اختصاص الفعل - بحكم

(١) الكشاف ٣/ ١٥٥.
(٢) مفردات الراغب (حدق).
(٣) قوله: خير، هو خبر «مَن» في قوله: أم مَن خلق قطري العالم...
(٤) في الكشاف ٣/ ١٥٤.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٦.
(٦) كما في البحر ٧/ ٨٩، والكلام منه.
(٧) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٢، والبحر ٧/ ٨٩.

المقابلة - بذاته تعالى، والإيذانِ بأنَّ إنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع ما لَها من الحسن البارع والبهاء الرائع، بماءٍ واحد = أمرٌ عظيم لا يكادُ يقدِرُ عليه إلا هو وحده عزَّ وجلَّ، ورشّح ذلك بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ إلخ سواءٌ كان صفةً لـ «حدائق» أو حالاً أو استئنافاً، وتوحيدُ وَصْفِها السابق أعني: «ذات بهجة» لِمَا أنَّ المعنى: جماعة حدائق ذات بهجة، وهذا شائعٌ في جمع التكسير، كقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥] وكذا الحال في ضمير «شجرها».

وقرأ ابن أبي عبلة: «ذوات» بالجمع، «بَهَجَةٍ» بفتح الهاء[1].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أإلهٌ آخَرُ كائنٌ مع الله تعالى الذي ذُكر بعضُ أفعاله التي لا يكاد يقدِرُ عليها غيره حتى يتوهَّم جَعْلُه شريكاً له تعالى في العبادة، وهذا تبكيتٌ لهم بنفي الألوهية عمَّا يشركونه به عزَّ وجلَّ في ضمن النفي الكلِّيِّ على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفي الخيرية عنه بما ذكر من الترديد، فإنَّ أحداً ممن له أدنى تمييزٍ كما لا يقدر على إنكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدرُ على إنكار انتفاء الألوهية عنه رأساً، لا سيما بعد ملاحظة انتفاءِ أحكامها عما سواه عزَّ وجل، وكذا الحالُ في المواقع الأربعة الآتية.

وقيل: المراد نفيُ أن يكون معه تعالى إلهٌ آخَرُ في الخلق وما عُطِفَ عليه، لكنْ لا على أنَّ التبكيت بنفس ذلك النفي فقط، فإنهم لا ينكرونه حَسْبما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] بل بإشراكهم به تعالى ما يعترفون بعدم مشاركته له سبحانه فيما ذكر من لوازم الألوهية، كأنه قيل: أإلهٌ آخرُ مع الله في خواصِّ الألوهية حتى يُجعل شريكاً له تعالى في العبادة.

وقيل: المعنى: أغيرُه يُقْرَنُ به سبحانه ويُجعَلُ له شريكاً في العبادة مع تفرُّده جلَّ شأنه بالخلق والتكوين، فالإنكارُ للتوبيخ والتبكيت مع تحقُّق المنكر دون النفي كما في الوجهين السابقين.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٦، والبحر ٧/ ٨٩.

ورجّح [الأول][(١)] بأنه الأظهرُ الموافقُ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] والأوْفَى بحقِّ المقام؛ لإفادته نفيَ وجود إلهٍ آخَرَ معه تعالى رأساً، لا نَفْيَ معيَّته في الخلق وفروعه فقط.

وقرأ هشام عن ابن عامر: «أإله» بتوسيط مدة بين الهمزتين وإخراج الثانية بين بين[(٢)].

وقرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير: «أإلهاً» بالنصب[(٣)] على إضمار فعلٍ يناسب المقام، مثل: أتجعلون، أو: أتَدْعون، أو: أتُشْرِكون.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوءِ حالهم وحكايته لغيرهم، و«يعدلون» من العدول بمعنى الانحراف، أي: بل هم قوم عادتُهم العدولُ عن طريق الحقِّ بالكلية، والانحرافُ عن الاستقامة في كلِّ أمرٍ من الأمور، فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحقِّ الواضح الذي هو التوحيدُ، والعكوفِ على الباطل البيِّن الذي هو الإشراك.

وقيل: من العدل بمعنى المساواة، أي: يساوون به غيره تعالى من آلهتهم، ورُوي ذلك عن ابن زيد، والأولُ أنسبُ بما قبله. وقيل: الكلامُ عليه[(٤)] خالٍ عن الفائدة.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: جعلها بحيث يستقرُّ عليها الإنسان والدوابُّ بإبداء بعضها من الماء، ودَحْوِها وتسويتها حَسْبَما يدور عليه منافعُهم، فـ «قراراً» بمعنى مستقرًّا، لا بمعنى قارَّةً غيرَ مضطربةٍ كما زعم الطبرسيُّ[(٥)]، فإن الفائدة على ذلك أتم، والجعلُ إن كان تصييريًّا فالمنصوبان مفعولان، وإلَّا فالثاني حالٌ مقدَّرةٌ.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٤، والكلام منه.

(٢) المشهور عن هشام في هذا الموضع هو تحقيق الهمزتين مع إدخالِ ألف بينهما وعدمِه. التيسير ص٣٢، والنشر ١/ ٣٧٠.

(٣) القراءة في الكشاف ٣/ ١٥٥، والبحر ٧/ ٨٩ دون نسبة، والمشهور عمن ذكر الرفع، ولم يقرأ أحد من العشرة بالنصب.

(٤) أي: على الثاني. تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٤.

(٥) في مجمع البيان ٢٠/ ٢٣٩.

وجملة قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ﴾ إلخ ـ على ما قيل ـ بدلٌ من قوله سبحانه: (أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ) إلى آخر ما بعدها من الجمل الثلاث، وحكمُ الكلِّ واحدٌ.

وقال بعض الأجلَّة: الأظهر أنَّ كلَّ واحدةٍ منها إضرابٌ وانتقالٌ من التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجهٍ آخر داخلٍ في الإلزام بجهةٍ من الجهات، وإلى الإبدال ذهب صاحب «الكشاف»[1]، وسننقل إن شاء الله تعالى عن صاحب «الكشف»[2] ما فيه الكشفُ عن وجهه.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ أي: أَوْساطَها، جمع خَلَلٍ، وأصلُه: الفرجةُ بين الشيئين، فهو ظرفٌ حلَّ محلَّ الحال من قوله تعالى: ﴿أَنْهَٰرًا﴾ وساغ ذلك مع كونه نكرةً لتقدُّم الحال، أو المفعول الثاني لـ «جعل»، و«أنهاراً» هو المفعولُ الأول.

والمراد بالأنهار ما يجري فيها، لا المحلُّ الذي هو الشق، أي: جعل خلالها أنهاراً جاريةً تنتفعون بها.

﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي: لصلاح أمرها ﴿رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابتَ؛ فإنَّ لها مدخلاً عاديًّا اقتضته الحكمة في انكشاف المسكون منها وانحفاظها عن الميدِ بأهلها، وتكونُ المياه الممدَّةُ للأنهار المفضية لنضارتها في حضيضها، إلى غير ذلك.

وذكر بعضُهم في منفعة الجبال تكوُّنَ المعادن فيها، ونبع المنابع من حضيضها، ولم يتعرَّض لمنفعةِ مَنْعِها الأرضَ عن الحركة والميلان. وعلَّل تَرْكُ التعرُّضِ بأنه لو كان المقصود ذلك لذُكِرَ عقب جَعْلِ الأرض قراراً.

ومَن أَنْصَفَ رأى أنَّ مَنْعَ الجبالِ الأرضَ عن الحركة والميلانِ اللَّذيْن يُخرجان الأرض عن حيِّز الانتفاع، ويجعلان وجودها كعدمها، من أهم ما يُذكر هنا؛ لأنه مما به صلاحُ أمرها ورفعةُ شأنها. وذِكْرُ «لها» دون: فيها أو عليها، ظاهرٌ في أنَّ المراد ما هو من هذا القبيل من المنافع، فتأمَّل. وإرجاعُ ضمير «لها» للأنهار، ليكون المعنى: وجعل لإمدادها رواسيَ ينبعُ من حضيضها الماء فيمدُّها = لا يخفى ما فيه.

---

(١) ٣/ ١٥٥.

(٢) ص٣٢ من هذا الجزء.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: العذبِ والمِلْحِ؛ عن الضحاك. أو بَحْرَي فارس والروم، عن الحسن. أو بَحْرَي العراق والشام، عن السدي. أو بَحْرَي السماء والأرض، عن مجاهد. ﴿حَاجِزًا﴾ فاصلاً يمنع من الممازجة، وقد مرَّ الكلام في تحقيق ذلك فتذكَّر.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ في الوجود، أو في إبداع هذه البدائع على ما مرَّ.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: شيئاً من الأشياء عِلْماً معتدًّا به، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وهو الذي أحوجتْه شدَّةٌ من الشدائد وألجأته إلى اللَّجأ والضَّراعةِ إلى الله عزَّ وجلَّ، فهو اسمُ مفعولٍ من الاضطرار الذي هو افتعالٌ من الضرورة، ويرجع إلى هذا تفسيرُ ابن عباس له بالمجهود، وتفسير السديِّ بالذي لا حولَ ولا قوَّةَ له. وقيل: المراد بذلك المذنِبُ إذا استغفر.

واللامُ فيه على ما قيل: للجنس، لا للاستغراق حتى يلزمَ إجابةُ كلِّ مضطرٍّ، وكم من مضطرٍّ لا يجاب.

وجوِّز حَمْلُه على الاستغراق لكنَّ الإجابة مقيَّدةٌ بالمشيئة، كما وقع ذلك في قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، ومع هذا كره النبيُّ ﷺ أن يقول الشخص: اللهمَّ اغفر لي إن شئتَ، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنه سبحانه لا مُكْرِهَ له»(١). والمعتزلةُ يقيِّدونها بالعلم بالمصلحة؛ لإيجابهم رعايةَ المصالح عليه جلَّ وعلا.

وقال صاحب «الفرائد»: ما من مضطرٍّ دعا إلا أُجيب وأُعيد نفعُ دعائه إليه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، وذلك أنَّ الدعاء طلبُ شيءٍ، فإن لم يُعْطَ ذلك الشيءَ بعينه يُعْطَ ما هو أجلُّ منه، أو إن لم يُعْطَ هذا الوقتَ يُعْطَ بعده. اهـ. وظاهرُه حَمْلُه على الاستغراق من دون تقييدٍ للإجابة، ولا يخفَى أنه إذا فسِّرت الإجابةُ بإعطاء السائل ما سأله حَسْبَما سأل لا بقَطْعِ سؤاله، سواءٌ كان بالإعطاء المذكورِ أم بغيره = لم يستقم ما ذكره.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقال العلَّامة الطيبي: التعريفُ للعهد؛ لأن سياق الكلام في المشركين، يدلُّ عليه الخطاب بقوله تعالى: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ)، والمراد التنبيهُ على أنهم عند اضطرارهم في نوازل الدهر وخطوبِ الزمان كانوا يلجؤون إلى الله تعالى دون الشركاء والأصنام، ويدلُّ على التنبيه قولُه تعالى: (أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) قال صاحب «المفتاح»: كانوا إذا حَزَبَهم أمرٌ دعوا الله تعالى دون أصنامهم(١)، فالمعنى: إذا حزبكم أمرٌ أو قارعةٌ من قوارع الدهر إلى أن تصيروا آيسين من الحياة مَن يجيبكم إلى كشفها ويجعلُكم بعد ذلك تتصرَّفون في البلاد كالخلفاء «أإله مع الله»، فلا يكون المضطرُّ عامًّا ولا الدعاء فإنه مخصوصٌ بمثل قضية الفلك، وقد أجيبوا إليه في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ الآية [يونس: ٢٢] اهـ.

وأنت تعلم أنّه بعيدٌ غايةَ البعد، ولعل الأولى الحملُ على الجنس والتقييدُ بالمشيئة، وهو سبحانه لا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمةُ، والدعاء بشيءٍ من قبيل أحدِ الأسباب العادية له، فافهم.

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: يرفعُ عن الإنسان ما يعتريه من الأمر الذي يسوءُه، وقيل: الكشفُ أعمُّ من الدفع والرفع، وعطفُ هذه الجملة على ما قبلها من قَبيل عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ.

وقيل: المعنى: ويكشفُ سوءه، أي: المضطر، أو: يكشفُ عنه السوءَ، والعطفُ من قبيل عطف التفسير، فإنَّ إجابةَ المضطرِّ هي كشفُ السوء عنه الذي صار مضطرًّا بسببه. وهو كما ترى.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ﴾ أي: خلفاءَ مَن قبلكم من الأمم في الأرض، بأن ورَّثكم سُكناها والتصرُّفَ فيها بعدهم. وقيل: المراد بالخلافة الملكُ والتسلُّطُ.

وقرأ الحسن: «ونجعلكم» بنون العظمة(٢).

﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ الذي هذه شؤونُه ونعمُه تعالى ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي:

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص٢٧٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٧، والبحر ٧/ ٩٠.

تذكُّراً قليلاً ـ أو زماناً قليلاً ـ تتذكرون، فـ «قليلاً» نصبٌ على المصدرية أو على الظرفية؛ لأنه صفةُ مصدرٍ أو ظرفٍ مقدَّرٍ، و«ما» مزيدةٌ على التقديرين لتأكيد معنى القلَّة التي أريد بها العدمُ أو ما يجري مجراه في الحقارة وعدم الجدوى.

ومفعولُ «تذكَّرون» محذوفٌ للفاصلة؛ فقيل: التقدير: تذكَّرون نعمَه، وقيل: تذكَّرون مضمون ما ذكر من الكلام، وقيل: تذكَّرون ما مرَّ لكم من البلاء والسرور، ولعل الأَوْلَى نعمه المذكورة. وللإيذان بأنَّ المتذكَّر في غاية الوضوح بحيث لا يتوقَّف إلَّا على التوجُّه إليه كان التذييلُ بنفي التذكُّر.

وقرأ الحسن والأعمش وأبو عمرو: «يذَّكَّرون» بياء الغيبة[1]. وقرأ أبو حيوة: «تتذكَّرون» بتاءين[2].

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يرشدُكم في ظلمات الليالي في البرِّ والبحر بالنجوم ونحوها من العلامات، وإضافةُ الظلمات إلى البر والبحر للمُلابَسة وكونِها فيهما، وجوِّز أن يراد بالظلمات الطرقُ المشبهات[3] مجازاً، فإنها كالظلمات في إيجاب الحيرة.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ قد تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الجملة[4] ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ نفيٌ لأنْ يكون معه سبحانه إلهٌ آخرُ، وقوله تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ تقريرٌ وتحقيقٌ له. وإظهارُ الاسم الجليل في موضع الإضمار للإشعار بعلَّةِ الحكم، أي: تعالى وتنزَّه بذاته المنفردة بالألوهية، المستتبعةِ لجميع صفات الكمال ونعوتِ الجلال والجمال، والمقتضيةِ لكون جميع المخلوقات مقهورةً تحت قدرته «عما يشركون» أي: عن وجود ما يشركونه به سبحانه بعنوان كونه إلهاً وشريكاً له تعالى، أو تعالى الله عن شركةِ أو مقارَنةِ ما يشركونه به

---

(١) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨ عن أبي عمرو وهشام وروح، وذكرها عن الحسن والأعمش أبو حيان في البحر ٧/ ٩٠، وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف: «تَذَكَّرون»، والباقون: «تَذَّكَّرون».

(٢) البحر ٧/ ٩٠.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: المشتبهات، كما في تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٥٤، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٥.

(٤) في سورة الأعراف، الآية (٥٧).

سبحانه. ويجوز أن تكون «ما» مصدريةً، أي: تعالى الله عن إشراكهم. وقرئ: «عما تشركون» بتاء الخطاب[١].

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ أي: يُوْجِدُه مبتدئاً له ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يكرِّر إيجاده ويُرْجِعُه كما كان، وذلك بعد إهلاكه؛ ضرورةَ أنَّ الإعادة لا تُعقل إلا بعده، والظاهرُ أنَّ المراد بهذا ما يكون من الإعادة بالبعث بعد الموت، فـ «أل» في الخلق ليست للاستغراق؛ لأنَّ منه ما لا يعاد بالإجماع، ومنه ما في إعادته خلافٌ بين المسلمين، وتفصيلُه في محلِّه.

واستشكل الحملُ على الإعادة بالبعث بأنَّ الكلام مع المشركين وأكثرُهم منكرون لذلك، فكيف يحمل الكلامُ عليه، ويخاطبون به خطابَ المعترف؟

وأجيب بأنَّ تلك الإعادة لوضوح براهينها جُعلوا كأنهم معترفون بها، لتمكُّنهم من معرفتها، فلم يبق لهم عذرٌ في الإنكار. وقيل: إنَّ منهم مَن اعترف بها، والكلامُ بالنسبة إليه، وليس بذاك.

وأما تجويزُ كون «أل» للجنس، وأنَّ المراد بالبدء والإعادة ما يشاهَد في عالم الكون والفساد من إنشاء بعض الأشياء، وإهلاكِها ثم إنشاءِ أمثالها، وذلك مما لا ينكره المشركون المنكرون للإعادة بعد الموت = فليس بشيءٍ أصلاً كما لا يخفى.

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بأسبابٍ سماويةٍ وأرضيةٍ قد رتَّبها على ترتيبٍ بديعٍ تقتضيه الحكمةُ التي عليها بُني أمرُ التكوين ﴿أَإِلَٰهٌ﴾ آخَرُ موجودٌ ﴿مَّعَ اللَّهِ﴾ حتى يُجعل شريكاً له سبحانه في العبادة.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيتٍ، أي: هاتوا برهاناً عقليًّا أو نقليًّا يدلُّ على أنَّ معه عزَّ وجلَّ إلهاً.

وقيل: أي: هاتوا برهاناً على أنَّ غيره تعالى يقدِرُ على شيءٍ مما ذكر من أفعاله عزَّ وجلَّ.

---

(١) البحر ٧/ ٩٠.

وتعقِّب بأنَّ المشركين لا يدَّعون ذلك صريحاً، ولا يلتزمون كونَه من لوازم الألوهية وإن كان منها في الحقيقة، فمطالبتُهم بالبرهان عليه لا على صريحِ دعواهم مما لا وَجْهَ له.

وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكُّم بهم، لما فيها من إيهامِ أنَّ لهم برهاناً، وأنَّى لهم ذلك.

وقيل: إنَّ الإضافة لزيادة التبكيت، كأنه قيل: نحن نقنع منكم بما تَعدُّونه أنتم أيها الخصوم برهاناً يدلُّ على ذلك وإن لم نَعدَّه نحن ولا أحدٌ من ذوي العقول كذلك، ومع هذا أنتم عاجزون عن الإتيان به.

﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: في تلك الدعوى، واستدلَّ به على أنَّ الدعوى لا تُقبل ما لم تنوَّر بالبرهان.

هذا وفي «الكشف»: أنَّ مبنى هذه الآيات الترقِّي؛ لأنَّ الكلام في إثباتِ أنْ لا خيريةَ في الأصنام مع أنَّ كلَّ خيرٍ منه تبارك وتعالى، فأَجْملَ أولاً بذِكْرِ اسمه سبحانه الجامع في قوله تعالى: «أإله»، ثم أخذ في المفصَّل، فجعل خَلْقَ السماوات والأرض تمهيداً لإنزال الماء وإنباتِ الحدائق، لا بل للأخير، يدلُّ عليه الالتفاتُ هنالك والتأكيدُ بقوله تعالى: (مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا)، كأنه يذكر سبحانه ما فيها من المنافع الكثيرة لوناً وطعماً ورائحةً واسترواحَ ظلٍّ، ولمَّا أثبت أنه فِعْلُه الخاصُّ أنكر أن يكون له شريكٌ، وجَعَلَهم عادلين عن منهج الصواب، أو عادلين به سبحانه مَن لا يستحقُّ، والأول أظهر.

ثم ترقَّى منه إلى ما هو أكثرُ لهم خيراً وأظهرُ في نفعهم، مِن جَعْلِ الأرض قراراً وما عقبه، فذكَر جلَّ وعلا ما لا يتمُّ الإنباتُ المذكورُ إلَّا به، مع منافعَ يتصاغَرُ لديها منفعةُ الإنبات، وعقَّبه بجهلهم المطلَقِ المنتِجِ للعدول المذكور، وأسوأ منه وأسوأ.

ثم بالغ في الترقِّي، فذكر ما هو لصيقٌ بهم دون واسطةٍ من دفعٍ أو نفعٍ، فَخصَّ إجابتَهم عند الاضطرار، وعمَّ بكشف السوء والمضارِّ، هذا فيما يرجع إلى دفع المحذور، وإقامتَهم خلفاء في الأرض ينتفعون بها وبما فيها كما أحبُّوا، وهذا أتم

من الأوَّلَيْنِ وأعمُّ وأجلُّ موقعاً وأهمُّ، ولهذا فَصَلَ بعدم التذكُّر وبولغ فيه تلك المبالغات.

وأما ذِكْرُ الهداية في ظلمات البرِّ والبحر، وذِكْرُ إرسال الرياح المبشِّرة استطراداً لمناسبة حديثِ الرياح مع الهداية في البحر، فمِن متمِّمات الخلافة وإجابةِ المضطرِّ وكَشْفِ السوء، فافهم. ونبَّه على هذا بأنه فَصَلَ بقوله تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم ختم ذلك كلَّه بالإضراب عن هذا الأسلوب بتذكير نعمتي الإيجاد والإعادة، فكلُّ نعمةٍ دونهما؛ لتوقُّفِ النعم الدنيوية والأخروية عليها، وعقَّبه بإجمالٍ يتضمَّنُ جميع ما عدَّده أولاً وزيادةً، أعني: رِزْقَهم من السماء والأرض، وأدمج في تأخيره أنه دون النعمتين، ولهذا بكَّتهم بطلب البرهان فيما ليس، وسجَّل بكذبهم دلالةً على تعلُّقه بالكلِّ، وأنَّ هذه الخاتمةَ ختامُ مسكي، والمُعْرِضُ عن تشامِّ نفحاته مسكي، وعن هذا التقرير ظهر وجهُ الإبدال مكشوفَ النقاب، والحمدُ لله تعالى المنعِمِ الوهَّاب. اهـ.

وفي «غرة التنزيل» للراغب ما يؤيِّده، وقد لخَّصه الطيبيُّ في «شرح الكشاف»، والله تعالى أعلمُ بأسرار كتابه.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بعد ما تحقَّق تفرُّدهُ تعالى بالألوهية ببيانِ اختصاصه بالقدرة الكاملة التامة، والرحمةِ الشاملة العامَّة، عقَّب بذكر ما لا ينفكُّ عنه، وهو اختصاصُه تعالى بعلم الغيب، تكميلاً لِمَا قبله وتمهيداً لِمَا بعده من أمر البعث.

وفي «البحر» قيل: سأل الكفار عن وقت القيامة ـ التي وُعدوها ـ الرسولَ ﷺ، وألحُّوا عليه عليه الصلاة والسلام، فنزل قوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾ الآية[1]، فمناسبتُها على هذا لِمَا قبلها من قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أتمُّ مناسبة.

والظاهرُ المتبادر إلى الذهن أنَّ «مَن» فاعلُ «يعلم»، وهو موصولٌ أو موصوف، و«الغيب» مفعولُه، والاسمُ الجليل مرفوعٌ على البدلية من «مَن»، والاستثناءُ على

(١) البحر ٧/ ٩١.

ما قيل منقطعٌ تحقيقاً متَّصلٌ تأويلاً، على حدِّ ما في قول الراجز:

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ
إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ[١]

بناءً على إدخال اليعافير في الأنيس بضَرْبٍ من التأويل، فيفيد المبالغةَ في نفي علم الغيب عمَّن في السماوات والأرض بتعليق علمهم إياه بما هو بيِّنُ الاستحالة من كونه تعالى منهم، كأنه قيل: إن كان الله تعالى ممن فيهما ففيهم مَن يعلم الغيب، يعني أنَّ استحالةَ علمهم الغيبَ كاستحالة أن يكون الله تعالى منهم، ونظيرُ هذا مما لا استثناء فيه قوله:

تحيةُ بينهم ضربٌ وجيعُ[٢]

وقيل: هو منقطعٌ على حدِّ الاستثناء في قوله:

عشيةَ ما تُغني الرماحُ مكانَها ... ولا النَّبلُ إلَّا المَشْرَفيُّ المصمِّمُ[٣]

يعني أنه من إتْباع أحد المتباينَيْنِ الآخَرَ، نحو: ما أتاني زيدٌ إلا عمرو، وما أعانه إخوانُكم إلا إخوانُه، وقد ذكرهما سيبويه[٤]، وذكر ابنُ مالك أنَّ الأصل فيهما: ما أتاني أحدٌ إلَّا عمرو، وما أعانه أحدٌ إلا إخوانه، فجعل مكان أحد بعضَ مدلوله وهو زيدٌ وإخوانُكم، ولو لم يذكر الدخلاء فيمَن نفى عنه الإتيان والإعانة، ولكن ذكرا توكيداً لقسطهما من النفي دفعاً لتوهُّم المخاطَب أنَّ المتكلِّم لم يخطر له هذا الذي أكّد به، فذكر تأكيداً، وعليه يكون الأصل في الآية: لا يعلم أحدٌ الغيبَ إلا الله، فحذف «أحد» وجُعل مكانه بعضُ مدلوله، وهو «من في السماوات والأرض» والبعضُ الآخر مَن ليس فيهما، ويكفي في كونه مدلولاً له صدقُه عليه، ولا يجب في ذلك وجودُه في الخارج، فقد صرَّحوا أنَّ من الكلِّيِّ ما يمتنعُ وجود

---

(١) الرجز لجِران العَوْد النميري، وهو في ديوانه ص٩٧، والكتاب ٢/ ٣٢٢، وسلف ١٣/ ٢٦٣ و١٤/ ١٧٧.

(٢) وصدره: وخيل قد دلفت لها بخيلٍ، وسلف ٥/ ٦٤.

(٣) البيت لضرار بن الأزور، وهو في الكتاب ٢/ ٣٢٥، والكشاف ٣/ ١٥٦، وسلف ٦/ ٣٦٦.

(٤) في الكتاب ٢/ ٣٢٥.

بعض أفراده أو كلِّها في الخارج، على أنَّ من أجلَّة الإسلاميين مَن قال بوجود شيء غيرِ الله عزَّ وجلَّ، وليس في السماوات ولا في الأرض وهو الروحُ الأَمْرِيةُ؛ فإنها لا مكانَ لها عندهم، على نحو العقول المجرَّدة عند الفلاسفة.

وقال: إنَّ شرط الإتْباع في هذا النوع أن يستقيم حذفُ المستثنى منه، والاستغناء عنه بالمستثنى، فإن لم يوجد هذا الشرطُ تعيَّن النصبُ عند التميميِّ والحجازيِّ، كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] فإنَّ الاستغناء فيه بالمستثنى عما قبله ممتنعٌ إلا بتكلفٍ، وزعم المازنيُّ أنَّ إتباع المنقطع من تغليب العاقل على غيره، ويلزمُ عليه أن يختصَّ بأحد وشبهه[١]، وهو فاسدٌ ـ كما قال ابن خروف ـ لأنَّ ما يبدل منه في هذا الباب غير ما ذكر أكثرُ من أن يحصى. اهـ.

وكلام الزمخشريِّ[٢] يوهمُ صَدْرُه أنَّ الاستثناء هنا من قبيل الاستثناء في المثالين اللذين ذكرهما سيبويه، وفي البيت الذي ذكرناه قبيلهما، ويُفهِمُ عجزُه أنه من قبيل الاستثناء في الرجز السابق، وأنَّ الداعي إلى اختيار المذهب التميميِّ نكتةُ المبالغة التي سمعتَها، وقد صرَّحوا أنَّ إفادة تلك النكتة إنما تتأتَّى إذا جعل الاستثناء منقطعاً تحقيقاً متصلاً تأويلاً، ولعل الحقَّ أنه إذا أريد الدلالةُ على قوة النفي تعيَّن جَعْلُ الاستثناء نحوَ الاستثناء في قوله: وبلدة... إلخ، وإذا أريد الدلالةُ على عموم النفي تعيَّن جعلُه نحوَ الاستثناء في قولهم: ما أعانه إخوانكم إلا إخوانه، فتدبر.

وجوَّز كونُه متصلاً كما هو الأصلُ في الاستثناء، على أنَّ المراد بمن في السماوات والأرض مَن اطَّلع عليهما اطِّلاع الحاضر فيهما مجازاً مرسلاً أو استعارةً. وأيًّا ما كان فهو معنًى مجازيٌّ عامٌّ له تعالى شأنُه ولذوي العلم من خَلْقِه وهو المخلصُ من لزوم ارتكاب الجمع بين الحقيقة والمجاز المختلَفِ في صحته، كما فعله بعضُ القائلين بالاتصال.

---

(١) ينظر التسهيل ص١٠٢.

(٢) في الكشاف ٣/ ١٥٦.

وقيل: يعلَّق الجارُّ والمجرور على ذلك التقدير بنحوِ: يذكر، من الأفعال المنسوبة على الحقيقة إلى الله تعالى وإلى المخلوقين، لا بنحو: استقرَّ، مما لا يصحُّ نسبتُه إليه سبحانه على الحقيقة، أي: لا يعلم مَن يذكر في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله.

ويجوزُ تعليقُه بـ: استقرَّ أيضاً، إلا أنه يجعل مسنداً إلى مضافٍ حُذف وأقيم المضافُ إليه مقامه، أي: لا يعلم مَن استقرَّ ذِكْرُه في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله، فحذف الفعل والمضاف واستتر الضميرُ لكونه مرفوعاً. وهذا وما قبله كما ترى.

واعترض حديثُ الاتصال بأنه يلزم عليه التسويةُ بينه تعالى وبين غيره في إطلاق لفظٍ واحدٍ، وهو أمرٌ مذمومٌ، فقد أخرج مسلم وأبو داود والنسائيُّ عن عدي بن حاتم أنَّ رجلاً خطب عند رسول الله ﷺ فقال: ومَن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومَن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله ﷺ: «بئس خطيبُ القوم أنت، قل: ومَن يَعْصِ الله ورسوله»[1].

وأجيب بأنَّ ذلك مما يذمُّ إذا صدر من البشر، أمَّا إذا صدر منه تعالى فلا يذمُّ، على أنَّ كونه مما يذمُّ إذا صدر من البشر مطلقاً ممنوعٌ، فقد روى البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وَجَد بهنَّ طعم الإيمان: مَن كان الله تعالى ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما» الحديث[2]، ولعل مدار الذمِّ والمدح تَضمُّنُ ذلك نكتةً لطيفةً وعدمُ تضمُّنِه إياها، وقد قيل في حديث أنس: النكتة في تثنية الضمير الإيماءُ إلى أنَّ المعتبر هو المجموعُ المركَّب من المحبَّتين، والنكتةُ في إفراده في حديث عديٍّ الإشعارُ بأنَّ كلًّا من العصيانين مستقلٌّ باستلزام الغواية. وقد مرَّ الكلام في هذا المَبْحَثِ[3] فتذكَّر.

---

(١) صحيح مسلم (٨٧٠)، وسنن أبي داود (١٠٩٩)، وسنن النسائي (المجتبى) ٦/ ٩٠. وسلف عند تفسير الآية (٨٢) من سورة الكهف.

(٢) صحيح البخاري (١٦)، وصحيح مسلم (٤٣)، وسنن الترمذي (٢٦٢٤)، وسنن النسائي (المجتبى) ٨/ ٩٤، وهو عند أحمد (١٢٠٠٢). وسلف عند تفسير الآية (٨٢) من سورة الكهف.

(٣) عند تفسير الآية (٨٢) من سورة الكهف.

وجوِّز أن يُعرَبَ «مَن» مفعول «يعلم»، و«الغيب» بدل اشتمالٍ منه، والاسمُ الجليل فاعل «يعلم»، ويكون استثناءً مفرَّغاً، أي: لا يعلمُ غيبَ مَن في السماوات والأرض إلا الله، ولا يخفى بعدُه.

والغيبُ في الأصل مصدرُ غابت الشمس وغيرُها: إذا اسْتَتَرتْ عن العين. واستُعمل في الشيء الغائب الذي لم تُنصَبْ له قرينةٌ، وكونُ ذلك غيباً باعتباره بالناس ونحوِهم لا بالله عزَّ وجل، فإنه سبحانه لا يغيب عنه تعالى شيءٌ، لكن لا يجوز أن يقال: إنه جلَّ وعلا لا يعلمُ الغيب، قصداً إلى أنه لا غيبَ بالنسبة إليه ليقال يعلمه، وقد شنَّع الشيخ أحمد الفاروقيُّ السرهنديُّ المشهورُ بالإمام الرَّبانيِّ في «مكتوباته» على مَن قال ذلك قاصداً ما ذكر أتمَّ تشنيعٍ[1]، كما هو عادتُه، جزاه الله تعالى خيراً فيمَن لم يتأدَّبْ بآداب الشريعة الغرَّاء.

والظاهر عموم «الغيب»، وقيل: المراد به الساعة. وقيل: ما يُضْمِره أهل السماوات والأرض في قلوبهم.

وقيل: المراد جنسُ الغيب، ويلزمُ من نفي عِلْم جنسه عن غيره عزَّ وجلَّ نفيُ عِلْم كلِّ فردٍ من أفراده عن ذلك الغير. ولا يضرُّ في ذلك أنَّ الآية لا تدلُّ حينئذٍ على ثبوت علم كلِّ غيبٍ له عزَّ وجَلَّ، بل قصارى ما تدلُّ عليه ثبوتُ علم جنس الغيب له سبحانه؛ لأنه المنفيُّ صريحاً عن المستثنى منه، ولا يلزم من ثبوت علم هذا الجنس ثبوتُ علم كلِّ فردٍ من أفراده = لأنها لم تُسَقْ للاستدلال بها على ذلك، وكم وكم من دليل عقليٍّ ونقليٍّ يدلُّ عليه.

وتعقِّب بأنَّ الغيب من حيث إنه غيبٌ لا يتفاوتُ، فمتى ثبت العلم ببعض أفراده ثبت العلم بجميعها دفعاً للزوم الترجيح بلا مرجِّحٍ. فتأمل.

واختار بعضهم الاستغراق، أي: لا يعلم مَن في السماوات والأرض كلَّ غيبٍ إلَّا الله فإنه سبحانه يعلم كلَّ غيبٍ؛ لأنه الأوفق بالمقام.

واعترض بأنه يلزم أن يكون من أهل السماوات والأرض مَن يعلم بعض

---

(١) مكتوبات الإمام الرباني للشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ١/١٠٦-١٠٧، المكتوب رقم (١٠٠).

الغيوب، وظاهرُ كلام كثيرٍ من الأجلَّة يأبى ذلك، ويؤيِّده ما أخرجه الشيخان والترمذيُّ والنسائيُّ وأحمدُ وجماعةٌ من المحدِّثين من حديث مسروقٍ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: مَن زعمَ أنَّ محمداً ﷺ يخبر الناس بما يكون في غدٍ - وفي بعض الروايات: يعلم ما في غدٍ - فقد أَعْظَمَ على الله تعالى الفريةَ، واللهُ تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(١).

وجوَّز بعضهم أن يكون منهم مَن يعلمُ بعضَ الغيوب، ففي «بيانِ قواطع الإسلام» تأليف العلَّامة ابن حجر بعد الردِّ على مَن أَكْفَرَ مَن قيل له: أتعلم الغيب؟ فقال: نعم. لأنَّ فيما قاله تكذيبُ النصِّ، وهو قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩] وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧] ما نصُّه: وعلى كلٍّ فالخواصُّ يجوز أن يعلموا الغيبَ في قضية أو قضايا كما وقع لكثيرٍ منهم واشْتَهر، والذي اخْتَصَّ به تعالى إنما هو علمُ الجميع وعلمُ مفاتح الغيب المشارِ إليها بقوله تعالى: (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ) الآية، وينتجُ من هذا التقرير أنَّ مَن ادَّعى علم الغيب في قضيةٍ أو قضايا لا يكفَّر، وهو محملُ ما في «الروضة»، ومَن ادَّعى علمه في سائر القضايا يكفَّر، وهو محملُ ما في أصلها، إلَّا أن عبارته لمَّا كانت مطلقةً تشمل هذا وغيره ساغ للنوويِّ الاعتراضُ عليه، فإن أَطْلَقَ فلم يُرِدْ شيئاً فالأوجهُ ما اقتضاه كلام النوويِّ من عدم الكفر(٢). انتهى.

ولعل الحقَّ أن يقال: إنَّ علم الغيب المنفيَّ عن غيره جلَّ وعلا هو ما كان للشخص لذاته، أي: بلا واسطةٍ في ثبوته له، وهذا ممَّا لا يُعقَلُ لأحدٍ من أهل السماوات والأرض لمكانِ الإمكان فيهم ذاتاً وصفةً، وهو يأبى ثبوتَ شيءٍ لهم بلا واسطة، ولعل في التعبير عن المستثنى منه بـ «مَن في السماوات والأرض» إشارةٌ إلى علَّةِ الحكم، وما وقع للخواصِّ ليس من هذا العلم المنفيِّ في شيءٍ، ضرورةَ

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٥)، وصحيح مسلم (١٧٧)، وسنن الترمذي (٣٠٦٨)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٤٤)، ومسند أحمد (٢٤٢٢٧)، وجاء عند أحمد والبخاري ذكر الآية الأخيرة من سورة لقمان بدل قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

(٢) الإعلام بقواطع الإسلام على هامش الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/ ٧٢-٧٣.

أنه من الواجب عزَّ وجلَّ أفاضه عليهم بوجهٍ من وجوه الإفاضة، فلا يقال: إنهم علموا الغيب بذلك المعنى، ومَن قاله كَفَر قطعاً. وإنما يقال: إنهم أُظْهِروا أو أُطْلِعوا ـ بالبناء للمفعول ـ على الغيب، أو نحو ذلك مما يُفْهِمُ الواسطة في ثبوت العلم لهم، ويؤيِّد ما ذكر أنه لم يَجِئ في القرآن الكريم نسبةُ علم الغيب إلى غيره تعالى أصلاً، وجاء الإظهار على الغيب لمن ارتضى سبحانه من رسولٍ.

لا يقال: يجوزُ على هذا أن يقال: أُعلم فلانٌ الغيب ـ بالبناء للمفعول أيضاً ـ على معنى أنَّ الله تعالى أعلمه وعرَّفه ذلك بطريقٍ من طرق الإعلام والتعريف، ومتى جاز هذا جاز أن يقال: عَلِمَ فلانٌ الغيبَ، بقَصْدِ نسبةِ علمه الحاصلِ من إعلامه إليه = لأنَّا نقول: لا كلامَ في جواز «أُعلم» بالبناء للمفعول، وإنما الكلامُ في قولك: ومتى جاز هذا جاز أن يقال.. إلخ، فنقول: إنْ أريد بالجواز في تالي الشرطية الجوازُ معنًى ـ أي: الصحةُ من حيث المعنى ـ فمسلَّمٌ، لكن ليس كلُّ ما جاز معنًى بهذا المعنى جاز شرعاً استعمالُه، وإن أريد الجواز شرعاً بمعنى عدم المنع من استعماله فهو ممنوعٌ، لِمَا فيه من الإيهام والمُصادمةِ لظواهر الآيات كآية: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ وغيرها؛ وقد سمعتَ عن الإمام الربانيِّ قدِّس سرُّه النورانيُّ أنه حطَّ كلَّ الحطِّ على مَن قال: اللهُ سبحانه لا يعلم الغيب، متأوِّلاً له بما تقدَّم؛ لما فيه من المصادمة للنصوص القرآنية وغيرها، وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه، وقد شنَّعوا أيضاً على مَن قال: أَكْرهُ الحقَّ وأُحِبُّ الفتنةَ وأفرُّ من الرحمة. مريداً بالحق الموتَ، وبالفتنة المال أو الولد، وبالرحمة المطر؛ لما في ظاهره من الشناعة والبشاعة ما لا يخفى. نعم لا يكفَّر قائلُ ذلك بذلك القصد، ويلزمُه التعزيرُ كيلا يعود إلى قوله.

ثم إنَّ عِلْمَ غيرِ الغيب من المحسوسات والمعقولات وإنْ كان لا يَثْبُتُ لشيءٍ من الممكنات بلا واسطةٍ في الثبوت أيضاً، إلا أنه في نسبته لشيءٍ منها لم يُعتَبر إلَّا اتِّصافه به غيرَ مقيَّدٍ بنفي تلك الواسطة؛ لِمَا أنه يَرِدْ حَصْرُ ذلك العلم به عزَّ وجل ونفيُه عمن سواه جلَّ وعلا، بل صرَّح في مواضعَ أكثرَ من أنْ تُحصى بنسبته إلى غيره سبحانه، ولو ورد فيه ما ورد في علم الغيب لالْتُزِمَ فيه ما الْتُزِمَ فيه.

وعلى ما تقرَّر لا يكونُ علمُ العقول بما لم يكن بعدُ من الحوادث على ما يزعمه الفلاسفةُ من علم الغيب، بل هو لو سلِّم علمٌ حصل لهم من الفيَّاض المطلَق جلَّ شأنُه بطريقٍ من الطرق التي تقتضيها الحكمةُ، فلا ينبغي أن يقال فيهم: إنهم عالمون بالغيب، وقائله إمَّا كافرٌ أو مسلم آثمٌ.

وكذا يقال في علم بعض المرتاضين من المسلمين الصوفية والكفرةِ الجوكيةِ[1]، فإنَّ كلَّ ما يحصل لهم من ذلك فإنما هو بطريق الفيض، ومراتبُه وأحوالُه لا تحصى، والتأهُّل له قد يكون فطريًّا، وقد يكون كَسْبِيًّا، وطرق اكتسابه متشعِّبةٌ لا تكاد تُسْتَقْصَى، وإفاضةُ ذلك على كفرةِ المرتاضين وإن أَشْبَهتْ إفاضتَه على المؤمنين المتَّقين، إلَّا أنَّ بين الأمرين فَرْقاً عظيماً عند المحققين. وقد ذكر بعضُ المتصوِّفة أنه ما من حقٍّ إلا وقد جُعل له باطلٌ يُشْبِهُه؛ لأنَّ الدار دارُ فتنةٍ، وأكثر ما فيها محنةٌ.

ويلحقُ بعلم المرتاضين من الجوكية علمُ بعض المتصوِّفة المنسوبين إلى الإسلام، المهمِلينَ أكثر أحكامه الواجبةِ عليهم، المنهمكين في ارتكاب المحظورات في نهارهم وليلهم، فلا ينبغي اعتقادُ أنَّ ذلك كرامةٌ بل هو نقمةٌ مفضيةٌ إلى حسرةٍ وندامةٍ.

وأمَّا علم النجوميِّ بالحوادث الكونية حسبما يزعمه فليس من هذا القبيل؛ لأنَّ تلك الحوادثَ التي يُخبِرُ بها ليست من الغيب بالمعنى الذي ذكرناه؛ إذ هي وإن كانت غائبةً عنَّا إلا أنها ـ على زَعْمِه ـ مما نصبَ لها قرينة من الأوضاع الفلكية والنسب النجومية، من الاقتران والتثليث والتسديس والمقابلة ونحو ذلك، وعلمُه بدلالة القرائن التي يزعمها ناشئٌ من التجربة، وما تقتضيه طبائعُ النجوم والبروج التي دلَّ عليها بزَعْمِه اختلافُ الآثار في عالم الكون والفساد، فلا أرى العلمَ بها إلا كعِلْم الطبيب الحاذقِ إذا رأى صفراويًّا مثلاً عَلِمَ رتبةَ مزاجه وحقَّقها يأكل مقداراً معيَّناً من العسل أنه يعتريه بعد ساعة أو ساعتين كذا وكذا من الألم، وإطلاقُ علم الغيب على ذلك فيه ما فيه. وإن أبيتَ إلَّا تسميةَ ذلك غيباً فالعلمُ به لكونه بواسطة الأسباب لا يكون من علم الغيب المنفيِّ عن غيره تعالى في شيءٍ، وكذا

(١) طائفة من البراهمة يقولون بتناسخ الأرواح. تاج العروس (جوك).

كلُّ علم بخفيٍّ حصل بواسطة سببٍ من الأسباب، كعلمنا بالله تعالى وصفاته العلية، وعلمنا بالجنة والنار ونحو ذلك.

على أنك إذا أنصفتَ تعلمُ أنَّ ما عند النجوميِّ ونحوِه ليس علماً حقيقيًّا، وإنما هو ظنٌّ وتخمينٌ مبنيٌّ على ما هو أَوْهَنُ من بيت العنكبوت كما سنحقِّقُ ذلك بما لا مزيدَ عليه في محلِّه اللائقِ به إن شاء الله تعالى(١). وأقوى ما عنده معرفةُ زَمَني الكسوفِ والخسوفِ وأزمنةِ تحقُّق النسب المخصوصة بين الكواكب، وهي ناشئةٌ من معرفة مقادير الحركات للكواكب والأفلاك الكلِّية والجزئية، وهي أمورٌ محسوسةٌ تُدْرَكُ بالأرصاد والآلات المعمولة لذلك.

وبالجملة: علمُ الغيب بلا واسطةٍ كلًّا أو بعضاً مخصوصٌ بالله جلَّ وعلا، لا يعلمه أحدٌ من الخلق أصلاً، ومتى اعتُبر فيه نفيُ الواسطة بالكلِّية تعيَّن أن يكون من مقتضيات الذات، فلا يتحقَّق فيه تفاوتٌ بين غيبٍ وغيبٍ، فلا بأس بحمل «أل» في الغيب على الجنس، ومتى حُملت على الاستغراق فاللائقُ أن لا يعتبر في الآية سلبُ العموم، بل يعتبر عمومُ السلب، ويلتزمُ أنَّ القاعدة أغلبيةٌ. وكذا يقال في السلب والعموم في جانب الفاعل، فتأمل فهذا ما عندي، ولعل ما عندك خيرٌ منه، والله تعالى أعلم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥﴾ أي: متى يُنْشَرون من القبور مع كونه مما لا بدَّ لهم منه، ومن أهم الأمور عندهم، فـ«أيان» اسمُ استفهام عن الزمان، ولذا قيل: إنَّ أصلها أيّ آنٍ، أي: أيّ زمانٍ، وإن كان المعروفُ خلافَه، وهي معمولة لـ«يبعثون» والجملةُ في موضع النصب بـ«يشعرون»، وعلِّقت «يشعرون» لمكان الاستفهام.

وضميرُ الجمع للكفرة وإن كان عدمُ الشعور بما ذُكر عامًّا؛ لئلا يلزم التفكيكُ بينه وبين ما يذكر بعدُ من الضمائر الخاصة بهم قطعاً. وقيل: الكلُّ لـ«مَن» وإسنادُ خواصِّ الكفرة إلى الجميع من قبيل: بنو فلانٍ فعلوا كذا، والفاعلُ بعضٌ منهم، وفيه بحث.

وقرأ السلميُّ: «إيان» بكسر الهمزة(٢)، وهي لغة بني سليم.

---

(١) ينظر ما سيأتي ٢٣/ ٩٠-٩١.

(٢) المحتسب ٢/ ١٤٢، والبحر ٧/ ٩٢.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ إضرابٌ عمَّا تقدَّم على وجهٍ يفيدُ تأكيدَه وتقريرَه، وأصل «ادَّارَكَ»: تَدَارَكَ، فأُدغمت التاء في الدال فسكنتْ، فاجتُلبت همزةُ الوصل. وهو من تَدَارَكَ بنو فلان: إذا تتابعوا في الهلاك، وهو مرادُ مَن فسَّر التدارُكَ هنا بالاضمحلال والفناء، وإلا فأصلُ التدارُك التتابُعُ والتلاحُقُ مطلقاً. و«في الآخرة» متعلِّقٌ بـ «علمهم»، والعلمُ يتعدَّى بـ «في» كما يتعدَّى بالباء، وهي حينئذٍ بمعنى الباء كما نصَّ عليه الفرَّاء وابنُ عطية[1] وغيرُهما. والمعنى: بل تَتَابعَ علمُهم في شأن الآخرة التي ما ذُكر من البعث حالٌ من أحوالها حتى انقطع وفني ولم يبقَ لهم علمٌ بشيءٍ مما سيكون فيها قطعاً مع توفُّر أسبابه، فهو ترقٍّ عن وصفهم بجهلٍ فاحشٍ إلى وصفهم بجهل أفحشَ.

وليس تدارُكُ علمِهم بذلك على معنى أنه كان لهم علمٌ به على الحقيقة فانتفى شيئاً فشيئاً، بل على طريقة المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية والسمعية منزلةَ نَفْسِه، وإجراءِ تساقُطها عن درجة اعتبارهم كلما لاحظوها مجرى تتابُعها إلى الانقطاع.

وجوِّز أن يكون الكلام على تقديرِ مضافٍ، أي: ادَّارك أسبابُ علمهم، والتدارُكُ مجازٌ عما ذكر من التساقُط.

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ عن عدم علمهم بها إلى ما هو أفحشُ منه على نحو ما مرَّ، وهو حيرتُهم في ذلك، أي: بل هم في شكٍّ عظيم من نفس الآخرة وتحقُّقها كمن تحيَّر في أمر لا يجد عليه دليلاً، فضلاً عن الأمور التي ستقع فيها.

وقوله سبحانه: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾ إضرابٌ وانتقال عن وصفهم بكونهم شاكِّين إلى وَصْفِهم بما هو أفظعُ منه، وهو كونُهم عُمياً قد اختلَّتْ بصائرهم بالكلِّية بحيث لا يكادون يدركون طريقَ العلم بها، وهو الدلائلُ الدالَّةُ على أنها كائنةٌ لا محالةَ. فالمراد: عَمُونَ عن دلائلها، أو: عمون عن كلِّ ما يوصلهم إلى الحقِّ ويدخل فيه دلائلها دخولاً أوَّليًّا. و«منها» متعلِّقٌ بـ «عمون» قدِّم عليه رعايةً

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٨.

للفواصل، ولعل تَعْدِيتَه بـ «من» دون «عن» لجَعْلِ الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه، والكفرُ بالعاقبة والجزاء يدعُ الشخصَ عاكفاً على تحصيل مصالح بطنه وفرجه لا يتدبَّر ولا يتبصَّر فيما عدا ذلك.

وجوَّز أن يكون «ادَّارك» بمعنى استَحْكَم وتكامَلَ، ووصفُهم باستحكام علمهم بذلك وتكامُله من باب التهكُّم بهم، كما تقول لأَجْهَلِ الناس: ما أعلمك! على سبيل الهزء، ومآلُ التهكُّم المذكور نفيُ علمهم بذلك، كما في الوجه السابق، لكنْ على الوجهِ الأبلغ. والإضرابان من باب الترقِّي من الوصف بالفظيع إلى الوصف بالأفظع نحو ما تقدم، وهو وجهٌ حسنٌ، ويشعرُ كلامُ بعض المحققين بترجيحه على ما ذكرنا أولاً.

وجوَّز أيضاً أن يكون المراد بالادِّراك: الاستحكامَ، لكن على معنى: استَحْكَم أسبابُ علمهم بأنَّ القيامة كائنةٌ لا محالةَ من الآيات القاطعة والحجج الساطعة، وتمكَّنوا من المعرفة فَضْلَ تمكُّنٍ وهم جاهلون في ذلك. وفيه أنَّ دلالة النظم الكريم على إرادةِ: وهم جاهلون، ليست بواضحةٍ.

وقال الكرمانيُّ[1]: التدارُكُ: التتابع، والمراد بالعلم هنا الحُكْمُ والقولُ، والمعنى: بل تتابع منهم القولُ والحكْمُ في الآخرة وكثر منهم الخوضُ فيها؛ فنفاها بعضُهم، وشك فيها بعضُهم، واستبعدها بعضُهم. وفيه ما فيه.

وقيل: إنَّ «في الآخرة» متعلِّقٌ بـ «ادَّارك»، وإليه ذهب الزجَّاج والطبرسيُّ[2]، واقتضته بعضُ الآثار المروية عن ابن عباس رضي الله عنهما، والمعنى على هذا عند بعضهم: بل استَحْكم في الآخرة علمُهم بما جهلوه في الدنيا، حيث رأوا ذلك عياناً، وكان الظاهرُ: يدَّارَكُ، بصيغة الاستقبال إلَّا أنه عبَّر بصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع.

وقيل: التدارُكُ عليه من تَدَارَكْتُ أمرَ فلانٍ: إذا تلافيته، ومفعولُه هنا محذوفٌ، أي: بل تَدَارَكَ في الآخرة عِلمُهم ما جهلوه في الدنيا، أي: تلافاه، وحاصلُ

---

(١) كما في البحر ٧/ ٩٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٢٧، ومجمع البيان ٢٠/ ٢٤٤-٢٤٥.

المعنى: بل علموا ذلك في الآخرة حين لم ينفعهم العلم، والتعبيرُ بصيغة الماضي على ما علمتَ.

ولا يخفَى أنَّ في وجه ترتيب الإضرابات الثلاث حَسبَ ما في النظم الكريم على هذين الوجهين خفاءً، فتدبَّر.

وقرأ أبيٌّ: «أم تَدَارك» على الأصل، وجعل «أم» بدل «بل»(١).

وقرأ سليمان بن يسار: «بلَ ادَّرَكَ» بنقل حركة الهمزة إلى اللام وشدِّ الدال بناء على وزنه افتعل، فأدغم الدال وهي فاءُ الكلمة في التاء بعد قَلْبِها دالاً فصار فيه قلبُ الثاني للأول، كما في قولهم: اثَّرَدَ، وأصله: اثْتَرَدَ من الثَّرْد، والهمزةُ المحذوفةُ المنقولُ حركتُها إلى اللام هي همزةُ الاستفهام أُدخلت على ألف الوصل فانحذفت ألفُ الوصل، ثم انحذفت هي وأُلْقِيتْ حركتُها على لام «بل»(٢).

وقرأ أبو رجاء والأعرجُ وشيبةُ وطلحةُ وتوبةُ العنبريُّ كذلك، إلا أنهم كسروا لام «بل»، ورُوي ذلك عن ابن عياش(٣) وعاصمٍ والأعمش.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأهل مكة: «بل أَدْرَكَ»(٤) على وزن أَفْعَلَ بمعنى تَفَاعَلَ، ورويت عن أبي بكر عن عاصم(٥).

وقرأ عبد الله في رواية، وابن عباس في رواية أبي حيوة وغيرِه عنه، والحسن

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٩٢، والكلام منه.

(٢) البحر ٧/ ٩٢، وتعقبه السمين في الدر ٨/ ٦٣٥ بأن هذا ليس مما قلب فيه الثاني للأول، بل لكون الدال فاء، وتاء الافتعال تبدل دالاً بعد أحرفٍ منها الدال. اهـ. والقراءة ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ١٤٢.

(٣) كتب فوقها في الأصل: صح، وجاء بدلاً منها في البحر (والكلام منه): عباس، ومثله في الدر المصون ٨/ ٦٣٦، وذكر القراءة ابن جني في المحتسب ٢/ ١٤٢ عن الحسن، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٠ عن الحسن والأعرج.

(٤) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٢٣٩، وهي قراءة يعقوب أيضاً، وقرأ باقي العشرة: «ادَّارك» وما عدا هاتين القراءتين كله في الشاذ.

(٥) البحر ٧/ ٩٢، والمشهور عن عاصم: «ادَّارك» كما أسلفنا.

وقتادة وابن محيصن: «بل آدْرَكَ» بمدَّة بعد همزة الاستفهام[(١)]، وأصله أأدْرَكَ فقُلبت الثانية ألفاً تخفيفاً كراهةَ الجمع بين همزتين.

وأنكر أبو عمرو بن العلاء[(٢)] هذه الرواية. وقال أبو حاتم: لا يجوزُ الاستفهامُ بعد «بل» لأنَّ «بل» للإيجاب، والاستفهامُ في هذا الموضع إنكارٌ بمعنى: لم يكن، كما في قوله تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ [الزخرف:١٩] أي: لم يشهدوا خَلْقَهم، فلا يصحُّ وقوعُهما معاً للتنافي الذي بين الإيجاب والإنكار[(٣)]. اهـ.

وقد أجاز بعض المتأخِّرين - كما قال أبو حيان - الاستفهامَ بعد «بل» وشِبْهِه بقول القائل: أخبزاً أكلتَ، بل أماءً شربتَ، على تَرْكِ الكلام الأول والأَخْذِ في الثاني[(٤)].

وقرأ مجاهد: «أم أدرك»، جَعَلَ «أم» بدل «بل»، و«أدرك» على وزن أفعل[(٥)].

وقرأ ابن عباس في روايةٍ أيضاً: «بلِ ادَّارك» بهمزةٍ داخلةٍ على «ادَّارَكَ»، فتسقط همزةُ الوصلِ المجتلَبَةُ لأجْلِ الإدغام والنطق بالساكن[(٦)].

وقرأ ابن مسعود أيضاً: «بل أأدْرَكَ» بهمزتين[(٧)]، همزةِ الاستفهام وهمزة أَفْعَلَ.

وقرأ الحسن أيضاً والأعرج: «بل أدَّرك» بهمزةٍ، وإدغام فاء الكلمة وهي الدال في تاء[(٨)] افتعل بعد صيرورة التاء دالاً.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٢، والبحر ٧/ ٩٢، والكلام منه.

(٢) في الأصل: أبو بكر بن العلاء، وفي(م): أبو بكر بن أبي العلاء، والمثبت من البحر، وهو الصواب.

(٣) البحر ٧/ ٩٢، والدر المصون ٨/ ٦٣٦. قال السمين: وفي منع هذا نظر؛ لأن «بل» لإضراب الانتقال، فقد أضرب عن الكلام الأول وأخذ في استفهام ثانٍ، وكيف ينكر هذا والنحويون يقدرون «أم» المنقطعة بـ «بل» والهمزة. وينظر التعليق الذي بعده.

(٤) البحر ٧/ ٩٢. وقال السمين في الدر ٨/ ٦٣٦: وعجبت من الشيخ كيف قال هذا، فتخصيصه ببعض المتأخرين يؤذن أن المتقدمين وبعض المتأخرين يمنعه، وليس كذلك كما حكيتُ عنهم في «أم» المنقطعة.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٩٢.

(٦) البحر ٧/ ٩٢.

(٧) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٩٢.

(٨) في الأصل و(م): فاء، والمثبت من البحر ٧/ ٩٢، وهو الصواب.

وقرأ ورشٌ في روايةٍ: «بلَ ادْرَكَ» بحذف همزة «أَدْرَكَ»، ونقلِ حركتها إلى اللام(١).

وقرأ ابن عباس أيضاً: «بلى أدرك» بحرف الإيجاب الذي يُوجب به المستفهم المنفي(٢).

وقرئ(٣): «بل آأدرك»(٤) بألف بين همزتين.

فهذه عدَّةُ قراءاتٍ، فما فيه منها استفهامٌ صريحٌ أو مضمَّنٌ فهو إنكارٌ ونفيٌ، وما فيه «بلى» فقد قال فيه أبو حاتم: إن كان «بلى» جواباً لكلامٍ تقدَّم جاز أن يستأنف بعده، كأنَّ قوماً أنكروا ما تقدَّم من القدرة فقيل لهم: بلى، إيجاباً لِمَا نَفَوْا، ثم استؤنف بعده الاستفهام وعودل بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ بمعنى: أم هم في شكٍّ منها؛ لأنَّ حروف العطف قد تتناوب، وكفَّ عن الجملتين بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾. اهـ، يعني أنَّ المعنى: أدَّرك علمهم بالآخرة أم شكُّوا؟ فـ«بل» بمعنى: «أم» عودل بها الهمزة. وتعقَّبه في «البحر»(٥) بأنَّ جَعْلَ «بل» بمعنى «أم» ومعادلتها لهمزة الاستفهام ضعيفٌ جدًّا.

وقال بعض المحقِّقين: ما فيه «بلى» فإثباتٌ لشعورهم وتفسيرٌ له بالإدراك على وجه التهكُّم الذي هو أبلغُ وجوه النفي والإنكار، وما بعده من قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إلخ إضرابٌ عن التفسير مبالغةً في النفي ودلالةً على أنَّ شعورهم بها أنهم شاكُّون فيها بل أنهم منها عمون، فهو على منوال:

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٩٢.

(٢) البحر ٧/ ٩٢، وقد اختلفت المصادر فيما بعد «بلى»؛ ففي الكشاف ٣/ ١٥٦: «بلى أَدْرك» و«بلى أأدْرَك». ونصَّ القرطبي على أنها: «أدَّارك» بهمزة قطع، والدالُ مشدَّدة وألفٌ بعدها. وكذا أخرجها الطبري ١٨/ ١٠٧ عن ابن عباس، وفي الدر المصون ٦/ ٦٣٧: «بلى آأدرك» بألف بين الهمزتين.

(٣) في (م): وقرأ، والمثبت من الأصل والبحر.

(٤) وقعت في الأصل و(م) بألف بعد الدال، والمثبت من الكشاف ٣/ ١٥٦، والبحر ٧/ ٩٢، والكلام منه.

(٥) ٧/ ٩٣، وما قبله منه.

تــحــيــةُ بــيــنــهــم ضَــرْبٌ وجــيــع[(١)]

أو ردٌّ وإنكارٌ لشعورهم على أنَّ الإضراب إبطاليٌّ، فافهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾ كالبيان لجهلهم بالآخرة وعَمَاهُم منها، ووضع الموصول موضع ضميرِهم لذمِّهم بما في حيِّز صلته، والإشعار بعلَّة حكمهم الباطل الذي تضمَّنه مقولُ القول.

و«إذا» ظرفٌ لمحذوفٍ دلَّ عليه «مخرجون»، أي: أَنُخْرَجُ إذا كنَّا تراباً. ولا مساغَ لأنْ يكون ظرفاً لـ «مُخْرجون»؛ لأنَّ كلًّا من الهمزة و«إنَّ» واللام - على ما قيل - مانعةٌ مِن عَمَلِ ما بعدَها فيما قبلها، فكيف بها إذا اجتمعت؟ ولم يَعْتبِر بعضهم اللامَ مانعةً، بناءً على ما قرِّر في النحوِ من جواز تقدُّم معمولِ خبرِ «إنَّ» المقرُونِ باللام عليه، نحو: إنَّ زيداً طعامَك لآكِلٌ، ويكفي حينئذ مانعان، وأظنُّ أنَّ مَن قال: يُتوسَّعُ في الظروف ما لا يتوسَّعُ في غيرها، لا يقول باطِّراد الحكم في مثل هذا الموضع.

ومرادُهم بالإخراج: الإخراجُ من القبور، وجوِّز أن يكون الإخراجَ من حال الفناء إلى الحياة، والأول هو الظاهر. وتقييدُ الإخراج بوقت كونهم تراباً ليس لتخصيص الإنكار بالإخراج حينئذٍ فقط، فإنهم منكِرون للإحياء بعد الموت مطلقاً وإنْ كان البدنُ على حاله، بل لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج في حالةٍ منافيةٍ له بزعمهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَءَابَآؤُنَآ﴾ عطفٌ على اسم «كان»، واستُغني بالفَصْلِ بالخبر عن الفصل بالتأكيد، وتكريرُ الهمزة في «أئنا» للمبالغة والتشديد في الإنكار، وتحليةُ الجملة بـ «إنَّ» واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم، فإنَّ تقديم الهمزة لأصالتها في الصدارة. والضمير في «أئنا» لهم ولآبائهم؛ لأنَّ الكون تراباً قد تناولهم وآباءهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «أيذا» و«أينَّا» بالجمع بين الاستفهامين وقَلْبِ الثانية

---

(١) وصدره: وخيل قد دلفت لها بخيلٍ، وسلف ٥/ ٦٤. والكلام من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٥٦.

ياء، وفَصَل بينهما بألفٍ أبو عمرو[١]. وقرأ نافع «إذا» بهمزة واحدة مكسورة، فهمزةُ الاستفهام مقدَّرةٌ مع الفعل المقدَّر؛ لأنَّ المعنى ليس على الخبر، و«آينا» بهمزة الاستفهام وقَلْبِ الثانية ياءً وبينهما مَدَّةٌ[٢]. وقرأ آخرون: «آئذا» باستفهامٍ ممدودٍ «إننا» بنونين من غير استفهام[٣].

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي: الإخراجَ المذكورَ ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ وَعْدِ محمدٍ ﷺ، وتقديمُ الموعود على «نحن» هنا للدلالة على أنه هو الذي تُعمِّد بالكلام وقُصِدَ به، حتى كأنَّ ما سواه مطرحٌ وعلاوةٌ له، كما يُنْبئُ عن ذلك ذِكْرُ ما صَدَرَ منهم أنفسِهم مؤكَّداً مقرَّراً مكرَّراً، وتأخيره عنه في آية سورة «المؤمنين» لرعاية الأصل، ولا مقتضيَ للعدول إذ لم يذكر هناك سوى اتِّباعهم أسلافَهم في الكفر وإنكار البعث من غير نعي ذلك عليهم.

والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير الإنكار، وتصديرُها بالقسم لمزيد التأكيد، وقولُه تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقريرٌ إثر تقريرٍ.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ بسببِ تكذيبهم الرسلَ عليهم الصلاة والسلام فيما دَعَوْهم إليه من الإيمان بالله عزَّ وجلَّ وحده، وباليوم الآخِرِ الذي تنكرونه، فإنَّ في مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفايةٌ لأولي الأبصار. وفي التعبير عن المكذِّبين بالمجرمين الأعمِّ منه بحسب المفهوم لطفٌ بالمؤمنين في ترك الجرائم لِمَا فيه من إرشادهم إلى أنَّ الجرم مطلقاً مبغوضٌ لله عز وجل.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾ أي: في حرجِ صدرٍ ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: من مكرهم، فإنَّ الله تعالى يعصمُك من

(١) التيسير ص٣٢، والنشر ١/ ٣٧٠. وقرأ رويس كابن كثير.

(٢) هي رواية قالون عن نافع، وقرأ بها أيضاً أبو جعفر من العشرة، ورواية ورش عن نافع: «أينَّا» بدون ألف.

(٣) وهي قراءة هشام، ومثله قرأ ابن ذكوان والكسائي لكن من غير مدٍّ في الاستفهام. وقرأ الباقون: «أئذا» و«أئنا». ونقل المصنف جميع هذه القراءات عن البحر ٣/ ٩٤، وينظر التيسير ص٣٢ و١٦٢، والنشر ١/ ٣٦٩-٣٧٤.

الناس. وقرأ ابن كثير: «ضِيق» بكسر الضاد[١]، وهو مصدرٌ أيضاً. وجوِّز أن يكون مفتوحَ الضاد مخفَّفاً من ضيِّقٍ، وقد قرئ كذلك[٢]، أي: لا تكن في أمرٍ ضيقٍ، وكره أبو عليٍّ[٣] كونَ ذلك مخفَّفاً مما ذُكر؛ لأنه يقتضي حذفَ الموصوف وإقامةَ الصفة مقامه، وليس من الصفات التي تقوم مقام الموصوف باطِّراد، وفيه بحث.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: العذابُ العاجلُ الموعود، وكأنهم فهموا وَعْدَهم بالعذاب من الأمر بالسير والنظرِ في عاقبة أمثالهم المكذِّبين، ويُعلم منه وجهُ التعبير[٤] بـ «يقولون»، وعدم إجرائه على سَنَنِ ما قبله، أعني: «وقال الذين كفروا».

وسؤالُهم عن وقت إتيان هذا العذاب على سبيل الاستهزاء والإنكار، ولذا قالوا: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ عانين: إن كنتم صادقين في إخباركم بإتيانه فبيِّنوا لنا وقته، والجمعُ باعتبار شركة المؤمنين في الإخبار بذلك.

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أصلُ معنى «ردف»: تَبِعَ، والمراد به هنا لَحِقَ ووَصَلَ، وهو ممَّا يتعدَّى بنفسه وباللام كـ: نَصَحَ.

وقيل: اللامُ مزيدةٌ لتأكيدِ وصول الفعل إلى المفعول به، كما زيدت الباءُ لذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقيل: إنَّ اللام لتضمين «ردف» معنى: دنا، وهو يتعدَّى باللام كما يتعدَّى بـ «من» و«إلى»، كما في «الأساس»[٥]، ولتضمينه ذلك عدِّي بـ «مِن» في قوله:

فلمَّا رَدِفْنا من عميرٍ وصحبه ... تولَّوا سراعاً والمنيةُ تُعْنِقُ[٦]

---

(١) التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٨، وينظر الكشاف ٣/ ١٥٨، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٥٧.

(٣) في الحجة ٥/ ٤٠٣، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٩٥.

(٤) في (م): للتعبير.

(٥) مادة (دنو)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٥٧.

(٦) الكشاف ٣/ ١٥٨، والبحر ٧/ ٩٥، والدر المصون ٨/ ٦٣٩ دون نسبة. تُعْنِقُ، أي: تسرع. المعجم الوسيط (عنق).

وقيل: اللامُ داخلةٌ على المفعول لأجله، والمفعولُ به الذي يتعدَّى إليه الفعلُ بنفسه محذوفٌ، أي: رَدِفَ الخلقَ لأجلكم، ولا يخفى ضعفُه.

وقيل: إنَّ الكلام تمَّ عند «رَدِفَ» على أنَّ فاعله ضميرٌ يعود على الوعد، ثم استأنف بقوله تعالى: (لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ) على أنَّ «بعض» مبتدأ، و«لكم» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع خبراً له، ولا يخفى ما فيه من التفكيك للكلام، والخروجِ عن الظاهر لغيرِ داعٍ لفظيٍّ ولا معنويٍّ.

والمعنى: قل: عسى أن يكون لحِقَكم ووصل إليكم بعضُ الذي تستعجلون حلولَه، وتطلبونه وقتاً فوقتاً، والمرادُ بهذا البعض عذابُ يوم بدر. وقيل: عذاب القبر، وليس بذاك. ونسبةُ استعجالِ ذلك إليهم بناءً على ما يقتضيه ما هم عليه من التكذيب والاستهزاء، وإلا فلا استعجال منهم حقيقةً.

والترجِّي المفهومُ من «عسى»، قيل: راجعٌ إلى العباد. وقال الزمخشريُّ[(١)]: إنَّ «عسى» و«لعل» و«سوف» في وعد الملوك ووعيدِهم تدلُّ على صدق الأمر وجدِّه، وما لا مجال للشكِّ بعده، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم، وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقَهرهم وغلبتهم، ووثوقِهم بأنَّ عدوَّهم لا يفوتُهم، وأنَّ الرمزة إلى الأغراض كافيةٌ من جهتهم، فعلى ذلك جرى وعدُ الله تعالى ووعيدُه سبحانه. اهـ.

وعليه ففي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ، ولا يخفى حُسْنُ ذلك. وإيثارُ ما عليه النظم الكريم على أن يقال: عسى أن يردفكم.. إلخ؛ لكونه أدلَّ على تحقُّق الوعد.

وقرأ ابن هرمز: «رَدَفَ» بفتح الدال[(٢)]، وهو لغة فيه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لذو إفضالٍ وإنعامٍ كثيرٍ على كافة الناس، ومن جملة إفضاله عزَّ وجل وإنعامه تعالى تأخيرُ عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه من المعاصي.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ أي: لا يشكرونه جلَّ وعلا على إفضاله سبحانه عليهم، ومنهم هؤلاء.

---

(١) في الكشاف ٣/ ١٥٨.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٣، والبحر ٧/ ٩٥.

وقيل: لا يعرفون حقَّ فضله تعالى عليهم، تعبيراً عن انتفاء معرفتهم ذلك بانتفاء ما يترتَّبُ عليها من الشكر.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ما تخفيه من الأسرار التي من جملتها عداوتُك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: وما يُظْهِرونه من الأقوال والأفعال التي من جملتها ما حكي عنهم، فليس تأخيرُ عقوبتهم لخفاء حالهم عليه سبحانه، أو فيجازيهم على ذلك، وفعلُ القلب إذا كان مثلَ الحبِّ والبغض، والتصديقِ والتكذيب، والعزمِ المصمِّم على طاعة أو معصية، فهو مما يُجازَى عليه.

وفي الآية إيذانٌ بأنَّ لهم قبائحَ غير ما حُكي عنهم. وتقديم الإكنان[1] ليظهر المراد من استواءِ الخفيِّ والظاهر في علمه جلَّ وعلا، أو لأنَّ مضمَراتِ الصدور سببٌ لِمَا يَظْهرُ على الجوارح، وإلى الرمز إلى فساد صدورهم التي هي المبدأ لسائر أفعالهم أُوثِرَ ما عليه النظمُ الكريم على أن يقال: وإنَّ ربَّك ليعلم ما يكنُّون وما يعلنون.

وقرأ ابن محيصن وحميد وابن السميفع: «تَكُنُّ» بفتح التاء وضمِّ الكاف[2]، من كنَّ الشيءَ: سَتَره وأخفاه.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من شيءٍ خفيٍّ ثابتِ الخفاء فيهما، على أنَّ «غائبة» صفةٌ غلبتْ في هذا المعنى فكثُر عدمُ إجرائها على الموصوف ودلالتها على الثبوت وإن لم تُنْقَلْ إلى الاسمية كمؤمن وكافر، فتاؤها ليست للتأنيث إذ لم يلاحَظْ لها موصوفٌ تجري عليه، كالراوية للرجل الكثيرِ الروايةِ، فهي تاءُ مبالغةٍ. ويجوز أن تكون صفةً منقولةً إلى الاسمية سمِّي بها ما يغيبُ ويَخْفَى، والتاء فيها للنقل كما في «الفاتحة»، والفرقُ بين المغلَّب والمنقول ـ على ما قال الخفاجيُّ ـ أنَّ الأول يجوز إجراؤه على موصوف مذكَّرٍ بخلاف الثاني[3].

والظاهر عمومُ الغائبة، أي: ما من غائبةٍ كائنةٍ ما كانت ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

---

(١) في (م): الاكتنان.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٣، والبحر ٧/ ٩٥.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٥٧.

أي: بيِّنٍ، أو مُبينٍ لِمَا فيه لمن يطالعُه وينظر فيه من الملائكة عليهم السلام، وهو اللوح المحفوظ، واشتماله على ذلك إن كان متناهياً لا إشكال فيه، وإن كان غيرَ متناهٍ ففيه إشكالٌ ظاهرٌ ضرورةَ قيام الدليل على تناهي الأبعاد واستحالةِ وجودِ ما لا يتناهَى، ولعل وجود الأشياء الغيرِ المتناهية في علم الله تعالى في اللوح المحفوظ على نحوِ ما يزعمونه من وجود الحوادث في الجفر الجامع[1]، وإن لم يكن ذلك حذوَ القذَّة بالقذَّة.

وقيل: المراد بالكتاب المبين علمُه تعالى الأزليُّ الذي هو مبدأٌ لإظهار الأشياء بالإرادة والقدرة. وقيل: حكمه سبحانه الأزليُّ. وإطلاقُ الكتاب على ما ذكر من باب الاستعارة، ولا يخفى ما في ذلك.

وقيل: المراد به القرآن، واشتمالُه على كلِّ غائبةٍ على نحو ما ذكرنا في اشتمال اللوح المحفوظ عليه، وقد ذُكر أنَّ بعض العارفين استخرج من «الفاتحة» أسماءَ السلاطين العثمانية، ومُدَدَ سَلْطَنتهم إلى آخر مَن يَتَسَلْطَن منهم، أدام الله تعالى ملكهم إلى يوم الدِّين، ووفَّقهم لِمَا فيه صلاحُ المسلمين. وذكر بعضُهم في هذا الوجه أنه مناسبٌ لِمَا بعدُ من وصف القرآن، وفيه ما فيه.

وقال الحسن: الغائبة هو يومُ القيامة وأهوالها[2].

وقال صاحب «الغُنيان»[3]: الحوادث والنوازل. وقيل: أعمال العباد. وقيل: ما غاب من عذاب السماء والأرض.

والعمومُ أولى، ورُوي ذلك عن ابن عباس؛ فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: يقول سبحانه: ما من شيءٍ في السماء والأرض

---

(١) هو كتاب يزعم الشيعة أن جعفراً الصادق ﷺ كتب فيه لهم كل ما يحتاجون إلى عمله، وكلّ ما يكون إلى يوم القيامة، وهو زعم باطل. ينظر مجموع الفتاوى ٤/ ٧٨-٧٩، وأبجد العلوم ٢/ ٢١٤-٢١٦، ومجلة المنار ٤/ ٦٠ للسيد رشيد رضا.

(٢) في الأصل: وأحوالها، والمثبت من (م) والبحر ٧/ ٩٥، والكلام منه.

(٣) كما في البحر ٧/ ٩٥، والغنيان في تفسير القرآن لبشير بن حامد بن سليمان، أبو النعمان، نجم الدين الزينبي الهاشمي، الجعفري الشافعي، التبريزي الصوفي، المتوفى سنة (٦٤٦هـ). السير ٢٣/ ٢٥٥، والأعلام ٢/ ٥٦.

سرًّا وعلانيةً إلا يعلمه سبحانه وتعالى(١). وأخذ منه بعضُهم حَمْلَ الكتاب على العلم الأزليِّ، وفيه نظرٌ؛ لجوازِ أن يكون قد جعل كونَ ذلك في كتابٍ مبين كنايةً عن علمه تعالى به.

وذهب أبو حيان إلى أنه رضي الله عنه اعتبر في الآية حَذْفَ أحدِ المتقابلَيْنِ اكتفاءً بالآخر(٢). وكلامُه رضي الله عنه محتملٌ لذلك.

ويحتمل أنه ذكر العلانية في بيان المعنى لأنَّ مَن عَلِمَ السرَّ عَلِمَ العلانيةَ من باب أَوْلَى. ويحتمِلُ أنَّ ذلك لأنه ما من علانيةٍ إلا وهي غيبٌ بالنسبة إلى بعض الأشخاص، فيكون قد أشار رضي الله عنه ببيان المعنى وذِكْرِ السرِّ والعلانيةِ فيه إلى أنَّ المراد بـ «غائبة» في الآية ما يشملهما(٣)، وهو ما اتَّصف بالغيبة أعمّ من أن تكون مطلقةً أو إضافيةً، كذا قيل، فتدبَّر.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ لمَّا ذكر سبحانه ما يتعلَّق بالمبدأ والمَعَادِ ذكر تعالى ما يتعلَّق بالنبوَّة؛ فإنَّ القرآن أعظمُ ما تثبُتُ به نبوَّةُ نبيِّنا ﷺ، فذكر جلَّ وعلا أنه يقصُّ على بني إسرائيل - والمراد بهم كما رُوي عن قتادةَ: اليهودُ والنصارى - أكثرَ ما تجدَّد واستمرَّ اختلافُهم فيه على وجهه، ويبيِّنُ لهم حقيقةَ الأمر فيه، وذلك مما يقتضي إسلامَهم لو تأمَّلوا وأنصفوا، لكنهم لم يفعلوا وكابَروا مثلَكم أيها المشركون.

ومما اختلفوا فيه أمرُ المسيح عليه السلام؛ فمِن قائل: هو الله تعالى. ومِن قائل: ابنُ الله سبحانه. ومن قائل: ثالثُ ثلاثةٍ. ومن قائل: هو نبيٌّ كغيره من الأنبياء عليهم السلام. ومن قائل: هو - وحاشاه - كاذبٌ في دعواه النبوَّة، ويَنْسِبُ مريم فيه إلى ما هي منزَّهةٌ عنه رضي الله عنها، وهم اليهود الذين كذَّبوه.

وأمرُ النبيِّ المبشَّر به في التوراة، فمن قائل: هو يوشع عليه السلام. ومن قائل: هو عيسى عليه السلام. ومن قائل: إنه لم يأتِ إلى الآن وسيأتي آخرَ الزمان.

---

(١) تفسير الطبري ١١٦/١٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٢٩١٩/٩.

(٢) البحر ٧/ ٩٥.

(٣) في الأصل: يشملها.

ومما اختلفوا فيه أمرُ الخنزير؛ فقالت اليهود بحرمة أكله، وقالت النصارى بحِلِّه، إلى غير ذلك.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ على الإطلاق، فيدخلُ فيهم مَن آمن من بني إسرائيل دخولاً أوّليًّا، وتخصيصُ المؤمنين بهم كما فعل بعضهم خلافُ الظاهر، وتخصيصُ المؤمنين بالذكر مع أنه رحمةٌ للعالمين لأنهم المنتفعون به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ أي: بين بني إسرائيل الذين اختلفوا، أو بين المؤمنين وبين الناس ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ قيل: أي: بحكمته جلَّ شأنُه، ويدلُّ عليه قراءةُ جناح بن حبيش: «بحِكَمِه» بكَسْرِ الحاء وفَتْحِ الكاف جمع حكمةٍ مضاف إلى ضميره تعالى(١).

وقيل: المراد بالحُكْم: المحكومُ به، إطلاقاً للمصدر على اسم المفعول، والمرادُ بالمحكوم به الحقُّ والعدل.

وعلى الوجهين لم يبق على المعنى المصدريِّ، والداعي لذلك أنَّ «يقضي» بمعنى يحكم، فلو بقي الحكم على المعنى المصدريِّ لصار الكلام نحوَ قولك: زيدٌ يضَرِبُ بضَرْبِه، وهو لا يقال مثلُه في كلامٍ عربيٍّ.

وأورد عليه أنه يصحُّ أن يقال ذلك على معنى: يضْرِبُ بضَرْبِه المعروف بالشدة مثلاً، فالمعنى هنا: يحكم بحُكْمِه المعروفِ بملابَسةِ الحق، أو يحكم بحُكْمِ نَفْسِه تعالى لا بحكم غيره ـ عزَّ شأنُه ـ كالبشر.

وقيل عليه: ليس المانعُ لصحة مثلِ هذا القول إضافةَ المصدر إلى ضمير الفاعل، فإنه لا كلام في صحته، كإضافته إلى ضمير المفعول في: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩] إنما المانع دخولُ الباء على المصدر المؤكِّد. ثم إنَّ المعنى الأولَ يوهمُ أنَّ له سبحانه حكماً غيرَ معروفٍ بملابسة الحق، والثاني إنما يَظهر لو قدَّم «بحُكْمِه».

وفيه أنه على ما ذكر ليس بمصدرٍ مؤكِّدٍ، وعدمُ الجواز في المصدر النوعيِّ لاسيما إذا كان من غير لَفْظِه ليس بمسلَّم. وأيضاً الظاهرُ أنَّ المانع بزَعْمِ المؤوِّل

---

(١) القراءات الشاذة ص١١١، والبحر ٧/ ٩٦.

لزومُ اللَّغْوِيَّةِ لو لم يؤوّل بما ذكر، والأَوْلَى إبقاؤه على المصدرية، وجَعْلُ الإضافة للعهد، وكونُ المعنى كما قال المُوْرِدُ: يَحْكُم بحُكْمِه المعروفِ بملابسةِ الحقِّ. وأمرُ التوهُّم على طرف الثُّمام.

وأيًّا ما كان فالضميرُ المجرورُ عائدٌ على الربِّ سبحانه، وعَوْدُه على القرآن على أنَّ المعنى: يَحْكُم بالحُكْمِ الذي يتضمَّنه القرآن واشتمل عليه من إثابة المحقِّ وتعذيبِ المُبْطِلِ، وحينئذٍ لا يحتاج إلى كثرة القيل والقال = لا يخفى ما فيه من القيل والقال على مَن له أدنى تمييزٍ بأساليب المقال.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يُرَدُّ حُكْمُه سبحانه وقضاؤه جلَّ جلالُه ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها ما يقضي به.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لترتيب الأمر على ما ذكر من شؤونه عزَّ جلَّ، فإنَّها موجبةٌ للتوكُّل عليه تعالى، وداعيةٌ إلى الأمر به، وفي ذكره تعالى بالاسم الجامع تأييدٌ لذلك، أي: فتوكَّل على الله الذي هذا شأنُه، فإنه يوجب على كلِّ أحدٍ أن يتوكَّل عليه ويفوِّضَ جميعَ أموره إليه جلَّ وعلا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ تعليلٌ صريحٌ للتوكُّل عليه تعالى بكونه عليه الصلاة والسلام على الحقِّ البيِّن، أو الفاصلِ بينه وبين الباطل، أو بين المحقِّ والمُبْطِلِ، فإنَّ كونه ﷺ كذلك مما يوجبُ الوثوقَ بحفظه تعالى ونُصْرتِه وتأييدِه لا محالة.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إلخ تعليلٌ آخَرُ للتوكُّل الذي هو عبارةٌ عن التبتُّل إلى الله تعالى وتفويضِ الأمر إليه سبحانه، والإعراضِ عن التشبُّث بما سواه.

وقد علَّل أوَّلاً بما يوجبُه من جهته تعالى، أعني قضاءَه عزَّ وجلَّ بالحقِّ وعزَّتَه وعِلْمَه تبارك وتعالى، وثانياً بما يوجبُه من جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين، أعني كونَه ﷺ على الحقِّ، ومن جهته تعالى على الوجه الآخر، أعني إعانتَه تعالى وتأييدَه تعالى للمحقِّ، ثم علّل ثالثاً بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة إيجابه للإعراض عن التشبُّث بما سواه تعالى؛ فإنَّ كونهم كالموتى والصمِّ

والعُمْي موجبٌ لقَطْعِ الطَّمَعِ عن مُشايَعَتِهم ومُعاضَدَتِهِم رأساً، وداعٍ إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى، وهو المعنيُّ بالتوكُّل عليه جلَّ شأنه.

وجوِّز أن يكون قوله تعالى: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ) إلخ استئنافاً بيانيًّا وقع جواباً لسؤالٍ نشأ مما قبله، أعني «إنك على الحقِّ المبين» كأنه قيل: ما بالُهم غير مؤمنين بمن هو على الحقِّ المبين؟ فقيل: «إنك لا تسمع الموتى» إلخ. وتعقِّب بأنه يأباه السياق. واعتُرض بالمنع.

وإنما شبِّهوا بالموتى ـ على ما قيل ـ لعدم تأثُّرهم بما يُتْلَى عليهم من القوارع، وإطلاقُ الإسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشيءٍ من المسموعات.

وقيل: لعل المراد تشبيهُ قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور، فإنَّ القلب مشعرٌ من المشاعر أشير إلى بطلانه بالمرة، ثم بين بطلان مشعري الأذن والعين، كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩] وإلا فبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصمِّ والعمي مزيدُ مَزِيَّةٍ. وكأنه لهذا قال في«البحر»[١]: أي: موتَى القلوب. أو شبِّهوا بالموتى لأنهم لا ينتفعون بما يُتلى عليهم، فقدِّم احتمالُ نسبة الموت إلى قلوبهم.

وتعقِّب[٢] بأنَّ ما ذُكر تخيُّلٌ باردٌ؛ لأنَّ القلب يوصف بالفِقْهِ والفَهْمِ لا السَّمْعِ، وما ذكر أولاً من أنهم أنفسَهم شبِّهوا بالموتى هو الظاهر، ووجهُه أنه على طريق التسليم والنظر لأحوالهم، كأنه قيل: كيف تُسمعهم الإرشاد إلى طريق الحق وهم موتَى؟ وهذا بالنظر لأوَّل الدعوة، ولو أحييناهم لم يُفِدْ أيضاً لأنهم صمٌّ وقد ولَّوا مُدْبِرين، وهذا بالنظر لحالهم بعد التبليغ البليغ ونفرتهم عنه، ثم إنَّا لو أسمعناهم أيضاً فهم عميٌ لا يهتدون إلى العمل بما يسمعون، وهذا خاتمةُ أمرهم، ويعلم من هذا ما في ذلك من مزيدِ المزيةِ الخالية عن التكلُّف.

---

(١) ٧/ ٩٦.

(٢) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٥٨.

وجوّز أن يكون التشبيه لطوائفَ على مراتبهم في الضلال، فمنهم مَن هو كالميت، ومَن هو كالأصم، ومَن هو كالأعمى، وهو وإن كان وجهاً خفيفَ المؤنة، إلّا أنه خلافُ الظاهر أيضاً.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: الدعوة إلى أمر من الأمور، وتقييدُ النفي بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ لتتميم التشبيه وتأكيدِ النفي؛ فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحقِّ مُعْرِضون عن الداعي مولُّون على أدبارهم، ولا ريبَ في أنَّ الأصمَّ لا يسمع الدعاء مع كون الداعي بمقابلة صماخه قريباً منه، فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه، ومثله في التتميم قولُ امرئ القيس:

حملتُ رُدينيًّا كأنَّ سِنانَه سَنَا لَهبٍ لم يتَّصِلْ بدخان[1]

وقرأ ابن كثير: «لا يَسمَع الصمُّ الدعاء» بالياء التحتانية وفتح الميم ورفع «الصُّمّ»[2].

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: وما أنت بصارفِ العمي عن ضلالتهم، هادياً لهم هدايةً مُوْصِلةً إلى المطلوب، لفَقْدِ الشرط العاديِّ للاهتداء وهو البصر. و«عن» متعلِّقةٌ بالهداية باعتبار تضمُّنها معنى الصرف كما أشرنا إليه. وجوَّز أبو البقاء أن تُعلَّق بـ «العُمْي»، ويكون المعنى أنَّ العَمَى صَدَرَ عن ضلالتهم[3]، وفيه بعدٌ. وإيرادُ الجملة الاسمية للمبالغة في نفي الهداية.

وقرأ يحيى بن الحارث وأبو حيوة: «بهادٍ» بالتنوين «العُمْيَ» بالنصب[4].

وقرأ الأعمش وطلحة وابن وثّاب وابن يعمر وحمزة: «تهدي» مضارع هدى «العُمْيَ» بالنصب[5].

---

(١) البيت لامرئ القيس في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٢٥٣، والإيضاح في علوم البلاغة ١/ ٢٠٠، ومعاهد التنصيص للعباسي ٢/ ٩٢، وهو في ملحق الديوان ص٤٧٧. ونسبه المفضل في المفضليات ص٢٥٩، والآمدي في المؤتلف والمختلف ص١١٤ لعَمِيرة بن جُعَل، وفيهما: جمعت ردينيًّا...

(٢) التيسير ص١٦٩، والنشر ٢/ ٣٣٩.

(٣) الإملاء ٣/ ١٤٠.

(٤) القراءات الشاذة ص١١١، والبحر ٧/ ٩٦، والكلام منه.

(٥) التيسير ص١٦٩، والنشر ٢/ ٣٣٩ عن حمزة، والكلام من البحر ٧/ ٩٦.

وقرأ ابن مسعود: «وما إنْ تهتدي» بزيادة «إنْ» بعد «ما»، كما في قول امرئ القيس:

حلفتُ لها بالله حلفةَ فاجرٍ لناموا فما إنْ من حديثٍ ولا صالِ[1]

و«تهتدي» مضارع اهتدى، و«العميُ» بالرفع[2].

﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي: ما تُسْمِعُ إسماعاً يُجدي السامعَ نفعاً ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: مَن شأنُهم الإيمانُ بها، وهم الذين ليسوا مَوْتَى ولا صمًّا ولا عمياً.

وقال بعض الأجلَّة: أي: إلا مَن هو في علم الله تعالى كذلك.

واعتُرض بأنَّ صيغة الاستقبال وإن صحَّت باعتبار تعلُّق العلم فيما لا يزال إلَّا أنَّ المناسب صيغةُ المضيِّ. واختار المعترِضُ أنَّ المعنى: إلا الذين يصدِّقون أنَّ القرآن كلام الله تعالى؛ إذ حينئذٍ تَثْبُتُ نبوَّتُه ﷺ، فيُقْبَلُ قولُه ويُجدي إسماعُه نفعاً.

وتعقِّب بأنه ينتقض الحصرُ بالمصدِّقين في الاستقبال إن كانت الصيغة للحال، وبالمصدِّقين في الحال إن كانت للاستقبال، وإذا دفع لزومُ الانتقاض بجعلها لهما لزم استعمالُ المشترك في معنييه معاً، أو الجمعُ بين الحقيقة والمجاز.

وأجيب بأنَّ المراد الحال، ويدخل غيرُه فيه بدلالة النصِّ من غير تكلُّفٍ[3].

وقال بعض المحققين: قد يراد بالمضارع الاستقبالُ الشاملُ لجميع الأزمنة، فإنَّ الاستقبال كما يكون بالنظر لزمان الحكم والتكلُّم على ما حقِّق في الأصول يجوز أن يكون بالنظر إلى عِلْمِ القائل أيضاً، فيشمل «مَن يؤمن» هنا مَن آمن حالاً، كما يشمل مَن يؤمن استقبالاً، فلا غبار في المعنى الذي اختاره ذلك المعترِضُ من هذه الحيثية.

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٣٢، والخزانة ١٠/ ٧١. وقال البغدادي: «إن» زائدة مؤكِّدة للنفي، وكذلك «من».

(٢) البحر ٧/ ٩٦، وهي في القراءات الشاذة ص١١٠، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٢٠-٢٢١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠، والكشاف ٣/ ١٥٩، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٠٧ بلفظ: «وما إن تهدي العميَ».

(٣) في (م): تكليف.

نعم قيل: إنَّ فيه شِبْهَ تحصيلِ الحاصل؛ لأنَّ التصديق بالقرآن هو استماعُه النافعُ، ولعل مَن عَدَلَ عنه إنما عَدَلَ لذلك، ولم يعبأ بالمغايرة بين ذينك الأمرين الظاهرةِ بعد النظر الصحيح.

والحقُّ أنَّ ما ذُكر من شِبْهِ تحصيل الحاصل على طرف الثمام؛ لظهورِ الفرق بين الإسماع المراد في الآية والتصديقِ بأنَّ القرآن كلامُ الله تعالى كما لا يخفى.

وجوِّز أن يراد بالآيات المعجزاتُ التي أظهرها الله تعالى على يده عليه الصلاة والسلام، الشاملةُ للآيات التنزيلية والتكوينية، وأن يراد بها الآياتُ التكوينية فقط، والإيمانُ بها التصديقُ بكونها آياتِ الله تعالى وليست من السحر، وإذا أريد بالإسماع النافع على هذا إسماعُ الآيات التنزيلية ليؤتَى بما تضمَّنته من الاعتقادات والأعمال، كان الكلام أبعدَ وأبعدَ من أن يكون فيه شِبْهُ تحصيل الحاصل، إلا أنَّ ذلك لا يخلو عن شيءٍ.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنَّ إيرادَ الإسماع في النفي والإثبات دون الهداية مع قُربها، بأن يقال: إنْ تهدي إلا مَن يؤمن.. إلخ، لِمَا أنَّ طريق الهداية هو إسماعُ الآيات التنزيلية[1]، فافهم.

وقوله تعالى: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ قيل: تعليلٌ لإيمانهم بها، كأنه قيل: فإنهم منقادون للحقِّ في كلِّ وقت. وقيل: مخلصون لله تعالى، من قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١١٢]. وقيل: هو تعليلٌ لِمَا يدلُّ عليه الكلام من أنهم يسمعون إسماعاً نافعاً لهم. وفي توحيد الضمير تارةً وجَمْعِه أخرى رعايةٌ لِلَفْظِ «مَن» ومعناها.

واستدلَّ بقوله تعالى: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ) على أنَّ الميت لا يسمعُ كلامَ الناس مطلقاً، وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام في ذلك في سورة «الروم»[2] على أتمِّ وجهٍ.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٠.

(٢) عند تفسير الآية (٥٢) منها.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ بيانٌ لِمَا أشير إليه بقوله تعالى: (بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ) من بقية ما يستعجلونه من الساعة ومباديها، والمراد بالقول ما نطق من الآيات الكريمة بمجيء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التي كانوا يستعجلونها، وبوقوعه قيامُها وحصولُها، عبَّر عن ذلك به للإيذان بشدَّة وَقْعِها وتأثيرها، وإسنادُه إلى القول لِمَا أنَّ المراد بيانُ وقوعها من حيث إنها مصداقٌ للقول الناطق بمجيئها، وقد أريد بالوقوع دنوُّه واقترابُه كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١] ففيه مجازُ المشارَفة، أي: إذا دنا وقوعُ مدلولِ القول المذكورِ الذي لا يكادون يسمعونه ومصداقه ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك على ما أخرج ابن مردويه[١] من حديث أبي سعيد الخدريِّ مرفوعاً، وهو وجماعةٌ عن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً[٢]، حين يُتْرَكُ الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: أَكْثِروا الطَّوَافَ بالبيت من قبل أن يُرفَع ويَنْسَى الناس مكانه، وأَكْثِروا تلاوةَ القرآن من قبل أن يُرفع. قيل: وكيف يُرفع ما في صدور الرجال؟ قال: يُسْرَى عليهم ليلاً فيصبحون منه فقراء، وينسون قولَ: لا إله إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارِهم، فذلك حين يقع القول عليهم[٣]. وهذا ظاهرٌ في أنَّ خروج الدابة حين لا يبقى في الأرض خيرٌ، ويقتضي ذلك أن يكون بعد موت عيسى والمهديِّ وأتباعهما عليهم السلام، وسيأتي إن شاء الله تعالى من الأخبار ما هو ناطقٌ بأنها تخرج وعيسى يطوفُ بالبيت ومعه المسلمون.

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١١٥.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٥، والطبري ١٨/ ١٢٠، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢١، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١١٥.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٢، وأخرجه أيضاً الدارمي (٣٣٤١)، كلاهما من طريق موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم، عن ناجية بن عبد الله بن عتبة، عن أبيه، عن عبد الله. وهذا إسناد ضعيف لضعف موسى بن عبيدة. وأخرجه عبد الرزاق (٥٩٨٠)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٤، وسعيد بن منصور (٩٧- تفسير)، والحاكم ٤/ ٥٠٤ من طريق عبد العزيز بن رفيع، عن شداد بن معقل، عن ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه دون قوله: فذلك حين...، وفيه بدلاً منه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية [الإسراء:٨٦].

وأخرج نعيم بن حماد عن وهب بن منبِّهٍ قال: أولُ الآيات الروم، والثانية الدجَّال، والثالثة يأجوج ومأجوج، والرابعة عيسى، والخامسة الدخان، والسادسة الدابة[١]. وصوَّب السفارينيُّ أنها قبل الدخان.

والحقُّ أنها تخرج وفي الناس مؤمنٌ وكافر، فالظاهرُ أنَّ الخبر المذكور عن ابن مسعود غيرُ صحيح، ويدلُّ على ما ذكرنا من الحقِّ ما أخرج أحمد والطيالسيُّ ونعيم بنُ حمادٍ وعبد بنُ حُميدٍ والترمذيُّ وحسَّنه وابنُ ماجه وابن جَريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقيُّ في «البعث» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَخْرجُ دابَّةُ الأرض ومعها عصا موسى وخاتمُ سليمان عليهما السلام، فتجلو[٢] وجه المؤمن بالخاتم، وتَخْطِمُ أنفَ الكافر بالعصا، حتى يجتمع الناس على الخِوَانِ يُعْرَفُ المؤمنُ من الكافر»[٣].

وقد اختلفت الروايات فيها اختلافاً كثيراً؛ فحكى أبو حيان في «البحر»، والدميري في «حياة الحيوان» رواية أنه يخرجُ في كلِّ بلدٍ دابَّةٌ مما هو مبثوثٌ[٤] نوعُها في الأرض، فليست دابةً واحدةً[٥]. وعليه يراد بـ «دابة» الجنسُ الصادقُ بالمتعدِّد.

وأكثر الروايات أنها دابةٌ واحدة، وهو الصحيحُ.

---

(١) الفتن لنعيم بن حماد (١٨٥٣).

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): قال الطيبي: أهل الحديث يروونه بالحاء المهملة وفتح اللام والهمز، من حلأتُ الأديم: إذا قشرته، وفي «الكشاف» وكذا في «المطلع»: بالجيم، من جلوتُ السيف: إذا صقلته. اهـ منه.

(٣) مسند أحمد (٧٩٣٧)، ومسند الطيالسي (٢٥٦٤)، وسنن ابن ماجه (٤٠٦٦)، وسنن الترمذي (٣١٨٧)، والفتن لنعيم بن حماد (١٨٦١)، وتفسير الطبري ١٨/ ١٢٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٣، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي السيوطي في الدر ٥/ ١١٦ وعنه نقل المصنف. قال الترمذي: حديث حسن غريب. اهـ. وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. ورواية أحمد وابن ماجه: فتجلو وجه المؤمن بالعصا، وتخطم أنف الكافر بالخاتم، وكذا في رواية الترمذي والطبري. إلا أن فيهما: تختم، بدل: تخطم. قال السندي في شرح سنن ابن ماجه ٢/ ٥٠٤: تخطم كتضرب لفظاً ومعنًى، وقال السيوطي: أي: تسمه.

(٤) في الأصل: مثبوث.

(٥) البحر ٧/ ٩٦، وحياة الحيوان ١/ ٣٢٣.

وفي التعبير[١] عنها باسم الجنس، وتأكيدِ إبهامه بالتنوين الدالِّ على التفخيم، من الدلالة على غرابة شأنها وخروجِ أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى.

وعلى كونها واحدةً اختُلف فيها أيضاً؛ فقيل: هي من الإنس، واستُؤنس له بما رَوَى محمد بن كعب القرظيُّ قال: سئل عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه عن الدابَّة فقال: أمَا واللهِ إنها ليست بدابةٍ لها ذَنَبٌ، ولكن لها لحية[٢].

وفي «الميزان» للذهبي عن جابر الجعفي ـ وهو كذَّاب؛ قال أبو حنيفة: ما لقيتُ أكذَب منه ـ أنه كان يقول: هي من الإنس، وأنها عليٌّ نفسُه كرم الله تعالى وجهه[٣]. وعلى ذلك جمعٌ من إخوانه الشيعة، ولهم في ذلك رواياتٌ:

منها ما رواه علي بن إبراهيم في «تفسيره» عن أبي عبد الله رضي الله عنه قال: قال رجل لعمار بن ياسر: يا أبا اليقظان، آية في كتاب الله تعالى أفسدتْ قلبي. قال عمار: وأيَّة آيةٍ هي؟ فقال: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآيةَ، فأيَّة دابةٍ هذه؟ قال عمار: والله ما أجلسُ ولا آكلُ ولا أشربُ حتى أُريكَها. فجاء عمارٌ مع الرجل إلى أمير المؤمنين عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وهو يأكلُ تمراً وزبداً، فقال: يا أبا اليقظان، هلمَّ. فجلس عمار يأكل معه، فتعجَّب الرجل منه، فلما قام عمار قال الرجل: سبحان الله! حلفتَ أنك لا تجلسُ ولا تأكل ولا تشربُ حتى تُرينيها. قال عمار: قد أريتُكَها إن كنتَ تعقل[٤].

وروى العياشيُّ هذه القصة بعينها عن أبي ذرٍّ أيضاً[٥].

وكلُّ ما يروونه في ذلك كذبٌ صريح، وفيه القولُ بالرجعة التي لا ينتهضُ لهم عليها دليل[٦]. وفي بعض الآثار ما يعارِضُ ما ذكر، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن

---

(١) في الأصل و(م): فالتعبير، بدل: وفي التعبير، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠١، والكلام منه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٤.

(٣) الميزان ١/ ٣٨٠ و٣٨٤.

(٤) مجمع البيان ١٩/ ٢٥٠.

(٥) المصدر السابق.

(٦) أخرج ابن سعد ٣/ ٣٩ عن الحسن بن عليٍّ أنه قيل له: إن ناساً من شيعة أبي الحسن عليٍّ =

النزَّال بن سَبْرَة قال: قيل لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه: إنَّ ناساً يزعمون أنك دابةُ الأرض؟ فقال: والله إنَّ لدابة الأرض لَرِيشاً وزغباً، ومالي ريشٌ ولا زغبٌ، وإنَّ لها لحافراً ومالي من حافرٍ، وإنها لتخرج من حفز الفرس الجواد ثلاثاً، وما خرج ثلثُها[(١)].

والمشهور ـ وهو الحقُّ ـ أنها دابةٌ ليست من نوع الإنسان، فقيل: هي الثعبان الذي كان في جوف الكعبة واختطفته العقاب حين أرادت قريشٌ بناء البيت الحرام فمنعهم، وأن العقاب التي اختطفته ألقته بالحَجُون فالتقمته الأرض. وذكر ذلك الدميريُّ عن ابن عباس[(٢)].

والأكثرون على أنها غيرُها؛ أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الزبير[(٣)] أنه وصف الدابة فقال: رأسُها رأسُ ثورٍ، وعينُها عينُ خنزير، وأذنُها أذنُ فيلٍ، وقرنُها قرنُ أُيَّل، وعنُقها عنقُ نعامةٍ، وصدرُها صدرُ أسدٍ، ولونُها لونُ نمر، وخاصرتُها خاصرةُ هرةٍ، وذَنَبها ذنبُ كبش، وقوائمها قوائم بعيرٍ، بين كلِّ مفصلين اثنا عشر ذراعاً. زاد ابن جرير[(٤)]: بذراع آدم عليه السلام. ونقل السفارينيُّ عن كعب أنه قال: صوتُها صوتُ حمار. وأخرج ابن المنذر[(٥)] عن ابن عباس أنه قال: الدابةُ مؤلَّفةٌ ذاتُ زغبٍ وريشٍ، فيها من ألوان الدوابِّ كلِّها، وفيها من كلِّ أمَّةٍ سِيما، وسيماها من هذه الأمة أنها تتكلَّم بلسانٍ عربيٍّ مُبين.

= يزعمون أنه دابة الأرض، وأنه سيبعث قبل يوم القيامة. فقال: كذبوا، ليس أولئك شيعته، أولئك أعداؤه، لو علمنا ذلك ما قسمنا ميراثه، ولا أنكحنا نساءه.

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٥، والدر المنثور ٥/ ١١٧، وفيهما: وإنها لتخرج من حفر الفرس الجواد ثلاثاً وما خرج ثلثاها.

(٢) حياة الحيوان ١/ ٣٢٣.

(٣) في الأصل و(م): ابن الزبير، والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٤، والدر المنثور ٥/ ١١٧، وعنه نقل المصنف، ومثله في تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٥، وزاد المسير ٦/ ١٩٠. وينظر تهذيب الكمال ١٨/ ٣٤٣.

(٤) كذا في الأصل و(م)، ولم نقف عليه عند الطبري، ولعل الصواب: الزمخشري، وهذه الزيادة في الكشاف ٣/ ١٦٠.

(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ١١٧.

وعن أبي هريرةَ أنه قال: فيها من كلِّ لونٍ، وما بين قرنيها فرسخٌ للراكب[١].

وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس أنَّ لها عنقاً مشرفاً يراها مَن بالمشرق كما يراها مَن بالمغرب، ولها وجهٌ كوجه الإنسان ومنقارٌ كمنقار الطير، ذاتُ وَبَرٍ وزغبٍ.

وعن وهبٍ: وجهُها وجهُ رجلٍ، وسائرُ خَلْقِها كخَلْقِ الطير. وصرّح في بعض الروايات بأنَّ لها جناحين. وذكر بعضُهم أن طولها ستُّون ذراعاً.

واختُلف في محلِّ خروجها؛ فقيل: المسجد الحرام، لِمَا أخرج ابن جريرٍ عن حذيفة بن اليمان قال: ذَكَر رسول الله ﷺ الدابَّة، فقال حذيفة: يا رسول الله، من أين تخرجُ؟ قال: «من أعظم المساجد حرمةً على الله تعالى، بينما عيسى عليه السلام يطوفُ بالبيت ومعه المسلمون، إذ تضطربُ الأرض من تحتهم، تُحرِّكُ القنديل، وينشقُّ الصَّفا مما يلي المسجد، فتخرج الدابَّةُ من الصفا، أول ما يبدو رأسها ملمَّعةً ذاتَ وبرٍ وريش، لن يدركها طالبٌ ولن يفوتَها هاربٌ، تَسِمُ الناس مؤمنٌ وكافرٌ، أمَّا المؤمنُ فيُرى وجهُه كأنه كوكبٌ دريٌّ، وتكتب بين عينيه: مؤمن، وأما الكافرُ فتنكُتُ بين عينيه نكتةً سوداء وتكتب: كافر»[٢]. وأخرج ابن أبي شيبة والخطيب في «تالي التخليص» عن ابن عمر قال: تخرجُ الدابَّةُ من جبل جياد في أيام التشريق والناسُ بمنى[٣].

وأخرج ابن مردويه والبيهقيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرج دابةُ الأرض من جياد، فيبلغ صَدْرُها الركنَ ولم يخرج ذَنَبُها بعدُ، وهي دابةٌ ذاتُ وبرٍ وقوائم»[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٥.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٢٤-١٢٥. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: إسناده لا يصح. اهـ.
قلنا: في إسناده روَّاد بن الجراح عن سفيان بن سعيد الثوري، قال الحافظ في التقريب: روَّاد بن الجراح صدوق اختلط بأخرة فترك، وفي حديثه عن الثوري ضعف شديد.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/ ٦٧ و١٨١، وتالي تلخيص المتشابه ٢/ ٣٨٥.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١١٧، وأخرجه أيضاً الذهبي في الميزان ٣/ ٨٤-٨٥، وهو من طريق عقبة بن أبي الحسناء عن أبي هريرة، قال الذهبي: عقبة بن أبي الحسناء عن أبي هريرة مجهول.

وأخرج البخاريُّ في «تاريخه»، وابن ماجه وابن مردويه عن بريدة ﷺ قال: ذهب بي رسول الله ﷺ إلى موضعٍ بالبادية قريبٍ من مكة، فإذا أرضٌ يابسةٌ حولها رملٌ، فقال رسول الله ﷺ: «تخرجُ الدابةُ من هذا الموضع» فإذا شبرٌ في شبرٍ(١).

وجاء في بعض الروايات أنها تخرج من أقصى البادية، وفي بعضٍ من مدينة قوم لوط، وفي بعضٍ أنَّ لها ثلاثَ خرجاتٍ في الدهر: تخرجُ في أول خرجةٍ في أقصى اليمن منتشراً ذكرُها بالبادية، ولا يدخل ذكرُها القريةَ - يعني مكة - ثم تخرج خرجةً أخرى فيعلو ذكرها في البادية ويدخل القرية، ثم بينما الناس في أعظم المساجد حرمةً لم يَرُعْهم إلا وهي في ناحية المسجد من الركن الأسود وباب بني مخزوم، فيرفضُّ الناس عنها شتَّى، وتَثْبتُ عصابةٌ من المسلمين عرفوا أنهم لن يُعْجِزوا الله تعالى، فتنفُضُ عن رأسها الترابَ فتجلو عن وجوههم حتى كأنهم الكواكب الدرية(٢).

واختلف أيضاً في أنها هل تُخلَقُ يوم تخرج أو هي مخلوقةٌ الآن؟ فقيل: إنها تُخْلَقُ يوم تُخْرُج.

وقيل: إنها مخلوقة الآن، لكن لم تؤمر بالخروج؛ واستدلَّ بما روي عن ابن عباس أنه قرع الصفا بعصاه وهو مُحْرِمٌ؛ وقال: إنَّ الدابة لتسمعُ قَرْعَ عصايَ هذه. وعليه مَن يقول: إنها الثعبان، ومَن يقول: إنها الجسَّاسة التي تتجسَّسُ الأخبارَ للدجال، كما هو المرويُّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

وزعم بعضُهم أنها مخلوقةٌ في عهد الأنبياء المتقدِّمين عليهم السلام، فقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن: أنَّ موسى

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١١٧، والتاريخ الكبير ٣/ ١٦١، وسنن ابن ماجه (٤٠٦٧)، وفيه: فتر في شبر، وكذا أخرجه أحمد (٢٣٠٢٣)، وابن الجوزي في العلل (١٥٢٥). وهو من طريق خالد بن عبيد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه. قال ابن الجوزي: قال أبو حاتم بن حبان: خالد بن عبيد يروي عن أنس نسخة موضوعة، لا يحل كتب حديثه إلا على جهة التعجب.

(٢) قطعة من حديث أخرجه الطيالسي (١٠٦٩) عن حذيفة بن أسيد مرفوعاً بإسنادين، الأول فيه راوٍ مبهم، والثاني فيه طلحة بن عمرو، وهو متروك كما في الميزان ٢/ ٣٤٠-٣٤٢. وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٨٤، والطبري ١٨/ ١٢٢-١٢٣، والحاكم ٤/ ٤٨٤ وصححه عن حذيفة ﷺ موقوفاً.

عليه السلام سأل ربَّه سبحانه أن يُرِيَه الدابةَ، فخرجت ثلاثةَ أيام ولياليهنَّ تذهبُ في السماء لا يُرى واحدٌ من طرفيها، فرأى عليه السلام منظراً فَظيعاً فقال: يا ربّ رُدَّها. فردَّها[1].

وجاء في حديثٍ أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن»، والحاكم في «المستدرك» عن ابن مسعود: أنها إذا خرجتْ تقتلُ إبليس عليه اللعنةُ وهو ساجدٌ، وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها[2]، وتحقُّق هلاكه عنده. والأخبارُ في هذه الدابة كثيرة.

وفي «البحر» أنهم اختلفوا في ماهيتها، وشكلها، ومحلِّ خروجها، وعددِ خروجها، ومقدارِ ما يخرج منها، وما تفعل بالناس، وما الذي تخرج به، اختلافاً مضطرباً معارضاً بعضه بعضاً، فاطَّرَحْنا ذكره لأنَّ نقله تسويدٌ للورق بما لا يصحُّ وتضييعٌ لزمان نقله[3]. اهـ.

وهو كلامٌ حقٌّ وأنا إنما نقلتُ بعضَ ذلك دفعاً لشهوةِ مَن يحبُّ الاطِّلاع على شيءٍ من أخبارها صدقاً كان أو كذباً، وقد تصدَّى السفاريني في كتابه «البحور الزاخرة» للجَمْعِ بين بعض هذه الأخبارِ المتعارِضة، ولا أظنُّه أتى بشيء.

ثم إنَّ الأخبار المذكورة أقربُها للقبول الخبر الذي حسَّنه الترمذيُّ، ومن الأخبار في هذا الباب ما صحَّحه الحاكم، وتصحيحُه محكومٌ عليه بين المحدِّثين بعدم الاعتبار. وقُصارى ما أقول في هذه الدابة: إنها دابةٌ عظيمةٌ ذاتُ قوائم، ليست من نوع الإنسان أصلاً، يُخرجها الله تعالى آخر الزمان من الأرض.

وفي تقييد إخراجها بقوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ نوعُ إشارةٍ - على ما قيل - إلى أنَّ خلْقَها ليس بطريق التوالُدِ، بل هو بطريقِ التولُّد، نحو خَلْقِ الحشرات.

وقيل: إنه للإشارة إلى تكوُّنها في جوف الأرض، فيكون في إخراجها من الأرض رمزٌ إلى ما يكون في الساعة التي أُخرجت هي بين يديها، من تشقُّق الأرض

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/٦٦، والكلام من الدر المنثور ٥/١١٥.

(٢) الفتن (١٨٥٧)، والمستدرك ٤/٥٢١-٥٢٢ مطولاً من طريق ابن لهيعة، عن عبد الوهاب بن حسين، عن محمد بن ثابت البناني، عن أبيه، عن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ. قال الحاكم: عبد الوهاب بن حسين مجهول.

(٣) البحر ٧/٩٦-٩٧.

وخروج الناس من جوفها أحياءً كاملةً خلقتُهم. وفي هذا وما قبله ذهابٌ إلى تعلُّق «من الأرض» بـ «أخرجنا»، وهو الظاهرُ الذي ينبغي أن يعوَّل عليه، دون كونه متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «دابة»، أي: دابةٌ كائنةٌ من الأرض.

﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: تكلِّمهم بأنهم كانوا لا يتيقَّنون بآيات الله تعالى الناطقةِ بمجيء الساعة ومباديها، أو بجميع آياته التي من جملتها تلك الآيات.

وقيل: بآياته التي من جملتها خروجها بين يدي الساعة، وليس بذاك.

وإضافةُ الآيات إلى نون العظمة لأنها حكايةٌ منه تعالى لمعنى قولها لا لِعَيْنِ عبارتها. وقيل: لأنها حكايةٌ منها لقول الله عزَّ وجلَّ. وقيل: لاختصاصها به تعالى وأَثَرتِها عنده سبحانه، كما يقول بعض خواصِّ الملك: خيلُنا وبلادنا، وإنما الخيل والبلاد لمولاه. وقيل: هناك مضافٌ محذوف، أي: بآيات ربِّنا.

والظاهر أنَّ ضمير الجمع في «تكلمهم» للكفرة المنكِرينَ للبعث مطلقاً، لا للكفرة المحدَّثِ عنهم فيما سبق بخصوصهم، ضرورةَ أنهم ليسوا موجودين عند إخراج الدابة لتكلِّمهم، وتكليمُها إياهم وهم موتى بعيدٌ أو غيرُ معقول، والرجعةُ التي يعتقدها الشيعة لا نعتقدها، والآيةُ الآتية لا تدلُّ ـ كما يزعمون ـ عليها. ويسهِّل أمرَ ذلك أنه ليس مدار الحديث عنهم سوى ما هم عليه من الشرك والكفر بالآيات وإنكارِ البعث، وذلك موجودٌ فيهم وفي الكفرة الموجودين عند إخراج الدابة. ومثلُه ضميرا «عليهم» و«لهم». والمراد بـ «الناس» الكفرةُ الماضون مطلقاً، لا مشركو أهل مكة فقط، والمراد بإخبارها إياهم بذلك التحسُّرُ على ما فاتهم من الإيقان بما قَرُبَ وقوعُه، وظهور بطلان ما اعتقدوه فيه، ومؤاخذتهم على التكذيب به أشدَّ مؤاخذةٍ، وفي ذلك استدعاءٌ لأمثالهم إلى ترك ما هم عليه مما شاركوهم به من التكذيب وإنكارِ البعث. وجوِّز أن يراد بالناس مشركو أهل مكة، وأمرُ الإخبار على حاله.

وقيل: يجوز أن تكون الضمائر للناس لا للكفرة منهم خاصةً، ويرادُ بالناس إمَّا الكفرة المنكرون للبعث، والمراد بالإخبار التنفيرُ عما كانوا عليه من الإنكار ليثبُتَ المؤمنُ ويَرْتَدِع الكافر، وإما مشركو أهلِ مكة والمراد بالإخبار ذلك.

وقيل: المراد به التشنيعُ عليهم بين أحبَّائهم وأعدائهم، وكان بلسان الدابة ليكون أبلغَ؛ لِمَا فيه من ظهور خطئهم عندما لا يظنُّ إدراكه له فضلاً عن النطق به وإذاعتِه على سبيل التشنيع، وكان بين يدي الساعة ليردفه بلا كثيرِ فَصْلٍ ما يشبهه من شهادة الأعضاء عليهم، وهي أبعدُ وقوعاً من[1] تشنيع الدابة، وفي وقوعها بعده ما يشبه الترقِّي من العظيم إلى الأعظم.

وأيَّد كون الضمائر للناس على الإطلاق، وأنَّ المراد بالناس المذكورِ في النظم الكريم أهلُ مكة، ما روي عن وهب أنَّ الدابة تُخبر كلَّ مَن تراه أنَّ أهل مكة كانوا بمحمدٍ ﷺ والقرآنِ لا يوقنون.

وقيل: ضميرا «عليهم» و«لهم» لمشركي أهل مكة المحدَّثِ عنهم فيما سبق، ومعنى «لهم»: لذمِّهم أو نحوه، وضمير «تكلِّمهم» للناس الموجودين عند الإخراج، أو للكفرة كذلك، والمراد بالناس المذكورِ في النظم الكريم أولئك المشركون.

وقيل غير ذلك، ولا يخفى عليك بأدنى تأمُّلٍ ما هو الأولى والأظهرُ في الآية من الأقوال.

وأيًّا ما كان فوصفُ الناس بعدم الإيقان بالآيات مع أنهم كانوا جاحدين لها للإيذان بأنه كان من حقِّهم أن يوقنوا بها ويقطعوا بصحَّتها، وقد اتَّصفوا بنقيض ذلك.

وكونُ التكليم من الكلام هو الظاهر، ويؤيِّده قراءة أبيٍّ: «تُنبِّؤهم»[2]، وقراءةُ يحيى بن سلام: «تحدِّثهم»[3]. وقيل: هو من الكَلْم بمعنى الجَرْح، والتفعيلُ للتكثير، ويؤيِّده قراءةُ ابن عباس ومجاهدٍ وابنِ جبيرٍ وأبي زرعة والجحدريِّ وأبي حيوة وابن أبي عبلة: «تَكْلِمُهم» بفتح التاء وسكونِ الكاف وتخفيفِ اللام[4]. وقراءةُ بعضهم: «تجرحهم»[5] مكان: «تكلِّمهم».

---

(١) في (م): مع.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٥، والبحر ٧/ ٩٧.

(٣) البحر ٧/ ٩٧، وأخرجها الطبري ١٨/ ١٢٧ عن قتادة.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٢١-٢٢٢، والبحر ٧/ ٩٧.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٩٧.

وكأنه أريد بالجَرْح ما هو مقابل التعديل، ويرجعُ ذلك إلى معنى التشنيع، ورجوعُ الضمائر عليه إلى الكفرة المحدَّثِ عنهم فيما سبق مما لا غبار عليه. وقوله تعالى: (أَنَّ ٱلنَّاسَ) إلخ بتقدير: بأنَّ الناس، والمعنى: تشنِّع عليهم بهذا الكلام، ويراد بالناس فيه أولئك المشنَّعُ عليهم، وظاهر الآية وقوعُه في كلامها بهذا اللفظ، ولعل فَهْمَ السامعين كونَ المراد به مشركي مكة وقتَ التشنيع بمعونة قرينةٍ تدلُّ على ذلك إذ ذاك، ويحتمل أن يكون الواقع فيه بدله: مشركي مكة أو نحوه، لكن جاء في الحكاية بلفظ «الناس»، والنكتة فيه على ما قيل: الإيماءُ إلى كثرتهم. وقيل: الرمزُ إلى مزيدِ قبح عدم الإيقان منهم. ويُعلم مما ذكر وجهُ العدول عن «أنهم» إلى «أنَّ الناس».

وجوِّز أن يكون بتقدير حرف التعليل، أي: لأنَّ الناس.. إلخ، وهو تعليلٌ من جهته تعالى لجرحها إياهم، وفيه إقامة الظاهر مقام الضمير الراجع كالضمائر السابقة إلى مشركي مكة.

وجوِّز أن تقدَّر الباء على أنها سببية[(١)].

وجوِّز أيضاً أن يكون المراد بالكلم الجرحَ بمعنى الوسم، فقد روي أنها تسمُ جبهةَ الكافر، وفي روايةٍ أخرى: أنها تَخْطِمُ[(٢)] أنفه بعصا موسى عليه السلام التي معها. واختار بعضهم كونَ المراد به ما ذكر لِمَا في حديثٍ أخرجه نعيم بن حماد وابن مردويه عن [ابن] عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «ليس ذلك بحديثٍ ولا كلامٍ، ولكنه سمةٌ تسم مَن أمرها الله تعالى»[(٣)].

وسأل أبو الجوزاء[(٤)] ابنَ عباس رضي الله عنهما هل ما في الآية: تُكلِّمهم، أو: تَكْلِمهم؟

---

(١) أي: تخاطبهم أو تجرحهم بسبب انتفاء إيقانهم بآياتنا. البحر ٧/ ٩٧.

(٢) في (م): تحطم، وينظر ما سلف ص٦١ من هذا الجزء.

(٣) الفتن (١٨٦٩)، وأخرجه أيضاً الفاكهي في أخبار مكة (٢٣٥٩)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١١٥، وما بين حاصرتين من المصادر. وهو من طريق محمد بن عبد الرحمن بن البيلماني عن أبيه عن ابن عمر. وعبد الرحمن بن البيلماني ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب، وابنه محمد بن عبد الرحمن ضعيف أيضاً، وقد اتهمه ابن عدي وابن حبان.

(٤) في الأصل و(م) والبحر ٧/ ١٩٧: الحوراء، والمثبت من تفسير القرطبي ١٦/ ١٢٤ وهو الصواب؛ قال أبو أحمد العسكري في تصحيفات المحدثين ٢/ ٦٧٨: باب ما يصحف من =

فقال: كلٌّ ذلك تفعلُ؛ تكلِّم المؤمنَ، وتَكْلِمُ الكافرَ تَجْرحُه.

والظاهرُ أنَّ الضمائر على تقديرِ أنْ يراد بالكَلْمِ الجرحُ والوسمُ راجعةٌ إلى الكفرة على الإطلاق دون المحدَّثِ عنهم فيما سبق؛ إذ لا معنى لوَسْمِها إياهم، ويتعيَّنُ أن يراد بالناس أولئك الكفرة الذين عادت عليهم الضمائرُ، ولعل المعنى: تَسِمُهم لأنهم كانوا في علمنا بآياتنا لا يوقنون.

وقرأ ابن مسعود: «بأنَّ»[(١)] وجُعلت مؤيِّدةً لكون التكليم من الكلام، وهو مبنيٌّ على الظاهر، وإلا فالباء تحتمل أن تكونَ للسببية فتلائمُ كونه من الكَلْم بمعنى الجرح.

وقرأ بعض السبعة: «إنَّ» بكسر الهمزة[(٢)]، وخرِّج على إضمار القول، أو إجراءِ التكليم من الكلام مجراه، أو على أنَّ الكلام استئنافٌ مسوقٌ من جهته سبحانه للتعليل، فتدبَّر.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بيانٌ إجماليٌّ لحال المكذِّبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها، و«يوم» منصوبٌ بفعلٍ مضمَرٍ خُوطِبَ به نبيُّنا ﷺ، أي: اذكر يومَ، وتوجيهُ الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنَّ المقصود تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث قد مرَّ بيانُ سرِّه مراراً.

والمراد بهذا الحشر الحشرُ للتوبيخ والعذابِ بعد الحشر الكليِّ الشامل لكافةِ الخَلْقِ، وهو المذكورُ فيما بعدُ من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ إلى آخره [الآية: ٨٧]، ولعل تقديم ما تضمَّن هذا على ما تضمَّن ذلك دون العكس مع أنَّ الترتيب الوقوعيَّ يقتضيه؛ للإيذان بأنَّ كلًّا مما تضمَّنه هذا وذاك من الأحوال طامَّةٌ كبرى، وداهيةٌ دهياءُ، حقيقةٌ بالتذكير على حيالها، ولو روعي الترتيبُ الوقوعيُّ

= أبي الحوراء وأبي الجوزاء: أبو الحوراء ربيعة بن شيبان السعدي روى عن الحسن بن علي، وأبو الجوزاء أوس بن عبد الله الرَّبْعي روى عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو وعائشة. والخبر أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٦ إلا أن السائل فيه لابن عباس هو أبو داود نفيع الأعمى، وهو متروك كما ذكر الحافظ في التقريب.

(١) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٥، والبحر ٧/ ٩٧.

(٢) هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر. التيسير ص١٦٩، وقرأ بها من العشرة خلف وأبو جعفر. النشر ٢/ ٣٣٨.

لربما تُوهِّم أنَّ الكلَّ داهيةٌ واحدةٌ قد أُمِرَ بذكرها كما مرَّ في سورة «البقرة»[1]، مع أنَّ الأنسب بذكرِ أنَّ الكفرة لا يوقنون بالآيات، المرادِ به أنهم يكذِّبون بها، أن يُذكر بعده ما تضمَّن التوبيخ منه عزَّ وجلَّ والتعذيبَ على ذلك التكذيب.

و«من» الثانيةُ بيانيةٌ جيء بها لبيان «فوجاً»، و«من» الأولى تبعيضية؛ لأنَّ كلَّ أمَّةٍ منقسمةٌ إلى مصدِّقٍ ومكذِّبٍ، أي: ويوم نجمعُ من كلِّ أمةٍ من أمم الأنبياء عليهم السلام أو من أهل كلِّ قرنٍ من القرون جماعةً كثيرةً مكذِّبةً بآياتنا. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: يُحبَسُ أوَّلُهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ والمناقشة، وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعُدِ أطرافهم ما لا يخفى.

وقيل: «من» الثانية تبعيضية كالأولى، والمراد بالفوج جماعةٌ من الرؤساء المتبوعين للكفرة، وعن ابن عباس: أبو جهل والوليد بنُ المغيرة وشعبة بنُ ربيعة، يساقون بين يدي أهل مكة. وهكذا يُحشر قادةُ سائر الأمم بين أيديهم إلى النار.

وهذه الآيةُ من أشهر ما استَدلَّ بها الإمامية على الرجعة؛ قال الطبرسيُّ في تفسيره «مجمع البيان»[2]: واستَدَلَّ بهذه الآية على صحة الرجعة مَن ذهب إلى ذلك من الإمامية، بأن قال: إنَّ دخول «من» في الكلام يوجب التبعيض، فدلَّ بذلك على أنه يُحشر قومٌ دون قوم، وليس ذلك صفةُ يوم القيامة الذي يقول فيه سبحانه: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧]، وقد تظاهرت الأخبارُ عن أئمة الهدى من آلِ محمدٍ ﷺ في أنَّ الله تعالى سيُعيد عند قيام المهديِّ قوماً ممن تقدَّم موتُهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته، ويبتهجوا بظهور دولته، ويُعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم وينالوا بعضَ ما يستحقُّونه من العقاب بالقتل على أيدي شيعته، أو الذلِّ والخزي بما يشاهدون من علوِّ كلمته، ولا يشكُّ عاقلٌ أنَّ هذا مقدورٌ لله تعالى غيرُ مستحيلٍ في نفسه، وقد فعل الله تعالى ذلك في الأمم الخالية، ونطق القرآن بذلك في عدَّة مواضع مثل قصة عزير وغيره عليه السلام، وصحَّ عن النبيِّ ﷺ قوله: «سيكون في أمتي كلُّ ما كان في بني إسرائيل حَذْوَ النعل

---

(١) ١/ ٢٧٠.

(٢) ٢٠/ ٢٥١-٢٥٢.

بالنعل والقذَّةِ بالقذَّة، حتى لو أنَّ أحدهم دخل جُحْرَ ضبٍّ لدخلتموه»(١).

وتأوَّل جماعةٌ من الإمامية ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة والأمرِ والنهي دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات، وأوَّلوا الأخبار الواردة في ذلك لمَّا ظنُّوا أنَّ الرجعة تنافي التكليف، وليس كذلك لأنه ليس فيها ما يُلْجِئ إلى فعل الواجب والامتناع من القبيح، والتكليفُ يصحُّ معها كما يصحُّ مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة، كفَلْقِ البحر وقَلْبِ العصا ثعباناً وما أشبه ذلك، ولأن الرجعة لم تَثْبُتْ بظواهر الأخبار المنقولة فيتطرَّقُ التأويل عليها، وإنَّما المعوَّل عليه في ذلك إجماعُ الشيعة الإمامية وإن كانت الأخبارُ تعضدُه وتؤيِّدُه. انتهى.

وأقول: أولُ من قال بالرجعة عبد الله بن سبأ، ولكن خصَّها بالنبي ﷺ، وتبعه جابرٌ الجعفيُّ في أول المئة الثانية فقال برجعة الأمير كرم الله تعالى وجهه أيضاً، لكنْ لم يوقِّتها بوقتٍ، ولمَّا أتى القرنُ الثالث قرَّر أهلُه من الإمامية رجعةَ الأئمة كلِّهم وأعدائهم وعيَّنوا لذلك وقتَ ظهور المهديِّ، واستدلُّوا على ذلك بما رَوَوْه عن أئمَّة أهل البيت، والزيديَّةُ كافةً منكِرونَ لهذه الدعوى إنكاراً شديداً، وقد ردُّوها في كتبهم على وجهٍ مستوفًى بروايات عن أئمةِ أهل البيت أيضاً تُعارِض رواياتِ الإمامية.

والآية(٢) المذكورة هنا لا تدلُّ على الرجعة حسبما يزعمون، ولا أظنُّ أنَّ أحداً منهم يزعم دلالتها على ذلك، بل قصارى ما يقول: إنها تدلُّ على رجعة المكذِّبين أو رؤسائهم، فتكون دالَّةً على أصل الرجعة وصحتِها لا على الرجعةِ بالكيفية التي يذكرونها، وفي كلام الطبرسيِّ ما يشير إلى هذا.

وأنت تعلم أنه لا يكاد يصحُّ إرادةُ الرجعة إلى الدنيا من الآية لإفادتها أنَّ الحشر المذكور لتوبيخ المكذِّبين وتقريعهم من جهته عزَّ وجلَّ، بل ظاهرُ ما بعدُ

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج أحمد (١١٨٩٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: «لتتَّبعنَّ سَنَنَ بني إسرائيل شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع، حتى لو دخل رجل من بني إسرائيل جحر ضبٍّ لتبعتموهم فيه» وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي سعيد، والرواية الصحيحة: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر...» وهي عند أحمد (١١٨٠٠)، والبخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) في (م): والآيات.

يقتضي أنه تعالى بذاته يوبِّخهم ويقرِّعهم على تكذيبهم بآياته سبحانه، والمعروفُ من الآيات لمثل ذلك هو يومُ القيامة، مع أنها تفيدُ أيضاً وقوعَ العذاب عليهم واشتغالَهم به عن الجواب، ولم تُفِدْ موتَهم ورجوعَهم إلى ما هو أشدُّ منه وأبقى وهو عذابُ الآخرة الذي يقتضيه عظمُ جنايتهم، فالظاهرُ استمرارُ حياتهم وعذابهم بعد هذا الحشر، ولا يتسنَّى ذلك إلا إذا كان حشرَ يوم القيامة.

وربما يقال أيضاً: مما يأبى حَمْلَ الحشر المذكور على الرجعة أنَّ فيه راحةً لهم في الجملة حيث يفوتُ به ما كانوا فيه من عذاب البرزخ الذي هو للمكذِّبين كيفما كان أشدُّ من عذاب الدنيا، وفي ذلك إهمالٌ لِمَا يقتضيه عظمُ الجناية.

وأيضاً كيف تصحُّ إرادةُ الرجعة منها، وفي الآيات ما يأبى ذلك، منه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] فإنَّ آخر الآية ظاهرٌ في عدم الرجعة مطلقاً.

وكونُ الإحياء بعد الإماتة والإرجاع إلى الدنيا من الأمور المقدورة له عزَّ وجل مما لا ينتطحُ فيه كبشان، إلا أنَّ الكلام في وقوعه، وأهلُ السنَّةِ ومَن وافقهم لا يقولون به ويمنعون إرادته من الآية، ويستندون في ذلك إلى آيات كثيرة.

والأخبارُ التي روتها الإمامية في هذا الباب قد كفتنا الزيديَّةُ مؤنةَ ردِّها، على أنَّ الطبرسيَّ أشار إلى أنها ليست أدلةً، وأنَّ التعويل ليس عليها، وإنما الدليلُ إجماعُ الإمامية، والتعويلُ ليس إلا عليه، وأنت تعلم أنَّ مدار حجِّيَّة الإجماع على المختار عندهم حصولُ الجزم بموافقة المعصوم، ولم يحصل للسنيِّ هذا الجزمُ من إجماعهم هذا، فلا ينتهضُ ذلك حجةً عليه، مع أنَّ له إجماعاً يخالفُه، وهو إجماعُ قومه على عدم الرجعة الكاشف عمَّا عليه سيِّدُ المعصومين ﷺ، وكلُّ ما تقوله الإمامية في هذا الإجماع يقول السنيُّ مثله في إجماعهم.

وما ذكر من قوله ﷺ: «سيكون في أمتي» الحديثَ[١] لا تُعلمُ صحتُه بهذا اللفظ، بل الظاهرُ عدمُ صحته، فإنه كان في بني إسرائيل ما لم يذكر أحدٌ أنه يكون

(١) سلف قريباً.

مثله في هذه الأمة، كنَتْقِ الجبل عليهم حين امتنعوا عن أَخْذِ ما آتاهم الله تعالى من الكتاب، والبقاءِ في التِّيْهِ أربعين سنةً حين قالوا لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ونزولِ المنِّ والسلوى عليهم فيه، إلى غير ذلك. وبالجملة القولُ بالرجعة حَسْبَما تزعمُ الإمامية مما لا ينتهضُ عليه دليلٌ، وكم من آيةٍ في القرآن الكريم تأباه غيرُ قابلةٍ للتأويل، وكأنَّ ظُلْمةَ بُغْضِهم للصحابة ﷺ حالتْ بينهم وبين أن يحيطوا علماً بتلك الآيات، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الضلالات.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب ﴿قَالَ﴾ أي: اللهُ عزَّ وجلَّ موبِّخاً لهم على التكذيب، لا سائلاً سبحانه وتعالى سؤال استفسار؛ لاستحالته منه عزَّ وجل، وعدمِ وقوعِ الاستفسار عن الذنب يوم القيامة من غيره تعالى من الملائكة عليهم السلام ـ وإن كان ممكناً ـ على ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] على أحد التفسيرين. والالتفاتُ لتربية المهابة.

﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ الناطقة بلقاء يومكم هذا، وقولُه تعالى: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ جملةٌ حاليةٌ مفيدةٌ لزيادة شناعة التكذيب وغايةِ قبحه، ومؤكِّدةٌ للإنكار والتوبيخ، أي: أكذَّبتم بها بادي الرأي غيرَ ناظرين فيها نظراً يؤدي إلى العلم بكنهها، وأنَّها حقيقةٌ بالتصديق حتماً، وهذا ـ على ما قيل ـ ظاهرٌ في أنَّ المراد بالآيات فيما تقدَّم الآياتُ التنزيلية، لأنها المنطويَةُ على دلائل الصحة وشواهدِها التي لم يحيطوا بها علماً مع وجوب أن يتأمَّلوا ويتدبَّروا فيها، لا نفسُ الساعة وما فيها.

وقال بعضُ الأجلَّة: إنَّ التكذيب يأبى بظاهره أن يراد بالآيات الآياتُ التكوينيةُ كالمعجزات ونحوِها؛ إذ ليس فيها نسبةٌ يتعلَّق بها ذلك، وإرادةُ الأعمِّ تستدعي اعتبارَ التغليب، وكونُ التكذيب بمعنى نفيِ دلالتها على المراد منها ـ كتصديق النبيِّ ﷺ في المعجزات ونحوه ـ في نحوها من آيات الأنفس والآفاق = خلافُ الظاهر، فالأولى إبقاؤه على الظاهر، وحَمْلُ الآيات على الآيات التنزيلية.

وقيل: هو معطوفٌ على «كذبتم» والهمزةُ لإنكار الجمع والتوبيخِ عليه، كأنه قيل: أجمعتُم بين التكذيب بآياتي وعدمِ التدبُّر فيها.

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أم ماذا كنتم تعملون بها، على أنَّ المراد التبكيتُ، وأنهم لم يعملوا إلا التكذيب، وهو أحدُ وجهين ذكرهما الزمخشريُّ[(١)]. وقرَّره في «الكشف» بأنَّ «أم» متصلةٌ، والأصل: أكذَّبتُم بآياتي أم صدَّقتم، والمعادَلةُ بين الفعلين المتعلِّقين بالآيات، لكن جيءَ بالأول مجيء معلومٍ محقَّقٍ، وبالثاني لا على ذلك النهج تنبيهاً على انتفائه، كأنه قيل: أهو ما عُهِدَ من التكذيب أم حَدَثَ حادثٌ؟ ووجهُ الدلالة أنه جعل العديل مردَّداً فيه، فلم يجعل التصديق مثل التكذيب في الاستفهام عن حاله، بل إنما شكَّ في وجود معادل التكذيب، لأن قوله تعالى: (أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) يشملُ التكذيب المذكورَ أولاً وعديلَه الحقيقيَّ، وهذه قرينةٌ أنه لم يُجأ بالاستفهام جهلاً بالحال، بل إنما أُريد التبكيتُ والإلزام على معنى: قل لي: ويحك إنْ حَدَثَ أمرٌ آخرُ، بتًّا بالقول بأنه لم يحدثْ ما يضادُّ الأول، وإشعاراً بأنه إذا سئل عن الذي عَمِلَه لم يُجِبْ إلَّا بما قدَّم أولاً. ثم قال: وهذا وجهٌ لائحٌ، وإنما جاز دخول «أم» على «ما» الاستفهامية لهذه النكتة، فإنها خرجت عن حقيقة الاستفهام إلى البتِّ بالحكم، لا بالمعادل بل بالأول.

وثانيهما أنَّ المعنى: أَمَا[(٢)] كان لكم عملٌ في الدنيا إلا الكفرَ والتكذيبَ بآيات الله تعالى «أم ماذا كنتم تعملون» من غير ذلك. وقرَّره في «الكشف» أيضاً بأنَّ «أم» على اتِّصالها، ولكنَّ المعادَلة بين التكذيب وكلِّ عملٍ غيرِه تعلَّق بالآيات أوْ لا، والإيرادُ على صيغة الاستفهام للنكتة السابقة، فدلَّ على أنه لم يكن لهم عملٌ إلا التكذيب والكفر كأنهم لم يُخلقوا إلا لذلك، فلأَجْلِه لم يعملوا غيره، وجَعَلَ سائرَ أعمالِهم ـ لاستمرار الكفر بهم ـ نفسَ الكفرِ أو كَلَا عملٍ.

ثم قال: وهذا وجهٌ وجيهٌ بالغٌ، ومنه ظهر أنَّ دخول «أم» على أسماء الاستفهام غيرُ منكَرٍ إذا خَرَجَتْ عن حقيقة الاستفهام، وهو منقاسٌ[(٣)] معنًى وإن كانت مراعاةُ

---

(١) في الكشاف ٣/ ١٦١.
(٢) في الأصل و(م): ما، والمثبت من الكشاف.
(٣) في (م): مقاس.

صورة الاستفهام أيضاً منقاسةً من حيث اللفظ، لكنهم يرجِّحون في نحوه جانبَ المعنى ولا يلتفتون لفت اللفظ. اهـ.

واختار أبو حيان(١) كون «أم» منقطعةً، فتقدَّر بـ «بل» وحدها، وهي للانتقال من توبيخ إلى توبيخ، وليس في ذلك شائبةٌ من دخول الاستفهام على الاستفهام، وما تقدَّم أبعدُ مغزًى.

و«ماذا» تحتمِلُ أن تكون بجملتها استفهاماً منصوبَ المحلِّ بخبر «كان» وهو «تعملون»، أو مرفوعةً على الابتداء والجملةُ بعده خبرُه والرابطُ محذوفٌ؛ أي: تعملونه.

وتحتمل أن تكون «ما» فيها استفهاماً، و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي»، وهما مبتدأ وخبر، والجملةُ بعدُ صلةُ الموصول، والعائدُ إليه محذوفٌ.

وقرأ أبو حيوة: «أمَاذا» بتخفيف الميم(٢)، وفيها دخولُ الاستفهام على الاستفهام، وقد سمعتَ وجهه.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ حلَّ بهم العذابُ الذي هو مدلولُ القول الناطق بحلوله، وهو كبُّهم في النار ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي: بسبب ظلمهم الذي هو تكذيبُهم بآيات الله تعالى ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ بحجَّةٍ لانتفائها عنهم بالكلِّية، وابتلائهم بما حلَّ بهم من العذاب الأليم.

وقيل: يُختم على أفواههم فلا يقدرون على النطق بشيءٍ أصلاً.

وفي «البحر»(٣): أنَّ انتفاء نُطْقِهم يكون في موطنٍ من مواطن القيامة، أو من فريقٍ من الناس؛ لأنَّ القرآن الكريم ناطقٌ بأنهم ينطقون في بعض المواطن بأعذارٍ، وما يرجون به النجاةَ من النار.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ الرؤيةُ قلبيةٌ لا بصريةٌ؛ لأنَّ نفسَ الليل والنهار وإن كانا من المبصَراتِ لكنَّ جَعْلَهما كما ذكر من قبيل المعقولات، أي:

---

(١) في البحر ٧/ ٩٨.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧١، والبحر ٧/ ٩٩.
(٣) ٧/ ٩٩.

ألم يعلموا أنَّا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا فيه بالقرار والنوم، قال بعض الرجَّاز:

النومُ راحةُ القوى الحسيَّة من حركاتٍ والقوى النفسية[1]

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ أي: ليبصِروا بما فيه من الإضاءة طرقَ التقلُّب في أمور معاشهم، فبولغ حيث جعل الإبصار الذي هو حالُ الناس حالاً له، ووَصْفاً من أوصافه التي جُعِلَ عليها بحيث لا ينفكُّ عنها، ولم يسلك في الليل هذا المسلك لِمَا أنَّ تأثير ظلام الليل في السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار في الإبصار.

والمشهور أنَّ في الآية صنعةَ الاحتباك، والتقدير: جعلنا الليل مظلماً ليسكنوا فيه والنهارَ مبصِراً لينتشروا فيه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في جَعْلِهما كما وُصفا، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإشعار ببعد درجته في الفضل ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ عظيمةً ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٨٦﴾ فإنه يدلُّ على التوحيد، وتجويزِ الحشر، وبعثِ الرسل عليهم السلام؛ لأنَّ تعاقُبَ النور والظلمة على وجهٍ مخصوص غيرِ متعيِّنٍ بذاته لا يكون إلا بقدرةٍ قاهرةٍ ليست لِمَا أشركه المشركون، وأنَّ مَن قدر على إبدال الظلمة بالنور في مادةٍ واحدةٍ[2] قدر على إبدال الموت بالحياة في موادِّ الأبدان، وأنَّ مَن جعل الليل والنهار سببين لمنافعهم ومصالحهم لعله لا يخلُّ بما هو مناطُ جميع مصالحهم في معاشهم ومعادهم وهو بعثة الرسل عليهم السلام.

وفي «إرشاد العقل السليم»: «لآيات» عظيمةً كثيرةً «لقوم يؤمنون»، دالَّةً على صحة البعث وصِدْقِ الآيات الناطقة به دلالةً واضحةً، كيف لا وإنَّ مَن تأمَّل في تعاقُب الليل والنهار واختلافهما على وجوهٍ بديعةٍ مبنيَّةٍ على حِكَم رائقةٍ تَحارُ في فهمها العقولُ ولا يحيطُ بها إلَّا علم الله جلَّ وعلا، وشاهَدَ في الآفاق تبدُّل ظلمة الليل المحاكيةِ للموت بضياءِ النهار المضاهي للحياة، وعايَنَ في نفسه

---

(١) ذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٩٩.

(٢) في (م): واحد، والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٥٩، والكلام منه.

تبدُّل النوم الذي هو أخو الموت بالانتباه الذي هو مثلُ الحياة، قضى بأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها وأنَّ الله تعالى يبعث مَن في القبور قضاءً متقَناً، وجَزَمَ بأنه تعالى قد جعل هذا أنموذجاً له ودليلاً يستدلُّ به على تحقُّقه، وأنَّ الآيات الناطقةَ به وبكون حال الليل والنهار برهاناً عليه وسائرَ الآياتِ كلّها حقٌّ نازلٌ من عند الله تعالى[1]. اهـ.

ولعل الأولَ أولى، لاسيما إذا ضمَّ إلى الاستدلال على جواز الحشر مشابهةُ النوم واليقظة للموت والحياة، لِمَا في هذا من خفاءِ الدلالة.

وتخصيصُ المؤمنين بالذكر لِمَا أنهم هم المنتفعون بالآيات، ووجهُ رَبْطِ هذه الآية بما قبلها أنها كالدليل على صحة ما تضمَّنته من الحشر.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ إما معطوفٌ على «يوم نحشر» منصوبٌ بناصبه، أو منصوبٌ بمضمَرٍ معطوفٍ على ذلك الناصب. والصورُ ـ على ما في «التذكرة» ـ قرنٌ من نور، وذكر البخاري عن مجاهد أنه كالبوق[2].

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرنٌ يُنْفَخُ فيه»[3].

والمشهور أن صاحب الصور هو إسرافيل عليه السلام؛ وذكر القرطبيُّ أنَّ الأمم مُجْمِعةٌ على ذلك، وهو مخلوقٌ اليوم، فقد أخرج الترمذيُّ وحسَّنه عن أبي سعيد الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «كيف أَنْعَمُ وصاحبُ الصور قد الْتقَمَ القرنَ واستمع الإِذْنَ متى يؤمر بالنفخ»؟! فكأنَّ ذلك ثَقُل على أصحاب رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام لهم: «قولوا: حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل»[4].

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٣.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ص١٧٨، وقول مجاهد في صحيح البخاري قبل الحديث (٦٥١٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٤٣٠) و(٣٢٤٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٦٥٠٧)، وأبو داود (٤٧٤٢). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٤) سنن الترمذي (٢٤٣١) و(٤٢٤٣)، وأخرجه أيضاً أحمد (١١٠٣٩)، وابن حبان (٨٢٣). وينظر شواهده في حاشية المسند.

وروي أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما طَرَفَ[(١)] صاحب الصور مُذْ وكِّل به مستعدًّا بحذاء العرش مخافةَ أن يؤمر بالصيحة قبل أن يرتدَّ [إليه] طرفُه، كأن عينيه كوكبان درِّيَّان»[(٢)].

وجاء عن أبي هريرة من حديث مرفوع: «إنَّ عِظَمَ دارةٍ فيه كعرض السماوات والأرض»[(٣)] وهذا مما يؤمَنُ به وتفوَّضُ كيفيتُه إلى علَّام الغيوب.

وقيل: إنَّ الصور بسكون الواو بمعنى الصُّوَر بضم الصاد وفتح الواو جمع صورة، وعليه أبو عبيدة[(٤)].

والكلام في الوجهين على حقيقته، وقيل: في الكلام استعارةٌ تمثيلية، شبَّه هيئة انبعاث الموتى من القبور إلى المحشر إذا نُودوا بالقيام بهيئة قيام جيشٍ نُفِخَ لهم في المزمار المعروف، وسَيْرِهم إلى محلٍّ عُيِّنَ لهم.

والأولُ قولُ الأكثرين، وعليه المعوَّل؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٦٨] ظاهرٌ في أنَّ الصُّوْر ليس جمعَ صورة وإلَّا لقال سبحانه: فيها، بدل «فيه». وارتكابُ التأويل بجعل الكلام من باب التمثيل ظاهرٌ في إنكار أن يكون هناك صُوْرٌ حقيقةً، وهو خلافُ ما نَطَقَتْ به الأحاديثُ الصِّحاح، وقد قال أبو الهيثم على ما نقل عنه القرطبيُّ في «تفسيره»: مَن أنكر أن يكون الصُّورُ قرناً فهو كمن أنكر العرش والصراط والميزان، وطلب لها تأويلات[(٥)].

---

(١) في الأصل و(م): أطرق، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) أخرجه الحاكم ٥/ ٤٥٨-٤٥٩، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٢١٨٥)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٩٣)، وما بين حاصرتين من المصادر. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسن إسناده الحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٨.

(٣) قطعة من حديث طويل جدًّا، أخرجه إسحاق بن راهويه (١٠)، والطبراني في الطوال (٣٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٨٨)، ووقع في الأصل و(م): دائرة، والمثبت من المصادر. قال ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٦٨: مداره على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه، وينظر تتمة كلامه ثمة، وكذلك كلام ابن كثير فيه عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام. وسيأتي مزيد كلام عليه ص٨٦ من هذا الجزء.

(٤) مجاز القرآن ١/ ١٩٦.

(٥) تفسير القرطبي ٨/ ٤٣٠، وذكره أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة (صور)، وأبو الهيثم هو الرازي، اشتهر بكنيته.

وهذا النفخ قيل: المراد به النفخة الثانية، وإليه ذهب صاحب «الغنيان»(١)، واختاره العلَّامة أبو السعود وقال: الذي يستدعيه سياقُ النظم الكريم وسباقُه ذلك، وأنَّ المراد بالفزع في قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ما يعتري الكلَّ عند البعث والنشور من الرعب والتهيُّبِ الضروريَّيْنِ الجِبلِّيين بمشاهدةِ الأمور الهائلة الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق.

ثم قال: وقيل: المراد بالنفخ هي النفخة الأولى، وبالفزع هو الذي يستتبع الموت لغاية شدة الهول، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨] فيختصُّ أثرها بمن كان حيًّا عند وقوعها دون مَن مات قبل ذلك من الأمم. وقيل: إنَّ المراد بهذه النفخة نفخةُ الفزع التي تكون قبل نفخة الصَّعق، التي أُريدَتْ بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص:١٥] وشنَّع على كِلَا القولين بما هو مذكورٌ في تفسيره(٢).

وقال العلَّامة الطيبيُّ: الحقُّ أنَّ المراد بقوله تعالى: (يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ) هو النفخةُ الأولى، وقولُه تعالى الآتي: (وَكُلٌّ) إلخ إشارةٌ إلى النفخة الثانية.

واعلم أنهم اختلفوا في عدد النفخات(٣)؛ فقيل: ثلاث: نفخةُ الصَّعقِ المذكورةُ في قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ)، ونفخةُ البعث المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١]، ونفخةُ الفزع المذكورةُ في الآية المذكورة ها هنا، وهو اختيار ابن العربي. وقيل: اثنتان، ونفخةُ الفزع هي نفخةُ الصَّعْقِ؛ لأنَّ الأمرين: الفزعَ بمعنى الخوف والصَّعْقَ بمعنى الموت لازِمانِ لها(٤)، قال القرطبيُّ(٥): والسنَّةُ كحديث مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ وهو طويلٌ، منه مع حذفٍ: «ثم يُنْفَخُ في الصور. . فأولُ مَن يسمعُه رجلٌ يَلُوطُ حوضَه، فيُصْعَقُ، ثم

(١) كما في البحر ٧/ ٩٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٣-٣٠٤.
(٣) في الأصل و(م): النفخة، والمثبت من التذكرة ص١٨٤، والكلام منه.
(٤) أي: فزعوا فزعاً ماتوا منه. التذكرة ص١٨٤، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢١٧.
(٥) في التذكرة ص١٨٤، والتفسير ١٦/ ٢١٧-٢١٨.

يُصْعقُ الناس.. ثم يُنفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون»[١] - تدلُّ على أنَّ النفخ مرتين لا ثلاثة وهو الصحيح، ونفخُ الفزع هو نفخُ الصعق بعينه؛ لاتحاد الاستثناء في آيتيهما.

وتعقَّب في الرسالة المسماة بـ: «شرح العشر في معشر الحشر» المنسوبةِ لابن الكمال، بأنه لا دلالةَ في الحديث على عدم النفخة الثالثة، غايتُه أنه وسائر الأحاديث الواردة على نسقه ساكتٌ عنها، ولا يلزمُ من ذلك عدمُها، وكذا لا دلالةَ في اتحاد الاستثناء في الآيتين أن يكون المذكور فيهما نفخةً واحدةً، وهذا ظاهر.

ثم قال: والصحيح عندي ما في القول الأول، من أنَّ نفخة الفزع غيرُ نفخة الصَّعْقِ؛ فإنَّ حديث الصحيحين: «لا تخيِّروني من بين الأنبياء، فإنَّ الناس يَصْعَقون يومَ القيامة، فأكونُ أوَّلَ مَن يُفِيقُ، فإذا أنا بموسى عليه السلام آخِذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أَفاقَ قبلي أو جُزي بصَعقةِ الطور»[٢] صريحٌ في أنَّ الصعق يومَ القيامة، وأنْ لا موتَ فيه، فهو فزعٌ بلا موت، فمن قال: هي ثلاث نفخات: نفخةُ الفزع، ثم نفخةُ الصَّعْق وهو الموت، ثم نفخة البعث، فقد أصاب في التفرقةِ بين نفخة الفزع ونفخةِ الصَّعْق إلَّا أنه لم يُصِبْ في زَعْمِه أنَّ نفخة الفزع قبل نفخة الصعق، كيف وقد دلَّ حديثُ الصحيحين المذكورُ على عموم حكم نفخة الفزع للأنبياء عليهم السلام الذين ماتوا قبل نفخة الصعق، أي: الموت، قال القاضي عياض[٣]: إنَّ نفخة الفزع بعد النشر حين تنشقُّ السماوات والأرض. فظهر أنَّ النفخات ثلاثٌ بل أربع: نفخةٌ يميتُ الله تعالى جميع الخلق بها كما جاء في الحديث، وعند ذلك ينادي سبحانه: لمن الملك اليوم، وينادي على ذلك قولُه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]. ونفخةُ البعث كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] ونفخةُ الصعق وهي نفخةُ الفزع بعينها، وقد سمعتَ آيتيهما. ونفخةٌ للإفاقة كما قال تعالى

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٤٠).

(٢) صحيح البخاري (٤٦٣٨)، وصحيح مسلم (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، واللفظ للبخاري، ولفظ مسلم: «فلا أدري أكان ممن صَعِقَ فأفاق قبلي أو اكتفى بصعقة الطور».

(٣) في إكمال المعلم بفوائد مسلم ٧/ ٣٥٧.

بعد ذكر نفخة الصعق: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ وقد عرفتَ ما في زَعْم أنَّ نفخةَ الصعق هي نفخةُ الفزع بعينها، فتدبَّر. انتهى.

وتعقَّبه بعضُهم بأنه يلزم حينئذٍ على القول بالمغايرة بين نفخةِ الفزع ونفخة الصَّعْقِ أن تكون النفخاتُ خمساً، ولم نسمع متنفِّساً يقول بذلك. وأيضاً فيه القولُ بأنَّ نفخة الصعق بعد نفخة البعث، ويأباه قولُه ﷺ: «أنا أوَّلُ مَن تنشقُّ عنه الأرض، فأرفع رأسي فإذا موسى متعلِّقٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فما أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله تعالى»[1] فإنَّ انشقاق الأرض عنه ﷺ بعد نفخة البعث لا محالةَ، فإذا عقبه رفعُ رأسه عليه الصلاة والسلام، ومفاجأةُ كونِ موسى عليه السلام متعلِّقاً بقائمةٍ من قوائم العرش، فأين نفخةُ الصعق؟

ولا يخفى أنَّ كون النفخات خمساً لم يُسمع هو الغالبُ على الظنِّ، ويتوقَّفُ قبولُ ما ذكره ثانياً على صحة ما ذكره من الخبر. ولعل القائل بما تقدَّم من وراء المنع.

وقيل: الأظهر أنَّ النفخات ثلاثٌ: الأولى نفخةُ الصَّعْقِ بمعنى الموت ـ كما هو أحد معنييه ـ المدلولُ عليها بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والثانية نفخةُ البعث المدلولُ عليها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والثالثةُ نفخةُ الفزع المدلولُ عليها بما هنا، وهي على ما سمعتَ عن القاضي عياض بعد النشر حين تنشقُّ السماوات والأرض.

وأصله كما قال الراغب: انقباضٌ ونِفَارٌ يعتري الشخصَ من الشيء المخيف[2]. والمرادُ به الرعب الشديد، ولعل الصَّعْقَ المذكور في حديث

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الحليمي في المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٣١، وعنه القرطبي في التذكرة ص١٦٧، وأخرجه ابن مردويه من حديث أبي هريرة ﷺ كما في فتح الباري ٦/ ٤٤٥ بلفظ: «أنا أول مَن تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فأنفض التراب عن رأسي، فآتي قائمة العرش، فأجد موسى قائماً عندها، فلا أدري أنفض التراب عن رأسه قبلي، أو كان ممن استثنى الله».

(٢) مفردات الراغب (فزع).

الصحيحين هو غشيٌ يترتَّبُ عليه بلا واسطةٍ وعلى النفخ بواسطته، وقد نصَّ في «الأساس» على هذا المعنى له، قال: يقال: صَعِقَ الرجلُ، إذا غُشي عليه من هدَّةٍ أو صوتٍ شديد يسمعه[1]. ويدلُّ على أنه بمعنى الغَشْي قولُه عليه الصلاة والسلام: «فأكونُ أولَ مَن يُفيق»؛ لأنَّ الإفاقة إنما تكون من الغشي دون الموت، ولم يعبّر هنا بالصعق مراداً به الغشيُ المذكور في الحديث لئلَّا يُتَوَهَّم إرادةُ معنى الموت منه لخلوِّه هنا عن القرينة التي في الحديث واقترانه بما يلائم ذلك.

وقد يُختار ما هو المشهورُ من أنَّ النفخة اثنتان، ويجاب عما يُشْعِرُ بالزيادة، فالنفخةُ الأولى نفخةُ الصَّعق بمعنى الموت بحالٍ هائلة، فَبِها يموتُ مَن في السماوات والأرض من الأحياء قبيل ذلك إلَّا مَن شاء الله تعالى، ويدلُّ عليها آيةُ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ﴾ إلخ، والنفخةُ الثانية نفخةُ البعث المدلولُ عليها بآية: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ وبينهما في المشهور أربعون سنة، وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً: «أربعون» بدون ذكر التمييز، فقيل: أربعون يوماً؟ فقال أبو هريرة: أَبَيْتُ، فقيل: أربعون شهراً؟ فقال: أَبَيْتُ، فقيل: أربعون سنة؟ فقال: أبيتُ[2]. ونفخةُ الفزع بمعنى الرعب والخوفِ هي هذه النفخةُ بعينها، ووَجْهُ ذلك أنه ينفخ في الصور للبعث فيبعث الخلقُ ويُنشرون، فإذا تحقَّقوا يومَ القيامة وشاهدوا آثار عظمةِ الله تعالى فزعوا ورعبوا إلا مَن شاء الله تعالى، وترتَّب الفزعُ على النفخ بالفاء للإشارة إلى قلَّة الزمان الفاصل لسرعة تحقُّقهم ومشاهدتهم ما ذكر، والإضافة في قولنا: نفخة البعث، وقولنا: نفخةُ الفزع، من إضافة السبب إلى المسبَّب، إلا أنَّ سببية النفخ للبعث بلا واسطةٍ، وسببيتُه للفزع بواسطة، وحديث الصحيحين: «لا تخيِّروني من بين الأنبياء فإنَّ الناس يصعقون يومَ القيامة» إلخ ليس فيه سوى إثبات الصَّعقِ بمعنى الغشي كما يرشدُ إليه ذكرُ الإفاقة للناس يومَ القيامة، ولا تعرُّضَ له لنفخٍ يترتَّبُ عليه ذلك، نعم التعبيرُ بالصَّعق على ما ذكروا في معناه يقتضي أن يكون هناك هدَّةٌ أو صوتٌ شديد يسمعُه مَن يَسْمَعُهُ فيُغْشَى عليه، إلا أنه لا يعيِّن النفخَ؛ لجواز أن يكون ذلك من صوتٍ حادثٍ من

(١) أساس البلاغة (صعق).
(٢) صحيح البخاري (٤٨١٤)، وصحيح مسلم (٢٩٥٥).

انشقاق السماوات الكائنِ بعد البعث، والفزع من يوم القيامة وما شاهدوا من أهواله.

ومنع بعضُهم اقتضاءه ذلك لجواز أن يراد به الغشيُ لحدوث أمرٍ عظيم من أمور يوم القيامة غير النفخ. وقيل: هو من فروع النفخ للبعث، وذلك أنه ينفخ فتبعث الخلائق، فيتحقَّقون ما يتحقَّقون، ويشاهدون ما يشاهدون، فيفزعون فيُغْشَى عليهم إلا ما شاء الله تعالى، وحديثُ الصحيحين مما لا يأبى ذلك، واحتياجُ الإفاقة لنفخةٍ أخرى في حيِّز المنع.

وقيل في بيان اتِّحاد نفخةِ البعث ونفخةِ الفزع: إنَّ المراد بالفزع الإجابةُ والإسراعُ للقيام لربِّ العالمين، وقد صرَّحت الآياتُ بإسراع الناس عند البعث، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١] وقال سبحانه: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣]، ولا يخفى بعدُه، واحتياجُ توجيه الاستثناء بعدُ عليه إلى تكلُّفٍ، فالأَوْلَى أن يوجَّه الاتِّحاد بما سبق، فتأمَّل.

وإيرادُ صيغة الماضي مع كون المعطوف [عليه][1] أعني «ينفخ» مضارعاً للدلالة على تحقُّق الوقوع، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ [هود:٩٨].

ووَجْهُ تأخيرِ بيان الأحوال الواقعة في ابتداء هذه النفخة عن بيان ما يقع بعدُ من حشر المكذِّبين قد تقدَّم الكلام فيه[2]، فتذكَّر فما في العهد من قِدَم.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ متصلٌ كما هو الظاهرُ من «مَن»، ومفعولُ المشيئة محذوفٌ، أي: إلا من شاءَ اللهُ تعالى أنْ لا يَفْزَعَ. والمراد بذلك على ما قيل: مَن جاء بالحسنة؛ لقوله تعالى فيهم: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل:٨٩].

وتعقِّب بأنَّ الفزع في تلك الآية غيرُ الفزع المراد من قوله سبحانه: (فَفَزِعَ) إلخ، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٣، والكلام منه.

(٢) ص٧٠-٧١ من هذا الجزء.

واختلف الذين حملوا النفخ هنا على النفخة الأولى التي تكون للصعق ـ أي: الموت ـ في تعيينهم؛ فقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وروي ذلك عن مقاتل والسديِّ. وقال الضحاك: هم الوِلْدانُ، والحورُ العينُ، وخَزَنَةُ الجنة، وحَمَلةُ العرش. وحَكَى بعضُهم هذين القولين في المراد بالمستثنى على تقديرِ أن يراد بالنفخ النفخةُ الثانية، وبالفزع الخوفُ والرعب.

وأوْرِدَ عليهما أنَّ حملة العرش ليسوا من سكَّان السماوات والأرض لأنَّ السماوات في داخل الكرسيِّ، ونسبتها إليه نسبةُ حلقةٍ في فلاة، ونسبةُ الكرسيِّ إلى العرش كهذه النسبة أيضاً، فكيف يكون حملتُه في السماوات. وكذا الولدانُ والحورُ وخَزَنةُ الجنة؛ لأنَّ هؤلاء كلّهم في الجنة، والجنانُ جميعُها فوق السماوات ودون العرش على ما أفصح عنه قوله ﷺ: «سقفُ الجنة عرشُ الرحمن»[1] فما فيها من الولدان والحور والخزنة لا يصحُّ استثناؤهم ممن في السماوات والأرض، وأمَّا جبرائيل ومَن معه من الملائكة المقرَّبين عليهم السلام فهم من الصافِّين المسبِّحين حول العرش، وإذا كان العرشُ فوق السماوات لا يمكن أن يكون الاصطفافُ حوله في السماوات.

وأجيب بأنه يجوز أن يراد بالسماوات ما يعمُّ العرش والكرسيَّ وغيرَهما من الأجرام العلوية، فإنه الأليقُ بالمقام، وقد شاع استعمالُ «مَن في السماوات والأرض» عند إرادة الإحاطة والشمول.

وقيل: لا مانع من حَمْل السماوات على السماوات السبع، والتزامِ كون الاستثناء على القولين المذكورين منقطعاً، ولا يخفى ما فيه.

وعَدَّ بعضُهم ممن استُثني موسى عليه السلام، وأنت تعلم أنه لا يكاد يصحُّ إلَّا إذا أريد بالفزع الصعقُ يومَ القيامة بعد النفخة الثانية، أمَّا إذا أريدَ به ما يكونُ في الدنيا عند النفخة الأولى فلا، على أنَّ عَدَّه عليه السلام ممن لا يُصْعَقُ يومَ القيامة بعد قوله ﷺ في حديث الصحيحين السابق: «فلا أدري أفاق قبلي أو جُزي بصعقة

---

(١) الحديث بهذا اللفظ في مسند الفردوس للديلمي ٢/٣٣٨ عن أنس، وفي الباب عن أبي هريرة عند أحمد (٨٤١٩)، وفيه: «... فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس الأعلى فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن...».

الطور» يحتاجُ إلى خبرٍ صحيحٍ واردٍ بعد ذلك.

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنهم الشهداء عند ربِّهم يُرْزَقون[١]، وصحَّحه القاضي أبو بكر بن العربي كما قال القرطبيُّ[٢]، وبه ردٌّ على مَن زعم أنه لم يَرِدْ في تعيينهم خبرٌ صحيحٌ، وإلى ذلك ذهب ابنُ جبيرٍ، ولفظه: هم الشهداء متقلِّدو السيوف حولَ العرش[٣]. وكذا ذهب إليه الحليميُّ[٤] وقال: هو مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثم ضعَّف غيره من الأقوال. وقد ذكره غيرُ واحدٍ من المفسِّرين، إلا أنَّ بعضهم ذكره في تفسير «مَن شاء الله» في آية الصعق، وبعضٌ آخَرُ ذكره في تفسيره في آية الفزع، فتدبَّر.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كلٌّ واحدٍ من الفازعين المبعوثين عند النفخة ﴿أَتَوْهُ﴾ أي: حضروا الموقفَ بين يدي ربِّ العزَّة جلَّ جلالُه للسؤال والجواب والمناقشة والحساب. وقيل: أي: رجعوا إلى أمره تعالى وانقادوا.

وضميرُ الجمع باعتبار معنى «كل»، وقرأ قتادةُ: «أتاه»[٥] فعلاً ماضياً مسنداً لضمير «كل» على لَفْظِها. وقرأ أكثر السبعة: «آتوه» اسم فاعل[٦].

﴿دَاخِرِينَ ۝٨٧﴾ أي: أذلَّاء. وقرأ الحسن والأعمش: «دَخِرين» بغير ألف[٧]، وهو على القراءتين نصبٌ على الحال من ضمير «كل».

---

(١) قطعة من حديث أبي هريرة الطويل الذي سلف تخريجه ص٧٩ من هذا الجزء، وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) في تفسيره ١٦/ ٢١٩. وقد ضعف هذا الحديث البيهقي وعبد الحق، وقال الحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٨-٣٦٩: مدار إسناده على إسماعيل بن رافع، وقد اضطرب في سنده مع ضعفه... وقد صحح الحديث من طريق إسماعيل بن رافع القاضي أبو بكر بن العربي في سراجه، وتبعه القرطبي في التذكرة، وقول عبد الحق في تضعيفه أولى، وضعَّفه قبله البيهقي.

(٣) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٥/ ١٤٩.

(٤) في المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة القرطبي في التذكرة ص١٦٧.

(٥) القراءات الشاذة ص١١١، والمحتسب ٢/ ١٤٥، والبحر ٧/ ١٠٠.

(٦) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٩، وقرأ «أتوه» من السبعة حمزة وعاصم في رواية حفص، ومن العشرة خلف.

(٧) القراءات الشاذة ص١١١، والبحر ٧/ ١٠٠.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ عطفٌ على «ينفخ» داخلٌ في حكم التذكير، و«ترى» من رؤية العين، وقوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: ثابتةً في أماكنها لا تتحرَّك، حالٌ من فاعل «ترى»، أو من مفعوله، وجوِّز أن يكون بدلاً من سابقه.

وقوله عز وجل: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ حالٌ من ضمير «الجبال» في «تحسبها»، وجوِّز أن يكون حالاً من ضميرها في «جامدة»، ومنعه أبو البقاء لاستلزامه أن تكون جامدةً ومارةً في وقت واحد(١).

أي: وترى الجبال رأيَ العين ساكنةً والحالُ أنها تمرُّ في الجوِّ مرَّ السحاب التي تسيِّرها الرياح سيراً حثيثاً، وذلك أنَّ الأجرام المجتمعةَ المتكاثرةَ العدد على وجه الالتصاق إذا تحرَّكت نحو سَمْتٍ لا تكاد تَبينُ حركتُها، وعليه قولُ النابغة الجعديِّ في وصفِ جيشٍ:

بأَرْعَنَ مثلِ الطود تحسبُ أنهم وقوفٌ لحاجٍ والركابُ تُهَمْلِجُ(٢)

وقيل: شبَّه مرَّها بمرِّ السحاب في كونها تسير سيراً وسطاً، كما قال الأعشى:

كأنَّ مشيتها من بيتِ جارتها مرُّ السحائب لا ريثٌ ولا عجل(٣)

والمشهورُ في وجه الشبه السرعةُ وأن منشأ الحسبان المذكور ما سمعتَ.

وقيل: إنَّ حسبان الرائي إياها جامدةً مع مرورها لهول ذلك اليوم، فليس له ثبوتُ ذهنٍ في الفكر في ذلك حتى يتحقَّق كونَها جامدةً. وليس بذاك.

وقد أدمج في التشبيه المذكور تشبيهَ حالِ الجبال بحال السحاب في تَخَلْخُلِ الأجزاء وانتفاشها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]. واختلف في وقت هذا، ففي «إرشاد العقل السليم»(٤): أنه مما يقع

---

(١) الإملاء ٤/ ١٤٢.
(٢) ديوان النابغة الجعدي ص١٨٧، والمعاني الكبير ٢/ ٨٩١، والكشاف ٣/ ١٦٢. قال ابن قتيبة: أرعن جيش كثير مثل رعن الجبل، والرعن أنف يتقدم من الجبل فينسلُّ في الأرض، والطود: الجبل، أي: من كثرتهم تحسب أنهم وقوف وركابهم تسير.
(٣) ديوان الأعشى ص١٤٤.
(٤) ٦/ ٣٠٤.

بعد النفخة الثانية كالفزع المذكور عند حشر الخلق، يبدِّلُ الله تعالى شأنُه الأرضَ غيرَ الأرضِ، ويغيِّر هيئتها، ويسيِّر الجبال عن مقارِّها على ما ذكر من الهيئة الهائلة يشاهدها(١) أهلُ المحشر، وهي وإن اندكَّتْ وتصدَّعتْ عند النفخة الأولى لكنَّ تسييرها وتسويةَ الأرض إنما يكون بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ [طه:١٠٥-١٠٨]، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨] فإن اتِّباع الداعي الذي هو إسرافيل وبروزَ الخلق لله تعالى لا يكونان إلا بعد النفخة الثانية، وقد قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧]: إنَّ صيغة الماضي في المعطوفِ مع كون المعطوف عليه مستقبلاً للدلالة على تقدُّم الحشر على التسيير والرؤية، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك. اهـ.

وقال بعضهم: إنه مما يقع عند النفخة الأولى، وذلك أنه ترجُف الأرض والجبال، ثم تنفصل الجبالُ عن الأرض وتسير في الجوِّ، ثم تسقط فتصير كثيباً مهيلاً، ثم هباءً منبثًّا، ويرشدُ إلى أنَّ هذه الصيرورةَ مما لا يترتَّب على الرجفة ولا تعقبها بلا مهلةٍ العطفُ بالواو دون الفاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل:١٤]، والتعبيرُ بالماضي في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧] لتحقُّق الوقوع كما مرَّ آنفاً، واليوم في قوله تعالى: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ) الآية، وقوله تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ) إلخ، يجوزُ أن يجعل اسماً للحين الواسع الذي يقع فيه ما يكون عند النفخة الأولى من النسف والتبديل وما يكون عند النفخة الثانية من اتِّباع الداعي والبروزِ لله تعالى الواحد القهَّار، وقد حُمل اليوم على ما يسعُ ما يكون عند النفختين في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة:١٣-١٥] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة:١٨] وهذا كما تقولُ: جئتُه عامَ كذا، وإنما مجيئك في وقت من أوقاته.

---

(١) في الإرشاد: ليشاهدها.

وقد ذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّ تبديل الأرض كالبروز بعد النفخة الثانية؛ لما في صحيح مسلم عن عائشة: قلتُ: يا رسول الله، أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ فأين يكون الناس؟ قال: «على الصراط»(١).

وجاء في غير خبرٍ ما يدلُّ على أنه قبل النفخة الأولى. وجمع صاحب «الإفصاح» بين الأخبار بأنَّ التبديل يقع مرتين: مرةً قبل النفخة الأولى، وأخرى بعد النفخة الثانية(٢). وحكى في «البحر» أنَّ أول الصفات ارتجاجُها، ثم صيرورتُها كالعهن المنفوش، ثم كالهباء بأن تتقطَّع بعد أن كانت كالعهن، ثم نَسْفُها بإرسال الرياح عليها، ثم تطييرُها بالريح في الجو كأنها غبارٌ، ثم كونُها سراباً(٣). وهذا كلُّه على ما يقتضيه كلام السفاريني قبل النفخة الثانية، ومَن تتبَّع الأخبار وجدها ظاهرةً في ذلك، والآيةُ هنا تحتمل كونَ الرؤية المذكورة فيها قبل النفخة الثانية وكونها قبلها، فتأمَّل.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ الظاهرُ أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة السابقة، وهي جملةُ الحال، والعاملُ فيه ما دلَّتْ عليه من كون ذلك من صُنْعِه تعالى، فكأنه قيل: صَنَعَ اللهُ تعالى ذلك صنعاً، وهذا نحوُ: له عليَّ ألفٌ عرفاً، ويسمَّى في اصطلاحهم: المؤكِّد لنفسه، وإلى هذا ذهب الزجَّاج وأبو البقاء(٤).

وقال بعض المحققين(٥): مؤكِّدٌ لمضمون ما قبله على أنه عبارةٌ عمَّا ذكر(٦) من النفخ في الصور وما ترتَّب عليه جميعاً، قُصد به التنبيهُ على عظم شأن تلك

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٩١)، وهو عند أحمد (٢٤٠٦٩).

(٢) ينظر التذكرة ص١٩٢. وصاحب الإفصاح كما ذكر القرطبي هو أبو الحسن شيث بن إبراهيم. وهو المعروف بابن الحاج القِنَاوي القفطي، نحوي لغوي عروضي، من تصانيفه: تهذيب ذهن الواعي في إصلاح الرعية الراعي، صنفه للملك الناصر صلاح الدين، وحَزُّ الغلاصم في إفحام المُخاصِم، توفي سنة (٥٩٨هـ). معجم الأدباء ١١/ ٢٧٧، وفوات الوفيات ٢/ ١٠٨.

(٣) البحر ٧/ ١٠٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٠، والإملاء ٤/ ١٤٢.

(٥) هو أبو السعود في تفسيره ٦/ ٣٠٥.

(٦) في الأصل: ذكرنا.

الأفاعيل وتهويل أمرها، والإيذان بأنها ليست بطريق إخلال نظام العالم وإفساد أحوال الكائنات بالكلِّية من غير أن يكون فيه حكمةٌ، بل هي من قَبيل بدائع صُنْعِ الله تعالى المبنيَّةِ على أساس الحكمة المستَتْبِعة للغايات الجميلة التي لأَجْلها رتِّبت مقدِّماتُ الخلق ومبادي الإبداع على الوجه المتين والنهج الرصين كما يُعْرِبُ عنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أتقن خَلْقَه وسوَّاه على ما تقتضيه الحكمة. اهـ، وحُسْنُه ظاهر.

وقال الزمخشريُّ: هو من المصادر المؤكِّدة، إلا أنَّ مؤكَّدَه محذوفٌ، وهو الناصبُ لـ «يوم ينفخ»، والمعنى: ويوم ينفخ في الصور فكان كيت وكيت أثاب الله تعالى المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال سبحانه: «صُنْعَ الله»، يريد عزَّ وجلَّ به الإثابةَ والمعاقبة[1]، إلى آخر ما قال.

وهو يدلُّ على أنه فَرَضَ اليومَ ممتدًّا شاملاً لزمانِ النفختين وما بعدهما، وجَعَلَ المصدر مؤكِّداً لهذا المحذوف المدلولِ عليه بالتفصيل في قوله تعالى الآتي: (مَن جَآءَ) (وَمَن جَآءَ) وباستدعاء «يوم ينفخ» ناصباً، وفرَّع عليه ما فرَّع.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ المصدر المؤكِّد لمضمون الجملة لا يجوز حَذْفُ جملته؛ لأنه منصوبٌ بفعلٍ من لفظه، فيجتمعُ حذفُ الفعل الناصب وحذفُ الجملة التي أكَّد مضمونُها بالمصدر، وذلك حذفٌ كثيرٌ مخلٌّ، ومَن تتبَّع مساق هذه المصادر التي تؤكِّد مضمونَ الجملة وَجَدَ الجمل مصرَّحاً بها لم يَرِدِ الحذفُ في شيءٍ منها؛ إذ الأصل أن لا يحذف المؤكَّد، إذ الحذفُ ينافي التأكيد؛ لأنه من حيث أكِّد معتنًى به، ومن حيث حُذِفَ غيرُ معتنًى به[2].

وكأنَّ الداعي له إلى العدول عن الظاهر على ما قيل أنَّ الصنع المتقَنَ لا يناسبُ تسيير الجبال ظاهراً، وأنت تعلم أنَّ هذا على طرف الثمام، نعم الأحسنُ جَعْلُه مؤكِّداً لمضمون ما ذُكر من النفخ في الصور وما بعده، وجيء به للتنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل على ما سمعتَه عن بعض المحققين.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٦٢.

(٢) البحر ٧/ ١٠١.

وقيل: هو منصوبٌ على الإغراء، بمعنى: انظروا صنعَ الله. وهو كما ترى.

واستُدلَّ بالآية على جواز إطلاق الصانع على الله عزَّ وجلَّ، وهو مبنيٌّ على مذهب مَن يرى أنَّ ورود الفعل كافٍ.

واستدلَّ بعضهم على الجواز المذكور بالخبر الصحيح: «إنَّ الله صانعُ كلِّ صانعٍ وصنعته»[(١)].

وتعقِّب بأنَّ الشرط أن لا يكون الواردُ على جهة المقابلة نحو ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤] ـ خلافاً للحليميِّ على ما يقتضيه قولُه: يُستَحَبُّ لمن ألقى بذراً في أرض أن يقول: الله تعالى الزارعُ والمُنْبتُ والمبلِّغُ[(٢)] ـ وما في هذا الحديث من هذا القبيل.

وأيضاً ما في الخبر بالإضافة فلا يدلُّ على جواز الخالي عنها، ألا ترى أنَّ قوله ﷺ: «يا صاحبَ كلِّ نجوى أنت الصاحبُ في السفر»[(٣)] لم يأخذوا منه أنَّ الصاحب من غير قيدٍ من أسمائه تعالى، فكذا هو لا يؤخذُ منه أنَّ الصانع من غير قيدٍ من أسمائه تعالى، فتأمَّله.

ونحوُ هذا الاستدلالُ بخبرِ مسلم: «ليَعْزِمْ في الدعاء فإنَّ الله تعالى صانعٌ ما شاء لا مُكْرِهَ له»[(٤)] فإنَّ ما فيه من قبيل المضاف أو المقيَّد، والأَوْلَى الاستدلالُ بما صحَّ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٩٤٢)، والذهبي في السير ١٢/ ١٢٧ من حديث حذيفة ﷺ، وذكره السيوطي في الجامع الصغير كما في فيض القدير ٢/ ٢٣٨ ورمز له بالصحة. وأخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص٢٥، ومن طريقه البيهقي في الأسماء والصفات (٥٧٠) بلفظ: «إن الله يصنع...».
وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٣٥٨)، والبزار (٢١٦٠ ـ كشف)، والحاكم ١/ ٣١ و٣٢، وفيه عند ابن أبي عاصم والبزار: «خلق»، بدل: «يصنع» وعند الحاكم: «خالق». قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٣٣٣.

(٣) ذكره بهذا اللفظ المناوي في فيض القدير ٢/ ٢٣٨، والكلام منه، وأخرجه الحاكم ١/ ٥٤٤-٥٤٥ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مطولاً دون قوله: أنت الصاحب في السفر. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، فإن رواته كلهم مدنيون ثقات.

(٤) صحيح مسلم (٢٦٧٩): (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

في حديث الطبرانيِّ والحاكم: «اتقوا الله تعالى فإنَّ الله تعالى فاتحٌ لكم وصانعٌ»[١] ولا فرق بين المعرَّف والمنكَّر عند الفقهاء؛ لأنَّ تعريف المنكَّر لا يغيِّر معناه، ولذا يجوِّزون في تكبيرة الإحرام: الله أكبر.

واستدلَّ القاضي عبد الجبار[٢] بعموم قوله سبحانه: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ على أنَّ قبائح العبد ليست من خَلْقِه سبحانه، وإلا وَجَبَ وصفُها بأنها متقَنةٌ والإجماع مانعٌ منه.

وأجيب بأنَّ الآية مخصوصةٌ بغير الأعراض؛ لأنَّ الإتقان بمعنى الإحكام، وهو من أوصاف المركَّبات، ولو سُلِّم فوَصْفُ كلِّ الأعراض به ممنوعٌ، فما من عامٍّ إلا وقد خصَّ، ولو سلِّم فالإجماعُ المذكورُ ممنوعٌ بل هي متقنةٌ أيضاً، بمعنى أنَّ الحكمة اقتضتها.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ جعَلَه بعضُ المحقِّقين تعليلاً لكون ما ذُكر من النفخ في الصور وما بعده صنعاً محكماً له تعالى ببيانِ أنَّ علمه تعالى بظواهر أفعال المكلَّفين وبواطِنِها ممَّا يستدعي إظهارها وبيانَ كيفياتها على ما هي عليه من الحُسْن والسوء، وترتيبَ أَجْزِيتها[٣] عليها بعد بعثهم وحشرهم، وتسييرَ الجبال حَسْبَما نطق به التنزيل.

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ بيانٌ[٤] لِمَا أُشيرَ إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها[٥] عليها. وقال العلَّامة الطيبي: قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾[٦] .. إلخ استئنافٌ وقع جواباً لقولِ مَن يسأل: فماذا يكون بعد هذه القوارع؟ فقيل: إنَّ الله خبيرٌ بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم، وفصَّل ذلك بقوله سبحانه: ﴿مَن جَآءَ﴾ إلخ.

---

(١) المعجم الكبير (٣٦٤٨)، والمستدرك ٣/ ٣٨٢-٣٨٣ من حديث خبّاب بن الأرَتّ رضي الله عنه. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٢) كما في تفسير الرازي ٢٤/ ٢٢٠.
(٣) في (م): أخيريتها، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٥، والكلام منه.
(٤) في الأصل و(م): بياناً، والمثبت من تفسير أبي السعود.
(٥) في (م): أخيريتها، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.
(٦) في الأصل و(م): إن الله، والصواب ما أثبتناه.

والخطابُ في «تفعلون» لجميع المكلَّفين، وقرأ العَرَبيان وابن كثير: «يفعلون» بياء الغيبة[١].

والمراد بالحسنة على ما روي عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والحسن والنخعي وأبي صالح وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة: شهادةُ أنْ لا إله إلا الله.

ورَوَى عبد بن حميد وابنُ جريرٍ وابنُ المنذر عن أبي هريرة[٢]، وأبو الشيخ وابنُ مردويه والديلميُّ عن كعب بن عُجْرة[٣]، أنَّ النبيَّ ﷺ فسَّرها بذلك. والمراد بهذه الشهادة التوحيدُ المقبول.

وقيل: المراد بالحسنة ما يتحقَّقُ بما ذُكر وغيره من الحسنات، وهو الظاهرُ نظراً إلى أنَّ اللام حقيقةٌ في الجنس. وقال بعضهم: الظاهرُ الأول؛ لأنَّ الظاهر حَمْلُ المطلَق على الكامل، وأكملُ جنسِ الحسنةِ التوحيدُ، ولو أريد العموم لكان الظاهرُ الإتيان بالنكرة، ويكفي في ترجيح الأول ذهابُ أكثر السلف إليه، وإذا صحَّ الحديثُ فيه لا يكاد يُعْدَلُ عنه. وكان النخعيُّ يحلف على ذلك ولا يستثني.

والظاهرُ أنَّ «خيراً» للتفضيل، وفَضْل الجزاء على الحسنة كائنةً ما كانت، قيل: باعتبارِ الأضعاف أو باعتبار الدوام. وزعم بعضُهم أن الكلام بتقديرِ مضافٍ، أي: خيرٌ من قَدْرِها، وهو كما ترى.

وقال بعض الأجلَّة: ثوابُ المعرفة النظرية والتوحيدِ الحاصل في الدنيا هي المعرفةُ الضروريةُ على أكمل الوجوه في الآخرة، والنظرُ إلى وجهه الكريم جلَّ جلالُه، وذلك أشرف السعادات.

---

(١) التيسير ص١٦٩، والنشر ٢/ ٣٣٩ عن ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر من رواية هشام، وهي قراءة يعقوب من العشرة، والعربيان هما: أبو عمرو البصري وابن عامر الشامي.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٩-١٤٠، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١١٨، ووقع في الأصل و(م): ابن مردويه، بدل: ابن المنذر، والمثبت من الدر. وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه (١٩٢) و(٥٤٢).

(٣) الدر المنثور ٥/ ١١٨، وأخرجه أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٠/ ١٠٩-١١٠ من طريق مقاتل بن سليمان، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي إياس، عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ. ومقاتل بن سليمان قال عنه الحافظ في التقريب: كذَّبوه وهَجَروه.

وقيل: إنَّ «خيراً» ليس للتفضيل و«من» لابتداء الغاية، أي: فله خيرٌ من الخيور مبدؤه ومنشؤه منها، أي: من جهة الحسنة، وروي ذلك عن ابن عباسٍ والحسنِ وقتادةَ ومجاهدٍ وابنِ جُريجٍ وعكرمة.

﴿وَهُم﴾ أي: الذين جاؤوا بالحسنة ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ أي: فزعٍ عظيمٍ هائلٍ لا يَقادَرُ قدرُه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفٌ منصوبٌ بقوله تعالى: ﴿ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وبه أيضاً يتعلَّق (مِّن فَزَعٍ)، والأمنُ يستعمل بالجارِّ وبدونه، كما في قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]. وجوِّز أن يكون الظرفُ منصوباً بـ «فزع»، وأن يكون منصوباً بمحذوفٍ وقع صفةً له، أي: من فزعٍ كائنٍ في ذلك الوقت.

وقرأ العربيان وابن كثير، وإسماعيل بن جعفر عن نافع: «فزعِ يومِئذٍ» بإضافة «فزع» إلى «يوم»، وكَسْرِ ميم «يوم». وقرأ نافع في غير رواية إسماعيل كذلك إلا أنه فتح الميم[1] فَتْحَ بناءٍ لإضافة «يوم» إلى غيرِ متمكِّنٍ.

وتنوين «إذ» للتعويض عن جملة، والأَوْلَى على ما في «البحر» أن تكون الجملةُ المحذوفةُ المعوَّضُ هو عنها ما قَرُبَ من الظرف، أي: يوم إذ جاء بالحسنة. وجوِّز أن يكون التقدير: يوم إذ ينفخ في الصور، لا سيما إذا أريد بذلك النفخِ النفخةُ الثانية[2]. واقتصر عليه شيخُ الإسلام، وفسَّر الفزع بالفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهورِ الحسنات والسيئات، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وحَكَى عن الحسن أنَّ ذاك حين يؤمر بالعبد إلى النار، وعن ابن جُرَيْجٍ أنه حين يُذْبَح الموتُ ويُنادَى: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت[3]. وهو كذلك في قراءة التنوين وقراءةِ الإضافة، ولا يراد به في القراءة الثانية جميعَ الأفزاع الحاصلة يومئذٍ، ومدارُ الإضافة كونُ ذلك أعظم الأفزاع وأكبرَها كأنَّ ما عداه ليس بفزعٍ بالنسبة إليه.

---

(١) وهو المشهور عنه، وبه قرأ الكوفيون وأبو جعفر، وقرأ الباقون بكسر الميم. وقرأ الكوفيون أيضاً «من فزعٍ» بالتنوين، والباقون بغير تنوين. التيسير ص١٧٠، والنشر ٢/ ٣٤٠.

(٢) البحر ٧/ ١٠٢.

(٣) خبر ذبح الموت بصورة كبش سلف ١٦/ ٨٩.

وقال تبعاً لغيره: إنَّ الفزع المدلولَ عليه بقوله تعالى: «ففزع» إلخ ليس إلا التهيُّبُ والرعبُ الحاصلُ في ابتداء الإحساس بالشيء الهائل، ولا يكاد يخلو منه أحدٌ بحكم الجِبِلَّة وإن كان آمناً من لحاق الضرر به(١).

وقال أبو عليٍّ(٢): يجوز أن يراد بالفزع في القراءتين فزعٌ واحد، وأن يراد به الكثرةُ لأنه مصدر، فإنْ أُريدَ الكثرةُ شمل كلَّ فزعٍ يكون في القيامة، وإن أُريدَ الواحدُ فهو الذي أشير إليه بقوله تعالى: (لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ). وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً تتمةُ الكلام(٣) في الآية.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهو الشركُ، وبه فسَّرها مَن فسَّر الحسنة بشهادة أنْ لا إله إلا الله، وقد علمتَ مَن هم. وقيل: المراد بها ما يعمُّ الشرك وغيره من السيئات. ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: كبُّوا فيها على وجوههم منكوسين، فإسنادُ الكبِّ إلى الوجوه مجازيٌّ لأنه يقال: كبَّه وأكبَّه، إذا نكَّسه. وقيل: يجوز أن يراد بالوجوه الأنفسُ، كما أريدتْ بالأيدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] أي: فكُبَّتْ أنفسهم في النار.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ على الالتفات للتشديد، أو على إضمار القول، أي: مقولاً لهم ذلك، فلا التفاتَ فيه لأنه في كلامٍ آخر، ومن شروط الالتفات اتحادُ الكلامين كما حقِّق في المعاني.

واستدل بعض المرجئة القائلين بأنه لا يضر مع الإيمان معصيةٌ كما لا ينفع مع الكفر طاعةٌ بقوله تعالى: (مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ) إلخ على أنَّ المؤمن العاصي لا يعذَّبُ يوم القيامة، وإلا لم يكن آمناً من فزعِ مشاهدةِ العذاب يومئذٍ، وهو خلافُ ما دلَّت عليه الآيةُ الكريمة.

وأجيب بمنع دخول المؤمن العاصي في عموم الآية؛ لأنَّ المراد بالحسنة الحسنةُ الكاملة، وهو الإيمان الذي لم تدنِّسْهُ معصيةٌ، وذلك غيرُ متحقِّقٍ فيه، أو

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٥.

(٢) في الحجة ٥/ ٤٠٩، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٠٢.

(٣) في (م): للكلام.

لأنَّ المتبادر المجيءُ بالحسنة غيرَ مشوبةٍ بسيئةٍ، وهو أيضاً غيرُ متحقِّقٍ فيه، ومَن تحقَّق فيه فهو آمنٌ من ذلك الفزع، بل لا يبعد أن يكون آمناً من كلِّ فزعٍ من أفزاع يوم القيامة.

وإن سلِّم الدخولُ قلنا: المرادُ بالفزع الآمنِ منه مَن جاء بالحسنة ما يكون حين يُذبَحُ الموت وينادي المنادي: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت، كما سمعتَ عن ابن جريج، أو حين تُطْبِقُ جهنَّمُ على أهلها فيفزعون كما روي عن الكلبي، وليس ذلك إلَّا بعد تكاملِ أهل الجنة دخولاً الجنة، والعذابُ الذي يكون لبعض عصاة المؤمنين إنما هو قبل ذلك، والآيةُ لا تدلُّ على نفيه بوجهٍ من الوجوه.

وأجاب بعضهم بأنه يجوزُ أن يكون المؤمن العاصي آمناً من فزع مشاهدة العذاب وإنْ عُذِّبَ؛ لعلمه بأنه لا يخلد، فيعدُّ عذابه كالمشاقِّ التي يتكلَّفها المحبُّ في طريق وصالِ المحبوب، وهذا في غاية السقوط كما لا يخفى.

واستدلَّ بعضُ المعتزلة بقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ إلخ على عدم الفرق بين عذاب الكافر وعذاب المؤمن العاصي؛ لأنَّ «مَن جاء بالسيئة» يعمُّها، وقد أُثْبِتَ له الكبُّ على الوجوه في النار، فحيث كان ذلك بالنسبة إلى الكافر على وجه الخلود كان بالنسبة إلى المؤمن العاصي كذلك.

وأجيب بأنَّ المراد بالسيئة الإشراكُ كما روي تفسيرُها به عن أكثر سلف الأمة، فلا يدخل المؤمنُ العاصي فيمَن جاء بالسيئة، ولو سلِّم دخولُه بناءً على القول بعموم السيئة فلا نسلِّم أنَّ في الآية دلالةً على خلوده في النار، وكونُ الكبِّ في النار بالنسبة إلى الكافر على وجه الخلود لا يقتضي أن يكون بالنسبة إليه كذلك، فكثيراً ما يحكم على جماعةٍ بأمرٍ كلِّيٍّ ويكون الثابتُ لبعضهم نوعاً وللبعض الآخرِ نوعاً آخَرَ منه، وهذا مما لا ريب فيه، ثم إنَّ الآية من باب الوعيد فيجري فيها على تقدير دخول المؤمن العاصي في عموم «مَن» ما قاله الأشاعرة في آيات الوعيد، فافهم وتأمَّل.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ استئنافٌ بتقديرِ «قل» قبله، وهو أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهؤلاء الكفرة ذلك بعد ما بيَّن لهم

أحوال المبدأ والمعاد وشَرَحَ أحوالَ القيامة، إثارةً لهممهم بألطف وجهٍ إلى أن يشتغلوا بتدارُكِ أحوالهم وتحصيلِ ما ينفعهم، والتوجُّهِ نحو التدبُّر فيما قَرَعَ أسماعهم من الآيات الباهرة الكافيةِ في إرشادهم والشافيةِ لعللهم.

والبلدة على ما روي عن ابن عباس وقتادةَ وغيرِهما هي مكةُ المعظَّمة. وفي «تاريخ مكة»(١) أنها منًى، قال: حدثنا أبو يحيى بن أبي مَسَرَّة(٢)، عن خلَّاد بن يحيى، عن سفيان أنه قال: البلدة منًى، والعربُ تسمِّيها بلدةً إلى الآن. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية تفسيرَها بذلك أيضاً(٣).

وذكر بعضُ الأجلَّة أنَّ أكثر المفسِّرين على الأول، وتخصيصُها بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلالِ مكانها، والتعرُّض لتحريمه تعالى إياها تشريفٌ لها بعد تشريفٍ، وتعظيمٌ إثرَ تعظيم، مع ما فيه من الإشعار بعلة الأمر وموجب الامتثال به كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۞ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣-٤] ومن الرمز إلى غاية شناعةِ ما فعلوا فيها، ألا ترى أنهم مع كونها محرَّمةً من أن تُنْتَهكَ حرمتُها باختلاء خلاها، وعَضْدِ شجرها، وتنفيرِ صيدها، وإرادةِ الإلحاد فيها، قد استمرُّوا فيها على تعاطي أفظع أفراد الفجور وأشنع آحاد الإلحاد، حيث تركوا عبادةَ ربِّها، ونصبوا فيها الأوثان وعكفوا على عبادتها قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون.

ولا تعارُضَ بين ما في الآية من نسبة تحريمها إليه عزَّ وجلَّ وما في قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ إبراهيم عليه السلام حرَّم مكة وأنا حرَّمتُ المدينة»(٤) من نسبة تحريمها إلى إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّ ما هنا باعتبارِ أنه هو المحرِّم في الحقيقة، وما في الحديث باعتبارِ أنَّ إبراهيم عليه السلام مُظْهِرٌ لحُكْمه عزَّ شأنه. وقرأ ابن عباس وابن مسعود: «التي»(٥) صفة للبلدة، وقراءة الجمهور أبلغُ في التعظيم، ففي «الكشف»

---

(١) للفاكهي (٢٥٥٩).

(٢) في الأصل: يحيى بن أبي ميسرة، وفي (م): يحيى بن ميسرة، والمثبت من تاريخ مكة، وهو الصواب.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٣٦.

(٤) أخرجه مسلم (١٣٦٢) من حديث جابر ﷺ.

(٥) القراءات الشاذة ص١١١، والبحر ٧/ ١٠٢.

أنَّ إجراء الوصف على الربِّ تعالى شأنُه تعظيمٌ لشأن الوصف ولشأن ما يتعلَّق به الوصف، وزيادةُ اختصاصٍ له بمن أُجريَ عليه الوصف على سبيل الإدماج، وجَعْلُ ذلك كالمسلَّم المبرهَنِ، ولا كذلك لو وصفت البلدة بوصفٍ تخصيصاً أو مدحاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ ـ أي: خَلْقاً وملكاً وتصرُّفاً، من غير أن يشاركه سبحانه شيءٌ في شيءٍ من ذلك ـ تحقيقٌ للحقِّ، وتنبيهٌ على أنَّ إفراد مكةَ بالإضافة لِمَا مرَّ من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات.

واستدلَّ به بعض الناس لجواز ما يقوله جَهَلَةُ المتصوِّفة: شيءٌ لله؛ لأنه في معنى: كلُّ شيءٍ لله عزَّ وجلَّ، نحو: تمرةٌ خيرٌ من جرادة[1]، وأنت تعلم أنهم لا يأتون به لإرادة ذلك، بل يقولون: شيء لله يا فلان، لبعض الأكابر من أهل القبور، إمَّا على معنى: أعطني شيئاً لوجه الله تعالى يا فلان، أو: أنت شيءٌ عظيم من آثار قدرة الله تعالى. وقد وجَّهه بذلك مَن لم يكفِّرهم به، وهو الحقُّ وإن كان في ظاهره على أول التوجيهين طلبُ شيءٍ ممن لا قدرةَ له على شيءٍ، نَعَم الأَوْلَى صيانةُ اللسان عن أمثال هذه الكلمات. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: أَثْبُتَ على ما كنتُ عليه من كوني من جملة الثابتين على ملَّة الإسلام والتوحيد، أو[2] الذين أسلموا وجوههم لله تعالى خالصةً، من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أُواظبَ على قراءته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الإرشاد؛ لكفايته في الهداية إلى طريق الرشاد.

وقيل: أي: أواظبَ على قراءته لينكشف لي حقائقُه الرائقة المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً، فإنَّ المواظبة على قراءته من أسباب فتح باب الفيوضات الإلهية والأسرارِ القدسية، وقد حُكي أنه ﷺ قام ليلةً يصلِّي، فقرأ قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] فما زال يكرِّرها ويَظْهَرُ له من أسرارها ما يَظْهَرُ حتى طلع الفجر[3].

---

(١) قطعة من خبر لابن عمر كما سيرد عند تفسير الآية (١٤) من سورة التكوير.

(٢) في تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٦ (والكلام منه): أي.

(٣) أخرجه بنحوه أحمد(٢١٤٩٥)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٧٧، وابن ماجه (١٣٥٠) من حديث أبي ذر ﷺ.

وقيل: «أتلو» مِن تَلَاه: إذا تَبعه، أي: وأنْ أتَّبع القرآن، وهو خلافُ الظاهر.

ويؤيِّد ما ذكرناه أولاً من المعنى ما في حرف أبيٍّ كما أخرجه أبو عبيد وابن المنذر عن هارون: «واتلُ عليهم القرآن»[١]. وحَكَى عنه في «البحر» أنه قرأ: «واتلُ هذا القرآن»[٢]، ولا تأييدَ فيه لِمَا ذكرنا.

وقرأ عبد الله: «وأن اتلُ» بغير واو أمراً من تلا[٣]، فجاز أن تكون «أنْ» مصدريةً وُصلت بالأمر، وجاز أن تكون مفسِّرةً على إضمار أُمرتُ.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: بالإيمان بالقرآن، والعملِ بما فيه من الشرائع والأحكام. وقيل: أي: بالاتِّباع فيما ذكر من العبادة والإسلام، وتلاوة القرآن أو اتِّباعه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فإنما منافعُ اهتدائه تعود إليه.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به والإعراضِ عنه، وقيل: بالمخالفة فيما ذكر، ﴿فَقُلْ﴾ أي: له ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ وقد خرجتُ عن عهدة الإنذار فليس عليَّ من وبالِ ضلالك شيءٌ وإنما هو عليك فقط، ويُعلم مما ذكرنا أنَّ جواب الشرط جملةُ القول وما في حيِّزه، والرابط المشترَطُ في مثله محذوفٌ، وقدَّره بعضهم بعدَ «المنذرين»، أي: من المنذرين إياه.

وجوَّز أبو حيان كونَ الجواب محذوفاً، أي: مَن ضلَّ فوبالُ ضلاله مختصٌّ به، وحُذف ذلك لدلالة جواب مُقابِله عليه[٤].

وجوَّز بعضهم كونَ الجملة بعدُ هي الجواب، ولكونها كنايةً تعريضيةً عما قدَّره أبو حيان لم تَحتَجْ إلى رابطٍ.

ثم إنَّ ظاهر التصريح بـ «قل» هنا يقتضي أن يكون «فمن اهتدى» إلخ من كلامه عزَّ وجلَّ، عقَّب به أمره ﷺ بأن يقول لهم ما قبله، ولا بُعْدَ في كونه من مقول

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد ص١٨١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٩ وعنه نقل المصنف، وجاء في فضائل القرآن: مروان، بدل: هارون.

(٢) البحر ٧/ ١٠٢.

(٣) القراءات الشاذة ص١١١، والبحر ٧/ ١٠٢، والكلام منه.

(٤) البحر ٧/ ١٠٢.

القول المقدَّر قبل قوله تعالى: (إِنَّمَآ أُمِرْتُ) كما سمعتَ.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما أفاض عليَّ من نَعْمائِه التي من أجلِّها نعمةُ النبوَّةِ المستتبعةِ لفنون النعم الدينية والدنيوية، ووفَّقني لتحمُّل أعبائها وتبليغِ أحكامها بالآيات البيِّنةِ والبراهين النيِّرة.

وقولُه تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ من جملة الكلام المأمور به، أي: قل سيُريكم آياته سبحانه ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: فتعرفون أنها آياتُ الله تعالى حيث لا تنفعكم المعرفة.

وقيل: أي: سيُريكم في الدنيا، والمراد بالآيات الدخان وما حلَّ بهم من نقمات الله تعالى، وعُدَّ منها قتلُ يوم بدرٍ، واعترافُ المقتولينَ بذلك بالفعل(١)، واعترافُ غيرهم بالقوة.

وقيل: هي خروجُ الدابة وسائرُ أشراط الساعة، والخطابُ لجنس الناس لا لمن في عهد النبوة.

وأخرج ابن أبي حاتم وجماعةٌ عن مجاهدٍ أنَّ المراد بالآيات الآياتُ الأنفُسِيةُ والآفاقية(٢)، فالآيةُ كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقيل: المراد بها معجزاتُ الرسول ﷺ، وإضافتُها إلى ضميره تعالى لأنها فِعْلُه عزَّ وجلَّ، أظهرها على يدِ رسوله عليه الصلاة والسلام للتصديق، والمراد بالمعرفة ما يجامِعُ الجحود.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ كلامٌ مسوقٌ من جهته سبحانه بطريق التذييل مقرِّرٌ لِمَا قبله متضمِّنٌ للوعد والوعيد، كما ينبئُ عنه إضافة الربِّ إلى ضميره ﷺ، وتخصيص الخطاب أوّلاً به عليه الصلاة والسلام وتعميمُه ثانياً للكفرة تغليباً، أي: وما ربُّك بغافلٍ عما تعملُ أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات فيجازي كلًّا منكم بعمله لا محالة.

---

(١) في الأصل: الفعل، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٦١، والكلام منه.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٣٧.

وقرأ الأكثر: «يعملون» بياء الغيبة[(١)]، فهو وعيدٌ محضٌ، والمعنى: وما ربُّك بغافلٍ عن أعمالهم فسيعذبهم ألبتة فلا يحسبوا أنَّ تأخير عذابهم لغفلته سبحانه عن أعمالهم الموجبة له.

ومَن تأمَّل في الآيات ظهر له أنَّ هذه الخاتمة مما تُدْهِشُ العقول وتحيِّر الأفهامَ، ولله تعالى درُّ التنزيل، وماذا عسى يقال في كلام الملك العلَّام.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات ما قيل: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سماء القلب ﴿مَآءً﴾ هو ماء نظر الرحمة ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ من العلوم والمعاني والأسرار والحِكَم البالغة ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ أي: أصولَها؛ لِمَا أن العلوم الإلهية غيرُ اختياريةٍ، بل كلُّ علم ليس باختياريٍّ في نفسه وإلَّا لزم تقدُّم الشيء على نفسه، نعم هو اختياريٌّ باعتبار الأسباب.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: أرض النفس ﴿قَرَارٗا﴾ في الجسد ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾ من دواعي البشرية ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ من قوى البشرية والحواسِّ ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ بحرِ الروح وبحرِ النفس ﴿حَاجِزًاۗ﴾ وهو القلب.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ وهو المستعدُّ لشيء من الأشياء ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ بلسان الاستعداد، وطلب منه تعالى ما استعدَّ له. وقال بعضُهم: المضطرُّ: المستغرقُ في بحار شوقه تعالى.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ﴾ وهي النفسُ الناطقة والروح الإنسانيُّ ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أرض البشرية.

وعلى هذا النمط تكلَّموا في سائر الآيات، وساق الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه قولَه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ دليلاً على ما يدَّعيه من تجدُّد الجواهر كالأعراض عند الأشعريِّ، وعَدَم بقائها زمانين، ومَبْنَى ذلك عنده القولُ

(١) التيسير ص١٢٦، والنشر ٢/ ٢٦٢-٢٦٣ وهي قراءة حمزة والكسائي وشعبة وابن كثير وأبي عمرو وخلف.

بوحدة الوجود، وأنه سبحانه كلّ يومٍ هو في شأن، والكلامُ في صحة هذا المبنَى واستلزامِه للمدَّعَى لا يخفى على العارف، وأمَّا الاستدلالُ بهذه الآية لهذا المطلب فمن أمهات العجائب وأغربِ الغرائب، والله تعالى أعلم.

(٢٨) سُورَةُ القَصَصِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَثَمَانُونَ

سورةُ القَصَص من السور المكية التي تُعْنى بأصول الدين من التوحيد ، والرسالة ، والبعث والجزاء كسائر السور المكية ، وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتيْ النملِ ، والشعراء كما اتفقت في جوّ النزول ، ويُلاحظ أن اللاحقة منها تكمِّل أو تُفَصِّل ما أُجمل في السورة قبلها ، ولعلَّ ما ذكرته سورةُ القَصَص من قصة موسى مع فرعون يتضح في كثيرٍ منه أنه تتميمٌ وتكميلٌ لما أُجمل في السورتين قبلها . سُميت سورةَ القَصَصِ لأن الله تعالى ذكر فيها قَصَص نبيّ اللهِ موسى الكليم وأحواله وأطوارَه ، من حينِ ولادته ، ونشأته إلى حين أن بُعث رسولاً إلى نبيِ إسرائيل ، وحياتُه سلسلةٌ متصلة الحلقات ، وفيها من غرائب الأحداث ما يتجلى فيه بوضوح عنايةُ الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه . وقصةُ موسى مع فرعون ليست قصة نبيٍ كريم مع جبار عظيم ، إنما هي قصة تصوِّر حقيقة واقعية أليمة ، تتكرر في كل زمان ومكان ، وهي قصة الصراع بين الحق والباطل ، والمعركة الضارية بين جند الرحمنِ وجند الشيطان ، تلك المعركة التي قامت بين أولياء الله وأعداء الله منذُ فجرِ هذا الوجود ، ومنذ أن ظهر على مسرح الحياة الأنبياء والمرسلون ، والدعاة والمصلحون ! !

تبتدىء السورة الكريمة ببيان منطق الطغيان الذي لا يفهم حجةً ولا برهاناً ، ولا يقيم وزناً لمنطقٍ أو عدالة ، إنما طريقه البطشُ والإرهاب

والتعذيبُ والتنكيل ﴿ طسم . تلكَ آياتُ الكتابِ المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعونَ بالحقّ لقومٍ يؤمنون . إنَّ فرعونَ عَلاَ في الأرضِ وجَعَلَ أهلَها شِيَعاً ، يَسْتَضْعِفُ طائفةً منهم يُذَبّح أبناءَهُم ويسْتَحْيي نساءَهُم ، إنه كان من المفسدين ، ونريدُ أنْ نَمنَّ على الذين استُضْعِفُوا في الأرضِ ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين . ونُمكِّنَ لهم في الأرضِ ونُريَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يَحْذَرون﴾ .

وتنتقل الآيات الكريمة للحديث عن ميلاد موسى وخوف أمه عليه من بطش فرعون فقد كان يقتل ذكور بني إسرائيل ، ولكنَّ الله العظيم القدير طمأنها إلى أنه حافظٌ لهذا الطفل لأن له شأناً عظيماً ، وألهمها أن تُرضعه حتى إذا خشيتْ من زبانية فرعون عليه وضعته في صندوق ثم ألقت به في نهر النيل فسيرده الله إليها ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أَنْ أرْضعيه ، فإذا خفتِ عليه فألْقيه في اليمّ ، ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ وصدق وعدُ الله مع أم موسى فردَّه إليها واحتضنته لترضعه في بيت فرعون مع الإكرام لها والإنعام ، ورعاه الله حتى نبت في بيت فرعون كريحانةٍ زكية تَنْبتُ في تربة مليئة بالأشواك والأقذار ﴿ فالتقطه آلُ فرعون ليكونَ لهم عَدُواً وحَزَناً ، إن فرعونَ وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فرددناه إلى أمه كيْ تَقَرَّ عينُها ولا تَحْزَنَ ، ولتعلم أنَّ وعد الله حقٌّ ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ وتتحدث الآيات الكريمة عن بلوغِ موسى سنَّ الشباب ، وقتلِه للقبطي الذي رآه يعتدي على الاسرائيلي ، ثم هربه إلى أرض مدين ، ولم يكن قتلُه للقبطي إلاّ خطأً كما دلَّ عليه التعبير القرآني ﴿ ودخَل المدينةَ على حينِ غَفْلةٍ من أهلِها فوجَدَ فيها رَجُلَينِ يَقْتتلانِ ، هَذَا من شيعتِهِ وهذا من عدوِّه ، فاستغاثَه الذي من شيعتِهِ على الذي من عدوِّه فوَكَزَه موسَى فقَضَى عليهِ ، قالَ هذَا من عملِ

الشيطانِ إِنَّهُ عدوٌ مضلٌ مبين﴾ والوَكْزُ الضربُ بِجُمْعِ اليد وهو في العادة لا يقتل وإنما صادفت قضاءً وقدراً فكانت القاضية . ثم تتحدث الآيات عن هجرة موسى إلى أرض مدين خوفاً من بطش قوم فرعون ، وزواجِه بابنة شعيب عليه السلام وتكليفِ الله تعالى له بالعودةِ إلى مصر لدعوة فرعونَ وقومِهِ إلى الإيمان ، ثم تُعقِّبُ على عتو فرعونَ وطغيانه وإغراق اللهِ له مع جنده بقوله ﴿واستكبرَ هوَ وجُنودُه في الأرضِ بغير الحقِّ ، وظَنُّوا أَنهم إلينا لا يُرْجعون . فأخذناهُ وجنودَهُ فنبذنَاهُم في اليمِّ ، فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ الظالمينَ . وجعلْنَاهُمْ أَئِمةً يَدْعُون إلى النَّارِ ، ويومَ القيامةِ لا يُنْصَرونَ . وأَتْبَعْنَاهم في هذه الدنيا لَعْنَةً ، ويومَ القيامةِ هم منَ المَقْبُوحينَ﴾ .

ومن عجائب الأقدار أن أُمَّ موسى أَلْقتْ ولدها في البحر فنجّاه الله ، وأن فرعون كان يتعالى ويتعاظم بملكه وبالأنهار تجري من تحته ويقول « أليسَ لي مُلْك مِصْرَ وهذه الأنهارُ تجري من تحتي أفلا تُبْصرون » ؟ فأهلكه الله بالغَرَق وابتلعته البحار ، ثم نجى الله بدنه وفي هذا أكبر عبرةٍ لمن أراد أن يَذَّكَّرَ أو أراد شكوراً .. ثم تتحدث الآياتُ عن كفار مكة ، ووقوفهم في وجه الدعوة المحمدية ، وتبيِّن أن مسلكَ أهلِ الضَّلال واحد ، وحُجَّتهم الزائفةَ واحدة ، تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم ، أنكر أسلافهم دعوة موسى وأنكروا هم دعوةَ محمد ، فلا تبتئس يا محمد بتكذيبهم وطغيانهم فسنة الله لا تتخلف في إهلاك الظالمين ﴿وكم أهلكْنَا من قَرْيةٍ بَطِرَتْ مَعيشَتَها ، فتِلْكَ مساكِنُهم لم تُسْكَنْ مِنْ بعدِهِمْ إلا قَليلاً وكنّا نحنُ الوارثين . وما كانَ ربُّك مُهْلكَ القُرى حتَّى يَبْعثَ في أُمِّها رسُولاً يتْلُو عليهم آياتِنَا ، وما كنّا مُهْلكي القُرَى إلا وأَهْلُها ظَالمون﴾ . وتنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن « قصة قارونَ » وهي قصةٌ لها ارتباط وثيقٌ بالبغي والطغيان ، فكما يكون الطغيان بالجاه والسلطان ،

كذلك يكون بالثروة والمال ، فهذا قارون الذي اتخذ نِعَم اللهِ سبيلاً لكيد عباد الله ، أنعم الله عليه بمالٍ تعجز الجماعة القوية عن حمل خزائنه أو حملِ مَفَاتِحَهَا ولكنَّه طغى وبغى فكانت عاقبتُه الهلاك والدمار ﴿إن قارونَ كانَ من قومِ موسَى فبَغَى عليهم وآتيناهُ من الكنوزِ ما إنَّ مَفَاتِحَه لَتَنُوءُ بالعُصْبةِ أُولي القوة ، إذ قال له قومُه لا تفرحْ إن الله لا يحبُّ الفَرِحينَ . وابتغ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرةَ ، ولا تَنْسَ نصيبَكَ مِن الدنيا ، وأَحْسِنْ كما أَحْسَنَ اللهُ إليك ، ولا تبغِ الفسادَ في الأرضِ إنَّ الله لا يحبُّ المفسدين . قال إنما أُوتيتُه على علمٍ عندي ، أَوَ لَمْ يعلمْ أنَّ الله قد أهلك من قبْلِهِ من القرونِ مَنْ هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جمعاً ؟ ولا يُسألُ عن ذنوبهم المجرمون﴾ وكانت نتيجةُ هذا الطغيان الخسفُ والهوَان ﴿فخسفنا به وبداره الأرضَ فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين﴾ وهكذا تكون عاقبةُ من تكبَّر وتجبَّر ، وطغى بماله واستعلى على عباد الله . وتختم السورة الكريمة بالإرشاد إلى أساس الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ﴿تلك الدار الآخرةُ نجعلها اللذين لا يريدون عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ إلى قوله تعالى ﴿ولا تَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخر ، لا إله إلا هو كل شيء هالكٌ إلا وجْهَه ، له الحكم وإليه تُرجعون ..﴾

سورة القصص

[٦٧٨] أخرج ابن جرير والطبراني عن رفاعة القرظي قال: نزلت ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾(١) في عشرة أنا أحدهم.

[٦٧٩] وأخرج ابن جرير عن علي بن رفاعة قال: خرج عشرة رهط من أهل الكتاب منهم رفاعة يعني أباه إلى النبي [ﷺ] فآمنوا فأوذوا فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾(٢) الآية.

[٦٨٠] وأخرج عن قتادة قال كنا نحدث أنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على الحق حتى بعث الله محمداً [ﷺ] فآمنوا به منهم عثمان وعبدالله بن سلاّم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [القصص: ٥٢] الآية.

[٦٨١] سيأتي سبب نزولها في سورة الحديد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] الآية.

[٦٨٢] أخرج مسلم وغيره(٣) عن أبي هريرة قال قال رسول الله [ﷺ] لعمه: **«قل لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة»** قال لولا أن تعيرني نساء قريش يقلن أنه حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(٤).

[٦٨٣] وأخرج النسائي وابن عساكر في تاريخ دمشق بسند جيد عن أبي سعيد بن رافع قال: سألت ابن عمر عن هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(٥) في أبي جهل وأبي طالب قال: نعم.

---

[٦٧٨] (١) سورة القصص: الآية (٥١).

[٦٧٩] (٢) سورة القصص: الآية (٥٢).

[٦٨٢] (٣) ورواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٩)، الترمذي في سننه (٢٨٩٩) و (٣١٨٨)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢/ ٣٤٤).

(٤) سورة القصص: الآية (٥٦).

[٦٨٣] (٥) سورة القصص: الآية (٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ﴾ [القصص: ٥٧] الآية.

[٦٨٤] أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس أن أُناساً من قريش قالوا للنبي [ﷺ] أن نتبعك تخطفنا الناس فنزلت.

[٦٨٥] وأخرج النسائي عن ابن عباس أن الحارث بن عامر بن نوفل هو الذي قال ذلك.

قوله تعالى ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ﴾ [القصص: ٦١] االآية.

[٦٨٦] أخرج ابن جرير(١) عن مجاهد في قوله: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ﴾(٢) الآية قال نزلت في النبي [ﷺ] وفي أبي جهل بن هشام.

[٦٨٧] وأخرج من وجه آخر عنه أنها نزلت في حمزة وأبي جهل.

قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [القصص: ٨٥] الآية.

[٦٨٨] أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال لما خرج النبي [ﷺ] من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾(٣).

* * *

---

[٦٨٦] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٩٤).

(٢) سورة القصص: الآية (٦١).

[٦٨٨] (٣) سورة القصص: الآية (٨٥).

سورة القصص

مكية كلها إلا قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢] إلى قوله: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] وقيل: إلا آية وهي ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [القصص: ٨٥] الآية وهي سبع أو ثمان وثمانون آية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ① تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ② نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ③ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ④ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ⑤ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ⑥﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ كسائر الفواتح وقد تقدم القول فيها و ﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة و ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ هو إما اللوح وإما الكتاب الذي وعد الله إنزاله على محمد ﷺ فبيَّن أن آيات هذه السورة هي آيات ذلك الكتاب ووصفه بأنه مبين؛ لأنه بيَّن فيه الحلال والحرام، أو لأنه بيَّن بفصاحته أنه من كلام الله دون كلام العباد، أو لأنه يبيِّن صدق نبوة محمد ﷺ أو لأنه يبيِّن خبر الأولين والآخرين، أو لأنه يبيِّن كيفية التخلص عن شبهات أهل الضلال.

أما قوله تعالى: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ﴾ أي على لسان جبريل عليه السلام؛ لأنه كان يتلو على محمد حتى يحفظه، وقوله: ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾ فهو مفعول ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ﴾ أي نتلو عليك بعض خبرهما بالحق محققين، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وقوله: ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه تعالى قد أراد بذلك من لا يؤمن أيضًا لكنه خص المؤمنين بالذكر؛ لأنهم قبلوا وانتفعوا فهو كقوله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، والثاني: يحتمل أنه تعالى علم أن الصلاح في تلاوته هو إيمانهم وتكون إرادته لمن لا يؤمن كالتبع. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قرئ (فرعون) بضم الفاء وكسرها، والكسر أحسن وهو كالقسطاس والقسطاس ﴿عَلَا﴾ استكبر وتجبر وتعظم وبغى، والمراد به قوة الملك والعلو في الأرض يعني أرض مملكته، ثم فصل الله تعالى بعض ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ أي فرقًا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم

مخالفته أو يشيع بعضهم بعضًا في استخدامه أو أصنافًا في استخدامه أو فرقًا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة؛ ليكونوا له أطوع أو المراد ما فسره بقوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي يستخدمهم ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ فهذا هو المراد بالشيع. قوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ تلك الطائفة بنو إسرائيل، وفي سبب ذبح الأبناء وجوه: أحدها: أن كاهنًا قال له: يولد مولود في بني إسرائيل في ليلة كذا يذهب ملكك على يده، فولد تلك الليلة اثنا عشر غلامًا فقتلهم، وعند أكثر المفسرين بقي هذا العذاب في بني إسرائيل سنين كثيرة، قال وهب: قتل القبط في طلب موسى عليه السلام تسعين ألفًا من بني إسرائيل. قال بعضهم: في هذا دليل على حمق فرعون، فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وإن كذب فما وجه القتل؟ وهذا السؤال قد يذكر في تزييف علم الأحكام من علم النجوم ونظيره ما يقوله نفاة التكليف: إن كان زيد في علم الله وفي قضائه من السعداء فلا حاجة إلى الطاعة، وإن كان من الأشقياء فلا فائدة في الطاعة، وأيضًا فهذا السؤال لو صح لبطل علم التعبير ومنفعته، وأيضًا فجواب المنجم: أن النجوم دلت على أنه يولد ولد لو لم يقتل لصار كذا وكذا، وعلى هذا التقدير لا يكون السعي في قتله عبثًا.

واعلم أن هذا الوجه ضعيف؛ لأن إسناد مثل هذا الخبر إلى الكاهن اعتراف بأنه قد يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل، ولو جوزناه لبطلت دلالة الأخبار عن الغيب على صدق الرسل وهو بإجماع المسلمين باطل. وثانيها: وهو قول السدي: أن فرعون رأى في منامه أن نارًا أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل فسأل عن رؤياه فقالوا: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر، فأمر بقتل الذكور. وثالثها: أن الأنبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه وفرعون كان قد سمع ذلك فلهذا كان يذبح أبناء بني إسرائيل، وهذا الوجه هو الأولى بالقبول، قال صاحب (الكشاف): ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ حال من الضمير في ﴿وَجَعَلَ﴾ أو صفة لشيعًا، أو كلام مستأنف و﴿يُذَبِّحُ﴾ بدل من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يدل على أن ذلك القتل ما حصل منه إلا الفساد، وأنه لا أثر له في دفع قضاء الله تعالى.

أما قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ فهو جملة معطوفة على قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرًا لنبأ موسى عليه السلام وفرعون واقتصاصًا له، واللفظ في قوله: ﴿وَنُرِيدُ﴾ للاستقبال ولكن أريد به حكاية حال ماضية ويجوز أن يكون حالاً من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم، فإن قيل: كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله تعالى المن عليهم وإذا أراد الله شيئًا كان ولم يتوقف إلى وقت آخر؟ قلنا: لما كان منة الله عليهم بتخليصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم.

أما قوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي متقدمين في الدنيا والدين وعن مجاهد دعاة إلى الخير وعن قتادة ولاة كقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ يعني لملك فرعون

وأرضه وما في يده.

أما قوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فاعلم أنه يقال: مكن له إذا جعل له مكانًا يقعد عليه (أو يرقد) فوطأه ومهده، ونظيره أرَّض له ومعنى التمكين لهم في الأرض وهي أرض مصر والشام: أن ينفذ أمرهم ويطلق أيديهم وقوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ قرئ (وَيَرَى فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا) أي: يرون منهم ما كانوا خائفين منه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ [القصص: ٥] ابتدأ بذكر أوائل نعمه في هذا الباب بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ والكلام في هذا الوحي ذكرناه في سورة طه في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ٣٧، ٣٨] وقوله: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ كالدلالة على أنها أرضعته وليس في القرآن حد ذلك، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ أن يفطن به جيرانك ويسمعون صوته عند البكاء ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ قال ابن جريج: إنه بعد أربعة أشهر صاح فألقي في اليم والمراد باليم هاهنا النيل ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ والخوف غم يحصل بسبب مكروه يتوقع حصوله في المستقبل، والحزن غم يلحقه بسبب مكروه حصل في الماضي، فكأنه قيل: ولا تخافي من هلاكه ولا تحزني بسبب فراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ لتكوني أنت المرضعة له ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى أهل مصر والشام وقصة الإلقاء في اليم قد تقدمت في سورة طه. وقال ابن عباس: إن أم موسى عليه السلام لما تقارب ولادها كانت قابلة من القوابل التي وكلهن فرعون بالحبالى مصافية لأم موسى عليه السلام فلما أحست بالطلق أرسلت إليها وقالت لها: قد نزل بي ما نزل ولينفعني اليوم حبك إياي فجلست القابلة فلما وقع موسى عليه السلام إلى الأرض هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها، ودخل حب موسى عليه السلام قلبها فقالت: يا هذه، ما جئتك إلا لقتل مولودك، ولكني وجدت لابنك هذا حبًا شديدًا فاحتفظي بابنك، فإنه أراه عدونا، فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء إلى بابها ليدخل على أم موسى فقالت أخته: يا أماه، هذا الحرس فلفته ووضعته في تنور مسجور فطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع، فدخلوا فإذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن فقالوا: لم دخلت

القابلة عليك؟ قالت: إنها حبيبة لي دخلت للزيارة فخرجوا من عندها ورجع إليها عقلها فقالت لأخت موسى: أين الصبي؟ قالت: لا أدري فسمعت بكاء في التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه بردًا وسلامًا فأخذته، ثم إن أم موسى عليه السلام لما رأت فرعون جد في طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله في قلبها أن تتخذ له تابوتًا ثم تقذف التابوت في النيل، فذهبت إلى نجار من أهل مصر فاشترت منه تابوتًا فقال لها: ما تصنعين به؟ فقالت: ابن لي أخشى عليه كيد فرعون أخبؤه فيه وما عرفت أنه يفشي ذلك الخبر، فلما انصرفت ذهب النجار ليخبر به الذباحين فلما جاءهم أمسك الله لسانه وجعل يشير بيده، فضربوه وطردوه فلما عاد إلى موضعه رد الله عليه نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فلما عاد إلى موضعه رد الله نطقه، فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فأخذ الله بصره ولسانه، فجعل لله تعالى أنه إن رد عليه بصره ولسانه فإنه لا يد لهم عليه فعلم الله تعالى منه الصدق فرد عليه بصره ولسانه وانطلقت أم موسى وألقته في النيل، وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى أبيها وكان بها برص شديد وكان فرعون قد شاور الأطباء والسحرة في أمرها، فقالوا: أيها الملك، لا تبرأ هذه إلا من قبل البحر يوجد منه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك، وذلك في يوم كذا في شهر كذا حين تشرق الشمس، فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل ومعه آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على الشاطىء إذ أقبل النيل بتابوت تضربه الأمواج وتعلق بشجرة، فقال فرعون: ائتوني به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه، وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه، فنظرت آسية فرأت نورًا في جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته وفتحته، فإذا هي بصبي صغير في المهد وإذا نور بين عينيه فألقى الله محبته في قلوب القوم، وعمدت ابنة فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرئت وضمته إلى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون: إنا نظن أن هذا هو الذي نحذر منه رمي في البحر فرقًا فهمَّ فرعون بقتله فاستوهبته امرأة فرعون وتبنته فترك قتله.

أما قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فالالتقاط إصابة الشيء من غير طلب، والمراد بآل فرعون جواريه.

أما قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فالمشهور أن هذه اللام يراد بها العاقبة قالوا: وإلا نقض قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ ونقض قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩] ونظير هذه اللام قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله الشاعر:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ(١)

---

(١) هذا البيت للشاعر أبي العتاهية وتقدمت ترجمته والبيت هكذا

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى ذهاب

واعلم أن التحقيق ما ذكره صاحب (الكشاف) وهو أن هذه اللام هي لام التعليل على سبيل المجاز، وذلك لأن مقصود الشيء وغرضه يؤول إليه أمره فاستعملوا هذه اللام فيما يؤول إليه الشيء على سبيل التشبيه، كإطلاق لفظ الأسد على الشجاع والبليد على الحمار، قرأ حمزة والكسائي (حُزْنًا) بضم الحاء وسكون الزاي والباقون بالفتح وهما لغتان مثل السُّقْم والسَّقَم.

أما قوله: ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: قال الحسن معنى ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ ليس من الخطيئة بل المعنى وهم لا يشعرون أنه الذي يذهب بملكهم، وأما جمهور المفسرين فقالوا: معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم، فعاقبهم الله تعالى بأن ربي عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم، وقرىء (خَاطِينَ) تخفيف خاطئين أي خاطين الصواب إلى الخطأ وبيَّن تعالى أنها التقطته؛ ليكون قرة عين لها وله جميعًا، قال ابن إسحق إن الله تعالى ألقى محبته في قلبها؛ لأنه كان في وجهه ملاحة كل من رآه أحبه، ولأنها حين فتحت التابوت رأت النور، ولأنها لما فتحت التابوت رأته يمتص إصبعه، ولأن ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال برصها ويقال: ما كان لها ولد فأحبته، قال ابن عباس: لما قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ فقال فرعون: يكون لك وأما أنا فلا حاجة لي فيه، فقال عليه السلام: «**والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت لهداه الله تعالى كما هداها**» قال صاحب (الكشاف): ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن يجعل مبتدأ ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خبرًا ولو نصب لكان أقوى، وقراءة ابن مسعود دليل على أنه خبر، قرأ (لا تقتلوه قرة عَيْنٍ لِي وَلَكَ)، وذلك لتقديم لا تقتلوه، ثم قالت المرأة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فنصيب منه خيرًا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ لأنه أهل للتبني.

أما قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فأكثر المفسرين على أنه ابتداء كلام من الله تعالى أي لا يشعرون أن هلاكهم بسببه وعلى يده، وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل، وقال ابن عباس: يريد لا يشعرون إلى ماذا يصير أمر موسى عليه السلام. وقال آخرون: هذا من تمام كلام المرأة أي لا يشعر بنو إسرائيل وأهل مصر أن التقطناه، وهذا قول الكلبي.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾

ذكروا في قوله: ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ وجوهًا: أحدها: قال الحسن: فارغًا من كل هم إلا من هم موسى عليه السلام. وثانيها: قال أبو مسلم: فراغ الفؤاد هو الخوف والإشفاق كقوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، وثالثها: قال صاحب (الكشاف): فارغًا صفرًا من العقل، والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف.

ورابعها: قال الحسن ومحمد بن إسحق: فارغًا من الوحي الذي أوحينا إليها أن ألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك فجاءها الشيطان فقال لها: كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجر فتوليت إهلاكه، ولما أتاها خبر موسى عليه السلام أنه وقع في يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها. وخامسها: قال أبو عبيدة: فارغًا من الحزن؛ لعلمها بأنه لا يقتل اعتمادًا على تكفل الله بمصلحته. قال ابن قتيبة: وهذا من العجائب كيف يكون فؤادها فارغًا من الحزن والله تعالى يقول: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ وهل يربط إلا على قلب الجازع المحزون، ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يمتنع أنها لشدة ثقتها بوعد الله لم تخف عند إظهار اسمه، وأيقنت أنها وإن أظهرت فإنه يسلم لأجل ذلك الوعد إلا أنه كان في المعلوم أن الإظهار يضر فربط الله على قلبها، ويحتمل قوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالوحي فأمنت وزال عن قلبها الحزن، فعلى هذا الوجه يصح أن يتأول على أن قلبها سلم من الحزن على موسى أصلاً، وفيه وجه ثالث: وهو أنها سمعت أن امرأة فرعون عطفت عليه وتبنته إن كادت لتبدي به بأنه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها فرحًا بما سمعت، لولا أن سكن ما بها من شدة الفرح والابتهاج ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الواثقين بوعد الله تعالى لا يتبنى امرأة فرعون اللعين وبعطفها، وقرئ (فَرِغًا) أي خاليًا من قولهم أعوذ بالله من صفر الإناء وفرغ الفناء وفرغًا من قولهم:

دِمَاؤُهُمْ بَيْنَهُمْ فَرَغُ

أي: هدر يعني بطل قلبها من شدة ما ورد عليها.

أما قوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ فاعلم أن على قول من فسر الفراغ بالفراغ من الحزن، قد ذكرنا تفسير قوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى﴾ وأما على قول من فسر الفراغ بحصول الخوف فذكروا وجوهًا: أحدها: قال ابن عباس: كادت تخبر بأن الذي وجدتموه ابني، وقال في رواية عكرمة: كادت تقول: وإبناه من شدة وجدها به وذلك حين رأت الموج يرفع ويضع، وقال الكلبي: ذلك حين سمعت الناس يقولون: إنه ابن فرعون وقال السدي: لما أخذ ابنها كادت تقول: هو ابني فعصمها الله تعالى، ثم قال: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بإلهام الصبر كما يربط على الشيء المتفلت ليستقر ويطمئن ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين بوعد الله وهو قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧].

أما قوله: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي اتبعي أثره وانظري إلى أين وقع وإلى من صار وكانت أخته لأبيه وأمه واسمها مريم ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما أبصرته، قال المبرد: أبصرته وبصرت به بمعنى واحد وقوله: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي عن بعد وقرئ (عن جانب) و(عن جَنْب) والجنب: الجانب أي نظرت نظرة مزورة متجانبة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بحالها وغرضها.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ يقتضي تحريمها من قبله فإذا لم يصح بالتعبد والنهي لتعذر التمييز فلا بد من فعل سواه وذلك الفعل يحتمل أنه تعالى مع حاجته إلى اللبن أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء، فلذلك لم يرضع أو أحدث في لبنهن من الطعم ما ينفر عنه طبعه أو وضع في لبن أمه لذة فلما تعودها لا جرم كان يكره لبن غيرها، وعن الضحاك كانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر حتى عرف ريحها والمراضع جمع مرضع، وهي المرأة التي ترضع، أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع أي الثدي أو الرضاع وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل أن رددناه إلى أمه ومن قبل مجيء أخت موسى عليه السلام، ومن قبل ولادته في حكمنا وقضائنا فعند ذلك قالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه وهم له ناصحون لا يمنعونه ما ينفعه في تربيته وإغذائه، ولا يخونونكم فيه، والنصح إخلاص العمل من شائبة الفساد، وقال السدي: إنها لما قالت: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ دل ظاهر ذلك على أن أهل البيت يعرفونه فقال لها هامان: قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت: ما أعرفه، ولكني إنما قلت: هم للملك ناصحون ليزول شغل قلبه، وكل ما روي في هذا الباب يدل على أن فرعون كان بمنزلة آسية في شدة محبته لموسى عليه السلام، لا على ما قال من زعم أنها كانت مختصة بذلك فقط ثم قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ بهذا الضرب من اللطف ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فيما كان وعدها من أنه يرده إليها، ولقد كانت عالمة بذلك، ولكن ليس الخبر كالعيان فتحققت بوجود الموعود ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه وجوه أربعة: أحدها: ولكن أكثر الناس في ذلك العهد وبعد لا يعلمون لإعراضهم عن النظر في آيات الله. وثانيها: قال الضحاك ومقاتل: يعني أهل مصر لا يعلمون أن الله وعدها برده إليها. وثالثها: هذا كالتعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى عليه السلام فجزعت وأصبح فؤادها فارغًا. ورابعها: أن يكون المعنى إنا إنما رددناه إليها ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ والمقصود الأصلي من ذلك الرد هذا الغرض الديني، ولكن الأكثر لا يعلمون أن هذا هو الغرض الأصلي، وأن ما سواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع، قال الضحاك: لما قَبِلَ ثديها قال هامان: إنك لأمه، قالت: لا، قال: فما بالك قَبِلَ ثديك من بين النسوة قالت: أيها الملك إني امرأة طيبة الريح حلوة اللبن ما شم ريحي صبي إلا أقبل على ثديي، قالوا: صدقت فلم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

اعلم أن في قوله: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ قولين: أحدهما: أنهما بمعنى واحد وهو استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية. والثاني: وهو الأصح أنهما معنيان متغايران ثم اختلفوا على وجوه: أحدها: وهو الأقرب أن الأشد عبارة عن كمال القوة الجسمانية البدنية، والاستواء عبارة عن كمال القوة العقلية. وثانيها: الأشد عبارة عن كمال القوة، والاستواء عبارة عن كمال البنية والخلقة. وثالثها: الأشد عبارة عن البلوغ، والاستواء عبارة عن كمال الخلقة. ورابعها: قال ابن عباس: الأشد ما بين الثمان عشرة سنة إلى الثلاثين ثم من الثلاثين سنة إلى الأربعين يبقى سواء من غير زيادة ولا نقصان، ومن الأربعين يأخذ في النقصان، وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما حق؛ لأن الإنسان يكون في أول العمر في النمو والتزايد ثم يبقى من غير زيادة ولا نقصان، ثم يأخذ في الانتقاص فنهاية مدة الازدياد من أول العمر إلى العشرين ومن العشرين إلى الثلاثين يكون التزايد قليلاً والقوة قوية جدًا ثم من الثلاثين إلى الأربعين يقف فلا يزداد ولا ينتقص ومن الأربعين إلى الستين يأخذ في الانتقاص الخفي، ومن الستين إلى آخر العمر يأخذ في الانتقاص البين الظاهر، ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة والحكمة فيه ظاهرة؛ لأن الإنسان يكون إلى رأس الأربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الإنسان منجذبًا إليها فإذا انتهى إلى الأربعين أخذت القوى الجسمانية في الانتقاص، والقوة العقلية في الازدياد فهناك يكون الرجل أكمل ما يكون فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحي.

المسألة الثانية: اختلفوا في واحد الأشد، قال الفراء: الأشد واحدها شد في القياس ولم يسمع لها بواحد. وقال أبو الهيثم: واحدة الأشد شدة، كما أن واحدة الأنعم نعمة، والشدة القوة والجلادة.

أما قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ ففيه وجهان: الأول: أنها النبوة وما يقرن بها من العلوم والأخلاق، وعلى هذا التقدير ليس في الآية دليل على أن هذه النبوة كانت قبل قتل القبطي أو بعده؛ لأن الواو في قوله: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ لا تفيد الترتيب. الثاني: آتيناه الحكمة والعلم قال

تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٤] وهذا القول أولى لوجوه: أحدها: أن النبوة أعلى الدرجات البشرية فلا بد وأن تكون مسبوقة بالكمال في العلم والسيرة المرضية التي هي أخلاق الكبراء والحكماء. وثانيها: أن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يدل على أنه إنما أعطاه الحكم والعلم مجازاة على إحسانه والنبوة لا تكون جزاء على العمل وثالثها: أن المراد بالحكم والعلم لو كان هو النبوة، لوجب حصول النبوة لكل من كان من المحسنين لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لأن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من الحكم والعلم، ثم بيَّن إنعامه عليه قبل قتل القبطي.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في المدينة فالجمهور على أنها هي المدينة التي كان يسكنها فرعون، وهي قرية على رأس فرسخين من مصر، وقال الضحاك: هي عين شمس.

المسألة الثانية: اختلفوا في معنى قوله: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ على أقوال: فالقول الأول: أن موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى وآتاه الله الحكم والعلم في دينه ودين آبائه، علم أن فرعون وقومه على الباطل، فتكلم بالحق وعاب دينهم، واشتهر ذلك منه حتى آل الأمر إلى أن أخافوه وخافهم، وكان له من بني إسرائيل شيعة يقتدون به ويسمعون منه، وبلغ في الخوف بحيث ما كان يدخل مدينة فرعون إلا خائفًا، فدخلها يومًا على حين غفلة من أهلها، ثم الأكثرون على أنه عليه السلام دخلها نصف النهار وقت ما هم قائلون، وعن ابن عباس يريد بين المغرب والعشاء والأول أولى؛ لأنه تعالى أضاف الغفلة إلى أهلها، وإذا دخل المرء مستترًا لأجل خوف، لا تضاف الغفلة إلى القوم. القول الثاني: قال السدي: إن موسى عليه السلام حين كبر كان يركب مراكب فرعون، ويلبس مثل ما يلبس، ويدعى موسى بن فرعون، فركب يومًا في أثره فأدركه المقيل في موضع، فدخلها نصف النهار، وقد خلت الطرق، فهو قوله: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ﴾ القول الثالث: قال ابن زيد: ليس المراد من قوله: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ حصول الغفلة في تلك الساعة، بل المراد الغفلة من ذكر موسى وأمره، فإن موسى حين كان صغيرًا ضرب رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته، فأراد فرعون قتله، فجيء بجمر فأخذه وطرحه في فيه، فمنه عقدة لسانه، فقال فرعون: لا أقتله، ولكن أخرجوه عن الدار والبلد، فأخرج ولم يدخل عليهم حتى كبر، والقوم نسوا ذكره وذلك قوله: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ﴾ ولا مطمع في ترجيح بعض هذه الروايات على بعض؛ لأنه ليس في القرآن ما يدل على شيء منها.

المسألة الثالثة: قال تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ﴾ قال الزجاج: قال: هذا وهذا وهما غائبان على وجه الحكاية، أي وجد فيها رجلين يقتتلان، إذا نظر الناظر إليهما قال: هذا من شيعته وهذا من عدوه، ثم اختلفوا فقال مقاتل: الرجلان كانا كافرين، إلا أن أحدهما من بني إسرائيل، والآخر من القبط، واحتج عليه بأن موسى عليه السلام

قال له في اليوم الثاني: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] والمشهور أن الذي من شيعته كان مسلمًا؛ لأنه لا يقال فيمن يخالف الرجل في دينه وطريقه: إنه من شيعته، وقيل: إن القبطي الذي سخَّر الإسرائيلي كان طباخ فرعون، استسخره لحمل الحطب إلى مطبخه، وقيل: الرجلان المقتتلان: أحدهما السامري وهو الذي من شيعته، والآخر طباخ فرعون، والله أعلم بكيفية الحال، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، أي سأله أن يخلصه منه واستنصره عليه، فوكزه موسى عليه السلام، الوكز الدفع بأطراف الأصابع، وقيل: بجمع الكف. وقرأ ابن مسعود: (فَلَكَزَهُ مُوسَى)، وقال بعضهم: الوكز في الصدر واللكز في الظهر، وكان عليه السلام شديد البطش، وقال بعض المفسرين: فوكزه بعصاه، قال المفضل: هذا غلط؛ لأنه لا يقال: وكزه بالعصا، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي أماته وقتله.

المسألة الرابعة: احتج بهذه الآية من طعن في عصمة الأنبياء عليه السلام من وجوه: أحدها: أن ذلك القبطي إما أن يقال: إنه كان مستحق القتل أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول فلم قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ ولم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ ولم قال في سورة أخرى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]؟ وإن كان الثاني وهو أن ذلك القبطي لم يكن مستحق القتل كان قتله معصية وذنبًا. وثانيها: أن قوله: ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ يدل على أنه كان كافرًا حربيًّا فكان دمه مباحًا فلم استغفر عنه، والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز؛ لأنه يوهم في المباح كونه حرامًا؟ وثالثها: أن الوكز لا يقصد به القتل ظاهرًا، فكان ذلك القتل قتل خطأ، فلم استغفر منه؟ والجواب: عن الأول لم لا يجوز أن يقال: إنه كان لكفره مباح الدم.

أما قوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ ففيه وجوه: أحدها: لعل الله تعالى وإن أباح قتل الكافر إلا أنه قال: الأولى تأخير قتلهم إلى زمان آخر، فلما قتل فقد ترك ذلك المندوب فقوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ معناه إقدامي على ترك المندوب من عمل الشيطان. وثانيها: أن قوله (هذا) إشارة إلى عمل المقتول لا إلى عمل نفسه فقوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي عمل هذا المقتول من عمل الشيطان، المراد منه بيان كونه مخالفًا لله تعالى مستحقًا للقتل وثالثها: أن يكون قوله (هَٰذَا) إشارة إلى المقتول، يعني أنه من جند الشيطان وحزبه، يقال: فلان من عمل الشيطان، أي من أحزابه.

أما قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ فعلى نهج قول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] والمراد أحد وجهين، إما على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه، وإن لم يكن هناك ذنب قط، أو من حيث حرم نفسه الثواب بترك المندوب.

أما قوله: ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ أي فاغفر لي ترك هذا المندوب، وفيه وجه آخر، وهو أن يكون المراد رب إني ظلمت نفسي حيث قتلت هذا الملعون، فإن فرعون لو عرف ذلك لقتلني به ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ أي فاستره عليَّ ولا توصل خبره إلى فرعون ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ أي ستره عن الوصول إلى فرعون،

ويدل على هذا التأويل أنه على عقبه قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ولو كانت إعانة المؤمن هاهنا سببًا للمعصية لما قال ذلك.

وأما قوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فلم يقل: إني صرت بذلك ضالاً، ولكن فرعون لما ادعى أنه كان كافرًا في حال القتل نفى عن نفسه كونه كافرًا في ذلك الوقت، واعترف بأنه كان ضالاً أي متحيرًا لا يدري ما يجب عليه أن يفعله وما يدبر به في ذلك. أما قوله: إن كان كافرًا حربيًّا فلم استغفر عن قتله؟ قلنا: كون الكافر مباح الدم أمر يختلف باختلاف الشرائع فلعل قتلهم كان حرامًا في ذلك الوقت، أو إن كان مباحًا لكن الأولى تركه على ما قررنا، قوله: ذلك القتل كان قتل خطأ. قلنا: لا نسلم فلعل الرجل كان ضعيفًا وموسى عليه السلام كان في نهاية الشدة، فوكزه كان قاتلاً قطعًا. ثم إن سلمنا ذلك ولكن لعله عليه السلام كان يمكنه أن يخلص الإسرائيلي من يده بدون ذلك الوكز الذي كان الأولى تركه، فلهذا أقدم على الاستغفار على أنَّا وإن سلمنا دلالة هذه الآية على صدور المعصية لكنا بينا أنه لا دليل ألبتة على أنه كان رسولاً في ذلك الوقت فيكون ذلك صادرًا منه قبل النبوة، وذلك لا نزاع فيه.

المسألة الخامسة: قالت المعتزلة: الآية دلت على بطلان قول من نسب المعاصي إلى الله تعالى؛ لأنه عليه السلام قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فنسب المعصية إلى الشيطان، فلو كانت بخلق الله تعالى لكانت من الله لا من الشيطان وهو كقول يوسف عليه السلام: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقول صاحب موسى عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أما قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ **ففيه وجوه:**

أحدها: أن ظاهره يدل على أنه قال: إنك لما أنعمت عليَّ بهذا الإنعام فإني لا أكون معاونًا لأحد من المجرمين بل أكون معاونًا للمسلمين، وهذا يدل على أن ما أقدم عليه من إعانة الإسرائيلي على القبطي كان طاعة لا معصية، إذ لو كانت معصية، لنزل الكلام منزلة ما إذا قيل: إنك لما أنعمت عليَّ بقبول توبتي عن تلك المعصية فإني أكون مواظبًا على مثل تلك المعصية.

وثانيها: قال القفال: كأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرمًا، والباء للقسم أي بنعمتك عليَّ. وثالثها: قال الكسائي والفراء: إنه خبر، ومعناه الدعاء كأنه قال: فلا تجعلني ظهيرًا، قال الفراء: وفي حرف عبد الله (فَلَا تَجْعَلْنِي ظَهِيرًا)، واعلم أن في الآية دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة. وقال ابن عباس: لم يستثن ولم يقل: فلن أكون ظهيرًا إن شاء الله، فابتلي به في اليوم الثاني، وهذا ضعيف؛ لأنه في اليوم الثاني ترك الإعانة، وإنما خاف منه ذلك العدو فقال: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩] لا أنه وقع منه.

قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

اعلم أن عند موت ذلك الرجل من الوكز أصبح موسى عليه السلام من غد ذلك اليوم خائفًا من أن يظهر أنه هو القاتل فيطلب به، وخرج على استتار ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾ وهو الإسرائيلي ﴿بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يطلب نصرته بصياح وصراخ، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ قال أهل اللغة: الغوي يجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعل أي إنك لمغو لقومي فإني وقعت بالأمس فيما وقعت فيه بسببك، ويجوز أن يكون بمعنى الغاوي. واحتج به من قدح في عصمة الأنبياء عليهم السلام، فقال: كيف يجوز لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾؟ الجواب من وجهين: الأول: أن قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظًا جفاة ألا ترى إلى قولهم بعد مشاهدة الآيات ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فالمراد بالغوي المبين ذلك. الثاني: أنه عليه السلام إنما سماه غويًا؛ لأن من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذر عليه دفع خصمه عما يرومه من ضرره يكون خلاف طريقة الرشد. واختلفوا في قوله تعال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ﴾ أهو من كلام الإسرائيلي أو القبطي؟ فقال بعضهم: لما خاطب موسى الإسرائيلي بأنه غوي ورآه على غضب ظن لما هم بالبطش أنه يريده، فقال هذا القول، وزعموا أنه لم يعرف قتله بالأمس للرجل إلا هو، وصار ذلك سببًا لظهور القتل ومزيد الخوف، وقال آخرون: بل هو قول القبطي، وقد كان عرف القصة من الإسرائيلي، والظاهر هذا الوجه؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ فهذا القول إذن منه لا من غيره وأيضًا فقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يليق إلا بأن يكون قولاً للكافر.

واعلم أن الجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر أحد، ولما وقعت هذه الواقعة انتشر الحديث في المدينة وانتهى إلى فرعون وهموا بقتله.

أما قوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ قال صاحب (الكشاف): يسعى يجوز ارتفاعه وصفًا لرجل، وانتصابه حالاً عنه؛ لأنه قد تخصص بقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ والائتمار التشاور يقال الرجلان (يتآمران) يأتمران؛ لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر والمعنى

يتشاورون بسببك. وأكثر المفسرين على أن هذا الرجل مؤمن آل فرعون، فعلى وجه الإشفاق أسرع إليه ليخوفه بأن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك.

أما قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي خائفًا على نفسه من آل فرعون ينتظر هل يلحقه طلب فيؤخذ، ثم التجأ إلى الله تعالى لعلمه بأنه لا ملجأ سواه فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا يدل على أن قتله لذلك القبطي لم يكن ذنبًا، وإلا لكان هو الظالم لهم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم إياه ليقتلوه قصاصًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أن الناس اختلفوا في قوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ فقال بعضهم: إنه خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه إلى الله تعالى وأخذ يمشي من غير معرفة فأوصله الله تعالى إلى مدين، وهذا قول ابن عباس، وقال آخرون: لما خرج قصد مدين؛ لأنه وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة؛ لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام، وهو كان من بني إسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى، ومن الناس من قال: بل جاءه جبريل عليه السلام، وعلمه الطريق وذكر ابن جرير عن السدي: لما أخذ موسى عليه السلام في المسير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح، فقال: لا تفعل واتبعني فاتبعه نحو مدين، واحتج من قال: إنه خرج وما قصد مدين بأمرين: أحدهما: قوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ ولو كان قاصدًا للذهاب إلى مدين لقال: ولما توجه إلى مدين فلما لم يقل ذلك بل قال: ﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ علمنا أنه لم

يتوجه إلا إلى ذلك الجانب من غير أن يعلم أن ذلك الجانب إلى أين ينتهي. والثاني: قوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذا كلام شاك لا عالم، والأقرب أن يقال: إنه قصد الذهاب إلى مدين وما كان عالمًا بالطريق. ثم إنه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق؛ لأنه يبعد من موسى عليه السلام في عقله وذكائه أن لا يسأل، ثم قال ابن إسحاق: خرج من مصر إلى مدين بغير زاد ولا ظهر، وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر.

أما قوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فهو نظير قول جده إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] وموسى عليه السلام قلما يذكر كلامًا في الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع إلا ما ذكره إبراهيم عليه السلام، وهكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات الله عليهم وعلى جميع الطيبين المطهرين ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ وهو الماء الذي يسقون منه وكان بئرًا فيما روي وورده مجيئه والوصول إليه ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ﴾ أي فوق شفيره ومستقاه ﴿أُمَّةً﴾ جماعة كثيرة العدد ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ من أناس مختلفين ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفل من مكانهم ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ والذود الدفع والطرد فقوله: (تذودان) أي تحبسان ثم فيه أقوال: الأول: تحبسان أغنامهما واختلفوا في علة ذلك الحبس على وجوه: أحدها: قال الزجاج: لأن على الماء من كان أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي. وثانيها: كانتا تكرهان المزاحمة على الماء. وثالثها: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم. ورابعها: لئلا تختلطا بالرجال. القول الثاني: كانتا تذودان عن وجوههما نظرًا الناظر ليراهما. والقول الثالث: تذودان الناس عن غنمهما. القول الرابع: قال الفراء: تحبسانها عن أن تتفرق وتتسرب ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ أي ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أي مطلوبكما من الذياد فسمي المخطوب خطبًا كما يسمى المشئون شأنًا في قولك: ما شأنك ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٌ كَبِيرٌ﴾ وذلك يدل على ضعفهما عن السقي من وجوه: أحدها: أن العادة في السقي للرجال، والنساء يضعفن عن ذلك. وثانيها: ما ظهر من ذودهما الماشية على طريق التأخير. وثالثها: قولهما حتى يصدر الرعاء. ورابعها: انتظارهما لما يبقى من القوم من الماء. وخامسها: قولهما: ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٌ كَبِيرٌ﴾ ودلالة ذلك على أنه لو كان قويًا حضر ولو حضر لم يتأخر السقي، فعند ذلك سقى لهما قبل صدر الرعاء، وعادتا إلى أبيهما قبل الوقت المعتاد. قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح الياء وضم الدال، وقرأ الباقون بضم الياء، وكسر الدال فالمعنى في القراءة الأولى حتى ينصرفوا عن الماء ويرجعوا عن سقيهم وصدر ضد ورد، ومن قرأ بضم الياء فالمعنى في القراءة حتى يصدر القوم مواشيهم.

أما قوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أي سقى غنمهما لأجلهما، وفي كيفية السقي أقوال: أحدها: أنه عليه السلام سأل القوم أن يسمحوا فسمحوا. وثانيهما: قال قوم: عمد إلى بئر على رأسه صخرة لا يقلها إلا عشرة، وقيل أربعون، وقيل مائة فنحاها بنفسه واستقى الماء من ذلك البئر. وثالثها: أن

القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا إلقاء ذلك الحجر على رأس البئر فهو عليه السلام رمى ذلك الحجر وسقى لهما وليس بيان ذلك في القرآن، والله أعلم بالصحيح منه، لكن المرأة وصفت موسى عليه السلام بالقوة فدل ذلك على أنها شاهدت منه ما يدل على فضل قوته، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ وفيه دلالة على أنه سقى لهما في شمس وحر، وفيه دلالة أيضًا على كمال قوة موسى عليه السلام، قال الكلبي: أتى موسى أهل الماء فسألهم دلوًا من ماء، فقالوا له: إن شئت ائت الدلو فاستق لهما قال: نعم، وكان يجتمع على الدلو أربعون رجلاً حتى يخرجوه من البئر فأخذ موسى عليه السلام الدلو فاستقى به وحده وصب في الحوض ودعا بالبركة ثم قرب غنمهما فشربت حتى رويت ثم سرحهما مع غنمهما. فإن قيل: كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قلنا: ليس في القرآن ما يدل على أن أباهما كان شعيبًا والناس مختلفون فيه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما إن أباهما هو بيرون ابن أخي شعيب وشعيب مات بعدما عمي وهو اختيار أبي عبيد وقال الحسن: إنه رجل مسلم قبل الدين عن شعيب. على أنا وإن سلمنا أنه كان شعيبًا عليه السلام لكن لا مفسدة فيه؛ لأن الدين لا يأباه، وأما المروءة فالناس فيها مختلفون وأحوال أهل البادية غير أحوال أهل الحضر، لا سيما إذا كانت الحالة حالة الضرورة.

وأما قوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فالمعنى إني لأي شيء أنزلت إليَّ من خير قليل أو كثير غث أو سمين لفقير، وإنما عدى فقيرًا باللام؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب.

واعلم أن هذا الكلام يدل على الحاجة، إما إلى الطعام أو إلى غيره، إلا أن المفسّرين حمّلوه على الطعام قال ابن عباس: يريد طعامًا يأكله، وقال الضحاك: مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعامًا إلا بقل الأرض، وروي أن موسى عليه السلام لما قال ذلك رفع صوته ليسمع المرأتين ذلك، فإن قيل: إنه عليه السلام لما بقي معه من القوة ما قدر بها على حمل ذلك الدلو العظيم، فكيف يليق بهمته العالية أن يطلب الطعام، أليس أنه عليه السلام قال: «**لاَ تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلاَ لِذِي قُوَّةٍ سَوِيٍّ**»؟ قلنا: أما رفع الصوت بذلك لإسماع المرأتين وطلب الطعام فذاك لا يليق بموسى عليه السلام ألبتة فلا تقبل تلك الرواية ولكن لعله عليه السلام قال ذلك في نفسه مع ربه تعالى، وفي الآية وجه آخر كأنه قال: رب إني بسبب ما أنزلت إليَّ من خير الدين صرت فقيرًا في الدنيا؛ لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة، فقال ذلك رضى بهذا البدل وفرحًا به وشكرًا له، وهذا التأويل أليق بحال موسى عليه السلام.

أما قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ فقوله ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في موضع الحال أي مستحيية، قال عمر بن الخطاب: قد استترت بكم قميصها، وقيل: ماشية على بعد مائلة عن الرجال وقال عبد العزيز بن أبي حازم: على إجلال له ومنهم من يقف على قوله: ﴿تَمْشِى﴾ ثم يبتدىء فيقول: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ قالت: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ﴾ يعني أنها على الاستحياء قالت هذا

القول؛ لأن الكريم إذا دعا غيره إلى الضيافة يستحيي، لا سيما المرأة وفي ذلك دلالة على أن شعيبًا لم يكن له معين سواهما وروي أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس، قال لهما: ما أعجلكما قالتا: وجدنا رجلاً صالحًا رحمنا فسقى لنا، فقال: لإحداهما اذهبي فادعيه لي، أما الاختلاف في أن ذلك الشيخ كان شعيبًا عليه السلام أو غيره فقد تقدم، والأكثرون على أنه شعيب. وقال محمد بن إسحاق في البنتين: اسم الكبرى صفورا، والصغرى ليا، وقال غيره صفرا وصفيرا، وقال الضحاك: صافورا والتي جاءت إلى موسى عليه السلام هي الكبرى على قول الأكثرين، وقال الكلبي الصغرى، وليس في القرآن دلالة على شيء من هذه التفاصيل.

أما قوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ففيه إشكالات: أحدها: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية، فإن ذلك يورث التهمة العظيمة، وقال عليه السلام: «اتَّقُوا مَوَاضِعَ التُّهَم»؟ وثانيها: أنه سقى أغنامهما تقربًا إلى الله تعالى فكيف يليق به أخذ الأجرة عليه فإن ذلك غير جائز في المروءة، ولا في الشريعة؟ وثالثها: أنه عرف فقرهن وفقر أبيهن وعجزهم وأنه عليه السلام كان في نهاية القوة بحيث كان يمكنه الكسب الكثير بأقل سعي، فكيف يليق بمروءة مثله طلب الأجرة على ذلك القدر من السقي من الشيخ الفقير والمرأة الفقيرة؟ ورابعها: كيف يليق بشعيب النبي عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة إلى رجل شاب قبل العلم بكون ذلك الرجل عفيفًا أو فاسقًا؟ والجواب عن الأول: أن نقول: أما العمل بقول امرأة فكما نعمل بقول الواحد حرًا كان أو عبدًا ذكرًا كان أو أنثى في الأخبار وما كانت إلا مخبرة عن أبيها، وأما المشي مع المرأة فلا بأس به مع الاحتياط والتورع. والجواب عن الثاني: أن المرأة وإن قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ما ذهب إليهم طلبًا للأجرة بل للتبرك برؤية ذلك الشيخ، وروي أنها لما قالت: ليجزيك كره ذلك، ولما قدم إليه الطعام امتنع، وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا، ولا نأخذ على المعروف ثمنًا، حتى قال شعيب عليه السلام: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، وأيضًا فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ إلى حيث ما كان يطيق تحمله فقبل ذلك على سبيل الاضطرار وهذا هو الجواب عن الثالث: فإن الضرورات تبيح المحظورات. والجواب عن الرابع: لعله عليه السلام كان قد علم بالوحي طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها.

أما قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فقام يمشي والجارية أمامه فهبت الريح فكشفت عنها فقال موسى عليه السلام: إني من عنصر إبراهيم عليه السلام فكوني من خلفي حتى لا ترفع الريح ثيابك فأرى ما لا يحل لي، فلما دخل على شعيب فإذا الطعام موضوع، فقال شعيب: تناول يا فتى، فقال موسى عليه السلام: أعوذ بالله، قال شعيب: ولِمَ؟ قال: لأنا من أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبًا، فقال شعيب: ولكن عادتي وعادة آبائي إطعام الضيف فجلس موسى عليه السلام فأكل، وإنما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة

له على عمله، ولم يكره ذلك مع الخضر حين قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] والفرق أن أخذ الأجر على الصدقة لا يجوز، أما الاستئجار ابتداء فغير مكروه.

أما قوله: ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ فالقصص مصدر كالعلل سمي به المقصوص، قال الضحاك: لما دخل عليه قال له: من أنت يا عبد الله، فقال: أنا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وذكر له جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف في اليم، وقتل القبطي وأنهم يطلبونه ليقتلوه، فقال شعيب: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا سلطان له بأرضنا فلسنا في مملكته وليس في الآية دلالة على أنه قال ذلك عن الوحي أو على ما تقتضيه العادة. فإن قيل: المفسرون قالوا: إن فرعون يوم ركب خلف موسى عليه السلام ركب في ألف ألف وستمائة ألف، فالملك الذي هذا شأنه كيف يعقل أن لا يكون في ملكه قرية على بعد ثمانية أيام من دار مملكته؟ قلنا: هذا وإن كان نادرًا إلا أنه ليس بمحال.

أما قوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقي وبالأمانة لما حكينا من غض بصره حال ذودهما الماشية وحال سقيه لهما وحال مشيه بين يديها إلى أبيها.

المسألة الثانية: إنما جعل ﴿خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ اسمًا و ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ خبرًا مع أن العكس أولى؛ لأن العناية هي سبب التقديم.

المسألة الثالثة: القوة والأمانة لا يكفيان في حصول المقصود ما لم ينضم إليهما الفطنة والكياسة، فلم أهمل أمر الكياسة؟ ويمكن أن يقال: إنها داخلة في الأمانة، عن ابن مسعود رضي الله: (أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف، وأبو بكر في عمر).

أما قوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ فلا شبهة في أن هذا اللفظ، وإن كان على الترديد لكنه عند التزويج عين ولا شبهة في أن العقد وقع على أقل الأجلين، فكانت الزيادة كالتبرع، والفقهاء ربما استدلوا به على أن العمل قد يكون مهرًا كالمال وعلى أن إلحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز، ولكنه شرع من قبلنا فلا يلزمنا، ويدل على أنه قد كان جائزًا في تلك الشريعة أن يشرط للولي منفعة، وعلى أنه كان جائزًا في تلك الشريعة نكاح المرأة بغير بدل تستحقه المرأة وعلى أن عقد النكاح لا تفسده الشروط التي لا يوجبها العقد، ثم قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ تأجرني: من أجرته إذا كنت له أجيرًا وثماني حجج ظرفه أو من أجرته كذا إذا أثبته إياه ومنه أجركم الله ورحمكم وثماني حجج مفعول به ومعناه: رعية ثماني حجج ثم قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ وفيه وجهان: الأول: لا أريد أن أشق عليك بإلزام أتم الرجلين، فإن قيل: ما حقيقة قولهم شققت عليه وشقَّ عليه الأمر؟ قلنا: حقيقته أن الأمر إذا تعاظم فكأنه شق عليك ظنك باثنين، تقول تارة: أطيقه وتارة: لا أطيقه. الثاني: لا أريد أن أشق عليك في الرعي ولكني أساهلك فيها وأسامحك بقدر الإمكان ولا أكلفك الاحتياط الشديد في

كيفية الرعي، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمح في معاملات الناس، ومنه الحديث (كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ شَرِيكِي فَكَانَ خَيْرَ شَرِيكٍ لاَ يُدَارِي وَلاَ يُشَارِي وَلاَ يُمَارِي) ثم قال: ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وفيه وجهان: الأول: يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب. والثاني: يريد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة، وإنما قال: إن شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته.

فإن قيل: فالعقد كيف ينعقد مع هذا الشرط، فإنك لو قلت: امرأتي طالق إن شاء الله لا تطلق؟ قلنا: هذا مما يختلف بالشرائع.

أما قوله تعالى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ فاعلم أن ذلك مبتدأ وبيني وبينك خبره وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب عليه السلام، يريد ذلك الذي قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعًا لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطتَ عليَّ ولا أنت عما شرطتَ على نفسك، ثم قال: ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ من الأجلين أطولهما الذي هو العَشر أو أقصرهما الذي هو الثمان ﴿ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ أي لا يعتدي عليَّ في طلب الزيادة أراد بذلك تقرير أمر الخيار يعني إن شاء هذا وإن شاء هذا ويكون اختيار الأجل الزائد موكولاً إلى رأيه من غير أن يكون لأحد عليه إجبار، ثم قال: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ والوكيل: هو الذي وكل إليه الأمر ولما استعمل الوكيل في معنى الشاهد عُدِّيَ بعلى لهذا السبب.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

اعلم أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**تَزَوَّجَ صُغْرَاهُمَا وَقَضَى أَوْفَاهُمَا**»[1] أي: قضى أوفى

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٢/ ١٩)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٦١/ ٣٩)، والخطيب في (تاريخ بغداد) (٢/ ١٢٨)، جميعًا من طريق عويد بن أبي عمران الجوني عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر . . . به.

وقال الهيثمي: (٨/ ٢٠٣)، (رواه الطبراني في الصغير والأوسط، والبزّار باختصار، وفي إسناد الطبراني عويد بن أبي عمران الجوني ضعفه ابن معين وغيره، ووثقه ابن حبان، وبقية رجال الطبراني ثقات)، وساقه ابن كثير=

الأجلين، وقال مجاهد: قضى الأجل عشر سنين ومكث بعد ذلك عنده عشر سنين وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ﴾ يدل على أن ذلك الإيناس حصل عقيب مجموع الأمرين ولا يدل على أنه حصل عقيب أحدهما وهو قضاء الأجل، فبطل ما قاله القاضي من أن ذلك يدل على أنه لم يزد عليه وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ ليس فيه دلالة على أنه خرج منفردًا معها وقوله: ﴿ٱمْكُثُوٓا۟﴾ فيه دلالة على الجمع.

أما قوله: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ فقد مر تفسيره في سورة طه والنمل.

أما قوله: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ **ففيه أبحاث:**

الأول: قال صاحب (الكشاف): الجذوة باللغات الثلاث وقد قرىء بهن جميعًا وهو العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تكن، قال الزجاج: الجذوة القطعة الغليظة من الحطب.

الثاني: قد حكينا في سورة طه: أنه أظلم عليه الليل في الصحراء وهبت ريح شديدة فرقت ماشيته وضل وأصابهم مطر فوجدوا بردًا شديدًا فعنده أبصر نارًا بعيدة فسار إليها يطلب من يدله على الطريق وهو قوله: ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أو آتيكم من هذه النار بجذوة من الحطب لعلكم تصطلون وفي قوله: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ دلالة على إنه ضل وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ دلالة على البرد.

أما قوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاعلم أن شاطىء الوادي جانبه وجاء النداء عن يمين موسى من شاطىء الوادي من قبل الشجرة وقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل من قوله: ﴿مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ﴾ بدل الاشتمال؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء كقوله: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ [الزخرف: ٣٣] وإنما وصف البقعة بكونها مباركة؛ لأنه حصل فيها ابتداء الرسالة وتكليم الله تعالى إياه **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: احتجت المعتزلة على قولهم: إن الله تعالى متكلم بكلام يخلقه في جسم بقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ فإن هذا صريح في أن موسى عليه السلام سمع النداء من الشجرة والمتكلم بذلك النداء هو الله سبحانه وهو تعالى منزَّه أن يكون في جسم فثبت أنه تعالى إنما يتكلم بخلق الكلام في جسم أجاب القائلون بقدم الكلام فقالوا: لنا مذهبان: الأول: قول أبي منصور الماتريدي وأئمة ما وراء النهر وهو أن الكلام القديم القائم بذات الله تعالى غير مسموع إنما المسموع هو الصوت والحرف وذلك كان مخلوقًا في الشجرة ومسموعًا منها، وعلى هذا التقدير زال السؤال. الثاني: قول أبي الحسن الأشعري: وهو إن الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت يمكن أن يكون مسموعًا، كما أن الذات التي ليست بجسم ولا عرض يمكن أن تكون

=(٣/ ٣٨٧) من رواية البزّار الذي قال: (لا نعلم يُروى عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد) وفي إسناده (عويذ) ومن حديثه رواه ابن أبي حاتم وفيه زيادة غريبة.

مرئية فعلى هذا القول لا يبعد أنه سمع الحرف والصوت من الشجرة وسمع الكلام القديم من الله تعالى لا من الشجرة فلا منافاة بين الأمرين، واحتج أهل السنة بأن محل قوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لو كان هو الشجرة لكان قد قالت الشجرة: إني أنا الله، والمعتزلة أجابوا بأن هذا إنما يلزم لو كان المتكلم بالكلام هو محل الكلام لا فاعله وهذا هو أصل المسألة، أجاب أهل السنة بأن الذراع المسموم قال: لا تأكل مني فإني مسموم ففاعل ذلك الكلام هو الله تعالى، فإن كان المتكلم بالكلام هو فاعل ذلك الكلام لزم أن يكون الله قد قال: لا تأكل مني فإني مسموم، وهذا باطل وإن كان المتكلم هو محل الكلام لزم أن تكون الشجرة قد قالت: إني أنا الله وكل ذلك باطل.

المسألة الثانية: يحتمل أن يقال: إنه تعالى خلق فيه علمًا ضروريًا بأن ذلك الكلام كلام الله، والمعتزلة لا يرضون بذلك قالوا: لأنه لو علم بالضرورة أن ذلك الكلام كلام الله لوجب أن يعلم بالضرورة وجود الله تعالى؛ لأنه يستحيل أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات معلومة بالنظر ولو علم موسى أنه الله تعالى بالضرورة لزال التكليف ويحتمل أن يقال: إنه تعالى لما أسمعه الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت عرف أن مثل ذلك الكلام لا يمكن أن يكون كلام الخلق ويحتمل أن يقال: إن ظهور الكلام من الشجرة كظهور التسبيح من الحصى في أنه يعلم أن مثل ذلك لا يكون إلا من الله تعالى، ويحتمل أن يكون المعجز هو أنه رأى النار في الشجرة الرطبة فعلم أنه لا يقدر على الجمع بين النار وبين خضرة الشجرة إلا الله تعالى، ويحتمل أن يصح ما يروى أن إبليس لما قال له: كيف عرفت أنه نداء الله تعالى؟ قال: لأني سمعته بجميع أجزائي، فلما وجد حس السمع من جميع الأجزاء علم أن ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى، وهذا إنما يصح على مذهبنا حيث قلنا: البنية ليست شرطًا.

المسألة الثالثة: قال في سورة النمل ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] وقال هاهنا: ﴿نُودِيَ﴾، ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال في طه: ﴿نُودِيَ﴾، ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١، ١٢] ولا منافاة بين هذه الأشياء فهو تعالى ذكر الكل إلا أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء.

المسألة الرابعة: قال الحسن: إن موسى عليه السلام نودي نداء الوحي لا نداء الكلام والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] قال الجمهور: إن الله تعالى كلمه من غير واسطة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وسائر الآيات، وأما الذي تمسك به الحسن فضعيف؛ لأن قوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] لم يكن بالوحي؛ لأنه لو كان ذلك أيضًا بالوحي لانتهى آخر الأمر إلى كلام يسمعه المكلف لا بالوحي وإلا لزم التسلسل بل المراد من قوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] وصيته بأن يتشدد في الأمور التي تصل إليه في مستقبل الزمان بالوحي.

أما قوله: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ فقد تقدم تفسير كل ذلك، وقوله ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ صريح في أنه تعالى شبهها بالجان ولم يقل: إنه في نفسه جان، فلا يكون هذا مناقضًا لكونه ثعبانًا بل شبهها بالجان من حيث الاهتزاز والحركة لا من حيث المقدار، وقد تقدم الكلام في خوفه، ومعنى ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع، يقال: عقب المقاتل إذا كر بعد الفر، وقال وهب: إنها لم تدع شجرة ولا صخرة إلا ابتلعتها حتى سمع موسى عليه السلام صرير أسنانها وسمع قعقعة الصخر في جوفها فحينئذ ولى، واختلفوا في العصا على وجوه: أحدها: قالوا: إن شعيبًا كانت عنده عصي الأنبياء عليهم السلام، فقال لموسى: بالليل إذا دخلت ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي، فأخذ عصا هبط بها آدم عليه السلام من الجنة ولم تزل الأنبياء تتوارثها حتى وقعت إلى شعيب عليه السلام فقال: أرني العصا فلمسها وكان مكفوفًا فضن بها فقال: خذ غيرها فما وقع في يده إلا هي سبع مرات فعلم أن له معها شأنًا. وروي أيضًا أن شعيبًا عليه السلام أمر ابنته أن تأتي بعصا لأجل موسى عليه السلام فدخلت البيت وأخذت العصا وأتته بها فلما رآها الشيخ قال: ائتيه بغيرها فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلم يقع في يدها غيرها، فلما رأى الشيخ ذلك رضي به ثم ندم بعد ذلك وخرج يطلب موسى عليه السلام فلما لقيه قال: أعطني العصا، قال موسى: هي عصاي فأبى أن يعطيه إياها فاختصما، ثم توافقا على أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فأتاهما ملك يمشي فقضى بينهما فقال ضعوها على الأرض فمن حملها فهي له فعالجها الشيخ فلم يطق وأخذها موسى عليه السلام بسهولة، فتركها الشيخ له ورعى له عشر سنين. وثانيها: روى ابن صالح عن ابن عباس قال: كان في دار بيرون ابن أخي شعيب بيت لا يدخله إلا بيرون وابنته التي زوجها من موسى عليه السلام، وأنها كانت تكنسه وتنظفه، وكان في ذلك البيت ثلاث عشرة عصا، وكان لبيرون أحد عشر ولدًا من الذكور فكلما أدرك منهم ولد أمره بدخول البيت وإخراج عصا من تلك العصي فرجع موسى ذات يوم إلى منزله، فلم يجد أهله واحتاج إلى عصا لرعيه فدخل ذلك البيت وأخذ عصا من تلك العصي وخرج بها فلما علمت المرأة ذلك انطلقت إلى أبيها وأخبرته بذلك فسر بذلك بيرون وقال لها: إن زوجك هذا لنبي، وإن له مع هذه العصا لشأنًا. وثالثها: في بعض الأخبار أن موسى عليه السلام لما عقد العقد مع شعيب وأصبح من الغد وأراد الرعي قال له شعيب عليه السلام: اذهب بهذه الأغنام فإذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وإن كان الكلأ بها أكثر فإن بها تنينًا عظيمًا فأخشى عليك وعلى الأغنام منه، فذهب موسى بالأغنام فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على أن يردها فلم يقدر فسار على أثرها فرأى عشبًا كثيرًا، ثم إن موسى عليه السلام نام والأغنام ترعى وإذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى عليه السلام فقاتلته حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى وهي دامية فلما استيقظ موسى عليه السلام رأى العصا دامية والتنين مقتولاً فارتاح لذلك وعلم أن

لله تعالى في تلك العصا قدرة وآية، وعاد إلى شعيب عليه السلام وكان ضريرًا فمس الأغنام فإذا هي أحسن حالاً مما كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى عليه السلام بالقصة ففرح بذلك وعلم أن لموسى عليه السلام وعصاه شأنًا، فأراد أن يجازي موسى عليه السلام على حسن رعيه إكرامًا وصلة لابنته فقال: إني وهبت لك من السخال التي تضعها أغنامي في هذه السنة كل أبلق وبلقاء، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك الماء الذي تسقي الغنم منه ففعل ثم سقى الأغنام منه فما أخطت واحدة منها إلا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله تعالى إلى موسى عليه السلام وامرأته فوفى له شرطه. ورابعها: قال بعضهم: تلك العصا هي عصا آدم عليه السلام وإن جبريل عليه السلام أخذ تلك العصا بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقي بها موسى عليه السلام ربه ليلاً: وخامسها: قال الحسن: ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضًا أي أخذها من عرض الشجر يقال: اعترض إذا لم يتخير، وعن الكلبي: الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولا مطمع في ترجيح بعض هذه الوجوه على بعض؛ لأنه ليس في القرآن ما يدل عليها والأخبار متعارضة، والله أعلم بها.

أما قوله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فاعلم أن الله تعالى قد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات أحدها: هذه. وثانيها: قوله في طه ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾[طه: ٢٢]. وثالثها: قوله في النمل ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾[النمل: ١٢] قال العزيزي في (غريب القرآن): ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أدخلها فيه.

أما قوله: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ فأحسن الناس كلامًا فيه، قال صاحب (الكشاف): فيه معنيان أحدهما: أن موسى عليه السلام لما قلب الله له العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء، فقيل له: إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى، والمراد بالجناح اليد؛ لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه. الثاني: أن يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران، ومعنى قوله: ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك وقوله: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ على أحد التفسيرين واحد، ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني إخفاء الرهب، فإن قيل: قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضمومًا وفي الآخر مضمومًا إليه، وذلك قوله: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ وقوله:

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾[طه: ٢٢] فما التوفيق بينهما؟ قلنا: المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه اليد اليسرى، وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح، هذا كله كلام صاحب (الكشاف) وهو في نهاية الحسن.

أما قوله تعالى: ﴿فَذَانِكَ﴾ قرئ مخففًا ومشددًا، فالمخفف مثنى (ذَا)، والمشدد مثنى (ذان)، قوله: ﴿بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ حجتان نيرتان على صدقه في النبوة وصحة ما دعاهم إليه من التوحيد، وظاهر الكلام يقتضي أنه تعالى أمره بذلك قبل لقاء فرعون حتى عرف ما الذي يظهره عنده من المعجزات؛ لأنه تعالى حكى بعد ذلك عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[القصص: ٣٣] قال القاضي: وإذا كان كذلك فيجب أن يكون في حال ظهور البرهانين هناك من دعاه إلى رسالته من أهله أو غيرهم، إذ المعجزات إنما تظهر على الرسل في حال الإرسال لا قبله، وإنما تظهر لكي يستدل بها غيرهم على الرسالة وهذا ضعيف؛ لأنه ثبت أنه لا بد في إظهار المعجزة من حكمة ولا حكمة أعظم من أن يستدل بها الغير على صدق المدعي، وأما كونه لا حكمة هاهنا فلا نسلم، فلعل هناك أنواعًا من الحكم والمقاصد سوى ذلك، لا سيما وهذه الآيات متطابقة على أنه لم يكن هناك مع موسى عليه السلام أحد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[القصص: ٣٢] تضمن ذلك أن يذهب موسى بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه، فعند ذلك طلب من الله تعالى ما يقوي قلبه ويزيل خوفه فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ لأنه كان في لسانه حبسة، إما في أصل الخلقة، وإما لأجل أنه وضع الجمرة في فيه عندما نتف لحية فرعون.

أما قوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ **ففيه أبحاث:**

البحث الأول: الردء اسم ما يستعان به، فعل بمعنى مفعول به، كما أن الدفء اسم لما يدفأ به، يقال: ردأت الحائط أردؤه إذا دعمته بخشب أو غيره لئلا يسقط.

البحث الثاني: قرأ نافع (ردا) بغير همز والباقون بالهمز، وقرأ عاصم وحمزة (يُصَدِّقُنِي) برفع القاف، ويروى ذلك أيضًا عن أبي عمرو والباقون بجزم القاف وهو المشهور عن أبي عمرو، فمن رفع فالتقدير ردءًا مصدقًا لي، ومن جزم كان على معنى الجزاء، يعني أن أرسلته صدقني ونظيره قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي﴾ [مريم: ٥،٦] بجزم الثاء من يرثني. وروى السدي عن بعض شيوخه ردءًا كيما يصدقني.

البحث الثالث: الجمهور على أن التصديق لهارون، وقال مقاتل: المعنى كي يصدقني فرعون والمعنى أرسل معي أخي حتى يعاضدني على إظهار الحجة والبيان، فعند اجتماع البرهانين ربما حصل المقصود من تصديق فرعون.

البحث الرابع: ليس الغرض بتصديق هارون أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل، ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ﴾ وفائدة الفصاحة إنما تظهر فيما ذكرناه لا في مجرد قوله: صدقت.

البحث الخامس: قال الجبائي: إنما سأل موسى عليه السلام أن يرسل هارون بأمر الله تعالى وإن كان لا يدري هل يصلح هارون للبعثة أم لا؟ فلم يكن ليسأل مالا يأمن أن يجاب أو لا يكون حكمة، ويحتمل أيضًا أن يقال: إنه سأله لا مطلقًا بل مشروطًا على معنى، إن اقتضت الحكمة ذلك كما يقوله الداعي في دعائه.

البحث السادس: قال السدي: إن نبيين وآيتين أقوى من نبي بواحد وآية واحدة. قال القاضي: والذي قاله من جهة العادة أقوى، فأما من حيث الدلالة فلا فرق بين معجزة ومعجزتين ونبي ونبيين؛ لأن المبعوث إليه إن نظر في أيهما كان علم، وإن لم ينظر فالحالة واحدة، هذا إذا كانت طريقة الدلالة في المعجزتين واحدة، فإما إذا اختلفت وأمكن في إحداهما إزالة الشبهة ما لا يمكن في الأخرى، فغير ممتنع أن يختلفا ويصلح عند ذلك أن يقال: إنهما بمجموعهما أقوى من إحداهما على ما قاله السدي، لكن ذلك لا يتأتى في موسى وهارون عليهما السلام؛ لأن معجزتهما كانت واحدة لا متغايرة.

أما قوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ فاعلم أن العضد قوام اليد وبشدتها تشتد، يقال في دعاء الخير: شد الله عضدك، وفي ضده: فت الله في عضدك. ومعنى سنشد عضدك بأخيك: سنقويك به، فإما أن يكون ذلك لأن اليد تشتد لشدة العضد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور، وإما لأن الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة.

أما قوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ فالمقصود أن الله تعالى آمنه مما كان يحذر فإن قيل: بيّن تعالى أن السلطان هو بالآيات فكيف لا يصلون إليهما لأجل الآيات أو ليس فرعون

قد وصل إلى صلب السحرة وإن كانت هذه الآيات ظاهرة؟ قلنا: إن الآية التي هي قلب العصا حية كما أنها معجزة فهي أيضًا تمنع من وصول ضرر فرعون إلى موسى وهارون عليهما السلام؛ لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة وإن أراد إرسالها عليهم أهلكتهم زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما فصارت مانعة من الوصول إليهما بالقتل وغيره وصارت آية ومعجزة فجمعت بين الأمرين، فأما صلب السحرة ففيه خلاف فمنهم من قال: ما صلبوا، وليس في القرآن ما يدل عليه وإن سلمنا ذلك ولكنه تعالى قال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ فالمنصوص أنهم لا يقدرون على إيصال الضرر إليهما وإيصال الضرر إلى غيرهما لا يقدح فيه، ثم قال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ والمراد إما الغلبة بالحجة والبرهان في الحال، أو الغلبة في الدولة والمملكة في ثاني الحال والأول أقرب إلى اللفظ.

أما قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ فقد بينًا في سورة طه أنه كيف أطلق لفظ الآيات وهو جمع على العصا واليد.

أما قوله: ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ فقد اختلفوا في مفترى، فقال بعضهم: المراد أنه إذا كان سحرًا وفاعله يوهم خلافه فهو المفترى، وقال الجبائي: المراد أنه منسوب إلى الله تعالى وهو من قبله فكأنهم قالوا: هو كذب من هذا الوجه ثم ضموا إليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما حدثنا بكونه فيهم، ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك وقد سمعوا مثله، أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته، أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى عليه السلام ومجيئه بما جاء به.

واعلم أن هذه الشبهة ساقطة؛ لأن حاصلها يرجع إلى التقليد ولأن حال الأولين لا يخلو من وجهين، إما أن لا يورد عليهم بمثل هذه الحجة فحينئذ الفرق ظاهر أو أورد عليهم فدفعوه فحينئذ لا يجوز جعل جهلهم وخطئهم حجة، فعند ذلك قال موسى عليه السلام وقد عرف منهم العناد ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ فإن من أظهر الحجة ولم يجد من الخصم اعتراضًا عليها وإنما لما وجد منه العناد صح أن يقول: ربي أعلم بمن معه الهدى والحجة منا جميعًا ومن هو على الباطل ويضم إليه طريق الوعيد والتخويف وهو قوله: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ من ثواب على تمسكه بالحق أو من عقاب وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [الرعد: ٢٢-٢٣] وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢] والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها وعقباها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت فإن قيل: العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار؛ لأن الدنيا قد تكون خاتمتها بخير في حق البعض وبشر في حق البعض الآخر، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قلنا: إنه قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازًا إلى الآخرة وأمر عباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير ليبلغوا خاتمة

الخير وعاقبة الصدق، فمن عمل فيها خلاف ما وضعها الله له فقد حرف، فإذن عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير، وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها؛ لأنها من نتائج تحريف الفجار، ثم إنه عليه السلام أكد ذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ والمراد أنهم لا يظفرون بالفوز والنجاة والمنافع بل يحصلون على ضد ذلك وهذا نهاية في زجرهم عن العناد الذي ظهر منهم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

اعلم أن فرعون كانت عادته متى ظهرت حجة موسى أن يتعلق في دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه وذكر هاهنا شبهتين الأولى: قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وهذا في الحقيقة يشتمل على كلامين: **احدهما:** نفي إله غيره. **والثاني:** إثبات إلهية نفسه، فأما الأول فقد كان اعتماده على أن ما لا دليل عليه لم يجز إثباته، أما أنه لا دليل عليه فلأن هذه الكواكب والأفلاك كافية في اختلاف أحوال هذا العالم السفلي فلا حاجة إلى إثبات صانع، وأما أن ما لا دليل عليه لم يجز إثباته فالأمر فيه ظاهر.

واعلم أن المقدمة الأولى كاذبة فإنا لا نسلم أنه لا دليل على وجود الصانع وذلك؛ لأنا إذا عرفنا بالدليل حدوث الأجسام عرفنا حدوث الأفلاك والكواكب، وعرفنا بالضرورة أن المحدث لا بد له من محدِث فحينئذ نعرف بالدليل أن هذا العالم له صانع، والعجب أن جماعة اعتمدوا في نفي كثير من الأشياء على أن قالوا: لا دليل عليه فوجب نفيه، قالوا: وإنما قلنا: إنه لا دليل لأنا بحثنا وسبرنا فلم نجد عليه دليلاً، فرجع حاصل كلامهم بعد التحقيق إلى أن كل ما لا يعرف عليه دليل وجب نفيه، وإن فرعون لم يقطع بالنفي بل قال: لا دليل عليه فلا أثبته بل أظنه كاذبًا في دعواه، ففرعون على نهاية جهله أحسن حالاً من هذا المستدل. أما الثاني وهو إثباته إلهية نفسه، فاعلم أنه ليس المراد منه أنه كان يدعي كونه خالقًا للسموات والأرض والبحار والجبال وخالقًا لذوات الناس وصفاتهم، فإن العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول فالشك فيه يقتضي

زوال العقل، بل الإله هو المعبود فالرجل كان ينفي الصانع ويقول: لا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا ملكهم وينقادوا لأمره، فهذا هو المراد من ادعائه الإلهية لا ما ظنه الجمهور من ادعائه كونه خالقًا للسماء والأرض، لا سيما وقد دللنا في سورة طه في تفسير قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩] على أنه كان عارفًا بالله تعالى وأنه كان يقول ذلك ترويجًا على الأغمار من الناس الشبهة الثانية: قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ **وهاهنا أبحاث:**

الأول: تعلقت المشبهة بهذه الآية في أن الله تعالى في السماء قالوا: لولا أن موسى عليه السلام دعاه إلى ذلك لما قال فرعون هذا القول. والجواب: أن موسى عليه السلام دل فرعون بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشعراء: ٢٤] ولم يقل: هو الذي في السماء دون الأرض، فأوهم فرعون أنه يقول: إن إلهه في السماء، وذلك أيضًا من خبث فرعون ومكره ودهائه.

الثاني: اختلفوا في أن فرعون هل بنى هذا الصرح؟ قال قوم: إنه بناه قالوا: إنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل وقطعة وقعت في البحر وقطعة في المغرب، ولم يبق أحد من عماله إلا وقد هلك، ويروى في هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه ورمى بنشابة نحو السماء فأراد الله أن يفتنهم فردت إليهم وهي ملطوخة بالدم، فقال: قد قتلت إله موسى فعند ذلك بعث الله تعالى جبريل عليه السلام لهدمه. ومن الناس من قال: إنه لم يبن ذلك الصرح؛ لأنه يبعد من العقلاء أن يظنوا أنهم بصعود الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأن من على أعلى الجبال الشاهقة يرى السماء كما كان يراها حين كان على قرار الأرض، ومن شك في ذلك خرج عن حد العقل، وهكذا القول فيما يقال من رمى السهم إلى السماء ورجوعه متلطخًا بالدم، فإن كل من كان كامل العقل يعلم أنه لا يمكنه إيصال السهم إلى السماء، وأن من حاول ذلك كان من المجانين فلا يليق بالعقل والدين حمل القصة التي حكاها الله تعالى في القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل، فيصير ذلك مشرعًا قويًّا لمن أحب الطعن في القرآن، فالأقرب أنه كان أوهم البناء ولم يبن أو كان هذا من تتمة قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ يعني لا سبيل إلى إثباته بالدليل، فإن حركات الكواكب كافية في تغير هذا العالم ولا سبيل إلى إثباته بالحس، فإن الإحساس به لا يمكن إلا بعد صعود السماء وذلك مما لا سبيل إليه، ثم قال عند ذلك لهامان: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] وإنما قال ذلك على سبيل التهكم فبمجموع هذه الأشياء قرر أنه لا دليل على الصانع، ثم إنه رتب النتيجة عليه فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فهذا التأويل أولى مما عداه.

الثالث: إنما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾[القصص: ٣٨] ولم يقل: اطبخ لي الآجر واتخذه؛ لأنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة، ولأن هذه العبارة أليق بفصاحة القرآن وأشبه بكلام الجبابرة وأمر هامان - وهو وزيره - بالإيقاد على الطين فنادى باسمه بـ(يا) في وسط الكلام دليل على التعظم والتجبر، والطلوع والاطلاع: الصعود يقال: طلع الجبل واطلع بمعنى واحد.

أما قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فاعلم أن الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وهو المتكبر في الحقيقة أي المبالغ في كبرياء الشأن، قال عليه السلام فيما حكى عن ربه «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ**»[١] وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق.

المسألة الثانية: قال الجبائي: الآية تدل على أنه تعالى ما أعطاه الملك وإلا لكان ذلك بحق وهكذا كل متغلب، لا كما ادعى ملوك بني أمية عند تغلبهم أن ملكهم من الله تعالى فإن الله تعالى قد بيَّن في كل غاصب لحكم الله أنه أخذ ذلك بغير حق، واعلم أن هذا ضعيف؛ لأن وصول ذلك الملك إليه، إما أن يكون منه أو من الله تعالى، أو لا منه ولا من الله تعالى، فإن كان منه فلِمَ لَمْ يقدر عليه غيره، فربما كان العاجز أقوى وأعقل بكثير من المتولي للأمر؟ وإن كان من الله تعالى فقد صح الغرض، وإن كان من سائر الناس فلم اجتمعت دواعي الناس على نصرة أحدهما وخذلان الآخر؟ واعلم أن هذا أظهر من أن يرتاب فيه العاقل.

أما قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فهذا يدل على أنهم كانوا عارفين بالله تعالى إلا أنهم كانوا ينكرون البعث فلأجل ذلك تمردوا وطغوا.

أما قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فهو من الكلام المفحم الذي دل به على عظم شأنه وكبرياء سلطانه، شبههم استحقارًا لهم واستقلالاً لعددهم، وإن كانوا الكبير الكثير والجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر ونحو ذلك وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾[المرسلات: ٢٧] ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾[الحاقة: ١٤] ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧] سبحانه وتعالى وليس الغرض منه إلا تصوير أن كل مقدور وإن عظم فهو حقير بالقياس إلى قدرته.

أما قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فقد تمسك به الأصحاب في كونه تعالى خالقًا للخير والشر، قال الجبائي: المراد بقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي بينا ذلك من حالهم وسميناهم به، ومنه قوله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[الزخرف: ١٩] وتقول أهل اللغة في تفسير فَسَّقه وبخَّله جعله فاسقًا وبخيلاً، لا أنه خلقهم أئمة؛ لأنهم حال خلقهم لهم كانوا أطفالاً، وقال

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم في كتاب (البر)، باب: (تحريم الكبر) (٤/ ١٣٦/ ٢٠٢٣)، بقوله: عذبته بدلا من قذفته في النار، وأبو داود في كتاب (اللباس)، باب: (ما جاء في الكبر) (٤/ ١٧٥٤/ ١٧٥٥)، حديث رقم (٤٠٩٠) من طريق حماد وحدثنا هناد... به، وابن ماجه في كتاب (الزهد)، باب: (البراءة من الكبر) (٢/ ١٣٩٧)، حديث رقم (٤١٧٤)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٤٨) من طريق الأعز... به.

الكعبي: إنما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ من حيث خلى بينهم وبين ما فعلوه ولم يعاجل بالعقوبة، ومن حيث كفروا ولم يمنعهم بالقسر، وذلك كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾[التوبة: ١٢٥] لما زادوا عندها ونظير ذلك أن الرجل يسأل ما يثقل عليه، وإن أمكنه فإذا بخل به قيل: للسائل جعلت فلانًا بخيلاً أي قد بخَّلته، وقال أبو مسلم: معنى الإمامة التقدم فلما عجل الله تعالى لهم العذاب صاروا متقدمين لمن وراءهم من الكافرين.

واعلم أن الكلام فيه قد تقدم في سورة مريم في قوله: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[مريم: ٨٣] ومعنى دعوتهم إلى النار دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي فإن أحدًا لا يدعو إلى النار ألبتة، وإنما جعلهم الله تعالى أئمة في هذا الباب؛ لأنهم بلغوا في هذا الباب أقصى النهايات، ومن كان كذلك استحق أن يكون إمامًا يقتدى به في ذلك الباب، ثم بيَّن تعالى أن ذلك العقاب سينزل بهم على وجه لا يمكن التخلص منه وهو معنى قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أو يكون معناه: ويوم القيامة لاينصرون كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة.

أما قوله: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ معناه: لعنة الله والملائكة لهم وأمره تعالى بذلك فيها للمؤمنين، وبيَّن أنهم يوم القيامة من المقبوحين أي المبعدين الملعونين، والقبح هو الإبعاد، قال الليث: يقال: قبحه الله، أي: نحاه عن كل خير. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من المشئومين بسواد الوجه وزرقة العين، وعلى الجملة فالأولون حملوا القبح على القبح الروحاني وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، والباقون حملوه على القبح في الصور. وقيل فيه: إنه تعالى يقبح صورهم ويقبح عليهم عملهم ويجمع بين الفضيحتين. ثم بيَّن تعالى أن الذي يجب التمسك به ما جاء به موسى عليه السلام فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ والكتاب هو التوراة، ووصفه تعالى بأنه بصائر للناس، من حيث يستبصر به في باب الدين، وهدى من حيث يستدل به، ومن حيث إن المتمسك به يفوز بطلبته من الثواب، ووصفه بأنه رحمة؛ لأنه من نعم الله تعالى على من تعبَّد به. وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا أَهْلَكَ اللَّه تَعَالَى قَرْنًا مِنَ الْقُرُونِ بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ وَلاَ مِنَ الأَرْضِ مُنْذُ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ، غَيْرَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي مَسَخَهَا قِرَدَةً»(١).

أما قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فالمراد لكي يتذكروا، قال القاضي: وذلك يدل على إرادة التذكر من كل مكلف سواء اختار ذلك أو لم يختره، ففيه إبطال مذهب المجبرة الذين يقولون: ما أراد التذكر إلا ممن يتذكر، فأما من لا يتذكر فقد كره ذلك منه، ونص القرآن دافع لهذا القول، قلنا: أليس أنكم حملتم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾[الأعراف: ١٧٩] على العاقبة، فلم لا يجوز حمله هاهنا على العاقبة، فإن عاقبة الكل حصول هذا التذكر له وذلك في الآخرة.

---

(١) ذكره أهل التفسير من رواية أبي سعيد الخدري ولكن من غير إسناد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٤٤ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٤٥ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٦ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾

اعلم أن في الآية سؤالات:

السؤال الأول: الجانب موصوف، والغربي صفة، فكيف أضاف الموصوف إلى الصفة؟
الجواب: هذه مسألة خلافية بين النحويين، فعند البصريين لا يجوز إضافة الموصوف إلى الصفة إلا بشرط خاص سنذكره، وعند الكوفيين يجوز ذلك مطلقًا، حجة البصريين أن إضافة الموصوف إلى الصفة تقتضي إضافة الشيء إلى نفسه، وهذا غير جائز فذاك أيضًا غير جائز، بيان الملازمة أنك إذا قلت: جاءني زيد الظريف، فلفظ الظريف يدل على شيء معين في نفسه مجهول بحسب هذا اللفظ حصلت له الظرافة، فإذا نصصت على زيد عرفنا أن ذلك الشيء الذي حصلت له الظرافة هو زيد، إذا ثبت هذا، فلو أضفت زيدًا إلى الظريف، كنت قد أضفت زيدًا إلى زيد، وإضافة الشيء إلى نفسه غير جائزة، فإضافة الموصوف إلى صفته وجب أن لا تجوز، إلا أنه جاء على خلاف هذه القاعدة ألفاظ، وهي قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] وقوله: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النحل: ٣٠] ويقال: صلاة الأولى ومسجد الجامع وبقلة الحمقاء، فقالوا: التأويل فيه جانب المكان الغربي ودين الملة القيمة وحق الشيء اليقين ودار الساعة الآخرة وصلاة الساعة الأولى ومسجد المكان الجامع وبقلة الحبة الحمقاء، ثم قالوا في هذه المواضع: المضاف إليه ليس هو النعت، بل المنعوت، إلا أنه حذف المنعوت وأقيم النعت مقامه فهاهنا ينظر إن كان ذلك النعت كالمتعين لذلك المنعوت، حسن ذلك وإلا فلا، ألا ترى أنه ليس لك أن تقول: عندي جيد على معنى عندي درهم جيد، ويجوز مررت بالفقيه على معنى مررت بالرجل الفقيه؛ لأن الفقيه يعلم أنه لا يكون إلا من الناس والجيد قد يكون درهمًا وقد يكون غيره، وإذا كان كذلك حسن قوله جانب الغربي؛ لأن الشيء الموصوف بالغربي الذي يضاف إليه الجانب لا يكون إلا مكانًا أو ما يشبهه، فلا جرم حسنت هذه الإضافة، وكذا القول في البواقي، والله أعلم.

السؤال الثاني: ما معنى قوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾؟ الجواب: الجانب الغربي هو المكان الواقع في شق الغرب، وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور، وكتب الله (له) في الألواح والأمر المقضي إلى موسى عليه السلام الوحي الذي أوحى إليه، والخطاب للرسول ﷺ يقول: وما كنت حاضرًا المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام، ولا كنت من جملة الشاهدين للوحي إليه أو على (الْمُوحَى) إليه، (وَهِيَ لِأَنَّ الشَّاهِدَ لاَ بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ حَاضِرًا)، وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات.

السؤال الثالث: لما قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ ثبت أنه لم يكن شاهدًا؛ لأن الشاهد لا بد أن يكون حاضرًا، فما الفائدة في إعادة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؟ الجواب: قال ابن عباس رضي الله عنهما: التقدير لم تحضر ذلك الموضع، ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع، فإنه يجوز أن يكون هناك، ولا يشهد ولا يرى.

السؤال الرابع: كيف يتصل قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ بهذا الكلام ومن أي وجه يكون استدراكًا له؟ الجواب: معنى الآية: ولكنا أنشأنا بعد عهد موسى عليه السلام إلى عهدك قرونًا كثيرة فتطاول عليهم العمر وهو القرن الذي أنت فيه، فاندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم، فأرسلناك وعرفناك أحوال الأنبياء وأحوال موسى، فالحاصل كأنه قال: وما كنت شاهدًا لموسى وما جرى عليه، ولكنا أوحيناه إليك فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ودل به على المسبب، فإذن هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده. واعلم أن هذا تنبيه على المعجز كأنه قال: إن في إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلم من أهله، دلالة ظاهرة على نبوتك كما قال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

أما قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فالمعنى ما كنت مقيمًا فيه.

وأما قوله: ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ **ففيه وجهان:**

الأول: قال مقاتل: يقول: لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: أرسلناك إلى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها.

الثاني: قال الضحاك: يقول: إنك يا محمد، لم تكن الرسول إلى أهل مدين تتلو عليهم الكتاب وإنما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين في كل زمان رسولاً، فأرسلنا إلى أهل مدين شعيبًا وأرسلناك إلى العرب؛ لتكون خاتم الأنبياء.

أما قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي علمناك رحمة، وقرأ عيسى بن عمر بالرفع أي هي رحمة، وذكر المفسرون في قوله: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ وجوهًا أخر: أحدها: إذ نادينا أي قلنا لموسى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وثانيها: قال ابن عباس: إذ نادينا أمتك في أصلاب آبائهم: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، أَجَبْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي، وَأَعْطَيْتُكُمْ قَبْلَ

أَنْ تَسْأَلُونِي، وَغَفَرْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُونِي» قال: وإنما قال الله تعالى ذلك حين اختار موسى عليه السلام سبعين رجلاً لميقات ربه. وثالثها: قال وهب: (لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ لِمُوسَى فَضْلَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ رَبِّ أَرِنِيهِمْ، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تُدْرِكَهُمْ وَإِنْ شِئْتَ أَسْمَعْتُكَ أَصْوَاتَهُمْ، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ فَأَجَابُوهُ مِنْ أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ فَأَسْمَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَصْوَاتَهُمْ ثم قال: أَجَبْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي) الحديث كما ذكره ابن عباس(١). ورابعها: روى سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ قال: «**كتب الله كتابًا قبل أن يخلق الخلق بألفي عام ثم وضعه على العرش ثم نادى يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، إن رحمتي سبقت غَضَبِي أَعْطَيْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي وَغَفَرْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُونِي مَنْ لَقِيَنِي مِنْكُمْ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ**»(٢).

أما قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فالإنذار هو التخويف بالعقاب على المعصية. واعلم أنه تعالى لما بيَّن قصة موسى عليه السلام قال لرسوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ فجمع تعالى بين كل ذلك؛ لأن هذه الأحوال الثلاثة هي الأحوال العظيمة التي اتفقت لموسى عليه السلام إذ المراد بقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[القصص: ٤٤] إنزال التوراة حتى تكامل دينه واستقرَّ شرعه والمراد بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أول أمره والمراد نادنياه وسط أمره وهو ليلة المناجاة، ولما بيَّن تعالى أنه عليه السلام لم يكن في هذه الأحوال حاضرًا بيَّن تعالى أنه بعثه وعرفه هذه الأحوال رحمة للعالمين ثم فسر تلك الرحمة بأن قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ واختلفوا فيه فقال بعضهم: لم يبعث إليهم نذير منهم، وقال بعضهم: حجة الأنبياء كانت قائمة عليهم ولكنه ما بعث إليهم من يجد تلك الحجة عليهم، وقال بعضهم: لا يبعد وقوع الفترة في التكاليف فبعثه الله تعالى تقريرًا للتكاليف وإزالة لتلك الفترة.

أما قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ الآية فقال صاحب (الكشاف): (لولا) الأولى امتناعية

---

(١) أورده أهل التفسير في تفاسيرهم بغير إسناد.

(٢) أخرجه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (١٤/ ١٥٤)، حديث رقم (٤٤٤٣) من طريق إبراهيم بن زكريا الأحمر حدثنا محمد بن يوسف الفريابي عن سفيان الثوري عن أبي حازم عن سهل بن سعد عن عمرو بن عنبسة... به.

(قلت): الحديث أصله عند أهل السنة من رواية النعمان بن بشير.

صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (فضائل القرآن)، باب: (سورة البقرة) (٥/ ١٤٧)، حديث رقم (٢٨٨١) من طريق ابن مهدي... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢٧٤)، حديث رقم (١٨٣٢٧) من طريق روح وعفان... به، والنسائي في (عمل اليوم والليلة) (٥٣٦)، حديث رقم (٩٦٧) من طريق الحجاج... به، والدارمي في كتاب (فضائل القرآن)، باب: (فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي) (٢/ ٣٢٢)، حديث رقم (٣٣٨٧) من طريق حماد بن سلمة... به، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٢٦٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، أربعتهم (روح، وعفان، والحاج، وابن مهدي) عن حماد بن سلمة عن الأشعث بن عبد الرحمن الجرمي عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني... فذكره.

وجوابها محذوف، والثانية تحضيضية، والفاء في قوله: ﴿فَيَقُولُوا﴾ للعطف، (وفي قوله للعطف). وفي قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ جواب (لَوْلا) لكونها في حكم الأمر من قبل أن الأمر باعث على الفعل، والباعث والمحضض من واد واحد، والمعنى لولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي: هلا أرسلت إلينا رسولاً، محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم، يعني إنما أرسلنا الرسول إزالة لهذا العذر وهو كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ واعلم أنه تعالى لم يقل: ولولا أن يقولوا هذا العذر لما أرسلنا، بل قال: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا﴾ هذا العدو لما أرسلنا وإنما قال ذلك لنكتة وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً وقد عرفوا بطلان دينهم لما قالوا ذلك، بل إنما يقولون ذلك إذا نالهم العقاب فيدل ذلك على أنهم لم يذكروا هذا العذر تأسفًا على كفرهم، بل لأنهم ما أطاقوا وفيه تنبيه على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: احتجَّ الجبائي على وجوب فعل اللطف قال: لو لم يجب ذلك لم يكن لهم أن يقولوا: هلا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك، إذ من الجائز أن لا يبعث إليهم وإن كانوا لا يختارون الإيمان إلا عنده على قول من خالف في وجوب اللطف كما مر أن الجائز إذا كان في المعلوم لو خلق له لم يمكن إلا أن يفعل ذلك.

المسألة الثانية: احتج الكعبي به على أن الله تعالى يقبل حجة العباد وليس الأمر كما يقوله أهل السنة من أنه تعالى لا يقبل الحجة وظهر بهذا أنه ليس المراد من قوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ما يظنه أهل السنة، وإذا ثبت أنه يقبل الحجة وجب أن لا يكون فعل العبد بخلق الله تعالى وإلا لكان للكافر أعظم حجة على الله تعالى.

المسألة الثالثة: قال القاضي: فيه إبطال القول بالجبر من جهات: إحداها: أن اتباعهم وإيمانهم موقوف على أن يخلق الله ذلك فيهم سواء أرسل الرسول إليهم أم لا. وثانيتها: أنه إذا خلق القدرة على ذلك فيهم وجب سواء أرسل الرسول أم لا. وثالثتها: إذا أراد ذلك وجب أرسل الرسول إليهم أم لا، فأي فائدة في قولهم هذا لو كانت أفعالهم خلقًا لله تعالى؟ فيقال للقاضي: هب أنك نازعت في الخلق والإرادة ولكنك وافقت في العلم فإذا علم الكفر منهم فهل يجب أم لا، فإن لم يجب أمكن أن لا يوجد الكفر مع حصول العلم بالكفر وذلك جمع بين الضدين وإن وجب لزمك ما أوردته علينا، واعلم أن الكلام وإن كان قويًا حسنًا إلا أنه إذا توجه عليه النقض الذي لا محيص عنه، فكيف يرضى العاقل بأن يعول عليه؟

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ

﴿٤٨ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٤٩ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ٥٥﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم عند الخوف قالوا: هلا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك، بيَّن أيضًا أنه بعد الإرسال إلى أهل مكة قالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ فهؤلاء قبل البعثة يتعلقون بشبهة وبعد البعثة يتعلقون بأخرى، فظهر أنه لا مقصود لهم سوى الزيغ والعناد.

أما قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: جاءهم الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات قالوا: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن سائر المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وفلق البحر وتظليل الغمام وانفجار الحجر بالماء والمن والسلوى ومن أن الله كلَّمه وكتب له في الألواح وغيرها من الآيات فجاؤا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد كما قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] وما أشبه ذلك.

واعلم أن الذي اقترحوه غير لازم؛ لأنه لا يجب في معجزات الأنبياء عليهم السلام أن تكون واحدة ولا فيما ينزل إليهم من الكتب أن يكون على وجه واحد إذ الصلاح قد يكون في إنزاله مجموعًا كالتوراة ومفرقًا كالقرآن، ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ واختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ إلى من يعود، وذكروا وجوهًا: أحدها: أن اليهود أمروا قريشًا أن يسألوا محمدًا أن يؤتى مثل ما أوتي موسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ يعني أو لم تكفروا يا هؤلاء اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال بموسى عليه السلام مع تلك الآيات الباهرة. وثانيها: أن الذين أوردوا هذا الاقتراح كفار مكة، والذين كفروا بموسى هم الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام إلا أنه تعالى جعلهم كالشيء الواحد؛ لأنهم في الكفر والتعنت كالشيء الواحد. وثالثها: قال الكلبي إن مشركي مكة بعثوا رهطًا إلى يهود المدينة ليسألهم عن محمد وشأنه فقالوا: إنا نجده في

التوراة بنعته وصفته، فلما رجع الرهط إليهم وأخبروهم بقول اليهود قالوا: إنه كان ساحرًا كما أن محمدًا ساحر، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ ورابعها: قال الحسن: قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام فمعناه على هذا أو لم يكفر آباؤهم بأن قالوا في موسى وهارون: ساحران. وخامسها: قال قتادة: أو لم يكفر اليهود في عصر محمد بما أوتي موسى من قبل من البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام فقالوا: ساحران. وسادسها: وهو الأظهر عندي أن كفار قريش ومكة كانوا منكرين لجميع النبوات ثم إنهم لما طلبوا من الرسول ﷺ معجزات موسى عليه السلام قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ بل بما أوتي جميع الأنبياء من قبل، فعلمنا أنه لا غرض لكم في هذا الاقتراح إلا التعنت، ثم إنه تعالى حكى كيفية كفرهم بما أوتي موسى من وجهين: الأول: قولهم: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأهل المدينة (سَاحِرَانِ) بالألف وقرأ أهل الكوفة بغير ألف وذكروا في تفسير الساحرين وجوهًا:

أحدها: المراد هارون وموسى عليهما السلام تظاهرا أي تعاونا وقرىء (اظَّاهَرَا) على الإدغام وسحران بمعنى ذوي سحر، وجعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر وكثير من المفسرين فسروا قوله: ﴿سِحْرَانِ﴾ بأن المراد هو القرآن والتوراة واختار أبو عبيدة القراءة بالألف؛ لأن المظاهرة بالناس وأفعالهم أشبه منها بالكتب. وجوابه: إنا بينا أن قوله: ﴿سِحْرَانِ﴾ يمكن حمله على الرجلين وبتقدير أن يكون المراد الكتابين لكن لما كان كل واحد من الكتابين يقوي الآخر لم يبعد أن يقال على سبيل المجاز: تعاونا كما: تقول تظاهرت الأخبار، وهذه التأويلات إنما تصح إذا حملنا قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ إما على كفار مكة أو على الكفار الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام ولا شك أن ذلك أليق بمساق الآية. الثاني: قولهم: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ أي بما أنزل على محمد وموسى وسائر الأنبياء عليهم السلام ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق إلا بالمشركين لا باليهود وذلك مبالغة في أنهم مع كثرة آيات موسى عليه السلام كذبوه فما الذي يمنع من مثله في محمد ﷺ وإن ظهرت حجته، ولما أجاب الله تعالى عن شبههم ذكر الحجة الدالة على صدق محمد ﷺ فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ وهذا تنبيه على عجزهم عن الإتيان بمثله، قال الزجاج (أَتَّبِعْهُ) بالجزم على الشرط ومن قرأ (أَتَّبِعُهُ) بالرفع فالتقدير أنا أتبعه، ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ قال ابن عباس: يريد فإن لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج، وقال مقاتل: فإن لم يمكنهم أن يأتوا بكتاب أفضل منهما وهذا أشبه بالآية فإن قيل الاستجابة تقتضي دعاء فأين الدعاء هاهنا؟ قلنا: قوله: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ﴾ أمر والأمر دعاء إلى الفعل ثم قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني قد صاروا ملزمين ولم يبق لهم شيء إلا اتباع الهوى ثم زيف طريقتهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد وأنه لا بد من الحجة والاستدلال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو عام يتناول الكافر لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] واحتج الأصحاب به في أن هداية الله تعالى خاصة بالمؤمنين.

وقالت المعتزلة: الألطاف منها ما يحسن فعلها مطلقًا ومنها ما لا يحسن إلا بعد الإيمان والدليل عليه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ محمول على القسم الثاني ولا يجوز حمله على القسم الأول؛ لأنه تعالى لما بيَّن في الآية المتقدمة أن عدم بعثة الرسول جار مجرى العذر لهم، فبأن يكون عدم الهداية عذرًا لهم أولى، ولما بيَّن تعالى نبوة محمد ﷺ بهذه الدلالة قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ وتوصيل القول هو إتيان بيان بعد بيان، وهو من وصل البعض بالبعض، وهذا القول الموصل يحتمل أن يكون المراد منه إنا أنزلنا القرآن منجمًا مفرقًا يتصل بعضه ببعض؛ ليكون ذلك أقرب إلى التذكير والتنبيه، فإنهم كل يوم يطلعون على حكمة أخرى وفائدة زائدة فيكونون عند ذلك أقرب إلى التذكر، وعلى هذا التقدير يكون هذا جوابًا عن قولهم: هلا أوتي محمد كتابه دفعة واحدة كما أوتي موسى كتابه كذلك، ويحتمل أن يكون المراد وصلنا أخبار الأنبياء بعضها ببعض وأخبار الكفار في كيفية هلاكهم تكثيرًا لمواضع الاتعاظ والانزجار ويحتمل أن يكون المراد: بينا الدلالة على كون هذا القرآن معجزًا مرة بعد أخرى لعلهم يتذكرون. ثم إنه تعالى لما أقام الدلالة على النبوة أكد ذلك بأن قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن أسلموا بمحمد فمن لا يعرف الكتب أولى بذلك، واختلفوا في المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وذكروا فيه وجوهًا:

أحدها: قال قتادة: إنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة حقة يتمسكون بها فلما بعث الله تعالى محمدًا آمنوا به من جملتهم سلمان وعبد الله بن سلام.

وثانيها: قال مقاتل: نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل وهم أصحاب السفينة جاؤا من الحبشة مع جعفر.

وثالثها: قال رفاعة بن قرظة: نزلت في عشرة أنا أحدهم، وقد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من حصل في حقه تلك الصفة كان داخلاً في الآية ثم حكى عنهم ما يدل على تأكيد إيمانهم وهو قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ فقوله: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ يدل على التعليل يعني أن كونه حقًا من عند الله يوجب الإيمان به وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ بيان لقوله: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيمانًا قريب العهد وبعيده، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم وذلك لما وجدوه في كتب الأنبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدمه، ثم إنه تعالى لما مدحهم بهذا المدح العظيم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ وذكروا فيه وجوهًا: أحدها: أنهم يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بمحمد ﷺ قبل بعثته وبعد بعثته وهذا هو الأقرب؛ لأنه تعالى لما بيَّن أنهم آمنوا به بعد البعثة وبيَّن أيضًا أنهم كانوا مؤمنين به قبل البعثة ثم أثبت الأجر مرتين وجب أن ينصرف إلى ذلك. وثانيها: يؤتون الأجر

مرتين مرة بإيمانهم بالأنبياء الذي كانوا قبل محمد ﷺ ومرة أخرى بإيمانهم بمحمد ﷺ.
وثالثها: قال مقاتل: هؤلاء لما آمنوا بمحمد ﷺ شتمهم المشركون فصفحوا عنهم فلهم أجران أجر على الصف وأجر على الإيمان، يروى أنهم لما أسلموا لعنهم أبو جهل فسكتوا عنه، قال السدي: اليهود عابوا عبد الله بن سلام وشتموه وهو يقول: سلام عليكم ثم قال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ والمعنى (يَدْفَعُونَ) بالطاعة المعصية المتقدمة، ويحتمل أن يكون المراد دفعوا بالعفو والصفح الأذى، ويحتمل أن يكون المراد من الحسنة امتناعهم من المعاصي؛ لأن نفس الامتناع حسنة ويدفع به ما لولاه لكان سيئة، ويحتمل التوبة والإنابة والاستقرار عليها، ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

واعلم أنه تعالى مدحهم أولاً بالإيمان ثم بالطاعات البدنية في قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ثم بالطاعات المالية في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال القاضي: دل هذا المدح على أن الحرام لا يكون رزقًا. جوابه: أن كلمة من للتبعيض فدل على أنهم استحقوا المدح بإنفاق بعض ما كان رزقًا، وعلى هذا التقدير يسقط استدلاله، ثم لما بيَّن كيفية اشتغالهم بالطاعات والأفعال الحسنة بيَّن كيفية إعراضهم عن الجهال فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ واللغو ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وغيره وكانوا يسمعون ذلك فلا يخوضون فيه بل يعرضون عنه إعراضًا جميلاً فلذلك قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ وما أحسن ما قال الحسن رحمه الله: في أن هذه الكلمة تحية بين المؤمنين، وعلامة الاحتمال من الجاهلين، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ثم أكد تعالى ذلك بقوله حاكيًا عنهم: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ والمراد لا نجازيهم بالباطل على باطلهم، قال قوم: نسخ ذلك بالأمر بالقتال وهو بعيد؛ لأن ترك المسافهة مندوب، وإن كان القتال واجبًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٥٦ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧﴾

اعلم أن في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ مسائل:

المسألة الأولى: هذه الآية لا دلالة في ظاهرها على كفر أبي طالب ثم قال الزجاج: أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب وذلك أن أبا طالب قال عند موته: يا معشر بني عبد مناف أطيعوا محمدًا وصدقوه تفلحوا وترشدوا، فقال عليه السلام: «يَا عَمِّ تَأْمُرُهُمْ بِالنُّصْحِ لأَنْفُسِهِمْ وَتَدَعُهَا لِنَفْسِكَ! قَالَ فَمَا تُرِيدُ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ أُرِيدُ مِنْكَ كَلِمَةً وَاحِدَةً، فَإِنَّكَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا أَنْ تَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ جَزِعَ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْكَ وَعَلَى بَنِي أَبِيكَ غَضَاضَةٌ وَمَسَبَّةٌ بَعْدِي لَقُلْتُهَا وَلأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ عِنْدَ الْفِرَاقِ لِمَا أَرَى مِنْ شِدَّةِ وَجْدِكَ وَنُصْحِكَ، وَلَكِنِّي سَوْفَ أَمُوتُ عَلَى مِلَّةِ الأَشْيَاخِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهَاشِمٍ وَعَبْدِ مَنَافٍ»[1].

المسألة الثانية: أنه تعالى قال في هذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] ولا تنافي بينهما فإن الذي أثبته وأضافه إليه الدعوة والبيان والذي نفى عنه هداية التوفيق، وشرح الصدر وهو نور يقذف في القلب فيحيا به القلب كما قال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا﴾ [الأنعام: ١٢٢] الآية.

المسألة الثالثة: احتج الأصحاب بهذه الآية في مسألة الهدى والضلال، فقالوا: قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ يقتضي أن تكون الهداية في الموضعين بمعنى واحد لأنه لو كان المراد من الهداية في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي﴾ شيئًا وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ شيئًا آخر لاختل النظم، ثم إما أن يكون المراد من الهداية بيان الدلالة أو الدعوة إلى الجنة أو تعريف طريق الجنة أو خلق المعرفة في القلوب على سبيل الإلجاء أو خلق المعرفة في القلوب لا على سبيل الإلجاء لا جائز أن يكون المراد بيان الأدلة لأنه عليه السلام هدى الكل بهذا المعنى فهي غير الهداية التي نفى الله عمومها، وكذا القول في الهداية بمعنى الدعوة إلى الجنة، وأما الهداية بمعنى تعريف طريق الجنة فهي أيضًا غير مرادة من الآية لأنه تعالى علق هذه الهداية على المشيئة وتعريف طريق

---

(١) غريب بهذا اللفظ وهو في الصحيحين من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حزن المخزومي.
متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الجنائز)، باب: (إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله) (٢/ ٢٦٣)، حديث رقم (١٣٦٠) من طريق صالح... به، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (الدليل على صحة من حضر الموت...) (١/ ٣٩/ ٥٤) من طريق يونس... به، جميعًا من طريق الزهري... به.

الجنة غير معلق على المشيئة لأنه واجب على الله تعالى والواجب لا يكون معلقًا على المشيئة فمن وجب عليه أداء عشرة دنانير، لا يجوز أن يقول إني أعطي عشرة دنانير إن شئت، وأما الهداية بمعنى الإلجاء والقسر فغير جائز لأن ذلك عندهم قبيح من الله تعالى في حق المكلف وفعل القبيح مستلزم للجهل أو الحاجة وهما محالان ومستلزم المحال محال فذلك محال من الله تعالى والمحال لا يجوز تعليقه في المشيئة، ولما بطلت الأقسام لم يبق إلا أن المراد أنه تعالى يخص البعض بخلق الهداية والمعرفة ويمنع البعض منها، ولا يسأل عما يفعل، ومتى أوردت الكلام على هذا الوجه سقط كل ما أورده القاضي عذرًا عن ذلك.

أما قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فالمعنى أنه المختص بعلم الغيب فيعلم من يهتدي بعد ومن لا يهتدي، ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر شبههم وأجاب عنها بالأجوبة الواضحة، وبين أن وضوح الدلائل لا يكفي ما لم ينضم إليه هداية الله تعالى، حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة بأحوال الدنيا وهي قولهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ قال المبرد: الْخَطْفُ، الانتزاع بسرعة، روى أن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال لرسول الله ﷺ: إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي تَقُولُهُ حَقٌّ، وَلَكِنْ يَمْنَعُنَا مِنْ ذَلِكَ تَخَطُّفُنَا مِنْ أَرْضِنَا[1]، أي يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا من أرضنا، فأجاب الله سبحانه وتعالى عنها من وجوه الأول: قوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي أعطيناكم مسكنًا لا خوف لكم فيه، إما لأن العرب كانوا يحترمون الحرم وما كانوا يتعرضون ألبتة لسكانه، فإنه يروى أن العرب خارج الحرم كانوا مشتغلين بالنهب والغارة، وما كانوا يتعرضون ألبتة لسكان الحرم، أو لقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وأما قوله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فهو تعالى كما بين كون ذلك الموضع خاليًا عن المخاوف والآفات بين كثرة النعم فيه، ومعنى: ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ يجمع من قولهم: جبيت الماء في الحوض إذا جمعته، قرأ أهل المدينة (تجبى) بالتاء، وأهل الكوفة، وأبو عمرو بالياء، وذلك أن تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقي، فيجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى، ومعنى الكلية الكثرة كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] وحاصل الجواب: أنه تعالى لما جعل الحرم آمنًا وأكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الأوثان، فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى، قال القاضي: ولو أن الرسول قال لهم: إن الذي ذكرتم من التخطف لو كان حقًّا لم يكن عذرًا لكم في أن لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة، لانقطعوا، أو قال لهم: إن تخطفهم لكم بالقتل وغيره، وقد آمنتم كالشهادة لكم فهو نفع عائد عليكم لانقطعوا أيضًا، ولو قال لهم: ما قدر مضرة التخطف في جنب العقاب الدائم الذي أخوفكم منه إن بقيتم على كفركم، لانقطعوا، لكنه تعالى احتج بما هو أقوى من حيث بين كذبهم في أنهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال البقعة بالعادة، أن ذلك لا يجري إن آمنوا، ومثل ذلك إذا أمكن بيانه

---

(١) ذكره النيسابوري في (تفسيره) (١/ ١٥٦)، ولم يذكر له إسنادًا.

للخصم فهو أولى من سائر ما ذكرنا، فلذلك قدمه الله تعالى، والآية دالة على صحة الحجاج الذي يتوصل به إلى إزالة شبهة المبطلين. بقي هاهنا بحثان:

الأول: قال صاحب (الكشاف) في انتصاب رزقًا: إن جعلته مصدرًا جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله، لأن معنى يجبى إليه ثمرات كل شيء، ويرزق ثمرات كل شيء واحد، وأن يكون مفعولاً له، وإن جعلته بمعنى مرزوق كان حالاً من الثمرات لتخصيصها بالإضافة، كما ينتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة.

الثاني: احتج الأصحاب بقوله: ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ في أن فعل العبد خلق الله تعالى، وبيانه أن تلك الأرزاق إنما كانت تصل إليهم، لأن الناس كانوا يحملونها إليهم فلو لم يكن فعل العبد خلقًا لله تعالى لما صحت تلك الإضافة، فإن قيل: سبب تلك الإضافة أنه تعالى هو الذي ألقى تلك الدواعي في قلوب من ذهب بتلك الأرزاق إليهم، قلنا: تلك الدواعي إن اقتضت الرجحان، فقد بينا في غير موضع أنه متى حصل الرجحان، فقد حصل الوجوب وحينئذ يحصل المقصود، وإن لم يحصل الرجحان انقطعت الإضافة بالكلية. واعلم أنه تعالى إنما بين أن تلك الأرزاق ما وصلت إليهم إلا من الله تعالى، لأجل أنهم متى علموا ذلك صاروا بحيث لا يخافون أحدًا سوى الله تعالى ولا يرجون أحدًا غير الله تعالى، فيبقى نظرهم منقطعًا عن الخلق متعلقًا بالخالق، وذلك يوجب كمال الإيمان والإعراض بالكلية عن غير الله تعالى والإقبال بالكلية على طاعة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

اعلم أن هذا هو الجواب الثاني: عن تلك الشبهة، وذلك لأنه تعالى لما بين لأهل مكة ما خصوا به من النعم أتبعه بما أنزله الله تعالى بالأمم الماضية الذين كانوا في نعم الدنيا، فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم والمقصود أن الكفار لما قالوا: إنا لا نؤمن خوفًا من زوال نعمة الدنيا، فالله تعالى بين لهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل هذه النعم، لا الإقدام على الإيمان، قال صاحب (الكشاف): البطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى فيه وانتصبت معيشتها إما بحذف الجار واتصال الفعل كقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أو بتقدير حذف الزمان المضاف وأصله بطرت أيام معيشتها، وإما تضمين بطرت معنى كفرت.

فأما قوله: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ففي هذا الاستثناء وجوه أحدها: قال

ابن عباس رضي الله عنهما: لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يومًا أو ساعة. وثانيها: يحتمل أن شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك أهلها، وإذا لم يبق للشيء مالك معين قيل: إنه ميراث الله؛ لأنه الباقي بعد فناء خلقه، ثم إنه سبحانه لما ذكر أنه أهلك تلك القرى بسبب بطر أهلها، فكأن سائلاً أورد السؤال من وجهين الأول: لماذا ما أهلك الله الكفار قبل محمد ﷺ مع أنهم كانوا مستغرقين في الكفر والعناد؟ الثاني: لماذا ما أهلكهم بعد مبعث محمد ﷺ مع تمادي القوم في الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد ﷺ؟ فأجاب عن السؤال الأول بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ وحاصل الجواب أنه تعالى قدم بيان أن عدم البعثة يجري مجرى العذر للقوم، فوجب أن لا يجوز إهلاكهم إلا بعد البعثة، ثم ذكر المفسرون وجهين أحدهما: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ أي في القرية التي هي أمها وأصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها رسولاً لإلزام الحجة وقطع المعذرة، الثاني: وما كان ربك مهلك القرى التي في الأرض حتى يبعث في أم القرى يعني مكة رسولاً وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء، ومعنى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يؤدي ويبلغ، وأجاب عن السؤال الثاني بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فإن بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم أنهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله أنهم وإن لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمنًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

اعلم أن هذا هو الجواب الثالث: عن تلك الشبهة لأن حاصل شبهتهم أن قالوا: تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا، فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى، أما أنه خير فلوجهين أحدهما: أن المنافع هناك أعظم وثانيهما: أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار فيها أكثر، وأما أنها أبقى فلأنها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدمًا فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر، فظهر من هذا أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة ألبتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجًا عن حد العقل، ورحم الله الشافعي حيث قال: من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا

المشتغلون بالطاعة، فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية، ثم إنه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأي عقل يرتاب في أن نعم الآخرة راجحة عليها، وهذا هو المراد بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ [الصافات: ٥٧] فهو يكون كمن أعطاه الله قدرًا قليلاً من متاع الدنيا ثم يكون في الآخرة من المحضرين للعذاب، والمقصود أنهم لما قالوا: تركنا الدين للدنيا، فقال الله لهم: لو لم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضي ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا، فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم؟ وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ في الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧] ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧] وفي لفظه إشعار به لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام، وذلك لا يليق بمجالس اللذة إنما يليق بمجالس الضرر والمكاره.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ۝٦٤ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآية أنه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء أحدها: قوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ لما ثبت أن الكفار يوم القيامة قد عرفوا بطلان ما كانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم: أين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكًا في العبادة وتزعمون أنه يشفع؟ أين هو لينصركم ويخلصكم من هذا الذي نزل بكم؟ ثم بين تعالى ما يقوله من حق عليه القول، والمراد من القول هو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ومعنى حق عليه القول أي حق عليه مقتضاه، واختلفوا في أن الذين حق عليهم هذا القول من هم؟ فقال بعضهم: الرؤساء الدعاة إلى الضلال، وقال بعضهم: الشياطين، قوله: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفته والراجع إلى الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غيًا مثل ما غوينا والمراد كما أن غينا باختيارنا فكذا غيهم باختيارهم يعني أن إغواءنا لهم ما ألجأهم إلى الغواية بل كانوا مختارين بالإقدام على تلك العقائد والأعمال، وهذا معنى ما حكاه الله عن

الشيطان أنه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] فقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ [الحجر: ٤٢] يدل على أن ذلك الاتباع لهم من قبل أنفسهم لا من قبل إلجاء الشيطان إلى ذلك، ثم قال: تبرأنا إليك منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ما كانوا إيانا يعبدون إنما كانوا يعبدون أهواءهم، والحاصل أنهم يتبرءون منهم كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦] وأيضًا فلا يمتنع في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أن يريد به هؤلاء الرؤساء والشياطين فإنهم لما أطاعوهم فقد صيروهم لمكان الطاعة بمنزله الشريك لله تعالى، وإذا حمل الكلام على هذا الوجه كان جوابهم أن يقولوا: إلهنا هؤلاء ما عبدونا إنما عبدوا أهواءهم الفاسدة، وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ والأقرب أن هذا على سبيل التقرير لأنهم يعلمون أنه لا فائدة في دعائهم لهم، فالمراد أنهم لو دعوهم لم يوجد منهم إجابة في النصرة وأن العذاب ثابت فيهم، وكل ذلك على وجه التوبيخ، وفي ذكره ردع وزجر في دار الدنيا، فأما قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ فكثير من المفسرين زعموا أن جواب لو محذوف وذكروا فيه وجوهًا أحدها: قال الضحاك ومقاتل: يعني المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما أبصروه في الآخرة، وثانيها: لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا لعلموا أن العذاب حق، وثالثها: ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا في الدنيا يهتدون، ورابعها: لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب وخامسها: قد آن لهم أن يهتدوا لو أنهم كانوا يهتدون إذا رأوا العذاب، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ٢٠١] وعندي أن الجواب غير محذوف وفي تقريره وجوه أحدها: أن الله تعالى إذا خاطبهم بقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ فههنا يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شيء كالسَّدَر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيئًا فقال تعالى: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ شيئًا أما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيئًا لا جرم ما رأوا العذاب، وثانيها: أنه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهي الأصنام أنهم لا يجيبون الذين دعوهم قال في حقهم ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ أي هذه الأصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين ولكنها ليست كذلك فلا جرم ما رأت العذاب، فإن قيل قوله: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ﴾ ضمير لا يليق إلا بالعقلاء فكيف يصح عوده إلى الأصنام؟ قلنا هذا كقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ [الكهف: ٥٢] وإنما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا، وثالثها: أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أي والكفار علموا حقية هذا العذاب في الدنيا لو كانوا يهتدون، وهذه الوجوه عندي خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فإن ذلك يقتضي تفكيك النظم من الآية، الأمر الثالث: من الأمور التي يسأل الله الكفار عنها قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ أي فصارت الأنباء كالعمى

عليهم جميعًا لا تهتدي إليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضًا كما يتساءل الناس في المشكلات لأنهم يتساوون جميعًا في عمي الأنباء عليهم والعجز عن الجواب، وقرئ فعميت وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك يتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال، ويفوضون الأمر إلى علم الله وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] فما ظنك بهؤلاء الضلال، قال القاضي: هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لأن فعلهم لو كان خلقًا من الله تعالى ويجب وقوعه بالقدرة والإرادة لما عميت عليهم الأنباء ولقالوا: إنما أتينا في تكذيب الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك، فكانت حجتهم على الله تعالى ظاهرة وكذلك القول فيما تقدم لأن الشيطان كان له أن يقول: إنما أغويت بخلقك فيَّ الغواية، وإنما قبل من دعوته لمثل ذلك فتكون الحجة لهم في ذلك قوية والعذر ظاهرًا والجواب: أن القاضي لا يترك آية من الآيات المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب إلا ويعيد استدلاله بها، وكما أن وجه استدلاله في الكل هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو أن علم الله تعالى بعدم الإيمان مع وقوع الإيمان متنافيان لذاتيهما فمع العلم بعدم الإيمان إذا أمر بإدخال الإيمان في الوجود فقد أمر بالجمع بين الضدين، والذي اعتمد القاضي عليه في دفع هذا الحرف في كتبه الكلامية قوله خطأ قول من يقول إنه يمكن وخطأ قول من يقول إنه لا يمكن بل الواجب السكوت ولو أورد الكافر هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنه جواب إلا السكوت، فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهرًا فثبت أن الإشكال مشترك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين حال المعذبين من الكفار وما يجري عليهم من التوبيخ أتبعه بذكر من يتوب منهم في الدنيا ترغيبًا في التوبة وزجرًا عن الثبات على الكفر فقال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ وفي عسى وجوه: أحدها: أنه من الكرام تحقيق والله أكرم الأكرمين، وثانيها: أن يراد ترجي التائب وطمعه كأنه قال: فليطمع في الفلاح، وثالثها: عسى أن يكونوا كذلك إن داموا على التوبة والإيمان لجواز أن لا يدوموا، واعلم أن القوم كانوا يذكرون شبهة أخرى ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعنون الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفي، فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ والمراد أنه المالك المطلق وهو منزه عن النفع والضر فله أن يخص من شاء بما شاء لا

اعتراض عليه ألبتة، وعلى طريقة المعتزلة لما ثبت أنه حكيم مطلق علم أنه كل ما فعله كان حكمة وصوابًا فليس لأحد أن يعترض عليه وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ والخيرة اسم من الاختيار قام مقام المصدر والخيرة أيضًا اسم للمختار يقال: محمد خيرة الله في خلقه، إذا عرفت هذا فنقول في الآية وجهان: الأول: وهو الأحسن أن يكون تمام الوقف على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ويكون ما نفيًا، والمعنى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ ليس لهم الخيرة إذ ليس لهم أن يختاروا على الله أن يفعل، والثاني: أن يكون ما بمعنى الذي فيكون الوقف عند قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ثم يقول: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، قال أبو القاسم الأنصاري: وهذا متعلق المعتزلة في إيجاب الصلاح والأصلح عليه، وأي صلاح في تكليف من علم أنه لا يؤمن ولو لم يكلفه لاستحق الجنة والنعيم من فضل الله، فإن قيل لما كلفه: استوجب على الله ما هو الأفضل لأن المستحق أفضل من المتفضل به قلنا إذا علم قطعًا أنه لا يحصل ذلك الأفضل فتوريطه في العقاب الأبدي لا يكون رعاية للمصلحة، ثم قولهم المستحق خير من المتفضل به جهل لأن ذلك التفاوت إنما يحصل في حق من يستنكف من تفضله، أما الذي ما حصل الذات والصفات إلا بخلقه وبفضله وإحسانه فكيف يستنكف من تفضله، ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والإعزاز والإذلال مفوض إليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة رسول الله ﷺ وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم: هلا اختير غيره في النبوة، ولما بين علمه بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وفيه تنبيه على كونه قادرًا على كل الممكنات، وعالمًا بكل المعلومات، منزهًا عن النقائص والآفات يجازي المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ونهاية تقوية القلب للمطيعين، ويحتمل أيضًا أن لما بين فساد طريق المشركين من قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [القصص: ٦٢] ختم الكلام في ذلك بإظهار هذا التوحيد وبيان أن الحمد والثناء لا يليق إلا به.

أما قوله: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ فهو ظاهر على قولنا لأن الثواب غير واجب عليه بل هو سبحانه يعطيه فضلاً وإحسانًا فله الحمد في الأولى والآخرة، ويؤكد ذلك قول أهل الجنة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] أما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد بفعله من أهل الجنة، وأما أهل النار فما أنعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم، قال القاضي: إنه يستحق الحمد والشكر من أهل النار أيضًا بما فعله بهم في الدنيا من التمكين والتيسير والإلطاف وسائر النعم، لأنهم بإساءتهم لا يخرج ما أنعم الله عليهم من أن يوجب الشكر، وهذا فيه نظر، لأن أهل الآخرة مضطرون إلى معرفة الحق فإذا علموا بالضرورة أن التوبة عن القبائح يجب على الله قبولها وعلموا بالضرورة أن الاشتغال بالشكر الواجب عليهم يوجب على الله الثواب

وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن بذلك مما يخلصهم عن العذاب ويدخلهم في استحقاق الثواب أفترى أن الإنسان مع العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه التوبة؟ كلا، بل لا بد أن يتوبوا وأن يشتغلوا بالشكر، ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب.

أما قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ فهو إما في الدنيا أو في الآخرة: فأما في الدنيا فحكم كل أحد سواه إنما نفذ بحكمه، فلولا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده ولا على الزوجة حكم زوجها ولا على الابن حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الأمة حكم الرسول، فهو الحاكم في الحقيقة، وأما في الآخرة فلا شك أنه هو الحاكم، لأنه الذي يتولى الحكم بين العباد في الآخرة، فينتصف للمظلومين من الظالمين.

أما قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فالمعنى وإلى محل حكمه وقضائه ترجعون، فإن كلمة إلى لانتهاء الغاية، وهو تعالى منزه من المكان والجهة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الإجمال بقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] فصل عقيب ذلك ببعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه فقال لرسوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فنبه على أن الوجه في كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان، لأن المرء في الدنيا وفي حال التكليف مدفوع إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار، ولأجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات، ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون بالليل فلا بد منهما والحالة هذه، فأما في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات، فبين تعالى أنه لا قادر على ذلك إلا الله تعالى، وإنما قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر، قال الكلبي: قوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال، قال صاحب (الكشاف) السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة، ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سرد وواحد فرد، فإن قيل

هلا قال: بنهار تتصرفون فيه، كما قيل: بليل تسكنون فيه؟ قلنا: ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة، وإنما قرن بالضياء أفلا تسمعون، لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه، ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة لتسكنوا في أحدهما وهو الليل، ولتبتغوا من فضله في الآخر وهو النهار ولأداء الشكر على المنفعتين معًا.

واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكنًا وابتغاء فضل الله بالليل ممكنًا إلا أن الأليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى به فلهذا خصه به.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما هجن طريقة المشركين، أولاً ثم ذكر التوحيد ودلائله، ثانيًا عاد إلى تهجين طريقتهم مرة أخرى وشرح حالهم في الآخرة فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي [يوم] القيامة فيقول ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ والمعنى: أين الذين ادعيتم إلهيتهم لتخلصكم؟ أو أين قولكم: تقربنا إلى الله زلفى؟ وقد علموا أن لا إله إلا الله فيكون ذلك زائدًا في غمهم إذا خوطبوا بهذا القول.

أما قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ فالمراد مَيَّزْنا واحدًا ليشهد عليهم، ثم قال بعضهم: هم الأنبياء يشهدون بأنهم بلغوا القوم الدلائل وبلغوا في إيضاحها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زائدًا في غمهم، وقال آخرون: بل هم الشهداء الذين يشهدون على الناس في كل زمان ويدخل في جملتهم الأنبياء، وهذا أقرب لأنه تعالى عم كل أمة وكل جماعة بأن ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الأحوال التي لم يوجد فيها النبي وهي أزمنة الفترات والأزمنة التي حصلت بعد محمد ﷺ فعلموا حينئذٍ أن الحق لله ولرسله ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ غاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الباطل والكذب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم موسى عليه السلام، وظاهر ذلك يدل على أنه كان ممن قد آمن به ولا يبعد أيضًا حملهُ على القرابة، قال الكلبي: إنه كان ابن عم موسى عليه السلام، لأنه كان قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى، وموسى ابن عمران بن قاهث بن لاوى، وقال محمد بن إسحاق إنه كان عم موسى عليه السلام، لأن موسى ابن عمران بن يصهر بن قاهث وقارون ابن يصهر بن قاهث. وعن ابن عباس أنه كان ابن خالته، ثم قيل إنه كان يسمى المنور لحسن صورته وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، إلا أنه نافق كما نافق السامري.

أما قوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ففيه وجوه أحدها: أنه بغى بسبب ماله، وبغيه أنه استخف بالفقراء ولم يرع لهم حق الإيمان ولا عظمهم مع كثرة أمواله، والثاني: أنه من الظلم، قيل ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم، الثالث: قال القفال: بغى عليهم، أي طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده، الرابع: قال الضحاك: طغى عليهم واستطال عليهم فلم يوفقهم في أمر، الخامس: قال ابن عباس: تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم، السادس: قال شهر بن حوشب: بغيه عليهم أنه زاد عليهم في الثياب شبرًا، وهذا يعود إلى التكبر، السابع: قال الكلبي: بغيه عليهم أنه حسد هارون على الحبورة، يروى أن موسى عليه السلام لما قطع البحر وأغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهارون، فحصلت له النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح، وكان لموسى الرسالة، فوجد قارون من ذلك في نفسه، فقال: يا موسى لك الرسالة، ولهارون الحبورة، ولست في شيء ولا أصبر أنا على هذا، فقال موسى عليه السلام: والله ما صنعت ذلك لهارون ولكن الله جعله له، فقال: والله لا أصدقك أبدًا حتى تأتيني بآية أعرف بها أن الله جعل ذلك لهارون، قال: فأمر موسى عليه السلام رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل رجل منهم بعصاه، فجاءوا بها، فألقاها موسى عليه السلام في قبة له، وكان ذلك بأمر الله تعالى، فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك، فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هارون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز، فقال موسى: يا قارون أما ترى ما صنع الله لهارون! فقال: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر، فاعتزل قارون ومعه ناس كثير، وولي هارون الحبورة والمذبح والقربان، فكان بنو إسرائيل يأتون بهداياهم إلى هارون فيضعها في المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها، واعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال والتبع من بني إسرائيل، فما كان يأتي موسى عليه السلام ولا يجالسه، وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال: «**كَانَ قَارُونُ مِنَ السَّبْعِينَ الْمُخْتَارَةِ الَّذِينَ سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى**».

أما قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ **ففيه أبحاث:**

الأول: قال الكعبي: ألستم تقولون: إن الله لا يعطي الحرام فكيف أضاف الله مال قارون إلى نفسه بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ وأجاب بأنه لا حجة في أنه كان حرامًا، ويجوز أن من تقدمه من الملوك جمعوا وكنزوا فظفر قارون بذلك، وكان هذا الظفر طريق التملك، أو وصل إليه بالإرث من جهات، ثم بالتكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان الكل محتملاً.

البحث الثاني: المفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهو ما يفتح به، وقيل هي الخزائن وقياس واحدها مفتح بفتح الميم، ويقال: ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها، فالعشرة عصبة بدليل قوله تعالى في إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨] وكانوا عشرة لأن يوسف وأخاه لم يكونا معهم.

إذا عرفت معنى الألفاظ فنقول: ههنا قولان أحدهما: أن المراد بالمفاتح المفاتيح وهي التي يفتح بها الباب، قالوا: كانت مفاتيحه من جلود الإبل وكل مفتاح مثل إصبع، وكان لكل خزانة مفتاح، وكان إذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلاً، ومن الناس من طعن في هذا القول من وجهين الأول: أن مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ، ولو أنا قدرنا بلدة مملوءة من الذهب والجواهر لكفاها أعداد قليلة من المفاتيح، فأي حاجة إلى تكثير هذه المفاتيح، الثاني: أن الكنوز هي الأموال المدخرة في الأرض، فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح، والجواب عن الأول: أن المال إذا كان من جنس العروض، لا من جنس النقد جاز أن يبلغ في الكثرة إلى هذا الحد، وأيضًا فهذا الذي يقال إن تلك المفاتيح بلغت ستين حملاً، ليس مذكورًا في القرآن فلا تقبل هذه الرواية، وتفسير القرآن أن تلك المفاتيح كانت كثيرة، وكان كل واحد منها معينًا لشيء آخر، فكان يثقل على العصبة ضبطها ومعرفتها بسبب كثرتها، وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد، وعن الثاني: أن ظاهر الكنز وإن كان من جهة العرف ما قالوا فقد يقع على المال المجموع في المواضع التي عليها أغلاق، القول الثاني: وهو اختيار ابن عباس والحسن أن تحمل المفاتح على نفس المال وهذا أبين وعن الشبهة أبعد. قال ابن عباس: كانت خزائنه يحملها أربعون رجلاً أقوياء، وكانت خزائنه أربعمائة ألف فيحمل كل رجل عشرة آلاف، القول الثالث: وهو اختيار أبي مسلم: أن المراد من المفاتح العلم والإحاطة كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] والمراد آتيناه من الكنوز ما إن حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة أولي القوة والهداية، أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها، ثم إنه تعالى بين أنه كان في قومه من وعظه بأمور أحدها: قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ والمراد لا يلحقه من البطر والتمسك بالدنيا ما يلهيه عن أمر الآخرة أصلاً، وقال بعضهم: إنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن إليها، فأما من يعلم أنه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وما أحسن ما قال المتنبي:

أَشَــدُّ الْـغَـمِّ عِـنْـدِي فِـي سُـرُورٍ تَـيَـقَّـنَ عَـنْـهُ صَـاحِـبُـهُ انْـتِـقَـالاً (١)

وأحسن وأوجز منه ما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] قال ابن عباس: كان فرحه ذلك شركًا، لأنه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى، وثانيها: قوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ والظاهر أنه كان مقرًّا بالآخرة، والمراد أن يصرف المال إلى ما يؤديه إلى الجنة ويسلك طريقة التواضع، وثالثها: قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وفيه وجوه: أحدها: لعله كان مستغرق الهم في طلب الدنيا فلأجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم والالتذاذ فنهاه الواعظ عن ذلك، وثانيها: لما أمره الواعظ بصرف المال إلى الآخرة بين له بهذا الكلام أنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة، وثالثها: المراد منه الإنفاق في طاعة الله فإن ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذي يأكل ويشرب قال عليه السلام: «فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَمِنَ الشَّبِيبَةِ قَبْلَ الْكِبَرِ، وَمِنَ الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَوْتِ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَلاَ بَعْدَ الدُّنْيَا دَارٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ» (٢) ورابعها: قوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ لما أمره بالإحسان بالمال أمره بالإحسان مطلقًا ويدخل فيه الإعانة بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر، وإنما قال: ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ تنبيهًا على قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وخامسها: قوله: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ والمراد ما كان عليه من الظلم والبغي وقيل: إن هذا القائل هو موسى عليه السلام، وقال آخرون: بل مؤمنو قومه، وكيف كان فقد جمع في هذا الوعظ ما لو قيل لم يكن عليه مزيد، لكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال: إنما أوتيته على علم عندي وفيه وجوه: أحدها: قال قتادة ومقاتل والكلبي: كان قارون أقرأ بني إسرائيل للتوراة فقال: إنما أوتيته لفضل علمي واستحقاقي لذلك، وثانيها: قال سعيد بن المسيب والضحاك: كان موسى عليه السلام أنزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهبًا، وثالثها: أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات، ورابعها: أن يكون قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ أي الله أعطاني ذلك مع كونه عالمًا بي وبأحوالي فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل، وقوله: ﴿عِندِي﴾ أي عندي أن الأمر كذلك، كما يقول المفتي، عندي أن الأمر كذلك، أي مذهبي واعتقادي ذلك، ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ وفيه وجهان: الأول: يجوز أن يكون هذا

---

(١) المتنبي تقدمت ترجمته.

(٢) القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٤٢٥)، حديث رقم (٧٣٠) من طريق أبي محمد يحيى بن ثمامة بن حجر القرشي حدثنا محمد بن زكريا بن دينار حدثنا ابن عائشة عن أبيه ومحمد بن حفص والد ابن عائشة، ذكره ابن حجر في (تعجيل المنفعة) (١/ ٣٦٣)، وقال الحسيني: فيه نظر.

إثباتًا لعلمه بأن الله تعالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه في التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وسمعه من حفاظ التواريخ كأنه قيل له: أولم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته، الثاني: يجوز أن يكون نفيًا لعلمه بذلك كأنه لما قال: أوتيته على علم عندي، فتصلف بالعلم وتعظّم به، قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين؟.

أما قوله: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ فالمعنى أكثر جمعًا للمال أو أكثر جماعة وعددًا، وحاصل الجواب أن اغتراره بماله وقوته وجموعه من الخطأ العظيم، وأنه تعالى إذا أراد إهلاكه لم ينفعه ذلك ولا ما يزيد عليه أضعافًا.

فأما قوله: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فالمراد أن الله تعالى إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها، لأنه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به إلى السؤال، فإن قيل: كيف الجمع بينه وبين قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر: ٩٢] قلنا: يحمل ذلك على وقتين على ما قررناه، وذكر أبو مسلم وجهًا آخر فقال: السؤال قد يكون للمحاسبة، وقد يكون للتقرير والتبكيت، وقد يكون للاستعتاب، وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[النحل: ٨٤] ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[المرسلات ٣٥، ٣٦].

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾

أما قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ فيدل على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها وليس في القرآن إلا هذا القدر، إلا أن الناس ذكروا وجوهًا مختلفة في كيفية تلك الزينة، قال مقاتل: خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الأرجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والثياب الحمر على البغال الشهب، وقال بعضهم: بل خرج في تسعين ألفًا هكذا، وقال آخرون: بل على ثلاثمائة. والأولى ترك هذه التقريرات لأنها متعارضة، ثم إن الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ من هذه الأمور والأموال، والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن

يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا، وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا: ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم، لأن للثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة، وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاث، قال صاحب (الكشاف): ويلك أصله الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى.

أما قوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ فقال المفسرون: لا يوفق لها والضمير في يلقاها إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان: أحدهما: إلى ما دل عليه قوله: ﴿ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يعني هذه الأعمال لا يؤتاها إلا الصابرون، والثاني: قال الزجاج: يعني، ولا يلقى هذه الكلمة - وهي قولهم: ثواب الله خير - إلا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات، وعلى الرضا بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار.

وأما قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أنه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الأرض جزاء على عتوه وبطره، والفاء تدل على ذلك، لأن الفاء تشعر بالعلية، وثانيها: قيل إن قارون كان يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت نفسه فجمع بني إسرائيل، وقال: إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا: أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت، قال: نُبَرْطِلُ فلانة البغي حتى تنسبه إلى نفسها فيرفضه بنو إسرائيل فجعل لها طستًا من ذهب مملوءًا ذهبًا فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعناه، ومن زنى وهو [غَيْرُ] محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه، فقال قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال: فإن بني إسرائيل يقولون إنك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله تعالى، فقالت: كذبوا بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخر موسى ساجدًا يبكي، وقال: يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي، فأوحى الله عز وجل إليه أن مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك، فقال: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعًا غير رجلين، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم، وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه، ثم قال: خذيهم فانطبقت الأرض عليهم فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: ما أفظك استغاثوا بك مرارًا فلم ترحمهم، أما وعزتي لو دعوني مرة واحدة لوجدوني قريبًا مجيبًا فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله، ثم إن قارون يخسف به كل يوم مائة قامة، قال القاضي: إذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الأرض إلى الأرض

السابعة أو دون ذلك فإنه لا يمتنع ما روى على وجه المبالغة في الزجر، وأما قولهم: إنه تعالى قال: لو استغاث بي لأغثته، فإن صح حُمِل على استغاثة مقرونة بالتوبة فأما وهو ثابت على ما هو عليه مع أنه تعالى هو الذي حكم بذلك الخسف لأن موسى عليه السلام ما فعله إلا عن أمره فبعيد، وقولهم: إنه يتجلجل في الأرض أبدًا فبعيد لأنه لا بد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات، والذي عندي في أمثال هذه الحكايات أنها قليلة الفائدة لأنها من باب أخبار الآحاد فلا تفيد اليقين، وليست المسألة مسألة عملية حتى يكتفى فيها بالظن، ثم إنها في أكثر الأمر متعارضة مضطربة فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب.

أما قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ فالمراد من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله تعالى يقال: نصره من عدوه فانتصر، أي منعه منه فامتنع.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون في زينته لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك زاجرًا لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى عليه السلام وداعيًا إلى الرضا بقضاء الله تعالى وقسمته وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبياء الله ورسله.

أما قوله: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ فاعلم أن وي، كلمة مفصولة عن كأن وهي كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ وإظهار التندم، فلما قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩] ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا: وي ثم قالوا: كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه، ويضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة، قال سيبويه: سألت الخليل عن هذا الحرف فقال: إن وي مفصولة من كان وإن القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ما سلف منهم: وي. وذكر الفراء وجهين: أحدهما: أن المعنى ويلك فحذف اللام وإنما جاز هذا الحذف لكثرتها في الكلام وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال: ويلك اعلم أن الله، وهذا قول قطرب حكاه عن يونس، الثاني: وي منفصلة من كأن وهو للتعجب يقول الرجل لغيره وي أما ترى ما بين يديك فقال الله وي ثم استأنف: كأن الله يبسط، فالله تعالى إنما ذكرها تعجيبًا لخلقه، قال الواحدي: وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ما قالوه لكتبوها منفصلة، وأجاب الأولون بأن خط

المصحف لا يقاس عليه، ثم قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهذا تأكيد لما قبله.

أما قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما، وعن علي عليه السلام: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها، قال صاحب (الكشاف): ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] والفساد لقارون لقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧] ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة، ولا يتدبر قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما تدبره علي بن أبي طالب عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن الدار الآخرة ليست لمن يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا، بل هي للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل لهم فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ وفيه وجوه: أحدهما: المعنى من جاء بالحسنة حصل له من تلك الكلمة خير وثانيها: حصل له شيء هو أفضل من تلك الحسنة، ومعناه أنهم يزادون على ثوابهم وقد مر تفسيره في آخر النمل، وأما قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فظاهره أن لا يزادوا على ما يستحقون. وإذا صح ذلك في السيئات دل أن المراد في الحسنات بما هو خير منها ما ذكرناه من مزيد الفضل على الثواب، قال صاحب (الكشاف): تقدير الآية: ومن جاء بالسيئة فلا يجزون إلا ما كانوا يعملون، لكنه كرر ذلك لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكررًا فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين، وهذا من فضله العظيم أنه لا يجزي بالسيئة إلا مثلها، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها، وههنا سؤالان:

السؤال الأول: قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧] كرر ذلك الإحسان واكتفى بذكر الإساءة بمرة واحدة، وفي هذه الآية كرر ذكر الإساءة مرتين واكتفى في

ذكر الإحسان بمرة واحدة، فما السبب؟ الجواب: لأن هذا المقام مقام الترغيب في الدار الآخرة، فكانت المبالغة في الزجر عن المعصية لائقة بهذا الباب، لأن المبالغة في الزجر عن المعصية مبالغة في الدعوة إلى الآخرة. وأما الآية الآخرى فهي شرح حالهم فكانت المبالغة في ذكر محاسنهم أولى.

السؤال الثاني: كيف قال: لا تجزي السيئة إلا بمثلها مع أن المتكلم بكلمة الكفر إذا مات في الحال عذب أبد الآباد؟ والجواب: لأنه كان على عزم أنه لو عاش أبدًا لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه. قال الجبائي: وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى أن يعذب الأطفال عذابًا دائمًا بغير جرم، قلنا: لا يجوز أن يفعله وليس في الآية ما يدل عليه، ثم إنه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة واستقصى في ذلك، شرح له ما يتصل بأحواله فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال أبو علي: الذي فرض عليك أحكامه وفرائضه لرادك بعد الموت إلى معاد، وتنكير المعاد لتعظيمه، كأنه قال: إلى معاد وأي معاد، أي ليس لغيرك من البشر مثله. وقيل: المراد به مكة، ووجهه أن يراد برده إليها يوم الفتح، ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك اليوم معادًا له شأن عظيم لاستيلاء رسول الله ﷺ عليها وقهره لأهلها وإظهار عز الإسلام وإذلال حزب الكفر والسورة مكية، فكأن الله تعالى وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظاهرًا ظافرًا. وقال مقاتل: إنه عليه السلام خرج من الغار وسار في غير الطريق مخافة الطلب، فلما أمن رجع إلى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة، وعرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها وذكر مولده ومولد أبيه، فنزل جبريل عليه السلام وقال: تشتاق إلى بلدك ومولدك، فقال عليه السلام: نعم، فقال جبريل عليه السلام: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يعني إلى مكة ظاهرًا عليهم وهذا أقرب، لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل العود، وذلك لا يليق إلا بمكة، وإن كان سائر الوجوه محتملاً لكن ذلك أقرب، قال أهل التحقيق: وهذا أحد ما يدل على نبوته، لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزًا، ثم قال ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ووجه تعلقه بما قبله أن الله تعالى وعد رسوله الرد إلى معاد، قال: ﴿قُل﴾ للمشركين ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يعني نفسه وما يستحقه من الثواب في المعاد والإعزاز بالإعادة إلى مكة ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعنيهم وما يستحقون من العقاب في معادهم، ثم قال لرسوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ففي كلمة (إلا) وجهان: أحدهما: أنها للاستثناء، ثم قال صاحب (الكشاف): هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل: (وَمَا أُلْقِيَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) ويمكن أيضًا إجراؤه على ظاهره، أي وما كنت ترجو إلا أن يرحمك الله برحمته فينعم عليك بذلك، أي ما كنت ترجو إلا على هذا، والوجه الثاني: أن إلا بمعنى لكن للاستدراك، أي ولكن رحمة من ربك ألقى إليك ونظيره قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا

وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾[القصص: ٤٦] خصصك به، ثم إنه كلفه بأمور أحدها: كلفه بأن لا يكون مظاهرًا للكفار فقال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ وثانيها: أن قال: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ﴾ الميل إلى المشركين، قال الضحاك: وذلك حين دعوه إلى دين آبائه ليزوجوه ويقاسموه شطرًا من مالهم، أي: لا تلتفت إلى هؤلاء ولا تركن إلى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله، وثالثها: قوله: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ أي: إلى دين ربك، وأراد التشدد في دعاء الكفار والمشركين، فلذلك قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لأن من رضي بطريقتهم أو مال إليهم كان منهم، ورابعها: قوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ وهذا وإن كان واجبًا على الكل إلا أنه تعالى خاطبه به خصوصًا لأجل التعظيم، فإن قيل: الرسول كان معلومًا منه أن لا يفعل شيئًا من ذلك ألبتة فما فائدة هذا النهي؟ قلنا: لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره، ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكيلاً في أمورك، فإن من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه في التوحيد، ثم بين أنه لا إله إلا هو، أي: لا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع إلا هو، كقوله: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾[المزمل: ٩] فلا يجوز اتخاذ إله سواه، ثم قال: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في قوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ﴾ فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم، والمعنى أن الله تعالى يعدم كل شيء سواه، ومنهم من فسر الهلاك بإخراجه عن كونه منتفعًا به، إما بالإماتة أو بتفريق الأجزاء، وإن كانت أجزاؤه باقية، فإنه يقال: هلك الثوب وهلك المتاع، ولا يريدون به فناء أجزائه، بل خروجه عن كونه منتفعًا به، ومنهم من قال: معنى كونه هالكًا كونه قابلاً للهلاك في ذاته، فإن كل ما عداه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلاً للعدم فكان قابلاً للهلاك، فأطلق عليه اسم الهلاك نظرًا إلى هذا الوجه.

واعلم أن المتكلمين لما أرادوا إقامة الدلالة على أن كل شيء سوى الله تعالى يقبل العدم والهلاك قالوا: ثبت أن العالم محدث، وكل ما كان محدثًا فإن حقيقته قابلة للعدم والوجود، وكل ما كان كذلك وجب أن يبقى على هذه الحالة أبدًا، لأن الإمكان من لوازم الماهية، ولازم الماهية لا يزول قط، إلا أنا لما نظرنا في هذه الدلالة ما وجدناها وافية بهذا الغرض، لأنهم إنما أقاموا الدلالة على حدوث الأجسام والأعراض، فلو قدروا على إقامة الدلالة على أن ما سوى الله تعالى إما متحيز أو قائم بالمتحيز لتم غرضهم، إلا أن الخصم يثبت موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز، فالدليل الذي يبين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل ما سوى الله تعالى إلا بعد قيام الدلالة على نفي ذلك القسم الثالث، ولهم في نفي هذا القسم الثالث طريقان، أحدهما: قولهم لا دليل عليه فوجب نفيه وهذه طريقة ركيكة بينا سقوطها في الكتب الكلامية، والثاني: قولهم لو وجد موجود هكذا لكان مشاركًا لله تعالى في نفي المكان

والزمان والإمكان، ولو كان كذلك لصار مثلاً لله تعالى وهو ضعيف، لاحتمال أن يقال: إنهما وإن اشتركا في هذا السلب إلا أنه يتميز كل واحد منهما عن الآخر بماهية وحقيقة، وإذا كان كذلك ظهر أن دليلهم العقلي لا يفي بإثبات أن كل شيء هالك إلا وجهه، والذي يعتمد عليه في هذا الباب أن نقول: ثبت أن صانع العالم واجب الوجود لذاته فيستحيل وجود موجود آخر واجب لذاته، وإلا لاشتركا في الوجوب وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته، وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبًا عما به المشاركة وعما به الممايزة وكل مركب ممكن مفتقر إلى جزئه، ثم إن الجزأين إن كانا واجبين كانا مشتركين في الوجوب ومتمايزين باعتبار آخر فيلزم تركب كل واحد منهما أيضًا ويلزم التسلسل وهو محال، وإن لم يكونا واجبين فالمركب عنهما المفتقر إليهما أولى أن لا يكون واجبًا، فثبت أن واجب الوجود واحد وأن كل ما عداه فهو ممكن وكل ممكن فلا بد له من مرجح، وافتقاره إلى المرجح، إما حال عدمه أو حال وجوده، فإن كان الأول ثبت أنه محدث، وإن كان الثاني فافتقار الموجود إلى المؤثر، إما حال حدوثه أو حال بقائه، والثاني باطل لأنه يلزم إيجاد الموجود وهو محال، فثبت أن الافتقار لا يحصل إلا حال الحدوث، وثبت أن كل ما سوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزًا أو قائمًا بالمتحيز أو لا متحيزًا ولا قائمًا بالمتحيز، فإن نقضت هذه الدلالة بذات الله وصفاته، فاعلم أن هناك فرقًا قويًا وإذا ثبت حدوث كل ما سواه وثبت أن كل ما كان محدثًا كان قابلاً للعدم ثبت بهذا البرهان الباهر أن كل شيء هالك إلا وجهه، بمعنى كونه قابلاً للهلاك والعدم، ثم إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: هذا أولى وذلك لأنه سبحانه حكم بكونها هالكة في الحال، وعلى ما قلناه فهي هالكة في الحال، وعلى ما قلتموه أنها ستهلك لا إنها هالكة في الحال، فكان قولنا أولى وأيضًا فالممكن إذا وجد من حيث هو لم يكن مستحقًا لا للوجود ولا للعدم من ذاته، فهذه الاستحقاقية مستحقة له من ذاته، وأما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو هو كالإنسان الفقير الذي استعار ثوبًا من رجل غني، فإن الفقير لا يخرج بسبب ذلك عن كونه فقيرًا كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هي هي، وإنما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح أنها أبدًا هالكة من حيث هي هي، أما الذين حملوه على أنها ستعدم فقد احتجوا بأن قالوا: الهلاك في اللغة له معنيان: أحدهما: خروج الشيء عن أن يكون منتفعًا به، الثاني: الفناء والعدم لا جائز حمل اللفظ على الأول لأن هلاكها بمعنى خروجها عن حد الانتفاع محال، لأنها وإن تفرقت أجزاؤها فإنها منتفع بها لأن النفع المطلوب كونها بحيث يمكن أن يستدل بها على وجود الصانع القديم، وهذه المنفعة باقية سواء بقيت متفرقة أو مجتمعة، وسواء بقيت موجودة أو صارت معدومة. وإذا تعذر حمل الهلاك على هذا الوجه وجب حمله على الفناء. أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال: هلاك الشيء خروجه عن المنفعة التي يكون الشيء مطلوبًا لأجلها، فإذا مات الإنسان قيل: هلك، لأن الصفة

المطلوبة منه حياته وعقله، وإذا تمزق الثوب قيل: هلك، لأن المقصود منه صلاحيته للبس، فإذا تفرقت أجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التي لأجلها كانت منتفعًا بها انتفاعًا خاصًا، فلا جرم صح إطلاق اسم الهالك عليها، فأما صحة الاستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منفعة خاصة بالشمس من حيث هي شمس والقمر من حيث هو قمر، فلم يلزم من بقائها أن لا يطلق عليها اسم الهالك ثم احتجوا على بقاء أجزاء العالم بقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وهذا صريح بأن تلك الأجزاء باقية إلا أنها صارت متصفة بصفة أخرى فهذا ما في هذا الموضع.

المسألة الثانية: احتج أهل التوحيد بهذه الآية على أن الله تعالى شيء، قالوا لأنه استثنى من قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ استثناء يخرج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت اللفظ، فوجب كونه شيئًا يؤكده ما ذكرناه في سورة الأنعام، وهو قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٩] واحتجاجهم على أنه ليس بشيء بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١] والكاف معناه المثل فتقدير الآية ليس مثل مثله شيء ومثل مثل الله هو الله فوجب أن لا يكون الله شيئًا، جوابه: أن الكاف صلة زائدة.

المسألة الثالثة: استدلت المجسمة بهذه الآية على أن الله تعالى جسم من وجهين: الأول: قالوا: الآية صريحة في إثبات الوجه وذلك يقتضي الجسمية، والثاني: قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وكلمة (إلى) لانتهاء الغاية وذلك لا يعقل إلا في الأجسام. والجواب: لو صح هذا الكلام يلزم أن يفنى جميع أعضائه وأن لا يبقى منه إلا الوجه، وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة. وهو بيان ابن سمعان وذلك لا يقول به عاقل، ثم من الناس من قال: الوجه هو الوجود والحقيقة، يقال: وجه هذا الأمر كذا، أي حقيقته، ومنهم من قال الوجه صلة، والمراد: كل شيء هالك إلا هو، وأما كلمة (إلى) فالمعنى: وإلى موضع حكمه وقضائه ترجعون.

المسألة الرابعة: استدلت المعتزلة به على أن الجنة والنار غير مخلوقتين، قالوا لأن الآية تقتضي فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا، وهذا يناقض قوله تعالى في صفة الجنة: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥]. والجواب: هذا معارض بقوله تعالى في صفة الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وفي صفة النار: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] ثم إما أن يحمل قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ على الأكثر، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أو يحمل قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] على أن زمان فنائهما لما كان قليلاً بالنسبة إلى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ يدل على أن الذات ذات بالفعل، لأنه حكم بالهلاك على الشيء فدل على أن الشيء في كونه شيئًا قابل للهلاك، فوجب أن لا يكون المعدوم شيئًا، والله أعلم. والحمد لله رب العالمين.

سورة القصص

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء. وقال ابن عباس وقتادة: إلَّا آيةً نزلت بين مكة والمدينة[1]. وقال ابن سلاَّم: بالجَحْفةِ في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهي قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾. وقال مقاتل: فيها من المدني ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2].

وهي ثمانٍ وثمانون آية[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ تقدَّم الكلام فيه[4]. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ «تِلْكَ» في موضع رفعٍ بمعنى: هذه تلك، و«آياتُ» بدلٌ منها. ويجوزُ أن تكون «تلك»[5] في

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٥.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٨٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٣.

(٤) في أول سورة الشعراء.

(٥) كلمة «تلك» من (ز) و(ظ) وإعراب القرآن.

موضع نصبٍ بـ «تَتْلُو» و«آيَاتُ» بدلٌ منها أيضاً، وتنصبُها كما تقول: زيداً ضربتُ[١]. و«الْمُبِينِ» أي: المبينِ بركتَه وخيرَه، المبينِ الحقَّ من الباطل، والحلالَ من الحرام، وقصصَ الأنبياء، ونبوَّةَ محمدٍ ﷺ. ويقال: بانَ الشيءُ وأبانَ: اتَّضح[٢].

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ذكرَ قصةَ موسى عليه السلام وفرعون وقارون، واحتجَّ على مشركي قريش، وبيَّنَ أنَّ قرابةَ قارون من موسى لم تنفَعْه مع كفره، وكذلك قرابةُ قريشٍ لمحمد، وبيَّنَ أنَّ فرعونَ علا في الأرض وتجبَّر، فكان ذلك من كفره، فليجتنبِ العلوَّ في الأرض، وكذلك التعزُّزَ بكثرة المال، وهما من سيرة فرعون وقارون.

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ أي: يقرأ عليكَ جبريلُ بأمرنا ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: من خبرِهما[٣]، و«من» للتبعيض و«مِنْ نَبَإِ» مفعول «نَتْلُو» أي: نَتْلو عليك بعضَ خبرهما، كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[٤] [المؤمنون: ٢٠]. ومعنى: «بِالْحَقِّ» أي: بالصدق الذي لا ريبَ فيه ولا كذب. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصدِّقون بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله، فأمَّا مَنْ لم يؤمن فلا يعتقِدُ أنه حقٌّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استكبر وتجبَّر. قاله ابن عباس والسُّدِّي[٥]. وقال قتادة: علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادَّعى الربوبية. وقيل: بملكه وسلطانه، فصارَ عالياً على مَنْ تحت يده. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقاً وأصنافاً في الخدمة[٦]. قال الأعشى[٧]:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٧ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٥ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٨ بنحوه.

(٤) الكشاف ٣/ ١٦٤ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٦ عن السدي، وكذلك أخرجه الطبري ١٨/ ١٥٠ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ ، وزاد المسير ٦/ ٢٠١ .

(٧) في ديوانه ص١٥٣ .

وبلدةٍ يَرْهَبُ الجوَّابُ[١] دُلْجَتها[٢] حتى تراه عليها يَبْتغي الشِّيعا

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل[٣]. ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تقدَّم القولُ في هذا في «البقرة»[٤] عند قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الآية؛ وذلكَ لأنَّ الكهنةَ قالوا له: إنَّ مولوداً يولَدُ في بني إسرائيل يذهبُ مُلكُكَ على يديه[٥]، أو قال المنجِّمون له ذلك، أو رأى رؤيا فعُبِّرت كذلك[٦]. قال الزجَّاج: العجَبُ من حُمقِه لم يَدْرِ أنَّ الكاهن إن صدَقَ فالقتلُ لا ينفع، وإن كذبَ فلا معنى للقتل[٧]. وقيل: جعلهم شيعاً فاستسخر كلَّ قومٍ من بين إسرائيل في شغل مفرد[٨]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: في الأرض بالعمل والمعاصي والتجبُّر[٩].

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نتفضَّل عليهم ونُنعِم[١٠]. وهذه حكايةٌ مضت. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قال ابن عباس: قادةً في الخير. مجاهد: دُعاةً إلى الخير. قتادة: وُلاةً وملوكاً، دليلُه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾[١١] [المائدة: ٢٠].

---

(١) أي: الذي يقطع البلاد سيراً فيها. اللسان (جوب).

(٢) المثبت من الديوان، والدُّلجة: السير آخر الليل. اللسان (دلج). وفي (ظ): وُلجتها. وفي (د) و(ز): داجتها. وفي (م): دجلتها.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٠١.

(٤) ٢/ ٨٥.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٢.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٣٤ عن السدي.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٢.

(٨) وقد سلف بيان ذلك ٢/ ٨٥.

(٩) الوسيط ٣/ ٣٩٠.

(١٠) زاد المسير ٦/ ٢٠١.

(١١) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٣، والكشاف ٣/ ١٦٥.

قلت: وهذا أعَمُّ، فإنَّ الملِكَ إمامٌ يؤتَمُّ به ويُقتدى به. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لِمُلكِ فرعون؛ يرثون مُلكَه، ويسكنون مساكنَ القبط[١]. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نجعلَهم مُقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولَى عليها؛ يعني أرض الشام ومصر[٢]. ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أي: ونُريدُ أن نُرِيَ فرعون.

وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف: «وَيَرى» بالياء على أنه فعلٌ ثلاثيٌّ من رأى «فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا» رفعاً؛ لأنه الفاعل. الباقون: «نُرِيَ» بضَمِّ النون وكسر الراء على أنه فعلٌ رباعيٌّ من أرى يُرِي، وهي على نسق الكلام؛ لأنَّ قبلَه «وَنُريدُ» وبعده «نُمَكِّنَ». «فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا» نصباً بوقوع الفعل[٣]. وأجازَ الفرَّاءُ «وَيُرِيَ فِرْعَوْن» بضَمِّ الياء وكسر الراء وفتح الياء، بمعنى: ويُرِيَ اللهُ فرعونَ[٤] ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ وذلك أنهم أُخبِروا أنَّ هلاكَهم على يَدَي رجلٍ من بني إسرائيل، فكانوا على وَجَلٍ «مِنْهُمْ» فأراهم الله «ما كانُوا يَحْذَرونَ»[٥]. قال قتادة: كان حَازياً لفرعون ـ والحازي: المُنجِّم ـ قال: إنه سيولَدُ في هذه السنة مولودٌ يذهب بملكِكَ؛ فأمر فرعونُ بقتلِ الوِلْدانِ في تلك السنة[٦]. وقد تقدَّم[٧].

(١) الوسيط ٣/ ٣٩٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٤٣ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ١٦٥ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٤ بنحوه. وينظر السبعة ص٤٩٢، والتيسير ص١٧٠، والنشر ٢/ ٣٤١.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٨. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٢، إلا أنه قال: ولم أسمع أحداً قرأ به.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٤، وزاد المسير ٦/ ٢٠١.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٧، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٦٧٣).

(٧) ٢/ ٨٨.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾ قد تقدَّم معنى الوحي ومحامله. واختُلِفَ في هذا الوحي إلى أم موسى؛ فقالت فرقة: كان قولاً في منامها. وقال قتادة: كان إلهاماً. وقالت فرقة: كان بمَلَكٍ تَمَثَّلَ لها[(١)]. قال مقاتل: أتاها جبريل بذلك[(٢)]. فعلى هذا هو وحيُ إعلامٍ لا إلهام.

وأجمعَ الكلُّ على أنها لم تكن نبيَّة، وإنَّما إرسال المَلَكِ إليها على نحو تكليم المَلَكِ للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور؛ خرَّجه البخاري ومسلم، وقد ذكرناه في سورة «براءة»[(٣)]. وغير ذلك ممَّا رُويَ من تكليم الملائكة للناس من غير نبوَّة[(٤)]، وقد سلَّمتْ على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبيّاً. واسمُها أيارخا. وقيل: أيارخت فيما ذكر السهيلي[(٥)]. وقال الثعلبي: واسم أم موسى لوخا بنت هاند ابن لاوى بن يعقوب[(٦)]. «أَنْ أَرْضِعِيهِ» وقرأ عمر بن عبد العزيز: «أَنِ ارْضِعِيهِ» بكسر النون وألف وصل؛ حذفَ همزةَ «أرضع» تخفيفاً، ثم كسرَ النونَ لالتقاء الساكنين[(٧)].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٠١ - ٢٠٢.

(٣) صحيح البخاري (٣٤٦٤)، وصحيح مسلم (١٠١٧)، وقد سلف ١٠/ ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.

(٥) في التعريف والإعلام ص١٣٠، ووقع في مطبوعه: إيمارخا. وقيل: أياذخت.

(٦) وقع اسمها في تفسير البغوي ٣/ ٤٣٤: يوخانذ بنت لاوى بن يعقوب.

(٧) المحتسب ٢/ ١٤٧ إلا أنه ذكر أن حذف الهمزة اعتباطاً لا تخفيفاً. قلنا: وهي قراءة شاذة.

قال مجاهد: وكان الوحيُ بالرَّضاع قبل الولادة. وقال غيرُه: بعدَها[١]. قال السُّدِّي: لمَّا ولدَتْ أمُّ موسى أمرت أن تُرضِعَه عُقيبَ الولادة وتصنعَ به بما في الآية؛ لأنَّ الخوفَ كان عُقيبَ الولادة. وقال ابن جُريج: أُمِرَتْ بإرضاعِه أربعةَ أشهرٍ في بستان، فإذا خافت أن يصيح ـ لأنَّ لبنَها لا يكفيه ـ صنعَتْ به هذا. والأوَّل أظهرُ، إلَّا أنَّ الآخَرَ يعضِدُه قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ و«إِذَا» لِما يُستقبَلُ من الزمان[٢]؛ فيُروى أنَّها اتخذَتْ له تابوتاً من بَرْدِيٍّ وقيَّرته بالقار من داخله، ووضعت فيه موسى وألقَتْه في نيل مصر[٣]. وقد مضى خبره في «طه»[٤]. قال ابن عباس: إنَّ بني إسرائيل لمَّا كثُروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي، فسلَّط الله عليهم القِبطَ، وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجَّاهم الله على يد موسى. قال وهب: بلغني أنَّ فرعونَ ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد. ويقال: تسعون ألفاً. ويُروى أنها حين اقتربت وضَربَها الطَّلقُ، وكانت بعضُ القوابلِ المُوكلاتِ بحبَالى بني إسرائيل مصافيةً لها، فقالت: لِينفعني حُبُّكِ اليوم. فعالجَتْها، فلمَّا وقع إلى الأرض هالَها نورٌ بين عينيه، وارتعشَ كلُّ مَفْصِلٍ منها، ودخل حبُّه قلبَها، ثم قالت: ماجئتُكِ إلَّا لأقتُلَ مولودَكِ وأُخبِرَ فرعون، ولكني وجدتُ لابنِكِ حُبّاً ما وجدتُ مثلَه قطّ، فاحفظيه. فلمَّا خرجت جاء عيونُ فرعون فَلفَّتْه في خرقةٍ ووضعته في تُنُّورٍ مسجورٍ ناراً لم تعلمْ ما تصنعُ لمَّا طاشَ عقلُها، فطلبوا فلم يُلفوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعتْ بكاءَه من التُّنُّور، وقد جعلَ اللهُ عليه النارَ برداً وسلاماً[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ لا تخافي عليه الغرق. قاله ابن

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٣) عرائس المجالس ص١٧٠ عن مقاتل.

(٤) ١٤/ ٥٧ .

(٥) عرائس المجالس ص١٧١ - ١٧٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٤ - ٤٣٥.

زيد. الثاني ـ لا تخافي عليه الضَّيعة. قاله يحيى بن سَلَّام. ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ فيه أيضاً وجهان: أحدهما ـ لا تحزني لفراقه. قاله ابن زيد. الثاني ـ لا تحزني أن يُقتل. قاله يحيى بن سَلَّام. فقيل: إنها جعلَتْه في تابوتٍ طولُه خمسةُ أشبار، وعرضُه خمسةُ أشبار، وجعلتِ المفتاحَ مع التابوت وطرحَتْه في اليمِّ بعد أن أرضعَتْه أربعة أشهر. وقال آخرون: ثلاثة أشهر. وقال آخرون: ثمانية أشهر؛ في حكاية الكلبي. وحُكِيَ أنَّه لمَّا فرغَ النجَّارُ من صنعة التابوت نَمَّ إلى فرعون بخبره، فبعثَ معه مَنْ يأخذه، فطمسَ اللهُ عينيه وقلبَه فلم يعرفِ الطريق، فأيقنَ أنه المولود الذي تخوَّفَ[1] منه فرعون، فآمن مِنْ ذلك الوقت، وهو مؤمن آل فرعون. ذكره الماوردي[2]. وقال ابن عباس: فلمَّا توارى عنها ندَّمَها الشيطانُ وقالت في نفسها: لو ذُبِحَ عندي فكفَّنْتُه وواريتُه لكان أحبَّ إليَّ من إلقائه في البحر، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: إلى أهل مصر. حكى الأصمعيُّ قال: سمعتُ جاريةً أعرابيةً تنشد وتقول:

أستغفرُ اللهَ لذنبي كلِّهِ   قبَّلتُ إنساناً بغيرِ حِلِّهِ
مثلَ الغزالِ ناعماً في دَلِّهِ   فانتصفَ الليلُ ولم أُصَلِّهِ

فقلتُ: قاتَلكِ اللهُ ما أفصحَكِ! فقالت: أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية؛ فجمعَ في آيةٍ واحدةٍ بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لمَّا كان التقاطُهم إيَّاه يؤدِّي إلى كونه لهم عدوّاً وحزناً؛ فاللامُ في «ليكون» لامُ العاقبة ولام الصيرورة؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قُرَّةَ عين، فكان عاقبةُ ذلك أنْ كان لهم عدوّاً وحزناً[3]،

(١) المثبت من (ظ)، وفي (د) و(ز): خوف، وفي (م): يخاف.
(٢) في النكت والعيون ٤/ ٢٣٦، وما بعده منه.
(٣) البيان ٢/ ٢٢٩.

فذكر الحال بالمآل، كما قال الشاعر:

وللمنايا تُربّي كلُّ مُرْضِعةٍ ودُورُنا لخرابِ الدهرِ نَبْنِيها[(١)]

وقال آخر:

فللموتِ تَغْذُو الوالداتُ سِخَالَها كما لخرابِ الدَّهرِ تُبنَى المساكنُ[(٢)]

أي: فعاقبةُ البناء الخراب وإن كان في الحال مفروحاً به.

والالتقاط: وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة، والعربُ تقول لِما وجدَتْه من غير طلب ولا إرادة: التقطَه التقاطاً. ولقيتُ فلاناً التقاطاً. قال الراجز:

ومَنْهَلٍ وردتُه التقاطا[(٣)]

ومنه اللقطة. وقد مضى بيانُ ذلك من الأحكام في سورة «يوسف»[(٤)] بما فيه كفاية.

وقرأ الأعمش ويحيى والمُفضَّل وحمزة والكسائي وخلف: «وَحُزْناً» بضَمِّ الحاء وسكون الزاي. الباقون بفتحهما، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: للتفخيم فيه[(٥)]. وهما لغتان، مثل: العَدَم والعُدْم، والسَّقَم والسُّقْم، والرَّشَد والرُّشْد[(٦)]. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ وكان وزيره من القِبط. ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ أي: عاصين مشركين

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٧ ، لكن الصواب في هذا البيت كما في بهجة المجالس ٣/ ٣٣٣ ، وزاد المسير ٤/ ٥٦ : وللمنايا تربِّي كلُّ مرضعةٍ.... وللخراب يُجدُّ الناس عمرانا. أما عجز البيت الذي ذكره المصنف فقد سلف ٣/ ٥٠ ، وصدره: أموالنا لذوي الميراث نجمعها.

(٢) قائله سابق بن عبد الله البربري كما في العقد الفريد ٢/ ٦٩ .

(٣) الفائق ٣/ ٤٢٧ بنحوه. وتتمة الرجز: «لم ألقَ إذ وردتُه فراطا»، وهو لنقادة الأسدي كما في اللسان (لقط).

(٤) ١١/ ٢٦٦ - ٢٧١ .

(٥) قراءة حمزة والكسائي وخلف في السبعة ص٤٩٢ ، والتيسير ص١٧١ ، والنشر ٢/ ٣٤١ . وقراءة الأعمش ويحيى في المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٩١ .

آثمين[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يُروى أنَّ آسية امرأةَ فرعون رأتِ التابوت يعوم في البحر، فأمرت بسَوقِهِ إليها وفَتْحِه، فرأت فيه صبيّاً صغيراً، فرحمَتْه وأحبَّته، فقالت لفرعون: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ»[(٢)] أي: هو قُرَّةُ عينٍ لي ولكَ، فـ «قُرَّةُ» خبرُ ابتداءٍ مُضمَرٍ. قاله الكسائي. وقال النحَّاس: وفيه وجهٌ آخرُ بعيدٌ ذكره أبو إسحاق؛ [قال][(٣)]: يكون رفعاً بالابتداء، والخبر «لا تَقْتُلوهُ» وإنما بَعُدَ؛ لأنَّه يصير المعنى أنه معروف بأنه قُرَّةُ عين. وجوازه أن يكون المعنى: إذا كان قرَّةُ عينٍ لي ولكَ فلا تقتلوه[(٤)]. وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «وَلَكَ»[(٥)]. ويجوز النَّصب بمعنى: لا تقتلوا قرةَ عينٍ لي ولك. وقالت: «لا تَقتلُوهُ» ولم تَقُل: لا تقتُلْه، فهي تخاطب فرعون كما يُخاطَبُ الجبَّارون، وكما يُخبرون عن أنفسهم[(٦)]. وقيل: قالت: «لا تَقْتُلوهُ» فإنَّ اللهَ أتى به من أرضٍ أخرى وليس من بني إسرائيل[(٧)]. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فنصيبَ منه خيراً[(٨)] ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبَه لها، وكان فرعونُ لمَّا رأى الرؤيا وقصَّها على كهنته وعلمائه ـ على ما تقدَّم ـ قالوا له: إنَّ غلاماً من بني إسرائيل يُفسِدُ ملكَك. فأخذ بني إسرائيل بذبح الأطفال، فرأى أنه يقطع نسلهم، فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً، فوُلِدَ هارونُ عليه السلام في عام الاستحياء، ووُلِدَ موسى عليه السلام في عام الذبح[(٩)].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧.

(٣) ما بين حاصرتين يقتضيه السياق.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٩. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٣٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٩. قلنا: وقراءة ابن مسعود هذه شاذة.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٩.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٧.

(٨) زاد المسير ٦/ ٢٠٤.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا ابتداء كلامٍ من الله تعالى، أي: وهم لا يشعرون أنَّ هلاكَهم بسببه[١]. وقيل: هو من كلام المرأة، أي: وبنو إسرائيل لا يدرون أنَّا التقطناه، ولا يشعرون إلَّا أنه ولَدُنا[٢].

واختلف المتأوِّلون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ» فقالت فرقة: كان ذلكَ عند التقاطِ التابوت لمَّا أشعرَتْ فرعونَ به، ولما أعلمته سبق إلى وهمه[٣] أنه من بني إسرائيل، وأنَّ ذلك قصدَ به ليتخلَّص من الذبح فقال: عليَّ بالذبَّاحين. فقالت امرأتُه ما ذُكِرَ، فقال فرعون: أمَّا لي فلا. قال النبيُّ ﷺ: «لو قال فرعون: نعم، لآمنَ بموسى، ولكان قرَّةَ عينٍ له»[٤] وقال السُّدِّي: بل ربَّتْه حتى دَرَج، فرأى فرعونُ فيه شهامةً، وظنَّه من بي إسرائيل وأخذَه في يده، فمدَّ موسى يدَه ونتفَ لحية فرعون، فهمَّ حينئذٍ بذبحه، وحينئذٍ خاطبَتْه بهذا، وجرَّبَتْه له في الياقوتة والجمرة، فاحترق لسانُه وعلق العقدة[٥]. على ما تقدَّم في «طه»[٦]. قال الفرَّاء: سمعتُ محمد بن مروان الذي يُقال له السُّدِّي يذكر عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: إنما قالت: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ لَا» ثم قالت: «تَقْتُلُوهُ» قال الفرَّاء: وهو لحن[٧]؛ قال ابن الأنباري: وإنما حكم عليه باللَّحن؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون؛ لأنَّ الفعل المستقبل مرفوعٌ حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم، فالنون فيه علامة الرفع. قال الفرَّاء: ويُقوِّيك على ردِّه قراءةُ عبد الله بن

(١) الوسيط ٣/ ٣٩٢.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٠٤.

(٣) في (م): فهمه.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ١٦٣ من طريق أبي معشر، عن محمد بن قيس المدني، عن النبي ﷺ. إسناده معضل. وأبو معشر: هو نَجيح بن عبد الرحمن المدني، وهو ضعيف. تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٤-٢١٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٦) ١٤/ ٥١ - ٥٢.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٢.

مسعود: «وقالَتِ امرأةُ فِرْعونَ لا تقتلوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ» بتقديم «لا تقتُلوهُ»[١].

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجَوْني وأبو عبيدة: «فَارِغاً» أي: خالياً من ذكر كلِّ شيءٍ في الدنيا إلَّا من ذكر موسى[٢]. وقال الحسن أيضاً وابن إسحاق وابن زيد: «فَارِغاً» من الوحي إذْ أوحى إليها حين أُمرت أن تُلقيَه في البحر «لا تخافي ولا تحْزَني» والعهد الذي عَهِدَه إليها أن يردَّه ويجعلَه من المرسلين، فقال لها الشيطان: يا أمَّ موسى، كرهتِ أن يقتُلَ فرعونُ موسى فغرَّقتيه أنت! ثم بلَغَها أنَّ ولدها وقع في يد فرعون، فأنساها عِظَمُ البلاء ما كان من عهد اللهِ إليها[٣]. وقال أبو عبيدة: «فارِغاً» من الغَمِّ والحزن؛ لِعلمها أنَّه لم يغرق[٤]. قاله الأخفش أيضاً. وقال العلاء بن زياد: «فارِغاً»: نافراً[٥]. الكسائي: ناسياً ذاهلاً[٦]. وقيل: والهاً. رواه

---

(١) المصدر السابق.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٠، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٦٧ - ١٦٨ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٠٥) عن ابن مسعود، و(١٦٧٠٦) و(١٦٧٠٦) عن ابن عباس.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٦٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٧.

(٤) مجاز القرآن ٢/ ١٩٨.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨. وقول العلاء بن زياد أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٧٠٩).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٠.

سعيد بن جُبير[1]. ابن القاسم عن مالك: هو ذهابُ العقل[2]. والمعنى: أنَّها حين سمعت بوقوعه في يدِ فرعون طارَ عقلُها من فرط الجزع والدهش، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] أي: جُوَفٌ لا عقولَ لها ـ كما تقدَّم في سورة «إبراهيم» ـ وذلكَ أنَّ القلوب مراكز العقول؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦] ويدلُّ عليه قراءةُ مَنْ قرأ: «فَزِعاً»[3]. النحَّاس[4]: أصحُّ هذه الأقوال الأول، والذين قالوه أعلَمُ بكتاب الله عزَّ وجلَّ؛ فإذا كان فارغاً من كلِّ شيءٍ إلَّا من ذكرِ موسى فهو فارغٌ من الوحي. وقول أبي عبيدة: «فارغاً من الغَمِّ» غلطٌ قبيحٌ؛ لأنَّ بعده ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾. روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كادت تقولُ: واابناه!.

وقرأ فَضالة بن عُبيد الأنصاري ﷺ ومحمد بن السَّمَيْفَع وأبو العالية وابن مُحيْصِن: «فَزِعاً» بالفاء والعين المهملة من الفزع، أي: خائفةً عليه أن يُقتل[5]. ابن عباس: «قَرِعاً» بالقاف والراء والعين المهملتين، وهي راجعةٌ إلى قراءة الجماعة «فَارِغاً»؛ ولذلكَ قيل للرأس الذي لا شعرَ عليه: أقرع؛ لفراغه من الشعر. وحكى قُطرب أنَّ بعض أصحاب النبيِّ ﷺ قرأ: «فِرْغاً» بالفاء والراء والغين المعجمة من غير ألف، وهو كقولك: هدراً وباطلاً[6]؛ يقال: دماؤهم بينهم فِرْغٌ أي: هدر، والمعنى: بطَلَ قلبُها وذهب، وبقيتْ لا قلبَ لها من شدَّة ما ورد عليها[7].

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨.

(٣) الكشاف ٣/ ١٦٧.

(٤) في معاني القرآن له ٥/ ١٦١ - ١٦٢.

(٥) في المحتسب ٢/ ١٤٧ عن فضالة والحسن وأبي الهذيل وابن قطيب، وفي الشاذة ص١١١ عن فضالة وابن قطيب وأبي زرعة، وفي زاد المسير ٦/ ٢٠٤ عن أبي العالية وأبي رزين والضحاك وقتادة وعاصم الجحدري.

(٦) المحتسب ٢/ ١٤٨، وهما قراءتان شاذتان.

(٧) الكشاف ٣/ ١٦٧.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وجهان: أحدهما ـ أنها ألقَتْه ليلاً، فأصبح فؤادها في النهار فارغاً. الثاني ـ أنها ألقَتْه نهاراً، ومعنى: «أَصْبَحَ» أي: صار، كما قال الشاعر:

مضى الخلفاءُ بالأمرِ الرشيدِ وأصبحتِ المدينةُ للوليدِ[١]

﴿إِن كَادَتْ﴾ أي: إنَّها كادت، فلما حذفت الكناية سكنت النون. فهي «إِنْ» المخففة؛ ولذلك دخلت اللام في ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: لتظهر أمره؛ من بدا يبدو إذا ظهر[٢]. قال ابن عباس: أي: تصيح عند إلقائه: واابناه. السُّدِّي: كادت تقول لما حُمِلَتْ لإرضاعه وحضانته: هو ابني. وقيل: إنه لما شَبَّ سمعتِ الناسَ يقولون: موسى بن فرعون، فشقَّ عليها وضاقَ صدرُها، وكادت تقول: هو ابني[٣]. وقيل: الهاء في «به» عائدةٌ إلى الوحي، تقديره: إن كادت[٤] لَتُبدي بالوحي الذي أوحيناه إليها أن نردَّه عليها[٥]. والأوّل أظهر. قال ابن مسعود: كادَتْ تقول: أنا أمه[٦]. وقال الفرَّاء[٧]: إن كادت لَتُبدي باسمه لضيق صدرها.

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ قال قتادة: بالإيمان. السُّدِّي: بالعصمة[٨]. وقيل: بالصبر. والربطُ على القلب: إلهام الصبر[٩]. ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٠ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٧ ، وزاد المسير ٦/ ٢٠٥ . وقول ابن عباس في معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢ .

(٤) في (م): كانت، والمثبت من باقي النسخ.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٧ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٠ .

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٣٠٣ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ .

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٤ .

المُصدِّقين بوعد الله حين قال لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾[١]. وقال: ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ ولم يقل: لِتبديه؛ لأنَّ حروفَ الصفات قد تُزادُ في الكلام؛ تقول: أخذتُ الحبلَ وبالحبل. وقيل: أي: لِتُبدي القولَ به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: قالت أمُّ موسى لأخت موسى: اتبعي أثرَه حتى تعلمي خبره[٢]. واسمها مريم بنت عمران؛ وافق اسمُها اسمَ مريمَ أمِّ عيسى عليه السلام. ذكره السُّهيلي[٣] والثعلبي. وذكر الماوردي[٤] عن الضحاك: أنَّ اسمها كلثمة. وقال السُّهيلي[٥]: كلثوم؛ جاء ذلك في حديثٍ رواه الزُّبير بن بكَّار أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لخديجة: «أشعَرْتِ أنَّ الله زوَّجني معك في الجنة مريمَ بنتَ عمران وكلثومَ أختَ موسى وآسيةَ امرأةَ فرعون؟» فقالت: اللهُ أخبركَ بهذا؟ فقال: «نعم» فقالت: بالرِّفاءِ والبنين[٦].

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: بُعدٍ قاله مجاهد، ومنه الأجنبي؛ قال الشاعر:

فَلا تَحْرِمَنِّي نائِلاً عن جَنابةٍ ... فإنِّي امرؤٌ وسْطَ القِبابِ غريبُ

وأصله عن مكان جنب. وقال ابن عباس: «عَنْ جُنُبٍ» أي: عن جانب[٧]. وقرأ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٧.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨، وزاد المسير ٦/ ٢٠٥.

(٣) في التعريف والإعلام ص١٣٠

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٢٣٨.

(٥) في التعريف والإعلام ص١٣٠.

(٦) أخرجه الطبراني ٢٢/ (١١٠٠) عن ابن أبي رواد. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢١٨: رواه الطبراني منقطع الإسناد. قلنا: وفيه محمد بن الحسن بن زَبالة قال الحافظ في التقريب: كذَّبوه.
وأخرجه الطبراني (٨٠٠٦) دون قوله: «بالرفاء والبنين» من حديث أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي: فيه خالد ابن يوسف السمتي، وهو ضعيف. قلنا: وفيه عبد النور بن عبد الله المسمعي، وهو كذاب. وفيه يونس ابن شعيب، وهو منكر الحديث. ميزان الاعتدال ٢/ ٦٧١ و٤/ ٤٨١.
وأخرجه الطبراني (٥٤٨٥) مختصراً من حديث سعد بن جنادة ﷺ. قال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢، والنكت والعيون ٤/ ٢٣٩، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ١٧٥.
والبيت قائله علقمة بن عبدة الفحل، وقد سلف ٦/ ٣٠٣.

النعمان بن سالم: «عن جانِبٍ» أي: عن ناحية[١]. وقيل: عن شوق. وحكى أبو عَمرو ابن العلاء أنَّها لغةٌ لِجُذام؛ يقولون: جنبتُ إليكَ أي: اشتقتُ[٢]. وقيل: «عَنْ جُنُبٍ» أي: عن مُجانبةٍ لها منه، فلم يعرِفوا أنها أمُّه بسبيل[٣]. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه بناحيةٍ [كأنَّها] لا تريده[٤]، وكان يقرأ: «عَنْ جَنْبٍ» بفتح الجيم وإسكان النون[٥].

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أختُه، لأنَّها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه[٦].

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: معناه من الارتضاع من قبل، أي: من قبل مجيء أمه وأخته[٧]. والْمَراضِعُ جمع مُرْضِع. ومن قال: مراضيع، فهو جمعُ مِرْضاع، ومِفعال يكون للتكثير، ولا تدخل الهاءُ فيه فرقاً بين المؤنث والمذكَّر؛ لأنه ليس بجارٍ على الفعل، ولكن من قال: مِرضاعة، جاء بالهاء للمبالغة؛ كما يُقال: مِطرابة[٨]. قال ابن عباس: لا يؤتى بمرضعٍ فيقبلها. وهذا تحريمُ منعٍ لا تحريمُ شرع؛ قال امرؤ القيس[٩]:

جَالَتْ لِتصرعَني فقلتُ لها اقْصِرِي ... إنِّـي امـرؤٌ صَـرْعـي عـلـيـكِ حَـرامُ

---

(١) المحتسب ٢/ ١٤٩ ، والشاذة ص١١٢ . ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٠٦ إلى ابن مسعود وأبي عمران الجوني.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٢٣٩ .

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ١٧٦ عن ابن إسحاق.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٨ ، والطبري ١٨/ ١٧٦ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٢٩) . وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٥) المحتسب ٢/ ١٤٩ عن قتادة والحسن والأعرج، والشاذة ص١١٢ عن قتادة وابن عباس والأعرج، وزاد المسير ٦/ ٢٠٦ عن قتادة وأبي العالية وعاصم الجحدري.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٣٩ .

(٧) المصدر السابق.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٠ .

(٩) في ديوانه ص١١٦ ، وقد سلف ٧/ ٤٠٢ .

أي: ممتنع. فلما رأتْ أختُه ذلك قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ الآية. فقالوا لها عند قولها: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ وما يُدريكِ؟ لعلكِ تعرفين أهلَه؟ فقالت: لا، ولكنهم يحرصون على مَسرَّة الملك، ويرغبون في ظِئْره[١]. وقال السُّدِّي وابن جُرَيج[٢]: قيلَ لها لمَّا قالت: «وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ» قد عرفتِ أهلَ هذا الصبيِّ فدُلِّينا عليهم. فقالت: أردتُ: وهم للملك ناصحون. فدلَّتهم على أم موسى، فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها، والصبيُّ على يدِ فرعون يُعلِّله شفقةً عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع، فدفعَه إليها، فلمَّا وجدَ الصبيُّ ريحَ أمِّه قَبِلَ ثديَها[٣]. وقال ابن زيد: استرابوها حين قالت ذلك، فقالت: وهم للملك ناصحون[٤]. وقيل: إنَّها لما قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ﴾ وكانوا يبالغون في طلب مرضعة يقبل ثديَها فقالوا: من هي؟ فقالت: أمي. فقيل: لها لبن؟ قالت: نعم، لبن هارون ـ وكان وُلِدَ في سنةٍ لا يُقتل فيها الصبيان ـ فقالوا: صدقتِ والله. «وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ»[٥] أي: فيهم شفقةٌ ونصح[٦]، فرُوي أنَّه قيل لأمِّ موسى حين ارتضع منها: كيفَ ارتضعَ منكِ ولم يرتَضِعْ من غيرك؟ فقالت: إني امرأةٌ طيبةُ الريح، طيبةُ اللبن، لا أكادُ أوتى بصبيٍّ إلا ارتضع مني. قال أبو عِمران الجَوْني: وكان فرعون يُعطي أمَّ موسى كلَّ يومٍ ديناراً[٧]. قال الزمخشري[٨]: فإن قلتَ: كيف حَلَّ لها أن تأخذ الأجرَ على إرضاع ولدها؟ قلت: ما كانت تأخذُه على أنه أجر على الرضاع، ولكنه مالُ حربيٍّ تأخذه على وجه

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٩ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٨ .

(٣) الكشاف ١/ ١٦٨

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ١٦٣ عن السدي.

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٠٦ بنحوه.

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٢٧٢ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٣٩ ، وقول أبي عمران أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٣٩).

(٨) في الكشاف ٣/ ١٦٨ .

الاستباحة.

قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ أي: ردَدْناه وقد عَطَّفَ اللهُ قلبَ العدوِّ عليه، ووفينا لها بالوعد. ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي: بولدها. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: بفراق ولدها. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: لتعلَم وقوعَه، فإنها كانت عالمةً بأنَّ ردَّه إليها سيكون. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: أكثر آل فرعون لا يعلمون، أي: كانوا في غفلةٍ عن التقدير وسِرِّ القضاء. وقيل: أي: أكثر الناس لا يعلمون أنَّ وعدَ الله في كلِّ ما وعدَ حَقٌّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قد مضى الكلام في الأشُدِّ في «الأنعام»[1]. وقول ربيعة ومالك أنه الحُلُم أولى ما قيل فيه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ [النساء:٦] فإن ذلك أوَّلُ الأشُدِّ، وأقصاه أربعٌ وثلاثون سنة، وهو قول سفيان الثوري[2]، و«اسْتَوَى» قال ابن عباس: بلغَ أربعين سنة[3]. والحُكم: الحكمة قبل النبوّة. وقيل: الفقه في الدين. وقد مضى بيانُها في «البقرة»[4] وغيرِها. والعلم: الفهم في قول السدي. وقيل: النبوَّة. وقال مجاهد: الفقه. محمد بن إسحاق: أي: العلم بما في دينه ودين آبائه؛ وكان له تسعةٌ من بني إسرائيل يسمعون منه، ويقتدون به، ويجتمعون إليه، وكان هذا قبل النبوَّة. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما جزينا أمَّ موسى لمَّا استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدَّقت بوعد الله؛ فرددنا ولدَها إليها بالتُّحف والطُّرف وهي آمنة، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوّة، وكذلك نجزي كلَّ محسن.

---

(١) ٩/ ١١١ - ١١٤ .

(٢) الأقوال في النكت والعيون ٤/ ٢٤٠ ، وأخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره على التوالي (١٦٧٤١) و(١٦٧٤٢) و(١٦٧٤٣).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٤٠ .

(٤) ٢/ ٤٠٣ .

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: لمَّا عرفَ موسى عليه السلام ما هو عليه من الحقِّ في دينه، عابَ ما عليه قومُ فرعون، وفشا ذلك منه، فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفاً مستخفياً[(١)]. وقال السُّدِّي: كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلُّقِ بفرعون، وكان يركب مراكبه، حتى كان يُدعى موسى ابن فرعون، فركب فرعونُ يوماً وسار إلى مدينةٍ من مدائن مصر يُقال لها: منف ـ قال مقاتل: على رأس فرسخين من مصر ـ ثم علم موسى بركوب فرعون، فركبَ بعده، ولحقَ بتلك القرية في وقت القائلة، وهو وقت الغفلة. قاله ابن عباس. وقال أيضاً: هو بين العشاء والعَتَمة. وقال ابن إسحاق: بل المدينةُ مصرُ نفسُها، وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلافَ فرعون، وعابَ عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يوماً على حين غفلةٍ من أهلها[(٢)]. قال سعيد بن جُبير وقتادة: وقت الظهيرة والناس نيام[(٣)]. وقال ابن زيد: كان فرعونُ قد نابذَ موسى وأخرجه من المدينة، وغاب عنها سنين، وجاء والناسُ على غفلةٍ بنسيانهم لأمره،

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ دون قول مقاتل، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٣٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٦ .

وبُعْدِ عهدِهم به، وكان ذلك يومَ عيد[١]. وقال الضحَّاك: طلبَ أن يدخل المدينةَ وقتَ غفلةِ أهلها، فدخلها حين علم ذلك منهم، فكان منه مِنْ قَتْلِ الرجلِ من قبل أن يؤمَرَ بقتله، فاستغفر ربَّه فغفرَ له. ويُقال في الكلام: دخلتُ المدينةَ حين غَفِلَ أهلُها، ولا يُقال: على حينِ غَفِلَ أهلها؛ فدخلت «على» في هذه الآية؛ لأنَّ الغفلةَ هي المقصودة، فصار هذا كما تقول: جئتُ على غفلةٍ، وإن شئتَ قلتَ: جئتُ على حينِ غفلة، وكذا الآية. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ والمعنى: إذا نظرَ إليهما الناظرُ قال: هذا من شيعته، أي: من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: من قوم فرعون[٢]. ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: طلبَ نصره وغوثه، وكذا قال في الآية بعدها: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: يستغيث به على قبطيٍّ آخر، وإنما أغاثَه لأنَّ نصرَ المظلوم دينٌ في الملل كلِّها على الأمم، وفرضٌ في جميع الشرائع[٣]. قال قتادة: أراد القبطيُّ أن يُسخِّر الإسرائيليَّ ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه، فاستغاث بموسى. قال سعيد بن جُبير: وكان خبازاً لفرعون. ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قال قتادة: بعصاه. وقال مجاهد: بكفِّه، أي: دفعه. والوكز واللَّكْز واللَّهْز واللَّهْد بمعنى واحد[٤]، وهو الضرب بجُمْع الكفِّ مجموعاً كعقد ثلاثةٍ وسبعين. وقرأ ابن مسعود: «فَلَكَزَهُ». وقيل: اللَّكْز في اللحى، والوكز على القلب. وحكى الثعلبيُّ أنَّ في مصحف عبد الله بن مسعود «فَنَكَزَهُ» بالنون والمعنى واحد[٥]. وقال الجوهري عن أبي عبيدة: اللَّكزُ: الضرب بالجُمْعِ على الصدر. وقال أبو زيد: في جميع الجسد، واللَّهز: الضرب بُجْمعِ اليد في الصدر مثل اللَّكْز. عن أبي عبيدة أيضاً. وقال أبو زيد: هو بالجُمْع في اللَّهازِم والرقبة، والرجل: مِلْهَز بكسر الميم. وقال الأصمعي: نَكَزه،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٤٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ .

أي: ضربَه ودفعَه. الكسائي: نَهزَه مثل نَكَزه ووكَزَه، أي: ضربه ودفعه. ولَهَده لَهْداً أي: دفعَه لذِلَّةٍ، فهو ملهود، وكذلك لَهَّده؛ قال طَرفَة يذمُّ رجلاً:

بطيءٍ عن الدَّاعي سريعٍ إلى الخنا ذَلُولٍ بأَجْماعِ الرجالِ مُلَهَّدِ[١]

أي: مُدفَّع، وإنما شدَّد للكثرة[٢]. وقالت عائشة رضي الله عنها: فلَهَدَني ـ تعني النبيَّ ﷺ ـ لَهْدةً أوجعني. خرَّجه مسلم[٣]. ففعل موسى عليه السلام ذلكَ وهو لا يريد قتله، إنَّما قصد دفْعَه فكانت فيه نفسُه، وهو معنى: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾[٤]. وكلُّ شيءٍ أتيتَ عليه وفرغتَ منه فقد قضيتَ عليه[٥]. قال:

قَدْ عَضَّهُ فَقَضى عليه الأَشْجَعُ[٦]

﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ أي: من إغوائه. قال الحسن: لم يكن يحِلُّ قتلُ الكافر يومئذٍ في تلك الحال؛ لأنَّها كانت حالَ كفٍّ عن القتال[٧]. ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ خبر بعد خبر[٨]. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ﴾ نَدِمَ موسى عليه السلام على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهابُ النفس، فحملَه ندَمُه على الخضوع لربِّه والاستغفار من ذنبه. قال قتادة: عرفَ واللهِ المخرجَ فاستغفر، ثم لم يزل ﷺ يُعدِّدُ ذلك على نفسه، مع علمه بأنه قد غُفِرَ له، حتى إنه في القيامة يقول: إني قتلتُ نفساً لم أُومَرْ بقتلِها[٩]. وإنَّما عدَّه على نفسه ذنباً وقال: ﴿ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ من أجل

---

(١) ديوان طرفة ص٤٠ ، وفيه: الجُلَّى بدل الداعي.

(٢) الصحاح (لكز) و(لهز) و(نكز) و(لهد).

(٣) في صحيحه (٩٧٤): (١٠٣).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٣ .

(٥) الوسيط ٣/ ٣٩٣ .

(٦) عجز لبيت قائله جرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩١٣ ، وصدره: «أيُفايِشون وقد رأوا حُفَّاثهم». قال شارحه: المفايشة: المفاخرة. الحُفَّاث: حية لا سُمَّ لها. والأشجع: يريد الشجاع من الحيات القاتل.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٤٢ .

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٢ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ - ٢٨١ .

أنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يقتل حتى يؤمر[١]، وأيضاً فإنَّ الأنبياء يُشفقون مما لا يُشفِقُ منه غيرهم. قال النقَّاش: لم يقتُلْه عن عمدٍ مريداً للقتل، وإنما وكَزَه وكزةً يُريد بها دفع ظلمه. قال: وقد قيل: إنَّ هذا كان قبل النبوَّة. وقال كعب: كان إذ ذاك ابنَ اثنتي عشرة سنة، وكان قتلُه مع ذلك خطأً؛ فإنَّ الوكزةَ واللَّكزةَ في الغالب لا تقتل.

وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال: يا أهل العراق، ما أسألَكم عن الصغيرة، وأركَبَكم للكبيرة! سمعتُ أبي عبدَ الله بن عمر يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الفتنةَ تجيء من هاهنا ـ وأومأ بيده نحو المشرق ـ من حيثُ يطلعُ قرنا الشيطان، وأنتم بعضُكم يضرِبُ رقابَ بعضٍ، وإنما قتلَ موسى الذي قتل مِن آل فرعون خطأً، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠][٢]».

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: من المعرفة والحكم والتوحيد ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: عوناً للكافرين. قال القشيري: ولم يقُلْ: بما أنعمتَ عليَّ من المغفرة؛ لأنَّ هذا قبل الوحي، وما كان عالماً بأنَّ الله غفرَ له ذلك القتل. وقال الماوردي[٣]: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ من المغفرة، وكذلك ذكر المهدوي والثعلبي. قال المهدوي ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من المغفرة فلَمْ تُعاقِبْني. الوجه الثاني ـ من الهداية.

قلت: قوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ يدلُّ على المغفرة، والله أعلم. قال الزمخشري[٤]: قولُه تعالى: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يجوز أن يكون قَسَماً جوابُه محذوفٌ تقديره: أُقسِمُ

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٣ .

(٢) صحيح مسلم (٢٩٠٥): (٥٠). وأخرجه أحمد (٤٩٨٠)، والبخاري (٣١٠٤) مختصراً.

(٣) في النكت والعيون ٤/ ٢٤٢ .

(٤) في الكشاف ٣/ ١٦٩ .

بإنعامِكَ عليَّ بالمغفرة لأتوبنَّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾. وأن يكون استعطافا كأنَّه قال: ربِّ اعصمني بحقِّ ما أنعمتَ عليَّ من المغفرة، فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين إمَّا صحبةَ فرعون وانتظامَه في جملته، وتكثيرَ سوادِه، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يُسمى ابن فرعون، وإمَّا بمظاهرة مَنْ أدَّت مظاهرتُه إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيليِّ المؤدِّيةِ إلى القتل الذي لم يَحِلَّ له قتلُه.

وقيل: أراد: إني وإن أسأتُ في هذا القتل الذي لم أومَرْ به فلا أتركُ نصرة المسلمين على المجرمين، فعلى هذا كان الإسرائيليُّ مؤمناً، ونصرةُ المؤمن واجبةٌ في جميع الشرائع.

وقيل في بعض الروايات: إنَّ ذلك الإسرائيليَّ كان كافراً[١]، وإنما قيل له إنه من شيعته؛ لأنَّه كان إسرائيلياً ولم يُرِدِ الموافقةَ في الدين، فعلى هذا نَدِمَ؛ لأنَّه أعان كافراً على كافر، فقال: لا أكونُ بعدَها ظهيراً للكافرين.

وقيل: ليس هذا خبراً، بل هو دعاءٌ، أي: فلا أكونُ بعد هذا ظهيراً، أي: فلا تجعلني يا ربِّ ظهيراً للمجرمين. وهذا قول الكسائي والفرَّاء. وقال الكسائي: وفي قراءة عبد الله: «فلا تجعلني يا ربِّ ظهيراً للمجرمين»[٢]. وقال الفرَّاء: المعنى: اللهمَّ فلَنْ أكونَ ظهيراً للمجرمين. وزعم أنَّ قولَه هذا هو قول ابن عباس. قال النحَّاس: وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام، كما يُقال: لا أعصيكَ لأنكَ أنعمتَ عليَّ. وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفرَّاء؛ لأنَّ ابنَ عباس قال: لم يَستثْنِ فابتُليَ من ثاني يوم، والاستثناء لا يكون في الدعاء، لا يُقال: اللهمَّ اغْفِرْ لي إن شئت. وأعجبُ الأشياء أنَّ الفرَّاء روى عن ابن عباس هذا، ثم

---

(١) وهو قول مقاتل كما في الوسيط ٣/ ٣٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٩ .

(٢) من قوله: وهذا قول الكسائي... إلى هذا الموضع من (ظ) وإعراب القرآن ٣/ ٢٣٢ ، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٧ . وقراءة عبد الله في الشاذة ص١١٣ دون قوله: يا ربِّ .

حكى عنه قوله[١].

قلت: قد مضى هذا المعنى ملخَّصاً مُبيَّناً في سورة «النمل»[٢] وأنه خبرٌ لا دعاء. وعن ابن عباس: لم يَستثْنِ فابتُلِيَ به مرةً أخرى؛ يعني: لم يقُلْ: فلن أكونَ إن شاء الله. وهذا نحو قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[٣] [هود: ١١٣].

الثانية: قال سلمة بن نُبَيط: بعثَ عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحَّاك بعطاء أهل بُخارى وقال: أعطِهم. فقال: أعفني. فلم يزَلْ يستعفيه حتى أعفاه. فقيل له: ما عليكَ أن تُعطيَهم وأنتَ لا ترزؤهم شيئاً؟ وقال: لا أُحِبُّ أن أعينَ الظَّلَمةَ على شيءٍ من أمرِهم[٤]. وقال عُبيد الله بن الوليد الوَصَّافي: قلتُ لعطاء بن أبي رَباح: إنَّ لي أخاً يأخذ بقلمه، وإنَّما يحسب ما يدخل ويخرج، وله عيالٌ، ولو تركَ ذلك لاحتاج وادَّانَ؟ فقال: مَنِ الرأس؟ قلتُ: خالد بن عبد الله القَسْري. قال: أما تقرأ ما قال العبدُ الصالح: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عباس: فلم يَستثْنِ، فابتُلي به ثانيةً فأعانه الله، فلا يُعينهم أخوك فإنَّ اللهَ يُعينه. قال عطاء: فلا يحِلُّ لأحدٍ أن يُعينَ ظالماً ولا يكتبَ له ولا يصحبَه، وإنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صارَ مُعيناً للظالمين[٥]. وفي الحديث: «يُنادي مُنادٍ يومَ القيامة: أينَ الظَّلَمةُ وأشباهُ الظَّلَمةِ وأعوانُ الظَّلَمةِ؟ حتى مَنْ لاقَ لهم دَواةً أو بَرى لهم قلماً، فيُجمَعون في تابوتٍ من حديدٍ فيُرمى به في جهنم»[٦]. ويُروى عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَنْ مشى مع مظلومٍ لِيُعينَه على مَظلمتِه ثبَّت اللهُ قدمَيه على الصراط يومَ القيامة يومَ تَزِلُّ فيه الأقدام، ومَنْ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٢ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٤ .

(٢) عند تفسير الآية (١٠).

(٣) الكشاف ٣/ ١٦٩ .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٢٣ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) الكشاف ٣/ ١٦٩ . وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ٥٥ بطرفه الأول، يعني إلى نهاية الآية.

(٦) ذكره الإمام أحمد في الورع ص٩٣ من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ. والديلمي في مسند الفردوس (٩٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مشى مع ظالمٍ لِيُعينَه على ظلمِه أزَلَّ اللهُ قدمَيه على الصراط يوم تَدْحَضُ فيه الأقدام»(١). وفي الحديث: «مَنْ مشى مع ظالمٍ فقد أجرم»(٢) فالمشيُ مع الظالم لا يكون جُرْماً إلَّا إذا مشى معه لِيُعينَه؛ لأنَّه ارتكبَ نهي الله تعالى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ قد تقدَّم في «طه»(٣) وغيرها أنَّ الأنبياءَ صلواتُ الله عليهم يخافون؛ ردّاً على مَنْ قال غيرَ ذلك، وأنَّ الخوفَ لا يُنافي المعرفةَ بالله ولا التوكُّلَ عليه؛ فقيل: أصبحَ خائفاً من قتلِ النفس أن يُؤخَذَ بها. وقيل: خائفاً من قومه أن يُسلموه. وقيل: خائفاً من الله تعالى. ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ قال سعيد بن جُبير: يتلفَّتُ من الخوف. وقيل: ينتظر الطلب، وينتظر ما يتحدَّث به الناس(٤). وقال قتادة: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يترقَّبُ الطلب(٥). وقيل: خرج يستخبر الخبر، ولم يكن أحدٌ عَلِمَ بقتل القبطيِّ غير الإسرائيلي. و«أَصْبَحَ» يَحتمِلُ أن يكون بمعنى صار، أي: لمَّا قتلَ صارَ خائفاً. ويَحتملُ أن يكون دخل في الصباح، أي: في صباح اليوم الذي يلي يومَه. و«خَائِفاً» منصوبٌ على أنه خبر «أصبح»، وإن شئتَ على الحال، ويكون الظرفُ في موضع الخبر(٦).

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: فإذا صاحِبُه الإسرائيليُّ الذي خلَّصه

---

(١) أخرجه ـ بطرفه الأول ـ أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٤٨ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وفي إسناده موسى بن محمد الموقري ـ وهو البلقاني ـ وهو كذاب. ميزان الاعتدال ٤/ ٢١٩ .
وذكر الديلمي في مسند الفردوس (٥٧٠٥) طرفه الأول أيضاً، ولكن عن معاذ بن جبل ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني ٢٠/ (١١٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (٣٨٩) من حديث معاذ بن جبل ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٠: فيه عبد العزيز بن عبيد الله، وهو ضعيف.

(٣) ١٤/ ٦٧ - ٦٩ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٤٣ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٨ .

(٦) البيان ٢/ ٢٣٠ ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٢ .

بالأمس يُقاتِلُ قبطياً آخر أراد أن يُسَخِّره[١]. والاستصراخُ: الاستغاثة، وهو من الصُّراخ؛ وذلك لأنَّ المستغيثَ يصرخ ويُصَوِّتُ في طلب الغَوْث؛ قال:

كُـنَّـا إذا مـا أتـانـا صـارخٌ فـزِعٌ كـانَ الـصُّـراخُ لـه قـرعَ الـظَّـنـا بِـيـبِ[٢]

قيل: كان هذا الإسرائيليُّ المستنصرُ السامريُّ استسخره طبَّاخُ فرعون في حمل الحطب إلى المطبخ. ذكره القشيري[٣]. و«الَّذِي» رفعٌ بالابتداء، و«يَسْتَصْرِخُهُ» في موضع الخبر. ويجوز أن يكون في موضع نصبٍ على الحال. وأمس لليومِ الذي قبل يومك، وهو مبنيٌّ على الكسر لالتقاء الساكنين، فإذا دخلَه الألفُ واللامُ أو الإضافةُ تمكَّن فأُعرِبَ بالرَّفعِ والفتحِ عند أكثر النَّحْويين. ومنهم من يَبنيه وفيه الألف واللام. وحكى سيبويه وغيرُه أنَّ من العرب من يُجري أمس مجرى ما لا ينصرف في موضعِ الرَّفعِ خاصَّةً، ورُبما اضطرَّ الشاعرُ ففعل هذا في الخفض والنصب؛ قال الشاعر:

لـقـد رأيـتُ عـجـبـاً مُـذْ أَمْـسـا[٤]

فخفضَ بِمُذْ ما مضى، واللغة الجيدة الرفع، فأجرى أمس في الخفض مجراه في الرفع على اللغة الثانية. ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ والغويُّ: الخائب، أي: لأنك تُشادُّ مَنْ لا تُطيقه[٥]. وقيل: مُضِلٌّ بَيِّنُ الضلالة، قتلتُ بسببِكَ أمس رجلاً، وتدعوني اليوم لآخر[٦]، والغَويُّ فعيلٌ مِنْ أغوى يُغوي، وهو بمعنى مُغوٍ، وهو كالوجيع والأليم بمعنى الموجِع والمؤلم. وقيل: الغويُّ بمعنى الغاوي. أي: إنَّكَ لَغَويٌّ في قتال مَنْ لا تُطيقُ دَفْعَ شَرِّه عنك[٧]. وقال الحسن: إنما قال للقبطيِّ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ في استسخار هذا الإسرائيليِّ، وهَمَّ أن يبطش به. يقال: بَطَش يَبطُش ويبطِشُ،

---

(١) زاد المسير ٦/ ٢٠٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨١ والبيت قائله سلامة بن جندل، وقد سلف ١٢/ ١٢٩ .

(٣) وذكره الرازي في تفسيره ٢٤/ ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٤) في (ظ) و(م): أمس. والرجز سلف ١٤/ ١٤٠ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٢-٢٣٣ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٠ .

(٧) الوسيط ٣/ ٣٩٣ ، وزاد المسير ٦/ ٢٠٩ - ٢١٠ .

والضمُّ أقْيَسُ؛ لأنَّه فِعْلٌ لا يتعدَّى[١].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾ قال ابن جُبير: أرادَ موسى أن يبطش بالقبطيِّ، فتوهَّمَ الإسرائيليُّ أنه يريده؛ لأنه أغلظ له في القول، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ فسمع القبطيُّ الكلامَ فأفشاه. وقيل: أراد أن يبطش الإسرائيليُّ بالقبطيِّ، فنهاه موسى، فخاف منه، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾[٢]. ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تريد. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي قتَّالا[٣]. قال عكرمة والشَّعبي: لا يكونُ الإنسان جباراً حتى يقتل نَفْسَين بغير حق[٤]. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي: من الذين يصلحون بين الناس.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ قال أكثر أهل التفسير: هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون. ذكره الثعلبيّ[٥]. وقيل: طالوت. ذكره السُّهيليّ[٦]. وقال المهدويُّ عن قتادة: شمعون مؤمن آل فرعون[٧]. وقيل: شمعان؛

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٣.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٨.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٣.

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٢٧٧، وقول عكرمة أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٩٠)، وقول الشعبي أخرجه الطبري ١٨/ ١٩٧.

(٥) وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٤٤ عن الضحاك أنه مؤمن آل فرعون، وذكر عن الكلبي أنه ابن عم فرعون.

(٦) في التعريف والإعلام ص١٣١.

(٧) وذكره النحاس في معاني القرآن له ٥/ ١٦٩ دون تسميته شمعون، وقد وردت هذه التسمية عن شعيب الجبائي فيما أخرجه الطبري ١٨/ ٢٠٠.

قال الدَّارَقُطْنِيّ: لا يُعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون(١).

ورُوِيَ أنَّ فرعون أمر بقتل موسى، فسبقَ ذلك الرجل بالخبر(٢)، فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون في قتلك بالقبطيّ الذي قتلتَه بالأمس. وقيل: يأمر بعضُهم بعضاً. قال الأزهريّ(٣): ائتمر القومُ وتآمروا أي: أمر بعضُهم بعضاً، نظيره قوله: ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖ﴾ [الطلاق: ٦]. وقال النَّمِر بن تَوْلَب:

أرى النـاسَ قـد أحـدثـوا شِـيـمـةً وفـي كـلِّ حـادثـةٍ يُـؤْتَـمَـرْ

﴿فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الطلب(٤). ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقيل: الجبَّار: الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن. وقيل: المُتعظِّم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ لمَّا خرجَ موسى عليه السلام فارّاً بنفسه منفرداً خائفاً، لا شيء معه من زادٍ ولا راحلةٍ ولا حذاءٍ نحو مدينَ للنَّسب الذي بينه وبينهم ـ لأنَّ مدين من ولد إبراهيم، وموسى من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ ورأى حالَه وعدمَ معرفته بالطريق، وخُلوَّه من زادٍ وغيره، أسندَ أمره إلى الله تعالى بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذه حالة المضطر(٦).

---

(١) التعريف والإعلام ص١٣١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٤٤ ونسب القول الأول إلى الكلبي.

(٣) في تهذيب اللغة ١٥/ ٢٩٤.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٠.

(٥) الكشاف ٣/ ١٦٩.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

قلت: رُوي أنه كان يتقوَّتُ ورق الشجر، وما وصل حتى سقط خُفُّ قدميه(١). قال أبو مالك: وكان فرعون وجَّه في طلبه وقال لهم: اطلبوه في ثنيات الطريق، فإنَّ موسى لا يعرف الطريق. فجاءه مَلَكٌ راكباً فرساً ومعه عَنَزة، فقال لموسى: اتبعني. فاتَّبعه فهداه إلى الطريق(٢)، فيُقال: إنه أعطاه العَنَزة فكانت عصاه. ويُروى أنَّ عصاه إنما أخذها لرعي الغنم من مدين. وهو أكثر وأصح. قال مقاتل والسُّدِّي: إنَّ الله بعث إليه جبريل، فالله أعلم. وبين مدين ومصر ثمانية أيام. قاله ابن جُبير والناس. وكان مُلْك مدين لغير فرعون(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى وردَ ماءَ مدين أي: بلغَها. وورودُه الماء معناه: بلغَه لا أنَّه دخلَ فيه. ولفظةُ الورود قد

---

(١) عرائس المجالس ص١٧٦ عن ابن عباس ﷺ.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٢ .

تكون بمعنى الدخول في المورود، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل. فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه[(١)]؛ ومنه قول زهير[(٢)]:

فَـلَـمَّـا وَرَدْنَ الـمـاءَ زُرْقـاً جِـمَـامُـهُ وَضَـعْـنَ عِـصِـيَّ الـحـاضِـرِ الـمُـتَـخَـيِّـمِ

وقد تقدَّمت هذه المعاني في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١]. ومدين لا تنصرف؛ إذ هي بلدةٌ معروفة[(٣)]. قال الشاعر:

رُهــبــانُ مــديــنَ لــو رأوكِ تَــنَــزَّلُــوا والعُصْمُ من شَعَفِ الجبالِ الفَادِرِ[(٤)]

وقيل: قبيلةٌ من ولد مدين بن إبراهيم، وقد مضى القول فيه في «الأعراف»[(٥)].

والأُمَّة: الجمع الكثير. و﴿يَسْقُونَ﴾ معناه: ماشيتهم. و﴿مِن دُونِهِمُ﴾ معناه: ناحية إلى الجهة التي جاء منها، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأُمّة، ووجدهما تذودان، ومعناه: تُمنعان وتُحبسان، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «فَلَيُذادَنَّ رجالٌ عن حوضي»، وفي بعض المصاحف: «امرأتين حابستين تذودان»[(٦)] يقال: ذادَ يذودُ إذا حُبِسَ. وذُدْتُ الشيءَ حبستُه[(٧)]؛ قال الشاعر:

أَبِـيـتُ عـلـى بـاب الـقَـوافـي كـأَنَّـمَـا أذُودُ بـهـا سِـرْبـاً مـن الـوحـشِ نُـزَّعَـا[(٨)]

أي: أحبِسُ وأمنَع. وقيل: «تَذُودانِ»: تَطْرُدان؛ قال:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ .

(٢) في ديوانه ص١٣ - ١٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ .

(٤) قائله جرير، وقد سلف ٨/ ١١٢ ، ورُوي هناك: «شعف العقول» بدل «شعف الجبال».

(٥) ٩/ ٢٨٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ . والحديث أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٢ ووقع في النسخ: إذا ذهب. والتصويب من معاني القرآن.

(٨) قائله سويد بن كراع، وهو في مجاز القرآن ٢/ ١٠١ ، والشعر والشعراء ٢/ ٦٣٥ ، وفيه: «أصادي» بدل «أذود». قال شارحه: صاديت الرجل: أي: داجيتُه وداريتُه وساترتُه.

لقد سلبتْ عصاكَ بنو تميمٍ فما تدري بأيِّ عصًا تذودُ[١]

أي: تَطردُ وتَكفُّ وتَمنعُ. ابن سلاَّم: تمنعان غنمَهما لئلَّا تختلط بغنم الناس[٢]، فحذفَ المفعول؛ إمَّا إيهاماً على المخاطب، وإمَّا استغناءً بعلمه[٣]. قال ابن عباس: تذودان غنمَهما عن الماء خوفاً من السُّقاة الأقوياء. قتادة: تذودان الناس عن غنمهما[٤]. قال النحَّاس: والأوَّلُ أوْلى؛ لأنَّ بعده ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناسَ لم تُخبِرا عن سبب تأخير سَقيِهما حتى يُصدر الرِّعاء[٥]. فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: شأنكما[٦]؛ قال رؤبة:

يا عَجباً ما خَطْبُهُ وخَطبي[٧]

ابن عطية[٨]: وكان استعمال السؤال بالخَطْب إنما هو في مصاب، أو مضطهد، أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شرٍّ، فأخبرتاه بخبرهما، وأنَّ أباهما شيخٌ كبير، فالمعنى: لا يستطيع لضعفه أن يُباشر أمرَ غنمه، وأنهما لضعفهما وقلَّةِ طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء، وأنَّ عادتَهما التأنِّي حتى يُصدِرَ الناسُ عن الماء ويخلى، وحينئذٍ تَرِدان.

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو: «يَصْدُرَ» من صَدَرَ، وهو ضدُّ وَرَدَ أي: يرجع الرِّعاء. والباقون «يُصْدِرَ» بضمِّ الياء من أصدر، أي: حتى يصدروا مواشيهم من وِرْدهم.

---

(١) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٣.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٢.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٣.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

(٧) ديوان رؤبة في مجموع أشعار العرب ص١٦، وتتمة الرجز: وَأنا يُبْدي للأمير قلبي.

(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

والرِّعاء جمع راع، مثل تاجر وتِجار، وصاحب وصِحاب[١]. قالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة، وكان زَحْمُ الناس يمنعهما، فلمَّا أراد موسى أن يسقي لهما زَحَمَ الناسَ وغلبَهم على الماء حتى سقى، فعن هذا الغَلَب الذي كان منه وصفَتْه إحداهما بالقوَّة. وقالت فرقة: إنهما كانتا تتبعان فُضَالتهم في الصَّهاريج، فإن وجدتا في الحوض بقيةً كان ذلك سقيهما، وإن لم يكن فيه بقيةٌ عطشت غنمُهما، فَرَقَّ لهما موسى، فعمدَ إلى بئر كانت مغطَّاةً والناس يسقون من غيرها، وكان حَجَرُها لا يرفعه إلا سبعة ـ قاله ابن زيد. ابن جريج: عشرة. ابن عباس: ثلاثون. الزجَّاج: أربعون ـ فرفعه، وسقى للمرأتين، فعن رفع الصخرة وصفَتْه بالقوَّة. وقيل: إنَّ بئرهم كانت واحدة، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السُّقاة، إذ[٢] كانت عادةُ المرأتين شرب الفضلات[٣]. روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال: لمَّا استقى الرُّعاة غطَّوا على البئر صخرةً لا يقلعها إلا عشرةُ رجال، فجاء موسى فاقتلعَها واستقى ذَنُوباً واحداً لم تحتَجْ إلى غيره، فسقى لهما[٤].

الثانية: إن قيل: كيف ساغ لنبيِّ الله الذي هو شعيب ﷺ أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قيل له: ليس ذلك بمحظورٍ والدينُ لا يأباه، وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك، والعادة متباينةٌ فيه، وأحوالُ العرب فيه خلافُ أحوالِ العجم، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالةُ حالةَ ضرورة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ إلى ظلِّ سَمُرَة[٥]. قاله ابن مسعود. وتعرَّضَ لسؤال ما يُطعمه بقوله: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وكان لم يذُقْ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤١ . وينظر السبعة ص٤٩٢ ، والتيسير ص١٧١ .

(٢) في (م): إذا.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ سوى قوله: فإن وجدتا في الحوض... إلى قوله: فرقَّ لهما موسى، فهو في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٤ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٤ .

(٥) وهي شجرة صغيرة الورق، قصيرة الشوك، لها برمة صفراء يأكلها الناس. اللسان (سمر).

طعاماً سبعةَ أيام، وقد لصق بطنُه بظهره، فعرَّضَ بالدعاء ولم يُصرِّحْ بسؤال، هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله(١)، فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة:١٨] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، ويكون بمعنى القوّة كما قال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان:٣٧]، ويكون بمعنى العبادة كقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء:٩٠].

قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، واخضرَّ لونُه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويُروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطنُ قدميه. وفي هذا مُعتبرٌ وإشعارٌ بهوان الدنيا على الله(٢). وقال أبو بكر بن طاهر(٣) في قوله: ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: إني لِما أنزلت(٤) من فضلك وغناك فقيرٌ إلى أن تغنيني بِكَ عمَّن سواك.

قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإنَّ الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في هذا الكلام اختصارٌ يدلُّ عليه هذا الظاهر؛ قدَّره ابن إسحاق: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدَّثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه ـ وقيل: الصغرى ـ أن تدعوَه له، «فَجاءَتْ» على ما في هذه الآية. قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سَلْفَعاً من النساء(٥)، خَرَّاجةً وَلَّاجة. وقيل: جاءته

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) هو عبد الله بن طاهر بن حاتم الأبهري، توفي قريباً من سنة ٣٣٠هـ. حلية الأولياء ١٠/ ٣٥١، وطبقات الصوفية ص٣٩١.

(٤) في (ظ): أبديت.

(٥) أي: سليطةً جريئةً. أو: بذيئةً فحاشةً قليلة الحياء. اللسان (سلفع).

ساترةً وجهها بِكُمِّ دِرعها. قاله عمر بن الخطاب[١]. ورُويَ أنَّ اسم إحداهما ليا والأخرى صفوريا ابنتا يثرون، ويثرون هو شعيب عليه السلام. وقيل: ابن أخي شعيب، وأنَّ شعيباً كان قد مات[٢]. وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ كذا في سورة «الأعراف» [الآية: ٨٥] وفي سورة الشعراء [الآية: ١٧٦-١٧٧]: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ قال قتادة: بعث الله تعالى شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. وقد مضى في «الأعراف» الخلافُ في اسم أبيه. فرُويَ أنَّ موسى عليه السلام لمَّا جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، فهبَّتْ ريحٌ فضمَّتْ قميصَها فوصفت عجيزتَها، فتحرَّج موسى من النظر إليها، فقال: ارجعي خلفي وأرشديني إلى الطريق بصوتك[٣]. وقيل: إنَّ موسى قال ابتداءً: كوني ورائي فإني رجلٌ عبرانيٌّ لا أنظر في أدبار النساء، ودُلِّيني على الطريق يميناً أو يساراً[٤]. فذلك سبب وصفها [له]. قاله ابن عباس. فوصل موسى إلى داعيةٍ فقصَّ عليه أمره من أوَّله إلى آخره فآنسه بقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وكانت مدينُ خارجةً عن مملكة فرعون[٥]. وقرَّبَ إليه طعاماً فقال موسى: لا آكل؛ إنَّا أهل بيتٍ لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً. فقال شعيب: ليس هذا عِوَضَ السقي، ولكن عادتي وعادةُ آبائي قِرَى الضيف، وإطعامُ الطعام. فحينئذٍ أكل موسى[٦].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ دليلٌ على أنَّ الإجارة

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ .

(٢) التعريف والإعلام ص١٣١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ ، وما بين حاصرتين منه. وقول ابن عباس عائدٌ على القول الأول، لا على القول الذي ذكره ابن العربي.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٤ .

كانت عندهم مشروعةً معلومة، وكذلك كانت في كلِّ ملة، وهي من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس؛ خلافاً للأصمِّ حيث كان عن سماعها أصمَّ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ الآية. فيه عرضُ الوليِّ بنتَه على الرجل، وهذه سُنَّةٌ قائمة؛ عرض صالحُ مدين ابنتَه على صالح بني إسرائيل، وعرضَ عمرُ بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكرٍ وعثمان، وعرضتِ الموهوبةُ نفسَها على النبيِّ ﷺ؛ فمن الحَسَنِ عَرْضُ الرجلِ ولِيَّته، والمرأةِ نفسَها على الرجل الصالح، اقتداءً بالسلف الصالح. قال ابن عمر: لمَّا تأيَّمتْ حفصةُ قال عمر لعثمان: إن شئتَ أُنكِحُكَ حفصة بنت عمر. الحديث. انفرد بإخراجه البخاري[1].

السابعة: وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ النكاح إلى الوليِّ لا حظَّ للمرأة فيه؛ لأنَّ صالحَ مدين تولَّاه، وبه قال فقهاء الأمصار. وخالفَ في ذلك أبو حنيفة. وقد مضى[2].

الثامنة: هذه الآية تدلُّ على أنَّ للأب أن يُزوِّجَ ابنتَه البكرَ البالغَ من غير استئمار، وبه قال مالك واحتجَّ بهذه الآية، وهو ظاهرٌ قويٌّ في الباب، واحتجاجُه بها يدلُّ على أنه كان يُعوِّلُ على الإسرائيليات، كما تقدّم. وبقول مالك في هذه المسألة قال الشافعي وكثيرٌ من العلماء. وقال أبو حنيفة: إذا بلغتِ الصغيرةُ فلا يُزوِّجها أحدٌ إلا برضاها؛ لأنها بلغتْ حدَّ التكليف، فأما إذا كانت صغيرةً فإنه يُزوِّجها بغير رضاها؛ لأنه لا إذنَ لها ولا رضا بغير خلاف[3].

التاسعة: استدلَّ أصحاب الشافعي بقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ على أنَّ النكاح موقوفٌ على لفظ التزويج والإنكاح[4]. وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود

---

(١) في صحيحه (٤٠٠٥)، وهو في مسند أحمد (٧٤). وأما حديث الموهوبة نفسها فأخرجه أحمد (٢٢٧٩٦)، والبخاري (٥١٢١)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد ﷺ. وهذه المسألة والتي قبلها من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٤ - ١٤٥٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٤ . وقد سلف الكلام على هذه المسألة ٣/ ٤٦٢ - ٤٦٦ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٥ .

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٤٥٦ .

ومالك على اختلافٍ عنه. وقال علماؤنا في المشهور: ينعقد النكاح بكلِّ لفظ. وقال أبو حنيفة: ينعقد بكلِّ لفظٍ يقتضي التمليك على التأبيد. أما الشافعية فلا حُجَّةَ لهم في الآية؛ لأنه شَرْعُ مَنْ قبلنا، وهم لا يرونه حُجَّةً في شيءٍ في المشهور عندهم. وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن حَيّ فقالوا: ينعقد النكاحُ بلفظ الهبة وغيرِه إذا كان قد أشهَدَ عليه؛ لأنَّ الطلاق يقع بالصريح والكناية، قالوا: فكذلك النكاح. قالوا: والذي خُصَّ به النبيُّ ﷺ تَعرِّي البُضْعِ من العِوَض لا النكاحَ بلفظ الهبة. وتابعهم ابن القاسم فقال: إن وهبَ ابنتَه وهو يريد إنكاحَها فلا أحفَظُ عن مالك فيه شيئاً، وهو عندي جائزٌ كالبيع. قال أبو عمر: الصحيحُ أنه لا ينعقد نكاحٌ بلفظ الهبة، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبةُ شيءٍ من الأموال. وأيضاً فإن النكاح مفتقرٌ إلى التصريح لتقع الشهادةُ عليه، وهو ضِدُّ الطلاق، فكيف يُقاس عليه؟! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله: أبَحْتُ لك وأحلَلْتُ لك. فكذلك الهبة. وقال ﷺ: «استحلَلْتُم فروجَهنَّ بكلمة الله» يعني القرآن، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الهبة، وإنما فيه التزويج والنكاح، وفي إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطالُ بعضِ خصوصيةِ النبيِّ ﷺ[١].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ يدلُّ على أنه عرضٌ لا عقد؛ لأنه لو كان عقداً لَعيَّنَ المعقودَ عليها له؛ لأنَّ العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال: بِعْتُكَ أحدَ عبديَّ هذين بثمنٍ كذا؛ فإنهم اتَّفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح؛ لأنه خيارٌ وشيءٌ من الخيار لا يُلصَقُ بالنكاح[٢].

الحادية عشرة: قال مكيٌّ: في هذه الآية خصائص في النكاح؛ منها أنه لم يُعيِّنِ الزوجةَ ولا حدَّ أوَّلِ الأمد، وجعلَ المهرَ إجارةً، ودخلَ ولم يَنقُدْ شيئاً.

قلت: فهذه أربع مسائلَ تضمَّنَتْها المسألةُ الحاديةَ عشرة.

الأولى ـ من الأربع مسائل التعيين[٣]؛ قال علماؤنا: أما التعيين فيُشبه أنه كان في

---

(١) التمهيد ٢١/ ١١١ - ١١٢ . والحديث سلف ٦/ ١٧٠ .

(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٤٥٧ .

(٣) كلمة «التعيين» من (م).

أثناء[١] حال المراوضة، وإنَّما عرضَ الأمرَ مجملاً، وعيَّن بعد ذلك. وقد قيل: إنه زوَّجه صفوريا وهي الصغرى[٢]. يُروى عن أبي ذَرٍّ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «إنْ سُئِلتَ: أيُّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرَهما وأوفاهما، وإن سُئِلْتَ: أيُّ المرأتين تزوَّج؟ فقل: الصغرى، وهي التي جاءت خلفه، وهي التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾»[٣]. قيل: إنَّ الحكمة في تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانتِ الكبرى أحوجَ إلى الرجال أنَّه توقَّعَ أن يميل إليها؛ لأنه رآها في رسالته، وماشاها في إقباله إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضمِرُ غيرَه. وقيل غير هذا، والله أعلم[٤]. وفي بعض الأخبار أنه تزوَّج بالكبرى. حكاه القشيري[٥].

الثانية ـ وأمَّا ذِكْرُ أوّلِ المدَّة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطَه، بل هو مسكوتٌ عنه؛ فإمَّا رسماه، وإلَّا فهو من أوَّل وقت العقد.

الثالثة ـ وأمَّا النكاح بالإجارة فظاهرٌ من الآية، وهو أمرٌ قد قرَّره شرعُنا، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلَّا شيءٌ من القرآن[٦]. رواه الأئمة، وفي بعض طرقه: فقال له رسول الله ﷺ: «ما تحفَظُ من القرآن؟» فقال: سورةَ البقرة والتي تليها. قال: «فعَلِّمْها عشرين آيةً وهي امرأتُكَ»[٧]. واختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة

---

(١) في النسخ: ثاني، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٨٤٦)، والطبراني في الأوسط (٥٤٢٦). وله شاهد موقوف على ابن عباس ﷺ عند البخاري (٢٦٨٤). قال الحافظ في الفتح ٥/ ٢٩١: وهو في حكم المرفوع.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٨.

(٥) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥ عن وهب.

(٦) من بداية المسألة الثانية إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥.

(٧) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ أبو داود (٢١١٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده عِسْل بن سفيان، وهو ضعيف فيما قاله الحافظ في التقريب. وقد تفرد بزيادة: «فعلِّمها عشرين آية وهي امرأتك». قلنا: والحديث دون الزيادة أخرجه أحمد (٢٢٧٩٦)، والبخاري (٥١٢١)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل ابن سعد ﷺ.

أقوال: فكرهه مالك، ومنعه ابن القاسم، وأجازه ابن حبيب[١]، وهو قول الشافعي وأصحابه؛ قالوا: يجوز أن تكون منفعةُ الحرِّ صَداقاً كالخياطة والبناء وتعليم القرآن. وقال أبو حنيفة: لا يصِحُّ[٢]. وجوَّزَ أن يتزوَّجها بأن يَخدِمَها عبدُه سنة، أو يُسكِنَها دارَه سنة؛ لأنَّ العبدَ والدارَ مال، وليس خِدْمتُها بنفسه مالاً. وقال أبو الحسن الكرخي: إنَّ عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]. وقال أبو بكر الرازي: لا يصِحُّ؛ لأنَّ الإجارة عقدٌ مؤقت، وعقد النكاح مؤبَّد، فهما متنافيان[٣]. وقال ابن القاسم: ينفسخ قبل البناء ويَثبُتُ بعده. وقال أصبغ: إن نَقَدَ معه شيئاً ففيه اختلاف، وإن لم يَنقِدْ فهو أشدّ، فإن ترك مضى على كلِّ حالٍ بدليل قصة شعيب. قاله مالك وابن الموَّاز وأشهب. وعوَّل على هذه الآية جماعةٌ من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة[٤]. قال ابن خوَيْزِ مَنْدَادِ: تضمَّنت هذه الآية النكاحَ على الإجارة والعقد صحيح، ويُكره أن تُجعلَ الإجارةُ مهراً، وينبغي أن يكون المهرُ مالاً كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ﴾ [النساء: ٢٤]. هذا قول أصحابنا جميعاً.

الرابعة ـ وأما قوله: «ودخل ولم يَنقُدْ» فقد اختلف الناسُ في هذا؛ هل دخل حين عقدَ أم حينَ سافر؟ فإن كان حين عقدَ فماذا نقد؟ وقد منعَ علماؤنا من الدخول حتى يَنقِدَ ولو رُبعَ دينار. قاله ابن القاسم. فإن دخل قبل أن يَنقِدَ مضى؛ لأنَّ المتأخِّرين من أصحابنا قالوا: تعجيلُ الصَّداقِ أو شيءٍ منه مُستحَبٌّ. على أنه إن كان الصَّداقُ رعيةَ الغنم فقد نَقَدَ الشروعَ في الخدمة، وإن كان دخل حين سافر فطُولُ الانتظار في النكاح جائزٌ، وإن كان مدى العمر بغير شرط. وأمَّا إن كان بشرط[٥] فلا يجوز إلَّا أن يكون

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٨ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٤١٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٧٣ و٢٦٨ . ووقع في (م): ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وفي بقية النسخ: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾. والمثبت من الكشاف.

(٤) أحكام القرآن ٣/ ١٤٥٩ .

(٥) عبارة: وأما إن كان بشرط من (م) وأحكام القرآن.

الغرضُ صحيحاً مثل التأهُّبِ للبناء أو انتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة. نصَّ عليه علماؤنا[١].

الثانية عشرة: في هذه الآية اجتماع إجارةٍ ونكاح، وقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: الأوَّل ـ قال في ثمانية أبي زيد: يُكره ابتداءً، فإن وقع مضى. الثاني ـ قال مالك وابن القاسم في المشهور: لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده؛ لاختلافِ مقاصدِها كسائر العقود المتباينة. الثالث ـ أجازه أشهب وأصبغ. قال ابن العربي[٢]: وهذا هو الصحيح، وعليه تدلُّ الآية، وقد قال مالك: النكاحُ أشبَهُ شيءٍ بالبيوع، فأيُّ فرقٍ بين إجارةٍ وبيعٍ، أو بين بيعٍ ونكاحٍ؟!.

فرع ـ وإن أصدقَها تعليمَ شعرٍ مباحٍ صحَّ؛ قال المزني: وذلك مثلُ قولِ الشاعر:

يقولُ العبدُ فائدتي ومالي وتقوى اللهِ أفضلُ ما استفادا

وإن أصدقَها تعليمَ شعرٍ فيه هَجْوٌ أو فُحْشٌ كان كما لو أصدَقَها خمراً أو خِنزيراً.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ جرى ذِكْرُ الخدمة مطلقاً، وقال مالك: إنه جائزٌ، ويُحمَلُ على العُرف، فلا يحتاج في التسمية إلى الخدمة، وهو ظاهر قصة موسى، فإنه ذكر إجارةً مُطلقة. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يجوز حتى يُسمَّى؛ لأنه مجهول[٣]. وقد ترجم البخاريُّ «باب مَن استأجر أجيراً فبيَّنَ له الأجلَ ولم يُبيِّنْ له العمل»؛ لقوله تعالى ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾[٤]. قال المُهلَّب: ليس كما ترجح؛ لأنَّ العملَ عندهم كان معلوماً من سقيٍ وحرثٍ ورعيٍ وما شاكل أعمالَ البادية في مهنة أهلها، فهذا مُتعارَفٌ وإن لم يُبيِّنْ له أشخاصَ الأعمال

(١) أحكام القرآن ٣/١٤٦٦ - ١٤٦٧ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٤ ، وما قبله منه.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٤٦٠ .

(٤) صحيح البخاري قبل الحديث (٢٢٦٧).

ولا مقاديرَها؛ مثل أن يقول له: إنك تحرث كذا من السَّنة، وترعى كذا من السَّنة، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية، وإنما الذي لا يجوز عند الجميع أن تكون المدَّةُ مجهولة، والعملُ مجهولٌ غيرُ معهود لا يجوز حتى يُعلَمَ. قال ابن العربي[1]: وقد ذكر أهل التفسير أنه عيَّنَ له رعية الغنم، ولم يُرْوَ [ذلك] من طريقٍ صحيحةٍ، ولكن قالوا: إنَّ صالح مدين لم يكن له عملٌ إلا رعية الغنم، فكان ما عُلِمَ من حاله قائماً مقامَ التعيين للخدمة فيه.

الرابعة عشرة: أجمعَ العلماءُ على أنه جائزٌ أن يستأجر الراعي شهوراً معلومة، بأجرةٍ معلومة، لرعايةِ غنم معدودة؛ فإن كانت معدودةً معينةً، ففيها تفصيلٌ لعلمائنا؛ قال ابن القاسم: لا يجوز حتى يشترط الخلف إن ماتت، وهي روايةٌ ضعيفةٌ جداً؛ وقد استأجر صالح مدين موسى على غنمه، وقد رآها ولم يشترط خلفاً، وإن كانت مُطلقةً غيرَ مُسمَّاةٍ ولا مُعينةٍ جازت عند علمائنا. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تجوز؛ لجهالتها، وعوَّل علماؤنا على العُرفِ حسبما ذكرناه آنفاً، وأنه يُعطَى بقَدْرِ ما تَحتَمِلُ قُوَّتُه. وزاد بعض علمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجرُ قَدْرَ قُوَّتِه، وهو صحيحٌ؛ فإنَّ صالح مدين عَلِمَ قَدْرَ قوَّةِ موسى برفع الحجر[2].

الخامسة عشرة: قال مالك: وليس على الراعي ضمانٌ، وهو مُصدَّقٌ فيما هَلَكَ أو سُرِقَ؛ لأنه أمينٌ كالوكيل. وقد ترجم البخاري: «باب إذا أبصر الراعي أو الوكيلُ شاةً تموت أو شيئاً يفسد فأصلح ما يخاف الفساد» وساقَ حديثَ كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت له[3] غنمٌ ترعى بِسَلْعٍ[4]، فأبصرَتْ جاريةٌ لنا بشاةٍ من غنمنا موتاً، فكسرَتْ حجراً فذبحَتْها به، فقال لهم: لا تأكلوا حتى أسألَ النبيَّ ـ أو أُرسِلَ إلى

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٠، وما بين حاصرتين منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٠ - ١٤٦١.

(٣) في (م): لهم. والمثبت من باقي النسخ، ومن صحيح البخاري.

(٤) وهو جبل أو موضع في المدينة. معجم البلدان ٣/ ٢٣٦.

النبيِّ ﷺ مَنْ يسألُه ـ وأنه سألَ النبيَّ ﷺ ـ أو أرسلَ إليه ـ فأمرَه بأكلها. قال عبيد الله[١]: فيُعجبني أنها أَمَةٌ وأنها ذبحت[٢]. قال المُهلَّب: فيه من الفقه تصديقُ الراعي والوكيل فيما ائتُمنا عليه حتى يظهر عليهما دليلُ الخيانة والكذب. وهذا قول مالك وجماعة. وقال ابن القاسم: إذا خافَ الموتَ على شاةٍ فذبحها لم يضمَنْ، ويُصدَّقُ إذا جاء بها مذبوحة. وقال غيره: يضمَنُ حتى يُبيِّنَ ما قال.

السادسة عشرة: واختلف ابن القاسم وأشهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت، فقال ابن القاسم: لا ضمانَ عليه؛ لأنَّ الإنزاءَ من إصلاح المال ونمائه. وقال أشهب: عليه الضمان. وقولُ ابن القاسم أشبَهُ بدليلِ حديث كعب، وأنه لا ضمانَ عليه فيما تلِفَ عليه باجتهاده، إن كان من أهل الصلاح، وممن يُعلَمُ إشفاقه على المال، وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأرادَ صاحبُ المال أن يُضمِّنَه فعل؛ لأنه لا يُصدَّقُ أنه رأى بالشاة موتاً؛ لِما عُرِفَ من فسقه.

السابعة عشرة: لم يُنقَلْ ما كانت أجرةُ موسى عليه السلام، ولكن روى يحيى بن سلَّام أنَّ صالح مدين جعل لموسى كلَّ سخلةٍ توضَعُ خلافَ لونِ أمِّها، فأوحى الله إلى موسى أن ألْقِ عصاكَ بينهنَّ يَلِدْنَ خلافَ شبههنَّ كُلِّهنَّ[٣]. وقال غير يحيى: بل جعل له كل بلقاءَ تولد له، فولَدْنَ له كلُّهُنَّ بُلْقاً[٤]. وذكر القُشيري أنَّ شعيباً لمَّا استأجَرَ موسى قال له: ادخُلْ بيتَ كذا، وخُذْ عصًا من العِصيِّ التي في البيت، فأخرجَ موسى عصًا، وكان أخرجها آدمُ من الجنة، وتوارثَها الأنبياءُ حتى صارت إلى شعيب، فأمره شعيبٌ أن يُلقِيَها في البيت ويأخُذَ عصًا أخرى، فدخل وأخرجَ تلك العصا؛ وكذلك سبعَ مراتٍ كلُّ ذلك لا تقع بيده غير تلك، فعلم شعيبٌ أنَّ له شأناً، فلمَّا أصبحَ قال

(١) في (د) و(ز) و(م): عبد الله. والمثبت من (ز) وصحيح البخاري.

(٢) صحيح البخاري (٢٣٠٤).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦١ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٤٩ .

له: سُقِ الأغنامَ إلى مفرق الطريق، فخُذْ عن يمينك وليس بها عشبٌ كثير، ولا تأخُذْ عن يسارك فإنَّ بها عشباً كثيراً وتِنِّيناً كبيراً لا يقبل المواشي، فساق المواشي إلى مفرق الطريق، فأخذتْ نحو اليسار ولم يقدِرْ على ضبطها، فنام موسى وخرج التِّنِّين، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديداً، وحاربت التِّنِّينَ حتى قتلَتْه، وعادت إلى موسى عليه السلام، فلمَّا انتبه موسى رأى العصا مخضوبةً بالدم، والتِّنِّين مقتولاً، فعاد إلى شعيب عشاءً، وكان شعيبٌ ضريراً، فمسَّ الأغنام، فإذا أثَرُ الخِصب بادٍ عليها، فسأله عن القصة فأخبره بها، ففرح شعيبٌ وقال: كلُّ ما تَلِدُ هذه المواشي هذه السَّنة قالِبُ لونٍ ـ أي: ذاتُ لونين ـ فهو لك، فجاءت جميعُ السِّخال تلكَ السَّنةِ ذاتَ لونين، فعَلِمَ شعيبٌ أنَّ لموسى عند الله مكانة.

وروى عُيَيْنةُ بن حِصن أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أجَّرَ موسى نفسَه بِشبَعِ بطنهِ وعِفَّةِ فرجه» فقال له شعيبٌ: لكَ منها ـ يعني من نتاج غنمه ـ ما جاءت به قالِبُ لونٍ ليس فيها عَزُوزٌ ولا فَشُوشٌ ولا كَمُوشٌ ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ[١]. قال الهروي: العزوز: البكيئة؛ مأخوذٌ من العَزَاز: وهي الأرض الصلبة، وقد تعزَّزت الشاة. والفَشُوشُ: التي يَنْفَشُ لبنُها من غير حلبٍ، وذلك لِسَعة الإحليل، ومثله الفَتُوح والثَّرُورُ. ومن أمثالهم: (لَأَفُشَّنَّكَ فَشَّ الْوَطْبِ) أي: لأُخرِجَنَّ غضبَكَ وكِبْرَكَ من رأسك. ويُقال: فَشَّ السِّقاءَ إذا أخرجَ منه الريح. ومنه الحديث: «إنَّ الشيطانَ يَفُشُّ بين أَلْيَتِيْ أحدِكم حتى يُخَيَّلَ إليه أنه أحدث»[٢] أي: ينفخُ نفخاً ضعيفاً. والكَمُوشُ: الصغيرة الضرع، وهي الكميشةُ أيضاً؛ سُمِّيت بذلك لانكماش ضرعها وهو تقلصه؛ ومنه يُقال: رجلٌ كميشُ الإزار. والكَشُودُ مثل الكَموش. والضَّبُوبُ: الضيِّقةُ ثقب الإحليل. والضَّبُّ: الحَلْبُ بشِدَّة العصر. والثَّعُولُ: الشاة التي لها زيادةُ حُلمةٍ وهي الثَّعل. والثَّعلُ: زيادةُ السِّنِّ، وتلك الزيادة هي الرَّاؤُول[٣]. ورجل أثعل. والضَّبوب: ضيقةُ مخرج

(١) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٨١، وابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٣.

(٢) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ٢/ ٤٢٣ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) في النسخ: الثعل. والتصويب من تهذيب اللغة ٢/ ٣٢٩.

اللبن[١]. قال الهروي: وتفسيرُ قالِبُ لون في الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها.

الثامنة عشرة: الإجارةُ بالعِوَضِ المجهول لا تجوز؛ فإنَّ ولادةَ الغنم غيرُ معلومة، إنَّ من البلاد الخصبة ما يعلم وِلادَ الغنم فيها قطعاً وِعدَّتَها وسلامةَ سِخالها كديار مصر وغيرها، بَيْدَ أنَّ ذلك لا يجوز في شرعنا؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن الغَرَر[٢]، ونهى عن المضامين والملاقيح. والمضامين: ما في بطون الإناث، والملاقيح: ما في أصلاب الفحول، وعلى خلاف ذلك قال الشاعر:

مَلْقُوحَةً في بطنِ نابٍ حامِلِ

وقد مضى في سورة «الحجر» بيانه[٣]. على أنَّ راشد بن معمَر أجاز الإجارةَ على الغنم بالثلث والربع. وقال ابن سيرين وعطاء: ينسج الثوبَ بنصيبٍ منه. وبه قال أحمد.[٤]

التاسعة عشرة: الكفاءة في النكاح معتبرة، واختلف العلماء هل في الدِّين والمال والحسب، أو في بعض ذلك. والصحيح جوازُ نكاح المَوالي للعربيات والقرشيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]. وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريباً طريداً خائفاً وحيداً جائعاً عُرياناً، فأنكحه ابنتَه لمَّا تحقق [من دينه] ورأى من حاله، وأعرض عما سوى ذلك[٥]. وقد تقدَّمت هذه المسألة مستوعبةً والحمد لله.

الموفية عشرين: قال بعضهم: هذا الذي جرى من شعيب لم يكن ذِكْراً لِصَداق

---

(١) في النسخ: والثعل مخرج اللبن. والتصويب من اللسان (ثعل).

(٢) سلف ٤/٤٤٦ .

(٣) ١٢/١٩٨ - ١٩٩ ، والرجز ينسب إلى مالك بن الريب، وتتمته: وعِدةِ العامِ وعامٍ قابلِ.

(٤) هذه المسألة في أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٤٦٢ - ١٤٦٣ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٤٦٦ ، وما بين حاصرتين منه.

المرأة، وإنما كان اشتراطاً لنفسه على ما يفعله الأعراب؛ فإنها تشترط صَداق بناتِها، وتقول: لي كذا في خاصَّةِ نفسي. وتركُ المهرِ مفوَّضاً، ونكاحُ التفويض جائز. قال ابن العربي: هذا الذي تفعله الأعراب هو حُلوانٌ وزيادةٌ على المهر، وهو حرامٌ لا يليق بالأنبياء، فأمَّا إذا اشترط الوليُّ شيئاً لنفسه، فقد اختلف العلماء فيما يُخرِجُه الزَّوجُ من يده ولا يدخل في يد المرأة على قولين: أحدهما ـ أنه جائز. والآخر ـ لا يجوز. والذي يصِحُّ عندي التقسيم؛ فإنَّ المرأة لا تخلو أن تكون بكراً أو ثيباً، فإن كانت ثيباً جاز؛ لأنَّ نكاحَها بيدِها، وإنما يكون للوليِّ مباشرة العقد، ولا يمتنع أخذُ العِوَضِ عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع. وإن كانت بكراً كان العقدُ بيده، وكأنَّه عِوَضٌ في النكاح لغير الزوج، وذلك باطل؛ فإن وقعَ فُسِخَ قبل البناء، وثبتَ بعده على مشهور الرواية. والحمد لله[1].

الحادية والعشرون: لمَّا ذكرَ الشرطَ وأعقبَه بالطَّوع في العشر خرج كلُّ واحدٍ منهما على حكمه، ولم يلحقِ الآخرُ بالأوّل، ولا اشترك الفرضُ والطَّوع؛ ولذلك يُكتب في العقود الشروطُ المتَّفقُ عليها، ثم يقال: وتطوَّع بكذا، فيجري الشرطُ على سبيله، والطَّوعُ على حُكمه، وانفصل الواجبُ من التطوُّع[2].وقيل: ومِنْ لفظِ شعيبٍ حَسُنَ في لفظ العقود في النكاح: أنكِحْه إيَّاها أولى من أنكِحْها إيَّاه ـ على ما يأتي بيانُه في «الأحزاب»[3]ـ وجعل شعيبٌ الثمانيةَ الأعوام شرطاً، ووكَلَ العاشرة إلى المروءة[4].

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ لمَّا فرغَ كلامُ شعيب قرَّره موسى عليه السلام وكرَّر معناه على جهة

(١) المصدر السابق ٣/١٤٦١ - ١٤٦٢ .

(٢) المصدر السابق ٣/١٤٦٧ .

(٣) عند تفسير الآية (٤٩) .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥ .

التوثُّقِ في أنَّ الشرطَ إنما وقع في ثمان حِجج[١].

و«أيَّمَا» استفهامٌ منصوبٌ بـ «قَضَيْتُ» و«الْأَجَلَيْنِ» مخفوضٌ بإضافة«أي» إليهما و«ما» صلةٌ للتأكيد، وفيه معنى الشرط، وجوابه «فَلَا عُدْوَانَ» وأنَّ «عدوانَ» منصوبٌ بـ «لا». وقال ابن كَيْسان: «ما» في موضع خَفْضٍ بإضافة «أيٍّ» إليها، وهي نكرة، و«الْأَجَلَيْنِ» بدلٌ منها. وكذلك في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي: رحمةٍ بدلٌ من ما؛ قال مكي: وكان يتلطَّفُ في ألَّا يجعلَ شيئاً زائداً في القرآن، ويُخرِجَ له وجهاً يُخرِجُه من الزيادة[٢].

وقرأ الحسن: «أيْمَا» بسكون الياء. وقرأ ابن مسعود: «أيَّ الْأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ». وقرأ الجمهور: «عُدْوَان» بضم العين. وأبو حَيْوة بكسرها، والمعنى: لا تَبِعةَ عليَّ ولا طلبَ في الزيادة عليه[٣]. والعدوانُ: التجاوزُ في غير الواجب. والحِجج السِّنون. قال الشاعر:

لِمَنِ الديارُ بِقُنَّةِ الحَجْرِ ... أقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومِنْ دَهْرِ[٤]

الواحدة حِجَّة بكسر الحاء.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قيل: هو من قول موسى. وقيل: هو من قول والد المرأة.

فاكتفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله ولم يُشْهِدا أحداً

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥. وقراءة الحسن في المحتسب ٢/ ١٥٢، وذكرها في الشاذة ص١١٢ عن العباس بن الفضل عن أبي عمرو. وقراءة ابن مسعود وأبي حيوة في الشاذة ص١١٢. لكنه نسب الثانية إلى ابن قطيب.

(٤) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٨٦، وسلف ١٠/ ٣٨٠.

من الخلق، وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح؛ وهي:

الثالثة والعشرون: على قولين: أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين. وبه قال أبو حنيفة والشافعي. وقال مالك: إنه ينعقد دون شهود؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرقُ ما بين النكاح والسفاح الدُّفُّ[١]. وقد مضت هذه المسألة في «البقرة»[٢] مستوفاةً. وفي البخاري عن أبي هريرة: أنَّ رجلاً من بني إسرائيل سألَ بعضَ بني إسرائيل أن يُسْلِفَه ألفَ دينار فقال: ايتني بالشهداء أُشهِدُهم. فقال: كفى بالله شهيداً. فقال: ايتني بكفيل. فقال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت. فدفعها إليه... وذكر الحديث[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ قال سعيد بن جُبير: سألني رجلٌ من النصارى: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدُمَ على حَبْرِ العرب فأسألَه ـ يعني ابن عباس ـ فقدمتُ عليه فسألتُه، فقال: قضى أكملَهما وأوفاهما. فأعلمتُ النصرانيَّ، فقال: صدقَ واللهِ هذا العالم. ورُويَ عن ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ سأل في ذلك جبريل، فأخبره أنه قضى عشر سنين. وحكى الطبري عن مجاهد أنه

---

(١) هذه المسألة وما قبلها في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٨ . وقوله: «وفرق ما بين النكاح والسفاح الدف» ورد معناه في حديث مرفوع عن محمد بن حاطب ﷺ بلفظ: «فصلٌ بين الحلال والحرام الدُّفُّ والصوت في النكاح»، وهو في مسند أحمد (١٥٤٥١).

(٢) ٣/ ٤٦٥ .

(٣) صحيح البخاري (٢٠٦٣)، وهو في مسند احمد (٨٥٨٧).

قضى عشراً وعشراً بعدها. قال[١] ابن عطية[٢]: وهذا ضعيف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قيل: فيه دليلٌ على أنَّ الرجل يذهبُ بأهله حيث شاء؛ لما لَهُ من فضل القوامية وزيادة الدرجة إلَّا أن يلتزم لها أمراً، فالمؤمنون عند شروطهم، وأحقُّ الشروط أن يوفى به ما استحللْتُم به الفروج[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ﴾ الآية. تقدَّم القولُ في ذلك في «طه»[٤]. والجِذوة بكسر الجيم قراءةُ العامَّة، وضمَّها حمزة ويحيى، وفتحها عاصم والسُّلَمي وزِرُّ بن حُبيش[٥]. قال الجوهري[٦]: الجِذْوة والْجُذْوَة وَالْجَذْوَةُ: الجمرة الملتهبة، والجمع جِذاً وجُذاً وجَذاً. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قطعة من الجمر؛ قال: وهي بِلُغة جميع العرب. وقال أبو عبيدة[٧]: والجِذْوة مثل الجِذْمة: وهي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نارٌ أو لم يكن. قال ابن مُقبِل:

باتَتْ حَواطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَها ... جَزْلَ الْجِذَا غَيْرَ خَوَّارٍ ولا دَعِرِ[٨]

وقال:

(١) قبلها في (م) عبارة: رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٦ ، والمسألة منه، وقول ابن عباس وأثر مجاهد في تفسير الطبري ١٨/ ٢٣٥ - ٢٣٧ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٩ - ١٤٧٠ .

(٤) ١٤/ ١٨ .

(٥) قراءة العامة وحمزة وعاصم في السبعة ص٤٩٣ ، والتيسير ص١٧١ .

(٦) في الصحاح (جذى).

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ١٠٢ - ١٠٣ .

(٨) ديوان تميم بن مقبل ص٩١ . قال شارحه: الحواطب: النساء اللواتي يجمعن الحطب. والجزل: الحطب الغليظ القوي. والجذا: أصول الشجر العظام التي بلي أعلاها وبقي أسفلها، واحدتها جَذاة. والخوَّار: الحطب الضعيف السريع الاستيقاد. والدَّعِر: الحطب البالي النخِر الذي إذا وضع على النار لم يستوقد ودَخِنَ كثيراً.

وألقى على قَيْسٍ منَ النَّار جِذْوَةً   شديداً عليها حَمْيُها ولهيبُها

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ يعني: الشجرة قدَّم ضميرَها عليها. ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ﴾ «مِن» الأولى والثانية لابتداء الغاية، أي: أتاه النداءُ من شاطئ الوادي من قِبَلِ الشجرة. و«مِنَ الشَّجَرةِ»بدلٌ من قوله: «مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ» بدل الاشتمال؛ لأنَّ الشجرةَ كانت نابتةً على الشاطئ[١]، وشاطئُ الوادي وشَطُّه : جانبُه، والجمع شُطَّان وشواطئ. ذكره القشيري. وقال الجوهري[٢]: ويُقال: شاطئ الأودية ولا يُجمع. وشاطأتُ الرجلَ إذا مشيتُ على شاطئٍ ومشى هو على شاطئٍ آخر. ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: عن يمين موسى[٣]. وقيل: عن يمين الجبل[٤]. ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ وقرأ الأشهب العُقيلي: «في الْبَقْعَةِ» بفتح الباء[٥]. وقولهم: بِقاع يدلُّ على بَقْعة، كما يقال: جَفْنة وجِفَان. ومن قال: بُقْعة قال: بُقَع، مثل غُرْفة وغُرَف[٦]. ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: من ناحية الشجرة. قيل: كانت شجرة العلِّيق: وقيل: سَمُرة[٧]. وقيل: عَوْسَج. ومنها كانت عصا. ذكره الزمخشري[٨]. وقيل: عُنَّاب[٩]، والعَوْسج إذا عظُمَ يقال له:

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥ .

(٢) في الصحاح (شطأ).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢١٨ .

(٤) ذكر أبو الليث في تفسيره ٢/ ٣٢٦ بأنه لم يكن للجبل يمين ولا شمال.

(٥) الشاذة ص١١٢ عن الأشهب ومسلمة.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٦ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٤ . والقول الأول أخرجه الطبري ١٨/ ٢٤٣ عن وهب بن منبه، والثاني أخرجه عن ابن مسعود ﷺ.

(٨) في الكشاف ٣/ ١٧٤ عن الكلبي.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢١٨ عن ابن عباس ﷺ.

الغَرْقَد[١]. وفي الحديث: «إنَّه من شجر اليهود، فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدَّجَّال فلا يختفي أحدٌ منهم خلْفَ شجرةٍ إلَّا نطقَتْ وقالت: يا مسلم، هذا يهوديٌّ ورائي تعالَ فاقتُلْه، إلَّا الغَرْقَد فإنَّه من شجر اليهود فلا ينطِقْ». خرَّجه مسلم[٢]. قال المهدوي: وكلَّمَ اللهُ تعالى موسى عليه السلام من فوقِ عرشِه، وأسمَعَه كلامَه من الشجرة على ما شاء. ولا يجوز أن يُوصَفَ الله تعالى بالانتقال والزوال وشبهِ ذلِكَ من صفات المخلوقين.[٣] قال أبو المعالي: وأهلُ المعاني وأهلُ الحقِّ يقولون: مَنْ كلَّمه اللهُ تعالى وخصَّه بالرتبة العليا والغاية القصوى، فيُدرِكُ كلامَه القديمَ المتقدِّسَ عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات، كما أنَّ مَنْ خصَّه اللهُ بمنازل الكرامات وأكملَ عليه نعمتَه، ورزقه رؤيتَه يرى الله سبحانه وتعالى منزَّهاً عن مماثلةِ الأجسام وأحكام الحوادث، ولا مِثْلَ له سبحانه في ذاته وصفاته، وأجمعَتِ الأمةُ على أنَّ الربَّ تعالى خصَّصَ موسى عليه السلام وغيرَه من المصطَفَين من الملائكة بكلامه. قال الأستاذ أبو إسحاق: اتَّفق أهلُ الحقِّ على أنَّ الله تعالى خلقَ في موسى عليه السلام معنًى من المعاني أدركَ به كلامَه كان اختصاصُه في سماعه، وأنه قادرٌ على مثله في جميع خلقه. واختلفوا في نبيِّنا عليه الصلاة والسلام هل سمع ليلةَ الإسراء كلامَ الله، وهل سمعَ جبريلُ كلامَه على قولين؛ وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود، واتَّفقوا على أن سماعَ الخلق له عند قراءةِ القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارةَ التي عرفوا بها معناه دون سماعِه له في عينه. وقال عبد الله بن سعد بن كلاب: إنَّ موسى عليه السلام فهِمَ كلامَ الله القديم من أصواتٍ مخلوقةٍ أثبتَها اللهُ تعالى في بعض الأجسام. قال أبو المعالي: وهذا مردود، بل يجب اختصاصُ موسى عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقاً للعادة، ولو لم

---

(١) إكمال المعلم ٨/ ٤٦٣ .

(٢) في صحيحه (٢٩٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٩٣٩٨) بتمامه، والبخاري (٢٩٢٦) دون قوله: إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود فلا ينطق.

(٣) يوصف الله بالإتيان والنزول والقرب ونحو ذلك مما ورد في النصوص الصحيحة بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل.

يُقَلْ ذلك لم يكن لموسى عليه السلام اختصاصٌ بتكليم اللهِ إيَّاه. والربُّ تعالى أسمعَه كلامَه العزيز، وخلق له علماً ضرورياً، حتى علِمَ أنَّ ما سمِعَه كلامُ الله، وأنَّ الذي كلَّمه وناداه هو الله ربُّ العالمين. وقد ورد في الأقاصيص أنَّ موسى عليه السلام قال: سمعتُ كلامَ ربي بجميع جوارحي، ولم أسمَعْه من جهةٍ واحدةٍ من جهاتي. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[١] مستوفى. ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ بحذفِ الجرِّ، أي بـ «أنْ يا مُوسى»[٢]. ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ نفيٌ لربوبية غيرِه سبحانه. وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عزَّ وجلَّ لا من رسله؛ لأنَّه لا يصير رسولاً إلا بعد أمره بالرسالة، والأمرُ بها إنما كان بعد هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ﴾ عطفٌ على «أنْ يا مُوسى» وتقدَّم الكلامُ في هذا في «النمل»[٣] و«طه»[٤]. و﴿مُدۡبِرٗا﴾ نصبٌ على الحال، وكذلك موضع قوله: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ نصبٌ على الحال أيضاً[٥]. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ﴾ قال وهب: قيل له: ارجِعْ إلى حيث كنت. فرجعَ فلَفَّ دُرَّاعتَه[٦] على يده، فقال له المَلِك: أرأيتَ إن أرادَ اللهُ أن يُصيبكَ بما تُحاذِرُ أينفعُكَ لَفُّكَ يدَك؟ قال: لا، ولكنِّي ضعيفٌ خُلِقْتُ من ضعف. وكشف يدَه فأدخلَها في فم الحية فعادت عصا. ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ أي: مما تُحاذر[٧].

---

(١) ٢/ ١١٤.
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٧.
(٣) ١٦/ ١٠٧.
(٤) ١٤/ ٤٨.
(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٤.
(٦) الدُّرَّاعة: ضربٌ من الثياب التي تلبس. وقيل: جبة مشقوقة المقدم. اللسان (درع).
(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٧.

قوله تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ الآية؛ تقدَّم القول فيه[١]. ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ «من» متعلقة بـ «ولَّى» أي: ولَّى مدبراً من الرَّهب[٢]. وقرأ حفص والسُّلَميُّ وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «مِنَ الرَّهْبِ» بفتح الراء وإسكان الهاء. وقرأ ابن عامر والكوفيون إلا حفص بضمِّ الراء وجزم الهاء. الباقون بفتح الراء والهاء. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[٣] [الأنبياء: ٩٠] وكلُّها لغاتٌ، وهو بمعنى الخوف. والمعنى: إذا هَالَكَ أمرُ يَدِكَ وشُعاعُها فأدخِلْها في جيبك واردُدْها إليه تَعُدْ كما كانت. وقيل: أمرَه اللهُ أن يضُمَّ يدَه إلى صدره فيذهب عنه خوفُ الحيَّة. عن مجاهد وغيره، ورواه الضحَّاك عن ابن عباس؛ قال: فقال ابن عباس: ليس من أحدٍ يدخلُه رعبٌ بعد موسى عليه السلام ثم يُدخِلُ يدَه فيضعُها على صدره إلَّا ذهبَ عنه الرعب[٤]. ويُحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أنَّ كاتباً كان يكتبُ بين يديه، فانفلتَتْ منه فلتةُ ريح فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمِه الأرض. فقال له عمر: خُذْ قلمَكَ واضمُمْ إليك جناحَك، وليفْرَخْ[٥] رُوعُكَ فإني ما

---

(١) ١٤/ ٤٩ - ٥٠ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٣ .

(٣) قراءة حفص وابن عامر والكوفيين حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر عنه في السبعة ص٤٩٣ ، والتيسير ص١٧١ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥ .

(٥) أي: لينكشف، وأصل الإفراخ الانكشاف. الصحاح (فرخ).

سمعتُها من أحدٍ أكثرَ ممَّا سمعتُها من نفسي[١]. وقيل: المعنى: اضمُمْ يدَكَ إلى صدرِكَ لِيُذهِبَ اللهُ ما في صدرك من الخوف[٢]. وكان موسى يرتعِدُ خوفاً إمَّا من آل فرعون وإمَّا من الثعبان.وضَمُّ الجناح هو السكون، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] يريد الرِّفق. وكذلك قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] أي: ارفُقْ بهم. وقال الفرَّاء: أرادَ بالجناح عصاه. وقال بعض أهل المعاني: الرَّهب: الكُمُّ بِلُغةِ حِمْيَرٍ وبني حنيفة. قال مقاتل: سألتني أعرابيةٌ شيئاً وأنا آكل، فملأتُ الكفَّ وأومأتُ إليها فقالت: هاهنا في رهبي. تريد: في كُمِّي. وقال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يقول لآخر: أعطِني رَهْبَك. فسألتُه عن الرَّهب فقال: الكُمُّ. فعلى هذا يكون معناه: اضمُمْ إليك يدك وأخرجها من الكُم؛ لأنه تناول العصا ويدُه في كمِّه[٣]. وقوله: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ يدلُّ على أنها اليد اليمنى؛ لأنَّ الجيبَ على اليسار. ذكره القشيري.

قلت: وما فسَّروه من ضمِّ اليدِ إلى الصَّدرِ يدلُّ على أنَّ الجيبَ موضِعُه الصدر. وقد مضى في سورة «النور»[٤] بيانُه. الزمخشري: ومن بدع التفاسير أنَّ الرَّهبَ الكُمُّ بِلُغةِ حِمْير وأنَّهم يقولون: أعطني ممَّا في رَهْبِكَ، وليتَ شعري كيفَ صِحَّتُه في اللغة! وهل سمع من الأثباتِ الثقاتِ الذين تُرتَضى عربيَّتُهم، ثم ليتَ شعري كيفَ موقِعُه في الآية، وكيفَ تطبيقُه المُفصَّلُ كسائر كلمات التنزيل؛ على أنَّ موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلةَ المناجاة إلا زُرْمَانِقَةٌ[٥] من صوفٍ لا كُمَّينِ لها[٦]. قال القشيري: وقوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يريد اليدين إن قُلْنا: أراد الأمنَ من فزع الثعبان.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥ .

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٢٠ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥ دون قول مقاتل. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٦ .

(٤) ١٥/ ٢١٦ .

(٥) أي: جبة من صوف. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٧٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ١٧٥ .

وقيل: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ أي: شَمِّرْ واستَعِدَّ لتحمِلَ أعباءَ الرسالة.

قلتُ: فعلى هذا قيل: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ أي: من المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾. قال ابن بحر: فصار على هذا التأويل رسولاً بهذا القول. وقيل: إنما صار رسولاً بقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ والبرهانان: اليد والعصا[1].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «فذانِّكَ»[2] بتشديد النون، وخففها الباقون[3]. وروى أبو عمارة عن أبي الفضل عن أبي بكر عن ابن كثير، «فَذَانِّيكَ» بالتشديد والياء. وعن أبي عمرٍو أيضاً قال: لغةُ هذيل «فَذَانِيكَ» بالتخفيف والياء[4]. ولغةُ قريش «فَذَانِكَ» كما قرأ أبو عمرو وابن كثير. وفي تعليله خمسةُ أقوال: قيل: شَدَّدَ النونَ عِوَضاً من الألف الساقطة في ذانِكَ الذي هو تثنية ذا المرفوع، وهو رفعٌ بالابتداء، وألفُ ذا محذوفةٌ لدخول ألف التثنية عليها، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين؛ لأنَّ أصلَه فذانك، فحذفَ الألفَ الأولى عوضاً من النون الشديدة. وقيل: التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك. مكي: وقيل: إنْ مَنْ شدَّدَ إنَّما بناه على لغةِ مَنْ قال في الواحد ذلك، فلمَّا بنى أثبتَ اللامَ بعد نون التثنية، ثم أدغم اللامَ في النون على حُكم إدغام الثاني في الأوَّل، والأصلُ أن يُدغِمَ الأوَّلَ أبداً في الثاني، إلَّا أن يمنعَ من ذلِكَ علَّةٌ فيُدغِمَ الثاني في الأوَّل، والعِلَّةُ التي منعَتْ في هذا أن يُدغِمَ الأوَّلَ في الثاني أنَّه لو فعلَ ذلك لصار في موضع النون التي تدلُّ على التثنية لامٌ مُشدَّدة، فيتغيَّرُ لفظ التثنية، فأدغم الثاني في الأول لذلك، فصار نوناً مُشدَّدة. وقد قيل: إنه لما ثنى[5] ذلِكَ أثبتَ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥.

(٢) قوله: وأبو عمرو: «فذانِّكَ» من (ظ)، وهو ليس في باقي النسخ.

(٣) السبعة ص٤٩٣، والتيسير ص١٧١.

(٤) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧: وقرأ شبل عن ابن كثير: «فذانَيك» بياء بعد النون المخففة، وقرأ ابن مسعود: «فذانِّيك» بالياء أيضاً مع شد النون، وهي لغة هذيل. قلنا: والقراءاتان في الشاذة ص١١٣ عن ابن كثير.

(٥) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: لما تنافى.

اللامَ قبلَ النون، ثم أدغمَ الأوَّلَ في الثاني على أصول الإدغام، فصار نوناً مُشدَّدة. وقيل: شُدِّدتْ فرقاً بينها وبين الظاهر التي تُسقِطُ الإضافةُ نونَه؛ لأنَّ ذانِ لا يُضاف. وقيل: للفرق بين الاسم المتمكِّنِ وبينها. وكذلك العِلَّةُ في تشديد النون في «اللذان» و«هذان»[١]. قال أبو عمرو: إنما اختصَّ أبو عمرو هذا الحرفَ بالتشديد دونَ كلِّ تثنيةٍ من جنسه؛ لقِلَّة حروفِه، فقرأه بالتثقيل. ومن قرأ: «ذَانِيكَ» بياءٍ مع تخفيف النون، فالأصل عنده «فَذَانِّكَ» بالتشديد، فأبدلَ من النون الثانية ياءً كراهيةَ التضعيف، كما قالوا: لا أملاه في لا أَمَلُّه، فأبدلوا اللامَ الثانية ألِفاً[٢]. ومن قرأ بياءٍ بعد النون الشديدة فوجَّهَه أنه أشبع كسرةَ النونِ فتولَّدت عنها الياء.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ يعني: مُعيناً، مُشتقٌّ من أردَأْتُه أي: أعنْتُه[٣]. والرِّدْءُ: العون[٤]. قال الشاعر:

ألَـم تـرَ أنَّ أصْـرَمَ كـان رِدئـي   وخـيـرَ الـنـاسِ فـي قُـلٍّ ومـالِ

النحَّاس[٥]: وقد أردأه ورداه أي: أعانه، وترك همزَه تخفيفاً. وبه قرأ نافع[٦]، وهو بمعنى المهموز. قال المهدوي: ويجوز أن يكون تركُ الهمزِ من قولِهم: أَردى على المئة، أي: زادَ عليها، وكأنَّ المعنى: أَرْسِلْهُ معي زيادةً في تصديقي. قاله مسلم ابن جُندب. وأنشدَ قولَ الشاعر:

وأسـمـرَ خَـطِّـيّـاً كـأنَّ كُـعـوبَـهُ   نوى القَسْبِ قد أردى ذراعاً على العَشْرِ

كذا أنشد الماورديُّ[٧] هذا البيت: قد أردى. وأنشده الغزنويُّ والجوهريُّ في

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٤ - ٥٤٥ .
(٢) الحجة في القراءات ٥/ ٤٢٠ .
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٨ .
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤٤ .
(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٨٠ .
(٦) السبعة ص٤٩٤ ، والتيسير ص١٧١ .
(٧) في النكت والعيون ٤/ ٢٥٣ .

«الصحاح»[١]: قد أرمى؛ قال[٢]: والقَسْبُ: الصَّلْبُ، والقَسْبُ: تمرٌ يابسٌ يتفتَّتُ في الفم، صَلْبُ النَّواة. قال يصف رمحاً: وأسمرَ. البيت. قال الجوهري[٣]: رَدُؤ الشيء يردؤ رَداءةً، فهو رديءٌ أي: فاسد، وأردأْتُه: أفسدْتُه، وأردأْتُه أيضاً بمعنى أعنتُه؛ تقول: أردأْتُه بنفسين أي: كنتُ له رِدءاً وهو العون؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾. قال النحّاس[٤]: وقد حُكيَ رَدَأْتُه رِدْءاً، وجمعُ رِدْءٍ أَرْدَاءٌ. وقرأ عاصم وحمزة: «يُصَدِّقُني» بالرفع. وجزم الباقون[٥]، وهو اختيارُ أبي حاتم على جواب الدعاء، واختارَ الرفعَ أبو عبيدٍ على الحال من الهاء في «أَرْسِلْهُ» أي: أرسِلْه ردءاً مُصدِّقاً حالةَ التصديق، كقوله: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ﴾ [المائدة: ١١٤] أي: كائنةً، حالٌ صُرِفَ إلى الاستقبال. ويجوز أن يكون صفةً؛ لقوله: «ردْءاً»[٦]. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ إذا لم يكن لي وزيرٌ ولا معين؛ لأنهم لا يكادون يفقهون عني، ف﴿قَالَ﴾ اللهُ جلَّ وعزَّ له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نُقوِّيكَ به، وهذا تمثيل؛ لأنَّ قوَّةَ اليدِ بالعَضُد[٧]. قال طَرَفة[٨]:

أَبَنِي لُبَيْنَى لستُمُ بيدٍ ... إلَّا يداً ليسَتْ لها عَضُدُ

ويُقال في دعاء الخير: شَدَّ اللهُ عضُدَكَ. وفي ضِدِّه: فتَّ اللهُ في عضُدِكَ[٩]. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: حُجَّةً وبرهاناً. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بالأذى[١٠]

---

(١) (رمى)، ونسبه إلى حاتم طيئ.

(٢) في الصحاح (قسب).

(٣) في الصحاح (ردأ).

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٣٨ .

(٥) السبعة ص٤٩٤ ، والتيسير ص١٧١ .

(٦) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٥ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٨٠ .

(٨) في ديوانه ص٤٥ .

(٩) الكشاف ٣/ ١٧٦ .

(١٠) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ .

﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ أي: تمتنعان منهم «بِآيَاتِنا»[١] فيجوز أن يوقَفَ على «إِلَيْكُما» ويكون في الكلام تقديمٌ وتأخير[٢]. وقيل: التقدير: أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُما الْغَالِبُونَ بآياتنا. قاله الأخفش والطبري[٣]. قال المهدوي: وفي هذا تقديمُ الصِّلةِ على الموصول، إلَّا أن يُقدَّر: أنتُما غالبانِ بآياتِنا أنتُما ومَنِ اتَّبعكما الغالبون. وعنى بالآيات سائرَ معجزاته.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: ظاهراتٍ واضحاتٍ ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى﴾ مكذوبٌ مختلق[٤] ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾. وقيل: إن هذه الآيات ما احتجَّ به موسى في إثبات التوحيد من الحجج العقلية. وقيل: هي معجزاته[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ قراءةُ العامَّة بالواو، وقرأ مجاهدٌ وابن كثير وابن

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤٤.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٦، وزاد المسير ٦/ ٢٢٢ بنحوه.

(٣) في تفسير البغوي ١٨/ ٢٥٣.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٦.

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٩٥.

مُحَيصِن: «قالَ» بلا واو، وكذلك هو في مصحف أهل مكة(١) ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: بالرشاد. ﴿مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ﴾ قرأ الكوفيون إلَّا عاصماً: «يكون» بالياء، والباقون بالتاء. وقد تقدَّم هذا(٢). ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ أي: دارُ الجزاء. ﴿إِنَّهُۥ﴾ الهاء ضميرُ الأمرِ والشأن ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ قال ابن عباس: كان بينَها وبينَ قوله: «أنا رَبُّكُمُ الأعلى» أربعون سنة(٣). وكذبَ عدوُّ اللهِ، بل عَلِمَ أنَّ له ثَمَّ رَبّاً هو خالِقُه وخالِقُ قومِه؛ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]. قال: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اطبُخْ لي الآجُرَّ. عن ابن عباسٍ ﷺ(٤). وقال قتادة: هو أوَّلُ مَنْ صنعَ الآجُرَّ وبنى به(٥). ولمَّا أمرَ فرعونُ وزيرَه هامانَ ببناء الصَّرحِ جمعَ هامانُ العمَّالَ ـ قيل: خمسينَ ألفَ بَنَّاءٍ سوى الأتباع والأُجَراء ـ وأمَرَ بطبخِ الآجُرِّ والجَصِّ، ونَشْرِ الخشب، وضَرْبِ المسامير، فبنَوا ورفعوا البناءَ وشَيَّدوه بحيث لم يبلُغْه بنيانٌ منذ خلقَ اللهُ السماوات والأرض، فكان الباني لا يقدِرُ أن يقومَ على رأسه، حتى أرادَ الله أن يفتِنَهم فيه(٦). فحكى السُّدِّيُّ أنَّ فرعونَ صعدَ السَّطحَ ورمى بنُشَّابةٍ نحوَ السماء، فرجعت متلطِّخةً بدماء، فقال: قد قتلتُ إله موسى(٧). فرُوِيَ أنَّ جبريلَ عليه السلام بعثَه اللهُ تعالى عند مقالته، فضرب الصَّرحَ بجناحِه فقطَّعَه ثلاثَ قِطَع؛ قطعةً على عسكر فرعون قتلَتْ منهم ألفَ ألف،

---

(١) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١ دون ذكر قراءة مجاهد وابن محيصن.

(٢) المصدران السابقان، وقد سلف هذا ٩/ ٣٦.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ من غير نسبة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣، وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٥٥.

(٦) عرائس المجالس ص١٩١ وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٦، وزاد المسير ٦/ ٢٢٣، والكشاف ٣/ ١٧٨.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣.

وقطعةً في البحر، وقطعةً في المغرب[١]، وهلكَ كلُّ مَنْ عَمِلَ فيه شيئاً[٢]. والله أعلمُ بصِحَّة ذلك. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الظنُّ هنا شَكٌّ، فكفر على الشك؛ لأنه قد رأى من البراهين ما لا يُخِيلُ[٣] على ذي فطرة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: تعظّم ﴿هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي: عن الإيمان بموسى. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدوان، أي: لم تكن له حجةٌ تدفع ما جاء به موسى. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: توهَّموا أنه لا معاد ولا بعث.

وقرأ نافع وابن مُحَيصِن وشيبة وحميد ويعقوب وحمزة والكسائي: «لَا يَرْجِعُونَ» بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمَّى الفاعل. الباقون: «يُرْجَعُونَ» على الفعل المجهول. وهو اختيار أبي عبيد، والأوَّلُ اختيار أبي حاتم[٥].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ وكانوا ألفَي ألفٍ وستَّ مئةِ ألف. ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: طرحناهم في البحر المالح[٦]. قال قتادة: بحرٌ من وراء مصر يقال له: إِسَاف، أغرقهم الله فيه[٧]. وقال وهب والسُّدِّي: المكان الذي أغرقهم الله فيه بناحية القُلْزُم يقال له: بطن مُرَيْرَة، وهو إلى اليوم غضبان. وقال مقاتل. يعني نهر النيل. وهذا ضعيفٌ، والمشهور الأوّل[٨]. ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: آخرُ أمرهم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر[٩]، فيكون عليهم

---

(١) في النسخ: الغرب. والمثبت من المصادر.

(٢) عرائس المجالس ص١٩٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٦، وزاد المسير ٦/ ٢٢٣، والكشاف ٣/ ١٧٨.

(٣) أي: لا يُشكل. اللسان (خيل).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٨.

(٥) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩ دون ذكر قراءة ابن محيصن وشيبة وحميد.

(٦) الوسيط ٣/ ٤٠٠.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٩ من غير نسبة.

(٩) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣.

وزرُهم ووِزرُ من اتَّبعهم حتى يكون عقابُهم أكثر. وقيل: جعل الله الملأ من قومه رؤساء السَّفَلة منهم، فهم يدعون إلى جهنم. وقيل: أئمةً يأتَمُّ بهم ذَوو العِبر ويتَّعظ بهم أهل البصائر. ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى عمل أهل النار[١] ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: أمرنا العبادَ بلعنِهم فمَنْ ذكرهم لعنَهم. وقيل: أي: ألزمناهم اللعنَ أي: البُعدَ عن الخير. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المُهلَكين الممقوتين. قاله ابن كَيْسان وأبو عبيدة[٢]. وقال ابن عباس: المشوَّهين الخِلْقة بسواد الوجوه وزُرقة العيون. وقيل: من المُبعدين[٣]. يقال: قَبَحه اللهُ أي: نحَّاه من كل خير، وقَبَحَه وقَبَّحَه إذا جعله قبيحاً. وقال أبو عمرو: قبَحْتُ وجهَه بالتخفيف معناه: قَبَّحت[٤]؛ قال الشاعر:

أَلَا قَبَحَ اللهُ البراجِمَ كلَّها وقَبَّحَ يَرْبوعاً وقبَّحَ دَارِما[٥]

وانتصبَ يوماً على الحمل على موضع ﴿فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ واستُغني عن حرف العطف في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ كما استُغني عنه في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]. ويجوز أن يكون العاملُ في «يوم» مُضمَراً يدلُّ عليه قوله: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ فيكون كقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]. ويجوز أن يكون العامل في «يوم» قوله: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ وإن كان الظرفُ متقدِّماً. ويجوز أن يكون مفعولاً على السَّعة، كأنه قال: وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً يوم القيامة[٦].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٠٦ ، وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٥١٨ من غير نسبة.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ . والقول الثاني في زاد المسير ٦/ ٢٢٤ ، والكشاف ٣/ ١٨١ .

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٧٥ ، ونسب القول الأول لأبي زيد.

(٥) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٣٠ ، وفيه: وعفَّر دارما. قال شارحه: البراجم ويربوع ودارم قبائل من تميم.

(٦) البيان ٢/ ٢٢٣ - ٢٢٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٥ - ٥٤٦ بنحوه .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة. قاله قتادة. قال يحيى بن سلَّام: هو أوَّلُ كتابٍ ـ يعني التوراة ـ نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام. وقيل: الكتابُ هنا ستٌّ من المثاني السَّبع التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ. قاله ابن عباس، ورواه مرفوعاً[1]. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال أبو سعيد الخدري: قال النبيُّ ﷺ: «ما أهلكَ اللهُ قوماً ولا قرناً ولا أمَّةً ولا أهلَ قريةٍ بعذابٍ من السماء ولا من الأرض منذُ أنزل اللهُ التوراةَ على موسى غيرَ القريةِ التي مُسختْ قِردةً، ألم ترَ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾[2]» أي: من بعد قوم نوحٍ وعادٍ وثمود[3]. وقيل: أي: من بعد ما أغرقنا فرعونَ وقومَه وخسفنا بقارون.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: آتيناه الكتاب بصائر. أي: ليتبصَّروا ﴿وَهُدًى﴾ أي: من الضلالة لمن عمل بها ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن بها[4]. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ليذكَّروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم في الدنيا، ويَثِقوا بثوابهم في الآخرة[5].

---

(١) لم نقف عليه مرفوعاً، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٦٠٩)، وفي تفسيره ١/ ٣٥٠، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص١١٨، والطبري في تفسيره ١٤/ ١١٤ - ١١٥، والحاكم ٢/ ٢٥٧ وغيرهم موقوفاً على ابن عباس ﵄.

(٢) أخرجه البزار «كشف الأستار» (٢٢٤٨)، والحاكم ٢/ ٤٠٨ عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.
وأخرجه البزار (٢٢٤٧)، والطبري ١٨/ ٢٥٩، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٢٨) عن أبي سعيد الخدري موقوفاً.
ومن بداية الآية حتى هذا الموضع من النكت والعيون ٢/ ٢٥٤.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٧، وزاد المسير ٦/ ٢٢٤.

(٤) الوسيط ٣/ ٤٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٧.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ أي: ما كنتَ يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي: بجانب الجبل الغربيّ[1]؛ قال الشاعر:

أعـطـاكَ مَـنْ أعـطـى الـهُـدَى الـنـبِـيَّـا نُـوراً يَـزِيـنُ الـمِـنـبـرَ الـغـربِـيَّـا

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ إذ كلَّفناه أمرَنا ونهيَنا، وألزمناه عهدنا[2]. وقيل: أي: إذ قضينا إلى موسى أمرَك وذكرناك بخير ذكرٍ. وقال ابن عباس: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أي: أخبرنا أنَّ أمةَ محمدٍ خيرُ الأمم. ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: من الحاضرين[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: من بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ حتى نسوا ذِكْرَ الله أي: عهدَه وأمرَه[4]. نظيره ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وظاهر هذا يُوجِبُ أن يكون جرى لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام ذِكْرٌ في ذلك الوقت، وأنَّ الله سيبعثه، ولكن طالت المدَّة، وغلبت القسوة، فنسيَ القومُ ذلك. وقيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهدُ فكفروا، فأرسلنا محمداً مُجدِّداً للدين وداعياً الخلقَ إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: مقيماً كمقام موسى وشعيب بينهم[5]. قال العَجَّاج[6]:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ .

(٢) مجمع البيان ٩/ ٣٠٠ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ .

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٢٥ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ .

(٦) في ديوانه ص٣٠٣ .

فبات حيث يدخل الثَّوِيُّ

أي: الضيف المقيم.

وقوله: ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: تُذكِّرهم بالوعد والوعيد. ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: أرسلناك في أهل مكة، وآتيناك كتاباً فيه هذه الأخبار، ولولا ذلك لَما عَلِمتَها[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: كما لم تحضر جانبَ المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون، فكذلك لم تحضر جانبَ الطور إذ نادينا موسى لمَّا أتى الميقات مع السبعين. وروى أبو زُرعة بن عمرو بن جَرير[2] يرفعه قال: «نُوديَ: يا أمةَ محمدٍ، أجبتُكم قبل أن تدعوني، وأعطيتُكم قبل أن تسألوني» فذلك قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾. وقال أبو هريرة ـ وفي رواية عن ابن عباس ـ إن الله قال: «يا أمةَ محمدٍ، قد أجبتُكم قبل أن تدعوني، وأعطيتُكم قبل أن تسألوني، وغفرتُ لكم قبل أن تستغفروني، ورحمتُكم قبل أن تسترحموني»[3] قال وهب: وذلك أنَّ موسى لمَّا ذكرَ اللهُ له فضل محمدٍ وأمته قال: يا ربِّ أرِنيهم. فقال الله: «إنكَ لن

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ - ٤٤٨ .

(٢) في النسخ: عمرو بن دينار، والتصويب من المصادر.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩١ من طريق سفيان الثوري، والطبري ٨/ ٢٦٢ من طريق يحيى بن عيسى، كلاهما عن الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زرعة بن عمرو.
وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٣١٨)، والطبري ٨/ ٢٦٢ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٤٦)، والحاكم ٢/ ٤٠٨ من طريق حمزة الزيات، عن الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة.
وذكره الدارقطني في العلل ٨/ ٢٩١ وقال: عن أبي زرعة قوله، وهو أصح.
قلنا: ورواية ابن عباس ذكرها الرازي في تفسيره ٢٤/ ٢٥٧ .

تُدرِكَهم، وإن شئتَ ناديتُهم فأسمعتُكَ صوتَهم»قال: بلى يا رب. فقال الله تعالى: «يا أمة محمد» فأجابوا من أصلاب آبائهم، فقال: «قد أجبتُكم قبل أن تدعوني»(١) ومعنى الآية على هذا: ما كنتَ بجانب الطور إذ كلَّمنا موسى فنادينا أُمَّتَك وأخبرناه بما كتبناه لكَ ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا .﴿وَلَٰكِن﴾ فعلنا ذلك ﴿رَّحۡمَةً﴾ منَّا بكم.

قال الأخفش: «رَحْمَةً» نصبٌ على المصدر، أي: ولكن رحمناك رحمةً. وقال الزجَّاج: هو مفعولٌ من أجله، أي: فعل ذلك بك لأجل الرحمة(٢). النحَّاس: أي: لم تشهد قصص الأنبياء، ولا تُلِيتْ عليك، ولكنَّا بعثناكَ وأوحيناها إليك للرحمة(٣). وقال الكسائي: على خبر كان، التقدير: ولكن كان رحمة. قال: ويجوز الرفع بمعنى: هي رحمة. الزجَّاج: الرفع بمعنى: ولكنْ فِعْلُ ذلك رحمة(٤).

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ يعني العرب، أي: لم تشاهد تلك الأخبار، ولكن أوحيناها إليك رحمةً بمن أُرسِلتَ إليهم؛ لتنذرهم بها ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾ يريدُ قريشاً. وقيل: اليهود(٥) .﴿مُّصِيبَةُۢ﴾ أي: عقوبةً ونقمةً ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ من الكفر والمعاصي. وخصَّ الأيدي بالذكر؛ لأنَّ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٨ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ . وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٥٣ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٤٧ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٨١ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ .

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٢٧ .

الغالب من الكسب إنما يقع بها. وجواب «لَوْلَا» محذوفٌ، أي: لولا أن يصيبهم عذابٌ بسبب معاصيهم المتقدِّمة ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لمَّا بعثنا الرسل. وقيل: لعاجلناهم بالعقوبة[١]. وبَعْثُ الرسل إزاحةٌ لعذر الكفار كما تقدَّم في «سبحان»[٢] وآخر «طه»[٣]. ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ نصبٌ على جواب التحضيض. ﴿وَنَكُونَ﴾ عطفٌ عليه. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدِّقين. وقد احتجَّ بهذه الآية من قال: إن العقل يوجِبُ الإيمانَ والشكر؛ لأنه قال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وذلك موجبٌ للعقاب؛ إذ تقرَّر الوجوبُ قبل بعثة الرسل، وإنما يكون ذلك بالعقل. قال القشيري: والصحيح أنَّ المحذوفَ: لولا كذا لَما احتيجَ إلى تجديد الرسل. أي: هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد، ولكن تطاول العهد، فلو عذَّبناهم فقد يقول قائلٌ منهم: طال العهد بالرسل، ويظنُّ أنَّ ذلك عذرٌ ولا عذرَ لهم بعد أن بلغهم خبرُ الرسل، ولكن أكملنا إزاحة العذر، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم. وقد حكم اللهُ بأنه لا يُعاقِبُ عبداً إلَّا بعد إكمال البيان والحُجَّة وبعثة الرسل.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿قَالُواْ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من العصا واليد البيضاء، وأنزل عليه القرآن جملةً واحدةً كالتوراة، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل محمد، فقال الله تعالى: ﴿أو لَمْ يَكْفروا بما أُوتيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالوا ساحِرانِ تَظَاهَرا﴾ أي: موسى ومحمد تعاونا على السحر. قال الكلبي: بعثَتْ قريشٌ إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمدٍ وشأنه فقالوا: إنَّا نجده في التوراة بنعتِه وصفتِه. فلمَّا رجع الجواب إليهم ﴿قالوا ساحِرانِ تَظَاهَرا﴾[٤]. وقال قومٌ: إنَّ اليهودَ علَّموا المشركين، وقالوا: قولوا

---

(١) تفسير البغوي ٣/٤٤٨ .

(٢) ١٣/٤٤ وما بعده.

(٣) ١٤/١٦٦ وما بعده.

(٤) تفسير البغوي ٣/٤٤٨ - ٤٤٩ .

لمحمدٍ: لولا أوتيتَ مثلَ ما أوتي موسى، فإنه أوتي التوراةَ دفعةً واحدة. فهذا الاحتجاج واردٌ على اليهود، أي: أو لم يكفُرْ هؤلاء اليهود بما أوتيَ موسى حين قالوا في موسى وهارون هما ساحران و﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وإنَّا كافرون بكلِّ واحدٍ منهما.

وقرأ الكوفيون: «سِحْرانِ» بغير ألف؛ أي: الإنجيل والقرآن. وقيل: التوراة والفرقان. قاله الفرَّاء[1]. وقيل: التوراة والإنجيل. قاله أبو رزين. الباقون: «ساحِرانِ» بألف. وفيه ثلاثة أقاويل: أحدهما ـ موسى ومحمد عليهما السلام. وهذا قول مشركي العرب. وبه قال ابن عباس والحسن. الثاني ـ موسى وهارون. وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة. وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد[2]. فيكون الكلام احتجاجاً عليهم. وهذا يدلُّ على أنَّ المحذوف في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ لما جدَّدنا بعثة الرسل؛ لأنَّ اليهود اعترفوا بالنبوَّات ولكنهم حرَّفوا وغيَّروا واستحقُّوا العقاب، فقال: قد أكملنا إزاحةَ عُذرِهم ببعثة محمدٍ ﷺ. الثالث ـ عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وهذا قول اليهود اليوم. وبه قال قتادة. وقيل: أو لم يكفُرْ جميعُ اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح، وذكر الإنجيل والقرآن، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ أي: قُلْ يا

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٦.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٥٦، والقول الثالث الذي سيأتي منه أيضاً.

وينظر السبعة ص٤٩٥، والتيسير ص١٧٢.

محمد إذ كفرتُم معاشرَ المشركين بهذين الكتابين ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ ليكون ذلك عذراً لكم في الكفر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنهما سحران. أو: فأتوا بكتابٍ هو أهدى من كتابَي موسى ومحمدٍ عليهما السلام. وهذا يُقوِّي قراءةَ الكوفيين «سِحْرَانِ».

«أَتَّبِعْهُ» قال الفرَّاء[1]: بالرفع؛ لأنَّه صفةٌ[2] للكتاب وكتابٌ نكرة. قال: وإذا جزمت ـ وهو الوجه ـ فعلى الشرط.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ يا محمد أن يأتوا بكتابٍ من عند الله ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: آراءَ قلوبهم وما يستحسنونه ويُحبِّبُه لهم الشيطان، وأنَّه لا حُجَّةَ لهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحدَ أضلُّ منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي أتبَعْنا بعضَه بعضاً، وبعثنا رسولاً بعد رسول[3]. وقرأ الحسن: «وَصَلْنَا» مخففاً[4]. وقال أبو عبيدة والأخفش: معنى «وصلنا»: أتممنا، كصِلَتِك الشيء[5]. وقال ابن عُيَيْنة والسُّدِّي: بيَّنَّا. وقاله ابن عباس[6]. وقال مجاهد: فصَّلنا. وكذلك كان يقرؤها[7]. وقال ابن زيد: وَصَلْنا لهم خبرَ الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم في الآخرة في الدنيا[8]. وقال أهل المعاني: وَالَينا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبع بعضِه بعضاً؛ وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ونصائحَ ومواعظَ

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٧، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩.

(٢) في معاني القرآن وإعراب القرآن: صلة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٥٦.

(٤) الشاذة ص١١٣، وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٢٨ نسبتها إلى أبي المتوكل وابن يعمر.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٠٨، ونقلها الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٥٦ عن الأخفش.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٥٦ عن السدي، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٩ عن ابن عباس.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩١، وهي قراءة شاذة.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٩.

إرادةَ أن يتذكَّروا فيُفلحوا(١). وأصلُها من وصل الحبال بعضِها ببعض. قال الشاعر:

فقُلْ لبني مروانَ ما بالُ ذِمَّةٍ وحبلٍ ضعيفٍ ما يزالُ يُوَصَّلُ(٢)

وقال امرؤ القيس:

دريرٍ كخُذروفِ الوليدِ أمَرَّهُ تَقَلُّبُ كفَّيه بخيطٍ مُوَصَّلِ(٣)

والضمير في «لهم» لقريش. عن مجاهد. وقيل: هو لليهود(٤). وقيل: هو لهم جميعاً. والآية ردٌّ على من قال: هلَّا أوتي محمدٌ القرآن جملةً واحدة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال ابن عباس: يتذكَّرون محمداً فيؤمنوا به. وقيل: يتذكَّرون فيخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم. قاله علي بن عيسى. وقيل: لعلَّهم يتَّعِظون بالقرآن عن عبادة الأصنام. حكاه النقَّاش(٥).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أخبر أنَّ قوماً ممَّن أوتوا الكتابَ من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن؛ كعبد الله بن سَلام وسلمان(٦). ويدخل فيه مَنْ أسلم من علماء النصارى، وهم أربعون رجلاً، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينةَ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانيةُ نفرٍ أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى، منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٧٤ ، وقائل البيت الأخطل، وهو في ديوانه ص١٠ ، وفيه: فسائل بني مروان.

(٣) ديوان امرئ القيس ص٢١ . قال شارحه: قوله: «درير» يعني: هو درير في عدوه، أي: سريع خفيف. والخذروف: الخرَّارة التي يلعب بها الصبيان، تسمع لها صوتاً، وهي سريعة المرِّ، وجعل خيط الخذروف موصَّلاً؛ لأنه قد لعب به كثيراً حتى خفَّ وأخلَقَ وتقطَّع خيطُه فوُصل، فذلك أسرع لدورانه.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٢٨ ونسب القول الثاني إلى رفاعة القرظي.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٧ .

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٧٨ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٨٥) عن قتادة بنحوه.

وإدريس ونافع. كذا سمَّاهم الماوردي[١]. وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها إلى قوله[٢]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ قاله قتادة. وعنه أيضاً: أنها نزلت في عبد الله بن سَلَام وتميم الداريّ والجارود العبديّ وسلمان الفارسيّ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية.

وعن رِفاعةَ القُرظي[٣]: نزلت في عشرة أنا أحدهم[٤]. وقال الزُّهري[٥]: نزلت في النجاشي وأصحابه، ووجَّه باثني عشر رجلاً فجلسوا مع النبيِّ ﷺ، وكان أبو جهلٍ وأصحابُه قريباً منهم، فآمنوا بالنبيِّ ﷺ، فلمَّا قاموا من عنده تبِعَهم أبو جهلٍ ومن معه، فقال لهم: خيَّبَكُم الله من ركب، وقبَّحكم من وفد، لم تلبثوا أن صدَّقتموه، وما رأينا ركباً أحمقَ منكم ولا أجهل. فقالوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لم نَأْلُ أنفسَنا رشداً ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾[٦] وقد تقدَّم هذا في «المائدة» عند قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ مستوفى[٧]. وقال أبو العالية: هؤلاء قومٌ آمنوا بمحمدٍ ﷺ قبل أن يُبعث وقد أدركه بعضُهم[٨]. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن. وقيل: من قبل محمدٍ عليه الصلاة والسلام[٩] ﴿هُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، أو بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام ﴿يُؤْمِنُونَ﴾[١٠].

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي: إذا قُرئ عليهم القرآن قالوا: صدَّقنا بما فيه ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل نزوله، أو: قبل بعثة محمد عليه

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٢٥٨ .

(٢) عبارة: «إلى قوله» من (ظ) والنكت والعيون.

(٣) في النسخ: بن قرظة، والتصويب من المصادر.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٧٦ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٧٣)، والطبراني (٥٤٦٣).

(٥) في (م): عروة بن الزبير، والمثبت من (د) و(ظ) وإعراب القرآن.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ .

(٧) سلف هذا ٨/ ١٠٨ - ١١٠ لكن عند تفسير الآية التي قبل الآية التي ذكرها المصنف.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٩ .

(١٠) زاد المسير ٦/ ٢٢٩ .

الصلاة والسلام ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُوحّدين، أو: مؤمنين بأنه سيُبعَثُ محمدٌ وينزل عليه القرآن.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ ثبتَ في «صحيح مسلم» عن أبي موسى أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ يؤتَون أجرَهُم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بنبيِّه وأدرك النبيَّ ﷺ فآمنَ به واتَّبعه وصدَّقه فله أجران، وعبدٌ مملوكٌ أدَّى حقَّ الله عزَّ وجلَّ وحقَّ سيِّدِه فله أجران، ورجلٌ كانت له أمَةٌ فغذَّاها فأحسنَ غذاءها ثم أدَّبها ثم أعتقَها وتزوَّجها فله أجران» قال الشَّعبيُّ للخُراساني: خُذْ هذا الحديث بغير شيء، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة. وخرَّجه البخاريُّ أيضاً[1]. قال علماؤنا: لمَّا كان كلُّ واحدٍ من هؤلاء مخاطَباً بأمرين من جهتين استحقَّ كلُّ واحدٍ منهم أجرين، فالكتابيُّ كان مخاطَباً من جهةِ نبيِّه، ثم إنه خُوطِبَ من جهة نبيِّنا، فأجابه واتَّبعه، فله أجر المِلَّتين، وكذلك العبد هو مأمورٌ من جهة الله تعالى ومن جهة سيِّده، وربُّ الأمَةِ لمَّا قام بما خُوطِبَ به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياءَ التربية، ثم إنَّه لمَّا أعتقها وتزوَّجها أحياها إحياءَ الحرِّية التي ألحقها فيه بمنصبه، فقد قام بما أُمِرَ فيها، فأُجِرَ كلُّ واحدٍ منهما أجرين. ثم إنَّ كلَّ واحدٍ من الأجرين مضاعفٌ في نفسه، الحسنةُ بعشر أمثالها فتتضاعف الأجور. ولذلك قيل: إنَّ العبدَ الذي يقوم بحقِّ سيِّده وحقِّ الله تعالى أفضلُ من الحرِّ. وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البَرِّ وغيره. وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «للعبدِ المملوكِ المُصلحِ أجران» والذي نفسُ أبي هريرةَ بيدِه، لولا

---

(١) صحيح البخاري (٣٠١١)، وصحيح مسلم (١٥٤). وهو في مسند أحمد (١٩٦٠٢).

الجهادُ في سبيل الله والحجُّ وبِرُّ أمي لأحببتُ أن أموتَ وأنا مملوك. قال سعيد بن المسيِّب: وبَلغَنا أنَّ أبا هريرةَ لم يكن يَحُجُّ حتى ماتت أمُّه؛ لصحبتها[(١)]. وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعِمَّا للمملوكِ أن يُتوفَّى يُحسِنُ عبادةَ الله وصحابةَ سيِّده، نِعِمَّا له»[(٢)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ عامٌّ في صبرهم على ملتهم، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك[(٣)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون. درأتُ إذا دفعتُ، والدرءُ الدفع. وفي الحديث: «ادرؤوا الحدودَ بالشُّبهات»[(٤)]. قيل: يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى. وقيل: يدفعون بالتوبة والاستغفار الذنوب[(٥)]. وعلى الأوّل

---

(١) صحيح مسلم (١٦٦٥) بتمامه، وصحيح البخاري (٢٥٤٨) دون قول سعيد بن المسيب، وهو كذلك في مسند أحمد (٨٣٧٢).

(٢) صحيح مسلم (١٦٦٧)، وهو في مسند احمد (٨٢٣٣). وأخرجه البخاري (٢٥٤٩) بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢ .

(٤) المثبت من (م)، وفي (د) بزيادة: ما استطعتم. وفي (ظ): ادرؤوا الحدود ما استطعتم.

وأخرجه الترمذي (١٤٢٤)، والحاكم ٤/ ٣٨٤ ، والبيهقي ٨/ ٢٣٨ من طريق الفضل بن موسى ومحمد ابن ربيعة، عن يزيد بن زياد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة مرفوعاً بلفظ: «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرجٌ فخلُّوا سبيله، فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة» قال الترمذي: يزيد بن زياد الدمشقي ضعيف في الحديث. وقال الذهبي في تعقبه على الحاكم: قال النسائي: يزيد بن زياد شامي متروك.

وأخرجه الترمذي بعد حديث (١٤٢٤) من طريق محمد بن ربيعة، عن يزيد بن زياد... بمثل إسناده سابقه إلا أنه جعله موقوفاً على عائشة.

وأخرجه ابن ماجه (٢٥٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: «ادرؤوا الحدود ما وجدتم لها مدفعاً» قال البوصيري في مصباح الزجاجة٢/ ٧٠: هذا إسناد ضعيف، فيه إبراهيم بن الفضل المخزومي، ضعفه أحمد وابن معين والبخاري والنسائي والأزدي والدارقطني.

وأخرجه البيهقي ٨/ ٢٣٨ من حديث علي ﷺ مرفوعاً بلفظ: «ادرؤوا الحدود، ولا ينبغي للإمام أن يعطل الحدود» وفي إسناده المختار بن نافع؛ قال البيهقي: قال البخاري: المختار بن نافع منكر الحديث.

وقد روي موقوفاً بأسانيد وألفاظٍ مختلفة، قال البيهقي ٩/ ١٢٣ - ١٢٤: وأصح الروايات فيه عن الصحابة رواية عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قوله. قلنا: وقد أخرج تلك الرواية ابن ابي شيبة ٩/ ٥٦٧ ، والبيهقي ٨/ ٢٣٨ بلفظ: ادرؤوا الجلد والقتل عن المسلمين ما استطعتم.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ دون ذكر الحديث.

فهو وصفٌ لمكارم الأخلاق، أي: مَنْ قال لهم سوءاً لا يَنْوِه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه. فهذه آية مهادنة، وهي من صدر الإسلام، وهي مما نسختها آيةُ السيف وبقي حُكمُها فيما دون الكفر يتعاطاه أمةُ محمدٍ ﷺ إلى يوم القيامة[١]. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسن»[٢] ومن الخُلقِ الحسنِ دفعُ المكروه والأذى، والصبرُ على الجفا بالإعراضِ عنه ولينِ الحديث.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أثنى عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفي رسم الشرع، وفي ذلك حَضٌّ على الصدقات[٣]. وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة. ثم مدحَهم أيضاً على إعراضهم عن اللغو، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] أي: إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا عنه، أي: لم يشتغِلوا به ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: متاركةً، مثل قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي: لنا دينُنا ولكم دينُكم. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أَمْناً لكم منَّا، فإنَّا لا نُحاربكم، ولا نُسابُّكم، وليس من التحية في شيء[٤]. قال الزجَّاج: وهذا قبل الأمر بالقتال. ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ قال الزجَّاج[٦]: أجمعَ المفسِّرون[٧]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢.
(٢) سلف ١٢/ ٥٩.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢.
(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٠ بنحوه.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٤٩.
(٦) في معاني القرآن ٤/ ١٤٩.
(٧) في النسخ: المسلمون، والمثبت من معاني القرآن للزجاج.

على أنها نزلت في أبي طالب.

قلت: والصوابُ أن يُقال: أجمعَ جُلُّ المُفسِّرين على أنها نزلت في شأن أبي طالبِ عمِّ النبيِّ ﷺ، وهو نصُّ حديثِ البخاري ومسلم[١]، وقد تقدَّم [الكلام في][٢] ذلك في «براءة»[٣]. وقال أبو رَوْق: قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ إشارةٌ إلى العباس. وقاله قتادة.﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال مجاهد: لمن قدَّر له أن يهتدي[٤]. وقيل: معنى «مَنْ أَحْبَبْتَ» أي: مَنْ أحببتَ أن يهتدي[٥]. وقال جُبير بن مُطْعِم: لم يسمَعْ أحدٌ الوحيَ يُلقى على النبيِّ ﷺ إلَّا أبا بكرٍ الصِّدِّيق؛ فإنه سمع جبريل وهو يقول: يا محمد اقرأ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ هذا قول مشركي مكة[٦]. قال ابن عباس: قائل ذلك من قريشٍ الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشيُّ قال للنبيِّ ﷺ: إنَّا لنعلم أنَّ قولَكَ حقٌّ، ولكن يمنعُنا أن نتَّبعَ الهدى معك، ونؤمِنَ بك، مخافة أن يتخطَّفَنا العرب من أرضنا ـ يعني مكة ـ لاجتماعهم على خلافنا، ولا طاقةَ لنا بهم. وكان هذا من تعلُّلاتِهم، فأجاب الله تعالى عمَّا اعتلَّ به

---

(١) صحيح البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) ١٠/٣٩٨ .

(٤) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٤/٢٥٩ - ٢٦٠ ، وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٠٤)، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/٢٨٦ ، وابن أبي حاتم (١٧٠٠٥).

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/١٨٨ .

(٦) تفسير أبي الليث ٢/٥٢٢ .

فقال[١]: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمن. وذلك أنَّ العربَ كانت في الجاهلية يُغير بعضُهم على بعض، ويقتلُ بعضُهم بعضاً، وأهلُ مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأخبر أنه قد أمَّنَهم بحرمة البيت، ومنع عنهم عدوَّهم، فلا يخافون أن تستحِلَّ العربُ حُرمةً في قتالهم. والتخطُّف: الانتزاع بسرعة[٢]: وقد تقدَّم[٣]. قال يحيى بن سلَام يقول: كنتم آمنين في حرمي، تأكلون رزقي، وتعبدون غيري، أفتخافون إذا عبدتموني وآمنتم بي. ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي يُجمَع إليه ثمراتُ كل أرض وبلد. عن ابن عباس وغيره[٤]. يقال: جبى الماء في الحوض أي: جمعه. والجابية: الحوض العظيم[٥].

وقرأ نافع: «تُجْبَى» بالتاء؛ لأجل الثمرات. الباقون بالياء؛ لقوله: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ واختاره أبو عبيد؛ قال: لأنَّه حالَ بين الاسمِ المؤنثِ وبين فِعْلِه حائل[٦]، وأيضاً فإنَّ الثمرات جمع، وليس بتأنيثٍ حقيقي[٧]. ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعقلون[٨]، أي: هم غافلون عن الاستدلال، وأنَّ مَنْ رزَقَهم وأمَّنَهم فيما مضى حالَ كفرهم يرزقُهم لو أسلموا، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم.

و«رِزْقاً» نُصِبَ على المفعول من أجله. ويجوز نصبُه على المصدر بالمعنى؛ لأنَّ معنى «تُجْبَى»: تُرزَق. وقُرِئَ: «يُجْنَى» بالنون من الجنا، وتعديتُه بإلى كقولك: يجنى

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٠ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٠٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٣) ٩/ ٤٩٠ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٠ .

(٥) الصحاح (جبا).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٥١ ، وينظر السبعة ص٤٩٥ ، والتيسير ص١٧٢ .

(٧) الحجة في القراءات السبعة ٥/ ٤٢٤ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٦٠ .

إلى فيه ويُجنى إلى الخافَة[١].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ بيَّن لمن توهَّم أنه لو آمن لقاتلَتْه العربُ أن الخوف في ترك الإيمان أكثر، فكم من قومٍ كفروا ثم حَلَّ بهم البوار. والبطر: الطغيان بالنعمة. قاله الزجَّاج. «مَعِيشَتَها» أي: في معيشتها، فلمَّا حذَفَ «في» تعدَّى الفعل.قاله المازني. الزجَّاج[٢]: كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف:١٥٥]. الفرَّاء: هو منصوبٌ على التفسير. قال: كما تقول: أبطَرَكَ[٣] مالُكَ وبَطِرْتَهُ. ونظيره عنده: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠] وكذا عنده ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء:٤] ونَصْبُ المعارف على التفسير مُحالٌ عند البصريين؛ لأنَّ معنى التفسير والتمييز أن يكون واحداً نكرةً يدلُّ على الجنس[٤]. وقيل: انتصب بـ«بَطِرَتْ» ومعنى: «بَطِرَتْ» جَهِلَتْ، فالمعنى: جَهِلَتْ شُكرَ معيشتها[٥]. ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لم تُسكَنْ بعد إهلاك أهلِها إلَّا قليلاً من المساكن وأكثرها خراب[٦]. والاستثناء يرجع إلى المساكن، أي: بعضُها يُسكن. قاله الزجَّاج، واعتُرِضَ عليه، فقيل: لو كان الاستثناءُ يرجع إلى المساكن لقال: إلا قليل؛ لأنَّكَ تقول: القومُ لم تضرِبْ إلَّا قليلٌ؛ ترفَعُ إذا كان المضروبُ قليلاً، وإذا نصبتَ كان القليلُ صفةً للضرب، أي: لم تضرب إلَّا ضرباً قليلاً، فالمعنى إذاً: فتِلكَ مساكنُهم لم يسكُنْها إلَّا المسافرون ومَنْ مرَّ بالطريق يوماً أو بعضَ يوم، أي: لم تُسْكَنْ من بعدهم إلَّا سكوناً قليلاً. وكذا قال ابن عباس: لم يسكُنْها إلَّا المسافرُ أو

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٦ ، والقراءة شاذة، والخافَة: وعاء الحَبِّ؛ سُمِّيت بذلك لأنها وقاية له. النهاية (خوف).

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٠ .

(٣) في (م): أبطرت. والمثبت من (د) و(ظ) وإعراب القرآن.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٠ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٨ .

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٦ .

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٠ .

مارُّ الطريقِ يوماً أو ساعة[١]. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: لِما خَلَّفوا بعد هلاكهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: القرى الكافرُ [أهلُها][٢]. ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ قُرئ بضمِّ الهمزة وكسرِها[٣] لإتباع الجر يعني مكة، و﴿رَسُولًا﴾ يعني محمداً ﷺ[٤]. وقيل: «فِي أُمِّهَا» يعني: في أعظمها «رَسُولاً» ينذرهم[٥]. وقال الحسن: في أوائلها[٦].

قلت: ومكةُ أعظمُ القرى لِحرمتها وأوَّلها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] وخُصَّتْ بالأعظم لبعثة الرسول فيها؛ لأنَّ الرسلَ تُبعَثُ إلى الأشراف، وهم يسكنون المدائن وهي أمُّ ما حولها[٧]. وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة «يوسف»[٨]. ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ «يَتْلُوا» في موضع الصفة، أي: تالياً، أي يخبرهم أنَّ العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ﴾ وسقطتِ

(١) من قوله: فالمعنى إذاً... إلى هذا الموضع من تفسير البغوي ٣/ ٤٥١، في زاد المسير ٦/ ٢٣٣.

(٢) المصدران السابقان، وما بين حاصرتين منهما.

(٣) قرأ حمزة والكسائي من السبعة بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بضمِّها. السبعة ص٢٢٧ - ٢٢٨، والتيسير ص٩٤.

(٤) الكشاف ٣/ ١٨٦.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٥١.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦١. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠١٨)

(٧) زاد المسير ٦/ ٢٣٤.

(٨) ١١/ ٤٧٠.

النونُ للإضافة، مثل: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [النحل:٢٨]. ﴿إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي: لم أُهلِكْهم إلَّا وقدِ استحقُّوا الإهلاك؛ لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم. وفي هذا بيانٌ لعدلِه وتقدُّسِه عن الظلم؛ أخبر تعالى أنه لا يُهلكهم إلاّ إذا استحقُّوا الإهلاكَ بظلمهم، ولا يُهلكهم مع كونهم ظالمين إلَّا بعد تأكيد الحُجَّة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل عِلْمَه بأحوالهم حُجَّةً عليهم، ونزَّه ذاتَه أن يُهلِكَهم وهم غير ظالمين، كما قال عزَّ مِنْ قائل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود:١١٧] فنصَّ في قوله: ﴿بِظُلۡمٍ﴾ على أنه لو أهلكَهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً لهم منه، وأنَّ حالَه في غناه وحكمتَه منافيةٌ للظلم، دلَّ على ذلك بحرف النفي مع لامه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾(١) [البقرة:١٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٍ﴾ يا أهل مكة ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾ أي: تتمتعون بها مدَّة حياتكم، أو مدَّةً في حياتكم، فإمَّا أن تزولوا عنها أو تزول عنكم. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓۚ﴾ أي: أفضَلُ وأدْوَمُ، يريد الدارَ الآخرة وهي الجنة. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أنَّ الباقي أفضلُ من الفاني(٢). قرأ أبو عمرو: «يَعْقِلُونَ» بالياء. الباقون بالتاء على الخطاب، وهو الاختيار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ يعني الجنة وما فيها من الثواب ﴿كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فأُعطيَ منها بعضَ ما أراد. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ أي: في النار. ونظيره قوله: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾(٤) [الصافات:٥٧] قال ابن عباس: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وفي أبي جهل بن

---

(١) من قوله: وفي هذا بيان لعدله... إلى هذا الموضع من الكشاف ٣/ ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) الوسيط ٣/ ٤٠٤ - ٤٠٥، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥١، وزاد المسير ٦/ ٢٣٤.

(٣) الحجة في القراءات السبعة ٥/ ٤٢٤. وينظر السبعة ص٤٩٥، والتيسير ص١٧٢.

(٤) الكشاف ٣/ ١٨٧.

هشام[١]. وقال مجاهد: نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل[٢]. وقال محمد بن كعب: نزلت في حمزة وعليّ، وفي أبي جهل وعمارة بن الوليد[٣]. وقيل: في عمار والوليد ابن المغيرة. قاله السُّدِّي. قال القشيري: والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم. الثعلبي: وبالجملة فإنها نزلت في كلِّ كافرٍ مُتِّعَ في الدنيا بالعافية والغنى، وله في الآخرة النار، وفي كلِّ مؤمنٍ صبرَ على بلاء الدنيا ثقةً بوعد الله، وله في الآخرة الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي اللهُ يومَ القيامة هؤلاء المشركين ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: حقَّتْ عليهم كلمة العذاب، وهم الرؤساء. قاله الكلبي. وقال قتادة: هم الشياطين[٤]. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي: دعوناهم إلى الغيّ. فقيل لهم: أغويتموهم؟ قالوا: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ يعنون: أأضللناهم كما كنّا ضالِّين. ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبرأً بعضُنا من بعض، والشياطين يتبرؤون ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرؤون ممن قبل

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٥ ولكن عن مجاهد، وكذلك ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٣٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٤، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٣٤.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٥١ - ٤٥٢، ومجمع البيان ٢٠/ ٣١١ وليس فيه عمارة بن الوليد.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٣٥ - ٢٣٦. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٢، والطبري ١٨/ ٢٩٦، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٤٠).

منهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١) [الزخرف: ٦٧].

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ﴾ أي: للكفار ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: استغيثوا بآلهتكم التي عبدتُموها في الدنيا لتنصرَكم وتدفعَ عنكم. ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: استغاثوا بهم. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي: فلم يُجيبوهم ولم ينتفعوا بهم.

﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ قال الزجَّاج: جواب «لَوْ» محذوف، والمعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الهدى، ولَما صاروا إلى العذاب. وقيل: لو أنهم كانوا يهتدون ما دَعَوهم(٢). وقيل: المعنى: ودُّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا إذا رأوا العذابَ يوم القيامة.

قوله تعالى(٣): ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: يقول اللهُ لهم: ما كان جوابُكم لِمن أُرسِلَ إليكم من النبيين لمَّا بلغوكم رسالاتِي؟(٤) ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: خَفِيَتْ عليهم الحُجج. قاله مجاهد؛ لأنَّ الله قد أَعذَرَ إليهم في الدنيا، فلا يكون لهم عذرٌ ولا حُجَّةٌ يوم القيامة(٥). و«الْأَنْبَاءُ»: الأخبار؛ سَمَّى حُجَجَهم أنباءَ لأنها أخبارٌ يُخبرونها(٦). ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسألُ بعضُهم بعضاً عن الحُجَج؛ لأنَّ الله تعالى أدحَضَ حُجَجهم. قاله الضحاك(٧). وقال ابن عباس: «لا يتساءَلُونَ» أي: لا ينطقون بِحُجَّة. وقيل: «لا يتساءَلُونَ» في تلك الساعة، ولا يدرون ما يُجيبون به من هول تلك الساعة، ثم يُجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. وقال مجاهد: لا يتساءلون بالأنساب. وقيل: لا يسألُ بعضُهم

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٢ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٠ - ٢٤١ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥١ .

(٣) عبارة: «قوله تعالى» من (ظ).

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٣١٣ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٢ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٧ .

(٦) زاد المسير ٦/ ٢٣٦ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٦٢ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣١٣ .

بعضاً أن يحمل من ذنوبه شيئاً. حكاه ابن عيسى[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ أي: من الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: صدَّق ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أدى الفرائضَ وأكثرَ من النوافل ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: من الفائزين بالسعادة. وعسى من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ هذا متَّصِلٌ بذِكر الشُّركاءِ الذين عبَدوهم واختاروهم للشفاعة، أي: الاختيار إلى الله تعالى في الشُّفعاء لا إلى المشركين. وقيل: هو جوابُ الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني نفسَه زعم، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف[(٢)]. وقيل: هو جوابُ اليهود إذ قالوا: لو كان الرسولُ إلى محمدٍ غيرَ جبريل لآمَنَّا به.

قال ابن عباس: والمعنى: وربُّكَ يخلقُ ما يشاء من خَلْقِه ويختارُ منهم مَنْ يشاء لطاعته. وقال يحيى بن سلَّام: المعنى: وربُّكَ يخلقُ ما يشاء مِنْ خلقِه ويختار مَنْ يشاء لنبوَّته. وحكى النقَّاش أنَّ المعنى: وربُّكَ يخلقُ ما يشاء مِنْ خلقِه يعني محمداً ﷺ، ويختارُ الأنصارَ لدينه[(٣)].

قلتُ: وفي كتاب البزَّار مرفوعاً صحيحاً عن جابر: «إنَّ اللهَ تعالى اختارَ

---

(١) قول مجاهد وابن عيسى في النكت والعيون ٤/ ٢٦٢ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٨ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٤٥).

(٢) الوسيط ٣/ ٤٠٦ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٢ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٦٢ .

أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختارَ لي من أصحابي أربعة ـ يعني أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليّاً ـ فجعلهم أصحابي، وفي أصحابي كلِّهم خيرٌ، واختارَ أمَّتي على سائر الأمم، واختارَ لي من أمتي أربعةَ قرون»[١]. وذكر سفيان بن عُيَيْنة عن عَمرو بن دينار، عن وهب بن مُنبِّه، عن أبيه في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ قال: من النَّعَمِ الضأن، ومن الطيرِ الحمام. والوقف التام «وَيَخْتَارُ»[٢]. وقال عليُّ بن سليمان: هذا وقفُ التمام، ولا يجوز أن تكون «ما» في موضع نصب بـ«يَخْتَارُ» لأنها لو كانت في موضع نصبٍ لم يَعُدْ عليها شيء. قال: وفي هذا رَدٌّ على القدرية[٣]. قال النحَّاس: التمام «وَيَخْتَارُ» أي: ويختار الرسل. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس يُرسِلُ مَن اختاروه هم[٤]. قال أبو إسحاق: «وَيَخْتَارُ» هذا الوقف التامُّ المختار، ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ«يختار» ويكون المعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخِيَرَة[٥]. قال القُشيري: الصحيح الأوَّل؛ لإطباقهم [على][٦] الوقف على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾. قال المهدوي: وهو أشبه بمذهب أهل

---

(١) مسند البزار «كشف الأستار» (٢٧٦٣) من طريق أبي صالح عبد الله بن صالح، عن نافع بن يزيد، عن زهرة بن معبد، عن سعيد بن المسيب، عن جابر مرفوعاً.

وأخرجه الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٣١٢ من طريق أبي صالح وسعيد بن أبي مريم، بالإسناد السابق.

قال الذهبي في السير ١٠/ ٤١٤ - ٤١٥: قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي وأبا زرعة يقولان: حديث «إن الله اختار أصحابي» موضوع، والحمل فيه على أبي صالح.

ثم قال الذهبي: لكن قد تابعه عليه سعيد بن أبي مريم، عن نافع... فتخلَّص أبو صالح.

ثم قال: وقال أبو زرعة وغيره: هو من وضع خالد بن نجيح المصري، وكان يضع في كتب الشيوخ.

قال الذهبي: لعله أدخله على نافع بن يزيد، مع أن نافعاً صدوقٌ احتجَّ به مسلم.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٣.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤١.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٤.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٤١، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٢.

(٦) ما بين حاصرتين من (م).

السُّنَّة و«ما» من قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفيٌ عامٌّ لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيءٌ سوى اكتسابِه بقدَرِ[1] اللهِ عزَّ وجلَّ. الزمخشري[2]: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيانٌ لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لأنَّ معناه: يختارُ ما يشاء؛ ولهذا لم يدخلِ العاطفُ، والمعنى: إنَّ الخِيَرَةَ لله تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها، أي: ليس لأحدٍ من خلقِه أن يختارَ عليه.

وأجاز الزجَّاج[3] وغيرُه أن تكون «ما» منصوبةً بـ «يَخْتارُ». وأنكر الطبريُّ[4] أن تكون «ما» نافية؛ لئلَّا يكون المعنى: إنهم لم تكُنْ لهم الخيَرةُ فيما مضى وهي لهم فيما يُستقبل، ولأنَّه لم يتقدَّم كلامٌ بنفي. قال المهدوي: ولا يلزم ذلك؛ لأنَّ «ما» تنفي الحالَ والاستقبالَ كَلَيسَ؛ ولذلك عمِلَتْ عملَها، ولأنَّ الآيَ كانت تنزل على النبيِّ ﷺ على ما يسأل عنه، وعلى ما هم مُصِرُّون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص. وتقدير الآية عند الطبري: ويختار لولايته الخِيَرةَ من خلقه؛ لأنَّ المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ للهدايةِ من خلقِه مَنْ سبقت له السعادةُ في علمه، كما اختار المشركون خيارَ أموالهم لآلهتهم، فـ «ما» على هذا لمن يعقِلُ، وهي بمعنى الذي، و«الْخِيَرَةُ» رفعٌ بالابتداء، و«لَهُم» الخبر، والجملة خبر «كان». وشبهه بقولك: «كان زيدٌ أبوه منطلقٌ» وفيه ضعف؛ إذ ليس في الكلام عائدٌ يعود على اسم كان، إلَّا أن يُقَدَّر فيه حذفٌ فيجوز على بُعْدٍ. وقد رُويَ معنى ما قاله الطبري عن ابن عباس[5]. قال الثعلبي: و«ما» نفي، أي: ليس لهم الاختيارُ على الله. وهذا أصْوَبُ، كقوله تعالى:

(١) في (م): بقدرة. والمثبت من (د) و(ظ).

(٢) في الكشاف ٣/ ١٨٨.

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٢.

(٤) في تفسيره ١٨/ ٣٠١ - ٣٠٢.

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. قال محمود الورَّاق:

توكَّلْ على الرحمنِ في كلِّ حاجةٍ ... أردتَ فإنَّ اللهَ يقضي ويَقْدِرُ
إذا ما يُرِدْ ذو العرشِ أمراً بعبدِهِ ... يُصِبْهُ وما للعبدِ ما يتخيَّرُ
وقد يهلِكُ الإنسانُ من وجهِ حِذْرِهِ ... وينجو بحمدِ الله من حيثُ يَحذرُ[1]

وقال آخر:

العبدُ ذو ضَجَرٍ والربُّ ذو قَدَرٍ ... والدَّهرُ ذو دُوَلٍ والرِّزْقُ مقسومُ
والخيرُ أجمَعُ فيما اختارَ خالِقُنا ... وفي اختيار سواه اللَّومُ والشُّومُ

قال بعض العلماء: لا ينبغي لأحدٍ أن يقدُمَ على أمرٍ من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخِيرَةَ في ذلك؛ بأن يُصلِّيَ ركعتين صلاة الاستخارة، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي الركعة الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. واختار بعض المشايخ أن يقرأ في الركعة الأولى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ الآية، وفي الركعة الثانية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وكلٌّ حسن. ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخاريُّ في «صحيحه» عن جابر بن عبد الله قال: كان النبيُّ ﷺ يُعلِّمنا الاستخارَة في الأمورِ كلِّها، كما يُعلِّمنا السورةَ من القرآن؛ يقول: «إذا هَمَّ أحدُكم بالأمرِ فليركَعْ ركعتين غيرَ الفريضةِ، ثم ليقُلْ: اللهمَّ إني أستخيرُكَ بعلمِكَ وأستقدِرُكَ بقُدرتِكَ وأسألُكَ من فضلِكَ العظيم، فإنَّكَ تقدِرُ ولا أقدِرُ، وتعلَمُ ولا أعلَمُ، وأنت علَّامُ الغيوب، اللهمَّ إن كنتَ تعلَمُ أنَّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فاقْدُره لي ويسِّره لي، ثم بارِكْ لي فيه، اللهمَّ وإن كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال:

---

(١) وقد نسبت هذه الأبيات إلى أبي العتاهية، وهي في ديوانه ص١٥٣ .

في عاجل أمري وآجله ـ فاصرِفه عني واصرفني عنه، واقدُرْ ليَ الخيرَ حيثُ كان، ثم رضِّني به» قال: ويُسمِّي حاجته[١]. وروَتْ عائشةُ عن أبي بكر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أراد أمراً قال: «اللهمَّ خِرْ لي واختَرْ لي»[٢]. وروى أنسٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يا أنس، إذا هممتَ بأمرٍ فاستخِرْ ربَّكَ فيه سبعَ مرات، ثم انظُرْ إلى ما يسبِقُ قلبَكَ فإنَّ الخيرَ فيه»[٣]. قال العلماء: وينبغي له أن يُفرِّغَ قلبَه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلاً إلى أمرٍ من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإنَّ الخير فيه إن شاء الله. وإن عزم على سفرٍ فيتوخَّى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين اقتداءً برسول الله ﷺ[٤].

ثم نزَّه نفسَه سبحانه بقوله الحق، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزيهاً. ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: تقدَّس وتمجَّد ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون.

وقرأ ابن مُحَيصِن وحميد: «تَكُنُّ» بفتح التاء وضمِّ الكاف، وقد تقدَّم هذا في «النمل»[٥].

تمدَّح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) صحيح البخاري (١١٦٢). وهو في مسند أحمد (١٤٧٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥١٦) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زَنْفَل، وهو ضعيف عند أهل الحديث، وتفرد بهذا الحديث ولا يُتابع عليه.

(٣) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٩٨) من طريق عبيد الله بن الحميري، عن إبراهيم بن البراء، عن النضر بن مالك، عن أبيه ـ يعني أنس بن مالك بن أنس بن مالك ـ، عن أبيه ـ يعني مالكاً ـ عن أنس بن مالك مرفوعاً.

عبيد الله بن الحميري لم نقف له على ترجمة، وإبراهيم بن البراء ضعيف جداً يحدث عن الثقات البواطيل، لا يجوز الاحتجاج بحديثه. الميزان ١/ ٢١ - ٢٢.

(٤) أخرج أحمد (٢٧١٧٥)، والبخاري (٢٩٥٠) من حديث كعب بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يحبُّ أن يخرج يوم الخميس. وفي رواية للبخاري (٢٩٤٩): لقلَّما كان رسول الله ﷺ يخرج إذا خرج في سفر إلا يوم الخميس.

(٥) ص٢٠٣ من هذا الجزء، وهي قراءة شاذة.

هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تقدَّم معناه، وأنه المنفرد بالوحدانية، وأنَّ جميعَ المحامد إنما تجب له، وأن لا حُكم إلا له وإليه المصير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أي: دائماً[١]؛ ومنه قول طرفة[٢]:

لعَمرُكَ ما أمري عليَّ بغُمَّةٍ   نهاري ولا ليلي عليَّ بسَرْمَدِ

بيَّنَ سبحانه أنه مَهَّدَ أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه. ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ أي: بنورٍ تطلبون فيه المعيشة[٣]. وقيل: بنهارٍ تُبصرون فيه معايشكم وتُصلَحُ فيه الثمرُ والنبات[٤]. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماع فهمٍ وقبول. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستقِرُّون فيه من النَّصَب. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ما أنتم فيه من الخطإ في عبادة غيره[٥]، فإذا أقررتم بأنه لا يقدِرُ على إيتاء الليل والنهارِ غيرُه، فلِمَ تُشركون به؟!

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٤ عن مجاهد، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٦٢)، وأخرجه (١٧٠٦١) عن ابن عباس ﷺ.

(٢) في ديوانه ص٤٠، وقد سلف ١١/ ٢٤.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٠٦، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٣.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥٢.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٠٦، وزاد المسير ٦/ ٢٣٨.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: فيهما. وقيل: الضمير للزمان وهو الليل والنهار[١]. ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لتطلبوا من رزقه فيه، أي: في النهار، فحذف[٢]. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٧٤ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أعادَ هذا الضميرَ لاختلاف الحالَين، يُنادَون مرةً فيُقال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فيَدْعون الأصنام فلا يستجيبون، فتظهرُ حَيْرَتُهم[٣]، ثم يُنادَون مرةً أخرى فيسكتون. وهو توبيخٌ وزيادةُ خزيٍ. والمناداةُ هنا ليست من الله؛ لأنَّ الله تعالى لا يُكلِّم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤] لكنَّه تعالى يأمر مَنْ يُوبِّخُهم ويُبَكِّتُهم، ويُقيمُ الحُجَّةَ عليهم في مقام الحساب. وقيل: يَحتمل أن يكون من الله، وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ حين يُقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وقال: ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: نبيّاً. عن مجاهد[٤]. وقيل: هم عدولُ الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم في الدنيا[٥]. والأوَّلُ أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وشهيدُ كلِّ أمةٍ رسولُها الذي يشهد عليها[٦]. والشهيد: الحاضر. أي: أحضرنا رسولَهم المبعوثَ إليهم.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٥ بنحوه.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٤.

(٣) في (ظ): فيظهر خزيهم.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٦، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٦٨).

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٣١٧.

(٦) الوسيط ٣/ ٤٠٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٣ بنحوه.

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حُجّتكم[١]. ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: علموا صِدق ما جاءت به الأنبياء[٢]. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عنهم وبطل[٣]. ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أنَّ معه آلهةً تُعبَدُ[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ لمَّا قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ بيَّن أنَّ قارونَ أوتيها واغترَّ بها ولم تعصِمْه من عذاب الله كما لم تعصِمْ فرعون، ولستُم أيها المشركون بأكثرَ عدداً ومالاً من قارون وفرعون، فلم ينفَعْ فرعونَ جنودُه وأموالُه، ولم ينفَعْ قارونَ قرابتُه من موسى ولا كنوزُه. قال النَّخعيُّ وقتادة وغيرهما: كان ابنُ عمِّ موسى لَحّاً[٥]؛ وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب، وموسى بن عمران بن قاهث[٦]. وقال ابن إسحاق: كان عمَّ موسى لأبٍ وأمّ[٧]. وقيل: كان ابن خالته[٨]. ولم ينصرِفْ؛ للعُجمة

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/٣٠٨ عن مجاهد، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٧٠) عن أبي العالية.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/١٥٣ .

(٣) الوسيط ٣/٤٠٧ .

(٤) مجمع البيان ٢٠/٣١٧ بنحوه.

(٥) الوسيط ٣/٤٠٧ والمحرر الوجيز ٤/٢٩٨ ولَحّاً، أي: لاصق النسب. الصحاح (لحح).

(٦) الوسيط ٣/٤٠٧ ، وتفسير البغوي ٣/٤٥٤ .

(٧) تفسير البغوي ٣/٤٥٤ ، وزاد المسير ٦/٢٣٩ .

(٨) زاد المسير ٦/٢٣٩ عن ابن عباس ﷺ.

والتعريف[١]. وما كان على وزن فاعول أعجمياً لا يحسُنُ فيه الألف واللام، لم ينصرِفْ في المعرفة، وانصرف في النكرة، فإن حسُنت فيه الألفُ واللامُ انصرف إن كان اسماً لمذكَّرٍ، نحو طاوس وراقود. قال الزجَّاج: ولو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف[٢]. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ بغيُه أنه زاد في طول ثوبه شبراً. قاله شهر بن حوشب. وفي الحديث: «لا ينظرُ الله إلى مَنْ جرَّ إزاره بطَراً» وقيل: بغيُه كفرُه بالله عزَّ وجلَّ. قاله الضحَّاك. وقيل: بغيُه استخفافُه بهم بكثرة ماله وولده. قاله قتادة. وقيل: بغيُه نسبتُه ما أتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته. قاله ابن بحر[٣]. وقيل: بغيُه قولُه: إذا كانتِ النبوَّةُ لموسى، والمَذبحُ والقُربان في هارون، فما لي؟ فرُوي أنه لمَّا جاوز بهم موسى البحر، وصارتِ الرسالةُ لموسى والحُبورة لهارون؛ يُقرِّب القربان ويكون رأساً فيهم، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه، وجدَ قارونُ في نفسه وحسدَهما، فقال لموسى: الأمرُ لكما ولستُ على[٤] شيء إلى متى أصبر؟ قال موسى: هذا صنع الله. قال: واللهِ لا أصدِّقنَّكَ حتى تأتي بآية. فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلُّ واحدٍ منهم بعصاه، فحزمها وألقاها في القُبَّة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيَّهم بالليل، فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتزُّ ولها ورقٌ أخضر ـ وكانت من شجر اللوز ـ فقال قارون: ما هو بأعجبَ ممَّا تصنع من السحر. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ من البغي: وهو الظلم[٥]. وقال يحيى بن سلَّام وابن المسيِّب: كان قارونُ غنيّاً عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدَّى عليهم وظلمهم وكان منهم.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩٠ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٣ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥ دون ذكر الحديث، وقد أخرجه أحمد (٩٠٠٤)، والبخاري (٥٧٨٨)، ومسلم (٢٠٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وقول شهر بن حوشب أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٧٨)، وأخرج قول الضحاك (١٧٠٧٧) .

(٤) في (د) و(م): وليس لي. والمثبت من (ظ) والكشاف.

(٥) الكشاف ٣/ ١٩٠ .

وقول سابع: رُوي عن ابن عباس قال: لمَّا أمرَ اللهُ تعالى برجم الزاني عمد قارون إلى امرأةٍ بغيٍّ وأعطاها مالاً، وحملها على أنِ ادَّعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها، فعَظُمَ على موسى ذلك، وأحلفَها بالله الذي فلقَ البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلَّا صدقت. فتداركها اللهُ فقالت: أشهدُ أنَّكَ بريء، وأنَّ قارون أعطاني مالاً، وحملني على أن قُلتُ ما قُلتُ، وأنت الصادق، وقارون الكاذب[١]. فجعل الله أمرَ قارون إلى موسى، وأمر الأرضَ أن تُطيعه، فجاءه وهو يقول للأرض: يا أرضُ خُذيه، يا أرض خُذيه. وهي تأخذه شيئاً فشيئاً، وهو يستغيث: يا موسى! إلى أن ساخَ في الأرض هو ودارُه وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه. ورُوي أنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى: استغاثَ بكَ عبادي فلم ترحَمْهم، أما إنهم لو دعَوني لوجدوني قريباً مجيباً[٢]. ابن جُريج: بلغنا أنه يُخسَفُ بهم كلَّ يومٍ قامة، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة[٣]. وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «الفرج»: حدَّثني إبراهيم بن راشد قال: حدَّثني داود بن مِهْران، عن الوليد بن مسلم، عن مروان بن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال: لقي قارونُ يونسَ في ظلمات البحر، فنادى قارونُ يونس، فقال: يا يونس، تُبْ إلى الله، فإنك تجده عند أول قدمٍ ترجع بها إليه. فقال يونس: ما منعكَ من التوبة؟ فقال: إنَّ توبتي جُعلت إلى ابن عمي، فأبى أن يقبل مني[٤]. وفي الخبر: إذا وصلَ قارونُ إلى قرار الأرض السابعة نفخَ إسرافيلُ في الصور. والله أعلم. قال السُّدِّي: وكان اسم البغي سبرتا، وبذل لها قارون ألفَي

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٥٦)، والحاكم ٢/ ٤٠٨ - ٤٠٩ عن ابن عباس ﷺ بنحوه. وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٥٧) عن عبد الله بن الحارث بن نوفل. وأخرجه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ١/ ٤٠٢ ، وابن أبي حاتم (١٧١٦٣) عن عبد الله بن عوف القاري.

(٣) نسبه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٣٩ إلى ابن المنذر، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٦١) عن سمرة بن جندب ﷺ، و(١٧١٦٠) عن قتادة.

(٤) الفرج بعد الشدة (٣٥).

درهم[١]. قتادة: وكان قطع البحر مع بني إسرائيل[٢] وكان يُسمى: المنوَّر، من حسن صوته[٣] في التوراة، ولكن عدوَّ الله نافقَ كما نافقَ السامري[٤].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ قال عطاء: أصابَ كثيراً من كنوز يوسف عليه السلام. وقال الوليد بن زَرْوان[٥]: إنه كان يعمل الكيمياء[٦]. ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ «إنَّ» واسمها وخبرها في صلة «ما» و«ما» مفعولة «آتَيْنَا». قال النحَّاس: وسمعتُ علي ابن سليمان يقول: ما أقبحَ ما يقول الكوفيون في الصِّلات! إنه لا يجوز أن تكون صلةُ الذي وأخواته «إن» وما عملت فيه، وفي القرآن ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾. وهو جمع مِفْتَح بالكسر: وهو ما يُفتَح به. ومن قال: مفتاح قال: مفاتيح. ومن قال: هي الخزائن، فواحدها مَفتح بالفتح. ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أحسنُ ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبة، أي: تُميلهم بثِقَلها[٧]، فلمَّا انفتحتِ التاء دخلت الباء. كما قالوا: هو يذهب بالبؤس، ويُذهِب البؤس. فصار ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ فجعل العصبة تنوء أي: تنهض متثاقلة، كقولك: قُمْ بنا، أي: اجعلنا نقوم[٨]. يقال: ناءَ ينوءُ نوءاً إذا نهض بثقل[٩].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٥، وفي مطبوعه اسم البغي: شجرتا.

(٢) في (د) و(م): موسى، والمثبت من (ظ) والمصادر.

(٣) في (م): صورته، والمثبت من (د) و(ظ) والمصادر.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٤. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٧٥).

(٥) في النسخ: مروان، والتصويب من تفسير ابن أبي حاتم. وقد ترجم له الحافظ ابن حجر في تهذيبه ٤/ ٣١٦، فقال: الوليد بن زَوْران الرقي ـ بتقديم الزاي على الواو ـ وكذلك ترجم له في تقريبه لكنه قال: وقيل بتأخير الواو. روى له أبو داود في سننه حديثاً واحداً في الوضوء عن أنس بن مالك ﷺ، وقال أبو داود: لا ندري سمع من أنسٍ أو لا.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٥، وقول عطاء أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠٨١)، وقول الوليد أخرجه أيضاً (١٧٠٨٢). والكيمياء اسم لعلم التحليل والتركيب، أو علم تحويل المعادن من أدنى إلى أعلى. معجم متن اللغة ٥/ ١٢٩.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢.

(٨) نزهة القلوب ص١٦٨.

(٩) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص٢٢٠.

قال الشاعر:

تـنـوءُ بـأُخـراهـا فَـلَأْيـاً قِـيـامُـهـا وتَمشي الهُوَينى عن قريبٍ فَتُبْهَرُ[١]

وقال آخر:

أخـذتُ فـلـم أمـلِـكْ ونُـؤْتُ فـلـم أَقُـمْ كـأنِّـيَ مـن طـولِ الـزمـانِ مُـقـيَّـدُ

وأناءني إذا أثقلني. عن أبي زيد. وقال أبو عبيدة: قوله: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ مقلوب، والمعنى: لتنوء بها العصبة، أي: تنهض بها. أبو زيد: نُؤْتَ بالحمل إذا نهضتَ[٢]. قال الشاعر:

إنَّـا وجـدنـا خَـلَـفـاً بـئـس الـخَـلَـفْ عـبـداً إذا مـا نـاءَ بـالـحـمـلِ وَقَـفْ[٣]

والأوّل معنى قول ابن عباس وأبي صالح والسُّدِّي. وهو قول الفرَّاء[٤]، واختاره النحَّاس[٥]. كما يُقال: ذهبتُ به وأذهبتُه، وجِئْتُ به وأجأتُه، ونُؤْتُ به وأَنَأْتُهُ، فأما قولهم: له عندي ما ساءه وناءه. فهو إتباعٌ، كان يجب أن يُقال: وأناءه. ومثله: هنأني الطعامُ ومرأني، وأخذه ما قدُمَ وما حدُثَ[٦]. وقيل: هو مأخوذٌ من النأي: وهو البُعد. ومنه قول الشاعر:

يَـنْـأَوْنَ عـنَّـا ومـا تَـنْـأَى مـودَّتُـهـمْ فالقلبُ فيهم رهينٌ حيثما كانوا[٧]

وقرأ بديل بن ميسرة: «لَيَنُوءُ» بالياء، أي: لينوءُ الواحدُ منها أو المذكور، فحُمِلَ على المعنى[٨]. وقال أبو عبيدة: قلتُ لرؤبة بن العجَّاج في قوله:

---

(١) قائله ذو الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ٦٢٤ . قاله شارحه: فلأياً: أي: بعد بُطءٍ قيامها. وتُبهر: تعيا.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٩ . وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١١٠ .

(٣) في النكت والعيون وأساس البلاغة واللسان: «خضف» بدلاً من «وقف». وخضف أي: ضرط.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٠ .

(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٩٩ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ .

(٨) المحتسب ٢/ ١٥٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩ ، وهي قراءة شاذة.

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ كَأنّه في الجِلدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ

إن كنتَ أردتَ الخطوط فقُل: كأنَّها، وإن كنتَ أردتَ السَّوادَ والبَلَقَ فقل: كأنهما. فقال: أردتُ كلَّ ذلك[١].

واختُلِفَ في العصبة: وهي الجماعة التي يتعصَّبُ بعضُهم لبعض على أحد عشر قولاً: الأوّل ـ ثلاثةُ رجال. قاله ابن عباس. وعنه أيضاً: من الثلاثة إلى العشرة[٢].

وقال مجاهد: العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر. وعنه أيضاً: ما بين العشرة إلى الخمسة عشر. وعنه أيضاً: من عشرة إلى خمسة. ذكر الأوَّل الثعلبي، والثاني القُشيري والماوردي[٣]، والثالث المهدوي. وقال أبو صالح والحكم بن عُتَيبة وقتادة والضحاك: أربعون رجلاً[٤]. السُّدِّي: ما بين العشرة إلى الأربعين. وقاله قتادة أيضاً[٥]. وقال عكرمة: منهم من يقول: أربعون، ومنهم من يقول: سبعون. وهو قول أبي صالح: إنَّ العُصبةَ سبعون رجلاً. ذكره الماوردي[٦]. والأوَّل ذكره عنه الثعلبي. وقيل: ستون رجلاً[٧]. وقال سعيد بن جُبير: ستٌّ أو سبع. وقال عبد الرحمن بن زيد: ما بين الثلاثة والتسعة، وهو النفر. وقال الكلبي: عشرة؛ لقول إخوة يوسف: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف:٨] وقاله مقاتل[٨]. وقال خيثمة: وجدتُ في الإنجيل أنَّ مفاتيح خزائن قارونَ وِقْرَ ستين بغلاً غرَّاء مُحجَّلة، وأنها لَتنوء بها من ثِقَلِها، ما يزيد مفتح

(١) الكشاف ١/ ٢٨٧ . والبيت في ديوان رؤبة في مجموعة أشعار العرب ص١٠٤ .

(٢) أخرجهما الطبري ١٨/ ٣١٦ ، والقول الثاني في تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٤٠ .

(٣) في النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٣١٦ ، وابن أبي حاتم (١٧٠٩٥).

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٣١٥ أبي صالح والضحاك، وابن أبي حاتم (١٧٠٩٢) عن الحكم.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٣١٥ عن قتادة، وابن أبي حاتم (١٧٠٩٤) عن السدي.

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠٩١) .

(٧) تفسير الطبري ١٨/ ٣١٥ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وقول سعيد أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠٩٧)، وقول ابن زيد أخرجه أيضاً ابن أبي حاتم (١٧٠٩٦).

منها على إصبع، لكلِّ مفتحٍ منها كنزُ مال، لو قُسِمَ ذلك الكنزُ على أهل البصرة لكفاهم. قال مجاهد: كانت المفاتيح من جلود الإبل. وقيل: من جلود البقر لتخِفَّ عليه، وكانت تُحمل معه إذا ركب على سبعين بغلاً فيما ذكره القشيري. وقيل: على أربعين بغلاً. وهو قول الضحَّاك. وعنه أيضاً: إنَّ مفاتِحَه أوعيتُه. وكذا قال أبو صالح: إنَّ المراد بالمفاتح الخزائن. فالله أعلم[١]. ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: المؤمنون من بني إسرائيل. قاله السُّدِّي. وقال يحيى بن سلَّام: القوم هنا موسى[٢]. وقال الفرَّاء[٣]. وهو جمعٌ أُريدَ به واحد، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وإنما هو نُعيم ابن مسعود على ما تقدَّم[٤]. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي: لا تأشَرْ ولا تبطَرْ[٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: البَطِرين. قاله مجاهد والسُّدِّي. قال الشاعر:

ولستُ بِمِفْراحٍ إذا الدهرُ سَرَّني ... ولا ضارعٌ في صرفهِ المُتقلِّبِ[٦]

وقال الزجَّاج[٧]: المعنى: لا تفرَحْ بالمال فإنَّ الفَرِحَ بالمال لا يؤدِّي حقَّه. وقال مبشر[٨] بن عبد الله: لا تفرَحْ: لا تُفسِدْ. قال الشاعر:

إذا أنتَ لم تبرَحْ تؤدِّي أمانةً ... وتحملُ أخرى أفرحَتْكَ الودائعُ[٩]

أي: أفسدتك. وقال أبو عمرو: أفرَحه الدَّين أثقلَه. وأنشده: إذا أنت... البيت.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٧ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣١١ ، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٣ .

(٤) ٥/ ٤٢٢ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٧ ، وقائل البيت هدبة بن خشرم، وهو في الكامل ٣/ ١٤٥٥ ، ومجاز القرآن ٢/ ١١١ .

(٧) في معاني القرآن ٤/ ١٥٥ ، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٣ .

(٨) في (د) و(ز): فهيد، وفي (ظ) غير واضحة، والمثبت من (م).

(٩) قائله بهيس العذري كما في تاج العروس (فرح).

وأفرحَه: سرَّه، فهو مشترك. قال الزجَّاج: والفَرِحين والفارحين سواء. وفرَّق بينهما الفرَّاء فقال: معنى الفرحين: الذين هم في حال فرح، والفارحين: الذين يفرحون في المستقبل. وزعم أنَّ مثله طَمِعٌ وطامِعٌ وميِّتٌ ومائت. ويدلُّ على خلاف ما قالَ قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ولم يقُلْ: مائت[١]. وقال مجاهد أيضاً: معنى «لا تَفْرَحْ»: لا تَبْغِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: الباغين. وقال ابن بحر: لا تبخَلْ إنَّ الله لا يُحِبُّ الباخلين[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: اطلُبْ فيما أعطاك الله من الدنيا الدارَ الآخرةَ وهي الجنة[٣]، فإن من حَقِّ المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبُّر والبغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ اختُلِفَ فيه؛ فقال ابن عباس والجمهور: لا تُضيِّعْ عمركَ في ألَّا تعملَ عملاً صالحاً في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يُعمَلُ لها، فنصيب الإنسان عمرُه وعملُه الصالح فيها. فالكلام على هذا التأويل شِدَّةٌ في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه: لا تُضيِّعْ حظَّكَ من دنياك في تمتُّعِكَ بالحلال وطلبِكَ إيَّاه، ونظرِكَ لعاقبة دنياك. فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه. وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشيةَ النبوَّةِ من الشدَّة. قاله ابن عطية[٤].

قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمرو[٥] في قوله: احرُثْ لدنياكَ كأنَّكَ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٣، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٥، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٧.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.

(٥) في (د) و(ز): أبو عمرو، وفي (ظ) و(م): ابن عمر، والمثبت من المصادر.

تعيشُ أبداً، واعمَلْ لآخرتك كأنك تموتُ غداً[١]. وعن الحسن: قدِّم الفضل، وامسِكْ ما يبلُغ. وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرَف. وقيل: أرادَ بنصيبه الكف، فهذا وعظٌ متصل، كأنهم قالوا: لا تنسَ أنك تتركُ جميع مالِكَ إلا نصيبَكَ هذا الذي هو الكفن. ونحو هذا قول الشاعر:

نَصيبُكَ مما تجمع الدهرَ كلَّهُ ... رداءانِ تُلْوَى فيهما وحَنُوطُ[٢]

وقال آخر:

وهي القناعةُ لا تبغي بها بدَلاً ... فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدَنِ

انظُرْ لمن ملَكَ الدنيا بأجمَعِها ... هل راحَ منها بغيرِ القُطنِ والكفَنِ

قال ابن العربي[٣]: وأبدع ما فيه عندي قولُ قتادة: ولا تنسَ نصيبَكَ الحلال، فهو نصيبُكَ من الدنيا، ويا ما أحسن هذا!

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أطِعِ اللهَ واعبُدْه كما أنعَمَ عليك. ومنه الحديث: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تراه»[٤] وقيل: هو أمرٌ بصلة المساكين[٥]. قال ابن العربي: فيه أقوالٌ كثيرةٌ جِماعُها استعمال نِعم الله في طاعة الله. وقال مالك: هو[٦] الأكل والشرب من غير سرف. قال ابن العربي: أرى مالكاً أرادَ الرَّدَ على الغالين في العبادة والتقشف؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يحِبُّ الحلواء، ويشرب العسل، ويستعمل الشِّواء، ويشربُ الماءَ البارد[٧]. وقد مضى هذا المعنى في غير

---

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في «بغية الباحث» (١٠٩٣)، وابن قتيبة في غريب الحديث ١/ ٨١ و٢/ ١٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٠.

(٤) سلف ٢/ ١٣١.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠.

(٦) كلمة هو ليست في (م)، وهي من باقي النسخ.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٧١.

موضع(١). ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تعمَلْ بالمعاصي(٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ يعني علم التوراة(٣). وكان فيما رُوِيَ من أقرإ الناسِ لها، ومن أعلَمِهم بها. وكان أحدَ العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للميقات. وقال ابن زيد: أي: إنما أوتيتُه لِعلْمِه بفضلي ورضاه عني. فقوله: «عِنْدي» معناه: إنَّ عندي أنَّ الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علمٍ منه باستحقاقي إيَّاها لفضلٍ فيَّ. وقيل: أوتيتُه على علمٍ من عندي بوجوه التجارة والمكاسب. قاله علي بن عيسى(٤). ولم يعلم أنَّ الله لو لَم يُسهِّلْ له اكتسابَها لَما اجتمعَتْ عنده. وقال ابن عباس: على علمٍ عندي بصنعة الذهب(٥). وأشار إلى علم الكيمياء. وحكى النقَّاش: أنَّ موسى عليه السلام علَّمه الثلث من صنعة الكيمياء، ويوشع الثلث، وهارون الثلث، فخدعهما قارون ـ وكان على إيمانه ـ حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء، فكثُرتْ أموالُه(٦). وقيل: إنَّ موسى علَّم الكيمياء ثلاثة؛ يوشع ابن نون، وكالب بن يوفنا(٧)، وقارون(٨). واختار الزجَّاج القول الأول، وأنكر قولَ

---

(١) ٢/ ١٥٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٦، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٢٤).

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٤٢.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨.

(٧) في النسخ الخطية: «وطالوت» بدل «وكالب بن يوفنا»، والمثبت من (م) والمصادر.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٥، والكشاف ٣/ ١٩١.

من قال: إنه يعمل الكيمياء. قال: لأن الكيمياء باطِلٌ لا حقيقةَ له[١]. وقيل: إنَّ موسى علَّم أختَه علم الكيمياء، وكانت زوجة قارون، وعلَّمتْ أختُ موسى قارونَ. والله أعلم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: بالعذاب[٣]. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي: الأمم الخالية الكافرة[٤]. ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: للمال، ولو كان المال يدلُّ على فضلٍ لَما أهلكهم[٥]. وقيل: القوة الآلات، والجمع الأعوان والأنصار، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون؛ أي: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يُسألون سؤال استعتاب، كما قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥] ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾[٦] [فصلت: ٢٤] وإنما يُسألون سؤال تقريعٍ وتوبيخٍ؛ لقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. قاله الحسن[٧]. وقال مجاهد: لا تسألُ الملائكةُ غداً عن المجرمين؛ فإنهم يُعرَفون بسيماهم، فإنهم يُحشرون سُودَ الوجوه زُرْقَ العيون[٨]. وقال قتادة: لا يُسألُ المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها، بل يدخلون النارَ بلا حساب[٩]. وقيل: لا يُسألُ مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عُذِّبوا في الدنيا[١٠]. وقيل: أهلك من أهلك من

---

(١) نقله عن ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٢ . وهو في معاني القرآن له ٤/ ١٥٦ .
(٢) الكشاف ٣/ ١٩١ .
(٣) زاد المسير ٦/ ٢٤٣ .
(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ .
(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٣٢٦ .
(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٩ عن ابن بحر.
(٧) الوسيط ٣/ ٤٠٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ .
(٨) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٧ ، وابن أبي حاتم (١٧١٣٠).
(٩) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٧ ، وابن أبي حاتم (١٧١٢٦).
(١٠) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧ عن مقاتل.

القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتَجْ إلى مسألتهم عن ذنوبهم[١].

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: على بني إسرائيل فيما رآه زينةً من متاع الحياة الدنيا؛ من الثياب والدواب والتجمُّل في يوم عيد. قال الغزنوي: في يوم السبت. ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: مع زينته. قال الشاعر:

إذا ما قلوبُ القومِ طارَتْ مخافةً ... من الموتِ أرسَوا بالنفوسِ المواجدِ[٢]

أي: مع النفوس. كان خرجَ في سبعين ألفاً مِن تَبَعه، عليهم المُعصفَرات، وكان أوَّل من صُبِغَ له الثيابُ المعصفَرة. قال السُّدِّي: مع ألف جوارٍ بيضٍ، على بغالٍ بيضٍ، بسروجٍ من ذهب، على قُطُفِ الأُرْجُوان[٣]. قال ابن عباس: خرج على البغال الشُّهب[٤]. مجاهد: على براذينَ بيضٍ، عليها سروجُ الأُرْجُوان، وعليهم المُعصفَرات، وكان ذلك أوَّلَ يومٍ رُؤيَ فيه المُعصفَر. قال قتادة: خرجَ على أربعة آلاف دابةٍ عليهم ثيابٌ حمر، منها ألفُ بغلٍ أبيضٍ عليها قُطُفٌ حمر[٥]. قال ابن جُريج: خرج على بغلةٍ شهباءَ عليها الأُرْجُوان، ومعه ثلاث مئة جارية على البغال الشُّهب عليهنَّ الثياب الحمر[٦]. وقال ابن زيد: خرج في سبعين ألفاً عليهم

(١) زاد المسير ٦/ ٢٤٣ بمعناه عن السدي.

(٢) نسبه المرزباني في معجم الشعراء ص٢٠٠ إلى قيس بن ثعلبة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٦٩ . وقول ابن زيد أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٣٨)، وقول السدي أخرجه أيضاً (١٧١٣٤).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ ولكن عن مقاتل.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٣ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٩ ، وابن أبي حاتم (١٧١٣١).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٤١).

المُعصفَرات(١). الكلبي: خرجَ في ثوبٍ أخضر كان اللهُ أنزله على موسى من الجنة، فسرقَه منه قارون. وقال جابر بن عبد الله ﷺ: كانت زينتُه القِرْمز(٢). قلت: القِرْمِز: صِبغٌ أحمرُ مثلُ الأُرْجُوان، والأُرْجُوان في اللغة: صِبغٌ أحمر. ذكره القشيري.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: نصيبٍ وافرٍ من الدنيا. ثم قيل: هذا من قول مؤمني ذلك الوقت(٣)، تمنَّوا مثلَ مالِه رغبةً في الدنيا(٤). وقيل: هو من قول أقوامٍ لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها، وهم الكفار(٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم أحبار بني إسرائيل، للذين تمنَّوا مكانَه ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ يعني الجنة. ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: لا يؤتى الأعمال الصالحة، أو لا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله. وجاز ضميرُها؛ لأنها المعنيةُ بقوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾(٦).

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قال مقاتل: لما أمر موسى الأرض فابتلعته قالت بنو إسرائيل: إنما أهلكه ليرث ماله؛ لأنه كان ابنَ عمه أخي أبيه،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٣٨).

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٨.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٩.

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٣٢٤.

(٦) الوسيط ٣/ ٤٠٩، وزاد المسير ٦/ ٢٤٣ - ٢٤٤.

فخسف الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام[١]، فأوحى الله إلى موسى: إني لا أُعيدُ طاعة الأرض إلى أحدٍ بعدكَ أبداً[٢]. يقال: خَسَفَ المكانُ يخسِفُ خُسوفاً ذهب في الأرض، وخَسَفَ اللهُ به الأرض خَسْفاً أي: غاب به فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وخَسَفَ هو في الأرض وخُسِفَ به. وخسوفُ القمر: كسوفُه. قال ثعلب: كَسَفَتِ الشمسُ وخَسفَ القمرُ؛ هذا أجود الكلام. والخَسْفُ: النقصان؛ يقال: رضي فلانٌ بالخسفِ أي: النقيصة[٣]. ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي: جماعةٍ وعصابةٍ. ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ لنفسِه أي: الممتنعين فيما نزلَ به من الخسف[٤]. فيُروى أنَّ قارون يَسفُلُ كلَّ يوم بَقْدرِ قامة، حتى إذا بلغ قعرَ الأرض السفلى نفخ إسرافيل في الصور. وقد تقدّم[٥]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: صاروا يتندَّمون على ذلك التمني[٦] و﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ [وي][٧] حرف تندّم. قال النحّاس[٨]: أحسنُ ما قيل في هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائي: إن القومَ تَنبَّهوا أو نُبِّهوا، فقالوا: وَيْ، والمتندِّمُ من العرب يقول في خلال تندُّمه: وَيْ. قال الجوهري[٩]: «وَيْ» كلمةُ تعجُّب، ويقال: وَيْكَ ووَيْ لعبد الله. وقد تدخل «وَيْ» على كأنَّ المخففة والمشدّدة؛

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٧٠.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٠ عن أبي عمران الجوني.

(٣) الصحاح (خسف).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٧.

(٥) عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٧ - ٤٥٨.

(٧) ما بين حاصرتين من (م).

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤.

(٩) في الصحاح (وي) و(يك).

تقول: ويكأنَّ الله. قال الخليل: هي مفصولة؛ تقول: «وَيْ» ثم تبتدئ فتقول: «كَأنّ».

قال الثعلبي: وقال الفرَّاء: هي كلمة تقرير، كقولك: أما ترى إلى صُنعِ الله وإحسانه. وذكر أنَّ أعرابيةً قالت لزوجها: أين ابنُكَ وَيْك؟ فقال: وَيْ كأنَّه وراء البيت، أي: أما ترَيْنَه. وقال ابن عباس والحسن: ويكَ كلمة ابتداءٍ وتحقيقٍ تقديره: إنَّ الله يبسط الرزق. وقيل: هو تنبيهٌ بمنزلة ألا[1] في قولك: أمَّا بعد. قال الشاعر:

سـألـتـانـي الـطـلاقَ إذ رَأَتـانـي ... قَـلَّ مـالـي قـد جِـئْـتُـمـانـي بِـنُـكْـرِ
وَيْ كَـأَنْ مَـنْ يَـكُـنْ لـه نَـشَـبٌ يُـحْـ ... ـبَبْ ومَـنْ يَـفتـقِـرْ يَـعِـشْ عيشَ ضُـرِّ[2]

وقال قُطْرُب: إنما هو ويلك، وأُسقِطَت لامُه وضُمَّتِ الكافُ التي هي للخطاب إلى وَيْ. قال عَنترة:

ولـقـد شَـفَـى نـفـسـي وأَبـرأ سُـقْـمَـهـا ... قَـوْلُ الـفـوارسِ وَيْـكَ عَـنْـتَـرُ أَقْـدِمِ[3]

وأنكره النحَّاس وغيره، وقالوا: إنَّ المعنى لا يصح عليه؛ لأنَّ القوم لم يُخاطِبوا أحداً فيقولوا له: ولك، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر. وأيضاً فإنَّ حذف اللام من ويلك لا يجوز[4]. وقال بعضهم: التقدير: ويلَكَ اعلم أنَّه؛ فأضمرَ اعلم[5]. ابن الأعرابي: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: اعلم. وقيل: معناه: ألم ترَ أنَّ الله[6]. وقال القُتبي[7]: معناه: رحمةً لك بِلُغة حِمْير. وقال الكسائي: وَيْ فيه معنى التعجب.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ . وكلام الفراء في معاني القرآن له٢/ ٣١٢ ، وقول ابن عباس ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٦ .

(٢) قائلهما زيد بن عمرو بن نفيل، وهما في الكتاب ٢/ ١٥٥ ، وخزانة الأدب ٦/ ٤١٠ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ ، والبيت في شرح المعلقات السبع للزوزني ص١٥٢ ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٢٤٩ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤ ، والبيان ٢/ ٢٣٧ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٨ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٢ ، ونسبة ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٦ إلى ابن عباس ﷺ.

(٧) في تأويل مشكل القرآن ص٤٠١ ، ونسب القول الذي قبله إلى الكسائي.

ويروى عنه أيضاً الوقفُ على وَيْ وقال: كلمة تفجُّع. ومن قال: ويك فوقف على الكاف فمعناه: أعجِبْ لأنَّ اللهَ يبسط الرزق، وأعجِبْ لأنه لا يفلح الكافرون. وينبغي أن تكون الكاف حرف خطابٍ لا اسماً؛ لأنَّ وَيْ ليست ممَّا يُضاف. وإنما كُتبت متصلةً؛ لأنها لمَّا كثُرَ استعمالُها جُعِلتْ مع ما بعدها كشيءٍ واحد.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾[1].

وقرأ الأعمش: «لَوْلَا مَنُّ اللهِ عَلَيْنَا»[2]. وقرأ حفص: «لَخَسفَ بِنَا» مسمًّى الفاعل. الباقون: على ما لم يُسَمَّ فاعلُه[3]، وهو اختيار أبي عبيد. وفي حرف عبد الله: «لَانْخُسِفَ بِنَا» كما تقول: انطُلِقَ بنا. وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصرِّف[4]. واختار قراءةَ الجماعة أبو حاتم لوجهين: أحدهما قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾. والثاني قوله: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فهو بأن يُضاف إلى الله تعالى لِقُربِ اسمِه منه أولى. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عند الله.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ يعني الجنة. وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها. يعني: تلكَ التي سمعت بذكرها، وبلغَكَ وصفُها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: رفعةً وتكبُّراً على الإيمان والمؤمنين[5] ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عملاً

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٨ .

(٢) الشاذة ص١١٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٠٢ .

(٣) السبعة ص٤٩٥ ، والتيسير ص١٧٢ .

(٤) المحتسب ٢/ ١٥٧ ، وفي معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٣ ، والشاذة ص١١٤ عن عبد الله، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٢ عن الأعمش وطلحة.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٨ .

بالمعاصي. قاله ابن جُريج ومقاتل[١]. وقال عِكْرمة ومسلم البَطين: الفساد: أخذُ المال بغير حق[٢]. وقال الكلبي: الدعاء إلى غير عبادة الله[٣]. وقال يحيى بن سلّام: هو قتل الأنبياء والمؤمنين[٤]. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال الضحّاك: الجنة[٥]. وقال أبو معاوية: الذي لا يريد علوّاً هو من لم يجزَعْ من ذلِّها ولم ينافِسْ في عِزِّها، وأرفعهم عند الله أشدُّهم تواضعاً، وأعزُّهم غداً ألزَمُهم لذلِّ اليوم[٦]. وروى سفيان بن عُيَيْنة عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مرَّ عليُّ بن الحسين وهو راكبٌ على مساكينَ يأكلون كِسَراً لهم، فسلَّم عليهم، فدعَوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ ثم نزل وأكل معهم. ثم قال: قد أجبتُكم فأجيبوني. فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم. خرَّجه أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال: حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدَّثني أبي، قال: حدَّثنا سفيان بن عُيَيْنَة . . . فذكره[٧] وقيل: لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب. والمراد: إنما ينتفع بتلك الدار من اتَّقى، ومن لم يتَّقِ فتِلكَ الدارُ عليه لا له؛ لأنَّها تضرُّه ولا تنفعه.

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ تقدَّم في «النمل»[٨]. وقال عكرمة: ليس شيءٌ خيراً من لا إله إلا الله. وإنما المعنى: من جاء بلا إله إلا الله فله منها

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٢٨ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤١٠ ، وهو في النكت والعيون ٤/ ٢٧١ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٨ عن مسلم البطين، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٨٤). وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ عن عكرمة.

(٣) الوسيط ٣/ ٤١٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ ، وزاد المسير ٦/ ٢٤٨ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٧١ .

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٤٤ عن قتادة.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٧١ ، وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٧٩).

(٧) مكارم الأخلاق للطبراني (١٧٣).

(٨) عند تفسير الآية (٨٩) منها.

خير[١]. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالشرك ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يُعاقَبُ بما يليقُ بعمله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ ختم السورة ببشارة نبيِّه محمدٍ ﷺ بردِّه إلى مكة قاهراً لأعدائه. وقيل: هو بشارةٌ له بالجنَّة. والأوّل أكثر، وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم[٢]. قال القُتبي: مَعادُ الرجل بلده؛ لأنَّه ينصرف ثم يعود[٣]. وقال مقاتل: خرجَ النبيُّ ﷺ من الغار ليلاً مهاجراً إلى المدينة في غير الطريق مخافةَ الطلب، فلمَّا رجع إلى الطريق ونزل الجُحفةَ عرف الطريقَ إلى مكة فاشتاق إليها، فقال له جبريل: إنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ أي: إلى مكة ظاهراً عليها[٤]. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالجُحْفة ليست مكية ولا مدنية[٥]. وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ قال: إلى الموت[٦]. وعن مجاهدٍ أيضاً وعكرمة والزُّهري والحسن: إن

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٣) عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري ١٨/ ٣٥٠ - ٣٥١ عنه وعن مجاهد، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٢٠٤) عن مجاهد.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٣٢٩.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٤٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٥ لكن نسبه إلى ابن سلام وغيره، وفي النكت والعيون ٤/ ٢٧٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٩، وزاد المسير ٤/ ٢٥٠ من غير نسبة.

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٤٩، وابن أبي حاتم (١٧١٩٩).

المعنى: لَرادُّكَ إلى يوم القيامة[١]. وهو اختيار الزجَّاج[٢]. يُقال: بيني وبينك المعاد، أي: يوم القيامة؛ لأنَّ الناسَ يعودون فيه أحياء[٣]. و«فَرَضَ» معناه أنزل[٤]. وعن مجاهدٍ أيضاً وأبي صالح: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: إلى الجنة. وهو قول أبي سعيد الخدري وابن عباس أيضاً[٥]؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء. وقيل: لأنَّ أباه آدمَ خرجَ منها[٦]. ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ أي: قُلْ لكفار مكة إذا قالوا: إنَّكَ لفي ضلالٍ مبين: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنا أم أنتم[٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي: ما علمتَ أنَّنا نُرسِلُكَ إلى الخلق ونُنزِلُ عليك القرآن[٨]. ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ قال الكسائي: هو استثناءٌ منقطع بمعنى لكن[٩]. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: عوناً لهم ومساعداً. وقد تقدَّم في هذه السورة[١٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ﴾ يعني أقوالهم وكذبهم وأذاهم، ولا تلتفِتْ نحوَهم وامْضِ لأمرك وشأنك. وقرأ يعقوب: «يَصُدُّنْكَ» مجزوم النون[١١]. وقرئ: «يُصِدُّنَّكَ» من أصدَّه، بمعنى: صدَّه، وهي لغةٌ في كلب؛ قال الشاعر:

---

(١) أخرجه عنهم الطبري ١٨/ ٣٤٦ - ٢٤٧، وابن أبي حاتم (١٧٢٠١) عن مجاهد.
(٢) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٨.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٧.
(٤) تأويل مشكل القرآن ص٣٦٤.
(٥) أخرجه عنهم الطبري ١٨/ ٣٤٦ - ٣٤٧.
(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٣٥١.
(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٩.
(٨) الوسيط ٣/ ٤١١.
(٩) نقله البغوي في تفسيره ٣/ ٤٥٩ وغيره عن الفراء، وهو في معاني القرآن له ٢/ ٣١٣.
(١٠) عند الآية (١٧).
(١١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٣ - ٣٠٤. وهذه القراءة ليست مشهورة عن يعقوب، وإنما المشهور عنه مثل قراءة الجمهور.

أُنَاسٌ أصدُّوا النـاسَ بـالسيفِ عنهـمُ صُدُودَ السَّوَاقي عن أنوفِ الحَوَائِمِ[(١)]

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى التوحيد[(٢)]. وهذا يتضمَّنُ المهادنةَ والموادعة. وهذا كلُّه منسوخٌ بآية السيف. وسبب هذه الآية ما كانت قريشٌ تدعو رسولَ الله ﷺ إلى تعظيم أوثانهم، وعند ذلك ألقى الشيطانُ في أمنيته أمر الغَرَانيق[(٣)] على ما تقدَّم[(٤)]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا تعبُدْ معه غيرَه فإنه لا إلهَ إلا هو. نفيٌ لكل معبودٍ وإثباتٌ لعبادته. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ قال مجاهد: معناه: إلَّا هو[(٥)]. وقال الصادق: دِينُه. وقال أبو العالية وسفيان: أي: إلَّا ما أُريدَ به وجهُه[(٦)]؛ أي: ما يُقصَدُ إليه بالقربة. قال:

أستغفِرُ اللهَ ذنباً لستُ مُحْصِيَهُ ربَّ العبادِ إليه الوَجْهُ والعملُ[(٧)]

وقال محمد بن يزيد: حدَّثني الثوري قال: سألتُ أبا عبيدة عن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ فقال: إلَّا جاهَه، كما تقول: لفلانٍ وجهٌ في الناس أي: جاه[(٨)]. ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ في الأولى والآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. قال الزجَّاج: «وَجْهَهُ» منصوبٌ على الاستثناء، ولو كان في غير القرآن كان إلَّا وجهُه بالرفع، بمعنى: كلُّ

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩٤ ، والقراءة في الشاذة ص١١٤ . والبيت هكذا أنشده الجوهري في الصحاح (صدد) من غير نسبة. ونقله عنه صاحب اللسان ونسبه لذي الرمة، ونقل عن ابن بري أنه قال: صواب إنشاده: صدود السواقي عن رؤوس المخارمِ. قلنا: وقد جاء على الصواب في ديوان ذي الرمة ٢/ ٧٧١ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٤ .

(٤) ١٤/ ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٥١ عن الضحاك وأبي عبيدة.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٧ ، والنكت والعيون ٤/ ٢٧٣ عن سفيان الثوري، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٩ عن أبي العالية.

(٧) سلف ٢/ ٣٣١ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٧ .

شيءٍ غيرُ وجهِه هالِكٌ كما قال:

وكــلُّ أخٍ مُـــفــارِقُــهُ أخـــوهُ   لَـعَـمْـرُ أبـيـكَ إلَّا الْـفَـرْقَـدانِ

والمعنى: كلُّ أخٍ غيرُ الفرقَدين مُفارِقُه أخوه. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بمعنى تُرجعون إليه(١).

تمَّتْ سورةُ القَصصِ والحمدُ لله

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤ - ٢٤٥ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٨ ، والبيت سلف ١١/ ٥٤ .

سُورَةُ القَصَصِ

مكيَّةٌ، وقيل: إلَّا قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الآية: ٥٢] إلى قولِه: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الآية: ٥٥]. وهي ثمانٌ وثمانونَ آيةً[1].

(١) وهذه الآيات مدنية، انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٣٤).

واستُثني منها أيضاً قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] على أنها جُحْفيَّة ليست بمكيةٍ ولا مدنية، وقد وقفتُ فيه على بعض الأخبار المنقطعة:

منها: ما رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٦١٣) فقال: (بَلَغني أنَّ النَّبيَّ ﷺ وهو مُوَجِّهٌ من مكة إلى المدينة حين هاجَرَ نَزَل عليه جبريلُ وهو بالجحْفَةِ فقال: أتشتاقُ يا محمدُ إلى بلادك التي وُلِدْتَ بها؟ فقال: «نعم»، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: إلى مولدِكَ الذي خرجْتَ منه، ظاهِرًا على أهلِه). وهكذا رواه الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٠١) عن يحيى بن سلام، وكذا ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٣٥٩) دون سند أيضاً. وسيأتي في آخر هذه السورة.

وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٢٦) من طريق مقاتل عن الضحاك قال: لَمَّا خَرَجَ النَّبيُّ ﷺ مِن مكة فبلغ الجُحْفَةَ اشتاق إلى مكة، فأَنزَل اللهُ تبارَكَ وتعالى عليه القرآنَ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: إلى مكةَ.

وزاد الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٦٧) في سنده ابن عباس فقال: قال مقاتل: قال الضحاك: قال ابن عباس: (إنّما نزلت بالجحفة ليس بمكة ولا المدينة)، وهو منقطع فالضحاك لم يسمع من ابن عباس.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٣) ـ ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾: نقرؤُه بقراءةِ جبريلَ، ويجوزُ أَنْ يكونَ بمَعنى: ننزلُه، مَجازًا.

﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾: بعضَ نبَئِهِمَا، مَفعولُ ﴿نَتْلُواْ﴾.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: مُحقِّينَ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّهُم المنتفعونَ بهِ.

(٤) ـ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استئنافٌ مُبينٌ لذلكَ البَعضِ، والأرضُ أَرْضُ مِصرَ.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾: فِرَقًا يشيِّعونَهُ فيما يريدُ، أو يشيِّعُ بعضُهُم بعضًا في طاعتِه.

أو: أصنافًا في استخدامِه، استعمَلَ كلَّ صنفٍ في عملٍ.

أو: أحزابًا، بأَنْ أغرى بينَهُم العداوةَ كَيْ لا يتَّفِقُوا عليه.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهُم بَنُو إسرائيلَ، والجملةُ حالٌ مِن فاعلِ (جعلَ)، أو صِفَةٌ لـ﴿شِيَعًا﴾، أو استئنافٌ.

وقوله: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ بدلٌ منها.

كان ذلك لأنَّ كاهِنًا قال لهُ: يولَدُ مَولودٌ في بني إسرائيلَ يَذهَبُ ملكُكَ على يدِه، وكان ذلك مِن غايةِ حُمقهِ، فإنَّه لو صَدَقَ لم يَندَفِعْ بالقتلِ، وإن كَذَبَ فما وَجهُه[1]؟

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فلذلك اجترأَ على قتلِ خلقٍ كثيرٍ مِن أَولادِ الأَنبِيَاءِ لتَخيُّلٍ فاسِدٍ.

---

(١) قوله: «فما وجهه»؛ أي: وجه القتل. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٣٧).

(٥) ـ ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: أن نَتفضَّلَ عليهم بإنقاذِهم مِن بَأسِه، و﴿نُريدُ﴾ حِكايَةُ حالٍ ماضيَةٍ[1] مَعطوفَةٌ على ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا ﴾ مِن حيثُ إنَّهُما واقعانِ تَفسيرًا للـ﴿نَبَإِ﴾، أو حالٌ مِن ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾[2]، ولا يلزمُ مِن مُقارنَةِ الإرادةِ للاستضعافِ مُقارنَةُ المُرادِ له؛ لجوازِ أَنْ يكونَ تَعلُّقُ الإرادةِ به حينئذٍ تَعلُّقًا استقباليًّا، مع أنَّ منَّةَ اللهِ بخلاصِهم لَمَّا كانَتْ قَريبَةَ الوُقوعِ منه جازَ أَنْ تَجرِيَ مجرى المُقارَنِ.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾: مُقَدَّمينَ في أمرِ الدَّارَيْنِ ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ لِمَا كانَ في مَلَكَةِ[3] فِرعونَ وقومِه.

(٦) ـ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ مِصرَ والشَّامِ، وأصلُ التَّمكينِ: أَنْ تجعلَ للشَّيءِ مَكانًا يَتمكَّنُ فيه، ثمَّ استُعِيرَ للتَّسليطِ وإطلاقِ الأمرِ.

﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾: مِن بَني إسرائيلَ ﴿مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ مِن ذَهابِ مُلكِهِم وهَلاكِهِم على يدِ مولودٍ منهم.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ويَرى﴾ بالياءِ و﴿فرعونُ وهامانُ وجنودُهُما﴾ بالرَّفعِ[4].

---

(١) قوله: «﴿ وَنُرِيدُ ﴾ حِكايةُ حالٍ ماضِيَةٍ» يشير به إلى وجه الإتيان بالمضارع في ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ مع أن المراد به الماضي، ومع أنه عطف على قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا ﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [فاطر: ٩]. انظر: «حاشية الجاربردي على الكشاف» (ج٢/ و٢٣٩ب).

(٢) قوله: «أو حال من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾»؛ أي: من فاعله. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٣٨).

(٣) المَلَكة؛ بفتح الميم واللام: التملُّك مطلقًا هنا. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) والباقون بالنُّون مضمومة وكسر الراء وفتح الياء بعدها ونصب الأسماء الثلاثة. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٠).

(٧) ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بإلهامٍ أو رُؤيَا: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما أمكنَكِ إخفاؤُه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يُحَسَّ به ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البَحرِ ـ يريدُ النِّيلَ ـ ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه ضيعةً ولا شدَّةً ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ لفراقِه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قَريبٍ بحيثُ تأمَنين عليه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

رُوِيَ: أنَّها لَمَّا ضربَها الطَّلْقُ دعَتْ قابلَةً مِن الموكَّلاتِ بحُبَالى بني إسرائيلَ فعالَجَتْها، فلَمَّا وقعَ مُوسى على الأرضِ هالَها نورٌ بينَ عينيه، وارتعَشَتْ مَفاصِلُها، ودخلَ حُبُّهُ قلبَها بحيثُ منعَها مِن السِّعايَةِ، فأرضعَتْهُ ثلاثةَ أشهُرٍ ثمَّ ألحَّ فِرعونُ في طَلَبِ المَواليدِ واجتهدَ العُيونُ في تَفحُّصِها، فأخذَتْ له تابوتًا فقذَفَتْه في النِّيلِ[1].

(٨) ـ ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ تعليلٌ لالتقاطِهم إيَّاهُ بما هو عاقِبَتُه ومؤدَّاهُ تَشبيهًا له بالغرضِ الحاملِ عليه.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿وحُزْنًا﴾[2].

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ في كلِّ شَيءٍ، فليسَ ببِدْعٍ مِنْهُم أن قَتلوا أُلوفًا لأجلِه، ثمَّ أَخذوهُ يُرَبُّونَه ليَكبرَ ويَفعلَ بهم ما كانوا يحذرونَ، أو: مُذنبينَ فعَاقَبَهُم اللهُ بأَنْ رَبَّى عدوَّهُم على أيديهِمْ، فالجُملَةُ اعتراضٌ لتَأكيدِ خَطئِهِم، أو لبيانِ الموجِبِ لِمَا ابتُلُوا بهِ.

وقُرِئَ: ﴿خَاطِينَ﴾[3] تخفيفُ ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾، أو: خاطِينَ[4] الصَّوابَ إلى الخطأِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه عنه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ١٧)، وفيه إسحاق بن بشر، وهو متروك.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٣) هي قراءة أبي جعفر. انظر: «النشر» (١/ ٣٩٧).

(٤) في هامش نسخة الخيالي: «في نسخة: من الخطو». وفي «حاشية الخفاجي»: قوله: «أو خاطين =

(٩) ـ ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: لفرعونَ حينَ أخرجَتْهُ مِن التَّابوتِ: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾: هو قُرَّةُ عينٍ لنا؛ لأنَّهما لَمَّا رأيَاهُ أُخرِجَ مِن التَّابوتِ أحبَّاهُ، أو لأنَّه كانَتْ لها ابنةٌ بَرْصاءُ وعالجَهَا الأطبَّاءُ بريقِ حيوانٍ بَحريٍّ يشبهُ الإنسانَ فلطخَتْ برصَهَا بريقِهِ فبَرِئَتْ[1].

وفي الحديثِ أنَّه قال: «لكِ لا لي، ولو قال: لي كما هو لكِ؛ لهداهُ اللهُ كمَا هَداهَا»[2].

= الصواب» فليس مبدلاً [أي: ليس بإبدال الهمزة ياء ثم حذفها تخفيفاً كما في الوجه الأول من هذه القراءة] بل هو من خطا يخطو بمعنى: تخطَّى؛ لتخطيه الصواب إلى ضدّه فهو مجاز، وهو يؤول إلى معنى القراءة الأولى، لكن الوجه الأوّل أوفق لها لفظاً ومعنى.

(١) قطعة من خبر طويل ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٥) عن وهب وفيه: (... فلما أخرجوا الصبيَّ من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخَتْ به برصها فبرأت، فقبَّلته وضمته إلى صدرها...).

(٢) قطعة من حديث الفتون، وهو خبر طويل جدًّا رواه النسائي في «الكبرى» (١١٢٦٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦١٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأورده بتمامه ابن كثير في «تفسيره» عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] ثم قال: (وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليل منه).

قلت: وهذه القطعة منه هي مما صرح ابن عباس برفعه في هذا الخبر، وكذا رواه مقتصراً على هذا الجزء مرفوعاً الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٦٤)، وكلهم رووه من طريق يزيد بن هارون، عن الأصبغ بن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: فأتت فرعون فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي، فقال رسول الله ﷺ: (والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرةَ عين كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن الله حرَمه ذلك). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٦٦): رجاله رجال الصحيح غير الأصبغ بن زيد والقاسم بن أبي أيوب، وهما ثقتان. =

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خطابٌ بلَفظِ الجَمعِ للتَّعظيم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنَّ فيه مخايِلَ اليُمنِ ودَلائلَ النَّفعِ، وذلك لِمَا رأَتْ مِن نُورٍ بينَ عَينَيْهِ، وارتضاعِه إبهامَه لبنًا، وبرءِ البُرَصاءُ بريقِهِ.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: أو نتبنَّاهُ فإنَّه أهلٌ له.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حالٌ من الملتقطِينَ، أو من القائلَةِ والمقولِ لَهُ؛ أي: وهُم لا يَشعرونَ أَنَّهُم على الخَطأِ في التقاطِهِ أو في طمعِ النَّفعِ منه والتَّبنِّي له، أو مِن أَحَدِ ضَمِيرَيْ ﴿نَتَّخِذَهُۥ﴾ على أنَّ الضَّميرَ؛ أي: وهُمْ لا يَشعرونَ أَنَّه لغَيْرِنا وقد تَبنَّيْنَاه.

(١٠) ـ ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾: صِفـرًا مِن العَقـلِ لِمَا دَهَمَها مِن الخَوفِ والحيـرَةِ حينَ سَـمِعَت بوقوعِه في يَدِ فِرعونَ، كقولِـه: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]؛ أي: خَـلاءٌ لا عقـولَ فيهـا، ويؤيِّدُه أنَّه قُـرِئَ: (فِرْغًـا)[1] من قولِهِـم: (دِمَاؤُهُـم بينَهُم فِـرْغٌ)؛ أي: هَدَرٌ.

أو: من الهمِّ؛ لفَرطِ وُثوقِها بوعدِ اللهِ، أو لسَماعِهَا أنَّ فِرعونَ عطفَ عليه وتبنَّاهُ.

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾: إنَّها كادَتْ لتُظْهِرُ بمُوسى[2] ـ أي: بأمرِهِ وقِصَّتِه ـ من فرطِ الضَّجَرِ أو الفرحِ بتَبنِّيهِ.

= ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٦٣) عن ابن عباس موقوفاً.

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٩٦): والأشبه، والله أعلم، أنه موقوف، وكونه مرفوعاً فيه نظر، وغالبه متلقًّى من الإسرائيليات، وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظر ونكارة، والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك.

(١) حكاها قطرب عن بعض أصحاب النبي ﷺ. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٤٧).

(٢) أي: الإبداء: إظهار الشيء؛ لأنه من البدوّ وهو الظهور، وتعديته هنا بالباء لتضمينه معنى: تصرّح، أو

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصَّبرِ أو الثَّباتِ(١) ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مِن المُصدِّقينَ بوَعدِ اللهِ، أو الواثقينَ بحِفظِه، لا بتَبنِّي فِرعونَ وعَطفِه.

وقُرِئَ: (مُؤْسَى)(٢) إجراءً لضمَّةِ جارِ الواوِ مُجرى ضَمَّتِهَا في استدعاءِ همزِها همزَ واوِ «وُجوهٍ»(٣).

وهوَ عِلَّةُ الرَّبطِ أو الثَّباتِ(٤). وجوابُ ﴿لَوْلَآ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه.

(١١) ـ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مريمَ: ﴿قُصِّيهِ﴾: اتَّبعي أثرَهُ وتتبَّعِي خبرَهُ.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾: عن بعدٍ. وقُرِئَ: (عن جانبٍ) و: (عن جَنْبٍ)(٥) وهو بمعناهُ.

= هي زائدة. انظر: «حاشية الخفاجي».

وفسره في «الكشاف» (٦/ ٣٩٨) بقوله: «لَتُصْحِرُ بهِ»؛ ومعناه: أن ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ هو مِن البَدْوِ وهو البرِّيَّة، لا مِنَ البُدُوِّ بمعنى الظهور. قاله الطيبي في «فتوح الغيب» (١٢/ ١٨) ثم نقل عن الزمخشري قوله في «الأساس»: ومِن المجاز: أَصْحَرَ بالأمرِ وأَصْحَرَه: أَظْهَرَه.

قلت: فالمعنى واحد سواء كان من البَدْو أو من البُدُو، وهو: الإظهار، والله أعلم.

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «والثبات».

(٢) حكاها قطرب. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٤٨)، وعزاها ابن خالويه في «إعراب القرآن» (ص: ٦٤) إلى الكسائي، وقال: وهذا حرف غريب.

(٣) قوله: «إجراءً لضمة»؛ أي: ضمة الميم «جار الواو»؛ أي: المجاورة لها «مجرى ضمتها»؛ أي: ضمة الواو «في استدعاء همزها»؛ أي: همز الواو. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٤١).

وفي «حاشية الخفاجي»: الهمزة المضمومة تبدل واواً باطراد كوجوه وأجوه، وهذه لضم ما قبلها أجريت مجرى المضمومة. وعبارة «الكشاف» (٦/ ٣٩٨): جُعِلَتِ الضَّمةُ في جارةِ الواو ـ وهي الميمُ ـ كأنَّها فيها، فهُمِزَتْ كمَا تُهمَزُ واوُ (وُجُوهٍ).

(٤) «أو الثبات» من نسخة الفاروقي، وقوله: «وهو علة الربط»؛ أي: قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ﴾... إلخ علة لربط القلب؛ أي: تقويته. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٥) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٣)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٨). الأولى عن =

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنها تَقُصُّ، أو أنَّها أختُه.

(١٢) ـ ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾: ومَنعناه أن يَرتَضِعَ مِن المُرضِعاتِ، جمعُ مُرضِعٍ، أو مَرضَعٍ وهو الرَّضاعُ، أو موضعُهُ يعني: الثَّديَ.

﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبلِ قصِّها أثَرَهُ ﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾: لأجلِكُم ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ لا يُقصِّرونَ في إرضاعِه وتَربيَتِه.

رُوِيَ أنَّ هامانَ لَمَّا سَمِعَه قال: إنَّها لتَعرِفُه وأهلَه فخُذوهَا حتَّى تخبرَ بحالِه، فقالَت: إنَّما أَرَدْتُ وهُم للمَلكِ ناصِحُونَ، فأمرَهَا فِرعونُ بأَنْ تأتيَ بمَن يكفلُه، فأَتَتْ بأُمِّهَا ومُوسَى على يدِ فِرعونَ يَبْكِي وهو يُعلِّلُه، فلَمَّا وجدَ رِيحَها استأنَسَ والتقَمَ ثَديَهَا، فقالَ لها: مَن أنتِ منه؟ فقَدْ أبى كلَّ ثَديٍ إلَّا ثديَكِ، فقالت: إنِّي امرأَةٌ طيِّبَةُ الرِّيحِ طيِّبَةُ اللبنِ لا أُوتَى بصَبِيٍّ إلا قَبِلَنِي، فدفعَهُ إليها وأَجرى عليها، فرَجَعت به إلى بيتِها مِن يَومِها وهوَ قولُه:

(١٣) ـ ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ بولَدِها ﴿وَلَا تَحۡزَنَ﴾ بفراقِه.

﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ عِلْمَ مُشاهدَةٍ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ وعدَه حَقٌّ فيرتابونَ فيه، أو أنَّ الغرضَ الأَصليَّ مِن الرَّدِّ عِلمُها بذلك وما سواه تبعٌ، وفيه تعريضٌ بما فَرَطَ مِنْهَا حينَ سَمِعَت بوُقوعِه في يَدِ فِرعونَ.

(١٤) ـ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: مَبلغَهُ الذي لا يزيدُ عليه نَشْؤُه، وذلك مِن ثلاثينَ إلى أربعينَ سنةً؛ فإنَّ العقلَ يَكمُلُ حينئذٍ، ورُوِيَ أنَّه لم يُبعَثْ نَبيٌّ إلا على رَأسِ الأربعينَ(١).

= النعمان بن سالم، والثانية عن ابن عباس وقتادة والحسن والأعرج.

(١) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢٧): غريب.

﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ قَدُّهُ، أو عَقلُه.

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾: نبوَّةً ﴿وَعِلۡمٗا﴾ بالدِّينِ، أو عِلمَ الحُكَماءِ والعُلماءِ وسَمْتَهُم قبل استِنبائِه، فلا يقولُ ولا يَفعَلُ ما يُستجهلُ فيه، وهو أوفَقُ لنَظمِ القِصَّةِ لأنَّ استِنباءَهُ بعدَ الهِجرةِ في المُراجعَةِ(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلك الذي فَعَلنا بمُوسَى وأُمِّه ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على إِحسَانِهم.

(١٥) ـ ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ﴾: ودخلَ مِصرَ آتِيًا مِن قَصرِ فِرعونَ، وقيل: مَنْفَ(٢)، أو حابينَ(٣)، أو عينَ شمسٍ مِن نواحيهَا.

﴿عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾: في وقتٍ لا يُعتادُ دُخولُها ولا يتوقَّعونَهُ فيه، قيل: كانَ في وقت القيلولَةِ، وقيل: بينَ العِشاءَيْنِ.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾: أحدُهُما ممَّنْ شايَعَهُ على دِينِه وهُمْ بَنُو إسرائيلَ، والآخَرُ مِن مُخالِفيهِ وهم القِبْطُ، والإشارةُ على الحكايَةِ.

﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ فسألَهُ أن يُغيثَهُ بالإعانةِ، ولذلك عُدِّيَ بـ(على). وقُرِئَ: (استعانَهُ)(٤).

---

(١) قوله: «بعد الهجرة في المراجعة»؛ أي: في الأحكام. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٤٣).

(٢) هو قول السُّدِّي، انظر: «تفسير البغوي» (٦/ ١٩٦).

(٣) في نسخة الخيالي: «خابين»، وفي نسخة التفتازاني: «جابين»، والمثبت من نسخة الفاروقي، وهو الموافق لما في «تفسير الثعلبي» (٢٠/ ٤٠٤)، و«درج الدرر» للجرجاني (٢/ ٤١٨) عن مقاتل قال: قرية تدعى حابين، وهي على فرسخين من مصر. اهـ.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤) عن سيبويه، وعزاها أبو القاسم الهذلي في «الكامل» (ص: ٦١٣) إلى ابن مقسم والزعفراني.

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾: فضربَ القِبطيَّ بجُمْعِ كفِّهِ، وقُرِئَ: (فلكزَهُ)؛ أي: فضربَ بهِ صَدْرَه[١].

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتلَهُ، وأصلُه: أَنْهَى حياتَهُ، مِن قولِه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦].

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنَّه لَمْ يُؤمَرْ بقَتلِ الكُفَّارِ، أو لأنَّه كانَ مَأمونًا فيهم فلَمْ يَكُن له اغتيالُهُم، ولا يقدَحُ ذلك في عِصمَتِه لكونِه خَطأً، وإنَّما عَدَّه مِن عَملِ الشَّيطانِ وسَمَّاهُ ظُلمًا واستغفرَ عنه على عادَتِهم في استعظامِ مُحقَّراتٍ فرطَتْ مِنْهُم.

﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾: ظاهرُ العَداوَةِ.

(١٦) - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقَتلِه ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ ذَنبي ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ لاستغفارِه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذُنوبِ عِبادِه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

(١٧) - ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ قسمٌ مَحذوفُ الجوابِ؛ أي: أُقسِمُ بإنعامِكَ عليَّ بالمغفرَةِ وغيرِهَا لأَتُوبَنَّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

أو استعطافٌ؛ أي: بحقِّ إنعامِكَ عليَّ اعْصِمْني فلَنْ أكونَ مُعينًا لِمَن أدَّتْ مُعاونَتُه إلى جُرمٍ.

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رضيَ اللهُ عَنْهُما: لم يَستثنِ فابتُلِيَ بهِ مَرَّةً أُخرَى[٢].

وقيل: معناه: بما أنعَمْتَ عليَّ مِن القُوَّةِ أُعينُ أَولياءَكَ فلَنْ أَستَعمِلَها في مُظاهَرَةِ أَعدائِكَ.

---

(١) هي قراءة ابنِ مسعود. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤).

(٢) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٠٤)، والنحاس في «معاني القرآن» (١/ ٥٠٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤١٣). ومعنى (لم يستثنِ): لم يقل: إن شاء الله. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٤٤).

(١٨) ـ ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾: يَترصَّدُ الاستقادةَ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: يَستَغيثُهُ، مُشتَقٌّ مِن الصُّراخِ.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾: بَيِّـنُ الغوايـةِ؛ لأنَّـكَ تَسـبَّبْتَ لقتلِ رَجُـلٍ وتقاتِلُ آخرَ.

(١٩) ـ ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾: لِمُوسى والإسرائيليِّ؛ لأنَّه لم يَكُن على دِينِهما، ولأنَّ القِبْطَ كانوا أَعداءَ بَنِي إِسرائيلَ.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ قالَهُ الإسرائيليُّ لأَنَّهُ لمَّا سَمَّاهُ غَوِيًّا ظنَّ أَنَّه يبطِشُ عليه، أو القبطيُّ، وكأَنَّه توهَّمَ مِن قولِه أَنَّه الذي قتلَ القِبطيَّ بالأمسِ لهذا الإسرائيليِّ.

﴿إِن تُرِيدُ﴾: مـا تريدُ ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تَطاوَلُ عـلى النَّاسِ ولا تنظرُ العواقِبَ ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بينَ النَّاسِ، فتدفعَ التَّخاصُمَ بالتي هي أحسَنُ.

ولَمَّا قالَ هذا انتشَرَ الحَديثُ وارتقَى إلى فِرعونَ ومَلئِهِ، فهَمُّوا بقتلِهِ، فخرجَ مُؤمِنُ آلِ فِرعونَ وهو ابنُ عمِّهِ[1] ليُخبِرَه كما قال:

(٢٠) ـ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾: يُسـرِعُ، صفـةٌ لــ﴿رَجُلٌ﴾، أو حالٌ منه إذا جُعِـلَ ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ صِفَـةً لـه لا صِلَةً لـ﴿جـاء﴾؛ لأنَّ تَخصيصَهُ بهـا يُلحِقُه بالمَعارفِ.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾: يَتَشاورونَ بسَببِكَ ـ وإنَّما سُمِّيَ التَّشاورُ ائتِمارًا لأنَّ كُلًّا مِن المُتشاورينَ يأمرُ الآخرَ ويأتَمِرُ ـ ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ

---

(١) «ابن عمه»؛ أي: ابن عمّ فرعون، وقد اشتهر بمؤمن آل فرعون حتى صار كالعلم له. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ اللامُ للبَيانِ وليسَ صِلَةً لـ﴿ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ لأنَّ مَعمولَ الصِّلَةِ لا يتقدَّمُ المَوصولَ(١).

(٢١) ـ ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا﴾: مِن المَدينَةِ ﴿خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوقَ طَالبٍ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: خَلِّصْني مِنْهُم واحفَظْنِي مِن لُحوقِهِم.

(٢٢) ـ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾: قبالةَ مَدْينَ قريةِ شُعَيبٍ، سُمِّيَتْ باسمِ مدينَ بنِ إبراهيمَ، ولم تَكُن في سُلطانِ فِرعَوْنَ، وكانَ بينَها وبينَ مِصْرَ مَسيرَةُ ثمانٍ.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ توكُّلًا على اللهِ وحسنَ ظنٍّ به، وكانَ لا يَعرِفُ الطُّرُقَ، فعنَّ له ثلاثُ طرقٍ فأخذَ في أوسَطِها، وجاءَ الطُّلَّابُ عَقِيبه فأخذُوا في الآخرَيْنِ.

(٢٣) ـ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾: وصلَ إليه وهو بئرٌ كانوا يسقونَ مِنْها ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ﴾: وجدَ فوقَ شَفيرِها ﴿أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جماعَةً كثيرةً مُختَلِفينَ ﴿يَسۡقُونَ﴾ مَواشِيَهُم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾: في مكانٍ أسفَلَ مِن مَكانِهم ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾: تمنعانِ أغنامَهُما عن الماءِ كيلا تَختَلِطَ بأَغنامِهِم.

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾: ما شأنُكُما تَذودانِ ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾:

---

(١) قوله: «اللامُ للبَيانِ وليسَ صِلَةً للنَّاصِحينَ لأنَّ مَعمولَ الصِّلَةَ لا يتقدَّمُ المَوصولَ» يعني: اللام في ﴿لَكَ﴾ للبيان كما في (سقياً لك)، فيتعلق بمحذوف هو: (أعني)، ولم يجوِّز الجمهور تعلقه بـ﴿ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ لأن (أل) فيه اسم موصول، ومعمول الصلة لا يتقدم الموصولَ كما ذكر المصنّف، ولا يجوز أيضاً تعلقه بمحذوف مقدم يفسره المذكور؛ لأن ما لا يعمل لا يفسر عاملاً، أما عند مَن جوَّز تقدم معمول الصلة إذا كان الموصول (أل) خاصة لكونها على صورة الحرف، أو إذا كان المتقدم ظرفاً للتوسع فيه، أو قال: إن (أل) هنا حرف تعريف لإرادة الثبوت= يجوز أن يكون ﴿لَكَ﴾ متعلقاً بـ﴿ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ أو بمحذوف يفسره ذلك. انظر: «روح المعاني» (٢٠/ ١٤١)

يصرفَ الرُّعاةُ مَواشِيَهُم عن الماءِ حذرًا عن مُزاحمةِ الرِّجالِ، وحُذِفَ المَفعولُ لأنَّ الغرضَ هو بيانُ ما يدلُّ على عِفَّتِهِما ويَدعوهُ إلى السَّقْيِ لَهُما ثَمَّ دونَهُ[1].

وقرأَ أبو عمرٍو وابنُ عامرٍ: ﴿يَصدُرَ﴾[2]؛ أي: ينصرِفَ.

وقُرِئَ: (الرُّعاءُ) بالضَّمِّ[3]، وهو اسمُ جمعٍ كالرُّخَالِ.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾: كبيرُ السنِّ لا يَستَطِيعُ أَنْ يخرُجَ للسَّقيِ، فيرسِلُنا اضطِرارًا.

(٢٤) ـ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مَواشِيَهُما رحمةً عَلَيْهِما.

قيل: كانَتِ الرُّعاةُ يضعونَ على رأسِ البئرِ حجرًا لا يُقِلُّهُ إلا سبعةُ رِجالٍ أو أكثرُ، فأقلَّهُ وحدَهُ مع ما كانَ به من الوَصَبِ والجُوعِ وجِراحَةِ القَدمِ[4].

وقيل: كانَتْ بئرٌ أُخرى عليها صخرَةٌ فرفعَهَا واستَقى منها[5].

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾: لأيِّ شَيءٍ أنزلتَ إليَّ ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلٍ أو كَثيرٍ، وحملَهُ الأَكثرونَ على الطَّعامِ ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاجٌ سائلٌ، ولذلك عُدِّيَ باللامِ.

---

(١) قوله: «ثَم دونه» بالثاء المثلثة المفتوحة؛ أي: في الفعل دون المفعول، وفي بعض النسخ: «تَمّ» بنقطتين؛ أي: حصل بدون المفعول، وعلى النسختين فذكره زائد لا حاجة إليه. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) بفتحِ الياءِ وضمّ الدال، انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٣) بضم الراء ذكرها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤) عن بعضهم، ونسبها ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٣٨٠) لعكرمة وسعيد بن جبير وابن يعمر وعاصم الجحدري.

(٤) «مع ما كان به من الوصب والجوع وجراحة القدم» في نسخة الفاروقي بعد قوله: «فسقى لهما مواشيهما رحمة عليهما»، وهو هنا أنسب، وانظر: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٧٤).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٨٢٤) عن ابن عباسٍ.

وقيل: معناه: إنِّي لِمَا أنزَلْتَ إليَّ مِن خَيرِ الدِّينِ صرتُ فَقيرًا في الدُّنيَا(١)؛ لأنَّه كانَ في سَعةٍ عندَ فِرعونَ، والغرضُ مِنْه إظهارُ التَّبجُّحِ والشُّكرِ على ذلك.

(٢٥) ـ ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي: مُسْتَحْيِيَةً(٢) مُتخفِّرَةً، قيل: كانتِ الصُّغرَى منهما، وقيل: الكُبرَى، واسمُها: صَفُوراءُ أو صَفْرَاءُ، وهي التي تزوَّجَها مُوسى.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾: ليكافِئَكَ ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾: جزاءَ سَقْيِكَ لنا.

ولعَلَّ مُوسى إنَّما أَجابَها ليتبرَّكَ برُؤيَةِ الشَّيخِ ويَستَظهِرَ بمعرفَتِه لا طمعًا في الأجرِ، بل رُوِيَ أنَّهُ لَمَّا جاءَهُ قَدَّمَ إليه طعامًا، فامتنعَ عنه وقال: إنَّا أهلُ بيتٍ لا نبيعُ دينَنا بالدُّنيا، حتى قال شُعَيبٌ: هذه عادَتُنا مَع كلِّ مَن يَنزِلُ بنا(٣).

هذا، وإنَّ مَن فعلَ مَعروفًا فأُهدِيَ بشيءٍ؛ لم يَحْرُمْ أَخذُهُ.

---

(١) قولُه: «إنِّي لِمَا أنزَلْتَ إليَّ مِن خَيرِ الدِّينِ صرتُ فَقيرًا في الدُّنيَا»، (ما) على هذا الوجه موصولةٌ، واللام أَجْلية؛ أي: لِأجْلِ ما أنزَلَتْ، و﴿مِنْ﴾ بيان، والتنكيرُ في ﴿خَيْرٍ﴾ للنوعِ والتعظيم؛ ولذلكَ أضافَهُ إلى الدِّين، وعلى الوجه الأوّلِ: (ما) موصوفة، والتنكيرُ للشيوع؛ ومن ثَم قدَّرَ أوّلاً: «لأيِّ شيء»، وثانيًا «قليلٍ أو كثير». انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٣٥)، وعبارة الزمخشري: ﴿إِنِّى﴾ لأَيِّ شَيْءٍ ﴿أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ قَليلٍ أو كَثيرٍ غَثٍّ أو سَمينٍ لـ﴿فَقِيرٌ﴾، ويَحْتَمِلُ أَنْ يُريدَ: إنِّي فقِيرٌ منَ الدُّنيا لِأجْلِ ما أنزَلَتْ إليَّ مِن خيْرِ الدِّينِ. انظر: «الكشاف» (٦/ ٤١١)، وعليه شرح الطيبي، فنقلناه مع بعض تصرف.

(٢) في نسخة التفتازاني: «مستحية»، وكلاهما صواب.

(٣) قطعة من خبر طويل رواه الدارمي في «سننه» (٦٤٧)، والدينوري في «المجالسة» (٣٤٥٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٣٤)، عن رجل من التابعين يدعى: أبا حازم، واسمه: سلمة بن دينار، وذكره الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ٤١٣)، وتابعه عليه مَن بعده كالمؤلف والرازي وأبي البركات النسفي وأبي حيان وابن عادل والنيسابوري وأبي السعود في تفاسيرهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يـريدُ فِرعونَ وقومَه.

(٢٦) ـ ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ يعني: التـي استـدْعَـتْه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ للرَّعيِ ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ تعليلٌ شائعٌ يجـري مجرى الدَّليلِ على أنَّه حقيقٌ بالاستئجارِ، وللمُبالغَةِ فيه جُعِلَ ﴿خَيۡرَ﴾ اسمًا، وذُكـرَ الفعلُ بلفظِ الماضي للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ مجرَّبٌ مَعروفٌ.

رُوِيَ أنَّ شُعيبًا قالَ لها: وما أَعلَمَكِ بقُوَّتِه وأمانَتِه؟ فذكرَتْ إقلالَ الحجرِ، وأنَّه صَوَّبَ رأسَهُ حتى بلَّغَتْهُ رِسالَتَه، وأمرَهَا بالمشيِ خَلفَهُ[١].

(٢٧) ـ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾؛ أي: تأجرَ نفسَكَ مني، أو: تكونَ لي أجيرًا، أو: تُثيبَنِي، مِن: أَجَرَكَ اللهُ.

﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ ظرفٌ على الأوَّلَيْنِ، ومَفعولٌ به على الثَّالثِ بإضمارِ مُضافٍ، أي: رِعيةَ ثَمَاني حجَجٍ.

﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾: عملَ عشرِ حجَجٍ ﴿فَمِنۡ عِندِكَ﴾: فإتمامُه مِن عندِكَ تَفضُّلًا، لا مِن عندِي إلزامًا عليك، وهذا استدعاءُ العقدِ لا نفسُه، فلعلَّهُ جرى على مُعيَّنَةٍ وبمهرٍ آخرَ، أو برِعْيةِ الأَجَلِ الأوَّلِ ووعدَ له أن يوفيَ الآخرَ إن تيسَّرَ له قبلَ العقدِ، وكانَتِ الأغنامُ للمُزوَّجةِ[٢]، مع أنَّه يُمكِنُ اختلافُ الشَّرائعِ في ذلك.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٢٥) وما بعدها عن ابن عباس وجمع. وهو قطعة من حديث الفتون الطويل وقد تقدم قريباً.

(٢) قوله: «وهذا استدعاء العقد...»؛ أي: دعاه وواعده على عقدٍ سيقع، أي: هذا الكلام وهو قول شعيب: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ هو استدعاء عقد النكاح من موسى لا عقد النكاح نفسه بدليل قوله: ﴿أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ ولو كان غرضه من هذا الكلام =

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ بإلزامِ إتمامِ العشرِ، أو المناقشةِ في مراعاةِ الأوقاتِ واستيفاءِ الأعمالِ، واشتقاقُ المشقَّةِ من الشَّقِّ[1]، فإنَّ ما يصعُبُ عليك يَشُقُّ عليك اعتقادَكَ في إطاقَتِه ورأيَكَ في مُزاولَتِه.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حُسنِ المُعاملَةِ ولينِ الجانبِ والوفاءِ بالمُعاهدَةِ.

(٢٨) ـ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾؛ أي: ذلك الذي عاهدْتَني فيه قائمٌ بينَنا لا نخرجُ عَنْه.

﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ أطوَلَهُما أو أقصَرَهُما ﴿قَضَيۡتُ﴾ وفيتُكَ إيَّاه ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ

= العقد لقال: قد أنكحتك بنتي هذه، فلا يَرِدُ عليه أنّ الإبهام في المرأة المزوَّجة غير صحيح، وأيضاً غير صحيح النكاح على الخدمة ومنافعِ الحرّ عند الحنفية خصوصاً ومدتها غير معيَّنة هنا، وأيضاً الخدمة ليست لها بل لأبيها فكيف صح كونها مهراً؟ وحاصله: أنّ هذا الكلام طلب العقد لا نفسه.
وقوله: «فلعلَّهُ جرى على مُعيَّنَةٍ وبمهرٍ آخرَ»؛ أي: فلعل العقد جرى بعد تلك المواعدة على بنت معينة من بنتيه وبمهر آخر غير الرِّعية، وهذا تصحيح العقد على المذهبين.
وقوله: «أو برِعْيةِ الأَجَل الأوَّل... » جواب آخر عن الإيراد الثاني، وهو تصحيح العقد عند الشافعي، فإن التزوّج على الرعي جائز عنده، أما عند الحنفية فيفهم من «الهداية» الجواز أيضاً، والخلاف في الخدمة غير الرعية فإنها مستثناة لأنها قيام بأمر الزوجية لا خدمة صرفة، وقوله: «ووعد له..» الجملة حالية بتقدير (قد)، أو معطوف على «جرى»، وفاعله ضمير موسى عليه السلام.
وقوله: «وكانَتِ الأغنامُ للمُزوَّجةِ» فيه الجواب عن الإيراد الثالث؛ فإن هذا من شرائط صحة عقد النكاح، فإن رعية الغنم لا يجوز أن تقع مهراً إلا إذا كانت الأغنام للبنت التي زوجها شعيب من موسى لا لشعيب عليهما السلام. انظر: «حاشية ابن التمجيد» و«حاشية القونوي» (١٤/ ٥٠١ ـ ٥٠٢)، و«حاشية الخفاجي».

(١) قوله: «من الشق... » «الشق» بفتح الشين، وهو فصل الشيء شقين، يعني: أنه يشق الاعتقاد والرأي لتردّده في تحمله وعدمه. انظر: «حاشية الخفاجي».

عَلَيَّ﴾: لا يُعتَدَى عليَّ بطَلَبِ الزِّيادَةِ، فكما لا أُطالَبُ بالزِّيادَةِ على العشرِ لا أُطالَبُ بالزِّيادةِ على الثَّماني.

أو: فلا أكونُ مُعتَدِيًا بتركِ الزِّيادَةِ عليه، كقولِك: لا إِثمَ عَلَيَّ، وهذا أبلغُ في إثباتِ الخِيرةِ وتَساوي الأجلَينِ في القضاءِ مِنْ أَنْ يقال: إنْ قضيتُ الأقصرَ فلا عدوانَ عَلَيَّ.

وقُرِئَ: (أَيْمَا)(١)، كقولِه:

تَنَظَّرْتُ نَصْرًا والسِّمَاكَيْنِ أَيْهُمَا ... عَلَيَّ مِنَ الغَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مَوَاطِرُهْ(٢)

و: (أيَّ الأجلينِ ما قَضَيْتُ)(٣) فتكونُ (ما) مزيدةً لتأكيدِ الفعلِ؛ أي: أيَّ الأجلينِ جرَّدتُ عَزْمِي لقَضائِه.

و: (عِدْوان) بالكسرِ(٤).

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ مِن المُشارطَةِ ﴿وَكِيلٌ﴾: شاهدٌ حَفِيظٌ.

(٢٩) ـ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾: بامرأتِه، رُوِيَ أنَّه قَضَى أَقْصَى الأجَلَينِ(٥)، ومكثَ بعدَ ذلك عندَهُ عَشْرًا أُخَرَ ثمَّ عزَمَ على الرُّجوعِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤) عن العباس بن الفضل عن أبي عمرو، و«المحتسب» (٢/ ١٥٠) عن الحسن.

(٢) البيت للفرزدق في «ديوانه» (١/ ٢٨١). وانظر: «المحتسب» (٢/ ١٥٢)، و«مغني اللبيب» (ص: ١٠٧).

(٣) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٥)، و«الكشاف» (٦/ ٤١٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٨٥).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤)، و«الكشاف» (٦/ ٤١٩)، عن يزيد بن قطيب.

(٥) رواه البخاري (٢٦٨٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه بلفظ: (أكثرهما =

﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾: أبصرَ مِن الجِهَةِ التي تَلِي الطُّورَ ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾: بخبرِ الطَّريقِ ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾: عودٍ غَليظٍ سواءٌ كانَتْ فيه[1] نارٌ أو لم تَكُن، قالَ كُثَيِّرٌ[2]:

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا ... جَزْلَ الجِذَى غَيْرَ خَوَّارٍ وَلَا دَعِرِ[3]

وقال:

وَأَلْقَى عَلَى قَيْسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةً ... شَدِيدًا عَلَيْهِ حَرُّهَا وَالْتِهَابُهَا[4]

= وأطيبهما)، قال ابن حجر في «فتح الباري» (٥/ ٢٩١): وهو في حكم المرفوع؛ لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب.

ورواه البزار في «مسنده» (٣٩٦٤)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٣٠)، من طريق عوبد بن أبي عمران الجوني عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر: أن النبي ﷺ سئل: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبرهما»، قال: وسئل: أيَّ المرأتين تزوج؟ قال: «الصغرى منهما».

قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٦): (عوبد ضعيف). ثم ذكر عن ابن مردويه نحوه من حديث أبي هريرة رفعه وقال: (وفي إسناده سليمان الشاذكوني وهو ضعيف)..

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «سواء كان في رأسه».

(٢) قوله: «كثير»: ليس في نسخة الفاروقي والخيالي، والمثبت من باقي النسخ، ومثله في «الكشاف» (٦/ ٤٣٣)، ولم أجد من نسبه لكثير، والصواب أنه لابن مقبل. انظر التعليق الآتي.

(٣) البيت في «ديوان تميم بن أبيٍّ بن مقبل» (ص: ٩١). وورد منسوبا إليه في «مجاز القرآن» (٢/ ١٠٣)، و«غريب الحديث» للحربي (٢/ ٦٩٥)، و«الكامل» للمبرد (٢/ ١١٤)، و«تفسير الطبري» (١٨/ ٢٣٩)، و«تهذيب اللغة» (٢/ ١٢٠)، و«الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٤١٤)، و«الصحاح» (مادة: جذى)، و«مقاييس اللغة» (٢/ ٢٨٣)، و«الأفعال» للمعافري (٣/ ٣٣٤)، و«المخصص» لابن سيده (٣/ ١٦٢)، و«البسيط» للواحدي (١٧/ ٣٨١)، وكذا نسبه لابن مقبل الزمخشري في «أساس البلاغة» (مادة: جذى).

(٤) البيت في «النكت والعيون» (٤/ ٢٥٠)، و«باهر البرهان» للغزنوي (٢/ ١٠٧٢)، و«الكشاف» =

ولذلك بيَّنَه بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

وقرأَ عاصِمٌ بالفَتحِ، وحَمْزَةُ بالضَّمِّ، وكُلُّهَا لُغَاتٌ[1].

﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾: تَستَدْفِئُونَ بِهَا.

(٣٠) ـ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أتاهُ النِّداءُ مِن الشَاطئِ الأيمنِ لِمُوسى ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾ مُتَّصِلٌ بالشَّاطئِ أو صِلَةٌ لـ﴿نُودِيَ﴾.

﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدلٌ مِن ﴿شَٰطِيِٕ﴾ بدلَ الاشتمالِ لأنَّها كانَتْ نابِتَةً على الشَّاطئِ.

﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾: أي يا مُوسى ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذا وإن خالفَ ما في (طه) والنَّملِ لفظًا فهو طِبْقُه في المقصودِ.

(٣١) ـ ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾؛ أي: فألْقَاهَا فصارَتْ ثُعبانًا واهتزَّتْ فلَمَّا رَآها تهتَزُّ ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ في الهيئَةِ والجثَّةِ أو في السُّرعةِ ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾: مُنهَزِمًا من الخَوْفِ ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾: ولم يرجِعْ.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ نُودِيَ: يا مُوسى ﴿أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ عن المُخاوِفِ، فإنَّه لا يخافُ لَدَيَّ المُرسَلُونَ.

= (٦/ ٤٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٧٤)، و«البحر» (١٧/ ٦)، و«الدر المصون» (٨/ ٦٦٩)، و«اللباب» لابن عادل (١٥/ ٢٤٨)، و«تفسير أبي السعود» (٧/ ١٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٧٢)، وعندهم جميعاً عدا «الكشاف» و«البحر»: «.. شديداً عليها.. »، وهي كذلك في نسخة الطبلاوي، وعليها شرح الخفاجي فقال: (وقيس فيه اسم قبيلة، ولذا قال: «عليها»، وهو استعارة لما لحقها من الفتنة التي كأنها نار متوقدة).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٣٢) ـ ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾: أَدخِلْها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: عيبٍ ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾: يدَيْكَ المَبْسوطَتَينِ تتَّقِي بهما الحيَّةَ كالخائفِ الفَزِعِ بإدخالِ اليُمنَى تحتَ عَضُدِ اليُسرَى وبالعكسِ، أو بإدخالِها في الجَيبِ فيكونُ تَكريرًا لغرضٍ آخَرَ، وهو أَنْ يكونَ ذلك في وَجهِ العَدُوِّ إظهارَ جراءةٍ ومبدأً لظهورِ مُعجِزَةٍ.

ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالضَّمِّ: التَّجلُّدَ والثَّباتَ عندَ انقلابِ العَصا حيَّةً، استعارةً مِن حالِ الطَّائرِ؛ فإنَّه إذا خافَ نَشَرَ جَناحَيْهِ وإذا أَمِنَ واطمَأَنَّ ضَمَّهُمَا إليهِ.

﴿من الرَّهَبِ﴾: مِن أَجْلِ الرَّهبِ؛ أي: إذا عراكَ الخَوْفُ فافعَلْ ذلك تَجَلُّدًا وضَبْطًا لِنَفْسِك.

وقرَأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ بضمِّ الرَّاءِ وسكونِ الهاءِ، وقُرِئَ بضَمِّهِما، وقرأَ حفصٌ بالفَتْحِ والسُّكونِ[1]، والكلُّ لُغَاتٌ.

﴿فَذَانِكَ﴾ إشارةٌ إلى العَصا واليدِ، وشدَّدَه ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورُوَيسٌ[2].

﴿بُرْهَانَانِ﴾: حُجَّتانِ، وبُرهَانٌ: فُعْلانٌ؛ لقولِهم: (أَبْرَهَ الرَّجُلُ): إذا جاءَ بالبُرْهَانِ، مِن قَوْلِهِم: بَرِهَ الرَّجُلُ: إذا ابيَضَّ، ويقال: بَرْهَاءُ وبَرَهْرَهَةٌ للمرأةِ البيضاءِ، وقيل: فُعْلَالٌ لقَوْلِهِم: بَرْهَنَ.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُرسَلًا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فكانوا أحِقَّاءَ بأَنْ يُرسَلَ إليهِم.

---

(١) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عَمْرو بفتحهما. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٧١). أما القراءة بضمتين فشاذة نسبت لعيسى بن عمر والجحدري وقتادة والحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤)، و«البحر» (١٧/ ٤٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٣٣) ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بها.

(٣٤) ـ ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾: مُعِينًا، وهو في الأصلِ اسمُ ما يُعانُ به كالدِّفءِ.

وقرأ نافِعٌ: ﴿رِدًا﴾ بالتَّخفيفِ(١).

﴿يُصَدِّقْني﴾ بتخليصِ الحقِّ وتقريرِ الحُجَّةِ وتَزييفِ الشُّبهَةِ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ولساني لا يُطاوِعُني عند المُحاجَّةِ.

وقيل: المرادُ تَصديقُ القَوْمِ لتَقريرِه وتَوضيحِه(٢)، لكنَّه أُسنِدَ إليه إسنادَ الفعلِ إلى السَّببِ.

وقرأ عاصِمٌ وحمزَةُ: ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بالرَّفعِ(٣) على أنه صِفَةٌ والجَوابُ مَحذوفٌ.

(٣٥) ـ ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾: سنُقَوِّيكَ به، فإنَّ قُوَّةَ الشَّخصِ بشِدَّةِ اليَدِ على مُزاولةِ الأُمورِ، ولذلك يُعبَّرُ عنه باليَدِ، وشِدَّتِها بشدَّةِ العَضُدِ.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾: غلبَةً أو حُجَّةً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاءٍ أو حِجَاجٍ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ؛ أي: اذهَبَا بآياتِنَا، أو بـ﴿نجعل﴾؛ أي: نُسَلِّطُكُما بها، أو بمعنى: (لا يَصِلُونَ)؛ أي: تَمتَنِعُونَ مِنهُم، أو قسمٌ جوابُه: (لا يَصِلُونَ)(٤)، أو بيانٌ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٧١). وقرأ أبو جعفر (رِدًا) بالنقل، ويبدل التنوين ألفًا وصلًا ووقفًا. انظر: «النشر» (١/ ٤١٤).

(٢) قولـه: «وقيل: المراد تصديق القوم»؛ أي: والأصل: يصدقوني. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٥٣).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٤) قولُه: «قَسَم جوابُه: لَا يَصِلُونَ»، فيهِ تساهُل؛ لأنّ جوابَ القَسَمِ لا يتقدَّمُ عليه، ولا يكونُ فيهِ فاء، ولعلّ مُرادَهُ أنّ ما قبلَهُ يَدُلُّ على الجواب، وأما الجواب فمحذوف. انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٥٦).

لـ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ في قولِه: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ بمعنى: أنه صِلَةٌ لِمَا بيَّنَه[1]، أو صِلَةٌ له على أنَّ اللامَ فيه للتَّعريفِ لا بمعنى (الذي).

(٣٦) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾: سحرٌ تَختَلِقُه لم يُفعَلْ قبلُ مثلُه، أو: سِحرٌ تعملُه ثمَّ تَفتَريه على اللهِ، أو: سحرٌ مَوصوفٌ بالافتراءِ كسائرِ أنواعِ السِّحرِ.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾ يَعْنون: السِّحرَ، أو ادعاءَ النبوَّة ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كائناً في أيَّامِهم.

(٣٧) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ فيَعلمُ أنِّي مُحِقٌّ وأنتُمْ مُبطِلُونَ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ: ﴿قال﴾ بغيرِ واوٍ[2]، لأنَّه قال ما قاله جوابًا لِمَقالِهم، ووجهُ العَطفِ: أنَّ المرادَ حكايةُ القَوْلَينِ ليوازنَ النَّاظرُ بينَهُما فيُميِّزَ صَحيحَهُما مِن الفاسدِ.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾: العاقبَةُ المحمودةُ، فإنَّ المرادَ بالدَّارِ: الدُّنيا، وعاقِبَتُها الأصليَّةُ هي الجنَّةُ؛ لأنَّها خُلِقَت مَجازًا إلى الآخرةِ، والمقصودُ منها بالذَّاتِ هو الثَّوابُ، والعِقابُ إنَّما قُصِدَ بالعَرَضِ.

---

(١) أي: الغالب إنما يكون غالباً بسبب شيء، فقوله: ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ هنا فيه إبهام من حيث إنه لم يذكر ما تحصل الغلبة بسببه وهو ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ فيكون بياناً، فكأنه قيل: (الغالبون بآياتنا) لكن لا يجوز أن يكون ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ معمولاً لـ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ لأن الصلة لا تعمل فيما قبل الموصول فيكون عامله محذوفاً، والتقدير: تغلبون بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون. انظر: «حاشية الجاربردي على الكشاف» (ج٢/ و٢٤٥ب).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿يكونُ﴾ باليَاءِ[(١)].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: لا يَفوزونَ بالهُدَى في الدُّنيَا وحسنِ العاقبَةِ في العُقْبَى.

(٣٨) ـ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ نفى علمَه بإلهٍ غيرِه دونَ وُجودِه إذْ لم يَكُن عندَه ما يَقتَضِي الجزمَ بعَدَمِه، ولذلك أمرَ ببناءِ الصَّرحِ ليصعدَ إليه ويتطلَّعَ على الحالِ بقولِه: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كأنَّه توهَّمَ أنَّه لو كانَ لكانَ جسمًا في السَّماءِ يمكنُ التَّرقِّي إليهِ، ثمَّ قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

أو أرادَ أَنْ يَبنيَ له رَصَداً يترصَّدُ منها أَوضاعَ الكواكبِ فيرى: هَلْ فيها ما يدلُّ على بعثةِ رسولٍ وتبدُّلِ دولةٍ؟

وقيل: المرادُ بنَفْيِ العلمِ نَفْيُ المَعلومِ كقولِه: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٨]، فإنَّ مَعناه: بما ليسَ فيهِنَّ، وهذا مِن خَواصِّ العلومِ الفِعليَّةِ فإنَّها لازمَةٌ لتَحقُّقِ مَعلوماتِها، فيلزمُ مِن انتفائِها انتِفاؤُهَا[(٢)]، ولا كذلكَ العلومُ الانفِعاليَّةُ.

قيل: أوَّلُ مَن اتَّخذَ الآجُرَّ فِرعونُ[(٣)]، ولذلك أمرَ باتِّخاذِه على وجهٍ يَتضمَّنُ تَعليمَ الصَّنعةِ مع ما فيهِ مِن تَعظُّمٍ، ولذلك نادى هامانَ باسمِه بـ(يا) في وسطِ الكَلامِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

(٢) قوله: «وهذا»؛ أي: ما ذكر من أن المرادَ بالعلم المعلومُ، وقوله: «فيلزم من انتفائها انتفاؤها»؛ أي: من انتفاء العلوم الفعلية انتفاءُ المعلومات. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٥٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٥٥) عن ابن جريج.

(٣٩) ـ ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾: بغيرِ استِحقاقٍ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴾ بالنُّشورِ.

وقرأَ نافِعٌ وحمزةُ والكِسائيُّ بفتحِ الياءِ وكسرِ الجيمِ(١).

(٤٠) ـ ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ ﴾ كما مَرَّ بيانُه، وفيهِ فَخامَةٌ وتعظيمٌ لشَأنِ الآخذِ، واستحقارٌ للمَأخوذينَ؛ كأنَّه أخذَهُم مع كثرتِهِم في كفٍّ فطَرَحَهُم في اليمِّ، ونظيرُه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿فَٱنظُرۡ ﴾ يا محمَّدُ ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وحَذِّرْ قومَكَ عن مِثْلِها.

(٤١) ـ ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ ﴾: قدوَةً للضُّلَّالِ بالحملِ على الإضلالِ.

وقيل: بالتَّسمِيَةِ كقولِه: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ ﴾ [الزخرف: ١٩]، أو بمنعِ الألطافِ الصَّارِفَةِ عنه(٢).

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٢) قوله: «الصارفة عنه»؛ أي: عن الإضلال. وهذان القولان من قوله: «بالتسمية كقوله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ...﴾» والقول الذي بعده ذكرهما الزمخشريُّ في «الكشاف» (٦/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨) لصرف الآية عن ظاهرها، وهما مبنيان على مذهب المعتزلة من وجوب مراعاة ما يتوهمونه صلاحاً أو أصلح على الله تعالى في أفعاله، ولا يجوز عليه خلق الشر، أما مذهب أهل السنة فهو أنه لا يجب عليه تعالى شيء، قال أبو حيان في «البحر» (١٧/ ٥٠) في تعقبه على كلام الزمخشري: وإنما فسر (جعلناهم) بمعنى: دعوناهم ـ أي سميناهم ـ لا بمعنى: صيرناهم، جرياً على مذهبه من الاعتزال؛ لأن في تصييرهم أئمة خلقَ ذلك لهم، وعلى مذهب المعتزلة لا يجوِّزون ذلك من الله ولا ينسبونه إليه. وقد رده ابن المنير في «الانتصاف» (٣/ ٤١٦) فقال: لا فرق عند أهل السنة بين قولِه: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ﴾ [الأنعام: ١] ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ ﴾ [الإسراء: ١٢] وبين هذه الآية، فمَن حمل الجعل =

﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: إلى موجِباتِها مِن الكفرِ والمَعاصِي.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدَفعِ العَذابِ عَنْهُم.

(٤٢) ـ ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾: طَرْدًا عن الرَّحمَةِ، أو لعنَ اللاعنينَ، يَلعَنُهم المَلائكةُ والمؤمنونَ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: مِن المَطرودينَ، أو ممَّنْ قبَّحَ وُجوهَهُم.

(٤٣) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: التَّوراةَ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾: أقوامَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ عليهِم السَّلامُ ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾: أنوارًا لقُلوبِهِم تَتَبصَّرُ بها الحقائقُ، وتُميِّزُ بينَ الحقِّ والباطلِ.

﴿وَهُدًى﴾ إلى الشَّرائعِ التي هي سُبُلُ[١] اللهِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ لأنَّهُم لو عَمِلُوا بها نالوا رحمةَ اللهِ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: ليكونوا على حالٍ يُرْجَى مِنْهُم التَّذكُّرُ، وقد فُسِّرَ بالإرادةِ وفيه ما عرفتَ.

(٤٤) ـ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ يريدُ: الواديَ أو الطُّورَ، فإنَّه كانَ في شقِّ الغربِ مِن مَقامِ مُوسَى، أو الجانبِ الغربيِّ منه[٢].

= على التسمية فيما نحن فيه فراراً من اعتقاد أن دعاءهم إلى النار مخلوق لله تعالى، فهو بمثابة من حمله على التسمية هناك فراراً من جعل الليل والنهار مخلوقين لله تعالى، فلا فرق بين نفي مخلوق واحد عن قدرته تعالى ونفي كل مخلوق.

قلنا: وتقديم المصنف لهذين القولين بـ«قيل» تضعيف لهما، وهذا كما قال الخفاجي في «الحاشية»: إشارة إلى الرد على الزمخشري.

(١) في نسخة التفتازاني: «سبيل».

(٢) قوله: «أو الجانب الغربي منه»؛ أي: من الوادي أو الطور، ومغايرته للأوّل: أنه مجموع الوادي والطور على الأوّل، وعلى هذا بعضه، وهو على كل حال من إضافة الموصوف للصفة. انظر: «حاشية الخفاجي».

والخِطابُ لرسولِ اللهِ ﷺ؛ أي: ما كنتَ حاضِرًا ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾: إذ أوحينَا إليه الأمرَ الذي أرَدْنَا تَعريفَه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ للوَحيِ إليهِ، أو على الموحَى إليهِ وهُم السَّبعونَ المُختارونَ للمِيقاتِ، والمرادُ: الدَّلالةُ على أنَّ إخبارَهُ عن ذلكَ مِن قَبيلِ الإخبارِ عن المغيَّباتِ التي لا تُعرفُ إلا بالوحيِ، ولذلك استدركَ عَنْهُ بقولِه:

(٤٥) ـ ﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾؛ أي: ولكنَّا أَوْحيناهُ إليك لأنَّا أنشأنَا قُرونًا مُختلِفَةً بعدَ مُوسى، فتطاولَت عليهِمْ المُدَدُ فحُرِّفَت الأَخبارُ وتَغيَّرَت الشَّرائعُ واندرَسَتِ العُلومُ، فحَذَفَ المُستدرَكَ وأقامَ سببَهُ مُقامَه[١].

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾: مُقيمًا ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: شُعَيبٍ والمؤمنينَ[٢] به ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ تقرأُ عليهِم تَعلُّمًا مِنْهُم ﴿ءَايَـٰتِنَا﴾ التي فيها قِصَّتُهُم ﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إيَّاكَ ومُخبرينَ لكَ بها.

(٤٦) ـ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ لعلَّ المرادَ به وقتُ ما أعطاهُ التَّوراةَ، وبالأوَّلِ حينَما استنبأَهُ؛ لأنَّهُما المذكورانِ في القِصَّةِ.

﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ولكن علَّمناكَ رحمةً. وقُرِئَت بالرَّفعِ[٣] على: هذِهِ رَحمَةٌ.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ مُتعلِّقٌ بالفعلِ المحذوفِ ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾

---

(١) قوله: «فحذف المستدرك»؛ أي: وهو «أوحيناه»، «وأقام سببه»؛ أي: وهو الإنشاء. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٥٧).

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «شعيب والمؤمنون».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤) عن ابن أبي عبلة.

لوُقوعِهِم في فترةٍ بينَكَ وبينَ عِيسى، وهي خمسُ مئةٍ وخمسونَ سنةً[١]، أو بينكَ وبين إسماعيلَ على أنَّ دعوةَ مُوسى وعيسَى كانت مُختَصَّةً ببني إسرائيلَ وما حَوالَيْهِم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: يَتَّعِظُونَ.

(٤٧) - ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ (لولا) الأُولى امتِناعِيَّةٌ، والثَّانيَةُ تَحضيضيَّةٌ واقعَةٌ في سِياقِها؛ لأَنَّها ممَّا أُجِيبَت بالفاءُ تَشبيهًا لها بالأمرِ، مَفعولُ ﴿فَيَقُولُواْ﴾ المعطوفِ على ﴿تُصِيبَهُم﴾ بالفاءِ المعطيةِ معنى السَّببيَّةِ المنبِّهةِ على أنَّ القولَ[٢] هو المقصودُ بأن يكونَ سببًا لانتفاءِ ما تُجابُ به، وأنَّه لا يصدرُ عَنْهُم حتَّى تُلجِئَهُم العقوبةُ، والجوابُ مَحذوفٌ والمعنى: لولا قولُهم إذا أصابَتْهُم عقوبةٌ بسببِ كُفرِهِم ومَعاصيهِم: ربنا هَلَّا أرسلتَ إلينا رَسُولًا يبلِّغُنا آياتِكَ فنتَّبعَها ونكونَ مِن المُصدِّقينَ ما أرسلناكَ؛ أي: إنَّما أرسلناكَ قطعًا لعُذرِهِم وإلزامًا للحجَّةِ عليهِم.

﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ يعني: الرَّسولَ المصدَّقَ بنوعٍ مِن المعجزاتِ[٣] ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٤٨) - ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ مِن الكتابِ جملةً واليَدِ والعَصا وغيرِهما؛ اقتراحًا وتَعنُّتًا[٤].

---

(١) وهذا مخالف لما رواه البخاري (٣٩٤٨) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه من قوله: (فترةُ بَيْنَ عيسى ومحمدٍ صلواتُ الله عليهما ستُّ مئةِ سنة).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «المقول».

(٣) قوله: «بنوع من المعجزات»؛ أي: وهو الكتاب كما هو مصدَّق بسائر المعجزات. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٥٨).

(٤) قوله: «جملة» حال من الكتاب، و«اقتراحاً» مفعول له لـ﴿قَالُواْ﴾ أو حالٌ من فاعله. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ يعني: أبناءَ جِنْسِهِم في الرَّأيِ والمذهبِ، وهُم كفرةُ زمانِ مُوسَى عليهِ السَّلامُ، وكان فِرعونُ عَربيًّا مِن أولادِ عادٍ.

﴿قالوا ساحِرَانِ﴾ يعنونَ: مُوسى وهارونَ، أو: مُوسَى ومحمَّدًا عليهِمَا السَّلامُ.

﴿تَظَاهَرَا﴾: تعاونَا بإظهارِ تلك الخوارقِ، أو بتوافُقِ الكتابينِ.

وقرأ الكوفيُّونَ: ﴿سِحْرَانِ﴾[1] بتقديرِ مُضافٍ، أو جَعْلِهما سِحرَيْنِ مبالغَةً، أو إسنادِ تَظاهُرِهما إلى فعلِهِما[2] دلالةً على سببِ الإعجازِ.

وقُرِئَ: (اظَّاهرَا) على الإدغامِ[3].

﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾؛ أي: بكُلٍّ مِنهما، أو: بكلِّ الأنبياءِ.

(٤٩) - ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾: ممَّا أُنزِلَ على مُوسَى وعَلَيَّ، وإضمارُهُما لدلالةِ المعنى، وهو يؤيِّدُ أنَّ المرادَ بالسَّاحِرَينِ مُوسى ومحمَّدٌ عليهِما السَّلامُ.

﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنَّا ساحرانِ مُختَلِقانِ، وهذا[4] مِن الشُّروطِ التي يرادُ بها الإلزامُ والتَّبكيتُ، ولعلَّ مَجيءَ حرفِ الشَّكِّ للتَّهكُّمِ بهم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٧٢). والكوفيون: عاصم وحمزة والكسائي.

(٢) قوله: «بتقدير مضاف»؛ أي: ذوا سحرين، أو صاحبا سحرين «أو جعلهما»؛ أي: موسى وهارون، أو موسى ومحمد «أو إسناد» بالجر عطف على ضمير (جعلهما)؛ أي: أو جعل إسناد تظاهرهما «إلى فعلهما»؛ أي: فعلي الرسولين، وهو السحر، والمعنى: تظاهَرَ سحراهما. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٥٩).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤) عن ابن مسعود وطلحة والأعمش.

(٤) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «فهذا».

(٥٠) ـ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ دُعاءَكَ إلى الإتيانِ[1] بالكتابِ الأهدى، فحُذِفَ المفعولُ للعلمِ به، ولأنَّ فعلَ الاستجابةِ يُعدَّى بنفسِهِ إلى الدُّعاءِ وباللامِ إلى الدَّاعِي، فإذا عُدِّيَ إليه حُذِفَ الدُّعاءُ غالبًا كقوله[2]:

وَدَاعٍ دَعَـا يَـا مَـنْ يُجِيـبُ إِلَـى النَّدَى ... فَلَـمْ يَسْتَـجِبْهُ عِنْـدَ ذَاكَ مُجِيـبُ

﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إذ لَوْ اتَّبعوا حُجَّةً لأَتَوْا بها ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استفهامٌ بمعنى النَّفيِ ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ في مَوضعِ الحالِ للتَّوكيدِ أو التَّقييدِ، فإنَّ هوى النَّفسِ قَدْ يُوافِقُ الحقَّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: الذيـن ظَلَمُوا أنفُسَـهُم بالانهمـاكِ في اتِّباعِ الهوى.

(٥١) ـ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾: أَتْبَعْنا بعضَهُ بعضًا في الإنزالِ ليتَّصِلَ التَّذكيرُ، أو: في النَّظمِ لتتقرَّرَ الدَّعوةُ بالحُجَّةِ، والمواعظُ بالمواعيدِ، والنَّصائحُ بالعِبَرِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيُؤمِنُونَ ويُطيعونَ.

(٥٢) ـ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ نزلَـتْ فـي مُؤمِنـي أهـلِ الكتـابِ[3].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «دعاءك بالإتيان».

(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٦٧ و١١٢ و٢٤٥ و٣٢٦) و(٢/ ١٠٧)، و«خزانة الأدب» (١٠/ ٤٣٦)، وقال القالي: بعضهم يرويها لسهم الغنوي، وهو من قومه وليس بأخيه. انظر: «أمالي القالي» (٢/ ١٤٨). وتقدم البيت في تفسير الآية (٩٥) من سورة آل عمران.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٨٨)، عن ابن عباس بإسناد ضعيف. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٩٣)، عن مجاهد.

وقيل: في أربعينَ مِن أهلِ الإنجيلِ: اثنانِ وثلاثونَ جاؤوا مع جعفرٍ مِن الحبشَةِ، وثمانيةٌ من الشَّامِ(١).

والضَّميرُ في ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ للقرآنِ؛ كالمستكِنِّ في:

(٥٣) - ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾؛ أي: بأنَّه كلامُ اللهِ

﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ استئنافٌ لبيانِ ما أوجبَ إيمانَهُم به.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ استئنافٌ آخرُ للدلالةِ على أنَّ إيمانَهُم به ليسَ ممَّا أحدَثُوه حينئذٍ، وإنَّما هو أمرٌ تقادَمَ عهدُه لَمَّا رَأَوا ذكرَه في الكتبِ المتقدِّمَةِ، وكونُهم على دينِ الإسلامِ قبلَ نُزولِ القُرآنِ أو تِلاوته عليهم باعتِقادِهِم صِحَّتَهُ في الجملَةِ.

(٥٤) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾: مرَّةً على إيمانِهم بكتابِهم ومـرَّةً على إيمانِهم بالقُرآنِ.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾: بصَبرِهِم وثَباتِهِم على الإيمانَينِ، أو على الإيمانِ بالقُرآنِ قبلَ النُّزولِ وبعدَه، أو على أذى مَنْ هاجرَهُم مِن أهلِ دينِهِم ومن المشركين.

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: ويَدفعونَ بالطَّاعةِ المعصيَّةَ؛ لقولِه(٢) عليه السَّلامُ: «أَتْبِعِ الحسنَةَ السَّيِّئَةَ تَمْحُهَا»(٣).

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ في سَبيلِ الخيرِ.

(٥٥) - ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ تكرُّمًا ﴿وَقَالُواْ﴾ للَّاغينَ: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٥٧).

(٢) في نسخة التفتازاني: «كقوله».

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٢١٤٠٣)، والترمذي (١٩٨٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ مُتاركَةً لهم وتوديعًا، أو دعاءً لهم بالسَّلامَةِ عمَّا هم فيه ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾: لا نطلبُ صُحبتَهُم ولا نريدُها.

(٥٦) - ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: لا تَقدِرُ أَنْ تُدخِلَهُ في الإسلامِ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فيدخلُه في الإسلامِ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾: بالمستعدِّينَ لذلك.

والجمهورُ على أنَّها نَزَلَتْ في أبي طالبٍ؛ فإنَّه لَمَّا احتُضِرَ جاءَهُ رسولُ اللهِ ﷺ وقال: «يا عم، قل: لا إلهَ إلا اللهُ كلمَةٌ أحاجُّ بها لك عندَ اللهِ» قال: يا ابنَ أَخِي قد عَلِمتُ إنَّكَ لصَادقٌ، ولكنِّي أكرَهُ أَنْ يُقالَ: جزعَ[1] عندَ الموتِ[2].

(٥٧) - ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾: نُخرَجُ مِنْها، نزلَتْ في الحارثِ بنِ عثمانَ بنِ نوفَلِ بنِ عبدِ مَنافٍ، أتى النَّبيَّ عليهِ السَّلامُ فقال: نحنُ نَعلَمُ أنَّكَ على الحقِّ، ولكنَّا نَخافُ إِن اتَّبعناكَ وخالَفْنَا العربَ وإنما نحنُ أَكَلةُ رأسٍ أن يَتخطَّفونَا مِن أَرضِنَا[3]، فردَّ اللهُ عليهِمْ بقولِه:

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «خرع». وهما روايتان في الحديث. ومعنى (خرع): ضعُفَ، ومعنى (جزع): خافَ. انظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: خرع).

(٢) ذكره بهذا السياق دون سند مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٣٥٠)، وابن إسحاق في «سيرته» (٣٢٥)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ١٨١)، بلفظ: «خرع»، وهما روايتان كما سيأتي، وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٦): لم أجده، وقصة وفاة أبي طالب في الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن أبيه بغير هذا السياق أو أخصر منه. قلت: رواه البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه. ورواه مسلم (٢٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه بنحوه مختصراً النسائي في «الكبرى» (١١٣٢١)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٨٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وذكره بهذا اللفظ مقاتل في «تفسيره» (١/ ٥٥٨)، لكن في نزول قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ الآية [الأنعام: ٣٣] وقال مقاتل: نظيرها في القصص: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾. وقوله: «أكلة رأس»: جمع آكِلٍ، وهو مثَل في القلة، وأصله: =

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾: أولم نجعَلْ مكانَهُم حرَمًا ذا أمنٍ بحُرمةِ البَيتِ الذي فيه، يَتناحَرُ العربُ حولَهُ وهُم آمِنونَ فيه.

﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾: يُحمَلُ إليه ويُجمَعُ فيه. وقرأَ نافِعٌ ويعقوبُ في روايةٍ بالتَّاءِ[1].

﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن كلِّ أَوْبٍ ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كانَ هذا حالَهم وهم عَبدَةُ الأصنامِ، فكيفَ يعرِّضُهُم للتَّخوُّفِ[2] والتَّخطُّفِ إذا ضمُّوا إلى حرمةِ البيتِ حُرمةَ التَّوحيدِ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جهلةٌ لا يَتفطَّنُونَ له ولا يَتفكَّرُونَ ليَعلَمُوا.

وقيل: إنه مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾؛ أي: قليلٌ مِنْهُم يَتدبَّرُونَ فيعلمونَ أنَّ ذلك رزقٌ مِن عندِ اللهِ؛ إذ لو عَلِمُوا لَمَا خافُوا غيرَه.

وانتصابُ ﴿رِّزْقًا﴾ على المصدرِ مِن مَعنى ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ أو الحالِ مِن الثَّمراتِ لتَخصُّصِها بالإضافَةِ.

ثمَّ بيَّنَ أنَّ الأمرَ بالعكسِ، فإنَّهم[3] أَحِقَّاءُ بأن يخافُوا مِن بأسِ اللهِ على ما هُم عليهِ بقوله:

(٥٨) ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾؛ أي: وكَمْ مِن أهلِ قَريَةٍ كانَتْ حالُهم كحَالِكُم في الأَمنِ وخَفْضِ العَيْشِ حتى أَشِرُوا فدمَّرَ اللهُ عَلَيهِم وخرَّبَ دِيارَهُم.

= ناسٌ قليلون يكفيهم إذا أكلوا رأسٌ واحدة من رؤوس الحيوان المطبوخة، ويصح أن يراد بالرأس حيوان واحد. انظر: «حاشية الخفاجي».

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٧٢)، عن نافع. وهي رواية رويس عن يعقوب وقرأ بها أيضاً أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٢).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «للخوف».

(٣) في نسخة الفاروقي: «بأنهم».

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاويةً ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مِن السُّكنَى؛ إذ لا يَسكنُها إلا المارَّةُ يومًا أو بعضَ يومٍ، أو لا يبقى مَن يَسكُنُها ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مِن شُؤمِ مَعاصِيهِمْ.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ مِنْهُم؛ إذ لم يَخلُفْهم أحدٌ يتصرَّفُ تصرُّفَهُم في ديارِهِم وسائرِ مُتصرَّفاتِهِم.

وانتصابُ ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بنزعِ الخافضِ، أو بجعلِها ظرفًا بنَفْسِها كقولك: زيدٌ ظنِّي مُقيمٌ، أو بإضمارِ زمانٍ مُضافٍ إليه[1]، أو مفعولًا على تضمينِ ﴿بَطِرَتْ﴾ مَعنى كَفَرَت.

(٥٩) - ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾: وما كانَتْ عادَتُه ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾: في أصلِها التي هي أَعمالُها[2]؛ لأنَّ أهلَها يكونُ[3] أفطنَ وأنبَلَ.

﴿رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ لإلزامِ الحُجَّةِ وقطعِ المَعذِرَةِ.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بتكذيبِ الرُّسُلِ والعُتُوِّ في الكُفرِ.

(٦٠) - ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ مِن أَسبابِ الدُّنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تَمتَّعونَ وتَزيَّنونَ[4] به مدَّةَ حياتِكُم المنقضِيَةِ.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو ثوابُه ﴿خَيْرٌ﴾ خيرٌ في نَفسِهِ من ذلك؛ لأنَّه لذَّةٌ خالِصَةٌ

---

(١) قوله: «كقولك: زيد ظني مقيم»؛ أي: في ظني، وقوله: «أو بإضمار زمان يضاف إليه» الأولى: (إليها)؛ أي: إلى معيشتها؛ أي: بطرت أيامَ معيشتها. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٦٣).

(٢) قوله: «التي هي»؛ أي: القرى «أعمالها»؛ أي: أعمالُ أُمِّ القرى. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٦٣).

(٣) «يكون» ليس في نسخة الطبلاوي.

(٤) في نسخة الطبلاوي: «تتمتعون فتتزينون».

وبهجـةٌ كاملـةٌ ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنَّـه أَبَـدِيٌّ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتَسـتَبدِلُونَ الـذي هـو أدنـى بالـذي هـو خيرٌ.

وقرأ أبو عمرو بالياءِ[1]، وهو أبلَغُ في المَوعِظَةِ[2].

(٦١) ـ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾: وعـدًا بالجنَّةِ، فإنَّ حُسنَ الوَعدِ بحُسنِ المَوعودِ ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾: مُدرِكُه لا مَحالَةَ؛ لامتناعِ الخُلفِ في وَعْدِهِ، ولذلكَ عطَفَهُ بالفَاءِ المعطيَةِ مَعنى السَّببيَّةِ.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مَشوبٌ بالآلامِ، مُكدَّرٌ بالمَتاعبِ، مُستعقِبٌ للتَّحسُّرِ على الانقطاعِ.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ للحِسابِ أو العَذابِ، و﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخِي فـي الزَّمانِ أو الرُّتبةِ.

وقرأَ نافِعٌ في رِوايَةٍ والكِسائيُّ: ﴿ثمَّ هْوَ﴾ بسُكونِ الهاءِ[3] تَشبيهًا للمُنفَصِلِ بالمُتَّصلِ.

وهذه الآيةُ كالنَّتيجَةِ للَّتي قبلَها ولذلك رُتِّبَ عليها بالفاءِ.

(٦٢) ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أو مَنصوبٌ بـ(اذكر).

﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أي: الذينَ كُنتُم تزعُمونَهُم شُركائِي، فحُذِفَ المَفعولانِ لدَلالةِ الكَلامِ عليهِمَا.

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٧٢). وذكر في «السبعة» (ص: ٤٩٥) عن أبي عمرو القراءة بالوجهين: بالتاء وبالياء.

(٢) قوله: «وهو أبلغ في الموعظة»؛ لاشتماله على الالتفات؛ للإعراض به عن خطابهم. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٦٣).

(٣) وهي قراءة قالون بخلف عنه والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ١٥١ ـ ١٥٢)، و«التيسير» (ص: ٧٢).

(٦٣) ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بثُبوتِ مُقتضاهُ وحُصولِ مُؤدَّاه ـ وهو قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وغيرُه من آياتِ الوَعيدِ ـ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾؛ أي: هؤلاء هم الذين أَغْويناهُم، فحُذِفَ الرَّاجِعُ إلى المَوصولِ.

﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا﴾؛ أي: أَغْوَيناهُم فغَوَوا غَيًّا مثلَ ما غوينَا، وهو استئنافٌ للدَّلالةِ على أَنَّهُم غَوَوا باختيارِهِم، فإنَّهُم[1] لم يفعلوا بهِمْ إلا وسوسَةً وتَسويلًا.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفَةً و﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾ الخبرَ؛ لأجلِ ما اتَّصلَ به فأفادَهُ زيادةً على الصِّفَةِ، وهو وإن كانَ فَضْلةً لكنَّه صارَ مِن اللوازمِ.

﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مِنْهُم وممَّا اختاروهُ مِن الكُفرِ هَوًى مِنْهُم، وهي تقريرٌ للجُملَةِ المُتقدِّمَةِ، ولذلك خلَتْ عن العاطِفِ، وكذا: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾؛ أي: ما كانوا يَعبدونَنا، وإنَّما كانوا يعبدونَ أهواءَهُم.

وقيل: ﴿مَا﴾ مَصدريَّةٌ متصلةٌ بـ﴿تَبَرَّأۡنَآ﴾؛ أي: تبرَّأْنا مِن عِبادَتِهم إيَّانا.

(٦٤) ـ ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ﴾ مِن فَرطِ الحيرةِ ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ لعجزِهِم عن الإجابةِ والنُّصرةِ ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ لازبًا بهم ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ لوجهٍ مِن الحِيَلِ يدفعونَ به العذابَ، أو: إلى الحقِّ لَمَّا رَأَوا العَذابَ.

وقيل: ﴿لَوۡ﴾ للتَّمنِّي؛ أي: تمنَّوا أَنَّهُم كانوا مُهتَدينَ.

(٦٥) ـ ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ عطفٌ على الأوَّلِ، فإنَّه تعالى يسألُ أوَّلًا عن إشراكِهِم به ثمَّ عن تكذيبِهِم الأنبِيَاءَ.

(٦٦) ـ ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾: فصارَت الأنباءُ كالعُمْيِ عَليهم لا تهتَدِي إليهم، وأصلُه: فعَمُوا عن الأنباءِ، لكنَّه عكَسَ مُبالغَةً، ودلالةً على أنَّ ما يحضرُ الذِّهنَ إنَّما يَفيضُ ويَرِدُ عليه من خارجٍ، فإذا أخطأَهُ لم يَكُن له حِيلَةٌ إلى استحضارِه.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «وأنهم».

والمرادُ بالأنباءِ: ما أجابُوا بِهِ الرُّسُلَ أو ما يَعُمُّها، وإذا كانَت الرُّسلُ يتَتعتعونَ في الجوابِ عن مثلِ ذلك مِن الهَولِ[١]، ويُفوِّضونَ إلى علمِ اللهِ تَعالى، فما ظَنُّكَ بالضُّلَّالِ مِن أُمَمِهِم، وتَعدِيَةُ الفعلِ بـ(على) لتَضمُّنِهِ مَعنى الخفاءِ.

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: لا يسألُ بعضُهُم بعضًا عن الجوابِ؛ لفرطِ الدَّهشَةِ أو العلمِ بأنَّه مثلُه[٢].

(٦٧) ـ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشِّركِ ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: وجمعَ بينَ الإيمانِ والعملِ.

﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ عندَ اللهِ، و(عسى) تحقيقٌ على عادةِ الكرامِ، أو ترجٍّ من التَّائبِ بمعنى: فليتوقَّعْ أن يُفلِحَ.

(٦٨) ـ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ لا مُوجِبَ عليه ولا مانعَ له ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: التَّخيُّرُ؛ كالطِّيَرَةِ بمَعنى التَّطيُّرِ، وظاهرُه: نَفْيُ الاختيارِ عَنْهُم رأسًا، والأمرُ كذلك عندَ التَّحقيقِ، فإنَّ اختيارَ العِبادِ مخلوقٌ باختيارِ اللهِ مَنوطٌ بدواعٍ لا اختيارَ لهم فيها.

وقيل: المرادُ أنَّهُ ليسَ لأَحَدٍ مِن خَلقِهِ أَنْ يختارَ علَيْهِ، ولذلك خَلا عن العاطفِ، ويُؤَيِّدُه ما رُوِيَ أنَّه نزلَ في قَولِهِم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١][٣].

---

(١) قوله: «وإذا كانت الرسل يتتعتعون في الجواب»؛ أي: وهو قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٦٦).

(٢) قوله: «أو العلم بأنه مثله»؛ أي: أو لعلم السائل بأن المسؤول مثلُه في العجز عن الجواب. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٦٦).

(٣) وهو قول الوليدِ بن المغيرةِ، ذكره المفسرون دون عزوٍ لقائل ولا سند. انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٥٣)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ٦١٦)، و«تفسير الثعلبي» (٢٠/ ٤٨٣)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٣٩).

وقيل: ﴿مَا﴾ مَوصولةٌ[1]؛ مفعولٌ لـ﴿يختار﴾ والرَّاجعُ إليه مَحذوفٌ، والمعنى: ويختارُ الذي كان لهم فيهِ الخيرةُ؛ أي: الخيرُ والصَّلاحُ.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: تنزيهًا له أن يُنازِعَه أحدٌ أو يزاحِمَ اختيارهُ اختِيارٌ ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: عن إشراكِهم، أو مشاركةِ ما يُشرِكُونَه به.

(٦٩) - ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعَداوةِ الرَّسولِ وحقدِه ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كالطَّعنِ فيه.

(٧٠) - ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المستحقُّ للعِبادَةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا أحدَ يَستَحِقُّها إلا هوَ ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنَّه المُوْلِي للنِّعَمِ كلِّها عاجلِها وآجلِها، يحمَدُه المُؤمِنُونَ في الآخرةِ كما حَمِدُوهُ في الدُّنيا بقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] ابتهاجًا بفضلِه والتذاذًا بحَمْدِه.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾: القَضاءُ النَّافِذُ في كلِّ شيءٍ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالنُّشورِ.

---

(١) قوله: «وقيل: (ما) موصولة»، قائل هذا القول وقف عند قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ثم يبدأ: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ ويكون ﴿مَا﴾ اسماً موصولاً. انظر: «التيسير في التفسير» لأبي حفص النسفي عند هذه الآية.

واختار هذا الوجه الطبري، فقد ذهب إلى أن ﴿مَا﴾ موصولة منصوبة بـ﴿يختار﴾؛ أي: ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيرة للناس، لا كما يختارون هم ما ليس إليهم، ويفعلون ما لم يؤمروا به، وأنكر أن تكون ﴿مَا﴾ نافية؛ لئلا يكون المعنى: إنه لم تكن لهم الخيرة فيما مضى، وهي لهم فيما يستقبل، ولأنه لم يتقدّم كلام يُنفَى.

هكذا لخص أبو حيان كلام الطبري ثم قال: وقد رُد هذا القول بعدم العائد على الموصول، وأجيب بأن التقدير: ما كان لهم فيه الخيرة، وحذف لدلالة المعنى.

انظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٢٩٩ - ٣٠٢)، و«البحر» (١٧/ ٧٣).

(٧١) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾: دائمًا، مِن السَّردِ وهو المتابعةُ، والميمُ مزيدَةٌ كميمِ دُلَامِص[١].

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإسكانِ الشَّمسِ تحتَ الأرضِ، أو تحريكِها حولَ[٢] الأفقِ الغائرِ.

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ كان حَقُّه: هَل إلهٌ؟ فذُكرَ بـ﴿مَنْ﴾ على زَعمِهِم أنَّ غيرَهُ آلهةٌ، وعن ابنِ كثيرٍ: ﴿بضِئَاءٍ﴾ بهمزتينِ[٣].

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تَدبُّرٍ واستِبصارٍ.

(٧٢) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإسكانِها في وسطِ السَّماءِ، أو تحريكِهَا على مدارٍ فوقِ الأَرضِ ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةً عن مَتاعبِ الأَشغَالِ.

ولعلَّـه لـم يَصِـفِ الضِّياءَ بمـا يقابلُهُ لأنَّ الضَّـوءَ نِعمَةٌ فـي ذاتِهِ مَقصودٌ بنَفسِـهِ ولا كذلـك الليـلُ، ولأنَّ مَنافِـعَ الضَّـوءِ أكثَـرُ ممَّـا يُقابِلُـه ولذلـك قُـرِنَ بـه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وبالليـلِ: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنَّ اسـتفادةَ العقـلِ مِـن السَّـمعِ أكثَرُ مِن اسـتفادَتِه مِـن البَصرِ.

(٧٣) ـ ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾: فـي الليلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فـي النَّهـارِ بأَنـواعِ المَكاسـبِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تَعرِفُـوا نعمةَ اللهِ في ذلك فتَشـكروهُ عليها.

---

(١) الدُّلامِص: البَرَّاقُ، وهو من الدِّلاص: اللَّيِّن البَرَّاق؛ يُقال: دِرعٌ دِلاص، وأَدْرُعٌ دِلاص، انظر: «الصحاح» (مادة: دلص).

(٢) في نسخة الخيالي: «فوق». وفي نسخة الطبلاوي: «تحت».

(٣) انظر: «السبعة» (١/ ٤٩٥).

(٧٤) ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقريعٌ[١] بعدَ تَقريعٍ للإشعارِ بأنَّه لا شيءَ أجلَبُ لغضبِ اللهِ مِن الإشراكِ به، أو الأولُ لتَقريرِ فَسادِ رَأيِهِم، والثاني لبَيانِ أنَّه لم يَكُن عن سندٍ وإنَّما كانَ مَحضَ تَشَهٍّ وهوًى.

(٧٥) ـ ﴿وَنَزَعْنَا﴾: وأخرَجْنَا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نَبِيُّهُم يشهدُ عليهِم بما كانوا عليه ﴿فَقُلْنَا﴾ للأُمَمِ: ﴿هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ على صِحَّةِ ما كنتُم تَدينونَ به ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ حينئذٍ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهيَّةِ لا يشارِكُه فيها أحدٌ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: وغابَ عَنْهُم غيبةَ الضَّائعِ ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ مِن الباطلِ.

(٧٦) ـ ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كانَ ابنَ عمِّه يَصْهَرَ بنَ قاهَثَ[٢] بنِ لاوَى، وكان ممَّنْ آمَن به.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: فطلبَ الفَضْلَ عليهِم وأَنْ يَكونُوا تحتَ أَمْرِه، أو تَكبَّرَ عَلَيهِم، أو ظَلَمَهُم.

قيل: وذلك حين ملَّكَه فرعونُ على بني إسرائيلَ.

أو حسدَهُم؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه قالَ لِمُوسى: لك الرِّسالَةُ، ولهارونَ الحُبُورَةُ[٣]، وأنا في غيرِ شَيءٍ، إلى مَتى أَصبِرُ[٤]؟

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾: مِن الأَموالِ المُدَّخرَةِ ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾: مفاتيحَ صناديقِهِ، جمعُ مِفْتَحٍ بالكسرِ، وهو ما يُفْتَحُ به.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «تقرير».

(٢) في نسخة الخيالي و«تفسير الثعلبي» (٢/ ٤٨٩): «فاهث»، والمثبت من بقية النسخ و«الكشاف» (٦/ ٤٦٢)، و«تفسير الطبري» (١٨/ ٣٠٩).

(٣) الحُبورة؛ بالضمِّ: الإمامة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٦٩).

(٤) ذكره بنحوه المطهر بن طاهر المقدسي في «البدء والتاريخ» (٣/ ٨٦ ـ ٨٧)، والسمرقندي في «بحر العلوم» (٢/ ٦١٨).

وقيل: خَزائِنُه، وقياسُ واحدِها: المَفْتَحُ[١].

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ خبرُ ﴿إِنَّ﴾، والجملَةُ صِلَةُ ﴿مَآ﴾ وهو ثاني مَفعولَيْ (آتى)، وناءَ به الحَمْلُ: إذا أثقلَهُ حتَّى أمالَهُ، والعُصْبَةُ والعِصابَةُ: الجماعَةُ الكَثِيرَةُ، واعصَوْصَبُوا: اجتمَعُوا[٢].

وقُرِئَ: (لَيَنُوءُ) بالياءِ[٣] على إعطاءِ المُضافِ حُكمَ المُضافِ إليه.

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ منصوبٌ بـ﴿تنوء﴾: ﴿لَا تَفۡرَحۡ﴾: لا تبطَرْ، والفرحُ بالدُّنيَا مَذمومٌ مُطلقًا؛ لأنَّه نَتيجَةُ حُبِّهَا والرِّضَا بها والذُّهولِ عن ذهابِها، فإنَّ العِلمَ بأَنَّ ما فيها مِن اللذَّةِ مُفارِقُه لا محالةَ يُوجِبُ التَّرَحَ كمَا قال:

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِي في سُرُورٍ ... تَيقَّنَ عنه صاحِبُه انتِقَالَا[٤]

ولذلك قالَ تَعالى: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [الحديد: ٢٣].

وعَلَّلَ النَّهيَ هاهنا بكونِه مانِعًا مِن مَحبَّةِ اللهِ تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾؛ أي: بزَخارِفِ الدُّنيا.

(٧٧) - ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ مِن الغِنَى ﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ بصَرْفِه فيما يُوجِبُهَا لك، فإنَّ المَقصودَ منه أن يكونَ وُصلةً إليها ﴿وَلَا تَنسَ﴾: ولا تترُكْ تركَ المنسيِّ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهو أن تحصِّلَ بها آخرتَكَ، أو تأخذَ منها ما يَكْفيكَ.

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني والخيالي: «وقياسه الفتح»؛ أي: بفتح الميم في مَفْتَح؛ لأنه اسم مكانٍ وليس باسم آلة. والمثبت ما في نسخة الطبلاوي وهامش نسخة الفاروقي، وهو الذي في «الكشاف» (٦/ ٤٦٣)، وعليه الشرح في الحواشي.

(٢) انظر: «الصحاح» مادة: (عصب).

(٣) هي قراءة بديل بن ميسرة، انظر: «المحتسب» (٢/ ١٥٣).

(٤) البيت للمتنبي في «ديوانه - تحقيق: عبد الوهاب عزام» (ص: ١٢٩).

﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عبادِ اللهِ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعمَ عليكَ.

وقيل: أَحْسِن بالشُّكرِ والطَّاعةِ كما أحسنَ إليك بالإنعامِ.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأمرٍ يكونُ عِلَّةً للظُّلمِ والبَغْيِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لسوءِ أفعالِهم.

(٧٨) - ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فُضِّلتُ به على النَّاسِ، واستوجبتُ به التَّفوُّقَ عليهم بالجاهِ والمالِ، و﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موضعِ الحالِ، وهو علمُ التَّوراةِ، وكانَ أعلمَهُم بها.

وقيل: علمُ الكيمياءِ[1].

وقيل: علمُ التِّجارَةِ والدَّهقنَةِ وسائرِ المكاسبِ[2].

وقيل: علمٌ بكُنوزِ يوسُفَ[3].

و﴿عِندِىٓ﴾ صفةٌ له، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ كقولِك: جازَ هذا عندي؛ أي: في ظَنِّي واعتقادِي.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٥٠١)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٢٢٢)، وعزاه الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٦٨) للنقاش. ورده ابن كثير عند تفسير هذه الآية بقوله: وهذا القول ضعيف؛ لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر عليها أحد إلا الله عز وجل.

قلت: أراد ابن كثير بعلم الكيمياء ما كان شائعاً في الأزمنة السابقة من تعلقه بالسحر والشعوذة وادعاء قلب الأعيان، وليس مراده العلم القائم على التجربة المعروف في يومنا هذا.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٥٠٢) من غير نسبة، وعزاه القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٣١٥) لعلي بن عيسى.

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٧) عن كعب.

تَعجُّبٌ وتَوبيخٌ على اغترارِهِ بقُوَّتِه وكثرةِ مالِه مع علمِه بذلك[١]؛ لأنَّه قرأَهُ في التَّوراةِ وسَمِعَه من حُفَّاظِ التَّواريخِ.

أو: ردٌّ لادِّعائِهِ العلمَ وتعظُّمِه به بنفيِ هذا العلمِ مِنْه؛ أي: أعِنْدَهُ مثلُ ذلك العلمِ الذي ادَّعَى[٢] ولم يَعْلَمْ هذا[٣] حتى يَقِيَ به نفسَهُ مَصارِعَ الهالكينَ.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ سؤالَ استعلامٍ؛ فإنَّه تَعالى مُطَّلِعٌ عليهَا، أو مُعاتبةٍ فإنَّهُم يعذَّبونَ بها بغتةً، كأنَّه لَمَّا هدَّدَ قارونَ بذكرِ إهلاكِ مَن قبلَهُ ممَّنْ كانوا أقوَى مِنه وأَغْنى أكَّد ذلك بأَنْ بيَّنَ أنه لم يَكُن مطَّلِعاً على ما يَخُصُّهم، بل اللهُ مُطَّلِعٌ على ذنوبِ المجرمينَ كلِّهم مُعاقِبُهم عليها لا محالةَ.

(٧٩) ـ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ كما قيلَ: إنَّه خرجَ على بغلةٍ شَهباءَ عليه الأُرْجُوانُ[٤]، وعليها سرجٌ مِن ذَهبٍ، ومعَهُ أربعَةُ آلافٍ على زِيِّهِ[٥].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على ما هو عادَةُ النَّاسِ من الرَّغبةِ:

﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ تمنَّوْا مِثلَهُ لا عينَهُ حَذرًا عن الحَسدِ ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ مِن الدُّنيا.

---

(١) قوله: «مع علمه بذلك»؛ أي: بأن الله قد أهلك من القرون قبله مَن هو أقوى منه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٧١).

(٢) في نسخة التفتازاني: «ادعاه».

(٣) قوله: «ولم يعلم هذا»؛ أي: بأن الله قد أهلك من القرون قبله مَن هو أقوى منه.

(٤) الأرجوان؛ معرَّبُ أرغوان، ومعناه الحُمرة أو الأحمر، والمقصودُ به هنا: القطيفة الحمراء، انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٧١)، «حاشية الخفاجي».

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٥٦).

(٨٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بأحوالِ الآخرةِ للمُتمنِّينَ: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاءٌ بالهَلاكِ استُعمِلَ للزَّجرِ عمَّا لا يُرتَضَى ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرةِ ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ممَّا أُوتِيَ قارونُ بل مِن الدُّنيا وما فيهَا.

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ الضَّميرُ فيه للكَلِمَةِ التي تكلَّمَ بها العلماءُ، أو للثَّوابِ فإنَّه بمعنى المثوبَةِ أو الجنَّةِ، أو للإيمانِ والعملِ الصَّالحِ فإنَّهما في مَعنى السِّيرةِ والطريقةِ.

﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطَّاعاتِ وعن المعاصِي.

(٨١) ـ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ رُوِيَ أنَّه كانَ يؤذِي موسى عليه السَّلامُ كلَّ وَقتٍ، وهو يداريهِ لقَرابتِه، حتى نزلَتِ الزَّكاةُ فصالَحَهُ عن كلِّ ألفٍ على واحدٍ، فحَسَبهُ فاستكثَرَهُ، فعَمَدَ إلى أنْ يفضَحَ مُوسى بين بني إسرائيلَ ليَرفُضوهُ، فبرطَلَ[1] بَغِيَّةً لترميَهُ بنَفسِها، فلَمَّا كان يومُ العيدِ قامَ مُوسى خطيبًا فقال: مَن سرَقَ قطَعْناهُ، ومَن زَنَى غيرَ مُحْصَنٍ جَلَدْناهُ، ومَن زنَى مُحصَنًا رَجَمناهُ، فقال قارونُ: ولو كنتَ؟ قال: ولو كنتُ، قال: إنَّ بني إسرائيلَ يَزعمونَ أنَّكَ فَجَرْتَ بفُلانَة، فأُحضِرَت فناشدَها موسى باللهِ أن تَصْدُقَ، فقالَتْ: جعلَ لي قارونُ جُعْلًا على أَنْ أَرمِيَكَ بنَفسِي، فخرَّ موسَى شاكِيًا عنه إلى رَبِّهِ، فأوحى إليه أن مُرِ الأَرضَ بما شئتَ، فقال: يا أرضُ خُذِيهِ، فأخذَتْهُ إلى رُكْبَتِه، ثمَّ قال: خذيهِ، فأخذَتْهُ إلى وسطِهِ، ثمَّ قال: خُذِيهِ، فأخذَتْهُ إلى عنقِهِ، ثمَّ قال: خُذيهِ، فخَسفَتْ بهِ، وكان قارونُ يتضرَّعُ إليه في هذه الأحوالِ فلَمْ يرحَمْهُ، فأوحى الله إليه: ما أفظَّكَ! اسْتَرْحَمَكَ مِرارًا فلَمْ ترحَمْهُ، وعِزَّتِي لو دَعاني مرَّةً لأَجَبْتُه، ثم قالَ بنو إسرائيلَ: إنَّما فعلَهُ ليَرِثَهُ، فدَعا الله حتى خَسَفَ بدارِه وأموالِه[2].

---

(١) قوله: «بَرْطَلَ»؛ أي: أعطي البِرْطيلَ، وهو الرِّشوة ونحوها. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠١٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٣٦) وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا. وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٦) عزوه لابن المنذر وابن مردويه.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أعوانٍ، مُشتقَّةٌ مِن فأَوْتُ رأسَهُ: إذا ميَّلتَهُ ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيدفعونَ عنهُ عذابَه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾: المُمتَنِعينَ مِنه[1]، مِن قَولِهم: نصرَهُ مِن عَدوِّهِ فانتصرَ: إذا منعَه مِنه فامتنعَ.

(٨٢) ـ ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾: مَنزِلَتَه ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾: منذ زمانٍ قريبٍ ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾: يبسطُ ويقدرُ بمُقتَضى مَشيئَتِه، لا لِكرامَةٍ تَقتَضِي البَسْطَ ولا لهوانٍ يُوجِبُ القَبضَ.

و﴿وَيْكَأَنَّ﴾ عند البصريِّينَ مُركَّبَةٌ مِن (وي) للتَّعجُّبِ و(كأنَّ) للتَّشبيهِ، والمعنى: ما أشبهَ الأمرَ أنَّ اللهَ يبسطُ[2]!

وقيل: مِن (ويك) بمعنى: ويلكَ و(أنَّ) وتقديره: ويكَ اعلَمْ أنَّ اللهَ[3].

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلَمْ يُعطِنَا ما تَمنَّيْنَا ﴿لَخَسَفَ بنا﴾ لتَوْليدِهِ فينا ما وُلِدَ فيه فخَسَفَ به لأجلِه، وقرأ حفصٌ بفتحِ الخاءِ والسِّين[4].

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لنعمةِ اللهِ، أو: المكذِّبونَ برُسُلِه وبما وَعَدوا لهم من ثوابِ الآخرةِ[5].

(٨٣) ـ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ إشارةُ تعظيمٍ كأنَّه قال: تلكَ التي سمعتَ خبرَهَا وبلغكَ وَصفُها و﴿ٱلدَّارُ﴾ صفةٌ، والخبرُ: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: غلبةً وقَهرًا ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: ظُلمًا على النَّاسِ كما أرادَ فِرعونُ وقارونُ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «من الممتنعين عنه». والمقصود: من عذابِ الله، أو مِن موسى. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٧٣).

(٢) انظر: «الكتاب» (٢/ ١٥٤)، و«المحتسب» (٢/ ١٥٥).

(٣) انظر: «غريب القرآن» لابن عزيز السجستاني (ص: ٤٨٤).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٥).

(٥) في نسخة الطبلاوي: «من الثواب في الآخرة».

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما لا يَرضاهُ اللهُ.

(٨٤) ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ذاتًا وقَدْرًا ووَصْفًا ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وُضِعَ فيه الظَّاهرُ مَوضِعَ الضَّميرِ تهجينًا لحالِهم بتكريرِ إسنادِ السَّيِّئَةِ إليهم.

﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلَّا مثلَ ما كانوا يعملونَ، فحَذَفَ المثلَ وأقامَ مقامَه ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مبالغةً في المُماثلَةِ.

(٨٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أوجبَ عليكَ تِلاوتَهُ وتبليغَهُ والعملَ بما فيه ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيِّ مَعادٍ، وهو المقامُ المحمودُ الذي وعدَكَ أَنْ يبعثَكَ فيه، أو مكَّةُ التي اعتَدْتَ بها، على أنَّه مِن العادةِ، ردَّهُ إليها يومَ الفتحِ، كأنَّه لمَّا حَكَمَ بأنَّ العاقبةَ للمُتَّقينَ، وأكَّدَ ذلك بوعدِ المُحسنينَ ووعيدِ المُسيئينَ، وعدَهُ بالعاقبةِ الحُسْنَى في الدَّارَيْنِ.

رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ لَمَّا بلغَ جُحْفَةَ في مُهاجَرِه اشتاقَ إلى مولدِه ومولِد آبائِه فنزَلَتْ[1].

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما يَستَحِقُّه من الثَّوابِ والنَّصرِ، و﴿مَن﴾ مُنتَصِبٌ بفعلٍ يُفسِّرُه ﴿أَعْلَمُ﴾، ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما استحقَّهُ مِن العذابِ والإذلالِ، يَعني به نفسَهُ والمشركينَ، وهو تقريرٌ للوَعدِ السَّابقِ، وكذا قولُه:

(٨٦) ـ ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ أي: سيردُّكَ إلى مَعادِكَ[2] كما أَلقَى إليكَ الكِتابَ وما كنتَ تَرجوهُ.

---

(١) انظر ما ورد فيه من أخبار في مطلع هذه السورة.

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «معاد».

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: ولكنْ ألقاهُ رحمةً منه، ويجوزُ أَنْ يكونَ استثناءً محمولًا على المَعنى كأنَّه قال: وما أُلقيَ إليك الكتابُ إلا رحمةً.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بمداراتِهم والتَّحمُّلِ عنهم والإجابةِ إلى طَلِبتِهم.

(٨٧) - ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: عن قراءَتِها والعملِ بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وقُرِئَ: (يُصِدُّنَّكَ) مِن أَصَدَّ(١).

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: إلى عبادتِه وتوحيدِه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمُساعدَتِهم.

(٨٨) - ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا وما قبلَهُ للتَّهييجِ وقطعِ أطماعِ المُشركينَ عن مُساعدَتِه لهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾: إلا ذاتَه، فإنَّ ما عَداهُ ممكنٌ هالِكٌ في حدِّ ذاتِه مَعدومٌ.

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القَضاءُ النافِذُ في الخلقِ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجَزاءِ بالحَقِّ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ ﴿طسٓمٓ﴾ القصصَ كانَ له مِن الأجرِ بعَددِ مَن صدقَ مُوسى وكذَّبَ، ولم يبقَ ملكٌ في السَّماواتِ والأرضِ إلا شَهِدَ له يومَ القِيامَةِ أَنَّهُ كانَ صادقًا»(٢).

* * *

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٥) وفيه: حكاه أبو زيد عن رجل من كلب وقال: هي لغة قومه.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٧٣) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٨٩٤)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٢٨) سورة القصص مكية
وآياتها ثمان وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣)
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥)
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ (٦)

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقوله: ﴿تلك﴾ أي هذه ﴿آيات الكتاب المبين﴾ أي الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور وعلم ما قد كان وما هو كائن، وقوله: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق﴾ أي نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر، ثم قال تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ أي تكبر وتجبر وطغى، ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ أي أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته، وقوله تعالى: ﴿يستضعف طائفة منهم﴾ يعني بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولكل أجل كتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض - إلى قوله - يحذرون﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم، كما قال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون - إلى قوله - يعرشون﴾، وقال تعالى: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدرة الإله العظيم الذي لا يخالف أمره ولا يغلب، بل نفذ حكمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك، وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السماوات العلا هو القاهر الغالب العظيم، القوي العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يفني بني إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة، فقالوا لفرعون: أنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم، وغلمانهم يقتلون، ونساؤهم لا يمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك، فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا، قبحهم الله تعالى، فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تفطن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً، وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه، قال تعالى: ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ فلما ضاقت به ذرعـاً ألهمت في سرها ونفث في روعها، كما قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر، وذهلت أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجواري، فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتتن عليها في فتحه دونها، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها، ولهذا قال: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ الآية، قال محمد بن إسحاق: اللام هنا (لام العاقبة) لا (لام التعليل) لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك. قال تعالى: ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾، وقوله تعالى: ﴿وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك﴾ الآية، يعني أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل فشرعت امرأته (آسية بنت مزاحم) تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه إلى فرعون، فقالت: ﴿قرة عين لي ولك﴾، فقال فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا، فكان كذلك وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه، وقوله: ﴿عسى أن ينفعنا﴾ وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه، وقوله: ﴿أو نتخذه ولداً﴾ أي أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه، وذلك أنه لم يكن

لها ولد منه، وقوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً، أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى، قاله ابن عباس ومجاهد ﴿إن كادت لتبدي به﴾: أي إن كادت من شدة وجدها وحزنها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها، قال الله تعالى: ﴿لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه﴾ أي أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعي ما يقال لها فقالت لها ﴿قصيه﴾ أي اتبعي أثره وخذي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد فخرجت لذلك ﴿فبصرت به عن جنب﴾ قال ابن عباس: عن جانب، وقال مجاهد: بصرت به عن بعيد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده، وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك عرضوا عليه المراضع التي في دارهم، فلم يقبل ثدياً وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها، قال الله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ أي تحريماً قدرياً وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه، ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه ﴿فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾؟ قال ابن عباس: فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعته فأرسلوها، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه، فأعطته ثديها، فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى، وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلات والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية، قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً في عز وجاه ورزق دارّ، ولهذا جاء في الحديث: «مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»، ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة، فسبحان من بيده الأمر، يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً، وبعد كل ضيق مخرجاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها﴾ أي به ﴿ولا تحزن﴾ أي عليه ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ أي فيما وعدها من رده إليها

وجعله من المرسلين، وقوله تعالى: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكماً وعلماً، قال مجاهد: يعني النبوة ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾، ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي، الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين، فقال تعالى: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ قال ابن عباس: وذلك بين المغرب والعشاء، وقال ابن المنكدر عن ابن عباس: كان ذلك نصف النهار[١]، ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾ أي يتضاربان ويتنازعان، ﴿هذا من شيعته﴾ أي إسرائيلي ﴿وهذا من عدوه﴾ أي قبطي، فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام، فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس فعمد إلى القبطي ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ قال مجاهد: فوكزه أي طعنه بجمع كفه، وقال قتادة: وكزه بعصا كانت معه فقضى عليه أي كان فيها حتفه فمات، ﴿قال﴾ موسى ﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت عليّ﴾ أي بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿فلن أكون ظهيراً﴾ أي معيناً ﴿للمجرمين﴾ أي الكافرين بك، المخالفين لأمرك.

فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي إنه أصبح ﴿في المدينة خائفاً﴾ أي من معرة ما فعل ﴿يترقب﴾ أي يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر، فمر في بعض الطرق فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر، فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر فقال له موسى: ﴿إنك لغوي

(١) وهو قول سعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة.

مبين﴾ أي ظاهر الغواية كثير الشر، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه ﴿يا موسى﴾ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده فعلم فرعون بذلك، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك.

* ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قال تعالى: ﴿وجاء رجل﴾ وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه فسبق إلى موسى، فقال له يا موسى ﴿إن الملأ يأتمرون بك﴾ أي يتشاورون فيك ﴿ليقتلوك فاخرج﴾ أي من البلد ﴿إني لك من الناصحين﴾.

* ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره، خرج من مصر وحده ولم يألف ذلك قبله، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾ أي يتلفت ﴿قال رب نجني من القوم الظالمين﴾ أي من فرعون وملئه، فذكروا أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملكاً فأرشده إلى الطريق ﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي أخذ طريقاً سالكاً فرح بذلك، ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ أي الطريق الأقوم، ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً، ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ أي لما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء ﴿وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ أي جماعة يسقون ﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ أي تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما، ﴿قال ما خطبكما﴾؟ أي ما خبركما لا تردان مع هؤلاء، ﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ أي لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء، ﴿وأبونا شيخ كبير﴾ أي فهذا الحال الملجيء لنا إلى ما ترى، قال الله تعالى: ﴿فسقى لهما﴾. روى عمرو بن ميمون الأودي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه، ثم

لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم[1]. وقوله تعالى: ﴿ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة، وقوله: ﴿إلى الظل﴾ جلس تحت شجرة، قال السدي: كانت الشجرة من شجر السمر، وقال عطاء: لما قال موسى ﴿رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ أسمع المرأة.

فَجَاءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً، فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، قال الله تعالى: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ أي مشي الحرائر، جاءت مستترة بكم درعها، قال عمر رضي الله عنه جاءت ﴿تمشي على استحياء﴾ قائلة بثوبها على وجهها ليست بسَلْفَع من النساء ولّاجة خرّاجة[2]. ﴿قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة، بل قالت: ﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ يعني ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا، ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾ أي ذكر له ما كان من أمره وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ يقول: طب نفساً وقر عيناً فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم في بلادنا، ولهذا قال: ﴿نجوت من القوم الظالمين﴾. وقد اختلف المفسرون في الرجل من هو؟ **على أقوال**: أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين[3]، **وقال آخرون**: بل كان ابن أخي شعيب، **وقيل**: رجل مؤمن من قوم شعيب، **وقال آخرون**: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾، وعن ابن عباس قال: الذي استأجر موسى (يثرى) صاحب مدين رواه ابن جرير، **ثم قال**: **الصواب** أن هذا لا يدرك إلا بخبر ولا خبر تجب به الحجة في ذلك. وقوله تعالى: ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ أي قالت

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم واسناده صحيح، ومعنى السلفع: الجريئة من النساء السليطة الجسور كما أفاده الجوهري.

(٣) هذا هو المشهور عند كثير من العلماء وهو قول الحسن البصري.

إحدى ابنتي هذا الرجل قيل: هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها: ﴿يا أبت استأجره﴾ أي لرعية هذه الغنم، ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلف عليَّ الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه[1]. وقال ابن مسعود: **أفرس الناس ثلاثة**: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال أكرمي مثواه، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾، ﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ أي طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى بنتيه.

وقوله تعالى: ﴿على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾ أي على أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي الثمان كفاية، ﴿وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ أي لا أشاقك ولا أؤاذيك ولا أماريك. وفي الحديث: «إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه»[2]، وقوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام ﴿قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل﴾ يقول: إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإن أتممت عشراً فمن عندي فأنا متى فعلت أقلهما، فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط، ولهذا قال: ﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ﴾ أي فلا حرج عليّ، وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما. روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: قال سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب، فأسأله، فقدمت على (ابن عباس) رضي الله عنه فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. وعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبرهما، قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما»[3]. وروى ابن جرير عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما دعا نبي الله موسى عليه السلام صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها، فعمد موسى فرفع حبالاً على الماء، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة، فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام.

* فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ

(١) روي هذا القول عن عمر وابن عباس وشريح القاضي وقتادة ومحمد بن إسحاق وغيرهم.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وابن ماجه عن (عتبة بن المنذر السلمي) مرفوعاً.
(٣) أخرجه البزار عن أبي ذر رضي الله عنه.

﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قد تقدم أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما[1]. قوله: ﴿وسار بأهله﴾ قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك ﴿آنس من جانب الطور ناراً﴾ أي رأى ناراً تضيء على بعد ﴿فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً﴾ أي حتى أذهب إليها ﴿لعلي آتيكم منها بخبر﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿أو جذوة من النار﴾ أي قطعة منها ﴿لعلكم تصطلون﴾ أي تستدفئون بها من البرد، قال الله تعالى: ﴿فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء، في لحف الجبل مما يلي الوادي فوقف باهتاً في أمرها فناداه ربه ﴿أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾ أي الذي يخاطبك ويكلمك هو ﴿رب العالمين﴾ الفعال لما يشاء، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات، في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، وقوله: ﴿وأن ألق عصاك﴾ أي التي في يدك، كما في قوله تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى؟ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾، والمعنى: أما هذه عصاك التي تعرفها ﴿ألقها فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾، فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون. ﴿فلما رآها تهتز﴾ أي تضطرب، ﴿كأنها جان ولى مدبراً﴾ أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها واتساع فمها، واصطكاك أنيابها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها تنحدر في فيها، تتقعقع كأنها حادرة في واد، فعند ذلك ﴿ولى مدبراً ولم يعقب﴾ أي ولم يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فلما قال الله له: ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾ رجع فوقف في مقامه الأول، ثم قال الله تعالى: ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق، ولهذا قال ﴿من غير سوء﴾: أي من غير برص. وقوله تعالى: ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ قال مجاهد: من الفزع، وقال قتادة: من الرعب مما حصل لك من خوفك من الحية؛ **والظاهر** أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهو يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده. عن مجاهد قال: كان موسى عليه السلام قد مليء قلبه رعباً من فرعون، فكان إذا رآه قال: «اللهم إني أدرأ بك في نحره، وأعوذ بك من شره» فنزع الله ما كان في قلب موسى عليه السلام، وجعله في قلب فرعون فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار[2]. وقوله تعالى: ﴿فذانك

---

(١) هو عشر سنين على رأي الجمهور وقال مجاهد: عشر سنين وبعدها عشر أخر رواه عنه ابن جرير.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن مجاهد.

برهانان من ربك﴾ يعني جعل العصا حية تسعى، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع، ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً﴾ يعني ذلك القبطي، ﴿فأخاف أن يقتلون﴾ أي إذا رأوني، ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة، فحصل فيه شدة في التعبير، ولهذا قال: ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ ﴿فأرسله معي ردءاً﴾ أي وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمري، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عزَّ وجلَّ، لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، ولهذا قال: ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾، وقال محمد بن إسحاق: ﴿ردءاً يصدقني﴾ أي يبين لهم عني ما أكلمهم به فإنه يفهم عني ما لا يفهمون، فلما سأل ذلك موسى، قال الله تعالى: ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ أي سنقوي أمرك ونعز جانبك بأخيك، الذي سألت له أن يكون نبياً معك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾. ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه من (موسى) على (هارون) عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً، ولهذا قال تعالى في حق موسى ﴿وكان عند الله وجيهاً﴾، وقوله تعالى: ﴿ونجعل لكما سلطاناً﴾ أي حجة قاهرة ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - إلى قوله - والله يعصمك من الناس﴾، ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾، كما قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ إلى آخر الآية.

۞ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة، على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عزَّ وجلَّ، من توحيده واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من عند الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿ما هذا إلا سحر مفترى﴾ أي مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، وقوله:

﴿وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ يعنون عبادة الله وحده لا شريك له، ويقولون ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى، فقال موسى عليه السلام مجيباً لهم: ﴿ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ يعني مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم، ولهذا قال: ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾ أي من النصرة والظفر والتأييد، ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي المشركون بالله عزَّ وجلَّ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه، وافترائه في دعواه الإلٰهية لعنه الله، كما قال الله تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ الآية، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلٰهية، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم؛ ولهذا قال: ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيري﴾، وقال تعالى إخباراً عنه ﴿فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى﴾ يعني أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مصرحاً لهم بذلك فأجابوه سامعين مطيعين، ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك، فقال: ﴿لئن اتخذت إلٰهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾، وقوله: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إلٰه موسى﴾ يعني أمر وزيره (هامان) مدير رعيته أن يوقد له على الطين يعني يتخذ له آجراً لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفيع العالي، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إلٰه موسى وإني لأظنه كاذباً﴾ الآية. وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إلٰه غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾ أي في قوله إن ثَمَّ رباً غيري، لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا، فإنه قال: ﴿وما رب العالمين﴾؟ وقال: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾، وقال: ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيري﴾ وهذا قول ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ أي طغوا وتجبروا وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد، ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد﴾، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد، ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ أي لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع، ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولا بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أهلكناهم

فلا ناصر لهم﴾، وقوله تعالى: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك، ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ قال قتادة: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وملأه، وقوله تعالى: ﴿من بعدما أهلكنا القرون الأولى﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ۝ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾، وروى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض، غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى، ثم قرأ: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾[1] الآية، وقوله: ﴿بصائر للناس وهدى ورحمة﴾ أي من العمى والغي، ﴿وهدى﴾ إلى الحق، ﴿ورحمة﴾ أي إرشاداً إلى العمل الصالح، ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧)

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهدٌ وراءٍ لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم، قال تعالى: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾، ولما أخبره عن نوح وإغراق قومه، قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ الآية. وقال بعد ذكر قصة يوسف ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ الآية، وقال في سورة طه: ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري موقوفاً، ورواه البزار من طريق آخر عن أبي سعيد مرفوعاً بلفظ ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى ثم قرأ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى﴾.

قد سبق﴾ الآية، وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلّم الله موسى من الشجرة على شاطىء الوادي، ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك، ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين، وقوله تعالى: ﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا﴾ أي وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا، حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قاله لقومه وما ردوا عليه، ﴿ولكنا كنا مرسلين﴾ أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك إلى الناس رسولاً، ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ قيل: المراد أمة محمد، نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأجبتكم قبل أن تدعوني[1]، وقال قتادة: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ موسى، وهذا أشبه بقوله تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾، ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء، كما قال تعالى: ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾، وقال تعالى: ﴿إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى﴾، وقال تعالى: ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا﴾، وقوله تعالى: ﴿ولكن رحمة من ربك﴾ أي ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم، ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾ أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عزَّ وجلَّ، ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا﴾ الآية، أي وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾، وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾ والآيات في هذه كثيرة.

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى مخبراً عن القوم أنه لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول، فلما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ، قالوا على وجه التعنت والعناد، والكفر والإلحاد: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ الآية، يعنون مثل العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام، حجة وبرهاناً

(١) أخرجه النسائي في سننه عن أبي هريرة موقوفاً، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم أيضاً.

له على فرعون وملئه، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما: ﴿أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾، وقال تعالى: ﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾، ولهذا قال ها هنا: ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾ أي أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة، ﴿قالوا ساحران تظاهرا﴾ أي تعاونا، ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾ أي بكل منهما كافرون، قال مجاهد: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك، فقال الله: ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا﴾ قال: يعني موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم ﴿تظاهرا﴾ أي تعاونا وتناصرا وصدق كل منها الآخر؛ وهذا قول جيد قوي، وعن ابن عباس: ﴿قالوا ساحران تظاهرا﴾ قال: يعنون موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم وهذا رواية الحسن البصري، وأما من قرأ ﴿سحران تظاهرا﴾ فروي عن ابن عباس: يعنون التوراة والقرآن، قال السدي: يعني صدّق كل واحد منهما الآخر، وقال عكرمة: يعنون التوراة والإنجيل واختاره ابن جرير، والظاهر أنهم يعنون التوراه والقرآن لأنه قال بعده: ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه﴾، وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس - إلى أن قال - وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾، وقال في آخر السورة ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن﴾ الآية، وقال: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾.

وقد علم بالضرورة لذوي الألباب، أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء - فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه - أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف، من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى عليه السلام، وهو الكتاب الذي قال الله فيه: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة، ومحلا لبعض ما حرم على بني إسرائيل. ولهذا قال تعالى: ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين﴾ أي فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل، قال الله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾ أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ أي بلا دليل ولا حجة، ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ أي بغير حجة مأخوذة من كتاب الله، ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾، وقوله تعالى: ﴿ولقد وصلنا لهم القول﴾ قال مجاهد: فصلنا لهم القول، وقال السدي: بيّنا لهم القول، وقال قتادة، يقول تعالى: أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ﴿لعلهم يتذكرون﴾.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب

يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾، وقال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾. قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾ يعني من قبل هذا القرآن كنا مسلمين أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له، قال الله تعالى: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول، ثم بالثاني، ولهذا قال: ﴿بما صبروا﴾ أي على اتباع الحق، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس، وقد ورد في الصحيح: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أَمَة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها»، وفي الحديث: «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله ما لنا وعليه ما علينا»[1]، وقوله تعالى: ﴿ويدرأون بالحسنة السيئة﴾ أي لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون، ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في الزكاة المفروضة، وصدقات النفل والقربات، وقوله تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم، بل كما قال تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾، ﴿وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ أي إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق أعرضوا عنه، ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب، وقالوا: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ أي لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها. قال محمد بن إسحاق: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم (أبو جهل بن هشام) في نفر من قريش فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، قال ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجران وفيهم نزلت هذه الآيات ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾، إلى قوله: ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ قال: وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في (النجاشي) وأصحابه رضي الله عنهم، والآيات اللاتي في سورة المائدة ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً - إلى قوله - فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

* إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ

(١) أخرجه الإمام أحمد عن القاسم بن أبي أمامة.

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: إنك يا محمد ﴿لا تهدي من أحببت﴾ أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء، كما قال تعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾. وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في (أبي طالب) عم رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً، فلما حضرته الوفاة دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة، روى الزهري عن المسيب بن حزن المخزومي رضي الله عنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده (أبا جهل بن هشام) و(عبدالله بن ابي أمية بن المغيرة) فقال رسول الله ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان عليه بتلك المقالة، حتى كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أنهَ عنك» فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾، وأنزل في أبي طالب: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾[1]، وعن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال: «يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة» فقال: لولا أن تعيرني بها قريش يقولون ما حمله عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك، لا أقولها إلا لأقر بها عينك، فأنزل الله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾[2]

وقوله تعالى: ﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿أولم نمكن لهم حرماً آمناً﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين، وحرم معظم آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟ وقوله تعالى: ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ أي من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رزقاً من لدنا﴾ أي من عندنا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) أخرجه مسلم والترمذي.

يقول تعالى معرّضاً بأهل مكة: ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ أي طغت وأشرت، وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان – إلى قوله – فأخذهم العذاب وهم ظالمون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾ أي دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم، وقوله تعالى: ﴿وكنا نحن الوارثين﴾ أي رجعت خراباً ليس فيها أحد، ثم قال تعالى مخبراً عن عدله، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له، وإنما بعد قيام الحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها﴾ وهي مكة ﴿رسولاً يتلو عليهم آياتنا﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام، كما قال تعالى: ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾، وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾، وتمام الدليل قوله تعالى: ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً﴾ الآية، فأخبر تعالى أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها، وثبت في الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «بعثت إلى الأحمر والأسود» ولهذا ختم به النبوة والرسالة، فلا نبي بعده ولا رسول، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة، وقيل المراد بقوله: ﴿حتى يبعث في أمها رسولا﴾ أي أصلها وعظيمتها كأمهات الرساتيق والأقاليم[1]

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية، بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة، من النعيم العظيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾، وقال: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾، وقال: ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾، وقال رسول الله ﷺ: «والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فلينظر ماذا يرجع إليه»[2]، وقوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾؟ أي أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة، وقوله تعالى: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾، يقول تعالى: أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾؟ قال مجاهد: من المعذبين، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾.

۞ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ

(١) حكاه الزمخشري وابن الجوزي وغيرهما وليس ببعيد كما قال ابن كثير.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ
مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول: ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ؟ يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا، من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد كما قال تعالى: ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾، وقوله: ﴿ قال الذين حق عليهم القول﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم، ثم تبرأوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾، وقال تعالى: ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال الخليل عليه السلام لقومه ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ الآية، وقال الله تعالى: ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾ الآية، ولهذا قال: ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم﴾ أي ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا، ﴿ فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب﴾، أي وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، وقوله: ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي فودُّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿ ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً * ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا﴾، وقوله: ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ النداء الأول سؤال عن التوحيد، وهذا عن إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم، وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا، ولهذا قال تعالى: ﴿ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ قال مجاهد: فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب، وقوله: ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي في الدنيا ﴿ فعسى أن يكون من المفلحين﴾ أي يوم القيامة، و (عسى) من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة .

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، قال تعالى: ﴿ وربك يخلق

ما يشاء ويختار﴾ أي ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه، وقوله: ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ نفي على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾، ولهذا قال: ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً، ثم قال تعالى: ﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ أي يعلم ما تكن الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار﴾، وقوله: ﴿وهو الله لا إله إلا هو﴾ أي هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب سواه، ﴿له الحمد في الأولى والآخرة﴾ أي في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته، ﴿وله الحكم﴾ أي الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته، ﴿وإليه ترجعون﴾ أي جميعكم يوم القيامة، فيجزي كل عامل بعمله من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما، وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولسئمته النفوس، ولهذا قال تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾ أي تبصرون به وتستأنسون بسببه ﴿أفلا تسمعون﴾؟ ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار ﴿سرمداً﴾ أي دائماً مستمراً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلّت من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه﴾؟ أي تستريحون من حركاتكم وأشغالكم، ﴿أفلا تبصرون؟ ٭ ومن رحمته﴾ أي بكم ﴿جعل لكم الليل والنهار﴾ أي خلق هذا وهذا ﴿لتسكنوا فيه﴾ أي في الليل، ﴿ولتبتغوا من فضله﴾[1] أي في النهار بالأسفار والترحال والحركات والأشغال، وقوله: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ والآيات في هذا كثيرة.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟
أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب تعالى على رؤوس

(١) هذا النوع يسمى في علم البديع (اللف والنشر المرتب) حيث جمعهما في اللفظ (الليل والنهار) ثم أعاد ما يتعلق بهما الأول على الأول، والثاني على الثاني.

الأشهاد فيقول: ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أي في دار الدنيا، ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً﴾ قال مجاهد: يعني رسولاً، ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ أي على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿فعلموا أن الحق لله﴾ أي لا إله غيره فلم ينطقوا ولم يحيروا جواباً، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم.

* إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ قال: كان ابن عمه[1]، وقال ابن جريج: هو قارون بن يصهب بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث، وزعم محمد بن إسحاق أن قارون كان عم موسى ابن عمران عليه السلام، وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه والله أعلم، وقال قتادة: كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله، وقوله: ﴿وآتيناه من الكنوز﴾ أي الأموال ﴿ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة﴾ أي ليثقل حملها الفِئام من الناس لكثرتها، قال الأعمش: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح على خزانة على حدته، فإذا ركب حملت على ستين بغلا أغر محجلا، وقيل غير ذلك والله أعلم، وقوله: ﴿إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي وعظه فيما هو فيه صالحو قومه، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾. قال ابن عباس: يعني المرحين، وقال مجاهد: يعني الأشرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، وقوله: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة، ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزوجك عليك حقاً، فآت كل ذي حق حقه، ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ أي أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك، ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض وتسيء إلى خلق الله ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾

(١) وهو قول إبراهيم النخعي وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم.

أي أنا لا أفتقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ولمحبته لي، فتقديره إنما أعطيته لعلم الله فيَّ أني أهل له، وهذا كقوله تعالى: ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾ أي على علم من الله بي، وقد روي عن بعضهم أنه أراد ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ أي أنه كان يعاني علم الكيمياء وهذا القول ضعيف لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليه إلا الله عزَّ وجلَّ[1]، وقال بعضهم: إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم فدعا الله به فتمول بسببه، **والصحيح** المعنى الأول، ولهذا قال الله تعالى راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾؟ أي قد كان من هو أكثر منه مالاً، وما كان ذلك عن محبة منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي لكثرة ذنوبهم، قال قتادة ﴿على علم عندي﴾ على خير عندي، وقال السدي: على علم أني أهل لذلك، وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ قال: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وقرأ: ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾ الآية، وهكذا يقول من قلَّ علمه إذا رأى من وسع الله عليه، لولا أنه يستحق ذلك لما أعطي.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه، في زينة عظيمة وتجمل باهر، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي ﴿قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ أي ذو حظ وافر من الدنيا، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم ﴿ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون. كما في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾»، وقوله: ﴿ولا يلقاها إلا الصابرون﴾ قال السدي: ولا يُلَقَّى الجنة إلا الصابرون، كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم، وقال ابن جرير: ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة، وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك وجعله من كلام الله عزَّ وجلَّ وإخباره بذلك.

۞ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

---

(١) ردّ ابن كثير على هذا القول وبيّن أن من ادعى أنه يُحيل ماهية ذات إلى ماهية أُخرى فإنما هو كذب وجهل وضلال، وزغل وتمويه على الناس ثم قال: فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء فهذا أمر لا ينكره مسلم، ولا يردّه مؤمن، وقد أجاد رحمه الله في هذا المقام وأفاد.

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقّب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي الله عليه السلام، وقيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة، فمر في محفله ذلك على مجلس نبي الله موسى عليه السلام وهو يذكرهم بأيام الله، فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه، فدعاه موسى عليه السلام وقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فضلت عليّ بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا، فاستوت بهم الأرض، وعن ابن عباس قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة، وقال قتادة: ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره، وقوله تعالى: ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس﴾ أي الذين لما رأوه في زينته: ﴿قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون ﴿ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي ليس المال بدالٍّ على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب»، ﴿لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا﴾ أي لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله، ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ يعنون أنه كان كافراً ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، وقد اختلف في معنى قوله ههنا ﴿ويكأن﴾ فقال بعضهم: معناه ويلك اعلم أن، ولكن خفف فقيل ويك، ودل فتح أن على حذف اعلم، وهذا القول ضعفه ابن جرير، والظاهر أنه قوي، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة و يكأن، والكتابة أمر وضعي اصطلاحي والمرجع إلى اللفظ العربي والله أعلم. وقيل: معناها ﴿ويكأن﴾ أي ألم تر أن، قاله قتادة: وقيل معناها وي كأن ففصلها، وجعل حرف وي للتعجب أو للتنبيه، وكأن بمعنى أظن وأحسب. قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة إنها بمعنى ألم تر أن، والله أعلم.

۞ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون ﴿ علواً في الأرض﴾ أي ترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم ولا فساداً فيهم، قال عكرمة: العلو: التجبر، وقال سعيد بن جبير: العلو البغي، وقال سفيان الثوري: العلو في الأرض التكبر بغير حق، والفساد أخذ المال بغير حق، وقال ابن جرير ﴿ لا يريدون علواً في الأرض﴾ تعظماً وتجبراً، ﴿ولا فساداً﴾ عملاً بالمعاصي. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد» وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال»، وقال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة﴾ أي يوم القيامة ﴿ فله خير منها﴾ أي ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة وهذا مقام الفضل، ثم قال: ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار، هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ وهذا مقام الفضل والعدل.

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن﴾

أي افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿ لرادك إلى معاد﴾ أي إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾، وقال تعالى: ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾ وقال: ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء﴾. وقال ابن عباس: ﴿ لرادك إلى معاد﴾ يقول: لرادك إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن، وقال مجاهد: يحييك يوم القيامة، وقال الحسن البصري: إي والله إن له لمعاداً فيبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة، وقد روي عن ابن عباس غير ذلك كما قال البخاري في التفسير عن ابن عباس ﴿ لرادك إلى معاد﴾ قال: إلى مكة، وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس ﴿ لرادك إلى معاد﴾ أي لرادك إلى مكة كما أخرجك منها، وقال محمد بن إسحاق عن مجاهد في قوله ﴿ لرادك إلى معاد﴾: إلى مولدك بمكة، وعن الضحاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ إلى مكة، وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكياً، والله أعلم.

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ، كما فسر ابن عباس سورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح﴾ أنه أجل رسول

الله ﷺ نعي إليه، ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿لرادك إلى معاد﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله، وإبلاغها إلى الثقلين الإنس والجن، ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله وأشرف خلق الله على الإطلاق، وقوله تعالى: ﴿قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾ أي قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم قل: ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم: ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾ أي ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك، ﴿ولكن رحمة من ربك﴾ أي إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿فلا تكونن ظهيراً﴾ أي معيناً ﴿للكافرين﴾ ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم، ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ أي لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك، فإن الله معلٍ كلمتك، ومؤيد دينك، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال: ﴿وادع إلى ربك﴾ أي إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ولا تدع مع الله إلَهاً آخر لا إلَه إلا هو﴾ أي لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغي الإلَهية إلا لعظمته، وقوله : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ إخبارٌ بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ههنا: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أي إلا إياه، وقد ثبت في الصحيح: «أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد * ألا كل شيء ما خلا الله باطل *»[1] ، وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أي إلا ما أريد به وجهه، وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس، فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء، وكان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين: فيقول أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[2] ، وقوله: ﴿له الحكم﴾ أي الملك والتصرف ولا معقب لحكمه ﴿وإليه ترجعون﴾ أي يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

[آخر تفسير سورة القصص ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار .

[بسم الله الرحمن الرحيم . رب يسر بفضلك] (١)

تفسير سورة القصص

[وهى مكية] (٢) .

قال الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا وَكِيع ، عن أبيه ، عن أبى إسحاق ، عن معد يكرب قال : أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طسٓمٓ﴾ المائتين ، فقال : ما هى معى ، ولكن عليكم مَن أخذها من رسول الله ﷺ : خَبَّاب بن الأرَت . قال : فأتينا خَبّاب بن الأرت ، فقرأها علينا ، رضى الله عنه (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله : ﴿ **تِلْكَ** ﴾ أى : هذه ﴿**آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ أى : الواضح الجلى الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن .

وقوله : ﴿**نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾ [يوسف: ٣]أى: نذكر لك الأمر على ما كان عليه،كأنك شاهد وكأنك حاضر .

ثم قال : ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ** ﴾ أى : تكبر وتجبر وطغى ،﴿ **وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا**﴾ أى : أصنافاً، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته .

وقوله : ﴿ **يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ**﴾ يعنى : بنى إسرائيل . وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الأعمال ،ويكُدُّهم ليلا ونهاراً فى أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إهانة لهم واحتقارا ، وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام ،

---

(١) زيادة من ت . (٢) زيادة من ف .

(٣) المسند (١ / ٤١٩) .

يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل ، حين ورد الديار المصرية ، وجرى له مع جبارها ما جرى ، حين أخذ سارة ليتخذها جارية ، فصانها الله منه ، ومنعه منها (١) بقدرته وسلطانه . فبشر إبراهيم ، عليه السلام ، ولده أنه سيولد من صلبه وذريته مَن يكون هلاك مَلك مصر على يديه ، فكانت القبط تَتَحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكور بنى إسرائيل ، ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولكل أجل كتاب ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ . وقد فعل تعالى ذلك بهم ، كما قال : ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وقال: ﴿ **كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الشعراء : ٥٩] ، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك مع قَدَر الملك العظيم الذى لا يخالف أمره القدرى ، بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك ، وفى دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه ، وحتفك ، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلا هو القادر الغالب العظيم ، العزيز القوى الشديد المحال ، الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)** ﴾ .

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل ، خافت القبط أن يفنى بنى إسرائيل (٢) ، فَيَلُون(٣) هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة . فقالوا لفرعون : إنه يوشك ـ إن استمر هذا الحال ـ أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم لا يعيشون ، ونساؤهم لا يمكن أن يَقُمْن بما يقوم به رجالهم من الأعمال ، فيخلص إلينا ذلك . فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً ، فولد هارون ، عليه السلام ، فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى ، عليه السلام ، فى السنة التى يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك ، وقوابل يَدُرْنَ على النساء ، فمن رأينها قد حملت

(١) فى ف ، أ : « ومنعها منه » .
(٢) فى ف : « أن تفنى بنو إسرائيل » ، وفى أ : « أن يفنى بنو إسرائيل » .
(٣) فى أ : « فيكون » .

أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبَلُها إلا نساء القبط ، فإذا ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذبَّاحون ، بأيديهم الشفار المرهفة ، فقتلوه ومضوا قَبَّحَهُم الله . فلما حملت أم موسى به ، عليه السلام ، لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً ، وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً ، وكان موسى ، عليه السلام ، لا يراه أحد إلا أحبه ، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه : ٣٩]. فلما ضاقت ذرعاً به ألهمت في سرها ، وألقى في خلدها ،ونفث في روعها ، كما قال الله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ . وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل ، فاتخذت تابوتاً ، ومهدَت فيه مهداً ، وجعلت ترضع ولدها ، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته فى ذلك التابوت ، وسيرته [١] فى البحر ، وربطته [٢] بحبل عندها . فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه ، فذهبت فوضعته فى ذلك التابوت ، وأرسلته فى البحر وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله ، حتى مر به [٣] على دار فرعون ، فالتقطه الجوارى فاحتملنه ، فذهبن به إلى امرأة فرعون ، ولا يدرين ما فيه ، وخشين أن يفتتّن عليها فى فتحه دونها . فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه ،فأوقع الله محبته فى قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ؛ ولهذا قال : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا [وَحَزَنًا] [٤] ﴾ .

قال محمد بن إسحاق وغيره : « اللام » هنا لام العاقبة لا لام التعليل ؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك . ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى ما قالوه ، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى[٥] اللام للتعليل ؛ لأن معناه أن الله ، تعالى ، قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدواً وحزناً فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾.

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية ، فى تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق : وموسى فى علم الله السابق لفرعون عدو وحزن ، قال الله تعالى :﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ،وقلتم أنتم : لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً ونصيراً ، والله يقول : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

وقوله تعالى :﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى: أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بنى إسرائيل فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحاجُّ عنه وتَذب دونه ، وتحببه إلى فرعون ، فقالت:﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال: أما لك فَنَعَم ، وأما لى فلا . فكان كذلك ، وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه ، وقد تقدم فى حديث الفتون فى سورة « طه » هذه القصة بطولها ، من رواية ابن عباس مرفوعاً عن النسائى وغيره.

---

(١) فى ت : « وأرسلته » . (٢) فى أ : « وأوثقته » . (٣) فى أ : « حتى قربه » .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) فى ت : « يعنى » .

وقوله : ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ ، وقد حصل لها ذلك ، وهداها الله به ، وأسكنها الجنة بسببه . وقولها : ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي : أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه ، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه.

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي : لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجة القاطعة .

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى ، حين ذهب ولدها في البحر ، أنه أصبح فارغاً ، أي : من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وسعيد بن جُبَيْر، وأبو عبيدة ، والضحاك ، والحسن البصري ، وقتادة ، وغيرهم .

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي : إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لَتُظهر أنَّه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها ، لولا أن الله ثَبَّتها وصبَّرها ، قال الله تعالى : ﴿لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي : أمرت ابنتها ـ وكانت كبيرة تعي ما يقال لها ـ فقالت لها : ﴿قُصِّيهِ﴾ أي : اتبعي أثره ، وخذي خبره ، وتَطَلَّبي شأنه من نواحي البلد . فخرجت لذلك ، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ ـ قال ابن عباس : عن جانب .

وقال مجاهد : ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾: عن بعيد .

وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده .

وذلك أنه لما استقر موسى ، عليه السلام ، بدار فرعون ، وأحبته امرأة الملك ، واستطلقته منه، عرضوا عليه المراضع التي في دارهم ، فلم يقبل منها ثدياً ، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك . فخرجوا به إلى سوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته ، فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ذلك ولم (١) يشعروا بها ، قال الله تعالى : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي : تحريماً قَدَرِيا ، وذلك لكرامة الله له صانه (٢) عن أن يرتضع غير ثدي أمه ؛ ولأن الله ـ سبحانه ـ جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه، لترضعه وهي آمنة، بعدما كانت خائفة. فلما رأتهم [أخته] (٣) حائرين فيمن يرضعه قالت : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ (٤) لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ .

---

(١) في ت ، ف : « فلم » .
(٢) في ت : « صيانة » .
(٣) زيادة من ت .
(٤) في ت : «يرضعونه » .

قال ابن عباس : لما قالت ذلك أخذوها ، وشكوا فى أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك نصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى ظُؤُورة (١) الملك ورجاء منفعته . فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك وخَلَصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به (٢) على أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحًا شديداً . وذهب البشير إلى امرأة الملك ، فاستدعت أم موسى ، وأحسنت إليها ، وأعطتها عطاءً جزيلا ، وهى لا تعرف أنها أمه فى الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها . ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه ، فأبت عليها وقالت : إن لى بعلاً وأولاداً، ولا أقدر على المقام عندك . ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجْرَتْ عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل . فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية ، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمنا ، فى عز وجاه ورزق دَار . ولهذا جاء فى الحديث : « مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير ، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها» ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل : يوم وليلة ، أو نحوه ، والله [سبحانه] (٣) أعلم، فسبحان من بيديه الأمر ! ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً ، وبعد كل ضيق (٤) مخرجاً . ولهذا قال تعالى :﴿ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا** ﴾ أى : به ، ﴿ **وَلَا تَحْزَنَ** ﴾ أى: عليه ، ﴿**وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**﴾ أى : فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين. فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته فى تربيته ما ينبغى له طبعاً وشرعاً .

وقوله : ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ أى : حُكْمَ الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة ، التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة ، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس ، وعاقبته محمودة فى نفس الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة : ٢١٦] وقال تعالى : ﴿ **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء : ١٩].

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى ، عليه السلام ، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، آتاه الله حكماً وعلماً ـ قال مجاهد : يعنى النبوة ، ﴿**وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ .

---

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « صهر » ، والمثبت من حديث الفتون . انظر : الجزء الخامس ، تفسير سورة طه .
(٢) فى ت : « بها » . (٣) زيادة من أ . (٤) فى ت : « ضيقة » .

ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قَدَّر له من النبوة والتكليم : قضية قتله ذلك القبطى، الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، فقال تعالى : ﴿ **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾ قال ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : وذلك بين المغرب والعشاء .

وقال ابن المنْكَدر ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار . وكذلك قال سعيد بن جبير ، وعِكْرمة ، والسُّدِّى ، وقتادة .

﴿ **فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ** ﴾ أى : يتضاربان ويتنازعان ، ﴿ **هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ** ﴾ أى : من بنى إسرائيل[١] ، ﴿ **وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ أى : قبطى ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق . فاستغاث الإسرائيلى بموسى ، عليه السلام ، ووجد موسى فرصة ، وهى غفلة الناس ، فعمد إلى القبطى ﴿ **فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ** ﴾ .

قال مجاهد : وكزه ، أى : طعنه بجُمْع [٢] كفه .

وقال قتادة : وكزه بعصا كانت معه .

﴿ **فَقَضَىٰ عَلَيْهِ** ﴾ أى : كان فيها حتفه فمات ، ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى : ﴿ **هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ** ﴾ أى: بما جعلت لى من الجاه والعزة والمنعة ﴿ **فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا** ﴾ أى : معينا ﴿ **لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴾ أى: الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن موسى ، عليه السلام [٣] ، لما قتل ذلك القبطى أنه أصبح ﴿ **فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا** ﴾ أى : من معَرّة ما فعل ، ﴿ **يَتَرَقَّبُ** ﴾ أى : يتلفت ويتوقع [٤] ما يكون من هذا الأمر ، فمر فى بعض الطرق ، فإذا ذاك [٥] الذى استنصره بالأمس على ذلك القبطى يقاتل آخر ، فلما مر موسى، استصرخه على الآخر ، فقال له موسى : ﴿ **إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾ أى : ظاهر الغواية كثير الشر. ثم عزم على البطش بذلك القبطى ، فاعتقد الإسرائيلى لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه : ﴿ **يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ** ﴾ وذلك لأنه لم

---

(١) فى ت : « أى إسرائيلى » .
(٢) فى ت : « بجميع » .
(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٤) فى هـ ، ت : « أى يتقلب أى يتوقع » والمثبت من ف ، أ .
(٥) فى ت ، ف : « ذلك » .

يعلم به إلا هو وموسى ، عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطى لقفَها من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده ، فعلم بذلك ، فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى ، فطلبوه وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) ﴾ .

قال تعالى : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ ، وصفه بالرّجُولية لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بُعثوا وراءه ، فسبق إلى موسى ، فقال له : ياموسى ، ﴿ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أى : يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أى : من البلد ، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ .

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته فى أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قلبه ، بل كان فى رفاهية ونعمة ورياسة ، ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أى : يتلفت ، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى :من فرعون وملئه . فذكروا أن الله ، سبحانه وتعالى ، بعث له ملكاً على فرس ، فأرشده إلى الطريق ، فالله أعلم .

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى : أخذ طريقاً سالكاً مَهْيَعا فرح بذلك ، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى : إلى الطريق الأقوم . ففعل الله به ذلك ، وهداه إلى الطريق المستقيم فى الدنيا والآخرة ، فجعله هادياً مهدياً .

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى : ولما وصل إلى مدين وورد ماءها ، وكان لها بئر تَرِده رعاء الشاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾ أي : جماعة ﴿ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أى : تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يُؤذَيا . فلما رآهما موسى ، عليه السلام ، رق لهما ورحمهما ، ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أى : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿ قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أى: لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء ، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أى : فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى. قال الله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾.

قال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا عبد الله ، أنبأنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عَمْرو (١)

---

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « عروة بن ميمون » والمثبت من مصنف ابن أبى شيبة .

ابن ميمون الأوْدى ، عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أن موسى ، عليه السلام ، لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ،ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه ، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم . إسناد صحيح (١) .

وقوله :﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ـ قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل مَدْيَنَ حتى سقطت نعل قدمه . وجلس (٢) فى الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

وقوله : ﴿ إِلَى الظِّلِّ ﴾: قال ابن عباس ، وابن مسعود ، والسدى : جلس تحت شجرة .

وقال ابن جرير : حدثنى الحسين بن عمرو العَنْقَزِىّ (٣) ، حدثنا أبى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال :حَثَثْتُ (٤) على جمل ليلتين، حتى صَبَّحت مدين ، فسألت عن الشجرة التى أوى إليها موسى ، فإذا شجرة خضراء ترف ، فأهوى إليها جملى ـ وكان جائعا ـ فأخذها جملى فعالجها ساعة ، ثم لفظها ، فدعوت الله لموسى ، عليه السلام ، ثم انصرفت (٥) .

وفى رواية عن ابن مسعود : أنه ذهب إلى الشجرة التى كلم الله منها لموسى ، كما سيأتى والله(٦) أعلم .

وقال السدى : كانت من شجر السَّمُر .

وقال عطاء بن السائب : لما قال موسى:﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، أسمعَ المرأةَ.

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ .

لما رجعت المرأتان سِرَاعاً (٧) بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا ، فسألهما عن

---

(١) المصنف لابن أبى شيبة (١١ / ٥٣٠) .

(٢) فى هـ ، أ : « ولما جلس » . (٣) فى ف : « عمير العنقزى » ، وفى أ : « عمير القفقرى » . (٤) فى ف ، أ : « أخببت » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٠ / ٣٧) .

(٦) فى ف : « فالله » .

(٧) فى أ : « سريعا » .

خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسى ، عليه السلام . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي : مشى الحرائر ، كما روى عن أمير المؤمنين عمر، رضى الله عنه ، أنه قال : كانت مستَتِرة بكم درْعها .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا [أبى ، حدثنا] (١) أبو نعيم ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق، عن عمر بن ميمون قال : قال عمر ، رضى الله عنه : جاءت تمشى على استحياء ، قائلة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع (٢) خرَّاجة ولاجة . هذا إسناد صحيح .

قال الجوهرى : السلفع من الرجال : الجسور ، ومن النساء : الجريئة السليطة ، ومن النوق : الشديدة .

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ، وهذا تأدب فى العبارة ، لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة ، بل قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعنى : ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أى : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذى خرج من أجله من بلده ، ﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول :طب نفسا وقَرّ عينا ، فقد خرجتَ من مملكتهم فلا حُكْم لهم فى بلادنا . ولهذا قال: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل : من هو ؟ على أقوال : أحدها أنه شعيب النبى ، عليه السلام (٣) ، الذى أرسل إلى أهل مدين . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد . ورواه ابن أبى حاتم .

حدثنا أبى ، حدثنا عبد العزيز الأويسى ، حدثنا مالك بن أنس ؛ أنه بلغه أن شعيبا هو الذى قص عليه موسى القصص ، قال : ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد روى الطبرانى عن سلمة بن سعد العنزَى أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له : « مرحبا بقوم شعيب وأخْتان موسى ، هُديت » (٤) .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى ، عليه (٥) السلام ، بمدة طويلة ؛ لأنه قال لقومه : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٩٥] . وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل ، عليه السلام (٦) ، بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل ، عليهما السلام ، مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة ، كما

---

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى ف : « تستلفع » .
(٣) فى ف : « صلى الله عليه وسلم » ، وفى أ : « صلى الله عليه » .
(٤) المعجم الكبير (٧/ ٥٥) من طريق حفص بن سلمة عن شيبان بن قيس عن سلمة بن سعد به ، وقال الهيثمى : « فيه من لم أعرفهم».
(٥) فى ت : « عليهما » .
(٦) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

ذكره غير واحد. وما قيل : إن شعيبا عاش مدة طويلة ، إنما هو ـ والله أعلم ـ احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا . وما جاء فى[1] بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى [2] ، لم يصح إسناده ، كما سنذكره قريبا إن شاء الله . ثم من الموجود فى كتب بنى إسرائيل أن هذا الرجل اسمه: « ثبرون»، والله أعلم.

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : وأثرون [3] وهو ابن أخى شعيب ، عليه السلام .

وعن أبى حمزة [4] ، عن ابن عباس : الذى استأجر موسى يثرى صاحب مدين . رواه ابن جرير ، ثم قال : الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر ، ولا خبر تجب به الحجة فى ذلك .

وقوله : ﴿ **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ أى : قالت إحدى ابنتى هذا الرجل . قيل : هى التى ذهبت وراء موسى ، عليه السلام ، قالت لأبيها : ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ**﴾ أى : لرعْية هذه [5] الغنم .

قال عمر ، وابن عباس ، وشُريح القاضى ، وأبو مالك ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق ، وغير واحد : لما قالت : ﴿**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ ، قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت: إنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنه لما جئت معه تقدمتُ أمامهُ ، فقال لى : كونى من ورائى ، فإذا اجتنبت [6] الطريق فاحذفى [لى [7]] بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأتهدّى[8] إليه .

قال سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس فى عُمَر ، وصاحب يوسف حين قال :﴿ **أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**﴾ [يوسف :٢١] ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿**يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾.

قال : ﴿ **إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ** ﴾ أى : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى عنه [9] ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين .

قال شعيب الجبائى : وهما صفوراً ، وليّا .

وقال محمد بن إسحاق : صفوراً وشرقاً ، ويقال : ليا. وقد استدل أصحاب أبى حنيفة [رحمه الله تعالى] [10] بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : « بعتك أحد هذين العبدين بمائة . فقال : اشتريت » أنه يصح ، والله أعلم .

---

(١) فى ت : « من » .
(٢) فى أ : « لموسى » .
(٣) فى أ : « يثرون » .
(٤) فى ف ، أ : « أبى هريرة » .
(٥) فى أ : « رعية هذا » .
(٦) فى أ : « اختلفت » .
(٧) زيادة من أ .
(٨) فى أ : « لأهتدى » .
(٩) فى ت ، ف ، أ : « غنمه » .
(١٠) زيادة من ت ، ف .

وقوله : ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ أى : على أن ترعى علىّ ثمانى سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك [١] ، وإلا ففى ثمان كفاية ، ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى : لا أشاقك ، ولا أؤاذيك ، ولا أماريك .

وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعى ، فيما إذا قال : « بعتك هذا بعشرة نقداً ، أو بعشرين نسيئة » أنه يصح ، ويختار المشترى بأيهما أخذه صح . وحُمل الحديث المروى فى سنن أبى داود : « من باع بيعتين فى بيعة ، فله أوكسهما أو الربا » [٢] على هذا المذهب . وفى الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر ، ليس هذا موضع بسطه لطوله . والله أعلم .

ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم ، فى صحة [٣] استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ، واستأنسوا فى ذلك بما وراه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى كتابه السنن، حيث قال : « باب استئجار الأجير على طعام بطنه » : حدثنا محمد بن المصفّى الحِمْصى ، حدثنا بَقَّية بن الوليد ، عن مسلمة [٤] بن على ، عن سعيد بن أبى أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن على بن ربَاح قال : سمعت [٥] عُتبةَ بن النُّدَّر [٦] يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ ﴿ طسٓمٓ ﴾ [٧] ، حتى إذا بلغ قصة موسى قال : إن موسى أجَّرَ نفسه ثمانى سنين ـ أو : عشر [٨] سنين ـ على عفة فرجه وطعام بطنه [٩] .

وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف [١٠] ؛ لأن مسلمة [١١] بن على وهو الخُشَنَى الدمشقى البلاطىّ ضعيف الرواية عند الأئمة ، ولكن قد رُوى من وجه آخر ، وفيه نظر أيضا .

وقال [١٢] ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لَهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمى ، عن على بن رَبَاح اللخمى قال : سمعت عتبة بن النّدر السلمى ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه، وطعمة بطنه » [١٣] .

وقوله تعالى إخباراً عن موسى ، عليه السلام : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾، يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من أنك استأجرتنى على ثمان سنين ، فإن أتممت عشراً فمن عندى ، فأنا متى فعلت أقلهما [فقد] [١٤] برئت من العهد ، وخرجت من الشرط ؛ ولهذا قال : ﴿ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ أى : فلا

(١) فى ت : « لك » .
(٢) سنن أبى داود برقم (٣٤٦١) .
(٣) فى أ : « حجة » . (٤) فى أ : « سلمة » .
(٥) فى ت : « ثم روى بإسناده عن » . (٦) فى هـ، ت : « المنذر » ، والمثبت من ف ، وسنن ابن ماجه .
(٧) فى ت : « طس » . (٨) فى ت : « أو عشرة » .
(٩) سنن ابن ماجه برقم (٢٤٤٤) وضعفه البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٢٦٠) لتدليس بقية بن الوليد .
(١٠) فى ت : « وهذا الحديث فيه ضعف من هذا الوجه » . (١١) فى أ : « سلمة » .
(١٢) فى أ : « فقال » .
(١٣) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٤٩٥) « كشف الأستار » من طريق يحيى بن بكير عن ابن لهيعة بأطول منه ، وفى إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف .
(١٤) زيادة من أ .

حرج على مع أن الكامل ـ وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى ، بدليل من خارج . كما قال [الله][١] تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٢٠٣] .

وقال رسول الله ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمى ، رضى الله عنه ، وكان كثير الصيام ، وسأله عن الصوم فى السفر ـ فقال : « إن شئت فصم ، وإن شئت فأفطر» [٢] ، مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر .

هذا وقد دل الدليل على أن موسى ، عليه السلام ، إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما ؛ قال البخارى :

حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مَرْوان بن شُجاع ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير قال : سألنى يهودى من أهل الحيرة : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدرى حتى أقدَمَ على حَبْر العرب فأسألَه . فقدمت فسألت ابن عباس ، رضى الله عنه ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل . هكذا رواه البخارى [٣] ، وهكذا رواه حكيم بن جبير وغيره ، عن سعيد بن جبير . ووقع فى « حديث الفُتُون » ، من رواية القاسم ابن أبى أيوب ، عن سعيد بن جبير ؛ أن الذى سأله رجل من أهل النصرانية . والأول أشبه ، والله أعلم ، وقد رُوى من [٤] حديث ابن عباس مرفوعا ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن محمد الطوسى ، حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنى إبراهيم بن يحيى ابن أبى يعقوب ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «سألت جبريل : أىّ الأجلين قضى موسى قال : أكملهما وأتمهما » [٥] .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن الحميدى ، عن سفيان ـ وهو ابن عيينة ـ حدثنى إبراهيم ابن يحيى بن أبى يعقوب ـ وكان من أسنانى أو أصغر منى ـ فذكره .

قلت : وإبراهيم هذا ليس بمعروف .

ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ ، فذكره . ثم قال : لا نعرفه مرفوعا عن ابن عباس إلا من هذا الوجه [٦] .

وقال [٧] ابن أبى الحاتم : قُرئ على يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، عن يحيى بن ميمون الحضرمى ، عن يوسف بن تيرح : أن رسول الله ﷺ سئل : أىّ

(١)زيادة من ف ، أ .
(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٩٣) والنسائى فى السنن (٤/ ١٨٥) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٦٨٤) .
(٤) فى ت : « روى طرق مرسلة من » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٠/ ٤٤) .
(٦) قال الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان (١/ ١٢٤) : « إبراهيم بن يحيى العدنى عن الحكم بن أبان وعنه سفيان بن عيينة بخبر منكر والرجل نكرة ، وحديثه عن الحميدى ومتنه : سأل النبى ﷺ جبريل عليه السلام أى الأجلين قضى موسى، انتهى . وهذا الرجل ذكره ابن حبان فى الثقات . وقال الأزدى : لا يتابع فى حديثه ، وأخرج الحاكم حديثه المذكور فى المستدرك » .
(٧) فى ف : « ثم قال » .

الأجلين قضى موسى؟قال: «لا علم لى». فسأل رسول الله ﷺ جبريل، فقال جبريل: لا علم لى، فسأل جبريل ملكا فوقه فقال: لا علم لى. فسأل [١] ذلك المَلَك ربه ـ عز وجل ـ عما سأله عنه جبريل عما سأله عنه محمد ﷺ فقال الرب سبحانه وتعالى: «قضى أبرهما وأبقاهما ـ أو قال: أزكاهما » [٢] .

وهذا مرسل ، وقد جاء مرسلا من وجه آخر ، وقال [٣] سُنَيد : حدثنا حجاج ، عن ابن جُرَيْج قال : قال مجاهد : إن النبى ﷺ سأل جبريل : « أىّ الأجلين قضى موسى ؟ » فقال : سوف أسأل إسرافيل . فسأله فقال : سوف أسأل الرب عز وجل . فسأله فقال : « أبرهما وأوفاهما » [٤].

طريق أخرى مرسلة أيضا : قال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا أبى ، حدثنا أبو مَعْشَر ، عن محمد بن كعب القُرظى قال : سُئِل رسول الله ﷺ : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : «أوفاهما وأتمهما » [٥] .

فهذه طرق متعاضدة ، ثم قد [٦] روى [هذا] [٧] مرفوعاً من رواية أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن ، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عَوبَد بن أبى عمران الجَوْنى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبى ذر : أن النبى ﷺ سُئِل : أىّ الأجلين قَضَى موسى ؟ قال : « أوفاهما وأبرهما » ، قال : « وإن سئلتَ أىّ المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرى منهما » .

ثم قال البزار : لا نعلم يروى عن أبى ذر إلا بهذا الإسناد [٨] .

وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث عَوبَد بن أبى عمران ـ وهو ضعيف ـ ثم قد روى أيضا نحوه من حديث عتبة بن الندر [٩] بزيادة غريبة جدا ، فقال أبو بكر البزار : حدثنا عمر بن الخطاب السجستانى ، حدثنا يحيى بن بُكَيْر ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا الحارث بن يزيد عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة بن النّدر[١٠] يقول : إن رسول الله ﷺ سُئِل : أىّ الأجلين قَضَى موسى؟ قال : « أبرهما وأوفاهما » . ثم قال النبى ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، لما أراد فراق شعيب، عليه السلام ، أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به . فأعطاها ما ولدت غنمه فى ذلك العام من قالِب لَون . قال : فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه ، فولدت قَوَالب ألوان كلها ، وولدت ثنتين وثلاثاً كل شاة ليس فيها فَشُوش ولا ضبُوب ، ولا كَميشة تُفَوّت الكف ، ولا ثَعُول » . وقال رسول الله ﷺ : « إذا [١١] افتتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها، وهى السامرية » [١٢].

---

(١) فى ف ، أ : « عز وجل » .
(٢) مسند البزار برقم (٢٢٤٥) « كشف الأستار » .
(٣) فى ف ، أ : « فقال » .
(٤ ، ٥) تفسير الطبرى (٢٠/٤٤).
(٦) فى ف : « وقد » .
(٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) مسند البزار برقم (٢٢٤٤) « كشف الأستار » .
(٩ ، ١٠) فى ف ، أ : « المنذر » .
(١١) فى أ : « إنكم إذا » .
(١٢) مسند البزار برقم (٢٢٤٦) « كشف الأستار» .

هكذا أورده البزار . وقد رواه ابن أبى حاتم بأبسط من هذا [(١)] ، فقال :

حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَير ، حدثنى عبد الله بن لهيعة (ح)وحدثنا أبوزرعة، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمى ، عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة بن النُّدّر [(٢)] السلمى ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى ، عليه السلام [(٣)] ، آجر نفسه بعفة فرجه وطُعمة بطنه. فلما وفى الأجل ـ قيل : يارسول الله ، أىّ الأجلين ؟ قال ـ : أبرهما وأوفاهما . فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب [(٤)] لون من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حسناء ، فانطلق موسى ، عليه السلام، إلى عصاه فَسَمَّاها من طرفها ، ثم وضعها فى أدنى الحوض ، ثم أوردها فسقاها ، ووقف موسى بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال :« فأتأمت وأثلثت ، ووضعت كلها قوالب ألوان ، إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش ـ قال يحيى : ولا ضبون . وقال صفوان : ولا ضبُوب . قال أبو زرعة : الصواب ضَبُوب ـ ولا عَزُوز ولا ثَعُول ولا كميشة تُفَوّت الكف » . قال النبى ﷺ : « فلو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية » .

وحدثنا أبو زُرْعة ، حدثنا صفوان قال : سمعت الوليد قال : فسألت ابن لَهيعة : ماالفشوش ؟ قال : التى تَفُشّ بلبنها واسعة الشَّخب . قلت : فما الضبوب ؟ قال: الطويلة الضرع تجره . قلت : فما العَزُوز ؟ قال : ضيقة الشَّخب . قال فما الثَعُول ؟ قال : التى ليس لها ضرع إلا كهيئة حلمتين . قلت : فما الكميشة ؟ قال : التى تُفَوّت الكف ، كميشة الضرع ، صغير لا يدركه الكف .

مدار هذا الحديث على عبد الله بن لَهيعة المصرى ـ وفى حفظه سوء ـ وأخشى أن يكون رفعه خطأ ، والله أعلم . وينبغى أن يُرْوَى ليس فيها فشوش ولا عزوز ، ولا ضبوب ولا ثَعول ولا كميشة، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة . وقد روى ابن جرير من [(٥)] كلام أنس بن مالك ـ موقوفا عليه ـ ما يقارب بعضه بإسناد جيد [(٦)] ، فقال : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبى ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : لما دعى نبى الله موسى ، عليه السلام ، صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فذلك ولدها لك . فعمد فرفع حبالاً على الماء ، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة ، فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن ذلك العام [(٧)].

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)

---

(١) فى ت : « بزيادة غريبة » . (٢) فى ت ، ف ، أ : « المنذر » . (٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٤) فى ت : « قابله » . (٥) فى ت : « عن » .
(٦) فى ت : « ما يقارب هذا » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٠/٤٤) .

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾ .

قد تقدم فى تفسير الآية قبلها أن موسى ، عليه السلام ، قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما ، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة من قوله (١) : ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ** ﴾ أى : الأكمل منهما ، والله (٢) أعلم .

قال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : قضى عشر سنين ، وبعدها عشرا أخر . وهذا القول لم أره لغيره، وقد حكاه عنه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والله (٣) أعلم .

وقوله : ﴿ **وَسَارَ بِأَهْلِهِ** ﴾ : قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره ، فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زَنده لا يُضىء شيئاً ، فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك [إذ] (٤) ﴿ **آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا** ﴾ أى : رأى نارا تضىء له على بعد ، ﴿ **قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا** ﴾ أى : حتى أذهب إليها ، ﴿ **لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ** ﴾ . وذلك لأنه كان قد أضل الطريق ، ﴿ **أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ** ﴾ أى : قطعة منها (٥) ، ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾ أى : تَتَدفؤون بها من البرد. قال الله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ** ﴾ أى : من جانب الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ، كما قال تعالى (٦) : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ** ﴾ ، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربى عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحُف الجبل مما يلى الوادى ، فوقف باهتاً فى أمرها ، فناداه ربه: ﴿ **مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ** ﴾ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التى نودى منها موسى ، عليه السلام ، سمرة خضراء ترف . إسناده مقارب .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض من لا يتهم ، عن وهب بن منبه قال : شجرة من العُلّيق ، وبعض أهل الكتاب يقول : من العوسج .

وقال قتادة : هى من العوسج ، وعصاه من العوسج .

وقوله تعالى : ﴿ **أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى

(١) فى أ : « حيث قال » . (٢) فى ت : « فالله » . (٣) فى ف : « فالله » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ت : « قطعة من النار » . (٦) فى ت : « قال الله تعالى » .

ذاته وصفاته ، وأقواله وأفعاله سبحانه !

وقوله : ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أى : التى فى يدك .كما قرره على ذلك فى قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٧، ١٨]. والمعنى : أما هذه عصاك التى تعرفها ألقها ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ، فعرف وتحقق أن الذى يخاطبه ويكلمه هو الذى يقول للشيء : كن ، فيكون . كما تقدم بيان ذلك فى سورة « طه » .

وقال هاهنا : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ أى : تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أى : فى حركتها السريعة مع عظم خَلْق قوائمها (١) واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها، فتنحدر فى فيها تتقعقع ، كأنها حادرة فى واد . فعند ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى : ولم يكن يلتفت ؛لأن طبع البشرية ينفر من ذلك . فلما قال الله له : ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ، رجع فوقف فى مقامه الأول ، ثم قال الله له : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى : إذا أدخلت يدك فى جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ ، كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ؛ ولهذا قال : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى : من غير برص .

وقوله : ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ : قال مجاهد : من الفزع . وقال قتادة : من الرعب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير : مما حصل لك من خوفك من الحية .

والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر ، عليه السلام ، إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهى يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجد أو يَخف ، إن شاء الله، وبه الثقة .

قال (٢) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح ، أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب ، عن عبد الله بن مسلم ، عن مجاهد ، قال (٣) : كان موسى ، عليه السلام ، قد مُلئ قلبه رعباً من فرعون ، فكان إذا رآه قال : اللهم ،إنى أدرأ بك فى نحره ، وأعوذ بك من شره، ففرّغ (٤) الله ما كان فى قلب موسى ، عليه السلام ، وجعله فى قلب فرعون ، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار .

وقوله : ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ يعنى : إلقاءه العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ـ دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى : وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أى : خارجين عن طاعة الله ، مخالفين لدين الله ، [والله

---

(١) فى ت : « عظم خلقها » ، وفى ف : « عظم خلقتها » .
(٢) فى ت : « روى » .
(٣) فى ت : « بإسناده » .
(٤) فى ت ، ف ، أ : « فنزع » .

أعلم] [(١)].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) ﴾ .

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ، الذى إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ يعنى : ذلك القبطى ، ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أى : إذا رأونى . ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ ، وذلك أن موسى ، عليه السلام ، كان فى لسانه لثغة ، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة ، حين خُيّر بينها وبين التمرة أو الدرّة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدة فى التعبير ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه : ٢٧ ـ ٣٢] ، أى : يؤنسنى فيما أمرتنى به من هذا المقام العظيم ، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد . ولهذا قال : ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا [يُصَدِّقُنِي] [(٢)] ﴾ ، أى : وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمرى ، يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل ؛ لأن خبر اثنين أنجع فى النفوس من خبر واحد ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق : ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ أى : يبين لهم عنى ما أكلمهم به ، فإنه يفهم [عنى] [(٣)] .

فلما سأل ذلك قال الله تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أى : سنقوى أمرك ، ونعز جانبك بأخيك ، الذى سألت له أن يكون نبياً معك . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] . ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منَّةً على أخيه ، من موسى على هارون ، عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولا معه إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال [الله تعالى] [(٤)] فى حق موسى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى : حجة قاهرة ، ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا ﴾ أى : لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ، كما قال الله تعالى [لرسوله محمد ﷺ] [(٥)] : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ [وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ] [(٦)] وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] ، أى : وكفى بالله ناصراً ومعيناً ومؤيداً . ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ ، كما قال

(١) زيادة من ف . (٢) زيادة من ت . (٣) زيادة من أ .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) زيادة من ت ، أ . (٦) زيادة من ت ، أ ، وفى هـ : « إلى قوله » .

تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

ووجه ابن جرير على أن المعنى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ ، ثم يبتدئ فيقول: ﴿ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ ، تقديره: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا (١) .

ولا شك أن هذا المعنى صحيح، وهو حاصل من التوجيه الأول، فلا حاجة إلى هذا، والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة ، على صدقهما فيما أخبر عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره . فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه ، وأيقنوا أنه من الله ، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة ، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق ، فقالوا : ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أي : مفتعل مصنوع . وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه ، فما صعد معهم ذلك .

وقوله (٢) : ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ يعنون : عبادة الله وحده لا شريك له ، يقولون: ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر (٣) الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى . فقال موسى ، عليه السلام ، مجيباً لهم : ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ ﴾ يعني : مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم . ولهذا قال : ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي : النصرة والظفر والتأييد ،﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : المشركون بالله .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾ .

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/٤٨) .

(٢) في ت ، ف : « وقولهم » .

(٣) في ف : « وما نرى » .

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه فى دعوى الإلهية لنفسه القبيحة ـ لعنه الله ـ كما قال تعالى : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية ، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ؛ ولهذا قال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ، [و] (١) قال تعالى إخباراً عنه : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٣ ـ ٢٦] يعنى: أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مُصَرِّحا لهم بذلك ، فأجابوه سامعين مطيعين . ولهذا انتقم الله تعالى منه ، فجعله عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة ، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال : ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء : ٢٩] .

وقوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى ﴾ أى : أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين ، ليتخذ له آجُرّا لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع ـ كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] ، وذلك لأن (٢) فرعون بنى هذا الصرح الذى لم يُرَ فى الدنيا بناء أعلى منه ، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : فى قوله إن ثَمّ رباً غيرى ، لا أنه كذبه فى أن الله أرسله ؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع ،فإنه قال:﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال : ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء : ٢٩] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وهذا قول ابن جرير .

وقوله :﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴾ أى : طغوا وتجبروا ، وأكثروا فى الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة (٣) ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٣ ، ١٤] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أى : أغرقناهم فى البحر فى صبيحة واحدة ، فلم يبق منهم أحد ، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى : لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم ، فى تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ أى : فاجتمع عليهم خزى الدنيا موصولاً بذل الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[محمد : ١٣] .

وقوله : ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ (٤) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى : وشرع الله لعنتهم ولعنة مَلكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله، وكما أنهم فى الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم ، كذلك ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ .قال قتادة : وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٩] .

---

(١) زيادة من ت ، ف .
(٢) فى ت : « أن » .
(٣) فى ت : « لا قيامة ولا معاد » .
(٤) فى ت : « فأتبعناهم » .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم ، عليه من ربه الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه .

وقوله : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى﴾ يعنى : أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين ، كما قال : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة : ٩ ، ١٠] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا : حدثنا عوف ، عن أبى نَضْرَة ، عن أبى سعيد الخُدْرى قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض ، غير القرية التى مسخوا قردة ، ألم تر أن الله يقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى﴾ (١) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث عوف بن أبى جَمِيلة (٢) الأعرابى ، بنحوه . وهكذا رواه أبو بكر البزار فى مسنده ، عن عمرو بن على الفلاس ، عن يحيى القَطَّان ، عن عوف ، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد موقوفاً (٣) . ثم رواه عن نصر بن على ، عن عبد الأعلى ، عن عوف ، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد ـ رفعه (٤) إلى النبى ﷺ ـ قال : « ما أهلكَ الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى » ، ثم قرأ :﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى﴾(٥).

وقوله : ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أى : من العمى والغى ، ﴿ وَهُدًى ﴾ إلى الحق ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أى : إرشادا إلى الأعمال الصالحة ،﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى : لعل الناس يتذكرون به ، ويهتدون بسببه .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا

(١) تفسير الطبرى (٢٠ / ٥٠) .
(٢) فى أ : « حبلة » .
(٣) مسند البزار برقم (٢٢٤٧) « كشف الأستار » .
(٤) فى ت : « مرفوعا » .
(٥) مسند البزار برقم (٢٢٤٨) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٨٨) : « رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ورجالهما رجال الصحيح » .

رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ .

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، حيث أخبر بالغيوب الماضية ، خبراً كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم ، وهو رجل أمى لا يقرأ شيئا من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، قال تعالى :﴿ **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ٤٤] ، أى: ما كنت حاضراً لذلك ، ولكن الله أوحاه إليك . وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه ، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه .

ثم قال تعالى :﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [هود : ٤٩] وقال فى آخر السورة :﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ** (١) **الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ** ﴾ [هود: ١٠٠] ، وقال بعد ذكر قصة يوسف : ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ** ﴾ [يوسف : ١٠٢] ، وقال فى سورة طه :﴿ **كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا** ﴾ [طه : ٩٩] ، وقال هاهنا ـ بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له ـ : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ** ﴾ يعنى : يامحمد ، ما كنت بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطئ الوادى ، ﴿ **وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ لذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ، ليجعله حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها ، ونَسُوا حُجَج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين .

وقوله : ﴿ **وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** ﴾ أى : وما كنت مقيما فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، حين أخْبرتَ عن نبيها شعيب ، وما قال لقومه ، وما ردوا عليه ، ﴿ **وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** ﴾ أى : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك للناس رسولا .

﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا** ﴾ ـ قال أبو عبد الرحمن النسائى ، فى التفسير من سننه : أخبرنا على بن حُجْر ، أخبرنا عيسى ـ وهو ابن يونس ـ عن حمزة الزيات ، عن الأعمش ، عن على ابن مُدْرِك ، عن أبى زُرْعَة ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا** ﴾، قال : نودوا : يا أمة محمد ، أعطيتكم قبل أن تسألونى، وأجبتكم قبل أن تدعونى .

وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث جماعة،عن حمزة ـ وهو ابن حبيب الزيات ـ عن الأعمش . ورواه ابن جرير من حديث وَكِيع ويحيى بن عيسى ، عن الأعمش ، عن على بن مُدْرِك ، عن أبى زُرْعَة ـ وهو ابن عمرو بن جرير (٢) ـ أنه قال ذلك من كلامه ، والله أعلم.

وقال مُقاتِل بن حَيَّان :﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا** ﴾: أمتك فى أصلاب آبائهم أن يؤمنوا

(١) فى ت ، ف : « الغيب » وهو خطأ .
(٢) تفسير الطبرى (٢٠/٥١) والذى فيه من طريق سفيان ويحيى بن عيسى .

بك إذا بعثت .

وقال قتادة : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسى . وهذا ـ والله أعلم ـ أشبه بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ ﴾.

ثم أخبر هاهنا بصيغة أخرى أخص من ذلك ، وهو النداء ، كما قال تعالى :﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ [الشعراء : ١٠] ، وقال :﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات : ١٦] ، وقال: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢] .

وقوله :﴿ وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أى : ما كنت مشاهداً لشىء من ذلك ، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به ، رحمة منه لك وبالعباد بإرسالك إليهم ، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أى : لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل .

﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿ أَن تَقُولُوا (١) إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾[الأنعام : ١٥٦ ، ١٥٧]، وقال:﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]،وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة :١٩]،والآيات فى هذا كثيرة [والله أعلم] (٢).

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول : أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ، صلوات الله وسلامه عليه (٣) ، قالوا على

(١) فى ت ، ف : « يقولوا » .
(٢) زيادة من ف ،أ .
(٣) فى أ : « صلى الله عليه وسلم ».

وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد : ﴿لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ ، يعنون ـ والله أعلم ـ : من الآيات الكثيرة، مثل العصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وتنقص (١) الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله ، وكفلق البحر وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التى أجراها الله على يدى موسى ، عليه السلام ، حجة وبراهين له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع فى فرعون وملئه ، بل كفروا بموسى وأخيه هارون ، كما قالوا لهما :﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون : ٤٨] . ولهذا قال هاهنا : ﴿أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أى : أو لم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة . ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ ،أى تعاونا ، . ﴿ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ أى : بكل منهما كافرون . ولشدة التلازم والتصاحب والمقارنة بين موسى وهارون ، دل ذكر أحدهما على الآخر ، كما قال الشاعر :

فَمَا أدرى إذَا يَمَّمْتُ أرْضاً أريدُ الخَيْرَ أيهُمَا يَلينْى

أى : فما أدرى أيلينى الخير أو الشر . قال مجاهد بن جبر : أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك ، فقال الله : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ قال : يعنى : موسى وهارون ﷺ (٢) ﴿ تَظَاهَرَا﴾ أى : تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر . وبهذا قال سعيد ابن جبير وأبو رَزين فى قوله:﴿سَاحِرَانِ﴾ يعنون:موسى وهارون. وهذا قول جيد قَوىّ ،والله أعلم .

وقال مسلم بن يَسَار ، عن ابن عباس ﴿ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ يعنى : موسى ومحمداً ، صلوات الله وسلامه عليهما (٣) . وهذا رواية عن الحسن البصرى .

وقال الحسن وقتادة : يعنى : عيسى ومحمداً ، صلى الله عليهما وسلم ، وهذا فيه بعد ؛ لأن عيسى لم يجر له ذكر هاهنا ، والله أعلم .

وأما من قرأ ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ ، فقال على بن أبى طلحة والعوفى ، عن ابن عباس . يعنون: التوراة والقرآن . وكذا قال عاصم الجَنَدىّ ، والسُّدِّىُّ ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال السدى: يعنى صَدّق كل واحد منهما الآخر .

وقال عكرمة : يعنون : التوراة والإنجيل . وهو رواية عن أبى زُرْعَة ، واختاره ابن جرير (٤) .

وقال الضحاك وقتادة : الإنجيل والقرآن . والله ، سبحانه ، أعلم بالصواب . والظاهر على قراءة : ﴿ سِحْرَانِ﴾ أنهم يعنون : التوراة والقرآن ؛ لأنه قال بعده :﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾،وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن،كما فى قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ إلى أن قال:﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩١ ، ٩٢] ،

---

(١) فى ت ، ف ، أ : « تنقيص » . (٢) فى ف ، أ : « عليهما السلام » . (٣) فى ف : « عليهما وسلم » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٠/ ٥٣).

وقال في آخر السورة : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، وقالت الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى [مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ] (١) ﴾ [الأحقاف : ٣٠] وقال ورقة بن نوفل : هذا الناموس الذى أنزل [الله] (٢) على موسى . وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد، ﷺ (٣) ، وهو القرآن، وبعده فى الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران، عليه السلام ، وهو التوراة التى قال الله تعالى فيها : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، والإنجيل إنما نزل متمما للتوراة ومُحلا لبعض ما حُرِّم على بنى إسرائيل . ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل.

قال الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أى : فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : بلا دليل ولا حجة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى: بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ ، قال مجاهد : فصلنا لهم القول .

وقال السدى : بينا لهم القول .

وقال قتادة : يقول تعالى : أخبَرهم كيف صُنع بمن مضى وكيف هو صانع،﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قال مجاهد وغيره : ﴿وَصَّلْنَا لَهُمْ﴾ يعنى : قريشا . وهذا هو الظاهر ، لكن قال حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار ، عن يحيى بن جَعْدَة ، عن رفاعة ـ رفاعة هذا هو ابن قَرَظَة القُرَظى ، وجعله ابن منده : رفاعة بن سموال ، خال صفية بنت حيى ، وهو الذى طلق تميمة بنت وهب التى تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير (٤) ـ قال : نزلت : ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ فى عشرة أنا أحدهم . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديثه (٥) .

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

---

(١) زيادة من أ . (٢) زيادة من ف .

(٣) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » .

(٤) أسد الغابة لابن الأثير (٢/٢٢٨) .

(٥) تفسير الطبرى (٢٠/٥٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/٥٣) من طريق حماد بن سلمة به

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء [١] من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا ﴾ [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] ، وقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] .

قال سعيد بن جبير : نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم : ﴿ يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ ، حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ يعني : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أي : موحدين مخلصين لله مستجيبين له .

قال الله : ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي : هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني[يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثاني] [٢] ؛ ولهذا قال : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي : على اتباع الحق ؛ فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس . وقد ورد في الصحيحين من حديث عامر الشعبي ، عن أبي بُرْدَة ، عن أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يُؤتَونَ أجرهم مرّتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي ، وعَبْد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورَجُل كانت له أمَة فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها » [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق السَّيلَحيني ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن سليمان [٤] بن عبد الرحمن ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : إني لتحتَ رَاحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح ، فقال قولا حسناً جميلا ، وقال فيما قال : « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين ، وله ما لنا وعليه ما علينا ، [ومن أسلم من المشركين ، فله أجره ، وله ما لنا وعليه ما علينا] [٥] » [٦].

وقوله ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي : لا يقابلون السيئ [٧] بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي : ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خَلْق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات ، وصدقات النفل والقربات .

---

(١) في ت ، ف : « الألباء » وفي أ : « الألباب » .
(٢) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٣) صحيح البخاري برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤) .
(٤) في ، أ : « سليم » .
(٥) زيادة من ف ، أ ، ومسند أحمد .
(٦) المسند (٥/٢٥٩) .
(٧) في ت ، ف ، أ : « يقابلون على السيئ » .

وقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أى : لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] .

﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : إذا سَفه عليهم سَفيه ، وكَلَّمهم بما لا يَليقُ بهم الجوابُ عنه ، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب . ولهذا قال عنهم : إنهم قالوا : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : لا نُريد طَريق الجاهلين ولا نُحبها .

قال محمد بن إسحاق فى السيرة ، ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا ، أو قريب من ذلك ، من النصارى ، حين (١) بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه ـ ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ـ فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا ، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش ، فقالوا (٢) لهم : خَيَّبَكُم الله مِنْ ركبٍ .بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم (٣) بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ؛ ما نعلم ركباً أحمق منكم . أو كما قالوا لهم .فقالوا [لهم](٤): سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نَألُ أنفسَنا خيرا (٥) .

قال : ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران ، فاللّه أعلم أىّ ذلك كان (٦) .

قال : ويقال ـ واللّه أعلم ـ إن فِيهم نزلت هذه الآيات : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ .

قال : وقد سألت الزهرى عن هذه الآيات فيمن أنْزلن (٧) ، قال : مازلتُ أسمع من علمائنا أنهن أنزلن (٨) فى النجاشى وأصحابه ، رضى الله عنهم ، والآيات التى (٩) فى سورة المائدة :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢، ٨٣] .

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ .

---

(١) فى أ : « حتى » .
(٢) فى أ : « فقال » .
(٣) فى ت : « فتأتونهم » .
(٤) زيادة من ت ، ف ،أ .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٢) .
(٦) فى أ : « كما » .
(٧) فى ت : « نزلت » ، وفى ف ، أ : « نزلن » .
(٨) فى أ : « نزلن » .
(٩) فى أ : «اللاتى » .

يقول تعالى لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه : إنك يامحمد ﴿ **لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ أى : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدى من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى :﴿ **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [البقرة :٢٧٢] ، وقال : ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠٣] .

وهذه الآية أخص من هذا كله ؛ فإنه قال: ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغَوَاية، وقد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عَمّ رسول الله ﷺ ، وقد كان يَحوطُه وينصره ، ويقوم فى صفه ويحبه حباً [شديداً] (١) طبعياً لا شرعياً ، فلما حضرته الوفاة وحان أجله ، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول فى الإسلام ، فسبق القدر فيه ، واختطف من يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة (٢) التامة .

قال الزهرى : حدثنى سعيد بن المسَيَّب ، عن أبيه ـ وهو المسيب بن حَزْن المخزومى ، رضى الله عنه ـ قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة . فقال رسول الله ﷺ :« ياعم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب،أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة ، حتى قال آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : « أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » .فأنزل الله عز وجل : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى** ﴾ [التوبة : ١١٣] ، وأنزل فى أبى طالب : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ .

أخرجاه (٣) من حديث الزهرى (٤) . وهكذا رواه (٥) مسلم فى صحيحه ، والترمذى ، من حديث يزيد بن كَيْسَان ، عن أبى حازم ، عن أبى هُرَيْرَةَ قال : لما حَضَرَتْ وفاةُ أبى طالب أتاه رسولُ الله ﷺ فقال : « يا عمَّاه ، قل : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة » . فقال : لولا أن تُعَيّرنى (٦) بها قريش ، يقولون : ما حمله عليه إلا جَزَع الموت ، لأقرَرْتُ بها عينَك ، لا أقولها إلا لأُقِرّ بها عينك . فأنزل الله : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾. وقال الترمذى : حسن غريب (٧) ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان (٨) .

ورواه الإمام أحمد ، عن يحيى بن سعيد القَطَّان ، عن يزيد بن كيسان ، حدثنى أبو حازم ، عن أبى هريرة ، فذكره بنحوه (٩).

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٢) فى أ : « الحجة » .
(٣) فى ت : « البخارى ومسلم » .
(٤) صحيح البخارى برقم (١٣٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤) .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) فى ف : « يعيرنى » .
(٧) فى ت : « رواه الترمذى وقال :حسن صحيح » .
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٨٨) .
(٩) المسند (٢/ ٤٣٤) .

وهكذا قال ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، والشعبى ، وقتادة : إنها نزلت فى أبى طالب حين عَرَضَ عليه رسولُ الله ﷺ أن يقول : « لا إله إلا الله » ، فأبى عليه ذلك ، وقال (١) : أىْ ابن أخى ، ملةَ الأشياخ . وكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب .

وقال (٢) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم (٣) ، عن سعيد بن أبى راشد قال : كان رسول قيصر جاء (٤) إلىَّ قال : كتب معى قيصر إلى رسول الله ﷺ كتاباً ، فأتيته فدفعت الكتاب ، فوضعه فى حجره ، ثم قال : « ممن الرجل؟ » قلت : من تنوخ(٥) . قال : « هل لك فى دين أبيك إبراهيم الحنيفية ؟ » قلت : إنى رسول قوم ، وعلى دينهم حتى أرجع إليهم . فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلى أصحابه وقال (٦) : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾(٧) .

وقوله : ﴿ **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ : [يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار فى عدم اتباع (٨) الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ **إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾](٩) ، أى : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين ، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، فقال الله تعالى مجيبا لهم : ﴿ **أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا** ﴾ يعنى : هذا الذى اعتذروا به كذب وباطل ؛ لأن الله جعلهم فى بلد أمين ، وحَرَم معظم آمن منذ وُضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً فى حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟

وقوله : ﴿ **يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ أى : من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿ **رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا** ﴾ أى : من عندنا ، ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ فلهذا قالوا ما قالوا .

وقد قال (١٠) النسائى : أنبأنا الحسن بن محمد ، حدثنا الحجاج ، عن ابن جُرَيْجٍ ، أخبرنى ابن أبى مُلَيْكة قال : قال عمرو بن شعيب ، عن ابن عباس - ولم يسمعه منه - : أن الحارث بن عامر بن نوفل الذى قال : ﴿ **إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ (١١) .

﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ**

(١) فى أ : « وكان » . (٢) فى ت : « وروى » . (٣) فى ت : « بإسناده » .

(٤) فى أ : «جاراً» . (٥) فى هـ : « تيرح » والمثبت من ف ، أ .

(٦) فى ت ، ف ، أ : « فقال » .

(٧) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٤١) من طريق حماد بن سلمة بنحوه .

(٨) فى أ : « اتباعهم » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .

(١٠) فى ت : « وقد روى » . (١١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٥) .

آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) ﴾ .

يقول تعالى مُعَرِّضاً بأهل مكة فى قوله : ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا**﴾ أى : طغت وأشرَت وكفرت نعمة الله (١) ، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ. وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ [النحل : ١١٢، ١١٣] ولهذا قال : ﴿**فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ أى : دَثَرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم .

وقوله : ﴿**وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ**﴾أى : رجعت خراباً ليس فيها أحد .

وقد ذكر ابن أبى حاتم [هاهنا] (٢) عن ابن مسعود أنه سمع كعباً يقول لعمر : إن سليمان ، عليه السلام (٣) ، قال للهامة ـ يعنى البومة ـ : ما لك لا تأكلين الزرع ؟ قالت : لأنه أخرج آدم بسببه من الجنة . قال : فما لك لا تشربين الماء ؟ قالت : لأن الله أغرق قوم نوح به . قال : فما لك لا تأوين إلا إلى الخراب ؟ قالت : لأنه ميراث الله عز وجل ، ثم تلا : ﴿**وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ**﴾ .

ثم قال الله (٤) مخبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال : ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا**﴾ وهى مكة ﴿ **رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا**﴾ .فيه دلالة على أن النبى الأمى ، وهو محمد ، صلوات الله وسلامه عليه (٥) ، المبعوث من أم القرى ، رسول إلى جميع القرى ، من عرب وأعجام ، كما قال تعالى : ﴿ **لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [الشورى : ٧] ، وقال تعالى :﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ [الأعراف: ١٥٨] ، وقال :﴿**لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ** ﴾ [الأنعام : ١٩]، وقال : ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**﴾ [هود : ١٧] . وتمام الدليل [قوله] (٦) : ﴿ **وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا**﴾ [الإسراء : ٥٨] . فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة ، وقد قال : ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء : ١٥] . فجعل تعالى بعثة النبى الأمى شاملة لجميع القرى ؛ لأنه مبعوث إلى (٧) أمها وأصلها التى ترجع إليها. وثبت فى الصحيحين عنه ، صلوات الله وسلامه عليه (٨) ، أنه قال:« بعثت إلى الأحمر والأسود» . ولهذا ختم به الرسالة والنبوة، فلا نبى بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة .

وقيل : المراد بقوله : ﴿**حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا**﴾ أى : أصلها وعظيمتها ، كأمهات الرساتيق والأقاليم. حكاه الزمخشرى وابن الجوزىّ ، وغيرهما ، وليس ببعيد .

---

(١) فى ف : « بنعم الله » ، وفى أ : « نعم الله » .
(٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٤) فى ت ، ف : « تعالى » .
(٥) فى ت ، ف ، أ : « صلى الله عليه وسلم » .
(٦) زيادة من ت ، أ .
(٧) فى ت ، ف ، أ : « فى » .
(٨) فى ف ، أ : « صلى الله عليه وسلم » .

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا (١) ، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين فى الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم ، كما قال : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦]، وقال : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ [آل عمران : ١٩٨] ، وقال ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد : ٢٦] ، وقال :﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : ١٦ ، ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « والله ما الدنيا فى الآخرة ، إلا كما يَغْمِس أحدكم إصبعه فى اليم ، فَلْينظُر ماذا يرجع إليه » (٢).

[وقوله] (٣) : ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ (٤)﴾ أى : أفلا يعقل مَنْ يقدم الدنيا على الآخرة ؟

وقوله :﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ :يقول : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة ، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده ، فهو ممتع فى الحياة الدنيا أياماً قلائل ، ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : من المعذبين .

ثم قد قيل : إنها نزلت فى رسول الله ﷺ وفى أبى جهل . وقيل : فى حمزة وعلى وأبى جهل، وكلاهما عن مجاهد . والظاهر أنها عامة ، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه ، وهو فى الدرجات وذاك فى الدركات : ﴿وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات : ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات : ١٥٨] .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة ، حيث يناديهم فيقول : ﴿أَيْنَ

(١) فى ت : « عن الحياة الدنيا وحقارتها » .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد رضى الله عنه .
(٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « تعقلون » .

شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعنى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا ، من الأصنام والأنداد ، هل ينصروكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد ، كما قال : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

وقوله :﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعنى : من الشياطين والمَرَدَة والدعاة إلى الكفر ،﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ، فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم : ٨١، ٨٢] ، وقال : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف : ٥ ،٦] ، وقال الخليل لقومه : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت : ٢٥] ، وقال الله (١) :﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة : ١٦٦، ١٦٧] ؛ ولهذا قال : ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ [أى] (٢) : ليخلصوكم مما أنتم فيه ، كما كنتم ترجون منهم فى الدار الدنيا ، ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أى : وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة .

وقوله :﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أى : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا . وهذا كقوله تعالى :﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا. وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣] .

وقوله : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ : النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات : ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يُسأل العبد فى قبره : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك (٣) ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله (٤) ورسوله . وأما الكافر فيقول : هاه .. هاه .لا أدرى ؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ؛ لأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ﴾ .

وقال مجاهد: فعميت عليهم الحجج ، فهم لا يتساءلون بالأنساب .

وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿ فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾

---

(١) فى ت ، ف : « تعالى » ، وفى أ : « الله تعالى » .
(٢) زيادة من أ .
(٣) فى أ : « من نبيكم وما دينكم » .
(٤) فى ف ، أ : « عبده »

أى: يوم القيامة ، و « عسى » من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنّه لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾ .

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والأختيار ، وأنه ليس له فى ذلك منازع ولا معقب فقال : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أى : ما يشاء ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه.

وقوله : ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفي على أصح القولين ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وقد اختار ابن جرير أن ﴿ مَا ﴾ هاهنا بمعنى « الذى » ، تقديره : ويختار الذى لهم فيه خيرة. وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح . والصحيح أنها نافية ، كما نقله ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس وغيره أيضاً ، فإن المقام فى بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، التى لا تخلق ولا تختار شيئاً .

ثم قال : ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى : يعلم ما تكن [(١)] الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ، ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] .

وقوله :﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى : هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ويختار سواه ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ﴾ أى : فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه ، لعدله وحكمته ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى : الذى لا معقب له ، لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ،﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى : جميعكم يوم القيامة فيجازى [(٢)] كل عامل بعمله ، من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ .

---

(١) فى هـ ، أ : « مكتمة » والمثبت من ت ، ف .

(٢) فى ت ، ف : « فيجزى » .

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار ، اللذين لا قوامَ لهم بدونهما . وبين أنه لو جعلَ الليلَ دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة ، لأضرّ ذلك بهم ، ولسئمته النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ﴾ أي : تبصرون به وتستأنسون بسببه ، ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ .

ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمداً دائماً مستمراً إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ؛ ولهذا قال : ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم، ﴿ أَفَلا تُبْصِرُونَ. وَمِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي : بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي : خلق هذا وهذا ،﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي : فى الليل ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أي : فى النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر .

وقوله : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : تشكرون الله بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان : ٦٢] ، والآيات فى هذا كثيرة (١) .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾ .

وهذا أيضاً نداء [ثان] (٢) على سبيل التقريع والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب ـ تبارك وتعالى ـ على رؤوس الأشهاد فيقول :﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: فى الدار الدنيا .

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ : قال مجاهد : يعنى : رسولا . ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى : على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ،﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أى : لا إله غيره ، أى : فلم ينطقوا ولم يحيروا (٣) جوابا ،﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾ .

---

(١) بعدها فى ت ، ف :

« فصل : فانظر إلى هذه الآيات وما تضمنته من العبرة والدلالة على ربوبية الله وحكمته ، كيف جعل الليل سكناً ولباساً ؟ يغشى العالم ، فتسكن فيه الحركات ، وتأوى الحيوانات إلى بيوتها ، والطير إلى أوكارها ، وتستجم فيه النفوس ، وتستريح من كد السعى والتعب ، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وثباتها ، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها . جاء فالق الإصباح سبحانه بالنهار ، فقدم حيثه بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق ، وأزالها وكشفها عن العالم ، فإذا هم مبصرون ،فانتشر الحيوان ، وتصرف فى معايشه ومصالحه ، وخرجت الطيور من أوكارها ، فيا له من ميعاد ! ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرره ومشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً ، منعها من الاعتبار والاستدلال به على النشأة الثانية ، وإحياء الخلق بعد موتهم، كما وردت السنة بذلك ، أنه يستجاب للعبد إذا قام من نومه يقول : الحمد لله الذى أحيانا بعد موتنا وإليه النشور » .

(٢) زيادة من أ . (٣) فى ت : « فلم يجيبوا » .

قال الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قال : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى﴾ ، قال : كان ابن عمه . وهكذا قال إبراهيم النَّخَعى ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسماك بن حرب ، وقتادة ، ومالك بن دينار ، وابن جُرَيْج ، وغيرهم : أنه كان ابن عم موسى ، عليه السلام [١] .

قال ابن جُرَيْج : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث .

وزعم محمد بن إسحاق بن يَسَار : أن قارون كان عم موسى [٢]، عليه السلام .

قال ابن جرير : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه ، والله أعلم .

وقال قتادة بن دِعَامة : كنا نُحدّث أنه كان ابن عم موسى ، وكان يسمى المنوّر لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى ، فأهلكه البغى لكثرة ماله.

وقال شَهْر بن حَوْشَب : زاد فى ثيابه شبراً طولا ، ترفعاً على قومه .

وقوله : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أى : [من] [٣] الأموال ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ﴾ أى : ليُثْقِلُ حملُها الفئامَ من الناس لكثرتها .

قال الأعمش ، عن خَيْثَمَةَ : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود ، كل مفتاح مثل الأصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدته ، فإذا ركب حُملت على ستين بغلا أغر محجلا . وقيل : غير ذلك ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أى : وعظه فيما هو فيه صالح قومه، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون : لا تبطر بما أنت فيه من الأموال[٤] ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ .

قال ابن عباس : يعنى : المرحين . وقال مجاهد : يعنى : الأشرين البطرين ، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

وقوله :﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أى : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة ، فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات ، التى يحصل لك بها الثواب فى الدار الآخرة . ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أى : مما أباح الله فيها [٥] من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك

---

(١) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٢) فى ف ، أ : « موسى بن عمران » .
(٣) زيادة من ت .
(٤) فى ت ، ف ، أ : « المال » .
(٥) فى ت ، ف : « لك » .

حقاً ، ولزورك عليك حقا ، فآت كل ذى حق حقه .

﴿ **وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ أى : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ، ﴿ **وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أى : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض [١] ، وتسىء إلى خلق الله ، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ .

﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه ، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ، ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ أى : أنا لا أفتقر إلى ما تقولون ، فإن الله تعالى إنما أعطانى هذا المال لعلمه بأنى أستحقه ، ولمحبته لى فتقديره : إنما أعطيته لعلم الله فىّ أنى أهل له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا** [٢] **مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** ﴾ [الزمر : ٤٩] . أى : على علم من الله بى ، وكقوله تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي** ﴾ [فصلت : ٥٠] أى : هذا أستحقه .

وقد رُوى عن بعضهم أنه أراد : ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ أى : إنه كان يعانى علم الكيمياء : وهذا القول ضعيف ؛ لأن علم الكيمياء فى نفسه علم باطل ؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل ، قال الله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ** ﴾ [الحج : ٧٣] ، وفى الصحيح عن النبى [٣] ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » [٤] . وهذا ورد فى المصورين الذين يشبهون بخلق الله فى مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل ، فكيف بمن يدعى أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى ، هذا زور ومحال ، وجهل وضلال . وإنما يقدرون على الصبغ فى الصورة الظاهرة ، وهو كذب وزغل وتمويه ، وترويج أنه صحيح فى نفس الأمر ، وليس كذلك قطعاً لا محالة ، ولم يثبت بطريق شرعى أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التى يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله تعالى [٥] من خَرْق العوائد على يدى بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك ، فهذا أمر لا ينكره مسلم ، ولا يرده مؤمن ، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات ، واختياره وفعله ، كما روى عن حَيْوة بن شُرَيح المصرى ، رحمه الله ، أنه سأله سائل ، فلم يكن عنده ما يعطيه ، ورأى ضرورته ، فأخذ حصاة من الأرض فأجالها فى كفه ، ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هى ذهب أحمر . والأحاديث والآثار [فى هذا] [٦] كثيرة جداً يطول ذكرها .

(١) فى أ : « فى الأرض » . (٢) فى ت ، أ : « وإذا » وهو خطأ .
(٣) فى ف : « رسول الله » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٥٩٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢١١١) .
(٥) فى ت ، ف : « سبحانه » . (٦) زياة من ت ، ف ، أ .

وقال بعضهم : إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم ، فدعا الله به ، فتموّل بسببه . والصحيح المعنى الأول ؛ ولهذا قال الله تعالى ـ راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال ـ: ﴿ **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا** ﴾ أي : قد كان من هو أكثر منه مالا وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ أي : لكثرة ذنوبهم .

قال قتادة : ﴿ **عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ : على خير عندى .

وقال السدى : على علم أنى أهل لذلك .

وقد أجاد فى تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، فإنه قال فى قوله : ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ قال : لولا رضا الله عنى ، ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا المال ،وقرأ : ﴿ **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ [وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه يقول : لولا أنه يستحق ذلك لما أعطى] (١) .

﴿ **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قارون :إنه خرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ، وتجمل باهر ، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زُخرفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى ، قالوا : ﴿ **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ أى: ذو حظ وافر من الدنيا . فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم : ﴿ **وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ أى : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون.

[كما فى الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾] (٢) [السجدة : ١٧] » (٣) .

وقوله : ﴿ **وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ** ﴾ : قال السدى : وما يلقى الجنة (٤) إلا الصابرون . كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم . قال ابن جرير : وما يلقى (٥) هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا ، الراغبون فى الدار الآخرة .وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك .

(١ ، ٢) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) .
(٤) فى أ : « وما يلقاها أى الجنة » . (٥) فى أ : « وما يلقاها » .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) ﴾ .

لما ذكر تعالى اختيال قارون فى زينته ، وفخره على قومه وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت فى الصحيح ـ عند البخارى من حديث الزهرى ، عن سالم ـ : أن أباه حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به [١] ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » .

ثم رواه من حديث جرير بن زيد ، عن سالم عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، نحوه [٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص ، حدثنا الأعمش ، عن عطية[٣]، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله [٤] ﷺ : « بينا رجل فيمن كان قبلكم ، خرج فى بُرْدَيْن أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . تفرد به أحمد [٥]، وإسناده حسن .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أبو خَيْثَمَةَ ، حدثنا أبو معلى بن منصور [٦] ، أخبرنى محمد بن مسلم ، سمعت زياداً النميرى يحدث عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل فيمن [٧] كان قبلكم خرج فى بردين فاختال فيهما ، فأمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » [٨] .

وقد ذكر [الحافظ] [٩] محمد بن المنذر ـ شكَّر ـ فى كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شاباً فى مسجد نجران ، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله ، فقال : ما لك تنظر إلى ؟ فقلت : أعجب من جمالك وكمالك . فقال : إن الله ليعجب منى . قال: فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر ، فأخذه بعض قرابته فى كمه وذهب .

وقد ذُكر أن هلاك قارون كان عن دعوة نبى الله موسى ، عليه السلام [١٠] . واختلف فى سببه، فعن ابن عباس والسدى : أن قارون أعطى امرأة بَغِيّاً مالا على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بنى إسرائيل ، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله ، فتقول : ياموسى ، إنك فعلت بى كذا وكذا . فلما قالت فى الملأ ذلك [١١] لموسى ، عليه السلام ، أرْعدَ من الفَرَق ، وأقبل عليها [١٢] وصلى ركعتين ثم قال : أنشدك بالله الذى فَرَق البحر ، وأنجاكم منَ فرعون ، وفعل كذا و [فعل] [١٣] كذا،

(١) فى ت : « خسف الله به » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٧٩٠) .
(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » . (٤) فى ت : « النبى » .
(٥) المسند (٣/ ٤٠) .
(٦) فى هـ : « أبو يعلى بن منصور » والصواب ما أثبتناه من مسند أبى يعلى . (٧) فى ف ، أ : « ممن ».
(٨) مسند أبى يعلى (٧/ ٢٧٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٢٦) : « فيه زياد بن عبد الله النميرى وهو ضعيف ، وقد وثقه ابن حبان وقال : يخطئ » .
(٩) زيادة من ف ، أ . (١٠) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » . (١١) فى أ : « بذلك » .
(١٢) فى أ : « بعد ما » . (١٣) زيادة من ف ، أ .

لما أخبرتني بالذى حملك على ما قلت ؟ فقالت : أما إذ نَشَدْتَنى فإن قارون أعطانى كذا وكذا ، على أن أقول لك ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، فعند ذلك خَرّ موسى لله عز وجل ساجداً ، وسأل الله فى قارون . فأوحى الله إليه أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان (١) ذلك .

وقيل : إن قارون لما خرج على قومه فى زينته تلك ، وهو راكب على البغال الشّهب ، وعليه وعلى خدمه الثياب الأرجوان الصّبّغة (٢) ، فمر فى جَحْفَله ذلك على مجلس نبى الله موسى ، عليه السلام ، وهو يذكرهم بأيام الله . فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوه الناس حوله ، ينظرون إلى ما هو فيه . فدعاه موسى ، عليه السلام ، وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا موسى ، أما لئن كنت فُضِّلتَ عَلَىَّ بالنبوة ، فلقد فضلت عليك بالدنيا ، ولئن شئت لنخرجن ، فلتدعون علىّ وأدعو عليك . فخرج وخرج قارون فى قومه ، فقال موسى (٣) : تدعو أو أدعو أنا ؟ قال : بل أنا أدعو . فدعا قارون فلم يجب له ، ثم قال موسى (٤) : أدعو ؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم ، مُر الأرض أن تطيعنى (٥) اليوم . فأوحى الله إليه أنى قد فعلت ، فقال موسى : يا أرض ، خذيهم. فأخذتهم إلى أقدامهم . ثم قال : خذيهم . فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم .ثم قال : أقبلى بكنوزهم وأموالهم . قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليها . ثم أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بنى لاوى (٦) فاستوت بهم الأرض .

وعن ابن عباس أنه قال : خُسف بهم إلى الأرض السابعة .

وقال قتادة : ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة ،فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة .

وقد ذكر هاهنا إسرائيليات [غريبة] (٧) أضربنا عنها صفحًا .

وقوله :﴿ **فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾ أى : ما أغنى عنه مالُه وما جَمَعه ، ولا خدمه و [لا] (٨) حشمه . ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله [به] (٩) ، ولا كان هو فى نفسه منتصراً لنفسه ، فلا ناصر له [لا] (١٠) من نفسه ،ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ** ﴾ أى : الذين لما رأوه فى زينته ﴿**قَالُوا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ ، فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿**وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ**﴾ أى : ليس المال بدالّ على رضا الله عن صاحبه [وعن عباده] (١١) ؛ فإن الله يعطى ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة . وهذا كما فى الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » (١٢) .

﴿**لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا**﴾ أى : لولا لُطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا ، كما خسف

---

(١) فى ف ، أ : « وكان » . (٢) فى ت ، ف ، أ : « المصبغة » .
(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم »، وفى ف ، أ : « عليه السلام » . (٤) فى ف ، أ : « قال : ياموسى » .
(٥) فى ت : « فلتطعنى » . (٦) فى أ : « اذهبوا به لا أرى » . (٧، ٨) زيادة من ت ، ف .
(٩ ـ ١١) زيادة من أ .
(١٢) المسند (١/ ٣٨٧) .

به ، لأنا وَدِدْنا أن نكون مثله .

﴿ وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ : يعنون : أنه كان كافراً ، ولا يفلح الكافرون عند الله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقد اختلف النحاة فى معنى قوله تعالى [هاهنا] (١) : ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ ، فقال بعضهم: معناها: «ويلك اعلم أن » ، ولكن خُفِّفت فقيل : « ويك » ودل فتح « أن » على حذف « اعلم » . وهذا القول ضعَّفه ابن جرير (٢) ، والظاهر أنه قوى ، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها فى المصاحف متصلة «ويكأن » . والكتابة أمر وضعى اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى ، والله أعلم .

وقيل : معناها : ويكأن ، أى : ألم تر أن . قاله قتادة . وقيل : معناها : « وى كأن » ، ففصلها وجعل حرف « وى » (٣) للتعجب أو للتنبيه ، و « كأن » بمعنى « أظن وأحسب » . قال ابن جرير : وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة : إنها بمعنى : ألم تر أن ، واستشهد بقول الشاعر (٤) :

سَأَلَتَانى الطَّلاق أنْ رَأَتَانى ... قَلّ مَا لى ، قَدْ جِئْتُمَانى بنُكر
وَيْكأنْ مَنْ يكُن له نَشَب يُحْـ ... ـبَب، ومن يَفْتقرْ يَعش عَيْشَ ضُرّ

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) ﴾ .

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمهَا المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يريدون علواً فى الأرض ، أى : ترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم ، ولا فساداً فيهم . كما قال عكرمة : العلو : التجبر .

وقال سعيد بن جبير : العلو : البغى .

وقال سفيان بن سعيد الثورى ، عن منصور ، عن مسلم (٥) البطين : العلو فى الأرض : التكبر بغير حق . والفساد : أخذ المال بغير حق .

وقال ابن جُرَيْج : ﴿ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ ﴾ تعظماً وتجبراً (٦) ، ﴿ وَلا فَسَادًا ﴾ : عملا بالمعاصى .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا أبى ، عن أشعث السمان (٧) ، عن أبى سلام الأعرج ، عن على قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه ، فيدخل(٨) فى قوله : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٢) تفسير الطبرى (٢٠/ ٧٧) .
(٣) فى أ : « أى » .
(٤) هو زيد بن عمرو بن نفيل ، والبيت فى تفسير الطبرى (٢٠/ ٧٧) .
(٥) فى أ : « سالم » .
(٦) فى ف : « ولا تجبرا » .
(٧) فى أ : « أشعب السماك » .
(٨) فى أ : « فدخل » .

وهذا محمول على ما إذا أراد [بذلك] (١) الفخر [والتطاول] (٢) على غيره ؛ فإن ذلك مذموم، كما ثبت في الصحيح ، عن النبي ﷺ [أنه قال] (٣) : « إنه أوحى إلى أن تَواضَعُوا ، حتى لا يفخَرَ أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » (٤) ، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمّل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلا قال : يارسول الله ، إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لا ، إن الله جميل يحبّ الجمال » .

وقال (٥) : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أى : ثواب الله خير من حَسَنَة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة فهذا (٦) مقام الفضل .

ثم قال : ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٠] وهذا مقام الفصل العدل .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ .

يقول تعالى آمراً رسولَه ، صلوات الله وسلامه عليه ، ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد ، وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أى : افترض عليك أداءه إلى الناس ، ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أى : إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال تعالى :﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف : ٦]، وقال : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ [قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ] (٧)﴾ [المائدة : ١٠٩] ، [وقال] (٨) : ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال السدى عن أبى صالح ، عن (٩) ابن عباس : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، يقول : لرادك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن . قال السدى : وقال أبو سعيد مثلها .

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، [و] (١٠) عن ابن عباس ، رضى الله عنهما :﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال : إلى يوم القيامة . ورواه مالك ، عن الزهرى .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢، ٣) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضى الله عنه .
(٥) فى ت ، ف : « وقوله » . (٦) فى ف : « وهذا » . (٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) زيادة من ت ، أ . (٩) فى ت : « وقال » . (١٠) زيادة من ت

وقال الثورى ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس [(١)] : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ : إلى الموت .

ولهذا طُرُقٌ عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، وفى بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة .

وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وكذا روى عن عكرمة ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وأبى قَزَعَةَ ، وأبى مالك ، وأبى صالح .

وقال الحسن البصرى : أى واللّه ، إن له لمعاداً [(٢)] ، يبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة .

وقد رُوى عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخارى فى التفسير من صحيحه [(٣)] :

حدثنا محمد بن مقاتل ، أنبأنا يعلى ، حدثنا سفيان العُصْفُرىّ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال : إلى مكة .

وهكذا رواه النسائى فى تفسير سننه ، وابن جرير من حديث يعلى ـ وهو ابن عبيد الطَّنَافسىّ ـ به[(٤)] . وهكذا روى العَوْفىّ ، عن ابن عباس : ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أى : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ : إلى مولدك بمكة .

قال ابن أبى حاتم : وقد روى عن ابن عباس ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، والضحاك ، نحو ذلك .

[وحدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر قال : قال سفيان : فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة ، عن الضحاك] [(٥)] قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة ، فبلغ الجُحْفَة ، اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ إلى مكة .

وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكيا ، والله أعلم.

وقد قال عبد الرزاق : حدثنا مَعْمَر ، عن قتادة فى قوله :﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال : هذه مما كان ابن عباس يكتمها، وقد رَوَى ابنُ أبى حاتم بسنده عن نعيم القارئ أنه قال فى قوله : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال : إلى بيت المقدس .

وهذا ـ والله أعلم ـ يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة ؛ لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر ، والله الموفق للصواب .

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجله ، صلوات الله وسلامه عليه [(٦)] ، كما فسره ابن عباس

(١) فى ت : « وعنه » .
(٢) فى ت : « إنه لمعاد » .
(٣) فى ت : « كما روى البخارى بإسناده » .
(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٦) وتفسير الطبرى (٢٠/ ٨٠) .
(٥) زيادة من ف ، أ .
(٦) فى أ : « أجل النبى صلى الله عليه وسلم » .

بسورة ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ أنه أَجَلُ رسول الله ﷺ نُعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله :﴿ **لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾ بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التى هى جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين : الجن والإنس ، ولأنه أكمل خلق الله ، وأفصح [١] خلق الله ، وأشرف خلق الله على الإطلاق .

وقوله :﴿ **قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ أى : قل ـ لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم ـ قل : ربى أعلم بالمهتدى منكم ومنى ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم :﴿ **وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ** ﴾ أى : ما كنت تظن قبل إنزال الوحى [٢] إليك أن الوحى ينزل عليك ، ﴿ **إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ** ﴾ أى : إنما نزل [٣] الوحيِ عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿ **فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا** ﴾ أى : معيناً ﴿ **لِّلْكَافِرِينَ** ﴾ ، [أى][٤]: ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم .

﴿ **وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ** ﴾ أى : لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك [٥] لا تلوى على ذلك ولا تباله ؛ فإن الله مُعْلٍ كلمتك ، ومؤيدٌ دينك ، ومظهر ما أرسلت[٦] به على سائر الأديان ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ أى : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ، ﴿ **وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ أى : لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغى الإلهية إلا لعظمته .

وقوله :﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾ : إخبار بأنه الدائم الباقى الحى القيوم ، الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى:﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] ، فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هاهنا : ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾ أى : إلا إياه .

وقد ثبت فى الصحيح ، من طريق أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أصدق كلمة قالها شاعر [كلمة] [٧] لَبِيد :

ألا كلُّ شَىْء مَاخَلاَ اللهَ بَاطِلُ » [٨] .

وقال مجاهد والثورى فى قوله : ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾ أى : إلا ما أريد به وجهه ،

---

(١) فى أ : « وأنصح » .
(٢) فى أ : « الذكر » .
(٣) فى ت ، أ : « أنزل » .
(٤) زيادة من أ .
(٥) فى أ : « طريقتك » .
(٦) فى أ : « ما أرسلك » .
(٧) زيادة من ف ، أ ، وصحيح البخارى .
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٨٤١) وصحيح مسلم برقم (٢٢٥٦) .

وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له .

قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ   رَبَّ العبَاد ، إلَيه الوَجْهُ والعَمَلُ

وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله [١] عز وجل من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية[٢] وهالكة وزائلة إلا ذاته [٣] تعالى ، فإنه الأول الآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء .

قال [٤] أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا فى كتاب « التفكر والاعتبار » : حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عمر بن سليم الباهلى ، حدثنا أبو الوليد قال: كان [٥] ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتى الخربة فيقف على بابها ، فينادى بصوت حزين فيقول: أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **لَهُ الْحُكْمُ** ﴾ أى : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ، ﴿ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ أى : يوم معادكم ، فيجزيكم [٦] بأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، [والله أعلم .

آخر تفسير سورة « القصص »] [٧]

---

(١) فى ف : « به وجه الله » ، وفى أ : « به وجهه » .
(٢) فى ت : « تفنى » .
(٣) فى ت : « وجهه » .
(٤) فى ت : « وروى » .
(٥) فى ت : « بسنده أن » .
(٦) فى ت : فيجازيكم » .
(٧) زيادة من ف ، أ .

/ سورة القَصص [٢٦٩و]

مكيّة، وقيل: إلّا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص، ٢٨/٥٢-٥٥]،[١] وهي ثمان وثمانون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③﴾

﴿طسٓمٓ ۞ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ قد مرّ ما يتعلّق به مِن الكلام بالإجمال والتفصيل في أشباهه.

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ أي: نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام، ويجوز أن يكون "التلاوة" مجازًا مِن التنزيل. ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ مفعول ﴿نَتْلُواْ﴾، أي: بعضَ نبئهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بمحذوفٍ هو حال مِن فاعل ﴿نَتْلُواْ﴾، أو مِن مفعوله، أو صفة لمصدره، أي: نتلو عليكَ بعضَ نبئِهما ملتبسين، أو ملتبسًا بالحقّ، أو تلاوةً ملتبسةً بالحقّ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿نَتْلُواْ﴾، وتخصيصُهم بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكلّ لأنّهم المنتفعون به.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ④﴾

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف جارٍ مَجرى التفسير للمُجمل المَوعودِ. وتصديرُه بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده، أي: أنّه تجبّر وطغا في أرض مصر، وجاوَز الحدودَ المعهودة في الظلم والعدوان.

---

[١] ط س – وقيل: إلّا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص، ٢٨/٥٢-٥٥].

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا يُشَيِّعونه في كلّ ما يريده مِن الشرّ والفساد، أو يشيّع بعضُهم بعضًا في طاعته، أو أصنافًا في استخدامه يستعمِل كلّ صنفٍ في عمل، ويتسخّرُه فيه؛ مِن بناءٍ وحَرْثٍ وحَفرٍ وغير ذلك مِن الأعمال الشاقّة، ومَن لم يستعمله ضرَب عليه الجزية، أو فِرَقًا مختلفةً قد أغرى بينهم العداوةَ والبغضاء؛ لئلّا تتّفق كلمتُهم.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل. والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿جَعَلَ﴾، أو صفة لـ﴿شِيَعًا﴾، أو استئناف، وقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ بدل منها.

وكان ذلك لِما أنّ كاهنًا قال له: يُولَد في بني إسرائيل مولود يذهبُ مُلكُك على يده، وما ذاك إلّا لِغاية حُمقه، إذ لو صدق فما فائدةُ القتل، وإن كذب فما وجهه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: الراسخين في الإفساد، ولذلك اجترَأَ على مثل تلك العظيمة مِن قتل المَعصومين مِن أولاد الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

[٢٦٩ظ] / ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ أي: نتفضّلَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على الوجه المذكور بإنجائهم مِن بأسه. وصيغة المضارع في ﴿نُرِيدُ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية، وهو معطوف على ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾... إلخ؛[١] لتناسُبِهما في الوقوع في حيّزِ التفسير للنبأ، أو حال مِن ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ بتقدير المبتدأ، أي: يَستضعفُهم فرعونُ ونحن نريد أن نمُنّ عليهم.

وليس مِن ضرورة مقارنة الإرادة للاستضعاف مقارنةُ المراد له، لِما أنّ تعلّق الإرادة للمَنّ تعلّق استقبالي، على أنّ منّة الله تعالى عليهم بالخلاص لمّا كانت في شرَف الوقوع جاز إجراؤها مُجرى الواقع المقارِن له. ووضعُ الموصول موضع الضمير لإبانة قدر النعمة في المنّة بذِكر حالتهم السابقة المباينة لها.

---

[١] في الآية السابقة.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتَدَى بهم في أمور الدين بعد أن كانوا أتباعًا مُسخَّرين لآخرين، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لجميع ما كان منتظِمًا في سِلك مُلك فِرعونَ وقومه وِراثةً معهودةً فيما بينهم، كما يُنبئ عنه تعريف ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾. وتأخير ذكر وِراثتهم له عن ذكر "جعلهم أئمّةً" مع تقدّمها عليه زمانًا لانحطاط رتبتها عن الإمامة، ولئلّا ينفصل عنه ما بعده مع كونه مِن رَوادفه، أعني: قولَه تعالى:[١] ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ، أي: نسلِّطهم على مصر والشام يتصرّفون فيهما كيفما يشاءون. وأصل التمكين أن يجعل للشيء مكانًا يتمكّن فيه.

﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أي: مِن أولئك المستضعَفين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ ويجتهدون في دفعه مِن ذهابِ مُلكهم وهُلكِهم على يد مولودٍ منهم. وقُرئ: "يَرَى" بالياء ورفعِ ما بعده على الفاعِليّة.[٢]

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما أمكنكِ إخفاؤُه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يحسّ به الجيرانُ عند بكائه ويَنُمُّوا عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر، وهو النيل، ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه ضيعةً بالغرَق ولا شدّة، ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ﴾ / ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب بحيث تأمَنين عليه، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحَزَن. وإيثار الجملة الاسميّة وتصديرُها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها، أي: إنّا فاعلون لردّه وجعلِه مِن المرسلين لا محالةَ. [٢٧٠و]

رُوي أنّ بعض القوابل الموكَّلات مِن قِبَل فرعونَ بحَبالى بني إسرائيل كانت مُصافيةً لأمّ موسى عليه السلام، فقالت لها: «لِيَنفعني حبُّكِ اليوم»، فعالَجتْها، فلمّا وقع إلى الأرض هالَها نورٌ بين عينَيه، وارتعش كلّ مَفصِل منها، ودخل حُبّه في قلبها، ثمّ قالت: «ما جئتكِ إلّا لأقتلَ مولودكِ، وأُخبرَ فرعونَ،

---

١ م - تعالى.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤١.

ولكنّي وجدت لابنكِ في قلبي محبّةً ما وجدت مثلها لأحدٍ، فاحفَظِيه، فلمّا خرجَتْ جاء عيون فرعون، فلَفَّتْه في خِرقة فألقَتْه في تنّورٍ مَسجور، لم تعلم ما تصنع لِما طاشَ مِن عقلها، فطلبوا فلَمْ يُلْفُوا[1] شيئًا، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمِعَتْ بكاءه مِن التنّور، فانطلقت إليه وقد جعل الله تعالى النار عليه بردًا وسلامًا، فلمّا أَلَحَّ فرعون في طلب الوِلدان أَوحى الله تعالى إليها ما أوحى.[2] وقد رُوي أنّها أرضَعَتْه ثلاثة أشهر في تابوتٍ مِن بَرْدِيّ[3] مَطليّ بالقار مِن داخله.[4]

﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ فصيحة مُفصِحة عن عطفه على جملةٍ مترتّبةٍ على ما قَبلها مِن الأمر بالإلقاء، قد حُذفَت تَعويلًا على دلالة الحال، وإيذانًا بكمال سرعة الامتثال، أي: فأَلْقَتْه في اليَمّ بعد ما جعلَته في التابوت حسبما أُمِرَت به، فالتقطه آل فرعونَ، أي: أخذوه أَخْذَ اعتناءٍ به وصيانةٍ له عن الضياع.

[٢٧٠ظ] / قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره: «كانَ لفرعونَ يومئذ بنت، لم يكن له ولد غيرها، وكانت مِن أكرم الناس إليه، وكان بها برَص شديد، عجزت الأطبّاء عن علاجه، فقالوا: "لا تَبرأ إلّا مِن قِبل البحر، يؤخذ منه شِبه الإنس يومَ كذا وساعةَ كذا مِن شهر كذا حين تشرق الشمس، فيؤخذ مِن ريقه، فَيُلطَّخُ به بَرصُها فَتَبرَأ"، فلمّا كان ذلك اليوم غدا فرعون في مجلس له على شفير النيل، ومعه امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريّان بن الوليد الذي كان فرعونَ مِصر في زمن يوسف الصدّيق عليه السلام -وقيل: كانت مِن بني إسرائيل مِن سبط موسى. وقيل: كانت عمّتَه، حكاه السهيلي-[5] وأقبلت بنت فرعونَ في جواريها حتّى جلستْ على شاطئ النيل، فإذا بتابوت في النيل تضربه الأمواج، فتعلّق بشجرة، فقال فرعون: "ائتوني به"، فابتدروا بالسُّفُن فأحضروه بين يديه،

---

[1] وفي هامش م: أي: لم يصادِفوا. «منه».
[2] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٣٤/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٩٣/٣.
[3] وفي هامش م: البَردي: نبات معروف. «منه».
[4] **الكشّاف** للزمخشري، ٣٩٣/٣.
[5] **التعريف والإعلام** للسهيلي، ص ٩٦.

فعالَجُوا فتحَه فلم يقدروا عليه، وقصدوا كسرَه فأعياهم، فنظرَت آسيةُ فرأَتْ نورًا في جوف التابوت لم يَرَه غيرها، فعالَجَته ففتَحَته، فإذا هو بصبيّ صغير في مَهدِه، وإذا نور بين عَينَيه وهو يمُصّ إبهامَه لبنًا، فألقى الله تعالى محبّته في قلوب القوم، وعمَدَت ابنةُ فرعون إلى رِيقه فلَطَّخَت به برَصَها فبرَأَت مِن ساعته. وقيل: لمّا نظرتْ إلى وجهه بَرَأَت، فقالت الغُواة مِن قوم فرعون: "إنّا نظنّ أنّ هذا هو الذي نحذَر منه، رُمِي في البحر فَرَقًا منك، فاقتله"، فهَمّ فرعون بقتله، فاستوهبَته آسية، فتركه»[١] كما سيأتي.

[٢٧١و] و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ / لام العاقبة، أُبرِزَ مَدخولها في مَعرض العلّة لالتقاطهم تشبيهًا له في الترتيب عليه بالغرَض الحامل عليه. وقُرِئ: "حُزْنًا"[٢]. وهما لغتان، كـ"السُّقْم" و"السَّقَم". جُعِلَ عليه السلام نفسَ الحَزَن إيذانًا بقوّة سببيّته لحَزَنهم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي: في كلّ ما يأتون وما يذَرون، فلا غَرْوَ في أن قَتلوا لأجله أُلوفًا، ثمّ أخذوه يُربّونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون. رُوي أنّه ذُبِحَ في طلبه عليه السلام تسعون ألف وليدٍ.[٣] أو كانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن رَبَّى عدوّهم على أيديهم، فالجملة اعتراضيّة لتأكيد خطئهم، أو لبيان الموجِب لِما ابتُلُوا به. وقُرِئ: "خَاطِينَ"[٤] على أنّه تخفيف "خَاطِئِينَ"، أو على أنّه بمعنى: متعدّين الصوابَ إلى الخطأ.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ أي: لفرعونَ حين أَخرجتْه مِن التابوت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ أي: هو قرّة عين لنا، لِما أنّهما لمّا رَأياه أحبّاه، أو لِما ذُكِر مِن بَرء بنته

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢١١/١٥.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٣.

٤ قرأ بها أبو جعفر، وهو أحد وجهين لحمزة عند الوقف. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/١.

مِن البرَص بريقِه. وفي الحديث: «أنّه قال: "لكِ لا لي"، ولو قال: "لي كما هو لكِ" لهداه الله تعالى كما هداها».[١]

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خاطبَتْه بلفظ الجمع تعظيمًا ليساعدها فيما تريده. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنّ فيه مخائل اليُمْن، ودلائلَ النجابة، وذلك لِما رأت فيه مِن العلامات المذكورة. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: نتبنّاه فإنّه خليق بذلك.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال مِن ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾،[٢] والتقدير: فالتقطه آل فرعونَ ليكون لهم عَدُوًّا وحَزَنًا، وقالت امرأته له: كَيت وكَيت، وهم لا يشعرون بأنّهم على خطأ عظيم فيما صنعوا مِن الالتقاط ورجاءِ النفع منه والتبنّي له.

[٢٧١ظ] / وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ الآيةَ،[٣] اعتراض وقع بين المعطوفين لتأكيد خطئهم، وقيل: حال مِن أحد ضميرَي ﴿نَتَّخِذَهُۥ﴾ على أنّ الضمير للناس، أي: وهم لا يعلمون أنّه لغيرنا وقد تَبنَّيناه.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠﴾

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ صُفرًا مِن العقل، لِما دَهِمها مِن الخوف والحَيرة حين سَمِعَت بوقوعه في يد فرعون، كقوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم، ٤٣/١٤]، أي: خلاءٌ لا عقولَ فيها، ويعضُده أنّه قُرِئ: "فِزِعًا"،[٤] مِن قولهم: "دماؤهم بينهم فِزِغٌ"، أي: هَدْر. وقيل: فارغًا مِن الهمّ والحُزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى، أو لسماعها أنّ فرعون عطَف عليه وتبنّاه. وقُرِئ: "مُؤْسَى" بالهمز[٥] إجراءً للضمّة في جارة الواو مُجرى ضمّتها فهُمِزت كما في "وُجوه".[٦]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٤/٣. وهو جزء من حديث طويل أخرجه النسائي في السنن الكبرى، ١٧٢/١٠ (١١٢٦٣)، بلفظ: «لو أقرّ فرعون أن يكون له قرّة عين كما أقرّت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكنّ الله حرّمه ذلك».

٢ في الآية السابقة.

٣ القصص، ٤/٢٨.

٤ قراءة شاذّة، ذكر ابن جنّي أنّ قُطرب حكاها عن بعض أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: المحتسب لابن جنّي، ١٤٨/٢.

٥ س - بالهمز. | قراءة شاذّة، مرويّة عن قُطرب وبعض القرّاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٦.

٦ عبارة ابن جنّي: «إنّ ضمّة الميم في "الموقدان" ›

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: إنّها كادت لَتُظهر بموسى، أي: بأمره وقصّته مِن فرط الحَيرة والدهشة، أو الفرحِ لتبنّيه، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصبر والثبات ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدّقين بوعد الله تعالى، أو مِن الواثقين بحفظه، لا بتبنّي فرعون وتعطّفه، وهو علّة الربط. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مريم، والتعبيرُ عنها بأخوّته عليه السلام دون أن يقال: "لِبنتها" للتصريح بمَدار المحبّة الموجبة للامتثال بالأمر: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتبِعي أثرَه وتتبّعي خبره، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: أبصرَته ﴿عَن جُنُبٍ﴾ عن بُعد. وقُرئ بسكون النون،[1] و"عَن جَانِبٍ"،[2] والكلّ بمعنًى.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّها تقصّه وتتعرّف حاله، أو أنّها أختُه.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ أي: منعناه أن يرتضع مِن المرضعات. و﴿ٱلْمَرَاضِعَ﴾ جمع "مُرْضِع"، وهي المرأة التي تُرضع، أو "مَرْضَع"، وهو الرضاع أو موضِعه، أعني: الثديَ. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل قصِّها أثرَه.

﴿فَقَالَتْ﴾ عند رؤيتها لِعدم قبوله الثديَ، واعتناءِ فرعونَ / بأمره، وطلبِهم مَن يقبل ثديَها: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ لا يقصّرون في إرضاعه وتربيته. [٢٧٣و]

= و"موسى" لمّا جاورت الواوَ الساكنة صارت كأنّها فيها، والواو إذا انضمّت ضمًّا لازمًا هُمزت؛ نحو: "أُجوه" و"أُقّتت"». الخصائص لابن جنّي، ٣/١٥٠.

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن النعمان بن سالم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٥.

رُوي أنّ هامان لمّا سمعه منها قال: «إنّها لَتعرفُه وأهلَه، فخذوها حتّى تخبِر بحاله»، فقالت: «إنّما أردتُ: وهُم لِلملِك ناصِحون»، فأمرها فرعون بأن تأتي بمَن يكفُله، فأتت بأمّه وموسى على يد فرعونَ يبكي، وهو يعلّله، فدفعه إليها فلمّا وجد ريحَها استأنس والتقَم ثديَها، فقال: «مَن أنتِ منه؟ فقد أبى كلّ ثدي إلّا ثديكِ»، فقالت: «إنّي امرأة طيّبة الريح طيّبة اللبن، لا أُوتَى بصبيّ إلّا قَبِلني»، فقرّره في يدها، وأجرى عليها، فرجعت به إلى بيتها مِن يومها.[١]

وذلك قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصول ولدها إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: جميعَ ما وعده مِن ردّه وجعلِه مِن المرسلين ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلفَ فيه بمشاهدة بعضِه، وقياس بعضه عليه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك، فيرتابون فيه، أو أنّ الغرض الأصلي مِن الردّ علمُها بذلك، وما سواه تَبَع. وفيه تعريض بما فرَط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا[٢] بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: المبلغ الذي لا يزيد عليه نَشؤُه، وذلك مِن ثلاثين إلى أربعين سنةً، فإنّ العقل يكمل حينئذ. ورُوي أنّه لم يُبعث نبيّ إلّا على رأس الأربعين.[٣] ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: اعتدل قدّه أو عقله. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي: نبوّةً ﴿وَعِلْمًا﴾ بالدين، أو علمَ الحكماء والعلماء وسَمْتَهم قبل استنبائه، فلا يقول ولا يفعل فعلًا يُستَجهل فيه، وهو أوفَق لنظم القصّة؛ لأنّه تعالى استنبأه بعد الهجرة في المراجعة.
[٢٧٣ظ] ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ / ذلك الذي فعلنا بموسى وأمّه ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٩٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٧٣.
٢ س: فلمّا.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٩٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٧٣.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ أي: مِصرَ مِن قصر فرعون. وقيل: مَنْف،[١] أو حايين،[٢] أو عينَ الشمس،[٣] مِن نواحيها. ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ في وقت لا يُعتاد دخولها، أو لا يتوقّعونه فيه. قيل: كان وقتَ القيلولة. وقيل: بين العشاءَين. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: ممّن شايَعه على دينه، وهم بنو إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: مِن مخالفيه دينًا، وهم القِبط. والإشارة على الحكاية.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: سأله أن يغيثه بالإعانة، كما يُنبئ عنه تعديته بـ﴿عَلَى﴾. وقُرئ: "استعانه".[٤] ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي: ضرب القِبطيَّ بجمعِ كفِّه. وقُرئ: "فَلَكَزَهُ"،[٥] أي: فضرَبَ به صَدرَه، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتَلَه، وأصلُه أنهى حياته، مِن قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر، ١٥/٦٦].

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنّه لم يكن مأمورًا بقتل الكفّار، أو لأنّه كان مأمونًا فيما بينهم، فلم يكن له اغتيالهم. ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأً، وإنّما عدّه مِن عمل الشيطان وسمّاه ظلمًا واستغفر عنه جَريًا على سَنن المقرّبين في استعظام ما فرَط منهم، ولو كان مِن محقَّرات الصغائر. ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة والإضلال.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ توسيطه بين كلامَيه عليه السلام لإبانة ما بينهما مِن المخالفة مِن حيث إنّه مناجاة ودعاء، بخلاف الأوّل. ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أي: بقتله

---

١ مَنْف: مدينة فرعون بمصر، قال القضاعي: «أصلها بلغة القبط "مافه"، فعرّبت فقيل: مَنْف». وهي أوّل مدينة عمّرت بعد غرق فرعون. بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستّة فراسخ. معجم البلدان للحموي، ٥/٢١٤.

٢ كذا في الأصول الخطيّة. وفي مطبوع معالم التنزيل للبغوي، ٦/١٩٦؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٩٢: "حابين" بـ"الباء". وفي مطبوع الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٣٩؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٧/٣٥٣: "خانين" بـ"الخاء" المعجمة والنون.

٣ عَين الشمس: مدينة فرعون بمصر ممّا يلي جبل المقطّم، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، بينه وبين بَلبيس مِن ناحية الشام قرب المطريّة، وليست على شاطئ النيل. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤/١٧٨؛ والروض المِعطار للحميري، ص ٤٢٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأخفش وسيبويه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٩٨.

﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ ذنبي، ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ ذلك، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المبالِغ في مغفرة ذنوب عباده ورحمتِهم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ١٧﴾

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ إمّا قسَم محذوف الجواب، أي: أُقسِم بإنعامك
[٢٧٤و] عليّ بالمغفرة / لَأتوبنّ، ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ بعد هذا أبدًا ﴿ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وإمّا استعطاف، أي: بحقّ إنعامك عليّ اعصمني، فلن أكون معينًا لِمَن يؤدّي معاونته إلى الجُرم. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه عليه السلام لم يستَثْنِ فابتُلِي به مرّة أخرى، وهذا يؤيّد الأوّل. وقيل: معناه: بما أنعمتَ عليّ مِن القوّة أُعِين أولياءك، فلن استعمِلَها في مظاهرة أعدائك.

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ١٨﴾

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يترصّد الاستقادة أو الأجنادَ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: يستغيثه برفع الصوت، مِن "الصُراخ"، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بيّنُ الغواية، تسبّبتَ لقتل رجلٍ وتقاتل آخَر.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ١٩﴾

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي: لموسى وللإسرائيلي، إذ لم يكن على دينهما، ولِأنّ القِبط كانوا أعداءً لبني إسرائيل على الإطلاق. وقُرئ: "يَبْطُش" بضمّ "الطاء".[١]

﴿قَالَ﴾ أي: الإسرائيلي ظانًّا أنّه عليه السلام يَبطِش به حسبما يوهمه تسميته إيّاه غويًّا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ قالوا: لمّا سمع القبطي قولَ الإسرائيلي علم أنّ موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني،

---

١ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٤.

فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، وأمر فرعونُ بقتل موسى عليه السلام. وقيل: قاله القبطي.

﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو الذي يفعل كلّ ما يريده مِن الضرب والقتل، ولا ينظر في العواقب. وقيل: المتعظّم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس بالقول والفعل.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: كائن مِن آخرها، أو جاءَ مِن آخرها ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يسرع، صفة لـ﴿رَجُلٌ﴾، أو حال منه على أنّ الجارّ والمجرور صفة له، لا متعلّقٌ بـ﴿جَآءَ﴾، فإنّ تخصّصه يُلحِقه بالمعارف. / قيل: هو مؤمن آلِ فرعونَ، واسمه حزقيل، وقيل: شمعون، وقيل: شمعان. [٢٧٤ظ]

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي: يتشاورون بسببك، فإنّ كلًّا مِن المتشاوِرَين يأمر الآخرين ويأتَمِر، ﴿فَٱخْرُجْ﴾ أي: مِن المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ "اللام" للبيان، لِما أنّ معمول الصلة لا يتقدّمها.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي: مِن المدينة ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوق الطالبين ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خلّصني منهم، واحفظني مِن لحوقهم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: نحوَ مَديَن، وهو قرية شعيب عليه السلام، سمّيت باسم مَديَن بن إبراهيم، ولم تكن تحت سلطان فرعون، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيّام، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ[١] أَن يَهْدِيَنِى[٢] سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ توكّلًا على الله تعالى،

---

[١] ط س – ربّي.

[٢] ط س + ربّي. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

وثِقةً بحسن توفيقه، وكان لا يعرف الطرُق، فعَنَّ له ثلاثُ طرائق، فأخذ في الوسطى، وجاء الطلّاب فشرعوا في الأُخريَين. وقيل: خرج حافيًا لا يعيش إلّا بورَق الشجر، فما وصل حتّى سقط خُفّ[1] قدميه. وقيل: جاء مَلَك على فرس وبيده عَنَزة،[2] فانطلق به إلى مَديَن.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ أي: وصل إليه، وهو بئر كانوا يسقون منها ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ﴾ أي: فوقَ شفيرها ﴿أُمَّةٗ﴾ جماعةً كثيفة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ أي: مواشيَهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في موضعٍ أسفلَ منهم ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تَمنعان ما معهما مِن الأغنام عن التقدّم إلى البئر كيلا تختلط بأغنامهم مع عدم الفائدة في التقدّم.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام لهما حين رآهما على ما هما عليه مِن التأخّر والذَّود: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾ ما شأنُكما فيما أنتما عليه مِن التأخّر والذَّود؟ ولِمَ لا تباشرانِ السقي كدَأب هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا / لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: عادتنا أن لا نسقي [٢٧٥و] حتّى يَصرف الرُّعاةُ مواشيَهم بعد رِيِّها عن الماء عجزًا عن مُساجَلَتهم، وحذَرًا عن مخالطة الرجال، لا أنّا لا نسقي اليومَ إلى تلك الغاية.

وحُذف مفعول السقي والذود والإصدار لِما أنّ الغرض هو بيان تلك الأفعالِ أنفسِها، إذ هي التي دَعَتْ موسى عليه السلام إلى ما صنع في حقّهما مِن المعروف، فإنّه عليه السلام إنّما رحمهما لكونهما على الذِّياد للعجز والعِفّة، وكونِهم على السقي غيرَ مبالين بهما، وما رحمهما لكون مَذودِهما غنمًا ومَسقيِّهم إبِلًا مثلًا.

وقُرئ: "لَا نُسْقِي"[3] مِن "الإسقاء"، و"يَصْدُرَ"[4] مِن "الصُّدور"، و"الرُّعَاءُ"

---

[1] س: حف.

[2] العَنَزَة -بالتحريك-: أطول مِن العصا، وأقصرُ مِن الرمح. **الصحاح** للجوهري، «عنز».

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة السمان. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٦.

[4] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٤١.

بضمّ "الراء"،[١] وهو اسم جمع كـ"الرُّخال"، وأمّا ﴿ٱلرِّعَآءُ﴾ فجمعٌ قياسي كـ"صِيام" و"قِيام".

وقوله تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ إبلاءٌ منهما للعذر إليه عليه السلام في تَوَلّيهما للسقي بأنفسهما، كأنّهما قالتا: إنّا امرأتان ضعيفتان مستورتان، لا نقدر على مُساجَلة الرجال ومزاحمتهم، وما لنا رجل يقوم بذلك، وأبونا شيخ كبير السنّ، قد أضعفه الكِبَر، فلا بدّ لنا مِن تأخير السقي إلى أن يقضي الناس أوطارَهم مِن الماء.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ رحمةً عليهما، والكلام في حذف مفعوله كما مرّ آنفًا. رُوي أنّ الرُّعاة كانوا يَضَعون على رأس البئر حجَرًا لا يُقِلّه إلّا سبعة رجال، وقيل: عشرة، وقيل: أربعون، وقيل: مائة، فَأَقَلَّه وحدَه مع ما كان به مِن الوَصَب[٢] والجراحة والجوع،[٣] ولعلّه عليه السلام زاحَمَهم في السقي لهما، فوضعوا الحجَر على البئر لتعجيزه عليه السلام عن ذلك، فإنّ الظاهر أنّه عليه السلام غِبّما شاهد حالهما سارع إلى السقي لهما، وقد رُوي أنّه دفعهم عن الماء إلى أن سقى لهما.[٤] وقيل: كانت هناك بئر أخرى عليها الصخرة المذكورة.[٥]

ورُوي أنّه عليه السلام سألهم دلوًا مِن ماء، فأعطَوْه دَلْوَهم، وقالوا: استَقِ بها، وكان لا ينزعها إلّا أربعون، فاستقى بها وصبّها في الحوض ودعا بالبركة، ورَوّى غنمهما وأصدَرهما.[٦]

/ ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ الذي كان هناك، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ أي: أيّ شيء أنزلته إليّ ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ جَلَّ أو قَلّ. وحمَله الأكثرون على الطعام بمعونة المَقام. [٢٧٥ظ]

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **شواذ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٦.

٢ الوَصَبُ: المرض. **الصحاح** للجوهري، «وصب».

٣ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠١/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٧٥/٤.

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠١/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٩٧/٨.

٥ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠١/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٧٥/٤.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠١/٣.

﴿فَقِيرٌ﴾ أي: محتاج. ولتضمّنه معنى السؤال والطلب جيء بلام الدِّعامة؛ لتقوية العمل. وقيل: المعنى: لِما أنزلتَ إليّ مِن خير عظيمٍ هو خير الدارين صِرتُ فقيرًا في الدنيا؛ لأنّه كان في سَعة مِن العيش عند فرعون، قاله عليه السلام إظهارًا للتبجّح[١] والشكر على ذلك.

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ قيل: هي كُبراهما، واسمها صَفوراء، أو صَفراء، وقيل: صُغراهما، واسمها صُفيراء، أي: جاءته عَقيب ما رجعتا إلى أبيهما. رُوي أنّهما لمّا رجعتا إلى أبيهما قبل الناس، وأغنامُهما حُفَّلٌ بِطان، قال لهما: «ما أعجلَكما؟» قالتا: «وجدنا رجلًا صالحًا رَحِمَنا فسَقى لنا»، فقال لإحداهما: «اذهبي فادْعيهِ لي».[٢]

وقوله تعالى: ﴿تَمۡشِي﴾ حال مِن فاعل ﴿جَآءَتۡ﴾. وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ متعلّق بمحذوف هو حال مِن ضمير ﴿تَمۡشِي﴾، أي: جاءته تمشي كائنةً على استحياء، فمعناه: أنّها كانت على استحياء حالتَي المشي والمجيء معًا، لا عند المجيء فقط. وتنكير ﴿ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ للتفخيم. قيل: جاءته مُتَخَفِّرةً، أي: شديدةَ الحياء. وقيل: قد استَتَرَتْ بِكُمّ دِرعها.

﴿قَالَتۡ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية مجيئها إيّاه عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قالت له عليه السلام؟ فقيل: قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ أي: جزاءَ سقيكَ لنا. أسندَت الدعوة إلى أبيها، وعلّلتها بالجزاء لئلّا يوهِم كلامها ريبةً. وفيه مِن الدلالة على كمال العقل والحياء والعفّة ما لا يخفى.

رُوي أنّه عليه السلام أجابها، فانطلقا وهي أمامَه، فألزقت الريحُ ثوبها بجسدها فوَصفَتْه، فقال لها: «امشي خَلفِي، وانْعَتِي لي الطريق»، ففعلَتْ حتّى أتيا دار شعيب عليهما السلام.[٣]

---

[١] التبجّح: الفرح. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بجح».

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي: ما جرى عليه، مِن "الخبر المقصوص"، فإنّه مصدر سمّي به المفعول كـ"العَلَلِ".[1]

﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ / الذي يلوح مِن ظاهر النظم الكريم [٢٧٦و] أنّ موسى عليه السلام إنّما أجاب المستدعيةَ مِن غير تَلَعْثُم ليتبرّك برؤية شعيب عليه السلام، ويستظهرَ برأيه، لا ليأخذ بمعروفه أجرًا حسبما صرّحت به. ألا يُرى إلى ما رُوي أنّ شعيبًا لمّا قَدّم إليه طعامًا قال: «إنّا أهلُ بيت لا نبيع ديننا بطِلاع الأرض ذهَبًا، ولا نأخذ على المعروف ثمنًا»، ولم يتناول حتّى قال شعيب عليهما السلام: «هذه عادَتُنا مع كلّ مَن ينزل بنا»،[2] فتناول بعد ذلك على سبيل التقبّل لمعروف مبتَدأ، كيف لا، وقد قَصّ عليه قَصَصه، وعرّفه أنّه مِن بيت النبوّة مِن أولاد يعقوب عليهم السلام، ومثله حقيق بأن يُضَيَّف ويُكرَّم، لا سيّما في دار نبيّ مِن أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام.[3]

وقيل: ليس بمُستنكَر منه عليه السلام أن يقبل الأجرَ لاضطرار الفقر والفاقة. وقد رُوي عن عطاء بن السائب[4] أنّه عليه السلام رفع صوته بدعائه لِيُسمِعَها،[5] ولذلك قيل له: ﴿لِيَجۡزِيَكَ﴾... إلخ، ولعلّه عليه السلام إنّما فعله ليكون ذريعةً إلى استدعائه، لا إلى استيفاء الأجر.

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ وهي التي استدعَتْه إلى أبيها، وهي التي زوّجها مِن موسى عليهما السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾ أي: لرَعي الغنم، والقيام بأمرها،

---

[1] وفي هامش م: وهو الشرب الثاني، سمّى به ما يُعَلّ به. «منه».

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٥/٤.

[3] ط س: عليهم السلام.

[4] هو عطاء بن السائب الثقفي مولاهم، الكوفي، أبو السائب، وقيل: أبو زيد (ت. ١٣٦هـ/٧٥٦م)، الإمام، الحافظ، محدّث الكوفة. رَوى عن أبيه السائب بن زيد، وعن أنس بن مالك، وعن عبد الله بن أبي أوفى، وخلق كثير. قال أحمد بن حنبل: «عطاء ثقة ثقة، رجل صالح». وقال: «مَن سمع منه قديمًا كان صحيحًا، ومَن سمع منه حديثًا لم يكن بشيء». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١١١/٦.

[5] الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢١٧/١٨.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تعليل جارٍ مَجرى الدليل على أنّه حقيق بالاستئجار، وللمبالغة في ذلك جُعِل ﴿خَيْرَ﴾ اسمًا لـ﴿إِنَّ﴾، وذُكِر الفعل على صيغة الماضي للدلالة على أنّه أمين مجرَّب.

رُوي أنّ شعيبًا عليه السلام قال لها: «وما أَعلَمَكِ بقوّته وأمانته؟»، فذكرَتْ ما شاهدَتْ منه عليه السلام مِن إقلال الحجَر، ونزعِ الدلْو، وأنّه صوَّبَ رأسه حتّى بلَّغَتْه رسالته، وأَمَرَها بالمشي خلفَه.[١]

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

[٢٧٦ظ] ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ / أي: تكونَ أَجيرًا لي، أو تُثِيبَني، مِن "أَجَرتُه كذا" إذا أثبتَه إيّاه. فقوله تعالى: ﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ على الأوّل ظرف، وعلى الثاني مفعول به على تقدير مضاف، أي: رِعْيَةَ ثماني حِجج.

ونُقل عن المبرّد: أنّه يقال: "أَجَرْتُ داري ومَملوكي" غيرَ ممدود، و"آجَرْتُ" ممدودًا،[٢] والأوّل أكثر. فعلى هذا يكون المفعول الثاني محذوفًا، والمعنى: على أن تأجرني نفسَك. وقوله تعالى: ﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ظرف كالوجه الأوّل.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾[٣] في الخدمة والعمل ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: فهو مِن عندك بطريق التفضّل، لا مِن عندي بطريق الإلزام عليك. وهذا مِن شعيب[٤] عرضٌ لرأيه على موسى عليهما السلام، واستدعاء منه للعقد، لا إنشاءٌ وتحقيق له بالفعل.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام إتمام العشر، أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال. واشتقاق "المَشقّة" مِن "الشَّقّ"، فإنّ ما يصعب عليك يشُقّ عليك اعتقادك في إطاقته، ويوزِّع رأيك في مُزاولته.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٠٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٧٥.
٢ تحرير ألفاظ التنبيه للنووي، ص ٢١٩.
٣ س: عشر.
٤ س + عليه السلام.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حُسن المعاملة، ولينِ الجانب، والوفاءِ بالعهد. ومراده عليه السلام بالاستثناء التبرّكُ به، وتفويضُ أمره إلى توفيقه تعالى، لا تعليقُ صلاحه بمشيئته تعالى.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٢٨﴾

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ مبتدأ وخبر، أي: ذلك الذي قلتَه وعاهدتني فيه وشارطتَني عليه قائمٌ وثابتٌ بيننا جميعًا، لا يخرج عنه واحد منّا، لا أنا عمّا شَرطتَ عليّ، ولا أنت عمّا شَرطتَ على نفسك.

وقوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ أي: أكثرَهما، أو أقصرَهما ﴿قَضَيْتُ﴾ أي: وَفَّيْتُكَهُ بأداء الخدمة فيه ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ تصريح بالمراد، وتقريرٌ لِأمرِ الخِيَرة، أي: لا عدوانَ عليّ بطلب الزيادة على ما قضيتُه مِن الأجلَين.

وتعميم انتفاء العدوان لكِلا الأجلَين بصَدَد المشارطة مع عدم تحقّق العدوان في أكثرهما رأسًا للقصد إلى التسوية بينهما في الانتفاء، أي: كما لا أُطالَب بالزيادة على العشر، لا أُطالَب بالزيادة على الثماني، أو أيَّما الأجلَينِ قضيتُ فلا إثمَ عليّ،[1] يعني كما لا إثمَ عليّ في قضاء الأكثر، لا إثمَ عليّ في قضاء الأقصَر فقط.

/ وقُرِئَ: "أَيَّ الْأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ"،[2] فـ"مَا" مزيدة لتأكيد القضاء، كما أنّها [٢٧٧و]
في القراءة الأُولى مزيدة لتأكيد إبهامِ "أيَّ" وشياعِها.

وقُرِئ: "أَيْمَا" بسكون الياء،[3] كقول مَن قال:

تنظَّرتُ نصرًا والسِّماكَين أيْهُمَا عليّ مِن الغيثِ اسْتَهلَّت مَواطِرُهْ[4]

---

[1] س - عليّ.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٠٦؛ البحر المحيط لأبي حيان، ٨/٣٠٠.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٧.

[4] للفرزدق في ديوانه، ١/٤٦٢. "تَنظَّرت": انتظرتُ في مُهلة. و"نَضر": اسم رجل. و"السِّماكين": كوكبان، يقال لأحدهما: الأعزَل، وهو مِن منازل القمر، ويقال للآخر: السِّماك الرامح، وليس مِن المنازل. و"أيْهُما": مخفّف "أيّهُما"، وهو محلّ الاستشهاد. و"استَهلّت": صبّت. | و"المَواطر": جمع ماطِرة، صفةٌ للسحائب، أي: صبّت سحائبه المَواطر. شرح شواهد المغني للسيوطي، ١/٢٣٦.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ مِن الشروط الجارية بيننا ﴿وَكِيلٌ﴾ شاهد وحفيظ، فلا سبيلَ لأحدٍ منّا إلى الخروج عنه أصلًا. وليس ما حُكي عنهما عليهما السلام تمامَ ما جرى بينهما مِن الكلام في إنشاء عقد النكاح وعقد الإجارة وإيقاعِهما؛[1] بل هو بيان لِما عزَما عليه واتّفقا على إيقاعه حسبما يتوقّف عليه مَساق القصّة إجمالًا مِن غير تعرّض لبيان مواجب العقدين في تلك الشريعة تفصيلًا.

رُوي أنّهما لمّا أتمّا العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام: «ادخُل ذلك البيت، فخذ عصًا مِن تلك العِصِيّ»، وكانت عنده عِصيّ الأنبياء عليهم السلام، فأخذَ عصًا هبط بها آدم عليه السلام مِن الجنّة، ولم يزَل الأنبياء يتوارثونها حتّى وقعت إلى شعيب عليه السلام، فمسّها وكان مكفوفًا، فضَنَّ[2] بها، فقال: «غيرَها»،[3] فما وقع في يده إلّا هي سبعَ مرّات، فعَلِم أنّ له شأنًا.[4]

وقيل: أخذها جبريل عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام، فكانت معه حتّى لقي بها موسى ليلًا.[5]

وقيل: أودعها شعيبًا مَلَكٌ في صورة رجل، فأمر بنته أن تأتيه بعصًا، فأتَتْه بها، فردّها سبع مرّات، فلم يقع في يدها غيرُها، فدفعها إليه، ثمّ ندِم؛ لأنّها وديعة، فتَبِعه فاختصما فيها، ورضيا أن يَحكم بينهما أوّلُ طالع، فأتاهما المَلَك فقال: / «ألقِياها، فمَن رفعها فهي له»، فعالجها الشيخ فلم يُطِقها، ورفعها موسى عليهما السلام.[6] [٢٧٧ظ]

وعن الحسَن رحمه الله:[7] «ما كانت إلّا عصًا مِن الشجر اعترَضها اعتراضًا».[8] وعن الكلبي رحمه الله: «الشجرة التي منها نودي شجرة العوسَج، ومنها كانت عصاه».[9]

---

١ ط س م - وإيقاعِهما. ["صح" في هامش م].
٢ وفي هامش م: أي: بَخِل بها. «منه».
٣ وفي هامش م: أي: خُذ غيرها. «منه».
٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٦/٣. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢٣٣/١٨.
٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٦/٣.
٦ ط س: عليه السلام. | الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٦/٣.
٧ ط س: رضي الله عنه.
٨ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٦/٣؛ تفسير الرازي، ٥٩٥/٢٤. قال الرازي: «أي: أخذَها مِن عرض الشجر، يقال: "اعترَض" إذا لم يتخيّر».
٩ التفسير البسيط للواحدي، ٣٨٤/١٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٦/٣.

ولمّا أصبح قال له شعيب صلوات الله عليهما: «إذا بلغتَ مَفرِق الطريق فلا تأخذ على يمينك، فإنّ الكلأ وإن كان بها أكثر إلّا أنّ فيها تِنّينًا أخشاه عليك وعلى الغنم»، فأخذت الغنم ذات اليمين، ولم يقدر على كفّها، ومشى على أثرها، فإذا عُشب وريف لم يُرَ مثله، فنام فإذا بالتنّين قد أقبل، فحارَبَتْه العصا حتّى قتلَتْه، وعادت إلى جنب موسى عليه السلام داميةً، فلمّا أبصرها داميةً والتنّينَ مقتولًا ارتاح لذلك، ولمّا رجع إلى شعيب عليه السلام مسّ الغنمَ فوجدها مَلْأى البطون، غزيرةَ اللبن، فأخبره موسى عليهما السلام بالشأن، ففرِح وعلِم أنّ لموسى والعصا شأنًا، وقال له: «إنّي وهبت لك مِن نِتاج غنمي هذا العامَ كلَّ أَدْرَع ودَرْعاء»،[1] فأُوحي إليه في المنام: أنِ اضرب بعصاك مستقى الغنم، ففعل، ثمّ سقى، فما أخطأَتْ واحدة إلّا وضَعَتْ أَدْرَعَ ودَرْعاء، فوفّى له بشرطه.[2]

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٢٩﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ فصيحة، أي: فعقَدَ العقدين، وباشرَ موسى ما التزمه، فلمّا أتمّ الأجل ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ نحو مِصر بإذنٍ مِن شعيب عليهما السلام.[3] رُوي أنّه عليه السلام قضى أبعدَ الأجلَين، ومكَثَ عنده بعد ذلك عشر سنين، ثمّ عزم على العود إلى مِصر، فاستأذنه في ذلك فأذِن له، فخرج بأهله.

/ ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي: أبصرَ مِن الجهة التي تلي الطور ﴿نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: بخَبرِ الطريق، وقد كانوا ضلّوه، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أي: عُود غليظ، سواء كانت في رأسه نارٌ أو لا، قال قائلهم: [٢٧٨و]

باتَت حَواطب ليلى يلتمِسْن لها جزل الجِذَى غيرَ خَوّارٍ ولا دَعِرِ[4]

---

[1] الأَدْرَعُ مِن الخيل والشاء: ما اسودَّ رأسه وابيضَّ سائره، والأنثى درعاء. **الصحاح** للجوهري، «درع».

[2] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٤٦/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٧/٣.

[3] س: عليه السلام.

[4] لابن مُقبِل في ديوانه، ص ٨٠. "الحَواطِب": الجواري اللّاتي يطلُبنَ الحطَب. و"الجَزل": الحطَب اليابس العظيم، و"الخَوّار": الضعيف، يقال: "رُمحٌ خَوّار"، و"رَجلٌ خَوّار". و"الدعَر": مصدرُ دَعَرَ دَعَرًا؛ فهو عودٌ دَعِر: رديءٌ كثيرُ الدخان. **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٧/١٢.

وقال:

وألقى على قَبسٍ مِن النار جَذوة شـديـدًا عليـها حرّهـا والتهـابـها[١]

ولذلك بيّن بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾. وقُرئ بكسر الجيم[٢] وبضمّها،[٣] وكلُّها لغات. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أي: تستدفِئون.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النارَ التي آنَسها ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ[٤] ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي: أتاه النداء مِن الشاطئ الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام، ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾ متّصل بـ"الشاطئ"، أو صلة لـ﴿نُودِيَ﴾. ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿شَٰطِيِٕ﴾؛ لأنّها كانت نابتة على الشاطئ. ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهذا وإن خالَف لفظًا لِما في طه[٥] والنمل[٦] لكنه موافق له في المعنى المراد.

﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ۝٣١﴾

﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ عطفٌ على ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾،[٧] وكلاهما مفسِّر لـ﴿نُودِيَ﴾.[٨] و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ فصيحة مفصِحة عن جُمَل قد حُذفت تعويلًا على دلالة الحال عليها، وإشعارًا بغاية سرعة تحقّق مدلولاتها، أي: فألقاها فصارت ثعبانًا فاهتزّت، فلمّا رَآها تهتزّ ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ أي: في سرعة الحركة مع غاية عِظَم جُثّتها ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾ أي: منهزِمًا مِن الخوف ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾

---

[١] بغير نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٠٨/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٦/٤. و"الجَذْوة": القَبَسة مِن النار، والمراد بها النميمة؛ أي: ألقى على قبسٍ جَذوة مِن النميمة اشتدّ عليه حرُّها والتهابُها؛ لأنّها هَيّجَت نار العداوة والفتنة بين القوم. فتوح الغيب للطيبي، ٤٧/١٢.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

[٣] قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

[٤] م ط س: الوادي.

[٥] طه، ١١/٢٠-١٢.

[٦] النمل، ٩/٢٧.

[٧] في الآية السابقة.

[٨] في الآية السابقة.

أي: لم يرجع. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي: قيل: يا موسى ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ عن المخاوف، فإنّه لا يخاف لديّ المرسلون.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أي: أدخِلها فيه ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: عيب، / ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي: يديكَ المبسوطتين لتتّقي بهما الحيّة كالخائف الفَزِع، بإدخال اليمنى تحت العَضُد الأيسر، واليسرى تحت الأيمن، أو بإدخالهما في الجَيب، فيكون تكريرًا لِغرضٍ آخر، هو أن يكون ذلك في وجه العدوّ إظهارَ جرأة، ومبدأً لِظهور معجزة. [٢٧٨ظ]

ويجوز أن يُراد بالضمّ التجلّد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانًا، استعارةً مِن حال الطائر، فإنّه إذا خاف نشَرَ جناحَيه، وإذا أمِن واطمأنّ ضمّهما إليه.

﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي: مِن أجل الرهب، أي: إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلّدًا وضبطًا لنفسك. وقُرئ بضمّ "الراء" وسكون "الهاء"،[١] وبضمّهما،[٢] والكلُّ لغات.

﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد. وقُرئ بتشديد "النون"،[٣] فالمخفّف مثنّى "ذاك"، والمشدّد مثنّى "ذلك". ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ حُجّتان نيّرتان. و"بُرهان" "فُعلان"، لقولهم: "أبْرَهَ الرجلُ" إذا جاء بالبرهان، مِن قولهم: "بَرِهَ الرجلُ" إذا ابيضَّ، ويقال للمرأة البيضاء: "بَرْهاء"، و"بَرَهْرَهة"، ونظيرُه تسمية الحُجّة "سلطانًا" مِن "السَّلِيط"، وهو الزيت، لإنارتها. وقيل: هو "فُعلال"، لِقولهم: "بَرْهَنَ".

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ متعلّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾، أي: كائنان منه تعالى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ واصِلان ومنتهيان إليهم.

---

١ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: "الرَّهَب" بفتح الراء والهاء. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والمفضّل والجحدري وابن عبيد وقتادة وعيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٧.

٣ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن حدود الظلم والعدوان، فكانوا أحِقَّاءَ بأن نُرسلك إليهم بهاتين المعجزتَين الباهِرتين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾

[٢٧٩و] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا / فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بمقابَلتها.

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: مُعِينًا، وهو في الأصل اسم ما يُعان به، كـ"الدِّفْء". وقُرئ: "رِدًا" بالتخفيف.[١] ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بتلخيص الحقّ، وتقرير الحُجّة، بتوضيحها وتزييف الشبهة. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ولساني لا يطاوِعني عند المُحاجّة. وقيل: المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه، لكنّه أُسنِد إليه إسنادَ الفعل إلى السبب. وقُرئ: "يُصَدِّقْنِي" بالجزم[٢] على أنّه جواب الأمر.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٣٥﴾

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنُقوّيك به، فإنّ قوّة الشخص بشِدّة اليد على مزاولة الأمور، ولذلك يعبّر عنه باليد، وشدّتِها بشِدّة العَضُد.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: تسلّطًا وغلبةً. وقيل: حُجّة،[٣] وليس بذاك. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاءٍ، أو مُحاجّةٍ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ متعلّق بمحذوف قد صُرّح به في مواضع أُخَر، أي: اذهبا بآياتنا، أو بـ﴿نَجْعَلُ﴾، أي: نسلّطكما بآياتنا، أو بمعنى ﴿لَا يَصِلُونَ﴾، أي: تمتنعون منهم بها. وقيل: هو قسَم، وجوابه ﴿لَا يَصِلُونَ﴾. وقيل: هو بيان لـ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ بمعنى أنّه صلة لِما يُبيّنه، أو صلة له على أنّ "اللام" للتعريف، لا بمعنى "الذي".

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر، إلّا أنّ أبا جعفر أبدل مِن التنوين ألفًا في الحالين، ووافقه نافع في الوقف. النشر لابن الجزري، ١/٤١٤.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤١.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٤١٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٧٧.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحاتِ الدلالة على صحّة رسالة موسى عليه السلام منه تعالى. والمراد بها العصا واليد؛ إذ هما اللّتان أظهرهما موسى عليه السلام إذ ذاك. / والتعبير عنهما بصيغة الجمع قد مرّ سرّه في سورة طه.[1] [٢٧٩ظ]

﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى﴾ أي: سِحرٌ مُختَلَق لم يُفعل قبلَ هذا مثله، أو سِحرٌ تعمله ثمّ تفتريه على الله تعالى، أو سِحرٌ موصوف بالافتراء كسائر أصناف السحر. ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ أي: السحر، أو ادّعاء النبوّة ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: واقعًا في أيّامهم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ يريد به نفسه. وقُرئ: "قَالَ" بغير "واو"؛[2] لأنّه جواب عن مَقالهم. ووجه العطف أنّ المراد حكاية القولين ليوازن السامع بينهما فيميّز صحيحَهما مِن الفاسد.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: العاقبة المحمودة في الدار، وهي الدنيا، وعاقبتها الأصليّة هي الجنّة؛ لأنّها خلقت مَجازًا إلى الآخرة، ومزرعةً لها، والمقصودُ بالذات منها الثواب، وأمّا العقاب فمِن نتائج أعمال العصاة وسيّئات الغُواة. وقُرئ: "يَكُونُ" بالياء التحتانيّة.[3]

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا يفوزون بمطلوب، ولا ينجُون عن محذور.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾

---

[1] طه، ٢٠/٤٢.

[2] قرأ بها ابن كثير، وكذلك هي في مصحف أهل مكّة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤١.

[3] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٣.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ قاله اللعين بعدما جَمع السحرة وتصدّى للمعارضة، فكان مِن أمرهم ما كان. ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اصنع آجُرًا ﴿فَٱجْعَل لِّى﴾ منه ﴿صَرْحًا﴾ أي: قصرًا رفيعًا ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ كأنّه توهّم أنّه لو كان لكان جسمًا في السماء يمكن الرُقِيّ إليه. ثمّ قال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، / أو أراد أن يبني له رَصَدًا يترصّد منه أوضاع [٢٨٠و] الكواكب، فيرى هل فيها ما يدلّ على بعثة رسولٍ وتبدّل دولةٍ.

وقيل: المراد بنفي العلم نفيُ المعلوم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى[1] ٱلْأَرْضِ﴾[2] [يونس، ١٨/١٠]، فإنّ معناه: بما ليس فيهنّ، وهذا مِن خواصّ العلوم الفعليّة، فإنّها لازمة لتحقّق معلوماتها، فيلزم مِن انتفائها انتفاءُ معلوماتها، ولا كذلك العلوم الانفعاليّة.

قيل: أوّل مَن اتّخذ الآجُرّ فرعونُ، ولذلك أمرَ باتّخاذه على وجه يتضمّن تعليم الصنعة، مع ما فيه مِن تَعَظّم، ولذلك نادى هامانَ باسمه بـ"يا" في وسط الكلام.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصرَ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بغيرِ استحقاقٍ، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للجزاء. وقُرئ بفتح "الياء" وكسر "الجيم"،[3] مِن "رَجَع رُجوعًا"، والأوّل مِن "رَجَعَ رَجْعًا"، وهو الأنسب بالمقام.

﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ عَقيبَ ما بلغوا مِن الكفر والعتوّ أقصى الغايات، ﴿فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ قد مرّ تفصيله. وفيه مِن تفخيم شأن الأخذ وتهويلِه واستحقارِ المأخوذين المَنبوذين ما لا يخفى، كأنّه تعالى أخذهم مع كثرتهم في كفٍّ

---

[1] م ط س - ولا في.
[2] م ط س: والأرض.
[3] قرأ بها نافع وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٠٩/٢.

وطرَحهم في البحر. ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر، ٦٧/٣٩].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وبيِّنْها للناس ليعتبروا بها.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: صيّرناهم في عهدهم ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ﴾ الناسَ ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى ما يؤدّي إليها مِن الكفر والمعاصي، أي: قدوةً يَقتدي بهم أهل الضلال، لِما صَرفوا اختيارَهم إلى تحصيل تلك الحالة. وقيل: سمّيناهم أئمّةً دعاةً إلى النار، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف، ١٩/٤٣]، فالأنسب حينئذ أن يكون الجَعلُ بَعدَهم فيما بين الأمم، ويكون الدعوة إلى نفس النار. وقيل: معنى الجَعل منعُ الألطاف الصارفة عن ذلك. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه مِن الوجوه.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ طَردًا وإبعادًا مِن الرحمة، ولعنًا مِن اللاعنين، حيث لا يزال يلعنُهم الملائكة عليهم السلام والمؤمنون خلَفًا عن سلَف.

/ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ مِن المطرودين المُبعَدين. وقيل: مِن الموسومين بعلامةٍ مُنكَرة، كزُرقة العيون، وسوادِ الوجه، قالَه ابن عبّاس.[1] يقال: "قبّحه الله وقبَحه" إذا جعله قبيحًا. وقال أبو عبيدة:[2] «﴿مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ مِن المُهلَكين».[3] و﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إمّا متعلّق بـ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ على أنّ "اللام" للتعريف، لا بمعنى "الذي"، أو بمحذوف يفسّره ذلك، كأنّه قيل: وقَبُحوا يوم القيامة، نحو: ﴿لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء، ١٦٨/٢٦]. [٢٨٠ظ]

---

١ ط س + رضي الله عنهما. | الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٢/١٥.

٢ م: وقيل ["صح" في هامش م].

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٢/١٥.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: **التوراة** ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام. والتعرّض لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه تمهيدًا لِما يعقُبه مِن بيان الحاجة الداعية إلى إنزال **القرآن الكريم** على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ إهلاك القرون الأولى مِن موجِبات اندراس مَعالم الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها المؤدّيَين إلى اختلال نظام العالَم وفساد أحوال الأمم المستدعيَين للتشريع الجديد، بتقرير الأصول الباقية على مرّ الدهور، وترتيبِ الفروع المتبدّلة بتبدّل العصور، وتذكيرِ أحوال الأمم الخالية الموجِبة للاعتبار، كأنّه قيل: ولقد آتينا موسى **التوراة** على حين حاجةٍ إلى إيتائها.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: أنوارًا لِقلوبهم تُبصِر بها الحقائق، وتُميّز بين الحقّ والباطل، حيث كانت عُميًا عن الفهم والإدارك بالكلّيّة، فإنّ البصيرة نور القلب الذي به يَستبصر، كما أنّ البصر نور العين الذي به تُبصِر.

﴿وَهُدًى﴾ أي: هدايةً إلى الشرائع والأحكام التي هي سبُل الله تعالى ﴿وَرَحْمَةً﴾ حيث ينال مَن عمِل به رحمةَ الله تعالى. وانتصاب الكلّ على الحاليّة مِن الكتاب على أنّه نفس البصائر والهدى والرحمة، أو على حذف المضاف، أي: ذا بصائر... إلخ. وقيل: على العلّة، أي: آتيناه الكتاب للبصائر والهدى والرحمة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليكونوا على حالٍ يُرجى منهم التذكّر، وقد مرّ تحقيق القول في ذلك عند قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ مِن سورة البقرةِ [البقرة، ٢/٢١].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ شروع في بيان أنّ إنزال **القرآن الكريم** أيضًا واقع في زمان شدّة مَساس الحاجة إليه، واقتضاءِ الحكمة له البتّة، وقد صُدِّر بتحقيق كونِه وحيًا صادقًا مِن عند الله عزّ وجلّ ببيان أنّ الوقوف على ما فصِّل مِن الأحوال لا يتسنّى إلّا بالمشاهدة، أو التعلّمِ ممّن شاهدها،

وحيث انتفى كلاهما تبيّن أنّه بوحيٍ مِن علّام الغيوب لا محالةَ، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ الآية [آل عمران، ٤٤/٣]، أي: وما كنت بجانب الجبل الغربي أو المكان الغربي الذي وقع فيه[١] الميقات، / على حذف الموصوف وإقامة الصفة مُقامه، أو الجانب الغربي على إضافة الموصوف إلى الصفة، كـ"مَسْجِدِ الجامِعِ". [٢٨١و]

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي: عَهِدنا إليه، وأحكَمْنا أمرَ نبوّته بالوحي وإيتاء التوراة، ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: مِن جملة الشاهدين للوحي، وهم السبعون المختارون للميقات، حتّى تشاهد ما جرى مِن أمر موسى في ميقاته وكَتبة التوراة له في الألواح، فتخبره للناسِ.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: ولكنّا خَلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا كثيرة، ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ وتَمادَى الأمَدُ فتغيّرت الشرائع والأحكام، وعَمِيت عليهم الأنباء لا سيّما على آخرهم، فاقتضى الحالُ التشريع الجديد، فأوحينا إليك. فحُذف المستدرَك اكتفاءً بذكر ما يوجبه ويدلّ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ نفيٌ لاحتمال كون معرفته عليه السلام للقصّة بالسماع ممّن شاهَدها، أي: وما كنتَ مُقيمًا في أهل مدين مِن شعيب والمؤمنين به.

وقوله تعالى: ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تقرأُ على أهل مدين بطريق التعلّم منهم ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقةَ بالقصّة؛ إمّا حال مِن المستكِنّ في ﴿ثَاوِيًا﴾، أو خبر ثان لـ﴿كُنتَ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إيّاك، ومُوحين إليك تلك الآيات ونظائرَها.

---

[١] س – فيه.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: وقتَ ندائنا موسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾،[١] واستنبائِنَا إيّاه، وإرسالِنا له إلى فرعون، ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر بغيره لرحمةٍ عظيمةٍ كائنة منّا لك وللناس. وقيل: علّمناك. وقيل: عرّفناك ذلك،[٢] وليس بذاك كما ستعرفه.

والالتفات إلى اسم الربّ للإشعار بعلّة الرحمة، وتشريفِه عليه السلام بالإضافة، وقد اكتُفِي عن ذكر المستدرَك ههنا بذِكر ما يوجبه مِن جهته تعالى، كما اكتُفِي عنه[٣] في الأوّل بذِكر ما يوجبه مِن جهة الناس، وصُرّح به فيما بينهما تنصيصًا على ما هو المقصود، وإشعارًا بأنّه المراد فيهما أيضًا، ولله درُّ شأن التنزيل.

[٢٨١ظ] وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلّق بالفعل / المعلَّل بالرحمة، فهو ما ذكرنا مِن إرساله عليه السلام بالقرآن حتمًا، لِما أنّه المعلَّل بالإنذار، لا تعليمُ ما ذُكر. وقُرئ: "رَحْمَةٌ" بالرفع[٤] على أنّه خبر مبتدأ محذوف.

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، أي: لم يأتِهم نذير لوقوعهم في فترة بينكَ وبين عيسى، وهي خمسمائة وخمسون سنةً، أو بينكَ وبين إسماعيل، بناءً على أنّ دعوة موسى وعيسى كانت مختصّة ببني إسرائيل.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتّعظون بإنذارك.

وتغيير الترتيب الوقوعي بين قضاء الأمر والثَّواءِ في أهل مدين والنداءِ للتنبيه على أنّ كلًّا مِن ذلك برهان مستقِلّ على أنّ حكايته عليه السلام للقصّة بطريق الوحي الإلهي، ولو ذُكر أوّلًا نفي ثَوائه عليه السلام في أهل مدين،

---

١ القصص، ٣٠/٢٨.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤١٨/٣؛ تفسير الرازي، ٦٠٤/٢٤.

٣ ط س - عنه.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٨.

ثـمّ نفيُ حضوره عليه السلام عند النداء، ثـمّ نفيُ حضوره عند قضاء الأمر، كما هو الموافق للترتيب الوقوعي، لَربّما توهّـم أنّ الكلّ دليل واحدٌ على ما ذُكر، كما مرّ في قصّة البقرة.[1]

﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾

﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ أي: عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: بما اقترفوا مِن الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُواْ﴾ عطفٌ على ﴿تُصِيبَهُم﴾، داخل في حيّز ﴿لَوۡلَآ﴾ الامتناعيّة على أنّ مدار انتفاء ما يجاب به هو امتناعه، لا امتناعُ المعطُوف عليه، وإنّما ذِكرُه في حيّزها للإيذان بأنّه السبب المُلجئ لهم إلى قولهم: ﴿رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ أي: هلّا أرسلتَ إلينا رسولًا مؤيَّدًا مِن عندك بالآيات، ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الظاهرة على يده، وهو جواب ﴿لَوۡلَآ﴾ الثانية.

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بها. وجواب ﴿لَوۡلَآ﴾ الأولى محذوف ثِقةً بدلالة الحال عليه، والمعنى: لولا قولهم هذا عند إصابة عقوبة جناياتهم التي قدّموها ما أرسلناك، لكن لمّا كان قولهم ذلك محقَّقًا لا مَحيدَ عنه أرسلناك قطعًا لمَعاذيرهم بالكلّيّة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٩﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾ أي: أهلَ مكّة ﴿ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ وهو القرآن المنزَّل عليه عليه الصلاة والسلام[2] ﴿قَالُواْ﴾ تعنّتًا واقتراحًا: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ﴾ يَعنونه عليه السلام ﴿مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ مِن الكتاب المنزّل جملةً. وأمّا اليد والعصا فلا تعلُّق لهما بالمقام كِسائر معجزاته عليه السلام.

---

[1] البقرة، ٢/٧٣.

[2] س: عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾ ردٌّ عليهم، وإظهار لكونِ ما قالوه تعنّتًا مَحضًا، لا طلَبًا لِما يرشدهم إلى الحقّ، أي: ألَم يكفروا مِن قبلِ هذا القول بما أوتي موسى مِن الكتاب كما كفروا بهذا الحقّ؟

[٢٨٢و] وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ استئناف مَسوق لتقرير كفرهم المستفادِ / مِن الإنكار السابق وبيانِ كيفيّته. وقوله تعالى: ﴿سِحۡرَانِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هما -يَعنون: ما أوتي محمّد وما أوتي موسى عليهما السلام- سِحران ﴿تَظَٰهَرَا﴾ أي: تعاونا بتصديق كلّ واحد منهما الآخرَ، وذلك أنّهم بَعثوا رهطًا منهم إلى رؤساء اليهود في عيدٍ لهم، فسألوهم عن شأنه عليه السلام، فقالوا: إنّا نجده في التوراة بنَعته وصفته، فلمّا رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ﴾ أي: بكلّ واحد مِن الكتابَين ﴿كَٰفِرُونَ﴾ تصريح بكفرهم بهما، وتأكيد لكفرهم المفهوم مِن تسميتهما سِحرًا، وذلك لغاية عتوّهم وتماديهم في الكفر والطغيان.

وقُرئ: "سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا"،[٢] يعنون موسى ومحمّدًا صلّى الله تعالى[٣] عليهما وسلّم. هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الجليل، فتأمّل، ودَعْ عنك ما قيل وقيل.

ألا تَرى إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾ ممّا أوتياه مِن التوراة والقرآن وسمّيتموهما "سِحرين"؛ فإنّه نصّ فيما ذكر. وقوله تعالى: ﴿أَتَّبِعۡهُ﴾ جواب للأمر، أي: إن تأتوا به أتّبِعه. ومثلُ هذا الشرط ممّا يأتي به مَن يُدِلّ بوضوح حجّته، وسُنُوح[٤] مَحجّته؛ لأنّ الإتيان بما هو أهدى مِن الكتابين أمرٌ بيّن الاستحالة، فيوسّع دائِرةَ الكلام للتبكيت والإفحام.

---

١ قاله الكلبي. انظر: تفسير ابن أبي حاتم، ١٣/٨١٠؛ واللباب لابن عادل، ١٥/٢٦٨.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤١.

٣ س - تعالى.

٤ السُنُوح مصدر "سَنَح" بمعنى "عَرَض"، يقال: "سنَحَ لي رأي في كذا"، أي عَرَض. انظر: الصحاح للجوهري، «سنح».

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في أنّهما سِحران مختلَقان. وفي إيراد كلمة ﴿إن﴾ مع امتناع صدقهم نوع تهكّم بهم.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٠﴾

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ أي: فإن لم يفعلوا ما كلَّفْتَهم مِن الإتيان بكتابٍ أهدى منهما، كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة، ٢/٢٤]، وإنّما عُبّر عنه بالاستجابة إيذانًا بأنّه عليه السلام على كمال أَمْنٍ مِن أمره، كأنّ أمره عليه السلام لهم بالإتيان بما ذُكِر دعاءٌ لهم إلى / أمرٍ يريدُ وقوعَهُ. و"الاستجابة" تتعدّى إلى الدعاء بنفسه، وإلى الداعي بـ"اللام"، فيُحذف الدعاء عند ذلك غالبًا، ولا يكاد يقال: استجاب الله له دعاءه. [٢٨٢ظ]

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الزائغةَ مِن غير أن يكون لهم متمسَّك ما أصلًا، إذ لو كان لهم ذلك لأتَوا به.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ استفهام إنكاري للنفي، أي: لا أضلّ ممّن اتبع هواه ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هو أضلّ مِن كلّ ضالّ، وإن كان ظاهرَ السَّبك لنفي الأضَلّ، لا لنفي المساوي كما مرّ في نظائره مرارًا. وتقييد اتّباع الهَوَى بعدم الهدى مِن الله تعالى لزيادة التقرير، والإشباعِ في التشنيع والتضليل، وإلّا فمقارنته لهدايته تعالى بيّنة الاستحالة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتّباع الهوى، والإعراضِ عن الآيات الهادية إلى الحقّ المبين.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ وقُرئ بالتخفيف،[١] أي: أنزلنا القرآن عليهم متواصلًا بعضه إثرَ بعض حسبَما يقتضيه الحكمة والمصلحة، أو متتابعًا وعدًا ووعيدًا، قصصًا وعِبَرًا ومواعظ ونصائح ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون بما فيه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٨.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: مِن قبل إيتاء القرآن ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: أربعون مِن أهل الإنجيل، اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر مِن الحبشة، وثمانية مِن الشام.[1]

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي: الحقّ الذي كنّا نعرف حقّيّته. وهو استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: مِن قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ بيان لكون إيمانهم به أمرًا متقادِم العهد، لِما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدّمة، / وأنّهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن. [٢٨٣و]

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن النعوت ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرّةً على إيمانهم بكتابهم، ومرّةً على إيمانهم بالقرآن ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بصبرهم وثباتهم على الإيمانَين، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده، أو على أذى مَن هاجرهم مِن أهل دينهم ومِن المشركين.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالطاعة المعصيةَ، لقوله عليه السلام: «أَتْبِعِ الحسنةَ السيّئةَ تَمْحُها».[2]

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨١/٤.

٢ سنن الترمذي، ٣٥٥/٤ (١٩٨٧)؛ المستدرك للحاكم، ١٢١/١ (١٧٨).

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ﴾ مِن اللاغين ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ عن اللغو تكرّمًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٧٢]. ﴿وَقَالُوا۟﴾ لهم: ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق المتارَكة والتوديع، ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ لا نطلب صحبتَهم، ولا نريد مخالطتَهم.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾ هدايةً موصِلةً إلى البُغية لا محالةَ ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ مِن الناس، ولا تقدر على أن تُدخله في الإسلام، وإن بذلتَ فيه غاية المجهود، وجاوزتَ في السعي كلَّ حدّ معهود، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه، فيدخله في الإسلام.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بالمستعدّين لذلك. والجمهور على أنّها نزلت في أبي طالب، فإنّه لمّا احتضر جاءه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال: «يا عمّ؛ قل: "لا إله إلّا الله" كلمةً أحاجّ بها لك عند الله». قال: «يا ابن أخي؛ قد علمتُ إنّك لصادق؛ ولكنّي أكره أن يقال: خَرِعَ[1] عند الموت، ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة بعدي لَقلتُها، ولأقررتُ بها عينك عند الفراق، لِما أرى / مِن شدّة وَجدِك ونصيحتك، ولكنّي سوف أموت على مِلّة الأشياخ: [٢٨٣ظ]
عبد المطّلب، وهاشم، وعبد مناف».[2]

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ[3] نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ نزلت في الحارث بن عثمان بن نَوفل بن عبد مناف، حيث أتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال:

---

١ وفي هامش م: الخَرَع: الجُبن. «منه».

٢ تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/٣٥٠؛ التفسير البسيط للواحدي، ١٧/٤٢١. ونحوه في صحيح مسلم، ١/٥٥ (٢٥).

٣ س – معك.

«نحن نعلم أنّك على الحقّ، ولكنّا نخاف إن اتّبعناك وخالَفْنا العربَ وإنّما نحن أَكَلةُ رأس أن يتخطّفونا مِن أرضنا»،[١] فرُدَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرمًا ذا أمْنٍ لحُرمة البيت الحرام الذي تتناحر العرب حوله وهم آمنون.

﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ وقُرئ: "تُجْبَى"،[٢] أي: يُجمع ويُحمل إليه ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن كلّ أَوب. والجملة صفة أخرى لـ﴿حَرَمًا﴾، دافِعةٌ لِما عَسَى يُتوهّم مِن تَضرّرهم بانقطاع المِيرة،[٣] ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كان حالهم ما ذُكِر -وهم عبدةُ أصنام- فكيف يخافون التخطّفَ إذا ضمّوا إلى حرمة البيت حرمةَ التوحيد؟

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: جهَلة لا يتفطّنون له، ولا يتفكّرون ليعلموا ذلك. وقيل: هو متعلّق بقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾، أي: قليل منهم يتدبّرون فيعلمون أنّ ذلك رزق مِن عند الله تعالى؛ إذ لو علموا لَما خافوا غيره.

وانتصاب ﴿رِزْقًا﴾ على أنّه مصدر مؤكِّد لمعنى ﴿يُجْبَىٰ﴾، أو حال مِن "الثمرات" على أنّه بمعنى مرزوق، لتخصّصها بالإضافة. ثمّ بيّن أنّ الأمر بالعكس، وأنّهم أحقّاء بأن يخافوا بأسَ الله تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: وكثير مِن أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء في الأمن وخفض العَيْش والدَّعةِ حتّى أشِروا، فدمّرنا عليهم، وخرّبنا ديارَهم، ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاويةً بما ظلموا، ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مِن بعدِ تدميرهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلّا زمانًا قليلًا؛ إذ لا يَسكنها إلّا المارّة يومًا أو بعضَ يوم، أو لم يبقَ مَن يسكنها إلّا قليلًا مِن شُؤم معاصيهم.

[٢٨٤و] ﴿وَكُنَّا نَحْنُ / ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم؛ إذ لم يخلُفْهم أحد يتصرّف تصرّفهم في ديارهم وسائر ذاتِ أيديهم. وانتصاب ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بنزع الخافض، أو بجعلها ظرفًا بنفسها، كقولك: "زيدٌ ظنّي مقيمٌ"، أو بإضمار زمان مضاف إليه، أو بجعله مفعولًا لـ﴿بَطِرَتْ﴾ بتضمين معنى "كفرَت".

---

[١] **الكشّاف** للزمخشري، ٤٢٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٨١/٤.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر ورُويس عن يعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٤٢/٢.

[٣] المِيرَةُ، بالكسر: جَلَبُ الطعام. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «مير».

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيان للعناية الربّانيّة إثرَ بيان إهلاك القرى المذكورة، أي: وما صحّ وما استقام -بل استحال- في سنّته المبنيّة على الحِكم البالغة، أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يُهلِك القرى قبل الإنذار؛ بل كانت عادته أن لا يهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي: في أصلها وقصَبتها التي هي أعمالها وتوابعها، لكون أهلها أفطَنَ وأنبَل ﴿رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقةَ بالحقّ، ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب، وذلك لإلزام الحجّة وقطع المعذرة بأن يقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.[1] والالتفات إلى نون العظمة لتربية المَهابة وإدخال الروعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: وما كنّا مهلكين لأهل القرى بعدما بعثنا في أمّها رسولًا يدعوهم إلى الحقّ ويرشدهم إليه في حالٍ مِن الأحوال إلّا حالَ كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفرِ بآياتنا، فالبعثُ غاية لعدم صحّة الإهلاك بموجَب السنّة الإلهيّة، لا لِعدم وقوعه حتّى يلزم تحقّق الإهلاك عقيبَ البعث، وقد مرّ تحقيقه في سورة بني إسرائيل.[2]

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ مِن أمور الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي: فهو شيء شأنه أن يُتمتَّعَ ويُتزيَّنَ به أيّامًا قلائل. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو الثواب ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه مِن ذلك؛ لأنّه لذّة خالصة عن شوائب الألم، وبهجةٌ كاملة عارية عن سِمة الهمّ، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لأنّه أبدي.

---

١ القصص، ٤٧/٢٨.

٢ الإسراء، ٥٨/١٧.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ألا تتفكّرونَ فلا تعقلون هذا الأمرَ الواضح، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير. / وقُرئ بـ"الياء"[١] على الالتفات المبنيّ على اقتضاء سوء صنيعهم الإعراضَ عن مخاطبتهم. [٢٨٤ظ]

﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: وعدًا بالجنّة، فإنّ حُسن الوعد بحُسن الموعود، ﴿فَهُوَ لَـٰقِيهِ﴾ أي: مدرِكُه لا محالةَ لاستحالة الخُلف في وعده تعالى، ولذلك جيء بالجملة الاسميّة المفيدة لتحقّقه البتّة، وعُطفت بـ"الفاء" المنبئة عن معنى السببيّة.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مَشُوب بالآلام منغَّص بالأكدار، مستتبع للتحسّر على الانقطاع. ومعنى "الفاء" الأولى ترتيبُ إنكار التشابُه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها مِن ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ما عند الله تعالى، أي: أبَعد هذا التفاوت الظاهر يُسوَّى بين الفريقين؟

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ عطفٌ على ﴿مَّتَّعْنَـٰهُ﴾ داخل معه في حيّز الصلة، مؤكِّد لإنكار التشابه، ومقرّر له، كأنّه قيل: كمَن متّعناه متاع الحياة الدنيا ثمّ نُحضره أو أحضرناه يوم القيامة النارَ أو العذابَ. وإيثار الجملة الاسميّة للدلالة على التحقّق حتمًا. وفي جعله مِن جملة المحضَرين مِن التهويل ما لا يخفى. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان أو في الرتبة. وقُرئ: "ثُمَّ هْوَ" بسكون "الهاء"[٢] تشبيهًا للمنفصل بالمتّصل.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوب بالعطف على ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، لاختلافهما عنوانًا وإن اتّحدا ذاتًا، أو بإضمار "اذكر". ﴿فَيَقُولُ﴾ تفسير للنداء ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ

---

١ قرأ بها أبو عمرو بخُلف عن السوسي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٢.

٢ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فحُذف المفعولان معًا ثقةً بدلالة الكلام عليهما.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على حكاية السؤال، كأنّه قيل: فماذا صدر عنهم حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وهم شركاؤهم مِن الشياطين، أو رؤساؤهم الذين اتّخذوهم أربابًا مِن دون الله تعالى بأن أطاعوهم في كلّ ما أمروهم به ونهَوا عنه.

ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أنّه ثبت مقتضاه وتحقّق مؤدّاه، وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة، ١٣/٣٢] وغيرُه مِن آيات الوعيد. وتخصيصُهم بهذا الحكم مع شموله للأتباع أيضًا لأصالتهم في الكفر واستحقاقِ العذابِ حسبما يُشعر به قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]. ومسارعتهم إلى الجواب مع كون السؤال للعَبَدة إمّا لتفطّنهم أنّ السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالإضلال، وجَزمِهم بأنّ العبَدة سيقولون: / هؤلاءِ أضلّونا، وإمّا لأنّ العَبَدة قد قالوه اعتذارًا، وهؤلاء إنّما قالوا ما قالوا ردًّا لقولهم، إلّا أنّه لم يُحْكَ قول العَبَدة إيجازًا لظهوره. [٢٨٥و]

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي: هم الذين أغويناهم. فحُذف الراجع إلى الموصول. ومرادهم بالإشارة بيانُ أنّهم يقولون ما يقولون بمَحضر منهم، وأنّهم غيرُ قادرين على إنكاره وردِّه.

وقوله تعالى: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ هو الجواب حقيقة، وما قبله تمهيد له، أي: ما أكرهناهم على الغيّ، وإنّما أغويناهم بطريق الوَسوسة والتسويل، لا بالقَسر والإلجاء، فَغَوَوا باختيارهم غَيًّا مثل غَيّنا باختيارنا. ويجوز أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ الخبر.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم وممّا اختاروه مِن الكفر والمعاصي هوًى منهم، وهو تقرير لِما قبله، ولذلك لم يعطف عليه، وكذا قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾

أي: ما كانوا يعبدوننا، وإنّما كانوا يعبدون أهواءهم. وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة متّصلة بقوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا﴾، أي: تبرّأنا مِن عبادتهم إيّانا.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ إمّا تهكّمًا بهم أو تبكيتًا لهم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لفرط الحَيرة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ ضرورةَ عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة، ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ قد غشيهم، ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ لوجهٍ مِن وجوه الحِيَل يدفعون به العذاب، أو إلى الحقّ لِما لَقُوا ما لَقُوا. وقيل: ﴿لَوْ﴾ للتمنّي، أي: تمنّوا لو أنّهم كانوا مهتدين.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عطفٌ على ما قبله، سُئلوا أوّلًا عن إشراكهم، وثانيًا عن جوابهم للرسل الذين نهَوهم عن ذلك.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: صارَت كالعُمْي عنهم لا تهتدي إليهم.
[٢٨٥ظ] وأصله "فعَموا عن الأنباء"، / وقد عُكِس للمبالغة والتنبيه على أنّ ما يحضر الذهن يَفيض عليه ويصل إليه مِن خارج، فإذا أخطأ لم يكن له حيلة إلى استحضاره. وتعدية الفعل بـ"على" لتضمّنه معنى الخفاء والاشتباه. والمراد بـ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ إمّا ما طُلِب منهم ممّا أجابوا به الرسل، أو جميعُ الأنباء، وهي داخلة فيه دخولًا أوّليًا. وإذا كانت الرسل عليهم السلام يفوّضون العلم في ذاك المقام الهائل إلى علّام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسئول، فما ظنّك بأولئك الضُّلّال مِن الأمم؟

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضًا عن الجواب لفَرط الدهشة، أو العلمِ بأنّ الكلّ سواء في الجهل.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝٦٧﴾

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ مِن الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: الفائزين بالمطلوب عنده تعالى الناجين عن المَهروب. و﴿عَسَىٰ﴾ للتحقيق على عادة الكرام، أو للترجّي مِن قِبَل التائب، بمعنى: فليتوقع الإفلاح.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أن يخلقه ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ما يشاء اختياره مِن غير إيجاب عليه ولا منعٍ له أصلًا. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: التخيّر، كـ"الطِّيَرة" بمعنى "التطيّر". والمراد نفي الاختيار المؤثّر عنهم، وذلك ممّا لا ريب فيه. وقيل: المراد أنّه ليس لأحد مِن خلقه أن يختار عليه، ولذلك خلا عن العاطف، ويؤيّده ما رُوي أنّه نزَل في قول الوليد بن المغيرة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٤٣/٣١].[١] والمعنى: لا يبعث الله تعالى الرسل باختيار المرسَل إليهم. وقيل: معناه: ويختار الذي كان لهم فيه الخير والصلاح.[٢]

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزّهَ بذاته تنزّهًا خاصًا به مِن أن ينازعه أحدٌ، أو يزاحم اختيارُه اختيارَه، ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا / يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم، أو عن مشاركة ما [٢٨٦و] يشركونه به.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعَداوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحقده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كالطعن فيه.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ أي: المستحقّ للعبادة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أحدَ يستحقّها إلّا هو ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنّه المُولي للنِّعم كلّها عاجلها وآجلها على الخلق كافّةً،

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٥٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢٧.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٨٣.

يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمِدُوه في الدنيا بقولهم: "الحمد لله الذي أذهَبَ عنّا الحَزَن"،[١] "الحمد لله الذي صدَقنا وعدَه"،[٢] ابتهاجًا بفضله، والتذاذًا بحمده.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاء النافذ في كلّ شيء مِن غير مشاركة فيه لغيره، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث لا إلى غيره.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١﴾

﴿قُلْ﴾ تقريرًا لِما ذُكر: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني؛ ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائمًا، مِن "السَّرد"، وهو المتابعة والاطّراد، و"الميم" مزيدة، كما في "دُلَامِص" مِن "الدِّلاص"، يقال: "دِرعٌ دِلاص"، أي: مَلساء ليّنة. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض، أو تحريكها حول الأفُق الغائر.

﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿إِلَـٰهٌ﴾ ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والإلزام، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس، ٣١/١٠]، وقوله: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك، ٣٠/٦٧] ونظائرهما، خلا أنّه قُصِد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة، ولم يُقَل: هل إله... إلخ لإيراد التبكيت والإلزام على زعمهم. وقُرئ: "بِضِئَاءٍ" بهمزتين.[٣]

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ هذا الكلامَ الحقَّ سماعَ تدبّرٍ واستبصارٍ حتّى تُذعِنوا له، وتعملوا بموجَبه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بإسكانها في وسط السماء، أو بتحريكها على مدارٍ فوق الأفق.

---

١ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر، ٣٤/٣٥].

٢ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر، ٧٤/٣٩].

٣ قرأ بها قنبل عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٤٠٦/١.

/ ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةً مِن متاعب الأشغال. [٢٨٦ظ]
ولعلّ تجريدَ "الضياء" عن ذكر منافعه لكونه مقصودًا بذاته، ظاهِرَ الاستتباع لِما نِيط به مِن المنافع.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذه المنفعة الظاهرة التي لا تخفى على مَن له بصر.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النهار بأنواع المكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تشكروا نعمته تعالى فعَلَ ما فعَلَ، أو لتعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٧٤﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوب بـ"اذكر". ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقريع إثرَ تقريعٍ، للإشعار بأنّه لا شيءَ أجلب لغضب الله عزّ وجلّ مِن الإشراك، كما لا شيءَ أدخَلُ في مرضاته مِن توحيده سبحانه.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٧٥﴾

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ عطفٌ على ﴿يُنَادِيهِمْ﴾.[١] وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق، أو حال مِن فاعله بإضمار "قد". والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال الاعتناء بشأن النزع وتهويله، أي: أخرجْنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم ﴿شَهِيدًا﴾ نبيًا يشهد عليهم بما كانوا عليه، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[٢] [النساء، ٤/٤١].

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] م س - ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [صُحّح في هامش م].

﴿فَقُلْنَا﴾ لكلٍّ مِن تلك الأمم: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحّة ما كنتم تدينون به، ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ يومئذ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الإلهيّة لا يشاركه فيها أحد، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: غابَ غيبة الضائع ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا مِن الباطل.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان ابنَ عمّه يَصْهَرَ بنِ قَاهَثَ بنِ لاوَى بنِ يعقوب، وموسى عليه السلام ابنُ عمرانَ بنِ قَاهَثَ. وقيل: كان موسى عليه السلام ابنَ أخيه، وكان يسمّى المنوَّر لحسن صورته. وقيل: كان أقرأَ بني إسرائيل للتوراة، ولكنّه نافق كما نافق السامري وقال: «إذا كانت النبوّة لموسى، والمَذبح والقربان لهارون، فَمَا لي؟».[١]

ورُوي أنّه لمّا جاوز بهم موسى البحر، وصارت الرسالة والحُبورة[٢] والقربان لهارون، وَجَدَ[٣] قارون في نفسه وحَسَدَهما، فقال لموسى: «الأمر لكما، ولستُ على شيء، إلى متى أصبر؟» قال موسى عليه السلام: «هذا صنع الله تعالى»، قال: «لا أصدّقك حتّى تأتي بآية»، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلّ واحد بعصاه، / فحزَمها وألقاها في القبّة التي كان الوحي ينزل إليه فيها، فكانوا [٢٨٧و] يحرسون عصِيَّهم بالليل، فأصبحوا فإذا بعَصا هارون تهتزّ ولها ورق أخضر، فقال قارون: «ما هو بأعجب ممّا تصنع مِن السحر»، وذلك قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فطلب الفضلَ عليهم، وأن يكونوا تحت أمره، أو ظلمَهم.[٤] قيل: وذلك حين ملّكه فرعون على بني إسرائيل.[٥] وقيل: حسَدَهم، وذلك ما ذُكر منه في حقّ موسى وهارون عليهما السلام.[٦]

---

١ **الكشّاف للزمخشري**، ٤٣٠/٣. وانظر: **جامع البيان للطبري**، ٣١٠/١٨؛ **والكشف والبيان للثعلبي**، ٢٦٠/٧.

٢ الحُبورة: مصدر "حَبُر" -كـ"قَضُو"- إذا صار حَبْرًا. **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ١٤٤/٦.

٣ وفي هامش م: غضِب وحزِن. «منه».

٤ **الكشف والبيان للثعلبي**، ٢٦٤/٧؛ **الكشّاف للزمخشري**، ٤٣٠/٣.

٥ **الكشّاف للزمخشري**، ٤٣٠/٣؛ **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ١٨٥/٤.

٦ وهو قوله: «إذا كانت النبوّة لموسى، والمَذبح والقربان لهارون، فَمَا لي؟».

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: الأموالِ المدّخرة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي: مفاتح صناديقه، وهو جمع "مِفتَح" بالكسر، وهو ما يُفتَح به. وقيل: خزائنه، وقياس واحدها "المَفتَح" بالفتح.

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة صلة ﴿مَا﴾، وهو ثاني مفعولَي "آتى". و"ناءَ به الحِمل" إذا أثقله حتّى أماله، و"العُصْبة" و"العِصابة": الجماعة الكثيرة. وقُرئ: "لَيَنُوءُ" بـ"الياء"[1] على إعطاء المضاف حكمَ المضاف إليه، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف، ٥٦/٧].

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ منصوب بـ﴿تَنُوٓأُ﴾. وقيل:[2] بـ﴿بَغَىٰ﴾، ورُدّ بأنّ البغي ليس مقيّدًا بذلك الوقت. وقيل:[3] بـ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾، ورُدّ بأنّ الإيتاء أيضًا غيرُ مُقيّد به. وقيل: بمُضمرٍ، فقيل:[4] هو "اذكر"، وقيل:[5] هو "أظْهَرَ الفرحَ". ويجوز أن يكون منصوبًا بما بعده مِن قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾،[6] ويكونَ الجملة مقرِّرة لبَغيه.

﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي: لا تبطَر، والفرح في الدنيا مذموم مطلقًا؛ لأنّه نتيجة حبّها والرضا بها، والذهولِ عن ذهابها، فإنّ العلم بأنّ ما فيها مِن اللذّة مفارَقة لا محالةَ يوجب الترَح حتمًا، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد، ٢٣/٥٧]، وعُلّل النهي ههنا بكونه مانعًا مِن محبّته عزّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: بزخارف الدنيا.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَٱبْتَغِ﴾ وقُرئ: "وَاتَّبِعْ"[7] ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ مِن الغِنى ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن بديل بن ميسرة والضحّاك وابن يعمر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٩.

٢ وفي هامش م: ابن عطيّة. «منه». | **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٢٩٩/٤.

٣ وفي هامش م: أبو البقاء. «منه». | **التبيان** لأبي البقاء، ١٠٢٥/٢.

٤ وفي هامش م: الطبري. «منه». | لم أجده عند الطبري، وعزاه أبو حيّان إلى الحوفي. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٢٥/٨.

٥ وفي هامش م: أبو حيّان. «منه». | **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٢٥/٨.

٦ القصص، ٧٨/٢٨.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي المتوكل وابن السميفع. **زاد المسير** لابن الجوزي، ٣٩٣/٣.

ثوابَ الله تعالى فيها، بصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه، ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي: لا تترك تركَ المنسيّ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ / وهو أن تحصِّل بها آخرتك، وتأخذ منها ما يكفيك. [٢٨٧ظ]

﴿وَأَحْسِن﴾ أي: إلى عباد الله تعالى ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعم به عليك. وقيل: أحسِن بالشكر والطاعة كما أحسَن الله إليك بالإنعام. ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نهيٌ عمّا كان عليه مِن الظلم والبغي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ مجيبًا لناصِحيه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ كأنّه يريد به الردّ على قولهم: ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛[١] لإنبائه عن أنّه تعالى أنعم عليه بتلك الأموال والذخائر مِن غير سبب واستحقاق مِن قِبَله، أي: فُضِّلتُ به على الناس، واستوجبتُ به التفوّق عليهم بالمال والجاه.

و﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موقع الحال، وهو عِلم التوراة، وكان أعلمَهم بها. وقيل: علم الكيمياء. وقيل: علم التجارة والدِّهقنة[٢] وسائر المكاسب. وقيل: عِلم فتح الكنوز والدفائن. و﴿عِندِىٓ﴾ صفة له، أو متعلّق بـ﴿أُوتِيتُه﴾، كقولك: جاز هذا عندي أو في ظنّي ورأيي.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ توبيخ له مِن جهة الله عزّ وجلّ على اغتراره بقوّته وكثرة ماله مع علمه بذلك قراءةً في التوراة، وتلقّيًا مِن موسى عليه السلام، وسماعًا مِن حفّاظ التواريخ، وتعجيبٌ منه، فالمعنى: ألم يقرأ التوراة، ولم يعلم ما فعل الله تعالى بأضرابه مِن أهل القرون السابقة حتّى لا يُغتَرّ بما اغترّ به؟ أو رَدٌّ لادّعائه العلمَ

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] الدِّهْقان -بالكسر والضمّ-: التاجرُ، والاسم "الدِّهْقَنة". انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، ١١٩٨.

وتعظّمِه به بنفي هذا العلم منه، فالمعنى: أَعَلِم ما ادّعاه ولم يعلم هذا حتّى يَقِيَ به نفسَه مصارعَ الهالكين؟

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ سؤالَ استعلام؛ بل يعذَّبون بها بغتةً، كأنّ قارون لمّا هُدِّدَ بذكر إهلاك مَن قبله ممّن كان أقوى منه وأغنى أُكِّد ذلك بأن بُيِّنَ أنّ ذلك لم يكن ممّا يخصّ أولئك المهلَكين؛ بل الله تعالى مطّلع على ذنوب كافّة المجرِمين يعاقبهم عليها لا محالةَ.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عطفٌ على ﴿قَالَ﴾،[1] وما بينهما اعتراض. وقوله تعالى: ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ إمّا متعلّق بـ﴿خَرَجَ﴾، أو بمحذوفٍ هو حال مِن فاعله، / أي: فخرج عليهم كائنًا في زينته. قيل: خرَج على بغلة شهباءَ عليه الأُرجوان، وعليها سَرج مِن ذهب، ومعه أربعة آلاف على زِيّه. وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية بِيض، عليهنّ الحُليّ والديباج. وقيل: في تسعين ألفًا عليهم المُعصفَرات، وهو أوّل يوم رُئِيَ فيه المُعصفَر. [٢٨٨و]

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ مِن المؤمنين جَريًا على سَنن الجِبِلّة البشريّة مِن الرغبة في السَّعة واليَسار: ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾ وعن قتادة: «أنّهم تمنّوه ليتقرّبوا به إلى الله تعالى، وينفقوه في سُبل الخير».[2] وقيل: كان المتمنّون قومًا كفّارًا. ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ تعليل لتمنّيهم، وتأكيد له.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ۝٨٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغي، وإنّما لم يوصَفوا بإرادة ثواب الآخرة تنبيهًا على أنّ العلم بأحوال النشأتين يقتضي الإعراضَ

---

[1] في الآية السابقة.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٨/٨.

عن الأولى والإقبالَ على الثانية حتمًا، وأنّ تمنّي المتمنّين ليس إلّا لعدم علمهم بهما كما ينبغي: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاء بالهلاك، شاع استعماله في الزجر عمّا لا يُرتَضى.

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ممّا تتمنّونه ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلا يليق بكم أن تَتَمنَّوه غيرَ مكتفين بثوابه تعالى ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَا﴾ أي: هذه الكلمةَ التي تكلّم بها العلماء، أو الثوابَ، فإنّه بمعنى المَثوبة، أو الجنّةَ، أو الإيمانَ والعملَ الصالح، فإنّهما في معنى السيرة والطريقة. ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: على الطاعات وعن الشهوات.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ رُوي أنّه كان يؤذي موسى عليه السلام كلَّ وقت وهو يُداريه لقَرابته حتّى نزلت الزكاة، فصالحه عن كلّ ألف على واحد، فحسَبَه فاستكثره، فعَمَد إلى أن يفضح موسى عليه السلام بين بني إسرائيل، فجعل لبَغِيّ مِن بغايا بني إسرائيل ألفَ دينار، وقيل: طَستًا مِن ذهب مملوءة ذهبًا، / فلمّا كان يوم عيد قام موسى عليه السلام خطيبًا، فقال: «مَن سرق [٢٨٨ظ]
قطعناه، ومَن زنى غير محصَن جلدناه، ومَن زنى محصَنًا رجمناه»، فقال قارون: «ولو كنتَ؟» قال: «ولو كنتُ»، قال: «إنّ بني إسرائيل يزعمون أنّك فجَرتَ بفلانة»، فأُحضِرت، فناشدها عليه السلام أن تصدُقَ، فقالت: «جعل لي قارون جُعلًا على أن أرمِيَك بنفسي»، فخرَّ موسى ساجدًا لربّه يبكي ويقول: «يا ربِّ إن كنتُ رسولَك فاغضَبْ لي»، فأوحي إليه أن مُرِ الأرضَ بما شئتَ، فقال: «يا بني إسرائيل إنّ الله تعالى بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمَن كان معه فليلزم مكانه، ومَن كان معي فليعتزله»، فاعتزلوا جميعًا غيرَ رجلَين، ثمّ قال: «يا أرض خُذِيهم»، فأخذَتْهم إلى الرُّكَب، ثمّ قال: «خُذيهم»، فأخذتهم إلى الأوساط، ثمّ قال: «خُذيهم»، فأخذَتْهم إلى الأعناق، وهم يناشدونه عليه السلام بالله تعالى وبالرحِم، وهو لا يلتَفت إليهم لشدّة غَيظه، ثمّ قال: «خُذيهم»،

فانطبقَتْ عليهم، فأصبحت بنو إسرائيل يتناجَون بينهم: «إنّما دعا عليه موسى عليه السلام ليَستبدّ بداره وكنوزه»، فدعا الله تعالى حتّى خُسِف بداره وأمواله.[١]

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة مُشفِقة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بدفع العذابِ عنه، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: الممتنعين منه بوجه مِن الوجوه، يقال: نصرَه مِن عدوّه فانتصر، أي: منعه فامتنع.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ منزلتَه ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ منذ زمان قريب ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يفعل كلَّ واحد مِن البَسط والقَدْر بمَحض مشيئته، لا لكرامةٍ توجب البَسط، ولا لهَوان يقتضي القَبض.

و﴿وَيْكَأَنَّ﴾ عند البصريّين مركّب مِن "وَيْ" للتعجّب، و"كأنّ" للتشبيه، والمعنى: ما أشبه الأمرَ أنّ الله يبسط... إلخ. وعند الكوفيّين مِن "وَيْكَ" بمعنى "وَيلَك"، و"أنّ"، وتقديره: "وَيْكَ أعلمْ أنّ الله"، وإنّما يستعمل عند التنبّه على الخطأ والتندّم، والمعنى: أنّهم قد تنبّهوا على خطئهم في تمنّيهم، وتندّموا على ذلك.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بعدم إعطائه إيّانا ما تمنّيناه، وأعطانا مثلَ ما أعطاه إيّاه. وقُرئ: "لَوْلَا مَنُّ اللهِ عَلَيْنا".[٢] ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خسَف به. وقُرئ: "لَخُسِفَ بِنا"[٣] / على البناء للمفعول، و"بِنَا" هو القائم مقام الفاعل. وقُرئ: "لَانْخُسِفَ بِنَا"،[٤] كقولك: "انْقُطِعَ بِهِ". وقُرئ: "لَتُخُسِّفَ بِنَا".[٥] ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمةِ الله تعالى، أو المكذّبون برسله، وبما وُعِدوا مِن ثواب الآخرة. [٢٨٩و]

---

١ جامع البيان للطبري، ٣٣١/٢٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٥/٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٠.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٢/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وطلحة والأعمش. المحتسب لابن جنّي، ١٥٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٠/٨.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ إشارة تعظيم وتفخيم، كأنّه قيل: تلك التي سمعتَ خبرَها وبلغكَ وصفُها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: غلبةً وتسلّطًا ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ظلمًا وعدوانًا على العباد، كدأب فرعون وقارون. وفي تعليق الموعد بترك إرادتهما لا بترك أنفسهما مزيدُ تحذير منهما.

وعن عليّ رضي الله تعالى[١] عنه: «إنّ الرجل لَيُعجبه أن يكون شِراك نعله أجودَ مِن شِراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها».[٢]

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يتّقون ما لا يرضاه الله تعالى مِن الأفعال والأقوال.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ بمقابلتها ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ذاتًا ووصفًا وقدرًا ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وُضِع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيّئة إليهم، ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلّا مِثل ما كانوا يعملون، فحُذف "المِثل"، وأقيمَ مُقامه ما كانوا يعملون مبالغةً في المماثلة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

---

[١] س - تعالى.

[٢] جامع البيان للطبري، ١٨/٣٤٤؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤١٠. قال الألوسي: ولعلّ هذا إذا أحبّ ذلك ليفتخرَ على صاحبه ويستهينَه، وإلّا فقد روى أبو داود [٦/١٩٠ (٤٠٩٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رجلًا أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم -وكان جميلًا- فقال: يا رسول الله، إنّي رجل حُبِّب إليّ الجَمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أُحِبّ أن يفوقني أحد -إمّا قال: بشِراك نَعل، وإمّا قال: بشِسْع نَعل- أفمِن الكِبْر ذلك؟ قال: «لا، ولكنّ الكِبْر مَن بطَرَ الحقَّ، وغمط الناس». روح المعاني للألوسي، ١٠/٣٣١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجبَ عليك تلاوتَه وتبليغَه والعملَ به ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيّ مَعادٍ، مَعادٍ يمتدّ إليه أعناق الهِمم، ويَرْنُو إليه أحداق الأمم، وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه. وقيل: هو مكّة المعظّمة، على أنّه تعالى قد وعده وهو بمكّة في أذيّة وشدّة مِن أهلها أنّه يُهاجِر به منها، ثمّ يُعيده إليها بعزٍّ ظاهر، وسلطانٍ قاهر.

وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجُحفة في مهاجَره، وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرَم إبراهيم عليه السلام، فنزل جبريل عليه السلام، فقال له: «أتشتاق إلى مكّة؟» قال: «نعم»، فأوحاها إليه.[1]

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما يستحقّه مِن الثواب والنصر. و﴿مَن﴾ منتصب بفعل يدلّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾، أي: يعلم، وقيل: بـ﴿أَعْلَمُ﴾ على أنّه بمعنى "عالم".

﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما استحقّه مِن العذاب والإذلال، يعني بذلك نفسَه والمشركين. وهو تقرير للوعيد السابق، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: سيردّك إلى مَعادك كما ألقى إليك الكتاب، وما كنت ترجوه / ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ولكن ألقاه إليك رحمةً منه. ويجوز أن يكون [٢٨٩ظ] استثناء محمولًا على المعنى، كأنّه قيل: وما أُلقي إليك الكتاب إلّا رحمةً، أي: لأجل الترحّم، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بمُداراتهم والتحمّل عنهم والإجابة إلى طَلِبتهم.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أي: الكافرون ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن قراءتها والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وفُرضت عليك. وقُرئ: "يُصِدُّنَّكَ"،[2] مِن "أَصَدَّ" المنقول مِن "صَدَّ" اللازم.

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٧/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٦/٣.

[2] قراءة شاذّة، حكاها أبو زيد، عن رجل مِن كلب، قال: وهي لغة قومه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣١/٨.

﴿وَٱدۡعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادته وتوحيده، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بمساعدتهم في الأمور.

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ هذا وما قبله للتهييج والإلهابِ وقطعِ أطماع المشركين عن مساعدته عليه السلام لهم، وإظهارِ أنّ المنهيّ عنه في القُبح والشرّيّة بحيث يُنهَى عنه مَن لا يمكن صدوره عنه أصلًا.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ وحدَه، ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ إلّا ذاته، فإنّ ما عداه كائنًا ما كان ممكن في حدّ ذاته، عرضةٌ للهلاك والعدم، ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي: القضاء النافذ في الخلق، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عند البعث للجزاء بالحقّ والعدل.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿طسٓمٓ﴾ القصص كان له مِن الأجر بعدد مَن صَدّق بموسى وكذّب، ولم يبقَ ملَك في السماوات والأرض إلّا شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقًا».[١]

---

١ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٣٣/٧؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٨٩/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٢٨

سورة القصص

مكية إلاّ «إنّ الذي فرض» الآيةَ، نزلت بالجُحْفة، وإلاّ «الذين آتيناهم الكتاب» إلى «لا نبتغي الجاهلين»، وهي سبعٌ أو ثمانٍ وثمانون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿طسم﴾ الله أعلم بمُراده بذلك.

٢ ـ ﴿تِلكَ﴾ أي: هذه الآيات ﴿آياتُ الكِتابِ﴾ ـ الإضافة بمعنى: مِن ـ ﴿المُبِينِ﴾: المُظهرِ الحقَّ من الباطل، ٣ ـ ﴿نَتلُو﴾: نقصّ ﴿علَيكَ مِن نَبَإِ﴾: خبرِ ﴿مُوسَى وفِرعَونَ بِالحَقِّ﴾: الصِّدقِ، ﴿لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾: لأجلهم لأنهم المُنتفعون به. ٤ ـ ﴿إنَّ فِرعَونَ عَلا﴾: تكبّرَ ﴿في الأرضِ﴾ أرض مِصرَ، ﴿وجَعَلَ أهلَها شِيَعًا﴾: فِرقًا في خِدمته، ﴿يَستَضعِفُ طائفةً مِنهُم﴾ هم بنو إسرائيل،.................

سورة القصص

قولُه: (نَقُصُّ) أو ننزِلُ، أو نقرأُ بلسانِ جبريلَ.

قولُه: (خَبَرِ) أي: بعضهُ، مفعولُ: ﴿نَتْلُو﴾.

قولُه: (بالصِّدْقِ) أو مُحقِّينَ.

قولُه: (فِرَقاً) يُشيِّعونَهُ فيما يريدُ، أو يُشيِّعُ بعضُهم بعضاً في طاعتِهِ، أو أصنافاً في استخدامِهِ، استعملَ صِنفاً في حَرثٍ، وصِنفاً في حَفرٍ، ومن لم يستعملهُ ضَرَبَ عليه الجزيَةَ.

قولُه: (وهُم) أي: الطَّائفةُ، والجملةُ: حالٌ من فاعلِ ﴿جَعَلَ﴾، أو صفةٌ لـ﴿شِيَعًا﴾، أو استئنافٌ. وقولُه تعالى: ﴿يُذَبِّحُ﴾ بدَلٌ على الوجوهِ.

﴿يُذَبِّحُ أبناءَهُم﴾ المولودين، ﴿ويَستَحيِي نِساءَهُم﴾: يستبقيهنّ أحياء، لقول بعض الكهنة له: إنّ مولودًا يُولد في بني إسرائيلَ يكون سببَ ذهاب مُلكك. ﴿إنَّهُ كانَ مِنَ المُفسِدِينَ﴾ بالقتل وغيره.

٥ ـ ﴿ونُريدُ أن نَمُنَّ علَى الَّذِينَ استُضعِفُوا في الأرضِ، ونَجعَلَهُم أئمَّةً﴾، بتحقيق الهمزتين وإبدال الثانية ياء: يُقتدى بهم في الخير، ﴿ونَجعلَهُمُ الوارِثِينَ﴾ مُلكَ فِرعَونَ، ٦ ـ ﴿ونُمَكِّنَ لَهُم في الأرضِ﴾: أرض مصرَ والشام، ﴿ونُرِيَ فِرعَونَ وهامانَ وجُنُودَهُما﴾ ـ وفي قراءة: «ويَرَى» بفتح التحتانيّةِ والراءِ ورفع الأسماء الثلاثة ـ ﴿مِنهُم ما كانُوا يَحذَرُونَ﴾: يخافون من المولود الذي يَذهب مُلكهم على يده.

٧ ـ ﴿وأوحَينا﴾ وحيَ إلهامٍ أو مَنامٍ ﴿إلَى أُمِّ مُوسَى﴾ ـ وهو المولود المذكور، ولم يشعر بولادته غيرُ أُخته ـ ﴿أنْ أرضِعِيهِ، فإذا خِفتِ علَيهِ فألقِيهِ في اليَمِّ﴾: البحر أي: النيل، ﴿ولا تَخافِي﴾ غرَقَه، ﴿ولا تَحزَنِي﴾ لفِراقه. ﴿إنّا رادُّوهُ إلَيكِ وجاعِلُوهُ مِنَ المُرسَلِينَ﴾. فأرضعته ثلاثة أشهر لا يَبكي، وخافت عليه فوضعته في تابوت مطليّ بالقار من داخلٍ مُمهّدٍ له فيه، وأغلقته وألقته في بحر النِّيل ليلاً،...........

قولُه: (سَبَبَ ذَهَابِ) وذلك مِن غايةِ حُمقهِ، فإنَّه لو صَدَقَ لم يَندفِعْ بالقَتلِ، وإن كَذَبَ فلا وجهَ له.

قولُه: (بِتَحقِيقِ الهَمزَتَينِ) لشاميٍّ وكوفيٍّ[1].

قولُه: (وإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ) هذا وجهٌ للحِرميَّينِ والبصريِّ، ووجهٌ آخرُ بتَسهيلِ الثَّانيةِ، ولا يُدخِلُ إلا هشامٌ بخُلفٍ عنه.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ[2].

قولُه: (مِنَ المَولُودِ) بيانٌ لـ﴿مَا﴾.

قولُه: (أَو مَنَامٍ) أو على لسانِ نَبيٍّ أو مَلَكٍ.

قولُه تعالى: (﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾) أي: ما أمكنَكِ إخفاؤهُ. وقولُه: (﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيهِ﴾) بأن يُحَسَّ.

قولُه: (غَرَقَهُ) ولا ضَيعَةَ، ولا شِدَّةَ، فعَلينا حفظُهُ.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ﴾ عن قريبٍ، بحيثُ تأمَنينَ عليه.

قولُه: (خَافَتْ عَلَيهِ) حيث ألحَّ فرعونُ في طَلَبِ المواليدِ، واجتهدَ العيونُ[3] في تفحُّصِها.

قولُه: (أَغْلَقَتْهُ) أي: سَدَّتهُ.

---

(١) انظر هذا وما بعده: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ١٧٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٢)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٥٨).

(٣) يقصد الجواسيس.

٨ ـ ﴿فَالْتَقَطَهُ﴾ بالتابوت صبيحةَ الليل ﴿آلُ﴾: أعوانُ ﴿فِرْعَوْنَ﴾، فوضعوه بين يديه، وفُتح وأُخرج موسى منه، وهو يَمَصُّ من إبهامه لبنًا، ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ في عاقبة الأمر ﴿عَدُوًّا﴾ يقتل رجالهم ﴿وَحَزَنًا﴾ يستعبد نساءهم. وفي قراءة بضمّ الحاء وسكون الزاي: لغتانِ في المصدر. وهو هنا بمعنى اسم الفاعل، من: حَزَنه كأحزنه. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾: وزيرَه ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ ـ من الخطيئة ـ أي: عاصينَ فعُوقبوا على يده.

قولُه: (بالتَّابُوتِ) الباءُ للمُصاحبَةِ.

قولُه: (أَعْوانُ) قيل: امرأةُ فرعونَ، وقيلَ: ابنتُهُ.

قولُه: (في عَاقِبَةِ الأَمْرِ) يعني: هذه اللامُ[1] تعليلٌ، لكنَّهُ واردٌ على سبيلِ المجازِ في غَيرِ مَورِدِهِ الموضوعِ له[2]، وتُسمَّى لامَ العاقبةِ، كقولِهِ:

لِــدُوا للمَــوتِ وابنُوا للخَــرابِ[3]

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ[4].

قولُه: (وهُو) أي: المصدرُ بلُغتَيهِ.

قولُه: (مِنْ: حَزَنَهُ) أي: من حَزَنَهُ الَّذي [هو] متعدٍّ؛ كأحزَنَه، ويمكنُ من حَزِنَ اللازمِ، فيُقدَّرُ السَّببُ قبلَهُ، والمفهومُ من «القامُوسِ» أنَّهما اسمانِ للْهَمِّ[5]، وبالضَّمِّ مصدرُ المتعدِّي لا غيرَ[6].

قولُه: (وَزِيرَهُ) بالنَّصبِ، أو الرَّفعِ.

قولُه: (فعُوْقِبُوا على يَدَيْهِ) أي: يَدِ مَن ربَّوهُ على أيديهم، أو: من الخَطَإِ؛ أي: خاطِئِينَ في كلِّ شيءٍ، فليسَ ببِدْعٍ منهم أن قَتلوا ألوفًا لأجلِه ثمَّ أخذوهُ يُربُّونَهُ ليكبُرَ ويفعلَ بهم ما كانوا يحذَرُونَ.

---

(١) في (م) و(ن): «الأمر».

(٢) فهم لم يطلبوا بأخذه أن يعاديهم، ولكن كان عاقبة الأمر أن صار لهم عدواً وحزناً.

(٣) هو شطر بيت لأبي العتاهية في «ديوانه» (ص: ٢٣) وعجزه:

فكلكــم يصيــر إلــى يباب

وجاء في حديث رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥١٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وفيه أن ملكاً ينادي به.

وهو ضعيف كما في «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» للقاري (ص: ٢٧٦).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٢).

(٥) في (م) و(ص): «للحزن».

(٦) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١١٨٩).

٩ ـ ﴿وقالَتِ امرأةُ فِرعَونَ﴾، وقد همّ مع أعوانه بقتله: هو ﴿قُرّةُ عَينٍ لِي ولَكَ. لا تَقتُلُوهُ، عَسَى أن يَنفَعَنا أو نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾. فأطاعوها، ﴿وهُم لا يَشعُرُونَ﴾ بعاقبة أمرهم معه. ١٠ ـ ﴿وأصبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسَى﴾ لمّا علمت بالتقاطه ﴿فارِغًا﴾ ممّا سواه، ﴿إنْ﴾ ـ مُخفّفةٌ من الثقيلة واسمها محذوف ـ أي: إنّها ﴿كادَتْ لَتُبدِي بِهِ﴾ أي: بأنه ابنها، ﴿لَولا أن رَبَطْنا علَى قَلبِها﴾ بالصبر أي: سكّنّاه ﴿لِتكُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ﴾: المُصدّقين بوعد الله. وجوابُ «لولا» محذوف دلّ عليه ما قبلها.

١١ ـ ﴿وقالَت لِأُختِهِ﴾ مريمَ: ﴿قُصِّيهِ﴾: اتبعي أثره حتّى تعلمي خبره. ﴿فبَصُرَتْ بِهِ﴾: أبصرته ﴿عَن جُنُبٍ﴾: ....

قولُه: (مَعَ أَعوَانِهِ) فيكونُ الخِطابُ في ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ له ولهم، وقيلَ: له؛ للتَّعظيمِ.

قولُه: (هُوَ) قُدِّرَ ليكونَ مبتدأً، والجملةُ مقولاً.

قولُه: (فأَطَاعُوهَا) اسمُها: آسيةُ بنتُ مَزاحِمٍ، وفي الحديثِ: «فأجابَهَا: أَمَّا لكِ فنعَمْ، وأَمَّا لِي فلا، فكانَ كذلكَ»، رواهُ النَّسائيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ[1].

قولُه: (بعَاقِبَةِ أَمْرِهِم) أي: الملتَقِطينَ.

قولُه: (معَهُ) أي: موسى، فالجملةُ حالٌ من الملتَقِطِينَ؛ من كَلامِ اللهِ؛ أي: التقطوا، وقيلَ: كذلكَ[2] والحالُ أَنّهم لا يشعُرونَ ما أرادَ اللهُ منهم بالتقاطِهم إيَّاهُ.

وقيلَ: من كلامِ امرأةِ فرعَونَ؛ أي: نتَّخذَهُ ولداً والنَّاسُ لا يشعرونَ أنَّه وَلَدُ غَيرِنا[3].

قولُه: (مِمَّا سِوَاهُ) أي: خالياً من هَمٍّ غَيرِ موسى، أو: صِفراً من العقلِ لِمَا غَشِيَها من الخوفِ والحَيرةِ.

أو: مِن الهمِّ؛ لفرَطِ وثوقِها بوعدِ اللهِ، أو لسماعِها أنَّ فرعونَ عطَفَ عليه وتَبنَّاهُ.

قولُه: (بِأَنَّهُ ابْنُهَا) أي: لَتُظهِرُ به مِن شدَّةِ الحزنِ أو الفرحِ.

قولُه: (بالصَّبْرِ) أو الثَّباتِ.

قولُه: (المُصَدِّقِينَ) أو الواثِقينَ بحفظِهِ لا بتَبَنِّي فرعونَ وعطفِه، وهو علَّةٌ للرَّبطِ.

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٦٣)، وزاد: فقال رسول الله ﷺ: «والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن الله حرمه ذلك».

(٢) أي: من كلام الله.

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٧٢)، وفي «البحر المحيط» (٨/ ٢٨٨): والظاهر أنه من كلام الله تعالى، وقيل: هو من كلام امرأة فرعون.

من مكان بعيد اختلاسًا، ﴿وهُم لا يَشعُرُونَ﴾ أنها أُخته وأنها ترقبه، ١٢ ـ ﴿وحَرَّمْنا علَيهِ المَراضِعَ مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ ردّه إلى أُمّه، أي: منعناه من قَبول ثدي مُرضعةٍ غيرِ أُمّه، فلم يقبل ثدي واحدة من المراضع المُحضَرة، ﴿فقالَتْ﴾ أُختُه: ﴿هَل أدُلُّكُم علَى أهلِ بَيتٍ﴾، لمّا رأت حنوّهم عليه، ﴿يَكفُلُونَهُ لَكُم﴾ بالإرضاع وغيره، ﴿وهُم لَهُ ناصِحُونَ﴾؟

وفسّرتْ ضمير «له» بالمَلِك جوابًا لهم، فأُجِيبَتْ فجاءت بأُمّه، فقَبِلَ ثديها، وأجابتهم عن قبوله بأنها طيّبة الريح طيّبة اللبن، فأُذِنَ لها بإرضاعه في بيتها، فرجعت به كما قال تعالى: ١٣ ـ ﴿فرَدَدْناهُ إلَى أُمِّهِ كَي تَقَرَّ عَينُها﴾ بلقائه، ﴿ولا تَحزَنَ﴾ حينئذٍ، ﴿ولِتَعلَمَ أنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بردِّه إليها..................

قولُه: (مِنْ مَكَانٍ) والأخصرُ: عن بُعدٍ.

قولُه: (اختِلَاساً) لا دلالةَ في الآيةِ عليه.

قولُه: (أي: قَبْلَ رَدِّهِ) أو قَبلَ تتبُّعِها أثرَهُ.

قولُه: (مَنَعْنَاهُ) أي: تحريماً قَدَريًّا.

قولُه: (مِنَ المَرَاضِعِ) جمعُ: مُرضِعٍ، أو مَرْضَعٍ وهو الرَّضاعُ ـ والجمعُ باعتبارِ المواد[1] ـ أو مَوضِعُه؛ يعني: الثَّديَ.

قولُه: (وغَيرِهِ) من الضَّمِّ والتَّربيَةِ.

قولُه: (جَوَاباً لَهُم) نُقِلَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّها لمَّا قالَتِ القولَ أخذوها وقالوا: عرفْتِ هذا الولدَ فدُلِّينا، فقالَت: لا أعرِفُهُ، وإنَّما أردتُ أنَّهم للمَلِكِ ناصِحونَ لا للولَدِ حتَّى استدلَلتُم عليَّ أنِّي أعرِفُهُ، فخلَّوها[2].

قولُه: (فَجَاءَتْ بأُمِّهِ) وموسى على يَدِ فرعونَ يَبكِي وهو يُعلِّلُه، فلمَّا وجَدَ ريحَها استأنَسَ وسَكَنَ.

قولُه: (وأَجَابَتْهُم) حينَ قالُوا: من أنتِ منهُ فقد أبَى كلَّ ثديٍ إلَّا ثَديكِ؟

قولُه: (طَيِّبَةُ اللَّبَنِ) لا أوتَى بصَبيٍّ إلَّا قَبِلَني.

قولُه: (فَرَجَعَتْ بِهِ) من يَومِها مع عطاءٍ جزيلٍ ووعدٍ جميلٍ.

قولُه: (حينئذٍ) أي: بفراقِهِ.

قولُه: (بِرَدِّهِ) أي: عِلْمَ مشاهدَةٍ، وإلَّا فهي كانت مُتيقِّنَةً به قبلَ ذلك.

---

(١) كذا في الأصول، ولعل الصواب: باعتبار المرات؛ أي: تكرار مرات الرضاع.

(٢) قطعة من الحديث الذي رواه النسائي عن ابن عباس، وقد تقدم قريباً.

﴿حَقٌّ، ولكِنَّ أكثَرَهُم﴾ أي: الناسِ ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ بهذا الوعد ولا بأنّ هذه أُختُه وهذه أُمّه. فمكث عندها إلى أن فطمتْه، وأُجرِيَ عليها أُجرتُها، لكُلّ يوم دِينار، وأخذتْها لأنها مال حربيّ، فأتت به فِرعون فتربّى عِنده كما قال تعالى حكاية عنه، في سورة الشعراء: «أَلَم نُرَبِّكَ فِينا وَلِيدًا، ولَبِثتَ فِينا مِن عُمُرِكَ سِنِينَ»؟

١٤ ـ ﴿ولَمّا بَلَغَ أشُدَّهُ﴾ ـ وهو ثلاثون سنةً أو وثلاثٌ ـ ﴿واستَوَى﴾: بلغ أربعين سنة، ﴿آتيناهُ حُكمًا﴾: حِكمة ﴿وعِلمًا﴾:..

قولُه: (بِهَٰذَا الوَعْدِ) أو: أنَّ وعدَهُ حَقٌّ فيرتابُونَ فيه.

قولُه: (وَهُو) أي: الأشُدُّ؛ يعني: مَبْلَغَهُ الَّذي لا يزيدُ عليهِ نشؤه ولا ينقصُ، ويُسَمَّى ذلك: سِنَّ الوقُوفِ، وهو من ثلاثينَ إلى أربعينَ، فإنَّ العقلَ يكمُلُ حينئذٍ، ورُويَ أنه: «لم يُبعَثْ نَبيٌّ إلَّا على رأسِ الأربعينَ»[١]، قالَهُ القاضي[٢].

وفي «المدارِكِ»: بَلَغَ موسى نهايةَ القُوَّةِ وتمامَ العقلِ، وهو جَمعُ شدَّةٍ ـ كنِعمَةٍ وأنعُم ـ عندَ سيبويه[٣]، و﴿اسْتَوَى﴾ أي: اعتدلَ وتمَّ استحكامُهُ؛ وهو أربعونَ سنةً[٤].

وقالَ القاضي: استوى قدُّهُ أو عقلُهُ[٥].

وحاصلُ التَّفسيرينِ: أنَّهُ لمَّا بلغَ السِّنُّ إلى حَدِّ الاعتدال، ووصلَ العقلُ إلى مرتبَةِ الكمال، وأمَّا حاصلُ كلامِ الشَّيخِ وهو أنَّه لمَّا بَلَغَ الثَّلاثينَ وبَلَغَ الأربعينَ؛ فلا طائِلَ تحتَهُ.

قولُه: (حِكمَةً) وفي «المدارِكِ»: نُبُوَّةً[٦]، وقالَ القاضي: نبوةً، أو عِلمَ الحكماءِ، وهو أوفقُ لنَظمِ القصَّةِ؛ لأنَّهُ استنبأَهُ بعدَ الهجرةِ في المراجعةِ[٧].

قلتُ: فعَلى هذا يلزَمُ أن تكونَ نبوَّتُهُ بعدَ خمسينَ سنةً، فيُخالِفُ ظاهرَ الحديثِ المذكورِ[٨]، ويناقِضُ

---

(١) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢٧): غريب. وقال ابن حجر في «الكاف الشاف» (ص: ١٢٦): لم أجده.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧٣).

(٣) وانظر: «المحكم والمحيط» لابن سيده (٧/ ٦٠٧).

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٦٣٢).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧٣).

(٦) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٦٣٢).

(٧) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧٣).

(٨) أي: «لم يبعث نبي...»، ولا ضير في مخالفته فإنه لم يثبت كما يفيد كلام الزيلعي والحافظ.

فِقهًا في الدِّين قبل أن يُبعث نبيًّا ـ ﴿وكَذٰلِكَ﴾: كما جزَيناه ﴿نجزِي المُحسِنِينَ﴾ لأنفُسهم ـ ١٥ ـ ﴿ودَخَلَ﴾ مُوسَى ﴿المَدِينةَ﴾: مدينةَ فِرعون ـ وهي مَنْفُ ـ بعد أن غاب عنه مُدّة ﴿علَى حِينِ غَفلةٍ مِن أهلِها﴾: وقتَ القَيلولة، ﴿فوَجَدَ فِيها رَجُلَينِ يَقتَتِلانِ: هذا مِن شِيعتِهِ﴾ أي: إسرائيليّ، ﴿وهذا مِن عَدُوِّهِ﴾ أي: قِبطيّ يُسخِّر الإسرائيليَّ ليحمل حطبًا إلى مطبخ فِرعون، ﴿فاستغاثَهُ الَّذِي مِن شِيعتِهِ علَى الَّذِي مِن عَدُوِّهِ﴾، فقال له مُوسَى: خلِّ سبيلَه. فقيل: إنه قال لمُوسَى: لقد هممتُ أن أحملَه عليك. ﴿فوَكَزَهُ مُوسَى﴾ أي: ضربه بجُمع كفّه، وكان شديد القوة والبطش، ﴿فقَضَى علَيهِ﴾ أي: قتله، ولم يكن قَصَدَ قتله، ودفنه في الرمل.

﴿قالَ: هذا﴾ أي: قتلُه ﴿مِن عَمَلِ الشَّيطانِ﴾ المُهيّج غضبي. ﴿إنَّهُ عَدُوٌّ﴾ لابن آدمَ ﴿مُضِلٌّ﴾ له ﴿مُبِينٌ﴾:......................................

كلامَهُم عندَ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] أنَّها ثلاثونَ، وما قالَهُ القاضي في الأوفقيَّةِ إنَّما هو حُجَّةٌ ظاهِريَّةٌ مَبنيَّةٌ على الدِّلالةِ الذِّكريَّةِ، وإلا فليسَ في الكلامِ فاءُ التَّعقيبيَّةِ ولا ثمَّ التَّراخيَّةِ، فقولُه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ بينَ أحوالِ القصَّةِ جملةٌ اعتراضيَّةٌ، أو ما بعدَها ذكرُ سَبَبِ وصولِهِ إلى هذه المرتبَةِ العليَّةِ، والأظهرُ أن تُحمَلَ هذهِ الآيةُ على النُّبوَّةِ، وتُجعَلَ الرِّسالةُ بعدَ الهجرةِ، فترتفعُ المخالفةُ.

قولُه: (كَمَا جَزَيْنَاهُ) وأمَّهُ.

قولُه: (لِأَنْفُسِهِم) فإنَّه تعالى غَنيٌّ عن إحسانِهم.

قولُه: (مَدِيْنَةَ فِرعَوْنَ) أو مِصرَ، آتياً من قَصرِ فرعونَ.

قولُه: (مَنْفُ)[1] ضبَطوه بفتحِ الميمِ، والمشهورُ ضمُّها، غيرُ منصَرِفٍ لاجتماعِ العَلَميَّةِ والتَّأنيثِ والعُجمَةِ كـ(ماه) و(جَور)، كذا قالَهُ سعدي جلبي، وفي نسخةٍ: «مَنُوفُ» وهو بفتحِ الميمِ وضمِّ النُّونِ، قريةٌ بمِصرَ، والميمُ زائدةٌ، فاقتصرَ عليهِ «القاموسُ»[2] ولم يذكر مادَّةَ «م ن ف» أصلاً.

قولُه: (وَقْتَ القَيْلُولَةِ) أو ما بينَ العِشاءَينِ.

قولُه: (أي: إسرَائِيْلِيٌّ) قيلَ: إنَّه السَّامِريُّ.

قولُه: (المُهَيِّجُ) لأنَّهُ لم يُؤمَر بقتلِ الكُفَّارِ، أو لأنَّه كانَ مأموناً فيهم، ولا يقدحُ ذلك في عِصمتِهِ لكونِهِ خطأً، وإنَّما عدَّهُ من عَمَلِ الشَّيطانِ، وسمَّاهُ ظلماً، واستغفرَ عنه= على عادَتِهم في استعظامِ محقَّراتٍ فَرَطَت منهم.

---

(١) انظر: «معجم البلدان» (٥/ ٢١٣).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٨٥٨).

بيّنُ الإضلال. ١٦ ـ ﴿قالَ﴾ نادمًا: ﴿رَبِّ، إِنِّي ظَلَمتُ نَفسِي﴾ بقتله. ﴿فاغفِرْ لِي. فغَفَرَ لَهُ. إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: المُتّصف بهما أزلاً وأبدًا. ١٧ ـ ﴿قالَ: رَبِّ ـ بِما أنعَمتَ﴾: بحقّ إنعامك ﴿علَيَّ﴾ بالمغفرة اعصِمْني ـ ﴿فلَن أكُونَ ظَهِيرًا﴾: عونًا ﴿لِلمُجرِمِينَ﴾: الكافرين بعد هذا، إن عصمتني.

١٨ ـ ﴿فأصبَحَ في المَدِينةِ خائفًا، يَتَرَقَّبُ﴾: ينتظر ما يناله من جِهة القتيل، ﴿فإذا الَّذِي استَنصَرَهُ بِالأمسِ يَستَصرِخُهُ﴾: يستغيث به على قِبطيّ آخَر. ﴿قالَ لَهُ مُوسَى: إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾: بيّنُ الغَواية لِما فعلتَه أمسِ واليومَ.

١٩ ـ ﴿فلَمّا أنْ﴾: زائدةٌ ﴿أرادَ أنْ يَبطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما﴾: لمُوسَى والمُستغيثِ به، ﴿قالَ﴾ المستغيثُ، ظانًّا أنه يبطش به لِما قال له «إنك لغويّ مبين»: ﴿يا مُوسَى، أتُرِيدُ أن تَقتُلَنِي كَما قَتَلتَ نَفسًا بِالأمسِ؟ إنْ﴾: ما ﴿تُرِيدُ إلاّ أن تَكُونَ جَبّارًا في الأرضِ، وما تُرِيدُ أن تَكُونَ مِنَ المُصلِحِينَ﴾. فسمع القِبطيُّ ذلك فعلم أنّ القاتل مُوسَى، فانطلق إلى فِرعون فأخبره بذلك، فأمر فِرعون الذبّاحين بقتل موسى، فأخذوا في الطريق إليه.

قولُه: (بيِّنُ الإضْلالِ) والعَداوةِ.

قولُه: (بِحَقِّ إِنْعَامِكَ) قَسَمٌ محذوفُ الجوابِ، والتَّقديرُ: لأتوبَنَّ، وقيل: استعطافٌ، واختارَهُ الشَّيخُ، والفرقُ بينهُما: أنَّ جوابَ الأوَّلِ بالخبرِ، وجوابَ الثَّاني بالطَّلَبِ(١).

قولُه: (بالمَغْفِرَةِ) وغَيرِها.

قولُه: (عَوْناً) الظَّاهرُ: مُعيناً.

قولُه: (بَعْدَ هَذِهِ) أي: المرَّةِ.

قولُه: (إنْ عَصَمْتَني) أي: إن عَصَمْتَني ﴿فلنْ أكونَ﴾.

قولُه: (يَستَغِيثُ بِهِ) الأَولى: يستغيثُهُ؛ بمعنى: يستعينُهُ، وقُرِئَ: (فاستعانه)(٢).

قولُه: (لِمَا فَعَلْتَهُ) مِن التَّسبُّبِ.

قولُه: (زَائِدَةٌ) للتَّأكيدِ.

قولُه: (لما قالَهُ) أي: لقولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِيْنٌ﴾ [١٨].

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٧٤).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٦٦) ونسبت للأخفش وسيبويه.

٢٠ ـ ﴿وجاءَ رَجُلٌ﴾ هو مؤمن آل فِرعونَ ﴿مِن أقصَى المَدِينةِ﴾: آخِرها، ﴿يَسعَى﴾: يُسرع في مشيه من طريق أقرب من طريقهم، ﴿قالَ: يا مُوسَى، إنَّ المَلَأَ﴾ من قوم فرعون ﴿يأتَمِرُونَ بِكَ﴾: يتشاورون فيك ﴿لِيَقتُلُوكَ. فاخرُجْ﴾ من المدينة. ﴿إنِّي لَكَ مِنَ النّاصِحِينَ﴾ في الأمر بالخُروج.

٢١ ـ ﴿فخَرَجَ مِنها خائفًا، يَتَرَقَّبُ﴾ لُحوقَ طالبٍ أو غوثَ اللهِ إيّاه، ﴿قالَ: رَبِّ، نَجِّني مِنَ القَومِ الظّالِمِينَ﴾ قوم فِرعون.

٢٢ ـ ﴿ولَمّا تَوَجَّهَ﴾: قصَدَ بوجهه ﴿تِلقاءَ مَدْيَنَ﴾: جِهتَها ـ وهي قريةُ شُعيبٍ مَسيرةَ ثمانية أيام من مِصر، سُمّيت بمَدْيَنَ بنِ إبراهيمَ ـ ولم يكن يَعرف طريقها ﴿قالَ: عَسَى رَبِّيَ أن يَهدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ﴾ أي: قَصْدَ الطريقِ، أي: الطريقَ الوسط إليها. فأرسل الله إليه مَلَكًا بيده عَنَزةٌ، فانطلق به إليها.

٢٣ ـ ﴿ولَمّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ﴾: بئرٌ فيها، أي: وصل إليها ﴿وَجَدَ علَيهِ أُمّةً﴾: جماعة ﴿مِنَ النّاسِ يَسقُونَ﴾ مَواشيَهم، ﴿ووَجَدَ مِن دُونِهِم﴾...

قولُه: (هُوَ مُؤمِنُ آلِ فِرْعَونَ) ابنُ عمِّهِ، واسمُهُ: شمعونُ أو حبيبٌ.

قولُه: (يُسْرِعُ) صفةٌ لـ﴿رَجُلٌ﴾.

قولُه: (مِنْ قَومِ فِرعَونَ) أو هو وأشرافه.

قولُه: (فِيْكَ) أي: في الأمرِ بقَتلِكَ، أو لأجلِكَ وبسببِكَ.

قولُه: (فِي الأَمْرِ) ولامُ ﴿لَكَ﴾ للبيَانِ(١).

قولُه: (قَوْمِ فِرْعَونَ) أي: شَرِّهم.

قولُه: (الوَسَطَ) أي: العدلَ السَّويَّ.

قولُه: (فِيْهَا) أي: مَدْيَنَ.

قولُه: (إِلَيْهَا) أي: البِئرِ، والأَولى: إليه؛ أي: الماءِ.

---

(١) قوله: «اللامُ للبَيانِ»؛ أي: وليسَ صِلَةً لـ﴿النَّاصِحينَ﴾ لأنَّ مَعمولَ الصِّلَةَ لا يتقدَّمُ المَوصولَ عند الجمهور، ومعنى كون اللام في ﴿لك﴾ للبيان: أنها متعلقة بمحذوف هو: «أعني» كما في «سقياً لك»، ولم يجوِّز الجمهور تعلقه بـ﴿الناصحين﴾ لأن «أل» فيه اسم موصول، ومعمول الصلة لا يتقدم الموصولَ كما ذكرنا، ولا يجوز أيضاً تعلقه بمحذوف مقدم يفسره المذكور؛ لأن ما لا يعمل لا يفسر عاملاً، أما عند مَن جوَّز تقدم معمول الصلة إذا كان الموصول «أل» خاصة لكونها على صورة الحرف، أو إذا كان المتقدم ظرفاً للتوسع فيه، أو قال: إن «أل» هنا حرف تعريف لإرادة الثبوت= يجوز أن يكون ﴿لك﴾ متعلقاً بـ﴿الناصحين﴾ أو بمحذوف يفسره ذلك. انظر: «روح المعاني» (٢٠/ ١٤١)

أي: سِواهم ﴿امرأتَينِ تَذُودانِ﴾: تمنعان أغنامهما عن الماء. ﴿قالَ﴾ موسى لهما: ﴿ما خَطبُكُما﴾ أي: ما شأنكما لا تسقيان؟ ﴿قالَتا: لا نَسقِي حَتَّى يَصدُرَ الرِّعاءُ﴾: جمع راع، أي: يَرجِعوا من سقيهم، خوفَ الزِّحام فنسقي ـ وفي قراءة: «يُصدِرَ» من الرباعيّ، أي: يَصرفوا مواشيَهم عن الماء ـ ﴿وأَبُونا شَيخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر أن يَسقي. ٢٤ ـ ﴿فسَقَى لَهُما﴾ من بئر أُخرى بقُربهما، رفع حجرًا عنها لا يرفعه إلاّ عشرة أنفُس، ﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾: انصرف ﴿إلَى الظِّلِّ﴾ لسَمُرةٍ من شِدّة حرّ الشمس، وهو جائع، ﴿فقالَ: رَبِّ، إنِّي لِما أنزَلتَ إلَيَّ مِن خَيرٍ﴾: طعام ﴿فَقِيرٌ﴾: محتاج.

فرجَعتا إلى أبيهما في زمنٍ أقلّ ممّا كانتا ترجِعان فيه، فسألهما عن ذلك، فأخبرتاه بمن سقى لهما، فقال لإحداهما: ادعِيه لي. قال تعالى:..

قولُه: (أي: سِوَاهُم) فـ(دُونَ) بمعنى: غير، أو: في مكانٍ أسْفَلَ من مكانِهم.

قولُه: (أَغْنَامَهُمَا) لئلَّا تختَلطَ بأغنامِهِم.

قولُه: (لا تَسْقِيانِ) أو: تَذُودانِ.

قولُه: (يَرجِعُوا) أي: يَنصَرِفوا، ومنه: طوافُ الصَّدَرِ[١].

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ بصريٍّ وشاميٍّ[٢].

قولُه: (مِنَ الرُّبَاعِيِّ) بزيادةِ همزةٍ.

قولُه: (لا يَقْدِرُ) لكِبَرِ سِنِّهِ، فيُرسِلنا اضطراراً.

قولُه: (مِنْ بِئْرٍ أُخرَى) وعن عُمَرَ: لمَّا فرَغَ النَّاسُ جعَلوا صخرةً لا يستطيعُ رفعَها إلَّا عشرةٌ على رأسِ البئرِ، فرفَعَ موسى الحَجرَ وحدَهُ، ثمَّ لم يستقِ إلَّا ذَنوباً واحداً وَدَعا بالبركةِ، ورَوَّى غنمَهُما، نقلَهُ ابنُ أبي شيبةَ[٣]، وقالَ عمادُ بنُ كثيرٍ: إسنادُهُ صحيحٌ[٤].

قولُه: (بقُرْبِهِمَا) رَحمَةً عليهما مع ما كانَ به من أنواعِ التَّعَبِ.

قولُه: (طَعَامٍ) قليلٍ أو كثيرٍ، وقيلَ: كسرَةٍ، و﴿مِنْ﴾ بيانُ (ما).

قولُه: (مُحْتَاجٌ) أي: طالبٌ، ولذا عُدِّي باللَّامِ.

---

(١) طواف الصدر، ويسمى: طواف الوداع، وطواف آخر عهده بالبيت؛ لأنه يودع البيت ويصدر به، وهو واجب عند الحنفية. انظر: «الهداية» (١/ ١٤٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٢).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٤٢).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٢٧).

٢٥ ـ ﴿فجاءَتْهُ إحداهُما، تَمشِي علَى استِحياءٍ﴾ أي: واضعةً كُمَّ دِرعها على وجهها حياء منه، ﴿قالَتْ: إنَّ أبِي يَدعُوكَ، لِيَجزِيَكَ أجرَ ما سَقَيتَ لَنا﴾، فأجابها مُنكِرًا في نفسه أخْذ الأُجرة، وكأنّها قَصدَتِ المُكافأةَ إن كان ممّن يُريدها، فمشت بين يديه، فجعلَتِ الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقها، فقال لها: امشي خلفي ودُلّيني على الطريق. ففعلت إلى أن جاء أباها، وهو شُعيبٌ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعِندَه عَشاء. قال له: اجلس فتعشَّ. قال: إني أخاف أن يكون عِوضًا ممّا سقيتُ لهما، وإنّا أهل بيت لا نطلب على عملٍ خيرٍ عِوضًا. قال: لا، عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف ونُطعم الطعام. فأكل وأخبره بحاله. قال تعالى: ﴿فلَمّا جاءَهُ وقَصَّ علَيهِ القَصَصَ﴾: مصدرٌ بمعنى المقصوص، من قتلِه القِبطيَّ وقصدِهم قتلَه وخوفِه من فِرعون، ﴿قالَ: لا تَخَفْ: نَجَوتَ مِنَ القَومِ الظّالِمِينَ﴾ إذ لا سُلطان لِفرعون على مَديَنَ.

٢٦ ـ ﴿قالَت إحداهُما﴾، وهي المُرسَلة والكُبرى أو الصُّغرى: ﴿يا أبَتِ، استأجِرْهُ﴾: اتخذْه أجيرًا يرعى غنمنا أي: بدَلَنا. ﴿إنَّ خَيرَ مَنِ استأجَرتَ القَوِيُّ الأمِينُ﴾ أي: استأجرْه لقوّته وأمانته. فسألها عنهما فأخبرته بما تقدّم من رفعه حجرَ البئر، ومن قوله لها: «امشي خلفي»، وزيادةِ أنها لمّا جاءته وعلم بها صوّب رأسه فلم يرفعه، فرغب في إنكاحه، ٢٧ ـ فـ ﴿قالَ: إنِّي أُرِيدُ أن أُنكِحَكَ إحدَى ابنَتَيَّ هاتَينِ﴾، ....

قولُه: (أيْ: وَاضِعَةً) يعني: مُستَحيةً.

قولُه: (فأَجَابَهَا) ليتبرَّكَ برؤيةِ الشَّيخِ، ويستَظهِرَ بمعرفتِه، لا طمعاً في الأَجرِ.

قولُه: (وهو شُعَيْبٌ) عندَ الأكثرِ، كذا في «المبهماتِ»[1]، وقيل: ابنُ أخيهِ، وقيل: رجلٌ مؤمنٌ من قريةِ قومِهِ، وشعيبٌ قد ماتَ ودُفِنَ بين زمزمَ والمقامِ[2].

قولُه: (فَأَكَلَ) هذا وإنَّ مَن فعلَ معروفاً فَأُهديَ بشيءٍ لم يَحرُمْ أخذُهُ.

قولُه: (لِفِرْعَونَ) وقومِهِ.

قولُه: (أو الصُّغْرَى) يعني: المرادُ بـ﴿إحدَاهِمَا﴾ المرسَلةُ لا غيرَ، وإنَّما الخلافُ في أنَّها الصُّغرى أو الكبرى.

قولُه: (صَوَّبَ) أي: خفضَ.

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» (ص: ٨٢).

(٢) انظر: «فضائل مكة» للحسن البصري (ص: ٢٠)، وفيه: «...وقبر نوح وهود وشعيب وصالح صلى الله على نبينا وعليهم وسلم فيما بين زمزم والمقام».

وهي الكُبرى أو الصُّغرى، ﴿عَلَى أن تأجُرَنِي﴾: تكونَ أجيرًا لي في رَعي غنمي ﴿ثَمانِيَ حِجَجٍ﴾ أي: سنينَ. ﴿فإِن أتمَمتَ عَشْرًا﴾ أي: رَعيَ عشرِ سنين ﴿فمِن عِندِكَ﴾ التمامُ. ﴿وما أُرِيدُ أن أشُقَّ عليكَ﴾ باشتراط العشر. ﴿سَتَجِدُنِيَ إن شاءَ اللهُ﴾ ـ للتبرّك ـ ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: الوافين بالعهد.

٢٨ ـ ﴿قالَ﴾ مُوسَى: ﴿ذلِكَ﴾ الذي قلتَه ﴿بَيني وبَينَكَ، أيَّما الأجَلَينِ﴾ الثمانَ أو العشرَ ـ وما: زائدة ـ أي: رَعْيَه ﴿قَضَيتُ﴾ به، أي: فرَغتُ منه، ﴿فلا عُدوانَ عَلَيَّ﴾ بطلب الزيادة عليه............

قولُه: (وهيَ الكُبْرَى) وبه قالَ القاضي[١]، وصاحبُ «المداركِ»[٢].

قولُه: (أو الصُّغرَى) في «المعالمِ»: ذهبَ أكثرُهم إلى أنَّه زوَّجَهُ الصُّغرى، وهي التي ذهبَتْ لطلَبِ موسى[٣].

قولُه: (تَكُونَ أَجِيراً) يقالُ: أجَرْتُهَ، إذا كنتُ له أجيراً، وقيلَ: نُزِّلَ مَنزِلةَ اللَّازمِ، وهذا مواعدةٌ منهُ[٤] وإلا لقالَ: أنكحتُكَ، وعيَّنَها، وفي «المداركِ»: والتزوُّجُ برَعيِ الغنمِ جائزٌ بالإجماعِ بخلافِ التَّزوُّجِ على الخدمَةِ[٥].

قولُه: (التَّمَامُ) أي: فإتمامُهُ من عندِكَ تفضُّلاً لا من عندِي إلزاماً عليكَ فـ﴿مِنْ عِندِكَ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ جزاءُ الشَّرطِ.

قولُه: (لِلتَبرُّكِ) لا يلائمُهُ تفسيرُ ما بعدَهُ بـ(الوَافِيْنَ)، نعم لو أُريدَ بالصَّلاحِ العمُومُ الشَّامِلُ لحُسنِ المعاملةِ لكانَ للتَّبرُّكِ وجهٌ، وعلى الأوَّلِ المرادُ بالمشيئةِ: الاتِّكالُ على توفيقِهِ فيه ومعونتِه، لا أنَّه إن شاءَ فعلَ وإن شاءَ لم يفعلْ ذلكَ.

قولُه: (الَّذي) قائمٌ لا يُخرَجُ عنه[٦].

قولُه: (﴿ما﴾ زَائِدَةٌ) لتأكيدِ إبهامِ المفعولِ.

قولُه: (أي: فَرَغْتُ) أو: وفَّيتُكَ إيَّاه.

قولُه: (بطَلَبِ الزِّيادَةِ) فكما لا أُطالَبُ بالزِّيادَةِ على العَشْرِ لا أطالَبُ بالزِّيادةِ على الثَّمانِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧٥).

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٦٣٨).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥٣٠).

(٤) في (ص): «له».

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٦٣٨).

(٦) أي: ذلك الذي عاهدتَني فيه قائمٌ بينَنا لا نخرجُ عَنه. عبارة البيضاوي.

﴿واللهُ علَى ما نَقُولُ﴾ أنا وأنت ﴿وَكِيلٌ﴾: حفيظ أو شهيد. فتمّ العَقد بذلك، وأمر شُعيب ابنته أن تُعطيَ مُوسَى عصًا يدفع بها السِّباع عن غنمه ـ وكانت عِصِيُّ الأنبياء عنده ـ فوقع في يدها عصا آدمَ من آسِ الجنّة، فأخذها مُوسَى بعِلم شُعيب.

٢٩ ـ ﴿فلَمّا قَضَى مُوسَى الأجَلَ﴾ أي: رعيَه ـ وهو ثمانُ أو عشرُ سنين وهو المظنون به ـ ﴿وسارَ بأهلِهِ﴾: زوجتِه بإذن أبيها نحوَ مِصرَ، ﴿آنَسَ﴾: أبصرَ من بعيد ﴿مِن جانِبِ الطُّورِ﴾: اسمُ جبل ﴿نارًا. قالَ لِأهلِهِ: امكُثُوا﴾ هنا. ﴿إنِّيَ آنستُ نارًا، لَعَلِّيَ آتِيكُم مِنها، بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق، وكان قد أخطأها، ﴿أو جِذْوةٍ﴾، بتثليث الجيم: قطعةٍ وشُعلة ﴿مِنَ النّارِ، لَعَلَّكُم تَصطَلُونَ﴾ تستدفئون. والطاء بدل من تاء الافتعال، ....

قولُه: (أَنَا وأَنْتَ) من المُشارَطَةِ.

قولُه: (أو شَهِيدٌ) والأظهَرُ: شاهِدٌ وحفيظٌ، عُدِّيَ ﴿وكيلٌ﴾ بـ﴿عَلَى﴾ لتضمُّنِهِ معنى: الشَّهادةِ.

قولُه: (عِصِيُّ) بكسرَتينِ وتشديدِ الياءِ.

قولُه: (عَصَا آدَمَ) بالألفِ.

قولُه: (آسِ) شَجَرٍ.

قولُه: (وهُو المَظنُونُ بِهِ) بل هو المرويُّ فيهِ، ففي الحديثِ: «قَضَى أَطوَلَهُمَا» رواهُ ابنُ أبي حاتمٍ والبزَّارُ[1]، ورواهُ البخاريُّ عنِ ابنِ عبَّاسٍ[2].

قولُه: (أَبْصَرَ) وكانَ في ليلَةٍ مظلمَةٍ شديدةِ البَردِ.

قولُه: (اسْمُ جَبَلٍ) أي: من الجهةِ الَّتي تَلي الطُّورَ.

قولُه: (بتَثلِيثِ الجِيْمِ) فعاصِمٌ بالفَتحِ وحمزةُ بالضَّمِّ[3].

قولُه: (قِطعَةٍ أو شُعلَةٍ) وفي «القاموسِ»[4]: قبسَةٌ من النَّارِ أو جمرةٌ، وقيلَ: عُودٌ غليظٌ.

قولُه: (مِن تَاءِ الافْتِعَالِ) لمناسَبَةِ صفةِ الإطباقِ.

(١) رواه البزار في «مسنده» (٣٩٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٨٦٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٦٨٤).

(٣) والباقي بالكسر، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٣).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٢٦٩).

من: صَلي بالنار، بكسر اللام وفتحها.

٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿فلَمّا أتاها نُودِيَ مِن شاطِئِ﴾: جانبِ ﴿الوادِي الأيمَنِ﴾ لمُوسَى ﴿في البُقْعةِ المُبارَكةِ﴾ لمُوسَى لسماعه كلامَ الله فيها، ﴿مِنَ الشَّجَرةِ﴾: بدلٌ من «شاطئ» بإعادة الجارّ، لنباتها فيه، وهي شجرة عُنّاب أو عُلّيق أو عَوسَج، ﴿أنْ﴾ ـ مُفسِّرةٌ لا مُخفّفة ـ ﴿يا مُوسَى، إنِّيَ أنا اللهُ رَبُّ العالَمِينَ، وأنْ ألْقِ عَصاكَ﴾، فألقاها، ﴿فلَمّا رآها تَهتَزُّ﴾: تتحرّك، ﴿كأنَّها جانٌّ﴾ ـ وهي الحيّة الصغيرة ـ من سُرعة حركتها، ﴿وَلّى مُدبِرًا﴾: هاربًا منها، ﴿ولَم يُعَقِّبْ﴾ أي: يرجعْ.

فنُودي: ﴿يا مُوسَى، أقبِلْ ولا تَخَفْ، إنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ. اسلُكْ﴾: أدخِلْ ﴿يَدَكَ﴾ اليُمنى، بمعنى الكفّ، ﴿في جَيبِكَ﴾ هو طوقُ القميص، وأخرِجْها ﴿تَخرُجْ﴾ خِلافَ ما كانت عليه من الأُدمة ﴿بَيضاءَ مِن غَيرِ سُوءٍ﴾ أي: برَص ـ فأدخلها وأخرجها تُضيء كشُعاع الشمس تُغشّي البصر ـ ﴿واضمُمْ إلَيكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهَبِ﴾، بفتح الحرفين،..

قولُه: (صَلِيَ بالنَّارِ) سَخَّنَها[1].

قولُه: (بَدَلٌ) أي: بدلُ الاشتِمالِ.

قولُه: (لِنَبَاتِهَا فِيْهِ) لنَباتِ الشَّجرةِ في الشَّاطِئِ.

قولُه: (عُلَّيْقٍ) بضمِّ العَينِ وتشديدِ اللَّامِ، نَبتٌ يتعلَّقُ بالشَّجَرِ، له فوائدُ ذُكِرَت في «القاموسِ»[2].

قولُه: (أو عَوْسَجٍ) شَوكٍ.

قولُه: (فَأَلْقَاهَا) فالفاءُ فصيحَةٌ في: ﴿فلَمَّا﴾.

قولُه: (تَتَحَرَّكُ) بسُرعَةٍ.

قولُه: (هَارِباً) من الخَوفِ.

قولُه: (أَيْ: بَرَصٍ) يعني: سُوءٍ كبَرَصٍ.

قولُه: (بفَتحِ الحَرفَينِ) الحِرْميُّ والبصريُّ[3].

---

(١) قوله: «سخنها» كذا النسخ، ولم أجد من ذكر هذا المعنى، وأقرب شيء إليه ما ذكره أبو حيان في «البحر» (٣/ ٤٩٢): صلي بالنار: تسخن بها. وفي «الدر المصون» (٣/ ٥٩٥): صلي بالنار: تسخن بقربها. وقد تقدم مثل هذا في أول النمل.

(٢) انظر: «القاموس» (ص: ٩١١).

(٣) انظر هذا وما بعده: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٣).

وسكون الثاني مع فتح الأول وضمّه، أي: الخوفِ الحاصل من إضاءة اليد، بأن تُدخلها في جيبك، فتعودَ إلى حالتها الأُولى. وعُبّر عنها بالجناح لأنها للإنسان كالجناح للطائر. ﴿فذانِّكَ﴾، بالتشديد والتخفيف، أي: العصا واليد ـ وهما مؤنّثان، وإنما ذُكّر المُشار به إليهما المبتدأ لتذكير خبره ـ ﴿بُرهانانِ﴾ مرسَلانِ، ﴿مِن رَبِّكَ إِلَى فِرعَونَ وَمَلَئِهِ. إِنَّهُم كانُوا قَومًا فاسِقِينَ﴾.

٣٣ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، إِنِّي قَتَلتُ مِنهُم نَفسًا﴾ هو القِبطيّ السابق، ﴿فأخافُ أن يَقتُلُونِ﴾ به، ٣٤ ـ ٣٥ ـ ﴿وأخِي هارُونُ هُوَ أفصَحُ مِنِّي لِسانًا﴾: أبيَنُ. ﴿فأرسِلْهُ مَعِي رِدْءًا﴾: مُعينًا ـ وفي قراءة بفتح الدال بلا همزة ـ ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بالجزم جوابُ الدعاء. وفي قراءة بالرفع وجُملته: صفة «ردءًا». ﴿إِنِّي أخافُ أن يُكَذِّبُونِ. قالَ: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾: نُقوّيك ﴿بِأخِيكَ، ونَجعَلُ لَكُما سُلطانًا﴾: غلبة، ﴿فلا يَصِلُونَ إِلَيكُما﴾ بسُوء..

قولُه: (مَعَ فَتحِ الأَوَّلِ) حَفصٌ.

قولُه: (وضَمِّهِ) أي: مع ضَمِّ الأَوَّلِ: الباقونَ.

قولُه: (بالتَّشدِيدِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ.

قولُه: (مُرسَلانِ) أو: مُرسَلاً بِهِما؛ أي: بالمعجزَتَينِ، وقُدِّر لتعلُّقِ: ﴿إلى﴾.

قولُه: (بِهِ) الظَّاهرُ: بها.

قولُه: (أَبيَنُ) يعني: أنَّ المرادَ بالفصاحَةِ: المعنَى اللُّغَويُّ، وقد مَرَّ أنَّ لهُ نوعَ لُكْنَةٍ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافِعٍ[1].

قولُه: (بفَتحِ الدَّالِ) يعني: بالنَّقلِ للتَّخفيفِ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لعاصِمٍ وحمزةَ.

قولُه: (صِفَةٌ) أي: بإتمامِ الحُجَّةِ ورَفعِ الشُّبهَةِ، وقيلَ: يُصَدِّقُني فرعونُ؛ لأنَّ خبرَ الاثنينِ أوقَعُ، وأمَّا قولُ البيضاويِّ: والجوابُ محذوفٌ[2]، ففيهِ أنَّهُ لا يلزمُ الجوابُ لكُلِّ أمرٍ.

قولُه: (غَلَبَةً) أو حُجَّةً وبرهاناً.

قولُه: (بِسُوءٍ) مِن استيلَاءٍ أو حِجاجٍ.

---

(١) انظر هذا وما بعده: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٤).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧٧).

اذهبا ﴿بِآيَاتِنا، أنتُما ومَنِ اتَّبَعَكُما الغالِبُونَ﴾ لهم.

٣٦ ـ ٣٧ ـ ﴿فلَمّا جاءَهُم مُوسَى بِآياتِنا بَيِّناتٍ﴾: واضحاتٍ ﴿قالُوا: ما هذا إلاّ سِحرٌ مُفتَرَى﴾: مُختلقٌ، ﴿وما سَمِعْنا بِهذا﴾ كائنًا ﴿في﴾ أيام ﴿آبائنا الأوَّلِينَ. وقالَ﴾ ـ بواو وبدونها ـ ﴿مُوسَى: رَبِّيَ أعلَمُ﴾ أي: عالمٌ ﴿بِمَن جاءَ بِالهُدَى مِن عِندِهِ﴾، الضمير للربّ، ﴿ومَن﴾: عطفٌ على «مَن» ﴿تَكُونُ﴾ ـ بالفَوقانيّة والتحتانيّة ـ ﴿لَهُ عاقِبةُ الدّارِ﴾ أي: العاقبةُ المحمودة في الدار الآخرة، أي: وهو أنا في الشِّقَّين، فأنا مُحقّ فيما جئتُ به. ﴿إنَّهُ لا يُفلِحُ الظّالِمُونَ﴾: الكافرون.

قولُه: (اذْهَبَا) أشارَ إلى أنَّ: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، وقيلَ: بـ﴿نجعلُ﴾، ولذا وقعَتِ المعانقةُ[1] بينَهُما في الوَقفِ، وقيل: بيانٌ لـ﴿الغَالِبُونَ﴾.

قولُه: (مُخْتَلَقٌ) لم يُفعَل قبلَهُ مثلُهُ.

قولُه: (كَائِناً) إشارةٌ إلى أنَّ قولَه: ﴿في آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ وقعَ حالاً من اسمِ الإشارةِ، ويعنونَ به السِّحرَ المفتَرى، أو ادِّعاءَ النُّبوَّةِ.

قولُه: (وبِدُوْنِهَا) مكيٌّ[2].

قولُه: (أيْ: عَالِمٌ) اعلم أنَّ ﴿أعلَمُ﴾ هنا على بابه[3]، بخلافِ ما في آخرِ السُّورةِ[4]؛ لأنَّه ورَدَ بلا باء فيُحتاجُ إلى تأويلِهِ بعالمٍ كما ستعلمُ، واللهُ أعلمُ.

قولُه: (عَطْفٌ على: «مَنْ») دفَعَ وهمَ عطفِه على: ﴿ربِّي﴾.

قولُه: (والتَّحتَانِيَّةِ) حمزةُ والكسائيُّ[5].

قولُه: (فِي الدَّارِ) أو: النُّصرَةُ والعاقبَةُ المحمودَةُ في الدُّنيا.

قولُه: (الكَافِرُونَ) فلا يفوزونَ بالهِدايةِ في الدُّنيا وحُسنِ العاقبةِ في العُقبى.

---

(١) وقف المعانقة: هو أن يتعانق الوقفان باجتماعهما في محل واحد، فلا يجوز للقارئ أن يقف على كل منهما، بل إذا وقف على أحدهما امتنع الوقف على الآخر، لئلا يضطرب المعنى أو يبهم المراد. «معجم علوم القرآن» (ص: ٣٣٥).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٤).

(٣) كونه أفعل تفضيل.

(٤) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥].

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٤).

٣٨ ـ ﴿وقالَ فِرعَونُ: يا أيُّها المَلأُ، ما عَلِمتُ لَكُم مِن إلـٰـهٍ غَيرِي. فأوقِدْ لِي ـ يا هامانُ ـ علَى الطِّينِ﴾: فاطبخْ لي الآجُرَّ، ﴿فاجعَلْ لِي صَرحًا﴾: قصرًا عاليًا، ﴿لَعَلِّيَ أَطَّلِعُ إلَى إلـٰـهِ مُوسَى﴾: أنظرُ إليه، وأقف عليه. ﴿وإنِّي لَأظُنُّهُ مِنَ الكاذِبِينَ﴾ في ادعائه إلـٰـهًا آخَرَ وأنه رسوله.

٣٩ ـ ﴿واستكبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ في الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ، وظَنُّوا أنَّهُم إلَينا لا يَرجِعُونَ﴾ ـ بالبناء للفاعل وللمفعول ـ ٤٠ ـ ﴿فأخَذْناهُ وجُنُودَهُ، فنَبَذْناهُم﴾: طرحْناهم ﴿في اليَمِّ﴾: البحر المالح، فغرقوا. ﴿فانظُرْ: كَيفَ كانَ عاقِبَةُ الظّالِمِينَ﴾ حينَ صاروا إلى الهلاك؟ ٤١ ـ ﴿وجَعَلْناهُم﴾ في الدنيا ﴿أَئِمَّةً﴾، بتحقيق الهمزتين وإبدال الثانية ياء: رُؤساءَ في الشِّرك، ﴿يَدعُونَ إلَى النّارِ﴾ بدُعائهم إلى الشِّرك، ﴿ويَومَ القِيامةِ لا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم، ٤٢ ـ ﴿وأتبَعناهُم في هذِهِ الدُّنيا لَعْنَةً﴾: خِزيًا، ﴿ويَومَ القِيامةِ هُم مِنَ المَقبُوحِينَ﴾: المُبعَدِينَ.

٤٣ ـ ﴿ولَقَد آتَينا مُوسَى الكِتابَ﴾: التوراة ﴿مِن بَعدِ ما أهلَكْنا القُرُونَ الأُولَى﴾: قومَ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وغيرَهم، ﴿بَصائرَ لِلنّاسِ﴾: حالٌ من «الكتاب»..............................

قولُه: (الآجُرَّ) قيلَ: أوَّلُ مَن اتخذَ الآجُرَّ فرعونُ.

قولُه: (وأَقِفُ) الواو عاطفةٌ.

قولُه: (لِلفَاعِلِ) نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ[1].

قولُه: (طَرَحْنَاهُم) أي: ألقَيناهُم ككَفٍّ رَمادٍ.

قولُه: (بتَحْقِيقِ) تقدَّمَ أوَّلَ السُّورةِ[2].

قولُه: (رُؤسَاءَ) أي: قدوةً للضُّلَّالِ بالحملِ على الإضلالِ.

قولُه: (بِدُعَائِهِم) أي: إلى مُوجِباتِها من المعاصي.

قولُه: (خِزْياً) أو: طَرداً من الرَّحمةِ، أو: لَعنَ اللَّاعِنينَ.

قولُه: (المُبعَدِينَ) المطرودينَ، أو ممَّن قَبَّحَ اللهُ وجوهَهُم، وعن ابنِ عبَّاسٍ: سُودُ الوجوهِ، زُرقُ الأعيُنِ[3].

قولُه: (وعَادٍ) حقُّ العبارَةِ: «وعاداً» بالنَّصبِ، أو «هودٍ» مكانَهُ بالخفضِ.

قولُه: (وغَيْرَهم) ومنهُم قومُ فرعونَ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٧١).

(٢) انظر الآية رقم: (٥).

(٣) ذكره عنه المجد في «تنوير المقباس» (ص: ٤٥٥)، وهو عن مجاهد في «تفسيره» (ص: ٣٣٧).

جمعُ بَصِيرة ـ وهي نورُ القلب ـ أي: أنوارًا للقلوب ﴿وهُدًى﴾ من الضلالة لمن عمل به ﴿ورَحْمةً﴾ لمن آمن به، ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتّعظون بما فيه من المواعظ.

٤٤ ـ ﴿وما كُنتَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿بِجانِبِ﴾ الجبل أو الوادي أو المكان ﴿الغَرْبِيِّ﴾ من مُوسَى حين المُناجاة، ﴿إذ قَضَينا﴾: أوحَينا ﴿إلَى مُوسَى الأمرَ﴾ بالرسالة إلى فِرعون وقومه، ﴿وما كُنتَ مِنَ الشّاهِدِينَ﴾ لذلك، فتعرفَه فتُخبرَ به، ٤٥ ـ ﴿ولكِنّا أنشأْنا قُرُونًا﴾: أُممًا بعدَ مُوسَى، ﴿فتَطاوَلَ علَيهِم العُمُرُ﴾ أي: طالت أعمارهم، فنسُوا العهود واندرسَتِ العلوم وانقطع الوحي، فجئنا بك رسولاً، وأوحَينا إليك خبر مُوسَى وغيرِه، ﴿وما كُنتَ ثاوِيًا﴾: مُقيمًا ﴿في أهلِ مَدْيَنَ، تَتلُو علَيهِم آياتِنا﴾: خبرٌ ثان، فتعرفَ قِصّتهم فتُخبِرَ بها، ﴿ولكِنّا كُنّا مُرسِلِينَ﴾ لك وإليك بأخبار المُتقدّمين.

٤٦ ـ ﴿وما كُنتَ بِجانِبِ الطُّورِ﴾: الجبل ﴿إذ﴾: حين ﴿نادَينا﴾ مُوسَى:..........

قولُه: (جَمْعُ: بَصِيرةٍ) يُتبَصَّرُ بها الحقائقُ، ويُميَّزُ بينَ الحقِّ والباطِلِ.

قولُه: (مِنَ الضَّلالَةِ) أو: إلى الشَّرائعِ الَّتي هي سبل اللهِ.

قولُه: (لِمَنْ آمَنَ) أي: سبَبَ رحمةٍ؛ لأَنَّهُم لو عمِلوا بها نالوا رحمَةَ اللهِ.

قولُه: (يَا مُحَمَّدُ) حاضِراً.

قولُه: (الطُّورِ) وفي نسخةٍ: «الجبلِ»[١] وهذا على مذهبِ البصريِّ، أو: الجانِبِ الغربيِّ من مقامِ موسى على مذهبِ الكوفيِّ[٢].

قولُه: (لِذَلِكَ) أي: للوَحيِ إليه.

قولُه: (فتُخْبِرَ بِهِ) يعني: فما هو إلَّا من إعلامِ اللهِ ووَحيِهِ، فكيف يرتابُ أحَدٌ في نبوَّتِكَ؟

قولُه: (أُمَماً)أي: خلَقنا.

قولُه: (فتَعْرِفَ قِصَّتَهُم) أي: أهلِ مديَنَ، وهم شعيبٌ والمؤمنونُ به بالتَّعلُّمِ منهُم.

قولُه: (لَكَ وإلَيكَ) الظَّاهرُ: مرسِلِينَ إيَّاكَ، ومخبرينَ لك بها، أو: مرسِلِينَ إليك أخبارَهُم بوَحيِنا.

قولُه: (مُوسَى) وعن بعضِ السَّلفِ: معناهُ: إذ نادَينا أُمَّتَكَ في أصلابِ آبائِهِم حين سأَلَني موسى رؤيتَكَ،

---

(١) وهكذا هي في النسخ المعتمدة في المتن.

(٢) عند البصريين لا يجوز إضافة الموصوف إلى الصفة إلا بشرط خاص سنذكره، وعند الكوفيين يجوز ذلك مطلقاً، حجة البصريين: أن إضافة الموصوف إلى الصفة تقتضي إضافة الشيء إلى نفسه، وهذا غير جائز فذاك أيضاً غير جائز. «تفسير الرازي» (٢٤/ ٦٠٢).

أن «خُذِ الكِتابَ بِقُوّةٍ»، ﴿ولكِنْ﴾ أرسلناك ﴿رَحمةً مِن رَبِّكَ لِتُنذِرَ قومًا، ما أتاهُم مِن نَذيرٍ مِن قَبلِكَ﴾ - وهم أهل مكّة - ﴿لَعَلَّهم يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتّعظون، ٤٧ - ﴿ولَولا أن تُصِيبَهُم مُصِيبةٌ﴾: عُقوبة ﴿بِما قَدَّمَت أيدِيهِم﴾ من الكُفر وغيره، ﴿فيَقُولُوا: رَبَّنا، لَولا﴾: هلاّ ﴿أرسَلتَ إلَينا رَسُولاً، فنَتَّبِعَ آياتِكَ﴾ المُرسَل بها، ﴿ونَكُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ﴾. وجواب «لولا» محذوف وما بعدها مبتدأ. والمعنى: لولا الإصابةُ المُسبَّبُ عنها قولُهم، أو لولا قولُهم المسبَّبُ عنها، ما أرسلناك إليهم رسولاً.

٤٨ - ﴿فلَمّا جاءَهُمُ الحَقُّ﴾ مُحمّدٌ ﴿مِن عِندِنا قالُوا: لَولا﴾: هلاّ ﴿أُوتِيَ مِثلَ ما أُوتِيَ مُوسَى﴾ من الآياتِ كاليد البيضاء والعصا وغيرهما، ....

وقلْتُ لهُ: إنَّكَ لن تَصِلَ إلى ذلكَ لكن إن شئتَ أُسمِعْتَ صوتَ أمّتِهِ، نقلَهُ النَّسائيُّ عن أبي هريرةَ[١]، وكذا قالَ مقاتلُ بنُ حيَّانَ[٢] والأعمشُ[٣] ووهبٌ[٤]، وقد نُقِلَ عن ابنِ عبَّاسٍ، كذا في «تفسيرِ المعينِ»[٥].

قولُه: (أَرْسَلْنَاكَ) أو: أعلَمْناكَ، أو: أوحَيْنا إليكَ، ويتعلَّقُ به: ﴿لِتُنْذِرَ﴾.

قولُه: (وَهُم أَهْلُ مَكَّةَ) لوقوعِهِم في فَترَةٍ بينكَ وبينَ عيسى، وهي خمسُ مئةٍ وخمسونَ سنةً.

قولُه: (وجَوابُ ﴿لَولَا﴾) أي: الأولى وهيَ الامتِناعيَّةُ، وأمَّا الثَّانيةُ فهي تحضيضيَّةٌ، كما أشارَ إليه بقولِه: «هلَّا»، وجوابُها بالفاءِ تشبيهاً لها بالأمرِ، مفعولُ: ﴿يَقُولُوا﴾ المعطوفُ على ﴿تُصِيبَهُمْ﴾ بالفاءِ المعطيَةِ معنَى: السَّببيَّةِ.

قولُه: (ولَمَا أَرْسَلْنَاكَ) أي: إنَّما أرسَلناكَ قَطْعاً لعُذرِهم وإلزاماً للحُجَّةِ عليهِم إن عَذَّبناهُم؛ يعني: هم مُستَحِقُّونَ للعذابِ، ولكنَّ تأخيرَهُ وإرسالَكَ لقَطعِ الحُجَّةِ.

قولُه: (مُحَمَّدٌ) أي: الرَّسولُ المصَدَّقُ بالمعجِزاتِ، أو بالقرآنِ الباهِرِ البُرهانِ الباقي في كلِّ زمانٍ.

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وروى النسائي في «السنن الكبرى» (١١٣١٨) عن أبي هريرة، ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾، قال: نودي: أن يا أمة محمد، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وأجبتكم قبل أن تدعوني.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٨٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٤٦) ولفظه، قال: في قول الله عز وجل: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾: إذ نادى أمتك وهم في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت.

(٣) لم أقف عليه، وحديث أبي هريرة المتقدم هو من طريق الأعمش.

(٤) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٠/ ٤٦٢).

(٥) أي: المعين الصفوي، صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن» (٣/ ٢٥٣) وقد جاء فيه بعض ما ذكر، أما تتمته فلا شك أنها في كتابه الأتم والأكمل «جوامع التبيان» وعنه ينقل المصنف وغيره، وقد خفي أمره على كثيرين، وقد عثرت عليه وهو قيد التحقيق ولله الحمد، أساله التيسير والتوفيق والقبول.

أو الكتابِ جُملةً واحدة. قال تعالى: ﴿أَوَلَم يَكفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبلُ﴾ حيثُ ﴿قالُوا﴾ فيه وفي مُحمّد: ﴿ساحِرانِ﴾ ـ وفي قراءةٍ: «سِحرانِ» أي: التوراة والقُرآن ـ ﴿تَظاهَرا﴾: تعاونا. ﴿وقالُوا: إنّا بِكُلٍّ﴾ من النبيّينِ والكتابَينِ ﴿كافِرُونَ﴾؟

٤٩ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فائتُوا بِكِتابٍ مِن عِندِ اللهِ، هُوَ أهدَى مِنهُما﴾ أي: من الكتابين، ﴿أتَّبِعْهُ إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ في قولكم. ....

قولُه: (أو الكِتَابِ) عطفٌ على: «الآياتِ»، و«مِن» بيانيَّةٌ لـ﴿ما﴾، ولا مانِعَ[1] من الجمعِ.

قولُه: (فِيْهِ وفِي مُحَمَّدٍ) فاعلُ: ﴿يَكْفُرُوا﴾ ضميرُ قريشٍ، فإنَّهم كَفَروا بنبوَّةِ موسى عليه السَّلامُ أيضاً حين جاءَهُم الرَّهطُ الَّذين أرسَلوهُم إلى يهودِ المدينةِ يسألونَهُم عن محمَّدٍ ﷺ بخبرِهِم على ما ذُكِرَ في «الكشَّافِ»[2]، و«المعالمِ»[3]، و«المداركِ»[4]، وقيلَ: فيه وفي هارونَ[5]، وهو ضعيفٌ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) للكوفيِّ[6].

قولُه: (أي: التَّوْرَاةُ والقُرْآنُ) أو موسى ومحمَّدٌ، جُعِلا سحرَينِ مبالغةً، أو بتقديرِ مضافٍ؛ أي: ذوا سِحْرٍ، وثُنِّي دَفعاً للالتباسِ، أو الأصلُ: ذَوا سحرَينِ، والأَولى تطابُقُ القراءتينِ إلَّا أن يُحمَلَ على تَوزيعِ الأشخاصِ أو الأوقاتِ.

قولُه: (تَعَاوَنَا) بإظهارِ الخوارِقِ، أو بتوافُقِ الكتابينِ.

قولُه: (والكِتَابَينِ) الظَّاهرُ: (أو)، وقيل: أو بكُلِّ الأنبياءِ.

قولُه: (مِنَ الكِتَابَينِ) أو ممَّا نزلَ على موسَى وعلى نبيِّنا، وإضمارُهُما لدلالةِ المعنى، وهذا يؤيِّدُ أنَّ المرادَ بالسَّاحِرَينِ: موسَى ومحمَّدٌ عليهِما السَّلامُ.

قولُه: (فِي قَولِكُم) إنَّا ساحِرانِ، وهذا من الشُّروطِ الَّتي يُرادُ بها الإلزامُ والتَّبكيتُ، لا الشَّكُّ والتَّردُّدُ.

---

(١) في (د): «منع».

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٢٠). وفيه: وذلك حينَ بَعثُوا الرَّهطَ إلى رُؤسَاء اليَهُود بالمَدينَةِ يَسْألُونَهُم عن محمَّدٍ عليه السلام، فأخبَرُوهم أنَّه صِفَتُه ونَعْتُه وأنَّه في كتَابهم، فرَجعَ الرَّهطُ إلى قُريْشٍ فَأخبَروهُم بقَوْلِ اليَهُود، فقَالُوا عند ذلك: ﴿سَاحِرَانِ تظَاهَرا﴾.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥٣٧).

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٦٤٨).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٩٥٦) عن سعيد بن جبير.

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٥).

٥٠ ـ ﴿فإن لَم يَستَجِيبُوا لَكَ﴾ دُعاءك بالإتيان بكتاب ﴿فاعلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أهْواءَهُم﴾ في كُفرهم. ﴿ومَن أضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾؟ أي: لا أحدَ أضلّ منه. ﴿إنَّ اللهَ لا يَهدِي القَومَ الظَّالِمِينَ﴾: الكافرين.

٥١ ـ ﴿ولَقَد وَصَّلْنا﴾: بيّنّا ﴿لَهُمُ القَولَ﴾:..

قولُه: (﴿فإنْ﴾) كُتِبَ النُّونُ في نُسختِنا مخالفاً للَونِ الأصلِ، وهو مُوهِمٌ أنَّ النُّونَ غيرُ مرسُومٍ هنا، وقد اتَّفَقَ الرُّسومُ على وصلِهِ في هودٍ[١]، وفُصِلَ هنا.

قولُه: (دُعَاءَكَ) فحُذِفَ المفعولُ للعِلمِ به؛ لأنَّ فعلَ الاستجابةِ يُعَدَّى بنفسِهِ إلى الدُّعاءِ، وباللَّامِ إلى الدَّاعِي، كذا في البيضاويِّ[٢] و«الكشَّافِ»[٣]، لكن في «القاموسِ»: استجابه واستَجابَ لهُ[٤]، ونصَّ أبو حيَّانَ[٥] أنَّه يتعَدَّى إلى الدَّاعي بنفسِهِ أيضاً، فلا يُحتاجُ إلى تكلُّفِ تقديرٍ.

قولُه: (بالإِتيَانِ) والأظهَرُ: إلى الإتيانِ، ولعلَّ الباءَ بيانيَّةٌ.

قولُه: (في كُفْرِهِم) لأنَّهُم ما رَجِعوا ـ بعدَما ألزَمتَهم الحجَّةَ ـ عن العنادِ، ولو اتَّبَعوا حُجَّةً لأتَوا بها.

قولُه: (أيْ: لا أَضَلَّ مِنهُ) يعني: استفهامَ إنكارٍ بمعنى النَّفيِ، وقولُه: ﴿بِغَيرِ هُدًى﴾ في موضِعِ الحالِ للتَّوكيدِ ـ إذِ الغالبُ مخالفَةُ الهَوى للهُدى، فيُلحَقُ النَّادِرُ بالمعدومِ ـ أو للتَّقييدِ، فإنَّ هَوى النَّفسِ قد يوافِقُ الحقَّ، ويكونُ سَمناً مع العَسَلِ، ونوراً على نُورٍ، وفي الحديثِ: «لا يُؤمِنُ أحدُكُم حتَّى يكونَ هواهُ تبعاً لِمَا جِئتُ بِهِ»[٦].

قولُه: (الكَافِرِينَ) المتَّبِعينَ للهَوى.

قولُه: (بَيَّنَّا) أو: أتبَعنا بعضَهُ بعضاً في الإنزالِ ليتَّصِلَ التَّذكيرُ.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [هود: ١٤]. وانظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ١٥٤).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٨٠).

(٣) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٢٠).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٧٠).

(٥) انظر: «البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٣١٣).

(٦) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢٧٩)، والبيهقي في «المدخل» (٢٠٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

قال النووي في «الأربعون النووية» (٤٢): حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح. واستدرك عليه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٩٤).

القُرآنَ، ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتّعظون فيُؤمنون. ٥٢ ـ ﴿الَّذِينَ آتيناهُمُ الكِتابَ مِن قَبلِهِ﴾ أي: القُرآنِ ﴿هُم بِهِ يُؤمِنُونَ﴾ أيضًا ـ نزل في جماعة أسلموا من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه ومن النصارى قدِموا من الحبشة ومن الشام ـ ٥٣ ـ ﴿وإذا يُتلَى علَيهِمْ﴾ القُرآنُ ﴿قالُوا: آمَنّا بِهِ. إنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّنا. إنّا كُنّا مِن قَبلِهِ مُسلِمِينَ﴾: مُوحّدين.

٥٤ ـ ﴿أُولئِكَ يُؤتَونَ أجرَهُم مَرّتَينِ﴾ بإيمانهم بالكتابين ﴿بِما صَبَرُوا﴾: بصبرهم على العمل بهما، ﴿ويَدرَؤُونَ﴾: يدفعون ﴿بِالحَسَنةِ السَّيِّئَةَ﴾ منهم، ﴿ومِمّا رَزَقْناهُم يُنفِقُونَ﴾: يتصدّقون، ٥٥ ـ ﴿وإذا سَمِعُوا اللَّغوَ﴾: الشتم والأذى من الكُفّار ﴿أعرَضُوا عَنهُ، وقالُوا: لَنا أعمالُنا ولَكُم أعمالُكُم، سَلامٌ علَيكُم﴾: سلامَ مُتاركة، أي: سلمتم منّا من الشتم وغيره. ﴿لا نَبتَغِي الجاهِلِينَ﴾: لا نصحَبهم.

ونزل في حِرصه ﷺ على إيمان عمّه أبي طالب: ٥٦ ـ ﴿إنَّكَ لا تَهدِي مَن أحبَبتَ﴾ هِدايتَه،.....

قولُه: (أي: القُرْآنَ) الأظهرُ: أنّه للقَولِ المرادِ به القرآنُ.

قولُه: (فيُؤمِنُونَ) ويُطيعونَ.

قولُه: (مِنَ النَّصَارَى) أربعونَ.

قولُه: (مِنَ الحَبَشَةِ) اثنانِ وثلاثونَ معَ جعفرٍ.

قولُه: (ومِنَ الشَّامِ) ثمانيةٌ.

قولُه: (على العَمَلِ بِهَا) الظَّاهرُ: بهما، ويبعدُ رجوعُ الضَّميرِ إلى التَّوراةِ.

قولُه: (مِنْهُم) أي: يَدفَعونَ بالطَّاعَةِ المعصيةَ المتقدِّمةَ منهم الصَّادِرةَ عنهم؛ كقولِهِ ﷺ: «أتبعِ السَّيئةَ الحسنةَ تَمحُهَا» رواهُ التِّرمذيُّ وحسَّنَهُ[1].

أو: لا يُقابِلونَ الأذى بمثلِه، بل يَعفونَ، بل يُجازُونَ بالإحسانِ.

قولُه: (الشَّتْمَ) فاللَّغوُ: الكلامُ القَبيحُ.

قولُه: (سَلامَ مُتَارَكَةٍ) أي: لا تحيَّةً، أو دُعاءً لهم بالسَّلامةِ عمَّا هم فيه.

قولُه: (لا نَصْحَبُهُم) والأبلَغُ: لا نطلُبُ صُحبَتَهُم، ولا نُريدُ طَريقَهُم.

قولُه: (هِدَايَتَهُ) أو نفسَهُ؛ أي: لا تَقدِرُ أن تُدخِلَهُ في الإسلامِ.

اعلم أنَّ الهدايةَ: خَلقُ الاهتداءِ في العبدِ، وبيانُ طريقِ الصَّوابِ، وكلا المعنَيينِ مُستَقيمٌ في حقِّ اللهِ تعالى، وأمَّا الرَّسولُ فلا يصحُّ اتِّصافُهُ إلَّا بالمعنى الثَّاني، فلا يُناقِضُ هذه الآيةَ قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ [الشورى: ٥٢].

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿ولكِنَّ اللهَ يَهدِي مَن يَشاءُ، وهُوَ أعلَمُ﴾ أي: عالمٌ ﴿بِالمُهتَدِينَ﴾.

٥٧ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: قومه: ﴿إن نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِن أرضِنا﴾ أي: نُنتزَعْ منها بسُرعة. قال تعالى: ﴿أوَلَم نُمَكِّنْ لَهُم حَرَمًا آمِنًا﴾ يأمنون فيه من الإغارة والقتل الواقعَينِ من بعض العرب على بعض، ﴿تُجبَى﴾ ـ بالفَوقانيّة والتحتانيّة ـ ﴿إلَيهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيءٍ﴾ من كُلّ أوب ﴿رِزقًا﴾ لهم ﴿مِن لَدُنّا﴾: مِن عِندنا؟ ﴿ولكِنَّ أكثَرَهُم لا يَعلَمُونَ﴾ أنّ ما نقوله حقّ، ٥٨ ـ ﴿وكَم أهلَكْنا مِن قَريَةٍ، بَطِرَتْ مَعِيشَتَها﴾ أي: في عيشها! وأُريد بالقرية أهلُها ـ ﴿فتِلكَ مَساكِنُهُم، لَم تُسكَنْ مِن بَعدِهِم إلاّ قَلِيلاً﴾ للمارّة يومًا أو بعضه ـ ﴿وكُنّا نَحنُ الوارِثِينَ﴾ منهم. ٥٩ ـ ﴿وما كانَ رَبُّكَ مُهلِكَ القُرَى﴾ بظلم أهلها ﴿حَتَّى يَبعَثَ في أُمِّها﴾ أي: أعظمِها ﴿رَسُولاً، يَتلُو عليهِم آياتِنا، وما كُنّا مُهلِكِي القُرَى إلاّ وأهلُها ظالِمُونَ﴾ بتكذيب الرُّسل.

قولُه: (أيْ: عَالِمٌ) كرَّرَهُ في مواضِعَ، وتبعَهُ السُّيوطيُّ[1] أيضاً، ولا أعلمُ وجهَهُ إلَّا في موضِعٍ يقعُ بدونِ الباءِ، كما قرَّرناهُ عندَ قولِهِ تعالى: ﴿أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ﴾ [الأنعام: ١١٧] واللهُ أعلمُ.

قولُه: (أي: قَوْمُهُ) من قُريشٍ، لا أهلُ الكتابِ.

قولُه: (يَأْمَنُونَ) أي: ألم نَجعَل مكانَهُم حَرَماً ذا أَمنٍ مع كُفرِهِم، فكيفَ نُعرِّضُهُم للخَوفِ والتَّخطُّفِ إذا كانوا مُوَحِّدينَ؟ يعني: هم كاذِبونَ في عُذرِهِم.

قولُه: (بالفَوقَانيَّةِ) نافعٌ[2]؛ أي: يُحمَلُ إليه ويُجمَعُ فيه.

قولُه: (أَوْبٍ) مكانٍ يُرجَعُ إليه؛ أي: ثَمَراتٌ كثيرةٌ.

قولُه: (أي: عَيْشَهَا) بنَزعِ الخافِضِ[3]، و﴿بَطِرَتْ﴾ أي: طَغَتْ وأَشِرَتْ.

قولُه: (مِنْهُم) إذ ما بَقيَ منهم في الدِّيارِ ديَّارٌ.

قولُه: (بظُلْمٍ) أي: ما كانت عادَتُه تعالى إهلاكَ القُرى.

قولُه: (أَهْلِهَا) على إضمارِ المضافِ، أو ذِكرِ المحلِّ وإرادةِ الحالِّ.

قولُه: (أي: أَعْظَمِهَا) فإنَّ الأشرافَ فيها، أو: في أصلِها الَّتي هي ـ أي: القُرى ـ أعمالُها وسوادُها؛ لأنَّ أهلَها تكون أفطنَ وأنبلَ، فإن أنكروا نزَلَ عليهم العَذابُ.

---

(١) انظر: سورة آل عمران الآية رقم: (٣٦)، وسورة يوسف الآية رقم: (٧٧)، وسورة النحل الآية رقم: (٣٢) ورقم: (١٢٥).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٥).

(٣) وقد أظهر الخافض في النسخ المعتمدة في المتن.

٦٠ ـ ﴿وما أُوتِيتُم مِن شَيءٍ فمَتاعُ الحَياةِ الدُّنيا وزِينتُها﴾ أي: تتمتّعون وتتزيّنون به أيام حياتكم ثمّ يفنى، ﴿وما عِندَ اللهِ﴾ ـ وهو ثوابه ـ ﴿خَيرٌ وأبقَى. أفلا تَعقِلُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ أنّ الباقي خير من الفاني؟ ٦١ ـ ﴿أفمَن وَعَدْناهُ وَعدًا حَسَنًا، فهُوَ لاقِيهِ﴾: مُصيبُهُ ـ وهو الجنّة ـ ﴿كَمَن مَتَّعْناهُ مَتاعَ الحَياةِ الدُّنيا﴾ فيزول عن قريب، ﴿ثُمَّ هُوَ يَومَ القِيامةِ مِنَ المُحضَرِينَ﴾ النارَ؟ الأوّل المؤمن والثاني الكافر، أي: لا تساوي بينهما.

٦٢ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿يَومَ يُنادِيهِمْ﴾ اللهُ، ﴿فيَقُولُ: أينَ شُركائيَ الَّذِينَ كُنتُم تَزعُمُونَ﴾ ـهُم شركائي؟ ٦٣ ـ ﴿قالَ الَّذِينَ حَقَّ عليهِمِ القَولُ﴾ بدخول النار وهم رؤساء الضلالة:..........

قولُه تعالى: (﴿مِنْ شَيءٍ﴾) أي: قليلٍ وكثيرٍ من أسبابِ الدُّنيا.

قولُه: (تمتَّعونَ) بحذفِ التَّاءِ فيه وفيما بعدَهُ.

قولُه: (وهُوَ ثَوَابُهُ) أي: الجنَّةُ ونعيمُها.

قولُه: (والياءِ) الغيبةُ بصريٌّ[1].

وقولُه تعالى: (﴿خَيْرٌ﴾) أي: خيرٌ في نفسِهِ من ذلكَ؛ لأنَّه لَذَّةٌ خالِصَةٌ وبَهجَةٌ كاملةٌ.

قولُه: (البَاقِي) إشارَةٌ إلى أنَّ (أبقى) لمجرَّدِ الزِّيادةِ مبالغةً، أو: أبقى لأنَّه أبَديٌّ.

قولُه: (مُصِيبُهُ) ومُدرِكُهُ؛ لامتِناعِ الخُلفِ في وَعدِهِ للحسابِ أو العذابِ.

قولُه: (وهُوَ الجَنَّةُ) أي: وَعداً بالجنَّةِ، فإنَّ حُسنَ الوعدِ بحُسْنِ[2] الموعودِ.

قولُه: (فيَزُوْلُ عَن قَرِيْبٍ) وهو في نفسِهِ مَشُوبٌ بأنواعِ الغُصَصِ، مُكدَّرٌ بالمتاعِبِ، مُستَعقِبٌ للتَّحسُّرِ على الانقِطاعِ.

قولُه: (أي: لا تَسَاوِيَ) فالهمزَةُ للإنكارِ، رُوِيَ: أنَّ الآيَةَ نزلَتْ في حمزةَ وأبي جَهلٍ[3]، لكنَّ العِبرةَ بعمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ.

قولُه: (أي: اللهُ) نداءَ غَضَبٍ وتَوبيخٍ.

قولُه: (هُمْ شُرَكَائِي) فحُذِفَ المفعولانِ لدلالةِ الكلامِ عليهِما.

قولُه: (رُؤَسَاءُ الضَّلالَةِ) أي: شياطينُهُم وساداتُهم في الضَّلالِ؛ خوفاً من أن يقولَ السَّفلَةُ: لا ذنبَ لنا، إنَّما الذَّنبُ لساداتِنا.

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) في النسخ: «بمعنى»، والتصويب من البيضاوي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٠٥، ٦٠٦) عن مجاهد.

﴿رَبَّنا، هؤُلاءِ الَّذِينَ أغوَينا﴾ هم: مبتدأ وصفةٌ ﴿أغوَيناهُم﴾: خبرُه، فغوَوا ﴿كَما غَوَينا﴾ لم نُكرِهْهم على الغيّ. ﴿تبرَّأنا إليكَ﴾ منهم. ﴿ما كانُوا إيّانا يَعبُدُونَ﴾. ما: نافية، وقُدِّم المفعول للفاصلة. ٦٤ ـ ﴿وقِيلَ: ادعُوا شُرَكاءَكُم﴾ أي: الأصنامَ الذين كنتم تزعمون أنهم شُركاء الله، ﴿فدَعَوهُم فلَم يَستَجِيبُوا لَهُم﴾ دُعاءهم، ﴿ورَأَوُا﴾ هم ﴿العَذابَ﴾: أبصروه. ﴿لَو أنَّهُم كانُوا يَهتَدُونَ﴾ في الدنيا ما رأوه في الأُخرى.

٦٥ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿يَومَ يُنادِيهِم فيَقُولُ: ماذا أَجَبتُمُ المُرسَلِينَ﴾..........

قولُه: (مُبْتَدَأٌ) أي: ﴿هؤلاءِ﴾.

قولُه: (وَصِفَته) ما بعدَهُ، والرَّاجِعُ إلى الموصولِ محذوفٌ، أو هو الخبرُ[1] وهو الأظهرُ؛ أي: هؤلاءِ همُ الَّذينَ أغوَيناهُم، وما بعدَهُ[2] استئنافٌ للدِّلالةِ على أنَّهم غَوَوا باختيارِهم، وأنَّهُم لم يفعَلوا بهم إلَّا وسوَسَةً وتسويلاً.

قولُه: (فَغَوَوا) أي: غيًّا مثلَ ما غَوَينا، والمعنى: غَوَوا باختيارِهم كما غَوَينا باختيارِنا، أو المعنَى: ما اختَرنا لهُم إلَّا ما اختَرنا لأنفسِنا فلا عَتَبَ لهُم علينا.

قولُه: (مِنْهُم) وممَّا اختاروهُ من الكُفرِ هوًى منهُم.

قولُه: (نَافِيَةٌ) أي: ما كانوا يعبُدونَنا، وإنَّما كانوا يعبُدونَ أهواءَهُم، فنحنُ وإيَّاهُم سواءٌ في الغِوايَةِ، شهِدوا على أنفُسِهم بالغِوايَةِ والإغواءِ، ثمَّ تبرَّؤوا من عبادَتِهم، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦].

قولُه: (أيْ: الأَصْنَامَ) لتُخلِّصَكُم من العذابِ.

وقولُهُ تعالى: (﴿فَدَعَوْهُمْ﴾) من فَرْطِ الحَيرَةِ.

قولُه: (دُعَاءَهُم) مرَّ تَحقيقُهُ لعجزِهم عن الإجابَةِ والنُّصرَةِ.

قولُه: (﴿وَرَأَوُا﴾ هُم) تأكيدٌ للضَّميرِ.

قولُه: (أَبْصَرُوهُ) أو: رأى الكفَّارُ العذابَ لازماً بهم.

قولُه: (فِي الدُّنْيَا) أي: إلى الحَقِّ (مَا رَأَوْهُ) جوابُ ﴿لَو﴾.

وقيل: ﴿لَو﴾ للتَّمنِّي؛ أي: تمنَّوا أنَّهُم، على الحكايَةِ.

قولُه: (﴿و﴾ اذْكُرْ) وقيل: عطفٌ على الأوَّلِ.

---

(١) قوله: «أو هو الخبر»؛ أي: أو ﴿الذين﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿هؤلاء﴾.

(٢) قوله: «وما بعده»؛ أي: قوله تعالى: ﴿أغويناهم﴾.

إليكم؟ ٦٦ ـ ﴿فعَمِيَتْ علَيهِم الأنباءُ﴾: الأخبار المُنجية في الجواب ﴿يَومَئِذٍ﴾ أي: لم يجدوا خبرًا لهم فيه نجاةٌ، ﴿فهُم لا يَتَساءَلُونَ﴾ عنه فيسكتون. ٦٧ ـ ﴿فأمّا مَن تابَ﴾ من الشِّرك، ﴿وآمَنَ﴾: صدّق بتوحيد الله ﴿وعَمِلَ صالِحًا﴾: أدّى الفرائض، ﴿فعَسَى أن يَكُونَ مِنَ المُفلِحِينَ﴾: الناجين بوعد الله.

٦٨ ـ ﴿ورَبُّكَ يَخلُقُ ما يَشاءُ ويَختارُ﴾ ما يشاء، ﴿ما كانَ لَهُمُ﴾: للمشركين ﴿الخِيَرَةُ﴾: الاختيار في شيء، ﴿سُبحانَ اللهِ وتَعالَى عَمّا يُشرِكُونَ﴾ عن إشراكهم! ....

قولُه: (إِلَيْكُم) متعلِّقٌ بـ﴿الْمُرْسَلِيْنَ﴾.

قولُه: (الأَخْبَارُ) أي: خَفِيَتْ.

قولُه: (المُنْجِيَةُ) الظَّاهرُ أنَّ المرادَ بـ﴿الأَنْبَاءُ﴾ ما أجابوا بِهِ الرُّسُلَ، أو ما يعُمُّهُ، وإذا كانت الرُّسُلُ يتقعقعُونَ في الجوابِ عن مثلِ ذلك من الهَولِ، ويُفَوِّضونَ إلى اللهِ تعالى، فما ظنُّكَ بالضَّالِّينَ من أُممِهِم؟

قولُه: (عَنْهُ) أي: لا يسأَلُ بعضُهم بعضاً عن الجوابِ لفرطِ حَيرَةِ كلٍّ منهُم، أو للعِلمِ بأنَّه مثلُهُ في العجزِ عن الجوابِ.

قولُه: (بِتَوحِيْدِ اللهِ) وسائرِ ما يجبُ الإيمانُ به.

قولُه: (بِوَعْدِ اللهِ) ﴿فَعَسَى﴾ تحقيقٌ على عادةِ الكِرامِ، أو ترَجٍّ من التَّائبِ؛ بمعنى: فليتوقَّعْ أن يُفلِحَ؛ أي: ليكُن بين الخَوفِ والرَّجاءِ.

قولُه: (مَا يَشَاءُ) لا موجِبَ عليه، ولا مانِعَ لهُ.

قولُه: (للمُشْرِكِينَ) الصَّحيحُ: أنَّ الضَّميرَ للخَلقِ، وظاهرُه: نَفيُ الاختيارِ عنهم رأساً، والأمرُ كذلك عندَ التَّحقيقِ، وهو الموافِقُ للمذهَبِ الحَقِّ، فإنَّ اختيارَ العَبدِ مخلوقٌ باختيارِ اللهِ مَنوطٌ بدَواعٍ لا اختيارَ لهم فيها، وقيلَ: المرادُ أنَّه ليسَ لأحَدٍ مِن خلقِهِ أن يختارَ عليه، ويؤيِّدُه ما رُوِيَ: أنَّه نزلَ في قولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١][1]، وهذا هو المختارُ للشَّيخِ، لكن معَ هذا لا وجهَ لتخصيصِ المشركينَ.

وقولُه تعالى: (﴿سُبْحَانَ اللهِ﴾) تنزيهاً له أن ينازِعَهُ أحدٌ، أو يزاحِمَ اختيارَهُ اختيارٌ.

قولُه: (عن إِشْرَاكِهِم) فـ﴿ما﴾ مصدريَّةٌ، أو: مُشارَكَةِ ما يُشركونَهُ[2] به، فـ﴿ما﴾ موصولَةٌ والمضافُ مقدَّرٌ.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٣٩) وعزاه لأهل التفسير، وذكره أيضاً الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٠/ ٤٨٣) ولم يصرح بالنزول.

(٢) في (ص): «يشركون».

٦٩ ـ ﴿وربُّكَ يَعلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُم﴾: تُسِرُّ قُلوبهم من الكُفر وغيره، ﴿وما يُعلِنُونَ﴾ بألسنتهم من ذلك، ٧٠ ـ ﴿وهُوَ اللهُ لا إلـٰهَ إلاّ هُوَ، لَهُ الحَمدُ في الأُولَى﴾: الدنيا ﴿والآخِرةِ﴾: الجنّة، ﴿ولَهُ الحُكمُ﴾: القضاء النافذ في كل شيء، ﴿وإلَيهِ تُرجَعُونَ﴾ بالنُّشور.

٧١ ـ ﴿قُلْ﴾ لأهل مكّة: ﴿أرَأَيتُم﴾ أي: أخبِروني ﴿إن جَعَلَ اللهُ علَيكُمُ اللَّيلَ سَرمَدًا﴾: دائمًا ﴿إلَى يَومِ القِيامةِ، مَن إلـٰهٌ غَيرُ اللهِ﴾ بزعمكم ﴿يأتِيكُم بِضِياءٍ﴾: نهار، تطلبون فيه المعيشة؟ ﴿أفلا تَسمَعُونَ﴾ ذلك سماعَ تفهّم، فترجعون عن الإشراك؟ ٧٢ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أرَأَيتُم إن جَعَلَ اللهُ علَيكُمُ النَّهارَ سَرمَدًا إلَى يَومِ القِيامةِ، مَن إلـٰهٌ غيرُ اللهِ﴾ بزعمكم ﴿يأتِيكُم بِلَيلٍ، تَسكُنُونَ﴾: تستريحون ﴿فِيهِ﴾ من التعب؟ ﴿أفلا تُبصِرُونَ﴾ ما أنتم عليه من الخطأ في الإشراك، فترجعون عنه؟ ٧٣ ـ ﴿ومِن رَحْمتِهِ﴾ ـ تعالى ـ ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهارَ، لِتَسكُنُوا فِيهِ﴾: في الليلِ، ﴿ولِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ﴾ في النهار بالكسب، ﴿ولَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ النّعمة فيهما.

٧٤ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿يَومَ يُنادِيهِم، فيَقُولُ: أينَ شُرَكائيَ الَّذِينَ كُنتُم تَزعُمُونَ﴾؟ ذُكِر ثانيًا ليُبنى عليه:

قولُه: (تُسِرُّ) أي: تُخفِي، والأظهرُ: تَسْتُرُ.

قولُه: (مِنَ الكُفرِ) ومنه عداوةُ النَّبيِّ وحِقدُهُ.

قولُه: (مِنْ ذَلِكَ) أي: الكُفرِ، بالطَّعنِ فيه، أو في القرآنِ، وفي هذا تسليَةٌ له ﷺ وتهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ لهم.

قولُه: (الجَنَّةِ) لأنَّه المولِي للنِّعَمِ كلِّها عاجِلاً وآجِلاً، يحمدُهُ المؤمنونَ في الآخرةِ كما حَمِدوهُ في الدُّنيا.

قولُه: (لأَهْلِ مَكَّةَ) الأعَمُّ هو الأتَمُّ.

قولُه: (نَهَارٍ) الظَّاهرُ: نورٍ، بل نورِ الشَّمسِ، وإنَّما حملَهُ عليه التَّقابُلُ، وهو غيرُ لازِمٍ.

قولُه: (تَفَهُّمٍ) واستبصارٍ.

قولُه: (مِنَ التَّعَبِ) وصَفَ اللَّيلَ دونَ النَّهارِ؛ لأنَّ النَّهارَ مُستَغنٍ عن الوصفِ، ولأنَّ منافِعَ الضَّوءِ أكثرُ ممَّا يقابلُهُ، ولذا قرنَ به ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأنَّ استفادةَ العقلِ من السَّمعِ أكثرُ مِن استفادتِهِ منَ البصرِ.

قولُه: (ذُكِرَ ثَانِياً) للتَّقريعِ[1] بعدَ التَّقريعِ؛ إشعاراً بأنَّهُ لا شيءَ أجلبُ لغضَبِ اللهِ من الإشراكِ بِهِ، أو الأَوَّلُ: لتقريرِ فسادِ رأيِهِم، والثَّاني: لبيانِ أنَّه لم يكُنْ عن سَنَدٍ.

قولُه: (لِيُبْنَى عَلَيْهِ) ما أدرِي مبنَى هذا المبنى، ولا مَعنى هذا المعنَى، ولا يخفَى أنَّ المناسبةَ والرَّابِطةَ

---

(١) في بعض الأصول: «للتفريع»، والمثبت موافق لما في البيضاوي، ويؤيده قوله: «إشعاراً...».

٧٥ ـ ﴿ونَزَعْنا﴾: أخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ ـ وهو نبيّهم ـ يشهد عليهم بما قالوه، ﴿فقُلْنا﴾ لهم: ﴿هاتُوا بُرهانَكُم﴾ على ما قلتم من الإشراك، ﴿فعَلِمُوا أنَّ الحَقَّ﴾ في الإلـٰهية ﴿لِلهِ﴾، لا يُشاركه فيها أحد، ﴿وضَلَّ﴾: غاب ﴿عَنهُم ما كانُوا يَفتَرُونَ﴾ في الدنيا من أنّ معه شريكًا. تعالى عن ذلك.

٧٦ ـ ﴿إنَّ قارُونَ كانَ مِن قَومِ مُوسَى﴾ ابنَ عمّه أو ابنَ خالته وآمنَ به، ﴿فبَغَى علَيهِم﴾ بالكِبْر والعلوّ وكثرة المال، ﴿وآتَيناهُ مِنَ الكُنُوزِ ما إنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوءُ﴾: تثقل ﴿بِالعُصْبَةِ﴾: الجماعة ﴿أُولِي﴾: أصحابِ ﴿القُوَّةِ﴾ أي: تُثقِلُهم ـ فالباء: للتعدية. وعِدّتهم قيل: سبعون، وقيل: أربعون، وقيل: عشَرةٌ، وقيل غيرُ ذلك ـ اذكرْ...

المعنويَّةَ بينَ الآيتينِ[1] لا تُسَمَّى بناءً، إذ البناءُ يُستَعمَلُ في التَّعلُّقِ اللَّفظيِّ بالعطفِ أو التَّعليلِ ونحوِهِما.

قولُه: (بِمَا قَالُوْهُ) الأولى: بما كانوا عليه.

قولُه: (لَهُم) للأمَمِ.

قولُه: (عَلَى مَا قُلْتُمْ) أي: على صِحَّةِ ما كنتُم تدَّعونَهُ.

قولُه: (غَابَ) غيبةَ الضَّائعِ؛ أي: ذَهبَ باطِلُهم بظُهورِ بُطلانِه.

قولُه: (وآمَنَ بِهِ) ثمَّ نافَقَ.

قولُه: (والعُلُوِّ) أي: الظُّلمِ أو الجاهِ.

قولُه: (تَثقُلُ) أي: مفاتِحُ صناديقِهِ، على حذفِ مُضافٍ، جمعُ «مِفتَحٍ» بالكَسرِ: آلة الفتحِ، وقيلَ: خزائنُهُ، جمعُ «مَفتح» بالفتحِ: مكان الفتح[2].

قولُه: (الجَمَاعَةِ) أي: الكثيرةِ.

قولُه: (تُثقِلُهُم) حتَّى تُميلَهُم.

قولُه: (وقِيْلَ: غَيرُ ذَلِكَ) قيل في الإنجيلِ: إنَّ مفاتِحَ كنوزِ قارونَ وِقرُ ستِّينَ بغلًا، كلُّ مِفتاحٍ منها على قَدْرِ أصبُعٍ، لكلِّ مفتاحٍ منها كنزٌ[3].

قولُه: (اذكُرْ) أحسنُ من قولِ القاضي: منصوبٌ بـ﴿تَنُوءَ﴾[4].

---

(١) في (م) و(ص): «الاثنين».

(٢) انظر: «لسان العرب» (٢/ ٥٣٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦١٧)، والدينوري في «المجالسة» (٢٨٢١) عن خيثمة.

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٨٥).

﴿إذ قالَ لَهُ قومُهُ﴾ المؤمنون من بني إسرائيل: ﴿لا تفرحْ﴾ بكثرة المال فرحَ بطرٍ ـ ﴿إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفرحينَ﴾ بذلك ـ ٧٧ ـ ﴿وابتغِ﴾: اطلبْ ﴿فيما آتاكَ اللهُ﴾ من المال ﴿الدّارَ الآخرةَ﴾ بأن تُنفقه في طاعة الله. ﴿ولا تنسَ﴾: تتركْ ﴿نصيبَكَ مِنَ الدُّنيا﴾ أي: أن تعمل فيها للآخرة، ﴿وأحسِنْ﴾ للناس بالصدقة ﴿كما أحسَنَ اللهُ إليكَ ولا تبغِ﴾: تطلبِ ﴿الفسادَ في الأرضِ﴾ بعمل المعاصي. ﴿إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسِدينَ﴾ بمعنى أنه يُعاقبهم.

٧٨ ـ ﴿قالَ: إنّما أُوتيتُهُ﴾ أي: المالَ ﴿على عِلمٍ عِندي﴾ أي: في مُقابلته. وكان أعلم بني إسرائيل بالتوراة بعد موسى وهارون. قال تعالى ﴿أَوَلَم يَعلَمْ أنَّ اللهَ قد أهلَكَ مِن قبلِهِ مِنَ القُرونِ﴾: الأممِ ﴿مَن هُوَ أشَدُّ مِنهُ قُوّةً وأكثرُ جَمعًا﴾ للمال؟ أي: هو عالم بذلك ويُهلكه الله. ﴿ولا يُسألُ عن ذُنوبِهِمُ المُجرِمونَ﴾ لعِلمه ـ تعالى ـ بها، فيدخلون النار بلا حِساب.

٧٩ ـ ﴿فخَرَجَ﴾ قارون ﴿على قومِهِ في زينتِهِ﴾: بأتباعه الكثيرين رُكبانًا،..........

قولُه: (فَرَحَ بَطَرٍ) وما أحسَنَ كلامَ البيضاويِّ: الفَرَحُ بالدُّنيا مَذمومٌ مطلقاً؛ لأنَّه نتيجةُ حُبِّها والرِّضا بها، والذُّهولِ عن ذهابِها، فإنَّ العِلمَ بأنَّ ما فيها مِنَ اللَّذَّةِ مُفارِقُه لا محالةَ يوجبُ الحُزنَ كما قالَ:

أشَدُّ الغَمِّ عندي في سُرورٍ تيقَّنَ عنهُ صاحِبُهُ انتِقالا[1]

قولُه: (للآخِرَةِ) قيلَ: النَّصيبُ: الكَفَنُ.

قولُه: (بالصَّدَقَةِ) أو: إلى عبادِ اللهِ مطلَقاً.

قولُه: (أيْ: في مُقابَلَتِهِ) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿عَلَى﴾ للتَّعليلِ ظرفٌ لغوٌ متعلِّقٌ بـ(أُوتِيتُ)، وقولُ البيضاويِّ: إنَّهُ في موضِعِ الحالِ[2]، غيرُ ظاهِرٍ.

قولُه: (وَكَانَ أَعْلَمَ) وقيل: المرادُ: عِلمُ الكيمياءِ، وقيلَ: علمُ التِّجارةِ والدِّهقنةِ وسائرِ المكاسِبِ، وقيل: عِلمٌ بكنوزِ يوسفَ.

قولُه: (للمالِ) أو: جماعةً وخدماً.

قولُه: (أي: هُو عالِمٌ) فالاستِفهامُ للتَّقريرِ.

قولُه: (لعِلْمِهِ) يعني: سؤالَ استعلامٍ، بل سؤالَ توبيخٍ، أو: مُطلقَ السُّؤالِ، فيكونُ في موطنٍ خاصٍّ.

قولُه: (الكَثِيرِينَ) قيل: معه أربعةُ آلافٍ على زيِّهِ.

---

(١) انظر المصدر السابق. والبيت للمتنبي، انظر: «ديوانه» (ص: ١٤٠).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٨٥).

مُتحلِّينَ بملابس الذهب والحرير على خُيول وبغال مُتحلّية. ﴿قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَياةَ الدُّنيا: يا﴾ ـ للتنبيه ـ ﴿لَيتَ لَنا مِثلَ ما أُوتِيَ قارُونُ﴾ في الدنيا. ﴿إنَّهُ لَذُو حَظٍّ﴾: نصيب ﴿عَظِيمٍ﴾ وافٍ فيها. ٨٠ـ ﴿وقالَ﴾ لهمُ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ﴾ بما وعد اللهُ في الآخرة: ﴿وَيلَكُم﴾: كلمةُ زجرٍ. ﴿ثَوابُ اللهِ﴾ في الآخرة بالجنّة ﴿خَيرٌ، لِمَن آمَنَ وعَمِلَ صالِحًا﴾ ممّا أُوتي قارون في الدنيا، ﴿ولا يُلَقّاها﴾ أي: الجنّةَ المُثابَ بها ﴿إلاّ الصّابِرُونَ﴾ على الطاعة وعن المعصية.

٨١ـ ﴿فخَسَفْنا بِهِ﴾: بقارونَ ﴿وبِدارِهِ الأرضَ، فما كانَ لَهُ مِن فِئةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ﴾: من غيرِه بأن يمنعوا عنه الهلاك، ﴿وما كانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ﴾ منه، ٨٢ـ ﴿وأصبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوا مَكانَهُ بِالأمسِ﴾ أي: من قريب ﴿يَقُولُونَ: وَيْ كَأَنَّ اللهَ يَبسُطُ﴾ يُوسِّع ﴿الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ ويَقدِرُ﴾: يُضيّق على من يشاء. ووَيْ: اسم فعلٍ بمعنى: أعجبُ أي: أنا. والكاف: بمعنى اللام. ﴿لَولا أن مَنَّ اللهُ علَينا لَخَسَفَ بِنا﴾، بالبناء للفاعل والمفعول. ﴿وَيْ كَأَنَّهُ لا يُفلِحُ الكافِرُونَ﴾ لنعمة الله كقارونَ.

٨٣ـ ﴿تِلكَ الدّارُ الآخِرةُ﴾ أي: الجنّة ﴿نَجعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأرضِ﴾ بالبغي ﴿ولا فَسادًا﴾ بعمل المعاصي، ﴿والعاقِبةُ﴾ المحمودة ﴿لِلمُتَّقِينَ﴾ عقابَ الله بعمل الطاعات.............

قولُه: (للتَّنبِيهِ) أو التَّقديرُ: يا قوم.

قولُه: (فِيْهَا) الأظهرُ: منها.

قولُه: (لَهُم) أي: للمتمنِّينَ.

قولُه: (زَجْرٍ) عمَّا لا يُرتَضى.

قولُه: (مِمَّا أُوتِيَ) بل من الدُّنيا وما فيها، بل لأَدنى أهلِ الجنَّةِ، بل لا مقابَلةَ بينهما.

قولُه: (أي: الجَنَّةَ) أو الثَّوابَ بمعنى المثوبَةِ.

قولُه: (وعَنِ المَعْصِيَةِ) وفي الفَقرِ والمصيبةِ.

قولُه: (مِنْهُ) أي: الممتَنِعينَ من الهلاكِ، أو المنتصِرينَ بنفسِهِ.

قولُه: (أيْ: مِنْ قَرِيبٍ) ولا يبعدُ حملهُ على الحقيقةِ.

قولُه: (بِمَعنَى: اللَّامِ) للتَّعليلِ، أو زائدةٌ.

قولُه: (للفَاعِلِ) حفصٌ[1]، فمفعولُهُ محذوفٌ؛ أي: لَخَسَفَ بنا الأرضَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٥).

٨٤ـ ﴿مَن جاءَ بِالحَسَنةِ فلَهُ خَيرٌ مِنها﴾: ثوابٌ بسببها ـ وهو عشرُ أمثالها ـ ﴿ومَن جاءَ بِالسَّيِّئةِ فلا يُجزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إلاّ﴾ جزاءَ ﴿ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾.

٨٥ ـ ﴿إنَّ الَّذِي فَرَضَ علَيكَ القُرآنَ﴾: أنزلَه ﴿لَرادُّكَ إلَى مَعادٍ﴾: إلى مكّة. وكان قد اشتاقها. ﴿قُل: رَبِّيَ أعلَمُ مَن جاءَ بِالهُدَى ومَن هُوَ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾. نزل جوابًا لقول كُفّار مكّة له: «إنّكَ في ضَلالٍ» أي: فهو الجائي بالهدى، وهم في الضلال. وأعلم بمعنى: عالمٌ.

٨٦ ـ ﴿وما كُنتَ تَرجُو أن يُلقَى إلَيكَ الكِتابُ﴾: القُرآنُ. ﴿إلاّ﴾ لكنْ أُلقي إليك ﴿رَحمةً مِن رَبِّكَ. فلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾: مُعينًا ﴿لِلكافِرِينَ﴾ على دِينهم الذي دعَوك إليه، ٨٧ ـ ﴿ولا يَصُدُّنَّكَ﴾ ـ أصله «يَصُدُّونَنَّكَ» حُذفت نونُ الرفع للجازم، والواوُ الفاعلُ لإتيانها مع النون الساكنة ـ ﴿عَن آياتِ اللهِ، بَعدَ إذ أُنزِلَتْ إلَيكَ﴾ أي: لا تَرجِع إليهم في ذلك، ﴿وادعُ﴾ الناس ﴿إلَى رَبِّكَ﴾ بتوحيده وعبادته، ﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشرِكِينَ﴾ بإعانتهم ـ ولم يؤثِّر الجازمُ في الفعل لبنائه ـ ٨٨ ـ ﴿ولا تَدعُ﴾: تعبدْ ﴿مَعَ اللهِ إلَـهًا آخَرَ. لا إلَـهَ إلاّ هُوَ، كُلُّ شَيءٍ هالِكٌ إلاّ وَجهَهُ﴾: إلاّ إيّاه، ﴿لَهُ الحُكمُ﴾: القضاء النافذ، ﴿وإلَيهِ تُرجَعُونَ﴾ بالنشور من القبور.

قولُه: (ثَوَابٌ بِسَبَبِهَا) أو: خيرٌ منها قَدْراً وذاتاً ووَصفاً.

قولُه: (أَنْزَلَهُ) تفسيرٌ غريبٌ، والصَّوابُ: أوجَبَ عليك تلاوتَهُ وتبليغَهُ ومتابعتَهُ.

قولُه: (إِلَى مَكَّةَ) أو القيامةِ، أو المقامِ المحمودِ.

قولُه: (بِمَعْنَى: عَالِمٌ) لِمَا تقدَّمَ من أن أفعَلَ لا ينصبُ الظَّاهرَ، وقيلَ: بنزعِ الخافِضِ.

قولُه: (على دِينِهِم) أي: بمُداراتِهِم والتَّحَمُّلِ عنهم، بل خالِفهُم ونابِذهُم، نقلَ محيي السُّنَّةِ: عن مقاتلٍ: أنَّه نزلَ حينَ دعيَ إلى دينِ آبائِهِ[1].

قولُه: (أيْ: لا تَرجِعْ) لا يظهرُ له معنًى، والمعنى الصَّحيحُ: لا يمنَعُنَّكَ عن قراءَتِها والعملِ بها.

قولُه: (بِتَوحِيدِهِ) الباءُ لا وجهَ لها.

قولُه: (بإِعَانَتِهِم) وحقيقةُ الخِطابِ لأمَّتِهِ، أو هذا وما بعدَهُ للتَّهييجِ وقَطعِ أطماعِ المشركينَ عن مساعدَتِهِم.

قولُه: (تَعبُدْ) الدُّعاءُ على إطلاقِهِ أبلغُ.

قولُه: (إِلَّا إِيَّاهُ) أي: ذاتَهُ المقدَّسَ عن الفناءِ، فإنَّ ما عداهُ ممكنٌ هالِكٌ في حَدِّ ذاتِهِ معدومٌ، أو معناهُ: إلَّا ما أُريدَ به وجهُهُ؛ أي: كلُّ عملٍ لم يُرَد به وجهُ اللهِ فهو باطلٌ فانٍ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥٤٨)، وذكره أيضاً الواحدي في «التفسير البسيط» (١٧/ ٤٧٨).

سورة القصص

مكيةٌ كلُّها على ما روي عن الحسن وعطاء وطاوس وعكرمة. وقال مقاتل: فيها من المدنيِّ قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الآيات: ٥٢-٥٥]، فقد أخرج الطبرانيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت هي وآخِرُ «الحديد» في أصحاب النجاشيِّ الذين قَدِمُوا وشهدوا وقعةَ أحد[١].

وفي روايةٍ عنه رضي الله عنهما أنَّ الآية المذكورة نزلت بالجحفة في خروجه عليه الصلاة والسلام للهجرة.

وقيل: نزلت بين مكة والجحفة.

وقال الداني[٢] في كتاب «العدد»: حدَّثني محمد، حدثنا عبد الله، قال: حدثني أبي، قال: حدثني علي بن الحسين، عن أحمد بن موسى، عن يحيى بن سلام قال: بلغني أنَّ النبيَّ ﷺ حين هاجر نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بالجحفة وهو متوجِّهٌ من مكة إلى المدينة، فقال: أتشتاقُ يا محمد إلى بلدك التي وُلِدْتَ فيها؟ قال: «نعم» قال: (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) الآيةَ. وهي ثمان وثمانون آيةً بالاتِّفاق[٣].

ووجهُ مناسَبَتِها لِمَا قبلها اشتمالُها على شرح بعض ما أُجمل فيه من أمر موسى عليه السلام؛ قال الجلال السيوطيُّ: إنه سبحانه لمَّا حكى في «الشعراء» قولَ فرعون لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝

---

(١) المعجم الأوسط (٧٦٦٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢١: فيه مَن لم أعرفهم.

(٢) في (م): المدائني، وهو تصحيف.

(٣) البيان في عدِّ آي القرآن للداني ص٢٠١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٦٢.

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ إلى قول موسى عليه السلام ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الآيات: ١٨-٢١]، ثم حكى سبحانه في «طس» قولَ موسى عليه السلام لأهله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [الآية:٧] إلى آخره، الذي هو في الوقوع بعد الفرار، وكان الأمران على سبيل الإشارة والإجمال، فبَسَطَ جلَّ وعلا في هذه السورة ما أوجزه سبحانه في السورتين، وفصَّل تعالى شأنُه ما أَجْمَلَه فيهما على حسب ترتيبهما، فبدأ عزَّ وجلَّ بشرح تربية فرعونَ له مصدِّراً بسبب ذلك من علوِّ فرعون وذَبْحِ أبناء بني إسرائيل، الموجبِ لإلقاء موسى عليه السلام عند ولادته في اليمِّ خوفاً عليه من الذبح، وبَسَطَ القصة في تربيته وما وقع فيها إلى كبره، إلى السبب الذي من أجله قَتَلَ القبطيَّ، إلى قَتْلِ القبطيِّ وهي الفَعْلَةُ التي فعل، إلى النمِّ عليه بذلك الموجبِ لفراره إلى مدين، إلى ما وقع له مع شعيب عليه السلام وتَزَوُّجِه بابنته، إلى أن سار بأهله وآنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه:١٠]، إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربِّه جلَّ جلالُه وبَعْثِه تعالى إياه رسولاً وما استتبع ذلك، إلى آخر القصة، فكانت هذه السورةُ شارحةً لِمَا أُجْمِلَ في السورتين معاً على الترتيب، وبذلك عُرِفَ وجهُ الحكمة من تقديم «طس» على هذه وتأخيرها عن «الشعراء»[١] في الذكر في المصحف، وكذا في النزول، فقد روي عن ابن عباس وجابر بن زيد أنَّ «الشعراء» نزلت، ثم «طس»، ثم «القصص».

وأيضاً قد ذَكر سبحانه في السورة السابقة من توبيخ الكفرة بالسؤال يومَ القيامة ما ذَكَر، وذَكَر جلَّ شأنُه في هذه من ذلك ما هو أبسط وأكثر مما تقدَّم.

وأيضاً ذكر عزَّ وجلَّ من أمر الليل والنهار هنا فوق ما ذكره سبحانه منه هناك.

وقد يقال في وجه المناسبة أيضاً: إنه تعالى فصَّل في تلك السورة أحوالَ بعض المُهْلَكين من قوم صالح وقوم لوط، وأَجْملَ هنا في قوله تعالى: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ) الآيات.

وأيضاً بَسَط في الجملة هناك حالَ مَن جاء بالحسنة وحالَ مَن جاء بالسيئة،

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص٧١-٧٢.

وأَوْجزَ سبحانه هنا حيث قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾، فلم يذكر عزَّ وجلَّ من حال الأوَّلين أمنَهم من الفزع، ومن حال الآخِرينَ كبَّ وجوههم في النار. إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمِّل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ قد مرَّ ما يتعلَّق به من الكلام في أشباهه. ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾ أي: نقرأ بواسطة جبرائيل عليه السلام، فالإسنادُ مجازيٌّ كما في: بَنَى الأميرُ المدينة.

والتلاوةُ في كلامهم ـ على ما قال الراغب ـ تختصُّ باتِّباع كتب الله تعالى المنزَلةِ تارةً بالقراءة وتارةً بالارتسام لِمَا فيه من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ أو ما يتوهَّم فيه ذلك، وهو أخصُّ من القراءة[1].

ويجوزُ أن تكون التلاوةُ هنا مجازاً مرسلاً عن التنزيل بعلاقةِ أنَّ التنزيل لازمٌ لها أو سببها في الجملة، وأن تكون استعارةً له لِمَا بينهما من المشابَهةِ، فإنَّ كلًّا منهما طريقٌ للتبليغ، فالمعنى: نُنزلُ عليك ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: من خبرهما العجيب الشأن، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لمفعول «نتلو» المحذوف، أي: نتلو شيئاً كائناً من نبئهما.

والظاهر أنَّ «مِن» تبعيضية، وجوَّز بعضُهم كونَها بيانيةً، وكونَها صلةً على رأي الأخفش، فـ «نبأ» مجرورٌ لفظاً مرفوعٌ[2] محلًّا مفعول «نتلو». ويوهِمُ كلامُ بعضهم[3] أنَّ «من» هو المفعول، كأنه قيل: نتلو بعضَ نبأ، وفيه بحثٌ[4].

---

(١) مفردات الراغب (تلا).

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: منصوب، ينظر الدر المصون ٨/ ٦٤٩.

(٣) هو البيضاوي، وينظر التعليق الذي بعده.

(٤) جاء في تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٦٢: «من نبأ موسى وفرعون»: بعضَ نبئهما مفعول «نتلو». قال الشهاب: جَعْلُ الحرف مفعولاً لا يوافق القواعد النحوية، فإما أن =

وأيًّا ما كان فلا تجوُّز في كون النبأ متلوًّا لِمَا أنه نوعٌ من اللفظ.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من فاعل «نتلو»، أي: نتلو ملتبسين بالحق، أو مفعولِه، أي: نتلو شيئاً من نبئهما ملتبساً بالحقِّ، أو وقع صفةً لمصدرِ «نتلو»، أي: نتلو تلاوةً ملتبسةً بالحق.

وقوله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣﴾ متعلِّقٌ بـ «نتلو»، واللامُ للتعليل، وتخصيصُ المؤمنين بالذكر مع عموم الدعوة والبيان لأنهم المنتفعون به، وقد تقدَّم الكلام في شمول «يؤمنون» للمؤمنين حالاً واستقبالاً في السورة السابقة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استئنافٌ جارٍ مجرى التفسير للمُجْمَلِ الموعود، وتصديرُه بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيقِ مضمونِ ما بعده، أي: إنَّ فرعون تجبَّر وطغى في أرض مصر، وجاوَزَ الحدود المعهودة في الظلم والعدوان.

﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ أي: فرقاً يشيِّعونه في كلِّ ما يريده من الشر والفساد، أو يشيِّع بعضُهم بعضاً في طاعته. أو: أصنافاً في استخدامه يستعمل كلَّ صنفٍ في عمل، من بناءٍ وحَرْثٍ وحَفْرٍ، وغيرِ ذلك من الأعمال الشاقَّة، ومَن لم يعمل ضَرَبَ عليه الجزيةَ فيخدمه بأدائها. أو: فِرَقاً مختلفةً قد أغرى بينهم العداوةَ والبغضاء لئلا تتفَّق كلمتهم.

﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: يَجْعلهم[1] ضعفاء مقهورين، والمراد بهذه الطائفة بنو إسرائيل، وعدُّهم من أهلها للتغليب، أو لأنهم كانوا فيها زماناً طويلاً.

والجملةُ إما استئنافٌ نحويٌّ، أو بيانيٌّ في جوابٍ: ماذا صنع بعد ذلك؟ وإما حالٌ من فاعل «جعل»، أو من مفعوله، وإما صفةٌ لـ «شيعاً». والتعبيرُ بالمضارع لحكاية الحال الماضية.

وقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ بدلٌ من الجملة قبلها بدلَ

= يكون هذا ميلاً مع المعنى، أو يكون المراد أن مفعول «نتلو» محذوف، وهو «شيئاً»، ولما كان الجار والمجرور صفة له قائمة مقامه سمَّاه مفعولاً تسمُّحاً، كما جعلوا الظرف حالاً والحال في الحقيقة متعلَّقُه.

(١) في الأصل: بجعلهم.

اشتمال، أو تفسيرٌ، أو حالٌ من فاعلِ «يستضعف»، أو صفةٌ لـ «طائفة»، أو حالٌ منها لتخصُّصها بالوصف.

وكان ذلك منه لِمَا أنَّ كاهناً قال له: يولد في بني إسرائيل مولودٌ يذهب ملكُك على يده.

وقال السديُّ: إنه رأى في منامه أنَّ ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القِبْطَ وتركت بني إسرائيل، فسأل علماء قومه فقالوا: يخرج من هذا البلد رجلٌ يكون هلاكُ مصر على يده. فأخذ يفعل ما يفعل. ولا يخفَى أنه من الحمق بمكان، إذ لو صَدَق الكاهنُ أو الرؤيا فما فائدةُ القتل؟ وإلَّا فما وجهُه؟ وفي الآية دليلٌ على أنَّ قتل الأولاد لحِفْظِ الملك شريعةٌ فرعونية.

وقرأ أبو حيوة وابن محيصن: «يَذْبَحُ» بفتح الياء وسكون الذال[1].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ أي: الراسخين في الإفساد، ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة مِن قَتْلِ مَن لا جنحةَ له من ذراري الأنبياء عليهم السلام لتخيُّلٍ فاسد.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ أي: نتفضَّلَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على الوجه المذكور بإنجائهم من بأسه، وصيغةُ المضارع في «نريدُ» لحكاية الحال الماضية، وأمَّا «نمنَّ» فمستقبلٌ بالنسبة للإرادة فلا حاجةَ لتأويله، وهو[2] معطوفٌ على قوله تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا) إلخ لتناسُبِهما في الوقوع في حيِّز التفسير للنبأ، وهذا هو الظاهر.

وجوِّز أن تكون الجملة حالاً من مفعول «يستضعف» بتقديرِ مبتدأ، أي: يستضعفُهم فرعونُ ونحن نريد أن نمنَّ عليهم، وقدِّر المبتدأ ليجُوز التصدير بالواو.

وجوِّز أن يكون حالاً من الفاعل بتقديرِ المبتدأ أيضاً، وخلوُّها عن العائد عليه وما يقوم مقامه لا يضرُّ؛ لأن الجملة الحالية إذا كانت اسميةً يكفي في ربطها الواو، وضعِّف بأنه لا شبهة في استهجان ذلك مع حذف المبتدأ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦، والبحر ٧/ ١٠٤.

(٢) أي: «نريد» كما في الكشاف ٣/ ١٦٥، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٦٣.

وتعقَّب القول بصحة الحالية مطلقاً بأنَّ الأصل في الحال المقارَنةُ، والمنُّ بعد الاستضعاف بكثير.

وأجيب بأنَّ الحال ليس المنُّ بل إرادتُه وهي مقارِنةٌ، وتعلُّقها إنما هو بوقوع المنِّ في الاستقبال، فلا يلزم من مقارنتها مقارنتُه، على أنَّ منَّ الله تعالى عليهم بالخلاص لمَّا كان في شرف الوقوع جاز إجراؤه مجرى الواقع المقارِن للاستضعاف، وإذا جُعِلَتِ الحالُ مقدَّرةً يرتفعُ القيلُ والقال[١].

وجوَّز بعضُهم عَطْفَ ذلك على «نتلو» و«يستضعف»، وقال الزمخشريُّ: هو غيرُ سديد[٢]. ووجَّه ذلك في «الكشف» بقوله: أمَّا الأول فلمَا يلزم أن يكون خارجاً عن المنبَّأ به وهو أعظمُه وأهمه، وأمَّا الثاني فلأنه إما حالٌ عن ضمير «جعل» أو عن مفعوله، أو صفةٌ لـ «شيعاً»، أو كلامٌ مستأنفٌ، وعلى الأوَّلين [هو][٣] ظاهرُ الامتناع، وعلى الثالث أظهر؛ إذ لا مدخل لذلك في الجواب عن السؤال الذي يعطيه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ والعطفُ يقتضي الاشتراك.

لكن للعطف على «يستضعف» مساغٌ على تقدير الوصف، والمعنى: جعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ونريد أن نمن عليهم منهم، أي: على الطائفة من الشيع، فأُقيم المظهَرُ مقام المضمَرِ الراجعِ إلى الطائفة وحُذف الراجعُ إلى الشيع للعلم، كأنه قيل: يستضعفُهم ونريد أنْ نقوِّيهم، كما زعم الزمخشريُّ في الوجه الذي جعله حالاً عن مفعول «يستضعف»[٤]، والحاصل: شيعاً موصوفين باستضعافِ طائفةٍ وإرادةِ المنِّ على تلك الطائفة منهم بدَفْعِ الضَّعف.

فإنْ قلتَ: يدفعُه أنَّ العلم بالصفة الثانية لم يكن حاصلاً بخلافِ الأولى.

قلنا: كذلك لم يكن حاصلاً باستضعافٍ مقيَّدٍ بحالِ الإرادة. والحقُّ أنَّ الوجهين يضعفان لذلك، وإنما أوردناه على الزمخشريِّ لتجويزه الحال. انتهى.

---

(١) في (م): والمقال.
(٢) الكشاف ٣/ ١٦٥.
(٣) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٦٣.
(٤) الكشاف ٣/ ١٦٥.

وأُوْرِدَ عليه أنَّ للعطف عليه على تقدير كونه حالاً[(١)] مساغاً أيضاً بعين ما ذكره، فلا وجه للتخصيص بالوصفية، وأنَّ عدم حصول العلم بالصفة الثانية بعد تسليم اشتراط العلم بالصفة مطلقاً غيرُ مسلَّم، فإنَّ سبب العلم بالأولى ـ وهو الوحي أو خبرُ أهل الكتاب ـ يجوز أن يكون سبباً للعلم بالثانية. وأيضاً يجوز أن يخصَّص جوازُ حاليةِ «ونريد» إلخ باحتمالِ الاستئناف والحاليةِ في «يستضعف» دون الوصف، فلا يكون مشتركَ الإلزام.

وفيه أنَّ احتمال الحالية من المفعول لم يذكره الزمخشريُّ، فلذا لم يلتفت صاحب «الكشف» إلى أنَّ للعطف عليه مساغاً، وأنَّ اشتراط العلم بالصفة مما صرَّح به في مواضع من «الكشاف»، والكلام معه، وأنَّ العلم بصفة الاستضعاف لكونه مفسَّراً بالذبح والاستحياء وذلك معلومٌ بالمشاهَدة، وليس سببُ العلم ما ذُكر من الوحي أو خبر أهل الكتاب، وفي هذا نظر.

والإنصافُ أنَّ قوله تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ) إلخ لا يظهر كونُه بياناً لنبأ موسى عليه السلام وفرعونَ معاً على شيءٍ من الاحتمالات ظهورَه على احتمال العطف على «إنَّ فرعون» وإدخاله في حيِّز البيان، وإلَّا فالظاهرُ من «إنَّ فرعون» إلخ بدون هذا المعطوف أنه بيانٌ لنبأ فرعون فقط، فتأمَّل.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً﴾ مقتدًى بهم في الدِّين والدنيا على ما في «البحر»[(٢)]. وقال مجاهد: دعاةً إلى الخير. وقال قتادة: ولاةً، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] وقال الضحاك: أنبياء. وأيًّا ما كان ففيه نسبةُ ما للبعض إلى الكلِّ.

﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ لجميع ما كان منتظماً في سِلْكِ مُلْكِ فرعون وقومِه على أكمل وجهٍ، كما يومئُ إليه التعريف، وذلك بأنْ لا ينازعهم أحدٌ فيه.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أرض مصر، وأصلُ التمكين أن تَجعل للشيء[(٣)] مكاناً يتمكَّن فيه، ثم استُعير للتسليط وإطلاق الأمر، وشاع في ذلك حتى

(١) أي: من المفعول، كما في حاشية الشهاب ٧/ ٦٣، والكلام منه.
(٢) ٧/ ١٠٤، وعنه نقل المصنف ما سيأتي من أقوال.
(٣) في الأصل و(م): أن يجعل الشيء، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٦٣، وتفسير أبي السعود ٧/ ٣.

صار حقيقةً لغوية، فالمعنى: نسلطهم على أرض مصر يتصرَّفون ويَنفُذُ أمرُهم فيها كيفما يشاؤون، وظاهرُ كلام بعضهم أنَّ المراد بالأرض ما يعمُّ مصر والشام مع أنَّ المعهود هو أرضُ مصر لا غير، وكأنَّ ذلك لِمَا أنَّ الشام مقرُّ بني إسرائيل.

وقرأ الأعمش: «ولنمكِّن» بلام «كي»[1]، أي: وأَرَدْنا ذلك لنمكِّن، أو: ولنمكِّن فَعَلْنا ذلك.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ إضافةُ الجنود إلى ضميرهما إمَّا للتغليب، أو لأنه كان لهامان جندٌ مخصوصون به وإن كان وزيراً، أو لأنَّ جند السلطان جندُ الوزير.

و«نري» من الرؤية البصرية على ما هو المناسب للبلاغة. وجوِّز أن يكون من الرؤية القلبية التي هي بمعنى المعرفة، وعلى الوجهين هو ناصبٌ لمفعولين لمكان الهمزة، فـ «فرعون» وما عُطف عليه مفعولُه الأول، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُم﴾ أي: من أولئك المستضعفين متعلِّقٌ به، وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ أي: يتوقَّوْنَ من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولودٍ منهم، مفعولُه الثاني، والرؤية على تقدير كونها بصريةً لمقدمات ذلك وعلاماتِه في الحقيقة، لكنها جُعِلتْ له مبالغةً، ومثلُه مستفيضٌ بينهم حتى يقال: رأى موته بعينه، وشاهد هلاكه، وعليه قولُ بعض المتأخِّرين:

أبكاني البينُ حتى ... رأيتُ غَسْلي بعيني[2]

وقيل: المرادُ رؤيةُ وقتِ ذلك. وليس بذاك.

والأمرُ على تقدير كونها بمعنى المعرفة ظاهرٌ؛ لأنهم قد عرفوا ذهاب ملكهم وهلاكَهم؛ لِمَا شاهدوه من ظهور أولئك المستضعَفِينَ عليهم، وطلوعِ طلائعه من طرق خذلانهم.

وفسَّر بعضهم الموصول بظهور موسى عليه السلام، وهو خلافُ الظاهر المؤيِّدِ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦، والبحر ٧/ ١٠٥.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٦٤، وعزاه في المستطرف ٢/ ٩٢ للموصلي برواية:

وجنةُ الخدِّ قالت ... رأيتُ غَسْلي بعيني

بالآثار، وكأنَّ ذلك منه لخفاءِ وجهِ تعلُّق رؤية فرعون ومَن معه بذهاب ملكهم وهلكهم عليه، وقد علمتَ وجهه.

وقرأ عبد الله وحمزةُ والكسائيُّ: «ويَرَى» بالياء مضارع رأى، و«فرعونُ» بالرفع على الفاعلية، وكذا ما عُطِفَ عليه(١).

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ قيل: هي محيانةُ بنتُ يصهر بنِ لاوي. وقيل: يوخابذ. وقيل: يارخا. وقيل: يارخت. وقيل غيرُ ذلك.

والظاهرُ أنَّ الإيحاء إليها كان بإرسالِ مَلَكٍ، ولا ينافي حكايةَ أبي حيان(٢) الإجماعَ على عدم نبوَّتها؛ لِمَا أنَّ الملائكة عليهم السلام قد تُرْسَلُ إلى غير الأنبياء وتكلِّمُهم، وإلى هذا ذهب قطرب وجماعةٌ. وقال مقاتل منهم: إنَّ المَلَكَ المرسَلَ إليها هو جبريلُ عليه السلام.

وعن ابن عباس وقتادةَ أنه كان إلهاماً، ولا يأباه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ نعم هو أوفق بالأول.

وقال قوم: إنه كان رؤيا منامٍ صادقةً قُصَّ فيها أَمْرُه عليه السلام، وأوقع الله تعالى في قلبها اليقين. وحُكي عن الجبائيِّ أنها رأت في ذلك رؤيا، فقصَّتْها على مَن تثقُ به من علماء بني إسرائيل فعبرها لها.

وقيل: كان بإخبارِ نبيٍّ في عصرها إياها.

والظاهر أنَّ هذا الإيحاءَ كان بعد الولادة، وفي الأخبار ما يشهدُ له، فيكون في الكلام جملةٌ محذوفة، وكأنَّ التقدير والله تعالى أعلم: وَوَضَعتْ موسى أمُّه في زمن الذبح، فلم تَدْرِ ما تصنعُ في أمره، وأوحينا إليها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

وقيل: كان قبل الولادة.

---

(١) التيسير ص١٧٠، والنشر ٢/ ٣٤١ عن حمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة، وأمالوا فتحة الراء في «يرى»، وذكرها عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أبو حيان في البحر ٧/ ١٠٥.

(٢) في البحر ٧/ ١٠٥.

و«أنْ» تفسيرية أو مصدرية، والمراد: أنْ أرضعيه ما أمْكَنك إخفاؤه، وقرأ عمر بن عبد الواحد وعمر بن عبد العزيز: «أنِ ارْضِعيه» بكَسْرِ النون بعد حذف الهمزة على غيرِ قياسٍ[1]؛ لأنَّ القياس فيه نقلُ حركتها وهي الفتحةُ إلى النون كما في قراءة ورش[2].

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون الأبناء، أو من الجيران ونحوِهم أن ينمُّوا عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي: في البحر، والمرادُ به النيل، ويسمَّى مثلُه بحراً وإن غلب في غير العَذْبِ.

﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه ضيعةً أو شدَّةً من عدم رضاعه في سنِّ الرضاع ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ من مفارقتِك إياه.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريبٍ بحيث تأمنين عليه، ويومئُ إلى القُرْبِ السياقُ. وقيل: التعبيرُ باسم الفاعل لأنه حقيقةٌ في الحال، ويعتبر لذلك في قوله سبحانه: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ ولا يضرُّ تفاوتُ القُرْبَيْنِ.

والجملة تعليلٌ للنهي عن الخوف والحزن، وإيثارُ الجملة الاسمية وتصديرُها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها، أي: إنَّا فاعلون ردَّه وجَعْلَه من المرسلين لا محالة.

واستَفْصَحَ الأصمعيُّ امرأةً من العرب أنشدت شعراً فقالت: أَبَعْدَ قوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ) الآيةَ فصاحةٌ، وقد جمع بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين؟

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فصيحةٌ، والتقدير: ففعلَتْ ما أُمرت به من إرضاعه وإلقائه في اليمِّ لَمَّا خافت عليه، وحُذِفَ ما حُذِفَ تعويلاً على دلالة الحال، وإيذاناً بكمال سرعة الامتثال. روي أنَّها لمَّا ضربها الطَّلْقُ دَعَتْ قابلةً من الموكَّلات بحبالَى بني إسرائيل فعالجتها، فلمَّا وقع موسى عليه السلام على الأرض هالها نورٌ بين عينيه، وارْتَعشَ كلُّ مَفْصِلٍ منها، ودخل حبُّه قلبها بحيث منعها من السعاية، فقالت لأمِّه: احفظيه. فلمَّا خرجت جاء عيون فرعون، فلفَّته في

---

(١) المحتسب ٢/١٤٧، والبحر ٧/١٠٥، والكلام منه.
(٢) التيسير ص٣٥.

خرقةٍ وألقته في تنُّورٍ مسجورٍ، لم تَعلم ما تصنعُ لِمَا طاش من عقلها، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور، فانطلقت إليه وقد جعل الله تعالى النارَ عليه برداً وسلاماً فأخذته، فلمَّا ألحَّ فرعونُ في طلب الولدان واجتهد العيونُ في تفحُّصِها أوحى الله تعالى إليها ما أوحى، وأرضعته ثلاثةَ أشهر، أو أربعةً، أو ثمانيةً، على اختلاف الروايات، فلمَّا خافت عليه عمدتْ إلى بَرْدِيٍّ[1] فصنعت منه تابوتاً، أي: صندوقاً، فطلته بالقار من داخله.

وعن السديِّ أنها دعت نجاراً، فصنع لها تابوتاً، وجعلت مفتاحه من داخلٍ، ووضعت موسى عليه السلام فيه وألقته في النيل بين أحجارٍ عند بيت فرعون، فخرج جواري آسيةَ امرأةِ فرعونَ يغتسلن فوجَدْنَه، فأدخَلنه إليها وظننَّ أنَّ فيه مالاً، فلمَّا فَتَحْنَه رأته آسية ووقعت عليه رحمتُها فأحبَّته، وأراد فرعونُ قتله فلم تَزَلْ تكلِّمه حتى تَرَكه لها.

وروي عن ابن عباس وغيره أنه كان لفرعون يومئذ بنتٌ لم يكن له ولدٌ غيرُها، وكانت من أكرم الناس إليه، وكان بها برصٌ شديدٌ أعيا الأطباء، وكان قد ذُكر له أنها لا تبرأُ إلا من قِبَلِ البحر يؤخذ منه شبهُ الإنس يوم كذا من شهر كذا حين تُشْرِقُ الشمس، فيؤخَذ من ريقه فيلطَّخ به برصُها فتبرأ، فلمَّا كان ذلك اليوم غدا فرعونُ في مجلسٍ له على شفير النيل ومعه امرأتُه آسية، وأقبلت بنتُه في جواريها حتى جلست على شاطئ النيل، فإذا بتابوتٍ تضربُه الأمواج فتعلَّق بشجرةٍ، فقال فرعون: ائتوني به. فابتَدَروا بالسفن فأحضروه بين يديه، فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه، وقَصَدوا كَسْره فأعياهم، فنظرت آسيةُ فكشفت لها عن نورٍ في جوفه لم يره غيرُها، فعالجته ففتحته، فإذا صبيٌّ صغيرٌ فيه وله نورٌ بين عينيه وهو يمصُّ إبهامه لبناً، فألقى الله تعالى محبَّته عليه السلام في قلبها وقلوبِ القوم، وعمدت بنتُ فرعون إلى ريقه فلطَّخَتْ به بَرَصَها فبرأت من ساعتها.

وقيل: لمَّا نظرت إلى وجهه برأت، فقالت الغواةُ من قوم فرعون: إنَّا نظنُّ أنَّ هذا هو الذي تَحذَرُ منه، رُمي في البحر خوفاً منك فاقتله، فهمَّ أن يقتله فاستوهبته

---

(١) نبات كالقصب تصنع منه الحُصُر، وكان قدماء المصريين يصنعون منه الورق. المعجم الوسيط (برد).

آسيةُ فتركه كما سيأتي إن شاء الله تعالى. والأخبارُ في هذه القصة كثيرةٌ، وقد قدَّمنا منها ما قدَّمنا.

و«آلُ فرعون» أتباعُه، وقولُهم: إنَّ الآلَ لا يُستعمل إلا فيما فيه شَرَفٌ مبنيٌّ على الغالب، أو الشرف فيه أعمُّ من الشرف الحقيقيِّ والصوريِّ، ومعنى التقاطِهم إياه عليه السلام أخذُهم إياه عليه السلام أَخْذَ اللُّقَطَة، أي: أَخْذَ اعتناءٍ به وصيانةٍ له عن الضياع.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فيه استعارةٌ تهكُّميةٌ ضرورةَ أنه لم يَدْعُهم للالتقاط أن يكون لهم عدوًّا وحَزَناً، وإنما دعاهم شيءٌ آخَرُ كالتبنِّي ونَفْعِه إياهم إذا كبر.

وفي تحقيق ذلك أقوال:

الأول: أنْ يشبَّه كونُه عدوًّا وحَزَناً بالعلَّة الغائية كالتبنِّي والنفع تشبيهاً مضمَراً في النفس، ولم يصرَّح بغير المشبَّهِ، ويدلُّ على ذلك بذِكْرِ ما يَخُصُّ المشبَّه به وهو لامُ التعليل، فيكون هناك استعارةٌ مكنيةٌ أصليةٌ في المجرور، واللامُ على حقيقتها.

الثاني: أن يشبَّه أوَّلاً ترتُّبُ غيرِ العلَّة الغائية بترتُّبِ العلَّة الغائية، أي: يعتبر التشبيهُ بين الترتُّبين الكلِّيين ليسريَ في جزئياتهما فيتحقَّقَ تبعاً تشبيهُ ترتُّبِ كونه عدوًّا وحَزَناً - أعني الترتُّبَ المخصوصَ على الالتقاط - بترتُّب التبنِّي ونحوِه مما هو علَّةٌ غائيةٌ، أعني الترتُّبَ المخصوصَ أيضاً عليه، ثم يستعمل في المشبَّه اللامُ الموضوعةُ للدلالة على ترتُّب العلَّة الغائية الذي هو المشبَّه به، فتكون الاستعارةُ أوَّلاً في العلِّية والغَرَضية، وتبعاً في اللام، فصار حُكْمُ اللام حُكْمَ الأسد حيث استُعيرت لِما يُشْبِهُ العلَّة كما استُعير الأسد لما يُشْبِهُ الأسد، بيد أنَّ الاستعارة ها هنا مكنيةٌ تبعيةٌ.

الثالث: ما أفاده كلامُ الخطيب الدمشقيِّ[1] في «التلخيص» و«الإيضاح»، وهو أن يقدَّر التشبيهُ أوَّلاً لكونه عدوًّا وحَزَناً بالعلَّة الغائية، ثم يسرى ذلك التشبيهُ إلى

---

(١) هو جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق، والمتوفى سنة (٧٣٩هـ)، له: تلخيص المفتاح في المعاني والبيان، ثم صنف كتاباً آخر في هذا الفن وسماه: الإيضاح في المعاني والبيان، وجعله كالشرح على التلخيص. كشف الظنون ١/ ٢١٠ و٤٧٣.

تشبيه ترتُّبه بترتُّبِ العلَّة الغائية، فتستعارُ اللامُ الموضوعةُ لترتُّب العلة الغائية لترتُّب كونه عدوًّا وحَزَناً من غير استعارةٍ في المجرور، وهذا التشبيهُ كتشبيه الربيع بالقادر المختار ثم إسنادِ الإنبات إليه. وهو مفادُ كلام «الكشاف»[(١)]، واختار ذلك العلَّامةُ عبد الحكيم[(٢)]، فقال: وهو الحقُّ عندي؛ لأنَّ اللام لمَّا كان معناها محتاجاً إلى ذكر المجرور كان اللائقُ أن تكون الاستعارةُ والتشبيهُ فيها تابعاً لتشبيه المجرور، لا تابعاً لتشبيه معنىً كلِّيٍّ بمعنًى كلِّيٍّ معنى الحرفِ من جزئياته، كما ذهب إليه السكاكيُّ[(٣)] وتبعه العلَّامة التفتازانيُّ. انتهى فتأمَّل.

واستشكل أصل تعليل الالتقاط بأنَّ الالتقاط الوجدانُ من غير قصدٍ، والتعليل يقتضي حقيقةَ القصد. وهو توهُّم؛ لأنَّ الوجدان من غير قصد لا ينافي قَصْدَ أَخْذِ ما وُجِدَ لغرضٍ، وقد علمتَ أنَّ المعنى هنا: فأخذه أَخْذَ اللُّقطة ـ أي: أَخْذَ اعتناءٍ به ـ آلُ فرعون ليكون.. إلخ، والتعليلُ فيه إنما هو للأَخْذِ ولا إشكالَ فيه.

وقال بعضهم: يحتملُ تعلُّقُ اللام بمقدَّرٍ[(٤)]، أي: قدَّرنا الالتقاطَ ليكون.. إلخ، وعليه لا تجوُّز في الكلام إلَّا عند مَن يقول: إنَّ أفعال الله تعالى لا تعلَّل، وهو أمرٌ غير ما نحن فيه. ولا يخفى أنَّ كلام الله سبحانه أجلُّ وأعلى من أن يُعتبر فيه مثلُ هذا الاحتمال.

وفي جَعْلِه عليه السلام نفسَ الحَزَنِ مالا يخفى من المبالغة.

وقرأ ابن وثابٍ والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ وابن سعدان: «حُزْناً» بضمِّ الحاء وسكون الزاي[(٥)]، وقراءة الجمهور بفتحتين لغة قريش.

---

(١) ينظر الكشاف ٣/ ١٦٦.

(٢) ابن شمس الدين الهندي السيالكوتي، له: حاشية على مطول السعد ومختصره، وهما من أشهر شروح تلخيص المفتاح لجلال الدين القزويني، وله أيضاً حاشية على تفسير البيضاوي على بعض سورة البقرة، وحاشية على شرح العقائد النسفية للسعد، وغيرها، وكانت وفاته في نيف وستين وألف. خلاصة الأثر ٢/ ٣١٨.

(٣) ينظر مفتاح العلوم ص٣٨٢.

(٤) في (م): بمقدار، وهو تصحيف.

(٥) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١ عن حمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة، والكلام من البحر ٧/ ١٠٥.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ فـي كـلِّ مـا يـأتـون وما يَذَرون، أو: من شأنهم الخطأ، فليس ببِدْعٍ منهم أن قتلوا ألوفاً لأجْلِه ثم أخذوه يربُّونه ليَكْبُرَ ويَفْعَلَ بهم ما كانوا يَحْذَرون، روي أنه ذُبح في طلبه عليه السلام تسعون ألفَ وليدٍ، و«خاطئين» على هذا من الخطأ في الرأي.

ويجوز أن يكون من خَطِئَ بمعنى: أذنب، وفي «الأساس» يقال: خطئ خطأً، إذا تعمَّد الذنب[1]. والمعنى: وكانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأنْ ربَّى عدوَّهم على أيديهم.

والجملة على الأول اعتراضٌ بين المتعاطفين لتأكيد خطئهم المفهوم من قوله تعالى: (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) فإنه كما سمعتَ استعارةٌ تهكُّميةٌ. وعلى الثاني اعتراضٌ لتأكيد ذنبهم المفهومِ من حاصل الكلام، وقيل: يتعيَّن عليه أن تكون اعتراضاً لبيان الموجب لِمَا ابتُلوا به، ويحتمل على هذا أن تكون استئنافاً بيانيًّا إن أريد بما ابتُلوا به كونُه عدوًّا وحزناً، وهو لا ينافي الاعتراض عندهم.

وقرئ: «خاطين» بغير همزٍ[2]، فاحتمل أن يكون أصله الهمز وحُذفت، وهو الظاهر. وقيل: هو من خطا يخطو، أي: خاطين الصواب إلى ضدِّه، فهو مجازٌ.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ آسيةُ بنتُ مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذي كان فرعونَ مصر في زمن يوسف الصدِّيق عليه السلام، وعلى هذا لم تكن من بني إسرائيل. وقيل: كانت منهم من سبط موسى عليه السلام. وحكى السهيليُّ[3] أنها كانت عمَّته عليه السلام، وهو قولٌ غريبٌ، والمشهورُ القولُ الأول.

والجملة عطفٌ على جملة «فالتقطه آل فرعون»، أي: وقالت امرأةُ فرعون له حين أخرجته من التابوت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ أي: هو قرةُ عينٍ كائنةٌ لي ولك،

(١) أساس البلاغة (خطأ).

(٢) وهي قراءة أبي جعفر، وقرأ حمزة وقفاً بالحذف والتسهيل. البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص٢٣٩.

(٣) في التعريف والإعلام ص١٣٠.

على أنَّ «قرة» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والظرف في موضع الصفة له. ويَبعُدُ كما في «البحر»(١) أن يكون مبتدأ خبرُه جملةُ قولِه تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾.

وقالت ذلك لِمَا أَلْقَى الله تعالى من محبته في قلبها، أو لِمَا كُشِفَ لها فرأته من النور بين عينيه، أو لِمَا شاهدته من برء بنت فرعون من البرص بريقه، أو بمجرد النظر إلى وجهه.

ولتفخيم شأن القرَّة عدلت عن: لنا، إلى «لي ولك»، وكأنها لِمَا تعلمُ من مزيدِ حبِّ فرعون إياها، وأنَّ مصلحتها أهمُّ عنده من مصلحة نفسِه قدَّمت نفسها عليه، فيكون ذلك أبلغَ في ترغيبه بترك قتله، فلا يقال: إنَّ الأظهر في الترغيب بذلك العكسُ. وقد يُستأنس لكون مصلحتها أهمَّ عنده من مصلحةِ نَفْسِه ما أخرجه النسائيُّ عن ابن عباس ﷺ أنها حين قالت له ذلك، قال: لكِ لا لي. ولو قال: لي كما هو لك، لهداه الله تعالى كما هداها(٢)، وهذا أمرٌ فرضيٌّ فلا ينافي ما ورد من أنه عليه اللعنةُ طبع كافراً.

والخطاب في «لا تقتلوه» قيل: لفرعون، وإسنادُ الفعل إليه مجازيٌّ لأنه الآمرُ، والجمعُ للتعظيم، وكونُه لا يوجد في كلام العرب الموثوقِ بهم إلَّا في ضمير المتكلِّم كفَعَلْنا مما تفرَّد به الرضيُّ وقلَّده فيه مَن قلَّده، وهو لا أصلَ له روايةً ودرايةً؛ قال أبو عليٍّ الفارسيُّ في «فقه اللغة»(٣): من سَنَنِ العرب مخاطبةُ الواحد

(١) ٧/ ١٠٦.

(٢) سنن النسائي الكبرى (١١٢٦٣)، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٢٦١٨)، ولفظه فيهما: ... فقال فرعون: يكون لك فأما لي فلا حاجة لي. فقال رسول الله ﷺ: «والذي يُحلَفُ به لو أقرَّ فرعون أن يكون له قرةَ عين كما أقرت امرأته، لهداه الله كما هداها، ولكن الله حَرَمه ذلك»، وهو قطعة من خبر طويل جدًّا، ذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٤٠) من سورة «طه» ثم قال: وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل، وكأنه تلقَّاه ابن عباس مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره. اهـ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٦: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير أصبغ بن زيد والقاسم بن أبي أيوب، وهما ثقتان.

(٣) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٧/ ٦٥، والصواب: ابن فارس في الصاحبي في فقه اللغة، والكلام فيه ص٣٥٣.

بلَفْظِ الجمع، فيقال للرجل العظيم: انظروا في أمري. وهكذا في «سرِّ الأدب»[(١)]، و«خصائص» ابن جنِّي، وهو مجازٌ بليغٌ، وفي القرآن الكريم منه ما الْتِزامُ تأويله سَفَهٌ.

وقيل: هو لفرعون وأعوانِه الحاضرين، ورُجِّح بما رُوي: أنَّ غواة قومه قالوا وقتَ إخراجه: هذا هو الصبيُّ الذي كنَّا نَحْذَرُ منه، فَأْذَنْ لنا في قتله.

وقيل: هو له ولمن يُخشى منه القتلُ ـ وإن لم يحضر ـ على التغليب.

واختار بعضُهم كونَه للمأمورين بقتل الصبيان، كأنها بعد أن خاطبت فرعون وأخبرته بما يستعطفُه على موسى عليه السلام أَمِنَتْ منه بادرةَ أمرٍ[(٢)] جديدٍ بقتله، فالتفتت إلى خطاب المأمورين قبلُ فنَهتْهم عن قتله معلِّلةً ذلك بقوله تعالى المحكيِّ عنها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وهو أوفقُ باختلاف الأسلوب، حيث فصَّلَتْ أوَّلاً في قولها: «لي ولك»، وأَفْرَدَتْ ضمير خطاب فرعون، ثم خاطبت وجَمعَتْ الضمير في «لا تقتلوه»، ثم تركت التفصيل في «عسى أن ينفعنا» إلخ، ولم تأتِ به على طرزِ «قرَّة عينٍ لي ولك» بأن تقول: عسى أن ينفعني وينفعك ـ مثلاً ـ فتأمل.

ورجاءُ نَفْعِه لِمَا رأت فيه من مخايل البركة ودلائل النجابة:

في المهد ينطقُ عن سعادة جدِّه أثرُ النجابة ساطعَ البرهان

واتخاذُه ولداً لأنه لائقٌ لتبنِّي الملوك لِمَا فيه من الأُبَّهةِ. وعطفُ هذا على ما قبله من عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ، أو تُعتبر بينهما المغايرةُ، وهو الأنسب بـ «أو».

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ حالٌ من «آل فرعون»، والتقديرُ: فالتقطه آلُ فرعون ليكون لهم عدوًّا وحَزَناً، وقالت امرأته له كيتَ وكيتَ، وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا.

وقال قتادةُ: لا يشعرون أنه الذي يَفْسُدُ ملكُهم على يده.

وقال مجاهد: أنه عدوٌّ لهم.

---

(١) سر الأدب في مجاري كلام العرب، لأبي منصور الثعالبي. كشف الظنون ٢/ ٩٨٥. وذكره الثعالبي أيضاً في فقه اللغة وسرّ العربية ص٢٩٩-٣٠٠، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٦٥.
(٢) في (م): أمن.

وقال محمد بن إسحاق: أنِّي أفعل ما أريد لا ما يريدون. والتقديرُ الأول أجمعُ.

وجوِّز كونُه حالاً من القائلة والمقولِ له معاً، والمراد بالجمع اثنان على احتمالِ كونِ الخطاب في «لا تقتلوه» لفرعون فقط. وكونُه حالاً من القائلة فقط، أي: قالت امرأة فرعون له ذلك والذين أشاروا بقتله لا يشعرون بمقالتها له واستعطافِ قلبها عليه لئلا يُغْروه بقتله. وعلى الاحتمالات الثلاثة هو من كلام الله تعالى.

وجوِّز كونُه حالاً من أحد ضميري «نتَّخذه» على أنَّ الضمير للناس لا لذي الحال؛ إذ يكفي الواوُ للربط، أي: نتَّخذه ولداً والناسُ لا يعلمون أنه لغيرنا وقد تبنَّيناه، فيكون من كلام آسية رضي الله عنها.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أي: صار خالياً من كلِّ شيءٍ غيرِ ذِكْرِ موسى عليه السلام؛ أخرجه الفريابيُّ وابنُ أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس(١)، وروي ذلك أيضاً عن ابن مسعود والحسن ومجاهد، ونحوُه عن عكرمة.

وقالت فرقة: فارغاً من الصبر.

وقال ابن زيد: فارغاً من وعد الله تعالى ووحيه سبحانه إليها، تناست ذلك من الهمِّ.

وقال أبو عبيدة(٢): فارغاً من الهمِّ؛ إذ لم يغرق وسمعتْ أنَّ فرعون عَطَفَ عليه وتبنَّاه، كما يقال: فلانٌ فارغُ البال.

وقال بعضهم: فارغاً من العقل؛ لِمَا دَهَمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد عدوِّه فرعونَ، كقوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي: خلاءٌ لا عقولَ فيها.

واعترض على القولين بأنَّ الكلام عليهما لا يلائم ما بعده، وفيه نظر.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٦٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٤٦، والمستدرك ٢/ ٤٠٦، وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٢١.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٩٨ بنحوه.

وقرأ أحمد بن موسى عن أبي عمرو: «فواد» بالواو[١]، وقرئ: «مؤسى» بهمزةٍ بدل الواو[٢].

وقرأ فضالةُ بن عبيد والحسن ويزيد بن قطيب وأبو زرعة بن عمرو بن جرير: «فَزِعاً» بالزاي والعين المهملة من الفزع[٣]، وهو الخوفُ والقلق.

وابن عباس: «قَرِعاً» بالقاف وكسر الراء وإسكانها، من قَرِعَ رأسُه: إذا انحسر شعرُه، كأنه خلا من كلِّ شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام. وقيل: «قَرْعاً» بالسكون مصدر، أي: يَقْرَعُ قَرْعاً، من القارعة، وهو الهمُّ العظيم[٤].

وقرأ بعض الصحابة: «فِزْغاً» بفاءٍ مكسورةٍ وزاي ساكنةٍ وغينٍ معجَمةٍ، ومعناه: ذاهباً هدراً. والمراد: هالكاً من شدة الهمِّ كأنه قتيلٌ لا قَوَدَ ولا دِيَةَ فيه، ومنه قولُ طليحة الأسديِّ في أخيه حبال:

فإن يكُ قبلي قد أُصيبتْ نفوسُهم فلن يذهبوا فِزْغاً بقتل حبالِ[٥]

وقرأ الخليل بن أحمد: «فُرُغاً» بضم الفاء والراء[٦].

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: إنها كادت.. إلخ، على أنَّ «إنْ» هي المخفَّفةُ من الثقيلة، واللامُ هي الفارقة. أو: ما كادت إلَّا تُبدي به، على أنَّ «إنْ» نافية واللام بمعنى «إلَّا»، وهو قولٌ كوفيٌّ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١١، والبحر ٧/ ١٠٦، وهي قراءة ورش من طريق الأصبهاني، وبها قرأ حمزة وقفاً، والمشهور عن أبي عمرو القراءة بالهمز. النشر ١/ ٣٩٥، والبدور الزاهرة ص٢٣٩.

(٢) المحتسب ٢/ ١٤٨، والكشاف ٣/ ١٦٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١١١، والمحتسب ٢/ ١٤٧، والبحر ٧/ ١٠٧، والكلام منه.

(٤) البحر ٧/ ١٠٧، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١١، وابن جني في المحتسب ٢/ ١٤٨.

(٥) كذا ذكر المصنف، ومثله في البحر ٧/ ١٠٧، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٤٨، والكشاف ٣/ ١٦٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨، والدر المصون ٨/ ٦٥٣، وحاشية الشهاب ٧/ ٦٥ بالراء المهملة بدلاً من الزاي، وذكروا البيت بالراء المهملة أيضاً شاهداً عليها. وكذا ورد في مادة (فرغ) في العين ٤/ ٤٠٩، وتهذيب اللغة ٨/ ١١٠، واللسان.

(٦) البحر ٧/ ١٠٧، وهي في كتاب العين ٤/ ٤٠٨.

والإبداء: إظهارُ الشيء، وتعديتُه بالباء لتضمينه معنى التصريح.

وقيل: المفعولُ محذوفٌ والباءُ سببيةٌ، أي: تُبدي حقيقةَ الحال بسببه، أي: بسبب ما عراها من فراقه. وقيل: هي صلة، أي: تُبديه. وكِلَا القولين كما ترى.

والظاهر أنَّ الضمير المجرور لموسى عليه السلام، والمعنى أنها كادت تصرِّحُ به عليه السلام وتقول: واابناه، من شدة الغمِّ والوَجْدِ. رواه الجماعة عن ابن عباس[1]، وروي ذلك أيضاً عن قتادة والسدِّي.

وعن مقاتل: أنها كادت تصيحُ: واابناه، عند رؤيتها تلاطُمَ الأمواج به شفقةً عليه من الغرق.

وقيل: المعنى: أنها كادت تُظْهِرُ أمره من شدة الفرح بنجاته وتبنِّي فرعونَ إياه.

وقيل: الضمير للوحي، [أي][2] أنها كادت تُظْهِر الوحي، وهو الوحيُ الذي كان في شأنه عليه السلام المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآيةَ، وهو خلافُ الظاهر، ولا تساعد عليه الروايات.

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي: بما أنزلنا عليه من السكينة، والمراد: لولا أن ثبَّتنا قلبها وصبَّرناها، فالربطُ على القلب مجازٌ عن ذلك. وجواب «لولا» محذوفٌ دلَّ عليه «إن كادت لتبدي به» أي: لولا أن ربطنا على قلبها لأبدَتْه؛ وقيل: لكادت تُبدي به.

وقولُه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ علةٌ للربط على القلب، والإيمان بمعنى التصديق، أي: صبَّرناها وثبَّتنا قلبها لتكون راسخةً في التصديق بوَعْدِنا بأنَّا رادُّوه إليها وجاعلوه من المرسلين.

ومَن جَعَلَ الفراغ من الهمِّ والحزن، وكَيْدودةَ الإبداء من الفرح بتبنِّيه عليه السلام الذي هو فرحٌ مذمومٌ، جَعَلَ الإيمان بمعنى الوثوق، كما في قولهم على

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ١٧١، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٤٧، والحاكم ٢/ ٤٠٦، وهو قطعة من خبر ابن عباس السالف ص١١٩.

(٢) زيادة يقضيها السياق، وينظر البحر ٧/ ١٠٧.

ما حكى أبو زيد: ما آمنتُ أنْ أجدَ صحابة، أي: ما وثقتُ[1]، وحقيقته: صرتُ ذا أمنٍ، أي: ذا سكونٍ وطمأنينة. وقال: المعنى: لولا أن ربطنا على قلبها وسكَّنَّا قلقه الكائنَ من الابتهاج الفاسدِ لتكون من الواثقين بوعد الله تعالى المبتهجين بما يحقُّ الابتهاج به.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مريم، وقيل: كلثمة، وقيل: كلثوم. والتعبير عنها بأخوَّته دون أن يقال: لبنتها؛ للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالأمر.

﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتَّبعي أثره وتتبَّعي خبره، والظاهر أن هذا القول وقع منها بعد أن أصبح فؤادُها فارغاً، فإنْ كانت لم تعرف مكانه إذ ذاك فظاهرٌ، وإن كانت قد عرفته فتتبُّعُ الخبر ليُعْرَفَ هل قتلوه أم لا، ولينكشف ما هو عليه من الحال.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: أبصرته، والفاءُ فصيحةٌ، أي: فقصَّتْ أثره فبصُرَتْ. وقرأ قتادة: «فبصَرتْ» بفتح الصاد، وعيسى بكسرها[2].

﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي: عن بُعْدٍ.

وقيل: أي: عن شوقٍ إليه؛ حكاه أبو عمرو بن العلاء[3]، وقال: هي لغةُ جذام؛ يقولون: جنبتُ إليك، أي: اشتقتُ.

وقال الكرمانيُّ: «جنب» صفةٌ لموصوفٍ محذوف، أي: عن مكانٍ جنبٍ، أي: بعيد، وكأنه من الأضداد؛ فإنه يكون بمعنى القريب أيضاً كالجار الجنُبِ.

وقيل: أي: عن جانب؛ لأنها كانت تمشي على الشطِّ.

وقيل: النظر عن جُنُبٍ أن تنظر إلى الشيءِ كأنك لا تريده.

وقرأ قتادة والحسن وزيد بن عليٍّ ﵄ والأعرجُ: «عن جَنْب» بفتح الجيم وسكون النون. وعن قتادة أنه قرأ بفتحهما أيضاً. وعن الحسن أنه قرأ بضم الجيم

---

(١) النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري ص١٩٣.

(٢) القراءتان في البحر ٧/ ١٠٧، والثانية في القراءات الشاذة ص١١٢.

(٣) كما في معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢، والنكت والعيون ٤/ ٢٣٩، والبحر ٧/ ١٠٧، والكلام منه.

وإسكان النون. وقرأ النعمان بن سالم: «عن جانب»[١] والكلُّ ـ على ما قيل ـ بمعنى واحد؛ وفي «البحر»: الجنب والجانب والجنابةُ والجنابُ بمعنى[٢].

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾ أنها تقصُّه وتتعرَّفُ حالَه، أو أنها أخته.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ أي: منعناه ذلك، فالتحريمُ مجازٌ عن المنع فإنَّ مَن حَرُمَ عليه شيءٌ فقد مُنِعَه، ولا يصحُّ إرادة التحريم الشرعيِّ؛ لأن الصبيَّ ليس من أهل التكليف، ولا دليل على الخصوصية.

والمراضع جمعُ مُرْضِع بضم الميم وكسر الضاد، وهي المرأة التي تُرضِعُ، وترك التاء إمَّا لاختصاصه بالنساء، أو لأنه بمعنى شخص مرضع. أو جمع مَرْضَع بفتح الميم على أنه مصدرٌ ميميٌّ بمعنى الرضاع، وجُمع لتعدُّد مرَّاته، أو اسمُ مكانٍ، أي: موضع الرضاع وهو الثدي.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ قصِّها أو إبصارها، أو وروده على مَن هو عنده، أو من قبل ذلك، أي: من أول أمره، وظاهرُ صنيع أبي حيان اختيارُه[٣].

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أي: هل تريدون أن أدلَّكم ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي: يضمنونه ويقومون بتربيته لأَجْلِكم، والفاءُ فصيحةٌ، أي: فدَخلتْ عليهم فقالت، وقولها: «على أهل بيتٍ» دون: امرأة، إشارةٌ إلى أنَّ المراد: امرأة من أهل الشرف تليقُ بخدمة الملوك.

﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢﴾ لا يقصِّرون في خدمته وتربيته. وروي أنَّ هامان لمَّا سمع هذا منها قال: إنها لتَعرفُه وأهلَه فخُذوها حتى تخبر بحاله. فقالت: إنما أردتُ: وهم للمَلِكِ ناصحون. فخلصتْ بذلك من الشرِّ الذي يجوز لمثله الكذب، وأحسنَتْ وليس ببدعٍ لأنها من بيت النبوَّة فحقيقٌ بها ذلك.

واحتمالُ الضمير لأمرين مما لا تختصُّ به اللغة العربية، بل يكون في جميع

---

(١) ذكر هذه القراءات أبو حيان في البحر ٧/ ١٠٧، وعنه نقل المصنف، والقراءتان الأولى والأخيرة في القراءات الشاذة ص١١٢، والمحتسب ٢/ ١٤٩.

(٢) البحر ٧/ ١٠٧.

(٣) البحر ٧/ ١٠٨.

اللغات، على أنَّ الفراعنة من بقايا العمالقة وكانوا يتكلَّمون بالعربية، فلعلها كلَّمت بلسانهم، ويسمَّى هذا الأسلوب من الكلام الموجَّه. ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ الفاء فصيحةٌ، أي: فقبلوا ذلك منها ودلَّتهم على أمِّه وكلَّموها في إرضاعه فقبلت فردَدْناه إليها، أو يقدَّر نحوُ ذلك.

وروي أنَّ أخته لمَّا قالت ما قالت أمرها فرعونُ بأن تأتي بمن يكفلُه، فأتت بأمِّه وموسى عليه السلام على يد فرعون يبكي وهو يعلِّله، فدفعه إليها فلمَّا وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال: مَن أنت منه فقد أبى كلَّ ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأةٌ طيبة الريح طيبةُ اللبن لا أوتَى بصبيٍّ إلا قَبِلَني. فقرَّره في يدها، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأمر أن يُجرَى عليها النفقةُ، وليس أخذُها ذلك من أخذ الأجرة على إرضاعها إياه، ولو سلِّم فلا نسلِّم أنه كان حراماً فيما تدينُ. وكانت النفقةُ على ما في «البحر» ديناراً في كلِّ يوم[1].

﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصول ولدها إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ لفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: جميعَ ما وعده سبحانه من ردِّه وجَعْلِه من المرسلين ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلْفَ فيه، بمشاهدةِ بعضه وقياسٍ بعضه عليه، وإلا فعلمُها بحقِّية ذلك بالوحي حاصلٌ قبلُ. واستدل أبو حيان بالآية على ضَعْفِ قول مَن ذهب إلى أنَّ الإيحاء كان إلهاماً أو مناماً؛ لأنَّ ذلك يَبْعُد أن يقال فيه وعد[2]. وفيه نظر.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: لا يعرفون وَعْدَه تعالى ولا حقِّيته، أو: لا يجزمون بما وَعَدهم جلَّ وعلا؛ لتَجْويزِهم تخلُّفَه، وهو سبحانه لا يُخْلِفُ الميعاد.

وقيل: لا يعلمون أنَّ الغرض الأصليَّ من الردِّ عليها علمُها بذلك، وما سواه من قرة عينها وذهابِ حزنها تبعٌ. وفيه أنَّ الذي يفيده الكلام إنما هو كونُ كلٍّ من قرة العين والعلم كالغرض أو غرضاً مستقلًّا، وأما تبعيةُ غير العلم له لا سيما مع تقدُّم الغير فلا، وكونُ المفيد لذلك حذفَ حرفِ العلَّة من الأول لا يخفى حالُه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

وفي قوله تعالى: «ولكن أكثرهم»[1] إلخ قيل: تعريضٌ بما فرط من أمه حين سمعتْ بوقوعه في يد فرعون من الخوف والحيرة. وأنت تعلم أنَّ ما عَرَاها كان من مقتضيات الجِبِلَّة البشرية، وهو يجامعُ العلم بعدم وقوع ما يخاف منه، ونفي العلم في مثل ذلك إنما يكون بضَرْبٍ من التأويل كما لا يخفى. ثم إنَّ الاستدراك على ما أختاره مما وقع بعد العلم، وجوِّز أن يكون من نفس العلم، وذلك إذا كان المعنى: لا يعلمون أنَّ الغرض الأصليَّ من الردِّ عليها علمُها بحقِّية وعد الله تعالى. فتأمل.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: المبلغَ الذي لا يزيدُ عليه نشؤه، وقولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ ـ أي: كمل وتمّ ـ تأكيدٌ وتفسيرٌ لما قبله، كذا قيل.

واختُلفَ في زمان بلوغ الأشُدِّ والاستواء، فأخرج ابن أبي الدنيا[2] من طريق الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: الأشدُّ ما بين الثماني عشرةَ إلى الثلاثين، والاستواء ما بين الثلاثين إلى الأربعين، فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال: الأشدُّ ثلاثٌ وثلاثون سنةً، والاستواء أربعون سنة[3]، وهي روايةٌ عن ابن عباس أيضاً[4]، وروي نحوُه عن قتادة.

وقال الزجَّاج مرةً: بلوغ الأشدِّ من نحو سبعَ عَشْرةَ سنةً إلى الأربعين[5]، وأخرى: هو ما بين الثلاثين إلى الأربعين[6]. واختاره بعضهم هنا، وعلِّل بأنَّ ذلك لموافقته لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥] لأنه يُشْعِرُ

---

(١) في الأصل و(م): ولكن أكثر الناس. وهو سبق قلم.

(٢) في كتاب المعمرين كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٢.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٢٢، وأخرجه أيضاً الطبري ١٨/ ١٨١.

(٤) أخرجها من طريق مجاهد عن ابن عباس الطبري ١٨/ ١٨١، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١١٨ و٩/ ٢٩٥١.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٩.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٥، وفيه: قيل: الأشد بضع وثلاثون سنة. وهو ما بين ثلاث وثلاثين إلى تسع وثلاثين.

بأنه منتهٍ إلى الأربعين، وهي سنُّ الوقوف فينبغي أن يكون مبدؤه مبدأه، ولا يخلو عن شيءٍ.

والحقُّ أنَّ بلوغ الأشدِّ في الأصل هو الانتهاءُ إلى حدِّ القوة، وذلك وقتَ انتهاءِ النموِّ وغايتِه، وهذا مما يختلفُ باختلاف الأقاليم والأعصار والأحوال، ولذا وقع له تفاسيرُ في كتب اللغة والتفسير، ولعل الأولى ـ على ما قيل ـ أن يقال: إنَّ بلوغ الأشُدِّ عبارةٌ عن بلوغ القَدْرِ الذي يتقوَّى فيه بدنُه وقواه الجسمانية، وينتهي فيه نموُّه المعتدُّ به، والاستواء اعتدالُ عقله وكمالُه، ولا ينبغي تعيينُ وقتٍ لذلك في حقِّ موسى عليه السلام إلا بخبرٍ يعوَّلُ عليه؛ لِمَا سمعت من أنَّ ذاك مما يختلفُ باختلاف الأقاليم والأعصار والأحوال، نعم اشتهر أنَّ ذلك في الأغلب يكون في سنِّ أربعين وعليه قول الشاعر:

إذا المرءُ وافَى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يَهْوَى حياءٌ ولا سترُ
فدَعْهُ ولا تَنْفِسْ عليه الذي مضى ... وإنْ جرَّ أسبابَ الحياةِ له العمرُ(١)

وفي قوله تعالى: (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) ما يُسْتأْنَسُ به لذلك. وقد مرَّ طرفٌ من الكلام في الأشُدِّ في سورة «يوسف»(٢)، فتذكَّر ولا تغفل.

ثم إنَّ حاصل المعنى ـ على ما قيل ـ أخيراً: ولمَّا قوي جسمُه، واعتدل عقلُه ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي: نبوَّة على ما روي عن السديِّ، أو: علماً هو من خواصِّ النبوَّةِ، على ما تأوَّل به بعضُهم كلامه ﴿وَعِلْمًا﴾ بالدِّين والشريعة.

وفي «الكشاف»: العلم التوراةُ، والحُكْم السنَّةُ، وحكمةُ الأنبياء عليهم السلام سنَّتهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]. وقيل: آتيناه سيرةَ الحكماء العلماء وسَمْتَهم قبل البعث، فكان عليه السلام لا يفعل فعلاً يُسْتَجْهَلُ فيه(٣). اهـ.

ورجِّح ما قيل بأنه أوفقُ لنظم القصة مما تقدم؛ لأنَّ استنباءه عليه السلام بعد

(١) سلف البيتان ١٢/ ٢٦٢.
(٢) ١٢/ ٢٦٢.
(٣) الكشاف ٣/ ١٦٨.

وَكْزِ القبطي، والهجرةِ إلى مدين، ورجوعِه منها، وإيتاؤه التوراة كان بعد إغراق فرعون، فهو بعد الوكز بكثيرٍ.

وبأنَّ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الذي فعلناه بموسى وأمِّه عليهما السلام ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ على إحسانهم، يأبى حَمْلَ ما تقدَّم على النبوَّةِ؛ لأنها لا تكون جزاءً على العمل.

ومَن ذهب إلى الأول جَعَلَ هذا بياناً إجماليًّا لإنجاز الوعد بجَعْلِه من المرسلين بعد ردَّه لأمِّه، وما بعدُ تفصيلٌ له، والعطفُ بالواو لا يقتضي الترتيب، وكونُ ما فُعل بموسى وأمِّه عليهما السلام جزاءً على العمل باعتبارِ التغليب.

وقد يقال: إنَّ أصل النبوة وإنْ لم تكن جزاءً على العمل إلَّا أنَّ بعض مراتبها ـ وهو ما فيه مزيدُ قُرْبٍ من الله تعالى ـ يكون باعتبار مزيدِ القُرْبِ جزاءً عليه، ويرجع ذلك إلى أنَّ مزيد القرب هو الجزاء، وتفاوتُ الأنبياء عليهم السلام في القرب منه تعالى ممَّا لا ينبغي أن يُشَكَّ فيه. ورجِّح ما تقدم بكونه[1] أوفقَ بقوله تعالى: (وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ)، واستلزامهُ حصولَ النبوَّةِ لكلِّ محسنٍ ليس بشيءٍ أصلاً.

ومَن ذهب إلى أنَّ هذا الإيتاءَ كان قبل الهجرة قال: يجوزُ أن يكون المعنى: آتيناه رياسةً بين قومه بني إسرائيل بأنْ جعلناه ممتازاً فيما بينهم يرجعون إليه في مهامِّهم، ويمتثلون[2] إذا أمرهم بشيء أو نهاهم عنه، وعلماً يَنتفِع به وينفعُ به غيرَه، وذلك إمَّا بمحض الإلهام، أو بتوفيقه لاستنباط دقائقَ وأسرارٍ مما نقل إليه من كلمات آبائه الأنبياء عليهم السلام من بني إسرائيل، ولا بدعَ في أنْ يكون عليه السلام عالماً بما كان عليه آباؤه الأنبياء منهم، وبما كانوا يتديَّنون به من الشرائع بواسطة الإلهام، أو بسماع ما يفيده العلم من الأخبار، ولعل هذا أولى مما نقله في «الكشاف». وفي الكلام على أواخر سورة «البقرة» ما تنفعك مراجعتُه فليُراجَعْ.

---

(١) في الأصل: بأنه.

(٢) في (م): ويمتثلونه.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ قال ابن عباس على ما في «البحر»: هي منف[1].

﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي في وقتٍ لا يعتاد دخولها، أو لا يتوقَّعونه فيه، وكان على ما روي عن الحبر وقتَ القائلة. وفي رواية أخرى عنه: بين العشاء والعتمة. وذلك أنَّ فرعون ركب يوماً وسار إلى تلك المدينة، فعلم موسى عليه السلام بركوبه فلحق ودخل المدينة في ذلك الوقت.

وقال ابن إسحاق: هي مصر، كان موسى عليه السلام قد بدت منه مجاهرةٌ لفرعون وقومه بما يكرهون، فاختفى وغاب، فدخلها متنكِّراً.

وقال ابن زيد: كان فرعون قد أخرجه منها فغاب سنين، فنُسي، فجاء ودخلها وأهلُها في غفلةٍ بنسيانهم له، وبُعْدِ عهدهم به.

وقيل: دخل في يوم عيدٍ وهم مشغولون بلَهْوِهم.

وقيل: خرج من قصر فرعون ودخل مصر وقت القيلولة أو بين العشاءين.

وقيل: المدينة عين شمس. وقيل: قريةٌ على فرسخين من مصر يقال لها: حابين. وقيل: هي الإسكندرية. والأشهر أنها مصر، ولعله هو الأظهر.

والمتبادرُ أنَّ «على حين» متعلِّقٌ بـ «دخل»، وعليه فالظاهرُ أنَّ «على» بمعنى «في» مثلها في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [البقرة:١٠٢] على قول.

وقال أبو البقاء: هو في موضع الحال من «المدينة»، ويجوز أن يكون في موضع الحال من الفاعل، أي: مختلِساً[2]. اهـ.

ولعل الذي دعاه إلى العدول عن المتبادر احتياجُه إلى جَعْلِ «على» بمعنى

---

(١) البحر ٧/١٠٩، ومنف قال ياقوت في معجم البلدان ٥/٢١٣: بالفتح ثم السكون وفاء. وقال الشهاب في الحاشية ٧/٦٧: هي بضم الميم، وفتحُها وإن ذكره بعضهم لا يوثق به، والنون ساكنة، وهي ممنوعة من الصرف، والمعروف فيها منوف بالواو. اهـ. وفي معجم البلدان: بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ.

(٢) الإملاء ٤/١٤٦.

«في»، وخفاءُ نكتة التعبير بها دونها، أو الاكتفاء بالظرف وحده عليه، والأمرُ ظاهرٌ لمن له أدنى تأمُّلٍ.

وقيل: إنَّ الداعي إلى ذلك أنَّ دخول «المدينة» في حين غفلة من أهلها ليس نصًّا في دخولها غافلاً أهلُها كما في وجه الحالية من «المدينة»، ولا في دخولها مختلساً كما في وجه الحالية من الضمير، فإنَّ وقت الغفلة كوقت القائلة وما بين العشاءين قد لا يغفل فيه. وفيه بحث.

و«من أهلها» في موضع الصفة لـ «غفلة»، وما في النظم الكريم أبلغُ من: غَفْلَةِ أَهْلِها، بالإضافة؛ لِمَا في التنوين من إفادة التفخيم، ولعله عدل عن ذلك إلى ما ذكر لهذا، فتدبَّر.

وقرأ أبو طالب القارئُ: «على حينَ» بفتح النون[1]، ووجِّهَ بأنه فَتَحَ لمجاورة الغين كما كسر في بعض القراءات الدال في «الحمد لله» لمجاوَرةِ اللام، أو بأنه أَجْرَى المصدر مجرى الفعل، كأنه قيل: على حين غَفِلَ أهلُها، فبنى «حين» كما يُبْنَى إذا أضيف إلى الجملة المصدَّرة بفعلٍ ماضٍ، نحو قوله:

على حين عاتبتُ المشيبَ على الصبا[2]

وهو كما ترى.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ﴾ أي: يتحاربان، والجملة صفةٌ لـ «رجلين». وقال ابن عطية: في موضع الحال[3]. وهو مبنيٌّ على مذهب سيبويه من جواز مجيء الحال من النكرة من غير شرط[4]. وقرأ نعيم بن ميسرة: «يَقَتِّلان» بإدغام التاء في التاء ونقل فتحتها إلى القاف[5].

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/ ١٠٩.

(٢) وعجزه: وقلت ألمَّا أصحُ والشيب وازعُ. والبيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٧٩، والكتاب ٢/ ٣٣٠، والبحر ٧/ ١٠٩، وقال أبو حيان: وهذا توجيه شذوذ.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠.

(٤) الكتاب ٢/ ٥٢ و١١٢.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/ ١٠٩.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: ممن شايَعَه وتابعه في أمره ونهيه، أو في الدِّين على ما قاله جماعةٌ، وهم بنو إسرائيل. قال في «الإتقان»: هو السامريُّ[١].

﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من مُخالِفِيه فيما يريد، أو في الدِّين على ما قاله الجماعةُ، وهم القبط، واسمه كما في «الإتقان» أيضاً: قانون[٢] = صفةٌ بعد صفةٍ لـ «رجلين»، والإشارةُ بـ «هذا» واقعةٌ على طريق الحكاية لِمَا وقع وقت الوجدان كأنَّ الرائي لهما يقوله، لا في المحكيِّ لرسول الله ﷺ. وقال المبرِّد: العرب تشير بـ «هذا» إلى الغائب؛ قال جرير:

هذا ابن عمِّي في دمشق خليفةٌ لو شئتُ ساقكُمُ إليَّ قطينا[٣]

وهذه الإشارةُ قائمةٌ مقام الضمير في الربط، والعطفُ سابقٌ على الوصفية.

واختلف في سبب تقاتُلِ هذين الرجلين؛ فقيل: كان أمراً دينيًّا. وقيل: كان أمراً دنيويًّا؛ رُوي أنَّ القبطيَّ كلَّف الإسرائيليَّ حَمْلَ الحطب إلى مطبخ فرعون فأبى، فاقتتلا لذلك، وكان القبطيُّ على ما أخرج ابنُ أبي حاتم عن سعيد بن جبير خبازاً لفرعون[٤].

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: فطلب غَوْثَه ونَصْرَه إياه ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ ولتضمين الفعل معنى النصر عدِّي بـ «على»، ويؤيِّده قوله تعالى بعدُ: (ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ). ويجوز أن يكون تعديته بـ «على» لتضمينه معنى الإعانة، ويؤيِّده أنه قُرِئ: «فاستعانه» بالعين المهملة والنون بدل الثاء، وقد نَقَلَ هذه القراءة ابنُ خالويه عن سيبويه[٥]، وأبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة[٦] عن ابن مقسم والزعفرانيِّ.

---

(١) الإتقان ٢/١٠٩٨.

(٢) الإتقان ٢/١٠٩٨، وفيه: فانون، وكذا في الكشاف ٣/١٦٨، وتفسير البغوي ٣/٤٣٩، والبحر ٧/١٠٩.

(٣) ديوان جرير ١/٣٨٨، والبحر ٧/١٠٩، والكلام منه. قال شارح الديوان: القطين: الرقيق، والقطين: الحَشَم.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/٢٩٥٥.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/١٠٩، والكلام منه.

(٦) الهذلي المغربي المقرئ، أحد مَن طوَّف الدنيا في طلب القراءات، وله كتاب: الكامل في القراءات، توفي سنة (٤٦٥هـ). قال الذهبي: وله أغاليط كثيرة في أسانيد القراءات، =

وقولُ ابن عطية: أنه ذكرها الأخفش وهو تصحيفٌ لا قراءة[1]، مما لا ثبت له فيه.

وقد حُذف من جملة الصلة صدرُها، أي: الذي هو من شيعته والذي هو من عدوِّه، ولو لم يُعتبر حَذْفُ ذلك صحَّ.

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي: ضرب القبطيَّ بجمع كفِّه، أي: بكفِّه المضمومةِ أصابعُها على ما أخرجه غيرُ واحدٍ عن مجاهد. وقال أبو حيان: الوكز الضرب باليد مجموعةً أصابعُها كعقد ثلاثة وسبعين[2]. وعلى القولين يكون عليه السلام قد ضربه باليد.

وأخرج ابن المنذر[3] وجماعةٌ عن قتادةَ أنه عليه السلام ضربه بعصاه، فكأنه يفسِّر الوكز بالدفع أو الطعن، وذلك من جملة معانيه كما في «القاموس»[4]. ولعله أراد بعصاه عصاً كانت له، فإنَّ عصاه المشهورةَ أعطاه إياها شعيب عليه السلام بعد هذه الحادثة كما هو مشهورٌ، وفي كتب التفاسير مسطور.

وقرأ عبد الله: «فلكزه» باللام[5]، وعنه: «فنكزه» بالنون[6]، واللَّكز على ما في «القاموس»: الوكزُ، والوَجْءُ في الصدر والحنك. والنَّكز على ما فيه أيضاً: الضربُ والدفع[7].

وقيل: الوَكْزُ والنَّكْزُ واللَّكز: الدفعُ بأطراف الأصابع.

وقيل: الوكز على القلب، واللكز على اللِّحى[8].

= وحَشَد في كتابه أشياء منكرة لا تحل القراءة بها، ولا يصح لها إسناد. معرفة القراء الكبار ٢/ ٨١٥. والكلام من البحر ٧/ ١٠٩.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠.

(٢) البحر ٧/ ١٠٣.

(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٢، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٨٩.

(٤) مادة (وكز).

(٥) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/ ١٠٩، والكلام منه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٤٦، والبحر ٧/ ١٠٩.

(٧) القاموس (لكز) و(نكز).

(٨) في الأصل: الحيّ، والمثبت من (م) والبحر ٧/ ١٠٣، والكلام منه.

روي أنه لمَّا اشتدَّ التناكُر قال القبطيُّ لموسى عليه السلام: لقد هممتُ أن أحمله ـ يعني الحطب ـ عليك. فاشتدَّ غضب موسى عليه السلام، وكان قد أوتي قوةً فوكزه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ أي: فقتله موسى، وأصله: أنهى حياته، أي: جعلها منتهيةً متقضِّيةً، وهو بهذا المعنى يتعدَّى بـ «على» كما في «الأساس»[1]، فلا حاجة إلى تأويله بـ: أَوْقَع القضاءَ عليه. وقد يتعدَّى الفعل بـ «إلى» لتضمينه معنى الإيحاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ [الحجر: ٦٦].

وعودُ ضمير الفاعل في «قضى» على «موسى» هو الظاهر. وقيل: هو عائدٌ على الله تعالى، أي: فقضى الله سبحانه عليه بالموت، فقضى بمعنى حَكم. وقيل: يحتمل أن يعود على المصدر المفهوم من «وكزه» أي: فقضى الوكزُ عليه، أي: أنهى حياته.

﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ أي: من تزيينه. وقيل: من جنس عمله. والأولُ أوفق بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ أي: ظاهرُ العداوة، على أنَّ «مبين» صفةٌ ثانية لـ «عدوّ».

وقيل: ظاهر العداوة والإضلال، ووجِّه بأنه صفةٌ لـ «عدو» الملاحظِ معه وصفُ الإضلال، أو بأنه متنازعٌ فيه لـ «عدو» و«مضل»، كلٌّ يطلبه صفةً له، وأيًّا ما كان فـ «مبين» من أبان اللازم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ بوكزٍ ترتَّب عليه القتلُ ﴿فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ ذنبي، وإنما قال عليه السلام ما قال لأنه فَعَلَ ما لم يؤذن له به، وليس من سَنَنِ آبائه الأنبياء عليهم السلام في مثل هذه الحادثة التي شاهدها، وقد أفضى إلى قتل نفسٍ لم يُشْرَعْ في شريعة من الشرائع قتلُها، ولا يُشْكِلُ ذلك على القول بأنَّ الأنبياء عليهم السلام معصومون عن الكبائر بعد النبوَّة وقبلها؛ لأنَّ أصل الوكز من الصغائر، وما وقع من القتل كان خطأً كما قاله كعبٌ وغيره، والخطأ وإن كان لا يخلو عن الإثم ـ ولذا شرعت فيه الكفارة ـ إلا أنه صغيرةٌ أيضاً.

بل قيل: لا يُشْكِلُ أيضاً على القول بعصمتهم عن الكبائر والصغائر مطلقاً؛ لجوازِ أن يكون عليه السلام قد رأى أنَّ في الوكز دفعَ ظالم عن مظلوم، ففعله غيرَ

---

(١) مادة (قضى)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٦٨.

قاصدٍ به القتلَ، وإنما وقع مترتِّباً عليه لا عن قصدٍ، وكونُ الخطأ لا يخلو عن إثم في شرائع الأنبياء المتقدِّمين عليهم السلام كما في شريعة نبيِّنا ﷺ غيرُ معلوم، وكذا مشروعية الكفَّارة فيه. وكأنه عليه السلام بعد أن وقع منه ما وقع تأمَّل فظهر له إمكانُ الدفع بغير الوكز، وأنه لم يتثبَّت في رأيه لِمَا اعتراه من الغضب، فعلم أنه فَعَلَ خلافَ الأَوْلَى بالنسبة إلى أمثاله، فقال ما قال على عادة المقرَّبين في استعظامهم خلافَ الأولى.

ثم إنَّ هذا الفعل وقع منه عليه السلام قبل النبوَّة، كما هو ظاهرُ قوله تعالى حكايةً عنه في سورة «الشعراء»: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية:٢١] وبذلك قال النقَّاش وغيره، وروي عن كعب أنه عليه السلام كان إذ ذاك ابنَ اثنتي عَشْرةَ سنةً.

ومَن فسَّر الاستواء ببلوغ أربعين سنةً، وجَعَلَ ما ذكر بعد بلوغ الأَشُدِّ والاستواء وإيتاءِ الحكم والعلمِ بالمعنى الذي لا يقتضي النبوَّة، يلزمُه أن يقول: كان عليه السلام إذ ذاك ابنَ أربعين سنةً أو ما فوقها بقليلٍ.

وزعم بعضهم أنه عليه السلام أراد بقوله: «ظلمتُ نفسي»: أنِّي عرَّضتُها للتلف بقتل هذا الكافر؛ إذ لو عرف فرعون ذلك لقتلني به، وأراد بقوله: «فاغفر لي»: فاستُر عليَّ ذلك، وجعله مِن عَمَلِ الشيطان لِمَا فيه من الوقوع في الوسوسة وترقُّب المحذور. ولا يخفى ما فيه، ويأبى عنه قولُه تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ وترتيبُ «غَفَر» على ما قبله بالفاء يُشْعِرُ بأنَّ المراد: غفر له لاستغفاره، وجملةُ «إنه» إلخ كالتعليل للعليَّة، أي: إنه تعالى هو المبالغُ في مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم، ولذا كان استغفاره سبباً للمغفرة له.

وتوسيط «قال» بين كلاميه عليه السلام لِمَا بينهما من المخالفة من حيث إنَّ الثاني مناجاةٌ ودعاء، بخلاف الأول، وأمَّا توسيطُ «قال» في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ فوجهُه ظاهر.

والباء في «بما» للقَسَم، و«ما» مصدرية، وجوابُ القسم محذوفٌ، أي: أُقسم بإنعامك عليَّ لأَمْتَنِعنَّ عن مثل هذا الفعل. وقيل: لأتوبنَّ. وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ عطفٌ على الجواب.

ولعل المراد بإنعامه تعالى عليه حفظُه إياه من شرِّ فرعون، وردُّه إلى أمه، وتمييزُه على سائر بني إسرائيل، ونحوُ ذلك.

وقيل: المراد به مغفرتُه له، وهو غيرُ بعيد، ومعرفته عليه السلام أنه سبحانه غفر له إذا كان هذا القول قبل النبوة بإلهامٍ أو رؤيا.

و«الظهير»: المُعِينُ. و«المجرمين» جمع مجرم، والمراد به: مَن أَوْقَعَ غيره في الجرم، أو: أدَّتْ معاونتُه إلى جرمٍ، كالإسرائيليِّ الذي خاصمه القبطيُّ فأدَّت معاونتُه إلى جرمٍ في نظر موسى عليه السلام، فيكون في «المجرمين» مجازٌ في النسبة للإسناد إلى السبب.

وجوِّز أن يراد بذلك الكفار، وعنى بهم مَن استغاثه ونحوَه، بناءً على أنه لم يكن أسلم.

وقيل: أراد بالمجرمين فرعونَ وقومه، والمعنى: أُقسم بإنعامك عليَّ لأتوبنَّ فلن أكون مُعيناً للكفار بأنْ أصحبهم وأُكثِّر سَوادَهم، وقد كان عليه السلام يصحبُ فرعونَ ويركبُ بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمَّى ابن فرعون. ولا يخفى أنَّ ما تقدَّم أنسبُ بالمقام.

وجوِّز أن تكون الباء للقسم الاستعطافيِّ على أنها متعلِّقةٌ بفعلِ دعاءٍ محذوفٍ، وجملة «فلن أكون» إلخ متفرِّعةٌ عليه، والفاءُ واقعةٌ في جواب الدعاء أو الشرط المقدَّر، أي: بحقِّ إنعامك عليَّ اعْصِمْني فلن[1] أكون.. إلخ، أو: إنْ عَصَمْتَني فلن أكون.. إلخ.

والقسمُ الاستعطافيُّ ما أكِّد به جملةٌ طلبيةٌ، نحو قولك: بالله تعالى زرني، وغير الاستعطافي ما أكِّد به جملةٌ خبرية، نحو: واللهِ تعالى لأقومنَّ، وإلى هذا ذهب ابن الحاجب.

وقيل: القسم الاستعطافيُّ ما كان المُقْسَمُ به مُشْعراً بعطفٍ وحنوٍّ، نحو: بكَرَمك الشاملِ أَنْعِمْ عليَّ، وهو صادقٌ على ما هنا، وغير الاستعطافيِّ ما كان المَقْسَمُ به أعمَّ من ذلك. وعلى القولين هما قسمان من مطلق القسم.

---

(١) في (م): فلم.

وظاهر كلام الزمخشريِّ أنَّ المتبادر من القسم ما يؤكَّد به الكلام الخبريُّ، وينعقدُ منه يمينٌ، فما يكون المراد به الاستعطافَ قسيمٌ له[1]. وجَعَل بعضُهم إطلاق القسم على الاستعطافي تجوُّزاً.

ويُبْعِدُ إرادةَ الاستعطاف هنا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ موسى عليه السلام لم يَسْتَثْنِ ـ أي: لم يقل: إن شاء الله تعالى ـ فابتُلي به، أي: بالكون ظهيراً للمجرمين مرةً أخرى، وهو ما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾ إلخ؛ لأنَّ الاستثناء لا يناسبُ الاستعطافَ؛ لكون النفي معلَّقاً بعصمة الله عزَّ وجلَّ.

وجوِّز أن تكون الباءُ سببيةً متعلِّقة بفعلٍ مقدَّرٍ يُعطف عليه «لن أكون» إلخ و«ما» موصولة، والمعنى: بسبب الذي أنعمته عليَّ من القوة أشكرك فلن أستعملها إلا في مظاهرةِ أوليائك ولا أَدَعُ قبطيًّا يغلب إسرائيليًّا، وهو إلزامٌ لنفسه بنصرة أوليائه عزَّ وجلَّ كالنذر، وليس هناك قَسَمٌ بوجهٍ خلافاً لمن تَوهَّم ذلك، ولا يخفى أن هذا وإن لم يُبْعِدْه الأثر لا يخلو عن بُعْدٍ نَظَراً إلى السباق.

و«لن» على جميع الأوْجهِ المذكورة للنفي، وفي البحر: قيل: إنها للدعاء[2]. وحكى ابن هشام ردَّه بأنَّ فعل الدعاء لا يُسنَدُ إلى المتكلِّم بل إلى المخاطب أو الغائب، نحو: ياربِّ لا عذَّبْتَ فلاناً، ويجوز: لا عذَّب الله تعالى عمراً، ثم قال: ويردُّه قوله:

. . . . ثم لا زلْـ ـتُ لكم خالداً خلودَ الجبالِ[3]

ولا يخفى عليك أنَّ كونها للدعاء على الوجه الأخير في الآية غيرُ ظاهر، وعلى الوجه الأول لا يخلو عن خفاء، فلعل مَن جَعَلَها للدعاء حَمَلَ «بما أنعَمْتَ عليَّ» على الاستعطاف، وعلَّق الجارَّ والمجرورَ بنحو: اعصمني، وجَعَلَ الفاء تفسيريةً،

---

(١) ينظر الكشاف ٣/ ١٦٩، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٦٨.

(٢) البحر ٧/ ١١٠، وتعقبه أبو حيان بقوله: والصحيح أن «لن» لا تكون للدعاء. وجاء في هامش الأصل و(م): مجيئها للدعاء مذهب جماعة منهم ابن عصفور. اهـ منه.

(٣) المغني ص٣٧٤-٣٧٥، وهذا قطعة من بيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٦٩، والأصول في النحو ٢/ ١٧١ برواية:

لن تزالوا كذلكم ثم لا زِلْـ ـتَ لهم خالداً خلود الجبالِ

و«لن أكون» إلخ تفسيراً لذلك المحذوف، كما قيل في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤] فليُتدبَّر.

واحتجَّ أهل العلم بهذه الآية على المنع من معونة الظلمة وخدمتهم؛ أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد الله بن الوليد الوَصَّافيِّ[١] أنه سأل عطاء بن أبي رباح عن أخٍ له كاتبٍ فقال له: إنَّ أخي ليس له من أمور السلطان شيءٌ، إلا أنه يكتب له بقلمٍ ما يدخل وما يخرج، فإنْ تَرَكَ قلمه صار عليه دَينٌ واحتاج، وإنْ أخذ به كان له فيه غنًى؟ قال: لمن يكتب؟ قال: لخالد بن عبد الله القسري. قال: ألم تسمع إلى ما قال العبدُ الصالح: (رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ) فلا يهتمَّ أخوك بشيءٍ ولْيَرْمِ بقلمه فإنَّ الله تعالى سيأتيه برزقٍ[٢].

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حنظلة جابر بن حنظلة الضبيِّ الكاتب قال: قال رجلٌ لعامر: يا أبا عمرو، إنِّي رجلٌ كاتبٌ ما يدخل وما يخرج، آخُذُ رزقاً أستغني به أنا وعيالي؟ قال: فلعلك تكتب في دم يسفك؟ قال: لا. قال: فلعلك تكتب في مالٍ يؤخذ؟ قال: لا. قال: فلعلك تكتب في دار تهدم؟ قال: لا. قال: أسمعتَ بما قال موسى عليه السلام: (رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ) قال: أَبْلَغْتَ إليَّ يا أبا عمرو، والله عز وجل لا أخطُّ لهم بقلم أبداً. قال: والله تعالى لا يدعُكَ الله سبحانه بغير رزقٍ أبداً[٣].

وقد كان السَّلَفُ يجتنبون كلَّ الاجتناب عن خدمتهم؛ أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سلمة بن نبيط قال: بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك فقال: اذهب بعطاءِ أهل بخارى فأعطهم. فقال: أعْفِني. فلم يَزَلْ يستعفيه حتى أعفاه،

---

(١) في الأصل و(م): الرصافي. والصواب ما أثبتناه. ينظر تهذيب الكمال ١٩/ ١٧٣.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٥٦، وأخرجه أيضاً ابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ٥٥، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٢٣. وخالد بن عبد الله القسري البجلي كان أمير العراقيين لهشام، وولي قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك، ثم لسليمان، ثم عزله هشام بيوسف بن عمر الثقفي. سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٢٥.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٥٦.

فقال له بعض أصحابه: ما عليك أن تذهب فتعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئاً؟ فقال: لا أحبُّ أنْ أُعينَ الظَّلمة في شيءٍ من أمرهم[١].

وإذا صحَّ حديثُ: «ينادي منادٍ يومَ القيامة: أين الظلمةُ وأشباهُ الظلمة وأعوانُ الظلمة، حتى مَن لاق لهم دواةً أو بَرَى لهم قلماً، فيجمعون في تابوتٍ من حديد، فيُرْمَى بهم في جهنم، فليَبْكِ مَن عَلِمَ أنه من أعوانهم على نفسه، وليُقْلِعْ عمَّا هو عليه قبل حلول رَمْسِه»[٢].

ومما يَقصمُ الظهر ما روي عن بعض الأكابر أنَّ خياطاً سأله فقال: أنا ممن يخيطُ للظلمة، فهل أُعدُّ من أعوانهم؟ فقال: لا، أنت منهم، والذي يبيعُك الإبرة من أعوانهم. فلا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله تعالى العليِّ العظيم، ويا حسرتا على مَن باع دينه بدُنْياه، واشترى رضا الظلمةِ بغضب مولاه. هذا وقد بلغ السيلُ الزُّبى، وجرى الوادي فطمَّ على القرى.

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ وقوعَ المكروه به ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يترصَّد ذلك، أو الأخبارَ: هل وقفوا على ما كان منه؟ وكان عليه السلام فيما يُروى قد دفن القبطيَّ بعد أن مات في الرمل.

وقيل: «خائفاً» وقوعَ المكروه من فرعون، «يترقَّبُ» نصرةَ ربِّه عز وجل.

وقيل: يترقَّبُ أن يُسْلِمَه قومه.

وقيل: يترقَّب هدايةَ قومه.

وقيل: «خائفاً» من ربِّه عزَّ وجلَّ «يترقَّب» المغفرة. والكلُّ كما ترى.

والمتبادرُ على ما قيل: أنَّ «في المدينة» متعلِّقٌ بـ «أصبح»، واسم «أصبح» ضميرُ موسى عليه السلام، و«خائفاً» خبرها، وجملة «يترقَّب» خبرٌ بعد خبر، أو حالٌ من الضمير في «خائفاً».

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٢٣. وعبد الرحمن بن مسلم هو أبو مسلم الخراساني الأمير، هازم جيوش الدولة الأموية، والقائم بإنشاء الدولة العباسية. سير أعلام النبلاء ٦/ ٤٨.

(٢) ذكره أحمد في الورع ص٩٣ من حديث ابن مسعود ﷺ، والديلمي في مسند الفردوس (٩٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقال أبو البقاء: «يترقب» حالٌ مبدلةٌ من الحال الأولى، أو تأكيدٌ لها، أو حالٌ من الضمير في «خائفاً»[1]. اهـ. وفيه احتمالُ كونِ «أصبح» تامةً، واحتمالُ كونها ناقصةً، والخبر «في المدينة»، ولا يخفى عليك ما هو الأَوْلى من ذلك.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ وهو الإسرائيليُّ الذي قَتَلَ عليه السلام القبطيَّ بسببه ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: يستغيثُه من قبطيٍّ آخر برفع الصوت، من الصراخ وهو في الأصل الصياحُ، ثم تجوِّز به عن الاستغاثة لعدم خلوِّها منه غالباً، وشاع حتى صار حقيقةً عرفيةً.

وقيل: معنى «يستصرخه»: يطلب إزالة صراخه.

و«إذا» للمفاجأة، وما بعدها مبتدأ، وجملةُ «يستصرخه» الخبر.

وجوَّز أبو البقاء كونَ الجملة حالاً، والخبر «إذا»[2].

والمراد بـ «الأمس» اليومُ الذي قبل يوم الاستصراخ، وفي «الحواشي الشهابية»: إنْ كان دخوله عليه السلام المدينةَ بين العشاءين، فـ «الأمس» مجازٌ عن قرب الزمان[3]. وهو مُعْرَبٌ لدخول «أل» عليه، وذلك الشائع فيه عند دخولها، وقد بُني معها على سبيل الندرة كما في قوله:

وإنِّي حُبِسْتُ اليومَ والأمسِ قبلَه ... إلى الشمس حتى كادتِ الشمسُ تَغْرُبُ[4]

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ أي: للإسرائيليِّ الذي يستصرخُه: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ﴾ ضالٌّ ﴿مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ بيِّنُ الغواية؛ لأنك تسبَّبت لقتل رجل وتقاتل آخَرَ، أو: لأنَّ

(١) الإملاء ٤/ ١٤٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٦٩.
(٤) البيت لنصيب بن رباح، وهو في ديوانه ص٦٢، والخصائص ١/ ٣٩٤ و٣/ ٥٧، والأزمنة والأمكنة ١/ ٢٤١، والإنصاف ١/ ٣٢٠، والبحر ٧/ ١١٠، والدر المصون ٨/ ٦٥٩، واللسان (أمس)، ورواية الديوان: وإني ثويتُ . . .، وفيه أيضاً: على الباب، بدل: إلى الشمس. وجاء في بعض المصادر: ببابك، وفي بعضها: إلى الليل. قال ابن جني: رواه ابن الأعرابي: والأمسِ، والأمسَ، جرًّا ونصباً.

عادتك الجدال، واختار هذا بعضُ الأجلَّة وقال: إنَّ الأول لا يناسبُ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ إلخ؛ لأنَّ تذكُّر تسبُّبِهِ لِمَا ذُكر باعثُ الإحجام لا الإقدام.

ورُدَّ بأنَّ التذكُّر أمرٌ محقَّقٌ؛ لقوله تعالى: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، والباعثُ له على ما ذكر شفقتُه على مَن ظُلم من قومه، وغيرتُه لنصرةِ الحقِّ.

وقيل: إنَّ الضمير في «له» والخطابَ في «إنك» للقبطيِّ، ودلَّ عليه قوله: «يستصرخه». وهو خلافُ الظاهر، ويُبعده الإظهارُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ فإنَّ الظاهر على ذاك «به» بدل «الذي».

والبطش: الأخذُ بصولةٍ وسطوةٍ، والتنوينُ في «عدوٌّ» للتفخيم، أي: عدوٌّ عظيمُ العداوة، ولإرادة ذلك لم يُضِفْه، والمراد بالذي هو عدوٌّ لهما القبطيُّ، وقد كان القبطُ أعظمَ الناس عداوةً لبني إسرائيل. وقيل: عداوتُه لهما لأنه لم يكن على دينهما.

وقرأ الحسن وأبو جعفر: «يبطُش» بضمِّ الطاء[1].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ قاله الإسرائيليُّ الذي يستصرخُه على ما روي عن ابن عباس وأكثرِ المفسرين، وكأنه توهَّم إرادةَ البطش به دون القبطيِّ من تسمية موسى عليه السلام إياه غَوِيًّا.

وقال الحسن: قاله القبطيُّ الذي هو عدوٌّ لهما، كأنه توهَّم من قوله للإسرائيليِّ: «إنك لغويٌّ» أنه الذي قتل القبطيَّ بالأمس له. ولا بُعْدَ فيه لأنَّ ما ذكر إمَّا إجمالٌ لكلامٍ يُفهم منه ذلك، أو لأنَّ قوله ذلك لمظلوم انتصر به خلافُ الظاهر، فلا بُعْدَ للانتقال منه لذلك.

والذي في التوراة التي بأيدي اليهود اليومَ ما هو صريحٌ في أنَّ هذين الرجلين كانا من بني إسرائيل، وأمَّا الرجلان اللذان رآهما بالأمس فأحدهما إسرائيليٌّ والآخر مصريٌّ[2]. ووُجِّه أمرُ العداوة على ذلك بأنَّ هذا الذي أراد عليه السلام أن يبطش به كان ظالماً لمن استصرخه، فيكون عدوًّا له، وعاصياً لله تعالى فيكون عدوًّا

(١) النشر ٢/ ٢٧٤ عن أبي جعفر، وذكرها عنه وعن الحسن أبو حيان في البحر ٧/ ١١٠.
(٢) العهد القديم، سفر الخروج، ص١٥٥.

لموسى عليه السلام، ويحتمل أن تكون عداوتُه لهما لكونه مخالفاً لِمَا هما عليه من الدِّين وإن كان إسرائيليًّا.

وفيها أيضاً ما هو صريحٌ في أنَّ الظالم هو قائلُ ذلك[١]. وأنت تعلمُ أنَّ هذه التوراة لا يُلتفت إليها فيما يكذِّبُ القرآن أو السنَّة الصحيحة، وهي فيما عدا ذلك كسائر أخبار بني إسرائيل لا تصدَّق ولا تكذَّب، نعم قد يُستأنس بها لبعض الأمور.

ثم إنَّ ما فيها من قصة موسى عليه السلام مخالفٌ لِمَا قصَّه الله تعالى منها هنا وفي سائر المواضع زيادةً ونقصاً، وهو ظاهرٌ لمن وقف عليها، ولا يخفى الحكم في ذلك، وقد خلت هنا عن ذكر مجيءِ مؤمن آل فرعون ونصحه لموسى عليه السلام، وكذا عن ذِكرِ ما يدلُّ على قوله: ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو الذي يفعل كلَّ ما يريد من الضرب والقتل ولا ينظر في العواقب.

وقيل: المتعظِّم الذي لا يتواضَعُ لأمرِ الله تعالى، وأصلُه على ما قيل: النخلةُ الطويلة، فاستُعير لِمَا ذُكر إمَّا باعتبار تعاليه المعنويِّ أو تعظُّمِه.

وأخرج ابن المنذر عن الشعبيِّ[٢] أنه قال: مَن قتل رَجلين ـ أي: بغير حقٍّ ـ فهو جبَّار، ثم تلا هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم نحوَه عن عكرمة[٣].

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ بين الناس، فتدفعَ التخاصُمَ بالتي هي أحسنُ، ولمَّا قال هذا انتشر الحديثُ وارتقى إلى فرعون ومَلَئِهِ فهمُّوا بقَتْلِ موسى عليه السلام، فخرج مؤمنٌ من آلِ فرعون ـ هو ابن عمِّ فرعون ـ ليخبره بذلك وينصحَه، كما قال عزَّ وجل:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ الآيَة، واسمه قيل: شمعان، وقيل: شمعون بن إسحاق، وقيل: حزقيل، وقيل غيرُ ذلك.

وكونُ هذا الرجل الجائي مؤمنُ آل فرعون هو المشهور. وقيل: هو غيرُه.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٣.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٥٨.

و«يسعى» بمعنى: يسرع في المشي، وإنما أسرع لبُعْدِ محلِّه ومزيدِ اهتمامه بإخبار موسى عليه السلام ونُصْحِه. وقيل: «يسعى» بمعنى: يقصدُ وَجْهَ الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء:١٩] وهو وإن كان مجازاً يجوزُ الحملُ عليه لشهرته.

والظاهر أنَّ «من أقصى» صلةُ «جاء»، وجملة «يسعى» صفة «رجل». وجوِّز أن يكون «من أقصى» في موضع الصفة لـ «رجل»، وجملة «يسعى» صفة بعد صفةٍ.

وجوِّز أن تكون الجملة في موضع الحال من «رجل»؛ أمَّا إذا جُعل الجارُّ والمجرورُ في موضع الصفة منه فظاهرٌ؛ لأنه وإن كان نكرةً ملحقٌ بالمعارف، فيَسُوغُ أن يكون ذا حالٍ، وأما إذا كان متعلِّقاً بـ «جاء» فمنع ذلك الجمهورُ وأجازه سيبويه[١]. وجوِّز أن يعلَّق الجارُّ والمجرورُ بـ «يسعى»، وهو كما ترى.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ وهم وجوهُ أهل دولةِ فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون بسببك، وإنما سمِّي التشاورُ ائتماراً لأنَّ كلًّا من المتشاورين يأمر الآخَرَ ويأتمر ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة قبل أن يظفروا بك ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ اللامُ للبيان كما في: سقياً لك، فيتعلَّقُ بمحذوفٍ أعني: أعني، ولم يجوِّز الجمهور تعلُّقه بـ «الناصحين» لأنَّ «أل» فيه اسمٌ موصول، ومعمولُ الصلة لا يتقدَّم الموصولَ، ولا بمحذوفٍ مقدَّمٍ يفسِّره المذكورُ؛ لأنَّ ما لا يعمل لا يفسِّر عاملاً.

وعند مَن جوَّز تقدُّمَ معمولِ الصلة إذا كان الموصول «أل» خاصةً لكونها على صورة الحرف، أو إذا كان المتقدِّم ظرفاً للتوسُّع فيه، أو قال: إنَّ «أل» هنا حرفُ تعريفٍ لإرادة الثبوت = يجوز أن يكون «لك» متعلِّقاً بـ «الناصحين»، أو بمحذوفٍ يفسِّره ذلك.

واستدلَّ القرطبيُّ[٢] وغيره بالآية على جواز النميمة لمصلحةٍ دينية.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي: من المدينة ممتثلاً ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوقَ الطالبين ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) سلف ص١٢٩ من هذا الجزء.

(٢) كما في الإكليل للسيوطي ص٢٠٣، ولم نقف عليه في تفسير القرطبي.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ أي: صَرَفَ وجهه ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: ما يقابل جانبها، و«تلقاء» في الأصل مصدرٌ انتصب على الظرفية، و«مدين» قريةُ شعيب سُمِّيت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام، ولم يكن في سلطان فرعون، ولذا توجَّه لقريته. وقيل: توجَّه إليها لمعرفته به. وقيل: لقرابته منه عليهما السلام، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمان.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وسط الطريق المؤدِّي إلى النجاة، وإنما قال عليه السلام ذلك توكُّلاً على الله تعالى، وثقةً بحُسْنِ توفيقه عزَّ وجلَّ، وكان عليه السلام لا يعرف الطرق، فعنَّ[1] ثلاثُ طرائقَ، فأخذ في الوُسْطَى وأخذ طالبوه في الأُخريين وقالوا: المريبُ لا يأخذ في أعظم الطرق ولا يسلكُ إلا بُنَيَّاتِها، فبقي ثماني ليالٍ وهو حافٍ لا يَطْعَمُ إلَّا ورق الشجر.

وعن سعيد بن جبير: أنه عليه السلام لم يصل حتى سقط خفُّ قدميه.

وروي أنه عليه السلام أخذ يمشي من غير معرفةٍ، فهداه جبريلُ عليه السلام إلى مَدْيَن.

وعن السدِّي أنه عليه السلام أخذ في بنيَّات الطريق، فجاءه ملكٌ على فرسٍ بيده عنزةٌ فلمَّا رآه موسى عليه السلام سجد له، أي: خضع من الفَرَق، فقال: لا تسجد لي ولكن اتبعني. فتبعه وانطلق حتى انتهى به إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: وَصَلَ إليه، وَوَرَدَ الوُرودُ بمعنى الدخولِ وبمعنى الشربِ، وليس شيءٌ منهما مراداً. والمراد بماء مدين بئرٌ كانوا يسقون منها، فهو مجازٌ من إطلاق الحالّ وإرادة المحلِّ.

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أي: فوق شفيره ومستقاه ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: جماعةً كثيرةً مختلفي الأصناف، ويُشعر بالقيد الأول التنوين، وبالثاني «من الناس» لشموله للأصناف المختلفة، وهي فائدةُ ذِكْرِه.

وقيل: فائدتُه تحقيرُ أولئك الجماعةِ، وأنهم لئامٌ لا يُعرفون بغير جنسهم، أو محتاجون إلى بيانِ أنهم من البشر.

﴿يَسْقُونَ﴾ الظاهر أنهم كانوا يسقون مواشيَ مختلفةَ الأنواع، بمعنى أنَّ منهم

(١) عَنَّ له كذا عَنَنًا: عَرَض واعترض. مختار الصحاح (عنن).

مَن كان يسقي إبلاً، ومنهم مَن كان يسقي غنماً، وهكذا، وتخصيصُ سَقْيِهم بنوعٍ يحتاج إلى توقيف.

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: في مكانٍ أسفلَ من مكانهم. وقيل: مِن قُرْبهم، أو: مِن سواهم، أو: مما يلي جهته إذا قدم عليهم، وإلى هذا الأخير ذهب ابنُ عطية حيث قال: المعنى: ووجد من الجهة التي وصل إليها قَبْلَ أن يصل إلى الأُمَّة[1].

﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ﴾ اسم إحداهما قيل: ليّا، وقيل: عبرا، وقيل: شرفا، واسم الأخرى قيل: صفوريا، وقيل: صفوراء، وقيل: صفيراء. وفي «الكشاف»: صفيراء اسم الصغرى، واسم الكبرى صفراء[2].

﴿تَذُودَانِۖ﴾ كانتا تمنعان غنمهما عن الماء خوفاً من السُّقاة الأقوياء؛ قاله ابن عباس وغيره. وقيل: تمنعان غنمهما عن التقدُّم إلى البئر لئلا تختلط بغيرها، وحُكي ذلك عن الزجَّاج[3]. وقال قتادة: تمنعان الناس عن غنمهما. وقال الفراء[4]: تحبسان غنمهما عن أن تتفرَّق. وفي جميع هذه الأقوال تصريحٌ بأنَّ المَذُودَ كان غنماً، والظاهرُ أنَّ ذلك عن توقيفٍ.

وقيل: «تذودان» عن وجوههما نظر الناظرين لتستُّرهما. وهذا كما ترى.

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ أي: ما مخطوبُكما ومطلوبكما مما أنتما عليه من التأخُّر والذود، ولِمَ لا تباشران السقي كغيركما؟ وأصلُ الخطب مصدرُ خَطَبَ بمعنى طلب، ثم استُعمل بمعنى المفعول. وفي سؤاله عليه السلام إياهما دليلٌ على جواز مكالمة الأجنبية فيما يعني.

وقرأ شمر: «ما خِطْبُكما» بكسر الخاء؛ قال في «البحر»: أي: مَن زَوْجُكما؟ ولِمَ لا يسقي هو؟ وهذه قراءةٌ شاذةٌ نادرة[5]. اهـ. ولا يخفى ما فيه وإباءُ الجواب عنه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

(٢) الكشاف ٣/ ١٧١.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٩، وفيه: أي: تذودان غنمهما عن أن يقرب موضع الماء؛ لأنها يطردها عن الماء من هو على السقي أقوى منهما.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٠٥.

(٥) البحر ٧/ ١١٣.

وقال بعضهم: الخِطبُ فيها بمعنى المخطوب والمطلوب كما في القراءة المتواترة، ونظيره الحِبُّ بكسر الحاء المهملة بمعنى المحبوب.

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: عادتنا أنْ لا نسقيَ حتى يَصْرِفَ الرعاةُ مواشِيَهم - بعد ريِّها - عن الماء عجزاً عن مُساجَلَتهم، لا أنَّا لا نسقي اليوم إلى تلك الغاية.

وقرأ ابن مصرف: «لا نُسْقي» بضم النون من الإسقاء[١].

وقرأ أبو جعفر وشيبة والحسن وقتادة، والعربيان: ابن عامر وأبو عمرو: «يَصْدُرَ» بفتح الياء وضمِّ الدال[٢]، أي: حتى يَصْدُرَ الرعاةُ بأغنامهم. وسأل بعض الملوك عن الفرق بين القراءتين من حيث المعنى، فأجيب بأن قراءة «يَصْدُرَ» بفتح الياء تدلُّ على فَرْطِ حيائهما وتواريهما من الاختلاط بالأجانب، وقراءة «يُصْدِرَ» بضمِّ الياء تدلُّ على إصدار الرعاة المواشي، ولم يُفهم منها صدورُهم عن الماء.

وقرئ بزايٍ خالصةٍ[٣]، وبحرفٍ بين الصَّاد والزاي[٤].

وقرئ: «الرُّعاء» بضمِّ الراء[٥]، والمعروف في صيغ الجمع فِعَال بكَسْرِ الفاء كما في قراءة الجمهور، وأمَّا فُعال بالضم فعَلَى خلافِ القياس؛ لأنه من أبنية المصادر والمفردات كنُباح وصُراخ. واذا استُعمل في معنى الجمع كما في القراءة الشاذة، فقيل: هو اسمُ جمعٍ لا جمعٌ، وقيل: إنه جمعٌ أصليٌّ، وقيل: إنه جمعٌ ولكنَّ الأصل فيه الكسرُ، والضمُّ فيه بدلٌ من الكسر كما أنه بدل من الفتح في نحو سُكارى، والوارد منه في كلام العرب ألفاظٌ محصورةٌ ذكرها الخفاجيُّ في «شرح

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٠، والبحر ٧/ ١١٣.

(٢) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١ عن ابن عامر وأبي عمرو وأبي جعفر، والكلام من البحر ٧/ ١١٣.

(٣) الإملاء ٤/ ١٤٧.

(٤) أي: بإشمام الصاد زاياً، وبه قرأ الأخوان وخلف ورويس، وقرأ غيرهم بالصاد الخالصة. البدور الزاهرة ص٢٤٠.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/ ١١٣.

درة الغوَّاص»، والمشهورُ منها على ما قال ثمانيةٌ، وقد نَظَمها صَدْرُ الأفاضل - لا الزمخشريُّ على الأصحِّ - بقوله:

ما سمعنا كَلِماً غيرَ ثمان هي جمعٌ وهي في الوزن فُعال
فرُبابٌ وفُرارٌ وتُؤامٌ وعُرامٌ وعُراقٌ ورُخَال
وظؤارٌ جمع ظئرٍ وبُساطٌ جمع بسطٍ هكذا فيما يقال(١)

وذهب أبو حيان إلى أنَّ «الرِّعاء» في قراءة الجمهور ليس بقياسٍ أيضاً؛ قال: لأنه جمعُ راعٍ، وقياسُ «فاعِلٍ» الصفةِ التي للعاقل أن تُكسَّر على فُعَلَة كقاضٍ وقُضاة، وما سوى جَمْعِه هذا فليس بقياس(٢).

وقرأ عياش عن أبي عمرو: «الرَّعاء» بفتح الراء، وهو مصدر أُقيم مقام الصفة، فاستوى لفظُ الواحد والجماعة فيه، وجوَّز أن يكون مما حذف منه المضاف(٣)، أي: أهلُ الرعاء.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ إبداءٌ منهما للعذر له عليه السلام في تولِّيهما للسقي بأنفسهما، كأنهما قالتا: إنَّا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدرُ على مُساجَلةِ الرجال ومزاحمتِهم، وما لَنا رجلٌ يقومُ بذلك، وأبونا شيخٌ كبيرُ السِّن قد أضعفه الكبر، فلا بدَّ لنا من تأخير السقي إلى أن يقضي الناسُ أوطارهم من الماء.

وذكر بعضُهم أنه عليه السلام أخرج السؤال على ما يقتضيه كرمُه ورحمتُه بالضعفاء، حيث سألهما عن مطلوبهما من التأخُّر والذودِ قصداً لأنْ يجاب بطلب

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): الرباب جمع رُبَّى: الشاة الحديثة العهد بالنتاج. والفُرار جمع فَرير: ولد البقرة الوحشية. والتؤام جمع توأم: المولود مع قرينه. والعُرام بالعين والراء المهملتين بمعنى العراق، وهو جمعُ عَرْقِ العَظْم: الذي عليه بقية لحم. والرُّخال جمع رِخلة بالكسر وبهاء وككَتِف: الأنثى من أولاد الضأن. والظُّؤار جمع ظِئْر: المُرضع. والبُساط جمع بسط: الناقة التي تخلَّى مع ولدها. اهـ منه.
قلنا: وزاد ابن بري كما في اللسان (عرق): رُذال جمع رَذْل، ونُذال جمع نَذْل، وثُناء جمع ثِنْي للشاة تلد في السنة مرتين، وظُهار جمع ظَهْر للريش على السهم، وبُراء جمع بريء، وعَدَّ العُرام والعُراق واحداً، فصارت الجملة - كما قال - اثني عشر حرفاً.

(٢) البحر ٧/ ١١٣.

(٣) المصدر السابق.

المعونة، إلا أنهما لجلالةِ قَدْرِهما حَمَلَتا قوله على ما يجاب عنه بالسبب وفي ضِمْنِه طلبُ المعونة؛ لأنَّ إظهارهما العجزَ ليس إلا لذلك.

وقيل: ليس في الكلام ما يدلُّ على ضَعْفِهما، بل فيه أماراتٌ على حيائهما وسترهما، ولو أرادتا إظهارَ العجز لقالتا: لا نقدِرُ على السقي، ومعنى «وأبونا شيخ كبير»: أنَّا مع حيائنا إنما تصدَّينا لهذا الأمر لكبره وضعفه، وإلا كان عليه أن يتولَّاه.

ولعل الأَوْلَى أن يقال: إنهما أرادتا إظهار العجز عن المساجلة؛ للضَّعْفِ، ولِمَا جُبِلا عليه من الحياء، والكلامُ وإنْ لم يكن فيه ما يدلُّ على ضَعْفِهما فيه ما يشير إليه لمن له قلبٌ.

ويُفهم من بيان معنى جوابهما المارِّ آنفاً أنَّ جملة «أبونا شيخ كبير» عطفٌ على مقدَّرٍ، وجوِّز أن تكون حالاً، أي: نترك السقي حتى يصدر الرعاءُ والحالُ أبونا شيخٌ كبيرٌ.

وأبوهما عند أكثر المفسرين شعيبٌ عليه السلام.

فإن قيل: كيف ساغ لنبيِّ الله تعالى أن يَرْضَى لابنتيه بسقي الغنم؟

فالجواب: أنَّ الأمر في نفسِه ليس بمحظورٍ، فالدِّين لا يأباه، وأمَّا المروءةُ فالناسُ مختلفون في ذلك، والعاداتُ متباينةٌ فيه، وأحوالُ العرب فيه خلافُ أحوال العجم، ومذهبُ أهل البدو فيه غيرُ مذهبِ أهل الحَضَر، خصوصاً إذا كانت الحالُ حالَ ضرورةٍ[1].

وذهب جماعةٌ إلى أنه ليس بشعيبٍ عليه السلام، فأخرج سعيد بن منصور، وابنُ أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي عبيدة أنه قال: كان صاحبُ موسى عليه السلام أثرون ابن أخي شعيبٍ النبيِّ عليه السلام[2]. وحكى هذا القولَ

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦٦، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٥/ ١٢٦. وأخرجه أيضاً الطبري ١٨/ ٢٢٣.

عنه أبو حيان أيضاً، إلا أنه ذكر: هارون، بدل: أثرون. وحكاه أيضاً عن الحسن إلَّا أنه ذكر بدله: مروان(١).

وحكى الطبرسيُّ عن وهبٍ وسعيد بنِ جبير نحوَ ما حكاه أبو حيان عن أبي عبيدة(٢).

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال: بلغني أنَّ أبا الامرأتين ابنُ أخي شعيب، واسمُه: رعاويل، وقد أخبرني مَن أصدِّقُ أنَّ اسمه في الكتاب يثرون كاهن مدين، والكاهن حبر(٣).

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: الذي استأجر موسى عليه السلام يثرب صاحب مدين(٤). وجاء في روايةٍ أخرى عنه أن اسمه: يثرون، وهو موافقٌ لِمَا نُقِلَ عن الكتاب من الاسم، ولم يذكر في هاتين الروايتين نسبتُه إلى شعيبٍ عليه السلام، فيحتمل أنَّ المسمَّى بما فيها ابن أخيه، ويحتمل أنه رجلٌ أجنبيٌّ عنه، فقد قيل: إنَّ أباهما ليس ذا قرابةٍ من شعيب عليه السلام، وإنما هو رجلٌ صالحٌ.

وحكى الطبرسيُّ عن بعضهم أنَّ يثرون اسم شعيب(٥). وقد أخبرني بعضُ أهل الكتاب بذلك أيضاً، إلا أنه قال: هو عندنا يثرو، بدون نونٍ في آخره، والذي رأيتُه أنا في الفصل الثاني من السفر الثاني من توراتهم ما ترجمتُه: ولمَّا سمع فرعون بهذا الخبر ـ أي: خبر القتل ـ طلب أن يقتل موسى، فهرب موسى من بين يديه وصار إلى بلدِ مدين، وجلس على بئرِ ماءٍ، وكان لإمام مدين سبعُ بناتٍ، فجاءت ودلَّت وملأت الأحواض لسقي غنم أبيهنَّ، فلما جاء الرعاة فطردوهنَّ قام موسى فأغاثهنَّ وسقى غنمهنَّ، فلمَّا جئن إلى رعوايل أبيهنَّ قال: ما بالُكنَّ أسرعتُنَّ المجيءَ اليوم.. إلخ(٦).

---

(١) البحر ٧/ ١١٤.

(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٢٨٢، وفيه: يثرون.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٢٦.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢٣، وفيه: يثرى.

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٨٢.

(٦) العهد القديم، سفر الخروج، ص١٥٥، وفيه: رعوئيل، بدل: رعوايل.

وفي أول الفصل الثالث منه ما ترجمته: وكان موسى يرعى غنم يثرو حَمِيهِ إمام مدين.. إلخ[١]. فلا تغفل.

وفي «البحر» عند الكلام في تفسير «إنَّ أبي يدعوك»: قيل: كان عمَّها صاحب الغنم وهو المزوِّج، عبَّرت عنه بالأب إذ كان بمثابته[٢]. والظاهر أنَّ هذا القائلَ يقول: إنهما عَنَتَا بالأب هنا العمَّ.

وأنت تعلم أنَّ هذا وأمثالَه مما تقدَّم مما لا يقال من قِبَلِ الرأي، فالمدارُ في قبول شيءٍ من ذلك خبرٌ يعوَّلُ عليه، والأخبار التي وقفنا عليها في هذا المطلب مختلفةٌ، ولم يتميَّز عندنا ما هو الأرجحُ فيما بينها، وكأنِّي بك تعوِّلُ على المشهور الذي عليه أكثرُ المفسرين، وهو أنَّ أباهما على الحقيقة شعيبٌ عليه السلام، إلى أن يظهر لك ما يوجبُ العدولَ عنه.

والظاهرُ من قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أنه عليه السلام سارع إلى السقي لهما رحمةً عليهما، ومنشأُ الترحُّمِ كونُهما على الذَّوْدِ، وكونُ الأمَّةِ من الناس على السقي، ولهذا ذهب الشيخ عبد القاهر[٣] وصاحب «الكشاف»[٤] إلى أنَّ حَذْفَ المفعول في «يسقون» و«تذودان» للقَصْدِ إلى نفس الفعل، وتنزيلِه منزلةَ اللازم، أي: يَصْدُرُ منهم السقيُ ومنهما الذود، وقالا[٥]: إنَّ كونَ المَسْقيِّ والمَذودِ إبلاً أو غنماً خارجٌ عن المقصود، بل يُوهِمُ خلافَه؛ إذ لو قيل أو قدِّر: يسقون إبلهم، وتذودان غنمهما، لتُوهِّم أنَّ الترحُّم عليهما ليس من جهةِ أنهما على الذود والناس على السقي، بل من جهةِ أنَّ مَذُودَهما غنمٌ ومَسْقِيَّهم إبلٌ، بناءً على أنَّ محطَّ الفائدة في الكلام البليغ هو القيدُ الأخير.

وخالفهما في ذلك السكاكيُّ[٦]، فذهب إلى أنَّ حذف المفعول من «يسقون»

---

(١) العهد القديم ص١٥٦، وفيه: يِثْرو.

(٢) البحر ٧/ ١١٤.

(٣) في دلائل الإعجاز ص١٦١-١٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٦٩.

(٤) في الكشاف ٣/ ١٧٠-١٧١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٦٩.

(٥) في (م): وقال.

(٦) في مفتاح العلوم ص٢٢٩، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٦٩.

و«تذودان» لمجرَّدِ الاختصار، والمراد: يسقون مواشيهم وتذودان غنمهما، وكذا سائرُ الأفعال المذكورة في هذه الآية.

واختاره العلَّامة الثاني فقال: إنَّ هذا أقربُ إلى التحقيق؛ لأنَّ الترحُّم لم يكن من جهةِ صدورِ الذود عنهما وصدورِ السقي من الناس، بل من جهة ذودهما غنمهما، وسقيِ الناس مواشِيَهم، حتى لو كانتا تذودان غير غنمهما بل مواشيهم، وكان الناس يسقون غير مواشيهم بل غنمهما مثلاً، لم يصحَّ الترحُّم.

ووافقه في ذلك السيد السند، وقال في تحقيق المذهبين: إنَّ الشيخين(١) اعتبرا المفعول الذي نزل الفعلان بالنسبة إليه هو الإبلُ والغنم مثلاً، أي: النوعين من المواشي بدون الإضافة، كما يدلُّ عليه قولُهما: إنَّ كون المسقيِّ والمذود إبلاً أو غنماً.. إلخ، وكلٌّ منهما مقابلٌ للآخر في نفسه، وجعلا ما يضاف إليه كلٌّ في القول أو التقدير المفروض خارجاً عن المفعول من حيث إنه مفعولٌ، غيرَ ملحوظٍ معه، فالمفعولُ عندهما ليس إلا مطلقَ الإبل والغنم، فلو قدِّر المفعولُ لأدَّى إلى فساد المعنى، فإنهما لو كانتا تذودان إبلاً لهما على سبيل الفرض لكان الترحُّم باقياً بحاله؛ لأنه إنما كان لعدم قدرتهما على السقي، والسكاكيُّ نظر إلى أنَّ المفعول هو الغنم المضافةُ إليهما والمواشي المضافةُ إليهم، وكلُّ واحدٍ منهما يقابل الآخر من حيث إنه مضافٌ، فلو لم يقدَّر المفعول يَفْسُدُ المعنى، وهذا أدقُّ نظراً وأصحُّ معنًى. انتهى.

وتعقَّبه المولى عبد الحكيم السيالكوتيُّ بقوله: وفيه بحثٌ؛ لأن عدم التقدير إن قُصِد به التعميمُ ـ أي: يسقون مواشِيَهم وغيرَ مواشيهم، وتذودان غَنَمَهما وغيرَ غَنَمِهما ـ يلزم الفساد، أما إذا قُصِدَ به مجرَّد السقي والذود من غير ملاحظة التعلُّق بالمفعول، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فلا؛ لأنَّ كون طبيعة السقي والذود منشأ الترحُّم لا يقتضي أن يكون عند تعلُّقه بمفعولٍ مخصوصٍ كذلك حتى يلزم أن يكون سقيُ غيرِ مواشيهم وذودُ غير غنمِهم محلًّا للترحُّم، فتدبر، فإنَّ منشأ ما ذكره السكاكيُّ عدمُ الفرق بين الإطلاق والعموم. انتهى.

---

(١) يعني الشيخ عبد القاهر والزمخشري.

ولا يخفى أنه ينبغي أن يضم إلى طبيعة السقي والذود بعض الحيثيات، كحيثيةِ تحقُّقِ طبيعة السقي من أقوياءَ متغلِّبين، وتحقُّق طبيعة الذود من امرأتين ضعيفتين مستورتين، في موضعٍ هو مجتمعُ الناس للسقي، وإلا فالظاهرُ أنَّ مجرَّد طبيعة السقي والذودِ لا تصلُح منشأً للترحُّم.

وقال بعض الأجلَّة[1]: تركُ المفعول في «يسقون» و«يذودان» لأن الغرض هو الفعلُ لا المفعولُ؛ إذ هو يكفي في البعث على سؤال موسى عيه السلام، وما زاد على المقصود لكنةٌ وفضول، وأما البعثُ على المرحمة فليس هذا موضعُه، فإنَّ له قولهما: «لا نسقي حتى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وأبونا شيخٌ كبير» ومَن لم يفرِّق بين البعثين قال ما قال.

ورُدَّ بأنَّ منشأ السؤال هو المرحمةُ لحالهما كما صرَّحوا به، فسؤالُه عليه السلام للتوسُّلِ إلى إعانتهما وبرِّهما لتفرُّس ضَعْفِهما وعَجْزِهما، ولولاه لم يكن للتكلُّم مع الأجنبية داعٍ، وقولُهما: «لا نسقي» إلخ باعثٌ لمزيد المرحمة؛ لقبولها للزيادة والنقص.

وتعقِّب بأنه إنما يتمُّ لو سلِّم أنه عليه السلام تفرَّس ضَعْفَهما وعَجزهما لأمورٍ شاهدها، وإلَّا فالذودُ لا يدلُّ على ذلك؛ إذ يتحقَّق للضعف ولغيره.

وقد نقل الخفاجيُّ كلامَ جمعٍ من الفضلاء في هذا المقام منه ما ذكرنا عن بعض الأجلَّة، وردَّه واعتَرض بما اعْتَرَضَ، ثم قال: وأمَّا ما اعتُرض به على المرحمة فخيالٌ فاسدٌ[2]. ومحطُّ كلامه عليه الرحمة الانتصارُ لِمَا ذهب إليه الشيخان، وقد انتصر لهما وقالَ بقولهما غيرُ واحد.

واعترض بعضهم على تقدير المفعول مضافاً بأنَّ الإضافة تُشْعِر بالملك، ولا ملكَ لأحدٍ من الأمَّة والامرأتين، فإنَّ الظاهر في الأمة أنهم كانوا رعاءً، والأغلبُ أنَّ الرِّعاء لا يملكون، والظاهرُ أنَّ ما في يد الامرأتين كان ملكاً لأبيهما. ولا يخفى أنَّ هذا الاعتراض على طرف الثمام، والله تعالى أعلم.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٦٩.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٧٠.

هذا والظاهرُ أنه عليه السلام سقى لهما من البئر التي عليها الناس، ويدلُّ عليه ما روي أنه عليه السلام دفعهم عن الماء إلى أن سقى لهما. وكذا ما أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إنَّ موسى عليه السلام لمَّا ورد ماء مدين وجد عليه[١] أمةً من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيقُ رفعَها إلَّا عشرةُ رجالٍ؛ فإذا هو بامرأتين قال: ما خطبكما؟ فحدَّثَتاه، فأتى الصخرة فرفعها وحده ثم استقى[٢]، فلم يستسق إلَّا دلواً واحداً حتى رَوِيَتِ الغنم[٣]. لكنَّ هذا مخالفٌ لِمَا يقتضيه ظاهر الآية من أنه عليه السلام حين ورد ماء مدين وجد الأمَّة يسقون ووجد الامرأتين تذودان، وهذا ظاهرٌ في مقارنة وجدانهما لوجدانهم وذودهما لسقيهم، ولا يكاد يُفهم منه أنَّ وجدانهما بعد فراغهم من السقي كما يقتضيه الخبر، فلعل الخبر غير صحيح[٤]، وتصحيح الحاكم محكومٌ عليه بعدم الاعتبار، وكأنَّ مَن يقول بصحته يمنع اقتضاءَ الآية كونَ وجدان الأمة يسقون ووجدانِ الامرأتين تذودان في أول وقت الورود، فإنه يقال: لمَّا ورد رسول الله ﷺ المدينةَ وجب الصيامُ ووجبت الزكاةُ مثلاً، مع أنَّ وجوب كلٍّ ليس في أول وقت الورود، فيجوز أن يكون عليه السلام قد وجد أمةً يسقون أول وقت وروده، وبعد أن فرغوا من السقي ووضعوا الصخرة على البئر وجد امرأتين تذودان فخاطبهما بـ «ما خطبكما»، فكان ما كان، ويُحمل ذودهما على منع غنمهما عن التقدُّم إلى البئر لعلمهما أنها قد أُطبق عليها صخرةٌ لا يقدرون على رفعها، ويتكلَّف في توجيه الجواب ما يتكلَّف.

---

(١) في (م): عليها.

(٢) في (م): استسقى.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٦٦٤، والمستدرك ٢/ ٤٠٧، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٢٤-١٢٥. وهو عندهم مطولٌ، ولم ترد هذه القطعة من الخبر في المستدرك.

(٤) بل إسناده صحيح، فقد أخرجه ابن أبي شيبة ومن طريقه ابن أبي حاتم، والحاكم من طريق أحمد بن مهران الأصبهاني، عن عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل بن يونس، عن أبي إسحاق السبيعي، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن عمر رضي الله عنه، وهذا إسناد صحيح كما قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

أو يقول: الآيةُ على ظاهرها، ويسلِّم اقتضاءَه اتحادَ الوجدانين والذودِ والسقي بالزمان، ويمنع أن يكون في الخبر ما ينافي ذلك؛ لجواز أن يكون المعنى: لمَّا ورد ماء مدين وجد عليه أمةً يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان، فلما فرغوا أعادوا الصخرةَ فإذا بالامرأتين حاضرتان عنده بين يديه، فسألهما فحدَّثتاه.. إلخ، فما بعد الفراغ من السقي ليس وجدانَ الامرأتين تذودان وإنما هو حضورُهما بين يديه. والكلُّ كما ترى، وكأني بك تعتمد عدمَ صحة الخبر.

وقيل: إنه عليه السلام سقى لهما من بئرٍ أخرى، فقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر[١] عن ابن عباس رضي الله عنهما في خبر طويل أنه عليه السلام لمَّا سأل الامرأتين وأجابتا قال: فهل قربَكما ماء؟ قالتا: لا، إلا بئرٌ عليها صخرةٌ قد غطِّيت بها لا يطيقُها نفر، قال: فانْطَلِقا فأرِيَانيها. فانطلقتا[٢] معه، فقال بالصخرة بيده فنحَّاها، ثم استقى لهما سَجْلاً واحداً فسقى الغنم، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ الذي كان هناك، وهو على ما روي عن ابن مسعود ظلُّ شجرةٍ قيل: كانت سمرةً. وقيل: هو ظلُّ جدارٍ لا سقفَ له.

وقيل: إنه عليه السلام جعل ظهره يلي ما كان يلي وجهَه من الشمس، وهو المراد بقوله تعالى: (ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ). وهو كما ترى.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ أي: لأيِّ شيءٍ تُنزله من خزائن كرمك إليَّ ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ جلَّ أو قلَّ ﴿فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: محتاجٌ، وهو خبرُ «إنَّ» وبه يتعلَّق «لِمَا»، ولِمَا أشرنا إليه من تضمُّنه معنى الاحتياج عدِّي باللام، وجوِّز أن يكون مضمَّناً معنى الطلب، واللامُ للتقوية، وقيل: يجوز أن تكون للبيان فتتعلَّق بأعني محذوفاً.

و«ما» على جميع الأوجه نكرةٌ موصوفةٌ، والجملةُ بعدها صفتُها، والرابطُ محذوفٌ، و«من خير» بيانٌ لها، والتنوينُ فيه للشيوع.

والكلامُ تعريضٌ لِمَا يَطْعَمُه؛ لِمَا ناله من شدة الجوع، والتعبير بالماضي بدل المضارع في «أَنزلْتَ» للاستعطاف، كالافتتاح بـ «ربِّ»، وتأكيدُ الجملة للاعتناء.

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٤، والكلام منه.

(٢) في الأصل و(م): فانطلقا، والمثبت من الدر المنثور.

ويدلُّ على كون الكلام تعريضاً لذلك ما أخرجه ابن مردويه(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لمَّا سقى موسى عليه السلام للجاريتين ثم تولَّى إلى الظلِّ فقال: ربِّ إنِّي لِما أنزلت إليَّ من خيرٍ فقير، [قال:] «إنه يومئذٍ فقيرٌ إلى كفٍّ من تمر».

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر(٢) وابن أبي حاتم، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس قال: لقد قال موسى عليه السلام: «ربِّ إنِّي لِمَا أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقير» وهو أكرمُ خَلْقِه عليه، ولقد افتقر إلى شقِّ تمرةٍ، ولقد لصق بطنُه بظهره من شدَّة الجوع(٣).

وفي روايةٍ أخرى عنه: إنه عليه السلام سأل فلقاً من الخبز يشدُّ بها صُلْبَه من الجوع(٤).

وكان عليه السلام قد ورد ماء مدين وأنه كما رَوَى أحمدُ في «الزهد» وغيرُه عن الحبر: ليتراءى خضرة البقل من بطنه من الهزال(٥).

وإلى كون الكلام تعريضاً لذلك ذهب مجاهدٌ وابن جبير وأكثر المفسرين. وكان عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه يقول: والله ما سأل إلَّا خبزاً يأكله.

وجوِّز أن تكون اللام للتعليل و«ما» موصولةً و«من» للبيان، والتنكيرُ في «خير» لإفادة النوع والتعظيم، وصلة «فقير» مقدَّرة، أي: إني فقيرٌ إلى الطعام - أو من الدنيا - لأجل الذي أنزلته إليَّ من خير الدِّين وهو النجاةُ من الظالمين، فقد كان عليه السلام عند فرعون في ملكٍ وثروةٍ، وليس الغرضُ عليه التعريضَ لِمَا يَطْعَمُه،

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٥، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٢) قوله: ابن المنذر، ساقط من (م)، والمثبت من الأصل والدر المنثور ٥/ ١٢٥، والكلام منه.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢١٦، والأحاديث المختارة ١٠/ ١٥٢، وهو في تفسير ابن أبي حاتم بلفظ آخر، وسيرد قريباً.
(٤) أخرج هذه الرواية البيهقي في الزهد (٤٤٤).
(٥) لم نقف عليه عند أحمد، وأخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦١، وعزاه لأحمد السيوطي في الدر ٥/ ١٢٥.

ولا التشكِّي والتضجُّر، بل إظهار التبجُّح والشكر على ذلك، ووجهُ التعبير بالماضي عليه ظاهر.

وأنت تعلم أنَّ هذا خلافُ المأثور الذي عليه الجمهور، ومثله في ذلك ما روي عن الحسن أنه عليه السلام سأل الزيادةَ في العلم والحكمة، ولا يخلو أيضاً عن بُعْدٍ.

وجاء عن ابن عباس أنَّ الامرأتين سمعتا ما قال فرجعتا إلى أبيهما، فاستنكر سرعةَ مجيئهما فسألهما فأَخْبَرَتاه، فقال لإحداهما: انطلقي فادْعِيه ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ قيل: هي الكبرى منهما، وقيل: الصغرى. وكانتا ـ على ما في بعض الروايات ـ توأمتين وُلِدتْ إحداهما قبل الأخرى بنصف نهار.

وقرأ ابن محيصن: «حْداهما» بحذف الهمزة تخفيفاً[١] على غير قياسٍ، مثل: وَيْلُمِّه، في: ويلُ أمِّه.

﴿تَمْشِى﴾ حال من فاعلِ «جاءت».

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ متعلِّقٌ بمحذوف هو حالٌ من ضمير (تَمْشِى)، أي: جاءته ماشيةً كائنةً على استحياءٍ، فمعناه أنها كانت على استحياءِ حالتي المشي والمجيء معاً، لا عند المجيء فقط، وتنكيرُ «استحياء» للتفخيم، ومن هنا قيل: جاءت متخفِّرةً، أي: شديدةَ الحياء. وأخرج سعيد بن منصور وابن جريرٍ وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن أبي الهذيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: جاءت مستترةً بكمِّ دِرْعِها على وجهها[٢]. وأخرجه ابن المنذر عن [ابن] أبي الهذيل موقوفاً عليه[٣]. وفي رَفْعِه إلى عمر روايةٌ أخرى صحَّحها الحاكم بلفظِ: واضعةً ثوبها على وجهها[٤].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٥٠، والبحر ٧/ ١١٤.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢١٨، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٢٥.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٢٥، وما بين حاصرتين منه.

(٤) قطعة من خبر طويل في المستدرك ٢/ ٤٠٧، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣١، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦٥. وقد سلف قطعة منه قريباً، ووقع في المستدرك: يدها، بدل: ثوبها.

﴿قَالَتْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكايةِ مجيئها إياه عليه السلام، كأنه قيل: فماذا قالت له عليه السلام؟ فقيل: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: جزاءَ سَقْيِك، على أنَّ «ما» مصدريةٌ، ولا يجوز أن تكون موصولةً لأنَّ ما يستحقُّ عليه الأجرَ فعلُه لا ما سقاه؛ إذ هو الماءُ المباح.

وأَسْندتِ الدعوةَ إلى أبيها وعلَّلتْها بالجزاء لئلَّا يُوهِمَ كلامُها ريبةً، وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفَّة ما لا يخفى.

وروي أنه عليه السلام أجابها، فقام معها فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فإنِّي أكره أن تصيبَ الريحُ ثيابَكِ فتَصِفَ لي جسدك. ففعلَتْ.

وفي رواية أنه قال لها: كوني ورائي فإنِّي رجلٌ لا أنظر إلى أدبارِ النساء، ودُلِّيني على الطريق يميناً أو يساراً.

وروي عن ابن عباس وقتادة وابن زيد وغيرهم أنها مَشَتْ أولاً أمامه فألزقت الريح ثوبَها بجسدها فوصفته، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق. ففعلت، حتى أتيا دار شعيبٍ عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي: ما جرى عليه من الخبر المقصوص، فإنه مصدرٌ سمي به المفعولُ كالعَلَل[1].

﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥﴾ يريد فرعونَ وقومَه، وقال ذلك لِمَا أنه لا سلطان لفرعون بأرضه، ويحتمل أنه قاله عن إلهامٍ أو نحوه.

واختلف في الداعي له عليه السلام إلى الإجابة؛ فقيل: الذي يلوحُ من ظاهر النظم الكريم أنَّ موسى عليه السلام إنما أجاب المستدعيةَ من غير تلعثُمٍ ليتبرَّك برؤية الشيخ ويستظهرَ برأيه، لا طمعاً بما صرَّحت به من الأجر، ألا ترى إلى ما أخرج ابنُ عساكر عن أبي حازم قال: لمَّا دخل موسى على شعيب عليهما السلام إذا هو بالعشاء، فقال له شعيبٌ: كُلْ. قال موسى: أعوذ بالله تعالى. قال: ولِمَ، أَلَسْتَ بجائعٍ؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لِمَا سقيتُ لهما، وأنا

---

(١) العَلَلَ مصدر علَّ، وهو يأتي بمعنى: الشربة الثانية، أو الشرب بعد الشرب تباعاً. القاموس (علل).

من أهل بيتٍ لا نبيعُ شيئاً من عمل الآخرة بملءِ الأرض ذهباً. قال: لا والله، ولكنها عادتي وعادةُ آبائي، نَقْري الضيف ونُطعمِ الطعامَ. فجلس موسى عليه السلام فأكل[١].

وقيل: الداعي له ما به من الحاجة، وليس بمستنكَرٍ منه عليه السلام أن يقبل الأجر لإضرار الفقر والفاقة؛ فقد أخرج الإمام أحمد عن مطرِّف بن الشِّخِّير قال: أَمَا والله لو كان عند نبيِّ الله تعالى شيءٌ ما تبع مَذْقَتَها، ولكنْ حَمَله على ذلك الجهد[٢].

واستَدلَّ بعضهم على أنَّ ذهابه عليه السلام رغبة بالجزاء بما روي عن عطاء بن السائب أنه عليه السلام رفع صوته بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لِيُسْمِعَهما، ولذلك قيل له: «ليجزيك».. إلخ.

وأجيب بأنه ليس بنصٍّ؛ لاحتمال أنه إنما فعله ليكون ذريعةً إلى استدعائه لا إلى استيفاءِ الأجر.

ولا ضيرَ فيما أرى أن يكون عليه السلام قد ذهب رغبةً في سدِّ جوعته، وفي الاستظهار برأي الشيخ ومعرفته، ولا أقول: إنَّ الرغبة في سدِّ الجوعة رغبةٌ في استيفاء الأجر على عملِ الآخرة أو مستلزمةٌ لها. ودعوى أنَّ الذي يَلُوحُ من ظاهر النظم الكريم أنه عليه السلام إنما أجاب للتبرُّك والاستظهار بالرأي لا تخلو عن خفاءٍ.

وعملُه عليه السلام بقول امرأةٍ لأنه من باب الرواية، ويُعمل بقول الواحدِ حرًّا كان أو عبداً، ذكراً كان أو أنثى، إذا كان كذلك، ومماشاتُه امرأةً أجنبيةً مما لا بأسٍ به في نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط والتورُّع.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ وهي التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوَّجها من موسى عليهما السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي: لرعي الأغنام والقيامِ بأمرها. وأصلُ الاستئجار كما قال الراغب: طلبُ الشيء بالأجرة، ثم عبِّر به عن تناوله بها، وهو

(١) تاريخ ابن عساكر ٢٣/٧٨، وأخرجه أيضاً الدارمي (٦٤٧).
(٢) الدر المنثور ٥/١٢٥، ولم نقف عليه عند أحمد.

المراد هنا، وكذا في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾[١] وهو تعليلٌ جارٍ مجرى الدليلِ على أنه عليه السلام حقيقٌ بالاستئجار المفهوم من طلب استئجاره. وبعضُهم رتَّب من الآية قياساً من الشكل الأول هكذا: هو قويٌّ أمينٌ، وكلُّ قويٍّ أمينٍ لائقٌ بالاستئجار، ينتج: هو لائقٌ بالاستئجار، وهو المدَّعَى المفهومُ من الطلب.

وتعقِّب بأنَّ هذا ظاهرٌ لو كان «خير» خبراً، وليس هو كذلك.

وأجيب بأنَّ المعنى على ذلك، إلا أنه جُعِلَ اسماً للاهتمام بأمر الخيرية؛ لأنها أمُّ الكمال المبنيُّ عليها غيرها.

وفي «الكشاف»: فإنْ قيل: كيف جُعِلَ «خيرَ مَن استأجَرْتَ» اسماً لـ «إنَّ» و«القويُّ الأمين» خبراً؟ قلت: هو مثل قوله:

ألا إنَّ خيـر الـنـاس حيًّـا وهـالـكـاً ... أسيرُ ثقيفٍ عندهم في السلاسل

في أنَّ العناية هي سببُ التقديم، وقد صَدَقَتْ حتى جُعِلَ لها ما هو أحقُّ أن يكون خبراً اسماً[٢].

وأراد بذلك على ما قيل: أحقيةَ كون «خير» خبراً من حيث الصناعةُ، ووجِّه بأنَّ «خيراً» مضافٌ إلى «مَن» وهي نكرةٌ، فكذا هو، والإخبارُ عن النكرة بالمعرفة خلافُ الظاهر، وإن جوَّزوه في اسمي التفضيل والاستفهام. ولو جُعلت موصولةً فإضافةُ أفعل التفضيل لفظيةٌ لا تفيدُ تعريفاً كما هو أحدُ قولين للنحاة فيها، وعلى القول بإفادتها التعريف يقال: المعرَّفُ باللام أعرفُ من الموصول وما أضيف إليه.

وتعقِّب بأنَّ تعريف «القويّ الأمين» للجنس، وما فيه تعريفُ الجنس قد يُنزَّلُ منزلةَ النكرة.

وأجيب بأنَّ الموصول إذا أريد به الجنسُ كذلك، وهنا تصحُّ هذه الإرادة ليجيء

---

(١) مفردات الراغب (أجر).

(٢) الكشاف ٣/ ١٧٢، والبيت لأبي الشَّغب العبسي، قاله في خالد بن عبد الله القسري، وكان سجيناً عند يوسف بن عمر الثقفي والي العراق. شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٩٢٧.

التعدُّد الذي يقتضيه «خير»، وحيث كان المضافُ إلى شيءٍ دونه يكون «القويُّ الأمين» أحقَّ بالاسمية و«خير» أحق بالخبرية، وإذ قلتَ بأنَّ أحقِّية الخبرية لأنَّ سَوْقَ التعليل يقتضيها إلا أنه عُدِل إلى الاسمية للاهتمام، خلصتَ من كثيرٍ من المناقشات.

وقال لي الشيخ خليل أفندي الآمدي يومَ اجتمعتُ به وأنا شابٌّ عند وروده إلى بغداد، فجرى بحثٌ في هذه الآية الكريمة: إنَّ القياسَ المأخوذ منها من الشكل الثاني هكذا: موسى القويُّ الأمين، وخيرُ مَن استأجرتَ القويُّ الأمين، ينتج: موسى خيرُ مَن استأجَرْتَ.

فقلت: أظهرُ ما يَرِدُ على هذا أنَّ شرط إنتاج الشكل الثاني بحسب الكيفية اختلافُ مقدِّمتيه بالإيجاب والسلب، بأنْ تكون إحداهما موجبةً والأخرى سالبةً، وهو منتفٍ فيما ذَكَرْتَ. فسكت وأعرض عن البحث حَذَراً من الفضيحة.

وأنت تعلم أنَّ أدلة القرآن لا يلزمُ فيها الترتيب الذي وضعه المنطقيون، فذلك صناعةٌ أغنى الله تعالى العرب عنها.

وما ذُكر من أنَّ جَعْلَ «خير» اسماً للاهتمام هو ما اختاره غيرُ واحد، وجوَّز الطيبيُّ أن يكون تقديمه وجَعْلُه اسماً من باب القَلْبِ للمبالغة.

والظاهرُ أنَّ «أل» في «القوي الأمين» للجنس، فيندرجُ موسى عليه السلام، وهو وجهُ الاستدلال، وذِكْرُ الاستئجار بلفظ الماضي مع أنَّ الظاهر ذِكْرُه بلفظ المضارع للدلالة على أنه أمرٌ قد جُرِّبَ وعُرف. وجوَّز الطيبيُّ أن يكون المراد بالقويِّ الأمين موسى عليه السلام، فكأنها قالت: إنَّ خير مَن استأجرتَ موسى، والأولُ أولى.

ثم إنَّ كلامها هذا كلامٌ حكيمٌ جامعٌ لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت الخصلتان ـ أعني الكفايةَ والأمانةَ في القائم بأمرك ـ فقد فرغ بالُك وتمَّ مرادُك. وقد استَغْنَتْ بإرسال هذا الكلام الذي سياقُه سياقُ المَثَلِ والحكمة أن تقول: استأْجِرْه لقوَّته وأمانته، ولَعَمْري إنَّ مثل هذا المدح من المرأة للرجل أجملُ من المدح الخاصِّ وأبقى للحشمة، وخصوصاً إن كانت فهمتْ أنَّ غرض أبيها أن يزوِّجها منه.

ومعرفتُها قوَّتَه عليه السلام لِمَا رأت مِن دَفْعِه الناسَ عن الماء وحده حتى سقى لهما، ومعرفتُها أمانتَه من عدم تعرُّضِه لها بقبيحٍ مّا مع وَحْدَتِها وضَعْفِها.

وروي أنها لمَّا قالت ما قالت قال لها أبوها: ما أَعْلَمَكِ بقوَّته؟ فذكرت له أنه عليه السلام أقلَّ صخرةً على البئر لا يُقِلُّها كذا وكذا. وقد مرَّ في حديثِ عمر رضي الله عنه أنه لا يُطيق رَفْعَها إلا عشرةُ رجالٍ[1]. والنقل في عدد مَن يقلُّها مضطربٌ، فأقلُّ ما قالوا فيه سبعةٌ، وأكثرُه مئة، وقد مرَّ ما يُعْلَم منه حالُ الخبر في أصل الإقلال. وذَكَرتْ أنه نزع وحده بدلوٍ لا ينزعُ بها إلا أربعون.

وقال: ما أَعْلَمَكِ بأمانته؟ فذكرت ما كان من أمره إياها بالمشي وراءه، وأنه صوب رأسه حتى بلغته الرسالة.

وقدَّمتْ وصفَ القوةِ مع أنَّ أمانة الأجير لحفظ المال أهمُّ في نظر المستأجر لتقدُّم عِلْمِها بقوَّته عليه السلام على علمها بأمانته، أو ليكون ذكرُ وصفِ الأمانة بعده من باب الترقِّي من المهمِّ إلى الأهم.

واستُدِلَّ بقولها: «استأجره» على مشروعية الإجارة عندهم، وكذا كانت في كلِّ ملَّةٍ، وهي من ضروريات الناس ومصلحةِ الخِلْطةِ، خلافاً لابن عُليَّة والأصمِّ حيث كانا لا يُجيزانها، وهذا مما انعقد عليه الإجماعُ، وخلافُهما خَرْقٌ له[2]، فلا يُلْتفَتُ إليه.

وهذا لَعَمْري غريبٌ منهما إن كانا لا يجيزان الإجارة مطلقاً، ورأيتُ في «الإكليل» أنَّ في قوله تعالى: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ إلخ ردًّا على مَن مَنَعَ الإجارة المتعلِّقةَ بالحيوان عَشْرَ سنين لأنه يتغيَّر غالباً[3]، فلعل الإجارة التي لا يُجيزانها نحوُ هذه الإجارة، والأمرُ في ذلك أهونُ من عدم إجازة الإجارة مطلقاً كما لا يخفى.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فما قال

---

(١) سلف ص١٥١ من هذا الجزء.

(٢) البحر ٧/ ١١٥.

(٣) الإكليل للسيوطي ص٢٠٤، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٧.

أبوها بعد أن سمع كلامها؟ فقيل: «قال إنِّي». وفي تأكيد الجملة إظهارٌ لمزيد الرغبة فيما تضمَّنته الجملة.

وفي قوله: «هاتين» إيماءٌ إلى أنه كانت له بناتٌ أُخَرُ غيرهما، وقد أخرج ابن المنذر[1] عن مجاهدٍ أنَّ لهما أربعَ أخواتٍ صغار. وقال البقاعيُّ: إنَّ له سبعَ بناتٍ كما في التوراة[2]، وقد قدَّمنا نَقْلَ ذلك[3]. وفي «الكشاف»: فيه دليل على ذلك[4].

واعتُرِضَ بأنه لا دلالةَ فيه على ما ذكر؛ إذ يكفي في الحاجة إلى الإشارة عدمُ علم المخاطب بأنه ما كانت له غيرهما.

وتعقِّب بأنه على هذا تكفي الإضافةُ العهديةُ ولا يحتاج إلى الإشارة، فهذا يقتضي أن يكون للمخاطب علمٌ بغيرهما معهودٌ عنده أيضاً، وإنما الإشارةُ لدفع إرادةِ غيرهما من ابنتيه الأُخريين المعلومتين له من بينهنَّ؛ ونِعْمَ ما قال الخفاجي: لا وَجْه للمشاحَّةِ في ذلك، فإنَّ مثله زهرةٌ لا يَحتَمِلُ الفَرْك[5].

وقرأ ورش وأحمد بن موسى عن أبي عمرو: «أُنْكِحَكَ حْدَى» بحذفِ الهمزة[6].

وقولُه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ في موضع الحال من مفعولِ «أُنكِحَكَ»، أي: مشروطاً عليك، أو واجباً، أو نحو ذلك. ويجوز أن يكون حالاً من فاعله؛ قاله أبو البقاء[7].

و«تأجرني» من أَجَرْتُه: كنتُ له أجيراً، كقولك: أَبَوْتُه: كنتُ له أباً، وهو بهذا المعنى يتعدَّى إلى مفعولٍ واحد، وقولُه تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ ظرفٌ له.

ويجوز أن يكون «تأجرني» بمعنى تُثيبني، من أَجَره الله تعالى على ما فعل،

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٥.
(٢) نظم الدرر ١٤/ ٢٧٦، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٧١.
(٣) ص١٤٧ من هذا الجزء.
(٤) أي: فيه دليل على أنه كان له غيرهما. الكشاف ٣/ ١٧٢.
(٥) حاشية الشهاب ٧/ ٧١.
(٦) البحر ٧/ ١١٥.
(٧) في الإملاء ٢/ ١٤٨-١٤٩.

أي: أثابه، فيتعدَّى إلى اثنين ثانيهما هنا «ثماني حجج»، والكلامُ على حذفِ المضاف وإقامةِ المضاف إليه مقامه، أي: تثيبني رعيةَ ثماني حجج، أي: تجعلها ثوابي وأَجْري على الإنكاح، ويعني بذلك المهر.

وجوِّز على هذا المعنى أن يكون ظرفاً لـ «تأجرني» أيضاً بحذف المفعول، أي: تعوِّضني خدمتَك ـ أو عملك ـ في ثماني حجج.

ونقل عن المبرِّد أنه يقال: أَجَرْتُ داري ومملوكي غير ممدود، وآجَرْتُ ممدوداً، والأول أكثر، فعلى هذا يتعدَّى إلى مفعولين، والمفعولُ الثاني محذوفٌ، والمعنى: على أن تأجرني نفسَكَ. وقد يتعدَّى إلى واحدٍ بنفسه والثاني بـ «من»، فيقال: أَجَرْتُ الدارَ من عمرو. وظاهر كلامِ الأكثرين أنه لا فَرْقَ بين آجَرَ بالمدِّ وأَجَر بدونه، وقال الراغب: يقال: أَجَرْتُ زيداً، إذا اعتُبر فِعْلُ أحدهما، ويقال: آجَرْتُه إذا اعتُبِرَ فعلاهما، وكلاهما يرجعان إلى معنى[١]. ويقال كما في «القاموس»: أَجَرْتُه أجراً وآجَرْتُه إيجاراً ومُؤاجَرةً[٢].

وفي «تحفة المحتاج»: آجَرَه بالمدِّ إيجاراً، وبالقصر يَأْجرُه بكَسْرِ الجيم وضمِّها أَجْراً. وفيها: أنَّ الإجارة بتثليث الهمزة ـ والكسر أفصحُ لغة ـ اسمٌ للأجرة، ثم اشتهرت في العقد[٣].

والحججُ جمع حِجَّةٍ بالكسر: السَّنَة.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ في الخدمة والعمل ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: فهو من عندك من طريق التفضُّلِ، لا مِن عندي بطريق الإلزام.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزامِ إتمام العشر، والمناقشةِ في مراعاةِ الأوقات واستيفاء الأعمال. واشتقاقُ المشقَّة ـ وهي ما يصعبُ تحمُّله ـ من الشَّقِّ بفتح الشين: وهو فَصْلُ الشيء إلى شقين، فإنَّ ما يَصْعُبُ عليك يَشُقُّ عليك رأيَكَ في أمره، لتردُّده في تحمُّله وعدمِه.

---

(١) مفردات الراغب (أجر).

(٢) القاموس (أجر).

(٣) تحفة المحتاج ٦/ ١٢١.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ في حُسْنِ المعاملة ولِيْنِ الجانب والوفاءِ بالعهد، ومرادُ شعيبٍ عليه السلامُ بالاستثناء التبرُّكُ به وتفويضُ أمره إلى توفيقه تعالى، لا تعليقُ صلاحه بمشيئته سبحانه، بمعنى أنه إن شاء الله تعالى استَعْمَلَ الصلاحَ وإن شاء عزَّ وجلَّ استعمل خلافَه؛ لأنه لا يناسب المقام. وقيل: لأنَّ صلاحه عليه السلام متحقِّقٌ فلا معنى للتعليق، ونحوُه قول الشافعيِّ: أنا مؤمنٌ إن شاء الله تعالى.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، أي: ذلك الذي قلت وعاهدتني فيه وشارَطْتَني عليه قائمٌ وثابتٌ بيننا جميعاً لا يخرجُ عنه واحدٌ منَّا، لا أنا عمَّا شَرَطْتَ عليَّ، ولا أنت عمَّا شَرَطْتَ على نفسك.

وقوله سبحانه: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ أي: أطولهما أو أقصرهما ﴿قَضَيْتُ﴾ أي: وفيتُك بأداء الخدمة فيه ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ تصريحٌ بالمراد، وتقريرٌ لأمر الخيار، أي: لا عدوانَ كائنٌ عليَّ بطلب الزيادة على ما قضيتُه من الأَجَلَيْنِ، وتعميم انتفاء العدوان بكِلَا الأجلين بصَدَدِ المشارطة، مع تحقُّق عدم العدوان في أطولهما رأساً، للقَصْدِ إلى التسوية بينهما في الانتفاء، أي: كما لا أطالبُ بالزيادة على العشر لا أطالبُ بالزيادة على الثمان، أو: أيما الأجلين قضيتُ فلا إثم كائنٌ عليَّ [يعني][(١)] كما لا إثم عليَّ في قضاء الأطول لا إثم عليَّ في قضاء الأقصر فقط.

وقرأ عبد الله: «أيَّ الأجليْنِ ما قضيت»[(٢)] فـ «ما» مزيدةٌ لتأكيد القضاء، أي: أيَّ الأجلين صمَّمْتُ على قضائه وجرَّدْتُ عزيمتي له، كما أنها في القراءة الأولى مزيدةٌ لتأكيد إبهام «أي» وشياعها، وجَعْلُها نافية لا يخفى ما فيه.

وقرأ الحسن والعباس عن أبي عمرو: «أيْما» بتسكين الياء من غير تشديدٍ[(٣)]، كما في قول الفرزدق:

تنظَّرْتُ نصراً والسماكين أيْهُما ... عليَّ من الغيث استهلَّتْ مَواطِرُه[(٤)]

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٧/ ١١، والكلام منه.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥، والكشاف ٣/ ١٧٤، والبحر ٧/ ١١٥.
(٣) القراءات الشاذة ص١١٢، والمحتسب ٢/ ١٥٠، والبحر ٧/ ١١٥، والعباس هو ابن الفضل كما ذكر ابن خالويه.
(٤) ديوان الفرزدق ١/ ٢٨١، والبيت من قصيدة في مدح نصر بن سيار، وتنظَّرت بمعنى: =

وأصلُها المشدَّدةُ وحُذِفت الياءُ تخفيفاً، وهي ممَّا عينُه واوٌ ولامُه ياءٌ، ونصَّ ابنُ جنِّي على أنها من باب: أويت، قياساً واشتقاقاً[1]. وقد نقل كلامه في بيان ذلك العلَّامة الطيبيُّ في «شرح الكشاف»، فليَرْجعْ إليه مَن شاء.

وقرأ أبو حيوة وابن قطيب: «فلا عِدْوان» بكسر العين[2].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من الشروط الجارية بيننا ﴿وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي: شهيدٌ، على ما روي عن ابن عباس. وقال قتادة: حفيظ. وفي «البحر»[3]: الوكيلُ الذي وُكل إليه الأمر، ولمَّا ضُمِّنَ معنى شاهِدٍ ونحوِه عُدِّي بـ «على». ومن هنا قيل: أي: شاهدٌ حفيظٌ.

والمرادُ توثيقُ العهدِ، وأنه لا سبيلَ لأحدٍ منهما إلى الخروج عنه أصلاً، وهذا بيانٌ لِمَا عزما عليه واتَّفقا على إيقاعه إجمالاً من غير تعرُّضٍ لبيانِ مواجبِ عَقْدَي النكاح والإجارة في تلك الشريعة تفصيلاً.

وقولُ شعيبٍ عليه السلام: «إنِّي أريد أن أُنكحك» إلخ ظاهرٌ في أنه عَرْضٌ لرأيه على موسى عليه السلام واستدعاءٌ منه للعقد، لا إنشاءٌ وتحقيقٌ له بالفعل، ولم يجزم القائلون باتفاق الشريعتين في ذلك بكيفية ما وقع، فقيل: لعل النكاح جرى على معيَّنةٍ بمهرٍ غيرِ الخدمة المذكورة، وهي إنما ذُكرت على طريق المعاهَدةِ لا المعاقَدة، فكأنه قال: أريد أن أنكحك إحدى ابنتيَّ بمهرٍ معيَّنٍ إذا أَجَرْتَني ثمانيَ حججٍ بأجرةٍ معلومةٍ، فما تقول في ذلك؟ فرضي، فعقد له على معيَّنةٍ منهما، فلا يَرِدُ أنَّ الإبهام في المرأة المزوَّجة غيرُ صحيح، وعلى الخدمة ومنافع الحرِّ عندنا أيضاً، خصوصاً إذا قيل: إنَّ مدتها غيرُ معيَّنةٍ، وهي أيضاً ليست للزوجة بل لأبيها، فكيف صحَّ كونُها مهراً؟

= انتظرت، والسماكان كوكبان وهما من الأنواء. واستهلَّ بمعنى: انصبَّ، كهلَّ. والمواطر جمع ماطرة، وهي السحابة، يعني أنه انتظر الممدوح وجودَه وأحدَ الأنواءِ الماطرة، ولم يفرِّق بينهما. حاشية الشهاب ٧/ ٧٢.

(١) المحتسب ٢/ ١٥٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/ ١١٥.

(٣) ٧/ ١١٦.

وقيل: يجوزُ أن يكون جرى على معيَّنةٍ بمهرِ الخدمةِ المذكورة، ولا فسادَ في جَعْلِ الرعْيةِ مهراً، فإنه جائزٌ عند الشافعيِّ عليه الرحمةُ، وكذا عند الحنفية كما يُفهم من «الهداية»[(١)]، ونقل عن صاحب «المدارك» أنه قال: التزوُّج على رعي الغنم جائزٌ بالإجماع؛ لأنه قيامٌ بأمر الزوجية لا خدمةٌ صرفةٌ[(٢)].

وفي دعوى الإجماع إنْ أريد به إجماعُ الأئمة مطلقاً بحثٌ، ففي «المحيط البرهانيِّ»: لو تزوَّجها على أن يَرْعَى غنمها سنةً لم يجز على رواية الأصل، وروى ابنُ سماعة[(٣)] عن محمد أنه يجوزُ في الرعي.

وفي «الانتصاف»: مذهب مالك في ذلك على ثلاثة أقوال: المنعُ، والكراهةُ، والجواز[(٤)]. ويقال على الجواز: كانت الغنم للمزوَّجةِ لا لأبيها. وليس في المدة إبهامٌ إذ هي الحجج الثمان، والزائد[(٥)] قد وَعَدَ موسى عليه السلام الوفاءَ به إنْ تيسَّر له، على أنَّ الإبهام في المهر يجوزُ كما هو مبيَّنٌ في الفروع.

وقال بعضهم: يجوز أن تكون الشرائعُ مختلفةً في أمر الإنكاح، فلعل إنكاح المبهمة جائزٌ في شريعة شعيبٍ عليه السلام، ويكون التعيينُ للوليِّ أو للزوج، وكذا جَعْلُ خدمةِ الوليِّ صداقاً، ونحوُ ذلك مما لا يجوزُ في شريعتنا.

ولا يَرِدُ أنَّ ما قصَّ من الشرائع السالفة من غير إنكارٍ فهو شرعٌ لنا؛ لأنه على الإطلاق غيرُ مسلَّمٍ. وفي «الإكليل» عن مكِّي أنه قال: في الآية خصائصُ في النكاح: منها أنه لم يعيِّن الزوجة، ولا حَدَّ أوَّلَ المدة، وجَعَلَ المهر إجارةً، ودخل ولم ينفذ شيئاً[(٦)].

والذي يميل إليه القلب اختلافُ الشرائع في مواجب النكاح، وربما يُستأنس

---

(١) الهداية مع شرح فتح القدير ٢/ ٤٥١.

(٢) مدارك التنزيل المعروف بتفسير النسفي ٤/ ٤٩.

(٣) كما في فتح القدير لابن الهمام ٢/ ٤٥١.

(٤) الانتصاف مع الكشاف ٣/ ١٧٣.

(٥) في (م): والزائدة.

(٦) الإكليل للسيوطي ص٢٠٣، وذكره عن مكي أيضاً القرطبي ١٦/ ٢٦٢ وفيه: ... ودخل ولم يَنْقُد ...

له بما في الفصل التاسع والعشرين من السفر الأول من التوراة[١]: أنَّ يعقوب عليه السلام مضى إلى بلدِ أهل الشرق، فإذا بئرٌ في الصحراء على فمها صخرةٌ عظيمةٌ وعندها ثلاثةُ قطعانٍ من الغنم، فقال لرعاتها: من أين أنتم يا إخوة؟ قالوا: من حران[٢]. فقال لهم: أتعرفون لابان بن ناحور؟ فقالوا: نعم. فقال: أحيٌّ هو؟ قالوا: نعم، وهذه راحيل ابنتُه مع الغنم. ثم قال: ليس هذا وقت انضمام الماشية فاسقوا الغنم وامضوا بها فارعوها. قالوا: لا نطيق ذلك إلى أن تجتمع الرعاة ويدحرجوا الصخرةَ عن فم البئر، فبينما هو يخاطبهم جاءت راحيل مع غنم أبيها، فلمَّا رأى ذلك تقدَّم ودحرج الصخرة وسقى غنم خاله لابان، ثم قبَّل راحيل وبكى وأخبرها أنه ابنُ عمتها ربقا[٣]، فأخبرت أباها فخرج للقائه فعانقه وقبَّله وأدخله إلى منزله، ثم قال لابان له: أمَّا أنتَ فعَظْمي ولحمي. ومكث عنده شهراً فقال له لابان: أنت وإن كنتَ ذا قرابةٍ منِّي لا أستحسن أن تخدمني مجاناً، فأخبرني بما تريد من الأجرة؟ وكان له ابنتان اسم الكبرى لَيآ[٤] واسم الصغرى راحيل، وعينا لَيآ حسنتان، وراحيل حسنةُ الحلية والمنظر، فأحبَّها يعقوب فقال: أخدمك سبعَ سنين براحيل. فقال لابان: إعطائي إياها لك أصلحُ من إعطائي إياها لرجلٍ آخر، فأقِمْ عندي. فخدمه براحيل سبعَ سنين ثم قال: أعطني زوجتي فقد كَملَتْ أيامي. فجمع لابان أهل الموضع وصنع لهم مجلساً، فلما كان العشاء أخذ لَيآ ابنته فزفَّها إليه، ودخل عليها، فأعطاها لابان أَمَتَه زَلْفَا لتكون لها أمَةً، فلما كانت الغداةُ فإذا هي ليآ، فقال للابان: ماذا صنعتَ بي، أليس براحيل خَدَمْتُكَ؟ قال: نعم، لكن لا تزوَّج الصغرى قبل الكبرى في بلدنا، فأكْمِلْ أسبوعَ هذه وأعطيك أختها راحيل أيضاً بالخدمة التي تخدمها عندي سبعَ سنين أُخر. فكمل يعقوبُ أسبوعَ لَيآ ثم أعطاه ابنته راحيل زوجةً، وأعطاها أَمَتَه بَلْهَا لتكون لها أمةً، فلمَّا دخل عليها يعقوب أحبَّها أكثر من حبِّه ليآ، ثم خدمه سبع سنين أُخر. اهـ.

---

(١) العهد القديم ص١١١.
(٢) في التوراة: حاران.
(٣) في التوراة: رِفْقَة.
(٤) في (م): ليا، وفي التوراة: لَيْئة. وكذا في باقي المواضع، والمثبت من الأصل.

وأخبرني بعضُ أهل الكتاب أنه يجوز أن تكون خدمةُ الأب مهراً لابنته، ويلزم الأبَ إرضاؤها بشيء إذا كانت كبيرةً، وأنَّ ما التُزِمَ من الخدمة لا يجب فِعْلُه قبل الدخول، ويكفي الالتزامُ والتعهُّد، وأنَّ المهر عندهم كلُّ شيءٍ له قيمةٌ أو ما في حكمها، وأنَّ تسليم المرأة نفسَها للزوج راضيةً بما يحصل لها منه من قضاء الوطر والانتفاع بدلاً عن المهر قد يقوم مقام المهر، وأنَّ حِلَّ الجمع بين الأختين كان ليعقوب عليه السلام خاصةً، وهذا الأخيرُ ممَّا ذكره علماء الإسلام، واللهُ تعالى أعلمُ بصحة غيره ممَّا ذكر من الكلام.

هذا وللعلماء في الآية استدلالاتٌ؛ قال في «الإكليل»[1]: فيها استحبابُ عَرْضِ الرجل موليته على أهل الخير والفضل أن ينكحوها. واعتبارُ الوليِّ في النكاح، وأنَّ العمى لا يقدحُ في الولاية فإنه عليه السلام كان أعمى. واعتبارُ الإيجاب والقبول في النكاح.

وقال ابن الفرس: استدلَّ مالكٌ بهذه الآية على إنكاح الأب البكرَ البالغةَ بغير استئمارٍ؛ لأنه لم يُذْكَر فيها استئمارٌ. قال: واحتجَّ بها[2] بعضهم على جواز أن يُكتب في الصداق: أُنْكِحُه إياها، خلافاً لمن اختار: أُنْكِحُها إياه، قائلاً: لأنه إنما يملك النكاحَ عليها لا عليه.

وقال ابن العربي[3]: استدلَّ بها أصحابُ الشافعيِّ على أنَّ النكاح موقوفٌ على لفظ الإنكاح والتزويج.

قال[4]: واستدلَّ بها قومٌ على جواز الجمع بين نكاحٍ وإجارةٍ في صفقةٍ واحدةٍ، فعدُّوه إلى كلِّ صفقةٍ تجمعُ عقدين وقالوا بصحتها.

قال[5]: واستدلَّ بها علماؤنا على أنَّ اليسار لا يُعتبر في الكفاءة، فإنَّ موسى عليه السلام لم يكن حينئذٍ موسراً.

---

(١) ص٢٠٣.
(٢) قوله: بها، ساقط من (م).
(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٥٦.
(٤) أي: ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٤.
(٥) أي: ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٦.

قال[١]: وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ اكتفاءٌ بشهادة الله عزَّ وجل، إذ لم يُشْهِدا[٢] أحداً من الخلق، فيدل على عدم اشتراط الإشهاد في النكاح. اهـ.

واستدل بها الأوزاعيةُ على صحة البيع فيما إذا قال: بعتك بألفٍ نقداً، أو ألفين نسيئةً. انتهى ما في «الإكليل» مع حذفٍ قليل. ولا يخفى ما في هذه الاستدلالات من المقالات والمنازعات.

ثم إنَّ ما تقدَّم عن مكي من أنه عليه السلام دخل ولم ينفذ شيئاً مما قاله غيره أيضاً، وقد روي أيضاً من طريق الإمامية عن أبي عبد الله رضي الله عنه[٣].

وقيل: إنه عليه السلام لم يدخل حتى أتمَّ الأَجَل.

وجاء في بعض الآثار أنهما لمَّا أتمَّا العقد قال شعيبٌ لموسى عليهما السلام: ادخل ذلك البيتَ فخذ عصاً من العصيِّ التي فيه. وكان عنده عصيُّ الأنبياء عليهم السلام، فدخل وأخذ العصا التي هبط بها آدمُ من الجنة، ولم تزل الأنبياءُ عليهم السلام يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب، فقال له شعيب: خذ غيرَ هذه. فما وقع في يده إلَّا هي سبعَ مرات، فعلم أنَّ له شأناً.

وعن عكرمة أنه قال: خرج آدمُ عليه السلام بالعصا من الجنة، فأخذها جبرائيل عليه السلام بعد موته، وكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً فدفعها إليه.

وفي «مجمع البيان»[٤] عن أبي عبد الله رضي الله عنه أنه قال: كانت عصا موسى قضيبَ آسٍ من الجنة أتاه بها جبرائيل عليه السلام لمَّا توجَّه تلقاءَ مدين.

وقال السديُّ: كانت تلك العصا قد أَوْدَعَها شعيباً مَلَكٌ في صورة رجلٍ، فأمر ابنته أن تأتي بعصاً، فدخلت وأخذت العصا فأتته بها، فلمَّا رآها الشيخ قال: ائتيه بغيرها. فردَّها سبع مراتٍ فلم يقع في يدها غيرُها، فدفعها إليه، ثم ندم لأنها وديعةٌ، فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أولُ طالعٍ، فأتاهما الملك

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٨.
(٢) في الأصل و(م) والإكليل: يشهد، والمثبت من أحكام القرآن.
(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٢٨٥.
(٤) ٢٠/ ٢٨٦.

فقال: أَلْقِيَاها فمن رفعها فهي له. فعالجها الشيخ فلم يُطِقْها، ورَفَعها موسى عليه السلام.

وعن الحسن: ما كانت إلا عصاً من الشجر اعترضها اعتراضاً.

وعن الكلبيِّ: الشجرة التي نودي منها شجرةُ العَوْسَج ومنها كانت عصاه.

وروي أنه لمَّا شَرَعَ عليه السلامُ بالخدمة والرَّعي قال له شعيب: إذا بلغتَ مفرقَ الطريق فلا تأخذ على يمينك؛ فإنَّ الكلأ وإن كان بها أكثَرَ إلَّا أنَّ فيها تنِّيناً أخشاه عليك وعلى الغنم، فلمَّا بلغ مفرق الطريق أخذت الغنم ذاتَ اليمين ولم يقدر على كفِّها، ومشى على أثرها فإذا عشبٌ وريفٌ لم يَرَ مثلَه، فنام فإذا بالتنِّين قد أقبل، فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى عليه السلام داميةً، فلمَّا أبصرها داميةً والتنين مقتولاً ارتاح لذلك، ولمَّا رجع إلى شعيب وجد الغنم ملأى البطونِ غزيزةَ اللبن، فأخبره موسى عليه السلام بما كان، ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأناً، وقال له: إنِّي وهبتُ لك من نتاج غنمي هذا العام كلَّ أدرعَ ودَرْعاءَ. فأوحى الله تعالى إليه في المنام أن اضْرِبْ بعصاك مُسْتقَى الغنم، ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدةٌ إلا وَضَعتْ أَدْرعَ أو دَرْعاءَ، فوفى له شعيبٌ بما قال.

وحكى يحيى بن سلام أنه جعل له كلَّ سخلةٍ تُولَدُ على خلافِ شيةِ أمِّها، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام في المنام أنْ أَلْقِ عصاك في الماء الذي تَسقي منه الغنم. ففعل، فولَدَتْ كلُّها على خلافِ شيتها.

وأخرج ابن ماجه والبزار وابن المنذر والطبرانيُّ وغيرهم من حديث عتبةَ السلميِّ مرفوعاً: «أنه عليه السلام لمَّا أراد فراقَ شعيب أَمَرَ امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمُه من قالِبِ لونٍ[1] من ذلك العلم، وكانت غنمُه سوداءَ حسناءَ، فانطلق موسى إلى عصاه فسماها من طرفها، ثم وضعها في أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها ووقف بإزاء الحوض، فلم يصدر منها شاةٌ إلا ضرب جنبها شاةً شاةً، فأتأمت وأثلثت[2] ووضعت كلُّها قوالِبَ ألوانٍ

---

(١) أي: ما جاءت على غير ألوان أمهاتها، كأن لونها قد انقلب. النهاية (قلب).

(٢) في الأصل و(م): فأنمث وانثنت، وفي تفسير ابن أبي حاتم والدر المنثور: فأنمت وأثلثت، =

إلا شاةً أو شاتين، ليس فيها فَشُوشٌ» أي: واسعة الشخب[1] «ولا ضَبُوب» أي: طويلة الضرع تجرُّه «ولا عَزُوز» أي: ضيقة الشخب «ولا ثَعول» أي: لا ضرعَ لها إلا كهيئة حلمتين «ولا كمشة تفوتُ الكفَّ»[2] أي: صغيرة الضرع لا يدركه[3] الكفُّ. وظاهرُ هذا الخبر أنَّ الهبة كانت لزوجته عليه السلام، وأنه كان ذلك لمَّا أراد فراق شعيب عليهما السلام، وهو خلافُ ما يقتضيه ظاهر ما تقدم.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أي: أتمَّ المدة المضروبةَ لِمَا أراد شعيبٌ منه، والمراد به: الأجَلُ الآخَرُ كما أخرجه ابن مردويه عن مقسم عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما[4].

= والمثبت من تفسير ابن كثير نقلاً عن ابن أبي حاتم، ويؤيده ما جاء في رواية البزار: فولدت قوالب ألوان كلها وولدت ثنتين أو ثلاثاً كلُّ شاة...

(١) الشَّخب ويضم: ما خرج من الضرع من اللبن. القاموس (شخب).

(٢) البزار (٢٢٤٦ - كشف الأستار)، والمعجم الكبير ١٧/(٣٣٢)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٣٧٨)، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧٠-٢٩٧١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٢٦. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري وفي حفظه سوء، وأخشى أن يكون رفعه خطأ، وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك موقوفاً عليه ما يقارب بعضه بإسناد جيد. اهـ. وموقوف أنس في تفسير الطبري ١٨/ ٢٣٧-٢٣٨.

وأخرجه ابن ماجه (٢٤٤٤) من حديث عتبة بإسنادٍ آخر مقتصراً على قطعة في أوله لم يذكرها المصنف، وإسناده ضعيف أيضاً كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وابن حجر في الفتح ٤/ ٤٤٥.

وما أورده المصنف ضمن الحديث من شرح الفشوش وما بعدها أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧١ عن ابن لهيعة في جوابه لمن سأله عن معانيها. وفي النهاية: الفَشوش: التي ينفشُّ لبنها من غير حلب، أي: يجري، وذلك لسعة الإحليل. والضبوب: الضيقة ثقب الإحليل. والعزوز: الشاة القليلة اللبن الضيقة الإحليل. والثَّعول: الشاة التي لها زيادة حَلَمة، وهو عيب. والكموش - وهي الكمشة -: الصغيرة الضرع، سميت بذلك لانكماش ضرعها، وهو تقلُّصه. النهاية (فشش) و(ضبب) و(عزز) و(ثعل) و(كمش).

(٣) في (م): يدرك، والمثبت من الأصل وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧١، والدر المنثور ٣/ ١٢٦.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٢٧.

وأخرج البخاريُّ وجماعةٌ عن ابن عباس أنه سئل: أيَّ الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ فقال: قضى أكثرَهما وأطيبهما، إنَّ رسول الله إذا قال فعل[١].

وأخرج ابن مردويه من طريق عليّ بنِ عاصم عن أبي هارون عن أبي سعيد الخدريِّ أنَّ رجلاً سأله: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ فقال: لا أدري حتى أسألَ رسول الله ﷺ، فسأل رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: «لا أدري حتى أسألَ جبريل عليه السلام» فسأل جبريل فقال: لا أدري حتى أسأل ميكائيل عليه السلام، فسأل ميكائيل فقال: لا أدري حتى أسأل الرفيعَ، فسأل الرفيعَ فقال: لا أدري حتى أسأل إسرافيل عليه السلام، فسأل إسرافيل فقال: لا أدري حتى أسأل ذا العزة جلَّ جلالُه، فنادى إسرافيلُ بصوته الأشدِّ: يا ذا العزة، أيَّ الأجلين قضى موسى؟ قال: «أتمَّ الأجلين وأطيبهما: عَشْرَ سنين» قال علي بن عاصم: فكان أبو هارون إذا حدَّث بهذا الحديث يقول: حدثني أبو سعيد، عن النبيِّ ﷺ، عن جبريل، عن ميكائيل، عن الرفيع، عن إسرافيل، عن ذي العزة تبارك وتعالى: «أنَّ موسى قضى أتمَّ الأجلين وأطيبهما عَشْرَ سنين»[٢].

والفاء قيل: فصيحةٌ، أي: فعقد العقدين وباشَرَ موسى ما أُريدَ منه فلما أتمَّ الأجل ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦ﴾ قيل: نحو مصر بإذنٍ من شعيب عليه السلام لزيارة والدته وأخيه وأخته وذوي قرابته، وكأنه عليه السلام أقدمه على ذلك طولُ مدةِ الجناية، وغلبةُ ظنِّه خفاء أمره. وقيل: سار نحو بيت المقدس. وهذا أبعدُ عن القيل والقال.

﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي: أَبْصَرَ من الجهة التي تلي الطورَ، لا من بعضه كما هو المتبادر، وأصلُ الإيناس ـ على ما قيل ـ الإحساسُ، فيكون أعمَّ من الإبصار. وقال الزمخشريُّ: هو الإبصار البيِّن الذي لا شبهةَ فيه، ومنه: إنسان العين؛ لأنه يبينُ به الشيء، والإنسُ؛ لظهورهم، كما قيل: الجنُّ؛ لاستتارهم. وقيل: هو إبصارُ ما يؤنس به[٣].

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٨٤).

(٢) الدر المنثور ٥/١٢٦-١٢٧، وأبو هارون هو العبدي واسمه عمارة بن جوين، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك، ومنهم مَن كذَّبه.

(٣) الكشاف ٢/٥٣١.

﴿نَارًا﴾ استظهر بعضهم أنَّ المبصَرَ كان نوراً حقيقةً، إلَّا أنه عبَّر عنه بالنار اعتباراً لاعتقادِ موسى عليه السلام.

وقال بعض العارفين: كان المبصَر في صورة النار الحقيقيةِ، وأما حقيقتُه فوراء طورِ العقل، إلا أنَّ موسى عليه السلام ظنَّه النار المعروفة.

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا﴾ أي: أقيموا مكانكم، وكان معه عليه السلام ـ على قولٍ ـ امرأتُه وخادمٌ، ويخاطَبُ الاثنان بصيغة الجمع، وعلى قولٍ آخر كان معه ولدان له أيضاً، اسمُ الأكبر جيرشوم، واسمُ الأصغر أليعازر، وُلدا له زمانَ إقامته عند شعيب، وهذا مما يتسنَّى على القول بأنه عليه السلام دخل على زوجته قبل الشروع فيما أريد منه، وأما على القول بأنه لم يدخل عليها حتى أتمَّ الأجل فلا يتسنَّى إلَّا بالتزامِ أنه عليه السلام مكث بعد ذلك سنين، وقد قيل به؛ أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قضى موسى عَشْرَ سنين ثم مكث بعد ذلك عشراً أخرى[(١)].

وعن وهبٍ: أنه عليه السلام ولد له ولدٌ في الطريق ليلةَ إيناس النار.

وفي «البحر»[(٢)] أنه عليه السلام خرج بأهله وماله في فصل الشتاء، وأخذ على غير الطريق مخافةَ ملوك الشام، وامرأتُه حاملٌ لا يدري أليلاً تَضَعُ أم نهاراً؟ فسار في البرية لا يعرفُ طرقها، فألجاه السيرُ إلى جانب الطور الغربيِّ الأيمنِ في ليلة مُظْلمةٍ مُثْلِجَةٍ شديدةِ البرد.

وقيل: كان لغيرته على حرمه يَصْحَبُ الرفقة ليلاً ويفارقُهم نهاراً، فأضلَّ الطريق يوماً حتى أدركه الليلُ، فأخذ امرأتَه الطلقُ، فقدح زنده فأَصْلَدَ، فنظر فإذا نارٌ تلوحُ من بُعْدٍ، فقال: ﴿امْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: بخبرِ الطريق، بأنْ أَجِدَ عندها مَن يخبرني به، وقد كانوا كما سمعتَ ضلُّوا الطريق، والجملةُ استئنافٌ في معنى التعليل للأمر.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أي: عودٍ غليظٍ، سواءٌ كان في رأسه نارٌ كما في قوله:

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧١، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٢٧.
(٢) ٦/ ٢٢٩-٢٣٠.

وأَلْقَى على قيسٍ من النارِ جذوةً   شديداً عليها حرُّها والْتِهابُها[(١)]

أو لم تكن كما في قوله:

باتت حواطبُ ليلى يلتمسنَ لها   جَزْلَ الجِذا غيرَ خوَّارٍ ولا دَعِرِ[(٢)]

ولذا بُيِّنتْ كما قال بعض المحققين بقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، وجَعَلَها نفسَ النار للمبالغة، كأنها لتشبُّث النار بها استحالت ناراً.

وقال الراغب: الجذوةُ: ما يبقى من الحطب بعد الالتهاب[(٣)]. وفي معناه قول أبي حيان: عودٌ فيه نارٌ بلا لهب[(٤)].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: هي عودٌ من حطبٍ فيه النارُ[(٥)].

وأخرج هو وجماعةٌ عن قتادة أنها أصلُ شجرةٍ في طرفها النار[(٦)]. قيل: فتكون «من» على هذا للابتداء، والمراد بالنار هي التي آنسها.

وقرأ الأكثر: «جِذْوةً» بكسر الجيم، والأعمش وطلحة وأبو حيوة وحمزة بضمِّها[(٧)].

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ تستدفئون وتتسخَّنون بها، وفيه دليلٌ على أنهم أصابهم بَرْدٌ.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٧٤، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٧٢. قال الشهاب: قيس اسم قبيلة، ولذا قال: عليها، وهو استعارة لما لحقها من الفتنة التي كأنها نار متوقدة.

(٢) البيت لتميم بن أبي بن مقبل، وهو في ديوانه ص٩١. الحواطب جمع حاطبة، وهي: الجارية التي تجمع الحطب. والجزل: الحطب اليابس. والجِذا بكسر الجيم: جمع جذوة. والخوَّار: الضعيف الهش. والدَّعِر بفتح الدال وكسر العين: الرديء الكثير الدخان. حاشية الشهاب ٧/ ٧٢.

(٣) مفردات الراغب (جذو).

(٤) البحر ٧/ ١٠٣.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (٢٩٧٣).

(٦) الدر المنثور ٥/ ١٢٧، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٩١، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧٢ عن مجاهد.

(٧) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١ عن حمزة، وهي قراءة خلف من العشرة، وقرأ عاصم بفتح الجيم، والكسر قراءة الباقين.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النارَ التي آنَسها ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: أتاه النداءُ من الجانب الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام في مسيره، فـ «الأيمن» صفةُ الشاطئ، وهو ضدُّ الأيسر. وجوّز أن يكون «الأيمن» بمعنى: المتَّصف باليُمْنِ والبركةِ ضدّ الأشأم، وعليه فيجوزُ كونُه صفةً لـ «الشاطئ» أو«الوادي». و«مِن» على ما اختاره جمع لابتداء الغاية متعلِّقةٌ بما عندها، وجوّز أن تتعلّق بمحذوفٍ وقع حالاً من ضمير موسى عليه السلام المستترِ في «نودي»، أي: نودي قريباً من شاطئ الوادي، وجوّز على الحالية أن تكون «من» بمعنى «في»، كما في قوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٠] أي: نودي كائناً في شاطئ الوادي.

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ في موضع الحال من «الشاطئ»، أو صلة لـ «نودي». والبُقعةُ: القطعة من الأرض على غيرِ هيئةِ التي إلى جنبها، وتُفتَحُ باؤها كما في «القاموس»[1]، وبذلك قرأ الأشهب العقيليُّ ومسلمة[2]. ووُصِفَتْ بالبركة لِمَا خُصَّتْ به من آيات الله عزَّ وجلَّ وأنوارِه.

وقيل: لِمَا حَوَتْ من الأرزاق والثمار الطيبة. وليس بذاك.

وقوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدلٌ من قوله تعالى: (مِن شَٰطِيِٕ)، أو «الشجرة» فيه بدلٌ من «شاطئ» وأُعيد الجارُّ لأنَّ البدل على تكرار العامل، وهو بدلُ اشتمالٍ، فإن الشاطئ كان مشتملاً على «الشجرة» إذ كانت نابتةً فيه.

و«من» هنا لا تحتمل أن تكون بمعنى «في» كما سمعتَ في «مِن» الأولى، نعم جوّز فيها أن تكون للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ [نوح:٢٥] متعلِّقةً بـ «المباركة»، أي: البقعة المباركة لأَجْل الشجرة. وقيل: يجوز تعلُّقُها بـ «المباركة» مع بقائها للابتداء، على معنى أنَّ ابتداءَ بركتها من الشجرة.

وكانت هذه الشجرةُ على ما روي عن ابن عباس عُنَّاباً، وعلى ما روي عن ابن مسعود سَمُرةً، وعلى ما روي عن ابن جريج والكلبيِّ ووهب: عوسجة. وعلى ما روي عن قتادة ومقاتل: علّيقة، وهو المذكور في التوراة اليوم[3].

---

(١) مادة (بقع).
(٢) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ١١٦/٧.
(٣) العهد القديم ص١٥٦.

و«أنْ» في قوله تعالى: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ تحتملُ أن تكون تفسيريةً، وأنْ تكونَ مخفَّفةً من الثقيلة، والأصل: بأنه، والجارُّ متعلِّقٌ بـ «نودي»، والنداء قد يوصَلُ بحرف الجرِّ؛ أنشد أبو عليٍّ:

نـاديـتُ بـاسـم ربـيـعـةَ بـن مُـكـدَّمٍ   إنَّ الـمـنـوَّهَ بـاسـمـه الـمـوثـوقُ[1]

والضميرُ للشأن، وفسَّر الشأن بقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾. وقرأت فرقة: «أنّي» بفتح الهمز[2]، واستشكل بأنَّ «أنْ» إن كانت تفسيرية ينبغي كَسْرُ «إنَّ» وهو ظاهرٌ، وإن كانت مصدريةً واسمُها ضمير الشأن، فكذلك؛ إذ على الفتح تُسبك مع ما بعدها بمفردٍ، وهو لا يكون خبراً عن ضمير الشأن، وخرِّجت على أنَّ «أنْ» تفسيرية، و«أني» إلخ في تأويل مصدرٍ معمولٍ لفعل محذوف، والتقدير: أن[3] يا موسى اعلم أنِّي أنا الله.. إلخ.

وجاء في سورة «طه»: ﴿نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [الآية:١١] وفي سورة «النمل»: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الآية:٨] وما هنا غير ذلك، بل ما في كلٍّ غيرُ ما في الآخر، فاستشكل ذلك.

وأجيب بأنَّ المغايرة إنما هي في اللفظ، وأما في المعنى المراد فلا مغايرةَ. وذهب الإمام إلى أنه تعالى حكى في كلٍّ من هذه السور بعضَ ما اشتمل عليه النداءُ لِمَا أنَّ المطابقة بين ما في المواضع الثلاثة تحتاجُ إلى تكلُّفٍ ما[4].

والظاهرُ أنَّ النداء منه عزَّ وجلَّ من غير توسيطِ ملكٍ، وقد سمع موسى عليه السلام ـ على ما تدلُّ عليه الآثار ـ كلاماً لفظيًّا قيل: خَلَقَه الله تعالى في الشجرة بلا اتِّحادٍ وحلولٍ، وقيل: خلقه في الهواء كذلك، وسمعه موسى عليه السلام من جهة الجانب الأيمن أو من جميع الجهات، و«أنا» وإن كان كلُّ أحدٍ يشير به إلى نفسه فليس المعنيُّ به محلَّ لفظه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩، والخزانة ٦/ ٥٧، وهو للفرزدق وسلف ١٦/ ٢٥٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧، والبحر ٧/ ١١٧، والدر المصون ٨/ ٦٧٠.

(٣) في الأصل و(م): أي، والمثبت من الدر المصون ٨/ ٦٧٠.

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٤٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٧٣.

وذهب الشيخ الأشعريُّ والإمام الغزاليُّ[١] إلى أنه عليه السلام سمع كلامه تعالى النفسيَّ القديم بلا صوتٍ ولا حرفٍ، وهذا كما تُرى ذاتُه عزَّ وجلَّ بلا كيفٍ ولا كمٍّ.

وذكر بعضُ العارفين أنه إنما سمع كلامه تعالى اللفظيَّ بصوتٍ، وكان ذلك بعد ظهوره عزَّ وجلَّ بما شاء من المظاهر التي تقتضيها الحكمةُ، وهو سبحانه مع ظهوره تعالى كذلك باقٍ على إطلاقه حتى عن قيد الإطلاق، وقد جاء في الصحيح أنه تعالى يتجلَّى لعباده يومَ القيامة في صورة، فيقول: أنا ربُّكم، فينكرونه، ثم يتجلَّى لهم بأخرى فيعرفونه[٢].

والله تعالى وصفاتُه من وراء حُجُبِ العزة والعظمة والجلال، فلا يحدِّثَنَّ الفكرُ نفسَه بأنْ يكون له وقوفٌ على الحقيقة بحالٍ من الأحوال:

مرامٌ شطَّ مَرْمَى العقلِ فيه ودونَ مَدَاهُ بِيدٌ لا تَبيدُ[٣]

وذكر بعضُ السلفيين أنه عليه السلام إنما سمع كلامه تعالى اللفظيَّ بصوتٍ، مُنكِراً[٤] الظهور في المظاهر، عادًّا القول به من أعظم المناكر، ولابن القيِّم كلامٌ طويلٌ في تحقيق ذلك، وقد قدَّمنا لك في المقدِّمات ما يتعلَّقُ بهذا المقام[٥]، فتذكَّر والله تعالى وليُّ الإفهام.

وقال الحسن: إنه سبحانه نادى موسى عليه السلام نداءَ الوحي لا نداءَ الكلام. ولم يَرْتَضِ ذلك العلماءُ الأعلامُ؛ لِمَا فيه من مخالفة الظاهر، وأنه لا يظهر عليه وجهُ اختصاصه باسم الكليم من بين الأنبياء عليهم السلام، ووجهُ الاختصاص على القول بأنه سمع كلامه تعالى الأزليَّ بلا حرفٍ ولا صوتٍ ظاهرٌ، وكذا على القول

---

(١) في الاقتصاد في الاعتقاد ص١٤٤.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «... فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربُّكم. فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه. فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربُّكم. فيقولون: أنت ربُّنا».

(٣) سلف ١/ ١٣٠ و١٦/ ٢٣٤.

(٤) في (م): منكر.

(٥) ينظر ما سلف ١/ ١١٦ وما بعدها، وينظر كذلك التفسير القيم لابن القيم ص٣٧.

بأنه عليه السلام سمع صوتاً دالًا على كلامه تعالى بلا واسطةِ ملكٍ أو كتابٍ، سواءٌ كان من جانبٍ واحدٍ لكنْ بصوتٍ غيرِ مكتَسبٍ للعباد على ما هو شأن سماعنا، أو من جميع الجهات، لِمَا في كلٍّ من خَرْقِ العادة، وأمَّا وجهه عند القائلين بأنَّ السماع كان بعد التجلِّي في المظهر، فكذلك أيضاً إن قالوا بأنَّ هذا التجلِّي لم يقع لأحدٍ من الأنبياء عليهم السلام سوى موسى.

ثم إنَّ عِلْمَه عليه السلام بأنَّ الذي ناداه هو الله تعالى حَصَلَ له بالضرورة خَلْقاً منه سبحانه فيه. وقيل: بالمعجزة، وأوجب المعتزلةُ أن يكون حصولُه بها، فمنهم مَن عيَّنها ومنهم مَن لم يعيِّنها، زعماً منهم أنَّ حصول العلم الضروريِّ ينافي التكليف، وفيه بحث.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطفٌ على «أنْ يا موسى»، والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فصيحةٌ مُفْصِحةٌ عن جملٍ حُذِفَتْ تعويلاً على دلالة الحال عليها، وإشعاراً بغايةِ سرعةِ تحقُّقِ مدلولاتها، أي: فألقاها فصارت حيةً فاهتزَّتْ فلمَّا رآها تهتزُّ وتتحرَّك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ هي حيةٌ كحلاءُ العين لا تؤذي، كثيرةٌ في الدُّور، والتشبيهُ بها باعتبارِ سرعة حركتها وخفَّتها لا في هيئتها وجثَّتها، فلا يقال: إنه عليه السلام لمَّا ألقاها صارت ثعباناً عظيماً، فكيف يصحُّ تشبيهها بالجانِّ؟

وقال بعضهم: يجوزُ أن يكون المرادُ تشبيهَها بها في الهيئة والجثة، ولا ضير في ذلك لأن لها أحوالاً مختلفةً تَدِقُّ فيها وتَغْلُظ.

وقيل: الجانُّ يطلَقُ على ما عَظُمَ من الحيَّات، فيراد عند تشبيهها بها في ذلك. والأَوْلَى ما ذُكِرَ أوَّلاً.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ منهزماً من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يرجع ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي: نودي - أو قيل - يا موسى ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ من المخاوف، فإنه لا يخاف لديَّ المرسلون.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ﴾ أي: أَدْخِلْها ﴿فِى جَيْبِكَ﴾ هو فتحُ الجبَّة من حيث يخرجُ الرأس ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: عيب.

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي: من أَجْلِ المخافة. قال مجاهدٌ وابن زيد: أَمَره سبحانه بضمِّ عضده وذراعه ـ وهو الجناح ـ إلى جنبه ليخفَّ بذلك فزعه، ومن شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أن يَقْوَى قلبُه.

وقال الثوريُّ: خاف موسى عليه السلام أن يكون حدث به سوءٌ، فأمره سبحانه أن يعيد يده إلى جنبه لتعود إلى حالتها الأولى، فيعلم أنه لم يكن ذلك سوءاً بل آيةً من الله عزَّ وجلَّ. وقريبٌ منه ما قيل: المعنى: إذا هالَكَ أمرٌ لِمَا يغلبُ من شعاعها فاضْمُمْها إليك يَسْكُنْ خوفُك.

وفي «الكشاف»: فيه معنيان:

أحدهما: أنَّ موسى عليه السلام لمَّا قَلَبَ الله تعالى العصا حيةً فزع واضطرب، فاتَّقاها بيده كما يفعل الخائفُ من الشيء، فقيل له: إنَّ اتِّقاءك بيدك فيه غضاضةٌ عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلبُ حيةً فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتِّقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتنابُ ما هو غضاضةٌ عليك، وإظهارُ معجزةٍ أخرى، والمراد بالجناح اليد؛ لأنَّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضمَّ جناحه إليه.

والثاني: أن يراد بضم جناحه إليه تجلُّده وضَبْطُه نفسَهُ وتشدُّدُه عند انقلاب العصا حيةً، حتى لا يضطرب ولا يَرْهَبَ، استعارةً من فِعْلِ الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما، وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمَّران، ومعنى «من الرهب»: من أجل الرهب، أي: إذا أصابك الرهبُ عند رؤية الحية فاضمُم إليك جناحك، جَعَل الرَّهْبَ الذي كان يصيبه سبباً وعلَّةً فيما أُمر به من ضمِّ جناحه إليه.

ومعنى (وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ) وقوله تعالى: (ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ) على أحد التفسيرين واحدٌ، ولكنْ خُولِفَ بين العبارتين، وإنما كرَّر المعنى الواحد لاختلافِ الغرضين وذلك أنَّ الغرض في أحدهما خروجُ اليد بيضاءَ، وفي الثاني إخفاءُ الرعب[1]. اهـ.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥.

وضمُّ الجناح على الثاني كنايةٌ عن التجلُّد والضبط نحو قوله:

اشْدُدْ حَيازيمكَ للموت فإنَّ الموتَ لاقِيكَ[١]

وهو مأخوذٌ من فِعْلِ الطائر عند الأمن بعد الخوف، وهو في الأصل مستعارٌ من فِعْلِ الطائر عند هذه الحالة، ثم كثُر استعماله في التجلُّد وضبطِ النفس حتى صار مثلاً فيه وكنايةً عنه، وعليه يكونُ تتميماً لمعنى «إنَّك من الآمنين».

وهذا مأخوذٌ من كلام أبي عليٍّ الفارسيِّ، فإنه قال: هذا أمرٌ منه سبحانه بالعزم على ما أراده منه، وحضٌّ على الجدِّ فيه؛ لئلا يمنعه الخوف[٢] الذي يغشاه في بعض الأحوال عمَّا أُمر بالمضي فيه، وليس المرادُ بالضمِّ الضمَّ المزيلَ للفرجة بين الشيئين. وهو أبعدُ عن المناقشة مما ذكره الزمخشريُّ.

ومثله في البعد عن المناقشة ما قاله البقاعيُّ من أنه أُريدَ بضمِّ جناحه إليه تجلُّده وضبطُه نفسَه عند خروج يده بيضاء، حتى لا يَحْذَرَ ولا يضطربَ من الخوف[٣].

وأراد[٤] بأحد التفسيرين الوجهَ الأول؛ لأنَّ المعنى عليه: أَدْخِلْ يدك اليمنى تحت عضدك اليسرى. وقال بعضهم[٥]: إنَّ المعنى: اضمم يديك المبسوطتين بإدخال اليمنى تحت العضد الأيسر، واليسرى تحت الأيمن، أو بإدخالهما في الجيب. وظاهرُه أنه أريد بالجناح الجناحان، وقد صرح الطبرسيُّ بذلك في نحو ما ذكر، وقال: إنه قد جاء المفردُ مراداً به التثنيةُ كما في قوله:

يداك يدٌ إحداهما الجودُ كلُّه وراحتُك اليُسْرَى طعانٌ تُغامِرُه

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٢٩٠، والبيت نسب لعلي ﷺ في الكامل للمبرد ٣/ ١١٢١، وجمهرة الأمثال ١/ ٣٠٤، والمستقصى ٢/ ١٢٨، ونسبه الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٣٦٧ لأحيحة بن الجلاح وقال: «اشدد» في البيت زيادة، ويسمِّي العروضيون هذا خَزْماً، والنقصانَ حزماً، والخزم يكون من حرفٍ إلى أربعة، كاشدد في هذا البيت.

(٢) في الأصل و(م): الجد، والمثبت من مجمع البيان ٢٠/ ٢٩٠، والكلام منه.

(٣) ينظر نظم الدرر ١٤/ ٢٨١.

(٤) يعني الزمخشري.

(٥) هو البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٧/ ٧٢.

فإنَّ المعنى: يداك يدان، بدلالة قوله: إحداهما[١].

وفي «الكشاف» أيضاً[٢]: من بدع التفاسير أنَّ الرهب الكُمُّ بلغة حمير، وأنهم يقولون: أعطني ما في رَهْبِكَ. وليت شعري كيف صحتُه في اللغة، وهل سُمع من الأثبات الثقات التي تُرضَى عربيَّتُهم؟ ثم ليت شعري كيف موقعُه في الآية، وكيف تطبيقُه المَفْصِلَ[٣] كسائر كلمات التنزيل؟ على أنَّ موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زُرْمَانِقةٌ[٤] من صوف لا كمَّين لها. اهـ.

وما أشار إليه من أنَّ ذاك لا يطابق بلاغةَ التنزيل ممَّا لا ريبَ فيه، فإنَّ الذاهبين إليه قالوا: المعنى عليه: واضمُم إليك يدك مُخْرَجةً من الكُمِّ؛ لأنَّ يده كانت في الكُمِّ، وهو معنًى كما ترى، ولفظُه أقصرُ منه في الإفادة.

وأمَّا أمرُ سماعه عن الأثبات فقد تعقَّبه في «البحر» بأنه مرويٌّ عن الأصمعيِّ وهو ثقةٌ ثَبْتٌ[٥]. وقال الطيبيُّ: قال محيي السنَّة: قال الأصمعيُّ: سمعتُ بعض الأعراب يقول: أعطني ما في رَهبِكَ، أي: ما في كمِّك[٦]. وزعم بعضهم أنَّ استعمال الرهب في الكُمِّ لغةُ بني حنيفة أيضاً، وهو عندهم وكذا عند حمير بفتح الراء والهاء، والحزمُ عندي عدمُ الجزمِ بثبوت هذه اللغة، وعلى تقدير الثبوت لا ينبغي حَملُ ما في التنزيل الكريم عليها.

والظاهر أنَّ «من الرهب» متعلِّقٌ بـ «اضمم»، وقال أبو البقاء: هو متعلِّق بـ «ولَّى». وقيل: بـ «مدبِراً». وقيل: بمحذوفٍ، أي: تَسْكُنْ من الرهب. وقيل: بـ «اضمم»[٧]. ولا يخفى ما في تعلُّقه بسوى «اضمُم» وإن أشار إلى تعلُّقه بـ «ولَّى»

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٢٩١، والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٢٧٦ برواية:

يـداك يـدٌ إحداهـمـا الـنـيـلُ والـذرى ... وراحـتُـهـا الأخـرى طـعـانٌ تُـعـاوِرُه

(٢) ٣/ ١٧٥.

(٣) التطبيق: إصابة السيف المفصل، ويعني به هنا مطابقته لبلاغة التنزيل، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (٤٣) من سورة النمل.

(٤) الزُّرْمانقة: جبة من صوف، معرَّب أُشْتُرْ بانَهْ، أي: متاع الجِمال. القاموس (زرق).

(٥) البحر ٧/ ١١٨.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥.

(٧) الإملاء ٤/ ١٤٩-١٥٠.

أو «مدبراً» كلامُ ابن جريج على ما أخرجه عنه ابن المنذر[١]، حيث جَعَل الآيةَ من التقديم والتأخير، والمرادُ: ولَّى مدبراً من الرهب.

وقرأ الحِرْمِيَّان: «من الرَّهَب» بفتح الراء والهاء[٢]، وأكثر السبعة بضمِّ الراء وإسكانِ الهاء. وقرأ قتادة والحسن وعيسى والجحدريُّ بضمِّها[٣]، والكلُّ لغاتٌ.

﴿فَذَانِكَ﴾ أي: العصا واليد، والتذكيرُ لمراعاة الخبر، وهو قولُه تعالى: ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾.

وقيل: الإشارة إلى انقلاب العصا حيةً بعد إلقائها، وخروجِ اليد بيضاءَ بعد إدخالها في الجيب، فأمرُ التذكير ظاهرٌ.

والبرهانُ: الحجَّةُ النيِّرةُ، وهو فُعْلان لقولهم: أبْرَهَ الرجل، إذا جاء بالبرهان، من بَرِهَ الرجلُ: إذا ابيضَّ، ويقال للمرأة البيضاء: بَرْهَاء وبَرَهْرَهَة.

وقال بعضهم: هو فُعْلان من البره بمعنى القطع، فيفسَّر بالحجة القاطعة.

وقيل: هو فُعْلال، لقولهم: بَرْهَنَ. ونُقل عن الأكثر أن بَرْهَنَ مولَّدٌ بنَوْه من لفظ البرهان.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «فذانِّك» بتشديد النون[٤]، وهي لغةٌ فيه، فقيل: إنه عوِّض من الألف المحذوفة من «ذا» حالَ التثنية لألفها نونٌ وأدغمت. وقال المبرِّد[٥]: إنه بدلٌ من لام «ذلك»، كأنهم أدخلوها بعد نون التثنية، ثم قلبت اللام نوناً لقرب المخرج وأُدغمت، وكان القياس قَلْبَ الأولى لكنه حوفظ على علامة التثنية.

وقرأ ابن مسعود وعيسى وأبو نوفل وابن هرمز وشبل: «فذانيك» بياءٍ بعد النون

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٨.
(٢) وقرأ بها أيضاً أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب، وقرأ حفص بفتح الراء وإسكان الهاء، والباقون ـ كما سيرد آنفاً ـ بضم الراء وإسكان الهاء. التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١.
(٣) البحر ٧/ ١١٨.
(٤) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٢٤٨. وهي قراءة رويس عن يعقوب.
(٥) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٧٤، وعنه نقل المصنف.

المكسورة، وهي لغةُ هذيل، وقيل: بل لغة تميم. ورواها شبل عن ابن كثير، وعنه أيضاً: «فذانَيك» بفتح النون قبل الياء[١] على لغةِ مَن فتح نونَ التثنية نحو قوله:

علـى أحـوذيَّـينَ استـقـلَّـت عـشـيـةً فـمـا هـي إلا لـمـحـةٌ وتـغـيـبُ[٢]

وعن ابن مسعود أنه قرأ بتشديد النون مكسورةً بعدها ياءٌ، قيل: وهي لغة هذيل، وقال المهدويُّ: بل لغتُهم تخفيفها[٣].

و«مِن» في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ «برهانان» أي: كائنان من ربك، و«إلى» في قوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ أيضاً هو ـ على ما يقتضيه ظاهرُ كلام بعضهم ـ صفةٌ بعد صفةٍ له، أي: واصلان إليهم، وعلى ما يقتضيه ظاهرُ كلام آخَرين حالٌ منه، أي: مرسَلاً أنت بهما إليهم.

وفي «البحر»: أنه متعلِّقٌ بمحذوفٍ دلَّ عليه المعنى، تقديره: اذهب إلى فرعون[٤].

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: فرعونَ وملأه ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: خارجين عن حدود الظلم والعدوان، فكانوا أحقَّاء بأنْ نرسلك بهاتين المعجزتين الباهرتين إليهم، والكلامُ في «كانوا» يُعلَمُ مما تقدَّم في نظائره.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ﴾ لذلك ﴿أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ بمقابلتها، والمرادُ بهذا الخبر طلبُ الحفظِ والتأييد لإبلاغ الرسالة على أكمل وجهٍ، لا الاستعفاءُ من الإرسال، وزعمت اليهود أنه عليه السلام استَعْفَى ربَّه سبحانه من ذلك. وفي التوراة التي بأيديهم اليوم أنه قال: ياربِّ، ابعث مَن أنت باعثُه[٥].

---

(١) ذكر هذه القراءات أبو حيان في البحر ٧/ ١١٨، وعنه نقل المصنف، والقراءة الأخيرة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٣.

(٢) البيت لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص٥٥ قاله في وصف قطاة، والأحوذي: الخفيف في الشيء بحذقه، ويريد بالأحوذيين هنا جناحي القطاة يصفهما بخفتهما. المقاصد النحوية للعيني على هامش الخزانة ١/ ١٨٠.

(٣) البحر ٧/ ١١٨، والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٣ عن ابن كثير.

(٤) البحر ٧/ ١١٨.

(٥) العهد القديم ص١٥٩.

وأكَّد طلب التأييد بقوله: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ أي: عوناً، كما روي عن قتادة، وإليه ذهب أبو عبيدة وقال: يقال: رَدَأْتُه على عدوِّه: أَعَنْتُه[1].

وقال أبو حيان: الرِّدْءُ: المُعين الذي يشتدُّ به الأمرُ، فِعْلٌ بمعنى مفعول، فهو اسمٌ لِمَا يُعانُ به كما أنَّ الدِّفْءَ اسمٌ لِمَا يُتدفَّأُ به؛ قال سلامةُ بن جندل:

وردْئي كلُّ أبيضَ مَشْرَفيٍّ ... شديدِ الحدِّ عَضْبٍ ذي فُلولِ[2]

ويقال: ردأتُ الحائط أَرْدَؤُه: إذا دعمته بخشبةٍ لئلَّا يسقط.

وفي قوله: «أفصح منِّي» دلالةٌ على أنَّ فيه عليه السلامُ فصاحةً، ولكنَّ فصاحة أخيه أَزْيَدُ من فصاحته.

وقرأ أبو جعفر ونافع المدنيان[3]: «رِداً» بحذف الهمزة ونَقْلِ حركتها إلى الدال[4]. والمشهورُ عن أبي جفعر أنه قرأ بالنقل ولا هَمْزَ ولا تنوين، ووَجْهُه أنه أَجْرى الوصلَ مجرى الوقف[5]. وجوَّز في «ردا» على قراءة التخفيف كونَه منقوصاً بمعنى زيادة، من رَدَيْتُ عليه: إذا زدت.

﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ أي: يلخِّصُ بلسانه الحقَّ، ويبسطُ القولَ فيه، ويجادلُ به الكفار؛ فالتصديقُ مجازٌ عن التلخيص المذكور الجالبِ للتصديق؛ لأنه كالشاهد لقوله، وإسنادُه إلى هارون حقيقةٌ، ويرشد إلى ذلك: «وأخي هارون» إلخ؛ لأنَّ فضل الفصاحة إنما يُحتاج إليه لِمثْلِ ما ذكر، لا لقوله: صَدَقْتَ، أو: أخي موسى صادقٌ، فإنَّ سحبان وباقلاً فيه سواء[6].

---

(١) مجاز اللغة ٢/ ١٠٤، وفيه: أردأت، بدل: ردأت. وهما بمعنًى كما في اللسان (ردأ).

(٢) الكشاف ٣/ ١٧٦، والبحر ٧/ ١٠٣، وفيهما: شحيذ الحد. . .، ولم نقف عليه في ديوان سلامة بن جندل.

(٣) في الأصل و(م) ومطبوع البحر: والمدنيان، والصواب ما أثبتناه.

(٤) التيسير ص١٧١، والنشر ١/ ٤١٣-٤١٤.

(٥) البحر ٧/ ١١٨، ووافق نافعٌ أبا جعفر في الوقف كما في النشر ١/ ٤١٤.

(٦) باقل رجل من إياد، وكان عييًّا فَدماً، وسحبان رجل من وائل باهلة، وكان من خطباء العرب وبلغائها، وقيل: إنه خطب في صلح بين حيين شطر يوم فما أعاد كلمة، وهو أول من قال: =

أو: يَصِلُ جناحَ كلامي بالبيان حتى يصدِّقَني القومُ الذين أخاف تكذيبَهم، فالتصديقُ على حقيقته، وإنما أسند إلى هارون عليه السلام لأنه ببيانه جَلَبَ تصديق القوم، ويؤيِّد هذا قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ لدلالته على أنَّ التصديق على الحقيقة.

وقيل: تصديقُ الغير بمعنى إظهار صدقه، وهو كما يكون بقولِ: هو صادق، يكون بتأييده بالحجج ونحوِها، كتصديق الله تعالى للأنبياء عليهم السلام بالمعجزات، والمراد به هنا ما يكون بالتأييد بالحجج، فالمعنى: يُظْهِرُ صدقي بتقرير الحجج وتزييفِ الشُّبَه «إنِّي أخاف أن يكذبون» ولساني لا يطاوعُني عند المحاجَّة. وعليه لا حاجةَ إلى ادِّعاء التجوُّز في الطرف أو في الإسناد.

وتعقِّب بأنه لا يخفى أنَّ صَدَّقَه معناه إمَّا قال: إنه صادق، أو قال له: صَدقْتَ، فإطلاقُه على غيره الظاهرُ أنه مجازٌ.

وجملة «يصدِّقني» تحتملُ أن تكون صفةً لـ «ردءاً»، وأن تكون حالاً، وأن تكون استئنافاً. وقرأ أكثر السبعة: «يصدِّقْني» بالجزم(١) على أنه جوابُ الأمر. وزعم بعضهم أنَّ الجواب على قراءة الرفع محذوفٌ. ويَرِدُ عليه أنَّ الأمر لا يلزمُ أن يكون له جوابٌ، فلا حاجةَ إلى دعوى الحذف.

وقرأ أبيٌّ وزيد بن عليٍّ ﷺ: «يصدِّقوني» بضمير الجمع(٢)، وهو عائدٌ على فرعون وملئه لا على هارون، والجمعُ للتعظيم كما قيل، والفعلُ على ما نُقِلَ عن ابن خالويه مجزومٌ، فقد جَعَل هذه القراءة شاهداً لمن جَزَمَ من السبعة «يصدِّقْني» وقال: لأنه لو كان رفعاً لقيل: يصدقونني(٣). وذكر أبو حيان بعد

= أما بعد، من العرب. ومن أمثالهم: أعيا من باقل، ومنها: أبلغ من سحبان وائل. الأمثال لأبي عبيد ص٣٦٨، وفصل المقال للبكري ص٤٩٦-٤٩٧، وجمهرة الأمثال ٢/ ٧٢، والمستقصى ١/ ٢٨ و٢٥٦.

(١) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١. وقرأ بالرفع عاصم وحمزة.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١١٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٤، وتعقبه السمين في الدر ٨/ ٦٧٧ بقوله: وهذا سهو من ابن خالويه؛ لأنه متى اجتمعت نون الرفع مع نون الوقاية جازت أوجهٌ، أحدها: الحذفُ، فهذا =

نقله أنَّ الجزم على جواب الأمر، والمعنى في يصدقون: أرجُ تصديقَهم إياي[1]، فتأمل.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ إجابةً لمطلوبه، وهو ـ على ما قيل ـ راجعٌ لقوله: «أرسله معي» إلخ، والمعنى: سنُقوِّيكَ به ونُعينُكَ، على أن «شدَّ عَضُدَه» كنايةٌ تلويحيةٌ عن تقويته؛ لأنَّ اليد تشتدُّ بشدة العضد، وهو ما بين المرفق إلى الكتف، والجملة تشتدُّ بشدة اليد، ولا مانع من الحقيقة لعدم دخول «بأخيك» فيما جُعل كناية، أو على أنَّ ذلك خارجٌ مخرج الاستعارة التمثيلية، شُبِّه حالُ موسى عليه السلام في تقويته بأخيه بحالِ اليد في تقويتها بعضدٍ شديد.

وجوِّز أن يكون هناك مجازٌ مرسَلٌ من باب إطلاق السبب على المسبَّب بمرتبتين، بأن يكون الأصلُ: سنقوِّيك به ثم سنؤيِّدُك ثم سنشدُّ عضدك به.

وقرأ زيد بن عليٍّ والحسن: «عُضُدَك» بضمتين[2]. وعن الحسن أنه قرأ بضمِّ العين وإسكان الضاد، وقرأ عيسى بفتحهما، وبعضُهم بفتح العين وكسر الضاد، ويقال فيه: عَضْدٌ بفتح العين وسكون الضاد، ولم أعلم أحداً قرأ بذلك[3].

وقولُه تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: تسلُّطاً عظيماً وغلبةً، راجعٌ على ما قيل أيضاً لقوله: «إنِّي أخاف أن يكذبون». وقولُه سبحانه: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ تفريعٌ على ما حصل من مراده، أي: لا يصلون إليكما باستيلاءٍ أو محاجَّةٍ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ قد صرِّح به في مواضع أُخر، أي: اذهبا بآياتنا، أو بـ «نجعل»، أي: نسلِّطُكما بآياتنا، أو بـ «سلطاناً» لِمَا فيه من معنى التسلُّط والغلبةِ، أو بمعنى: لا يصلون، أي: تمتنعون منهم بها، أو بحرف النفي على قول بعضهم بجواز تعلُّق الجارِّ به.

= يجوز أن يكون مرفوعاً، وحَذفُ نونِه لما ذكرت لك، وحكاه الشيخ (يعني أبا حيان) عن ابن خالويه ولم يعقبه بنكير.

(١) البحر ١١٨/٧.

(٢) المحتسب ١٥٢/٢، والبحر ١١٨/٧.

(٣) البحر ١١٨/٧.

وقال الزمخشريُّ: يجوز أن يكون قسماً جوابه «لا يصلون» مقدماً عليه، أو هو من القسم الذي يتوسَّطُ الكلام ويُقْحَمُ فيه لمجرَّد التأكيد، فلا يحتاج إلى جوابٍ أصلاً(١).

ويَرِدُ على الأول أنَّ جواب القسم لا يتقدَّمه ولا يقترن بالفاء أيضاً، فلعله أراد أنَّ ذلك دالٌّ على الجواب وأما هو فمحذوفٌ، إلا أنه تَساهَلَ في التعبير.

وجوِّز أن يكون صلةً لمحذوفٍ يفسِّره «الغالبون» في قوله سبحانه: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ۝٣٥﴾ أو صلةً له واللامُ فيه للتعريف لا بمعنى «الذي»، أو بمعناه على رأيِ مَن يجوِّز تقديم ما في حيِّز الصلة على الموصول، إمَّا مطلقاً أو إذا كان المقدَّم ظرفاً، وتقديمه إمَّا للفاصلة أو للحصر.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: واضحاتِ الدلالةِ على صحة رسالته عليه السلام منه عز وجل، والظاهرُ أنَّ المراد بالآيات العصا واليد؛ إذ هما اللتان أظهرهما موسى عليه السلام إذ ذاك، وقد تقدَّم في سورة «طه» سرُّ التعبير عنهما بصيغةِ الجمع.

﴿قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ﴾ الذي جئتَ به ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: سحرٌ تختلقُه لم يُفْعَلْ قبلَه مثلُه، فالافتراءُ بمعنى الاختلاق لا بمعنى الكذب، أو سحرٌ تتعلَّمه من غيرك ثم تنسبه إلى الله تعالى كذباً، فالافتراء بمعنى الكذب لا بمعنى الاختلاق. والصفةُ على هذين الوجهين مخصِّصةٌ.

وقيل: المراد بالافتراء التمويهُ، أي: هو سحرٌ مموَّهٌ لا حقيقةَ له، كسائرِ أنواع السحر، وعليه تكونُ الصفة مؤكِّدةً والافتراءُ ليس على حقيقته كما في الوجه الأول. والحقُّ أنَّ من أنواع السحر ما له حقيقةٌ، فتكونُ الصفة مخصِّصةً أيضاً.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾ أي: نوع السحر، أو: ما صدر من موسى عليه السلام، على أنَّ الكلام على تقدير مضافٍ، أي: بمثل هذا، أو الإشارةُ إلى ادِّعاء النبوَّة، ونَفْيُهم السماعَ بذلك تعمُّدٌ للكذب، فقد جاءهم يوسف عليه السلام من قبلُ بالبينات وما بالعهد من قدم.

---

(١) بنحوه في الكشاف ٣/ ١٧٦.

ويحتمل أنهم أرادوا نفي سماع ادِّعاء النبوَّة على وجه الصدق عندهم، وكانوا ينكرون أصل النبوَّات، ولا يقولون بصحة شيءٍ منها، كالبراهمة، وككثيرٍ من الإفرنج ومَن لَحَسَ من فَضَلاتهم اليوم.

والباء كما في «مجمع البيان» إمَّا على أصلها، أو زائدةٌ[١]، أي: ما سمعنا هذا ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: واقعاً في أيامهم، فالجارُّ والمجرور في موضع الحال من «هذا» بتقديرِ مضافٍ، والعاملُ فيه «سمعنا». وجوَّز أن يكون «بهذا» على تقديرِ: بوقوع هذا، ويكون الجارُّ متعلِّقاً بذلك المقدَّر. وأشاروا بوصف آبائهم بالأوَّلين إلى انتفاء ذلك منذ زمانٍ طويل.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ يريد عليه السلام بالموصول نفسَه، وقرأ ابن كثير: «قال» بغير واوٍ[٢]؛ لأنه جوابٌ لقولهم: إنه سحر، والجوابُ لا يعطف بواوٍ ولا غيرِها، ووجهُ العطف في قراءة باقي السبعة أنَّ المراد حكايةُ القولين ليوازنَ الناظرُ المحكيُّ له بينهما فيميِّزَ صحيحهما من الفاسد.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: العاقبةُ المحمودةُ في الدار وهي الدنيا، وعاقبتُها أن يُختم للإنسان بها بما يفضي به إلى الجنة بفَضْلِ الله تعالى وكرمه، ووجهُ إرادة العاقبة المحمودة من مُطْلَقِ العاقبة أنها هي التي دعا اللهُ تعالى إليها عباده، وركَّب فيهم عقولاً ترشدُهم إليها، ومكَّنهم منها، وأزاح عِلَلَهم ووفَّر دواعيَهم وحضَّهم عليها، فكأنها لذلك هي المرادةُ من جميع العباد، والغرضُ من خَلْقِهم، وهذا ما اختاره ابن المنير موافقاً لِمَا عليه الجماعةُ، وحَكَى[٣] أنَّ بعضهم قال له: ما يمنعك أن تقول: فَهْمُ عاقبة الخير من إضافة العاقبة إلى ذويها باللام كما في هذه الآية، وقولِه تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢]، وقولِه سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] إذ عاقبةُ الخير هي التي تكون لهم، وأما عاقبةُ السوء فعليهم لا لهم، فقال له: لقد كان لي في ذلك مقالٌ لولا ورودُ مثل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، ولم يقل: وعليهم، فاستعمال

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٢٩٥.
(٢) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١.
(٣) في الانتصاف ٣/ ١٧٨.

اللام مكانَ «على» دليلٌ على إلغاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير.

وقد يقال: إنَّ اللام ظاهرةٌ في النفع، ويكفي ذلك في انفهام كون المراد بالعاقبة عاقبةَ الخير، ويلتزم في نحو الآية التي أوردها ابن المنير كونُها من باب التهكُّم، وهذا نظيرُ ما قالوا: إنَّ البشارة في الخير، و﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١] من باب التهكُّم.

وقال الطيبيُّ انتصاراً للبعض أيضاً: قلت: الآيةُ غيرُ مانعةٍ عن ذلك، فإنَّ قرينة اللعنة والسوء مانعةٌ عن إرادة الخير، وإنما أتى بـ «لهم» ليؤذِنَ بأنهما حقَّان ثابتان لهم لازمان إياهم، ويعضده التقديم المفيدُ للاختصاص، فتدبَّر.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «يكون» بالياء التحتية[1]، لأنَّ المرفوع مجازيُّ التأنيث ومفصولٌ عن رافعه.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: لا يفوزون بمطلوبٍ ولا ينجون عن محذورٍ.

وحاصلُ كلام موسى عليه السلام: ربِّي أعلمُ منكم بحالِ مَن أهَّله سبحانه للفلاح الأعظم، حيث جعله نبيًّا وبعثه بالهدى ووعده حُسْنَ العقبى، ولو كان كما تزعمون كاذباً ساحراً مفترياً لَمَا أهَّله لذلك؛ لأنه غنيٌّ حكيم لا يرسِلُ الكاذبينَ ولا يُنبِّئ الساحرينَ، ولا يفلح عنده الظالمون.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ قاله اللَّعينُ بعدما جمع السحرةَ وتصدَّى للمعارضة، والظاهرُ أنه أراد حقيقةَ ما يدلُّ عليه كلامُه، وهو نفيُ علمه بإلهٍ غيرِه دون وجوده، فإنَّ عدم العلم بالشيء لا يدلُّ على عدمه، ولم يَجْزِم بالعدم بأن يقول: ليس لكم إلهٌ غيري، مع أنَّ كلًّا من هذا وما قاله كذبٌ، لأنَّ ظاهر قول موسى عليه السلام له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] يقتضي أنه كان عالماً بأنَّ إلههم غيرُه، وما تَرَكه أوفقُ ظاهراً بما قَصَده من تبعيدِ قومه عن اتِّباع موسى عليه السلام اختياراً لدسيسةٍ شيطانية، وهو إظهارُ أنه منصفٌ في الجملة؛ ليتوصَّل بذلك إلى قبولهم ما يقولُه لهم بعدُ في أمر الإله، وتسليمِهم إياه له اعتماداً على ما رأوا من إنصافه،

(١) التيسير ص١٠٧، والنشر ٢/٢٦٣، وهي قراءة خلف من العشرة.

فكأنه قال: ما علمتُ في الأزمنة الماضية لكم إلهاً غيري كما يقول موسى، والأمر محتملٌ وسأحقِّق لكم ذلك.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اصْنَعْ لي آجُرًّا ﴿فَٱجْعَل لِّي﴾ منه ﴿صَرْحًا﴾ أي: بناءً مكشوفاً عالياً، من صَرُح الشيءُ: إذا ظَهَر.

﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ﴾ أي: أَطْلعُ وأصعدُ، فافْتَعَلَ بمعنى الفعل المجرَّد كما في «البحر»[1] وغيره ﴿إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ الذي يذكر أنه إلهه وإلهُ العالمين، كأنه يُوهِمُ قومه أنه تعالى لو كان كما يقول موسى لكان جسماً في السماء، كون الأجسام فيها يمكن الرقيُّ إليه.

ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ فيما يذكر، تأكيداً لِمَا أراد، وإعلاماً بأنَّ ترجِّيَهُ الصعودَ إلى إله موسى عليه السلام ليس لأنه جازمٌ بأنه هناك.

والأمرُ بجَعْلِ الصرح وبنائه لا يدلُّ على أنه بُني، وقد اختُلف في ذلك؛ فقيل: بناه، وذُكر من وَصْفِه ما اللهُ عزَّ وجلَّ أعلم به.

وقيل: لم يُبْنَ، وعلى هذا يكون قوله ذلك وأمرُه للتلبيس على قومه، وإيهامِه إياهم أنه بصدد تحقيق الأمر، ويكون ما ذُكر ذكراً لأحد طرق التحقيق، فيتمكَّنُ من أن يقول بعده: حقَّقتُ الأمر بطريقٍ آخر فعَلِمْتُ أن ليس لكم إلهٌ غيري، وأنَّ موسى كاذبٌ فيما يقول.

وعلى الأول يحتملُ أن يكون صعد الصَّرْحَ وحده أو مع مَن يأمنُه على سرِّه، وبقي ما بقي، ثم نزل إليهم فقال لهم: صعدتُ إلى إله موسى وحقَّقتُ أنْ ليس الأمرُ كما يقول وعلمتُ أنْ ليس لكم إلهٌ غيري.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدِّيِّ قال: لمَّا بُني له الصرحُ ارْتَقَى فوقه فأمر بنشابةٍ فرمى بها نحو السماء، فرُدَّتْ إليه وهي متلطِّخةٌ دماً، فقال: قتلتُ إلهَ موسى[2]. وهذا إن صحَّ من باب التهكُّم بالفعل، ولا أظنُّه يصحُّ.

---

(١) ٧/ ١٢٠.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧٩.

وأيًّا ما كان فالقومُ كانوا في غاية الغباوة والجهل وإفراطِ العماية والبَلَادةِ، وإلَّا لَمَا نفق عليهم مثلُ هذا الهذيان، ولله تعالى خواصّ في الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

ولا يَبْعُدُ أن يقال: كان فيهم من ذوي العقول مَن يعلمُ تمويهه وتلبيسَه، ويعتقدُ هذيانَه فيما يقول، إلا أنه نظم نفسه في سلك الجهَّال، ولم يُظْهِرْ خلافاً لِمَا عليه اللعين بحالٍ من الأحوال، وذلك إمَّا للرغبة فيما لديه أو للرهبة من سطوته واعتدائه عليه، وكم رأينا عاقلاً وعالماً فاضلاً يوافق لذلك الظَّلَمة الجبابرة ويصدِّقُهم فيما يقولون، وإن كان مستحيلاً أو كفراً بالآخرة.

وكأنَّ قولَ اللَّعينِ لموسى عليه السلام: «لئن اتخذتَ إلهاً غيري لأجعلنَّك من المسجونين»، بعد هذا القول المحكيِّ ها هنا، بأنْ يكون قاله وأردفه بإخبارهم على البتِّ أنْ لا إله لهم غيرُه، ثم هدَّد موسى بالسَّجْنِ إنْ بدا منه ما يُشْعِرُ بخلافه. وهذا وجهٌ في الآية لا يخلو عن لطفٍ وإن كان فيه نوعُ خفاءٍ، وفيها أوجهٌ أُخَرُ:

الأول: أنه أراد بقوله: «ما علمت لكم من إلهٍ غيري» نفيَ العلم دون الوجود كما في ذلك الوجه، إلا أنه لم يَنْفِ الوجودَ لأنه لم يكن عنده ما يقتضي الجزمَ بالعدم، وأراد بقوله: «إنِّي لأظنُّه من الكاذبين»: إني لأظنه كاذباً في دعوى الرسالة من الله تعالى، وأراد بقوله: يا هامان أوقد لي على الطين.. إلخ، إعلامَ الناس بفسادِ دعواه تلك بناءً على توهُّمه أنه تعالى إن كان كان في السماء بأنه لو كان رسولاً منه تعالى فهو ممن يَصِلُ إليه، وذلك بالصعود إليه، وهو مما لا يقوى عليه الإنسان، فيكون من نوع المحال بالنسبة إليه، فما بُني عليه وهي الرسالة منه تعالى مثلُه، فقوله: «فاجعل لي صرحاً» لإظهار عدم إمكان الصعود الموقوف عليه صحةُ دعوى الرسالةِ في زَعْمِه، و«لعل» للتهكُّم.

الثاني: أنه أراد أيضاً نفي العلم بالوجود دون الوجود نفسِه، لكنه كان في نفي العلم ملبِّساً على قومه كاذباً فيه، حيث كان يعلم أنَّ لهم إلهاً غيرَه هو إلهُ الخلق أجمعين، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، وأراد بقوله: «وإنِّي» إلخ: إنِّي لأظنه كاذباً في دعوى الرسالة كما في سابقه، وأراد بقوله: «ياهامان» إلخ، طَلَبَ أن يجعل له ما يزيلُ به شكَّه في الرسالة، وذلك بأنْ يبني له رصداً في موضعٍ عالٍ يرصدُ منه أحوالَ

الكواكب الدالَّة على الحوادث الكونية بزَعْمِه، فيرى هل فيها ما يدلُّ على إرسال الله تعالى إياه.

وتعقِّب بأنه لا يناسبُ قوله: «فأطَّلعَ إلى إله موسى» إلَّا أنْ يراد: فأطَّلع على حُكْمِ إله موسى بأوضاع الكواكب، والنظرِ فيها: هل أرسل موسى كما يقول أم لا؟ فيكون الكلام على تقديرِ مضافٍ، و«إلى» فيه بمعنى «على».

وجوِّز على هذا الوجه أن يكون قد أراد بإله موسى الكواكبَ، فكأنه قال: لعلِّي أصعدُ إلى الكواكب التي هي إلهُ موسى، فأنظرَ هل فيها ما يدلُّ على إرسالها إياه؟ أو: لعلِّي أطلعُ على حُكْمِ الكواكب التي هي إلهُ موسى في أمر رسالته، وهو كما ترى. وبالجملة هذا الوجه مما لا ينبغي أن يلتفت إليه.

الثالث: أنه أراد بنفي علمه بإلهٍ غيرِه نفيَ وجوده، وبظنِّه كاذباً ظنَّه كاذباً في إثباته إلهاً غيره، ويفسَّر الظنُّ باليقين، كما في قول دريد بن الصمة:

فقلتُ لهم ظُنُّوا بألفي مُدجَّجٍ سَرَاتُهمُ في الفارسيِّ المسرَّدِ[1]

فإثباتُ الظنِّ المذكورِ لا يدفعُ إرادةَ ذلك النفي. وجوَّز بعضُهم إبقاءه على ظاهره، وقال في دفع المنافاة: يمكن أن يقال: الظاهر أن كلامه الأول كان تمويهاً وتلبيساً على القوم، والثاني كان مُواضعةً مع صاحب سرِّه هامان، فإثباتُ الظنِّ في الثاني لا يدفعُ أن يكون العلم في الأول لنفي المعلوم. وفيه أنه يأبى ذلك سوقُ الآية، والفاءُ في «فأَوْقِدْ لي».

وطلبُه بناءَ الصرح راجياً الصعودَ إلى إله موسى عليه السلام أراد به التهكُّم، كأنه نَسب إلى موسى عليه السلام القولَ بأنَّ إلهه في السماء، فقال: يا هامان اجعل لي صرحاً لأصعد إلى إله موسى، متهكِّماً به، وهذا نظيرُ ما إذا أخبرك شخصٌ بحياةِ زيد وأنه في داره، وأنت تعلم خلافَ ذلك، فتقول لغلامك بعد أن تذكر علمك بما يخالف قوله متهكِّماً به: ياغلام، أَسْرِجْ لي الدابَّةَ لعلِّي أذهبُ إلى فلانٍ وأستأنسُ به، بل ما قاله فرعون أظهرُ في التهكُّم مما ذُكر، فطلبُه بناءَ الصرح بناءً

(١) ديوان دريد بن الصمة ص٤٧، والأضداد ص١٤، وتفسير الطبري ١/ ٦٢٤، والأغاني ١٠/ ٨، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨١٢. ورواية الديوان: علانيةً ظنُّوا...

على هذا لا يكون منافياً لِمَا ادَّعاه أوَّلاً وآخِراً من العلم واليقين.

وقال بعضهم في دفع ما قيل من المنافاة: إنها إنما تكون لو لم يكن قوله: «لعلي أَطَّلعُ» إلخ، على طريق التسليم والتنزُّل.

وقال آخر في ذلك: إنَّ اللعين كان مشركاً يعتقدُ أنَّ مَن ملك قطراً كان إلهَهُ ومعبودَ أهله، فما أثبته في قوله: «لعلِّي أَطَّلعُ» إلخ الإلهُ لغير ممتلكه، وما نفاه إلهُها كما يشير إليه قولُه: «لكم»، ولا يخلو عن بحث.

وفي «الكشاف»[1] القولُ بالمناقضة بين بناء الصرح وما ادَّعاه من العلم واليقين، إلا أنه قال: قد خَفِيتْ على قومه لغباوتهم وبلههم، أوْ لمْ تَخْفَ عليهم ولكن كلًّا كان يخاف على نفسه سوطَه وسيفه.

وإذا فتح هذا الباب جاز إبقاء الظنِّ على ظاهره من غير حاجةٍ إلى دفع التناقض، والأَوْلَى عندي السعيُ في دفع التناقُض، فإذا لم يمكن استُند في ارتكاب المخذول إياه إلى جهله، أو سَفَهِه وعدمِ مبالاته بالقوم لغباوتهم، أو خوفهم منه، أو نحو ذلك.

واعتُرض القول بأنه أراد بنفي علمه بإلهٍ غيره نفيَ وجوده فقال في «التحقيق»، وذَكَره غيرُه أيضاً: إنه غيرُ سديدٍ؛ فإنَّ عدم العلم بالشيء لا يدلُّ على عدمه، لاسيما عدم علم شخصٍ واحد.

وقال القاضي البيضاوي: هذا في العلوم الفعلية صحيحٌ؛ لأنها لازمةٌ لتحقُّق معلوماتها، فيلزمُ من انتفائها انتفاؤها، ولا كذلك العلومُ الانفعالية[2].

وردَّ بأنَّ غرض قائل ذلك أنَّ عدم الوجود سببٌ لعدم العلم بالوجود في الجملة، ولا شكَّ أنه كذلك، فأُطلق المسبَّب وأُريدَ السبب، لا أنَّ بينهما ملازمةً كلِّيةً، على أنه لمَّا كان من أقوى أسباب عدم العلم لأنه المطَّردُ جاز أن يطلق ويرادَ به الوجود؛ إذ لا يشترط في فنِّ البلاغة اللزومُ العقليُّ بل العاديُّ والعرفيُّ

---

(١) ٣/ ١٧٩.

(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٧٥. وقال الشهاب: المراد بالعلم الفعلي ما كان سبباً لوقوع معلومه، والانفعالي خلافه.

كافٍ أيضاً، وقد يقول أحدٌ منا: لا أعلم ذلك، أي: لو كان موجوداً لعَلِمتُه إذا قامت قرينةٌ، وهذا الاستعمالُ شائعٌ في عُرْفي العرب والعجم عند العامة والخاصة، ومنه قولُ المزكّي إذا سئل عن عدالة الشهود: لا أعلم، كيف وكان المخذولُ يدَّعي الإلهية. ثم الظاهرُ أنَّ الكلام على تقدير إرادةِ نفي الوجود كنايةٌ لا مجازٌ. وبالجملة ما ذكر وجهٌ وجيهٌ، وتعيينُ الأوْجَهِ مفوَّضٌ إلى ذهنك والله تعالى الموفق.

واستدل بعضُ مَن يقول: إنَّ الله تعالى في السماء، بالمعنى الذي أراده سبحانه في قوله عز وجل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] حَسْبَما يقول السلف بهذه الآية، ووجه ذلك بأنَّ فرعون لو لم يسمع من موسى عليه السلام أنَّ إلهه في السماء لمَا قال: «فاجعل لي صرحاً لعلِّي اطَّلعُ إلى إله موسى»، فقوله ذلك دليلُ السماع، إلا أنه أخطأ في فهم المراد مما سمعه، فزعم أنَّ كونه تعالى في السماء بطريق المظروفية والتمكُّنِ ونحوِهما مما يكون للأجسام.

وأنت تعلم أنَّ هذا الاستدلال في غاية الضعف، وإثباتُ مذهب السلف لا يحتاجُ إلى أن يُتمسَّكَ له بمثل ذلك.

وفي قول المخذول: «أَوْقِد لي على الطين» والمرادُ به اللَّبِن، دون: اصنع لي آجرًا، إشارةٌ إلى أنه لم يكن لهامان علمٌ بصنعة الآجُرّ، فأمره باتّخاذه على وجهٍ يتضمَّنُ التعليم، وفي الآثار ما يؤيِّد ذلك؛ فقد أخرج ابن المنذر[1] عن ابن جريج قال: فرعونُ أولُ مَن أمر بصنعة الآجُرِّ وبنائه.

وأخرج هو وجماعةٌ عن قتادةَ قال: بلغني أنَّ فرعون أولُ مَن طبخ الآجرَّ، وصنع له الصرح[2].

وعن عمر رضي الله عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر قال: ما علمتُ أنَّ أحداً بنى بالآجرِّ غير فرعون.

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٩.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٢٩، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٩١، والطبري ١٨/ ٢٥٥، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧٩.

وفي أَمْرِه إياه وهو وزيرُه ورديفُه بعملِ السِّفْلةِ من الإيقاد على الطين، منادياً له باسمه دون تكنيةٍ وتلقيبٍ بـ «يا» دون ما يدلُّ على القُرْب، في وسط الكلام دون أَوَّله = من الدلالة على تجبُّره وتعظُّمه ما لا يخفى.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي: رأوا كلَّ مَن سواهم حقيراً بالإضافة إليهم، ولم يروا العظمةَ والكبرياء إلَّا لأنفسهم، فنظروا إلى غيرهم نظر الملوك إلى العبيد.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الأكثرون على أنَّ المراد: في أرض مصر. وقيل: المراد بها الجُرم المعروف المقابلُ للسماء. وفي التقييد بها تشنيعٌ عليهم حيث استكبروا فيما هو أسفلُ الأجرام، وكان اللائقُ بهم أن ينظروا إلى محلِّهم وتسفُّله فلا يستكبروا.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بغير الاستحقاق، لما أنَّ رؤيتهم تلك باطلةٌ، ولا تكونُ رؤية الكلِّ حقيراً بالإضافة إلى الرائي ورؤيةُ العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره حقًّا إلا من الله عزَّ وجل، ومن هنا قال الزمخشريُّ: الاستكبار بالحقِّ إنما هو لله تعالى، وكلُّ مستكبرٍ سواه عزَّ وجلَّ فاستكبارُه بغير الحق، وفي الحديث القدسيِّ: «الكبرياءُ ردائي والعظمةُ إزاري، فَمَنْ نازَعَني واحداً منهما ألقيتُه في النار»[(١)].

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بالبعث للجزاء، والظنُّ قيل: إمَّا على ظاهره، أو عبَّر عن اعتقادهم به تحقيراً لهم وتجهيلاً[(٢)].

وقرأ حمزة والكسائيُّ ونافع: «لا يَرْجِعون» بفتح الياء وكسر الجيم[(٣)].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: ألقيناهم وأغرقناهم فيه، وقد مرَّ تفصيلُ ذلك. وفي التعبير بالنبذ وهو إلقاء الشيء الحقير وطَرْحُه لقلَّة الاعتداد به، ولذلك قال الشاعر:

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٠، والحديث أخرجه ابن ماجه (٤١٧٥)، وابن حبان (٥٦٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه أحمد (٧٣٨٢)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه بنحوه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) في (م): وتمهيلاً، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٧٥، والكلام منه.

(٣) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٢٠٨-٢٠٩، وهي قراءة خلف ويعقوب من العشرة.

نظرتُ إلى عنوانه فنبذتُه كنبذك نعلاً من نعالك باليا[(١)]

استحقارٌ لهم. وفي الكلام على ما قيل استعارةٌ مكنيةٌ وتخييليةٌ، وذلك أنهم شبِّهوا في الحقارة بنعالٍ باليةٍ، واستُعير لهم اسمُ النعال ثم حذف المستعارُ وبقي المستعارُ له، وجعل النبذ قرينة على أنه حقيقةٌ والمجازُ في التعلُّق، على نحو ما قيل في: أظفارُ المنيَّة نشبتْ بفلان.

وقال بعضهم: الأخذ وهو حقيقةٌ في التناول مجازٌ عن خَلْق الداعية لهم إلى السير إلى البحر، والنبذُ مجازٌ عن خَلْقِ الداعية لهم إلى دخوله.

وفي «البحر» أنه كنايةٌ عن إدخالهم فيه[(٢)].

والأَوْلَى أن يكون الكلام من باب التمثيل، كأنه عز وجلَّ فيما فعل بهم أخذهم مع كثرتهم في كفٍّ وطرحهم في اليمِّ.

والظاهر أنَّ الفاء الأولى سببيةٌ وليست لمجرَّد التعقيب، وأما الثانية فللتعقيب إذا أُبقي الأخذُ على معنى التناوُلِ، أو أريد به خلقُ الداعية إلى السير أو نحوه، أما إذا أريد به الإهلاك فهي للتفسير، كما في ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ [الأنبياء:٧٦] ونحوِه.

﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وبيِّنها للناس ليعتبروا بها.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: خلقناهم ﴿أَئِمَّةً﴾ قدوةً للضلال بسبب حملهم لهم على الضلال، كما يؤذن بذلك قولُه تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى موجباتها من الكفر والمعاصي، على أنَّ النار مجازٌ عن ذلك، أو على تقدير مضافٍ، والمراد: جَعَلَهم ضالِّين مضلِّين.

والجعلُ هنا مثلُه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[(٣)] [الأنعام:١]، والآيةُ

---

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي، وهو في ديوانه ص١٠٦ و٢٥٨ و٤٤٥، وهو دون نسبة في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٩، والبحر ٧/ ١٢٠، ورواية الديوان: . . . نعلاً أخلقَتْ من نعالكا.

(٢) البحر ٧/ ١٢٠.

(٣) في (م): والنار.

ظاهرةٌ في مذهب أهل السنَّة من أنَّ الخير والشرَّ مخلوقان لله عز وجل، وأوَّلَها المعتزلةُ تارةً بأنَّ الجعل فيها بمعنى التسمية، مثلُه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف:١٩] أي: وسمَّيناهم فيما بين الأمم بعدهم دعاةً إلى النار، وتارة بأنَّ جَعْلَهم كذلك بمعنى خذلانهم ومنعِهم من اللطف والتوفيق للهداية، والأولُ محكيٌّ عن الجبائيِّ، والثاني عن الكعبيِّ.

وعن أبي مسلم: أنَّ المراد: صيَّرناهم بتعجيل العذاب لهم أئمةً، أي: متقدِّمين لمن وراءهم من الكفرة إلى النار. وهذا في غاية التعسُّف كما لا يخفى.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ بدَفع العذاب عنهم بوجهٍ من الوجوه.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ التي فَتَنَتْهم ﴿لَعْنَةً﴾ طرداً وإبعاداً، أو لعناً من اللاعنين حيث لا تزالُ الملائكة عليهم السلام تلعنُهم، وكذا المؤمنون خَلَفاً عن سَلَفٍ، وذلك إمَّا بدخولهم في عموم مَن يلعنونهم من الظالمين، وإما بالتنصيص عليهم، نحو: لَعَنَ الله تعالى فرعونَ وجنودَه.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ من المطرودين المبعَدين، يقال: قَبَحه الله تعالى بالتخفيف، أي: نحَّاه وأبعده عن كلِّ خير، كما قال الليث. ولا يتكرَّرُ مع اللعنة المذكورة قبلُ[1]؛ لأنَّ معناها الطرد أيضاً، لأن ذلك في الدنيا وهذا في الآخرة، أو ذاك طردٌ عن رحمته التي في الدنيا وهذا طردٌ عن الجنة، أو على هذا يراد باللعنة فيما تقدَّم ما تأخَّر، مع أنَّ من المطرودين معناه أنهم من الزمرة المعروفين بذلك، وهو أبلغ وأخصُّ.

وقال أبو عبيدة والأخفش: «من المقبوحين» أي: من المهلَكين[2].

وعن ابن عباس، أي: من المشوَّهين في الخلقة بسوادِ الوجوه وزرقةِ العيون، وهذا المعنى هو المتبادرُ إلا أنَّ فيه أنَّ فِعْلَ «قبح» عليه لازمٌ، فبناءُ اسم المفعول منه غير ظاهر، وقد يقال: إذا صحَّ هذا التفسير عن ابن عباس التُزم القولُ بأنه سُمع أيضاً. وجوِّز أن يكون ذلك تفسيراً بما هو لازمٌ في الجملة.

---

(١) في الأصل و(م): قيل، وفي حاشية الشهاب ٧/ ٧٦ (والكلام منه): قبله.
(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٠٦، وقول الأخفش في النكت والعيون ٤/ ٢٥٤.

و«يوم القيامة» متعلِّقٌ بـ «المقبوحين»، أو بمحذوفٍ يفسِّره ذلك، على ما عَلِمْتَ آنفاً في نظيره[1]. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج، وعبد بن حميد عن قتادة، ما هو ظاهرٌ في أنه معطوفٌ على «هذه الدنيا»، وهو عطفٌ على المحلِّ، والمرويُّ عن ابن جُرَيجٍ أظهرُ في ذلك، وكلاهما في «الدر المنثور»[2]، والظاهرُ ما سمعتَه أولاً.

وهذه الآيةُ أظهرُ دليلٍ على عدم نجاة فرعون يومَ القيامة، وأنه ملعونٌ مُبْعَدٌ عن رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، فإنَّ ضمائر جمع الغائب فيها راجعةٌ إلى فرعون وجنوده، ويكادُ ينتظِمُ مَن الْتَزمَ إرجاعها إلى الجنود في الجنود، وفي «الفتاوى الحديثية» للعلَّامة ابن حجر: روى [ابن] عدي، والطبرانيُّ عن ابن مسعود أنه ﷺ قال: «خَلَقَ الله تعالى يحيى بن زكريا في بطن أمِّه مؤمناً، وخَلَقَ فرعون في بطن أمِّه كافراً»[3].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، وهو على ما قال أبو حيان: أولُ كتابٍ فُصِّلَتْ فيه الأحكامُ[4] ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أقوامَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ عليهم السلام، والتعرُّضُ لبيانِ كونِ إيتائها بعد إهلاكهم للإشعار بأنها نزلت بعد مساسِ الحاجة إليها؛ تمهيداً لِمَا يعقبُه من بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله ﷺ، فإنَّ إهلاك القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع وانطماسِ آثارها، المؤدِّيين إلى اختلال نظام العالم وفسادِ أحوال الأمم، المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الأصول الباقية على ممرِّ الدهور، وترتيبِ الفروع المتبدِّلة بتبدُّل العصور، وتذكيرِ أحوال الأمم الخالية الموجبةِ للاعتبار.

ومَن غفل عن هذا قال: الأَوْلَى أن تفسَّر القرونُ الأولى بمن لم يؤمن بموسى عليه السلام، ويقابلُها الثانيةُ وهي مَن آمن به عليه السلام.

---

(١) ينظر ما سلف ص١٨٤ من هذا الجزء.

(٢) ٥/ ١٢٩.

(٣) الفتاوى الحديثية ص٢٩١، وما سلف بين حاصرتين منه، والخبر في الكامل لابن عدي ٦/ ٢٢٢١ و٧/ ٢٤٩٨، والمعجم الكبير (١٠٥٤٣)، وسلف ١١/ ٢٨٣.

(٤) البحر ٧/ ١٢٠.

وقيل: المراد بها ما يعمُّ مَن لم يؤمن بموسى من فرعون وجنوده والأمم المهلَكة من قبل. وليس بذاك.

و«ما» مصدرية، أي: آتيناه ذلك بعد إهلاكنا القرون الأولى ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: أنواراً لقلوبهم تُبْصِرُ بها الحقائقَ، وتميِّز بين الحقِّ والباطل حيث كانت عمياً عن الفهم والإدراك بالكلِّية، فإنَّ البصيرة نورُ القلب الذي به يستبصِرُ كما أنَّ البصر نورُ العين الذي به تُبْصِرُ، ويطلق على نفس العين ويُجمع على أبصار، والأول يجمع على بصائر. والمراد بالناس قيل: أمّته عليه السلام، وقيل: ما يعمُّهم ومَن بعدهم.

وكونُ التوراة بصائرَ لمن بُعِثَ إليه نبيُّنا ﷺ لتضمُّنها ما يرشدهم إلى حقِّيَّة بعثته عليه الصلاة والسلام، أو يزيدُهم علماً إلى علمهم.

وتعقِّب بأنه يلزم على هذا الحضُّ على مطالعة التوراة والعلم بما فيها، وقد صحَّ أنَّ عمر رضي الله عنه استأذن رسول الله ﷺ في جوامعَ كَتَبها من التوراة ليقرأها ويزدادَ علماً إلى علمه، فغضب ﷺ حتى عُرِفَ في وجهه ثم قال: «لو كان موسى حيًّا لمَا وسعه إلا اتِّباعي» فرمى بها عمر رضي الله عنه من يده وندم على ذلك(١).

وأجيب بأنَّ غضبه ﷺ من ذلك لِمَا أنَّ التوراة التي بأيدي اليهود إذ ذاك كانت محرَّفةً وفيها الزيادةُ والنقصُ، وليست عينَ التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، وكان الناس حديثي عهدٍ بكفرٍ، فلو فتح باب المراجعة إلى التوراة ومطالعتِها في ذلك الزمان لأدَّى إلى فسادٍ عظيم، فالنهي عن قراءتها حيث الإسلامُ حديثٌ والخروجُ عن الكفر جديدٌ لا يدلُّ على أنها ليست في نفسها بصائر مشتملةً على ما يرشدُ إلى حقِّية(٢) بعثته ﷺ ويزيد علماً بصحة ما جاء به. ومما يدلُّ على حِلِّ الرجوع إليها في الجملة قولُه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] وقد كان المؤمنون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعبِ الأحبار ينقلون منها ما ينقلون من الأخبار، ولم ينكر ذلك ولا سماعَه أحدٌ

---

(١) سلف ٢/ ١٤٢ و٣/ ٤٦١.

(٢) في الأصل: حقيقة.

من أساطين الإسلام، ولا فرق بين سماع ما ينقلونه منهم وبين قراءته فيها وأَخْذِه منها، وقد رجع إليها غيرُ واحدٍ من العلماء في إلزام اليهود والاحتجاجِ عليهم ببعض عباراتها في إثبات حقِّية بعثته ﷺ.

والذي أميلُ إليه كونُ المراد بالناس بني إسرائيل فإنه الذي يقتضيه المقام، وأمَّا مطالعةُ التوراة فالبحثُ فيها طويل، وفي «تحفة المحتاج» للمولى العلَّامةِ ابن حجر عليه الرحمةُ: يَحرُمُ على غير عالم متبحِّرٍ مطالعةُ نحوِ توراةٍ علم تبدُّلها أو شكَّ فيه[1]. وهو أقربُ إلى التحقيق، ومَن سَبَرَ التوراةَ التي بأيدي اليهود اليومَ رأى أكثرها مبدَّلاً لا توافُقَ بينه وبين ما في القرآن العظيم أصلاً، وهو المعوَّلُ عليه.

﴿وَهُدًى﴾ أي: إلى الشرائع التي هي الطرقُ الموصلةُ إلى الله عزَّ وجل ﴿وَرَحْمَةً﴾ حيث ينال مَن عمل به رحمة الله تعالى بمقتضى وعده سبحانه، فعمومُ رحمته بهذا المعنى لا ينافي أنَّ من الناس مَن هو كافرٌ بها وهو غيرُ مرحوم.

وانتصابُ المتعاطفات على الحالية من «الكتاب» على أنه نفسُ البصائر والهدى والرحمة، أو على حذف المضاف، أي: ذا بصائر.. إلخ. وجوَّز أبو البقاء[2] انتصابها على العلَّة، أي: آتيناه الكتاب لبصائر وهدًى ورحمةً.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: كي يتذكَّروا، بناءً على أنَّ «لعل» للتعليل؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق السديِّ عن أبي مالك قال: «لعل» في القرآن بمعنى «كي» غيرَ آيةٍ في «الشعراء»: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[3] [الآية: ١٢٩].

وحكى البغويُّ عن الواقديِّ[4] أنه قال: جميعُ ما في القرآن من «لعل» للتعليل، إلا (لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) فإنها فيه للتشبيه.

والمشهورُ أنها للترجِّي، ولمَّا كان محالاً عليه عزَّ وجلَّ جَعَلَ بعضُهم الكلام من باب التمثيل، والمراد: آتيناه ذلك ليكونوا على حالةٍ قابلةٍ للتذكُّر كحالِ مَن

---

(١) تحفة المحتاج ١/ ١٧٨.

(٢) في الإملاء ٤/ ١٥١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٦٠، وسلف ١٨/ ١٤١.

(٤) في الأصل و(م): وحكى الواقدي عن البغوي، وهو خطأ، وينظر ما سلف ١٨/ ١٤١.

يُرْجَى منه الخير. وبعضٌ آخرُ صَرَفَ التَّرجِّيَ إلى المخاطبين، فهو منهم لا منه تعالى. وجَعَلَ الزمخشريُّ[١] في ذلك استعارةً تبعيةً، حيث شبَّه الإرادة بالترجِّي لكون كلٍّ منهما طلب الوقوع.

ورُدَّ بأنَّ فيه لزومَ تخلُّفِ مراد الله تعالى عن إرادته لعدم تذكُّر الكلِّ، إلا أن يكون من قبيل إسناد ما للبعض إلى الكلِّ. وأنت تعلم أنَّ الإرادة عند المعتزلة قسمان: تفويضية، وهي قد يتخلَّف المراد عنها، وقسريةٌ وهي لا يتخلَّف المراد عنها أصلاً، فمتى أُريدَ القسمُ الأولُ منها هنا زال الإشكال، إلا أنَّ التقسيم المذكور خلافُ المذهب الحقِّ.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ شروعٌ في بيانِ أنَّ إنزال القرآن الكريم أيضاً واقعٌ زمانَ مساس الحاجة إليه واقتضاءِ الحكمة له البتةَ، متضمِّناً تحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله تعالى، ببيانِ أنَّ الوقوف على ما فصِّل من الأحوال لا يتسنَّى إلا بالمشاهدة أو التعلُّم ممن شاهدها، وحيث انتفى كلاهما تبيَّن أنه بوحيٍ من علَّام الغيوب لا محالةَ. كذا قيل[٢]، ولا يخفى أنَّ تعيُّن كونه بوحي لا يتمُّ إلا بنفي كونه بالاستفاضة، وكونِه بالتعلُّم من بعض أهل الكتاب المعاصرين له ﷺ، كما قال المشركون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣] ولعله إنما لم يتعرَّض لنفي ذلك وتعرَّض لنفي ما هو أظهرُ انتفاءً منه للإشارة إلى ظهور انتفاءِ ذلك، والمبالغةِ في دعوى ذلك، حيث آذَنَ بأنَّ المحتاج إلى الإخبار بانتفائه ذانك الأمران دونه، على أنه عزَّ وجلَّ قد نفى في موضعٍ آخَرَ كونَه بالتعلُّم من بعض أهل الكتاب، ولعله يُعلَم منه انتفاءُ كونه بالاستفاضة، وإن قلنا: إنه لا يُعلم، فدليلهُ ظاهرٌ جدًّا، ولذا لم يتشبَّثْ بكون الوقوف بها أحدٌ من المشركين، فتدبر.

والمعنى على ما ذهب إليه بعضُهم: وما كنتَ حاضراً بجانب الجبل الغربي أو المكان الغربيِّ الذي وقع فيه الميقاتُ وأَعْطى الله تعالى فيه ألواحَ التوراة لموسى عليه السلام، والكلامُ على هذا من باب حذف الموصوف وإقامةِ صفته مقامَه، وهو عند قومٍ من باب إضافة الموصوف إلى الصفة التي جوَّزها الكوفيون كما في:

(١) في الكشاف ٣/ ١٨١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٧٦.
(٢) هو قول أبي السعود في تفسيره ٧/ ١٥.

مسجد الجامع، والأصل: في الجانب الغربيِّ، فيتَّحِدُ الجانبُ والغربيُّ على هذا الوجه، وهو بعضٌ من الغربي على الوجه الأول.

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي: عَهِدْنا إليه وأَحْكَمنا أمرَ نبوَّته بالوحي وإيتاءِ التوراة.

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝٤٤﴾ أي: من جملة الحاضرين للوحي، أو: الشاهدين على الوحي إليه عليه السلام، وهم السبعون المختارون للميقات، حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى في ميقاته فتُخْبِرَ به الناس، فالشاهدُ من الشهادة إمَّا بمعنى الحضورِ أو بمعناها المعروف، واستشكل إرادةُ المعنى الأول بلزوم التكرار؛ فإنه قد نفى الحضور أولاً في قوله تعالى: (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ)، وكذا إرادةُ المعنى الثاني بلزوم نحو ذلك؛ لِمَا أنَّ نفي الحضور يستدعي نفي كونه من الشاهدين بذلك المعنى، ومن هنا قيل: المراد من الأول نفيُ كونه ﷺ حاضراً بنفسه لغرضٍ من الأغراض، ومن الثاني نفيُ كونه عليه الصلاة والسلام من جماعةٍ جيء بهم ليَحْضُروا فيطَّلعوا على ما يقع هناك لموسى عليه السلام؛ لأنَّ المراد بالشاهدين جماعةٌ معهودون كان حالُهم ذلك.

وقيل: المراد بالشاهدين الملائكةُ عليهم السلام، فقد جاء الشاهد اسماً للمَلَكِ كما في «القاموس»[1]، فكأنه قيل: ما كنتَ حاضراً بجانب الغربيِّ إذ قضينا إلى موسى أمرَ نبوَّته بالوحي وما كنتَ من الملائكة الذين ينزلون ويصعدون بأمر الله تعالى ووحيه إلى أنبيائه عليهم السلام، ولهم من الاطِّلاع على الحوادث ما ليس لغيرهم من البشر، حتى يكون لك علمٌ بما وقع لموسى عليه السلام فتُخْبِرَ به الناس.

وقال ابن عباس كما في «التفسير الكبير» و«البحر»: التقدير: لم تحضر ذلك الموضعَ، ولو حَضَرْتَ لَما شاهدتَ تلك الوقائعَ، فإنه يجوزُ أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى[2].

---

(١) مادة (شهد).

(٢) تفسير الرازي ٢٤/٢٥٧، والبحر ٧/ ١٢٢.

وقيل وهو مختار أبي حيان: إنَّ المعنى: وما كنتَ من الشاهدين بجميع ما أعلمناك به، فهو نفيٌ لشهادته عليه الصلاة والسلام جميعَ ما جرى لموسى عليه السلام، فكان عموماً بعد خصوص[1].

وقيل: المراد: وما كنتَ من الشاهدين ذلك الزمان، فيكون نفياً لحضوره ومشاهدته ذلك الزمان أعمّ من أن يكون بجانب الغربي أو بغيره، وحاصلُه نفيُ الوجود العينيِّ إذ ذاك، فيكون ترقِّياً في النفي.

وقيل: المراد: وما كنتَ إذ ذاك منتظماً في سلك مَن يتَّصفُ بالشهادة، وهم الموجودون بالوجود العينيِّ أينما كانوا، ومآله كمآل ما قبله وإن اختلفا في طريق الإرادة، وتعيُّن كون الشهادة فيما قبله بمعنى الحضور، ولعل ما قبله أظهرُ منه، بل إذا ادَّعى مدَّعٍ كونَه أظهر من جميع ما قيل لم يَبْعُدْ.

هذا ولا يخفى عليك حالُ تلك الأقوال وما فيها من القيل والقال، وفي القلب من صحة نسبةِ ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما إليه ما فيه، فتدبَّر جميع ذاك، واللهُ تعالى يتولَّى هداك.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: ولكنَّا خَلَقْنا بين زمانِكَ وزمانِ موسى قروناً كثيرةً ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ وتمادى الأمدُ، فتغيَّرت الشرائعُ والأحكام، وعَمِيَتْ عليهم الأنباء، لاسيما على آخرهم الذين أنت فيهم، فاقتضت الحكمةُ التشريعَ الجديد وقصَّ الأنباء على ما هي عليه، فأوحينا إليك وقصصنا الأنباء عليك، فحذف المستدرك ـ أعني: أوحينا ـ اكتفاءً بذكر ما يوجبه ويدلُّ عليه من إنشاء القرون وتطاوُلِ الأمد، وخلاصةُ المعنى: لم تكن حاضراً لتَعْلَم ذلك، ولكن عَلِمْتَه بالوحي، والسببُ فيه تطاوُلُ الزمن حتى تغيَّرت الشرائعُ وعَمِيَتِ الأنباء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أي: مقيماً ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهم شعيبٌ عليه السلام والمؤمنون، نفيٌ لاحتمالِ كونِ معرفته ﷺ لبعضِ ما تقدَّم من القصة بالسماع ممن شاهد ذلك.

---

(١) البحر ٧/ ١٢٢.

وقولُه سبحانه: ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: تقرأ على أهل مدين بطريق التعلُّم منهم كما يقرأ المتعلِّم الدرسَ على معلِّمه ﴿ءَايَـٰتِنَا﴾ الناطقةَ بما كان لموسى عليه السلام بينهم وبما كان لهم معه، إمَّا حالٌ من المستكنِّ في «ثاوياً»، أو خبرٌ ثانٍ لـ «كنت».

﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ لك ومُوْحِينَ إليك تلك الآيات ونظائرَها، والاستدراكُ كالاستدراك السابق، إلَّا أنه لا حَذْفَ فيه.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: وقتَ ندائنا موسى: «إنِّي أنا الله ربُّ العالمين»، واستنبائنا إياه، وإرسالِنا له إلى فرعون.

﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذُكر وغيرِه لرحمةٍ كائنةٍ منَّا لك وللناس. وقيل: أي: علَّمناك رحمةً، ولعل الرحمة عليه مفعولٌ ثانٍ لعلَّم والمراد بها القرآن، وليست مفعولاً له والمفعولُ الثاني ما ذكر من القصة؛ لِمَا ستعرفُه قريباً إن شاء الله تعالى. وأمَّا جَعْلُها منصوبةً على المصدرية لفعلٍ محذوفٍ فحالُه غنيٌّ عن البيان.

والالتفاتُ إلى اسم الربِّ للإشعار بأنَّ ذلك من آثار الربوبية، وتشريفِه عليه الصلاة والسلام بالإضافة، وقد اكتفى ها هنا عن ذكر المستدرَكِ بذِكْر ما يوجبه من جهته تعالى كما اكتفى في الأول بذكر ما يوجبه من جهة الناس، وصرَّح به فيما بينهما تنصيصاً على ما هو المقصودُ، وإشعاراً بأنه المرادُ فيهما أيضاً، ولله تعالى درُّ شأنِ التنزيل.

وقوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلِّقٌ بالفعل المعلَّل بالرحمة، وهو يستدعي أن يكون الإرسال بالقرآن أو ما في معناه كتعليم القرآن، دون تعليم ما ذكر من القصة، إذ لا يظهر حُسْنُ تعليله بالإنذار. وجوِّز أن يتعلَّق بالمستدرَكات الثلاث على التنازُع.

وقرأ عيسى وأبو حيوة: «رحمةٌ» بالرفع(١) على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والتقدير: ولكنْ هو، أو هذا، أو هي، أو هذه، رحمةٌ، والضمير أو الإشارة قيل: للإرسال المفهوم من الكلام، والتذكيرُ والتأنيثُ باعتبار المرجع والخبر، والخلافُ

(١) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٣.

في الأولى مشهور. وجوَّز أبو حيان أن يكون التقدير: ولكن أنت رحمةٌ[١]. و«لتنذر» على هذه القراءة متعلِّقٌ بما هو صفةٌ لـ «رحمة».

وقولُه جلَّ وعلا: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ صفةٌ لـ «قوماً»، و«من» الأولى مزيدةٌ للتأكيد.

وقولُه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: يتَّعظون بإنذارك، تعليلٌ للإنذار على القول بأنَّ «لعل» للتعليل، وأمَّا على القول بأنها الترجِّي حقيقةً أو مجازاً، فقيل: هو في موضع الصفة بتقدير القول، أي: لتنذر قوماً مقولاً فيهم: لعلهم يتذكرون.

والمرادُ بهؤلاء القوم قيل: العرب، وظاهر الآية أنهم لم يُبعث إليهم رسولٌ قبل نبيِّنا ﷺ أصلاً، وليس بمرادٍ؛ للاتِّفاق على أنَّ إسماعيل عليه السلام كان مرسلاً إليهم، وكأنه لتطاوُل الأمد بين بعثته عليه السلام وبعثةِ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، إذ بينهما أكثرُ من ألفي سنةٍ[٢] بكثيرٍ، واندراسِ شرعه، وعدمِ وقوفِ الأكثرين في أغلب هذه المدة على حقيقته = قيل ذلك.

وقيل: إنَّ ذلك لِمَا صرَّحوا به من أنَّ حُكم بعثةِ إسماعيل عليه السلام قد انقطع بموته، وأنه لم يرسَل إليهم بعده نبيٌّ سوى النبيِّ ﷺ؛ قال العلَّامة ابنُ حجر في «المنح المكية»: من المقرَّر أنَّ العرب لم يُرسَلْ إليهم رسولٌ بعد إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وأنَّ إسماعيل انتهت رسالتُه بموته. وادَّعى قبيل هذا الاتِّفاقَ على أنَّ إبراهيم عليه السلام ومَن بعده - أي: سوى إسماعيل عليه السلام - لم يُرْسَلوا للعرب، ورسالةُ إسماعيل إليهم انتهت بموته. اهـ. فكأنه لقلَّة لبث إسماعيل عليه السلام فيهم، وانقطاعِ حُكْمِ رسالته بعد وفاته فيما بينهم، وبقائهم الأمدَ الطويلَ بغير رسولٍ مبعوثٍ فيهم، نُفِيَ إتيانُ النذير إياهم من قَبْلِه ﷺ.

وذكر العلَّامة ابن حجر في «المنح» أيضاً ما يفيد أنَّ كلَّ رسولٍ ممن عدا نبينا ﷺ تنقطعُ رسالتُه بموته، وليس ذلك خاصًّا بإسماعيل عليه السلام.

---

(١) البحر ٧/ ١٢٣.

(٢) جاء في حاشية (م): قوله: أكثر من ألفي سنة. . إلخ، في الحاوي للسيوطي ما يدل على أن بينهما نحواً من ثلاثة آلاف سنة. اهـ منه.

ويُفْهَمُ من كلام العز بن عبد السلام في «أماليه» أنَّ هذا الانقطاعَ ليس على إطلاقه، فقد قال: فائدة: كلُّ نبيٍّ إنما أُرسل إلى قومه إلا سيدَنا محمداً ﷺ، فعلى هذا يكون ما عدا قومَ كلِّ نبيٍّ من أهل الفترة، إلا ذرية النبيِّ السابق عليه، فإنهم مخاطبون ببعثة السابق إلا أن تدرسَ شريعةُ السابق فيصير الكلُّ من أهل الفترة. اهـ.

وهو وكذا ما نقلناه عن العلَّامة ابن حجر عندي الآن على أعراف الردِّ والقبول، ولعل الله تعالى يشرحُ صدري بعدُ لتحقيق الحقِّ في ذلك.

وقيل: إنَّ موسى وعيسى عليهما السلام كما أُرسلا لبني إسرائيل أُرسلا للعرب، فالمراد بنفي هذا الإتيان الفترةُ التي بين عيسى ونبيِّنا عليهما الصلاة والسلام، وزمنُها على ما روى البخاريُّ عن سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه ستُّ مئة سنة[١]، وفي كثيرٍ من الكتب أنه خمسُ مئةٍ وخمسون سنة.

ونفيُ إتيان نبيٍّ بين زماني إتيانِ نبيِّنا وإتيان عيسى عليهما الصلاة والسلام هو ما صحَّحه جمعٌ من العلماء لحديثِ: «لا نبيَّ بيني وبين عيسى»[٢]. وقال بعضهم: إنَّ بينهما أربعةَ أنبياء؛ ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب، وهو خالد بن سنان[٣]. وقيل غيرُ ذلك.

واختار البعضُ أنَّ المراد بهؤلاء القوم العربُ المعاصرون له ﷺ؛ إذ هم الذين يُتصوَّر إنذارُه عليه الصلاة والسلام إياهم دون أسلافهم الماضين، ولعله الأظهر. وعدمُ إتيان نذيرٍ إياهم من قَبْلِه ﷺ ـ على القول بانتهاءِ حُكْم رسالة الرسول سوى نبيِّنا عليه الصلاة والسلام بموته ـ ظاهرٌ.

وأمَّا إذا قيل بعدم انتهائه بذلك، وبقائه حكماً لرسالة الرسول يجب على مَن عَلِمَه من ذراري المرسَلِ إليهم الأخذُ به من حيث إنه حكمٌ من أحكام ذلك الرسول إلى أن يأتي رسولٌ آخرُ فيؤخذ به من حيث إنه حكمٌ من أحكامه، أو على الوجه الذي يأمر به فيه من النسبة إليه، أو من نسبته[٤] إلى مَن قبله، أو يترك إن جاء الثاني ناسخاً

(١) صحيح البخاري (٣٩٤٨).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) وسلف ٧/ ١٢٨.
(٣) ينظر ما سلف ٧/ ١٢٧-١٢٨، وما سيأتي عند تفسير الآية (٣) من سورة السجدة.
(٤) في الأصل: النسبة.

له = فالمرادُ بعدم إتيان النذير إياهم عدمُ وصول ما أتى به على الحقيقة إليهم.

ولا يمكن أن يراد بهؤلاء القوم العربُ مطلقاً، ويقال بأنهم لم يُرْسَلْ إليهم قبل رسول الله ﷺ أحدٌ أصلاً؛ لظهور بطلانه ومنافاته لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] والعربُ أعظمُ أمةٍ، وكذا لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦] بناءً على أنَّ «ما» فيه ليست نافيةً، وهو على القول بأنَّ «ما» فيه نافيةٌ مؤوَّلٌ بحَمْلِ الآباء على الآباء الأقربين، ولا يكاد يجوز في «ما» ها هنا ماجاز فيها من الاحتمال في آية «يس»، بل المتعيّنُ فيها النفيُ ليس غير، وتكلُّفُ غيره مما لا ينبغي في كتاب الله تعالى.

والنذير بمعنى المنذر، واحتمالُ كونه مصدراً بمعنى الإنذار مما لا ينبغي أن يُلتفتَ إليه.

وتغييرُ الترتيب الوقوعيِّ بين قضاء الأمر بمعنى إحكام أمرِ نبوَّةِ موسى عليه السلام بالوحي وإيتاءِ التوراة، وثوائه عليه السلام في أهل مدين المشارِ إليه بقوله تعالى: (وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ)، والنداءِ = للتنبيه على أنَّ كلًّا من ذلك برهانٌ مستقلٌّ على أنَّ حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحي الإلهيِّ. ولو رُوعيَ الترتيبُ الوقوعيُّ، ونُفي أولاً الثواءُ في أهل مدين، ونُفيَ ثانياً الحضورُ عند النداء، ونُفي ثالثاً الحضورُ عند قضاء الأمر، لربما تُوهِّم أنَّ الكلَّ دليلٌ واحدٌ على ما ذكر كما مرَّ في قصةِ البقرة.

ومن الناس مَن فسَّر قضاء الأمر بالاستنباء، والنداءَ بالنداء لأخذ التوراة بقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] رعايةً للترتيب الوقوعيِّ بينهما.

وتعقِّب بأنه يفوتُ عليه التنبيهُ المذكورُ، مع أنه بهذا القَدْرِ لا يرتفعُ تغيير الترتيب الوقوعيِّ بالكلِّية بين المتعاطفات؛ لأنَّ الثواء في أهل مدين متقدِّمٌ على القضاء والنداء في الواقع، وقد وسِّط في النظم الكريم بينهما، وأيضاً ما تقدَّم من تفسير كلٍّ من القضاء والنداء بما فسِّر أنسبُ بما يلي كلًّا من الاستدراك.

ومما يُستغربُ أنَّ بعضَ مَن فسَّر ما ذُكر بما يوافقُ الترتيبَ الوقوعيَّ فسَّر «الشاهدين» بالسبعين المختارين للميقات، ولا يكاد يتسنَّى ذلك عليه؛ لأنهم

إنما كانوا مع موسى عليه السلام لمَّا أُعطي التوراة، فكان عليه أن يفسِّره بغير ذلك، وقد تقدَّم لك عدةُ تفاسير لا يأبى شيءٌ منها تفسيرَه ما ذُكر بما يوافقُ الترتيبَ الوقوعيَّ، وجوَّز على التفسير بما يوافقُ كونَ المراد بالشاهدين الملائكةَ عليهم السلام الذين كانوا حول النار، فإنَّ الآثار ناطقةٌ بحضورهم حولها عندما أتاها موسى عليه السلام، وكذا قولُه تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] في قول.

هذا وفي الآيات تفسيراتٌ أُخَرُ، فقال الفرَّاء[1] في قوله تعالى: (وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا) إلخ، أي: وما كنتَ مقيماً في أهل مدين مع موسى عليه السلام، فتراه وتسمع كلامه، وها أنت تتلو عليهم ـ أي: على أمتك ـ آياتِنا، فهو منقطعٌ. اهـ.

ونحوُه ما روي عن مقاتلٍ فيه، وهو أنَّ المعنى: لم تَشْهَدْ أهلَ مدين فتقرأ على أهل مكةَ خبرهم، ولكنَّا أرسلناك إلى أهل مكة، وأنزلنا إليك هذه الأخبار، ولولا ذلك ما علمتَ.

وقال الضحاك: يقول سبحانه: إنك يا محمدُ لم تكن الرسولَ إلى أهل مدين تتلو عليهم آياتِ الكتاب، وإنما كان غيرُك، ولكنَّا كنَّا مرسلين في كلِّ زمانٍ رسولاً، فأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً، وأرسلناك إلى العرب لتكون خاتم الأنبياء. اهـ. ولا يخفى أنَّ ما قدَّمنا أولى بالاعتبار.

وذهب جمعٌ إلى أنَّ النداء في قوله تعالى: (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا) كان نداءً فيما يتعلَّق بهذه الأمة المحمدية على نبيِّها أفضلُ الصلاة وأكملُ التحية، وذكروا عدَّة آثارٍ تدلُّ على ذلك. أخرج الفريابيُّ والنسائيُّ وابن جرير وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، وابنُ مردويه، وأبو نعيم والبيهقيُّ معاً في «الدلائل» عن أبي هريرة قال في ذلك: نودوا: يا أمَّة محمدٍ أعطيتُكم قبل أن تسألوني، واستجبتُ لكم قبل أن تدعوني[2].

---

(١) كما في البحر ٧/ ١٢٢، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٢) سنن النسائي الكبرى (١١٣١٨)، وتفسير الطبري ١٨/ ٢٦٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٣، والمستدرك ٢/ ٤٠٨، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٨١، وعزاه للفريابي وابن مردويه وأبي نعيم السيوطيُّ في الدر ٥/ ١٢٩، وعنه نقل المصنف، وهو من طريق أبي زرعة بن عمرو عن أبي هريرة. وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٦٢ عن أبي زرعة قوله؛ قال الدارقطني في العلل ٨/ ٢٩١: وهو أصح.

وأخرجه ابن مردويه من وجهٍ آخرَ عن أبي هريرة مرفوعاً[١].

وأخرج هو أيضاً، وأبو نعيم في «الدلائل»، وأبو نصر السجزيُّ في «الإبانة»، والديلميُّ، عن عمرو بن عبسة[٢] قال: سألتُ النبيَّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: ما كان النداء، وما كانت الرحمة؟ قال: «كتابٌ كتبه الله تعالى قبل أن يخلق خَلْقَه بألفي عام، ثم وضعه على عرشه، ثم نادى: يا أمةَ محمد، سَبَقَتْ رحمتي غضبي، أعطيتُكم قبل أن تسألوني، وغفرتُ لكم قبل أن تستغفروني، فمن لقيني منكم يشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلتُه الجنة».

وأخرج الختليُّ[٣] في «الديباج» عن سهل بن سعد الساعديِّ مرفوعاً مثلَه.

وأخرج ابن مردويه[٤] عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «لمَّا قرَّب الله تعالى موسى إلى طور سيناء نجيًّا قال: أي ربِّ، هل أجدُ أكرمَ عليك منِّي؛ قرَّبْتَني نجيًّا، وكلَّمتني تكليماً؟ قال: نعم، محمدٌ عليه الصلاة والسلام أكرمُ عليَّ منك. قال: فإن كان محمدٌ ﷺ أكرمَ عليك منِّي، فهل أمةُ محمدٍ أكرمُ من بني إسرائيل؛ فلَقْتَ البحر لهم، وأنجيتهم من فرعون وعملِه، وأطعمتَهم المنَّ والسلوى؟ قال: نعم، أمةُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام أكرمُ عليَّ من بني إسرائيل. قال: إلهي أَرِنيهم. قال: إنَّك لن تراهم، وإن شئتَ أسمعتُكَ صوتَهم. قال: نعم إلهي. فنادى ربُّنا أمةَ محمدٍ ﷺ: أجيبوا ربَّكم. قال: فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم وأرحامِ أمهاتهم إلى يوم القيامة، فقالوا: لبيك، أنت ربُّنا حقًّا، ونحن عبيدُك حقًّا. قال: صدقتُم أنا ربُّكم حقًّا وأنتم عبيدي حقًّا، قد عفوتُ عنكم قبل أن تدعوني، وأعطيتُكم قبل أن

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٢٩، وأخرجه مرفوعاً أيضاً القزويني في تاريخ قزوين ٢/ ٣٥٣، والجرجاني في تاريخ جرجان ص٢٧٧.

(٢) في الأصل: عينية، وفي (م): عيينة، والمثبت من الدر المنثور ٣/ ١٢٩، وعنه نقل المصنف.

(٣) هو إسحاق بن إبراهيم بن سُنَيْن، المتوفى سنة (٢٨٣هـ)، قال الحاكم: ليس بالقوي. وقال مرة: ضعيف. وقال الدارقطني: ليس بالقوي. سمع من علي بن الجعد وأبي نصر التمار وهشام بن عمار وطبقتهم. الميزان ١/ ١٨٠.

(٤) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٩-١٣٠.

تسألوني، فمن لقيني منكم بشهادةِ أنْ لا إله إلا الله دخل الجنة» قال ابن عباس: فلمَّا بعث الله تعالى محمداً ﷺ أراد أن يمنَّ عليه بما أعطاه وبما أعطى أمته، فقال: يا محمد (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا).

واستشكل ذلك بأنه معنًى لا يناسبُ المقام، ولا تكادُ ترتبطُ الآيات عليه. ولا بدَّ لصحة هذه الأخبار من دليلٍ، وتصحيحُ الحاكم لا يخفى حاله.

وقال بعض: يمكن أن يقال على تقدير صحة الأخبار: إنَّ المراد: وما كنتَ حاضراً مع موسى عليه السلام بجانب الطور لتقف على أحواله فتخبرَ بها الناس، ولكن أرسلناك بالقرآن الناطقِ بذلك وبغيره رحمةً منَّا لك وللناس، والتوقيتُ بنداء أمته ليس لكون المخبر به ما كان من ذلك بل لإدخال المسرَّةِ عليه عليه الصلاة والسلام فيما يعود إليه وإلى أمته، وفيه تسليةٌ له ﷺ مما يكون من أمة الدعوة من الكفر به عليه الصلاة والسلام والإباءِ عن شريعته، وتلويحٌ مّا إلى مضمون ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩] وحينئذٍ ترتبطُ الآياتُ بعضُها ببعضٍ ارتباطاً ظاهراً، فتأمل.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي: عقوبةٌ، وهي على ما نُقل عن أبي مسلم عذابُ الدنيا والآخرة. وقيل: عذابُ الاستئصال.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما اقترفوا من الكفر والمعاصي، ويعبَّر عن كلِّ الأعمال وإن لم تَصْدُرْ عن الأيدي باجتراحِ الأيدي وتقديمِ الأيدي، لِمَا أنَّ أكثر الأعمال تُزاوَلُ بها.

﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: هلَّا أرسلْتَ إلينا رسولاً مؤيَّداً من عندك بالآيات ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الظاهرةَ على يده ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ بما جاء به.

و«لولا» الثانيةُ تحضيضيةٌ كما أشرنا إليه، وقوله تعالى: (فَنَتَّبِعَ) جوابُها، ولكون التحضيض طلباً كالأمر أُجيبت على نحو ما يجاب، وأما الأولى فامتناعيةٌ، وجوابُها محذوفٌ ثقةً بدلالةِ الحال عليه، والتقديرُ: لمَا أرسلناك. والفاء في «فيقولوا»عاطفةٌ ليقول على «تصيبهم»، والمقصودُ بالسببية لانتفاء الجواب والركنِ الأصيل فيها قولُهم ذلك إذا أصابتهم مصيبة، فالمعنى: لولا قولُهم إذا عوقبوا

بما اقترفوا: هلَّا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتَّبعَه ونكونَ من المؤمنين، لمَا أرسلناك إليهم. وحاصلُه سببيةُ القول المذكور لإرساله ﷺ إليهم قطعاً لمعاذيرهم بالكلِّية، ولكنَّ العقوبة لمَّا كانت هي السببَ للقول وكان وجودُه بوجودها جُعِلَتْ كأنها سببُ الإرسال بواسطة القول، فأُدخلت عليها «لولا» وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المُعْطيةِ معنى السببية، ونكتةُ إيثارِ هذا الأسلوب وعدمِ جَعْلِ العقوبة قيداً مجرَّداً أنهم لو لم يعاقَبوا مثلاً على كفرهم وقد عاينوا ما أُلْجِئوا به إلى العلم اليقين لم يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً، وإنما السبب في قولهم هذا هو العقابُ لا غير، لا التأسُّفُ على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم، وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخِه فيهم ما لا يخفى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] هذا ما أراده صاحب «الكشاف»(١)، وليس في الكلام عليه تقديرُ مضافٍ كما هو الظاهر.

وذهب بعضهم إلى أنَّ الكلام على تقديرِ مضافٍ، أي: كراهةُ أن تصيبهم.. إلخ، فالسببُ للإرسال إنما هو كراهةُ ذلك؛ لِمَا فيه من إلزام الحجة، ولله تعالى الحجةُ البالغة، وهذه الكراهةُ مما لا ريب في تحقُّقها الذي تقتضيه «لولا»، ودَفَعوا بهذا التقديرِ لزومَ تحقُّقِ الإصابة والقولِ المذكور وانتفاءَ عدم الإرسال، كما هو مقتضى «لولا»، وفي ذلك ما فيه.

وقال ابن المنير: التحقيقُ عندي أنَّ «لولا» ليست كما قال النحاة تدلُّ على أنَّ ما بعدها موجودٌ أو أنَّ جوابها ممتنعٌ، والتحرير في معناها أنها تدلُّ على أنَّ ما بعدها مانعٌ من جوابها، عَكْس «لو»، ثم المانعُ قد يكون موجوداً وقد يكون مفروضاً، وما في الآية من الثاني فلا إشكالَ فيها(٢).

واستُدلَّ بالآية على أنَّ قول مَن لم يُرْسَلْ إليه رسولٌ إن عذِّب: ربِّي لولا أرسلتَ إليَّ رسولاً، مما يَصْلُحُ للاحتجاج، وإلَّا لَما صلح لأنْ يكون سبباً للإرسال، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ العقل لا يغني عن الرسول، والبحثُ في ذلك شهيرٌ، والكلامُ فيه كثير.

---

(١) ٣/ ١٨١، والكلام السابق منه.

(٢) الانتصاف مع الكشاف ٣/ ١٨٣.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾ أي: أولئك القوم، والمرادُ بهم هنا أهلُ مكةَ الموجودون عند البعثة، وضمائرُ الجمع الآتيةُ كلُّها راجعةٌ إليهم ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: الأمرُ الحقُّ، وهو القرآنُ المنزلُ عليه عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُوا۟﴾ تعنُّتاً واقتراحاً: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ يَعْنُونَه عليه الصلاة والسلام ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام من الكتاب المنزل جملةً.

وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ ردٌّ عليهم، وإظهارٌ لكونِ ما قالوه تعنُّتاً محضاً لا طلباً لِمَا يرشدُهم إلى الحق. و«من قبل» متعلِّقٌ بـ «يكفروا»، وتعلُّقُه بـ «أوتي» لا يظهر له وجهٌ لائحٌ؛ إذ هو تقييدٌ بلا فائدةٍ؛ لأنه معلومٌ أنَّ ما أوتي موسى عليه السلام من قبلِ محمدٍ ﷺ، أو من قبل هؤلاء الكفرة، نعم أمرُ الردِّ عليه على حاله، أي: ألم يكفروا من قبل هذا القول بما أوتي موسى عليه السلام كما كفروا بهذا الحقِّ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير كفرهم المستفادِ من الإنكار السابق، وبيانِ كيفيته. وقوله تعالى: ﴿سِحْرَانِ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أي: هما ـ يَعْنُون: ما أوتي نبيُّنا وما أوتي موسى عليهما الصلاة والسلام ـ سحران ﴿تَظَٰهَرَا﴾ أي: تَعاونَا بتصديق كلٍّ واحدٍ منهما الآخرَ وتأييدِه إياه، وذلك أنَّ أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود في عيدٍ لهم، فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام، فقالوا: إنَّا نجدُه في التوراة بنعته وصِفَتِهِ. فلمَّا رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ﴾ أي: بكلٍّ واحدٍ من الكتابين ﴿كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ تصريحٌ بكفرهم بهما، وتأكيدٌ لكفرهم المفهوم من تسميتها سحراً، وذلك لغايةِ عتوِّهم وتماديهم في الكفر والطغيان.

وقرأ الأكثرون: «ساحران»[1]، وأراد الكفرةُ بهما نبيَّنا وموسى عليهما الصلاة والسلام.

---

(١) التيسير ص١٧٢، والنشر ٢/ ٢٤١-٢٤٢. وقرأ الكوفيون: «سحران».

وقرأ طلحة والأعمش: «اظَّاهَرا» بهمزة الوصل وشدِّ الظاء، وكذا هي في حرف عبد الله[1]، وأصلُه: تَظَاهَرَا، فلما قُلبت التاءُ ظاءً وأُدْغِمَتْ سُكِّنَتْ، فاجتُلِبَتْ همزةُ الوصل ليُبتَدأ بالساكن.

وقرأ محبوبٌ عن الحسن، ويحيى بن الحارث الذماريّ، وأبو حيوة، وأبو خلاد عن اليزيديِّ: «تظَّاهَرَا» بالتاء وتشديدِ الظاء؛ قال ابن خالويه: وتشديدُه لحنٌ لأنه فعلٌ ماضٍ، وإنما يشدَّد في المضارع[2].

وقال صاحب «اللوامح»: لا أعرفُ وجهَه. وقال صاحب «الكامل في القراءات»: لا معنى له. وخرَّج ذلك أبو حيان[3] على أنه مضارعٌ حذفت منه النون بدون ناصبٍ أو جازم، وجاء حذفها كذلك في قليل من الكلام وفي الشعر، و«ساحران» خبرٌ لمبتدأ محذوف، وأصل الكلام: أنتما ساحران تتظاهران، فحذف «أنتما» وأُدغمت التاء في الظاء وحُذفت النون وروعي الخطاب. ولو قرئ: يظَّاهرا بالياء حملاً على مراعاة «ساحران» أو على تقديرِ «هُما»، لكان له وجهٌ. وكأنهم خاطبوا النبيَّ ﷺ بذلك وأرادوه وموسى عليهما الصلاة والسلام بـ «أنتما» على سبيل التغليب.

هذا وتفسير الآية بما ذكر مما لا تكلُّف فيه، ولعله هو الذي يستدعيه جزالةُ النظم الجليل ويقتضيه اقتضاءً ظاهرُ قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أي: مما أُوتياه من القرآن والتوراة ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ أي: إن تأتوا به أتَّبِعْه، فالفعلُ مجزومٌ بجواب الأمر، ومثلُ هذا الشرط يأتي به مَن يُدِلُّ[4] بوضوح حجَّته؛ لأنَّ الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمرٌ بيِّنُ الاستحالة، فيوسِّع دائرةَ الكلام للتبكيت والإلزام.

و[في][5] إيراد كلمة «إنْ» في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ - أي: في أنهما سحران مُخْتَلَقان - مع امتناع صدقهم نوعُ تهكُّم بهم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٤، والكلام منه.
(٢) القراءات الشاذة ص١١٣، والكلام من البحر ٧/ ١٢٤.
(٣) في البحر ٧/ ١٢٤، وما قبله منه.
(٤) أي: يثق. اللسان (دلل).
(٥) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٧/ ١٨، والكلام منه.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «أتبعُه» بالرفع على الاستئناف، أي: أنا أتبعه[(١)].

وقال الزمخشريُّ: «الحقُّ»: الرسولُ المصدَّقُ بالكتاب المُعْجِزِ مع سائر المعجزات. يعني أن المقام مقام أن يقال: فلمَّا جاءهم آيُ الرسول، أو فلما جاءهم الرسولُ، لكنْ عَدَلَ عن ذلك لإفادة تلك المعاني. و«ما أوتي موسى» بما هو أعمُّ، من الكتاب المنزل جملةً واحدةً واليدِ والعصا وغيرِهما من آياته عليه السلام[(٢)].

وتعقِّب بأنه لا تعلُّق للمعجزات من اليد ونحوها بالمقام، وكذا لا تعلُّق لغير القرآن من معجزات نبيِّنا ﷺ به، ويرشدُ إلى ذلك ظاهرُ قوله تعالى: (قُلْ فَأْتُوا) إلخ.

وجوِّز أن يكون ضميرا «جاءهم» و«قالوا» راجعَينِ إلى أهل مكة الموجودين، وضمير «يكفروا» وكذا ضمير «قالوا» في الموضعين راجع إلى جنس الكفرة المعلومِ من السياق، والمراد بهم الكفرةُ الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، و«من قبل» متعلِّق بـ «يكفروا» لا بـ «أوتي» لعدم ظهور الفائدة، والمراد بـ «سحرين» أو «ساحران» موسى وهارون عليهما السلام، كما روي عن مجاهد، وإطلاقُ «سحرين» عليهما للمبالغة، أو هو بتقدير: ذوا سحرين، والمعنى: أولم يكفر أبناءُ جنسهم من قبلهم بما أوتي موسى عليه السلام كما كفروا هم بما أوتيتَه، وقال أولئك الكفرة: هما، أي: موسى وهارون، سحران أو ساحران تَظَاهَرا.

وقيل: يجوز أن تكون الضمائر راجعةً إلى الموجودين، والكفرُ والقولُ المذكور لأولئك السابقين حقيقةً وإسنادهما إلى الموجودين مجازيٌّ لِمَا بين الطائفتين من المُلابسة.

وقيل بناءً على ما روي عن الحسن من أنه كان للعرب أصلٌ في أيام موسى عليه السلام: إنَّ المعنى: أَوَلَمْ يكفُرْ آباؤهم من قبلِ أن يُرْسَلَ محمدٌ ﷺ بما أوتي موسى، قالوا: هما ـ أي: موسى وهارون ـ سحران أو ساحران تظاهرا، فهو على أسلوب ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة:٤٩] ونحوه، ويفيد الكلامُ عليه أنَّ قَدَمهم في الكفر من الرسوخ بمكانٍ، ولهم في العناد عرقٌ أصيلٌ.

---

(١) البحر ٧/ ١٢٤.

(٢) الكشاف ٣/ ١٨٣ بنحوه.

وكونُ العربِ لهم أصلٌ في أيام موسى عليه السلام مما لا شبهةَ فيه، حتى قيل: إنَّ فرعون كان عربيًّا من أولاد عاد، لكنْ في حُسْنِ تخريج الآية على ذلك كلامٌ.

وأنت تعلم أن كلَّ هذه الأوجُهِ ليست مما ينشرحُ له الصدرُ، وفيها من التكلُّف ما فيها.

وادَّعى أبو حيان ظهورَ رجوعِ ضمير «يكفروا» وكذا ضمير «قالوا» إلى قريش الذين قالوا: «لولا أوتي مثلَ ما أوتي موسى» وأنَّ نسبة ذلك إليهم لِمَا أنَّ تكذيبهم لمحمدٍ ﷺ تكذيبٌ لموسى عليه السلام، ونسبتَهم السحرَ للرسول نسبتُهم إياه لموسى وهارون عليهما السلام؛ إذ الأنبياءُ عليهم السلام من وادٍ واحدٍ، فَمَنْ نَسَبَ إلى أحدٍ منهم ما لا يليقُ كان ناسباً ذلك إلى جميعهم[١]. فلا يُحتاج إلى توسيط حكايةِ الرهط في أمر النسبة، وعليه يجوزُ أن يراد بـ «كلٌّ»: كلٌّ واحدٍ من الأنبياء عليهم السلام.

ولا يخفى أنَّ ما ادَّعاه من ظهور رجوع الضمير إلى ما ذكر أمرٌ مقبولٌ عند منصفي ذوي العقول، لكنَّ توجيه نسبةِ الكفر والقولِ المبينِ لكيفيته بما[٢] ذكر ممَّا يَبْعُدُ قبولُه، وكأنه إنما احتاج إليه لعدم ثبوتِ حكايةِ الرهط عنده.

وعن قتادة أنه فسَّر السحران بالقرآن والإنجيل، والساحران بمحمدٍ وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وجَعَلَ ذلك القولَ قولَ أعداء الله تعالى اليهود. وتفسيرُ الساحرين بذلك مرويٌّ عن الحسن، وروي عنه أيضاً أنه فسَّرهما بموسى وعيسى عليهما السلام، والكلُّ كما ترى.

وتفسيرُهما بمحمدٍ وموسى عليهما الصلاة والسلام مما رواه البخاريُّ في «تاريخه» وجماعةٌ عن ابن عباس[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عاصمٍ الجحدريِّ أنه كان يقرأ: «سحران» ويقول:

---

(١) البحر ٧/ ١٢٣.

(٢) في (م): مما.

(٣) التاريخ الكبير ٥/ ٣١٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٥.

هما كتابان؛ الفرقان والتوراة، ألا تراه سبحانه يقول: (فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا)(١).

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي: فإنْ لم يفعلوا ما كلَّفتهم به من الإتيان بكتابٍ أهدى منهما، وإنما عبَّر عنه بالاستجابة إيذاناً بأنَّه عليه الصلاة والسلام على كمال أمنٍ من أمره، كأنَّ أمره ﷺ لهم بالإتيان بما ذكر دعاءٌ لهم إلى أمرٍ يريد وقوعه.

وقيل: المراد: فإن لم يستجيبوا دعاءك إياهم إلى الإيمان بعد ما وَضَحَ لهم من المعجزات التي تضمَّنها كتابك الذي جاءهم، فالاستجابةُ على ظاهرها؛ لأنَّ الإيمان أمرٌ يريد ﷺ حقيقةَ وقوعِه منهم، وهي كما في «البحر» بمعنى الإجابة، وتتعدَّى إلى الداعي باللام كما في هذه الآية، وقولِه تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ [يوسف: ٣٤]، وقوله سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وبنفسها كما في بيت الكتاب:

وداعٍ دعا يا مَن يُجيبُ إلى الندا فلمْ يَستَجِبْه عند ذاك مُجيبُ(٢)

وقال الزمخشريُّ: هذا الفعلُ يتعدَّى إلى الدعاء بنفسه وإلى الدَّاعي باللام، ويُحذف الدعاءُ إذا عدِّي إلى الداعي في الغالب، فيقال: استجاب الله تعالى دعاءه، أو استجاب له، ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه، وقوله في البيت: فلم يستجبه، على حذفِ مضافٍ، أي: فلم يستجب دعاءه(٣). انتهى.

ولو جُعِلَ ضميرُ يَسْتَجِبه للدعاء المفهوم من داعٍ لم يَحْتَجْ إلى تقدير.

وجُعِلَ المفعولُ هنا محذوفاً لذكر الداعي، ووجهُه على ما قيل: أنه مع ذِكْرِ الداعي والاستجابةِ يتعيَّنُ أنَّ المفعول الدعاء، فيصيرُ ذِكْرُه عبثاً، وجوِّز كونُ الحذف للعلم به من فِعْلِه لا لأنه ذكر الداعي، وهذا حكمُ الاستجابة دون الإجابة؛ لقوله تعالى: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٦.

(٢) البحر ٧/ ١٢٤، والبيت لكعب بن سعد الغنوي، وسلف ٥/ ٢٢٦.

(٣) الكشاف ٣/ ١٨٤.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغةَ من غير أن يكون لهم متمسَّكٌ مّا أصلاً؛ إذ[1] لو كان لهم ذلك لأتوا به.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ للنفي، أي: لا أضلَّ ممن اتَّبع هواه ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هو أضلُّ من كلِّ ضالٍّ، وإن كان ظاهرُ السبك لنفي الأضلِّ لا لنفي المُساوي كما مرَّ في نظائره مراراً.

وقولُه تعالى: ﴿بِغَيْرِ هُدًى﴾ في موضع الحال من فاعل «اتَّبع»، وتقييدُ الاتِّباع بذلك لزيادة التقرير، والإشباعِ في التشنيع والتضليل، وإلا فمقارنتُه لهدايته تعالى بيِّنةُ الاستحالة. وقيل: للاحتراز عمَّا يكون فيه هدًى منه تعالى، فإنَّ الإنسان قد يتَّبعُ هواه ويوافقُ الحقَّ، وفيه بحث.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠﴾ الذين ظلموا أنفسهم فانهمكوا في اتِّباع الهوى والإعراضِ عن الآيات الهاديةِ إلى الحقِّ المُبينِ.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ الضميرُ لأهل مكة، وأصلُ التوصيل ضمُّ قِطَعِ الحبل بعضِها ببعضٍ؛ قال الشاعر:

فقُلْ لبني مروان ما بال[2] ذمَّتي ... بحبلٍ ضعيفٍ لا يزالُ يُوَصَّلُ[3]

والمعنى: ولقد أنزلنا القرآن عليهم متواصلاً بعضه إثر بعضٍ حَسْبَما تقتضيه الحكمةُ، أو متتابعاً وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً، ومواعظَ ونصائحَ.

وقيل: جعلناه أوصالاً، أي: أنواعاً مختلفةً؛ وعداً ووعيداً.. إلخ.

وقيل: المعنى: وصَّلنا لهم خبرَ الآخرة بخبر الدنيا، حتى كأنَّهم عاينوا الآخرة.

وعن الأخفش: أتممنا لهم القول.

---

(١) في (م): إذا، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ١٨، والكلام منه.

(٢) في الأصل و(م): نال، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٣) البيت للأخطل، وهو في ديوانه ص١٠، وتفسير الطبري ١٨/ ٢٧٤، ومجاز القرآن ٢/ ١٠٨، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٩٣، والبحر ٧/ ١٢٥، والدر المصون ٨/ ٦٨٥، وجاء في المصادر عدا البحر والدر: ما بال ذمةٍ وحبلٍ، ورواية الديوان: فسائل بني مروان ما بال...

وقرأ الحسن: «وَصَلْنا» بتخفيف الصاد[١]. والتضعيفُ في قراءة الجمهور للتكثير، ومن هنا قال الراغب في تفسير ما في الآية عليها: أي: أَكْثَرنا لهم القولَ موصولاً بعضُه ببعض[٢].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ فيؤمنون بما فيه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من[٣] قبل القرآن، على أنَّ الضمير لـ «القول» مراداً به القرآن، أو للقرآن المفهومِ منه، وأيًّا ما كان فالمرادُ: من قبل إيتائه ﴿هُم﴾ لا هؤلاء الذين ذكرت أحوالهم ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾. وقيل: الضميران للنبيِّ ﷺ.

والمرادُ بالموصول على ما روي عن ابن عباس مؤمنو أهل الكتاب مطلقاً.

وقيل: هم أبو رفاعة [وابنه][٤] في عشرةٍ من اليهود آمنوا فأُوذوا، وأخرج ابن مردويه بسندٍ جيدٍ وجماعةٌ عن رفاعة القرظيِّ ما يؤيِّدُه[٥].

وقيل: أربعون من أهل الإنجيل كانوا مؤمنين بالرسول ﷺ قبل مبعثه، اثنان وثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب، وثمانيةٌ قدموا من الشام: بحيرا وأبرهة وأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع وتميم.

وقيل: ابنُ سلام وتميمٌ الداريُّ والجارود العبديُّ وسلمان الفارسيُّ؛ ونُسب إلى قتادة.

واسْتَظْهَرَ أبو حيان[٦] الإطلاق، وأنَّ ما ذكر من باب التمثيل لمن آمنَ من أهل الكتاب.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٥.
(٢) مفردات الراغب (وصل).
(٣) قوله: أي من، ليس في (م).
(٤) ما بين حاصرتين زيادة من البحر ٧/ ١٢٥.
(٥) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٣١ وعنه نقل المصنف، وأخرجه أيضاً الطبري ١٨/ ٢٧٦، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٧-٢٩٨٨، والطبراني في الكبير (٥٤٦٣) عن رفاعة القرظي قال: نزلت ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ في عشرة أنا منهم.
(٦) في البحر ٧/ ١٢٥، وما قبله منه.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ أي: القرآنُ ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي: بأنه كلامُ الله تعالى ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي: الحقُّ الذي كنَّا نَعرِفُ حقِّيَّتَه، وهو استئنافٌ لبيانِ ما أَوْجَبَ إيمانَهم به. وجوِّز أن تكون الجملة مفسِّرةً لِمَا قبلها.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ ۝٥٣﴾ بيانٌ لكون إيمانهم به أمراً متقادِمَ العهد لما شاهدوا ذِكْرَه في الكتب المتقدِّمة، وأنهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن، ويكفي في كونهم على دين الإسلام قبل نزوله إيمانُهم به إجمالاً.

وفي «الكشاف» و«البحر»: أنَّ الإسلام صفةُ كلِّ موحِّدٍ مصدِّقٍ بالوحي[1]. والظاهر عليه أنَّ الإسلام ليس من خصوصيات هذه الأمة من بين الأمم. وذهب السيوطيُّ عليه الرحمةُ إلى كونه من الخصوصيات، وألَّف في ذلك كراسةً وقال في ذيلها: لمَّا فرغتُ من تأليف هذه الكراسة واضطَجَعْتُ على الفراش للنوم وَرَدَ عليَّ قولُه تعالى: (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ) الآيةَ، فكأنما أُلقي عليَّ جبلٌ لِمَا أنَّ ظاهرها الدلالةُ للقول بعدم الخصوصية، وقد أَفْكَرْتُ فيها ساعةً ولم يتَّجِهْ لي فيها شيءٌ، فلجأتُ إلى الله تعالى ورَجَوْتُ أن يفتح بالجواب عنها، فلمَّا استيقظتُ وقتَ السَّحَرِ إذا بالجواب قد فُتِحَ، فظهر عنها ثلاثةُ أجوبةٍ:

الأول: أنَّ «مسلمين» اسمُ فاعلٍ مرادٌ به الاستقبالُ كما هو حقيقةٌ فيه دون الحال والماضي، والتمسُّكُ بالحقيقة هو الأصل، وتقدير الآية: إنَّا كنَّا من قبل مجيئه عازمينَ على الإسلام به إذا جاء؛ لِمَا كنَّا نَجِدُه في كتبنا من بَعْثِه ووَصْفِه، ويرشِّحُ هذا أنَّ السياق يرشدُ إلى أنَّ قَصْدَهم الإخبارُ بحقِّيَّة القرآن، وأنهم كانوا على قَصْدِ الإسلام به إذا جاء به النبيُّ ﷺ، وليس قَصْدُهم الثناءَ على أنفسهم في حدِّ ذاتهم بأنهم كانوا بصفة الإسلام أوَّلاً، لنبوِّ المقام عنه كما لا يخفى.

الثاني: أنْ يقدَّر في الآية: إنَّا كنَّا من قبله مسلمين به، فوَصْفُ الإسلام سببُه القرآن لا التوراةُ والإنجيل، ويرشِّحُ ذلك ذِكْرُ الصلة فيما قبلُ، حيث قال سبحانه: (هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ)؛ فإنه يدلُّ على أنَّ الصلة مرادةٌ هنا أيضاً، إلا أنها حُذِفَتْ كراهةَ التكرار.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٥، والبحر ٧/ ١٢٥.

الثالث: أنَّ هذا الوصف منهم بناء على ما هو مذهبُ الأشعريِّ من أنَّ مَن كتب الله تعالى أن يموت مؤمناً فهو يسمَّى عنده تعالى مؤمناً ولو كان في حال الكفر، وإنما لم نطلق نحن هذا الوصفَ عليه لعدم علمنا بما عنده تعالى، فهؤلاء لمَّا ختم الله تعالى لهم بالدخول في الإسلام أخبروا عن أنفسهم أنهم كانوا متَّصفين به قبلُ؛ لأن العبرة في هذا الوصف بالخاتمة، ووَصْفُهم بذلك أولى من وصف الكافر الذي يَعْلَم الله تعالى أنه يموتُ على الإسلام به؛ لأنهم كانوا على دين حقٍّ. وهذا معنًى دقيقٌ استفدناه في هذه الآية من قواعد علم الكلام[١]. انتهى.

ولا يخفَى ضَعْفُ هذا الجوابِ، وكذا الجوابُ الأولُ، وأما الجوابُ الثاني فهو بمعنى ما ذكرناه في الآية، وقد ذكره البيضاويُّ وغيرُه[٢].

وجوَّز أن يراد بالإسلام الانقيادُ، أي: إنَّا كنَّا من قبل نزوله منقادين لأحكام الله تعالى الناطقِ بها كتابُه المنزلُ إلينا، ومنها وجوبُ الإيمان به، فنحن مؤمنون به قبل نزوله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر من النعوت ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرةً على إيمانهم بكتابهم ومرةً على إيمانهم بالقرآن ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: بصَبْرِهم وثباتهم على الإيمانين، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده، أو على أذى مَن هاجَرَهم وعاداهم من أهل دينهم ومن المشركين.

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ أي: يدفعون ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالطاعة ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: المعصيةَ؛ فإنَّ الحسنة تمحو السيئةَ؛ قال ﷺ لمعاذ: «أتبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها»[٣].

وقيل: أي: يدفعون بالحِلْم الأذى. وقال ابن جبير: بالمعروف المنكر. وقال ابن زيد: بالخير الشرَّ. وقال ابن سلام: بالعلم الجهلَ، وبالكَظْمِ الغيظَ. وقال ابن مسعود: بشهادةِ أنْ لا إله إلَّا اللهُ الشركَ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: في سبيل الخير، كما يقتضيه مقامُ المدح.

---

(١) إتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأمة، من كتاب الحاوي للسيوطي ٢/ ٢٣١-٢٣٢.
(٢) ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٧٩.
(٣) أخرجه أحمد (٢١٩٨٨) من حديث معاذ ﷺ، وسلف ٥/ ٢٣٢ و١٠/ ٤٩٤.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ﴾ سَقْطَ القول، وقال مجاهد: الأذى والسبُّ. وقال الضحاك: الشِّرك. وقال ابن زيد: ما غيَّرته اليهود من وصف الرسول ﷺ.

﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي: عن اللغو تكرُّماً، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

﴿وَقَالُوا۟﴾ لهم، أي: للَّاغين المفهومِ من ذكر اللغو ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ متاركةً لهم، كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ قالوه توديعاً لهم لا تحيةً، أو هو للمتاركة أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وأيًّا ما كان فلا دليلَ في الآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام كما زعم الجصَّاص[1]؛ إذ ليس الغرضُ من ذلك إلَّا المتارَكةَ أو التوديع، ورُوي عن النبيِّ ﷺ في الكفار: «لا تبدؤوهم بالسلام، وإذا سلَّم عليكم أهلُ الكتاب فقولوا: وعليكم»[2].

نعم روي عن ابن عباس جوازُ أن يقال للكافر ابتداءً: السلامُ عليك، على معنى: الله تعالى عليك، فيكون دعاءً عليه، وهو ضعيفٌ.

وقوله تعالى: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ بيانٌ للداعي للمتارَكةِ والتوديع، أي: لا نَطْلبُ صحبةَ الجاهلين، ولا نريدُ مخالَطتهم.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾ هدايةً مُوْصِلةً إلى البغية لا محالة ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: كلَّ مَن أحببتَه[3] طبعاً من الناس قومِك وغيرِهم، ولا تقدرُ أن تُدْخِلَه في الإسلام وإن بذلْتَ فيه غايةَ المجهود، وجاوَزْتَ في السعي كلَّ حدٍّ معهود. وقيل: مَن أحْبَبْتَ هدايتَه.

---

(١) كذا ذكر، وليس هذا من زعم الجصاص، وإنما ذكره في أحكام القرآن ٣/ ٣٤٩ عن بعضهم، ثم ردَّه بما سيأتي لاحقاً. وينظر حاشية الشهاب ٧/ ٧٩.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٤٩، والحديث أخرجه أحمد (١٧٢٩٥) من حديث أبي عبد الرحمن الجهني ﷺ، و(٢٧٢٣٦) من حديث أبي بصرة ﷺ. وقوله: «لا تبدؤوهم» يشهد له حديث أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٧٥٦٧)، ومسلم (٢١٦٧). وقوله: «وإذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» يشهد له حديث أنس ﷺ عند البخاري (٦٢٥٨)، ومسلم (٢١٦٣).

(٣) في (م): أحببته.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ هدايتَه، فيدخلُه في الإسلام ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ بالمستعدِّين لذلك، وهم الذين يشاء سبحانه هدايتَهم، ومنهم الذين ذُكرت أوصافُهم من أهل الكتاب.

وأفعل للمبالغة في علمه تعالى. وقيل: يجوز أن يكون على ظاهره. وأفاد كلامُ بعضهم أنَّ المراد أنه تعالى أعلم بالمهتدي دون غيره عزَّ وجل.

وحيث قُرِنَتْ هدايةُ الله تعالى بعلمه سبحانه بالمهتدي، وأنه جلَّ وعلا العالِمُ به دون غيره، دلَّ على أنَّ المراد بالمهتدي المستعدُّ دون المتَّصفِ بالفعل، فيلزم أن تكون هدايتُه إياه بمعنى القدرةِ عليها، وحيث كانت هدايتُه تعالى لذلك بهذا المعنى، وجيء بـ «لكنَّ» متوسِّطةً بينها وبين الهداية المنفيةِ عنه ﷺ، لزم أن تكون تلك الهدايةُ أيضاً بمعنى القدرة عليها؛ لتقع «لكنَّ» في موضعها، ولذا قيل: المعنى: إنك لا تقدرُ أن تُدْخِلَ في الإسلام كلَّ مَن أحببتَ لأنك عبدٌ لا تعلم المطبوعَ على قلبه من غيره، ولكنَّ الله تعالى يقدُر على أن يُدْخِلَ مَن يشاء إدخالَه، وهو الذي علم سبحانه أنه غيرُ مطبوعٍ على قلبه. وللبحث فيه مجال.

وظاهرُ عبارةِ «الكشاف» حملُ نفي الهداية في قوله تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ) على نفي القدرة على الإدخال في الإسلام، وإثباتِها في قوله سبحانه: (وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ) على وقوع الإدخال في الإسلام بالفعل(1).

وهذا ما اعتمدناه في تفسير الآية، ووجهُه: أنَّ مساق الآية لتسليته ﷺ، حيث لم يَنْجَعْ في قومه الذين يحبُّهم ويحرصُ عليهم أشدَّ الحرص إنذارُه عليه الصلاة والسلام إياهم، وما جاء به إليهم من الحق، بل أصرُّوا على ما هم عليه، وقالوا: (لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ)، ثم كفروا به وبموسى عليهما الصلاة والسلام، فكانوا على عكس قومٍ هم أجانبُ عنه ﷺ، حيث آمنوا بما جاء به من الحقِّ، وقالوا: (إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ) ثم صرَّحوا بتقادُم إيمانهم به، وأشاروا بذلك إلى إيمانهم بنبيِّهم وبما جاءهم به أيضاً، فلو لم يُحمل (إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ) على نفي القدرة على إدخال مَن أحبَّه عليه الصلاة والسلام في الإسلام، بل حُمِلَ على نفي

---

(1) الكشاف ٣/ ١٨٥.

وقوع إدخاله ﷺ إياه فيه، لبَعُدَ الكلام عن التسلية وقَرُبَ إلى العتاب، فإنه على طرز قولك لمن له أحبابٌ لا ينفعهم: إنك لا تنفعُ أحبابَك، وهو إذا لم يؤوَّل بـ: إنك لا تقدُر على نفع أحبابك، فإنما يقال على سبيل العتاب أو التوبيخ أو نحوِه، دون سبيل التسلية، ولمَّا كان لهدايته تعالى أولئك الذين أوتوا الكتاب مدخلاً فيما يستدعي التسلية كان المناسبُ إبقاءَ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ على ظاهره من وقوع الهداية بالفعل دون القدرة على الهداية، وإثباتُ ذلك له تعالى فرعُ إثبات القدرة، ففي إثباته إثباتُها لا محالةَ، فيصادف الاستدراكُ المحزَّ، وحَمْلُ المهتدين على المستعدِّين للهداية لا يستدعي حملَ «يهدي» على: يقدر على الهداية، فما ذكر من اللزوم ممنوعٌ.

ويجوز أن يراد بالمهتدين المتَّصفون بالهداية بالفعل، والمراد بعلمه تعالى بهم مجازاتُه سبحانه على اهتدائهم، فكأنه قيل: وهو تعالى أعلمُ بالمهتدين كأولئك الذين ذكروا من أهل الكتاب فيجازيهم على اهتدائهم بأجرٍ أو بأجرين، فتأمَّل.

والآيةُ على ما نطقت به كثيرٌ من الأخبار نزلت في أبي طالب؛ أخرج عبد بن حميد ومسلمٌ والترمذيُّ وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الدلائل» عن أبي هريرة قال: لمَّا حضرت وفاةُ أبي طالب أتاه النبيُّ ﷺ فقال: «يا عمَّاه، قل: لا إله إلا الله، أشهدُ لك بها عند الله يومَ القيامة» فقال: لولا أن يعيِّروني قريشٌ يقولون: ما حمله عليها إلا جزعُه من الموت لأَقْرَرْتُ بها عينَك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية[1].

وأخرج البخاريُّ ومسلمٌ وأحمدُ والنسائيُّ وغيرُهم، عن سعيد بن المسيب عن أبيه نحو ذلك[2].

وأخرج أبو سهل السريُّ بن سهل من طريق عبد القدوس عن أبي صالح عن

(١) صحيح مسلم (٢٥): (٤٢)، وسنن الترمذي (٣١٨٨)، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٩٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٤٤-٣٤٥، وعزاه لعبد بن حميد وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٣٣، وأخرجه أيضاً أحمد (٩٦١٠).

(٢) صحيح البخاري (٣٨٨٤)، وصحيح مسلم (٢٤)، ومسند أحمد (٢٣٦٧٤)، وسنن النسائي ٤/ ٩٠-٩١.

ابن عباس أنه قال: (﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾) إلخ نزلت في أبي طالب، ألحَّ النبيُّ ﷺ أن يُسْلِمَ فأبى، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١]. وقد رَوَى نزولَها فيه عنه أيضاً ابنُ مردويه[٢].

ومسألةُ إسلامه خلافيةٌ، وحكايةُ إجماع المسلمين أو المفسِّرين على أنَّ الآية نزلت فيه لا تصحُّ، فقد ذهب الشيعة وغيرُ واحد من مفسِّريهم إلى إسلامه، وادَّعوا إجماعَ أئمة أهل البيت على ذلك، وأنَّ أكثر قصائده تشهدُ له بذلك، وكأنَّ مَن يدَّعي إجماعَ المسلمين لا يَعتدُّ بخلاف الشيعة، ولا يعوِّلُ على رواياتهم.

ثم إنه على القول بعدم إسلامه لا ينبغي سبُّه والتكلُّم فيه بفضول الكلام، فإنَّ ذلك مما يتأذَّى به العلويون، بل لا يَبْعدُ أن يكون مما يتأذَّى به النبيُّ عليه الصلاة والسلام الذي نطقت الآيةُ بناءً على هذه الروايات بحبِّه ﷺ إياه، والاحتياطُ لا يخفى على ذي فهمٍ:

ولأجْلِ عينٍ ألفُ عينٍ تُكْرَمُ[٣]

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ أي: نخرج من بلادنا ومقرِّنا، وأصلُ الخطف: الاختلاسُ بسرعةٍ، فاستُعير لِمَا ذكر، والآيةُ نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، حيث أتى النبيَّ ﷺ فقال[٤]: نحن نعلم أنك على الحقِّ، ولكنَّا نخاف إن اتَّبعناك وخالَفْنا العربَ وإنما نحن أكلةُ رأسٍ أن يتخطَّفونا من أرضنا. فردَّ الله تعالى عليهم خوفَ التخطُّفِ بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: أَلَمْ نَعْصِمْهم ونَجْعَلْ مكانهم حرماً ذا أمنٍ بحرمةِ البيت الذي فيه، تتناحَرُ[٥] العرب حوله وهم آمنون فيه، فالعطفُ على محذوفٍ، و«نمكِّن» مضمَّنٌ

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٣٤.

(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ١٣٣.

(٣) وصدره: داريتُ أهلكِ في هواكِ وهم عِدا، والبيت للشاب الظريف، وهو في ديوانه ص٧١، وسلف ١/ ٢٧٧.

(٤) في الأصل و(م): فقالوا، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٨٠، وتفسير أبي السعود٧/ ١٩.

(٥) في الأصل: تناحر، وفي (م): تتاجر، والمثبت من تفسير البيضاوي وتفسير أبي السعود.

معنى الجَعْلِ ولذا نَصَبَ «حرماً»، و«آمناً» للنسب كلابِنٍ وتامرٍ، وجعل أبو حيان[١] الإسنادَ فيه مجازيًّا؛ لأنَّ الآمن حقيقةً ساكنوه، فيُسْتَغْنَى عن جَعْلِه للنَّسَبِ، وهو وجهٌ حَسَنٌ.

﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾ أي: يُحمَلُ إليه ويُجمَعُ فيه من كلِّ جانبٍ وجهَةٍ ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: ثمراتُ أشياءَ كثيرةٍ، على أنَّ «كلّ» للتكثير، وأصلُ معناه الإحاطة وليست بمرادةٍ قطعاً. والجملة صفةٌ أخرى لـ «حرماً» دافعةٌ لِمَا عسى يُتوَهَّم من تضرُّرهم إن اتَّبعوا الهدى بانقطاع المِيْرة.

وقولُه تعالى: ﴿رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ نصبٌ على[٢] المصدر من معنى «يُجبى»؛ لأنَّ مآله: يُرزقون، أو الحالِ من «ثمرات» بمعنى مرزوقاً، وصحَّ مجيءُ الحال من النكرة عند مَن لا يراه لتَخَصُّصِها بالإضافة هنا. أو على أنه مفعولٌ له بتقديرِ: نسوق إليه ذلك رزقاً.

وحاصل الردِّ أنه لا وجهَ لخوفٍ من التخطُّف إن آمنوا، فإنهم لا يخافون منه وهم عبدةُ أصنامٍ، فكيف يخافون إذا آمنوا وضمُّوا حرمةَ الإيمان إلى حرمة المقام؟

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ جَهَلةٌ لا يتفطَّنون ولا يتفكَّرون ليعلموا ذلك، فهو متعلِّقٌ بقوله تعالى: (أَوَلَمۡ نُمَكِّن) إلخ.

وقيل: هو متعلقٌ بقوله سبحانه: (مِّن لَّدُنَّا) أي: قليل منهم يتدبَّرون فيعلمون أنَّ ذلك رزقٌ من عند الله عز وجل، إذ لو علموا لـمَا خافوا غيره، والأول أظهر، والكلام عليه أبلغُ في الذمِّ.

وقرأ المنقريُّ: «نتخطَّفُ» بالرفع[٣] كما قرئ في قوله تعالى: «أينما تكونوا يدركُكم الموت» برفع «يدركُ»[٤]، وخرِّج بأنه بتقديرِ: فنحن نُتخطَّفُ، وهو تخريجُ شذوذ.

---

(١) في البحر ٧/ ١٢٦.

(٢) في (م): عن، وهو تصحيف.

(٣) البحر ٧/ ١٢٦. والمنقري هو أبو معمر عبد الله بن عمرو بن الحجاج المنقري التميمي البصري، قيِّم بحرف أبي عمرو ضابط له، توفي سنة (٢٢٤هـ). طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٤٣٩.

(٤) وهي قراءة طلحة بن سليمان، كما في القراءات الشاذة ص٢٧، والمحتسب ١/ ١٩٣.

وقرأ نافعٌ، وجماعةٌ عن يعقوب، وأبو حاتم عن عاصم: «تُجبى» بتاء التأنيث[1].

وقرئ: «تُجنَى» بالنون من الجني، وهو قطعُ الثمرة، وتعديتُه بـ «إلى» كقولك: يجني إلى فيه، ويجني إلى الخافة[2].

وقرأ أبان بن تغلب عن عاصم: «ثُمُرات» بضمِّ الثاء والميم[3]. وقرأ بعضهم: «ثَمْرات» بفتح الثاء وإسكان الميم[4].

ثم إنه تعالى بعد أن ردَّ عليهم خوفَهم من الناس بيَّن أنهم أحقَّاءُ بالخوف من بأس الله تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: وكثيراً من أهل قريةٍ كانت حالُهم كحال هؤلاء في الأمن وخَفْضِ العيش والدَّعة، حتى بطروا واغترُّوا ولم يقوموا بحقِّ النعمة، فدمَّرنا عليهم وخرَّبنا ديارهم.

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ التي تمرُّون عليها في أسفاركم كحِجْر ثمود خاويةً بما ظلموا حالَ كونها ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد تدميرهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلَّا زماناً قليلاً؛ إذ لا يسكنُها إلا المارَّةُ يوماً أو بعض يوم، أو: إلا سكناً قليلاً، وقلَّتُهُ باعتبارِ قلَّة الساكنين، فكأنه قيل: لم يسكنها من بعدهم إلَّا قليلٌ من الناس. وجوِّز أن يكون الاستثناء من المساكن، أي: إلا قليلاً منها سُكن، وفيه بُعدٌ.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ منهم إذ لم يَخْلُفْهم أحدٌ يتصرَّف تصرُّفَهم في ديارهم وسائرِ ذات أيديهم.

---

(١) التيسير ص١٧٢، والنشر ٢/ ٣٤٢ عن نافع، ويعقوب من رواية رويس عنه، وبها قرأ أبو جعفر. والكلام من البحر ٧/ ١٢٦.

(٢) الكشاف ٣/ ١٨٥. وقوله: إلى الخافة، جاء في هامش الأصل و(م): هي خريطة من أدم يُشار فيها العسل. اهـ منه. وقوله: يجني إلى فيه، مأخوذ من قول عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش:

هذا جَنَايَ وخياره فيه إذ كلُّ جانٍ يدُه إلى فيه

وذلك أنه خرج يجني الكمأة مع أصحاب له فكانوا إذا وجدوا خيار الكمأة أكلوها، وإذا وجدها عمرو جعلها في كمّه حتى يأتي بها خاله، وقال هذا الشعر فذهب مثلاً. مجمع الأمثال ١/ ١٣٨، والنهاية (خبى).

(٣) القراءات الشاذة ص١١٣، والمحتسب ٢/ ١٥٣، والبحر ٧/ ١٢٦.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٦.

وفي «الكشاف» أي: تركناها على حالٍ لا يسكنها أحدٌ، أو خرَّبناها وسوَّيْناها بالأرض[١]. وهو مشيرٌ إلى أنَّ الوراثة إمَّا مجرَّدُ انتقالها من أصحابها، وإما إلحاقُها بما خلقه الله تعالى في البدء، فكأنه رجع إلى أصله ودخل في عداد خالص ملكِ الله تعالى على ما كان أوَّلاً، وهذا معنى الإرث.

وانتصابُ «معيشتها» على التميز على مذهب الكوفيين، أو مشبَّهٌ بالمفعول به على مذهب بعضهم، أو مفعولٌ به على تضمين «بطرت» معنى فِعْلٍ متعدٍّ، أي: كفرتْ معيشتها ولم تَرْعَ حقَّها، على مذهب أكثر البصريين، أو على إسقاط «في» أي: في معيشتها على مذهب الأخفش، أو على الظرف نحو: جئتُ خفوقَ النجم، على قول الزجَّاج[٢].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيانٌ للعناية الربانية إثر بيانِ إهلاك القرى المذكورة، أي: وما صحَّ وما استقام، أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الإنذار، بل كانت سنَّته عزَّ وجلَّ أن لا يهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي: في أصلها وكبيرتِها التي ترجع تلك القرى إليها ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ الناطقةَ بالحقِّ، ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب.

وإنما لم يُهْلكهم سبحانه حتى يبعث إليهم رسولاً لإلزام الحجة وقَطْعِ المعذرة، بأن يقولوا: لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتَّبع آياتك. وإنما كان البعثُ في أمِّ القرى لأنَّ في أهل البلدة الكبيرة وكرسيِّ المملكة ومحلِّ الأحكام فطنةً وكيساً، فَهُمْ أَقْبَلُ للدعوة وأشرف.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة: أنَّ أمَّ القرى مكة، والرسول محمدٌ ﷺ[٣]. فالمراد بالقرى: القرى التي كانت في عصره عليه الصلاة والسلام. والأُولى أَوْلَى.

والالتفاتُ إلى نون العظمة في «آياتنا» لتربية المهابة وإدخالِ الروعة.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٦.

(٢) نقل المصنف هذه الأقوال عن البحر ٧/ ١٢٦، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ١٥٠: «معيشتها» منصوبة بإسقاط «في» وعمل الفعل، وتأويله: بطرت في معيشتها.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٩٧، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ١٣٤.

وقرئ: «في إمها» بكسر الهمزة إتْباعاً للميم[١].

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ﴾ عطفٌ على «ما كان ربُّك مُهْلِكَ القرى» ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، أي: وما كنَّا مهلكين لأهل القرى بعد ما بعثنا في أمِّها رسولاً يدعوهم إلى الحقِّ ويرشدهم إليه في حالٍ من الأحوال إلا حالَ كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفرِ بآياتنا، فالبعثُ غايةٌ لعدم صحة الإهلاك بموجب السنَّة الإلهية، لا لعدم وقوعه حتى يلزمَ تحقُّقُ الإهلاك عقيب البعث.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: أيّ شيء أَصَبْتُموه من أمور الدنيا وأسبابها ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ فهو شيءٌ شأنُه أن يُتَمَتَّعَ به ويُتَزَيَّنَ به أياماً قلائل، ويُشْعِرُ بالقلَّة لفظُ المتاع، وكذا ذِكرُ «أبقى» في المقابل، وفي لفظ الدنيا إشارةٌ إلى القلَّة والخسَّة.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ في الجنة، وهو الثوابُ ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك؛ لأنه لذةٌ خالصةٌ وبهجةٌ كاملةٌ ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبديٌّ، وأين المتناهي من غير المتناهي؟

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: ألا تتفكَّرون فلا تعقلون[٢] هذا الأمرَ الواضحَ، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، وتخافون على ذهاب ما أصبتُموه من متاع الحياة الدنيا، وتمتنعون عن اتِّباع الهدى المفضي إلى ما عند الله تعالى لذلك، فكأنَّ هذا ردٌّ عليهم في منع خوف التخطُّف إياهم من اتِّباعه ﷺ على تقدير تحقق وقوع ما يخافونه.

وقرأ أبو عمرو: «يعقلون» بياء الغيبة[٣] على الالتفات، وهو أبلغ في الموعظة لإشعاره بأنهم لعدم عقلهم لا يصلحون للخطاب، فالالتفاتُ هنا لعدم الالتفات زجراً لهم.

وقرئ: «فمتاعاً الحياةَ الدنيا»[٤]، أي: فتتمتَّعون به في الحياة الدنيا، فنصب «متاعاً» على المصدرية و«الحياة» على الظرفية.

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي وصلاً، والجميع يبتدئون بضم الهمزة، وأجمعوا على كسر الميم في الحالين. البدور الزاهرة ص٢٤٢.

(٢) في (م): تفعلون، وهو تصحيف.

(٣) التيسير ص١٧٢، والنشر ٢/ ٣٤٢.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٧.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: وعداً بالجنة وما فيها من النعيم الصرف الدائم، فإنَّ حُسْنَ الوعدِ بحُسْنِ الموعود ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي: مُدْرِكُه لا محالةَ؛ لاستحالة الخُلْفِ في وعده تعالى، ولذلك جيء بالجملة الاسمية المفيدة لتحقُّقه ألبتة، وعطفت بالفاء المنبئة عن السببية. ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوبٌ بالآلام، منغَّصٌ بالأكدار، مستَتْبَعٌ بالتحسُّر على الانقطاع. ومعنى الفاءِ الأولى ترتيبُ إنكارِ التشابُه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور التفاوُتِ بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله تعالى، أي: أبَعْدَ هذا التفاوُتِ الظاهر يسوَّى بين الفريقين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ عطفٌ على «متَّعناه» داخلٌ معه في حيِّز الصلة مؤكِّدٌ لإنكار التشابه مقوٍّ له، كأنه قيل: كمن متَّعناه متاعَ الحياة الدنيا ثم نحضرُه ـ أو أحضرناه ـ يوم القيامة للنار أو العذاب، وغلب لفظُ المُحضَرِ في المُحْضَرِ لذلك(١).

والعدولُ إلى الجملة الاسمية، قيل: للدلالة على التحقُّق حتماً، ولا يضر كونُ خبرها ظرفاً مع العدول، وحصولُ الدلالة على التحقُّق لو قيل: أحضرناه، لا ينافي ذلك.

وقد يقال: إنَّ فيما ذُكر في النظم الجليل شيءٌ آخَرُ غيرُ الدلالة على التحقيق ليس في قولك: ثم أحضرناه يومَ القيامة، كالدلالة على التقوِّي أو الحصر، والدلالةِ على التهويل والإيقاع في حيرة، ولمجموع ذلك جيء بالجملة الاسمية.

و«يوم» متعلِّقٌ بـ «المحضرين» المذكور، وقدِّم عليه للفاصلة، أو هو متعلِّقٌ بمحذوفٍ، وقد مرَّ الكلام في مثل ذلك(٢).

و«ثم» للتراخي في الرتبة دون الزمان، وإن صحَّ وكان فيه إبقاءُ اللفظ على

---

(١) أي: في المحضَر إلى النار، كقوله: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧] و﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧]. ينظر الكشاف ٣/ ١٨٧، والبحر ٧/ ١٢٧، وحاشية الشهاب ٧/ ٨١.

(٢) ص١٨٤ من هذا الجزء.

حقيقته؛ لأنه أنسبُ بالسياق، وهو أبلغُ وأكثر إفادةً، وأربابُ البلاغة يَعْدِلون إلى المجاز ما أَمْكَنَ لتضمُّنه لطائفَ النكات.

وقرأ طلحة: «أمَن وعدناه» بغير فاء[١].

وقرأ قالون والكسائيُّ: «ثم هْو» بسكون الهاء[٢]، كما قيل: عَضُدٌ وعَضْدٌ؛ تشبيهاً للمنفصل وهو الميم الأخير مِن «ثُم» بالمتَّصل.

والآيةُ نزلت على ما أخرج ابنُ جريرٍ عن مجاهد في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل. وأَخرج من وجهٍ آخَرَ عنه أنها نزلت في حمزةَ وأبي جهل[٣].

وقيل: نزلت في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وأبي جهل، ونُسب إلى محمد بن كعب والسديِّ.

وقيل: في عمارٍ رضي الله عنه والوليد بن المغيرة.

وقيل: نزلت في المؤمن والكافر مطلقاً.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطف على «يوم القيامة» لاختلافهما عنواناً وإن اتَّحدا ذاتاً، أو منصوبٌ بإضمارِ اذكر، ونداؤه تعالى إياهم يحتمل أن يكون بواسطةٍ وأن يكون بدونها، وهو نداءُ إهانةٍ وتوبيخ.

﴿فَيَقُولُ﴾ تفسيرٌ للنداء ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فإنَّ زَعَم مما يتعدَّى إلى مفعولين، كقوله:

وإنَّ الذي قد عاش يا أمَّ مالكٍ   يموتُ ولم أَزْعُمْك عن ذاك مَعْزِلا[٤]

---

(١) البحر ٧/ ١٢٧، والدر المصون ٨/ ٦٨٨.

(٢) التيسير ص٧٢، والنشر ٢/ ٢٠٩، والبدور الزاهرة ص٢٤٢، وأسكن الهاء أيضاً أبو جعفر من العشرة.

(٣) الخبران في تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٤-٢٩٥، وفيه عن مجاهد أيضاً أنه قال: نزلت في حمزة وعلي بن أبي طالب وأبي جهل.

(٤) البيت برواية المصنف في حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وهو للنابغة الجعدي في ديوانه ص١١٤، والكتاب ١/ ١٢١، وصدره فيهما: عدَدْتَ قشيراً إذ عَدَدْتَ فلم أُسَأْ. ووقع في الديوان: أزمعك، بدل: أزعمك. قال الأعلم في شرح الشواهد ص١٢١: نصب معزل على المفعول الثاني، والتقدير: ولم أزعمك ذا معزلٍ عن ذلك. ويجوز أن

وحُذِفَ هنا المفعولان معاً ثقةً بدلالة الكلام عليهما، نحو: مَن يَسْمَعْ يَخَلْ. وفي «الكشاف»: يجوزُ حَذْفُ المفعولين في باب ظننتُ ولا يصحُّ الاقتصارُ على أحدهما[1]. وادّعى بعضهم أنَّ عدم صحة الاقتصار هو الأصحُّ، وأنه الذي ذهب إليه الأكثرون.

وقال الأخفش[2]: إذا دخلت هذه الأفعالُ «ظنَّ» وأخواتُها على «أنَّ»، نحو: ظننتُ أنك قائم، فالمفعول الثاني منهما محذوفٌ، والتقدير: ظننتُ قيامَك كائناً؛ لأن المفتوحة بتأويل المفرد. وسيبويه يرى في ذلك أنَّ «أنَّ» مع ما بعدها سدَّت مسدَّ المفعولين[3].

وأجاز الكوفيون الاقتصارَ على الأول إذا سدَّ شيءٌ مسدَّ الثاني كما في باب المبتدأ، نحو: أقائمٌ أخواك، فيقولون: هل ظننتَ قائماً أخواك؟

وقال أبو حيان: إذا دلَّ دليلٌ على أحدهما جاز حذفُه كقوله:

كأنْ لم يَكُنْ بينٌ إذا كان بعده ... تَلاقٍ ولكنْ لا إخالُ تلاقيا[4]

أي: لا إخال بعد البين تلاقياً.

وقال صاحب «التحفة»: يجوزُ الاقتصارُ في باب كسوتُ على أحد المفعولين بدليلٍ وبغير دليل؛ لأنَّ الأول فيهما غيرُ الثاني.

وأجاز بعضهم حذف الأول إذا كان هو الفاعل معنىً، نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ

= يكون نصبه على الظرف الواقع موقع المفعول الثاني؛ لأنك تقول: أنت معزلاً عن ذاك، تريد: في معزل منه وبمعزل، كما تقول: أنت مني مرأى ومسمعاً.

(١) الكشاف ٣/ ١٨٧.

(٢) قوله في البحر ١/ ١٨٦، وحاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وعنه نقل المصنف.

(٣) الكتاب ١/ ١٢٥-١٢٦، ونقله المصنف بواسطة الطيبي في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٤) البيت نسب لابن الدمينة كما في الحماسة البصرية ٢/ ١٨٣، وهو في ملحق ديوانه ص٢٠٦. ونسب لجميل بثينة كما في منتهى الطلب ٢/ ٣٧٦، وهو في ديوانه ص٢٢٤، وجاء في هذه المصادر: نأي، بدل: بينٌ. والكلام من حاشية الطيبي على الكشاف.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ﴾) أي: ولا يحسبن الذين كفروا إياهم ـ أي: أنفسَهم ـ معجزين؛ وقال الطيبي[1] في عدم الحذف فيما عدا ما ذكر وجواز الحذف فيه: لعل السرَّ أنَّ هذه الأفعال قيودٌ للمضامين تدخلُ على الجمل الاسمية لبيان ما هي عليه؛ لأنَّ النسبة قد تكونُ عن علم وقد تكون عن ظنٍّ، فلو اقتُصر على أحد طرفي الجملة لقيام قرينةٍ، تُوهم أنَّ الذي سيق له الكلام والذي هو مهتمٌّ بشأنه الطرف المذكور، وليس غيرُ المذكور مما يعتنَى به، نعم إذا كان الفاعل والمفعولُ لشيءٍ واحدٍ يهونُ الخطب، وذَكر عن صاحب «الإقليد» ما يؤيِّده، وقد أطال طيَّب الله تعالى مرقده الكلام في هذا المقام.

وادَّعى ابنُ هشام[2] أنَّ الأوْلَى أن يقدَّر هنا: الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي؛ لأنه لم يقع الزعم في التنزيل على المفعولين الصريحين، بل على «أنَّ» وصِلَتِها، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾ [الأنعام: ٩٤] وفيه نظر.

والظاهر أنَّ المراد بالشركاء مَن عُبِدَ من دون الله تعالى، من مَلَكٍ أو جنٍّ أو إنسٍ أو كوكبٍ أو صنمٍ أو غير ذلك.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على حكاية السؤال، كأنه قيل: فماذا كان بعد هذا السؤال؟ فقيل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: ثبت عليهم مقتضَى القولِ وتحقُّق مؤدَّاه، وهو قولُه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وغيرُه من آيات الوعيد، والمرادُ بالموصول الشركاءُ الذين كانوا يزعمونهم شركاء من الشياطين ورؤساء الكفر، وتخصيصُهم بما في حيِّز الصلة مع شمول مضمونها الأتباع أيضاً لأصالتهم في الكفر واستحقاقِ العذاب، والتعبيرُ عنهم بذلك دون: الذين زعموهم شركاء؛ لإخراج مِثْلِ عيسى وعزير والملائكة عليهم السلام؛ لشمول الشركاء ـ على ما سمعت ـ له.

ومسارعتُهم إلى الجواب مع كون السؤال للعبدة؛ لتفطُّنهم أنَّ السؤال منهم سؤالُ توبيخٍ وإهانةٍ، وهو يستدعي استحضارَهم وتوبيخَهم بالإضلال، وجَزْمَهم بأنَّ العبدة سيقولون: هؤلاء أضلُّونا.

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٢) في المغني ص٧٧٤، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٨٢.

وقيل: يجوز أن يكون العبدة قد أجابوا معتذرين بقولهم: هؤلاء أضلونا، ثم قال الشركاء ما قصَّ الله تعالى ردًّا لقولهم ذلك، إلا أنه لم يُحْكَ إيجازاً لظهوره.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ تمهيدٌ للجواب، والإشارةُ إلى العبدة لبيانِ أنهم يقولون ما يقولون بمحضرٍ منهم، وأنهم غيرُ قادرين على إنكاره وردِّه، و«هؤلاء» مبتدأ خبرُه الموصولُ بعده، وجملة «أغوينا» صلةُ الموصول، والعائدُ محذوفٌ للتصريح به فيما بعدُ، أي: الذين أغويناهم، وقوله تعالى: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ هو الجوابُ حقيقةً، أي: ما أكرهناهم على الغيِّ، وإنما أغويناهم بطريق الوسوسة والتسويل، لا بالقسر والإلجاء، فَغَووا باختيارهم غيًّا مثل غيِّنا باختيارنا.

ويجوز أن يكون الموصولُ صفةَ اسم الإشارة، والخبر جملة «أغويناهم كما غوينا». ومنع ذلك أبو عليٍّ في «التذكرة» بأنه يؤدِّي إلى أنَّ الخبر لا يكون فيه فائدةٌ زائدةٌ، ؛ لأن إغواءهم إياهم قد عُلم من الوصف.

ورُدَّ بأن التشبيه دلَّ على أنهم غَوَوْا باختيارٍ؛ لا أنَّ الإغواء إلجاءٌ، وقوله[1]: إنَّ «كما غوينا» فضلةٌ، فلا تصيِّرُ ذاك أصلاً في الجملة، ليس بشيء؛ لأنَّ الفضلات قد تَلْزَمُ في بعض المواضع، نحو: زيدٌ عمروٌ قائمٌ في داره[2].

وقرأ أبان عن عاصم وبعض الشاميين: «كما غَوِينا» بكسر الواو، قال ابن خالويه: وليس ذلك مختاراً لأنَّ كلام العرب: غَوَيْتُ من الضلالة، وغَوِيْتُ بالكسر من البَشَم[3].

﴿تَبَرَّأْنَآ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصي هوًى من أنفسهم، موجِّهين التبرُّؤ ومهيِّئين له ﴿إِلَيْكَ﴾ والجملةُ تقريرٌ لِمَا قبلها؛ لأن الإقرار بالغواية تبرُّؤٌ في

---

(١) يعني أبا علي، كما في الإملاء للعكبري ٤/ ١٥٦، والبحر ٧/ ١٢٨، وحاشية الشهاب ٧/ ٨٢.

(٢) أي: لابد من قولك: في داره؛ ليعود من الجملة إلى زيد ضمير، وهو فضلة في الكلام، فكذا هنا ينبغي أن يكون «أغويناهم» خبراً؛ لتعلق قوله: «كما غوينا» به، وإن كانت فضلة في الكلام. حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٨، والبَشَم: التُّخَمة، ويقال: غَوِيَ الفصيل يَغْوَى، إذا أكثر من لبن أمه فبَشِمَ فكاد يهلك. زاد المسير ٥/ ٣٢٩-٣٣٠، والقاموس (بشم).

الحقيقة، ولذا لم تعطف عليه، وكذا قولُه تعالى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣﴾ أي: ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون في نفس الأمر والمآل أهواءهم.

وقيل: «ما» مصدريةٌ متصلةٌ بقوله تعالى: (تَبَرَّأْنَآ) وهناك جارٌّ مقدَّرٌ، أي: تبرأنا من عبادتهم إيانا. وجعلُها نافيةً على أنَّ المعنى: ما كانوا يعبدوننا باستحقاقٍ وحجَّةٍ، ليس بشيءٍ، وأيًّا ما كان فـ «إيانا» مفعول «يعبدون» قدِّم للفاصلة.

﴿وَقِيلَ﴾ تقريعاً لهم وتهكُّماً بهم: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذين زعمتُم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لفَرْطِ الحيرة، وإلَّا فليس هناك طلبٌ حقيقةً للدعاء.

وقيل: دَعَوهم لضرورة الامتثال، على أنَّ هناك طلباً، والغرضُ من طلب ذلك منهم تفضيحُهم على رؤوس الأشهاد بدعاء مَن لا نَفْعَ له لنفسه؛ قيل: والظاهرُ من تعقيب صيغة الأمر بالفاء في قوله تعالى «فدعوهم» أنها لطلب الدعاء وإيجابه. والأولُ أبلغُ في تهويل أمر أولئك الكفرة، والإشارةِ إلى سوء حالِهم، وأمرُ التعقيب بالفاء سهلٌ.

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ ضرورةَ عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة. وجوِّز أن يكون المراد: فلم يُجيبوهم لأنهم في شغلٍ شاغلٍ عنهم، ولعلهم خُتِمَ على أفواههم إذ ذاك.

﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ الظاهرُ أنَّ الضمير للداعين. وقال الضحاك: هو للداعين والمدعوِّين جميعاً. وقيل: هو للمدعوِّين فقط، وليس بشيءٍ.

والظاهرُ أن الرؤية بصرية ورؤية العذاب إمَّا على معنى رؤية مباديه، أو على معنى رؤيته نفسِه بتنزيله منزلة المشاهَد.

وجوِّز أن تكون عِلْميةً والمفعولُ الثاني محذوف، أي: رأوا العذاب متصلاً بهم، أو غاشياً لهم، أو نحو ذلك. وأنت تعلم أنَّ حذف أحد مفعولي أفعال القلوب مختلَفٌ في جوازه، وتقدَّم آنفاً عن البعض أنَّ الأكثرين على المنع، فمَن مَنَعَ وقال في بيان المعنى: ورأوا العذاب متصلاً بهم، جَعَلَ متصلاً حالاً من العذاب.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ۝٦٤﴾ «لو» شرطية، وجوابُها محذوفٌ، أي: لو كانوا يهتدون لوجهٍ من وجوه الحيل يدفعون به العذاب لدفعوا به العذاب.

أو: لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين مؤمنين لَمَا رأوا العذاب.

واعتُرِضَ بأنَّ الدالَّ على المحذوف: «رأوا العذاب» وهو مُثْبَتٌ، فلا يقدَّر المحذوف منفيًّا. وهو غيرُ واردٍ لأنَّ الالتفات إلى المعنى، وإذا جاز الحذفُ لمجرَّد دلالة الحال، فإذا انضمَّ إليها شهادةُ المقال كان أولى وأولى.

وجوَّز أن تكون «لو» للتمنِّي، أي: تمنَّوا لو أنهم كانوا مهتدين، فلا تحتاج إلى الجواب؛ وقال صاحب «التقريب»[1]: فيه نظر، إذ حقُّه أن يقال: لو كنَّا، إلا أنْ يكون على الحكاية، كـ: أَقْسَمَ لَيَضْرِبَنَّ، أو على تأويلِ: رأوا متمنِّين هدايتَهم.

وجوَّز على تقديرِ كونها للتمنِّي أن يكون قد وُضع: «لو أنهم كانوا مهتدين»، موضع: تحيَّروا لرؤيته، كأنَّ كلَّ أحدٍ يتمنَّى لهم الهداية عند ذلك الهول والتحيُّرِ ترحُّماً عليهم، أو هو من الله تعالى شأنُه على المجاز كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ١٠٣]. وجَعَل الطيبيُّ[2] وَضْعَه موضعه من إطلاق المسبَّب على السبب؛ لأنَّ تحيُّرهم سببٌ حاملٌ على هذا القول. وقال عليه الرحمةُ: إنَّ النظم على هذا الوجه ينطبق.

واختار الإمام الرازي أنها شرطيةٌ، إلا أنه لم يَرْتَضِ ما قالوه في تقدير الجواب، فقال بعد نَقْلِ ما قالوه: وعندي أنَّ الجواب غيرُ محذوفٍ، وفي تقريره وجوهٌ:

أحدها: أنَّ الله تعالى إذا خاطبهم بقوله سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ فهناك يشتدُّ الخوف عليهم، ويلحقُهم شيءٌ كالسَّدَر[3] والدوارِ، فيصيرون بحيث لا يبصرون شيئاً، فقال سبحانه: ورأوا العذب لو أنهم كانوا يبصرون شيئاً، على معنى أنهم لم يروا العذاب؛ لأنهم صاروا بحيث لا يبصرون شيئاً.

(١) كما في حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٢) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٣) أي: التحيُّر، ينظر القاموس (سدر).

وثانيها: أنه تعالى لمَّا ذكر عن الشركاء - وهي الأصنامُ - أنهم لا يجيبون الذين دعوهم قال في حقِّهم: (وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) أي: هذه الأصنامُ كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين، ولكنها ليست كذلك، والإتيانُ بضمير العقلاء على حسب اعتقاد القوم بهم.

وثالثها: أن يكون المراد من الرؤية رؤيةَ القلب، أي: والكفارُ علموا حقِّيَّةَ هذا العذاب لو كانوا يهتدون.

وهذه الوجوه عندي خيرٌ من الوجوه المَبْنيَّة على أنَّ جواب «لو» محذوف، فإنَّ ذلك يقتضي تفكيك نظم الآية[1]. اهـ.

ولعمري إنه لم يأتِ بشيء، وما يَرِدُ عليه أظهرُ من أن يخفى على مَن له أدنى تمييزٍ بين الحيِّ والليِّ[2].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ عطفٌ على الأول، سئلوا أولاً عن إشراكهم لأنه المقصودُ من «أين شركائي الذين زعمتم»، وثانياً عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أصلُه: فعَمُوا عن الأنباء، أي: لم يهتدوا إليها، وفيه استعارةٌ تصريحيةٌ تبعيةٌ، حيث استُعير العمى لعدم الاهتداء، ثم قُلِبَ للمبالغة، فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم، وضمِّن العمى معنى الخفاء فعدِّي بـ «على»، ولولاه لتعدَّى بـ «عن»، ولم يتعلَّق بالأنباء لأنها مسموعةٌ لا مبصَرةٌ. وفي هذا القلب دلالةٌ على أنَّ ما يحضر الذهن يفيضُ عليه ويصل من الخارج ونفس الأمر إما ابتداءً وإمَّا بواسطةِ تذكُّر الصورة الواردةِ منه بأماراتها الخارجية، فإذا أخطأ الذهن الخارجُ بأنْ لم يَصِلْ إليه لانسداد الطريق بينه وبينه بعمًى ونحوِه، لم يُمْكِنْه إحضارٌ ولا استحضار، وذلك لأنه لمَّا جعل الأنباء الواردةَ عليهم من الخارج عُمياً لا تهتدي دلَّ على أنهم عميٌ لا يهتدون بالطريق الأَوْلى؛ لأنَّ اهتداءهم بها، فإذا كانت هي في نفسها لا تهتدي فما بالُك بمن يهتدي بها؟! كذا قيل، فليتدبر.

(١) تفسير الرازي ٨/٢٥.
(٢) أي: الكلام الذي يفهم من الذي لا يفهم، ومن أمثالهم: لا يدري الحوَّ من اللَّو، والحيَّ من اللّي. المزهر للسيوطي ١/ ٥٠٠.

وجوِّز أن يكون في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ تخييلية، أي: فصارت الأنباء كالعُمْي عليهم لا تهتدي إليهم.

والمراد بالأنباء إمَّا ما طُلب منهم مما أجابوا به الرسل عليهم السلام، أو ما يعمُّها وكلَّ ما يمكن الجوابُ به، وإذا كانت الرسل عليهم السلام يتَتَعْتَعون[1] في الجواب عن مثل ذلك في ذلك المقام الهائل، ويفوِّضون العلم إلى علَّام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسؤول، فما ظنُّك بأولئك الضلَّال من الأمم؟!

وقرأ الأعمش وجناح بن حبيش وأبو زرعة بن عمرو بن جرير: «فَعُمِّيتْ» بضمِّ العين وتشديد الميم[2].

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً لفَرْطِ الدهشة، أو العلم بأنَّ الكلَّ سواءٌ في الجهل، والفاءُ إمَّا تفصيليةٌ أو تفريعيةٌ؛ لأنَّ سبب العمى فَرْطُ الدهشة.

وقرأ طلحة: «لا يسَّاءلون» بإدغام التاء في السين[3].

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ أي: من الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: جَمَع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: الفائزين بالمطلوب عنده عزَّ وجلَّ، الناجين عن المهروب. و«عسى» للتحقيق على عادة الكرام، أو للترجِّي من قِبَلِ التائب المذكور، بمعنى: فليتوقَّعْ أن يفلح.

وقوله تعالى: (فَأَمَّا) قيل[4]: لتفصيل المجمَلِ الواقع في ذهن السامع من بيانِ ما يَؤُولُ إليه حال المشركين، وهو أنَّ حالَ مَن تاب منهم كيف يكون؟ والدلالةِ على ترتُّب الإخبار به على ما قبله، فالآيةُ متعلِّقةٌ بما عندها.

وقال الطيبيُّ[5]: هي متعلِّقةٌ بقوله تعالى: (أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا)، والحديثُ عن الشركاء مستطردٌ لذكر الإحضار.

---

(١) التعتعة: التردُّد في الكلام لحصر أو عيٍّ. حاشية الشهاب ٧/ ٨٣.
(٢) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٩.
(٣) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٩.
(٤) قوله: قيل، ليس في الأصل.
(٥) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّ الظاهر أنه ليس متعلِّقاً به، بل لمَّا ذكر سبحانه حالَ مَن حقَّ عليه القولُ من التابع والمتبوع، قال تعالى شأنُه حثًّا لهم على الإقلاع: (فَأَمَّا مَن تَابَ) منهم (وَءَامَنَ) فكأنه قيل - ما ذكر - لمصرِّيهم[1]: فأما مَن تاب فكلًّا.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ خَلْقَه من الأعيان والأعراض ﴿وَيَخْتَارُ﴾ عطفٌ على «يخلق»، والمعنى على ما قيل: يخلق ما يشاؤه باختياره، فلا يخلقُ شيئاً بلا اختيار، وهذا ممّا لم يُفهم من «ما يشاء»، فليس في الآية شائبةُ تكرار.

وقيل في دفع ما يتوهَّم من ذلك غيرُ ما ذُكر، مما نقله وردَّه الخفاجيُّ[2]، ولم يتعرَّضْ للقدح في هذا الوجه، وأراه لا يخلو عن بُعْدٍ، ولي وجهٌ في الآية سأذكره بعدُ إن شاء الله تعالى.

﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: التخيُّر، كالطِّيَرة بمعنى التطيُّر، وهما والاختيارُ بمعنًى، وظاهرُ الآية نفيُ الاختيار عن العبد رأساً كما يقوله الجبرية، ومَن أثبت للعبد اختياراً قال: إنه لكونه بالدواعي التي لو لم يخلقها الله تعالى فيه لم يكن كان في حيِّز العدم، وهذا مذهبُ الأشعريِّ على ما حقَّقه العلّامة الدَّوَاني؛ قال: الذي أَثْبته الأشعريُّ هو تعلُّقُ قدرة العبد وإرادتِه الذي هو سببٌ عاديٌّ لخلق الله تعالى الفعلَ فيه، وإذا فتَّشنا عن مبادي الفعل وجدنا الإرادة منبعثةً عن شوقٍ له، وتصوُّرِ أنه ملائمٌ، وغيرِ ذلك من أمورٍ ليس شيءٌ منها بقدرة العبد واختياره.

وحقَّق العلَّامة الكورانيُّ في بعض رسائله المؤلَّفةِ في هذه المسألة أنَّ مذهب السلف أنَّ للعبد قدرةً مؤثِّرةً بإذن الله تعالى، وأنَّ له اختياراً لكنه مجبورٌ باختياره، وادَّعى أنَّ ذلك هو مذهبُ الأشعريِّ، دون ما شاع من أنَّ له قدرةً غيرَ مؤثِّرةٍ أصلاً بل هي كاليد الشلَّاء، ونفيُ الاختيارِ عنه على هذا نحوه على ما مرَّ، فإنه حيث كان مجبوراً به كان وجوده كالعدم.

وقيل: إنَّ الآية أفادت نفي ملكهم للاختيار، ويَصْدُقُ على المجبور باختياره بأنه غيرُ مالكٍ للاختيار؛ إذ لا يتصرَّف فيه كما يشاء تصرُّف المالك في ملكه.

---

(١) في (م): لمصيرهم، وهو تصحيف.

(٢) في الحاشية ٧/ ٨٣.

وقيل: المراد: لا يليقُ ولا ينبغي لهم أن يختاروا عليه تعالى، أي: لا ينبغي لهم التحكُّمُ عليه سبحانه بأن يقولوا: لمَ لمْ يفعل الله تعالى كذا. ويؤيِّده أنَّ الآية نزلت حين قال الوليد بن المغيرة: لولا نزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم، أو حين قال اليهود: لو كان الرسول إلى محمد ﷺ غيرَ جبريل عليه السلام لآمنَّا به، على ما قيل. والجملة على هذا الوجه مؤكِّدةٌ لِمَا قبلها، أو مفسِّرةٌ له؛ إذ معنى ذلك: يخلقُ ما يشاء ويختار ما يشاءُ أنْ يختارَه لا ما يختارُه العباد عليه، ولذا خلت عن العاطف، وهي على ما تقدَّم مستأنفةٌ في جواب سؤالٍ تقديره: فما حالُ العباد؟ أو: هل لهم اختيارٌ؟ أو نحوه. فقيل: إنهم ليس لهم اختيارٌ.

وضعِّف هذا الوجهُ بأنه لا دلالةَ على هذا المعنى في النظم الجليل، وفيه حذفُ المتعلِّق، وهو: على الله تعالى، من غيرِ قرينةٍ دالَّةٍ عليه، وكونُ سببِ النزول ما ذُكر ممنوعٌ، والقول الثاني فيه يستدعي بظاهره أن يكون ضميرُ «لهم» لليهود، وفيه من البعدُ ما فيه.

وقيل: «ما» موصولةٌ مفعولُ «يختار»، والعائد محذوفٌ، والوقف على «يشاء»، لا نافيةٌ والوقفُ على «يختار» كما نصَّ عليه الزجَّاج وعلي بن سليمان والنحاس[١]، كما في الوجهين السابقين، أي: ويختار الذي كان لهم فيه الخير والصلاح، واختياره تعالى ذلك بطريق التفضُّلِ والكرم عندنا، وبطريق الوجوب عند المعتزلة.

وإلى موصوليةِ «ما» وكونِها مفعولَ «يختار» ذهب الطبريُّ، إلا أنه قال في بيان المعنى عليه: أي: ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيرةً للناس، وأنكر أن تكون نافيةً لئلا يكون المعنى أنه لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يُستقبل[٢]. وادَّعى أبو حيان أنه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما معنًى ما ذهب إليه[٣].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥١، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤١، وعلي بن سليمان هو الأخفش الأصغر، وذكر قوله النحاس، وأبو حيان في البحر ٧/ ١٢٩، وعنه نقل المصنف.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٩-٣٠٢، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٢٩.
(٣) البحر ٧/ ١٢٩.

واعتُرِضَ بأنَّ اللغة لا تساعدُه؛ لأنَّ المعروف فيها أنَّ «الخيرة» بمعنى الاختيار لا بمعنى الخير، وبأنه لا يناسبُ ما بعده من قوله[1]: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ إلخ، وكذا لا يناسبُ ما قبله من قوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. وضعَّفه بعضُهم بأنَّ فيه حذفَ العائد، ولا يخفى أنَّ حذفه كثير.

وأجيب عمَّا اعترض به الطبريُّ بأنه يجوز أن يكون المراد بمعونة المقام استمرارَ النفي؛ أو يكون المراد: ما كان لهم في علم الله تعالى ذلك، وهذا بعد تسليم لزومِ كونِ المعنى ما ذكره لو أبقي الكلام على ظاهره.

وقال ابن عطية: يتَّجه عندي أن يكون «ما» مفعولَ «يختار» إذا قدَّرنا «كان» تامةً، أي: إن الله تعالى يختار كلَّ كائنٍ ولا يكون شيءٌ إلا بإذنه، وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ معناها تعديدُ النعمة عليهم في اختيار الله سبحانه لهم لو قبلوا وفهموا[2]. اهـ. يعني والله تعالى أعلم أنَّ المراد: خيرةُ الله تعالى لهم، أي: اختياره لمصلحتهم.

وللفاضل سعدي چلبي نحوُ هذا، إلا أنه قال في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾: إنه في معنى: أَلَهم الخيرة؟ بهمزةِ الاستفهام الإنكاريِّ، وذكر أنَّ هذا المعنى يناسبه ما بعدُ من قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ إلخ، فإنه إمَّا تعجيبٌ عن إثبات الاختيار لغيره تعالى، أو تنزيهٌ له عزَّ جلَّ عنه.

ولا يخفى ضَعْفُ ما قالاه لِمَا فيه من مخالفة الظاهر من وجوه.

ويظهر لي في الآية غيرُ ما ذُكر من الأوجُهِ، وهو أن يكون «يختار» معطوفاً على «يخلق» والوقفُ عليه تامٌّ كما نصَّ عليه غيرُ واحدٍ، وهو من الاختيار بمعنى الانتقاء والاصطفاء، وكذا «الخيرة» بمعنى الاختيار بهذا المعنى، والفعل متعدٍّ حُذِفَ مفعولُه ثقةً بدلالةِ ما قبله عليه، أي: ويختار ما يشاء، وتقديم المسند إليه في كلٍّ من جانبي المعطوفِ والمعطوفِ عليه لإفادة الحصر، وجملةُ «ما كان لهم الخيرة» مؤكِّدةٌ لِمَا قبلها، حيث تكفَّل الحصرُ بإفادة النفي الذي تضمَّنته، والكلامُ مسوقٌ

---

(١) في (م): من تعالى قوله، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ١٠٤، والكلام منه.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٦، والبحر ٧/ ١٢٩-١٣٠.

لتجهيل المشركين في اختيارهم ما أشركوه، واصطفائهم إياه للعبادة والشفاعة لهم يوم القيامة، كما يرمز إليه: «ادعوا شركاءكم»، وللتعبير بـ «ما» وجهٌ ظاهر، والمعنى: وربُّك لا غيرُه يخلقُ ما يشاء خَلْقَه، وهو سبحانه دون غيره ينتقي ويصطفي ما يشاء انتقاءه واصطفاءه، فيصطفي مما يخلُقه شفعاءَ ويختارُهم للشفاعة، ويميِّز بعض مخلوقاته جلَّ جلالهُ على بعضٍ ويفضِّلُه عليه بما شاء، ما كان لهؤلاء المشركين أن ينتقوا ويصطفوا ما شاؤوا، ويميِّزوا بعضَ مخلوقاته تعالى على بعضٍ، ويجعلوه مقدَّماً عنده عزَّ وجلَّ على غيره؛ لأنَّ ذلك يستدعي القدرة الكاملة، وعدمَ كونِ فاعله محجوراً عليه أصلاً، وأنَّى لهم ذلك، فليس لهم إلا اتِّباعُ اصطفاءِ الله تعالى، وهو جلَّ وعلا لم يَصْطَفِ شركاءهم الذين اصْطَفَوْهم للعبادة والشفاعة على الوجه الذي اصْطفَوْهم عليه، فما هم إلَّا جهَّالٌ ضلَّالٌ صُدُّوا عما يلزمُهم، وتصدَّوا لِمَا ليس لهم بحالٍ من الأحوال.

وإن شئتَ فنزِّل الفعلَ منزلةَ اللازم، وقل: المعنى: وربُّك لا غيرُه يخلق ما يشاء خَلْقَه وهو سبحانه لا غيرُه يفعل الاختيارَ والاصطفاءَ، فيصطفي بعضَ مخلوقاته لكذا وبعضاً آخر لكذا، ويميِّز بعضاً منها على بعضٍ، ويجعلُه مقدَّماً عنده تعالى عليه، فإنه سبحانه قادرٌ حكيم لا يُسأَلُ عمَّا يفعلُ، وهو جلَّ وعلا أعظمُ من أن يُعتَرض عليه وأجلُّ.

ويدخل في الغير المنفيِّ عنه ذلك المشركون، فليس لهم أن يفعلوا ذلك، فيصطفوا بعضَ مخلوقاته للشفاعة، ويختاروهم للعبادة، ويجعلوهم شركاء له عزَّ وجلَّ، ويدخل في الاختيار المنفيِّ عنهم ما تضمَّنه قولُهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فإنَّ فيه انتقاءَ غيره ﷺ من الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفيِّ، وتمييزَه بأهلية تنزيل القرآن عليه، فإن صحَّ ما قيل في سبب نزول هذه الآية من أنه القولُ المذكور كان فيها ردُّ ذلك عليهم أيضاً، إلا أنها لتضمُّنها تجهيلَهم باختيارهم الشركاءَ واصطفائهم إياهم آلهةً وشُفَعاءَ كتضمُّنِها الردَّ المذكور جيء بها هنا متعلِّقةً بذكر الشركاء وتقريعِ المشركين على شركهم.

وربما يقال: إنها لمَّا تضمَّنت تجهيلهم فيما له نوعُ تعلُّقٍ به تعالى كاتِّخاذ الشركاء له سبحانه، وفيما له نوعُ تعلُّقٍ بخاتم رسله عليه الصلاة والسلام كتمييزهم

غيرَه عليه الصلاة والسلام بأهلية الإرسال إليه وتنزيلِ القرآن عليه، جيء بها بعد ذكر سؤال المشركين عن إشراكهم، وسؤالهم عن جوابهم للمرسَلين الناهين لهم عنه، الذين عَيْنُ أعيانهم وقلبُ صدر ديوانهم رسولُه الخاتم لهم ﷺ، فلها تعلُّقٌ بكلا الأمرين، إلا أنَّ تعلُّقها بالأمر الأول أظهرُ وأتمُّ، وخاتمتُها تقتضيه على أكمل وجه وأحكم.

وربما يقال أيضاً: إنَّ لها تعلُّقاً بجميع ما قبلها، أمَّا تعلُّقها بالأمرين المذكورين فكما سمعتَ، وأمَّا تعلُّقُها بذكر حالِ التائب فمن حيث إنَّ انتظامه في سلك المفلحين يستدعي اختيارَ اللهِ تعالى إياه واصطفاءَه له وتمييزَه على مَن عَدَاه، ولذا جيء بها بعد الأمور الثلاثة. وذكرُ انحصارِ الخلق فيه تعالى وتقديمُه على انحصار الاختيار والاصطفاءِ مع أنَّ مبنَى التجهيلِ والردِّ إنما هو الثاني؛ للإشارة إلى أنَّ انحصارَ الاختيار من توابع انحصار الخلق.

وفي ذكره تعالى بعنوان الربوبية إشارةٌ إلى أنَّ خَلْقَه عزَّ وجلَّ ما شاء على وفق المصلحة والحكمة، وإضافةُ الربِّ إليه ﷺ لتشريفه عليه الصلاة والسلام، وهي في غاية الحسن إنْ صحَّ ما تقدَّم عن الوليد سبباً للنزول.

ويخطر في الباب احتمالاتٌ أُخر في الآية، فتأمَّل فإنِّي لا أقول: ما أبديتُه هو المختارُ، كيف وربُّك جلَّ شأنُه يخلق ما يشاء ويختار؟

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزَّه تعالى بذاته تنزُّهاً خاصًّا به من أن ينازعه أحدٌ، أو يزاحمَ اختيارَه عزَّ شأنُه ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: عن إشراكهم، على أنَّ «ما» مصدريةٌ، ويحتمل أن تكون موصولةً بتقدير مضافٍ، أي: عن مشاركة ما يشركونه به، كذا قيل.

وجَعَل بعضهم «سبحان الله» تعجيباً من إشراكهم مَن يضرُّهم بمن يريد لهم كلَّ خيرٍ تبارك وتعالى، وهو على احتمالِ كونِ «ما» فيما تقدَّم موصولةً مفعولَ «يختار»، والمعنى: ويختار ما كان لهم فيه الخير والصلاح.

ويجوز أن يكون تعجيباً أيضاً من اختيارهم شركاءَهم الذين أعدُّوهم للشفاعة، وإقدامِهم على ما لم يكن لهم، وذلك بناء على ما ظهر لنا.

وظاهرُ كلام كثيرٍ أنَّ الآية ليست من باب الإعمال، وجوِّز أن تكون منه بأن يكون كلٌّ من «سبحان» و«تعالى» طالباً «عما يشركون»، والأفيدُ على ما قيل أن لا تكون منه.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ما يُكِنُّونَ ويُخْفُون في صدورهم من الاعتقادات الباطلة، ومن عداوتهم لرسول الله ﷺ، ونحو ذلك.

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾ وما يظهرونه من الأفعال الشنيعة، والطعنِ فيه عليه الصلاة والسلام وغير ذلك. ولعله للمبالغة في خباثةِ باطنهم لأنَّ ما فيه مبدأٌ لِمَا يكون في الظاهر من القبائح لم يقل: ما يكنُّون، كما قيل: «ما يعلنون».

وقرأ ابن محيصن: «تَكُنُّ» بفتح التاء وضمِّ الكاف[1].

﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ أي: وهو تعالى المستأثرُ بالألوهية المختصُّ بها، وقوله سبحانه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقريرٌ لذلك، كقولك: الكعبةُ القبلةُ لا قبلةَ إلَّا هي.

﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ أي: له تعالى ذلك دون غيره سبحانه؛ لأنه جلَّ جلالُه المعطي لجميع النعم بالذات، وما سواه وسائط، والمراد بالحمد هنا ما وقع في مقابلة النعم بقرينةِ ذِكْرِها بعده بقوله تعالى: (قُلْ أَرَءَيْتُمْ) إلخ.

وزعم بعضهم أنَّ الحمد هنا أعمُّ من الشكر، واعتبر الحصر بالنسبة إلى مجموع حمدي الدارين، زاعماً أنَّ الحمد في الدنيا وإن شاركه فيه غيرُه تعالى لكنَّ الحمد في الآخرة لا يكون إلَّا له تعالى.

وفيه أنَّ الحمد مطلقاً مختصٌّ به تعالى؛ لأنَّ الفضائل والأوصاف الجميلة كلَّها بخَلْقِه تعالى، فيرجعُ الحمدُ عليها في الآخرة له تعالى؛ لأنه جلَّ وعلا مُبْديها ومُبْدِعُها، ولو نظر إلى الظاهر لم يكن حمدُ الآخرة مختصًّا به سبحانه أيضاً، فإنَّ نبينا ﷺ يحمده الأولون والآخرون عند الشفاعة الكبرى.

وفسَّر غيرُ واحدٍ حمدَه تعالى في الآخرة بقول المؤمنين: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤] وقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾

---

(١) البحر ٧/ ١٣٠.

[فاطر: ٣٤] وقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وقالوا: التحميدُ هناك على وجهِ اللَّذةِ لا الكلفة، وفي حديثٍ رواه مسلم وأبو داود عن جابر في وصف أهل الجنة: «يُلْهَمون التسبيحَ والتهليلَ كما يُلْهَمونَ النَّفس»(١).

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاءُ النافذ في كلِّ شيءٍ من غير مشاركةٍ فيه لغيره تعالى، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أي: له الحكمُ بين عباده تعالى، فيحكُم لأهل طاعته بالمغفرة والفضل، ولأهل معصيته بالشقاء والويل.

﴿وَإِلَيْهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ بالبعث.

﴿قُلْ﴾ تقريراً لِمَا ذكر ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني، وقرأ الكسائي: «أَرَيْتُم» بحذف الهمزة(٢) ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أي: دائماً، وهو عند البعض من السرد، وهو المتابعةُ والاطِّرادُ، والميم مزيدةٌ لدلالة الاشتقاق عليه، فوزنه فَعْمَل، ونظيرُه دُلَامِص(٣) من الدِّلَاص، يقال: درعٌ دِلَاصٌ، أي: ملساء لينة. واختار بعضُ النحاة أنَّ الميم أصليةٌ، فوزنُه فَعْلَلَ؛ لأنَّ الميم لا تنقاسُ زيادتُها في الوسط. ونَصْبُه إمَّا على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «جعل»، أو على أنه حالٌ من «الليل».

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إما متعلِّقٌ بـ «سرمداً» أو بـ «جعل»، وجوَّز أبو البقاء أيضاً تعلُّقه بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «سرمداً»(٤). وجَعْلُه تعالى كذلك بإسكان الشمس تحت الأرض مثلاً.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ﴾ مبتدأ وخبر، وقولُه سبحانه: ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ لـ «إله»، وقولُه تعالى: ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ صفةٌ أخرى له، عليها يدورُ أمر التبكيت والإلزام كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١] وقولِه سبحانه: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] ونظائرِهما، خلا أنه قُصِدَ بيانُ انتفاءِ الموصوف بانتفاء الصفة، ولم يؤت بـ «هل» التي هي لطلب التصديق المناسبِ بحسب الظاهر

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٣٥)، وسنن أبي داود (٤٧٤١).
(٢) التيسير ص١٠٢، والنشر ١/ ٣٩٨.
(٣) بضم الدال وكسر الميم: البرَّاق. حاشية الشهاب ٧/ ٨٤، والقاموس (دلص).
(٤) الإملاء ٤/ ١٥٦.

للمقام، وأُتيَ بـ «مَن» التي هي لطلب التعيين المقتضي لأصل الوجود، لإيراد التبكيت والإلزام على زَعْمِهم[١]، فإنه أبلغ كما لا يخفى.

وجملة «مَن إلهٌ» إلخ قال أبو حيان: في موضع المفعول الثاني لـ «أرأيتم»، وجَعَل «الليل» مما تَنَازَعَ فيه «أرأيتم» و«جعل»، وقال: إنه أُعْمِلَ فيه الثاني، فيكون المفعولُ الأول للأول محذوفاً، وحيث جُعِلَت تلك الجملةُ في موضع مفعوله الثاني لا بدَّ من تقدير العائد فيها، أي: مَن إله غيرُه يأتيكم بضياءٍ بَدَلَه[٢]، مثلاً، وجواب «إنْ» محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله، وكذا يقال في الآية بعدُ.

وعن ابن كثير أنه قرأ: «بضئاء» بهمزتين[٣].

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١﴾ سماعَ فَهْمٍ وقبولٍ الدلائلَ الباهرةَ والنصوصَ المتظاهرةَ، لتعرفوا أنَّ غير الله تعالى لا يقدر على ذلك.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإسكان الشمس في وسط السماء مثلاً ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةً من متاعب الأشغال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾ الشواهدَ المنصوبةَ الدالَّة على القدرة الكاملة؛ لتقفوا على أنَّ غير الله تعالى لا قدرةَ له على ذلك.

ويُعلم ممَّا ذكرنا أنَّ كلًّا من جملتي «أفلا تسمعون» و«أفلا تبصرون» تذييلٌ للتوبيخ الذي يعطيه قوله تعالى: (أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ) إلخ قبله، وأفاد الزمخشريُّ[٤] أنَّ ظاهر التقابُل يقتضي ذِكْرَ النهار والتصرُّفَ فيه، إلا أنَّ العدول عن ذلك إلى الضياء ـ وهو ضوءُ الشمس ـ للدلالة على أنه يتضمَّنُ منافعَ كثيرةً منها التصرُّفُ، فلو أتى بالنهار لاستَدْعَى القَصْرَ على تلك المنفعة من ضرورةِ التقابل، ولأنَّ المنافع للضياء لا للنهار، على أنَّ النهار أيضاً من منافعه.

ثم استشعر أنْ يقال: فلم لم يُؤْتَ بالظلام بدل الليل في الآية الثانية لتتمَّ

(١) أي: على زعمهم أن آلهتهم موجودة. حاشية الشهاب ٧/ ٨٤.
(٢) البحر ٧/ ١٣٠، وفيه: بعده، بدل: بدله، ومثله في الدر المصون ٨/ ٦٩١.
(٣) وهي رواية قنبل عنه. التيسير ص١٢٠-١٢١.
(٤) في الكشاف ٣/ ١٨٩.

المقابلة من هذا الوجه؟ وأجاب بأنه ليس بتلك المنزلة، فلا هو مقصودٌ في ذاته كالضياء، ولا أنَّ المنافع من روادفه، مع ما فيهما من الاستئناس والاشمئزاز، بل لو تأمَّل حقَّ التأمُّل وجدَّ حَكَمَ بأنَّ الليل من منافع الضياء أيضاً، والظلام من ضرورات كون الشمس المضيئة تحت الأرض وإلقاء ظلِّ الليل[1].

ثم أفاد أنَّ التفصلة وهو التذييلُ المذكور فيها إرشادٌ إلى هذه النكتة؛ فإنَّ قوله تعالى: (أَفَلَا تَسْمَعُونَ) يدلُّ على أنَّ التوبيخ بعدم التأمُّل في الضياء أكثر، من حيث إنَّ مُدْرَكَ السمع أكثر[2]، والمرادُ ما يدركه العقل بواسطة السمع، فلا يَرِدُ أنَّ مُدْرَكه الأصواتُ وحدها ومُدْرَك البصر أكثرُ من ذلك، وذلك أنَّ ما لا يُدْرَكُ بحسٍّ أصلاً يُدْرَكُ بواسطة السمع إذا عبَّر عنه المعبِّر بعبارةٍ مُفهِمة، وأما ما يدرَكُ بالبصر فمن مشاهدة المبصَرات وهي قليلة، وأمَّا المطالعةُ من الكتب فإنها أضيقُ مجالاً من السمع وفَرْعِه، كذا في «الكشف».

والعلَّامةُ الطيبيُّ قرَّر عبارة «الكشاف» بما قرَّر ثم قال: الأبعدُ من التكلُّف أن يُجعل «أفلا تسمعون» تذييلاً للتوبيخ المستفاد من «أرأيتم» إلخ قبله، وكذا «أفلا تبصرون» على ما في «المعالم»: أفلا تسمعون سماعَ فَهْمٍ وقبول، أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ[3]؛ ليجتمع لهم الصَّممُ والعَمَى من الإعراض عن سماع البراهين والإغماض عن رؤية الشواهد. ولمَّا كانت استدامةُ الليل أشقَّ من استدامة النهار لأنَّ النوم الذي هو أجلُّ الغرض فيه شبيهُ الموتِ[4]، والابتغاء من فضل الله تعالى الذي هو بعضُ فوائدِ النهار شبيهٌ بالحياة، قيل في الأول: «أفلا تسمعون»، أي: سماع فَهْمٍ، وفي الثاني: «أفلا تبصرون» أي: ما أنتم عليه من الخطأ؛ ليطابق كلٌّ من التذييلين الكلامَ السابق من التشديد والتوبيخ. وذَكَر في حاصل المعنى ما ذكرناه أولاً[5]، ثم قال: وفيه أنَّ دلالةَ النصِّ أولى وأقدمُ من العقل[6].

---

(١) لم نقف على هذا الكلام في الكشاف، وينظر حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) بنحوه في الكشاف ٣/ ١٨٩.

(٣) تفسير البغوي المسمَّى معالم التنزيل ٣/ ٤٥٣، والكلام من حاشية الطيبي على الكشاف.

(٤) في حاشية الطيبي على الكشاف: بالموت.

(٥) ينظر ما سلف في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

(٦) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

وصاحب «الكشف» قرَّر العبارة بما سمعتَ، وذكر أنَّ ذلك لا ينافي ما في «المعالم» بل يؤكِّده ويبيِّن فائدةَ التوبيخين.

ونقل الطيبيُّ عن الراغب في «غرة التنزيل» أنه قال: إنَّ نَسْخَ الليل بالنيِّر الأعظم أبلغُ في المنافع وأَضْمَنُ للمصالح من نَسْخِ النهار بالليل، ألا ترى أنَّ الجنة نهارُها دائمٌ لا ليلَ معه؛ لاستغناء أهلها عن الاستراحة؟ فتقديمُ ذكر الليل لانكشافه عن النهار الذي هو أجدى من تفاريق العصا، ومنافعُ ضوء شمسِه أكثرُ من أن تحصى، أحقُّ وأولى، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾: أفلا تسمعون سماعَ مَن يتدبَّر المسموعَ ليستدرك منه قَصْدَ القائل، ويحيطَ بأكثرِ ما جعل الله تعالى في النهار من المنافع، فإنَّ عقيب السماع استدراكُ المراد بالمسموع إذا كان هناك تدبُّرٌ وتفكُّرٌ فيه، ومعنى ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أفلا أتستدركون[1] من ذلك ما يجب استدراكه. انتهى.

وفي «الكشف» أنه مؤيِّدٌ لما ذكره صاحب «الكشاف»، وربما يقال: ذكر سبحانه أولاً فرضية جَعْلِ الليل سرمداً، وثانياً فرضيةَ جَعْلِ النهار كذلك؛ لأنَّ الليل كما قالوا مقدَّمٌ على النهار شرعاً وعرفاً، وأيضاً ذلك أوفقُ بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ففي المَثَلِ: الليل أَخْفَى للويل. وكذا بقوله سبحانه: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ ففي الأثر: كان الخلق في ظلمةٍ، فرشَّ الله تعالى عليهم من نوره[2]. ولعله لاعتبارِ الأوَّلية والآخرية ذُيِّلَت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ بناءً على أنَّ المعنى: أفلا تسمعون ممن سلف من آبائكم أو مما سلف منَّا أنَّ آلهتكم لا تقدرُ على مثل ذلك، والثانيةُ بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بناءً على أنَّ المعنى: أفلا تبصرون أنتم عجزها عن مثل ذلك، وجيء بالضياء غير موصوفٍ في الآية الأولى وبالليل موصوفاً في الثانية لِمَا أفاده الزمخشريُّ.

---

(١) في الأصل و(م): أتستدركون، بدل: أفلا تستدركون، والمثبت من حاشية الطيبي على الكشاف.

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٤٤)، والترمذي (٢٦٤٢) وحسَّنه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بلفظ: «إن الله عزَّ وجلَّ خَلَق خَلْقَه في ظلمة فألقى عليهم من نوره...» الحديث، و«فرشَّ» رواية فيه كما في تحفة الأحوذي ٧/ ٤٠١.

وقيل في وجه تذييل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ دون قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: إنَّ المفروض لو تحقَّق بقيَ معه السمعُ دون الإبصار، إذ ظلمةُ الليل لا تحجبُ السمع وتحجبُ البصر. وفي وجه تذييل الثانية بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ دون ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾: إنَّ تحقُّق المفروض وعدمَه سِيَّان في أمر السمع دون الإبصار؛ إذ لضياء النهار مدخلٌ في الإبصار وليس له مدخلٌ في السمع أصلاً. وهو كما ترى.

واعلم أنَّ ها هنا إشكالاً، وهو أنَّ جَعْلَ الليل سرمداً إلى يوم القيامة إنْ تحقَّق لم يتصور الإتيانُ بضياء أصلاً، وكذا جَعْلُ النهار سرمداً إلى يوم القيامة إن تحقَّق لم يتصوَّر الإتيان بليلٍ كذلك، أمَّا مِن غيره تعالى فظاهرٌ؛ لأنه معدنُ العجز عن كلِّ شيء، وأمَّا منه عزَّ وجل فلاستلزامه اجتماعَ الليل والنهار إذ[1] لو لم يجتمعا لم يتحقَّق الليل مستمرًّا إلى يوم القيامة، وكذا جَعْلُ النهار كذلك، وهو خلافُ المفروض، واجتماعُهما محالٌ، والمحالُ لا صلاحيةَ له لتعلُّق القدرة فلا يُراد.

وأجيب بأن المراد: إنْ أراد سبحانه ذلك فَمَنْ إلهٌ غيرُه تعالى يأتيكم بخلافِ مراده سبحانه بأنْ يقطعَ الاستمرارَ فيأتي بنهارٍ بعد ليلٍ وليل بعد نهارٍ.

واعترض بأنه يُفهم من الآية حينئذٍ أنه جلَّ وعلا هو الذي إن أراد ذلك يأتيهم بخلافِ مراده تعالى فيقطع الاستمرار، وهو مُشْكِلٌ أيضاً؛ لأن إتيانه تعالى بخلافِ مراده جلَّ وعلا مستلزمٌ لتخلُّف المراد عن الإرادة، وهو محالٌ، فإذا أراد الله تبارك وتعالى شيئاً على وجه إرادةٍ لا تعليقَ فيها لا يمكنُ أن يريده على خلافِ ذلك الوجه.

وأجيب بأنه يجوزُ أن يكون المراد: إنْ أراد الله تعالى ذلك غيرَ معلِّقٍ له على إرادته ـ عزَّ شأنُه ـ خلافَه، لا يأتيكم بخلافِه غيرُه عزَّ وجل، ولم يصرِّح بالقيد لدلالة العقل الصريح على أنَّ الإرادة غيرَ[2] المعلَّقة لا يمكن الإتيانُ بخلاف موجبها أصلاً. ومن الناس مَن ذهب إلى أنه سبحانه لا يَبتُّ إرادته، فجميع ما يريده جلَّ شأنُه معلَّقٌ.

---

(١) في (م): إذا.

(٢) في الأصل: الغير.

وقيل: الأَوْلى أن يقال: ليس المراد سوى أنَّ آلهتهم لا يقدرون على الإتيان بنهارٍ بعد ليلٍ وليلٍ بعد نهارٍ إذا أراد الله تعالى شأنُه استمرارَ أحدِهما، وإنما القادرُ على الإتيانِ بذلك هو الله سبحانه وحده من غير نظرٍ إلى كون ذلك الإتيان مقيَّداً بتلك الإرادة، فتدبَّر.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: بسبب رحمته جلَّ شأنُه ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في النهار بالسعي بأنواع المكاسب، ففي الآية ما يقال له: اللفُّ والنشر، ويسمَّى أيضاً: التفسير، كقول ابن حَيُّوس:

ومُقَرْطِقٍ يَغْنَى النديمُ بوجهه عن كأسه الملأى وعن إبريقه
فِعْلُ المدام ولونُها ومذاقُها في مُقْلَتيه ووَجْنَتَيْه ورِيْقه(١)

وضميرُ «فَضْلِه» لله تعالى، وجوَّز أبو حيان كونَه للنهار على الإسناد المجازيِّ(٢)، وهو خلافُ الظاهر.

وفيها إشارةٌ إلى مدح السعي في طلب الرزق، وقد ورد: «الكاسبُ حبيبُ الله»(٣)، وهو لا ينافي التوكُّل، وأنَّ ما يحصلُ للعبد بواسطته فضلٌ من الله عزَّ وجل، وليس ممَّا يجبُ عليه سبحانه.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: ولكي تشكروا نعمتَه تعالى فَعَلَ ما فَعَلَ، أو: لتعرفوا نعمتَه تعالى وتشكروه عليها.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوبٌ بـ: اذكُرْ ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ تقريعٌ إثر تقريع، للإشعار بأنه لا شيءَ أَجْلَبُ لغضب الله تعالى من الإشراك، كما لا شيء أَدْخَلُ في مرضاته من توحيده عزَّ وجل.

---

(١) البحر ٧/ ١٣٠، ومعاهد التنصيص ٢/ ٢٧٥. وابن حيوس هو الأمير أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيُّوس الغنوي الدمشقي، مصطفى الدولة، شاعر الشام، صاحب الديوان، توفي سنة (٤٧٣هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤١٣.
(٢) البحر ٧/ ١٣٠.
(٣) لم نقف عليه.

أو أنَّ الأول لبيان فسادِ رأيهم كما يشير إليه قوله تعالى هناك: (حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ)، وهذا لبيانِ أنَّ إشراكهم لم يكن عن سندٍ، بل عن محضِ هوًى كما يشير إليه قوله تعالى بعدُ: (هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ)

أو الأول إحضارٌ للشركاء بعدم الصلوح؛ لقوله سبحانه بعده: (ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ)، وهذا تحسيرٌ بأنهم لم يكونوا في شيء من اتِّخاذهم، ألا ترى قوله تعالى: (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ).

﴿وَنَزَعْنَا﴾ عطفٌ على «يناديهم»، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقُّق، أو حالٌ من فاعله بإضمار «قد» أو بدونه، والالتفاتُ إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بشأن النَّزْعِ وتهويلِه، أي: أَخْرَجْنا بسرعة ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿شَهِيدًا﴾ شاهداً يشهد عليهم بما كانوا عليه، وهو نبيُّ تلك الأمة كما روي عن مجاهد وقتادة، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] وهذا في موقفٍ من مواقف يوم القيامة، فلا يضرُّ كونُ الشهيد في موقفٍ آخر غيرَ الأنبياء عليهم السلام، وهم أمةُ محمدٍ ﷺ، أو الملائكةُ عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر:٦٩] فإنه دالٌّ في الظاهر على مغايرة الشهداء للأنبياء عليهم السلام.

وقيل: يجوز اتحادُ الموقف، والدلالةُ على المغايرة غيرُ مسلَّمةٍ، ولو سلِّمت فشهادةُ الأنبياء عليهم السلام لا تنافي شهادةَ غيرهم معهم. وقولُه تعالى: (مِن كُلِّ أُمَّةٍ) وإفرادُ «شهيدٍ» ظاهرٌ فيما تقدم، ومن هنا قال في «البحر»: قيل: أي: عدولاً وخياراً، والشهيدُ عليه اسمُ جنسٍ(١).

﴿فَقُلْنَا﴾ لكلٍّ من تلك الأمم: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم تَدينون به ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ يومئذٍ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركُه سبحانه فيها أحدٌ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: وغاب عنهم غيبةَ الشيء الضائع، فـ «ضلَّ» مستعارٌ لمعنى غاب استعارةً تبعية. ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ في الدنيا من الباطل.

(١) البحر ٧/ ١٣١.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ﴾ اسمٌ أعجميٌّ مُنِعَ الصَّرفَ للعَلَميةِ والعُجْمةِ ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي: من بني إسرائيل كما هو الظاهر، وحكى ابن عطيةَ الإجماعَ عليه[1].

واختلف في جهة قرابته من موسى عليه السلام، فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وابنِ جُرَيجٍ وقتادةَ وإبراهيمَ أنه ابنُ عمِّ موسى عليه السلام، فموسى بن عمران بن قاهث - بقاف وهاء مفتوحة وثاء مثلثة - بن لاوى - بالقصر - بن يعقوب عليه السلام، وهو ابن يَصْهُر - بياءٍ تحتية مفتوحة وصاد مهملة ساكنة وهاء مضمومة - بن قاهث . . إلخ. وفي «مجمع البيان» عن عطاء عن ابن عباس: أنه ابنُ خالة موسى عليه السلام، وروي ذلك عن أبي عبد الله رضي الله عنه[2].

وحكي عن محمد بن إسحاق أنه عمُّ موسى عليه السلام[3]، وهو ظاهرٌ على قولِ مَن قال: إنَّ موسى عليه السلام بن عمران بن يصهر بن قاهث، وهو ابنُ يصهر بن قاهث.

وكان يسمَّى المنوّر لحسن صورته، وكان أحفظَ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم، لكنه نافَقَ كما نافق السامريُّ، وقال: إذا كانت النبوَّةُ لموسى والمذبحُ والقربان لهارون، فما لي؟

وروي أنه لمَّا جاوز بهم موسى عليه السلام البحرَ وصارت الرسالةُ والحبورة لهارون يقرِّبُ القربان ويكون رأساً فيهم، وكان القربانُ إلى موسى عليه السلام فجعله لأخيه هارون، وجد قارون في نفسه فحسدهما، فقال لموسى: الأمرُ لكما ولستُ على شيءٍ، إلى متى أصبر؟ قال موسى عليه السلام: هذا صنعُ الله تعالى. قال: والله تعالى لا أصدِّقُكَ حتى تأتيَ بآيةٍ. فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلُّ واحدٍ بعصاه، فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيَّهم بالليل، فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتزُّ ولها ورقٌ أخضرُ وكانت من شجر اللوز، فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨.

(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٣٢٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فطلب الفضلَ عليهم، وأن يكونوا تحت أمره، أو تكبَّر عليهم، وعُدَّ من تكبُّره أنه زاد في ثيابه شبراً، أو ظلمهم وطلب ما ليس حقَّه؛ قيل: وذلك حين ملَّكه فرعونُ على بني إسرائيل. وقيل: حسدهم وطلب زوالَ نعمهم، وذلك ما ذكر منه في حقِّ موسى وهارون عليهما السلام.

والفاء فصيحةٌ، أي: ضلَّ فبغَى، وجوِّز أن تكون على ظاهرها؛ لأنَّ القرابة كثيراً ما تدعو إلى البغي.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: الأموال المدَّخرةِ، فهو مجازٌ بجَعْلِ المدَّخَرِ كالمدفون إن كان الكنزُ مخصوصاً به، وحكى في «البحر» أنه سمِّيتْ أموالُه كنوزاً لأنها لم تؤدَّ منها الزكاةُ، وقد أمره موسى عليه السلام بأدائها فأبى، وهو من أسباب عدواته إياه(١).

وقيل: الكنوزُ هنا الأموالُ المدفونة، وكان كما روي عن عطاء قد أظفره الله تعالى بكنزٍ عظيم من كنوز يوسف عليه السلام.

﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي: مفاتِحَ صناديقِه، فهو على تقديرِ مضافٍ، أو الإضافة لأدنى ملابسةٍ. وهو جمعُ مِفْتَح بالكسر، وهو ما يُفْتَح به.

وقال السديُّ: أي: خزائنه. وفي معناه قولُ الضحاك، أي: ظروفَه وأَوْعِيتَه. وروي نحوُ ذلك عن ابن عباس والحسن، وقياسُ واحدِهِ على هذا: المَفْتَح بالفتح لأنه اسمُ مكان.

ويؤيِّد ما تقدَّم قراءةُ الأعمش: «مفاتيحه» بياءٍ، جمع مفتاح(٢).

و«ما» موصولةٌ ثاني مفعولي آتى، و«مفاتحه» اسم «إنَّ»، وقوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ خبرها، والجملة صلةُ «ما» والعائد الضمير المجرور، ومنع الكوفيون جوازَ كونِ الجملة المصدَّرة بـ «إنَّ» صلةً للموصول، قال النحاس(٣): سمعتُ عليّ بن سليمان ـ يعني الأخفش الصغير ـ يقول: ما أقبح ما يقوله الكوفيون

---

(١) البحر ٧/ ١٣١.

(٢) البحر ٧/ ١٣٢.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢، ونقله المصنف بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٣١.

في الصلات، أنه لا يجوز أن تكون صلةُ الذي «إنَّ» وما عملت فيه، وفي القرآن «ما إنَّ مفاتحه». انتهى.

ولا يخفى أنَّ المانع من ذلك إن كان عَدَمَ السماع فالردُّ عليهم لا يتم إلا بشاهدٍ لا يَحتمِلُ غير ذلك، و«ما» في الآية تحتملُ أن تكون نكرةً موصوفةً. وإنْ كان المانع كونَ «إنَّ» تقع في ابتداء الكلام فلا ترتبطُ الجملةُ المصدَّرةُ بها بما قبلها فالردُّ بالآية المذكورة عليهم تامٌّ؛ لأنَّ المانع المذكور كما يمنع كونَ الجملة صلةً يمنع كونها صفةً، فتدبر.

و«تنوء» من ناء به الحمل: إذا أثقلَه حتى أماله، فالباءُ للتعدية كما في: ذهبتُ به. و«العصبةُ» الجماعةُ الكثيرة من غير تعيينٍ لعددٍ خاصٍّ على ما ذكره الراغب[1]. ومن أهل اللغة مَن عيَّن لها مقداراً، واختلفوا فيه:

فقيل: من عشرةٍ إلى خمسةَ عَشَرَ، وهو مرويٌّ هنا عن مجاهد.

وقيل: ما بين الخمسة عشر إلى الأربعين، وروي ذلك عن الكلبي.

وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة.

وقيل: من عشرة إلى أربعين، وروي هذا عن قتادة.

وقيل: أربعون، وروي ذلك عن ابن عباس.

وقيل: سبعون، وروي ذلك عن أبي صالح مولى أمِّ هانئ.

وقال الخفاجيُّ: قد يقال: إنَّ أصل معناها الجماعةُ مطلقاً كما هو مقتضى الاشتقاق، ثم إنَّ العرف خصَّها بعددٍ، أو اختُلِفَ فيه، أو اختلف بحسب موارده[2].

وقال أبو زيد: «تنوء» من نؤتُ بالحمل: إذا نهضت به؛ قال الشاعر:

تنوءُ بأُخراها فلأياً قيامُها ... وتمشي الهُوَيْنا عن قريبٍ فتُبهَرُ[3]

---

(١) في مفرداته (عصب)، وكلامه فيه: العصبة جماعة متعصبة متعاضدة. ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٨٦.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٨٦.

(٣) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ٢٢٤. قال شارحه: فلأياً، أي: بعد بطءٍ شديد. وتبهر: تعيا.

وفي الآية على هذا قلبٌ عند أبي عبيدة ومَن تبعه، والأصل: تنوء العصبة بها، أي: تنهض[(١)].

وقيل: يجوز أن لا يكون هناك قلبٌ لأنَّ المفاتح تنهضُ ملابِسةً للعصبة إذا نهضت العصبةُ بها.

والأَوْلَى ما قدَّمناه أوَّلاً، وهو منقولٌ عن الخليل وسيبويه والفرَّاء، واختاره النحاس[(٢)]، ورويَ معناه عن ابن عباس وأبي صالح والسدي.

وقرأ بديل بن ميسرة: «لينوء» بالياء التحتية[(٣)]، وخرَّج ذلك أبو حيان على تقديرِ مضافٍ مذكَّرٍ يرجعُ إليه الضمير، أي: ما إنَّ حملَ مفاتحه أو مقدارها أو نحو ذلك[(٤)].

وقال ابن جنِّي: ذهب بالتذكير إلى ذلك القَدْرِ والمَبْلَغ، فلاحَظَ معنى الواحد فحمل عليه، ونحوه قول الراجز:

مثل الفراخ نَتَقَتْ حواصلُه

أي: حواصلُ ذلك، أو حواصلُ ما ذكرنا[(٥)].

وقال الزمخشريُّ: وَجْهُه أن يفسر المفاتحَ بالخزائن، ويعطيها حكمَ ما أضيفت إليه للملابسة والاتِّصال، كقولك: ذهبتْ أهلُ اليمامة[(٦)]. انتهى.

وإنما فسَّر المفاتحَ بالخزائن دون ما يُفتح به ليتمَّ الاتصالُ، فإنَّ اتِّصال الخزائن بالمخزون فوق اتصالِ المفاتيح به، بل لا اتِّصال للثاني، وحينئذٍ

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١١٠.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ١٩٩، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٠، والكلام من البحر ٧/ ١٣٢.

(٣) المحتسب ٢/ ١٥٣، والبحر ٧/ ١٣٢.

(٤) البحر ٧/ ١٣٢.

(٥) المحتسب ٢/ ١٥٣-١٥٤، والرجز سلف ١٤/ ١٨٤، ووقع في الأصل و(م) والمحتسب: نتفت، وقد سلف الكلام فيه.

(٦) الكشاف ٣/ ١٩٠.

يكتسي التذكيرَ من المضاف إليه كما اكْتَسى التأنيثَ من عكسه كالمثال الذي ذكره، وما تقدَّم عن غيره أولى؛ قال في «الكشف»: لأنَّ تفسير المفاتح بالخزائن ضعيفٌ جدًّا؛ لفوات المبالغة، وقيل: إنَّ المفاتح بذلك المعنى غيرُ معروفٍ.

وقد سمعتَ أنه تفسيرٌ مأثورٌ، فإذا صحَّ ذلك فلا يُلتفت إلى ما ذكر من هذا وكلام «الكشف».

وذكر أبو عمرو الداني[1] أنَّ بديل بن ميسرة قرأ: «ما إنَّ مفتاحه» على الإفراد، فلا تحتاجُ قراءته «لينوء» بالياء إلى تأويل.

وقد بُولِغَ في كثرة مفاتيحه؛ فروي عن خيثمةَ: أنها كانت وِقْر ستِّين بغلاً أغرَّ محجَّلاً، ما يزيد منها مفتاحٌ على أصبع، لكلِّ مفتاح كنز. وفي رواية أخرى عنه: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلودٍ، كلُّ مفتاح على خزانة على حِدَة، فإذا ركب حُملت المفاتيح على سبعين بغلاً أغرَّ محجَّلاً.

وفي «البحر»: ذكروا من كثرة مفاتحه ما هو كذبٌ أو يقاربُ الكذبَ، فلم أكتبه[2].

ومما لا مبالغة فيه ما روي عن ابن عباس من أنَّ المفاتح الخزائن، وكانت خزائنه يحملها أربعون رجلاً أقوياء، وكانت أربع مئة ألفٍ، يحملُ كلُّ رجلٍ عشرةَ آلافٍ. وعليه فأمثالُ قارون في الناس أكثر من خزائنه، ولعل الآية تشير إلى أنَّ[3] ما أوتيه فوق ذلك، ولا أظنُّ الأمرَ كما روي عن خيثمة.

وأبْعَدَ أبو مسلم في تفسير الآية فقال: المراد من المفاتح العلم والإحاطة كما في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] والمراد: وآتيناه من الكنوز ما إنَّ حِفْظَها والاطِّلاعَ عليها لَيَثْقُلُ على العصبة، أي: هذه الكنوز لكثرتها واختلافِ أصنافها تُتْعِبُ حَفَظتها القائمين على حفظها.

---

(١) كما في البحر ٧/ ١٣٢، وعنه نقل المصنف.
(٢) البحر ٧/ ١٣٢.
(٣) قوله: أن، ساقط من (م).

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ قال الزمخشريُّ: هو متعلِّقٌ بـ «تنوء»(١). وضعِّف بأنَّ إثقال المفاتحِ العصبةَ ليس مقيَّداً بوقتِ قولِ قومه. وقال ابن عطية: بـ «بغى»(٢). وضعِّف بنحو ذلك.

وقال أبو البقاء: بـ «آتينا»، ويجوز أن يكون ظرفاً لمحذوفٍ دلَّ عليه الكلام، أي: بغى عليهم إذ قال(٣)، وفي كلٍّ منهما ما سبق.

وقال الحوفي: منصوبٌ بـ: اذكر محذوفاً. وجوِّز كونُه متعلِّقاً بما بعده من قوله تعالى: (قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ) والجملةُ مقرِّرةٌ لبغيه.

ورجِّح تعلُّقه بمحذوفٍ، والتقدير: أَظْهَر التفاخُرَ والفرح بما أوتي إذ قال له قومه:

﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تَبْطَر، والفرحُ بالدنيا لذاتها مذمومٌ؛ لأنه نتيجةُ حبِّها والرضا بها والذهولِ عن ذهابها، فإنَّ العلم بأنَّ ما فيها من اللذة مفارقةٌ لا محالةَ يوجبُ التَّرحَ حتماً، كما قال أبو الطيب:

أشدُّ الغمِّ عندي في سرورٍ تيقَّن عنه صاحبُه انتقالا(٤)

وقال ابن شمس الخلافة:

وإذا نَظَرْتَ فإنَّ بؤساً زائلاً للمرء خيرٌ من نعيمٍ زائلِ(٥)

ولذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] والعربُ تمدحُ بتَرْكِ الفرح عند إقبال الخير؛ قال الشاعر:

ولست بمفراحٍ إذا الدهر سرَّني ولا جازعٍ من صرفه المتقلِّبِ(٦)

(١) الكشاف ٣/ ١٩٠.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.
(٣) الإملاء ٤/ ١٥٧.
(٤) ديوان المتنبي ٣/ ٣٤١، وسلف ٢/ ٥٧.
(٥) وفيات الأعيان ١/ ٣٦٢، وابن شمس الخلافة هو أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة أبي عبد الله محمد بن شمس الخلافة مختار الأفضلي، الملقب مجد الملك، الشاعر المشهور، توفي سنة (٦٢٢هـ).
(٦) البيت لهدبة بن خشرم كما في الكامل ٣/ ١٤٥٥، ومجاز القرآن ٢/ ١١١، ودون نسبة في =

وقال آخر:

إنْ تـلاقِ مُـنـفِـسـاً لا تَـلْـقَـنـا   فَـرِحَ الـخـيـر ولا نَـكْـبـو لـضـرّ[1]

وعلَّل سبحانه النهي ها هنا بكون الفرح مانعاً من محبته عزَّ وجل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ فهو دليلٌ إنيٌّ على كون الفرح بالدنيا مذموماً شرعاً، وإنما قلنا: إنَّ الفرح بها لذاتها مذمومٌ؛ لأنَّ الفرح بها لكونها وسيلةً إلى أمرٍ من أمور الآخرة غيرُ مذمومٍ.

ومحبة الله تعالى عند كثيرٍ صفةُ فِعْلٍ، أي: إنه تعالى لا يكرمُ الفَرِحينَ بزخارف الدنيا، ولا يُنْعِمُ جلَّ شأنُه عليهم ولا يقرِّبُهم عزَّ وجلَّ، والمراد أنه تعالى يبغضهم ويُهينهم ويُبْعِدُهم عن حضرته سبحانه.

وقال بعضهم: إنَّ في نفي محبته تعالى إياهم تنبيهاً على أنَّ عدم محبته تعالى كافٍ في الزَّجْرِ عما نَهى عنه، فما بالُك بالبغض والعقاب؟ وهو حسن.

وحكى عيسى بن سليمان الحجازي أنه قرئ: «الفارحين»[2].

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الكنوز والغِنَى ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: ثوابَها، أي: ثوابَ الله تعالى فيها بصَرْفِ ذلك إلى ما يكون وسيلةً إليه. و«في» إمَّا ظرفيةٌ على معنى: ابتغ متقلِّباً ومتصرِّفاً فيه، أو سببية على معنى: ابتغِ بصَرْفِ ما آتاك الله تعالى ذلك. وقرئ: «اتَّبع»[3].

﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي: ولا تترك تَرْكَ المنسي ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: حظَّك منها، وهو كما أخرج الفريابيُّ وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنْ تعمل فيها لآخرتك[4]. وروي ذلك عن مجاهد.

= البحر ٧/ ١٣٢. ووقع في الأصل و(م): إذ الدهر، والمثبت من المصادر.

(١) البحر ٧/ ١٣٣، والبيت لطرفة، وهو في ديوانه ص٥٤، وصدره فيه برواية:

إن نـصـادِفْ مـنـفـسـاً لا تُـلْـفِـنـا

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٤١، والبحر ٧/ ١٣٣، وعنه نقل المصنف، وعزاها ابن الجوزي لأبي رجاء وأبي حيوة وعاصم الجحدري وابن أبي عبلة.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٣.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠١٠، وعزاه للفريابي السيوطي في الدر ٥/ ١٣٧.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة: هو أن تأخذ من الدنيا ما أحلَّ الله تعالى لك[١].

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» عن منصور قال: ليس هو عَرَضٌ من عَرَضِ الدنيا، ولكن «نصيبك» عمرك، أنْ تقدِّمَ فيه لآخرتك[٢].

وأخرج ابن المنذر وجماعةٌ عن الحسن أنه قال في الآية: قدِّم الفضل وأمسك ما يبلِّغك[٣].

وقال مالك: هو الأكلُ والشرب بلا سرفٍ.

وقيل: أرادوا بنصيبه من الدنيا الكفنَ كما قال الشاعر:

نصيبُك مما تَجْمعُ الدهرَ كلَّه ... رداءان تُلْوَى فيهما وحنوطُ[٤]

وفي نهيهم إياه عن نسيان ذلك حضٌّ عظيمٌ له على التزوُّد من ماله للآخرة، فإنَّ مَن يكون نصيبُه من دنياه وجميعِ ما يملكه الكفنَ لا ينبغي له تَرْكُ التزوُّد من ماله، وتقديمِ ما ينفعه في آخرته.

﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله عزَّ وجلَّ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: مثلَ إحسانه تعالى إليك فيما أَنْعمَ به عليك، والتشبيهُ في مطلق الإحسان، أو: لأَجْلِ إحسانه سبحانه إليك، على أنَّ الكاف للتعليل.

وقيل: المعنى: وأَحْسِنْ بالشكر والطاعة كما أَحْسنَ الله تعالى عليك بالإنعام، والكافُ عليه أيضاً تحتمل التشبيهَ والتعليل.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ نهيٌ عن الاستمرار على ما هو عليه من الظلم

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٣٧.

(٢) الزهد ص٢١٠، وأخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠١٠ من طريق منصور عن مجاهد. ومنصور هو ابن المعتمر.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٣٧، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠١١.

(٤) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص٢١٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩، والبحر ٧/ ١٣٣، ورواية الديوان:

نصيبك مما صرت تجمع دائباً ... ثويبان من قبطيةٍ وحنوطُ

والبغي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝﴾ الكلامُ فيه كالكلام في قوله سبحانه: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ).

وهذه الموعظةُ بأسرها كانت من مؤمني قومه كما هو ظاهرُ الآية. وقيل: إنها كانت من موسى عليه السلام.

﴿قَالَ﴾ مجيباً لمن نَصَحَه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ كأنه يريد به[١] الردَّ على قولهم: «كما أحسن الله إليك» لإنبائه عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الأموال والذخائر من غير سبب واستحقاقٍ من قِبَله، وحاصلُه دعوى استحقاقِه لِمَا أوتيه لِمَا هو عليه من العلم.

وقوله: «على علم» عند أكثر المُعْرِبين في موضع الحال من مرفوعِ «أوتيتُه» قيِّد به العاملُ إشارةً إلى علَّة الإيتاء ووجهِ استحقاقه له، أي: إنما أوتيتُه كائناً على علم. وجوِّز كون «على» تعليليةً والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «أوتيتُ» على أنه ظرفٌ لغوٌ، كأنه قيل: أوتيتُه لأجْلِ علم. و«عندي» في موضع الصفة لـ «عِلْم»، والمراد: لعلم مختصٌّ بي دونكم. وجوِّز كونُه متعلِّقاً بـ «أوتيت»، ومعناه: في ظنِّي ورأيي، كما في قولك: حُكْمُ كذا الحِلُّ عند أبي حنيفة عليه الرحمة.

وفي «الكشاف» ما هو ظاهرٌ في أنَّ «عندي» إذا كان بمعنى: في ظنِّي ورأيي، كان خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو في ظنِّي ورأيي هكذا[٢]، والجملةُ عليه مستأنفةٌ تقرِّر أنَّ ما ذكره رأيٌ مستقرٌّ هو عليه، قال في «الكشف»: وهذا هو الوجه.

والمراد بهذا العلم قيل: علمُ التوراة، فإنه كان أعلمَ بني إسرائيل بها. وقال أبو سليمان الداراني: علمُ التجارة ووجوهِ المكاسب. وقال ابن المسيب: علم الكيمياء، وكان موسى عليه السلام يعلم ذلك، فأفاد يوشع بنَ نون ثلثه، وكالب بن يوقنا ثلثه، وقارونُ ثلثه، فخدعهما قارونُ حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً.

---

(١) قوله: به، ليس في (م).
(٢) الكشاف ٣/ ١٩١.

وقيل: علَّم الله تعالى موسى عليه السلام علم الكيمياء، فعلَّمه موسى أختَه، فعلَّمتْه أختُه قارونَ.

وروي عن ابن عباس تخصيصُه بعلم صنعةِ الذهب.

وقيل: علم استخراج الكنوز والدفائن.

وعن ابن زيد: أنَّ المراد بالعلم علمُ الله تعالى، وأنَّ المعنى: أوتيتُه على علمٍ من الله تعالى وتخصيصٍ من لدنه سبحانه قَصَدَني به، و«عندي» عليه بمعنى: في ظني ورأيي.

وقيل: العلم بمعنى المعلوم، مِثْله في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة:٢٥٥] وإلى ذلك يشير ما روي عن مقاتل أنه قال: أي: على خير عَلِمَه الله تعالى عندي.

وتفسيرُه بعلم الكيمياء شائعٌ فيما بين أهلها، وفي «مجمع البيان» حكايتُه عن الكلبي أيضاً[(١)]، وأنكره الزجَّاج وقال: إنه لا يصحُّ؛ لأن علم الكيمياء باطلٌ لا حقيقةَ له[(٢)]. وتعقبه الطيبيُّ بأنه لعله كان من قبيل المعجز[(٣)]. وتعقِّب بأنه ليس بسديدٍ، وإلا لمَا تمكَّن قارون منه.

وإنكارُ الكيمياء - وهو لفظٌ يونانيٌّ معناه الحيلة، أو عبرانيٌّ وأصله كيم يه، بمعنى أنه من الله تعالى، أو فارسيٌّ وأصله كي ميا بمعنى: متى يجيء، على سبيل الاستبعاد، غلب على تحصيل النقدين بطريق مخصوص - مما لم يختصَّ بالزجَّاج، بل أنكرها جماعةٌ أجلَّة وقالوا بعدم إمكانها، وذهب آخرون إلى خلاف ذلك، وإذا أردت نبذةً من الكلام في ذلك فاستمع لِمَا يُتْلَى عليك:

ذكر بعض المحقِّقين أنَّ مَبْنَى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنطرقة، وهي: الذهب والفضة والرصاص والقصدير[(٤)] والنحاس

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٣٢٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥٦.

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وفيه: المعجزة، بدل: المعجز.

(٤) في (م): والقزدير.

والحديد والخارصين(١)، هل هي مختلفاتٌ بالفصول فيكون كلٌّ منها نوعاً غيرَ النوع الآخر، أو هي مختلفاتٌ بالخواصِّ والكيفيات فقط، فتكون كلُّها أصنافاً لنوعٍ واحدٍ، فالذي ذهب إليه المعلِّم أبو نصر الفارابيُّ وتابعه عليه حكماءُ الأندلس أنها نوعٌ واحدٌ، وأنَّ اختلافها بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللِّين والصلابة والألوان نحو الصفرة والبياض والسواد، وهي كلُّها أصنافٌ لذلك النوع الواحد، وبَنَى على ذلك إمكانَ انقلابِ بعضها إلى بعضٍ بتبدُّل الأعراض بفعل الطبيعة أو بالصنعة.

وقد حَكَى أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه(٢) في بعض تصانيفه عن المعلِّم المذكور أنه قال: قد بيَّن أرسطو في كتبه في المعادن أنَّ صناعة الكيمياء داخلةٌ تحت الإمكان، إلا أنها من الممكن الذي يعسُر وجوده بالفعل، اللهمَّ إلا أنْ يتَّفقَ قرائنُ يَسْهلُ بها الوجود، وذلك أنه فحص عنها أوّلاً على طريق الجدل فأثبتها بقياسٍ وأبطلها بقياسٍ، على عادته فيما يَكْثُر عنادُه من الأوضاع، ثم أثبتها أخيراً بقياسٍ ألَّفه من مقدِّمتين بيَّنهما في أول الكتاب:

الأُولى: أنَّ الفلزَّات واحدةٌ بالنوع، والاختلافُ الذي بينها ليس في ماهياتها وإنما هو في أعراضها، فبعضُه في أعراضها الذاتيةِ، وبعضُه في أعراضها العَرَضية.

والثانية: أنَّ كلَّ شيئين تحت نوعٍ واحدٍ اختلفا بعَرَضٍ فإنه يمكنُ انتقالُ كلٍّ منهما إلى الآخر، فإن كان العَرَضُ ذاتيًّا عَسُرَ الانتقال، وإن كان مفارقاً سَهُلَ الانتقال، والعُسْرُ في هذه الصناعة إنما هو لاختلافِ أكثرِ هذه الجواهر في أعراضها الذاتية، ويُشْبِه أن يكون الاختلاف الذي بين الذهب والفضة يسيراً جدّاً. اهـ.

والذي ذهب إليه الشيخ أبو علي بنُ سينا وتابعه عليه حكماءُ المشرق أنها مختلفةٌ بالفصول، وأنها أنواعٌ متباينةٌ، وبنى على ذلك إنكارَ هذه الصناعة واستحالةَ

---

(١) في الأصل و(م): والخارصيني، والمثبت من مقدمة ابن خلدون ٢/ ٦٨٥، والكلام منه. والخارصين: التوتياء. معجم متن اللغة (توت) و(خرص).

(٢) هو محمد بن باجه التُّجِيبيُّ الأندلسي السَّرَقُسْطي، الفيلسوف الشاعر، توفي سنة (٥٣٣هـ)، وقيل غير ذلك. وفيات الأعيان ٤/ ٤٢٩.

وجودها؛ لأنَّ الفصل لا سبيل بالصناعة إليه، وإنما يخلقه خالقُ الأشياء ومقدِّرُها، وهو الله عزَّ وجلَّ، وهذا ما حكاه ابن خلدون عنه[(١)].

وقال الإمام في «المباحث المشرقية»[(٢)] في الفصل الثامن من القسم الرابع منها: الشيخ سلَّم إمكانَ أن يُصْبغَ النحاسُ بصبغ الفضة والفضةُ بصبغ الذهب، وأن يزال عن الرصاص أكثرُ ما فيه من النقص، فأما أن يكون الفصل المنوَّعُ يُسلَبُ أو يُكسى، قال: فلم يظهر لي إمكانُه بعد؛ إذ هذه الأمور المحسوسةُ تُشْبِهُ أن لا تكون الفصول التي بها تصير هذه الأجساد أنواعاً، بل هي أعراضٌ ولوازمُ، وفصولُها مجهولةٌ، وإذا كان الشيءُ مجهولاً كيف يمكن قَصْدُ إيجاده وإفنائه. اهـ.

وغلَّطه الطُّغْرائيُّ[(٣)] وهو من أكابر أهل هذه الصناعة، وله فيها عدةُ كتبٍ، وردَّ عليه بأنَّ التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه، وإنما هو في إعداد المادة لقبوله[(٤)] خاصةً، والفصلُ يأتي من بعد الإعداد من لَدُنْ خالقه وبارئه جلَّ شأنُه وعَظُمَتْ قدرتُه، كما يُفيضُ سبحانه النورَ على الأجسام بالصقل، ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوُّره ومعرفته، وإذا كنَّا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات، مثل العقرب من التراب والتبن، والحيةِ من الشعر، وغير ذلك، فما المانعُ من العثور على مثل ذلك في المعادن، وهذا كلُّه بالصناعة، وهي إنما موضوعُها المادةُ، فيُعِدُّها التدبير والعلاج إلى قبول تلك الفصول لا أكثر، فنحن نحاول مثلَ ذلك في الذهب والفضة، فنتَّخذُ مادةً نُضيفُها[(٥)] للتدبير بعد أن يكون فيها استعدادٌ أولُ لقبول

(١) في مقدمته ٢/ ٦٨٥.

(٢) المباحث المشرقية في العلم الإلهي والطبيعي، للإمام فخر الدين الرازي. كشف الظنون ٢/ ١٥٧٧.

(٣) مؤيد الدين، أبو إسماعيل، الحسين بن علي بن محمد الأصبهاني، من كتبه: تراكيب الأنوار في الكيمياء، وحقائق الاستشهادات في الكيمياء، ومفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة، مات مقتولاً سنة (٥١٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٥٤، وكشف الظنون ١/ ٣٩٤ و٦٧٢، و٢/ ١٧٥٥. ونقل المصنف كلامه عن مقدمة ابن خلدون ٢/ ٦٨٥.

(٤) في الأصل و(م): لقبول، والمثبت من مقدمة ابن خلدون.

(٥) في الأصل: نضعها، وفي (م): نصفها، والمثبت من مقدمة ابن خلدون.

صورة الذهب والفضة، ثم نحاولها بالعلاج إلى أن يتمَّ فيها الاستعدادُ لقبول فصلهما[١]. اهـ بمعناه، وهو ردٌّ صحيحٌ فيما يظهر.

وقال الإمام بعد ذِكْرِه ما سمعتَ من كلام الشيخ: هو ليس بقويٍّ؛ لأنَّا نشاهد من الترياق آثاراً وأفعالاً مخصوصةً، فإمَّا أن لا نُثْبِتَ له صورةً ترياقيةً، بل نقول: إنَّ الأفعال الترياقيةَ حاصلةٌ من ذلك المزاج لا من صورةٍ أخرى، جاز أيضاً أن يقال: صفرةُ الذهب ورزانتُه حاصلتان مما فيه من المزاج لا من صورةٍ مقوِّمةٍ، فحينئذٍ لا يكون للذهب فصلٌ منوِّعٌ إلَّا مجرَّد الصفرة والرزانة، ولكنهما معلومتان، فأمكن أن تُقصد إزالتُهما واتخاذُهما، فبطل ما قاله الشيخ.

وأمَّا إذا أثبتنا صورةً مقوِّمةً له فنقول: لا شكَّ بأنَّا لا نَعْقِلُ مِن تلك الصورة إلا أنها حقيقةٌ تقتضي الأفعال المخصوصة الصادرةَ عن الترياق، فإمَّا أن يكون هذا القَدْرُ من العلم يكفي في قَصْدِ الإيجاد والإبطال أو لا يكفي، فإنْ لم يَكْفِ وَجَبَ أن لا يمكننا اتخاذُ الترياق، وإن كفى فهو في مسألتنا أيضاً حاصل؛ لأنَّا لا نعلم من الصورة الذهبية أنها ماهيةٌ تقتضي الذَّوْبَ والصفرةَ والرزانة.

ويجاب أيضاً بأنَّا وإن كنَّا لا نعلمُ الصورةَ المقوِّمةَ على التفصيل، إلا أنَّا نعلم الأعراض التي تلائمها والتي لا تلائمها، ونعلم أنَّ العَرَضَ الغيرَ الملائم إذا اشتدَّ في المادة بطلت الصورةُ، مثل الصورة المائية فإنَّا نعلم أنَّ الحرارة لا تلائمُها وإنْ كنَّا لا نعلم ماهيتها على التفصيل، فلذلك يمكننا أن نبطل الصورة المائيةَ وأن نكسبها، أمَّا الإبطال فبتسخين الماء، وأمَّا الاكتسابُ فبتبريد الهواء، فكذلك في مسألتنا.

واحتجَّ قومٌ من الفلاسفة على امتناعِها بأمورٍ:

أوَّلُها: أنَّ الطبيعة إنما تعمل هذه الأجساد من عناصرَ مجهولةٍ عندنا، ولتلك العناصر مقاديرُ معيَّنةٌ مجهولةٌ عندنا أيضاً، ولكيفياتِ تلك العناصر مراتبُ معلومةٌ وهي مجهولةٌ عندنا، ولتمام الفعل والانفعال زمانٌ معيَّنٌ هو[٢] مجهولٌ عندنا، ومع الجهل بكلِّ ذلك كيف يمكننا عملُ هذه الأجساد؟

---

(١) في المقدمة: فصلها.

(٢) قوله: هو، ليس في (م).

وثانيها: أنَّ الجوهر الصابغ إما أن يكون أصبر على النار من المصبوغ، أو يكون المصبوغُ أصبر، أو يتساويان، فإن كان الصابغُ أصبر وجب أن يَفْنى المصبوغ ويبقى الصابغ بعد فنائه، وإن كان المصبوغ أصبر وجب أن يبقى بعد فناء الصابغ، وإن تَساوَيَا في الصبر على النار فهما من نوعٍ واحدٍ لاستوائهما في الصبر على النار، فليس أحدُهما بالصابغية والآخرُ بالمصبوغية أَوْلَى من العكس.

وثالثها: أنه لو كان ما بالصناعة مِثْلاً لِمَا بالطبيعة(١)، لكن التالي باطلٌ؛ أما أولاً: فلأنَّا لم نجد له شبيهاً. وأما ثانياً: فلأنه لو جاز أن يوجد بالصناعة ما يحصل بالطبيعة لجاز أن يحصل بالطبيعة ما يحصل بالصناعة، حتى يوجد سيفٌ أو سريرٌ بالطبيعة، ولمَّا ثبت امتناعُ التالي ثبت امتناعُ المقدَّم.

ورابعها: أنَّ لهذه الأجساد أماكنَ طبيعيةً هي معادنُها، وهي لها بمنزلة الأرحام للحيوان، فَمَن جوَّز تولُّدَها في غير تلك المعادن كان كَمن جوَّز تولُّد الحيوانات في غير الأرحام.

وأجاب الإمام عن الأول: بأنه منقوضٌ بصناعة الطب.

وعن الثاني: بأنه لا يلزمُ من استواء الصابغ والمصبوغِ في الصبر على النار استواؤهما في الماهية؛ لأنَّ المختلفَيْنِ قد يشتركان في بعض الصفات.

وعن الثالث: بأنه قد يوجد بالصناعة مِثْلُ ما يوجد بالطبيعة، مثل النار الحاصلة بالقدح، والنوشادر قد يتخذ من الشعير، وكذلك كثيرٌ من الزَّاجَاتِ، ثُم بتقديرِ أنْ لا نجد له مثالاً لا يلزم الجزمُ بنفيه، ولا يلزمُ من إمكان حصول الأمر الطبيعيِّ بالصناعة إمكانُ عَكْسِه، بل الأمرُ فيه موقوفٌ على الدليل.

وعن الرابع: بأنَّ مَن أراد أن يَقْلِبَ النحاس فضةً فهو لا يكون كالمُحْدِثِ للشيء بل كالمعالجِ للمريض، فإنَّ النحاس من جوهر الفضة إلَّا أنَّ فيه عللاً وأمراضاً، وكما يمكنُ المعالجة لا في موضع التكوُّن فكذلك في هذا الموضع.

على أنَّ حاصل الدليل أنَّ الذي يتكوَّنُ في الجبال لا يمكن تكوُّنه بالصناعة،

(١) في (م): لو كان بالصناعة مثلاً لما كان بالطبيعة.

وفيه وقع النزاع، وابن خلدون[١] بعد أن ذكر كلام ابن سينا وردَّ الطغرائيِّ عليه قال: لنا في الرَّد على أهل هذه الصناعة مأخذٌ آخَرُ يتبيَّنُ منه استحالةُ وجودها، وبطلانُ زَعْمِهم أجمعين. وذلك أنَّ حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدَّةِ بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعاً ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبيرَ الطبيعة للجسم في المعدن حتى أَحَالَتْه ذهباً أو فضةً، ويضاعفون القوى الفاعلةَ والمُنفعِلةَ ليتمَّ في زمانٍ أقصر؛ لأنه تبيَّن في موضعه أنَّ مضاعفة قوة الفاعل تنقصُ من زمن فعله، وتبيَّن أنَّ الذهب إنما يتم كونُه في معدنه بعد ألفٍ وثمانين من السنين، دورة الشمس الكبرى، فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمانُ كونه أقصرَ من ذلك ضرورةً على ما قلناه، أو يتحرَّون بعلاجهم ذلك حصولَ صورةٍ مزاجية لتلك المادة تصيِّرها كالخميرة للخبز تَقْلِبُ العجين إلى ذاتها، وتعملُ فيه ما حصل لها من الانتفاش والهشاشة ليَحْسُنَ هضمُه في المعدة، ويستحيلَ سريعاً إلى الغذاء، فتفعل تلك الصورة الأفاعيل المطلوبة، وذلك هو الإكسير.

واعلم أنَّ كلَّ متكوِّنٍ من المولّدات العنصرية لابدَّ فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبةٍ متفاوتةٍ، إذ لو كانت متكافئةً في النسبة لمَا حصل امتزاجُها، فلا بدَّ من الجزء الغالب على الكلِّ، ولا بدَّ في كلِّ ممتزجٍ من المولّدات من حرارة غريزيةٍ هي الفاعلةُ لكونه[٢]، الحافظةُ لصورته.

ثم كلُّ متكوِّنٍ في زمانٍ لابدَّ من اختلافِ أطواره وانتقاله في زمن التكوين من طورٍ إلى طورٍ حتى ينتهيَ إلى غايته، وانظر شأنَ[٣] الإنسان في تطوُّره نطفةً ثم علقةً ثم وثم إلى نهايته، ونسبُ الأجزاء في كلِّ طورٍ تختلفُ[٤] مقاديرُها وكيفياتها، وإلا لكان الطورُ الأول بعينه هو الآخِرَ، وكذا الحرارةُ المقدَّرةُ الغريزية في كلِّ طورٍ مخالفةٌ لِمَا في الطور الآخر، فانظر إلى الذهب ما يكون في معدنه من الأطوار منذ ألفِ سنةٍ وثمانين، وما ينتقل فيه من الأحوال.

---

(١) في المقدمة ٢/ ٦٨٦، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) في الأصل و(م): لكونها، والمثبت من المقدمة.

(٣) في الأصل: لشأن، والمثبت من (م) والمقدمة.

(٤) في الأصل و(م): مختلف، والمثبت من المقدمة.

فيحتاجُ صاحب الكيمياء أن يُساوِقَ فعلَ الطبيعة في المعدن، ويُحاذِيَه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم، ومِن شَرْطِ الصناعة مطلقاً تصوُّرُ ما يُقْصَدُ إليه بها، فمن الأمثال السائرة في ذلك للحكماء: أولُ العمل آخِرُ الفكرة، وآخِرُ الفكرة أولُ العمل. فلا بدَّ من تصوُّر هذه الحالات للذهب في أحواله المتعدِّدةِ، ونِسَبِها المتفاوتة في كلِّ طورٍ [واختلاف الحارِّ الغريزي عند اختلافها، ومقدار الزمان في كلِّ طور] وما ينوبُ عنه من مقدار القوى المتضاعفة ويقومُ مقامه حتى يُحاذَى بذلك فعلُ الطبيعة في المعدن، أو يُعدَّ لبعض الموادِّ صورةٌ مزاجيةٌ تكون كصورة الخميرة للخبز، وتفعلُ في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها.

وهذه كلُّها إنما يحصرها العلم المحيط، وهو علمُه عزَّ وجلَّ، والعلومُ البشرية قاصرةٌ عن ذلك، وإنما حالُ مَن يدَّعي حصولَه على الذهب بهذه الصناعة بمثابةِ مَن يدَّعي صنعة تخليق الإنسان من المنيِّ، ونحن إذا سلَّمنا [له] الإحاطة بأجزائه ونِسَبِه وأطوارِه وكيفيةِ تخليقه في رَحِمِه، وعلم ذلك عِلْماً محصَّلاً لتفاصيله حتى لا يشذَّ من ذلك شيءٌ عن علمه، سلَّمنا له تخليقَ هذا الإنسان، وأنَّى له ذلك!

والحاصل أنَّ الفعل الصناعيَّ على ما يقتضيه كلامُهم مسبوقٌ بتصوُّراتِ أحوالِ الطبيعة المعدنية التي تقصد مساواتها[1] ومحاذاتها، وفعل المادة ذات القوى فيها على التفصيل، وتلك الأحوال لا نهايةَ لها، والعلمُ البشريُّ عاجزٌ عما دونها، فقَصْدُ تصيير النحاس ذهباً كقَصْدِ تخليق إنسانٍ أو حيوانٍ أو نباتٍ.

وهذا أوثقُ ما عَلِمتُه من البراهين الدالَّة على الاستحالة، وليست الاستحالةُ فيه من جهة الفصول، ولا من جهة الطبيعة، وإنما هي من تعذُّر الإحاطة وقُصورِ البشر عنها، وما ذكره ابن سينا بمعزلٍ عن ذلك.

ولذلك وجهٌ آخرُ في الاستحالة من جهة غايته، وهو أنَّ حكمة الله تعالى في الحجرين وندرتِهما أنهما عُمْدَتا مكاسِبِ الناس ومتموّلاتهم، فلو حُصل عليها بالصنعة لبطلت حكمة الله تعالى في ذلك، إذ يكثر وجودُهما حتى لا يحصل أحدٌ من اقتنائهما على شيء.

---

(١) في المقدمة: مساوقتها.

وآخَرُ أيضاً، وهو أنَّ الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكبُ الأبعدَ، فلو كان هذا الطريق الصناعيُّ الذي يزعمون صحته، وأنه أقربُ من طريق الطبيعة في معدنها وأقلُّ زماناً، صحيحاً لَمَا تركته الطبيعةُ إلى طريقها الذي سلكته في تكوين الذهب والفضة وتخليصهما[١].

وأما تشبيهُ الطغرائيِّ هذا التدبير بما عثر عليه من مفرداتٍ لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والحية وتخليقهما، فأمرٌ صحيحٌ في ذلك أدَّى إليه[٢] العثور كما زعم، وأمَّا الكيمياء فلم ينقل عن أحدٍ من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها، وما زال منتحلوها يخبطون فيها خَبْطَ عشواءَ ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة، ولو صحَّ ذلك لأحدٍ منهم لحفِظَه عنه ولدُه أو تلميذُه وأصحابُه، وتُنوقِلَ في الأصدقاء وضمن تصديقُه صحةَ العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرنا.

وأما قولهم: إنَّ الإكسير بمثابة الخميرة، وأنه مركَّبٌ يُحيلُ ما حصل فيه ويقلبُه إلى ذاته[٣]، فليس بشيءٍ؛ لأنَّ الخميرة إنما تقلبُ العجين وتعدُّه للهضم وهو فسادٌ، والفسادُ في المواد سهلٌ يقع بأيسرِ شيءٍ من الأفعال والطبائع، والمطلوبُ من الإكسير قلبُ المعدن إلى ما هو أشرفُ منه وأعلى، فهو تكوينٌ والتكوينُ أصعبُ من الفساد، فلا يقاس الإكسير على الخميرة.

ثم قال: وتحقيقُ الأمر في ذلك أنَّ الكيمياء إن صحَّ وجودها كما يزعم الحكماء المتكلِّمون فيها، فليس من باب الصنائع الطبيعية، ولا تتم بأمرٍ صناعيٍّ، وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات، إنما هو من مَنْحَى كلامِهم في الأمور السحريةِ وسائرِ الخوارق، وقد ذكر مسلمة المجريطيُّ[٤] في كتابه «الغاية» ما يُشْبِهُ

---

(١) في المقدمة: وتخلقهما.

(٢) في الأصل و(م): عليه، والمثبت من المقدمة.

(٣) في المقدمة: إلى ذلك.

(٤) مسلمة بن أحمد بن قاسم، أبو القاسم، ومجريط من قرى الأندلس، كان جامعاً لعلوم الحكمة من الإلهيات وطبائع الأحجار وخواص النبات، وإليه انتهى علم الحكمة بالأندلس، توفي سنة (٣٥٣هـ). خلاصة الأثر ٤/ ٨.

ذلك، وكلامُه فيها في كتاب «رتبة الحكيم» من هذا المنحى، وكذا كلامُ جابرٍ في رسائله[1].

وبالجملة: إنَّ نَيْلَها إن كان صحيحاً فهو واقعٌ مما وراء الصنائع والطبائع، فهي إنما تكونُ بتأثيرات النفس وخوارق العادة كالمشي على الماء وتخليق الطير، فليست إلا معجزةً أو كرامةً أو سحراً، ولهذا كان كلامُ الحكماء فيها ألغازاً لا يظفر بتحقيقه إلا مَن خاض لجةً من علوم السحر، واطَّلع على تصرُّفات النفس في عالَم الطبيعة، وأمورُ خَرْقِ العادة غيرُ منحصرةٍ، ولا يقصد أحد إلى تحصيلها. اهـ.

وإلى إمكانها ذهب الإمام الرازي، فقال: الحقُّ إمكانُها؛ لأنَّ الأجساد السبعة مشتركةٌ في أنها أجسادٌ ذائبةٌ صابرةٌ على النار منطرقةٌ، وأنَّ الذهب لم يتميَّز عن غيره إلا بالصفرة والرزانة أو الصورةِ الذهبية المفيدةِ لهذين العَرَضَين إن ثبت ذلك، وما به الاختلافُ لا يكون لازماً لما به الاشتراكُ، فإذن يمكن أن تتَّصف جسميةُ النحاس بصفرةِ الذهب ورزانته، وذلك هو المطلوب.

والحقُّ أنَّ الكيمياء ممكنةٌ، وأنها من الصنائع الطبيعية، لكنَّ العلم بها من أقاصي العلوم الصعبة التي لا يطَّلع عليها إلَّا مَن أهَّله الله تعالى لها، واختصَّه سبحانه من عباده وأوليائه بها، وهو علمٌ تاهَتْ في طلبه العقول، وطاشت الأحلام، وأصلُه من الوحي الإلهيِّ وحَصَلَ لبعضٍ بالتصفية وكثرة النظر مع التجربة، ووصل إلى مَن ليس أهلاً للوحي ولم يتعاط ما تعاطاه البعض بالتعلُّم ممن منَّ الله تعالى به عليه.

وقال أرس، وهو من أجلَّة أهل هذا العلم: كان أوله وحياً من الله تعالى، ثم دَرَس وباد فاستخرجه مَن استخرجه من الكتب، وقد جرت سُنَّةُ الله تعالى فيمَن ظفر به بكَتْمِه إلَّا على مَن شاء الله تعالى، وتواصت الحكماء على كتمه عن غير أهله، بل قيل: إنَّ الله تعالى أخذ على العقول في فطرتها المواثيقَ بكتمانه وصيانته والاحتراسِ من إذاعته وإضاعته، ولذا ترى الحكماء قد ألغزوه نهايَة الإلغاز، وأغمضوه غايةَ الإغماض، حتى عَدَّ كلامَهم مَن لم يعرف مَرَامَهم حديثَ خرافةٍ،

---

(١) يعني جابر بن حيان في رسائله السبعين. مقدمة ابن خلدون ٢/ ٦٨٣.

وحَكَم على قائله بالسَّفَهِ والسخافة. وبهذا الكَتْمِ حُفظت حكمة الله تعالى التي زعمها ابن خلدون في النقدين، وسقط استدلالُه الذي سمعتَه فيما مر.

وقد نصَّ جابر بن حيان وهو إمامٌ في هذه الصنعة ـ وإنكارُ أنه كان موجوداً حمقٌ[١] ـ في كتابه «سر الأسرار» على ما قلنا، حيث قال: كلُّ حكيم وضع رمزه وكتابه على معنًى مبهمٍ من وضع الحلِّ والإصعاد والغسل على أربع طبائع، وسماها الأجساد الثقال، ووصَف التدابير على لفظٍ ومعنًى مشتبهٍ، فهو عند الحكيم مفتوح، وعند الجهلة مغلق، وربما تعدَّوا إلى أخذ تلك الأجساد بعينها واختبروها ولم ينتفعوا بها، وشتموا الحكماء على كتمانهم هذا العمل، وإنما عمارةُ الدنيا بالدراهم والدنانير، وإن الناس الصُّنَّاعَ والمقاتلةَ لا يعملون إلا لرغبةٍ أو رهبةٍ، فعلموا أنهم إن أفشوا هذا السرَّ حتى يعلمه كلُّ أحدٍ لم يتم أمر الدنيا وخربت، ولم يعمل أحدٌ لأحدٍ، فخرجوا[٢] من ذلك وكتموه. اهـ.

ثم لا يخفى أنَّ ما ذكره ابن خلدون أولاً من أنَّ الاستحالة لعدم الإحاطة، إذا ثبت أنها كانت عن وحي، ليس بشيء، على أنَّ فيه ما فيه وإن لم يثبت ذلك.

ومثلُ ذلك ما ذكره من أنَّ الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأبعد؛ لأنَّا نقول: ما يحصل من الطبائع أيضاً، فيكون لها طريقان: بعيدٌ اقتضت الحكمة أن تسلكه غالباً، وقريبٌ اقتضت الحكمة أيضاً أن تسلكه نادراً بواسطةِ مَن شاء الله تعالى من عباده.

وكونُ المنتحلين لم يزالوا يخبطون خبطَ عشواء، إنْ أراد بهم أئمةَ هذه

---

(١) يشير المصنف بهذا إلى ما قاله جماعة من أهل العلم وأكابر الورَّاقين، أن جابراً لا أصل له ولا حقيقة، ذكر ذلك ابن النديم في الفهرست ص٤٢٠ وردَّه بقوله: والرجل له حقيقة، وأمره أظهر وأشهر، وتصنيفاته أعظم وأكثر، وقال في ترجمته: هو جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي، واختلف في أمره؛ فزعمت الشيعة أنه من كبارهم، وأحد الأبواب، وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم، وزعم أهل صناعة الذهب والفضة أن الصناعة انتهت إليه في عصره، وأن أمره كان مكتوماً، وزعموا أنه كان يتنقل في البلدان لا يستقر به بلد... والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة: قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان. وتوفي سنة (٢٠٠هـ) كما في الأعلام ٢/ ١٠٣.

(٢) في الأصل: فحرجوا.

الصناعة: كهرمس وسقراط وأفلاطون وأغاريمون وفيثاغورس وهرقل وفرفوريوس ومارية وذوسيموس وأرس وذومقراط وسفيدوس وبليناس ومهراريس، وجابر بن حيان، والمجريطيِّ، وأبي[1] بكر بن وحشية[2]، ومحمد بن زكريا الرازي[3]، وغيرهم مما لا يحصون كثرةً، فهم لم يخبطوا، ودون إثبات خَبْطِهم خَرْطُ القتاد، وإلغازهم لنكتةٍ صرَّحوا بها لا يدلُّ على خبطهم.

وإن أراد بهم مَن يتعاطاها من المشاقِّين في عصره وفي هذه الأعصار؛ فما ذكره مسلَّمٌ في أكثرهم، وهو لا يطعن في إمكانها، وقد ذمَّ الطغرائيُّ هذا الصنفَ من الناس، فقال في كتابه «تراكيب الأنوار»: إنَّ المعلِّم الناصح موجودٌ في كلِّ صنعةٍ إلَّا في هذا الفنِّ، وكيف يُرْجَى النصحُ عند قومٍ يسمَّون فيما بينهم بالحسدة، وتحالَفوا فيما بينهم أن لا يوضحوا هذه السرائر أبداً، لا سيما في هذا الزمان الذي قد باد فيه هذا العلم جملةً، وصار المتعرِّضُ له والباحثُ عنه عند الناس مسخرةً، وقد عنيتُ برهةً من الزمان أبحث عن كلِّ مَن يُظنُّ أنَّ عنده طرفاً من هذا العلم، فما وجدتُ أحداً شَمَّ له رائحةً، ولا عرف منه شطر كلمة، ووجدتُ منتحلي هذه الصنعة الشريفة بين خادعٍ يبيعُ دينَه ومروءتَه بعَرَضٍ من الدنيا قليل، ويُتلفُ أموال الناس بالتجارب الصادرة عن الجهل، وبين مخدوعٍ مأخوذٍ عن رشده بالأمل الخائب والطمع الكاذب، والتشاغُلِ بالباطل عن طلب المعاش الجميل، والتعويلِ على الأماني والأكاذيب، فصارى أحدهم أن ينظر في كتب جابرٍ وأضرابه، فيأخذَ بظواهر كلامهم، ويغترَّ بجلايا دعاويهم دون حقائقِ معانيهم، وهم وجميع مَن مضى من حكماء هذه الصنعة يحذِّرون الناس من الاغترار بظواهر كتبهم، وينادون على

---

(١) في الأصل و(م): وأبو، والمثبت هو الجادة.

(٢) أحمد بن علي بن المختار بن عبد الكريم الكسداني الكلداني الصوفي، من أهل قُسِّين، كان عالماً بالفلاحة والكيمياء والسحر والسموم وغير ذلك، وكان شعوبيًّا يفاخر بانتسابه إلى الأنباط، وإلى قدماء الآراميين، من كتبه: السحر والطلسمات، وطرد الشياطين ويعرف بالأسرار، والسحر الكبير، توفي سنة (٢٩٦هـ). الفهرست ص٣٧٢، ومعجم المؤلفين ١/ ٢١٢.

(٣) أبو بكر، الفيلسوف الطبيب، صاحب التصانيف، له كتاب الحاوي في الطب، والجامع، والأعصاب، أخذ عن البلخي الفيلسوف، توفي سنة (٣١١هـ). سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٥٤.

أنفسهم بأنهم يرمزون ويلغزون، ولا يلتفتُ إلى قولهم ولا يُصدَّقون. . إلى آخر ما قال. وقد تفاقم الأمرُ في زماننا إلى ما لا تتَّسع العبارة لشرحه.

وكونُ الكيمياء من تأثيرات النفوس وخوارقِ العادات، فلا تكون إلَّا معجزةً أو كرامةً أو سحراً، ليس بشيء، بل هي بأسبابٍ عاديةٍ، لكنها خفيةٌ على أكثر الناس لا دَخْلَ لتأثير النفوس فيها أصلاً. نعم قد يكون من النبيِّ أو الوليِّ ما يكون من الكيماويِّ من غيرِ معاطاةِ تلك الأسباب، فيكون ذلك كرامةً أو معجزة. وكونُ مَنْحَى كلام بعض الحكماء فيها منحَى كلامِهم في الأمور السحرية لا يدلُّ على أنها من أنواع السحر أو توابعه، فإنَّ ذلك من إلغازهم لأمرها، وقد تفنَّنوا في الإلغاز لها، وسلكوا في ذلك كلَّ مسلكٍ، فوضع بليناس[1] كتابه فيها على الأفلاك والكواكب، ومنهم مَن تكلَّم عليها بالأمثال، ومنهم مَن تكلَّم عليها بالحكايات التي هي أشبهُ شيء بالخرافات، إلى غير ذلك.

وبالجملة هي صنعةٌ قلَّ مَن يعرفها جدًّا، وأَعُدُّ الاشتغالَ بها والتصدِّي لمعرفتها من كتبها من غير حكيم عارفٍ برموزها، كما يفعلُه جَهَلةُ المنتحلين لها اليوم، مَحْضَ جنونٍ. وكونُ أصلها الوحيَ الإلهيَّ أو نحوَ ذلك هو الذي يَغْلِبُ على الظنِّ، وقد أورد الطغرائيُّ في كتبه كـ «جامع الأسرار» وغيرِه ما يدلُّ على ذلك، فذكر أنه روي عن هرمس أنه قال: إنَّ الله عز وجل أوحى إلى شيث بن آدم عليهما السلام أنِ ازْرَعِ الذهبَ في الأرض البيضاء النقية، واسْقِهِ ماءَ الحياة.

وقالت مارية: إنِّي لستُ أقول لكم من تلقاء نفسي، ولكنِّي أقول لكم ما أمر الله تعالى به نبيَّه موسى عليه السلام، وأعلمه أنَّ الحجر النسطريس هو الذي يمسك الصبغ.

وقال بنسبتها إلى موسى عليه السلام ذوسيموس وأرس، وذكر أرس أنَّ العمل بها كان طوعَ اليهود بمصر، وكان يوسف عليه السلام وهو أولُ مَن دخل مصر من بني إسرائيل يعرفُ ذلك، فأكرمه فرعون لحكمته التي آتاه الله تعالى إياها، وذكر أيضاً فصلاً مرموزاً فيها نسبه إلى سليمان عليه السلام.

---

(١) لعله بلينُس الأكبر من علماء الطبيعة الرومان، ولد سنة (٢٣) للميلاد، وتوفي سنة (٧٩). ينظر دائرة المعارف ٤/ ٥٩٠.

وقال الطرسوسي في كتابه: إنَّ الله تعالى لمَّا أهبط آدم عليه السلام من الجنة عوَّضه عِلْمَ كلِّ شيء، وكان علمُ الصنعة ممَّا علّمه، وانتقل من قومٍ إلى قومٍ كما انتقلت العلوم الأُخر إلى أيام هرمس الأول.

وقال أيضاً: حدَّثونا عن محمد بن جرير الطبريِّ بإسنادٍ له متَّصلٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «زُوِيَتْ لي الأرضُ فأُرِيتُ مشارِقَها ومغاربها، وأُعْطِيتُ الكبريتَ الأبيضَ والأحمر»[١].

ورَوَى جابر[٢] عن جعفر الصادق ؓ في ذلك رواياتٍ كثيرةً، حتى إنه أسند إليه عدَّةً من كتبه[٣]، ولا أحقِّق قوله ولا أكذِّبه، وأُجِلُّه لموضعه من العلم والعمل عن الافتراء على الأئمة.

ورَوَى عن أمير المؤمنين عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه سئل فقيل له: ما تقولُ فيما خاض الناسُ فيه من علم الكيمياء؟ فأطرق مليًّا ثم رفع رأسه ثم قال: سألتموني عن أختِ النبوَّة وتوأمِ المروَّةِ، لقد كان وإنه لكائنٌ، وما من شجرةٍ ولا مَدَرةٍ ولا شيءٍ إلا وفيه أصلٌ وفرعٌ، أو أصلٌ، أو فرعٌ. قيل: يا أمير المؤمنين، أمَا تعلمه؟ قال: والله تعالى أنا أعلم به من العالِمينَ له؛ لأنهم يتكلَّمون بالعلم على ظاهره دون باطنه، وأنا أعلم العلم ظاهره وباطنه. قيل: فاذكر لنا منه شيئاً نأخذه منك. قال: والله تعالى لولا أنَّ النفس أمَّارةٌ بالسوء لقلت. قيل: فما كان تقول؟ قال: إني أعلم أنَّ في الزئبق الرَّجْراجِ والذهب الوهَّاج والحديدِ المُزَعْفَرِ وزنجار النحاس الأخضر لكنوزاً لا يؤتى على آخرها، يُلقحُ بعضُها ببعضٍ فتفتر عن ذهبٍ كامن. قيل: يا أمير المؤمنين، ما نعلم هذا. قال: هو ماءٌ جامدٌ،

---

(١) لم نقف عليه من طريق الطبري، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٨٨٩) عن ثوبان مطولاً لكن بلفظ: الكنزين، بدل: الكبريت..

(٢) هو جابر بن حيان، فقد ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان ١/ ٣٢٧، والصفدي في الوافي بالوفيات ١١/ ٣٤ أن جابراً كان تلميذ جعفر الصادق، وأنه ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق، وهي خمس مئة رسالة في الكيمياء. وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) قال الصفدي في الوافي بالوفيات ١١/ ٣٤: وأنا أنزِّه الإمام جعفراً الصادق ؓ عن الكلام في الكيمياء، وإنما هذا الشيطان أراد الإغواء بكونه عزا ذلك إلى أن يقوله مثل جعفر الصادق لتتلقاه النفوس بالقبول.

وهواءٌ راكدٌ، ونارٌ حائلة، وأرضٌ سائلة. قالوا: ما نَفْقَهُ هذا. قال: لو حلَّ للمؤمنين من أهل الحكمة أن يكلِّموا الناس على غير هذا لعلمه الصبيانُ في المكاتب. اهـ كلامُ الطغرائيِّ باختصار.

وذكر في كتابه «مفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة» عن ستِّين نبيًّا وحكيماً أنهم قالوا بحقِّيَّة هذا العلم، وفي القلب من صحة هذه الأخبار شيءٌ، والأغلبُ على الظنِّ أنه لو كان في الكيمياء خبرٌ مقبولٌ عند المحدِّثين لشاع، ولَما أنكرها مَن هو من أجلَّتهم كشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، فإنه كان ينكر ثبوتَها، وألَّف رسالةً في إنكارها، ولعل ردَّ الشيخ نجم الدِّين ابن أبي الذَّرّ البغداديِّ، وتزييفَه ما قاله فيها ـ كما زعم الصفديُّ[1] ـ إنما كان فيما هو من باب الاستدلالات العقلية، فإنَّ الرجل في باب النقليات مما لا يجاريه نجم الدين المذكورُ وأمثالُه، وهو في باب العقليات وإن كان جليلاً أيضاً إلا أنه دونه في النقليات.

والمطلبُ دقيقٌ، حتى إنَّ بعض مَن تُعقَدُ عليه الخناصر اضْطَربَ في أمرها، فأنكرها تارةً وأقرَّ بها أخرى، فهذا شيخُ الحكماء ورئيسُهم أبو علي بن سينا سمعتَ ما نُقل عنه أولاً، وحُكي عنه الرجوعُ عنه، وعلى جودة ذهنه وعلوِّ كعبه في الحكمة بأقسامها لم يقف على حقيقة عملها، حتى قال الطغرائيُّ في «تراكيب الأنوار»: ما ينقضي عجبي من أبي علي بن سينا كيف استجاز وضع رسالة في هذا الفن فضح بها نفسه، وخالف الأصول التي عنده، وقصَّر فيها عن كثيرٍ من الحشوية الطَّغامِ المُظْلِمةِ الأذهان الكليلةِ الأفهام.

وقال في «جامع الأسرار»: إنَّ الشيخ أبا عليّ بن سينا لفَرْطِ شغفه بهذا العلم وحَدْسِه القويِّ بأنه حقٌّ صنَّف رسالةً فيه فأحسن فيما يتعلق بأصول الطبيعيات، ولخفاء طريق القوم واستعمائها دونه لم يذكر في التدابير المختصَّة بعلمنا لفظةً صحيحةً، ولا أشار إلى ذكر المزاج الحقِّ، والأوزانِ والتراكيب المكتومة، والنيران

(١) في الوافي بالوفيات ١٨/ ٥٢٧. ونجم الدين البغدادي هو عبد العزيز بن عبد القادر بن أبي الكرم ابن أبي الذر الربعي البغدادي، قال الصفدي: هو أحد من سمعت إليه وأجاز لي بخطه سنة ثمان وعشرين وسبع مئة، ثم ذكر رسالته في الرد على ابن تيمية، ثم قال: وله مصنفات منها: كتاب نتائج الشيب من مدحٍ وعيب.

وطبقاتها، والآلةِ التي لا يتمُّ العمل إلا بها، وهي أحد الشرائط العشرة، ولم يتجاوز ما عند الحشوية من تدابير الزوابق والكباريت والدفن في زبل الخيل والتشاغل بهذه القاذورات، ولولا آفةُ الإعجاب وحُسنِ ظنِّ الإنسان بعلمه وحِرْصِه على أن لا يشذَّ عنه شيءٌ من المعارف لكان من الواجب على مثله مع غزارة علمه وعلوِّ طبقته في الأبحاث الحقيقية أن يكتفي بما عنده، ولا يتعرَّضَ لِمَا لا يعلمه، وقد تأدَّى إلينا من تدابيره عن أصحابه الذين شاهدوها أنه لم يكن يعرف حقيقةَ علمنا، وقد رأينا بخطِّه من التعاليق الملتقطة من كلام جابر بن حيان وخالد بن يزيد ما يدلُّ أيضاً على ذلك. اهـ ملخَّصاً.

والكلام في هذا المطلب طويلٌ، وفيما ذكرنا كفايةٌ لمن أحبَّ الاطِّلاع على شيءٍ مما قيل في ذلك، والله تعالى الموفق. ثم إنَّ القول بأنَّ المراد بالعلم في الآية علمُ استخراج الكنوز والدفائن يستدعي ثبوتَ هذا العلم، وأهلُ علم الحرف وعلم الطلسمات يقولون به، ولهم في ذلك كلامٌ طويلٌ، والعقلُ يجوِّز ثبوته، والله تعالى أعلم بثبوته في نفس الأمر.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ﴾ تقريرٌ لعلمه ذلك، وتنبيهٌ على خطئه في اغتراره، وعلمُه بذلك من التوراة، أو من موسى عليه السلام، أو من كتب التواريخ، أو من القُصَّاص. والقوةُ تحتمل القوةَ الحسِّيةَ والمعنوية، والجمعُ يحتمل جمعَ المال وجمعَ الرجال، والمعنى: ألم يقف على ما يفيده العلم ولم يعلم ما فعل الله تعالى بمن هو أشدُّ منه قوةً حسًّا أو معنًى، وأكثرُ مالاً أو جماعةً يحوطونه ويخدمونه، حتى لا يغترَّ بما اغترَّ به.

ويحتمل أن تكون الهمزةُ للإنكار داخلةً على مقدَّرٍ، وجملة «ولم يعلم» حاليةً مقرِّرةً للإنكار، ودالَّةً على انتفاء ما دخلت عليه، كما في قولك: أتدَّعي الفقهَ وأنت لا تعرفُ شروط الصلاة. والمراد ردُّ ادِّعائه العلمَ والتعظُّم به بنفي هذا العلم عنه، أي: أعَلِمَ ما ادَّعاه ولم يعلم هذا حتى يقيَ به نفسَه مصارعَ الهالكين.

وقيل: إنَّ «لم يعلم» عطفٌ على ذلك المقدَّر، ونفيُ العلم عنه لعدم جَرْيِه على موجبه.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾ الظاهر أنَّ هذا في الآخرة، وأنَّ ضمير «ذنوبهم» للمجرمين، وفاعلُ السؤال إمَّا الله تعالى أو الملائكةُ عليهم السلام.

والمراد بالسؤال المنفيِّ هنا وكذا في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] ـ على ما قيل ـ سؤالُ الاستعلام، ونفيُ ذلك بالنسبة إليه عزَّ وجل ظاهر، وبالنسبة إلى الملائكة عليهم السلام لأنهم مطَّلعون على صحائفهم، أو عارفون إياهم بسيماهم كما قال سبحانه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

والمراد بالسؤال المثبَتِ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] سؤالُ التوبيخ والتقريع، فلا تناقض بين الآيتين.

وجوِّز أن يكون السؤال في الموضعين بمعنًى، والنفيُ والإثباتُ باعتبار موضعين أو زمانين، والمواقفُ يوم القيامة كثيرةٌ واليومُ طويلٌ، فلا تناقضَ أيضاً.

والظاهر أن الجملة غيرُ داخلة في حيِّز العلم، ولعل وجه اتِّصالها بما قبلها أنه تعالى لمَّا هدَّد قارون بذكر إهلاك من قبله مِن أضرابه في الدنيا، أردف ذلك بما فيه تهديدُ كافَّة المجرمين بما هو أشنعُ وأشنع من عذاب الآخرة، فإنَّ عدم سؤال المذنب مع شدَّة الغضب عليه يؤذِنُ بالإيقاع به لا محالة. وجعل الزمخشريُّ الجملةَ تذييلاً لِمَا قبلها(١).

وقيل: إنَّ ذلك في الدنيا، والمراد أنه تعالى أهلك مَن أهلك من القرون عن عِلْمٍ منه سبحانه بذنوبهم، فلم يَحْتَجْ عزَّ وجلَّ إلى مساءلتهم عنها.

وقيل: إنَّ ضمير ذنوبهم لمن هو أشدُّ قوةً، وهو المُهْلَكُ من القرون، والإفراد والجمع باعتبار اللفظ والمعنى، والمعنى: ولا يُسأَلُ عن ذنوب أولئك المهلكين غيرُهم ممن أَجْرَمَ، ويعلم أنه لا يسأل عن ذنوبهم مَن لم يُجْرمْ بالأَوْلى؛ لما بين الصنفين من العداوة، فمآلُ المعنى: لا يسأل عن ذنوب المهلَكين غيرُهم ممن أَجْرَمَ وممن لم يُجْرِمْ، بل كلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينة. وكلا القولين كما ترى.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩١.

وربما يَختلجُ في ذهنك عطفُ هذه الجملة على جملة الاستفهام، أو جَعْلُها حالاً من فاعلِ «أهلك» أو من مفعوله، لكنْ إذا تأمَّلْتَ أدنى تأمُّلٍ أخرجْتَه من ذهنك، وأَبَيْتَ حَمْلَ كلام الله تعالى الجليل على ذلك.

وقرأ أبو جعفر في رواية: «ولا تسألْ» بتاء الخطاب والجَزْمِ «المجرمين» بالنصب. وقرأ أبو العالية وابن سيرين: «ولا تَسْأَلْ» كذلك[1]، ولم نَدْرِ أَنَصَبا المجرمين كأبي جعفر، أم رفعاه كما هو في قراءة الجمهور؟ والظاهر الأول.

وجوَّز صاحب «اللوامح» الثاني، وذكر له وجهين:

الأول: أن يكون ضمير «ذنوبهم» للمهلَكين من القرون، وارتفاعُ المجرمين بإضمار المبتدأ، أي: هم المجرمون.

والثاني: أن يكون «المجرمون» بدلاً من ضمير «ذنوبهم» باعتبارِ أن أصله الرفعُ؛ لأن إضافةَ «ذنوب» إليه بمنزلةِ إضافةِ المصدر إلى اسم الفاعل[2]. وأُورد على هذا أنَّ «ذنوب» جمعٌ، فإن كان جمعَ مصدرٍ ففي إعماله خلافٌ.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عطفٌ على «قال» وما بينهما اعتراضٌ، وقولهُ تعالى: ﴿فِى زِينَتِهِۦٓ﴾ إمَّا متعلِّقٌ بـ «خرج»، أو بمحذوفٍ هو حال من فاعله، أي: فخرج عليهم كائناً في زينته.

قال قتادة: ذُكر لنا أنه خرج هو وحشمُه على أربعة آلافِ دابةٍ عليهم ثيابٌ حمرٌ منها ألفُ بغلةٍ بيضاء، وعلى دوابِّهم قطائفُ الأُرْجُوان[3].

وقال السدِّي: خرج في جَوَارٍ بيضٍ على سروجٍ من ذهبٍ على قُطُفِ أُرْجُوان، وهنَّ على بغالٍ بيضٍ عليهنَّ ثيابٌ حمرٌ وحليُّ ذهبٍ.

---

(١) البحر ٧/ ١٣٤.

(٢) كذا وقع في الأصل و(م) والبحر٧/ ١٣٤، والكلام منه، والجادة في العبارة: إضافة المصدر إلى فاعله كما في الدر المصون ٨/ ٦٩٦.
وفي تجويز الرفع على هذه القراءة تعسُّف كثير كما ذكر السمين، وقال: ولا ينبغي أن يقرأ ابن سيرين وأبو العالية إلا «المجرمين» بالياء فقط، وإنما تُرك نقلها لظهوره.

(٣) بضم الهمزة والجيم: الحمرة والأحمر، معرَّب أرغوان. حاشية الشهاب ٧/ ٨٧.

وقيل: خرج على بغلةٍ شهباءَ عليها الأُرْجُوان، وعليها سرجٌ من ذهبٍ، ومعه أربعةُ آلافِ خادمٍ، عليهم وعلى خيولهم الديباجُ الأحمرُ، وعلى يمينه ثلاث مئة غلام، وعلى يساره ثلاث مئة جاريةٍ بيض عليهنَّ الحليُّ والديباج.

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم: أنه خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات، وكان ذلك أولَ يومٍ في الأرض رؤيت المعصفراتُ فيه(١).

وقيل غيرُ ذلك من الكيفيات، وكان ذلك الخروج ـ على ما قيل ـ يومَ السبت.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ قيل: كانوا جماعةً من المؤمنين، وقالوا ذلك جَرْياً على سَنَنِ الجِبِلَّة البشرية من الرغبة في السعة واليسار. وعن قتادة: أنهم تمنَّوا ذلك ليتقرَّبوا به إلى الله تعالى، وينفقوه في سبيل الخير. ولعل إرادتَهم الحياةَ الدنيا ليتوصَّلوا بها للآخرة، لا لِذَاتها؛ فإنَّ إرادتَها لذاتها ليست من شأن المؤمنين.

وقيل: كانوا كفاراً ومنافقين.

وتمنِّيهم مثل ما أوتي دونه نَفْسِه من باب الغَبْطِ، ولا ضرر فيه على المشهور، وقيل: ضررُه دون ضررِ الحسد، فقد قيل لرسول الله ﷺ: هل يضرُّ الغبط؟ فقال: «لا، إلَّا كما يضرُّ العضاهَ الخَبْطُ»(٢). وفي «الكشف»: الظاهرُ أنه نفيٌ للضرر على أبلغ وجهٍ، فإنَّ الشجر ربما ينتفع بالخبط فضلاً عن التضرُّر، وفيه أنه قد يُفْضي إلى الضَّرر إشارة إلى متعلق الغبط من دينيٍّ أو دنيويٍّ. وقائلُ ذلك إن كان الكفرةُ ففيه من ذمِّ الحسد ما فيه.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠١٤.

(٢) الحديث بهذا اللفظ في الكشاف ٣/ ١٩٢، والنهاية (خبط) و(غبط)، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٩٨، وإبراهيم الحربي في غريب الحديث ٢/ ٦٣٨ من حديث أم الدرداء ﵂ بلفظ: ... «نعم، كما يضر الشجرَ الخَبْطُ». الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها. والعضاه: كل شجر عظيم له شوك، الواحدة: عِضَةٌ بالتاء، وأصلها عِضَهَةٌ. أراد عليه الصلاة والسلام أن ما يلحق الغابط من الضرر الراجع إلى نقصان الثواب دون الإحباط بقَدْر ما يلحق العِضاهَ من خبط ورقها، الذي هو دون قطعها واستئصالها، ولأنه يعود بعد الخبط. النهاية (خبط) و(عضه) و(غبط).

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٧٩﴾ قال الضحاك: أي: درجةٍ عظيمة. وقيل: نصيبٍ كثيرٍ من الدنيا. والحظُّ: البَخْتُ والسَّعْدُ، ويقال: فلانٌ ذو حظٍّ وحَظيظٌ ومحظوظٌ. والجملةُ تعليلٌ لتمنِّيهم وتأكيدٌ له.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغي، ومنهم يوشع عليه السلام، وإنَّما لم يوصفوا بإرادة ثوابِ الآخرة تنبيهاً على أنَّ العلم بأحوال النشأتين يقتضي الإعراض عن الأولى والإقبالَ على الأخرى حتماً، وأنَّ تمنِّيَ المتمنِّينَ ليس إلا لعدم علمهم بهما كما ينبغي.

وقيل: المراد بالعلم: معرفةُ الثواب والعقاب. وقيل: معرفة التوكُّل. وقيل: معرفةُ الأخبار. وما تقدَّم أولى.

﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاءٌ بالهلاك بحسب الأصل، ثم شاع استعمالُه في الزجر عمَّا لا يُرْتَضى، والمرادُ به هنا الزَّجرُ عن التمنِّي، وهو منصوبٌ على المصدرية لفعلٍ من معناه. ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما تتمنَّونه ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلا يليقُ بكم أن تتمنَّوه غير مكتفين بثوابه عزَّ وجلَّ، هذا على القول بأنَّ المتمنين كانوا مؤمنين. أو: فآمِنوا لتفوزوا بثوابه تعالى الذي هو خيرٌ من ذلك. وتقديرُ المفضَّل عليه: ما تتمنَّوه؛ لاقتضاءِ المقام إياه، ويجوز أن يقدَّر عامًّا ويدخل فيه ما ذكر دخولاً أوَّليًّا، أي: خيرٌ من الدنيا وما فيها.

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: هذه المقالةَ، أو الكلمةَ التي تكلَّم بها العلماء، والمراد بها[1] المعنى اللغويُّ، أو الثوابَ، والتأنيثُ باعتبار أنه بمعنى المثوبةِ أو الجنةِ المفهومةِ من الثواب. وقيل: الإيمانَ والعملَ الصالح، والتأنيثُ والإفرادُ باعتبار أنهما بمعنى السيرة أو الطريقة. ومعنى تلقِّيها: إمَّا فهمُها، أو التوفيقُ للعمل بها.

﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ على الطاعات وعن المعاصي والشهوات، ولعل المراد بالصابرين على القول الأخير في مرجع الضمير: المتَّصفون بالصبر في علم الله تعالى، فتدبر.

(١) أي: بالكلمة. حاشية الشهاب ٧/ ٨٨.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ روى ابن أبي شيبة في «المصنف»، وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ قارون كان ابنَ عمِّ موسى عليه السلام، وكان يتبع العلم حتى جمع علماً، فلم يَزَلْ في ذلك حتى بَغَى على موسى عليه السلام وحَسَدَه، فقال [له] موسى: إنَّ الله تعالى أمرني أنْ آخُذَ الزكاة فأبى فقال: إنَّ موسى ـ عليه السلام ـ يريد أن يأكل أموالكم، جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياءَ فاحتملتموها، فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا نحتمل، فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أُرسِلَ إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل، فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها. فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حُكْمَك على أن تشهدي على موسى أنه فَجَرَ بِكِ. قالت: نعم. فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربُّك. قال: نعم. فجمعهم، فقالوا له: بمَ أمرك ربُّك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً، وأن تَصِلوا الرحم، وكذا وكذا، وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أُحصِنَ أن يُرْجَمَ. قالوا: وإنْ كنتَ أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنك قد زنيتَ. قال: أنا! فأرسَلوا إلى المرأة فجاءت، فقالوا: ما تَشهدين على موسى عليه السلام؟ فقال لها موسى عليه السلام: أَنْشُدُك بالله تعالى إلَّا ما صدقت. فقالت: أَمَا إذ أَنْشَدْتني بالله تعالى فإنهم دعوني وجعلوا لي جَعْلاً على أن أقذفك بنفسي، وأنا أشهد أنك بريءٌ، وأنك رسول الله. فخرَّ موسى عليه السلام ساجداً يبكي، فأوحى الله تعالى إليه: ما يُبْكيك؟ قد سلَّطناك على الأرض فمرها تُطِعْكَ. فرفع رأسه فقال: خذيهم، فأخذَتْهم إلى أعقابهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى. فقال: خذيهم، فأخذتهم إلى رُكبهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى. فقال: خذيهم، فغيَّبتهم، فأوحى الله تعالى: يا موسى سألك عبادي وتضرَّعوا إليك فلم تُجبهم، وعزَّتي لو أنهم دعوني لأجبتهم[1].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١١/٥٣١-٥٣٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/٣٠١٨، والمستدرك ٢/٤٠٨-٤٠٩، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/١٣٦، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

وفي بعض الروايات: أنه جعل للبغيِّ ألف دينار، وقيل: طستاً من ذهب مملوءةً ذهباً.

وفي بعضٍ: أنه عليه السلام قال في سجوده: يا ربِّ، إن كنتُ رسولَكَ فاغضب لي. فأوحى الله تعالى إليه: مُرِ الأرضَ بما شئت فإنها مطيعةٌ لك. فقال: يا بني إسرائيل إنَّ الله تعالى بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليلزم، ومَن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا جميعاً غيرَ رجلين. ثم قال: يا أرضُ خُذيهم. فأخذتهم إلى الرُّكب، ثم إلى الأوساط، ثم إلى الأعناق، وهم يتضرَّعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه الرحمَ، وهو عليه السلام لا يلتفتُ إلى قولهم لشدَّة غضبه، ويقول: خذيهم. حتى انطبقت عليهم، فأوحى الله تعالى: يا موسى ما أفظَّكَ، استغاثوا بك مراراً فلم تَرْحَمهم، أَمَا وعزَّتي لو إيايَ دَعَوا مرةً واحدةً لوجدوني قريباً مجيباً.

وفي روايةٍ: أنَّ الله سبحانه أوحى إليه: ما أشدَّ قلبك، وعزَّتي وجلالي لو بي استغاثَ لَأغَثْتُه. فقال عليه السلام: ربِّ غضباً لك فعلتُ.

ثم إنَّ بني إسرائيل قالوا: إنما فعل موسى ـ عليه السلام ـ به ذلك ليرثه، فدعا اللهَ تعالى حتى خسف بداره وأمواله.

وفي بعض الأخبار أنَّ الخسف به وبداره كان في زمانٍ واحد، وكانت دارُه ـ فيما قيل ـ من صفائح الذهب.

وجاء في عدَّة آثارٍ أنه يُخسف به كلَّ يومٍ قامةٌ، وأنه يتجَلْجَلُ في الأرض لا يبلُغ قعرها إلى يوم القيامة(١). والله تعالى أعلَم بصحة ذلك، بل هو مُشْكِلٌ إن صحَّ ما قاله الفلاسفةُ في مقدار قطر الأرض، ولم يُقَلْ بأنَّ لها حركةً أصلاً، وأما الخسفُ فلا شكَّ في إمكانه الذاتيِّ والوقوعيِّ، وسببه العاديُّ مبيَّنٌ في محلِّه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٠ عن قتادة، وأخرجه أيضاً من طريق قتادة عن أبي ميمونة عن سمرة بن جندب ﷺ. وأخرج البخاري (٣٤٨٥) من حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يجرُّ إزاره من الخيلاء خُسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي: جماعةٍ معيَّنةٍ، مشتقَّة من فَأَوْتُ قلبه: إذا ميَّلته، وسمِّيت الجماعةُ بذلك لميل بعضهم إلى بعض. وهو محذوفُ اللام ووزنُه فِعَة، وقال الراغب: إنه محذوفُ العين، فوزنُه فِلة، وإنه من الفيء وهو الرجوع؛ لأنَّ بعضَ الجماعة يَرْجعُ إلى بعض(١).

و«من» صلة، أي: فما كان له فئةٌ ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بدَفْع العذاب عنه ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي: بنفسه ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: الممتنعين عن عذابه عزَّ وجلَّ؛ يقال: نَصَره من عدوِّه فانتصر، أي: منعه فامتنع. ويحتمل أن يكون المعنى: وما كان من المنتصرين بأعوانه، فذكر ذلك للتأكيد.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ﴾ أي: مثلَ مكانه ومنزلته؛ لِمَا تقدَّم من قولهم: «مثلَ ما أوتي»، وجوِّز كونُ هذا على ظاهره و«مثل» هناك مقحَمةً، وليس بذاك.

﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ منذ زمانٍ قريبٍ، وهو مجازٌ شائع، وجوِّز حملُه على الحقيقة، والعطفُ بالفاء التي تقتضي التعقيبَ في «فخسفنا» يدلُّ عليه. والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «تمنَّوا» أو بـ «مكانه»(٢). وفي «البحر»: دلَّ «أصبح» إذا حُمل على ظاهره على أنَّ الخسف به وبداره كان ليلاً، وهو أفظعُ العذاب؛ إذ الليلُ مقرُّ الراحة والسكون(٣).

وقال بعضهم: هي بمعنى صار، أي: صار المتمنُّون.

﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يفعلُ كلَّ واحدٍ من البسط والقَدْرِ - أي: التضييق والقتر - لا لكرامةٍ توجبُ البَسْطَ ولا لهوانٍ يوجبُ التضييق.

و«وَيْ» عند الخليل وسيبويه(٤) اسمُ فعلٍ ومعناها: أَعْجبُ. وتكون للتحسُّر والتندُّم أيضاً كما صرَّحوا به، وعن الخليل أنَّ القوم ندموا فقالوا متندِّمين على

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٨٨، وينظر مفردات الراغب (فيأ).
(٢) قوله: والجار والمجرور متعلق بتمنوا أو بمكانه، وقع في (م) بعد قوله: على الحقيقة، والمثبت من الأصل والبحر ٧/ ١٣٥.
(٣) البحر ٧/ ١٣٥.
(٤) كما في المحتسب ٢/ ١٥٥، والبحر ٧/ ١٣٥، وينظر الكتاب ٢/ ١٥٤.

ما سلف منهم: «وي»، وكلُّ مَن ندم وأراد إظهار ندمه قال: «وي». ولعل الأظهر إرادةُ التعجُّب، بأن يكونوا تعجَّبوا أوَّلاً مما وقع، وقالوا ثانياً: «كأن» إلخ. و«كأن» فيه عاريةٌ عن معنى التشبيه جيء بها للتحقيق، كما قيل ذلك في قوله:

وأصبح بطنُ مكةَ مقشعرًّا كأنَّ الأرض ليس بها هشامُ[1]

وأنشد أبو عليٍّ:

كأنني حين أُمسي لا تكلِّمُني متيَّمٌ يشتهي ما ليس موجودا[2]

وقيل: هي غيرُ عاريةٍ عن ذلك، والمرادُ تشبيهُ الحال المطلق بما في حيِّزها إشارةً إلى أنه لتَحَقُّقِه وشهرته يصلح أن يشبَّه به كلُّ شيءٍ. وهو كما ترى.

وزعم الهمدانيُّ[3] أنَّ الخليل ذهب إلى أن «وي» للتندُّم و«كأنَّ» للتعجُّب، والمعنى: ندموا متعجِّبين في أنَّ الله تعالى يبسط.. إلخ. وفيه أنَّ كون «كأنَّ» للتعجُّب مما لم يُعْهَدْ.

وأيًّا ما كان فالوقفُ كما في «البحر» على «وي»[4]، والقياسُ كتابتُها مفصولةً، وكتبت متَّصلةً بالكاف لكثرة الاستعمال، وقد كتبت على القياس في قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وَيْ كأنْ مَن يَكُنْ له نَشَبٌ يُحْـ بَبْ ومَن يَفْتقِرْ يَعِشْ عيشَ ضرِّ[5]

---

(١) البيت للحارث بن أمية كما في الاشتقاق ص١٠١، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٤/ ١٧٠، ونسبه الثعالبي في ثمار القلوب ص٢٩٨ لعبد الله بن ثور الخفاجي، وهو دون نسبة في الكامل ٢/ ٦٧١، والمغني ص٢٥٣. وهشام هو ابن المغيرة المخزومي. وكان سيداً مطاعاً، وتوفي قبل بعثة النبي ﷺ.

(٢) المحتسب ٢/ ١٥٥، والمغني ص٤٨٣، والبيت ينسب لعمر بن أبي ربيعة وليزيد بن الحكم، كما في شرح شواهد المغني للسيوطي ٢/ ٧٨٨، وهو في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٥٣ باختلاف يسير.

(٣) في الفرائد، كما في حاشية الشهاب ٧/ ٨٨.

(٤) البحر ٧/ ١٣٥.

(٥) الكتاب ٢/ ١٥٥، والخزانة ٦/ ٤١٠، والمحتسب ٢/ ١٥٥، والبحر ٧/ ١٣٥.

وقال الأخفش(١): الكاف متصلةٌ بها، وهي اسم فعلٍ بمعنى أعجبُ؛ والكاف حرفُ خطابٍ لا موضعَ لها من الإعراب كما قالوا في «ذلك» ونحوِه، والوقفُ على «ويك»، وعلى ذلك جاء قولُ عنترة:

ولقد شفا نفسي وأبْرأ سُقْمَها قيلُ الفوارس وَيْكَ عنترَ أقْدِمِ(٢)

و«أنَّ» عنده مفتوحةُ الهمزة بتقدير العلم، أي: اعلم أنَّ الله.. إلخ(٣).

وذهب الكسائيُّ ويونس وأبو حاتم وغيرهم إلى أنَّ أصله: ويلك، فخفِّف بحذف اللام فبقي «ويك»، وهي للردع والزَّجْر، والبعثِ على تَرْكِ ما لا يُرْضَى، وقال أبو حيان: هي كلمةُ تحزُّنٍ(٤)، وأنشد في «التحقيق» قوله:

ألَا وَيْكَ المضرَّةُ لا تدومُ ولا يبقى على البؤس النعيمُ(٥)

والكاف على هذا في موضع جرٍّ بالإضافة، والعاملُ في «أنَّ» فعلُ العلم المقدَّر كما سمعتَ، أو هو بتقديرِ: لأنَّ، على أنه بيانٌ للسبب الذي قيل لأجله: «ويك».

وحكى ابن قتيبة عن بعض أهل العلم أنَّ معنى «ويك»: رحمة لك، بلغة حمير(٦).

وقال الفرَّاء: «ويك» في كلام العرب كقول الرجل: ألَا ترى إلى صُنْعِ الله تعالى شأنه(٧).

---

(١) كما في المحتسب ٢/ ١٥٥، والبحر ٧/ ١٣٥، وعنه نقل المصنف.

(٢) ديوان عنترة ص٣٠.

(٣) اكتفى الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٥٤ بقوله: والمفسرون يفسِّرونها: ألم تر أن الله. ومثله قول سيبويه في الكتاب ٢/ ١٥٤، وذكره ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص٤٠١ عن الكسائي.

(٤) البحر ٧/ ١٣٥.

(٥) البيت في البحر ٧/ ١٣٥، والدر المصون ٨/ ٦٩٨ برواية: ألا ويك المسرة...، ويجوز ـ كما ذكر السمين ـ أن يكون هذا البيت شاهداً على قول الأخفش، كما يجوز أن يستشهد ببيت عنترة على هذا القول.

(٦) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤٠١.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٢. ونقل المصنف قوله وقول ابن قتيبة بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٣٥.

وقال أبو زيد وفرقةٌ معه، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «ويكأن» حرفٌ واحدٌ بجملته، وهو بمعنى: ألم تر.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بعدم إعطائه تعالى ما تمنَّيناه من إعطائنا مثلَ ما أعطاه قارون ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: الأرضَ كما خسف به، أو: لولا أنْ مَنَّ الله تعالى علينا بالتجاوُز عن تقصيرنا في تَمنِّينا ذلك لخسف بنا جزاءَ ذلك كما خسف به جزاءَ ما كان عليه.

وقرأ الاعمش: «لولا مَنَّ» بحذفِ «أنْ» وهي مرادةٌ[١]. وروي عنه: «منُّ اللهِ» برَفْعِ «مَنّ» والإضافة[٢].

وقرأ الأكثر: «لخُسِفَ بنا» على البناء للمفعول[٣]، و«بنا» هو القائمُ مقام الفاعل. وجوِّز أن يكون ضميرَ المصدر، أي: لخُسِفَ هو ـ أي: الخسف ـ بنا، على معنى: لفُعِلَ الخَسْفُ بنا.

وقرأ ابن مسعود وطلحةُ والأعمش: «لانْخُسِفَ بنا» على البناء للمفعول أيضاً[٤]، و«بنا» أو ضمير المصدر قائمٌ مقام الفاعل. وعنه أيضاً: «لتُخُسِّفَ» بتاءٍ وشدِّ السين مبنيًّا للمفعول[٥].

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ لنعمةِ الله تعالى، أو: المكذِّبون برسله عليهم السلام، وبما وعدوا من ثواب الآخرة، والكلام في «ويكأن» هنا كما تقدم، بيد أنه جوِّز هنا أن يكون «لأنَّ» على بعض الاحتمالات تعليلاً لمحذوفٍ بقرينة السياق، أي: لأنه لا يفلح الكافرون فُعل ذلك، أي الخسفُ بقارون، واعتبار نظيره فيما سبق دون اعتبار هذا هنا، وضمير «ويكأنه» للشأن.

هذا وفي «مجمع البيان» أنَّ قصة قارون متصلةٌ بقوله تعالى: (نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ) عليه السلام[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٣٥.
(٢) البحر ٧/ ١٣٥.
(٣) التيسير ص١٧٢، والنشر ٢/ ٣٤٢، وقرأ حفص ويعقوب: «لخَسَف» بفتح الخاء والسين.
(٤) القراءات الشاذة ص١١٤، والمحتسب ٢/ ١٥٧، والبحر ٧/ ١٣٥.
(٥) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٣٦.
(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٣٢٦.

وقيل: هي متصلةٌ بقوله سبحانه: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

وقيل: لمَّا تقدَّم خزيُ الكفار وافتضاحُهم يومَ القيامة ذكر تعالى عقيبه أنَّ قارون من جملتهم، وأنه يفتضحُ يوم القيامة كما افتضح في الدنيا.

ولمَّا ذكر سبحانه فيما تقدَّم قولَ أهل العلم ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ ذكر محلَّ ذلك الثوابِ بقوله عز وجل: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ مشيراً إشارةَ تعظيمٍ وتفخيم إلى ما نزِّل ـ لشهرته ـ منزلةَ المحسوس المشاهَد، كأنه قيل: تلك التي سمعتَ خبرها وبَلَغَكَ وَصْفُها.

و«الدار» صفةٌ لاسم الإشارة الواقعِ مبتدأً وهو يوصفُ بالجامد، ولا حاجةَ إلى تقدير مضافٍ ـ أي: نعيمُ الدار ـ كما يوهمه كلام «البحر»[1]. و«الآخرة» صفةٌ للدار، والمرادُ بها الجنةُ، وخبرُ المبتدأ قولُه تعالى: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: غلبةً وتسلُّطاً ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ظلماً وعدواناً على العباد، كدأب فرعون وقارون، وليس الموصولُ مخصوصاً بهما، وفي إعادة «لا» إشارةٌ إلى أنَّ كلًّا من العلوِّ والفساد مقصودٌ بالنفي، وفي تعليق الموعد بترك إرادتهما لا بترك أنفسهما مزيدُ تحذيرٍ منهما.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قال: العلوُّ في الأرض التكبُّر وطلبُ الشرف والمنزلة عند سلاطينها وملوكها، والفسادُ العملُ بالمعاصي وأَخْذُ المال بغير حقِّه[2].

وعن الكلبيِّ: العلوُّ الاستكبارُ عن الإيمان، والفسادُ الدعاء إلى عبادة غير الله تعالى. وروي عن مقاتل تفسيرُ العلوِّ بما روي عن الكلبي.

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنه كان يمشي في الأسواق وحده وهو والٍ يرشدُ الضالَّ ويعينُ الضعيفَ، ويمرُّ بالبقَّال والبيَّاع فيفتتحُ عليه القرآن ويقرأ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ إلى آخرها، ويقول: نزلت هذه الآية:

---

(١) ٧/ ١٣٦.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٣٩، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٢ و٣٠٢٣ بنحوه.

«تلك الدارُ الآخرةُ» إلخ، في أهل العدل والتواضُع من الولاة، وأهلِ القدرة من سائر الناس[١].

وأخرج ابن مردويه عن عديّ بن حاتم أنه لمَّا دخل على النبيِّ ﷺ ألقى إليه وسادةً، فجلس على الأرض، فقال عليه الصلاة والسلام: «أشهدُ أنك لا تبغي علوًّا في الأرض ولا فساداً» فأَسْلَمَ رضي الله عنه[٢].

وعن الفضيل أنه قرأ الآية ثم قال: ذهبت الأماني ها هنا.

وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردِّدها حتى قُبض.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: إنَّ الرجل ليحبُّ أن يكون شِسْعُ نَعْلِه أجودَ من شِسْعِ نَعْلِ صاحبه، فيدخل في هذه الآية[٣]. ولعل هذا إذا أحبَّ ذلك ليفتخر على صاحبه ويستهينَه، وإلا فقد روى أبو داود عن أبي هريرة أنَّ رجلاً أتى رسول الله ﷺ وكان جميلاً، فقال: يارسول الله، إني رجلٌ حُبِّبَ إليَّ الجمالُ، وأُعطيتُ منه ما ترى، حتى ما أحبُّ أن يفوقني أحدٌ - إمَّا قال: بشراك نعلٍ، وإما قال: بشِسْعِ نعلٍ - أَفَمِنَ الكبر ذلك؟ قال: «لا، ولكنَّ الكبر مَن بَطِرَ الحقَّ وغَمِطَ الناس»[٤].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٣٩، وهو في تاريخ ابن عساكر ٤٢/ ٤٨٩، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان ٢/ ٨٦. وفي إسناده أبو الصباح عبد الغفور بن عبد العزيز الواسطي، قال عنه ابن معين: ليس حديثه بشيء، وقال ابن حبان: كان ممن يضع الحديث، وقال البخاري: تركوه. الميزان ٢/ ٦٤١.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٣٩، وأخرجه أيضاً ابن عساكر ٤٠/ ٧٧، والعسكري كما في كشف الخفاء ١/ ٧٨، وذكره الذهبي في السير ٢/ ٥٣٢. وفي إسناده سوار بن مصعب الهمداني الكوفي، قال عنه ابن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي وغيره: متروك. الميزان ٢/ ٢٤٦.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٣٤٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٣، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٣٩.

(٤) سنن أبي داود (٤٠٩٢). وبَطَر الحق: هو أن يجعل ما جعله الله حقًّا من توحيده وعبادته باطلاً. وقيل: هو أن يتجبر عند الحق فلا يراه. وقيل: هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله. والغَمْطُ: الاستهانة والاستحقار، وهو مثل الغمص. النهاية (بطر) و(غمط).

وروى مسلم وأبو داود والترمذي عن ابن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كبر» فقال رجل: إنَّ الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعلُه حسناً. قال: «إنَّ الله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس»[(١)].

واستدلَّ بعض المعتزلة بالآية بناءً على عموم العلوّ والفساد فيها على تخليد مرتكب الكبيرة في النار، وفي «الكشاف» ما هو ظاهرٌ في ذلك[(٢)].

والتزم بعضُهم في الجواب تفسيرَ العلوِّ والفساد بما فسَّرهما به الكلبيُّ، وآخَرُ أنَّ المراد بهما ما يكون مثل العلوِّ والفساد اللذين كانا من فرعون وقارون.

ورُدَّ بأنَّ التذييل بقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ يدلُّ على أنَّ العمدة هي التقوى، ولا يكفي تَرْكُ العلوِّ والفساد المقيَّدين.

وأجيب بأنَّ المتَّقيَ ها هنا هو المتقي من علوِّ فرعونَ وفساد قارون، أو مَن لم يكن من المؤمنين مثل فرعون في الاستكبار على الله تعالى بعدم امتثال أوامره والارتداعِ عن زواجره، ولم يكن مثلَ قارون في إرادة الفساد في الأرض، وإخراجِ كلِّ شيء من كونه منتفعاً به لا سيما نفسه، فإنَّ غاية إفسادها الامتناعُ من عبادة ربِّها؛ لأنها خُلقت للعبادة، فإذا امتنع عنها خرجتْ عن كونها منتفعاً بها، وليس معنى المتَّقي إلا ذلك.

وتعقَّبه صاحب «الكشف» بأن الأول تقييدٌ بلا دليل، والثاني هو الذي يسعى له المعتزلي.

وقال الفاضل الخفاجيُّ: إمَّا أن يراد بالعاقبة العاقبةُ المحمودةُ على وجه الكمال، أو يراد بالمتقي المتقي ما لا يرضاه الله تعالى مثل حال قارون، بقرينةِ المقام والنصوصِ الدالةِ على أنَّ غير الكفار لا يخلد في النار، فلا وجه للقول بأنَّ ذلك تقييدٌ بلا دليلٍ، مع أنَّ مبنَى الاستدلالِ على أنَّ اللام للتخصيص، وهو ممنوعٌ[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم (٩١)، وسنن أبي داود (٤٠٩١)، وسنن الترمذي (١٩٩٩).
(٢) الكشاف ٣/ ١٩٣.
(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٨٩.

وقال بعضٌ في الجواب على تقدير إرادة العموم في «علوًّا» و«فساداً»: أنَّ المراد من جَعْلِ الجنة للذين لا يريدون شيئاً منهما تمكينُهم منها أتمّ تمكين، نحو قولك: جَعَل السلطان بلد كذا لفلان، وذلك لا ينافي أن يدخلها غيرهم من مرتكب الكبيرة، ويكون فيها بمنزلةٍ دون منزلتهم، ولعله إنما دخلها بشفاعة بعضٍ منهم.

وقريبٌ منه ما قيل: إنَّ جَعْلَها لهم باعتبارِ أنهم أهلها الأوَّلون وملوكُها السابقون، وغيرهم إنما يَرِدُ عليهم وينزل بهم، ويقال في قوله تعالى: (وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ) نحوُ ما مرَّ آنفاً عن الخفاجي.

بقي في الآية كلامٌ آخَرُ، وهو أنَّ بعضهم استدلَّ بها على عدم وجود الجنة اليومَ، بناءً على أنَّ معنى «نجعلُها للذين لا يريدون» إلخ: نخلقُها في المستقبل لأجْلهم.

وأجيب بأنه يحتمل أن يكون الجعل متعدِّياً إلى مفعولين ثانيهما «للذين لا يريدون» إلخ، فيصير المعنى: نجعلها كائنةً وحاصلةً لهم في الزمان المستقبل، فتفيد الآيةُ أنَّ جَعْلَها كائنةً لهم غيرُ حاصلِ الآن، لا جَعْلَها نفسها، وهو محلُّ النزاع.

ودُفع بأنَّ المتبادر من جَعْلِ الدار كائنةً لزيدٍ تمكينُه وعدمُ مَنْعِه من التمكُّن فيها، سواءٌ حصل له التمكُّن فيها أو لم يحصل، فمعنى «نجعلها للذين» إلخ: نمكِّنهم في الاستقبال من التمكُّن فيها. ولا يخفى ركاكتُه، لأنَّ التمكينَ من التمكُّن فيها لازمٌ لوجودها غيرُ منفكٍّ عنها، على ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فلا يمكن أن تكون نفسُ الجنة الآنَ ويكونَ جَعْلُها كائنةً لهم في الاستقبال.

وحَمْلُ الجَعْل على التمكُّن بالفعل، والتمكين من التمكُّن وإن كان لازماً لوجود الجنة لكنَّ التمكُّن فيها بالفعل غيرُ لازمٍ بل يكون فيما سيجيء = عدولٌ عن المتبادر، فإنَّ المتبادر من قولك: جعلتُ الدار لزيد، تمكينُه من التمكُّن فيها، لا جَعْلُ زيدٍ متمكِّناً فيها بالفعل، فتدبَّر ذلك كلَّه.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ بمقابَلَتها ﴿خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾ ذاتاً ووَصْفاً وقَدْراً على ما قيل.

وجوِّز كونُ «خير» واحدَ الخيور وليس بأفعل التفضيل، و«من» سببية، أي: فله خيرٌ بسبب فعلها، وهو خلافُ الظاهر، وقد تقدَّم الكلام في ذلك.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وُضع فيه الموصولُ والظاهرُ موضعَ الضمير لتهجين حال المسيئين بتكرير إسناد السيئة إليهم.

وفي جمع «السيئات» دون الحسنة قيل: إشارةٌ إلى قلَّة المحسنين وكثرة المسيئين.

وقد يقال: إنه إشارةٌ إلى أنَّ ضمَّ السيئة إلى السيئة لا يزيدُ جزاءها، بل جزاؤها إذا انفردت مثلُ جزائها إذا انضمَّ إليها غيرُها، وأنَّ عدم ضمِّ الحسنة إلى الحسنة لا يؤثر في مقابلتها بما هو خيرٌ منها.

ولعل قلَّة المحسنين يُفهم من عدم اعتبار الجمعية في «مَن» في قوله تعالى: (مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ) وكثرة المسيئين تُفهم من اعتبار الجمعية فيها؛ إذ الموصول قائمٌ مقامَ ضميرها في قوله تعالى: (وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ) أي: إلَّا مثلَ ما كانوا يعملون، فحذف المثل وأُقيم مقامه «ما كانوا يعملون» مبالغةً في المماثلة. وهذا لطفٌ منه عزَّ وجل إذ ضاعف الحسنة ولم يَرْضَ بزيادةِ جزاء السيئة مقدارَ ذرَّة.

وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار المضاف؛ فإنَّ أعمالهم أنفسَها تظهر يومَ القيامة في صورة ما يعذَّبون به، ولا يخفى ما فيه.

وفي ذِكْرِ «عملوا» ثانياً دون: جاؤوا، إشارةٌ إلى أنَّ ما يُجزَوْن عليه ما كان عن قَصْدٍ، لأنَّ العمل يخصُّه كما قال الراغب[1]. وفي «التفسير الكبير» للإمام الرازي في أثناء الكلام على تفسير قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ الآية [الكهف:٩] أنَّ في التعبير بـ : جاء، دون: عَمِلَ، بأنْ يقال: مَن عَمِلَ الحسنة فله خيرٌ منها ومَن عمل السيئة.. إلخ، دلالةً على أنَّ استحقاق الثواب ـ أي: والعقاب ـ مستفادٌ من الخاتمة لا من أوَّل العمل، ويؤكِّدُ ذلك أنه لو مضى عمره في

(١) في مفرداته (عمل)، قال: العمل كلُّ فعلٍ يكون من الحيوان بقَصْدٍ، فهو أخصُّ من الفعل.

الكفر ثم أسلم في آخِر الأمر كان من أهل الثواب، وبالضدِّ[1]. ولا يخلو عن حُسْنٍ، ولعل نكتة التعبير بـ «عملوا» ثانياً تتأتَّى عليه أيضاً.

وفي قوله تعالى: (فَلَا يُجْزَى) إلخ دون: فللذين عملوا السيئات ما كانوا يعملون، أو: فما للذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون = إشارةٌ إلى أنه قد يحصل العفو عن العقاب. ولله تعالى درُّ التنزيل ما أكثر أسراره.

واستشكل ما تدلُّ عليه الآية من أنَّ جزاء السيئة مثلُها بأنَّ مَن كَفَرَ فمات على الكفر يعذَّب عذابَ الأبد، وأين هو مِن كُفْرِ ساعةٍ؟

وأجيب: بأنَّ أمر المماثلة مجهولٌ لنا، لا سيما على القول بنفي الحُسْنِ والقُبْحِ العقليين للأفعال، وقصارى ما نعلم أنَّ الله تعالى جَعَلَ لكلِّ ذنبٍ جزاءً أخبر عزَّ وجلَّ أنه مماثلٌ له، وقد أخبر سبحانه أنَّ جزاء الكفر عذابُ الأبد، فنؤمنُ به وبأنه مما تقتضيه الحكمةُ، وما علينا إذا لم نعلم جهة المماثلة، ووجهَ الحكمة فيه؟

وكذا يقال في الذنوب التي شرع الله تعالى لها حدوداً في الدنيا، كالزنى وشربِ الخمر وقذفِ المحصَنِ، وحدودِها التي شَرَعَها جلَّ شأنُه لها فإنَّا لا نعلمُ وجهَ تخصيص كلِّ ذنبٍ منها بحدٍّ مخصوص من تلك الحدود المختلفة، لكنَّا نجزم بأنّ ذلك لا يخلو عن الحكمة.

وأجاب الإمام عن مسألة الكفر وعذابِ الأبد بأنَّ ذلك لأنَّ الكافر كان عازماً أنه لو عاش إلى الأبد لبقي على ذلك الكفر[2].

وقيل في وجه تعذيب الكافر أبدَ الآباد: إنَّ جزاء المعصية يتفاوتُ حسب تفاوُتِ عظمة المعصيِّ، فكلَّما كان المعصيُّ أعظمَ كان الجزاء أعظم، فحيث كان الكفر معصيةَ مَن لا تتناهى عظمتُه جلَّ شانُه كان جزاؤه غيرَ متناهٍ، وقياسُ ذلك أن يكون جزاءُ كلِّ معصيةٍ كذلك، إلا أنه لم يكن كذلك فيما عدا الكفر فضلاً منه تعالى شأنُه؛ لمكان الإيمان.

---

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٩٧.
(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ٢١.

وقيل أيضاً: إنَّ كلَّ كفرٍ قولاً كان أو فعلاً يعود إلى نسبة النقص إليه عزَّ وجلَّ، المنافي لوجوب الوجود المقتضي لوجوده سبحانه أزلاً وأبداً، وإذا تُوهِّم هناك زمانٌ ممتدٌّ كان غيرَ متناهٍ، فحيث كان الكفر مستلزماً نفي وجوده تعالى شأنُه فيما لا يتناهى كان جزاؤه غيرَ متناهٍ، ولا كذلك سائر المعاصي، فتدبر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أَوْجَبَ عليك العمل به، كما روي عن عطاء. وعن مجاهد: أي: أعطاكه. وعن مقاتل وإليه ذهب الفرَّاء وأبو عبيدة: أي: أنزله عليك(١). والمعوَّل عليه ما تقدَّم.

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى محلٍّ عظيم القَدْرِ اعتَدْتَ به وأَلِفْتَه، على أنه من العادة لا من العَوْد، وهو كما في «صحيح البخاري»، وأخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والنسائيُّ وابنُ جريرٍ وابنُ المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الدلائل» من طرقٍ عن ابن عباس: مكة(٢). وروي ذلك أيضاً عن مجاهد والضحاك.

وجوِّز أن يكون من العَوْد، والمراد به مكةُ أيضاً، بناءً على ما في «مجمع البيان» عن القتيبي: أنَّ معاد الرجل بلدُه؛ لأنه يتصرَّفُ في البلاد ثم يعود إليه(٣). وقد يقال: أُطلق المعادُ على مكة لأنَّ العرب كانت تعود إليها في كلِّ سنة لمكانِ البيت فيها، وهذا وعدٌ منه عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ وهو بمكة أنه عليه الصلاة والسلام يهاجر منها ويعود إليها. وروي عن غير واحدٍ أنَّ الآية نزلت بالجحفة بعد أن خرج ﷺ من مكة مهاجراً واشتاق إليها(٤). ووجهُ ارتباطها بما تقدَّمها تضمُّنُها الوعدَ بالعاقبة الحسنى في الدنيا كما تضمَّن ما قبلها الوعدُ بالعاقبة الحسنى في الآخرة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٣، ومجاز القرآن ٢/ ١١٢.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٧٣)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٢٢)، وتفسير الطبري ١٨/ ٣٥٠، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٥٢٠-٥٢١، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٤٠.

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٣٢٩.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٦ عن الضحاك، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٩ عن مقاتل.

وقيل: إنه تعالى لمَّا ذَكَرَ من قصة موسى عليه السلام وقومِه مع قارون وبغيه واستطالتِه عليهم وهلاكِه ونصرةِ أهل الحقِّ عليه ما ذَكَرَ، ذكر جلَّ شأنه هنا ما يتضمَّنُ قصةَ سيدنا صلوات الله تعالى وسلامُه عليه وأصحابِه مع قومه، واستطالتِهم عليه، وإخراجِهم إياه من مسقط رأسه، ثم إعزازه عليه الصلاة والسلام بالإعادة إلى مكة وفَتْحِه إياها منصوراً مُكْرَماً، ووسَّط سبحانه بينهما ما هو كالتخلُّص من الأول إلى الثاني.

وأخرج الحاكم في «التاريخ» والديلميُّ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه عن النبيِّ ﷺ أنه فسَّر المعاد بالجنة(١). وأخرج تفسيرَه بها ابنُ أبي شيبة، والبخاريُّ في تاريخه، وأبو يعلى وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري(٢). وأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ وابن مردويه عن ابن عباس(٣). والتنكيرُ عليه للتعظيم أيضاً. ووجْهُ ارتباط الآية بما قبلها أنها كالتصريح ببعض ما تضمَّنه ذلك.

واستشكل ردُّه عليه الصلاة والسلام إلى الجنة من حيث إنه يقتضي سابقيةَ كونِه ﷺ فيها، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن فيها.

وأجيب بالتزام السابقية المذكورة، ويكفي فيها كونُه ﷺ فيها بالقوة؛ إذ كان في ظهر آدم عليهما الصلاة والسلام حين كان فيها.

وقيل: إنه ﷺ لمَّا كان مستعدًّا لها من قبلُ كان كأنه كان فيها، فالسابقيةُ باعتبارِ ذلك الاستعداد، على نحو ما قيل في قوله تعالى في الكفار: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٨].

ولا يخفى ما في كِلَا القولين من البُعد، وقريبٌ منهما ما قيل: إنَّ ذلك باعتبارِ أنه عليه الصلاة والسلام دخلها ليلة المعراج.

وقد يقال: إنَّ تفسيره بالجنة بيانٌ لبعض ما يُشْعِرُ به المعادُ بأنْ يكون عبارةً عن

(١) الدر المنثور ٥/ ١٤٠.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٩٢، والتاريخ الكبير ١/ ٢٨٠، ومسند أبي يعلى (١١٣١)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤٠.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٣٤٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٦، والمعجم الكبير (١٢٠٣٢)، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٤٠.

المحشر، فقد صار كالحقيقة فيه لأنه ابتداءُ العود إلى الحياة التي كان المعادُ عليها، وجعله عظيماً كما يُشْعِرُ به التنوين لعظمة ما له ﷺ فيه، ومنه الجنة، فالمعادُ بواسطة تنوينه الدالِّ على التعظيم يُشعر بالجنة؛ لأنها الحاويةُ مما أُعدَّ له ﷺ من الأمور العظيمة ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَر على قلب بشر.

وقريبٌ من تفسيره بالمحشر تفسيرُه بالآخرة كما أخرج ذلك عبد بنُ حميد وابنُ مردويه عن أبي سعيد الخدريِّ(١). وتفسيرُه بيوم القيامة كما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس(٢)، وعبد بنُ حميدٍ عن عكرمة(٣)، إلَّا أنه على ما ذُكر اسمُ زمانٍ، وعلى ما تقدَّم اسمُ مكان.

ومما يُشعر بأنه ليس المراد مجرَّدَ الردِّ إلى المحشر أو الآخرةِ أو يوم القيامة ما أخرجه الفريابيّ وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهدٍ أنه قال في الآية: إنَّ له معاداً، يبعثهُ الله تعالى يومَ القيامة ثم يدخلُه الجنة(٤). ويتخرَّج على نحو ما قلنا تفسيرُه بالمقام المحمود، وهو مقامُ الشفاعة العظمى يومَ القيامة.

وجاء في روايةٍ أخرى رواها عبد بن حميد وابنُ مردويه عن ابن عباس وأبي سعيد الخدريِّ أيضاً تفسيرُه بالموت(٥). ورواها معهما عن الحبر الفريابيُّ وابنُ أبي حاتم والطبرانيُّ(٦). وكونُه مَعاداً لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] ولعل تعظيمه باعتبارِ أنه بابٌ لوصوله ﷺ إلى ما أَعدَّ الله عزَّ وجلَّ له من المقام المحمود والمنزلةِ العليا في الجنة، إلى ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشر، وجلّ المقصود ما(٧) أشعر به التعظيم.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٤٠.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٦.
(٣) الدر المنثور ٥/ ١٤٠.
(٤) كذا ذكر، والصواب أن هذا القول هو قول الحسن، أخرجه عنه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ١٤٠، وخبر مجاهد غيره، وقد ورد قبله في الدر المنثور.
(٥) الدر المنثور ٥/ ١٤٠.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٥، والمعجم الكبير (١٢٢٦٨)، وعزاه للفريابي السيوطي في الدر ٥/ ١٤٠، وأخرجه أيضاً الطبري ١٨/ ٣٤٨-٣٤٩.
(٧) في الأصل: وما.

وأخرج ابن أبي حاتم عن نعيم القارئ أنه فسَّره ببيت المقدس[١]، وكأنَّ إطلاقَ المعادِ عليه باعتبارِ أنه ﷺ أُسري به إليه ليلة المعراج، والوعدُ بردِّه عليه الصلاة والسلام إليه وعدٌ له بالإسراء إليه مرةً أخرى، أو باعتبارِ أنَّ أرضه أرضُ المحشر، فالمراد بالردِّ إليه الردُّ إلى المحشر، وهذا غايةُ ما يقال في توجيه ذلك، فإن قُبلَ فذاك وإلَّا فالأمرُ إليك، وكأنِّي بك تختارُ ما في «صحيح البخاريِّ»، ورواه الجماعةُ الذين تقدَّم ذكرُهم عن ابن عباس من أنه مكة.

وربما يخطر بالبال أنْ يراد بالمعاد الأمرُ المحبوب بنوعِ تجوُّزٍ، ويُجعل بحيث يشملُ مكةَ والجنةَ وغيرَهما مما هو محبوبٌ لديه ﷺ، ويراد بردِّه عليه الصلاة والسلام إلى الأمر المحبوب إيصالُه إليه مرةً بعد أخرى، فالردُّ هنا مثلُه في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [إبراهيم:٩] وعليه يهونُ أمرُ اختلافِ الروايات التي سمعتَها في ذلك، فتدبَّر.

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ يريد بذلك نفسَه ﷺ، وبقوله سبحانه: ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾﴾ المشركين الذين بُعث إليهم ﷺ، و«مَن» منتصبٌ بفعلٍ يدلُّ عليه «أعلم» لا بـ «أعلم»؛ لأنَّ أَفْعَل لا ينصبُ المفعول به في المشهور، أي: يعلم مَن جاء.. إلخ. وأجاز بعضهم أن يكون منصوباً بـ «أعلم» على أنه بمعنى عالم.

والمراد أنه عزَّ وجلَّ يجازي كلًّا ممن جاء بالهدى ومَن هو في ضلالٍ على عمله، والجملةُ تقريرٌ لقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ) إلخ.

وفي «معالم التنزيل»: هذا جوابٌ لكفارِ مكةَ لمَّا قالوا للنبيِّ ﷺ: إنك في ضلال[٢]. ولعله لهذا وكون السبب فيه مجيئَه عليه الصلاة والسلام إليهم بالهدى، قيل في جانبه ﷺ: «مَن جاء بالهدى»، وفي جانبهم: «مَن هو في ضلالٍ مبين»، ولم يؤتَ بهما على طرزٍ واحد.

﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ تقريرٌ لذلك أيضاً، أي: سيردُّك إلى معادٍ كما أنزل إليك القرآن العظيمَ الشأنِ وما كنتَ ترجوه.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/٣٠٢٦.

(٢) تفسير البغوي ٣/٤٥٩.

وقال أبو حيان والطبرسيُّ: هو تذكيرٌ لنعمته عز وجل عليه عليه الصلاة والسلام[١].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ على ما ذهب إليه الفرَّاءُ[٢] وجماعةٌ استثناءٌ منقطعٌ، أي: ولكن ألقاه تعالى إليك رحمةً منه عز وجل.

وجوِّز أن يكون استثناءً متصلاً من أعمِّ العلل أو من أعمِّ الأحوال على أنَّ المراد نفيُ الإلقاء على أبلغ وجهٍ، فيكون المعنى: ما أُلقي إليك الكتاب لأَجْل شيءٍ من الأشياء إلا لأَجْلِ الترحُّم، أو في حالٍ من الأحوال إلا في حالِ الترحُّم.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: معيناً لهم على دينهم، قال مقاتل: إنَّ كفار مكة دَعَوه ﷺ إلى دين آبائه، فذكَّره الله تعالى نعمَه، ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أي: الكافرون ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: قراءتها والعملِ بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: بعد وقت إنزالها وإيحائها إليك، المقتضي لنبوَّتك ومزيدِ شرفك.

وقرأ يعقوب: «يَصُدُّنْك» بالنون الخفيفة[٣]. وقرئ: «يُصِدُّنَّك» مضارع أَصَدَّ بمعنى صَدَّ، حكاه أبو زيد عن رجل من كلب، قال: وهي لغة قومه[٤]، وقال الشاعر:

أناسٌ أَصَدُّوا الناسَ بالسيف عنهم … صدودَ السواقي عن أنوفِ الحوائم[٥]

﴿وَٱدْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادته جلَّ وعلا وتوحيده سبحانه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمظاهرتهم.

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٣٢٩، والبحر ٧/ ١٣٦.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣١٣.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٣-٣٠٤، والبحر ٧/ ١٣٧، وهي خلاف المشهور عن يعقوب.
(٤) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٣٧.
(٥) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ٧٧١، والصحاح (صدد)، والكشاف ٣/ ١٩٤، والبحر ٧/ ١٣٧. ورواية الديوان: صدور السواقي عن رؤوس المخارم. والسواقي: مجاري المياه، والمَخْرِم: منقطع أنف الجبل، يقول: صدوا الناس عنهم بالسيف كما صدَّت هذه الأنهار عن المخارم فلم تستطع أن ترتفع إليها. اللسان (صدد).

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: ولا تعبد معه تعالى غيرَه عزَّ وجلَّ، وهذا وما قبله للتهييج والإلهاب، وقَطْعِ أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة والسلام إياهم، وإظهارِ أنَّ المنهيَّ عنه في القبح والشرِّيَّة بحيث يُنْهَى عنه مَن لا يُتَصوَّر وقوعُه منه أصلاً.

وروى محيي السنَّة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد به أهلُ دينه[1]. وهو في معنى ما حكى عنه الطبرسيُّ: أنَّ هذا وأمثاله من باب:

إيـاكِ أعـنـي واسـمـعـي يـا جـاره[2]

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ وحده ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي: موجود مطلقاً ﴿هَالِكٌ﴾ أي: معدومٌ محضٌ، والمراد كونُه كالمعدوم وفي حُكْمِه ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾ أي: إلا ذاتَه عزَّ وجلَّ، وذلك لأنَّ وجود ما سواه سبحانه لكونه ليس ذاتيًّا بل هو مستندٌ إلى الواجب تعالى في كلِّ آنٍ قابلٌ للعدم وعرضةٌ له، فهو كَلَا وجود، وهذا ما اختاره غيرُ واحدٍ من الأجلَّة، والكلامُ عليه من قبيل التشبيه البليغ.

والوجهُ بمعنى الذات مجازٌ مرسلٌ، وهو مجازٌ شائعٌ، وقد يختصُّ بما شَرُفَ من الذوات، وقد يُعتبر ذلك هنا ويُجعلُ نكتةً للعدول عن: إلَّا إياه، إلى ما في النظم الجليل.

وفي الآية بناءً على ما هو الأصلُ من اتِّصال الاستثناء دليلٌ على صحة إطلاق الشيء عليه جلَّ وعلا، وقريبٌ من هذا ما قيل: المعنى كلُّ ما يطلق عليه الموجودُ معدومٌ في حدِّ ذاته إلَّا ذاتَه تعالى.

وقيل: الوجه بمعنى الذات، إلَّا أنَّ المراد ذاتُ الشيء، وإضافتُه إلى ضميره تعالى باعتبارِ أنه مخلوقٌ له سبحانه، نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ﴾ [المائدة:١١٦] من أنَّ المراد بالنَّفْس الثاني نَفْسُ عيسى عليه السلام، وإضافته إليه تعالى باعتبار أنه مخلوقٌ له جلَّ وعلا، والمعنى: كلُّ شيءٍ

---

(١) تفسير البغوي ٣/٤٥٩.

(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٣٣٠، وهذا عجز بيت سلف ١٨/ ٤٥٥.

قابلٌ للهلاك والعدم إلَّا الذاتَ من حيث استقبالُها لربِّها ووقوفُها في محراب قُرْبِها، فإنها من تلك الحيثية لا تقبلُ العدم.

وقيل: الوجه بمعنى الجهةِ التي تُقْصَدُ ويُتَوَجَّهُ إليها، والمعنى: كلُّ شيءٍ معدومٌ في حدِّ ذاته إلَّا الجهةَ المنسوبةَ إليه تعالى، وهو الوجودُ الذي صار به موجوداً، وحاصلُه أنَّ كلَّ جهات الموجود من ذاته وصفاته وأحواله هالكةٌ معدومةٌ في حدِّ ذاتها إلَّا الوجود الذي هو النور الإلهيُّ.

ومن الناس مَن جعل ضمير «وجهه» للشيء، وفسر الشيء بالموجود بمعنى ما له نسبةٌ إلى حضرة الوجود الحقيقيِّ القائم بذاته، وهو عينُ الواجب سبحانه، وفسر الوجه بهذا الوجود لأنَّ الموجود يتوجَّه إليه وينسب، والمعنى: كلُّ منسوبٍ إلى الوجود معدومٌ إلا وجهَه الذي قصده وتوجَّه إليه، وهو الوجودُ الحقيقيُّ القائمُ بذاته، الذي هو عينُ الواجب جلَّ وعلا.

ولا يخفى الغثُّ والسمينُ من هذه الأقوال، وعليها كلِّها يدخل العرشُ والكرسيُّ، والسماواتُ والأرضُ، والجنة والنار، ونحو ذلك في العموم.

وقال غير واحد: المرادُ بالهلاك خروجُ الشيء عن الانتفاع به المقصودِ منه، إمَّا بتفرُّق أجزائه أو نحو ذلك[1]، والمعنى: كلُّ شيءٍ سيهلكُ ويخرج عن الانتفاع به المقصودِ منه إلا ذاتَه عزَّ وجلَّ، والظاهرُ أنه أراد بالشيء الموجود المطلق لا الموجود وقت النزول فقط، فيؤُولُ المعنى إلى قولنا: كلُّ موجودٍ في وقتٍ من الأوقات سيهلكُ بعد وجوده إلا ذاتَه تعالى، فيدلُّ ظاهرُ الآية على هلاك العرش والجنة والنار، والذي دلَّ عليه الدليل عدم هلاك الأخيرين، وجاء في الخبر أنَّ الجنة سقفُها عرشُ الرحمن[2]. ولهذا اعتُرِض بهذه الآية على القائلين بوجود الجنة والنار الآن، والمنكرين له القائلين بأنهما سيوجدان يومَ الجزاء ويستمرَّان أبدَ الآباد.

واختلفوا في الجواب عن ذلك؛ فمنهم مَن قال: إنَّ «كلًّا» ليست للإحاطة بل

---

(١) في (م): أو نحوه.

(٢) سلف ص٨٥ من هذا الجزء.

للتكثير، كما في قولك: كلُّ الناس جاء إلا زيداً، إذا جاء أكثرهم دون زيد، وأيِّد بما روي عن الضحاك أنه قال في الآية: كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا الله عزَّ وجل والعرشَ والجنةَ والنارَ.

ومنهم مَن قال: إنَّ المراد بالهلاك الموتُ، والعمومُ باعتبارِ الأحياء الموجودين في الدنيا، وأيِّد بما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية: كلُّ حيٍّ ميتٌ إلا وجهه.

وأخرج عنه ابن مردويه أنه قال: لمَّا نزلت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قيل: يا رسول الله، فما بالُ الملائكة؟ فنزلت (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ)(١). فبيَّن في هذه الآية فناءَ الملائكة والثقلين من الجنِّ والإنس، وسائرِ عَالمِ الله تعالى وبَرِيَّتِه من الطير والوحوش والسباع والأنعام وكلِّ ذي روح أنه هالكٌ ميت.

وأنت تعلم أن تخصيص الشيء بالحيِّ الموجود في الدنيا لا بدَّ له من قرينةٍ، فإن اعتُبر كونُه محكوماً عليه بالهلاك ـ حيث شاع استعماله في الموت، وهو إنما يكون في الدنيا ـ قرينةً فذاك، وإلَّا فهو كما ترى.

ومن الناس مَن التزم ما يقتضيه ظاهرُ العموم من أنه كلُّ ما يوجد في وقتٍ من الأوقات في الدنيا والأخرى يصير هالكاً بعد وجوده، بناءً على تجدُّد الجواهر وعدمِ بقاء شيءٍ منها زمانين كالأعراض عند الأشعري، ولا يخفى بطلانُه وإن ذهب إلى ذلك بعضُ أكابر الصوفية قدِّست أسرارهم.

وقال سفيان الثوريُّ: وجهه تعالى العملُ الصالح الذي تُوجِّه به إليه عز وجل. فقيل في توجيه الاستثناء: إنَّ العمل المذكور قد كان في حيِّز العدم، فلمَّا فَعَله العبدُ ممتثلاً أمرَه تعالى أبقاه جلَّ شأنه له إلى أن يجازيه عليه، أو أنه بالقبول صار غيرَ قابلٍ للفناء؛ لِمَا أنَّ الجزاء عليه قام مقامه، وهو باقٍ. ورُوي عن أبي عبد الله الرضا رضي الله عنه أنه ارْتَضَى نحوَ ذلك، وقال: المعنى: كلُّ شيءٍ من أعمال العباد هالكٌ وباطلٌ إلَّا ما أُريدَ به وجهُه تعالى. وزعم الخفاجيُّ أنَّ هذا كلامٌ ظاهريٌّ(٢).

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٤٠.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٩٠.

وقال أبو عبيدة: المراد بالوَجْهِ جاهُه تعالى الذي جَعَله في الناس[(١)]. وهو كما ترى لا وَجْهَ له.

والسَّلَفُ يقولون: الوجهُ صفةٌ نثْبِتُها لله تعالى، ولا نشتغلُ بكيفيتها ولا بتأويلها بعد تنزيهه عزَّ وجل عن الجارحة.

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاءُ النافذُ في الخلق ﴿وَإِلَيْهِ﴾ عز وجل ﴿تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ عند البعث للجزاء بالحقِّ والعدل لا إلى غيره تعالى، ورجوعُ العباد إليه تعالى عند الصوفية أهلِ الوحدة بمعنى ما وراءَ طورِ العقل. وقيل: ضمير «إليه» للحكم.

وقرأ عيسى: «تَرْجِعون» مبنيًّا للفاعل[(٢)].

هذا والكلامُ من باب الإشارة في آيات هذه السورة أكثرُه فيما وَقَفْنا عليه من باب تطبيق ما في الآفاق على ما في الأنفس، ولعله يُعلَم بأدنى تأمُّلٍ فيما مرَّ بنا[(٣)] في نظائرها، فتأمَّل، واللهُ تعالى الهادي إلى سواء السبيل، وهو جلَّ وعلا حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.

---

(١) البحر ٧/ ١٣٧، وفي مجاز القرآن ٢/ ١١٢: «كلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه»: إلا هو.
(٢) البحر ٧/ ١٣٧، وهي قراءة يعقوب من العشرة، كما في النشر ٢/ ٢٠٨.
(٣) في الأصل: منا.

(٢٩) سورة العنكبوت مكية وآياتها تسع وستون

سورة العنكبوت مكيةٌ وموضوعها هو العقيدة في أصولها الكبرى «الإيمانُ بالله، واليوم الآخر، والبعث والجزاء، والإيمان بالرسل والكتب» شأنها كسائر السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة والإيمان. سميت سورةَ العنكبوت لأن الله تعالى ضرب العنكبوتَ مثلاً للأصنام التي اتُخِذَتْ آلهةً من دون الله، ومَثَّلَ لعابديها في اعتمادهم عليها بالعنكبوت الضعيفة التي احتمتْ ببيتٍ من خيوطٍ واهية، لا يحتمل أدنى مسَّةٍ فضلاً عن ان يقاوم الرياح العاتية، فهم في عبادتهم للأوثان والتجائهم إليها كالتجاء العنكبوت إلى ذلك البيت الواهن، والقرآن الكريم يعرض ذلك مثلاً مصوَّراً مجسَّماً في قوله تعالى ﴿مَثَلُ الذين اتَّخَذوا من دونِ اللهِ أولياءَ كمثلِ العنكبوتِ اتَّخَذَتْ بيتاً وإنَّ أَوهَنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾.

ولما كان المسلمون في مكة في أقسى أنواع المحنة والشدة لذلك جاء الحديث بالإسهاب عن الإيمان والفتنة وسنة الابتلاء في هذه الحياة حتَّى لَيَكادُ يكونُ محورُ السورةِ وموضوعُها الأساسي حول الابتلاء في الإيمان والعقيدة، ولهذا تبتدىء السورة بهذا البدء الواضح الصريح ﴿آلم. أحسبَ الناسُ أن يُتركُوا أَنْ يقولوا آمنَّا وهم لا يُفْتَنون. ولقد فتنَّا الذين مِنْ قبلِهم فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذينَ صَدَقوا ولَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبين﴾.

وتمضي الآيات الكريمة تتحدث عن فريق من الناس يحسبون

الإيمانَ كلمةً تُقال باللسان ، فإذا نزلت بهم المحنة أو أصابتهم الشدة ظهرت حقيقتهم فانتكسوا وارتدوا على أدبارهم معلنين ولاءهم لأهل الكفر ، ولم يصبر واعلى الأذى في سبيل العقيدة والإيمان ، بل أظهروا التخاذل والاستسلام أمام المحنة والابتلاء ، واهتزت في ضميرهم العقيدة فآثروا السلامة في الدنيا على عذاب الآخرة ، كأنَّ عذاب الدنيا أشدُّ من عذاب الآخرة وفي أمثال هؤلاء يقول القرآن الكريم ﴿ومن الناسِ مَنْ يقول آمنَّا باللهِ فإذا أُوْذِيَ في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصرٌ من ربك ليقولُنَّ إنّـا كنا معكم ، أَوَ لَيْسَ اللهُ بأعلمَ بما في صدورِ العالمين؟ ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين آمنوا وليعلَمَنَّ المنافقين﴾ .

وتمضي السورة الكريمة تتحدث عن بـلاء الأنبياء صلواتُ الله وسلامه عليهم وكفاحِهم وجهادِهم في سبيل نصرة دين الله ، وما لا قوة من شدائدَ ومِحَن ، بدءاً بقصة نوح ، وإبراهيم ، ثم لوطٍ وشعيب ، وتذكر قَصَص بعض الأمم المكذبين كعاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ، وما حلَّ بهم من الهلاك والدمار كنتيجة حتمية للاستعلاء والطغيان ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحـــة ، ومنهم من خسفنا به الأرضَ ، ومنهم مَنْ أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكنْ كانوا أنفسَهم يَظْلمون﴾ وفي قَصَص الأنبياء تتمثل ألوانٌ من الفتن التي اعترضتْ دعوة الإيمان في تاريخ البشرية الطويل ، ومن الصعاب والعقبات التي وقفت في طريق دعوة الأنبياء ، ففي قصة نوح تبتدّى ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ، فقد لبث في قومه ألفَ سنة إلا خمسين عاماً ثم لم يؤمن معه إلا القليل ثم كانت النتيجة « فأخذهم الطوفانُ وهم ظالمون » وفي قصة إبراهيم مع قومه يبتدّى طغيان الضلال وسوء الجزاء ، فقد حاول هدايتهم

بكل وسيلة وجادلهم بالحجة والبرهان ، وكانت النتيجة « فما كان جواب قومه إلاّ أَنْ قالوا اقتلوه أو حرّقوه ، فأنجاه الله من النار ، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون » وفي قصة لوط يتبدّى التبجح بالرذيلة دون خجل أو حياء مع الاستهتار بصوت الإنذار « فما كان جوابَ قومه إلاّ أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنتَ من الصادقين ... إلى قوله « إنّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » وفي قصة شعيب مع مدين يتبدّى الفسادُ والتمرد على الحقِ والعدلِ ، والتكذيبُ بآيات الله « فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » .

وبعد ذلك الاستعراض السريع لمحنة الأنبياء مع أقوامهم ، وذكر مصارع العُتاة البغاة من الكفرة والظلمة على مدار القرون ، يضرب القرآن الكريم المثل للآلهة المزعومة التي عُبدت من دون الله ، سواءً كانت من البشر أو الحجر ، فهي قوة هزيلة واهنة أمام قوة الواحد القهار « مَثَلُ الذينَ اتخذوا من دون اللهِ أولياءَ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهنَ البيوتِ البيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » وحقاً إنه لمثلٌ رائع يبيّن خسارة الذين عبدوا غير الله . ثم تمضي السورة الكريمة تُبيّن صدق الرسالة وصدق هذا القرآن الذي نزل على نبيٍ أميّ لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلّق علماً على أحدٍ من البشر ، ثم يأتي بكتاب معجزٍ للبشر وهو رجل أميٌّ ، وذلك – بلا شك – أعظم البراهين على صحة نبوته وصدق دعواه ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتابَ ، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنونَ به ، ومن هؤلاء من يؤمنُ بهِ وما يجحدُ بآياتِنا إلا الكافرون . وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تَخُطُّه بيمينكَ إذاً لارتابَ المبطلون . بل هو آياتٌ بيّناتٌ في صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون﴾ . وينتقل الحديث إلى الأدلة الناطقة بوجود الله ووحدانيته

في هذا الكون الفسيح ، حتى الكفرة يقرون بأن صانع هذا الكون هو الله جل وعلا ولكنهم مع هذا يعبدون الأصنام أو يعبدون الملائكة والجن ، ويجعلونهم شركاء لله في العبادة وهو تناقضٌ عجيب ﴿ ولئن سألتَهم من خلق السموات والأرضَ وسخَّر الشمس والقمر ليقولُنَّ الله ، فأنى يؤفكون ؟ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إن الله بكل شيء عليم . ولئن سألتهم من نزَّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولُنَّ الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ ثم تقرّر السورة حقيقة الحياة الدنيا التي يغتر بها الكثيرون فيظنونها دارَ راحةٍ وسعادة ، وما هي إلا دارُ عبور إلى دار القرار لأنها زائلة فانية ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعب وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهيَ الحَيَوانُ لو كانُوا يَعْلمون﴾ وتختم السورة الكريمة ببيان جزاء الذين وقفوا في وجـه المحنة والابتلاء وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي مغريات الحياة واجتازوا الفتن والمشاق ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلَنا وإن الله لمع المحسنين﴾

سورة العنكبوت

[٦٨٩] أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾(١) الآية. قال: أنزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله [ﷺ] من المدينة أنه لا يقبل منكم حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فتبعهم المشركون فردوهم فنزلت هذه الآية فكتبوا إليهم أنه قد نزل فيكم كذا وكذا فقالوا نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾(٢) الآية.

[٦٩٠] ك.. وأخرج عن قتادة قال أنزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾(٣) في أناس من أهل مكة خرجوا يريدون النبي [ﷺ] فعرض لهم المشركون فرجعوا فكتب إليهم إخوانهم بما نزل فيهم فخرجوا فقتل من قتل وخلص من خلص فنزل القرآن ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾(٤) الآية.

[٦٩١] وأخرج ابن سعد عن عبدالله بن عبيد (ابن عمير)(٥) قال نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾(٦) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ [العنكبوت: ٨] الآية.

[٦٩٢] أخرج مسلم والترمذي وغيرهما(٧) عن سعد بن أبي وقاص قال قالت أم سعد أليس قد أمر الله بالبر والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر فنزلت ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي﴾(٨) الآية.

---

[٦٨٩] (١) سورة العنكبوت: الآية (١و٢).
(٢) سورة النحل: الآية (١١٠).
[٦٩٠] (٣) سورة العنكبوت: الآية (١و٢).
(٤) سورة العنكبوت: الآية (٦٩).
[٦٩١] (٥) بالأصل (عن ابن عمير).
(٦) سورة العنكبوت: الآية (٢).
[٦٩٢] (٧) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٦٥و ١٩٦).
(٨) سورة العنكبوت: الآية (٨).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] الآية.

[٦٩٣] تقدم سبب نزولها في سورة النساء.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] الآية.

[٦٩٤] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارمي في مسنده(١) من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال النبي [ﷺ]: «**كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم**» فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ [العنكبوت: ٦٠] الآية.

[٦٩٥] أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف(٣) عن ابن عمر قال خرجت مع رسول الله [ﷺ] حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي: «**يا ابن عمر مالك لا تأكل**» قلت لا أشتهيه قال: «**لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا لقيت قوماً يخبؤن رزق سنتهم ويضعف اليقين**» قال: فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾(٤) فقال رسول الله [ﷺ]: «**إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد**».

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [العنكبوت: ٦٧] الآية.

[٦٩٦] أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنهم قالوا يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا والأعراب أكثر منا

---

[٦٩٤] (١) مسند الدارمي (١/ ١٢٤).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٥١).

[٦٩٥] (٣) رواه البغوي (٥/ ١٩٩) (شرح السنة) وانظر الدر المنثور (٤/ ٢٠٠) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٩٦).

(٤) سورة العنكبوت: الآية (٦٠).

فمتى ما يبلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس فأنزل الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾(١)

* * *

[٦٩٦] (١) سورة العنكبوت: الآية (٦٧).

سورة العنكبوت

مكية وقيل مدنية وقيل نزلت من أولها إلى رأس عشر بمكة وباقيها بالمدينة أو نزل إلى آخر العشر بالمدينة وباقيها بمكة بالعكس، وهي سبعون أو تسع وستون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ ﴾

المسألة الأولى: في تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه: الأول: لما قال الله تعالى قبل هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]وكان المراد منه أن يرده إلى مكة ظاهرًا غالبًا على الكفار ظافرًا طالبًا للثأر، وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ ولا يؤمروا بالجهاد، الوجه الثاني: هو أنه تعالى لما قال في أواخر السورة المتقدمة: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧]وكان في الدعاء إليه الطعان والحراب والضراب، لأن النبي عليه السلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟﴾ الوجه الثالث: هو أنه تعالى لما قال في آخر السورة المتقدمة: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]ذكر بعده ما يبطل قول المنكرين للحشر فقال: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]يعني ليس كل شيء هالكًا من غير رجوع بل كل هالك وله رجوع إلى الله. إذا تبين هذا، فاعلم أن منكري الحشر يقولون: لا فائدة في التكاليف فإنها مشاق في الحال ولا فائدة لها في المآل إذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال، فلا فائدة فيها. فلما بين الله أنهم إليه يرجعون بين أن الأمر ليس على ما حسبوه، بل حسن التكليف ليثيب الشكور ويعذب الكفور فقال: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟﴾ غير مكلفين من غير عمل يرجعون به إلى ربهم.

المسألة الثانية: في حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجي، ولنقدم عليه كلامًا كليًا في افتتاح السور بالحروف فنقول: الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئًا غيره ليلتفت المخاطب بسببه إليه ويقبل بقلبه عليه، ثم يشرع في المقصود. إذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلامًا له معنى مفهوم، كقول القائل: اسمع، واجعل بالك إلي، وكن لي، وقد يكون شيئًا هو في معنى الكلام المفهوم كقول القائل: أزيد ويا زيد وألا يا زيد، وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتًا غير مفهوم كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه، وقد يكون ذلك الصوت بغير

الفم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل السامع عليه. ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم، كان المقدم على المقصود أكثر. ولهذا ينادي القريب بالهمزة فيقال: أزيد، والبعيد بـ(يا) فيقال: يا زيد، والغافل ينبه أولاً فيقال: ألا يا زيد. إذا ثبت هذا فنقول إن النبي ﷺ وإن كان يقظان الجنان لكنه إنسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفًا هي كالمنبهات، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف التي لها معنى، لأن تقديم الحروف إذا كان لإقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فإذا كان ذلك المقدم كلامًا منظومًا وقولا مفهومًا فإذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه. أما إذا سمع منه صوتًا بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود، فإذن تقديم الحروف التي لا معنى لها في الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة، فإن قال قائل: فما الحكمة في اختصاص بعض السور بهذه الحروف؟ فنقول عقل البشر عن إدراك الأشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز، والله أعلم بجميع الأشياء، لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول: كل سورة في أوائلها حروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢] ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١-٣]، ﴿الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، ﴿يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [يس: ١، ٢]، ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [ص: ١] ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [ق: ١]، ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [السجدة: ١، ٢]، ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الجاثية: ١، ٢] إلا ثلاث سور ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]، ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]، ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢] والحكمة في افتتاح السور التي فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هي أن القرآن عظيم والإنزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] وكل سورة في أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه، لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظًا أو لم يكن، فكان الواجب أن يكون في أوائل كل سورة منبه، وأيضًا فقد وردت سورة فيها ذكر الإنزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] وقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا﴾ [النور: ١] وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ [الفرقان: ١] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١] لأنا نقول جوابًا عن الأول لا ريب في أن كل سورة من القرآن لكن السورة التي فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فإن قوله تعالى: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [طه: ١، ٢] مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما، وكتاب آخر يرد منه عليه فيه: إنا كتبنا إليك كتبًا إليك كتبًا فيها أوامرنا فامتثلها، لا شك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الأول وعن الثاني أن قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، ﴿وَتَبَارَكَ

ﭐلَّذِي﴾ [الزخرف: ٨٥] تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج إلى منبه بخلاف الأوامر والنواهي، وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: ١] قد بينا أنها من القرآن فيها ذكر إنزالها وفي السورة التي ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم في النفس وأثقل.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: ١] فنقول هذا ليس واردًا على مشغول القلب بشيء غيره بدليل أنه ذكر الكناية فيها وهي ترجع إلى مذكور سابق أو معلوم وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: ١] الهاء راجع إلى معلوم عند النبي ﷺ فكان متنبهًا له فلم ينبه، واعلم أن التنبيه قد حصل في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١] لأنها أشياء هائلة عظيمة، فإن تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذي يكون للبعيد الغافل عنها تنبيهًا، وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الابتداء بالكتاب والقرآن، وذلك لأن القرآن ثقله وعبأه بما فيه من التكاليف والمعاني، وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ يعني لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف فوجد المعنى الذي في السور التي فيها ذكر القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي فإن قيل مثل هذا الكلام، وفي معناه ورد في سورة التوبة وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦] ولم يقدم عليه حروف التهجي فنقول الجواب عنه في غاية الظهور، وهو أن هذا ابتداء كلام، ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال ﴿أَحَسِبَ﴾ وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون في أول الكلام لا في أثنائه، وأما ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢] فسيجيء في موضعه إن شاء الله تعالى هذا تمام، الكلام في الحروف.

المسألة الثالثة: في إعراب ﴿الٓمٓ﴾ وقد ذكر تمام ذلك في سورة البقرة مع الوجوه المنقولة في تفسيره ونزيد ههنا على ما ذكرناه أن الحروف لا إعراب لها لأنها جارية مجرى الأصوات المنبهة.

المسألة الرابعة: في سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال: الأول: أنها نزلت في عمار بن ياسر وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة، الثاني: أنها نزلت في أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون، الثالث: أنها نزلت في مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر.

المسألة الخامسة: في التفسير قوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ يعني: أظنوا أنهم يتركون بمجرد قولهم: ﴿ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ لا يبتلون بالفرائض البدنية والمالية؟ واختلف أئمة النحو في قوله: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ فقال بعضهم: أن يتركوا بأن يقولوا، وقال بعضهم: أن يتركوا يقولون آمنا، ومقتضى ظاهر هذا أنهم يمنعون من قولهم: آمنا، كما يفهم من قول القائل: تظن أنك

تترك أن تضرب زيد، أي تمنع من ذلك، وهذا بعيد فإن الله لا يمنع أحدًا من أن يقول: آمنت، ولكن مراد هذا المفسر هو أنهم لا يتركون يقولون: آمنا، من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بإيجاب الفرائض عليهم.

المسألة السادسة: في الفوائد المعنوية وهي أن المقصود الأقصى من الخلق العبادة والمقصد الأعلى في العبادة حصول محبة الله كما ورد في الخبر: «لاَ يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالْعِبَادَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ»(١) وكل من كان قلبه أشد امتلأ من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله، لكن للقلب ترجمان وهو اللسان، وللسان مصدقات هي الأعضاء، ولهذه المصدقات مزكيات فإذا قال الإنسان: آمنت، باللسان فقد ادعى محبة الله في الجنان، فلا بد له من شهود، فإذا استعمل الأركان في الإتيان بما عليه بنيان الإيمان حصل له على دعواه شهود مصدقات، فإذا بذل في سبيل الله نفسه وماله، وزكى بترك ما سواه أعماله، زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله، فيحرر في جرائد المحبين اسمه، ويقرر في أقسام المقربين قسمه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ يعني أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزكين، بل لا بد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين.

فائدة ثانية: وهي أن أدنى درجات العبد أن يكون مسلمًا فإن ما دونه دركات الكفر، فالإسلام أول درجة تحصل للعبد فإذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه، لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون ناهضًا في شغله ماضيًا في فعله، فينقل من خدمة إلى خدمة أعلى منها مرتبة، ومنهم من يكون كسلانًا متخلفًا فينقل من خدمة إلى خدمة أدنى منها، ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير، ومنهم من يقطع رسمه ويمحى من الجرائد اسمه، فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عابدًا مقبلاً على العبادة مقبولاً للسعادة فينقل من مرتبة المؤمنين إلى درجة الموقنين وهي درجة المقربين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلاً بالخلاعة، فينقل إلى مرتبة دونه وهي مرتبة العصاة ومنزلة القساة، وقد يستصغر العيوب

(١) أورده الهيثمي في (المجمع) (٢/ ٥١٣)، حديث رقم (٣٤٩٨).

وقال: رواه أحمد وفيه عبد الواحد بن قيس مولى عروة وثقه أبو زرعة والعجلي وابن معين في إحدى الروايتين وضعفه وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح. ورواه الطبراني في الأوسط وزاد: (فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها وأذنه التي يسمع بها ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها). والباقي بنحوه ورجاله رجال الصحيح خلا شيخه هارون بن كامل. رواه البزار بنحوه.

قلت: ولكن أصل الحديث في الصحيح عند البخاري (٥/ ٢٣٨٤)، حديث رقم (٦١٣٧) من طريق شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ثم إن الله قال من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».

ويستكثر الذنوب فيخرج من العبادة محرومًا ويلحق بأهل العناد مرجومًا، ومنهم من يبقى في أول درجة الجنة وهم البله، فقال الله بشارة للمطيع الناهض: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ يعني: أظنوا أنهم يتركون في أول المقامات؟ لا، بل ينقلون إلى أعلى الدرجات كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: ١١] ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ﴾ [النساء: ٩٥]. وقال بضده للكسلان ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ يعني إذا قال: آمنت، ويتخلف بالعصيان يترك ويرضى منه، لا بل ينقل إلى مقام أدنى وهو مقام العاصي أو الكافر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝﴾

ذكر الله ما يوجب تسليتهم فقال: كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم ﴿ءَامَنَّا﴾ بل فرض عليهم الطاعات وأوجب عليهم. وفي قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ وجوه: الأول: قول مقاتل: فليرين الله، الثاني: فليظهرن الله الثالث: فليميزن الله، فالحاصل على هذا هو أن المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان، فكيف يمكن أن يقال بعلمه عند الامتحان؟ فنقول: الآية محمولة على ظاهرها وذلك أن علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع، فقبل التكليف كان الله يعلم أن زيدًا مثلا سيطيع وعمرًا سيعصي، ثم وقت التكليف والإتيان يعلم أنه مطيع والآخر عاص وبعد الإتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه في شيء من الأحوال، وإنما المتغير المعلوم ونبين هذا بمثال من الحسيات ولله المثل الأعلى، وهو أن المرآة الصافية الصقيلة إذا علقت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابسًا ثوبًا أبيض ظهر فيها زيد في ثوب أبيض، وإذا عبر عليها عمرو في لباس أصفر يظهر فيها كذلك فهل يقع في ذهن أحد أن المرآة في كونها حديدًا تغيرت، أو يقع له أنها في تدويرها تبدلت، أو يذهب فهمه إلى أنها في صقالتها اختلفت أو يخطر بباله أنها عن سكانها انتقلت، لا يقع لأحد شيء من هذه الأشياء ويقطع بأن المتغير الخارجات، فافهم علم الله من هذا المثال بل أعلى من هذا المثال، فإن المرآة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك فقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ يعني يقع ممن يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك العلم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يعني من قال: أنا مؤمن، وكان صادقًا عند فرض العبادات يظهر منه ذلك ويعلم ومن قال ذلك وكان منافقًا كذلك يبين، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ بصيغة الفعل وقوله: ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ باسم الفاعل فائدة مع أن الاختلاف في اللفظ أدل على الفصاحة، وهي أن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال: فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الأمر، فإنه لا يفهم من صيغة الفعل

التكرار والرسوخ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك إذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام في أوائل إيجاب التكاليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال في حق المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ بصيغة الفعل أي وجد منهم الصدق وقال في حق الكافر: ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]بلفظ اسم الفاعل، وذلك لأن في اليوم المذكور الصدق قد يرسخ في قلب المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك في أوائل الإسلام.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾

لما بين حسن التكليف بقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟﴾ [العنكبوت: ٢]بين أن من كلف بشيء ولم يأت به يعذب وإن لم يعذب في الحال فسيعذب في الاستقبال ولا يفوت الله شيء في الحال ولا في المآل، وهذا إبطال مذهب من يقول: التكاليف إرشادات والإيعاد عليه ترغيب وترهيب ولا يوجد من الله تعذيب ولو كان يعذب ما كان عاجزًا عن العذاب عاجلاً فلِمَ كان يؤخر العقاب؟ فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ يعني ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب ويثيب من يثيب بحكم الوعد والإيعاد والله لا يخلف الميعاد، وأما الإمهال فلا يفضي إلى الإهمال والتعجيل في جزاء الأعمال شغل من يخاف الفوت لولا الاستعجال.

ثم قال تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يعني حكمهم بأنهم يعصون ويخالفون أمر الله ولا يعاقبون حكم سيئ فإن الحكم الحسن لا يكون إلا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل لا يحكم على الله بذلك فإن الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه، فحكمهم حكم في غاية السوء والرداءة.

ثم قال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

لما بين بقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: ٢]أن العبد لا يترك في الدنيا سدى، وبين في قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أن من ترك ما كلف به يعذب كذا بين أن يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع عمله ولا يخيب أمله.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنا ذكرنا في مواضع أن الأصول الثلاثة وهي الأول وهو الله تعالى ووحدانيته والأصل الآخر وهو اليوم الآخر والأصل المتوسط وهو النبي المرسل من الأول الموصل إلا الآخر لا يكاد ينفصل في الذكر الإلهي بعضها عن بعض، فقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [العنكبوت: ٢]فيه إشارة إلى الأصل الأول يعني أظنوا أنه يكفي الأصل الأول وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]يعني بإرسال الرسل وإيضاح

السبل فيه إشارة إلى الأصل الثاني وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مع قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ فيه إشارة إلى الأصل الثالث وهو الآخر.

المسألة الثانية: ذكر بعض المفسرين في تفسير لقاء الله أنه الرؤية وهو ضعيف فإن اللقاء والملاقاة بمعنًى وهو في اللغة بمعنى الوصول حتى إن جمادين إذا تواصلا فقد لاقى أحدهما الآخر.

المسألة الثالثة: قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ من كان يخاف الله، وهو أيضًا ضعيف، فإن المشهور في الرجاء هو توقع الخير لا غير ولأنا أجمعنا على أن الرجاء ورد بهذا المعنى يقال: أرجو فضل الله، ولا يفهم منه: أخاف فضل الله، وإذا كان واردًا لهذا لا يكون لغيره دفعًا للاشتراك.

المسألة الرابعة: يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بالحشر، فإن كان هو الموت فهذا ينبئ عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد في الأخبار، وذلك لأن القائل إذا قال: من كان يرجو الخير فإن السلطان واصل، يفهم منه أن متصلاً بوصول السلطان يكون هو الخير حتى إنه لو وصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل: أما قلت ما قلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير، فلو لم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا في المثال، وإذا تبين هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء.

المسألةُ الخامسة: قولهُ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ شرط وجزاؤه ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾ والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لا يرجو لقاء الله لا يكون أجل الله آتيًا له، وهذا باطل فما الجواب عنه؟ نقول: المراد من ذكر إتيان الأجل وعد المطيع بما بعده من الثواب، يعني: من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده، ولا شك أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتيًا على وجه يثاب هو.

المسألة السادسة: قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما، وذلك لأنه سبق القول في قوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ﴾[العنكبوت: ٢] وسبق الفعل بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[العنكبوت: ٢] وبقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾[العنكبوت: ٣] وبقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك به كالقصود والعلم يشملهما وهو السميع يسمع ما قالوه وهو العليم يعلم من صدق فيما قال: ﴿مِمَّن كَذَّبَ﴾[الأنعام: ١٥٧] وأيضًا عليم يعلم ما يعمل فيثيب ويعاقب، وههنا لطيفة وهي أن العبد له ثلاثة أمور هي أصناف حسناته: أحدها: عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع، وإنما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فإذا أتى بهذه الأشياء يجعل الله لمسموعه ما لا أذن سمعت، ولمرئيه ما لا عين رأت، ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب أحد، كما وصف في الخبر في وصف الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

لما بين أن التكليف حسن واقع وأن عليه وعدًا وإيعادًا ليس لهما دافع، بين أن طلب الله ذلك من المكلف ليس لنفع يعود إليه فإنه غني مطلقًا ليس شيء غيره يتوقف كماله عليه ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ [الإسراء: ٧].

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان إكثار العبد من العمل الصالح وإتقانه له، وذلك لأن من يفعل فعلاً لأجل ملك ويعلم أن الملك يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه، وإذا علم أن نفعه له ومقدر بقدر عمله يكثر منه، فإذا قال الله إنه سميع عليم فالعبد يتقن عمله ويخلصه له وإذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: هذا يدل على أن الجزاء على العمل لأن الله تعالى لما قال: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ فهم منه أن من جاهد ربح بجهاده ما لولاه لما ربح، فنقول: هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالاستحقاق، وبيانه هو أن الله تعالى لما بين أن المكلف إذا جاهد يثيبه فإذا أتى به هو يكون جهادًا نافعًا له ولا نزاع فيه، وإنما النزاع في أن الله يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد، ولا يجوز أن يحسن إلى أحد إلا بالعمل ولا دلالة للآية عليه.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾ يقتضي الحصر فينبغي أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره، وليس كذلك فإن من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه، حتى إن الوالد والولد ببركة المجاهد وجهاده ينتفعان، فنقول: ذلك نفع له فإن انتفاع الولد انتفاع للأب والحصر ههنا معناه أن جهاده لا يصل إلى الله منه نفع ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ **وفيه مسائل:**

الأولى: تدل الآية على أن رعاية الأصلح لا يجب على الله لأنه بالأصلح لا يستفيد فائدة وإلا لكان مستكملاً بتلك الفائدة وهي غيره وهي من العالم فيكون مستكملاً بغيره فيكون محتاجًا إليه وهو غني عن العالمين، وأيضًا أفعاله غير معللة لما بينا.

المسألة الثانية: تدل الآية على أنه ليس في مكان وليس على العرش على الخصوص فإنه من العالم والله غني عنه والمستغني عن المكان لا يمكن دخوله في مكان لأن الداخل في المكان يشار إليه بأنه ههنا أو هناك على سبيل الاستقلال، وما يشار إليه بأنه ههنا أو هناك يستحيل أن لا يوجد لا ههنا ولا هناك وإلا لجوز العقل إدراك جسم لا في مكان وإنه محال.

المسألة الثالثة: لو قال قائل: ليست قادريته بقدرة ولا عالميته بعلم وإلا لكان هو في قادريته محتاجًا إلى قدرة هي غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجًا وهو غني، نقول: لم قلتم: إن قدرته من العالم وهذا لأن العالم كل موجود سوى الله بصفاته أي كل موجود هو

خارج عن مفهوم الإله الحي القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر، والعلم ليس خارجًا عن مفهوم العالم.

المسألة الرابعة: الآية فيها بشارة وفيها إنذار، أما الإنذار فلأن الله إذا كان غنيًّا عن العالمين فلو أهلك عباده بعذابه فلا شيء عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم، وأما البشارة فلأنه إذا كان غنيًّا، فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عباده لا شيء عليه لاستغنائه عنه، وهذا يوجب الرجاء التام.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾

لما بين إجمالاً أن من يعمل صالحًا فلنفسه بين مفصلاً بعض التفصيل أن جزاء المطيع الصالح عمله فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنها تدل على أن الأعمال مغايرة للإيمان لأن العطف يوجب التغاير.

المسألة الثانية: أنها تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان لأن تكفير السيئات والجزاء بالأحسن معلق عليها وهي ثمرة الإيمان، ومثال هذا شجرة مثمرة لا شك في أن عروقها وأغصانها منها، والماء الذي يجري عليها والتراب الذي حواليها غير داخل فيها لكن الثمرة لا تحصل إلا بذلك الماء والتراب الخارج، فكذلك العمل الصالح مع الإيمان وأيضًا الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والأشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وإن غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالإيمان.

المسألة الثالثة: الإيمان هو التصديق كما قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي بمصدق واختص في استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله ﷺ على سبيل التفصيل إن علم مفصلاً أنه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الإجمال فيما لم يعلم، والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحًا بأمره، ولو نهى عنه لما كان صالحًا فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل في نفسه، وقالت المعتزلة: ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الأمر والنهي، فالصدق عمل صالح في نفسه ويأمر الله به لذلك، فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الأمر والنهي، وعندهم الأمر والنهي يترتب على الحسن والقبح والمسألة بطولها في [كتب] الأصول.

المسألة الرابعة: العمل الصالح باق لأن الصالح في مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف، يقال فسدت الزروع إذا هلكت أو خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هي بعد صالحة أي باقية على ما ينبغي. إذا علم هذا فنقول: العمل الصالح لا يبقى بنفسه لأنه عرض، ولا يبقى

بالعامل أيضًا لأنه هالك كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ [القصص: ٨٨] فبقاؤه لا بد من أن يكون بشيء باق، لكن الباقي هو وجه الله لقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فينبغي أن يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون صالحًا، وما لا يكون لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحًا، فالعمل الصالح هو الذي أتى به المكلف مخلصًا لله.

المسألة الخامسة: هذا يقتضي أن تكون النية شرطًا في الصالحات من الأعمال وهي قصد الإيقاع لله، ويندرج فيها النية في الصوم خلافًا لزفر، وفي الوضوء خلافًا لأبي حنيفة رحمه الله.

المسألة السادسة: العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] لكنه لا يرتفع إلا بالكلم الطيب فإنه يصعد بنفسه كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل، ولهذا قدم الإيمان على العمل، وهاهنا لطيفة، وهي أن أعمال المكلف ثلاثة: عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه، وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته، وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته. فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها وإنما ترتفع بغيرها، والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين في الآية، وعمل القلب وهو الفكر ينزل إليه كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَيَقُولُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ»[1] والتائب النادم بقلبه، وكذلك قوله عليه السلام: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وجل أنا عند المنكسرة قلوبهم»[2] يعني بالفكرة في عجزه وقدرتي وحقارته وعظمتي ومن حيث العقل من تفكر في آلاء الله وجد الله وحضر ذهنه، فعلم أن لعمل القلب يأتي الله وعمل اللسان يذهب إلى الله وعمل الأعضاء يوصل إلى الله، وهذا تنبيه على فضل عمل القلب.

المسألة السابعة: ذَكَر اللهُ من أعمال العبد نوعين: الإيمان والعمل الصالح، وذكر في مقابلتهما من أفعال الله أمرين تكفير السيئات والجزاء بالأحسن حيث قال: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ فتكفير السيئات في مقابلة الإيمان، والجزاء بالأحسن في مقابلة العمل الصالح، وهذا يقتضي أمورًا: الأول: المؤمن لا يخلد في النار لأن بإيمانه تكفر سيئاته فلا يخلد في العذاب: الثاني: الجزاء الأحسن المذكور ههنا غير الجنة، وذلك لأن المؤمن بإيمانه يدخل الجنة إذ تكفر سيئاته ومن كفرت سيئاته أدخل الجنة، فالجزاء الأحسن يكون غير الجنة وهو ما لا

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (١/ ٥٢٣/ ٧٥٨) من طريق المصنف... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٨٣)، حديث رقم (٨٩٦٢) من طريق أبي عوانة عن أبي إسحاق... به.

(٢) ذكره العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٢٣٤)، حديث رقم (٦١٤).

وقال: قال في المقاصد ذكره في البداية للغزالي وقال القاري عقبه ولا يخفى أن الكلام في هذا المقام لم يبلغ الغاية قلت وتمامه «وأنا عند المندرسة قلوبهم لأجلي» ولا أصل لهما في المرفوع انتهى.

عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولا يبعد أن يكون هو الرؤية. الأمر الثالث: هو أن الإيمان يستر قبح الذنوب في الدنيا فيستر الله عيوبه في الأخرى، والعمل الصالح يحسن حال الصالح في الدنيا فيجزيه الله الجزاء الأحسن في العقبى، فالإيمان إذن لا يبطله العصيان بل هو يغلب المعاصي ويسترها ويحمل صاحبها على الندم، والله أعلم.

المسألة الثامنة: قوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يستدعي وجود السيئات حتى تكفر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأسرها من أين يكون لهم سيئة؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن وعد الجميع بأشياء لا يستدعي وعد كل واحد بكل واحد من تلك الأشياء، مثاله: إذا قال الملك لأهل بلد: إذا أطعتموني أكرم آباءكم وأحترم أبناءكم وأنعم عليكم وأحسن إليكم، لا يقتضي هذا أنه يكرم آباء من توفى أبوه، أو يحترم ابن من لم يولد له ولد، بل مفهومه أنه يكرم أب من له أب، ويحترم ابن من له ابن، فكذلك يكفر سيئة، من له سيئة الجواب الثاني: ما من مكلف إلا وله سيئة أما غير الأنبياء فظاهر، وأما الأنبياء فلأن ترك الأفضل منهم كالسيئة من غيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

المسألة التاسعة: قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: لنجزينهم بأحسن أعمالهم، وثانيهما: لنجزينهم أحسن من أعمالهم. وعلى الوجه الأول معناه نقدر أعمالهم أحسن ما تكون ونجزيهم عليها لا أنه يختار منها أحسنها ويجزي عليه ويترك الباقي، وعلى الوجه الثاني: معناه قريب من معنى قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقوله: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩].

المسألة العاشرة: ذكر حال المسيء مجملاً بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤] إشارة إلى التعذيب مجملاً. وذكر حال المحسن مجملاً بقوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦] ومفصلاً بهذه الآية، ليكون ذلك إشارة إلى أن رحمته أتم من غضبه وفضله أعم من عدله.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

وفي الآية مسائل:

الأولى: ما وجه تعلق الآية بما قبلها؟ نقول: لما بين الله حسن التكاليف ووقوعها، وبين ثواب من حقق التكاليف أصولها وفروعها تحريضًا للمكلف على الطاعة، ذكر المانع ومنعه من أن يختار اتباعه، فقال الإنسان إن انقاد لأحد ينبغي أن ينقاد لأبويه، ومع هذا لو أمراه بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلاً عن غيرهما فلا يمنعن أحدكم شيء من طاعة الله ولا يتبعن أحد من يأمر بمعصية الله.

المسألة الثانية: في القراءة قرئ: ﴿حُسْنًا﴾ وَ(إِحْسَانًا) وَ﴿حُسْنًا﴾ أظهر ههنا، ومن قرأ (إِحْسَانًا) فمن قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] والتفسير على القراءة المشهورة هو أن الله تعالى وصى الإنسان بأن يفعل مع والديه حسن التأبي بالفعل والقول، ونكر حسنًا ليدل على الكمال، كما يقال إن لزيد مالاً.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ دليل على أن متابعتهم في الكفر لا يجوز، وذلك لأن الإحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلو ترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن إلى الوالدين، فاتباع العبد أبويه لأجل الإحسان إليهم يفضي إلى ترك الإحسان إليهما، وما يفضي وجوده إلى عدمه باطل فالاتباع باطل، وأما إذا امتنع من الشرك بقي على الطاعة والإحسان إليهما من الطاعة فيأتي به، فترك هذا الإحسان صورة يفضي إلى الإحسان حقيقة.

المسألة الرابعة: الإحسان بالوالدين مأمور به، لأنهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقائه بالتربية المعتادة فهما سبب مجازًا، والله تعالى سبب له في الحقيقة بالإرادة، وسبب بقائه بالإعادة للسعادة، فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه، ثم قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فقوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني التقليد في الإيمان ليس بجيد فضلاً عن التقليد في الكفر، فإذا امتنع الإنسان من التقليد فيه ولا يطيع بغير العلم لا يطيعهما أصلاً، لأن العلم بصحة قولهما محال الحصول، فإذا لم يشرك تقليدًا ويستحيل الشرك مع العلم، فالشرك لا يحصل منه قط.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني عاقبتكم ومآلكم إلي، وإن كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والأولاد والأقارب والعشائر، ولا شك أن من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة، وحضوره بين يدي غيره دائم غير منقطع لا يترك مراضي من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه في زمان آخر.

ثم قوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ فيه لطيفة وهي أن الله تعالى يقول: لا تظنوا أني غائب عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين في الحال اعتمادًا على غيبتي وعدم علمي بمخالفتكم إياي فإني حاضر معكم أعلم ما تفعلون ولا أنسى فأنبئكم بجميعه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝٩﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في إعادة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مرة أخرى؟ نقول: الله تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتديًا وضالاً بقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] وذكر حال الضال مجملاً وحال المهتدي مفصلاً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٧] ولما تمم ذلك ذكر قسمين آخرين هاديًا ومضلاً، فقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] يقتضي أن يهتدي بهما وقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ﴾ [العنكبوت: ٨] بيان إضلالهما وقوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم﴾ [العنكبوت: ٨] بطريق الإجمال تهديد المضل، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على سبيل التفصيل وعد الهادي فذكر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مرة لبيان حال المهتدي، ومرة أخرى لبيان حال الهادي والذي يدل عليه هو أنه قال أولاً: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٧]، وقال ثانيًا: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والصالحون هم الهداة لأنه مرتبة الأنبياء ولهذا قال كثير من الأنبياء: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

المسألة الثانية: قد ذكرنا أن الصالح باق والصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية والمعمول له وهو وجه الله باق، والعاملون باقون ببقاء أعمالهم، وهذا على خلاف الأمور الدنيوية، فإن في الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفي الآخرة بقاء الفاعل بالفعل.

المسألة الثالثة: قيل في معنى قوله: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لندخلنهم في مقام الصالحين أو في دار الصالحين والأولى أن يقال: لا حاجة إلى الإضمار بل يدخلهم في الصالحين أي يجعلهم منهم ويدخلهم في عدادهم كما يقال: الفقيه داخل في العلماء.

المسألة الرابعة: قال الحكماء: عالم العناصر عالم الكون والفساد وما فيه يتطرق إليه الفساد، فإن الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد ويتكون منه هواء، وعالم السموات لا كون فيه ولا فساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك ترابًا بخلاف الإنسان فإنه يصير ترابًا أو شيئًا آخر وعلى هذا فالعالم العلوي ليس بفاسد فهو صالح، فقوله تعالى: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي في المجردين الذين لا فساد لهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾

نقول: أقسام المكلفين ثلاثة: مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده، وكافر مجاهر بكفره وعناده، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضمر الكفر في فؤاده، والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] وبين أحوالهما بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ [العنكبوت: ٤] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العنكبوت: ٧] بين القسم الثالث وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ ولم يقل: آمنت، مع أنه وحد الأفعال التي بعده كقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ وذلك لأن المنافق كان يشبه

نفسه بالمؤمن، ويقول إيماني كإيمانك فقال: ﴿ءَامَنَّا﴾ يعني أنا والمؤمن حقًّا آمنا، إشعارًا بأن إيمانه كإيمانه، وهذا كما أن الجبان الضعيف إذا خرج مع الأبطال في القتال، وهزموا خصومهم يقول الجبان: خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم، فيصح من السامع لكلامه أن يقول: وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول: خرجنا وقاتلنا؟ وهذا الرد يدل على أنه يفهم من كلامه أن خروجه وقتاله كخروجهم وقتالهم، لأنه لا يصح الإنكار عليه في دعوى نفس الخروج والقتال، وكذا قول القائل: أنا والملك ألفينا فلانًا واستقبلناه ينكر، لأن المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا إظهار كون إيمانهم كإيمان المحقين كان الواحد يقول: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي أنا والمحق.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ هو في معنى قوله: ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ [آل عمران: ١٩٥] غير أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك: ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقال ههنا: ﴿أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: في سبيل الله، واللطيفة فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أوذي المؤمن في سبيل الله، ليترك سبيله ولم يتركه، وأوذي المنافق الكافر فترك الله بنفسه، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الإيذاء إلى حد الإكراه، ويكون قلبه مطمئنًا بالإيمان فلا يترك الله، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية، والمؤمن أوذي ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتي الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قال الزمخشري: جعل فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر، وقيل: جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله، وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى ترددوا في الأمر، وقالوا: إن آمنا نتعرض للتأذي من الناس وإن تركنا الإيمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام، واختاروا الاحتراز عن التأذي العاجل ولا يكون التردد إلا عند التساوي ومن أين إلى أين تعذيب الناس لا يكون شديدًا، ولا يكون مديدًا لأن العذاب إن كان شديدًا كعذاب النار وغيره يموت الإنسان في الحال فلا يدوم التعذيب، وإن كان مديدًا كالحبس والحصر لا يكون شديدًا وعذاب الله شديد وزمانه مديد، وأيضًا عذاب الناس له دافع وعذاب الله ما له من دافع، وأيضًا عذاب الناس عليه ثواب عظيم، وعذاب الله بعده عذاب أليم، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذابًا كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذابًا.

المسألة الرابعة: قال: ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: عذاب الناس، لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاءً وامتحانًا وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحانًا من الإنسان كالصبر على العبادات.

المسألة الخامسة: لو قال قائل هذا يقتضي منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازًا عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله، فنقول: ليس كذلك، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرًا وباطنًا، وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهرًا وباطنًا، بل في باطنه الإيمان، ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ يعني دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية، وفيه فوائد نذكرها في مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ ولم يقل: من الله، مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله: ﴿أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة.

المسألة الثانية: لم يقل: ولئن جاءكم أو جاءك، بل قال: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهذا يقتضي أن يكونوا قائلين: إنا معكم إذا جاء نصر، سواء جاءهم أو جاء المؤمنين، فنقول: هذا الكلام يقتضي أن يكونوا قائلين: إنا معكم إذا جاء النصر، لكن النصر لا يجيء إلا للمؤمن، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧] ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل أن أحد الجيشين إن انهزم في الحال ثم كر المنهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين، لا يطلق اسم المنصور إلا على من كان له العاقبة، فكذلك المسلم وإن كسر في الحال فالعاقبة للمتقين، فالنصر لهم في الحقيقة.

المسألة الثالثة: في (ليقولن) قراءتان إحداهما: الفتح حملاً على قوله: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ يعني من يقول آمنا إذا أوذي يترك ذلك القول، وإذا جاء النصر يقول إنا كنا معكم، وثانيتهما: الضم على الجمع إسنادًا للقول إلى الجميع الذين دل عليهم المفهوم فإن المنافقين كانوا جماعة، ثم بين الله تعالى أنهم أرادوا التلبيس ولا يصح ذلك لهم لأن التلبيس إنما يكون عندما يخالف القول القلب، فالسامع يبني الأمر على قوله ولا يدري ما في قلبه فيلتبس الأمر عليه وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور، وهو أعلم بما في صدر الإنسان من الإنسان فلا يلتبس عليه الأمر، وهذا إشارة إلى أن الاعتبار بما في القلب، فالمنافق الذي يظهر الإيمان ويضمر الكفر كافر، والمؤمن المكره الذي يظهر الكفر ويضمر الإيمان مؤمن، والله أعلم بما في صدور العالمين، ولما بين أنه أعلم بما في قلوب العالمين، بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم، والمنافق وإن تكلم فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وقد سبق تفسيره، لكن فيه مسألة واحدة وهي أن الله قال هناك: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾[العنكبوت: ٣] وقال ههنا: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن والكافر، والكافر في قوله كاذب،

فإنه يقول: الله أكثر من واحد، والمؤمن في قوله صادق فإنه كان يقول: الله واحد، ولم يكن هناك ذكر من يضمر خلاف ما يظهر، فكان الحاصل هناك قسمين صادقًا وكاذبًا وكان ههنا المنافق صادقًا في قوله فإنه كان يقول: الله واحد، فاعتبر أمر القلب في المنافق فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ واعتبر أمر القلب في المؤمن وهو التصديق فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾

لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة وأحوالهم، وذكر أن الكافر يدعو من يقول: آمنت، إلى الكفر بالفتنة، وبين أن عذاب الله فوقها، وكان الكافر يقول للمؤمن: تصبر في الذل وعلى الإيذاء لأي شيء ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب بموافقتنا؟ فكان جواب المؤمن أن يقول: خوفًا من عذاب الله على خطيئة مذهبكم، فقالوا لا خطيئة فيه وإن كان فيه خطيئة فعلينا.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ولنحمل صيغة أمر، والمأمور غير الآمر، فكيف يصح أمر النفس من الشخص؟ فنقول: الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء، أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم، قال صاحب (الكشاف): هو في معنى قول من يريد اجتماع أمرين في الوجود، فيقول: ليكن منك العطاء وليكن مني الدعاء، فقوله: ولنحمل، أي ليكن منا الحمل، وليس هو في الحقيقة أمر طلب وإيجاب.

المسألة الثانية: قال: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم﴾ وقال بعد هذا: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]فهناك نفى الحمل، وهاهنا أثبت الحمل، فكيف الجمع بينهما، فنقول: قول القائل: فلان حمل عن فلان، يفيد أن حمل فلان خف، وإذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئًا، فكذلك ههنا ما هم بحاملين من خطاياهم يعني لا يرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون أوزارًا بسبب إضلالهم ويحملون أوزارًا بسبب ضلالتهم، كما قال النبي عليه السلام: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ وِزْرِهِ شَيْءٌ» (١).

المسألة الثالثة: الصيغة أمر، والأمر لا يدخله التصديق والتكذيب، فكيف يفهم قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ نقول: قد تبين أن معناه شرط وجزاء، فكأنهم قالوا: إن تتبعونا نحمل خطاياكم، وهم كذبوا في هذا فإنهم لا يحملون شيئًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

في الذي كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: كان قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾

(١) تقدم مرارًا.

[العنكبوت: ١٢] صادرًا لاعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر، ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذٰلك فيسألون عن ذلك الافتراء، وثانيها: أن قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] كان عن اعتقاد أن لا حشر، فإذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم: أما قلتم أن لا حشر، وثالثها: أنهم لما قالوا: إن تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم، يقال لهم: فاحملوا خطاياهم، فلا يحملون فيسألون ويقال لهم: لم افتريتم؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم، وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم، وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصًا بالنبي وأصحابه وأمته حتى صعب عليهم ذلك، بل قبله كان كذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣] ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبي عليه السلام وقومه، ومنهم إبراهيم عليه السلام وغيرهما، ثم قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في ذكر مدة لبثه؟ نقول: كان النبي عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام وإصرارهم على الكفر فقال: إن نوحًا لبث ألف سنة تقريبًا في الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل، وصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك، وأيضًا كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغي أن يغتروا فإن العذاب يلحقهم.

المسألة الثانية: قال بعض العلماء: الاستثناء في العدد تكلم بالباقي، فإذا قال القائل: لفلان علي عشرة إلا ثلاثة، فكأنه قال علي سبعة، إذا علم هذا فقوله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كقوله تسعمائة وخمسين سنة، فما الفائدة في العدول عن هذه العبارة إلى غيرها؟ فنقول: قال الزمخشري: فيه فائدتان: إحداهما: أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فإن من قال: عاش فلان ألف سنة، يمكن أن يتوهم أن يقول: ألف سنة تقريبًا لا تحقيقًا، فإذا قال: إلا شهرًا أو إلا سنة، يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق، الثانية: هي أن ذكر لبث نوح عليه السلام في قومه كان لبيان أنه صبر كثيرًا فالنبي عليه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه وإذا كان كذلك فذكر العدد الذي في أعلى مراتب الأعداد التي لها اسم مفرد موضوع، فإن مراتب الأعداد هي الآحاد إلى العشرة والعشرات إلى المائة والمئات إلى الألف، ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف، ومائة ألف، وألف ألف.

المسألة الثالثة: قال بعض الأطباء: العمر الإنساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة، والآية تدل على خلاف قولهم، والعقل يوافقها فإن البقاء على التركيب الذي في الإنسان ممكن لذاته، وإلا لما بقي، ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن لأن المؤثر فيه إن كان واجب الوجود فظاهر الدوام وإن كان غيره فله مؤثر، وينتهي إلى الواجب وهو دائم، فتأثيره يجوز أن يكون دائمًا، فإذن البقاء ممكن في ذاته، فإن لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن العدم وإلا لما بقي هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع، فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل، (ثم نقول): لا نزاع بيننا وبينهم لأنهم يقولون: العمر الطبيعي لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة، ونحن نقول: هذا العمر ليس طبيعيًا بل هو عطاء إلهي، وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا ولا لحظة، فضلاً عن مائة أو أكثر.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

فيه إشارة إلى لطيفة وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لعذب من ظلم وتاب، فإن الظلم وجد منه، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم، فقوله: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ يعني أهلكهم وهم على ظلمهم، ولو كانوا تركوه لما أهلكهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

في الراجع إليه الهاء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ وجهان: أحدهما: أنها راجعة إلى السفينة المذكورة، وعلى هذا ففي كونها آية وجوه: أحدها: أنه اتخذت قبل ظهور الماء ولولا إعلام الله نوحًا وإنباؤه إياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة، وثانيها: أن نوحًا أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه، ثم إن الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة، وثالثها: أن الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية، ولولا ذلك لما حصلت النجاة. والثاني: أنها راجعة إلى الواقعة أو إلى النجاة أي جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين.

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾

لما فرغ من الإشارة إلى حكاية نوح ذكر حكاية إبراهيم وفي إبراهيم وجهان من القراءة أحدهما: النصب وهو المشهور، والثاني: الرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم، والأول: فيه وجهان أحدهما: أنه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر إبراهيم، والثاني: أنه منصوب بمذكور وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ [العنكبوت: ١٤] فيكون كأنه قال: وأرسلنا إبراهيم، وعلى هذا.

ففي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ظرف أرسلنا أي أرسلنا إبراهيم إذ قال لقومه، لكن

قوله: ﴿لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ دعوة والإرسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله: وأرسلنا إبراهيم حين قال لقومه، مع أنه يكون مرسلاً قبله؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن الإرسال أمر يمتد فهو حال قوله: لقومه اعبدوا الله، كان مرسلاً، وهذا كما يقول القائل: وقفنا للأمير إذ خرج من الدار، وقد يكون الوقوف قبل الخروج، لكن لما كان الوقوف ممتدًا إلى ذلك الوقت صح ذلك الوجه، الثاني: هو أن إبراهيم بمجرد هداية الله إياه كان يعلم فساد قول المشركين وكان يهديهم إلى الرشاد قبل الإرسال، ولما كان هو مشتغلاً بالدعاء إلى الإسلام أرسله الله تعالى، وقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ إشارة إلى التوحيد لأن التوحيد إثبات الإله ونفي غيره فقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى الإثبات، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ إشارة إلى نفي الغير لأن من يشرك مع الملك غيره في ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم، ويمكن أن يقال: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى الإتيان بالواجبات، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ إشارة إلى الامتناع عن المحرمات، ويدخل في الأول الاعتراف بالله، وفي الثاني الامتناع من الشرك، ثم قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني عبادة الله وتقواه خير، والأمر كذلك لأن خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلاً واعتبارًا، أما عقلاً فلأن الممكن لا بد له من مؤثر لا يكون ممكنًا قطعًا للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل إذ لنا إله، وأما التشريك فبطلانه عقلاً وكون خلافه خيرًا وهو أن شريك الواجب إن لم يكن واجبًا فكيف يكون شريكًا وإن كان واجبًا لزم وجود واجبين فيشتركان في الوجوب ويتباينان في الإلهية، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل، وأما اعتبارًا فلأن الشرف لن يكون ملكًا أو قريب ملك، لكن الإنسان لا يكون ملكًا للسموات والأرضين فأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]. وقال: «لَنْ يَتَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ» وقال: «لاَ يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ بِالْعِبَادَةِ إِلَيَّ» فالمعطل لا ملك ولا قريب ملك لعدم اعتقاده بملك فلا مرتبة له أصلاً، وأما التشريك فلأن من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء خسيسة، فإذن من يقول: إن ربي لا يماثله شيء، أعلى مرتبة ممن يقول: سيدي صنم منحوت عاجز مثله، فثبت أن عبادة الله وتقواه خير وهو خير لكم أي خير للناس إن كانوا يعلمون ما ذكرناه من الدلائل والاعتبارات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾.

ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه، وذلك لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور، إما لكونه

مستحقًا للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذي اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الهجوع، وإما لكونه نافعًا في الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله إليه كالمستخدم بأجرة، وإما لكونه نافعًا في المستقبل كمن يخدم غيره متوقعًا منه أمرًا في المستقبل، وإما لكونه خائفًا منه. فقال إبراهيم: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ إشارة إلى أنها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها أوثانًا لا شرف لها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

إشارة إلى عدم المنفعة في الحال وفي المآل، وهذا لأن النفع إما في الوجود، وإما في البقاء لكن ليس منهم نفع في الوجود، لأن وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها، ولا نفع في البقاء لأن ذلك بالرزق، وليس منهم ذلك، ثم بين أن ذلك كله حاصل من الله فقال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ فقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى استحقاق عبوديته لذاته وقوله: ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ إشارة إلى حصول النفع منه عاجلاً وآجلاً.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ نكرة، وقال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ معرفًا فما الفائدة؟ فنقول قال الزمخشري: قال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ نكرة في معرض النفي أي لا رزق عندهم أصلاً، وقال معرفة عند الإثبات عند الله أي كل الرزق عنده فاطلبوه منه، وفيه وجه آخر وهو أن الرزق من الله معروف بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦] والرزق من الأوثان غير معلوم فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لعدم حصول العلم به وقال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ الموعود به، ثم قال: ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي اعبدوه لكونه مستحقًا للعبادة لذاته واشكروا له أي لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي اعبدوه لكونه مرجعًا منه يتوقع الخير لا غير.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ وفي المخاطب في هذه الآية وجهان: أحدهما: أنه قوم إبراهيم والآية حكاية عن قوم إبراهيم كأن إبراهيم قال لقومه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ وأنا أتيت بما علي من التبليغ فإن الرسول ليس عليه إلا البلاغ والبيان، والثاني: أنه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهه أن الحكايات أكثرها إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ولهذا كثيرًا ما يقول الحاكي لأي شيء: حكيت هذه الحكاية، فالنبي عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب

ويرتدعوا خوفًا من التعذيب، فقال في أثناء حكايتهم: يا قوم إن تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فإن كذبتم أخاف عليكم ما جاء على غيركم. وعلى الوجه الأول. **في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: أن قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ﴾ كيف يفهم، مع أن إبراهيم لم يسبقه إلا قوم نوح وهم أمة واحدة؟ والجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن قبل نوح كان أقوام كقوم إدريس وقوم شيث وآدم، والثاني: أن نوحًا عاش ألفًا وأكثر وكان القرن يموت ويجيء أولاده والآباء يوصون الأبناء بالامتناع عن الاتباع فكفى بقوم نوح أممًا.

المسألة الثانية: ما ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ وما ﴿ٱلْمُبِينُ﴾؟ فنقول: البلاغ هو ذكر المسائل، والإبانة هي إقامة البرهان عليه.

المسألة الثالثة: الآية تدل على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لأن الرسول إذا بلغ شيئًا ولم يبينه فإنه لم يأت بالبلاغ المبين، فلا يكون آتيًا بما عليه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

لما بين الأصل الأول وهو التوحيد وأشار إلى الأصل الثاني وهو الرسالة بقوله: ﴿عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨] شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر، وقد ذكرنا مرارًا أن الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها عن بعض في الذكر الإلهي، فأينما يذكر الله تعالى منها اثنين يذكر الثالث.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الإنسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ﴾؟ فنقول: المراد العلم الواضح الذي كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لأن الخلق الأول لا يكون من مخلوق وإلا لما كان الخلق الأول خلقًا أول، فهو من الله، هذا إن قلنا: إن المراد إثبات نفس الخلق، وإن قلنا إن المراد بالبدء خلق الآدمي أولاً وبالإعادة خلقه ثانيًا، فنقول: العاقل لا يخفى عليه أن خالق نفسه[1] ليس إلا قادر حكيم يصور الأولاد في الأرحام، ويخلقه من نطفة في غاية الإتقان والإحكام، فذلك الذي خلق أولاً معلوم ظاهر فأطلق على ذلك العلم لفظ الرؤية، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي ألم يعلموا علمًا ظاهرًا واضحًا ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ يخلقه من تراب يجمعه فكذلك يجمع أجزاءه من التراب ينفخ فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة إليكم، فإن من نحت حجارات ووضع شيئًا بجنب شيء فَفَرَّقَه أَمْرٌ ما فإنه يقول: وضعه شيئًا

---

(١) المراد بنفسه هنا نفس الإنسان فهو من إضافة اسم الفاعل لمفعوله لا لفاعله كما يتبادر إلى الذهن الأول وهلة، تعالى الله عن الشبه والمثل والنظير.

بجنب شيء في هذه النوبة أسهل علي لأن الحجارات منحوتة، ومعلوم أن آية واحدة منها تصلح لأن تكون بجنب الأخرى، وعلى هذا المخرج خرج كلام الله في قوله ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ﴾ [الروم: ٢٧] وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

المسألة الثانية: قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال: أولم يروا أن الله خلق، أو بدأ الخلق؟ والكيفية غير معلومة، فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم، وهو أنه خلقه ولم يكن شيئًا مذكورًا، وأنه خلقه من نطفة هي من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف في حصول العلم بإمكان الإعادة فإن الإعادة مثله.

المسألة الثالثة: لم قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فأبرز اسمه مرة أخرى، ولم يقل: إن ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير إبراز؟ نقول: مع إقامة البرهان على أنه يسير فأكده بإظهار اسمه فإنه يوجب المعرفة أيضًا بكون ذلك يسيرًا، فإن الإنسان إذا سمع لفظ الله وفهم معناه أنه الحي القادر، بقدرة كاملة، لا يعجزه شيء، العالِمُ بِعِلْمٍ مُحيطٍ بذرات كل جسم، نافذ الإرادة لا رادَّ لما أراده، يقطع بجواز الإعادة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

الآية المتقدمة كانت إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ [العنكبوت: ١٩] على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه، وقال في هذه الآية: إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري، وهذا لأن الإنسان له مراتب في الإدراك بعضهم يدرك شيئًا من غير تعليم وإقامة برهان له، وبعضهم لا يفهم إلا بإبانة، وبعضهم لا يفهمه أصلاً فقال: إن كنتم لستم من القبيل الأول فسيروا في الأرض، أي سَيِّرُوا فِكْرَكَم في الأرض وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال في الآية الأولى بلفظ الرؤية وفي هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه؟ نقول: العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما تبين، والرؤية أتم من النظر لأن النظر يفضي إلى الرؤية، يقال: نظرت فرأيت، والمفضي إلى الشيء دون ذلك الشيء، فقال في الأول: أما حصلت لكم الرؤية؟ فانظروا في الأرض لتحصل لكم الرؤية.

المسألة الثانية: ذكر هذه الآية بصيغة الأمر وفي الآية الأولى بصيغة الاستفهام لأن العلم الحدسي إن حصل فالأمر به تحصيل الحاصل، وإن لم يحصل فلا يحصل إلا بالطلب لأن بالطلب يصير الحاصل فكريًا فيكون الأمر به تكليف ما لا يطاق، وأما العلم الفكري فهو مقدور فورد الأمر به.

المسألة الثالثة: أبرز اسم الله في الآية الأولى عند البدء حيث قال: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ١٩]وأضمره عند الإعادة وفي هذه الآية، أضمره عند البدء وأبرزه عند الإعادة حيث قال: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ﴾ لأن في الآية الأولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٩]كما يقول القائل: ضرب زيد عمرًا ثم ضرب بكرًا، ولا يحتاج إلى إظهار اسم زيد اكتفاء بالأول، وفي الآية الثانية كان ذكر البدء مسندًا إلى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقوله القائل: أما علمت كيف خرج زيد؟ اسمع مني كيف خرج، ولا يظهر اسم زيد، وأما إظهاره عند الإنشاء ثانيًا حيث قال: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ﴾ مع أنه كان يكفي أن يقول: ثم ينشئ النشأة الآخرة، فلحكمة بالغة وهي ما ذكرنا أن مع إقامة البرهان على إمكان الإعادة أظهر اسمًا من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الإعادة فقال (الله) مظهرًا مبرزًا ليقع في ذهن الإنسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ إرادته ويعترف بوقوع بدئه وجواز إعادته، فإن قيل: فلِمَ لم يقل: ثم الله يعيده، لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة؟ نقول: لوجهين أحدهما: أن الله كان مظهرًا مبرزًا بقرب منه وهو في قوله: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ١٩]ولم يكن بينهما إلا لفظ الخلق وأما ههنا فلم يكن مذكورًا عند البدء فأظهره، وثانيهما: أن الدليل ههنا تم على جواز الإعادة لأن الدلائل منحصرة في الآفاق وفي الأنفس، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]وفي الآية الأولى أشار إلى الدليل النفسي الحاصل لهذا الإنسان من نفسه، وفي الآية الثانية أشار إلى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وعندهما تم الدليلان، فأكده بإظهار اسمه، وأما الدليل الأول فأكده بالدليل الثاني، فلم يقل: ثم الله يعيده.

المسألة الرابعة: في الآية الأولى ذكر بلفظ المستقبل فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ﴾ [العنكبوت: ١٩]وهاهنا قال بلفظ الماضي فقال: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ﴾ ولم يقل: كيف يبدأ، فنقول الدليل الأول هو الدليل النفسي الموجب للعلم الحدسي وهو في كل حال يوجب العلم ببدء الخلق، فقال: إن كان ليس لكم علم بأن الله في كل حال يبدأ خلقًا فانظروا إلى الأشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقًا، ويحصل المطلوب من هذا القدر فإنه ينشئ كما بدأ ذلك.

المسألة الخامسة: قال في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال في الآية الأولى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]. وفيه فائدتان: إحداهما: أن الدليل الأول هو الدليل النفسي، وهو وإن كان موجبه العلم الحدسي التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق إليه يحصل العلم العام، لأنه بالنظر في نفسه علم نفسه وحاجته إلى الله ووجوده منه، وبالنظر إلى الآفاق علم حاجة غيره إليه ووجوده منه، فتم علمه بأن كل شيء من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال عند الدليل الواحد: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ وهو إعادته ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]الثانية: هي أنا بينا أن العلم الأول أتم وإن كان الثاني أعم وكون الأمر يسيرًا على

الفاعل أتم من كونه مقدورًا له بدليل أن القائل يقول في حق من يحمل مائة من أنه قادر عليه ولا يقول: إنه سهل عليه، فإذا سئل عن حمله عشرة أمنان يقول: إن ذلك عليه يسير، فنقول: قال الله تعالى: إن لم يحصل لكم العلم التام بأن هذه الأمور عند الله سهل يسير فسيروا في الأرض لتعلموا أنه مقدور، ونفس كونه مقدورًا كاف في إمكان الإعادة.

قوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٢٢ ﴾

لما ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلاً وحكمة، وإثابة أهل الإنابة فضلاً ورحمة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قدم التعذيب في الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال عليه السلام حاكيًا عنه «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»[(١)] فنقول: ذلك لوجهين: أحدهما: أن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الإيعاد وعقبه بالرحمة، وكما ذكر، بعد إثبات الأصل الأول وهو التوحيد التهديد بقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ﴾ [العنكبوت: ١٨] وأهلكوا بالتكذيب كذلك ذكر بعد إثبات الأصل الآخر التهديد بذكر التعذيب، وذكر الرحمة وقع تبعًا لئلا يكون العذاب مذكورًا وحده وهذا يحقق قوله: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي» وذلك لأن الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يمحضه في الذكر بل ذكر الرحمة معه.

المسألة الثانية: إذا كان ذكر هذا لتخويف العاصي وتفريح المؤمن فلو قال: يعذب الكافر ويرحم المؤمن، لكان أدخل في تحصيل المقصود وقوله: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لا يزجر الكافر لجواز أن يقول: لَعَلِّي لا أكون ممن يشاء الله عذابه، فنقول: هذا أبلغ في التخويف، وذلك لأن الله أثبت بهذا إنفاذ مشيئته إذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع، ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والإيعاد أنه شاء تعذيب أهل العناد، فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال: يعذب العاصي، فإنه لا يدل على كمال مشيئته، لأنه لا يفيد أنه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه، فإذا لم يفد هذا فيقول الكافر: إذا لم يحصل مراده في تلك الصورة يمكن أن يحصل في صورة أخرى، ولنضرب له مثلاً فنقول: إذا قيل: إن الملك يقدر على ضرب كل من في بلاده وقال: من خالفني أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه، وإذا قيل: إنه قادر على ضرب المخالفين

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التوحيد)، باب: (قول الله تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١]) (٦/ ٢٧٤٥)، حديث رقم (٧١١٤) من طريق قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة... به، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٠٨/ ٢٧٥١) من طريق الأعرج عن أبي هريرة... به، كلاهما (أبو رافع، والأعرج) عن أبي هريرة... به.

ولا يقدر على ضرب المطيعين، فإذا قال: من خالفني أضربه، يقع في وهم المخالف أنه لا يقدر على ضرب فلان المطيع، فلا يقدر علي أيضًا لكوني مثله، وفي هذا فائدة أخرى وهو الخوف العام والرجاء العام، لأن الأمن الكلي من الله يوجب الجراءة فيفضي إلى صيرورة المطيع عاصيًا.

المسألة الثالثة: قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ مع أن هذه المسألة قد سبق إثباتها وتقريرها فلِمَ أعادها؟ فنقول: لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين، فقال تعالى: فإن تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا أنه فات، فإن إليه إيابكم وعليه حسابكم وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم، ولهذا قال بعدها: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ يعني لا تفوتون الله بل الانقلاب إليه ولا يمكن الانفلات منه، وفي تفسير هذه الآية لطائف: إحداها: هي إعجاز المعذَّب عن التعذيب إما بالهرب منه أو الثبات له والمقاومة معه للدفع، وذكر الله القسمين فقال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني بالهرب لو صعدتم إلى محل السماك في السماء أو هبطتم إلى موضع السموك في الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع في الإعجاز بالهرب، وإما بالثبات فكذلك لأن الإعجاز إما أن يكون بالاستناد إلى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذِّب مخالفته فيفوته المعذِّب ويعجز عنه أو بالانتصار بقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال، فإنكم ما لكم من دون الله ولي يشفع ولا نصير يدفع فلا إعجاز لا بالهروب ولا بالثبات، الثانية: قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ولم يقل: لا تعجزون، بصيغة الفعل، وذلك لأن نفي الفعل لا يدل على نفي الصلاحية، فإن من قال: إن فلانًا لا يخيط، لا يدل على ما يدل عليه قوله: إنه ليس بخياط، الثالثة: قدم الأرض على السماء، والولي على النصير، لأن هربهم الممكن في الأرض، فإن كان يقع منهم هرب يكون في الأرض، ثم إن فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود في السماء، وأما الدفع فإن العاقل ما أمكنه الدفع بأجمل الطرق فلا يرتقي إلى غيره، والشفاعة أجمل. ولأن ما من أحد في الشاهد إلا ويكون له شفيع يتكلم في حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر يعادي الملك لأجله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

لما بين الأصلين التوحيد والإعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ إشارة إلى الكفار بالله، فإن لله في كل شيء آية دالة على وحدانيته، فإذا أشرك كفر بآيات الله وإشارة إلى المنكر للحشر فإن من أنكره كفر بلقاء الله فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة لأن من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يرحم، وإذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلاً

للرحمة، فإذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة إلى طريق متعين فييأسوا من رحمة الله، ولما أنكروا الحشر وقالوا: لا عذاب، فناسب تعذيبهم تحقيقًا للأمر عليهم، وهذا كما أن الملك إذا قال: أعذب من يخالفني، فأنكره بعيد عنه وقال: هو لا يصل إلي، فإذا أحضر بين يديه يحسن منه أن يعذبه ويقول: هل قدرت وهل عذبت أم لا؟ فإذن تبين أن عدم الرحمة يناسب الإشراك، والعذاب الأليم يناسب إنكار الحشر. ثم إن في الآية فوائد: إحداها: قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَئِسُوا﴾ حتى يكون منبئًا عن حصر الناس فيهم وقال أيضًا: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لذلك، ولو قال: أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتي ولهم عذاب أليم، ما كان يحصل هذه الفائدة فإن قال قائل: لو اكتفي بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ مرة واحدة كان يكفي في إفادة ما ذكر، ثم قلنا: لا وذلك لأنه لو قال: أولئك يئسوا ولهم عذاب، كان يذهب وهم أحد إلى أن هذا المجموع منحصر فيهم، فلا يوجد المجموع إلا فيهم ولكن واحدًا منهما وحده يمكن أن يوجد في غيرهم، فإذا قال: أولئك يئسوا وأولئك لهم عذاب، أفاد أن كل واحد لا يوجد إلا فيهم، الثانية: عند ذكر الرحمة أضافها إلى نفسه فقال: رحمتي، وعند العذاب لم يضفه لسبق رحمته وإعلامًا لعباده بعمومها لهم ولزومها له، الثالثة: أضاف اليأس إليهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَئِسُوا﴾ فحرمها عليهم ولو طمعوا لأباحها لهم، فلو قال قائل ما ذكرت من مقابلة الأمرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضي أن لا يكون العذاب الأليم لمن كفر بالله واعترف بالحشر، أو لا يكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول: معنى الآية أنهم يئسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر، ولا شك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لا يكون إلا للكافر بالحشر، وأما الآخر فالكافر بالحشر لا يكون مؤمنًا بالله لأن الإيمان به لا يصح إلا إذا صدقه فيما قاله والحشر من جملة ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

لما أتى إبراهيم عليه السلام ببيان الأصول الثلاثة وأقام البرهان عليه، بقي الأمر من جانبهم إما الإجابة أو الإتيان بما يصلح أن يكون جوابه فلم يأتوا إلا بقولهم: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: كيف سمى قولهم ﴿ٱقْتُلُوهُ﴾ جوابًا مع أنه ليس بجواب؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه: جوابكم السيف، مع أن السيف ليس بجواب، وإنما معناه لا أقابله بالجواب، وإنما أقابله بالسيف، فكذلك قالوا: لا تجيبوا عن براهينه واقتلوه أو حرقوه، الثاني: هو أن الله أراد بيان ضلالهم وهو أنهم ذكروا في معرض الجواب هذا مع أنه ليس بجواب، فتبين أنهم لم يكن لهم

جواب أصلا وذلك لأن من لا يجيب غيره ويسكت، لا يعلم أنه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات، أما إذا أجاب بجواب فاسد، علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه.

المسألة الثانية: القائلون الذين قالوا: اقتلوه، هم قومه والمأمورون بقولهم: اقتلوه، أيضًا هم، فيكون الآمر نفس المأمور؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن كل واحد منهم قال لمن عداه: اقتلوه، فحصل الأمر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد، لأن كل واحد أمر غيره، وثانيهما: هو أن الجواب لا يكون إلا من الأكابر والرؤساء، فإذا قال أعيان بلد كلاما يقال: اتفق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت إلى عدم قول العبيد والأرذال، فكان جواب قومه وهم الرؤساء أن قالوا لأتباعهم وأعوانهم: اقتلوه، لأن الجواب لا يباشره إلا الأكابر والقتل لا يباشره إلا الأتباع.

المسألة الثالثة: ﴿أَوْ﴾ يذكر بين أمرين الثاني منهما ينفك عن الأول كما يقال: زوج أو فرد، ويقال: هذا إنسان أو حيوان، يعني إن لم يكن إنسانًا فهو حيوان، ولا يصح أن يقال: هذا حيوان أو إنسان، إذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فإن لم يكن حيوانًا فهو إنسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله: اقتلوه أو حرقوه، كقول القائل: حيوان أو إنسان، الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن الاستعمال على خلاف ما ذكر شائع ويكون ﴿أَوْ﴾ مستعملا في موضع بل، كما يقول القائل: أعطيته دينارًا أو دينارين، وكما يقول القائل: أعطه دينارًا، بل دينارين قال الله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل: ٢ - ٤] فكذلك هاهنا: اقتلوه أو زيدوا على القتل وحرقوه، الجواب الثاني: هو أنا نسلم ما ذكرتم والأمر هنا كذلك، لأن التحريق فعل مفض إلى القتل وقد يتخلف عنه القتل فإن من ألقى غيره في النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حيًّا يصح أن يقال: احترق فلان وأحرقه فلان وما مات، فكذلك هاهنا قالوا: اقتلوه أو لا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار، وإن ترك مقالته فخلوا سبيله وإن أصر فخلوا في النار مقيله.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ اختلف العقلاء في كيفية الإنجاء، بعضهم قال برد النار وهو الأصح الموافق لقوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] وبعضهم قال: خلق في إبراهيم كيفية استبرد معها النار، وقال بعضهم: ترك إبراهيم على ما هو عليه والنار على ما كانت عليه ومنع أذى النار عنه، والكل ممكن والله قادر عليه، وأنكر بعض الأطباء الكل، أما سلب الحرارة عن النار، قالوا الحرارة في النار ذاتية كالزوجية في الأربعة لا يمكن أن تفارقها، وأما خلق كيفية تستبرد النار فلأن المزاج الإنساني له طرفا تفريط وإفراط، فلو خرج عنهما لا يبقى إنسانًا أو لا يعيش. مثلا المزاج إن كان البارد فيه عشرة أجزاء يكون إنسانًا فإن صار أحد عشر لا يكون إنسانًا وإن صارت الأجزاء الباردة خمسة يبقى إنسانًا فإذا صارت أربعة لا يبقى إنسانًا لكن البرودة التي يستبرد معها النار مزاج السَّمَنْدَل فلو حصل في الإنسان لمات أو لكان ذلك فإن النفس تابعة

للمزاج، وأما الثالث فمحال أن تكون القطنة في النار والنار كما هي، والقطنة كما هي ولا تحترق، فنقول: الآية رد عليهم والعقل موافق للنقل، أما الأول فلوجهين: أحدهما: أن الحرارة في النار تقبل الاشتداد والضعف، فإن النار في الفحم إذا نفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وإن لم ينفخ لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة التي كانت في النار، فإذا أمكن عدم البعض جاز عدم بعض آخر من ذلك عليها إلى أن ينتهي إلى حد لا يؤذي الإنسان، ولا كذلك الزوجية فإنها لا تشتد ولا تضعف، والثاني: وهو أن في أصول الطب ذكر أن النار لها كيفية حارة كما أن الماء له كيفية باردة لكن رأينا أن الماء تزول عنه البرودة وهو ماء فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى نارًا وهو نور غير محرق، وأما الثاني فأيضًا ممكن وقولهم مدفوع من وجهين: أحدهما: منع أصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله قادر على أن يخلق النفس الإنسانية في المزاج الذي مثل مزاج الجمد، وثانيهما: أن نقول على أصلكم: لا يلزم المحال لأن الكيفية التي ذكرناها تكون في ظاهر كالأجزاء الرشية عليه ولا يتأدى إلى القلب والأعضاء الرئيسة، ألا ترى أن الإنسان إذا مس الجمد زمانًا ثم مس جمرة نار لا تؤثر النار في إحراق يده مثل ما تؤثر في إحراق يد من أخرج يده من جيبه، ولهذا تحترق يده قبل يد هذا. فإذا جاز وجود كيفية في ظاهر جلد الإنسان تمنع تأثير النار فيه بالإحراق زمانًا فيجوز أن تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لا تحترق، وأما الثالث: فمجرد استبعاد بيان عدم الاعتياد ونحن نسلم أن ذلك غير معتاد لأنه معجز والمعجز ينبغي أن يكون خارقًا للعادة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني في إنجائه من النار لآيات.

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال في إنجاء نوح وأصحاب السفينة: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً﴾[العنكبوت: ١٥] وقال ههنا: ﴿لَآيَاتٍ﴾ بالجمع لأن الإنجاء بالسفينة شيء تتسع له العقول فلم يكن فيه من الآية إلا بسبب إعلام الله إياه بالاتخاذ وقت الحاجة، فإنه لولاه لما اتخذه لعدم حصول علمه بما في الغيب، وبسبب أن الله صان السفينة عن المهلكات كالرياح العاصفة، وأما الإنجاء من النار فعجيب فقال فيه: آيات.

المسألة الثانية: قال هناك: ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[العنكبوت: ١٥] وقال هاهنا: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خص الآيات بالمؤمنين لأن السفينة بقيت أعوامًا حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد، وأما تبريد النار [فَإِنَّهُ] لم يبق فلم يظهر لمن يعده إلا بطريق الإيمان به والتصديق، وفيه لطيفة: وهي أن الله لما برد النار على إبراهيم بسبب اهتدائه في نفسه وهدايته لأبناء جنسه، وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم أسوة حسنة في إبراهيم، فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة، فقال: إن في ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون.

المسألة الثالثة: قال هناك: ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ وقال هاهنا: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ لأن السفينة ما صارت آية في

نفسها ولولا خلق الله الطوفان لبقي فعل نوح سفها، فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية، وأما تبريد النار فهو في نفسه آية إذا وجدت لا تحتاج إلى أمر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

لما خرج إبراهيم من النار عاد إلى عذل الكفار وبيان فساد ما هم عليه، وقال: إذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه، فليس هذا إلا تقليدًا، فإن بين بعضكم وبعض مودة فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه في السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالتهم وجهالتهم فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم . . . مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ يعني ليس بدليل أصلا، وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق، وهو أن يقال قوله: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم . . . مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ أي مودة بين الأوثان وبين عبدتها، وتلك المودة هي أن الإنسان مشتمل على جسم وعقل، ولجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية، ثم إن من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية، ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت إلى اللذات الجسمانية، كالمجنون إذا احتاج إلى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو إراقة ماء وهو بين قوم من الأكابر في مجمع يحصل ما فيه لذة جسمه من الأكل وإراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت إلى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الأوصاف ومكرمة الأخلاق. والعاقل يحمل الألم الجسماني ويحصل اللذة العقلية، حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة والألم العقلي. إذا ثبت هذا فهم كانوا قليلي العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلهم لمعبود لا يكون فوقهم ولا تحتهم، ولا يمينهم ولا يسارهم، ولا قدامهم ولا وراءهم، ولا يكون جسمًا من الأجسام، ولا شيئًا يدخل في الأوهام، ورأوا الأجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودوها، فاتخاذهم الأوثان كان مودة بينهم وبين الأوثان، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يعني يوم يزول عمى القلوب وتتبين الأمور للبيب والغفول يكفر بعضكم ببعض ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد: ما هذا معبودي، ويقول المعبود: ما هؤلاء عبدتي، ويلعن بعضكم بعضًا، ويقول هذا لذاك: أنت أوقعتني في العذاب حيث عبدتني، ويقول ذاك لهذا أنت أوقعتني فيه حيث أضللتني بعبادتك، ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون، بل هم مجتمعون في النار كما كانوا مجتمعين في هذه الدار كما قال تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ يعني ليس تلك النار مثل ناركم التي أنجى الله منها إبراهيم ونصره فأنتم في النار ولا ناصر لكم.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال قبل هذا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢] على لفظ الواحد، وقال هاهنا على لفظ الجمع: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ والحكمة فيه أنهم لما أرادوا إحراق إبراهيم عليه السلام قالوا: نحن ننصر آلهتنا، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨] فقال: أنتم ادعيتم أن لهؤلاء ناصرين فما لكم ولهم، أي للأوثان وعبدتها من ناصرين، وأما هناك ما سبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

المسألة الثانية: قال هناك: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢] وما ذكر الولي ههنا فنقول: قد بينا أن المراد بالولي الشفيع يعني ليس لكم شافع ولا نصير دافع، وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الأوثان أي ما لكم كلكم لم يقل: شفيع، لأنهم كانوا معترفين أن كلهم ليس لهم شافع لأنهم كانوا يدعون أن آلهتهم شفعاء، كما قال تعالى عنهم: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا﴾ [يونس: ١٨] والشفيع لا يكون له شفيع، فما نفى عنهم الشفيع لعدم الحاجة إلى نفيه لاعترافهم به، وأما هناك فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون أن لأنفسهم شفعاء فنفى.

المسألة الثالثة: قال هناك: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصرًا ووليًا هو الله وليس لهم غيره ولي وناصر وقال ههنا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ من غير استثناء فنقول كان ذلك واردًا على أنهم في الدنيا فقال لهم في الدنيا: لا تظنوا أنكم تعجزون الله فما لكم أحد ينصركم، بل الله تعالى ينصركم إن تبتم، فهو ناصر معد لكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ وعدم الناصر عام لأن التوبة في ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقًا.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أي إلى حيث أمرني بالتوجه إليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عزيز يمنع أعدائي عن إيذائي بعزته، وحكيم لا يأمرني إلا بما يوافق لكمال حكمته.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي بعد ما رأى منه المعجز القاهر ودرجة لوط كانت عالية، وبقاؤه إلى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى أن أبا بكر لما قبل دين محمد ﷺ وكان نير القلب قبله قبل الكل، من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر، فنقول: إن لوطًا لما رأى معجزته آمن برسالته، وأما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته، وإليه أشار بقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ وما قال: فآمن لوط.

المسألة الثانية: ما تعلق قوله: ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ بما تقدم؟ فنقول: بما بالغ إبراهيم في الإرشاد ولم يهتد قومه، وحصل اليأس الكلي حيث رأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة، لأن الهادي إذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة لأنه إن دام على الإرشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للحجر: صدق، وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضي بأفعالنا، وإذا لم يبق للإقامة وجه وجبت المهاجرة.

المسألة الثالثة: قال: ﴿ مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ ولم يقل: مهاجر إلى حيث أمرني ربي، مع أن المهاجرة إلى الرب توهم الجهة، فنقول: قوله: مهاجر إلى حيث أمرني ربي، ليس في الإخلاص كقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لأن الملك إذا صدر منه أمر برواح الأجناد إلى الموضع الفلاني، ثم إن واحدًا منهم سافر إليه لغرض [في] نفسه يصيبه فقد هاجر إلى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصًا لوجهه فقال: ﴿ مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ يعني توجهي إلى الجهة المأمور بالهجرة إليها ليس طلبًا للجهة إنما هو طلب لله.

قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ [العنكبوت: ٧] أن أثر رحمة الله في أمرين في الأمان من سوء العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل إلى المؤمن في الدار الآخرة قطعًا بحكم وعد الله نفي العذاب عنه لنفيه الشرك وإثبات الثواب لإثباته الواحد، ولكن هذا ليس بواجب الحصول في الدنيا، فإن كثيرًا ما يكون الكافر في رغد والمؤمن جائع في يومه متفكر في أمر غده لكنهما مطلوبان في الدنيا، أما دفع العذاب العاجل فلأنه ورد في دعاء النبي ﷺ قوله: «وَقِنَا عَذَابَ الْفَقْرِ وَالنَّارِ» (١) فعذاب الفقر إشارة إلى دفع العذاب العاجل، وأما الثواب العاجل ففي قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] إذا علم

---

(١) هذا الحديث إشارة إلى الحديث الحسن من رواية عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد)، حديث رقم (٧٠١)، وأبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (ما يقول إذا أصبح) (٤/ ٢١٦٧)، حديث رقم (٥٠٩٠)، والنسائي في كتاب (عمل اليوم والليلة) (١٦/ ٣٨٢/ ٤١٣) من طريق جعفر بن ميمون قال حدثني عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قال لأبيه ثم يا أبت إني أسمعك تدعو كل غداة اللهم عافني في بدني اللهم عافني في سمعي اللهم عافني في بصري لا إله إلا أنت تعيدها ثلاثا حين تصبح وثلاثا حين تمسي فقال إني سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهن فأنا أحب أن أستن بسنته قال عباس فيه وتقول اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت تعيدها ثلاثا حين تصبح وثلاثا حين تمسي فتدعو بهن فأحب أن أستن بسنته قال وقال رسول الله ﷺ دعوات المكروب اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت وبعضهم يزيد على صاحبه. واللفظ لأبي داود في سننه.

هذا فنقول: إن إبراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولا دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار، ولما أتى به مرة بعد مرة مع إصرار القوم على التكذيب وإضرارهم به بالتعذيب، أعطاه الجزاء الآخر، وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وفي الآية لطيفة: وهي أن الله بدل جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيدًا فريدًا فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته، ولما كان أولا قومه وأقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم آزر، بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل الله فيهم النبوة والكتاب، وكان أولا لا جاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله أجره من المال والجاه، فكثر ماله حتى كان له من المواشي ما علم الله عدده، حتى قيل: إنه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق ذهب، وأما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة، فصار معروفًا بشيخ المرسلين بعد أن كان خاملاً، حتى قال قائلهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[الأنبياء: ٦٠] وهذا الكلام لا يقال إلا في مجهول بين الناس، ثم إن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يعني ليس له هذا في الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسناته أو أملى له استدراجًا ليكثر من سيئاته بل هذا له عجالة وله في الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين، فإن كون العبد صالحًا أعلى مراتبه، لما بينا أن الصالح هو الباقي على ما ينبغي، يقال: الطعام بعد صالح، أي هو باق على ما ينبغي، ومن بقي على ما ينبغي لا يكون في عذاب، ويكون له كل ما يريد من حسن ثواب.

وفي الآية مسألتان:

المسألة الأولى: أن إسماعيل كان من أولاده الصالحين، وكان قد أسلم لأمر الله بالذبح وانقاد لحكم الله، فلم لم يذكر؟ فيقال: هو مذكور في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ ولكن لم يصرح باسمه لأنه كان غرضه تبيين فضله عليه بهبة الأولاد والأحفاد، فذكر من الأولاد واحدًا وهو الأكبر، ومن الأحفاد واحدًا وهو الأظهر كما يقول القائل: إن السلطان في خدمته الملوك والأمراء الملك الفلاني والأمير الفلاني ولا يعدد الكل لأن ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لا لخصوصيته ولو ذكر غيره لفهم منه التعديد واستيعاب الكل بالذكر، فيظن أنه ليس معه غير المذكورين.

المسألة الثانية: أن الله تعالى جعل في ذريته النبوة إجابة لدعائه والوالد يستحب منه أن يسوي بين ولديه، فكيف صارت النبوة في أولاد إسحاق أكثر من النبوة في أولاد إسماعيل؟ فنقول: الله تعالى قسم الزمان من وقت إبراهيم إلى القيامة قسمين والناس أجمعين، فالقسم الأول من الزمان بعث الله فيه أنبياء فيهم فضائل جمة وجاءوا تترى واحدًا بعد واحد، ومجتمعين في عصر واحد كلهم من ورثة إسحاق عليه السلام، ثم في القسم الثاني من الزمان

أخرج من ذرية ولده الآخر وهو إسماعيل واحدًا جمع فيه ما كان فيهم وأرسله إلى كافة الخلق وهو محمد ﷺ وجعله خاتم النبيين، وقد دام الخلق على دين أولاد إسحاق أكثر من أربعة آلاف سنة فلا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية إسماعيل مثل ذلك المقدار.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

الإعراب في لوط، والتفسير كما ذكرنا في قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال إبراهيم لقومه ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ١٦] وقال عن لوط ههنا أنه قال لقومه: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فنقول: لما ذكر الله لوطًا عند ذكر إبراهيم وكان لوط في زمان إبراهيم لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالتوحيد مع أن الرسول لا بد من أن يقول ذلك فنقول: حكاية لوط وغيرها ههنا ذكرها الله على سبيل الاختصار، فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة، ولم يذكر عنه الأمر بالتوحيد وإن كان قاله في موضع آخر حيث قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] لأن ذلك كان قد أتى به إبراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن إبراهيم. وأما المنع من عمل قوم لوط كان مختصًا بلوط، فإن إبراهيم لم يظهر ذلك (في زمنه) ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره.

المسألة الثانية: لِمَ سمى ذلك الفعل فاحشة؟ فنقول: الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه، ثم إن الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما الله في الإنسان، فمصلحة الشهوة الفرجية هي بقاء النوع بتوليد الشخص، وهذه المصلحة لا تحصل إلا بوجود الولد وبقائه بعد الأب، فإنه لو وجد ومات قبل الأب كان يفنى النوع بفناء القرن الأول، لكن الزنا قضاء شهوة ولا يفضي إلى بقاء النوع، لأنا بينا أن البناء بالوجود وبقاء الولد بعد الأب لكن الزنى وإن كان يفضي إلى وجود الولد ولكن لا يفضي إلى بقائه، لأن المياه إذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والإنفاق عليه فيضيع ويهلك، فلا يحصل مصلحة البقاء، فإذن الزنى شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التي لأجلها خلقت، فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستره المصلحة فهو فاحشة، وإذا كان الزنا فاحشة مع أنه يفضي إلى وجود الولد ولكن لا يفضي إلى بقائه، فاللواطة التي لا تفضي إلى وجوده أولى بأن تكون فاحشة.

المسألة الثالثة: الآية دالة على وجوب الحد في اللواطة، لأنها مع الزنى اشتركت في كونهما فاحشة حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] واشتراكهما في الفاحشة يناسب الزجر عنه، فما شرع زاجرًا هناك يشرع زاجرًا ههنا، وهذا وإن كان قياسًا إلا أن جامعه مستفاد من الآية، ووجه آخر، وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها إمطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلاً، فوجب أن يعذب من أتى به بإمطار الحجارة به عاجلاً وهو الرجم، وقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر، والثاني: أن قبلهم ربما أتى به واحد في الندرة لكنهم بالغوا فيه، فقال لهم: ما سبقكم بها من أحد، كما يقال: إن فلانًا سبق البخلاء في البخل، وسبق اللئام في اللؤم، إذا زاد عليهم، ثم قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ بيانًا لما ذكرنا، يعنى تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة التي هي بقاء النوع، حتى يظهر أنه قبيح لم يستر قبحه مصلحة، وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى: ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ﴾ [الأعراف: ٨١] يعنى إتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فلكم دافع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ يعني ما كفاكم قبح فعلكم حتى تضمون إليه قبح الإظهار، وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ في التفسير، كقوله في قصة إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال قوم إبراهيم: ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤] وقال قوم لوط: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ وما هددوه، مع أن إبراهيم كان أعظم من لوط، فإن لوطًا كان من قومه، فنقول: إن إبراهيم كان يقدح في دينهم ويشتم آلهتهم بتعديد صفات نقصهم بقوله: لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني، والقدح في الدين صعب، فجعلوا جزاءه القتل والتحريق، ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم إلى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون: إن هذا واجب من الدين، فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم إبراهيم قول إبراهيم، فقالوا: إنك تقول إن هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول: لا يعذب، فإن كنت صادقًا فأتنا بالعذاب، فإن قيل: إن الله تعالى قال في موضع آخر: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] وقال هاهنا: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ائْتِنَا﴾ فكيف الجمع؟ فنقول: لوط كان ثابتًا على الإرشاد مكررًا عليهم التغيير والنهي والوعيد، فقالوا أولا: ائتنا، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا: أخرجوا، ثم إن لوطًا لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ فإن الله لا يحب المفسدين، حتى ينجز النصر.

واعلم أن نبيًّا من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم، كما قال

نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] يعني المصلحة إما فيهم حالا أو بسببهم مآلا ولا مصلحة فيهم، فإنهم يضلون في الحال وفي المآل فإنهم يوصون الأولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع، فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله، بطلت المصلحة حالا ومآلا، فعدمهم صار خيرًا، فطلب العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

لما دعا لوط على قومه بقوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ استجاب الله دعاءه، وأمر ملائكته بإهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين، فجاءوا إبراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني أهل سدوم، وفي الآية لطيفتان: إحداهما: أن الله جعلهم مبشرين ومنذرين، لكن البشارة أثر الرحمة والإنذار بالإهلاك أثر الغضب، ورحمته سبقت غضبه، فقدم البشارة على الإنذار. وقال: ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ﴾ الثانية: حين ذكروا البشرى ما عللوا وقالوا: إنا نبشرك لأنك رسول، أو لأنك مؤمن أو لأنك عادل، وحين ذكروا الإهلاك عللوا، وقالوا: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ لأن ذا الفضل لا يكون فضله بعوض، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لو قال قائل: أي تعلق لهذه البشرى بهذا الإنذار، نقول: لما أراد الله إهلاك قوم وكان فيه إخلاء الأرض عن العباد قدم على ذلك إعلام إبراهيم بأنه تعالى يملأ الأرض من العباد الصالحين حتى لا يتأسف على إهلاك قوم من أبناء جنسه.

المسألة الثانية: قال في قوم نوح: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ [العنكبوت: ١٤] وقد قلت: إن ذلك إشارة إلى أنهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم، ولم يقل: فأخذهم وكانوا ظالمين، وههنا قال: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ ولم يقل: وإنهم ظالمون، فنقول: لا فرق في الموضعين في كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم، لكن هناك الإخبار من الله وعن الماضي حيث قال: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ [العنكبوت: ١٤] وكانوا ظالمين، فقال: أخذهم وهم عند الوقوع في العذاب ظالمون، وههنا الإخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ﴾ فالملائكة ذكروا ما يحتاجون إليه في إبانة حسن الأمر من الله بالإهلاك، فقالوا: (إنا مهلكوهم) لأن الله أمرنا، وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين، فحسن أمر الله عند كل أحد، وأما نحن فلا نخبر بما لا حاجة لنا

إليه، فإن الكلام عن الملك بغير إذنه سوء أدب، فنحن ما احتجنا إلا إلى هذا القدر، وهو أنهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله بإهلاكهم بيانًا لحسن الأمر، وأما أنهم ظالمون في وقتنا هذا أو يبقون كذلك فلا حاجة لنا إليه، ثم إن إبراهيم لما سمع قولهم قال لهم: إن فيها لوطًا، إشفاقًا عليه ليعلم حاله، أو لأن الملائكة لما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ﴾ وكان إبراهيم يعلم أن الله لا يهلك قومًا وفيهم رسوله، فقال تعجبًا: إن فيهم لوطًا فكيف يهلكون؟ فقالت الملائكة؟ نحن أعلم بمن فيها، يعني نعلم أن فيهم لوطًا فلننجينه وأهله ونهلك الباقين، وههنا لطيفة: وهو أن الجماعة كانوا أهل الخير، أعني إبراهيم والملائكة، وكل واحد كان يزيد على صاحبه في كونه خيرًا.

أما إبراهيم فلما سمع قوله الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ﴾ أظهر الإشفاق على لوط ونسي نفسه وما بشروه ولم يظهر بها فرحًا، وقال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢] ثم إن الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه، وقالوا: إنك ذكرت لوطًا وحده ونحن ننجيه وننجي معه أهله، ثم استثنوا من الأهل امرأته، وقالوا: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي من المهلكين، وفي استعمال الغابر في المهلك وجهان، وذلك لأن الغابر لفظ مشترك في الماضي وفي الباقي، يقال: فيما غبر من الزمان، أي فيما مضى ويقال: الفعل ماض وغابر، أي باق، وعلى الوجه الأول نقول: إن ذكر الظالمين سبق في قولهم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ ثم جرى ذكر لوط بتذكير إبراهيم وجواب الملائكة، فقالت الملائكة: إنها من الغابرين، أي الماضي ذكرهم لا من الذين ننجي منهم، أو نقول: المهلك يفنى ويمضي زمانه والناجي هو الباقي، فقالوا: إنها من الغابرين، أي من الرائحين الماضين لا من الباقين المستمرين، وأما على الوجه الثاني فنقول: لما قضى الله على القوم بالإهلاك كان الكل في الهلاك إلا من ننجي منه فقالوا: إنا ننجي لوطًا وأهله، وأما امرأته فهي من الباقين في الهلاك.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم إنهم جاءوا من عند إبراهيم إلى لوط على صورة البشر فظنهم بشرًا فخاف عليهم من قومه لأنهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسيء بهم أي جاءه ما ساءه وخاف ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعًا كناية عن العجز في تدبيرهم، قال الزمخشري: يقال: طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز، وذلك لأن من طال ذراعه يصل إلى ما لا يصل إليه قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجهًا معقولاً غير ذلك، وهو أن الخوف

والحزن يوجبان انقباض الروح ويتبعه اشتمال القلب عليه فينقبض هو أيضًا والقلب هو المعتبر من الإنسان، فكأن الإنسان انقبض وانجمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق، ويقال في الحزين: ضاق ذرعه، والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال: اتسع ذرعه، ثم إن الملائكة لما رأوا خوفه في أول الأمر وحزنه بسبب تدبيرهم في ثاني الأمر قالوا: لا تخف علينا ولا تحزن بسبب التفكر في أمرنا، ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه فإن مجرد قول القائل: لا تخف، لا يوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ وإنا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له أنهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى قال من قبل: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [العنكبوت: ٣١] وقال هاهنا: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ فما الحكمة فيه؟ فنقول: حكمة بالغة وهي أن الواقع في وقت المجيء هناك قول الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ﴾ وهو لم يكن متصلاً بمجيئهم لأنهم بشروا أولاً ولبثوا، ثم قالوا: إنا مهلكو، وأيضًا فالتأني واللبث بعد المجيء ثم الإخبار بالإهلاك حسن فإن من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجئ به، والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم، والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريئًا من الجناية ينبغي أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير، إذا علم هذا فقوله ههنا: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ يفيد الاتصال يعني خاف حين المجيء، فإن قلت: هذا باطل بما أن هذه الحكاية جاءت في سورة هود، وقال: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ من غير (أن)، فنقول هناك جاءت حكاية إبراهيم بصيغة أخرى حيث قال هناك: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: ٦٩] فقوله هنالك: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ﴾ لا يدل على أن قولهم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ [هود: ٧٠] كان في وقت المجيء. وقوله: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ دل على أن حزنه كان وقت المجيء. إذا علم هذا فنقول: هناك قد حصل ما ذكرنا من المقصود بقوله في حكاية إبراهيم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: ٦٩]ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام، ثم قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ولا تحزن ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]فحصل تأخير الإنذار، وبقوله في حكاية لوط: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ حصل بيان تعجيل الحزن، وأما هنا لما قال في قصة إبراهيم: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ﴾ قال في حكاية لوط: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ﴾ لما ذكرنا من الفائدة.

المسألة الثانية: قال هنا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ وقال لإبراهيم: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢] بصيغة الفعل فهل فيه فائدة؟ قلنا: ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً، والذي يظهر لعقل الضعيف أن هناك لما قال لهم إبراهيم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وعدوه بالتنجية ووعد الكريم

[illegible]

حتم، وههنا لما قالوا للوط وكان ذلك بعد سبق الوعد مرة أخرى قالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ أي ذلك واقع منا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] لضرورة وقوعه.

المسألة الثالثة: قولهم: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ لا يناسبه: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ لأن خوفه ما كان على نفسه، نقول: بينهما مناسبة في غاية الحسن، وهي أن لوطًا لما خاف عليهم وحزن لأجلهم قالوا له: لا تخف علينا ولا تحزن لأجلنا فإنا ملائكة، ثم قالوا له: يا لوط خفت علينا وحزنت لأجلنا، ففي مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك، وفي مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نتركك تفجع في أهلك فقالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾.

المسألة الرابعة: القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم؟ فنقول: الدال على الشر له نصيب كفاعل الشر، كما أن الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم، فبالدلالة صارت واحدة منهم، ثم إنهم بعد بشارة لوط بالتنجية ذكروا أنهم منزلون على أهل هذه القرية العذاب فقالوا: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ واختلفوا في ذلك، فقال بعضهم حجارة وقيل نار وقيل خسف، وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وإنما يكون الأمر بالخسف من السماء أو القضاء به من السماء، ثم اعلم أن كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع إبراهيم قدموا البشارة على الإنذار حيث قالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ ثم قالوا: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ولم يعللوا التنجية، فما قالوا إنا منجوك لأنك نبي أو عابد، وعللوا الإهلاك بقولهم: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ وقالوا بما كانوا، كما قالوا هناك: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١] ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي من القرية فإن القرية معلومة وفيها الماء الأسود وهي بين القدس والكرك.

وفيها مسائل:

المسألة الأولى: جعل الله الآية في نوح وإبراهيم بالنجاة حيث قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ [العنكبوت: ١٥] وقال: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ [العنكبوت: ٢٤] وجعل هاهنا الهلاك آية فهل عندك فيه شيء؟ نقول: نعم، أما إبراهيم فلأن الآية كانت في النجاة لأن في ذلك الوقت لم يكن إهلاك، وأما في نوح فلأن الإنجاء من الطوفان الذي علا الجبال بأسرها أمر عجيب إلهي، وما به النجاة وهو السفينة كان باقيًا، والغرق لم يبق لمن بعده أثره فجعل الباقي آية، وأما ههنا فنجاة لوط لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الأمر الباقي وهو ههنا البلاد وهناك السفينة وههنا لطيفة: وهي أن الله تعالى آية قدرته موجودة في الإنجاء والإهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الإنجاء لأنها أثر الرحمة وأخر آيات الإهلاك لأنها أثر الغضب ورحمته سابقة.

المسألة الثانية: قال في السفينة: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ [العنكبوت: ١٥] ولم يقل: بينة وقال ههنا:

مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف: ٦٥]

المسألة الثانية: لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد، وذكر عن شعيب ذلك؟ قلنا: قد ذكرنا أن لوطًا كان له قوم وهو كان من قوم إبراهيم وفي زمانه، وإبراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق من إبراهيم فلم يذكره عن لوط وإنما ذكر منه ما اختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها، وإن كان هو أيضًا يأمر بالتوحيد، إذ ما من رسول إلا ويكون أكثر كلامه في التوحيد، وأما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو أصلاً أيضًا في التوحيد فدأبه وقال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

المسألة الثالثة: الإيمان لا يتم إلا بالتوحيد، والأمر بالعبادة لا يفيده لأن من يعبد الله ويعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؟ فنقول: هذا الأمر يفيد التوحيد، وذلك لأن من يرى غيره يخدم زيدًا وعمرو هناك وهو أكبر أو هو سيد زيد، فإذا قال له: اخدم عمرًا، يفهم منه أنه يأمره بصرف الخدمة إليه، وكذا إذا كان لواحد دينار واحد، وهو يريد أن يعطيه زيدًا، فإذا قيل له: أعطه عمرًا، يفهم منه لا تعطه زيدًا، فنقول: هم كانوا مشتغلين بعبادة غير الله والله مالك ذلك الغير فقال لهم شعيب: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ففهموا منه ترك عبادة غيره أو نقول لكل واحد نفس واحدة ويريد وضعها في عبادة غير الله فقال لهم شعيب: ضعوها في موضعها وهو عبادة الله ففهم منه التوحيد، ثم قال: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قال الزمخشري: معناه افعلوا ما ترجون به العاقبة إذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلاً، ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلاً.

وقوله: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾. فيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا يدل على صحة مذهبنا، فإن عندنا من عبد الله طول عمره يثيبه الله تفضلاً ولا يجب عليه ذلك لأن العابد قد وصل إليه من النعم ما لو زاد على ما أتى به لما خرج عن عهدة الشكر، ومن شكر المنعم على نعم سبقت لا يلزم المنعم أن يزيده، وإن زاده يكون إحسانًا منه إليه وإنعامًا عليه، فنقول قوله: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ﴾ بعد قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يدل على التفضل لا على الوجوب فإن الفضل يرجى والواجب من العادل يقطع به.

المسألة الثانية: قال: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ولم يقل: وخافوه، مع أن ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس، لفسقه وفجوره ومحبته الدنيا ولا يرجوه إلا قليل من عباده، فنقول: لما ذكر التوحيد بطريق الإثبات وقال: ﴿اعْبُدُوا﴾ ولم يذكره بطريق النفي وما قال: ولا تعبدوا غيره، قال بلفظ الرجاء لأن عبادة الله يرجى منها الخير في الدارين، وفيه وجه آخر وهو أن الله حكى في حكاية إبراهيم أنه قال: إنكم اتخذتم الأوثان مودة بينكم في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فتكفرون بها، وقال ههنا لا: تكونوا كالذين سبق ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر، فاقتصروا على مودة الحياة الدنيا، وارجوا اليوم الآخر واعملوا له، ثم قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ يمكن أن يقال: نصب مفسدين على المصدر كما يقال: قم قائمًا، أي قيامًا ويكون قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ كقول القائل: اجلس قعودًا لأن العيث والفساد بمعنى، وجمع الأوامر والنواهي في قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ ثم إن قومه كذبوه بعدما بلغ وبين، فحكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما حكى عن شعيب أمر ونهي والأمر لا يصدق ولا يكذب، فإن من قال لغيره: قم، لا يصح أن يقول له: كذبت، فنقول: كان شعيب يقول: الله واحد فاعبدوه، والحشر كائن فارجوه، والفساد محرم فلا تقربوه، وهذه الأشياء فيها إخبارات فكذبوه فيما أخبرهم به.

المسألة الثانية: قال ههنا وفي الأعراف: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨] وقال في هود[١]: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣]. والحكاية واحدة، نقول: لا تعارض بينهما فإن الصيحة كانت سببًا للرجفة، إما لرجفة الأرض إذ قيل: إن جبريل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته، وإما لرجفة الأفئدة فإن قلوبهم ارتجفت منها، والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب، إذ يصح أن يقال: روى فقوي، وأن يقال: شرب فقوي، في صورة واحدة.

المسألة الثالثة: حيث قال: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣] قال: ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ [هود: ٦٧] وحيث قال: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ قال: ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾ فنقول: المراد من الدار هو الديار، والإضافة إلى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع، وأن تكون بلفظ الواحد إذا أمن الالتباس، وإنما اختلف اللفظ للطيفة، وهي أن الرجفة هائلة في نفسها فلم يحتج إلى مهول، وأما الصيحة فغير هائلة في نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة في الأرض ذكر الديار بلفظ الجمع، حتى تعلم هيبتها والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج إلى معظم لأمرها، وقيل: إن الصيحة كانت أعم حيث عمت الأرض والجو، والزلزلة لم تكن إلا في الأرض فذكر الديار هناك غير أن هذا ضعيف لأن الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة، فهم ما أصبحوا جاثمين إلا في ديارهم.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ۝٣٨ وَقَٰرُونَ

(١) نص الآية (٦٧) في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ أما قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ فهو في الآية (٧٣ و٨٣) من سورة الحجر.

وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ أي وأهلكنا عادًا وثمود لأن قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ دل على الإهلاك ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ الأمر وما تعتبرون منه، ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني عبادتهم لغير الله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني عبادة الله ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ يعني بواسطة الرسل يعني فلم يكن لهم في ذلك عذر فإن الرسل أوضحوا السبل. ثم قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ عطفًا عليهم أي: وأهلكنا قارون وفرعون وهامان.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ كما قال في عاد وثمود: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي بالرسل، ثم قال تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي عن عبادة الله وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى ما يوضح قلة عقلهم في استكبارهم، وذلك لأن من في الأرض أضعف أقسام المكلفين، ومن في السماء أقواهم، ثم إن من في السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته، فكيف (يَسْتَكْبِرُ) من في الأرض. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ أي ما كانوا يفوتون الله لأنا بينا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٢٢] أن المراد أن أقطار الأرض في قبضة قدرة الله.

قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

ذكر الله أربعة أشياء العذاب بالحاصب، وقيل: إنه كان بحجارة محماة يقع على واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر، وفيه إشارة إلى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج، فإن الصوت قيل: سببه تموج الهواء ووصوله إلى الغشاء الذي على منفذ الأذن وهو الصماخ فيقرعه فيحس، والعذاب بالخسف وهو الغمر في التراب، والعذاب بالإغراق وهو بالماء. فحصل العذاب بالعناصر الأربعة والإنسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه، فإذا أراد الله هلاك الإنسان جعل ما منه وجوده سببًا لعدمه، وما به بقاؤه سببًا لفنائه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ [illegible]﴾ يعني لم يظلمهم بالهلاك، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك، وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ما كان يظلمهم أي ما كان يضعهم في غير موضعهم فإن موضعهم الكرامة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم في عبادة الوثن مع خسته.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

لما بين الله تعالى أنه أهلك من أشرك عاجلاً وعذب من كذب آجلاً، ولم ينفعه في الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده، مثل اتخاذه ذلك معبودًا باتخاذ العنكبوت بيتًا لا يجير آويًا ولا يريح ثاويًا، وفي الآية لطائف.

نذكرها في مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال؟ فنقول: فيه وجوه: الأول: أن البيت ينبغي أن يكون له أمور: حائط حائل، وسقف مظل، وباب يغلق، وأمور ينتفع بها ويرتفق، وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين: إما حائط حائل يمنع من البرد وإما سقف مظل يدفع عنه الحر، فإن لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لا يجنها ولا يكنها وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار، فإن لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع، فإن من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء، فإذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء، الثاني: هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فإن البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضًا الهواء والماء والنار والتراب، والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار، والخباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب إن كان لا يدفع شيئًا يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل فإن الشمس بشعاعها تنفذ فيه، فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر في الغير، فإن لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر في العابد، فإن لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم إن أرادوا أجلوه وإن أحبوا أذلوه، الثالث: أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت، فإن العنكبوت لو دام في زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها، فإذا نسج على نفسه واتخذ بيتًا يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت، فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب، فإن لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب، والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب.

المسألة الثانية: مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتًا ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين:

أحدهما: أن نسجه فيه فائدة له، لولاه لما حصل وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوّته ما هو أعظم منه، واتخاذهم الأوثان وإن كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا، لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت.

الوجه الثاني: هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتًا أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الأوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت إكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة، لكنهم اتخذوها أولياء كجعل العنكبوت النسج بيتًا وكلاهما باطل.

المسألة الثالثة: كما أن هذا المثل صحح في الأول فهو صحيح في الآخر، فإن بيت العنكبوت إذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباءً منثورًا، فكذلك أعمالهم للأوثان كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

المسألة الرابعة: قال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ ولم يقل: آلهة، إشارة إلى إبطال الشرك الخفي أيضًا، فإن من عَبَدَ اللهَ رياء لغيره فقد اتخذ وليًا غيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتًا.

ثم إنه تعالى قال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

إشارة إلى ما بينا أن كل بيت ففيه إما فائدة الاستظلال أو غير ذلك، وبيته يضعف عن إفادة ذلك لأنه يخرب بأدنى شيء ولا يبقى منه عين ولا أثر (فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قال الزمخشري: هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث إنهم لا يدعون من دونه من شيء، بمعنى ما يدعون ليس بشيء وهو عزيز حكيم، فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشيء أصلاً؟ وهذا يفهم منه أنه جعل ما نافية، وهو صحيح، والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل: إني أعلم أن الله واحد حق، يعني أعلم هذه الجملة، وإن كنا نجعل ما خبرية فيكون معناه ما يدعون من شيء فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على إعدامه وإهلاكهم، لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة، ومن ههنا يكون الخطاب مع أمة محمد ﷺ وعلى هذا لو قال قائل: ما وجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق؟ فنقول: لما قال: إن مثلهم كمثل العنكبوت، فكان للكافر أن يقول: أنا لا أعبد هذه الأوثان التي أتخذها وهي تحت تسخيري، وإنما هي صورة كوكب أنا تحت تسخيره ومنه نفعي وضري وخيري وشري ووجودي ودوامي فله سجودي وإعظامي، فقال الله تعالى: الله يعلم أن كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لأن الكوكب والملك وكل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم للحاضر ولا معبود إلا الله ولا إله سواه.

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾.

قال الكافرون: كيف يضرب خالق الأرض والسماوات الأمثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت؟ فيقال: الأمثال تضرب للناس إن لم تكونوا كالأنعام يحصل لكم منه إدراك ما يوجب نفرتكم مما أنتم فيه وذلك لأن التشبيه يؤثر في النفس تأثيرًا مثل تأثير الدليل، فإذا قال الحكيم لمن يغتاب: إنك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لأنك وقعت في هذا الرجل وهو غائب، لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع في ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه إن كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر إذا قال له: إنه يوجب العذاب ويورث العقاب.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾.

يعني حقيقتها وكون الأمر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه، وفيه معنى حكمي وهو أن العلم الحدسي يعلمه العاقل والعلم الفكري الدقيق يعقله العالم، وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرَك ظاهرًا وكون المدرِك عاقلاً، ولا يحتاج إلى كونه عالمًا بأشياء قبله، وأما الدقيق فيحتاج إلى علم سابق فلا بد من عالم، ثم إنه قد يكون دقيقًا في غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله إذا كان عالمًا. إذا علم هذا فقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ يعني هو ضرب للناس أمثالاً وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها إلا العلماء.

ثم إنه تعالى لما أمر الخلق بالإيمان وأظهر الحق بالبرهان ولم يأت الكفار بما أمرهم به وقص عليهم قصصًا فيها عبر، وأنذرهم على كفرهم بإهلاك من غبر، وبين ضعف دليلهم بالتمثيل، ولم يهتدوا بذلك إلى سواء السبيل، وحصل يأس الناس عنهم سلّى المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

يعني إن لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكًا في صحة دينكم، ولا يؤثر شكهم في قوة يقينكم، فإن خلق الله السماوات والأرض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر، وبرهان باهر، وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر، وفي الآية مسألة يتبين بها تفسير الآية، وهي أن الله تعالى كيف خص الآية في خلق السموات والأرض بالمؤمنين مع أن في خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى أن قال ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] فنقول: خلق السماوات والأرض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب، وبيانه من حيث النقل والعقل، أما النقل فقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٩] أخرج أكثر الناس عن العلم يكون خلقهما بالحق مع أنه أثبت علم الكل بأنه خلقهما حيث قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وأما العقل فهو أن العاقل أول ما ينظر إلى خلق السماوات والأرض ويعلم أن لهما خالقًا وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع

النظر عنهما عند مجرد ذلك، بل يقول إنه خلقهما متقنًا محكمًا وهو المراد بقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، لأن ما لا يكون على وجه الإحكام يفسد ويبطل فيكون باطلاً، وإذا علم أنه خلقهما متقنًا يقول: إنه قادر كامل حيث خلق وعالم علمه شامل حيث أتقن فيقول: لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات في الأرض ولا في السماوات ولا يعجز عن جمعها كما جمع أجزاء الكائنات والمبدعات، فيجوز بعث من في القبور وبعثة الرسول، ويعلم وحدانية الله لأنه لو كان أكثر من واحد لفسدتا ولبطلتا وهما بالحق موجودان فيحصل له الإيمان بتمامه، من خلق ما خلقه على أحسن نظامه، ثم إن الله تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله.

قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يعني إن كنت تأسف على كفرهم فاتل ما أوحي إليك لتعلم أن نوحًا ولوطًا وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا في إقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة ولهذا قال: ﴿ٱتْلُ﴾ وما قال: عليهم، لأن التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم إلا لتسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن الرسول إذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة في قراءته لنفسه فنقول: الكتاب المنزل مع النبي المرسل ليس كذلك، فإن الكتب المسيرة مع الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام، مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام، وقسم يكون فيه قانون كلي تحتاج إليه الرعية في جميع الأوقات كما إذا كتب الملك كتابًا فيه: إنا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا إليكم هذا الكتاب فيه جميع ذلك فليكن ذلك كمنوال ينسج عليه وال بعد وال، فمثل هذا الكتاب لا يقرأ ويترك بل يعلق من مكان عال، وكثيرًا ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب، ويكون نصب الأعين، فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلي فيه شفاء للعالمين فوجب تلاوته مرة بعد مرة ليبلغ إلى حد التواتر وينقله قرن إلى قرن ويأخذه قوم من قوم ويثبت في الصدور على مرور الدهور، الوجه الثاني: هو أن الكتب على ثلاثة أقسام: كتاب لا تكره قراءته إلا للغير كالقصص فإن من قرأ حكاية مرة لا يقرؤها مرة أخرى إلا لغيره، ثم إذا سمعه ذلك الغير لا يقرؤها إلا لآخر لم يسمعه ولو قرأه عليه لسئموه، وكتاب لا يكرر عليه إلا للنفس كالنحو والفقه وغيرهما، وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فإنها تكرر للغير وكلما سمعها يلتذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع وتكرر أيضًا لنفس المتكلم فإن كثيرًا ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها يكون أطيب وألذ وأثبت في القلب وأنفذ حتى يكاد

يبكي من رقته دمًا ولو أورثه البكاء عمى، إذا علم هذا فالقرآن من القبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان في تلاوته في كل زمان فائدة.

المسألة الثانية: لم خصص بالأمر هذين الشيئين تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة؟ فنقول: لوجهين أحدهما: أن الله لما أراد تسلية قلب محمد عليه السلام قال له: الرسول واسطة بين طرفين من الله إلى الخلق، فإذا لم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه فالطرف الآخر متصل، ألا ترى أن الرسول إذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله، فإذا تلوت كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك إليَّ وأقم الصلاة لوجهي، الوجه الثاني: هو أن العبادات المختصة بالعبد ثلاثة: وهي الاعتقاد الحق ولسانية وهي الذكر الحسن وبدنية خارجية وهي العمل الصالح، لكن الاعتقاد لا يتكرر فإن من اعتقد شيئًا لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمرًا والنبي عليه السلام كان ذلك حاصلاً له عن عيان أكمل مما يحصل عن بيان، فلم يؤمر به لعدم إمكان تكراره، لكن الذكر ممكن التكرار، والعبادة البدنية كذلك فأمره بهما فقال: اتل الكتاب وأقم الصلاة.

المسألة الثالثة: كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر؟ نقول: قال بعض المفسرين: المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أي فيه النهي عنهما وهو بعيد لأن إرادة القرآن من الصلاة في هذا الموضع الذي قال قبله: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ بعيد من الفهم، وقال بعضهم: أراد به نفس الصلاة وهي تنهى عنهما ما دام العبد في الصلاة، لأنه لا يمكنه الاشتغال بشيء منهما، فنقول: هذا كذلك لكن ليس المراد هذا وإلا لا يكون مدحًا كاملاً للصلاة، لأن غيرها من الأشغال كثيرًا ما يكون كذلك كالنوم في وقته وغيره فنقول: المراد أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقًا وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هي التي تكون مع الحضور وهي تنهى، حتى نقل عنه ﷺ «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْمَعَاصِي لَمْ يَزْدَدْ بِهَا إِلاَّ بُعْدًا»(١) ونحن نقول: الصلاة الصحيحة شرعًا تنهى عن الأمرين مطلقًا وهي التي أتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لا تصح صلاته شرعًا وتجب عليه الإعادة، وهذا ظاهر فإن من نوى بوضوئه الصلاة والتبرد قيل: لا يصح، فكيف من نوى بصلاته الله وغيره؟ إذا ثبت هذا فنقول: الصلاة تنهى من وجوه الأول: هو أن من كان يخدم ملكًا عظيم الشأن كثير الإحسان ويكون عنده بمنزلة، ويرى عبدًا من عباده قد طرده طردًا لا يتصور قبوله، وفاته الخير بحيث لا يرجى حصوله، يستحيل من ذلك المقرب عرفًا أن يترك خدمة الملك ويدخل في طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد إذا صلى لله صار عبدًا له، وحصل له منزلة المصلي يناجي ربه، فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، الثاني: هو أن من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف إذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لابسه عن القاذورات أكثر

---

(١) تقدم ولكن بلفظ الفحشاء.

فإذا لبس واحد منهم ثوب ديباج مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الأشياء عرفًا، فكذلك العبد إذا صلى لبس لباس التقوى لأنه واقف بين يدي الله واضع يمينه على شماله؛ على هيئة من يقف بمرأى ملك ذي هيبة، ولباس التقوى خير لباس يكون نسبته إلى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب إلى الجسم، فإذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر.

ثم إن الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع، الثالث: من يكون أمير نفسه يجلس حيث يريد فإذا دخل في خدمة ملك وأعطاه منصبًا له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب إلا في ذلك الموضع، فلو أراد أن يجلس في صف النعال لا يترك فكذلك العبد إذا صلى دخل في طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين، إذ صار من أصحاب اليمين، فلو أراد أن يقف في غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال، وهذا الوجه إشارة إلى عصمة الله يعني من صلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر، الرابع: وهو موافق لما وردت به الأخبار وهو أن من يكون بعيدًا عن الملك كالسوقي والمنادي والمتعيش لا يبالي بما فعل من الأفعال يأكل في دكان الهراس والرواس ويجلس مع أحباش الناس، فإذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما إذا صار واحدًا من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطي ما كان يفعله، فإذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميرًا حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الأكل في ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان، كذلك العبد إذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] فإذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصي والمناهي، فبتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته، حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلاً عن الكبائر، وفي الآية وجه آخر معقول يؤكده المنقول وهو أن المراد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ هو أنها تنهى عن التعطيل والإشراك، والتعطيل هو إنكار وجود الله، والإشراك إثبات ألوهية لغير الله. فنقول: التعطيل عقيدة فحشاء لأن الفاحش هو القبيح الظاهر القبح، لكن وجود الله أظهر من الشمس وما من شيء إلا وفيه آية على الله ظاهرة وإنكار الظاهر ظاهر الإنكار، فالقول بأن لا إله قبيح والإشراك منكر، وذلك لأن الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفسًا إلى غير الوالد مع جواز أن يكون له ولد حيث قال: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [المجادلة: ٢] فالمشرك الذي يقول: الملائكة بنات الله، وينسب إلى من لم يلد، ولا يجوز أن يكون له ولد، ولدًا - كيف لا يكون قوله منكرًا؟ فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء، وهذا المنكر وذلك لأن العبد أول ما يشرع في الصلاة يقول: الله أكبر، فبقوله (الله) ينفي التعطيل وبقوله (أكبر) ينفي التشريك لأن الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك، فإذا قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ نفى التعطيل، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ نفى الإشراك، لأن الرحمن من يعطي الوجود بالخلق

بالرحمة، والرحيم من يعطي البقاء بالرزق بالرحمة، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، أثبت بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خلاف التعطيل وبقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] خلاف الإشراك، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] بتقديم إياك نفى التعطيل والإشراك وكذا بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ [الفاتحة: ٦] نفى التعطيل لأن طالب الصراط له مقصد والمعطل لا مقصد له، وبقوله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] نفى الإشراك لأن المستقيم هو الأقرب والمشرك يعبد الأصنام حتى يعبد صورة صورها إله العالمين، ويظنون أنهم يشفعون لهم وعبادة الله من غير واسطة أقرب، وعلى هذا إلى آخر الصلاة يقول فيها: أشهد أن لا إله إلا الله فينفي الإشراك والتعطيل، وههنا لطيفة وهي أن الصلاة أولها لفظة الله وآخرها لفظة الله في قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، ليعلم المصلي أنه من أول الصلاة إلى آخرها مع الله، فإن قال قائل: فقد بقي من الصلاة قوله: وأشهد أن محمدًا رسول الله، والصلاة على الرسول والتسليم، فنقول: هذه الأشياء في آخرها دخلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة، وذلك لأن الصلاة ذكر الله لا غير، لكن العبد إذا وصل بالصلاة إلى الله وحصل مع الله لا يقع في قلبه أنه استقل واستبد واستغنى عن الرسول، كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولا يلتفت إلى النواب والحجاب، فقال: أنت في هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد ﷺ وغير مستغن عنه فقل: مع ذكرى محمد رسول الله، ثم إذا علمت أن هذا كله ببركة هدايته فاذكر إحسانه بالصلاة عليه، ثم إذا رجعت من معراجك وانتهيت إلى إخوانك فسلم عليهم وبلغهم سلامي كما هو ترتيب المسافرين، واعلم أن هيئة الصلاة هيئة فيها هيبة فإن أولها وقوف بين يدي الله كوقوف المملوك بين يدي السلطان، ثم إن آخرها جثو بين يدي الله كما يجثو بين يدي السلطان من أكرمه بالإجلاس، كأن العبد لما وقف وأثنى على الله أكرمه الله وأجلسه فجثا، وفي هذا الجثو لطيفة وهي أن من جثا في الدنيا بين يدي ربه هذا الجثو لا يكون له جثو في الآخرة، ولا يكون من الذين قال الله في حقهم: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

لما ذكر أمرين وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة بين ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم، فقال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة تنبشوا لذلك وتذكروهم بملء أفواهكم وقلوبكم، لكن ذكر الله أكبر، فينبغي أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم، وأما الصلاة فكذلك لأن الله يعلم ما تصنعون، وهذا أحسن صنعكم فينبغي أن يكون على وجه التعظيم، وفي قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ مع حذف بيان ما هو أكبر منه لطيفة وهي أن الله لم يقل: أكبر من ذكر فلان، لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة، إذ لا يقال: الجبل أكبر من خردلة، وإنما يقال: هذا الجبل أكبر من ذلك الجبل، فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر الله له الكبر لا لغيره، وهذا كما يقال في الصلاة: الله أكبر، أي له الكبر لا لغيره.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

لما بين الله طريقة إرشاد المشركين ونفع من انتفع وحصل اليأس ممن امتنع بين طريقة إرشاد أهل الكتاب فقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ قال بعض المفسرين: المراد منه لا تجادلوهم بالسيف، وإن لم يؤمنوا إلا إذا ظلموا وحاربوا، أي إذا ظلموا زائدًا على كفرهم، وفيه معنى ألطف منه وهو أن المشرك جاء بالمنكر على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالأخشن ويبالغ في تهجين مذهبه وتوهين شبهه، ولهذا قال تعالى في حقهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨] وقال: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩] إلى غير ذلك. وأما أهل الكتاب فجاءوا بكل حسن إلا الاعتراف بالنبي عليه السلام فوحدوا وآمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل والحشر، فلمقابلة إحسانهم يجادلون أولا بالأحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب إلى الضلال آباؤهم، بخلاف المشرك، ثم على هذا فقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تبيين له حسن آخر، وهو أن يكون المراد إلا الذين أشركوا منهم بإثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة فإنهم ضاهوهم في القول المنكر فهم الظالمون، لأن الشرك ظلم عظيم، فيجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم، ثم إنه تعالى بين ذلك الأحسن فقدم محاسنهم بقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فيلزمنا اتباع ما قاله لكنه بين رسالتي في كتبكم فهو دليل مضيء، ثم بعد ذلك ذكر دليلاً قياسيًا فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني كما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا عليك وهذا قياس، ثم قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ لوجود النص ومن هؤلاء كذلك، واختلف المفسرون فقال بعضهم: المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بنبينا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره وبقوله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من أهل مكة، وقال بعضهم: المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمدًا ﷺ زمانًا من أهل الكتاب، ومن هؤلاء الذين هم في زمان محمد ﷺ من أهل الكتاب وهذا أقرب، فإن قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ صَرْفُه إلى أهل الكتاب أولى، لأن الكلام فيهم ولا ذكر للمشركين ههنا، إذ كان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والإعراض عنهم لإصرارهم على الكفر، وههنا وجه آخر أولى وأقرب إلى العقل والنقل، وأقرب إلى الأحسن من الجدال المأمور به، وهو أن نقول: المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الأنبياء، وبقوله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من أهل الكتاب وهو أقرب، لأن الذين آتاهم الكتاب في الحقيقة هم الأنبياء، فإن الله ما آتى الكتاب إلا

للأنبياء، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الأنعام: ٨٩] وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٥] وقال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠] وإذا حملنا الكلام على هذا لا يدخله التخصيص، لأن كل الأنبياء آمنوا بكل الأنبياء، وإذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبد الله بن سلام واثنين أو ثلاثة معه أو عددًا قليلاً، ويكون المراد بقوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ غير المذكورين، وعلى ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه قسم القوم قسمين: أحدهما: المشركين وتكلم فيهم وفرغ منهم، والثاني أهل الكتاب وهو بعد في بيان أمرهم، والوقت وقت جريان ذكرهم، فإذا قال هؤلاء يكون منصرفًا إلى أهل الكتاب الذين هم في وصفهم، وإذا قال أولئك يكون منصرفًا إلى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم، وعلى هذا التفسير يكون الجدال على أحسن الوجوه، وذلك لأن الخلاف في الأنبياء والأئمة قريب من الخلاف في فضيلة الرؤساء والملوك، فإذا اختلف حزبان في فضيلة ملكين أو رئيسين، وأدى الاختلاف إلى الاقتتال يكون أقوى كلام يصلح بينهم أن يقال لهم: هذان الملكان متوافقان متصادقان، فلا معنى لنزاعكم، فكذلك ههنا قال النبي ﷺ: نحن آمنا بالأنبياء وهم آمنوا بي فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابركم وعلماؤكم آمنوا، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ تنفيرًا لهم عما هم عليه، يعني أنكم آمنتم بكل شيء، وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة، إلا هذه المسألة الواحدة، وبإنكارها تلتحقون بهم وتبطلون مزاياكم، فإن الجاحد بآية يكون كافرًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ هذه درجة أخرى بعد ما تقدم على الترتيب، وذلك لأن المجادل إذا ذكر مسألة مختلفًا فيها كقول القائل: الزكاة تجب في مال الصغير، فإذا قيل له: لِمَ؟ فيقول: كما تجب النفقة في ماله، ولا يذكر أولا الجامع بينهما، فإن قنع الطالب بمجرد التشبيه وأدرك من نفسه الجامع فذاك، وإن لم يدرك أو لم يقنع يبدي الجامع، فيقول: كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب، فكذلك ههنا ذكر أولا التمثيل بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [العنكبوت: ٤٧] ثم ذكر الجامع وهو المعجزة، فقال: ما علم كون تلك الكتب منزلة إلا بالمعجزة، وهذا القرآن ممن لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة، فيعرف كونه منزلاً، وقوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ فيه معنى لطيف، وهو أن النبي إذا كان قارئًا كاتبًا ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه، فإن جميع كتبة الأرض وقرائها لا يقدرون عليه، لكن على ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب، وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه فهو أدخل في الإبطال

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] أي من مثل محمد عليه السلام وكقوله: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢].

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ إشارة إلى أنه ليس من مخترعات الآدميين، لأن من يكون له كلام مخترع يقول: هذا من قلبي وخاطري، وإذا حفظه من غيره يقول: إنه في قلبي وصدري، فإذا قال: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ لا يكون من صدر أحد منهم، والجاهل يستحيل منه ذلك ظهور له من الصدور ويلتحقون عنده هذه الأمة بالمشركين، فظهوره من الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال ههنا: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ومن قبل قال: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧] مع أن الكافر ظالم ولا تنافي بين الكلامين وفيه فائدة، وهي أنهم قبل بيان المعجزة قيل لهم: إن لكم المزايا فلا تبطلوها بإنكار محمد فتكونوا كافرين، فلفظ الكافر هناك كان بليغًا يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر، ثم بعد بيان المعجزة قال لهم: إن جحدتم هذه الآية لزمكم إنكار إرسال الرسل فتلتحقون في أول الأمر بالمشركين حكمًا، وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين، أي مشركين، كما بينا أن الشرك ظلم عظيم، فهذا اللفظ ههنا أبلغ وذلك اللفظ هناك أبلغ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾

لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبهتهم وهي بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس، فقالوا: إنك تقول إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى، وليس كذلك لأن موسى أوتي تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيئًا منها، ثم إن الله تعالى أرشد نبيه إلى أجوبة هذه الشبهة منها قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ووجهه أن النبي ﷺ ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة، لأن الرسول يرسل أولا ويدعو إلى الله، ثم إن توقف الخلق في قبوله أو طلبوا منه دليلاً، فالله إن رحمهم بين رسالته وإن لم يرحمهم لا يبين، فقال: أنا الساعة رسولٌ وأما الآية فالله إن أراد ينزلها وإن لم يرد لا ينزلها، وهذا لأن ما هو من ضرورات الشيء إذا خلق الله الشيء لا بد من أن يخلقها كالمكان من ضرورات الإنسان فلا يخلق الله إنسانًا إلا ويكون قد خلق مكانًا أو يخلقه معه، لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك فالله إذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته أن تعلم له معجزة، ولهذا علم وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فإن قيل: علم رسالتهم، نقول: من ثبتت رسالته بلا معجزة فنبينا كذلك لا حاجة له إلى معجزة لأن رسالته علمت بقول موسى وعيسى فتبين بطلان قولهم لِمَ لم ينزل عليه آية؟ وهذا لأنهم طلبوا سبق الآية وليست

شرطًا حتى تسبقها، بلى إن كان لهم سؤال فطريقه أن يقولوا: يا أيها المدعي نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكنا نريد أن يبين الله لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبي وتكذيب النبي ونعلم بها كونك نبيًا ونؤمن بك، فبعد ذلك ما كان يبعد من رحمة الله أن ينزل آية.

ثم قوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ معناه أن الآية عند الله ينزلها أو لا ينزلها لا تتعلق بي ما أنا إلا نذير وليس لي عليه حكم بشيء، ثم إنه بعد بيان فساد شبهتهم من وجه بين فسادها من وجه آخر، وقال: هب أن إنزال الآية شرط لكنه وجد وهو في نفس الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني إن كان إنزال الآية شرطًا فلا يشترط إلا إنزال آية وقد أنزل وهو القرآن فإنه معجزة ظاهرة باقية، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية، وذلك لأن القائل إذا قال: أما يكفي للمسيء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبئ عن أن ترك الضرب في حقه كثير فكذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه: أحدها: أن تلك المعجزات وجدت وما دامت فإن قلب العصا ثعبانًا وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر، فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له: فأت بآية من مثله، الثاني: هو أن قلب العصا ثعبانًا كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد، وههنا لطيفة وهي أن آيات النبي عليه السلام كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لأن من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الأرض، لأن الخسوف إذا وقع عم وذلك لأن نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوة في قطر وسقط إيوان كسرى في قطر وانهدت الكنيسة بالروم في قطر آخر إعلامًا بأنه يكون أمر عام، الثالث: هو أن غير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول: إنه سحر عمل بدواء، والقرآن لا يمكن هذا القول فيه.

ثم إنه تعالى قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ إشارة إلى أنا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق، وهذا لأنا بينا أن إظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله، وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق في ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب، لأن النبي لا يتميز عن المتنبي لولا المعجزة، لكن الله له ذلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى أنه

معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون ما بقي الزمان.

ثم قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين لأن المعجزة كانت غضبًا على الكافرين لأنها قطعت أعذارهم وعطلت إنكارهم.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ لما ظهرت رسالته وبهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال كما يقول الصادق إذا كذب وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق: الله يعلم صدقي وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بيني وبينكم، كل ذلك إنذار وتهديد يفيده تقريرًا وتأكيدًا، ثم بيَّن كونه كافيًا بكونه عالمًا بجميع الأشياء. فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وههنا مسألة: وهي أن الله تعالى قال في آخر الرعد: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] فأخر شهادة أهل الكتاب، وفي هذه السورة قدمها حيث قال: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٧] ومن هؤلاء من يؤمن به أي من أهل الكتاب فنقول: الكلام هناك مع المشركين، فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم إن شهادة الله أقوى في إلزامهم من شهادة غير الله، وههنا الكلام مع أهل الكتاب، وشهادة المرء على نفسه هو إقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو ألزم عليهم. ثم إنه تعالى لما بين الطريقين في إرشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد إلى الكلام الشامل لهما والإنذار العام فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الذين آمنوا بما سوى الله لأن ما سوى الله باطل لأنه هالك بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] وكل ما هلك فقد بطل فكل هالك باطل وكل ما سوى الله باطل، فمن آمن بما سوى الله فقد آمن بالباطل

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يقتضي الحصر أي من أتى بالإيمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن يأتي بأحدهما دون الآخر ينبغي أن لا يكون خاسرًا فنقول يستحيل أن يكون الآتي بأحدهما لا يكون آتيًا بالآخر، أما الآتي بالإيمان بما سوى الله فلأنه أشرك بالله فجعل غير الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل ممكن باطل فيكون الله كذلك فيكون إنكارًا لله وكفرًا به، وأما من كفر به وأنكره فيكون قائلًا بأن العالم ليس له إله موجد فوجود العالم من نفسه، فيكون قائلًا بأن العالم واجب والواجب إله، فيكون قائلًا بأن غير الله إله فيكون إثباتًا لغير الله وإيمانًا به.

المسألة الثانية: إذا كان الإيمان بما سوى الله كفرًا به، فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذي هو في قول القائل: قم ولا تقعد واقرب مني ولا تبعد؟ نقول: نعم فيه فائدة غيرها، وهو أنه ذكر الثاني لبيان قبح الأول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول باطل قبيح.

المسألة الثالثة: هل يتناول هذا أهل الكتاب أي هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله؟ نقول: نعم، لأنهم لما صح عندهم أن معجزة النبي من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا: إنها من عند غير الله، يكون كمن رأى شخصًا يرمي حجارة، فقال: إن رامي الحجارة زيد، يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل؟ يقول: زيد، فكذلك هم لما قطعوا بأن مظهر المعجزة هو الله وقالوا بأن محمدًا مظهر هذا يلزمهم أن يقولوا: محمد هو الله تعالى، فيكون إيمانًا بالباطل، وإذا قالوا بأن من أظهر المعجزة ليس بإله مع أنهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونون قائلين بأن ذلك المخصوص الذي هو الله ليس بإله فيكون كفرًا به، وهذا لا يرد علينا فيمن يقول فلعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد، فإنه أيضًا ينسب فعل الله إلى الغير، كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها إلى غيره لأن هذا القائل جهل النسبة، كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين راميها، فيظن أن راميها زيد فيقول: زيد هو رامي هذه الحجارة، ثم إذا رأى راميها بعينه ويكون غير زيد لا يقطع بأن يقول: هو زيد، وأما إذا رأى عينه ورميه للحجارة وقال: رامي الحجارة زيد، يقطع بأنه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من حيث إنهم كانوا معاندين عالمين بأن الله مظهر تلك المعجزة، ويقولون بأنها من عند غير الله.

ثم قوله: ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ كذلك بأتم وجوه الخسران، وهذا لأن من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون، فهم لما عبدوا غير الله أفنوا العمر ولم يحصل لهم في مقابلته شيء ما أصلاً من المنافع، واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

لما أنذرهم الله بالخسران وهو أتم وجوه الإنذار لأن من خسر لا يحصل له في مقابلة قدر الخسران شيء من المنافع وإلا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه، مثاله إذا خسر واحد من العشرة درهمًا لا ينبغي أن يكون حصل له في مقابلة الدرهم ما يساوي نصف درهم، وإلا لا يكون الخسران درهمًا بل نصف درهم، فإذن هم لما خسروا أعمارهم لا تحصل لهم منفعة تخفيف عذاب وإلا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم، فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢] تهديد عظيم فقالوا: إن كان علينا عذاب فأتنا به، إظهارًا لقطعهم بعدم العذاب، ثم إنه أجاب بأن العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم، لأنه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكيمًا لا يكون متغيرًا منقلبًا، ولكونه رحيمًا لا يكون غضوبًا منزعجًا، ولولا ذلك الأجل المسمى الذي اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له

رحمة وحكمة، فيكون غضوبًا منقلبًا فيتأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم بالعذاب حين تستعيذون به منه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً﴾ اختلف المفسرون فيه، فقال بعضهم: ليأتينهم العذاب بغتة، لأن العذاب أقرب المذكورين، ولأن مسئولهم كان العذاب، فقال: إنه ليأتينهم، وقال بعضهم ليأتينهم بغتة أي الأجل، لأن الآتي بغتة هو الأجل وأما العذاب بعد الأجل يكون معاينة، وقد ذكرنا أن في كون العذاب أو الأجل آتيًا بغتة حكمة، وهي أنه لو كان وقته معلومًا، لكان كل أحد يتكل على بعده وعلمه بوقته فيفسق ويفجر معتمدًا على التوبة قبل الموت.

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: تأكيد معنى قوله (بغتة) كما يقول القائل: أتيته على غفلة منه بحيث لم يدر، فقوله: بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة.

والثاني: هو كلام يفيد فائدة مستقلة، وهي أن العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون هذا الأمر، ويظنون أن العذاب لا يأتيهم أصلاً.

قوله تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٤ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٥٥﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ذكر هذا للتعجب، وهذا لأن من توعد بأمر فيه ضرر يسير كلطمة أو لكمة، فيرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات، وأما من توعد بإغراق أو إحراق ويقطع بأن المتوعد قادر لا يخلف الميعاد، لا يخطر ببال العاقل أن يقول له: هات ما تتوعدني به، فقال هاهنا: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ والعذاب بنار جهنم المحيطة بهم، فقوله: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾ أولاً إخبار عنهم وثانيًا تعجب منهم، ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم.

فقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لِمَ خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام؟ فنقول: لأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع، فإن من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وإنما تصعد من أسفل في العادة العاجلة وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التي تحت القدم، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم.

المسألة الثانية: قال: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ ولم يقل: من فوق رءوسهم، ولا قال: من فوقهم ومن تحتهم، بل ذكر المضاف إليه عند ذكر (تحت) ولم يذكره عند ذكر (فوق)،

فنقول: لأن نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرؤوس وسواء كان من موضع آخر عجيب، فلهذا لم يخصه بالرأس، وأما بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب، وإلا فمن جوانب القدم في الدنيا يكون شعل وهي تحت فذكر العجيب وهو ما تحت الأرجل حيث لم ينطق بالدوس وما فوق على الإطلاق.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة: ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب، فإن عملهم كان سببًا لجعل الله إياه سببًا لعذابهم، وهذا كثير النظير في الاستعمال.

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

وجه التعلق هو أن الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما في الإنذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في إيذاء المؤمنين ومنعوهم من العبادة فقال مخاطبًا للمؤمنين: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ إن تعذرت العبادة عليكم في بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتي بحال، وبهذا علم أن الجلوس في دار الحرب حرام والخروج منها واجب، حتى لو حلف بالطلاق أنه لا يخرج لزمه الخروج، حتى يقع الطلاق.

ثم في الآية مسائل:

المسألة الأولى: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ لم يرد إلا المخاطبة مع المؤمنين مع أن الكافر داخل في قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ نقول: ليس داخلًا في قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ نقول: ليس داخلًا فيه لوجوه: أحدها: أن من قال في حقه: (عبادي) ليس للشيطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يكون داخلًا في قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ الثاني: هو أن الخطاب بـ(عبادي) أشرف منازل المكلف، وذلك لأن الله تعالى لما خلق آدم آتاه اسمًا عظيمًا وهو اسم الخلافة كما قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] والخليفة أعظم الناس مقدارًا وأتم ذوي البأس اقتدارًا، ثم إن إبليس لم يرهب من هذا الاسم ولم ينهزم، بل أقدم عليه بسببه وعاداه وغلبه كما قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦] ثم إن من أولاده الصالحين من سمي بـ(عبادي) فانخنس عنهم الشيطان وتضاءل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقال هو بلسانه: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] فعلم أن المكلف إذا كان عبدًا لله يكون أعلى درجة مما إذا كان خليفة لوجه الأرض ولعل آدم كداود الذي قال الله تعالى في حقه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] لم يتخلص من يد الشيطان إلا وقت ما قال الله تعالى في حقه عبدي وعندما ناداه بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]

واجتباه بهذا النداء، كما قال في حق داود: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ [ص: ١٧]إذا علم هذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح لما هو أعظم من الخلافة؟ فلا يدخل في قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ إلا المؤمن. الثالث: هو أن هذا الخطاب حصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]فالمؤمن دعا ربه بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ [آل عمران: ١٩٣]فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣]فالإضافة بين الله وبين العبد بقول العبد: إلهي، وقول الله: عبدي، تأكدت بدعاء العبد، لكن الكافر لم يدع فلم يجب، فلا يتناول يا عبادي غير المؤمنين.

المسألة الثانية: إذا كان عبادي لا يتناول إلا المؤمنين فما الفائدة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مع أن الوصف إنما يذكر لتمييز الموصوف، كما يقال: يا أيها المكلفون المؤمنون، ويا أيها الرجال العقلاء، تمييزًا عن الكافرين والجهال، فنقول: الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان أن فيه الوصف كما يقال: الأنبياء المكرمون والملائكة المطهرون، مع أن كل نبي مكرم وكل ملك مطهر، وإنما يقال لبيان أن فيهم الإكرام والطهارة، ومثل هذا قولنا: الله العظيم، وزيد الطويل، فههنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون.

المسألة الثالثة: إذ قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ فهم يكونون عابدين فما الفائدة في الأمر بالعبادة بقوله ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾؟ فنقول: فيه فائدتان: إحداهما: المداومة أي: يا من عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل، الثانية: الإخلاص أي: يا من تعبدني أخلص العمل لي ولا تعبد غيري.

المسألة الرابعة: الفاء في قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ تدل على أنه جواب لشرط فما ذلك؟ فنقول: قوله: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ إشارة إلى عدم المانع من عبادته فكأنه قال: إذا كان لا مانع من عبادتي فاعبدوني، وأما الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ فهو لترتيب المقتضى على المقتضي كما يقال: هذا عالم فأكرموه، فكذلك ههنا لما أعلم نفسه بقوله: ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ وهو لنفسه يستحق العبادة قال ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾.

المسألة الخامسة: قال العبد مثل هذا في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]وقال عقيبه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]والله تعالى وافقه في قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ ولم يذكر الإعانة نقول: بل هي مذكورة في قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ لأن المذكور بعبادي لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود القبيل عنه كان في غاية الإعانة.

المسألة السادسة: قدم الله الإعانة وأخر العبد الاستعانة، قلنا: لأن العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض، فإن الغرض سابق على الفعل في الإدراك، وذلك لأن من يبني بيتًا للسكنى يدخل في ذهنه أولاً فائدة السكنى فيحمله على البناء، لكن الغرض في الوجود لا يكون إلا بعد فعل الواسطة، فنقول: الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهي سابقة في إدراكه، وأما الله تعالى فليس فعله لغرض فراعى ترتيب الوجود، فإن الإعانة قبل العبادة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾

لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان، فقال لهم: إن ما تكرهون لا بد من وقوعه فإن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ والموت مفرق الأحباب فالأولى أن يكون ذلك في سبيل الله فيجازيكم عليه، فإن إلى الله مرجعكم، وفيه وجه أرق وأدق، وهو أن الله تعالى قال: كل نفس إذا كانت غير متعلقة بغيرها فهي للموت، ثم إلى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ [الدخان: ٥٦] إذا ثبت هذا فمن يريد ألا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه فإن النفس ذائقته بل يتعلق بغيره وذلك الغير إن كان غير الله فهو ذائق الموت ومورد الهلاك بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] فإذًا التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ أي تعلقوا بي، ولا تتبعوا النفس فإنها ذائقة الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي إذا تعلقتم بي فموتكم رجوع إلي وليس بموت كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقال عليه السلام: «الْمُؤْمِنُونَ لَا يَمُوتُونَ بَلْ يُنْقَلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ»(١) فعلى هذا الوجه أيضًا يتبين وجه التعلق.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾

بين ما يكون للمؤمنين وقت الرجوع إليه كما بين من قبل ما يكون للكافرين بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤] فبين أن للمؤمنين الجنان في مقابلة ما أن للكافرين النيران، وبين أن فيها غرفًا تجري من تحتها الأنهار في مقابلة ما بين أن تحت الكافرين النار، وبين أن ذلك أجر عملهم بقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ في مقابلة ما بين أن ما تقدم جزاء عمل الكفار بقوله: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] ثم في الآيتين اختلافات فيها لطائف منها أنه تعالى ذكر في العذاب أن فوقهم عذابًا أي نارًا، ولم يذكر ههنا فوقهم شيئًا، وإنما ذكر ما فوق من غير إضافة وهو الغرف، وذلك لأن المذكور في الموضعين العقاب والثواب الجسمانيان، لكن الكافر في الدرك الأسفل من النار، فيكون فوقه طبقات من النار، فأما المؤمنون فيكونون في أعلى عليين، فلم يذكر فوقهم شيئًا إشارة إلى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم.

وأما قوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ [الزمر: ٢٠] لا ينافي لأن الغرف فوق الغرف لا فوقهم والنار فوق النار وهي فوقهم، ومنها أن هناك ذكر من تحت أرجلهم النار، وههنا ذكر من تحت

---

(١) ذكره بعض أهل التفسير غير الرازي كتفسير اللباب بغير إسناد.

غرفهم الماء، وذلك لأن النار لا تؤلم إذا كانت تحت مطلقًا ما لم تكن في مسامتة الأقدام ومتصلة بها، أما إذا كان الشعلة مائلة عن سمت القدم وإن كانت تحتها، أو تكون مسامتة ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون أسفل في وهدة لا تؤلم، وأما الماء إذا كان تحت الغرفة في أي وجه كان وعلى أي بعد كان يكون ملتذًا به، فقال في النار من تحت أرجلهم ليحصل الألم بها، وقال ههنا من تحت الغرف لحصول اللذة به كيف كان، ومنها أن هناك قال: ذوقوا، لإيلام قلوبهم بلفظ الأمر وقال ههنا: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ لتفريح قلوبهم لا بصيغة الأمر وذلك لأن لفظ الأمر يدل على انقطاع التعلق بعده، فإن من قال لأجيره: خذ أجرتك، يفهم منه أن بذلك ينقطع تعلقه عنه، وأما إذا قال: ما أتم أجرتك عندي أو نعم مالك من الأجر، يفهم منه أن ذلك عنده ولم يقل ههنا: خذوا أجرتكم أيها العاملون وقال هناك: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] فإن قال قائل: ذوقوا إذا كان يفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع، قلنا: ليس كذلك لأن الله إذا قال: ذوقوا، دل على أنه أعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائمًا ولا ينقص ولا يزداد، وأما المؤمن إذا أعطاه شيئًا فلا يتركه مع ماأعطاه بل يزيد له كل يوم في النعم وإليه الإشارة بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أي الذي يصل إلى الكافر يدوم من غير زيادة والذي يصل إلى المؤمن يزداد على الدوام، وأما الخلود وإن لم يذكره في حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾

ذكر أمرين الصبر والتوكل لأن الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضي لا تدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشيء، بقي الحاضر واللائق به الصبر والمستقبل واللائق به التوكل، فيصبر على ما يصيبه من الأذى في الحال، ويتوكل فيما يحتاج إليه في الاستقبال.

واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان إلا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله، فمن علم ما سواه علم أنه زائل فيهون عليه الصبر إذ الصبر على الزائل هين، وإذا علم الله علم أنه باق يأتيه بأرزاقه فإن فاته شيء فإنه يتوكل على حي باق، وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب، فإن قوله: ﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾ كان لبيان أنه لا مانع من العبادة، ومن يؤذى في بقعة فليخرج منها. فحصل الناس على قسمين قادر على الخروج وهو متوكل على ربه، يترك الأوطان ويفارق الإخوان، وعاجز وهو صابر على تحمل الأذى ومواظب على عبادة الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر ما يعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التي لا تدخر شيئًا لغد، ويأتيها كل يوم برزق رغد.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في كأين لغات أربع (لاَ) غير هذه (و) كائن على وزن راع وكأين على وزن ريع وكي على دع ولم يقرأ إلا كأين وكائن قراءة ابن كثير.

المسألة الثانية: كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأي التي تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم، ولم تكتب إلا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب، لأن كأي يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلاً لا كأي رجل يكون، فقد حذف المضاف إليه ويقال: رأيت رجلاً لا كأي رجل، وحينئذ لا يكون كأي مركبًا، فإذا كان كأي ههنا مركبًا كتبت بالنون للتمييز كما تكتب معد يكرب وبعلبك موصولاً للفرق. وكما تكتب ثمة بالهاء تمييزًا بينها وبين ثمت.

المسألة الثالثة: كأين بمعنى كم لم تستعمل مع من إلا نادرًا وكم يستعمل كثيرًا من غير من، يقال: كم رجلاً وكم من رجل، وذلك لما بينا من الفرق بين كأين بمعنى كم وكأي التي ليست مركبة، وذلك لأن كأي إذا لم تكن مركبة لا يجوز إدخال من بعدها إذ لا يقال: رأيت رجلاً لا كأي من رجل، والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها فالتزم للفرق. قوله تعالى: ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ قيل: لا تحمل لضعفها وقيل هي كالقمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لا تدخر ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ بطريق القياس أي لا شك في أن رزقها ليس إلا بالله فكذلك يرزقكم فتوكلوا، فإن قال قائل: من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات في الصحراء مسبب والحيوان يسعى إليه ويرعى، فنقول: الدليل عليه من ثلاثة أوجه نظرًا إلى الرزق وإلى المرتزق وإلى مجموع الرزق والمرتزق، أما بالنظر إلى الرزق فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق، وأما بالنظر إلى المرتزق فلأن الاغتذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لا بد من تشبثه بالأعضاء حتى يصير الحشيش عظمًا ولحمًا وشحمًا، وما ذاك إلا بحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى وبمحض قدرة الله وإرادته فهو الذي يرزقها، وأما بالنظر إلى المرتزق والرزق، فلأن الله لو لم يهد الحيوان إلى الغذاء ليعرفه من الشم ما كان يحصل له اغتذاء، ألا ترى أن من الحيوان ما لا يعرف نوعًا من أنواع الغذاء حتى يوضع في فمه بالشدة ليذوق فيأكله بعد ذلك، فإن كثيرًا ما يكون البعير لا يعرف الخمير ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فيأكله بعد ذلك، فإن قال قائل، كيف يصح قياس الإنسان على الحيوان فيما يوجب التوكل والحيوان رزقه لا يتعرض إليه إذا أكل منه اليوم شيئًا وترك بقية يجدها غدًا، ما مد إليه أحد يدًا، والإنسان إن لم يأخذ اليوم لا يبقى له غدًا شيء؟ وأيضًا حاجات الإنسان كثيرة فإنه يحتاج إلى أجناس اللباس وأنواع الأطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضًا قوت الحيوان مهيأ وقوت الإنسان يحتاج إلى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل الحاجة ما كان

يجده وقت الحاجة، فنقول: نحن لا نقول إن الجمع يقدح في التوكل، بل قد يكون الزارع الحاصد متوكلاً والراكع الساجد غير متوكل، لأن من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده في الله أنه إن كان يريد يرزق من غير زرع، وإن كان يريد لا يرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل، ومن يصلي وقلبه مع ما في يد زيد وعمرو هو غير متوكل. وأما قوله: حاجات الإنسان كثيرة، فنقول: مكاسبه كثيرة أيضًا، فإنه يكتسب بيده كالخياط والنساج وبرجله كالساعي وغيره، وبعينه كالناطور وبلسانه كالحادي والمنادي، وبفهمه كالمهندس والتاجر، وبعلمه كالطبيب والفقيه، وبقوة جسمه كالعتال والحمال، والحيوان لا مكاسب له، فالرغيف الذي يحتاج إليه الإنسان غدًا أو بعد غد، بعيد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب، فهو أولى بالتوكل. وأيضًا الله تعالى خلق الإنسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه، فإن الله ملك الإنسان عمائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل في ملكه شاء أم أبى، حتى إن نتاج الأنعام وثمار الأشجار تدخل في الملك وإن لم يرده مالك النعم والشجر، وإذا مات قرن ينتقل ذلك إلى قرن آخر قهرًا شاءوا أم أبوا، وليس كذلك حال الحيوان أصلاً، فإن الحيوان إن لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه، فإذن الإنسان لو توكل كان أقرب إلى العقل من توكل الحيوان، ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ سميع إذا طلبتم الرزق، يسمع ويجيب، عليم إن سكتم، لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾

نقول: لما بين الله الأمر للمشرك مخاطبًا معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [العنكبوت: ٥٦] وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون إرشادًا للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق في غاية الحسن، فإن السيد إذا كان له عبدان، أو الوالد إذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد، ينصح أولاً المفسد، فإن لم يسمع يقول معرضًا عنه، ملتفتًا إلى الرشيد: إن هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد، فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد، فإن قوله: هذا لا يستحق الخطاب، يوجب نكاية في قلبه، ثم إذا ذكر مع المصلح في أثناء الكلام والمفسد يسمعه: إن هذا أخاك العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده، يكون هذا الكلام أيضًا داعيًا له إلى سبيل الرشاد مانعًا له من ذلك الفساد، فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن: العجب منهم أنهم إن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ثم لا يؤمنون، وفي الآية لطائف: إحداها: ذكر في السماوات والأرض الخلق، وفي الشمس والقمر التسخير، وذلك

لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة، فإن الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء، فإذًا الحكمة في تحريكهما وتسخيرهما، الثانية: في لفظ التسخير، وذلك لأن التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافيًا، لأنها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين، فالحكمة في تسخيرهما تحركهما في قدر ما يتنفس الإنسان آلافًا من الفراسخ، ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركات، إحداها حركتها من المشرق إلى المغرب في كل يوم وليلة مرة، والأخرى حركتها من المغرب إلى المشرق، والدليل عليها أن الهلال يرى في جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس، ثم يبعد منه إلى جانب الشرق حتى يرى القمر في نصف الشهر في مقابلة الشمس، والشمس على أفق المغرب، والقمر على أفق المشرق، وحركة أخرى حركة الأوج وحركة المائل والتدوير في القمر، ولولا الحركة التي من المغرب إلى المشرق لما حصلت الفصول، ثم اعلم أن أصحاب الهيئة قالوا: الشمس في الفلك مركوزة والفلك يديرها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون، ونحن نقول: لا بعد في ذلك إن لم يقولوا بالطبيعة، فإن الله تعالى فاعل مختار إن أراد أن يحركهما في الفلك والفلك ساكن يجوز، وإن أراد أن يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر، وسنذكر تمام البحث في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] الثالثة: ذكر أمرين أحدهما خلق السماوات والأرض والآخر تسخير الشمس والقمر، لأن الإيجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات، فخلق السموات والأرض إشارة إلى إيجاد الذوات، وتسخير الشمس والقمر إشارة إلى إيجاد الصفات وهي الحركة وغيرها، فكأنه ذكر من القبيلين مثالين، ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يعني هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله، مع أن من علمت عظمته وجبت خدمته، ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والأرض، ولا حقارة فوق حقارة الجماد، لأن الجماد دون الحيوان، والحيوان دون الإنسان، والإنسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشتغلون بعبادات أخس الموجودات؟!

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ لما بين الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الإنسان بالرزق، فقال المعبود إما أن يعبد لاستحقاقه العبادة، وهذه الأصنام ليست كذلك والله مستحقها، وإما لكونه على الشأن والله الذي خلق السموات على الشأن جلي البرهان فله العبادة، وإما لكونه ولي الإحسان والله يرزق الخلق فله الطول والإحسان والفضل

والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضًا، قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى كمال الإحسان، وذلك لأن الملك إذا أمر الخازن بإعطاء شخص شيئًا، فإذا أعطاه يكون له منة ما يسيرة حقيرة، لأن الآخذ يقول هذا ليس بإرادته وإنما هو بأمر الملك، وأما إن كان مختارًا بأن قال له الملك: إن شئت فأعطه وإن شئت فلا تعطه، فإن أعطاه يكون له منة جليلة لا قليلة، فقال الله تعالى الرزق منه وبمشيئته فهو إحسان تام يستوجب شكرًا تامًّا، وقوله تعالى: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي يضيق له إن أراد، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق وفي إثبات العلم ههنا لطائف:

إحداها: أن الرازق الذي هو كامل المشيئة إذا رأى عبده محتاجًا وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق، ولا يؤخر الرازق الرزق إلا لنقصان في نفوذ مشيئته كالملك إذا أراد الإطعام والطعام لا يكون بعد قد استوى، أو لعدم علمه بجوع العبيد.

الثانية: وهي أن الله بإثبات العلم استوعب ذكر الصفات التي هي صفات الإله ومن أنكرها كفر وهي أربعة: الحياة والقدرة والإرادة والعلم، وأما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعًا لا كافرًا، وقد استوفى الأربع، لأن قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إشارة إلى كمال القدرة، وقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى نفوذ مشيئته وإرادته، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى شمول علمه، والقادر المريد العالم لا يتصور إلا حيًّا، ثم إنه تعالى لما قال: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ذكر اعترافهم بذلك فقال:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يعني هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب، فالرزق من الله، ثم قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهو يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون كلامًا معترضًا في أثناء كلام كأنه قال: فأحيا به الأرض من بعد موتها ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فذكر في أثناء هذا الكلام ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لذكر النعمة، كما قال القائل:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتَهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانْ[1]

الثاني: أن يكون المراد منه كلامًا متصلًا، وهو أنهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون، وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون بك فقل الحمد لله وأكثرهم لا يعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هي من الله، الثالث: أن يكون المراد

(١) هذا البيت للشاعر ابن الوردي وهو: عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس أبو حفص زين الدين بن الوردي المعري الكندي. ٦٩١ - ٧٤٩هـ/ ١٢٩٢ - ١٣٤٩م. شاعر أديب مؤرخ، ولد في معرة النعمان (بسورية) وولي القضاء بمنبج وتوفي بحلب. وتنسب إليه اللامية التي أولها: (اعتزل ذكر الأغاني والغزل) ا.هـ بتصرف.

أنهم يقولون إنه من الله ويقولون بإلهية غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم فـ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور تناقضهم و﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا التناقض أو فساد هذا التناقض.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

لما بين أنهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولا يتركونها إلا لزينة الحياة الدنيا بين أن ما يميلون إليه ليس بشيء بقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما الفرق بين اللهو واللعب، حتى يصح عطف أحدهما على الآخر؟ فنقول: الفرق من وجهين أحدهما: أن كل شغل يفرض، فإن المكلف إذا أقبل عليه لزمه الإعراض عن غيره ومن لا يشغله شأن عن شأن هو الله تعالى، فالذي يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الإعراض عن الحق فالإقبال على الباطل لعب والإعراض عن الحق لهو، فالدنيا لعب أي إقبال على الباطل، ولهو أي إعراض عن الحق، الثاني: هو أن المشتغل بشيء يرجح ذلك الشيء على غيره لا محالة حتى يشتغل به، فإما أن يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك الآخر آتي به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والإعراض عن غيره بالكلية، فالأول لعب والثاني لهو، والدليل عليه هو أن الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لا تسمى آلات الملاهي في العرف، والعود وغيره من الأوتار تسمى آلات الملاهي لأنها تلهي الإنسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية، فالدنيا للبعض لعب يشتغل به ويقول: بعد هذا الشغل أشتغل بالعبادة والآخرة، وللبعض لَهْوٌ يشتغل به وينسى الآخرة بالكلية.

المسألة الثانية: قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ [الأنعام: ٣٢] ولم يقل: وما هذه الحياة، وقال هاهنا: ﴿وَمَا هَٰذِهِ﴾ فنقول: لأن المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا، حيث قال تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣] فقال (هذه) والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] فلم تكن الدنيا في ذلك الوقت في خاطرهم فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾.

المسألة الثالثة: قال هناك: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] وقال هاهنا: ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ فنقول: لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة، ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو.

المسألة الرابعة: قال هناك: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] وقال هاهنا: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ فنقول: لما كان الحال هناك حال إظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج إلى رادع قوي فقال: ﴿الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]، ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج إلى رادع قوي فقال: لا حياة إلا حياة الآخرة، وهذا كما أن العاقل إذا عرض عليه شيئان فقال في أحدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحًا فحسب، ولو قال: هذا جيد وهذا الآخر ليس بشيء، يكون ترجيحًا مع المبالغة فكذلك هاهنا بالغ لكون المكلف متوغلاً فيها.

المسألة الخامسة: قال هناك: ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] ولم يقل هاهنا إلا ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾، لأن الآخرة خير للمتقي فحسب أي المتقي عن الشرك، وأما الكافر فالدنيا جنته فهي خير له من الآخرة، وأما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم.

المسألة السادسة: كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك؟ فنقول: الحيوان مصدر حي كالحياة لكن فيها مبالغة ليست في الحياة والمراد بالدار الآخرة هي الحياة الثانية، فكأنه قال الحياة الثانية هي الحياة المعتبرة أو نقول: لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وكانت هي محل الإدراك التام الحق كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أطلق عليها الاسم المستعمل في النامي المدرك.

المسألة السابعة: قال في سورة الأنعام: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] وقال هاهنا: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وذلك لأن المثبت هناك كون الآخرة خيرًا وأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل والمثبت هاهنا أن لا حياة إلا حياة الآخرة، وهذا دقيق لا يعرف إلا بعلم نافع.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

إشارة إلى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا، وبيان ذلك هو أنهم إذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا وأخلصوا، فإذا أنجاهم وأرجأهم عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. وفيه وجهان:

أحدهما: أن اللام لام كي، أي يشركون ليكون إشراكهم كفرًا بنعمة الإنجاء، وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون بوبال عملهم حين زوال أملهم.

والثاني: أن تكون اللام لام الأمر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد. كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] وكما قال: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥] فساد ما تعملون.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

التفسير ظاهر، وإنما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها، فنقول: الإنسان في البحر يكون على أخوف ما يكون وفي بيته يكون على آمن ما يكون لا سيما إذا كان بيته في بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عند الخوف الشديد ورأوا أنفسهم في تلك الحالة راجعة إلى الله تعالى ذَكَّرَهم حالهم عند الأمن العظيم وهي كونهم في مكة فإنها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم، وهي حصين بحصن الله حيث كل من حولها يمتنع من قتال من حصل فيها، والحصول فيها يدفع الشرور عن النفوس ويكفها يعني أنكم في أخوف ما كنتم دعوتم الله وفي آمن ما حصلتم عليه كفرتم بالله، وهذا متناقض لأن دعاءكم في ذلك الوقت على سبيل الإخلاص ما كان إلا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير فهذه النعمة العظيمة التي حصلت وقد اعترفتم بأنها لا تكون إلا من الله كيف تكفرون بها؟ والأصنام التي قطعتم في حال الخوف أن لا أمن منها كيف آمنتم بها في حال الأمن؟.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

لما بين الله الأمور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بين أنهم أظلم من يكون، لأن الظلم على ما بين وضع الشيء في غير موضعه، فإذا وضع واحد شيئًا في بموضع ليس هو موضعه يكون ظالمًا فإذا وضعه في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم لأن عدم الإمكان أقوى من عدم الحصول، لأن كل ما لا يمكن لا يحصل وليس كل ما لا يحصل لا يمكن، فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكًا فلو كان ذلك في حق ملك مستقل في الملك لكان ظلمًا يستحق من الملك العقاب الأليم فكيف إذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك، وأيضًا من كذب صادقًا يجوز عليه الكذب يكون ظلمًا فمن يكذب صادقًا لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله؟ فإذًا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله في تصديق نبيه والنبي في رسالة ربه والقرآن المنزل من الله إلى الرسول، والعجب من المشركين أنهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت بالإلهية، ولم يقبلوا ذا حسب منعوت بالرسالة، والآية تحتمل وجهًا آخر وهو أن الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر قال لنبيه ليقول للناس: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: إني جئت بالرسالة وقلت: إنها من الله وهذا

كلام الله، وأنتم كذبتموني فالحال دائر بين أمرين: أما أنا مفتر متنبئ إن كان هذا من عند غير الله أو أنتم مكذبون بالحق إن كان من عنده لكني معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا أقدم على الافتراء لأن ﴿جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ والمتنبئ كافر، وأنتم كذبتموني فجهنم مثواكم إذ هي مثوى للكافرين، وهذا حينئذٍ يكون كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

لما فرغ من التقرير والتقريع ولم يؤمن الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: من جاهد بالطاعة هداه سبل الجنة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى ما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فقوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ إشارة إلى الحسنى، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى المعية والقربة التي تكون للمحسن زيادة على حسناته، وفيه وجه آخر حكمي وهو أن يكون المعنى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ أي: الذين نظروا في دلائلنا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي لنحصل فيهم العلم بنا. ولنبين هذا فضل بيان، فنقول: أصحابنا المتكلمون قالوا: إن النظر كالشرط للعلم الاستدلالي والله يخلق في الناظر علمًا عقيب نظره، ووافقهم الفلاسفة على ذلك في المعنى وقالوا: النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة، وإذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية، وعلى هذا يكون الترتيب حسنًا، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تفدهم العلم والإيمان قال: إنهم لم ينظروا فلم يهتدوا وإنما هو هدى للمتقين الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهديهم، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى درجة أعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال: من الناس من يكون بعيدًا لا يتقرب وهم الكفار، ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريبًا منه يعلم الأشياء منه ولا يعلمه من الأشياء، ومن يكون مع الشيء كيف يطلبه؟ فقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ إشارة إلى الأول، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ إشارة إلى الثاني، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى الثالث.

والله أعلم بأسرار كتابه، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.

سورة العنكبوت

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنيةٌ كلُّها في أحد قولَي ابن عباس وقتادة. وفي القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلَّام أنها مكيةٌ إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: نزلت بين مكة والمدينة(١). وهي تسعٌ وستون آية(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾(٣) تقدَّم القولُ في أوائل السور. وقال ابن عباس: المعنى: أنا الله أعلم. وقيل: هو اسمٌ للسورة. وقيل: اسمٌ للقرآن.

﴿أَحَسِبَ﴾ استفهامٌ أُريدَ به التقرير والتوبيخ، ومعناه الظن(٤). ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ في موضع نصب بـ«حَسِبَ» وفيه وَصِلتُها مقامُ المفعولين على قول سيبويه. و«أنَّ» الثانية من «أن يَقُولُوا» في موضع نصبٍ على إحدى جهتين، بمعنى: لأَنْ يقولوا، أو: بأن يقولوا، أو: على أن يقولوا. والجهة الأخرى أن يكون على التكرير، والتقدير: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ أحسبوا ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾(٥). قال ابن عباس وغيره: يُريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريشٍ يؤذونهم

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٢٧٤.

(٢) الوسيط ٢/ ٤١٢ وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠ .

(٣) في (م) ذكرت الآية بتمامها، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٧٤ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٧ .

ويُعذِّبونهم على الإسلام، كسلمةَ بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمّار بن ياسر، وياسرٍ أبيه، وسُميةَ أمِّه، وعدةٍ من بني مخزوم وغيرِهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما استُنكِرَ أن يُمكنَ اللهُ الكفارَ من المؤمنين؛ قال مجاهدٌ وغيره: فنزلت هذه الآية مسلِّيةً ومعلِّمةً أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة. قال ابن عطية(١): وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال، فهي باقيةٌ في أمة محمد ﷺ، موجودٌ حكمُها بقية الدهر، وذلك أنَّ الفتنةَ من الله تعالى باقيةٌ في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك. وإذا اعتُبِرَ أيضاً كلُّ موضعٍ ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن، ولكن التي تشبه نازلةَ المسلمين مع قريشٍ هي ما ذكرناه من أمر العدوِّ في كل ثغر.

قلت: ما أحسن ما قاله، ولقد صدق فيما قال ﷺ. وقال مقاتل: نزلت في مِهجَع مولى عمر بن الخطاب؛ كان أول قتيلٍ من المسلمين يوم بَدر، رماه عامر بن الحضرمي بسهمٍ فقتله، فقال النبيُّ ﷺ يومئذٍ: «سيدُ الشهداء مِهْجَع، وهو أوَّلُ من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة». فجزع عليه أبواه وامرأته، فنزلت: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾(٢). وقال الشَّعبي: نزل مُفتتحُ هذه السورة في أُناسٍ كانوا بمكة من المسلمين، فكتب إليهم أصحاب النبيِّ ﷺ من الحديبية أنه لا يُقبَلُ منكم إقرارُ الإسلام(٣) حتى تهاجروا، فخرجوا، فأتبعهم المشركون فآذوهم، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ فكتبوا إليهم: نزلت فيكم آية كذا. فقالوا: نخرج وإن اتبعنا أحدٌ قاتلناه. فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قُتِلَ، ومنهم من نجا، فنزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾(٤).

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥، وما قبله منه ومن الوسيط٣/ ٤١٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٠، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠.

(٣) في النسخ سوى (م): إقرار ولا إسلام، والمثبت من (م) والمصادر.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٥٨-٣٥٩، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٣١) وهو تفسير البغوي ٣/ ٤٦٠.

﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يُمتحنون، أي: أظنَّ الذين جَزِعوا من أذى المشركين أن يُقنَع منهم أن يقولوا: إنَّا مؤمنون، ولا يُمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبيّن به حقيقةُ إيمانهم[١]؟.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ابتلينا الماضين، كالخليل أُلقي في النار، وكقومٍ نُشروا بالمناشير في دين الله فلم يرجعوا عنه[٢]. وروى البخاري[٣] عن خَبَّاب من الأرت: قالوا شكَونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظِلِّ الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصِرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قبلكم يُؤخَذُ الرجلُ فيُحفَرُ له في الأرض فيُجعَلُ فيها، فيُجاء بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسه فيُجعَلُ نصفين، ويُمشَط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه، فما يصرِفُه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَّنَّ اللهُ[٤] هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حَضرَمَوت لا يخافُ إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنَّكم تستعجِلون». وخرَّج ابن ماجه[٥] عن أبي سعيد الخدري قال: دخلتُ على النبيِّ ﷺ وهو يُوعَكُ، فوضعتُ يدي عليه، فوجدْتُ حرَّه بين يديَّ فوق اللِّحاف. فقلتُ: يا رسول الله، ما أشدَّها عليك! قال: «إنَّا كذلك يُضعَّفُ لنا البلاءُ ويُضعَّفُ لنا الأجر» قلت: يا رسول الله، أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء» قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «ثم الصالحون؛ أن كان أحدُهم ليُبتلى بالفقر حتى ما يجدَ إلاَّ العباءَةَ يَجوبُها[٦]، وأن كان أحدُهم لَيفرحُ بالبلاء كما يَفرحُ أحدُكم بالرَّخاء». وروى سعد بن

---

(١) الوجيز للواحدي على هامش مراح لبيد ٢/ ١٥٢ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤١٢-٤١٣ .

(٣) في صحيحه (٣٨٥٢)، وهو في مسند أحمد (٢١٠٥٧).

(٤) في النسخ: والله ليتمنَّ، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) في سننه (٤٠٢٤)، وهو في مسند أحمد (١١٨٩٣)، والأدب المفرد (٥١٠).

(٦) كذا في (م) وكذا ضبطها السندي في شرحه لابن ماجه ٢/ ٤٩٠ وقال: أي: يجعل لها جيباً. والذي في النسخ الخطية ومطبوع ابن ماجه «يُحوِّيها». والتَّحوية فيما ذكر ابن الأثير في النهاية (حوا): أن يُديرَ كساءً حول سنام البعير ثم يركبه. قلنا: وهذا لا يناسب المعنى، فلعله «يجوبها» كما في المسند ومطبوع الأدب المفرد، فيكون المعنى كما قال السندي في حاشيته على المسند: أي: يقطعها ليلبسها في عنقه.

أبي وقَّاصٍ قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرجلُ على حسب دينهِ، فإنْ كان في دينه صُلباً اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّةٌ ابتُليَ على حسب دينِه، فما يبرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»[١]. وروى عبد الرحمن بن زيد أنَّ عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوماً، فأخذه السَّبُعُ فأكله، فقال عيسى: يا ربِّ وزيري في دينك، وعوني على بني إسرائيل، وخليفتي فيهم، سلَّطْتُ عليه كلباً فأكله. قال: «نعم، كانت له عندي منزلةٌ رفيعةٌ لم أجِدْ عملَه يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة»[٢]. وقال وهب: قرأتُ في كتاب رجلٍ من الحواريِّين: إذا سُلِكَ بكَ سبيلُ البلاء فقرَّ عيناً، فإنه سُلِكَ بِكَ سبيلُ الأنبياء والصالحين، وإذا سُلِكَ بِكَ سبيلُ الرَّخاء فابْكِ على نفسك، فقد خُولِفَ بِكَ عن سبيلهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: فليَرينَّ اللهُ الذين صدقوا في إيمانهم. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[٤] وغيرها. قال الزجَّاج: ليعلمَ صدقَ الصادقِ بوقوعِ صدقِه منه، وقد عَلِمَ الصادقَ من الكاذبِ قبل أن يخلُقَهما، ولكنِ القصدُ قصدُ وقوعِ العلم بما يُجازى عليه[٥]. وإنما يعلم صدقَ الصادقِ واقعاً كائناً وقوعُه، وقد علِمَ أنه سيقع. وقال النحَّاس[٦]: فيه قولان: أحدهما ـ أن يكون «صَدَقُوا» مشتقًّا من الصِّدق و«الكاذبينَ» مشتقًّا من الكَذِب الذي هو ضِدُّ الصِّدق، ويكون المعنى: فلَيُبيِّنَنَّ اللهُ الذي صدقوا فقالوا: نحن مؤمنون واعتقدوا مثلَ ذلك، والذين كذبوا حين اعتقدوا غيرَ ذلك. والقول الآخر ـ أن يكون صدَقوا مشتقًّا من

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨١).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٠٧ .

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص٧١ .

(٤) ٣/ ١٤٠ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٠ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٧-٢٤٨ .

الصِّدق: وهو الصُّلب، والكاذبين مشتقًّا من كَذَّب إذا انهزم، فيكون المعنى: فليعلمَنَّ اللهُ الذي ثبتوا في الحرب والذين انهزموا، كما قال الشاعر:

لَيثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانِه صَدَقَا[1]

فجعل «لَيَعْلَمَنَّ» في موضع فليُبيِّنَنَّ مَجازاً.

وقراءة الجماعة: «فَلَيَعْلَمَنَّ» بفتح الياء واللام، وقرأ علي بن أبي طالب بضمِّ الياء وكسر اللام[2]، وهي تُبيِّنُ معنى ما قاله النحَّاس. ويَحتملُ ثلاثةَ معان: الأوَّل ـ أن يُعلِمَ في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا، بمعنى: يُوقفهم على ما كان منهم. الثاني ـ أن يكون المفعولُ الأوَّلُ محذوفاً تقديرُه: فليُعلمنَّ الناسَ والعالَمَ هؤلاء الصادقين والكاذبين، أي: يفضحهم ويشهرهم؛ هؤلاء في الخير، وهؤلاء في الشر، وذلك في الدنيا والآخرة. الثالث ـ أن يكون ذلك من العلامة، أي: يضع لكلِّ طائفةٍ علامةً يشتهر بها. فالآية على هذا تنظر إلى قول النبيِّ ﷺ: «مَنْ أسرَّ سريرةً ألبَسَهُ اللهُ رداءَها»[3].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشرك. ﴿أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ أي:

---

(١) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٥٤ . عَثَّر: بلدٌ في اليمن. معجم البلدان ٤/ ٨٤ .

(٢) المحتسب ٢/ ١٥٩ ، والشاذة ص١١٤ عن علي والزهري. وفي زاد المسير ٦/ ٢٥٥ عن علي وجعفر بن محمد.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٦ . والحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٠٢)، وفي الأوسط (٧٩٠٢) من حديث جندب بن سفيان ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٥: فيه حامد بن آدم، وهو كذاب. وأخرجه الطبراني بنحوه ١٠/ ١٢٧ من حديث عثمان بن عفان ﷺ. وفي إسناده سليمان بن أرقم، وهو متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ١٩٦ وقال العجلوني في كشف الخفا ٢/ ٣٥٠: قيل: ليس بحديث، لكن معناه صحيح .

يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون. قال ابن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة بن أبي سفيان والعاص بن وائل[١]. ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس الحكم ما حكموا في صفات ربهم أنه مسبوقٌ والله القادر على كلِّ شيء.

و«ما» في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون. ويجوز أن تكون «ما» في موضع رفعٍ بمعنى ساء الشيء، أو الحكمُ حكمُهم.وهذا قول الزجَّاج. وقدَّرها ابنُ كيسان تقديرين آخرين خلاف ذَينِكَ: أحدهما ـ أن يكون موضع «ما» [مع] «يَحْكُمُونَ» بمنزلة شيءٍ واحد، كما تقول: أعجبني ما صنعتَ، أي: صنيعُكَ، فـ«ما» والفعل مصدرٌ في موضع رفع، التقدير: ساء حُكمُهم. التقدير: ساء حُكمُهم. والتقدير الآخر أن تكون «ما» لا موضعَ لها من الإعراب، وقد قامت مقامَ الاسمِ لِساء، وكذلك نِعْمَ وبِئْسَ. قال أبو الحسن بن كَيْسان: وأنا أختار أن أجعل لـ«ما» موضعاً في كلِّ ما أقدِرُ عليه، نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وكذا ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ [المائدة: ١٣] وكذا ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص: ٢٨] «ما» في موضع خفضٍ في هذا كلِّه وما بعده تابعٌ لها، وكذا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] «ما» في موضع نصبٍ و«بَعُوضَةً» تابعٌ لها[٢].

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ «يَرْجُو» بمعنى: يخاف، من قول الهُذَليِّ في وصف عَسَّال:

إذا لَسَعَتهُ النَّحلُ لم يَرْجُ لسعَها[٣]

وأجمع أهل التفسير على أنَّ المعنى: من كان يخافُ الموت فليعمل عملاً صالحاً

---

(١) الوسيط ٣/ ٤١٣ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٨، وما بين حاصرتين منه. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٦٠.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٢. وهذا صدر لبيت قائله أبو ذؤيب الهذلي، وعجزه: وخالفَها في بيت نُوبٍ عواملِ. وقد سلف ٣/ ٤٣٣.

فإنه لابُدَّ أن يأتيه. ذكره النحّاس[١]. قال الزجّاج: معنى «يَرجُو لِقَاءَ الله» ثواب الله[٢]، و«من» في موضع رفعٍ بالابتداء و«كَانَ» في موضع الخبر، وهي في موضع جزم بالشرط، و«يَرْجُو» في موضع خبر كان، والمجازاة ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ أي: ومَنْ جاهد في الدِّين، وصبرَ على قتال الكفار وأعمال الطاعات، فإنما يسعى لنفسه، أي: ثوابُ ذلك كلُّه له، ولا يرجع إلى الله نفعٌ من ذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عن أعمالهم. وقيل: المعنى: مَنْ جاهدَ عدوَّه لنفسه لا يريد وجهَ اللهِ فليسَ لله حاجةٌ بجهاده.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدَّقوا. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: لنُغطِّينَّها عنهم بالمغفرة لهم. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأحسن أعمالهم وهو الطاعات. ثم قيل: يَحتمِلُ أن تُكفَّرَ عنهم كلُّ معصيةٍ عملوها في الشرك، ويُثابوا على ما عملوا من حسنةٍ في الإسلام[٤]. ويَحتمِلُ أن تُكفَّرَ عنهم سيئاتُهم في الكفر والإسلام، ويُثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ نزلت في سعد بن أبي وقَّاص فيما روى التّرمذيُّ قال: أُنزلت فيَّ أربعُ آياتٍ فذَكَر قصةً؛ فقالت أمُّ سعد: أليسَ قد أمرَ الله بالبرِّ؟! واللهِ لا أطعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً حتى أموتَ أو تكفر. قال: فكانوا إذا

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩.

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٣٤٠.

أرادوا أن يُطعموها شَجَرُوا فَاها[١]، فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٢]. وَرُوِيَ عن سعدٍ أنه قال: كنتُ بارًّا بأمي فأسلمتُ، فقالت: لتدَعَنَّ دينَكَ أو لا آكلُ ولا أشربُ حتى أموتَ فتُعَيَّرَ بي، ويُقال: يا قاتِلَ أمِّه. وبقِيَتْ يوماً ويوماً فقلتُ: يا أمَّاه، لو كانت لكِ مئةُ نفس، فخرجتْ نفساً نفساً ما تركتُ ديني هذا، فإن شئتِ فكلي، وإن شئتِ فلا تأكلي. فلمَّا رأتْ ذلك أكلَتَ ونزلَتْ: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ الآية[٣]. وقال ابن عباس: نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهلٍ لأمِّه وقد فعلَتْ أمُّه مثلَ ذلك[٤]. وعنه أيضاً: نزلت في جميع الأمة؛ إذ لا يصبر على بلاء الله إلاَّ صِدِّيق.

و«حُسْنًا» نُصِبَ عند البصريين على التكرير، أي: ووصيناه حُسناً. وقيل: هو على القطع، تقديره: ووصيناه بالحُسن، كما تقول: وصَّيتُه خيراً، أي: بالخير. وقال أهل الكوفة: تقديره: ووصَّينا الإنسانَ أن يفعل حسناً فيُقَدَّرُ له فعل. وقال الشاعر:

عَجِبتُ من دَهْمَاءَ إذ تَشكونا ومن أبي دَهمَاءَ إذ يُوصينا

خيراً بها كأنَّما خافونا

أي: يوصينا أن نفعلَ بها خيراً، كقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا﴾ [ص:٣٣] أي: يمسحُ مَسْحاً. وقيل: تقديره: ووصَّيناه أمراً ذا حُسنٍ، فأُقيمتِ الصِّفةُ مقامَ الموصوف، وحُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه[٥]. وقيل: معناه: ألزمناه حسناً[٦].

---

(١) أي: أدخلوا في شَجْره عوداً حتى يفتحوه به، والشَّجْر: مفتح الفم. النهاية (شجر).

(٢) سنن الترمذي (٣١٨٩). وهو في مسند أحمد (١٦١٤)، وأخرجه مسلم بنحوه ٤/ ١٨٧٨ (٤٤).

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٥٧، والوسيط ٣/ ٤١٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٠/ ٣٣١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٧، وزاد المسير ٦/ ٢٥٧ من غير نسبة. وساق القصة الطبرسي في مجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩ عن الكلبي.

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٣٦٢.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٧٦ عن السدي.

وقراءة العامة: «حُسْناً» بضمِّ الحاء وإمكان السين. وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحَّاك: بفتح الحاء والسين[(١)]. وقرأ الجحدري: «إحساناً» على المصدر، وكذلك في مصحف أُبيّ[(٢)]، التقدير: ووصَّينا الإنسانَ أن يُحسنَ إليهما إحساناً[(٣)]، ولا ينتصبُ بوصَّينا؛ لأنه قد استوفى مفعوليه.

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعيدٌ في طاعة الوالدين في معنى الكفر. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّٰلِحِينَ﴾ كرَّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرُّكِ النفوس إلى نيل مراتبهم. وقوله: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّٰلِحِينَ﴾ مبالغةٌ على معنى: فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته. وإذا تحصَّلَ للمؤمن هذا الحكم تحصَّلَ ثمرتُه وجزاؤه وهو الجنة[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية نزلت في المنافقين كانوا يقولون: آمنَّا بالله ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي: أذاهم ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الآخرة، فارتدَّ عن إيمانه[(٥)]. وقيل: جزِعَ من ذلك كما يجزَعُ من عذاب الله ولا يصبر على الأذيَّةِ في الله[(٦)]. ﴿وَلَئِن جَآءَ﴾ المؤمنين ﴿نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهم كاذبون، فقال الله لهم: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى

---

(١) الشاذة ص١١٤ عن عيسى والجحدري، وزاد المسير ٦/ ٢٥٦ عن ابن مسعود وأبي رجاء.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨، وزاد المسير ٦/ ٢٥٦ ونسبها أيضاً إلى أبي مجلز، وهي قراءة شاذة.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨.

(٥) سيرد معناه قريباً عن الضحاك.

(٦) الوسيط ٣/ ٤١٤.

﴿صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: اللهُ أعلَمُ بما في صدورهم منهم بأنفسهم. وقال مجاهد: نزلت في ناسٍ كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاءٌ من الله أو مصيبةٌ في أنفسهم افتُتِنوا[١]. وقال الضحَّاك: نزلت في ناسٍ من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أُوذوا رجعوا إلى الشرك[٢]. وقال عكرمة: كان قومٌ قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر، فقُتِلَ بعضُهم، فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل:٢٨] فكتبَ بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة، فخرجوا، فلحِقَهم المشركون، فافتتنَ بعضهم، فنزلت هذه الآية فيهم[٣]. وقيل: نزلت في عيَّاش ابن أبي ربيعة؛ أسلم وهاجر، ثم أوذي وضُرِبَ، فارتَدَّ. وإنما عذَّبه أبو جهل والحارث وكانا أخويه لأمه. قال ابن عباس: ثم عاش بعد ذلك بدهرٍ وحَسُنَ إسلامه[٤]. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قال قتادة: نزلت في القوم الذين ردَّهم المشركون إلى مكة[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ أي: ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ جزمٌ على الأمر[٦]. قال الفرَّاء والزجَّاج: هو أمرٌ في تأويل

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٥، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٧١)، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢، وزاد المسير ٦/ ٢٥٩.

(٢) أخرجه الطبري ٨/ ٣٦٥، وهو في زاد المسير ٦/ ٢٥٩، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٥-٩٦ عن عكرمة. وأخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٦، وابن أبي حاتم (١٧١٧٠) عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٥٩، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٦، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢، ومجمع البيان ٢/ ٣٣٩.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢.

الشرط والجزاء، أي: إن تتَّبعوا سبيلَنا نحمِلْ خطاياكم، كما قال:

فـقـلـتُ ادعِـي وأدعُ إنَّ أنـدَى لِـصَـوتٍ أن يُـنَـاديَ داعـيـانِ[1]

أي: إن دعوتِ دعوتُ[2]. قال المهدويّ: وجاء وقوع ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بعدَه على الحمل على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم. فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر. قال مجاهد: قال المشركون من قريش: نحن وأنتم لا نُبعَثُ، فإن كان عليكم وزرٌ فعلينا. أي: نحن نحمل عنكم ما يلزمكم[3]. والحمل هاهنا بمعنى الحَمالة لا الحمل على الظهر. ورُوي أنَّ قائل ذلك الوليدُ بن المغيرة[4].

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يعني: ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم. روي معناه عن النبيّ ﷺ، وقد تقدَّم في «آل عمران»[5]. قال أبو أمامة الباهلي: «يُؤتى بالرجل يومَ القيامة وهو كثير الحسنات، فلا يزالُ يقتَصُّ منه حتى تفنى حسناتُه، ثم يُطالبُ فيقول الله عزَّ وجلَّ: اقتصُّوا من عبدي. فتقول الملائكة: ما بَقِيَتْ له حسناتٌ. فيقول: خُذوا من سيئات المظلوم فاجعلوا عليه» ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. وقال قتادة: من دعا إلى ضلالةٍ كان عليه وزْرُها وَوِزرُ مَن عملَ بها ولا يُنقَصُ من أوزارهم شيء. ونظيره

---

(١) نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ٤٥ إلى الأعشى، ولم نقف عليه في ديوانه. ونُسب في شرح الفصل ٧/ ٣٣ إلى ربيعة بن هشيم، وفي أمالي القالي ٢/ ٩٠ إلى الفرزدق، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩ ، واللسان (ندي) إلى دثار بن شيبان النمري.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩-٢٥٠ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦١ - ١٦٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢١٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩ .

(٥) ٥/ ٣٩١ - ٣٩٢ .

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥][١]. ونظير هذا قوله عليه السلام: «مَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً فعليه وزرُها وَوِزرُ مَنْ عملَ بها بعده من غير أن ينقُصَ من أوزارهم شيء»[٢] ورُوِيَ من حديث أبي هريرة وغيره[٣]. وقال الحسن: قال النبيُّ ﷺ: «مَن دعا إلى هدًى فاتُّبِعَ عليه وعُمِلَ به فله مثلُ أجورِ مَنِ اتَّبعه ولا يَنقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً، وأيُّما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتُّبِعَ عليها وعُمِلَ بها بعدَه فعليه مثلُ أوزارِ مَنْ عملَ بها ممن اتَّبعه لا يَنقُصُ ذلك من أوزارهم شيئاً» ثم قرأ الحسن: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٤].

قلت: هذا مرسل، وهو معنى حديث أبي هريرة. خرَّجه مسلم[٥]. ونصُّ حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيُّما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتُّبِعَ فإنَّ له مثلَ أوزارِ مَنِ اتَّبعه ولا يَنقُصُ من أوزارهم شيئاً، وأيُّما داعٍ دعا إلى هدًى فاتُّبِعَ فإنَّ له مثلَ أجور مَنِ اتَّبعَه ولا يَنقُصُ من أجورهم شيئاً» خرَّجه ابن ماجه في السنن[٦]. وفي الباب عن أبي جُحَيفة وجرير[٧]. وقد قيل: إنَّ المرادَ أعوانُ الظَّلمة. وقيل: أصحابُ البدع إذا اتُّبِعوا عليها. وقيل: مُحدِثو السنن الجائرة إذا عُمِلَ بها من بعدهم[٨]. والمعنى متقاربٌ، والحديث يجمع ذلك كلَّه.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/٢١٦-٢١٧ . وحديث أبي أمامة ﷺ أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٨٦). وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٩٦ .

(٢) أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ. وقد سلف ٣/٣٣٦ .

(٣) كما سيأتي قريباً.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤٣ إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) في صحيحه (٢٦٧٤)، وهو في مسند أحمد (٩١٦٠).

(٦) برقم (٢٠٥).

(٧) حديث أبي جحيفة ﷺ أخرجه ابن ماجه (٢٠٧)، وحديث جرير ﷺ سلف آنفاً.

(٨) النكت والعيون ٤/٢٧٨. وفي (د) و(م): السنن الحادثة. وفي (ظ): الجارية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ذكر قصة نوحٍ تسليةً لنبيِّه ﷺ، أي: ابتُلي النبيون قبلَك بالكفار فصبروا. وخصَّ نوحاً بالذكر، لأنَّه أوَّلُ رسولٍ أُرسِلَ إلى أهل[1] الأرض وقد امتلأت كفراً على ما تقدَّم بيانُه في «هود»[2]. وأنه لم يلقَ نبيٌّ من قومه ما لقيَ نوحٌ على ما تقدَّم في «هود» عن الحسن. ورُويَ عن قتادة عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أوَّلُ نبيٍّ أُرسِلَ نوح»[3] قال قتادة: وبُعِثَ من الجزيرة[4]. واختُلِفَ في مبلَغِ عمره، فقيل: مبلَغُ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه. قال قتادة: لبِثَ فيهم قبل أن يدعوهم ثلاث مئة سنة، ودعاهم ثلاث مئة سنة، ولبِثَ بعد الطوفان ثلاث مئةٍ وخمسين سنة[5]. وقال ابن عباس: بُعِثَ نوحٌ لأربعين سنة، ولبِثَ في قومه ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وعاش بعد الغرق ستين سنةً حتى كثُرَ الناس وفشَوا[6]. وعنه أيضاً: أنه بُعِثَ وهو ابن مئتين وخمسين سنة، ولبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً[7]، وعاش بعد الطوفان مئتي سنة. وقال وهب: عُمِّرَ نوحٌ ألفاً وأربع مئة سنة. وقال كعب الأحبار: لبِثَ نوحٌ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين

---

(١) كلمة أهل من (ظ).

(٢) ١١/ ١٢٩ .

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٤٧٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٢/ ٢٤٣ . وأخرجه بنحوه أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من طريق قتادة أيضاً، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٦٢٢) و(١٠٤٧٨) و(١٠٥٠٣).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٧٨ . وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٩٦).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٦١ ، وابن أبي حاتم (١٧١٩٤)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤١٥ . وهو في النكت والعيون ٤/ ٢٧٨-٢٧٩ . وسلف ٩/ ٢٥٩ .

(٧) كلمة عاماً من (ظ).

عاماً، وعاش بعد الطُّوفان سبعين عاماً، فكان مبلَغُ عمره ألفَ سنةٍ وعشرين عاما[١].
وقال عون بن أبي شدَّاد: بُعِثَ نوحٌ وهو ابن خمسين وثلاث مئة سنة، ولبِثَ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وعاش بعد الطُّوفان ثلاث مئة سنة وخمسين سنة، فكان مبلغُ عمره ألفَ سنةٍ وستَّ مئة سنة وخمسين سنة[٢]. ونحوه عن الحسن؛ قال الحسن: لمَّا أتى ملَكُ الموت نوحاً ليقبضَ روحه قال: يا نوحُ، كم عشْتَ في الدنيا؟ قال: ثلاث مئةٍ قبل أن أُبعث، وألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً في قومي، وثلاث مئة سنة وخمسين سنة بعد الطُّوفان. قال ملَكُ الموت: فكيف وجدتَ الدنيا؟ قال نوح: مثلَ دارٍ لها بابان، دخلتُ من هذا وخرجتُ من هذا[٣]. ورُوي من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا بَعثَ الله نوحاً إلى قومه بعثَه وهو ابن خمسين ومئتي سنة، فلبثَ في قومه ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وبقي بعد الطُّوفان خمسين ومئتي سنة، فلَّما أتاه ملَكُ الموت قال: يا نوح، يا أكبر الأنبياء، ويا طويل العمر، ويا مُجابَ الدعوة، كيف رأيتَ الدنيا؟ قال: مثلَ رجلٍ بُنيَ له بيتٌ له بابان، فدخل من واحدٍ وخرجَ من الآخر» وقد قيل: «دخلَ من أحدهما وجلسَ هُنيهةً، ثم خرج من الباب الآخر»[٤].
وقال ابن الورد[٥]. : بَنَى نوحٌ بيتاً من قصب، فقيل له: لو بنيتَ غير هذا. فقال: هذا كثيرٌ لمن يموت[٦]. وقال أبو المهاجر: لبثَ نوحٌ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسينَ عاماً في بيتٍ من شَعر، فقيل له: يا نبيَّ الله، ابنِ بيتاً. فقال: أموتُ اليوم[٧]، أموتُ

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٧٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٠ ، وابن أبي حاتم (١٧١٩٨). وهو في النكت والعيون ٤/ ٢٧٩ ، وسلف مختصراً ٩/ ٢٥٩ .

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٢٨١ .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٢٩)، وابن عساكر ٦٣/ ٢٨١ .

(٥) في (د) و(م): الوردي، والتصويب من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الصادر، واسمه وهب بن الورد.

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٤٥ ، والبيهقي في الشعب (١٠٧٥١)، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠ .

(٧) بعدها في (م) كلمة أو، وهي ليست في النسخ الخطية ولا في المصادر.

غداً[١]. وقال وهب بن مُنبِّه: مرَّتْ بنوحٍ خمسُ مئة سنةٍ لم يقرَبِ النساءَ وَجَلاً من الموت[٢]. وقال مقاتل وجُويبر: إنَّ آدم عليه السلام حين كبِرَ ورقَّ عظمُه قال: يا ربِّ إلى متى أكدُّ وأسعى؟ قال: يا آدم، حتى يولَدَ لكَ ولدٌ مختون. فوُلِدَ له نوحٌ بعد عشرةِ أبطُنٍ، وهو يومئذٍ ابنُ ألف سنةٍ إلاَّ ستين عاماً. وقال بعضهم: إلاَّ أربعين عاماً. والله أعلم. فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. وكان اسمُ نوحٍ السكن. وإنَّما سُمِّي السكن؛ لأنَّ الناس بعد آدم سكنوا إليه، فهو أبوهم[٣]. ووُلِدَ له سامٌ وحامٌ ويافث، فولَدَ سامٌ العربَ وفارسَ والرومَ، وفي كل هؤلاء خير، وولَدَ حامٌ القبطَ والسودانَ والبربر. ووَلَدَ يافثُ التركَ والصقالبةَ ويأجوجَ ومأجوج. وليس في شيء من هؤلاء خير[٤]. وقال ابن عباس: في ولد سامٍ بياضٌ وأُدمة، وفي ولدِ حامٍ سوادٌ وبياضٌ قليل. وفي ولَدِ يافث ـ وهم الترك والصقالبة ـ الصُّفرةُ والحُمرة. وكان له ولدٌ رابعٌ وهو كنعان الذي غرق، والعرب تسمِّيه يام[٥]. وسُمِّي نوحٌ نوحاً لأنه ناحَ على قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى وناحَ عليهم[٦]. وذكر القشيري أبو القاسم عبد الكريم في كتاب «التخبير» له: يُروى أنَّ نوحاً عليه السلام كان اسمُه يشكُر، ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه: يا نوح، كم تنوح؟ فسُمِّي نوحاً، فقيل: يا رسول الله، فأيُّ شيءٍ كانت خطيئته؟ فقال: «إنَّه مرَّ بكلبٍ

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٧٥٠)، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٣٩، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠.

(٣) أخرجه ابن عساكر ٦٢/ ٢٤٢.

(٤) أخرجه البزار (كشف الأستار) (٢١٨)، وابن عدي ٧/ ٢٧٢٥ من طريق محمد بن يزيد بن سنان، عن أبيه، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً. محمد بن يزيد بن سنان وأبوه ضعيفان. ميزان الاعتدال ٤/ ٦٩ و٤٢٧.

(٥) أخرجه ابن سعد ١/ ٤٠-٤١ عن هشام بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﷺ. هشام بن السائب وأبوه متروكان.

(٦) هو تتمة قول مقاتل وجويبر الآنف الذكر.

فقال في نفسه: ما أقبحَه! فأوحى الله إليه: اخلُقْ أنتَ أحسنَ من هذا». وقال يزيد الرَّقاشي: إنما سُمِّي نوحاً لطول ما ناحَ على نفسه[١]. فإن قيل: فلِمَ قال: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ولم يقل: تسع مئة وخمسين عاماً؟ ففيه جوابان: أحدهما ـ أنَّ المقصودَ به تكثيرُ العدد، فكان ذِكرُه الألفَ أكثرَ في اللفظ وأكثرَ في العدد. الثاني ـ ما رُوي أنه أُعطيَ من العمر ألفَ سنة، فوهبَ من عمره خمسين سنةً لبعض ولده، فلمَّا حضرته الوفاة رجع في استكمال الألف، فذكر اللهُ تعالى ذلك تنبيهاً على أنَّ النَّقيصةَ كانت من جهته ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جُبير وقتادة: المطر. الضحَّاك: الغرق. وقيل: الموت. روَته عائشة رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ. ومنه قول الشاعر:

أفـنـاهـمُ طـوفـانُ مـوتٍ جـارفُ[٢]

قال النحَّاس[٣]: يُقال لكلِّ كثيرٍ مُطيفٍ بالجميع من مطرٍ أو قتلٍ أو موتٍ: طُوفان.

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال و«أَلْفَ سَنَةٍ» منصوبٌ على الظرف «إِلَّا خَمسِينَ عَامًا» منصوبٌ على الاستثناء من الموجب. وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول؛ لأنه مستغنًى عنه كالمفعول. فأما المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعولٌ مَحْضٌ. كأنَّك قلت: استثنيتُ زيداً[٤].

تنبيه ـ روى حسان بن غالب بن نَجيح أبو القاسم المصري، حدثنا مالك بن أنس، عن الزُّهريِّ، عن ابن المسيِّب، عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٢٦) و(١٥٧٦٥)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٥١، وابن عساكر ٦٢/ ٢٤١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٧٨-٢٧٩. وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧١، وابن أبي حاتم (١٧٢٠٢). وحديث عائشة رضي الله عنها أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً (١٧١٩٩).

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢١٧.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٠ و٢٥٢.

«كان جبريلُ يُذاكرني فَضْلَ عمرَ، فقلتُ: يا جبريلُ، ما بلَغَ فضلُ عمر؟ قال لي: يا محمد، لو لبثْتُ معكَ ما لبِثَ نوحٌ في قومه ما بلَغْتُ لكَ فضل عمر» ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي، وقال: تفرَّدَ بروايته حسان بن غالب عن مالك، وليس بثابتٍ من حديثه(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ معطوف على الهاء(٢). ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الهاء والألف في «جَعَلنَاهَا» للسفينة، أو للعقوبة، أو للنجاة؛ ثلاثة أقوال(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ قال الكسائي: «وإبرَّاهيمَ» منصوبٌ بـ«أنجَينا» يعني أنه معطوفٌ على الهاء. وأجاز الكسائي أن يكون معطوفاً على نوح، والمعنى: وأرسلنا إبراهيم. وقول ثالث: أن يكون منصوباً بمعنى: واذكُرْ إبراهيم(٤). ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: اتَّقوا عقابه وعذابه. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من عبادة الأوثان. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٥).

---

(١) وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك كما في لسان الميزان ٢/ ١٨٩، وتمام الرازي في فوائده (١٤٦٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/ ١٣٧-١٣٨ من طريق الفتح بن نصر، عن حسان بن غالب، به. قال الدارقطني: هذا لا يصح عن مالك، وفتح وحسان ضعيفان، وهذا الحديث موضوع.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢.

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٣٦.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ أي: أصناما[١]. قال أبو عبيدة: الصَّنم: ما يُتَّخذُ من ذهبٍ أو من فضةٍ أو نحاس، والوثن: ما يُتَّخذُ من جَصٍّ أو حجارة[٢]. الجوهري: الوثن: الصنم والجمع وُثْنٌ وأوثانٌ، مثل أُسْد وآساد[٣]. ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ قال الحسن: معنى «تَخلُقُونَ»: تنحتون[٤]. فالمعنى: إنما تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها[٥]. وقال مجاهد: الإفك: الكذب[٦]. والمعنى: تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب[٧]. وقرأ أبو عبد الرحمن: «وَتخَلَّقُونَ»[٨]. وقُرِئ: «تُخَلِّقُونَ» بمعنى الكثير من خَلَّق و«تَخَلَّقُونَ» من تخَلَّق بمعنى تَكَذَّب وتخرَّص. وقُرِئ: «أفِكًا» وفيه وجهان: أن يكون مصدراً نحو كذِب ولعِب، والإفك مخففاً منه كالكذب واللعب. وأن يكون صفةً على فَعِل أي خَلِقاً أفِكًا، أي: ذا إفكٍ وباطل[٩]. و«أوثَانًا» نُصِبَ بـ«تَعبُدُونَ» و«ما» كافة. ويجوز في غير القرآن رفعُ أوثانٍ على أن تُجعَلَ «ما» اسماً؛ لأنَّ و«تَعبُدُونَ» صِلتُه، وحُذفتِ الهاء لطول الاسم، وجُعِلَ أوثان خبر إنَّ. فأمَّا «وتَخلُقُونَ إفكًا» فهو منصوبٌ بالفعل لا غير[١٠]. وكذا ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ أي: اصرفوا رغبتَكم في أرزاقكم إلى الله، فإيَّاه فاسألوه وحدَه دون غيره.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٥ . ونسبه في زاد المسير ٦/ ٢٦٤ إلى مقاتل. وأخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٣ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢١٠) عن قتادة.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١١٤ مختصراً.

(٣) الصحاح (وثن).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٥ .

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١ بنحوه.

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥ ، والمحتسب ٢/ ١٦٠ وزاد نسبتها إلى زيد بن علي، والشاذة ص١١٤ وزاد نسبتها إلى علي بن أبي طالب وابن الزبير، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١١ وزاد نسبتها إلى عون العقيلي وقتادة وابن أبي ليلى.

(٩) الكشاف ٣/ ٢٠١ . وقراءة: «تُخلِّقون» لم نقف عليها عند غير المصنِّف، وهي قراءة شاذة. وقراءة: «أفِكاً» في المحتسب ٢/ ١٦٠ عن فضيل بن مرزوق وابن الزبير، والشاذة ص١١٤ عن ابن الزبير.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢-٢٥٣ .

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فقيل: هو من قول[١] إبراهيم أي التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ قراءةُ العامّة بالياء على الخبر والتوبيخ لهم، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. قال أبو عبيد: لِذكْرِ الأمم، كأنه قال: أوَلَم يرَ الأممُ كيف. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثّاب وحمزة والكسائي: «تَرَوْا» بالتاء خطاباً؛ لقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾[٢]. وقد قيل: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ خطابٌ لقريش ليس من قول إبراهيم. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني الخلق والبعث. وقيل: المعنى: أوَ لَم يروا كيفَ يُبدِئُ اللهُ الثمارَ فتحيا، ثم تفنى، ثم يُعيدها أبداً. وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولدِ ولداً، وكذلك سائر الحيوان. أي: فإذا رأيتم قدرتَه على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له: كُنْ فيكون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: سيروا في الأرض

---

(١) في (م): قوله. والمثبت من النسخ الخطية.

(٢) قراءة حمزة والكسائي وأبو بكر في المشهور عنه عن عاصم في السبعة ص٤٩٨، والتيسير ص١٧٣.

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتِهم وتفاوتِ هيئاتِهم واختلافِ ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكم؛ لتعلموا بذلك كمالَ قدرة الله. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين[١]، وهما لغتان مثل الرأفةِ والرآفةِ وشِبْهِه[٢]. الجوهري: أنشأه اللهُ خلقَه، والاسم النَّشأة، والنَّشاءة بالمدِّ عن أبي عمرو بن العلاء[٣]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بعدله. ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بفضله. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ترجعون وتُرَدُّون[٤].

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال الفرَّاء: معناه: ولا مَنْ في السماء بمعجزين الله. وهو غامضٌ في العربية؛ للضمير الذي لم يظهر في الثاني، وهو كقول حسان[٥]:

فَمَنْ يَهْجو رسولَ اللهِ منكم ... ويَمدحُهُ ويَنصرُهُ سَواءُ

أرادَ: ومَنْ يمدحه وينصره سواء، فأضمرَ مَنْ[٦]. وقاله عبد الرحمن بن زيد[٧]. ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي: مَنْ له. والمعنى: إنَّ الله لا يُعجِزُه أهلُ الأرض في الأرض ولا أهلُ السماءِ إن عَصَوه. وقال قُطْرُب: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتُني فلانٌ بالبصرةِ ولا هاهنا، بمعنى: لا يفوتني بالبصرة لو صارَ إليها. وقيل: لا يستطيعون هرباً في الأرض ولا في

---

(١) السبعة ص٤٩٨، والتيسير ص١٧٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١.

(٣) الصحاح (نشأ).

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٤.

(٥) في ديوانه ص٦٤.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٢.

السماء[1]. وقال المبرِّد: والمعنى: ولا مَنْ في السماء، على أنَّ مَنْ ليست موصولةً ولكن تكون نكرةً، و«في السَّمَاءِ» صفةً لها، فأُقيمتِ الصفةُ مقام الموصوف. وردَّ ذلك عليُّ بن سليمان، وقال: لا يجوز. وقال: إنَّ مَنْ إذا كانت نكرةً فلابُدَّ مِنْ وَصْفِها، فصِفَتُها كالصِّلة، ولا يجوز حذفُ الموصولِ وتركُ الصلة؛ قال: والمعنى: إنَّ الناسَ خُوطبوا بما يعقلون، والمعنى: لو كنتم في السماء ما أعجزتُمُ الله، كما قال: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨][2]. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ويجوز «نَصِيرٌ» بالرفع على الموضع، وتكون «مِن» زائدة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ أي: من الجنة، ونسبَ اليأسَ إليهم والمعنى: أُويِسوا. وهذه الآيات اعتراضٌ من الله تعالى تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة. ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ثم اتَّفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي: من إذايتها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرِقْه بعد ما أُلقِيَ فيها ﴿لَآيَاتٍ﴾.

وقراءة العامة: «جَوَابَ» بنصب الباء على أنه خبر كان و «أنْ قَالُوا» في محلِّ الرفع اسم كان. وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار: «جَوَابُ» بالرفع إلى أنه اسم «كان» و«أنْ» في موضع الخبر نصباً[3].

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقرأ حفص وحمزة: «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ». وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «مَوَدَّةُ

---

(١) قول قطرب وما بعده في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٤.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٣.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٢. ونسبة قراءة الرفع إلى عمرو بن دينار لم نقف عليها إلا عند المصنف، وهي قراءة شاذة.

بَيْنِكُمْ»[١]. والأعشى عن أبي بكر عن عاصم وابن وثَّاب والأعمش: «مَوَدَّةٌ بَينكُم»[٢]. الباقون. «مَوَدَّةَ بَينَكُم». فأما قراءة ابن كثير ففيها ثلاثة أوجه، ذكر الزجَّاج منها وجهين: أحدهما ـ أنَّ المودة ارتفعت على خبر إنَّ، وتكون «ما» بمعنى الذي. والتقدير: إنَّ الذي اتَّخذتموه من دون الله أوثاناً مودّةُ بينِكم. والوجه الآخر: أن يكون على إضمار مبتدأ، أي: هي مودَّةٌ، أو تلك مودَّةُ بينِكم. والمعنى: آلهتكم أو جماعتكم مودَّةُ بينِكم[٣]. قال ابن الأنباري: «أوثَاناً» وقفٌ حسنٌ لمن رفعَ المودَّةَ بإضمار ذلك مودَّة بينكم، ومن رفعَ المودَّةَ على أنها خبرُ إنَّ لم يقف[٤]. والوجه الثالث الذي لم يذكره أن يكون «مَوَدَّةُ» رفعا بالابتداء و«فِي الحيَاةِ الدُّنيَا» خبره؛ فأما إضافة «مَوَدَّةُ» إلى «بَيْنَكُم» فإنه جعل «بَينَكُم» اسماً غير ظرف، والنَّحويُّون يقولون: جعله مفعولاً على السَّعة. وحكى سيبويه: يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدار. ولا يجوز أن يُضافَ إليه وهو ظرف؛ لعلةٍ ليس هذا موضع ذِكْرُها. ومن رفعَ «مَوَدَّةٌ» ونوَّنَها فعلى معنى ما ذكر، و«بَيْنَكُم» بالنصب ظرفاً[٥]. ومن نصب «مَوَدَّةَ» ولم ينوِّنْها جعلها مفعولةً بوقوع الاتخاذ عليها، وجعل «إنَّما» حرفاً واحداً ولم يجعلها بمعنى الذي[٦]. ويجوز نصبُ المودَّة على أنه مفعولٌ من أجله، كما تقول: جئتُكَ ابتغاءَ الخير، وقصدتُ فلاناً مودَّةً له. «بينكم» بالخفض[٧]. ومن نوَّن «مَوَدَّةً» ونصبها فعلى ما ذُكِرَ «بَيْنَكُم»

---

(١) السبعة ص٤٩٨-٤٩٩، والتيسير ص١٧٣ .

(٢) رواية الأعشى عن أبي بكر عن عاصم في الشاذة ص١١٥ ، والمشهور في رواية أبي بكر عن عاصم: «مودَّةٌ بينَكم»، وهي قراءة نافع وابن عامرٍ أيضاً. السبعة ص٤٩٩ ، والتيسير ص١٧٣ . قلنا: وقد نسب ابن الجوزي تلك القراءة الشاذة في زاد المسير ٦/ ٢٦٧ إلى ابن عباس وسعيد بن المسيب وعكرمة وابن أبي عبلة.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/١٦٧ .

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ . وقول سيبويه في الكتاب ١/ ١٧٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ .

بالنصب من غير إضافة(١). قال ابن الأنباري: ومن قرأ: «مَوَدَّةٌ بينكُمْ» و«مَوَدَّةَ بَينَكُمْ» لم يقف على الأوثان، ووقفَ على «الحياة الدنيا»(٢). ومعنى الآية: جعلتُم الأوثانَ تتحابون عليها وعلى عبادتها في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تتبرأ الأوثان من عُبَّادها والرؤساء من السَّفلة(٣)، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هو خطابٌ لعبَدةِ الأوثان الرؤساء منهم والأتباع. وقيل: تدخل فيه الأوثان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ولُوطٌ أوَّلُ مَنْ صدَّق إبراهيمَ حين رأى النارَ عليه برداً وسلاماً(٤). قال ابن إسحاق: آمنَ لوطٌ بإبراهيمَ وكان ابنَ أخته، وآمنت به سارَّة وكانت بنتَ عمِّه(٥). ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ قال النَّخعيُّ وقتادة: الذي قال: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ هو إبراهيم عليه السلام(٦). قال قتادة: هاجر من كوثا وهي قريةٌ من سواد الكوفة إلى حرَّان ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وامرأته سارة(٧). قال الكلبي: هاجر من أرض حرَّان إلى فلسطين، وهو أول من هاجر من أرض الكفر. قال مقاتل: هاجر إبراهيم وهو ابن خمسٍ وسبعين سنة(٨).

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣.
(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧.
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٥.
(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٥.
(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٨١.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٤.
(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٨١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٦.
(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٦.

وقيل: الذي قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لوطٌ عليه السلام(١). ذكر البيهقيُّ عن قتادة قال: أوّلُ مَنْ هاجر إلى الله عزَّ وجلَّ بأهله عثمان بن عفان ﷺ. قال قتادة: سمعتُ النَّضرَ بن أنس يقول: سمعتُ أبا حمزة يعني أنس بن مالك يقول: خرج عثمان بن عفان ومعهُ رقيَّةُ بنتُ رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرُهم، فقَدِمتِ امرأةٌ من قريش فقالت: يا محمد، رأيتُ خَتنكَ ومعه امرأتُه. قال: «على أيِّ حالٍ رأيتِهما؟» قالت: رأيتُه وقد حملَ امرأتَه على حمارٍ من هذه الدَّبَّابة(٢) وهو يسوقُها، فقال رسول الله ﷺ: «صحِبَهُما الله، إنَّ عثمانَ لأوّلُ مَنْ هاجر بأهلِه بعد لوط» قال البيهقي: هذا في الهجرة الأولى، وأما الهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مَبعثِ رسول الله ﷺ(٣). ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني(٤). ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم. وتقدَّم الكلامُ في الهجرة في «النساء»(٥) وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: مَنَّ الله عليه بالأولاد، فوهبَ له إسحاق ولداً ويعقوبَ ولدَ ولدٍ. وإنما وهبَ له إسحاق من بعد إسماعيل ويعقوب من إسحاق.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فلم يبعثِ اللهُ نبيًّا بعد إبراهيم إلاَّ من صُلبه. ووحَّدَ الكتاب؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة، والمراد التوراة والإنجيل [والفرقان]، فهو عبارةٌ عن الجمع، فالتوراة أُنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده، والفرقان على محمدٍ من ولده ﷺ وعليهم أجمعين(٦). ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٤.

(٢) أي: الضِّعاف التي تدِبُّ في المشي ولا تسرع. النهاية (دبب).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٩٧. والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٣١١)، والأوائل (١٢٦)، والآحاد والمثاني (١٢٣) و(٢٩٧٨)، والطبراني (١٤٣) من طريق بشار بن موسى الخفاف، عن الحسن ابن زياد البرجمي، عن قتادة، به. قال الهيثمي في المجمع ٩/ ٨١: فيه الحسن بن زياد البرجمي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات! قلنا: وبشار بن موسى قال فيه الحافظ في التقريب: ضعيف، كثير الغلط، كثير الحديث.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٦٨.

(٥) ٧/ ٦٧ فما بعد.

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٣٥٥ بنحوه. وما بين حاصرتين منه.

﴿ٱلدُّنْيَا﴾ يعني اجتماع أهل الملل عليه. قاله عكرمة. وروى سفيان عن حُميد بن قيس قال: أمر سعيد بن جُبير إنساناً أن يسأل عكرمة عن قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فقال عكرمة: أهل الملل كلّها تدَّعيه وتقول: هو مِنَّا. فقال سعيد بن جبير: صدق. وقال قتادة: هو مثل قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ١٢٢] أي: عاقبةً وعملاً صالحاً وثناءً حسناً. وذلك أنَّ أهل كلِّ دينٍ يتولّونه[١]. وقيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّ أكثرَ الأنبياء من ولده[٢]. ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ليس ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ داخلاً في الصِّلة وإنما هو تبيين[٣] وقد مضى في «البقرة»[٤] بيانُه. وكلٌّ هذا حثٌّ على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدِّينِ الحقِّ.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ قال الكسائي: المعنى: وأنجينا لوطاً، أو:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٨١ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤-٢٥٥ .

(٤) ٢/ ٤٠٦ .

أرسلنا لوطاً. قال: وهذا الوجه أحبُّ إليَّ[١]. ويجوز أن يكون المعنى: واذكر لوطاً إذ قال لقومه موبِّخاً أو مُحذِّراً: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ تقدَّم القراءة في هذا وبيانُها في سورة «الأعراف»[٢]. وتقدَّم قصة لوطٍ وقومِه في «الأعراف»[٣] و«هود»[٤] أيضاً.

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قيل: كانوا قُطَّاعَ الطريق. قال ابن زيد. وقيل: كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة. حكاه ابن شجرة. وقيل: إنه قَطْعُ النَّسل بالعدول عن النساء إلى الرجال. قاله وهب بن مُنبِّه. أي: استغنوا بالرجال عن النساء[٥].

قلتُ: ولعلَّ الجميعَ كان فيهم، فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، ويستغنون عن النساء بذلك.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ النادي: المجلس. واختُلِفَ في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه، فقالت فرقة: كانوا يخذِفون الناس[٦] بالحصى، ويستَخِفُّون بالغريب والخاطر عليهم[٧]. وروتْه أمُّ هانئ عن النبيِّ ﷺ؛ قالت أمُّ هانئ: سألتُ رسول الله ﷺ عن قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: «كانوا يخذِفون مَنْ يمرُّ بهم ويسخرون منه، فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه» أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»[٨]، وذكره النحَّاس والثعلبي والمهدي والماوردي[٩]. وذكر الثعلبي:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٣٥٥ .

(٢) ٩/ ٢٧٨ .

(٣) ٩/ ٢٧٣ فما بعد.

(٤) ١١/ ١٧٣ فما بعد.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٨٢

(٦) في (د) و(م): النساء. والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥ .

(٨) (١٦١٧)، وأخرجه أحمد (٢٦٨٩١)، والترمذي (٣١٩٠) من طريق سماك بن حرب، عن أبي صالح مولى أم هانئ، عن أم هانئ، به. إسناده ضعيف لضعف أبي صالح مولى أم هانئ، واسمه باذام، ويقال: باذان.

(٩) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠ ، والنكت والعيون ٥٤/ ٢٨٢ ولم يسُق لفظه.

وقال معاوية قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ قومَ لوطٍ كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كلِّ رجلٍ قصعةٌ فيها الحصى للخذف، فإذا مرَّ بهم عابرٌ قذفوه، فأيُّهم أصابَه كان أولى به» يعني: يذهَبُ به للفاحشة، فذلك قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾. وقالت عائشة وابن عباس والقاسم بن أبي بَزَّة والقاسم بن محمد: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم[١]. وقال منصور عن مجاهد[٢]: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضُهم يرى بعضاً[٣]. وعن مجاهد: كان من أمرهم لعبُ الحمام، وتطريفُ الأصابع بالحِنَّاء، والصَّفير، والخذف، ونبذُ الحياء في جميع أمورهم. قال ابن عطية[٤]: وقد توجد هذه الأمور في بعض عُصاةِ أمة محمدٍ ﷺ؛ فالتناهي واجب. قال مكحول: في هذه الأمة عشرةٌ من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك، وتطريفُ الأصابع بالحِنَّاء، وحلُّ الإزار، وتنقيض الأصابع[٥]، والعمامةُ التي تُلَفُّ حول الرأس، والتشابك، ورميُ الجُلاهِق[٦]، والصفير، والخذف، واللُّوطية[٧]. وعن ابن عباس قال: إنَّ قوم لوطٍ كانت فيهم ذنوبٌ غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتمُ بعضُهم بعضاً، ويتضارطون في مجالسهم، ويخذفون، ويلعبون بالنَّرد والشِّطرَنج، ويلبسون المصبغات، ويتناقرون بالدِّيكة، ويتناطحون بالكباش، ويُطرِّفون أصابعهم بالحِنَّاء، وتتشبُّه الرجالُ بلباس النساء، والنساءُ بلباس الرجال، ويضربون المكوسَ على كلِّ عابر، ومع هذا كلِّه كانوا يشركون بالله، وهم أوَّلُ مَنْ ظهر على أيديهم اللُّوطيةُ

---

(١) أخرجه الطبري ٣٨٩/٨ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٧٢) عن عائشة، وابن أبي حاتم (١٧٢٧٣) عن القاسم بن محمد، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣١٥/٤ عن ابن عباس.

(٢) في (د) و (ظ): وقال مجاهد ومنصور. والمثبت من (م) والمصادر.

(٣) أخرجه الطبري ٣٩١/١٨ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٧٤)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٤٧).

(٤) في المحرر الوجيز ٣١٥/٤ ، وما قبله منه.

(٥) أي: فرقعتها. الصحاح (فرقع).

(٦) أي: البندق الذي يرمى. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٤٣ .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٤٦٦/٣ مختصراً.

والسِّحاق. فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللَّجاج فقالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: إنَّ ذلك لا يكون ولا يقدِرُ عليه. وهم لم يقولوا هذا إلاَّ وهم مصمِّمون على اعتقاد كَذِبه. وليس يصِحُّ في الفطرة أن يكون معاندٌ يقول هذا. ثم استنصر لوطٌ عليه السلام ربَّه، فبعثَ عليهم ملائكةً لعذابهم، فجاؤوا إبراهيمَ أوّلاً مبشِّرين بنصرة لوطٍ على قومه حسبما تقدَّم بيانُه في «هود»[1] وغيرها.

وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائي: ﴿لَنُنْجِينَّه وأهلَهُ﴾ بالتخفيف. وشدَّد الباقون. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: ﴿إنَّا مُنْجُوكَ وأهلَكَ﴾ بالتخفيف. وشدَّد الباقون. وهما لغتان: أنْجَى ونَجَّى بمعنى. وقد تقدَّم[2]. وقرأ ابن عامر: ﴿إنَّا مُنَزِّلونَ﴾ بالتشديد، وهي قراءة ابن عباس. الباقون بالتخفيف[3]. وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال قتادة: هي الحجارة التي أُبقيت[4]. وقاله أبو العالية. وقيل: إنه يُرجَمُ بها قومٌ من هذه الأمة[5]. وقال ابن عباس: هي آثارُ منازلهم الخَرِبة. وقال مجاهد: هو الماء الأسود على وجه الأرض[6]. وكلٌّ ذلك باقٍ فلا تعارض.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين. وقد تقدَّم

---

(١) ١١/ ١٨٥ .

(٢) ٨/ ٤١٣ .

(٣) السبعة ص٥٠٠ ، والتيسير ص٩٠ و١٧٣ ، والنشر ٢/ ٢٥٩ . وقرأ خلف وهو من العشرة: «لننجينه» و«مُنجوك» بالتخفيف.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧ . وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨ ، والطبري ١٨/ ٣٩٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٩٤).

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٥ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٥٨ .

ذِكرُهم وفسادُهم في «الأعراف»[١] و«هود»[٢].

﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ قال يونس النَّحوي[٣]: أي: اخشوا الآخرةَ التي فيها الجزاء على الأعمال[٤]. ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تكفروا فإنه أصلُ كلِّ فساد. والعُثُوُّ والعِثيُّ أشدُّ الفساد. عَثِيَ يَعثَى وعَثَا يَعثُو بمعنى واحد[٥]. وقد تقدَّم[٦]. وقيل: ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ أي: صدِّقوا به، فإنَّ القوم كانوا يُنكرونه.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ قال الكسائي: قال بعضهم: هو راجعٌ إلى أوَّل السورة، أي: ولقد فتنَّا الذين من قبلهم وفتنَّا عاداً وثمود. قال: وأحبُّ إليّ أن يكون معطوفاً على «فأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» وأخذت عاداً وثموداً. وزعم الزجَّاج أن التقدير: وأهلكنا عاداً وثموداً[٧]. وقيل: المعنى: واذكُرْ عاداً إذ أرسلنا إليهم هوداً فكذَّبوه فأهلكناهم، وثموداً أيضاً أرسلنا إليهم صالحاً فكذَّبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عاداً بالريح العقيم. ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ يا معشر الكفار ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ بالحِجرْ والأحقاف آياتٌ في إهلاكهم، فَحُذِفَ فاعلُ التبيُّن[٨]. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة.

---

(١) ٩/ ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) ١١/ ١٩١-١٩٧.

(٣) هو يونس بن يحيى بن نباتة القرشي المدني، وهو من رواة الحديث، توفي سنة ٢٠٦هـ الكاشف ٢/ ٤٠٤.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤١٩ عن مقاتل.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ١٥٠.

(٦) ٩/ ٢٦٩.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٦٨.

(٨) الوسيط ٣/ ٤٢٠، وزاد المسير ٦/ ٢٧١-٢٧٢، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٦٠ بنحوه.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الحق[١]. ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما وكانوا مستبصرين في الضلالة. قاله مجاهد. والثاني - كانوا مستبصرين قد عرفوا الحقَّ من الباطل بظهور البراهين. وهذا القول أشبه؛ لأنَّه إنَّما يُقال: فلانٌ مستبصِرٌ إذا عرف الشيء على الحقيقة[٢]. قال الفرَّاء[٣]: كانوا عقلاءَ ذَوي بصائر، فلم تنفعهم بصائرهم. وقيل: أتوا ما أتوا وقد تبيَّنَ لهم أن عاقبتَهم العذاب[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ قال الكسائي: إن شئتَ كان محمولاً على عاد، وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وصدَّ قارونَ وفِرعونَ وهامان[٥]. وقيل: أي: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن الحقِّ وعن عبادة الله.

﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ أي: فائتين[٦]. وقيل: سابقين في الكفر[٧]. بل قد سبقهم للكفر قرونٌ كثيرةٌ فأهلكناهم. ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ قال الكسائي: «فَكُلًّا» منصوبٌ بـ«أخَذْنا»[٨] أي: أخذنا كُلًّا بذنبه. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني قوم لوط.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧.
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.
(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.
(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧.
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٧.
(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.

والحاصب: ريحٌ يأتي بالحصباء وهي الحصى الصِّغار[١]. وتُستعمل في كلِّ عذاب. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني ثموداً وأهل مدين. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قوم نوح وقوم فرعون[٢]. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلَهم وبعثَ إليهم الرسل وأزاح العذر.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ قال الأخفش: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ وقفٌ تام، ثم قصَّ قِصَّتها فقال: ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأنَّ «اتَّخذَتْ بيتاً» صلةٌ للعنكبوت، كأنه قال: «كمثل التي اتخذت بيتاً»، فلا يَحسُنُ الوقفُ على الصلة دون الموصول، وهو بمنزلة قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] فيحمل صلةٌ للحمار، ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل. قال الفرَّاء: هو مثلٌ ضربَه الله سبحانه لمنِ اتَّخذَ من دونه آلهةً لا تنفعه ولا تضرُّه؛ كما أنَّ بيتَ العنكبوت لا يقيها حرًّا ولا برداً. ولا يَحسُنُ الوقفُ على العنكبوت؛ لأنه لمَّا قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء، فشُبِّهتِ الآلهةُ التي لا تنفع ولا تضرُّ به[٣].

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: أضعف البيوت[٤] ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ قال الضحاك:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧-٤٦٨ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩ .

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧ - ٨٢٨ . وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٨ .

ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها فشبَّهها ببيت العنكبوت[١]. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ «لَوْ» متعلقةٌ ببيت العنكبوت. أي: لو علموا أنَّ عبادة الأوثان كاتِّخاذِ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً، وأنَّ هذا مثَلُهم لَمَا عبدوها، لا أنَّهم يعلمون أنَّ بيت العنكبوت ضعيف[٢]. وقال النُّحاة: إنَّ تاء العنكبوت في آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط في التصغير والجمع. وهي مؤنثة، وحكى الفرَّاءُ تذكيرها وأنشد:

علـى هَـطَّـالِـهـمْ مـنـهـم بُـيـوتٌ كـأنَّ الـعـنـكـبـوتَ قـدِ ابـتـنـاهـا[٣]

ويُروى:

عـلـى أهـطـالـهـم مـنـهـم بـيـوتٌ

قال الجوهري: والهَطَّال: اسم جبل[٤]. والعنكبوت: الدُّوَيِّبةُ المعروفةُ التي تنسج نسجاً رقيقاً مُهلهلاً بين الهواء[٥]. ويُجمع عناكِيب وعَنَاكِب وعِكَاب وعُكُب وأعكُب. وقد حُكِيَ أنه يُقال: عَنكَب[٦] وعَكَنْبَاة[٧]؛ قال الشاعر:

كـأنَّـمـا يَـسـقـطُ مـن لُـغَـامِـهـا[٨] بـيـتُ عَـكَـنْـبَـاةٍ عـلـى زِمَـامِـهـا

وتُصغَّر فيقال: عُنَيكِب[٩]. وقد حُكي عن يزيد بن مَرْثد[١٠] أنَّ العنكبوت شيطانٌ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩ بنحوه.

(٣) من قوله: وهي مؤنثة.... إلى نهاية البيت من إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧ .

(٤) الصحاح (هطل)، وما قبله منه.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٧) وهي في لغة أهل اليمن فيما نقل الأزهري في تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ عن الليث.

(٨) أي: زبدها. الصحاح (لغم).

(٩) تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ .

(١٠) في النسخ: يزيد بن ميسرة، وهو تحريف.

مسخها الله تعالى[١]. وقال عطاء الخراساني: نسجَتِ العنكبوتُ مرتين مرةً على داود حين كان جالوت يطلبه، ومرةً على النبيِّ ﷺ؛ ولذلك نهى عن قتلها[٢]. ويُروى عن عليٍّ ﷺ أنه قال: طهِّروا بيوتكم من نَسْجِ العنكبوت، فإنَّ تركَه في البيوت يُورِثُ الفقر، ومنع الخمير يورث الفقر[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ «ما» بمعنى الذي[٤]، و«مِنْ» للتبعيض، ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى[٥]، والمعنى: إنَّ الله يعلم ضِعْفَ ما يعبدون من دونه.

وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب: «يَدْعُونَ» بالياء، وهو اختيار أبي عبيد؛ لذِكْرِ الأممِ قبلها. الباقون بالتاء على الخطاب[٦].

قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا﴾ أي: هذا المثل وغيره مما ذُكِرَ في «البقرة»[٧] و«الحج»[٨] وغيرهما ﴿نَضۡرِبُهَا﴾ نُبيِّنُها ﴿لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ﴾ أي: يفهمها ﴿إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ أي: العالمون بالله، كما روى جابرٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «العالمُ مَنْ عقَلَ عن الله، فعمِلَ بطاعتِه، واجتنب سخطَه»[٩].

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٥٠٠) و(٥٠٤) من طريق بقية بن الوليد، عن الوضين بن عطاء، عن يزيد بن مرثد مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان فاقتلوه». إسناده منقطع، وبقية مدلس وقد عنعن فيه، والوضين سيئ الحفظ.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٧ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان مسخه الله فاقتلوه». وفي إسناده مسلمة بن علي الخشني، وهو متروك، قال ابن عدي: وعامة أحاديثه غير محفوظة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٢٣) دون قوله: ولذلك نهى عن قتلها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٨ دون قوله: ومنع الخمير يورث الفقر.

(٤) البيان ٢/ ٢٤٥ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٦) السبعة ص٥٠١ ، والتيسير ص١٧٤ ، والنشر ٢/ ٣٤٣ .

(٧) ١/ ٣٦٥ .

(٨) ١٤/ ٤٤٦-٤٤٧ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٨ . والحديث أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل فيما ذكر الزيلعي في =

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والقسط. وقيل: بكلامه وقدرته وذلك هو الحق. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: علامةً ودلالةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين.

قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ﴾ أمرٌ بالتلاوة[1] والدُّؤوب عليها. وقد مضى في «طه»[2] الوعيدُ فيمن أعرضَ عنها، وفي مقدِّمة الكتاب[3] الأمرُ بالحضِّ عليها. والكتاب يُراد به القرآن.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ وأمَّتِه، وإقامةُ الصلاة أداؤها في أوقاتها بقوامتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهُّدها وجميع شروطها. وقد تقدَّم بيانُ ذلك في «البقرة»[4] فلا معنى للإعادة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ يريدُ: إنَّ

= تخريج الأحاديث والآثار ٣/ ٤٣ ، وأخرجه من طريقه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٣٧)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٢٠ . وداود بن المحبر متروك فيما قاله الدارقطني في الضعفاء والمتروكين ١/ ٢٠٢ . ونقل ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢١٩ عن الدارقطني أنه قال: كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر، فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركبه بأسانيد أخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي فأتى بأسانيد أخر.

(١) في (د) و(م): من التلاوة، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٢) ١٤/ ١٥٧ .

(٣) ١/ ٦ فما بعد.

(٤) ١/ ٢٥٣ فما بعد.

الصلاة الخمس هي التي تكفِّر ما بينها من الذنوب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتُم لو أنَّ نهراً ببابِ أحدِكم يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ هل يبقى من دَرَنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من دَرَنه شيء. قال: «فذلِكَ مَثَلُ الصلواتِ الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا» خرَّجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[١]. وقال ابن عمر: الصلاة هنا القرآن[٢]. والمعنى: الذي يُتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصي.

قلت: ومنه الحديث الصحيح: «قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين»[٣] يريد قراءةَ الفاتحة. وقال حماد بن أبي سليمان وابن جُريح والكلبي: العبدُ مادامَ في صلاته لا يأتي فحشاءَ ولا منكراً، أي: إنَّ الصلاةَ تنهى ما دمتَ فيها. قال ابن عطية[٤]: وهذه عُجمةٌ، وأينَ هذا ممَّا رواه أنس بن مالك قال: كان فتًى من الأنصار يُصلِّي مع النبيِّ ﷺ ولا يدَعُ شيئاً من الفواحش والسرقة إلَّا رَكِبَه، فذُكِرَ للنبيِّ ﷺ فقال: «إنَّ الصلاةَ ستنهاه» فلم يلبَثْ أن تابَ وصلحت حالُه، فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقُلْ لكم؟»[٥].

وفي الآية تأويلٌ ثالث، وهو الذي ارتضاه المحقِّقون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون، فقيل: المرادُ بـ«أقِمِ الصَّلاةَ» إدامتُها والقيامُ بحدودها، ثم أخبر حُكماً منه بأنَّ الصلاة تنهى صاحبَها وممتثِلَها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لِما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة، والصلاة تشغَلُ كلَّ بدن المصلِّي، فإذا دخل

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٦٨). وأخرجه أحمد (٨٩٢٤)، والبخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٩-٣٢٠.

(٣) وقد سلف ١/ ١٤٥-١٤٦.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠ وما قبله منه، وقول حماد بن أبي سليمان أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٤٦).

(٥) لم نقف على من أخرجه من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٩٧٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق! قال: «إنه سينهاه ما تقول».

المصلِّي في محرابه وخشعَ وأخبَتَ لربِّه وادَّكر أنه واقفٌ بين يديه، وأنه مُطَّلعٌ عليه ويراه، صلُحَتْ لذلك نفسُه وتذلَّلت، وخامَرها ارتقابُ الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتُها، ولم يكَدْ يفتر من ذلك حتى تُظِلَّه صلاةٌ أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة. فهذا معنى هذه الأخبار؛ لأنَّ صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون.

قلتُ: لاسيما وإن أشعر نفسَه أنَّ هذا ربما يكون آخرَ عمله، وهذا أبلَغُ في المقصود وأتَمُّ في المراد؛ فإنَّ الموت ليس له سِنٌّ محدود، ولا زمنٌ مخصوص، ولا مرضٌ معلوم، وهذا مما لا خلافَ فيه. ورُويَ عن بعض السلف أنه كان إذا قام على الصلاة ارتعد واصفَرَّ لونُه، فكُلِّم في ذلك فقال: إني واقفٌ بين يدي الله تعالى، وحُقَّ لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الموت؟! فهذه صلاةٌ تنهى ولابُدَّ عن الفحشاء والمنكر، ومَنْ كانت صلاتُه دائرةً حول الإجزاء، لا خشوعَ فيها ولا تذكُّرَ ولا فضائل، كصلاتنا - وليتَها تُجزئ - فتلك تترك صاحبَها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقةِ معاصٍ تُبعده من الله تعالى تركَتْه الصلاةُ يتمادى على بعده. وعلى هذا يُخرَّج الحديثُ المرويُّ عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم: مَنْ لم تنْهَه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم تَزِده من الله إلاَّ بُعداً[(١)]. وقد رُويَ أنَّ الحسنَ أرسله عن النبي ﷺ وذلكَ غيرُ صحيح السند[(٢)]. قال ابن عطية[(٣)]: سمعت أبي ﷺ

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص١٩٩، والطبري ١٨/ ٤٠٩، والطبراني (٨٥٤٣)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٤) عن ابن مسعود ﷺ. وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٠٨ عن ابن عباس ﷺ. والطبري ١٨/ ٤١٠ عن الحسن.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٤٠٩، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٢) عن الحسن مرفوعاً.

وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٣٩) من طريق عمر بن أبي عثمان، عن الحسن، عن عمران بن حصين مرفوعاً. عمر بن أبي عثمان مجهول، والحسن لم يسمع من عمران. المراسيل ص٤٠.

وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٣٤٠)، والطبراني (١١٠٢٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٠٩) من طريق ليث - وهو ابن أبي سليم - عن طاوس، عن ابن عباس مرفوعاً. ليث ضعيف. ميزان الاعتدال ٣/ ٤٢٠.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٩، وما قبله وما بعده منه.

يقوله، فإذا قرَّرنا ونُظِرَ معناه فغيرُ جائزٍ أن يقول: إنَّ نفسَ صلاةِ العاصي تُبعِدُه من الله حتى كأنَّها معصية، وإنما يتخرَّج ذلك على أنها لا تؤثِّر في تقريبه من الله، بل تتركُه على حاله ومعاصيه، من الفحشاء والمنكر والبُعد، فلم تزِدْه الصلاةُ إلاَّ تقريرَ ذلك البُعدِ الذي كان بسبيله[١]؛ فكأنَّها بعَّدته حين لم تَكُفَّ بُعدَه عن الله. وقيل لابن مسعود: إنَّ فلاناً كثيرُ الصلاة. فقال: إنها لا تنفعُ إلاَّ مَنْ أطاعها[٢].

قلت: وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث: «لم تزِدْه من الله إلاَّ بُعداً، ولم يزدَدْ بها من الله إلاَّ مقتاً» إشارةٌ إلى أنَّ مرتكبَ الفحشاء والمنكر لا قَدرَ لصلاته؛ لغلبة المعاصي على صاحبها، وقيل: هو خبرٌ بمعنى الأمر. أي: لِينتَهِ المصلِّي عن الفحشاء والمنكر. والصلاةُ بنفسها لا تنهى، ولكنَّها سببُ الانتهاء، وهو كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الجاثية: ٢٩] وقوله: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ أي: ذِكْرُ الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبرُ من ذِكرِكم له في عبادتكم وصلواتكم. قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قُرَّة وسلما والحسن[٣]، وهو اختيار الطبري[٤]. ورُويَ مرفوعاً من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر، أنَّ النبيَّ ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ قال: «ذِكْرُ الله إيَّاكم أكبرُ من ذكرِكم إيَّاه»[٥]. وقيل: ذِكْرُكم

(١) في (م): سبيله، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٨، والطبري ٨/ ٤٠٨-٤٠٩، وابن أبي حاتم (١٧٣٤٢)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٣).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠، وقول ابن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٨، وأحمد في الزهد ص٢٦٧، والطبري ١٨/ ٤١٤. وقول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٤١١-٤١٤، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥٠) و(١٧٣٥٢)، والحاكم ٢/ ٤٠٩. وأخرجه الطبري ١٨/ ٤١٣-٤١٤ عن أبي الدرداء، و١٨/ ٤١٤ عن أبي قرة، و١٨/ ٤١٣ عن سلمان والحسن.

(٤) في تفسيره ١٨/ ٤١٧.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠. وأخرجه الديلمي في الفردوس ٤/ ٤٠٦.

الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضلُ من كلِّ شيء[١]. وقيل: المعنى: إنَّ ذِكْرَ الله أكبرُ مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر[٢]. وقال الضحَّاك: ولَذِكرُ الله: عند ما يُحرِمُ فيتركُ أجَلَّ الذِّكر. وقيل: المعنى ولذِكرُ الله للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر، أي: كبير، وأكبر يكون بمعنى كبير[٣]. وقال ابن زيد وقتادة: ولَذِكرُ الله أكبرُ من كلِّ شيءٍ، أي: أفضل من العبادات كلِّها بغير ذكر[٤]. وقيل: ذِكرُ الله يمنع من المعصية، فإنَّ مَنْ كان ذاكراً له لا يُخالِفه[٥]. قال ابن عطية[٦]: وعندي أنَّ المعنى: ولَذِكرُ الله أكبرُ على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأنَّ الانتهاء لا يكون إلَّا من ذاكرِ اللهَ مراقبٍ له. وثوابُ ذلك أنْ يذكره اللهُ تعالى، كما في الحديث: «مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومَنْ ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ خيرٍ منهم»[٧] والحركات التي في الصلاة لا تأثيرَ لها في نهي، والذِّكرُ النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرُّغِه إلاَّ من الله. وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبةٍ أخرى. وذِكرُ الله تعالى للعبد هو إفاضةُ الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرةٌ لذكر العبد ربَّه. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وباقي الآية ضَرْبٌ من الوعيد والحثِّ على المراقبة.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨٥، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧-٢٥٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٢١، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٩ بمعناه.

(٦) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٧) سلف ١٤/ ٢٩.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٞ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فقال مجاهد: هي مُحكمةٌ فيجوز مجادلةُ أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عزَّ وجلَّ، والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة. وقوله على هذا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ معناه: ظلموكم، وإلاَّ فكلُّهم ظَلَمةٌ على الإطلاق[(١)]. وقيل: المعنى: لا تجادلوا مَنْ آمن بمحمدٍ ﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سلاَم ومَنْ آمن معه[(٢)]. ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالموافقة فيما حدَّثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك. وقوله على هذا التأويل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يريد به مَنْ بقي على كفره منهم، كمنْ كفرَ وغدرَ من قريظة والنَّضِير وغيرهم. والآية على هذا أيضاً محكمة. وقيل: هذه الآية منسوخةٌ بآية القتال؛ قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٨]. قاله قتادة[(٣)].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: جعلوا لله ولداً، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٨][(٤)] فهؤلاء المشركون[(٥)]. قال النحَّاس وغيره: من قال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠-٣٢١. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٤٢٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥٥)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٤٦).

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٤٢٣ عن مجاهد.

(٥) بعدها في النسخ عبارة: «في سقوط الجزية فانتصروا» ولم نتبيَّنها.

هي منسوخة، احتجَّ بأنَّ الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتالٌ مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك. وقولُ مجاهدٍ حسن؛ لأنَّ أحكام الله عزَّ وجلَّ لا يُقال فيها: إنها منسوخةٌ إلاَّ بخبرٍ يقطع العذر، أو حُجَّةٍ من معقول[1]. واختار هذا القول ابن العربي[2]. قال مجاهد وسعيد بن جُبير: وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ معناه: إلاَّ الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يُعطوا الجزية[3].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ روى البخاري[4] عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويُفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم وقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٦]». وروى عبد الله بن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيءٍ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا، إمَّا أن تُكذِّبوا بحقٍّ، وإمَّا أن تُصدِّقوا بباطل»[5]. وفي البخاري[6]: عن حُمَيد ابن عبد الرحمن سمع معاويةَ يُحدِّث رهطاً من قريشٍ بالمدينة، وذَكَر كعبَ الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدِّثين الذين يُحدِّثون عن أهل الكتاب، وإن كُنَّا مع ذلك لَنَبلُو عليه الكذب.

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٦ دون قوله: «ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض» فهو في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٥.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥ من غير نسبة.

(٤) في صحيحه (٤٤٨٥)، وقد سلف ٢/ ٤١٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠١٦٢) و(١٩٢١٢)، والطبري ١٨/ ٤٢٣ من طريق حريث بن ظهير، عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفاً. وحريث بن ظهير مجهول. قلنا: وقد رُوي مرفوعاً كما في مسند أحمد (١٤٦٣١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفي إسناده مجالد بن سعيد الهمداني، وهو ضعيف.

(٦) في صحيحه (٧٣٦١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الضمير في «قَبْلِهِ» عائدٌ إلى الكتاب، وهو القرآن المُنزَّل على محمد ﷺ، أي: وما كنتَ يا محمد تقرأ قبله، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليكَ في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك، فلو كنتَ ممَّن يقرأُ كتاباً، ويَخطُّ حروفاً ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلَّق، وقالوا: الذي نجده في كتبنا أنه أميٌّ لا يكتبُ ولا يقرأُ وليس به. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أنَّ محمداً ﷺ لا يخُطُّ ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية[(١)]؛ قال النحَّاس[(٢)]: دليلاً على نبوَّتِه لقريش؛ لأنَّه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهلَ الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالتِ الرِّيبةُ والشَّكُ.

الثانية: ذكر النقَّاش في تفسير هذه الآية عن الشَّعبي أنه قال: ما ماتَ النبيُّ ﷺ حتى كتب[(٣)]. وأسندَ أيضاً حديثَ أبي كَبشة السَّلُولي؛ مضمنه: أنه ﷺ قرأ صحيفةً لعُيينَةَ[(٤)] بن حِصن، وأخبر بمعناها. قال ابن عطية[(٥)]: وهذا كلُّه ضعيف، وقول الباجي رحمه الله منه.

قلت: وقع في «صحيح مسلم» من حديث البراء في صلح الحديبية أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعلي: «اكتُبِ الشَّرطَ بيننا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ الله» فقال له المشركون: لو نعلم أنَّكَ رسولُ الله تابعناك ـ وفي رواية بايعناك ـ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١-٣٢٢.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢٥٨.

(٣) أخرجه البيهقي ٧/ ٤٢-٤٣ وقال: هذا حديث منقطع، وفي رواية جماعة من الضعفاء والمجهولين.

(٤) أخرجه أبو داود (١٦٢٩).

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢، والمسألة كلها منه.

ولكن اكتُبْ: محمدُ بن عبد الله. فأمرَ عليًّا أن يمحوَها، فقال عليٌّ: والله لا أمحاه. فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانَها» فأراه، فمحاها وكتب: ابن عبد الله[1]. قال علماؤنا ﷺ: وظاهر هذا أنه عليه الصلاة والسلام محا تلك الكلمة التي هي رسول الله - ﷺ - بيده، وكتب مكانها: ابن عبد الله. وقد رواه البخاري بأظهرَ من هذا، فقال: فأخذَ رسولُ الله ﷺ الكتابَ فكتب[2]. وزاد في طريق أخرى: ولا يحسن أن يكتب[3]. فقال جماعةٌ بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده، منهم السمناني وأبو ذرّ والباجي، ورأوا أنَّ ذلك غيرُ قادحٍ في كونه أُميًّا، ولا مُعارِضٌ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ ولا لقوله: «إنَّا أمةٌ أميَّةٌ لا نكتب ولا نحسب»[4] بل رأوه زيادة في معجزاته، واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته، وذلكَ أنه كتب من غير تعلُّمٍ لكتابة، ولا تعاطٍ لأسبابها، وإنَّما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركاتٍ كانت عنها خطوطٌ مفهومُها ابنُ عبد الله لمن قرأها، فكان ذلك خارقاً للعادة، كما أنه عليه الصلاة والسلام عَلِمَ الأوَّلين والآخرين من غير تعلُّمٍ ولا اكتساب، فكان ذلك أبلغَ في معجزاته، وأعظمَ في فضائله. ولا يزول عنه اسمُ الأميِّ بذلك؛ ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة: ولا يُحسنُ أن يكتب[5]. فبقي عليه اسمُ الأميِّ مع كونه قال: كتب. قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وقد أنكر هذا كثيرٌ من متفقِّهة الأندلس وغيرهم، وشدَّدوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليلٌ على عدم العلوم النظرية، وعدم التوقُّفِ في تكفير المسلمين، ولم يتفطَّنوا؛ لأنَّ تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في الصحيح[6]، لاسيما

(١) صحيح مسلم (١٧٨٣). وهو في مسند أحمد (١٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٩٨).

(٢) صحيح البخاري (٢٦٩٩).

(٣) صحيح البخاري (٤٢٥١).

(٤) سلف ٢/ ٢١٦ .

(٥) في المفهم ٣/ ٦٣٧-٦٣٨ ، وما قبله منه، يعني من قوله: وظاهر هذا أنه....

(٦) أخرجه أحمد (١٦٣٨٥)، والبخاري (٦١٠٥) من حديث ثابت بن الضحاك ﷺ مرفوعاً بلفظ: «من رمى مؤمناً بكفرٍ فهو كقتله».

رميُ مَنْ شهِدَ له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة، على أنَّ المسألة ليست قطعية، بل مستندُها ظواهِرُ أخبار أحادٍ صحيحة، غير أن العقل لا يُحيلها، وليس في الشريعة قاطعٌ يُحيلُ وقوعَها.

قلتُ: وقال بعض المتأخِّرين: مَنْ قال: هي آيةٌ خارقة، فيقال له: كانت تكون آيةً لا تُنكرُ لولا أنَّها مناقضَةٌ لآيةٍ أخرى وهي كونه أمياً لا يكتب، وبكونه أميًا في أمَّةٍ أميَّةٍ قامت الحج، وأُفحِمَ الجاحدون، وانحسمتِ الشُّبهة، فكيف يُطلِقُ الله تعالى يده فيكتب وتكون آية. وإنَّما الآيةُ ألاَّ يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفَعُ بعضُها بعضاً. وإنما معنى كتب وأخذ القلم، أي: أمرَ مَنْ يكتبُ به من كُتَّابه، وكان من كَتبةِ الوحي بين يديه ﷺ ستةٌ وعشرون كاتباً[1].

الثالثة: ذكر القاضي عياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي ﷺ فقال له: «ألقِ الدَّواةَ، وحرِّفِ القلَمَ، وأقِم الباءَ، وفرِّقِ السينَ، ولا تُعوِّرِ الميمَ، وحَسِّنِ الله، ومُدَّ الرحمنَ، وجَوِّدِ الرحيم»[2] قال القاضي: وهذا وإن لم تصحَّ الروايةُ أنه ﷺ كتبَ فلا يَبعُدُ أن يُرزَقَ عِلمُ هذا، ويُمنعَ القراءةَ والكتابة[3].

قلت: هذا هو الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً، وإنما أمر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجَّى. فإن قيل: فقد تهجَّى النبيُّ ﷺ حين ذكر الدجَّال فقال: «مكتوبٌ بين عينيه: ك ا ف ر»[4] وقلتُم: إنَّ المعجزة قائمةٌ في كونه أميًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الآية، وقال: «إنَّا أمةٌ أميَّةٌ لا نكتب

---

(١) الروض الأنف ٤/ ٣٦.

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس ٥/ ٣٩٤. وأخرجه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص١٧٠ من طريق الوليد بن مسلم، عن يزيد بن يزيد بن جابر، عن مكحول، عن معاوية رضي الله عنه. الوليد بن مسلم يدلس التسوية ولم يصرح بالتحديث في كل طبقات الإسناد. ومكحول لم يسمع من معاوية فيما ذكر ابن أبي حاتم في المراسيل ص١٦٦.

(٣) المسألة في الشفا ١/ ٧٠٢-٧٠٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٠٠٤)، والبخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

ولا نحسب» فكيف هذا؟ فالجواب ما نصَّ عليه رسول الله ﷺ في حديث حذيفة، والحديث كالقرآن يفسِّرُ بعضُه بعضاً، ففي حديث حذيفة: «يقرؤه كلُّ مؤمن كاتبٍ وغيرِ كاتب»[١] فقد نصَّ في ذلك على غير الكتاب ممن يكون أميًّا. وهذا من أوضح ما يكون جليًّا.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ يعني القرآن. قال الحسن: وزعَمَ الفرَّاء في قراءة عبد الله: «بَلْ هيَ آياتٌ بَيِّنَاتٌ» المعنى: بل آياتُ القرآن آياتٌ بيِّنات. قال الحسن: ومثله ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] ولو كانت هذه لجاز، نظيره: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف: ٩٨][٢] قال الحسن: أُعطيتْ هذه الأمة الحِفظ، وكان مَنْ قبلها لا يقرؤون كتابَهم إلاَّ نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلاَّ النبيُّون، فقال كعب في صفة هذه الأمة: إنهم حكماءُ علماءُ، وهم في الفقه أنبياء[٣]. ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحرٌ أو شعر، ولكنه علاماتٌ ودلائلُ يُعرَفُ بها دينُ اللهِ وأحكامُه. وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمدٍ ﷺ والمؤمنون به، يحفظونه ويقرؤونه. ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميَّزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين. وقال قتادة وابن عباس: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الكتاب يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم بهذه الصفة أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا[٤]. وهذا اختيار الطبري[٥]. ودليلُ هذا القول قراءةُ ابن مسعود

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٧٩)، ومسلم (٢٩٣٤): (١٠٥).

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٨، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧، وقراءة عبد الله هذه شاذة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١ بنحوه.

(٥) في تفسيره ١٨/ ٤٢٧.

وابن السَّمَيفَع: «بَلْ هَذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ»(١) وكان عليه الصلاة والسلام آياتٍ لا آيةً واحدة؛ لأنه دلَّ على أشياءَ كثيرةٍ من أمر الدين؛ فلهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾. وقيل: بل هو ذو آيات بيِّنات، فحذف المضاف. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الكفار؛ لأنهم جحدوا نبوَّته وما جاء به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله ﷺ، ومعناه: هلاَّ أُنزلَ عليه آيةٌ كآيات الأنبياء(٢). قيل: كما جاء صالحٌ بالناقة، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى(٣)، أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو يأتي بها كما يريد، إذا شاء أرسلها وليست عندي ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٤).

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: «آيةٌ» بالتوحيد. وجمع الباقون(٥). وهو اختيار أبي عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾(٦).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ هذا جوابُ

---

(١) وهي قراءة شاذة.

(٢) الوسيط ٣/ ٤٢٣.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٨.

(٤) الوسيط ٣/ ٤٢٣، وزاد المسير ٦/ ٢٧٩.

(٥) السبعة ص٥٠١، والتيسير ص١٧٤.

(٦) وردَّ هذا الاختيار أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣٥.

لقولهم: «لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ»[١]. أي: أوَ لم يكفِ المشركين من الآيات هذا الكتابُ المعجزُ الذي قد تحدَّيتَهُم بأن يأتوا بمثله و بسورةٍ منه، فعجزوا، ولو أتيتَهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحرٌ ونحن لا نعرف السحر، والكلام مقدورٌ لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة.

وقيل: إنَّ سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عُيَينة عن عَمرو بن دينار عن يحيى ابن جَعدة قال: أُتيَ النبيُّ ﷺ بكتفٍ فيه كتاب، فقال: «كفى بقومٍ ضلالةً أن يرغبوا عمَّا جاء به نبيُّهم إلى ما جاء به نبيٌّ غيرُ نبيِّهم أو كتابٌ غيرُ كتابهم» فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أخرجه أبو محمد الدارميُّ في «مسنده»[٢]. وذكره أهل التفسير في كتبهم[٣]. وفي مثل هذا قال ﷺ لعمر ﷺ: «لو كان موسى بن عمران حيًّا لَما وسِعَه إلاَّ اتِّباعي»[٤] وفي مثله قال ﷺ: «ليس مِنَّا منْ لم يَتغَنَّ بالقرآن»[٥] أي: يستغني به عن غيره. وهذا تأويل البخاري رحمه الله في الآية[٦]. وإذا كان لقارِئهِ بكلِّ حرفٍ عشرُ حسناتٍ فأكثر على ما ذكرناه في مقدمة الكتاب، فالرغبة عنه إلى غيره ضلالٌ وخُسرانٌ وغُبنٌ ونقصان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ في الدنيا والآخرة. وقيل: رحمةً في

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢ .

(٢) (٤٧٨)، وأخرجه أبو داود في المراسيل (٤٥٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٨٠). وإسناده مرسل.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٢٣٣ ، وأبو الليث في تفسيره ٢/ ٥٤١ ، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٧٩ .

(٤) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفي إسناده مجالد بن سعيد الهمداني، وهو ضعيف.

وأخرجه أيضاً بنحوه (١٥٨٦٤) من حديث عبد الله بن ثابت ﷺ، وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف أيضاً.

(٥) سلف ١/ ٢١ .

(٦) إنما هو تأويل سفيان بن عيينة فيما نقل عنه البخاري في صحيحه عقب الحديث (٥٠٢٤).

الدنيا باستنقاذهم من الضلالة. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(١)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: قُلْ للمكذِّبين لكَ: كفى بالله شهيداً يشهدُ لي بالصدق فيما أدَّعِيه من أني رسولُه، وأنَّ هذا القرآنَ كتابُه[(٢)].

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء. وهذا احتجاجٌ عليهم في صحة شهادته عليهم؛ لأنهم قد أقرُّوا بعلمه فلزمهم أن يُقِرُّوا بشهادته. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال يحيى بن سلاَّم: بإبليس. وقيل: بعبادة الأوثان والأصنام. قاله ابن شجرة. ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: لتكذيبهم برسله، وجَحْدِهم لكتابه. وقيل: بما أشركوا به من الأوثان، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنفسهم وأعمالهم في الآخرة[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ لمَّا أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار: عَجِّلْ لنا هذا العذاب. وقيل: إنَّ قائل ذلك النَّضر بن الحارث وأبو جهل حين قالا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ في نزول العذاب. قال ابن عباس: يعني: هو ما وعدتُكَ ألاَّ أُعذِّبَ قومك وأُؤخِّرهم إلى يوم القيامة. بيانه: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨٩.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٩.

[القمر: ٤٦]. وقال الضحَّاك: هو مدَّة أعمارهم في الدنيا[١]. وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى. قاله يحيى بن سلاّم[٢]. وقيل: الوقت الذي قدَّره الله لهلاكهم وعذابهم. قاله ابن شجرة. وقيل: هو القتل يوم بدر[٣]. وعلى الجملة فلكلِّ عذابٍ أجلٌ لا يتقدَّم ولا يتأخَّر. دليله قوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]. ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: الذي استعجلوه. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون بنزوله عليهم[٤]. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: يستعجلونك وقد أعدَّ لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنى الاستعجال. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ قيل: هو متَّصلٌ بما هو قبله، أي: يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم[٥]. وإنما قال: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ للمقاربة، وإلَّا فالغشيان من فوق أعمُّ، كما قال الشاعر:

عَلَفْتُها تِبْنًا وماءً بارِدا[٦]

وقال آخر:

لقد كان قَوَّادَ الجيادِ إلى العِدا عليهنَّ غابٌ من قَنًى ودروعِ[٧]

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١، وقول الضحاك في الوسيط ٣/ ٤٢٤، وزاد المسير ٦/ ٢٨٠.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٠.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٨٠ عن الثعلبي.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٩٠.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢.

(٦) هذا صدر بيت عجزه: حتى شتت همَّالةً عيناها. وقد سلف ١/ ٢٩١.

(٧) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ص٤١٠، وفيه: الوغى بدل العدا.

﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة: «نَقُولُ» بالنون. الباقون بالياء. واختاره أبو عبيد؛ لقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ ويحتمل أن يكون الملَك الموكَّل بهم يقول: «ذُوقُوا» والقراءتان ترجع إلى معنى. أي: يقول الملَكُ بأمرنا: ذوقوا(١).

قوله تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ـ في قول مقاتل والكلبي ـ فأخبرهم الله تعالى بِسَعة أرضه، وأنَّ البقاء في بقعةٍ على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن تُتلمَّسَ عبادةُ الله في أرضه مع صالحي عباده(٢)، أي: إن كنتم في ضيقٍ من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها(٣). وقال ابن جُبير وعطاء: إنَّ الأرض التي فيها الظلمُ والمنكرُ تترتَّبُ فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق. وقاله مالك(٤). وقال مجاهد: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجروا وجاهدوا(٥). وقال مُطرِّف[بن عبد الله] بن الشِّخِّير: المعنى: إنَّ رحمتي واسعة. وعنه أيضاً: إنَّ رزقي لكم واسعٌ فابتغوه في الأرض(٦). قال سفيان الثوري: إذا كنتَ بأرضٍ غاليةٍ

(١) السبعة ص٥٠١، والتيسير ص١٧٤. وينظر الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣٦.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤. وذكر مقاتل والكلبي من تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢.
(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٢، وزاد المسير ٦/ ٢٨١.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤.
(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢.
(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٩١. والقول الثاني في تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢، وزاد المسير ٦/ ٢٨١. وما بين حاصرتين من تلك المصادر.

فانتقِلْ إلى غيرها تملأُ فيها جِرابَكَ خبزاً بدرهم. وقيل: المعنى: إنَّ أرضي التي هي أرض الجنة واسعة. ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ حتى أورثكموها[١]. ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ «إيَّايَ» منصوبٌ بفعلٍ مضمر، أي: فاعبدوا إيَّايَ فاعبدون، فاستغنى بأحد الفعلين عن الثاني، والفاء في قوله: «فَإِيَّايَ» بمعنى الشرط[٢]، أي: إنْ ضاقَ بكم موضعٌ فإيَّايَ فاعبدوني [في غيره][٣]؛ لأن أرضي واسعة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[٤]. وإنما ذكره هاهنا تحقيراً لأمر الدنيا ومخاوفها. كأنَّ بعض المؤمنين نظر في عاقبةٍ تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أن يموت أو يجوع أو نحو هذا، فحقَّرَ اللهُ شأن الدنيا. أي: أنتم لا مَحالةَ ميِّتون ومحشورون إلينا، فالبِدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل. ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى، وذكر الجزاء الذي ينالونه، ثم نعتهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٥]. وقرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدري وابن أبي إسحاق وابن مُحيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف: «يا عِبادِي» بإسكان الياء. وفتحها الباقون[٦]. «إنَّ أرْضِي» فتحَها ابن عامر، وسكَّنها الباقون[٧].

ورويَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ فَرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ ولو قيدَ شبرٍ استوجبَ الجنة، وكان رفيقَ محمد وإبراهيم» عليهما السلام[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٢-١٧٣ .

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) ٥/ ٤٤٧ فما بعده.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ .

(٦) قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي في السبعة ص٥٠١-٥٠٢ ، وقراءتهم وقراءة يعقوب وخلف وهما من العشرة في النشر ٢/ ١٧٠ .

(٧) السبعة ص٥٠٢ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٢ ، والكشاف ٣/ ٢١٠ ، وقد سلف ٧/ ٦٤ .

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وقرأ السُّلميُّ وأبو بكر عن عاصم: «يُرْجَعُونَ» بالياء؛ لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وقرأ الباقون بالتاء؛ لقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[1] وأنشد بعضهم:

الموتُ في كلِّ حينٍ يَنشدُ الكَفنَا ... ونحنُ في غفلةٍ عَمَّا يُرادُ بِنا
لا تَركنَنَّ إلى الدُّنيا وزَهرتِها ... وإنْ توشَّحْتَ من أثوابِها الحَسنا
أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فَعَلُوا ... أينَ الذين هُمُو كانوا لها سَكَنا
سقَاهُمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ ... صيَّرهم تحتَ أطباقِ الثَّرَى رُهُنا

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة والكسائي: ﴿لَنُثْوِينَّهم﴾ بالثاء مكان الباء من الثُّويِّ: وهو الإقامة[2]، أي: لَنُعطينَّهم غُرفاً يثوون فيها[3]. وقرأ رويس عن يعقوب والجحدري والسُّلمي: «لَيُبَوئَنَّهُمْ» بالياء مكان النون[4]. الباقون ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ أي: لَنُنزِلَنَّهم ﴿غُرَفًا﴾[5] جمع غرفة وهي العُلِّيَّة المُشرِفة[6]. وفي «صحيح مسلم»[7] عن سعيد الخدري[8] أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة لَيتراءَون أهلَ الغُرَفِ من فوقهم كما تتراءونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ من الأفق من المشرق أو المغرب لِتفاضُلِ ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازلُ الأنبياء لا يبلُغُها غيرُهم. قال: «بلى،

---

(١) قراءة أبي بكر عن عاصم في السبعة ص٥٠٢، والتيسير ص١٧٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ دون ذكر الأعمش. وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٥٠٢، والتيسير ص١٧٤.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤.

(٤) المشهور عن يعقوب: لنبوِّئنَّهم. النشر ٢/ ٣٤٤.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤.

(٦) الصحاح (غرف).

(٧) (٢٨٣١). وأخرجه البخاري (٣٢٥٦).

(٨) في النسخ: سهل بن سعد، والتصويب من الصحيحين.

والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين». وخرَّج التِّرمذي[١] عن عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنة لَغُرفاً يُرى ظهورُها من بطونِها وبطونُها من ظهورِها» فقام إليه أعرابيٌّ فقال: لِمن هي يا رسولَ الله؟ قال: «هي لمن أطابَ الكلام، وأطعمَ الطعام، وأدام الصيام، وصلَّى للهِ بالليلِ والناسُ نِيام» وقد زِدْنا هذا المعنى بياناً في كتاب «التذكرة»[٢] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ أسند الواحديُّ عن يزيد بن هارون قال: حدَّثنا الجرَّاح[٣] بن المِنهال، عن الزُّهري ـ وهو عبد الرحمن بن عطَّاف[٤] ـ عن عطاء، عن ابن عمر قال: خرَجْنا مع رسول الله ﷺ حتى دخلَ بعضَ حيطان الأنصار، فجعلَ يلتقط من الثمر [ويأكل] فقال: «يا ابن عمر، مالَكَ لا تأكل؟» فقلتُ: لا أشتهيه يا رسول الله. فقال: «لكنِّي أشتهيه، وهذه صبيحةُ رابعةٍ لم أذُقْ طعاماً، ولو شئتُ لَدَعوتُ ربي فأعطاني مثلَ ملك كسرى وقيصر، فكيف بِكَ يا ابن عمر إذا بقيتَ في قوم يُخبِئون رزقَ سَنَتهم ويَضْعُفُ اليقين» قال: واللهِ ما بَرِحْنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٥].

قلت: وهذا ضعيفٌ يُضعِفه أنه عليه الصلاة والسلام كان يدَّخِرُ لأهله قوتَ

---

(١) في سننه (١٩٨٤) و(٢٥٢٧)، وهو في مسند أحمد من زوائد ابنه عبد الله (١٣٣٨).

(٢) ص٤٦١-٤٦٤ .

(٣) في النسخ: حجاج، والتصويب من المصادر.

(٤) في النسخ: عبد الرحيم بن عطاء، وفي أسباب النزول: عبد الرحمن بن عطاء، وفي الوسيط: عبد الرحيم بن عطاف، والتصويب من تهذيب التهذيب ٢/ ٥٣٤ ، وثقات ابن حبان ٧/ ٧٠ .

(٥) أسباب النزول ص٣٥٨-٣٥٩ ، والوسيط ٣/ ٤٢٥ ، وما بين حاصرتين منهما. وأخرجه ـ أيضاً ـ عبد بن حميد (٨١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٧١٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ ١٢٧ من طريق يزيد بن هارون، به. إلا أنهم قالوا: عن رجل، بدل: عطاء. والجراح بن منهال متروك. ميزان الاعتدال ١/ ٣٩٠ . وعبد الرحمن بن عطاف مجهول الحال، تفرد بالرواية عنه اثنان، ولم يوثقه غير ابن حبان على عادته في توثيق المجاهيل.

سَنَتِهم. اتَّفق عليه البخاري ومسلم[١]. وكانت الصحابةُ يفعلون ذلك وهم القدوة، وأهلُ اليقين والأئمةُ لمن بعدهم من المتقين المتوكلين. وقد روى ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون: «اخرجوا إلى المدينة وهاجِروا ولا تجاوروا الظَّلَمة» قالوا: ليس لنا بها دارٌ ولا عقارٌ ولا مَنْ يُطعِمُنا ولا مَنْ يسقينا. فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[٢] أي: ليسَ معها رزقُها مُدَّخراً، وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجرة[٣]. وهذا أشبهُ من القول الأوَّل. وتقدَّم الكلامُ في «كَأَيِّنْ» وأنَّ هذه «أيّ» دخلت عليه كاف التشبيه وصارَ فيها معنى كم. والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد. أي: كشيءٍ كثيرٍ من العدد من دابة[٤]. قال مجاهد: يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئاً. الحسن: تأكل لوقتها ولا تدَّخِرُ لغد[٥]. وقيل: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تقدِرُ على رزقها[٦] ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أينما توجَّهت ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾[٧]. وقيل: الحملُ بمعنى الحَمالة[٨]. وحكى النقَّاش: أنَّ المُرادَ النبيُّ ﷺ يأكلُ ولا يدَّخر[٩].

قلت: وليس بشيء؛ لإطلاق لفظ الدابة، وليس مستعملاً في العُرفِ إطلاقُها على الآدميِّ فكيف على النبيِّ ﷺ. وقد مضى هذا في «النمل» عند قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [الآية: ٨٢]. قال ابن عباس: الدوابُّ: هو كلُّ

---

(١) صحيح البخاري (٥٣٥٧)، وصحيح مسلم (١٧٥٧) (٥٠) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٤ بنحوه.

(٤) سلف ٥/ ٣٤٩ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ .

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٣٧٧ .

(٧) زاد المسير ٦/ ٢٨٣ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٥ .

(٩) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ .

ما دبَّ من الحيوان، فكلُّه لا يَحمِلُ رِزقَه ولا يَدَّخِرُ إلاَّ ابنُ آدم والنملُ والفأر[١]. وعن بعضهم: رأيتُ البلبل يحتكر في مِحضَنِه. ويُقال: للْعَقْعَقِ مَخابئ إلاَّ أنه ينساها[٢]. ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ يسوِّي بين الحريص والمتوكل في رزقه، وبين الراغب والقانع، وبين الحَيُول والعاجز حتى لا يغتَّر الجَلِدُ أنه مرزوقٌ بجَلَده، ولا يتصوَّرَ العاجزُ أنه ممنوعٌ بَعجزِه[٣]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «لو أنَّكم تَوكَّلون على الله حقَّ تَوكُّلِه لَرزَقَكم كما يرزقُ الطيرَ تغدو خِماصاً وتروحُ بِطاناً»[٤]. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائِكم وقولِكم: لا نجِدُ ما نُنفِقُ بالمدينة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية. لما عيَّر المشركون المسلمين بالفقر وقالوا: لو كنتم على حقٍّ لم تكونوا فقراء. وكان هذا تمويهاً، وكان في الكفار فقراء أيضاً أزال الله هذه الشبهة. وكذا قول من قال: إنْ هاجرنا لم نجِدْ ما نُنفِقُ. أي: فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء، فكيفَ تشكُّون في الرزق، فمَنْ بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد؛ ولهذا وصلَه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي. ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لا يختلف أمرُ الرزق بالإيمان والكفر، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر، فكلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ .

(٤) سلف ٧/ ٢٩٧ و١٠/ ١٥٩ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٣ ، وزاد المسير ٦/ ٢٨٣ .

﴿شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أحوالكم وأموركم. وقيل: عليمٌ بما يُصلحكم من إقتارٍ أو توسيع.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: من السحاب مطراً. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أي: جَدْبِها وقَحْطِ أهلها. ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: فإذا أقررتُم بذلك فلِمَ تشركون به وتنكرون الإعادة. وإذا قَدَر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين، فكرَّرَ تأكيداً. ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما أوضح من الحُجج والبراهين على قدرته. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يتدبَّرون هذه الحجج. وقيل: «الحَمْدُ للهِ» على إقرارهم بذلك(١). وقيل: على إنزال الماء وإحياء الأرض.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: شيءٌ يلْهَى به ويُلعَب. أي: ليس ما أعطاه اللهُ الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحِلٌّ ويزول، كاللعب الذي لا حقيقةَ له ولا ثبات، قال بعضهم: الدنيا إن بقيت لكَ لم تبْقَ لها. وأنشد:

تروحُ لنا الدنيا بغيرِ الذي غَدَتْ ... وتَحدُثُ من بعدِ الأمورِ أمورُ
وتجري الليالي باجتماعٍ وفُرقَةٍ ... وتطلُعُ فيها أنجمٌ وتَغُورُ
فمن ظنَّ أنَّ الدهرَ باقٍ سرورُهُ ... فذاكَ مُحالٌ لا يَدُومُ سرورُ
عَفَا اللهُ عَمَّن صَيَّرَ الهمَّ واحداً ... وأيقنَ أنَّ الدائراتِ تَدُورُ

قلت: وهذا كلُّه في أمور الدنيا والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش، والقوَّةُ على الطاعات. وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذي يبقى كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] أي: ما ابتُغيَ به ثوابُه ورضاه. ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

موتَ فيها[١]. وزعم أبو عبيدة: أنَّ الحيوانَ والحياةَ والحيَّ ـ بكسر الحاءِ ـ واحدٌ، كما قال:

وقــد تــرى إذِ الـحــيــاةُ حِــيُّ

وغيره يقول: إنَّ الحِيَّ جمعٌ على فِعول مثل عِصي[٢]. والحيوان يقع على كلِّ شيءٍ حيٍّ. وحيوان عينٌ في الجنة. وقيل: أصلُ حَيَوان حَيَيان، فأُبدِلَتْ إحداهُما واواً؛ لاجتماع المثلين[٣]. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنها كذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: صادقين في نيَّاتهم، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها[٤]. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يدعون معه غيره، وما لم يُنزِّل به سلطاناً. وقيل: إشراكهم أن يقولَ قائلُهم: لولا اللهُ والرئيسُ أو الملاَّحُ لَغرقنا، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمةً بين الله وبين خلقه.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ۖ﴾ قيل: هما لام كي، أي: لكي يكفروا ولكي يتمتعوا. وقيل: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ليكون ثمرة شِركهم أن يجحدوا نِعَمَ الله ويتمتعوا بالدنيا. وقيل: هما لام أمرٍ معناه التهديد والوعيد[٥]. أي اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتَّعوا. ودليل هذا قراءة أُبيٍّ: «وتَمَتَّعُوا»[٦].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٩-٢٦٠، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١١٧، والرجز للعجاج كما في اللسان (حيا) وتتمته: وإذ زمان الناس دغفليُّ.

(٣) المحكم لابن سيده (حي).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٢٦، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤، وزاد المسير ٦/ ٢٨٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٤، وهي قراءة شاذة.

ابن الأنباري: ويقوّي هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة: ﴿ولْيَتمتَّعوا﴾ بجزم اللام. النحاس: «وَلِيَتَمَتَّعُوا» لام كي، ويجوز أن تكون لام أمر؛ لأنَّ أصل لام الأمر الكسر، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد. ومن قرأ: ﴿ولْيَتمتَّعوا﴾ بإسكان اللام لم يجعلها لام كي؛ لأن لام كي لا يجوز إسكانها[١]. وهي قراءة ابن كثير والمسيّبي وقالون عن نافع، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم. الباقون بكسر اللام[٢]. وقرأ أبو العالية: «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»[٣] تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هي مكة وهم قريش أمَّنهم الله تعالى فيها. ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قال الضحاك: يقتل بعضهم بعضاً ويَسبي بعضهم بعضاً[٤]. والخطف: الأخذ بسرعة. وقد مضى في «القصص»[٥] وغيرها. فأذكرهم الله عزَّ وجلَّ هذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة. أي: جعلتُ لهم حرماً آمناً أمِنوا فيه من السَّبي والغارة والقتل، وخلَّصتُهم في البر كما خلصتُهم في البحر، فصاروا يُشركون في البرِّ ولا يُشركون في البحر. فهذا تعجُّبٌ من تناقض أحوالهم.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال قتادة: أفبالشرك. وقال يحيى بن سلاَّم: أفبإبليس. ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ قال ابن عباس: أفبعافية الله. وقال ابن شجرة: أفبعطاءِ الله وإحسانه.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٠.

(٢) السبعة ص٥٠٢، والتيسير ص١٧٤.

(٣) الشاذة ص١١٥.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٩٤.

(٥) ١٦/ ٢٩٩.

وقال ابن سلاّم: أفبما جاء به النبيُّ ﷺ من الهدى. وحكى النقَّاش: أفبإطعامهم من جوعٍ، وأمنهم من خوفٍ يكفرون. وهذا تعجُّبٌ وإنكارٌ خرج مخرج الاستفهام(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ ممَّنْ جعلَ مع الله شريكاً وولداً، وإذا فعل فاحشة قال: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨]. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ قال يحيى بن سلاّم: بالقرآن. وقال السُّدِّي: بالتوحيد. وقال ابن شجرة: بمحمدٍ ﷺ(٢). وكلُّ قول يتناول القولين. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: مستقر. وهو استفهام تقرير(٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي: جاهدوا الكفار فينا. أي: في طلب مرضاتنا. وقال السُّدِّيُّ وغيره: إنَّ هذه الآية نزلت قبل فرض القتال. قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العُرفي، وإنما هو جهادٌ عامٌّ في دين الله وطلب مرضاته. قال الحسن ابن أبي الحسن: الآية في العُبَّاد. وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون. وقد قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ علَّمه اللهُ ما لم يعلم»(٤) ونزع بعضُ العلماء إلى قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]. وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصَّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرُنا في العلم بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا؛ قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. وقال أبو سليمان الدارانيُّ: ليس الجهادُ في الآية قتالَ الكفار فقط، بل هو نصرُ الدين، والردُّ على المبطلين، وقمعُ الظالمين، وعُظْمُه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر. وقال

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٩٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٤، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٨٢.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٥ من حديث أنس بن مالك ﷺ.

سفيان بن عُيَينة لابن المبارك: إذ رأيتَ الناسَ قدِ اختلفوا فعليكَ بالمجاهدين وأهل الثغور، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾. وقال الضحَّاك: معنى الآية: والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينَّهم سُبُلَ الثبات على الإيمان[١]. ثم قال: مثَلُ السُّنَّة في الدنيا كمثل الجنة في العُقبى، مَنْ دخل الجنة في العُقبى سَلِمَ، كذلك مَنْ لَزِمَ السُّنة في الدنيا سَلِمَ. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينَّهم سُبُلَ ثوابنا[٢]. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميعَ الأقوال، ونحوُه قولُ عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة: مَنْ طلبني فلم يجدْني فليطلُبْني في موضعين: أن يعمل بأحسنَ ما يعلَمُه، ويجتنبَ أسوأ ما يعلَمُه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: طريق الجنة. قاله السُّدِّيُّ. النقَّاش: يوفِّقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى: لنُخْلِصنَّ نيَّاتِهم وصدقاتِهم وصلَواتِهم وصيامَهم[٣]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لامُ تأكيدٍ، ودخلت في «مَعَ» على أحد وجهين: أن يكون اسماً، ولامُ التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفاً فتدخل عليها؛ لأنَّ فيها معنى الاستقرار، كما تقول: إنَّ زيداً لفي الدار. و«مَعَ» إذا سُكِّنتْ فهي حرفٌ لا غير. وإذا فُتِحتْ جاز أن تكون اسماً، وأن تكون حرفاً، والأكثرُ أن تكون حرفاً جاء لمعنى[٤]. وتقدَّم معنى الإحسان والمحسنين في «البقرة»[٥] وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنُّصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيَّتين بَونٌ.

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده

---

(١) من بداية الآية إلى هنا من المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٦ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٥ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٥ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٠ .

(٥) ٣/ ٢٦٣ .

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

مكية، وهي تِسْعٌ[1] وسِتُّونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الٓمٓ﴾ سبقَ القولُ فيهِ، ووقـوعُ الاستفهامِ بعدَهُ دليلُ استقلالِه بنَفسِهِ أو بما يُضمَرُ[2] معَه.

(٢) ـ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحُسْبانُ ممَّـا يتعلَّـقُ بمَضاميـنِ الجُمَـلِ للدَّلالـةِ على جِهَـةِ ثُبوتِهـا، ولذلـك اقتضَـى مَفْعولَيْـنِ مُتلازِمَيْنِ أو ما يَسـدُّ مَسـدَّهُما كقولِه: ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ فـإنَّ مَعناه: أَحَسِـبُوا تَركَهُم غيـرَ مَفتونينَ لقَوْلِهم: آمَنَّـا، فالتَّـركُ أوَّلُ مَفعولَيْـهِ و(غيـرَ مَفتونيـنَ) مِـن تَمامِـه، و(لقَوْلِهـم) هـو الثَّانِـي، كقولِـك: حَسِـبتُ ضربَـهُ للتَّأديبِ.

أو: أنفسَهُم مَتروكينَ غيرَ مَفتونينَ لقولِهِم: آمَنَّا[3]، بل يَمتَحِنُهُم اللهُ بمشاقِّ

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «وهي سبع»، والمثبت من بقية النسخ وهو الصواب. انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٠٣)، و«تفسير الثعلبي» (٢١/ ٧)، و«حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «يضم».

(٣) قوله: «أو أنفسَهم... » عطف على «تَرْكَهم». وشرح هذا الوجه: أن المفعول الأول لـ(حسب) محذوف؛ وهو (أنفسَهم)، و﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ في موضع المفعول الثاني على أنه في تأويل مصدر، والمصدر في تأويل اسم المفعول؛ أي: (متروكين)، و﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ في موضع الحال، وأن يؤمنوا بتقديرِ: لأن يؤمنوا، متعلق بـ﴿يُتۡرَكُوٓاْ﴾. انظر: «روح المعاني» (٢٠/ ٣٠٠ ـ ٣٠٣).

التَّكاليفِ كالمهاجَرَةِ والمُجاهدَةِ، ورفضِ الشَّهواتِ، ووَظائفِ الطَّاعاتِ، وأنواعِ المصائبِ في الأنفُسِ والأَموالِ ليَتميَّزَ المُخلِصُ مِن المُنافِقِ والثَّابتُ في الدِّينِ مِن المُضطَرِبِ فيه، ولينالوا بالصَّبرِ عليها عواليَ الدَّرجاتِ، فإنَّ مُجرَّدَ الإيمانِ ـ وإن كانَ عن خلوصٍ ـ لا يَقتَضي غيرَ الخَلاصِ مِن الخُلودِ في العَذابِ.

رُوِيَ أنَّها نزلَت في ناسٍ مِن الصَّحابَةِ جَزِعُوا مِن أَذى المُشركينَ(١).

وقيل: في عمَّارٍ قَدْ عُذِّبَ في الله(٢).

وقيل: في مِهْجَعٍ مَولى عُمرَ بنِ الخطَّابِ، رمَاهُ عامِرُ(٣) بن الحَضْرميِّ بسَهمٍ يومَ بدرٍ فقتَلَهُ، فجَزِعَ عليه أبوَاهُ وامرأَتُه(٤).

(٣) ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مُتَّصِلٌ بـ﴿أَحَسِبَ﴾(٥)، أو بـ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾، والمعنى: أنَّ ذلك سُنَّةٌ قديمةٌ جاريَةٌ في الأُمَمِ كلِّها فلا يَنبَغِي أن يُتوقَّعَ خلافُه.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: فلَيَتعلَّقَنَّ علمُه بالامتحانِ تعلُّقًا

---

(١) ذكره الواحدي في «الوجيز» (ص: ٨٢٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣٢)، عن عبد الله بن عبيد بن عمير.

(٣) في جميع النسخ: «عمار»، وهو تحريفٌ، والصوابُ: «عامر بن الحضرمي»، كما في «الكشاف» (٦/ ٤٨٤)، وبقية المصادر، ونبه الخفاجي في «حاشيته» إلى ذلك.

(٤) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١١) عن مقاتل، قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٧): (وسنده إلى مقاتل في أول كتابه). وهو بنحوه في «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٧٢).
وروى ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٣٩١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٧٧١)، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال: (أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر). ورواه ابن سعد أيضا عن الزهري.

(٥) في نسخة التفتازاني: «بحسب».

حاليًّا يتميَّزُ به الذين صدَقوا في الإيمانِ والذين كذَبُوا فيه، وينوطُ به ثوابَهُم وعِقابَهُم، ولذلك قيل: المَعنى: وليُميِّزنَّ، أو: ليُجازِيَنَّ.

وقُرِئَ: (وليُعْلِمَنَّ)(١) من الإعلامِ؛ أي: وليُعرِّفنَّهُم النَّاسَ، أو: ليَسِمَنَّهم بسِمَةٍ يُعرفونَ بها يومَ القيامَةِ كبَياضِ الوجوهِ وسَوادِها.

(٤) ـ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: الكفرَ والمعاصيَ، فإنَّ العملَ يعُمُّ أفعالَ القُلوبِ والجوارِحِ ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾: أن يَفُوتونَا فلا نقدِرُ أَنْ نُجازِيَهُم على مَساويهِم، وهو سادٌّ مسدَّ مَفْعولَيْ (حَسِبَ)، و﴿أَمْ﴾ مُنقَطِعَةٌ، والإضرابُ فيها لأنَّ هذا الحِسْبانَ أَبْطَلُ مِن الأوَّلِ ولهذا عقَّبَهُ بقَوْلِه:

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: بئسَ الذي يَحكمونَهُ، أو: حُكْمًا يَحْكُمُونَهُ حكمُهُم هذا، فحُذِفَ المَخصوصُ بالذَّمِّ.

(٥) ـ ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ في الجنَّةِ.

وقيل: المرادُ بلقاءِ اللهِ: الوُصولُ إلى ثوابِه، أو إلى العاقبَةِ مِن الموتِ والبَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ، على تمثيلِ حالهِ بحالِ عبدٍ قَدِمَ على سَيِّدِه بعدَ زمانٍ مَديدٍ وقَد اطَّلَع السَّيِّدُ على أحوالِه، فإمَّا أن يلـقاهُ بِبِشْرٍ لِمَا رَضِيَ مِن أَفعالِه، أو بِسُخْطٍ لِمَا سَخِطَه(٢) منها.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾: فإنَّ الوقتَ المضروبَ للقائِه ﴿لَأٓتٍ﴾ لجاءٍ، وإذا كانَ وقتُ اللقاءِ آتيًا كانَ اللقاءُ كائنًا لا محالَةَ، فليُبادِرْ ما يحقِّقُ أملَهُ ويصدِّقُ رجاءَهُ، أو ما يستوجِبُ القُربةَ والرِّضَا.

---

(١) قراءة علي بن أبي طالب والزهري، انظر: «المحتسب» (٢/ ١٥٩).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «سخط».

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالِ العبادِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعَقائدِهِم وأفعالِهِم.

(٦) ـ ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسَهُ بالصَّبرِ على مَضَضِ الطَّاعةِ والكفِّ عن الشَّهواتِ ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأنَّ مَنفعتَه لها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا حاجةَ بهِ إلى طاعَتِهم، وإنَّما كلَّفَ عبادَهُ رحمةً عليهم ومُراعاةً لصَلاحِهِم.

(٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: الكُفرَ بالإيمانِ والمعاصيَ، بما يَتْبعُها مِن الطَّاعاتِ.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: أحسنَ جزاءِ أعمالِهم.

(٨) ـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ بإيتائه فعلًا ذا حُسْنٍ، أو كأنَّه في ذاتِه حُسْنٌ لفَرْطِ حُسْنِه، و(وَصَّى) يجرِي مَجْرى (أَمَرَ) معنًى وتَصرُّفًا.

وقيل: هو بمعنى (قَالَ)؛ أي: وقُلْنا له أَحسِنْ بوالديكَ حُسْنًا.

وقيل: ﴿حُسْنًا﴾ مُنتَصِبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ على تَقديرِ قولٍ مُفسِّرٍ للتَّوصِيَةِ؛ أي: قُلنا: أوْلِهِما ـ أو: افعَلْ بهمَا ـ حُسْنًا، وهو أوفَقُ لِمَا بعدَه، وعليه يحسُنُ الوَقفُ على ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾.

وَقرِئ: (حَسَناً)[1] و: (إِحْسَاناً)[2].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بإلهيَّتِه، عَبَّرَ عن نَفيِهَا بنَفْيِ العِلْمِ بها؛ إشعارًا بأنَّ ما لا يُعلَمُ صِحَّتُه لا يجوزُ اتِّباعُه وإن لم يُعلَمْ بُطلانُه فضلًا عمَّا عُلِمَ بُطلانُه.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٥) عن عيسى والجحدري.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٦١) دون نسبة. وذكرها الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٦) عن مصحف أُبَي رضي الله عنه.

﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك، فإنَّه لا طاعةَ لِمَخلوقٍ في مَعصِيَةِ الخالقِ، ولا بُدَّ مِن إضمارِ القَوْلِ[1] إنْ لَمْ يُضمَرْ قَبْلُ.

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: مرجعُ مَن آمـنَ مِنكُم ومَـن أشركَ، ومَن برَّ بوالديهِ ومَـن عَقَّ ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: بالجزاءِ عليه.

والآيةُ نزَلَتْ في سَعدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ وأمِّه حَمْنَةَ، فإنَّها لَمَّا سَمِعَت بإسلامِه حلفَتْ أن لا تنتقلَ مِن الضِّحِّ[2] ولا تَطْعَمَ ولا تَشْرَبَ حتَّى يَرتَدَّ، ولَبِثَتْ ثلاثةَ أيَّامٍ كذلك، وكذا التي في لُقمانَ والأحقافِ[3].

(٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾: فـي جُمْـلَتِهم، والكمالُ في الصَّلاحِ مُنتهَى دَرجاتِ المُؤمنينَ، ومُتمنَّى أَنبياءِ اللهِ المُرسَلِينَ، أو: في مُدخَلِهم وهي الجنَّةُ.

(١٠) ـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى اللَّهِ﴾ بأَنْ عَذَّبَهم الكفرَةُ على الإيمانِ ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾: ما يُصيبُهُ مِن أَذِيَّتِهِم في الصَّرفِ عن الإيمانِ ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الصَّرفِ عن الكُفْرِ.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾: فتحٌ وغَنـيمَـةٌ ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ فـي الدِّينِ فأَشرِكُونا فيه.

---

(١) أي: وقلنا إن جاهداك؛ لئلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر. انظر: «حاشية القونوي» (١٥/ ١٨).

(٢) الضِّحُّ: ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض. انظر: «النهاية» (مادة: ضحح).

(٣) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي فـي «تفسيره» (٢١/ ١٦) دون عـزو، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٠) وعزاه للمفسرين. ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٦٣) عن قتادة، وأصله عند مسلم (١٧٤٨) كتاب فضائل الصحابة، عقب الحديث (٢٤١٢)، والترمذي (٣١٨٩)، من حديث سعد رضي الله عنه. والتي في لقمان الآيتان (١٤ ـ ١٥)، والتي في الأحقاف الآية (١٥).

والمرادُ: المنافقونَ، أو قومٌ ضَعُفَ[١] إيمانُهُم فارتَدُّوا مِن أَذى المُشركينَ، ويُؤيِّدُ الأوَّلَ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مِن الإخلاصِ والنِّفاقِ.

(١١) ـ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقُلوبِهِم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيُجازِي الفَريقَيْنِ.

(١٢) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ الذي نَسْلُكه في دينِنا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ إن كانَ ذاك خَطيئَةً أو إنْ كانَ بعثٌ ومؤاخذةٌ، وإنَّما أَمَروا أنفُسَهُم بالحملِ عاطفينَ على أمرِهِم بالاتِّباعِ مُبالغَةً في تَعليقِ الحملِ بالاتِّباعِ والوَعدِ[٢] بتَخفيفِ الأَوْزارِ عَنْهُم إن كانَت؛ تَشجيعًا[٣] لهم عليه، وبهذا الاعتبارِ ردَّ عليهم وكذَّبَهُم بقولِه:

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى للتَّبيينِ والثَّانيةُ مَزيدَةٌ، والتَّقديرُ: وما هُمْ بحاملينَ شيئًا مِن خَطاياهُم.

(١٣) ـ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾: أثقالَ ما اقترفَتْهُ أنفُسُهم ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾: وأثقالًا أُخَرَ مَعها؛ لِمَا تَسبَّبُوا له بالإضلالِ والحَمْلِ على المعاصي مِن غيرِ أن ينقصَ مِن أَثقالِ مَن تَبِعَهُم شَيءٌ ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سؤالَ تَقريعٍ وتَبكيتٍ ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ مِن الأَباطيلِ التي أضلُّوا بها.

(١٤) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ بعدَ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «ضعيف».

(٢) قوله: «والوعدِ» بالجر عطفاً على «تعليق».

(٣) قوله: «تشجيعاً» مفعول له تعليل لقوله: «مبالغة...»، لا لقوله: «أمروا أنفسهم» أو للوعد. انظر: «حاشية الخفاجي».

المبعَثِ، إذ رُوِيَ أنَّه بُعِثَ على رأسِ أربعينَ، ودَعَا قومَهُ تِسعَ مئةٍ وخمسينَ عامًا[١]، وعـاشَ بعدَ الطُّوفانِ ستِّينَ[٢].

ولعلَّ اختيارَ هذه العبارةِ للدَّلالةِ على كمالِ العَددِ، فإنَّ (تِسعَ مئةٍ وخمسينَ) قد يُطلَقُ على ما يَقْرُبُ منه، ولِمَا في ذكرِ الأَلْفِ مِن تَخييلِ طولِ المدَّةِ إلى السَّامعِ، فإنَّ المَقصودَ مِن القصَّةِ تَسليَةُ رَسولِ اللهِ ﷺ وتثبيتُه على ما يُكابِدُ من الكَفَرةِ، واختلافُ المُميِّزَينِ لِمَا في التَّكريرِ مِن البَشاعةِ.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾: طوفانُ الماءِ، وهو لِمَا طافَ[٣] بكثرةٍ مِن سيلٍ أو ظلامٍ أو نحوِهما ﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ بالكفرِ.

(١٥) ـ ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ﴾؛ أي: نُوحًـا ﴿وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾: ومَـن رَكِـبَ معَـهُ مِـن أَولادِهِ وأَتباعِـهِ وكانـوا ثمانيـنَ، وقيـل: ثمانيـةً وسـبعينَ، وقيـل: عشـرةً نصفُهُـم ذكـورٌ ونِصفُهُـم إناثٌ.

﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ﴾؛ أي: السَّفينةَ، أو الحادثةَ ﴿ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ يتَّعِظونَ ويَستَدِلُّونَ بها.

(١٦) ـ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ عطفٌ على ﴿نُوحًا﴾ أو نصبٌ بإضـمارِ (اذكر)، وقُرِئَ بالرَّفعِ على تقديرِ: ومِن المرسلينَ إبراهيمُ[٤].

---

(١) «عاماً» من نسخة الفاروقي والطبلاوي.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٩١٨)، والدينوري في «المجالسة» (٣٣٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٤١)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٠٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.

(٣) في نسخة الخيالي: «وهو ما طاف وأحاط».

(٤) نسبت لأبي جعفر في غير المشهور عنه وإبراهيم النخعي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦)، و«البحر» (١٧/ ١١٣).

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ظرفٌ لـ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: أرسَلْنَاه حينَ كملَ عَقلُه وتَمَّ نَظرُه بحيثُ عرفَ الحقَّ وأَمَرَ النَّاسَ بِهِ، أو بدلٌ منهُ بدلَ الاشتمالِ إن قُدِّرَ بـ(اذكر).

﴿وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ممَّا أنتُم عليه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخيرَ والشَّرَّ، وتُميِّزونَ ما هوَ خيرٌ ممَّا هوَ شَرٌّ، أو: كُنتُم تَنظرونَ في الأُمورِ بنظرِ العلمِ دونَ نظرِ الجَهلِ.

(١٧) - ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وتَكذِبونَ كذبًا في تَسمِيَتِها آلهةً وادعاءِ شَفاعَتِها عندَ اللهِ، أو: تعملُونَها وتَنحِتُونَها للإفكِ، وهو استدلالٌ على شرارةِ ما هُمْ عليهِ مِن حيثُ إنَّه زورٌ وباطِلٌ.

وقُرِئَ: (وتُخَلِّقُونَ)(١) مِن خلَّقَ للتَّكثيرِ، و: (تَخَلَّقُونَ) مِن تخلَّقَ للتَّكلُّفِ(٢)، و: (أَفِكًا)(٣) على أنَّه مَصدرٌ كالكَذِبِ، أو نعتٌ بمعنى: خَلْقًا ذا إفكٍ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ دليلٌ ثانٍ على شرارةِ ذلك مِن حَيثُ إنَّه لا يُجدِي بطَائلٍ، و﴿رِزْقًا﴾ يَحتَمِلُ المصدرَ بمعنى: لا يستطيعونَ أَنْ يَرزُقُوكُم، وأن يرادَ المرزوقُ وتَنكيرُه للتَّعميمِ ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ كلَّه فإنَّه المالكُ له ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ مُتوسِّلينَ إلى مَطالِبِكُم بعِبادَتِه، مقيِّدينَ لِمَا حَفَّكُم

---

(١) نسبها أبو حيان في «البحر» (١٧/ ١١٣) لزيد بن علي نقلًا عن أبي علي الأهوازي.

(٢) نسبت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه والسلمي وعون العقيلي وزيد بن علي. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٢١٢)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣١١)، و«البحر» (١٧/ ١١٣).
وقوله: «للتكلف» المراد به لازمه وهو المبالغة. انظر: «حاشية القونوي» (١٥/ ٢٩).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٠)، عن ابن الزبير وفضيل بن مرزوق.

من النِّعَم بشُكْرِه، أو مُستَعِدِّينَ لِلقائِه بهما فإنَّه ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾. وقُرِئَ بفَتْحِ التَّاءِ(١).

(١٨) ـ ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾: وإن تكذِّبُوني ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ مَن قَبلي مِن الرُّسلِ فلَمْ يَضرَّهم تَكذيبُهُم، وإنَّما ضَرَّ أَنفُسَهُم حيثُ تسبَّبَ لِمَا حلَّ بهم من العَذابِ، فكذا(٢) تكذيبُكُم.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الذي زالَ معَهُ الشَّكُّ، وما عليهِ أن يُصَدِّقَ ولا يُكَذِّبَ(٣)، فالآيةُ وما بعدَها مِن جُملَةِ قِصَّةِ إبراهيمَ إلى قولِه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾.

ويحتمِلُ أَنْ تكونَ اعتراضًا بذكرِ شأنِ النَّبيِّ ﷺ وقريشٍ، وهَدْمِ مَذهَبِهِم، والوعيدِ على سوءِ صَنيعِهِم، توسَّطَ بينَ طرفَيْ قِصَّتِه من حيثُ إنَّ مَساقَها لتسليَةِ رسولِ اللهِ ﷺ والتَّنفيسِ عنه بأنَّ أباهُ خليلَ اللهِ كانَ مَمْنُوًّا بنحوِ ما مُنِيَ به من شِرْكِ القَوْمِ وتَكذيبِهِم، وتَشبيهِ حالِه فيهِمْ بحالِ إبراهيمَ في قَوْمِه.

(١٩) ـ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ مِن مادَّةٍ ومِن غَيرِها.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيّ وأبو بكرٍ بالتَّاءِ على تقديرِ القولِ(٤)، وقُرِئَ (يَبْدَأُ)(٥).

---

(١) هي قراءة يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٢٠٨).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «وكذا». وقولُه: (فكذا تكذيبكم) إشارةٌ إلى أنَّ ما ذكرَ دليل الجزاء أُقيمَ مقامه، والجزاء في الحقيقَةِ لا يضرّني تكذيبكم. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة الخيالي: «أو يكذّب» وفي هامشها كالمثبت نسخة.

(٤) انظر: «التيسير» (ص: ١٧٣). وذكر في «السبعة» (ص: ٤٩٨) خلافاً عن أبي بكر فيها.

وقوله: «على تقدير القول»؛ أي: قال لهم رسلهم: ﴿أولم تروا﴾؛ لأن الضمير في ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ على قراءة الغيبة هو لـ﴿أُمَمٞ﴾ في قوله: ﴿أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ فكذا هو في الخطاب ليتحد معنى القراءتين. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٥) قرأ بها الزهري كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٦١).

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ إخبارٌ بالإعادةِ بعدَ المَوْتِ، معطوفٌ على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لا على (يُبْدِئ)؛ فإنَّ الرُّؤيَةَ غيرُ واقِعَةٍ عليه، ويجوزُ أن تُؤوَّلَ الإعادةُ بأن يُنْشِئَ في كُلِّ سنَةٍ مثلَ ما كان في السنَةِ السَّابقَةِ مِن النَّباتِ والثِّمارِ ونحوِهِما وتُعطفَ على ﴿يُبْدِئُ﴾.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإشارةُ إلى الإعادةِ، أو إلى ما ذُكِرَ من الأمرينِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يَفتَقِرُ في فعلِه إلى شَيءٍ[1].

(٢٠) ـ ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حكايةُ كلامِ اللهِ لإبراهيمَ أو مُحمَّدٍ عليهِمَا السَّلامُ.

﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ على اختلافِ الأجناسِ والأَحْوَالِ ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ بعدَ النَّشأَةِ الأولى التي هي الإبداءُ، فإنَّه والإعادةَ نَشْأتانِ مِن حيثُ إنَّ كُلًّا اختراعٌ وإخراجٌ مِن العدمِ.

والإفصاحُ باسمِ اللهِ مع إيقاعِهِ مُبتدأً بعدَ إضمارِهِ في ﴿بَدَأَ﴾ ـ والقياسُ الاقتِصارُ عليه[2] ـ للدَّلالةِ على أنَّ المقصودَ بيانُ الإعادةِ، وأنَّ مَن عُرِفَ بالقُدرَةِ على الإبداءِ ينبغي أن يُحكمَ له بالقُدرَةِ على الإعادةِ لأنَّها أهوَنُ، والكلامُ في العطفِ ما مرَّ.

---

(١) موقعُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في هذه الآية لفظًا وحُكمًا موقعُ ﴿هو﴾ الثانية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ في أنَّ معناه: أنَّ الإعادةَ على الله أَيْسَرُ من الإبداء فيما يجب عندكم ويَنقاسُ على أصولكم وتَقْتَضيه عقولُكم. انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ١٥٦).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «والقياس عليه»، والمثبت ما في نسخة الخيالي والطبلاوي، وفي هامش نسخة الفاروقي والخيالي: «والقياس عكسه».

قال الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٣٨٤): «والقياس الاقتصار عليه»؛ أي: على اسم الله في ﴿بَدَأَ﴾؛ بأن يقال: بدأ الله.

وقال الخفاجي في «الحاشية»: أي: والقياس أن يظهر ثم يضمر كما في الجملة الأولى، وهو معنى قوله: «الاقتصار عليه» وفي نسخة: «عكسه».

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿النَّشَاءَةَ﴾[1] كالرآفَةِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنَّ قُدرتَهُ لذاتِه، ونسبةُ ذاتِه إلى كلِّ المُمكِناتِ على سواءٍ، فيَقْدِرُ على النَّشأةِ الأخرى كما قَدَرَ على النَّشأةِ الأولى.

(٢١) ـ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تعذيبَه ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ رحمتَه ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾: تُرَدُّونَ.

(٢٢) ـ ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ رَبَّكُم عن إدراكِكُم ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إنْ فَرَرْتُم مِن قَضائِه بالتَّوارِي في الأرضِ أو الهُبوطِ[2] في مَهاوِيها، والتَّحصُّنِ في السَّماءِ أو القلاعِ الذَّاهبَةِ فيها.

وقيل: ولا مَن في السَّماءِ[3] كقولِ حسَّان:

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُم ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ[4]

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسُكُم عن بلاءٍ يَظهَرُ مِن الأرضِ أو ينزلُ مِن السَّماءِ ويدفعُه عَنْكُم.

(٢٣) ـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: بدَلائلِ وحدَانيَّته أو بكتبه ﴿وَلِقَائِهِ﴾

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

(٢) في نسخة الخيالي زيادة: «بالتهاوي».

(٣) قوله: (وقيل: ولا من في السماء)؛ أي: بجعل ﴿مَن﴾ معطوفةً على ﴿أَنتُم﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٨٥).

(٤) انظر: «ديوان حسان» (ص: ٦٤)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٥). قال الخفاجي في «الحاشية»: والتَّقدير (ومن يمدحه) والحذف فيه ظاهر؛ لأنَّهُ لو عطف على صلَةِ (من) الأولى كانَ الهاجي والمادح شخصًا واحدًا، ولا يصحُّ الإخبار عنهُ بـ(سواء) لِما فيهِ من مساواة الشَّيء لنفسِه، إلَّا أنْ يجعلَ الموصول عبارَة عن اثنينِ أو فريقَينِ، وهوَ خلافُ الظَّاهرِ أيضًا.

بالبَعثِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾؛ أي: ييأسونَ مِنْها يومَ القيامَةِ، فعبَّرَ عنه بالماضي للتَّحقيقِ والمبالغَةِ، أو: أَيِسُوا في الدُّنيا لإنكارِ البعثِ والجزاءِ.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكُفرِهِم.

(٢٤) ـ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ قومِ إبراهيمَ له، وقُرِئَ بالرَّفعِ[1] على أنَّه الاسمُ، والخبرُ: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وكانَ ذلك قولَ بَعضِهِم، لكنْ لمَّا قيل فيهم ورَضِيَ به الباقونَ أُسندَ إلى كُلِّهِم.

﴿فَأَنجَىٰهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾؛ أي: فقذفوهُ في النار فأنجاهُ الله منها بأَنْ جعلَها عليه بَردًا وسلامًا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: في إنجائِه مِنْها ﴿لَأيَـٰتٍ﴾ هي حِفظُه مِن أَذَى النَّارِ وإخمادُهَا مع عِظَمِهَا في زمانٍ يَسيرٍ، وإنشاءُ رَوْضٍ مَكانَها.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّهُم المنتفِعونَ بالفَحصِ عَنْهَا والتأمُّلِ فيها.

(٢٥) ـ ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: لتَتوادُّوا بينكُم وتَتواصَلُوا لاجتِماعِكُم على عبادَتِها، وثاني مَفعولَيْ ﴿اتَّخَذْتُم﴾ محذوفٌ، ويجوزُ أن تكونَ ﴿مَّوَدَّةَ﴾ المفعولَ الثَّانيَ بتَقديرِ مُضافٍ، أو بتَأويلِهَا بالمَوْدودَةِ؛ أي: اتَّخَذْتُم أوثانًا سببَ المودَّةِ بينكُم.

وقرأَها نافِعٌ وابنُ عامرٍ وأبو بَكرٍ مُنوَّنَةً ناصبةً ﴿بَيْنَكُم﴾ والوجهُ ما سبَقَ، وابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو والكِسائيُّ ورُوَيسٌ مرفوعةً مضافَةً[2] على أنَّها خبرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ؛

---

(١) نسبت لسالم الأفطس والحسن. انظر: «تفسير الثعلبي» (٢١/ ٣١)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣١٢)، و«البحر» (١٧/ ١٢٠).

(٢) أي: ﴿مودَّةُ﴾ بالرَّفع من غير تنوين ﴿بينِكم﴾ بالخفض، وقرأ حفص وحمزة: ﴿مودةَ﴾ بالنَّصب من غير تنوين ﴿بينِكم﴾ بالخفض. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٨ ـ ٤٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

أي: هي مَودودَةٌ، أو سببُ مودَّةِ بينِكُم، والجملَةُ صِفَةُ ﴿أَوْثَٰنًا﴾، أو خبر (إن) على أنَّ (ما) مَصدريَّةٌ أو موصولةٌ والعائدُ مَحذوفٌ وهو المفعولُ الأوَّلُ.

وقُرِئَت مرفوعَةً مُنوَّنَةً ومُضافَةً بفَتحِ (بينكم)[1]، كمَا قُرِئَ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤][2].

وقُرِئَ: (إنَّما مَودَّةُ بينِكُم)[3].

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ أي: يقومُ التَّناكُرُ والتَّلاعنُ بينكُم، أو بينكُم وبين الأوثانِ على تغليبِ المخاطَبينَ كقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يُخلِّصونكُم منها.

(٢٦) ـ ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ هو ابنُ أختِه، وأوَّلُ مَن آمنَ به، وقيل: إنه آمنَ به حينَ رأى النَّارَ لم تحرِقْهُ[4].

﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ﴾ مِن قَوْمِي ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾: إلى حيثُ أمرَني رَبِّي.

---

(١) بالرفع والتنوين ذكرها ابن مجاهد من رواية الأعشى عن أبي بكر عن عاصم أنه قرأ: (مَوَدَّةٌ) رفعاً منوناً (بَيْنَكُم) نصباً. وانظر: «تفسير الثعلبي» (٢١/ ٣١)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣١٢)، و«البحر» (١٧/ ١٢٠). وزاد ابن عطية وأبو حيان نسبتها للحسن وأبي حيوة وابن أبي عبلة وأبي عمرو في رواية الأصمعي.

والرفع مع الإضافة رويت عن عاصم أيضاً كما في «الكشاف» (٦/ ٥٠٦)، و«البحر» (١٧/ ١٢٠).

(٢) بنصب النون قراءة نافع وحفص والكسائي والباقون برفعها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٥).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦)، و«الكشاف» (٦/ ٥٠٦)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٧٩).

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي يَمنَعُني مِن أعدائِي ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمُرُني إلا بما فيه صَلاحي.

رُوِيَ أنَّه هاجرَ مِن كُوثَى سوادِ الكُوفَةِ مع لوطٍ وامرأتِه سارةَ ابنةِ عمِّهِ إلى حَرَّانَ، ثمَّ منها إلى الشَّامِ، فنزلَ فِلَسْطينَ ونزلَ لوطٌ سَدُومَ(١).

(٢٧) ـ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾: ولدًا ونافلَةً حين أَيِسَ مِن الولادةِ مِن عَجوزٍ عاقِرٍ، ولذلكَ لم يَذْكُر إسماعيلَ ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ فكَثُرَ مِنْهُم الأنبياءُ ﴿وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ يريدُ به الجنسَ ليتناولَ الكُتبَ الأربعةَ.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ﴾ على هِجرَتِه إلينا ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بإعطاءِ الولدِ في غيرِ أوانِه، والذُّريَّةِ الطيِّبَةِ، واستمرارِ النُّبوَّةِ فيهم، وانتماءِ أَهْلِ المِلَلِ إليه، والثَّناءِ والصَّلاةِ عليه إلى آخرِ الدَّهرِ.

﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: لَفِي عِدادِ الكامِلِينَ في الصَّلاحِ.

(٢٨) ـ ﴿وَلُوطًا﴾ عطفٌ على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أو على ما عُطِفَ عليه ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾: الفَعْلةَ البالغةَ في القُبحِ.

وقرأ الحِرْمِيَّانِ وابنُ عامرٍ وحَفْصٌ بهمزةٍ مكسورَةٍ على الخبرِ، والباقونَ على الاستفهامِ، وأجمَعُوا على الاستفهامِ في الثَّاني(٢).

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لفَحاشَتِهَا مِن حَيْثُ إنَّها ممَّا اشْمَأَزَّتْ منه الطِّباعُ وتحاشَتْ عنه النُّفوسُ، حتَّى أقدَمُوا عليها لِخُبثِ طِينَتِهِم.

---

(١) انظر: «البدء والتاريخ» لابن طاهر المقدسي (٣/ ٥١ ـ ٥٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

(٢٩) ـ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾: وتتعرَّضُونَ للسَّابلَةِ بالقَتلِ وأخذِ المالِ أو بالفاحشَةِ حتَّى انقطَعَتِ الطُّرقُ، أو: تقطعونَ سبيلَ النَّسْلِ بالإعراضِ عن الحرثِ وإتيانِ ما ليسَ بحَرْثٍ.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾: في مَجالِسِكُم الغاصَّةِ ولا يقالُ: النَّادِي، إلا لِمَا فيه أهلُه.

﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كالجماعِ والضُّراطِ وحَلِّ الإزارِ وغيرِها مِن القَبائِحِ عدمَ مُبالاةٍ بها.

وقيل: الخَذْفُ بالحصَى ورميُ البَنادقِ[1].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في استقباحِ ذلك، أو في دَعْوَى النبوَّةِ المفهومِ مِن التَّوبيخِ.

(٣٠) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ بإنزالِ العَذابِ ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداعِ الفاحشَةِ وسَنِّها فيمَنْ بعدَهُم، وصفَهُم بذلك مُبالغَةً في استنزالِ العَذابِ وإشعارًا بأنَّهُم أحِقَّاءُ بأَنْ يُعجَّلَ لَهُم العذابُ.

(٣١) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: بالبِشارَةِ بالوَلَدِ والنَّافلَةِ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾: قريةِ سَدُومَ، والإضافةُ لفظيَّةٌ لأنَّ المعنى الاستقبالُ.

﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ لإهلاكِهِم لهم بإصرَارِهِم وتَمادِيهِم في ظُلْمِهِم الذي هو الكفرُ وأنواعُ المعاصي.

(٣٢) ـ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ اعتراضٌ عليهِمْ بأنَّ فيهَا من لم يَظْلِم، أو معارضةٌ للمُوجِبِ[2] بالمانعِ، وهو كونُ النَّبيِّ بينَ أَظهُرِهِم.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٦٨٩١)، والترمذي (٣١٩٠)، عن أم هانئ رضي الله عنها عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: «كانوا يخذفون أهل الأرض ويسخرون منهم»، قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) قوله: «أو معارضة للموجب»؛ وهو كفر أهل القرية. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٨٩).

﴿قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ تسليمٌ لقولِه مع ادِّعاءِ مزيدِ العلمِ به، وأنَّهُم ما كانوا غافلينَ عنه، وجوابٌ عنهُ بتَخصيصِ الأهلِ بمَنْ عَداهُ وأهلَه، أو تأقيتِ الإهلاكِ[١] بإخراجِهِم عنها، وفيه تأخيرُ البَيانِ[٢] عن الخطابِ.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: الباقينَ في العذابِ، أو القريةِ[٣].

(٣٣) - ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ جاءَتْهُ المساءةُ والغمُّ بسببِهِم مخافةَ أَنْ يَقصِدَهُم قومُه بسُوءٍ، و(أن) صِلَةٌ لتَأكيدِ الفِعْلَيْنِ واتِّصالِهِما.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاقَ بشَأْنِهم وتَدبيرِ أَمْـرِهِم ذرعُه؛ أي طاقتُه كقولِهِم: ضاقَتْ يَدُه وبإزائِه: رَحُبَ ذرعُهُ بكذا إذا كانَ مُطيقًا له، وذلك لأنَّ طَويلَ الذِّراعِ ينالُ ما لا ينالُ قَصيرُ الذِّراعِ.

﴿وَقَالُواْ﴾ لَمَّا رَأَوْا فيهِ أثرَ الضَّجرَةِ ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ على تمكُّنِهم منَّا ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ ويَعقوبُ: ﴿لنُنْجِيَنَّه﴾، و﴿مُنْجُوكَ﴾ بالتَّخفيفِ، ووافقَهُم أبو بكرٍ وابنُ كثيرٍ في الثَّاني[٤].

وموضعُ الكافِ جرٌّ على المختارِ، ونصبُ (أهلَكَ) بإضمارِ فعلٍ، أو بالعطفِ على محلِّها باعتبارِ الأَصلِ.

---

(١) قوله: «أو تأقيت الإهلاك»؛ عطفٌ على «تخصيص الأهل»، ويفارق المعطوف عليه بأن الإهلاك فيه مقيد بالإخراج بخلافه في المعطوف عليه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٨٩).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «تأخيرٌ للبيان».

(٣) «أو القرية»: ليس في نسخة الخيالي، وفي نسخة التفتازاني: «العذاب أو الأمر به».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

(٣٤) ـ ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾: عذابًا منها، سُمِّيَ بذلك لأنَّه يُقلِقُ المعذَّبَ، مِن قَولِهم: ارتجزَ، إذا ارتجَسَ؛ أي: اضطَرَبَ.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿مُنَزِّلُونَ﴾ بالتَّشديدِ(١).

﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾: بسببِ فِسْقِهِم.

(٣٥) ـ ﴿ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ ﴾ هي حِكايَتُها الشَّائعةُ، أو آثارُ الدِّيارِ الخَرِبَةِ.

وقيل: الحِجارَةُ المَمْطورةُ فإنَّها كانَتْ باقيَةً بعدُ(٢).

وقيل: بقيَّةُ أَنهارِها المُسْوَدَّةِ(٣).

﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾: يستعملونَ عُقولَهُم في الاستبصارِ والاعتبارِ، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿تَّرَكۡنَا﴾ أو ﴿ءَايَةَۢ﴾.

(٣٦ ـ ٣٧) ـ ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ ﴾: وافعَلُوا ما ترجونَ به ثوابَه، فأُقيمَ المسبَّبُ مُقامَ السَّببِ(٤).

وقيل: إنَّه مِن الرَّجاءِ بمعنى الخوفِ.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ ﴾ الزَّلزلَةُ الشَّديدةُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٠)، و«التيسير» (ص: ٩٠).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٢٩٤)، عن قتادة.

(٣) ذكره السمعاني في «تفسيره» (٤/ ١٧٩) عن مجاهد.

(٤) قوله: «فأقيم المسبب» وهو اليوم؛ أي: ثوابه «مقام السبب»؛ أي: وهو فعل ما يَرجون به ثوابَه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٩١).

وقيل: صيحةُ جبريلَ لأنَّ القُلوبَ تَرجُفُ لها.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ﴾: فـي بلدِهِـم، أو: دُورِهِـم، ولـم يُجمَـع لأمـنِ اللَّبسِ ﴿جَٰثِمِينَ ﴾: بَارِكِينَ على الرُّكَبِ ميتينَ.

(٣٨) ـ ﴿ وَعَادًا وثمودًا﴾ مَنصوبانِ بإضمارِ (اذكر)، أو فعلٍ دلَّ عليه ما قبلُ مثلَ: أهلَكْنَا.

وقرأ حمزَةُ وحفصٌ ويَعقوبُ: ﴿وَثَمُودَاْ﴾ غيرَ مَصروفٍ[1] على تأويلِ القَبيلَةِ.

﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾؛ أي: تبيَّنَ لَكُـم بعـضُ مَساكِنِهم، أو إهلاكُهُم مِن جهَةِ مَساكِنِهم إذا نظَرْتُم إليها عندَ مُرورِكُم بها.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مِن الكُفرِ والمَعاصِي ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السَّوِيِّ ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾: مُتمكِّنينَ مِن النَّظرِ والاستبصارِ ولكنَّهُم لم يَفعَلُوا.

أو: مُتبيِّنينَ أنَّ العذابَ لاحِقٌ بهم بإخبارِ الرُّسُلِ لهم ولكنَّهُم لَجُّوا حتى هَلَكُوا.

(٣٩) ـ ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ مَعطوفونَ عـلـى (عـادًا) وتقديمُ قارونَ لشَرفِ نَسبِـهِ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾: فائِتينَ، بَلْ أدركَهُم أمرُ اللهِ، مِن سبقَ طالبَهُ: إذا فاتَهُ.

(٤٠) ـ ﴿ فَكُلًّا ﴾ مِن المَذكورينَ ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ عاقبنا بذنبِه:

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ ريحًا عاصِفًا فيها حَصْباءُ، أو مَلَكًا رماهُم بها كقَومِ لوطٍ.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كمَدْينَ وثمودَ.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارونَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٥)، و«النشر» (٢/ ٢٨٩).

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقومِ نوحٍ وفِرعَوْنَ وقومِه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: ليعامِلَهُم مُعاملَةَ الظَّالمِ فيُعاقبَهم بغيرِ جُرمٍ، إذ ليسَ ذلك مِن عادتِه ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتَّعريضِ للعَذابِ.

(٤١) ـ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ فيما اتَّخذوهُ مُعتمَدًا ومتَّكَلًا ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فيما نسجَتهُ في الوَهْنِ والخَوَرِ، بل ذاك أوهَنُ فإنَّ لهذا حقيقةً وانتفاعًا مّا.

أو: مَثلُهُم بالإضافَةِ إلى الموحِّدِ كمَثَلِه بالإضافةِ إلى رَجُلٍ بنَى بيتًا مِن حجرٍ وجَصٍّ[١].

والعنكبوتُ يقَعُ على الواحدِ والجمعِ والمُذكَّرِ والمؤنَّثِ، والتَّاءُ فيه كتَاءِ (طاغوتٍ)، ويُجمعُ على عَناكِيبَ وعَنَاكِبَ وعِكَابٍ وعِكْبَةٍ وأَعْكُبٍ.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيتَ أَوْهَى[٢] وأقلُّ وِقايةً للحَرِّ والبردِ منه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾: يرجعونَ إلى علمٍ لعَلِمُوا أنَّ هذا مَثَلُهُم، أو أنَّ دِينَهُم أوهنُ[٣] مِن ذلك.

---

(١) قوله: «كمثله بالإضافة...»؛ أي: كمثل العنكبوت، وقد اختصر المؤلف هذا الوجه من كلام «الكشاف»، ولفظ «الكشاف» (٦/ ٥١٤): ولقائل أن يقول: مَثَلُ المُشرِكِ الذي يَعبُدُ الوَثَنَ بالقِيَاس إلى المُؤمنِ الذي يَعْبُدُ اللهَ مَثَلُ عَنكبوتٍ يَتَّخِذ بَيْتاً بالإضافةِ إلى رَجُل يَبْنِي بيتاً بآجُرٍّ وجَصٍّ، أو يَنْحِتُهُ من صَخْرٍ، وكمَا أنَّ أَوْهَنَ البيُوت إذَا استَقْرَيْتَها بَيتاً بَيْتاً بيتُ العَنكبُوتِ، كذلك أَضعَفُ الأَدْيانِ إذا استَقْرَيْتَها دِيْناً دِيناً عِبَادةُ الأَوثانِ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

قلت: ولعل المصنف رحمه الله لم يرتض جعل المشبَّه مقتصراً على عابد الوثن، بل كل من اتخذ أولياء من دون الله مشمول به.

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «أوهن».

(٣) في نسخة الفاروقي: «أوهى».

ويجوزُ أَنْ يكونَ المرادُ ببيتِ العَنْكَبُوتِ دينَهُم، سَمَّاهُ به تحقيقًا للتَّمثيلِ، فيكونُ المعنى: وإنَّ أَوْهَنَ ما يُعتمَدُ به في الدِّينِ دينُهُم.

(٤٢) ـ ﴿إنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَدْعُونَ من دونَه من شيءٍ﴾ على إضمارِ القَوْلِ؛ أي: قُلْ للكَفَرَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾. وقرأ عاصمٌ وأبو عمرٍو ويعقوبُ بالياءِ[١] حَملًا على ما قبلَه.

و﴿مَا﴾ استفهاميَّةٌ مَنصوبةٌ بـ﴿تَدْعُونَ﴾ و﴿يَعۡلَمُ﴾ مُعلَّقَةٌ عنها و﴿مِن﴾ للتَّبيينِ.

أو نافيةٌ و﴿مِن﴾ مَزيدةٌ و﴿شَيۡءٍ﴾ مَفعولُ ﴿تَدْعُونَ﴾[٢].

أو مصدريَّةٌ و﴿شَيۡءٍ﴾ مصدرٌ.

أو موصولَةٌ مفعولٌ لـ﴿يَعۡلَمُ﴾ ومفعولُ ﴿تَدْعُون﴾ عائِدُه المحذوفُ.

والكلامُ على الأَوَّلَيْنِ تَجهيلٌ لهم وتوكيدٌ للمَثَل، وعلى الأخيرَينِ وعيدٌ لهم.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تعليلٌ عَلى المَعْنَيين، فإنَّ مِن فَرطِ الغَباوةِ إشراكُ ما لا يُعَدُّ شيئًا بمَنْ هذا شأنُه، وأنَّ الجمادَ بالإضافةِ إلى القادرِ القاهرِ على كُلِّ شيءٍ البالغِ في العلمِ وإتقانِ الفعلِ الغايةَ كالمعدومِ، وأنَّ مَن هذا وَصْفُه[٣] قادرٌ على مُجازاتِهم.

(٤٣) ـ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ يعني: هذا المثلَ ونَظائِرَهُ ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا لِمَا بَعُدَ مِن أَفهامِهِم ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ﴾: ولا يَعْقلُ حسنَها وفائِدَتَها ﴿إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ الذين يتدبَّرونَ الأشياءَ على ما ينبغي.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٠ ـ ٥٠١)، و«التيسير» (ص: ١٧٤)، و«المبسوط في القراءات» لابن مهران (ص: ٣٤٥).

(٢) والمعنى على هذا الوجه: إنما تدعون من دونه ما يَستحق أن يُطلَق عليه شيء. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٩٣).

(٣) في نسخة التفتازاني: «هذه صفته».

وعنه عليه السَّلامُ أنَّه تَلا هذه الآيةَ فقال: «العالمُ مَن عَقَلَ عنِ اللهِ فعَمِلَ بطاعَتِه واجتنبَ سخطَهُ»(١).

(٤٤) ـ ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾: مُحِقًّا غيرَ قاصِدٍ بهِ باطِلًا، فإنَّ المقصودَ بالذَّاتِ مِن خلقِهَا إفاضَةُ الخيرِ والدَّلالةُ على ذاتِه وصِفاتِه؛ كما أشارَ إليه بقولِه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأنَّهُم المنتفعونَ بها.

(٤٥) ـ ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ تَقرُّبًا إلى اللهِ بقراءَتِه، وتحفُّظًا لألفاظِه، واستكشافًا لِمَعانيهِ، فإنَّ القارِئَ المُتأمِّلَ قَدْ يَنكَشِفُ له بالتَّكرارِ ما لم يَنْكَشِف له أوَّلَ ما قرعَ سمعَهُ.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بأَنْ تكونَ سببًا للانتهاءِ عن المعاصي حالَ الاشتغالِ بها، وغيرِها مِن حَيثُ إنَّها تذكِّرُ اللهَ وتورِثُ للنَّفسِ خشيةً منه.

رُوِيَ أنَّ فتًى مِن الأَنصارِ كان يُصلِّي معَ رسولِ اللهِ ﷺ الصَّلواتِ ولا يَدَعُ شيئًا من الفَواحشِ إلا رَكِبَه، فوُصِفَ له فقال: «إنَّ صلاتَهُ ستَنْهَاهُ» فلَمْ يَلبَثْ أَنْ تابَ(٢).

---

(١) رواه داود بن المحبر في كتاب «العقل» كما في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٧)، وعنه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٣٧ ـ زوائد الهيثمي)، ومن طريق الحارث رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٥٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٢٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٢٤٣)، وأورد ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٦) عدة أحاديث في فضل العقل، ليس منها هذا الحديث، لكنه نقل عن الدارقطني قوله: كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر فركَّبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، فسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركبه بأسانيد أُخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي، فأتى بأسانيد أخر.

(٢) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف»(٣/ ٤٦): «غريب »، وقال ابن حجر في «الكافي =

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وللصَّلاةُ أكبرُ مِن سائرِ الطَّاعاتِ، وإنَّما عبَّرَ عنها به للتَّعليلِ، فإنَّ اشتمالَها على ذكرِه[1] هي العمدَةُ في كونِها مُفضَّلَةً على الحسناتِ ناهيَةً عن السَّيئاتِ.

أو: ولَذِكرُ اللهِ إيَّاكُم برَحمَتِه أكبَرُ مِن ذكرِكُم إيَّاهُ بطاعَتِه.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ منه ومِن سائرِ الطَّاعاتِ فيُجازيكُمْ بها أحسنَ المُجازاةِ.

(٤٦) - ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالخَصلَةِ التي هي أحسَنُ؛ كمُعارضَةِ الخُشونَةِ باللِّينِ، والغَضَبِ بالكَظْمِ، والمشاغبَةِ بالنُّصحِ.

وقيل: هو منسوخٌ بآيةِ السَّيفِ إذ لا مُجادلةَ أشدُّ مِنه[2]، وجوابُهُ أنَّه آخرُ الدَّواءِ[3].

وقيل: المرادُ به: ذَوُو العَهْدِ مِنْهُم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بالإفراطِ في الاعتداءِ والعنادِ، أو بإثباتِ الوَلَدِ وقولِهِم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، أو بنبذِ العَهْدِ ومنعِ الجزيَةِ.

= الشاف» (٢: ١٤٧): لم أجده». وقال الولي العراقي كما في «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٨٩٧): لم أقف عليه».

قلت: ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٥٥ ـ ٥٦)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه، لكن لم نقف على إسناده.

وروى الإمام أحمد في «المسند» (٩٧٧٨)، والبزار في «مسنده» (٩٢١٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٥٦٠) عَن أبي هريرةَ قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ فلانًا يُصلِّي بالليلِ فإذا أصبحَ سرَقَ فقال: «إنَّه سينهاه ما تقول».

(١) في نسخة التفتازاني: «ذكر الله».

(٢) هو قول قتادة كما ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٢٣٠) ورجحه.

(٣) قوله: «وجوابه أنه»؛ أي: أن الجدالَ بالسيف «آخر الدواء» لهم، بخلاف ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ فإنه أولُه، فلا تنافيَ بينهما، فلا نسخ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٩٤).

﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ هو مِن المُجادلةِ بالتي هيَ أحسَنُ.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «لا تُصدِّقُوا أهلَ الكتابِ ولا تُكذِّبُوهم، وقولوا: آمَنَّا باللهِ[1] وكتبِه ورسلِه، فإن قالوا باطِلًا لم تُصدِّقوهُم، وإن قالوا حَقًّا لم تُكذِّبُوهُم»[2].

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: مُطيعونَ له خاصَّةً، وفيه تعريضٌ باتِّخاذِهم أحبارَهُم ورهبانَهُم أربابًا مِن دونِ اللهِ.

(٤٧) - ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلكَ الإنزالِ ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وحيًا مصدِّقًا لسائرِ الكتبِ الإلهيَّةِ، وهو تحقيقٌ لقولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ هم عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ وأضرابُه، أو مَن تقدَّمَ عهدَ الرسولِ عليهِ السَّلامُ مِن أهلِ الكتابِ.

﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: ومِن العربِ، أو أهلِ مكَّةَ، أو ممَّنْ في عهدِ الرَّسولِ مِن الكتابيِّينَ ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾: بالقُرآنِ ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظُهورِها وقيامِ الحجَّةِ عليها ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: إلا المتوغِّلونَ في الكفرِ، فإنَّ جزمَهُم به يمنَعُهُم عن التَّأمُّلِ فيما يفيدُ لهم صدقَها؛ لكونِها معجزةً بالإضافَةِ إلى الرَّسُولِ كما أشارَ إليهِ بقولِه:

(٤٨) - ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ فإنَّ ظُهورَ هذا الكتابِ الجامعِ لأنواعِ العُلومِ الشَّريفَةِ على أُمِّيٍّ لم يُعْرَفْ بالقراءةِ والتَّعلُّمِ

---

(١) في نسخة الطبلاوي زيادة: «وملائكته». وليست في روايات الحديث.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٥٧) من حديث أبي نملة الأنصاري رضي الله عنه.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٧٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾». ورواه من حديث أبي هريرة البخاري (٤٤٨٥)، لكن فيه: «وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية [البقرة: ١٣٦]».

خـارقٌ للعـادَةِ، وذكرُ اليميـنِ زيادةُ تصويـرٍ للمَنفيِّ[١]، ونفـيٌ للتَّجوُّزِ في الإسـنادِ.

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ أي: لو كنتَ ممَّنْ يَخُطُّ ويقرَأُ لقالوا: لعلَّهُ تعلَّمَهُ أو التقطَهُ مِن كتبِ الأَقْدَمينَ، وإنَّما سَمَّاهُم مُبطلينَ لكُفرِهِم، أو لارتيابِهِم بانتفاءِ وَجْهٍ واحدٍ مِن وُجوهِ الإعجازِ المُتكاثِرَةِ.

وقيل: لارتابَ أهلُ الكتابِ لوجدانِهِم نَعْتَكَ على خِلافِ ما في كُتُبِهِم، فيكونُ إبطالُهُم باعتبارِ الواقعِ دونَ المُقدَّرِ.

(٤٩) ـ ﴿بَلْ هُوَ﴾: بل القرآنُ ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يحفَظُونَهُ لا يقدرُ أحدٌ تحريفَه ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: إلا المتوغِّلُونَ في الظُّلمِ بالمُكابرَةِ بعدَ وُضوحِ دَلائلِ إعجازِها حتَّى لم يَعتَدُّوا بها.

(٥٠) ـ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثلَ ناقَةِ صالحٍ وعَصا مُوسى ومائدةِ عيسى.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ والبَصريَّانِ وحَفْصٌ: ﴿ءَايَٰتٌ﴾[٢].

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يُنزِلُها كما يشاءُ، لستُ أَمْلِكُها فآتيكُمْ بما تَقترِحُونَه.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليسَ مِن شَأني إلا الإنذارُ وإبانَتُه بما أُعطِيتُ مِن الآياتِ.

(٥١) ـ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آيةً مُغْنِيَةً عمَّا اقترَحُوهُ ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: تدومُ تلاوتُه عليهم مُتَحَدِّينَ به، فلا يزالُ مَعَهُم آيةً ثابتَةً لا تضمَحِلُّ بخلافِ سائرِ الآياتِ، أو: يُتْلَى عليهم ـ يعني: اليهودَ ـ بتَحقيقِ ما في أيديهِم مِن نَعتِكَ ونعتِ دينِكَ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «للنفي».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠١)، و«التيسير» (ص: ١٧٤)، و«النشر» (٢/ ٣٤٣).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: في ذلك الكتابِ الذي هو آيةٌ مُستمرَّةٌ وحجَّةٌ مبينةٌ ﴿لَرَحْمَةً﴾: لنعمةً عَظيمةً ﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: وتذكرةً لِمَن همُّهُ الإيمانُ دونَ التَّعنُّتِ.

وقيل: إنَّ ناسًا مِن المُسلمينَ أتَوا رسولَ اللهِ بكتفٍ كُتِبَ فيها بعضُ ما يقولُ اليهودُ فقال: «كفى بها ضلالَةَ قومٍ أَنْ يرغَبُوا عمَّا جاءَهُم به نبيُّهُم إلى ما جاءَ به غيرُ نَبيِّهِم» فنزلَتْ[1].

(٥٢)-﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ بِصِدقي وقد صدَّقَنِي بالمُعجزاتِ، أو: بتَبليغِي ما أُرسِلْتُ به إليكُم ونُصحِي ومُقابلتِكُم إيَّايَ بالتَّكذيبِ والتَّعنُّتِ.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفَى عليه حالي وحالُكُم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ وهو ما يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ مِنكُم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في صفقَتِهم حيثُ اشتروا الكفرَ بالإيمانِ.

---

(١) رواه الدارمي في «سننه» (٤٧٨)، وأبو داود في «المراسيل» (٤٥٤)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٢٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٧٢)، عن يحيي بن جعدة قال: جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سَمِعُوه من اليهود، فقال رسول الله ﷺ: «كفى بقوم حمقاً..» الحديث، وهو مرسل.

وفي الباب من حديث جابر رضي الله عنه، رواه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٢/ ٣٢٣): أن عمر أتى النبي ﷺ فقال: إنّا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا، أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: «أمتهوّكون أنتم كما تهوّكت اليهود والنّصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقيةً، ولو كان موسى حيًّا ما وسعه إلّا اتّباعي».

ورواه بنحوه الإمام أحمد في «المسند» (١٥١٥٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٤٢١)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٦)، وإسناده ضعيف، وليس فيه ذكر نزول الآية.

(٥٣) ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ بقولِهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لكلِّ عذابٍ أو قومٍ ﴿لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عاجلًا ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾: فجأةً في الدُّنيا كوقعةِ بدرٍ، أو الآخرةِ عندَ نُزولِ الموتِ بهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانِه.

(٥٤) ـ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾: ستحيطُ بهم يومَ يأتيهم العذابُ، أو هيَ كالمُحيطةِ بهم الآنَ لإحاطةِ الكُفرِ والمعاصي التي توجِبُها بهم، واللامُ[1] للعَهدِ على وَضعِ الظَّاهرِ موضعَ المضمَرِ للدَّلالةِ على موجبِ الإحاطةِ، أو للجنسِ فيكونُ استدلالًا بحكمِ الجنسِ على حُكمِهم.

(٥٥) ـ ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ ظرفٌ لـ(محيطةٌ)، أو لمُقدَّرٍ مثلَ: كانَ كيتَ وكيتَ.

﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾: مِن جَميعِ جَوانِبِهم.

﴿وَيَقُولُ﴾ اللهُ، أو بعضُ ملائكَتِه بأمرِه؛ لقراءَةِ ابنِ كثيرٍ وابنِ عامرٍ والبَصريِّين بالنُّونِ[2]: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: جزاءَه.

(٥٦) ـ ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾؛ أي: إذا لم يَتَسهَّلْ لَكُم العِبادَةُ في بلدةٍ ولم يَتيَسَّر لَكُم إظهارُ دينِكُم فهاجِرُوا إلى حيثُ يَتمشَّى لَكُم ذلك.

---

(١) قوله: «واللام»؛ أي: في (الكافرين). انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي بالياء، والباقون بالنون. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠١)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

وعنه عليه السَّلامُ: «مَن فرَّ بدينِهِ مِن أَرضٍ إلى أرضٍ ولو كانَ شبرًا استوجَبَ الجنَّةَ، وكانَ رفيقَ إبراهيمَ ومُحمَّدٍ» (١).

والفاءُ جوابُ شَرطٍ مَحذوفٍ؛ إذ المعنى: إنَّ أرضيَ واسِعةٌ، إن لم تُخلِصُوا العِبادةَ لي في أرضٍ فأخلِصُوها في غيرِها.

(٥٧) ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تنالُه لا مَحالةَ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للجَزاءِ، ومَن هذا عاقِبَتُه ينبغي أن يجتهدَ في الاستعدادِ له. وقرأَ أبو بَكرٍ بالياءِ (٢).

(٥٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾: لنُنزِلَنَّهُم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾: عَلالِيَ.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿لَنُثْوِيَنَّهُمْ﴾ (٣)؛ أي: لنُقيمَنَّهُم، مِن الثَّواءِ، فيكونُ انتصابُ ﴿غُرَفًا﴾ لإجرائِه مُجرى: لنُنزِلَنَّهم، أو بنزعِ الخافضِ، أو تشبيهِ الظَّرفِ المؤقَّتِ بالمبهَمِ.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ وقُرِئَ: (فنِعْمَ) (٤)، والمَخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه.

(٥٩) ـ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على أذيَّةِ المشركينَ والهجرةِ للدِّينِ، إلى غيرِ ذلك مِن المِحَنِ والمَشاقِّ.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: ولا يتوكَّلُونَ إلَّا على اللهِ.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٥٥٥) عن الحسن البصري مرسلاً. وتقدم عند تفسير الآية (٩٧) من سورة النساء.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٥) عن يحيى بن وثاب.

(٦٠) ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾: لا تطيـقُ حملَهُ لضَعفِها، أو: لا تَدَّخِرُه وإنَّما تُصبِحُ ولا معيشةَ عندَها.

﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ ثمَّ إنَّها مع ضَعفِها وتَوكُّلِها وإيَّاكم مع قوَّتِكُم واجتهادِكُم سَواءٌ في أنَّه لا يرزقُها وإيَّاكُم إلا اللهُ؛ لأنَّ رِزقَ الكُلِّ بأسبابٍ هو المسبِّبُ لها وحدَهُ، فلا تخافوا على مَعاشِكُم، فإنَّهُم لَمَّا أُمِرُوا بالهجرةِ قال بَعضُهُم: كيفَ نَقْدَمُ بلدةً ليسَ لنا فيها مَعيشَةٌ؟ فنزَلَتْ[1].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولِكُم هذا ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بضَميرِكُم.

(٦١) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ المسؤولُ عَنْهم أهلُ مكَّةَ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لِمَا تقرَّرَ في العقولِ وجوبُ انتهاءِ المُمكناتِ إلى واحدٍ واجِبِ الوجودِ.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾: يُصرَفُونَ عن تَوحيدِهِ بعدَ إقرارِهِم بذلك.

(٦٢) ـ ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ الموسَّعُ له والمضيَّقُ عليهِ واحدًا على أنَّ البسطَ والقبضَ على التَّعاقُبِ، وألَّا يكونَ على وضعِ الضَّميرِ موضِعَ (مَن يَشاءُ)، وإبهامُه لأنَّ (مَن يشاءُ) مُبهَمٌ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ يَعلمُ مَصالِحَهم ومَفاسِدَهُم.

(٦٣) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ مُعترِفِينَ بأنه الموجِدُ للمُمكِنَاتِ بأَسرِهَا أُصولِها وفُروعِهَا، ثمَّ إنَّهُم يُشرِكُونَ به بعضَ مَخلوقاتِه الذي لا يقدرُ على شيءٍ مِن ذلك.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على ما عَصمَكَ مِن مثلِ هذه الضَّلالةِ، أو على تَصديقِكَ

---

(١) ذكره الماوردي: «النكت والعيون» (٤/ ٢٩٣)، عن ابن عباس وزاد: فهاجروا.

وإظهـارِ حُجَّتِـك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيَتناقضـونَ حيـثُ يُقـرُّونَ بأنَّـهُ المبدأُ لـكلِّ مـا عداهُ ثـمَّ إنَّهُم يُشـرِكُونَ بـه الصَّنـمَ، وقيـل: لا يعقلونَ مـا تريـدُ بتَحميدِكَ عنـدَ مَقالِهم.

(٦٤) ـ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارةُ تَحقيرٍ، وكيفَ لا وهي لا تَزِنُ عندَ اللهِ جَناحَ بَعوضَةٍ.

﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾: إلا كمَا يَلْهَى ويلعبُ به الصِّبيانُ، يجتمعونَ عليه ويَبتَهِجونَ بهِ ساعةً ثمَّ يتفرَّقونَ مُتعبينَ.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾: لهـي دارُ الحيـاةِ الحقيقيَّـةِ لامتناعِ طَـرَيانِ المـوتِ عليهـا، أو جُعلـت هي فـي ذاتِهـا حيـاةً للمُبالغَةِ.

و(الحَيَوَانُ): مَصدرٌ حَيِيَ؛ سُمِّيَ به ذو الحياة، وأصلُه: حَيَيَان، فقُلِبَت الياءُ الثَّانيَةُ واوًا، وهو أبلَغُ مِن الحياةِ لِمَا في بناءِ فَعَلَان مِن الحركةِ والاضطرابِ اللَّازمِ للحياةِ ولذلك اختيرَ عليها هاهُنا.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لم يؤثِرُوا عليها الدُّنيَا التي أصلُها عدمُ الحَياةِ، والحياةُ فيها عارضَةٌ سَريعَةُ الزَّوالُ.

(٦٥) ـ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ مُتَّصِلٌ بما دلَّ عليه شَرحُ حالِهم؛ أي: هُم على مـا وُصِفُوا به مِن الشِّركِ، فإذا ركبُوا البـحرَ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: كائنينَ في صورَةِ مَن أخلَصَ دينَهُ مِن المؤمنينَ حيثُ لا يذكرونَ إلَّا اللهَ ولا يَدْعونَ سِواهُ؛ لعِلْمِهم بأنَّه لا يكشِفُ الشَّدائدَ إلَّا هو.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾: فاجَؤوا المعاودةَ إلى الشِّركِ.

(٦٦) ـ ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللامُ فيه لامُ (كي)؛ أي: يُشرِكُون ليكونُوا كافرينَ بشِرْكِهِم نعمةَ النَّجاةِ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ باجتماعِهِم على عبادةِ الأَصنامِ وتوادِّهِم عليها[١].

أو لامُ الأمرِ[٢] على التَّهديدِ، ويُؤيِّدُه قراءةُ ابنِ كثيرٍ وحمزةَ والكِسائيِّ وقالون عن نافعٍ: ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾ بالسُّكونِ[٣].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ ذلك حينَ يُعاقبونَ.

(٦٧) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يعني: أهلَ مكَّةَ ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ أي: جَعَلْنا بلدَهُم مَصونًا عن النَّهبِ والتَّعدِّي آمِنًا أهلُه عن القتلِ والسَّبيِ ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾: يُختَلَسونَ قَتْلًا وسَبْيًا إذ كانت العربُ حولَهُ في تَغاوُرٍ وتناهُبٍ.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾: أبعدَ هذه النِّعمَةِ المَكشوفَةِ وغيرِها ممَّا لا يقدرُ عليه إلَّا اللهُ بالصَّنمِ أو الشَّيطانِ يؤمنونَ ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ حيثُ أشرَكُوا به غيرَه؟ وتَقديمُ الصِّلَتينِ للاهتمامِ أو الاختصاصِ[٤] على طريقِ المُبالغَةِ.

---

(١) عبارة «الكشاف» (٦/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤): المعنى: أنَّهم يَعُودُونَ إلى شِركهِمْ ليَكُونُوا بالعَوْدِ إلى شِرْكهِمْ كافِرينَ بنعمَةِ النَّجاة، قَاصِديْنَ التَّمتُّعَ بهَا والتَّلذُّذَ لا غيرُ، على خِلاف ما هو عَادة المؤمِنينَ المُخلِصيْنَ على الحَقيْقة إذَا أنْجَاهُم اللهُ أن يَشكُروا نعمَةَ اللهِ في إنجَائهِم، ويَجْعَلُوا نِعْمَةَ النَّجاةِ ذَريعَةً إلى ازدِيادِ الطَّاعَةِ لا إلى التَّمتُّعِ والتَّلذُّذِ.

(٢) قوله: «أو لام الأمر» معطوف على قوله: «لام كي». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

(٤) في نسخة الخيالي: «للاهتمام به أو الاختصاص» وفي نسخة التفتازاني: «للاهتمام والاختصاص»، وفي نسخة الطبلاوي: «للاهتمام أو الاختصار» وفي هامشها كالمثبت نسخة.

(٦٨) ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأَنْ زعَمَ أنَّ لَهُ شَريكًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ﴾ يعني: الرَّسولَ أو الكتابَ، وفي ﴿لَمَّا﴾ تَسفيهٌ لَهُم بأَنْ لَمْ يَتوقَّفُوا ولم يتأمَّلُوا قَطُّ حينَ جاءَهُم بل سارَعُوا إلى التَّكذيبِ أوَّلَ ما سَمِعُوهُ.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ تقريرٌ لثَوائِهم كقولِه:

أَلَسْـتُمْ خَيْـرَ مَـنْ رَكِـبَ المَطَايَـا[1]

أي: ألا يستوجبونَ الثَّواءَ فيها وقـد افترَوْا مثلَ هذا الكذبِ على اللهِ وكَذَّبُوا بالحقِّ مثلَ هذا التَّكذيبِ؟

أو: لاجترائِهم؛ أي: أَلَمْ يعلَمُوا أنَّ في جهنَّمَ مَثوًى للكافرينَ حتى اجترَؤُوا مثلَ هذه الجُرأَةِ.

(٦٩) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾: فـي حقِّـنَـا، فإطلاقُ[2] المُجاهدَةِ لتَعُمَّ جِهادَ الأَعادي الظَّاهرةِ والباطنَةِ بأنواعِه.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: سُبلَ السَّيرِ إلَيْنَا والوصولِ إلى جَنابِنا، أو: لنَزيدنَّهُم هدايةً إلى سبيلِ الخيرِ وتوفيقًا لسُلوكِهَا؛ كقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧].

وفي الحَديثِ: «مَن عَمِلَ بما عَلِمَ، ورَّثَه اللهُ عِلمَ ما لم يَعْلَم»[3].

---

(١) صدر بيتٍ لجريرٍ من قصيدةٍ يمدح بها عبد الملك بن مروان، انظر: «ديوان جرير ـ بشرح ابن حبيب» (١/ ٨٩)، وعجزه:

وأنـــدى العالميـــنَ بُطـــونَ راحِ

(٢) في نسخة التفتازاني: «فأطلق».

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٥)، وقال: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى ابن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنَّصرِ والإعانَةِ.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ العَنكبوتِ كانَ له مِن الأجرِ عشرُ حسناتٍ بعَددِ كلِّ المؤمنينَ والمنافقينَ»[1].

* * *

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/٨) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٢٩) سورة العنكبوت مكية وآياتها تسع وستون

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾[1] استفهام إنكار، ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين، بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء» وهذه الآية كقوله: ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾، وقال في البقرة: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان، ممن هو كاذب في قوله ودعواه. والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة. وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: ﴿إلا لنعلم﴾ إلا لنرى، وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود والعلم أعم من الرؤية فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود. وقوله تعالى: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ أي لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم: أن ﴿آلم أحسب ...﴾ نزلت في أناس كانوا بمكة. أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب الرسول عليه السلام بالمدينة أن لا يقبل منهم حتى يهاجروا، فخرجوا إلى المدينة فردهم المشركون، وأخرج ابن سعد: أنها نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله، كما في اللباب .

أغلظ من هذا وأطم، ولهذا قال: ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ﴾ أي يفوتونا ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي بئس ما يظنون .

مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى: ﴿ من كان يرجو لقاء الله ﴾ أي في الدار الآخرة وعمل الصالحات، ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه، ويوفيه عمله كاملاً موفراً، فإن ذلك كائن لا محالة لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات. ولهذا قال تعالى: ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾، كقوله تعالى: ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله تعالى غني عن العباد ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الله لغني عن العالمين ﴾. قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف، ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم، ومع بره وإحسانه بهم، يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفّر عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿ ان الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾، وقال ههنا: ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾ .

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين، بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق، ولهذا قال تعالى: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾، ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿ وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ أي وإن حرصا أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فلا تطعهما في ذلك فإن مرجعكم إليّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، ولهذا قال تعالى: ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾. عن مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال: نزلت فيَّ أربع آيات فذكر قصته، وقال، قالت أم سعد: أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها

شجروا[١] فاها، فنزلت: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾[٢] الآية .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن صفات المكذبين، الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله، وكذا قال غيره من علماء السلف، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه – إلى قوله – ذلك هو الضلال البعيد﴾، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾ أي ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم إنا كنا معكم أي إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم﴾ الآية، وقوله تعالى مخبراً عنهم ههنا: ﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾، ثم قال الله تعالى: ﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ أي أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تكنه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة ؟ وقوله تعالى: ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ أي وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء، ليتميز من يطيع الله في الضراء والسراء، ومن يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ أي آثامكم إن كانت لكم آثام، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتي، قال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون﴾ أي فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم. فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، قال الله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾، وقال تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم﴾، وقوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ أخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزاراً أخر،

(١) فتحوا فمها بعود .

(٢) أخرجه الترمذي في باب التفسير في قصة (سعد بن أبي وقاص) مع أمه، ورواه أيضاً مسلم والإمام أحمد وأبو داود والنسائي .

بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ الآية، وفي الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً»، وفي الصحيح: «ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل». وقوله تعالى: ﴿وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ أي يكذبون ويختلقون من البهتان.

وفي الحديث: «إياكم والظلم فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلم ثم ينادي مناد فيقول: أين فلان بن فلان؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال، فيشخص الناس أبصارهم، حتى يقوم بين يدي الرحمن عزَّ وجلَّ، ثم يأمر المنادي، فينادي من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلم، فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي، فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول: خذوا لهم من حسناته فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة، وقد بقي من أصحاب الظلامات، فيقول: اقضوا عن عبدي، فيقولون: لم يبق له حسنة. فيقول: خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه» ثم نزع ﷺ بهذه الآية الكريمة: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾(1) وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، وقد ظلم هذا وأخذ مال هذا، وأخذ من عرض هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا لم تبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه».

* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله ﷺ، يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً، وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال تعالى: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين. عن ابن عباس قال: بعث نوح وهو لأربعين سنة ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا، وقوله تعالى: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ أي الذين آمنوا بنوح عليه السلام، وقد تقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته، وقوله تعالى: ﴿وجعلناها آية للعالمين﴾ أي وجعلنا تلك السفينة باقية؛ إما عينها - كما قال قتادة - إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي أمامة مرفوعاً.

في الفلك المشحون﴾، وقال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ۞ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾، وقال ههنا: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾ .

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله (إبراهيم) إمام الحنفاء، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مُسْدِي لها غيره، فقال لقومه: ﴿اعبدوا الله واتقوه﴾ أي أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع، وإنما هي مخلوقة مثلكم، قال ابن عباس: ﴿وتخلقون إفكاً﴾ أي تنحتونها أصناماً[1]، وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾، وهذا أبلغ في الحصر كقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، ولهذا قال: ﴿فابتغوا﴾ أي فاطلبوا ﴿عند الله الرزق﴾ أي لا عند غيره فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿واعبدوه واشكروا له﴾ أي كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم، ﴿إليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله. وقوله تعالى: ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾ أي فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء، وقال قتادة في قوله: ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾، قال: يعزي نبيه ﷺ، **والظاهر** من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام، يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله ﴿فما كان جواب قومه﴾ والله أعلم.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ۞ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه؛ ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله

(١) وبه قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة واختاره ابن جرير وهو الأظهر.

الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون، ولهذا قال: ﴿أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير﴾، كقوله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ثم قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة﴾ أي يوم القيامة، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾، وكقوله تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟ ۞ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾، وقوله تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله الخلق والأمر لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ أي ترجعون يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، فكل شيء خائف منه فقير إليه وهو الغني عما سواه ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ۞ والذين كفروا بآيات الله ولقائه﴾ أي جحدوها وكفروا بالمعاد، ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾ أي لا نصيب لهم فيها، ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي موجع شديد في الدنيا والآخرة.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾
وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ
وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحق بالباطل، إنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، ﴿فقالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾ وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، ثم أضرموا فيها النار، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق، ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً بعدما مكث فيها أياماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً، فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان، وقوله تعالى: ﴿فأنجاه الله من النار﴾ أي سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ۞ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانـاً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾، يقول لقومه مقرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان، إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عباداتها في الدنيا صداقة وألفة منكم ﴿ثم يوم القيامة﴾ ينعكس هذا الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضاً وشنآناً، ثم ﴿يكفر بعضكم ببعض﴾

(١) أخرجه أصحاب السنن.

أي تتجاحدون ما كان بينكم، ﴿ ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ أي يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾، وقال تعالى: ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾، وقال ههنا: ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ﴾ الآية، أي ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله.

* فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له (لوط) يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، وهو لوط بن هاران بن آزر، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي، وقوله تعالى: ﴿ وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ يحتمل عود الضمير في قوله: ﴿ وقال ﴾ على (لوط) لأنه هو أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى (إبراهيم) وهو المكنى عنه بقوله: ﴿ فآمن له لوط ﴾ أي من قومه، ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿ إنه هو العزيز الحكيم ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله، وقال قتادة: هاجرا جميعاً من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى الشام، روى الإمام أحمد عن قتادة عن شهر بن حوشب قال: لما جاءتنا بيعة (يزيد بن معاوية) قدمت الشام، فأخبرت بمقام يقومه (نوف البكالي) فجئته إذ جاء رجل، فانتبذ الناس وعليه خميصة، فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، فتلفظهم أرضهم تقذرهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير، فتبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا، وتأكل من تخلف منهم». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج منهم قرن قطع، كلما خرج قرن قطع - حتى عدها زيادة على عشرين مرة - حتى يخرج الدجال في بقيتهم»[1].

وقوله تعالى: ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾، كقوله: ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله، وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ﴾ أي لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي، وولد له ولد صالح نبي في حياة جده، وكذلك قال تعالى: ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ أي زيادة، كما قال تعالى: ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ أي يولد لهذا الولد ولد في حياتكما تقر به أعينكما، فأما ما روي عن ابن عباس في قوله: ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ قال: هما ولدا إبراهيم، فمعناه أن ولد الولد بمنزلة الولد، فإن هذا الأمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس، وقوله تعالى: ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً وجعله للناس إماماً أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد

(١) أخرجه الإمام أحمد، ورواه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد.

إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة (يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) حتى كان آخرهم عيسى بن مريم، فقام مبشراً بالنبي العربي سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة (إسماعيل بن إبراهيم) عليهما السلام، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام، وقوله: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾ أي قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾، وكما قال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين - إلى قوله - وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه (لوط) عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتباعهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله ويخالفونه ويقطعون السبيل، أي يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ أي يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ قاله مجاهد، ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون، روى الإمام أحمد عن أم هانيء قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال: « يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه »[1]. وعن مجاهد ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال: الصفير ولعب الحمام وحل أزرار القباء، وقوله تعالى: ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قال ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رب انصرني على القوم المفسدين﴾.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ

(١) أخرجه أحمد ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم .

﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

لما استنصر (لوط) عليه السلام بالله عزَّ وجلَّ عليهم بعث الله لنصرته ملائكة، فمروا على (إبراهيم) عليه السلام في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام نكرهم، وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة، وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر، فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لعلهم ينظرون؛ لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿قال إن فيها لوطاً، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم، ثم ساروا من عنده فدخلوا على (لوط) في صورة شبان حسان، فلما رآهم كذلك ﴿سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ أي اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم إلّا في الساعة الراهنة ﴿قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد تركنا منها آية بينة﴾ أي واضحة ﴿لقوم يعقلون﴾، كما قال تعالى: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾؟

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (شعيب) عليه السلام أنه أنذر قومه أهل مدين فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر﴾ قال ابن جرير: معناه واخشوا اليوم الآخر، كقوله تعالى: ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾، وقوله: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها إنه كان عذاب يوم عظيم، وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف وهود والشعراء، وقوله: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ قال قتادة: ميتين، وقال غيره: قد أُلقي بعضهم على بعض.

* وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟

مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟
سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، وأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون (الأحقاف) وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون (الحجر) قريباً من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً وتمر عليها كثيراً، وقارون صاحب الأموال الجزيلة والكنوز الثقيلة، وفرعون ووزيره (هامان) القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله ﷺ ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ أي كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ وهم عاد، وذلك أنهم قالوا من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم، وتقتلعهم من الأرض، فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدناً بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر، ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة على تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحاً واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر، ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ أي فيما فعل بهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم.

۞ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها، ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به: إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم، ثم قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا

العالمون﴾ أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه. عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[١]

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السماوات والأرض بالحق، يعني لا على وجه العبث واللعب ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾، ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾، وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلٰهية، ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وإبلاغه للناس، ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات، أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك، وقد جاء في الحديث عن ابن عباس مرفوعاً: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً» .

(ذكر الآثار الواردة في ذلك)

روى ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ ؟ قال: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»، وعن ابن عباس، قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً»[٢]. وروى الحافظ أبو بكر البزار قال، قال رجل للنبي ﷺ: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق، قال: «إنه سينهاه ما تقول»[٣]، وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي أعظم من الأول ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم، وقال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله (القرآن) يأمره وينهاه، وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر، وعن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ولذكر الله أكبر﴾ يقول: ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه[٤]. وعنه أيضاً قال: لها وجهان: ذكر الله عندما حرمه، قال: وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه، وعن عبد الله بن ربيعة قال، قال لي ابن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الطبراني بنحوه .

(٣) أخرجه البزار والإمام أحمد في مسنده .

(٤) وهو قول مجاهد وبه قال غير واحد من السلف .

عباس: هل تدري ما قوله تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾؟ قال، قلت: نعم، قال: فما هو؟ قلت: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك، قال: لقد قلت قولا عجيباً وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه، وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس، واختاره ابن جرير.

* ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف، وقال آخرون: بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ الآية. وهذا القول اختاره ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ أي حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم، قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف، قال مجاهد: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ يعني أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية، وقوله تعالى: ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾ يعني إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا نقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً، أخرج البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون﴾». وروى ابن جرير عن (عبد الله بن مسعود) قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال، وروى البخاري عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث، تقرأونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم. وحدّث معاوية رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري موقوفاً على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال ابن كثير: معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد، لأنه يحدث عن صحف هو يحسن الظن فيها وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة.

﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، وقوله تعالى: ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته، من أحبارهم العلماء الأذكياء كـ (عبد الله بن سلام) و (سلمان الفارسي) وأشباههما، وقوله تعالى: ﴿ ومن هؤلاء من يؤمن به﴾ يعني العرب من قريش وغيرهم، ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ثم قال تعالى: ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ الآية، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده، بل كان له كتّاب يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الأقاليم، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له، قال الله تعالى: ﴿ وما كنت تتلو﴾ أي تقرأ ﴿ من قبله من كتاب﴾ لتأكيد النفي ﴿ ولا تخطه بيمينك﴾ تأكيد أيضاً وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ إذاً لارتاب المبطلون﴾ أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول: إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، وقد قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة، ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾، قال الله تعالى: ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض﴾ الآية، وقال ههنا ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وقال رسول الله ﷺ: « ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً »، وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى: « إني مبتليك ومبتل بك، ومنزلٌ عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً »، أي لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظاً ومعنى، ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة (أناجيلهم في صدورهم)، وقوله تعالى: ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها ﴿ إلا الظالمون﴾ أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ .

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم، وطلبهم آيات يعنون ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله، كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنما الآيات عند الله﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن هذا سهل عليه يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ۚ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾، وقوله: ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي إنما بعثت نذيراً لكم فعليّ أن أبلغكم رسالة الله تعالى، و ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾، ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة سورة منه، فقال تعالى: ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾[1] أي أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾، وقال تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ وفي الصحيح عنه ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2]. وقد قال الله تعالى: ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ أي إن في هذا القرآن ﴿لرحمة﴾ أي بياناً للحق وإزاحة للباطل ﴿وذكرى﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون، ثم قال تعالى: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ أي لا تخفى عليه خافية، ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ أي يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

(١) أخرج ابن جرير وغيره قال: جاء أناس من المسلمين بكتب كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ﷺ: «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم، إلى ما جاء به غيره» فنزلت ﴿أولم يكفهم ...﴾. (٢) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين، في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، وقال ههنا: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾ أي لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه، ثم قال: ﴿وليأتينهم بغتة﴾ أي فجأة، ﴿وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾، كقوله تعالى: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾، وقال تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل ومن تحتهم ظلل﴾، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ في العذاب الحسي، وقوله تعالى: ﴿ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله تعالى: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾، وقال تعالى: ﴿يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّا * هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾. عن الزبير بن العوام قال، قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فأقم»[1]، ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين هناك (أصحمة النجاشي) ملك الحبشة رحمه الله تعالى، فآواهم وأيدهم، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة المطهرة، ثم قال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾ أي أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ووافاه أتم الثواب، ولهذا قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار﴾ أي لنسكننهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا، ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولا، ﴿نعم أجر العاملين﴾ نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿الذين صبروا﴾ أي على دينهم وهاجروا إلى الله، ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء، ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن الزبير بن العوام.

وفي الحديث: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام»[1] ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم. ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال تعالى: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾ أي لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد، ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ أي الله يقيّض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء، والحيتان في الماء، قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر مالك لا تأكل؟» قال، قلت: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: «لكني أشتهيه وهذا صبح رابعةٍ منذ لم أذق طعاماً، ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين؟» قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية، فإن الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد»[2]، وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا»[3]. وقوله: ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده ﴿العليم﴾ بحركاتهم وسكناتهم.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم وأرزاقهم فتفاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلا منهم ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلمَ يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه، فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى «**مقام الإلهية**» بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً.

(٢) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم وفي إسناده ضعف كذا قال ابن كثير.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، ورواه البيهقي عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ (سافروا تصحوا وتغنموا).

المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي الحياة الدائمة، الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد، وقوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لآثروا ما يبقى على ما يفنى. ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فلا يكون هـذا منهم دائماً ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾، كقوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾ الآية. وقال ههنا: ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق عن (عكرمة بن أبي جهل) أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة، ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي ههنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره، اللهم لك عليَّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فكان كذلك. وقوله تعالى: ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا﴾ هذه اللام (لام العاقبة) لأنهم لا يقصدون ذلك ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك، وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمناً، فهو أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿لإيلاف قريش﴾ إلى آخر السورة، وقوله تعالى: ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾[1] أي أفكأن شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، ﴿بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ فكفروا بنبي الله ورسوله فكذبوه، فقاتلوه، فأخرجوه من بين أظهرهم، ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم

(١) في اللباب: أخرج جويبر: أنهم قالوا: يا محمد، ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس، والأعراب أكثر منا، فنزل: ﴿أولم يروا أنا ...﴾ الآية.

به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر؛ ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة وأرغم آنافهم وأذل رقابهم، ثم قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه﴾؟ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله، فقال إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر والثاني مكذب، ولهذا قال تعالى: ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾. ثم قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لنهدينهم سبلنا﴾ أي لنبصرنهم سبلنا أي طرقنا في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾.

روى ابن أبي حاتم بسنده عن الشعبي قال، قال عيسى بن مريم عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة العنكبوت، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة العنكبوت

[وهى] [١] مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ③ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ④ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة « البقرة ».

وقوله : ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ** ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء »[٢] وهذه الآية كقوله : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**[٣] ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ،ومثلها فى سورة « براءة » وقال فى البقرة :﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة : ٢١٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ أى : الذين صدقوا فى دعواهم الإيمان ممن هو كاذب فى قوله ودعواه . والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون [٤] . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ؛ ولهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل : ﴿ **إِلاَّ لِنَعْلَمَ** ﴾ [البقرة :١٤٣] : إلا لنرى ؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية، فإنه [يتعلق] [٥] بالمعدوم والموجود .

وقوله :﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ أى : لا يحسبن الذين لم يدخلوا فى الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما

---

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) المسند (١ / ١٧٢) ، والترمذى فى السنن برقم (٢٣٩٨)،من طريق مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٣) هكذا وقعت الآية فى جميع المخطوطات ، والصواب بعدم إثبات قوله تعالى :﴿ **وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ ؛ لأنها ليست نهاية تزييل الآية ونهاية تزييل الآية : ﴿ **وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ .

(٤) فى ف ، أ : « كيف كان يكون » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

هو أغلظ من هذا وأطم ؛ ولهذا قال :﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أى :يفوتونا ، ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى : بئس ما يظنون .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) ﴾ .

يقول تعالى :﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملا موفوراً (١) ، فإن ذلك كائن لا محالة ؛ لأنه سميع الدعاء ، بصير بكل الكائنات (٢) ؛ ولهذا قال :﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

وقوله :﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ [فصلت: ٤٦] أى : من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله غنى عن أفعال العباد ، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل [واحد] (٣) منهم ، ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾.

قال الحسن البصرى : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يوما من الدهر بسيف.

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما (٤) كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزى على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال هاهنا :﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سببُ وجود الإنسان ،ولهما عليه (٥) غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ؛ ولهذا قال تعالى :﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل

(١) فى أ : « موفراً » .
(٢) فى ت : « بصير بالكائنات » .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى ت ،ف ، أ : « الذى » .
(٥) فى أ : « إليه » .

لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣، ٢٤] .

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما ، فى مقابلة إحسانهما المتقدم ، قال: ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا** ﴾ أى : وإن حرَصا عليك أن تتابعهما فى دينهما إذا كانا مشركين ،فإياك وإياهما ، لا تطعهما فى ذلك ، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة ، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا فى زمرة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليهما فى الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب ، أى:حباً دينيا ؛ ولهذا قال :﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ** ﴾.

وقال [١] الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى ، حدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن سماك بن حرب قال : سمعت مُصعَب بن سعد يحدث عن أبيه سعد ، قال : نزلت فىَّ أربع آيات . فذكر قصة ، وقالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعَمُ طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجَروا فاها ،فأنزل الله[٢] ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ** ﴾ الآية .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى أيضا[٣] ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من [المكذبين] [٤] الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ، ولم يثبت الإيمان فى قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة فى الدنيا ، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال :﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ** ﴾ .

قال ابن عباس: يعنى:فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذى فى الله .وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالى :﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ [الحج : ١١] .

ثم قال : ﴿ **وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ** ﴾ أى : ولئن جاء نصر قريب من ربك ـ يا محمد ـ وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم ،أى [كنا] [٥] إخوانكم فى الدين، كما

(١) فى ت : « وروى » .
(٢) فى ت ، ف : « فنزلت ».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٠٧٩) ، والمسند (١/ ١٨١) ، وصحيح مسلم برقم (١٧٤٨) ، وسنن أبى داود برقم (٢٧٤٠) .
(٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) زيادة من ف .

قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النساء : ١٤١] ، وقال تعالى: ﴿ **فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ** ﴾ [المائدة : ٥٢] .

وقال تعالى مخبرا عنهم هاهنا : ﴿ **وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ** ﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿ **أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** ﴾ أى: أو ليس الله بأعلم بما فى قلوبهم ،وما تُكنّه ضمائرهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة ؟

وقوله : ﴿ **وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** ﴾ أى : وليختبرَنّ الله الناس بالضراء والسراء،ليتميز هؤلاء من هؤلاء ، ومن يطيع الله فى الضراء والسراء ، إنما يطيعه فى حظ نفسه ، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** ﴾[محمد : ٣١]، وقال تعالى بعد وقعة أحد ، التى كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان : ﴿ **مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٩] ، [والله أعلم] (١) .

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)** ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن كفار قريش : أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى :ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا ،﴿ **وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ** ﴾ أى : وآثامكم ـ إن كانت لكم آثام فى ذلك ـ علينا وفى رقابنا ، كما يقول القائل: « افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى ». قال الله تكذيبا لهم : ﴿ **وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ أى : فيما قالوه : إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد ، ﴿ **وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ** ﴾[فاطر : ١٨]، وقال تعالى: ﴿ **وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ** ﴾ [المعارج : ١٠ ، ١١] .

وقوله : ﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ** ﴾ : إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة ، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم ،وأوزاراً أخَر بسبب من أضلوا من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا ، كما قال تعالى : ﴿ **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** ﴾[النحل : ٢٥] .

وفى الصحيح :« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم

(١) زيادة من ف .

القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا » [١]وفى الصحيح : « ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفْل من دمها ؛ لأنه أول من سَنّ القتل» [٢] .

وقوله : ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : يكذبون ويختلقون من البهتان .

وقد ذكر [٣] ابن أبى حاتم هاهنا حديثا فقال: حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا عثمان بن حفص بن أبى العالية ،حدثنى سليمان بن حبيب المحاربى [٤] ، عن أبى أمامة ،رضى الله عنه ، قال : إن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به ، ثم قال :« إياكم والظلم ، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتى لا يجوزنى اليوم ظلم ! ثم ينادى مناد فيقول : أين فلان ابن فلان؟ فيأتى يتبعه من الحسنات أمثال الجبال ، فيشخص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدى الله الرحمن عز وجل ثم يأمر المنادى فينادى [٥] : من كانت له تبَاعة ـ أو : ظُلاَمة ـ عند فلان ابن فلان ، فهلمّ . فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدى الرحمن، فيقول الرحمن : اقضوا عن عبدى . فيقولون : كيف نقضى عنه ؟ فيقول لهم : خذوا لهم من حسناته . فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حسنة ، وقد بقى من أصحاب الظلامات ، فيقول : اقضوا عن عبدى . فيقولون : لم يبق له حسنة . فيقول : خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه ». ثم نَزَع النبى ﷺ بهذه الآية الكريمة :﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

وهذا الحديث له شاهد [٦] فى الصحيح [٧] من غير هذا الوجه .

وقال [٨] ابن أبى حاتم :حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا أبو بشر الحذاء ، عن أبى حمزة [٩] الثمالى ، عن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ،قال: قال لى رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه ، حتى عن كُحْل عينيه ، وعن فتات الطينة بإصبعيه [١٠] ، فلا أُلْفِيَنَّكَ تأتى يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك [١١] الله منك» [١٢] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ .

هذة تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، يخبره عن نوح [١٣] ، عليه السلام ، : أنه مكث [١٤] فى قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلا ونهاراً، وسراً ، وجهاراً ،

(١) تقدم تخريج الحديث عند الآية : ٢ من سورة المائدة .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند الآية : ٣٠ من سورة المائدة .

(٣) فى ت: « روى » . (٤) فى أ : « البخارى ». (٥) فى ت ، ف : « أن ينادى » .

(٦) فى ف ، أ : « شواهد » .

(٧) بعدها فى ت ، أ : « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ، فأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا لم يبق له حسنة ، أخذ من سيئاتهم ، فطرح عليه » .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « عن أبى النسائى » .

(١٠) فى أ : « بإصبعه » . (١١) فى ت ، ف : « أتاه » .

(١٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣١/١٠) من طريق إسحاق بن أبى حسان عن أحمد بن أبى الحوارى به .

(١٣) فى ت : « قوم نوح» . (١٤) فى أ : « لبث » .

ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق ،وإعراضا عنه وتكذيبا له ، وما آمن معه منهم إلا قليل ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ أى : بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار ، فأنت ـ يا محمد ـ لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ؛ فإن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وبيده الأمر وإليه ترجع [(١)] الأمور ، ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] ، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ، ويذل عدوّك ، ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين .

قال حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن ماهَك[(٢)] ، عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ،وعاش بعد الطوفان ستين عاما ، حتى كثر الناس وفشوا .

وقال قتادة :يقال إن عمره كله [كان] [(٣)] ألف سنة إلا خمسين عاماً ،لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة،ودعاهم ثلثمائة ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة .

وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث فى قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما .

وقال عون بن أبى شداد : إن الله أرسل نوحا إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة ، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة .

وهذا أيضا غريب ، رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، وقول ابن عباس أقرب ، والله أعلم .

وقال الثورى ،عن سلمة بن كُهَيْل ، عن مجاهد قال : قال لى ابن عمر:كم لبث نوح فى قومه ؟ قال: قلت: ألف سنة إلا خمسين عاما . قال : فإن الناس لم يزالوا فى نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا .

وقوله : ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ** ﴾ أى : الذين آمنوا بنوح عليه السلام . وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا فى سورة « هود » ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ **وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ أى : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودى ، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق ، كيف نجّاهم من الطوفان ، كما قال تعالى : ﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ . إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] ،وقال هاهنا : ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ ، وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس ، كقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**

(١) فى ف : « يرجع » . (٢) فى أ : « وائل » . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] أى : وجعلنا نوعها ، فإن التى يرمى [١] بها ليست هى التى زينة للسماء [٢] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢ ، ١٣] ، ولهذا نظائر كثيرة .

وقال ابن جرير : لو قيل : إن الضمير فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا [٣] ﴾ ، عائد إلى العقوبة ، لكان وجهاً ، والله أعلم .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء : أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له فى التقوى ، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده فى الشكر [٤] ، فإنه المشكور على النعم ، لا مُسْدىَ لها غيره ، فقال لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : أخلصوا له العبادة والخوف ، ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى:إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير فى الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر فى الدنيا والآخرة .

ثم أخبرهم أن الأصنام التى يعبدونها والأوثان ، لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء ، سميتموها [٥] آلهة،وإنما هى مخلوقة مثلكم . هكذا روى العوفى عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، والسدى .

وروى الوالبى [٦] ، عن ابن عباس : وتصنعون إفكا ، أى : تنحتونها أصناماً . وبه قال مجاهد ـ فى رواية ـ وعكرمة ، والحسن ، وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير ، رحمه الله .

وهى لا تملك لكم رزقا ، ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ وهذا أبلغ فى الحصر ، كقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَابْتَغُوا ﴾ أى فاطلبوا ﴿ عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ أى : لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئاً ، ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ أى : كلوا من رزقه واعبدوه وحده [٧] ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ، ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

وقوله : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ أى : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال فى مخالفة الرسل ، ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ يعنى : إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى

(١) فى ف : « ترمى » . (٢) فى أ: « السماء » . (٣) فى ت : « وجعلناها آية للعالمين » .
(٤) فى أ : « الشرك » . (٥) فى ف :« فسميتموها » . (٦) فى أ : « البخارى » .
(٧) فى ف ، أ : « وحده لا شريك له » .

به من الرسالة ،والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فاحرصوا [١] لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ قال : يُعزى نبيه ﷺ . وهذا من قتادة يقتضى أنه قد انقطع الكلام الأول ، واعترض بهذا إلى قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ . وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضا [٢] .

والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل ، عليه السلام [لقومه] [٣] يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله : ﴿ فما كَانَ جَوَابَ قَوْمِه ﴾ ، والله أعلم .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الخليل ، عليه السلام ، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه ، بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم ، بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذى بدأ هذا قادر على إعادته ؛ فإنه سهل عليه يسير لديه .

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة [٤] من خلق الله الأشياء : السماوات وما فيها من الكواكب النيرة : الثوابت ، والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبرارىّ وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها فى أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذى يقول للشىء : كن ، فيكون ؛ولهذا قال : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥ ، ٣٦] .

وقوله : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : هوالحاكم المتصرف ، الذى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والأمر ، مهما فعل فَعَدْلٌ ؛ لأنه

---

(١) فى ت : « فاخلصوا » .
(٢) تفسير الطبرى (٢٠ / ٨٩) .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى أ : « الباهرة » .

المالك الذى لا يظلم مثقال ذرة ، كما جاء فى الحديث الذى رواه أهل السنن : « إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه ، لعذبهم وهو غير ظالم لهم »(١) ولهذا قال تعالى : ﴿ **يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** ﴾ أى : ترجعون يوم القيامة .

وقوله : ﴿ **وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ** ﴾ أى : لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، وكل شىء خائف منه ، فقير إليه ، وهو الغنى عما سواه .

﴿ **وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ** ﴾ أى : جحدوها (٢) وكفروا بالمعاد ، ﴿ **أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي** ﴾ أى : لا نصيب لهم فيها ، ﴿ **وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ أى :موجع فى الدنيا والآخرة .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم فى كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل : أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان،﴿ **إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ** ﴾ ، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة ، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، ﴿ **قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ** ﴾ [الصافات : ٩٧ ، ٩٨] ، وذلك أنهم حَشَدوا فى جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ،وحَوّطوا حولها ،ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عَنَان السماء : ولم توقد (٣) نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفَّة المنجنيق ، ثم قذفوا به فيها ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخرج منها سالماً بعدما مكث فيها أياماً . ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً . فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجَسَده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان .

وقوله :﴿ **فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ** ﴾ أى : سَلَّمه[الله] (٤) منها ، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ، ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ يقول لقومه مقرّعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم ، فى عبادتهم الأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا ، صداقة وألفة منكم ، بعضكم لبعض فى الحياة الدنيا . وهذا على قراءة من نصب ﴿**مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ**﴾ ، على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخاذكم (٥) هذا يُحَصّل لكم المودة

---

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٦٩٩) وابن ماجه فى السنن برقم (٧٧) من حديث أبى بن كعب وزيد بن ثابت رضى الله عنهما.

(٢) فى ت ، ف ، أ : « جحدوا بها ».

(٣) فى ت : « توجد ».

(٤) زيادة من ت ، ف .

(٥) فى ف ، أ : « إنما اتخذتم » .

فى الدنيا فقط ، ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ينعكس هذا الحال ،فتبقى هذه الصداقة والمودة بَغْضَة وشنآنا ، فـ ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أى : تتجاحدون ما كان بينكم ،﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ﴾ أى : يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون [١] الأتباع ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨]، وقال تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، وقال هاهنا :﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أى:ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله . وهذا حال الكافرين ، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك .

قال [٢] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأَحْمَسى[٣] ،حدثنا أبو عاصم الثقفى [حدثنا][٤] الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هُبَيْرة المخزومى ، عن أبيه ، عن جده [٥] ، عن أم هانئ ـ أخت على بن أبى طالب ـ قالت : قال لى النبى ﷺ : « أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة فى صعيد واحد ، فمن يدرى أين الطرفان [٦]»، فقالت الله ورسوله أعلم « ثم ينادى مناد من تحت العرش : يا أهل التوحيد ، فيشرئبون » قال أبو عاصم : يرفعون رؤوسهم « ثم ينادى يا أهل التوحيد، ثم ينادى الثالثة : يا أهل التوحيد ، إن الله قد عفا عنكم » قال: « فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض فى ظُلامات الدنيا ـ يعنى : المظالم ـ ثم ينادى: يا أهل التوحيد ، ليعف بعضكم عن بعض ، وعلى الله الثواب » [٧] .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم :أنه آمن له لوط ، يقال :إنه ابن أخى إبراهيم ،يقولون هو:لوط ابن هاران بن آزر ، يعنى : ولم يؤمن به من قومه سواه ، وسارة امرأة [إبراهيم] [٨] الخليل . لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية ،وبين الحديث الوارد فى الصحيح [٩] : أن إبراهيم حين مَرّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيم عن سارة : ما هى منه ؟ فقال: [هى] [١٠] أختى،ثم جاء إليها فقال لها: إنى قد قلت له : « إنك: أختى» ، فلا تكذبينى ، فإنه ليس على وجه الأرض[أحد] [١١] مؤمن غيرك وغيرى [١٢] ، فأنت أختى فى الدين . وكأن المراد من هذا ـ والله وأعلم ـ أنه ليس على وجه

(١) فى ت، ف : « المتبوعين » وهو خطأ . (٢) فى ت : « روى » . (٣) فى أ : « الأحمصى » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ت : « بإسناده » . (٦) فى ت ، ف : « الطرفين » .
(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٠٣) من طريق محمد بن إسماعيل الأحمسى به ، وقال :« لا يروى عن أم هانئ إلا بهذا الإسناد ، تفرد به أبو عاصم » . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٥٥) : « فيه أبو عاصم ـ الربيع بن إسماعيل ـ منكر الحديث، قاله أبو حاتم ».
(٨) زيادة من ف ، أ .
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٣٧١) .
(١٠) زيادة من ت .
(١١) زيادة من ت ، أ . (١٢) فى ت : « غيرى وغيرك» .

الأرض زوجان على الإسلام غيرى وغيرك ، فإن لوطاً ، عليه السلام ، آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسِل فى حياة الخليل إلى أهل « سَدوم » وإقليمها ، وكان من أمرهم (١) ما تقدم وما سيأتى .

وقوله :﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ : يحتمل عود الضمير فى قوله :﴿ وَقَالَ ﴾ ، على لوط ، لأنه(٢) أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم ـ قال(٣) ابن عباس ، والضحاك: هو المكنى عنه بقوله :﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أى : من قومه .

ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ،﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ، فى أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية .

وقال قتادة : هاجرا جميعاً من « كوثى » ، وهى من سواد (٤) الكوفة إلى الشام . قال : وذُكر لَنا أن نبىّ الله ﷺ قال : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز أهل الأرض إلى مُهَاجَرَ إبراهيم ، ويبقى فى الأرض شرار أهلها ،حتى تلفظهم أرضهم وتقذرُهم روح الله ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير،تبيت معهم إذا باتوا ، وتَقِيل معهم إذا قالوا ، وتأكل ما سقط منهم ».

وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث ، فرواه مطولا من حديث عبد الله بن عمرو بْن العاص ، قال(٥) :

حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة ، عن شَهْر بن حَوْشَب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد ابن معاوية ، قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البِكَالى ، فجئته؛ إذ جاء رجل ، فانتبذَ الناس وعليه خَميصة ، وإذا (٦) هو عبد الله بن عمرو بن العاص . فلما رآه نوف أمسك عن الحديث ، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول:« إنها ستكون هجرة بعد هجرة ،فينحاز الناس إلى مُهَاجَرَ إبراهيم ، لا يبقى فى الأرض إلا شرار أهلها ، فتلفظهم (٧) أرضوهم ، تقْذَرهم نفسُ الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا ، وتَقِيل معهم إذا قالوا ، وتأكل منهم من تَخَلَّف » . قال : و سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيخرج أناس (٨) من أمتى من قبل المشرق ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تَرَاقيهم ،كلما خرج منهم قرن قُطع ، كلما خرج منهم قرن قطع » حتى عَدّها زيادة على عشرين مرة « كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى يخرج الدجال فى بقيتهم »(٩) .

ورواه أحمد عن أبى داود ، وعبد الصمد ، كلاهما عن هشام الدَّسْتُوائى ، عن قتادة ، به (١٠) .

وقد رواه أبو داود فى سننه ، فقال فى كتاب الجهاد ، باب ما جاء فى سكنى الشام :

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا معاذ بن هشام ،حدثنى [أبى] (١١) ، عن قتادة ، عن شهر بن

(١) فى ت : « إبراهيم » . (٢) فى ت ، ف :« الذى هو » . (٣) فى أ : « قاله » .
(٤) فى ف ، أ : « من أرض سواد » . (٥) فى أ : « فقال » . (٦) فى ف : « فإذا » .
(٧) فى ف : « تلفظهم » . (٨) فى ت : « ناس » .
(٩) المسند (٢/١٩٨) .
(١٠) المسند (٢/٢٠٩) .
(١١) زيادة من سنن أبى داود .

حوشب، عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:« ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيار أهل الأرض ألزمهم مُهاجَر إبراهيم ، ويبقى فى الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضهم وتَقْذرهم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير » (١) .

وقال (٢) الإمام أحمد أيضاً :حدثنا يزيد ،أخبرنا أبو جَنَاب يحيى بن أبى حيَّة ، عن شهر بن حوشب قال : سمعت (٣) عبد الله بن عُمَر يقول (٤) : لقد رأيتُنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بآخِرَة الآن ،والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر ، وتبايعتم بالعينة ، وتركتم الجهاد فى سبيل الله ،ليلزمنكم الله مذلَّة فى أعناقكم ، ثم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه ، وتتوبوا إلى الله عز وجل» . وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مُهاجر أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى فى الأرضين (٥) إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم ، وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تقيل حيث يقيلون (٦) ، وتبيت حيث يبيتون ، وما سقط منهم فلها » . ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول:« يخرج من أمتى قوم يسيئون الأعمال ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ـ قال يزيد : لا أعلمه إلا قال ـ : يحقر أحدكم علمه مع علمهم، يقتلون أهل الإسلام ، فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، فطوبى لمن قتلهم ،وطوبى لمن قتلوه .كلما طلع منهم قرن قَطعَه الله » . فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة ، أو أكثر،وأنا أسمع (٧) .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو الحُسَيْن بن الفضل ، أخبرنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا أبو النضر إسحاق بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا : حدثنا يحيى ابن حمزة ، حدثنا الأوزاعى ، عن نافع ـ وقال أبو النضر ، عمن حدثه ، عن نافع ـ عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة ، إلى مهاجَر إبراهيم ، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها ، تلفظهم الأرضون (٨) وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، لها ما سقط منهم » .

غريب من حديث نافع . والظاهر أن الأوزاعى قد رواه عن شيخ له من الضعفاء ، والله أعلم . وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ .

وقوله : ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ ،كقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا** ﴾[مريم : ٤٩] أى : إنه لما فارق قومَه أقرّ الله عينه بوجود ولد صالح نبى [وولد له ولد صالح] (٩) فى حياة جده .وكذلك (١٠) قال الله: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ**

(١) سنن أبى داود برقم (٢٤٨٢) .
(٢) فى ت : « وروى » . (٣) فى ت : « عن » . (٤) فى أ : «سمعت عبد الله بن عمرو قال » .
(٥) فى ت ، ف : « الأرض » . (٦) فى ، هـ، ت ، ف ، أ : « تقيل معهم حيث قالوا » والمثبت من المسند .
(٧) المسند (٢/ ٨٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٥١) : « فيه أبو جناب الكلبى وهو ضعيف » . وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (١١ / ٣٨٠) : «سنده لا بأس به ».
(٨) فى ف : « الأرض » . (٩) زيادة من ت ، ف . (١٠) فى ف : « ولذلك ».

وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء : ٧٢] أى: زيادة ، كما قال: ﴿ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** ﴾ أى : ويولد لهذا الولد ولد فى حياتكما ، تقر به أعينكما . وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن ، وثبتت به السنة النبوية ، قال الله : ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، وفى الصحيحين :« إن الكريم ابنَ الكريم ابنِ الكريم ابن الكريم يوسفُ بن يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيم» (١) .

فأما ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** [**نَافِلَةً**] (٢)﴾ ، قال: « هما ولدا إبراهيم » . فمعناه : أن ولد الولد بمنزلة الولد ؛ فإن هذا أمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس .

وقوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ** ﴾ ، هذه خلْعَة (٣) سنية عظيمة ، مع اتخاذ الله إياه خليلا ، وجعله للناس إماما ، أن جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبى بعد إبراهيم عليه السلام ، إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بنى إسرائيل من سُلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام فى ملئهم مبشراً بالنبى العربى القرشى الهاشمى ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة ، الذى اصطفاه الله من صميم العرب العَرْباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ، عليهم السلام : ولم يوجد نبى من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام [من الله تعالى] (٤) .

وقوله : ﴿ **وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ أى : جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له فى الدنيا الرزق الواسع الهنىّ والمنزل الرَّحْب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، فكل أحد يحبه ويتولاه ، كما قال ابنِ عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى** ﴾ [النجم : ٣٧]، أى : قام بجميع ما أمر به ، وكمل طاعة ربه ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [النحل : ١٢٠ ـ ١٢٢] .

﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ**

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٨) من حديث ابن عمر ، ولم أجده عند مسلم .
(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى أ : « خلقة » . (٤) زيادة من ت ، وفى أ : « من الله » .

الْمُفْسِدِينَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط ، عليه السلام، أنه أنكر على قومه سُوء صنيعهم ،وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال ، فى إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بنى آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل ، أى : يقفون فى طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ،﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ ، أى : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال فى مجالسهم التى يجتمعون فيها ، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضا فى الملأ ، قاله مجاهد. ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون ؛ قالته عائشة ، رضى الله عنها ، والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حماد بن أسامة ،أخبرنى حاتم بن أبى صغيرة ،حدثنا سمَاك بن حرب، عن أبى صالح ـ مولى أم هانئ ـ عن أم هانئ [١] قالت :سألت رسول الله ﷺ عن قَوله عز وجل : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ ، قال : « يحذفون أهل الطريق ،ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذى كانوا يأتونه » .

ورواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث أبى أسامة حماد بن أسامة عن أبى يونس القُشَيرى ، حاتم بن أبى صَغيرة [٢] ، به [٣] . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبى صغيرة [٤] ، عن سِمَاك .

وقال [٥] ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير ، عن عمرو بن قيس ، عن الحكم [٦] ، عن مجاهد :﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ قال : الصفير ، ولعب الحمام [٧] والجُلاهق ، والسؤال فى المجلس ، وحل أزرار القباء .

وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم؛ولهذا استنصر عليهم نبى الله فقال :﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ [٨]﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

(١) فى ت :« وروى الإمام أحمد بإسناده عن أم هانئ » .
(٢) فى أ : « حيوة » .
(٣) المسند (٦ / ٣٤١) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٠) .
(٤) فى أ : « حيوة » . (٥) فى ت : « وروى » . (٦) فى ت : « بإسناده » .
(٧) فى أ : « الحمار » . (٨) فى أ : « الفاسقين » وهو خطأ .

رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) ﴾ .

لما استنصر لوط ، عليه السلام ، الله عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم ، عليه السلام ، فى هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغى للضيف ، فلما رأى أنه لا همَّة لهم إلى الطعام نكرَهم وأوجس منهم خيفة ،فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة ـ وكانت حاضرة ـ فتعجبت من ذلك ، كما تقدم بيانه فى سورة « هود » و « الحجر» .فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أخذ يدافع لعلهم يُنظَرون،لعل الله أن يهديهم ،ولما قالوا : ﴿ **إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ** ﴾ ﴿**قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**﴾ أى : من الهالكين ؛ لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم . ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط فى صورة شباب حسان ،فلما رآهم كذلك ، ﴿ **سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا**﴾ ، أى : اهتم [١] بأمرهم ، إن هو أضافهم خاف [٢] عليهم من قومه،وإن لم يضفهم خشى عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم فى الساعة الراهنة . ﴿ **قَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ ، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عَنَان السماء ،ثم قلبها عليهم. وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ، وجعل [الله][٣]مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد (٤) ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً** ﴾ أى : واضحة ، ﴿ **لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ ، كما قال : ﴿**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] .

﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)** ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب ، عليه السلام ، أنه أنذر قومه أهل مَدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال : ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ** ﴾ .

قال ابن جرير : قال بعضهم : معناه :واخشوا اليوم الآخر ، وهذا كقوله تعالى :﴿ **لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ** ﴾ [الممتحنة : ٦] .

ثم نهاهم عن العيث فى الأرض بالفساد ،وهو السعى فيها والبغى على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله

---

(١) فى ف ، أ : « اغتم ». (٢) فى أ : « خوفا » . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٤) فى ت : « القيامة » .

برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها (١) ، وعذاب يوم الظلة الذى أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم ·وقد تقدمت قصتهم مبسوطة فى سورة « الأعراف ، وهود ، والشعراء »·

وقوله :﴿ **فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ ، قال قتادة : ميتين · وقال غيره : قد ألقى بعضهم على بعض ·

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع فى عذابهم،فأخذهم (٢) بالانتقام منهم ، فعاد قوم هود ، وكانوا يسكنون الأحقاف وهى قريبة (٣) من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادى القرى · وكانت العرب تعرف مساكنهما (٤) جيدا ، وتمر عليها كثيراً · وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة ·وفرعون ملك مصر فى زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله ،﴿ **فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ** ﴾ أى : كانت عقوبته بما يناسبه ، ﴿ **فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا** ﴾ ، وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جدا، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم ، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عَنَان السماء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدناً بلا رأس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر (٥) . ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ** ﴾ ، وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم (٦) الدلالة ، من تلك الناقة التى انفلقت عنها الصخرة ، مثل ما سألوا سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم ، وتهددوا نبى الله صالحاً ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات .

﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ** ﴾ ، وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى فى الأرض مرحاً ، وفرح ومرح وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال فى مشيته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة · ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا** ﴾ ، وهم (٧) فرعون ووزيره هامان ، وجنوده عن آخرهم ، أغرقوا فى صبيحة واحدة ، فلم ينج منهم مخبر ، ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ** ﴾ أى : فيما فعل بهم ، ﴿ **وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ أى : إنما فعل ذلك

---

(١) فى ت : « حناجرهم » · (٢) فى ت ، ف : « وأخذهم » · (٣) فى أ : « قرية » ·

(٤) فى ت : « مساكنهم » · (٥) فى ف ، أ : « خاوية » · (٦) فى ف ، أ : « عليهم » ·

(٧) فى ف ، أ : « وهو » ·

بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم ·

وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية ، وهو من باب اللف والنشر ، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة ، ثم قال: ﴿ فَكُلاًّ (١) أَخَذْنَا بِذَنْبِه ﴾ [الآية] (٢) ، أى : من هؤلاء المذكورين ، وإنما نَبهتُ على هذا لأنه قد روى أن ابن جُرَيج قال :قال (٣) ابن عباس فى قوله : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْه حَاصِبًا ﴾ ،قال : قوم لوط · ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، قال : قوم نوح ·

وهذا (٤) منقطع عن ابن عباس ؛ فإن ابن جُرْيج لم يدركه · ثم قد ذكر فى هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء ، وطال السياقُ والفصلُ بين ذلك وبين هذا السياق.

وقال قتادة :﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْه حَاصِبًا ﴾ قال:قوم لوط ، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾، قوم شعيب · وهذا بعيد أيضاً لما تقدم ، والله أعلم ·

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ ·

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ورزقهم ، ويتمسكون بهم فى الشدائد ، فهم فى ذلك كبيت العنكبوت فى ضعفه ووهنه (٥) فليس فى أيدى هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدى عنه شيئاً ، فلو عَلموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل فى اتباع الشرع فإنه مستمسك (٦) بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، لقوتها وثباتها ·

ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به : إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ·

ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُون ﴾ أى : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون فى العلم المتضلعون منه ·

قال (٧) الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنى ابن لَهيعة ، عن أبى قَبِيل (٨) ، عن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، قال : عَقَلْتُ عن رسول الله ﷺ ألف مثل (٩) ·

وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ حيث يقول [الله] (١٠) تعالى :

---

(١) فى ت : « فمنهم » وهو خطأ ·
(٢) زيادة من أ ·
(٣) فى ت : « عن » ·
(٤) فى ت : « وهو » ·
(٥) فى ت : « وذهابه » ·
(٦) فى ف : « متمسك » ·
(٧) فى ت : « روى » ·
(٨) فى ت : « بإسناده » ·
(٩) المسند (٤/٢٠٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٦٤) : « إسناده حسن » ·
(١٠) زيادة من ت ، وفى ف :« تبارك و » ·

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ .

وقال [١] ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا أبى ، حدثنا ابن سنَان ، عن عمرو بن مُرّة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزننى ، لأنى سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى [مخبراً][٢] عن قدرته العظيمة : أنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعنى : لا على وجه العبث واللعب ، ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥]، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية .

ثم قال تعالى آمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن،وهو قراءته وإبلاغه للناس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يعنى : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات ، أى : إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك . وقد جاء فى الحديث من رواية عمْران،وابن عباس مرفوعا :« من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر،لم تزده من الله إلا بعدا »[٣].

[ذكر الآثار الواردة فى ذلك][٤] :

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن هارون المخرمى الفلاس ، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد ، حدثنا عمر بن أبى عثمان ، حدثنا الحسن ، عن عمران بن حُصين قال : سُئل النبى ﷺ عن قول الله : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ ، قال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فلا صلاة له » [٥] .

---

(١) في ت : « رواه » . (٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) أما حديث عمران بن حصين ، فقد أخرجه ابن أبى حاتم ـ كما سيأتى ـ من طريق عمر بن أبى عثمان عن الحسن عن عمران به ، والحسن لم يسمع من عمران بن حصين . وأما حديث ابن عباس ، فقد رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٥٤) من طريق ليث عن طاوس عن ابن عباس به .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا الحديث فيه علتان ذكرهما الشيخ ناصر الدين الألبانى فى الضعيفة وهما :

١ - الانقطاع بين الحسن ـ وهو البصرى ـ وعمران بن حصين ، فإنهم اختلفوا فى سماعه منه فإنه ثبت ، فعلته عنعنته الحسن فإنه مدلس معروف بذلك .

٢ ـ جهالة عمر بن أبى عثمان ، ذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٣/١/١٢٣) وقال : « سمع طاوساً قوله ، روى عنه يحيى ابن سعيد » .

وحدثنا على بن الحسين ، حدثنا يحيى بن أبى طلحة اليربوعى حدثنا أبو معاوية ، عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بها من الله إلا بعدا » ورواه الطبرانى من حديث أبى معاوية [١] .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا خالد بن عبد الله ، عن العلاء بن المسيب ، عمن ذكره ،عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ ، قال : فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا. فهذا موقوف [٢] .

قال ابن جرير : وحدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا على بن هاشم بن [٣] البريد ، عن جُوَيبر، عن الضحاك ، عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر » قال: وقال سفيان : ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ** ﴾ [هود : ٨٧] قال: فقال سفيان : أى والله ، تأمره وتنهاه [٤] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو خالد ،عن جويبر ، عن الضحاك ،عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ـ وقال أبو خالد مَرّة : عن عبد الله ـ :« لا صلاة لمن لم يطع الصلاه ، وطاعة الصلاة تنهاه [٥] عن الفحشاء والمنكر » [٦] .

والموقوف أصح ، كما رواه الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد قال : قيل لعبد الله : إن فلانا ليطيل الصلاة ؟ قال : إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها [٧] .

وقال ابن جرير : قال على: حدثنا إسماعيل بن مسلم [٨] ، عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بها من الله إلا بعداً » [٩] .

والأصح فى هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن وقتادة ، والأعمش وغيرهم ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا جَرير ـ يعنى ابن عبد الحميد ـ عن الأعمش ، عن أبى صالح قال : أراه عن جابر ـ شك الأعمش ـ قال : قال رجل للنبى ﷺ : إن فلانا يصلى فإذا أصبح سرق ، قال : « سينهاه [١٠] ما يقول » [١١] .

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ٥٤) وقال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء : « إسناده لين » .

(٢) تفسير الطبرى (٢٠/ ٩٩) .

(٣) فى ف : « عن » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٠ / ٩٩) وفيه جويبر وهو متروك .

(٥) فى ف : « تنهى » .

(٦) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦ / ٤٦٥) مرفوعا ، وقال : « أخرج عبد بن حميد وابن جرير ،وابن مردويه بسند ضعيف » فذكر الرواية التى قبلها .

(٧) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٣ / ٢٩٨) من طريق زائدة عن عاصم عن شقيق عن ابن مسعود قال : « لا تنفع الصلاة إلا من أطاعها ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .... ﴾ الآية » .

(٨) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « وقال ابن جرير : حدثنا على بن إسماعيل بن مسلم » والمثبت من الطبرى .

(٩) تفسير الطبرى (٢٠ / ٩٩) وهو من مراسيل الحسن .

(١٠) فى ف : « ستنهاه » .

(١١) مسند البزار برقم (٧٢١) « كشف الأستار » .وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٢٥٨) : « رجاله ثقات » .

وحدثنا محمد بن موسى الحَرَشى (١) ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن الأعمش عن أبى صالح ، عن جابر ، عن النبى ﷺ بنحوه ـ ولم يشك(٢) ـ ثم قال : وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش واختلفوا فى إسناده ، فرواه غير واحد عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة أو غيره ،وقال قيس عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر ، وقال جرير وزياد : عن عبد الله، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن جابر .

وقال الإمام أحمد :حدثنا وَكِيع ، حدثنا الأعمش قال :أنا أبو صالح (٣) ، عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق ؟ فقال : « إنه سينهاه ما يقول (٤) » (٥) .

وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى : أعظم من الأول ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ أى : يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم .

وقال أبو العالية فى قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ ، قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال (٦) ، فكلّ صلاة لا يكون فيها شىء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية،وذكر الله . فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر القرآن يأمره وينهاه .

وقال ابن عَوْن الأنصارى : إذا كنت فى صلاة فأنت فى معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذى أنت فيه من ذكر الله أكبر .

وقال حماد بن أبى سليمان :﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ يعنى : ما دمت فيها .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله :﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، يقول : ولذكر الله لعباده أكبر،إذا ذكروه من ذكرهم إياه .

وكذا رَوَى غير واحد عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، وغيره .

وقال ابن أبى حاتم :حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن داود بن أبى هند ، عن رجل ، عن ابن عباس : ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال : ذكر الله عند طعامك وعند منامك . قلت : فإن صاحبا لى فى المنزل يقول غير الذى تقول: قال : وأى شىء يقول ؟ قلت : قال : يقول الله : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة :١٥٢] ، فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه . قال :صدق .

قال : وحدثنا أبى ، حدثنا النفيلى ، حدثنا إسماعيل ، عن خالد ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس

---

(١) فى ف ، أ : « الجرشى » .

(٢) مسند البزار برقم (٧٢٢) « كشف الأستار » .

(٣) فى هـ ، ت ، ف : « أبو صالح أخبرنا » ،والمثبت من المسند .

(٤) فى ف : « ستنهاه ما تقول » .

(٥) المسند (٢ / ٤٤٧)،ورواه البزار فى مسنده برقم (٧٢٠) « كشف الأستار » من طريق الأعمش به ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٢٥٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٦) فى أ : « خلال » .

فى قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ،قال : لها وجهان ، قال : ذكر الله عندما حرمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه ٠

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن عبد الله بن ربيعة قال:قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى :﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَر ﴾ ؟ قال : قلت : نعم ٠ قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة ، وقراءة القرآن، ونحو ذلك . قال: لقد قلت قولاً عجباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه ، أكبر من ذكركم إياه [(١)] ٠

وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس ٠ وروى أيضا عن ابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وسلمان الفارسى ، وغيرهم ٠ واختاره ابن جرير ٠

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ .

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف ٠

وقال آخرون : بل هى باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم فى الدين ، فيجادل بالتى هى أحسن ، ليكون أنجع فيه ، كما قال تعال :﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه :٤٤]. وهذا القول اختاره ابن جرير [(٢)] ، وحكاه عن ابن زيد ٠

وقوله :﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أى :حادوا عن وجه الحق [(٣)] ،وعَمُوا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] ٠

قال جابر : أمرنَا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف ٠

قال مجاهد : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم ﴾ ، يعنى: أهل الحرب ،ومن امتنع منهم عن أداء الجزية ٠

وقوله : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُم ﴾ ، يعنى: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نُقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ، ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلا ،

(١) تفسير الطبرى (٢٠ / ٩٩) ٠

(٢) تفسير الطبرى (٢١ / ٢) ٠

(٣) فى ف ، أ : « الحجة » ٠

ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلاً ولا مؤولاً .

وقال البخارى ، رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عثمان بن عُمَر ، أخبرنا على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة (١) ، رضى الله عنه ، قال : كان أهل الكتاب (٢) يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون »: وهذا الحديث تفرد (٣) به البخارى (٤) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عُمَر ،أخبرنا يونس،عن الزهرى ، أخبرنى ابن أبى نملة (٥) : أن أبا نَمْلَةَ الأنصارى أخبره ،أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ ،جاءه رجل من اليهود ،فقال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة ؟ قال رسول الله ﷺ : « الله أعلم » : قال اليهودى أنا أشهد أنها تتكلم . فقال رسول الله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله ورسله وكتبه ، فإن كان حقاً لم (٦) تكذبوهم ، وإن كان باطلاً لم (٧) تصدقوهم » (٨) .

قلت : وأبو نَمْلَةَ هذا هو : عُمَارة . وقيل : عمار. وقيل: عمرو بن معاذ بن زُرَارة الأنصارى ، رضى الله عنه .

ثم ليعلم أن أكثر ما يُحدّثون به غالبُه كذب وبهتان ؛لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحا .

قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا سفيان ، عن سليمان بن عامر ، عن عمارة بن عمير ، عن حُرَيْث (٩) بن ظُهَيْر ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفى قلبه تالية ، تدعوه إلى دينه كتالية المال (١٠) .

وقال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل (١١) ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، أخبرنا ابن شهاب ، عن عُبَيْد الله بن عبد الله (١٢) ، عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء ، وكتابكم الذى أنزل على رسوله ﷺ أحدث (١٣) تقرؤونه محضا لم يُشَب ، وقد حدَثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله ، وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو (١٤) من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن (١٥) مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم (١٦) .

---

(١) فى ت : « روى البخارى بإسناده عن أبى هريرة » .
(٢) فى هـ ، ت ، ف : « كان أهل التوراة » والمثبت من البخارى . (٣) فى ت : « انفرد » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٥ ، ٧٣٦٢) .
(٥) فى ت : « روى الأمام أحمد بإسناده » . (٦ ، ٧) فى ت : « فلا » .
(٨) المسند (٤/١٣٦) .
(٩) فى أ : « حرب » .
(١٠) تفسير الطبرى (٢١ / ٤) .
(١١) فى أ : « سليمان » . (١٢) فى ت : « روى البخارى بإسناده » . (١٣) فى ت : « أحدث الكتب » .
(١٤) فى ف ، أ : « وقالوا : هذا هو » . (١٥) فى ف : « من » .
(١٦) صحيح البخارى برقم (٧٣٦٣) .

وقال البخارى : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب ، عن الزهرى،أخبرنى حُمَيد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة ـ وذكرَ كعبَ الأحبار ـ فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب [١] .

قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ؛ لأنهم لم يكن فى ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة ، ومع ذلك وقرب العهد وضعت [٢] أحاديث كثيرة فى هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علما بذلك ، كُلٌّ بحسبه ، ولله الحمد والمنة .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) ﴾ .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكُتُب [٣] على من قبلك ـ يا محمد ـ من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب .

وهذا الذى قاله حسن ومناسبة وارتباط [٤] جيد .

وقوله :﴿ **فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** ﴾ أى : الذين أخذوه فتلَوْه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبد الله بن سلام ،وسلمان الفارسى ، وأشباههما .

وقوله: ﴿ **وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ** ﴾ ، يعنى العرب من قريش وغيرهم ، ﴿**ومايَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُون** ﴾ ، أى : ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغطى ضوء الشمس بالوصائل ، وهيهات .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ** ﴾ ، أى: قد لبثت فى قومك ـ يا محمد ـ ومن قبل أن تأتى بهذا القرآن عُمراً لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب [٥] . وهكذا صفته فى الكتب المتقدمة ، كما قال تعالى:﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ الآية [الأعراف:١٥٧] .وهكذا كان،صلوات الله وسلامه عليه [دائماً أبداً] [٦] إلى يوم القيامة [٧] ، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين

---

(١) صحيح البخارى برقم (٧٣٦١) .
(٢) فى ت : « وضعفت » .
(٣) فى أ : « الكتاب » . (٤) فى ف : « ومناسبته وارتباطه » . (٥) فى ف : « لا يقرأ ولا يكتب » .
(٦) زيادة من ف ، و فى أ : « دائماً » . (٧) فى ف ، أ : « الدين » .

يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخرى الفقهاء ، كالقاضى أبى الوليد الباجى ومن تابعه أنه ،عليه السلام [١] ،كتب يوم الحديبية : «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله » : فإنما حمله على ذلك رواية فى صحيح البخارى : « ثم أخذ فكتب » : وهذه محمولة على الرواية الأخرى : « ثم أمر فكتب » . ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجى، وتبرؤوا منه، وأنشدوا فى ذلك أقوالا ، وخطبوا به فى محافلهم :وإنما أراد الرجل ـ أعنى الباجى ، فيما يظهر عنه ـ أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ،لا أنه كان يحسن الكتابة ،كما قال ،عليه الصلاة والسلام [٢] ، إخباراً عن الدجال : « مكتوب بين عينيه كافر » وفى رواية : « ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن» [٣] ،وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ، عليه السلام [٤] ،حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له؛قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو ﴾ أى : تقرأ ﴿ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ ، لتأكيد النفى، ﴿ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ تأكيد أيضا ، وخرج مخرج الغالب ،كقوله تعالى :﴿وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾[الأنعام : ٣٨] .

وقوله :﴿ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى:لو كنت تحسنها [٥] لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما تعلم هذا من كُتب قبله مأثورة عن الأنبياء ،مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمى لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : ٥] ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦] ،وقال هاهنا: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى : [هذا] [٦] القرآن آيات بينة واضحة فى الدلالة على الحق ، أمرا ونهيا وخبرا ، يحفظه العلماء ، يَسَّره الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ: « ما من نبى إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر و إنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » [٧].

وفى حديث عياض بن حمار [٨] ، فى صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : إنى مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائما ويقظانَ » [٩] . أى : لو غسل الماء المحلَّ المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل ، كما جاء فى الحديث الآخر : « لو كان القرآن فى إهاب ، ما أحرقته النار» [١٠] لأنه محفوظ فى الصدور، ميسر [١١] على الألسنة ، مهيمن على القلوب ،معجز لفظا ومعنى؛ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة ، فى صفة هذه الأمة :« أناجيلهم فى صدورهم» .

---

(١) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٢) فى ف ، أ : « ﷺ » .
(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٣١) من حديث أنس رضى الله عنه .
(٤) فى أ : « ﷺ » . (٥) فى ت : « تحسن الكتابة » (٦) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وسيأتى إن شاء الله .
(٨) فى أ : « حماد » .
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .
(١٠) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ١٥١) من حديث عقبة بن عامر وتقدم الكلام عليه فى فضائل القرآن .
(١١) فى ت : « وميسر » .

واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾ ، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه بيمينك ، آياتٌ بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب [1] . ونقله عن قتادة ، وابن جُرَيج . وحكى الأول عن الحسن [البصرى] [2] فقط .

قلت: وهو الذى رواه العوفى عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاك ، وهو الأظهر، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ** ﴾ أى : ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون، أى : المعتدون المكابرون ، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى تعنتهم وطلبهم آيات ـ يعنون ـ ترشدهم إلى أن محمدا رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد : ﴿ **إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ** ﴾ أى : إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ؛ لأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان ، فلا يجيبكم إلى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

وقوله: ﴿ **وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ أى: إنما بعثت نذيراً لكم بَيِّنَ النِّذارة فَعلَىَّ أن أبلغكم رسالة الله و ﴿ **مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** ﴾ [الكهف : ١٧]، وقال تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم [به] [3] ـ وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذى هو أعظم من كل معجزة ،إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه ـ فقال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ أى : أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم ، الذى فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدا

(١) تفسير الطبرى (٢١ / ٥) .
(٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) زيادة من ف .

من أهل الكتاب،فجئتهم بأخبار ما فى الصحف الأولى ، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلى ،كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ (١) مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ [طه : ١٣٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثنى سعيد بن أبى سعيد ، عن أبيه (٢) عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامه »٠أخرجاه (٣) من حديث الليث (٤) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إن فى هذا القرآن : ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أى : بياناً للحق ، وإزاحة للباطل و ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ بما فيه حلول النّقْمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ، ﴿ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى: قل: ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا (٥) ﴾ أى: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب،ويعلم ما أقول لكم من إخبارى عنه ، بأنه أرسلنى ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧] ، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات ٠

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [أى] (٦) : لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أى : يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا ، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل ، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل ، سيجازيهم على ذلك ، إنه حكيم عليم٠

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين فى استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله أن يحل

---

(١) فى جميع النسخ : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ﴾ والصواب ما أثبتناه ٠

(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » ٠

(٣) فى ت : « أخرجه البخارى ومسلم » ٠

(٤) المسند (٢ / ٣٤١) وصحيح البخارى برقم (٤٩٨١) وصحيح مسلم برقم (١٥٢) ٠

(٥) فى أ : « كفى بالله شهيداً بينى وبينكم » وهو خطأ ٠

(٦) زيادة من ت ، أ ٠

عليهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وقال هاهنا: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى : لولا ما حتّم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريبا سريعا كما استعجلوه .

ثم قال ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ أى : فجأة ، ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى : يستعجلون بالعذاب ، وهو واقع بهم لا محالة .

قال شعبة، عن سِمَاك ، عن عِكْرمة قال فى قوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، قال: البحر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد ، حدثنا أبى عن مجالد ، عن الشعبى ؛ أنه سمع ابن عباس يقول : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ : وجهنم هو هذا البحر الأخضر ، تنتثر الكواكب فيه ، وتُكور فيه الشمس والقمر، ثم يستوقد فيكون هو جهنم .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبد الله بن أمية ، حدثنى محمد بن حُيَى ، حدثنا (١) صفوان بن يعلى ، عن أبيه ، أن النبي ﷺ قال : « البحر هو جهنم » ، قالوا : ليعلى ، فقال : ألا ترون أن الله يقول : ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف : ٢٩] ، قال : لا ، والذى نفس يعلى بيده لا أدخلها أبدا حتى أعرض على الله ، ولا يصيبنى منها قطرة حتى أعرض على الله عز وجل (٢) .

هذا تفسير غريب ، وحديث غريب جداً ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : ٤١] ، وقال : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦]، وقال : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٩] ، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ فى العذاب الحسى .

وقوله: ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوى على النفوس ، كقوله : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر ٤٨ ، ٤٩] ، وقال: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٦] .

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

---

(١) فى ت : « وروى الإمام أحمد بسنده عن » .

(٢) المسند (٤ / ٢٣٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٦) : « رجاله ثقات » .

الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ،حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم؛ولهذا قال : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد ، حدثنى جُبَيْر بن عمرو القرشى ، حدثنى أبو سعد الأنصارى ، عن أبى يحيى مولى [١] الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : « البلاد بلاد الله ،والعباد عباد الله ، فحيثما أصبتَ خيراً فأقم » [٢] .

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا، على دينهم هناك ، فوجدوا هناك خير المنزلين ، أصحمة النجاشى ملك الحبشة ، رحمه الله ، آواهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سُيُوما ببلاده . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة [٣] .

---

(١) فى ت : « روى الإمام أحمد بإسناده عن » .

(٢) المسند (١ / ١٦٦) ،وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٧٢) : « فيه جماعة لم أعرفهم » .

(٣) بعدها فى ت ـ وأظنها من الناسخ ـ ما يلى : « أما قصة هجرة الحبشة ، فقال ابن إسحاق : حدثنى الزهرى ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، عن أمه أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج النبى ﷺ قالت : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا خير جار النجاشى ، آمنا على ديننا ، وعبدنا الله لا نؤذى ، ولا نسمع شيئا نكرهه فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم ، أن يبعثوا إلينا رجلين جلدين ، وأن يهدوا إلى النجاشى هدايا مما يُستطرف من متاع مكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية وقالوا لهما : ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشى ، ثم قدموا إلى النجاشى هداياه ، ثم سلوه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجنا حتى قدمنا عليه ، ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار فلم يبق بطريق من بطارقته إلا دفعوا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى ، ثم قالا لكل بطريق : إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم فإن قومهم أعلا بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ؛ فقالوا لهما : نعم ، ثم أنهما قدما هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما ثم كلماه فقالا :أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك ، جاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم وآباءهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلا بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى،فقالت بطارقته حوله : صدقوا أيها الملك قومهم أعلا بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهم ليردوهم إلى بلادهم وقومهم ،فغضب النجاشى وقال : لاها الله لا أسلمهم إليهم أبدا ولا أُكادُ ،قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان الرجلان . فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى بلادهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم وأحسنت جوارهم ما جاورونى ونزلوا بلادى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون لهذا الرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول : والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ، كائناً فى ذلك ما هو كائن ، قال : فلما جاؤوه وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ،فلما دخلوا عليه سألهم ،فقال: ما هذا الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل .
=

ثم قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى : أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا فى طاعة الله وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ، ولا محيد عنه ، ثم إلى الله

= قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب . فقال: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه ، الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث، وآداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قالت : فعد عليه أمور الإسلام . فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله عز جل ، فعبدنا الله لا نشرك به شيئاً ،وحرمنا ما حرم علينا،وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ،فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل كما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . قال : فقال له النجاشى : وهل عندك مما جاء به من عند الله شىء ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشى : فاقرأه على ، فقرأ عليه صدراً من ﴿ كهيعص ﴾ .

قالت : فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما يتلى عليهم . وقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا . لا والله لا أسلمهم إليكما ولا أُكاد . قالت : فلما خرجا من عنده . قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ : لا تفعل فإن لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله لأخبرنه أنهم يقولون فى عيسى قولاً عظيماً . فأرسل إليهم فسألهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه. قالت : ولم ينزل بنا مثلها ، فاجتمع القوم . فقال بعضهم لبعض:ما تقولون فى عيسى إن سألكم عنه .قالوا : نقول فيه ما قال الله عز وجل ، وما جاء به نبينا ، كائناً فى ذلك ما هو كائن . قالت : فلما دخلوا عليه . قال لهم : ما تقولون فى عيسى ابن مريم ، قالت : فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ﷺ . يقول فيه : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . قالت : فضرب النجاشى يده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال له : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .

قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال . فقال : وإن تناخرتم اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى . والشيوم : الآمنون . من سبكم غُرِّم ، من سبكم غرم، ما أحب أن لى دبراً من ذهب ، وأنى آذيت رجلاً منكم . والدبر : بلسان الحبشة الجبل . وردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ،وما أطاع الناس فى، فأطيعهم فيه . قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما . قالت أم سلمة : فكنت أتعرض لهم ليسبونى فأغرمهم ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

قالت : فوالله ما أغلا لعلى ذلك ، إذ انبرى له رجل من الحبشة ينازعه ملكه . قالت : فوالله، ما أعلمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه ، عند ذلك تخوفاً من أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى . فيأتى رجلاً لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه . قالت : وسار إليه النجاشى وبينهما عرض النيل . قالت : فقال أصحاب رسول الله ﷺ : من رجل يخرج حتى يشهد وقعة القوم ثم يأتينا بخبر القوم ؟ قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا، قالت : وكان من أحدث القوم سناً . قالت : فنفخوا له قربة فجعلوها فى صدره ، ثم سبح حتى خرج إلى النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . قالت : ودعونا الله عز وجل للنجاشى بالظهور على عدوه ، والتمكين له من بلاده .

قالت : فوالله إنا لعلى ذلك الحال متوقعين لما هو كائن ، إذا طلع الزبير يسعى ، ويليح بثوبه ،ألا أبشروا ، قد ظهر النجاشى، وقد أهلك الله عدوه ، فوالله ما أعلمنا فرحنا فرحة قط مثلها . قالت : ورجع النجاشى وأهلك الله عدوه ، ومكن له فى بلاده ، واستوسق عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده فى خير منزل ، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة .

وروى عن الزبير قال : لما نزل بالنجاشى عدوه من أهل أرضه ، جاءه المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن نخرج إليهم فنقاتل معك، وترى جراءتنا ، ونجزيك بما صنعت بنا فقال : ذو ينصره الله خير من الذى ينصره الناس ، فأنى ذلك عليهم » .

المرجع [والمآب] (١) ، فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ، ووافاه أتم (٢) الثواب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أى : لنسكننهم منازلَ عاليةً فى الجنة تجرى من تحتها الأنهار ، على اختلاف أصنافها ، من ماء وخمر ، وعسل ولبن ، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى: ماكثين فيها أبدا لا يبغون عنها حولا ، ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ : نعمت هذه الغرفُ أجراً على أعمال المؤمنين، ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى : على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، ونابذوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده .

قال ابن أبى حاتم ، رحمه الله : حدثنى أبى ، حدثنا صفوان المؤذنَ ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، عن جده أبى سلام الأسود ، حدثنى أبو معَانق (٣) الأشعرى ،أن أبا مالك الأشعرى حدثه أن (٤) رسول الله ﷺ حدثه أن فى الجنة غُرَفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وأباح الصيام ، وأقام الصلاة (٥) والناس نيام (٦) .

[قوله] (٧) : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ،فى أحوالهم كلها ، فى دينهم ودنياهم .

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ، فإنهم (٨) بعد قليل صاروا حكام البلاد فى سائر الأقطار والأمصار ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أى: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر (٩) شيئاً لغد ، ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى : الله يقيض لها رزقها على ضعفها ، وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه ،حتى الذر فى قرار الأرض ، والطير فى الهواء والحيتان فى الماء، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروى ، حدثنا يزيد ـ يعنى ابن هارون ـ حدثنا الجراح بن منْهَال الجزرى ـ هو أبو العطوف ـ عن الزهرى ، عن رجل (١٠) ، عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة ،فجعل يلتقط من التمر ويأكل ،فقال لى : « يا ابن عمر ، مالك لا تأكل ؟ » قال : قلت : لا أشتهيه يا رسول الله ،قال :« لكنى أشتهيه ،

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى ت : « ووفاه تمام » .

(٣) فى هـ ، ت : « أبو معاوية » ،والصواب ما أثبتناه من ف ، أ ،والمسند (٥ / ٣٤٣) .

(٤) فى ت : «روى ابن أبى حاتم بإسناده عن أبى مالك الأشعرى » .

(٥) فى أ : « وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل » .

(٦) ورواه الإمام أحمد فى مسنده (٥ / ٣٤٣) من طريق أبى معانق عن أبى مالك به ، وسيأتى عند الآية : ٢٠ من سورة الزمر .

(٧) زيادة من ت . (٨) فى ف : « فهم » . (٩) فى أ : « ولا يدخر » .

(١٠) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

وهذه صبح رابعة منذ لم أزق طعاما ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بَقيتَ فى قوم يَخْبئون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ » قال : فو الله ما برحنا ولا رِمْنا حتى نزلت : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فقال رسول الله ﷺ: « إن الله لم يأمرنى بكنز الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله، ألا وإنى لا أكنز ديناراً ولا درهما، ولا أخبئ رزقا لغد [(١)] » [(٢)] .

وهذا حديث غريب ، وأبو العطوف الجزرى ضعيف .

وقد ذكروا أن الغراب إذا فَقسَ عن فراخه البَيض ، خرجوا وهم بيضٌ فإذا رآهم أبواهم كذلك ، نفرا عنهم أياما حتى يسود الريش ، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه ، فيقيض الله له طيراً [(٣)] صغاراً كالبَرغَش فيغشاه فيتقوت منه تلك الأيام حتى يسود ريشه ، والأبوان يتفقدانه كل وقت ، فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه ، فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق ، ولهذا قال الشاعر :

يارازق النعَّاب [(٤)] فى عُشه وجَابر العَظْم الكَسير المهيض

وقد قال الشافعى فى جملة كلام له فى الأوامر ،كقول النبى ﷺ : « سافروا تصحوا وترزقوا» .

قال البيهقى أخبرنا إملاء أبو الحسن على بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد ، أخبرنا محمد بن غالب ، حدثنى محمد بن سنان ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن رَدَّاد ـ شيخ من أهل المدينة ـ حدثنا عبد الله بن دينار [(٥)] ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « سافروا تصحوا وتغنموا ». قال : ورويناه عن ابن عباس [(٦)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن دَرّاج ، عن عبد الرحمن بن حُجَيرة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا ، واغزوا تغنموا »[(٧)] .

وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعا ، وعن معاذ بن جبل موقوفاً [(٨)] . وفى

---

(١) فى ت : « إلى غد » .

(٢) ورواه البغوى فى تفسيره (٦ /٢٥٣) من طريق إسماعيل بن زرارة عن الجراح بن المنهال به ـ وقال الشوكانى فى فتح القدير (٤/ ٢١٣) : « وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبى ﷺ فقد كان يعطى نساءه قوت العام كما ثبت ذلك فى كتب الحديث المعتبرة ، وفى إسناده أبو العطوف الجزرى وهو ضعيف » . أ . هـ مستفاداً من حاشية تفسير البغوى .

(٣) فى ت : « طيوراً » .

(٤) فى ت : « البغاب » وفى أ : « النعام » .

(٥) فى ت : « وروى البيهقى بسنده » .

(٦) السنن الكبرى (٧ / ١٠٢) ورواه ابن عدى فى الكامل (٦ / ١٩٠) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن رواد به ، وقال : « لا أعلم يرويه غير الرواد هذا ، وعامة ما يرويه غير محفوظ » وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٢ / ٣٠٦) : « سألت أبى عن هذا الحديث فقال : هذا حديث منكر » .

(٧) المسند (٢ / ٣٨٠) وفيه ابن لهيعة ودراج ضعيفان .

(٨) أما حديث ابن عباس ، فرواه البيهقى فى السنن الكبرى (٧ / ١٠٢)، من طريق بسطام بن حبيب عن القاسم عن أبى حازم عن ابن عباس مرفوعا ، ورواه ابن عدى فى الكامل (٧ / ٥٧) من طريق نهشل، عن الضحاك، عن ابن عباس، مرفوعاً . وقال : « هذه الأحاديث كلها عن الضحاك غير محفوظة » . ولم أجده عن معاذ موقوفاً ، وسيأتى مرفوعاً ، وجاء من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعاً . ورواه ابن عدى فى الكامل (٣ / ٤٥٤) عن سوار بن مصعب ، عن عطية ، عن أبى سعيد ، مرفوعاً وقال : « سوار هذا عامة مايرويه غير محفوظ » .

لفظ : « سافروا مع ذوى الجدود والميسرة » [(١)] .

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾ .

يقول تعالى مقررا [(٢)] أنه لا إله إلا هو ؛ لأن المشركين ـ الذين يعبدون معه غيره ـ معترفون أنه [(٣)] المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر،وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده،ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم ، فمنهم الغنى والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلا منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء [(٤)] المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد فى ملكه فليكن الواحد فى عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى : الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الآباد .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : لآثروا ما يبقى على ما يفنى .

ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا

---

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٣٣٨٧) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه ، وذكره السيوطى فى الجامع ورمز له بالضعف وأعله المناوى بإسماعيل بن زياد .

(٢) فى ت : « مخبراً » . (٣) فى ف : « بأنه » . (٤) فى ت : « الأصنام » .

منهم دائما ، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ (١) إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء : ٦٧] . وقال هاهنا : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

وقد ذكر محمد بن إسحاق ، عن عكرمة بن أبى جهل : أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة ، اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : ياقوم ، أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا يُنَجّى ههنا إلا هو . فقال عكرمة : والله إن كان لا ينجى فى البحر غيره ، فإنه لا ينجى غيره فى البر أيضا ، اللهم لك علىَّ عهد لئن خرجتُ لأذهبن فلأضعَنّ يدى فى يد محمد فلأجدنه رؤوفاً رحيما ، وكان (٢) كذلك .

وقوله : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ : هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة ؛ لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل . وقد قدمنا تقرير ذلك فى قوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨] .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ .

يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمه ، الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والبادى، ومن دخله كان آمنا ، فهم فى أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا، كما قال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ١ ـ ٤] .

وقوله : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أى : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه [غيره من] (٣) الأصنام والأنداد ، و ﴿ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، وكفروا بنبى الله وعبده ورسوله ، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله ، وألا يشركوا به ، وتصديقَ الرسول وتعظيمه وتوقيره ، فكذبوه وقاتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم ؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم ، وقتل من قتل منهم ببدر ، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ففتح الله على رسوله مكة ، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم .

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ ، أى : لا أحد أشد

---

(١) فى ت : « أنجاكم » وهو خطأ .

(٢) فى ت ، ف : « فكان » .

(٣) زيادة من أ .

عقوبة ممن كذب على الله فقال : إن الله أوحى إليه شيء · ولم يوح إليه شيء · ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ·وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ،فالأول مفتر ،والثانى مكذب ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ ·

ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ ، يعنى : الرسول ،صلوات الله وسلامه عليه ، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ، ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ،أى:لنُبَصرنهم سبلنا ،أى : طرقنا فى الدنيا والآخرة ·

قال ابن أبى حاتم :حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحَوارى، حدثنا عباس الهمدانى أبو أحمد ـ من أهل عكا ـ فى قول الله (١) : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال : الذين يعملون بما يعلمون ، يهديهم لما لا يعلمون · قال أحمد بن أبى الحوارى : فحدثت به أبا سليمان الدارانى فأعجبه ، وقال : ليس ينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما فى نفسه (٢) ·

وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى، حدثنا عيسى بن جعفر ـ قاضى الرى ـ حدثنا أبو جعفر الرازى ،عن المغيرة ، عن (٣) الشعبى قال : قال عيسى ابن مريم ،عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ،ليس (٤) الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك · [وفى حديث جبريل لما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال : « أخبرنى عن الإحسان » · قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ·

[انتهى تفسير سورة العنكبوت ، ولله الحمد والمنة (٥)] (٦)

---

(١) فى ت ، أ : « قوله تعالى » . (٢) فى أ : « قلبه » .
(٣) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده إلى » .
(٤) فى ت : « وليس » . (٥) فى هـ : « والله أعلم » . (٦) زيادة من ت .

/ سورة العنكبوت [٢٩٠و]

مكّيّة سوى عشر آيات مِن أوّلها،[١] وهي تسع وستّون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢﴾

﴿الٓمٓ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ مرارًا في نظائره مِن الفواتح الكريمة، خلا أنّ ما بعده لا يحتمل أن يتعلّق به تعلّقًا إعرابيًّا.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحِسبان ونظائره لا يتعلّق بمعاني المفردات؛ بل بمضامين الجمل المفيدةِ لثبوت شيء لشيء أو انتفاءِ شيء عن شيء، بحيث يتحصّل منها مفعولاه، إمّا بالفعل كما في عامّة المواقع، وإمّا بنوع تصرّف فيها كما في الجمل المصدَّرة بـ"أنّ"، والواقعةِ صلة للموصول الاسمي أو الحرفي، فإنّ كلًّا منها صالحة لأن يُسْبَكَ منها مفعولاه؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ في قوّة أن يقال: أَحَسِبوا أنفسَهم متروكين بلا فتنةٍ بمجرّد أن يقولوا: "آمنّا"؟ أو أن يقال: أَحَسِبوا تركَهم غير مَفتونين بقولهم: "آمنّا" حاصلًا متحقِّقًا؟

والمعنى إنكار الحسبان المذكور واستبعادُه، وتحقيقُ أنّه تعالى يمتحنهم بمَشاقّ التكاليف، كالمهاجَرة، والمجاهَدة، ورفضِ ما تشتهيه النفس، ووظائفِ الطاعات، وفنونِ المصائب في الأنفس والأموال؛ ليتميّز المخلص مِن المنافق، والراسخُ في الدين مِن المتزلزِل فيه، ويُجازيَهم بحسب مراتب أعمالهم، فإنّ مجرّد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص مِن الخلود في النار.

---

١ ط س – سوى عشر آيات مِن أوّلها.

رُوي أنّها نزلت في ناس مِن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين،[١] جَزِعوا مِن أذيّة المشركين.[٢] وقيل: في عمّار قد عُذِّب في الله.[٣] وقيل: في مِهجَع[٤] مولى عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى[٥] عنه، رماه عامر بن الحضرمي[٦] بسهمٍ يوم بدر، فقتله، فجَزِع عليه أبواه وامرأته، وهو أوّل مَن استشهد يومئذ مِن المسلمين، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «سيّد الشهداء مِهْجَع، وهو أوّلُ مَن يُدعى إلى باب الجنّة مِن هذه الأمّة».[٧]

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ﴾،[٨] أو بقوله تعالى: ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾.[٩] والمعنى أنّ ذلك سنّة قديمة مبنيّة على الحِكم البالغة، جاريةٌ فيما بين الأمم كلّها، فلا ينبغي أن يُتوقّع خلافُها. / والمعنى: أنّ الأمم [٢٩٠ظ] الماضية قد أصابهم مِن ضروب الفتن والمِحَن ما هو أشدّ ممّا أصاب هؤلاء فصبروا، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾... الآيات [آل عمران، ١٤٦/٣]. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «قد كان مَن قبلكم يُؤخَذُ فيوضع المِنشار على رأسه فيُفرق فِرقَتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دون عظمه مِن لحم وعصَب، ما يصرفه ذلك عن دينه».[١٠]

---

[١] س - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين؛ س + رضي الله عنهم.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٤٣٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٨/٤.

[٣] جامع البيان للطبري، ٥٣/١٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٠/٧.

[٤] هو مِهجَع العَكّي مولى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. قال ابن هشام: «أصله مِن عَكّ، فأصابه سباء فمَنّ عليه عمر فأعتقه»، وكان مِن السابقين إلى الإسلام، وشهد بدرًا، واستشهد بها. وقال موسى بن عقبة: «كان أوّلَ مَن قُتل ذلك اليوم». الإصابة لابن حجر، ١٨٢/٦.

[٥] س - تعالى.

[٦] س: الخضرمي.

[٧] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٩/٣.

[٨] في الآية السابقة.

[٩] في الآية السابقة.

[١٠] صحيح البخاري، ٢٠/٩ (٦٩٤٣)؛ وسنن أبي داود، ٢٨٦/٤ (٢٦٤٩). وتمامه: «واللهِ لَيَتِمّنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب مِن صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلّا الله، والذئبَ على غنمه، ولكنّكم تستعجلون».

﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي: في قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾،[١] ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في ذلك. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما يُفصح عنه ما قبلها مِن وقوع الامتحان، و"اللام" جواب القسم. والالتفات إلى الاسم الجليل لإدخال الروعة وتربية المَهابة. وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير، أي: فواللهِ ليتعلّقنّ علمه بالامتحان تعلّقًا حاليًا يتميّز به الذين صدقوا في الإيمان الذي أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرّون على الكذب، ويترتّب عليه أجزيتهم مِن الثواب والعقاب، ولذلك قيل: المعنى: لَيُميِّزَنّ، أو لَيُجازِيَنّ.

وقُرئ: "وَلَيُعْلِمَنَّ"[٢] مِن "الإعلام"، أي: ولَيُعرِّفَنّهم الناسَ، أو لَيَسِمَنّهم بسِمةٍ يُعرَفون بها يومَ القيامة، كبياض الوجوه وسوادها.

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم بمَساوئ أعمالهم. وهو سادّ مَسَدَّ مفعولَي ﴿حَسِبَ﴾، لاشتماله على مسنَد ومسنَد إليه. و﴿أَمۡ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للإضراب والانتقال عن التوبيخ بإنكار حِسبانهم متروكين غيرَ مَفتونين إلى التوبيخ بإنكار ما هو أبطل مِن الحِسبان الأوّل، وهو حِسبانهم أن لا يُجازَوا بسيّئاتهم، وهم وإن / لم [٢٩١و]
يحسَبوا أنّهم يفوتونه تعالى ولم يحدّثوا نفوسهم بذلك لكنّهم حيث أصرّوا على المعاصي ولم يتفكّروا في العاقبة نُزّلوا منزلةَ مَن يطمع في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ [الهمزة، ١٠٤/٣].

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي: بئس الذي يحكمونه حكمُهم ذلك، أو بئس حكمًا يحكمونه حكمُهم ذلك.

﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥﴾

﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: يتوقّع ملاقاةَ جزائه ثوابًا أو عقابًا، أو ملاقاةَ حكمه

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وجعفر بن محمّد والزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

يوم القيامة. وقيل: يرجو لقاء الله عزّ وجلّ في الجنّة. وقيل: يرجو ثوابه. وقيل: يخاف عقابه. وقيل: لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول إلى العاقبة مِن تلقّي ملك الموت والبعثِ والحسابِ والجزاءِ على تمثيل تلك الحال بحال عبدٍ قَدِم على سيّده بعد عهد طويل، وقد علم مولاه بجميع ما كان يأتي ويذَر، فإمّا أن يلقاه ببِشرٍ وكرامة لِما رضي مِن أفعاله، أو بضِدّه لِما سَخِطه.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الأجل عبارة عن غاية زمانٍ ممتدٍّ عُيّنَت لأمرٍ مِن الأمور، وقد يطلق على كلّ ذلك الزمان، والأوّل هو الأشهَر في الاستعمال، أي: فإنّ الوقت الذي عيّنه تعالى لذلك ﴿لَأَتٍ﴾ لا محالةَ مِن غير صارف يَلويه، ولا عاطفٍ يُثنيه؛ لأنّ أجزاء الزمان على التقضّي والتصرّم دائمًا، فلا بدّ مِن إتيان ذلك الجُزء أيضًا البتّة، وإتيانُ وقته موجِب لإتيان اللقاء حتمًا.

والجواب محذوف، أي: فليَختر مِن الأعمال ما يؤدّي إلى حسن الثواب، ولْيَحذَر ما يسوقه إلى سوء العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف، ١٨/ ١١٠]. وفيه مِن الوعد والوعيد ما لا يخفى. وقيل: فليبادِر ما يحقّق أملَه ويصدّق رجاءَه، أو ما يوجب القُربة والزلفى.

[٢٩١ظ] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم مِن / الأعمال الظاهرة والعقائد.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ في طاعة الله عزّ وجلّ ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لِعَود منفعتها إليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا حاجةَ له إلى طاعتهم، وإنّما أمرَهم بها تعريضًا لهم للثواب بموجَب رحمته.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الكفرَ بالإيمان والمعاصِيَ بما يتبعُها مِن الطاعات، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أحسنَ جزاءِ أعمالهم، لا جزاءَ أحسنِ أعمالهم فقط.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑧﴾

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي: بإيتاء والدَيه وإيلائهما فِعلًا ذَا حُسن، أو ما هو في حدِّ ذاته حُسنٌ لِفَرط حُسنه، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة، ٨٣/٢].

و"وَصَّى" يجري مَجرى "أَمَرَ" معنًى وتصرّفًا، غيرَ أنّه يُستعمل فيما كان في المأمور به نَفعٌ عائد إلى المأمور أو غيره. وقيل: هو بمعنى "قال"، فالمعنى: وقلنا: أحسِن بوالدَيك حُسنًا. وقيل: انتصاب ﴿حُسْنًا﴾ بمُضمَر على تقدير قولٍ مفسِّر للتوصية، أي: وقلنا أَوْلِهما أو افعل بهما حُسنًا، وهو أوفَق لِما بعده، وعليه يَحسُن الوقف على ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾. وقُرئ: "حَسَنًا"،[1] و"إِحْسَانًا".[2]

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: بإلاهِيّته، عبّر عن نفيها بنفي العلم بها للإيذان بأنّ ما لا يُعلَم صحّته لا يجوز اتّباعه وإن لم يُعلم بطلانه، فكيف بما عُلم بطلانه؟

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك، فإنّه "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"،[3] ولا بدّ مِن إضمار القول إن لم يُضمَر فيما قبلُ. وفي تعليق النهي عن طاعتهما بمجاهدتهما في التكليف إشعارٌ بأنّ موجَب النهي فيما دونها مِن التكليف ثابت بطريق الأولويّة.

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مرجعُ مَن آمن منكم ومَن أشرك، / ومَن برّ بوالديه [٢٩٢و]
ومَن عَقّ، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازيَ كلًّا منكم بعمله؛ إن خيرًا فخَير، وإن شرًّا فشَرّ.

والآية نزلت في سعد بن أبي وقّاص عند إسلامه، حيث حلفَت أمّه حَمنة بنت أبي سفيان بن أُميّة أن لا تنتقل مِن الضِّحّ[4] إلى الظلّ، ولا تَطعم

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

[2] قراءة شاذّة، رُوي عن الجحدري أنّها في الإمام كذلك بالألف. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

[3] حديث في مسند أحمد، ٣٣٣/٢ (١٠٩٤)؛ والمعجم الأوسط للطبراني، ١٨١/٤ (٣٩١٧).

[4] الضِّحّ: الشمس. الصحاح للجوهري، «ضحح».

ولا تشرب حتّى يرتدّ، فلَبِثَت ثلاثة أيّام كذلك.[١] وكذا التي في سورة لقمان[٢] وسورة الأحقاف.[٣]

وقيل: نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك أنّه هاجر مع عمر بن الخطّاب رضي الله عنه حتّى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل والحارث أخواه لأمّه أسماءَ، فنزلا بعيّاش، وقالا له: «إنّ مِن دين محمّد صلّى الله عليه وسلّم صلةَ الأرحام وبِرَّ الوالدين، وقد تركتَ أمّك لا تَطعَم ولا تشرب ولا تأوي بيتًا حتّى تراك، فاخرج معنا»، وفَتَلا منه في الذِّروة والغارِب،[٤] واستشار عمر رضي الله تعالى[٥] عنه، فقال: «هما يَخدعانِك، ولك عليَّ أن أقسِم مالي بيني وبينك»، فما زالا به حتّى أطاعهما وعصى عمر رضي الله عنه، فقال عمر رضي الله عنه: «أمّا إذا عصَيتني فخذ ناقتي، فليس في الدنيا بعير يلحقها، فإن رابَك منهما رَيب فارجع»، فلمّا انتهَوا إلى البيداء قال: «إنّ ناقتي قد كلَّت، فاحملني معك»، فنزل ليوطئ لنفسه وله، فأخذاه، فشدّاه وَثاقًا، وجلده كلّ واحدٍ مائة جلدة، وذهبا به إلى أمّه، فقالت: «لا تزال في عذابٍ حتّى ترجع عن دين محمّد».[٦]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في زمرة الراسخين في الصلاح. والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين، وغايةُ مأمول أنبياءِ الله المرسلين. قال[٧] تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام:

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧١/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٣/٣.

٢ لقمان، ١٤/٣١.

٣ الأحقاف، ١٥/٤٦.

٤ قولهم: «فَتَلَ في الذِّروة والغارِب»؛ يقال ذلك للرجل لا يزال يَخدع صاحبه حتى يظفر به. وذِروة البعير: أعلاه، وكذلك ذِروة كلّ شيء، والغارب: مقدَّم السنام. جمهرة الأمثال للعسكري، ٩٨/٢.

٥ س – تعالى.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٢/٣. وأخرج القصّة البزّار في مسنده، ٢٥٨/١ (١٥٥).

٧ ط س + الله.

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل، ١٩/٢٧]، وقال في حقّ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت، ٢٧/٢٩]، أو في مدخل الصالحين، وهي الجنّة.

/ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في شأنه تعالى [٢٩٢ظ] بأن عذّبهم الكفرة على الإيمان ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ما يصيبه مِن أذيّتهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الشدّة والهول، فيرتدّ عن الدين مع أنّه لا قدرَ لها عند نفحة مِن عذابه تعالى أصلًا.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فتحٌ وغنيمةٌ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضمّ "اللام" نظرًا إلى معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد فيما سبَق بالنظر إلى لفظها. وقُرئ بالفتح.[١] ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: مشايِعين لكم في الدين، فأشرِكُونا في المَغنم، وهم ناس مِن ضَعَفة المسلمين، كانوا إذا مسّهم أذًى مِن الكفّار وافقوهم، وكانوا يكتمونه مِن المسلمين، فَرُدّ عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ[٢] ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: بأعلمَ منهم بما في صدورهم مِن الإخلاص والنفاق حتّى يفعلوا ما يفعلون مِن الارتداد والإخفاء عن المسلمين، وادّعاءِ كونهم منهم لنَيل الغنيمة. وهذا هو الأوفَق لِما سبَق وما لحِق مِن قوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالإخلاص، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ سواء كان كفرهم بإذيّة الكفرة أو لا، أي: لَيَجْزِيَنَّهم بما لهم مِن الإيمان والنفاق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان حملهم لهم عليه بالأذيّة والوعيد. ووصفُهم بالكفر ههنا دون ما سبَق لِما أنّ مَساق الكلام لبيان جنايتهم، وفيما سبَق لبيان جناية مَن أضلّوه.

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة، قال أبو حيّان: «ذكره أبو معاذ النحوي والزمخشري». البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤٤/٨.

٢ م ط س: أليس.

و"اللامُ" للتبليغ، أي: قالوا مخاطبين لهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ أي: اسلكوا طريقتنا التي نسلكها في الدين، عُبِّر عن ذلك بالاتّباع الذي هو المَشي خلفَ ماشٍ آخر تنزيلًا للمَسلك منزلةَ السالك فيه، أو اتّبعونا في طريقتنا.

[٢٩٣و] / ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ أي: إن كان ذلك خطيئة يُؤاخَذُ عليها بالبعث كما تقولون، وإنّما أَمروا أنفسهم بالحَمل عاطفين له على أمرهم بالاتّباع للمبالغة في تعليق الحَمل بالاتّباع، والوعدِ بتخفيف الأوزار عنهم، إن كان ثمّة وِزرٌ.

فرُدَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ وقُرِئ: "مِنْ خِطِيئَاتِهِمْ"،[١] أي: وما هم بحاملين شيئًا مِن خطاياهم التي التزموا أن يحملوا كلَّها، على أنّ ﴿مِنۡ﴾ الأولى للتبيين، والثانيةَ مزيدة للاستغراق، والجملة اعتراض أو حال.

﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ حيث أَخبَروا في ضمن وَعدِهم بالحمل بأنّهم قادرون على إنجاز ما وَعدوا، فإنّ الكذب كما يتطرّق إلى الكلام باعتبار مَنطوقه يتطرّق إليه باعتبار ما يلزم مدلوله، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٣١].

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ بيان لِما يستتبعه قولهم ذلك في الآخرة مِن المَضرّة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطَبيهم أصلًا. والتعبير عن الخطايا بـ"الأثقال" للإيذان بغاية ثِقَلها وكونِها فَادِحةً. و"اللام" جواب قسَم مُضمَر، أي: وبالله ليَحملُنّ أثقال أنفسهم كاملة، ﴿وَأَثۡقَالٗا﴾ أُخرَ ﴿مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ لمّا تسبّبوا بالإضلال والحملِ على الكفر والمعاصي مِن غير أن ينتقص مِن أثقال مَن أضلّوه شيء ما أصلًا.

﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ سؤالَ تقريع وتبكيت ﴿عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي: يختلقونه في الدنيا مِن الأكاذيب والأباطيل التي مِن جملتها كذِبُهم هذا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن داود بن أبي هند، حكاها عنه أبو عمرو. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٠٩/٤.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ شروع في بيان افتتان الأنبياء عليهم السلام / بأذيّة أممهم إثرَ بيان افتتان المؤمنين [٢٩٣ظ] بأذيّة الكفّار، تأكيدًا للإنكار على الذين يحسَبون أن يُتركوا بمجرّد الإيمان بلا ابتلاء، وحثًّا لهم على الصبر، فإنّ الأنبياء عليهم السلام حيث ابتلُوا بما أصابهم مِن جِهة أممهم مِن فنون المَكاره وصبروا عليها فلَأَن يصبر هؤلاء أَولى وأَحرى.

قالوا: كان عمُر نوح عليه السلام ألفًا وخمسينَ عامًا، بُعث على رأس أربعين، ودعا قومه تسعمائة وخمسين عامًا،[1] وعاش بعد الطوفان ستّين سنة.[2] وعن وهب: أنّه عاش ألفًا وأربعمائة سنةٍ. ولعلّ ما عليه النظم الكريم للدلالة على كمال العدد، فإنّ تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرُب منه، ولِما في ذكر الألْف مِن تخييل طول المدّة، فإنّ المقصود مِن القصّة تسليةُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[3] وتثبيتُه على ما كان عليه مِن مكابدة ما يناله مِن الكفرة، وإظهارُ رَكاكة رأي الذين يحسبون أنّهم يُتركون بلا ابتلاء. واختلافُ المميّز لِما في التكرير مِن نوع بشاعة.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أي: عقيب تمام المدّة المذكورة. و"الطوفان" يطلق على كلّ ما يطوف بالشيء على كثرةٍ وشدّةٍ مِن السيل والريح والظلام، وقد غلَب على طوفان الماء.

﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: والحال أنّهم مستمِرّون على الظلم، لم يتأثّروا بما سمعوا مِن نوح عليه السلام مِن الآيات، ولم يَرْعَوُوا عمّا هم عليه مِن الكفر والمعاصي هذه المدّةَ المتمادية.

---

١ م ط س - بُعِث على رأس أربعين، ودعا قومه تسعمائة وخمسين عامًا ["صح" في هامش م].

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٤/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤١٥/٣.

٣ ط س: عليه السلام.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٥﴾

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: نوحًا عليه السلام ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي: ومَن ركِب فيها معه مِن أولاده وأتباعه، وكانوا ثمانين. وقيل: ثمانيةً وسبعين. وقيل: عشرةً. وقيل: ثمانيةً، نصفهم ذكور، ونصفهم إناث، ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: السفينةَ، أو الحادثةَ والقصّةَ ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ / يتّعظون بها. [٢٩٤و]

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦﴾

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب بالعطف على ﴿نُوحًا﴾.[١] وقيل: بإضمار "اذكر". وقُرئ بالرفع[٢] على تقدير: ومِن المرسلين إبراهيمُ. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ على الأوّل ظرف للإرسال، أي: أرسلناه حين تكامل عقله وقدَر على النظر والاستدلال، وترقّى مِن رتبة الكمال إلى درجة التكميل، حيث تصدّى لإرشاد الخلق إلى طريق الحقّ. وعلى الثاني بدل اشتمال مِن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: وحده ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أن تشركوا به شيئًا، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما ذُكر مِن العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: ممّا أنتم عليه. ومعنى التفضيل مع أنّه لا خيريّةَ فيه قطعًا باعتبار زعمهم الباطل.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الخيرَ والشرَّ، وتميّزون أحدهما مِن الآخر، أو إن كنتم تعلمون شيئًا مِن الأشياء بوجه مِن الوجوه، فإنّ ذلك كافٍ في الحكم بخيريّة ما ذكر مِن العبادة والتقوى.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧﴾

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ بيان لبطلان دينهم وشَرّيّته في نفسه بعد بيان شَرّيّته بالنسبة إلى الدين الحقّ، أي: إنّما تعبدون مِن دونه تعالى أوثانًا هي في نفسها تماثيلُ مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك.

---

[١] العنكبوت، ١٤/٢٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ أي: وتكذبون كذِبًا حيث تسمّونها آلهةً وتدّعون أنّها شفعاؤكم عند الله تعالى، أو تعملونها وتنحتونها للإفك. وقُرئ: "تُخَلِّقُونَ" بالتشديد،[١] للتكثير في "الخَلق" بمعنى الكذب والافتراء، و"تَخَلَّقُونَ" بحذف إحدى التاءين،[٢] مِن "تَخَلَّقَ" بمعنى "تَكذَّب وتَخرّص". وقُرئ: "أَفِكًا"[٣] على أنّه مصدر كـ"الكذِب" و"اللعِب"، أو نَعت بمعنى: خَلقًا ذا إفك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان لشَرّيّة ما يعبدونه مِن حيث إنّه لا يكاد يُجديهم نفعًا، ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا﴾ أي: لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئًا مِن الرزق، ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ كلَّه، فإنّه هو الرزّاق ذو القوّة المتين، ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ وحده ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ / على نَعمائه متوسّلين إلى مطالبكم بعبادته، [٢٩٤ظ]
مقيِّدين بالشكر للعتيد،[٤] ومستجلبين للمزيد.

﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: بالموت ثمّ البعث، لا إلى غيره، فافعلوا ما أمرتكم به. وقُرئ: "تَرجِعُونَ"[٥] مِن "رَجَع رجوعًا".

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ أي: تكذّبوني فيما أخبرتكم به مِن أنّكم إليه تُرجعون بالبعث ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ تعليل للجواب، أي: فلا تضرّونني بتكذيبكم، فإنّ مَن قبلكم مِن الأمم قد كَذّبوا مَن قبلي مِن الرسل، وهم شيث وإدريس ونوح عليهم السلام، فلم يضرَّهم تكذيبُهم شيئًا، وإنّما ضَرّ أنفسهم حيث تَسبَّب لِما حلّ بهم مِن العذاب، فكذا تكذيبكم.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: التبليغُ الذي لا يبقى معه شكّ، وما عليه أن يصدّقه قومُه البتّة، وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه، فلا يضرّني تكذيبكم بعد ذلك أصلًا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن خارجة عن نافع. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حنيفة والنخعي والسلمي وزيد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزبير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٢.

٤ العتيد: الشيء الحاضر المهيّأ. **الصحاح** للجوهري، «عتد».

٥ قرأ بها يعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ كلام مستأنَف مَسوق مِن جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسُنوح سَبيله. و"الهمزة" لإنكار عدم رؤيتهم الموجِب لتقريرها، و"الواو" للعطف على مقدَّر، أي: ألم ينظروا ولم يعلموا عِلمًا جاريًا مَجرى الرؤية في الجلاء والظهور كيفيّةَ خلق الله تعالى الخلق ابتداءً مِن مادّةٍ ومِن غير مادّةٍ، أي: قد علموا ذلك. وقُرئ بصيغة الخطاب[١] لتشديد الإنكار وتأكيده. وقُرئ: "يَبْدَأُ".[٢]

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ عطفٌ على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، لا على ﴿يُبْدِئُ﴾؛ لعدم وقوع الرؤية عليه، فهو إخبار بأنّه تعالى يعيد الخلق قياسًا على الإبداء. وقد جُوِّز العطف على ﴿يُبْدِئُ﴾ بتأويل الإعادة بإنشائه تعالى كلّ سنة مثلَ ما أنشأه في السنة السابقة مِن النبات والثمار وغيرِهما، فإنّ ذلك ممّا يُستدلّ به على صحّة البعث ووُقوعه مِن غير ريب.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الإعادة ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتقر فعله إلى شيء أصلًا.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾

﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أمرٌ لإبراهيم عليه السلام أن يقول لهم ذلك، أي: سيروا فيها ﴿فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: كيف خلقَهم ابتداءً على أطوارٍ مختلفة وطبائعَ متغايرة وأخلاقٍ شتّى، فإنّ ترتيب النظر على السير في الأرض مُؤذِن بتتبّع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها.

[٢٩٥و] ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ / بعد النشأة الأولى التي شاهدتموها. والتعبير عن الإعادة التي هي محلّ النزاع بالنشأة الآخرة المُشعِرة بكون البدءِ نشأةً أُولى

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزبير وعيسى وأبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٣٤٨.

للتنبيه على أنّهما شأن واحد مِن شئون الله تعالى حقيقةً واسمًا مِن حيث إنّ كلًّا منهما اختراع وإخراج مِن العدم إلى الوجود، لا فرقَ بينهما إلّا بالأوّليّة والآخِريّة.

وقُرئ: "النَّشَاءَةَ" بالمدّ،[1] وهما لغتان، كـ"الرَّأْفة" و"الرَّآفة". ومحلّها النصب على أنّها مصدر مؤكِّد لـ﴿يُنشِئُ﴾ بحذف الزوائد، والأصل "الإنْشاءة"، أو بحذف العامل، أي: يُنْشِئ فيَنْشأون النشأةَ الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣/٣٧].

والجملة معطوفة على جملة ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ داخلة معها في حيّز القول. وإظهارُ الاسم الجليل وإيقاعُه مبتدأً مع إضماره في ﴿بَدَأَ﴾ لإبراز مزيد الاعتناءِ ببيان تحقّق الإعادة بالإشارة إلى علّة الحكم وتكريرِ الإسناد.

وقوله عزّ وجلّ:[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لِما قبله بطريق التحقيق، فإنّ مَن علم قدرتَه تعالى على جميع الأشياء التي مِن جملتها الإعادة، لا يُتصوّر أن يتَردّد في قدرته عليها، ولا في وقوعها بعد ما أخبر به.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿يُعَذِّبُ﴾ أي: بعد النشأة الآخرة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذّبه، وهم المنكِرون لها حتمًا، ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يرحمه، وهم المصدِّقون بها. والجملة تكملة لِما قبلها. وتقديم التعذيب لِما أنّ الترهيب أنسب بالمقام مِن الترغيب. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ عند ذلك، لا إلى غيره، فيفعل بكم ما يشاء مِن التعذيب والرحمة.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ له تعالى عن إجراء حكمه وقضائه عليكم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: بالتواري في الأرض، أو الهبوط في مهاويها، ولا بالتحصّن في السماء

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

[2] س: تعالى.

التي هي أفسح منها لو استطعتم الرقيّ فيها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن، ٣٣/٥٥]، أو القلاعِ الذاهبة فيها. وقيل: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ / صفة لمحذوف معطوف على ﴿أنتم﴾، أي: ولا مَن في السماء. [٢٩٥ظ]

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسكم ممّا يصيبكم مِن بلاء يظهر مِن الأرض، أو ينزل مِن السماء، ويدفعه عنكم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بدلائله التكوينيّة والتنزيليّة الدالّةِ على ذاته وصفاته وأفعاله، فيدخل فيها النشأة الأولى الدالّة على تحقّق البعث والآياتُ الناطقة به دخولًا أوّليًّا. وتخصيصها بدلائل وحدانيّته تعالى[١] لا يناسب المقام. ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ الذي ينطق به تلك الآيات. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الكفر بآياته تعالى ولقائه ﴿يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي: ييْأسون منها يوم القيامة. وصيغة الماضي للدلالة على تحقّقه، أو يَئِسُوا منها في الدنيا لإنكارهم البعث والجزاء.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي تكرير اسم الإشارة وتكريرِ الإسناد وتنكيرِ العذاب ووصفِه بالأليم مِن الدلالة على كمال فَظاعة حالهم ما لا يخفى، أي: أولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى ولقائه، وباليأس مِن رحمته الممتازون بذلك عن سائر الكفرة، لهم بسبب تلك الأوصاف القبيحة عذاب لا يقادَر قدرُه في الشدّة والإيلام.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بالنصب على أنّه خبر ﴿كَانَ﴾، واسمُها قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وقُرئ بالرفع[٢] على العكس، وقد مرّ ما فيه في نظائره.

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٢/٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٢.

وليس المراد أنّه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حُجج إبراهيم عليه السلام / إلّا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر مِن ظاهر النظم الكريم؛ بل إنّ ذلك [٢٩٦و] هو الذي استقرّ عليه جوابهم بعد اللُّتيّا والتي[١] في المرّة الأخيرة، وإلّا فقد صدر عنهم مِن الخرافات والأباطيل ما لا يحصى.

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ "الفاء" فصيحة، أي: فألقَوه في النار، فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها عليه عليه السلام بردًا وسلامًا حسبما بُيّن في مواضع أُخر. وقد مرّ في سورة الأنبياء[٢] بيان كيفيّة إلقائه عليه السلام فيها وإنجائِه تعالى إيّاه تفصيلًا. قيل: لم يُنتَفَع يومئذ بالنار في موضعٍ أصلًا.[٣]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنجائه منها ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ بيّنةً عجيبةً، هي حفظه تعالى إيّاه مِن حرّها، وإخمادُها في زمان يسير، وإنشاء رَوض في مكانها ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وأمّا مَن عداهم فهم عن اجتلائها غافلون، ومِن الفوز بمغانم آثارها محرومون.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَقَالَ﴾ أي: إبراهيم عليه السلام مخاطِبًا لهم: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لتَتَوادُّوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها وائتلافكم. وثاني مفعولَي ﴿ٱتَّخَذْتُم﴾ محذوف، أي: أوثانًا آلهة. ويجوز أن يكون ﴿مَّوَدَّةَ﴾ هو المفعولَ بتقدير المضاف، أو بتأويلها بالمَودودة، أو بجعلها نفسَ المودّة مبالغةً، أي: اتّخذتم أوثانًا سببَ المودّة بينكم، أو مَودودة، أو نفس المودّة.

وقُرئ: "مَوَدَّةً" منوّنةً منصوبةً ناصبةً للظرف.[٤] وقُرئت بالرفع والإضافةِ[٥] على أنّها خبر مبتدأ محذوف، أي: هي مَودودة، أو نفسُ المودّة، أو سببُ مودّة بينكم.

---

[١] اللُّتيّا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. **مجمع الأمثال** للميداني، ١/١٦٤.

[٢] الأنبياء، ٢١/٦٨-٦٩.

[٣] **معاني القرآن** للزجّاج، ٤/١٦٦؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٤٥٠.

[٤] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وشعبة عن عاصم ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

[٥] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

والجملة صفة ﴿أَوْثَٰنًا﴾، أو خبر ﴿إِنَّ﴾ على أنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أو موصولة قد حُذف عائدها، وهو المفعول الأوّل.

وقُرئت مرفوعة منوّنة[١] ومضافة[٢] بفتح ﴿بَيْنِكُمْ﴾، كما قُرئ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام، ٩٤/٦] / على أحد الوجهين.[٣] وقُرئ: "إِنَّمَا مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ"،[٤] [٢٩٦ظ]
والمعنى: إنّ اتّخاذكم إيّاها مودّةُ بينِكم ليس إلّا في الحياة، وقد أجريتم أحكامه، حيث فعلتم بي ما فعلتم لأجل مودّتكم لها انتصارًا منّي، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء، ٦٨/٢١].

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ينقلب الأمور، ويتبدّل التوادّ تباغضًا، والتلاطفُ تلاعنًا، حيث ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم﴾ وهم العبَدة ﴿بِبَعْضٍ﴾ وهم الأوثان ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يلعن كلّ فريقٍ منكم ومِن الأوثان -حيث يُنطقها الله تعالى- الفريقَ الآخر.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: هي منزلكم الذي تأوون إليه، ولا ترجعون منه أبدًا، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلّصونكم منها كما خلّصني ربّي مِن النار التي ألقيتموني فيها. وجمعُ "الناصر" لوقوعه في مقابلة الجمع، أي: ما لأحد منكم مِن ناصر أصلًا.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي: صدّقه في جميع مقالاته، لا في نبوّته وما دعا إليه مِن التوحيد فقط، فإنّه كان منزّهًا عن الكفر. وما قيل: إنّه آمَن له حين رأى النار لم تُحرقه،[٥] ينبغي أن يحمل على ما ذكرنا، أو على أن يراد بالإيمان الرتبة العالية منها، وهي التي لا يرتقي إليها إلّا هِمَم الأفراد الكُمّل. ولوط هو ابن أخته عليهما السلام.

---

١ أي: "مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الزعفراني وأبي حيوة وابن أبي عبلة والحسن وابن مِقسم والبرجمي والأصمعي عن أبي عمرو. **الكامل** للهذلي، ص ٦١٥.

٢ أي: "مَوَدَّةُ بَيْنَكُمْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٥١/٨.

٣ قرأ بنصب النون نافع وأبو جعفر والكسائي وحفص عن عاصم، وقرأ برفعها باقي العشرة. **النشر** لابن الجزري، ٢٦٠/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **معاني القرآن** للفرّاء، ٣١٦/٢.

٥ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٥١/٣.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ أي: مِن قومي ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ إلى حيث أمرني به، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، فيمنعني مِن أعدائي، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل فعلًا إلّا وفيه حكمة ومصلحة، فلا يأمرني إلّا بما فيه صلاحي. ورُوي أنّه هاجر مِن كوثى مِن سواد الكوفة مع لوط وسارة ابنة عمّه إلى حرّان، ثمّ منها إلى الشام، فنزل فلسطين، ونزل لوط سَذُومَ.[1]

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ ولدًا ونافلةً حين أيِس مِن عجوز عاقر، ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ / فكثر منهم الأنبياء، ﴿وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: جنسَ الكتاب [٢٩٧و] المتناوِلَ للكتب الأربعة، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ﴾ بمقابلة هجرته إلينا ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بإعطاء الولد والذرّيّة الطيّبة، واستمرارِ النبوّة فيهم، وانتماءِ أهل المِلل إليه، والثناءِ والصلاةِ عليه آخر الدهر، ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الكاملين في الصلاح.

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب إمّا بالعطف على ﴿نُوحًا﴾،[2] أو على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾.[3] والكلام في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ كالذي مرّ في قصّة إبراهيم عليه السلام. ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي: الفِعلة المتناهية في القُبح. وقُرئ: "أَئِنَّكُمْ".[4]

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استئناف مقرِّر لكمال قُبحها، فإنّ إجماع جميع أفراد العالمين على التحاشي عنها ليس إلّا لكونها ممّا تَشمئِزّ منه الطباع، وتنفِر منه النفوس.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٥٣/٨.
٢ العنكبوت، ١٤/٢٩.
٣ العنكبوت، ١٦/٢٩.
٤ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم، وكلٌّ على أصله في تحقيق الهمزة الثانية وتسهيلها. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وتتعرّضون للسابلة، أي: بالفاحشة، حيث رُوي أنّهم كانوا كثيرًا ما يفعلونها بالغرباء. وقيل: تقطعون سبيل النساء بالإعراض عن الحَرث، وإتيانِ ما ليس بحَرث. وقيل: تقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾ أي: تفعلون في مجلسكم الجامع لأصحابكم ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كالجِماع والضُّراط وحَلِّ الإزار وغيرِها ممّا لا خير فيه مِن الأفاعيل المنكَرة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو الخَذْف بالحصى، والرميُ بالبنادق، والفَرقَعةُ، ومضغُ العِلك، والسِّواكُ بين الناس، وحلُّ الأزرار،[1] والسِّبابُ، والفُحشُ في المزاح».[2] وقيل: السخريّة بمَن مرّ بهم. وقيل: المجاهَرة في ناديهم بذلك العمل.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فما كان جوابًا مِن جهتهم / شيء مِن الأشياء إلّا هذه الكلمة الشنيعة، أي: لم [٢٩٧ظ] يصدر عنهم في هذه المرّة مِن مرّات مَواعظ لوط عليه السلام، وقد كان أوعدهم فيها بالعذاب، وأمّا ما في سورة الأعراف مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الآيةَ [الأعراف، ٨٢/٧]، وما في سورة النمل مِن قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الآيةَ [النمل، ٥٦/٢٧] فهو الذي صدر عنهم بعد هذه المرّة، وهي المرّة الأخيرة مِن مرّات المقاوَلات الجارية بينهم وبينه عليه السلام، وقد مرّ تحقيقه في سورة الأعراف.[3]

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ أي: بإنزال العذاب الموعود ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة، وسَنِّها فيمَن بعدهم، والإصرارِ عليها، واستعجالِ العذاب بطريق الاستهزاء. وإنّما وصفَهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب عليهم.

---

١ س: الإزار.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٥٤/٨.

٣ الأعراف، ٨٢/٧.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي: بالبشارة بالولد والنافلة ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: لإبراهيم عليه السلام[١] في تضاعيف الكلام حسبما فصِّل في سورة هود[٢] وسورة الحِجر.[٣] ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أي: قرية سَذوم، فالإضافة[٤] لفظيّة؛ لأنّ المعنى على الاستقبال. ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك بإصرارهم على الظلم، وتماديهم في فنون الفساد وأنواعِ المعاصي.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗا﴾ فكيف تهلكونها؟ ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ أرادوا أنّهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام فيها؛ بل عمّن لم يتعرّض له إبراهيم عليه السلام مِن أتباعه المؤمنين، وأنّهم معتنون بشأنهم أتمَّ اعتناء حسبما يُفصِح عنه تصدير الوعد بالتنجية بالقسَم، أي: واللهِ لَنُنجينّه وأهلَه، ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب، أو القرية.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا﴾ المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام[٥] ﴿لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ اعتراه المساءة بسببهم مخافةَ أن يتعرّض لهم قومه / بسوء. وكلمة ﴿أَن﴾ [٢٩٨و]
صلة لتأكيد ما بين الفعلين مِن الاتّصال. ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ أي: ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعُه، أي: طاقته، كقولهم: "ضاقَت يدُه"، وبإزائه: "رَحُبَ ذَرعُه بكذا" إذا كان مُطيقًا به قادرًا عليه، وذلك أنّ طويل الذراع ينال ما لا يناله قصيرُ الذراع.

---

١ م – عليه السلام.
٢ هود، ٦٩/١١.
٣ الحجر، ٦٧/١٥.
٤ ط س: والإضافة.
٥ م – عليه السلام.

﴿وَقَالُوا۟﴾ ريثما شاهدوا فيه مَخائل التضجّر مِن جهتهم، وعاينوا أنّه قد عجز عن مدافعة قومه بعد اللّتيا والتي[١] حتّى آلَت به الحال إلى أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود، ٨٠/١١]: ﴿لَا تَخَفْ﴾ أي: مِن قومك علينا ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي: على شيء، وقيل: بإهلاكنا إيّاهم، ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ ممّا يصيبهم مِن العذاب ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وقُرئ: "لَنُنْجِينَّهُ"،[٢] و"مُنْجُوكَ"[٣] مِن "الإنجاء"، وأيًا ما كان فمحلّ "الكاف" الجرّ على المُختار، ونَصبُ ﴿أَهْلَكَ﴾ بإضمار فعل، أو بالعطف على محلّها باعتبار الأصل.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ٣٤﴾

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استئناف مَسوق لبيان ما أشيرَ إليه بوعدِ التنجية مِن نزول العذاب عليهم. و"الرِّجز": العذاب الذي يُقْلِق المعذَّب، أي: يُزعجه، مِن قولهم: "ارْتَجَزَ" إذا ارتجسَ واضطرب. وقُرئ: "مُنَزِّلُونَ" بالتشديد.[٤] ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فِسقهم المستمرّ.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣٥﴾

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ أي: مِن القرية ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ هي قصّتها العجيبة، وآثار ديارها الخَرِبة. وقيل: الحجارة المَمطورة، فإنّها كانت باقية بعدها. وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض. ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار، وهو متعلّق إمّا بـ﴿تَرَكْنَا﴾ أو بـ﴿بَيِّنَةً﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٣٦﴾

---

١ اللّتيا والتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. **مجمع الأمثال** للميداني، ١٦٤/١.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٢٥٩/٢.

٣ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة عن عاصم. **النشر** لابن الجزري، ٢٥٩/٢.

٤ قرأ بها ابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ متعلّق بمُضمَر معطوف على ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾[١] في قصّة نوح، أي: وأرسلنا إلى مدين شعيبًا، ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحدَه، ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي: توقّعوه / وما سيقع فيه مِن فنون الأهوال، وافعلوا اليومَ مِن الأعمال ما تأمنون غائلتَه. وقيل: وارجوا ثوابه، بطريق إقامة المسبَّب مُقام السبب. وقيل: الرجاء بمعنى الخوف. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾. [٢٩٨ظ]

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة. وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود، ٩٤/١١]، أي: صيحة جبريل عليه السلام، فإنّها الموجِبة للرجفة، بسبب تمويجها للهواء وما يجاورها مِن الأرض، ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾ أي: بلدهم أو منازلهم، والإفرادُ لأمْن اللَّبس، ﴿جَٰثِمِينَ﴾ بارِكين على الرُّكَب ميّتين.

﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾

﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾ منصوبان بإضمار فعلٍ يُنبئ عنه ما قبله، أي: أهلكْنا. وقُرئ: "ثَمُودًا"[٢] بتأويل الحيّ، ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ أي: وقد ظهر لكم إهلاكُنا إيّاهم مِن جهة مساكنهم بالنظر إليها عند اجتيازكم بها ذهابًا إلى الشام وإيابًا منه.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ مِن فنون الكفر والمعاصي، ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السويّ الموصل إلى الحقّ، ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ متمكّنين مِن النظر والاستدلال، ولكنّهم لم يفعلوا ذلك، أو متبيّنين أنّ العذاب لاحِق بهم بإخبار الرسل عليهم السلام لهم، ولكنّهم لجُّوا حتّى لَقوا ما لَقوا.

---

١ العنكبوت، ١٤/٢٩.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ معطوف على ﴿عَادًا﴾.[1] قيل: تقديم ﴿قَٰرُونَ﴾ لشَرف نسبه.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ مُفلِتين فائتين، مِن قولهم: "سبَقَ طالِبَه" إذا فاته ولـم يدرِكه، ولقد أدركهم أمر الله عزّ وجلّ أيَّ إدراك، فتداركوا نحو الدمار والهلاك.

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾

﴿فَكُلًّا﴾ تفسير لِما يُنبئ عنه عدم سبقهم بطريق الإبهام، أي: فكلَّ واحد مِن المذكورين ﴿أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: عاقبناه بجنايته -لا بعضه دونَ بعضٍ- كما يُشعر به تقديم المفعول.

[٢٩٩و] / ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ تفصيل للأخذ، أي: ريحًا عاصفًا فيها حَصباء -وقيل: مَلِكًا-[2] رماهم بها، وهم قوم لوط، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ كمَدْيَن وثمود، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كقارون، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَا﴾ كقوم نوح وفرعونَ وقومِه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بما فعل بهم، فإنّ ذلك مُحال مِن جهته تعالى، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك مِن أنواع الكفر والمعاصي.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾

---

[1] في الآية السابقة.

[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٥/٤.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ فيما اتّخذوه معتمِدًا ومتّكِلًا ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فيما نسجَته في الوهَن والخوَر؛ بل ذلك أَوْهَن مِن هذا؛ لأنّ له حقيقةً وانتفاعًا في الجملة، أو مَثَلُهم بالإضافة إلى الموحِّد كمَثَله بالإضافة إلى رجل يبني بيتًا مِن حَجَر وجِصّ.

و﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ يقع على الواحد والجمع، والمذكّر والمؤنّث، والغالبُ في الاستعمال التأنيث، و"تاؤُه" كتاء "طاغوت"، ويُجمع على "عَناكِب" و"عَنكبوتاتٍ"، وأمّا "العِكاب" و"العُكْبُ" و"الأَعْكُبُ" فأسماءُ الجموع.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ حيث لا يُرَى شيء يُدانيه في الوهَن والوَهْي.[١] ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء لَجَزَمُوا أنّ هذا مَثَلهم، أو أنّ دينهم أوْهَى مِن ذلك. ويجوز أن يُجعل ﴿بَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ عبارة عن دينهم تحقيقًا للتمثيل، فالمعنى: وإنّ أَوْهَن ما يُعتمد به في الدين دينُهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ[٢] مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ على إضمار القول، أي: قل للكفرة: إنّ الله... إلخ. و﴿مَا﴾ استفهاميّة منصوبة بـ﴿يَدْعُونَ﴾[٣] معلَّقةٌ لـ﴿يَعْلَمُ﴾، و﴿مِن﴾ للتبيين، أو نافيةٌ، و﴿مِن﴾ مزيدة، و﴿شَيْءٍ﴾ مفعولُ ﴿يَدْعُونَ﴾، أو مصدريّة و﴿شَيْءٍ﴾ عبارة عن المصدر، / أو موصولة مفعول لـ﴿يَعْلَمُ﴾، ومفعول ﴿يَدْعُونَ﴾ [٢٩٩ظ]
عائدُه المحذوف. وقُرِئ: "تَدْعُونَ" بـ"التاء"،[٤] والكلام على الأوَّلَين تجهيل لهم وتأكيد للمَثَل، وعلى الأخيرَين وعيد لهم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تعليل على المعنيَين، فإنّ إشراك ما لا يُعدّ شيئًا بمَن هذا شأنه مِن فَرْط الغَباوة، وإنّ الجماد بالنسبة إلى القادر القاهر على كلّ شيء

---

[١] الوهْيُ: الضعف. انظر: لسان العرب لابن منظور، «وهي».

[٢] م: تَدْعُون. | وسيأتي ذكر القراءة بالتاء مِن كلام المؤلّف.

[٣] م: بـ"تَدْعُونَ". | وسيأتي ذكر القراءة بالتاء مِن كلام المؤلّف.

[٤] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

البالغِ في العلم وإتقانِ الفعل الغايةَ القاصيةَ كالمعدوم البَحت، وإنّ مَن هذه صفاته قادر على مُجازاتهم.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ أي: هذا المَثَل وأمثالُه ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا لِما بَعُدَ مِن أفهامهم، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ على ما هي عليه مِن الحُسن واستتباع الفوائد ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ الراسخون في العلم، المتدبّرون في الأشياء على ما ينبغي. وعنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه تلا هذه فقال: «العالِم مَن عقَل عن الله تعالى،[1] وعمل بطاعته، واجتنب سخَطه».[2]

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مُحِقًّا مراعيًا للحِكَم والمصالح، على أنّه حال مِن فاعِل ﴿خَلَقَ﴾، أو ملتبسةً بالحقّ الذي لا مَحيد عنه مستتبِعةً للمنافع الدينيّة والدنيويّة، على أنّه حال مِن مفعولِه، فإنّها مع اشتمالها على جميع ما يتعلّق به معاشهم شواهدُ دالّة على شئونه تعالى المتعلّقة بذاته وصفاته، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ دالّةً لهم ما ذُكر مِن شئونه سبحانه. وتخصيص المؤمنين بالذِّكر مع عموم الهداية والإرشاد في خلقهما للكلّ لأنّهم المنتفعون بذلك.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تقرّبًا إلى الله تعالى بقراءته، وتذكّرًا لِما في تضاعيفه مِن المعاني، وتذكيرًا للناس، وحملًا لهم على العمل بما فيه مِن الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق.

---

[1] م - تعالى.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٣. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٣/٣.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: داوِمْ على إقامتها. وحيث كانت الصلاة منتظِمةً للصلوات المكتوبة المؤدّاة بالجماعة، وكان أمره عليه السلام بإقامتها متضمِّنًا لأمر الأمّة بها؛ عُلِّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ كأنّه قيل: وصَلِّ بهم، / إنّ الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر. [٣٠٠و]

ومعنى نهيِها عنهما أنّها سبب للانتهاء عنهما؛ لأنّها مناجاة لله تعالى، فلا بدّ أن تكون مع إقبالٍ تامّ على طاعته، وإعراضٍ كلّي عن معاصيه، قال ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهم: «في الصلاة مُنتَهًى ومُزدَجر عن معاصي الله تعالى، فمَن لم يأمره صلاته بالمعروف ولم تَنْهَهُ عن المنكَر لم يَزدَد بصلاته مِن الله تعالى إلّا بُعدًا».[٢]

وقال الحسَن وقتادة: «مَن لم تَنْهَهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وَبال عليه».[٣]

وروى أنس رضي الله عنه: إنّ فتًى مِن الأنصار كان يصلّي مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ لا يدع شيئًا مِن الفواحش إلّا ركبه، فوُصِف له عليه السلام حالُه، فقال: «إنّ صلاته ستنهاه»، فلم يلبث أن تاب وحسُن حالُه.[٤]

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ولَلصلاةُ أكبر مِن سائر الطاعات، وإنّما عُبّر عنها به كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة، ٦٢/٩] للإيذان بأنّ ما فيها مِن ذِكر الله تعالى هو العمدة في كونها مفضَّلة على الحسنات ناهيةً عن السيّئات. وقيل: ولَذكرُ الله تعالى عند الفحشاء والمنكر، وذكرُ نهيه عنهما ووعيدِه عليهما أكبرُ في الزجر عنهما. وقيل: ولَذكر الله إيّاكم برحمته أكبر مِن ذِكركم إيّاه بطاعته.

---

١ س – تعالى.

٢ جامع البيان للطبري، ١٨/٤٠٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٨٠.

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٢١؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٣٥٩.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٥٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٩٦. قال الحافظ ابن حجر: «لم أجده». قال الولي العراقي: «لم أقف عليه». وفي مسند أحمد، ١٥/٤٨٣ (٩٧٧٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «إنّ فلانًا يصلّي بالليل، فإذا أصبح سرَق»، قال: «إنّه سينهاه ما تقول». انظر: الفتح السماوي للمناوي، ٢/٨٩٧.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ منه ومِن سائر الطاعات، فيجازيكم بها أحسنَ المُجازاة.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مِن اليهود والنصارى ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: بالخصلة التي هي أحسن، كمقابلة الخُشونة باللين، والغضبِ بالكَظم، والمشاغبةِ بالنُّصح، والسَّورة بالأَناة؛ على وجهٍ لا يدلّ على الضعف، ولا يؤدّي إلى إعطاء الدنيّة. / وقيل: منسوخ بآية السيف.[1] [٣٠٠ظ]

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد، أو بإثبات الولد، وقولِهم: "يدُ الله مغلولة"،[2] ونحو ذلك، فإنّه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ مِن القرآن ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي: وبالذي أُنزل إليكم مِن التوراة والإنجيل، وقد مرّ تحقيق كيفيّة الإيمان بهما في خاتمة سورة البقرة.[3] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم، وقولوا: "آمنّا بالله وبكتبه ورسله"، فإن قالوا باطلًا لم تصدّقوهم، وإن قالوا حقًّا لم تكذّبوهم».[4]

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ لا شريكَ له في الألوهيّة ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ مطيعون خاصّةً. وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا مِن دون الله.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾

---

١ آية السيف قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ الآية [التوبة، ٥/٩].

٢ قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ الآية [المائدة، ٦٤/٥].

٣ البقرة، ٢٨٥/٢.

٤ مسند أحمد، ٤٦٠/٢٨ (١٧٢٢٥)؛ سنن أبي داود، ٤٨٧/٥ (٣٦٤٤). وأخرجه البخاري في صحيحه، ٢٠/٦ (٤٤٨٥) بلفظ: «لا تصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تكذِّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآية [البقرة، ١٣٦/٢]».

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ تجريد للخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلة المشار إليه في الفضل، أي: مِثل ذلك الإنزال البديع الموافق لإنزال سائر الكتب ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن الذي مِن جملته هذه الآية الناطقة بما ذُكر مِن المجادلة بالحسنى.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مِن الطائفتين ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أريدَ بهم عبد الله بن سلام وأضرابُه مِن أهل الكتابَين خاصّة، كأنّ مَن عداهم لم يُؤتَوا الكتابَ حيث لم يعملوا بما فيه، أو مَن تقدّم عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم منهم حيث كانوا مصدّقين بنزوله حسبما شاهدوا في كتابَيهما. وتخصيصهم بإيتاء الكتاب للإيذان بأنّ مَن بعدهم مِن معاصري رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد نُزِع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يُؤتَوه. و"الفاء" / لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ [٣٠١و]
إيمانهم به مترتّب على إنزاله على الوجه المذكور.

﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: ومِن العرب، أو أهلِ مكّة على الأوّل، أو ممّن في عصره عليه السلام على الثاني، ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ عُبّر عن الكتاب بـ"الآيات" للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها، وعلى كونها مِن عند الله تعالى. وأضيفت إلى "نون" العظمة لمزيد تفخيمها، وغاية تشنيع مَن يجحد بها، ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المتوغِلون في الكفر المصمِّمون عليه، فإنّ ذلك يصدّهم عن التأمّل فيما يؤدّيهم إلى معرفة حقّيّتها. وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ما كنتَ قبل إنزالنا إليك الكتاب تَقدِر على أن تتلوَ شيئًا ﴿مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ ولا تقدر على أن تخطّه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حسبما هو المعتاد، أو ما كانت عادتك أن تتلوَه، ولا أن تخطّه.

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت ممّن يقدر على التلاوةِ والخطّ، أو ممّن يعتادهما لارتابوا وقالوا: لعلّه التقطه مِن كتب الأوائل، وحيث لم تكن كذلك

لم يبقَ في شأنك منشأ ريبٍ أصلًا. وتسميتهم مبطلين في ارتيابهم على التقدير المفروض لكونهم مبطلين في اتِّباعهم للاحتمال المذكور مع ظهور نزاهته عليه السلام عن ذلك.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحاتٌ ثابتة راسخة ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ مِن غير أن يُلتقَط مِن كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر أحد على تحريفه، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع كونها كما ذكر ﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتجاوِزون للحدود في الشرّ والمُكابرة والفساد.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

[٣٠١ظ] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ / ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثلُ ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليهم السلام. وقُرئ: "آيَةٌ".[١]

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزّلها حسبما يشاء مِن غير دخل لأحد في ذلك قطعًا، ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس مِن شأني إلّا الإنذار بما أُوتِيتُ مِن الآيات.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ كلام مستأنَف وارد مِن جهته تعالى ردًّا على اقتراحهم وبيانًا لبطلانه. و"الهمزة" للإنكار والنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَقَصُرَ ولم يكفهم آيةً مغنيةً عن سائر الآيات ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الناطقَ بالحقّ المصدِّقَ لِما بين يديه مِن الكتب السماويّة، وأنت بمَعزِل مِن مدارستها وممارستها؟

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ في كلّ زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحلّ كما تزول كلّ آية بعد كونها، ويكون في مكان دون مكان، أو يتلى على اليهود بتحقيق ما في أيديهم مِن نَعتك ونَعت دينك.

---

[١] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الكتابِ العظيمِ الشأنِ الباقي على مرّ الدهور ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي: نعمةً عظيمةً ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي: تذكرةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لقوم همُّهم الإيمانُ، لا التعنّتُ كأولئك المقترحين.

وقيل: إنّ ناسًا مِن المؤمنين أتَوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بكتفٍ فيها بعض ما يقوله اليهود، فقال: «كفى بها ضلالةَ قومٍ أن يرغبوا عمّا جاء به نبيّهم إلى ما جاء به غير نبيّهم» فنزلت.[١]

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ بما صدر عنّي وعنكم، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مِن الأمور التي مِن جملتها شأني وشأنكم، فهو تقرير لِما قبله مِن كفايته تعالى شهيدًا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا / بِالْبَاطِلِ﴾ وهو ما يُعبَدُ مِن دون الله تعالى ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ [٣٠٢و] مع تعاضد موجِبات الإيمان به ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المغبونون في صَفقتهم، حيث اشترَوا الكفر بالإيمان بأن ضيّعوا الفطرة الأصليّة والأدلّة السمعيّة الموجبة للإيمان. والآية مِن قَبيل المجادلة بالتي هي أحسن، حيث لم يُصرَّح بنسبة الإيمانِ بالباطل والكفرِ بالله والخسرانِ إليهم؛ بل ذُكر على منهاج الإبهام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ، ٢٤/٣٤].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ على طريقة الاستهزاء بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ [يونس، ٤٨/١٠]، وقولِهم: ﴿فَأَمْطِرْ[٢] عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨]، ونحوِ ذلك.

---

[١] المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٢٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٧/٤.

[٢] م ط س: أمطر.

﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم وبيّنه في اللوح ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المعيَّن لهم حسبما استعجلوا به. قيل: المراد بـ"الأجل" يوم القيامة، لِما رُوي أنّه تعالى وعَد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن لا يعذِّب قومَه بعذاب الاستئصال، وأن يؤخِّر عذابهم إلى يوم القيامة.[١] وقيل: يوم بدر. وقيل: وقتَ فَنائهم بآجالهم،[٢] وفيه بُعدٌ ظاهر، لِما أنّهم ما كانوا يوعَدون بفنائهم الطبيعي، ولا كانوا يستعجلون به.

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ جملة مستأنَفة مبيّنة لِما أشيرَ إليه في الجملة السابقة مِن مجيء العذاب عند محلّ الأجل، أي: وبالله ليأتينّهم العذاب الذي عُيّن لهم عند حلول الأجل ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فُجاءةً[٣] ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: بإتيانه، ولعلّ المرادَ بإتيانه كذلك أنّه لا يأتيهم بطريق التعجيل عند استعجالهم والإجابةِ إلى مسئولهم، فإنّ ذلك إتيانٌ برأيهم وشعورهم، لا أنّه يأتيهم وهم غارّون آمنون لا يُخطِرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض / الأمم بياتًا وهم نائمون، أو ضحًى وهم يلعبون، لِما أنّ إتيان عذاب الآخرة وعذابِ يوم بدرٍ ليس مِن هذا القَبيل. [٣٠٢ظ]

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ استئناف مَسوق لغاية تجهيلهم ورَكاكة رأيهم. وفيه دلالة على أنّ ما استعجلوه عذابُ الآخرة، أي: يستعجلونك بالعذاب، والحال أنّ محلّ العذاب الذي لا عذابَ فوقَه محيط بهم، كأنّه قيل: يستعجلونك بالعذاب، وإنّ العذاب لمحيط بهم، أي: سيحيط بهم. وإنّما جِيء بالجملة الاسميّة دَلالةً على تحقّق الإحاطة واستمرارها،

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٤٦٠/٣. قال الزيلعي: غريب، ويخالفه ما رواه الحاكم في كتابه المستدرك في الفتن [٢٨٣/٤ (٧٦٤٩)] مِن حديث سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن موسى قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ أمّتي أمّة مرحومة، ليس عليها في الآخرة عذاب، إنّما عذابها في الدنيا الزلازل والقتل والبلاء» انتهى. وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرّجاه. تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٩/٣.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٤٦٠/٣.

[٣] ط س: فَجأة.

أو تنزيلًا لحال السبب منزلة حال المسبَّب، فإنّ الكفر والمعاصي الموجِبة لدخول جهنّم محيطة بهم.

وقيل: إنّ الكفر والمعاصي هي النار في الحقيقة، لكنّها ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة، وقد مرّ تفصيله في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف، ٨/٧]. و"لام" ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إمّا للعهد، ووضعُ الظاهر موضعَ المُضمَر للإشعار بعلّة الحكم، أو للجنس، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًّا.

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرف لمُضمَر قد طُوِي ذِكره إيذانًا بغاية كثرته وفظاعته،[١] كأنّه قيل: يومَ يغشاهم العذاب الذي أُشِير إليه بإحاطة جهنّم بهم يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يَفي به المقال. وقيل: ظرف للإحاطة. ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: مِن جميع جهاتهم، ﴿وَيَقُولُ﴾ أي: الله عزّ وجلّ، ويعضُده القراءة بـ"نون" العظَمة،[٢] أو بعضُ ملائكته بأمره: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار مِن السيّئات التي مِن جملتها الاستعجال بالعذاب.

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خطاب تشريف لبعض المؤمنين الذين لا يتمكّنون مِن إقامة أمور الدين كما ينبغي لممانعةٍ مِن جهة الكفرة، وإرشادٌ لهم إلى الطريق الأسلم، ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ / فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: إذا لم يتسهّل لكم العبادة في [٣٠٣و]
بلد، ولم يتيسّر لكم إظهارُ دينكم، فهاجروا إلى حيث يتسنّى لكم ذلك.

وعنه عليه السلام: «من فرّ بدينه مِن أرض إلى أرض -ولو كان شِبرًا- استوجب الجنّةَ، وكان رفيقَ إبراهيم ومحمّد عليهما السلام».[٣]

---

[١] س: وفضاعته.
[٢] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.
[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٦١/٣.

و"الفاء" جواب شرط محذوف، إذ المعنى: إنّ أرضي واسعة، إن لم تُخلصوا العبادة لي في أرض، فأخلصوها في غيرها، ثمّ حُذف الشرط، وعُوّض عنه تقديم المفعول، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨﴾

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ جملة مستأنفة جيء بها حثًا على المسارعة في الامتثال بالأمر، أي: كلّ نفس مِن النفوس واجِدةٌ مرارةَ الموت وكُرَبَه، فراجعةٌ إلى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالها، فمَن كانت هذه عاقبته فليس له بدٌّ مِن التزوّد والاستعداد لها. وقُرئ: "يُرْجَعُونَ".[١]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ لنُنْزِلنّهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي: علاليَ، وهو مفعول ثانٍ للتَبوئة. وقُرئ: "لَنُثْوِيَنَّهُمْ"[٢] مِن "الثَّواء" بمعنى "الإقامة"، فانتصاب ﴿غُرَفًا﴾ حينئذ إمّا بإجرائه مُجرى "لَنُنْزِلَنّهم"، أو بنَزعِ الخافض، أو بتشبيه الظرف المُوقّت بالمُبهم كما في قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف، ١٦/٧].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ﴿غُرَفًا﴾، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في الغُرَف، أو في الجنّة. ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: الأعمالُ الصالحة. والمخصوص بالمدح محذوف ثقةً بدلالة ما قبله عليه. وقُرئ: "فَنِعْمَ".[٣]

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ إمّا صفة لـ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، أو نصب على المدح، أي: صبروا على أذيّة المشركين، وشدائدِ المهاجَرة، / وغيرِ ذلك مِن المِحَن والمَشاقّ، [٣٠٣ظ]
﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي:[٤] ولم يتوكّلوا فيما يأتون ويذرون إلّا على الله تعالى.

---

[١] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. الكشّاف للزمخشري، ٤٦٢/٣.

[٤] س – أي.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا أمر المؤمنين الذين كانوا بمكّة بالمهاجَرة إلى المدينة قالوا: «كيف نَقدَمُ بلدةً ليس لنا فيها معيشة؟» فنزلت.[١] أي: وكم مِن دابّة لا تطيق حمل رزقها لضعفها، أو لا تدّخره، وإنّما تُصبح ولا معيشةَ عندها.

﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ ثمّ إنّها مع ضعفها وتوكّلها وإيّاكم مع قوّتكم واجتهادكم سواءٌ في أنّه لا يرزقها وإيّاكم إلّا الله تعالى؛ لأنّ رِزق الكلّ بأسباب هو المسبِّب لها وحدَه، فلا تخافوا الفقر بالمهاجَرة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ المبالغ في السمع، فيسمع قولكم هذا، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ المبالغ في العلم، فيعلم ضمائركم.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ أي: أهلَ مكّةَ: ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره، ولا إلى التردّد فيه، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ إنكار واستبعاد مِن جهته تعالى لتركهم العملَ بموجَبه، أي: فكيف يُصرفون عن الإقرار بتفرّده تعالى في الإلهيّة مع إقرارهم بتفرّده تعالى فيما ذُكر مِن الخلق والتسخير.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢﴾

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه له ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي: يَقدِر لِمَن يشاء أن يَقدِر له منهم كائنًا مَن كان، على أنّ الضمير مبهَم حسب إبهام مَرجعه، أو يَقدِر لِمَن يبسطه له على التعاقب.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٦٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٩٨. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٨٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم مَن يليق ببسط الرزق فيبسطه له، ومَن يليق بقَدْره له فيَقدِره له، أو فيعلم أنّ كلًّا مِن البسط والقَدْر في أيّ وقت يوافق الحكمة والمصلحة، فيفعل كلًّا منهما في وقته.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ[1] بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ معترفين بأنّه الموجِد للممكنات بأسرها، أصولِها وفروعِها، ثمّ إنّهم يشركون به بعضَ مخلوقاته / الذي لا يكاد يُتوهّم منه القدرة على شيء ما أصلًا. [٣٠٤و]

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جعَل الحقّ بحيث لا يجترئ المبطلون على جحوده، وأنّه أظهرَ حجّتَكَ عليهم. وقيل: على أن عصَمك مِن أمثال هذه الضلالات،[2] ولا يخفى بُعده.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم هذا، فيشركون به سبحانه أخسَّ مخلوقاته. وقيل: لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم ذلك.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارةُ تحقير وازدراء للدنيا، وكيف لا، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة ما سقى الكافر منها شِربةَ ماء».[3] ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: إلّا كما يُلهّى ويُلعب به الصبيان، يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثمّ يتفرّقون عنه.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لَهِي دار الحياة الحقيقيّة، لامتناع طَرَيان الموت والفناء عليها، أو هي في ذاتها حياة للمبالغة. و﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ مصدر "حَيِيَ"، سمّي به ذو الحياة، وأصله "حَيَيان"، فقُلبت "الياء" الثانية "واوًا"، لِما في بناء "فَعَلان"

---

١ م ط س - مِن.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٩/٤.

٣ سنن الترمذي، ٥٦٠/٤ (٢٣٢٠)؛ المستدرك للحاكم، ٣٤١/٤ (٧٨٤٧).

مِن معنى الحركة والاضطراب اللازم للحَيَوان، ولذلك اختير على "الحياة" في هذا المقام المقتضي للمبالغة.

﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لِما آثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة، ثمّ ما يحدث فيها مِن الحياة عارضة سريعة الزوال، وَشِيكة الاضمحلال.

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ متّصل بما دلّ عليه شرحُ حالِهم. و"الركوب" هو الاستعلاء على الشيء المتحرّك، وهو متعدٍّ بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل، ٨/١٦]. واستعماله ههنا وفي أمثاله بكلمة ﴿فِي﴾ للإيذان بأنّ المركوب في نفسه مِن قَبيل الأمكنة، وحرَكتَه قسريّة غير إراديّة كما مرّ في سورة هود.[1]

والمعنى: / أنّهم على ما وُصِفوا مِن الإشراك، فإذا ركبوا في البحر ولَقوا شدّةً ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: كائنينَ على صورة المخلِصين لدينهم مِن المؤمنين، حيث لا يدعون غير الله تعالى لعلمهم بأنّه لا يكشف الشدائد عنهم إلّا هو، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: فاجَئوا المعاوَدة إلى الشرك. [٣٠٤ظ]

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٦٦﴾

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ أي: يفاجِئون الإشراك ليكونوا كافرين بما آتيناهم مِن نعمة الإنجاءِ التي حقّها أن يَشكروها، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبةَ ذلك وغائلته حين يرون العذاب.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: ألم ينظروا ولم يشاهدُوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: بلدَهم ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ مَصونًا عن النَّهب والتعدّي، سالِمًا أهلُه مِن كلّ سوء، ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾

---

١ هود، ٤١/١١.

أي: والحال أنّهم يُختَلَسون مِن حولهم قتلًا وسَبيًا؛ إذ كانت العرب حوله في تغاوُرٍ وتناهُب.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أَبَعْدَ ظهور الحقّ الذي لا ريب فيه بالباطل خاصّةً يؤمنون دون الحقّ؟ ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ وهي المستوجِبة للشكر، حيث يشركون به غيرَه؟ وتقديمِ الصلة في الموضعين لإظهار كمال شناعة ما فعلوا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعَم أنّ له شريكًا، أي: هو أظلم مِن كلّ ظالم، وإن كان سَبْك النظم دالًّا على نفي الأظلم مِن غير تعرّض لنفي المساوي، وقد مرّ مرارًا.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾ أي: بالرسولِ أو بالقرآن، وفي ﴿لَمَّا﴾ تسفيه لهم بأن لم يتوقّفوا ولم يتأمّلوا حين جاءهم، بل سارعوا إلى التكذيب آثِرَ ذِي أثيرٍ.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ تقرير لثَوائهم فيها، كقول مَن قال:

ألستم خيرَ مَن ركِب المَطايا[١]

[٣٠٥و] / أي: أَلا يستوجبون الثَّواء فيها، وقد فعلوا ما فعلوا مِن الافتراء على الله تعالى، والتكذيبِ بالحقّ الصريح؟ أو إنكارٌ واستبعاد لاجترائهم على ما ذُكر مِن الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة، أي: ألَم يعلموا أنّ في جهنّم مثوًى للكافرين حتّى اجترَءوا هذه الجرأة؟

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ أي: في شأننا ولوجهنا خالصًا. أطلق المجاهدة ليعمّ جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سُبُلَ السير إلينا، والوصولِ

---

١ تمامه: لجرير في ديوانه، ١/٨٩.

وأنــدَى العالمين بُطونَ راحِ

إلى جنابنا، أو لَنَزيدنّهم هداية إلى سُبل الخير، وتوفيقًا لسلوكها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد، ١٧/٤٧]. وفي الحديث: «مَن عمل بما عَلِم ورّثه الله علمَ ما لم يعلم».[١]

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ معيّةَ النصرة والمعونة.

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة العنكبوت كان له مِن الأجر عشر حسنات بعدد كلّ المؤمنين والمنافقين».[٢]

---

١ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٠٠/٤. وأخرجه أبو نعيم في **حلية الأولياء**، ١٥/١٠، وضعّفه.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٦٩/٧؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤١٢/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٢٩

سورة العنكبوت

مكية، وهي تسع وستون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الم﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أن يُترَكُوا أن يَقُولُوا﴾ أي: بقولهم: ﴿آمَنَّا. وهُم لا يُفتَنُونَ﴾: يُختبَرُون بما يتبيّن به حقيقة إيمانهم ـ نزل في جماعة آمنوا، فآذاهم المشركون ـ ٣ ـ ﴿ولَقَد فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبلِهِم؟ فلَيَعلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم عِلمَ مُشاهدة، ﴿ولَيَعلَمَنَّ الكاذِبِينَ﴾ فيه. ٤ ـ ﴿أم حَسِبَ الَّذِينَ يَعمَلُونَ السَّيِّئاتِ﴾: الشِّركَ والمعاصيَ ﴿أن يَسبِقُونا﴾: يفوتونا فلا ننتقمَ منهم؟ ﴿ساءَ﴾: بئسَ ﴿ما﴾: الذي ﴿يَحكُمُونَـ﴾ ـهُ حُكمُهم هذا!

سورة العنكبوت

وقولُه: (﴿أَنْ يُتْرَكُوا﴾) أي: على عافيَةٍ وفراغٍ، ولمَّا كانَ صِلَةً مشتملَةً على مُسْنَدٍ ومُسْنَدٍ إليه سدَّ مسَدَّ مفعولَي ﴿حَسِبَ﴾، وهذا هو الأظهرُ.

قولُه: (بِقَولِهِم) أو: لقولِهِم.

قولُه: (يُختبَرُونَ) بل يمتحِنُهُم اللهُ بمشاقِّ التَّكاليفِ وأنواعِ المصائبِ؛ ليتميَّزَ الثَّابتُ من المضطرِبِ، ولِيَنالوا بالصَّبرِ عليها عواليَ الدَّرَجاتِ.

قولُه: (فَآذَاهُم) بالمدِّ، ومنهُم عمَّارُ بنُ ياسِرٍ[1].

قولُه: (عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ) كما عَلِمَ عِلْمَ غَيبٍ، وقيل: وليُمَيِّزَنَّ، أو: ليُجازِيَنَّ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣٢) عن عبد الله بن عبيد بن عمير.

٥ ـ ﴿مَن كانَ يَرجُو﴾: يخافُ ﴿لِقاءَ اللهِ فإنَّ أجَلَ اللهِ﴾ به ﴿لَآتٍ﴾، فلْيستعدَّ له، ﴿وهْوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال العِباد ﴿العَلِيمُ﴾ بأفعالهم، ٦ ـ ﴿ومَن جاهَدَ﴾ جِهادَ حرب أو نفس ﴿فإنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنّ منفعة جِهاده له لا للهِ. ﴿إنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العالَمِينَ﴾: الإنسِ والجِنّ والملائكة وعن عِبادتهم. ٧ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنهُم سَيِّئاتِهِم﴾ بعمل الصالحات، ﴿ولَنَجزِيَنَّهُم أحسَنَ﴾، بمعنى: حَسَنَ ـ ونصبُه بنزع الخافض: الباء ـ ﴿الَّذِي كانُوا يَعمَلُونَ﴾، وهو الصالحات.

٨ ـ ﴿ووَصَّينا الإنسانَ بِوالِدَيهِ حُسنًا﴾ أي: إيصاءً ذا حُسن بأن يَبَرَّهما. ﴿وإن جاهَداكَ لِتُشرِكَ بِي ما لَيسَ لَكَ بِهِ﴾: بإشراكه ﴿عِلمٌ﴾ ـ مُوافقةً للواقع فلا مفهومَ له ـ ﴿فلا تُطِعْهُما﴾ في الإشراك. ﴿إلَيَّ مَرجِعُكُم، فأُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ فأُجازيكم به. ٩ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُدخِلَنَّهُم في الصّالِحِينَ﴾: الأنبياءِ والأولياءِ بأن نحشرهم معهم.

١٠ ـ ﴿ومِنَ النّاسِ مَن يَقُولُ: آمَنّا بِاللهِ. فإذا أُوذِيَ في اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ﴾ أي: أذاهم له ﴿كَعَذابِ اللهِ﴾ في الخوف منه، ....

قولُه: (يَخَافُ) أي: الوصولَ إلى العاقبةِ مِن الموتِ والبعثِ والحسابِ والجزاءِ، أو: يأملُ لقاءَهُ في الجنَّةِ، أو الوصولَ إلى ثوابِهِ.

قولُه: (بِهِ) أي: الوقتِ المضروبِ للقائِه.

قولُه: (بأَفعَالِهِم) وعقائِدِهم ونيَّاتِهم.

قولُه: (عَن عِبَادَتِهِم) وإنَّما كلَّفَهُم رحمةً عليهم ومُراعاةً لصلاحِهِم.

قولُه: (بعَمَلِ الصَّالِحَاتِ) الكُفرَ بالإيمانِ، والمعاصيَ بما يتبعُها من الطَّاعاتِ.

قولُه: (بِمَعنَى: حَسَنَ) أو: أحسنَ جزاءَ أعمالِهم.

قولُه: (بِإِشْرَاكِهِ) أو بإلهيَّتِهِ.

قولُه: (مُوَافَقَةً) أو كنايَةً عمَّا ليسَ له وجودٌ، عبَّرَ عن نفيِها بنَفيِ العِلمِ.

قولُه: (فِي الإِشرَاكِ) وقد وردَ: «لا طاعَةَ لمخلُوقٍ في معصيَةِ الخالِقِ»[1].

قولُه: (بأَنْ نَحشُرَهُم) أو: في مُدخَلِهِم، وهو الجنَّةُ.

قولُه: (أَذَاهُم لَهُ) في الصَّرفِ عن الإيمانِ.

قولُه: (فِي الخَوْفِ) والصَّرفِ عنِ الكفرِ.

(١) رواه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠)، وأحمد في «مسنده» (١٠٩٥) من حديث عليٍّ رضي الله عنه، واللفظ لأحمد.

يُضيعه فيُنافق. ﴿وَلَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿جَاءَ نَصْرٌ﴾ للمؤمنين ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فغنموا ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، حُذفت منه نونُ الرفع لتوالي النونات، والواوُ ضمير الجمع لالتقاء الساكنين: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ في الإيمان، فأشركونا في الغنيمة. قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ﴾ أي: بعالمٍ ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾: قلوبهم من الإيمان والنفاق؟ بلى. ١١ ـ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ فيجازي الفريقين. واللام في الفعلين: لام قسم.

١٢ ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾: طريقنا في ديننا، ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ في اتباعنا، إن كانت. والأمر بمعنى الخبر. قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ـ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في ذلك ـ ١٣ ـ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾: أوزارهم ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ بقولهم للمؤمنين «اتَّبِعوا سبيلنا» وإضلالهم مُقلِّديهم، ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: يكذبون على الله سُؤالَ توبيخ. واللام في الفعلين: لام قسم، وحُذف فاعلهما الواو ونون الرفع.

١٤ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، وعمرُه أربعون سنة أو أكثر، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، يدعوهم إلى توحيد الله فكذَّبوه، ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾..........................

قوله: (فغنموا) الغنيمةُ تستلزمُ[1] النصرَ.

قوله: (في الإيمان) الظاهرِ: في الدِّين.

قوله: (بعالم) بل هو على بابه.

قوله: (من الإيمان) والأظهرُ: الإخلاص.

قوله: (طريقنا) الذي نسلكُه.

قوله: (إن كانت) خطيئةٌ، أو مؤاخذةٌ، أو قيامةٌ، قيل: قائلُ ذلك الوليدُ بنُ المغيرةِ[2].

قوله: (في ذلك) الحمل، و﴿مِن﴾ الأولى للتبيين، والثانية مزيدةٌ[3]، والتقدير: وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم.

قوله: (أوزارهم) أي: ما اكتسبتْهُ أنفسُهم.

قوله: (ونون الرفع) ما أكثر اهتمام الشيخ بهذا! وهو غيرُ محتاجٍ إليه في علم التفسير، وإنَّما هو من أوائل علم الصَّرف الذي هو من جملة آلات هذا العلم.

(١) في (ب): «تلازم».

(٢) انظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» لمكي بن أبي طالب (٩/ ٥٦٠٦)، و«المحرر الوجيز» لابن عطية (٤/ ٣٠٩).

(٣) في قوله: ﴿من شيء﴾.

أي: الماء الكثير، طاف بهم وعلاهم فغرقوا، ﴿وهُم ظالِمُونَ﴾: مُشركون، ١٥ ـ ﴿فأنجَيناهُ﴾ أي: نُوحًا ﴿وأصحابَ السَّفِينةِ﴾ أي: الذين كانوا معه فيها، ﴿وجَعَلْناها آيةً﴾: عِبرة ﴿لِلعالَمِينَ﴾: لِمن بعدهم من الناس، إن عصَوا رسولهم. وعاش نُوح بعد الطوفان ستّين سنة أو أكثر حتّى كثُر الناسُ.

١٦ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إبراهِيمَ، إذ قالَ لِقَومِهِ: اعبُدُوا اللهَ واتَّقُوهُ﴾: خافوا عقابه. ﴿ذلِكُم خَيرٌ لَكُم﴾ ممّا أنتم عليه من عِبادة الأصنام، ﴿إن كُنتُم تَعلَمُونَ﴾ الخيرَ من غيره. ١٧ ـ ﴿إنَّما تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ﴿أوثانًا، وتَخلُقُونَ إفكًا﴾: تقولون كذبًا: «إنّ الأوثان شُركاءُ لله». ﴿إنَّ الَّذِينَ تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَملِكُونَ لَكُم رِزقًا﴾: لا يقدرون أن يرزقوكم. ﴿فابتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزقَ﴾: اطلبوه منه، ﴿واعبُدُوهُ واشكُرُوا لَهُ. إلَيهِ تُرجَعُونَ﴾.

١٨ ـ ﴿وإن تُكَذِّبُوا﴾ أي: تُكذّبوني ـ يا أهل مكّة ـ ﴿فقَد كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبلِكُم﴾ مَن قبلي،.......

قولُه: (أي: المَاءُ) أي: طوفانُ الماءِ، وهو لِمَا طافَ بكثْرَةٍ من سَيْلٍ، أو ظلامٍ، أو ريحٍ.

قولُه: (عِبرَةً) أي: السَّفينةَ، أو الحادثةَ.

قولُه: (إنْ عَصَوا) أي: النَّاسُ.

قولُه: (اذكُرْ) أو عطفٌ على: ﴿نوحاً﴾.

قولُه: (مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ) الأظهرُ: من تَركِ عبادتِهِ وتقواهُ.

قولُه: (مِنْ غَيرِهِ) وهو الشَّرُّ، أو: ضدُّ الأفضلِ.

قولُه: (تَقُولُونَ كَذِباً) أو: تَكذِبونَ كذباً، والأظهرُ: تَفْتَرُونَ كَذِباً، من خَلَقَ بمعنى: اخْتَلَقَ، وقيلَ: تعمَلونَها وتنحتونَها للإفْكِ.

قولُه: (أنْ يَرْزُقَكُم) فالرِّزقُ مصدرٌ، ويحتمِلُ: المرزوقَ.

قولُه: (أي: اطلُبُوهُ) كلَّهُ، فإنَّهُ المالِكُ له، قالَ سهلٌ: اطلبوا الرِّزقَ بالتَّوكُّلِ، فإنَّ طَلَبَ الرِّزقِ مِن الكسْبِ سبيلُ العوامِّ[١].

قولُه: (تُكَذِّبُونِي) فلا يضرُّني تكذيبُكم.

قولُه: (مَنْ قَبلِي)[٢] فلم يضرُّهُم تكذيبُهُم.

---

(١) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١٢٠). وليس مراده ترك الكسب، بل أن يكون مع الكسب التوكل على الله لا على السبب الذي هو الكسب.

(٢) أي: من الرسل.

﴿وما عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ البَلاغُ المُبِينُ﴾: الإبلاغ البيِّنُ. في هاتين القصتين تسلية للنبيّ. وقال تعالى في قومه: ١٩ ـ ﴿أَوَلَم يَرَوا﴾، بالياء والتاء: ينظروا: ﴿كَيفَ يُبدِئُ اللهُ الخَلقَ﴾ ـ بضمّ أوله، وقُرِئ بفتحه من: بَدأَ وأبدأ بمعنًى ـ أي: يخلقُهم ابتداءً؟ ﴿ثُمَّ﴾ هو ﴿يُعِيدُهُ﴾ أي: الخلقَ كما بدأه. ﴿إنَّ ذلِكَ﴾ المذكورَ من الخلق الأوّل والثاني ﴿علَى اللهِ يَسِيرٌ﴾. فكيف يُنكرون الثاني؟

٢٠ ـ ﴿قُلْ: سِيرُوا في الأرضِ، فانظُرُوا: كَيفَ بَدَأَ الخَلقَ﴾ لِمن كان قبلكم وأماتهم؟ ﴿ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشاءَةَ الآخِرةَ﴾، مدًّا،..

قولُه: (الإِبْلَاغُ) أي: التَّبليغُ المبينُ الَّذي يَزولُ معه الشَّكُّ، وما عليه أن يُصدَّقَ أو يُكذَّبَ.

قولُه: (والتَّاءِ) الخطابُ لحمزةَ والكسائيِّ وأبي بكرٍ[١] على تقديرِ: قُلْ، أو: قالَ لهم رَسولُهُم.

قولُه: (هُوَ) لا وجهَ لتقديرِه[٢].

قولُه: (وقُرِئَ) شاذًّا (بفَتْحِهِ) أي: بفتحِ الياءِ أو فتحِ الدَّالِ[٣].

قولُه: (بِمَعنًى) واحِدٍ.

قولُه: (ابتِدَاءً) مِن مادَّةٍ وغَيرِها.

قولُه: (هُوَ) مُشعِرٌ بأنَّ ما بعدَهُ عطفٌ على: ﴿يُبْدِئُ﴾، ومنعَهُ القاضي بأنَّ الرُّؤيةَ ولو عِلْميَّةً غيرُ واقعةٍ عليه، بل معطوفٌ على: ﴿أَوَلَمْ يَرَوا﴾[٤]، وكانَ يمكنُ حَمْلُ كلامِ المصنِّفِ عليه لولا تقديرُهُ: «هو» أوَّلًا[٥].

قولُه: (مَدًّا) يعني: مع فتحِ الشِّينِ للمكِّيِّ والبصريِّ[٦].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٨).

(٢) وليس في النسخ المعتمدة في المتن، ولم يظهر لي مكانه، ولعله مقحم من الناسخ في نسخ الشارح.

(٣) أي: (يَبْدَأ). انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١١٦) عن للزهري.

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٩١). وسبقه إلى هذا الزمخشري في «الكشاف»، فتعقبه الطيبي بقول صاحب «المطلع»: وإن جعلتَ الرُّؤيةَ بمعنى العِلْمِ لِتَمكُّنِهم من تَحصيله بالبحث عن دلائله والاستدلالِ بها، فلا حاجةَ إلى هذا التَّكلفِ في التَّفصِّي عن عُهدة العَطفِ.

وبقول صاحب «الانتصاف» أيضًا: ولقائلٍ أن يقول: وإنْ لم تقعِ الرُّؤيةُ عليه إلاّ أنّها إخبار الله وهي كالماتيِّ به، فعُومِلَت معاملةَ المأتيِّ به. انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ١٥٥)، و«الانتصاف» (٣/ ٤٤٨)، وعبارة «الانتصاف»: ولقائل أن يقول: هي وإن لم تقع إلا أنها بإخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المرئية، فعوملت معاملة ما رئي وشوهد إلا أنَّ جَعْله خبراً ثانيا أوضح.

(٥) وقد ذكرنا أنه لا وجود لـ(هو) أولًا في نسخنا من المتن، وعليه فيمكن حمل الكلام على ما عدَّه الشارح ممتنعاً.

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٨).

وقصرًا مع سكون الشين. ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومنه البدءُ والإعادة، ٢١ ـ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشاءُ﴾ تعذيبَه، ﴿وَيَرحَمُ مَن يَشاءُ﴾ رحمتَه، ﴿وَإِلَيهِ تُقلَبُونَ﴾: تُردّون، ٢٢ ـ ﴿وما أَنتُم بِمُعجِزِينَ﴾ ربَّكم عن إدراككم ﴿في الأرضِ ولا في السَّماءِ﴾ ـ لو كنتم فيها، أي: لا تفوتونه ـ ﴿وما لَكُم مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يمنعكم منه ﴿ولا نَصِيرٍ﴾: ينصركم من عذابه. ٢٣ ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ ولِقائِهِ﴾ أي: القُرآنِ والبعث ﴿أُولئِكَ يَئِسُوا مِن رَحْمتِي﴾ أي: جنّتي، ﴿وأُولئِكَ لَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ﴾: مُؤلم.

قال تعالى في قصة إبراهيم: ٢٤ ـ ﴿فما كانَ جَوابَ قَومِهِ إلاّ أن قالُوا: اقتُلُوهُ أو حَرِّقُوهُ. فأنجاهُ اللهُ مِنَ النّارِ﴾ التي قذفوه فيها بأن جعلها عليه بردًا وسلامًا. ﴿إِنَّ في ذلِكَ﴾ أي: إنجائه منها ﴿لَآياتٍ﴾ هي عدمُ تأثيرها فيه مع عِظَمِها، وإخمادُها وإنشاءُ روض مكانها في زمنٍ يسير، ﴿لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾: يصدّقون بتوحيد الله وقُدرته لأنهم المنتفعون بها.

قولُه: (فِيهَا) أي: السَّماءِ.

قولُه: (أي: لا تَفُوتُونَهُ) إن فَرَرتُم من قضائِهِ بالتَّواري في الأرضِ أو التَّحصُّنِ في السَّماءِ.

وقيل: ولا مَن في السَّماءِ؛ كقولِ حسَّانَ:

أَمَـنْ يَهْجُـو رَسُـولَ اللهِ مِنْكُم ... ويَمْدَحُـهُ ويَنْصُـرُهُ سَـوَاءُ[1]

ويُقدَّرُ: مَن؛ لأنَّ مَن يمدحُ غيرُ مَن يهجو، فلا بُدَّ من تكرارِ الموصولِ.

قولُه: (مِنْ عَذَابِهِ) أي: بلاءٍ يظهَرُ من الأرضِ، أو ينزلُ من السَّماءِ.

قولُه: (أي: القُرآنِ) أو: بدلائلِ وَحدانيَّتِهِ، أو: بكُتُبِهِ.

قولُه: (والبَعْثِ) تفسيرُ اللِّقاءِ.

قولُه: (أي: جَنَّتِي) لإنكارِهِم البَعْثَ، أو: يَئِسوا من رحمَتِي يومَ القيامةِ، فعبَّرَ عنه بالماضِي للتَّحقيقِ والمبالغةِ.

قولُه تعالى: (﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾) أي: قالَ بعضُهم، حتَّى لا يلزمَ اتِّحادُ الآمرِ والمأمورِ، لكنْ لمَّا قيلَ في ما بينهُم أو رَضيَ به الباقونَ أسندَ إلى كلِّهِم، كذا قيل، وخطرَ ببالي أنَّه مبالغةٌ كأنَّ كلَّ واحدٍ آمرٌ ومأمورٌ مع إمكانِ الوقوعِ، و﴿أو﴾ للتَّنويعِ، أو بمعنَى: بل.

قولُه: (فِي زَمَنٍ) قَيدٌ للأخيرين.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص: ٢٠).

٢٥ ـ ﴿وقالَ﴾ إبراهيم: ﴿إنَّ ما اتَّخذتُم مِن دُونِ اللهِ أوثانًا﴾ تعبدونها ـ وما: مصدريّة ـ ﴿مَوَدّةُ بَينِكُم﴾: خبرُ «إنّ»، وعلى قراءة النصب مفعول له وما: كافّة. المعنى: تواددتم على عِبادتها، ﴿في الحَياةِ الدُّنيا، ثُمَّ يَومَ القِيامةِ يَكفُرُ بَعضُكُم بِبَعضٍ﴾: يتبرّأ القادةُ من الأتباع، ﴿ويَلعَنُ بَعضُكُم بَعضًا﴾: يلعن الأتباعُ القادةَ، ﴿ومأواكُمُ﴾: مصيركم جميعًا ﴿النّارُ، ومالكُم مِن ناصِرِينَ﴾: مانعين منها.

٢٦ ـ ﴿فآمَنَ لَهُ﴾: صدّقَ بإبراهيمَ ﴿لُوطٌ﴾ وهو ابن أخيه هارانَ، ﴿وقالَ﴾ إبراهيم: ﴿إنِّي مُهاجِرٌ﴾ من قومي ﴿إلَى رَبِّيَ﴾ أي: إلى حيثُ أمرني ربّي. وهجرَ قومه وهاجر من سواد العِراق إلى الشام. ﴿إنَّهُ هُوَ العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في خلقه. ٢٧ ـ ﴿ووَهَبْنا لَهُ﴾ بعد إسماعيلَ ﴿إسحاقَ ويَعقُوبَ﴾ بعد إسحاقَ، ﴿وجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِ النُّبوّةَ﴾ ـ فكلُّ الأنبياء بعد إبراهيم من ذُرّيّته ـ ﴿والكِتابَ﴾.........

قولُه: (خَبَرُ ﴿إنَّ﴾) أو: خبرُ مبتَدأ محذوفٍ ـ أي: هي مودودةٌ، أو سببُ مودَّةِ بينِكُم ـ والجملةُ صفةُ ﴿أوثانا﴾ و﴿ما﴾ كافّةٌ.

قولُه: (قِرَاءَةِ النَّصْبِ) منوَّنةً مع نَصبِ (بينكُم) نافعٌ وشاميٌّ وشعبةُ، وغيرَ منوَّنةٍ معَ خفضِهِ: حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ[1].

قولُه: (مَفعُولٌ لَهُ) أي: لتتوادُّوا بينكم وتتواصَلوا؛ لاجتماعِكُم على عبادَتِها.

قولُه: (المَعْنَى) أي: حاصِلُهُ.

قولُه: (صَدَّقَ) هو أوَّلُ مَن آمنَ به.

قولُه: (ابنُ أَخِيهِ) بالتَّحتانيَّتينِ، وأمَّا ضبطُهُ في البيضاويِّ بالفوقانيَّتينِ[2]، فتصحيفٌ؛ لِمَا تقدَّمَ منهُ في الأعرافِ: أنَّ إبراهيمَ كان عمَّ لوطٍ عليهما السلام[3].

قولُه: (بعدَ إِسْحاقَ) فيه: أنَّ يعقوبَ هو ابنُ إسحاقَ، وبَعديَّتُه ضروريَّةٌ.

---

(١) وتفصيل القول: قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (مودةُ) بالرفع من غير تنوين، مع خفض ﴿بينِكم﴾، وقرأ حفص وحمزة بالنصب من غير تنوين، مع خفض ﴿بينِكم﴾، وقرأ الباقون: (مودةً) بالنصب والتنوين، و(بينكم) بالفتح، انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٧٣)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٦٠).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» طبعة دار اللباب (١٠/ ٨٨). قال الشهاب في «عنايه القاضي وكفاية الراضي» (٧/ ٩٧): وقوله: «ابن أخته» هو رواية، ومرّ في الأعراف أنه عمّ لوط عليهما الصلاة والسلام، وهي رواية أخرى فلا تنافي بين كلاميه، وفي «جامع الأصول»: أنه ابن أخيه هاران بن تارح، وقد قيل: إنّ التاء الفوقية هنا تصحيف فيوافق ما في الأعراف فتأمّله.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٢). وانظر التعليق السابق.

بمعنى الكُتب، أي: التوراةَ والإنجيل والزَّبور والقرآن، ﴿وآتيناهُ أجرَهُ في الدُّنيا﴾، وهو الثناء الحسن في كُلّ أهل الأديان. ﴿وإنَّهُ في الآخِرةِ لَمِنَ الصّالِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجاتُ العُلا.

٢٨ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿لُوطًا، إذ قالَ لِقَومِهِ: أَإنَّكُم﴾ ـ بتحقيق الهمزتين وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ ألف بينهما على الوجهين في الموضعين ـ ﴿لَتأْتونَ الفاحِشةَ﴾ أي: أدبارَ الرجال، ﴿ما سَبَقَكُم بِها مِن أحَدٍ مِنَ العالَمِينَ﴾: الإنسِ والجنّ؟ ٢٩ ـ ﴿أَإنَّكُم لَتأْتونَ الرِّجالَ وتَقطَعُونَ السَّبِيلَ﴾: طريق المارّة بِفعلكم الفاحشةَ بمن يمرّ بكم، فترك الناسُ الممرَّ بكم، ﴿وتأْتُونَ في نادِيكُمُ﴾ أي: مُتحدَّثِكم ﴿المُنكَرَ﴾: فِعلَ الفاحشة بعضُكم ببعض؟..

قولُه: (بِمَعنَى: الكُتُبِ) أي: إفرادُهُ للجنسِ.

وقولُه: (أي) يعني: المرادُ مِن الجنسِ.

قولُه: (العُلَا) أي: من الأنبياءِ؛ يعني: الكامِلينَ في الصَّلاحِ.

قولُه: (اذكُرْ) أو عَطْفٌ على: ﴿إبراهيمَ﴾، أو على ما عُطِفَ عليه.

قولُه: (بتَحقِيقِ) حُقِّقَ مِراراً، وممَّا يُخصُّ بهذا الموضعِ: إخبارُ الأوَّلِ للحِرْميَّينِ والشَّاميِّ وحفصٍ، وإخبارُ الثَّاني للكلِّ[١].

قولُه: (أيْ: أَدبَارَ الرِّجَالِ) أي: الفعلةَ البالغةَ في القُبْحِ.

قولُه: (الإِنْسِ والجَنِّ) استئنافٌ مقرِّرٌ لفَحاشَتِها.

قولُه: (بِفِعْلِكُم) وبالتَّعرُّضِ بالقتلِ وأخذِ المالِ.

قولُه: (مُتَحَدَّثِكُم) يعني: في مجالِسِكُم المملوءةِ بالنَّاسِ.

قولُه: (أي: فِعْلَ الفَاحِشِ) كالجماعِ، والضُّراطِ، وحلِّ الإزارِ، وحلِّ أزرارِ القباءِ، ولعلَّهُما[٢] محمولانِ على انكشافِ العورةِ والسُّخريةِ، والخذفِ، ورمي البنادقِ، والصَّفيرِ، ولعبِ الحَمامِ، وقيل: تطريفِ الأصابعِ بالحنَّاءِ، وزادَ في «الكشَّافِ»: السواكُ في المجالسِ[٣].

وقيل: المنكرُ: تركُ حُرمَةِ الأكابرِ.

وقالَ الجُنَيدُ: كلُّ ما يجتَمِعُ عليه النَّاسُ إلَّا الذِّكرَ فهو منكرٌ[٤].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٩).

(٢) «ولعلهما»؛ أي: حل الإزار وحل الأزرار.

(٣) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٥٢).

﴿فما كانَ جَوابَ قومِهِ إلاّ أن قالُوا: ائتِنا بِعذابِ اللهِ، إن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ في استقباح ذلك وأن العذاب نازلٌ بفاعليه. ٣٠ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، انصُرْنِي﴾ بتحقيق قولي في إنزال العذاب ﴿علَى القَومِ المُفسِدِينَ﴾: العاصين بإتيان الرجال. فاستجاب الله دعاءه.

٣١ ـ ﴿ولَمّا جاءَت رُسُلُنا إبراهِيمَ بِالبُشرَى﴾ بإسحاق ويعقوب بعده ﴿قالُوا: إنّا مُهلِكُو أهلِ هذِهِ القَرْيةِ﴾ أي: قريةِ لُوطٍ. ﴿إنَّ أهلَها كانُوا ظالِمِينَ﴾: كافرين. ٣٢ ـ ﴿قالَ﴾ إبراهيم: ﴿إنَّ فِيها لُوطًا. قالُوا﴾ أي الرسلُ: ﴿نَحنُ أعلَمُ بِمَن فِيها. لَنُنْجِيَنَّهُ﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿وأهلَهُ إلاّ امرأتَهُ، كانَت مِنَ الغابِرِينَ﴾: الباقين في العذاب.

٣٣ ـ ﴿ولَمّا أن جاءتْ رُسُلُنا لُوطًا سِيْءَ بِهِم﴾: حَزِنَ بسببهم، ﴿وضاقَ بِهِم ذَرعًا﴾: صدرًا لأنهم حِسانُ الوجوه في صورة أضياف،...

قولُه: (في اسْتِقبَاحِ ذَلِكَ) أو في دَعوى النُّبوَّةِ.

قولُه: (العَاصِينَ) قالَ الطِّيبيُّ: الكافرُ إذا وُصِفَ بالفسقِ أو الإفسادِ كانَ محمُولاً على عدوانِهِ في الكفرِ(١).

قولُه: (بِإتيَانِ) أي: بابتِداعِ الفاحشَةِ وسَنِّها فيمَن بعدَهُم.

قولُه: (بَعدَهُ) هذه البعديَّةُ في محلِّها، إذِ البِشارةُ بإسحاقَ متقدِّمَةٌ ومتوقِّفَةٌ.

قولُه: (أي: قَريَةِ لُوطٍ) يعني: سَدومَ.

قولُه: (كَافِرِينَ) عَاصينَ.

قولُه: (إبرَاهِيمُ) اعتراضاً عليهم بأنَّ فيها مَن لم يَظْلِم.

قولُه: (بالتَّخفِيْفِ) حمزةُ والكسائيُّ(٢).

قولُه: (فِي العَذَابِ) أو القريَةِ.

قولُه: (حَزِنَ) أي: جاءَتهُ المساءَةُ والغَمُّ بسببهم مخافةَ أن يقصدَهُم قومُهُ بسوءٍ، و﴿أَنْ﴾ صِلَةٌ لتأكيدِ الفعلينِ، واتِّصالِهِما المدلولِ بكلمةِ ﴿لَمَّا﴾ كأنَّهُما وقَعا معاً.

قولُه: (صَدْراً) هذا لازمُ معناهُ اللُّغويِّ وهو الطَّاقةُ، فالمعنى: ضاقَ بشأنِهم وتدبيرِ أمرِهم طاقتُهُ.

= غير الذكر ولا يكون منكراً بل مباحا، بل واجباً كصلة الأرحام، والتباحث فيما يهم المسلمين أو يطرأ عليهم من أحداث عظيمة.

(١) انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ١٦٦).

(٢) هذا وما بعده انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٠).

فخاف عليهم قومه، فأعلموه بأنهم رُسل ربِّه، ﴿وقالُوا: لا تَخَفْ ولا تَحزَنْ. إنّا مُنَجُّوكَ﴾ ـ بالتشديد والتخفيف ـ ﴿وأهلَكَ إلاّ امرأتَكَ، كانَت مِنَ الغابِرِينَ﴾. ونُصِبَ «أهلَكَ» عطفًا على محلّ الكاف. ٣٤ ـ ﴿إنّا مُنزِلُونَ﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿علَى أهلِ هذهِ القَريَةِ رِجزًا﴾: عذابًا ﴿مِنَ السَّماءِ بِما﴾: بالفعل الذي ﴿كانُوا يَفسُقُونَ﴾ به، أي: بسبب فِسقهم. ٣٥ ـ ﴿ولَقَد تَرَكْنا مِنها آيةً بَيِّنَةً﴾: ظاهرة، هي آثار خرابها، ﴿لِقَومٍ يَعقِلُونَ﴾: يتدبّرون.

٣٦ ـ ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلَى مَديَنَ أخاهُم شُعَيبًا، فقالَ: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ وارجُوا اليَومَ الآخِرَ﴾: اخشَوه ـ هو يوم القيامة ـ ﴿ولا تَعثَوا في الأرضِ مُفسِدِينَ﴾: حالٌ مُؤكِّدة لعاملها، من «عَثِيَ» بكسر المُثلَّثة: أفسدَ. ٣٧ ـ ﴿فكَذَّبُوهُ فأخَذَتْهُمُ الرَّجْفةُ﴾: الزلزلة الشديدة، ﴿فأصبَحُوا في دارِهِم جاثِمِينَ﴾: باركين على الرُّكب ميّتين.

قولُه: (بالتَّشدِيدِ) نافعٌ وبصريٌّ وشاميٌّ وحفصٌ.

قولُه: (عَلَى مَحَلِّ الكَافِ) أي: باعتبارِ الأصلِ، فإنَّ الأصلَ كانَ: منجُّونَ إيَّاكَ، وإلَّا فموضِعُ الكافِ جرٌّ على المختارِ.

قولُه: (والتَّشدِيدِ) شاميٌّ.

قولُه: (بالفِعلِ) والأظهرُ: بسببِ فِسْقِهِم.

قولُه: (خَرَابِهَا) أي: القريةِ، إشارةً إلى أنَّ الآيَةَ هي آثارُ الدِّيارِ الخَرِبَةِ، وقيلَ: هي حكايَتُها الشَّائعةُ[1].

قولُه: (﴿و﴾ أَرسَلْنَا) يعني: ﴿شعيباً﴾ منصوبٌ بالعطفِ على ﴿نوحاً﴾، أو بتقديرِه[2] لطولِ الفَصْلِ.

قولُه: (اخْشَوا) بفتحِ الشِّينِ؛ بمعنَى: خافوا.

قولُه: (هُوَ يَومُ القِيَامَةِ) لعلَّهُ دفعٌ لِمَا عسَى أن يُتَوَهَّم أنَّه يومُ عاقبةِ أمرِهم، وهو وقتُ العذابِ.

قولُه: (أَفسَدَ) العُثُوُّ: أشدُّ الفسادِ، فالمعنى: لا تزيدُوا في الفسادِ حالَ كونِهم مفسدينَ، أو: لا تفسِدوا حالَ كونهم قاصدينَ الفسادَ.

قولُه: (الزَّلزَلَةُ) أو الصَّيحَةُ، ولا مَنْعَ من الجمعِ، ويمكنُ التَّوزيعُ.

قولُه: (بَارِكِينَ) و﴿دارِهم﴾: بلدِهِم، أو دورِهِم.

---

(١) في (ص): «السابقة».

(٢) أي: بتقدير: أرسلنا.

٣٨ - ﴿وَ﴾ أهلكنا ﴿عادًا وثَمُودًا﴾ - بصرف «ثمود» وتركِه بمعنى الحيّ والقبيلة، ﴿وقَد تبيَّنَ لَكُم﴾ إهلاكُهم ﴿مِن مَساكِنِهِم﴾ بالحِجر واليمن - ﴿وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أعمالَهُم﴾ من الكُفر والمعاصي، ﴿فصَدَّهُم عَنِ السَّبِيلِ﴾: سبيل الحقّ، ﴿وكانُوا مُستَبصِرِينَ﴾: ذوِي بصائرَ، ٣٩ - ﴿وَ﴾ أهلكنا ﴿قارُونَ وفِرعَونَ وهامانَ، ولَقَد جاءَهُم﴾ من قبلُ ﴿مُوسَى بِالبَيِّناتِ﴾: بالحُجج الظاهرات، ﴿فاستَكبَرُوا في الأرضِ، وما كانُوا سابِقِينَ﴾: فائتين عذابَنا.

٤٠ - ﴿فكُلًّا﴾ من المذكورين ﴿أخَذْنا بِذَنبِهِ - فمِنهُم مَن أرسَلْنا علَيهِ حاصِبًا﴾: ريحًا عاصفة فيها حصباءُ كقوم لُوط، ....

قولُه: (أَهلَكْنَا) يعني: ما بعدَهُ منصوبانِ بفعلٍ دلَّ عليه ما قبلَهُ، وهوَ ﴿أخذتهم الرجفة﴾، فالأظهرُ[1] إضمارُ: اذكُرْ.

قولُه: (وتَرْكِهِ) حمزةُ وحفصٌ[2].

قولُه: (إهلاكُهُم) أشارَ إلى أنَّ فاعلَ: ﴿تَبيَّنَ﴾ ضميرٌ، و﴿مِنْ﴾ للابتداءِ؛ أي: من جهةِ مساكنِهم إذا نظرْتُم إليها عند مُرورِكُم بها، والأظهرُ: أنَّ ﴿مِنْ﴾ تبعيضيَّةٌ فاعلٌ؛ أي: بعضُ مساكنِهم باليمنِ، ويؤيِّدُه قراءةُ الأخفشِ: (مساكنُهُمْ) بالرَّفعِ من غيرِ: ﴿مِنْ﴾[3].

قولُه: (ذَوِي بَصَائِرَ) أي: في نَفْسِ الأمْرِ، أو عندَ أنفسِهِم معجَبينَ برَأيِهِم، أو: مستَبصِرينَ بضلالِهِم لكنَّهُم لجُّوا.

قولُه: (أَهلَكْنَا) يعني: ما بعدَهُ معطوفُونَ على: ﴿عاداً﴾، وتقديمُ ﴿قارونَ﴾ لشرَفِ نسبِهِ، قلتُ: أو لعلمِهِ، فويلٌ للجاهلِ، وويلٌ للعالِمِ سبعَ مرَّاتٍ.

قولُه: (حَصْبَاءُ) ما يُحْصَبُ به، أو مَلَكاً رماهُم بها. وقالَ الصَّفويُّ: أي: ريحاً صرصراً تحملُ الحصباءَ فتلقيها عليهِم، وتقلعهُم من الأرضِ، ثمَّ تنكسُهُم على أمِّ رأسِهم فتشدَخُهم كأنَّهُم أعجازُ نخلٍ منقَعرٍ، وهم قومُ عادٍ.

ثمَّ قالَ: ورُوِيَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الأوَّلَ: قومُ لوطٍ، والرَّابعَ: قومُ نوحٍ[4]، والأظهرُ: ما ذكَرنا؛ لأنَّه ذكرَ

---

(١) كذا في الأصول، ولعل الأولى: «والأظهر» بالواو، ولعله استظهره لتقديم البيضاوي إياه على الوجه السابق.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٧).

(٣) كذا في الأصول، والصواب: الأعمش، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٧٢).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٦، ٣٧) من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وِمنهُم مَن أَخَذَتْهُ الصَّيحةُ﴾ كثمود، ﴿ومِنهُم مَن خَسَفْنا بِهِ الأرضَ﴾ كقارون، ﴿ومِنهُم مَن أغرَقْنا﴾ كقوم نُوح وفِرعونَ وقومه ـ ﴿وما كانَ اللهُ لِيَظلِمَهُم﴾ فيُعذِّبَهم بغير ذنب، ﴿ولكِن كانُوا أنفُسَهُم يَظلِمُونَ﴾ بارتكاب الذنب.

٤١ ـ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَولِياءَ﴾ أي: أصنامًا يرجون نفعها ﴿كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيتًا﴾ لنفسها تأوي إليه، ﴿وإنَّ أَوهَنَ﴾: أضعفَ ﴿البُيُوتِ لَبَيتُ العَنكَبُوتِ﴾، لا يدفع عنها حرًّا ولا بردًا. كذلك الأصنام لا تنفع عابديها. ﴿لَو كانُوا يَعلَمُونَ﴾ ذلك ما عبدوها.

٤٢ ـ ﴿إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما﴾ بمعنى: الذي ﴿يَدعُونَ﴾: يعبدون ـ بالياء والتاء ـ ﴿مِن دُونِهِ﴾: غيرَه ﴿مِن شَيءٍ، وهُوَ العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه. ٤٣ ـ ﴿وتِلكَ الأمثالُ﴾ في القُرآنِ ﴿نَضرِبُها﴾:

قبلَهُ عاداً وثموداً، وقارونَ وفرعونَ، فيكونُ من بابِ اللَّفِّ والنَّشرِ، وقد مرَّ إهلاكُ قومِ لوطٍ بالزَّجرِ من السَّماءِ، ولم يَطُلِ الفصْلُ، قالَ بعضُ المحدِّثينَ[1]: الرِّوايةُ منقطعةٌ عنِ ابنِ عبَّاسٍ[2]، انتهى.

قلتُ: الجمعُ ممكنٌ كما جُمِعَ بين قومِ نوحٍ وفرعونَ، واللهُ أعلمُ.

قولُه: (كَثَمُودَ) وقالَ القاضي: كمَدينَ وثمودَ[3].

قولُه: (فَيُعَذِّبَهُم) أي: ليعاملَهُم معاملةَ الظَّالمِ، إذ ليسَ ذاكَ من عادتِه تعالى.

قولُه: (أَصنَاماً) قيل: المرادُ: سِوى المولى.

قولُه: (يَرْجُونَ نَفعَهَا) وكذلكَ: خوفَ الضُّرِّ، لكن اقتصرَ على الأوَّلِ لمناسبةِ المَثَلِ.

قولُه: (تَأْوِي إليهِ) يعني: بل ذاكَ أوهنُ، فإنَّ لهذا حقيقةً وانتِفاعاً ما.

قولُه: (بِمَعنَى: الَّذي) وعائدُهُ محذوفٌ.

قولُه: (بالياءِ) الغيبةُ بصريٌّ وعاصمٌ[4].

قولُه: (والتَّاءِ) أي: قُلْ للكَفَرةِ.

قولُه: (في القُرآنِ) أي: هذا المَثَلُ ونظائرُهُ.

---

(١) منهم ابن كثير، انظر: «تفسيره» (٦/ ٢٧٩).

(٢) انظر: «جامع البيان في تفسير القرآن» (٣/ ٢٨١).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٩٥).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠١).

نجعلها ﴿لِلنَّاسِ، وما يَعقِلُها﴾ أي: يفهمها ﴿إلاّ العالِمُونَ﴾: المُتدبِّرون. ٤٤ ـ ﴿خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ بِالحَقِّ﴾ أي: مُحقًّا. ﴿إنَّ في ذلِكَ لآيَةً﴾: دالّة على قُدرته ـ تعالى ـ ﴿لِلمُؤمِنينَ﴾. خُصّوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها في الإيمان بخلاف الكافرين.

٤٥ ـ ﴿اتلُ ما أُوحِيَ إلَيكَ مِنَ الكِتابِ﴾: القُرآنِ، ﴿وأقِمِ الصَّلاةَ ـ إنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الفَحشاءِ والمُنكَرِ﴾ شرعًا، أي: من شأنها ذلك ما دام المرء فيها،.........

قولُه: (نَجْعَلُهَا) أو نبيِّنُها تقريباً لِمَا بَعُدَ منَ الأفهامِ.

قولُه: (يَفهَمُهَا) أو: لا يعقلُ حُسنَها وفائدتَها على إضمارِ المضافِ.

قولُه: (المُتَدَبِّرُونَ) وعنهُ عليه السَّلامُ أنَّه تلا هذهِ الآيَةَ فقالَ: «العالِمُ مَنْ عَقِلَ عنِ اللهِ، فعملَ بطاعتِهِ واجتنبَ سخطَهُ» رواهُ محيي السُّنَّةِ[1].

قولُه: (فِي الإِيمَانِ... إلخ) تطويلٌ بلا فائدةٍ.

قولُه: (القُرآنِ) و﴿اتْلُ﴾ بمعنى: اقرَأ، أو اتَّبع.

قولُه: (فِيهَا) وكذا خارجَها ببركتِها غالباً من حيثُ إنَّها تُذكِّرُ اللهَ، وتورثُ للنَّفسِ خشيتَهُ، أو مواظبتُها تحملُ على تركِ ذلك، وفي الحديثِ: «مَنْ لم تنهَهُ صلاتُهُ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ لمْ يزدَدْ مِنَ اللهِ إلَّا بُعْداً» رواهُ الإمامُ أحمدُ[2].

أو مراعاتُها تجرُّهُ إلى الانتهاءِ، وفي الحديثِ: قيلَ له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: إنَّ فلاناً يصلِّي باللَّيلِ فإذا أصبحَ سرقَ! قالَ: «سينهاهُ ما تقولُ» رواهُ ابنُ أبي حاتمٍ والطَّبرانيُّ وابنُ جريرٍ[3]،.........

---

(١) رواه البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٥٥٨) (١٦٢٣). ورواه أيضاً داود بن المحبر في كتاب «العقل» كما في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٧)، وعنه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٣٧ ـ زوائد الهيثمي)، ومن طريق الحارث رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٥٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٢٠)، والبغوي في الموضع المذكور، ونقل ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٦) عن الدارقطني قوله: كتاب «العقل» وضعه أربعة: أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر فركّبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، فسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركبه بأسانيد أُخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي، فأتى بأسانيد أخر.

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (١٤٩٢) بنحوه، من قول الحسن.
ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٣٤٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٥٤) (١١٠٢٥)، والقضاعي في «مسنده» (٥٠٩) من حديث ابن عباس مرفوعاً. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٨): فيه ليث بن أبي سليم وهو ثقة ولكنه مدلس.
ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤١) عن الحسن مرسلاً.

(٣) كذا قال، ولم أجده عندهم ولعله سبق نظر فهم ممن أخرج الحديث المتقدم، ورواه أحمد في «مسنده» (٩٧٧٨)، والبزار في =

﴿ولَذِكرُ اللهِ أكبَرُ﴾ من غيره من الطاعات، ﴿واللهُ يَعلَمُ ما تَصنَعُونَ﴾ فيُجازيكم به ـ ٤٦ ـ ﴿ولا تُجادِلُوا أهلَ الكِتابِ إلاّ بِالَّتِي﴾ أي: بالمُجادلة التي ﴿هِيَ أحسَنُ﴾ كالدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حُججه، ﴿إلاّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُم﴾ بأن حاربوا وأبَوا أن يُقرّوا بالجِزية، فجالِدوهم بالسيف حتّى يُسلموا أو يُعطوا الجِزية، ﴿وقُولُوا﴾ لمن قَبِلَ الإقرار بالجِزية إذا أخبروكم بشيء ممّا في كُتبهم: ﴿آمَنّا بِالَّذِي أُنزِلَ إلَينا وأُنزِلَ إلَيكُم﴾ ـ ولا تُصدّقوهم ولا تُكذّبوهم في ذلك ـ ﴿وإلٰـهُنا وإلٰـهُكُم واحِدٌ، ونَحنُ لَهُ مُسلِمُونَ﴾: مُطِيعون.

٤٧ ـ ﴿وكَذلِكَ أنزَلْنا إلَيكَ الكِتابَ﴾: القُرآنَ كما أنزلنا إليهم التوراة وغيرها. ﴿فالَّذِينَ آتَيناهُمُ الكِتابَ﴾: التوراةَ كعبدالله بن سلام وغيره ﴿يُؤمِنُونَ بِهِ﴾: بالقرآن، ﴿ومِن هؤُلاءِ﴾...............

وهو قولُ أكثرِ السَّلفِ[١]، وأمَّا ما اختارَهُ الشَّيخُ فهو قولُ ابنِ عونٍ[٢].

قولُه: (مِنَ الطَّاعَاتِ) أو: لَلصَّلاةُ ـ لاشتمالِها على ذكرِهِ ـ أكبرُ من سائرِ العباداتِ، أو: لَذِكرُ اللهِ إيَّاكُم برحمتِهِ أكبرُ من ذكرِكُم إيَّاهُ بطاعتِهِ، وهذا المعنى في «الدُّرِّ» بطرقٍ كثيرةٍ مرفوعاً وموقوفاً[٣].

قولُه: (بالمُجَادَلَةِ) أو: بالخصلةِ؛ كمعارضةِ الخشونةِ باللِّينِ.

قولُه: (لِمَنْ قَبِلَ الإِقرَارَ بالجِزْيَةِ) حقُّ العبارةِ: لمن قَبِلَ الجزيةَ، والصَّوابُ: الإطلاقُ؛ لإطلاقِ الآيةِ، والحديثِ الصَّحيحِ في البخاريِّ وغيرِهِ: «لا تصدِّقُوا أهلَ الكتابِ ولا تكذِّبُوهُم ﴿وقولُوا آمَنَّا...﴾ [البقرة: ١٣٦] الآيةَ»[٤].

قولُه: (مُطِيعُونَ) خاصَّةً.

قولُه: (وغيرِهِ) الذين أسلموا بالمدينةِ، والسُّورةُ مكِّيَّةٌ، فهو إعلامٌ من اللهِ تعالى لرسولِهِ، ودخولُ الفاءِ باعتبارِ الإعلامِ، أو المرادُ: مَن تقدَّمَ عهدَ الرَّسولِ مِن أهلِ الكتابِ.

= «مسنده» (٩٢١٧)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٠٥٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٥٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٨): رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح.

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٤١).

(٢) رواه عن ابن عون الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٣٤٥).

(٣) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٦، ٤٦٧).

(٤) رواه البخاري: (٤٤٨٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٢٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٦١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: أهل مكّة ﴿مَن يُؤمِنُ بِهِ، وما يَجحَدُ بِآياتِنا﴾ بعد ظهورها ﴿إلاّ الكافِرُونَ﴾ أي: اليهودُ. وظهر لهم أنّ القُرآن حقّ والجائي به مُحِقٌّ، وجحدوا ذلك. ٤٨ ـ ﴿وما كُنتَ تَتلُو مِن قَبلِهِ﴾ أي: القُرآنِ ﴿مِن كِتابٍ، ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ. إذًا﴾ أي: لو كنت قارئًا كاتبًا ﴿لارتابَ﴾: شكّ ﴿المُبطِلُونَ﴾ اليهودُ فيك، وقالوا: «الذي في التوراة أنه أُمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب». ٤٩ ـ ﴿بَل هُوَ﴾ أي: القُرآن الذي جئتَ به ﴿آياتٌ بَيِّناتٌ، في صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ﴾ أي: المؤمنين يحفظونه، ﴿وما يَجحَدُ بِآياتِنا إلاّ الظّالِمُونَ﴾: اليهودُ. وجحدوها بعد ظهورها لهم.

٥٠ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة: ﴿لَولا﴾: هلاّ ﴿أُنزِلَ علَيهِ﴾: على مُحمّدٍ ﴿آيَةٌ مِن رَبِّهِ﴾ ـ وفي قراءة: «آياتٌ» ـ كناقةِ صالح وعصا موسى ومائدة عيسى. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إنَّما الآياتُ عِندَ اللهِ﴾ يُنزِلها كما يشاء، ﴿وإنَّما أنا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: بيّنُ الإنذار بالنار.

٥١ ـ ٥٢ ـ ﴿أوَلَم يَكفِهِم﴾ فيما طلبوا ﴿أنّا أنزَلْنا علَيكَ الكِتابَ﴾: القُرآن، ﴿يُتلَى علَيهِم﴾. فهو آية مُستمرّة لا انقضاء لها بخِلاف ما ذُكر من الآيات..........................

قولُه: (أَهلِ مَكَّةَ) أو أهلِ الكتابِ ممَّن في عهدِ الرَّسولِ.

قولُه: (أي: اليَهُودُ) لا وجهَ للتَّخصيصِ، والصَّوابُ: كاليهودِ، والمعنى: المتوغِّلُونَ في الكفرِ.

قولُه: (اليَهُودُ) الصَّحيحُ: الإطلاقُ؛ يعني: لقالوا: تعلَّمَهُ أو التقطَهُ من كُتُبِ الأقدمينَ، وقيل: أهلُ الكتابِ، فلا وجهَ للتَّخصيصِ أيضاً.

قولُه: (يَحفَظُونَهُ) لا يقدرُ أحدٌ على تحريفِهِ.

قولُه: (أي: اليَهُودُ) يعني: وأمثالُهُم المتوغِّلُونَ في الظُّلمِ بالمكابَرةِ.

قولُه: (أي: كُفَّارُ مَكَّةَ) وغيرُهُم، ويدلُّ على العمومِ الأمثلةُ الآتيةُ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وبصريٍّ وشاميٍّ وحفصٍ[1].

قولُه: (بَيِّنُ) الأَولى: مُظهِرٌ إنذاري بما أُعطيْتُ من الآياتِ.

قولُه: (فِيمَا طَلَبُوا) من المقترَحاتِ.

قولُه: (بخِلافِ مَا ذُكِرَ) وفي الحديثِ: أنَّ ناساً من المسلمينَ جاؤوا بكُتُبٍ قد كَتَبوا فيها بعضَ ما سمِعوهُ من اليهودِ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «كفَى بقومٍ حُمْقاً ـ أو ضلالةً ـ أنْ يرغبُوا عمَّا جاءَهُم بِهِ نبيُّهُم إليهِم

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الكتابِ ﴿لَرَحْمةً وذِكرَى﴾: عِظةً ﴿لِقَومٍ يُؤمِنُونَ. قُلْ: كَفَى بِاللهِ بَينِي وبَينكُم شَهِيدًا﴾ بصدقي، ﴿يَعلَمُ ما في السَّماواتِ والأرضِ﴾، ومنه حالي وحالكم! ﴿والَّذِينَ آمَنُوا بِالباطِلِ﴾ ـ وهو ما يُعبد من دون الله ـ ﴿وكَفَرُوا بِاللهِ﴾ منكم ﴿أُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ﴾ في صفقتهم حيثُ اشتَرَوُا الكُفر بالإيمان.

٥٣ ـ ﴿ويَستَعجِلُونَكَ بِالعذَابِ، ولَولا أجَلٌ مُسَمًّى﴾ له ﴿لَجاءَهُمُ العَذابُ﴾ عاجلاً، ﴿ولَيأتِيَنَّهم بَغْتَةً، وهُم لا يَشعُرُونَ﴾ بوقت إتيانه. ٥٤ ـ ٥٥ ـ ﴿يَستَعجِلُونَكَ بِالعَذابِ﴾ في الدنيا، ﴿وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطةٌ بِالكافِرِينَ يَومَ يَغشاهُمُ العَذابُ مِن فَوقِهِم ومِن تَحتِ أرجُلِهِم، ونَقُولُ﴾ فيه، بالنون أي: نأمر بالقول، وبالياء أي: «يَقُولُ» أي: المُوكَّلُ بالعذاب: ﴿ذُوقُوا ما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ أي: جزاءه. فلا تفوتوننا.

٥٦ ـ ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا، إنَّ أرضِي واسِعةٌ. فإيّايَ فاعبُدُونِ﴾ في أيّ أرض تيسَّرت فيها العِبادة بأن تهاجروا إليها من أرض لم تتيسّر فيها. نزل في ضُعفاء مسلمي مكّة، كانوا في ضيق من إظهار الإسلام بها...

إلى ما جاءَ بِهِ غيرُهُ إلى غيرِهِم» فنزلَت، كذا في «الدُّرِّ»[1].

قولُه: (بِصِدْقِي) وقد صدَّقَني بالمعجِزاتِ.

قولُه: (لَهُ) أي: للعَذابِ؛ يعني: لكلِّ عذابٍ أو قومٍ.

قولُه: (بالنُّونِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ[2].

قولُه: (نَأْمُرُ) أو بلا واسطةٍ.

قولُه: (المَلَكُ)[3] أو اللهُ.

قولُه: (فلا تَفُوتُونَنَا) بالغيبةِ.

قولُه: (بِهَا) أي: بمكّةَ، وأمَّا اليومَ ـ بحمدِ اللهِ ـ فكما في «المدارِكِ»: قالوا: لم نجدْ أعونَ على قهرِ النَّفسِ، وأجمعَ للقلبِ، وأحثَّ على القناعةِ، وأطردَ للشَّيطانِ، وأبعدَ منَ الفِتَنِ، وأظهرَ لأمرِ الدِّينِ، من مكَّةَ حرسَها اللهُ[4].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٤٧١). والحديث رواه الدارمي في «السنن» (٤٩٥)، وأبو داود في «المراسيل» (٤٥٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٣٨٠) عن يحيى بن جعدة مرسلاً.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠١).

(٣) لم أقف عليها في المتن، والظاهر أن موضعها قبل كلمة: «الموكَّل».

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٦٨٣).

٥٧ ـ ﴿كُلُّ نَفسٍ ذائقةُ المَوتِ، ثُمَّ إلَينا تُرجَعُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ بعد البعث.

٥٨ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنبَوِّئَنَّهُم﴾: نُنزِلنّهم ـ وفي قراءة بالمُثلّثة بعد النون، من الثُّوِيّ: الإقامة، وتعديتُه إلى «غرفًا» بحذف «في» ـ ﴿مِنَ الجَنّةِ غُرَفًا، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، خالِدِينَ﴾: مُقدِّرين الخُلودَ ﴿فِيها، نِعمَ أجرُ العامِلِينَ﴾ هذا الأجرُ! ٥٩ ـ هم ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المُشركين والهِجرةِ لإظهار الدِّين، ﴿وعلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ﴾، فيرزقهم من حيثُ لا يحتسبون.

٦٠ ـ ﴿وكَأَيِّنْ﴾: كم ﴿مِن دابّةٍ، لا تَحمِلُ رِزقَها﴾ لضعفها، ﴿اللهُ يَرزُقُها وإيّاكُم﴾ ـ أيها المُهاجرون ـ إن لم يكن معكم زاد ولا نفقة! ﴿وهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم ﴿العَلِيمُ﴾ بضميركم.

قولُه: (والياءِ) الغيبةُ لشعبةَ[1].

قولُه: (بَعدَ البَعْثِ) ومَن هذا عاقبتُهُ ينبغي أن يجتهدَ في الاستعدادِ له.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ[2].

قولُه: (مِنَ الثّوي) أي[3]: الإثواءِ.

قولُه: (غُرَفًا) عَلاليَ.

قولُه: (هَذَا الأَجْرُ) يعني: المخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ دلَّ عليهِ ما قبلَهُ.

قولُه: (هُم) يعني: ما بعدَهُ مرفوعٌ على المدحِ، وجُوِّزَ نصبُه وجرُّه.

قولُه: (والهِجرَةِ) وغيرِهما[4] من المحنِ والمشاقِّ.

قولُه: (لضَعْفِهَا) أي: لا تطيقُ حملَهُ لضعفِها، أو: لا تدَّخِرُه، وإنَّما تصبحُ ولا معيشةَ عندَها.

قولُه: (أَيُّهَا المُهاجِرُونَ) التَّخصيصُ لكونِهِم سببَ النُّزولِ، فإنَّهُم لمَّا أُمِرُوا بالهجرةِ قالَ بعضُهم: كيفَ نَقْدمُ بلدةً ليسَ لنا بها معيشَةٌ؟ فنزلَت[5].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٢).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) في (د): «أصل».

(٤) في (ص): «وغيرها».

(٥) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢١/ ٨٥) بدون سند ولا راوٍ، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وروى ابن أبي الدنيا في «الجوع» (٣٠٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٨١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٧٨)، =

٦١ - ﴿ولئِن﴾ - لامُ قسم - ﴿سألتَهُم﴾ أي: الكُفّارَ: ﴿مَن خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، وسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ. فأنَّى يُؤفَكونَ﴾: يُصرَفون عن توحيده، بعد إقرارهم بذلك؟ ٦٢ - ﴿اللهُ يَبسُطُ الرِّزقَ﴾: يُوسّعه ﴿لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾ امتحانًا، ﴿ويَقدِرُ﴾: يُضيّقه ﴿لَهُ﴾ بعد البسط أو لمن يشاء ابتلاءً. ﴿إنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾، ومنه محلّ البسط والتضييق.

٦٣ - ﴿ولئِن﴾ - لامُ قسم - ﴿سألتَهُم: مَن نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، فأحيا بِهِ الأرضَ مِن بَعدِ مَوتِها؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ﴾. فكيف يُشركون به؟ ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿الحَمدُ لِلهِ﴾ على ثُبوت الحُجّة عليكم. ﴿بَل أكثَرُهُم لا يَعقِلُونَ﴾ تناقُضَهم في ذلك، ٦٤ - ﴿وما هذهِ الحَياةُ الدُّنيا إلاّ لَهوٌ ولَعِبٌ﴾، وأمّا القُرَب فمن أُمور الآخرة لظُهور ثمرتها فيها، ﴿وإنَّ الدّارَ الآخِرةَ لَهِيَ الحَيَوانُ﴾ بمعنى: الحياة. ﴿لَو كانُوا يَعلَمُونَ﴾ ذلك ما آثروا الدنيا عليها.

قولُه: (لامُ قَسَم) أي: موطِّئةٌ له.

قولُه: (أي: الكُفَّارَ) الظَّاهرُ: أنَّ المسؤولَ عنهُم كفَّارُ مكَّةَ.

قولُه: (ابتِلاءً) قيدٌ لـ﴿يَقْدِرُ﴾.

قولُه: (مَحَلُّ البَسْطِ) وقَدْرُهُ وزمانُهُ ونوعُهُ.

قولُه: (لامُ قَسَمٍ) مقدَّرٍ[1].

قولُه: (يُشرِكُونَ بِهِ) بعضَ مخلوقاتِهِ الَّذي لا يقدرُ على شيءٍ من ذلك.

قولُه: (بِمَعنَى: الحَيَاةِ) أي: الحقيقيَّةِ.

قولُه: (ذَلِكَ) أي: حَقَّ العِلمِ.

قولُه: (مَا آثَرُوا) وفي الحديثِ مرفوعاً: «يا عَجَباً كلَّ العجبِ للمصدِّقِ بدارِ الحَيَوانِ وهو يسعى لدارِ الغرورِ» ذكرَهُ في «الدُّرِّ»[2].

= وأبو الشيخ في «أخلاق النبي وآدابه» (٨٧٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٣) عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار، فجعل يلقط من التمر ويأكل، فقال: «يا ابن عمر ما لك لا تأكل؟» فقلت: لا أشتهيه يا رسول الله، فقال: «لكني أشتهيه، وهذه صبيحة رابعة ما ذقت طعاماً، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم، ويضعف اليقين؟» قال: فوالله ما برحنا حتى نزلت: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾.

(١) في (م): «تقدم».

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٦).

٦٥ ـ ﴿فإذا رَكِبُوا في الفُلكِ دَعَوُا اللهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الدعاءَ، أي: لا يدعون معه غيره لأنهم في شدّة لا يكشفها إلاّ هو، ﴿فلَمّا نَجّاهُم إلَى البَرِّ إذا هُم يُشرِكُونَ﴾ به، ٦٦ ـ ﴿لِيَكفُرُوا بِما آتيناهُم﴾ من النِّعمة، ﴿ولِيَتَمَتَّعُوا﴾ باجتماعهم على عِبادة الأصنام. وفي قراءة بسكون اللام: أمرُ تهديد. ﴿فَسَوفَ يَعلَمُونَ﴾ عاقبةَ ذلك. ٦٧ ـ ﴿أوَلَم يَرَوا﴾: يعلموا ﴿أنّا جَعَلْنا﴾ بلدهم مكّة ﴿حَرَمًا آمِنًا، ويُتَخَطَّفُ النّاسُ مِن حَولِهِم﴾ قتلاً وسبيًا دونهم؟ ﴿أفبِالباطِلِ﴾: الصنم ﴿يُؤمِنُونَ، وبِنِعْمةِ اللهِ يَكفُرُونَ﴾ بإشراكهم؟

٦٨ ـ ﴿ومَن﴾ أي: لا أحدَ ﴿أظلَمُ مِمَّنِ افتَرَى علَى اللهِ كَذِبًا﴾ بأن أشرك به، ﴿أو كَذَّبَ بِالحَقِّ﴾: النبيِّ أو الكتابِ ﴿لَمّا جاءَهُ؟ ألَيسَ في جَهَنَّمَ مَثوًى﴾: مأوًى ﴿لِلكافِرِينَ﴾؟ أي: فيها ذلك وهو منهم. ٦٩ ـ ﴿والَّذِينَ جاهَدُوا فِينا﴾: في حقّنا ﴿لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنا﴾ أي: طُرقَ السير إلينا، ﴿وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحسِنِينَ﴾: المُؤمنين بالنصر والعون.

قولُه: (مِنَ النِّعمَةِ) أي: نعمةِ النَّجاةِ وغيرِها.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لقالون ومكِّيٍّ وحمزةَ والكسائيِّ[1].

قولُه: (أَمرُ تَهْدِيدٍ) وكذا بالكسرِ، وقيلَ: إنَّهُ لامُ كي.

قولُه: (بِأَنْ أَشرَكَ بِهِ) أو أثبتَ له ولدًا ونحوَهُ.

قولُه: (ذَلِكَ) أي: المأوى.

قولُه: (وَهُوَ) أي: مَن افترى.

قولُه: (فِي حَقِّنَا) يعمُّ الجهادَ الأصغرَ والأكبرَ.

قولُه: (طُرُقَ السَّيرِ) والوصولِ إلى جنابِنا، وفي الحديثِ: «مَنْ عملَ بمَا عَلِمَ ورَّثَهُ اللهُ علمَ مَا لمْ يعلمْ»[2].

قولُه: (والعَونِ) في جهادِهِم واجتهادِهم، واللهُ أعلمُ.

* * *

= والحديث رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٥٦) عن أبي جعفر، مرسلاً.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٢).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٥) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال أبو نعيم: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين، عن عيسى ابن مريم عليه السلام فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.

سورة العنكبوت

أخرج ابن الضُّرَيس والنحَّاس وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت بمكة[(١)]. وأخرج ابن مَردويهِ عن عبد الله بن الزبير نحوَ ذلك[(٢)]. ورُوي القولُ بأنها مكيةٌ عن الحسن وجابرٍ وعكرمةَ، ، وعن بعضهم أنها آخِرُ ما نزَل بمكة.

وفي «البحر» عن الحبر وقتادَةَ أنها مدنية[(٣)].

وقال يحيى بن سلام: هي مكيةٌ إلَّا مِن أوَّلها إلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[(٤)] [الآية:١١]. وذكر ذلك الجلال السيوطيُّ في «الإتقان» ولم يَعْزُه، وأنه لِمَا أخرجه ابن جرير في سبب نزولها[(٥)]. ثم قال: قلتُ: ويُضَمُّ إلى ذلك ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ الآيةَ [٦٠] لِما أخرجه ابن أبي حاتم في سبب نزولها[(٦)]. وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلامُ في ذلك.

---

(١) فضائل القرآن لابن الضريس ص٣٤، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٤، ودلائل النبوة ٧/ ١٤٣، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٤٠.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٤٠.

(٣) البحر ٧/ ١٣٨-١٣٩.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٧٤، والبحر ٧/ ١٣٩، وعنه نقل المصنف.

(٥) الإتقان ١/ ٤٨، وأخرج الطبري ١٨/ ٣٦٦ عن قتادة قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قال: هذه الآيات أنزلت في القوم الذين ردَّهم المشركون إلى مكة، وهذه الآيات العشر مدنية إلى هاهنا، وسائرها مكي.

(٦) الإتقان ١/ ٤٨، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الجراح بن منهال الجزري ـ هو أبو العطوف ـ عن الزهري، عن رجل، عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر، مالك لا تأكل» قلت: لا أشتهيه يا رسول الله. قال: «ولكني أشتهيه، وهذه صبح رابعة لم أذق =

وهي تسعٌ وستُّون آيَةً بالإجماع، كما قال الداني والطبرسيّ[(١)].

وذكر الجلالُ في وجهِ اتصالِها بما قبلَها: أنه تعالى أخبر في أوَّلِ السورة السابقة عن فرعونَ أنه ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]، وافتتَح هذه بذكر المؤمنين الذين فتَنهم الكُفَّارُ وعذَّبوهم على الإيمان بعذابٍ دونَ ما عَذَّب به فرعونُ بني إسرائيلَ بكثيرٍ؛ تسليةً لهم بما وَقَع لمن قبلَهم وحثًّا على الصَّبر، وَلِذَا قيل هنا: (وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ).

وأيضاً لمَّا كان في خاتمة الأُولى الإشارةَ إلى هجرةِ النبيِّ ﷺ - أي: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] على بعض الأقوال - وفي خاتمة هذه الإشارةَ إلى هجرة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦] ناسبَ تاليهما[(٢)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾ سَبَق الكلامُ فيه وفي نظائرِه ولم يُجَوِّز بعضُهم هنا ارتباطَ ما بعدَه به ارتباطاً إعرابياً؛ لأنَّ الاستفهامَ مانعٌ منه. وبُحِثَ فيه بأنَّ اللازِمَ في الاستفهامِ تَصَدُّرُه في جُملتِه، وهو لا يُنافِي وُقُوعَ تلك الجملةِ خَبَراً ونحوَه، كقولك: زيدٌ هل قام أبوه؟ فلو قيل هنا: المعنى: المتلوُّ عليك ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ إلى آخِرِ السورةِ صَحَّ، فلا يقال أيضاً: إنَ المانعَ منه عَدَمُ صحةِ ارْتباطِه بما قبلَه معنًى. نعم الارتباطُ خلافُ الظاهر.

= طعاماً ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك قيصر وكسرى، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين» قال: فوالله ما برحنا مكاننا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ الآية. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا الحديث غريب، وأبو العطوف الجزري ضعيف.

(١) البيان في عدِّ آي القرآن للداني ص٢٠٣، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٣٢.

(٢) تناسق الدرر ص٧١.

والاستفهامُ للإنكارِ، والحسْبانُ مصدرٌ كالغُفْرانِ مما يَتَعلَّق بمضامينِ الجمَلِ؛ لأنه من الأفعالِ الداخلةِ على المبتدأ والخبرِ، وذلك للدلالة على وجهِ ثُبوتِها في الذِّهنِ أو في الخارج من كَوْنِها مظنونةً أو متيقَّنةً، فتَقْتضِي مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، أو ما يَسُدُّ مَسَدَّهما، وقد سدَّ مَسَدَّهما هنا على ما قاله الحوفيُّ وابنُ عطيةَ وأبو البقاءِ: قولُه تعالى: ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾[1].

وسَدُّ «أنْ» المصدريَّةِ الناصبةِ للفعلِ مع مَدْخولِها مَسَدَّ الجُزْأينِ مما قاله ابنُ مالكٍ، ونَقَلَه عنه الدَّمامِينيُّ في «شرح التسهيلِ». وزَعَم بعضهم أنَّ ذلك إنما هُوَ في «أنَّ» المفتوحةِ مُشدَّدةً ومُثقَّلةً مع مدخولِها.

والتركُ هنا على ما ذكره الزمخشريُّ[2] بمعنى التَّصْيِير المتعدِّي لمفعولَيْنِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧]، وقول الشاعر:

فتركتُه جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَه يَقْضمْن قُلَّةَ رأسِه والمِعْصمِ[3]

فضميرُ الجمع نائبُ مفعولٍ أوَّل، والمفعولُ الثاني متروكٌ بدَلالةِ الحالِ الآتية، أي: كما هم، أو: على ما هم عليه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟﴾ [التوبة:١٦]، على ما قَدَّره الزمخشريُّ فيه[4].

وقولُه سبحانه: ﴿أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ بمعنى: لأنْ يقولوا، متعلِّقٌ بـ «يتركوا» على أنه غيرُ مستقِرٍّ.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ في موضع الحال من ضميرِ «يُترَكوا». ويجوز أنْ لا يُعتَبرَ كونُ المفعولِ الثاني لـ «يُتْرَكوا» متروكاً، بل تُجعلُ هذه الجملةُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥، والإملاء ٤/ ١٦٠، وذكره عن الحوفي أبو حيان في البحر ٧/ ١٣٩.

(٢) في الكشاف ٣/ ١٩٥.

(٣) البيت لعنترة، وهو في ديوانه ص٢٦. قوله: الجَزَر بفتحتين: جمع جَزَرَة، وهي الشاة والناقة تذبح أو تنحر. ويَنُشْنَه من ناشَ يَنُوش، أي: تناولَ. وقوله: قُلَّة رأسه، أعلاه. وجاء في بعض روايات البيت: يقضمن حسن بنانه...، وفي بعضها: ما بين قلةِ رأسه...، ينظر شرح القصائد لأبي بكر الأنباري ص٣٤٧-٣٤٨ وللنحاس ٢/ ٣٣، وللتبريزي ص٢٣٩.

(٤) الكشاف ٢/ ١٧٨.

الحاليةُ سادَّةً مَسدَّه، ألا ترى أنك لو قلتَ: علِمتُ ضربي زيداً قائماً، صحَّ. على أنَّ «تَرَكَ» ليس كأفعال القلوب في جميعِ الأحكام، بل القياسُ أن يَجُوزَ الاكتفاءُ فيه بالحال من غيرِ نظرٍ إلى أنه قائمٌ مقامَ الثاني؛ لأنَّ قولك: تركتُه وهو جَزَرُ السباع، كلامٌ صحيحٌ، كما تقولُ: أبقيتُه على هذه الحالةِ، وهو نظيرُ: سمعتُه يتحدَّث، في أنه يتمُّ بالحال بعدَه أو الوصف، وها هنا زادَ أنه يَتمُّ أيضاً بما يَجرِي مَجْرى الخبرِ.

وجوَّزَ أنْ تكونَ هذه الجملةُ هي المفعول الثاني لا سادَّةً مسدَّه، وتوسُّطُ الواوِ بينَ المفعولَيْنِ جائزٌ كما في قولِه:

وصَيَّرني هَواكَ وبي ... لِحَيْني يُضْرَبُ المَثَلُ[1]

وقد نصَّ شارحُ أبياتِ «المفصَّل» على أنه حُكي عن الأخفشِ أنه كان يجوِّز: كان زيدٌ وأبوه قائمٌ؛ على نُقْصانِ «كان» وجَعْلِ الجملةِ خبراً مع الواو تشبيهاً لخبرِ «كان» بالحال، فمتى جاز في الخبر عنده فَلْيَجُزْ في المفعول الثاني، وهو كما ترى.

واستَظْهَرَ الطيبيُّ كونَ التركِ هنا مُتعدِّياً لِوَاحدٍ على أنه بمعنى التَخلِيةِ[2]. وليس بذاك.

وَجَوَّزَ الحوفيُّ وأبو البقاءِ أن يكونَ «أن يَقُولوا» بَدَلاً من «أن يُتْرَكوا»[3].

وجُوِّز أنْ يكونَ «أن يُتْرَكُوا» هو المفعول الأوَّل لـ «حَسِب»، و«هم لا يُفتنون» في موضعِ الحالِ من الضميرِ، «وأنْ يَقُوْلُوا» بتقديرِ اللّام هو المفعولُ الثاني، وكونُه عِلَّةً لا يُنَافي ذلك، كما في قولِك: حَسِبْتُ ضرْبَه للتأديب. والتقدير: أَحَسِبَ الناسُ تركَهُمْ غيرَ مفتونِيْنَ لِقَوْلهم: آمنَّا؟ والمفعولُ الثاني لـ «يتركوا» مَتْروكٌ بدلالةِ الحال.

---

(١) البيت لمحمد بن يحيى بن المبارك اليزيدي، كما في الأغاني ٦/ ١٦٩، وبهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٨٢١، ونسبه الجرجاني في دلائل الإعجاز ص٩١ لابن البواب، وهو دون نسبة في الإيضاح للقزويني ص٣٠، قوله: لحيني، الحين بفتح الحاء المهملة: الهلاك. مختار الصحاح (حَيَن).

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٣) الإملاء ٤/ ١٦٠، وذكره عن الحوفي أبو حيان في البحر ٧/ ١٣٩.

واعترضه صاحبُ «التقريبِ» بما حاصلُه: أنَّ الحُسْبانَ لتعلُّقِه بمضامين الجُمَل إذا أُنْكِرَ يكونُ باعتبارِ المفعولِ الثاني، فإذا قلتَ: أحَسبتَه قائماً؟ فالمُنكَرُ حُسْبانُ قيامِه، كذلك إذا قيل: أحَسِبَ الناسُ تركهم غيرَ مَفْتونِيْنَ لقَوْلِهم: آمَنَّا، أفاد إنْكارَ حُسْبانِ أنَّ التركَ غيرَ مفتونينَ لهذه العلة، بل إنما هو لعلةٍ أخرى، ولا يلائِمُ سببَ النُزولِ ولا مقصودَ الآيةِ.

واختار أن يكونَ «أن يُتْرَكوا» سادًّا مسدَّ المفعولين، و«أَنْ يَقُولُوا» علةً للحُسبانِ، أي: أحَسِبوا لقولهم: آمنَّا أن يُتْرَكوا غيرَ مفتونِيْنَ؟

وأُجيبَ بأنَّ أصل الكلام: ألا يُفتنون لقولهم: آمنا؟ على إنكار أنْ يكون سبباً لعدَمِ الفَتْنِ، ثم قيل: أيُتْرَكون غيرَ مفتونينَ لقولِهم: آمَنَّا؟ مبالغةً في إنكارِ أنْ يبقَوا من غير فَتْنٍ لذلك، ثم أُدْخِلَ على حسبانِ التركِ مبالغةً على مبالغةٍ، وإنما يَرِدُ ما أورد إذا لم يُلاحَظْ أصلُ الكلام ويُجعل مَصَبُّ الإنكارِ الحسبانَ من أوَّلِ الأمر.

وقيل: إنما يلزم ما ذكر لو لم يُقدَّرْ: أحَسِبوا ترْكَهم غيرَ مفتونينَ بمجرَّد قولهم: آمنَّا، دون إخلاصٍ وعملٍ صالح؟ أمَّا لو قُدِّر ذلك استقام كما صرَّح به الزجَّاج[1]، على أنَّ ذلك مبنيٌّ على اعتبار المفهوم.

واعتَرضَ ذلك بعضُهم من حيث اللفظُ بأنَّ فيه الفَصْلَ بين الحال وذِيْها بثاني مفعولَيْ «حسِبَ»، وهو أجنبيٌّ.

وأُجيبَ بأنَّ الفَصْلَ غيرُ مُمتَنِع، بل الأحسنُ أنْ لا يقعَ فصلٌ إلا إذا اعتَرَضَ ما يُوْجِبه، وها هنا الاهتمامُ بشأن الخبر حَسَّن التقديمَ؛ لأنَّ مصَبَّ الإنكار ذلك.

ولا يَخْفى أنه يُحتاجُ إلى مثلِ هذا الجوابِ على ما يَقْتضيهِ الظاهرُ من جَعْلِ «أن يُتْرَكوا» في تأويلِ مصدرٍ وقع مفعولاً أوّلاً، و«أنْ يقولوا» في تأويلِ مصدرٍ أيضاً مجرورٍ بلامٍ مقدَّرةٍ، والجارُّ والمجرورُ في موقع المفعول الثاني.

وأمَّا على ما ذكَره بعضُ المحقِّقين مِن أنهما لم يُجْعَلا كذلك، وإنما جُعِل «أنْ يقولوا» معمولاً لـ «يُتْرَكوا» بتقديرِ اللَّام، وجُعِل «أن يُتْرَكُوا» سادًّا مسدَّ المفعولَيْنِ،

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥٩، وحاشية الشهاب ٧/ ٩١.

واقتَضَى المعنى أن يُقال: أحَسِبَ الناسُ تركَهم غيرَ مفتونِين لقولهم: آمنا؟ بجَعْل «تركَهم» مفعولاً أولاً، و«لقولهم» مفعولاً ثانياً = فلا يُحتاجُ إليه، لأنَّه إنْ جَرَيْنا مع اللفظِ كان «أن يُتْرَكوا» سادًّا مسدَّ المفعولَيْنِ، فلا يكونُ فيه مفعولٌ ثانٍ فاصِلٌ بينَ الحالِ وذِيْها، وإنْ جَرَيْنا مع المعنى واعتبَرْنا الكلامَ مجرَّدًا عن «أنْ» المصدريَّةِ وجيء به كما سمعْتَ كانت الحالُ متَّصِلةً بذِيْها.

وقيل: يَجوزُ أن يكونَ المفعولُ الأوَّل لـ «حَسِب» محذوفاً، أي: أحَسب الناسُ أنفسَهم، و«أن يُتْرَكوا» في موضعِ المفعول الثاني على أنه في تأويل مصْدرٍ، وهو في تأويلِ اسْم المفعولِ، أي: متروكِيْنَ، و«وهم لا يُفْتَنُون» في موضع الحالِ كما تقدَّم، و«أن يُؤْمِنُوا» بتَقْديرِ لأن يُؤْمِنُوا مُتعلِّقٌ بـ «يُتْرَكوا»، فكأنَّه قيل: أحَسِبَ الناسُ أنفسَهم متروكينَ غيرَ مفتونينَ لقولهم: آمنَّا؟ وقيل: إنَّ هذا المعنى حاصلٌ على تقديرِ سَدِّ «أن يُتْرَكُوا» مَسَدَّ المفعولَيْنِ. فتأَمَّلْ فيه وفيما قبلَه.

ولعل الأبعدَ عن التكلُّف ما ذكرْناه أوَّلاً، والمرادُ إنكارُ حُسْبانِهم أن يُتْرَكوا غيرَ مفتونين بمجرَّدِ أن يقولوا: آمنَّا، واستبعادٌ له، وتحقيقُ أنَّه تعالى يَمتحِنُهم بمَشاقِّ التكاليفِ، كالمهاجَرة، والمجاهَدةِ، ورفْضِ الشَّهوات، ووظائفِ الطَّاعاتِ، وفُنونِ المصائبِ في الأنفُسِ والأموالِ، لِيَتَميَّزَ المُخْلِصُ من المنافِق، والراسخُ في الدِّينِ منَ المُتزلزِلِ فيه، فيعامَل كلٌّ بما يَقْتضِيه، ويُجازيهم سُبحانَه بحسَبِ مَراتبِ أعمالهم، فإنَّ مجرَّدَ الإيمان وإنْ كان عن خُلوصٍ لا يَقتضِي غيرَ الخلاصِ من الخُلُود في النار.

وذكر بعضُهم أنه سُبحانَه لو أثابَ المؤمنَ يومَ القِيامة من غيرِ أن يَفْتنَه في الدنيا لقال الكافرُ المعذَّب: ربِّي لو أنَّك كنتَ فَتَنْتَه في الدُّنيا لكَفر مِثْلي، فإيمانُه الذي تُثيبُه عليه مما لا يستحقُّ الثواب له، فبالفِتْنة يُلْجَمُ الكافرُ عن مثلِ هذا القولِ، ويُعوَّضُ المؤمنُ بدلَها ما يُعوَّضُ بحيثُ يَتمنَّى لو كانتْ فتنتُه أعظمَ مما كانتْ.

والآيةُ على ما أخرجَ عبد بن حُميد وابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشَّعْبي نزلت في أناس كانوا بمكةَ قد أَقرُّوا بالإسلام، فكَتَب إليهم أصحابُ رسولِ الله ﷺ من المدينةِ لمَّا نزلت آيةُ الهجرةِ أنه لا يُقْبَلُ منكم إقرارٌ ولا إسلامٌ حتى تُهاجِروا. فخَرَجوا عامِدينَ إلى المدينة، فاتَّبعَهم المشرِكون فرَدُّوهم، فنَزَلت

فيهم هذه الايةُ، فكتبوا إليهم: أُنْزِلت فيكم آيةُ كذا وكذا، فقالوا: نَخْرُجُ فإن اتَّبعَنا أحَدٌ قاتَلْناه. فخرجُوا فاتَّبعَهم المُشرِكون فقاتَلُوهم فمنهم مَن قُتِل ومنهم مَنْ نَجا، فأنزَل اللهُ تعالى فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] [النحل: ١١٠].

وأخرج ابنُ المنذِر عن ابن جُرَيْجٍ قال: سمعتُ ابن عُمَيْرٍ وغيرَه يقولون: كان أبو جهْلٍ يعذِّبُ عمارَ بن ياسرٍ وأمَّه، ويَجْعل على عمَّارٍ دِرْعاً من حديد في اليوم الصائف، وطعَن في فرج أمِّه بِرُمْحٍ، ففي ذلك نزلت: (أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ) إلخ[2].

وقيل: نزلت في مِهْجَع مولى عمرَ بن الخطاب، قُتِل ببدْرٍ فجزع عليه أبواه وامْرأتُه، وقال فيه رسولُ الله ﷺ: «سيِّدُ الشُهَدَاءِ مِهْجَعٌ، وهو أَوَّلُ مَن يُدْعى إلى باب الجنة»[3].

وقيل: نزلت في عَيَّاشٍ أخي أبي جهل غُدِر وعُذِّب ليرتَدَّ كما سيأتي خبرُه إن شاء الله تعالى.

وفُسِّر «النَّاسُ» بمن نزلت فيهم الآيةُ. وقال الحَسَن: «الناسُ» هنا المنافقون.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ حالٌ من «الناس»، أو من ضميرِ «يُفْتَنُون»، وعلى الأول يكون علةً لإنكارِ الْحُسبانِ، أي: أحَسِبوا ذلك وقد عَلِموا أنَّ سنَّةَ الله تعالى على خِلافِه، ولن تجدَ لسُنَّةِ الله تعالى تبديلاً؟ وعلى الثاني بياناً لأنَّه لا وجهَ لتَخْصيصِهم بعَدَم الافْتِتان. وحاصلُه أنه على الأول تنبيهٌ على الخطأ، وعلى الثاني تخطِئةٌ.

والمرادُ بـ«الذين من قبلهم» المؤمنون أتْباعُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام؛ أصابَهم من ضُروبِ الفِتَنِ والمِحَنِ ما أصابهم، فصَبَروا وعَضُّوا على دينِهم بالنَواجِذ، كما يُعرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ الآيات [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٣٥٨-٣٥٩، وتفسير ابن أبي حاتم ١٩/ ٣٠٣١، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤١.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٤١.

(٣) أخرجه الثعلبي٧/ ٢٧٠ عن مقاتل، وينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٢٧.

وروَى البخاريُّ وأبو داودَ والنسائيُّ عن خبَّابِ بن الأرتِّ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ ولقد لَقِيْنَا من المشركين شِدَّةً، فقلنا: ألا تستنصِرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قبلكم يُؤْخَذُ الرجلُ فيُحْفَر له في الأرضِ فيُجْعَل فيها، ثم يؤْتَى بالمِنْشار فيُوْضَعُ على رأسه فيُجْعَلُ نِصْفَينِ، ويُمْشَط بأمشاطِ الحديد ما دونَ لحمِه وعَظْمِه، ما يَصُدُّه ذلك عن دينه»[١].

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: في قولهم: آمنا. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ في ذلك. والفاءُ لترتيبِ ما بعدَها على ما يُفْصِحُ عنه ما قبلَها من وقوع الامتحان، واللامُ واقعةٌ في جواب القسَم، والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لإدخال الروعة وتربيةِ المهابة، وتكريرُ الجواب لزِيادةِ التأكيدِ والتقريرِ. ويُتَوَهَّمُ من الآية حُدوثُ عِلْمِه تعالى بالحوادثِ، وهو باطل. وأجيب بأنَّ الحادِثَ تعلُّقُ علمِه تعالى بالمعدوم بعدَ حُدوثِه.

وقال ابن المنيِّر: الحقُّ أنَّ عِلْمَ الله تعالى واحدٌ يَتَعلَّقُ بالموجود زمانَ وجودِه وقبلَه وبعدَه على ما هو عليه، وفائدةُ ذِكْرِ العِلم ها هنا وإن كان سابقاً على وجودِ المعلوم: التنبيهُ بالسَّبَب على المسبَّب وهو الجزاء، فكأنه قيل: فوالله ليعلَمَنَّ بما يُشْبِهُ الامتحانَ والاختبارَ الذين صدقوا في الإيمان الذي أَظْهَروه، والذين هم كاذبون فيه مستمِرُّون على الكَذِب؛ فَلَيُجازِيَنَّ كُلًّا بحَسَبِ علمه فيه[٢].

وفي معناه ما قاله ابن جِنِّي: من أنه من إقامةِ السبب مُقامَ المسبَّب، والغرَضُ فيه: لَيُكَافِئَنَّ الله تعالى الذين صَدَقوا ولَيُكافِئَنَّ الكاذبين، وذلك أنَّ المكافَأةَ على الشيء إنَّما هيَ مُسَبَّبَةٌ عن عِلْمٍ[٣].

وقال مُحيي السُّنة: أي: فَلَيُظْهِرَنَّ اللهُ تعالى الصادقينَ مِنَ الكاذبين حتى يُوْجدَ معلوماً[٤]؛ لأنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بهم قبلَ الاختبار.

---

(١) صحيح البخاري (٦٩٤٣)، وسنن أبي داود (٢٦٤٩)، والمجتبى ٨/ ٢٠٤، والسنن الكبرى (٥٨٦٢)، وهو عند أحمد (٢١٠٥٧).

(٢) الانتصاف ٣/ ١٩٦.

(٣) المحتسب ٢/ ١٥٩.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٨٦.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه وجعفرُ بن محمدٍ والزهريُّ ﷺ: «فَلَيُعْلِمَنَّ» بضَمِّ الياءِ وكَسْرِ اللَّام(١) على أنه مضارعُ «أَعْلَمَ» المنقولةِ بهَمْزةِ التعديَة من «عَلِمَ» المتعدِّيةِ إلى واحدٍ، وهِيَ التي بمعنى «عَرَفَ»، فيكونُ الفعلُ على هذه القراءة متعدِّياً لاثنين، والثاني هنا محذوف، أي: فَلَيُعْلِمنَّ اللهُ الذين صَدَقوا منازلَهم من الثواب وليُعْلِمَن الكاذبين منازلَهم من العقاب وذلك في الآخرة، أو الأولُ محذوفٌ، أي: فَليُعْلِمنَّ اللهُ الناسَ الذين صدقوا وليعلمنَّهُم الكاذبين، أي: يشهدهم(٢) هؤلاء في الخير، وهؤلاء في الشر. والظاهرُ أنَّ ذلك في الآخرة أيضاً. وقال أبو حيَّان: في الدنيا والآخرة(٣).

وجُوِّز أن يكونَ ذلك من الإعلام وهو وضعُ العلامة والسِّمَة فيتعدَّى لواحد، أي: يَسِمُهم بعَلامةٍ يُعْرَفُون بها يومَ القيامة، كبَيَاض الوجوه وسَوَادِها. وقيل: يَسِمُهم سبحانه بعلامةٍ يُعرفون بها في الدنيا، كقوله عليه الصلاة والسلام: «مَن أَسرَّ سَريرةً أَلبَسَه اللهُ تعالى رِداءَها»(٤).

وقرأ الزهريُّ الفعلَ الأولَ كما قرأ الجماعةُ، والفعلَ الثانيَ كما قرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهَه وجعفرٌ والزهريُّ ﷺ(٥).

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ قال مجاهد: أي: يُعجِزونا فلا نَقدر على مُجازاتهم على أعمالهم والانتقام منهم. وأصلُ السَّبْقِ الفوتُ، ثم أُريدَ منه ما ذكر.

وقيل: أي: يُعجلونا محتومَ القضاء. والأولُ أولى.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٤، والمحتسب ٢/ ١٥٩، والبحر ٧/ ١٤٠ عن عليٍّ وجعفر بن محمد، وقد قرأا كذلك في الفعل الثاني، أي: «وليُعلِمنَّ الكاذبين»، كما ذكر ابن جني، وقرأ الزهري الأولى كالمشهورة والثانية كالشاذة كما سيرد.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: يشهرهم كما في البحر ٧/ ١٤٠، ويؤيده قول السمين في الدر المصون ٩/ ٨: أي بشهرة يعرف بها هؤلاء من هؤلاء.

(٣) البحر ٧/ ١٤٠.

(٤) سلف ١٨/ ٤٣٨.

(٥) المحتسب ٢/ ١٥٩، والبحر ٧/ ٤٠.

وفسَّر قتادةُ ـ على ما أخرجه عنه عبد بنُ حُميد وابن جرير ـ «السيئاتِ» بالشرك[1]، والجمعُ باعتبار تعدُّد المُتَّصفين به. وإطلاق العمل على الشرك، سواءٌ قلنا: إنه ما كان عن فكرٍ ورَوِيَّة كما قيل، أو عن قصدٍ كما قال الراغب[2]، أم لا؛ لا ضَيْرَ فيه لأنه يكون بعبادة الأصنام وغيرِها.

وقيل: المراد بـ «السيئات» المعاصي غيرَ الكفر، فالآية في المؤمنين قطعاً، وهم وإن لم يحسَبوا أن يفوتوه تعالى ولم تطمع نفوسهم في ذلك، ولكنْ نُزِّل جَرْيُهم على غير موجب العلم وهو غفلتُهم وإصرارُهم على المعاصي منزلةَ مَن لم يَتَيَقَّن الجزاءَ، ويحسَب أنه يفوتُ اللهَ عز وجل.

وعمَّم بَعضُهم فحمل السيئاتِ على الكفر والمعاصي، وتعليقُ العمل بها بناءً على تسليم تخصيصه بما سمعتَ يحتمل أن يكونَ باعتبار التغليب.

وظاهرُ الآثار يدلُّ على أنَّ هذه الآية نزلت في شأن الكَفَرة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يريد سبحانه بـ «الذين يعملون السيئات» الوليد بن المُغِيرة وأبا جهل والأسودَ والعاصيَ بن هشام وشيبةَ وعتبةَ والوليدَ بن عتبةَ وعتبة بن أبي معيط وحنظلةَ بنَ وائل وأنظارَهم من صناديد قريش.

وفي «البحر»[3] أنَّ الآية وإن نزلت على سببٍ فهي تعُمُّ جميعَ مَن يعمل السيئات من كافرٍ ومسلم.

والظاهرُ أنَّ «أم» منقطعةٌ بمعنى «بل» التي للإضراب بمعنى الانتقال، وهو انتقالٌ من إنكارِ حسبانِ عدمِ الفَتْن لمجرَّدِ الإيمان إلى إنكارِ حسبانِ عدم المُجازَاة على عمل السيئات.

وقال ابن عطية: «أم» معادلةٌ للهمزة في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ﴾ وكأنه سبحانه قرَّر الفريقين؛ قرَّر المؤمنين على ظنِّهم أنهم لا يفتنون، وقرَّر الكافرين الذين يعملون

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٣٦٠، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ١٤١.
(٢) في مفرداته (عمل).
(٣) ٧/ ١٤١، وعنه نقل المصنف قول ابن عباس.

السيئات في تعذيب المؤمنين وغيرِ ذلك على ظنِّهم أنهم يسبقون نِقَمَات الله تعالى ويُعجزونه[١]. انتهى.

ورُدَّ بأنها لو كانت معادِلةً للهمزة لكانت متصلةً، والتالي باطلٌ لأنَّ شرط المتصلة أن يكونَ ما بعدها مفرداً، نحوُ: أزيدٌ قائمٌ أم عمرٌو؟ أو ما هو في تقدير المفرد، نحوُ: أقام زيد أم قعد؟ وجوابُها تعيينُ أحدِ الشيئَيْنِ أو الأشياء، وبعدها هنا جملةٌ، ولا يمكن الجواب هنا أيضاً بأحد الشيئين، فالحَقُّ أنها منقطعةٌ، والاستفهام الذي تُشْعِر به إنكاريٌّ لا يَحتاجُ للجواب كما لا يخفى.

والظاهر أن الحسبان متعدٍّ إلى مفعولين، وأنَّ «أن يسبقونا» سادٌّ مسدَّهما. وجوَّز الزمخشري هنا أن يُضَمَّنَ معنى التقدير، فيكون متعدِّياً لواحدٍ، و«أن يسبقونا» هو ذلك الواحد[٢].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ التضمين ليس بقياس، ولا يُصار إليه إلَّا عند الحاجة، وهنا لا حاجة إليه[٣].

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾، أي: بئس الذي يحكُمونه حُكْمُهم ذلك، على أنَّ «ساء» بمعنى «بئس»، و«ما» موصولةٌ، و«يحكمون» صلتُها، والعائد محذوفٌ، وهي فاعل «ساء»، والمخصوصُ بالذمِّ محذوف. أو: بئس حكماً يحكمونه حكمُهم ذلك، على أن «ما» موصوفةٌ، و«يحكمون» صفتُها، والرابط محذوف، وهي تمييزٌ، وفاعلُ «ساء» ضميرٌ مفسَّرٌ بالتمييز، والمخصوصُ محذوفٌ أيضاً.

وقال ابن كَيْسان[٤]: «ما» مصدريَّةٌ، والمصدرُ المؤوَّل مخصوصٌ بالذمِّ، فالتمييزُ محذوف.

وجُوِّز كون «ساء» بمعنى «قبُح»، و«ما» إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة، والمضارع للاستمرار إشارةً إلى أنَّ دأبهم ذلك، أو هو واقعٌ موقعَ الماضي لرعاية

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٠٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/١٤٠، وما سيأتي منه.
(٢) الكشاف ٣/١٩٦.
(٣) البحر ٧/١٤١.
(٤) كما في البحر ٧/١٤١، وحاشية الشهاب ٧/٩٢، والكلام منه.

الفاصِلة، وكِلَا الوجهين حكاهما في البحر[١]، والأول أولى. وعندي أن مثلَ هذا لا يقال إلا في حقِّ الكَفَرة.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال: أي: مَن كان يخشى البعث في الآخرة[٢]. فالرجاءُ بمعنى الخوف كما في قول الهُذَلي في وصف عسَّال:

إذا لسَعتْه الدَّبْرُ لم يَرْجُ لَسْعَها وخالَفها في بيتِ نُوبٍ عواملِ[٣]

ولعل إرادةَ البعث من لقائه عزَّ وجل لأنه من مَباديه. وقيل: لعله جعَل لقاءَ الله تعالى عبارةً عن الوصول إلى العاقبة، إلا أنه لَمَّا كان البعث من أعظمِ ما يَتوقَّف ذلك عليه خصَّه بالذكر.

وفي «الكشاف»: أنَّ لقاء الله تعالى مَثَلٌ للوصول إلى العاقبة مِن تلقِّي ملك الموت والبعث والحساب والجزاء، ومُثِّلت تلك الحالُ بحالِ عبدٍ قدِمَ على سيده بعد عهد طويل وقد اطَّلع مولاه على ما كان يأتي ويذر، فإمَّا أن يلقاه بِبِشْرٍ وترحيبٍ لِمَا رضي من أفعاله، أو بضدِّ ذلك لِمَا سَخِطَه منها، فمعنى «من كان» إلخ: مَن كان يأمل تلك الحالَ وأن يلقى فيها الكرامةَ من الله تعالى والبشرى[٤].

فالكلامُ عنده من باب التمثيل، والرجاءُ بمعنى الأمل والتوقُّع. وجُوِّز أن يكون بمعنى ذلك إلا أن الكلام بتقدير مضاف: أي: مَن كان يتوقَّع ملاقاةَ جزاءِ الله تعالى ثواباً أو عقاباً، أوملاقاةَ حكمه عز وجل يوم القيامة، وأن يكون بمعنى الخوف والمضافُ محذوفٌ أيضاً، أي: مَن كان يخاف ملاقاةَ عقاب الله تعالى، وأن يكون بمعنى ظنِّ حصولِ ما فيه مسرَّةٌ وتوقُّعِه كما هو المشهور، والمضافُ كذلك أيضاً، أي: مَن كان يرجو ملاقاةَ ثواب الله تعالى. ويجوز أن لا يقدَّرَ مضاف، ويُجْعَلَ لقاءُ الله تعالى مجازاً عن الثواب لِمَا أنه لازمٌ له.

---

(١) ٧/ ١٤١.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٣٤.
(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٤٣، وسلف ١١/ ٣٨.
(٤) الكشاف ٣/ ١٩٧.

واختار بعضهم أن الرجاء بمعناه المشهورِ، وأنَّ لقاءَ الله تعالى مشاهدَتُه سبحانه على الوجه اللائق به عزَّ وجلَّ كما يقوله أهلُ السنَّة والجماعة، إذ لا حاجةَ للخروج عن الظاهر من غير ضرورةٍ. وما حسبه المعتزليُّ منها فليس منها كما بُيِّن في علم الكلام، أي: مَن كان يتوقَّع مشاهدة الله تعالى يوم القيامة التي لا نعيمَ يعدلُها، ويلزَمُها الفوزُ بكلِّ خير ونعيم.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الأجَلُ غايةٌ لزمانٍ ممتدٍّ عُيِّنَت لأمر من الأمور، وقد يطلَق على كلِّ ذلك الزمانِ، والأول أشهرُ في الاستعمال، أي: فإنَّ الوقتَ الذي عيَّنه جلَّ شأنُه لذلك ﴿لَءَاتٍۚ﴾ لا محالةَ من غير صارفٍ يَلْويه، ولا عاطفٍ يَثنيه؛ لأن أجزاء الزمان على التقضِّي والتصرُّم دائماً، ومجيءُ ذلك الوقت كنايةٌ عن إتيانِ ما فيه ووقوعِه. والجملةُ الاسمية قائمةٌ مقامَ جواب الشرط، وهي في الحقيقة دليلُ الجواب المحذوف، أي: فلْيُبادِرْ ما ينفعه[1] من امتثال الأوامر واجتناب المناهي، أو: فليبادر ما يحقِّق أمله ويصدِّق رجاءه، أو نحو ذلك مما يلائم الشرطَ، فتدبَّر.

وقيل: يجوز أن تكون هي الجوابَ، على أنَّ المراد بها المعنى الملائم للشرط كما ذُكر.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ جلَّ شأنُه لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ بأحوالهم من الأعمال الظاهرة والعقائد والصفات الباطنة. والجملة تذييلٌ لتحقيق حصول المرجوِّ والمَخُوف وعداً ووعيداً.

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ في طاعة الله عزَّ وجلَّ ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لعَوْد المنفعة من الثَّواب المُعَدِّ لذلك إليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ فلا حاجةَ له إلى طاعتهم، وإنما أمَرَهم سبحانه بها تعريضاً لهم للثواب بموجب رحمته وحكمته.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الكفرَ الأصليَّ أو العارضيَّ بالإيمان، والمعاصيَ بما يتبعها من الطاعات.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾، أي: أحسنَ جزاءِ أعمالهم. والجزاءُ

(١) في (م): ينفقه، وهو تصحيف.

الحَسَن أن يُجازَى بحسنةٍ حسنةً، وأحسنُ الجزاء أن تُجازَى الحسنةُ الواحدة بالعَشْر وزيادةٍ.

وقيل: لو قدِّر: لنجزيَنَّهم بأحسنِ أعمالهم، أو: جزاءَ أحسن أعمالهم؛ لإخراج المباح، جاز.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي: أَمَرْناه بتعهُّدِهما ومُراعاتهما، وانتصب «حُسْنًا» على أنه وصفٌ لمصدرٍ محذوف، أي: إيصاءً حُسْناً، أي: ذا حُسنٍ، أو هو في حدِّ ذاته حُسْنٌ لفرْطِ حُسنه، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وهذا ما اختاره أبو حيان[١]، ولا يخلو عن حُسْنٍ.

وقال الزمخشريُّ: «حُسْناً» مفعولٌ به لمصدرٍ محذوفٍ مضافٍ إلى «والديه»، أي: وصَّيْناه بإيتاء والدَيْه ـ أو: بإيلاءِ والديه ـ حُسناً[٢]. وفيه إعمالُ المصدر محذوفاً وإبقاءُ عَمَلِه، وهو لا يجوز عند البصريِّيْن.

وجُوِّز أن يكون «حُسْناً» مصدراً لفعلٍ محذوف، أي: أَحْسِنْ حُسْناً، والجملةُ في موضع المفعول لـ «وصَّى» لتضمُّنِه معنى القول، وهذا على مذهب الكوفيِّيْن القائلين بأنَّ ما يَتضمَّن معنى القول يجوز أن يَعْملَ في الجُمَل من غيرِ تقديرٍ للقول. وعند البصريِّين يقدَّر القولُ في مثل ذلك، وعليه يجوز أن يكون مفعولاً به لفعلٍ محذوف، والجملة مقولُ القول، وجملةُ القول مفسِّرةٌ للتوصية، أي: قلنا: أَوْلِهما ـ أو: افعَلْ بهما ـ حُسناً، وعلى هذا يحسُن الوقف على «بوالديه» لاستئناف الجملة بعدَه، ورُجِّح تقديرُ الأمر بأنه أوفقُ لِمَا بعده من الخطاب والنهي الذي هو أخوه، لكن ضُعِّف ما فيه كثرةُ تقديرٍ بكثرةِ التقدير.

ونقل ابن عطيَّةَ عن الكوفيِّين[٣] أنهم يجعلون «حُسناً» مفعولاً لفعل محذوف،

---

(١) في البحر ٧/ ١٤٢.

(٢) الكشاف ٣/ ١٩٧.

(٣) كذا ذكر المصنف، والصواب أن ناقل هذا عن الكوفيين هو صاحب كتاب التحرير كما في البحر ٧/ ١٤٢، وقد ذكره أبو حيان إثر كلام لابن عطية. وكتاب التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير لجمال الدين محمد بن سليمان المعروف بابن النقيب. كشف الظنون ١/ ٣٥٨.

ويقدِّرُوْن: أن يفعلَ حُسناً. وفيه حذفُ «أنْ» وصلتِها وإبقاءُ المعمول، وهو لا يجوز عند البصريين.

وقيل: إنَّ «حُسناً» منصوبٌ بنَزْع الخافض، و«بوالديه» متعلِّقٌ بـ «وصَّينا»، والباء فيه بمعنى «في»، أي: وصَّينا الإنسان في أمر والديه بحُسن. وهو كما ترى.

وقرأ عيسى والجحدريُّ: «حَسَناً» بفتحتين[1]. وفي مصحفِ أُبَيٍّ «إحساناً»[2].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ عطفٌ على ما قبله، ولا بدَّ من إضمارِ القول إن لم يضمَر قبلُ، أي: وقلنا: إن جاهداك.. إلخ، لئلا يلزمَ عطفُ الإنشاء على الخبر؛ لأن الجملة الشرطية إذاكان جوابُها إنشاءً فهي إنشائيةٌ كما صرَّحوا به، فإذا لم يُضمَرِ القول لا يليق عطفُها على «وصَّيْنا» لِمَا ذُكر، ولا على ما عَمل فيه لكونه في معنى القول وهو «أَحْسِنْ» وإن توافقا في الإنشائية، لأنه ليس من الوصية بالوالدين لأنه نهيٌ[3] عن مطاوَعتهما. وأمَّا عطفُه على «قُلْنا» المفسِّر للتوصية فلا يَضُرُّ؛ لِمَا فيه من تقييدها بعدم الإفضاء إلى المعصية مآلاً، فكأنه قيل: أحسِنْ إليهما وأطِعْهما ما لم يأمراك بمعصيةٍ؛ فتأمَّلْ. والظاهر الذي يقتضيه المقامُ أنَّ «ما» عامٌّ لِمَا سواه تعالى شأنه.

وقوله سبحانه: «به» على حذفِ مضافٍ، أي: ما ليس لك بإلهيَّتِه علمٌ. وتنكيرُ «علم» للتحقير، والمراد: لتُشْرِكَ بي شيئاً لا يصحُّ أن يكونَ إلهاً ولا يستقيم، وفي العدول عنه إلى ما في النَّظْم الجليل إيذانٌ بأنَّ ما لا يُعْلم صحتُه ولو إجمالاً كما في التقليد لا يجوز اتِّباعه وإن لم يُعْلم بطلانُه، فكيف بما عُلِم على أتمِّ وجهٍ بطلانُه؟

وجعل العلَّامة الطيبيُّ نفيَ العلم كنايةً عن نفي المعلوم، وعلَّل ذلك بأنَّ هذا الأسلوبَ يُستعمل غالباً في حقِّ الله تعالى، نحو: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ [يونس:١٨]. ثم قال: وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نفيَ الشرك من العلوم

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٤٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨، والبحر ٧/ ١٤٢.

(٣) في (م): منهي، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٩٣، والكلام منه.

الضروريَّة، وأنَّ الفطرةَ السليمة مجبولةٌ عليه على ما ورد: «كلُّ مولودٍ يُولد على الفِطْرة»(١)، وذلك أنَّ المخاطَب بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جنسُ الإنسان. انتهى، وفيه بحث.

ومتعلِّق «تُطِعْهما» محذوفٌ لوضوح دلالة الكلام عليه، أي: وإن استفرَغا جهدَهما في تكليفِك لتشركَ بي غيري مما لا إلهيَّةَ له فلا تُطِعْهما في ذلك فإنَّه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق. وفي تعليق النهي عن طاعتهما بمجاهدَتهما في التكليف إشعارٌ بأنَّ مُوجب النهي فيما دونَها من التكليف ثابتٌ بطريقِ الأَوْلَويَّة، وكذا موجبه في مجاهَدةِ أحدهما.

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، أي: مرجعُ مَنْ آمنَ منكم ومَن أشرك، ومَن برَّ ومَن عقَّ. والجملة مقرِّرةٌ لِمَا قبلها، ولذا لم تُعطفْ. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑧﴾ بأنْ أجازِيَ كلًّا منكم بعمله؛ إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ.

والآية نزلت في سعد بن أبي وقَّاص، وذلك أنه رضي الله عنه حين أسلم قالت أمُّه حمنةُ بنت أبي سفيان بن أميَّةَ بنِ عبد شمس: ياسعدُ، بلَغَني أنَّك صَبأْتَ، فوالله لا يُظِلُّني سقفُ بيتٍ من الضِّحِّ والريح، وإنَّ الطعام والشراب عليَّ حرامٌ حتى تكفرَ بمحمد صلى الله عليه وسلم. وكان أحبَّ ولدِها إليها، فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك، فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا إليه، فنزلت هذه الآية والتي في «لقمان»(٢) والتي في «الأحقاف»(٣)، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يداريَها ويترضَّاها بالإحسان(٤).

وروي أنها نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة المخزوميِّ، وذلك أنه هاجر مع

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية. وحديث: «كل مولود...» أخرجه أحمد (٧١٨١)، والبخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الآيتان (١٤-١٥).

(٣) الآية (١٥).

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٥٦ دون سند، وكذا الثعلبي والكلبي كما ذكر ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف، ونقله المصنف عن الكشاف ٣/ ١٩٨، وأخرجه بنحوه مسلم (١٧٤٨): (٣) كتاب فضائل الصحابة من حديث سعد رضي الله عنه.

عمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه مترافقين[١] حتى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام أخواه لأمِّه أسماءَ بنت مخرمة[٢] امرأة من بني تميم من بني حنظلةَ؛ فنزلا بعيَّاش وقالا له: إنَّ مِن دين محمد صلةَ الأرحام وبرَّ الوالدينِ، وقد تركتَ أمَّك لا تَطْعَمُ ولا تشرب ولا تأوي بيتاً حتى تراك، وهي أشدُّ حبًّا لك منَّا، فاخْرُجْ معنا. وفَتَلَا منه في الذروة والغارب[٣]، فاستشار عمرَ رضي الله عنه فقال: هما يخدعانك، ولك عليَّ أنْ أَقْسِم مالي بيني وبينَك. فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمرَ رضي الله عنه، فقال عمرُ رضي الله عنه: أمَا إذ عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعيرٌ يلحَقُها، فإنْ رابَكَ منهم ريبٌ فارجعْ. فلمّا انتهَوْا إلى البيداء قال أبو جهل: إنَّ ناقتي قد كلَّت فاحملني معك. قال: نعم. فنزل ليوطِئَ لنفسه وله، فأخذاه فشدَّاه وِثاقاً وجَلَده كلُّ واحد مئةَ جلدةٍ، وذهبا به إلى أمِّه. فقالت: لا تزال بعذابٍ حتى ترجعَ عن دين محمد ﷺ، فنزلت[٤].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾ أي: في زُمْرة الراسخين في الصلاح الكاملين به، والصلاحُ ضدُّ الفساد، وهو جامعٌ لكلِّ خير، وله مراتبُ غيرُ متناهية، ومرتبةُ الكمال فيه مرتبةٌ عليا، ولذا طلبها الأنبياء عليهم السلام كما قال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]. ويحتمل أن يكون الكلام بتقديرِ مضاف، أي: في مدخل الصالحين وهي الجنة.

---

(١) في (م): متوافقين، والمثبت من الأصل والكشاف ٣/ ١٩٨، وعنه نقل المصنف.

(٢) كذا نقل المصنف عن الكشاف، والصواب: مخرِّبة بالباء قبلها راء مشدَّدة مكسورة. الإكمال ٧/ ٢١١، والإصابة ١٢/ ١١٨.

(٣) مثل يضرب في المكر والمخادعة، والمعني: ما زالا يخدعانه حتى أزالاه عن رأيه. وأصل المثل في البعير إذا كان صعباً شرساً، فيَحُكُّ الرجل سنامه وغاربه ـ وهو مقدم السنام ـ ويفتل الوَبْر فيهما يؤنسه بذلك، ويخدعه حتى يستمكن منه. وذروة البعير بكسر الذال وضمها: أعلاه. جمهرة الأمثال ٢/ ٩٨، والمستقصى ٢/ ١٧٩، ومجمع الأمثال ٢/ ٦٩.

(٤) الكشاف ٣/ ١٩٨، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٢٧: هذا السياق أورده الثعلبي عن مقاتل، وأخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البزار [مسند البزار (١٥٥)] قال: حدثني نافع، عن ابن عمر، عن عمر مطولاً. اهـ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٦١: رجاله ثقات.

والموصول مبتدأ، «ولنُدْخِلَنَّهم» الخبر على ما ذكره أبو البقاء، وجوَّز أن يكون في موضع نصب على تقديرِ: لَنُدْخلَنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لَنُدْخِلَنَّهم[(١)].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعضُهم ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: لأَجْلِه عزَّ وجلَّ، على أنَّ «في» للسببية، أو المراد: في سبيل الله تعالى، بأنْ عذَّبهم المشركون على الإيمان به تعالى ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: نَزَّلوا ما يُصيبهم مِن أذيَّتِهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: منزلةَ عذابِه تعالى في الآخرة، فجَزِعوا من ذلك ولم يصبروا عليه، وأطاعوا الناسَ وكفروا بالله تعالى كما يُطيعُ الله تعالى مَن يخافُ عذابَه سبحانه فيؤمِنُ به عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ بأنْ حَصَل للمؤمنين فتحٌ وغنيمةٌ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضمِّ اللام الثانية وحذفِ ضميرِ الجمع لالتقاء الساكنينِ، وهذا الضمير عائدٌ إلى «مَن» والجمعُ بالنظر إلى معناها، كما أنَّ إفراد الضمائرِ العائدةِ إليها فيما سَبَق بالنظر إلى لفظها. وحكى أبو مَعاذٍ النحويُّ أنه قُرِئ: «ليقولَنَّ» بفتح اللام على إفراد الضمير كما فيما سَبَق[(٢)].

﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: مُشايِعيْنَ لكم في الدِّين؛ فأشْرِكُونا فيما حصل من الغنيمة. وقيل: أي: مُقاتِلين معكم ناصرينَ لكم، فالمرادُ الصُّحبةُ في القتال. ورُدَّ بأنها غيرُ واقعةٍ.

والآية نزلت في ناسٍ مِنْ ضَعَفَةِ المسلمين؛ كانوا إذا مسَّهم أذًى من الكفَّار وافَقوهم، وكانوا يكتُمُونه من المسلمين، وبذلك يكونون منافقينَ، ولذا قال ابن زيدٍ والسدِّيُّ: إنَّ الآيةَ في المنافقين.

فَرَدَّ الله تعالى عليهم ذلك بقوله سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ وهو في الظاهر عطفٌ على مقدَّر، أي: أيَخْفى حالُهم وليس.. إلخ، أو: أليس المتفرِّسون الذين ينظُرون بنورِ الله تعالى بأحوالهم عالمين وليس.. إلخ.

---

(١) الإملاء ٤/ ١٦٢.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٤٣.

و«أَعْلَمَ» إمَّا على أصله، أي: أليس هو عز وجل أعلَمَ مِنَ العالمين بما في صدورِ العالمين من الأخلاق والنِّفاق، حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والإخفاءِ عن المسلمين، وادِّعاءِ كونِهم منهم لنَيْلِ الغنيمة. أو هو بمعنى عالِم.

وقال قتادة: نزلت فيمَن هاجر فردَّهم المشركون إلى مكة.

وقيل: نزلت في ناسٍ مؤمنين، أخرجهم المشركون إلى بدْرٍ فارتدُّوا، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [النساء:٩٧]. وما تقدَّم هو الأوفقُ لِمَا سبق من الآية وما لَحِق من قوله سبحانه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالإخلاص ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ سواءٌ كان كفرُهم بأذيَّةٍ أو لا. والمراد بالعلم المجازاةُ، أي: ليَجْزِينَّهم بما لهم من الإيمان والنفاق. وكأنَّ تلوينَ الخِطاب في «الذين آمنوا» و«المنافقين» لرِعاية الفواصل.

والظاهر أنَّ الآية بناءً على أنَّ النفاقَ ظَهَر في المدينة مدنيَّةٌ، وهو يؤيِّد ما تقدَّم مِنْ عدِّها من المستثنَيات، ولعلَّ مَن يقول: إنها مكية؛ لظاهِرِ إطلاقِ جَمْعِ القولَ بمكيةِ السُّورة، وأنَّ تعذيبَ الكَفَرة المسلمين إنَّما كان في الأغلَبِ بمكةَ، يمنع ذلك، أو يذهب إلى أنَّها من الإخبار بالغيب، فتدبَّر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بيانٌ لحملهم المؤمنين على الكفر بالاستمالة، بعد بيان حملهم إياهم عليه بالأذية والوعيد، ووَصَفهم بالكفر هاهنا دونَ ما سَبَق لما أنَّ مَساقَ الكلام لبيان جنايتهم، وفيما سَبَق لِبَيَانِ جِنايةِ مَن أضلُّوه. واللَّامُ للتبليغ، أي: قالوا مخاطبين لهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ أي: اسْلُكوا طرِيقَتَنَا التي نَسْلُكُها في الدِّين، عَبَّر عن ذلك بالاتِّباع الذي هو المَشْيُ خلفَ ماشٍ آخَرَ، تنزيلاً للمسلكِ منزِلَةَ السَّالك فيه، أو: اتَّبِعونا في طريقتنا.

﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي: إذا كان ذلك الاتِّباعُ خطيئةً يُؤَاخَذُ عليها يومَ القيامة كما تقولون، أو: ولْنُحْمِلْ ما عليكم من الخطايا إن كان بعثٌ ومؤاخَذَةٌ، وإنَّما أَمَروا أنفسَهم بالحَمْلِ عاطفينَ له على الأمر بالاتِّباع؛ للمبالَغة في تعليق الحمل بالاتِّباع، فكأنَّ أصلَ الكلام: اتَّبِعُوا سبيلَنا نحمِلْ خطاياكم، بجَزْمِ «نَحْمِلْ» على أنه جوابُ الأمر، فيكون المعنى: إن تتَّبعوا نحملْ، فعُدِل عنه إلى ما في النظم الجليل للمبالَغة

المذكورة، ومنشَؤُها الإشارةُ إلى أنَّ الحملَ لتحقُّقِه كأنه أمرٌ واجبٌ أُمِرُوا به مِن آمِرٍ مُطاعٍ. والتعليقُ على الشرط الذي تضمَّنَه الأمرُ كما في قولهم: أكرِمْني أنفعْك، لا يفيدُ ذلك، والداعي لهم إلى المبالَغة التشجيعُ على الاتِّباع. والحملُ هنا مجازٌ، وفي «البحر»: شُبِّه القيامُ بما يتحصَّلُ من عواقِبِ الإثم بالحمل على الظَّهْر؛ والخطايا بالمحمول. قال مجاهد: الحمل هنا من الحَمَالة، لا من الحمل[1] انتهى.

والآيةُ على ما أخرج جماعةٌ عن مجاهد نزلت في كُفَّارِ قريش؛ قالوا لمن آمَنَ منهم: لا نُبْعَثُ نحن ولا أنتم، فاتَّبِعونا، فانْ كان عليكم شيءٌ فعَلَيْنا[2].

وأخرج ابنُ أبي شيبةَ وابن المنذر عن ابن الحنفية قال: كان أبو جهل وصناديدُ قريش يتلقَّون الناسَ إذا جاؤوا إلى النبيِّ ﷺ يُسْلمون، يقولون: إنه يُحرِّم الخمرَ، ويحرِّمُ الزِّنى، ويحرِّم ما كانت تصنع العربُ، فارْجِعوا فنحن نحملُ أوزارَكم. فنزلت هذه الآية[3].

وقيل: قائلُ ذلك أبو سفيانَ بنُ حرب وأميةُ بن خلف؛ قالا لعمرَ رضي الله عنه: إنْ كان في الإقامة على دين الآباء إثمٌ فنحن نحمله عنك.

وقيل: قائله الوليدُ بن المغيرة، ونسبةُ ما صَدَرَ عن الواحد للجَمْع شائعةٌ، وقد تقدَّم الكلامُ غيرَ مرةٍ في وجه ذلك.

وقرأ الحسن وعيسى ونوحٌ القارئُ: «ولِنَحْمِل» بكَسْر لامِ الأمر، ورُويت عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه[4].

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ نَفْيٌ مؤكِّدٌ على[5] سبيل الاستمرار لكونهم حاملين شيئاً ما من خطاياهم التي التزَمُوا حملَها، فالباءُ زائدةٌ لتأكيدِ النفي، والاستمرارُ الذي تُفِيْدُه الجملةُ الاسْميَّةُ معتَبَرٌ بعدَ النفي، و«مِن» الأولى للبيان،

---

(١) البحر ٧/ ١٤٣.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٦٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٣٩.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٠١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤٣.
(٤) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٤٣.
(٥) في (م): عن.

وهو مقدَّم مِنْ تأخيرٍ، و«مِن» الثانيةُ مزيدةٌ لتأكيد الاستغراق. وهذه الجملةُ اعتراضٌ أو حالٌ.

وقرأ داودُ بنُ أبي هند فيما ذكر أبو الفضل الرازيُّ: «مِنْ خَطِيْئَتِهِمْ» على التوحيد، قال: ومعناه الجنسُ، ودلَّ على ذلك اتصافُه بضَميرِ الجماعة[١]. وذكر ابن خالويه وأبو عمرو الداني أنَّ داودَ هذا قرأ: «مِنْ خطيئاتهم»، جَمْعُ «خطيئة» جَمْعَ السَّلامةِ بالألف والتاء[٢].

وذكر ابن عطيةَ عنه أنَّه قرأ: «مِن خَطْيِهم» بفتح الطَّاء وكسر الياء، وينبغي أن يُحْمَلَ كسرُ الياء على أنَّها همزةٌ سهِّلَت بينَ بينَ، فأَشْبَهَتِ الياءَ، لأنَّ قياسَ تَسْهِيلِها هو ذلك[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ للنفي السابق، والكَذِبُ قيل: راجعٌ إلى تعليقِ الحمل بالاتِّباع - فإنَّه إخْبارٌ - لا إلى الأمْرِ السابقِ، لأنَّه إنشاءٌ ولا يجري الكذبُ فيه.

وتُعُقِّبَ بأنَّ التعليقَ لا يلزَمُه أنْ يكونَ إخباراً، بل هو ضَمانٌ معلَّقٌ، أي: إنشاءُ الضَّمانِ عند وجودِ الصِّفة، ولذا قال الزمخشريُّ: إنَّ ضامِنَ ما لا يُعْلَمُ اقتدارُه على الوَفاء به لا يُسَمَّى كاذِباً، لا حينَ ضَمِن ولا حينَ عَجَزَ؛ لأنَّه في الحالينِ لا يَدْخُلُ تحتَ حدِّ الكاذب، وهو المُخْبِرُ عن الشيءِ لا على ما هو عليه. وجَعَل هذا سؤالاً عن وجهِ التعبيرِ بـ «كاذبون»[٤].

وأجابَ عن ذلك بوجهين، ثانيهما على ما في «الكشف» هو الوجهُ، وحاصلُه أنَّ الكَذِبَ ليس راجعاً إلى أنَّهم غيرُ حاملين؛ لِيُقَال: إنَّ الضامنَ لا يُسَمَّى كاذباً، بل أَخْبَرَ اللهُ تعالى أنَّهم عَجَزٌ عمَّا ضَمِنوه، ومع ذلك هم كاذبون في وَعْدِ إنشاء الضَّمانِ عند وجود الوصف، والمحصّل أنَّ مَن وَعَد الضمانَ إنْ ضَمِن ولم يحقِّقْ

(١) البحر ٧/ ١٤٤.
(٢) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٤٤، وعنه نقل المصنف كلام ابن خالويه وأبي عمرو الداني.
(٣) البحر ٧/ ١٤٤، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩.
(٤) الكشاف ٣/ ١٩٩.

لا يُسَمَّى كاذِباً، وإنْ لم يَضْمَنْ سُمِّيَ كاذباً. وأوّلهما أنّه شَبَّهَ الله تعالى حالَهم حيثُ عَلِم أنَّ ما ضَمِنوه لا طريقَ لهم إلى أنْ يَفُوا به، فكان ضمانُهم عنده سبحانه لا على ما هو عليه المضمونُ، بالكاذبين الذين خَبَرُهم لا على ما عليه المُخْبَرُ عنه[1].

وقال بعضُ المحقِّقِين: الكَذِبُ راجعٌ إلى الخبر الذي في ضِمْنِ وعدِهم بالحمل، وهو[2] أنَّهم قادرون على إنجازِ ما وَعَدُوا، والكَذِبُ كما يتطرَّقُ إلى الكلام باعتبار منطوقه يتطرَّقُ إليه باعتبار ما يلزَمُ مدلولَه.

وفي «الانتصاف»: أنَّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ نكتةً حَسَنةً يُستَدَلُّ بها على صِحَّةِ مجيءِ الأمرِ بمعنى الخبر، فإنَّ مِنَ النَّاس مَنْ أنكره والتَزَمَ تخريجَ جميعِ ما وَرَد في ذلك على أصلِ الأمر، ولم يَتِمَّ له ذلك في هذه الآية، لأنَّه سبحانه أردَفَ قولَهم: «ولْنَحمِلْ خطاياكم» على صيغة الأمرِ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ والتكذيبُ إنَّما يتطرَّقُ إلى الأخبارِ[3]. انتهى.

ويُعْلَمُ منه وجهُ كونهم كاذبين في قولِهم ذلك مع إخراجِهم له مخرجَ الأمر، إلَّا أنَّ في كونِ الآية دليلاً على ما ذكره نظراً كما لا يخفى.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ بيانٌ لِمَا يستتبِعُه قولُهم ذلك في الآخرة من المضرَّة لأنفُسِهم، بعد بيانِ عدمِ منفعتِه لمخاطَبيهم أصلاً. والتعبيرُ عن الخطايا بالأثقال للإيذانِ بغايةِ ثقلِها وكونِها فادحةً. واللَّام واقعةٌ في جوابِ قسمٍ محذوفٍ، أي: وَبالله ليحمِلُنَّ أثقالَ أنفُسِهم كاملةً ﴿وَأَثْقَالًا﴾ أُخَرَ ﴿مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي أثقالُ ما تسبَّبُوا بالإضلالِ والحملِ على الكفرِ والمعاصي، من غيرِ أنْ ينقصَ من أثقالِ مَن أضلُّوه شيءٌ ما؛ فقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أيُّما داعٍ دعا إلى هُدًى فاتُّبِعَ عليه وعُمِل به، فله مثلُ أجورِ الذين اتَّبَعُوه، ولا يَنْقُص ذلك من أجورِهم شيئاً، وأيُّما داعٍ دعا إلى ضَلالةٍ فاتُّبِعَ عليها وعُمِلَ بها، فعليه مثلُ

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٠٠.

(٢) في (م): وهم، وهو تصحيف.

(٣) الإنصاف ٣/ ١٩٩.

أوزَارِ الذين اتَّبَعُوه، ولا يَنْقُصُ ذلك من أوزارِهم شيئاً». قال عون: وكان الحسن يقرأ عليها: (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ)[١].

وللإشارةِ إلى استقْلالِ أثْقالِ أنفُسِهم، وأنَّها نهضَتْهم واستَفْرَغَتْ جُهْدَهم، وأنَّ الأثقالَ الأُخَرَ كالعَلاوَةِ عليها، اخْتِيْرَ ما في النَّظمِ الجليل على أنْ يقال: وليحملُنَّ أثقالاً مع أثقالهم.

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ سؤالَ تقريعٍ وتَبْكيتٍ ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: يختَلِقونه في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل التي من جُمْلَتِها كَذِبُهم هذا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ شروعٌ في بيانِ افْتتانِ الأنبياءِ عليهم السلامُ بأذيةِ أُممِهِم إثْرَ بيانِ افتتانِ المؤمنين بأذيةِ الكفَّار؛ تأكيداً للإنكارِ على الذين يحسَبُون أنْ يُتْرَكوا بمجرَّد الإيمان بلا ابتلاءٍ، وحثًّا لهم على الصبر، فإنَّ الأنبياءَ عليهم السلام حيث ابْتُلُوا بما أصابَهم مِنْ جِهَةِ أُمَمِهم من فنون المَكَارِهِ وصبَرُوا عليها، فَلَأنْ يَصْبِرَ هؤلاء المؤمنين أولى وأحرى.

والظاهرُ أنَّ الواوَ للعطف، وهو من عطف القصَّة على القصَّة، قال ابن عطية: والقسَمُ فيها بعيدٌ[٢]. يعني: أن يكون المُقْسَمُ به قد حُذف وبَقِيَ حرفُه وجوابُه، فإنَّ فيه حذفَ المجرورِ وإبقاءَ الجارِّ، وهم قالوا: لابدَّ من ذكر المجرور.

والفاءُ للتعقيب، فالمتبادِرُ أنَّه عليه السلام لبِثَ في قومه عقيبَ الإرسالِ المدةَ المذكورةَ، وقد جاءَ مصرَّحاً به في بعضِ الآثار؛ أخرج ابن أبي شيبةَ وعبدُ بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابنُ مردويه، والحاكُم وصحَّحَه[٣] عن ابن عبَّاس قال: بعث الله تعالى نوحاً عليه السلام وهو ابنُ أربعين سنةً، ولبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلَّا

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٤٢، وأخرجه أحمد (٩١٦٠)، ومسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ دون ذكر الآية.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٠، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٤٥.

(٣) قوله: وصححه، كذا نقله المصنف عن السيوطي في الدر ٥/ ١٤٣، ولم نقف على تصحيحه في المستدرك.

خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى، وعاشَ بعدَ الطوفان ستِّيْنَ سنةً حتى كثُر الناسُ وفَشَوْا[١]. وعلى هذه الرواية يكون عمرُه عليه السلام ألفَ سنة وخمسينَ سنةً.

وقيل: إنَّه عليه السلام عُمِّرَ أكثرَ من ذلك، أخرج ابن جرير عن عون بن أبي شدَّاد قال: إنَّ الله تعالى أرسل نوحاً عليه السلام إلى قومه وهو ابنُ خمسين وثلاثِ مئةِ سنةٍ، فلبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلَّا خمسين عاماً، ثُمَّ عاش بعد ذلك خمسين وثلاثَ مئةِ سنةٍ[٢]. فيكونُ عمرُه ألفَ سنةٍ وستَّ مئةٍ وخمسين سنةً.

وأخرجَ عبدُ بنُ حميد عن عكرمة قال: كان عُمرُ نوحٍ عليه السلام قبلَ أن يُبْعَثَ إلى قومِه، وبعدَ مَا بُعِثَ، ألفاً وسبعَ مئةِ سنةٍ[٣].

وعن وهب: أنَّه عليه السلامُ عاشَ ألفاً وأربعَ مئةِ سَنَةٍ.

وفي «جامع الأصول»: كانت مُدَّةُ نُبُوَّتِه تسعَ مِئَةٍ وخمسين سنةً، وعاش بعد الغرقِ خمسين سنةً. وقيل: مئتي سنةٍ، وكانت مدةُ الطوفانِ ستَّةَ أشهرٍ آخرُها يومُ عاشوراءَ[٤].

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكونَ ما ذكر اللهُ عزَّ وجل مدةَ إقامته عليه السلام من لَدُنْ مولدِه إلى غرَقِ قومه[٥]. وقيل: يحتمل أنْ يكونَ ذلك جميعَ عمرِه عليه السلام. ولا يَخْفى أنَّ المتبادِرَ من الفاء التعقيبيَّةِ ما تقدَّمَ.

وجاء في بعض الآثارِ أنَّه عليه السلام أطولُ الأنبياءِ عليهم السلام عمراً؛ أخرج ابنُ أبي الدُّنيا في كتاب «ذمِّ الدنيا»[٦] عن أنس بن مالك قال: جاء مَلَكُ الموت إلى نوح عليهما السلام فقال: يا أطولَ النبيين عمراً، كيف وجدتَ الدنيا ولذَّتَها؟ قال: كرجُلٍ دخل بَيْتاً له بابان، فقال[٧] وسَطَ الباب هُنَيْهَةً، ثُمَّ خرج من الباب الآخر.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٦١، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٤١، والمستدرك ٢/ ٥٤٥-٥٤٦، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٤٣.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٧٠.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٤٣.

(٤) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.

(٦) برقم (٢٢٩).

(٧) كذا في الأصل و(م)، وفي ذم الدنيا: فقام.

ولعلَّ ما عليه النظمُ الكريمُ في بيانِ مدَّةِ لبثه عليه السلام للدَّلالة على كمالِ العدد، وكونِه متعيِّناً نصًّا دونَ تجوُّزٍ، فإنَّ تسعَ مئةٍ وخمسين قد يُطْلَقُ على ما يَقْرُبُ منه، ولِمَا في ذكر الألْفِ مِنْ تخييلِ طولِ المدَّةِ؛ لأنَّها أولُ ما تَقْرَعُ السَمْعَ، فإنَّ المقصودَ مِن القصةِ تسليةُ رسولِ الله ﷺ، وتثبيتُه على ما كان عليه من مُكابَدةِ ما ينالُه من الكَفَرَةِ، وإظهارِ ركاكةِ رأيِ الذين يَحْسَبُون أنَّهم يُتْرَكون بلا ابْتِلاء. واختلافُ المُمَيِّزَيْنِ لِمَا في التكرير في مثلِ هذا الكلام من البَشاعة، والنكتةُ في اختيارِ السَّنَةِ أوَّلاً أنَّها تُطْلَقُ على الشِّدَّة والجدْب، بخِلاف العام، فناسبَ اختيار السَّنَةِ لزمانِ الدعوة الذي قَاسَى عليه السلام فيه ما قَاسَى من قومِه.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أي: عقيبَ تمامِ المدَّةِ المذكورةِ، والطوفانُ قد يُطلق على كلِّ ما يطوفُ بالشيء على كثرةٍ وشدَّةٍ، مِنَ السَّيل والرِّيح والظَّلام، قال العجّاجُ:

حتى إذا ما يومُها تَصَبْصَبا وغَمَّ طوفانُ الظلام الأَثْأَبا[1]

وقد غَلَب على طوفانِ الماءِ، وهو المرادُ هنا.

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٤﴾ أي: والحالُ هم مستمِرُّون على الظُّلم لَمْ يتأثَّرُوا بما سمِعُوا من نُوح عليه السلام من الآيات، ولم يَرْعَوُوا عمَّا هم عليه من الكُفْر والمعاصي هذه المدَّةَ المتماديَةَ.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي: مَنْ رَكِبَ فيها معه مِنْ أَوْلاده وأتباعه، وكانوا ثمانين، وقيل: ثمانيةً وسبعين، نصْفُهم ذكورٌ ونصفُهم إناثٌ، منهم أولادُ نوح: سامٌ وحامٌ ويافثٌ ونِساؤُهم. وعن محمد بن إسحاقَ: كانوا عشرةً، خمسةَ رجالٍ وخمسَ نسوةٍ. وروي مرفوعاً: كانوا ثمانيةً: نوحٌ وأهلُه وبنوه الثلاثةُ[2]، أي: مع أهليهم.

---

(١) الصحاح (طوف)، واللسان والتاج (صبب)، وهو في العين ٧/ ٩١ دون نسبة، ولم نقف عليه في ديوان العجاج. وجاء في المصادر: عم، بدل: غم، قال صاحب اللسان: عمَّ: ألبس. وقوله: تصبصبا، أي: ذهب إلا قليلاً. والأثأب: شجر شبه الطرفاء، إلا أنه أكبر منه. اللسان (صبب) و(طوف). وجاء في هامش الأصل و(م): قوله: الأثأبا هو شجر الأثل، وزاد في هامش الأصل: وبالفارسي: سوره كز.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٠، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٨٦: لم أره مرفوعاً.
=

﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي: السفينةَ ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ⑮﴾ عبرةً وعِظَةً لهم؛ لبقائها زماناً طويلاً على الجودي يُشَاهِدُها المارَّةُ، ولِاشْتِهَارِها فيما بين الناس. ويجوز كونُ الضمير للحادثةِ والقصةِ المفهومة مِمَّا قبلُ، وهي عبرةٌ للعالمين لاشتهارِها فيما بينهم.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نصبٌ بإضمارِ «اذكر» معطوفاً على ما قبله عطفَ القصة على القصة، فلا ضير في اختلافهما خبراً وإنشاءً، و«إذ» في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ بدلُ اشتمالٍ منه؛ لأنَّ الأحيان تشتمل على ما فيها، وقد جوَّز ذلك الزمخشريُّ وابن عطية[1].

وتعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّ «إذ» لا تتصرَّفُ، فلا تكون مفعولاً به، والبدليةُ تقتضي ذلك. ثم ذَكَر أنَّ «إذ» إنْ كانت ظرفاً لِمَا مضى لا يصحُّ أن تكونَ معمولةً لـ «اذكر»؛ لأنَّ المستقبلَ لا يقعُ في الماضي فلا يجوز «قُمْ أمسِ»، وإذا خلعتْ من الظرفية الماضَويَّةِ وتُصُرِّفَ فيها جاز أنْ تكون مفعولاً به ومعمولاً لـ «اذكُرْ»[2].

وجَوَّز غيرُ واحد أنْ يكونَ نَصْباً بالعطف على «نوحاً»، فكأنّه قيل: وأرسلنا إبراهيم، فـ «إذ» حينئذٍ ظرفٌ للإرسال. والمعنى على ما قيل: أرسلناه حينَ تكامَلَ عقلُه وقَدَر على النظرِ والاستدلال، وترقَّى من رُتبة الكمال إلى درجة التكميل حيثُ تصدَّى لإرشاد الخلق إلى طريق الحقِّ، وهذا على ما قاله بعضُ المحقِّقين لِمَا أنَّ القولَ المذكور في حيِّزِ«إذ» إنما كان منه عليه السلام بعدما راهَقَ قبل الإرسال. وأنت تعلَمُ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت:١٨] إلخ ـ إذا كان من قوله عليه السلام لقومه ـ كالنصِّ في أنَّ القول المحكيَّ عنه عليه السلام كان بعد الإرسال.

وفي «الحواشي السَّعدية»: أنَّ ذلك إشارةٌ إلى دفعِ ما عَسَى أنْ يقال: الدعوةُ تكون بعد الإرسال، والمفهومُ من الآية تقدُّمُها عليه، وحاصلُه أنّه ليس المرادُ من

= وأخرجه الطبري ١٢/ ٤١٠-٤١١ عن قتادة وابن جريج قولهما.

(١) الكشاف ٣/ ٢٠٠-٢٠١، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.

(٢) البحر ٧/ ١٤٥.

الدعوةِ ما هو نتيجةُ الإرسال، بل ما هو نتيجة كمالِ العقل وتمام النظر. مع أنَّ دلالةَ الآية على تقدُّمِها غيرُ مسلَّمة، ففي الوقت سعةٌ. ويجوز أن يكونَ القصدُ هو الدلالةَ على مُبادَرتِه عليه السلام للامتثال. اهـ، فتدبَّرْ.

وجَوَّز أبو البقاء وابن عطية أن يكونَ نصباً بالعطف على مفعولِ «أنجَيْناه»[1]، وهو كما ترى.

والأوفقُ بما يأتي إن شاء الله تعالى من قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [العنكبوت:٣٦] أن يكون النصبُ بالعطف على «نوحاً».

وقرأ أبو حنيفة والنخعي وأبو جعفر: «وإبراهيمُ» بالرفع[2] على أنَّ التقديرَ: ومن المرسَلين إبراهيمُ، وقيل: التقديرُ: ومما ينبغي ذكرُه إبراهيمُ، وقيل: التقدير: وممن أنجينا إبراهيمُ.

وعلى الأوَّل المعوَّلُ؛ لدلالةِ مَا قبلُ وما بعدُ عليه، ويتعلَّقُ بذلك المحذوفِ «إذ قال لقومه».

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدَه ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أنْ تشرِكوا به سبحانه شيئاً.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما ذُكِرَ من العبادة والتقْوى ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من كلِّ شيء فيه خيريَّةٌ، أو: مِمَّا أنتم عليه على تقدير الخيريَّةِ فيه على زَعْمِكم. ويجوز كونُ «خيرٌ» صفةً لا اسمَ تفضيلٍ.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: الخيرَ والشرَّ، وتُميِّزُون أحدَهما من الآخر، أو: إن كنتم تعلَمون شيئاً من الأشياء بوجهٍ من الوجوه؛ فإنَّ ذلك كافٍ في الحكم بخيريَّةِ ما ذُكِرَ من العبادة والتقوى.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ بيانٌ لبطلانِ دِيْنِهم وشَرِّيَّته في نفسه بعدَ بيانِ شَرِّيَّتِه بالنسبة إلى الدين الحقِّ، أي: ما تعبدونَ من دونه تعالى إلَّا أوْثاناً هي في نفسها تماثيلُ مصنوعةٌ لكم، ليس فيها وصفٌ غيرُ ذلك.

---

(١) الإملاء ٤/ ١٦٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٥، والبحر ٧/ ١٤٥.

﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ أي: وتكذِبون كَذِباً حيثُ تُسَمُّونَها آلهةً، وتَدَّعُون أنَّها شُفَعَاؤُكم عند الله سبحانه، أو: تعمَلونها وتَنْحِتونها للإفك والكَذِب. واللَّام لامُ العاقبة، وإلَّا فَهُمْ: لَمْ يعمَلوها لأجلِ الكَذِب. وجُوِّز أن يكون ذلك من باب التهكُّم.

وقال بعض الأفاضل: الأظهر كون «إفكاً» مفعولاً به، والمرادُ به نفسُ الأوثان، وجَعلُها كذباً مبالغةٌ. أو الإفك بمعنى المأفوك، وهو المصروفُ عمَّا هو عليه، وإطلاقُه على الأوثانِ لأنَّها مصنوعةٌ وهم يجعلونها صانعاً.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه والسُّلَميُّ وعونٌ العقيليُّ وعبادةُ وابن أبي ليلى وزيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «تَخَلَّقون» بفتح التاء والخاء واللَّامِ مشدَّدةً[1]. قال ابن مجاهد[2]: ورُويت عن ابن الزبير، وأصلُه: «تَتَخَلَّقُون» فحُذِفت إحدى التاءينِ، وهو من «تخلَّق» بمعنى «تكذَّب» وصيغةُ التكلُّف للمبالَغة. وزَعَم بعضُهم جوازَ أن يكون «تفعَّل» بمعنى «فَعَل».

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما أيضاً: «تُخَلِّقُون» من «خلَّق» بالتشديد[3]؛ للتكثير في الخلق بمعنى الكَذِب والافتراء.

وقرأ ابن الزبير وفُضيل بن زرقان[4]: «أَفِكاً» بفتح الهمزة وكسر الفاء، على أنَّه مصدرٌ كالكَذِب واللَّعِب، أو وصفٌ كالحَذِر وقَعَ صفةً لمصدرٍ مقدَّرٍ، أي: خَلْقاً أَفِكاً، أي: ذا أَفِك.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٤، والمحتسب ٢/ ١٦٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١١، والبحر ٧/ ١٤٥، والدر المصون ٩/ ١٤، والكلام من البحر، وجاء في المحرر والدر بدل: عبادة: قتادة، ولم يذكر في القراءات الشاذة والمحتسب.

(٢) كما في القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٤٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٠١، والبحر ٧/ ١٤٥.

(٤) كذا في البحر ٧/ ١٤٥، والدر المصون ٩/ ١٤، وفي المحتسب٢/ ١٦٠: فضَيل بن مرزوق، وهو أبو عبد الرحمن العنزي مولاهم، الكوفي الأغر، حدث عن عطية العوفي وغيره، توفي قبل سنة (١٧٠هـ). السير ٧/ ٣٤٢، ولم نقف على ترجمة فضيل بن زرقان. والقراءة في القراءات الشاذة ص١١٤ عن ابن الزبير وحده.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ بيانٌ لشرِّيَّةِ مَا يعبدونه من حيثُ إنه لا يكاد يُجْدِيهم نفعاً، و«رزقاً» يحتَمل أن يكونَ مصدراً مفعولاً به لـ «يملِكُون»، والمعنى: لا يستطيعون أنْ يرزقوكم شيئاً من الرزق، وأن يكون بمعنى المرزوق، أي: لا يستطيعون إيتاءَ شيء من الرزق، وجُوِّز على المصدرية أن يكون مفعولاً مطلقاً لـ «يملكون» من معناه، أو لِمَحْذوفٍ، والأصلُ: لا يملكون أن يرزقوكم رزقاً، وهو كما ترى. ونُكِّر ـ كما قال بعض الأجلَّةِ ـ للتحقيرِ والتقليل مبالغةً في النفي. وخُصَّ الرزقُ لمكانته من الخلق.

﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: كلَّه، على أنَّ تعريفَ الرزق للاستغراق. قال الطيبيُّ: هذا من المواضع التي ليست المعْرِفةُ المعادَةُ عينَ الأول فيها(١).

وجُوِّز أن تكونَ عينَ الأوَّل بناءً على أنَّ كلًّا منهما مستغرقٌ.

﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ عزَّ وجلَّ وحدَه ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ على نَعْمائِه مُتوسِّلين إلى مَطالِبِكم بعبادته، مُقيِّدين بشكره تعالى للعتيد(٢)، ومُستَجْلِبِيْن به للمزيد. فالجملتان ناظرتان لِمَا قبلَهما.

وجُوِّز أن يكونا ناظرتين لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⑰﴾ كأنَّه قيل: استعدُّوا لِلقائه تعالى بالعبادة والشكر فإنَّه إليه تُرجَعون.

وجَوَّز بعضُ المحققين أن تكون هذه الجملةُ تذييلاً لجملةِ ما سَبَق مما حُكي عن إبراهيم عليه السلام، أو لأوَّلِه، والمعنى: إليه تعالى لا إلى غيره سبحانه تُرجعون بالموت ثمَّ بالبعث، فافْعلوا ما أمرتُكم به. وما بينهما اعتراضٌ لتقريرِ الشرِّية كما سمعتَ.

وقرئ: «تَرجعون» بفتح التاء من رجع رجوعاً(٣).

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ تقديره: فإنْ تصدِّقوني فقد فُزْتُم بسعادة الدارين، وإن تكذِّبوا، أي: تكذبوني فيما أخبرتكم به من أنكم إليه تعالى ترجعون

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) أي: الحاضر. القاموس (عتد).

(٣) هي قراءة يعقوب كما في النشر ٢/٢٠٨.

بالبعث ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ وهذا تعليلٌ للجواب في الحقيقة، والأصل: فلا تضرونني بتكذيبكم، فإنه قد كذَّب أممٌ قبلكم رسلَهم، وهم شيث وإدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام، فلمْ يضرَّهم تكذيبُهم شيئاً، وإنما ضرَّ أنفسَهم حيث تسبَّب لِمَا حلَّ بهم من العذاب، فكذا تكذيبكم إياي.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ أي: التبليغُ الذي لا يبقى معه شكٌّ، وما عليه أن يصدِّقه قومُه البتةَ، وقد خرجْتُ عن عهدة التبليغ بما لا مزيدَ عليه، فلا يضرُّني تكذيبُكم بعد ذلك أصلاً.

وهذه الآيةُ ـ أعني (وَإِن تُكَذِّبُوا) إلخ ـ على ما ذكرنا من جملة قصة إبراهيم عليه السلام، وكذا ما بعدُ ـ على ما قيل ـ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ [الآية: ٢٤]، وجوِّز أن يكون ذلك اعتراضاً بذِكْرِ شأن النبيِّ ﷺ وقريش، وهَدْمِ مذهبهم، والوعيدِ على سوء صنيعهم، توسَّط بين طرفي القصة من حيث إنَّ مساقها لتسلية رسول الله ﷺ، والتنفيسِ عنه بأنَّ أباه خليل الرحمن كان مبتلًى بنحوِ ما ابتُلي به من شِرْكِ القوم وتكذيبهم، وتشبيهِ حاله فيهم بحال إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فالواوُ في[1] «وإن تكذبوا» اعتراضية، والخطابُ منه تعالى أو من النبيِّ ﷺ على معنى: وقل لقريش: «إن تكذبوا» إلخ.

وذهب بعض المحققين[2] إلى أنَّ قوله تعالى: «إن تكذبوا» إلخ من كلام إبراهيم عليه السلام، وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ إلخ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ من جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله، والهمزةُ لإنكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها، والواوُ للعطف على مقدَّرٍ، أي: ألم ينظروا ولم يعلموا كيفيةَ خَلْقِ اللهِ تعالى الخَلْقَ ابتداءً من مادةٍ ومن غيرِ مادةٍ، أي: قد علموا ذلك.

وقرأ حمزة والكسائيُّ وأبو بكرٍ بخلاف عنه: «أَلَمْ تَرَوْا» بتاءِ الخطاب[3]، وهو على ما قال هذا البعضُ لتشديد الإنكار وتأكيدِه، ولا يحتاجُ عليه إلى تقديرِ قولٍ.

---

(١) في (م): قالوا: وفي، بدل: فالواو، في وهو تصحيف.
(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٧/ ٣٤-٣٥.
(٣) التيسير ص١٧٣، والنشر ٢/ ٣٤٣، وهي قراءة خلف من العشرة.

ومَن لم يجعل ذلك كلاماً مستأنفاً مسوقاً من جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث، قال: إنَّ الخطاب على تقديرِ القول، أي: قال لهم رسلهم: «ألم تروا». ووُجِّه ذلك بأنه جعل ضمير «أولم يروا» على قراءة الغيبة لـ «أمم» في قوله تعالى: ﴿أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فيجعل في قراءة الخطاب له أيضاً ليتَّحد معنى القراءتين، وحينئذ يحتاج لتقدير القول ليُحْكَى خطاب رسلهم معهم؛ إذ لا مجال للخطاب بدونه.

وقيل: إنَّ ذاك لأنه لا يجوز أن يكون الخطاب لمنكري الإعادة من أمة إبراهيم أو نبيِّنا عليهما الصلاة والسلام، وهم المخاطبون بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾؛ لأنَّ الاستفهام للإنكار، أي: قد رأوا، فلا يلائم قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا﴾ إلخ؛ لأنَّ المخاطبين فيها هم المخاطبون أوَّلاً، يعني إن كانت الرؤيةُ علميةً فالأمرُ بالسير والنظر لا يناسب لمن حَصَلَ له العلمُ بكيفية الخلق، والقولُ بأنَّ الأول دليلٌ أنفسيٌّ والثاني آفاقيٌّ مخالفٌ للظاهر من وجوه. اهـ، فتدبَّر.

ولعل الأظهر والأبعدَ عن القيل والقال في نظم الآيات ما نقلناه عن بعض المحققين.

وقرأ الزبيريُّ وعيسى وأبو عمرو بخلافٍ عنه: «كيف يبدا» على أنه مضارعُ بَدَأَ الثلاثيِّ، مع إبدال الهمزة ألفاً كما ذكره الهمدانيُّ(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ عطفٌ على «أولم يروا» لا على «يُبْدِئُ» لأنَّ الرؤية إن كانت بَصَريةً فهي واقعةٌ على الإبداء دون الإعادة، فلو عُطف عليه لم يصحَّ، وكذا إذا كانت عِلْميةً لأنَّ المقصود الاستدلالُ بما عَلموه من أحوال المبدأ على المعاد لإثباته، فلو كان معلوماً لهم كان تحصيلاً للحاصل. وجوَّز العطفُ عليه بتأويل الإعادة بإنشائه تعالى كلَّ سنةٍ مثلَ ما أنشاه سبحانه في السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما، فإنَّ ذلك مما يستدلُّ به على صحة البعث ووقوعِه - على ما قيل - من غير ريبٍ.

وعن مقاتل: أنَّ «الخلق» هنا الليلُ والنهار، وليس بشيء.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٩٦، وذكرها عن الزبيري وعيسى وأبي عمرو أبو حيان في البحر ٧/ ١٤٦، والسمين في الدر ٩/ ١٥، ولم يقيداها بإبدال الهمزة ألفاً، وذكرها مقيدة بذلك ابن جني في المحتسب ٢/ ١٦١ عن الزهري.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من الإعادة، وجوِّز أن يكون المشارُ إليه ما ذكر من الأمرين ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ١٩﴾ إذ لا يحتاج فعلُه تعالى إلى شيءٍ خارجٍ عن ذاته عزَّ وجل.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أمرٌ لإبراهيم عليه السلام أن يقول لقومه ذلك عند بعض المحقِّقين، وكذا جَعَله مَن جَعَلَ جميعَ ما تقدَّم من قصة إبراهيم عليه السلام، ومَن جعلَ قولَه تعالى: (وَإِن تُكَذِّبُوا۟) إلى قوله تعالى: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦ) اعتراضاً جَعَلَ هذا أمراً لنبيِّنا ﷺ أن يقول ذلك لقريش. وجوِّز أن يُجعل نَظْمُ الآيات السابقة على ما نُقل عن بعض المحققين، ويُجعل هذا أمراً للنبيِّ عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك لهم، فإنهم مثلُ قوم إبراهيم عليه السلام والأمم الذين من قبلهم في التكذيب بالبعث والإنكارِ له، وما في حيِّز هذا القول متضمِّنٌ ما يدلُّ على صحته، وعَدَمُ اتحادِه مع ما سبق لا يضرّ.

وأيًّا ما كان فإضافة الرحمة إلى ضمير المتكلِّم فيما يأتي إن شاء الله تعالى لِمَا أنَّ ذلك حكايةُ كلامِه عزَّ وجل على وجهه، ومثلُه في القرآن الكريم كثير.

والسَّير كما قال الراغب: المضيُّ في الأرض[1]. وعليه يكون في الآية تجريدٌ، والظاهر أن المراد به المضيُّ بالجسم، وجوِّز أن يراد به إجالةُ الفكر، وحُمل على ذلك فيما يُروَى في وصف الأنبياء عليهم السلام: أبدانُهم في الأرض سائرةٌ، وقلوبُهم في الملكوت جائلةٌ. ومنهم مَن حَمَلَ ذلك على الجدِّ في العبادة المتوصَّلِ بها إلى الثواب.

والمعنى على ما قلنا أوَّلاً: امضوا في الأرض وسِيحُوا فيها ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ﴾ الله تعالى ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ أي: كيف خَلَقهم ابتداءً على أطوارٍ مختلفةٍ وطبائعَ متغايرةٍ وأخلاقٍ شتَّى، فإنَّ ترتيب النظر على السير في الأرض مؤذِنٌ بتتبُّع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها، وعلى هذا تتغاير الكيفية في الآية السابقة والكيفيةُ في هذه الآية، لِمَا أنَّ الأولى ـ كما علمتَ ـ باعتبارِ المادَّةِ وعَدَمِها، وهذه باعتبارِ تغايُرِ الأحوال.

---

(١) مفردات الراغب (سار).

ولعل التعبير في الآية الأولى بالمضارع أعني «يُبْدئ»[1] دون الماضي كما هنا لاستحضار الصورة الماضية؛ لِمَا أنَّ بدء الخلق من مادةٍ وغيرها أغربُ من بدءِ الخلق على أطوارٍ مختلفةٍ، على معنى أنَّ خَلْقَ الأشياء أغربُ مِن جَعْلِ أطوارها مختلفةً.

وأنت إذا لاحظتَ أنَّ خَلْقَ الأشياء يعود في الآخرة إلى إيجادها من كتمِ العدمِ من غير سَبْقِ مادةٍ دفعاً للتسلسُل، وأنَّ جَعْلَ أطوارها مختلفةً إنما هو بعد سَبْقِ المادة ولو سَبْقاً ذاتيًّا وهو ما قام به الاختلافُ ـ أعني ذوات الأشياء ـ لا تَشُكُّ في أنَّ الأول أغربُ من الثاني، ولذا ترى التمدُّح بأصل الخلق في القرآن العظيم أكثرَ من التمدُّح بالجعل المذكور.

وقد وافق الصيغةَ في الإشعار بالغرابة بناءُ الفعل من باب الإفعال فإنه غيرُ مستعملٍ، ولذا قالوا: إنه مخلٌّ بالفصاحة لولا وقوعُه مع «يُعيد». ومما يَقْرُبُ من هذا السرِّ ما قيل في وجه حَذْفِ الياء من «يَسْرِ» في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر:٤] من أنَّ ذلك لأنَّ الليل يُسْرَى فيه لا يَسْري، أي: ليدلَّ مخالفةُ الظاهر في اللفظ على مخالفته في المعنى، وهو معنًى دقيقٌ.

وقيل: في وجه التعبير بما ذُكر إفادةُ الاستمرار التجدُّديِّ، وهو بناءً على المعنى الثاني في الآية.

وقال بعضهم في تغاير الدليلين: إنَّ هذا عينيٌّ وذلك علميٌّ، أو: هذا آفاقيٌّ والأولُ أنفسيٌّ.

وقرأ الزهريُّ: «كيف بَدَا الخلق» بتخفيف الهمزة بإبدالها ألفاً، ثم حَذْفِها في الوصل؛ قال أبو حيان: وهو تخفيفٌ غير قياسيٍّ كما قال:

فـارْعَـيْ فـزارةُ لا هَـنـاكِ الـمـرتَـعُ

وقياسُ تخفيفِ هذا التسهيل بين بين[2].

---

(١) في (م): يبدأ.

(٢) البحر ٧/١٤٦، والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/٤٠٨، وصدره:

ومـضـت لـمَـسْـلَـمـةَ الـركـابُ مُـودَّعـاً

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ أي: بعد النشأة الأولى التي شاهدتُموها. والنشأةُ: الإيجادُ والخَلْقُ، والتعبيرُ عن الإعادة التي هي محلُّ النزاع بالنشأة الآخرة المُشْعِرةِ بكون البدء نشأةً أُولى؛ للتنبيه على أنهما شأنٌ واحدٌ من شؤون الله تعالى حقيقةً واسماً، من حيث إنَّ كلًّا منهما اختراعٌ وإخراجٌ من العدم إلى الوجود، ولا فرقَ بينهما إلا بالأَوَّلية والأُخروية، كذا قيل.

والظاهر أنه مبنيٌّ على أنَّ الجسد يعدمُ بالكلِّية ثم يُعاد خَلْقاً جديداً، لا أنه تتفرَّقُ أجزاؤه ثم تُجمع بعد تفرُّقها. وإلى كلٍّ ذهب بعضٌ، والأدلةُ متعارضةٌ، والمسألةُ ـ كما قال ابنُ الهمام ـ عند المحقِّقين ظنِّيةٌ[(١)].

وفي كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» لحجة الإسلام الغزالي: فإن قيل: فما تقولون، أتُعدَمُ الجواهر والأعراض ثم تُعادان جميعاً، أو تُعدَمُ الأعراض دون الجواهر، وإنما تعاد الأعراض؟

قلنا: كلُّ ذلك ممكنٌ، ولكنْ ليس في الشرع دليلٌ قاطعٌ على تعيين أحد هذه الممكنات[(٢)]. انتهى.

وذهب ابن الهمام إلى أنَّ الحقَّ وقوعُ الكيفيتين: إعادةُ ما انعدم بعينه، وتأليفُ ما تفرَّق من الأجزاء[(٣)].

وقد يقال: إنَّ بدء الإنسان ونحوَه ليس اختراعاً محضاً وإخراجاً من كتم العدم إلى الوجود في الحقيقة؛ لِمَا أنه مخلوقٌ من التراب وسائرِ العناصر، والظاهرُ أنَّ فناءه ليس عبارةً عن صيرورته عدماً محضاً، بل هو عبارةٌ عن انحلاله إلى ما تركَّب منه، ورجوع كلِّ عنصرٍ إلى عنصره.

نعم لا شكَّ في فناء بعض الأعراض وانعدامِها بالكلِّية، وقد يُستثنى منه بعض الأجزاء فلا ينحلُّ إلى ما منه التركيبُ بل يبقى على ما كان عليه، وهو عَجْبُ

---

(١) المسايرة لكمال الدين محمد بن همام الدين المعروف بابن الهمام مع شرحه المسامرة لابن أبي شريف المقدسي ص٢١٩.
(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ص٢٠٠، والمسامرة ص٢١٩-٢٢٠.
(٣) المسامرة ص٢١٩.

الذَّنب[1]؛ لظاهر حديث الصحيحين: «ليس شيءٌ من الإنسان لا يَبْلَى إلَّا عظماً واحداً، وهو عَجْبُ الذَّنب، منه يركَّب الخلقُ يوم القيامة»[2] وتأويلُه بما أوَّله به ملَّا صَدْرا في أسفاره مما لا ينبغي أن يُلتفت إليه، وحينئذٍ فالإعادة تكون بتركيب ما انحلَّ من العناصر وضمِّه إلى هذا الجزء، فلا تكون اختراعاً محضاً وإخراجاً من كتم العدم إلى الوجود في الحقيقة، لكنْ لكلٍّ من البدء والإعادة شَبَهٌ تامٌّ بالاختراع والإخراج المذكور، وبه يصحُّ أن يقال لكلٍّ اختراعٍ وإخراجٍ من العدم إلى الوجود، فلا تغفل.

والجملة معطوفةٌ على جملة «سيروا في الأرض» داخلةٌ معها في حيِّز القول، ولا يضرُّ تَخالفُهما خبراً وإنشاءً، فإنه جائزٌ بعد القول وما له محلٌّ من الإعراب، ولا يصحُّ عطفُها على «بدأ الخلْقَ»؛ لأنها لا تصلح أن تكون موقعاً للنظر: أمَّا إن كان بمعنى الإبصار فظاهرٌ، وأمَّا إن كان بمعنى التفكُّر فلأنَّ التفكُّر في الدليل لا في النتيجة.

وإظهارُ الاسم الجليل وإيقاعُه مبتدأً مع إضماره في «بدأ» لإبراز مزيدِ الاعتناء ببيانِ تحقُّق الإعادة، بالإشارة إلى علَّة الحكم؛ فإنه الاسمُ الجامع لصفات الكمال ونعوتِ الجلال، وتكريرِ[3] الإسناد، وردٌّ ما تقدَّم على مقتضى الظاهر، فلا يحتاج للتوجيه، وكونُ المرادِ منه ليس إثباتَ الإعادة لمن أنكرها فلذا لم ينسج على هذا المنوال، غيرُ مسلَّم.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «النشاءة» بالمد[4]، وهما لغتان كالرأفة والرآفة، والقصرُ أشهر.

ومحلُّها النصبُ على أنها مصدرٌ مؤكِّدٌ لـ «ينشئ» بحذفِ الزوائد، والأصل:

---

(١) هو العظم الذي في أسفل الصلب عند العَجُز، يشبه في المحلِّ محلَّ أصلِ الذَّنَب عند ذوات الأربع. النهاية (عجب)، والمسامرة ص٢١٩.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٣٥)، وصحيح مسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو عند أحمد (٨١٨٠).

(٣) عطف على قوله: بالإشارة.

(٤) التيسير ص١٧٣، والنشر ٢/ ٣٤٣.

الإنشاءة، أو بحذف العامل، أي: يُنشِئُ فينْشؤون النشأة الآخرة، نحو: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ تعليلٌ لِمَا قبله بطريق التحقيق، فإنَّ مَن عَلِمَ قدرتَه عزَّ وجلَّ على جميع الممكنات التي من جملتها الإعادةُ، لا يتصوَّر أن يتردَّد في قدرته سبحانه عليها، ولا في وقوعها بعد ما أخبر به.

ثم اعْلَمْ أنَّ أكثر المنكرين للبعث لا يقولون باستحالته كجمع النقيضين، بل غايةُ ما عندهم استبعادُه، والردُّ على هؤلاء بهذه الآيات ونحوِها ظاهرٌ؛ لِمَا فيها مما يزيلُ الاستبعادَ من الإبداء الذي هو في الشاهد أشقُّ من الإعادة. ومنهم مَن يقول باستحالته عقلاً فلا يصلح متعلقاً للقدرة، وهؤلاء هم القائلون باستحالة إعادة المعدوم، والردُّ عليهم بعد تسليم أنَّ ما نحن فيه من إعادة المعدوم وليس من جمع المتفرِّق، بإبطال ما استدلُّوا به على الاستحالة، وقد تكفَّلتِ الكتب الكلامية بذلك، وأمَّا الردُّ عليهم بهذه الآيات ونحوها فلِمَا فيها من الإشارة إلى تزييف أدلَّة الاستحالة، فتدبَّر.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ لبيان ما بعد النشأة الآخرة، أي: يعذِّبُ بعد النشأة الآخرة مَن يشاء تعذيبَه، وهم المنكرون لها ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ رحمتَه وهم المقرُّون بها ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره ﴿تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ أي: تردُّون، والجملة تقريرٌ للإعادة وتوطئةٌ لِمَا بعده، وتقديمُ التعذيب لِمَا أنَّ الترهيب أنسبُ بالمقام من الترغيب.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ له تعالى عن إجراء حُكْمِه وقضائه عليكم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ أي: بالهرب في الأرض الفسيحة، أو الهبوطِ في مكانٍ بعيدِ الغور والعمق بحيث لا يوصلُ إليه فيها، ولا بالتحصُّن في السماء التي هي أفسحُ منها، أو التي هي أمنعُ لمن حلَّ فيها عن أن تناله أيدي الحوادث فيما ترون لو استطعتم الرقيَّ اليها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾ [الرحمن: ٣٣] أو البروجِ[١] والقلاع المرتفعة في جهتها على ما قيل، وهو خلافُ الظاهر.

---

(١) عطف على «السماء» في قوله: ولا بالتحصن في السماء.

وقال ابن زيد والفرَّاء: إنَّ «في السماء» صلةُ موصولٍ محذوفٍ هو مبتدأٌ محذوفُ الخبر، والتقدير: ولا مَن في السماء بمعجِزٍ[١]، والجملةُ معطوفةٌ على الجملة التي قبلها.

وضعِّف بأنَّ فيه حذفَ الموصول مع بقاءِ صلته، وهو لا يجوزُ عند البصريين إلا في الشعر، كقول حسان:

أَمَن يهجو رسولَ الله منكم ويمدحُه وينصرُه سواءُ[٢]

على ما هو الظاهرُ فيه، على أنَّ ابنَ مالكٍ اشتَرَطَ في جوازه عطفَ الموصول المحذوف على موصولٍ آخَرَ مذكورٍ كما في هذا البيت[٣].

وبأنَّ فيه حذفَ الخبر أيضاً مع عدم الحاجة إليه، ولهذا جعل بعضهم الموصول معطوفاً على «أنتم»، ولم يجعله مبتدأً محذوفَ الخبر ليكون العطفُ مِن عَطْفِ الجملة على الجملة.

وزعم بعضهم أن الموصول محذوفٌ في موضعين، وأنه مفعولٌ به لـ «معجزين»، وقال: التقدير: وما أنتم بمعجزين مَن في الأرض، أي: مِن الإنس والجنِّ، ولا مَن في السماء، أي: من الملائكة عليهم السلام، فكيف تُعجِزون الله عز وجل؟ ولا يخفى أنَّ هذا في غاية البعد، ولا ينبغي أن يخرَّج عليه كلام الله تعالى.

وقيل: ليس في الآية حذفٌ أصلاً، والسماء هي المُظِلَّةُ، إلَّا أنَّ «أنتم» خطابٌ لجميع العقلاء، فيدخل فيهم الملائكةُ، ويكون «السماء» بالنظر إليهم، و«الأرض» بالنظر إلى غيرهم من الإنس والجنِّ. وهو كما ترى.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يحرسُكم من بلاءٍ أرضيٍّ أو سماويٍّ ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ يدفعه عنكم.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥.

(٢) ديوان حسان ص٦٤. قال الشهاب في الحاشية ٧/ ٩٧: والتقدير: ومَن يمدحه، والحذف فيه ظاهر؛ لأنه لو عطف على صلةِ «مَن» الأولى، كان الهاجي والمادح شخصاً واحداً، ولا يصح الإخبار عنه بسواء لما فيه من مساواة الشيء لنفسه.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٩٧، وفي التسهيل لابن مالك ص٣٨: وقد يحذف ما عُلم من موصول غير الألف واللام.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالَّةِ على ذاته وصفاته وأفعاله، فيدخل فيها النشأةُ الأولى الدالَّةُ على صحة البعث والآيات الناطقة به دخولاً أوَّليًا، وتخْصيصُها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام. ﴿وَلِقَائِهِ﴾ الذي تنطق به تلك الآيات. ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه عزَّ وجل ﴿يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ أي: ييأسون منها يومَ القيامة، على أنه وعيدٌ، وإلا فالكافرُ لا يوصف باليأس في الدنيا لأنه لا رجاءَ له، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقُّق.

وجوِّز أن يكون المراد إظهارَ مباينةِ حالهم وحالِ المؤمنين؛ لأنَّ حال المؤمن الرجاءُ والخشية، وحال الكافر الاغترارُ واليأسُ، فهو لا يُخْطِرُ بباله رجاءً ولا خوفاً؛ إنْ أَخْطَر المخوفَ بباله كان حاله اليأسَ بدل الخوف، وإن أَخْطرَ المرجوَّ كان حاله الاغترارَ بدل الرجاء، فكأنه تنصيصٌ على كفرهم وتعريفٌ لحالهم.

وأن يكون الكلام على الاستعارة؛ شبِّهوا بالآيسين من الرحمة وهم الذين ماتوا على الكفر؛ لأنه ما دامت الحياة لا يتحقق اليأسُ من الرحمة لرجاءِ الإيمان، أو مَن قدِّر آيساً من الرحمة على الفرض، دلالةً على توغُّلهم في الكفر وعدمِ ارْعِوائهم.

وقرأ الذماريُّ وأبو جعفر: «يسوا» بغير همزٍ، بل بياءٍ بدل الهمزة[1].

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ في تكرير اسم الإشارة وتكريرِ الإسناد وتنكيرِ العذاب ووصفِه بالأليم من الدلالةِ على فظاعةِ حالهم ما لا يخفى، لكن قال الإمام: إنه تعالى أضاف الرحمة إلى نفسه عزَّ وجلَّ دون العذاب ليؤذِنَ بأنَّ رحمته جلَّ وعلا سبقت غضبه سبحانه[2]. وأنت تعلم أنَّ في الآية على هذا دلالةً على سوء حالهم أيضاً؛ لإفادتها أنهم حُرِموا تلك الرحمة العظيمة بما ارتكبوه من العظائم.

---

(١) البحر ٧/ ١٤٧.
(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ٥٠.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بالنصب على أنه خبرُ «كان»، واسمُها قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وقرأ الحسن وسالمٌ الأفطسُ بالرفع على العكس(١)، وقد مرَّ ما فيه في نظائره.

والمرادُ بالقتل ما كان بسيفٍ ونحوِه فتظهرُ مقابلةُ الإحراق له، ولا حاجةَ إلى جَعْلِ «أو» بمعنى «بل». والآمرون بذلك إمَّا بعضُهم لبعضٍ، أو كبراؤهم قالوا لأتباعهم: اقتلوه فتستريحوا منه عاجلاً، أو حرِّقوه بالنار، فإما أن يرجع إلى دينكم إذا مَضَّتْه(٢) النار، وإما أن يموت بها إن أصرَّ على قوله ودينه، وأيًّا ما كان ففيه إسنادُ ما للبعض إلى الكلِّ.

وجاء هنا الترديدُ بين قَتْلِه عليه السلام وإحراقه، فقد يكون ذلك من قائلَيْن: ناس أشاروا بالقتل وناس بالإحراق، وفي «اقترب»(٣): ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ [الآية:٦٨] اقتصروا على أحدِ الشيئين، وهو الذي فعلوه؛ رَمَوْه عليه السلام في النار ولم يقتلوه.

ثم إنه ليس المراد أنهم لم يَصْدُر عنهم بصدد الجواب عن حُجَجِه عليه السلام إلَّا هذه المقالةُ الشنيعةُ، كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم، بل إنَّ ذلك هو الذي استقرَّ عليه جوابُهم بعد اللُّتيَّا والتي في المرة الأخيرة، وإلا فقد صَدَرَ عنهم من الخرافات والأباطيلِ ما لا يُحصى.

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الفاءُ فصيحةٌ، أي: فألْقَوْه في النار فأنجاه الله تعالى منها بأنْ جَعَلها سبحانه عليه برداً وسلاماً حسبما بيِّن في مواضعَ أُخَرَ، وقد مرَّ بيانُ كيفية إلقائه عليه السلامُ فيها وإنجائه تعالى إياه منها، وكان ذلك في كُوثَى(٤) من سواد الكوفة. وكونُه في المكان المشهور اليوم من أرض الرُّهى(٥)، وعنده صورةُ المنجنيق وماءٌ فيه سمكٌ لا يُصطاد ولا يؤكل حرمةً له، لا أصلَ له.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٢، والبحر ٧/ ١٤٨.

(٢) أي: أحرقته. اللسان (مضض).

(٣) يعني سورة الأنبياء.

(٤) بضم الكاف، بلدة بالعراق ومحلةٌ بمكة، وكوثى العراق كوثيان: أحدهما كوثى الطريق، والآخر كوثى رَبَّى، وبها مولد إبراهيم عليه السلام، وبها طرح في النار. معجم البلدان ٤/ ٤٨٧.

(٥) بضم أوله، والمد، والقصر: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. معجم البلدان ٣/ ١٠٦.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنجائه عليه السلام منها ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ بينةً عجيبةً، وهي حِفْظُه تعالى إياه من حرِّها، وإخمادُها في زمان يسيرٍ، وإنشاءُ روضٍ في مكانها. وعن كعب: أنه لم يحترق بالنار إلا الحبلُ الذي أوثقوه عليه السلام به. ولولا وقوعُ اسم الإشارة في أثناء القصة لكان الأولى كونُه إشارةً إلى ما تضمَّنته.

﴿لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ خصَّهم بالذكر لأنهم المنتفعون بالفحص عنها، والتأمُّل فيها.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام مخاطباً لهم بعد أن أنجاه الله تعالى من النار: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي: لتتوادُّوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها، واتِّفاقكم عليها وائتلافِكم كما يتَّفقُ الناس على مذهبٍ فيكون ذلك سببَ تحابِّهم وتَصَادُقِهم، فالمفعولُ له غايةٌ مترتِّبةٌ على الفعل، ومعلولٌ له في الخارج.

أو المعنى: إنَّ مودة بعضكم بعضاً هي التي دعتكم إلى اتِّخاذها، بأنْ رأيتُم بعضَ مَن تَوَدُّونه اتَّخذها، فاتَّخذتُموها موافَقةً له لمودَّتكم إياه، وهذا كما يَرى الإنسان مَن يَوَدُّه يفعلُ شيئاً فيفعلُه مودَّةً له، فالمفعولُ له على هذا علَّةٌ باعثةٌ على الفعل، وليس معلولاً له في الخارج، والمراد نفي أن يكون فيها نفعٌ أو ضرٌّ، وأنَّ الداعي لاتخاذها رجاءُ النفع أو خوفُ الضرِّ، وكأنه لم يعتبر ما جعلوه علَّةً لاتِّخاذها علةً، وهو ما أشاروا إليه في قولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] للإشارة إلى أنَّ ذلك لكونه أمراً موهوماً لا حقيقةَ له مما لا ينبغي أن يكون علةً باعثةً وسبباً حاملاً لمن له أدنى عقل.

وقال بعضهم: يجوز أن يكون المخاطبون في هذه الآية أناساً مخصوصين، والقائلون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ أناساً غيرهم.

وقيل: إنَّ الأوثان أولُ ما اتُّخذت بسبب المودَّة، وذلك أنه كان أناسٌ صالحون فماتوا وأسف عليهم أهلُ زمانهم، فصوَّروا أحجاراً بصُوَرِهم حبًّا لهم، فكانوا يعظِّمونها في الجملة، ولم يَزَلْ تعظيمُها يزداد جيلاً فجيلاً حتى عُبدت، فالآيةُ إشارةٌ إلى ذلك، والمعنى: إنما اتَّخذ أسلافُكم من دون الله أوثاناً.. إلخ، ومثلُه في القرآن الكريم كثيرٌ.

وثاني مفعولَي «اتخذتم» محذوفٌ تقديره: آلهةً. وقال مكي: يجوز أن يكون «اتَّخذ» متعدِّياً إلى مفعولٍ واحدٍ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ﴾[1] [الأعراف:١٥٢]. ورُدَّ بأنه مما حُذف مفعولُه الثاني أيضاً.

وجوِّز أن يكون «مودة» هو المفعول الثاني بتقديرِ مضافٍ، أي: ذاتَ مودَّةٍ، وكونُها ذاتَ مودَّةٍ باعتبارِ كونها سببَ المودَّة. وظاهرُ كلام «الكشاف»[2] أنَّ المضاف المحذوفَ هو لفظ «سبب»، وقد يُستغنَى عن التقدير بتأويلِ «مودة» بمودودة، أو بجعلها نفسَ المودَّة مبالغةً.

واعتُرض جَعْلُ «مودة» المفعولَ الثانيَ بأنه مَعْرفةٌ بالإضافةِ إلى المضافِ إلى الضمير، والمفعولُ الأولُ نكرةٌ، وذلك غيرُ جائزٍ لأنهما في الأصل مبتدأ وخبر.

وأجيب بأنه لا يلزمُ من غير جوازِ ذلك في أصلهما عدمُ جوازه فيهما، وإذا سُلِّم اللزوم فلا يُسلَّمُ كون المفعول الثاني هنا مَعْرفةً بالإضافة؛ لما أنَها على الاتِّساع، فهي من قبيل الإضافة اللفظية التي لا تفيدُ تعريفاً وإنما تفيدُ تخفيفاً في اللفظ، كذا قيل، وهو كما ترى.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر: «مودَّةً» بالنصب والتنوين «بينَكم» بالنصب[3]، والوجهُ أنَّ «مودةً» منصوبٌ على أحد الوجهين السابقين، و«بينكم» منصوبٌ به، أو بمحذوفٍ وقع صفةً له.

وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس: «مودَّةُ بينِكم» برفع «مودَّة» مضافة إلى «بين»، وخَفْضِ «بين» بالإضافة، وخرِّج الرفع على أنَّ «مودة» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هي مودَّةُ، على أحد التأويلات المعروفة، والجملةُ صفةُ «أوثاناً»، وجوِّز كونُها المفعولَ الثاني.

أو على أنها خبرُ «إنَّ» على أنَّ «ما» مصدريةٌ، أي: إن اتِّخاذَكم، أو موصولةٌ

---

(١) مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٢/ ٥٥٣.
(٢) ٣/ ٢٠٣.
(٣) التيسير ص١٧٣، والنشر ٢/ ٣٤٣، وهي قراءة أبي جعفر وخلف من العشرة.

قد حُذف عائدُها وهو المفعولُ الأول، أي: إنَّ الذي اتَّخذْتُموه من دون الله أوثاناً مودةُ بينِكم، ويجري فيه التأويلاتُ التي أشرنا إليها.

وقرأ الحسنُ وأبو حيوةَ وابن أبي عبلة، وأبو عمرو في رواية الأصمعيِّ، والأعشى عن أبي بكر: «مودةٌ» بالرفع والتنوين، «بينَكم» بالنصب[(١)]، ووجهُ كلٍّ معلومٌ مما مرَّ.

وروي عن عاصم: «مودةُ» بالرفع من غير تنوينٍ، و«بينَكم» بفتح النون[(٢)]، جَعَله مبنيًّا لإضافته إلى لازمِ البناءِ، فمحلُّه الجرُّ بإضافة «مودةُ» إليه، ولذا سقط التنوينُ منها.

وفي قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ على هذه القراءات والأوُجهِ فيها أوجهٌ من الإعراب ذكرها أبو البقاء[(٣)]:

الأول: أن يتعلَّق بـ «اتَّخذتم» على جَعْلِ «ما» كافةً ونَصْبِ «مودة»، لا على جَعْلِها موصولةً أو مصدريةً ورَفْعِ «مودة»، لئلا يؤدِّي إلى الفصل بين الموصول وما في حيِّز الصلة بالخبر.

الثاني: أن يتعلَّق بنفس «مودة» إذا لم يُجعل «بين» صفةً لها، بناءً على أنَّ المصدر إذا وُصف لا يعمل مطلقاً، وأجاز ابنُ عطية[(٤)] هذا التعلُّق وإن جُعل «بين» صفةً؛ لِمَا أنه يُتَّسَعُ بالظرف مالم يُتَّسَعْ في غيره، فيجوزُ عملُ المصدر به بعد الوصف.

الثالث: أن يتعلَّق بنفس «بينكم»؛ لأن معناه: اجتماعكم أو وصلكم.

الرابع: أن يجعل حالاً من «بينكم» لتعرُّفه بالإضافة.

وتعقَّب أبو حيان هذين الوجهين بعد نَقْلِهما عن أبي البقاء كما ذكرنا بأنهما إعرابان لا يتعقَّلان[(٥)].

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٥، والبحر ٧/ ١٤٨.
(٢) البحر ٧/ ١٤٨.
(٣) في الإملاء ٤/ ١٦٤-١٦٥.
(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣.
(٥) البحر ٧/ ١٤٩.

الخامس: أن يُجعل صفةً ثانيةً لـ «مودة» إذا نوِّنت، وجُعل «بينكم» صفةً لها، وأجاز ذلك مكِّي وأبو حيان أيضاً[١].

السادس: أن يتعلَّق بـ «مودة»، ويجعل «بينكم» ظرفاً متعلِّقاً بها أيضاً، وعَمِلَ «مودة» في ظرفين لاختلافهما.

السابع: أن يجعل حالاً من الضمير في «بينكم» إذا جُعل وصفاً لـ «مودةً»، والعاملُ الظرفُ لأنَّ العامل في ذي الحال هو العامل في الحال، ولا يجوز أن يكون العامل «مودة» لذلك. وقال مكي: لأنك قد وَصَفْتها، ومعمولُ المصدر متصلٌ به فتكون قد فرَّقْتَ بين الصلة والموصول بالصفة[٢].

وعن ابن مسعود أنه قرأ: «إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً إنما مودةُ بينِكم في الحياة الدنيا» بزيادة «إنما» بعد «أوثاناً» ورَفْع «مودة» بلا تنوينٍ وجرِّ «بين» بالإضافة[٣]، وخرِّجت على أنَّ «مودة» مبتدأ، و«في الحياة الدنيا» خبره، والمعنى: إنما تَوَادُّكم عليها أو مودَّتُكم إياها كائنٌ أو كائنةٌ في الحياة الدنيا.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يتبدَّل الحال حيث ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم﴾ وهم العَبَدَةُ ﴿بِبَعْضٍ﴾ وهم الأوثان ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يلعنُ كلُّ فريقٍ منكم ومن الأوثان ـ حيث ينطقُها الله تعالى ـ الفريقَ الآخر، وفيه تغليبُ الخطاب وضمير العقلاء.

وجوِّز أن يكون الخطاب للعَبَدةِ لا غير، والمراد بكفْرِ بعضِهم ببعضٍ التناكُرُ، أي: ثم يومَ القيامة يظهر التناكُرُ والتلاعُنُ بينكم أيتها العَبَدةُ للأوثان.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: هي منزلكم الذي تأوون إليه ولا ترجعون منه أبداً ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يخلِّصونكم منها كما خلَّصني ربِّي من النار التي

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٥٥، والبحر ٧/ ١٤٨.
(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٥٤.
(٣) القراءات الشاذة ص١١٥، والكشاف ٣/ ٢٠٣. قال أبو حيان في البحر ٧/ ١٤٨: وذكروا عن ابن مسعود قراءة شاذة تخالف سواد المصحف، مع أنه قد روي عنه ما في سواد المصحف بالنقل الصحيح المستفيض، فلذلك لم أذكر تلك القراءة.

ألقيتُموني فيها. وجَمْعُ الناصرين لوقوعه في مقابلة الجمع، أي: ما لأحدٍ منكم من ناصرٍ أصلاً.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ أي: صدَّقه عليه السلام في جميع مقالاته، أو بنبوَّته حين ادَّعاها، لا أنه صدَّقه فيما دعا إليه من التوحيد ولم يكن كذلك قبلُ؛ فإنه عليه السلام كان متنزِّهاً عن الكفر.

وما قيل: إنه آمن له عليه السلام حين رأى النار لم تُحرقه، ضعيفٌ روايةً وكذا درايةً؛ لأنه بظاهره يقتضي عدم إيمانه قبلُ وهو غيرُ لائقٍ به عليه السلام.

وحَمَله بعضُهم على نحو ما ذكرنا، أو على أن يراد بالإيمان الرتبةُ العالية منها، وهي التي لا يرتقي إليها إلا الأفراد.

ولوط على ما في «جامع الأصول»[١] ابن أخيه هاران بن تارح، وذكر بعضُهم أنه ابنُ أخته بالتاء الفوقية.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام، كما ذهب إليه قتادة والنخعيُّ. وقيل: الضمير للوط عليه السلام، وليس بشيء؛ لِمَا يلزمُ عليه من التفكيك.

والجملة استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا كان منه عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ أي: من قومي ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: إلى الجهة التي أمرني ربِّي بالهجرة إليها. وقيل: إلى حيث لا أُمنع عبادةَ ربِّي.

وقيل: المعنى: مهاجر مَن خالفني من قومي متقرِّباً إلى ربِّي.

﴿إِنَّهُۥ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ على أمره، فيمنعني من أعدائي ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ الذي لا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمةٌ ومصلحةٌ، فلا يأمرني إلا بما فيه صلاحي.

روي أنه عليه السلام هاجر من كوثى من سواد الكوفة مع لوط[٢] وسارةَ ابنةِ عمِّه إلى حرَّان، ثم منها إلى الشام، فنزل قريةً من أرض فلسطين، ونزل لوط

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٩٨.
(٢) في (م): لوطاً، وهو تصحيف.

سذوم[1] وهي المؤتفكةُ على مسيرة يومٍ وليلةٍ من قرية إبراهيم عليهما السلام، وكان عمره إذ ذاك على ما في «الكشاف» و«البحر» خمساً وسبعين سنة[2]، وهو أولُ مَن هاجر في الله تعالى.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولداً ونافلةً حين أيس من عجوزٍ عاقر. والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلُ، ولا حاجةَ إلى عَطْفِها على مقدَّرٍ ك: أصلحنا أَمْرَه، ولم يذكر سبحانه إسماعيلَ عليه السلام، قيل: لأنَّ المقام مقامُ الامتنان وذِكْرِ الإحسان، وذلك بإسحاق ويعقوب لِمَا أشرنا إليه، بخلاف إسماعيل.

وقيل: لأنه لا يناسبُ ذِكْره ها هنا؛ لأنه ابتُلي بفراقه ووَضْعِه بمكة مع أمه دون أنيس.

وقال الزمخشريُّ: إنه عليه السلام ذُكر ضمناً وتلويحاً بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ ولم يصرِّح به لشهرة أمره وعلوِّ قدره[3]. هذا مع أنَّ المخاطب نبيُّنا ﷺ، وهو من أولاده وأَعْلَمُ به.

والمراد بـ «الكتاب»: جنسُه المتناولُ للكتب الأربعة.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ على ما عَمِلَ لنا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ قال مجاهد: بإنجائه من النار ومن الملكِ الجبار، والثناءِ الحسنِ عليه بحيث يتولَّاه كلُّ أمةٍ. وضمَّ إلى ذلك ابنُ جريجٍ الولدَ الذي قرَّتْ به عينُه. وقد يُضَمُّ إلى ذلك أيضاً استمرارُ النبوَّةِ في ذريته.

وقال السدِّي: إنَّ ذلك إراءتُه عليه السلام مكانَه من الجنة.

وقال بعضهم: هو التوفيقُ لعمل الآخرة.

وقيل: هو الصلاة عليه إلى آخر الدهر.

---

(١) في الأصل: سدوم. قال الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٧٤: سدوم مدينة من مدائن قوم لوط، كان قاضيها يقال له: سدوم، وقال أبو حاتم في كتاب المزال والمُفْسَد: إنما هو سذوم بالذال، والدال خطأ، قال الأزهري: وهذا عندي هو الصحيح.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٤، والبحر ٧/ ١٤٩.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٠٤.

وقال الماورديُّ: هو بقاءُ ضيافته عند قبره، وليس ذلك لنبيٍّ غيره[١].

ولا يخفى حالُ بعض هذه الأقوال.

وذكر بعضهم أنَّ المراد: آتيناه أجره بمقابلةِ هجرته إلينا، وعليه لا يصحُّ عَدُّ الإنجاء من النار من الأجر، بل يُعدُّ إعطاءُ الولد والذريةِ الطيبة، واستمرارُ النبوَّة فيهم، ونحو[٢] ذلك مما كان له عليه السلام بعد الهجرة من الأجر.

وعَطْفُ هذا وما بعده من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: لفي عداد الكاملين في الصلاح، من التعميم بعد التخصيص، كأنه لمَّا عدَّد ما أنعم به عليه من النعم الدينية والدنيوية قال سبحانه: وجمعنا له مع ما ذُكر خيرَ الدارين.

﴿وَلُوطًا﴾ عطفٌ على «إبراهيم» أو على «نوحاً»، والكلامُ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ كالذي في القصة السابقة: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفعلةَ البالغةَ في القبح، وقرأ الجمهور: «أئنكم» على الاستفهام الإنكاريِّ[٣].

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لكمال قبحِها، فإنَّ إجماع جميع أفراد العالمين على التحاشي عنها ليس إلا لكونها مما تشمئزُّ منه الطباع السليمةُ، وتنفرُ منه النفوس الكريمة.

وجوَّز أبو حيان كون الجملة حالاً من ضمير «تأتون»، كأنه قيل: إنكم لتأتون الفاحشةَ مبتدعين لها غيرَ مسبوقين بها[٤].

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أي: تنكحونهم ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: وتقطعون الطريق بسبب تكليف الغرباء والمارَّة تلك الفعلة القبيحة، وإتيانهم كرهاً، أو: وتقطعون سبيل النسل بالإعراض عن الحرث وإتيانِ ما ليس بحرثٍ.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨١، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٤٩.
(٢) في (م): ونحوه، وهو تصحيف.
(٣) هي قراءة حمزة والكسائي وأبي عمرو وشعبة، وكلٌّ على أصله في التحقيق والتسهيل والإدخال. التيسير ص١٧٣، والبدور الزاهرة ص٢٤٥.
(٤) البحر ٧/ ١٤٩.

وقيل: تقطعون الطريق بالقتل وأخذ المال.

وقيل: تقطعونه بقبح الأحدوثة.

﴿وَتَأْتُونَ﴾ أي: تفعلون ﴿فِي نَادِيكُمُ﴾ أي: في مجلسكم الذي تجتمعون فيه، وهو اسمُ جنسٍ إذ أنديتهم في مجالسهم كثيرة، ولا يسمَّى نادياً إلا إذا كان فيه أهله، فإذا قاموا عنه لم يطلق عليه ناد.

﴿الْمُنكَرَ﴾ أخرج أحمد، والترمذيُّ وحسَّنه، والحاكم وصحَّحه، والطبرانيُّ، والبيهقي في «الشعب» وغيرُهم عن أمِّ هانئ بنت أبي طالب قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ) فقال: «كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم»[(١)].

وعن مجاهد ومنصور والقاسم بن محمد وقتادةَ وابن زيد: هو إتيانُ الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً.

وعن مجاهد أيضاً: هو لعب الحمام؛ وتطريفُ الأصابع بالحنَّاء، والصفير، والخذف، ونبذُ الحياء في جميع أمورهم.

وعن ابن عباس: هو تضارُطهم وتصافُعهم فيها. وفي روايةٍ أخرى عنه: هو الخذفُ بالحصى، والرميُ بالبنادق، والفرقعة، ومضغُ العلك، والسواكُ بين الناس، وحلُّ الإزار، والسُّبابُ، والفُحْشُ في المزاح.

ولم يأتِ في قصة لوط عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى كما جاء في قصة إبراهيم، وكذا في قصة شعيب الآتية، لأنَّ لوطاً كان من قوم إبراهيم وفي زمانه، وقد سبقه إلى الدعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده، واشتهر أمرُه عند الخلق، فذكر لوط عليه السلام ما اختصَّ به من المنع من الفاحشة وغيرها، وأمَّا إبراهيمُ وشعيبٌ عليهما السلام فجاءا بعد انقراضِ مَن كان يعبد الله عز وجل ويدعو إليه سبحانه، فلذلك دعا كلٌّ منهما قومَه إلى عبادته تعالى، كذا في «البحر»[(٢)].

---

(١) مسند أحمد (٢٦٨٩١)، وسنن الترمذي (٣١٩٠)، والمعجم الكبير ٢٤/ (١٠٠٠)، والمستدرك ٢/ ٤٠٩، والشعب (٦٧٥٥)، وفي إسناده أبو صالح مولى أم هانئ، وهو ضعيف.

(٢) ٧/ ١٤٩.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: فيما تَعِدُنا [به] من نزول العذاب، على ما في «الكشاف»(١) وغيره، وهذا ظاهرٌ في أنه عليه السلام كان أَوْعَدَهم بالعذاب.

وقيل: أي: في دعوى استحقاقنا العذابَ على ما نحن عليه، المفهومةِ من التوبيخ المعلومِ من الاستفهام الإنكاريِّ.

وقيل: أي: في دعوى استقباحِ ذلك، الناطقِ بها كلامُك.

وهذا الجوابُ صَدَرَ عنهم في المرة الأولى من مرَّات مواعظِ لوطٍ عليه السلام، وما في سورة الأعراف المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية [الأعراف:٨٢] وما في سورة النمل المذكورُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية [النمل:٥٦] فقد صدر عنهم بعد هذه المرة، فلا منافاةَ بين الحصر هنا والحصر هناك؛ قاله أبو حيان وتبعه أبو السعود(٢).

وتعقِّب بأنَّ التعيينَ يحتاج إلى توقيفٍ.

وأجيب بأنَّ مضموني الجوابين يُشْعِران بالتقدُّم والتأخُّر، وذلك أنَّ «ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين» من باب التكذيب والسخرية، وهو أوفقُ بأوائل المواعظ والتوبيخات، و«أخرجوهم من قريتكم» ونحوُه من باب التعذيب والانتقام، وهو أنسبُ بأن يكون بعد تكرُّر الوعظ والتوبيخِ الموجب لضجرهم ومزيدِ تألُّمهم مع قدرتهم على التشفِّي، وهذا القَدْرُ يكفي لدعوى التقدُّم والتأخُّر.

وقيل في دفع المنافاة بين الحصرين: إنَّ ما هنا جوابُ قومه عليه السلام له إذ نصحهم، وما هناك جوابُ بعضهم لبعضٍ إذ تشاوروا في أمره.

وقيل: إنَّ أحد الجوابين صدر عن كبار قومه وأمرائهم، والآخر صدر عن غيرهم.

---

(١) ٣/ ٢٠٤، وما بين حاصرتين منه.
(٢) البحر ٧/ ١٥٠، وتفسير أبي السعود ٧/ ٣٨.

وظاهرُ صنيع بعض الأجلَّة يقتضي اختيارَ أن يكون كلٌّ من الحصرين بالإضافة إلى الجواب الذي يرجوه عليه السلام في متابعته، فتأمَّل.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ أي: بإنزالِ العذابِ الموعود ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾ بابتداع الفاحشة وسَنِّها فيما بعدهم، والإصرارِ عليها، واستعجالِ العذاب بطريق السخرية. وإنما وَصَفَهم بذلك مبالغةً في استنزال العذاب.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي: بالبشارة بالولد والنافلة ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: لإبراهيم عليه السلام في تضاعيف الكلام: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ أي: قريةِ سذوم، وهي أكبرُ قرى قوم لوطٍ، وفيها نشأتِ الفاحشةُ أولاً على ما قيل، ولذا خُصَّت بالذِّكر، وفي الإشارة بـ «هذه» إشارةٌ إلى أنها كانت قريبةً من محلِّ إبراهيم عليه السلام، وإضافةُ «مهلكو» إلى «أهل» لفظيةٌ؛ لأنَّ المعنى على الاستقبال، وجوِّز كونُها معنويةً لتنزيل ذلك منزلةَ الماضي؛ لقَصْدِ التحقيق والمبالغة.

﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾ تعليلٌ للإهلاك بإصرارهم على الظلم، وتماديهم في فنون الفساد وأنواعِ المعاصي. والتأكيدُ في الموضعين للاعتناء بشأن الخبر.

وقال سبحانه: (إِنَّ أَهۡلَهَا) دون: إنهم، مع أنه أظهرُ وأخصرُ تنصيصاً على اتِّفاقهم على الفساد كما اختاره الخفاجيُّ[1].

وقال بعض المدقِّقين: إنَّ ذلك للدلالة على أنَّ منشأ فساد جِبِلَّتهم خبثُ طينتهم، ففيه إشارةٌ خَفِيَّةٌ إلى أنَّ المراد من أهل القرية مَن نشأ فيها، فلا يتناول لوطاً عليه السلام.

واعترض بأنه يَبْعدُ كلَّ البعد خفاؤها ـ لو كانت ـ على إبراهيم عليه السلام كما هو ظاهرُ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾.

وقيل: يجوزُ أن يكون عليه السلام علم ما أشاروا إليه من عدم تناوُلِ أهل القرية إياه لكنه أراد التنصيصَ على حاله ليطمئنَّ قلبه؛ لكمال شفقته عليه.

---

(١) في الحاشية ٧/ ٩٩.

وقيل: أراد أن يعلم: هل يبقى في القرية عند إهلاكهم، أو يخرجُ منها ثم يهلكون؟ وكأنَّ في قوله: «إن فيها» دون: إنَّ منهم، إشارةً إلى ذلك.

وأفهمَ كلامُ بعض المحققين أنَّ قوله: «إنَّ فيها لوطاً» اعتراضٌ على الرسل عليهم السلام بأنَّ في القرية مَن لم يَظلم، بناءً على أنَّ المتبادر من إضافة الأهل إليها العمومُ، وحَمَلَ الأهل على مَن سكن فيها وإن لم يكن تولُّده بها، أو معارضةٌ للموجِبِ للهلاك ـ وهو الظلم ـ بالمانع وهو أنَّ لوطاً بين ظهرانيهم وهو لم يتَّصف بصفتهم، وأنَّ جواب الرسل المحكيَّ بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ تسليمٌ لقوله عليه السلام في لوطٍ مع ادِّعاء مزيدِ العلم به باعتبارِ الكيفية، وأنهم ما كانوا غافلين عنه، وجوابٌ عنه بتخصيص الأهل بمن عَدَاه وأهلَه على الاعتراض، أو بيانِ وقت إهلاكهم بوقتٍ لا يكون لوطٌ وأهلُه بين ظهرانيهم على المعارضة. وفيه ما يدل على جواز تأخير البيان عن الخطاب في الجملة[1].

والذي يغلبُ على الظنِّ أنهم أرادوا بأهل القرية مَن نشأ بها على ما هو المتعارف، فلا يكون لوطٌ عليه السلام داخلاً في الأهل، ويؤيِّد ذلك تأييداً مّا قولُ قومه: «أَخْرِجوا آلَ لوطٍ من قريتكم» وفَهِمَ إبراهيم عليه السلام ما أرادوه، وعَلِمَ أنَّ لوطاً ليس من المهلَكين، إلا أنه خشي أن يكون هلاكُ قومه وهو بين ظهرانيهم في القرية، فيوحشُه ذلك ويُفْزِعُه. ولعله عليه السلام غَلَبَ على ظنِّه ذلك، حيث لم يتعرَّضوا لإخراجه من قرية المهلَكين مع علمهم بقرابته منه ومزيدِ شفقته عليه، فقال: «إنَّ فيها لوطاً» على سبيل التحزُّن والتفجُّع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] وجلُّ قَصْدِه أن لا يكون فيها حين الإهلاك، فأخبروه أولاً بمزيد عِلْمِهم به، وأفادوه ثانياً بما يَسُرُّه ويُسْكِنُ جأشه، نظير ما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] وأكَّدوا الوعد بالتنجية إما للإشارة إلى مزيد اعتنائهم بشأنه، وإما لتنزيلهم إبراهيم عليه السلام منزلةَ مَن ينكر تنجيتَه لِمَا شاهدوا منه في حقِّه، وتُحمل التنجيةُ على إخراجه من بين القوم وفَصْلِه عنهم وحِفْظِه مما يصيبهم، فإنها بهذا المعنى الفرد الأكمل.

---

(١) لأنهم قالوا: «إنا مهلكو أهل هذه القرية» من غير بيان للمراد من الأهل، أهو الجميع، أو مَن عدا لوطاً وأهله؟ ثم بيَّنوه بعد ذلك. حاشية الشهاب ٧/ ١٠٠.

ويلائم هذا ما قيل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: من الباقين في القرية، وهو أحدُ تفسيرين، ثانيهما ما روي عن قتادة وهو تفسير «الغابرين» بالباقين في العذاب، فتأمَّل فكلام الله تعالى ذو وجوه.

وفسِّر الأهل هنا بأتباع لوطٍ عليه السلام المؤمنين، وجملة «كانت من الغابرين» مستأنفةٌ، وقد مرَّ الكلام في ذلك، وكذا في الاستثناء فارْجع إليه.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ المذكورون بعد مفارقتهم إبراهيم عليه السلام ﴿لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أي: اعتراه المساءةُ والغمُّ بسبب الرسل مخافةَ أن يتعرَّض لهم قومُه بسوءٍ كما هو عادتهم مع الغرباء، وقد جاؤوا إليه عليه السلام بصورٍ حسنةٍ إنسانية.

وقيل: ضمير «بهم» للقوم، أي: سيء بقومه لِمَا علم من عظيم البلاء النازل بهم، وكذا ضمير «بهم» الآتي. وليس بشيء.

و«أنْ» مزيدةٌ لتأكيد الكلام التي زيدتْ فيه، فتؤكِّد الفعلين واتصالهما المستفاد من «لمَّا» حتى كأنهما وجدا في جزءٍ واحد من الزمان، فكأنه قيل: لما أحسَّ بمجيئهم فاجَأتْه المساءةُ من غيرِ ريثٍ. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: وضاق بشأنهم وتدبيرِ أمرهم ذَرْعُه، أي: طاقتُه، كقولهم: ضاقت يده، ويقابلُه: رَحُبَ ذَرْعُه بكذا، إذا كان مطيقاً له قادراً عليه، وذلك أنَّ طويل الذراع ينالُ ما لا يناله قصير الذراع.

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ عطفٌ على «سيء»، وجوِّز أن يكون عطفاً على مقدَّرٍ، أي: قالوا: إنَّا رسلُ ربِّك وقالوا.. إلخ، وأيًّا ما كان فالقولُ كان بعد أن شاهدوا فيه مخايل التضجُّر من جهتهم، وعاينوا أنه عليه السلام قد عجز عن مدافعة قومه حتى آلتْ به الحال إلى أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

والخوفُ للمتوقَّع والحزنُ للواقع في الأكثر، وعليه فالمعنى: لا تخف من تمكُّنهم منَّا ولا تحزن على قَصْدِهم إيانا وعدمِ اكترائهم بك، ونَهْيُهم عن الخوف من التمكُّن إن كان قبل إعلامهم إياه أنهم رسل الله تعالى فظاهر، وإن كان بعد الإعلام فهو لتأنيسه وتأكيدِ ما أخبروه به.

وقال الطبرسيُّ: المعنى: لا تخف علينا وعليك، ولا تحزن بما نفعله بقومك[١].

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ فلا يصيبكم ما يصيبهم من العذاب ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ إنها ﴿كَانَتْ﴾ في علم الله تعالى ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٣﴾.

وقرأ حمزة والكسائيُّ ويعقوب: «لَنُنْجِيَنَّه» و«مُنْجُوك» بالتخفيف من الإنجاء[٢]، ووافقهم ابنُ كثير في الثاني[٣]. وقرأ الجمهور بشدِّ نون التوكيد، وفرقةٌ بتخفيفها[٤].

وأيًّا ما كان فمحلُّ الكاف من «منجوك» الجرُّ بالإضافة، ولذا حُذفت النون عند سيبويه[٥]، و«أهلك» منصوبٌ على إضمار فعلٍ، أي: وننجِّي أهلك.

وذهب الأخفش وهشام إلى أنَّ الكاف في محلِّ النصب، و«أهلك» معطوفٌ عليه، وحُذفت النون لشدَّة طلب الضمير الاتِّصال بما قبله للإضافة.

وقال بعض الأجلَّة: لا مانع من أن يكون لمثل هذا الكاف محلَّان: الجرُّ والنصبُ، ويجوزُ العطف عليها بالاعتبارين.

وقرأ نافع وابن كثير والكسائي: «سيء» بإشمام السينِ الضمَّ[٦]. وقرأ عيسى وطلحة: «سُوْءَ» بضمِّها، وهي لغةُ بني هذيل وبني وبير[٧]، يقولون في نحو قيل وبيع: قولَ وبوعَ، وعليه قولُه:

حُوكَتْ على نَوْلَيْنِ إذ تُحاكُ تختبطُ الشوكَ ولا تُشاكُ[٨]

---

(١) لم نقف عليه في مجمع البيان.
(٢) التيسير ص١٧٣، والنشر ٢/ ٢٥٩، وهي قراءة خلف أيضاً.
(٣) وكذلك قرأ عاصم من رواية شعبة. التيسير ص١٧٣، والنشر ٢/ ٢٥٩.
(٤) البحر ٧/ ١٥٠.
(٥) الكتاب ١/ ١٦٥-١٦٦.
(٦) القراءة عن نافع والكسائي في التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٠٨، وهي خلاف المشهور عن ابن كثير، وقرأ بها أيضاً ابن عامر وأبو جعفر ورويس.
(٧) في (م): دبير، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في البحر ٧/ ١٥١، والكلام منه.
(٨) الرجز في اللسان (خبط)، واللباب لابن عادل ١/ ٣٤٨، وأوضح المسالك ص٢٦٥، ورواية اللسان وأوضح المسالك: نِيْرَيْنِ، بدل: نولين.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ ما أُشير إليه بوَعْدِ التنجية من نزول العذاب عليهم، والرِّجزُ العذاب الذي يُقْلِقُ المعذَّب، أي: يزعجه، من قولهم: ارْتَجَزَ، إذا ارْتَجسَ واضْطَربَ.

وقرأ ابن عامر: «منزِّلون» بالتشديد[1]. وابن محيصن: «رُجْزاً» بضم الراء[2].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: بسبب فسقهم المعهودِ المستمرِّ، وقرأ أبو حيوة والأعمشُ بكسر السين[3].

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ أي: من القرية، على ما عليه الأكثر ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ قال ابن عباس: هي آثارُ ديارها الخربة. وقال مجاهد: هي الماءُ الأسود على وجه الأرض. وقال قتادة: هي الحجارة التي أُمطرت عليهم، وقد أدركتها أوائل هذه الأمة. وقال أبو سليمان الدمشقيُّ: هي أنَّ أساسها أعلاها وسقوفَها أسفلها إلى الآن. وأنكر ذوو الأبصار ذلك.

وقال الفرَّاء[4]: المعنى: تركناها آيةً، كما يقال: إنَّ في السماء آيةً، ويراد: إنها[5] آية. وتعقَّبه أبو حيان بأنه لا يتَّجه إلا على زيادةِ «مِن» في الواجب نحو قوله:

أمهرتُ منها جبَّةً وتيساً

يريد أمهرتُها[6].

وقال بعضهم: إنَّ ذلك نظيرُ قولك: رأيتُ منه أسداً.

وقيل: الآيةُ حكايتها العجيبة الشائعة.

وقيل: ضمير «منها» للفعلة التي فُعلت بهم، والآيةُ الحجارة أو الماء الأسود.

(١) التيسير ص٩٠، والنشر ٢/ ٣٤٣.
(٢) البحر ٧/ ١٥١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) كما في البحر ٧/ ١٥١، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٦.
(٥) أي: إن السماء.
(٦) البحر ٧/ ١٥١، ولم نقف على شطر البيت عند غيره، ولا على قائله.

والظاهرُ ما عليه الأكثر، ولا يخفى معنى «مِن» على هذه الأقوال.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣٥﴾ أي: يستعملون عقولَهم في الاستبصار والاعتبار، فالفعلُ منزَّلٌ منزلةَ اللازم، و«القوم» متعلِّقٌ بـ «تركنا» أو بـ «بينة» واستُظهر الثاني.

هذا وفي الآيات من الدلالة على ذمِّ اللواطةِ وقُبْحها ما لا يخفى، فهي كبيرةٌ بالإجماع، ونصُّوا على أنها أشدُّ حرمةً من الزنى، وفي «شرح المشارق» للأكمل[1]: أنها محرَّمةٌ عقلاً وشرعاً وطبعاً، وعدمُ وجوب الحدِّ فيها عند الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه لعدم الدليل عنده على ذلك لا لخفَّتها.

وقال بعض العلماء: إنَّ عدم وجوب الحدِّ للتغليظ؛ لأنَّ الحدَّ مطهِّرٌ.

وفي جواز وقوعها في الجنة خلافٌ؛ ففي «الفتح»[2]: قيل: إن كانت حرمتُها عقلاً وسمعاً لا تكون في الجنة، وإن كانت سمعاً فقط جاز أن تكون فيها، والصحيحُ أنها لا تكون لأنَّ الله تعالى استبعدها واستقبحها، فقال سبحانه: (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ) وسمَّاها خبيثةً فقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤] والجنةُ منزَّهةٌ عنها.

وتعقَّب هذا الحمويُّ[3] بأنه لا يلزمُ من كون الشيء خبيثاً في الدنيا أن لا يكون له وجودٌ في الجنة، ألا ترى أنَّ الخمر أمُّ الخبائث في الدنيا ولها وجودٌ في الجنة.

وفيه بحثٌ؛ لأنَّ خبثَ الخمر في الدنيا لإزالتها العقلَ الذي هو عقالٌ عن كلِّ قبيحٍ، وهذا الوصفُ لا يبقى لها في الجنة، ولا كذلك اللواطةُ.

---

(١) أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي الحنفي، المتوفى سنة (٧٨٦هـ)، واسم شرحه: تحفة الأبرار في شرح مشارق الأنوار. ومشارق الأنوار النبوية في صحاح الأخبار المصطفوية هو للإمام رضي الدين حسن بن محمد الصغاني. كشف الظنون ٢/ ١٦٨٨.

(٢) هو فتح القدير لابن الهمام ٤/ ١٥٠.

(٣) هو أحمد بن محمد مكي الحسيني الحموي، شهاب الدين المصري الحنفي، المتوفى سنة (١٠٩٨هـ)، له الكثير من المصنفات ذكرها صاحب هدية العارفين ١/ ١٦٤-١٦٥، منها: إتحاف الأذكياء بتحقيق عصمة الأنبياء، وعقود الحسان في قواعد مذهب النعمان، وغمز عيون البصائر في محاسن الأشباه والنظائر، والكلام منه.

وفي «الفتوحات المكية» في صفة أهل الجنة أنهم لا أدبارَ لهم، لأنَّ الدبر إنما خُلق في الدنيا لخروج الغائط، وليست الجنة محلًّا للقاذورات. وعليه فعدمُ وجودها في الجنة ظاهرٌ.

ولا أظنُّ ذا غيرةٍ صادقةٍ تسمحُ نفسُه أن يلاط به في الجنة سرًّا أو علناً، وجوازُ وقوعها فيها قد ينجرُّ إلى أن تسمحَ نفسُه بذلك، أو يُجبَرَ عليه، وذلك إذا اشتهى أحدٌ أن يَلُوطَ به؛ إذ لا بد من حصول ما يشتهيه، وهذا وإن لم يكن قطعيًّا في عدم وقوع اللواطة مطلقاً في الجنة، إلَّا أنه يُقوِّي القولَ بعدم الوقوع، فتأمل.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ متعلِّقٌ بأرسلنا مقدَّر معطوف على «أرسلنا» في قصة نوح، أي: وأرسلنا إلى مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ﴾ لهم ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ أي: توقَّعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال، وافعلوا اليومَ من الأعمال ما تأمنون به غائلتَه، أو الأمرُ بالرجاء أمرٌ بفعلِ ما يترتَّبُ عليه الرجاء؛ إقامةً للمسبَّب مقام السبب، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، فالمعنى: افعلوا ما تَرْجُون به ثوابَ اليوم الآخِرِ، وجوِّز أن لا يقدَّر مضافٌ، وإرادةُ الثواب من إطلاق الزمان على ما فيه.

وقيل: الأمرُ برجاء الثواب أمرٌ بسببه اقتضاءً بلا تجوُّزٍ فيه بعلاقة السببية.

وقال أبو عبيدة: الرجاء هنا بمعنى الخوف، والمعنى: وخافوا جزاءَ اليوم الآخر من انتقام الله تعالى منكم إن لم تعبدوه[1].

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ حالٌ مؤكِّدةٌ لأنَّ العُثوَّ الفساد.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما تضمَّنه كلامه من أنهم إن لم يمتثلوا أمرَه ونَهْيَه وقع بهم العذاب، وإليه ذهب أبو حيان[2].

وقيل: من أنه تعالى مستحقٌّ لأنْ يُعْبدَ وحده سبحانه، وأنَّ اليوم الآخر متحقِّقُ الوقوع، أو نحو ذلك.

---

(١) بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ١١٥، ونقله المصنف عن البحر ٧/ ١٥١.
(٢) في البحر ٧/ ١٥١.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ بسبب تكذيبهم إياه ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلةُ الشديدة، وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [الآية: ٩٤] أي: صيحة جبريلَ عليه السلام؛ فإنها الموجبةُ للرجفة بسبب تمويجها للهواء وما يجاورُها من الأرض.

وفسَّر مجاهد الرجفةَ هنا بالصيحة؛ فقيل: لذلك، وقيل: لأنها رجفتْ منها القلوب.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ أي: بلدهم، فإنَّ الدار تطلق على البلد، ولذا قيل للمدينة: دار الهجرة، أو المرادُ: مساكنهم، وأُقيم فيه الواحد مقامَ الجمع لأمن اللبْسِ، لأنهم لا يكونون في دارٍ واحدة. ولعل فيه إشارةً إلى أنَّ الرجفة خرَّبت مساكنهم وهدَّمت ما بينها من الجدران، فصارت كمسكنٍ واحد.

﴿جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: باركين على الرُّكَبِ، والمراد: ميِّتين على ما روي عن قتادة. وفي «مفردات» الراغب: هو استعارةٌ للمقيمين، من قولهم: جثم الطائر، إذا قعد ولَطِئَ بالأرض[1]. ويرجع هذا إلى ميِّتين أيضاً.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ منصوبان بإضمار فعلٍ يُنْبِئُ عنه ما قبله من قوله تعالى: (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ) أي: وأهلكنا عاداً وثمود. وقوله تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ عطفٌ على ذلك المضمَر، أي: وقد ظهر لكم أتمَّ ظهورٍ إهلاكُنا إياهم من جهة مساكنهم أو بسببها، وذلك بالنظر إليها عند اجتيازكم بها ذهاباً إلى الشام وإياباً منه، وجوِّز كونُ «من» تبعيضية.

وقيل: هما منصوبان بإضمار: اذكروا، أي: واذكروا عاداً وثمود، والمراد ذكرُ قصتهما. أو بإضمار: اذكر، خطاباً له ﷺ.

وجملة «وقد تبين» حالية. وقيل: هي بتقدير القول، أي: وقل: قد تبيَّن. وجوِّز أن تكون معطوفةً على جملةٍ واقعة في حيِّز القول، أي: اذكر عاداً وثمود قائلاً قد مررتُم على مساكنهم وقد تبيَّن لكم.. إلخ.

وفاعل «تبيَّن» الإهلاك الدالُّ عليه الكلام، أو مساكنهم على أنَّ «مِن» زائدةٌ في

(١) مفردات الراغب (جثم). ولطِئ كفَرِحَ ومَنَعَ: لصق. القاموس (لطأ).

الواجب، ويؤيِّده قراءة الأعمش: «مساكنُهم» بالرفع من غيرِ «مِن»[١]. وكونُ «من» هي الفاعل على أنها اسمٌ بمعنى بعض مما لا يخفى حاله.

وقيل: هما منصوبان بالعطف على الضمير في «فأخذتهم الرجفة»، والمعنى يأباه.

وقال الكسائيُّ: منصوبان بالعطف على «الذين» من قوله تعالى: (وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ). وهو كما ترى.

والزمخشريُّ[٢] لم يذكر في ناصبهما سوى ما ذكرناه أولاً، وهو الذي ينبغي أن يعوَّل عليه.

وقرأ أكثرُ السبعة: «وثموداً» بالتنوين[٣] بتأويل الحي، وهو على قراءةِ تَرْكِ التنوين بتأويل القبيلة. وقرأ ابن وثاب: «وعادٍ وثمودٍ» بالخفض فيهما والتنوينِ عطفاً على «مدين» على ما في «البحر»، أي: وأرسلنا إلى عاد وثمود[٤].

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بوسوسته وإغوائه ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحةَ من الكفر والمعاصي ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: الطريق المعهود، وهو السَّوِيُّ المُوْصِلُ إلى الحقِّ، وحَمْلُه على الاستغراق حصراً له في الموصل إلى النجاة تكلُّفٌ.

﴿وَكَانُوا۟﴾ أي: عادٌ وثمود لا أهلُ مكة كما توهِّم ﴿مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: عقلاءَ يُمْكِنُهم التمييزُ بين الحقِّ والباطل بالاستدلال والنظر، ولكنهم أغفلوا ولم يتدبَّروا.

وقيل: عقلاءَ يعلمون الحقَّ ولكنهم كفروا عناداً وجحوداً.

وقيل: متبيِّنينَ أنَّ العذاب لاحِقٌ بهم بإخبارِ الرسل عليهم السلام لهم، ولكنهم لجُّوا حتى لقُوا ما لَقُوا.

وعن قتادة والكلبيِّ كما في «مجمع البيان» أن المعنى: كانوا مستبصرين عند

---

(١) البحر ٧/ ١٥٢.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٠٦.

(٣) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩. وقرأ بترك التنوين حفص وحمزة ويعقوب.

(٤) البحر ٧/ ١٥٢.

أنفسهم فيما كانوا عليه من الضلالة يحسبون أنهم على هدًى[١].

وأخرج ابن المنذر وجماعةٌ عن قتادةَ أنه قال: أي: معجَبين بضلالتهم[٢]. وهو تفسيرٌ بحاصِلِ ما ذُكر، وهو مرويٌّ كما في «البحر» عن ابن عباس ومجاهدٍ والضحاك[٣].

والجملةُ في موضع الحال بتقدير «قد» أو بدونها.

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ معطوفٌ على «عاداً». وتقديمُ «قارون» لأنَّ المقصود تسليةُ النبيِّ ﷺ فيما لقي من قومه لحسدهم له، وقارون كان من قوم موسى عليه السلام وقد لقي منه ما لقي. أو لأنَّ حاله أوفقُ بحالِ عادٍ وثمودَ، فإنه كان من أَبْصَرِ الناس وأعلمِهم بالتوراة، ولم يُفِدْه الاستبصار شيئاً، كما لم يفدهم كونُهم مستبصرين شيئاً. أو لأنَّ هلاكه كان قبل هلاك فرعون وهامان فتقديمُه على وفق الواقع. أو لأنه أشرفُ من فرعون وهامان؛ لإيمانه في الظاهر وعِلْمِه بالتوراة وكونِه ذا قرابةٍ من موسى عليه السلام، ويكون في تقديمه لذلك في مقام الغضب إشارةٌ إلى أنَّ نحو هذا الشرف لا يفيد شيئاً ولا ينقذُ من غضب الله تعالى على الكفر.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان والطاعة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى قلَّة عقولهم؛ لأنَّ مَن في الأرض لا ينبغي له أن يستكبر.

﴿وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: فائتين أمرَ اللهِ تعالى، من قولهم: سَبَقَ طالبَه، أي: فاته ولم يُدْرِكه، ولقد أدركهم أمره تعالى أيَّ إدراكٍ فتدارَكوا نحو الدمار والهلاك.

وقال أبو حيان: المعنى: وما كانوا سابقين الأممَ إلى الكفر، أي: تلك عادةُ الأمم مع رسلهم عليهم السلام[٤]. وليس بذاك.

وأيَّاما كان فالظاهرُ أن ضمير «كانوا» لقارون وفرعون وهامان.

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٣٦١.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٤٥، وأخرجه أيضاً الطبري ١٨/ ٣٩٩.

(٣) البحر ٧/ ١٥٢.

(٤) المصدر السابق.

وقيل: الجملة عطفٌ على «أهلكنا» المقدَّرِ سابقاً، وضميرُ «كانوا» لجميع المهلَكين. وفيه بترٌ للنظم الجليل.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ هذا وما بعده كالفذلكة للآيات المتضمِّنةِ تعذيبَ مَن كفر ولم يمتثل أمرَ مَن أُرسل إليه، وقال أبو السعود: هذا تفسيرٌ لِمَا يُنْبِئُ عنه عَدَمُ سَبْقِهم بطريق الإبهام، وما بعده تفصيلٌ للأخذ[1]. وفي القلب منه شيءٌ، وكأنه اعتبر رجوعَ ضمير «كانوا» إلى المهلكين، وقد علمتَ حاله.

وتقديمُ المفعول للاهتمام بأمر الاستيعاب والاستغراق، وقال الفاضلُ المذكورُ: للحصر، أي: كلّ واحدٍ من المذكورين عاقبناه بجنايته، لا بعضاً دون بعض[2].

وبُحث فيه بأنَّ «كلًّا» متكفِّلةٌ بهذا المعنى قدِّمتْ أو أُخِّرتْ.

وأجيب بأنَّا لا نسلِّم أنه يفهم منها «لا بعضاً» إذا أُخِّرت، وإنما يُفْهَم منها بواسطة التقديم، فتأمل.

والكلامُ في مرجع ضمير «بذنبه» سؤالاً وجواباً لا يخفى على مَن أحاط علماً بما قيل في قولهم: كلُّ رجلٍ وضَيْعتُه، وقولهم: الترتيبُ جَعْلُ كلِّ شيءٍ في مرتبته، وهو شهيرٌ بين الطلبة.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً عاصفاً فيها حصباء. وقيل: مَلَكاً رماهم بالحصباء.

وهم قومُ لوطٍ، وقال ابن عطية: يُشْبِهُ أن يدخل عاد في ذلك؛ لأن ما أُهْلِكوا به من الريح كانت شديدةً وهي لا تخلو عن الحَصْبِ بأمورٍ مؤذيةٍ، والحاصبُ هو العارض من ريحٍ أو سحابٍ إذا رَمَى بشيءٍ[3].

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ هم مدينُ وثمود، ولم يقل: أخذناه بالصيحة، ليوافق ما قبله وما بعده في إسناد الفعل إليه تعالى الأوفقِ بقوله تعالى: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ) دفعاً لتوهُّم أن يكون سبحانه هو الصائح.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ٤٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٩.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وهو قارونُ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهو فرعونُ ومَن معه. وذكر بعضهم قومَ نوح عليه السلام أيضاً. واعتُرِض بأنهم ليسوا من المذكورين. وتعقِّب بأنهم أولُ المذكورين في هذه السورة من الأمم السالفة.

ولعل المعترِضَ أراد بالمذكورين: المذكورين متناسقينَ، أي: بلا فَصْلٍ بأمةٍ لم تُفِدْ قصتُها إهلاكَها، وقومُ نوح وإن ذُكروا أوَّلاً لكن فُصِلَ بينهم وبين نظائرهم من المهلكين بقصة قوم إبراهيم عليه السلام، وهي لم تُفِدْ أنهم أهلكوا.

وذكر النيسابوريُّ أنه سبحانه قرَّر بقوله تعالى: (فَكُلًّا) إلخ أَمْرَ المذنبينَ بإجمالٍ آخَرَ يفيدُ أنهم عذِّبوا بالعناصر الأربعة، فجعل ما منه تركيبهم سبباً لعُدْمِهم، وما منه بقاؤهم سبباً لفنائهم. فالحاصبُ وهو حجارةٌ محمَّاةٌ تقع على كلِّ واحدٍ منهم فتنفذ من الجانب الآخر إشارةٌ إلى التعذيب بعنصر النار، والصيحةُ وهي تموُّجٌ شديدٌ في الهواء إشارةٌ إلى التعذيب بعنصر الهواء، والخسفُ إشارةٌ إلى التعذيب بعنصر التراب، والغرق إشارةٌ إلى التعذيب بعنصر الماء(١). اهـ. ولا يخفى ما فيه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: ما كان سبحانه مريداً لظُلْمِهم، وذلك بأن يعاقبهم من غير جُرْمٍ؛ لأنه خلافُ ما تقتضيه الحكمة.

وفي «أنوار التنزيل»: أي: ما كان سبحانه لِيُعاملَهم معاملةَ الظالم فيعاقبهم بغير جرم، إذ ليس ذلك من سنَّته عزَّ وجل(٢). ويفيد ذلك أنه لو وقع منه تعالى تعذيبُهم من غير جرمٍ لا يكون ظلماً؛ لأنه تعالى مالكُ الملك يتصرَّفُ به كما يشاء، فله أن يُثيب العاصيَ ويعذِّبَ المطيع، وهذا أمرٌ مشهورٌ بين الأشاعرة، والكلام في تحقيقه يطلبُ من علم الكلام، وقد أسلفنا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] ما ينفعك في هذا المقام تَذَكُّرُه، فتذكَّر.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك من الكفر والمعاصي باختيارهم. وقال مولانا الشيخ إبراهيم الكورانيُّ ما حاصله: إنَّ ظُلْمَ الكَفَرةِ أنفسَهم إنما هو لسوء استعدادهم الذي هم عليه في نفس الأمر من

---

(١) بنحوه في غرائب القرآن ٢٠/ ٩٤.
(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٠١.

غير مدخلٍ للجَعْلِ فيه، وبلسان ذلك الاستعداد طلبوا من الجواد المطلَقِ جلَّ وعلا ما صار سبباً لظهور شقائهم. اهـ، والبحث في ذلك طويلُ الذيل فليُطْلَبْ من محلِّه. وتقديمُ المعمول لرعاية رؤوس الآي.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ استئنافٌ متضمِّنٌ تقبيحَ حال أولئك المهلَكين الظالمين لأنفسهم وأضرابِهم ممن تولَّى غيرَ الله عزَّ وجلَّ، وفيه إشارةٌ إلى أعظم أنواع ظلمهم، فالمراد بالموصول جميع المشركين الذين عَبَدوا من دون الله عزَّ وجلَّ الأوثان. وجوِّز أن يكون جميعَ مَن اتَّخذ غيره تعالى متَّكلاً ومعتمداً، آلهةً كان ذلك أو غيرَها، ولذا عَدَل إلى «أولياء» من آلهة.

أي: صفتُهم أو شبههُم ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ أي: كصفتها أو شبهها ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ بيانٌ لصفة العنكبوت التي يدور عليها أمرُ التشبيه، والجملةُ ـ على ما نُقل عن الأخفش[1] من لزوم الوقف على «العنكبوت» ـ مستأنفةٌ لذلك، و«إنَّ أوهنَ البيوت» إلخ في موضع الحال من فاعل «اتَّخذتْ» المستكنِّ فيه، وجوِّز كونُه في موضع الحال من مفعوله بناءً على جواز مجيء الحال من النكرة. وعلى الوجهين وُضع المظهَرُ موضع الضمير الراجع إلى ذي الحال، والجملةُ من تتمة الوصف، واللام في «البيوت» للاستغراق، والمعنى: مَثَلُ المتَّخذينَ لهم من دون الله تعالى أولياء في اتِّخاذهم إياهم كمَثَلِ العنكبوت، وذلك أنها اتَّخذت لها بيتاً والحالُ أنَّ أوهنَ كلِّ البيوتِ وأضعفَها بيتُها، وهؤلاء اتخذوا لهم من دون الله تعالى أولياء والحال أنَّ أوهن كلِّ الأولياء وأضعفَها أولياؤهم.

وإن شئت فقل: إنها اتَّخذت بيتاً في غاية الضعف، وهؤلاء اتَّخذوا إلهاً أو متَّكلاً في غاية الضعف، فهم وهي مشتركان في اتِّخاذ ما هو في غاية الضعف في بابه.

ويجوزُ أن تكون جملةُ «اتَّخذتْ» حالاً من «العنكبوت» بتقدير «قد» أو بدونها، أو صفةً لها لأنَّ «أل» فيها للجنس، وقد جوَّزوا الوجهين في الجمل الواقعة بعد

(١) كما في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧.

المعرَّف بـ «أل» الجنسية، نحو قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

وعن الفرَّاء(١) أنَّ الجملة صلةٌ لموصولٍ محذوفٍ وقع صفةَ «العنكبوت» أي: التي اتَّخذت، وخرَّج الآية التي ذكرناها على هذا. واختار حذفَ الموصول في مثله ابن درستويه، وعليه لا يوقف على «العنكبوت».

وأنت تعلم أنَّ كون الجملة صفةً أظهر، والمعنى حينئذ: مَثَلُ المشرك الذي عَبَدَ الوثنَ بالقياس إلى الموحِّد الذي عَبَدَ الله تعالى كمَثَل عنكبوتٍ اتَّخذت بيتاً بالإضافة إلى رجلٍ بنى بيتاً بآجرٍّ وجصٍّ أو نحته من صخرٍ، وكما أنَّ أوهن البيوت إذا استَقْرَيْتَها بيتاً بيتاً بيتُ العنكبوت، كذلك أضعفُ الأديان إذا استَقْرَيْتَها دِيناً ديناً عبادةُ الأوثان، وهو وجهٌ حسنٌ ذكره الزمخشريُّ في الآية(٢)، وقد اعتبر فيه تفريق التشبيه، والغرضُ إبرازُ تفاوُتِ المتَّخذينَ والمتَّخذ مع تصوير توهين أمر أحدهما وإدماجِ توطيد الآخر، وعليه يجوزُ أن يكون قوله تعالى: (وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ) جملةً حاليةً؛ لأنه من تتمة التشبيه، وأن يكون اعتراضيةً لأنه لو لم يؤتَ به لكان في ضمنه ما يرشد إلى هذا المعنى. وإلى كونه جملةً حاليةً ذهب الطيبيُّ(٣). وقال صاحب «الكشف»: كلام الزمخشريِّ إلى كونه اعتراضيةً أقربُ؛ لأن قوله: وكما أنَّ أوهن البيوت.. إلخ، ليس فيه إيماءٌ إلى تقييد الأول.

وقد تعقَّب أبو حيان هذا الوجهَ بأنه لا يدلُّ عليه لفظُ الآية، وإنما هو تحميلُ اللفظ ما لا يحتمله كعادته في كثيرٍ من تفسيره(٤). وهذه مجازفةٌ على صاحب «الكشاف» كما لا يخفى.

ويجوز أن يكون المعنى: مَثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياءَ فيما اتَّخذوه معتَمَداً ومتَّكلاً في دينهم، وتولَّوه من دون الله تعالى، كمثل العنكبوت فيما نسجته

(١) كما في حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٦.

(٣) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية

(٤) البحر ٧/ ١٥٣.

واتخذنه بيتاً، والتشبيهُ على هذا من المركَّب، فيعتبر في جانب المشبَّهِ اتِّخاذٌ ومتَّخَذٌ واتِّكالٌ عليه، وكذلك في الجانب الآخر ما يناسبُه، ويُعتبر تشبيه الهيئة المنتزعة من ذلك كلِّه بالهيئة المنتزعة من هذا بالأسر، والغرضُ تقريرُ وهنِ أمرِ دينهم، وأنه بلغَ الغايةَ التي لا غايةَ بعدها، ومدارُ قطب التشبيه أنَّ أولياءهم بمنزلة منسوجِ العنكبوت ضَعْفَ حالٍ وعَدَمَ صُلوحِ اعتمادٍ، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ تذييلاً يقرِّر الغرضَ من التشبيه.

وجوِّز أن يكون المعنى والغرضُ من التشبيه ما سمعتَ إلا أنه يجعل التذييل استعارةً تمثيليةً، ويكون ما تقدَّم كالتوطئة لها، فكأنه قيل: وإنَّ أوهن ما يُعتمد عليه في الدِّين عبادةُ الأوثان، وهي تقرِّر الغرضَ من التشبيه بتبعية تقرير المشبَّه، وكأنَّ التقرير في الوجه السابق بتبعية تقرير المشبَّه به، وهذا قريبٌ من تجريد الاستعارة وترشيحها، ونظيرُ ذلك قولك: زيدٌ في الكرم بحرٌ والبحرُ لا يُخيِّبُ مَن أتاه، إذا كان البحرُ الثاني مستعاراً للكريم، وذِكْرُ الطرفين إنما يمنع من كونه استعارةً لو كان في جملته، ورجِّح السابقُ لأنَّ عادة البلغاء تقريرُ أمر المشبَّه به ليدلَّ به على تقرير المشبَّه، ولأنَّ هذا إنما يتميَّز عن الإلغاز بعد سَبْقِ التشبيه.

وجوِّز أن يكون قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ﴾ إلخ كالمقدِّمة الأولى، وقولُه سبحانه: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ كالثانية، وما هو كالنتيجة محذوفٌ مدلولٌ عليه بما بعدُ كما في «الكشف»، والمجموعُ يدلُّ على المراد من تقرير وهن أمر دينهم وأنه بلغ الغاية التي لا غاية بعدها على سبيل الكناية الإيمائية، فتأمل.

والظاهرُ أنَّ المراد بالعنكبوت النوعُ الذي يَنْسج بيته في الهواء ويصيد به الذباب، لا النوعُ الآخَرُ الذي يحفر بيته في الأرض ويخرج في الليل كسائر الهوامِّ، وهي على ما ذكره غيرُ واحدٍ من ذوات السموم، فيسنُّ قتلُها لذلك، لا لِمَا أخرج أبو داود في «مراسيله» عن يزيد بن مرثد من قوله ﷺ: «العنكبوتُ شيطانٌ مَسَخَها الله تعالى، فَمَنْ وجدها فليقتلها» فإنه كما ذكر الدميريُّ ضعيف[1].

---

(١) حياة الحيوان ٢/ ١٦٥، والخبر في مراسيل أبي داود (٥٠٠) و(٥٠٤) من طريق بقية عن الوضين بن عطاء عن يزيد بن مرثد عن النبي ﷺ بلفظ: «العنكبوت شيطان فاقتلوه» وبقية وهو ابن الوليد مدلِّس، وقد عنعن، والوضين سيئ الحفظ كما ذكر الحافظ في التقريب. =

وقيل: لا يسنُّ قتلها، فقد أخرج الخطيب عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت أنا وأبو بكر الغارَ فاجتمعتِ العنكبوتُ فنسجتْ بالباب، فلا تقتلوهنَّ» ذكر هذا الخبر الجلال السيوطيُّ في «الدر المنثور»(١)، والله تعالى أعلمُ بصحته وكونِه مما يَصْلُحُ للاحتجاج به.

ونصُّوا على طهارةِ بيتها لعدم تحقُّق كون ما تنسجُ به من غذائها المستحيلِ في جوفها، مع أنَّ الأصل في الأشياء الطهارةُ، وذكر الدميريُّ أنَّ ذلك لا تُخرجُه من جوفها بل من خارج جلدها(٢). وفي هذا بُعدٌ، وأنا لم أتحقَّق أمرَ ذلك ولم أعيِّن كونَه من فمها أو دُبرِها أو خارج جلدها لعدم الاعتناء بشأن ذلك، لا لعدم إمكان الوقوف على الحقيقة.

وذُكر أنه يَحْسُنُ إزالةُ بيتها من البيوت؛ لِمَا أسند الثعلبيُّ وابنُ عطية وغيرُهما عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: طهِّروا بيوتكم من نَسْج العنكبوت، فإنَّ تَرْكَه في البيوت يُورِثُ الفقر(٣). وهذا إن صحَّ عن الإمام كرَّم الله تعالى وجهه فذاك، وإلا فحسُنَ الإزالةُ لِمَا فيها من النظافة، ولا شكَّ بنَدْبِها.

والتاءُ في «العنكبوت» زائدةٌ كتاء طالوت، فوزنُه فَعْلَلوت، وهو يقع على الواحد والجمع والمذكَّرِ والمؤنَّث، ومن استعماله مذكَّراً قوله:

على هَطَّالهم منهم بيوتٌ ... كأنَّ العنكبوت هو ابتناها(٤)

= وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٧ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان مسخه الله فاقتلوه» وفي إسناده مسلمة بن علي الخشني، وهو متروك.

(١) ٥/ ١٤٥، والحديث في تاريخ بغداد ١٠/ ١٠١، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ١/ ٢٦٠، وهو من طريق إبراهيم بن سالم، عن عبد الله بن عمران البصري، عن محمد بن جحادة، عن أبي صادق، عن علي به. وهو حديث منكر كما ذكر ابن عدي في ترجمة إبراهيم بن سالم، كما أن رواية أبي صادق، وهو الأزدي الكوفي، عن علي رضي الله عنه مرسلة كما في التهذيب ٤/ ٥٣٨. وينظر في قصة نسج العنكبوت ما سلف ١٠/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) حياة الحيوان ٢/ ١٦٥.

(٣) تفسير الثعلبي ٧/ ٢٨٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٨، ونقله المصنف عنهما بواسطة الدميري في حياة الحيوان ٢/ ١٦٥. وفي إسناده عبد الله بن ميمون القداح، قال عنه أبو حاتم: متروك، وقال البخاري: ذاهب الحديث، وقال أبو زرعة: واهي الحديث. الميزان ٢/ ٥١٢.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٧، والصحاح (هطل)، وفيه: الهطَّال اسم جبل.

واستظهر الفاضل سعدي چلبي كونَ المراد به هنا الواحد، وذهب إلى تأنيثه أيضاً، فذكر أنه اختير هنا تأنيثه لأنه المناسب لبيان الخور والضَّعف فيما يتخذه. وقال مولانا الخفاجيُّ معرِّضاً به: الظاهرُ أنَّ المراد الجمعُ لا الواحد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وأمَّا إفراد البيت فلأنَّ المراد الجنس، ولذلك أنَّث «اتَّخذت» لا لأن المراد المؤنَّث[١].

وفي «القاموس»: العنكبوتُ معروفٌ، وهي العَنْكَباةُ والعَكَنْباةُ والعَنْكَبوهُ والعَنْكَباءُ، والذَّكر عَنْكَب، وهي: عَنْكبةٌ، وجمعُه: عَنْكبوتاتٌ وعناكبُ، والعِكَابُ والعُكُب والأَعْكُبُ أسماءُ الجموع[٢]. وتعقِّب بأنَّ عدَّ ما عدا ما ذكره أولاً اسمَ جمعٍ لا وجهَ له؛ لأنَّ أَعْكُب لا يصحُّ فيه ذلك[٣]. وذكروا في جمعه أيضاً: عناكيب.

واختلف في نونه؛ فقيل: أصلية. وقيل: زائدة كالتاء، وجمعه على عكاب يدلُّ على ذلك. وذكر السجستانيُّ في «غريب سيبويه» أنه ذكر عناكب في موضعين، فقال في موضع: وزنُه فَنَاعِل، وفي آخَرَ: فَعَالِل. فعلى الأول النونُ زائدةٌ وهو مشتقٌّ من العَكَب وهو الغِلَظ[٤]. اهـ المرادُ منه، ولعل الأقرب على ذلك كونُه مشتقًّا من العَكْب بالفتح بمعنى الشدة في السير[٥]، فكأنه لشدَّةِ وَثْبِه لصيد الذباب أو لشدة حركته عند فراره أُطلق عليه اسم العنكبوت.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: لو كانوا يعلمون شيئاً من الأشياء لعلموا أنَّ هذا مَثَلُهم، أو: أنَّ أمرَ دينهم بالغٌ هذه الغايةَ من الوهن. وقيل: أي: لو كانوا يعلمون وهنَ الأوثان لمَا اتَّخذوها أولياءَ من دون الله تعالى.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ١٠٢.

(٢) القاموس (عنكب).

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ١٠٢.

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ١٠٢، وينظر الكتاب ٤/ ٢٥٣.

(٥) كذا في القاموس (عكب)، وقال صاحب التاج: هكذا في النسخ التي بأيدينا، وفي أخرى صحيحة: في الشر، والصواب الثانية؛ لأنه قال في لسان العرب: والعَكْب: الشدةُ في الشرِّ، والشيطنةُ.

وفي «الكشف»: أنّ قوله تعالى (لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) على جميع التقادير ـ أي: المذكورة في «الكشاف»، وقد ذكرناها فيما مرَّ ـ من الإيغال(١)؛ جهَّلهم سبحانه في الاتِّخاذ، ثم زادهم جلَّ وعلا تجهيلاً أنهم لا يعلمون هذا الجهل البيِّن الذي لا يخفى على مَن له أدنى مسكةٍ.

و«لو» شرطيةٌ وجوابُها محذوف على ما أشرنا إليه، وجوَّز بعضهم كونَها للتمنِّي فلا جوابَ لها، وهو غيرُ ظاهر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍ﴾ على إضمارِ القول، أي: قل للكفرة: إنَّ الله.. إلخ. وقيل: لا حاجةَ إلى إضماره؛ لجواز أن يكون «تدعون» من باب الالتفات للإيذان بالغضب، وفيه بحثٌ.

وقرأ أبو عمرو وسلام: «يعلم ما» بالإدغام(٢). وأبو عمرو وعاصمٌ بخلاف: «يدعون» بياء الغيبة(٣) حَمْلاً على ما قبله.

و«ما» استفهاميةٌ منصوبةٌ بـ «تدعون»، و«يعلم» معلَّقةٌ عنها، فالجملةُ في موضع نصبٍ بها، و«مِن» الأولى متعلِّقةٌ بـ «تدعون» على ما هو الظاهر، و«من» الثانية للتبيين، وجوِّز كونُها للتبعيض.

ويجوز كونُ «ما» نافيةً و«من» الثانيةُ مزيدةً، و«شيء» مفعولُ «تدعون»، أي: لستُم تدعون من دونه تعالى شيئاً، كأنَّ ما يدْعونه من دونه عز وجل لمزيدِ حقارته لا يصلح أن يسمَّى شيئاً.

وجوِّز كونها مصدريةً، وهي وما بعدها في تأويل مصدرٍ مفعول «يعلم» على أنها بمعنى يعرف ناصبةٌ لمفعولٍ واحد، و«من» تبعيضية، أي: يعرف دعاءكم

---

(١) الإيغال: هو ختم الكلام بما يفيد نكتةً يتم المعنى بدونها، كقوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢١] فقوله: «وهم مهتدون» إيغال؛ لأنه يتم المعنى بدونه؛ إذ الرسول مهتدٍ لا محالة، لكن فيه زيادة مبالغة في الحث على اتباع الرسل والترغيب فيه. الإتقان ٢/ ٣٦٩.

(٢) البحر ٧/ ١٥٣.

(٣) التيسير ص١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٣ عن أبي عمرو وعاصم ويعقوب.

وعبادتكم بعضَ شيءٍ من دونه. وقيل: «من» للتبيين، و«شيء» بمعنى ذلك المصدر وتنوينُه للتحقير، أي: يعرف دعوتكم من دونه هي دعوةٌ حقيرة.

وجوِّز كونُها موصولةً مفعولَ «يعلم» بمعنى يعرف، ومفعولُ «تدعون» عائدُها المحذوفُ، و«من» إما بيانٌ للموصول أو تبعيضية. وجوِّز زيادتُها على هذا الوجه وما بعده[1]، ولا يخفى ما فيه.

والكلام على الوجهين الأوَّلَيْنِ في «ما» تجهيلٌ للكفرة المتَّخذينَ من دون الله تعالى أولياءَ؛ لِمَا فيهما من نفي الشيئية عمَّا اتخذوه وليًّا، والاستفهام عنه الذي هو في معنى النفي لأنه إنكارٌ، وفيه توكيدٌ للمَثَل؛ لأنَّ كون معبودهم ليس بشيء يُعبأ به مناسبٌ [له][2] ولذا لم يعطف، وعلى الوجهين الأخيرين فيها وعيدٌ لهم؛ لأنَّ العلم بدعوتهم وعبادتهم عبارةٌ عن مجازاتهم عليها، وكذا العلم بما يدعونه عبارةٌ عن مجازاتهم على دعائهم إياه، وترك العطف فيه لأنه استئنافٌ، ويجوز إرادةُ التجهيل والوعيد في الوجوه كلِّها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ في موضع الحال، ويفهَمُ منه التعليلُ على المعنيين[3]، فإنَّ مِن فَرْطِ الغباوة إشراكُ ما لا يُعدُّ شيئاً بمن هذا شأنُه، وإنَّ الجماد بالإضافة إلى القادر القاهر على كلِّ شيءٍ البالغِ في العلم وإتقانِ الفعل الغايةَ القاصيةَ كالمعدوم البحت، وإنَّ مَن هذا صفتُه قادرٌ على مجازاتهم.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ أي: هذا المَثَلُ ونظائرُه من الأمثال المذكورة في الكتاب العزيز ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريباً لِمَا بَعُدَ من أفهامهم ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ على ما هي عليه من الحسن واستتباعِ الفوائد ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ الراسخون في العلم، المتدبِّرون في الأشياء على ما ينبغي.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: وما قبله، أي: جوِّز زيادتها على القول بأن «ما» مصدرية أو على أنها موصولة، ينظر حاشية الشهاب ١٠٣/٧.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من حاشية الشهاب ١٠٣/٧، والكلام منه.

(٣) أي: التجهيل والوعيد.

وروى مُحيي السُّنةِ بسنده عن جابر، أنَّ النبيَّ ﷺ تلا هذه الآية ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ الآيةَ، فقال: «العالِمُ مَن عقل عن الله تعالى، فعمِلَ بطاعته واجتنب سخطه»(١).

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مُحقًّا مراعياً للحِكَم والمصالح، على أنه حالٌ من فاعل «خلق». أو: ملتبسةً بالحقِّ الذي لا محيدَ عنه مستتبعةً للمنافع الدينية والدنيوية، على أنها حالٌ من مفعوله، فإنها مع اشتمالها على جميع ما يتعلَّق به معاشُهم شواهدُ دالَّةٌ على شؤونه تعالى المتعلِّقةِ بذاته سبحانه وصفاته كما يُفْصِحُ عنه قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ دالَّةً لهم على ما ذكر من شؤونه عز وجل. وتخصيصُ المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والإرشاد في خلقهما للكلِّ لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: دُمْ على تلاوة ذلك تقرُّباً إلى الله تعالى بتلاوته، وتذكُّراً لِمَا في تضاعيفه من المعاني، وتذكيراً للناس وحملاً لهم على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسنِ الآداب ومكارِمِ الأخلاق.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: داوِمْ على إقامتها، وحيث كانت الصلاةُ منتظمةً للصلوات المكتوبة المؤدَّاة بالجماعة، وكان أمرُه ﷺ بإقامتها متضمِّناً لأمر الأمة بها، علَّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ كأنه قيل: وصلِّ بهم إنَّ الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، ومعنى نَهْيِها إياهم عن ذلك أنها لتضمُّنها صنوفَ العبادة من التكبير والتسبيح والقراءة، والوقوفِ بين يدي الله عز وجل، والركوعِ والسجودِ له سبحانه الدالِّ على غاية الخضوع والتعظيم، كأنها تقول لمن يأتي بها: لا تفعل الفحشاء والمنكَر، ولا تَعْصِ ربًّا هو أهلٌ لِمَا أتيتَ به، وكيف يليقُ بك أن تفعل ذلك وتَعْصِيَه عز وجل وقد أتيتَ مما يدلُّ على عظمته تعالى وكبريائه سبحانه من الأقوال والأفعال بما تكون به إن عَصَيْتَ وفَعلْتَ الفحشاءَ أو المنكر كالمتناقض في أفعاله؟

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٨، وأخرجه أيضاً الحارث في مسنده (٨٣٧ - بغية الباحث). وفي إسناده داود بن المحبر، قال عنه أحمد: لا يدري ما الحديث. وقال ابن المديني: ذهب حديثه. وقال أبو زرعة وغيره: ضعيف. وقال الدارقطني: متروك. الميزان ٢/ ٢٠.

وبما ذُكر ينحلُّ الإشكالُ المشهور، وهو أنَّا نرى كثيراً من المرتكبين للفحشاء والمنكر يصلُّون ولا ينتهون عن ذلك؛ فإنَّ نهيها إياهم عن الفحشاء والمنكر بهذا المعنى لا يستلزمُ انتهاءَهم، ألا ترى أنَّ الله تعالى ينهى عن ذلك أيضاً، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] والناسُ لا ينتهون، وليس نهيُ الصلاة بأعظمَ من نهيه سبحانه وتعالى، فإذا لم يكن هناك استلزامٌ فكيف يكون هنا؟

وما أرى هذا الإشكال إلَّا مبنيًّا على توهُّم استلزام النهي للانتهاء، وهو توهُّمٌ باطلٌ وتخيُّلٌ عاطلٌ، لا يشهد له عقلٌ، ولا يؤيِّده نقلٌ.

ونقل أبو حيان عن ابن عباس والكلبيِّ وابنِ جريجٍ وحماد بنِ أبي سليمان أنَّ الصلاة تنهى عن ذلك ما دام المصلِّي فيها[1]. وكأنهم أرادوا أنها كالناهية للمصلِّي القائلةِ له: لا تفعل ذلك، ما دام فيها لأنه إذا فرغ منها فقد انقطعت الأقوال والأفعال التي كان النهي بما تدلُّ عليه من العظمة والكبرياء.

ونُقل عن القطب أنه قال في جواب الإشكال: إنَّ الصلاة تقام لذكر الله تعالى كما قال عزَّ مِن قائل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤] ومَن كان ذاكراً للهِ عزَّ وجلَّ مَنَعه ذلك عن الإتيان بما يكرهه منه تعالى مما قلَّ أو كثُر، وكلُّ مَن تراه يصلِّي ويأتي الفحشاء والمنكر فهو بحيث لو لم يكن يصلِّي لكان أشدَّ إتياناً، فقد أثَّرت الصلاة في تقليل فحشائه ومنكره. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ المراد أنَّ الصلاة سببٌ للانتهاء عن ذلك، وليس هذا كلِّيًّا لِمَا أنَّ «الصلاة» في حكم النكرة، وهي في الإثبات لا يجب أن تعمَّ، فينحلُّ الإشكال. وعلى ما قلنا لا يضرُّ دعوى الكلِّيةِ، نعم النهيُ الذي ذكرناه يتفاوتُ بحسب تفاوُتِ أداء الصلاة، فهو في صلاةٍ أدِّيتْ على أتمِّ ما يكون من الخشوع والتدبُّر لِمَا يتلى فيها مع الإتيان بفروضها وواجباتها وسُننها وآدابها على أحسن أحوالها أتمُّ، وقد يَضْعفُ النهيُ فيها حتى كأنها لا تَنْهَى، كما في الصلاة التي تؤدَّى مع الغفلة التامة والإخلالِ بما يليق فيها، وهي الصلاةُ المردودة التي تُلفُّ كما يُلفُّ الثوبُ الخَلَقُ،

---

(١) البحر ٧/ ١٥٣.

ويُرْمَى بها وجهُ صاحبها، فتقول له: ضيَّعك الله تعالى كما ضيعتني[١]. وكأنَّ مراد القائل: إنَّ المراد بالصلاة التي تَنْهَى عما ذكر هي الصلاةُ المقبولةُ هو هذا.

وقد يُجعَلُ الانتهاء علامةَ القبول؛ رَوَى بعضُ الإمامية عن أبي عبد الله رضي الله عنه أنه قال: مَن أحبَّ أن يعلم قُبِلتْ صلاتُه أم لم تقبل، فلينظر هل منعته عن الفحشاء والمنكر؟ فبقَدْرِ ما منعته قُبلت منه.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «مَن لم تنهه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر فلا صلاةَ له». وفي لفظ: «لم يزدَدْ بها من الله تعالى إلا بُعداً»[٢]. وأخرجه بهذا اللفظ ابنُ أبي حاتم والطبرانيُّ وابنُ مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً[٣].

وأخرج ابنُ أبي شيبة وعبد بنُ حميد وابن جَريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقيُّ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قيل له: إنَّ فلاناً يطيلُ الصلاةَ، فقال: إنَّ الصلاة لا تنفع إلا مَن أطاعها، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٤].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد ٢/ ١٢٢، والبزار بنحوه (٢٦٩١) و(٢٧٠٨) عن عبادة بن الصامت. قال الهيثمي: فيه الأحوص بن حكيم وثقه ابن المديني والعجلي، وضعفه جماعة، وبقية رجاله موثقون. اهـ. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٠٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٣٠٢: فيه عباد بن كثير، وقد أجمعوا على ضعفه.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٤٥، وهو بالرواية الثانية في تفسير الطبري ١٨/ ٤٠٩، والشعب (٣٢٦٤)، وكذا أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٩٨، وابن الأعرابي في معجمه (١٩٥٤). وأخرجه بالرواية الأولى ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٥-٣٠٦٦ من طريق عمر بن أبي عثمان عن الحسن عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً، وإسناده ضعيف لجهالة عمر بن أبي عثمان، ولانقطاعه فإن الحسن لم يسمع من عمران بن حصين.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٦، والمعجم الكبير (١١٠٢٥)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٤٥. وفي إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٨، وتفسير الطبري ١٨/ ٤٠٨-٤٠٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٦، وشعب الإيمان (٣٢٦٣)، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤٦.

وقد يتَّفق لمن يُكثر الصلاةَ أن تقع بعض صلاته على الوجه اللائق فتُقبل لطفاً من الله تعالى وكرماً، ويظهر أثر ذلك بالانتهاء عن المعاصي، ويشير إلى هذا ما أخرج أحمد وابن حبَّان والبيهقيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ فلاناً يصلِّي بالليل، فإذا أصبح سرق. قال: «سينهاه ما تقول»[1].

وأصرَحُ منه فيما ذكرنا ما روي أنَّ فتًى من الأنصار كان يصلِّي مع النبيِّ ﷺ الصلاةَ ولا يدعُ شيئاً من الفواحش إلا ركبه، فوُصِفَ له، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ صلاته ستنهاه» فلم يلبث إلَّا أن تاب[2]. إلا أنَّ ابن حجرٍ ذكر فيه أنه لم يجده في كتب الحديث[3].

ثم إنَّ حَمْلَ الصلاة في الآية على الصلاة المعروفة هو الظاهر المؤيَّدُ بالآثار والأخبار الصحيحة، وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ المراد بها هنا القرآن[4].

وقال ابن بحر: إنَّ المراد بها الدعاء، أي: أقم الدعاء إلى أمر الله تعالى، إنَّ الدعاء إلى أمره سبحانه ينهَى عن الفحشاء والمنكر.

وكلٌّ منهما عدولٌ عن الظاهر من غير داعٍ.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أنس أنه كان يقرأ: «إنَّ الصلاةَ تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر»[5].

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وأبو قرَّةَ ومجاهدٌ وعطيةُ: المعنى: لذِكْرُ الله تعالى إياكم أكبر من ذِكْرِكم إياه سبحانه. وفي لفظ:

---

(١) مسند أحمد (٩٧٧٨)، وصحيح ابن حبان (٢٥٦٠)، والشعب (٣٢٦١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٥٨: رجاله رجال الصحيح.
(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٠٧.
(٣) الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٢٨.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٤٠٨.
(٥) الدر المنثور ٥/ ١٤٥.

لذِكْرُ الله تعالى العبدَ أكبر من ذكر العبدِ لله تعالى. وعن ابن عباس أنه قال ذلك ثم قرأ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي مالك أنه قال: ذِكْرُ اللهِ تعالى العبدَ في الصلاة أكبرُ من الصلاة[١].

فـ «ذِكْر» مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعل، والمفعولُ محذوفٌ، وكذا المفضَّلُ عليه، وهو خاصٌّ على ما سمعتَ، وجوِّز أن يكون عامًّا، أي: أكبرُ من كلِّ شيء.

وقيل: المعنى: ولذِكْرُ العبدِ للهِ تعالى في الصلاة أكبرُ من سائر أركان الصلاة.

وقيل: أي: ولذِكْرُ العبدِ لله تعالى في الصلاة أكبرُ من ذِكْرِه إياه سبحانه خارجَ الصلاة.

وقيل: أي: ولذِكْرُ العبدِ لله تعالى أكبرُ من سائر أعماله. وروي عن جماعةٍ من السَّلَف ما يقتضيه؛ أخرج أحمد في «الزهد»، وابنُ المنذر عن معاذ بن جبل قال: ما عَمِلَ آدميٌّ عملاً أَنْجَى له من عذاب الله تعالى مِن ذِكْرِ اللهِ تعالى. قالوا: ولا الجهادُ في سبيل الله تعالى؟ قال: ولا أنْ يضرب بسيفه حتى ينقطع؛ لأنَّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٢].

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي الدرداء قال: أَلَا أُخْبِرُكم بخيرِ أعمالِكُم، وأحبِّها إلى مليككم، وأسماها في درجاتكم، وخيرٍ من أن تغزوا عدوَّكم فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم، وخير من إعطاء الدنانير والدراهم؟ قالوا: وما هو يا أبا الدرداء؟ قال: ذِكْرُ الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٣].

وأخرج ابن جرير عن سلمان أنه سُئل: أيُّ العملِ أفضل؟ قال: أَمَا تقرأ القرآن؟ ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لا شيءَ أفضلُ من ذكر الله[٤].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤١٦، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ١٤٦.

(٢) الزهد لأحمد ص٢٢٥، وهو من زوائد ابنه عبد الله.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠٨، وتفسير الطبري ١٨/ ٤١٣-٤١٤. وأخرجه مرفوعاً من حديث أبي الدرداء ﷺ أحمد (٢١٧٠٢)، والترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، دون ذكر الآية.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٤١٥.

ونَسبَ في «البحر»[١] إلى أبي الدرداء وسلمانَ رضي الله عنه القول الذي ذكرناه أوّلاً عمَّن سمعتَ، ولعل ذلك إحدى روايتين عنهما.

وجاء عن ابن عباس أيضاً روايةٌ تُشعِرُ بأنَّ المراد بذكر الله تعالى ذكرُ العبدِ له سبحانه؛ أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر، والحاكم في «الكنى»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عنترة قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: أيُّ العمل أفضل؟ قال: ذِكْرُ الله أكبرُ، وما قعد قومٌ في بيتٍ من بيوت الله تعالى يَدْرُسون كتابَ الله، ويتعاطَوْنه بينهم، إلَّا أظلَّتهم الملائكةُ بأجنحتها، وكانوا أضيافَ الله تعالى ما داموا فيه حتى يفيضوا في حديث غيرِه، وما سلك رجلٌ طريقاً يلتمسُ فيه العلم إلا سهَّل الله تعالى له طريقاً إلى الجنة[٢].

وقيل: المرادُ بذكر الله تعالى الصلاةُ، كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩] أي: ولَلصَّلاةُ أكبرُ من سائر الطاعات، وإنما عبّر عنها به للإيذان بأنَّ ما فيها من ذكر الله تعالى هو العمدةُ في كونها مفضَّلةً على الحسنات ناهيةً عن السيئات.

وقيل: المعنى: ولذِكْرُ اللهِ تعالى عند الفحشاء والمنكر، وذِكْرُ نَهْيِه عنهما ووعيدِه عليهما أكبرُ في الزَّجر من الصلاة.

ف «ذكر» على هذه الأقوال مصدرٌ مضافٌ للمفعول والمفضَّلُ عليه محذوف. وجوِّز أن لا يكون أفعل للتفضيل سواءٌ كانت إضافةُ المصدر للفاعل أم للمفعول، كما في: الله أكبر.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ من الخير والطاعة، فيجازيكم بذلك أحسنَ المجازاة، وقال أبو حيان: يعلم ما تصنعون من الخير والشرِّ فيجازيكم بحسَبِه، ففيه وعدٌ ووعيدٌ وحثٌّ على المراقبة[٣].

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى. وقيل: من نصارى نجران

(١) ٧/ ١٥٣.
(٢) الدر المنثور ٥/ ١٤٦-١٤٧، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٧٠، وشعب الإيمان (٦٧١).
(٣) البحر ٧/ ١٥٤.

﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالخصلة التي هي أحسنُ، كمقابلةِ الخشونة باللِّين، والغضبِ بالكظم، والمشاغبةِ بالنصح، والسَّوْرة بالأناة، كما قال سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون:٩٦].

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالإفراط[(١)] في الاعتداء والعناد، ولم يقبلوا النصح، ولم ينفع فيهم الرفقُ، فاستَعمِلوا معهم الغِلْظةَ.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد أنَّ «الذين ظلموا» هم الذين أثبتوا الولد والشريك، أو قالوا: يدُ اللهِ تعالى مغلولةٌ، أو: الله سبحانه فقير، أو آذَوا رسولَ الله ﷺ[(٢)].

وهذه الغلظةُ التي تُفْهِمُ الآيةُ الإذنَ بها لا تَصِلُ إلى القتال لأولئك الظالمين من أهل الكتاب على أيِّ وجهٍ من الوجوه المذكورة كان ظلمهم؛ لأنَّ ظاهر كون السورة مكيةً أنَّ هذه الآية مكيةٌ، والقتال في المشهور لم يُشْرَعْ بمكةَ، وليست الغلظةُ محصورةً فيه كما لا يخفى.

وقيل: المعنى: ولا تجادلوا الداخلين في الذمة المؤدِّينَ للجزية إلا بالتي هي أحسنُ، إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمَّةَ ومنعوا الجزية، فإنَّ أولئك مجادلتهم بالسيف. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ما يَقْرُبُ منه[(٣)].

وتعقِّب بأنَّ السورة مكيةٌ، والحربُ والجزيةُ مما شُرِعَ بالمدينة، وكونُ الآيةِ بياناً لحكمٍ آتٍ بَعْدُ بعيدٌ، وأيضاً لا قرينةَ على التخصيص.

وقيل: يجوز أن يكون القائل بذلك ذاهباً إلى أنَّ الآية مدنيةٌ، ومكيةُ السورة باعتبارِ أغلب آياتها. أو ممن يقول بأنَّ الحرب شُرِعَ بمكة في آخر الأمر والسورةُ آخِرُ ما نزل بها، إلَّا أنه لم يقع، وعدمُ الوقوع لا يدلُّ على عدم المشروعية.

---

(١) في (م): بالإفراد، وهو تصحيف.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٤١٨.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٤١٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٩، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤٧.

وعن ابن زيدٍ أنَّ المراد بأهل الكتاب مؤمنو أهلِ الكتاب، وبالتي هي أحسنُ موافقتُهم فيما حدَّثوا به من أخبار أوائلهم، وبالذين ظلموا مَن بقي منهم على كفره. وهو كما ترى.

واختلف في نسخ الآية؛ فأخرج أبو داود في «ناسخه»، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن الأنباريِّ في «المصاحف» عن قتادة أنه قال: نُهي في هذه الآية عن مجادلة أهل الكتاب، ثم نُسخ ذلك فقال سبحانه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية [التوبة:٢٩] ولا مجادلةَ أشدُّ من السيف(١).

وقال في «مجمع البيان»: الصحيحُ أنها غيرُ منسوخةٍ؛ لأنَّ المراد بالجدال المناظرةُ، وذلك على الوجه الأحسنِ هو الواجبُ الذي لا يجوز غيرُه(٢).

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ المجادلة بالحسنى في أوائل الدعوة لأنَّها تتقدَّمُ القتالَ، فلا يلزمُ النسخُ ولا عدمُ القتال بالكلِّية، وأما كونُ النهي يدلُّ على عموم الأزمان فيلزمُ النسخ فلا يتمُّ ما ذكر، فيدفعُه أنَّ مَن يقاتلُ كمانع الجزية داخلٌ في المستثنى، فلا نسخَ وإنما هو تخصيصٌ بمتَّصلٍ، وكونُ ذلك يقتضي مشروعيةَ القتال بمكة ليس بصحيحٍ لأنه مسكوتٌ عنه، فتأمل.

وقرأ ابن عباس: «أَلَا بالتي» إلخ، على أنَّ «ألا» حرفُ تنبيهٍ واستفتاحٍ، والتقدير: أَلَا جادلوهم بالتي هي أحسن(٣).

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿وَ﴾ الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: وبالذي أُنزل إليكم من التوراة والإنجيل، وهذا القولُ نوعٌ من المجادَلة بالتي هي أحسن. وعن سفيان بن حسين أنه قال: هذه مجادلتُهم بالتي هي أحسن.

وأخرج البخاريُّ والنسائيُّ وغيرهما عن أبي هريرةَ قال: كان أهلُ الكتاب يقرؤون الكتاب بالعبرانية ويفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٢٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٨، وعزاه لأبي داود وابن الأنباري السيوطي في الدر ٥/ ١٤٧.

(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٣٦٩.

(٣) البحر ٧/ ١٥٥.

«لا تصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تكذِّبوهم، وقولوا: (ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ) الآية»(١)، والتصديقُ والتكذيبُ ليسا نقيضين فيجوزُ ارتفاعُهما.

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ لا شريك له في الألوهية ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ أي: مطيعون خاصةً، كما يؤذِنُ بذلك تقديم «له»، وفيه تعريضٌ باتِّخاذهم أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله تعالى.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ تجريدٌ للخطاب لرسول الله ﷺ، و«ذلك» إشارةٌ إلى مصدر الفعل الذي بعده، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببُعْدِ منزلةِ المشارِ إليه في الفضل، أي: مثلَ ذلك الإنزالِ البديعِ الشأنِ الموافقِ لإنزال سائر الكتب أنزلنا إليك القرآن الذي من جملته هذه الآيةُ الناطقةُ بما ذُكر من المجادلةِ بالتي هي أحسن.

وقيل: الإشارةُ إلى ما تقدَّم لذكر الكتاب وأهله، أي: وكما أنزلنا الكتب إلى مَن قَبْلَكَ أنزلنا إليك الكتاب.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من الطائفتين اليهودِ والنصارى، على أنَّ المراد بالكتاب جنسُه الشاملُ للتوراة والإنجيل، والكلامُ على ظاهره. وقيل: هو على حذفِ مضافٍ، أي: آتيناهم علمَ الكتاب. ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ بالكتاب الذي أُنزل إليك. وقيل: الضميرُ له ﷺ، وهو كما ترى.

والمرادُ بهم في قولٍ: مَن تقدَّم عَهْدَ النبيِّ ﷺ من أولئك، حيث كانوا مصدِّقين بنزول القرآن حَسْبَما علموا مما عندهم من الكتاب، والمضارعُ لاستحضار تلك الصورة في الحكاية، وتخصيصُهم بإيتاء الكتاب للإيذان بأنَّ ما بَعْدَهم من معاصري رسولِ الله ﷺ قد نُزِعَ عنهم الكتابُ بالنسخ.

وفي قولٍ آخَرَ: معاصروه عليه الصلاة والسلام العاملون بكتابهم من عبد الله بن سلام وأضرابه، وتخصيصُهم بإيتاء الكتاب لِمَا أنهم هم المنتفعون به، فكأنَّ مَن عَدَاهم لم يؤتوه؛ قيل: هذا يؤيِّد(٢) القول بأنَّ الآيات المذكورة مدنيةٌ، إذ كونُها

---

(١) الدر المنثور ٥/١٤٧، وهو في صحيح البخاري (٤٤٨٥)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٣٢٣) لكن مع ذكر قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [آل عمران: ٨٤] لا مع ذكر آية العنكبوت، وذكرها برواية المصنف الطبري في التفسير ١٨/٤٢٢.

(٢) في الأصل: يؤيده.

مكيةً وعبدُ الله ممن أسلم بعد الهجرة بناءً على أنه إعلامٌ من الله تعالى بإسلامهم في المستقبل، والتفصيلُ باعتبار الإعلام = بعيدٌ جدًّا.

وجوَّز الطبرسيُّ أن يراد بالموصول المسلمون من هذه الأمة، وضمير «به» للقرآن[1]. ولا يخفى ما فيه. ولعل الأظهر كونُ المراد به علماءَ أهل الكتابين الحَرِيُّون بأن يُنْسَبَ إليهم إيتاءُ الكتاب، كعبد الله بن سلام وأضرابه، ولا بُعْدَ في كون الآيات مكيةً بناءً على ما سمعْتَ، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنَّ إيمانهم به مترتِّبٌ على إنزاله على الوجه المذكور.

﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: ومن العرب أو من أهل مكة، على أنَّ المراد بالموصول عبد الله وأضرابُه، أو ممن في عصره ﷺ من اليهود والنصارى على أنَّ المراد به مَن تقدَّم ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب الذي أنزل إليك، و«مِن» على ما استظهره بعضُهم تبعيضية واقعةٌ موقعَ المبتدأ، وله نظائر في الكتاب الكريم.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: وما يجحد به، وأقيم هذا الظاهرُ مقامَ الضمير للتنبيه على ظهور دلالة الكتاب على ما فيه وكونِه من عند الله عز وجل، والإضافةُ إلى نون العظمة لمزيد التفخيم. وفيما ذُكر غايةُ التشنيع على مَن يجحد به.

والجحد كما قال الراغب: نفيُ ما في القلب ثباتُه، وإثباتُ ما في القلب نَفْيُه[2]. وفسِّر هنا بالإنكار عن علمٍ، فكأنه قيل: وما يُنْكِرُ آياتِنا مع العلم بها ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٧﴾ أي: المتوغِّلون في الكفر المصمِّمون عليه، فإنَّ ذلك يمنعهم عن الإقرار والتسليم.

وقيل: يجوز أن يفسَّر بمطلق الإنكار، ويرادَ بالكافرين المتوغِّلون في الكفر أيضاً لدلالة فحوى الكلام والتعبيرِ بـ «آياتنا» على ذلك، أي: وما ينكرُ آياتنا مع ظهورها وارتفاعِ شأنِها إلا المتوغِّلون في الكفر؛ لأنَّ ذلك يصدُّهم عن الاعتناء بها والالتفاتِ إليها والتأمُّلِ فيما يؤدِّيهم إلى معرفة حقِّيَّتها، والمراد بهم مَن اتَّصف بتلك الصفة من غيرِ قَصْدٍ إلى معيَّنٍ. وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

---

(١) مجمع البيان ٢٠/٣٦٩.

(٢) مفردات الراغب (جحد).

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: وما كنتَ من قبل إنزالنا إليك الكتابَ تقدِرُ على أن تتلو ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: كتاباً، على أنَّ «مِن» صلة.

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ ولا تقدِرُ على أن تخطَّه ﴿بِيَمِينِكَ﴾، أو: ما كانت عادتُك أن تتلوه ولا تخطَّه. وذِكْرُ اليمين زيادةُ تصويرٍ لِمَا نُفي عنه ﷺ من الخطِّ، فهو مثلُ العين في قولك: نظرتُ بعيني، في تحقيق الحقيقة وتأكيدِها حتى لا يبقى للمجاز مجازٌ.

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: لو كنتَ ممن يقدِرُ على التلاوة والخطِّ، أو ممن يعتادُهما، لارتاب مشركو مكة وقالوا: لعله التقطه من كتب الأوائل، وحيث لم تكن كذلك لم يكن لارتيابهم وجهٌ، وكأنَّ احتمال التعلُّم مما لم يُلتفت إليه لظهورِ أنَّ مثله من الكتاب المفصَّل الطويل لا يُتَلَقَّى ويُتعلَّم إلا في زمانٍ طويلٍ بمدارسةٍ لا يخفى مثلُها، ووَصْفُ مشركي مكةَ بالإبطال باعتبارِ ارتيابهم وكفرهم[1]، وهو عليه الصلاة والسلام أميٌّ، فكأنه قيل: إذن لارتاب هؤلاء المبطلون الآن وكان إذ ذاك لارتيابهم وجه.

وقيل: وَصْفُهم بذلك باعتبار ارتيابهم وهو ﷺ أميٌّ، وباعتبار ارتيابهم وهو عليه الصلاة والسلام ليس بأميٍّ؛ أمَّا كونُهم مُبْطِلينَ بالاعتبار الأول فظاهرٌ، وأمَّا كونهم كذلك بالاعتبار الثاني فلأنَّ غايةَ ما يلزمُ من عدم أمِّيَّته ﷺ انتفاءُ أحد وجوه الإعجاز، ويكفي الباقي في الغرض، فيكون المرتاب مُبْطِلاً كالمرتاب في نبوَّة الأنبياء الذين لم يكونوا أميين، وصحةِ ما جاؤوا به.

والأول أظهر، وكونُ المراد بالمبطلين مشركي مكة هو المرويُّ عن مجاهد. وقال قتادة: هم أهل الكتاب، أي: لو كنت تتلو من قبلُ أو تخطُّ لارتاب أهل الكتاب؛ لأنَّ نعتك في كتابهم أميٌّ، ووَصْفُهم بالإبطال قيل: باعتبار ارتيابهم وهو عليه الصلاة والسلام أميٌّ كما هو الواقع، وإلا فهم ليسوا بمبطلين في ارتيابهم على فرض عدم كونه ﷺ أميًا.

وفي «الكشف»: هذا فرضٌ وتمثيلٌ دلالةً على أنَّ مدار الأمر على المُعْجِز،

---

(١) قوله: وكفرهم، ليس في الأصل.

وأنَّ كونه عليه الصلاة والسلام أميًّا لا يخطُّ ليس ممَّا لا يتمُّ دعواه به، وتلك الدلالة لا تختلف والمنكِرُ مبطلٌ. اهـ، فتأمل.

هذا واختُلف في أنه ﷺ هل كان بعد النبوَّة يقرأ ويكتبُ أم لا؟ فقيل: إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يُحْسِنُ الكتابةَ، واختاره البغويُّ في «التهذيب» وقال: إنه الأصح[1].

وادَّعى بعضُهم أنه ﷺ صار يعلَمُ الكتابة بعد أن كان لا يعلمها، وعدمُ معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية، فلمَّا نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمرُ الارتياب تعرَّف الكتابة حينئذٍ، وروى ابن أبي شيبةَ وغيرُه: ما مات ﷺ حتى كتب وقرأ. ونُقل هذا للشعبيِّ فصدَّقه وقال: سمعتُ أقواماً يقولونه[2]. وليس في الآية ما ينافيه.

وروى ابن ماجه عن أنس قال: قال ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أسري بي مكتوباً على باب الجنة: الصدقةُ بعشر أمثالها، والقرضُ بثمانيةَ عَشَرَ»[3]، والقدرةُ على القراءة فرعُ الكتابة. ورُدَّ باحتمالِ إقدارِ اللهِ تعالى إياه عليه الصلاة والسلام عليها بدونها معجزةً، أو فيه مقدَّرٌ وهو: فسألتُ عن المكتوب فقيل: إلخ.

ويشهد للكتابة أحاديثُ في «صحيح البخاريِّ» وغيره، كما ورد في صلح الحديبية: فأخذ رسول الله ﷺ الكتابَ وليس يُحسِنُ يكتبُ فكتبَ: «هذا ما قاضَى عليه محمد بنُ عبد الله» الحديثَ[4].

---

(١) التهذيب في فقه الإمام الشافعي للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ٥/ ٢١٧.

(٢) عزاه لابن أبي شيبة ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٢٦، والشهاب في الحاشية ٧/ ١٠٥، والكلام منه، وأخرجه أيضاً البيهقي ٧/ ٤٢، وهو عندهما من طريق مجالد بن سعيد عن عون بن عبد الله عن أبيه قال: ما مات. . .، قال مجالد: فذكرت ذلك للشعبي فقال: صدق. . . إلخ. قال البيهقي: هذا حديث منقطع، وفي رواته جماعة من الضعفاء والمجهولين.

(٣) سنن ابن ماجه (٢٤٣١)، وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٨٤. وقال: وليس بصحيح.

(٤) صحيح البخاري (٤٢٥١) من حديث البراء بن عازب ﷺ، وأخرجه بنحوه مسلم (١٧٨٣): (٩٢) دون قوله: وليس يحسن يكتب.

وممن ذهب إلى ذلك أبو ذرٍّ عبد بن أحمد الهرويُّ[(١)]، وأبو الفتح النيسابوريُّ، وأبو الوليد الباجي[(٢)] من المغاربةُ، وحكاه عن السِّمناني[(٣)]، وصنَّف فيه كتاباً، وسبقه إليه ابنُ منية.

ولمَّا قال أبو الوليد ذلك طُعِنَ فيه ورُمي بالزندقة وسُبَّ على المنابر، ثم عُقِدَ له مجلسٌ فأقام الحجةَ على مدَّعاه، وكتب به إلى علماء الأطراف فأجابوا بما يوافقه[(٤)]. ومعرفةُ الكتابة بعد أمِّيَّته ﷺ لا تنافي المعجزة، بل هي معجزةٌ أخرى لكونها من غير تعليم.

وردَّ بعضُ الأجلَّة كتاب الباجي لِمَا في الحديث الصحيح: «إنَّا أمَّةٌ أمِّيَّةٌ لا نكتبُ ولا نَحْسُبُ»[(٥)]، وقال: كلُّ ما ورد في الحديث من قوله: «كتب»، فمعناه: أَمَر بالكتابة، كما يقال: كتب السلطان بكذا لفلانٍ. وتقديم قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ على قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ كالصريح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقاً. وكونُ القيد المتوسِّط راجعاً لِمَا بعده غير مطَّردٍ، وظنَّ بعضُ الأجلة رجوعَه إلى ما قبله وما بعده فقال: يُفهَمُ من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان

(١) الحافظ شيخ الحرم، المعروف ببلده بابن السماك، الأنصاريُّ الخراساني المالكي، صاحب التصانيف، وراوي الصحيح عن المستملي والحموي والكشميهني، من تصانيفه: دلائل النبوة، وفضائل القرآن، والسنَّة، والصحيح المسند المخرج على الصحيحين، ومسانيد الموطأ، توفي سنة (٤٣٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٥٤.

(٢) القاضي سليمان بن خلف بن سعد التجيبي الأندلسي القرطبي الباجي، صاحب التصانيف، وكان أبو ذر الهروي من مشايخه، وأخذ عنه علم الحديث والفقه والكلام، من تصانيفه: الاستيفاء، والإيماء في الفقه، ومختصر المختصر في مسائل المدونة، توفي سنة (٤٧٤هـ). السير ١٨/ ٥٣٥.

(٣) هو محمد بن أحمد بن محمد الحنفي، أبو جعفر، قاضي الموصل، كان يعتقد مذهب الأشعري، ولازم ابن الباقلاني حتى برع في علم الكلام، وله تصانيف، تخرج به في العقليات القاضي أبو الوليد الباجي وغيره، توفي سنة (٤٤٤هـ). السير ١٧/ ٦٥١.

(٤) ينظر قصة أبي الوليد الباجي في هذه المسألة في ترتيب المدارك ٤/ ٨٠٥-٨٠٦، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١٠٥.

(٥) أخرجه أحمد (٥١١٧)، والبخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) من حديث ابن عمر ﵄. والكلام من حاشية الشهاب.

قادراً على التلاوة والخطِّ بعد إنزال الكتاب، ولولا هذا الاعتبارُ لكان الكلامُ خلواً عن الفائدة. وأنت تعلم أنه لو سلِّم ما ذكره من الرجوع لا يتمُّ أمر الإفادة إلا إذا[1] قيل بحجِّية المفهوم، والظانُّ ممن لا يقول بحجِّيَّته.

ولا يخفى أنَّ قوله عليه الصلاة والسلام: «إنا أمةٌ أمِّيَّةٌ لا نكتبُ ولا نحسُبُ» ليس نصًّا في استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام، ولعل ذلك باعتبارِ أنه بُعث عليه الصلاة والسلام وهو وكذا أكثرُ مَن بُعِثَ إليهم وهو بين ظهرانيهم من العرب أمِّيُّون لا يكتبون ولا يحسبون، فلا يضرُّ عدمُ بقاء وصف الأمية في الأكثر بعدُ.

وأمَّا ما ذُكر من تأويل «كتب» بـ: أَمَرَ بالكتابة، فخلافُ الظاهر، وفي «شرح صحيح مسلم» للنواويِّ عليه الرحمةُ نقلاً عن القاضي عياض أنَّ قوله في الرواية التي ذكرناها: ولا يُحسِنُ أن يكتب فكتب، كالنصِّ في أنه ﷺ كتب بنفسه؛ فالعدولُ عنه إلى غيره مجازٌ لا ضرورةَ إليه، ثم قال: وقد طال كلامُ كلٍّ فرقةٍ في هذه المسألة، وشنَّعت كلُّ فرقةٍ على الأخرى في هذا، فالله تعالى أعلم[2].

ورأيتُ في بعض الكتب، ولا أدري الآن أيُّ كتابٍ هو، أنه ﷺ لم يكن يقرأ ما يكتب، لكن إذا نظر إلى المكتوب عرف ما فيه بإخبارِ الحروف إياه عليه الصلاة والسلام عن أسمائها، فكلُّ حرفٍ يخبره عن نفسه أنه حرفُ كذا، وذلك نظيرُ إخبار الذراع إياه ﷺ بأنها مسمومةٌ[3].

وأنت تعلم أنَّ مثل هذا لا يُقبل بدون خبرٍ صحيحٍ ولم أظفر به.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآن، وهذا إضرابٌ عن ارتيابهم، أي: ليس القرآنُ مما يُرتاب فيه لوضوح أمره، بل هو ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحاتٌ ثابتةٌ راسخةٌ ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من غير أن يُلتقط من كتابٍ، يحفظونه بحيث لا يُقْدَر على تحريفه، بخلاف غيره من الكتب، وجاءَ في وصف هذه الأمة: «صدورُهم أناجيلُهم»[4].

---

(١) في (م): إذ.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٢/ ١٣٨، وكلام القاضي عياض في إكمال المعلم ٦/ ١٥٢.

(٣) سلف ١٨/ ٢٨٦.

(٤) قطعة من حديث أخرجه الطبراني (١٠٠٤٦) عن ابن مسعود ﷺ بلفظ: «أناجيلهم في صدورهم» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٧١: وفيه مَن لم أعرفهم. وفي النهاية

وكونُ ضميرِ «هو» للقرآن هو الظاهر، ويؤيِّده قراءة عبد الله: «بل هي آياتٌ بيناتٌ»[١].

وقال قتادة: الضميرُ للنبيِّ ﷺ، وقرأ: «بل هو آيةٌ بينةٌ» على التوحيد[٢].

وجَعَله بعضهم له عليه الصلاة والسلام على قراءة الجمع، على معنى: بل النبيُّ وأمورُه آياتٌ.

وقيل: الضمير لمَا يُفهَم من النفي السابق، أي: كونُه لا يقرأ ولا يخطُّ آياتٌ بيناتٌ في صدور العلماء من أهل الكتاب، لأنَّ ذلك نعتُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام في كتابهم. والكلُّ كما ترى.

وفي الأخير حَمْلُ «الذين أوتوا العلم» على علماء أهل الكتاب، وهو مرويٌّ عن الضحاك. والأكثرون على أنهم علماء الصحابة، أو النبيُّ ﷺ وعلماءُ أصحابِهِ، وروي هذا عن الحسن. ورَوَى بعضُ الإمامية عن أبي جعفر وأبي عبد الله رضي الله عنهما أنهم الأئمة من آل محمدٍ ﷺ[٣].

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع كونها كما ذُكر ﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ المتجاوِزون للحدِّ في الشرِّ والمكابَرةِ والفساد.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: كفارُ قريشٍ بتعليم بعضِ أهلِ الكتاب، وقيل: الضمير لأهل الكتاب: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى. وقرأ أكثر أهل الكوفة «آيةٌ» على التوحيد[٤].

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزلها حَسْبَما يشاء من غير دخلٍ لأحدٍ في ذلك قطعاً.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ ليس من شأني إلَّا الإنذارُ بما أُوتيتُ من الآيات لا الإتيانُ بما اقترحْتُموه، فالقَصْرُ قَصْرُ قَلْبٍ.

= (نجل): «أناجيلهم في صدورهم» أي: أن كتبهم محفوظة فيها.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٥٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢، والبحر ٧/ ١٥٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢، والبحر ٧/ ١٥٦.

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٣٧٠.

(٤) التيسير ص١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٣ عن حمزة والكسائي وأبي بكر وابن كثير وخلف.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ كلامٌ مستأنفٌ واردٌ من جهته تعالى ردًّا على اقتراحهم وبياناً لبطلانه، والهمزةُ للإنكار والنفي، والواوُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: أَقصَّر ولم يَكْفِهم آيةً مُغْنيةً عن سائر الآيات ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الناطقَ بالحقِّ المصدِّقَ لِمَا بين يديه من الكتب السماوية وأنت بمعزلٍ من مُدارسَتها وممارستها.

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ تدومُ تلاوتُه عليهم متحدِّين به، فلا يزال معهم آيةً ثابتةً لا تزولُ ولا تَضْمَحِلُّ كما تزول كلُّ آيةٍ بعد كونها.

وقيل: «يتلى عليهم» أي: أهلِ الكتابِ بتحقُّق ما في أيديهم من نعتك ونعتِ دينك. وله وجهٌ إن كان ضميرُ «قالوا» فيما تقدَّم لأهل الكتاب، وأمَّا إذا كان لكفار قريشٍ فلا يخفى ما فيه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الكتابِ العظيم الشأنِ الباقي على ممرِّ الدهور. وقيل: الذي هو حجةٌ بيِّنةٌ ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي: نعمةً عظيمة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي: تذكرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ أي: همُّهم الإيمانُ لا التعنُّتُ، فالجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «ذكرى» والفعلُ مرادٌ به الاستقبال، ويجوز أن يكون «رحمة» و«ذكرى» مما تنازعا في الجارِّ والمجرور، فيجوز أن يكون الفعل للحال.

وأخرج الفريابيُّ والدارميُّ، وأبو داود في «مراسيله»، وابنُ جرير وابنُ المنذر وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة قال: جاء ناس من المسلمين بكتفٍ قد كتبوا فيها بعضَ ما سمعوه من اليهود، فقال رسول الله ﷺ: «كفى بقومٍ حُمقاً ـ أو ضلالةً ـ أنْ يرغبوا عمَّا جاء به نبيُّهم إليهم إلى ما جاء به غيرُه إلى غيرهم» فنزلت: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ) الآية[1]. وأخرج الإسماعيليُّ في «معجمه»، وابنُ مردويه عن يحيى هذا ما هو قريبٌ مما ذُكر مرويًّا عن أبي هريرة رضي الله عنه[2].

و«يؤمنون» على هذا على ظاهره لا غير.

---

(١) سنن الدارمي (٤٧٨)، والمراسيل (٤٥٤)، وتفسير الطبري ١٨/ ٤٢٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٧٢، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤٨. والكتف: عَظْمُه؛ لأنهم كانوا في الصدر الأول يكتبون على الخشب والعظام والجلود. حاشية الشهاب ٧/ ١٠٦-١٠٧.

(٢) معجم شيوخ أبي بكر الإسماعيلي٣/ ٧٧٢، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٤٨، وأخرجه أيضاً الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق٢/ ٥٤٣-٥٤٤.

وتعقَّب بأنَّ السياق والسباق مع الكفرة، وأنَّ الظاهر كونُ «أَوَلَمْ يكفهم» الآيةَ جواباً لقولهم: «لولا أُنزل» إلخ، وفي جَعْلِ سبب النزول ما ذُكر خروجٌ عن ذلك، فتأمَّل.

وعليه تكون الآية دليلاً لمن مَنَعَ تتبُّع التوراة ونحوِها، ورُوي هذا المنعُ عن عائشةَ ﵂؛ أخرج ابن عساكر عن [ابن] أبي مليكةَ قال: أَهْدَى عبدُ الله بنُ عامر بن ركن إلى عائشة ﵂ هديةً، فظنَّت أنه عبد الله بنُ عمرو، فردتها وقالت: يتتبَّعُ الكتابَ وقد قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فقيل لها: إنه عبد الله بن عامر، فقَبِلَتْها[1].

وجاء في عدَّة أخبارٍ ما يقتضي المنعَ؛ أخرج عبد الرزاق في «المصنف»، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن الزهريِّ أنَّ حفصةَ جاءت إلى النبيِّ ﷺ بكتابٍ من قصص يوسف في كتفٍ، فجعلت تقرؤه عليه والنبيُّ عليه الصلاة والسلام يتلوَّنُ وجههُ، فقال: «والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسفُ وأنا بينكم فاتَّبعتُموه وتركتُموني ضَلَلْتُم، أنا حظُّكم من النبيين وأنتم حظِّي من الأمم»[2].

وأخرج عبد الرزاق والبيهقيُّ أيضاً عن أبي قلابةَ أنَّ عمر بن الخطاب ﵁ مرَّ برجلٍ يقرأ كتاباً فاستمعه ساعةً فاستحسنه، فقال للرجل: اكتب لي من هذا الكتاب. قال: نعم. فاشترى أديماً فهيَّأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره وبطنه، ثم أتى النبيَّ ﷺ فجعل يقرؤه عليه، وجَعَلَ وجهُ رسول الله ﷺ يتلوَّنُ، فضرب رجلٌ من الأنصار الكتابَ وقال: ثَكِلَتْكَ أُمُّك يا ابنَ الخطاب، ألَا ترى وجهَ رسول الله ﷺ منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب؟! فقال النبيُّ ﷺ عند ذلك: «إنما بُعثْتُ فاتحاً وخاتماً وأُعطيتُ جوامعَ الكَلِمِ وخواتمه، واختُصِرَ لي الحديث اختصاراً، فلا يهلكنَّكم المتهوِّكون»[3] أي: الواقعون في كلِّ أمرٍ بغير رويَّةٍ. وقيل:

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٥٢/ ١٧٠، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٧٣، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٥/ ١٤٩، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٢) مصنف عبد الرزاق(١٠١٦٥) و(٢٠٠٦١)، والشعب(٥٢٠٥) وفي إسناده انقطاع بين الزهري وحفصة.

(٣) مصنف عبد الرزاق (١٠١٦٣) و(٢٠٠٦٢)، والشعب (٥٢٠٢)، وأخرجه بنحوه أبو داود في

المتحيِّرون. إلى غير[1] ذلك من الأخبار.

وحقَّق بعضُهم أنَّ المنع إنما هو عند خوفِ فسادٍ في الدِّين، وذلك مما لا شبهةَ فيه في صدر الإسلام، وعليه تُحْمَلُ الأخبار، وقد تقدَّم الكلام في ذلك فتذكَّر[2].

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: عالماً بما صَدَرَ عنِّي من التبليغ والإنذار، وبما صَدَرَ عنكم من مقابلتي بالتكذيب والإنكار، فيجازي سبحانه كلًّا بما يليقُ به.

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الأمور التي من جملتها شأني وشأنُكم، فهو تقريرٌ لِمَا قبله من كفايته تعالى شهيداً.

وجوِّز أن يكون المعنى: كفى به عزَّ وجلَّ شاهداً بصِدْقي، أي: مصدِّقاً لي فيما ادَّعيتُه بالمعجزات تصديقَ الشاهد لدعوى المدَّعي، وجملة «يعلم» إما صفةُ «شهيداً» أو حالٌ أو استئنافٌ لتعليل كفايته.

وقيل عليه: إنَّ هذا الوجه لا يلائمه قولُه تعالى: (بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) سواءٌ تعلَّق بـ «كفى» أو بـ «شهيداً»، ولا قولُه سبحانه: (يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ) إلخ. وفيه تأمُّلٌ.

وقد يؤيَّد ذلك بما روي أنَّ كعب بن الأشرف وأصحابَه قالوا: يا محمد، مَن يشهدُ بأنك رسول الله؟ فنزلت: (قُلْ كَفَىٰ) الآية[3]. إلا أن في القلب من صحة هذه الرواية شيئاً؛ لِمَا أنَّ السياق والسباق مع كفرة قريشٍ، فلا تغفل.

وأيًّا ما كان فلا منافاةَ بين هذه الآية وقولِه تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٣] بناءً على أنَّ المعنى: لا تستشهدوا بالله تعالى، ولا تقولوا: الله

= المراسيل (٤٥٥). وروي نحوه متصلاً من حديث عمر ﷺ، وهو عند الضياء في المختارة (١١٥)، وأبي يعلى كما في مجمع الزوائد ١/ ١٧٣ و١٨٢، وفي إسناده عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف.

(١) قوله: غير، ساقط من (م).

(٢) ينظر ما سلف ٢٠/١٩٧-١٩٨.

(٣) الكشاف ٣/٢٠٩.

تعالى يشهدُ أنَّ ما ندَّعيه حقٌّ، كما يقوله العاجزُ عن إقامة البيِّنة، إمَّا لأنَّ الشهيد هاهنا بمعنى العالِمِ والكلامُ وعدٌ ووعيد، وإمَّا بمعنى المصدَّق بالمعجزات، وليست الشهادةُ بأحد المعنيين هناك.

والباء في «بالله» زائدةٌ والاسم الجليل فاعلُ «كفى». وقال الزجَّاج: إنَّ الباء دخلت لتضمُّن «كَفَى» معنى اكْتَفِ[1]. فالباء كما قال اللقاني معدِّيةٌ لا زائدة. قال ابنُ هشام في «المغني»[2]: وهو من الحُسْن بمكانٍ، ويصحِّحه قولُهم: اتَّقى اللهَ تعالى امرؤٌ فَعلَ خيراً يُثَبْ عليه، أي: ليتَّقِ، بدليلِ جَزْمِ: يُثَبْ، ويوجبُه قولُهم: كفى بهندٍ، بتَرْكِ التاء، فإن احتُجَّ بالفاصل فهو مجوِّزٌ لا موجِبٌ، بدليل ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ [الأنعام:٥٩] فإنْ عُورِضَ بـ : أحْسِنْ بهندٍ، فالتاءُ لا تَلْحَقُ صيغَ الأمر وإن كان معناها الخبر. اهـ.

وتعقَّب ذلك الشيخ ياسين الحمصي في «حواشيه» على «التصريح»، فقال: أقولُ: تفسير «كفى» على هذا القول بـ : اكْتَفِ غيرُ صحيحٍ؛ إذ فاعلُ «كفى» حينئذٍ ضميرُ المخاطَبِ، و«كفى» ماضٍ وهو لا يَرْفَعُ ضميرَ المخاطَب المستتر. اهـ، وفيه بعدُ بحثٌ لا يخفى على المتأمِّل.

وظنَّ بعض الناس أنَّ «كفى» على هذا القول اسمُ فِعْلِ أمرٍ يخاطَبُ به المفرَدُ المذكَّرُ وغيرُه، نحو «حيَّ» في: حيَّ على الصلاة، فالمعنى هنا: اكتفوا بالله. وأنت تعلم أنَّ هذا بعيدُ الإرادة من كلام الزجَّاج، ويأباه كلامُ ابن هشام.

وقال ابن السرَّاج[3]: الفاعلُ ضميرُ الاكتفاء. قال ابن هشام[4]: وصحةُ قوله موقوفةٌ على جواز تعلُّق الجارِّ بضميرِ المصدر، وهو قولُ الفارسيِّ والرمانيِّ؛ أجازوا[5]: مُروري بزيدٍ حَسَنٌ وهو بعمروٍ قبيحٌ، وأجاز الكوفيون إعماله في الظرف

(١) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٥٧ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥]

(٢) ص١٤٤.

(٣) في كتابه: الأصول في النحو ٢/ ٢٦٠، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن هشام في المغني ص١٤٤.

(٤) في المغني ص١٤٤.

(٥) في المغني: أجازا.

وغيره، ومنع جمهورُ البصريين إعماله مطلقاً. اهـ.

وتعقَّب ذلك ابنُ الصائغ فقال: لا نسلِّم توقُّفَ الصحة على ذلك؛ لجوازِ أنْ تكون الباءُ للحال، وعليه يكون المعنى: كفى هو ـ أي: الاكتفاء ـ حالَ كونه ملتبساً بالله تعالى. ولا يخفى أنه مالم يَبْطُلْ هذا القولُ لا يتمُّ ما ادَّعاه ابن هشام من أنَّ تَرْكَ التاء في «كفى بهند» يُوجبُ كونَ «كفى» مضمَّناً معنى اكْتَفِ، فتدبَّر.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِالْبَٰطِلِ﴾ قال ابن عباس ﵄: أي: بغير الله عزَّ وجل. وهو شاملٌ لنحوِ عيسى والملائكةِ عليهم السلام، والباطلُ في الحقيقة عبادتُهم وليس الباطلُ هنا مثلُه في قول حسان[1]:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل

وقال مقاتل: أي: بعبادة الشيطان. وقيل: أي: بالصنم.

﴿وَكَفَرُوا۟ بِاللَّهِ﴾ مع تعاضُدِ مُوْجِباتِ الإيمان به عز وجل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ المغبونون في صَفْقَتهم حيث اشتروا الكفرَ بالإيمان، فاستوجَبوا العقابَ يومَ الحساب.

وفي الكلام ـ على ما قيل ـ استعارةٌ مكنيةٌ؛ شبَّه استبدالَ الكفرِ بالإيمان المستلزِمَ للعقاب باشتراءٍ مستلزمٍ للخسران، وفي الخسران استعارةٌ تخييليةٌ هي قرينتُها؛ لأن الخسران متعارفٌ في التجارات، وهذا الكلامُ وَرَدَ موردَ الإنصاف حيث لم يصرِّح بأنهم المؤمنون بالباطل الكافرون بالله عز وجل، بل أبرزه في معرض العموم ليهجم به التأمُّلُ على المطلوب، فهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] وكقول حسان:

فشرُّكما لخيركما الفداء[2]

وهذا من قَبيل المجادلة بالتي هي أحسن.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: ويستعجلُكَ كفارُ قريش ﴿بِالْعَذَابِ﴾ على طريقة الاستهزاء

(١) كذا ذكر، والصواب أنه للبيد، وهو في ديوانه ص٢٥٦، وسلف ٢/ ١٤٩ و٥/ ٢٤٨.
(٢) وصدره: أتشتمه ولست له بكفءٍ، وسلف ١٨/ ٢٥٤ و٥٣٩.

والتعجيز والتكذيب به بقولهم: متى هذا الوعدُ، وقولهم: أَمْطِرْ علينا حجارةً أو ائتنا بعذاب، ونحو ذلك.

﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم وسمَّاه وأثبته في اللوح ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المعيَّنُ لهم حَسْبَما استعجلوا به. وقال ابنُ جبير: المراد بالأجل يومُ القيامة؛ لما رُوي أنه تعالى وَعَدَ رسوله ﷺ أن لا يعذِّبَ قومه بعذابِ الاستئصال وأن يؤخِّر عذابهم إلى يوم القيامة[١].

وقال ابن سلام: المراد به أَجَلُ ما بين النفختين. وقيل: يومُ بدرٍ.

وقيل: وقتُ فنائهم بآجالهم. وفيه بعدٌ ظاهرٌ؛ لِمَا أنهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعيِّ، ولا كانوا يستعجلون به.

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مبيِّنةٌ لِمَا أُشير إليه في الجملة السابقة من مجيء العذاب عند حلول الأجل، أي: وبالله تعالى ليأتينَّهم العذابُ الذي عيِّن لهم عند حلول الأجل ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: بإتيانه.

ولعل المراد بإتيانه كذلك أنه لا يكون بطريق التعجيل عند استعجالهم والإجابةِ إلى مسؤولهم، فإن ذلك إتيانٌ برأيهم وشعورِهم، لا أنه يأتيهم وهم قارُّون آمنون لا يُخْطِرونه بالبال، كدأب بعضِ العقوبات النازلة على بعض الأمم بياتاً وهم نائمون، أو ضحًى وهم يلعبون[٢]؛ لِمَا أنَّ إتيان عذاب الآخرة وعذابِ يوم بدرٍ ليس من هذا القبيل؛ قاله بعضهم.

وقال آخرون: إتيانُه كذلك من حيث إنه غيرُ متوقَّعٍ لهم، ، وإتيانُ عذاب الآخرة ونحوِه كذلك؛ لإنكارِهم البعثَ وكذا عذاب القبر، أو اعتقادِهم شفاعةَ آلهتهم لهم في دَفْع العذاب عنهم، وكذا إتيان عذاب يوم بدرٍ؛ لأنهم لغرورهم كانوا لا يتوقَّعون غلبةَ المسلمين، ولا تخطر لهم ببالٍ على ما بيِّن في السِّيَر.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٠٥٣) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه، وفيه: «سألت ربِّي أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها» وأخرج نحوه مسلم (٢٨٩٠)، وأحمد (١٥٧٤) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) بعدها في الأصل: إلخ، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٧/ ٤٤، والكلام منه.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ استئنافٌ مسوقٌ لغايةِ تجهيلهم وركاكة رأيهم، وهو ظاهرٌ في أنَّ ما استعجلوه عذابُ الآخرة. وجملةُ «إنَّ جهنم» إلخ في موضع الحال، أي: يستعجلونك بالعذاب والحالُ أنَّ محلَّ العذاب الذي لا عذابَ فوقه محيطٌ بهم، كأنه قيل: يستعجلونك بالعذاب وإنَّ العذاب لمحيطٌ بهم، أي: سيحيطُ بهم، على إرادة المستقبل من اسم الفاعل، أو كالمحيط بهم الآن لإحاطة الكفر والمعاصي الموجبة إياه بهم، على أنَّ في الكلام تشبيهاً بليغاً، أو استعارةً، أو مجازاً مرسلاً، أو تجوُّزاً في الإسناد.

وقيل: إنَّ الكفر والمعاصي هي النارُ في الحقيقة، لكنها ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة.

والمرادُ بالكافرين: المستعجلون، ووُضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلَّة الحكم. أو جنسُ الكفرة، وهم داخلون فيه دخولاً أوَّليًّا.

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرفٌ لمضمَرٍ قد طُوي ذِكْرُه إيذاناً بغايةِ كثرته وفظاعته، كأنه قيل: يومَ يأتيهم ويجلِّلهم العذابُ الذي أُشير إليه بإحاطة جهنم بهم يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفي به المقالُ.

وقيل: ظرفٌ لـ «محيطة» على معنى: وإنَّ جهنم ستحيطُ بالكافرين يومَ يغشاهم العذاب.

﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: من جميع جهاتهم، فما ذُكر للتعميم كما في «الغدو والآصال»، قيل: وذِكْرُ الأرجل للدلالة على أنهم لا يَقرُّون ولا يجلسون، وذلك أشدُّ العذاب.

﴿وَيَقُولُ﴾ أي: الله عز وجل. وقيل: المَلَكُ الموكلُ بهم. وقرأ ابن كثير وابن عامر والبصريون: «ونقول» بنون العظمة(١)، وهو ظاهر في أنَّ القائل هو الله تعالى.

وقرأ أبو البرهسم: «وتقول» بالتاء(٢)، على أنَّ القائل جهنم، ونُسب القول إليها هنا كما نُسب في قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

---

(١) التيسير ص١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٣. وقرأ بالياء نافع والكوفيون.

(٢) البحر ٧/ ١٥٦.

وقرأ ابن مسعود وابن أبي عبلة: «ويقال» مبنيًا للمفعول[1].

﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: جزاءَ ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار، من السيئات التي من جملتها الاستعجالُ بالعذاب.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ نزلت على ما روي عن مقاتل والكلبيِّ في المستضعفين من المؤمنين بمكة أُمروا بالهجرة عنها، وعلى هذا أكثر المفسرين. وعمم بعضُهم الحكم في كلِّ مَن لا يتمكَّن من إقامة أمور الدِّين كما ينبغي في أرضٍ لممانعةٍ من جهة الكفرة أو غيرهم، فقال: تلزمُه الهجرة إلى أرض يتمكَّن فيها من ذلك، وروي هذا عن ابن جبير وعطاء ومجاهد ومالك بن أنس.

وقال مطرِّفُ بن الشخِّير: إنَّ الآية عِدَةٌ منه تعالى بسعةِ الرزق في جميع الأرض. وعلى القولين فالمراد بالأرض الأرض المعروفة.

وعن الجبائيِّ أنَّ الآية عِدَةٌ منه عز وجل بإدخال الجنةِ لمن أخلص له سبحانه العبادةَ، وفسَّر الأرض بأرض الجنة. والمعوَّلُ عليه ما تقدَّم.

والفاء في «فإياي» فاء التسبُّب عن قوله تعالى: (إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ) كما تقول: إنَّ زيداً أخوك فأكرمه، وكذلك لو قلتَ: إنه أخوك فإن أَمْكَنَكَ فأكرمه.

و«إياي» معمولٌ لفعلٍ محذوفٍ يفسِّره المذكور، ولا يجوز أن يكون معمولاً له لاشتغاله بضميره، وذلك المحذوف جزاءٌ لشرطٍ حُذف وعُوِّض عنه هذا المعمول. والفاء في «فاعبدون» هي الفاء الواقعة في الجزاء، إلا أنه لمَّا وَجَبَ حذفُه جُعِلَ المفسِّر المؤكِّد له قائماً مقامه لفظاً وأدخل الفاء عليه، إذ لا بدَّ منها للدلالة على الجزاء، ولا تدخل على معمول المحذوف أعني «إياي» وإن فُرض خلوُّه عن فاءٍ لتَمَحُّضه عوضاً عن فعل الشرط، فتعيَّن الدخول على المفسِّر، وأيضاً ليطابق المذكورُ المحذوفَ من كلِّ وجهٍ، ولزم أن يقدَّر الفعلُ المحذوفُ العاملُ في «إياي» مؤخَّراً لئلَّا يفوتَ التعويضُ عن فعل الشرط مع إفادة ذلك معنى الاختصاص والإخلاص، فالمعنى: إنَّ أرضي واسعةٌ فإنْ لم تُخْلِصوا لي العبادة في أرض فأخْلِصُوها لي في غيرها، وجُعل الشرط «إنْ لم تُخْلِصوا» لدلالة الجواب المذكور

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٨، والبحر ٧/ ١٥٦.

عليه، ولا مَنْعَ من أن تكون الفاء الأولى واقعةً في جواب شرطٍ آخَرَ ترشيحاً للسببية، على معنى: إنَّ أرضي واسعةٌ وإذا كان كذلك فإن لم تُخْلِصوا لي.. إلخ.

وقيل: الفاءُ الأولى جوابُ شرطٍ مقدَّرٍ، وأما الثانيةُ فتكريرٌ ليوافق المفسِّر المفسَّر، فيقال حينئذٍ: المعنى: إنَّ أرضي واسعةٌ إنْ لم تُخْلِصوا لي العبادة في أرضٍ فأَخْلِصوها لي في غيرها، وتكونُ جملة الشرط المقدَّرة أعني «إن لم تُخْلِصوا» إلخ مستأنفةً عَرِيَّةً عن الفاء. وما تقدَّم أبعدُ مغزًى.

وجَعَلَ بعضُ المحقِّقين الفاءَ الثانية لعَطْفِ ما بعدها على المقدَّر العامل في «إياي» قصداً لنحو الاستيعاب، كما في: خُذ الأحسنَ فالأحسن. وتعقِّب بأنه حينئذٍ لا يصلحُ المذكورُ مفسِّراً؛ لعدم جواز تخلُّلِ العاطف بين مفسِّرٍ ومفسَّرٍ البتة، وأما ما ذكره الإمام السكاكيُّ في قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل:٥١] من أنَّ الفاء عاطفةٌ، والتقدير: فإياي ارهبوا فارهبون[١]، فإنه أراد به أنها في الأصل كذلك لا في الحال، على ما حقَّقه صاحب «الكشف».

هذا وقد أطالوا الكلام في هذا المقام، وقد ذكرنا نبذةً منه في أوائل تفسير سورة البقرة[٢]، فراجِعْه مع ما هنا وتأمَّل، والله تعالى الهادي إلى سَواءِ السبيل.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ جملةٌ مستأنفةٌ جيء بها حثًّا على إخلاص العبادة والهجرةِ لله تعالى، حيث أفادت أنَّ الدنيا ليست دارَ بقاءٍ، وأنَّ وراءها دارَ الجزاء، أي: كلُّ نفسٍ من النفوس واجدةٌ مرارةَ الموت ومفارِقةٌ البدنَ ألبتةَ فلا بدَّ أن تذوقوه، ثم ترجعون إلى حُكْمِنا وجزائنا بحسب أعمالكم، فَمَنْ كانت هذه عاقبتُه فلا بدَّ له من التزوُّد والاستعداد. وفي قوله تعالى: (ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ) استعارةٌ لتشبيه الموتِ بأمرٍ كريهِ الطعم مُرِّه، والعدولُ عن: تَذُوقُ الموتَ، للدلالة على التحقُّق، و«ثم» للتراخي الزمانيِّ أو الرُّتْبي.

وقرأ أبو حيوة: «ذائقةٌ» بالتنوين «الموتَ» بالنصب[٣].

---

(١) مفتاح العلوم ص٢٥٠.
(٢) ١/ ٢٤٣.
(٣) البحر ٧/ ١٥٧.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: «تَرْجِعون» مبنيًّا للفاعل[١]، ورُوي [عن] عاصم: «يُرْجَعون» بياء الغيبة[٢].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي: لننزلنَّهم على وجه الإقامة، وجملةُ القسم وجوابِه خبر المبتدأ أعني «الذين»، ورُدَّ به وبأمثاله على ثعلب المانعِ من وقوع جملة القسم والمقسَمِ عليه خبراً للمبتدأ.

وقولُه تعالى: ﴿مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي: علاليَ وقصوراً جليلةً لا قصور فيها، وهي على ما روي عن ابن عباس من الدرِّ والزَّبَرْجَدِ والياقوت، مفعولٌ ثانٍ للتَّبْوِئة.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وعبدُ الله والربيعُ بنُ خُثيم وابنُ وثَّابٍ وطلحةُ وزيد بنُ عليٍّ وحمزةُ والكسائيُّ: «لَنُثْوِيَنَّهم» بالثاء المثلثة الساكنة بعد النون وإبدال الهمزة ياءً[٣]، من الثَّواء بمعنى الإقامة، فانتصابُ «غرفًا» حينئذٍ إمَّا بإجرائه مجرى لننزلنَّهم، فهو مفعولٌ به له، أو بنزع الخافض على أنَّ أصله: بغرفٍ، فلمَّا حُذف الجارُّ انتصب، أو على أنه ظرفٌ، والظرفُ المكانيُّ إذا كان محدوداً كالدار والغرفة لا يجوز نصبُه على الظرفية، إلا أنه أُجري هنا مجرى المبهَم توسُّعاً كما في قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] على ما فصِّل في النحو.

وروي عن ابن عامر أنه قرأ: «غُرُفاً» بضمِّ الراء[٤].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ﴾ صفة لـ «غرفاً» ﴿خَلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في الغَرف. وقيل: في الجنة ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: الأعمالَ الصالحة، والمخصوصُ بالمدح محذوفٌ ثقةً بدلالة ما قبله عليه، أي: نِعْمَ أجرُ العاملين الغرفُ أو أجرُهم. ويجوزُ كونُ التمييز محذوفاً، أي: نعم أجراً أجرُ العاملين.

---

(١) البحر ٧/ ١٥٧، وهي قراءة يعقوب من العشرة كما في النشر ٢/ ٣٤٣.

(٢) هي رواية أبي بكر عن عاصم كما في التيسير ص١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٣، والكلام وما بين حاصرتين من البحر ٧/ ١٥٧.

(٣) التيسير ص ١٧٤، والنشر٢/ ٣٤٣-٣٤٤ عن حمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة، والكلام من البحر٧/ ١٥٧.

(٤) البحر ٧/ ١٥٧.

وقرأ ابن وثّاب: «فنعم» بفاء الترتيب[١].

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ صفةٌ لـ «للعاملين»، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو نصبٌ على المدح. أي: صبروا على أذية المشركين وشدائدِ المهاجَرةِ، وغيرِ ذلك من المحن والمشاقِّ.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: ولم يتوكَّلوا فيما يأتون ويَذَرون إلَّا على الله تعالى.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا أمر[٢] المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة إلى المدينة قالوا: كيف نَقْدَمُ بلدةً ليس لنا فيها معيشةٌ؟ فنزلت[٣]. أي: وكم مِن دابَّةٍ لا تُطيقُ حَمْلَ رِزْقِها لضَعْفِها، أو لاتدَّخرهُ وإنَّما تُصبح ولا معيشةَ عندها.

عن ابن عيينة: ليس شيءٌ يَخْبَأ إلَّا الإنسان والنملة والفأرة.

وعن ابن عباس: لا يدَّخر إلا الآدميُّ والنملُ والفأرة والعَقْعَق. ويقال: للعَقْعَقِ مخابئُ إلا أنه ينساها.

وعن بعضهم: رأيتُ البلبل يحتكر في حضنيه. والظاهرُ عدمُ صحَّته، وذَكَر لي بعضُهم أنَّ أغلب الكوامن من الطير يدَّخر، والله تعالى أعلم بصحته.

﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ثم إنها مع ضَعْفِها وتوكُّلها وإياكم مع قوَّتكم واجتهادكم سواءٌ في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعالى؛ لأنَّ رزق الكلِّ بأسبابٍ هو عزَّ وجل المسبِّبُ لها وحده، فلا تخافوا على معاشكم بالمُهاجَرةِ. ولمَّا كان المراد إزالةَ ما في أوهامهم من الهجرة على أبلغ وجه قيل: «يرزقُها وإياكم» دون: يرزقُكم وإياها.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ البالغُ في السمع، فيسمع قولكم هذا ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ البالغُ في العلم، فيعلمُ ما انْطوتْ عليه ضمائركم.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٠، والبحر ٧/ ١٥٧، وينظر القراءات الشاذة ص١١٥.

(٢) في (م): لما روي أن النبي ﷺ أمر، والمثبت من الأصل وهو الصواب.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٣.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: أهلَ مكة ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره ولا التردُّدِ فيه، والاسمُ الجليل مرفوعٌ على الابتداء، والخبرُ محذوفٌ لدلالة السؤال عليه، أو على الفاعلية لفعلٍ محذوفٍ لذلك أيضاً.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ إنكارٌ واستبعادٌ من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه. والفاء للترتيب، أو واقعةٌ في جواب شرطٍ مقدَّرٍ، أي: إذا كان الأمرُ كذلك فكيف يُصْرَفون عن الإقرار بتفرُّده عزَّ وجلَّ في الألوهية مع إقرارهم بتفرُّده سبحانه فيما ذُكر من الخَلْقِ والتسخير؟!.

وقدَّر بعضُهم الشرطَ: فإنْ صَرَفَهم الهوى والشيطانُ، لمكانِ بناءِ «يؤفكون» للمفعول، ولعل ما ذكرناه أولى.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أنْ يبسُطَه له، لا غيرُه ﴿مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: يضيِّقُ عليه، والضمير عائدٌ على «من يشاء» الذي يُبْسَطُ له الرزق، أي: عائدٌ عليه مع ملاحظة متعلَّقه، فيكون المعنى أنه تعالى شأنُه يوسِّعُ على شخصٍ واحدٍ رزقَه تارةً ويضيِّقه عليه أخرى، والواو لمطلق الجمع فقد يتقدَّم التضييقُ على التوسيع.

أو عائدٌ على «مَن يشاء» بقَطْع النظر عن متعلَّقه، فالمراد: مَن يشاء آخرُ غيرُ المذكور، فهو نظير: عندي درهم ونصفُه، أي: نصفُ درهمٍ آخَرَ، وهذا قريبٌ من الاستخدام[1]، فالمعنى أنه تعالى شأنُه يوسِّع على بعضِ النَّاس ويضيِّقُ على بعض آخَرَ.

وقرأ علقمةُ: «ويُقَدِّر» بضمِّ الياء وفتح القاف وشدِّ الدال[2].

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ فيعلم أنَّ كلًّا من البَسْطِ والقَدْرِ في أيِّ وقتٍ يوافقُ الحكمةَ والمصلحةَ، فيفعل كلًّا منهما في وقته، أو: فيعلم مَن يليقُ ببَسْطِ الرزق فيبسطُه له، ومَن يليقُ بقدْره له فيقْدِرُ له.

---

(١) الاستخدام: هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٢) البحر ٧/ ١٥٨.

وهذه الآيةُ، أعني قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إلخ تكميلٌ لمعنى قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ لأنَّ الأول كلامٌ في المرزوق وعمومِه، وهذا كلامٌ في الرزق وبَسْطِه وقَتْرِه، وقولُه سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ إلخ معترِضٌ لتوكيد معنى الآيتين، وتعريضٌ بأنَّ الذين اعتمدتُم عليهم في الرزق مقرُّون بقُدْرتِنا وبقوَّتنا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨] قاله العلَّامة الطيبي(١).

وقال صاحب «الكشف» قدِّس سره: اعْتَرضَ ليفيدَ أنَّ الخالق هو الرازقُ، وأنَّ مَن أفاض ابتداءً وأَوْجَدَ أَوْلَى أن يقدِرَ على الإبقاء، وأكّد به ما ضمِّن في قوله عز وجل: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ معترفينَ بأنه عزَّ وجلَّ الموجِدُ للممكنات بأسرها أصولِها وفروعها(٢)، ثم إنهم يشركون به سبحانه بعضَ مخلوقاته الذي لا يكادُ يُتوهَّم منه القدرةُ على شيءٍ ما أصلاً.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إظهارِ الحجَّة واعترافهم بما يلزمهم. وقيل: حمده عليه الصلاة والسلام على العصمة مما هم عليه من الضلال، حيث أشركوا مع اعترافهم بأنَّ أصول النعم وفروعَها منه جلَّ جلالُه، فيكون كالحمد عند رؤية المبتلَى. وقيل: يجوز أن يكون حمداً على هذا وذاك.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٣﴾ ما يقولون، وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحةِ التوحيد، أو: لا يعقلون شيئاً من الأشياء، فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم هذا، فيُشْرِكون به سبحانه أخسَّ مخلوقاته، فـ «بل» إضرابٌ عن جَهْلِهم الخاصِّ في الإتيان بما هو حجةٌ عليهم إلى أنَّ ذلك لأنهم مسلوبو العقول، فلا يَبعُدُ عنهم مثلُه، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معترضٌ، وجَعَله الزمخشريُّ في سورة لقمان إلزاماً وتقريراً لاستحقاقه تعالى العبادة(٣).

---

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) في (م): وفرعها، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٤٦، والكلام منه.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٣٦، عند تفسير الآية (٢٥) من سورة لقمان.

وقيل: لا يعقلون ما تريدُ بتحميدك عند مقالهم ذلك. ولم يرتَضِه بعضُ المحقِّقين لخفائه وقلَّة جدواه، وتكلُّفِ توجيهِ الإضراب فيه.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارةُ تحقيرٍ، وكيف لا والدنيا لا تَزِنُ عند الله تعالى جناحَ بعوضة، فقد أخرج الترمذيُّ عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تَعْدِلُ عند الله تعالى جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شربةَ ماءٍ»[1].

وقال بعض العارفين: الدنيا أحقرُ من ذراعِ خنزيرٍ ميتٍ بالَ عليها كلبٌ بيدِ مجذومٍ. ويُعلم مما ذُكر حقارةُ ما فيها من الحياة بالطريق الأَوْلى.

﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: إلَّا كما يلهو ويلعب به الصبيان، يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعةً ثم يتفرَّقون عنه، وهذا من التشبيه البليغ.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لهي دارُ الحياةِ الحقيقيةِ، إذ لا يَعْرِضُ الموتُ والفناء لمن فيها، أو هي ذاتُها[2] حياةٌ للمبالغة. و«الحيوان» مصدرُ حَيَّ، سمِّي به ذو الحياة في غير هذا المحلّ، وأصله حَيَيان فقُلبت الياء الثانيةُ واواً على خلاف القياس، فلامُه ياءٌ، وإلى ذلك ذهب سيبويه[3].

وقيل: إنَّ لامه واوٌ نظراً إلى ظاهر الكلمة وإلى حَيْوَةَ[4] عَلَم رَجُلٍ، ولا حجَّة على كونه ياءً في حيِيَ[5]؛ لأنَّ الواو في مثله تُبدَلُ ياءً لكَسْرِ ما قبلها، نحو شَقِيَ من الشقوة.

وهو أبلغُ من الحياة لِمَا في بناء فَعَلان من معنى الحركة والاضطراب اللازمِ للحياة، ولذلك اختير عليها في هذا المقام المقتضي للمبالغة، وقد علمتَها في وصف الحياة الدنيا المقابلةِ للدار الآخرة.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ شرطٌ جوابُه محذوفٌ، أي: لو كانوا يعلمون لَمَا

---

(١) سنن الترمذي (٢٣٢٠). قال الترمذي: حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) في الأصل: في ذاتها.

(٣) الكتاب ٤/٤٠٦، والدر المصون ٩/٢٦.

(٤) في (م): حياة، والمثبت من الأصل والبحر ٧/١٥٨.

(٥) في (م): حي.

آثروا عليها الدنيا التي أصلُها عدمُ الحياة، ثم ما يحدث فيها من الحياة[١] عارضةٌ سريعةُ الزوال وشيكةُ الاضمحلال.

وكونُ «لو» للتمنِّي بعيدٌ.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ متَّصلٌ بما دلَّ عليه شرحُ حالهم، والركوبُ: الاستعلاءُ على الشيءِ المتحرِّك، وهو متعدٍّ بنفسه كما في «لتركبوها»، واستعمالُه هاهنا وفي أمثاله بـ «في» للإيذان بأنَّ المركوب في نفسه من قبيل الأمكنة، وحركتُه قسريةٌ غيرُ إرادية.

والفاء للتعقُّب، وفي الكلام معنى الغاية، فكأنه قيل: هم مصروفون عن توحيد الله تعالى مع إقرارهم بما يقتضيه، لاهون بما هو سريعُ الزوال، ذاهلون عن الحياة الأبدية، حتى إذا ركبوا في الفلك ولَقُوا الشدائدَ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: كائنين في صورةِ مَن أَخْلَصَ دينَه وملَّته أو طاعتَه من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله تعالى، ولا يَدْعون سواه سبحانه؛ لعِلْمِهم بأنه لا يكشفُ الشدائد إلا هو عزَّ وجل، وفيه تهكُّمٌ بهم[٢] سواءٌ أريد بالدِّين الملةُ أو الطاعةُ؛ أما على الأول فظاهرٌ، وأما على الثاني فلأنهم لا يستمرُّون على هذه الحال، فهي قبيحةٌ باعتبار المآل.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: فاجؤوا المعاودةَ إلى الشرك ولم يتأخَّروا عنها ولا وقتاً.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ الظاهر أنَّ اللام في الموضعين لامُ «كي»، أي: يشركون ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة النجاة بسبب شِرْكِهم، وليتمتَّعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادِّهم عليها، فالشركُ سببٌ لهذا الكفران، وأُدخلت لام «كي» على مسبَّبه لجعله كالغرض لهم منه، فهي لامُ العاقبة في الحقيقة.

وقيل: اللام فيهما لامُ الأمر، والأمرُ بالكفران والتمتُّع مجازٌ في التخلية

---

(١) بعدها في (م): فيها.
(٢) في (م): به، وهو خطأ.

والخذلان والتهديدِ، كما تقول عند الغضب على مَن يخالفك: افعل ما شئت، ويؤيِّده قراءة ابن كثير والأعمش وحمزة والكسائيِّ: «ولْيتمتَّعوا» بسكون اللام[(١)]، فإنَّ لام «كي» لا تسكَّنُ، وإذا كانت الثانيةُ لذلك لامَ الأمر فالأُولى مثلُها ليتَّضح العطفُ، وتخالُفُهما مُحْوِجٌ إلى التكلُّف بأن يكون المراد كما قال أبو حيان عطفَ كلامٍ على كلامٍ، لا عَطْفَ فعلٍ على فعلٍ[(٢)]. وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٦٦﴾ ـ أي: عاقبةَ ذلك حين يعاقَبون عليه يومَ القيامة ـ مؤيِّدٌ للتهديد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: بلدَهم ﴿حَرَمًا﴾ مكاناً حُرِّم فيه كثيرٌ مما ليس بمحرَّم في غيره من المواضع ﴿ءَامِنًا﴾ أهلُه عمَّا يسوءُهم من السبي والقتل، على أنَّ أَمْنَه كنايةٌ عن أمن أهله، أو على أن الإسناد مجازيٌّ، أو على أنَّ في الكلام مضافاً مقدَّراً، وتخصيصُ أهل مكة وإن أَمِنَ كلُّ مَن فيه حتى الطيورُ والوحوشُ لأنَّ المقصود الامتنانُ عليهم، ولأن ذلك مستمرٌّ في حقِّهم.

وأخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنَّ أهل مكة قالوا: يا محمد، ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافةَ أن يتخطَّفنا الناسُ لقلَّتنا، والعربُ أكثر منَّا، فمتى بلغهم أنَّا قد دخلنا في دينك اختُطِفْنا، فكلُّنا أكلةُ رأسٍ، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾[(٣)].

﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يُختَلَسون من حولهم قتلاً وسبياً؛ إذ كانت العرب حوله في تغاوُرٍ وتناهُبٍ، والظاهرُ أنَّ الجملة حاليةٌ بتقديرِ مبتدأ، أي: وهم يُتَخَطَّفُ.. إلخ.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي[(٤)]: أَبَعْدَ ظهور الحقِّ الذي لا ريبَ فيه، أو: أَبَعْدَ هذه النعمة المكشوفة وغيرِها بالصنم ـ وقيل: بالشيطان ـ يؤمنون ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾ وهي المستوجبةُ للشكر، حيث يشركون به تعالى غيرَه سبحانه.

---

(١) التيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٣٤٤ عن ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٢) البحر ٧/ ١٥٩.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٥٠ وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٤) في (م): أن، وهو تصحيف.

وتقديمُ الصلة في الموضعين للاهتمام بها؛ لأنها مصبُّ الإنكار، أو للاختصاص على طريق المبالغة؛ لأنَّ الإيمان إذا لم يكن خاصًّا لا يعتدُّ به، ولأنَّ كفران غيرِ نعمته عزَّ وجلَّ بجَنْبِ كُفْرانِها لا يعدُّ كفراناً.

وقرأ السلميُّ والحسن: «تؤمنون» و«تكفرون» بتاء الخطاب فيهما[١].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأنْ زَعَم أنَّ له سبحانه شريكاً، وكونُه كذباً على الله تعالى لأنه في حقِّه، فهو كقولك: كَذَب على زيد، إذا وَصَفه بما ليس فيه.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني الرسول أو الكتاب ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ أي: حين مجيئه إياه، وفيه تسفيهٌ لهم حيث لم يتأمَّلوا ولم يتوقَّفوا حين جاءهم، بل سارعوا إلى التكذيب أوَّلَ ما سمعوه.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: ثواءٌ وإقامةٌ لهم، أو مكانٌ يثوون فيه ويقيمون، والكلام على كلا الوجهين تقريرٌ لثوائهم في جهنم؛ لأنَّ الاستفهام فيه معنى النفي وقد دخل على نفيٍ، ونفيُ النفيِ إثباتٌ كما في قول جرير:

ألستُم خيرَ مَن ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راح[٢]

أي: أَلَا يستوجبون للثواء ـ أو المكانِ الذي يُثْوَى فيه ـ فيها وقد افتروا مثلَ هذا الكذب على الله تعالى، وكذَّبوا بالحقِّ مثلَ هذا التكذيب.

أو إنكارٌ[٣] واستبعادٌ لاجترائهم على ما ذُكر من الافتراء والتكذيب مع عِلْمِهم بحال الكفرة، أي: ألم يعلموا أنَّ في جهنم مثوًى للكافرين حتى اجترؤوا هذه الجرأة، وجَعْلُهم عالمينَ بذلك لوضوحه وظهوره فنزِّلوا منزلةَ العالِم به.

والتعريفُ في «الكافرين» على الأول للعهد، فالمرادُ بهم أولئك المحدَّثُ عنهم وهم أهلُ مكة، وأُقيمَ الظاهرُ مقام الضمير لتعليل استيجابهم المثوى، ولا ينافي كونَ ظاهره أنَّ العلةَ افتراؤهم وتكذيبهم لأنه لا يغايرُه، والتعليلُ يقبل التعدُّدَ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٥، والبحر ٧/ ١٥٩.

(٢) ديوان جرير ١/ ٨٩، وسلف ١٨/ ٤٣٢.

(٣) قوله: إنكار، معطوف على قوله: تقريرٌ لثوائهم...

وعلى الثاني للجنس، فالمرادُ مطلقُ جنس الكفرة ويدخل أولئك فيه دخولاً أوّليًا برهانيًا.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ في شأننا ومن أَجْلِنا ولوجهنا خالصاً، ففيه مضافٌ مقدَّرٌ. وقيل: لا حاجةَ إلى التقدير بحَمْلِ الكلام على المبالغة بجَعْلِ ذات الله سبحانه مستقَرًّا للمجاهدة. وأُطلقت المجاهدةُ لتعمَّ مجاهدةَ الأعادي الظاهرةَ والباطنةَ بأنواعهما.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سُبلَ السير إلينا والوصولِ إلى جنابنا، والمراد: لنزيدنَّهم هدايةً إلى سُبُلِ الخيرِ وتوفيقاً لسلوكها؛ فإنَّ الجهاد هدايةٌ أو مرتَّبٌ عليها، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧] وفي الحديث: «مَن عَمِلَ بما عَلِمَ ورَّثه الله تعالى عِلْمَ مالم يعلم»[١].

ومن الناس مَن أَوَّل «جاهَدوا» بأرادوا الجهاد، وأبقى «لنهدينَّهم» على ظاهره.

وقال السديُّ: المعنى: والذين جاهدوا بالثبات على الإيمان لنهدينَّهم سبلنا إلى الجنة.

وقيل: المعنى: والذين جاهدوا في الغزو لنهدينَّهم سبلَ الشهادة والمغفرة. وما ذُكر أوّلاً أَوْلَى.

والموصولُ مبتدأ وجملةُ القسم وجوابه خبرُه، نظير ما مرَّ من قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت:٥٨].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتَّصِفَ بجميع صفات الكمال الذي بلغتْ عظمتُه في القلوب ما بلغتْ ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ معيَّة النصرةِ والمعونةِ، وتقدُّمُ الجهادِ المحتاج لهما قرينةٌ قويةٌ على إرادة ذلك.

وقال العلَّامةُ الطيبيُّ: إنَّ قوله تعالى: (لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) قد طابق قوله سبحانه:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٥ من حديث أنس ﷺ، وذكر أن بعض الرواة سمع أحمد بن حنبل يذكر هذا الحديث عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فتوهم أنه ذكره عن النبيِّ ﷺ، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهو عن يزيد بن هارون، عن حميد، عن أنس. قال أبو نعيم: وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد.

(جَٰهَدُوا) لفظاً ومعنًى؛ أمَّا اللفظُ فمِن حيث الإطلاقُ في المجاهدة والمعيَّة، وأما المعنى فالمجاهدُ للأعداء يفتقر إلى ناصرٍ ومُعينٍ. ثم إنَّ جملة قوله عزَّ وجلَّ: (وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ) تذييلٌ للآية مؤكَّدٌ بكلمتي التوكيد، محلّى باسم الذات؛ ليُؤْذِنَ بأنَّ مَن جاهد بكلِّيته وشراشره في ذاته جلَّ وعلا تجلَّى له الربُّ عزَّ اسمُه [باسمه] الجامع في صفة النصرة والإعانة تجلِّياً تامًّا.

ثم إنَّ هذه خاتمةٌ شريفةٌ للسورة؛ لأنها مجاوِبةٌ لمفتتَحِها ناظرةٌ إلى فريدةِ قلادتها: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ لامحةٌ إلى واسطة عقدها ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وهي في نفسها جامعةٌ فاذة[1]. اهـ.

و«أل» في «المحسنين» يحتمل أن تكون للعهد، فالمرادُ بالمحسنين الذين جاهدوا، ووجهُ إقامة الظاهر مقام الضمير ظاهرٌ، وإلى ذلك ذهب الجمهورُ، ويحتمل أن يكون للجنس، فالمرادُ بهم مطلقُ جنسِ مَن أتى بالأفعال الحسنة، ويدخل أولئك دخولاً أوليًّا برهانيًّا. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسَّر «المحسنين» بالموحِّدين، وفيه تأييدٌ ما للاحتمال الثاني، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ الآيةَ قال ابنُ عطاء: ظنَّ الخلقُ أنهم يُتركون مع دعاوى المحبة ولا يطالَبون بحقائقها، وهي صبُّ البلاء على المحبِّ وتلذُّذه بالبلاء الظاهر والباطن. وهذا كما قال العارف ابن الفارض قدِّس سره:

وتعذيبُكم عَذْبٌ لَدَيَّ وجَوْرُكم ... عليَّ بما يقضي الهوى لكم عدلُ[2]

وذكروا أنَّ المحبة والمحنة توأمان، وبالامتحان يكرَمُ الرجل أو يهان.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٢) ديوان ابن الفارض ص١٣٥.

إشارةٌ إلى حال الكاذبين في دعوى المحبةِ، وهم الذين يُصْرَفون عنها بأذى الناس لهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قال ابن عطاء: أي: اطلبوا الرزق بالطاعة والإقبال على العبادة.

وقال سهل: اطلبوه في التوكُّل لا في المكسب، فإنَّ طلب الرزق فيه سبيلُ العوام.

﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أي: مهاجرٌ من نفسي ومن الكون إليه عز وجل. وقال ابن عطاء: أي: راجعٌ إلى ربِّي من جميع ما لي وعَلَيَّ. والرجوعُ إليه عز وجل بالانفصال عما دونه سبحانه، ولا يصحُّ لأحدٍ الرجوعُ إليه تعالى وهو متعلِّقٌ بشيءٍ من الكون، بل لابدَّ أن ينفصل من الأكوان أجمع.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ سئل الجنيد قدِّس سرُّه عن هذه الآية فقال: كلُّ شيءٍ يجتمع الناس عليه - إلَّا الذِّكرَ - فهو منكر.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ أشار سبحانه وتعالى إلى أنَّ(١) من اعتَمَدَ على غير الله عزَّ وجلَّ في أسباب الدنيا والآخرة، فهو منقطعٌ عن مراده غيرُ واصلٍ إليه، قال ابن عطاء: مَن اعتمد شيئاً سوى اللهِ تعالى كان هلاكُه في نَفْسِ ما اعتَمَدَ عليه، ومَن اتَّخذ سواه عزَّ وجلَّ ظهيراً قَطَعَ عن نفسه سبيلَ العصمة، ورُدَّ إلى حوله وقوَّته.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ دقائق المعارف لا يعرفُها إلا أصحابُ الأحوال العالمون به تعالى وبصفاته وسائرِ شؤونه سبحانه؛ لأنهم علماءُ المنهج. وذُكر أنَّ العالم على الحقيقة مَن يحجزُه عِلْمُه عن كلِّ ما يبيحه العلمُ الظاهر، وهذا هو المؤيَّدُ عقلُه بأنوار العلم اللدنِّي.

---

(١) قوله: أن، ساقط من (م).

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ ذُكر أنَّ حقيقة الصلاة حضورُ القلب بنعتِ الذكر، والمراقبة بنعت الفكر، فالذكرُ في الصلاة يطردُ الغفلةَ التي هي الفحشاء، والفكرُ يطردُ الخواطر المذمومةَ وهي المنكر. هذا في الصلاة، وبعدَها تَنْهَى هي إذا كانت صلاةً حقيقيةً، وهي التي انكشف فيها لصاحبها جمالُ الجبروت وجلالُ الملكوت، وقرَّتْ عيناه بمشاهدة أنوار الحقِّ جلَّ وعلا عن رؤية الأعمال والأعواض.

وقال جعفر الصادق ﷺ: الصلاةُ إذا كانت مقبولةً تَنْهَى عن مطالعات الأعمال والأعواض.

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال ابن عطاء: أي: ذكرُ اللهِ تعالى لكم أكبرُ من ذكركم له سبحانه؛ لأنَّ ذِكْرَه تعالى بلا علَّةٍ وذكرُكم مشوبٌ بالعلل والأمانيِّ والسؤال. وأيضاً ذِكْرُه تعالى صفتُه، وذِكْرُكم صفتُكم، ولا نسبةَ بين صفة الخالق جلَّ شأنُه وبين صفة المخلوق، وأين الترابُ من ربِّ الأرباب؟.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ عرائس حقائق القرآن لا تنكشف إلَّا لأرواح المقرَّبين من العارفين والعلماءِ الربانيين؛ لأنها أماكنُ أسرارِ الصفات، وأوعيةٌ لطائفِ كشوفِ الذات، قال الصادقُ على آبائه وعليه السلام: لقد تجلَّى الله تعالى في كتابه لعباده ولكن لا يبصرون.

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ قال سهل: إذا عُمِلَ بالمعاصي والبِدَع في أرضٍ فاخرجوا منها إلى أرضِ المطيعين. وكأنَّ هذا لئلا تنعكسَ ظلمةُ معاصي العاصين على قلوب الطائعين فيَكْسَلوا عن الطاعة. وذَكَروا أنَّ سفر المريد سببٌ للتخلية والتحلية، وإليه الإشارةُ بما أخرجه الطبرانيُّ والقضاعي، والشيرازيُّ في «الألقاب»، والخطيبُ وابنُ النجار والبيهقيُّ عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سافِروا تَصِحُّوا وتَغْنَموا»(١).

(١) المعجم الأوسط (٧٤٠٠)، ومسند الشهاب (٦٢٢)، وتاريخ بغداد ١٠/ ٣٨٧، والسنن الكبرى للبيهقي ٧/ ١٠٢، وعزاه للشيرازي وابن النجار السيوطي في الدر ٥/ ١٤٩، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٦/ ٢١٩٨. وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن الرداد، قال أبو حاتم: ليس بقوي. وقال أبو زرعة: لين، وقال ابن عدي: رواياته ليست =

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فلا يمنعنَّكم خوفُ الموت من السفر.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ فلا يمنعنَّكم عنه فَقْدُ الزادِ أو العجزُ عن حمله.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ قال ابن عطاء: أي: الذين جاهدوا في رضانا لنهدينَّهم إلى محلِّ الرضا. والمجاهدةُ كما قال: الافتقارُ إلى الله تعالى بالانقطاع عن كلِّ ما سواه.

وقال بعضهم: أي: الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف لنُوصِلَنَّ أسرارهم إلى اللطائف.

وقيل: أي: الذين جاهدوا نفوسَهم لأَجْلنا وطلباً لنا لنهدينَّهم سبلَ المعرفة بنا والوصولِ إلينا، ومَن عَرَفَ الله تعالى عَرَفَ كلَّ شيء، ومَن وصل إليه هان عنده كلُّ شيءٍ.

كان عبد الله بن المبارك يقول: مَن اعتاصَتْ عليه مسألةٌ فليسأل أهل الثغور عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. وجهادُ النفس هو الجهادُ الأكبر، نسألُ الله تعالى التوفيقَ لِمَا يحبُّ ويرضى والحفظَ التامَّ من كلِّ شرٍّ بحرمةِ حبيبه سيد البشر ﷺ.

= محفوظة، وقال الأزدي: لا يكتب حديثه. الميزان ٣/ ٦٢٣. وقال أبو حاتم كما في العلل لابنه ٢/ ٣٠٦: هذا حديث منكر.

وأخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/ ٤٥ عن ابن عمر بإسناد آخر بلفظ: «سافروا تصحوا وتسلموا»، وفيه عبد الله بن عيسى أبو علقمة المدني الأصم، قال ابن حبان: يروي عن نافع ومطرف بن عبد الله بن الأصم العجائب، ويقلب على الثقات الأخبار.

وله شاهد من حديث أبي هريرة عند أحمد (٨٩٤٥)، والقضاعي في الشهاب (٦٢٣). وآخر من حديث ابن عباس عند ابن عدي ٧/ ٢٥٢١، والبيهقي ٧/ ١٠٢. وثالث من حديث أبي سعيد الخدري عند ابن عدي ٣/ ١٢٩٢ وكلها ضعيفة، وينظر الكلام عليها في حاشية المسند.

وروي عن عمر موقوفاً عليه بلفظ: سافروا تصحُّوا، وهو في مصنف عبد الرزاق (٢٠٩٢٨)، ورجاله ثقات إلا أنه منقطع بين طاووس وبين عمر، وهو أصح شيءٍ في الباب.

(٣٠) سُورَةُ الرُّومِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا سِتُّونَ

سورة الروم من السور المكية التي تنزلَّت في بدء الدعوة الإسلامية لمعالجة قضايا العقيدة في إطارها العام من الإيمان بالله ، والكتب ، والرسل ، والإيمان بالبعث والجزاء بعد الفناء . سُميت سورةَ الروم لأن الله تعالى ذكر فيها معجزةً غيبية لم تكن قد حدثت بعد ، وهي انتصار دولة الروم على دولة الفرس في فترة سنواتٍ قليلة بعد ذلك الانتصار الكاسح الذي حققه الفرس على الروم ، وقدكان الرومُ أهلَ كتاب ودينُهم النصرانية ، وكان الفرسُ مجوساً يعبدون النار ولا يؤمنون بالله ، فلما انتصر الفرسُ على الروم فرح المشركون في مكة وشمتوا بالمسلمين وقالوا : أنتم والنصارى أهلُ كتاب ونحن وفارس وثنيّون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرنَّ عليكم فنزلت الآيات تبشِّرُ بقرب النصر للروم وغلبتهم على الفرس غلبةً يفرح لها المؤمنون الذين يودون انتصار ملة الإيمان على ملة الكفر والطغيان ﴿ آلم . غُلبتِ الرومُ في أدنى الأرضِ وهم من بعد غَلَبِهِمْ سيغلبون . في بضع سنينَ ، للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاءُ وهو العزيز الرحيم﴾ وقدكان هذا الحَدَثُ العظيم أمراً غيبياً لأنه إخبار عن المستقبل وقد وقع كما أخبر عنه القرآن فانتصر الروم على الفرس وبذلك تحقَّقت النبوءة وذلك من أعظم معجزات القرآن . تحدثت السورة الكريمة عن قضية الكفر والإيمان ، وعن حقيقة المعركة بين حزب الرحمن وحزب

الشيطان فالمعركة قديمةٌ بين الحق والباطل قدم هذه الحياة ، والحرب دائمة بين أولياء الله وأعداء الله ما دام هناك خيرٌ وشر ، وحقٌ وباطل ، وما دام الشيطان يحشد جموعه لمحاربة دعوة الرسل الكرام ، وفي هذا يقرر القرآن الكريم مصير المجرمين المكذبين والعاقبة الوخيمة التي نالتهم نتيجة الاستهزاء والتكذيب بآيات الله ﴿أو لم يسيروا في الأرضِ فينظروا كيفَ كان عاقبةُ الذين من قبلهم ، كانوا أشدَّ منهم قوةً ، وأثَارُوا الأرضَ وعَمَرُوها أكثرَ ممَّا عَمَرُوها ، وجاءتْهُمْ رسلُهمْ بالبيّناتِ فما كان اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولٰكنْ كانوا أنفُسَهُمْ يَظْلمون . ثم كان عاقبةَ الذين أساءوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾ وفضلاً عن هذا المصير المشئوم الذي وصل إليه أولئك المكذبون المعاندون فإن القيامة تنتظرهم وهناك الجزاء الكامل العادل الذي لا يُفلت منه أهل الشقاء والضلال ، حين ينقسم الناس فريقين : فريق الأبرار وفريق الفجار ، ثم تكون نتيجة هؤلاء المكذبين الخلود في النار ﴿ويومَ تقومُ السَّاعةُ يُبْلِسُ المجرمونَ . ولم يكَنْ لهم من شركائهم شفعاءُ وكانوا بشركائهم كافرين . ويومَ تقومُ الساعةُ يومئذٍ يتفرَّقُون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضةٍ يُحْبَرون . وأمّا الذين كفروا وكذَّبوا بآياتِنَا ولقاءِ الآخرةِ فأولئكَ في العذابِ مُحْضَرون﴾ وتلك نهاية المطاف ، وعاقبةُ المحسنين والمسيئين .

وتتحدث السورة الكريمة عن مشاهد الكون والحياة ، وعجائب قدرة الله في آياته المنبثة في هذا العالم الواسع ، إقامةً للبرهان على وجود الخالق العظيم ، ولفتاً للأنظار إلى آيات الله الواحد القهار ﴿فسبحان الله حين تُمْسون وحينَ تُصبحون . وله الحمدُ في السمواتِ والأرضِ وعَشِيّاً وحينَ تُظهرون . يُخْرِجُ الحيَّ من الميّتِ ، ويُخْرِجُ الميِّت من الحيِّ ، ويُحْيِي الأرضَ بعد موتها وكذلك تُخْرجون . ومن آياتِه أَنْ خَلَقكم من

تراب ثم إذا أنتم بشرٌ تَنْتَشِرُون . ومن آياتِه أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً ، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾ وبعد سرد الآيات الباهرة الدالة على وجود الله ووحدانيته في الآفاق والأنفس ، والنبات والحيوان ، تتحدث السورة عن إمكان البعث بعد الموت ، والحياة بعد الفناء ، وأنَّ الإعادة - بمنطق العقل - أهونُ من البدء ، وإنْ كان الكلُّ على الله هيناً ﴿وهو الذي يَبْدأُ الخَلْقَ ثم يُعيده وهو أهونُ عليه ، وله المَثَلُ الأعلى في السمواتِ والأرضِ ، وهو العزيز الحكيم﴾ ثم تضرب مثلاً لتوضيح بطلان الشرك بمثلٍ واقعي يدركه الصغير والكبير ، والعاقل والجاهل ، وهو أنهم لا يقبلون أن يشاركهم عبيدهم ومما ليكُهم في أموالهم التي رزقهم الله إياها مع أنهم أمثالُهم في البشرية ، فكيف يقبلون إشراك الأوثان في العبادةِ والتوجهِ مع الرحمن مع أنَّ الفارق واضح والبون شاسع ؟ ﴿ضربَ لكم مثلاً من أنفسكم هلْ لكمْ ممَّا مَلَكَتْ أيمانكم من شركاءَ فيما رزقناكم فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخيفتِكم أَنْفُسكم ، كذلك نُفَصِّل الآياتِ لقومٍ يعقلون﴾ .

وتنتقل السورة الكريمة للحديث عن طبائع البشر ، وما هم عليه من التقلب في السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، فإذا أصابتهم النعمة بطروا وتكبروا على الله ، وإذا نزلت بهم الشدة جزعوا والتجئوا إلى رحمة الله ﴿وإذا مسَّ الناسَ ضرٌ دَعَوْا ربَّهم منيبين إليه ، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريقٌ منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم فتمتَّعوا فسوف تعلمون . أم أنزلنا عليهم سُلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يُشركون . وإذا أذقنا الناسَ رحمةً فرحوا بها وإن تصبْهم سيئةٌ بما قدَّمتْ أيديهم إذا هم يقنطون أَوَ لَمْ يَرَوْا أنَّ الله يبُسُط الرزق لمن يشاء ويقدِر ؟ إن في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ . وتتحدث الآيات عن بعثة الرسل الكرام

بالمعجزات الباهرات ، ولكنَّ أهل الزيغ والضلال لا يؤمنون ولا يتدبرون ، ولا يكفّون عن إيذاء الرسل والصدِّ عن سبيل الله ، ثم تكون العاقبة ، بالانتقام من أهل الإجرام ﴿ ولقد أرسلنا مِنْ قبلكَ رُسُلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبيناتِ ، فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين﴾ ثم تمضي الآيات تتحدث عن رحمة الله لعباده بالمطر الذي تحيا به الأرض الميتة ، ويجعله مثلاً للإحياء بعد الإفناء ﴿ فانظُرْ إلى آثار رحمةِ اللهِ كيف يُحْيي الأرضَ بعدَ مَوْتِها ، إنَّ ذلكَ لَمُحْيي المَوْتى وهو على كل شيء قدير﴾ وتتحدث الآيات بعد ذلك عن طغيان كفار مكة وأنه لا تنفعهم الآياتُ والنُّذُر ، فمهما رأوا من الآيات لا يتعظون ولا يعتبرون لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون ﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأَوْه مُصفرّاً لظلُّوا من بعده يكفُرون فانك لا تسمع الموتى ولا تُسمع الصُّمَّ الدعاءَ إذا ولَّوْا مُدْبرين ، وما أنتَ بهادي الْعُمْيِ عن ضلالتهم ، إنْ تسمعُ إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ وتختم السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على ما يلقاه من الأذى حتى يأتي وعد الله ﴿ فاصبْر إن وعدَ الله حقٌ ولا يستخفنَّك الذين لا يوقنون﴾ وهكذا تختم السورة بالأمر بالصبر كما بدأت بوعد الله للمؤمنين بالنصر ليتناسق البدءُ والختام .

سورة الروم

[٦٩٧] أخرج الترمذي[١] عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾[٢] - إلى قوله - ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[٣] يعني بفتح الغين، وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه.

[٦٩٨] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال بلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين وهم بمكة قبل أن يخرج رسول الله [ﷺ] فيقولون الروم يشهدون أنهم أهل كتاب وقد غلبتهم المجوس وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل على نبيكم فكيف غلب المجوس الروم وهم أهل كتاب فسنغلبكم كما غلب فارس الروم فأنزل الله ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾[٤].

[٦٩٩] وأخرج ابن جرير نحوه عن عكرمة ويحيى بن يعمر وقتادة في الرواية الأولى على قراءة ﴿غَلَبَتِ﴾ بالفتح لأنها نزلت يوم غلبهم يوم بدر والثانية على قراءة الضم فيكون معناه وهم من بعد غلبتهم فارس سيغلبهم المسلمون حتى يصح معنى الكلام وإلا لم يكن له كبير معنى.

[٧٠٠] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال تعجب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾[٥].

[٧٠١] ك.. وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال كان يلبي أهل الشرك لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك فأنزل الله ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾[٦] الآية. وأخرج جويبر مثله عن داود بن أبي هند عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه.

* * *

---

[٦٩٧] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٩٣).
(٢) سورة الروم: الآية (١و٢).
(٣) سورة الروم: الآية (٥).
[٦٩٨] (٤) سورة الروم: الآية (١و٢).
[٧٠٠] (٥) سورة الروم: الآية (٢٧).
[٧٠١] (٦) سورة الروم: الآية (٢٨).

سورة الروم

ستون آية مكية [إلا آية ١٧ فمدنية، نزلت بعد الانشقاق]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾

وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين منه سبب النزول، فنقول: لما قال الله تعالى في السورة المتقدمة: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وكان يجادل المشركين بنسبتهم إلى عدم العقل كما في قوله: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وكان أهل الكتاب يوافقون النبي في الإله كما قال: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ [العنكبوت: ٤٧] أي: أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم في الأمور، فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق، بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب في المحب فيبتليه ويسلط عليه الأعادي، وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر قبل يوم الميعاد للمُعَادِي.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في افتتاح هذه السورة بحروف التهجي؟ فنقول: قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [طه: ١، ٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [السجدة: ١، ٢] ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢]، ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [يس: ١، ٢]، ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [ص: ١] إلا هذه السورة وسورتين أخريين ذكرناهما في العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما في موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور وهو أن السورة التي في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم بيانه في العنكبوت وهذه ذكر في أولها ما هو معجزة وهو الإخبار عن الغيب، فقدمت الحروف التي لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على

الاستماع، ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الأسماع.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أرض العرب، لأن الألف واللام للتعريف والمعهود عندهم أرضهم وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أية فائدة في ذكره مع أن قوله: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ بعد قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ لا يكون إلا من بعد الغلبة؟ فنقول: الفائدة فيه إظهار القدرة وبيان أن ذلك بأمر الله لأن من غلب بعد غلبه لا يكون إلا ضعيفًا، فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم فإذا غلبوا بعدما غلبوا، دل على أن ذلك بأمر الله، فذكر ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ ليتفكروا في ضعفهم ويتذكروا أنه ليس بزحفهم، وإنما ذلك بأمر الله تعالى وقوله: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ لبيان شدة ضعفهم، أي انتهى ضعفهم إلى أن وصل عدوهم إلى طريق الحجاز وكسروهم وهم في بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا إلى المدائن وبنوا هناك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم بإذن الله.

المسألة الثالثة: قال تعالى: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ قيل: هي ما بين الثلاثة والعشرة، أبهم الوقت مع أن المعجزة في تعيين الوقت أتم فنقول: السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها لنبيه وما أذن له في إظهارها لأن الكفار كانوا معاندين والأمور التي تقع في البلاد النائية تكون معلومة الوقوع بحيث لا يمكن إنكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف في كلامه ولما وردت الآية ذكر أبو بكر رضي الله عنه أن الروم ستغلب وأنكره أبي بن خلف وغيره، وناحبوا أبا بكر أي خاطروه على عشرة قلائص إلى ثلاث سنين فقال عليه السلام لأبي بكر: «**البضع ما بين الثلاثة والعشرة**» فزايده في الإبل وماده في الأجل فجعلا القلائص مائة والأجل سبعًا[(١)]، وهذا يدل على علم النبي عليه السلام بوقت الغلبة.

[**قوله تعالى**: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾].

ثم قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ أي: من قبل الغلبة ومن بعدها أو من قبل هذه المدة ومن بعدها، يعني إن أراد غلبهم غلبهم قبل بضع سنين وإن أراد غلبهم غلبهم بعدها، وما قدر هذه المدة لعجز وإنما هي إرادة نافذة، وبنيا على الضم لما قطعا عن الإضافة لأن غير الضمة من الفتحة والكسرة يشتبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر، أما النصب ففي قولك: جئت قبله أو بعده، وأما الجر ففي قولك: من قبله ومن بعده، فبُنِيَا على الضم لعدم دخول مثلهما عليه في الإعراب وهو الرفع ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ قيل: يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما

---

(١) أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٣٤٢)، حديث رقم (٣١٩١) من طريق محمد بن خالد بن عثمة حدثنا عبد الله بن عبد الله الجمحي حدثنا ابن شهاب الزهري عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس... فذكره.

وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب من حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس، وفي إسناده عبد الله بن عبد الرحمن الجمحي مجهول وقال ابن معين: لا أعرفه، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٧/ ٣٥٤)، حديث رقم (٣٣٥٤)، وقال: ضعيف.

فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم، والأصح أنهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لأن غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين ببدر، ولو كان المراد ما ذكروه لما صح لأن في ذلك اليوم بعينه لم يصل إليهم خبر الكسر فلا يكون فرحهم يومئذٍ بل الفرح يحصل بعده.

قوله تعالى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ قدم المصدر على الفعل حيث قال: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ﴾ وقدم الفعل على المصدر في قوله: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢] وذلك لأن المقصود ههنا بيان أن النصرة بيد الله إن أراد نصر وإن لم يرد لا ينصر، وليس المقصود النصرة ووقوعها، والمقصود هناك إظهار النعمة عليه بأنه نصره، فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل، ثم بين أن ذلك الفعل مصدره عند الله، والمقصود ههنا كون المصدر عند الله إن أراد فعل فقدم المصدر.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ذكر من أسمائه هذين الاسمين لأنه إن لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره، وإن نصر المحب فذلك لرحمته عليه، أو نقول إن نصر الله المحب فلعزته واستغنائه عن العدو ورحمته على المحب، وإن لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته في الآخرة واصلة إليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ يعني سيغلبون وعدهم الله وعدًا ووعد الله لا خلف فيه، قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون وعده وأنه لا خلف في وعده.

ثم قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني علمهم منحصر في الدنيا وأيضًا لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ والمعنى هم عن الآخرة غافلون، وذكرت هم الثانية لتفيد أن الغفلة منهم وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهذا كما يقول القائل لغيره: غفلت عن أمري، فإذا قال هو: شغلني فلان، فيقول: ما شغلك ولكن أنت اشتغلت.

ثم قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾ لما صدر من الكفار الإنكار بالله عند إنكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] والإنكار بالحشر كما

قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] بين أن الغفلة وعدم العلم منهم بتقدير الله وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهو (أن) أنفسهم لو تفكروا فيها لعلموا وحدانية الله وصدقوا بالحشر، أما الوحدانية فلأن الله خلقهم على أحسن تقويم، ولنذكر من حسن خلقهم جزأ من ألف ألف جزء وهو أن الله تعالى خلق للإنسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به أعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه، والآخر لخروج الطعام منه، فإذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لا يخرج منه ذرة ولا بالرشح، وتمسكه الماسكة إلى أن ينضج نضجًا صالحًا، ثم يخرج من المنفذ الآخر، وخلق تحت المعدة عروقًا دقاقًا صلابًا كالمصفاة التي يصفى بها الشيء فينزل منها الصافي إلى الكبد وينصب الثفل إلى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجهًا إلى الخروج، وما يدخل في الكبد من العروق المذكورة يسمى الماساريقا بالعبرية، والعبرية عربية مفسودة في الأكثر، يقال لموسى ميشا وللإله إيل إلى غير ذلك، فالماساريقا معناها ماساريق اشتمل عليه الكبد وأنضجه نضجًا آخر، ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة إلى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق وينذرق في العروق الدقاق المذكورة، وفي الكبد يستغني عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدبة الكبد إلى الكلية ومعه دم يسير تغتذي به الكلية وغيرها، ويخرج الدم الخالص من الكبد في عرق كبير، ثم يتشعب ذلك النهر إلى جداول، والجداول إلى سواق، والسواقي إلى رواضع ويصل فيها إلى جميع البدن، فهذه حكمة واحدة في خلق الإنسان، وهذه كفاية في معرفة كون الله فاعلاً مختارًا قادرًا كاملاً عالمًا شاملاً علمه، ومن يكون كذلك يكون واحدًا وإلا لكان عاجزًا عند إرادة شريكه ضد ما أراده. وأما دلالة الإنسان على الحشر فذلك لأنه إذا تفكر في نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال، وأجزاءه مائلة إلى الانحلال فله فناء ضروري، فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثًا، وإليه أشار بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وهذا ظاهر، لأن من يفعل شيئًا للعبث فلو بالغ في إحكامه وإتقانه يضحك منه، فإذا خلقه للبقاء ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لا بد منها، ثم إنه تعالى ذكر بعد دليل الأنفس دليل الآفاق فقال: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى وجه دلالتها على الوحدانية، وقد بينا ذلك في قوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤٤] ونعيده فإن التكرير في الذهن يفيد التقرير لذي الذهن، فنقول: إذا كان بالحق لا يكون فيها بطلان فلا يكون فيها فساد لأن كل فاسد باطل وإذا لم يكن فيها فساد لا تكون آلهة وإلا لكان فيها فساد كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يذكر بالأصل الآخر الذي أنكروه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ يعني لا يعلمون أنه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء إما في إسعاد أو شقاء.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قدم ههنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق، وفي قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] قدم دلائل الآفاق، وذلك لأن المفيد إذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فإن فهمه السامع المستفيد فذلك وإلا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة، وأما المستفيد فإنه يفهم أولاً الأبين، ثم يرتقي إلى فهم ذلك الأخفى الذي لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الأبين المذكور آخرًا، فالمذكور من المفيد آخرًا مفهوم عند السامع أولاً، إذا علم هذا فنقول ههنا الفعل كان منسوبًا إلى السامع حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ يعني فيما فهموه أولاً ولم يرتقوا إلى ما فهموه ثانيًا، وأما في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] الأمر منسوب إلى المفيد المسمع فذكر أولاً الآفاق فإن لم يفهموه فالأنفس لأن دلائل الأنفس لا ذهول للإنسان عنها، وهذا الترتيب مراعى في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] أي يعلمون الله بدلائل الأنفس في سائر الأحوال ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] بدلائل الآفاق.

المسألة الثانية: وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر، وأما وجه دلالته على الحشر فكيف هو؟ فنقول: وقوع تخريب السماوات وعدمها لا يعلم بالعقل إلا إمكانه، وأما وقوعه فلا يعلم إلا بالسمع، لأن الله قادر على إبقاء الحادث أبدًا كما أنه يبقي الجنة والنار بعد إحداثهما أبدًا، والخلق دليل إمكان العدم، لأن المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه العدم، فإذا أخبر الصادق عن أمر له إمكان وجب على العاقل التصديق والإذعان، ولأن العالم لما كان خلقه بالحق فينبغي أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لأن هذه الحياة ليست إلا لعبًا ولهوًا كما بين بقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وخلق السموات والأرض للهو واللعب عبث، والعبث ليس بحق وخلق السموات والأرض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه.

المسألة الثالثة: قال هاهنا: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وقال من قبل: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٦] وذلك لأنه من قبل لم يذكر دليلاً على الأصلين، وهاهنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولا شك في أن الإيمان بعد الدليل أكثر من الإيمان قبل الدليل، فبعد الدلائل لا بد من أن يؤمن من ذلك الأكثر جمع فلا يبقى الأكثر كما هو، فقال بعد إقامة الدليل: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ وقبله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ [الروم: ٦٠] ثم بعد الدليل الذي لا يمكن الذهول عنه، والدليل الذي لا يقع الذهول عنه وإن أمكن هو السموات والأرض لأن من البعيد أن يذهل الإنسان عن السماء التي فوقه والأرض التي تحته، ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمر أمثالهم وحكاية أشكالهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ

رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ
كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾
وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

وقال في الدليلين المتقدمين: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ [العنكبوت: ١٩، ٦٧] ولم يقل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ إذ لا حاجة هناك إلى السير بحضور النفس والسماء والأرض وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ . . . فَيَنظُرُوا۟﴾ ذكرهم بحال أمثالهم ووبال أشكالهم، ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لأن من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم تنفعهم قواهم وكانوا أكثر مالاً وعمارة، ولم يمنع عنهم الهلاكَ أموالُهم وحصونُهم، واعلم أن اعتماد الإنسان على ثلاثة أشياء: قوة جسمية فيه أو في أعوانه إذ بها المباشرة، وقوة مالية إذ بها التأهب للمباشرة، وقوة ظهرية يستند إليها عند الضعف والفتور وهي بالحصون والعمائر، فقال تعالى: كانوا أشد منهم قوة في الجسم وأكثر منهم مالاً لأنهم أثاروا الأرض أي حرثوها، ومنه: بقرة تثير الأرض، وقيل: منه سمي ثورًا، وأنتم لا حراثة لكم فأموالهم كانت أكثر، وعمارتهم كانت أكثر لأن أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة، وعمارة أهل مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهوهم، فلما كذبوا أهلكوا فكيف أنتم.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يعني لم يظلمهم بالتكليف، فإن التكليف شريف لا يؤثر له إلا محل شريف ولكن هم ظلموا أنفسهم بوضعها في موضع خسيس، وهو عبادة الأصنام واتباع إبليس، فكأن الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوا له وهو الربح، لأنه تعالى قال: خلقتكم لتربحوا علي لا لأربح عليكم، والوضع في [أيِّ] موضع كان الخلق له ليس بظلم، وأما هم فوضعوا أنفسهم في مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا إلا للربح فهم كانوا ظالمين، وهذا الكلام منا وإن كان في الظاهر يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله أهل السنة، وهو أن هذا الوضع كان بمشيئة الله وإرادته، لكنه كان منهم ومضافًا إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

كما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ قيل: معناه بأن كذبوا أي كان عاقبتهم ذلك بسبب أنهم كذبوا، وقيل معناه أساءوا وكذبوا، فـ(كذبوا) يكون تفسيرًا لـ(أساؤا) وفي هذه الآية لطائف: إحداها: قال في حق الذين أحسنوا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] وقال في حق من أساء: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ إشارة إلى أن الجنة لهم من ابتداء الأمر فإن الحسنى اسم الجنة والسوأى اسم النار، فإذا كانت الجنة لهم ومن الابتداء، ومن

له شيء كلما يزداد وينمو فيه فهو له، لأن ملك الأصل يوجب ملك الثمرة، فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين، وأما الذين أساءما، فالسوأى وهي جهنم في العاقبة مصيرهم إليها، الثانية: ذكر الزيادة في حق المحسن ولم يذكر الزيادة في حق المسيء لأن جزاء سيئة سيئة مثلها، الثالثة: لم يذكر في المحسن أن له الحسنى بأنه صدق، وذكر في المسيء أن له السوأى بأنه كذب، لأن الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ، وأما السوأى للمسيء عدل والعادل إذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلاً فذكر السبب في التعذيب وهو الإصرار على التكذيب، ولم يذكر السبب في الثواب.

ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

لما ذكر أن عاقبتهم إلى الجحيم وكان في ذلك إشارة إلى الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدأ الخلق، يعني من خلق بالقدرة والإرادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة فإليه ترجعون، ثم بين ما يكون وقت الرجوع إليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

في ذلك اليوم يتبين إفلاسهم ويتحقق إبلاسهم، والإبلاس يأس مع حيرة، يعني يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لا يأس هو إحدى الراحتين، وهذا لأن الطمع إذا انقطع باليأس فإذا كان المرجو أمرًا غير ضروري يستريح الطامع من الانتظار وإن كان ضروريًا بالإبقاء له بوونه ينفطر فؤاده أشد انفطار، ومثل هذا اليأس هو الإبلاس، ولنبين حال المجرم وإبلاسه بمثال، وهو أن نقول: مثله مثل من يكون في بستان وحواليه الملاعب والملاهي، ولديه ما يفتخر به ويباهي، فيخبره صادق بمجيء عدو لا يرده راد، ولا يصده صاد، إذا جاءه لا يبلعه ريقًا، ولا يترك له إلى الخلاص طريقًا، فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو مجنون: إن هذه الشجرة التي أنت تحتها لها من الخواص دفع الأعادي عمن يكون تحتها، فيقبل ذلك الغافل على استيفائه ملاذه معتمدًا على الشجرة بقول ذلك الصبي فيجيئه العدو ويحيط به، فأول ما يريه من الأهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيرًا آيسًا، مفتقرًا، فكذلك المجرم في دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبي الصادق بأن الله يجزيه، ويأتيه عذاب يخزيه، فقال له الشيطان والنفس الأمارة بالسوء: إن هذه الأخشاب التي هي الأوثان دافعة عنك كل بأس، وشافعة لك عند خمود الحواس، فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى إذا جاءته الطامة الكبرى فأول ما أرته إلقاء الأصنام في النار فلا يجد إلى الخلاص من طريق، ويحق عليه عذاب الحريق، فييأس حينئذٍ أي إياس ويبلس أشد إبلاس. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يعني يكفرون بهم ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ثم بين أمرًا آخر يكون في ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] فكأن هذه الحالة مترتبة على الإبلاس، فكأنه أولاً يبلس ثم يميز ويجعل فريق في الجنة وفريق في السعير، وأعاد قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيدًا للتخويف، ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهواله.

ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي في جنة يسرون بكل مسرة ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

يعني لا غيبة لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] وقال: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٥] وفي الآيتين مسائل فيها لطائف:

المسألة الأولى: بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع أن الموضع موضع ذكر المجرمين، وذلك لأن المؤمن يوصل إليه الثواب قبل أن يوصل إلى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل إلى الثواب قبل أن يوصل إلى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل إلى الثواب فيكون أنكى، ولو أدخل الكافر النار أولاً لكان يظن أن الكل في العذاب مشتركون، فقدم ذلك زيادة في إيلامهم.

المسألة الثانية: ذكر في المؤمن العمل الصالح ولم يذكر في الكافر العمل السيئ، لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح، وأما الكافر فهو في الدركات بمجرد كفره فلو قال: والذين كفروا وعملوا السيئات في العذاب محضرون، لكان العذاب لمن يصدر منه المجموع، فإن قيل: فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور في القسمين، فنقول: له منزلة بين المنزلتين لا على ما يقوله المعتزلة، بل هو في الأول في العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور، وفي الآخرة هو في الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد.

المسألة الثالثة: قال في الأول: ﴿فِى رَوْضَةٍ﴾ على التنكير، وقال في الآخر ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ على التعريف، لتعظيم الروضة بالتنكير، كما يقال لفلان مال وجاه، أي كثير وعظيم.

المسألة الرابعة: قال في الأول: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ بصيغة الفعل ولم يقل: محبورون، وقال في

الآخر: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ بصيغة الاسم ولم يقل: يحضرون، لأن الفعل ينبئ عن التجدد والاسم لا يدل عليه فقوله: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يعني يأتيهم كل ساعة أمر يسرون به. وأما الكفار فهم إذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين.

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

لما بين الله تعالى عظمته في الابتداء بقوله: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨] وعظمته في الانتهاء، وهو حين تقوم الساعة ويفترق الناس فريقين، ويحكم على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، أمر بتنزيهه عن كل سوء وبحمده على كل حال فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي سبحوا الله تسبيحًا.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في معنى سبحان الله ولفظه، أما لفظه ففعلان اسم للمصدر الذي هو التسبيح، سمي التسبيح بسبحان وجعل علمًا له. وأما المعنى فقال بعض المفسرين: المراد منه الصلاة، أي صلوا، وذكروا أنه أشار إلى الصلوات الخمس، وقال بعضهم: أراد به التنزيه، أي نزهوه عن صفات النقص وصفوه بصفات الكمال، وهذا أقوى والمصير إليه أولى، لأنه يتضمن الأول وذلك لأن التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب، وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك، وهو الذكر الحسن وبالأركان معهما جميعًا وهو العمل الصالح، والأول هو الأصل، والثاني ثمرة الأول والثالث ثمرة الثاني، وذلك لأن الإنسان إذا اعتقد شيئًا ظهر من قلبه على لسانه، وإذا قال ظهر صدقه في مقاله من أحواله وأفعاله، واللسان ترجمان الجنان والأركان برهان اللسان، لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان، وهي مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان، وهو تنزيه في التحقيق، فإذا قال: نزهوني، وهذا نوع من أنواع التنزيه، والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ما هو تنزيه فيكون أيضًا هذا أمرًا بالصلاة، ثم إن قولنا يناسب ما تقدم، وذلك لأن الله تعالى لما بين أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] قال: إذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والإيمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان، والعمل الصالح استعمال الأركان، والكل تنزيهات وتحميدات، فسبحان الله أي فأتوا بذلك الذي هو الموصل إلى الحبور في الرياض، والحضور على الحياض.

المسألة الثانية: خص بعض الأوقات بالأمر بالتسبيح وذلك لأن أفضل الأعمال أدومها، لكن

أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] والإنسان ما دام في الدنيا لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح، لكونه محتاجًا إلى أكل وشرب وتحصيل مأكول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى إلى أوقات إذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهي الأول والآخر والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح في أول الليل ووسطه، ولم يأمر بالتسبيح في آخر الليل لأن النوم فيه غالب والله منَّ على عباده بالاستراحة بالنوم، كما قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الروم: ٢٣] فإذا صلى في أول النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين إلى التسبيح، ثم إذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات أخر فصارت ست ساعات، وإذا صلى أربعًا في أواخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات، فإذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة إلى التسبيح وبقي من الليل والنهار سبع ساعات وهي ما بين نصف الليل وثلثيه لأن ثلثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات وما بينهما السبع، وهذا القدر لو نام الإنسان فيه لكان كثيرًا وإليه أشار تعالى بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: ٢-٤] وزيادة القليل على النصف هي ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة إلى النوم والنائم مرفوع عنه القلم، فيقول الله: عبدي صرف جميع أوقات تكليفه في تسبيحي فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم المزية التي ادعيتم بقولكم: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] على سبيل الانحصار بل هم مثلكم فمقامهم مثل مقامكم في أعلى عليين، واعلم أن في وضع الصلاة في أوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هيئاتها حكمة بالغة، أما في عدد الركعات فما تقدم من كون الإنسان يقظان في سبع عشرة ساعة ففرض عليه سبع عشرة ركعة، وأما على مذهب أبي حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو أقرب للتقوى، فنقول: هو مأخوذ من أن الإنسان ينبغي أن يقلل نومه فلا ينام إلا ثلث الليل مأخوذًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠] ويفهم من هذا أن قيام ثلثي الليل مستحسن مستحب مؤكد باستحباب ولهذا قال عقيبه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المزمل: ٢٠] ذكر بلفظ التوبة، وإذا كان كذلك يكون الإنسان يقظان في عشرين ساعة فأمر بعشرين ركعة، وأما النبي عليه السلام فلما كان من شأنه أن لا ينام أصلاً كما قال: «تَنَامُ عَيْنَايَ وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي»(١) جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فأمر به، وإلى هذا أشار تعالى في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦] أي كل الليل لك للتسبيح، فصار هو في أربع

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التهجد)، باب: (قيام النبي ﷺ بالليل في رمضان وغيره) (٣/ ٤٠)، حديث رقم (١١٤٧).

ومسلم في كتاب (صلاة المسافرين)، باب: (صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل) (١/ ١٢٥/ ٥٠٩) من طريق أبي سعيد المقبري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن. . . به.

وعشرين ساعة مسبحًا، فصار من الذين لا يفترون طرفة عين، وأما في أوقاته فما تقدم أيضًا أن الأول والآخر والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح في أول النهار وآخره، وأما الليل فاعتبر أوله ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه، وذلك لأن الظهر وقته نصف النهار والعشاء وقته نصف الليل لأنا بينا أن الليل المعتبر هو المقدار الذي يكون الإنسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقته في نصف هذا القدر وهو الثلاثة من الليل، وأما أبو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الآخرة إلى الرابعة والخامسة، ليكون في وسط الليل المعتبر، كما أن الظهر في وسط النهار، وأما النبي ﷺ لما كان ليله نهارًا ونومه انتباهًا قال: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ وَتَأْخِيرِ الْعِشَاءِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ»(١) ليكون الأربع في نصف الليل كما أن الأربع في نصف النهار، وأما التفصيل فالذي يتبين لي أن النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما في أول الليل ويؤدي ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح، ولما كان المؤدى من تسبيح النهار في أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل في أوله ركعة لأن سبح النهار طويل مثل ضعف سبح الليل، لأن المؤدى في النهار عشرة والمؤدى في الليل من تسبيح الليل خمس.

المسألة الثالثة: في فضيلة السبحلة والحمدلة في المساء والصباح، ولنذكرها من حيث النقل والعقل، أما النقل فأخبرني الشيخ الورع الحافظ الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسندًا عن النبي ﷺ أنه قال لبعض أصحابه: «أَتَعْجِزُ عَنْ أَنْ تَأْتِيَ وَقْتَ النَّوْمِ بِأَلْفِ حَسَنَةٍ؟ فَتَوَقَّفَ فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِائَةَ مَرَّةٍ يُكْتَبُ لَكَ بِهَا أَلْفُ حَسَنَةٍ». وسمعته يقول رحمه الله مسندًا: «مَنْ قَالَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ عَشْرَ مَرَّاتٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَعَشْرَ مَرَّاتٍ اللَّهُ أَكْبَرُ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ»(٢) وأما العقل فهو أن الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله، أما الأولى فهي صفات كمال وجلال خلافها نقص، فإذا أدرك المكلف الله بأنه لا يجوز أن يخفى عليه شيء لكونه عالمًا بكل شيء فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده، وإذا عرفه بأنه لا يعجز عن شيء لكونه قادرًا على كل شيء فقد نزهه عن العجز، وإذا علم أنه لا يجري في ملكه إلا ما يشاء لكونه مريدًا لكل كائن فقد وصفه ونزهه، وإذا ظهر له أنه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه، وإذا بان له أنه لا يسبقه العدم لاتصافه

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٢/ ٢٤٥)، حديث رقم (٧٣٣٥) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. . . به.

(٢) أخرجه النسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٢٠٥)، حديث رقم (١٠٦٥٦) من طريق يزيد قال أخبرنا العوام عن عطاء بن السائب عن أبيه عبد الله بن عمرو. . . فذكره.

وفي إسناده عطاء بن السائب اختلط وسماع العوام منه بعد الاختلاط، والله أعلم.

بالقدم فقد نزهه، وإذا لاح له أنه لا يجوز أن يكون عرضًا أو جسمًا أو في مكان لكونه واجبًا بريئًا عن جهات الإمكان فقد نزهه. لكن صفاته السلبية والإضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحد لأفنى فيها عمره ولا يدرك كنهها. فإذا قال قائل مستحضرًا بقلبه: سبحان الله، متنبهًا لما يقوله من كونه منزهًا له عن كل نقص فإتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الإجمال يقوم مقام إتيانه به على سبيل التفصيل، لكن لا ريب في أن من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة مما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا تفي به الأعمار، فيقول: هذا العبد أتى بتسبيحي طول عمره ومدة بقائه فأجازيه بأن أطهره عن كل ذنب وأزينه بخلع الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لا انتهاء لها، وكما أن العبد ينزه الله في أول النهار وآخره ووسطه، فإن الله تعالى يطهره في أوله وهو دنياه وفي آخره وهو عقباه وفي وسطه وهو حالة كونه في قبره الذي يحويه إلى أوان حشره وهو مغناه.

وأما الثانية وهو صفات الفعل فالإنسان إذا نظر إلى خلق الله السموات يعلم أنها نعمة وكرامة فيقول: الحمد لله، فإذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم أنها نعمة وكرامة فيقول: الحمد لله، وكذلك القمر وكل كوكب والأرض وكل نبات وكل حيوان يقول: الحمد لله، لكن الإنسان لو حمد الله على كل شيء على حدة لا يفي عمره به، فإذا استحضر في ذهنه النعم التي لا تعد كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ويقول: الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الإجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل، ويقول: عبدي استغرق عمره في حمدي وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فله على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم إن الإنسان إذا استغرق في صفات الله قد يدعوه عقله إلى التفكر في الله تعالى بعد التفكر في آلاء الله، فكل ما يقع في عقله من حقيقته فينبغي أن يقول: الله أكبر مما أدركه، لأن المدركات وجهات الإدراكات لا نهاية لها، فإن أراد أن يقول على سبيل التفصيل: الله أكبر من هذا الذي أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه وأكبر مما أدركته من وجه آخر يفني عمره ولا يفي بإدراك جميع الوجوه التي يظن الظان أنه مدرك لله بذلك الوجه، فإذا قال مع نفسه: الله أكبر، أي من كل ما أتصوره بقوة عقلي وطاقة إدراكي يكون متوغلاً في العرفان وإليه الإشارة بقوله:

الْـعَـجْـزُ عَـنْ دَرْكِ الْإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ[1]

فقول القائل المستيقظ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ» مفيد لهذه الفوائد، لكن شرطه أن يكون كلامًا معتبرًا وهو الذي يكون من صميم القلب لا الذي يكون من طرف اللسان.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ عطف على (حين) أي سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشيًا، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا

(١) هذا القول منسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدوا الله إذا سبحوه وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

المسألة الخامسة: قدم الإمساء على الإصباح هاهنا وأخره في قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢] وذلك لأن هاهنا أول الكلام ذكر الحشر والإعادة من قوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١١-١٦] وآخر هذه الآية أيضًا ذكر الحشر والإعادة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ والإمساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة.

المسألة السادسة: في تعلق إخراج الحي من الميت والميت من الحي بما تقدم عليه هو أن عند الإصباح يخرج الإنسان من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة، وعند العشاء يخرج الإنسان من اليقظة إلى النوم، واختلف المفسرون في قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فقال أكثرهم: يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان، وقال بعضهم: المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، ويمكن أن يقال المراد: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي اليقظان من النائم والنائم من اليقظان، وهذا يكون قد ذكره للتمثيل أي إحياء الميت عنده وإماتة الحي كتنبيه النائم وتنويم المنتبه.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ وفي هذا معنى لطيف وهو أن الإنسان بالموت تبطل حيوانيته وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩] لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والأرض الميتة لا يكون فيها نماء، ثم إن النائم بالانتباه يتحرك ويحس والأرض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وإنماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك إحياء الميت سهل عليه وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الأسواء وذكر أن الحمد له على خلق جميع الأشياء وبين قدرته على الإماتة والإحياء بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٩] ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الإنسان من تراب وتقريره هو أن التراب أبعد الأشياء عن درجة الأحياء، وذلك من حيث كيفيته فإنه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة، ومن حيث لونه فإنه كدر والروح نير، ومن حيث فعله فإنه ثقيل والأرواح التي بها الحياة خفيفة، ومن حيث السكون فإنه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة وإلى خلف وإلى قدام وإلى فوق وإلى أسفل، وفي الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الأجسام لأن العناصر أبعد من المركبات لأن المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لأن الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الأرواح والنار أقرب لأنها

كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فإنه ممتزج، وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهي مرتبة النبات الذي ينبت في الأرض ولا يبرز ولا يرتفع، ثم النباتات وأعلى مراتبها وهي مرتبة الأشجار التي تقبل التعظيم، ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهي مرتبة الحشرات التي ليس لها دم سائل ولا هي إلى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات، ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الإنسان فإن الأنعام ولا سيما الفرس تشبه العتال والحمال والساعي، ثم الإنسان، وأعلى مراتب الإنسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له، فالله الذي خلق من أبعد الأشياء عن مرتبة الأحياء حيًا هو في أعلى المراتب لا يكون إلا منزهًا عن العجز والجهل، ويكون له الحمد على إنعام الحياة، ويكون له كمال القدرة ونفوذ الإرادة فيجوز منه الإبداء والإعادة، وفي الآية لطيفتان إحداهما: قوله: ﴿ إِذَآ﴾ وهي للمفاجأة يقال: خرجت فإذا أسد بالباب وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بـ(كن) فكان لا أنه صار معدنًا ثم نباتًا ثم حيوانًا ثم إنسانًا، وهذا إشارة إلى مسألة حكمية، وهي أن الله تعالى يخلق أولاً إنسانًا فينبهه أنه يحيي حيوانًا ونامياً وغير ذلك لا أنه خلق أولاً حيوانًا، ثم يجعله إنسانًا فخلق الأنواع هو المراد الأول، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الإرادة الأولى، فالله تعالى جعل المرتبة الأخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التي ذكرناها، اللطيفة الثانية: قوله: ﴿ بَشَرٌ﴾ إشارة إلى القوة المدركة لأن البشر بشر لا بحركته، فإن غيره من الحيوانات أيضًا كذلك، وقوله: ﴿ تَنتَشِرُونَ﴾ إلى القوة المحركة وكلاهما من التراب عجيب، أما الإدراك فلكثافته وجموده، وأما الحركة فلثقله وخموده وقوله: ﴿ تَنتَشِرُونَ﴾ إشارة إلى أن العجيبة غير مختص بخلق الإنسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلاً عن خلق البشر.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: وهي أن الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال: ﴿ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: ما قيل: إن المراد من قوله: ﴿ خَلَقَكُم﴾ أنه خلق أصلكم، والثاني: أن نقول: إن كل بشر مخلوق من التراب، أما آدم فظاهر، وأما نحن فلأنا خلقنا من نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذي هو بالقوة بعض من الأعضاء، والغذاء إما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها، وإما من النبات، والحيوان أيضًا له غذاء هو النبات لكن النبات من التراب، فإن الحبة من الحنطة والنواة من الثمرة لا تصير شجرة إلا بالتراب وينضم إليها أجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو.

المسألة الثانية: قال تعالى في موضع آخر: ﴿خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] وقال: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨] وهاهنا قال: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ فكيف الجمع؟ قلنا: أما على الجواب الأول:

فالسؤال زائل، فإن المراد منه آدم، وأما على الثاني: فنقول ههنا قال ما هو أصل أول، وفي ذلك الموضع قال ما هو أصل ثان لأن ذلك التراب الذي صار غذاء يصير مائعًا وهو المني، ثم ينعقد ويتكون بخلق الله منه إنسانًا، أو نقول: الإنسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فإن التراب لا ينبت إلا بالماء ففي النبات الذي هو أصل غذاء الإنسان تراب وماء فإن جعل التراب أصلاً والماء لجمع أجزائه المتفتتة فالأمر كذلك وإن جعل الأصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلان فالأمر كذلك، فإن قال قائل: الله تعالى يعلم كل شيء فهو يعلم أن الأصل ماذا هو منهما، وإنما الأمر عندنا مشتبه يجوز هذا وذاك، فإن كان الأصل هو التراب فكيف قال: ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] وإن كان الماء فكيف قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وإن كانا هما أصلين فلم لم يقل: خلقكم منهما؟ فنقول: فيه لطيفة، وهي أن كون التراب أصلاً والماء أصلاً والماء ليس لذاتيهما، وإنما هو بجعل الله تعالى فإن الله نظرًا إلى قدرته كان له أن يخلق أول ما يخلق الإنسان ثم يفنيه ويحصل منه التراب ثم يذوبه ويحصل منه الماء، لكن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة إلى الكامل لا الكامل يكون وسيلة إلى الناقص فخلق التراب والماء أولاً، وجعلهما أصلين لمن هو أكمل منهما بل للذي هو أكمل من كل كائن وهو الإنسان، فإن كان كونهما أصلين ليس أمرًا ذاتيًا لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الأصل التراب وتارة الماء ليعلم أنه بإرادته واختياره، فإن شاء جعل هذا أصلاً وإن شاء جعل ذلك أصلاً، وإن شاء جعلهما أصلين.

المسألة الثالثة: قال الحكماء: إن الإنسان مركب من العناصر الأربعة وهي التراب والماء والهواء والنار، وقالوا: التراب فيه لثباته، والماء لاستمساكه، فإن التراب يتفتت بسرعة، والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب، والنار للنضج والالتئام بين هذه الأشياء، فهل هذا صحيح أم لا؟ فإن كان صحيحًا فكيف اعتبر الأمرين فحسب ولم يقل في موضع آخر: إنه خلقكم من نار ولا من ريح؟ فنقول أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا ننازعهم فيه إلا إذا قالوا بأنه بالطبيعة كذلك، وأما إن قالوا بأن الله بحكمته خلق الإنسان من هذه الأشياء فلا ننازعهم فيه، وأما الآيات فنقول: ما ذكرتم لا يخالف هذا لأن الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب، فالأصل الموجود أولاهما لا غير فلذلك خصهما ولأن المحسوس من العناصر في الغالب هو التراب والماء ولا سيما كونهما في الإنسان ظاهر لكل أحد فخص الظاهر المحسوس بالذكر.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

لما بين الله خلق الإنسان بين أنه لما خلق الإنسان ولم يكن من الأشياء التي تبقى وتدوم

سنين متطاولة أبقى نوعه بالأشخاص وجعله بحيث يتوالد، فإذا مات الأب يقوم الابن مقامه لئلا يوجب فقد الواحد ثلمة في العمارة لا تنسد.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩] وهذا يقتضي أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول: خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لإتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه إلينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى، أما النقل فهذا وغيره، وأما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها، وأما المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبي، لكن الصبي لم يكلف فكان يناسب أن لا تؤهل المرأة للتكليف، لكن النعمة علينا ما كانت تتم إلا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم، ولولا ذلك لظهر الفساد.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بعضهم قال: المراد منه أن حواء خلقت من جسم آدم، والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ويدل عليه قوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ يعني أن الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أي لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه.

المسألة الثالثة: يقال: سكن إليه، للسكون القلبي ويقال: سكن عنده، للسكون الجسماني، لأن كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للأجسام وإلى للغاية وهي للقلوب.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فيه أقوال قال بعضهم: مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكًا بقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢] وقال بعضهم: محبة حالة حاجة نفسه، ورحمة حالة حاجة صاحبه إليه، وهذا لأن الإنسان يحب مثلاً ولده، فإذا رأى عدوه في شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك، وما ذلك لسبب المحبة وإنما هو لسبب الرحمة ويمكن أن يقال: ذكر من قبل أمرين أحدهما: كون الزوج من جنسه، والثاني: ما تفضي إليه الجنسية وهو السكون إليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين أحدهما: يفضي إلى الآخر فالمودة تكون أولاً ثم إنها تفضي إلى الرحمة، ولهذا فإن الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يقال: المراد إن في خلق الأزواج لآيات، ويحتمل أن يقال في جعل المودة بينهم آيات أما الأول: فلا بد له من فكر لأن خلق الإنسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الإرادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو في خروج الولد من بطن الأم، فإن دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى إلى هلاك الأم وهلاك الولد أيضًا لأن الولد لو سل من موضع ضيق بغير إعانة الله لمات، وأما الثاني: فكذلك لأن الإنسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين

ذوي الأرحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فإنها قد تنتفي وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة في نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التي بها يدفع الإنسان المكاره عن حريم حرمه هي من عند الله ولا يعلم ذلك إلا بفكر .

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

لما بين دلائل الأنفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والأرض ، فإن بعض الكفار يقول في خلق البشر وغيره من المركبات : إنه بسبب ما في العناصر من الكيفيات وما في السموات من الحركات وما فيها من الاتصالات ، فإذا قيل له : فالسماء والأرض لم تكن لامتزاج العناصر واتصالات الكواكب ، فلا يجد بدًّا من أن يقول : ذلك بقدرة الله وإرادته ، ثم لما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الأنفس بالاختلاف الذي بين ألوان الإنسان فإن واحدًا منهم مع كثرة عددهم وصغر حجم خدودهم وقدودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات في الصورة ، والثاني : اختلاف كلامهم فإن عربيين هما أخوان إذا تكلما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى إن من يكون محجوبًا عنهما لا يبصرهما يقول : هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر ، وفيه حكمة بالغة وذلك لأن الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو إليه ، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه ، وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الأصوات ، وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة في معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز ، ومن الناس من قال : المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها ، والأول أصح ، ثم قال تعالى : ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ لما كان خلق السموات والأرض لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التي يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الألوان كذلك واختلاف الأصوات كذلك قال : ﴿ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ لعموم العلم بذلك .

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو اختلاف ذكر الأعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلبًا للرزق بالنهار ، فذكر من اللوازم أمرين ، ومن المفارقة أمرين .

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى : قوله : ﴿ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ قيل : أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهي

القيلولة، ثم قال: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم﴾ أي فيهما فإن كثيرًا ما يكتسب الإنسان بالليل، وقيل: أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض، ويدل عليه آيات أخر. منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا﴾ [الإسراء: ١٢] وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ [النبأ: ١٠، ١١] ويكون التقدير هكذا: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله، فأخر الابتغاء وقرنه في اللفظ بالفعل إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه، بل يرى كل ذلك من فضل ربه، ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من المواضع، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] وقوله: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النحل: ١٤].

المسألة الثانية: قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر، لأن الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون إلا لحاجة، فلا يتعب إلا محتاج في الحال أو خائف من المآل.

المسألة الثالثة: قال: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ وقال من قبل: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقال: ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ فنقول: المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله فلم يقل: آيات للعالمين، ولأن الأمرين الأولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الأمور المفارقة فالنظر إليهما لا يدوم لزوالهما في بعض الأوقات ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان، فإنهما يدومان بدوام الإنسان، فجعلهما آيات عامة، وأما قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فاعلم أن من الأشياء ما يعلم من غير تفكر، ومنها ما يكفي فيه مجرد الفكرة، ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج إلى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد إليه، فيفهمه إذا سمعه من ذلك المرشد، ومنها ما يحتاج إلى بعض الناس في تفهمه إلى أمثلة حسية كالأشكال الهندسية لكن خلق الأزواج لا يقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد الذكر، فإذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية، وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد، وقد يحتاج إلى مرشد بغير فكرة، فقال: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد.

قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٢٤﴾

لما ذكر العرضيات التي للأنفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التي للآفاق، وقال: ﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لما قدم دلائل الأنفس ههنا قدم العرضيات التي للأنفس وأخر العرضيات التي للآفاق كما أخر دلائل الآفاق، بقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم: ٢٢].

المسألة الثانية: قدم لوازم الأنفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولاً اختلاف الألسنة والألوان ثم المنام والابتغاء، وقدم في الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ﴾ وذلك لأن الإنسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة، وأما اللوازم فيه فقريبة. وأما السموات والأرض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم، فقدم ما هو أعجب لكونه أدخل في كونه آية ونزيده بيانًا فنقول: الإنسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لا يتغير وله لون يتميز عن غيره، وهو يتغير في الأحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة، والسماء والأرض ثابتان لا يتغيران، ثم يرى في بعض الأحوال أمطار هاطلة وبروق هائلة، والسماء كما كانت والأرض كذلك، فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمرًا مع تغير المحل ويزيل أمرًا مع ثبات المحل.

المسألة الثالثة: كما قدم السماء على الأرض قدم ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الأرض وهو الإنبات والإحياء.

المسألة الرابعة: كما أن في إنزال المطر وإنبات الشجر منافع، كذلك في تقدم البرق والرعد على المطر منفعة، وذلك لأن البرق إذا لاح، فالذي لا يكون تحت كن يخاف الابتلال فيستعد له، والذي له صهريج أو مصنع يحتاج إلى الماء أو زرع يسوي مجاري الماء، وأيضًا العرب من أهل البوادي فلا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب، واعلم أن فوائد البرق وإن لم تظهر للمقيمين بالبلاد فهي ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة، وآية، وأما كونه آية فظاهر فإن في السحاب ليس إلا ماء وهواء وخروج النار منها بحيث تحرق الجبال في غاية البعد فلا بد له من خالق هو الله، قالت الفلاسفة: السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة إلى الهواء والماء، فالهواء ألطف منه والماء أكثف فإذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كمساس جسم جسمًا بعنف، وهذا كما أن النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد، فإن قال قائل: الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان، فيقولون: لكن حركة يد الإنسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الأشجار، فنقول لهم: البرق والرعد أمران حادثان لا بد لهما من سبب، وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله، ثم إنا نقول: هب أن الأمر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الأمور الحادثة العجيبة لا بد من سبب وينتهي إلى واجب الوجود، فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك.

المسألة الخامسة: قال ههنا: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لما كان حدوث الولد من الوالد أمرًا عاديًا مطردًا قليل الاختلاف كان يتطرق إلى الأوهام العامية أن ذلك بالطبيعة، لأن المطرد أقرب إلى الطبيعة من المختلف، لكن البرق والمطر ليس أمرًا مطردًا غير متخلف إذ يقع ببلدة دون بلدة وفي وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار، فقال: هو آية لمن له عقل إن لم يتفكر تفكرًا تامًّا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

لما ذكر من العوارض التي للسماء والأرض بعضها، ذكر من لوازمها البعض وهي قيامها، فإن الأرض لثقلها يتعجب الإنسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد، وهذا من اللوازم، فإن الأرض لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه والسماء كذلك لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه فإن قيل: إنها تتحرك في مكانها كالرحى، ولكن اتفق العقلاء على أنها في مكانها لا تخرج عنه، وهذه آية ظاهرة لأن كونهما في الموضع الذي هما فيه وعلى الموضع الذي هما عليه من الأمور الممكنة، وكونهما في غير ذلك الموضع جائز، فكان يمكن أن يخرجا منه فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحًا للجائز على غيره، وذلك لا يكون إلا بفاعل مختار، والفلاسفة قالوا: كون الأرض في المكان الذي هي فيه طبيعي لها لأنها أثقل الأشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها في مكانها إن كانت ذات مكان فلذاتها فقيامهما فيهما بطبعهما، فنقول: قد تقدم مرارًا أن القول بالطبيعة باطل، والذي نزيده ههنا أنكم وافقتمونا بأن ما جاز على أحد المثلين جاز على المثل الآخر، لكن مقعر الفلك لا يخالف محدبه في الطبع فيجوز حصول مقعره في موضع محدبه، وذلك بالخروج والزوال، فإذن الزوال عن المكان ممكن لا سيما على السماء الدنيا فإنها محددة الجهات على مذهبكم أيضًا والأرض كانت تجوز عليها الحركة الدورية، كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس إلا بفاعل مختار.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الله من كل باب أمرين، أما من الأنفس فقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ استدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والأرض في قوله: ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومن لوازم الإنسان اختلاف اللسان واختلاف الألوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البروق والأمطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الأرض، لأن الواحد يكفي للإقرار بالحق والثاني: يفيد الاستقرار بالحق، ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فإن قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

المسألة الثانية: قوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بقوله: قوما، أو بإرادته قيامهما، وذلك لأن الأمر عند المعتزلة موافق للإرادة، وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع في الأمر الذي للتكليف لا في الأمر الذي للتكوين، فإنا لا ننازعهم في أن قوله: ﴿كُن﴾ و(كونوا) و﴿يَٰنَارُ كُونِى﴾ [الأنبياء: ٦٩] موافق للإرادة.

المسألة الثالثة: قال ههنا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ﴾ وقال قبله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ﴾ [الروم: ٢٤] ولم يقل: أن يريكم، وإن قال بعض المفسرين: إن (أن) مضمرة هناك معناه: من آياته أن

يريكم ليصير كالمصدر بأن، وذلك لأن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدرًا، لأن المستقبل ينبئ عن التجدد، وفي البرق لما كان ذلك من الأمور التي تتجدد في زمان دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيئًا من الحروف المصدرية.

المسألة الرابعة: ذكر ستة دلائل، وذكر في أربعة منها (إن في ذلك لآيات) ولم يذكر في الأول وهو قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] ولا في الآخر وهو قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أما في الأول فلأن قوله بعده: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ [الروم: ٢١] أيضًا دليل الأنفس، فخلق الأنفس وخلق الأزواج من باب واحد، على ما بينا، غير أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالتكرير، فإذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ كان عائدًا إليهما، وأما في قيام السماء والأرض فنقول في الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون لظهورها فلما كان في أول الأمر ظاهرًا ففي آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر، فلم يميز أحدًا عن أحد في ذلك، وذكر ما هو مدلوله وهو قدرته على الإعادة، وقال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

وفيها مسائل:

المسألة الأولى: ما وجه العطف بثم، وبم تعلق ثم؟ فنقول: معناه -والله أعلم- إنه تعالى إذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم أنه إذا قال للعظام الرميمة: اخرجوا من الأجداث، يخرجون أحياء.

المسألة الثانية: قول القائل: دعا فلان فلانًا من الجبل يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائل: يا فلان اصعد إلى الجبل، فيقال دعاه من الجبل، ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل: يا فلان انزل من الجبل، فيقال: دعاه من الجبل، ولا يخفى على العاقل أن الدعاء لا يكون من الأرض إذا كان الداعي هو الله، فالمدعو يدعى من الأرض يعني أنتم تكونون في الأرض فيدعوكم منها فتخرجون.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَنتُمْ﴾ قد بينا أنه للمفاجأة يعني يكون ذلك بكن فيكون.

المسألة الرابعة: قال ههنا ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، وقال في خلق الإنسان أولاً: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠] فنقول: هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه، فإذا هو بشر، وأما في الإعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج، فلم يقل ههنا (ثم).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التي هي الأصل الآخر، والوحدانية التي

هي الأصل الأول، أشار إليها بقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني لا شريك له أصلاً لأن كل من في السموات وكل من في الأرض، ونفس السموات والأرض له وملكه، فكل له منقادون قانتون، والشريك يكون منازعًا مماثلاً، فلا شريك له أصلاً ثم ذكر المدلول الآخر، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي في نظركم الإعادة أهون من الإبداء لأن من يفعل فعلاً أولاً يصعب عليه، ثم إذا فعل بعد ذلك مثله يكون أهون، وقيل: المراد هو هين عليه كما قيل في قول القائل: الله أكبر، أي كبير، وقيل: المراد هو أهون عليه أي الإعادة أهون على الخالق من الإبداء لأن في البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحمًا ثم عظمًا ثم يخلق بشرًا ثم يخرج طفلاً يترعرع إلى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله، وأما في الإعادة فيخرج بشرًا سويًّا بكن فيكون أهون عليه، والوجه الأول أصح وعليه نتكلم فنقول: (هو أهون) يحتمل أن يكون ذلك لأن في البدء خلق الأجزاء وتأليفها والإعادة تأليف ولا شك أن الأمر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة، ولنبين هذا فنقول الْهَيِّن هو ما لا يتعب فيه الفاعل، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى، فإذا قال قائل: إن الرجل القوي لا يتعب من نقل شعيرة من موضع، إلى موضع وسلم السامع له ذلك، فإذا قال: فكونه لا يتعب من نقل خردلة، يكون ذلك كلامًا معقولاً مبقي على حقيقته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي قولنا: هو أهون عليه، يفهم منه أمران أحدهما: هو ما يكون في الآخر تعب كما يقال: إن نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل، والآخر: هو ما ذكرنا من الأولوية من غير لزوم تعب في الآخر، فقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ إشارة إلى أن كونه أهون بالمعنى الثاني لا يفهم منه الأول وههنا فائدة ذكرها صاحب (الكشاف) وهي أن الله تعالى قال في موضع آخر: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١]وقال هاهنا: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ فقدم هناك كلمة (على) وأخرها هنا، وذلك لأن المعنى الذي قال هناك إنه هين هو خلق الولد من العجوز وأنه صعب على غيره وليس بهين إلا عليه فقال: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١] يعني لا على غيري، وأما ههنا المعنى الذي ذكر أنه أهون هو الإعادة والإعادة على كل مبدئ أهون فقال: وهو أهون عليه، لا على سبيل الحصر، فالتقديم هناك كان للحصر، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على الوجه الأول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة إليكم له معنى وعلى الوجه الذي ذكرناه له معنى أما على الوجه الأول فلما قال: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وكان ذلك مثلاً مضروبًا لمن في الأرض من الناس فيفيد ذلك أن له المثل الأعلى من أمثلة الناس وهم أهل الأرض ولا يفيد أن له المثل الأعلى من أمثلة الملائكة فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني هذا مثل مضروب لكم ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ من هذا المثل ومن كل مثل يضرب في السموات، وأما على الوجه الثاني فمعناه أن له المثل الأعلى أي فعله وإن شبهه بفعلكم ومثله به، لكن ذاته ليس كمثله شيء فله المثل الأعلى وهو منقول عن ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما. وقيل: المثل الأعلى أي الصفة العليا وهي لا إله إلا الله، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي كامل القدرة على الممكنات، شامل العلم بجميع الموجودات، فيعلم الأجزاء في الأمكنة ويقدر على جمعها وتأليفها.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٢٨﴾

لما بين الإعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليلين بين الوحدانية أيضًا بالمثل بعد الدليل، ومعناه أن يكون له مملوك لا يكون شريكًا له في ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد الله شركاء له؟! وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا؟!

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ينبغي أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما، ثم إن كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكدًا لمعنى المثل وقد يكون موهنًا له وههنا وجه المشابهة معلوم، وأما المخالفة فموجودة أيضًا وهي مؤكدة وذلك من وجوه أحدها: قوله: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ يعني ضرب لكم مثلاً من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها، وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها، وثانيها: قوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾ يعني عبدكم لكم عليهم ملك اليد وهو طارئ قابل للنقل والزوال، أما النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لا خروج له من ملك الله بوجه من الوجوه، فإذا لم يجز أن يكون مملوك يمينكم شريكًا لكم مع أنه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه، بل هو في الحال مثلكم في الآدمية حتى إنكم ليس لكم تصرف في روحه وآدميته بقتل وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة، فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذي هو مملوكه من جميع الوجوه شريكًا له، وثالثها: قوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ يعني الذي لكم هو في الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذي من الله فهو في الحقيقة له فإذا لم يجز أن يكون لكم شريك في مالكم من حيث الاسم، فكيف يجوز أن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة وقوله: ﴿فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ﴾ أي: هل أنتم ومماليككم في شيء مما تملكون سواء؟ ليس كذلك فلا يكون لله شريك في شيء مما يملكه، لكن كل شيء فهو لله فما تدعون إلهيته لا يملك شيئًا أصلاً ولا مثقال ذرة من خردل فلا يعبد لعظمته ولا لمنفعة تصل إليكم منه، وأما قولكم: هؤلاء شفعاؤنا، فليس كذلك، لأن المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الأحرار وإذا لم يكن للملوك مع مساواته إياكم في الحقيقة والصفة عندكم حرمة،

فكيف يكون حال المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من الوجوه وإلى هذا أشار بقوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

المسألة الثانية: بهذا نفى جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لأن الأغيار إذا لم يصلحوا للشركة فليس لهم ملك ولا ملك، فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا يرتجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى يعبدوا لنفع وليس لهم قوة وقدرة لأنهم عبيد والعبد المملوك لا يقدر على شيء فلا تخافوهم كما تخافون أنفسكم، فكيف تخافونهم خوفًا أكثر من خوفكم بعضًا من بعض حتى تعبدوهم للخوف.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي نبينها بالدلائل والبراهين القطعية والأمثلة والمحاكيات الإقناعية لقوم يعقلون، يعني لا يخفى الأمر بعد ذلك إلا على من لا يكون له عقل.

قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

أي لا يجوز أن يشرك بالمالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا شركاء من غير دليل، ثم بين أن ذلك بإرادة الله بقوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي هؤلاء أضلهم الله فلا هادي لهم، فينبغي أن لا يحزنك قولهم، وههنا لطيفة وهي أن قوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ مقو لما تقدم وذلك لأنه لما قال: لأن الله لا شريك له بوجه ما، ثم قال تعالى: بل المشركون يشركون من غير علم، يقال فيه: أنت أثبت لهم تصرفًا على خلاف رضاه والسيد العزيز هو الذي لا يقدر عبده على تصرف يخالف رضاه، فقال: إن ذلك ليس باستقلاله بل بإرادة الله وما لهم من ناصرين، لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لا يغني عنهم شيئًا فلا ناصر لهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي إذا تبين الأمر وظهرت الوحدانية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت أنت إليهم وأقم وجهك للدين، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي أقبل بكلك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] أي ذاته بصفاته، وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل ما

عداه، أي أقبل على الدين ومل عن كل شيء أي لا يكون في قلبك شيء آخر فتعود إليه، وهذا قريب من معنى قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١]ثم قال الله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي الزم فطرة الله وهي التوحيد فإن الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]فقالوا: بلى، وقوله تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ فيه وجوه، قال بعض المفسرين هذه تسلية للنبي ﷺعن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال: هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقيًا لا يسعد، وقيل: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي الوحدانية مترسخة فيهم لا تغير لها حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون: الله، لكن الإيمان الفطري غير كاف. ويحتمل أن يقال: خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أي ليس كونهم عبيدًا مثل كون المملوك عبدًا لإنسان فإنه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية، وهذا لبيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف، وقول المشركين: إن الناقص لا يصلح لعبادة الله، وإنما الإنسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله، وقول النصارى: إن عيسى كان يحل الله فيه وصار إلهًا، فقال: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الذي لا عوج فيه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك هو الدين المستقيم.

قوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

لما قال: ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن غيره قال: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي مقبلين عليه، والخطاب في قوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ مع النبي والمراد جميع المؤمنين، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُوهُ﴾ يعني إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي كونوا عابدين عند حصول القربة كما قلتم قبل ذلك، ثم إنه تعالى قال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قال المفسرون: يعني ولا تشركوا بعد الإيمان أي ولا تقصدوا بذلك غير الله، وههنا وجه آخر وهو أن الله بقوله: ﴿ مُنِيبِينَ﴾ أثبت التوحيد الذي هو مخرج عن الإشراك الظاهر وبقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أراد إخراج العبد عن الشرك الخفي أي لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ولا تطلبوا به إلا رضاء الله فإن الدنيا والآخرة تحصيل وإن لم تطلبوها إذا حصل رضا الله، وعلى هذا فقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ يعني لم يجتمعوا على الإسلام، وذهب كل أحد إلى مذهب، ويحتمل أن يقال: ﴿ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ يعني بعضهم عَبَدَ الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم للخلاص من النار، وكل واحد بما في نظره فرح، وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه، وإنما يكون فرحه بأن يحصل عند الله ويقف بين يديه وذلك لأن كل ما لدينا نافد

لقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وإنما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم ويكون ما أوتوا من فضله الذي لا نفاد له، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] لا بما عندهم فإن كل ما عند العبد فهو نافد، أما في الدنيا فظاهر، وأما في الآخرة فلأن ما وصل إلى العبد من الالتذاذ بالمأكول والمشروب فهو يزول، ولكن الله يجدد له مثله إلى الأبد من فضله الذي لا نفاد له فالذي لا نفاد له هو فضله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل، بين أن لهم حالة يعرفون بها، وإن كانوا ينكرونها في وقت وهي حالة الشدة، فإن عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع إلى الله، ويجد نفسه محتاجة إلى شيء ليس كهذه الأشياء طالبة به النجاة ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يعني إذا خلصناه يشرك بربه ويقول: تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلاني بفلان، وبسبب الصنم الفلاني، لا، بل ينبغي أن لا يعتقد أنه تخلص بسبب فلان إذا كان ظاهرًا فإنه شرك خفي، مثاله رجل في بحر أدركه الغرق فيهيئ له لوحًا يسوقه إليه ريح فيتعلق به وينجو، فيقول: تخلصت بلوح، أو رجل أقبل عليه سبع فيرسل الله إليه رجلاً فيعينه فيقول: خلصني زيد، فهذا إذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفي، وإن كان بمعنى أن الله خلصني على يد زيد فهو أخفى، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿أَذَاقَهُم﴾ فيه لطيفة وذلك لأن الذوق يقال في القليل فإن العرف (أن) من أكل مأكولاً كثيرًا لا يقول: ذقت، ويقال في النفي: ما ذقت في بيته طعامًا، نفيًا للقليل ليلزم نفي الكثير بالأولى، ثم إن تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن مستمرة في الآخرة إذ لهم في الآخرة عذاب قال: أذاقهم، ولهذا قال في العذاب: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨] ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] لأن عذاب الله الواصل إلى العبد بالنسبة إلى الرحمة الواصلة إلى عبيد آخرين في غاية القلة.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿مِّنْهُ﴾ أي من الضر في هذا التخصيص ما ذكرناه من الفائدة وهي أن الرحمة غير مطلقة لهم إنما هي عن ذلك الضر وحده، وأما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة.

المسألة الثالثة: قال هاهنا ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ وقال في العنكبوت: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ولم يقل: فريق، وذلك لأن المذكور هناك ضر معين، وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة إلى الخلق قليل، والذي لا يشرك به بعد الخلاص فرقة منهم

في غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقًا لقلة من خرج من المشركين، وأما المذكور ههنا الضر مطلقًا فيتناول ضر البر والبحر والأمراض والأهوال، والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا في ضر ما وتخلصوا منه، والذي لا يبقى بعد الخلاص مشركًا من جميع الأنواع إذا جمع فهو خلق عظيم، وهو جميع المسلمين فإنهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين، وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم، فلما كان الناجي من الضر من المؤمنين جمعًا كثيرًا، جعل الباقي فريقًا.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٤ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ۝٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قد تقدم تفسيره في العنكبوت، بقي بيان فائدة الخطاب ههنا في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ وعدمه هناك في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٦] فنقول: لما كان الضر المذكور هناك ضرًّا واحدًا جاز أن لا يكون في ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد، فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ولا يخلو موضع من المخلصين عن الضر، فالحاضر يصح خطابه بأنه منهم فخاطب.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ لما سبق قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم﴾ [الروم: ٢٩] أي المشركون يقولون ما لا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فإنهم وقت الضر يرجعون إلى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الإنكار، أي ما أنزلنا بما يقولون سلطانًا.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أم للاستفهام ولا يقع إلا متوسطًا، كما قال قائلهم:

أَيَا ظَبْيَةَ الْوَعْسَاءِ بَيْنَ جُلاَجِلٍ ... وبين النقا آأنت أَمْ أُمُّ سَالِمِ [(١)]

فما الاستفهام الذي قبله؟ فنقول: تقديره إذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فماذا نقول، أهم يتبعون الأهواء من غير علم؟ أم لهم دليل على ما يقولون؟ وليس الثاني فيتعين الأول.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ مجاز كما يقال: إن كتابه لينطق بكذا، وفيه معنى لطيف وهو أن المتكلم من غير دليل كأنه لا كلام له، لأن الكلام هو المسموع وما لا يقبل فكأنه لم يسمع فكأن المتكلم لم يتكلم به، وما لا دليل عليه لا يقبل، فإذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم الدليل وحسن جاز إثبات التكلم للدليل وحسن.

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر ذي الرمة وقد تقدم ترجمته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ لما بين حال المشرك الطاهر شركه بين حال المشرك الذي دونه وهو من تكون عبادته الله للدنيا، فإذا آتاه رضي وإذا منعه سخط وقنط ولا ينبغي أن يكون العبد كذلك، بل ينبغي أن يعبد الله في الشدة والرخاء، فمن الناس من يعبد الله في الشدة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ [الروم: ٣٣] ومن الناس من يعبده إذا آتاه نعمة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ والأول كالذي يخدم مكرها مخافة العذاب والثاني كالذي يخدم أجيرًا لتوقع الأجر وكلاهما لا يكون من المثبتين في ديوان المرتبين في الجرائد الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل أو لم يكن، فكذلك القسمان لا يكونان من المؤمنين الذين لهم رزق عند ربهم، وفيه مسألة: وهي أن قوله تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ إشارة إلى دنو همتهم وقصور نظرهم فإن فرحهم يكون بما وصل إليهم لا بما وصل منه إليهم، فإن قال قائل الفرح بالرحمة مأمور به في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨] وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة، فكيف ذلك؟ فنقول: هناك قال: فرحوا برحمة الله من حيث إنها مضافة إلى الله تعالى وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما إذا كان من الله، وهو كما أن الملك لو حط عند أمير رغيفًا على السماط أو أمر الغلمان بأن يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الأمير به، ولو أعطى الملك فقيرًا غير ملتفت إليه رغيفًا أو زبدية طعام أيضًا يفرح لكن فرح الأمير بكون ذلك من الملك وفرح الفقير بكون ذلك رغيفًا وزبدية.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لم يذكر عند النعمة سببًا لها لتفضله بها وذكر عند العذاب سببًا لأن الأول يزيد في الإحسان والثاني يحقق العدل. قوله ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ إذا للمفاجأة أي لا يصبرون على ذلك قليلاً لعل الله يفرج عنهم وإنه يذكرهم به.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾. أي لم يعلموا أن الكل من الله فالمحقق ينبغي أن لا يكون نظره على ما يوجد بل إلى من يوجد وهو الله، فلا يكون له تبدل حال، وإنما يكون عنده الفرح الدائم، ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق، ولذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين أن العبادة لا ينبغي أن تكون مقصورة على

حالة الشدة بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم﴾ [الروم: ٣٣] ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شيء من الدنيا كما هو عادة المدوكر المتسلس يعبد الله إذا كان في الخوانق والرباطات للرغيف والزبدية وإذا خلا بنفسه لا يذكر الله، بقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ وبين أنه ينبغي أن يكون، في حالة بسط الرزق وقدره عليه، نظره على الله الخالق الرازق ليحصل الإرشاد إلى تعظيم الله، والإيمان قسمان تعظيم لأمر الله وشفقة على خلق الله فقال بعد ذلك ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وفيه وجه آخر هو أن الله تعالى لما بين أن الله يبسط الرزق ويقدر، فلا ينبغي أن يتوقف الإنسان في الإحسان فإن الله إذا بسط الرزق لا ينقص بالإنفاق، وإذا قدر لا يزداد بالإمساك.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تخصيص الأقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم مع أن الله ذكر الأصناف الثمانية في الصدقات فنقول: أراد ههنا بيان من يجب الإحسان إليه على كل من له مال سواء كان زكويًا أو لم يكن، وسواء كان بعد الحول أو قبله لأن المقصود ههنا الشفقة العامة، وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم وإن لم يكن للمحسن مال زائد، أما القريب فتجب نفقته وإن كان لم تجب عليه زكاة كعقار أو مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فإن من لا شيء له إذا بقي في ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته، وإن لم يكن عليه زكاة، وكذلك من انقطع في مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها إيصاله إلى مأمن يلزمه ذلك، وإن لم تكن عليه زكاة والفقير داخل في المسكين لأن من أوصى للمساكين شيئًا يصرف إلى الفقراء أيضًا، وإذا نظرت إلى الباقين من الأصناف رأيتهم لا يجب صرف المال إليهم إلا على الذين وجبت الزكاة عليهم واعتبر ذلك في العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون، ثم اعلم أن على مذهب أبي حنيفة رحمه الله حيث قال: المسكين من له شيء ما، فنقول: وإن كان الأمر كذلك لكن لا نزاع في أن إطلاق المسكين على من لا شيء له جائز فيكون الإطلاق هنا بذلك الوجه، والفقير يدخل في ذلك بالطريق الأولى.

المسألة الثانية: في تقدم البعض على البعض فنقول: لما كان دفع حاجة القريب واجبًا سواء كان في شدة ومخمصة، أو لم يكن كان مقدمًا على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة إلا إذا كان في شدة، ولما كان المسكين حاجته ليست مختصة بموضع كان مقدمًا على من حاجته مختصة بموضع دون موضع.

المسألة الثالثة: ذكر الأقارب في جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذو القربى، ولم يذكر المسكين بلفظ ذي المسكنة، وذلك لأن القرابة لا تتجدد فهي شيء ثابت، وذو كذا لا يقال إلا في الثابت، فإن من صدر منه رأي صائب مرة أو حصل له جاه يومًا واحدًا أو وجد منه فضل في وقت يقال: ذو رأي وذو جاه وذو فضل، وإذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيرًا يقال له: ذو

الرأي وذو الفضل، فقال ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إشارة إلى أن هذا حق متأكد ثابت، وأما المسكنة فتطرأ وتزول ولهذا المعنى قال: ﴿مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[البلد: ١٦] فإن المسكين يدوم له كونه ذا متربة ما دامت مسكنته أو يكون كذلك في أكثر الأمر.

المسألة الرابعة: قال: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ ثم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم، لأن العبارة الثانية لكون صدور الكلام أولاً للتشريك والأولى لكون التشريك واردًا على الكلام، كأنه يقول: أعط ذا القربى حقه، ثم يذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى إذا قال الملك: خل فلان يدخل، وفلانًا أيضًا، يكون في التعظيم فوق ما إذا قال: خل فلانًا وفلانًا يدخلان، وإلى هذا أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «بئس خطيب القوم أنت»[1] حيث قال الرجل: من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى، ومن عصاهما فقد غوى، ولم يقل: ومن عصى الله ورسوله.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال: ذلك خير في نفسه، وإن لم يقس إلى غيره لقوله تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾[الحج: ٧٧] ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[البقرة: ١٤٨] والثاني أولى لعدم احتياجه إلى إضمار ولكونه أكثر فائدة لأن الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة، عند نزول درجة ما يقاس إليه، كما يقال: السكوت خير من الكذب، وما هو خير في نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع.

المسألة السادسة: قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل، فإن من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق برغيف لله، وقوله: ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي يكون عطاؤه لله لا غير، فمن أعطى للجنة لم يرد به وجه الله، وإنما أراد مخلوق الله.

المسألة السابعة: كيف قال: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ مع أن للإفلاح شرائط أخر، وهي المذكورة في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون: ١] فنقول: كل وصف مذكور هناك يفيد الإفلاح، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ﴾[المؤمنون: ٤] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[المؤمنون: ٨] إلى غير ذلك عطف على المفلح أي هذا مفلح، وذاك مفلح، وذاك الآخر مفلح لا يقال لا يحصل الإفلاح لمن يتصدق ولا يصلي، فنقول: هذا كقول القائل العالم مكرم أي نظرًا إلى علمه ثم إذا حد في الزنى على سبيل النكال وقطعت يده في السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل: إنما كان ذلك لأنه أتى بالفسق، فكذلك إيتاء المال لوجه الله يفيد

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الجمعة)، باب: (تخفيف الصلاة والخطبة) (٢/ ٥٩٤/ ٤٨)، وأبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (الرجل يخطب على قوس) (١/ ٤٧٤)، حديث رقم (١٠٩٩)، والنسائي في كتاب (النكاح)، باب: (مايكره من الخطبة) (٦/ ٣٩٨)، حديث رقم (٣٢٧٩)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢٥٦)، جميعًا من طريق سفيان. . . به.

الإفلاح، اللهم إلا إذا وجد مانع من ارتكاب محظور أو ترك واجب.

المسألة الثامنة: لِمَ لم يذكر غيره من الأفعال كالصلاة وغيرها؟ فنقول: الصلاة مذكورة من قبل لأن الخطاب هاهنا بقوله: ﴿فَـَٔاتِ﴾ مع النبي ﷺ وغيره تبع، وقد قال له من قبل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] وقال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [الروم: ٣١].

المسألة التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يفهم منه الحصر وقد قال في أول سورة البقرة: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] إشارة إلى من أقام الصلاة وآتى الزكاة، وآمن بما أنزل على رسوله وبما أنزل من قبله وبالآخرة، فلو كان المفلح منحصرًا في أولئك المذكورين في سورة البقرة فهذا خارج عنهم فكيف يكون مفلحًا؟ فنقول: هذا هو ذاك لأنا بينا أن قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ [الروم: ٤٣] متصل بهذا الكلام فإذا أتى بالصلاة وآتى المال وأراد وجه الله، فقد ثبت أنه مؤمن مقيم للصلاة مؤت للزكاة معترف بالآخرة فصار مثل المذكور في البقرة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ذكر هذا تحريضًا يعني أنكم إذا طلب منكم واحد باثنين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك لا يربو عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ فتربو حَتَّى تَصِيرَ مِثْلَ الْجَبَلِ»(١) فينبغي أن يكون إقدامكم على الزكاة أكثر. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي أولئك ذوو الأضعاف كالموسر لذي اليسار وأقل ذلك عشرة أضعاف كل مثل لما آتى في كونه حسنة لا في المقدار فلا يفهم أن من أعطى رغيفًا يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه أن ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشر مرات على وجه التفضل، فبالرغيف الواحد يكون له قصر في الجنة فيه من كل شيء ثوابًا نظرًا إلى الرحمة، وعشر قصور مثله نظرًا إلى الفضل. مثاله في الشاهد، ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها درهم لو عوضه بعشرة دراهم لا يكون كرمًا، بل إذا جرت عادته بأنه يعطي على مثل ذلك ألفًا، فإذا أعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب.

---

(١) أخرجه ابن بشران في (آماليه) (٢/ ٤٩٩)، حديث رقم (٩٣٧) من طريق القاسم بن جعفر حدثنا علي بن المثنى حدثني محمد بن الحسن حدثني سفيان بن سعيد عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة... به، والحديث أصله في الصحيح عند مسلم وغيره..

أخرجه مسلم في كتاب (الزكاة)، باب: «قبول الصدقة من الكسب الطيب» (٢/ ٦٣/ ٧٠٢)، والترمذي في كتاب (الزكاة)، باب: (في فضل الصدقة) (٣/ ٤٩)، حديث رقم (٦٦١)، والنسائي في كتاب (الزكاة)، باب: (الصدقة من غلول) (٥/ ٦٠)، حديث رقم (٢٥٢٤)، وابن ماجه في كتاب (الزكاة)، باب: (فضل الصدقة) (١/ ٥٩٠)، حديث رقم (١٨٤٢)، والحميدي في مسنده (٢/ ١١٥٤)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٣١/ ٤١٨/ ٤٣١/ ٥٣٨)، والدارمي في كتاب (الزكاة)، باب: (في فضل الصدقة) (١/ ٤٤٠)، حديث رقم (١٦٧٥)، وابن خزيمة في (صحيحه) (٤) حديث رقم (٢٤٢٢)، جميعًا من طريق سعيد بن يسار... به.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أي أوجدكم ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي أبقاكم، فإن العرض مخلوق وليس بمبقي ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ جمع في هذه الآية بين إثبات الأصلين الحشر والتوحيد، أما الحشر فبقوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ والدليل قدرته على الخلق ابتداء، وأما التوحيد فبقوله ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾. ثم قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فقوله: سبحانه، أي سبحوه تسبيحًا أي نزهوه ولا تصفوه بالإشراك، وقوله: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي لا يجوز عليه ذلك وهذا لأن من لا يتصف بشيء قد يجوز عليه فإذا قال: سبحوه، أي لا تصفوه بالإشراك، وإذا قال: وتعالى، فكأنه قال: ولا يجوز عليه ذلك.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وإذا كان الشرك سببه جعل الله إظهارهم الشرك مورثًا لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم: ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١] كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠] وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ واختلفت الأقوال في قوله: ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ فقال بعض المفسرين: المراد خوف الطوفان في البر والبحر، وقال بعضهم: عدم إنبات بعض الأراضي وملوحة مياه البحار، وقال آخرون: المراد من البحر المدن، فإن العرب تسمي المدائن بحورًا لكون مبنى عمارتها على الماء، ويمكن أن يقال: إن ظهور الفساد في البحر قلة مياه العيون فإنها من البحار، واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون في العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقًا وعصيانًا وذلك لأن المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس، فالفاسق مشرك بالله بفعله، غاية ما في الباب أن الشرك بالفعل لا يوجب الخلود لأن أصل المرء قلبه ولسانه، فإذا لم يوجد منهما إلا التوحيد يزول الشرك البدني بسببهما، وقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ قد ذكرنا أن ذلك ليس تمام جزائهم وكل موجب افترائهم، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني كما يفعله المتوقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن من أضله لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شيء من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع، كما أن السيد إذا علم من عبده أنه لا يرتدع بالكلام، فيقول القائل: لماذا لا تؤدبه بالكلام؟ فإذا قال: لا ينفع، ربما يقع في وهمه أنه لا يبعد عن نفع، فإذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قلبه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

لما بين حالهم بظهور الفساد في أحوالهم بسبب فساد أقوالهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي قوم نوح وعاد وثمود، وهذا ترتيب في غاية الحسن وذلك لأنه في وقت الامتنان والإحسان قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾[الروم: ٤٠] أي آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[الروم: ٤١] أي قلل رزقكم، ثم قال تعالى: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي هو أعدمكم كما أعدم من قبلكم، فكأنه قال: أعطاكم الوجود والبقاء، ويسلب منكم الوجود والبقاء، وأما سلب البقاء فبإظهار الفساد، وأما سلب الوجود فبالإهلاك، وعند الإعطاء قدم الوجود على البقاء، لأن الوجود أولاً ثم البقاء، وعند السلب قدم البقاء، وهو الاستمرار ثم الوجود.

وقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ يحتمل وجوهًا ثلاثة أحدها: أن الهلاك في الأكثر كان بسبب الشرك الظاهر وإن كان بغيره أيضًا كالإهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت، الثاني: أن كل كافر أهلك لم يكن مشركًا بل منهم من كان معطلاً نافيًا لكنهم قليلون، وأكثر الكفار مشركون، الثالث: أن العذاب العاجل لم يختص بالمشركين حين أتى، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[الأنفال: ٢٥] بل كان على الصغار والمجانين، ولكن أكثرهم كانوا مشركين.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

لما نهى الكافر عما هو عليه، أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبي عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فإنه أمر به أشرف الأنبياء، وللمؤمنين في التكليف مقام الأنبياء كما قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ عِبَادَهُ الْمُرْسَلِينَ» وقد ذكرنا معناه، وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يحتمل وجهين الأول: أن يكون قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ متعلقًا بقوله: ﴿يَأْتِيَ﴾ والثاني: أن يكون المراد ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي الله لا يرد وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يتفرقون. ثم أشار إلى التفرق بقوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ ولم يقل: ومن آمن، وذلك لأن

العمل الصالح به يكمل الإيمان فذكره تحريضًا للمكلف عليه، وأما الكفر إذا جاء فلا زنة للعمل معه، ووجه آخر: وهو أن الكفر قسمان: أحدهما: فعل وهو الإشراك والقول به، والثاني: ترك وهو عدم النظر والإيمان فالعاقل البالغ إذا كان في مدينة الرسول ولم يأت بالإيمان فهو كافر سواء قال بالشرك أو لم يقل، لكن الإيمان لا بد معه من العمل الصالح، فإن الاعتقاد الحق عمل القلب، وقول: لا إله إلا الله، عمل اللسان وشيء منه لا بد منه.

المسألة الثانية: قال: ﴿فَعَلَيْهِ﴾ فوحد الكناية وقال: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ﴾ جمعها إشارة إلى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته، أما الغضب فمسبوق بالرحمة، لازم لمن أساء.

المسألة الثالثة: قال: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ ولم يبين وقال في المؤمن: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ تحقيقًا لكمال الرحمة فإنه عند الخير بين وفصل بشارة، وعند غيره أشار إليه إشارة.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ذكر زيادة تفصيل لما يمهده المؤمن لفعله الخير وعمله الصالح، وهو الجزاء الذي يجازيه به الله والملك إذا كان كبيرًا كريمًا، ووعد عبدًا من عباده بأني أجازيك يصل إليه منه أكثر مما يتوقعه ثم أكده بقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ يعني: أنا المجازي فكيف يكون الجزاء، ثم إني لا أجازيك من العدل وإنما أجازيك من الفضل، فيزداد الرجاء، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أوعدهم بوعيد ولم يفصله لما بينا وإن كان عند المحقق هذا الإجمال فيه كالتفصيل، فإن عدم المحبة من الله غاية العذاب، وأفهم ذلك ممن يكون له معشوق فإنه إذا أخبر العاشق بأنه وعدك بالدراهم والدنانير كيف تكون مسرته، وإذا قيل له: إنه قال: إني أحب فلانًا كيف يكون سروره.

وفيه لطيفة وهي أن الله عندما أسند الكفر والإيمان إلى العبد قدم الكافر فقال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ [الروم: ٤٤] وعندما أسند الجزاء إلى نفسه قدم المؤمن فقال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأن قوله ﴿مَن كَفَرَ﴾ في الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ لتحريض المؤمن، فالنهي كالإيعاد والتحريض للتقرير، والإيعاد مقدم عند الحكيم الرحيم، وأما عندما ذكر الجزاء بدأ بالإحسان إظهارًا للكرم والرحمة، فإن قال قائل: هذا إنما يصح أن لو كان الذكر في كل موضع كذلك وليس كذلك فإن الله كثير من المواضع قدم إيمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الإثابة، فنقول: إن كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه، ونحن نقول بأن كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة، وما ذكر على خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن فلنبين من جملته مثالاً وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ [الروم: ١٥] قدم المؤمن على الكافر، وههنا ذكر مثل ذلك المعنى في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن

فنقول: هناك أيضًا قدم الكافر في الذكر لأنه قال من قبل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢] فذكر الكافر وإبلاسه، ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] فكان ذكر المؤمن وحده لا بد منه ليبين كيفية التفرق بمجموع قوله: ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢] وقوله في حق المؤمن: ﴿فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الروم: ١٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح، لما ذكرنا غير مرة أن الكريم لا يذكر لإحسانه عوضًا، ويذكر لأضراره سببًا لئلا يتوهم به الظلم فقال: ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ قيل: بالمطر كما قال تعالى: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] أي قبل المطر ويمكن أن يقال: مبشرات بصلاح الأهوية والأحوال، فإن الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ عطف على ما ذكرنا، أي ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الأبدان ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بالمطر، وقد ذكرنا أن الإذاقة تقال في القليل، ولما كان أمر الدنيا قليلًا وراحتها نزر قال: ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾، وأما في الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لما أسند الفعل إلى الفلك عقبه بقوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي الفعل ظاهرًا عليه ولكنه بأمر الله، ولذلك لما قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ مسندًا إلى العباد ذكر بعده ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي لا استقلال لشيء بشيء.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في الترتيب فنقول: في الرياح فوائد، منها إصلاح الهواء، ومنها إثارة السحاب، ومنها جريان الفلك بها فقال: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بإصلاح الهواء فإن إصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الأمطار بعده، ثم جريان الفلك فإنه موقوف على اختبار من الآدمي بإصلاح السفن وإلقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها.

المسألة الثانية: قال في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ . . . لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١] وقال هاهنا: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فخاطب هـهنا تشريفًا ولأن رحمته قريب من المحسنين فالمحسن قريب فيخاطب والمسيء بعيد فلم يخاطبهم، وأيضًا قال هناك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ وقال هاهنا: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فأضاف ما أصابهم إلى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن إلى رحمته وفيه معنيان: أحدهما: ما ذكرنا أن الكريم لا يذكر لإحسانه ورحمته عوضًا، وإن وجد فلا يقول: أعطيتك لأنك فعلت كذا، بل يقول: هذا لك مني. وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد

عندي، وثانيهما: أن ما يكون بسبب فعل العبد قليل، فلو قال: أرسلت الرياح بسبب فعلكم، لا يكون بشارة عظيمة، وأما إذا قال: ﴿مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ كان غاية البشارة، ومعنى ثالث وهو أنه لو قال: بما فعلتم، لكان ذلك موهمًا لنقصان ثوابهم في الآخرة، وأما في حق الكفار فإذا قال: بما فعلتم، ينبئ عن نقصان عقابهم وهو كذلك.

المسألة الثالثة: قال هناك: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] وقال هاهنا ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ قالوا وإشارة إلى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم.

المسألة الرابعة: إنما أخر هذه الآية لأن في الآيات التي قد سبق ذكرها قلنا إنه ذكر من كل باب آيتين فذكر من المنذرات ﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ [الرعد: ١٢] والحادث في الجو في أكثر الأمر نار وريح فذكر الرياح ههنا تذكيرًا وتقريرًا للدلائل، ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس في البرق فائدة إن لم يكن مطر ذكر هناك خوفًا وطمعًا، أي قد يكون وقد لا يكون وذكر ههنا ﴿مُبَشِّرَٰتٖ﴾ لأن تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم، وحكمه به حكم جازم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾

لما بين الأصلين ببراهين ذكر الأصل الثالث وهو النبوة فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا﴾ أي إرسالهم دليل رسالتك فإنهم لم يكن لهم شغل غير شغلك، ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك، ومن كذبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار، وله وجه آخر يبين تعلق الآية بما قبلها وهو أن الله لما بين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبي ﷺ وقال: حال من تقدمك كان كذلك وجاءوا أيضًا بالبينات، وكان في قومهم كافر ومؤمن كما في قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا﴾ وجهان: أحدهما: فانتقمنا، وكان الانتقام حقًّا واستأنف وقال ﴿عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد ﷺ أي علينا نصركم أيها المؤمنون، والوجه الثاني: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ أي نصر المؤمنين كان حقًّا علينا وعلى الأول لطيفة وعلى الآخر أخرى، أما على الأول فهو أنه لما قال ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ بين أنه لم يكن ظلمًا وإنما كان عدلاً حقًّا، وذلك لأن الانتقام لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلا زيادة الإثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيرًا من وجودهم الخبيث، وعلى الثاني تأكيد البشارة. لأن كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال: على فلان كذا، ينبئ عن اللزوم، فإذا قال حقًّا أكد ذلك المعنى، وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة، فإن إحدى الطائفتين إذا انهزمت أولاً، ثم عادت آخرًا لا يكون النصر إلا للمنهزم، وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم إلا نصرة، فالكافر إن هزم المسلم في بعض الأوقات لا يكون ذلك نصرة إذ لا عاقبة له.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡىِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

بين دلائل الرياح على التفصيل الأول في إرسالها قدرة وحكمة. أما القدرة فظاهرة فإن الهواء اللطيف الذي يشقه الودق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار، وأما الحكمة ففي نفس الهبوب فيما يفضي إليه من إثارة السحب، ثم ذكر أنواع السحب فمنه ما يكون متصلاً ومنه ما يكون منقطعًا، ثم المطر يخرج منه والماء في الهواء أعجب علامة للقدرة، وما يفضي إليه من إنبات الزرع وإدرار الضرع حكمة بالغة، ثم إنه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة. وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ اختلف المفسرون فيه، فقال بعضهم: هو تأكيد كما في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ [الحشر: ١٧] وقال بعضهم: من قبل التنزيل من قبل المطر، والأولى أن يقال: من قبل أن ينزل عليهم من قبله، أي من قبل إرسال الرياح، وذلك لأن بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس، فقبل المطر إذا هبت الريح لا يكون مبلسًا، فلما قال ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾ لم يقل: إنهم كانوا مبلسين، لأن من قبله قد يكون راجيًا غالبًا على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال (من قبله)، أي من قبل ما ذكرنا من إرسال الريح وبسط السحاب، ثم لما فصل قال: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡىِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ لما ذكر الدلائل قال لمحيي باللام المؤكدة وباسم الفاعل، فإن الإنسان إذا قال إن الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله إنه معطيك، لأن الثاني يفيد أنه أعطاك فكان وهو معط متصفًا بالعطاء، والأول يفيد أنه سيتصف به ويتبين هذا بقوله: إنك ميت، فإنه آكد من قوله إنك تموت ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ﴾ تأكيد لما يفيد الاعتراف.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحًا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

لما بين أنهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين، وعند ظهوره يكونون مستبشرين، بين أن تلك الحالة أيضًا لا يدومون عليها، بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين لنظرهم إلى الحال لا إلى المآل.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال في الآية الأولى: ﴿يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الأعراف: ٥٧] على طريقة الإخبار عن الإرسال، وقال ههنا: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ لا على طريقة الإخبار عن الإرسال، لأن الرياح من رحمته وهي متواترة، والريح من عذابه وهو تعالى رؤوف بالعباد يمسكها، ولذلك نرى الرياح النافعة تهب في الليالي والأيام في البراري والآكام، وريح السموم لا تهب إلا في بعض الأزمنة وفي بعض الأمكنة.

المسألة الثانية: سمى النافعة رياحًا والضارة ريحًا لوجوه أحدها: النافعة كثيرة الأنواع كثيرة الأفراد فجمعها، فإن كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة، ولا تهب الريح الضارة في أعوام، بل الضارة في الغالب لا تهب في الدهور، الثاني: هو أن النافعة لا تكون إلا رياحًا فإن ما يهب مرة واحدة لا يصلح الهواء ولا ينشئ السحاب ولا يجري السفن، وأما الضارة بنفحة واحدة تقتل كريح السموم، الثالث: هو أن الريح المضرة إما أن تضر بكيفيتها أو بكميتها، أما الكيفية فهي إذا كانت حارة أو متكيفة بكيفية سم، وهذا لا يكون للريح في هبوبها وإنما يكون بسبب أن الهواء الساكن في بقعة فيها حشائش رديئة أو في موضع غائر وهو حار جدًا، أو تكون متكونة في أول تكونها كذلك وكيفما كان فتكون واحدة، لأن ذلك الهواء الساكن إذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كاللهيب، ثم ما يخرج بعد ذلك من ذلك المكان لا يكون حارًا ولا متكيفًا، لأن المكث الطويل شرط التكيف، ألا ترى أنك لو أدخلت إصبعك في نار وأخرجتها بسرعة لا تتأثر، والحديد إذا مكث فيها يذوب، فإذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لا يوجد في ذلك الوقت غيره من جنسه، وأما المتولدة كذلك فنادرة وموضع ندرتها واحد. وأما الكمية فالرياح إذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالخلجان، ومياه العيون إذا اجتمعت تصير نهرًا عظيمًا لا تسده السدود ولا يرده الجلمود، ولا شك أن في ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير، فلهذا قال في المضرة ريح وفي النافعة رياح.

ثم إنه تعالى لما علم رسوله أنواع الأدلة وأصناف الأمثلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا، وإنباؤه إلا كفرًا وإصرارًا، قال له: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الترتيب فنقول: إرشاد الميت محال، والمحال أبعد من الممكن، ثم إرشاد الأصم صعب فإنه لا يسمع الكلام وإنما يفهم ما يفهمه بالإشارة لا غير، والإفهام بالإشارة صعب، ثم إرشاد الأعمى أيضًا صعب، فإنك إذا قلت له: الطريق على يمينك، يدور إلى يمينه، لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب، وإرشاد الأصم أصعب، فلهذا تكون المعاشرة مع الأعمى

أسهل من المعاشرة مع الأصم الذي لا يسمع شيئًا، لأن غاية الإفهام بالكلام، فإن ما لا يفهم بالإشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالإشارة، فإن المعدوم والغائب لا إشارة إليهما فقال أولا: لا تسمع الموتى، ثم قال: ولا الأصم ولا تهدي الأعمى الذي دون الأصم.

المسألة الثانية: قال في الصم: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ ليكون أدخل في الامتناع، وذلك لأن الأصم وإن كان يفهم فإنما يفهم بالإشارة، فإذا ولى ولا يكون نظره إلى المشير فإنه يسمع ولا يفهم.

المسألة الثالثة: قال في الأصم: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ولم يقل في الموتى ذلك لأن الأصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوي ولكن صوت الداعي لا يبلغ ذلك الحد فقال: إنك داع لست بملجئ إلى الإيمان والداعي لا يسمع الأصم الدعاء.

المسألة الرابعة: قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ أي ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل: فلان ليس بشاعر وإنما ينظم بيتًا وبيتين، أي ليس شغله ذلك فقوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ نفى ذلك عنه، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ يعني ليس شغلك ذلك، وما أرسلت له.

ثم قال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لما نفى إسماع الميت والأصم وأثبت إسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حيًّا سميعًا وهو كذلك لأن المؤمن ترد على قلبه أمطار البراهين فتنبت في قلبه العقائد الحقة، ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الأفعال الحسنة، وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فإنهم قالوا: الله يريد من الكل الإيمان، غير أن بعضهم يخالف إرادة الله، وقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ دليل على أنه يؤمن فيسمعه النبي ﷺ ما يجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

لما أعاد من الدلائل التي مضت دليلاً من دلائل الآفاق وهو قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] وذكر أحوال الريح من أوله إلى آخره أعاد دليلاً من دلائل الأنفس وهو خلق الآدمي وذكر أحواله، فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي مبناكم على الضعف كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ومن هاهنا كما تكون في قول القائل: فلان زين فلانا من فقره وجعله غنيًّا، أي من حالة فقره، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ فقوله ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ إشارة إلى حالة كان فيها جنينًا وطفلاً مولودًا ورضيعًا ومفطومًا فهذه أحوال غاية الضعف.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

إشارة إلى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هي تمام الضعف، ثم بين بقوله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إن هذا ليس طبعًا بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى في دلائل الآفاق:

﴿فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨] ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ لِمَ قدم العلم على القدرة؟ وقال من قبل ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] فالعزة إشارة إلى تمام القدرة والحكمة إلى العلم، فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا، فنقول هناك المذكور الإعادة بقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] لأن الإعادة تكون بكن فيكون، فالقدرة هناك أظهر وهاهنا المذكور الإبداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر، ثم إن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ تبشير وإنذار لأنه إذا كان عالمًا بأعمال الخلق كان عالمًا بأحوال المخلوقات فإن عملوا خيرًا علمه وإن عملوا شرًّا علمه، ثم إذا كان قادرًا فإذا علم الخير أثاب وإذا علم الشر عاقب، ولما كان العلم بالأحوال قبل الإثابة والعقاب اللذين هما بالقدرة قدم العلم، وأما في الآخرة فالعلم بتلك الأحوال مع العقاب فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢] وإلى مثل هذا أشار في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] عقيب خلق الإنسان، فنقول: أحسن إشارة إلى العلم لأن حسن الخلق بالعلم، والخلق المفهوم من قوله: ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] إشارة إلى القدرة، ثم لما بين ذكر الإبداء والإعادة كالإبداء ذكره بذكر أحوالها وأوقاتها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قيل: ما لبثوا في الدنيا غير ساعة. وقيل: ما لبثوا في القبور، وقيل ما لبثوا من وقت فناء الدنيا إلى وقت النشور ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون من الحق إلى الباطل ومن الصدق إلى الكذب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ ونحن نبين ما هو المعنى اللطيف في هاتين الآيتين، فنقول: الموعود بوعد إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويريد تعجيله، والموعد بوعيد إذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها، لكن المجرم إذا حشر علم أن مصيره إلى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والإبقاء في القبر، والمؤمن إذا حشر علم أن مصيره إلى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما: إن مدة لبثنا قليل، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ويقول الآخر: لبثنا مديدًا، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ يعني كان في كتاب الله ضرب الأجل إلى يوم

البعث ونحن صبرنا إلى يوم البعث ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني طلبكم التأخير، لأنكم كنتم لا تعلمون البعث ولا تعترفون به، فصار مصيركم إلى النار فتطلبون التأخير.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم الإعتاب وهو إزالة العتب يعني التوبة التي تزيل آثار الجريمة لا تطلب منهم لأنها لا تقبل منهم.

ثم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار، وإلى أنه لم يبق من جانب الرسول تقصير، فإن طلبوا شيئًا آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لا يصعب عليه تكذيب الدلائل، بل لا يجوز للمستدل أن يشرع في دليل آخر بعد ما ذكر دليلاً جيدًا مستقيمًا ظاهرًا لا غبار عليه وعانده الخصم، لأنه إما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أو لا يعترف، فإن اعترف يكون انقطاعًا وهو يقدح في الدليل أو المستدل، إما بأن الدليل فاسد، وإما بأن المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال، وكلاهما لا يجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبي عليه الصلاة والسلام، وإن لم يعترف يكون الشروع في غيره موهمًا أن الخصم ليس معاندًا فيكون اجتراؤه على العناد في الثاني أكثر لأنه يقول العناد أفاد في الأول حيث التزم ذكر دليل آخر. فإن قيل فالأنبياء عليهم السلام ذكروا أنواعًا من الدلائل، نقول: سردوها سردًا، ثم قرروها فردًا فردًا، كمن يقول: الدليل عليه من وجوه: الأول كذا، والثاني كذا، والثالث كذا، وفي مثل هذا الواجب عدم الالتفات إلى عناد المعاند لأنه يزيده بعناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الإتيان بجميع ما وعد من الدلائل فتنحط درجته فإذن لكل مكان مقال. وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ وفي توحيد الخطاب بقوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾ والجمع في قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ جاءت بها الرسل ويمكن أن يجاء بها يقولون: أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون. ثم بين تعالى أن ذلك بطبع الله

على قلوبهم بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فإن قيل: من لا يعلم شيئًا أية فائدة في الإخبار عن الطبع على قلبه؟ نقول: المعنى هو أن من لا يعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل، ثم إنه تعالى سلى قلب النبي ﷺ بقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي إن صدقك يبين وقوله: ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ إشارة إلى وجوب مداومة النبي عليه الصلاة والسلام على الدعاء إلى الإيمان فإنه لو سكت لقال الكافر: إنه متقلب الرأي، لا ثبات له. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الروم

سورة الروم مكيةٌ كلُّها من غير خلاف[(١)]، وهي ستون آية[(٢)]

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ روى الترمذِيُّ عن أبي سعيد الخُدرِيِّ قال: لمَّا كان يوم بدرٍ ظهرتِ الرومُ على فارسٍ، فأَعجَبَ ذلك الْمُؤمنين، فنزلت: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾. قال: فَفَرِحَ المؤمنون بظهور الروم على فارس. قال: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه. هكذا قرأ نصرُ بن عليٍّ الجَهْضَمِيُّ «غَلَبَتِ الرُّومُ»[(٣)]. ورواه أيضاً من حديث ابن عباس بأتمَّ منه. قال ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: غَلَبَتْ وغُلِبَتْ؛ قال: كان المشركون يُحِبُّون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم وإيَّاهم أهلُ أوثان، وكان المسلمون يُحِبُّون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهلُ كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكرٍ لرسول الله ﷺ، فقال: «أما إنهم سيَغلِبون» فذكره أبو بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا، وإن ظهرتُم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا، فذُكِرَ ذلك

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧.

(٢) الوسيط ٣/ ٤٢٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٥.

(٣) سنن الترمذي (٣١٩٢). وهذه القراءة شاذة، وسيوردها المصنف قريباً عن أبي سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وعن معاوية بن قرة.

للنبيِّ ﷺ فقال: «ألا جَعَلْتَه إلى دون» ـ أراه قال: العشر ـ قال: قال أبو سعيد: والبِضْعُ ما دون العشرة. قال: ثم ظهرتِ الرومُ بعدُ. قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾. قال سفيان: سمعتُ أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب(١). ورواه أيضاً عن نِيَار بن مُكْرَمٍ الأسْلَميِّ قال: لمَّا نزلت: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ وكان فارسُ يومَ نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يُحِبُّون ظهورَ الروم عليهم؛ لأنهم وإيَّاهم أهلُ كتاب، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وكانت قريشٌ تُحِبُّ ظهورَ فارسَ؛ لأنهم وإيَّاهم ليسوا بأهلِ كتابٍ ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلمَّا أنزل اللهُ هذه الآية خرج أبو بكرٍ الصدِّيقُ ﷺ يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾. قال ناسٌ من قريشٍ لأبي بكر: فذلكَ بيننا وبينكم، زعم صاحبكم(٢) أنَّ الرومَ ستَغلِبُ فارسَ في بضع سنين! أفلا نُراهِنُك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرِّهان، فارتهن أبو بكرٍ والمشركون وتواضعوا الرِّهان. وقالوا لأبي بكر: كم تجعلُ؟ البِضْعُ ثلاثُ سنينَ إلى(٣) تسعِ سنين، فَسمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه. قال: فَسمَّوا بينهم ستَّ سنين. قال: فمضَتِ السِّتُ سنينَ قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهنَ أبي بكر، فلما دخلتِ السنةُ السابعةُ ظهرتِ الرومُ على فارس، فعابَ المسلمون على أبي بكر تسميةَ سِتِّ سنين. قال: لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ قال: وأسلم عند ذلك ناسٌ كثير. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب(٤). وروى القُشَيْرِيُّ وابن عطية وغيرهما: أنه لمَّا نزلتِ الآياتُ خرجَ أبو بكرٍ بها إلى المشركين فقال: أَسَرَّكُم أن

---

(١) سنن الترمذي (٣١٩٣).

(٢) في النسخ: صاحبك. والمثبت من سنن الترمذي.

(٣) في النسخ: أو. والمثبت من سنن الترمذي.

(٤) سنن الترمذي (٣١٩٤).

غُلبتِ الروم؟ فإنَّ نبيَّنا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين. فقال له أُبيُّ ابن خلف وأُميَّةُ أخوه ـ وقيل: أبو سفيان بن حرب ـ: يا أبا فَصِيل[١] ـ يُعرِّضون بكنيته بالبَكر[٢] ـ فلْنَتَنَاحَبْ ـ أي: نتراهن في ذلك، فراهنهم أبو بكر. قال قتادة: وذلك قبل أن يُحرَّم القمار، وجعلوا الرِّهان خمسَ قلائِصَ، والأجلَ ثلاث سنين. وقيل: جعلوا الرِّهان ثلاثَ قلائِصَ. ثم أتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال: «فهلَّا احتطْتَ، فإنَّ البِضْعَ ما بين الثلاث إلى التسع[٣] والعشر، ولكنِ ارجِعْ فزِدْهم في الرِّهانِ واستزِدْهم في الأجل» ففعل أبو بكر، فجعلوا القلائصَ مئةً، والأجلَ تسعةَ أعوام، فغلبتِ الرومُ في أثناء الأجل[٤]. وقال الشَّعبيُّ: فظهروا في تسع سنين[٥]. القشيريُّ: المشهور في الروايات أنَّ ظهورَ الروم كان في السابعة من غَلَبَةِ فارس للروم، ولعلَّ روايةَ الشَّعبي تصحيفٌ من السبع إلى التسع من بعض النَّقَلة. وفي بعض الروايات: أنه جعل القلائِصَ سبعاً إلى تسع سنين. ويقال: إنه آخر فتوحِ كسرى أبروِيز فَتَحَ فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار، فأُخبِرَ رسولُ الله ﷺ فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين. وحكى النقَّاش وغيره: أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ لمَّا أراد الهجرة مع النبيِّ ﷺ تعلَّقَ به أُبيُّ بن خلف وقال له: أعطني كفِيلاً بالخَطَرِ[٦] إن غلَبتُ. فكفِلَ به ابنُه عبد الرحمن[٧]، فلمَّا أراد أُبيٌّ الخروجَ إلى أُحدٍ طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه

---

(١) والفصيل: ولد الناقة إذا فُصل عن أمه. الصحاح (فصل).

(٢) في (ظ): بكنية أبا بكر، وفي (م): بكنيته يا أبا بكر. والمثبت من (د) و(ز) والمحرر الوجيز.

(٣) في (ظ) و(م): والتسع، والمثبت من (د) و(ز)، وكذلك وقع في رواية الترمذي (٣١٩١) من حديث ابن عباس ﷺ، ولم يذكر: والعشر. قلنا: والقول في أن البضع ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر هو قول قتادة والأصمعي فيما ذكر النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٣٠.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ دون قوله: جعلوا الرهان ثلاث قلائص. والقلائص جمع قلوص: وهي الناقة الشابة. الصحاح (قلص).

(٥) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٠١.

(٦) أي: بالسبق الذي يُتراهن عليه. الصحاح (خطر).

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

كفيلاً، ثم مات أُبيٌّ بمكة من جرحٍ جرحَه النبيُّ ﷺ، وظهرتِ الرومُ على فارس يوم الحديبية على رأسِ تسع سنينَ من مُناحبتهم. وقال الشَّعبيُّ: لم تمضِ تلكَ المدَّةُ حتى غلبتِ الرومُ فارسَ، وربطوا خيلَهم بالمدائن، وبنَوا روميَة؛ فقَمَر[1] أبو بكرٍ أُبيًّا، وأخذ مالَ الخَطَرِ من وَرَثَتِه، فقال له النبيُّ ﷺ: «تصدَّق به» فتصدَّق به[2].

وقال المفسِّرون: إنَّ سببَ غَلَبةِ الرومِ فارسَ امرأةٌ كانت في فارسَ لا تلِدُ إلَّا الملوكَ والأبطال، فقال لها كسرى: أُريدُ أن أستعمل أحدَ بنيكِ على جَيشٍ أُجهِّزُه إلى الروم. فقالت: هذا هُرمُز أروَغُ من ثعلب، وأحذَرُ من صقر، وهذا فَرُّخان أحَدُّ من سِنان، وأنفَذُ من نَبْل، وهذا شهربزان أحلَمُ من كذا، فاختَرْ. قال: فاختار الحليم وولَّاه، فسار إلى الروم بأهل فارس، فظهر على الروم. وقال عكرمة وغيره: إن شهربزان لمَّا غلبَ الرومَ خرَّب ديارها حتى بلغ الخليج، فقال أخوه فَرُّخان: لقد رأيتني جالساً على سريرِ كسرى، فكتب كسرى إلى شهربزان أن[3] أرسل إليَّ برأس فَرُّخان. فلم يفعل، فكتب كسرى إلى فارس: إني قد استعملتُ عليكم فَرُّخان، وعزلتُ شهربزان، وكتب إلى فَرُّخان إذا ولي أن يقتل شهربزان، فأراد فَرُّخان قتل شهربزان، فأخرج له شهر بزان ثلاثَ صحائف من كسرى يأمره بقتل فَرُّخان، فقال شهربزان لفَرُّخان: إنَّ كسرى كتبَ إليَّ أن أقتُلَكَ ثلاث صحائف وراجعتُه أبداً في أمرك، أفتقتلني أنت بكتابٍ واحد؟! فرَدَّ المُلْكَ إلى أخيه، وكتب شهربزان إلى قيصر ملك الروم، فتعاونا على كسرى، فغلبتِ الرومُ فارس ومات كسرى، وجاء الخبر إلى النبيِّ ﷺ يوم الحديبية، ففرح مَنْ معه من المسلمين، فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني أرض الشام. عكرمة: بأذْرِعات[4]، وهي ما بين بلاد

---

(١) أي: غلب. الصحاح (قمر).

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٦ .

(٣) كلمة أن من (د) و(ز).

(٤) من قوله: وقال عكرمة وغيره... إلى هذا الموضع من تفسير البغوي ٣/ ٤٧٦ - ٤٧٧ .

العرب والشام. وقيل: إنَّ قيصر كان بعثَ رجلاً يُدعى يُحنَّس، وبعث كسرى شهربزان، فالتقيا بأذرِعاتَ وبصرى، وهي أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم. مجاهد: بالجزيرة، وهو موضعٌ بين العراق والشام. مقاتل: بالأردنّ وفلسطين(١). و«أدنى» معناه أقرب(٢). قال ابن عطية: فإن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وهي التي ذكرها امرؤ القيس(٣) في قوله:

تنوَّرْتُها من أذْرِعاتَ وأهلُها ... بيثربَ أدنى دارِها نَظَرٌ عالِ

وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردنّ فهي أدنى إلى أرض الروم. فلمَّا طرأ ذلك وغلبتِ الرومُ سُرَّ الكفارُ، فبشَّرَ اللهُ عباده بأنَّ الرومَ سيغْلِبون وتكونَ الدُّولةُ لهم في الحرب.

وقد مضى الكلام في فواتح السور. وقرأ أبو سعيد الخدريّ وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن قُرّة: «غَلَبَتِ الرُّومُ» بفتح الغين واللام(٤). وتأويلُ ذلك أن الذي طرأ يوم بدر إنما كانتِ الروم غلبت، فعزَّ ذلك على كفار قريش، وسُرَّ بذلك المسلمون، فبشَّرَ اللهُ تعالى عباده أنهم سيغْلِبون أيضاً في بضع سنين. ذكر هذا التأويل أبو حاتم(٥). قال أبو جعفر النحَّاس: قراءة أكثر الناس: «غُلِبت الروم» بضمِّ الغين وكسر اللام. ورُوِيَ عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أنهما قرأا «غَلَبَتِ الروم» وقرأا: «سيُغلبون»(٦). وحكى أبو حاتم أنَّ عِصْمة روى عن هارون أنَّ هذه قراءة أهل الشام، وأحمد بن حنبل يقول: إنَّ عِصْمةَ هذا ضعيف، وأبو حاتم كثيرُ الحكاية عنه، والحديث يدلُّ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ دون قوله: إن قيصر... والعجم.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٧ .

(٣) في ديوانه ص ٣١ ، وقد سلف ٣/ ٣٣٢ .

(٤) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن علي وابن عمر رضي الله عنهما. وقد سلفت قريباً عن نصر بن علي الجهضمي.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ .

(٦) قراءة: «سيُغلبون» في الشاذة ص ١١٦ عن علي وابن عمر رضي الله عنهما، وعن معاوية بن قرة.

على أنَّ القراءة «غُلِبتْ» بضَمِّ الغين، وكان في هذا الإخبار دليلٌ على نبوَّة محمدٍ ﷺ؛ لأنَّ الروم غلبَتْها فارس، فأخبر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمداً ﷺ أنَّ الرومَ ستغلِبُ فارسَ في بضع سنين، وأنَّ المؤمنين يفرحون بذلك؛ لأن الرومَ أهلُ كتاب، فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله عزَّ وجلَّ به مما لم يكن[١]، وأمر أبا بكرٍ أن يُراهنهم على ذلك وأن يُبالِغَ في الرهان، ثم حُرِّم الرِّهانُ بعدُ، ونُسِخَ بتحريم القِمار[٢]. قال ابن عطية[٣]: والقراءةُ بضمِّ الغين أصحُّ، وأجمع الناس على «سيغلِبون» أنه بفتح الياء، يُراد به الروم. ويُروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضاً بضمِّ الياء في «سيغلِبون»، وفي هذه القراءة قلبٌ للمعنى الذي تظاهرتِ الرواياتُ به. قال أبو جعفر النحَّاس[٤]: ومن قرأ: «سيُغلبون» فالمعنى عنده: وفارسُ من بعدِ غَلَبِهم ـ أي: من بعد أن غَلَبوا ـ سيُغلبون.

ورُوِيَ أنَّ إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر، كما في حديث أبي سعيد الخدري حديثِ الترمذيّ، ورُويَ أنَّ ذلك كان يوم الحُديبِية، وأنَّ الخبرَ وصلَ يوم بيعة الرِّضوان. قاله عكرمة وقتادة. قال ابن عطية[٥]: وفي كلا اليومين كان نصرٌ من الله للمؤمنين. وقد ذكر الناسُ أنَّ سببَ سرورِ المسلمين بغَلبة الرومِ وهمِّهم أن تُغلَبَ إنَّما هو أنَّ الرومَ أهلُ كتابٍ كالمسلمين، وفارس من أهل الأوثان كما تقدَّم بيانُه في الحديث. قال النحَّاس[٦]: وقولٌ آخر وهو أولى: أنَّ فَرَحَهم إنَّما كان لإنجاز وعدِ الله تعالى؛ إذ كان فيه دليلٌ على النبوَّة؛ لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون في بضع سنين، فكان فيه. قال ابن عطية[٧]: ويُشبه أن يُعلَّلَ ذلك بما يقتضيه النظرُ من محبة أن

---

(١) بعدها في (م) كلمة «علموه» وهي ليست في النسخ ولا في إعراب القرآن.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ .

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢٤٣ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ ، وما قبله منه.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٦٥ .

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ .

يغلِبَ العدوُّ الأصغر؛ لأنه أيسرُ مؤونةً، ومتى غلبَ الأكبرُ كثُرَ الخوفُ منه. فتأمَّل هذا المعنى، مع ما كان رسول الله ﷺ ترجَّاه من ظهور دينه وشَرْعِ الله الذي بعثَه به وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملكٍ يستأصله ويُريحهم منه.

وقيل: سرورهم إنما كان بنصر رسول الله ﷺ على المشركين؛ لأنَّ جبريل أخبر بذلك النبيَّ عليه الصلاة والسلام يوم بدر. حكاه القُشَيْرِيُّ.

قلت: ويَحتمِلُ أن يكون سرورُهم بالمجموع من ذلك، فسُرُّوا بظهورهم على عدوِّهم وبظهور الروم أيضاً وبإنجاز وعد الله.

وقرأ أبو حَيْوَة الشاميُّ ومحمد بن السَّمَيْفَع: «من بعد غَلْبِهم» بسكون اللام[١]، وهما لغتان، مثل الظَّعْن والظَّعَن.

وزعم الفرَّاء أنَّ الأصل «من بعد غلبتهم» فحُذِفت التاءُ كما حُذفتْ في قوله عزَّ وجلَّ: «وَإِقَامِ الصَّلَاةِ» وأصلُه: وإقامة الصلاة. قال النحَّاس: وهذا غلط لا يُخِيل على كثيرٍ من أهل النحو؛ لأنَّ «إقام الصلاة» مصدرٌ قد حُذِفَ منه لاعتلالِ فعله، فجُعِلَتِ التاءُ عوضاً من المحذوف، و«غلب» ليس بمعتَلٍّ ولا حُذِفَ منه شيء. وقد حكى الأصمعِيُّ: طَرَدَ طَرَدًا، وجَلَبَ جَلَبًا، وحَلَبَ حَلَبًا، وغَلَبَ غَلَبًا، فأيُّ حذفٍ في هذا، وهل يجوز أن يُقالَ في أَكَلَ أَكْلاً وما أشبَهه: حُذِفَ منه[٢]؟

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ حُذِفَتِ الهاءُ من «بِضع» فرقاً بين المذكر والمؤنث، وقد مضى الكلام فيه في سورة «يوسف»[٣]. وفُتِحَتِ النونُ من «سِنِينَ» لأنه جمعٌ مُسَلَّم. ومن العرب من يقول في «بضع سنين» كما يقول في «غِسلِين». وجاز أن يُجمعَ سنة جَمعَ من يعقِلُ بالواو والنون والياء والنون؛ لأنَّه قد حُذِفَ منها شيءٌ فجُعِلَ هذا الجمعُ عِوَضاً من النقص الذي في واحده؛ لأنَّ أصل «سنة» سنهة أو سنوة، وكُسِرَتِ السينُ

(١) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن علي بن أبي طالب ﷺ.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٩.

(٣) ١١/ ٣٥٨ - ٣٥٩.

منه دلالةً على أنَّ جمعَه خارجٌ عن قياسه ونمطه. هذا قول البصريين. ويلزم الفرَّاءُ أن يضُمَّها؛ لأنه يقول: الضمةُ دليلٌ على الواو وقد حُذِفَ من سنة واوٌ في أحد القولين، ولا يضُمُّها أحدٌ علِمناه(١).

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أخبر تعالى بانفراده بالقدرة، وأنَّ ما في العالم من غلَبةٍ وغيرها إنما هي منه وبإرادته وقدرته، فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: إنفاذ الأحكام. ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: مِنْ قبلِ هذه الغلَبةِ ومِنْ بعدِها(٢). وقيل: من قبلِ كلِّ شيءٍ ومن بعد كلِّ شيء(٣). و﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ ظرفان بُنيا على الضمِّ، لأنَّهما تعرَّفا بحذفِ ما أُضيفا إليهما، وصارا مُتضمَّنين ما حُذِفَ، فخالفا تعريفَ الأسماء، وأشبَها الحروفَ في التضمين فبُنيا، وخُصَّا بالضمِّ لشبههما بالمنادى المفرد في أنه إذا نُكِّر وأُضيفَ زالَ بناؤه، وكذلك هما فَضُمَّا(٤).

ويقال: «من قبلِ ومِن بعدِ»، وحكى الكسائيُّ عن بعضِ بني أسد: «لِلهِ الأَمْرُ مِن قبلِ ومن بعدِ» مخفوضين بغير تنوين، والثاني مضمومٌ بلا تنوين. وحكى الفرَّاء: «مِن قبلِ ومن بعدِ» مخفوضتين بغير تنوين. وأنكره النحَّاسُ وردَّه. وقال الفرَّاء في كتابه: في القرآن أشياءُ كثيرة، الغلطُ فيها بيِّن، منها أنه زعم أنه يجوز «من قبلِ ومن بعدِ» وإنما يجوز «من قبلٍ ومن بعدٍ» على أنهما نكرتان. قال الزجَّاج: المعنى: من متقدِّمٍ ومن متأخِّرٍ(٥).

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ تقدَّم ذِكْره. ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: من أوليائه؛ لأنَّ نصرةَ مختصٌّ بغلبَةِ أوليائه لأعدائه، فأمَّا غلَبةُ أعدائِه لأوليائه فليس

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢ - ٢٦٤. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٧٦.

بنصره، وإنَّما هو ابتلاءٌ، وقد يُسمَّى ظَفراً .﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في نِقمته ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لأهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لأن كلامه صدق .﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم الكفار، وهم أكثر(١). وقيل: المراد مشركو مكة. وانتصب «وَعْدَ اللهِ» على المصدر، أي: وعدَ ذلك وعداً(٢).

ثم بيَّن تعالى مقدار ما يعلمون، فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: أمر معايشهم ودنياهم؛ متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يغرِسون، وكيف يبنون. قاله ابن عباس وعِكرمة وقتادة. وقال الضحَّاك: هو بنيان قصورها، وتشقيق أنهارها، وغرس أشجارها. والمعنى واحد. وقيل: هو ما تُلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع من سماء الدنيا . قاله سعيد بين جُبير. وقيل: الظاهر والباطن، كما قال في موضعٍ آخر ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾(٣) [الرعد:٣٣].

قلتُ: وقولُ ابن عباس أشبَهُ بظاهر الحياة الدنيا، حتى لقد قال الحسن: بلغَ ـ واللهِ ـ من علمِ أحدِهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيُخبرك بوزنه ولا يُحسِنُ أن يُصلِّي(٤). وقال أبو العباس المبرِّد: قسمَ كسرى أيامَه فقال: يَصلح يومُ الريح للنوم، ويومُ الغيم للصيد، ويومُ المطر للشرب واللهو، ويومُ الشمس للحوائج. قال ابن خالَوَيْه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا .﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: عن العلم بها والعمل لها ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ قال بعضهم:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٥ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٤) قول الحسن في الوسيط ٣/ ٤٢٨ ، وزاد المسير ٦/ ٢٨٩ .

ومن البليَّة أن ترى لكَ صاحباً في صورةِ الرجلِ السميعِ المُبصرِ
فَطِنٍ بكلِّ مصيبةٍ في مالِهِ وإذا يُصابُ بدينهِ لم يَشعُرِ[١]

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ ظرفٌ للتفكُّرِ وليس بمفعول، تعدَّى إليه «يَتَفَكَّرُوا» بحرف جرّ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلقِ أنفسهم، إنما أُمروا أن يستعملوا التفكُّرَ في خلق السماوات والأرض وأنفُسِهم، حتى يعلموا أنَّ الله لم يخلُقِ السماوات وغيرَها إلَّا بالحق[٢]. قال الزجَّاج: في الكلام حذفٌ، أي: فيعلموا؛ لأنَّ في الكلام دليلاً عليه[٣]. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قال الفرَّاء: معناه: إلا للحق، يعني: الثواب والعقاب[٤]. وقيل: إلَّا لإقامة الحق[٥]. وقيل: «بِالْحَقِّ»: بالعدل. وقيل: بالحكمة. والمعنى متقارب[٦]. وقيل: «بِالْحَقِّ» أي: أنه هو الحقُّ وللحقِّ خلقَها، وهو الدلالة على توحيده وقدرته. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: للسماوات والأرض أجلٌ ينتهيان إليه، وهو يوم القيامة[٧]. وفي هذا تنبيهٌ على الفناء، وعلى أنَّ لكلِّ مخلوقٍ أجلاً، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء[٨]. وقيل: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: خَلقَ ما خلَقَ في وقتٍ سمَّاه لأن يخلق ذلك الشيء فيه.

---

(١) نسبهما في بهجة المجالس ٢/ ٨٠١ لعبد الله بن المبارك أو لغيره، ووقع صدر البيت الأول فيه: أَأُخيَّ إنَّ من الرجال بهيمةً.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١٥ بمعناه.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٨٩، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٨.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٨.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٤٢٩ عن مقاتل.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ اللام للتوكيد، والتقدير: لَكافرون بلقاء ربهم، على التقدير والتأخير، أي: لَكافرون بالبعث بعد الموت. وتقول: إنَّ زيداً في الدار لَجالس. ولو قلت: إنَّ زيداً لفي الدار لجالسٌ، جاز. فإن قلتَ: إنَّ زيداً جالسٌ لفي الدار، لم يَجُزْ؛ لأنَّ اللامَ إنما يؤتى بها توكيداً لاسم إنَّ وخبرِها، وإذا جئتَ بهما لم يَجُزْ أن تأتي بها. وكذا إن قلتَ: إنَّ زيداً لجالس لفي الدار، لم يَجُزْ[١].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ ببصائرهم وقلوبهم. ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: قلبوها للزراعة[٢]؛ لأنَّ أهل مكة لم يكونوا أهلَ حرث[٣]؛ قال الله تعالى: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١]. ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: وعَمروها أولئك أكثرَ ممَّا عَمروها هؤلاءِ فلم تنفعْهم عمارتُهم ولا طولُ مُدَّتهم. ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات. وقيل: بالأحكام، فكفروا ولم يؤمنوا. ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بأن أهلكهم بغير ذنبٍ ولا رسلٍ ولا حُجَّة. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك والعصيان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ السُّوءى فُعْلَى من السوء تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أنَّ الحُسنى تأنيث الأحسن[٤]. وقيل: يعني بها هاهنا النار.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٩٠.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٢١٦.

قاله ابن عباس[١]. ومعنى «أساؤوا»: أشركوا؛ دلَّ عليه: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[٢]. «السُّوءى» اسمُ جهنم، كما أنَّ الحُسنى اسم الجنة[٣]. ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لأن كذبوا. قاله الكسائي[٤]. وقيل: بأن كذبوا[٥]. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ﴾ بالرفع اسم كان، وذُكِّرتْ لأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقي. و«السُّوءَى» خبر كان. والباقون بالنصب على خبر كان. «السوءى» بالرفع اسم كان[٦]. ويجوز أن يكون اسمُها التكذيب[٧]، فيكون التقدير: ثمَّ كان التكذيبُ عاقبةَ الذين أساؤوا[٨]، ويكون السُّوءى مصدرًا لأساؤوا، أو صفةً لمحذوف، أي: الخَلَّة السوءى[٩]. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: «ثمَّ كان عاقبةَ الذين أساؤوا السوءُ» برفع السوء[١٠]. قال النحَّاس: السُّوء أشدُّ الشر، والسُّوءى الفُعلى منه[١١]. ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قيل: بمحمدٍ والقرآن. قاله الكلبيُّ. مقاتل: بالعذاب أن ينزِلَ بهم. الضحَّاك: بمعجزات محمدٍ ﷺ. ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[١٢].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣١.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٨. وهو قول ابن قتيبة في غريب القرآن ص ٣٤٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(٥) تفسير الرازي ٢٥/ ١٠١.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦، وينظر السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٤.

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٠.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٨.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣١.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦، وهي قراءة شاذة.

(١١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(١٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠١.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

قرأ أبو عمرو وأبو بكر «يرجعون» بالياء. الباقون بالتاء[(١)].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ «يُبْلَسُ» بفتح اللام[(٢)]، والمعروف في اللغة: أبلَسَ الرجلُ إذا سكتَ وانقطعت حُجَّتُه، ولم يؤمِّلْ أن تكون له حُجَّة. وقريبٌ منه: تحيَّر؛ كما قال العجَّاج[(٣)]:

يا صاحِ هل تَعرِفُ رَسْمًا مُكْرَسا   قال نعم أعرفُهُ وأبْلَسا

وقد زعمَ بعضُ النَّحْويين أنَّ إبليس مشتَقٌّ من هذا، وأنه أبلس لأنه انقطعت حُجَّتُه. النحَّاس: ولو كان كما قال لوجَبَ أن ينصَرِفَ، وهو في القرآن غيرُ منصرف[(٤)]. وقال الزجَّاج[(٥)]: المُبلِسُ: الساكتُ المُنقطِعُ في حُجَّتِه، اليائسُ من أن يهتدي إليها.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي: ما عبدوه من دون الله ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ قالوا: ليسوا بآلهة[(٦)]. فتبرَّؤوا منها وتبرَّأت منهم، حسبما تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ يعني المؤمنين من الكافرين.

---

(١) السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٥.
(٢) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن السُّلمي وعليٍّ ﷺ.
(٣) في ديوانه ص ٥٦، وسلف ٨/ ٣٨١.
(٤) من بداية الآية إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧.
(٥) في معاني القرآن له ٤/ ١٧٩.
(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٧.

ثم بيَّن كيفَ تفريقهم فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال النحَّاس: سمعتُ الزجَّاج يقول معنى «أمّا»: دَعْ ما كُنَّا فيه وخُذْ في غيره. وكذا قال سيبويه: إنَّ معناها: مهما يَكُنْ من[1] شيءٍ فخُذْ في غير ما كُنَّا فيه. ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال الضحَّاك: الروضة: الجنة، والرِّياض: الجِنان. وقال أبو عبيد: الروضةُ: ما كان في تَسفُّلٍ، فإذا كانت مرتفعةً فهي تُرْعة. وقال غيره: أحسَنُ ما تكون الروضةُ إذا كانت في موضعٍ مرتفعٍ غليظ، كما قال الأعشى:

ما رَوْضَةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْراءُ جَادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يُضاحِكُ الشمسَ منها كوكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بعميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ
يومًا بأطْيَبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ولا بأحسنَ منها إذ دَنا الأُصُلُ[2]

إلا أنه لا يُقال لها: روضة، إلَّا إذا كان فيها نبتٌ، فإن لم يكن فيها نبتٌ وكانت مرتفعةً فهي تُرعة. وقد قيلَ في التُّرعة غيرُ هذا[3]. وقال القُشَيْرِيُّ: والروضةُ عند العرب: ما ينبتُ حول الغدير من البقول، ولم يكن عند العرب شيءٌ أحسنَ منه. الجوهريُّ: والجمع رَوْضٌ ورِياض، صارتِ الواوُ ياءً لكسرِ ما قبلها. والرَّوض: نحوٌ من نصف القِرْبَة ماء. وفي الحوض رَوْضةٌ من ماءٍ إذا غطَّى أسفله[4]. وأنشد أبو عمرو:

---

(١) في (م): كنا في، والمثبت من النسخ الخطية وإعراب القرآن.

(٢) ديوان الأعشى ص ١٠٧ . الحَزْن: ما غلظ من الأرض في ارتفاع. يضاحك الشمس: يدور معها، ومضاحكته إياها حُسنٌ له ونضرة. والكوكب: معظم النبات. والشَّرِق: الريَّان الممتلئ ماءً. والمؤزَّر: الذي صار النبات كالإزار له. والعميم: النبات الكثيف الحسن. والمكتهِل من اكتهل: إذا تمَّ طوله. والنشر: الريح الطيبة. والأُصُل جمع أصيل: وهو الوقت بعد العصر حتى المغرب. تهذيب اللغة ٤/ ٣٦٥ و٦/ ١٩ و١١/ ٣٣٨ ، والصحاح (أصل).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٧ . والأبيات ذكرها الماوردي أيضاً في النكت والعيون ٤/ ٣٠٢ .

(٤) الصحاح (روض).

ورَوْضـةٍ سَقَيْـتُ مـنـهـا نِـضْـوَتـي[١].

﴿يُحۡبَرُونَ﴾ قال الضحاك وابن عباس: يُكْرَمون. وقيل: يُنعَّمون. قاله مجاهد وقتادة. وقيل: يُسَرُّون. السُّدِّي: يفرحون. والحَبْرَة عند العرب: السرور والفرح. ذكره الماوردي[٢]. وقال الجوهري: الحَبْر: الحُبُور وهو السرور، ويقال: حبرَه يحبُره ـ بالضمّ ـ حَبْراً وحَبَرَةً؛ قال تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ أي: يُنعَّمون ويُكرَمون ويُسَرُّون. ورجلٌ يَحْبُور يَفْعول من الحبور[٣]. النحَّاس: وحكى الكسائيُّ: حَبَرْتُه أي: أكرمتُه ونعَّمتُه، وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: وهو مشتَقٌّ من قولهم: على أسنانه حَبْرةٌ، أي: أثر، فـ «يُحبرون» يَتَبَيَّن عليهم أثر النعيم. والْحَبْرُ مشتقٌّ من هذا[٤]. قال الشاعر:

لا تـمـلأِ الـدّلْـوَ وعَـرِّقْ فـيـهـا[٥] أمـا تَـرَى حَـبـارَ مَـن يَـسْـقـيـهـا

وقيل: أصله من التَّحبير: وهو التَّحسين، فـ «يُحبَرُونَ»: يُحسَّنون[٦]. يقال: فلانٌ حَسَنُ الحِبْرِ والسِّبْرِ إذا كان جميلاً حسنَ الهيئة. ويُقال أيضاً: فلانٌ حسن الحَبْرِ والسَّبْرِ بالفتح، وهذا كأنه مصدرُ قولِك: حَبَرْتُه حَبراً إذا حسَّنتُه. والأوَّل اسمٌ؛ ومنه الحديث: «يخرج رجلٌ من النار ذهبَ حِبْرُه وسِبْرُه»[٧]. وقال يحيى بن أبي كثير: ﴿فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ قال: السَّمَاع في الجنة. وقاله الأوزاعِيُّ؛ قال: إذا أخذَ أهل الجنة في السماع لم تبقَ شجرةٌ في الجنة إلَّا رَدَّدَتِ الغناء بالتسبيح والتقديس. وقال

(١) قائله هميان كما في تاج العروس (روض). والنِّضوة: هي الناقة المهزولة، مذكرها نِضو. الصحاح (نضو).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠٢ ، دون قوله: وقيل: يُسرُّون، فقد ذكره ابن قتيبة في غريب القرآن ص ٣٤٠ .

(٣) الصحاح (حبر).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨ .

(٥) أي: اجعل فيها دون الملء. الصحاح (عرق).

(٦) سلف هذا المعنى ٧/ ٤٩٥ .

(٧) تهذيب اللغة ٥/ ٣٢ - ٣٣ . والحديث أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص ٣ - ٥ .

الأوزاعِيُّ: ليسَ أحدٌ من خَلْقِ الله أحسنَ صوتاً من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطعَ على أهل سبع سماواتٍ صلاتَهم وتسبيحَهم[١]. زاد غير الأوزاعِيِّ: ولم تبقَ شجرةٌ في الجنة إلا ردَّدت، ولم يبقَ سِترٌ ولا بابٌ إلا ارتَجَّ وانفتح، ولم تبقَ حلقةٌ إلا طنَّتْ بألوان طنينها، ولم تبقَ أجَمَةٌ من آجام الذهب إلَّا وقع أُهبوبُ الصوت في مقاصبها، فَزَمَرت تلك المقاصبُ بفنون الزمر، ولم تبقَ جاريةٌ من جواري الحورِ العينِ إلَّا غنَّت بأغانيها، والطير بألحانها، ويُوحي اللهُ تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوِبوهم وأسمِعوا عبادي الذين نزَّهوا أسماعَهم عن مزامير الشيطان، فيُجابون بألحانٍ وأصواتٍ روحانيين، فتختلط هذه الأصوات فتصيرُ رجَّةً واحدة، ثم يقول الله جَلَّ ذِكْرُه: يا داودُ قُمْ عند ساقِ عرشي فمجِّدْني. فيندفع داودُ بتمجيد ربِّه بصوتٍ يغمرُ الأصواتَ ويُجليها، وتتضاعف اللذة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾. ذكره الترمذيُّ الحكيم رحمه الله[٢]. وذكر الثعلبيُّ من حديث أبي الدَّرداء أنَّ رسول الله ﷺ كان يُذكِّر الناس، فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي أُخريات القوم أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من سماع؟ فقال: «نعم يا أعرابِيُّ، إنَّ في الجنة لَنهراً حافَتاه الأبكارُ من كلِّ بيضاءَ خِمصانية يتغَنَّينَ بأصواتٍ لم تَسمعِ الخلائقُ بمثلها قطُّ، فذلك أفضلُ نعيم الجنة» فسأل رجلٌ أبا الدَّرداء: بماذا يتغَنَّينَ؟ فقال: بالتسبيح. والخِمصانية: المُرهَفَةُ الأعلى، الخِمصانةُ البطن، الضخمةُ الأسفل[٣].

قلت: وهذا كلُّه من النعيم والسرور والإكرام، فلا تعارضَ بين تلك الأقوال.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٩.

(٢) لم نقف عليه في القسم المطبوع من نوادر الأصول.

(٣) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٣٣١ - ٣٣٢ من طريق سليمان بن عطاء، عن مسلمة بن عبد الله الجهني، عن عمه أبي مشجعة، عن أبي الدرداء مرفوعاً. قال ابن حبان: سليمان بن عطاء يروي عن مسلمة بن عبد الله الجهني بأشياء موضوعة لا تشبه حديث الثقات، فلست أدري التخليط فيها منه أو من مسلمة بن عبد الله.

وأين هذا من قوله الحق: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] على ما يأتي. وقوله عليه الصلاة والسلام: «فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشر»[١]. وقد رُوِي: «إنّ في الجنة لأشجاراً عليها أجراسٌ من فضة، فإذا أرادَ أهلُ الجنةِ السماعَ بعثَ اللهُ ريحاً من تحت العرش فتقعُ في تلك الأشجار، فتُحرِّكُ تلك الأجراسَ بأصواتٍ لو سمِعَها أهلُ الدنيا لماتوا طرباً». ذكره الزمخشريّ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تقدَّم الكلام فيه. ﴿وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: بالبعث. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: مقيمون. وقيل: مجموعون. وقيل: مُعذَّبون. وقيل: نازلون؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨] أي: نزَل به. قاله ابن شجرة، والمعنى متقارب[٣].

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الآية، فيه ثلاثة أقوال: الأوّل ـ أنه خطابٌ للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحضّ على الصلاة في هذه الأوقات[٤]. قال ابن عباس: الصلوات الخمس في القرآن. قيل له: أين؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ

---

(١) سلف ١/ ١٢٢.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢١٧.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣، وفيه أن قول ابن شجرة: يقيمون.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر[١]. وقاله الضحَّاك وسعيد بن جُبير[٢]. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة: أنَّ الآية تنبيهٌ على أربع صلوات: المغرب والصبح والعصر والظهر؛ قالوا: والعشاء الآخرة هي في آيةٍ أخرى في ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] وفي ذكر أوقات العورة[٣]. وقال النحَّاس: أهل التفسير على أنَّ هذه الآية ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ في الصلوات. وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: حقيقتُه عندي: فسبِّحوا اللهَ في الصَّلوات؛ لأنَّ التسبيحَ يكون في الصلاة. وهو القول الثاني[٤]. والقول الثالث ـ فسبِّحوا الله حين تُمسون وحين تُصبحون. ذكره الماورديُّ، وذكر القولَ الأوّل، ولفظه فيه: فصلُّوا للهِ حين تُمسون وحين تُصبحون[٥]. وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان: أحدهما ـ لِما تضمَّنها من ذكر التسبيح في الركوع والسجود. الثاني ـ مأخوذٌ من السُّبحة، والسُّبحة: الصلاة؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ: «تكون لهم سبحةً يوم القيامة» أي صلاةً[٦].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضٌ بين الكلام بدؤوب الحمد على نعمِه وآلائه. وقيل: معنى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي: الصلاةُ له؛

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٧٢)، والطبري ١٨/ ٤٧٤، والطبري (١٠٥٩٦)، والحاكم ٢/ ٤١٠ - ٤١١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨.

(٥) لم نقف على هذا الكلام عند الماوردي في النكت والعيون ولا عند أحد ممَّن ينقل عنه. وقد ذكر ابن الجوزي الكلام الأخير في زاد المسير ٦/ ٢٩٣ من غير نسبة.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣. والحديث لم نقف عليه بهذا اللفظ، وقد ورد معنى السُّبحة أنها الصلاة في أحاديث عدة منها ما أخرجه أحمد (٢٤٥٥٩)، والبخاري (١١٧٧) ومسلم (٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما سبَّح رسول الله ﷺ سبحة الضحى، وإني لأُسبِّحها. ومنها ما أخرجه أحمد (١٢٤٨٦) عن أنس بن مالك ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ سُبحة الضحى ثمان ركعات.

لاختصاصها بقراءة الحمد. والأوّل أظهر؛ فإنَّ الحمدَ لله من نوع التعظيم لله تعالى والحضِّ على عبادته ودوام نعمته، فيكون نوعاً آخرَ خلافَ الصلاة، والله أعلم[١].

وبدأ بصلاة المغرب؛ لأنَّ الليلَ يتقدَّم النهار. وفي سورة «سبحان» بدأ بصلاة الظهر؛ إذ هي أوَّلُ صلاةٍ صلَّاها جبريل بالنبيِّ ﷺ. قال الماورديُّ[٢]: وخصَّ صلاة الليل باسم التسبيح وصلاةَ النهار باسم الحمد؛ لأنَّ للإنسان في النهار متقلَّباً في أحوالٍ تُوجِبُ حمدَ الله تعالى عليها، وفي الليل على خلوةٍ تُوجِبُ تنزيهَ الله من الأسواء فيها؛ فلذلك صارَ الحمدُ بالنهار أخَصَّ فسُمِّيتْ به صلاةُ النهار، والتسبيحُ بالليل أخصَّ فسُمِّيتْ به صلاةُ الليل.

الثالثة ـ قرأ عكرمة: «حِينًا تُمْسُونَ وَحِينًا تُصْبِحُونَ» والمعنى: حيناً تُمسون فيه وحيناً تُصبحون فيه؛ فحذف «فيه» تخفيفاً، والقول فيه كالقول في ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:٤٨][٣]. ﴿وَعَشِيًّا﴾ قال الجوهريُّ: العَشِيُّ والعَشِيَّةُ من صلاة المغرب إلى العتمة؛ تقول: أتيتُه عشِيةَ أمسِ وعَشِيَّ أمسِ. وتصغير العَشِيِّ: عُشَيَّان، على غير [قياسِ] مُكَبَّره، كأنهم صغَّروا عَشْيَانًا، والجمع عُشَيَّانات. وقيل أيضاً في تصغيره: عُشَيْشِيَان، والجمع عُشَيْشِيَات. وتصغير العَشِيَّة عُشَيْشِيَة، والجمع عُشَيْشِيات. والعِشاءُ ـ بالكسر والمدِّ ـ مثلُ العَشِيِّ. والعِشاءان المغربُ والعَتْمة. وزعم قومٌ أنَّ العِشاءَ من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، وأنشدوا:

غدونا غدوةً سَحَراً بليلٍ عِشاءً بعد ما انتصفَ النهارُ[٤]

الماورديُّ[٥]: والفرقُ بين المساء والعِشاء: أنَّ المساءَ بُدُوُّ الظلام بعد المغيب،

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٣٠٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٢١٧، وينظر إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨، وقراءة عكرمة في المحتسب ٢/ ١٦٣، والشاذة ص ١١٦.

(٤) الصحاح (عشا)، وما بين حاصرتين منه.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٣٠٤.

والعِشاءَ آخرُ النهار عند ميل الشمس للمغِيب، وهو مأخوذٌ من عشا العين: وهو نقصُ النور من الناظر كنقص نور الشمس.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

بيَّن كمالَ قدرته؛ أي: كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها، كذلك يُحييكم بالبعث. وفي هذا دليل على صحة القياس، وقد مضى في «آل عمران»[١] بيانُ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: من علامات رُبُوبِيَّتِهِ ووَحْدانيَّته أنْ خلقكم من تراب[٢]، أي: خلقَ أباكم منه، والفرع كالأصل، وقد مضى بيانُ هذا في «الأنعام»[٣]. و«أنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء، وكذا ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم

(١) ٥/ ٨٦ - ٨٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨١.

(٣) ٨/ ٣١٨.

مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾[١].

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ثم أنتم عقلاءُ ناطقون تتصرَّفون فيما هو قِوامُ معايشكم، فلم يكن ليخلقكم عَبَثًا، ومن قَدَر على هذا فهو أهلٌ للعبادة والتسبيح.

ومعنى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: نساءً تسكنون إليها. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من نِطَفِ الرجال ومن جنسكم. وقيل: المراد حوَّاء، خلقها من ضِلَع آدم. قاله قتادة[٢]. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ قال ابن عباس ومجاهد: المودَّة: الجماع، والرحمة: الولد. وقاله الحسن. وقيل: المودَّة والرحمة عَطْفُ قلوبِهم بعضِهم على بعض[٣]. وقال السُّدِّي: المودةُ: المحبةُ، والرحمةُ: الشفقة[٤]. ورُوي معناه عن ابن عباس قال: المودَّةُ: حبُّ الرجل امرأتَه، والرحمة: رحمتُه إيَّاها أن يُصيبَها بسوء[٥]. ويُقال: إنَّ الرجل أصلُه من الأرض، وفيه قوَّةُ الأرض، وفيه الفَرْجُ الذي منه بُدئ خَلْقُه، فيحتاج إلى سَكَن، وخُلقتِ المرأةُ سكناً للرجل؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ فأوَّلُ ارتفاقِ الرجل بالمرأة سكونُه إليها مما فيه من غليَان القوَّة، وذلك أنَّ الفرجَ إذا تُحمِّلَ فيه هيَّجَ ماءَ الصلب إليه، فإليها يسكن، وبها يتخلص من الهِياج، وللرجال خُلِقَ البُضْعُ منهنَّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء:١٦٦] فأعلمَ اللهُ عزَّ وجلَّ الرجالَ أنَّ ذلك الموضعَ خُلِقَ منهنَّ للرجال، فعليها بذلُه في كلِّ وقتٍ يدعوها الزوج، فإن منعَتْه فهي ظالمةٌ وفي حرجٍ عظيم، ويكفيك من ذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة قال:

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

(٢) مجمع البيان ٢١/ ١٩، وقول قتادة في النكت والعيون ٤/ ٣٠٥.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٣، وذكر القول الأول عن مجاهد، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٠٥ عن الحسن، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٣ عن مجاهد والحسن وعكرمة.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٥، ومجمع البيان ٢١/ ١٩.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما مِنْ رجلٍ يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه، إلَّا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها»[(١)]. وفي لفظٍ آخر: «إذا باتَتِ المرأةُ هاجرةً فِراشَ زوجِها لعنَتْها الملائكةُ حتى تُصبح»[(٢)].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم في «البقرة»[(٣)] وكانوا يعترفون بأنَّ الله تعالى هو الخالق. ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ اللِّسان في الفم، وفيه اختلاف اللغات: من العربية والعجمية والتركية والرومية. واختلاف الألوان في الصور: من البياض والسواد والحمرة، فلا تكادُ ترى أحداً إلا وأنتَ تُفرِّقُ بينه وبين الآخر. وليس هذه الأشياء من فعل النُّطفة ولا من فعل الأبوين، فلا بُدَّ من فاعل، فعُلِمَ أنَّ الفاعِلَ هو الله تعالى، فهذا مِنْ أدلِّ دليلٍ على المدبِّر البارئ[(٤)]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أي للبَرِّ والفاجر[(٥)]. وقرأ حفص: «للعالِمِينَ» بكسر اللام، جمع عالِم[(٦)].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قيل: في هذه الآية تقديمٌ وتأخير[(٧)]، والمعنى: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار؛ فحُذِفَ حرفُ الجرِّ لاتصاله بالليل وعَطْفِه عليه، والواو تقوم مقامَ حرف الجرِّ إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصةً، فجُعلَ النومُ بالليل دليلاً على الموت، والتصرفُ بالنهار دليلاً على البعث. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يريدُ سماعَ تفهُّمٍ وتدبُّر[(٨)].

---

(١) صحيح مسلم (١٤٣٦) : (٢١).

(٢) صحيح مسلم (١٤٣٦) : (٢٠) ، وأخرجه أحمد (١٠٩٤٦) ، والبخاري (٥١٩٤) ، وقد سلف ٦/ ٢٨٣ .

(٣) ١/ ٣٧٦ فما بعدها.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ .

(٥) زاد المسير ٥/ ٣٩٨ عن ابن عباس ﷺ عند تفسير الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء.

(٦) السبعة ص ٥٠٦ ، والتيسير ص ١٧٥ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٣ .

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٨١ .

وقيل: يسمعون الحقَّ فيتبعونه. وقيل: يسمعون الوعظ فيخافونه. وقيل: يسمعون القرآن فيُصدِّقونه. والمعنى متقارب[١]. وقيل: كان منهم من إذا تُلي القرآن وهو حاضرٌ سَدَّ أذنيه حتى لا يسمع، فبيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الدلائل عليه[٢].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قيل: المعنى: أن يُريكم، فحذف «أن» لدلالة الكلام عليه؛ قال طرفة:

أَلَا أَيُّهذا اللائِمي أَحْضُرُ الوَغَى ... وأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هل أنت مُخْلِدي[٣]

وقيل: هو على التقديم والتأخير، أي: ويُريكم البرقَ من آياته. وقيل: أي: ومن آياته آيةٌ يريكم بها البرق، كما قال الشاعر:

وما الدَّهرُ إلَّا تارتانِ فمنهما ... أموتُ وأُخْرَى أبتغي العيشَ أكْدَحُ[٤]

وقيل: أي: من آياته أنه يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً من آياته. قاله الزجَّاج[٥]، فيكون عطفَ جملةٍ على جملة. ﴿خَوْفًا﴾ أي: للمسافر. ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم. قاله قتادة. الضحَّاك: «خَوْفًا» من الصواعق، «وَطَمَعًا» في الغيث. يحيى بن سلام: «خَوْفًا» من البرد أن يُهلِكَ الزرعَ، «وَطَمَعًا» في المطر أن يُحييَ الزرعَ. ابن بحر: «خَوْفًا» أن يكون البرقُ بَرْقًا خُلَّبًا لا يُمطر، «وَطَمَعًا» أن يكون ممطراً، وأنشد قولَ الشاعر:

لا يكُنْ بَرْقُكَ بَرقًا خُلَّبا ... إنَّ خيرَ البرقِ ما الغيثُ معه[٦]

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٧ دون قوله: فحذف حرف الجر ... إلى قوله: خاصةً. ودون قوله: يريد سماع تفهم وتدبر.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ .

(٣) البيان ٢/ ٢٥٠ . والبيت في ديوان طرفة ص ٣٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٣ - ٢٥٤ . والبيت قائله تميم بن أبي بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٤ .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ١٨٢ ، والعبارة التي بعده منه.

(٦) نسب هذا البيت إلى أبي الأسود الدؤلي كما في عيون الأخبار ص ٢٧٦ ، وجمهرة الأمثال ٣/ ١٥٦ ، ونسب إلى عبد الله بن كريز كما في الحماسة البصرية ٢/ ١٠ ، ونسب إلى أنس بن زنيم كما في خزانة الأدب ٦/ ٤٧١ .

وقال آخر:

فقد أردُ المياهَ بغير زادِ ... سوى عَدِّي لها برقَ الغمامِ[١]

والبرقُ الخُلَّبُ: الذي لا غيثَ فيه كأنه خادع؛ ومنه قيل لمن يَعِدُ ولا يُنْجز: إنما أنت كبرقٍ خُلَّب. والخُلَّب أيضاً: السحابُ الذي لا مطر فيه. ويقال: بَرْقُ خُلَّبٍ، بالإضافة[٢]. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تقدَّم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ «أنْ» في محلِّ رفعٍ كما تقدم، أي: قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد[٣]. وقيل: بتدبيره وحكمته، أي: يمسكها بغير عمدٍ لمنافع الخلق. وقيل: «بأمرِهِ» بإذنه. والمعنى واحد[٤]. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: الذي فعلَ هذه الأشياء قادرٌ على أن يبعثكم من قبوركم[٥]، والمرادُ سرعةُ وجودِ ذلك من غير توقُّفٍ ولا تلبُّث؛ كما يُجيبُ الداعي المطاعَ مَدْعُوُّهُ، كما قال القائل:

دَعَوْتُ كُلَيباً باسمهِ فكأنَّما ... دعوتُ برأسِ الطَّودِ أو هو أسرعُ

يريد برأس الطود: الصَّدى، أو الحجرَ إذا تَدَهْده. وإنما عطفَ هذا على قيام السماوات والأرض بـ«ثُمَّ» لِعظَمِ ما يكون من ذلك الأمر واقتدارِه على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقَى نسمةٌ من الأوّلين والآخرين إلا قامت تنظر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. و«إذا» الأولى في

---

(١) قائله المتنبي، وهو في ديوانه ٤/ ١٤٣، وفيه: «هاد» بدل «زاد». ومن قوله: ﴿خوفاً﴾.. إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢) الصحاح (خلب).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٨.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للشرط، والثانية في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَنتُمْ﴾ للمفاجأة، وهي تنوبُ منابَ الفاء في جواب الشرط[١]. وأجمع القرَّاء على فتح التاء هنا في «تَخْرَجُونَ»، واختلفوا في التي في «الأعراف» [الآية: ٢٥] فقرأ أهل المدينة: «ومنها تُخرجون» بضمِّ التاء، وقرأ أهل العراق: بالفتح، وإليه يميل أبو عبيد، والمعنيان متقاربان، إلَّا أنَّ أهل المدينة فرَّقوا بينهما لِنَسقِ الكلام، فنسَقُ الكلام في التي في «الأعراف» بالضمِّ أشبه؛ إذ كان الموتُ ليس من فعلهم، وكذا الإخراج. والفتح في سورة الروم أشبَهُ بنَسقِ الكلام، أي: إذا دعاكم خرجتُم، أي: أطعمتم؛ فالفِعْلُ [بهم] أشبه[٢]. وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة[٣]، على ما تقدَّم ويأتي. وقُرئ: «تخرجون» بضمِّ التاء وفتحِها، ذكره الزَّمَخْشَرِيُّ[٤] ولم يزِدْ على هذا شيئاً، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق، والله أعلم.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وعبداً. ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ رُوي عن أبي سعيد الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «كلُّ قنوتٍ في القرآن فهو طاعة». قال النحَّاس: مطيعون طاعة انقياد[٥]. وقيل: «قَانِتُونَ» مُقِرُّون بالعبودية، إما قالةً وإما دِلالةً. قاله عِكرمة وأبو مالك والسُّدِّي. وقال ابن عباس: «قَانِتُونَ»: مُصلُّون. الربيع بن أنس: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: قائمٌ يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ - ٢٧٠، وما بين حاصرتين منه. وينظر النشر ٢/ ٢٠٧.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٩٦.

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٢٠.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٠، والحديث أخرجه - بهذا اللفظ - الطبراني في الأوسط (١٨٢٩) من طريق رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، به. وأخرجه أحمد (١١٧١١) من طريق ابن لهيعة، عن دراج، به. بلفظ: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة». رشدين وابن لهيعة ضعيفان، وكذلك دراج أبو السمح في روايته عن أبي الهيثم العتواري. قلنا: وقد رُوي هذا من كلام قتادة فيما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١١٦.

[المطففين:٦] أي: للحساب. الحسن: كلٌّ له قائمٌ بالشهادة أنه عبدٌ له. سعيد بن جُبير. «قَانِتُونَ»: مخلصون(١).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أمَّا بدْءُ خلقِه فبِعُلوقه في الرَّحِم قبل ولادته، وأمَّا إعادتُه فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث، فجعل ما علم من ابتداء خلقِه دليلاً على ما يخفى من إعادته؛ استدلالاً بالشاهد على الغائب، ثم أكَّدَ ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾(٢). وقرأ ابن مسعود وابن عمر: «يُبْدِئُ الخَلْقَ»(٣) من أبدأ يُبدئ؛ دليلُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج:١٣]. ودليلُ قراءة العامَّة قولُه سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩]. و«أَهْوَنُ» بمعنى هيِّن، أي: الإعادةُ هيِّنٌ عليه. قاله الرَّبيع بن خُثيم والحسن(٤). فأهوَنُ بمعنى هيِّن؛ لأنه ليس شيءٌ أهونَ على الله من شيء. قال أبو عبيدة: ومَنْ جعلَ أهونَ يُعبِّر عن تفضيل شيء على شيء فقولُه مردودٌ بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:٣٠] وبقوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥]. والعرب تحمِلُ أفعل على فاعل، ومنه قول الفرزدق(٥):

إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا ... بيتاً دعائِمُه أعزُّ وأطوَلُ

أي: دعائمه عزيزةٌ طويلة. وقال آخر:

لَعَمْرُكَ ما أدري وإنِّي لأَوْجَلُ ... على أيِّنا تَغْدُو المنيَّةُ أَوَّلُ(٦)

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وهي قراءة شاذة لم نقف عليها إلا عند المصنف.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ عن ابن عباس والربيع، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨١ عن الربيع وقتادة والكلبي. وزاد المسير ٦/ ٢٩٨ عن الحسن وقتادة.

(٥) في ديوانه ص ٧١٤.

(٦) قائله معن بن أوس المزني، وهو في الكامل ٢/ ٧٥٠، والحماسة البصرية ٢/ ٧، وخزانة الأدب ٦/ ٥٠٥.

أراد: إني لوَجِلٌ. وأنشد أبو عبيدةَ أيضاً:

إنــي لأمْـنَـحُـكَ الـصُّـدودَ وإنَّـنـي ... قَـسَـمًـا إلـيـكَ مع الـصُّـدود لَأَمْـيَـلُ[(١)]

أراد: لَمائل. وأنشد أحمد بن يحيى:

تَـمـنَّـى رجـالٌ أن أمـوتَ وإن أَمُـتْ ... فـتـلـكَ سـبـيـلٌ لـسـتُ فـيـهـا بـأوْحَـدِ[(٢)]

أراد: بواحد. وقال آخر:

لَـعـمـرُكَ إنَّ الـزِّبـرقـانَ لَـبـاذلٌ ... لـمـعـروفِـهِ عـنـد الـسـنـيـنَ وأفـضَـلُ[(٣)]

أي: وفاضل. ومنه قولهم: الله أكبر، إنما معناه: الله الكبير. وروى معمر عن قتادة قال: في قراءة عبد الله بن مسعود: «وهو عليه هيِّن»[(٤)]. وقال مجاهد وعكرمة والضحَّاك: إنَّ المعنى أن الإعادة أهونُ عليه ـ أي: على الله ـ من البداية، أي: أيسر، وإن كان جميعُه على الله تعالى هيناً. وقاله ابن عباس[(٥)]. ووجهُه أنَّ هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ تعالى لعباده؛ يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهوَنُ من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعثُ لمن قدَرَ على البداية عندكم وفيما بينكم أهونَ عليه من الإنشاء. وقيل: الضمير في «عَلَيْهِ» للمخلوقين، أي: هو أهوَنُ عليه، أي: على الخلق، يُصاح بهم صيحةً واحدةً فيقومون ويُقال لهم: كونوا فيكونون؛ فذلك أهوَنُ عليهم من أن

---

(١) إلى هذا الموضع من مجاز القرآن ٢/ ١٢١ - ١٢٢ ، وهذا البيت قائله الأحوص بن محمد الأنصاري، وهو في كتاب سيبويه ١/ ٣٨٠ ، وخزانة الأدب ٢/ ٤٨ .

(٢) نسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣٠١، والطبري ٢٤/ ٤٧٨ ، وابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٤٦ - ٧٤٧ إلى طرفة، وذكر أن الشافعي رحمه الله تمثل به عندما دعا عليه أشهب بالموت. ونسبه الأخفش في الاختيارين ص١٦١ إلى مالك بن القين.

(٣) ذكره الطبري ١٨/ ٤٨٧ من غير نسبة.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٦ ، ووقع فيه وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ : «وهو هينٌ عليه». وأخرجها عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٢ بمثل ما أثبتناه، وهي قراءة شاذة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨١ عن مجاهد وعكرمة، وزاد المسير ٦/ ٢٩٧ عن مجاهد وأبي العالية.

يكونوا نُطَفاً، ثم عَلَقاً، ثم مُضَغاً، ثم أجِنَّةً، ثم أطفالاً، ثم غلماناً، ثم شُبَّاناً، ثم رجالاً أو نساءً. وقاله ابن عباس وقُطْرُب. وقيل: أهون: أسهل[١]؛ قال:

وهانَ على أسماءَ أن شطَّتِ النَّوَى يحِنُّ إليها والِهٌ ويتوقُ

أي: سهلٌ عليها. وقال الربيع بن خُثَيم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ قال: ما شيءٌ على الله بعزيز[٢]. عِكرمة: تعجَّبَ الكفار من إحياء الله الموتى، فنزلت هذه الآية[٣]. ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: ما أراده جلَّ وعزَّ كان. وقال الخليل: المثلُ: الصفة[٤]، أي: وله الوصف الأعلى ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ كما قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾ [الرعد: ٣٥] أي: صفتها. وقد مضى الكلام في ذلك. وعن مجاهد: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ﴾ قولُ: لا إله إلا الله؛ ومعناه: أي: الذي له الوصفُ الأعلى، أي: الأرفع الذي هو الوصف بالواحدانية. وكذا قال قتادة: إنَّ المثلَ الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله، ويَعْضُده قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ﴾ [الروم: ٢٨] على ما نُبيِّنُه آنفاً إن شاء الله تعالى. وقال الزجّاج: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أي قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ قد ضربَه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل؛ يريد التفسير الأوَّل[٥]. وقال ابن عباس: أي ليس كمثله شيء[٦] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨١، وزاد المسير ٦/ ٢٩٨.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١٠، والبيت قائله عمرو بن الأهتم كما في المفضليات ص ١٢٥، وقول الربيع أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٦.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٠.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٢١ دون قول قتادة، وقد أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٩. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٨٤.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٧، وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٨ - ٤٨٩.

(٧) ١/ ٤٢٩.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ ثم قال: ﴿مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ فـ «من» الأولى للابتداء، كأنه قال: أخذَ مثلاً وانتزعه من أقرب شيءٍ منكم وهي أنفسكم. والثانية للتبعيض، والثالثة زائدة لتأكيد الاستفهام(١). والآيةُ نزلت في كفار قريش، كانوا يقولون في التلبية: لبيكَ لا شريكَ لك، إلَّا شريكاً هو لك، تملِكُه وما مَلَكَ. قاله سعيد بن جُبير(٢). وقال قتادة: هذا مثلٌ ضربَه الله للمشركين، والمعنى: هل يرضى أحدُكم أن يكون مملُوكه في ماله ونفسه مِثلَه، فإذا لم ترضَوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء(٣)؟!

الثانية: قال بعض العلماء: هذه الآية أصلٌ في الشركة بين المخلوقين؛ لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه، وذلك أنه لمَّا قال جلَّ وعزَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ الآية، فيجب أن يقولوا: ليسَ عبيدُنا شركاءَنا فيما رزقتَنا. فيُقال لهم: فكيف يُتصوَّرُ أن تُنزِّهوا نفوسَكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركائي في خلقي، فهذا حكمٌ فاسدٌ وقِلةُ نظرٍ وعَمَى قلب! فإذا بطلتِ الشركةُ بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادةُ - والخلقُ كلُّهم عبيدٌ لله تعالى - فيبطل أن يكون شيءٌ من العالَم شريكاً لله تعالى في شيء من أفعاله، فلم يبقَ إلَّا أنه واحدٌ يستحيلُ أن يكون له شريك، إذِ الشركة تقتضي المعاونة، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل، والقديمُ الأزليُّ منزَّهٌ عن ذلك جَلَّ وعزَّ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢١ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١١ ، وزاد المسير ٦/ ٢٩٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٧ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٢ ، والطبري ١٨/ ٤٩٠ .

وهذه المسألة أفضَلُ للطالب من حفظ ديوانٍ كاملٍ في الفقه؛ لأنَّ جميعَ العبادات البدنية لا تصِحُّ إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ لمَّا قامتْ عليهم الحُجَّةُ ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها وتقليد الأسلاف في ذلك. ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ أي: لا هاديَ لمن أضلَّه اللهُ تعالى. وفي هذا ردٌّ على القدرية. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى ـ قال الزجَّاج: «فِطْرَةَ» منصوبٌ بمعنى: اتَّبِعْ فطرةَ الله. قال: لأن معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اتَّبِعِ الدِّينَ الحنيفَ واتَّبِعْ فطرةَ الله. وقال الطبري: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ مصدر من معنى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن معنى ذلك: فطرَ اللهُ الناس على ذلك فِطرةً. وقيل: معنى ذلك: اتَّبعوا دينَ الله الذي خَلَقَ الناسَ له، وعلى هذا القول يكون الوقفُ على «حَنِيفًا» تامًّا. وعلى القولين الأوَّلين يكون متَّصلاً، فلا يُوقَفُ على «حنيفاً». وسُمِّيتِ الفِطْرَةُ دِيناً لأن الناسَ يُخلَقون له قال جلَّ وعزَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. ويقال: «عَلَيْهَا» بمعنى لها، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾(١) [الإسراء:٧]. والخطاب بـ «أقِمْ وَجْهَكَ» للنبيِّ ﷺ، أمرَه بإقامة وجهِه للدِّين المستقيم، كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم:٤٣] وهو دين الإسلام.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧١ - ٢٧٢ دون قوله: وعلى هذا القول يكون الوقف.. إلى قوله: فلا يوقف على «حنيفاً». وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٨٤ ، وقول الطبري في تفسيره ١٨/ ٤٩٣ .

وإقامة الوجه هو تقويمُ المقصد، والقوَّة على الجِدِّ في أعمال الدين .وخصَّ الوجه بالذكر؛ لأنه جامعُ حواسِّ الإنسان وأشرفُه. ودخل في هذا الخطاب أمَّتُه باتِّفاقٍ من أهل التأويل. و«حَنِيفًا» معناه: معتدلاً مائلاً عن جميع الأديان المحرَّفة المنسوخة[١].

الثانية ـ في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرة ـ في رواية: على هذه الملة ـ فأبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمَجِّسَانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحِسُّون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾[٢]. في رواية: «حتى تكونوا أنتم تجدعونَها» قالوا: يا رسول الله، أفرأيتَ مَنْ يموتُ صغيراً؟ قال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين». لفظ مسلم[٣].

الثالثة ـ واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعدِّدة، منها الإسلام. قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرُهما؛ قالوا: وهو المعروف عند عامَّة السلف من أهل التأويل، واحتجُّوا بالآية وحديث أبي هريرة، وعَضَدوا ذلك بحديث عِياض بن حِمار المُجَاشِعيِّ أنَّ رسول الله ﷺ قال للناس يوماً: «ألَا أُحدِّثكم بما حدَّثني اللهُ في كتابه، أنَّ الله خلق آدمَ وبَنيه حُنفاءَ مسلمين، وأعطاهمُ المالَ حلالاً لا حرامَ فيه، فجعلوا ممَّا أعطاهم اللهُ حلالاً وحراماً...» الحديث[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٦.

(٢) صحيح البخاري (١٣٥٨)، وصحيح مسلم (٢٦٥٨) : (٢٢). وهو في مسند أحمد (٧٧١٢). ورواية: «على الملة» في صحيح مسلم (٢٦٥٨) : (٢٣) ، وهي في مسند أحمد (٧٤٤٣). وقد سلف بعضه ٧/ ١٤٨ .

(٣) في صحيحه (٢٦٥٨) : (٢٤).

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٨٧٨) ، والطبراني ١٧/ (٩٩٧) ، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٧٣ من طريق محمد بن إسحاق، عن ثور بن يزيد، عن يحيى بن جابر، عن عياض بن حمار ﷺ، به. محمد بن إسحاق مدلس، وقد رواه بالعنعنة. وأخرجه أحمد (١٧٤٨٤) ، ومسلم (٢٨٦٥) بغير هذا السياق.

وبقوله ﷺ: «خمسٌ من الفطرة..»[١] فذكر منها قصَّ الشارب، وهو من سنن الإسلام، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث: أنَّ الطفل خُلِقَ سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يُدرِكوا في الجنة؛ أولادَ مسلمين كانوا أو أولادَ كفار. وقال آخرون: الفطرةُ: هي البداءةُ التي ابتدأهم الله عليها، أي: على ما فطرَ اللهُ عليه خَلْقَه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ. قالوا: والفطرة في كلام العرب: البداءة، والفاطر: المبتدئ. واحتجُّوا بما رُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: لم أكُنْ أدري ما فاطرُ السماوات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها، أي ابتدأتُها. قال الْمَرْوَزِيُّ: كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه. قال أبو عمر في كتاب «التمهيد» له: ما رسمَه مالكٌ في «موطَّئه»[٢] وذكرَ في أبواب[٣] القدر فيه من الآثار يَدلُّ على أنَّ مذهبَه في ذلك نحوُ هذا، والله أعلم. ومما احتجُّوا به ما رُوِيَ عن [محمد بن][٤] كعب القُرَظيِّ في قول الله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠] قال: مَنِ ابتدأ اللهُ خلْقَه للضلالة صيَّره إلى الضلالة وإن عمِلَ بأعمال الهدى، ومَنِ ابتدأ اللهُ خَلْقَه على الهدى صيَّره إلى الهدى وإن عمِلَ بأعمال الضلالة، ابتدأ اللهُ خَلْقَ إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم ردَّه اللهُ إلى ما ابتدأ خَلْقَه،[٥] قال: وكان من الكافرين.

---

(١) وقد سلف ٢/ ٣٦٣.

(٢) ٢/ ٨٩٨ - ٩٠١.

(٣) في (م): باب، والمثبت من النسخ الخطية.

(٤) ما بين حاصرتين من المصادر، وهو ليس في النسخ.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ١٤٣، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٣٦٧)، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٨٠ من طريق موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي. موسى بن عبيدة ضعيف فيما قال ابن حجر في التقريب. والكلام من أول المسألة إلى هذا الموضع من التمهيد ١٨/ ٦٦ و٧٢ و٧٣ و٧٦ - ٨٠.

قلت: قد مضى قول [محمد بن] كعب هذا في «الأعراف»[(١)]، وجاء معناه مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دُعِيَ رسولُ الله ﷺ إلى جنازة غلامٍ من الأنصار، فقلتُ: يا رسول الله، طُوبى لهذا، عصفورٌ من عصافير الجنة، لم يعملِ السوءَ ولم يُدرِكْه. قال: «أوَغيرَ ذلكَ يا عائشة، إنَّ الله خلق للجنة أهلاً خلقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلقَ للنارِ أهلاً خلقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم» خرَّجه ابن ماجه في «السنن»[(٢)]. وخرج أبو عيسى الترمذيُّ عن عبد الله بن عمرو قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرونَ ما هذان الكتابان؟» فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تُخبِرَنا، فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجْمِلَ على آخِرهم فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً...» ثم قال للذي في شماله: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجمِلَ على آخِرهم فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً...» وذكر الحديث، وقال فيه: حديث حسن[(٣)].

وقالت فرقةٌ: ليس المراد بقولِه تعالى: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ولا قوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة» العمومَ، وإنما المرادُ بالناس المؤمنون؛ إذ لو فُطِرَ الجميعُ على الإسلام لمَا كفر أحد، وقد ثبت أنه خلقَ أقواماً للنار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وأخرجَ الذُّرِّيةَ من صلب آدم سوداء وبيضاء. وقال في الغلام الذي قتله الخَضِر: طُبعَ يوم طُبعَ كافراً[(٤)]. وروى أبو سعيد الخُدْرِيُّ قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ العصر بنهار، وفيه: وكان فيما حفِظْنا أن قال:

---

(١) ٩/ ١٩١، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٢) سنن ابن ماجه (٨٢)، وأخرجه أحمد (٢٥٤٧٢)، ومسلم (٢٦٦٢): (٣١).

(٣) سنن الترمذي (٢١٤١)، وهو في مسند أحمد (٦٥٦٣)، وفي إسناده أبو قبيل حيي بن هانئ المعافري، وهو مختلف فيه، وضعفه الحافظ في تعجيل المنفعة ص ٢٧٧، وذكر أنه كان يكثر النقل عن الكتب القديمة.

(٤) التمهيد ١٨/ ٥٩ و٦١ دون قوله: إذ لو فطر... إلى قوله: سوداء وبيضاء.

«ألَا إنَّ بني آدم خُلِقوا على طبقاتٍ شتَّى، فمنهم مَنْ يولَدُ مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، ومنهم من يولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولَدُ مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً، ومنهم حَسَنُ القضاء حَسَنُ الطلب». ذكره حماد بن زيد قال(١): حدثنا عليُّ بن زيد، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيد(٢). قالوا: والعموم بمعنى الخصوص كثيرٌ في لسان العرب، ألا ترى إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف:٢٥] ولم تدمِّرِ السماواتِ والأرض، وقولهِ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤] ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة(٣). وقال إسحاق بن رَاهْوَيه الحنظلي: تمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ثم قال: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ أي: فطَرَ اللهُ الخلقَ فِطرةً إمَّا بجنةٍ أو نار، وإليه أشار النبيُّ ﷺ في قوله: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة» ولهذا قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال شيخُنا أبو العباس(٤): من قال: هي سابقةُ السعادة والشقاوة، فهذا إنَّما يليقُ بالفِطرةِ المذكورةِ في القرآن؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ وأما في الحديث فلا؛ لأنَّه قد أخبر في بقية الحديث بأنها تُبدَّلُ وتُغيَّر.

وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر: الفطرةُ: هي الخِلقةُ التي خُلِقَ عليها المولودُ في المعرفة بربِّه، فكأنه قال: كلُّ مولودٍ يولَدُ على خِلْقةٍ يعرِفُ بها ربَّه إذا بلغَ مبلَغَ المعرفة؛ يريد خِلقةً مخالفةً لخِلقة البهائم التي لا تصِلُ بخلقتها إلى معرفته، واحتَجُّوا على أنَّ الفِطرةَ الخِلقةُ، والفاطِرَ الخالقُ؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ

(١) المثبت من (ز). وفي (ظ): ذكره حماد بن زيد كذا قال. وفي (د): ذكره حماد بن أسلم الطيالسي قال: وفي (م): ذكره حماد بن زيد بن سلمة في مسند الطيالسي قال.

(٢) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ الترمذي (٢١٩١) من طريق حماد بن زيد، به.

وأخرجه أحمد (١١١٤٣) والطيالسي (٢١٥٦) من طريق حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، به. علي بن زيد: هو ابن جدعان، وهو ضعيف، وقد تكلم فيه شعبة كما سيذكر المصنف.

(٣) التمهيد ١٨/ ٦٢.

(٤) في المفهم ١/ ٦٧٥ - ٦٧٦.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] يعني: خالقهنَّ، وبقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢] يعني: خلقني، وبقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦] يعني: خلقهنَّ. قالوا: فالفطرةُ: الخِلقَةُ، والفاطرُ الخالق، وأنكروا أن يكون المولودُ يُفْطَرُ على كفرٍ أو إيمانٍ أو معرفةٍ أو إنكار. قالوا: وإنما المولود على السلامة في الأغلب خِلْقَةً وطبعاً وبِنيةً ليس معها إيمانٌ ولا كفرٌ ولا إنكارٌ ولا معرفة، ثم يعتقدون الكفرَ والإيمانَ بعد البلوغ إذا ميَّزوا، واحتجُّوا بقوله في الحديث: «كما تُنْتَجُ البَهِيمةُ بهيمةً جَمعاءَ - يعني سالمة - هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء» يعني مقطوعةَ الأذن. فمثَّلَ قلوبَ بني آدم بالبهائم؛ لأنها تولَدُ كاملةَ الخَلْق ليس فيها نقصان، ثم تُقطَعُ آذانُها بعدُ وأنوفُها، فيقال: هذه بحائر وهذه سوائب. يقول: فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفرٌ ولا إيمان، ولا معرفةٌ ولا إنكار، كالبهائم السائمة، فلمَّا بلغوا استهوتهم الشياطينُ فكفر أكثرهم، وعصمَ اللهُ أقلَّهم. قالوا: ولو كان الأطفال قد فُطِروا على شيءٍ من الكفر والإيمان في أوَّليَّة أمورهم ما انتقلوا عنه أبداً، وقد نَجِدُهم يؤمنون ثم يكفرون [ويكفرون ثم يؤمنون]. قالوا: ويستحيلُ في المعقول أن يكون الطفلُ في حين ولادته يعقلُ كفراً أو إيماناً؛ لأنَّ الله أخرجهم في حالٍ لا يفقهون معها شيئاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] فمَنْ لا يعلمُ شيئاً استحالَ منه كفرٌ أو إيمان، أو معرفةٌ أو إنكار. قال أبو عمر بن عبد البر: هذا أصَحُّ ما قيل في معنى الفطرة التي يولَدُ الناسُ عليها. ومن الحجَّة أيضاً في هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] و﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ومن لم يبلُغْ وقتَ العمل لم يرتهن بشيء. وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ولمَّا أجمعوا على دفعِ القَوَد والقصاصِ والحدود والآثام عنهم في دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك، والله أعلم. ويستحيل أن تكون الفِطرةُ المذكورةُ الإسلامَ، كما قال ابن شهاب؛ لأنَّ الإسلام والإيمان: قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، وهذا معدومٌ من الطفل، لا يجهل ذلك ذو عقل.

وأما قول الأوزاعي: سألتُ الزهريَّ عن رجلٍ عليه رَقَبَةٌ أيُجزِئُ عنه الصبيُّ أن يَعتِقَه وهو رضيع؟ قال: نعم؛ لأنه وُلِدَ على الفِطرة يعني الإسلام، فإنما أجزَى عتقه عند من أجازه؛ لأنَّ حُكمَه حُكمُ أبويه. وخالفهم آخرون فقالوا: لا يجزِي في الرقابِ الواجبةِ إلَّا مَنْ صام وصلَّى، وليس في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩] ولا في «أن يختمَ اللهُ للعبد بما قضاه له وقدَّره عليه» دليلٌ على أنَّ الطفل يولَدُ حين يولَدُ مؤمناً أو كافراً؛ لِما شهدتْ له العقولُ أنه في ذلك الوقت ليس ممَّن يعقِلُ إيماناً ولا كفراً، والحديث الذي جاء فيه: «أنَّ الناس خُلِقوا على طبقات» ليس من الأحاديث التي لا مَطعنَ فيها؛ لأنَّه انفرد به عليُّ بن زيد بن جُدْعان، وقد كان شعبة يتكلَّم فيه، على أنه يحتمل قوله: «يولَدُ مؤمناً» أي: يُولَدَ ليكون مؤمناً، ويُولَدَ ليكون كافراً على سابق علم الله فيه، وليس في قوله في الحديث: «خلقتُ هؤلاء للجنة، وخلقتُ هؤلاء للنار» أكثرَ من مراعاة ما يُختَمُ به لهم، لا أنهم في حين طفولتهم ممَّن يستحِقُّ جنةً أو ناراً، أو يعقِلُ كفراً أو إيماناً[١].

قلت: وإلى ما اختاره أبو عمر واحتجَّ له ذهبَ غيرُ واحدٍ من المحقِّقين، منهم ابن عطية في «تفسيره» في معنى الفطرة، وشيخُنا أبو العباس؛ قال ابن عطية[٢]: والذي يُعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخِلْقةُ والهيئةُ التي في نفس الطفل التي هي مُعدَّةٌ ومهيَّأةٌ لِأَنْ يُميِّزَ بها مصنوعات الله تعالى، ويستدِلَّ بها على ربِّه، ويعرفَ شرائعه ويؤمن به، فكأنه تعالى قال: أقِمْ وجهَك للدِّين الذي هو الحنيف، وهو فِطْرةُ الله الذي على الإعداد له فِطَرُ البشر، لكن تَعرِضُهم العوارض؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنَصِّرانه» فذِكْرُ الأبوين إنما هو مثالٌ للعوارض التي هي كثيرة. وقال شيخنا في عبارته[٣]: إنَّ الله تعالى خلقَ قلوب بني آدم

(١) التمهيد ١٨/ ٦٨ و٧٠ و٧١ و٧٦ و٧٧ و٨٢ و٨٣، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٦.

(٣) في المفهم ١/ ٦٧٦.

مؤهَّلَةً لقبول الحق، كما خلق أعينَهم وأسماعَهم قابلةً للمرئيات والمسموعات، فما دامَتْ باقيةً على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركتِ الحقَّ ودينَ الإسلام وهو الدِّين الحق. وقد دلَّ على هذا المعنى قوله: «كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء» يعني أن البهيمة تَلِدُ ولدَها كاملَ الخِلْقةِ سليماً من الآفات، فلو تُرِكَ على أصل تلك الخِلْقةِ لبقي كاملاً بريئاً من العيوب، لكن يُتصرَّف فيه، فتُجدَعُ أذنُه ويُوسَمُ وجهُه، فتطرأ عليه الآفاتُ والنقائصُ فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان، وهو تشبيهٌ واقعٌ، ووجهه واضح.

قلت: وهذا القول مع القول الأوَّل موافقٌ له في المعنى، وأنَّ ذلك بعد الإدراك حين عقَلوا أمر الدنيا، وتأكَّدت حُجَّةُ الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة، من خلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، والبرِّ والبحر، واختلاف الليل والنهار، فلما عمِلَتْ أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعَتْهم إلى اليهودية والنصرانية، فذهبت بأهوائهم يميناً وشمالاً، وأنهم إن ماتوا صغاراً في الجنة، أعني جميعَ الأطفال؛ لأنَّ الله تعالى لمَّا أخرجَ ذريةَ آدمَ من صلبه في صورة الذَّرِّ أقرُّوا له بالربوبية، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ثم أعادهم في صُلبِ آدم بعد أن أقرُّوا له بالرُّبوبية، وأنه اللهُ لا إله غيرُه، ثم يُكتَبُ العبدُ في بطن أمِّه شقيًّا أو سعيداً على الكتاب الأوَّل، فمن كان في الكتاب الأوَّل شقيًّا عُمِّرَ حتى يجري عليه القلمُ، فينقضَ الميثاق الذي أُخِذَ عليه في صُلب آدم بالشرك، ومن كان في الكتاب الأوَّلِ سعيداً عُمِّر حتَّى يجري عليه القلمُ فيصيرُ سعيداً، ومن ماتَ صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلمُ فهم مع آبائهم في الجنة، ومن كان من أولاد المشركين فماتَ قبل أن يجري عليه القلم، فليس يكونون مع آبائهم؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأوّل الذي أُخِذَ عليهم في صُلب آدم ولم ينقُضِ الميثاق. ذهب إلى هذا جماعةٌ من أهل التأويل، وهو يجمع بين الأحاديث، ويكون معنى قوله عليه الصلاة والسلام لمَّا سُئِلَ عن أولاد

المشركين، فقال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين»[١] يعني: لو بلغوا.

ودلَّ على هذا التأويل أيضاً حديثُ البخاريِّ[٢] عن سَمُرة بن جُنْدَبُ عن النبي ﷺ... الحديثُ الطويل حديثُ الرؤيا، وفيه قوله عليه الصلاة والسلام: «وأمَّا الرجلُ الطويلُ الذي في الروضة فإبراهيمُ عليه السلام، وأما الوِلدانُ حولَه فكلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة». قال: فقيل: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولادُ المشركين». وهذا نصٌّ يرفع الخلاف، وهو أصحُّ شيءٍ رُوي في هذا الباب، وغيرُه من الأحاديث فيها عِلَلٌ وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء. قاله أبو عمر بن عبد البر[٣]. وقد رُويَ من حديث أنس قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «لم تكُنْ لهم حسناتٌ فيُجْزَوْا بها فيكونوا من ملوك الجنة، ولم تكن لهم سيئاتٌ فيُعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار، فهم خَدَمٌ لأهل الجنة» ذكره يحيى بن سلاَّم في التفسير له[٤]. وقد زدنا هذه المسألة بياناً في كتاب «التذكرة»[٥]، وذكرنا في كتاب «المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس» ما ذكره أبو عمر من ذلك، والحمد لله. وذكر إسحاق بن راهويه قال: حدَّثنا يحيى بن آدم قال: أخبرنا جرير بن حازم، عن أبي رجاء العُطَارِديِّ قال: سمعتُ ابنَ عباسٍ يقول: لا يزالُ أمرُ هذه الأمة مواتياً أو متقارباً - أو كلمة تشبه هاتين - حتى يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقَدَر. قال يحيى بن آدم: فذكرتُه لابن المبارك، فقال: أيسكتُ الإنسانُ على الجهل؟ قلتُ: فتأمرُ بالكلام؟ قال: فسكت[٦]. وقال أبو بكر الوراق: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ

(١) أخرجه أحمد (٣٠٣٤)، والبخاري (٦٥٩٧)، ومسلم (٢٦٦٠) عن ابن عباس رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٧٣٢٥)، والبخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في صحيحه (٧٠٤٧)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٩٤)، وقد سلف بعضه ٣٤٩/٢.

(٣) في التمهيد ١١٨/١٨ و١٣٠.

(٤) وأخرجه الطيالسي (٢١١١)، وأبو نعيم في الحلية ٣٠٨/٦ من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس رضي الله عنه، به. يزيد الرقاشي: هو ابن أبان، وهو ضعيف. ميزان الاعتدال ٤١٨/٤ - ٤١٩.

(٥) ص ٥١١ - ٥١٧.

(٦) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٣١/١٨.

﴿عَلَيْهَا﴾: هي الفقر والفاقة. وهذا حسن؛ فإنه منذُ وُلِدَ إلى حين يموت فقيرٌ محتاج، نعم! وفي الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: هذه الفطرةُ لا تبديلَ لها من جهة الخالق. ولا يجيء الأمرُ على خلاف هذا بوجه، أي: لا يشقى مَنْ خَلَقَه سعيداً، ولا يسعَدُ مَنْ خَلَقَه شقيًّا. وقال مجاهد: المعنى: لا تبديلَ لدين الله. وقاله قتادة وابن جُبير والضحَّاك وابن زيد والنَّخَعيّ؛ قالوا: هذا معناه في المعتقدات. وقال عكرمة: ورُوي عن ابن عباس وعمر بن الخطاب أنَّ المعنى: لا تغييرَ لخلق الله من البهائم أن تُخصى فحولُها، فيكون معناه النهيَ عن خِصاء الفحول من الحيوان[١]. وقد مضى هذا في «النساء»[٢]. ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: ذلك القضاء المستقيم. قاله ابن عباس. وقال مقاتل: ذلك الحسابُ البيِّن[٣]. وقيل: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: دينُ الإسلام هو الدينُ القيِّمُ المستقيم[٤]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يتفكرون فيعلمون أنَّ لهم خالقاً معبوداً، وإلهاً قديماً سبق قضاؤه ونَفَذَ حُكمُه.

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ اختُلِفَ في معناه، فقيل: راجعينَ إليه بالتوبة والإخلاص[٥]. وقال يحيى بن سلاَّم والفرَّاء: مُقبلين إليه. وقال عبد الرحمن بن زيد: مُطيعين له. وقيل: تائبين إليه من الذنوب؛ ومنه قول [أبي] قيس بن الأسْلَت:

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١٢، وقول مجاهد ومن وافقه أخرجه الطبري عنهم ١٨/ ٤٩٤ - ٤٩٦، وكذلك أخرج القول الذي يليه عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد.

(٢) ٧/ ١٤٧.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣١٢.

(٤) الوسيط ٣/ ٤٣٣.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣.

فإن تابوا فإنَّ بني سُلَيمٍ وقومَهُمُ هوازِنَ قد أنابوا

والمعنى واحد؛ فإن «ناب وتاب ثاب وآب» معناه الرجوع. قال الماوردِيُّ[1]: وفي أصل الإنابة قولان: أحدهما ـ أنَّ أصلَه القطع، ومنه أُخِذَ اسمُ النَّاب؛ لأنه قاطع، فكأنَّ الإنابةَ هي الانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ بالطاعة. الثاني ـ أصله الرجوع، مأخوذٌ من نابَ ينوبُ إذا رجع مرةً بعد أخرى، ومنه النَّوْبة؛ لأنها الرجوعُ إلى عادة. الجوهري[2]: وأناب إلى الله: أقبل وتاب. والنَّوْبة واحدةُ النُّوَب، تقول: جاءت نَوْبَتُك ونيابتُك، وهم يتناوبون النَّوْبة فيما بينهم في الماء وغيره.

وانتصب على الحال؛ قال محمد بن يزيد: لأنَّ معنى: «أَقِمْ وَجْهَكَ»: فأقيموا وجوهَكم منيبين. وقال الفرَّاء: المعنى: فأقِمْ وجهَكَ ومَنْ معكَ منيبين[3]. وقيل: انتصبَ على القطع، أي: فأقِمْ وجهَكَ أنتَ وأمتكَ المنيبين إليه؛ لأنَّ الأمرَ له أمرٌ لِأُمَّته، فَحسُنَ أن يقول: منيبين إليه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[4] [الطلاق: ١]. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وامتثِلوا ما أمركم به. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بيَّن أنَّ العبادة لا تنفع إلَّا مع الإخلاص؛ فلذلك قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقد مضى هذا مُبيَّناً في «النساء»[5] و«الكهف»[6]. وغيرهما.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ تأوَّله أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة: أنه لأهل القبلة من

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣١٣، وما قبله منه.

(٢) في الصحاح (نوب).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٥.

(٥) ٦/ ٢٩٧ فما بعد.

(٦) ١١/ ٢٠٦ فما بعد.

أهل الأهواء والبِدَع[(١)]. وقد مضى في الأنعام[(٢)] بيانُه. وقال الربيع بن أنس: الذين فرَّقوا دينَهم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى[(٣)]. وقاله قتادة ومَعْمَر[(٤)].

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فارقُوا دِينَهم﴾، وقد قرأ بذلك عليٌّ بن أبي طالب[(٥)]، أي: فارقوا دينَهم الذي يجب اتباعه، وهو التوحيد[(٦)]. ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقاً. قاله الكَلْبيُّ. وقيل: أدياناً. قاله مقاتل. ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: مسرورونَ مُعجَبون[(٧)]؛ لأنهم لم يتبيَّنوا الحقَّ وعليهم أن يتبيَّنوه[(٨)]. وقيل: كان هذا قبل أن تنزل الفرائض[(٩)]. وقول ثالث: أنَّ العاصي لله عزَّ وجلَّ قد يكون فَرِحاً بمعصيته، فكذلك الشيطانُ وقُطَّاعُ الطريق وغيرُهم، والله أعلم. وزعم الفرَّاء أنه يجوز أن يكون التمام ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ويكون المعنى: من الذين فارقوا دينَهم ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ على الاستئناف، وأنه يجوز أن يكون متصلاً بما قبله. النحَّاس[(١٠)]: وإذا كان متَّصلاً بما قبله فهو عند البصريين على البدل بإعادة الحرف، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] ولو كان بلا حرف لجاز.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٢) ٩/ ١٣٣ فما بعد.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣١٣ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٩٨ عن قتادة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣١٣ ، وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص ٢٧٤ ، والتيسير ص ١٠٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ٢٢٢ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣١٤ .

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٩) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦١ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ ، وما قبله منه. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٢٥ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي: قَحْطٌ وشِدَّة[١] ﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ قال ابن عباس: مُقبِلين عليه بكلِّ قلوبهم لا يشركون[٢]. ومعنى هذا الكلام التعجُّب؛ عجب نبيُّه من المشركين في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحُجج عليهم؛ أي إذا مسَّ هؤلاء الكفارَ ضرٌّ من مرضٍ وشدَّةٍ دَعَوْا ربَّهم، أي: استغاثوا به في كشف ما نزلَ بهم، مُقبلين عليه وحدَه دون الأصنام؛ لعلمهم بأنَّه لا فَرَج عندها .﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً﴾ أي: عافية ونعمة .﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ أي: يشركون به في العبادة.

قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ قيل: هي لامُ كي. وقيل: هي لامُ أمرٍ فيه معنى التهديد، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[٣] [الكهف: ٢٩]. ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تهديدٌ ووعيد[٤]. وفي مصحف عبد الله: «وليَتمتَّعُوا»[٥]، أي: مكَّناهم من ذلك لكي يتمتَّعوا، فهو إخبارٌ عن غائب، مثل: «لِيَكْفُرُوا». وهو على خطِّ المصحف خطابٌ بعد الإخبار عن غائب، أي: تمتَّعوا أيها الفاعلون لهذا[٦].

قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنًا﴾ استفهامٌ فيه معنى التوقيف. قال الضحَّاك:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٦ .

(٥) الكشاف ٣/ ٢٢٢ ، وهي قراءة شاذة.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٦ .

«سُلْطَاناً» أي: كتاباً[١]. وقاله قتادة والربيع بن أنس[٢]. وأضافَ الكلامَ إلى الكتاب توسُّعًا. وزعم الفرَّاءُ أنَّ العربَ تؤنِّث السلطان؛ تقول: قضَتْ به عليكَ السلطانُ. فأما البصريون فالتذكيرُ عندهم أفصحُ، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائزٌ؛ لأنه بمعنى الحجة[٣]، أي: حُجَّةٌ تنطقُ بشِرْكِكم. قاله ابن عباس والضحَّاك أيضاً[٤]. وقال عليُّ بن سليمان عن أبي العباس محمد بن يزيد قال: سُلطان جمع سَليط؛ مثل رَغيف ورُغْفان، فتذكيرُه على معنى الجمع، وتأنيثُه على معنى الجماعة[٥]. وقد مضى في «آل عمران»[٦] الكلامُ في السلطان أيضاً مستوفى. والسلطان: ما يدفَعُ به الإنسانُ عن نفسه أمراً يستوجب به عقوبة، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ يعني الخِصْبَ والسَّعةَ والعافية. قاله يحيى بن سلاَّم. النَّقَّاش: النعمة والمطر. وقيل: الأمن والدَّعَة. والمعنى متقارب. ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ أي: بالرحمة. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: بلاءٌ وعقوبة. قاله مجاهد. السُّدِّي: قحط المطر. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما عملوا من المعاصي. ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: ييأسون من الرحمة والفَرَج. قاله الجمهور. وقال الحسن: إنَّ القنوطَ تركُ فرائضِ الله سبحانه وتعالى في السرِّ[٧]. قَنِطَ يَقْنَطُ، وهي قراءة العامَّة. وقَنَطَ

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٤ عن قتادة، وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٠٠ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ١٢ من غير نسبة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤ .

(٦) ١/ ٣٥٧ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣١٥ .

يَقْنِطُ، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ويعقوب[١]. وقرأ الأعمش: «قَنِطَ يَقْنِطُ» بالكسر فيهما، مثل حَسِبَ يَحْسِبُ. والآية صفة للكافر، يقنط عند الشدَّة، ويبطَر عند النعمة، كما قيل:

كحمارِ السَّوءِ إن أعلَفْتَهُ رَمَحَ الناسَ[٢] وإن جاعَ نَهَقْ[٣]

وكثيرٌ ممن لم يرسُخِ الإيمانُ في قلبه بهذه المثابة، وقد مضى في غير موضع. فأما المؤمن فيشكر ربَّه عند النعمة، ويرجوه عند الشدَّة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسِّعُ الخير في الدنيا لمن يشاء ويُضيِّق لمن يشاء، فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ **فيه ثلاثُ مسائل:**

الأولى ـ لمَّا تقدَّم أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدِرُ أمرَ مَنْ وسَّعَ عليه الرزقَ أن يُوصِلَ إلى الفقير كفايتَه؛ ليمتحِنَ شكرَ الغنيِّ. والخطابُ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام والمرادُ هو وأمتُه؛ لأنه قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾. وأمرَ بإيتاء ذي القربى؛ لِقُرْب رَحِمِه، وخيرُ الصدقة ما كان على القريب، وفيها صلةُ الرِّحِم. وقد

---

(١) السبعة ص ٣٦٧، والتيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/٣٠٢.

(٢) أي: ضرب الناس بحافره. اللسان (رمح).

(٣) قائله مسكين الدارمي، وهو في الشعر والشعراء ص ٥٤٤، وبهجة المجالس ١/١٠٤، وخزانة الأدب ٣/٧٠.

فضَّل رسولُ الله ﷺ الصدقةَ على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدةً: «أما إنَّكِ لو أعطيْتِها أخوالَكِ كان أعظَمَ لأجْرِك»[١].

الثانية ـ واختُلِفَ في هذه الآية، فقيل: إنها منسوخةٌ بآية المواريث. وقيل: لا نسخَ، بل للقريب حقٌّ لازمٌ في البرِّ على كل حال، وهو الصحيح.

قال مجاهد وقتادة: صِلةُ الرَّحِم فرضٌ من الله عزَّ وجلَّ، حتى قال مجاهد: لا تُقبَلُ صدقةٌ من أحدٍ ورَحِمُه محتاجة. وقيل: المرادُ بالقربى أقرباءُ النبيِّ ﷺ[٢]. والأوَّل أصحُّ؛ فإنَّ حقَّهم مُبيَّنٌ في كتاب الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١]. وقيل: إنَّ الأمرَ بالإيتاء لذي القُربى على جهة النَّدب. قال الحسن: «حقَّه» المواساة في اليسر، وقولٌ ميسورٌ في العسر[٣]. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ قال ابن عباس: أي أطعمِ السائلَ الطوَّاف[٤]. «وابن السبيل»: الضيف[٥]، فجعل الضيافة فرضاً، وقد مضى جميعُ هذا مبسوطاً مُبيَّنًا في مواضعه[٦]، والحمد لله.

الثالثة ـ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: إعطاءُ الحقِّ أفضلُ من الإمساك إذا أُريدَ بذلك وجهُ الله والتقرُّبُ إليه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة. وقد تقدَّم في «البقرة»[٧] القولُ فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٨٢٢)، والبخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥ من غير نسبة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣١٦.

(٦) ٢/ ٢٣٢ و٣/ ٥٩ و١٠/ ٢١ - ٢٢.

(٧) ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ لمَّا ذكر ما يُراد به وجهُه ويُثيبُ عليه ذكرَ غيرَ ذلك من الصفة وما يُراد به أيضاً وجهُه.

وقرأ الجمهور: «آتَيْتُمْ» بالمدِّ بمعنى: أعطيتُم. وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بغير مدّ، بمعنى: ما فعلتُم من رِبًا لِيَرْبُو؛ كما تقول: أتيتُ صواباً وأتيتَ خطأً. وأجمعوا على المدِّ في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾. والربا الزيادة[1]. وقد مضى في «البقرة» معناه[2]، وهو هناك مُحرَّمٌ وها هنا حلال. وثبتَ بهذا أنه قسمان: منه حلالٌ ومنه حرام[3]. قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: الرِّبا رِبَوان، ربا حلال وربا حرام؛ فأما الرِّبا الحلال فهو الذي يُهْدَى، يُلتمس ما هو أفضلَ منه. وعن الضحَّاك في هذه الآية: هو الرِّبا الحلال الذي يُهدى لِيُثَابَ ما هو أفضلُ منه، لا له ولا عليه، ليس له فيه أجرٌ وليس عليه فيه إثم. وكذلك قال ابن عباس: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ يريدُ هديةَ الرجلِ الشيءَ يرجو أن يُثابَ أفضلَ منه، فذلك الذي لا يربو عند الله، ولا يُؤجَرُ صاحبه، ولكن لا إثمَ عليه، وفي هذا المعنى نزلت الآية[4]. قال ابن عباس وابن جُبير وطاوس ومجاهد: هذه آيةٌ نزلت في هِبة الثواب. قال ابن عطية[5]: وما جرى مجراها ممَّا يصنعه الإنسان لِيُجازى عليه كالسلام وغيره، فهو وإن كان لا إثمَ فيه فلا أجرَ فيه ولا زيادةَ عند الله تعالى. وقاله القاضي أبو بكر بن العربي[6]. وفي كتاب النَّسائي عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدمَ وفدُ ثَقيفٍ على رسول الله ﷺ ومعهم هديَّةٌ فقال: «أهديةٌ أم صدقة؟ فإن كانت

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وقراءة الجمهور وقراءة ابن كثير في السبعة ص ٥٠٧ ، والتيسير ص ٣٠ .

(٢) ٤/ ٣٨١ - ٣٩٠ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٧٩ .

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٥٠ - ٣٥١ . وقول الضحاك أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٤ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وما قبله منه.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٩ .

هديةً فإنَّما يُبْتَغَى بها وجهُ رسولِ الله ﷺ وقضاءُ الحاجة، وإن كانت صدقةً فإنما يُبْتَغى بها وجهُ الله عزَّ وجلَّ» قالوا: لا بل هدية. فقَبِلها منهم، وقعدَ معهم يُسائلهم ويسألونه[١]. وقال ابن عباس أيضاً وإبراهيم النَّخَعي: نزلت في قومٍ يُعطون قراباتِهم وإخوانَهم على معنى نفْعِهِم وتمويلِهم والتفضُّلِ عليهم، وليزيدوا في أموالهم على وجهِ النفع لهم. وقال الشَّعبيُّ: معنى الآية: أنَّ ما خدمَ الإنسانُ به أحداً وخفَّ له لينتفع به في دنياه فإنَّ ذلك النفعَ الذي يَجزي به الخدمةَ لا يربو عند الله[٢]. وقيل: كان هذا حراماً على النبيِّ ﷺ على الخصوص؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] فنهى أن يُعطى شيئاً فيأخذَ أكثرَ منه عِوضاً[٣]. وقيل: إنَّه الربا المحرَّم[٤]، فمعنى: «لا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ» على هذا القول لا يُحكَمُ به لآخذِه، بل هو للمأخوذِ منه[٥]. قال السُّدِّي: نزلت هذه الآية في ربا ثَقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش[٦].

الثانية ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: صريح الآية فيمَنْ يَهبُ يطلُبُ الزيادة من أموال الناس في المكافأة[٧]. قال المُهلَّب: اختلفَ العلماءُ فيمن وَهَب هبةً يطلبُ ثوابَها وقال: إنما أردتُ الثواب، فقال مالكٌ: يُنظَرُ فيه؛ فإن كان مثلُه ممن يطلبُ الثوابَ من الموهوبِ له فله ذلك، مثلُ هبة الفقير للغنيِّ، وهبةُ الخادم لصاحبه، وهبةُ

(١) سنن النسائي ٦/ ٢٧٩، وسنن النسائي الكبرى (٦٥٥٧) من طريق أبي حذيفة، عن عبد الملك بن محمد بن نُسَير، عن عبد الرحمن بن علقمة، به. أبو حذيفة وعبد الملك مجهولان فيما ذكره الحافظ في التقريب.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥ عن الضحاك.

(٤) زاد المسير ٦/ ٣٠٤ عن الحسن البصري.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٠.

الرجل لأميره ومَن فوقه. وهو أحد قَولي الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثوابٌ إذا لم يشترط. وهو قول الشافعيِّ الآخر؛ قال: والهبةُ باطلةٌ لا تنفعه؛ لأنها بيعٌ بثمنٍ مجهول. واحتجَّ الكوفيُّ بأنَّ موضوع الهبة التبرُّع، فلو أوجَبْنا فيها العِوضَ لَبطلَ معنى التبرُّعِ وصارت في معنى المعاوضات، والعرب قد فرَّقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، فجعلت لفظَ البيع على ما يُستَحقُّ فيه العِوَض، والهبةُ بخلاف ذلك. ودليلُنا ما رواه مالك في «موطّئه» عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: أيُّما رجلٍ وهَبَ هبةً يرى أنها للثواب فهو على هِبته حتى يرضى منها[١]. ونحوه عن عليٍّ ﷺ قال: المواهبُ ثلاثةٌ: مَوْهبةٌ يُرادُ بها وجهُ الله، وموهبةٌ يُرادُ بها وجوهُ الناس، وموهبةٌ يُرادُ بها الثواب؛ فموهبةُ الثواب يرجع فيها صاحبُها إذا لم يُثَبْ منها[٢]. وترجم البخارِيُّ رحمه الله (باب المكافأة في الهبة) وساقَ حديث عائشة قالت: كانَ رسول الله ﷺ يقبلُ الهديةَ ويُثيبُ عليها[٣]. وأثابَ على لِقْحةٍ[٤] ولم يُنْكِرْ على صاحبها حين طلب الثواب، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائداً على القيمة. خرَّجه الترمذي[٥].

الثالثة ـ ما ذكره عليٌّ ﷺ وفصَّله من الهبة صحيح، وذلك أنَّ الواهبَ لا يخلو في هبته من ثلاثة أحوال: أحدها ـ أن يُريدَ بها وجهَ الله تعالى ويبتغي عليها الثوابَ منه. والثاني ـ أن يُريدَ بها وجوهَ الناس رياءً؛ ليحمدوه عليها، ويُثنوا عليه من أجلها. والثالث ـ أن يُريد بها الثوابَ من الموهوب له، وقد مضى الكلامُ فيه. وقال ﷺ: «الأعمالُ بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى»[٦]. فأمَّا إذا أراد بهبتِه وجهَ الله تعالى، وابتغى عليه الثواب من عنده، فله ذلك عند الله بفضله ورحمته؛ قال الله عزَّ وجلَّ:

---

(١) الموطأ ٢/ ٧٥٤.

(٢) أخرجه مالك في المدونة الكبرى ٦/ ١٠٩ و١٤١.

(٣) صحيح البخاري (٢٥٨٥)، وهو في مسند أحمد (٢٤٥٩١).

(٤) جمع لقاح: وهي ذوات الألبان من النوق. اللسان (لقح).

(٥) في سننه (٣٩٤٥)، وهو في مسند أحمد (٧٩١٨).

(٦) سلف ٣/ ٢٧٠.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

وكذلك مَنْ يصِلُ قرابتَه ليكون غنيًّا حتى لا يكون فقيراً[1] كَلَّا فالنية في ذلك متبوعة؛ فإن كان ليتظاهرَ بذلك ديناً فليس لوجه الله، وإن كان لِما له عليه من حقِّ القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله.

وأمَّا من أراد بهبتِه وجوهَ الناس رياءً ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها، فلا منفعةَ له في هبته، لا ثوابَ في الدنيا ولا أجرَ في الآخرة؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ الآيـــــــة: [البقرة: ٢٦٤].

وأمَّا مَنْ أراد بهبته الثوابَ من الموهوب له فله ما أرادَ بهبته، وله أن يرجع فيها ما لم يُثَبْ بقيمتها، على مذهب ابن القاسم، أو ما لم يرضَ منها بأزْيَدَ من قيمتها، على ظاهر قول عمرَ وعليٍّ، وهو قول مُطَرِّف في الواضحة: أنَّ الهبةَ ما كانت قائمةَ العين، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوعُ فيها وإن أثابه الموهوبُ فيها أكثرَ منها. وقد قيل: إنها إذا كانت قائمةَ العين لم تتغيَّر فإنه يأخذ ما شاء. وقيل: تلزمه القيمةُ كنكاح التفويض، وأما إذا كان بعد فَوْتِ الهبة فليس له إلا القيمة اتفاقاً. قاله ابن العربي[2].

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ قرأ جمهور القرَّاء السبعة: «ليربو» بالياء وإسناد الفعل إلى الربا. وقرأ نافعٌ وحده: بضمِّ التاء [والواو] ساكنةٌ على المخاطبة، بمعنى: تكونوا ذَوي زيادات، وهذه قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشَّعبي. قال أبو حاتم: هي قراءتُنا. وقرأ أبو مالك: «لتربوها» بضمير مؤنث[3]. ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يزكو ولا يُثيبُ عليه؛ لأنه لا يقبلُ إلَّا ما أُريدَ به وجهُه وكان خالصاً له، وقد تقدَّم في

---

(١) كلمة فقيراً من (ظ).

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٨٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وما بين حاصرتين ليس فيه ولا في النسخ، وهو من زاد المسير ٦/ ٣٠٤ . وقراءة نافع في السبعة ص ٥٠٧ ، والتيسير ص ١٧٥ . وقراءة أبي مالك شاذة.

«النساء»(١). ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ قال ابن عباس: أي: من صدقة(٢). ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: ذلك الذي يقبله ويضاعفه له عشرةَ أضعافه أو أكثر، كما قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ولم يقُلْ: فأنتم المضعفون؛ لأنه رجعَ من المخاطبة إلى الغيبة؛ مثل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

وفي معنى المُضْعِفِين قولان: أحدهما ـ أنه تُضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا. والآخر ـ أنهم قد أُضعِفَ لهم الخير والنعيم، أي: هم أصحابُ أضعاف، كما يُقال: فلانٌ مُقْوٍ إذا كانت إبلُه قويةً، أَوْلَه أصحابٌ أقوياء(٣). ومُسْمِنٌ إذا كانت إبلُه سِماناً، ومُعْطِشٌ إذا كانت إبلُه عِطاشاً، ومُضعِفٌ إذا كانت إبلُه ضعيفةً؛ ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من الخبيثِ المُخْبِثِ الشيطانِ الرجيم»(٤). فالمُخبِثُ: الذي أصابه خبث، يقال: فلانٌ رديء أي هو رَدِيء في نفسه. ومُرْدِئ: أصحابُه أردِئاء(٥).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ابتداءٌ وخبر. وعادَ الكلامُ إلى الاحتجاج على

---

(١) ٧/ ١٧٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٣ - ١٠٤، والطبري ١٨/ ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٩٩) من طريق عبيد الله بن زَحْر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً. قال البوصيري: إسناده ضعيف؛ قال ابن حبان: إذا اجتمع في إسناد خبرٍ عبيد الله ابن زَحر وعلي بن يزيد والقاسم، فذاك مما عملته أيديهم.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤ ببعضه.

المشركين، وأنه الخالقُ الرازقُ المميتُ المُحيي. ثم قال على جهة الاستفهام: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ لا يفعل. ثم نزَّه نفسَه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وأضافَ الشركاءَ إليهم لأنهم كانوا يسمُّونهم بالآلهة والشركاء، ويجعلون لهم من أموالهم.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ اختلف العلماء في معنى الفسادِ والبرِّ والبحر، فقال قتادة والسُّدِّي: الفساد: الشرك، وهو أعظم الفساد[١]. وقال ابن عباس وعِكرمة ومجاهد: فسادُ البرِّ قتلُ ابنِ آدم أخاه؛ قابيلُ قتلَ هابيل. وفي البحر بالْمَلِك الذي كان يأخذ كلَّ سفينةٍ غصباً[٢]. وقيل: الفسادُ: القحطُ وقِلَّةُ النبات وذهابُ البركة[٣]. ونحوه قال ابن عباس قال: هو نقصانُ البركة بأعمال العباد كي يتوبوا. قال النحَّاس: وهو أحسن ما قيل في الآية[٤]. وعنه أيضاً: أنَّ الفساد في البحر: انقطاعُ صيدِه بذنوب بني آدم[٥]. وقال عطية: فإذا قلَّ المطرُ قَلَّ الغَوْصُ عنده، وأخفقَ الصيادون، وعميت دوابُّ البحر[٦]. وقال ابن عباس: إذا مطرتِ السماءُ تفتحتِ الأصدافُ في البحر، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ[٧]. وقيل: الفسادُ: كسادُ الأسعار وقِلَّةُ المعاش. وقيل: الفسادُ: المعاصي وقطعُ السبيل والظلم[٨]، أي: صار

---

(١) زاد المسير ٦/ ٣٠٥ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٣٦٤ ، والطبري ١٨/ ٥١١ - ٥١٢ عن مجاهد، وهو كذلك في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦ ، وذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٢٤ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٣٥ ، والوجيز على هامش مراح لبيد ٢/ ١٦٧ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٠ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٤ ، وزاد المسير ٦/ ٣٠٦ مختصراً، وكذلك أخرجه الطبري ١٨/ ٥١٢ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥ .

هذا العملُ مانعاً من الزرع والعمارات والتجارات، والمعنى كلُّه متقارب. والبرُّ والبحرُ هما المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس، لا ما قاله بعض العُبَّاد: أنَّ البرَّ اللسانُ، والبحرَ القلبُ؛ لظهور ما على اللسان وخفاءِ ما في القلب. وقيل: البَرُّ: الفَيافي، والبحر: القُرى. قاله عكرمة. والعرب تسمِّي الأمصارَ البحار. وقال قتادة: البَرُّ: أهل العمود، والبحر: أهل القرى والريف. وقال ابن عباس: إنَّ البرَّ ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شطِّ نهر[١]. وقاله مجاهد؛ قال: أمَا واللهِ ما هو بحرُكم هذا، ولكن كلُّ قريةٍ على ماءٍ جارٍ فهي بحر[٢]. وقال معناه النحَّاس؛ قال: في معناه قولان: أحدهما ـ ظهر الجَدْب في البر، أي: في البوادي وقُراها، وفي البحر أي: في مدن البحر، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. أي: ظهر قِلَّةُ الغيث وغلاءُ السعر. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ﴾ أي: عقاب بعض ﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ ثم حذف. والقول الآخر ـ أنه أظهرتِ المعاصي مِنْ قطع السبيل والظلم، فهذا هو الفساد على الحقيقة، والأوَّلُ مجاز إلا أنه على الجواب الثاني، فيكون في الكلام حذفٌ واختصارٌ دَلَّ عليه ما بعده، ويكون المعنى: ظهرتِ المعاصي في البَرِّ والبحر، فحبس اللهُ عنهما الغيثُ، وأغلى سعرهم؛ ليذيقهم عقابَ بعضِ الذي عملوا. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلَّهم يتوبون[٣]. وقال: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لأنَّ معظمَ الجزاء في الآخرة.

والقراءة «لِيُذِيقَهُمْ» بالياء. وقرأ ابن عباس بالنون، وهي قراءة السُّلَمي وابن مُحَيْصِن وقُنْبُل ويعقوب على التعظيم، أي: نُذيقهم عقوبةَ بعض ما عملوا[٤].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١٧ - ٣١٨.

(٢) أخرجه الطبري ٣/ ٥٨٣ و١٨/ ٥١٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٩٣١).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥.

(٤) زاد المسير ٦/ ٣٠٦ عنهم وعن عكرمة وقتادة، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٠ عن قنبل والسلمي والأعرج. ورواية قنبل عن ابن كثير في السبعة ص ٥٠٧، والتيسير ص ١٧٥. وقراءة يعقوب وهو من العشرة في رواية روح عنه في النشر ٢/ ٣٤٥.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قل لهم يا محمد: سيروا في الأرض ليعتبروا بمَنْ قبلهم، وينظروا كيف كان عاقبةُ مَنْ كذَّب الرسل ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي: كافرين فأُهلِكوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ قال الزجَّاج: أي: أَقِمْ قصدَك، واجعل جهتَك اتِّباعَ الدِّين القيِّم، يعني الإسلام[١]. وقيل: المعنى: أوضحِ الحقَّ، وبالِغْ في الإعذار، واشتغِلْ بما أنت فيه، ولا تحزَنْ عليهم.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا يردُّه الله عنهم، فإذا لم يرُدَّه لم يتهيَّأْ لأحدٍ دفْعُه. ويجوز عند غير سيبويه «لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ» وذلك عند سيبويه بعيد، إلَّا أن يكون في الكلام عطف[٢]. والمراد يوم القيامة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه: يتفرَّقون. وقال الشاعر:

وكُنَّا كنَدْمانَيْ جَذيمةَ حِقْبةً ... من الدهرِ حتى قيلَ لن يتصدَّعا

أي: لن يتفرَّقا؛ نظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعير[٣]. والأصل يتصدَّعون، ويقال: تصدَّع القومُ إذا تفرَّقوا؛ ومنه اشتُقَّ الصُّداعُ؛ لأنه يُفرِّق شُعَبَ الرأس[٤].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٨ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣١٨ - ٣١٩ ، والبيت قائله متمم بن نويرة، وهو في المفضليات ص٢٦٧ ، والشعر والشعراء ١/ ٣٣٨ ، والكامل ٣/ ١٤٤٠ ، وبهجة المجالس ٢/ ٨٠٥ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ .

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: جزاء كفره[١]. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يوطّئون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح[٢]. ومنه: مهدُ الصبيّ. والمهادُ: الفراشُ، وقد مَهَدْتُ الفراشَ مَهْدًا: بسطتُه ووطّأتُه. وتمهيدُ الأمور: تسويتُها وإصلاحُها. وتمهيدُ العُذرِ: بسطُه وقبولُه. والتمهُّد: التمكُّن[٣]. وروى ابن أبي نَجيحٍ عن مجاهد: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ قال: في القبر[٤].

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يَمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله. وقيل: يصَّدَّعون ليجزيهم الله، أي: ليميِّز الكافر من المسلم. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: ومن أعلام كمال قدرته إرسالُ الرياح مبشِّراتٍ، أي: بالمطر لأنها تتقدَّمه[٥]. وقد مضى في «الحِجر»[٦] بيانه. ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني الغيث والخصب[٧]. ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ أي: في البحر عند هبوبها. وإنما زاد «بِأَمْرِهِ» لأن الرياح قد تَهُبُّ ولا تكون مواتية، فلا بُدَّ من إرساء

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ١٤، وزاد المسير ٦/ ٣٠٧.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١٩ عن يحيى بن سلام.

(٣) الصحاح (مهد).

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٥١٦ - ٥١٧، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٩٧، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (١٥٥).

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥.

(٦) ١٢/ ١٩٤.

(٧) الوسيط ٣/ ٤٣٦، وزاد المسير ٦/ ٣٠٨.

السفن والاحتيال بحبسها، وربما عصفت فأغرقتْها بأمره. ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني الرزق بالتجارة[1] ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة. وقد مضى هذا كلُّه مبيناً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات والحجج النيِّرات ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ أي: فكفروا فانتقمنا ممَّن كفر. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «حقًّا» نصب على خبر كان، و«نصر» اسمها[2]. وكان أبو بكر يقف على «حَقًّا» أي: وكان عقابُنا حقًّا، ثم قال: «علينا نصرُ المؤمنين» ابتداء وخبر[3]؛ أي: أخبر بأنه لا يخلف الميعاد، ولا خُلْف في خبرنا.

ورُويَ من حديث أبي الدَّرداء، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ما مِنْ مسلمٍ يَذُبُّ عن عرضِ أخيه إلَّا كان حقًّا على اللهِ تعالى أن يَرُدَّ عنه نارَ جهنم يوم القيامة» ثم تلا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ذكره النحَّاس والثعلبيُّ والزَّمخشرِيُّ وغيرهم[4].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ ابن مُحَيصن وابن كثير وحمزة

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٥.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٢٥ بمعناه.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦، والكشاف ٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦. وأخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق (١٣٤) والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٨٦ من طريق ليث بن أبي سليم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء ﷺ، به. ليث وشهر ضعيفان. وهو في مسند أحمد (٢٧٥٣٦) دون ذكر الآية.

والكسائي: «الريح» بالتوحيد. والباقون بالجمع(١). قال أبو عمرو: وكلُّ ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحَّد(٢). وقد مضى في «البقرة»(٣) معنى هذه الآية وفي غيرها.

«كِسَفًا» جمع كِسْفة: وهي القطعة. وفي قراءة الحسن وأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر «كِسْفًا» بإسكان السين، وهي أيضاً جمع كِسْفة؛ كما يقال: سِدْرة وسِدْر؛ وعلى هذه القراءة يكون المُضمَرُ الذي بعده عائداً عليه، أي: فترى الودقَ ـ أي المطر ـ يخرج من خلال الكِسَف؛ لأنَّ كلَّ جَمْعٍ بينه وبين واحده الهاء لا غير، فالتذكيرُ فيه حَسَن. ومن قرأ: «كِسَفًا» فالمضمر عنده عائدٌ على السحاب. وفي قراءة الضحَّاك وأبي العالية وابن عباس: «فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ» ويجوز أن يكون خَلَل جمعَ خِلال(٤). ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أي: بالمطر ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم(٥).

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: يائسين مكتئبين قد ظهر الحزنُ عليهم لاحتباس المطرِ عنهم(٦). و«مِنْ قَبْلِهِ» تكريرٌ عند الأخفش معناه التأكيد، وأكثر النَّحويين على هذا القول. قاله النحَّاس. وقال قُطْرُب: إن «قبل» الأولى للإنزال

---

(١) السبعة ص ١٧٢، والتيسير ص ٧٨ سوى قراءة ابن محيصن.

(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٣ دون نسبة، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣١٩ ونسبه إلى أبي بن كعب ﷺ.

(٣) ٢/ ٤٩٩ - ٥٠٢.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧. وقراءة: «كِسْفاً» بسكون السين عن ابن عامر برواية هشام عنه في السبعة ص ٥٠٨، والتيسير ص ١٧٥ وعن أبي جعفر وهو من العشرة في النشر ٢/ ٣٤٥. وقراءة: «يخرج من خَلَلِهِ» في المحتسب ٢/ ١٦٤ عن ابن عباس والضحاك والحسن، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٢ بمثله وزاد في نسبتها إلى علي، وزاد المسير ٦/ ٣٠٩ عن ابن عباس وأبي العالية وزاد في نسبتها إلى ابن مسعود ومجاهد، وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥.

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢١.

والثانية للمطر، أي: وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر. وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع، ودلَّ على الزرع المطرُ؛ إذ بسببه يكون. ودلَّ عليه أيضاً ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ على ما يأتي. وقيل: المعنى: من قبل السحاب من قبل رؤيته. واختار هذا القول النحَّاس، أي: من قبل رؤية السحاب ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: لبائسين. وقد تقدَّم ذِكْرُ السَّحاب(١).

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يعني المطر(٢)، أي: انظروا نظرَ استبصارٍ واستدلال، أي: استدِلُّوا بذلك على أنَّ من قدِرَ عليه قادرٌ على إحياء الموتى.

وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي: «آثَارِ» بالجمع. الباقون بالتوحيد؛ لأنه مضافٌ إلى مفرد. والأثرُ فاعل «يُحْيي»، ويجوز أن يكون الفاعلُ اسمَ الله عزَّ وجلَّ. ومن قرأ: «آثَارِ» بالجمع فلأنَّ رحمةَ الله يجوز أن يُرادَ بها الكثرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾(٣) [إبراهيم: ٣٤]. وقرأ الجَحْدرِيُّ وأبو حَيوة وغيرهما: «كَيْفَ تُحْيي الأرضَ» بتاء، ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة؛ لأنَّ أثرَ الرحمة يقومُ مقامَها فكأنه هو الرحمة، أي: كيفَ تُحيي الرحمةُ الأرضَ أوِ الآثارُ. و«يُحيي» أي: يُحيي اللهُ عزَّ وجلَّ، أو المطرُ أو الأثرُ فيمن قرأ بالياء. و﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ في موضع نصبٍ على الحال على الحمل على المعنى؛ لأنَّ اللفظَ لفظُ الاستفهام، والحالَ خبرٌ؛ والتقدير: فانظر إلى أثر رحمة الله مُحييةً للأرض بعد

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/٢٦٨ - ٢٦٩ دون قوله: وقيل: المعنى من قبل تنزيل الغيث... إلى قوله: على ما يأتي. وكلام الأخفش في معاني القرآن له ٢/٦٥٨ . وذكر السحاب سلف ٢/٥٠٢ - ٥٠٤ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/٢٦٩ ، والمحرر الوجيز ٤/٣٤٢ .

(٣) الحجة للقراء السبعة ٥/٤٤٨ - ٤٤٩ ، وينظر السبعة ص ٥٠٨ ، والتيسير ص ١٧٥ .

موتها[١]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ استدلالٌ بالشاهد على الغائب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني الريح، والريح يجوز تذكيرُه. قال محمد بن يزيد: لا يمتنعُ تذكيرُ كلِّ مؤنثٍ غيرِ حقيقي، نحو أعجبني الدارُ وشبهه. وقيل: فرأوا السحاب. وقال ابن عباس: الزرع، وهو الأثر. والمعنى: فرأوا الأثرَ مصفرًّا، واصفرارُ الزرعِ بعد اخضراره يدلُّ على يبسه، وكذا السحاب يدلُّ على أنه لا يمطر، والريح على أنها لا تُلقح. ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي: لَيَظَلُّنَّ؛ وحَسُنَ وقوعُ الماضي في موضع المستقبل لِما في الكلام من معنى المجازاة، والمجازاة لا تكونُ إلّا بالمستقبل. قاله الخليل وغيره[٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: وَضَحتِ الحُجَجُ يا محمد؛ لكنَّهم لإِلْفِهم تقليد الأسلاف في الكفر ماتت عقولُهم وعمِيت بصائرُهم، فلا يتهيَّأ لكَ إسماعُهم وهدايتُهم. وهذا ردٌّ على القدرية. ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: لا تُسمع مواعظَ الله إلّا المؤمنين الذين يُصغون إلى أدلة التوحيد وخَلقتُ لهم الهداية. وقد مضى هذا في «النمل»[٣] ووقع قولُه ﴿بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ هنا بغير ياء[٤].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٦٥، ونسب قراءة: «كيف تُحيي الأرض» أيضاً إلى محمد بن السَّميفع، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٣١٠ ونسبها إلى عثمان بن عفان وأبي رجاء وأبي عمران الجوني وسليمان التيمي، وهي قراءة شاذة.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧ دون قوله: واصفرار الزرع... إلى قوله: لا تلقح.

(٣) ١٦/ ٢٠٧.

(٤) الحجة في القراءات لابن زنجلة ص ٥٣٧.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ذكر استدلالاً آخر على قدرته في نفس الإنسان ليعتبر. ومعنى: «مِنْ ضَعْفٍ» من نطفةٍ ضعيفة. وقيل: «مِنْ ضَعْفٍ» أي: في حال ضعف، وهو ما كانوا عليه في الابتداء من الطفولة والصغر. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني الشبيبة. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ يعن الهرم[(١)].

وقرأ عاصم وحمزة بفتح الضاد فيهنَّ، الباقون بالضم، لغتان، والضمُّ لغة النبيِّ ﷺ[(٢)]. وقرأ الجَحدرِيُّ: «من ضَعْفٍ ثم جعل من بعد ضَعْفٍ» بالفتح فيهما، «ضُعْفًا» بالضمِّ خاصةً؛ أراد أن يجمع بين اللغتين[(٣)]. قال الفرَّاء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم[(٤)]. الجوهري: الضَّعْف والضُّعْف: خلاف القوّة[(٥)]. وقيل: الضَّعفُ بالفتح في الرأي، وبالضمِّ في الجسد[(٦)]؛ ومنه الحديث في الرجل الذي كان يُخدَعُ في البيوع... أنه يبتاع وفي عقُدَتِه ضُعف[(٧)].

﴿وَشَيْبَةً﴾ مصدر كالشَّيب، والمصدر يصلح للجملة، وكذلك القول في الضعف والقوّة. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: من قوّةٍ وضعف. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبيره ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على إرادته.

وأجاز النَّحْويون الكوفيون «من ضَعَفٍ» بفتح العين، وكذا كلُّ ما كان فيه حرفٌ

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢٥ - ٥٢٦ بمعناه.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٥٠، وينظر السبعة ص ٥٠٨، والتيسير ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٣ عن الجحدري وأبي عبد الرحمن والضحاك عكس ذلك بأنهم ضمُّوا الضاد في الأول والثاني وفتحوا «ضعفاً».

(٤) زاد المسير ٣/ ٣٧٨.

(٥) الصحاح (ضعف).

(٦) تهذيب اللغة ١/ ٤٨٢.

(٧) سلف ٤/ ٤٣٥ و٦/ ٦٦.

من حروف الحلق ثانياً أو ثالثاً[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يحلف المشركون[٢]. ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ليس في هذا ردٌّ لعذاب القبر؛ إذ كان قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ من غير طريقٍ أنه تعوَّذ منه، وأمر أن يُتعوَّذ منه، فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: سمع النبيُّ ﷺ أمَّ حبيبة وهي تقول: اللَّهُمَّ أمتعني بزوجي رسولِ الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية. فقال لها النبيُّ ﷺ: «لقد سألتِ اللهَ لآجالٍ مضروبةٍ، وأرزاقٍ مقسومة، ولكن سلِيه أن يُعيذَكِ من عذاب جهنَّم وعذابِ القبر» في أحاديثَ مشهورةٍ خرَّجها البخاريُّ ومسلم وغيرهما[٣]. وقد ذكرنا منها جملةً في كتاب «التذكرة»[٤]. وفي معنى: ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ قولان: أحدهما ـ أنه لا بُدَّ من خمدةٍ قبل يوم القيامة، فعلى هذا قالوا: ما لَبِثنا غيرَ ساعةٍ. والقول الآخر ـ أنهم يَعنون في الدنيا لزوالها وانقطاعها، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] كأن لم يلبثوا إلَّا ساعةً من نهار، وإن كانوا قد أقسموا على غيبٍ وعلى غيرِ ما يدرون؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كانوا يكذِّبون في الدنيا[٥]؛ يقال: أُفِكَ الرجلُ إذا صُرِفَ عن الصِّدقِ والخير، وأرضٌ مأفوكة: ممنوعةٌ من المطر[٦].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٨.

(٢) زاد المسير ٦/ ٣١١.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩، والحديث الذي ذكره المصنف أخرجه أحمد (٣٧٠٠)، ومسلم (٢٦٦٣). ووقع في النسخ سوى (ظ): خرجها مسلم والبخاري وغيرهما.

(٤) ص ١١٥ و١٤٢.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٢.

وقد زعمَ جماعةٌ من أهل النظر أنَّ القيامة لا يجوز أن يكون فيها كَذِبٌ لما هم فيه، والقرآن يدلُّ على غير ذلك؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كما صُرِفوا عن الحقِّ في قَسَمِهم أنهم ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يُصرفون عن الحقِّ في الدنيا، وقال جلَّ وعزَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة:١٨] وقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟﴾[1] [الأنعام:٢٣-٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ اختُلِفَ في الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة. وقيل: علماء الأمم. وقيل: مؤمنو هذه الأمة. وقيل: جميع المؤمنين[2]. أي: يقول المؤمنون للكفار ردًّا عليهم: لقد لبِثْتُم في قبوركم إلى يوم البعث[3]. والفاء في قوله: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ جوابٌ لشرطٍ محذوفٍ دلَّ عليه الكلام؛ مجازه: إن كنتم مُنكرين البعث فهذا يوم البعث[4]. وحكى يعقوب عن بعض القُرَّاء ـ وهي قراءة الحسن ـ «إلى يوم البَعَث» بالتحريك، وهذا ممَّا فيه حرفٌ من حروف الحلْق[5]. وقيل: معنى ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: في حكم الله. وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمانَ: لقد

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩ ببعضه.

(٢) زاد المسير ٥/ ٩٧ و٦/ ٣١٢ و٧/ ٤٠٢، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢. وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٢٣ القول الأول ونسبه للكلبي.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٢.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٢٧.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩ دون نسبة القراءة إلى الحسن، وقد نُسبت إليه في المحتسب ٢/ ١٦٦، والكشاف ٣/ ٢٢٧، وهي قراءة شاذة.

لبثْتُم إلى يوم البعث. قاله مقاتل وقتادة والسُّدِّي[١]. القشيري: وعلى هذا «أُوتُوا الْعِلْمَ» بمعنى كتاب الله. وقيل: الذين حكم لهم في الكتاب بالعلم ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: اليوم الذي كنتم تُنكرونه[٢].

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا ينفعهم العلمُ بالقيامة ولا الاعتذارُ يومئذٍ[٣]. وقيل: لمَّا ردَّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يُعذَروا. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا حالُهم حالُ من يَستعتِبُ ويَرجع[٤]؛ يقال: استعتبتُه فأعتبني، أي: استرضيتُه فأرضاني[٥]، وذلك إذا كنتُ جانياً عليه، وحقيقةُ أعتبتُه: أزَلْتُ عتبَه[٦]. وسيأتي في «فصلت»[٧] بيانُه. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾ بالياء، والباقون بالتاء[٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾ أي: من كلِّ مَثَلٍ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٢٧ عن قتادة.

(٢) زاد المسير ٦/ ٣١٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٤ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠ .

(٥) الصحاح (عتب).

(٦) الكشاف ٣/ ٢٢٧ .

(٧) عند تفسير الآية (٢٤).

(٨) السبعة ص ٥٠٩ ، والتيسير ص ١٧٦ .

يدلُّهم على ما يحتاجون إليه، ويُنبِّههم على التوحيد وصِدْقِ الرسل[١]. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ أي: معجزةٍ، كفلقِ البحر والعصا وغيرهما ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ﴾ يا معشر المؤمنين[٢] ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: تتبعون الباطلَ والسحر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبعَ اللهُ على قلوبهم حتى لا يفهموا الآياتِ عن الله، فكذلك ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أدلَّةَ التوحيد[٣].

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبِرْ على أذاهم فإنَّ الله ينصرك[٤] ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: لا يستفِزَّنَّكَ عن دينك[٥] ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ قيل: هو النضر بن الحارث. والخطاب للنبيِّ ﷺ والمراد أمتُه؛ يقال: استخَفَّ فلانٌ فلاناً أي: استجهلَه حتى حملَه على اتِّباعه في الغيِّ[٦]. وهو في موضع جزمٍ بالنهي، أُكِّد بالنون الثقيلة، فبُنِيَ على الفتح كما يُبنى الشيئانِ إذا ضُمَّ أحدُهما إلى الآخر. ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ في موضع رفع، ومن العرب من يقول: اللذون في موضع الرفع[٧]. وقد مضى في «الفاتحة»[٨].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢.

(٢) الوسيط ٣/ ٤٣٩، وزاد المسير ٦/ ٣١٢.

(٣) الوجيز على هامش مراح لبيد ٢/ ١٦٩.

(٤) مجمع البيان ٢١/ ٤٣ بمعناه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٢.

(٦) تهذيب اللغة ٧/ ٩.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠.

(٨) ١/ ٢٢٩.

سُورَةُ الرُّومِ

مَكِّيَّةٌ، إلا قولَه ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ ... ﴾

وهي ستُّونَ أو تسعٌ وخمسونَ آيةً(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٥) ـ ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾: أرضِ العَرَبِ مِنْهُم؛ لأنَّها الأَرْضُ المَعْهودَةُ عِندَهُم، أو: في أَدْنَى أَرضِهِم مِن العَرَبِ، واللامُ بَدَلٌ مِن الإضافَةِ.

﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ مِن إضافَةِ المَصدَرِ إلى المفعولِ، وقُرِئَ: (غَلْبِهِم)(٢) وهي لغةٌ كالجَلَبِ والجَلْبِ.

﴿سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ رُوِيَ أنَّ فارسَ غَزَوا الرُّومَ فوافَوْهُم بأَذْرِعَاتٍ وبُصرَى، وقيل: بالجَزيرَةِ وهي أَدْنَى أرضِ الرُّومِ مِن الفرسِ، فغَلَبوا عَلَيهِم، وبلَغَ الخَبَرُ مَكَّةَ ففرِحَ المُشرِكُونَ وشمتُوا بالمسلمينَ وقالوا: أنتُم والنَّصارَى أَهْلُ

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٠٥)، وفيه: وهي خمسون وتسع آيات في المدني الأخير والمكي، وستون آية في عدد الباقين، اختلافها أربع آيات: ﴿الٓمٓ ﴾ عدَّها الكوفي ولم يَعُدَّها الباقون، ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ لم يَعُدَّها المدني الأخير والمكي وعدها الباقون، ﴿لم يعدَّها المدني الأول والكوفي وعدها الباقون، ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ عدها المدني الأول ولم يعدها الباقون، وكلهم عد ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧) عن عليٍّ رضي الله عنه.

كِتَابٍ ونَحْنُ وفارسُ أُمِّيُّونَ، وقد ظهرَ إخوانُنا على إخوانِكُم ولنظهرنَّ[١] عليكُم، فنزلَتْ، فقال لهم أبو بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لا يُقرِّرُ[٢] اللهُ أَعينَكُم، فواللهِ ليظهرنَّ الرُّومُ على فارسَ بعدَ بضعِ سنينٍ، فقالَ له أبيُّ بنُ خلفٍ: كذبتَ، اجعَلْ بينَنَا[٣] أجلًا أناحِبْكَ عليه[٤]، فناحبَهُ على عشرِ قلائِصَ مِن كلِّ واحدٍ مِنْهُما، وجَعَلا الأجلَ ثلاثَ سِنينَ، فأخبرَ أبو بكرٍ رسولَ اللهِ ﷺ فقال: «البِضْعُ ما بينَ الثَّلاثِ إلى التِّسعِ فزايِدْهُ في الخطرِ ومادِّهِ في الأجلِ»، فجعَلاها مئةَ قلوصٍ إلى تسعِ سنينَ، وماتَ أُبَيٌّ مِن جرحِ رسولِ اللهِ ﷺ بعدَ قُفولِه مِن أُحُدٍ، وظَهَرتِ الرُّومُ على فارسَ يومَ الحُدَيبيَةِ، فأخذَ أبو بَكْرٍ رضيَ اللهُ عنه الخطرَ مِن وَرَثةِ أُبَيٍّ، وجاءَ به إلى رسولِ اللهِ فقال: تَصدَّقْ به[٥].

(١) في نسخة الفاروقي: «فلنظهرن».

(٢) في نسخة الطبلاوي وهامش نسخة الخيالي: «لا يُقِرَّنَّ».

(٣) في نسخة الخيالي والطبلاوي زيادة: «وبينك».

(٤) المناحبة: المراهنة.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٥٠ ـ ٤٥١) عن عكرمة. وهو مرسل كما ذكر الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٥٤)، وقد روي نحو هذا الخبر في حديث صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٩٥)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (١١٥)، والترمذي (٣١٩٣) وحسنه، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٢٥)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٤٠) وصححه، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١). وللترمذي رواية أخرى للقصة ستأتي.

وقد روي في هذه القصة أحاديث وآثار كثيرة يطول ذكرها، جمعها السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٩ ـ ٤٨٣).

وكون ظهور الروم على فارس كان يوم الحديبية رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٩٤) عن الشعبي. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٨٧)، عن قتادة.

واستَدلَّ به الحنفيَّةُ على جـوازِ العُقودِ الفاسدَةِ في دارِ الحربِ(١)، وأُجيبَ بأنَّه كان قبلَ تحريمِ القمارِ(٢).

والآيةُ مِن دلائلِ النبوَّةِ لأنَّها إخبارٌ عن الغيبِ.

وقُرِئَ: (غَلَبَت) بالفتحِ، و(سيُغْلَبونَ) بالضمِّ(٣)، ومعناه: أنَّ الرُّومَ غَلَبُوا على ريفِ الشَّامِ والمسلمونَ سيغلبونَهُم(٤)، وفي السنَةِ التاسِعَةِ مِن نزولِه غزَاهُم المسلمونَ وفَتَحُوا بعضَ بلادِهم، وعلى هذا تكونُ إضافةُ الغَلَبِ إلى الفاعلِ.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾: مِـن قبلِ كَونِهم غالبينَ، وهو وقتُ كونِهم مَغلوبينَ، ومِن بَعدِ كونِهم مَغلوبينَ، وهو وقتُ كونِهم غالبينَ؛ أي: له الأمرُ حينَ غُلِبُوا وحينَ يَغْلِبونَ ليسَ شيءٌ منهما إلَّا بقَضائِه.

---

(١) انظر: «بدائع الصنائع» للكاساني (٧/ ١٣٢).

(٢) كون القصة وقعت قبل تحريم القمار ورد ضمن رواية الترمذي (٣١٩٤) عن نيار بن مُكرم الأسلمي في قصة الرهان وقد تقدم قريباً. ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٧٠)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٨٧). عن قتادة. وقد ناقش الإمام القدوري في «التجريد» (٥/ ٢٣٧٠) مسألة بيع المسلم الدرهم بالدرهمين في دار الحرب، والجوابَ الذي أورده الإمام البيضاوي بمزيد من التفصيل فانظره ثمة.

(٣) نسبت لعليّ وابن عمر وأبي سعيد الخدري - رضي الله عنهم - ومعاوية بن قرة وغيرهم. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٩)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧)، و«البحر» (١٧/ ١٥٤).

(٤) وقد روي هذا عن ابن عمر رضي الله عنهما، رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٤٦) عن سليط قال: سمعت ابن عمر يقرأ: (الم غَلَبَتِ الرُّومُ) فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، على أيّ شيء غَلَبوا؟ قال: على ريف الشام.

وتعقب الطبري هذه القراءة بقوله: والصواب من القراءة في ذلك عندنا الذي لا يجوز غيره ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ بضم الغين؛ لإجماع الحجة من القرّاء عليه.

وقُرِئَ: (مِن قَبْلٍ ومِن بَعْدٍ)[1] مِن غيرِ تَقديرِ مُضافٍ إليه؛ كأنَّه قيل: قبلًا وبَعدًا؛ أي: أوَّلًا وآخرًا.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾: ويومَ يَغْلِبُ الرُّومُ ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ مَن له كتابٌ على مَن لا كتابَ لَهُ؛ لِمَا فيه مِن انقلابِ التَّفاؤُلِ وظُهورِ صِدقِهِم فيما أخبرُوا به المشركينَ، وغَلَبتِهِمْ في رِهانِهِم، وازديادِ يَقينِهِم وثَباتِهِم في دينِهِم.

وقيل: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ المؤمنينَ بإظهارِ صِدْقِهِم، أو بأنْ وَلَّى بعضَ أعدائِهِم بعضًا حتى تَفانَوْا.

﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ فينصرُ هؤلاءِ تارةً وهؤلاءِ أُخرى ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ينتقمُ مِن عبادِهِ بالنَّصرِ عليهم تارةً، ويتفضَّلُ عليهم بنَصرِهِم أخرى.

(٦) ـ ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدرٌ مُؤكِّدٌ لنَفسِهِ لأنَّ ما قبلَهُ في مَعنى الوَعدِ ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لامتناعِ الكذبِ[2] عليه تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعدَهُ ولا صِحَّةَ وَعدِهِ، لجَهْلِهِم وعدمِ تَفكُّرِهِم.

(٧) ـ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: ما يُشاهِدُونَه مِنْها والتَّمتُّعَ بزَخارِفِها ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ﴾ التي هي غايتُها والمقصودُ مِنْها ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ لا تَخطرُ ببالِهِم.

و﴿هُمْ﴾ الثَّانيةُ تكريرٌ للأُولَى، أو مُبتدأٌ و﴿غَافِلُونَ﴾ خبرُه والجملَةُ خبرُ الأُولى، وهو على الوجهينِ مُنادٍ على تَمكُّنِ غَفْلَتِهِم عن الآخرةِ المُحقِّقَةِ لِمُقتَضى الجملَةِ المتقدِّمَةِ، المبدلَةِ مِن قولِه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ تقريرًا الجهالَتِهِم، وتَشبيهًا لَهُم[3] بالحيواناتِ المقصورِ

---

(١) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦١٦)، و«البحر» (١٧/ ١٥٦)، عن أبي السمال والجحدري وعون العقيلي.

(٢) في نسخة التفتازاني: «الخلف».

(٣) في نسخة التفتازاني: «لحالهم».

إِدْرَاكُها مِن الدُّنيَا ببعضِ ظاهِرِهَا، فإِنَّ مِن العِلْمِ بظَاهِرِهَا مَعرِفَةَ حَقائِقِها وصِفَاتِها وخَصائِصِها وأَفعالِها وأسبابِها، وكيفيَّةِ صُدورِهَا مِنْها، وكيفيَّةِ التَّصرُّفِ فيها، ولذلك نُكِّرَ ﴿ظَـٰهِرًا﴾، وأما باطنُها: أنَّها[1] مجازٌ إلى الآخرةِ، ووُصْلَةٌ إلى نَيْلِها، ونموذجٌ[2] لأحوالِها، وإشعاراً[3] بأنَّه لا فرقَ بينَ عَدَمِ العِلْمِ والعِلْمِ الذي يختَصُّ بظاهِرِ الدُّنْيَا.

(٨) ـ ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم﴾: أولم يُحدِثُوا التَّفكُّرَ فيها، أو: أولم يَتفكَّرُوا في أمرِ أَنفُسِهِم فإِنَّها أقرَبُ إِلَيْهِم مِن غَيْرِها، ومرآةٌ يُجتلَى فيها للمستبصِرِ ما يُجتلَى له في المُمكناتِ بأَسرِهَا؛ ليَتحقَّقَ له قدرَةُ مُبدِعِها على إعادَتِها قدرتَهُ على إبدائِها.

﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ مُتعلِّقٌ بقولٍ أو عِلْمٍ مَحذوفٍ يَدُلُّ عليهِ الكَلامُ[4].

﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ تَنتَهِي عندَهُ ولا تبقى بعدَه ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ﴾: بلقاءِ جَزائِه عند انقضاءِ[5] الأَجَلِ المُسمَّى أو قيامِ السَّاعةِ.

---

(١) قوله: «وأما باطنها أنها مجاز إلى الآخرة» حَذَف الفاء من جواب «أما» وهو «أنها مجاز»، وهو جائز على قلَّة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٠٥).

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «أنموذج»، وكلاهما صواب. قال الخفاجي: وقوله في «القاموس»: «أنموذج غلط» لا وجه له. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «وإشعار». والمثبت من نسخة التفتازاني والخيالي وهامش نسخة الفاروقي، وعليه شرح الخفاجي فقال: قوله: «وإشعاراً» معطوف على قوله: «تقريراً». انظر: «حاشية الخفاجي»

(٤) تقديره: أولم يتفكروا في أنفسهم فيقولوا أو فيعلموا ما خلق الله... إلى آخره. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٠٦).

(٥) بعدها في نسخة الفاروقي والطبلاوي والخيالي: «قيام». قال الخفاجي: قوله: «عند انقضاء الأجل المسمى» وفي نسخة: «عند انقضاء قيام الأجل المسمى»، وقد قيل: إنها سهو من قلم الناسخ، إلا =

﴿لَكَٰفِرُونَ﴾: جاحِدُونَ يَحْسَبُونَ أنَّ الدُّنيا أَبديَّةٌ وأنَّ الآخرةَ لا تكونُ.

(٩) ـ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تقريرٌ لسَيْرِهِم فـي أَقطارِ الأَرضِ ونظرِهِم إلى آثارِ المدمَّرينَ قبلَهُم.

﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعادٍ وثمودَ ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾: وقلَبوا وجهَها لاستنباطِ المياهِ واستخراجِ المَعادنِ وزرعِ البُذورِ وغيرِها ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾: وعمَرُوا الأرضَ ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾: مِن عمارةِ أهلِ مكَّةَ إيَّاهَا، فإنَّهُم أهلُ وادٍ غيرِ ذي زرعٍ لا تبسُّطَ لهم في غيرِها.

وفيه تَهكُّمٌ بهم مِن حَيثُ إنَّهُم مُغترُّونَ بالدُّنيَا مفتخِرونَ بها وهُمْ أضعَفُ حالًا فيها؛ إذ مدارُ أَمرِهَا[1] على التَّبسُّطِ في البلادِ، والتَّسلُّطِ على العباد، والتَّصرُّفِ في أقطارِ الأرضِ بأَنواعِ العمارةِ، وهم ضُعَفاءُ مُلْجَؤونَ إلى وادٍ لا نفعَ لها.

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمُعجِزاتِ، أو: الآياتِ الواضحاتِ ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: ليَفْعلَ بِهِم ما يَفعلُ الظَّلَمةُ فيدمِّرَهُم مِن غيرِ جُرمٍ[2] ولا تَذكيرٍ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيثُ عَمِلُوا ما أدَّى إلى تَدميرِهِم.

(١٠) ـ ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾؛ أي: ثمَّ كان عاقِبَتُهم العقوبَةَ السُّوأى، أو الخَصلةَ السُّوأى، فوُضِعَ الظَّاهِرُ مَوضِعَ الضَّميرِ للدَّلالةِ على ما اقتَضى أن تكونَ

= أن يُتكلف له بجعله من إضافة الصفة للموصوف؛ أي: الأجل القائم، والمراد بالأجل جميع المدة، ولا حاجة إلى هذا، فإنَّ القيام يكون بمعنى البقاء، والمعنى: عند انقضاء بقاء مدة الدنيا، وهو شامل لما في القبر بخلاف قيام الساعة فيفترقان. انظر: «حاشية الخفاجي».

(١) في نسخة الطبلاوي: «إذ مدار أهلها»، وفي هامشها كالمثبت نسخة.

(٢) في نسخة التفتازاني: «ظلم».

تلكَ عاقِبتَهُم، وأنَّهُم جاؤُوا بمثلِ أَفْعَالِهِم، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تَأنيثُ أَسْوَأ كالحُسْنَى، أو مَصدَرٌ كالبُشْرَى نُعِتَ بها.

﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عِلَّةٌ أو بَدلٌ أو عطفُ بيانٍ لـ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، أو خبرُ ﴿كَانَ﴾ و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مَصدَرُ ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾ أو مفعولُه بمَعنى: ثمَّ كان عاقِبَةُ الذين اقترفُوا الخَطيئةَ أَنْ طبعَ اللهُ على قلوبِهِم حتَّى كذَّبُوا بالآياتِ[1] واستهزَؤُوا بها.

ويجوزُ أَنْ تكونَ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ صِلَةَ الفعلِ، و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ تابعَها والخبرُ محذوفًا للإبهامِ والتَّهويلِ[2]، وأَنْ تكونَ ﴿أَن﴾ مفسِّرَةً؛ لأنَّ الإساءةَ إذا كانَتْ مُفسَّرَةً بالتَّكذيبِ والاستهزاءِ كانَتْ مُتضمِّنَةً مَعنى القولِ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ والكوفيُّونَ: ﴿عَٰقِبَةَ﴾ بالنصب[3] على أن الاسم ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ على الوجوه المذكورة.

(١١) - ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾: يُنشِئُهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: يبعَثُهُم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاءِ، والعدولُ إلى الخطابِ للمُبالَغَةِ في المقصودِ. وقرأ أبو بكرٍ وأبو عمرٍو ورَوْحٌ بالياءِ على الأصلِ[4].

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «الآيات».

(٢) ومعنى هذا الوجه: أنْ يكُون ﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ بمَعْنى: اقترَفُوا الخَطِيْئَةَ التي هي أسوَأُ الخطَايا، و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ عَطْفَ بيَانٍ لها، وخَبرُ ﴿كَانَ﴾ محذُوفٌ كما يُحْذَفُ جوابُ (لمَّا) و(لو) إرادةَ الإبْهام. انظر: «الكشاف» (٦/ ٥٤٨).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٥)، و«النشر» (٢/ ٣٤٤).

(١٢) ـ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾: يَسكتونَ مُتحيِّرينَ آيسينَ، يقال: ناظَرْتُه فأبلَسَ: إذا سكتَ وأيِسَ مِن أَنْ يحتجَّ، ومنهُ النَّاقَةُ المِبْلَاسُ: التي لا ترغو.

وقُرِئَ بفَتحِ اللامِ[1] مِن أَبْلَسَهُ: إذا أَسْكَتَهُ.

(١٣) ـ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ ﴾ ممَّنْ أشركُوهُم باللهِ ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ ﴾ يُجيرونَهُم مِن عَذابِ اللهِ، ومَجيئُه بلفظِ الماضي لتَحقُّقِه.

﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾: يكفرونَ بآلهيَّتِهِم[2] حيثُ يَئِسُوا مِنْهُم.

وقيل: كانوا في الدُّنيا كافِرينَ بسببِهِم.

وكتبَ في المصحف: ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ ﴾ و﴿عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧] بالواوِ، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ بالألفِ إثباتًا للهَمزَةِ على صورةِ الحرفِ الذي منه حركَتُها.

(١٤) ـ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾؛ أي: المؤمنون والكافرونَ؛ لقولِه:

(١٥) ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ ﴾: أرضٍ ذاتِ أَزهارٍ وأَنهارٍ ﴿يُحْبَرُونَ ﴾: يُسَرُّونَ سُرورًا تهلَّلَتْ له وُجوهُهُم.

(١٦) ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾: مُدْخلونَ لا يغيبونَ عنه.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ إخبارٌ في معنى الأمرِ بتنزيهِ اللهِ تَعالى والثَّناءِ عليهِ في هذه الأوقاتِ التي تظهَرُ فيها قُدرَتُه وتتجدَّدُ فيها نِعمَتُه، أو دلالةٌ على أنَّ ما يحدثُ فيها من الشَّواهدِ النَّاطقَةِ بتنزيهِه واستحقاقِه الحمدَ ممَّن له تَمييزٌ مِن أهلِ السَّماواتِ والأرضِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧) عن علي رضي الله عنه والسلمي.

(٢) في نسخة الطبلاوي: «بآلهتهم». وأشار إلى النسختين الخفاجي في «الحاشية».

وتخصيصُ التَّسبيحِ بالمَساءِ والصَّباحِ لأنَّ آثارَ القُدرَةِ والعَظمَةِ فيهما أظهَرُ.

وتَخصيصُ الحَمْدِ بالعَشِيِّ الذي هو آخِرُ النَّهارِ ـ مِن عَشَى العينِ: إذا نقصَ نورُها ـ والظهيرةِ التي هي وسطُه؛ لأنَّ تَجدُّدَ النِّعَمِ فيهما أكثَرُ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿عشيًّا﴾ مَعطوفًا على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وقولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضًا.

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عَنْهُما: أنَّ الآيةَ جامِعَةٌ للصَّلواتِ الخمسِ، ﴿تُمْسُونَ﴾: صلاتَا المغربِ والعشاءِ، و﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاةُ الفجرِ، ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاةُ العصرِ و﴿تُظْهِرُونَ﴾ صلاةُ الظُّهرِ[1].

ولذلك زعمَ الحَسَنُ أنَّها مَدنيَّةٌ؛ لأنَّه كان يقولُ: كان الواجِبُ بمكَّةَ ركعتينِ في أيِّ وقتٍ اتَّفقَتْ، وإنَّما فُرِضَت الخمسُ بالمدينَةِ، والأكثرُ على أنَّها فُرِضَت بمَكَّةَ.

وعنه عليهِ السَّلامُ: «مَن سَرَّهُ أن يُكالَ له بالقَفِيزِ[2] الأَوْفَى فليَقُل: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ...﴾» الآيةَ[3].

وعنه عليه السَّلامُ: «مَن قالَ حينَ يُصبِحُ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أدركَ ما فاتَه في ليلَتِه، ومَن قالَ حينَ يُمسِي أدركَ ما فاتَهُ في يومِه»[4].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٧٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٥٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٤١) وصححه، ورواه أيضاً عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٨٠).

(٢) في نسخة التفتازاني: «بالكيل».

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٣٦ ـ ١٣٧) من حديث أنس. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٩): في إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط.

(٤) رواه أبو داود (٥٠٧٦)، وفي سنده سعيد بن بشير النجاري، قال البخاري: لا يصح حديثه. انظر: «الضعفاء» للعقيلي (٢/ ١٠٠). =

وقُرِئَ: (حِينًا تُمسونَ وحِينًا تُصبِحُونَ)[١] أي: تُمسونَ فيهِ وتُصبِحُونَ فيهِ.

(١٩) ـ ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ كالإنسانِ مِن النُّطفَةِ والطَّائرِ مِن البيضَةِ.

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾: النُّطفةَ والبَيْضةَ.

أو: يُعْقِبُ الحياةَ الموتَ وبالعكسِ.

﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنَّباتِ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يَبْسِها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومِثْلَ ذلك الإخراجِ ﴿تُخْرَجُونَ﴾ مِن قُبورِكُم، فإنَّه أيضًا تعقيبُ الحياةِ الموتَ.

وقرَأَ حمزةُ والكِسائيُّ بفتحِ التَّاءِ[٢].

(٢٠) ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾؛ أي: في أصلِ الإنشاءِ لأنَّه خلقَ أصلَهُم مِنه ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾: ثمَّ فاجَأْتُم وقتَ كونِكُم بشرًا مُنتَشِرينَ في الأرضِ.

(٢١) ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ لأنَّ حوَّاءَ خُلِقَت مِن ضِلَعِ آدمَ، وسائرُ النِّساءِ خُلِقْنَ مِن نُطَفِ الرِّجالِ، أو لأنَّهُنَّ مِن جِنسِهِم لا مِن جِنسٍ آخَرَ.

﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾: لتَمِيلُوا إليها وتَأْلَفُوا بها، فإنَّ الجِنسيَّةَ عِلَّةٌ للضَّمِّ، والاختلافَ سببٌ للتَّنافُرِ، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم ﴾؛ أي: جعَلَ بينَ الرِّجالِ والنِّساءِ، أو بين أفرادِ الجنسِ ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بواسطَةِ الزَّواجِ حالَ الشَّبَقِ وغيرَها ـ بخلافِ سائرِ الحيوانات

= وفي الباب من حديث معاذ بن أنس مرفوعاً رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٦٢٤) ولفظه: «ألا أخبركم لم سمى الله تبارك وتعالى إبراهيم خليله الذي وفّى؛ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ حتى يختم الآية». وإسناده ضعيف لضعف زبان بن فائد وابن لهيعة.

(١) هي قراءة عكرمة، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٥).

- نَظْمًا لأمرِ المعاشِ، أو بأنَّ تَعَيُّشَ الإنسانِ مُتوقِّفٌ على التَّعارُفِ والتَّعاوُنِ المُحوجِ إلى التَّوادِّ والتَّراحُمِ.

وقيل: المودَّةُ كِنايَةٌ عن الجماعِ، والرَّحمةُ عن الوَلدِ[1]؛ لقولِه: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: ٢١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمونَ ما في ذلكَ مِن الحِكَمِ.

(٢٢) - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾: لغاتِكُم، بأَنْ علَّمَ كُلَّ صنفٍ لغتَهُ، أو ألهمَهُ وَضْعَها وأقدرَهُ عليها.

أو: أجناسِ نُطقِكُم[2] وأشكالِهُ، فإنَّه لا تَكادُ تسمَعُ مَنطِقَيْنِ مُتساوِيَيْنِ في الكَيفيَّةِ.

﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾: بياضِ الجلدِ وسَوادِه، أو تخطيطاتِ الأعضاءِ وهيئاتِها وألوانِها وحِلاهَا بحيثُ وقعَ التَّمايزُ والتَّعارفُ حتَّى إن التَّوأمينِ مع توافُقِ موادِّهِما وأسبابِهما والأمورِ المُلاقِيَةِ لَهُما في التَّخليقِ يَختَلِفانِ في شَيءٍ مِن ذلك لا مَحالةَ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ للعالَمِينَ﴾ لا تَكادُ تخفى على عاقلٍ مِن مَلَكٍ أو إنسٍ أو جِنٍّ.

وقرأَ حفصٌ بكسرِ اللامِ[3]، ويؤيِّدُه قولُه: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(٢٣) - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾: مَنامُكُم في الزَّمانينِ لاستراحةِ القُوَى النفسانيَّةِ وقوَّةِ القُوى الطَّبيعيَّةِ، وطلبُ مَعاشِكُم فيهما.

---

(١) ذكره ابن وهب في «تفسيره» (٢/ ٥٢)، ورواه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٠)، عن الحسن.

(٢) قوله: «أو أجناسِ نطقكم»؛ بالجرِّ عطفٌ على «لغاتِكم». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٦ - ٥٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٧٥).

أو: منامُكُـم بالليـلِ وابتغاؤكُـمْ بالنَّهـارِ، فلـفَّ وضـمَّ بيـنَ الزَّمانيـنِ والفِعْلَين بعاطفَيْـنِ إشـعارًا بـأنَّ كُلًّا مِن الزَّمانيـنِ وإن اختصَّ بأحدِهِما فهو صالـحٌ للآخرِ عندَ الحاجـةِ، ويؤيِّـدُه سـائرُ الآياتِ الـواردةِ فيه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تَفهُّمٍ واستِبصارٍ فإنَّ الحِكمةَ فيه ظاهرةٌ.

(٢٤) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ مُقدَّرٌ بـ(أنْ) كقولِه:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرَ الوَغَى ... وَأَنْ أَشْهَدَ اللذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي[1]

أو الفعلُ فيه مُنزَّلٌ منزلةَ المصدَرِ كقولِهِم: (تَسْمَعُ بالمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ)[2]، أو صِفَةٌ لِمَحذوفٍ تَقديرُه: آيةٌ يريكم بها البرقَ، كقولِه:

فَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا ... أَمُوتُ وأُخْرَى أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ[3]

﴿خَوْفًا﴾ مِن الصَّاعقةِ، أو للمُسافرِ ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيثِ، أو للمقيمِ[4]، ونصبُهُما

---

(١) البيت لطرَفة بن العبد من معلقته المشهورة، انظر: «ديوان طرفة» (ص: ٢٥)، و«الكتاب» (٣/ ٩٩). و«أحضر» يروى بالرفع والنصب كما قال السمين في «الدر المصون» (١/ ٤٦٠). وفي الديوان: «اللائمي» بدل «الزاجري».

(٢) قوله: «تَسمعُ بالمُعَيْديِّ» يُضربُ للرَّجل الَّذي له صِيتٌ في الناس، فإذا رأيتَه ازدرَيْتَه، قالَه المنذر بن ماء السماء لشِقَّةَ بن ضمرة، وكان المنذر يسمع قوله ويعجبه ما يبلغه عنه، فلما رآه قال ذلك. وهو محمولٌ على حذف (أنْ)، أو على تنزيل الفعل منزلةَ المصدر، أي: سماعُك بالمُعَيْديِّ. انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ٩٨)، و«فتوح الغيب» (٦/ ٣٨٤) و(١٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

(٣) البيت لتميم بن مقبل. انظر: «الكتاب» (٢/ ٣٤٦)، و«الحيوان» (٣/ ٢١).

(٤) قوله: «أو للمسافر» «أو للمقيم» من نسخة الفاروقي، وفي باقي النسخ اختلاف؛ ففي نسخة الخيالي بحذف (أو) فيهما، وفي نسخة التفتازاني والطبلاوي بالواو بدل (أو)، قال الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٤١٢ ـ ٤١٣): نسخه مختلفة في لفظ «المسافر» و«المقيم»، ففي نسخة ذكرا بالواو، وفي =

على العِلَّةِ لفعلٍ يلزمُ المذكورَ فإنَّ إراءَتَهُم تَستلزِمُ رؤيتَهُم، أو لَه على تقديرِ مُضافٍ نحو: إرادةَ خوفٍ وطمَعٍ، أو تأويلِ الخوفِ والطَّمعِ بالإخافَةِ والإطماعِ كقولِك: (فعلتُهُ رَغْمًا للشَّيطانِ)، أو على الحالِ مثل: (كلَّمْتُه شِفاهًا).

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وقُرِئَ بالتَّشديدِ[1] ﴿فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنَّباتِ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبْسِها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: يستعملونَ عُقولَهُم في استنباطِ أَسبابِها وكيفيَّةِ تكوُّنِها؛ ليَظهرَ لَهُم كمالُ قُدرةِ الصَّانعِ وحِكمتِه.

(٢٥) ـ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾: قيامُهُما بإقامَتِه لهما[2] وإرادَتِه لقيامِهما في حيِّزِهما المعيَّنينِ مِن غيرِ مُقيمٍ محسوسٍ، والتَّعبيرُ بالأمرِ للمُبالغةِ في كمالِ القُدرةِ والغِنَى عن الآلةِ.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ عطفٌ على ﴿أَنْ تَقُومَ﴾ على تأويلِ مُفرَدٍ، كأنَّه قيل: ومِن آياتِه قيامُ السَّماواتِ والأرضِ بأمرِه ثمَّ خُروجُكُم من القُبورِ إذا دَعاكم دعوةً واحدةً فيقول: أيُّها الموتى اخرجُوا، والمرادُ: تشبيهُ سرعَةِ ترتُّبِ حصولِ ذلك على تعلُّقِ إرادَتِه بلا توقُّفٍ واحتياجٍ إلى تجشُّمِ عملٍ بسرعةِ[3]

= أخرى بـ «أو»، وفي أخرى بحذف العاطف، وهو أحسن.

وخالفه الخفاجي فاختار العطف بـ«أو» حيث قال: قوله: «من الصاعقة أو للمسافر» وفي نسخة إسقاط «أو»، والصحيح الأولى، وهو المطابق لما في «الكشاف»، وخوفُ المسافر لأنّ المطر يضرُّه لعدم ما يكنه ولا نفع له فيه. انظر: «حاشية الخفاجي».

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف، والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٦)، و«التيسير» (ص: ٧٥).

(٢) أي: ومن آياته قيامُهما بإقامته لهما؛ فـ﴿أَنْ تَقُومَ﴾ مصدر مؤول بالقيام، وقوله: ﴿بِأَمْرِهِ﴾؛ أي: بإقامته. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٥/ ١٢٦).

(٣) قوله: «بسرعة» متعلق بـ«تشبيه». انظر: «حاشية الخفاجي».

ترتُّبِ إجابةِ الدَّاعي المطاعِ على دُعائِه، و﴿ثُمَّ﴾ إمَّا لتَراخي زَمانِه أو لعظمِ ما فيه.

و﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(دعا) كقولِه: (دعَوْتُه مِن أسفلِ الوادِي فطلعَ إليَّ) لا بـ﴿تَخْرُجُونَ﴾ لأن ما بعدَ (إذا) لا يعمَلُ فيما قبلَه، و﴿إِذَآ﴾ الثَّانيةُ للمُفاجأةِ، ولذلك نابَ مَنابَ الفاءِ في جَوابِ الأولى.

(٢٦) ـ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مُنقادونَ لفعلِه فيهم لا يمتنعونَ عليه.

(٢٧) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعدَ هَلاكِهم ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ والإعادةُ أسهَلُ عليهِ مِن الأصلِ بالإضافَةِ إلى قُدَرِكم والقياسِ على أصولِكُم، وإلَّا فهُما عليه سواءٌ، ولذلك قيل: الهاءُ لـ﴿ٱلْخَلْقَ﴾.

وقيل: ﴿أَهْوَنُ﴾ بمعنى: هَيِّنٍ، وتذكيرُ ﴿هوَ﴾ لـ﴿أَهْوَنُ﴾ أو لأنَّ الإعادةَ بمعنى: أن يُعيدَ[1].

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ﴾: الوصفُ العَجيبُ الشَّأنِ كالقُدرةِ العامَّةِ والحكمةِ التَّامَّةِ، ومَن فسَّرَه بقول: (لا إله إلا اللهُ)[2] أرادَ به الوَصفَ بالوحدانيَّةِ.

﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الذي ليسَ لغيرِه ما يساويهِ أو يُدانيه.

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَصِفُ به ما فيهما دلالةً ونُطقًا[3].

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «يعيده».

(٢) عزاه الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ٥٦٣) إلى مجاهد، ولم أقف عليه عنه، ورواه عبد الرزاق وابن أبي حاتم في كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩١) عن قتادة بلفظ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله.

ورواه عن قتادة أيضاً الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٨٩) بلفظ: مثله أنه لا إله إلا هو ولا معبود غيره.

(٣) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «وصف به...». والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما =

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: القادرُ الذي لا يَعجِزُ عن إبداءِ ممكنٍ وإعادَتِه ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يُجري الأفعالَ على مُقتَضى حكمتِه.

(٢٨) ـ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: منتزَعًا مِن أَحوالِها التي هي أقرَبُ الأمورِ إلَيْكُم: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾: مِن مَماليكِكُم ﴿مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من الأموالِ وغيرِها ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾: فتكونُونَ أنتم وهم فيه شَرَعٌ[1]

= في «حاشية ابن التمجيد» (١٥/ ١٣٢)، وقال في شرحه: أي: يصف بوصفه الأعلى ما في السماوات والأرض من الجمادات والأرواح القدسية والملائكة والثقلين؛ دلالةً من الجمادات لإنبائها عن القدرة الباهرة والفعل المتقن المرعيِّ فيه صنوفُ الحكمة، ونطقاً من أولي العقل من الملائكة والثقلين.

وجاء في نسخ أخرى: «وصفه» وفي غيرها: «يصفه» ذكرهما الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٤١٤) فقال: «وصفه» في نسخة: «يصفه»؛ أي: الله تعالى «به»؛ أي: بالمثل الأعلى «ما» فاعل (وصف) ـ أو (يصف) ـ «فيهما»؛ أي: في السماوات والأرض «دلالة»؛ أي: وصفه بذلك بدلالة لسان الحال «ونطقاً»؛ أي: بلسان المقال.

وعبارة الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ٥٦٣): (﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾؛ أَي: الوَصْفُ الأَعلى الذي ليسَ لغَيْره مِثلُه، قد عُرِفَ به، ووُصِف في السَّماواتِ والأَرض على أَلْسِنة الخلائق وأَلْسِنَةِ الدَّلائل، وهُو أنَّه القادرُ الَّذي لا يَعجِزُ عن شيءٍ من إِنشاءٍ وإعادةٍ وغيرهما من المقدُورات). وليت المصنف تركها على حالها ولم يغيرها.

(١) في نسخة الخيالي: «شرعاً»؛ قال الخفاجي في «الحاشية»: قوله: «فتكونون أنتم وهم فيه شرع» تفسير لقوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ و«شرع» بالرفع خبر «أنتم وهم» والجملة خبر (كان) فلا يُتوهَّمْ أنّ حقه النصبُ، وهو بفتح الشين المعجمة وفتح الراء المهملة وبعده عين مهملة بمعنى: سواء، ويستوي فيه المذكَّر والمؤنث، والمفرد وغيره، وأجاز بعض اللغويين تسكين رائه، وأنكره يعقوب في «الإصلاح».

يتصرَّفونَ فيه كتصرُّفِكُم مع أنَّهُم بشرٌ مثلُكُم وأنها مُعارةٌ لكم[1]، و﴿مِّن﴾ الأولى للابتداءِ، والثَّانيةُ للتَّبعيضِ، والثَّالثةُ مزيدةٌ لتأكيدِ الاستفهامِ الجاري مجرى النَّفيِ.

﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أن يستبدُّوا بتَصرُّفٍ فيه ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ كما يخافُ الأحرارُ بعضُهُم مِن بعضٍ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك التَّفصيلِ ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾: نبيِّنُها، فإنَّ التَّمثيلَ ممَّا يكشفُ المعانيَ ويوضحُها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: يستعملونَ عُقولَهُم في تدبُّرِ الأمثالِ.

(٢٩) ـ ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ بالإشراكِ ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جاهلينَ لا يَكفُّهُم شيءٌ؛ فإنَّ العالمَ إذا اتَّبعَ هواه ربَّما ردعَهُ علمُه.

﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: فمَن يَقْدِرُ على هدايَتِه ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يُخَلِّصونَهم مِن الضَّلالة ويحفظونَهُم عن آفاتِها.

(٣٠) ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: فقوِّمْهُ له غيرَ ملتفِتٍ، أو مُلتفَتٍ عنه[2]، وهو تمثيلٌ للإقبالِ والاستقامةِ عليه والاهتمامِ به.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾: خِلقتَهُ، نصبٌ على الإغراءِ أو المَصدَرِ لِمَا دلَّ عليه ما بعدَها ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾: خَلَقَهُم عليها، وهي قبولُهُم للحقِّ وتمكُّنُهم من إدراكِه، أو ملَّةُ الإسلامِ فإنَّهُم لو خُلُّوا وما خُلِقُوا عليه أدَّى بهم إليها.

وقيل: العهدُ المأخوذُ مِن آدمَ عليه السَّلامُ وذرِّيَّته.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: لا يقدِرُ أحدٌ أن يغيِّرَهُ، أو: ما ينبغي أَنْ يُغيَّرَ.

---

(١) قوله: «وأنها معارة»؛ أي: الأمور التي في أيديكم معارةٌ؛ لأنّ المالك هو الله. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) قوله: «غير ملتفت» بكسر الفاء، (أو ملتفت عنه) بفتحها، الأول راجع إلى فاعل (أقم)، والثاني إلى (الدين). انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤١٥).

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الدِّينِ المأمورِ بإقامةِ الوَجهِ له، أو الفطرةِ إن فُسِّرَت بالمِلَّةِ ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المُسْتَوِي الذي لا عِوَجَ فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استقامتَه لعدمِ تَدبُّرِهم.

(٣١) - ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: راجعينَ إليه، مِن أنابَ: إذا رجعَ مرَّةً بعدَ أُخرى.

وقيل: مُنقَطِعينَ إليه، مِن النَّابِ[1].

وهو حالٌ من الضَّميرِ في النَّاصبِ المقدَّرِ لـ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، أو في ﴿أَقِمْ﴾ لأنَّ الآيةَ خطابٌ للرَّسولِ والأمَّةِ؛ لقولِه: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ غيرَ أنَّها صُدِّرَت بخطابِ الرَّسولِ عليه السَّلامُ تعظيمًا له.

(٣٢) - ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ بَدلٌ مِن ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وتفريقُهُم: اختلافُهُم فيما يعبدونَه على اختلافِ أهوائِهم.

وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿فارَقُوا﴾[2] بمَعنى: تركُوا دينَهُم الذي أُمِرُوا به.

﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾: فرقًا تُشايعُ كُلٌّ إمامَها الذي أصَّل دينَها ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾: مَسرورونَ ظَنًّا بأنَّه الحقُّ.

ويجوزُ أن يجعلَ ﴿فَرِحُونَ﴾ صفةَ ﴿كُلُّ﴾ على أنَّ الخبرَ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟﴾.

(٣٣) - ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾: شدَّةٌ ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: راجعينَ إليه مِن دُعاءِ غيرِه ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾: خلاصًا مِن تلك الشدَّةِ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾: فاجأَ فريقٌ مِنْهُم بالإشراكِ بربِّهِم الذي عافاهُم.

---

(١) قوله: «من الناب»؛ أي: لأنه منقطعٌ عن بقية الأسنان؛ لبروزه عليها. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/٤١٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

(٣٤) ـ ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ﴾ اللامُ فيه للعاقبةِ، وقيل: للأمرِ بمَعنى التَّهديدِ؛ لقولِه: ﴿فَتَمَتَّعُوا ﴾ غيرَ أنَّه التفتَ فيه مبالغةً. وقُرِئَ: (ولْيَتمَتَّعُوا)(١).

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبةَ تمتُّعِكُم. وقُرِئَ بالياءِ على أنَّ (تَمتَّعُوا) ماضٍ(٢).

(٣٥) ـ ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا ﴾: حجَّةً، وقيل: ذا سُلطانٍ؛ أي: مَلَكاً معه برهانٌ.

﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تكلُّمَ دلالةٍ كقولِه: ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الجاثية: ٢٩]، أو نُطقٍ(٣) ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾: بإشراكِهِم وصِحَّتِه، أو بالأمرِ الذي بسببِه يشركونَ به في أُلوهِيَّتِه.

(٣٦) ـ ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً ﴾: نِعمَـةً مِـن صِحَّةٍ وسَـعَةٍ ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾: بَطِرُوا بسـببِها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾: شِـدَّةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾: بشُـؤمِ مَعاصيهِـم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فاجَـؤوا القنـوطَ مِـن رحمَتِه.

وقرأ أبو عمرٍو والكِسائِيُّ بكسرِ النُّونِ(٤).

(٣٧) ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فما لَهُم لم يَشكُروا ولم يَحتَسِبُوا في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ كالمُؤمنينَ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيَستدِلُّونَ بها على كمالِ القُدرَةِ والحكمَةِ.

---

(١) وهي قراءة ابن مسعود، انظر: «تفسير الثعلبي» (٢١/ ١٥٩).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧) عن أبي العالية، وذكرها عنه ابن جني في «المحتسب» (٢/ ١٦٤) لكن بلفظ: (فيمتعوا فسوف يعلمون).

(٣) قوله: «تكلم دلالة» على إرادة الحجة، وقوله: «أو نطق» على إرادة الملك، فهو لف ونشر. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

(٣٨) ـ ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ كصِلَةِ الرَّحِمِ، واحتَجَّ به الحنفيَّةُ على وجوبِ النَّفقَةِ للمَحارِمِ[1]، وهو غيرُ مشعرٍ به.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ما وظِّفَ لهما مِن الزَّكاةِ.

والخطابُ للنَّبيِّ عليهِ السَّلامُ، أو لِمَن بُسِطَ له، ولذلك رُتِّبَ على ما قبلَهُ بالفاءِ.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: ذاتَه، أو جِهتَهُ؛ أي: يقصدونَ بمَعروفِهم إيَّاه خالصًا.

أو: جهةَ التَّقرُّبِ إليه لا جهةً أُخرَى.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ حيثُ حَصَّلوا بما بُسِطَ لهم النَّعيمَ المُقيمَ.

(٣٩) ـ ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾: زيادةٍ مُحرَّمةٍ في المعاملةِ، أو عطيَّةٍ يُتوقَّعُ بها مزيدُ مكافأةٍ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ بالقَصْرِ[2] بمَعنى: وما جِئتُم به مِن إعطاءِ رِباً.

﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾: ليزيدَ ويَزْكُوَ في أَموالِهم ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾: فلا يزكو عندَه ولا يُبارَكُ فيه. وقرأَ نافعٌ ويعقوبُ: ﴿لِتُرْبُوا﴾[3]؛ أي: لتَزيدُوا، أو: لتَصيرُوا ذوي رباً.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: تبتغونَ بهِ وجهَهُ خالصًا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾: ذَوُو الأضعافِ مِن الثَّوابِ، ونظيرُ المُضْعِف: المُقْوِي والمُوسِرُ لذي القُوَّةِ واليَسارِ، أو: الذينَ ضعَّفُوا ثوابَهُم وأموالَهُم ببركةِ الزَّكاةِ. وقُرِئَ بفَتحِ العينِ[4].

---

(١) انظر: «التجريد للقدوري» (١٠/ ٥٤٠٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٧)، و«التيسير» (ص: ٨١).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٧٥)، و«النشر» (٢/ ٣٤٤).

(٤) أي: (المضعَفون)، نسبت لمحمد بن كعب. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧).

وتغييرُه عن سَننِ المقابلَةِ عبارةً ونظمًا للمُبالغَةِ، والالتفاتُ فيه للتَّعظيمِ[١] كأنَّه خاطبَ به الملائكةَ وخواصَّ الخلقِ تَعريفًا لحالِهم، أو للتَّعميمِ كأنَّه قال: فمَنْ فعلَ ذلك فأولئكَ هُم المُضعِفُونَ، والرَّاجعُ منه مَحذوفٌ إن جُعِلَت (ما) موصولَةً تقديرُه: المُضعِفُونَ بِهِ، أو: فمؤتوه أولئِكَ هم المُضعِفُونَ.

(٤٠) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أثبتَ له لوازِمَ الألوهيَّةِ ونفاها رأسًا عمَّا اتَّخذوهُ شُركاءَ له من الأصنامِ وغيرِها، مؤكِّدًا بالإنكارِ[٢] على ما دلَّ عليه البرهانُ والعِيانُ ووقعَ عليه الوفاقُ[٣]، ثمَّ استَنْتجَ من ذلك تقدُّسَهُ عن أَنْ يَكونُوا له شركاءَ فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ويجوزُ أَنْ يكونَ الموصولُ صِفةً، والخبرُ: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ والرَّابطُ: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾ لأنَّه بمَعنى: مِن أفعالِه، و﴿مِن﴾ الأولى والثَّانيةُ تفيدانِ شيوعَ الحكمِ في جنسَي الشُّركاءِ والأفعالِ، والثَّالثةُ مَزيدَةٌ لتَعميمِ المنفيِّ، فكلٌّ منها[٤] مُستقلَّةٌ بتأكيدٍ لتَعجيزِ الشُّركاءِ.

---

(١) قوله: «والالتفات»؛ أي: من الخطاب إلى الغيبة «فيه»؛ أي: في (أولئك) «للتعظيم...» إلخ: إيضاحه قول «الكشاف»: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ التفاتٌ حَسَنٌ؛ كأنَّه قال لمَلائكتهِ وخواصِّ خَلْقِه: فأولئكَ الَّذينَ يُرِيْدُونَ وَجْهَ الله بصَدقَاتِهم هم المُضْعِفُون، فهُو أَمْدَحُ لهُم مِن أن يقولَ: فأنتُم المُضْعِفُون. انظر: «الكشاف» (٦/ ٥٧١) و«حاشية الأنصاري» (٤/ ٤١٦).

(٢) قوله: «مؤكداً بالإنكار»؛ أي: مؤكِّداً للنفي بالتعبير عنه بالإنكار الذي هو أبلغ من صريحه. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) قوله: «على ما دلّ..» العِيان بكسر العين: المشاهدة، فإنهما يدلان على أنّ ما ذكر لا يصدر عن غيره، وهو مما اتفق عليه العقلاء. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) أي: من الثلاثة؛ أي: ﴿مِن﴾ الأُولى والثَّانيةُ والثالثةُ كُلُّ واحدةٍ مِنهنَّ مُستَقلَّةٌ بتَأكيدٍ لتَعْجيزِ شُركائِهم وتجْهِيلِ عَبَدتهِمْ. انظر: «الكشاف» (٦/ ٥٧٢).

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالتَّاءِ[(١)].

(٤١) ـ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كالجَدْبِ والمُوتانِ، وكثرةِ الحرقِ والغرقِ، وإخفاقِ الغاصَةِ، ومَحْقِ البركاتِ، وكثرةِ المضارِّ أو الضَّلالةِ[(٢)] والظُّلمِ، وقيل: المرادُ بالبحرِ قُرَى السَّواحلِ. وقُرِئَ: (والبُحورِ)[(٣)].

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾: بشُؤمِ مَعاصِيهم، أو بكَسبِهم إيَّاهُ.

وقيل: ظهرَ الفَسادُ في البرِّ بقتلِ قابيلَ أخاهُ، وفي البَحرِ بأنَّ جُلَنْدَى كان يأخذُ كلَّ سفينةٍ غَصبًا.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾: بعضَ جَزائِه، فإنَّ تمامَه في الآخرةِ، واللامُ للعِلَّةِ أو للعاقبَةِ.

وعن ابنِ كثيرٍ ويَعقوبَ: ﴿لِنُذِيقَهُم﴾ بالنُّونِ[(٤)].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمَّا هُم عليهِ.

(٤٢) ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ لتُشاهِدُوا مِصداقَ ذلك وتتَحقَّقُوا صِدقَه.

﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئنافٌ للدَّلالَةِ على أنَّ سُوءَ عاقِبَتِهم كانَ لفُشوِّ الشِّركِ وغَلَبتِه فيهِم، أو كان للشِّركِ في أكثرِهم ولِمَا دُونَهُ مِن المعاصي في قَليلٍ مِنْهُم.

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٢١).

(٢) عطف على «الجدبِ». انظر: «حاشية القونوي» (١٥/ ١٥٣).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧) عن ابن عباس.

(٤) قرأ بها قنبل عن ابن كثير، وروح عن يعقوب، انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٧٥).

(٤٣) ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾: البليغِ الاستقامةِ ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾: لا يقدرُ أَنْ يَرُدَّهُ أحدٌ، وقولُه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَأْتِيَ﴾، ويجوزُ أن يتعلَّقَ بـ﴿مَرَدَّ﴾ لأنَّه مَصدرٌ على معنى: لا يردُّهُ اللهُ لتعلُّقِ إرادَتِه القديمةِ بمَجيئِه.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾: يَتَصَدَّعونَ؛ أي: يَتفرَّقُونَ فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعيرِ، كما قال:

(٤٤) ـ ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾؛ أي: وَبالُه وهو النَّارُ المُؤبَّدةُ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾: يسوُّونَ مَنزِلًا في الجنَّةِ، وتقديمُ الظَّرفِ في المَوضِعَينِ للدلالةِ على الاختِصاصِ.

(٤٥) ـ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ عِلَّةٌ لـ﴿يَمْهَدُونَ﴾، أو لـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾، والاقتصارُ على جزاءِ المؤمنينَ للإشعارِ بأنَّه المَقصودُ بالذَّاتِ، والاكتفاءِ على فَحْوَى قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنَّ فيه إثباتَ البُغضِ لهم والمحبَّةِ للمُؤمنينَ، وتأكيدُ اختِصاصِ الصَّلاحِ المَفهومِ مِن تركِ ضَميرِهِم إلى التَّصريحِ بهم تَعليلٌ له[1]، و﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ دالٌّ على أنَّ الإثابَةَ تفضُّلٌ محضٌ، وتأويلهُ بالعَطاءِ أو الزِّيادَةِ على الثَّوابِ عدولٌ عن الظاهرِ.

(٤٦) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾: الشَّمالَ والصَّبَا والجَنُوبَ؛ فإنَّها رياحُ الرَّحمةِ، وأمَّا الدَّبُورُ فريحُ العَذابِ، ومنه قولُه عليه السَّلامُ: «اجعَلْهَا رِياحًا ولا تجعَلْهَا رِيحًا»[2].

---

(١) قوله: «وتأكيد اختصاص الصلاح المفهوم من ترك ضميرهم إلى التصريح بهم تعليلٌ له»؛ أي: لجزاء المؤمنين، ومراده بالتأكيد: التكرير، وبالتعليل: التقريرُ، كما عبَّر بهما «الكشاف» حيث قال: وتكريرُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وتَرْكُ الضَّميرِ إلى الصَّريحِ؛ لتَقْريرِ أنَّه لا يُفْلِحُ عِندهُ إلَّا المُؤمِنُ الصَّالِحُ. انظر: «الكشاف» (٦/ ٥٧٦) و«حاشية الأنصاري» (٤/ ٤١٦).

(٢) رواه الشافعي في «مسنده» (٥٣٧ ـ ترتيب سنجر)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٤٥٦)، والطبراني =

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ ﴿الرِّيحَ﴾[1] على إرادةِ الجنسِ.

﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطرِ.

﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني: المنافِعَ التَّابعةَ لها، وقيل: الخصبَ التابعَ لنُزولِ المَطرِ المسبَّبِ عنها، أو الرَّوحَ الذي هو مَعَ هُبوبها، والعطفُ على عِلَّةٍ محذوفةٍ دلَّ عليها ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾، أو عليها باعتبارِ المعنى، أو عَلى ﴿يُرْسِلَ﴾ بإضمارِ فعلٍ مُعلَّلٍ دلَّ عليه[2].

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني: تجارةَ البَحرِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكُروا نعمةَ اللهِ فيهَا.

(٤٧) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ بالتدمير ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشعارٌ بأنَّ الانتقامَ لهم إظهارٌ لِكَرامَتِهم حيثُ جَعَلَهُم مُستَحِقِّين على اللهِ أن يَنصُرَهُم، وعنه عليهِ السَّلامُ: «ما مِن امرئٍ مُسلمٍ يَرُدُّ عن عرضِ أخيهِ إلَّا كانَ حقًّا على اللهِ أنْ يَرُدَّ عنه نارَ جهنَّمَ» ثمَّ تلا ذلك[3].

= في «الكبير» (١١٥٣٣)، وفي «الدعاء» (٩٧٧)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢٢٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٥١)، والبيهقي في «الدعوات» (٣٦٩)، من طريقين عن ابن عباس كلاهما ضعيف. انظر: «الكافي الشاف» (ص: ١٢٩).

وذكر الطحاوي أن هذا الحديث مما لا أصل له ولا يعرفه أهل العلم بالحديث، ثم رده من جهة المعنى بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢] قال: وكانت الريح الطيبة من الله رحمة، والريح العاصف منه عز وجل عذابا. انظر: «شرح مشكل الآثار» (٢/ ٣٧٩).

(١) انظر: «التيسير» (ص: ٧٨).

(٢) قوله: «أو على ﴿يُرْسِلَ﴾ بإضمار فعل معلَّل دلَّ عليه»؛ أي: وليذيقكم أرسلها. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤١٧).

(٣) رواه الترمذي (١٩٣١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وحسنه، ورواه إسحاق بن راهويه في =

وقد يُوقَفُ على ﴿حَقًّا﴾ على أنه مُتعلِّقٌ بالانتقامِ.

(٤٨) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ﴾ مُتَّصِلاً تارةً ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: في سَمْتِها ﴿كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ سائرًا وواقفًا[1]، مُطبقًا وغيرَ[2] مُطبقٍ، مِن جانبٍ دونَ جانبٍ، إلى غيرِ ذلك.

﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا﴾: قطعًا تارةً أُخرى، وقرأ ابنُ عامرٍ بالسُّكونِ[3] على أنَّه مُخفَّفٌ، أو جمعُ كِسْفَةٍ، أو مصدرٌ وُصِفَ به.

﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾: المطرَ ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَـٰلِهِۦ﴾ في التَّارتينِ.

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ يعني: بلادَهُم وأراضيَهم ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ بمَجيءِ الخصبِ.

(٤٩) ـ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾ المطرُ ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ والدَّلالةِ على تَطاوُلِ عهدِهِم بالمطرِ واستحكامِ يأسِهِم.

وقيل: الضَّميرُ للمَطرِ[4] أو السَّحابِ أو الإرسالِ.

﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾: لآيسينَ.

(٥٠) ـ ﴿فانْظُرْ إلى أَثَرِ رَحْمَتِ اللهِ﴾: أثرِ الغَيْثِ من النَّباتِ والأشجارِ وأنواعِ الثِّمارِ، ولذلك جمعَهُ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ[5].

= «مسنده» (٢٣١٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ١٧٦) من حديث أسماء.

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «سائراً أو واقفاً».

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «أو غير».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٤١).

(٤) وعلى الأول هو لنزول المطر.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٥).

﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ وقُرِئَ بالتَّاءِ على إسنادِه إلى ضَميرِ الرَّحمةِ[١].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني: الذي قدَرَ على إحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: لقادرٌ على إحيائِهم، فإنَّه إحداثٌ لِمِثلِ ما كانَ في مَوادِّ أَبدانِهم مِن القُوَى؛ كما أنَّ إحياءَ الأرضِ إحداثٌ لمثلِ ما كان فيها مِن القُوى النَّباتيَّةِ.

هذا ومن المحتملِ أَنْ يكونَ مِن الكائناتِ الرَّاهنةِ[٢] ما يكونُ مِن موادَّ تَفتَّتَتْ وتبدَّدَتْ مِن جنسِها في بعضِ الأَعوامِ السَّالِفَةِ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنَّ نِسبَةَ قُدرَتِه إلى جميعِ المُمكِنَاتِ على سَواءٍ.

(٥١) ـ ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: فرَأَوا الأثَرَ، أو الزَّرعَ فإنَّه مدلولٌ عليه بما تقدَّمَ.

وقيل: السَّحابَ؛ لأنَّه إذا كانَ مُصفَرًّا لم يُمطِرْ.

واللامُ مُوطِّئَةٌ للقَسَمِ دخلَتْ على حرفِ الشَّرطِ، وقوله: ﴿لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ جوابٌ سدَّ مَسَدَّ الجزاءِ ولذلك فُسِّرَ بالاستقبالِ.

وهذه الآياتُ ناعِيَةٌ على الكُفَّارِ بقِلَّةِ تَثبُّتِهم وعَدمِ تَدبُّرِهم وسُرعَةِ تَزلزُلِهم؛ لعَدَمِ تَفكُّرِهم[٣] وسُوءِ رَأيِهم، فإنَّ النَّظرَ السَّوِيَّ يَقتَضِي أن يتوكَّلُوا على اللهِ ويلتَجِئُوا إليه بالاستغفارِ إذا احتبسَ القطرُ عَنْهُم ولم ييأسوا مِن رَحمَتِه، وأن يُبادِرُوا إلى الشُّكرِ والاستدامةِ بالطَّاعَةِ إذا أصابَهُم برحمته ولم يُفْرِطُوا في الاستبشارِ، وأن يَصبِرُوا على بلائِهِ إذا ضربَ زروعَهُم بالاصفرارِ ولم يكفرُوا نِعمَه.

---

(١) أي: (تُحيي). انظر: «المحتسب» (٢/ ١٦٥) عن أبي حيوة.

(٢) في نسخة الخيالي: «الواهنة». وقوله: «الراهنة»؛ أي: الموجودة المشاهدة الثابتة كما في قولهم: الحالة الراهنة هذه، والرهن مأخوذ منه. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة الفاروقي: «تذكرهم».

(٥٢) ـ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وهُم مِثلُهُم لمَّا سدُّوا عن الحقِّ مشاعرهِم ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ قيَّدَ الحكمَ به ليكونَ أشَدَّ استحالةً، فإنَّ الأَصمَّ المقبلَ وإن لم يسمع الكلامَ تفطَّنَ منه بواسطةِ الحركاتِ شيئًا.

وقرأ ابنُ كثيرٍ باليَاءِ مَفتوحةً ورفعِ ﴿الصمُّ﴾[1].

(٥٣) ـ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾ سمَّاهم عُمْيًا لفقدِهم المقصودَ الحَقيقِيَّ مِن الإبصارِ، أو لِعَمى قُلوبِهِم، وقرأ حمزَةُ وحدَهُ: ﴿تَهدِي العميَ﴾[2].

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فإنَّ إيمانَهُم يَدعُوهم إلى تَلقِّي اللفظِ وتَدبُّرِ المَعنى، ويجوزُ أَنْ يرادَ بالمؤمنِ: المُشَارِفُ للإيمانِ.

﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لِمَا تأمرُهُم به.

(٥٤) ـ ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِن ضُعْفٍ﴾؛ أي: ابتدَأَكُم ضعفاءَ وجَعلَ الضَّعفَ أساسَ أمرِكُم؛ كقَولِه: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾[3] [النساء: ٢٨]؛ أو: خلقَكُم من أصلٍ ضَعيفٍ وهو النُّطفَةُ.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً﴾ وذلك إذا بلَغْتُم الحُلُمَ، أو تعلَّقَ بأبدانِكُم الرُّوحُ[4].

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفًا وشَيْبَةً﴾ إذا أخذَ منكم السنُّ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٩).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٩).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «كقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾». قال الخفاجي: قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ مثالٌ لجعل ما طُبع عليه بمنزلة ما طبع منه، وفي نسخة: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ وهي مثال لابتدائهم ضعفاء. انظر: (حاشية الخفاجي).

(٤) قوله: «وذلك...» لف ونشر على التفسيرين السابقين للضعف. انظر: «حاشية الخفاجي».

وفتحَ عاصِمٌ وحمزَةُ الضَّادَ في جميعِها[١]، والضمُّ أقوى لقولِ ابنِ عمرَ: قرأْتُها على رسولِ اللهِ ﷺ: ﴿مِن ضَعْفٍ﴾ فأقرأَني: ﴿من ضُعْفٍ﴾[٢]. وهما لُغتانِ كالفَقرِ والفُقْرِ.

والتَّنكيرُ معَ التَّكريرِ لأنَّ المُتأخِّرَ ليس عينَ المُتقدِّمِ.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من ضعفٍ وقوَّةٍ وشبيبَةٍ وشَيبَةٍ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ فإنَّ التَّرديدَ في الأحوالِ المُختلِفَةِ مع إمكانِ غيرِهِ دليلُ العلمِ والقُدرَةِ.

(٥٥) ـ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: القيامَةُ، سُمِّيَتْ بها لأنَّها تَقومُ في آخرِ ساعَةٍ من ساعاتِ الدُّنيَا، أو لأنَّها تقَعُ بغتَةً، وصارَتْ عَلَمًا لها بالغلبَةِ كالكوكبِ للزُّهَرَةِ.

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ﴾ في الدُّنيَا، أو في القبورِ، أو فيما بين فناءِ الدُّنيَا والبَعثِ وانقطاعِ عذابِهِم، وفي الحديثِ: «ما بينَ فَناءِ الدُّنيَا والبعثِ أَربعونَ»[٣]، وهو مُحتمِلٌ للسَّاعاتِ والأيَّامِ والأعوامِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٥ ـ ١٧٦). وقال ابن مجاهد: وقَرأ حفص عن نفسه لا عن عاصم بضم الضَّاد. وانظر التعليق الآتي.

(٢) رواه أبو داود (٣٩٧٨)، والترمذي (٢٩٣٦)، من طريق فُضَيل بن مرزوقٍ، عن عطيَّةَ بنِ سَعْد العَوفيِّ، عن ابن عُمرَ رضي الله عنهما به. وعطية العوفي ضعيف. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق.

وقال الداني في «التيسير» (ص: ١٧٦): روى حفص عن عاصم بفتح الضاد فيهنَّ، غير أنه ترك ذلك واختارَ الضَّم اتِّباعا منه لروايةٍ حدثه بها الفضيل بن مرزوق عن عطيَّة العوفيّ عن عبد الله بن عمر: أن النَّبي عَلَيْهِ السَّلَام أقرأه ذلك بالضمِّ وردَّ عليه الفتحَ وأباه، وعطية يضعَّف، وما رواه حفص عن عاصم عن أئمَّته أصح، وبالوجهين آخذ في روايته لأتابع عاصمًا على قراءته وأوافق حفصاً على اختياره.

(٣) قال الشيخ ولي الدين العراقي: لم أقف عليه هكذا، انظر: «حاشية السيوطي» (١٠/ ١٥٥)، وروى البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥)، عن أبي هريرةَ مرفوعًا: «ما بينَ النَّفخَتَينِ أربعونَ» قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوما؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت.

﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ استقلُّوا مُدَّةَ لبثِهم إضافةً إلى مدَّةِ عَذابِهم في الآخرةِ، أو نسيانًا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الصَّرفِ عن الصِّدقِ والتَّحقيقِ ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾: يُصرَفُونَ في الدُّنيا.

(٥٦) ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ مِن الملائكةِ أو الإنسِ[١]: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: في علمِهِ، أو قَضائِه، أو فيما كتبَهُ لكم؛ أي: أوجبَه[٢]، أو اللوحِ، أو القرآنِ وهو قوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ رَدُّوا بذلك ما قالوهُ وحَلَفوا عليهِ.

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي أنكَرْتُموهُ ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنَّه حَقٌّ لتَفريطِكُم في النَّظرِ، والفاءُ لجَوابِ شرطٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: إن كنتُمْ مُنكرينَ البعثَ فهذا يومُه؛ أي: فقَدْ تَبيَّنَ بُطلانُ إنكارِكُم.

(٥٧) ـ ﴿فيومَئِذٍ لا تَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرتُهُمْ﴾ وقرأَ الكوفِيُّونَ بالياءِ[٣]؛ لأنَّ المعذرةَ بمعنى العُذْرِ، أو لأنَّ تأنيثَهَا غيرُ حَقيقِيٍّ وقد فصلَ بينَهُما.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: لا يُدْعَونَ إلى ما يقتـضي إعتابَهُم؛ أي: إزالةَ عتبِهِم مِن التَّوبَةِ والطَّاعةِ كما دعوا إليه في الدُّنيا، مِن قَولِهِم: استَعْتَبَنِي فلانٌ فأَعْتَبْتُه؛ أي: استَرْضَانِي فأَرْضَيْتُه.

(٥٨) ـ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: ولقد وَصَفْناهُم فيه بأنواعِ الصِّفاتِ التي هي في الغرابةِ كالأمثالِ، مثلَ صفَةِ المبعوثينَ يومَ القيامَةِ فيما يقولونَ وما يقالُ لهم، وما لا يكونُ لَهُم مِن الانتفاعِ بالمعذرَةِ والاستعتابِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «والإنس».

(٢) في نسخة الخيالي زيادة: «بحكمته».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٦).

أو: بيَّنَّا لهم مِن كلِّ مثلٍ يُنبِّئُهُم على التَّوحيدِ والبَعثِ وصدقِ الرَّسولِ.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ مِن آياتِ القُرآنِ ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِن فَرْطِ عِنادِهِم وقساوةِ قُلوبِهِم ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يعنونَ: الرَّسولَ عليهِ السَّلامُ والمؤمنينَ ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ مُزوِّرُونَ.

(٥٩) ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلَ ذلك الطَّبعِ ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يطلبونَ العِلمَ ويُصرُّونَ على خرافاتٍ اعتَقدُوهَا، فإنَّ الجهلَ المُركَّبَ يمنَعُ إدراكَ الحقِّ ويوجِبُ تَكذيبَ المُحقِّ.

(٦٠) ـ ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذاهُم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنُصرَتِكَ وإظهارِ دينِكَ على الدِّينِ كُلِّه ﴿حَقٌّ﴾ لا بدَّ مِن إنجازِه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾: ولا يَحْمِلَنَّكَ على الخفَّةِ والقَلَقِ ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتكذيبِهِم وإيذائِهِم، فإنَّهُم شاكُّونَ ضالُّونَ لا يُستبدَعُ مِنْهُم ذلك.

وعن يعقوبَ بتَخفيفِ النُّونِ(١).

وقُرِئَ: (ولا يَسْتَحِقَّنَّكَ)(٢)؛ أي: لا يُزيغوكَ فيكونوا أحقَّ بكَ مِن المؤمنينَ.

عن رَسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرأَ سُورَةَ الرُّومِ كان له مِن الأَجرِ عشرُ حَسناتٍ بعدَدِ كلِّ ملكٍ سبَّحَ اللهَ بينَ السَّماءِ والأرضِ، وأدرَكَ ما ضيَّعَ في يومِهِ ولَيْلَتِهِ»(٣).

* * *

---

(١) وهي رواية رويس عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٢٤٦).

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٦٦) عن يعقوب وابن أبي إسحاق، وهي خلاف المشهور عن يعقوب.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٠٠) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٣٠) سُورَةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا سِتُّونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

نزلت هذه الآيات حين غلب الفرس[1] على بلاد الشام، وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، فاضطر ملك الروم حتى لجأ إلى القسطنطينية وحوصر فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل الكتاب، فذكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إما إنهم سيغلبون»، فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «ألا جعلتها إلى دون العشر؟» ثم ظهرت الروم بعد، قال فذلك قوله: ﴿آلم * غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾[2]. (حديث آخر: عن مسروق قال، قال عبد الله: خمس قد مضين: الدخان، واللزام، والبطشة، والقمر، والروم[3]. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كانت فارس ظاهرة على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم

---

(١) آخر ملوك الفرس الذي قتل زمن عثمان بن عفان هو: يزدجر بن شهريار، وهو الذي كتب له النبي ﷺ يدعوه للإسلام، فمزق الكتاب، فدعا عليهم النبي ﷺ أن يمزقوا كل ممزق.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجاه في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود موقوفاً.

على فارس، لأنهم أهل كتاب، وهم أقرب إلى دينهم، فلما نزلت: ﴿آلم * غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ قالوا: يا أبا بكر إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين، قال: صدق، قالوا: هل لك أن نقامرك، فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين فمضت السبع، ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك، فشق على المسلمين فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: « ما بضع سنين عندكم » ؟ قالوا: دون العشر، قال: « اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل » قال: فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس، ففرح المؤمنون بذلك وأنزل الله تعالى: ﴿آلم * غلبت الروم - إلى قوله تعالى - وعد الله لا يخلف الله وعده﴾[1] .

وقال عكرمة: لقي المشركون أصحاب النبي ﷺ وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله تعالى: ﴿آلم * غلبت الروم في أدنى الأرض - إلى قوله - ينصر من يشاء﴾ فخرج أبو بكر الصدّيق إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا ولا يقرن الله أعينكم، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ، فقام إليه (أبي بن خلف) فقال: كذبت يا أبا فضيل، فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: أناجيك عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين، ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: « ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر، وماده في الأجل »، فخرج أبو بكر، فلقي أبياً فقال: لعلك ندمت ؟ فقال: لا، تعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين، قال: قد فعلت، فظهرت الروم على فارس قبل ذلك فغلبهم المسلمون .

ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمات، فقوله تعالى: ﴿آلم * غلبت الروم﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة، وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، ويقال لهم بنو الأصفر، وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة، وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة، وكان من ملك منهم الشام مع الجزيرة يقال له (قيصر)، فكان أول من دخل في دين النصارى من الروم (قسطنطين)، وأمه مريم الهيلانية من أرض حرَّان كانت قد تنصرت قبله فدعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفاً، فتابعها، واجتمعت به النصارى وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافاً كثيراً لا ينضبط، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً، فوضعوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها (الأمانة الكبيرة) وإنما هي الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وغيّروا دين المسيح عليه السلام، وزادوا فيه ونقصوا منه، فصلوا إلى المشرق، واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب، وأحلوا الخنزير، واتخذوا أعياداً أحدثوها، كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من

(١) أخرجه ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم والترمذي قريباً منه .

البواعيث والشعانين، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم، ثم البتاركة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساوسة، ثم الشمامسة؛ وابتدعوا الرهبانية، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاث محاريب، وبنت أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكية، يعنون الذين هم على دين الملك؛ ثم حدثت اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ثم النسطورية أصحاب نسطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله ﷺ: «إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة». **والغرض** أنهم استمروا على النصرانية كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم (هرقل) وكان من عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غوراً وأقصاهم رأياً، فتملك عليهم في رياسة عظيمة وأبهة كثيرة، فناوأه كسرى ملك الفرس، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وكانوا مجوساً يعبدون النار، فتقدم عن عكرمة أنه قال: بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ولا أمكنه ذلك لحصانتها، لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك، ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهي تسع، فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع.

وقوله تعالى: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ أي من قبل ذلك ومن بعده، ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ أي للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس، وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثوري والسدي وغيرهم، وقد ورد في الحديث عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به، وأنزل الله: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾[1]، وقال الآخرون: بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية[2]، والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك لأن الروم أهل كتاب في الجملة فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، كما قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى - إلى قوله - ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾. وقال تعالى ههنا: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾، عن العلاء بن الزبير الكلابي عن أبيه قال: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم كل ذلك في خمس عشرة سنة[3]. وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز﴾ أي في انتصاره وانتقامه من أعدائه، ﴿الرحيم﴾ بعباده المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق، وخبر صدق لا يخلف، ولا بد من كونه ووقوعه، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ويجعل لها العاقبة، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل، وقوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا

(١) أخرجه الترمذي وابن أبي حاتم والبزار.

(٢) يروى هذا القول عن عكرمة والزهري وقتادة وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة، قال الحسن البصري: والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم في أمر الدين جهال .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟
أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى منبهاً على التفكير في مخلوقاته الدالة على وجوده، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم﴾ يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء، من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلاً بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾، ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال تعالى: ﴿ أولم يسيروا في الأرض﴾ أي بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين، ولهذا قال: ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة﴾ أي كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعماراً طوالاً فعمروها أكثر منكم. واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ حيث كذبوا بآيات الله واستهزأوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾، كما قال تعالى: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾، وقال تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ أي كانت السوأى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون .

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن
شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته، ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله، ثم قال: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ قال ابن عباس: ييأس المجرمون، وقال مجاهد: يفتضح المجرمون، وفي رواية يكتئب المجرمون، ﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء﴾ أي ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم، ثم قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ قال قتادة: هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها، يعني أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين، فذلك آخر العهد بينهما، ولهذا قال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون﴾ قال مجاهد وقتادة: ينعمون.

* فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة، الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه، ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد، فقال تعالى: ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ أي هو المحمود على ما خلق في السماوات والأرض، ثم قال تعالى: ﴿وعشياً وحين تظهرون﴾ فالعَشاء هو شدة الظلام والإظهار هو قوة الضياء، كما قال تعالى: ﴿والنهار إذا جلاها ۞ والليل إذا يغشاها﴾، وقال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى ۞ والنهار إذا تجلى﴾، وقال تعالى: ﴿والضحى والليل إذا سجى﴾ والآيات في هذا كثيرة. وفي الحديث: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفَّى، لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون»[(١)]. وقوله تعالى: ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة، فإنه يذكر خلقه الأشياء وأضدادها ليدل على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. وقوله تعالى: ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾، كقوله تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون﴾، وقال تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾، ولهذا قال: ﴿وكذلك تخرجون﴾.

* وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته، أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿ثم إذا أنتم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

بشر تنتشرون﴾ فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصور فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظاماً، شكله على شكل الإنسان ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته، حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويدور أقطار الأرض، ويكتسب، ويجمع الأموال، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخّرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾. عن أبي موسى الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك»[1]. وقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي خلق لكم من جنسكم إناثاً تكون لكم أزواجاً ﴿لتسكنوا إليها﴾، كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ يعني بذلك حواء خلقها الله من آدم من ضلعه الأيسر، ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً، وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم، إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن ﴿مودة﴾ وهي المحبة ﴿ورحمة﴾ وهي الرأفة ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿خلق السموات والأرض﴾ أي خلق السماوات في ارتفاعها واتساعها، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها، ونجومها الثوابت والسيارات، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها، وما فيها من جبال وأودية، وبحار وقفار وحيوان وأشجار، وقوله تعالى: ﴿واختلاف ألسنتكم﴾ يعني اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء فرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم واختلاف ألوانهم، وهي حلاهم فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة، كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام، ظاهراً كان أو خفياً يظهر عند التأمل. كل وجه منهم أسلوب بذاته، وهيئة لا تشبه أخرى، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿إن في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾ أي ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة، وسكون الحركة، وذهاب الكلال والتعب، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار وهذا ضد النوم، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ أي يعون، روى الطبراني

(١) أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود وقال الترمذي: حسن صحيح.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: أصابني أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «قل: اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حي قيوم، يا حي يا قيوم، أنم عيني، وأهدئ ليلي» فقلتها فذهب عني[1].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ أي تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، وصواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتي به من المطر المحتاج إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها﴾ أي بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾، وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾، ثم قال تعالى: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾، كقوله تعالى: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾، وقوله: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين قال: والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسماوات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء، بأمره تعالى ودعائه إياهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ أي من الأرض، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾، وقال تعالى: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وله من في السموات والأرض﴾ أي ملكه وعبيده ﴿كل له قانتون﴾ أي خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً، وقوله: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، قال ابن عباس: يعني أيسر عليه، وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هينة، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[2]، وقال آخرون: كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء، وقال العوفي عن ابن عباس: كلٌ عليه هيِّن، وقوله: ﴿وله المثل الأعلى في السموات

---

(١) أخرجه الطبراني عن زيد بن ثابت.

(٢) أخرجه البخاري وأحمد.

والأرض﴾، قال ابن عباس: كقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ وقال قتادة: مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره، قوله: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقـدرته وسلطانه ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله، وعن مالك في قوله تعالى ﴿وله المثل الأعلى﴾ قال: لا إله إلا الله.

* ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين، العابدين معه غيره، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له، كما كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فقال تعالى: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾ اي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء﴾ أي أيرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله فهو وهو فيه على السواء؟ ﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي تخافون أن يقاسموكم الأموال، قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له، والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ فهم يأنفون من البنات، وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر، وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة، من ذلك أن يكون عبده شريكه في ماله يساويه فيه ولو شاء لقاسمه عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأَوْلى والأحرى، قال تعالى: ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾، ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً: ﴿بل اتبع الذين ظلموا﴾ أي المشركون ﴿أهواءهم﴾ أي في عبادتهم الأنداد بغير علم، ﴿فمن يهدي من أضل الله﴾؟ أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم، ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى: فسدِّدْ وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية، ملة إبراهيم الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، ولازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته

وتوحيده، وأنه لا إله غيره. وقوله تعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبراً بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ وهو معنى حسن صحيح، وقال آخرون هو خبر على بابه، ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة، ولا تفاوت بين الناس في ذلك، ولهذا قال ابن عباس ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي لدين الله، وقال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾[1]. وروى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع قال: أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه، فأصبت ظفراً. فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية»؟ فقال رجل: يا رسول الله أما هم أبناء المشركين؟ فقال: «لا إنما خياركم أبناء المشركين، ثم قال: لا تقتلوا ذرية، لا تقتلوا ذرية، وقال: كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها»[2]، وعن جابر بن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً»[3].

وروى الإمام أحمد عن عياض بن حمار: أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «إن ربي عزَّ وجلَّ أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن لا يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله عزَّ وجلَّ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان، ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت: رب إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، ورجل عفيف متعفف ذو عيال. قال: **وأهل النار خمسة**: الضعيف الذي لا زِبْرَ[4] له، الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع - وإن دق - إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك»، وذكر البخيل والكذاب والشنْظير[5] الفحَّاش. وقوله تعالى: ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ الآية.

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة ورواه أيضاً مسلم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده والنسائي في كتاب السير.

(٣) أخرجه أحمد عن جابر بن عبد الله مرفوعاً.

(٤) لا زِبْر: بكسر الزاي وفتحها: أي لا عقل له. (٥) أخرجه أحمد ومعنى الشنظير: السيء الخلق: البذيء اللسان.

وقوله تعالى: ﴿منيبين إليه﴾ قال ابن جريج: أي راجعين إليه ﴿واتقوه﴾ أي خافوه وراقبوه ﴿وأقيموا الصلاة﴾ وهي الطاعة العظيمة ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه، قال ابن جرير: مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل، فقال عمر: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث وهن المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر صدقت. وقوله تعالى: ﴿من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض؛ كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله﴾ الآية، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنّة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه أنه: سئل رسول الله ﷺ عن الفرقة الناجية منهم قال: «من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم يشركون بالله ويعبدون معه غيره، وقوله تعالى: ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿فسوف تعلمون﴾، قال بعضهم: والله لو توعدني حارس لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا هو الذي يقول للشيء كن فيكون؛ ثم قال تعالى منكراً على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾ أي حجة، ﴿فهو يتكلم﴾ أي ينطق ﴿بما كانوا به يشركون﴾؟ وهذا استفهام إنكار، أي لم يكن لهم شيء من ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر، وإذا أصابته شدة قنط وأيس، قال تعالى: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ أي صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»، وقوله تعالى: ﴿أولم يروا أن الله يبسط الرزق

لمن يشاء ويقدر﴾ أي هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ .

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى آمراً بإعطاء ﴿ ذا القربى حقه﴾ أي من البر والصلة، ﴿والمسكين﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه أو له شيء لا يقوم بكفايته، ﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره، ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله﴾ أي النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى، ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله﴾ أي من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لا ثواب له عند الله، بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نهي عنه بقوله تعالى: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ أي لا تعط العطاء تريد أكثر منه، قال تعالى: ﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ أي الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء كما جاء في الصحيح: «وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تصير التمرة أعظم من أُحُدٍ»، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم﴾ أي هو الخالق الرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب. وقوله تعالى: ﴿ ثم يميتكم﴾ أي بعد هذه الحياة، ﴿ ثم يحييكم﴾ أي يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿ هل من شركائكم﴾ أي الذين تعبدونهم من دون الله ﴿ من يفعل من ذلكم من شيء﴾ ؟ أي لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، ولهذا قال بعد هذا كله ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تعالى وتقدس، وتنزّه وتعاظم عن أن يكون له شريك أو نظير، أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد .

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قال ابن عباس وعكرمة: المراد بالبر ههنا الفيافي، وبالبحر الأمصار والقرى، وفي رواية عنه: البحر الأمصار والقرى ما كان منها على جانب نهر، وقال آخرون: بل المراد بالبر هو البر المعروف، وبالبحر هو البحر المعروف،

وعن مجاهد ﴿ظهر الفساد في البر والبحر﴾ قال: فساد البر قتل ابن آدم، وفساد البحر أخذ السفينة غصباً، وقال عطاء: المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى، وبالبحر جزائره، والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون؛ ومعنى قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ أي بان النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي، وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، ولهذا جاء في الحديث: «لَحَدٌّ يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً»[1]. والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس عن تعاطي المحرمات، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض؛ ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان، قيل للأرض: أخرجي بركتك، فيأكل من الرمانة الفئام[2] من الناس ويستظلون بقحفها، ويكفي لبن اللِّقْحة[3] الجماعة من الناس، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير، ولهذا ثبت في الصحيحين: أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب، وقوله تعالى: ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ الآية، أي يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم ومجازاة على صنيعهم ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾، ثم قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾ أي من قبلكم، ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ أي فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات ﴿فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ أي يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له، ﴿يومئذ يصدعون﴾ أي يتفرقون ففريق في الجنة، وفريق في السعير، ولهذا قال تعالى: ﴿من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾ أي يجازيهم مجازاة الفضل، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه. (٢) الفِئَام: الجماعة الكثيرة. (٣) اللِّقْحة: الحلوب.

يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وليذيقكم من رحمته﴾ أي المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، ﴿ولتجري الفلك بأمره﴾ أي في البحر وإنما سيرها بالريح ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي في التجارات والمعايش والسير من قطر إلى قطر، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون الله على ما أنعم به عليكم، من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى، ثم قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا﴾ هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، بأنه وإن كذبه كثير من قومه، فقد كذبت الرسل المتقدمون، مع ما جاءوا أممهم من الدلائل الواضحات، ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم، وأنجى المؤمنين بهم، ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ أي هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرماً وتفضلاً، كقوله تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾. عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[1]

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

يبين تعالى كيف يخلق السحاب، الذي ينزل منه الماء، فقال تعالى: ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ إما من البحر أو مما يشاء الله عزَّ وجلَّ، ﴿فيبسطه في السماء كيف يشاء﴾ أي يمده فيكثره وينميه، ينشيء سحابة ترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالاً مملوءة كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت - إلى قوله - كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾، وكذلك قال ههنا: ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً﴾، قال مجاهد: يعني قطعاً، وقال الضحاك: متراكماً، وقال غيره: أسود من كثرة الماء تراه مدلهماً ثقيلاً قريباً من الأرض، وقوله تعالى: ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي فترى المطر وهو القطر، يخرج من بين ذلك السحاب ﴿فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ أي لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم، وقوله تعالى: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين﴾ معنى الكلام: أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر، كانوا قانطين من نزول المطر إليهم، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعاً عظيماً، فبعدما كانت أرضهم مقشعرة هامدة، أصبحت وقد اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ يعني المطر ﴿كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء مرفوعاً.

ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، فقال تعالى: ﴿ إن ذلك لمحيي الموتى ﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون ﴾، يقول تعالى: ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ يابسة على الزرع الذي زرعوه، ونبت وشب واستوى على سوقه ﴿ فرأوه مصفراً ﴾ أي قد اصفر وشرع في الفساد ﴿ لظلوا من بعده ﴾ أي بعد هذا الحال ﴿ يكفرون ﴾ أي يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، كقوله تعالى: ﴿ أفرأيتم ما تحرثون – إلى قوله – بل نحن محرومون ﴾، قال ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن عمرو قال: الرياح ثمانية: أربعة منها رحمة، وأربعة منها عذاب، فأما الرحمة: فالناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات، وأما العذاب: فالعقيم، والصرصر – وهما في البر – والعاصف والقاصف وهما في البحر، فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولاقحاً للسحاب تلقحه بحمله الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل، وإن شاء حركه بحركة العذاب، فجعله عقيماً وأودعه عذاباً أليماً وجعله نقمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصراً وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه؛ والرياح مختلفة في مهابها، صَبا ودَبُور وجَنوب وشَمال، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تهلكه وتعطبه، وأخرى تسيره وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه[1]

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أي خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾، وقد تواترت الآثار[2] بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر؛ فروى ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم»، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إذا مر الرجل بقبر يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام» وقد شرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلِّم محال، وقد علّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلِّم الرد، والله أعلم .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن عبيد بن عمرو موقوفاً .

(٢) أورد ابن كثير عن ابن أبي الدنيا آثاراً كثيرة عن السلف الصالح تدل على اجتماع أرواح الموتى واستبشارهم بزيارة إخوانهم=

* ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق، حالا بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يصير عظاماً، ثم تكسى العظام لحماً، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى، ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً، ثم مراهقاً، ثم شاباً وهو - القوة بعد الضعف - ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم وهو - الضعف بعد القوة - فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللمة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء﴾ أي يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿وهو العليم القدير﴾.

* ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه: إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم، قال الله تعالى: ﴿كذلك كانوا يؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾ أي فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة ﴿لقد لبثتم في كتاب الله﴾ أي في كتاب الأعمال ﴿إلى يوم البعث﴾ أي من يوم خلقتم إلى أن بعثتم، ﴿ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾، قال الله تعالى: ﴿فيومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ أي اعتذارهم عما فعلوا، ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾.

* ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي قد بينا لهم الحق ووضحناه لهم، وضربنا

= وأقربائهم لهم، وأنهم يحسون ويشعرون بذلك ويأنسون بزيارة الأحياء، وقد ضربنا صفحاً عنها خشية الإطالة.

لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه، ﴿ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ أي لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره لا يؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون * فاصبر إن وعد الله حق﴾ أي اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك، من نصره إياك عليهم، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ أي بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، قال ابن أبي حاتم عن أبي يحيى: صلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه صلاة الفجر فناداه رجل من الخوارج ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ فأجابه علي رضي الله عنه وهو في الصلاة ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾[1].

[آخر تفسير سورة الروم، ولله الحمد والمنة]

✲ ✲ ✲

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير.

تفسير سورة الروم

مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾ .

[نزلت] (١) هذه الآيات حين غلب (٢) سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصى بلاد الروم ، واضطر هرقل مَلك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل ، كما سيأتى .

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا أبو إسحاق ، عن سفيان ، عن حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس (٣) ، رضى الله عنهما ، فى قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فى أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ قال : غُلبَت وغَلَبت . قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر (٤) الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب، فذُكر (٥) ذلك لأبى بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون »، فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا . فجعل أجلا خمس(٦) سنين، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دُون » أراه قال : « العشر » . قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر . ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله : ﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

هكذا رواه (٧) الترمذى والنسائى جميعا ، عن الحسين (٨) بن حُرَيْث ، عن معاوية بن عمرو ، عن أبى إسحاق الفزارى ، عن سفيان بن سعيد الثورى (٩) به، وقال الترمذى : حسن غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان ، عن حبيب .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى أ : « غلبت » . (٣) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده إلى » .
(٤) فى ف : « يظهر » . (٥) فى ت : « فذكروه » ، وفى ف ، أ : « فذكروا » . (٦) فى ت : « خمسين » .
(٧) فى ت : « ورواه » . (٨) فى أ : « الحسن » .
(٩) المسند (١/٢٧٦) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٩) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن محمد بن إسحاق الصاغاني [١] ، عن معاوية بن عمرو ، به . ورواه ابن جرير :

حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن سعيد ـ أو سعيد [٢] الثعلبي الذى يقال له: أبو سعد من أهل طرسوس ـ حدثنا أبو إسحاق الفزارى ، فذكره . وعندهم : قال سفيان : فبلغنى أنهم غلبوا يوم بدر [٣] .

حديث آخر : قال سليمان بن مِهْران الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق،قال : قال عبد اللّه : خمس قد مضين : الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم . أخرجاه [٤] [٥] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا المحاربى ، عن داود بن أبى هند ، عن عامر ـ هو الشعبى ـ عن عبد اللّه ـ هو[٦] ابن مسعود رضى اللّه عنه ـ قال : كان فارس ظاهراً على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : ﴿**الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فى بِضْعِ سِنِينَ**﴾ قالوا : يا أبا بكر ، إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين ؟! قال : صدق . قالوا : هل لك إلى أن نقامرك . فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين ، فمضت السبع ولم يكن شيء ، ففرح المشركون بذلك وشق على المسلمين ، فذُكِر [٧] ذلك للنبى ﷺ ، فقال :« ما بضع سنين عندكم » ؟ قالوا : دون العشر . قال: « اذهب فزايدهم وازدد سنتين فى الأجل » . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك ،وأنزل اللّه:﴿**الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّوم**﴾ إلى قوله:﴿[**وَعْدَ اللَّهِ**] [٨] **لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ**﴾[٩].

حديث آخر : قال [١٠] ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عمر الوَكيعى، حدثنا مُؤَمَّل ، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق ، عن البراء ،قال : لما نزلت : ﴿**الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ** ﴾ ، قال المشركون لأبى بكر : ألا ترى إلى ما يقول صاحبك ؟ يزعم أن الروم تغلب فارس . قال : صدق صاحبى . قالوا : هل لك أن نخاطرك ؟ فجعل بينه وبينهم أجلا ، فحل الأجل قبل أن تغلب الرومُ فارسَ ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فساءه ذلك وكرهه ، وقال لأبى بكر : « ما دعاك إلى هذا ؟ » قال : تصديقاً للّه ولرسوله . فقال : « تَعَرَّض لهم وأعظم الخَطَر واجعله إلى بضع سنين » . فأتاهم أبو بكر فقال لهم : هل لكم فى العود ، فإن العود أحمد ؟ قالوا:

---

(١) فى أ : « الصنعانى » . (٢) فى ف ، أ : « أبو سعد » .
(٣) تفسير الطبرى (٢١/ ١٢) .
(٤) فى ت : « البخارى ومسلم » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨) .
(٦) فى ت : « وروى ابن جرير عن » . (٧) فى ت : « فذكروا » . (٨) زيادة من ت ، أ .
(٩) تفسير الطبرى (٢١/ ١٤) .
(١٠) فى ت : « روى » .

نعم . [قال] (١) : فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارسَ ، وربطوا خيولهم بالمدائن ، وبنوا الرومية ، فجاء به أبو بكر إلى النبى ﷺ فقال : هذا السحت ، قال : « تصدق به » (٢).

حديث آخر : قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا إسماعيل بن أبى أويس، أخبرنى ابنِ أبى الزِّنَاد ، عن عروة بن الزبير (٣) ، عن نِيَار بن مُكرَم الأسلمى قال : لما نزلت، ﴿ **الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِى بِضْعِ سِنِينَ** ﴾ ، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفى ذلك قول الله : ﴿ **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾، وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح فى نواحى مكة : ﴿ **الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾، قال(٤) ناس من قريش لأبى بكر : فذاك بيننا وبينك (٥) . زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ـ وذلك قبل تحريم الرهان ـ فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضَعُوا الرهان ، وقالوا لأبى بكر : كم تَجعل البضع : ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فَسمِّ بيننا وبينك وَسَطاً ننتهى إليه . قال : فسموا بينهم ست سنين . قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين ، قال : لأن الله قال : ﴿ **فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾. قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير (٦) .

هكذا ساقه الترمذى ، ثم قال : هذا (٧) حديث حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد . وقد روى نحو هذا مرسلا عن جماعة من التابعين ، مثل عِكْرِمة ، والشعبى، ومجاهد ، وقتادة ، والسُّدِّى ، والزهرى ، وغيرهم .

ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سُنَيد بن داود فى تفسيره حيث قال : حدثنى حجاج ، عن أبى بكر بن عبد الله ، عن عكرمة قال : كانت فى فارس امرأة لاتلد إلا الملوك الأبطال ، فدعاها كسرى فقال : إنى أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلا من بنيك ، فأشيرى عَلَىَّ ، أيَّهم أستعمل ؟ فقالت : هذا فلان ، وهو أروغ من ثعلب ، وأحذر من صقر . وهذا فرخان ، وهو أنفذ من سنان . وهذا شهريراز (٨)، وهو أحلم من كذا ـ تعنى أولادها الثلاثة ـ فاستعمل أيهم شئت. قال : فإنى قد استعملت الحليم . فاستعمل شهريراز (٩)، فسار إلى الروم بأهل فارس ، فظهر عليهم فقتلهم ، وخرّب مدائنهم ، وقطع زيتونهم .

---

(١) زيادة من ت ، أ .

(٢) ورواه أبو يعلى فى المسند الكبير ،كما فى إتحاف المهرة للبوصيرى (ق١٨٣ سليمانية) من طريق إبراهيم بن محمد بن عرعرة ،عن المؤمل بنحوه ، وقال البوصيرى : « وله شاهد من حديث نيار بن مكرم رواه الترمذى » . وهو الآتى بعده .

(٣) فى ت : « رواه أبو عيسى الترمذى » . (٤) فى ت ، ف : « فقال » . (٥) فى ت ، ف : « وبينكم » .

(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٩٤) .

(٧) فى ت : « وقال الترمذى » . (٨ ، ٩) فى ت : « شهريزار » .

قال أبو بكر بن عبد اللّه : فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراسانى فقال : أما رأيت بلاد الشام ؟ قلت : لا ، قال : أما إنك لو رأيتها (١) لرأيت المدائن التى خربت ، والزيتون الذى قطع . فأتيت الشام بعد ذلك فرأيته (٢) .

قال عطاء الخراسانى : حدثنى يحيى بن يَعْمَر : أن قيصر بعث رجلا يدعى قطمة بجيش من الروم، وبعث كسرى شهريراز (٣) ، فالتقيا بأذرعات وبُصرى ، وهى أدنى الشام إليكم ، فلقيت فارس الروم ، فغلبتهم فارس . ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون .

قال عكرمة : ولقى المشركون أصحاب النبى ﷺ وقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب، [ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب] (٤) ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرَنّ عليكم ، فأنزل اللّه : ﴿ **الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ** ﴾ ، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ، فلا تفرحوا، ولا يُقرَّن اللّه أعينكم ، فواللّه ليظهرن اللّه الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ . فقام إليه أبىّ بن خَلَف فقال : كذبت يا أبا فضيل . فقال له أبو بكر : أنت أكذب ياعدو اللّه . فقال: أناحبُكَ عشر قلائص منى وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غَرِمتُ ، وإن ظهرت فارس غرمتَ إلى ثلاث سنين . ثم جاء (٥) أبو بكر إلى النبى ﷺ فأخبره ، فقال : « ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايدْه فى الخَطَر ومادّهْ فى الأجل » . فخرج أبو بكر فلقى أبيّا فقال : لعلك ندمت ؟ فقال : لا ، تعال أزايدك فى الخَطَر وأمادُّك فى الأجل ، فاجعلها مائة قلوص لمائة قلوص إلى تسع سنين . قال : قد فعلت . فظهرت الروم على فارس قبل ذلك ، فغلبهم المسلمون .

قال عكرمة : لما أن ظهرت فارس على الروم ، جلس فرخان يشرب وهو أخو شهريراز (٦) ، فقال لأصحابه : لقد رأيت كأنى جالس على سرير كسرى . فبلغت كسرى فكتب إلى شهريراز (٧) : إذا أتاك كتابى [هذا] (٨) فابعث إلىَّ برأس فرخان . فكتب إليه: أيها الملك ، إنك لن تجد مثل فرخان ، له نكاية وصوت فى العدو ، فلا تفعل . فكتب إليه : إن فى رجال فارس خلفاً منه ، فعجّل إلىَّ برأسه. فراجعه ، فغضب كسرى فلم يجبه ، وبعث بريدا إلى أهل فارس : إنى قد نزعت (٩) عنكم شهريراز ، واستعملت عليكم فرخان. ثم دفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال : إذا ولى فرخان الملك ، وانقاد له أخوه ، فأعطه هذه. فلما قرأ شهريراز الكتاب قال : سمعا وطاعة ، ونزل عن سريره ، وجلس فرخان ، ودفع إليه الصحيفة ، قال (١٠) : ائتونى بشهريراز (١١) ، وقَدَّمَه ليضرب عنقه ، قال: لا تعجل [علىَّ] (١٢) حتى أكتب وصيتى ، قال : نعم . فدعا بالسَّفط فأعطاه

---

(١) فى ف : « لو أتيتها » .
(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢١/ ١٣) من طريق سنيد به .
(٣) فى ت : « شهريزار » ، وفى ف ، أ : « بشهريراز » .
(٤) زيادة من ت ، ف .
(٥) فى ت : « فجاء » .
(٦ ، ٧) فى ت : « شهريزار » .
(٨) زيادة من ف .
(٩) فى ف : « عزلت » .
(١٠) فى ف : « فقال » .
(١١) فى ت : « بشهريزار » .
(١٢) زيادة من ت .

الصحائف[١] وقال : كل هذا راجعتُ فيك كسرى ، وأنت أردت أن تقتلنى بكتاب واحد . فرد الملك إلى أخيه شهريراز [٢] ، وكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم : إن لى إليك حاجة لا تحملها البُرُد ولا تحملها الصّحف ، فالقنى،ولا تلقنى إلا فى خمسين روميا ، فإنى ألقاك فى خمسين فارسيا . فأقبل قيصر فى خمسمائة ألف رومى ، وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق ، وخاف أن يكون قد مكر به ، حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رجلا . ثم بسط لهما والتقيا فى قبة ديباج ضربت لهما، مع كل واحد منهما سكين ، فدعيا [٣] ترجمانا بينهما ، فقال شهريراز [٤] : إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخى بكيدنا وشجاعتنا ، وإن كسرى حَسَدنا وأراد أن أقتل أخى فأبيت ، ثم أمر أخى أن يقتلنى . وقد خلعناه جميعا ، فنحن نقاتله معك . قال : قد أصبتما . ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا . قال : أجل . فقتلا الترجمان جميعا بسكينيهما . [قال] [٥]: فأهلك الله كسرى، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ففرح والمسلمون معه .

فهذا سياق غريب ، وبناء عجيب . ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة،فقوله تعالى: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ﴾، قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فى أول سورة « البقرة » . وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم أبناء عم بنى إسرائيل ، ويقال لهم : بنو الأصفر . وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء [٦] عم الترك . وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ، ويقال لها : المتحيرة ، ويصلون إلى القطب الشمالى ، وهم الذين أسسوا دمشق ، وبنوا معبدها ، وفيه محاريب إلى جهة الشمال ، فكان [٧] الروم على دينهم إلى مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة ، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له : قيصر . فكان أول من دخل فى دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطس ، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية [٨] من أرض حران ، كانت قد تنصرت قبله ، فدعته إلى دينها ، وكان قبل ذلك فيلسوفا ، فتابعها ـ يقال: تَقيَّة ـ واجتمعت به النصارى ، وتناظروا فى زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافا [كثيراً][٩] منتشرا متشتتا لا ينضبط ، إلا أنه اتفق من جماعتهم [١٠] ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، فوضعوا لقسطنطين العقيدة ، وهى التى يسمونها الأمانة الكبيرة ، وإنما هى الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين ـ يعنون كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغَيَّروا دين المسيح، عليه السلام ، وزادوا فيه ونقصوا منه . وفصلوا إلى المشرق [١١] واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير . واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس [١٢] والغطاس ، وغير ذلك من البواعيث والشعانين ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ، ثم البتاركة ، ثم المطارنة ، ثم الأساقفة والقساقسة ، ثم الشمامسة . وابتدعوا الرهبانية . وبنى لهم الملك الكنائس

---

(١) فى ت ، ف ، أ : « ثلاث صحائف » . (٢) فى ت : « شهريزار » . (٣) فى ت ، ف : « فدعا» .
(٤) فى ت : « شهريزار » . (٥) زيادة من ت . (٦) فى أ : « أتباع » .
(٧) فى ف : « وكان » . (٨) فى ت : « القندقانية » ، وفى ف : « الغندقانية » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .
(١٠) فى ت : « جماعته » . (١١) فى ت ، ف ، أ : « وصلوا إلى الشرق » . (١٢) فى ف ، أ : « والقرابين » .

والمعابد ، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهى القسطنطينية ، يقال : إنه بنى فى أيامه [١] اثنى عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاثة [٢] محاريب ، وبنت أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية ، يعنون الذين هم على دين الملك .

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا ، وهم فرق وطوائف كثيرة ، كما قال رسول الله ﷺ : « إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة » [٣] . والغرض أنهم استمروا على النصرانية ، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده ، حتى كان آخرهم هرقل . وكان من عقلاء الرجال ، ومن أحزم الملوك وأدهاهم ، وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا ، فتملَّكَ عليهم فى رياسَة عظيمة وأبهة كبيرة ، فناوأه كسرى ملك الفرس ، وملَكَ البلاد كالعراق وخراسان والرّى ، وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف . وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر ، وله رياسة العجم وحماقة الفرس ، وكانوا مجوسا يعبدون النار . فتقدم عن عكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه ، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه فى بلاده فقهره وكَسَرَه وقصره ، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية . فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها ؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من[٤] ناحية البحر ، فكانت تأتيهم الميرة والمَدَد من هنالك . فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة ، ورأى فى نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصالحه عليه ، ويشترط عليه ما شاء. فأجابه إلى ذلك ، وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا [٥] ، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة . فطاوعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب ، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشْره ، وسأل كسرى أن يُمكّنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ، ليسعى فى تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية ، جمع أهل ملته وقال : إنى خارج فى أمر قد أبرمته ، فى جند قد عينته من جيشى ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتى ، وإن شئتم وليتم عليكم غيرى . فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيا ، ولو غبت عشرة أعوام . فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط ، هذا وكسرى مُخَيِّم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس ، فعاث فى بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة ، أولاً فأولاً ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن ، وهى كرسى مملكة كسرى ، فقتل من بها ،وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه وحريمه ، وحلق رأس ولده ، وركّبه على

---

(١) فى أ : « زمانه » . (٢) فى ف : « بثلاث » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٥٩٦) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٩٩٢) وقال البوصيرى فى الزوائد : « إسناد عوف بن مالك فيه مقال ، وراشد بن سعد قال فيه أبو حاتم : صدوق . وعباد بن يوسف لم يخرج له أحد سوى ابن ماجه ، وليس له عندى سوى هذا الحديث قال ابن عدى : روى أحاديث تفرد بها . وذكره ابن حبان فى الثقات وباقى رجال الإسناد ثقات » .

(٤) فى ت : « فى » . (٥) فى ت : « الأرض » .

حمار وبعث معه من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخُذه . فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، واشتد حنقه على البلد ، فاشتد (١) فى حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك . فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون ، التى لا سبيل (٢) لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التى معه عند فم المخاضة ، وركب فى بعض الجيش ، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم فى الماء مصعدا ، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال فى النهر ، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض فى الخوض ، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ، ودخلوا القسطنطينية . وكان ذلك يوما مشهوداً عند النصارى ، وبقى كسرى وجيوشه (٣) حائرين لا يدرون ماذا يصنعون . لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادُهم قد خرّبتها الروم وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم . فكان هذا من غَلب الروم فارسَ ، وكان ذلك بعد تسع (٤) سنين من غلب الفرس للروم (٥) .

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبُصرى ، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهى طرف بلاد الشام مما يلى بلاد الحجاز .

وقال مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة ، وهى أقرب بلاد الروم من فارس ، فالله (٦) أعلم .

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهى تسع ؛ فإن البِضْعَ فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع . وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى ،وابن جرير وغيرهما ، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمَحى ، عن الزهرى ،عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مُنَاحَبَة (٧) :﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ : « ألا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع؟»،ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (٨) .

وروى ابن جرير ، عن عبد الله بن عمرو : أنه قال ذلك (٩) .

وقوله : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أى : من قبل ذلك ومن بعده ، فبنى على الضم لما قُطع المضاف ، وهو قوله:﴿قبلِ﴾ عن الإضافة ، ونُويت .

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ أى : للروم أصحاب قيصر ملك الشام ، على فارس أصحاب كسرى ،وهم المجوس . وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كبيرة من العلماء ،كابن عباس ،والثورى، والسُّدِّى ، وغيرهم .وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والبزار ، من حديث الأعمش ، عن عطية (١٠) ، عن أبى سعيد قال : لما

---

(١) فى أ : « فجدَّ » . (٢) فى أ : « لا مسلك » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « وجنوده » .
(٤) فى ت : « ثلاث » . (٥) فى ت ، ف : « من غلب فارس للروم » ، وفى أ : « من غلب فارس الروم » .
(٦) فى ف : « والله » . (٧) فى ت : « مبايعته » .
(٨) سنن الترمذى برقم (٣١٩١) ،وتفسير الطبرى (٢١/١٢) .
(٩) تفسير الطبرى (٢١/١٦) .
(١٠) فى ت : « وقد روى مالك » .

كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به ، وأنزل اللّه : ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾(١) .

وقال آخرون : بل كان نصرة الروم على فارس عام (٢) الحديبية ؛ قاله عكرمة ، والزهرى ، وقتادة ، وغيرهم (٣) ، ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره اللّه بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا ـ وهو بيت المقدس ـ شكراً (٤) اللّه عز وجل ، ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول اللّه ﷺ ، الذى بعثه مع دحية بن خليفة ، فأعطاه دحية لعظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل إليه سأل من بالشام من عَرَب الحجاز ، فأحضرَ له أبو سفيان صخر بن حرب الأموى فى جماعة من كفار قريش كانوا فى غزة ، فجىء بهم إليه ، فجلسوا بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : أنا . فقال لأصحابه ـ وأجلسهم خلفه ـ : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذب فكذّبوه . فقال أبو سفيان : فواللّه لولا أن يَأثُرُوا علىّ الكذب لكذبت . فسأله هرقل عن نسبه وصفته ، فكان فيما سأله أن قال : فهل يغدر ؟ قال : قلت : لا ، ونحن منه فى مُدّة لا ندرى ما هو صانع فيها ـ يعنى بذلك الهدنة التى كانت قد وقعت بين رسول اللّه ﷺ وكفار قريش يوم (٥) الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين ، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية ؛ لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية ، واللّه أعلم .

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت ، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغى إصلاحه وتفقد بلاده ، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفَّى بنذره ، واللّه أعلم .

والأمر (٦) فى هذا سهل قريب ، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك ؛ لأن الروم أهل كتاب فى الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، كما قال [الله] (٧) تعالى : ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] ، وقال تعالى ههنا : ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صَفْوان ، حدثنا الوليد ، حدثنى أسيد الكلابى ، قال : سمعت (٨) العلاء بن الزبير الكلابى يحدث عن أبيه ، قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم ، كل ذلك فى خمس عشرة سنة .

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٩٢) وتفسير الطبرى (٢١/١٦).
(٢) فى ف : « يوم » . (٣) فى أ : « وغير واحد » . (٤) فى ت : « تشكراً » .
(٥) فى ت ، ف : « عام » . (٦) فى ت : « فالأمر » . (٧) زيادة من ت .
(٨) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم عن » .

وقوله : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى : فى انتصاره وانتقامه من أعدائه ،﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين .

وقوله : ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أى : هذا (١) الذى أخبرناك به ـ يا محمد ـ من أنا سننصر الروم على فارس ، وعد من اللّه حق ، وخبَر صدق لا يخلف ، ولابد من كونه ووقوعه ؛ لأن اللّه قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى : بحكم اللّه فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أى : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون عما ينفعهم فى الدار الآخرة ، كأن أحدهم مُغَفّل لا ذهن (٢) له ولا فكرة .

قال الحسن البصرى : واللّه لَبَلَغَ (٣) من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلى .

وقال ابن عباس فى قوله : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ يعنى : الكفار ، يعرفون عمران الدنيا ، وهم فى أمر الدين جهال .

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ﴾ .

يقول تعالى منبهاً على التفكر في مخلوقاته ،الدالة على وجوده وانفراده بخلقها ،وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، فقال : ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ يعنى به : النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوى والسفلى ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، والأجناس المختلفة ، فيعلموا(٤) أنها ما خلقت سُدًى ولا باطلا ، بل بالحق ، وأنها مؤجلة (٥) إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة ؛ولهذا قال : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾.

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات ، والدلائل (٦) الواضحات ،من إهلاك من كفر بهم ،ونجاة من صدقهم ،فقال :﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أى : بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ؛ولهذا قال: ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

(١) فى أ : « هو » . (٢) فى أ : « لا ذكر » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « ليبلغ » .

(٤) جميع النسخ : « فيعلموا » وهو خطأ ، والصواب : « فيعلمون » لعدم جواز النصب فيها ؛ لأنها لم تسبق بطلب ، فتكون الفاء ناصبة.

(٥) فى ت : « وأنهما مؤجلين » . (٦) فى ت ، ف ، أ : « والدلالات » .

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أى :كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم ـ أيها المبعوث إليهم محمد صلوات اللّه وسلامه عليه (١) ،وأكثر أموالا وأولادا ، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومُكنوا فى الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها أعماراً طوالاً ، فعمروها أكثر منكم . واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا ، أخذهم اللّه بذنوبهم ، وما كان لهم من اللّه من واق ، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس (٢) اللّه ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان اللّه ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال،﴿ **وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ أى : وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات اللّه ، واستهزؤوا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم؛ ولهذا قال : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾، كما قال تعالى :﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقوله (٣) : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف : ٥] ، وقال :﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ** ﴾ [المائدة : ٤٩] .

وعلى هذا تكون (٤) السوأى منصوبة مفعولا لأساؤوا .وقيل : بل المعنى فى ذلك : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ** ﴾ أى : كانت السوأى عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات اللّه وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السوأى منصوبة خبر كان . هذا توجيه ابن جرير (٥) ، ونقله (٦) عن ابن عباس وقتادة . ورواه ابن أبى حاتم عنهما وعن الضحاك بن مُزاحم ، وهو الظاهر ، واللّه أعلم ، ﴿ **وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾.

﴿ **اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)** ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** ﴾ أى:كما هو قادر على بَداءته فهو قادر على إعادته ، ﴿ **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾، أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال :﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ قال ابن عباس : ييأس المجرمون .

وقال مجاهد : يفتضح المجرمون . وفى رواية : يكتئب المجرمون .

﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ** ﴾ أى : ما شفعت فيهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون اللّه، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم .

---

(١) فى ت : « ﷺ » . (٢) فى ت : « أمر » . (٣) فى ت ، ف : « وقال » .
(٤) فى ف : « يكون » .
(٥) تفسير الطبرى (١٨/٢١) .
(٦) فى ت : « ومنقول » .

ثم قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ ، قال قتادة : هى ـ والله ـ الفرقة التى لا اجتماع بعدها ، يعنى : إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل السافلين ، فذاك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : ينعمون.

وقال يحيى بن أبى كثير : يعنى سماع الغناء . والحبرة أعم من هذا كله ، قال العجاج :

الحمد (١) لله الذى أعطَى الحَبَرْ ... مَوَالِيَ الْحَقّ إن المَوْلى شكَر (٢)

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾.

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده ، فى هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه : عند المساء ، وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه .

ثم اعترض بحمده ، مناسبة للتسبيح وهو التحميد ، فقال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : هو المحمود على ما خلق فى السموات والأرض .

ثم قال : ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ ، فالعشاء (٣) هو : شدة الظلام ، والإظهار : قوة الضياء. فسبحان خالق هذا وهذا ، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا ، كما قال : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس : ٣ ، ٤] ، وقال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل : ١ ، ٢] ، وقال : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ [الضحى : ١ ، ٢] ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا زَبَّان بن فائد ، عن سهل بن معاذ ابن أنس الجُهَنى ، عن أبيه (٤) ، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال: « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » (٥) .

وقال الطبرانى : حدثنا مطلب بن شُعَيب الأزدى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنى الليث بن سعد ، عن سعيد بن بشير ، عن محمد بن عبد الرحمن بن البيلمانى ، عن أبيه (٦) ، عن عبد الله بن عباس ، عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ .

(١) فى ت : « فالحمد » .
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢١/١٩) ، ولسان العرب لابن منظور مادة « حبر » .
(٣) فى ت : « فالعشى » . (٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن أنس الجهنى » .
(٥) المسند (٣/٤٣٩) .
(٦) فى ت : « وروى الطبرانى بإسناده » .

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾الآية بكمالها ، أدرك ما فاته فى يومه، ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته » . إسناد جيد [1] ، ورواه أبو داود فى سننه [2].

وقوله :﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ : هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة . وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك إخراج النبات من الحب ، والحب من النبات ، والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ،والإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

وقوله : ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ [يس : ٣٣ ، ٣٤] ، وقال :﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٥ ـ ٧] ، وقال :﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ٥٧] ؛ولهذا قال ههنا :﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾.

يقول تعالى :﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ، ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ، فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تَصَوَّر فكان علقة ، ثم مضغة ، ثم صار عظاما ، شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا اللّه تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سميع بصير . ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبنى المدائن والحصون ، ويسافر فى أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطارَ الأرض ويتكسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ، ودهاء ومكر، ورأى وعلم ، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه . فسبحان من أقدرهم وسَيَّرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعايش والمكاسب ، وفاوت بينهم فى العلوم والفكرة ، والحسنِ والقبحِ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم

---

(١) فى أ : « إسناد ضعيف » ، وهو الصواب .

(٢) المعجم الكبير (١٢/٢٣٩) وسنن أبى داود برقم (٥٠٧٦) .

بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد وغُنْدَر ،قالا : حدثنا عَوْف ، عن قسامة بن زهير [(١)]، عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ :« إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، وبين ذلك ».

ورواه أبو داود والترمذى من طرق ، عن عوف الأعرابى ، به[(٢)] . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : خلق لكم من جنسكم إناثا يكُنّ لكم أزواجا ،﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] يعنى بذلك: حواء ، خلقها الله من آدم من ضِلَعه الأقصر الأيسر . ولو أنه جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر [من غيرهم] [(٣)] إما من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نَفْرَة لو كانت الأزواج من غير الجنس . ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة : وهى المحبة ، ورحمة : وهى الرأفة ، فإن الرجل [(٤)] يمسك المرأة إما لمحبته لها ،أو لرحمة بها ، بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه فى الإنفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ، ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى : ومن آيات قدرته العظيمة ﴿ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى : خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، والأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية ، وبحار وقفار ، وحيوان وأشجار .

وقوله :﴿ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يعنى : اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تَتَرٌ لهم لغة أخرى، وهؤلاء كَرَج ، وهؤلاء روم ، هؤلاء إفرنج ، وهؤلاء بَرْبر ، وهؤلاء تكرور ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بنى آدم ، واختلاف ألوانهم وهى حُلاَهم ، فجميع أهل الأرض ـ بل أهل الدنيا ـ منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة : كل له عينان وحاجبان ، وأنف وجبين،

---

(١) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٢) المسند (٤/ ٤٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٦٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٥) .

(٣) زيادة من ت ، ف . (٤) فى ت ، ف : « فالرجل » .

وفم وخدان . وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لابد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام ،ظاهرا كان أو خفيا ، يظهر عند التأمل ، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى. ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح [١] ، لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ، ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ** ﴾ أى : ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم فى الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب ،وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار ،وهذا ضد النوم،﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** ﴾ أى : يعون .

قال الطبرانى :حدثنا حجاج بن عمران السدوسى ، حدثنا عمرو بن الحصين العقيلى ، حدثنا محمد بن عبد اللّه بن عُلاثة ،حدثنى ثور بن يزيد ، عن خالد بن مَعْدان ، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه [٢] ، عن زيد بن ثابت ، رضى اللّه عنه ، قال : أصابنى أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول اللّه ﷺ فقال : « قل : اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حى قيوم،يا حى ياقيوم ، [أنم عينى و] [٣] أهدئ ليلى » فقلتها ، فذهب عنى [٤] .

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)** ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ** ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ **يُرِيكُمُ الْبَرْقَ [خَوْفًا وَطَمَعًا** ﴾ أى :] [٥] تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق متلفة ، وتارة ترجون وَميضَه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ؛ ولهذا قال:﴿ **وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ أى : بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء ، فلما جاءها الماء ﴿ **اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [الحج : ٥]. وفى ذلك عبرة ودَلالَة واضحة على المعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ .

ثم قال :﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ** ﴾ ،كقوله : ﴿ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ [الحج : ٦٥] ، وقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا** ﴾ [فاطر : ٤١] . وكان عمر بن الخطاب، رضى اللّه عنه ، إذا اجتهد فى اليمين يقول : لا ، والذى تقوم السماء والأرض بأمره ،أى: هى قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بُدلت الأرض

(١) فى أ : « قبيح » . (٢) فى ت : « وروى الطبرانى بإسناده » . (٣) زيادة من ت ، ف ، ومعجم الطبرانى .
(٤) المعجم الكبير (٥/ ١٢٤) ،ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٧٤٥) وابن عدى فى الكامل (٥/ ١٥٠) من طريق عمرو بن الحصين به ، وقال ابن عدى : « تفرد به عمرو بن الحصين وهو مظلم الحديث ، ويروى عن قوم معروفين » . وله شاهد من حديث أنس ، حسنه الحافظ ابن حجر كما فى الفتوحات الربانية لابن علان (٣/ ١٧٧) .
(٥) زيادة من ت .

غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ؛ ولهذا قال : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾، كما قال تعالى :﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾ [الإسراء : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : ١٣، ١٤] ،وقال : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ [يس : ٥٣] .

﴿ ولَهُ من في السموات والأرض كل له قانتون (٢٦) وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (٢٧) ﴾.

يقول تعالى : ﴿ ولَهُ من في السموات والأرض ﴾ أي : ملكه وعبيده ،﴿ كُلٌّ لَهُ قانتون ﴾ أي : خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً .

وفي حديث دَرَّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، مرفوعا : « كل حَرْف في(١) القرآن يُذكَرُ فيه القنوت فهو الطاعة » (٢) .

وقوله : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ قال [علي] (٣) بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني : أيسر عليه.

وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البَدَاءة ، والبداءة عليه هَيْنٌ . وكذا قال عكرمة وغيره .

وقال البخاري : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، أخبرنا أبو الزِّناد ، عن الأعرج (٤) ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « قال الله : كَذَبَني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أو الخلق بأهونَ عليّ من إعادته . وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » (٥) .

انفرد بإخراجه البخاري كما انفرد بروايته ـ أيضا ـ من حديث عبد الرزاق عن مَعْمَر ، عن همام، عن أبي هريرة ، به (٦) . وقد رواه الإمام أحمد منفردا به عن حسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس سليم بن جُبَيْر ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه ، أو مثله (٧) .

وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء .

---

(١) في ت : « من » .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٧٥)،وتقدم الحديث عند تفسير الآية : ١١٦ من سورة البقرة . قال الحافظ ابن كثير : « ولكن هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه ، ورفع هذا الحديث منكر وقد يكون من كلام الصحابي ، أو من دونه ، والله أعلم » .

(٣) زيادة من أ .

(٤) في ت : « وقال البخاري بإسناده » .

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٩٧٤) .

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٩٧٥) .

(٧) المسند (٢/ ٣٥٠) .

قال العَوْفى ، عن ابن عباس : كل عليه هين . وكذا قال الربيع بن خُثَيْم . ومال إليه ابن جرير، وذكر عليه شواهد كثيرة ، قال : ويحتمل أن يعود الضمير فى قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْه ﴾ إلى الخلق ، أى : وهو أهون على الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾: قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس كقوله :﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

وقال قتادة : مَثَله أنه لا إله إلا هو ، ولا رب غيره ، وقال مثل هذا ابن جرير .

وقد أنشد بعض المُفَسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف :

إذَا سكَنَ الغَديرُ عَلَى صَفَاء وَجُنبَ أنْ يُحَرّكَهُ النَّسيمُ
تَرى فيه السَّمَاء بَلا امْترَاء كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدو وَالنّجُومُ
كَذاكَ قُلُوبُ أرْبَاب التَّجَلى يُرَى فى صَفْوها اللّهُ العَظيمُ

﴿ وَهُوَ الْعَزِيز ﴾: الذى [١] لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شىء ، وقهر كل شىء بقدرته وسلطانه،﴿الْحَكِيم ﴾ فى أفعاله وأقواله ، شَرْعاً وقَدَرا .

وعن مالك فى تفسيره المروى عنه ، عن محمد بن المُنْكَدِر ، فى قوله تعالى : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾، قال : لا إله إلا اللّه .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾.

هذا مثل ضربه اللّه تعالى للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ،ملك له ، كما كانوا فى تلبيتهم يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُم ﴾ أى: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ،﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ أى: لا يرتضى أحد منكم أن يكون عبده شريكا له فى ماله،فهو وهو فيه على السواء ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُم ﴾ أى :تخافون أن يقاسموكم الأموال .

قال أبو مِجْلَز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك ، وليس له ذاك [٢] ، كذلك اللّه لا شريك له .

---

(١) فى ت : « أى » . (٢) فى ت : « ذلك » .

والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون للّه الأنداد من خلقه . وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : ٦٢] أى : من البنات ، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، وجعلوها بنات اللّه ، وقد كان أحدهم إذا بُشر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، فهم يأنفون من البنات . وجعلوا الملائكة بنات اللّه ، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر . وهكذا فى هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه ، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبدهُ شريكَه فى ماله ، يساويه فيه . ولو شاء لقاسمه عليه ، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا .

قال الطبرانى : حدثنا محمود بن الفرج الأصبهانى ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلى ، حدثنا حماد بن شعيب ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن سعيد بن جبير [١] ، عن ابن عباس قال : كان يلبى أهل الشرك: لبيك اللهم [لبيك] [٢] ، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك. فأنزل اللّه : ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾[٣] .

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى ، قال : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى مبينا أن المشركين إنما عبدوا غيره سَفَهاً من أنفسهم وجهلا : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى : المشركون ﴿ أَهْوَاءَهُم ﴾ أى: فى عبادتهم الأنداد بغير علم ، ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ [أى: فلا أحد يهديهم إذا كَتَب اللّه إضلالهم] [٤] ، ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أى : ليس لهم من قدرة اللّه منقذ ولا مجير، ولا محيد لهم عنه ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾.

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الذى شرعه اللّه لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، الذى هداك اللّه لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التى فطر اللّه الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على [معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره ، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢]، وفى الحديث : « إنى خلقت

---

(١) فى ت : « روى الطبرانى بإسناده » . (٢) زيادة من ت .
(٣) المعجم الكبير (١٢/ ٢٠) ،وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٢٢٣) : « وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف » .
(٤) زيادة من ت ، أ .

عبادى حُنَفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » . وسنذكر فى الأحاديث أن اللّه تعالى فطر خلقه على] (١) الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية (٢) .

وقوله : ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ : قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق اللّه ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم اللّه عليها . فيكون خبرا بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وهذا معنى حسن صحيح .

وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجِبلة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس فى ذلك ؛ ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النَّخَعى ، وسعيد بن جُبَيْر ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد(٣) فى قوله : ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أى : لدين اللّه .

وقال البخارى: قوله : ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾: لدين اللّه ، خَلْقُ الأولين : [دين الأولين] (٤) ، والدين والفطرة: الإسلام .

حدثنا عبدان ، أخبرنا عبد اللّه ، أخبرنا يونس ، عن الزهرى ، أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن (٥) : أن أبا هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدَانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجسانه ، كما تنْتَج البهيمة بهيمة جَمْعاء ، هل تُحِسون فيها من جدعاء » ؟ ثم يقول : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ .

ورواه مسلم من حديث عبد اللّه بن وهب ، عن يونس بن يزيد الأيْلى ، عن الزهرى ، به (٦). وأخرجاه ـ أيضا ـ من حديث عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن همام ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه، عن النبى ﷺ (٧) .

وفى معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة ، فمنهم الأسودُ بن سَرِيع التميمى . قال (٨) الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل ، حدثنا يونس ، عن الحسن (٩) ، عن الأسود بن سَرِيع [التميمى] (١٠) قال: أتيت رسول اللّه ﷺ وغزوت معه ، فأصبت ظهرا (١١) ، فقتل الناس يومئذ ، حتى قتلوا الولدان . فبلغ ذلك رسول اللّه ﷺ فقال : « ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟ » . فقال رجل: يا رسول اللّه،أماهم أبناء المشركين ؟فقال :« ألا إنما خياركم أبناء المشركين ».ثم قال: «لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية» . وقال : « كل نسمة تولد على الفطرة ، حتى يُعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها » .

---

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت ، ف : « والنصرانية والمجوسية » . (٣) فى ت : « وسعيد بن جبير وغيرهم » .
(٤) زيادة من ت ، أ . (٥) فى ت : « ثم روى بسنده » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .
(٨) فى ت : « فروى » . (٩) فى ت : « بإسناده » . (١٠) زيادة من ف .
(١١) فى ت ، ف : « ظفرا » .

ورواه النسائى فى كتاب السير ، عن زياد بن أيوب ، عن هُشَيْم ، عن يونس ـ وهو ابن عبيد ـ عن الحسن البصرى ، به (١) (٢) .

ومنهم جابر بن عبد الله الأنصارى ، قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن الحسن ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يُعرب عنه لسانه ، فإذا عبر (٣) عنه لسانه إما شاكراً وإما كفورا » (٤) .

ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمى ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا أبو عَوَانة ، حدثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير (٥) ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ سُئل عن أولاد المشركين ، فقال: « الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم » . أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث أبى بشر جعفر بن إياس اليَشْكُرِى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعا بذلك (٦) .

وقد قال (٧) أحمد أيضا : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ـ يعنى ابن سلمة ـ أنبأنا عمار بن أبى عمار، عن ابن عباس قال : أتى علىَّ زمان وأنا أقول : أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين ، وأولاد المشركين مع المشركين. حتى حدثنى فلان عن(٨) فلان : أن رسول الله ﷺ سئل (٩) عنهم فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . قال : فلقيت الرجل فأخبرنى . فأمسكت عن قولى (١٠) .

ومنهم عياض بن حِمار المجاشعى ، قال (١١) الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة ، عن مُطَرِّف ، عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته : « إن ربى ،عز وجل، أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا ، كل مال نحلته عبادى حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله ،عز وجل، نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ،وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك،وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء،تقرؤه نائما ويقظان.

---

(١) فى ت : « وروى أيضا بإسناده » .
(٢) المسند (٣/ ٤٣٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٦١٦) .
(٣) فى ف : « عرب » .
(٤) المسند (٣/ ٣٥٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٨) : « وفيه أبو جعفر الرازى وهو ثقة وفيه خلاف ، وبقية رجاله ثقات » .
(٥) فى ت : « وروى أيضا بإسناده » .
(٦) المسند (١/ ٣٢٨) وصحيح البخارى برقم (١٣٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٠) .
(٧) فى ت : « وروى » .
(٨) فى ت ، ف : « ابن » . (٩) فى أ : « عن رسول الله ﷺ أنه سئل » .
(١٠) المسند (٥/ ٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٨) : « رجاله رجال الصحيح » .
(١١) فى ت : « وقال » .

ثم إن اللّه أمرنى أن أحرق قريشا ، فقلت : يارب ، إذًا يَثْلَغُوا رأسى فيدعوه خبْزَةً . قال [١] : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نُغْزك ، وأنفق عليهم فسننفق عليك . وابعث جيشا نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك » . قال : « وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مُقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ، ورجل عفيف فقير متصدق . وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زَبْرَ له ، الذين هم فيكم تَبَعاً ، لا يبتغون أهلا ولا مالا . والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن[٢] أهلك ومالك » . وذكر البخيل ، أو الكذاب ، والشنظير : الفحاش [٣] .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من طرق عن قتادة ، به [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّم ﴾ أى : التمسك بالشريعة [٥] والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : فلهذا لا يعرفه أكثر الناس ، فهم عنه ناكبون ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية [الأنعام : ١١٦] .

وقوله : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ : قال ابن زيد ، وابن جُرَيْج : أى راجعين إليه ، ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : خافوه وراقبوه ، ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ وهى الطاعة العظيمة ، ﴿ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى : بل من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا يريدون بها سواه .

قال ابن جرير :[حدثنا ابن حُمَيد] [٦] ،حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، عن يزيد [٧] بن أبى مريم قال : مر عمر ، رضى اللّه عنه ، بمعاذ بن جبل فقال : ما قوام هذه الأمة[٨]؟ قال معاذ : ثلاث ، وهن [من] [٩] المنجيات : الإخلاص ، وهى الفطرة ،فطرة اللّه التى فَطرَ الناس عليها ، والصلاة وهى الملة ، والطاعة وهى العصمة . فقال عمر : صدقت .

حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، حدثنا أيوب ، عن أبى قِلاَبة : أن عمر ، رضى اللّه عنه ، قال لمعاذ : ما قوام هذا الأمر ؟ فذكره نحوه [١٠] .

وقوله :﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أى : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم ، أى : بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

وقرأ بعضهم : « فارقوا دينهم » أى: تركوه وراء ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبَدة الأوثان ، وسائر أهل الأديان الباطلة ، مما عدا أهل الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومِلَل باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شىء ،

---

(١) فى ت ، ف : « فقال » . (٢) فى ت : « على » . (٣) فى ت ، ف : « الفاحش » .
(٤) المسند (٤/١٦٢) ،وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .
(٥) فى ت : « المتمسك بالشرعة » . (٦) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .
(٧) فى أ : « زيد » . (٨) فى ت : « الآية » . (٩) زيادة من ت .
(١٠) تفسير الطبرى (٢١/٢٦) .

وهذه الأمة(١) أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة (٢) إلا واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة ، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله (٣) ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه ، كما رواه الحاكم فى مستدركه أنه سئل ، عليه السلام (٤) ، عن الفرقة الناجية منهم ، فقال : « ما أنا عليه [اليوم] (٥) وأصحابى »(٦).

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم فى حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم ،إذا فريق منهم ، [أى] (٧) فى حالة الاختيار يشركون بالله ، ويعبدون معه غيره .

وقوله :﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ ، هى لام العاقبة عند بعضهم،ولام التعليل عند آخرين،ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك .

ثم توعدهم بقوله : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُون(٨)﴾، قال بعضهم : والله لو توعدنى حارس دَرْب لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا [هو] (٩) الذى يقول للشىء : كن ، فيكون .

ثم قال منكراً على المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أى : حجة ،﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أى : ينطق ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُون﴾؟ وهذا استفهام إنكار ، أى : لم يكن [لهم] (١٠) شىء من ذلك .

ثم قال : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُون ﴾، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو،إلا مَنْ عَصَمه الله ووفقه ؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بَطر وقال :﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : ١٠] ، أى : يفرح فى نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قَنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية ؛ قال الله :﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات﴾[هود : ١١] ،أى : صبروا فى الضراء ، وعملوا الصالحات فى الرخاء ، كما ثبت فى الصحيح : « عجبا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان

---

(١) فى ت : « الآية » . (٢) فى أ : « ضالة » . (٣) فى ف : « رسوله » .

(٤) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٥) زيادة من أ ، والمستدرك .

(٦) المستدرك (١٢٨/١ ، ١٢٩) ،وقال الحافظ ابن حجر فى تخريج الكشاف ص (٦٣) : « إسناده حسن » .

(٧) زيادة من أ . (٨) فى ت : « يعلمون » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .

(١٠) زيادة من أ .

خيراً له ، وإن أصابته ضرَّاء (١) صبر فكان خيراً له»(٢).

وقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيّق على آخرين ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾.

يقول تعالى آمراً بإعطاء ذي ﴿ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ أي : من البر والصلة ، ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ وهو : الذي لا شيء له ينفق عليه ، أو له شيء لا يقوم بكفايته ، ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره ، ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أي : النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية القصوى ، ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : في الدنيا وفي الآخرة (٣) .

ثم قال :﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾ أي : من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند اللّه ـ بهذا فسره ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والشعبي ـ وهذا الصنيع مباح (٤) ، وإن كان لا ثواب فيه (٥) ، إلا أنه قد نهى عنه رسول اللّه ﷺ خاصة، قاله الضحاك ، واستدل بقوله :﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : ٦] أي : لا تعط العطاء تريد أكثر منه .

وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح (٦) ، يعني : ربا البيع ؟ وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها (٧) وأضعافها . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾.

وإنما الثواب عند اللّه في الزكاة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أي : الذين يضاعف اللّه لهم الثواب والجزاء، كما [جاء] (٨) في الصحيح : « وما تصدق أحد بعَدْل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فيُربِّيها لصاحبها كما يُربِّي أحدكم فَلُوّه أو فَصيله ، حتى تصير التمرة أعظم من أُحُد » (٩) .

(١) في ت : « الضراء » .
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه .
(٣) في ت ، ف : « الأخرى » . (٤) في ت : « فسره ابن عباس وغيره » . (٥) في ت : « به » .
(٦) في أ : «لا يصلح » . (٧) في أ : « أفضلها » . (٨) زيادة من أ .
(٩) صحيح البخاري برقم (١٤١٠) .

وقوله : ﴿ **اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُم** ﴾ أى : هو الخالق الرازق [(١)] ، يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قُوَى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب ، كما قال [(٢)] الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن سلام أبى شرحبيل ، عن حَبَّة وسواء ابنى خالد قالا : دخلنا على النبى ﷺ وهو يصلح شيئا فأعَنَّاه ، فقال : « لا تيأسا من الرزق ما تَهَزَّزَتْ رؤوسكما ؛ فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه اللّه عز وجل » [(٣)] .

وقوله : ﴿ **ثُمَّ يُمِيتُكُم** ﴾أى : بعد هذه الحياة ، ﴿ **ثُمَّ يُحْيِيكُمْ** ﴾ أى : يوم القيامة .

وقوله : ﴿ **هَلْ مِن شُرَكَائِكُم** ﴾ أى : الذين تعبدونهم من دون اللّه ، ﴿ **مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ** ﴾ أى : لايقدر أحد منهم على فعل شىء من ذلك ، بل اللّه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ؛ ولهذا قال بعد هذا كله : ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ أى : تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعَزّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ ، أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢)** ﴾ .

قال ابن عباس ، وعِكْرِمة ، والضحاك ، والسُّدِّى ، وغيرهم : المراد بالبر ههنا : الفَيَافى ، وبالبحر : الأمصار والقرى ، وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة:البحر : الأمصار والقرى ، ما كان منها على جانب نهر .

وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر : البحر المعروف .

وقال زيد [(٤)] بن رُفَيْع : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ** ﴾، يعنى :انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر تعمى [(٥)] دوابه . رواه ابن أبى حاتم .

وقال : حدثنا محمد بن عبد اللّه بن يزيد المقرى ، عن سفيان ، عن حُمَيد بن قيس الأعرج ، عن مجاهد : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** ﴾ ، قال : فساد البر : قتل ابن آدم ، وفساد[(٦)] البحر : أخذ السفينة غصبا .

وقال عطاء الخراسانى : المراد بالبر:ما فيه من المدائن والقرى ،وبالبحر : جزائره .

---

(١) فى أ : « الرزاق » . (٢) فى ت : « كما روى » .
(٣) المسند (٣/ ٤٦٩) .
(٤) فى أ : « يزيد ». (٥) فى ت ، ف : « يعنى » . (٦) فى ت ، ف : « وفى » .

والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله ﷺ صَالَح ملك أيلة ، وكتب له ببحره ، يعنى : ببلده .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ أى : بان النقص فى[1] الثمار والزروع بسبب المعاصى .

وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ؛ ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : « لَحَدٌّ يقام فى الأرض أحبّ إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا » [2] . والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت ، انكف الناس ـ أو أكثرهم ، أو كثير منهم ـ عن تعاطى المحرمات ، وإذا ارتكبت المعاصى كان سببا فى محاق [3] البركات من السماء والأرض ؛ ولهذا إذا نزل عيسى [ابن مريم] [4]، عليه السلام ، فى آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت ، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية ، وهو تركها ـ فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله فى زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض : أخرجى بركاتك. فيأكل من الرمانة الفئَام من الناس ، ويستظلون بقَحْفها ، ويكفى لبن اللّقحة الجماعةَ من الناس . وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير؛ [ولهذا] [5] ثبت فى الصحيح [6] : « إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد ، والشجر والدواب » [7] .

ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا محمد والحسين قالا : حدثنا عَوْف ، عن أبى قحذم قال[8] : وجد رجل فى زمان زياد ـ أو : ابن زياد ـ صرة فيها حَبٌّ ، يعنى من بر أمثال النوى ، عليه مكتوب : هذا نبت فى زمان كان يعمل فيه بالعدل[9] .

وروى مالك ، عن زيد بن أسلم : أن المراد بالفساد هاهنا الشرك . وفيه نظر .

وقوله : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ أى : يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات ، اختبارا منه ، ومجازاة على صنيعهم ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ أى : عن المعاصى ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ [الأعراف : ١٦٨] .

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ أى: من قبلكم ، ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِين ﴾ أى : فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

---

(١) فى ت : « من » .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٢/ ٣٦٢) ،والنسائى فى السنن (٨/ ٧٥) من حديث أبى هريرة ، ولم يقع لى فى سنن أبى داود .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « حصول » . (٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) زيادة من أ .

(٦) فى ت ، أ : « الصحيحين » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥١٢) .

(٨) فى ت : « وروى أنه » .

(٩) المسند (٢/ ٢٩٦) .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة فى طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات :﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا راد له ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أى :يتفرقون ،ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ؛ولهذا قال :﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ﴾ أى : يجازيهم مجازاة الفضل : الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء اللّه ،﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومع هذا هو العادل فيهم ، الذى لا يجور .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ .

يذكر تعالى نعَمه على خلقه ، فى إرساله الرياح مبشرات بين يدى رحمته ، بمجىء الغيث (١) عقيبها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ أى : المطر الذى ينزله فيحيى به العباد والبلاد ، ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ﴾ أى : فى البحر ، وإنما سيرها بالريح ، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أى : فى التجارات والمعايش ، والسير من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر،﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى : تشكرون اللّه على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة ، التى لا تعد ولا تحصى .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ هذه تسلية من اللّه لعبده ورسوله محمد ، صلوات اللّه وسلامه عليه (٢) ، بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كُذّبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أممهم به من الدلائل الواضحات ، ولكن اللّه انتقم ممن كذبهم وخالفهم ، وأنجى المؤمنين بهم ،﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ،هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكرما وتفضلا ،كقوله تعالى:﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نفيل ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ليث ،عن شَهْر بن حَوْشَب (٤) ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « ما

(١) فى ت ، ف : « بمجىء المطر والغيث » .
(٢) فى ت : « ﷺ » .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) فى ت : « بإسناده » .

من امرئ مسلم يَرُدُّ عن عرض أخيه ، إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) ﴾ .

يبين تعالى كيف يخلق السحاب التى (٢) ينزل منها الماء (٣) فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ ، إما من البحر على ما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ، ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أى : يَمُدّه فيكثّرهُ ويُنَمّيه ، ويجعل من القليل كثيرا، ينشئ سحابة فترى فى رأى العين مثل الترس ، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق. وتارة يأتى السحاب من نحو البحر ثقالا مملوءة ماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٧]، وكذلك قال ههنا: ﴿ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ﴾ .

قال مجاهد ، وأبو عمرو بن العلاء ، ومطر الورّاق ، وقتادة : يعنى قطعا .

وقال غيره : متراكما ، قاله الضحاك .

وقال غيره : أسود من كثرة الماء ، تراه مدلهما ثقيلا قريبا من الأرض .

وقوله : ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى : فترى المطر ـ وهو القطر ـ يخرج من بين ذلك السحاب ، ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى : لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم .

وقوله : ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ، معنى الكلام : أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قَنطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك ، فلما جاءهم ،جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعا عظيما .

وقد اختلف النحاة فى قوله : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾، فقال ابن جرير : هو

---

(١) ورواه أحمد فى المسند (٦/٤٤٨) من طريق إسماعيل ، وابن أبى الدنيا فى الغيبة والنميمة برقم (١٠٢) من طريق جرير كلاهما عن ليث ـ وهو ابن أبى سليم ـ به ولم يذكر الآية .

(٢) فى أ : « الذى » . (٣) فى ت : « المطر » .

تأكيد . وحكاه عن بعض أهل العربية .

وقال آخرون :[وإن كانوا] (١) من قبل أن ينزل عليهم المطر ، ﴿ مِّن قَبْلِهِ ﴾ أى : الإنزال ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ .

ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس ، ويكون معنى الكلام : أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، ومن قبله ـ أيضا ـ قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت ، فترقبوه فى إبانه فتأخر ، فمضت مدة فترقبوه فتأخر ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط ، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال :﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ يعنى : المطر ، ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها ، فقال : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ أى: إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ،﴿ إنه عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ، يقول :﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ ،يابسة على الزرع الذى زرعوه ، ونبت وشب واستوى على سوقه ، فرأوه مصفرا ، أى : قد اصفر وشرع فى الفساد ، لظلوا من بعده ، أى : بعد هذا الحال يكفرون ، أى : يجحدون ما تقدم [إليهم] (٢) من النعم ، كما قال :﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ ـ ٦٧] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا هُشَيْم (٣) ، عن يَعْلَى ابن عطاء ، عن أبيه (٤) ، عن عبد اللّه بن عمرو ، قال : الرياح ثمانية ، أربعة منها رحمة ، وأربعة عذاب ، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات . وأما العذاب فالعقيم والصرصر ، وهما فى البر ، والعاصف والقاصف ، وهما فى البحر [فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدى رحْمته ، ولاقحاً للسحاب تلقحه بحمله الماء ، كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيماً ، وأودعه عذاباً أليماً ،وجعله نقمة على من يشاء من عباده ، فيجعله صرصراً وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه ، والرياح مختلفة فى مهابها : صبا ودبور ، وجنوب ،وشمال ، وفى منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان ، وأخرى تجففه ،وأخرى تهلكه وتعطبه ،وأخرى تسيره وتصلبه ،وأخرى توهنه وتضعفه](٥).

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو(٦) عبُيَد اللّه ابن أخى ابن وهب ، حدثنا عمى ، حدثنا عبد اللّه ابن عَيّاش (٧) ، حدثنى عبد اللّه بن سليمان ، عن دراج ، عن عيسى بن هلال الصدَفى ، عن عبد اللّه بن عمرو قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الريح مسخرة من الثانية ـ يعنى الأرض الثانية ـ فلما أراد اللّه أن يهلك عادا ، أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عاداً ، فقال : يارب ، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور . قال له الجبار تبارك وتعالى : لا ، إذاً تكفأ الأرض وما عليها ،

---

(١) زيادة من أ.
(٢) زيادة من أ .
(٣) فى أ : « هاشم » .
(٤) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .
(٥) زيادة من ت .
(٦) فى أ : « ابن » .
(٧) فى أ : « عباس ».

ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم » ، فهى التى قال الله فى كتابه :﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (١) [الذرايات : ٤٢]. هذا حديث غريب ، ورفعه منكر. والأظهر أنه من كلام عبد الله ابن عمرو ، رضى الله عنه .

﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ﴾.

يقول تعالى : كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجداثها ، ولا تبلغ (٢) كلامَكَ الصم الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مُدْبِرُون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله تعالى ، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يستمعون (٣) الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مَثَلُ الكافرين ، كما قال تعالى :﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦] .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، بهذه الآية : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾، على توهيم عبد الله بن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قَلِيب بدر (٤) ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جَيَّفُوا؟ فقال : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » . وتأولته عائشة على أنه قال : « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » (٥) .

وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعاً وتوبيخاً ونقمة .

---

(١) سيأتى تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٤٢ من سورة الذاريات .

(٢) فى ت : « ولا يبلغ » . (٣) فى ت : « يسمعون » .

(٤) فى ت ، أ : « فى روايته أن النبى ﷺ خاطب القتلى الذين ألقوا فى القليب ،قليب بدر » .

(٥) قال الإمام الزركشى رحمه الله فى كتابه « الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة » ص (١٢١) : « أخرج البخارى عن ابن عمر قال : وقف النبى ﷺ على قَلِيب بدر فقال : « هَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ ربُّكُمْ حَقا » ، ثم قال : « إنهم الآن يسمعون ما أقول » ، فذكر لعائشة فقالت : إنما قال النبى ﷺ : « إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول لهم حق » . قال السهيلى فى الروض : « وعائشة لم تحضر، وغيرها ممن حضر أحفظ للفظه ﷺ ، وقد قالوا له: يا رسول الله ، أتخاطب قوماً قد جيفوا أو أجيفوا ؟ فقال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » ، وإذا جاز أن يكونوا فى تلك الحال عالمين ،جاز أن يكونوا سامعين ، إما بآذان رؤوسهم ،إذا قلنا : إن الروح تعاد إلى الجسد أو إلى بعضه عند المسألة. وهو قول جمهور أهل السنة ، وإما بأذن القلب أو الروح على مذهب من يقول بتوجه السؤال إلى الروح من غير رجوع إلى الجسد أو إلى بعضه . قال : وقد روى أن عائشة احتجت بقوله تعالى :﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ وهذه الآية كقوله : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ﴾ أى : إن الله هو الذى يهدى ويوفق ويدخل الموعظة إلى آذان القلوب لا أنت ، وجعل الكفار أمواتاً وصمًا على جهة التشبيه بالأموات وبالصم ، فالله هو الذى يسمعهم على الحقيقة إذا شاء ، فلا تعلق لها فى الآية لوجهين : أحدهما : أنها إنما نزلت فى دعاء الكفار إلى الإيمان ، الثانى : أنه إنما نفى عن نبيه أن يكون هو المسمع لهم، وصدق الله ، فإنه لايسمعهم إذا شاء إلا هو » .

والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً [له] (١) ، عن ابن عباس مرفوعاً :« ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ،كان يعرفه فى الدنيا ، فيسلم عليه ،إلا رد اللّه عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام» (٢).

[وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له ، إذا انصرفوا عنه ، وقد شرع النبى ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا ،وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحى له ويستبشر، فروى ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده ، إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » .

وروى عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : إذا مر رجل بقبر يعرفه فسلم عليه ، رد عليه السلام .

وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجَحْدَرِى قال : رأيت عاصماً الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين ، فقلت : أليس قد متّ ؟ قال : بلى ، قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا ـ واللّه ـ فى روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد اللّه المزنى ، فنتلقى أخباركم . قال : قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات ! قد بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح ، قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس ، قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته .

قال : وحدثنا محمد بن الحسين ، ثنا بكر بن محمد ، ثنا حسن القصاب قال : كنت أغدو مع محمد بن واسع فى كل غداة سبت حتى نأتى أهل الجبان ، فنقف على القبور فنسلم عليهم ، وندعو لهم ثم ننصرف ، فقلت ذات يوم : لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين ؟ قال : بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها . قال : ثنا محمد ، ثنا عبد العزيز بن أبان قال : ثنا سفيان الثورى قال : بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

حدثنا خالد بن خِداَش ، ثنا جعفر بن سليمان ،عن أبى التَّيَّاح يقول : كان مُطَرِّف يغدو ، فإذا كان يوم الجمعة أدلج . قال : وسمعت أبا التياح يقول : بلغنا أنه كان ينزل بغوطة ، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه ، فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره ، فقالوا: هذا مطرف يأتى الجمعة ويصلون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا : نعم ، ونعلم ما يقول فيه الطير . قلت: وما يقولون ؟ قال: يقولون :سلام عليكم ؛ حدثنى محمد بن الحسن ، ثنا يحيى بن أبى بكر،

(١) زيادة من أ .

(٢) الاستذكار لابن عبد البر من طريق بشر بن بكير ،عن الأوزاعى ،عن عطاء ،عن عبيد بن عمير ،عن ابن عباس ،مرفوعاً . ولفظه: « ما من أحد مرَّ بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فى الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » .

ثنا الفضل بن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال : لما مات أبى جزعت عليه جزعاً شديداً ، فكنت آتى قبره فى كل يوم ، ثم قصرت عن ذلك ما شاء اللّه ، ثم إنى أتيته يوماً ، فبينا أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناى فنمت ، فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج ، وكأنه قاعد فى قبره متوشح أكفانه ،عليه سِحْنَة الموتى ، قال : فكأنى بكيت لما رأيته . قال : يا بنى ، ما أبطأ بك عنى ؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيئى؟ قال : ما جئت مرة إلا علمتها ، وقد كنت تأتينى فأسر بك ويسر من حولى بدعائك ، قال : فكنت آتيه بعد ذلك كثيراً .

حدثنى محمد ، حدثنا يحيى بن بَسْطام ، ثنا عثمان بن سُوَيْد الطُّفَاوى قال : وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها : راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت : يا ذخرى وذخيرتى من عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى ، لا تخذلنى عند الموت ولا توحشنى . قال : فماتت . فكنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ذات يوم فى منامى، فقلت لها : يا أمى ، كيف أنت ؟ قالت : أى بنى ، إن للموت لكربة شديدة ، وإنى بحمد اللّه لفى برزخ محمود يفرش فيه الريحان ، ونتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور ، فقلت لها : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، قلت : وما هى ؟ قالت : لا تدع ما كنت تصنع من زياراتنا والدعاء لنا ، فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، يقال لى : يا راهبة ، هذا ابنك ، قد أقبل ،فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات .

حدثنى محمد ، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، حدثنا بشر بن منصور قال : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان ، فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال : آنس اللّه وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال : فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، قال : فبينا أنا نائم إذا بخلق قد جاؤونى ، فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو بها ، قال : قلت : فإنى أعود لذلك ، قال : فما تركتها بعد .

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه . قال عبد اللّه بن المبارك : حدثنى ثور بن يزيد ، عن إبراهيم ، عن أيوب قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا : اللهم راجع به .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال : ثنا محمد أخى قال : دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال : عظنى ، قال : بم أعظك ،أصلحك اللّه ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى ، فانظر ما يعرض على رسول اللّه ﷺ من عملك ، فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته . قال ابن أبى الدنيا : وحدثنى محمد بن الحسين ، ثنا خالد بن عمرو الأموى ، ثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال : كانت لى شِرَّة سَمِجَة ، فمات أبى فتبت وندمت على ما فرطت ، ثم زللت أيما زلة ، فرأيت أبى فى المنام ، فقال : أىَ بنى ،ما كان أشد فرحى بك

وأعمالك تعرض علينا ، فنشبهها بأعمال الصالحين ، فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديداً، فلا تخزنى فيمن حولى من الأموات ، قال : فكنت أسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر ،وكان جاراً لى بالكوفة : أسألك إيابة لا رجعة فيها ولا حور ، يا مصلح الصالحين ،وياهادى المضلين ، ويا أرحم الراحمين .

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة . وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول: اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة ، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبى ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : « سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ،وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ،وإن لم يسمع المسلم الرد ،والله أعلم](١).

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾.

ينبه تعالى على تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاما ثم يُكسَى لحما ، ويُنفَخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفاً واهن القوى . ثم يشب قليلاً قليلا حتى يكون صغيراً ، ثم حدَثا ، ثم مراهقاً ، ثم شابا . وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع فى النقص فيكتهل (٢) ، ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة . فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللّمَّة ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ؛ ولهذا قال : ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى: يفعل ما يشاء ويتصرف فى عبيده بما يريد ، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾.

قال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، عن فضيل ويزيد ، حدثنا فضيل بن مرزوق (٣) ، عن عطية العوفى، قال : قرأت على ابن عمر : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا (٤) ﴾ ،فقال : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفًا ﴾ ،ثم قال : قرأتُ على رسول الله ﷺ كما قرأت على ، فأخذ على كما أخذتُ عليك .

ورواه أبو داود والترمذى ـ وحَسَّنه ـ من حديث فضيل ، به(٥) .ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر ، عن عطية ، عن أبى سعيد ، بنحوه (٦) .

---

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت ، ف ، أ : « فيتكهل » .
(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده ». (٤) فى أ : «ضعفا وشيبة » .
(٥) المسند (٢/٥٨) ،وسنن أبى داود برقم (٣٩٧٨) ،وسنن الترمذى برقم (٢٩٣٦) .
(٦) سنن أبى داود برقم (٣٩٧٩) .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾.

يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا ، فمنه إقسامهم باللّه أنهم ما لبثوا فى الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم يُنْظَروا حتى يُعذَر إليهم . قال اللّه تعالى : **﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾** أى: فيرد عليهم المؤمنون العلماء فى الآخرة ، كما أقاموا عليهم حجة اللّه فى الدنيا ، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة : **﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾** أى : فى كتاب الأعمال ، **﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾** أى: من يوم خلقتم إلى أن بعثتم ، **﴿ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾**.

قال اللّه تعالى : **﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾** أى : يوم القيامة، **﴿ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ﴾** أى : [لا ينفعهم][1] اعتذارهم عما فعلوا ، **﴿ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾** أى : ولاهم يرجعون إلى الدنيا ، كما قال تعالى: **﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾** [فصلت: ٢٤].

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ .

يقول تعالى : **﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾** أى : قد بينا لهم الحق ، ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه . **﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾** أى : لو رأوا أى آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ، ويعتقدون أنها سحر وباطل ، كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه ، كما قال [اللّه][2] تعالى : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾** [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ؛ ولهذا قال ههنا : **﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾** أى : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن اللّه منجز لك ما وعدك من نصره إياك، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة ، **﴿ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾** أى : بل اثبت على ما بعثك اللّه به ، فإنه الحق الذى لا مرية فيه ، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هُدًى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه .

قال سعيد عن قتادة : نادى رجل من الخوارج عليا ، رضى اللّه عنه ، وهو فى الصلاة ـ صلاة

(١ ، ٢) زيادة من أ .

الغداة ـ فقال : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر : ٦٥] ، فأنصت له على حتى فهم ما قال ، فأجابه وهو فى الصلاة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال :

حدثنا ابن وكِيع ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن شَرِيك ، عن عثمان بن أبى زُرْعَة ، عن على بن ربيعة قال : نادى رجل من الخوارج عليا وهو فى صلاة الفجر ، فقال :﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، فأجابه على وهو فى الصلاة : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾(١) .

طريق أخرى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن الجَعْد ، أخبرنا شريك ، عن عمران بن ظَبْيان ، عن أبى تحيا قال : صلى على (٢) رضى اللّه عنه ، صلاة الفجر ، فناداه رجل من الخوارج : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، فأجابه على (٣) ، وهو فى الصلاة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾.

[ما روى فى فضل هذه السورة الشريفة ، واستحباب قراءتها فى الفجر] (٤) :

قال الإمام أحمد :حدثنا محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عبد الملك بن عمير ،سمعت شبيب ـ أبا روح ـ يحدث عن رجل (٥) من أصحاب النبى ﷺ ، أن رسول اللّه ﷺ صلى بهم الصبح ، فقرأ فيها الرّوم فأوهم ، فقال :«إنه يلبس علينا القرآن ، فإن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء» (٦) .

وهذا إسناد حسن ومتن حسن (٧) ، وفيه سر عجيب ،ونبأ غريب ، وهو أنه ، عليه السلام (٨) ، تأثر بنقصان وضوء من ائتم به ، فدل ذلك أن صلاة المأموم متعلقة (٩) بصلاة الإمام .

[آخر تفسير سورة « الروم »] (١٠)

(١) تفسير الطبرى (٢١/٣٨) .
(٢ ، ٣) فى ف ، أ : « على بن أبى طالب » .
(٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن رجل » .
(٦) المسند (٣/ ٤٧١) .
(٧) فى ت : « إسناده حسن ومتنه حسن » .
(٨) فى أ : « ﷺ » .
(٩) فى هـ : « معدوقة » .
(١٠) زيادة من ت .

سورة الروم[1]

مكيّة، إلّا قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾... إلخ [الروم، ١٧/٣٠]،
وهي ستّون آيةً، وقيل: تسع وخمسون.[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③﴾

﴿الٓمٓ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في أمثاله مِن الفواتح الكريمة.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أدنى أرض العرب منهم، إذ هي الأرض المعهودة عندهم، وهي أطراف الشام، أو في أدنى أرضهم مِن العرب، على أنّ "اللام" عوض عن المضاف[3] إليه. قال مجاهد: «هي أرض الجزيرة، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس». / وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «الأردنّ وفلسطين». وقُرئ: "فِي أَدَانِي الْأَرْضِ".[4] [٣٠٥ظ]

﴿وَهُم﴾ أي: الروم ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أي: مِن بعد مغلوبيّتهم. وقُرئ بسكون "اللام"،[5] وهي لغة، كـ"الجلَبِ" و"الجلْبِ" ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ أي: سيَغلبون فارس.

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤﴾

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ رُوي أنّ فارس غزَوا الروم، فَوافَوهم بأَذْرِعات وبُصرى -وقيل: بالجزيرة كما مرّ- فغَلَبوا عليهم، وبلغ الخبرُ مكّة، ففرح المشركون

---

[1] س + ستّون آية.

[2] م س – وهي ستّون آية، وقيل: تسع وخمسون.

[3] س: المصاف.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الكلبي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٤.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٤.

وشمِتوا بالمسلمين، وقالوا: «أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أمّيّون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، فلنظهرنّ عليكم»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «لا يُقِرّنّ الله أعينكم، فوالله ليَظهرَنّ الروم على فارس بعد بضع سنين»، فقال أُبيّ بن خَلف اللعين: «كذَبت، اجعل بيننا أجلًا أُناحِبْكَ[١] عليه»، فناحَبَه على عشر قلائِص[٢] مِن كلّ منهما، وجَعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبر به أبو بكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «البِضع ما بين الثلاث إلى التسع، فَزائِدْهُ في الخطر، ومادَّهُ في الأجل»، فجعلاها مائةَ قَلوص إلى تسع سنين، ومات أبيّ مِن جَرح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وظهرت الروم على فارس عند رأس سبع سنين، وذلك يوم الحُديبية.[٣]

وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقين، فأخذ أبو بكر الخطَر مِن ذريّة أبيّ، فجاء به رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «تصدَّقْ به».[٤] وكان ذلك قبل تحريم القِمار.

وهذه الآيات مِن البيّنات الباهرة الشاهدة بصحّة النبوّة، وكونِ القرآن مِن عند الله عزّ وجلّ حيث أخبرتْ عن الغيب الذي لا يعلمه إلّا العليم الخبير.

وقُرِئ: "غَلَبَتْ"[٥] على البناء للفاعل، و"سَيُغْلَبُونَ"[٦] على البناء للمفعول، [٣٠٦و] / والمعنى: أنّ الروم غَلَبَتْ على ريف الشام، وسيَغلبهم المسلمون، وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة مِن نزولها، ففتحوا بعض بلادهم، فإضافة "الغَلَب" حينئذ إلى الفاعل.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: في أوّل الوقتين وفي آخرهما حين غُلِبوا وحين يَغلِبون، كأنّه قيل: مِن قبلِ كونهم غالبين، وهو وقتُ كونهم مَغلوبين،

---

١ ناحبه: راهنه. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «نحب».

٢ القَلُوص مِن النُّوق: الشابّة، وهي بمنزلة الجارية مِن النساء. وجمع القَلوصِ: قُلُص وقَلائص. **الصحاح** للجوهري، «قلص».

٣ **جامع البيان** للطبري، ١٨/٤٥١؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٧/٢٩٢.

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٧/٢٩٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٤٦٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن عمر وابن عبّاس رضي الله عنهم ومعاوية بن قرّة وكرداب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمرو ومعاوية بن قرّة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٤.

ومِن بعد كونهم مَغلوبين، وهو وقتُ كونهم غالبين، والمعنى: أنّ كلًّا مِن كونهم مَغلوبين أوّلًا وغالبين آخرًا ليس إلّا بأمر الله تعالى وقضائه، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران، ١٤٠/٣]. وقُرئ: "مِن قَبْلِ وَمِن بَعْدِ"[١] بالجرّ من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه، كأنّه قيل: قَبلًا وبَعدًا، بمعنى: أوّلًا وآخِرًا.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يَغلِب الرومُ على فارس، ويحُلّ ما وعده الله تعالى مِن غَلَبتهم ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ وتغليبِه مَن له كتاب على مَن لا كتابَ له، وغَيظِ مَن شَمِت بهم مِن كفّار مكّة، وكونِ ذلك مِن دلائلِ غلبة المؤمنين على الكفّار. وقيل: "نصر الله" إظهارُ صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين مِن غلبة الروم على فارس، وقيل: نصره تعالى أنّه ولّى بعض الظالمين بعضًا، وفرّق بين كلمهم حتّى تناقصوا وتفانَوا، وفَلَّ كلٌّ منهما شوكةَ الآخر، وفي ذلك قوّة.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنّه وافق ذلك يوم بدرٍ.[٢] وفيه مِن نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك ما لا يخفى، والأوّل هو الأنسب لقوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: مَن يشاء أن ينصره مِن عباده على عدوّه ويُغلّبه عليه، فإنّه استئناف مقرّر لمضمون قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.[٣]

/ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المبالغ في العزّة والغلبة، فلا يُعجزه مَن يشاء أن ينصر [٣٠٦ظ]
عليه، كائنًا مَن كان، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة، فينصر مَن يشاء أن ينصره، أيَّ فريق كان. والمراد بالرحمة هي الدنيويّة، أمّا على القراءة المشهورة فظاهر، لِما أنّ كِلا الفريقين لا يستحقّ الرحمة الأخرويّة. وأمّا على القراءة الأخيرة فلأنّ المسلمين وإن كانوا مستحقّين لها، لكنّ المراد ههنا نصرهم الذي هو مِن آثار الرحمة الدنيويّة. وتقديم وصف العزّة لتقدّمه في الاعتبار.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكّد لنفسه؛ لأنّ ما قبله في معنى الوعد، كأنّه قيل:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٤.

٢ جامع البيان للطبري، ٤٥٧/١٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٧/٣.

٣ في الآية السابقة.

وَعَدَ الله وعدًا، ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أيّ وعدٍ كان ممّا يتعلّق بالدنيا والآخرة، لاستحالة الكذب عليه سبحانه. وإظهار الاسم في موقع الإضمار لتعليل الحكم وتفخيمه. والجملة استئناف مقرّر لمعنى المصدر، وقد جُوّز أن تكون حالًا منه، فيكون كالمصدر الموصوف، كأنّه قيل: وَعَدَ الله وعدًا غيرَ مُخلَف، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما سبَق مِن شئونه تعالى.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو ما يشاهدونه مِن زخارفها وملاذّها وسائرِ أحوالها الموافقة لشهواتهم، الملائمةِ لأهوائهم، المستدعيةِ لانهماكهم فيها، وعكوفِهم عليها، لا تمتّعُهم بزخارفها وتنعُّمهم بملاذّها كما قيل،[١] فإنّهما ليسا ممّا علموه منها؛ بل مِن أفعالهم المترتّبة على علومهم. وتنكير ﴿ظَٰهِرًا﴾ للتحقير والتخسيس دون الوَحدة كما تُوُهِّم، أي: يعلمون ظاهرًا حقيرًا خسيسًا مِن الدنيا.

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ التي هي الغاية القصوى والمطلب الأسنى ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لا يُخطِرونها بالبال، ولا يدركون مِن الدنيا ما يؤدّي إلى معرفتها مِن أحوالها، ولا يتفكّرون فيها كما سيأتي. والجملة معطوفة على ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وإيرادُها اسميّة للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها. و﴿هُمْ﴾ الثانيةُ تكرير للأولى، أو مبتدأ و﴿غَٰفِلُونَ﴾ خبره، والجملة خبر للأولى. وهو على الوجهين منادٍ على تمكّن غفلتهم عن الآخرة المحقّقةِ لمقتضى الجملة المتقدّمة تقريرًا / لجهالتهم، [٣٠٧و]
وتشبيهًا لهم بالبهائم المقصورِ إدراكاتُها مِن الدنيا على ظواهرها الخسيسة دون أحوالها التي هي مِن مبادي العلم بأمور الآخرة، وإشعارًا بأنّ العلم المذكور وعدمَ العلمِ رأسًا سِيّانِ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ إنكار واستقباح لقَصر نظرهم على ما ذُكر مِن ظاهر الحياة

---

[١] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤٦٨/٣.

الدنيا مع الغفلة عن الآخرة. و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام. وقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ ظرف للتفكّر، وذكرُه مع ظهور استحالة كونه في غيرها لتحقيق أمره، وتصويرِ حال المتفكّرين.

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾... إلخ متعلّق إمّا بالعلم الذي يؤدّي إليه التفكّر ويدلّ عليه، أو بالقول الذي يترتّب عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران، ١٩١/٣]، أي: أَعَلِموا ظاهرَ الحياة الدنيا فقط؟ أو أَقَصَروا النظر عليه، ولم يُحدثوا التفكّر في قلوبهم فيعلموا أنّه تعالى ما خلقهما وما بينهما مِن المخلوقات التي هم مِن جملتها ملتبسةً بشيء مِن الأشياء ﴿إِلَّا﴾ ملتبسةً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؟ أو فيقولوا هذا القولَ معترفين بمضمونه إثرَ ما علموه؟

والمراد بـ﴿ٱلْحَقِّ﴾ هو الثابت الذي يحِقّ أن يثبت لا محالةَ، لابتنائه على الحكمة البالغة، والغرضِ الصحيح، الذي هو استشهاد المكلَّفين بذواتها وصفاتها وأحوالها المتغيّرة على وجود صانعها عزّ وجلّ، ووَحدتِه، وعلمِه، وقدرتِه، وحكمتِه، واختصاصِه بالمعبوديّة، وصحّةِ أخباره التي مِن جملتها إحياؤهم بعد الفناء بالحياة الأبديّة، ومُجازاتُهم بحسب أعمالهم غِبّما تبيّن المُحسن مِن المُسيء، وامتازت درجات أفراد كلّ مِن الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتّبة على أنظارهم فيما نُصِب في المصنوعات / مِن الآيات والدلائل والأمارات [٣٠٧ظ]
والمَخائل، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]، فإنّ العمل غير مختصّ بعمل الجوارح، ولذلك فسّره عليه السلام بقوله: «أيّكم أحسن عقلًا، وأورَع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»،[١] وقد مرّ تحقيقه في أوائل سورة هود عليه السلام.[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْحَقِّ﴾، أي: وبأجل معيّن قدّره الله تعالى لبقائها، لا بدّ لها مِن أن تنتهي إليه لا محالةَ، وهو وقت قيام الساعة.

---

١ جامع البيان للطبري، ٣٣٥/١٢ (هود، ٧/١١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٩/٥ (هود، ٧/١١).

٢ هود، ٧/١١.

هذا، وقد جُوّز[١] أن يكون قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ صلة للتفكّر، على معنى: أَوَلم يتفكّروا في أنفسهم التي هي أقرب المخلوقات إليهم، وهم أعلم بشئونها، وأخبرُ بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فيتدبّروا ما أودعها الله تعالى ظاهرًا وباطنًا مِن غرائب الحِكم الدالّة على التدبير دون الإهمال، وأنّه لا بدّ لها مِن انتهاء إلى وقت يجازيها الحكيم الذي دبّر أمرها، على الإحسان إحسانًا، وعلى الإساءة مثلَها، حتّى يعلموا عند ذلك أنّ سائر الخلائق كذلك أمرها جارٍ على الحكمة والتدبير، وأنّه لا بدّ لها مِن الانتهاء إلى ذلك الوقت.

وأنت خبير بأنّ أمر مَعاد الإنسان ومُجازاتِه بما عمِل مِن الإساءة والإحسان هو المقصود بالذات والمحتاج إلى الإثبات، فجعلُه ذريعةً إلى إثبات معاد ما عداه مع كونه بمَعزِل مِن الجزاء تعكيس للأمر، فتدبّر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ تذييل مقرِّر لِما قبله ببيان أنّ أكثرهم غير مقتصرين على ما ذُكر مِن الغفلة عن أحوال الآخرة، والإعراضِ عن التفكّر فيما يرشدهم إلى معرفتها مِن خلق السماوات والأرض وما بينهما مِن المصنوعات؛ بل هم منكِرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ توبيخ لهم بعدَم اتّعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالّة على عاقبتهم ومَآلهم. و"الهمزة" لتقرير المنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَقَعَدُوا في أماكنهم ولم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟

وقوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿يَسِيرُوا۟﴾، داخل في حكم التقرير والتوبيخ، والمعنى: أنّهم قد ساروا في أقطار الأرض، وشاهدوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المُهلَكة كعاد وثمود.

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٦٩/٣.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾... إلخ بيان لمبدأ أحوالهم ومآلِها، يعني: أنّهم كانوا أقدرَ منهم على التمتّع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشدّ منهم قوّةً، ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: قلبوها للزراعة والحرث. وقيل: لاستنباط المياه / واستخراج المعادن وغير ذلك، ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أي: عمَّرها أولئك بفنون [٢٠٨و] العمارات مِن الزراعة والغرس والبناء وغيرِها ممّا يُعدّ عِمارةً لها.

﴿أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: عِمارةً أكثرَ كمًّا وكيفًا وزمانًا مِن عِمارة هؤلاء إيّاها، كيف لا وهم أهل وادٍ غير ذي زرع لا تبسّط لهم في غيره؟ وفيه تهكّم بهم؛ حيث كانوا مغترّين بالدنيا مفتخرين بمتاعها مع ضعف حالهم وضِيق عَطَنِهم، إذ مدار أمرها على التبسّط في البلاد، والتسلّط على العباد، والتقلّب في أكناف الأرضِ بأصناف التصرّفات، وهم ضَعَفَةٌ مُلْجَأون إلى وادٍ لا نفع فيه، يخافون أن يتخطّفهم الناس.

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ بالمعجزات، أو الآيات الواضحات، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ أي: فكذّبوهم، فأهلكهم، فما كان الله تعالى ليهلكهم مِن غير جُرم يستدعيه مِن قِبَلِهم. والتعبير عن ذلك بالظلم مع أنّ إهلاكه تعالى إيّاهم بلا جُرم ليس مِن الظلم في شيء على ما تقرّر مِن قاعدة أهل السنّة لإظهار كمال نزاهته تعالى عن ذلك بإبرازه في مَعرِض ما يستحيل صُدوره عنه سبحانه،[١] وقد مرّ في سورة الأنفال[٢] وسورة آل عمران.[٣]

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بأن اجترأوا على اقتراف ما يوجبه مِن المعاصي العظيمة.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ أي: عملوا السيّئات. وُضِع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالإساءة، والإشعارِ بعِلّة الحكم، ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي:

---

١ س: تعالى.

٢ الأنفال، ٨/٥١.

٣ آل عمران، ٣/١٨٢.

العقوبة التي هي أسوأ العقوباتِ وأفظعُها، التي هي العقوبة بالنار، فإنّها تأنيث "الأَسْوأ"، كـ"الحُسنى" تأنيث "الأحسن"، أو مصدر كـ"البُشرى"، وُصِف به العقوبة مبالغةً، كأنّها نفس السوآ. وهي مرفوعة على أنّها اسم ﴿كَانَ﴾، وخبرها ﴿عَٰقِبَةَ﴾. وقُرئ على العكس،[1] فهو / أدخلُ في الجَزالة. [٣٠٨ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ علّة لِما أشيرَ إليه مِن تعذيبهم الدنيوي والأخروي، أي: لِأن كذّبوا، أو بأن كذّبوا بآيات الله المنزّلة على رسله عليهم السلام ومعجزاتِه الظاهرة على أيديهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عطفٌ على ﴿كَذَّبُواْ﴾، داخل معه في حكم العِلّيّة. وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدّده، هذا هو اللائق بجَزالة النظم الجليل، وقد قيل وقيل.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١﴾

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: يُنشئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت بالبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى موقف الحساب والجزاء. والالتفات للمبالغة في الترهيب. وقُرئ بـ"الياء".[2]

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ١٢﴾

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي هي وقت إعادة الخلق ورَجْعِهم إليه ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يسكتون متحيّرين لا يَنبِسون، يقال: "ناظَرْته فأبْلَسَ" إذا سكَتَ وأَيِس مِن أن يَحتجّ. وقُرئ بفتح "اللام"[3] مِن "أَبْلَسَهُ" إذا أفْحَمَه وأسكَتَه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ١٣﴾

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ يجيرونهم مِن عذاب الله تعالى كما

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٤/٢.

٢ قرأ بها أبو عمرو وشعبة عن عاصم ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٤/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٥.

كانوا يزعمونه. وصيغة الجمع لوقوعها في مقابلة الجمع، أي: لم يكن لواحد منهم شفيع أصلًا، ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: بإلَهيّتهم وشِرْكتهم لله سبحانه، حيث وقَفوا على كُنْه أمرهم. وصيغة الماضي للدلالة على تحقّقه. وقيل: كانوا في الدنيا كافرين بسببهم،[1] وليس بذاك؛ إذ ليس في الإخبار به فائدة يعتدّ بها.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أعيدَ لتهويله وتفظيع ما يقع فيه. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ تهويل له إثرَ تهويل، وفيه رمزٌ إلى أنّ التفرّق يقع في بعضٍ منه. وضمير ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ / لجميع الخلق المدلولِ عليهم بما تقدّم مِن بَدْئهم وإعادتِهم ورَجْعِهم، لا المجرمون خاصّةً. وليس المراد بتفرّقهم افتراق كلّ فرد منهم عن الآخر؛ بل تفرّقهم إلى فريقَي المؤمنين والكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى، ٤٢/٧]، وذلك بعد تمام الحساب. [٣٠٩و]

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ تفصيل وبيان لأحوال ذَينِك الفريقين. و"الروضة" كلّ أرض ذات نبات وماء ورَونق ونَضارة، وتنكيرُها للتفخيم، والمراد بها الجنّة. و"الحُبور" السرور، يقال: حَبَره إذا سَرّه سرورًا تهلّل له وجهُه، وقيل: "الحَبْرة" كلّ نعمة حَسَنة، و"التحبير" التحسين.

واختلفت فيه الأقاويل، لاحتماله وجوهَ جميع المسارّ. فعَن ابن عبّاس ومجاهد: «يُكرَمون».[2] وعن قتادة: «يُنعَّمون».[3] وعن ابن كَيسان: «يُحلَّون».[4]

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٠٣/٤.

٢ جامع البيان للطبري، ٤٧١/١٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٦/٧.

٣ جامع البيان للطبري، ٤٧٢/١٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٦/٧.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٦٠/٨.

وعن أبي بكر بن عيّاش:[١] «التِّيجان على رءوسهم».[٢] وعن وكيع:[٣] «السماع في الجنّة».[٤]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أنّه ذَكر الجنّة وما فيها مِن النعيم، وفي آخِر القوم أعرابي، فقال: «يا رسول الله، هل في الجنّة مِن سماع؟» قال عليه السلام: «يا أعرابي، إنّ في الجنّة لنهرًا حافّتاه الأبكار مِن كلّ بيضاءَ خَوصانيّة،[٥] يتغنَّينَ بأصواتٍ لم يسمع الخلائق بمثلها قطّ، فذلك أفضل نعيم الجنّة». قال الراوي: «فسألتُ أبا الدرداء[٦] رضي الله عنه: بم يَتغنَّينَ؟» قال: «بالتسبيح».[٧]

ورُوي: «إنّ في الجنّة لأشجارًا عليها أجراس مِن فضّة، فإذا أراد أهل الجنّة السماع بعثَ الله تعالى ريحًا مِن تحت العرش فتقع في تلك الأشجار، فتُحَرِّك تلك الأجراس بأصواتٍ لو سمعها أهل الدنيا لَماتُوا طَرَبًا».[٨]

---

١ هو أبو بكر بن عيّاش بن سالم الأسدي، الكوفي، الحنّاط (ت. ١٩٣هـ/٨٠٩م)، المقرئ، الفقيه، المحدث، شيخ الإسلام، وبقيّة الأعلام، مولى واصل الأحدب. وفي اسمه أقوال: أشهرها شعبة، قرأ أبو بكر القرآن وجوّده ثلاث مرّات على عاصم بن أبي النَّجود. وعرضه أيضًا عن عطاء بن السائب، وأسلم المنقري. وحدّث عن عاصم، وأبي إسحاق السبيعي. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥٠٧/٨؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ٣٢٥/١.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٣.

٣ هو وكيع بن الجرّاح بن مليح الرؤاسي، أبو سفيان (ت. ١٩٧هـ/٨١٢م)، الإمام، الحافظ، محدّث العراق، أحد الأعلام. وُلد بالكوفة، وأبوه ناظرٌ على بيت المال فيها. وتفقّه وحفظ الحديث، واشتهر. وكان مِن بحور العلم، وأئمّة الحفظ. أراد الرشيد أن يولّيه قضاء الكوفة، فامتنع وَرعًا. وكان يصوم الدهر، ويختم القرآن كلّ ليلة. قال أحمد بن حنبل: «ما رأيت أحدًا أوعى للعلم ولا أحفظَ مِن وكيع». له كتب، منها: تفسير القرآن، والسنن، والمعرفة والتاريخ، والزهد. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٤٤/٩؛ والأعلام للزركلي، ١١٧/٨.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٣. وهو عن يحيى بن أبي كثير في جامع البيان للطبري، ٤٧٢/١٨؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٦/٧.

٥ وفي هامش م: دقيقة الخَصر.

٦ هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، أبو الدرداء (ت. ٣٢هـ/٦٥٢م)، الإمام، القدوة، قاضي دمشق، صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حكيم هذه الأمّة. وهو معدود فيمَن جمَع القرآن في حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتصدّر للإقراء بدمشق في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٣٧/٢؛ والأعلام للزركلي، ٩٨/٥.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٧/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٣.

٨ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٧/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٣.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

/ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التي مِن جملتها هذه الآيات الناطقة بما فُصّل ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ﴾ صُرّح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات للاعتناء بأمره. وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة مِن الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة، للإيذان بكمال تميّزهم بذلك عن غيرهم، وانتظامِهم في سلك المشاهَدات، وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببُعد مَنزلتهم في الشرّ، أي: أولئك الموصوفون بما فُصّل مِن القبائح ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ على الدوام لا يغيبون عنه أبدًا. [٣٠٩ظ]

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إثرَ ما بُيّن حالُ فريقَي المؤمنين العاملين للصالحات، والكافرين المكذِّبين بالآيات، ومآلُهما مِن الثواب والعذاب؛ أُمِروا بما ينجّي مِن الثاني ويُفضي إلى الأوّل مِن تنزيه الله عزّ وجلّ عن كلّ ما لا يليق بشأنه سبحانه، ومِن حمده تعالى على نِعَمه العِظام. وتقديم الأوّل على الثاني لِما أنّ التخلية متقدّمة على التحلية.

و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: إذا علمتم ذلك فسبّحوا الله تعالى، أي: نزّهوه عمّا ذُكر سبحانه، أي: تسبيحَه اللائقَ به في هذه الأوقات، واحمَدوه، فإنّ الإخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبِه على المميّزين مِن أهل السماوات والأرض في معنى الأمر به على أبلغ وجهٍ وآكَدِه.

وتوسيطه بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه، / والإشعارِ بأنّ حقّهما أن يُجمَع بينهما، كما ينبئ عنه قولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة، ٢/٣٠]، وقولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر، ١٥/٩٨]، وقولُه صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قال حين يُصبح وحين يُمسي: "سبحان الله وبحمده" مائةَ مرّة حُطّت خطاياه [٣١٠و]

وإن كانت مِثل زبَد البحر».[١] وقولُه عليه السلام: «مَن قال حين يُصبح وحين يُمسي: "سبحان الله وبحمده" مائة مرّة لم يأتِ أحد يوم القيامة بأفضلَ ممّا جاء به، إلّا أحد قال مِثل ما قال أو زاد عليه».[٢] وقولُه عليه السلام: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: "سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"»،[٣] وغيرُ ذلكَ ممّا لا يحصى مِن الآيات والأحاديث.

وتخصيصهما بتلك الأوقات للدلالة على أنّ ما يحدث فيها مِن آيات قدرته تعالى وأحكام رحمته ونعمته شواهدُ ناطقة بتنزّهه تعالى، واستحقاقِه الحمدَ، وموجِبةٌ لتسبيحه وتحميده حتمًا.

وقوله تعالى: ﴿وَعَشِيًّا﴾ عطفٌ على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، وتقديمُه على ﴿حِينَ تُظْهِرُونَ﴾ لمراعاة الفواصل. وتغيير الأسلوب لِما أنّه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشِيّ، كالمساء والصباح والظهيرة، ولعلّ السرَّ في ذلك أنّه ليس مِن الأوقات التي يختلف فيها أحوال الناس وتتغيَّر تغيّرًا ظاهرًا مصحِّحًا لوصفهم بالخروج عمّا قبلها والدخولِ فيها كالأوقات المذكورة، فإنّ كلًّا مِنها وقت يتغيّر فيه الأحوال تغيّرًا ظاهرًا، أمّا في المساء والصباح فظاهر، وأمّا في الظهيرة فلأنّها وقت يُعتاد فيه التجرّد عن الثياب للقيلولة كما مرّ في سورة النور.[٤]

وقيل: المراد بـ"التسبيح" و"الحمدِ": الصلاة، لاشتمالها عليهما. وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ الآية جامعة للصلوات الخمس؛ ﴿تُمْسُونَ﴾ صلاتا المغرب والعشاء، و﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر، و﴿عَشِيًّا﴾ صلاة العصر، و﴿تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر».[٥] ولذلك ذهب الحسَن إلى أنّها مدنيّة؛ إذ كان يقول: «إنّ الواجب بمكّة ركعتان، في أيّ وقت اتّفقتا، وإنّما فرضت الخمسُ بالمدينة».[٦]

---

١ صحيح البخاري، ٨٦/٨ (٦٤٠٥)؛ صحيح مسلم، ٢٠٧١/٤ (٢٦٩١).

٢ صحيح مسلم، ٢٠٧١/٤ (٢٦٩٢)؛ سنن الترمذي، ٥١٣/٥ (٣٤٦٩).

٣ صحيح البخاري، ١٣٩/٨ (٦٦٨٢)؛ صحيح مسلم، ٢٠٧٢/٤ (٢٦٩٤).

٤ النور، ٣٦/٢٤.

٥ جامع البيان للطبري، ٤٧٤/١٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٣٠/٣.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٤/٤.

والجمهور / على أنّها فُرضت بمكّة، وهو الحقّ، لحديث المِعراج، وفي آخره: «هنّ خمس صلوات كلّ يوم وليلة».[1] [٣١٠ظ]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن سرّه أن يُكالَ له بالقفيز الأوفى فليقل: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الآيةَ».[2]

وعنه عليه السلام: «مَن قال حين يُصبح: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[3] أدرك ما فاته في يومه، ومَن قالها حين يُمسي أدرك ما فاته في ليلته».[4]

وقُرئ: "حِينًا تُمْسُونَ وَحِينًا تُصْبِحُونَ"،[5] أي: تُمسون فيه، وتُصبحون فيه.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسان مِن النطفة، والطيرِ مِن البيضة، ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ النطفةَ والبيضةَ مِن الحيَوان، ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يَبسِها. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومِثلَ ذلك الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ مِن قبوركم. وقُرئ: "تَخْرُجُونَ" بفتح "التاء" وضمّ "الراء".[6] وهذا نوعُ تفصيلٍ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.[7]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الباهرةِ الدالّةِ على أنكم تُبعَثون دلالةً أوضح ممّا سبَق،

---

١ مسند أحمد، ٤٨٧/١٩ (١٢٥٠٥). وهو في صحيح البخاري، ٧٨/١ (٣٤٩)؛ وصحيح مسلم، ١٤٨/١ (١٦٣)، بلفظ: «هي خمس، وهي خمسون، لا يُبدّل القول لديّ».

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٨/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٢/٣.

٣ في الآية التالية.

٤ سنن أبي داود، ٤١٠/٧ (٥٠٧٦)؛ المعجم الأوسط للطبراني، ٢٨٠/٨ (٨٦٣٨).

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٥.

٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان عن ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢٦٧/٢.

٧ الروم، ١١/٣٠.

فإنّ دلالة بَدءِ خلقهم على إعادتهم أظهر مِن دلالة إخراج الحيّ مِن الميّت، وإخراجِ الميّت مِن الحيّ، ومِن دلالة إحياء الأرض بعد موتها عليها.

﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي: في ضمن خلقِ آدم عليه السلام، لِما مرّ مرارًا مِن أنّ خَلقه عليه السلام مُنطوٍ على خَلق ذرّيّاته انطواءً إجماليًا. ﴿مِن تُرَابٍ﴾ لم يشَمّ رائحة الحياة قطّ، ولا مناسبةَ بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي: فاجأتم بعد ذلك وقتَ[1] كونِكم بشرًا تنتشرون في الأرض. وهذا مُجمَل ما فُصِل في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ الآيةَ [الحج، ٥/٢٢].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ الدالّةِ على ما ذُكر مِن البعث وما بعده مِن الجزاء / ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ أي: لأجلِكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ فإنّ خلقَ أصلِ أزواجكم حَوّاءَ مِن ضِلَع آدم عليه السلام متضمّن لخلقهنّ مِن أنفسكم على ما عرفتَه مِن التحقيق، أو مِن جنسكم، لا مِن جنسٍ آخَر، وهو الأوفَق لقوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي: لتألَفوها وتميلوا إليها وتطمئنّوا بها، فإنّ المجانَسة مِن دواعي التَّضامّ والتعارف، كما أنّ المخالفة مِن أسباب التفرّق والتنافر. [٣١١و]

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي: بين الأزواج، إمّا على تغليب الرجال على النساء في الخطاب، أو على حذف ظرفٍ معطوف على الظرف المذكور، أي: جعل بينكم وبينهنّ، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة، ٢٨٥/٢]. وقيل: أو بين أفراد الجنس، أي: بين الرجال والنساء،[2] ويأباه قوله تعالى: ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، فإنّ المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعًا، أي: جعل بينكم بالزواج الذي شَرَعَه لكم تَوادًّا وتراحمًا مِن غير أن يكون بينكم سابقةُ معرفةٍ، ولا رابطةٌ مصحِّحةٌ للتعاطف مِن قرابة أو رحِمٍ.

---

[1] س – وقتَ.

[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٤/٤.

قيل: "المودّة والرحمة" مِن قِبَل الله تعالى، والفِرْك[١] مِن الشيطان. وعن الحسن رحمه الله: «"المودّة" كناية عن الجماع، و"الرحمة" عن الولد»،[٢] كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم، ٢١/١٩].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن خلقهم مِن تراب، وخلقِ أزواجهم مِن أنفسهم، وإلقاءِ المودّة والرحمة بينهم. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب المشار إليه للإشعار ببُعد منزلته.

﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمةً لا يُكتَنه كُنهُها، كثيرةً لا يُقادَرُ قدرُها ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تضاعيف تلك الأفاعيل المَتِينة المبنيّة على الحِكم البالغة. والجملة تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله مع التنبيه على أنّ ما ذُكر ليس بآية فذّة، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾؛ بل هي مشتملة على آيات شتّى.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالّة على ما ذكر مِن أمر البعث، وما يتلوه مِن الجزاء ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إمّا مِن حيث إنّ القادر على خلقهما بما فيهما مِن المخلوقات / بلا مادّة مستعدّة لها أظهرُ قدرةً على إعادة ما كان حيًّا قبل ذلك، [٣١١ظ] وإمّا مِن حيث إنّ خلقَهما وما فيهما ليس إلّا لِمَعاش البشر ومَعادِه، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢٩/٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١].

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: لغاتِكم، بأن علّمَ كلّ صنف لغتَه، أو ألهمَه وضْعَها وأقدره عليها، أو أجناسَ نُطقِكم وأشكالَه، فإنّك لا تكاد تسمع مَنطقين متساويَين في الكيفيّة مِن كلّ وجه.

---

١ الفِرْك: بغضُ الرجل لامرأته، أو بغضُ امرأته له. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فرك».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٤/٤.

﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ ببياض الجلد وسواده وتوسّطه فيما بينهما، أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها وحِلاها،[١] بحيث وقع بها التمايز بين الأشخاص، حتّى إنّ التوأمَين مع توافق موادّهما وأسبابهما والأمورِ المتلاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء مِن ذلك لا محالةَ، وإن كانا في غاية التشابه، وإنّما نُظِم هذا في سِلك الآيات الآفاقيّة مِن خلق السماوات والأرض مع كونه مِن الآيات الأنفسيّة الحقيقةِ بالانتظام في سِلك ما سبَق مِن خلق أنفسهم وأزواجهم للإيذانِ باستقلاله، والاحترازِ عن توهّم كونه مِن تتمّات خَلْقهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمةً في أنفسها، كثيرةً في عددها ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أي: المتّصفِين بالعِلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت، ٤٣/٢٩]. وقُرئ بفتح اللام،[٢] وفيه دلالة على كمال وضوح الآيات وعدمِ خفائها على أحد مِن الخلق كافّةً.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لاستراحةِ القوى النفسانيّة، وتقوّي القوى الطبيعيّة.

﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ فيهما، فإنّ كلًّا مِن المَنام وابتغاء الفضل يقع في المَلَوَين،[٣] / وإن كان الأغلبُ وقوعَ الأوّل في الأوّل، والثاني في الثاني، أو [٣١٢و]
منامُكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار، كما هو المعتاد والموافق لسائر الآيات الواردة في ذلك، خلا أنّه فُصِل بين القرينَين الأوّلَين بالقرينَين الأخيرَين لأنّهما زمانان، والزمان مع ما وقع فيه كشَيء واحد، معَ إعانة اللفّ على الاتّحاد.

---

١ وفي هامش م: جمع "حِلية". «منه».

٢ أي: "لِلْعَالَمِينَ". قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٤/٢.

٣ المَلَوان: الليل والنهار. **الصحاح** للجوهري، «ملو».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ أي: شأنُهم أن يسمعوا الكلامَ سماع تفهّم واستبصارٍ، حيث يتأمّلون في تضاعيف هذا البيان، ويستدلّون بذلك على شئونه تعالى.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٢٤﴾

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ الفعلُ إمّا مقدّر بـ"أن"، كما في قول مَن قال:

ألا أيـهـذا الـزاجـري أحـضُـرُ الـوَغـا[1]

أي: أن أحضُرَ.

أو منزَّل منزلةَ المصدر، وبه فُسِّر المَثَل المشهور: «تَسمعُ بالمُعيدي خير مِن أن تراه»،[2] أو هو على حاله صفة لمحذوف، أي: آية يريكم بها البرق، كقول مَن قال:

ومـا الـدهـر إلّا تـارتـان فـمنهـما أموت وأخرى أبتغي العيشَ أكدَحُ[3]

أي: فمنهما تارةً أموت فيها، وأخرى أبتغي فيها... إلخ.[4]

أو ومِن آياته شيء أو سحاب يُريكم البرق ﴿خَوۡفٗا﴾ مِن الصاعقة، أو للمسافر ﴿وَطَمَعٗا﴾ في الغيث، أو للمقيم، ونصبُهما على العلّة لفعلٍ يستلزمه المذكورُ، فإنّ إراءتهم البرقَ مستلزمة لرؤيتهم إيّاه، أو للمذكورِ نفسِه على تقدير مضاف، نحو: إراءَة[5] خوفٍ وطمَع، أو على تأويل "الخوف والطمع" بـ"الإخافة والإطماع"، كقولك: "فعلتُه رَغمًا للشيطان"، أو على الحال، نحو: "كلّمتُه شِفاهًا".

---

[1] وفي هامش م: تمامه:
وأن أشهدَ اللذّات هل أنت مُخلدي
لطرفة بن العبد في ديوانه بشرح الأعلم الشمنتري، ص ٤٥. وفيه: «أراد: أن أحضرَ، فلما أسقط "أن" ارتفع الفعل، وقد يجوز نصبه على إعمال "أن" مضمرة: يقول: يا مَن يلومني أن أحضر الحرب، وأن أنفق في الخمر وغيرها مِن أبواب الفتوّة واللذّات، هل في وسعك أن تخلدني فأكفّ عن ذلك وأتركه».

[2] يُضرب لمَن خَبَره خيرٌ مِن مَرآه. انظر: مجمع الأمثال للميداني، ١/١٢٩.

[3] لابن مقبل في ديوانه، ص ٣٨.

[4] ط س - إلخ.

[5] ط س: إرادة.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وقُرئ بالتخفيف[١] ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنباتِ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يبْسِها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإنّها مِن الظهور بحيث يكفي في إدراكها مجرّدُ العقل / عند استعماله في استنباط أسبابها وكيفيّة تكوّنها. [٣١٢ظ]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بإرادته تعالى لقيامهما، والتعبيرُ عنها بالأمر للدلالة على كمال القدرة والغِنَى عن المبادئ والأسباب. وليس المرادُ بإقامتهما إنشاءَهما؛ لأنّه قد بُيِّنَ حالُه بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾،[٢] ولا إقامَتَهما بغير مقيم محسوس كما قيل،[٣] فإنّ ذلك مِن تتمّاتِ إنشائهما، وإن لم يصرَّح به تعويلًا على ما ذُكر في غير موضع مِن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآيةَ [لقمان، ٣١/١٠]؛ بل قيامُهما واستمرارُهما على ما هما عليه إلى أجَلهما الذي نطَق به قوله تعالى فيما قبلُ: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ[٤] إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.[٥]

وحيث كانت هذه الآية متأخّرة عن سائر الآيات المعدودة متّصلةً بالبعث في الوجود أُخِّرَتْ عنهنّ، وجُعلت متّصلة به في الذِّكر أيضًا، فقيل: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فإنّه كلام مَسوق للإخبار بوقوع البعث ووجودِه بعد انقضاء أجَل قيامهما، مترتّبٌ على تعداد آياته الدالّة عليه، غيرُ منتظِم في سِلكها كما قيل، كأنّه قيل: ومِن آياته قيام السماوات والأرض على هيئاتهما بأمره تعالى إلى أجلٍ مسمًّى قدّره الله تعالى لقيامهما، ثمّ إذا دعاكم، أي: بَعْدَ انقضاء الأجَل مِن الأرض وأنتم في قبوركم دعوةً واحدةً -بأن قال: أيّها الموتى، اخرجوا- فاجأتُم الخروجَ منها، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ [طه، ٢٠/١٠٨].

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٨.
٢ الروم، ٣٠/٢٢.
٣ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٠٥.
٤ م ط س - وما بينهما.
٥ الروم، ٣٠/٨.

و﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلّق بـ﴿دَعَاكُمۡ﴾، إذ يكفي في ذلك كونُ المدعوّ فيها، يقال: "دَعوتُه مِن أسفل الوادي، فطلَع إليّ"، لا بـ﴿تَخۡرُجُونَ﴾؛ لأنّ ما بعد "إذا" لا يعمل فيما قَبلها.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾

﴿وَلَهُۥ﴾ خاصّةً ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن الملائكة والثقلين، خَلقًا ومُلكًا وتصرّفًا، ليس لغيره شركة في ذلك بوجه مِن الوجوه، ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: منقادون لفعله، / لا يمتنعون عليه في شأن مِن شئونه تعالى. [٣١٣و]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد موتهم، وتكريرُه لزيادة التقرير والتمهيدِ لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ أي: بالإضافة إلى قُدَرِكم والقياسِ على أصولكم، وإلّا فهما عليه سواء. وقيل: ﴿أَهۡوَنُ﴾ بمعنى "هَيِّن"، وتذكير الضمير مع رجوعه إلى "الإعادة"، لِما أنّها مئوّلة بـ"أنْ يُعِيد". وقيل: هو راجع إلى ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾،[١] وليس بذاك.

وأمّا ما قيل[٢] مِن أنّ "الإنشاء" بطريق التفضّل الذي يتخيّر فيه الفاعل بين الفعل والترك، و"الإعادةَ" مِن قَبيل الواجب الذي لا بدّ مِن فعله حتمًا، فكان أقربَ إلى الحصول مِن الإنشاء المتردّد بين الحصول وعدمه؛ فبمَعزِل مِن التحصيل، إذ ليس المراد بأَهْوَنِيّة الفعل أَقْرَبِيّتَه إلى الوجود باعتبار كثرة الأمور الداعية للفاعل إلى إيجاده وقُوّةِ اقتضائها لتعلّق قدرته به؛ بل أسهليّةُ تَأَتِّيه وصدورِه عنه بعد تعلّق قدرته بوجوده، وكونِه واجبًا بالغير، ولا تفاوتَ في ذلك بين أن يكون ذلك التعلّق بطريق الإيجاب أو بطريق الاختيار.

---

١ لعلّه يريد الضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾، وعبارة البيضاوي: "قيل: الهاء لـ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾". انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٦/٤؛ ومعاني القرآن للزجّاج، ١٨٣/٤.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤٧٧/٣.

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الوصفُ الأعلى العجيبُ الشأنِ مِن القدرة العامّة والحكمة التامّة، وسائرِ صفات الكمال التي ليس لغيره ما يُدانيها فَضلًا عمّا يُساويها، ومَن فسّره بقول: "لا إله إلّا الله" أراد به الوصفَ بالوحدانيّة.

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ متعلّق بمضمون الجملة المتقدّمة على معنى أنّه تعالى قد وُصِف به، وعُرِف فيهما على ألْسِنة الخلائق وألْسِنة الدلائل. وقيل: متعلّق بـ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾. وقيل: بمحذوف هو حال منه، أو مِن ﴿ٱلْمَثَلُ﴾، أو مِن ضميره في ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

[٣١٣ظ] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر الذي لا يَعجز عن بَدءِ ممكنٍ وإعادتِه، / ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يُجري الأفعال على سَنن الحكمة والمصلحة.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾ يتبيّن به بطلان الشرك ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منتزَعًا مِن أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم وأعرفُها عندكم، وأظهرُها دلالةً على ما ذُكِر مِن بطلان الشرك، لكونها بطريق الأولويّة.

وقوله تعالى: ﴿هَل لَّكُم﴾... إلخ تصوير للمَثَل، أي: هل لكم ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ مِن العبيد والإماء ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ مِن الأموال وما يجري مَجراها ممّا تتصرّفون فيها. فـ﴿مِن﴾ الأولى ابتدائيّة، والثانية تبعيضيّة، والثالثة مزيدة لتأكيد النفي المستفاد مِن الاستفهام.

وقوله تعالى:[١] ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ تحقيق لمعنى الشركة، وبيانٌ لكونهم وشركائهم متساوين في التصرّف فيما ذُكِر مِن غير مزيّةٍ لهم عليها، على أنّ هناك محذوفًا معطوفًا على ﴿أَنتُمْ﴾، لا أنّه عامّ للفريقين بطريق التغليب، أي: هل تَرضون لأنفسكم -والحالُ أنّ عبيدكم أمثالُكم في البشريّة وأحكامِها-

---

[١] م - تعالى.

أن يُشارِكوكم فيما رزقناكم، وهو مستعار لكم، فأنتم وهم فيه سواءٌ شَرَعٌ[١] يتصرّفون فيه كتصرّفكم مِن غير فرق بينكم وبينهم.

﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ خبرٌ آخر لـ﴿أَنتُمْ﴾، أو حال مِن ضمير الفاعل في ﴿سَوَآءٌ﴾، أي: تهابون أن تستبِدّوا بالتصرّف فيه بدون رأيهم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: خيفةً كائنةً مثلَ خيفتكم مِن الأحرار المساهمين لكم فيما ذُكر. والمعنى نفي مضمون ما فُصِل مِن الجملة الاستفهاميّة، أي: لا ترضون بأن يشارككم -فيما هو مُعَارٌ لكم- مماليككم، وهم أمثالكم في البشريّة غيرُ مخلوقين لكم؛ بل لله تعالى، فكيف تشركون به سبحانه في المعبوديّة التي هي مِن خصائصها الذاتيّة مخلوقَه؛ بل مصنوعَ مخلوقِه، حيث تصنعونه بأيديكم ثمّ تعبدونه؟

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلُ ذلك التفصيل الواضح ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: نبيّنها ونوضحها، لا تفصيلًا أدنى منه، فإنّ التمثيل تصويرٌ للمعاني المعقولة بصورة المحسوس، وإبرازٌ لأوابد المدرَكات على هيئة المأنوس، فيكون في غاية الإيضاح والبيان. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم في تدبّر الأمور. وتخصيصُهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكلّ لأنّهم المنتفعون بها.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ إعراض عن مخاطبتهم ومحاولةِ إرشادهم / إلى [٣١٤و]
الحقّ بضرب المَثَل وتفصيلِ الآيات واستعمالِ المقدّمات الحَقّة المعقولةِ، وبيانٌ لاستحالة تبعيّتهم للحقّ، كأنّه قيل: لم يعقلوا شيئًا مِن الآيات المفصّلة؛ بل اتّبعوا ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغةَ. ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم

---

[١] "شَرَعٌ" بفتح الشين المعجمة وفتحِ الراء المهملة وبعدَه عين مهملة، بمعنى سواء كما في الفصيح لثعلب، ص ٢٨٨. قال ابن درستويه في شرح الفصيح، ص ٢٥٢: «كأنّه جمع "شارع"، كخادم وخَدَم، أي: كلُّكم يَشرَع فيه شروعًا واحدًا». ويستوي فيه المذكّر والمؤنّث، والمفردُ وغيره. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١١٩/٧.

بأنّهم في ذلك الاتّباع ظالمون، واضعون للشيء في غير موضعه، أو ظالمون لأنفسِهم بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أي: جاهلين ببطلان ما أَتَوا، مُكبّين عليه، لا يَلويهم عنه صارف حسبما يصرّف العالِمَ إذا اتّبع الباطلَ علمُه ببطلانه.

﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: خَلَقَ فيه الضلال لصرف اختياره إلى كسبه، أي: لا يقدر على هدايته أحدٌ. ﴿وَمَا لَهُم﴾ أي: لِمَن أضلّه الله تعالى، والجمعُ باعتبار المعنى. ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلِّصونهم مِن الضلال، ويحفظونهم مِن تَبِعاته وآفاتِه، على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد، على ما هو قاعدة مقابلةِ الجمع بالجمع.

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ تمثيل لإقباله على الدين، واستقامتِه وثباتِه عليه، واهتمامِه بترتيب أسبابه، فإنّ مَن اهتمّ بشيء محسوس بالبصر عقَد عليه طَرْفَه، وسدّد إليه نظرَه، وقوّم له وجهَه مقبلًا به عليه، أي: فقوِّم وجهَك له، وعَدِّلْهُ غيرَ ملتفت يمينًا وشمالًا. وقوله تعالى: ﴿حَنِيفٗا﴾ حال مِن المأمور، أو مِن ﴿ٱلدِّينِ﴾.

﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾ "الفِطرة": الخِلقة. وانتصابُها على الإغراء، أي: الزموا -أو عليكم- فطرةَ الله، فإنّ الخطاب للكلّ كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ﴾.[١] والإفراد في ﴿أَقِمۡ﴾ لِما أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم إمام الأمّة، فأمرُه عليه السلام مستتبع لأمرهم. والمراد بلزومها الجريانُ على موجَبها، وعدمُ الإخلال به باتّباع الهوى وتسويلِ الشياطين. وقيل: على المصدر، أي: فطرَ الله فطرةً.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ صفة لـ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾، مؤكِّدة لوجوب / الامتثال بالأمر، فإنّ خَلْقَ اللهِ الناسَ على فطرته -التي هي عبارة عن قَبولهم للحقّ وتمكّنِهم مِن إدراكه، أو عن ملّة الإسلام- مِن موجِبات لزومها والتمسّكِ بها قطعًا، فإنّهم لو خُلُّوا وما خُلِقوا عليه أدّى بهم إليها، وما اختاروا عليها دينًا آخر، [٣١٤ظ]

---

[١] في الآية التالية.

ومَن غَوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجنّ، ومنه قوله عليه السلام حكايةً عن ربّ العزّة: «كلّ عبادي خلقتُ حنفاءَ فاجْتالَتْهم[1] الشياطين عن دينهم، وأمروهم أن يشركوا بي غيري»،[2] وقولُه عليه السلام: «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه هما اللذان يُهوّدانه ويُنصّرانه».[3]

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى، أو لوجوب الامتثال به، أي: لا صحّةَ ولا استقامةَ لتبديله بالإخلال بموجَبه وعدمِ ترتيب مقتضاه عليه باتّباع الهوى وقَبولِ وسوسة الشيطان. وقيل: لا يقدر أحد على أن يغيّره، فلا بدّ حينئذ مِن حَمل "التبديل" على تبديل نفسِ الفطرة بإزالتها رأسًا، ووضعِ فطرة أُخرى مكانها غيرِ مصحِّحة لقَبول الحقّ والتمكّنِ مِن إدراكه، ضرورةَ أنّ "التبديل" بالمعنى الأوّل مقدور، بل واقع قطعًا، فالتعليل حينئذ مِن جهة أنّ سلامة الفطرة متحقّقة في كلّ أحد، فلا بدّ مِن لُزومها بترتيب مقتضاها عليها، وعدمِ الإخلال به بما ذُكر مِن اتّباع الهوى وخطواتِ الشيطان.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى "الدين" المأمورِ بإقامة الوجه له، أو إلى "لزوم فِطرة الله" المستفادِ مِن الإغراء، أو إلى "الفِطرة" إن فُسِّرت بالملّة. والتذكير بتأويل المذكور، أو باعتبار الخبر. ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستوي الذي لا عِوجَ فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيصدّون عنه صدودًا.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٣١﴾

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ حال مِن الضمير في الناصب المقدَّر لـ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، أو في ﴿أَقِمْ﴾؛ لعمومه للأمّة حسبما أُشيرَ إليه، وما بينهما اعتراض، أي: راجعين إليه، مِن "أنابَ" إذا رجع مرّةً بعد أخرى.

---

[1] وفي هامش م: اجتالَهم: حوّلَهم عن قصدهم. قاموس. | القاموس المحيط للفيروزابادي، «جول».

[2] مسند أحمد، ٣٣/٢٩ (١٧٤٨٤)؛ صحيح مسلم، ٢١٩٧/٤ (٢٨٦٥).

[3] صحيح البخاري، ١٠٠/٢ (١٣٨٥)؛ صحيح مسلم، ٢٠٤٧/٤ (٢٦٥٨).

[٣١٥و] / وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: مِن مخالفة أمره. عطفٌ على المقدّر المذكور. وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المبدِّلين لفِطرة الله تعالى تبديلًا.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] بإعادة الجارّ. وتفريقُهم لدينهم اختلافُهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم. وفائدة الإبدال التحذيرُ عن الانتماء إلى حزبٍ مِن أحزاب المشركين ببيان أنّ الكلّ على الضلال المبين. وقُرئ: "فَارَقُوا"،[2] أي: تركوا دينهم الذي أُمِروا به، ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا تشايع كلّ منها إمامَها الذي أضلّها.

﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ مِن الدين المعوَجّ المؤسَّس على الرأي الزائغ والزعمِ الباطلِ ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون ظنًّا منهم أنّه حقّ، وأنّى له ذلك؟ فالجملة اعتراض مقرِّر لمَضمون ما قبلَه مِن تفريق دينهم وكونِهم شِيَعًا. وقد جُوّز أن يكون ﴿فَرِحُونَ﴾ صفةً لـ﴿كُلُّ﴾ على أنّ الخبر هو الظرف المقدَّم، أعني: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ﴾،[3] ولا يخفى بُعده.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي: شدّةٌ ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين مِن دعاء غيره، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خَلاصًا مِن تلك الشدّة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ الذي كانوا دعَوه منيبين إليه ﴿يُشْرِكُونَ﴾ أي: فاجَأَ فريق منهم الإشراكَ. وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لِما أنّ بعضهم ليسوا كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان، ٣١/٣٢]، أي: مقيم على الطريق القصد، أو متوسّط في الكفر لانزجاره في الجملة.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦.

[3] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٧٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٠٧.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣٤ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ٣٥﴾

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ "اللام" فيه للعاقبة، وقيل: للأمر التهديدي، كقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ غيرَ أنّه التُفِت فيه للمبالغة. وقُرئ: "وَلْيَتَمَتَّعُوا".[١]

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ تمتّعِكم. وقُرئ بـ"الياء"،[٢] على أنّ ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ ماضٍ.

والالتفات إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ للإيذان بالإعراضِ عنهم، وتعديدِ جناياتهم لغيرهم بطريق المُباثّة. ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجّةً واضحةً. / وقيل: ذا سلطان، أي: مَلِكًا معه برهان، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تكلُّمَ دلالةٍ، [٣١٥ظ] كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية، ٢٩/٤٥]، أو تكلُّمَ نطقٍ، ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ بإشراكهم به تعالى، أو بالأمر الذي بسببه يشركون.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ٣٦﴾

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمةً مِن صِحّة وسَعةٍ ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ بطَرًا وأشَرًا، لا حمدًا وشكرًا، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ﴾ شدّة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بشُؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فاجئُوا القنوطَ مِن رحمته تعالى. وقُرئ بكسر "النون".[٣]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فما لهم لم يشكروا، ولم يحتسِبوا في السرّاء والضرّاء كالمؤمنين. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيستدلّون بها على كمال القدرة والحكمة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٤٨٠/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي العالية. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٥.

٣ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ مِن الصلة والصدقة وسائرِ المَبرّات ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ما يستحقّانه. والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أو لمَن بُسِط له، كما يُؤذِن به "الفاء".

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ذاتَه، أو جهتَه، ويَقصدون[١] بمعروفهم إيّاه تعالى خالصًا، أو جهةَ التقرّب إليه، لا جهةً أُخرى. ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ حيث حصّلوا بما بُسِط لهم النعيمَ المقيم.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ زيادةً خاليةً عن العوض عند المعاملة. وقُرئ: "أَتَيتُمْ" بالقَصر،[٢] أي: غَشِيتموه، أو رَهِقتموه مِن إعطاء رِبًا ﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ ليزيدَ ويزكُوَ في أموالهم، ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يبارَك فيه. وقُرئ: "لِتُرْبُوا"،[٣] أي: لِتَزيدوا، أو لِتَصِيروا ذَوِي رِبًا.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: تبتغون به وجهه تعالى خالصًا، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: ذَوو[٤] الأضعاف مِن الثواب. ونظير "المُضعِف": "المُقْوِي" و"المُوسِرُ"، لِذي القوّة واليَسار، أو الذين ضَعّفوا/ ثوابَهم وأموالَهم بالبركة. [٣١٦و]
وقُرئ بفتح "العين"،[٥] وفي تغيير النظم الكريم والالتفاتِ مِن الجزالة ما لا يخفى.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

---

١ ط س: أو يقصدون. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.
٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٤.
٤ م ط س: ذووا.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. **البحر المحيط لأبي حيّان**، ٨/٣٩٤.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أثبتَ له تعالى لوازم الألوهيّة وخواصّها، ونفاها رأسًا عمّا اتّخذوه شركاء له تعالى مِن الأصنام وغيرها، مؤكِّدًا بالإنكار على ما دلّ عليه البرهان والعَيان ووقع عليه الوفاق، ثمّ استنتج منه تَنزّهَه عن الشركاء بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وقد جوّز أن يكون الموصول صفةً، والخبرُ ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، والرابطُ قولَه تعالى: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾؛ لأنّه بمعنى "مِن أفعاله".

و﴿مِن﴾ الأولى والثانية تُفيدان شُيوع الحُكم في جنس الشركاء والأفعال، والثالثةُ مزيدة لتعميم المنفيّ، وكلّ منها مستقلّة بالتأكيد. وقُرئ: "تُشْرِكُونَ" بصيغة الخطاب.[1]

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كالجَدْب، والمُوتانِ،[2] وكثرةِ الحَرْق والغرَق، وإخْفاقِ الغاصةِ،[3] ومَحقِ البركات، وكثرةِ المَضارّ، أو الضلالةِ والظلم. وقيل: المراد بـ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ قُرى السواحل. وقُرئ: "وَالْبُحُورِ".[4] ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بشُؤم معاصيهم، أو بكسبهم إيّاها.

وقيل: ظهَرَ الفساد في البَرّ بقتل قابيلَ أخاه هابيل، وفي البحر بأنّ جُلَنْدَى[5] كان يأخذ كلَّ سفينةٍ غصبًا.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٢.

٢ المُوتان -بالضمّ-: موتٌ يقع في الماشية. والمَوَتان -بالتحريك-: خلاف الحَيَوان. وقال الفَرّاء: المَوَتان مِن الأرض: التي لم تُحْيَ بعد. **الصحاح** للجوهري، «موت».

٣ الإخفاق: الخَيبة، والغاصة -بتخفيف الصاد المهملة، كـ"سادة"- جمع أو اسم جمع لـ"غائص"؛ وهو مَن ينزل لِقَعر البحر لإخراج اللؤلؤ ونحوه، فإنّه إذا لم يقع المطر لم يتكوّن اللؤلؤ في الصدَف. **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٧/١٢٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٦.

٥ جُلَنْدَى بضمّ الجيم وفتح اللام، بعدها نون ساكنة، ودال مهملة، وهو مقصور، ويُمدّ، وهو المَلِك الذي ذُكر في قِصّة الخَضِر عليه السلام. **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٧/١٢٤.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ أي: بعض جزائه، فإنّ تمامه في الآخرة. و"اللام" للعِلّة، أو للعاقبة. وقُرئ: "لِنُذِيقَهُم" بـ"النون".[١] ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمّا كانوا عليه.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ ليشاهدوا آثارهم. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئناف للدلالة على أنّ ما أصابهم لفُشوّ الشرك فيما بينهم، أو كان الشرك في أكثرهم / وما دونه مِن المعاصي في قليل منهم. [٣١٦ظ]

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ أي: البليغ الاستقامة ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ لا يقدِر أحَد على ردّه ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿يَأْتِىَ﴾، أو بـ﴿مَرَدَّ﴾؛ لأنّه مصدر، والمعنى: لا يردّه الله تعالى لتعلّق إرادته القديمة بمَجيئه.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أصله "يَتصدَّعون"، أي: يتفرّقون؛ فريق في الجنّة، وفريق في السعير.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وَبالُ كفره، وهو النار المؤبّدة. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يُسَوُّون منزلًا في الجنّة. وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص.

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ متعلّق بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾.[٢] وقيل: بـ﴿يَمْهَدُونَ﴾،[٣] أي: يتفرّقون بتفريق الله تعالى فريقين؛ ليجزيَ كلًّا منهما

---

[١] قرأ بها رَوح عن يعقوب وقُنبل عن ابن كثير بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

[٢] الروم، ٣٠/٤٣.

[٣] في الآية السابقة.

بحسب أعمالهم. وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصودَ بالذات أُبرز ذلك في معرض الغاية، وعُبّر عنه بالفضل، لِما أنّ الإثابة بطريق التفضّل، لا الوجوبِ، وأشيرَ إلى جزاء الفريق الآخر بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنّ عدم محبّته تعالى كناية عن بُغضه الموجِب لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالةَ.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ أي: الشمال والصَّبا والجَنوب، فإنّها رياح الرحمة، وأمّا الدَّبور فريح العذاب، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «اللّٰهمّ اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا».[1] وقُرئ: "الرِّيحَ" على إرادة الجنس.

﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطر، ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ وهي المنافع التابعة لها. وقيل: الخِصْب التابع لنزول المطر المسبَّبِ عنها، أو الرَّوح الذي هو مع هبوبها. و"اللام" متعلّقة بـ﴿يُرْسِل﴾، والجملة معطوفة على ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ على المعنى، كأنّه قيل: لِيبشّرَكم بها / ولِيذيقَكم، أو بمحذوف يُفهم مِن ذكر الإرسال، تقديرُه: ولِيذيقَكم وليكون كذا وكذا يُرسِلُها، لا لِأمرٍ آخر لا تعلّقَ له بمنافعكم. [٣١٧و]

﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ بسَوقها ﴿بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بتجارة البحر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا نعمة الله فيما ذُكر مِن الغايات الجليلة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كما أرسلناك إلى قومك، ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: جاء كلّ رسول قومَه بما يخصّه مِن البيّنات كما جئتَ قومَك ببيّناتك. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ فصيحة، أي: فكذّبوهم فانتقمنا منهم. وإنّما وُضِع موضعَ ضميرهم الموصولُ للتنبيه على مكان المحذوف، والإشعارِ بكونه علّةً للانتقام.

---

[1] مسند أبي يعلى الموصلي، ٣٤١/٤ (٢٤٥٦)؛ المعجم الكبير للطبراني، ٢١٣/١١ (١١٥٣٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مزيدُ تشريف، وتكرمةٌ للمؤمنين، حيث جُعِلوا مستحقّين على الله تعالى أن ينصرهم، وإشعارٌ بأنّ الانتقام مِن الكفرة لأجلهم. وقد يوقف على ﴿حَقًّا﴾ على أنّه متعلّق بالانتقام.

ولعلّ توسيطَ الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين ما سبق وما لحِق مِن أحوال الرياح وأحكامها لإنذار الكفرة وتحذيرهم عن الإخلال بمواجب الشكر المطلوبِ بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] بمقابلة النعَم المعدودة المَنوطة بإرسالها، كيلا يحلّ بهم مثلُ ما حلّ بأولئك الأمم مِن الانتقام.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ استئناف مَسوق لبيان ما أُجمِل فيما سبَق مِن أحوال الرياح، ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾ متّصلًا تارة ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ في جوّها ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ سائرًا وواقفًا، مُطبقًا وغيرَ مُطبق، مِن جانب دون جانب، إلى غير ذلك.

[٣١٧ظ] ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ تارةً أُخرى / أي: قِطَعًا. وقُرئ بسكون "السين"[2] على أنّه مخفَّف، جمع "كِسفة"، أو مصدرٌ وُصِف به، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾ في التارتَين.

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أي: بلادِهم وأراضيهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فاجَئُوا الاستبشار بمجيء الخِصْب.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن "إنّ"، وضميرُ الشأن الذي هو اسمها محذوف، أي: وإنّ الشأن كانوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ أي: المطر ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ تكرير للتأكيد،

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قرأ بها أبو جعفر وابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

والإيذانِ بطول عهدهم بالمطر، واستحكامِ يأسهم منه. وقيل: الضمير للمطر، أو السحابِ، أو الإرسالِ. وقيل: للكِسْف على القراءة بالسكون، وليس بواضح، وأقرب مِن ذلك أن يكون الضمير للاستبشار، و﴿مِن﴾ متعلّقةً بـ﴿يُنَزَّلَ﴾ لِيفيد سرعة تقلّب قلوبهم مِن اليأس إلى الاستبشار بالإشارة إلى غاية تقارب زمانَيهما ببيان اتّصال اليأس بالتنزيل المتّصل بالاستبشار بشهادة "إذا" الفجائيّة ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ خبر ﴿كَانُواْ﴾، و"اللام" فارقة، أي: آيسين.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ۝﴾

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ المترتّبة على تنزيل المطر مِن النبات والأشجار وأنواع الثمار. و"الفاء" للدلالة على سرعة ترتّبها عليه. وقُرِئ: "أَثَرِ"[1] بالتوحيد. وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْيِ﴾ أي: اللهُ تعالى ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ في حيّز النصب بنَزع الخافض. و﴿كَيْفَ﴾ معلّق لـ﴿ٱنظُرْ﴾، أي: فانظر إلى إحيائه البديع للأرض بعد موتها. وقيل: على الحاليّة بالتأويل، وأيًّا ما كان فالمراد بالأمر بالنظر التنبيه على عِظَم قدرته تعالى، وسَعة رحمته، مع ما فيه مِن التمهيد لِما يعقُبه مِن أمر البعث. وقُرِئ: "تُحْيِي"[2] بالتأنيث على الإسناد إلى ضمير الرحمة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العظيمَ الشأنِ الذي ذُكر بعضُ شئُونه ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لَقادر على إحيائهم، فإنّه إحداث لِمثْل ما كان في موادّ أبدانهم مِن القوى الحيوانيّة، كما أنّ إحياء الأرض / إحداث لمِثل[3] ما كان فيها مِن القوى النباتيّة، أو لَمُحييهم البتّة. [٣١٨و]

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ تذييل مقرّر لمضمون ما قبله، أي: مبالغ في القدرة على جميع الأشياء التي مِن جملتها إحياؤهم لِما أنّ نسبة قدرته إلى الكلّ سواء.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٦.

٣ س – لمثل.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ۝٥١﴾

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ﴾ أي: الأثرَ المدلول عليه بالآثار، أو النباتَ المعبَّر عنه بالآثار، فإنّه اسم جنس يعمّ القليلَ والكثير، ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد خُضرته. وقد جُوّز أن يكون الضمير للسحاب؛ لأنّه إذا كان مُصفرًّا لم يُمطر،[١] ولا يخفى بُعده.

و"اللام" في ﴿وَلَئِنْ﴾ موطِّئة للقسَم دخلت على حرف الشرط، و"الفاء" في ﴿فَرَأَوْهُ﴾ فصيحة، و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَّظَلُّوا﴾ لام جواب القسَم السادِّ مسدَّ الجوابَين، أي: وباللهِ لئن أرسلنا ريحًا حارّةً أو باردةً فضربَتْ زرعهم بالصُّفار فرأَوه مُصفرًّا لَيَظَلُّنَّ ﴿مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ مِن غير تلعثُم.

وفيه مِن ذمّهم بعدم تثبّتهم وسرعةِ تزلزلهم بين طرفَي الإفراط والتفريط ما لا يخفى، حيث كان الواجب عليهم أن يتوكّلوا على الله تعالى في كلّ حال، ويلجَئُوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم القَطر، ولا يَيأسوا مِن رَوح الله تعالى، ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم برحمته، ولا يفرّطوا في الاستبشار، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زَرعَهم آفةٌ، ولا يكفروا بنَعمائه، فعكسوا الأمرَ، وأبَوا ما يُجديهم، وأتَوا بما يُرديهم.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٥٢﴾

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ لِما أنّهم مثلهم، لانسداد مشاعرهم عن الحقّ، ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ تقييد الحكم بما ذُكر لبيان كمال سوء حال الكفرة، والتنبيهِ على أنّهم جامعون لخَصلتَي السوء؛ نُبُوِّ أسماعهم عن الحقّ، وإعراضِهم عن الإصغاء إليه، ولو كان فيهم إحداهما لكفاهم ذلك، فكيف وقد جمعوهما؟ فإنّ الأصمّ المُقبِل إلى المتكلِّم / ربّما يَفطَنُ مِن أوضاعه وحركاته [٣١٨ظ]
بشيء مِن كلامه، وإن لم يسمعه أصلًا، وأمّا إذا كان مُعرضًا عنه فلا يكاد يَفهم منه شيئًا. وقُرئ بـ"الياء" المفتوحة ورفعِ ﴿الصُّمَّ﴾.[٢]

---

[١] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢١٠.

[٢] أي: "وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ". قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٩.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٥٣﴾

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ سمُّوا عُميًا إمّا لفَقدهم المقصودَ الحقيقي مِن الإبصار، أو لِعَمَى قلوبهم. وقُرئ: "تَهْدِي الْعُمْيَ".[١]

﴿إِن تُسۡمِعُ﴾ أي: ما تُسمِع ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإنّ إيمانهم يدعوهم إلى التدبّر فيها وتلقّيها بالقبول، أو إلّا مَن يشارف الإيمانَ بها، ويُقبِل عليها إقبالًا لائقًا، ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ مُنقادون لِما تأمرهم به[٢] مِن الحقّ.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ ضَعۡفًا وَشَيۡبَةًۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ﴾ مبتدأ وخبر، أي: ابتدأكم ضعفاء، وجعلَ الضعف أساسَ أمركم، كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء، ٢٨/٤]، أي: خَلَقكم مِن أصل ضعيف، هو النطفة.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ قُوَّةً﴾ وذلك عند بلوغكم الحُلم، أو تَعلُّقَ بأبدانكم الروحُ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ ضَعۡفًا وَشَيۡبَةً﴾ إذا أخذ منكم السِّنُّ. وقُرئ بضمّ "الضاد" في الكلّ،[٣] وهو أَقوى، لقول ابن عمر رضي الله عنهما: «قرأتُها على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأقرأني: "مِن ضُعْفٍ"».[٤] وهما لغتان، كـ"الفَقر" و"الفُقر". والتنكير مع التكرير لأنّ المتقدِّم غير المتأخّر.

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها ما ذكر مِن الضعف والقوّة والشيبة، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ المبالغ في العِلم والقدرة، فإنّ الترديد فيما ذُكر مِن الأطوار المختلفة مِن أوضح دلائل العِلم والقدرة.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥﴾

---

١ قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٣٩/٢.
٢ س – به.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٥/٢.
٤ سنن أبي داود، ١٠٥/٦ (٣٩٧٨)؛ سنن الترمذي، ١٨٩/٥ (٢٩٣٦).

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامةُ، سمّيت بها لأنّها تقوم في آخر ساعة مِن ساعات الدنيا، أو لأنّها تقع بغتةً، وصارت عَلَمًا لها، كـ"النجم" للثريّا، و"الكوكب" للزُّهرة.

﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ﴾ أي: في القبور، أو في الدنيا، والأوّل هو الأظهر؛ لأنّ لُبثهم مُغيًا بيوم البعث كما سيأتي، وليس لُبثهم في الدنيا كذلك. وقيل: فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم. وفي الحديث: «ما بين فَناء الدنيا والبعث أربعون»،[١] وهو محتمِل للساعات والأيّام والأعوام. وقيل: لا يُعلم أهِي أربعون سنةً، أو أربعون ألفَ سنةٍ.

﴿غَيۡرَ سَاعَةٖ﴾ استقلّوا مدّةَ لبثهم نسيانًا أو كذبًا أو تخمينًا، ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ مِثل ذلك الصَّرف كانوا يُصرفون في الدنيا عن الحقّ والصدق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ في الدنيا مِن الملائكة والإنس: ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ
[٣١٩و] / فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في علمه، أو قضائه، أو ما كتبه وعيّنه، أو في اللوح، أو القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾ [المؤمنون، ١٠٠/٢٣]. ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ﴾ رَدّوا بذلك ما قالوه، وأيّدوه باليمين، كأنّهم مِن فَرْط حَيرتهم لم يدروا أنّ ذلك هو البعث الموعود الذي كانوا ينكرونه، وكانوا يسمعون أنّه يكون بعد فناء الخلق كافّةً، ويقدّرون لذلك زمانًا مديدًا، وإن لم يعتقدوا تحقُّقه.

فرَدّ العالِمون مقالتَهم ونبّهوهم على أنّهم لبثوا إلى غاية بعيدة كانوا يسمعونها وينكرونها، وبَكَّتُوهم بالإخبار بوقوعها حيث قالوا: ﴿فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٠/٤. وقال الوليّ العراقي: لم أقف عليه هكذا. وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. وفي الصحيحين [صحيح البخاري، ١٢٦/٦ (٤٨١٤)؛ صحيح مسلم، ٢٢٧٠/٤ (٢٩٥٥)] عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «ما بين النفختين أربعون»، قالوا: «يا أبا هريرة، أربعون سنة؟» قال: «أبَيت»، قالوا: «أربعون شهرًا؟» قال: «أبَيت»، قالوا: «أربعون يومًا؟» قال: «أبَيت». الفتح السماوي للمناوي، ٩٠٩/٢.

الذي كنتم توعدون في الدنيا، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنّه حقّ، فتستعجلون بها استهزاءً، و"الفاء" جواب شرطٍ محذوف، كما في قول مَن قال:

قالوا خُراسانُ أقصَى ما يُراد بنا ثمّ القُفول، فقد جِئنا خُراسانا[1]

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: عُذرُهم. وقُرئ: "تَنْفَعُ" بـ"التاء"[2] محافظةً على ظاهر اللفظ وإن توسّط بينهما فاصل. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يُدعَون إلى ما يقتضي إعتابَهم -أي: إزالةَ عَتْبِهم- مِن التوبة والطاعة كما دُعُوا إليه في الدنيا، مِن قولهم: "استعتَبني فلان، فأَعْتَبْتُه"، أي: استرضاني فأرضَيته.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: وبالله لقد بيّنّا لهم كلّ حال، ووصفنا لهم كلّ صفة، كأنّها في غَرابتها مَثَل، وقَصصنا عليهم كلّ قِصّة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة وقِصّتهم، وما يقولون وما يقال لهم ويُفعَلُ بهم مِن ردِّ اعتذارِهم.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ مِن آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ لِفَرْط عُتوّهم وعِنادهم وقَساوة قلوبهم مُخاطِبين للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين:[3] ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: مزوِّرون.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثلُ ذلك الطبعِ الفظيعِ ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يَطلبون العِلم، ولا يتحرَّون الحقَّ؛ بل يُصِرّون على خرافاتٍ اعتقدوها، وتُرَّهات ابتدعوها، فإنّ الجهل المركّب يَمنع إدراك الحقّ، ويوجِب تكذيب المُحِقّ.

---

١ للعبّاس بن الأحنف في ديوانه، ص ٢٧٩. قاله لمّا خرج مع الرشيد إلى خراسان.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٦.

٣ ط س: وللمؤمنين.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾

﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما تشاهد منهم مِن الأقوال الباطلة والأفعال السيّئة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ / وقد وعَدك بالنصرة وإظهارِ الدين، وإعلاءِ كلمة الحقّ، ولا بدّ مِن إنجازه والوفاءِ به لا محالةَ. [٣١٩ظ]

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يَحملنّك على الخِفّة والقَلَق ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بما تتلو عليهم مِن الآيات البيّنة بتكذيبهم إيّاها، وإيذائهم لك بأباطِيلهم التي مِن جملتها قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾،[١] فإنّهم شاكّون ضالّون، ولا يُستبدَع منهم أمثال ذلك. وقُرئ بـ"النون" المخفّفة.[٢] وقُرئ: "وَلَا يَسْتَحِقَّنَّكَ"[٣] مِن "الاستِحقاق"، أي: لا يَفْتِنُنَّك فيملِكوك ويكونوا أحقَّ بك مِن المؤمنين.

وأيًا ما كان فظاهر النظم الكريم وإن كان نهيًا للكفرة عن استخفافه[٤] عليه السلام واستحقاقه لكنّه في الحقيقة نهي له عليه السلام عن التأثّر مِن استخفافهم، والأفتتان بفتنتهم على طريق الكناية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة، ٥/٨].

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الروم كان له مِن الأجر عشر حسنات بعدد كلّ ملَك سبّح الله تعالى بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيّع في يومه وليلته».[٥]

---

[١] الروم، ٣٠/٥٨.

[٢] أي: "وَلَا يَسْتَخِفْنَكَ". قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٦.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٨٨.

[٤] س: استحفافه.

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٩١؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٢٧. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٣٠

سُورَةُ الرُّومِ

مكية، وهي ستون أو تسع وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الم﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ـ وهم أهل الكِتاب ـ غلبَتْها فارسُ وليسوا أهل كتاب بل يعبدون الأوثان، ففرح كُفّار مكّة بذلك، وقالوا للمُسلمين: «نحن نغلبُكم كما غَلبتْ فارسُ الرومَ»، ٣ ـ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أي: أقربِ أرض الروم إلى فارسَ بالجزيرة، التقى فيها الجيشان والبادي بالغزو الفرسُ، ﴿وَهُم﴾ أي: الروم ﴿مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ ـ أُضيفَ المصدر إلى المفعول ـ أي: غلبةِ فارسَ إياهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارسَ ٤ ـ ٥ ـ ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ هو ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر. فالتقى الجيشان في السنة السابعة من الالتقاء الأول، وغَلبَتِ الرومُ فارسَ ـ ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ أي: من قبلِ غَلَبِ الروم ومن بعده. المعنى: أنّ غلبةَ فارسَ أوّلاً وغلبةَ الرومِ ثانيًا بأمر الله، أي: إرادته ـ ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ تغلب الرومُ ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾............................

سُورَةُ الرُّومِ

قولُه: (وَلَيْسُوا) أي: فارسَ.

قولُه: (بذَلِكَ) أي: الغَلَبِ.

قولُه: (بالجَزِيرَةِ) وقيلَ: من أقربِ أرضِ العربِ إلى الرُّومِ؛ لأنَّها المعهودةُ عندَهم في طرفِ الشَّامِ.

قولُه: (تَغْلِبُ) معلومٌ.

إيّاهم على فارسَ. وقد فرحوا بذلك، وعلموا به يومَ وقوعه يومَ بدر بنزول جبريل بذلك فيه، مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه. ﴿يَنصُرُ مَن يَشاءُ، وهُوَ العَزِيزُ﴾: الغالب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

٦ ـ ﴿وَعْدَ اللهِ﴾: مصدرٌ بدل من اللفظ بفعله، والأصل: وَعَدَهم اللهُ النصرَ، ﴿لا يُخلِفُ اللهُ وَعدَهُ﴾ به، ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ أي: كُفّارِ مكّة ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ وعدَه ـ تعالى ـ بنصرهم، ٧ ـ ﴿يَعلَمُونَ ظاهِرًا مِنَ الحَياةِ الدُّنيا﴾ أي: معايشَها من التجارة والزراعة والبناء والغرس وغير ذلك، ﴿وهُم عَنِ الآخِرةِ هُم غافِلُونَ﴾. أعاد «هم» تأكيدًا. ٨ ـ ﴿أوَلَم يَتَفَكَّرُوا في أنفُسِهِم﴾ ليرجِعوا عن غفلتهم: ﴿ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ وما بَينَهُما إلاّ بِالحَقِّ وأجَلٍ مُسَمًّى﴾؟..........................

قولُه: (إيَّاهُم) أي: مَن له كتابٌ على مَن لا كتابَ له، لِمَا فيهِ من انقلابِ التَّفاؤلِ وظهورِ صِدْقِهِم فيما أخبَروا به المشركينَ.

قولُه: (يومَ بَدرٍ) وقيلَ: يومَ الحديبيةِ.

قولُه: (مَعَ فَرحِهِمْ) متعلِّقٌ بـ«فرحُوا».

قولُه: (بدل) لعلَّ معناهُ: أُقيمَ مقامَ فعلِهِ باللَّفظِ، وظاهرُ كلامِهِ أنَّه من اللَّفظِ المذكورِ، وقالَ القاضي: مصدرٌ مؤكِّدٌ لنفسِهِ؛ لأنَّ ما قبلَهُ في معنى الوعدِ[١].

قولُه: (بِهِ) أي: النَّصرِ وبغيرِه[٢] الشَّاملِ للوعيدِ أيضاً.

قولُه: (كُفَّارِ مَكَّةَ) وغيرِها.

قولُه: (وَعْدَهُ) أي: صحَّةَ وعدِهِ.

قولُه: (وَغَيرِ ذَلِكَ) عنِ الحسنِ في الآيةِ قالَ: لَيبلغُ مِن حِذْقِ أحدِهِم بأمرِ دنياهُ أنَّه يقلِّبُ الدِّرهمَ على ظفرِهِ فيخبرُكَ بوزنِهِ وما يُحسِنُ يصلِّي، كذا في «الدُّرِّ»[٣].

قولُه: (تَأكِيداً) لتكريرِ الإسنادِ سواءٌ يكونُ الضَّميرُ تكريراً لـ﴿هم﴾ الأوَّلِ، أو مبتدأً وخبرُهُ: ﴿غَافِلُونَ﴾ والجملةُ خبرُ الأوَّلِ.

قولُه: (عَن غَفْلَتِهِم) بإحداثِ التَّفكُّرِ ويعلموا.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٠٢).

(٢) في (ص): «وبضده».

(٣) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٤) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

قلت: رواه أيضاً أبو حاتم في «الزهد» (٦٦).

لذلك تفنى عِند انتهائه، وبعدَه البعثُ. ﴿وإنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاسِ﴾ أي: كُفّارِ مكّة ﴿بِلِقاءِ رَبِّهِم لَكافِرُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث بعد الموت.

٩ ـ ﴿أوَلَم يَسِيرُوا في الأرضِ، فيَنظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ من الأُمم، وهي إهلاكُهم بتكذيبهم رُسلَهم؟ ﴿كانُوا أشَدَّ مِنهُم قُوَّةً﴾ كعادٍ وثمودَ، ﴿وأثارُوا الأرضَ﴾: حرثوها وقلبوها للزرع والغرس، ﴿وعَمَرُوها أكثَرَ مِمّا عَمَرُوها﴾ أي: كُفّارُ مكّة، ﴿وجاءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ﴾: بالحُجج الظاهرات، ﴿فما كانَ اللهُ لِيَظلِمَهُم﴾ بإهلاكهم بغير جُرم، ﴿ولكِن كانُوا أنفُسَهُم يَظلِمُونَ﴾ بتكذيبهم رُسُلَهم، ١٠ ـ ﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ أساؤُوا السُّوءَى﴾: تأنيث الأسوأ: الأقبح، خبرُ «كان» على رفع «عاقِبةُ» واسمُ «كان» على نصب «عاقِبةَ»، والمُراد بها جهنّم، وإساءتُهم ﴿أنْ﴾ أي: بأن............

قولُه: (لِذَلِكَ) أي: لِمَا ذُكِرَ من السَّماواتِ وغيرِها.

قولُه: (يَفْنَى) أي: ما ذكرَ، ويجوزُ التَّأنيثُ[1]، و(عِندَ انْتِهَائِهِ) أي: الأجلِ، فالمرادُ به: المدَّةُ، لا غايَتُها.

قولُه: (وبَعدَهُ البَعثُ) جملةٌ تقدَّمَ خبرُها.

قولُه: (كعَادٍ وثَمُودَ) كانَ الرَّجلُ بينَ منكبَيهِ مِيلٌ، كذا في «الدُّرِّ»[2].

قولُه: (والغَرْسِ) واستنباطِ[3] المياهِ واستخراجِ المعادنِ.

قولُه: (بالحُجَجِ) أي: المعجزاتِ، أو الآياتِ الواضحاتِ.

قولُه: (بِغَيرِ جُرمٍ) أي: ليعامِلَهُم معاملةَ الظَّلَمةِ فيدمِّرَهُم من غيرِ جرمٍ ولا تذكيرٍ؛ أي: ما كانَ من عادتِهِ ذلك.

قولُه: (بِتَكْذِيبِهِمْ) فأدَّى إلى تدميرِهِم.

قولُه: (عَلَى رَفْعِ ﴿عَاقِبَةُ﴾) للحِرْميَّينِ والبصريِّ[4].

قولُه: (جَهَنَّمُ) أو العقوبةُ السُّوأى.

قولُه: (وإِسَاءَتُهُم) إشارةٌ إلى أنَّ: ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو إيماءٌ إلى أنَّ ﴿أَنْ﴾ مفسِّرةٌ.

قولُه: (أي: بِأَنْ) الظَّاهرُ: أو بأنْ، فإنَّ أحدَ التَّقديرينِ مستدركٌ، ويبعدُ أن تكونَ الباءُ بياناً لإساءتِهِم المتقدمةِ مع إمكانِ أن يكونَ بياناً لـ﴿أساؤوا﴾ المذكورِ.

---

(١) وهكذا هو في نسخ المتن.

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٤، ٤٨٥)، وقال: أخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) في (د): «لاستنباط».

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٦).

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾: القُرآنَ ﴿وكانُوا بِها يَستَهزِئُونَ﴾.

١١ ـ ﴿اللهُ يَبدَأُ الخَلقَ﴾ أي: يُنشئ خلق الناس، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: خَلْقَهم بعد موتهم، ﴿ثُمَّ إِلَيهِ تُرجَعُونَ﴾ بالتاء والياء، ١٢ ـ ﴿ويَومَ تَقُومُ السّاعةُ يُبلِسُ المُجرِمُونَ﴾: يسكتُ المُشركون لانقطاع حُجّتهم، ١٣ ـ ﴿ولَم يَكُنْ﴾ أي: لا يكون ﴿لَهُم مِن شُرَكائهِم﴾ ممّن أشركوهم بالله ـ وهم الأصنام ليشفعوا لهم ـ ﴿شُفَعاءُ، وكانُوا﴾ أي: يكونون ﴿بِشُرَكائهِم كافِرِينَ﴾ أي: مُتبرّئين منهم.

١٤ ـ ﴿ويَومَ تَقُومُ السّاعةُ يَومَئذٍ﴾: تأكيدٌ ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي: المؤمنون والكافرون. ١٥ ـ ﴿فأمّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ فهُم في رَوضةٍ﴾: جنّة ﴿يُحبَرُونَ﴾: يُسَرّون، ١٦ ـ ﴿وأمّا الَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِآياتِنا﴾: القُرآنِ ﴿ولِقاءِ الآخِرةِ﴾: البعث وغيره ﴿فأُولَئكَ في العَذابِ مُحضَرُونَ﴾.

١٧ ـ ﴿فَسُبحانَ اللهِ﴾ أي: سبِّحوا اللهَ بمعنى: صلُّوا ﴿حِينَ تُمسُونَ﴾ أي: تدخلون في المساء، وفيه صلاتان: المغربُ والعِشاء، ﴿وحِينَ تُصبِحُونَ﴾ تدخلون في الصباح، وفيه صلاة الصُّبح ـ ١٨ ـ ﴿ولَهُ الحَمدُ في السَّماواتِ والأرضِ﴾: اعتراضٌ ومعناه يحمده أهلهما ـ ﴿وعَشِيًّا﴾: عطف على «حينَ» وفيه صلاة العصر، ﴿وحِينَ تُظهِرُونَ﴾: تدخلون في الظهيرة، وفيه صلاة الظهر!

قولُه: (خَلْقَ النَّاسِ) جعلَ الخلقَ مصدراً، واللَّامَ بدلاً من المضافِ إليه، وما أحوجَهُ إلى ذلكَ؟ فـ﴿الخلقُ﴾ بمَعنى: المخلوقِ على عمومِهِ؛ هو الصَّوابُ.

قولُه: (والياءِ) الغيبةُ لبصريٍّ وشعبةَ[1]؛ يعني: إلى جزائِهِ.

قولُه: (أي: لا يَكُونُ) ومجيئُهُ بلفظِ الماضي لتحقُّقِهِ.

قولُه: (لِيَشْفَعُوا) حقُّهُ التَّأخيرُ عن ﴿شُفَعَاءُ﴾.

قولُه: (يَكُونُونَ) وقيلَ: كانوا في الدُّنيا كافرينَ بسببِهِم.

قولُه: (والكَافِرُونَ) عن قتادةَ: فُرْقةٌ لا اجتماعَ بعدها[2].

قولُه: (يُسَرُّونَ) سروراً تهلَّلَتْ له وجوهُهُم، وفي حديثٍ مرفوعٍ كما في «الدُّرِّ»: «الحَبرُ: اللَّذَّةُ والسَّماعُ»[3].

قولُه: (بِمَعنَى: صَلُّوا) أو بمعنى: نَزِّهوا، فهو خبرٌ معناهُ الأمرُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٨١). وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٥): لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٨٦) عن يحيى بن أبي كثير عن النبي ﷺ مرسلًا. وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٦) لعبد بن حميد. وورواه الترمذي (٢٥٦٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٠٢١)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٨٢)، عن يحيى بن أبي كثير من قوله.

١٩ ـ ﴿يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيْتِ﴾ كالإنسانِ من النُّطفة والطائرِ من البيضة، ﴿ويُخرجُ المَيْتَ﴾: النُّطفةَ والبيضة ﴿مِنَ الحَيِّ، ويُحيِي الأرضَ﴾ بالنبات ﴿بَعدَ مَوتِها﴾ أي: يُبسِها ـ ﴿وكَذلِكَ﴾ الإخراجِ ﴿تَخرُجُونَ﴾ من القُبور، بالبناء للفاعل والمفعول ـ ٢٠ ـ ﴿ومِن آياتِهِ﴾ ـ تعالى ـ الدالّةِ على قُدرته ﴿أنْ خَلَقَكُم مِن تُرابٍ﴾ أي: أصلَكم آدمَ، ﴿ثُمَّ إذا أنتُم بَشَرٌ﴾ من دم ولحم، ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في الأرض.

٢١ ـ ﴿ومِن آياتِهِ أن خَلَقَ لَكُم مِن أنفُسِكُم أزواجًا﴾، فخُلقت حوّاءُ من ضِلَع آدمَ، وسائرُ الناس من نُطف الرجال والنساء، ﴿لِتَسكُنُوا إلَيها﴾ وتألفوها، ﴿وجَعَلَ بَينَكُم﴾ جميعًا ﴿مَودّةً ورَحْمةً ـ إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صُنع الله تعالى ـ ٢٢ ـ ﴿ومِن آياتِهِ خَلقُ السَّماواتِ والأرضِ، واختِلافُ ألسِنَتِكُم﴾ أي: لُغاتِكم من عربيّة وعجميّة وغيرهما ﴿وألوانِكُم﴾ من بياض وسواد وغيرهما، وأنتم أولاد رجل واحد وامرأة واحدة. ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ﴾: دلالاتٍ على قُدرته تعالى ﴿لِلعالَمِينَ﴾ ـ بفتح اللام وكسرها ـ أي: ذوي العُقول وأُولي العِلم.

٢٣ ـ ﴿ومِن آياتِهِ مَنامُكُم بِاللَّيلِ والنَّهارِ﴾ بإرادته راحةً لكم، ....

قولُه: (للفَاعِلِ) حمزةُ والكسائيُّ وابنُ ذكوانَ بخُلْفٍ عنهُ(١).

قولُه: (أي: أَصلَكُم) على تقديرِ مضافٍ، أو: خلقَكُم في أصلِ الإنشاءِ؛ لأنَّه خَلَقَ أصلَكُم منه.

قولُه: (فخُلِقَتْ حوَّاءُ) ممدودٌ، أو: لأنَّهُنَّ من جنسِهِم لا جنسٍ آخرَ.

قولُه: (وتَأْلَفُوهَا) في «القاموسِ»: أَلِفَهُ كعَلِمَهُ(٢)، فلا وجهَ لقولِ القاضِي: تألَفوا بها، فإنَّ الجنسيَّةَ علَّةُ الضَّمِّ(٣).

قولُه: (أي: لُغَاتِكُم) أو: أجناسِ نُطْقِكُم.

قولُه: (وعَجَمِيَّةٍ) أرادَ بها: فارسيَّة؛ ليصحَّ قولُه: (وغَيرِهِمَا).

قولُه: (بِفَتحِ اللَّامِ) سِوى حفصٍ(٤).

قولُه: (أي: ذَوِي العُقُولِ) بناءً على الفتحِ.

قولُه: (بإِرَادَتِهِ) إشارةٌ إلى أنَّ: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ قيدٌ لهما.

---

(١) انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٢/ ١٠٨٣، ١٠٨٤).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٧٩٢).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٠٤). وفيه: «علة للضم».

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٦).

﴿وابتغاؤُكُم﴾ بالنهار ﴿مِن فَضلِهِ﴾ أي: تصرّفُكم في طلب المعيشة بإرادته - ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَسمَعُونَ﴾ سماعَ تدبّر واعتبار - ٢٤ - ﴿ومِن آياتِهِ يُريكُمُ﴾ أي: إراءتُكُم ﴿البرقَ خَوفًا﴾ للمُسافر من الصواعق ﴿وطَمَعًا﴾ للمُقيم في المطر، ﴿ويُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً، فيُحيِي بِهِ الأرضَ بَعدَ مَوتِها﴾ أي: يُبسِها بأن تُنبِت. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلُونَ﴾ يتدبّرون.

٢٥ - ﴿ومِن آياتِهِ أن تَقُومَ السَّماءُ والأرضُ بِأمرِهِ﴾: بإرادته من غير عَمَد، ﴿ثُمَّ إذا دَعاكُم دَعْوةً مِنَ الأرضِ﴾ بأن ينفخَ إسرافيلُ في الصُّور للبعث من القُبور ﴿إذا أنتُم تَخرُجُونَ﴾ منها أحياءً. فخُروجكم منها بدعوة من آياته - تعالى - ٢٦ - ﴿ولَهُ مَن في السَّماواتِ والأرضِ﴾ مُلكًا وخلقًا وعبيدًا، ﴿كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾:..

قولُه: (بالنَّهارِ) الأظهرُ: بهما، غايتُهُ: أنَّ الابتغاءَ بالنَّهارِ أكثرُ، كما أنَّ النَّومَ باللَّيلِ أغلبُ، مع أنَّ الابتغاءَ يعمُّ طلبَ الرَّحمةِ بالعبادةِ في اللَّيلِ.

هذا وبلسانِ الإشارةِ خطرَ ببالي موافقاً لحالي: ومِن آياتِهِ الدَّالَّةِ على كمالِ رحمتِهِ نومُكُم وغفلتُكُم عمَّا خُلِقتُمْ له دائماً، وطلبُكُمُ الخيرَ في الدُّنيا والعقبى من فضلِهِ وزيادةِ كرمِهِ إذ لو عاملَكُم[1] بعدلِهِ لعذَّبَكُم جميعاً.

قولُه: (أي: إرَاءَتُكُم) مُقدَّرٌ بـ(أنْ)، والفعلُ فيه نُزِّلَ منزلةَ المصدرِ.

قولُه: (مِنَ الصَّوَاعِقِ) فيه أنَّ خوفَ الصَّاعقةِ ليسَ مختصًّا بالمسافرِ، فكانَ الأولى أن يقولَ: أو من الصَّواعقِ، فإنَّ المسافرَ أيضاً يخافُ من المطرِ غالباً كما أنَّ المقيمَ يطمعُ فيه غالباً.

قولُه: (يُبْسِهَا) قالَ البيضاويُّ: وقُرِئَ ﴿ينزِّلُ﴾ بالتَّشديدِ[2]، وهو سهوٌ حيثُ عبَّر بصيغةِ التَّمريضِ؛ لأنَّه قراءةُ غير ابنِ كثيرٍ والبصريِّينَ[3] مع أنَّهُ مخالفٌ لعادتِهِ من جَعْلِ ما اتَّفقَ عليه أكثرُ القرَّاءِ أصلاً يبني عليهِ تفسيرَهُ.

قولُه: (يَنفُخَ) ويقولَ: أيُّها الموتى اخرُجوا، وقولُهُ تعالى: ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ متعلِّقٌ بـ«دعا»، وجُوِّز تعلُّقُهُ بـ﴿تخرجون﴾، ويؤيِّدُهُ قولُ قتادةَ: دعاهُم من السَّماءِ فخرَجوا من الأرضِ، على ما في «الدُّرِّ»[4]، وقدِّمَ للفاصلةِ.

قولُه: (مِنَ القُبُورِ) متعلِّقٌ بالبعثِ، وباعثُ التَّعلُّقِ غيرُ ظاهرٍ.

قولُه: (مِنهَا) بيانٌ للواقعِ.

---

(١) في (د): «عامل».

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٠٥).

(٣) انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٢/ ٨٧٧).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٩٠). وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٠) لعبد بن حميد والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم.

مُطيعون، ٢٧ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي يَبدَأُ الخَلقَ﴾ للناس، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد هلاكهم، ﴿وهُوَ أهوَنُ علَيهِ﴾ من البدء بالنظر إلى ما عِند المُخاطَبينَ من أنّ إعادة الشيء أسهلُ من ابتدائه ـ وإلاّ فهما عِند الله ـ تعالى ـ سواء في السُّهولة ـ ﴿ولَهُ المَثَلُ الأعلَى في السَّماواتِ والأرضِ﴾ أي: الصفةُ العليا، وهي أنه لا إلٰـهَ غيرُه، ﴿وهُوَ العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في خلقه.

٢٨ ـ ﴿ضَرَبَ﴾: جعل ﴿لَكُم﴾ ـ أيها المُشركون ـ ﴿مَثَلاً﴾ كائنًا ﴿مِن أنفُسِكُم﴾، وهو ﴿هَل لَكُم مِمّا مَلَكَتْ أَيمانُكُم﴾ أي: من مماليككم ﴿مِن شُرَكاءَ﴾ لكم ﴿فِيما رَزَقْناكُم﴾ من الأموال وغيرها، ﴿فأنتُم﴾ وهم ﴿فِيهِ سَواءٌ، تَخافُونَهُم كَخِيفَتِكُم أنفُسَكُم﴾ أي: أمثالَكم من الأحرار؟ والاستفهام بمعنى النفي. المعنى: ليس مماليككم شُركاءَ لكم إلى آخره عندكم. فكيف تجعلون بعض مماليك الله شُركاءَ له؟ ﴿كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ﴾: نُبيِّنُها مِثلَ ذلك التفصيل ﴿لِقَومٍ يَعقِلُونَ﴾: يتدبّرون.

قولُه: (مُطِيعُونَ) عنِ ابنِ عبَّاسٍ: يعني: في الحياةِ والنُّشورِ والموتِ، وهم عاصونَ له في العبادةِ، كذا في «الدُّرِّ»[1]، فالظاهرُ تفسيرُهُ بـ«منقادُونَ».

قولُه: (النَّاسَ) لا وجهَ للخُصوصِ.

قولُه: (فِي السُّهُولَةِ) وقيلَ: ﴿أهوَن﴾ بمعنى: هيِّنٌ، وقيلَ: الهاءُ لـ﴿الخلقِ﴾.

قولُه: (إلَّا هُوَ) القادرُ على ما يريدُهُ.

قولُه: (في مُلْكِهِ) يفعلُ ما يشاءُ.

قولُه: (في خَلْقِهِ) لا مُعقِّبَ لحكمِهِ، أو: يُجري الأفعالَ على مقتَضى حكمتِهِ.

قولُه: (كَائِناً) أي: منتزَعاً ومأخوذاً من أحوالِها الَّتي هي أقربُ الأمورِ إليكم.

قولُه: (وَهُو) أي: المَثَلُ.

قولُه: (وَغَيرِهَا) كالأزواجِ، و(هم) يحتملُ أن يكونَ (هم) أو (معَهُم) مقدَّراً بمعونةِ المقامِ، والأظهرُ: أنَّ فيه تغليباً، والمعنى: فتكونونَ أنتُم وهم سواءٌ يتصرَّفونَ فيه كتصرُّفِكُم مع أنَّهم بشرٌ مثلُكُم، وأنَّ الأموالَ مُعارةٌ من عندِ اللهِ لكم.

قولُه: (نُبيِّنُهَا) فإنَّ التَّمثيلَ ممَّا يوضِّحُ المعاني.

قولُه: (يَتَدَبَّرُونَ) في الأمثالِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٩٠). وانظر: «الدر المنثور» (٦/ ٤٩١).

٢٩ ـ ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالإشراك ﴿أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ. فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾؟ أي: لا هاديَ لهم، ﴿وما لَهُم من ناصِرِينَ﴾: مانعين من عذاب الله.

٣٠ ـ ﴿فأَقِمْ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿وَجهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: مائلاً إليه، أي: أخلِصْ دِينَكَ لله أنت ومن تبعك، ﴿فِطْرَةَ اللهِ﴾: خِلقتَه ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ علَيها﴾ وهي دِينه، أي: الزموها، ﴿لا تَبدِيلَ لِخَلقِ اللهِ﴾: لِدِينه أي: لا تُبدّلوه بأن تُشركوا ـ ﴿ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾: المُستقيم توحيدُ الله، ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ﴾ أي: كُفّارِ مكّة ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ توحيدَ الله ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿مُنِيبِينَ﴾: راجعين ﴿إلَيهِ﴾ ـ تعالى ـ فيما أمر به ونهى عنه، حالٌ من فاعل «أقم» وما أريد به، أي: أقيموا، ....

قولُه: (أي: لا هَادِيَ) فالاستِفهامُ إنكاريٌّ.

قولُه: (خِلقَتَهُمْ)[1] وهي قبولُهُم للحقِّ وتمكُّنُهُم من إدراكِهِ، أو: ملّةُ الإسلامِ فإنَّهُم لو خُلُّوا وما خُلِقوا عليهِ أدَّى بهم إليها، وبهذا يُعلمُ أنَّ قولَه: (وَهِيَ دِينُهُ) خلطٌ بين تفسيرَينِ.

قولُه: (أي: الْزَمُوهَا) أي: نصبٌ على الإغراءِ، وقيلَ: على المصدرِ لِمَا دلَّ عليه ما بعدَها، وهو ظاهرُ قولِه: (خِلقَتَهُ).

قولُه: (لِدِينِهِ) أي: لا يقدرُ أحدٌ أن يغيِّرَهُ، أو: ما ينبَغي أن يقدِرَ.

قولُه: (لا تُبَدِّلُوهُ) أشارَ إلى أنَّ النَّفيَ معناهُ النَّهيُ.

قولُه: (تَوْحِيدُ اللهِ) ظاهرُهُ أنَّه خبرٌ مقدَّرٌ، ويحتملُ أن يكونَ مشاراً إليه، والظَّاهرُ أنَّ ﴿ذلكَ﴾ إشارةٌ إلى الدِّينِ المأمورِ بإقامةِ الوجهِ [له][2]، أو الفطرةِ إن فُسِّرَت بالملَّةِ، والتَّذكيرُ باعتبارِ معناها الإسلامُ، أو لتذكيرِ الخبرِ.

قولُه: (تَوْحِيدَ اللهِ) أو استقامَةَ دينِهِ.

قولُه: (رَاجِعِينَ) من أنابَ: إذا رجعَ مرَّةً بعدَ أخرى، وقيلَ: منقطِعينَ.

قولُه: («أقم») أو: الزَموا.

قولُه: (ومَا أُرِيْدَ بِهِ) يعني: ممَّن اتَّبعَهُ؛ لأنَّ الآيَةَ خطابٌ للرَّسولِ والأمَّةِ غيرَ أنَّها صُدِّرَت بخطابِ الرَّسولِ تعظيماً له أو للدِّينِ.

---

(١) كذا في النسخ، والذي في متن «الجلالين»: «خِلقتَه»، وهكذا ستأتي قريبا، وكذلك هي في «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٠٦)، فلعل ما هنا تصحيف.

(٢) من «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٠٦).

﴿واتَّقُوهُ﴾: خافوه، ﴿وأقِيمُوا الصَّلاةَ، ولا تَكُونُوا مِنَ المُشرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ﴾: بدلٌ بإعادة الجارّ ﴿فَرَّقُوا دِينَهُم﴾ باختلافهم فيما يعبدونه، ﴿وكانُوا شِيَعًا﴾: فِرقًا في ذلك، ﴿كُلُّ حِزبٍ﴾ منهم ﴿بِما لَدَيهِم﴾: عِندَهم ﴿فَرِحُونَ﴾: مسرورون. وفي قراءةٍ «فارَقُوا» أي: تركوا دِينهم الذي أُمروا به.

٣٣ ـ ٣٤ ـ ﴿وإذا مَسَّ النّاسَ﴾ أي: كُفّارَ مكّة ﴿ضُرٌّ﴾: شِدّة ﴿دَعَوا رَبَّهُم مُنِيبِينَ﴾: راجعين ﴿إلَيهِ﴾ دُون غيره، ﴿ثُمَّ إذا أذاقَهُم مِنهُ رَحمةً﴾ بالمطر ﴿إذا فَرِيقٌ مِنهُم بِرَبِّهِم يُشرِكُونَ. لِيَكفُرُوا بِما آتَيناهُم﴾ ـ أُريد به التهديد ـ ﴿فتَمَتَّعُوا. فَسَوفَ تَعلَمُونَ﴾ عاقبة تمتّعكم. فيه التفات عن الغَيبة.

٣٥ ـ ﴿أم﴾ ـ بمعنى همزة الإنكار ـ ﴿أنزَلْنا علَيهِم سُلطانًا﴾: حُجّة وكِتابًا، ﴿فهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تكلُّمَ دلالةٍ ﴿بِما كانُوا بِهِ يُشرِكُونَ﴾ أي: يأمرهم بالإشراك؟ لا.

٣٦ ـ ﴿وإذا أذَقْنا النّاسَ﴾: كُفّارَ مكّة وغيرَهم ﴿رَحْمةً﴾: نعمةً.........

قولُه: (فِي ذَلِكَ) الاختلافِ.

قولُه: (مَسرُورُونَ) ظنًّا منهم بأنَّه الحقُّ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ[1].

قولُه: (أي: كُفَّارَ مَكَّةَ) كيفَ يُخَصُّ[2] والنَّاسُ جميعاً واقعونَ فيه، وإشراكُهُم إمَّا جليٌّ وإمَّا خفيٌّ.

قولُه: (دُونَ غَيرِهِ) والأظهرُ: من دعاءِ غيرِهِ.

قولُه: (بالمَطَرِ) يعني به: مثلاً، وإلَّا فمَعناها: خلاصاً من الشِّدَّةِ، أو نعمةً تعمُّ الخلائقَ.

قولُه: (أُرِيدَ بِهِ) أي: بالأمرِ.

قولُه: (التَّهدِيدُ) وقيل: اللَّامُ فيه للعاقبةِ، ويؤيِّدُ الأوَّلَ: ﴿فتَمَتَّعُوا﴾ وقُرِئَ: (وليتمتَّعُوا)[3].

قولُه: (فِيهِ التِفَاتٌ) وقُرِئَ بالياءِ[4] على أنَّ «تمتَّعُوا» ماضٍ.

قولُه: (بِمَعْنَى: هَمزَةِ الإِنكَارِ) هذا مذهبٌ كوفيٌّ، والمعتمدُ أنَّها بمعنى: بل والهمزةُ.

قولُه: (تَكَلُّمَ دَلالَةٍ) كقولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩].

قولُه: (نِعْمَةً) من صحَّةٍ وسَعةٍ.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٤).

(٢) في (ص): «يخصص».

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٨٠) ونسبت لابن مسعود، وانظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٧٥).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٧٥) ونسبت لأبي العالية.

﴿فَرِحُوا بِها﴾ فَرَحَ بطرٍ، ﴿وإن تُصِبْهُم سَيِّئةٌ﴾: شِدّة ﴿بِما قَدَّمَتْ أيدِيهِم إذا هُم يَقنِطُونَ﴾: ييأسون من الرحمة. ومن شأن المؤمن أن يشكر عِند النعمة ويرجو ربّه عِند الشِّدّة. ٣٧ ـ ﴿أوَلَم يَرَوا﴾: يعلموا ﴿أنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ﴾: يُوسّعُه ﴿لِمَن يَشاءُ﴾ امتحانًا ﴿ويَقدِرُ﴾: يُضيّقُه لمن يشاء ابتلاءً؟ ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ بها.

٣٨ ـ ﴿فآتِ ذا القُربَى﴾: القرابةِ ﴿حَقَّهُ﴾ من البرّ والصِّلة ﴿والمِسكِينَ وابنَ السَّبِيلِ﴾: المُسافرَ، من الصدقة. وأُمّةُ النبيِّ تبعٌ له في ذلك. ﴿ذلِكَ خَيرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجهَ اللهِ﴾ أي: ثوابَه بما يعملون، ﴿وأُولئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ﴾: الفائزون. ٣٩ ـ ﴿وما آتَيتُم مِن رِبًا﴾ بأن يُعطِيَ شيئًا هِبةً أو هديّة ليَطلب أكثر منه ـ فسُمّي باسم المطلوب من الزيادة في المُعاملة ـ ﴿لِيَربُوَ في أموالِ النّاسِ﴾: المُعطِينَ،.......

قولُه: (بِهَا) فيستدلُّونَ بها على كمالِ القدرةِ والحكمة، قالَ الشَّاعرُ[١]:

نكدُ الأريبِ وطيبُ عيشِ الجاهلِ ... قد أرشداكَ إلى حكيمٍ كاملِ[٢]

قولُه: (والصِّلَةِ) في الحديثِ: «صِلُوا أرحامَكُم ولَو بالسَّلامِ»[٣]. وظاهرُ الآيةِ يؤيِّدُ الحنفيَّةَ في وجوبِ النَّفقةِ للمحارمِ[٤].

قولُه: (مِنَ الصَّدَقَةِ) يحتمِلُ أنَّه أرادَ بها الزَّكاةَ، ففيهِ أنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ، والزَّكاةُ فُرِضَت بالمدينةِ، ويحتملُ البرَّ والإحسانَ والضِّيافةَ فلا إشكالَ.

قولُه: (فِي ذَلِكَ) أي: الأمرِ والخطابِ، وقيلَ: الخطابُ لمن بسطَ له، وهو الأظهَرُ.

قولُه: (ثَوَابَهُ) هذا حاصِلُ المعنى، وإلَّا فلا وجهَ لتفسيرِ الوجهِ بالثَّوابِ، بل يُقالُ: ذاتَهُ أو جهتَهُ؛ أي: يقصدونَ بمعروفِهم إيَّاهُ خالصاً، أو جهةَ التَّقرُّبِ إليه لا جهةً أخرى.

قولُه: (فَسُمِّيَ) يعني: أطلقَ الرِّبا عليها لأنَّها فضلٌ لا يجبُ على المعطي.

قولُه: (مِنَ الزِّيادَةِ فِي المُعَامَلَةِ) وقيلَ: هي المرادُ؛ أي: زيادةٍ محرَّمةٍ في المعاملةِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ بالقصرِ[٥]؛

(١) لم أقف على قائله، وذكر في «الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم» (١/ ٤١٠)، و«تفسير الألوسي» (١١/ ٤٣).

(٢) في (ص): «عالم» وفي هامشها: «في نسخة: كامل».

(٣) رواه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٣٥٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأعله بمحمد بن عبد الملك الأنصاري، ثم قال: وكل أحاديثه مما لا يتابعه الثقات عليه، وهو ضعيف جدًّا.

قال العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٣٣٠): وله طرق بعضها يقوي بعضاً.

(٤) انظر: «التجريد» للقدوري (١٠/ ٥٤٠٢).

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٧).

أي: ليزيد، ﴿فلا يَربُو﴾: يزكو ﴿عِندَ اللهِ﴾ أي: لا ثواب فيه للمُعطِينَ، ﴿وما آتَيتُم مِن زَكاةٍ﴾: صدقة ﴿تُرِيدُونَ﴾ بها ﴿وَجهَ اللهِ فأُولَئِكَ هُمُ المُضعِفُونَ﴾ ثوابَهم بما أرادوه. فيه التفات عن الخِطاب.

٤٠ ـ ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم ثُمَّ رَزَقَكُم، ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحيِيكُم ـ هَل مِن شُرَكائكُم﴾: ممّن أشركتم بالله ﴿مَن يَفعَلُ مِن ذلِكُم مِن شَيءٍ﴾؟ لا ـ ﴿سُبحانَهُ وتَعالَى عَمّا يُشرِكُونَ﴾ به!

٤١ ـ ﴿ظَهَرَ الفَسادُ في البَرِّ﴾ أي: القِفارِ بقحط المطر وقِلّة النبات ﴿والبَحرِ﴾ أي: البِلادِ التي على الأنهار بقلّة مائها، ﴿بِما كَسَبَت أَيدِي النّاسِ﴾ من المعاصي، ﴿لِنُذِيقَهُم﴾ ـ بالنون والياء ـ..........

أي: ما جئتُم به وفعلتُمْ من إعطاءِ الربا.

قولُه: (يَزِيدَ) وقرأ نافعٌ بتاءٍ مضمومةٍ وإسكانِ الواوِ[1]؛ أي: لتزيدوا أو لتَصِيروا ذَوِي رباً.

قولُه: (يَزكُو) أو: لا يباركُ فيه؛ لخُلوِّهِ عن الثَّوابِ، أو لحرمتِهِ.

قولُه: (ثَوَابَهُم) أو أموالَهُم ببركةِ الصَّدقةِ.

قولُه: (بِهِ) وحمزةُ والكسائيُّ على الخطابِ[2].

قولُه: (أي: القِفَارِ) لا وجهَ لتخصيصِهِ، بخلافِ البحرِ؛ فإنَّه خُصِّصَ لتصحيحِ نسبةٍ سببيةٍ[3] كسبِ النَّاسِ، والصَّحيحُ أنَّهما على عمومِهما وظاهرِهما المتبادرِ منهُما لغةً وعرفاً، والفسادُ: كالقحطِ وموتِ الماشيةِ والحَرْقِ والغرَقِ وخيبةِ الغوَّاصِ ونقصانِ البركاتِ وكثرةِ المضارِّ، أو المرادُ بالفسادِ: الضَّلالةُ والظُّلمُ.

وعن مجاهدٍ: فسادُ البرِّ: قتلُ ابنِ آدمَ أخاهُ، وفسادُ البحرِ: أخذُ الملكِ السُّفنَ غصباً[4].

وقيل: البحرُ: الجزائرُ[5].

وقيلَ: البرُّ: كلُّ قريةٍ نائيةٍ عن البحرِ مثلَ مكَّةَ والمدينةِ، والبحر: كلُّ قريةٍ على البحرِ مثلُ: الكوفةِ والبصرةِ والشَّامِ، كذا في «الدُّرِّ»[6].

قولُه: (بالنُّونِ) قنبلٌ[7].

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٢١).

(٣) في (م) و(ص): «لتصحيح نسبتِهِ بسببٍ».

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٧٧٦١)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٠٩).

(٥) عزاه في «الدر» لابن أبي حاتم عن عطاء.

(٦) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٧) وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.

(٧) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٧).

﴿بعضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: عُقوبتَه، ﴿لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ﴾: يتوبون. ٤٢ ـ ﴿قُلْ﴾ لكُفّار مكّة: ﴿سِيرُوا في الأرضِ، فانظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبلُ؟ كانَ أكثَرُهُم مُشرِكِينَ﴾، فأُهلِكوا بإشراكهم، ومساكنُهم ومنازلهم خاوية.

٤٣ ـ ﴿فأَقِمْ وَجهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ﴾: دينِ الإسلام ﴿مِن قَبلِ أن يأتِيَ يَومٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾، هو يوم القيامة. ﴿يَومَئذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾، فيه إدغام التاء في الأصل في الصاد: يتفرّقون بعد الحِساب إلى الجنّة والنار، ٤٤ ـ ﴿مَن كَفَرَ فعَلَيهِ كُفرُهُ﴾: وبالُ كُفره وهو النار، ﴿ومَن عَمِلَ صالِحًا فلأنفُسِهِم يَمهَدُونَ﴾: يُوطّئون منازلَهم في الجنّة، ٤٥ ـ ﴿لِيَجزِيَ﴾: مُتعلّق بـ«يصّدّعون» ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ مِن فَضلِهِ﴾: يُثيبَهم. ﴿إنَّهُ لا يُحِبُّ الكافِرِينَ﴾ أي: يُعاقبُهم.

٤٦ ـ ﴿ومِن آياتِهِ﴾ ـ تعالى ـ ﴿أن يُرسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ﴾ بمعنى: لتُبشّركم بالمطر، ﴿ولِيُذِيقَكُم﴾

قولُه: (عُقُوبتَهُ) أي: بعضَ جزائه، فإنَّ تمامَهُ في الآخرةِ.

قولُه: (خَاوِيَةٌ) أي: ساقطةٌ، أو: خاليةٌ من أهلِها فاعتبِروا.

قولُه: (دِينِ الإسلامِ) البليغِ الاستقامةِ، قالَ الفضيلُ: هو الاتِّباعُ وتركُ الابتداعِ[1].

قولُه: (هُو يَومُ القِيَامَةِ) و﴿مِنَ اللهِ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿يأتي﴾.

قولُه: (يُوَطِّئُونَ) أي: يُسَوُّون.

قولُه: (فِي الجَنَّةِ) وفي القبرِ.

قولُه: (بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾) أي: لا بـ﴿يَمْهَدُونَ﴾ كما قيلَ، وهو الأظهرُ، فالاقتصارُ على جزاءِ المؤمنينَ للإشعارِ بأنَّه المقصودُ بالذَّاتِ، وللاكتفاءِ على فحوى قولِه: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾.

قولُه: (يُثِيبَهُم) و﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ دلَّ على أنَّ الإثابةَ تفضُّلٌ محضٌ، وتأويلُ الزَّمخشريِّ بالعطاءِ والزِّيادةِ على الثَّوابِ[2]، عدولٌ عن الظَّاهرِ.

قولُه: (تُبَشِّرُكُم) أشارَ إلى أنَّ ﴿لِيُذِيقَكُم﴾ عطفٌ على علَّةٍ محذوفةٍ دلَّ عليها ﴿مُبَشِّراتٍ﴾، وقيلَ: عليها باعتبارِ المعنى.

قولُه: (بالمَطَرِ) قالَ القاضِي: الرِّياحُ: الشَّمالُ والصَّبا والجنوبُ، فإنَّها رياحُ الرَّحمةِ، وأمَّا الدَّبورُ: فريحُ العذابِ،

---

(١) وانظر: «حقائق التأويل» (٢/ ١٢٧).

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٨٣).

بها ﴿مِن رَحْمَتِهِ﴾: المطرِ والخِصب، ﴿وَلِتَجرِيَ الفُلكُ﴾ السفن بها ﴿بِأَمرِهِ﴾: بإرادته ﴿وَلِتَبتَغُوا﴾: تطلبوا ﴿مِن فَضلِهِ﴾ الرزقَ بالتجارة في البحر، ﴿وَلَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ هذه النِّعَمَ ـ يا أهل مكّة ـ فتوحدونه.

٤٧ ـ ﴿وَلَقَد أَرسَلْنا مِن قَبلِكَ رُسُلاً إِلَى قَومِهِم، فَجَاؤُوهُم بِالبَيِّنَاتِ﴾: بالحُجج الواضحات على صِدقهم في رِسالتهم إليهم فكذّبوهم، ﴿فَانتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجرَمُوا﴾: أهلكنا الذين كذّبوهم. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَينا نَصرُ المُؤمِنِينَ﴾ على الكافرين بإهلاكهم وإنجاء المؤمنين.

ومنه قولُه ﷺ: «اللَّهمَّ اجعلْهَا رِيَاحاً ولا تجعلْهَا رِيْحاً» رواهُ الشَّافعيُّ والطَّبرانيُّ وغيرُهُما[1].

ثمَّ قالَ: وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: (الرِّيحَ) على إرادةِ الجنسِ[2]. وهو سهوٌ؛ إذ محلُّ الخلافِ في هذه السُّورةِ إنَّما هو الموضعُ الثَّاني، ولذا قيَّدَهُ الشَّاطبيُّ بقوله:

وفي النَّملِ والأعرافِ والرُّومِ ثانياً[3]

قولُه: (بِهَا) أي: بالرِّياحِ.

قولُه: (المَطرِ) مفعولُ لنُذيقَكم؛ يعني: المنافعَ التَّابعةَ للرِّياحِ من نزولِ المطرِ وإزالةِ عفونةِ الهواء، وتذريةِ الحبوبِ وغيرِها.

قولُه: (الرِّزقَ) مفعولٌ.

قولُه: (يَا أَهلَ مَكَّةَ) فإنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ.

قولُه: (فَكَذَّبُوهُ)[4] الأولى: فآمَن به بعضٌ وكذَّبهُ بعضٌ، فالفاءُ فيما بعدَهُ فصيحةٌ.

قولُه: (بإهلاكِهِم) والظَّاهرُ أنَّ ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ اسمُ ﴿كَانَ﴾؛ أي: كالحقِّ عليه بحسبِ وَعْدِهِ لهم، وقد يوقَفُ على ﴿حَقًّا﴾ على أنَّه متعلِّقٌ بالانتقامِ، وفي الحديثِ: «مَا مِن امرئٍ مسلمٍ يَرُدُّ عن عِرْضِ أخيهِ إلَّا كانَ

---

(١) رواه الشافعي في «مسنده/ ترتيب السندي» (٥٠٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٤٥٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٢١٣) (١١٥٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وذكر الطحاوي أن هذا الحديث مما لا أصل له ولا يعرفه أهل العلم بالحديث، ثم رده من جهة المعنى بقوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان﴾ [يونس: ٢٢] قال: وكانت الريح الطيبة من الله رحمة، والريح العاصف منه عز وجل عذاباً. انظر: «شرح مشكل الآثار» (٢/ ٣٧٩).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٠٩).

(٣) انظر: «حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع» (ص: ٤٠).

(٤) قوله: «فكذبوه» كذا ذكره بالإفراد، ثم استمر عليه في استدراكه بقوله: «فآمن به بعض. . .»، والذي في المتن: «فكذبوهم» بالجمع وهو الموافق للتنزيل.

٤٨ ـ ﴿اللهُ الَّذِي يُرسِلُ الرِّياحَ، فتُثِيرُ سَحابًا﴾: تُزعِجه، ﴿فيَبسُطُهُ في السَّماءِ كَيفَ يَشاءُ﴾ من قِلّة وكثرة؟ ﴿ويَجعَلُهُ كِسَفًا﴾، بفتح السين وسكونها: قِطَعًا مُتفرّقة، ﴿فترَى الوَدْقَ﴾: المطر ﴿يَخرُجُ مِن خِلالِهِ﴾ أي: وسْطِه، ﴿فإذا أصابَ بِهِ﴾: بالودْق ﴿مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ إذا هُم يَستَبشِرُونَ﴾: يفرحون بالمطر، ٤٩ ـ ﴿وإنْ﴾: وقد ﴿كانُوا، مِن قَبلِ أن يُنَزَّل علَيهِم مِن قَبلِهِ﴾: تأكيد، ﴿لَمُبلِسِينَ﴾ آيِسِينَ من إنزاله. ٥٠ ـ ﴿فانظُرْ إلَى أثَرِ﴾ ـ وفي قراءة: «آثارِ» ـ ﴿رَحْمةِ اللهِ﴾ أي: نِعمته بالمطر: ﴿كَيفَ يُحيِي الأرضَ بَعدَ مَوتِها﴾ أي: يُبسِها بأن تُنبِتَ؟..

حقًّا على اللهِ أنْ يردَّ عنهُ نارَ جهنَّمَ» ثمَّ تلا هذه الآيةَ، رواهُ التِّرمذيُّ وحسَّنَهُ[١]، وفيه إشارةٌ إلى تأييدِ الإعرابِ الأوَّلِ، ودلالةٌ على أنَّ حقيقةَ نصرِهم تعمُّ الآخرةَ.

قولُه: (مِنْ قِلَّةٍ وكَثْرَةٍ) وسيرٍ ووقوفٍ وإطباقٍ وغيرِهِ، من جانبٍ دونَ جانبٍ ونحوِها.

قولُه: (وسُكُونِهَا) ابنُ ذكوانَ وهشامٌ بخُلْفٍ عنهُ[٢].

قولُه: (مُتَفَرِّقَةً) يعني: تارةً مبسوطةً متَّصلةً وأخرى قِطَعاً متفرِّقةً.

قولُه: (أي: وَسْطِهِ) في التَّارَتَينِ.

قولُه: (بالوَدْقِ) الباءُ للتَّعديةِ.

قولُه: (بالمَطَرِ) لمجيءِ الخصبِ.

قولُه: (وَقَد) تبعَ فيه البغويَّ[٣]، وهذا قولٌ مرجوحٌ، والصَّحيحُ أنَّ ﴿إنْ﴾ هنا مخفَّفةٌ من المثقَّلةِ.

قولُه: (تَأكِيدٌ) أي: تكريرٌ للتَّأكيدِ، والدَّلالةِ على تطاولِ عهدِهِم بالمطرِ، وقالَ الكرمانيُّ: من قبلِ الاستبشارِ[٤].

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لشاميٍّ وحفصٍ وحمزةَ والكِسائيِّ[٥].

قولُه: (نِعمَتِهِ بالمَطَرِ) الظَّاهرُ: أثرِ المطرِ من النَّباتِ والأشجارِ وأنواعِ الثِّمارِ.

قولُه: (بِأَنْ تُنبِتَ) أي: الأرضُ، أو ينبتَ اللهُ أو المطرُ، ويؤيِّدُه أنَّه قُرئَ بالتَّاءِ[٦] على إسنادِهِ إلى ضميرِ الرَّحمةِ.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٣١) بنحوه من حديث أبي الدرداء.

(٢) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٦١).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥٨٢).

(٤) انظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ٨٩٦).

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٨).

(٦) أي: (تحيي) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٧٦) ونسبت لأبي حياة وأبي البرهسم.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المُحييَ الأرضَ ﴿لَمُحيِي المَوتَى، وهُوَ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾.

٥١ ـ ﴿ولَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿أرسَلْنا رِيحًا﴾ مُضرّةً على نبات، ﴿فرَأَوهُ مُصفَرًّا، لَظَلُّوا﴾: صاروا ـ جوابُ القسم ـ ﴿مِن بَعدِهِ﴾ أي: بعدِ اصفراره ﴿يَكفُرُونَ﴾: يجحدون النعمة بالمطر. ٥٢ ـ ٥٣ ـ ﴿فإنَّكَ لا تُسمِعُ المَوتَى، ولا تُسمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا﴾ ـ بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية بينها وبين الياء ـ ﴿وَلَّوا مُدبِرِينَ. وما أنتَ بِهادِي العُمْيِ عَن ضَلالَتِهِم. إنْ﴾: ما ﴿تُسمِعُ﴾ سماعَ إفهام وقَبول ﴿إلاّ مَن يُؤمِنُ بِآياتِنا﴾: القُرآنِ، ﴿فهُم مُسلِمُونَ﴾: مُخلصون بتوحيد الله تعالى.

٥٤ ـ ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن ضُعفٍ﴾: ماءٍ مَهِين، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعدِ ضُعفٍ﴾ آخَرَ ـ وهو ضعفُ الطفوليّة ـ ﴿قُوَّةً﴾ أي: قُوّة الشباب، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعدِ قُوَّةٍ ضُعفًا وشَيبةً﴾: ضعفَ الكِبَرِ وشيبَ الهَرَم ـ والضعف في الثلاثة بضمّ أوله وفتحه ـ ﴿يَخلُقُ ما يَشاءُ﴾ من الضعف والقُوة والشباب والشيبة، ﴿وهُوَ العَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه ﴿القَدِيرُ﴾ على ما يشاء.

قولُه: (لامُ قَسَمٍ) موطِّئةٌ.

وقولُهُ تعالى: (﴿فرَأَوْهُ﴾) أي: الأثرَ، أو الزَّرعَ فإنَّه مدلولٌ عليه بما تقدَّمَ، وقيلَ: السَّحابَ؛ لأنَّه إذا كانَ مصفرًّا لم يمطرْ.

قولُه: (جَوَابُ القَسَمِ) سدَّ مسدَّ الجزاءِ.

قولُه: (بِتَحقِيقِ) للشَّاميِّ والكوفيِّ(١).

قولُه: (مَاءٍ مَهِينٍ) أي: من أصلٍ ضعيفٍ هو النُّطفةُ، أو: ابتدأَكُم ضعفاءَ، وجعلَ الضَّعفَ أساسَ أمرِكُم؛ كقولِهِ تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

قولُه: (آخَرَ وهُوَ ضَعْفُ) تقدَّمَ، وذلك إذا تعلَّقَ بأبدانِكُم الرُّوحُ، أو إذا بلغتُمُ الحُلُمَ.

قولُه: (وفَتحِهِ) عاصمٌ وحمزةُ بخلافٍ عن حفصٍ(٢).

وقولُ البيضاويِّ: التَّنكيرُ مع التَّكريرِ لأنَّ المتأخِّرَ ليسَ عينَ المتقدِّمِ(٣)، ليس بظاهِرٍ، والأظهرُ: أنَّ القاعدةَ المشهورةَ مبنيَّةٌ على الأكثرِ.

---

(١) انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٢/ ٥٢٩).

(٢) انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٣/ ١١٤١).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢١٠).

٥٥ ـ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ﴾: يَحلف ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾: الكافرون، ﴿مَا لَبِثُوا﴾ في القُبور ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ـ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾: يُصرَفون عن الحقّ البعث كما صُرفوا عن الحقّ الصدق في مُدّة اللبث ـ ٥٦ ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ من الملائكة وغيرهم: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: فيما كتبه في سابق عِلمه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ. فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي أنكرتموه، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوعَه. ٥٧ ـ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾ ـ بالياء والتاء ـ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ في إنكارهم له، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: لا يُطلب منهم العُتبى، أي: الرجوعُ إلى ما يُرضي الله.

٥٨ ـ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾: جعلنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ تنبيهًا لهم، ﴿وَلَئِن﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿جِئْتَهُم﴾ يا مُحمّد ﴿بِآيَةٍ﴾ مِثلِ العصا واليد لمُوسَى ﴿لَّيَقُولَنَّ﴾، ....

قولُه: (فِي القُبُورِ) أو الدُّنيا، أو البرزخِ، قالَ القاضِي[1]: «استقلُّوا مدَّةَ لُبثِهم إضافةً إلى عذابِهم في الآخرةِ». وفيه: أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿يؤفكُونَ﴾ يأباهُ، وقولُه: «أو نسياناً»، محلُّ نظرٍ من وجهَين؛ فالوجهُ ما في «المعالمِ»[2]: قالَ الكلبيُّ ومقاتلٌ: كذَّبوا في قولِهِم: ﴿ساعة﴾ كما كذَّبوا في الدُّنيا أن لا بعثَ؛ والمعنى: أنَّ اللهَ أرادَ أن يفضحَهُم فحَلفوا على شيءٍ يتبيَّن لأهلِ الجمعِ أنَّهم كاذبونَ فيه.

وسُمِّيَت القيامةُ بها؛ لأنَّها تقومُ في آخِرِ ساعةٍ من ساعاتِ الدُّنيا، أو لأنَّها تقعُ بَغتةً، وصارَت عَلَماً لها بالغَلَبَةِ كالكوكبِ للزُّهرةِ.

قولُه: (فِي سَابِقِ عِلمِهِ) أي: معلومِه، أو مقضيِّهِ، أو: في اللَّوحِ.

قولُه: (بِاليَاءِ) التَّذكيرُ للكوفيِّ[3].

قولُه: (العُتبَى) كرُجْعَى.

قولُه: (جَعَلْنَا) أو بيَّنَّا.

قولُه: (تَنْبِيهاً) على التَّوحيدِ والبَعثِ، وصِدْقِ الرَّسولِ.

قولُه: (لامُ قَسَمٍ) موطِّئةٌ.

قولُه: (مِثْلَ العَصَا) هذا أحسنُ ممَّا في البيضاويِّ: من آياتِ القرآنِ[4]، وتَبعَهُ صاحبُ «المداركِ»، وجعلَ

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢١١).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥٨٣)، و«التفسير الوسيط» (٣/ ٤٣٨).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٩).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢١١). والحقيقة أنه إنما تابع فيه الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٤٨٨)، فالتعقب على الزمخشري لا عليه.

حُذف منه نونُ الرفع لتوالي النونات، والواوُ ضمير الجمع لالتقاء الساكنين، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم: ﴿إِنْ﴾: ما ﴿أَنتُم﴾ أي: مُحمّدٌ وأصحابه ﴿إِلاَّ مُبطِلُونَ﴾: أصحاب الأباطيل. ٥٩ ـ ﴿كَذٰلِكَ يَطبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعلَمُونَ﴾ التوحيدَ كما طبع على قُلوب هؤلاء. ٦٠ ـ ﴿فاصبِرْ ـ إِنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بنصرك عليهم ﴿حَقٌّ ـ ولا يَستَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ بالبعث، أي: لا يَحملُنَّك على الخِفّة والطيش بترك الصبر، أي: لا تتركنّهُ.

(إِنْ) بمعنى: إذا[1]، وهو تكلُّفٌ، فعَلَيكَ بالإنصافِ والتَّأمُّلِ بالمقالِ، ولا تنظُرْ إلى مَن قالَ.

قولُه: (حُذِفَ مِنهُ) هذا وهمٌ منه أنَّ الصِّيغةَ هاهنا كما فيما تقدَّمَ من المواضعِ موضوعَةٌ للجمعِ، فذكرَ ما ذكرَهُ مراراً، فوقعَ فيما وقعَ، والحالُ أنَّها للمفردِ بلا خلافٍ بين القُرَّاءِ.

قولُه: (مِنهُم) من فرطِ عنادِهِم وقساوةِ قلوبِهِم.

قولُه: (أَصحَابُ أَبَاطِيلَ) أي: مُزوِّرونَ.

قولُه: (التَّوحِيدَ) أو: لا يطلبونَ العِلمَ ويصرُّونَ على الجهلِ المركَّبِ أو التَّقليدِ.

قولُه: (بِنَصرِكِ) أي: بنصرتِكِ وإظهارِ دينِكِ على الدِّينِ كلِّهِ.

قولُه: (أي: لا تَترُكنَّهُ)[2] أي: الصَّبرَ، إشارةٌ إلى أنَّه من بابِ: لا أرينَّكَ، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٧٠٨). والظاهر أن صاحب «المدارك» تابع الزمخشري ـ لتطابق كلاميهما ـ لا البيضاوي. فليحرر.

(٢) في (م) و(ص): «أي لا تتركه».

سورة الروم

مكيةٌ كما رُوي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم، بل قال ابن عطيةَ وغيرُه: لا خلافَ في مكِّيتها(١)، ولم يستثنوا منها شيئاً.

وقال الحسن: هي مكيةٌ إلّا قولَه تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ الآيةَ [١٧]، وهو خلافُ مذهب الجمهور والتفسيرِ المَرْضيِّ كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه.

وآيها ستُّون، وعند بعضٍ تسعٌ وخمسون.

ووجهُ اتِّصالها بالسورة السابقة على ما قاله الجلال السيوطيُّ: أنها خُتمت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وافتُتِحَتْ هذه بوعدِ مَن غُلِبَ من أهل الكتاب بالغلبة والنصر وفَرَحِ المؤمنين بذلك، وأنَّ الدولة لأهل الجهاد فيه، ولا يضرُّهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة، هذا مع تَوَاخيها لِمَا قبلها في الافتتاح بـ «ألم»(٢).

ولا يخفى أنَّ قتال أهل الكتاب ليس من المجاهَدةِ في الله عزَّ وجلَّ، وبذلك تَضْعُفُ المناسَبةُ، ومَن وقف على أخبار سبب النزول ظهر له أنَّ ما افتتحت به هذه السورةُ متضمِّناً(٣) نصرةَ المؤمنين بدَفْعِ شماتة أعدائهم المشركين وهم لم يزالوا مجاهدين في الله تعالى ولأجله ولوجهه عز وجل، ولا يضرُّ عدمُ جهادهم بالسيف عند النزول، وهذا في المناسبة أَوْجَهُ فيما أرى من الوجه الذي ذكره الجلال، فتأمَّلْ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧.

(٢) تناسق الدرر ص٧٢-٧٣.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والوجه: متضمن.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾ الكلامُ فيه كالذي مرَّ في أمثاله من الفواتح الكريمة ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ هي قبيلةٌ عظيمةٌ من ولد رومي بن يونان بن علجان بن يافث بن[1] نوح عليه السلام. وقيل: من ولد يافان بن يافث. وقيل: من ولد رعويل بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. وقال الجوهري: من ولد روم بن عيص المذكور[2]. صارت لها وقعة مع فارس على عهد رسول الله ﷺ، فغلبتْها وقهرتْها فارس.

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أقْرَبِها. والمراد بالأرض أرضُ الروم، على أنَّ «أل» نائبةٌ منابَ الضمير المضاف إليه، والأقربيةُ بالنظر إلى أهل مكة لأن الكلام معهم. أو المراد بها أرضُ مكةَ ونواحيها لأنها الأرضُ المعهودةُ عندهم، والأقربيةُ بالنظر إلى الروم. أو المراد بالأرض أرضُ الروم لذِكْرِهم والأقربيةُ بالنظر إلى عدوِّهم ـ أعني فارس ـ لحديثِ المغلوبية.

وقد جاء من طرقٍ عديدةٍ أنَّ الحرب وقع بين أذرعات وبصرى. وقال ابن عباس والسدي: بالأردنّ وفلسطين. وقال مجاهد: بالجزيرة، يعني الجزيرةَ العمريةَ لا جزيرةَ العرب. وجُعِلَ كلُّ قولٍ موافقاً لوجهٍ من الأَوْجُه الثلاثة على الترتيب، وصحَّح ابنُ حجر القولَ الأول.

وقرأ الكلبي: «في أَداني الأرض»[3].

﴿وَهُم﴾ أي: الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أي: غلب فارسَ إياهم، على أنه مصدرٌ مضافٌ إلى مفعوله، أو إلى نائب فاعله إن كان مصدراً لمجهولٍ، ورجَّحه بعضهم بموافقته للنظم الجليل.

---

(١) قوله: ابن، ساقط من (م).

(٢) الصحاح (روم).

(٣) القراءات الشاذة ص١١٦.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وابنُ عمر رضي الله عنهما ومعاويةُ بن قُرَّةَ: «غَلْبِهم» بسكون اللام[1]. وعن أبي عمرو أنه قرأ: «غِلَابِهم» على وزن كتاب[2]، والكلُّ مصادرُ غَلَبَ.

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿سَيَغْلِبُونَ ③﴾ وفي ذلك تأكيدٌ لِمَا يُفْهَمُ من السين، ولكونِ مغلوبِهم مَن كان غالِبَهم، وفي بناء الجملة على الضمير تقويةٌ للحكم، أي: سيغلبون فارسَ ألبتة.

وقوله تعالى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ متعلِّق بـ «يغلبون»[3] أيضاً.

والبِضْعُ ما بين الثلاث إلى العشرة، عن الأصمعي.

وفي «المُجْمَل»: ما بين الواحد إلى التسعة[4].

وقيل: هو ما فوق الخمس ودون العشرة[5].

وقال المبرِّد: ما بين العقدين في جميع الأعداد.

روي أنَّ فارس غزوا الروم، فوافَوْهم بأذرعات وبصرى فغلبوا عليهم، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ وأصحابَه وهم بمكة، فشقَّ ذلك عليهم، وكان ﷺ يكره أن يظهر الأمِّيون من المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح الكفار بمكة وشَمِتوا، فلقُوا أصحاب النبيِّ ﷺ فقالوا: إنكم أهلُ كتاب والنصارى أهلُ كتاب، وقد ظهر إخوانُنا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم[6]. فأنزل الله تعالى: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ②﴾ الآيات، فخرج أبو بكر رضي الله عنه إلى الكفار فقال: أَفَرِحْتُم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا ولا يُقِرَّنَّ اللهُ تعالى عينكم، فواللهِ تعالى ليظهرنَّ الرومُ على فارس، أخبرنا بذلك نبيُّنا ﷺ. فقام

---

(١) القراءات الشاذة ١١٦، والبحر ٧/ ١٦١، والكلام منه.

(٢) البحر ٧/ ١٦٢.

(٣) في (م): بسيغلبون.

(٤) مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ١/ ١٢٧.

(٥) في (م): العشر.

(٦) بعدها في (م): الله.

إليه أبيّ بنُ خلف فقال: كذبتَ. فقال له أبو بكر ﷺ: أنت أَكْذَبُ يا عدوَّ الله، تعال أُناحِبْكَ[١]، عشر قلائصَ منّي وعشر قلائصَ منك، فإنْ ظهرتِ الرومُ على فارس غَرِمْتَ، وإن ظهرتْ فارسُ غَرِمْتُ، إلى ثلاث سنين. فناحَبَه ثم جاء أبو بكر إلى النبيِّ ﷺ فأخبره، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما هكذا ذكرتُ، إنما البِضْعُ ما بين الثلاث إلى التسع، فزايِدْه في الخَطَر[٢]، ومادَّه في الأَجَل» فخرج أبو بكر فلقي أبيًّا فقال: لعلك نَدِمْتَ؟ قال: لا، تعال أُزايِدْكَ في الخَطَر وأمادُّك في الأَجَل، فاجْعَلْها مئةَ قلوصٍ إلى تسع سنين. قال: قد فعلتُ. فلمَّا أراد أبو بكر الهجرة طلب منه أبيٌّ كفيلاً بالخطر إن غُلب، فكفل به ابنُه عبد الرحمن، فلمَّا أراد أبيٌّ الخروجَ إلى أُحدٍ طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه كفيلاً، ومات أبيٌّ من جُرْحٍ جَرَحَه النبيُّ ﷺ، وظهرت الرومُ على فارس لمَّا دخلت السنة السابعة[٣]. وجاء في بعض الروايات أنهم ظهروا عليهم يوم الحديبية[٤]. وأخرج الترمذيُّ وحسَّنه أنه لمَّا كان يومُ بدرٍ ظهرت الرومُ على فارس[٥]. فأخذ أبو بكر ﷺ الخَطَر من وَرَثةِ أبيٍّ وجاء به إلى النبيِّ ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «تصدَّق به»[٦].

وفي رواية أبي يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء بن عازب أنه عليه الصلاة والسلام قال: «هذا السحتُ، تصدَّق به»[٧].

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): قوله: أناحبك، أي: أراهنك. اهـ منه.

(٢) الخطر بالتحريك: الرهن، وما يخاطر عليه. النهاية (خطر).

(٣) ذكر هذا الخبر البغوي في تفسيره ٣/ ٤٧٥-٤٧٦، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢١٤، والبيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٧/ ١١١، وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٥٠ عن عكرمة دون قوله: فلما أراد أبو بكر الهجرة... إلخ. وقصة أبي بكر في المراهنة أخرجها الترمذي (٣١٩٤) من حديث نِيَار بن مُكْرَم الأسلمي، وسياقها مخالف لسياق هذه القصة، وينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٢٨.

(٤) هو قول عكرمة والزهري وقتادة كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وورد ذلك أيضاً ضمن الخبر السالف عند البغوي والزمخشري والبيضاوي.

(٥) سنن الترمذي (٣١٩٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. والقول بأن نصر الروم على الفرس كان يوم بدر هو قول ابن عباس والثوري والسدي كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٦) الكشاف ٣/ ٢١٤، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١١١.

(٧) الدر المنثور ٥/ ١٥٠، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية بإسناده عن ابن أبي حاتم.

واستشكل بأنه إن كان ذلك قبل تحريم القمار كما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقيُّ عن قتادة[١]، والترمذيُّ وصحَّحه عن نِيَار بن مُكْرَم السلميِّ[٢]، وهو الظاهرُ لأنَّ السورة مكيةٌ وتحريمُ الخمر والميسر من آخر القرآن نزولاً، فما وجهُ كونه سحتاً؟ وإن كان بعد التحريم فكيف يؤمَرُ بالتصدُّقِ بالحرام الغيرِ المختلطِ بغيره وصاحبُه معلومٌ، وفي مثل ذلك يجبُ ردُّ المالِ عليه؟.

فإن قيل: إنه مالُ حربيٍّ، والحادثةُ وقعت بمكة، وهي قبل الفتح دارُ حربٍ، والعقودُ الفاسدة تجوز فيها عند أبي حنيفة ومحمدٍ عليهما الرحمة، لم يظهر كونُه سحتاً.

وكأني بك تمنع صحة هذه الرواية، وإذا لم تَثْبُتْ صحتُها يبقى الأمرُ بالتصدُّق، وحينئذٍ يجوز أن يكون لمصلحةٍ رآها رسول الله ﷺ، وهو تصدُّقٌ بحلالٍ؛ أما إذا كان ذلك قبل تحريم القمار كما هو المعوَّلُ عليه فظاهرُ، وأمَّا إن كان بعد التحريم فلأنَّ أبا حنيفة ومحمداً قالا بجواز العقود الفاسدة في دار الحرب بين المسلمين والكفار، واحتجَّا على صحة ذلك بما وقع من أبي بكر في هذه القصة، وقد تضافرت الرواياتُ أنه ﷺ لم ينكر عليه المناحَبةَ[٣]، وإنما أنكر عليه التأجيلَ بثلاثِ سنين، وأرشده إلى أن يُزايِدَهم.

وربما يقال على تقدير الصحة: إنَّ السُّحْتَ ليس بمعنى الحرام، بل بمعنى ما يكون سببًا للعار والنقص في المروءة حتى كأنه يسحتُها، أي: يستأصلُها، كما في قوله ﷺ: «كَسْبُ الحجَّام سُحْتٌ»[٤] فقد قال الراغب: إنَّ هذا لكونه ساحتاً

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٥٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٣٣-٣٣٤، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي.
(٢) سنن الترمذي (٣١٩٤)، وفيه: الأسلمي، وهو الصواب.
(٣) ينظر حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الترمذي (٣١٩٣)، وفيه أن المشركين قالوا لأبي بكر: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أَجَل خمس سنين، فلم يظهروا، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «ألا جَعَلْتَه إلى دون» أراه قال: العشر. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
(٤) أخرجه ابن حبان (٤٩٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

للمروءة لا للدين[١]، فكأنه ﷺ رأى أنَّ تموُّلَ ذلك وإن كان حلالاً مخلٌّ بمروءة أبي بكرٍ رضي الله عنه، فأطلق عليه السحت، ولا يأبى ذلك إذنُه عليه الصلاة والسلام في المناحبة؛ لِمَا أنها لا تضرُّ بالمروءة أصلاً، وفيها من إظهار اليقين بصِدْقِ ما جاء به النبيُّ ﷺ ما فيها، وكان عليه الصلاة والسلام على ثقةٍ من صلاح الصدِّيق رضي الله عنه، وأنه إذا أمره بالتصدُّق بما يأخذه ونهاه عن تموُّله لم يخالفه.

وقيل: السحتُ هنا بمعنى ما لا شيء على مَن استهلكه، وهو أحدُ إطلاقاته كما في «النهاية»[٢]، والمرادُ: هذا الذي لا شيء عليكَ إذا استَهْلَكْته وتصرَّفتَ فيه حَسْبَما تشاء تَصدَّقْ به، كأنه عليه الصلاة والسلام بعد أن أَخبر الصدِّيق رضي الله عنه بأنه لا مانع له من التصرُّفِ فيه حَسْبَما يريد أَرْشَدَه إلى ما هو الأَوْلى والأَحْرى، فقال: «تصدَّق به». وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ السحت كما في «النهاية» يَرِدُ في الكلام بمعنى الحرام مرةً، وبمعنى المكروه أخرى، ويُستدلُّ على ذلك بالقرائن[٣]، فيجوز أن يكون في الخبر ـ إذا صحَّ فيه ـ بمعنى المكروه؛ إذ الأمرُ بالتصدُّق يمنع أن يكون بمعنى الحرام، فيتعيَّنُ كونُه بمعنى المكروه. وفيه نظر.

وأمَّا تفسيرُ السحت بالحرام، والتزامُ القول بجواز التصدُّق بالحرام لهذا الخبر، فمما لا يُلتفَتُ إليه أصلاً، فتأمل.

وكانت كلتا الغلبتين في سلطنة خسرو برويز، قال في «روضة الصفا»[٤] ما ترجمته: إنه لمَّا مضى من سلطنة خسرو أربعةَ عَشَرَ سنةً غدر الروميون بمَلِكِهم وقتلوه مع ابنه بناطوس، وهرب ابنُه الآخر إلى خسرو، فجهَّز معه ثلاثةَ رؤساء أُولي قَدْرٍ رفيعٍ مع عسكرٍ عظيم، فدخلوا بلاد الشام وفلسطين وبيتَ المقدس، وأسروا مَن فيها من الأساقفة وغيرِهم، وأرسلوا إلى خسرو الصليب الذي كان مدفوناً

---

(١) مفردات الراغب (سحت).

(٢) مادة (سحت).

(٣) النهاية (سحت).

(٤) روضة الصفاء في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، فارسي لمحمد بن خاوند شاه بن محمود، المتوفى سنة (٩٠٣هـ). كشف الخفاء ١/٩٢٦.

عندهم في تابوتٍ من ذهب، وكذلك استَوْلَوا على الإسكندرية وبلادِ النوبة، إلى أن وصلوا إلى نواحي القسطنطينية، وأكثروا الخراب، وجهدوا على إطاعة الروميين لابن قيصر فلم تحصل.

قيل: إنَّ الروميين جعلوا عليهم حاكماً شخصاً اسمه: هرقل، وكان سلطاناً عادلاً يخاف الله تعالى، فلمَّا رأى تخريبَ فارس قد شاع في بلاد الروم من النهب والقتل تضرَّع وبكى وسأل الله تعالى تخليصَ الروميين، فصادف دعاؤه هدف الإجابة، فرأى في ليالي متعدِّدةٍ في منامه أنه قد جيء إليه بخسرو في عنقه سلسلةٌ، وقيل له: عجِّل بمحاربة برويز لأنه يكون لك الظَّفرُ والنصرةُ، فجمع هرقلُ عسكره بسبب تلك الرؤيا وتوجَّه من قسطنطينية إلى نصيبين، فسمع خسرو، فجهَّز اثني عشر ألفاً مع أميرٍ من أمرائه، فقاتلهم(١) هرقلُ فكسرهم وقتل منهم تسعةَ آلاف مع رؤسائهم. وفي بعض الروايات أنهم ربطوا خيولهم بالمدائن.

ورأيتُ في بعض الكتب أنَّ سبب ظهور الروم على فارس أنَّ كسرى بعث إلى أميره شهريار، وهو الذي ولَّاه على محاربة الروم: أن اقتل أخاك فرخان لمقالةٍ قالها، وهو قوله: لقد رأيتني جالساً على سرير كسرى. فلم يقتله، فبعث إلى فارس: إنِّي قد عزلتُ شهريار وولَّيتُ أخاه فرخان، فاطَّلع فرخان على حقيقة الحال فردَّ الملك إلى أخيه، وكتب شهريار إلى قيصر ملك الروم فتعاونا على كسرى، فغلبت الرومُ فارس، وجاء الخبر ففرح المسلمون(٢)، وكان ذلك من الآيات البيِّنات الباهرة الشاهدةِ بصحة النبوَّةِ، وكونِ القرآن من عند الله عز وجل لِمَا في ذلك من الإخبار عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى العليم الخبير، وقد صحَّ أنه أسلم عند ذلك ناسٌ كثير(٣).

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وابنُ عباس وابن عمر وأبو سعيد الخدريُّ والحسن ومعاويةُ بن قرة: «غَلَبتِ الروم» على البناء للفاعل و: «سيُغْلَبون» على

---

(١) في (م): فقابلهم.

(٢) أورده البغوي ٣/ ٤٧٦-٤٧٧ عن عكرمة، وذكره أبو حيان في البحر ٧/ ١٦١ دون نسبة.

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٩٤) من حديث نِيَار بن مُكْرَم الأسلمي، وقد سلف تخريجه قريباً.

البناء للمفعول[1]، والمعنى على ما قيل: إنَّ الروم غَلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون، وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزول الآية ففتحوا بعضَ بلادهم، وإضافة «غلب» عليه من إضافة المصدر إلى الفاعل.

ووفِّق بين القراءتين بأنَّ الآية نزلت مرتين: مرةً بمكة على قراءة الجمهور، ومرةً يومَ بدرٍ كما رواه الترمذيُّ وحسَّنه عن أبي سعيد على هذه القراءة[2].

وقال بعض الأجلَّة: الصوابُ أن يبقى نزولُها على ظاهره، ويرادَ بغلب المسلمين إياهم ما كان في غزوة مؤتة، وكانت في جمادى الأولى سنة ثمانٍ، وذلك قريبٌ من التاريخ الذي ذكروه لنزول الآية أولاً، ولا حاجةَ إلى تعدُّد النزول، فإنه يجوز تخالُفُ معنى القراءتين إذا لم يتناقضا، وكونُ فريقٍ غالباً ومغلوباً في زمانين غيرُ متدافع، فتأمَّل. انتهى.

ولا يخفى على مَن سَبَرَ السِّيرَ أنَّ هذا مما لا يكاد يتسنَّى؛ لأن الروم لم يغلبهم المسلمون في تلك الغزوة، بل انصرفوا عنهم بعد أن أُصيبوا بجعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وعباد بن قيس في آخرين من الصحابة ﷺ أجمعين كالمغلوبين. بل ذَكَر ابنُ هشام أنهم لمَّا أتَوا المدينةَ جعل الناس يَحثُون على الجيش الترابَ ويقولون: يا فُرَّار، فَرَرْتُم في سبيل الله تعالى. وكان رسول الله ﷺ يقول: «ليسوا بالفُرَّار ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى»، ورَوَى أنَّ أمَّ سلمةَ قالت لامرأة سَلَمَة بن هشام بن العاص بن المغيرة: مالي لا أرى سلمةَ يحضُر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين؟ فقالت: والله ما يستطيعُ أن يخرج، كلَّما خرج صاح به الناس: يا فرَّار، فررتُم في سبيل الله، حتى قعد في بيته ولم يخرج. وذَكَر أبياتاً لقيس اليعمريِّ يعتذر فيها مما صنع يومئذ وصنع الناسُ، وقد تضمَّنت ـ كما قال ـ بيانَ أنَّ القوم حاجزوا وكرهوا الموت، وأنَّ خالد بن الوليد انحاز بمن معه[3]. على أنَّ فيما ذُكر أنه الصواب بحثاً بعدُ، فلعل الأوْلَى في التوفيق إذا صحَّت هذه القراءةُ ما ذكر أوَّلاً، فتأمل.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٦، والبحر ٧/ ١٦١.

(٢) سنن الترمذي (٣١٩٢)، وقد سلف تخريجه قريباً.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٨٢-٣٨٣، والخبران أخرجهما البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٣٧٤-٣٧٥ عن عروة وعن أم سلمة.

وفي «البحر»: كان شيخُنا الأستاذ أبو جعفر بنُ الزبير يحكي عن أبي الحكم بن برجان أنه استَخْرجَ من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ إلى ﴿سِنِينَ﴾ افتتاحَ المسلمين بيتَ المقدس معيَّناً زمانه ويومَه، وكان إذ ذاك بيتُ المقدس قد غَلَبتْ عليه النصارى، وأنَّ ابن برجان مات قبل الوقت الذي عيَّنه للفتح، وأنه بعد موته بزمانٍ افتتحه المسلمون في الوقت الذي عيَّنه أبو الحكم، وكان أبو جعفر يعتقد في أبي الحكم هذا أنه كان يتطلَّع على أشياء من المغيبات يستخرجُها من كتاب الله تعالى[(١)]. انتهى.

واستخراجُ بعض العارفين كمحيي الدين قدِّس سرُّه والعراقيِّ وغيرهم المغيَّبات من القرآن العظيم أمرٌ شهيرٌ، وهو مبنيٌّ على قواعدَ حسابيةٍ وأعمالٍ حَرْفيةٍ لم يَرِدْ شيءٌ منها عن سَلَف الأمة، ولا حَجْرَ على فضل الله عز وجل، وكتابُ الله تعالى فوقَ ما يخطر للبشر، وقد سُئل عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: هل أسرَّ إليكم رسول الله ﷺ شيئاً كتمه عن غيركم؟ فقال: لا، إلَّا أنْ يؤتي الله تعالى عبداً فهماً في كتابه[(٢)].

هذا ونسألُ الله سبحانه أن يوفِّقنا لفَهْمِ أسرار كتابه بحرمةِ النبيِّ ﷺ وأصحابهِ.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من قبل هذه الحالة ومن بعدها، وهو حاصلُ ما قيل، أي: من قبل كونهم غالبين وهو وقتُ كونهم مغلوبين، ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقتُ كونهم غالبين. وتقديمُ الخبر للتخصيص، والمعنى: إنَّ كلًّا من كونهم مغلوبين أولاً وغالبين آخِراً ليس إلا بأمر الله تعالى شأنُه وقضائه عز وجل ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقرأ أبو السمال والجحدريُّ عن العقيليِّ: «مِن قبلٍ ومِن بعدٍ» بالكسر والتنوين فيهما[(٣)]، فليس هناك مضافٌ إليه مقدَّرٌ أصلاً على المشهور، كأنه قيل: لله الأمرُ قبلاً وبَعْداً، أي: في زمانٍ متقدِّمٍ وفي زمانٍ متأخِّرٍ، وحذف بعضهم الموصوف[(٤)].

(١) البحر ٣/ ١٦٢، وقد سلفت هذه القصة والكلام عليها ١/ ١١٠-١١١.
(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٣٠٤٧) و(٦٩٠٣).
(٣) البحر ٧/ ١٦٢.
(٤) أي: من متقدمٍ ومن متأخِّر. إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٦٤.

وذكر السكاكيُّ[١] أن المضاف إليه مقدَّرٌ في مثل ذلك أيضاً والتنوينُ عوضٌ عنه.

وجوَّز الفرَّاء الكسر من غير تنوين[٢]. وقال الزجَّاج: إنه خطأٌ؛ لأنه إمَّا أن لا يقدَّر فيه الإضافةُ فينوَّنَ، أو يقدَّر فيُبْنَى على الضم، وأمَّا تقديرُ لفظه قياساً على قوله:

بيـن ذراعَـيْ وجبهـةِ الأسـدِ

فقياسٌ مع الفارق؛ لذِكْرِه فيه بعدُ، وما نحن فيه ليس كذلك[٣].

وقال النحاس[٤]: للفرَّاء في كتابه في القرآن أشياءُ كثيرةُ الغلط، منها أنه زعم أنه يجوز: «من قبلِ ومن بعدِ» بالكسر بلا تنوين، وإنما يجوز «من قبلٍ ومن بعدٍ» على أنهما نكرتان، أي: من متقدِّمٍ ومن متأخِّرٍ.

وذهب إلى قول الفرَّاء ابنُ هشام في بعض كتبه[٥]. وحكى الكسائي عن بعض بني أسد: «لله الأمرُ من قبلٍ ومن بعدُ» على أنَّ الأول مخفوضٌ منوَّنٌ والثاني مضمومٌ بلا تنوين[٦].

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: ويومَ إذ يغلبُ الرومُ فارساً ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وتغليبِهِ مَن له كتابٌ على مَن لا كتابَ له، وغَيْظِ مَن شَمِتَ بهم[٧] من كفار مكة، وكونِ ذلك مما يُتفاءل به لغلبة المؤمنين على الكفار.

وقيل: نصرُ الله تعالى صِدْقُ المؤمنين فيما أَخبروا به المشركين من غَلَبَةِ الروم على فارس.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ١٦٢، والكلام منه.
(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٠، وحاشية الشهاب ٧/ ١١٢.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٦-١٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١١٢، والبيت للفرزدق كما في الكتاب ١/ ١٨٠، والمقتضب ٤/ ٢٢٩، والخزانة ٢/ ٣١٩-٣٢٠، ودون نسبة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٢، وللزجاج ٤/ ١٧٧، وصدره:
يـا مَـن رأى عـارضـاً أُسـرُّ بـه
(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢-٢٦٤.
(٥) حاشية الشهاب ٧/ ١١٢.
(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٠، والبحر ٧/ ١٦٢.
(٧) في الأصل و(م): شمتهم، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ٥٠.

وقيل: نصرُه عزَّ وجلَّ أنه ولَّى بعضَ الظالمين بعضاً، وفرَّق بين كلمتهم حتى تناقضوا وتحاربوا، وقلَّل كلٌّ منهما شوكةَ الآخر.

وعن أبي سعيد الخدريِّ أنه وافق ذلك يومَ بدر، وفيه من نصر الله تعالى العزيز للمؤمنين وفَرَحِهم بذلك مالا يخفى.

والأولُ أنسبُ لقوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: مَن يشاء أن ينصره من عباده على عدوِّه ويغلِّبه عليه، فإنه استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون قوله تعالى: (لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ).

والظاهر أنَّ «يوم» متعلِّقٌ بـ «يفرح» وكذا «بنَصْرِ»، وجوِّز تعلُّقُ «يوم» به، وكذا جوِّز تعلُّق «بنصر» بـ «المؤمنين». وقيل: «يومئذ» عطفٌ على «قبلُ» أو «بعد»، كأنه حَصَر الأزمنة الثلاثة: الماضي والمستقبل والحال، ثم ابتدأ الإخبار بفرح المؤمنين.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المبالغُ في العزَّة والغلبة، فلا يُعْجِزُه مَن يشاء أن يَنصر عليه كائناً مَن كان ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ المبالغُ في الرحمة، فينصرُ مَن يشاء أن ينصره أيَّ فريقٍ كان.

والمراد بالرحمة هنا هي الدنيويةُ، أمَّا على القراءة المشهورة فظاهرٌ لأنَّ كِلَا الفريقين لا يستحقُّ الرحمة الأخروية، وأمَّا على القراءة الأخيرة فلأنَّ المسلمين وإن كانوا مستحقِّين لها، لكن المراد ها هنا نصرُهم الذي هو من آثار الرحمة الدنيوية. وتقديمُ وَصْفِ «العزيز» لتقدُّمه في الاعتبار.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة المتقدِّمة من قوله تعالى: (سَيَغْلِبُونَ) وقولِه سبحانه: (يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ) ويقال له: المؤكِّد لنفسه؛ لأن ذلك في معنى الوعد، وعاملُه محذوفٌ وجوباً، كأنه قيل: وَعَدَ الله تعالى ذلك وَعْداً.

﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أيَّ وَعْدٍ كان مما يتعلَّق بالدنيا والآخرة؛ لِمَا في خُلْفِه من النقص المستحيلِ عليه عز وجل. وإظهارُ الاسم الجليل في موضع الإضمار للتعليل الحكميِّ وتفخيمِه، والجملةُ استئنافٌ مقرِّرٌ لمعنى المصدر، وجوِّز أن تكون حالاً منه، فيكون كالمصدر الموصوف، كأنه سبحانه يقول: وَعَدَ اللهُ تعالى وَعْداً غيرَ مخلفٍ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ أنه تعالى لا يُخْلِفُ وَعْدَه؛ لجهلهم بشؤونه عز وجل، وعدمِ تفكُّرِهم فيما يجب له جلَّ شأنُه وما يستحيلُ عليه سبحانه، أو: لا يعلمون ما سبق من شؤونه جل وعلا. وقيل: لا يعلمون شيئاً، أو ليسوا من أُولي العلم حتى يعلموا ذلك.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو ما يحسُّون به من زخارفها وملاذِّها، وسائرِ أحوالها الموافقةِ لشهواتهم الملائمةِ لأهوائهم، المستدعيةِ لانهماكهم فيها وعُكوفِهم عليها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يعلمون منافعها ومضارَّها، ومتى يزرعون ومتى يحصدون، وكيف يجمعون وكيف يبنون، أي: ونحوَ ذلك ممَّا لا يكون لهم منه أثر في الآخرة. ورُوي نحوُه عن قتادة وعكرمة.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في الآية: بلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلبُ الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه، وما يُحسِنُ يصلِّي[1].

وقال الكرمانيُّ: كلُّ ما يُعلم بأوائل الرؤية فهو الظاهرُ، وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن.

وقيل: هو هنا التمتُّع بزخارفها والتنعُّم بملاذِّها. وتعقِّب بأنهما ليسا مما عَلِموه منها، بل من أفعالهم المرتَّبة على علمهم.

وعن ابن جبير أنَّ الظاهر هو ما علموه من قِبَلِ الكهنة مما تَسْتَرِقُه الشياطين. وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وأيًّا ما كان فالظاهرُ أنَّ المراد بالظاهر مقابل الباطن، وتنوينُه للتحقير والتخسيس، أي: يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً.

وقيل: هو بمعنى الزائل الذاهب، كما في قول الهذليِّ:

وعيَّرها الواشون أنِّي أحبُّها ... وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[2]

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٥٢.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ٢٠. قوله: ظاهر عنك، قال شارح الديوان: أي: لا يعلق بك، أي: يظهر عنك وينبو.

أي: يعلمون أمراً زائلاً لا بقاءَ له ولا عاقبةَ من الحياة الدنيا ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ﴾ التي هي الغايةُ القصوى والمطلبُ الأسنى ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ لا تخطُر ببالهم، فكيف يتفكَّرون فيها وفيما يؤدي إلى معرفتها من الدنيا وأحوالها؟

والجملةُ معطوفة على «يعلمون»، وإيرادُها اسميةً للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامِها، و«هم» الثانيةُ تكريرٌ للأولى، وتأكيدٌ لفظيٌّ لها دافعٌ للتجوُّز وعدم الشمول، والفصلُ بمعمول الخبر وإن كان خلافَ الظاهر لكنْ حسَّنه وقوعُ الفصل في التلفُّظ والاعتناءُ بالآخرة، أو هو مبتدأ و«غافلون» خبرُه والجملةُ خبرُ «هم» الأولى.

وجملةُ «يعلمون» إلخ بدلٌ من جملة «لا يعلمون» على ما ذهب إليه صاحب «الكشاف»(1)؛ فإنَّ الجاهل الذي لا يعلم أنَّ الله تعالى لا يُخلِفُ وعده، أو لا يعلمُ شؤونَه تعالى السابقةَ ولا يتفكَّر في ذلك، هو الذي قصر نظره على ظاهر الحياة الدنيا، والمصحِّحُ للبدلية اتِّحادُ ما صَدَقا عليه، والنكتةُ المرجِّحةُ له جَعْلُ عِلْمِهم والجهل سواءٌ بحسب الظاهر.

وجملة «وهم عن الآخرة» إلخ منادٍ على تمكُّنِ غَفْلَتِهم عن الآخرة المحقَّقةِ لمقتَضَى الجملة السابقة؛ تقريراً لجهالتهم وتشبيهاً لهم بالبهائم المقصورِ إدراكُها على ظواهر الدنيا الخسيسةِ دون أحوالها التي هي من مبادي العلم بأمور الآخرة.

واختار العلَّامة الطيبيُّ أنَّ جملة «يعلمون» إلخ استئنافيةٌ لبيان موجب جَهْلِهم بأنَّ وعد الله تعالى حقٌّ، وأنَّ للهِ سبحانه الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ، وأنه جلَّ شأنُهُ ينصر المؤمنين على الكافرين(2)، ولعله الأظهر.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ إنكارٌ واستقباحٌ لقَصْرِ نظرِهم على ما ذُكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة، والواوُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام. وقولُه سبحانه: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ظرفٌ للتفكُّر، وذِكْرُه مع أنَّ التفكُّر لا يكونُ إلا في النفس لتحقيق أمره، وزيادةِ تصوير حالِ المتفكِّرين كما في: اعتَقِدْه في قَلْبِك، وأَبْصِرْه بعينك.

---

(1) ٣/ ٢١٥.

(2) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ إمَّا بالعلم الذي يؤدِّي إليه التفكُّر ويدلُّ عليه، أو بالقول الذي يترتَّبُ عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] أي: أَعَلِموا ظاهرَ الحياة الدنيا فقط، أو: أَقَصَروا النظر على ذلك ولم يُحْدِثُوا التفكُّر في قلوبهم فيعلَموا أنه تعالى ما خَلَق السماوات والأرضَ وما بينهما من المخلوقات التي هم من جملتها ملتبسةً بشيءٍ من الأشياء إلَّا ملتبسةً بالحقِّ، أو يقولوا هذا القولَ معترفين بمضمونه إثر ما عَلِموه.

والمرادُ بالحقِّ هو الثابتُ الذي يحقُّ ان يثبُتَ لا محالةَ، لابتنائه على الحِكَم البالغة التي من جملتها استشهادُ المكلَّفين بذواتها وصفاتها وأحوالها على وجود صانعها، ووحدتِه وعِلْمِه وقدرته، واختصاصِه بالمعبودية، وصحةِ أخباره التي من جملتها إحياؤهم بعد الفناء بالحياة الأبدية، ومجازاتُهم بحسب أعمالهم غبَّ ما[1] يتبيَّنُ المحسنُ من المسيء، ويمتازُ درجاتُ أفراد كلٍّ من الفريقين حَسبَ امتيازِ طبقات علومهم واعتقادهم المترتِّبةِ على أنظارهم فيما نُصِبَ في المصنوعات من الآيات والدلائل والأمارات والمخايل، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] فإنَّ العمل غيرُ مختصٍّ بعمل الجوارح، ولذلك فسَّره عليه الصلاة والسلام بقوله: «أيُّكم أحسنُ عقلاً، وأَوْرَعُ عن مَحارِمِ اللهِ تعالى، وأسرعُ في طاعة الله عز وجل»[2].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على «الحق»، أي: وبأَجَلٍ معيَّنٍ قدَّره الله تعالى لبقائها لا بدَّ لها من أن تنتهي إليه لا محالةَ، وهو وقتُ قيام الساعة وتبدُّلِ الأرض غيرَ الأرض والسماوات.

---

(١) في (م): عما، بدل: غب ما، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٥١، والكلام منه.

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفي إسناده داود بن المحبر، قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص٨٦: وداود ساقط. وأخرجه ابن مردويه بإسناد آخر عن ابن عمر، وإسناده أسقط من الأول كما قال ابن حجر.

هذا وجوّز أن يكون قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ متعلِّقاً بـ «يتفكَّروا» ومفعولاً له بالواسطة، على معنى: أولم يتفكروا في ذواتهم وأنفسهم التي هي أقربُ المخلوقات إليهم، وهم أعلمُ بشؤونها وأَخْبَرُ بأحوالها منهم بأحوال ما عَدَاها، فيتدبَّروا ما أَوْدَعها الله تعالى ظاهراً وباطناً من غرائب الحِكَم الدالَّةِ على التدبير دون الإهمال، وأنه لا بدَّ لها من انتهاءٍ إلى وقتٍ يجازيها الحكيمُ الذي دبَّر أمرها على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلَها، حتى يعلموا عند ذلك أنَّ سائر الخلائق كذلك أمرُها جارٍ على الحكمة والتدبير، وأنه لا بدَّ لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت.

وتعقِّب بأنَّ أمر مَعَادِ الإنسان ومُجازاته بما عَمِلَ من الإساءة والإحسان هو المقصودُ بالذات والمحتاجُ إلى الإثبات، فجَعْلُه ذريعةً إلى إثباتِ مَعَادِ ما عَدَاه مع كونه بمعزلٍ من الإجزاء تعكيسٌ للأمر، فتدبَّر.

وجوَّز أبو حيان أن يكون «ما خلق» إلخ مفعول «يتفكَّروا» معلَّقاً عنه بالنفي[1]. وأنت تعلم أن التعليق في مثله ممنوعٌ أو قليل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لِمَا قبله ببيانِ أنَّ أكثرهم غيرُ مقتصرين على ما ذكر من الغفلة من أحوال الآخرة، والإعراضِ عن التفكُّر فيما يرشدهم إلى معرفتها من خَلْقِ السماوات والأرض وما بينهما من المصنوعات، بل هم منكرون جاحدون لقاءَ حسابه تعالى وجزائه عز وجل بالبعث، وهم القائلون بأبدية الدنيا كالفلاسفة على المشهور.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ توبيخٌ لهم بعدم اتِّعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالَّةِ على عاقبتهم ومآلهم، والهمزةُ للإنكار التوبيخيِّ أو الإبطاليِّ، وحيث دخلت على النفي - وإنكارُ النفي إثباتٌ - قيل: إنها لتقرير المنفيِّ، والواو للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: أَقَعدوا في أماكنهم ولم يسيروا في الأرض.

وقولُه تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ عطفٌ على «يسيروا» داخلٌ في حُكْمِه، والمعنى أنهم قد ساروا في أقطار الأرض وشاهدوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ من الأمم المهلَكَةِ كعادٍ وثمود.

---

(١) البحر ٧/ ١٦٣.

وقولُه تعالى: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ إلخ بيانٌ لمبدأ أحوالهم ومآلها، يعني أنهم كانوا أقدرَ منهم على التمتُّع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشدَّ منهم قوةً.

﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: قَلَبوها للحرث والزراعة كما قال الفرَّاء[١]. وقيل: لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك.

وقرأ أبو جعفر: «وآثاروا» بِمَدَّةٍ بعد الهمزة[٢]. وقال ابن مجاهد: ليس بشيءٍ[٣]. وخرَّج ذلك أبو الفتح[٤] على الإشباع كقوله:

ومِــن ذمِّ الــزمــان بــمــنــتــزاحِ[٥]

وذَكَر أنَّ هذا من ضرورة الشعر ولا يجيءُ في القرآن.

وقرأ أبو حيوة: «وأَثَروا» من الأثَرة، وهو الاستبدادُ بالشيء[٦]. و: «آثَروا الأرض»[٧] أي: أَبْقَوا فيها آثاراً.

﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أي: وعَمَرها أولئك الذين كانوا قبلهم بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها. وقيل: أي: أقاموا بها، يقال: عَمرْتُ بمكانِ كذا وعمرتُه، أي: أقمتُ به.

﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: عمارةً أكثر من عمارة هؤلاء إياها، والظاهرُ أنَّ الأكثرية باعتبار الكمِّ، وعمَّمه بعضُهم فقال: أكثر كمًّا وكيفاً وزماناً. وإذا أريدَ العمارةُ بمعنى الإقامة فالمعنى: أقاموا بها إقامةً أكثر زماناً من إقامة هؤلاء بها.

وفي ذكر أفعل تهكُّم بهم؛ إذ لا مناسبةَ بين كفار مكة وأولئك الأممِ

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٢٢، وفيه: «أثاروا الأرض»: حرثوها.
(٢) المحتسب ٢/ ١٦٣، والبحر ٧/ ١٦٤، والكلام منه.
(٣) كما في المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٠، والبحر ٧/ ١٦٤.
(٤) في المحتسب ٢/ ١٦٣، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٦٤.
(٥) وصدره: وأنت من الغوائل حين ترمي، والبيت لإبراهيم بن هرمة، وهو في ديوانه ص٩٢، والمحتسب ٢/ ١٦٣، والبحر ٧/ ١٦٤، ومنتزاح، أي: بعيد.
(٦) القراءات الشاذة ص١١٦، والبحر ٧/ ١٦٤.
(٧) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ١٦٤ دون نسبة.

المهلَكةِ، فإنهم كانوا معروفين بالنهاية في القوة وكثرةِ العمارة، وأهلُ مكةَ ضعفاءُ مُلْجَؤون إلى وادٍ غيرِ ذي زَرْعٍ يخافون أن يتخطَّفهم الناس. ونحوُ هذا يقال إذا فسِّرت العمارةُ بالإقامة؛ فإنَّ أولئك كانوا مشهورين بطول الأعمار جدًّا، وأعمارُ أهل مكة قليلةٌ بحيث لا مناسبةَ يعتدُّ بها بينها وبين أعمار[1] أولئك المهلكين.

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات، أو الآياتِ الواضحات ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: فكذَّبوهم فأهلكهم، فما كان الله تعالى شأنُه ليُهْلِكَهم من غير جرمٍ يستدعيه مِن قِبَلِهم، وفي التعبير عن ذلك بالظلم إظهارٌ لكمال نزاهته تعالى عنه، وإلا فقد قال أهل السنَّة: إنَّ إهلاكه تعالى من غير جرمٍ ليس من الظلم في شيء؛ لأنه عز وجل مالكٌ والمالكُ يفعلُ بملكه ما يشاء، والنزاع في المسألة شهيرٌ.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ حيث ارتكبوا باختيارهم من المعاصي ما أَوْجَبَ بمقتضَى الحكمة ذلك، وتقديمُ «أنفسهم» على «يظلمون» للفاصلة، وجوِّز أن يكون للحَصْرِ بالنسبة إلى الرسل الذين يَدْعونهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ أي: عملوا السيئات، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالإساءة، والإشعارِ بعلَّة الحكم. و«ثم» للتراخي الحقيقيِّ، أو للاستبعاد والتفاوُتِ في الرتبة.

﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: العقوبةَ السُّوأى، وهي العقوبة بالنار، فإنها تأنيثُ الأسوأ، كالحُسْنَى تأنيثُ الأحسن، أو مصدرٌ كالبشرى وَصَفَ به العقوبةَ مبالغةً كأنها نفسُ السوء. وهي مرفوعةٌ على أنها اسمُ «كان»، وخبرُها «عاقبة».

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو: «عاقبةُ» بالرفع على أنه اسم «كان»، و«السوأى» بالنصب على الخبرية[2]. وقرأ الأعمش والحسن: «السُّوَّى» بإبدال الهمزة واواً وإدغامِ الواو فيها. وقرأ ابن مسعود: «السوء» بالتذكير[3].

(١) في(م): أعمال، وهو تصحيف.
(٢) التيسير ص١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٤.
(٣) القراءتان في البحر ٧/ ١٦٤.

﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ علةٌ للحكم المذكور، أي: لأنْ ـ أو بأنْ ـ كذَّبوا، وهو في الحقيقة مبينٌ لِمَا أشعر به وضعُ الموصول موضعَ الضمير؛ لأنه مجملٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ⑩﴾ عطفٌ على «كذَّبوا» داخلٌ معه في حُكْم العلِّية، وإيرادُ الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدُّده.

وجوَّز أن يكون «السوأى» مفعولاً مطلقاً لـ «أساؤوا» من غير لفظه، أو مفعولاً به له؛ لأنَّ «أساؤوا» بمعنى اقترفوا واكتسبوا، والسوأى بمعنى الخطيئة؛ لأنه صفةٌ أو مصدرٌ مؤوَّلٌ بها، وكونُه صفةَ مصدرِ «أساؤوا» من لفظه، أي: الإساءة السوأى، بعيدٌ لفظاً مستدركٌ معنى، و«أن كذَّبوا» اسم «كان»، وكونُ التكذيب عاقبتَهم مع أنهم لم يَخْلُوا عنه إما باعتبارِ استمراره، أو باعتبارِ أنه عبارةٌ عن الطبع.

وجوَّز أيضاً أن يكون «أن كذَّبوا» بدلاً من «السُّوأى» الواقعِ اسماً لـ «كان»، أو عطفَ بيانٍ لها، أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هي أن كذَّبوا، وأن تكون «أن» تفسيريةً بمعنى أي، والمفسَّر إما «أساؤوا» أو «السوأى»، فإنَّ الإساءة تكونُ قوليةً كما تكون فعليةً، فإذن ما قبلها مضمَّنٌ معنى القولِ دون حروفه، ويظهرُ ذلك التضمُّنُ بالتفسير، وإذا جاز ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص:٦] فهذا أجوَزُ، فليس هذا الوجهُ متكلَّفاً خلافاً لأبي حيان(١).

وجوَّز في قراءة الحِرْميين وأبي عمرو أن تكون «السوأى» صلةَ الفعل و«أنْ كذَّبوا» تابعاً له، أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أو على تقديرِ حرف التعليل، وخبر «كان» محذوفاً تقديره: وخيمةً، ونحوه. وتعقَّب ذلك في «البحر» فقال: هو فهمٌ أعجميٌّ؛ لأنَّ الكلام مستقلٌّ في غاية الحسن بلا حذفٍ، وقد تكلَّف له محذوفٌ لا يدلُّ عليه دليلٌ، وأصحابنا لا يجيزون حذفَ خبر «كان»(٢).

﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ أي: ينشئهم، وقرأ عبد الله وطلحة: «يُبْدِئُ» بضم الياء وكَسْرِ الدال(٣)، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك، فتذكَّرْ فما بالعهد من قِدَم.

---

(١) البحر ٧/ ١٦٤.
(٢) البحر ٧/ ١٦٤-١٦٥.
(٣) البحر ٧/ ١٦٥.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بالبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ للجزاء، وتقديمُ المعمول للتخصيص، وكان الظاهرُ: يُرجَعون، بياء الغيبة، إلا أنه عَدَلَ عنه إلى خطاب المشركين لمكافحتهم بالوعيد، ومواجهتهم بالتهديد، وإيهامِ أنَّ ذلك مخصوصٌ بهم، فهو التفاتٌ للمبالغة في الوعيد والترهيب.

وقرأ أبو عمرو وروح: «يرجعون» بياء الغيبة كما هو الظاهر(١).

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي هي وقتُ إعادة الخلق ومرجعُهم إليه عز وجل ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يسكتون وتنقطعُ حجَّتهم، قال الراغب: الإبلاسُ: الحزنُ المعترِضُ من شدة اليأس، ومنه اشتُقَّ إبليس فيما قيل، ولمَّا كان المبلِسُ كثيراً ما يلزمُ السكوتَ وينسى ما يعنيه(٢) قيل: أبلس فلانٌ، إذا سكت وانقطعت حجَّته، وأبلَستِ الناقةُ فهي مبلاسٌ: إذا لم تَرْغُ من شدَّة الضَّبَعة(٣).

وقال ابنُ ثابت: يقال: أبلس الرجلُ، إذا يئس من كلِّ خير. وفي الحديث: «وأنا مبشِّرُهم إذا أبلسوا»(٤).

والمراد بالمجرمين على ما أفاده الطيبيُّ(٥) أولئك الذين أساؤوا السوأى، لكنه وضع الظاهرِ موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بهذا الوصف الشنيع، والإشعارِ بعلَّة الحكم.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والسلميُّ: «يُبْلَسُ» بفتح اللام، وخرِّج على أنَّ

---

(١) قراءة أبي عمرو بضم الياء وفتح الجيم، وكذلك قرأ شعبة عن عاصم، وقراءة روح بفتح الياء وكسر الجيم، وقرأ رويس مثله ولكن بالتاء، وقرأ الباقون: «تُرجَعون». التيسير ص١٧٥، والنشر ٢/ ٢٠٨ و٣٤٤.

(٢) في (م): يعينه.

(٣) مفردات الراغب (بلس). وجاء في هامش الأصل و(م): قوله: الضبعة، هي شدةُ شهوةِ الناقةِ الفحلَ. اهـ منه. وقوله: لم ترغ، أي: لم تصوِّت، والرغاء: صوتُ ذاتِ الخفِّ. حاشية الشهاب ٧/ ١١٥.

(٤) قطعة من حديث أخرجه الترمذي (٣٦١٠)، وأبو يعلى في معجمه (١٦٠)، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين ١/ ٢٤٥، عن أنس ﷺ، ولفظه عند الترمذي: «إذا أيسوا». قال الترمذي: حديث حسن غريب. اهـ. قلنا: في إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٥) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

الفعل من أَبْلَسه إذا أسكته[1]. وظاهرُه أنه يكون متعدِّياً، وقد أنكره أبو البقاء والسمين وغيرُهما، حتى تكلَّفوا وقالوا: أصلُه يُبْلَسُ إبلاس المجرمين، على إقامة المصدر مقامَ الفاعل، ثم حَذْفِه وإقامةِ المضاف إليه مقامه[2].

وتعقَّبه الخفاجيُّ عليه الرحمةُ فقال: لا يخفَى عدمُ صحته؛ لأنَّ إبلاس المجرمين مصدرٌ مضافٌ لفاعله، وفاعلُه هو فاعلُ الفعل بعينه، فكيف يكون نائب الفاعل؟ فتأمل[3]. وأنت تعلم أنه متى صحت القراءةُ لا تُسمَع دعوى عدمِ سماع استعمالِ أبلس متعدِّياً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ ممن أشركوهم بالله سبحانه في العبادة، ولذا أُضيفوا إليهم. وقيل: إن الإضافة لإشراكهم إياهم بالله تعالى في أموالهم، والمراد بهم الأوثان، وقال مقاتل: الملائكة عليهم السلام. وقيل: الشياطين. وقيل: رؤساؤهم. ﴿شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾ يُجيرونهم من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمون.

وجيء بالمضارع منفيًّا بـ«لَمْ» التي تقلبه ماضياً للتحقُّق، وصيغةُ الجمع لوقوعها في مقابلة الجمع، أي: لم يكن لواحدٍ منهم شفيعٌ أصلاً.

وقرأ خارجةُ عن نافع، وابنُ سنانٍ عن أبي جعفر، والأنطاكيُّ عن شيبة: «ولم تكن» بالتاء الفوقية[4].

﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ أي: بإلهيتهم وشركتهم، كما يشير إليه العدولُ عن: وكانوا بهم. ﴿كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ حيث يئسوا منهم ووقفوا على كُنْهِ أمرهم. و«كانوا» للدلالة على الاستمرار، لا للمحافظةِ على رؤوس الفواصل كما توهِّم.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٦، والبحر ٧/ ١٦٥، والقراءة ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٦.

(٢) الإملاء ٤/ ١٧٤، والدر المصون ٩/ ٣٥، ونقله المصنف عنهما بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١١٥.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ١١٥.

(٤) البحر ٧/ ١٦٥، وهي خلاف المشهور عن نافع وأبي جعفر.

وقيل: إنها للمضيِّ كما هو الظاهر، والباء في «بشركائهم» سببية، أي: وكانوا في الدنيا كافرين بالله تعالى بسببهم، ولم يَرْتضِه بعضُ الأجلة؛ إذ ليس في الإخبار بذلك فائدةٌ يُعتدُّ بها، ولأنَّ المتبادر أنَّ «يوم تقومُ الساعة» ظرفٌ للإبلاس وما عُطف عليه، ولذا قيل: إنَّ المناسب عليه جَعْلُ الواو حاليةً ليكون المعنى أنهم لم يشفعوا لهم مع أنهم سببُ كفرهم في الدنيا، وهو أحسنُ من جَعْلِه معطوفاً على مجموع الجملة مع الظرف، مع أنه عليه ينبغي القَطْعُ للاحتياط، إلا أن يقال: إنه ترك تعويلاً على القرينة العقلية، وهو خلافُ الظاهر.

وكتب (شُفَعَـٰٓؤُاْ) في المصحف بواو بعدها ألف، وهو خلافُ القياس، والقياسُ تركُ الواو أو تأخيرُها عن الألف، لكن الأول أحسن كما ذكر في الرسم، وكذا خولفَ القياسُ في كتابة (ٱلسُّوٓأَىٰٓ) حيث كُتبت بالألف قبل الياء، والقياسُ كما في «الكشف» الحذفُ؛ لأنَّ الهمز يُكتب على نحوِ ما يُسهَّل.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أعيد لتهويله وتفظيعِ ما يقع فيه، وهو ظرفٌ للفعل بعده، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على ما ذكره الطبرسيُّ بدلٌ منه[(١)].

وفي «البحر»: التنوينُ في «يومئذٍ» تنوينُ عوضٍ من الجملة المحذوفة، أي: ويوم تقوم الساعة يوم إذ يبلس المجرمون ﴿يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾[(٢)]، وظاهره أنَّ «يومئذ» ظرفٌ لـ «تقوم»، ولا يخفى ما في جَعْلِ الجملة المعوَّضِ عنها التنوينُ حينئذٍ ما ذَكَره من النظر.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنَّ قوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) تهويلٌ ليوم قيام الساعة إِثرَ تهويلٍ، وفيه رمزٌ إلى أنَّ التفرُّقَ يقع في بعضٍ منه[(٣)]. وفي وجه الرمز إلى ذلك بما ذكر خفاءٌ.

وضمير «يتفرقون» للمسلمين والكافرين الدالُّ عليهما ما قبلُ من عموم الخلق وما بعدُ من التفصيل، وذهب إلى ذلك الزمخشريُّ[(٤)] وجماعةٌ.

---

(١) مجمع البيان ٢١/ ١٤.
(٢) البحر ٧/ ١٦٥.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٥٣.
(٤) في الكشاف ٣/ ٢١٦.

وقال في «الإرشاد»: هو لجميع الخلق المدلولِ عليهم بما تقدَّم من مبدئهم ومرجعهم وإعادتهم، لا المجرمون خاصةً[١].

وقال أبو حيان: يظهر أنه عائدٌ على الخَلْقِ قبله، وهو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[٢].

والمراد بتفرُّقهم اختلافُهم في المحالِّ والأحوال كما يؤذِنُ به التفصيل، وليس ذلك باعتبار كلِّ فردٍ بل باعتبارِ كلِّ فريق، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في ذلك: هؤلاء في علِّيين وهؤلاء في أسفل سافلين[٣]. والتفصيل يؤذِنُ بذلك أيضاً، وهذا التفرُّقُ بعد تمام الحساب.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ الروضةُ: الأرضُ ذاتُ النبات والماء، وفي المثل: أحسنُ من بيضةٍ في روضة[٤]، يريدون بيضةَ النعامة، وباعتبارِ الماء قيل: أَراضَ الوادي واسْتَراضَ، أي: كثُر ماؤه، وأَرَاضَهم: أَرْوَاهم بعضَ الريِّ، من أراضَ الحوضَ: إذا صبَّ فيه من الماءِ ما يواري أرضه. ويقال: شربوا حتى أَرَاضُوا، أي: شربوا عَلَلاً بعد نَهَلٍ[٥].

وقيل: معنى أراضوا: صبُّوا اللَّبَنَ على اللَّبَن.

وظاهر تفسير الكثير للروضة اعتبارُ النبات والماء فيها، وأظنُّ أنَّ ابن قتيبةَ صرَّح بأنه لا يقال لأرضٍ ذاتِ نباتٍ بلا ماءٍ: روضة.

وقيل: هي البستان الحسن. وقيل: موضع الخضرة. وقال الخفاجيُّ: الروضة: البستان، وتخصيصُها بذات الأنهار بناءً على العرف[٦]. وأيًّا ما كان فتنوينُها هنا للتفخيم، والمرادُ بها الجنة.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ٥٣.

(٢) البحر ٧/ ١٦٥.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٨٩.

(٤) جمهرة الأمثال ١/ ٣٩٩، والمستقصى ١/ ١٦٧، ومجمع الأمثال ١/ ٢٢٩، وفيه: العرب تستحسن نقاء البيضة في نضارة خضرة الروضة.

(٥) النَّهَل: أول الشرب، والعَلَل: الشربة الثانية، أو الشرب بعد الشرب تباعاً. القاموس (علل) و(نهل).

(٦) حاشية الشهاب ٧/ ١١٦.

والحَبْر: السرور؛ يقال: حَبَرَه يَحبُره بالضم، حَبْراً وحَبْرةً وحُبوراً: إذا سرَّه سروراً تهلَّل له وجهُه وظهر فيه أثره. وفي المثل: امتلأت بيوتُهم حَبْرةً فهم ينتظرون العَبْرةَ[1].

وحكى الكسائيُّ: حَبَرتُه: أكرمتُه ونعَّمته.

وقيل: الحَبْرةُ كلُّ نعمةٍ حسنةٍ، والتحبير: التحسين، ويقال: فلانٌ حسنُ الحَبْر والسَّبرِ بالفتح: إذا كان جميلاً حَسَنَ الهيئة.

واختلفت الأقوال في تفسيره هنا؛ فأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس، وابنُ أبي حاتم عن الضحاك أنهما قالا: «يُحبرون» يُكْرَمون.

وأخرج جماعة عن مجاهد: «يحبرون»: ينعَّمون. وقال أبو بكر بن عياش: يتوَّجون على رؤوسهم. وقال ابن كيسان: يحلَّون. وقال الأوزاعيُّ ووكيعٌ ويحيى بنُ أبي كثير: يسمعون الأغاني.

وأخرج عبد بن حميد عن الأخير أنه قال: قيل: يا رسول الله، ما الحبر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «اللذة والسماع»[2].

وذكر بعضهم أنَّ الظاهر: يُسَرُّون، ولم يذكر ما يُسَرُّون به إيذاناً بكثرة المسارِّ، وما جاء في الخبر فمن باب الاقتصار على البعض، ولعل السائل كان يحبُّ السماعَ فذكره ﷺ له لذلك. والتعبير بالمضارع للإيذان بتجدُّد السرور لهم، ففي كلِّ ساعةٍ يأتيهم ما يسرُّون به من متجدِّدات الملاذِّ وأنواعِها المختلفة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي من جملتها الآياتُ الناطقة بما فصِّل ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: وكذَّبوا بالبعث، وصرَّح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات للاعتناء به.

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبارِ اتِّصافه بما في حيِّزِ الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاءِ الآخرة؛ للإيذان بكمال تميُّزهم بذلك

---

(١) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن٢/ ١٢٠.
(٢) الدر المنثور ٥/ ١٥٣.

عن غيرهم، وانتظامِهم في سلك المشاهَدات، وما فيه من معنى البُعْدِ مع قُرْبِ العَهْدِ بالمُشار إليه للإشعار ببُعْدِ منزلتهم في الشرِّ، أي: فأولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ على الدوام لا يغيبون عنه أبداً.

والظاهرُ أنَّ الفسقة من أهل الإيمان غيرُ داخلينَ في أحد الفريقين، أمَّا عدمُ دخولهم في الذين كفروا وكذَّبوا بالآيات والبعثِ فظاهرٌ، وأمَّا عدمُ دخولهم في الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإما لأنَّ ذلك لا يقال في العرف إلا على المؤمنين المجتنبين للمفسِّقات على ما قيل، وإما لأنَّ المؤمن الفاسق يصدُقُ على المؤمن الذي لم يعمل شيئاً من الصالحات أصلاً، فهم غيرُ داخلين في ذلك باعتبار جميع الأفراد، وحُكْمُهم معلومٌ من آياتٍ أُخَرَ فلا تغفل.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ إثر ما بيَّن حالَ فريقي المؤمنين العاملين بالصالحات والكافرين المكذِّبين بالآيات، ومالهما من الثواب والعقاب، أرشد سبحانه إلى ما ينجي من الثاني ويُفْضي إلى الأول، من تنزيهِ الله عزَّ وجلَّ عن كلِّ مالا يليقُ بشأنه جلَّ شأنُه، ومن حَمْدِه تعالى والثناءِ عليه ووَصْفِه بما هو أهلُه من الصفات الجميلة والشؤون الجليلة. وتقديمُ الأولِ على الثاني لِمَا أنَّ التخلية متقدِّمةٌ على التحلية، مع أنه أول ما يُدْعَى إليه الذين كفروا المذكورون قبلُ بلا فصل.

والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. وظاهرُ كلامهم أنَّ «سبحان» هنا منصوبٌ بفعلِ أمرٍ محذوفٍ، فكأنه قيل: إذا علمتُم ذلك أو إذا صحَّ واتَّضح حالُ الفريقين ومآلُهما فسبِّحوا سبحان الله.. إلخ، أي: نزِّهوه تعالى تنزيهَه اللائقَ به عزَّ وجل في هذه الأوقات.

قال في «الكشف»: وفيه إشكالٌ؛ لأنَّ «سبحان الله» لزم طريقةً واحدةً لا ينصبه فعلُ الأمر لأنه إنشاءٌ من نوعٍ آخَرَ. والجوابُ أنَّ ذلك توضيحٌ للمعنى، وأنَّ وقوعه جواب الشرط على منوال: إنْ فَعلْتَ كذا فنِعْمَ ما فعلتَ، فإنه إنشاءٌ أيضاً لكنه ناب منابَ الخبر وأبلغ، كذلك هو لإنشاء تنزيهه تعالى في الأوقات هرباً من وبيل عقابه وطلباً لجزيل ثوابه، والشرطُ والجوابُ مقولٌ على ألسنة العباد. انتهى.

وفي «حواشي» شيخ زاده[1]: أنَّ الأمر بل الجملة الإنشائية مطلقاً لا يصحُّ تعليقُها بالشرط؛ لأن الإنشاء إيقاعُ المعنى بلفظٍ يقارِنُه، ولو جاز تعليقُه للزم تأخُّره عن زمان التلفُّظ، وأنه غيرُ جائزٍ، وإنما المعلَّق بالشرط هو الإخبارُ عن إنشاء التمنِّي والترجِّي، وإنشاء المدح والذمّ والاستفهام ونحوها، فإذا قلت: إن فعلتَ كذا غَفَر الله تعالى لك، أو: فنِعْم ما فعلتَ، كان المعنى: فقد فعلتَ ما تستحقُّ بسببه أن يغفر الله تعالى لك، أو أن تُمدحَ بسببه، إلَّا أنَّ الجملة الإنشائية أُقيمت مقامه للمبالغة للدلالة على الاستحقاق، فمعنى الآية: إذا كان الأمر كما تَقَرَّر فأنتم تسبِّحون الله تعالى في الأوقات المذكورة، وهو في معنى الأمر بالتسبيح فيها. انتهى.

ولعله أظهرُ مما في «الكشف»، بل لا يظهر ما ذكر فيه من دَعْوَى أنَّ الشرط والجواب مقولٌ على ألسنة العباد. ويُوْهِمُ كلامُ بعضهم أنَّ الكلام بتقدير القول، حيث قال: كأنه قيل: إذا صحَّ واتَّضح عاقبةُ المطيعين والعاصين فقولوا: نسبِّح سبحان.. إلخ، والمعنى: فسبِّحوه تسبيحاً في الأوقات. ولا يخفى ما فيه.

وكأنِّي بك تمنعُ لزومَ «سبحان» طريقةً واحدةً، وهي التي ذكرت أولاً، وتجوِّز[2] نصبَ فعلِ الأمر لها إذا اقتضاه المقامُ وأَشْعَر به الكلام، ولكن كأنك تميلُ إلى اعتبار كون الجملة خبريةً لفظاً إنشائيةً معنًى، بأن يُرادَ بها الأمرُ لتُوافِقَ جملة «له الحمد» فإنها وإن كانت خبريةً إلا أنَّ الإخبار بثبوتِ الحمد له تعالى ووجوبِه على المميِّزين من أهل السماوات والأرض كما يُشْعِرُ به إتباعُ ذلك ذِكْرَ الوعد والوعيد، وتفريعه عليه بالفاء، في معنى الأمر به على أبلغ وجهٍ على ما صرَّح به بعض الأجلَّة، فكأنه حينئذ قد قيل: فسبِّحوا الله تعالى تسبيحه اللائقَ به ـ سبحانه ـ في هذه الأوقات واحمدوه.

وظاهر كلام الأكثرين أن جملة «له الحمد» إلخ معطوفةٌ على الجملة التي قبلها، وأنَّ «عشيًّا» معطوفٌ على «حين تمسون»، بل هم صرَّحوا بهذا، وعلى ما ذكر يكون

---

(١) محمد بن مصلح الدين القوجوي، محيي الدين الحنفي، توفي سنة (٩٥١هـ). له حاشيتان على تفسير البيضاوي، وشرح مفتاح العلوم للسكاكي، وشرح الوقاية في مسائل الهداية، وغيرها. هدية العارفين ٢/ ٢٣٨.

(٢) في(م): ويجوز.

جملة «له الحمد» فاصلةً بين المعطوف والمعطوف عليه، وما أَشْبَهَ الآية حينئذٍ بآية الوضوء على ما ذهب إليه أهل السنَّةِ.

وفي «الكشاف»: أنَّ «عشيًّا» متصلٌ بقوله تعالى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ إلخ اعتراضٌ بينهما، ومعناه أنَّ على المميِّزين كلِّهم من أهل السماوات والأرض أن يحمدوه(١).

وإلى كون الجملة معترضةً ذهب أبو البقاء أيضاً، وجَعَلَ قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حالاً من «الحمد»(٢). وفي جواز مجيء الحال منه على احتمال كونه مبتدأ ـ وهو الظاهر ـ خلافٌ، ولعل مَن لا يجوِّز ذلك يجعل الجارَّ متعلِّقاً بالثبوت الذي تقتضيه النسبة.

والمراد بالتسبيح والحمد ظاهرُهما على ما ذهب إليه جمعٌ من الأجلَّة.

وقيل: المراد بالتسبيح الصلاة، وأخرج عبد الرزاق والفريابيُّ وابنُ جَريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ والحاكم وصحَّحه عن أبي رزين قال: جاء نافع بنُ الأزرق إلى ابن عباس فقال: هل تجدُ الصلواتِ الخمسَ في القرآن؟ فقال: نعم، فقرأ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الصبح ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر، وقرأ: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾(٣) [النور: ٥٨].

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه قال: جمعتْ هذه الآيةُ مواقيتَ الصلاة: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر(٤).

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٧.

(٢) الإملاء ٤/ ١٧٤.

(٣) مصنف عبد الرزاق (١٧٧٢)، وتفسير الطبري ١٨/ ٤٧٤، والأوسط لابن المنذر ٢/ ٣٢١، والمعجم الكبير (١٠٥٩٦)، وعزاه للفريابي وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٥٤.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٤٧٤، والأوسط ٢/ ٣٢٢، وعزاه لابن أبي شيبة السيوطي في الدر ٥/ ١٥٤.

وذهب الحسن إلى ذلك حتى إنه ذهب إلى أنَّ الآية مدنيَّةٌ لِمَا أنه يرى فرضية الخمس بالمدينة، وأنه كان الواجبُ بمكة ركعتين في أيِّ وقتٍ اتفقت الصلاة فيه، والصحيحُ أنها فُرِضَتْ بمكة، ويدلُّ عليه حديثُ المعراج دلالةً بيِّنةً.

واختار الإمام الرازيُّ[1] حَمْلَ التسبيح على التنزيه، فقال: إنه أقوى، والمصيرُ إليه أَوْلَى؛ لأنه يتضمَّنُ الصلاة، وذلك لأنَّ التنزيه المأمورَ به يتناول التنزيهَ بالقلب وهو الاعتقادُ الجازم، وباللسان مع ذلك وهو الذكرُ الحسن، وبالأركان معهما جميعاً وهو العملُ الصالح، والأولُ هو الأصل، والثاني ثمرةُ الأول، والثالثُ ثمرةُ الثاني، وذلك لأنَّ الإنسان إذا اعتقد شيئاً ظهر من قلبه على لسانه، وإذا قال ظهر صدقُه في مقاله من أحوال أفعاله[2]، واللسانُ ترجمان الجنان، والأركانُ برهانُ اللسان، لكن الصلاة أفضلُ أعمال الأركان، وهي مشتملةٌ على الذكر باللسان والقَصْدِ بالجَنَان، فهو تنزيهٌ في التحقيق، فإذا قال سبحانه: نزِّهوني، وهذا نوعٌ من أنواع التنزيه، والأمرُ المطلق لا يختصُّ بنوعٍ دون نوعٍ، فيجب حملُه على كلِّ ما هو تنزيهٌ، فيكون هذا أمراً بالصلاة.

ثم إنَّ قولنا يناسبه[3] ما تقدَّم، وذلك لأنَّ الله تعالى لمَّا بيَّن أنَّ المقام الأعلى والجزاءَ الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات، حيث قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال سبحانه: إذا علمتُم أنَّ ذلك المقامَ لمن آمَنَ وعمل الصالحات، والإيمانُ تنزيهٌ بالجنان وتوحيدٌ باللسان، والعملُ الصالح استعمالُ الأركان، فالكلُّ تنزيهاتٌ وتحميداتٌ، فسبحان الله، أي: فأْتوا بذلك الذي هو الموصِلُ إلى الحبور في الرياض، والحضورِ على الحياض. اهـ.

وأنا بالإمام أقتدي في دعوى أولويةِ الحمل على الظاهر، وأختارُ أيضاً أن قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ اعتراضٌ مؤكِّدٌ بين المعطوف والمعطوف عليه مطلقاً، ومعناه على ما سمعتَ عن «الكشاف» أنَّ على المميِّزين كلِّهم أن يحمدوه، فإنْ حُمِلَ التسبيحُ على الصلاة فهو كلامٌ يؤكِّد الوجوب؛ لأنَّ الحمد يُتجوَّزُ به عن الصلاة

---

(١) في تفسيره ٢٥/ ١٠٤.

(٢) في تفسير الرازي: من أحواله وأفعاله.

(٣) في تفسير الرازي: يناسب.

كالتسبيح، ووجْهُ التأكيد دلالتُه على أنه أمرٌ عمَّ المكلَّفين من أهل السماوات والأرض، وإنْ حُمِلَ على الظاهر فوجْهُه أنَّ ذلك جارٍ مجرى الاستدراك للأمر بالتسبيح، ولمَّا كانا[١] من وادٍ واحدٍ كان كلٌّ منهما مؤكِّداً للآخر، فدلَّ على دوام وجوب الحمد في الأوقات، ووجوبِ التسبيح على أهل السماوات والأرض، وأمَّا الدلالةُ على الوجوب فمِن إتْباعِ «سبحان الله» إلخ ذكرَ الوعد والوعيد بالفاء، فإنه يُفْهِمُ تعيُّنَ ذلك طريقاً للخلاص عن الدَّرَكات، والوصولِ إلى الدرجات، وما يتعيَّنُ طريقاً لذلك كان واجباً، كذا في «الكشف».

وذكر الإمام[٢] أنَّ في هذا الاعتراض لطيفةً، وهو أنَّ الله تعالى لمَّا أمر العباد بالتسبيح، كأنه قال جل وعلا: بيِّن لهم[٣] أنَّ تسبيحهم الله تعالى لنَفْعِهم لا لنفعٍ يعود إلى الله عز وجل، فعليهم أن يَحْمَدوا الله تعالى إذا سبَّحوه جل شأنُه، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وجوَّز بعضُهم كون «عشيًّا» معطوفاً على قوله تعالى: ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾. ورُدَّ بأنه لا يُعْطَفُ ظرفُ الزمان على المكان ولا عكسُه. وقيل: يحتمل أن يكون معطوفاً على مقدَّرٍ، أي: وله الحمد في السماوات والأرض دائماً وعشيًّا، على أنه تخصيصٌ بعد تعميم، والجملةُ إما[٤] اعتراضيةٌ أو حاليةٌ. وهو كما ترى.

وتخصيصُ الأوقات المذكورة بالذكر لظهور آثار القدرة والعظمة والرحمة فيها، وقدِّم الإمساءُ على الإصباح لتقدُّم الليلِ والظلمة، وقدِّم العشيُّ على الإظهار لأنه بالنسبة إلى الإظهار كالإمساء بالنسبة إلى الإصباح.

وفي «البحر»: قوبل بالعشي الإمساءُ وبالإظهار الإصباحُ؛ لأنَّ كلًّا منهما يُعْقَبُ بما قابله، فالعشيُّ يَعْقِبُه الإمساء، والإصباحُ يَعقبه الإظهار[٥].

---

(١) في (م): كان.
(٢) في تفسيره ٢٥/١٠٧.
(٣) في تفسير الرازي: كأنه بيَّن لهم.
(٤) قوله: إما، ليس في (م).
(٥) البحر ٧/١٦٦.

وقال العلَّامة أبو السعود: إنَّ تقديم «عشيًّا» على «حين تُظْهِرون» لمراعاة الفواصل(١). وليس بذاك.

وذكر الإمام أنه قدَّم الإمساءُ على الإصباح ها هنا وأخَّر في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب:٤٢]؛ لأن أول الكلام ها هنا ذكرُ الحشر والإعادةِ وكذا آخِرُه، والإمساءُ آخِرٌ، فذُكر الآخِرُ أولاً لتُذْكَر الآخرة(٢).

وتغيير الأسلوب في «عشيًّا» لِمَا أنه لا يجيءُ منه الفعلُ بمعنى الدخول في العشيِّ، كالمساء والصباح والظهيرة، ولعل السرَّ في ذلك على ما قيل: أنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوالُ الناس وتتغيَّر تغيُّراً ظاهراً مصحِّحاً لوَصْفِهم بالخروج عمَّا قبلها والدخولِ فيها كالأوقات المذكورة؛ فإنَّ كلًّا منها وقتٌ يتغيَّر فيه الأحوال تغيُّراً ظاهراً؛ أما في المساء والصباح فظاهرٌ، وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعاد فيه التجرُّد عن الثياب للقيلولة كما مرَّت إليه الإشارة في سورة النور.

هذا وفضلُ التسبيح والتحميدِ أظهرُ من أن يستدلَّ عليه، وذكروا في فضل ما تضمَّنته الآيةُ عدَّةَ أخبارٍ، فأخرج الإمام أحمدُ وابنُ جريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن السنيِّ في «عمل اليوم والليلة»، والطبرانيُّ وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الدعوات» عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا أُخْبِرُكم لِمَ سمَّى الله تعالى إبراهيمَ خليلَه الذي وفَّى؛ لأنه يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾»(٣).

وأخرج أبو داود والطبرانيُّ وابنُ السنيِّ وابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «مَن قال حين يصبح: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ٥٥.

(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ١٠٧.

(٣) مسند أحمد (١٥٦٢٤)، وتفسير الطبري ٢/ ٥٠٧، والمعجم الكبير ٢٠/ (٤٢٧)، وعمل اليوم والليلة (٧٨)، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي السيوطي في الدر ٥/ ١٥٤، وهو من طريق ابن لهيعة، عن زبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ، عن أبيه به. وإسناده ضعيف لضعف زبان بن فائد، وسهلِ بن معاذ في رواية زبان عنه، وابن لهيعة سيِّئ الحفظ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١١٧: رواه الطبراني، وفيه ضعفاءُ وثِّقوا.

تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ) أَدْرَكَ ما فاتَه في يومه، ومَن قالها حين يُمسي أَدْرَكَ ما فاته من ليلته»[١].

إلى غير ذلك من الأخبار، ولعل فيه تأييداً لكون «فسبحان» إلخ مقولاً على ألسنة العباد، فتأمَّل.

وقرأ عكرمة: «حيناً تمسون وحيناً تصبحون» بتنوين «حين»، فالجملة صفةٌ حُذِفَ منها العائدُ، والتقديرُ: تُمسون فيه وتُصبحون فيه[٢]. وعلى قراءة الجمهور الجملةُ مضافٌ إليها ولا تقدير للضمير أصلاً.

﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ الإنسانَ من النطفة ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ النطفةَ من الإنسان، وهو التفسيرُ المأثور عن ابن عباس وابن مسعود، ولعل مرادهما التمثيل. وعن مجاهد: يُخرج المؤمنَ من الكافر، ويُخرج الكافرَ من المؤمن. وقيل: أي: يُعْقِبُ الحياة بالموت، وبالعكس.

﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالنبات ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ يبسها، فالإحياءُ والموتُ مجازان.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإخراج البديع الشأن ﴿تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ من قبوركم. وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش: «تَخْرُجون» بفتح التاء وضمِّ الراء[٣]، وهذا على ما قيل نوعُ تفصيلٍ لقوله تعالى: ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:١١].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الباهرةِ الدالَّةِ على أنكم تُبعثون دلالةً أوضحَ من دلالة ما سبق، فإنَّ دلالة بدءِ خَلْقِهم على إعادتهم أظهرُ من دلالة إخراج الحيِّ من الميت وإخراج الميت من الحيِّ، ومن دلالةِ إحياء الأرضِ بعد موتها عليها ﴿أَنۡ خَلَقَكُم﴾ أي: في ضِمْنِ خَلْقِ آدم عليه السلام؛ لِمَا مرَّ مراراً من أنَّ خَلْقَه عليه السلام مُنْطوٍ على خَلْقِ

---

(١) سنن أبي داود (٥٠٧٦)، والمعجم الكبير (١٢٩٩١)، وعمل اليوم والليلة (٥٦)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٥٤. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٢٩: إسناده ضعيف، وقال البخاري: لا يصح.

(٢) البحر ٧/ ١٦٦، وينظر القراءات الشاذة ص١١٦.

(٣) البحر٧/ ١٦٦. وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان. التيسير ص١٧٥، والنشر٢/ ٢٦٧-٢٦٨.

ذرِّياته انطواءً إجماليًا ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ لم يَشُمَّ رائحة الحياة قطُّ، ولا مناسبةَ بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم. وقيل: خَلَقَهم من ترابٍ لأنه تعالى خَلَق مادَّتهم منه، فهو مجازٌ أو على تقدير مضافٍ.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: في الأرض تتصرَّفون في أغراضكم وأسفاركم، و«إذا» فجائية، و«ثم» على ما ذهب إليه أبو حيان للتراخي الحقيقيِّ لِمَا بين الخلق والانتشار من المدة[(١)].

وقال العلَّامة الطيبيُّ[(٢)]: إنها للتراخي الرُّتْبي؛ لأنَّ المفاجأة تأبى الحقيقيَّ. ورُدَّ بأنه لا مانع من أن يفاجئ أحداً أمرٌ بعد مضيِّ مدةٍ من أمرٍ آخَرَ، أو أحدهما حقيقيٌّ والآخَرُ عُرْفي. وتعقِّب بأنه على تسليم صحته يأباه الذوقُ، فإنه كالجمع بين الضبِّ والنون، فما ذكره الطيبيُّ أنسبُ بالنظم القرآنيِّ.

والظاهر أنَّ الجملة معطوفةٌ على المبتدأ قبلها وهي بتأويل[(٣)] مفردٍ، كأنه قيل: ومن آياته خَلْقُكم من ترابٍ ثم مفاجأتُكم وقتَ كونكم بشراً منتشرين، كذا قيل. وفي وقوع الجملة مبتدأً بمثل هذا التأويل نظرٌ، إلَّا أنْ يقال: إنه يُغتفر في التابع مالا يغتفر في المتبوع.

ويُتخيَّل من كلام بعضهم[(٤)] أنَّ العطف على «خلقكم» بحسب المعنى، حيث قال: أي: ثم فاجأتُم وقتَ كونكم بشراً منتشرين. ويُفْهَم من كلام صاحب «الكشف» في نظير الآية، أعني قولَه تعالى الآتي: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أنه أقيمت الجملةُ مقامَ المفرد من حيث المعنى؛ لأنها تفيدُ فائدته، والكلامُ على أسلوب: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: ٩٧] لأنه في معنى: وأَمْنُ داخِله، وأما من حيث الصورةُ فهي جملةٌ معطوفةٌ على قوله تعالى: (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم) وفائدةُ

---

(١) النهر الماد من البحر على هامش البحر ٧/ ١٦٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١١٧.
(٢) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية، والكلام من حاشية الشهاب.
(٣) في الأصل: في تأويل.
(٤) هو الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢١٨.

هذا الأسلوب الإشعارُ بأنَّ ذلك آيةٌ خارجةٌ من جنس الآيات، مستقلَّةٌ بشأنها، مقصودةٌ بذاتها، فتأمَّلْ.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالَّةِ على البعث أيضاً ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ أي: لأجْلِكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ فإنَّ خَلْقَ أَصْلِ أزواجِكم حواءَ من ضلع آدم عليه السلام متضمِّنٌ لخَلْقهنَّ من أنفسكم على ما عرفتَ من التحقيق، فـ «من» تبعيضيةٌ، والأنفسُ بمعناها الحقيقيِّ.

ويجوزُ أن تكون «من» ابتدائيةً والأنفسُ مجازٌ عن الجنس، أي: خَلَق لكم من جِنْسِكم لا من جنسٍ آخر؛ قيل: وهو الأوفقُ بقوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ أي: لتميلوا إليها؛ يقال: سكن إليه: إذا مال، فإنَّ المجانَسةَ من دواعي النظام والتعارُفِ، كما أنَّ المخالفة من أسباب التفرُّق والتنافُر.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي: بين الأزواج إما على تغليب الرجال على النساء في الخطاب، أو على حَذْفِ ظرفٍ معطوفٍ على الظرف المذكور، أي: جعل بينكم وبينهنَّ، كما في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقيل: بين أفراد الجنس، أو بين الرجال والنساء. وتعقِّب بأنه يأباه قولُه تعالى: ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فإنَّ المراد بهما ما كان منهما بعصمةِ الزواج قطعاً، أي: جعل بينكم بالزواج الذي شَرَعَه لكم توادًّا وترحُّماً من غير أن يكون بينكم سابقةُ معرفةٍ، ولا مرابطةٌ مصحِّحةٌ للتعاطفُ من قرابةٍ أو رحِمٍ.

قيل: المودةُ والرحمة من الله تعالى، والفِرْكُ ـ وهو بغضُ أحد الزوجين الآخَرَ ـ من الشيطان.

وقال الحسن ومجاهدٌ وعكرمةُ: المودَّةُ كنايةٌ عن النكاح، والرحمةُ كنايةٌ عن الولد. وكونُ المودَّة بمعنى المحبة كنايةً عن النكاح ـ أي: الجماع ـ للزومها له ظاهرٌ، وأما كونُ الرحمة كنايةً عن الولد للزومها له فلا يخلو عن بعدٍ.

وقيل: مودةً للشابَّة ورحمةً للعجوز. وقيل: مودةً للكبير ورحمةً للصغير. وقيل: هما اشتباكُ الرَّحِمِ. والكلُّ كما ترى.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من خَلْقِهم من ترابٍ وخَلْقِ أزواجهم من أنفسهم وإلقاءِ المودَّةِ والرحمةِ، فهو إشارةٌ إلى جميع ما تقدَّم. وقيل: إلى ما قبله، وليس بذاك. وما فيه من معنى البُعْدِ مع قُرْبِ المشارِ إليه للإشعار ببُعْدِ منزلته. ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمةً لا يُكْتَنَه كُنْهُها، كثيرةً لا يقادَرُ قَدْرُها ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ في تضاعيف تلك الأفاعيل المبنيَّة على الحكم.

والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، مع التنبيه على أنَّ ما ذكر ليس بآيةٍ فذَّةٍ بل هي مشتملةٌ على آياتٍ شتَّى، وأنها تحتاج إلى تفكُّرٍ كما تؤذِنُ بذلك الفاصلة.

وذكر الطيبيُّ أنه لمَّا كان القصدُ مِن خَلْقِ الأزواج والسكونِ إليها وإلقاءِ المحبة بين الزوجين ليس مجرَّدَ قضاء الشهوة التي يشترك بها البهائم، بل تكثير النسل وبقاء نوع المتفكِّرين الذين يؤدِّيهم الفكرُ إلى المعرفة والعبادةِ التي ما خُلقتِ السماواتُ والأرض إلَّا لها، ناسَبَ كونَ المتفكِّرين فاصلةً هنا.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: لغاتكم بأنْ عَلَّمَ سبحانه كلَّ صنفٍ لغته، أو أَلْهمَه جلَّ وعلا وَضْعَها وأَقْدَره عليها، فصار بعضٌ يتكلَّم بالعربية، وبعضٌ بالفارسية، وبعضٌ بالرومية، إلى غير ذلك مما اللهُ تعالى أعلمُ بكميَّته.

وعن وهب: أنَّ الألسنة اثنان وسبعون لساناً، في ولد حام سبعةَ عشر، وفي ولد سام تسعةَ عشر، وفي ولد يافث ستةٌ وثلاثون.

وجوِّز أن يراد بالألسنة أجناسُ النطق وأشكالُه، فقد اختلف ذلك اختلافاً كثيراً، فلا تكاد تسمع مَنْطِقَينِ متساويين في الكيفية من كلِّ وجهٍ، ولعل هذا أولى مما تقدم.

والإمامُ(١) حكى الوجهَ الأول وقدَّم عليه ما هو ظاهرٌ في أنَّ المراد بالألسنة الأصواتُ والنغم، ونصَّ على أنه أصحُّ من المحكيِّ.

﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ بياض الجلد وسواده وتوسُّط فيما بينهما، أو تصوير الأعضاء وهيئاتها وألوانها وحُلاها بحيث وقع التمايز بين الأشخاص، حتى إنَّ التوأمين مع

(١) هو الرازي في تفسيره ٢٥/ ١١١.

توافُقِ موادِّهما وأسبابهما والأمورِ الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيءٍ من ذلك لا محالةَ وإن كانا في غاية التشابه، فالألوان بمعنى الضروب والأنواع، كما يقال: ألوان الحديث، وألوان الطعام، وهذا التفسيرُ أعمّ من الأول.

وإنما نظم اختلاف الألسنة والألوانِ في سلك الآيات الآفاقية من خَلْقِ السماوات والأرض، مع كونه من الآيات الأنفسية الحقيقةِ بالانتظام في سلك ما سبق مِن خَلْقِ أنفسهم وأزواجهم، للإيذان باستقلاله والاحترازِ عن توهُّم كونه من متمِّمات خَلْقِهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر من خَلْقِ السماوات والأرض واختلافِ الألسنة والألوان ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمةً كثيرةً ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: المتَّصفين بالعلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقرأ الكثير: «العالَمين» بفتح اللام(١)، وفيه دلالةٌ على وضوح الآيات وعدمِ خفائها على أحدٍ من الخلق كافةً.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم﴾ أي: نومكم ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لاستراحة القوى النفسانية، وتَقَوي القوى الطبيعيةِ ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ أي: طلبكم ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: بالليل والنهار، وحذف ذلك لدلالة ما قبلُ عليه، ونظيرُه قولُه:

عجبتُ لهم إذ يقتلون نفوسَهم ومقتلُهم عند الوغى كان أَعْذَرا(٢)

فإنه أراد: يقتلون نفوسهم عند السِّلم، وحُذف لدلالة الوغى في الشطر الثاني عليه، والنومُ بالليل والابتغاءُ من الفضل ـ أي: الكسبُ ـ بالنهار أمران معتادان، وأما النومُ بالنهار فكنوم القيلولة، وأما الكسبُ بالليل فكما يقع من بعض المكتسبين وأهلِ الحرف من السعي والعملِ ليلاً، لا سيما في أطول الليالي وعدمِ وفاء نهارهم بأغراضهم، ومن ذلك حراسةُ الحوانيت بالأجرة، وكذا قطعُ البراري في الأسفار ليلاً للتجارة ونحوِها.

---

(١) التيسير ص١٧٥، والنشر ٢/ ٣٤٤، وقرأ حفص وحده بكسر اللام.

(٢) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه بشرح ابن السكيت ص٨٢، والصناعتين لأبي هلال العسكري ص١٩٤، والإيضاح في علوم البلاغة ١/ ١٧٧. ورواية الديوان: يخنقون، بدل: يقتلون، وتحت الوغى، بدل: عند الوغى. ووقع في الأصل و(م): أغدرا، وهو تصحيف.

وقال الزمخشريُّ[(١)]: وهذا من باب اللفِّ، وترتيبه: ومن آياته منامُكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فَصَل بين القرينين الأوَّلين - أعني «منامُكم» و«ابتغاؤكم» - بالقرينين الآخَرين أعني الليلَ والنهار؛ لأنهما ظرفان، والظرفُ والواقعُ فيه كشيءٍ واحد، مع إعانة اللفِّ على الاتحاد، وهو الوجهُ الظاهر لتكرُّره في القرآن، وأسدُّ المعاني ما دلَّ عليه القرآن. انتهى.

والظاهرُ أنه أراد باللفِّ الاصطلاحيَّ، ولا يأبى ذلك توسيط الليل والنهار؛ لأنهما في نية التأخير، وإنما وسِّطا للاهتمام بشأنهما؛ لأنهما من الآيات في الحقيقة لا المنام والابتغاء على ما حقَّقه في «الكشف»، مع تضمُّن توسيطهما مجاورةَ كلٍّ لِمَا وقع فيه، فالجارُّ والمجرورُ قيل: حالٌ مقدَّمةٌ من تأخير، أي: كائنينَ بالليل والنهار، وقيل: خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: وذلك بالليل والنهار، والجملةُ في النظم الكريم معترِضةٌ. وعلى كِلَا القولين لا يَرِدُ على الزمخشريِّ لزومُ كون النهار معمولاً للابتغاء مع تقدُّمه عليه وعَطْفِه على معمولِ «منامكم».

وفي اقتران الفضل بالابتغاء إشارةٌ إلى أنَّ العبد ينبغي أن لا يَرى الرزق من نفسه وبحذقه، بل يرى كلَّ ذلك من فضل ربِّه جل وعلا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: شأنُهم أن يسمعوا الكلامَ سماعَ تفهُّمٍ واستبصارٍ، وفيه إشارةٌ إلى ظهور الأمر بحيث يكفي فيه مجرَّدُ السماع لمن له فهمٌ وبصيرةٌ، ولا يحتاج إلى مشاهدةٍ وإن كان مشاهداً.

وقال الطيبيُّ: جيء بالفاصلة هكذا لأنَّ أكثر الناس مُنْسَدِحون بالليل كالأموات، ومتردِّدون بالنهار كالبهائم، لا يدرون فيم هم ولِمَ ذلك، لكن مَن ألقى السمع وهو شهيدٌ يتنبَّه لوعظ الله تعالى ويُصغي إليه؛ لأنَّ مرَّ الليالي وكرَّ النهار يناديان بلسان الحال: الرحيلَ الرحيلَ من دار الغرور إلى دار القرار، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

---

(١) في الكشاف ٣/ ٢١٨.

وذكر الإمام[1] أنَّ من الأشياء ما يحتاج في معرفته إلى مُوقِفٍ يُوْقِفُ عليه، ومرشدٍ يُرشِدُ إليه، فيفهم إذا سمع من ذلك المرشد، ولمَّا كان المنام والابتغاءُ قد يقع لكثيرٍ أنهما من أفعال العباد، فيحتاج معرفةُ أنهما من آياته تعالى إلى مرشدٍ يُعينُ الفِكْرَ قيل: «لقوم يسمعون»، فكأنه قيل: لقومٍ يسمعون ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد. انتهى. ولعل الاحتياج إلى مُرْشدٍ يعين الفكر في أنَّ الليل والنهار من الآيات بناءً على ما سمعتَ في بيان نكتةِ التوسيطِ أظهرُ، فتأمل.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ ذهب أبو عليٍّ إلى أنه بتقدير «أنْ» المصدريةِ، والأصل: أنْ يُرِيَكم، فحذف «أن» وارْتَفَع الفعلُ، وهو الشائعُ بعد الحذف في مثل ذلك، وشذَّ بقاؤه منصوباً بعده، وقد روي بالوجهين قولُ طرفة:

أَلَا أَيُّهذا الزاجري أَحْضُرَ الوغى وأنْ أشهَدَ اللذَّاتِ هل أنت مُخْلدي[2]

وجوِّز كونُه مما نزِّل فيه الفعلُ منزلةَ المصدر، فلا تقدَّر «أنْ» بل الفعلُ مستعملٌ في جزءِ معناه وهو الحدثُ مقطوعٌ فيه النظرُ عن الزمان، فيكون اسماً في صورة الفعل، فـ «يريكم» بمعنى الرؤية، وحُمِلَ على ذلك في المشهور قولُهم: تسمعُ بالمعيدي خيرٌ من أنْ تراه. وجوِّز فيه[3] أن يكون مما حُذِفَ فيه «أنْ» وأيِّد بأنه رُوي فيه: تسمعَ بالنصب أيضاً، ولم يَرْتَضِه بعضُ الأجلَّة؛ لأنَّ المعنى ليس على الاستقبال، وأمَّا «أنْ تراه» فالاستقبالُ فيه بالنسبة إلى السماع فلا ينافيه. ومثلُه قوله:

فقالوا ما تشاءُ فقلتُ أَلْهو إلى الإصباح آثِرَ ذي أثيرِ[4]

---

(١) في تفسيره ٢٥/ ١١٣.

(٢) البيت في ديوانه ص٣٢، وسلف ٢/ ٢٧٧ و٧/ ٢٤٤ و١٠/ ١٤٥. قال الشهاب في الحاشية ٧/ ١١٨: ألا للتنبيه، وأيّ منادى حُذف منه حرف النداء، وهذا صفةٌ لأي، والزاجري بدل منه، و«أل» فيه موصولة ولذا ساغ فيه الإضافة لياء المتكلم، وهل للاستفهام الإنكاري، ومخلدي مضاف إلى ضمير المتكلم، وعَطْفُ قوله: وأن أشهد، دليل على الحذف مما قبله، يقول لمن منعه حضور المحاربات والانهماك في اللذات: هل أنت ضامن لي الخلود في الدنيا حتى لا ألج المهالك ولا أستعجل الشهوات.

(٣) يعني في المثل. حاشية الشهاب ٧/ ١١٨.

(٤) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه ص٥٧. والمعنى: فقلت: أن ألهو إلى الصبح آثر كلِّ شيءٍ يؤثر فعله، ويقال: أفعله آثر ذي أثير، أي: أولَ كلِّ شيءٍ. مجمع الأمثال ٢/ ٧٦.

ورجِّح الحملُ على التنزيل منزلةَ اللازم دلالةً على أنه كالحال اهتماماً بشأن المراد؛ لقوله: آثِر ذي أثير، والتعليل بأنَّ «ما تشاء» سؤالٌ عما يشاؤه في الحال و«أنْ» للاستقبال ليس بالوجه؛ لأنَّ المشيئة تتعلَّق بالمستقبل أبداً.

وقال الجامع الأصفهانيُّ: تقديرُ الآية: ومن آياته آيةٌ يريكم البرق، على أنَّ «يريكم» صفةٌ وحُذف الموصوف وأقيمت الصفةُ مقامه كما في قوله:

وما الدهرُ إلَّا تارتان فمنهما أموتُ وأخرى أبتغي العيشَ أكدحُ[1]

أي: فمنهما تارةٌ أموتُ، قيل: فلا بدَّ من راجعٍ فقدِّر: فيها أو بها، ونصَّ على الثاني الرماني كما في «البحر»[2]، وكلاهما لايسدُّ ـ كما في «الكشف» ـ عليه المعنى.

وقيل: التقدير: ومن آياته البرقُ، ثم استؤنف: «يريكم البرق».

وقيل: «من آياته» حالٌ من «البرق» أي: يريكم البرقَ حالَ كونه من آياته.

وجوَّز أبو حيان تعلُّقه بـ «يريكم»، و«من» لابتداء الغاية[3]، وفيه مخالفةٌ لنظرائه.

وفي «الكشف»: لعل الأَوْجَهَ أن يكون من آياته خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: من آياته ما يُذكر أو ما يُتْلَى عليكم، ثم قيل: «يريكم البرق» بياناً لذلك، ثم قال: وهذا أقلُّ تكلُّفاً من الكلِّ.

وأنت تعلم أنَّ الأَوْجَهَ ما تُوافِقُ الآيةُ به نظائرَها.

﴿خَوْفًا﴾ أي: من الصواعق ﴿وَطَمَعًا﴾ في المطر، قاله الضحاك. وقال قتادة: خوفاً للمسافر لأنه علامةُ المطر، وهو يضرُّه لعُدْمِ ما يُكنُّه ولا نَفْعَ له فيه، وطمعاً للمقيم.

وقيل: خوفاً أن يكون خُلَّباً[4]، وطمعاً أن يكون ماطراً.

وقال ابن سلام: خوفاً من البرد أن يُهلك الزرع، وطمعاً في المطر.

---

(١) البيت لتميم بن أبي بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٤، وسلف ٦/ ٦١.
(٢) ٧/ ١٦٧.
(٣) البحر ٧/ ١٦٧.
(٤) البرق الخلَّب: المُطْمِعُ المُخْلِف. القاموس (خلب).

ونَصْبُهما على العلة عند الزجَّاج[١]، وهو على مذهبٍ من لا يشترطُ في نَصْبِ المفعول له اتحادَ المصدر والفعلِ المعلَّلِ في الفاعل ظاهرٌ، وأما على مذهب الأكثرين المشترِطينَ لذلك فقيل في توجيهه: إنَّ ذلك على تقدير مضافٍ، أي: إرادةَ خوفٍ وطمع، أو على تأويل الخوف والطمع بالإخافة والإطماع، إمَّا بأن يُجعل أصلُهما ذلك على حذف الزوائد، أو بأنْ يُجعلا مجازين عن سببيهما.

وقيل: إنَّ ذلك لأنَّ إراءتهم تستلزمُ رؤيتهم، فالمفعولون فاعلون في المعنى، فكأنه قيل: لجعلكم[٢] رائين خوفاً وطمعاً.

واعتُرض بأنَّ الخوف والطمع ليسا غرضين للرؤية ولا داعيين لها بل يتبعانها، فكيف يكونان علةً على فرض الاكتفاء بمثل ذلك عند المشترطين. ووجِّه بأنه ليس المراد بالرؤية مجرَّدَ وقوع البصر، بل الرؤيةَ القَصْديةَ بالتوجُّه والالتفات، فهو مثلُ: قعدتُ عن الحرب جبناً.

ولم يرتضِ ذلك أبو حيان أيضاً، ثم قال: لو قيل على مذهب المشترطينَ: إنَّ التقدير: يريكم البرق فترونه خوفاً وطمعاً، فحذف العامل للدلالة عليه، لكان إعراباً سائغاً[٣].

وقيل: لعل الأظهر نَصْبُهما على العلَّة للإراءة؛ لوجود المقارنة والاتحادِ في الفاعل، فإنَّ الله تعالى هو خالقُ الخوف والطمع، وكونُ معنى قول النحاة: لابدَّ أن يكون المفعولُ له فِعْلَ الفاعل، أنه لا بدَّ من كونه متَّصفاً به كالإكرام في قولك: جئتك إكراماً لك، إنْ سلِّم فلا حَجْرَ من الانتصاب على التشبيه في المقارنة والاتحاد المذكور.

وتعقِّب بأنَّ كون المعنى ما ذُكر مما لا شبهةَ فيه، وقد ذكره صاحب «الانتصاف»[٤] وغيرُه، فإنَّ الفاعل اللغويَّ غيرُ الفاعل الحقيقيِّ، فالتوقُّفُ فيه وادِّعاءُ أنه لا حَجْر من الانتصاب على التشبيه مما لا وجه له.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٨٢.

(٢) كذا في الأصل و(م) والبحر ٧/ ١٦٧، وفي الكشاف والانتصاف ٣/ ٢١٩: يجعلكم.

(٣) البحر ٧/ ١٦٧-١٦٨.

(٤) ٣/ ٢١٩، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١١٨.

وأنا أميلُ إلى عدم اشتراط الاتحاد في الفاعل؛ لكثرة النصب مع عدم الاتحاد كما يَشهدُ بذلك التتبُّعُ والرجوعُ إلى «شرح الكافية» للرضي، والتأويلُ مع الكثرة ممَّا لا موجبَ له.

وجوِّز أن يكون النصب هنا على المصدر، أي: تخافون خوفاً وتطمعون طمعاً، على أن تكون الجملة حالاً. وأولى منه أن يكونا نصباً على الحال، أي: خائفين وطامعين.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وقرأ غيرُ واحدٍ بالتخفيف[1] ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ﴾ أي: بسبب الماء ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بأنْ يُخرِج سبحانه النبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يبسها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يَستعملون عقولَهم في استنباط أسبابها وكيفيةِ تكوُّنها؛ ليظهر لهم كمالُ قدرة الصانع جلَّ شأنُه وحكمته سبحانه.

وقال الطيبيُّ: لمّا كان ما ذكر تمثيلاً لإحياء الناس وإخراج الموتى، وكان التمثيلُ لإدْناء المتوهَّم إلى[2] المعقول، وإراءةِ المتخيَّل في صورة المحقَّق، ناسَبَ أن تكون الفاصلةُ: «لقوم يعقلون»[3].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بقوله تعالى: قُوما، أو: بإرادته عز وجل، والتعبيرُ عنها بالأمر للدلالة على كمال القدرة والغِنَى عن المبادي والأسباب. وليس المراد بإقامتهما إنشاءَهما؛ لأنه قد بيَّن حاله بقوله تعالى: (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)، ولا إقامتَهما بغير مقيم محسوسٍ كما قيل، فإنَّ ذلك من تتمَّات إنشائهما وإن لم يصرَّح به تعويلاً على ما ذكر في موضع آخر من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآية [لقمان: ١٠]، بل قيامهما وبقاؤهما على ما هما عليه إلى أَجَلهما الذي أُشير إليه بقوله تعالى فيما قبل: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨].

ولمَّا كان البقاء مستقبلاً باعتبار أواخره وما بعد نزول هذه الآية أُظْهِرتْ هنا كلمة «أنْ» التي هي عَلَمٌ في الاستقبال.

---

(١) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.
(٢) قوله: إلى، ساقط من (م).
(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير الآية (٢٨) من هذه السورة.

والإمام ذهب إلى أنَّ القيام بمعنى الوقوف وعدم النزول، ثم قال على ما لخَّصه بعضهم: ذُكرت «أنْ» ها هنا دون قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ لأنَّ القيام لمَّا كان غيرَ متغيِّرٍ أخرج الفعل بـ «أنْ» العَلَم في الاستقبال، وجُعل مصدراً ليدلَّ على الثبوت، وإراءةُ البرق لمَّا كانت من الأمور المتجدِّدة جيء بلفظ المستقبل ولم يذكر معه ما يدلُّ على المصدر[1]. اهـ.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ «إذا» الأولى شرطيةٌ، والثانيةُ فجائيةٌ نائبةٌ منابَ الفاء في الجزاء لاشتراكهما في التعقيب. والجملةُ الشرطية قيل: معطوفةٌ على «أن تقوم» على تأويل مفردٍ، كأنه قيل: ومن آياته قيامُ السماء والأرض بأمره ثم خروجُكم من قبوركم بسرعةٍ إذا دعاكم.

وصاحب «الكشف» يقول: إنها أُقيمت مقام المفرد من حيث المعنى، وأمَّا من حيث الصورةُ فهي جملةٌ معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ﴾ وذلك على أسلوب ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وفائدتُه ما سمعتَه قريباً. وظاهرُ كلام بعض الأفاضل أنَّ العطف عليه ظاهرٌ في عدم قَصْدِ عدِّ ما ذكر آية.

واختار أبو السعود عليه الرحمةُ كونَ العطف مِن عَطْفِ الجمل، وأنَّ المذكور ليس من الآيات، قال: حيث كانت آيةُ قيام السماء والأرض بأمره تعالى متأخِّرةً عن سائر الآيات المعدودة، متَّصلةً بالبعث في الوجود، أُخِّرتْ عنهنَّ وجُعلت متصلةً به في الذكر أيضاً، فقيل: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الآيةَ، والكلامُ مسوقٌ للإخبار بوقوع البعث ووجودِه بعد انقضاءِ أجلِ قيامهما، مترتِّبٌ على تعدُّدِ آياته تعالى الدالَّةِ عليه، غيرُ منتظمٍ في سلكها كما قيل، كأنه قيل: ومن آياته قيامُ السماء والأرض على هيأتهما بأمره عز وجل إلى أجلٍ مسمًّى قدَّره الله تعالى لقيامهما، ثم إذا دعاكم - أي: بعد انقضاء الأجل في الأرض وأنتم في قبوركم - دعوةً واحدةً بأن قال سبحانه: أيها الموتى اخرجوا، فَجَأْتُم الخروجَ منها[2].

ولعل ما أشار إليه صاحب «الكشف» أدقُّ وأبعدُ مغزًى، فتأمل.

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ١١٤-١١٥.
(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ٥٨.

و«من الأرض» متعلِّقٌ بـ «دعا»، و«من» لابتداء الغاية، ويكفي في ذلك - إذا كان الداعي هو الله تعالى نفسه لا المَلَك بأمره سبحانه - كونُ المدعوِّ فيها، يقال: دعوتُه من أسفل الوادي فطلع إليَّ، لا بـ «دعوة» فإنه إذا جاء نَهْرُ الله جل وعلا بَطَلَ نهرُ معقل[١]. نعم جوّز كونُ ذلك صفةً لها، وأنْ يكونَ حالاً من الضمير المنصوب. ولا بـ «تخرجون» لأنَّ ما بعد «إذا» لا يعمل فيما قبلها.

وقال ابن عطية: إنَّ «من» عندي لانتهاء الغاية[٢]. وأثبت ذلك سيبويه[٣]. وقال أبو حيان: إنه قولٌ مردودٌ عند أصحابنا[٤].

وظواهرُ الأخبار أنَّ الموتى يُدْعَون حقيقةً للخروج من القبور، وقيل: المراد تشبيهُ ترتُّبِ حصول الخروج على تعلُّقِ إرادته بلا توقُّفٍ واحتياجٍ إلى تجشُّم عملٍ بسرعةِ ترتُّبِ إجابة الداعي المطاع على دعائه، ففي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ أو تخييليةٌ ومكنية بتشبيه الموتى بقومٍ يريدون الذهاب إلى محلِّ ملكٍ عظيمٍ متهيئين لذلك، وإثباتُ الدعوة لهم قرينتها، أو هي تصريحيةٌ تبعيةٌ في قوله تعالى: ﴿دَعَاكُمْ﴾ إلى آخرها.

و«ثم» إمَّا للتراخي الزمانيِّ، أو للتراخي الرتبيِّ والمرادُ عظمُ ما في المعطوف من إحياء الموتى في نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه، فلا ينافي قولَه تعالى الآتي: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وكونُه أعظمَ من قيام السماء والأرض؛ لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء، وبه استقرارُ السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات، وهو المقصودُ من خَلْقِ الأرض والسماوات، فاندفع ما قاله ابن المنير من أنَّ مرتبة المعطوف عليه هنا هي العليا[٥]، مع أنَّ كونَ المعطوف في مثله أرفعَ درجةً أكثريٌّ

---

(١) هذا مثل، ومثْلُه: إذا جاء نهر الله بطل نهر عيسى، ونهر معقل بالبصرة ونهر عيسى ببغداد، وعليهما أكثر الضياع الفاخرة، وإنما يريدون بنهر الله: البحر والمطر والسيل، فإنها تغلب سائر المياه والأنهار وتطم عليها. ثمار القلوب للثعالبي ص٣١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٤.

(٣) ينظر الكتاب ٤/ ٢٢٥.

(٤) البحر ٧/ ١٦٨.

(٥) الانتصاف ٣/ ٢١٩، وذكر فيه أن «ثم» على بابها في تراخي الزمان، وإن سلِّم أنها لتراخي المراتب، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا، ومرتبة المعطوف هي

لا كلِّيٌّ كما صرَّح به الطيبيُّ(١)، فلا مانع من اعتبار التراخي الرُّتْبي لو لم يكن المعطوفُ أرفعَ درجة. ويجوزُ حملُ التراخي على مطلق البعد الشامل للزمانيِّ والرتبي.

وقرأ السبعة ما عدا حمزة والكسائيَّ: «تُخْرَجون» بضم التاء وفتح الراء(٢).

وهذه الآيةُ ذُكر أنها ممَّا تقرأ على المصاب؛ أخرج ابن أبي حاتم عن الأزهر بن عبد الله الحَرَازيِّ قال: يقرأ على المصاب إذا أُخذ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾(٣).

وذكر الإمام وأبو حيان في وجه ترتيب الآيات وتذييلِ كلٍّ منهما بما ذيِّل كلاماً طويلاً(٤)، إن احْتَجْتَه فارْجعْ إليه.

﴿وَلَهُۥ﴾ عز وجل خاصةً كلُّ ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والثَّقَلين خَلْقاً وملكاً وتصرُّفاً ليس لغيره سبحانه شركةٌ في ذلك بوجهٍ من الوجوه.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ﴾ لا لغيره جل وعلا ﴿قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ منقادون لفعله، لا يمتنعون عليه - جلَّ شأنُه - في شأنٍ من الشؤون وإن لم يَنْقَدْ بعضُهم لأمره سبحانه، فالمرادُ طاعةُ الإرادة لا طاعةُ الأمر بالعبادة، وهذا حاصلُ ما روي عن ابن عباس. وقال الحسن: «قانتون»: قائمون بالشهادة على وحدانيته تعالى، كما قال الشاعر:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحد(٥)

وقال ابن جبير: «قانتون» مُخْلِصون. وقيل: مقرُّون بالعبودية. وعليهما ليس العمومُ على ظاهره ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت؛ والتكريرُ لزيادة

= الدنيا، وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب. ونقل المصنف كلامه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١١٩.

(١) ينظر حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١١٩.

(٢) التيسير ص١٧٥. وقرأ بفتح التاء وضم الراء مثل حمزةَ والكسائيِّ خلفٌ وابنُ ذكوان كما في النشر ٢/ ٢٦٧.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٥٤-١٥٥.

(٤) تفسير الرازي ٢٥/ ١١٤-١١٥، والبحر ٧/ ١٦٨.

(٥) سلف ١/ ٢٧١.

التقرير لشدَّة إنكارهم البعثَ، والتمهيدِ لِمَا بعده من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ الضميرُ المرفوع للإعادة، وتذكيرُه لرعاية الخبر، أو لأنها مؤوَّلةٌ بـ «أنْ» والفعلِ وهو في حكم المصدر المذكَّر، أو لتأويلها بالبعث ونحوِه. وكونُه راجعاً إلى مصدرٍ مفهوم من «يعيد»، وهو لم يُذْكَر بلفظ الإعادة، لا يفيدُ ـ على ما قيل ـ لأنه اشتهر به، فكأنه إذا فُهم منه يلاحَظُ فيه خصوصُ لَفْظِه. والضمير المجرورُ لله تعالى شأنه.

و«أهون» للتفضيل، أي: والإعادة أسهلُ على الله تعالى من المبدأ، والأسهليةُ على طريقة التمثيل بالنسبة لِمَا يفعلُه البشر مما يقدرون عليه، فإنَّ إعادة شيءٍ من مادته الأولى أهونُ عليهم من إيجاده ابتداءً، والمراد التقريبُ لعقول الجهلة المنكرين للبعث، وإلا فكلُّ الممكنات بالنسبة إلى قدرته عز وجل سواءٌ، فكأنه قيل: وهو أهونُ عليه بالإضافة إلى قُدَرِكم[1] والقياسِ على أصولكم.

وذكر الزمخشريُّ وجهاً آخر للتفضيل، وهو أنَّ الإنشاء من قَبيل التفضُّل الذي يتخيَّر فيه الفاعلُ بين أن يفعله وأن لا يفعله، والإعادةُ من قبيل الواجب الذي لابدَّ من فِعْلِه لأنها لجزاء الأعمال، وجزاؤها واجب، والأفعالُ إمَّا محالٌ والمحالُ ممتنعٌ أصلاً خارجٌ عن المقدور، وإما ما يَصْرِفُ الحكيمَ عن فِعْلِه صارفٌ وهو القبيحُ، وهو رديفُ المحال لأنَّ الصارف يمنع وجودَ الفعل كما تمنعه الإحالة، وإمَّا تفضُّلٌ والتفضُّل حالةٌ بَيْنَ بَيْنَ، للفاعل أن يفعله وأن لا يفعله، وإما واجبٌ لابدَّ من فِعْلِه ولا سبيلَ إلى الإخلال به، فكان الواجبُ أبعد الأفعال من الامتناع وأقربَها من الحصول، فلمَّا كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعدَ الأفعال من الامتناع، وإذا كانت أبعدَها منه كانت أَدْخَلَها في التأتِّي والتسهُّلِ، فكانت أهونَ منها، وإذا كانت كذلك كانت أهونَ من الإنشاء[2]. اهـ.

قال في «التقريب»: وفيه نظرٌ؛ لأنه مبنيٌّ على الوجوب العقليِّ، ولأنَّ الوجوب إذا كان بالذات نافَى القدرة كالامتناع، وإلَّا كان ممكناً فتساوى الفعلان لاشتراكهما في مصحِّح المقدورية وهو الإمكان.

---

(١) جمع قدرة. حاشية الشهاب ٧/ ١٢٠.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٢١.

وتعقَّبه في «الكشف» بقوله: أقول: إنه غيرُ واجبٍ بالذات، ولا يلزمُ منه المساواةُ مع التفضُّل في سهولة التأتيِّ، وأما المساواةُ في مصحِّح المقدورية فلا مدخل لها فيما نحن فيه، والحاصلُ منه أنه لو سلِّم منه أنَّ الداعيَ إلى فِعْله أقوى فلا شكَّ أنه أقرب إلى الوجود مما لا يكون الداعي كذلك. نعم إذا خلص الداعي إلى القسمين صارا سواءً، وليس البحثُ على ذلك التقدير. اهـ.

والحقُّ ما قاله أبو السعود[1] من أنه ليس المراد بأهونية الفعل أقربيتَه إلى الوجود باعتبارِ كثرة الأمور الداعية للفاعل إلى إيجاده، وقوةِ اقتضائها لتعلُّق قدرته به، بل أسهليةَ تأتِّيه وصدورِه عنه عند[2] تعلُّق قدرته بوجوده وكونه واجباً بالغير، ولا تفاوتَ في ذلك بين أن يكون ذلك التعلُّق بطريقة الإيجاب أو بطريقِ الاختيار.

وروى الزجَّاج عن أبي عبيدة وكثيرٍ من أهل اللغة أنَّ «أهون» هاهنا بمعنى هيِّن[3]. وروي ذلك عن ابن عباس والربيع، وكذا هو في مصحف عبد الله[4]، وهذا كما يقال: اللهُ تعالى أكبرُ، أي: كبيرٌ، و: أنت أَوْحَدُ الناس، أي: واحدهم، و: إنِّي لأَوْجَلُ، أي: وَجِلٌ.

وفي «الكشف»: التحقيقُ أنه من باب الزيادة المطلقة، وإنما قيل: بمعنى الهين؛ لأنه يؤدِّي مؤدَّاه.

وقيل: أفعل على ظاهره، وضميرُ «عليه» عائدٌ على «الخلق»، على معنى أنَّ الإعادة أيسرُ على المخلوق؛ لأنَّ البداءة فيها تدريجٌ من طورٍ إلى طورٍ إلى أن يصير إنساناً، والإعادةُ لا تحتاج إلى التدريجات في الأطوار، إنما يدعوه اللهُ تعالى فيخرج. وإمَّا على معنى أنَّ الإعادة أسهلُ على المخلوق، أي: أنْ يُعيدوا شيئاً ويفعلوه ثانياً بعدَ ما زاولوا فعلَه وعرفوه أولاً أسهلُ من أن يفعلوه أولاً قبل المزاولة، وإذا كان هذا حالُ المخلوق فما بالك بالخالق. ولا يخفى أنَّ الظاهر رجوعُ الضمير إليه تعالى.

---

(١) في تفسيره ٧/ ٥٨.

(٢) في تفسير أبي السعود: بعد.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٣، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٢١.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥، والبحر ٧/ ١٦٩.

ثم إنَّ الجارَّ والمجرور صلةُ «أهون»، وقدِّمت الصلةُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم:٩] وأخِّرت هنا لأنه قَصَدَ هنالك الاختصاصَ وهو محزُّه، فقيل: هو عليَّ هيِّنٌ وإن كان صعباً عندكم أن يولد بين هِمٍّ[١] وعاقر، وأمَّا هاهنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمرُ مبنيٌّ على ما يعقلون من أنَّ الإعادة أسهلُ من الابتداء، فلو قدِّمت الصلة لتغيَّر المعنى.

ولمَّا أخبر سبحانه بأنَّ الإعادة أهونُ عليه على طريق التمثيل عقَّب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ﴾ تعالى شأنهُ خاصةً ﴿ٱلْمَثَلُ﴾ أي: الوصف العجيبُ الشأنِ، كالقدرة العامة، والحكمةِ التامة، وسائرِ صفات الكمال ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الذي ليس لغيره ما يدانيه فضلاً عمَّا يساويه، فكأنه قيل: هذا لتفهيم العقول القاصرة، إذ صفاتُه تعالى عجيبةٌ، وقدرتُه جلَّ شأنُه عامةٌ، وحكمتُه سبحانه تامةٌ، فكلُّ شيء بَدْءاً وإعادةً وإيجاداً وإعداماً على حدٍّ سواءٍ، ولا مِثْلَ له تعالى ولا ندّ.

وعن قتادة ومجاهدٍ أنَّ «المثل الأعلى»: لا إله إلا الله. ولعلهما أرادا بذلك الوحدانيةَ في ذاته تعالى وصفاتِه سبحانه، والكلامُ عليه مرتبطٌ بما قبله أيضاً، كأنه قيل: ما ذكر لتفهيم العقول القاصرة لأنه تعالى لا يشاركه أحدٌ في ذاته تعالى وصفاته عزَّ وجل.

وقيل: مرتبطٌ بما بعده من قوله تعالى: (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ).

وقال الزَّجاج[٢]: المثلُ قولُه تعالى: (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) قد ضربه الله تعالى مثلاً فيما يسهلُ ويصعبُ عندكم، وينقاسُ على أصولكم، فاللامُ في «المَثَل» للعهد، وهو محمولٌ على ظاهره غيرُ مستعارٍ للوصف العجيب الشأن.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ متعلِّقٌ بمضمون الجملة المتقدِّمة، على معنى أنه سبحانه قد وُصِفَ بذلك وعُرِفَ به فيهما على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل.

وقيل: بـ «الأعلى». وقيل: بمحذوفٍ هو حالٌ منه، أو من «المثل» أو من ضميره في «الأعلى».

---

(١) الهِمُّ والهِمَّة بكسرهما: الشيخ الفاني. القاموس (همم)
(٢) في معاني القرآن ٤/ ١٨٤.

وقيل: متعلِّقٌ بما تعلَّق به «له»، أي: له في السماوات والأرض المثلُ الأعلى، والمراد أنَّ دلالة خَلْقِهما على عظيم القدرة أتمُّ من دلالة الإنشاء، فهو أدلُّ على جواز الإعادة، ولهذا جُعل أعلى من الإنشاء، فتأمل.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادرُ الذي لا يعجز عن بدءِ ممكنٍ وإعادته ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ الذي يُجري الأفعال على سَنَنِ الحكمة والمصلحة.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾ يتبيَّن به بطلانُ الشرك ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منتزعاً من أحوالها التي هي أقربُ الأمور إليكم وأعرفُها عندكم، وأظهرُها دلالةً على ما ذكر من بطلان الشرك؛ لكونها بطريق الأولوية. و«من» لابتداء الغاية.

وقوله تعالى: ﴿هَل لَّكُم﴾ إلى آخره تصويرٌ للمَثَل، والاستفهامُ إنكاريٌّ بمعنى النفي، و«لكم» خبرٌ مقدَّمٌ، وقولُه تعالى: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ في موضع الحال من «شركاء» بعدُ لأنه نعتُ نكرةٍ تقدَّم عليها، والعاملُ فيها كما في «البحر» هو العاملُ في الجارِّ والمجرور الواقع خبراً، و«من» للتبعيض، و«ما» واقعةٌ على النوع، وقولُه تعالى: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ مبتدأ، و«من» مزيدةٌ لتأكيد النفي المستفادِ من الاستفهام، وقولُه تعالى: ﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ متعلِّقٌ بـ «شركاء»، أي: هل شركاءُ فيما رزقناكم من الأموال وما يجري مجراها ممَّا تتصرَّفون فيه كائنون من النوع الذي ملكته أيمانُكم من نوع العبيد والإماء كائنون لكم(١).

وجوّز أن يكون «لكم» متعلِّقاً بـ «شركاء»، ويكون «فيما رزقناكم» في موضع الخبر، كما تقول: لزيدٍ في المدينة مبغض، فـ «لزيد» متعلقٌ بـ «مبغض» الذي هو مبتدأ، و«في المدينة» الخبر، أي: هل شركاءُ لكم كائنون ممَّا ملكته أيمانكم كائنون فيما رزقناكم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ جملةٌ في موضع الجواب للاستفهام الإنكاريِّ، و«فيه» متعلِّقٌ بـ «سواء»، وفي الكلام محذوفٌ معطوفٌ على «أنتم»، أي: فأنتم وهم ـ أي: المماليك ـ مستوون فيه لا فرق بينكم وبينهم في التصرُّف فيه.

---

(١) البحر ٧/ ١٧٠-١٧١.

وقيل: لا حَذْفَ، و«أنتم» شاملٌ للمماليك بطريق التغليب.

وقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ خبرٌ آخَرُ لـ «أنتم». وقال أبو البقاء: حالٌ من ضمير «أنتم» الفاعلِ في «سواء»[١].

وقوله تعالى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ في موضع الصفة لمصدرٍ محذوفٍ، أي: تخافونهم أنْ تستبدُّوا بالتصرُّف فيه بدون رأيهم خيفةً كائنةً مثلَ خيفتكم مَن هو من نوعكم، يعني الأحرارَ المساهمين لكم.

والمقصودُ نفي مضمون ما فصِّل من الجملة الاستفهامية، أي: لا تَرضَون بأن يشارككم فيما رزقناكم من الأموال ونحوِها مماليكُكُم وهم أمثالُكم في البشرية غيرُ مخلوقينَ لكم بل للهِ تعالى، فكيف تُشْرِكون به سبحانه في المعبودية التي هي من خصائصه تعالى الذاتية مخلوقَه سبحانه، بل مصنوعَ مخلوقه جلَّ وعلا حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه.

وقرأ ابن أبي عبلة: «أنفسُكم» بالرفع[٢] على أنَّ المصدر مضافٌ للمفعول و«أنفسُكم» فاعلُه؛ قال أبو حيان: وهو وجهٌ حسنٌ، ولا قبحَ في إضافة المصدر إلى المفعول مع وجود الفاعل[٣].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك التفصيلِ الواضح ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبيِّنها ونوضِّحها، لا تفصيلاً أدنى منه، فإنَّ التمثيل تصويرٌ للمعاني المعقولة بصورة المحسوس، وإبرازٌ لأوابد المدرَكاتِ على هيئة المأنوس، فيكون في غاية الإيضاح والبيان.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: يستعملون عقولهم في تدبُّر الأمثال. وقيل: في تدبُّر[٤] الأمور مطلقاً، ويدخلُ في ذلك الأمثالُ دخولاً أوَّليًّا، وخصَّهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكلِّ لأنهم المنتفعون بها.

---

(١) الإملاء ٤/ ١٧٥.

(٢) البحر ٧/ ١٧١، والدر المصون ٩/ ٤٣، وتحرَّف: عبلة، في مطبوع البحر إلى: عبيدة.

(٣) البحر ٧/ ١٧١.

(٤) في (م): تدبير، في الموضعين، وهو تصحيف.

وذكر العلَّامة الطيبيُّ أنه لما كان ضربُ الأمثال لإدناء المتوهَّم إلى المعقول، وإراءةِ المتخيَّل في صورة المحقَّق، ناسب أن تكون الفاصلةُ: «القوم يعقلون»[١]. وهذه النكتةُ هنا أظهرُ منها فيما تقدَّم[٢]، فتذكره.

وقرأ عباس عن أبي عمرو: «يفصِّل» بياء الغيبة[٣] رَعْياً لـ «ضَرَبَ»؛ إذ هو مسندٌ لِمَا يعود للغائب. وقراءةُ الجمهور بالنون للحَمْلِ على «رزقناكم».

وذكر بعض العلماء أنَّ في هذه الآية دليلاً على صحة أصل الشركة بين المخلوقينَ لافتقار بعضهم إلى بعض، كأنه قيل: الممتنعُ المستقبَحُ شركةُ العبيد لساداتهم، أمَّا شركةُ السادات بعضهم لبعض فلا تمتنعُ ولا تُستقبح.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ إعراضٌ عن مخاطبتهم ومحاولةِ إرشادهم إلى الحقِّ بضَرْبِ المثل وتفصيلِ الآيات واستعمالِ المقدِّمات الحقَّةِ المعقولةِ، وبيانٌ لاستحالة تبعيتهم للحقِّ، كأنه قيل: لم يعقلوا شيئاً من الآيات المفصَّلة بل اتَّبعوا ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغةَ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بأنهم في ذلك الاتِّباع ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه، أو ظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: جاهلين ببطلان ما أتوا، منكبِّين عليه لا يصرفُهم عنه صارفٌ حَسْبَما يَصْرِفُ العالمَ إذا اتَّبع الباطلَ عِلْمُه ببطلانه.

﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: خَلَقَ فيه الضلال وجَعَلَه كاسباً له باختياره ﴿وَمَا لَهُم﴾ أي: لمن أضلَّه الله تعالى، والجمعُ باعتبار المعنى ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩﴾ يخلِّصونهم من الضلال، ويحفظونهم من تَبِعاته وآفاته، على معنى: ليس لواحدٍ منهم ناصرٌ واحدٌ على ما هو المشهور في مقابلة الجمع بالجمع.

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٢) عند تفسير الآية (٢٤) من هذه السورة.
(٣) البحر ٧/ ١٧١، وعباس هو ابن الفضل بن عمرو الواقفي الأنصاري، من أكابر أصحاب أبي عمرو في القراءة. غاية النهاية ٢/ ٣٥٣. والقراءة في القراءات الشاذة ص١١٦ عن ابن عباس.

و«من» مزيدةٌ لتأكيد النفي، والكلام مسوقٌ لتسلية رسوله ﷺ، وتوطئةٌ لأمْرِه عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ قال العلّامة الطيبيُّ: إنه تعالى عقيبَ ما عدَّد الآيات البيِّنات، والشواهدَ الدالَّة على الوحدانية ونفي الشرك وإثباتِ القول بالمعاد، وضَرَبَ سبحانه المَثَلَ، وقال سبحانه: (كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أراد جلَّ شأنه أن يُسلِّي حبيبه صلوات الله تعالى وسلامه عليه، ويوطِّنه على اليأس من إيمانهم، فأَضْرَبَ تعالى عن ذلك وقال سبحانه: (بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم) وجَعَلَ السبب في ذلك أنه عزَّ وجل ما أراد هدايتهم، وأنه مختومٌ على قلوبهم، ولذلك رتَّب عليه قولَه تعالى: (فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ) على التقريع والإنكار، ثم ذيَّل سبحانه الكلَّ بقوله تعالى: (وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ) يعني: إذا أراد الله تعالى منهم ذلك فلا مخلَّصَ لهم منه، ولا أحدَ ينقذهم لا أنت ولا غيرُك، فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات، فاهتمَّ بخاصَّةِ نفسِك ومَن تَبِعكَ، وأقم وجهك.. إلخ[1]. اهـ، ومنه يُعلم حالُ الفاء في قوله تعالى: «فمَن»، وكذا في قوله سبحانه: «فأقِمْ».

وقدَّر النيسابوريُّ للثانية: إذا تبيَّن الحقُّ وظهرت الوحدانية فأقم.. إلخ[2].

ولعل ما أشار إليه الطيبيُّ أَوْلَى، ثم إنه يلوح من كلامه احتمالُ أن يكون الموصولُ قائماً مقام ضمير «الذين ظلموا» فتدبَّر.

و«أقم» مِن أقام العود، ويقال: قوَّم العود أيضاً، إذا عدَّله، والمراد الأمرُ بالإقبال على دين الإسلام والاستقامةِ والثبات عليه، والاهتمام بترتيب أسبابه على أنَّ الكلام تمثيلٌ لذلك، فإنَّ مَن اهتمَّ بشيءٍ محسوسٍ بالبصر عقد إليه طَرْفَه، وسدَّد إليه نظره، وأقبل عليه بوجهه[3] غيرَ متلفتٍ عنه، فكأنه قيل: فعدِّل وجهَكَ للدِّين وأَقْبِلْ عليه إقبالاً كاملاً غيرَ ملتفتٍ يميناً وشمالاً.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ إقامة الوجه للشيء كنايةٌ عن كمال الاهتمام به. ولعله

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) غرائب القرآن للنيسابوري ٢١/ ٣٣.

(٣) في (م): بوجه.

أراد بالكناية المجازَ المتفرِّعَ على الكناية؛ فإنه لا يُشترط فيه إمكانُ إرادةِ المعنى الحقيقيِّ.

ونُصب «حنيفاً» على الحال من الضمير في «أقم»، أو من «الدِّين»، وجوَّز أبو حيان كونَه حالاً من الوجه(١).

وأصل الحَنَفِ: الميلُ من الضلال إلى الاستقامة، وضدُّه الجَنَفُ بالجيم.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ نصبٌ على الإغراء، أي: الْزَموا فطرةَ الله تعالى، ومَن أجاز إضمارَ أسماء الأفعال جوَّز أن يقدَّر هنا «عليكم» اسم فعل.

وقال مكِّي: هو نصبٌ بإضمارِ فعلٍ، أي: اتَّبع فطرةَ الله، ودلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ لأنَّ معناه: اتَّبع الدِّين(٢). واختاره الطيبيُّ وقال: إنه أقربُ في تأليف النظم؛ لأنه موافقٌ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾، ولترتُّب قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ عليه بالفاء(٣).

وجوِّز أن يكون نصباً بإضمارِ أعني، وأن يكون مفعولاً مطلقاً لفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه ما بعدُ، أي: فَطَرَكم فطرةَ الله. ولا يصحُّ عَملُ «فَطَرَ» المذكورِ بعدُ فيه؛ لأنه من صفته. وأن يكون منصوباً بما دلَّ عليه الجملة السابقة على أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لنفسه. وأن يكون بدلاً من «حنيفاً».

والمتبادرُ إلى الذهن النصبُ على الإغراء، وإضمارُ الفعل على خطاب الجماعة مع أنَّ المتقدِّم «فأقم» هو ما اختاره الزمخشريُّ(٤)؛ ليطابق قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ وجَعَلَه حالاً من ضمير الجماعة المسندِ إليه الفعلُ، وجَعَلَ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ معطوفاً على ذلك الفعل.

وقال الطيبيُّ بعد ما اختار تقديرَ: اتَّبِعْ، ورجَّحه بما سمعتَ: وأمَّا قولُه تعالى:

---

(١) البحر ٧/ ١٧١.

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٢/ ٥٦١.

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٢٢، وقدَّر فيه الفعل: الزموا فطرة الله، أو: عليكم فطرة الله.

(مُنِيبِينَ) فهو حالٌ من الضمير في «أقم»، وإنما جُمع لأنه مردودٌ[1] على المعنى؛ لأنَّ الخطاب للنبيِّ ﷺ وهو خطابٌ لأمته، فكأنه قيل: أقيموا وجوهكم منيبين. وقال الفرَّاء: أي: أقم وجهك ومَن اتَّبعك، كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] فلذلك قال سبحانه: (مُنِيبِينَ). وفي «المرشد» أنَّ «منيبين» متعلِّقٌ بمضمرٍ، أي: كونوا منيبين؛ لقوله تعالى بعدُ: (وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)[2]. اهـ.

ولا يخفى على المنصِفِ حُسْنُ كلام الزمخشريِّ، وما ذكر من أنَّ خطابه ﷺ خطابُ الأمة يؤكِّد الدلالة على ذلك المضمر، لا أنه يجوز أن يكون «منيبين» حالاً من الضمير في «أقم». وظاهرُ كلام الفرَّاء يقتضي كونَ الحال من مذكورٍ ومحذوفٍ، وهو قليلٌ في الكلام، وإضمارُ «كونوا» مع إضمار فعلٍ ناصب لـ «فطرة الله» موجبٌ لكثرة الإضمار، وإضمارُه دون إضمارٍ فيما قبلُ موجبٌ لارتكاب خلافِ المتبادر هناك.

والفطرةُ على ما قال ابن الأثير للحالة، كالجِلْسة والرِّكبة، من الفَطْرِ بمعنى الابتداء والاختراع[3]. وفسَّرها الكثير هنا بقابلية الحقِّ والتهيُّؤ لإدراكه، وقالوا: معنى لزومِها الجريانُ على موجبها وعدمُ الإخلال به باتِّباع الهوى وتسويلِ شياطين الإنس والجنِّ، ووَصْفُها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ لتأكيد وجوب امتثال الأمر.

وعن عكرمةَ تفسيرُها بدين الإسلام، وفي الخبر ما يدلُّ عليه؛ أخرج ابن مردويه عن حماد بن عمر الصفَّار قال: سألتُ قتادةَ عن قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ فقال: حدَّثني أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فطرةُ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها دينُ الله تعالى»[4].

---

(١) في (م): مردد، وهو تصحيف.

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٢٥.

(٣) النهاية (فطر).

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٥٥.

والمرادُ بفَطْرِهم على دين الإسلام: خَلْقُهم قابلينَ له غيرَ نابينَ عنه ولا منكرين له؛ لكونه مجاوباً للعقل مُساوِقاً للنظر الصحيح، حتى لو تُركوا لَمَا اختاروا عليه ديناً آخر، ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ يولَدُ إلَّا على الفطرة، فأبواه يهوِّدانِه أو ينصِّرانِه أو يمجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تُحسُّون فيها من جدعاءَ؟»(١).

والمراد بـ «الناس» على التفسيرين جميعهم، وزعم بعضهم أنَّ المراد بهم على التفسير الثاني المؤمنون، وليس بشيءٍ.

واستشكل الاستغراق بأنه ورد في الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام أنه طُبع على الكفر. وأجيب بأنَّ معنى ذلك أنه قدِّر أنه لو عاش يصير كافراً بإضلال غيره له، أو بآفةٍ من الآفات البشرية، وهذا ـ على ما قيل ـ هو المرادُ من قوله عليه الصلاة والسلام: «الشقيُّ شقيٌّ في بطن أمه»(٢) وذلك لا ينافي الفَطْرَ على دين الإسلام بمعنَى خَلْقِه متهيِّأً له مستعدًّا لقبوله، فتأمَّلْ فالمقامُ محتاج بعدُ إلى تحقيق.

وقيل: فطرة الله: العهدُ المأخوذُ على بني آدم، ومعنى فَطْرِهم على ذلك ـ على ما قيل ـ خَلْقُهم مركوزاً فيهم معرفتُه تعالى كما أُشير إليه بقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ تعليلٌ للأمر بلزوم فطرته تعالى، أو لوجوب الامتثال به، فالمرادُ بخَلْقِ الله فطرتُه المذكورةُ أوَّلاً، ففيه إقامةُ المظهَرِ مقامَ المضمَرِ من غير لَفْظِه السابق، والمعنى: لا صحةَ ولا استقامةَ لتبديل فطرة الله تعالى بالإخلال بموجبها، وعَدَمِ ترتيب مقتضاها عليها باتِّباع الهوى وقبولِ وسوسة الشياطين.

وقيل: المعنى: لا يقدرُ أحدٌ على أن يغيِّر خَلْقَ الله سبحانه وفطرتَه عز وجل، فلا بدَّ مِن حَمْلِ التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأساً، ووَضْعِ فطرةٍ أخرى

---

(١) صحيح البخاري (١٣٥٨)، وصحيح مسلم (٢٦٥٨)، وهو عند أحمد (٧٧١٢).

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن ماجه (٤٦) عن ابن مسعود ﷺ بلفظ: «ألا إنما الشقي مَن شَقِي...»، وسلف ١٢/ ١٢٤.

مكانَها غيرِ مصحِّحةٍ لقبول الحقِّ والتمكُّنِ من إدراكه ضرورةً، فإنَّ التبديل بالمعنى الأولِ مقدورٌ بل واقعٌ قطعاً، فالتعليلُ حينئذٍ من جهةِ أنَّ سلامة الفطرة متحقِّقةٌ في كلِّ أحدٍ، فلا بدَّ من لزومها بترتيب مقتضاها عليها، وعدمِ الإخلال به بما ذكر من اتِّباع الهوى ووسوسةِ الشياطين.

وقال الإمام[1]: يحتمل أن يقال: إنَّ الله تعالى خَلَقَ خَلْقَه للعبادة، وهم كلُّهم عبيدُه، «لا تبديلَ لخلق الله» أي: ليس كونُهم عبيداً مثلَ كونِ المملوك عبداً للإنسان، فإنه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق، بل لا خروجَ للخلق عن العبادة والعبودية. وهذا لبيانِ فسادِ قولِ مَن يقول: العبادةُ لتحصيلِ الكمال، وإذا كمل العبدُ بها لا يبقى عليه تكليفٌ. وقولِ المشركين: إنَّ الناقص[2] لا يصلُحُ لعبادة الله تعالى، وإنما يعبد نحوَ الكواكبِ وهي عبيد الله تعالى. وقولِ النصارى: إنَّ عيسى عليه السلام كمل بحلول الله تعالى فيه وصار إلهاً. اهـ، وفيه ما فيه.

ومما يُستغرَبُ ما رُوي عن ابن عباس من أنَّ معنى «لا تبديلَ لخلق الله»: النهيُ عن خصاء الفحول من الحيوان.

وقيل: إنَّ الكلام متعلِّقٌ بالكفرة، كأنه قيل: فأقِمْ وجهك للدِّين حنيفاً والْزَمْ فطرةَ الله التي فَطَرَ الناس عليها، فإنَّ هؤلاء الكفرةَ خَلَقَ الله تعالى لهم الكفرَ، ولا تبديلَ لخلق الله، أي: إنهم لا يفلحون. وأنت تعلمُ أنه لا ينبغي حملُ كلام الله تعالى على نحو هذا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الدِّين المأمور بإقامة الوجهِ له، أو إلى لزوم فطرة الله تعالى المستفادِ من الإغراء، أو إلى الفطرة، والتذكيرُ باعتبارِ الخبر، أو بتأويلِ المشارِ إليه بمذكَّرٍ. ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستوي الذي لا عوج فيه ولا انحرافَ عن الحقِّ بوجهٍ من الوجوه كما يُنْبِئُ عنه صيغة المبالغة، وأصلُه: قَيْوِم على وَزْنِ فَيْعِل، اجتمعت الواوُ والياء وسُبقت إحداهما بالسكون، فقُلبت الواوُ ياءً وأُدغمت الياء فيها.

---

(١) في تفسيره ٢٥/ ١٢٠، وذكره عنه أيضاً النيسابوري في غرائب القرآن ٢١/ ٣٤.

(٢) في (م): الناقض، وهو تصحيف. وجاء في غرائب القرآن بدلاً من المشركين: الصابئة وبعض أهل الشك.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٠﴾ ذلك فيصدُّون عنه صدوداً. وقيل: أي: لا عِلْمَ لهم أصلاً، ولو علموا لعلموا ذلك، على أنَّ الفعل منزَّلٌ منزلةَ اللازم.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ أي: راجعين إليه تعالى بالتوبة وإخلاص العمل، من ناب نوبةً ونوباً: إذ رجع مرةً بعد أخرى. ومنه النُّوْبُ، أي: النحل؛ سمِّيت بذلك لرجوعها إلى مقرِّها.

وقيل: أي: منقطعين إليه تعالى، من الناب: السنُّ خلفَ الرباعية؛ لمَا يكون بها من الانقطاع ما لا يكون بغيرها. وتُعقِّب بأنه بعيدٌ؛ لأنَّ الناب يائيٌّ وهذا واويٌّ، وقد تقدَّم غيرَ بعيدٍ عدَّةُ أقوالٍ في وجه نَصْبِه، وزاد عليها في «البحر»[1] القول بكونه نصباً على الحال من «الناس» في قوله تعالى: (فَطَرَ ٱلنَّاسَ) وقدَّمه على سائر الأقوال، وهو كما ترى.

وتقدَّم أيضاً ما قيل في عَطْفِ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: من مخالفة أمره تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٣١﴾ المبدِّلين لفطرة الله سبحانه تبديلاً، والظاهرُ أنَّ المراد بهم كلُّ مَن أشرك بالله عز وجل. والنهيُ متصلٌ بالأوامر قبله. وقيل: بـ «أقيموا الصلاة»، والمعنى: ولا تكونوا من المشركين بتركها، وإليه ذهب محمد بن أسلم الطوسيُّ[2]، وهو كما ترى.

وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾ بدلٌ من «المشركين» بإعادة الجارِّ، وتفريقُهم لدينهم اختلافُهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم. وقيل: اختلافُهم في اعتقاداتهم مع اتحاد معبودهم. وفائدةُ الإبدال التحذيرُ عن الانتماء إلى حزبٍ من أحزاب المشركين ببيانِ أنَّ الكلَّ على الضلال المبين.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «فارَقوا»[3] أي: تركوا دينَهم الذي أُمروا به، أو الذي اقتضته فطرتُهم.

---

(١) ٧/ ١٧٢.

(٢) أبو الحسن، الكندي مولاهم، الإمام الحافظ الرباني، سمع يزيد بن هارون، وأبا نعيم، والنضر بن شُميل، وغيرهم، وحدث عنه ابن خزيمة وغيره. صنف المسند، والأربعين، وغير ذلك، توفي (٢٤٢هـ). التاريخ الصغير للبخاري ٢/ ٣٧٧، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ١٩٥.

(٣) التيسير ص١٠٨، والنشر ٢/ ٢٦٦.

﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: فرقاً تُشايعُ كلُّ فرقةٍ إمامها الذي مهدَ لها دينَها وقرَّره ووضع أصوله.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدِّين المعوجِّ المؤسَّسِ على الرأي الزائغ والزَّعْم الباطل ﴿فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ مسرورون ظنًّا منهم أنه حقٌّ. والجملة قيل: اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله من تفريق دينهم وكونِهم شيعاً. وقيل: في موضع نصبٍ على أنها صفةُ «شيعاً» بتقدير العائد، أي: كلُّ حزبٍ منهم. وزعم بعضُهم كونَها حالاً.

وجوَّز أن يكون «فرحون» صفةً لـ «كل»، كقول الشمَّاخ:

وكلُّ خليلٍ غيرُ هاضمِ نفسِه ... لوصلِ خليلٍ صارمٌ أو مُعارِزُ(١)

والخبرُ هو الظرف المتقدِّم، أعني قولَه تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾، فيكون منقطعاً عمَّا قبله. وضعِّفَ بأنه يوصف المضافُ إليه في نحوه، صرَّح به الشيخُ ابن الحاجب في قوله:

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخوه ... لعَمْرُ أبيك إلا الفرقدان(٢)

وفي «البحر»: أنَّ وصف المضاف إليه في نحوه هو الأكثر، وأنشد قوله:

جادتْ عليه كلُّ عينٍ ثرَّةٍ ... فتركْنَ كلَّ حديقةٍ كالدرهم(٣)

وما قيل: إنه إذا وُصف به «كل» دلَّ على أنَّ الفرح شاملٌ للكلِّ وهو أبلغ، ليس بشيءٍ، بل العكسُ أبلغُ لو تؤمِّلَ أدنى تأمُّلٍ.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي: شدَّةٌ ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه تعالى من دعاء غيره عزَّ وجل من الأصنام وغيرها.

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خلاصاً من تلك الشدَّة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ الذين

---

(١) ديوان الشماخ ص١٧٣، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٣/١٢٥٦، وأمالي القالي ١/١٩٨، وفيه: هاضم: كاسر، والمعارز: المجانب. وقال القالي: يقال: رأيت فلاناً اعترز مني، أي: انقبض، يقول: كلُّ مَن لم يظلم نفسه لأخيه ويحمل عليها فإنه قاطعٌ أو منقبضٌ.

(٢) سلف ٣/ ٣٧٠ و١٢/ ١١٧.

(٣) البحر ٧/ ١٧٢، والبيت لعنترة، وسلف عند تفسير الآية (١١١) من سورة الأنعام. ووقع في الأصل و(م) والبحر: ترة، والصواب ما أثبتناه.

كانوا دعَوْه منيبين إليه ﴿يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: فاجأ فريقٌ منهم الإشراكَ، وذلك بنسبةِ خلاصهم إلى غيره تعالى من صنمٍ أو كوكبٍ أو نحوِ ذلك من المخلوقات. وتخصيصُ هذا الفعل ببعضهم لِمَا أنَّ بعضهم ليسوا كذلك. وتنكيرُ «ضرّ» و«رحمة» للتعليل إشارةً إلى أنهم لعدم صبرهم يجزعون لأدنى مصيبةٍ، ويَطْغَون لأدنى نعمةٍ، و«ثم» للتراخي الرُّتْبي أو الزمانيِّ.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللامُ فيه للعاقبة. وكونُها[1] تقتضي المهلةَ ولذا سمِّيت لامَ المآل، والشركُ والكفرُ متقاربان لا مهلةَ بينهما كما قيل، لا وجهَ له.

وقيل: للأمر، وهو للتهديد، كما يقال عند الغضب: اعْصِني ما استطعتَ، وهو مناسبٌ لقوله سبحانه: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ فإنه أمرٌ تهديدي، واحتمالُ كونه ماضياً معطوفاً على «يشركون» لا يخفى حالُه، والفاءُ للسببية، والتمتُّع: التلذُّذ، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وبالَ تَمتُّعِكم.

وقرأ أبو العالية: «فيُمتَّعوا» بالياء التحتية مبنيًّا للمفعول، وهو معطوف على «يكفروا»، «فسوف يعلمون» بالياء التحتية أيضاً[2].

وعن أبي العالية أيضاً: «فيتمتَّعوا» بياءٍ تحتيةٍ قبل التاء، وهو معطوفٌ على «يكفروا» أيضاً[3].

وعن ابن مسعود: «وليتمتعوا» باللام والياء التحتية[4]، وهو عطفٌ على «ليكفروا».

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة إيذاناً بالإعراض عنهم، وتعديداً لجناياتهم لغيرهم بطريق المباثَّة[5]، و«أم» منقطعة، والسلطانُ: الحجةُ، فالإنزالُ مجازٌ عن التعليم أو الإعلام، وقولُه تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ بمعنى: فهو

---

(١) أي: لام العاقبة.
(٢) المحتسب ٢/ ١٦٤، والبحر ٧/ ١٧٣، وقراءة «يعلمون» في القراءات الشاذة ص١١٦.
(٣) البحر ٧/ ١٧٣.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٢٢.
(٥) من باثَّه الخبر: أطلعه عليه. معجم متن اللغة (بثث).

يدلُّ، على أنَّ التكلُّم مجازٌ عن الدلالة، ولك أن تعتبر هنا جميعَ ما اعتبروه في قولهم: نطقت الحال، من الاحتمالات.

ويجوز أن يراد بـ «سلطاناً»: ذا سلطان، أي: مَلَكاً معه برهانٌ، فلا مجازَ أوَّلاً وآخِراً.

وجملة «هو يتكلَّم» جوابٌ للاستفهام الذي تضمَّنته «أم»؛ إذ المعنى: بل أأنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلَّم ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ٣٥﴾ أي: بإشراكهم بالله عز وجل وصحَّته، على أنَّ «ما» مصدرية وضمير «به» له تعالى، أو بالأمر الذي يشركون بسببه وألوهيته[1]، على أنَّ «ما» موصولةٌ، وضمير «به» لها، والباءُ سببيةٌ، والمراد نفيُ أن يكون لهم مستمسكٌ يعوَّلُ عليه في شركهم.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمةً، من صحةٍ وسعةٍ ونحوهما ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ بطراً وأشراً، فإنه الفرحُ المذمومُ دون الفرح حمداً وشكراً. وهو المراد في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]. وقال الإمام: المذمومُ الفرحُ بنفس الرحمة، والممدوحُ الفرحُ برحمة الله تعالى من حيث إنها مضافةٌ إلى الله تعالى[2].

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ شدَّةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ٣٦﴾ أي: فاجؤوا القنوطَ من رحمته عزَّ وجلَّ.

والتعبير بـ «إذا» أوَّلاً لتحقُّق الرحمة وكثرتها دون المقابل. وفي نسبة الرحمة إليه تعالى دون السيئة تعليمٌ للعباد أن لا يُضاف إليه سبحانه الشرُّ، وهو كثيرٌ كقوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ﴾ و﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾ في «الفاتحة». وعدمُ بيانِ سبب إذاقة الرحمة وبيانُ سبب إصابة السيئة إشارةٌ إلى أن الأول تفضُّلٌ والثاني عدلٌ. والتعبيرُ بالمضارع في «إذا هم يقنطون» لرعاية الفاصلة والدلالةِ على الاستمرار في القنوط.

---

(١) قوله: وألوهيته، كذا في إحدى نسخ البيضاوي كما ذكر الشهاب في الحاشية ٧/ ١٢٢ وقال: وهو معطوف على الأمر، والضمير للشريك، وجاء في غيرها من النسخ: في ألوهيته.

(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ١٢٣.

والمراد بالناس إمَّا فريقٌ آخرُ غيرُ الأول، على أنَّ التعريف للعهد أو للجنس، وإمَّا الفريقُ الأول لكنَّ الحكم الأول ثابتٌ لهم في حالٍ تُدْهِشُهم كمشاهدة الغرق، وهذا الحكم في حالٍ آخَرَ لهم، فلا مخالفةَ بين قوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ) وقوله سبحانه: (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) فلا يحتاجُ إلى تكلُّفِ التوفيق بأنَّ الدعاء اللسانيَّ جارٍ على العادة فلا ينافي القنوطَ القلبي، ولذا سُمع بعضُ الخائضين في دم عثمان ﷺ يدعو في طوافه ويقول: اللهمَّ اغْفِرْ لي ولا أظنك تفعل. أو المراد: يفعلون فِعْلَ القانطين، كالاهتمام بجمع الذخائر أيامَ الغلاء، ولا يخفى أنَّ في المفاجأة نَبْوَةٌ ما عن هذا، فتأمَّل.

وقرئ: «يقنِطون» بكسر النون[1].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أنْ يبسطه تعالى له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: ويضيِّقُه على مَن يشاء أن يضيِّقه عليه. وهذا إما باعتبارِ شخصين، أو باعتبار شخصٍ واحد في زمانين. والمرادُ إنكارُ فرحِهم وقنوطِهم في حالتي الرخاء والشدة، أي: أولم يروا ذلك، فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا في السرَّاء والضرَّاء كالمؤمنين.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور، أي: البَسْطِ وضدِّه، أو جميعِ ما ذكر ﴿لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فيستدلُّون بها على كمال القدرة والحكمة، ولله تعالى درُّ مَن قال:

نَكَدُ الأريبِ وطِيبُ عيشِ الجاهلِ ... قد أرشداك إلى حكيمٍ كاملِ[2]

قال الطيبيُّ: كانت الفاصلة قوله تعالى: (لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إيذاناً بأنه تعالى يفعل ذلك بمحض مشيئته سبحانه، وليس الغِنَى بفعل العبد وجهده، ولا العُدْمُ بعَجْزِه وتقاعُدِه، ولا يَعرف ذلك إلا مَن آمن بأنَّ ذلك تقديرُ العزيز العليم، كما قال:

كم من أديبٍ فَهِمٍ قلبُه ... مستكملِ العقلِ مُقِلٌّ عديمْ

ومِن جهولٍ مكثَرٍ مالُه ... ذلك تقديرُ العزيز العليمْ[3]

---

(١) التيسير ص١٣٦، والنشر ٢/٣٠٢، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ويعقوب وخلف.

(٢) حاشية الشهاب ٧/١٢٣.

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير الآية (٢٨) من هذه السورة، والبيتان نسبهما ابن =

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من الصِّلة والصَّدقة وسائرِ المَبَرَّات ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ما يستحقَّانه، والخطابُ للنبيِّ ﷺ على أنه عليه الصلاة والسلام المقصودُ أصالةً، وغيرُه من المؤمنين تبعاً. وقال الحسن: هو خطابٌ لكلِّ سامع. وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يكون لمن بسط له الرزق.

ووجهُ تعلُّقِ هذا الأمرِ بما قبله واقترانِه بالفاء على ما ذكره الزمخشريُّ: أنه تعالى لمَّا ذكر أنَّ السيئة أصابتهم بما قدَّمتْ أيديهم أَتْبعَه ذِكْرَ ما يجب أن يُفْعَلَ وما يجب أن يُترك(١).

وحاصلُه على ما في «الكشف»: أنَّ امتثال أوامره تعالى مَجْلَبةُ رضاه والحياةُ الطيبةُ تتبعه، كما أن عصيانه سبحانه مجلبةُ سخطه والجدبُ والضِّيقةُ من روادفه، فإذا استبان ذلك فآتِ يا محمد ومَن تبعه ـ أو فآتِ يا مَن بُسط له الرزق ـ ذا القربى حقه.. إلخ.

وذكر الإمام وجهاً آخر مبنيًّا على أنَّ الأمر متفرِّعٌ على حديث البَسْطِ والقَدْرِ، وهو أنه تعالى لمَّا بيَّن أنه سبحانه يبسطُ ويَقدِرُ، أَمَرَ جلَّ وعلا بالإنفاق إيذاناً بأنه لا ينبغي أن يتوقَّف الإنسان في الإحسان، فإنَّ الله تعالى إذا بسط الرزق لا ينقصُ بالإنفاق، وإذا قَدَرَ لا يزداد بالإمساك(٢)، كما قيل:

إذا جادت الدنيا عليك فجُدْ بها ... على الناس طرًّا إنها تتقلَّبُ
فلا الجودُ يُفْنيها إذا هي أقبلت ... ولا البخلُ يبقيها إذا هي تذهبُ(٣)

قال صاحب «الكشف» رَوَّحَ الله تعالى رُوحَه: إنَّ ما ذكره الزمخشريُّ أوفقُ لتأليف النظم الجليل؛ فإنَّ قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ) لتتميم الإنكار

= عبد البر في بهجة المجالس ١/ ١٤١ للبربري، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٤٩٣ لذي النون المصري، وهما في الديوان المنسوب للإمام عليٍّ رضي الله عنه ص٩٣، ووقع في (م): أريب، بدل: أديب، والمثبت من الأصل والمصادر عدا بهجة المجالس، وفيه: كم من لبيب...

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٣.

(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ١٢٤.

(٣) ذكرهما الشهاب في الحاشية ٧/ ١٢٣، ووقع في الأصل و(م): إذ جادت، والمثبت من الحاشية.

على مَن فرح بالنعمة عن شكر المنعم، ويئس عند زوالها عنه، والظاهرُ على ما ذكره الإمام أنَّ المراد بالحقِّ الحقُّ الماليُّ، وكذا المرادُ به في جانب المسكين وابنِ السبيل.

وحمل ذلك بعضُهم على الزكاة المفروضة. وتعقِّب بأنَّ السورة مكيةٌ والزكاةُ إنما فُرِضَتْ بالمدينة، واستثناءُ هذه الآية ودعوى أنها مدنيَّةٌ يحتاج إلى نقلٍ صحيحٍ، وسَبْقُ النزول على الحُكْم بعيدٌ، ولذا لم يذكر هنا بقية الأصناف.

وحُكي أنَّ أبا حنيفة استدلَّ بالآية على وجوب النفقة لكلِّ ذي رحم محرمٍ ذكراً كان أو أنثى، إذا كان فقيراً أو عاجزاً عن الكسب. ووجِّه بأنَّ «آتِ» أمرٌ للوجوب، والظاهرُ من الحقِّ بقرينةِ ما قبله أنه ماليٌّ، ولو كان المراد الزكاةَ لم يقدَّم حقُّ ذوي القربى؛ إذ الظاهرُ من تقديمه المغايرةُ.

والشافعيةُ أنكروا وجوبَ النفقة على مَن ذُكر، وقالوا: لا نفقةَ بالقرابة إلَّا على الولد والوالدين على ما بيِّن في الفقه، والمرادُ بالحقِّ المصرَّح به في ذي القربى صلةُ الرحم بأنواعها، وبالحقِّ المعتبر في جانب المسكين وابن السبيل صدقةٌ كانت مفروضةً قبل فرض الزكاة، أو الزكاةُ المفروضة، والآيةُ مدنيةٌ، أو مكيةٌ والنزولُ سابقٌ على الحكم.

واعتُرِضَ على هذا بأنه إذا فسِّر حقُّ الأخيرين بالزكاة وَجَبَ تفسيرُ الأول بالنفقة الواجبة؛ لئلا يكون لفظُ الأمر للوجوب والندب، ولذا استدلَّ أبو حنيفة عليه الرحمةُ بالآية على ما تقدَّم، وفيه بحثٌ.

وقال بعض أجلَّة الشافعية رادًّا على الاستدلال: إنه كيف يتمُّ مع احتمال أن يكون الأمر بإيتاء الصدقة أيضاً بدليل ما تلاه؟ ثم إنَّ «ذا القربى» مجملٌ عند المستدلِّ، ومِن أين له أنه بيِّن بذي الرَّحِم المحرم؟ وكذلك قوله تعالى: «حقَّه»، ثم قال: والحقُّ أنه أمرٌ بتوفير حقِّه من الصلة لا خصوصِ النفقة، وصلةُ الرحم من الواجبات المؤكَّدة. انتهى، والحقُّ أحقُّ بالاتِّباع، ودليلُ الإمام عليه الرحمةُ ليس هذا وحده كما لا يخفى على علماء مذهبه.

وخصَّ بعضٌ الخطابَ به ﷺ، وقال: المرادُ بذي القربى بنو هاشم وبنو المطلب، أُمِرَ ﷺ أن يؤتيهم حقَّهم من الغنيمة والفيء.

وفي «مجمع البيان» للطبرسيِّ من الشيعة: المعنى: وآتِ يا محمد ذوي قرابتك حقوقَهم التي جعلها الله تعالى لهم من الأخماس، ورَوَى أبو سعيد الخدريُّ وغيرُه أنه لمَّا نزلت هذه الآيةُ أعطى عليه الصلاة والسلام فاطمةَ رضي الله عنها فَدَكاً وسلَّمه إليها، وهو المرويُّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله[1]. انتهى.

وفيه أنَّ هذا ينافي ما اشتهر عند الطائفتين من أنها رضي الله عنها ادَّعت فَدَكاً بطريق الإرث. وزعم بعضهم أنها ادَّعت الهبةَ أولاً[2]، وأتت على ذلك بعليٍّ والحسنِ والحسين رضي الله عنهم، وبأمِّ أيمن رضي الله عنها، فلم يُقبل منها لمكان الزوجية والبنوَّة، وعدمِ كفاية المرأة الواحدة في الشهادة في هذا الباب، فادَّعت الإرثَ، فكان ما كان[3]، وهذا البحثُ مذكورٌ على أتمِّ وجه في «التحفة»[4] إنْ أَرَدْتَه فارْجِع إليه.

وخصَّ بعضهم ابن السبيل بالضيف، وحقّه بالإحسان إليه إلى أن يرتحل، والمشهورُ أنه المنقطِعُ عن ماله، وبين المعنيين عمومٌ من وجهٍ. وقدِّم ذو القربى اعتناءً بشأنه، وهو السرُّ في تقديم المفعول الثاني على العطف، والعدولِ عن: وآتِ ذا القُربى والمسكينَ وابنَ السبيل حقَّهم.

وعبَّر عن القريب بذي القربى في جميع المواضع ولم يعبِّر عن المسكين بذي المَسْكَنة؛ لأنَّ القرابة ثابتةٌ لا تتجدَّد، و: ذو كذا، لا يقال في الأغلب إلا في الثابت، ألا ترى أنهم يقولون لمن تكرَّر منه الرأي الصائب: فلانٌ ذو رأي، ويكاد لا تسمعُهم يقولون لمن أصاب مرةً في رأيه كذلك، وكذا نظائرُ ذلك من قولهم: فلانٌ ذو جاهٍ، وفلانٌ ذو إقدام. والمسكنةُ لكونها مما تطرأُ وتزولُ لم يقل في المسكين: ذو مَسْكَنةٍ، كذا قال الإمام[5].

---

(١) مجمع البيان ٢١/ ٣١، وحديث أبي سعيد أخرجه أبو يعلى (١٠٧٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٩: فيه عطية العوفي، وهو متروك.

(٢) قوله: أولاً، ساقط من (م).

(٣) ينظر ما سلف ٥/ ٣٤٥ وما بعدها.

(٤) هو التحفة الاثنا عشرية، لعبد العزيز بن شاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي الهندي، المتوفى سنة (١٢٣٩هـ)، ونقله إلى العربية الشيخ الحافظ غلام محمد بن محيي الدين بن عمر الأسلمي. ينظر هدية العارفين ١/ ٥٨٥.

(٥) في تفسيره ٢٥/ ١٢٥.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الإيتاءُ المفهومُ من الأمر ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه، أو خير من غيره ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذاتَه سبحانه، أي: يقصدونه عزَّ وجل بمعروفهم خالصاً، أو جهتَه تعالى، أي: يقصدون جهة التقرُّب إليه سبحانه لا جهةً أخرى، والمعنيان كما في «الكشاف»[١] متقاربان، ولكنَّ الطريقةَ مختلفة[٢].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتَّصفون بالإيتاء ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ حيث حصَّلوا بإنفاقِ ما يَفْنَى النعيمَ المقيمَ، والحصرُ إضافيٌّ على ما قيل، أي: أولئك هم المفلحون لا الذين بخلوا بمالِهم ولم ينفقوا منه شيئاً.

وقيل: هو حقيقيٌّ على أنَّ المتَّصفينَ بالإيتاء المذكورِ هم الذين آمنوا وأقاموا الصلاة، وأنابوا إليه تعالى، واتَّقَوْه عزَّ وجل، فلا منافاة بين هذا الحصرِ والحصرِ المذكور في أول سورة البقرة، فتأمَّل.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ الظاهر أنه أُريدَ به الزيادةُ المعروفة في المعاملة التي حرَّمها الشارع، وإليه ذهب الجبَّائيُّ، وروي ذلك عن الحسن، ويشهد له ما روي عن السدِّيِّ من أنَّ الآية نزلت في ربا ثقيف؛ كانوا يُرْبُون وكذا كانت قريش.

وعن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك ومحمد بن كعب القرظيِّ وطاوس وغيرهم أنه أريد به العطيةُ التي يتوقَّع بها مزيدُ مكافأة. وعليه فتسميتُها رباً مجازٌ لأنها سببٌ للزيادة. وقيل: لأنها فضلٌ لا يجب على المعطَى.

وعن النخعيِّ أنَّ الآية نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانَهم على معنى نَفْعِهم وتمويلهم والتفضيل[٣] عليهم، وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع لهم[٤]. وهي روايةٌ عن ابن عباس، فالمرادُ بالربا العطيةُ التي تُعطَى للأقارب للزيادة في أموالهم، ووجهُ تسميتها بما ذُكر معلومٌ مما ذكرنا. وأيًّا ما كان فـ «مِن» بيانٌ لـ «ما» لا للتعليل.

---

(١) في (م): الكشف.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٣.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي البحر ٧/ ١٧٤ (والكلام منه): والتفضل.

(٤) جاءت العبارة في البحر: وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع به، فذلك النفع لهم.

وقرأ ابن كثير: «أَتيتُم» بالقصر[١]. ومعناه على قراءة الجمهور: أَعْطَيتُم، وعلى هذه القراءة: جئتم، أي: ما جئتم به من عطاء رباً ﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ليزيد ذلك الربا ويزكو في أموال الناس الذين آتيتُموهم إياه. وقال ابن الشيخ: المعنى على تفسير الربا بالعطية: ليزيد ذلك الربا في جَذْبِ أموال الناس وجَلْبِها. وفي معناه ما قيل: ليزيد ذلك بسبب أموال الناس وحصولِ شيء منها لكم بواسطة العطية.

وعن ابن عباسٍ والحسن وقتادةَ وأبي رجاء والشعبيِّ ونافع ويعقوب وأبي حيوة: «لتُرْبُوا» بالتاء الفوقية مضمومةً وإسنادِ الفعل إليهم[٢]، وهو بابُ الأفعال المتعدِّية لواحدٍ بهمزةِ التعدية، والمفعولُ محذوفٌ، أي: لتُرْبُوه وتَزِيدُوه في أموال الناس، أو هو من قبيل:

يَـجْـرَحْ فـي عـراقـيـبـهـا نَـصْـلـي[٣]

أي: لتُربوا وتَزيدوا أموالَ الناس. ويجوز أن يكون ذلك للصيرورة، أي: لتَصِيروا ذوي رباً في أموال الناس.

وقرأ أبو مالك: «لتُرْبوها» بضمير المؤنَّثِ[٤]، وكأنَّ الضمير للربا على تأويله بالعطية أو نحوِها.

﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: فلا يبارَكُ فيه في تقديره تعالى وحُكْمِه عز وجل.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي: من صدقةٍ ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ تبتغون به وجهه تعالى خالصاً ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: ذوو الإضعاف، على أنَّ مُضْعِفاً اسمُ فاعلٍ من أَضْعَفَ، أي: صار ذا ضِعْفٍ بكَسْرٍ فسكون، بأنْ يضاعفَ له ثوابُ ما أعطاه، كأَقْوَى وأَيْسَرَ إذا صار ذا قوَّةٍ ويسارٍ، فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله.

---

(١) التيسير ص٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨.

(٢) التيسير ص١٧٥، والنشر٢/ ٣٤٤ عن نافع وأبي جعفر ويعقوب، والكلام من البحر٧/ ١٧٤.

(٣) قطعة من بيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، وسلف ١٠/ ٢٣، وتمامه:

وإن تعتذر بالمحل من ذي ضروعها   على الضيف يَجْرَحْ.......

(٤) البحر ٧/ ١٧٤.

ويجوز أن يكون من أَضْعفَ والهمزةُ للتعدية والمفعولُ محذوفٌ، أي: الذين ضَعَّفوا ثوابَهم وأموالَهم ببركة الزكاة. ويؤيِّد هذا الوجهَ قراءةُ أبيٍّ: «المضعَفون» اسم مفعول[(١)].

وكان الظاهرُ أن يقال: فهو يربو عند الله؛ لأنه الذي تقتضيه المقابلةُ، إلا أنه غيّر في العبارة إذ أثبت غيرَ ما قبله، وفي النَّظْم إذ أتى فيما قبلُ بجملةٍ فعليةٍ وهنا بجملةٍ اسميةٍ مصدَّرةٍ باسم الإشارة مع ضمير الفَصْلِ لقَصْدِ المبالغة، فأثبت لهم المضاعفةَ التي هي أبلغُ من مطلق الزيادة على طريق التأكيد بالاسمية والضمير، وحَصَر ذلك فيهم بالاستحقاق، مع ما في الإشارة من التعظيم لدلالته على علوِّ المرتبة، وترك ما آتوا وذكر المؤتي، إلى غير ذلك.

والالتفاتُ عن الخطاب حيث قيل: «فأولئك» ـ دون: فأنتم ـ للتعظيم، كأنه سبحانه خاطب بذلك الملائكة عليهم السلام وخواصَّ الخلق تعريفاً لحالهم. ويجوزُ أن يكون التعبيرُ بما ذكر للتعميم، بأنْ يُقْصَدَ بأولئك هؤلاء وغيرُهم.

والراجعُ في الكلام إلى «ما» محذوفٌ إنْ جُعِلَتْ موصولةً، وكذلك إن جُعلت شرطيةً على الأصح؛ لأنه خبرٌ على كلِّ حال، أي: فأولئك هم المضعِفون به، أو: فمؤتُوه[(٢)] ـ على صيغة اسم الفاعل ـ أولئك هم المضعفون، والحذفُ لِمَا في الكلام من الدليل عليه. وعلى تقدير مؤتوه العامّ لا يكون هناك التفاتٌ بالمعنى المتعارف، واعتبارُ الالتفات أولى، وفي «الكشاف» أنَّ الكلام عليه أَمْلأُ بالفائدة[(٣)].

وبيِّن ذلك بأنَّ الكلام مسوقٌ لمدح المؤتِينَ حثًّا في الفعل، وهو على تقدير الالتفات من وجوه:

أحدهما: الإشارةُ بأولئك تعظيماً لهم.

---

(١) البحر ٧/ ١٧٤، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٢٣ دون نسبة.

(٢) في (م): فمؤتوا، والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٢٤، والكلام منهما.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٢٤، وقوله: عليه، أي: على الوجه الأول، أي: على تقدير: فأولئك هم المضعفون به.

والثاني: تقريعُ الملائكة عليهم السلام بمدحهم.

والثالث: ما في نفس الالتفات من الحسن.

والرابع: ما في «أولئك» على هذا من الفائدة المقرَّرة في نحو:

فـذلـك إن يَـهْـلِـكْ فـحُـسْـنَـى[1] ثـنـاؤه[2]

بخلافه إذا جُعِلَ وصفاً للمؤتين، وعلى ذلك التقدير يفيدُ تعظيمَ الفعل لا الفاعلِ، وإنْ لَزِمَ بالعرض فلا يُعارِضُ ما يفيده بالأصالة، فتأمل.

والآية على المعنى الأول للربا في معنى قوله عز وجل: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة:٢٧٦] سواءٌ بسواءٍ، والذي يقتضيه كلام كثيرٍ أنها تُشْعِرُ بالنهي عن الربا بذلك المعنى، لكنْ أنت تعلم أنها لو أشعرتْ بذلك لأشْعَرتْ بحرمة الربا بمعنى العطية التي يتوقَّع بها مزيدُ مكافأة على تقدير تفسير الربا بها، مع أنهم صرَّحوا بعدم حُرْمةِ ذلك على غيره ﷺ وحُرْمِتها عليه عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦] وكذا صرَّحوا بأنَّ ما يأخذه المعطي لتلك العطيةِ من الزيادة على ما أعطاه ليس بحرامٍ، ودافعُه ليس بآثمٍ لكنه لا يثاب على دفع الزيادة؛ لأنها ليست صلةً مبتدأةً بل بمقابلةِ ما أُعطي أولاً ولا ثوابَ فيما يُدفع عِوَضاً، وكذا لا ثوابَ في إعطاء تلك العطية أولاً لأنها شبكةُ صيدٍ، ومعنى قولِ بعض التابعين: الجانبُ المستغزِرُ يثابُ من هبته[3]، أنَّ الرجل الغريب إذا أهدى

---

(١) في (م): فحسبي، وهو تصحيف.

(٢) وعجزه: وإن عاش لم يقعد ضعيفاً مذمَّما، وهو من قصيدة لحاتم الطائي كما في الانتصاف مع الكشاف ١/ ١٤١-١٤٢، والإيضاح في علوم البلاغة ١/ ٤١، والخزانة ٣/ ١٢٧، والقصيدة في ديوانه ص٧٩ دون ذكر هذا البيت.
قال الزمخشري في الكشاف ١/ ١٤١ عند تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾: وفي اسم الإشارة الذي هو «أولئك» إيذانٌ بأن ما يَرِدُ عقيبه فالمذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عدِّدت لهم، كما قال حاتم: ولله صعلوك، ثم عدَّد له خصالاً فاضلة، ثم عقَّب تعديدها بقوله: فذلك إن يهلك. . .

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٦٥٢٣) عن شريح القاضي. والمستغزر: الذي يطلب أكثر مما يعطي. والجانب: الغريب، يقال: جَنَبَ فلان في بني فلان يَجْنُبُ جنابةً فهو جانب: إذا نزل فيهم غريباً. النهاية (جنب) و(غزر).

إليك شيئاً لتكافئه وتَزيدَه شيئاً فأَثِبْه من هديته وزِدْه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ الظاهرُ أنَّ الاسم الجليل مبتدأ و«الذي» خبرُه، والاستفهامُ إنكاريٌّ، و«من شركائهم» خبرٌ مقدَّمٌ، و«مَن» مبتدأ مؤخَّر، و«مِن» فيه للتبعيض، و«مِن ذلكم» صفةُ «شيء» قدِّمت عليه فأعربت حالاً، و«مِن» فيه للتبعيض أيضاً، و«شيءٍ» مفعولُ «يفعل»، و«من» الداخلةُ عليه مزيدةٌ لتأكيد الاستغراق.

وجوَّز الزمخشريُّ أن يكون الاسم الجليل مبتدأ، و«الذي» صفتُه، والخبر «هل من شركائكم» إلخ، والرابطُ اسم الإشارة المشارُ به إلى أفعاله تعالى السابقة، ف «من ذلكم» بمعنى: من أفعاله[1]. ووقعت الجملة المذكورة خبراً لأنها خبرٌ منفيٌّ معنًى وإن كانت استفهاميةً ظاهراً، فكأنه قيل: الله الخالقُ الرازقُ المميتُ المُحيي لا يشاركه شيءٌ ممَّن لا يفعل أفعاله هذه.

وبعضُهم جَعَلَها خبراً بتقدير القول، فكأنه قيل: اللهُ الموصوفُ بكونه خالقاً ورازقاً ومميتاً ومحيياً مقولٌ في حقِّه: هل من شركائكم مَن هو موصوفٌ بما هو موصوفٌ به؟!

وتعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّ اسم الإشارة لا يكون رابطاً إلَّا إذا أشير به إلى المبتدأ، وهو هنا ليس إشارةً إليه، لكنه شبيهٌ بما أجازه الفراء من الربط بالمعنى وخالفه الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٣٤] فإنَّ التقدير: يتربَّصن[2] أزواجهم، فقدَّر الضمير[3] بمضافٍ إلى ضمير «الذين» فحَصَلَ به الربطُ، وكذلك قدَّر الزمخشريُّ «من ذلكم» بمن أفعاله،

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٤.

(٢) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر، وفي الدر المصون ٩/ ٤٨ نقلاً عن أبي حيان: يتربصُ، وهو الصواب، ومثله في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣١٧، ومغني اللبيب ص٦٥٢، ونسب النحاس وابن هشام هذا القول للكسائي، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٣) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر، وفي الدر المصون ٩/ ٤٨، وحاشية الشهاب ٧/ ١٢٥، نقلاً عن البحر: فقدّر الربط.

المضاف إلى ضمير المبتدأ[١]. لكنْ لا يخفى أنَّ الإضافة غيرُ معتبرةٍ، وعلى تقدير اعتبارها يلزمُ تقدير مضافٍ آخَرَ.

وجوِّز أن تكون «مِن» الأولى لبيانِ «مَن يَفْعَلُ»، ومتعلَّقُها محذوفٌ، و«مَن يفعلُ» فاعلٌ لفعلٍ محذوف، أي: هل حَصَلَ واستقرَّ مَن يفعلُ كائناً من شركائكم. وكذا جوِّز في «مِن» الثانية أن تكون لبيان المستغرق.

وقيل: إنَّ «من» الأولى و«من» الثانية زائدتان كالثالثة، وهو كما ترى.

والآية على ما قلناه أولاً متضمِّنةٌ جملتين دلَّت الأولى على إثبات ما هو من اللوازم المُساوية للألوهية ـ من الخلق والرزق والإماتة والإحياء ـ له عز وجل، وأفادت الثانية بواسطة عكس السالبة الكلِّية نَفْيَها رأساً عن شركائهم الذين اتخذوهم شركاءَ له سبحانه من الأصنام وغيرها مؤكّداً بالإنكار، والعقلُ حاكمٌ بأن ما يُتَّخَذُ شريكاً كالذي اتخذ في الحكم المذكور، أعني نفيَ تأتِّي تلك الأفعالِ منه، وإن شئتَ جَعَلْتَ «شركائكم» شاملاً للصنفين، ويُفهَمُ من ذلك عدمُ صحة الشركة؛ إذ لا يُعْقَلُ شركةُ ما ليس بإلهٍ لعَدَمِ وجودِ لازمِ الألوهيةِ فيه لمن هو إلهٌ في الألوهية، ولتأكيدِ ذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: عن شِرْكِهم، والتعبيرُ بالمضارع لِمَا في الشِّرك من الغرابة، أو للإشعار باستمراره وتجدُّدِه منهم. وأشار بعضهم إلى أنَّ تينك الجملتين يؤخذُ منهما مقدِّمتان: موجبةٌ، وسالبةٌ كلِّيةٌ، مرتَّبتان على هيئةِ قياس من الشكل الثاني، وأنَّ قوله تعالى: (سُبْحَـٰنَهُۥ) إلخ يؤخَذُ منه سالبةٌ كلِّيةٌ هي نتيجةُ ذلك القياس، فتكون الجملتان المذكورتان في حكم قياسٍ من الشكل الثاني، وقوله تعالى: (سُبْحَـٰنَهُۥ) إلخ في حكم النتيجة له، ولا يخفى احتياجُ ذلك إلى تكلُّفٍ فتأمَّل جدًّا.

وقرأ الأعمش وابن وثاب: «تشركون» بتاء الخطاب[٢].

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كالجَدْبِ والمُوْتان[٣]، وكثرةِ الحَرْقِ والغَرَقِ،

---

(١) البحر ٧/ ١٧٥.

(٢) البحر ٧/ ١٧٦.

(٣) بضم الميم وسكون الواو: كثرة الموت. حاشية الشهاب ٧/ ١٢٥.

وإخفاق الصيادين والغاصَة(١)، ومَحْقِ البركات من كلِّ شيء، وقلَّةِ المنافع في الجملة، وكثرةِ المضارِّ.

وعن ابن عباس: أَجْدَبتِ الأرضُ وانقطعت مادةُ البحر، وقالوا: إذا انقطع القطرُ عَمِيتْ دوابُّ البحر.

وقال مجاهد: ظهر الفساد في البرِّ بقتل ابنِ آدمَ أخاه، وفي البحر بأَخْذِ السفن غصباً. وفي روايةٍ عن ابن عباس: بأَخْذِ جُلَنْدَى(٢) كلَّ سفينةٍ غصباً. ولعل المراد التمثيلُ، وكذا يقال في قَتْلِ ابن آدمَ أخاه، وكان أولَ معصيةٍ ظهرت في البر؛ قال الضحاك: كانت الأرض خضرةً مُونِقَةً لا يأتي ابنُ آدم شجرةً إلا وجد عليها ثمرةً، وكان ماء البحر عذباً، وكان لا يفترسُ الأسد البقرَ، ولا الذِّئبُ الغنمَ، فلمَّا قَتَلَ قابيلُ هابيلَ اقشعرَّ ما في الأرض، وشاكت الأشجارُ، وصار ماءُ البحر ملحاً زعافاً، وقَصَدَ الحيوانُ بعضُه بعضاً. وذُكر أنَّ أول معصيةٍ في البحر غَصْبُ جُلَنْدَى كلَّ سفينةٍ تمرُّ عليه، فكأنَّ تخصيص الأمرين بالذكر لذلك. وأيًّا ما كان فالبرُّ والبحرُ على ظاهرهما.

وعن مجاهدٍ: البرُّ: البلاد البعيدة من البحر، والبحرُ: السواحلُ والمدنُ التي عند البحر والأنهار.

وقال قتادة: البرُّ الفيافي ومواضعُ القبائل وأهلُ الصحارى والعمودُ، والبحرُ: المدن. والعربُ تسمِّي الأمصارَ بحاراً لسعتها، ومنها قولُ سعد بن عبادة في عبد الله بن أبيّ بن سلول: ولقد أجمع أهل هذه البحيرة - يعني المدينةَ - ليتوِّجُوه(٣).

---

(١) بتخفيف الصاد كسادة: جمع أو اسم جمع لغائص، وهو من ينزل لقعر البحر لإخراج اللؤلؤ ونحوه؛ فإنه إذا لم يقع المطر لم يتكون اللؤلؤ في الصدف؛ لأنه قيل: إنه يحصل من قطرات المطر التي يتلقاها الصدف في نيسان. حاشية الشهاب ٧/ ١٢٥.

(٢) بضم الجيم وفتح اللام وسكون النون وفتح الدال ثم ألف مقصورة، وقيل فيه وفي اسمه غير ذلك. حاشية الشهاب ٦/ ١٢٧.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٧٦٧)، والبخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨).

وقال أبو حيان: ويؤيِّد هذا قراءةُ عكرمة: «والبحور» بالجمع، ورُويتْ عن ابن عباس رضي الله عنهما[(١)].

وجوَّز النحاسُ أن يكون «البحر» على ظاهره إلَّا أنَّ الكلام على حذف مضافٍ، أي: مدن البحر، فهو مثل ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢] وجوَّز أيضاً أن يراد بالفساد المعاصي من قَطْعِ الطريق والظلم وغيرهما[(٢)].

و«أل» في «البر والبحر» للجنس، وكذا في «الفساد» أي: ظهر جنسُ الفساد من الجدب والموْتان ونحوِهما في جنس البرِّ وجنس البحر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: بسبب ما فَعَله الناسُ من المعاصي والذنوب وشؤمه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، وهو على التفسير الأول للفساد ظاهرٌ، وأمَّا على تفسيره بالمعاصي فالمعنى: ظهرت المعاصي في البرِّ والبحر بكَسْبِ الناس إياها وفِعْلِهم لها.

ومعنى قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ على الأول ظاهرٌ، وهو أنَّ الله تعالى قد أفسد أسباب دنياهم ومَحَقَها [ليذيقهم][(٣)] وبالَ بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة، لعلهم يرجعون عمَّا هم عليه، وأمَّا على الثاني فاللامُ مجازٌ على معنى أنَّ ظهور المعاصي بسببهم مما استَوْجَبوا به أن يذيقهم الله تعالى وبالَ أعمالهم إرادةَ الرجوع، فكأنهم إنما أفسدوا[(٤)] وتسبَّبوا لفشوِّ المعاصي في الأرض لأجل ذلك.

وقرأ السلميُّ والأعرج وأبو حيوة وسلام وسهل وروح وابن حسان، وقنبل من طريق ابن مجاهد وابن الصباح وأبي الفضل والواسطيِّ عنه، ومحبوبٌ عن أبي عمرو: «لنذيقهم» بالنون[(٥)].

---

(١) البحر ٧/ ١٧٦، والقراءة عن ابن عباس في القراءات الشاذة ص١١٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٧٥.

(٣) ما بين حاصرتين من الكشاف ٣/ ٢٢٤، والكلام منه.

(٤) في (م): فسدوا، والمثبت من الأصل والكشاف.

(٥) التيسير ص١٧٥ عن قنبل، والنشر٢/ ٣٤٥ عن قنبل وروح، وذكرها عنهم جميعاً أبو حيان في البحر٧/ ١٧٦، وعنه نقل المصنف.

وظهورُ الفساد المذكورِ على ما أخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن قتادة كان قبل أن يُبعث النبيُّ ﷺ، فلمَّا بُعِثَ عليه الصلاة والسلام رَجَعَ مَن رَجَعَ مِن الناس عن الضلال والظلم(١).

وقيل: كان أوائلَ البعثة، وذلك أنَّ كفار قريشٍ فعلوا ما فعلوا من المعاصي والإصرار على الشرك وإيذاءِ الرسول ﷺ، فدعا ﷺ عليهم فأقحطوا وحلَّ بهم من البلاء ما حلَّ، فأخبر الله سبحانه أنَّ ذلك بسبب معاصيهم ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون(٢). وفسَّر هذا القائل: «الناس» بكفار قريش.

وقيل: كان في زمانٍ سابقٍ على زمان النزول أعمّ من أن يكون الزمانَ الذي قبيل البعثة أو بعيدها أو غيرَ ذلك.

وحُكْمُ الآية عامٌّ في كلِّ فسادٍ يظهر إلى يوم القيامة، ومن هنا قيل: مَن أذنب ذنباً يكونُ جميعُ الخلائق من الإنس والدوابِّ والوحوشِ والطيور والذرِّ خُصَماءَه يومَ القيامة؛ لأنه تعالى يمنع المطر بشؤم المعصية فيتضرَّر بذلك أهلُ البرِّ والبحر جميعاً.

وروي عن شقيقٍ الزاهدِ أنه قال: مَن أكل الحرام فقد خان جميع الناس.

ووجهُ تعلُّق الآية بما قبلها أنَّ فيها نعيَ ما يعمُّ الشرك وغيرَه من المعاصي، وفيما قبلُ نعيُ الشرك، وفيها من تخويف المشركين ما فيها.

وقال الإمام في وجه التعلُّق: هو أنَّ الشرك سببُ الفساد، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وإذا كان الشركُ سَبَبَه جَعَلَ الله تعالى إظهارهم الشركَ مُوْرِثاً لظهور الفساد، ولو فعل بهم ما يقتضيه قولُهم لفَسَدتِ السماواتُ والأرضُ كما قال سبحانه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥١٠-٥١١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٥٧، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٠٤.

(٢) لم نقف عليه بهذا السياق، وينظر في دعاء النبي ﷺ على المشركين بسبب عنادهم وإيذائهم له ما سلف ١٨/ ١٢٢-١٢٤.

﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠] وإلى هذا أشار عز وجل بقوله سبحانه: (لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا)(١) انتهى. فتأمَّل وأنْصِفْ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ مسوقٌ لتأكيد تسبُّبِ المعاصي لغَضَبِ الله تعالى ونكالِه، حيث أُمروا بأن يسيروا فينظروا كيف أَهْلَكَ الله تعالى الأممَ وأذاقهم سوءَ العاقبة بمعاصيهم، ويتحقَّقوا صِدْقَ ما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ استئنافٌ للدلالة على أنَّ الشرك وحده لم يكن سَبَبَ تدميرِ جميعهم، بل هو سببٌ للتدمير في أكثرهم، وما دونه من المعاصي سببٌ له في قليل منهم. وجوِّز أن يكون للدلالة على أنَّ سوء عاقبتهم لفشوِّ الشرك وغَلَبته فيهم، ففيه تهويلٌ لأمرِ الشرك بأنه فتنةٌ لا تصيبُ الذين ظلموا خاصةً.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ أي: إذا كان الأمرُ كذلك فأقم، وتمامُ الكلام فيما هنا يُعلم مما تقدَّم في هذه السورة الكريمة(٢).

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ جوِّز أن يتعلق بـ «مردّ» وهو مصدرٌ بمعنى الردِّ، والمعنى: لا يردُّه سبحانه بعد أن يَجيء به ولا ردَّ له من جهته عز وجل، فيفيدُ انتفاءَ ردٍّ غيره تعالى له بطريقٍ برهانيٍّ.

واعتُرض بأنه لو كان كذلك للزم تنوينُ «يوم»(٣) لمشابهته للمضاف.

وأجيب بأنه مبنيٌّ على ما قال ابن مالك في «التسهيل» من أنه قد يعامَلُ الشبيهُ بالمضافِ معاملتَه، فيُتْرَكُ تنوينُه(٤)، وحُمِلَ عليه قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا مانعَ لِمَا أَعْطَيْتَ»(٥). وتفصيلُه في شرحه.

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ١٢٧.

(٢) ص٤٥٠-٤٥٢ من هذا الجزء.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وهو سبق قلم من المصنف رحمه الله، والصواب: «مرد»، ينظر الدر المصون ٩/ ٤٩، وحاشية الشهاب ٧/ ١٢٥.

(٤) التسهيل ص٦٨، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١٢٥.

(٥) حديث صحيح، وسلف ١٢/ ٤٨٣.

وبعضُهم جَعَلَه متعلِّقاً بمحذوفٍ يدلُّ عليه «مردّ»، أي: لا يردُّ من جهته تعالى، أي: لا يردُّه هو عز وجل.

وقيل: هو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والتقدير: هو ـ أي: الردُّ المنفيُّ ـ كائنٌ من الله تعالى، والجملةُ استئناف جواب سؤالٍ تقديره: ممن ذلك الردُّ المنفيُّ؟

وقيل: هو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من الضمير في الظرف الواقع خبراً لـ «لا».

وقيل: متعلِّقٌ بالنفي أو بما دلَّ عليه.

وقيل: متعلقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «يوم».

وجوَّز كثيرٌ تعلُّقَه بـ «يأتي»، أي: من قبل أن يأتي من الله تعالى يومٌ لا يقدرُ أحدٌ أن يردَّه.

وتعقِّب بأنَّ ذلك خلافُ المتبادر من اللفظ والمعنى، وهو مع ذلك قليلُ الفائدة، وارتضاه الطيبيُّ فقال: هذا الوجهُ أبلغُ لإطلاق الردِّ وتفخيم «اليوم»، وأن إتيانه من جهةٍ عظيمٍ قادرٍ ذي سلطانٍ قاهر[1]. ومنه يُعلم أنَّ ذلك ليس قليلَ الفائدة، نعم إنَّ فيه الفَصلَ الملبس، وحالُ سائرِ الأوجُهِ لا يخفى على ذي تمييز.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يأتي ﴿يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أصله: يتصدَّعون، فقُلبت تاؤه صاداً وأُدغمت، والتصدُّع في الأصل: تَفرُّقُ أجزاءِ الأواني، ثم استُعْمِلَ في مطلق التفرُّق. أي: يتفرَّقون؛ فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير.

وقيل: يتفرَّقون تفرُّق الأشخاص على ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] لا تفرُّقَ الفريقين، فإنَّ المبالغة في التفرُّق المستفادةَ من «يصَّدَّعون» إنما تناسبُ الأول، ورجِّح الثاني بأنه المناسبُ للسياق والسباق؛ إذ الكلام في المؤمنين والكافرين، فما ذُكر بيانٌ لتبايُنهم في الدارين، ويكفي للمبالغة شدةً بُعْدُ ما بين المنزلتين حسًّا ومعنًى، وهو تفسيرٌ رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة[2]. ورويَ أيضاً عن ابن زيد.

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٥١٥، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٥٧.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبالُ كُفْرِه وهي النارُ المؤبَّدةُ، ففي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أو الكفرُ مجازٌ عن جزائه بل عن جميع المضارِّ التي لا ضَرَرَ وراءها.

وإفرادُ الضمير باعتبارِ لفظِ «مَن»، وفيه إشارةٌ إلى قلَّة قَدْرِهم عند الله تعالى وحقارتهم مع ما عُلِمَ من كثرة عددهم، وجمعُه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ باعتبارِ معناها، وفيه مع رعاية الفاصلة إشارةٌ إلى كثرة قَدْرِهم وعظمهم عند الله تعالى.

و«يَمْهَدون» من مَهَدَ فراشَه: وطَّأه، أي: يوطِّؤون لأنفسهم كما يوطِّئُ الرجلُ لنفسه فراشَه لئلَّا يُصيبَه في مضجعه ما يُنْبيه وينغِّصُ عليه مرقَده من نتوءٍ أو قَضَض[1]، أو بعض ما يؤذي الراقد، فكأنه شبَّه حالةَ المكلَّف مع عمله الصالح وما يتحصَّلُ به من الثواب ويتخلَّصُ من العقاب بحالةِ مَن يَمْهَدُ فراشَه ويوطِّئُه ليستريحَ عليه، ولا يصيبَه في مضجعه ما ينغِّصُ عليه.

وجوِّز أن يكون المعنى: فعلى أنفسهم يشفقون، على أنَّ ذلك من قولهم في المَثَلِ للمشفق: أمٌّ فَرَشَتْ فأنامَتْ[2]، فيكون الكلام كنايةً إيمائيةً عن الشفقة والمرحمة، والأولُ أظهر.

والظاهرُ أنَّ هذه التوطئة لِمَا بعد الموت من القبر وغيره. وأخرج جماعةٌ عن مجاهد أنه قال: «فلأنفسهم يمهدون» أي: يسوُّون المضاجع في القبر. وليس بذاك.

وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص، وقيل: للاهتمام. ومقابلةُ «مَن كَفَر» بـ «مَن عَمِلَ صالحاً» لا بـ: مَن آمَنَ، إمَّا للتنويهِ بشأن الإيمان بناءً على أنه المرادُ بالعمل الصالح، وإمَّا لمزيدِ الاعتناء بشأن المؤمن العاملِ بناءً على أنَّ المراد بالعمل الصالح ما يشمل العمل القلبيَّ والقالبيَّ.

ويُشْعِرُ بأنَّ المراد بـ «مَن عَمِلَ صالحاً» المؤمنُ العاملُ قولُه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ

---

(١) القضض: التراب يعلو الفراش. القاموس (قضض).

(٢) مجمع الأمثال ١/٢٢، وجمهرة الأمثال ١/١٥٢، والمستقصى ١/٣٦٨. قال العسكري: يضرب مثلاً للرجل يبالغ في البر بالقوم والعطف عليهم، حتى كأنه أمٌّ فرشت لابنها فنام.

ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فإنه علةٌ لـ «يمهدون»، وأقيم فيه الموصولُ مقام الضمير تعليلاً للجزاء؛ لِمَا أنَّ الموصول في معنى المشتقِّ، والتعليقُ به يفيدُ علِّيَةَ مبدأ الاشتقاق، وذكر «من فضله» للدلالة على أنَّ الإثابة تفضُّلٌ محضٌ، وتأويلُه بالعطاء أو الزيادة على ما يستحقُّ من الثواب عدولٌ عن الظاهر.

وجوِّز أن يكون ذلك علةً لـ «يصَّدَّعون»، والاقتصارُ على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصودُ بالذات، والاكتفاءِ بفحوى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ فإنَّ عدم المحبةِ كنايةٌ عن البغض في العرف، وهو يقتضي الجزاءَ بموجبه، فكأنه قيل: وليُعاقِبَ الكافرين.

وفي «الكشاف»: أنَّ تكرير «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» وتَرْكَ الضمير إلى الصريح؛ لتقريرِ أنه لا يفلح عنده تعالى إلَّا المؤمنُ الصالح، وقولُه تعالى: «إنه» إلخ تقريرٌ بعد تقريرٍ على الطرد والعكس[1]. ويعني بذلك كلَّ كلامين يقرِّرُ الأول الثاني وبالعكس، سواءٌ كان صريحاً وإشارةً، أو مفهوماً ومنطوقاً، وذلك كقول ابن هانئ:

فـمـا جـازه جـودٌ ولا حـلَّ دونـه ... ولكن يصيرُ الجودُ حيث يصيرُ[2]

وبيانُه فيما نحن فيه: أنَّ قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يدلُّ بمنطوقه ـ على ما قرِّر ـ على اختصاصهم بالجزاء التكريمي، وبمفهومه على أنهم أهلُ الولاية والزُّلفى، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لتعليلِ الاختصاص يدلُّ بمنطوقه على أنَّ عدم المحبة يقتضي حرمانَهم، وبمفهومه على أنَّ الجزاء لأضدادهم موفَّرٌ، فهو جلَّ وعلا محبٌّ للمؤمنين.

وذكر العلَّامة الطيبيُّ: الظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ الآيَةَ بتمامها كالمُوْرِدِ للسؤالِ، والخطابُ لكلِّ أحدٍ من المكلَّفين، وقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ الآيةَ واردٌ على الاستئناف منطوٍ على الجواب، فكأنه لمَّا قيل: أقيموا على الدِّين القيِّم قبل مجيءِ يومٍ يتفرَّقون فيه، فقيل: ما للمقيمين على الدِّين، وما على المنحرفين عنه، وكيف يتفرَّقون؟ فأجيب: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ الآيةَ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٥.

(٢) البيت لابن هانئ، وسلف عند تفسير الآية (١٠٥) من سورة الأعراف.

وأما قوله سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآيةَ فينبغي أن يكون تعليلاً للكلِّ؛ ليفصِّل ما يترتَّب على ما لَهم وعليهم، لكن يتعلَّق بـ «يَمْهَدون» وحده لشدة العناية بشأن الإيمان والعملِ الصالح وعَدَم الإعباء بعمل الكافر، ولذلك وُضع موضعَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْكَٰفِرِينَ﴾[1] انتهى، فلا تغفل.

وفي الآية لطيفةٌ نبَّه عليها الإمامُ قدِّس سرُّه، وهي أنَّ الله عز وجل عندما أسند الكفر والإيمان إلى العبيد قدَّم الكافر، وعندما أسند الجزاء إلى نفسه قدَّم المؤمن؛ لأن قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ﴾ وعيدٌ للمكلَّف ليمتنع عمَّا يضرُّه لينقذه سبحانه من الشرِّ، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ تحريضٌ له وترغيبٌ في الخير ليوصِلَه إلى الثواب، والإنقاذُ مقدَّمٌ عند الحكيم الرحيم، وأما عند الجزاء فابتدأ جلَّ شأنُه بالإحسان إظهاراً للكرم والرحمة[2].

هذا ولمَّا ذكر سبحانه ظهورَ الفساد والهلاك بسبب المعاصي، ذكر ظهورَ الصلاح ولم يذكر عزَّ وجل أنه بسبب العمل الصالح؛ لأنَّ الكريم يذكر لعقابه سبباً لئلَّا يتوهَّم منه الظلمُ، ولا يذكرُ ذلك لإحسانه، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ الجنوب، ومهبُّها من مطلع سهيلٍ إلى مطلع الثريا، والصبا ومهبُّها من مطلع الثريا إلى بناتِ نعشٍ، والشمال ومهبُّها من بناتِ نعشٍ إلى مسقط النسر الطائر فإنها رياحُ الرحمة، وأما الدَّبُور ومهبُّها من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهيل فريحُ العذاب، وذُكر أنَّ الثلاثة الأُوَلَ تلقحُ السحاب الماطِرَ وتجمعُه فلذا كانت رحمةً.

وعن أبي عبيدة: الشمال عند العرب للروح، والجنوب للأمطار والأنداء، والصبا لإلقاح الأشجار، والدَّبور للبلاء، وأهونُه أن تثير غباراً عاصفاً يقذي العينَ، وهي أقلُّهنَّ هبوباً.

وروى الطبرانيُّ، والبيهقيُّ في «سننه» عن ابن عباس من حديثٍ ذكر فيه ما كان يفعله ويقولُه ﷺ إذا هاجت ريحٌ: «اللهمَّ اجعلها رياحاً ولا تَجْعَلْها ريحاً»[3] وهو

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ١٣٠.

(٣) المعجم الكبير(١١٥٣٣) من طريق الحسين بن قيس، عن عكرمة، عن ابن عباس، وهذا

مبنيٌّ على أنَّ الرياح للرحمة والريحَ للعذاب.

وفي «النهاية»: العرب تقول: لا تُلقح السحابُ إلا من رياح مختلفة، فكأنه قال ﷺ: اللهمَّ اجْعَلْها لقاحاً للسحاب ولا تجعلها عذاباً، ثم قال: وتحقيقُ ذلك مجيءُ الجمع في آيات الرحمة والواحدِ في قصص العذاب، كـ ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] و﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر: ١٩][(١)].

وقال بعضهم: إنَّ ذاك لأنَّ الريح إذا كانت واحدةً جاءت من جهةٍ واحدةٍ، فصَدَمتْ جسم الحيوان والنبات من جهةٍ واحدة، فتؤثِّر فيه أثراً أكثر من حاجته فتضرُّه، ويتضرَّرُ الجانب المقابلُ لعكس ممرِّها، ويفوتُه حظُّه من الهواء فيكون داعياً إلى فساده، بخلافِ ما إذا كانت رياحاً، فإنها تعمُّ جوانب الجسم فيأخذ كلُّ جانبٍ حظَّه فيحدث الاعتدال.

وأنت تعلم أنه قد تُفْرَدُ الريحُ حيث لا عذابَ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ [الأنبياء: ٨١] والحديثُ مختلفٌ فيه؛ فرمزَ السيوطيُّ لحُسْنِه[(٢)]، وقال الحافظ الهيثميُّ: في سنده حسينُ بن قيسٍ وهو متروكٌ، وبقية رجاله رجالُ الصحيح[(٣)]. ورواه ابن عديٍّ في «الكامل» من هذا الوجه وأعلَّه بحسينٍ المذكور، ونَقَلَ تضعيفه عن أحمد والنسائي[(٤)]، نعم إنَّ الحافظ عزاه في «الفتح» لأبي يَعْلَى وحدَه عن أنس رَفَعَه، وقال: إسنادُه صحيح[(٥)]. فليُحْفَظ ذلك.

= إسناد ضعيف كما سيرد قريباً. ولم نقف عليه في سنن البيهقي، وإنما أخرجه في معرفة السنن والآثار ٥/ ١٨٩ من طريق الشافعي قال: أخبرني مَن لا أتَّهم قال: حدثنا العلاء بن راشد، عن عكرمة، عن ابن عباس. وهو في الأم ١/ ٢٢٤. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٢٩: وهذا المبهم هو إبراهيم بن أبي يحيى، وهو ضعيف.

(١) النهاية (روح).

(٢) كما في فيض القدير ٥/ ١٦٥-١٦٦.

(٣) مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٦، ونقله المصنف عنه بواسطة المناوي في فيض القدير ٥/ ١٦٦.

(٤) الكامل ٢/ ٧٦٣، والكلام من فيض القدير ٥/ ١٦٦.

(٥) فتح الباري ٢/ ٥٢٠، وفيض القدير ٥/ ١٦٦، والحديث في مسند أبي يعلى (٢٩٠٥). ولكن هذا الحديث الذي ذكره ابن حجر وصححه، وأخرجه أبو يعلى ورد بقطعة أخرى من حديث ابن عباس، وليس فيه: «اللهم اجعلها رياحاً...».

وقرأ ابن كثير والكسائيُّ والأعمش: «الريحَ» مفرداً[١] على إرادة معنى الجمع، ولذا قال سبحانه: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني المنافعَ التابعةَ لها، كتَذْرِيةِ الحبوب وتخفيفِ العفونة وسَقْي الأشجار، إلى غير ذلك من اللطف والنعم.

وقيل: الخصب التابع لنزول المطر المسبَّب عنها، أو الروح الذي هو مع هبوبها. ولا وجهَ للتخصيص.

والواو للعطف، والعطفُ على علَّةٍ محذوفةٍ دلَّ عليها «مبشِّرات»، أي: ليبشِّركم وليذيقكم، أو على «مبشرات» باعتبارِ المعنى، فإنَّ الحال قد يُقْصَدُ بها التعليلُ، نحو: أهِنْ زيداً مسيئاً، أي: لإساءته، فكأنه قيل: لتبشِّركم وليذيقكم، وكونُه من عَطْفِ التوهُّم توهُّمٌ، أو على «يرسل» بإضمارِ فعلٍ معلَّل، والتقدير: ويرسلها ليذيقكم، وكونُ التقدير: ويُجري الرياحَ لِيُذيقكم، بعيدٌ.

قيل: أو على جملة «ومن آياته» إلخ بتقدير: وليذيقكم أرسلها، أو: فَعَلَ ما فَعَلَ، ولم يعتبره بعضُهم لأنَّ المقصود اندراجُ الإذاقةِ في الآيات.

وقيل: الواو زائدة.

﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ في البحر عند هبوبها ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ عز وجل، وإنما جيء بهذا القيدِ لأنَّ الريح قد تهبُّ ولا تكون مُواتيةً، فلا بدَّ من انضمام إرادته تعالى وأمره سبحانه للريح حتى يتأتَّى المطلوبُ. وقيل: للإشارة إلى أنَّ هبوبها مواتيةً أمرٌ من أموره تعالى التي لا يقدِرُ عليها غيرُه عز وجل.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بتجارة البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: ولتشكروا نعمةَ الله تعالى فيما ذكر.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ اعتراضٌ لتسليته ﷺ بِمَن قبله على وجهٍ يتضمَّن الوعدَ له عليه الصلاة والسلام والوعيدَ لمن عصاه، وفي ذلك أيضاً تحذيرٌ عن الإخلال بمواجب الشكر. والمراد بـ«قومهم»: أقوامُهم، والإفرادُ للاختصار

---

(١) التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣ عن ابن كثير وحمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة.

حيث لا لَبْسَ، والمعنى: ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى أقوامهم كما أرسلناك إلى قومك ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: جاء كلَّ قومٍ رسولُهم بما يخصُّه من البيِّنات كما جئتَ قومك ببيناتك.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ الفاء فصيحةٌ، أي: فآمَنَ بعضٌ وكذَّبَ بعضٌ فانتقمنا، وقيل: أي: فكذَّبوهم فانتقمنا منهم، ووُضع الموصول موضعَ ضميرهم للإشعار بالعلَّة، والتنبيهِ على مكان المحذوف. وجوِّز أن تكون[1] تفصيلاً للعموم بأنَّ فيهم مجرماً مقهوراً، ومؤمناً منصوراً.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فيه مزيدُ تشريفٍ وتكْرمةٍ للمؤمنين، حيث جُعلوا مستحقِّين على الله تعالى أن ينصرهم، وإشعارٌ بأنَّ الانتقام لأَجْلهم، والمراد بهم ما يشملُ الرسلَ عليهم الصلاة والسلام، وجوِّز تخصيصُ ذلك بالرسل بجَعْلِ التعريف عهديًّا.

وظاهرُ الآية أنَّ هذا النصر في الدنيا، وفي بعض الآثار ما يشعر بعدم اختصاصه بها، وأنه عامٌّ لجميع المؤمنين فيشمل مَن بعد الرسل من الأمة.

أخرج ابن أبي حاتم والطبرانيُّ وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئٍ مسلم يردُّ عن عِرْضِ أخيه إلَّا كان حقًّا على الله تعالى أن يردَّ عنه نارَ جهنم يومَ القيامة» ثم تلا عليه الصلاة والسلام: (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ)[2]. وفي هذا إشعارٌ بأنَّ «حقًّا» خبرُ «كان»، و«نصر المؤمنين» الاسمُ كما هو الظاهر، وإنما أُخِّر الاسمُ لكون ما تعلَّق به فاصلةً، وللاهتمام بالخبر إذ هو محطُّ الفائدة على ما في «البحر»[3].

---

(١) يعني الفاء. حاشية الشهاب ٧/١٢٦.

(٢) مكارم الأخلاق للطبراني (١٣٤)، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/١٥٧، وأخرجه أحمد (٢٧٥٣٦) دون ذكر الآية. وهو عندهم من طريق ليث، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء به. وهذا إسناد ضعيف لضعف ليث - وهو ابن أبي سليم - وشهر بن حوشب. وأخرجه من طريق آخر عن أبي الدرداء الترمذي (١٩٣١) بلفظ: «مَن ردَّ عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة» قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) ٧/١٧٨.

قال ابن عطية[(١)]: ووقف بعض القراء على «حقًّا» على أنَّ اسم «كان» ضمير الانتقام، أي: وكان الانتقامُ حقًّا وعدلاً لا ظلماً، ورجوعُه إليه على حدِّ: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، و«علينا نصر المؤمنين» جملةٌ مستأنفةٌ، وهو خلافُ الظاهر المؤيَّدِ بالخبر، وإن لم يكن فيه محذورٌ من حيث المعنى.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان ما أُجمل فيما سبق[(٢)] من أحوال الرياح ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ تحرِّكُه وتنشرُه ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ﴾ بسطاً تامًّا متصلاً تارةً ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في سَمْتها[(٣)]، لا في نفس السماء بالمعنى المتبادر ﴿كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ سائراً وواقفاً، مطبقاً[(٤)] وغير مطبقٍ، من جانب دون جانب[(٥)]، إلى غير ذلك، فالجملةُ الإنشائية حالٌ بالتأويل.

﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾ أي: قطعاً تارةً أخرى.

وقرأ ابن عامر بسكون السين[(٦)] على أنه مخفَّفٌ من المفتوح، أو جمعُ كِسْفةٍ، أي: قطعةٍ، أو مصدرٌ كعِلْم وُصف به مبالغةً، أو بتأويله بالمفعول، أو بتقديرِ: ذا كِسْفٍ.

﴿فَتَرَى﴾ يا مَن يصحُّ منه الرؤيةُ ﴿ٱلۡوَدۡقَ﴾ أي: المطر ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: فُرَجِه ـ جمع خَلَل ـ في التارتين: الاتِّصالِ والتقطُّعِ، فالضمير للسحاب، وهو اسمُ جنسٍ يجوز تذكيرُه وتأنيثه. وجوِّز على قراءة «كِسْفاً» بالسكون أن يكون له، وليس بشيء.

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ بلادِهم وأراضيهم، والباء في «به» للتعدية

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤١.

(٢) في (م): سيق، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٦٤.

(٣) قوله: في سمتها، أراد به جهة العلوّ. حاشية الشهاب ٧/ ١٢٧.

(٤) قوله: مطبقاً، اسم مفعول من الإفعال أو التفعيل، يقال: أطبقه وطبَّقه: إذا غشَّاه وغطاه، ويجوز كونه بزنة اسم الفاعل. حاشية الشهاب ٧/ ١٢٧.

(٥) قوله: من جانب دون جانب، تفسير لغير المطبق. حاشية الشهاب ٧/ ١٢٧.

(٦) التيسير ص١٧٥، والنشر ٢/ ٣٠٩ عن ابن عامر بخلاف عن هشام، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فاجؤوا الاستبشارَ بمجيء الخصب ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ الوَدْقُ ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: التنزيلِ ﴿لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: آيِسينَ.

والتكريرُ للتأكيد، وأفاد ـ كما قال ابن عطية[١] ـ الإعلامَ بسرعة تقلُّبِ قلوبِ البشر من الإبلاس إلى الاستبشار، وذلك أنَّ «من قَبْلِ أن ينزَّل عليهم» يحتملُ الفسحةَ في الزمان فجاء «من قبله» للدلالة على الاتِّصال ودَفْعِ ذلك الاحتمال.

وقال الزمخشريُّ: أكَّد ليدلَّ على بُعْدِ عهدهم بالمطر، فيُفهَمُ منه استحكامُ يأسهم[٢]. وما ذكره ابن عطية أقربُ؛ لأنَّ المتبادر من القَبْليةِ الاتصالُ، وتأكيدُه[٣] دالٌّ على شدَّته.

وأبو حيان أنكر على كِلَا الشيخين وقال: ما ذكراه من فائدة التأكيد غيرُ ظاهرٍ، وإنما هو عندي لمجرَّدِ التأكيد، ويفيدُ رَفْعَ المجاز فقط[٤].

وقال قطرب: ضمير «قبله» للمطر، فلا تأكيدَ. وأنت تعلم أنه يصيرُ التقدير: مِن قَبْلِ تنزيلِ المطر من قَبْلِ المطر، وهو تركيبٌ لا يَسوغُ في كلامٍ فصيحٍ فضلاً عن القرآن.

وقيل: الضمير للزرع الدالِّ عليه المطر، أي: من قبل تنزيلِ المطر من قبل أن يَزْرَعوا. وفيه أنَّ «من قبل أن ينزَّل» متعلِّقٌ بـ «مبلسين» ولا يمكن تعلُّق «من قبله» به أيضاً لأنَّ حرفي جرٍّ بمعنًى لا يتعلَّقان بعاملٍ واحدٍ، إلا أن يكون بوساطة حرفِ العطف، أو على جهة البدل، ولا عاطفَ هنا ولا يصحُّ البدل ظاهراً. وجوَّز بعضُهم فيه بدلَ الاشتمال مكتفياً فيه بكونِ الزرع ناشئاً عن التنزيل، فكان التنزيلُ مشتملاً عليه، وهو كما ترى.

وقال المبرِّد: الضمير للسحاب؛ لأنهم لمَّا رأوا السحابَ كانوا راجينَ المطر، والمراد: من قبل رؤيةِ السحاب. ويحتاج أيضاً إلى حرف عطفٍ حتى يصحَّ تعلُّقُ الحرفين بـ «مبْلسين».

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٦.
(٣) في (م): وتأكيد، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ١٢٧.
(٤) البحر ٧/ ١٧٩.

وقال علي بن عيسى[١]: الضمير للإرسال. وقال الكرمانيُّ: للاستبشار؛ لأنه قُرن بالإبلاس، ومُنَّ عليهم به. وأُورد عليهما أمرُ التعلُّقِ من غيرِ عطفٍ كما أُورد على مَن قَبْلَهما، فإن قالوا بحذف حرف العطف، ففي جوازه في مثل هذا الموضع قياساً خلافٌ.

واختار بعضُهم كونَه للاستبشار على أنَّ «مِن» متعلِّقةٌ بـ «ينزِّل»، و«مِن» الأولى متعلِّقة بـ «مبلسين»؛ لأنه يفيدُ سرعةَ تقلُّب قلوبهم من اليأس إلى الاستبشار بالإشارة إلى غايةِ تقارُبِ زمانيهما ببيانِ اتِّصالِ اليأس بالتنزيل المتصلِ بالاستبشار بشهادة «إذا» الفجائية، فتأمل.

و«إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، واللامُ في «لمبسلين» هي الفارقة، ولا ضميرَ شأنٍ مقدَّراً لـ «إنْ» لأنه إنما يقدَّر للمفتوحة، وأمَّا المكسورةُ فيجب إهمالُها كما فصَّله في «المغني»[٢]، وبعضُ الأجلَّة قال بالتقدير.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ المترتبةِ على تنزيل المطر، من النبات والأشجار وأنواع الثمار، والفاءُ للدلالة على سرعة ترتُّبها عليه.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو وأبو بكر: «أَثَر» بالإفراد وفَتْحِ الهمزة والثاء[٣].

وقرأ سلام: «إِثْر» بكَسْرِ الهمزة وإسكانِ الثاء[٤].

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْيِ﴾ أي: اللهُ تعالى ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ في حيِّز النصب بنزع الخافض، و«كيف» معلِّقٌ لـ «انظر»، أي: فانظر لإحيائه تعالى البديعِ للأرض بعد موتها. وقال ابن جنِّي: على الحالية بالتأويل، أي: محيياً[٥].

وأيًّا ما كان فالمرادُ بالأمر بالنظر التنبيهُ على عظيمِ قدرته تعالى، وسعةِ رحمتهِ عز وجل مع ما فيه من التمهيد لِمَا يعقبُه من أمر البعث.

---

(١) هو الرماني، ونقل المصنف كلامه وكلام غيره في هذه المسألة عن البحر ٧/ ١٧٩.

(٢) ص٣٦-٣٧، وهذا الوجوب إذا دخلت على الفعل، وأما إذا دخلت على الجملة الاسمية فقد قال ابن هشام: يجوز إعمالها خلافاً للكوفيين.

(٣) التيسير ص١٧٥، والنشر ٢/ ٣٤٥، وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب من العشرة.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٢، والبحر ٧/ ١٧٩.

(٥) البحر/٧/ ١٧٩، وينظر المحتسب٢/ ١٦٥.

وقرأ الجحدريُّ وابن السميفع وأبو حيوة: «تحيي» بتاء التأنيث[١]، والضميرُ عائد على الرحمة، وجوِّز على قراءة الحِرْميين ومَن معهما أن يكون الضميرُ للأثر على أنه اكتسب التأنيث من المضاف إليه، وليس بشيءٍ كما لا يخفى[٢].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العظيم الشأن ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لقادرٌ على إحيائهم، فإنه إحداثٌ لِمثْلِ ما كان في موادِّ أبدانهم من القوى الحيوانية، كما أنَّ إحياء الأرض إحداثٌ لِمثْلِ ما كان فيها من القوى النباتية.

وقيل: يحتمل أن يكون النباتُ الحادثُ من أجزاءٍ نباتيةٍ تفتَّتت وتبدَّدتْ واختلطت بالتراب الذي فيه عروقُها في بعض الأعوام السالفة، فيكون كالإحياء بعينه، بإعادة الموادِّ والقوى لا بإعادة القوى فقط. وهو احتمالٌ واهي القوى بعيدٌ، ولا نسلِّم أن المسلم المسترشِدَ يعلم وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، أي: مبالغٌ في القدرة على جميع الأشياء التي من جملتها إحياؤهم؛ لِمَا أنَّ نسبة قدرته عز وجل إلى الكلِّ سواءٌ.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: النباتَ المفهومَ من السياق كما قال أبو حيان[٣]، أو الأثرَ المدلولَ عليه بالآثار، أو النباتَ المعبَّرَ عنه بها على ما قاله بعضُهم. والنباتُ في الأصل مصدرٌ يقع على القليل والكثير، ثم سمِّي به ما يَنْبتُ.

وقال ابن عيسى: الضميرُ للسحاب؛ لأنه إذا كان مصفرًّا لم يُمطر. وقيل: للريح، وهي تذكَّرُ وتؤنَّث، وكِلَا القولين ضعيفان كما في «البحر»[٤].

وقرأ جناح بن حبيش: «مُصْفَارًّا» بألفٍ بعد الفاء[٥].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٦٥، والبحر ٧/ ١٧٩.
(٢) لأن اكتساب التأنيث من الإضافة لا يجوز إلا إذا كان المضاف بمعنى المضاف إليه، أو من سببه، وأما إذا كان أجنبيًّا فلا يجوز، وهذا أجنبي. البحر ٧/ ١٧٩، والدر المصون ٩/ ٥٣.
(٣) في البحر ٧/ ١٧٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) القراءات الشاذة ص١١٦، والبحر ٧/ ١٧٩.

والـلام في «لئن» موطِّئةٌ للقسم دخلت على حرف الشرط، والفاءُ في «فرأوه» فصيحةٌ، واللامُ في قوله تعالى: ﴿لَّظَلُّوا۟﴾ لامُ جوابِ القسم السادُّ مسدَّ الجوابين، والماضي بمعنى المستقبل، كما قاله أبو البقاء ومكِّي وأبو حيان وغيرُهم[1]، وعلَّل ذلك بأنه في المعنى جوابُ «إنْ» وهو لا يكون إلَّا مستقبلاً.

وقال الفاضل اليمنيُّ: إنما قدَّروا الماضي بمعنى المستقبل من حيث إن الماضي إذا كان متمكِّناً متصرِّفاً ووقع جواباً للقسم فلا بدَّ فيه من «قد» واللامِ معاً، فالقصرُ على اللام لأنه مستقبلٌ معنًى. وفيه نظر.

وقدَّروه بمضارعٍ مؤكَّدٍ بالنون، أي: وبالله تعالى لئن أرسلنا ريحاً حارَّةً أو باردةً فضربتْ زَرْعَهم بالصَّفَارِ، فرأوه مصفرًّا بعد خُضْرتِه ونَضارَتِه ليَظلُّنَّ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد الإرسال، أو من بعد اصفرارِ زرعهم. وقيل: من بعد كونهم راجينَ مستبشرين ﴿يَكْفُرُونَ ۝٥١﴾ من غير تلعثُمٍ نعمةَ الله تعالى.

وفيما ذكر من ذمِّهم بعدم تثبُّتهم وسرعةِ تَزَلْزُلِهم بين طرفي الإفراط والتفريط مالا يخفى، حيث كان الواجبُ عليهم أن يتوكَّلوا على الله سبحانه في كلِّ حالٍ، ويلجؤوا إليه عزَّ وجلَّ بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطرُ ولا ييأسوا من رَوْح الله تعالى، ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم جلَّ وعلا برحمته ولا يُفْرِطوا في الاستبشار، وأن يصبروا على بلائه تعالى إذا اعْتَرَى زَرْعَهم آفةٌ ولا يكفروا بنعمائه جلَّ شأنُه، فعَكَسوا الأمر وأَبَوْا ما يُجْدِيهم وأَتَوْا بما يؤذيهم. ولا يخفى ما في الآيات من الدلالة على ترجيح جانب الرحمة على جانب العذاب، فلا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تعليلٌ لِمَا يُفْهَم من الكلام السابق، كأنه قيل: لا تَحْزَن لعدم اهتدائهم بتذكيرك فإنك.. إلخ.

وفي «الكشف»: اعْلَمْ أنَّ قوله تعالى: (ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ) كلامٌ سيقَ مقرِّراً لِمَا فُهِمَ من قوله سبحانه: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ) الآيةَ لدلالته على أنه عزَّ وجلَّ ينتقمُ من المكذِّبين برسول الله ﷺ وينصُرُ متابِعيهِ، فذكر فيه من البيِّنات ما أُجْمِلَ هنالك مما يدلُّ على القدرة والحكمة والرحمة، واختير من الأدلَّة ما يجمع

(١) الإملاء ٤/ ١٧٩، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٣، والبحر ٧/ ١٨٠.

الثلاثةَ، وفيه ما يرشِدُ إلى تحقيق طرفي الإيمان، أعني المبدأ والمعاد، وصرَّح بكفرانهم بالنعمة وذمّهم في الحالات الثلاث؛ لأنَّ ذلك مما يعرفُه أهل الفطر السليمة ويتخلَّق به، وأَدْمَجَ فيه دلالته على المعاد بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ ولمَّا فرغ من حديث ذمِّهم بنَى على هذا المدمَجِ وما دلَّ عليه سياقُ الكلام من تماديهم في الضلالة مع[1] مثل هذه البيِّنات التي لا أتمَّ منها في الدلالة، فقال سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ وفيه أنهم إذاً لا محالةَ من الذين ينتقمُ منهم، وأنك وأشياعك من المنصورين، والله تعالى أعلم. اهـ، فتأمَّله مع ما ذكرنا.

وقد تقدَّم الكلامُ في هذه الجملة خاليةً عن الفاء في سورة النمل[2]، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ بيد أنَّا نذكر هنا ما ذكره الأجلَّة في سماع الموتى وفاءً بما وعدنا هنالك، فنقول ومن الله تعالى التوفيقُ:

نُقِلَ عن العلَّامة ابنِ الهمام أنه قال: أكثرُ مشايخنا على أنَّ الميت لا يسمع؛ استدلالاً بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ونحوِها، يعني من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] ولذا لم يقولوا بتلقين القبر، وقالوا: لو حلف: لا يكلِّم فلاناً، فكلَّمه ميتاً لا يَحْنَثُ[3].

وحكى السفارينيُّ في «البحور الزاخرة» أنَّ عائشةَ ذهبت إلى نفي سماع الموتى[4]، ووافقها طائفةٌ من العلماء على ذلك، ورجَّحه القاضي أبو يعلى من أكابر أصحابنا - يعني الحنابلة - في كتابه «الجامع الكبير»، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ونحوِه.

وذهبت طوائفُ من أهل العلم إلى سماعهم في الجملة، وقال ابن عبد البرِّ: إنَّ

---

(١) قوله: مع، ساقط من (م).

(٢) عند تفسير الآية (٨٠) منها.

(٣) فتح القدير لابن الهمام ١/٤٤٦-٤٤٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/١٢٨.

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٧٨) و(٣٩٧٩)، ومسلم (٩٣٢)، وسيأتي بتمامه قريباً.

الأكثرين على ذلك. وهو اختيارُ ابن جرير الطبريِّ[(١)]، وكذا ذكر ابنُ قتيبة وغيرُه، واحتجُّوا بما في الصحيحين عن أنس عن أبي طلحة ﷺ قال: لمَّا كان يومُ بدرٍ وظهر عليهم - يعني مشركي قريش - رسول الله ﷺ، أمَرَ ببضعةٍ وعشرين رجلاً - وفي روايةٍ: أربعٍ وعشرين رجلاً - من صناديد قريشٍ فأُلقوا في طويٍّ - أي: بئرٍ - من أطواءِ بدرٍ، وأنَّ رسول الله ﷺ ناداهم: «يا أبا جهل ابن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، أليس قد وجدتُم ما وَعَدَ ربُّكم حقًّا؛ فإني قد وجدتُ ما وعد ربِّي حقًّا؟» فقال عمر ﷺ: يا رسول الله، ما تكلِّمُ من أجسادٍ لا أرواحَ لها؟! فقال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده ما أنتم بأَسْمَعَ لِمَا أقولُ منهم»[(٢)]، زاد في روايةٍ لمسلم عن أنس: «ولكنَّهم لا يقدرون أن يجيبوا»[(٣)].

وبما أخرجه أبو الشيخ من مرسَلِ عبيد بن مرزوق قال: كانت امرأةٌ بالمدينة تَقُمُّ المسجد فماتت، فلم يعلم بها النبيُّ ﷺ، فمرَّ على قبرها فقال عليه الصلاة والسلام: «ما هذا القبر؟» فقالوا: أم مِحْجَن. قال: «التي كانت تقمُّ المسجد؟» قالوا: نعم. فصفَّ الناسَ فصلَّى عليها، فقال ﷺ: «أيّ العمل وجدتِ أفضل؟» قالوا: يا رسول الله، أتسمع؟ قال: «ما أنتم بأسمعَ منها» فذكر عليه الصلاة والسلام أنها أجابته: «قَمّ المسجد»[(٤)].

وبما رواه البيهقيُّ والحاكم وصحَّحه وغيرهما عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ وقف على مصعب بن عمير وعلى أصحابه حين رجع من أحد، فقال: «أشهد أنكم أحياءٌ عند الله تعالى، فزوروهم وسلِّموا عليهم، فوالَّذي نفسي بيده لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلا ردُّوا عليه إلى يوم القيامة»[(٥)].

---

(١) في الأصل و(م): والطبري، وينظر تفسير الطبري ١٨/ ٥٢٤ و١٩/ ٣٥٩.

(٢) صحيح البخاري (٣٩٧٦)، وصحيح مسلم (٢٨٧٥).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٧٤).

(٤) الترغيب والترهيب ١/ ٢٦٨. قال المنذري: قمُّ المسجد: كَنْسُه. وأخرجه بنحوه البخاري (٤٥٨)، ومسلم (٩٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، إلى قوله: فصلى عليها. وليس فيه ذكر اسم المرأة. وأخرجه البيهقي ٤/ ٤٨ من حديث بريدة ﷺ، فذكر اسمها أم محجن، وحسنه الحافظ في الفتح ١/ ٥٥٣.

(٥) المستدرك ٢/ ٢٤٨، والمعجم الأوسط (٣٧٠٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٢٣: =

وبما أخرج ابنُ عبد البرِّ ـ وقال عبد الحقِّ الإشبيليُّ: إسناده صحيح ـ عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحدٍ يمرُّ بقبرِ أخيه المؤمنِ كان يعرفُه في الدنيا يسلِّمُ عليه إلا عَرَفَه وردَّ عليه»(١).

وبما أخرج ابنُ أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: الروحُ بيد ملكٍ يمشي به مع الجنازة، يقول له: أتسمعُ ما يقال لك؟ فإذا بلغ حفرتَه دفنه معه(٢).

وبما في الصحيحين من قوله ﷺ: «إنَّ العبد إذا وُضع في قبره وتولَّى عنه أصحابُه، إنه ليسمعُ قَرْعَ نعالهم»(٣).

وأجابوا عن الآية؛ فقال السهيليُّ: إنها كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [الزخرف: ٤٠] أي: إنَّ الله تعالى هو الذي يُسْمِعُ ويَهْدي(٤).

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ معناها: لا تُسْمِعُهم إلا أن يشاء الله تعالى، أو: لا تُسمعهم سماعاً ينفعهم، وقد يُنفَى الشيءُ لانتفاء فائدته وثمرته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩]، وهذا التأويلُ يجوز أن يعتبر في قوله تعالى: (وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ) ويكون نكتةُ العدول عن: فإنك لا تُسْمِعُ الموتَى ولا الصمَّ، إلى ما في النظم الجليل العنايةَ بنفي الإسماع، ويجوز أن لا يعتبر فيه ويبقى الكلامُ على ظاهره، ويكون نكتةُ العدول الإشارةَ إلى أنَّ «لا تُسمع» في كلٍّ من الجملتين بمعنًى.

وقال الذاهبون إلى عدم سماعهم: الأصلُ عدمُ التأويل، والتمسُّكُ بالظاهر إلى

= فيه عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك. اهـ. وقال الذهبي في التلخيص: أنا أحسبه موضوعاً.

(١) الاستذكار ٢/ ١٦٥، وكلام عبد الحق في الأحكام الوسطى ٢/ ١٥٢-١٥٣، والصغرى ١/ ٣٤٥.

(٢) ذكره بإسناد عن ابن أبي الدنيا السيوطي في الحاوي ١/ ٣٠٥.

(٣) صحيح البخاري (١٣٣٨)، وصحيح مسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس ﷺ، وهو عند أحمد (١٢٢٧١).

(٤) الروض الأنف ٣/ ٦٢.

أن يتحقَّق ما يقتضي خلافَه، وأجابوا عن كثيرٍ مما استَدلَّ به الآخرون؛ فقال بعضهم: إنَّ ما وقع في حديث أبي طلحةَ ﷺ يجوزُ أن يكون معجزةً له ﷺ، وهو مرادُ مَن قال: إنَّه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام، وهي من خوارق العادة، والكلامُ في مُوافقها[1]، وهو الذي نُفي في آية (فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ) ونحوِها، وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم» دون: ما أنتم بأسمعَ لمَا يقال ـ ونحوه ـ منهم، تأييدٌ ما لذلك. وحديث أبي الشيخ مرسلٌ، وحكمُ الاستدلال به معروفٌ، على أنَّ احتمال الخصوصية قائمٌ فيه أيضاً.

وفي «صحيح البخاريِّ»: قال قتادة: أحياهم الله تعالى ـ يعني أهلَ الطويِّ ـ حتى أسمعهم قولَه ﷺ توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندماً[2]. ويؤيِّد[3] ما أخرج البخاريُّ ومسلم والنسائيُّ وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر قال: وقف النبيُّ ﷺ على قليب بدرٍ فقال: «هل وجدتُم ما وعدكم ربُّكم حقًّا؟» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «إنهم الآن يسمعون ما أقول»[4] حيث قيَّد ﷺ سماعَهم بالآن.

وإذا قلنا بأن الميت يُسأل سبعةَ أيام في قبره مؤمناً كان أو منافقاً أو كافراً، وأنه حين السؤالِ تُعاد إليه روُحه، كان لك أن تقول: يجوزُ أن يكون خطابُ أهلِ القليب حين إعادةِ أرواحهم إلى أبدانهم للسؤال، فإنه كما في حديثٍ أخرجه أحمدُ والبخاريُّ ومسلمٌ وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ كان في اليوم الثالث من قَتْلِهم[5].

ويحتملُ أن يكون خطابُه ﷺ لأمِّ مِحْجَنٍ كان وقتَ السؤال، بأنْ يكون ذلك قبل مضيِّ سبعةِ أيامٍ عليها، وعليه لا يكون سماعُهم من المتنازَع فيه؛ لأنهم حين سمعوا أحياءٌ لا موتى.

---

(١) أي: العادة.

(٢) صحيح البخاري إثر الحديث (٣٩٧٦).

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: ويؤيده.

(٤) صحيح البخاري (٣٩٨٠) و(٣٩٨١)، والمجتبى ٤/ ١١٠، ولم نقف على هذا اللفظ عند مسلم، وأخرجه أحمد (٤٨٦٤) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٥٧، وعنه نقل المصنف.

(٥) صحيح البخاري (٣٩٧٦)، وصحيح مسلم (٢٨٧٤) و(٢٨٧٥)، ومسند أحمد (١٢٤٧١)، ونقل المصنف تخريجه عن الدر المنثور ٥/ ١٥٨.

ويَرِدُ على هذا أنَّ عمر ﷺ قال له عليه الصلاة والسلام: ما تكلِّم من أجسادٍ لا أرواحَ لها؟! ولم ينكر ذلك عليه ﷺ، بل قال عليه الصلاة والسلام له: «ما أنتم بأسمع لِمَا أقول منهم» ولو كان الأمر كما قال قتادة لكان الظاهرُ أن يقول ﷺ له ﷺ: ليس الأمرُ كما تقول إنَّ الله عزَّ وجلَّ أحياهم لي، أو نحو ذلك.

وعائشةُ ﷺ أنكرت ما وقع في الحديث مما استدلَّ به على المقصود، ففي «صحيح البخاري» عن هشام عن أبيه قال: ذُكر عند عائشةَ أنَّ ابن عمر رفع إلى رسول الله ﷺ «إنَّ الميت يعذَّبُ ببكاء أهله عليه» فقالت: وَهَلَ(١) ابنُ عمر، إنما قال رسول الله ﷺ: «إنه ليعذَّب بخطيئته وذنبه، وإنَّ أهله ليبكون عليه الآن» قالت: وذلك مثلُ قوله: إنَّ رسول الله ﷺ قام على القليب وفيه قتلى بدر من المشركين، فقال لهم ما قال: «إنهم ليسمعون ما أقول» إنما قال: «إنهم الآنَ ليعلمون أنَّ ما كنتُ أقول لهم حقٌّ» ثم قرأتْ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾(٢).

وتعقَّب ذلك السهيليُّ فقال: عائشةُ ﷺ لم تَحْضُرْ قولَ النبيِّ ﷺ، فغيرُها ممَّن حضر أحفظُ لِلَفْظِه عليه الصلاة والسلام، وقد قالوا له: يا رسول الله أتخاطبُ قوماً قد جيَّفوا؟ فقال: «ما أنتم بأسمعَ لِمَا أقول منهم». قالوا: وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحالة عالمينَ ـ يعني كما تقول عائشةُ ـ جاز أن يكونوا سامعين(٣). اهـ. وهو كلام قويٌّ.

ولا يَقْدحُ عدمُ حضورها في روايتها لأنه مرسلُ صحابيٍّ، وهو محمولٌ على أنه سَمِعَ ذلك ممَّن حضره أو من النبيِّ ﷺ، ولو كان ذلك قادحاً في روايتها لَقَدَحَ في رواية ابن عمر السابقةِ فإنه لم يحضر أيضاً، ولا مانعَ من أن يكون النبيُّ عليه الصلاة والسلام قال اللفظين جميعاً؛ فإنه كما عُلم من كلام السهيليِّ لا تعارُضَ بينهما.

---

(١) أي: ذهب وهمه إلى ذلك. ويجوز بمعنى: سها وغلط، يقال منه: وَهِلَ في الشيء وعن الشيء بالكسر، يَوْهَلُ وَهَلاً بالتحريك. النهاية (وهل).

(٢) صحيح البخاري (٣٩٧٨) و(٣٩٧٩)، وهو عند مسلم (٩٣٢).

(٣) الروض الأنف ٣/ ٦٢.

وقال بعضهم فيما رواه البيهقيُّ، والحاكم صححه، وغيرهما: إنَّا لا نسلِّم صحته، وتصحيحُ الحاكم محكومٌ عليه بعدم الاعتبار، وإنْ سلَّمنا صحَّته نلتزمُ القولَ بأنَّ الموتى الذي لا يَسمعون هم مَن عَدَا الشهداء، أما الشهداء فيسمعون في الجملة لامتيازهم على سائر الموتى بما أخبر عنهم من أنهم أحياءٌ عند الله عز وجل.

وقيل في حديث ابن عبد البر: إنَّ عبد الحقِّ وإنْ قال: إسناده صحيح، إلَّا أنَّ الحافظ ابنَ رجب تعقَّبه وقال: إنه ضعيفٌ بل منكر[1].

وفي حديث ابن أبي الدنيا أنه على تسليم صحَّته لا يثبتُ المطلوبُ؛ لأنَّ خطاب الملك عليه السلام للروح الذي بيده، وهو ليس بميت.

وفي حديث الصحيحين من سماع العبد قرعَ نعالِ أصحابه إذا دفنوه وانصرفوا عنه، أنه إذ ذاك تعود إليه روحُه للسؤال فيسمعُ وهو حيٌّ. والجمهورُ على عَوْدِ الروح إلى الجسد أو بعضِه وقتَ السؤال على وجهٍ لا يحسُّ به أهلُ الدنيا إلا مَن شاء الله تعالى منهم، ووراء ذلك مذاهبُ.

فمذهب ابن جرير وجماعةٍ من الكرَّاميَّة أنَّ السؤال في القبر على البدن فقط، وأنَّ الله تعالى يخلُقُ فيه إدراكاً بحيث يسمعُ ويعلم، ويَلَذُّ ويألم، وعلى هذا المذهب يمكن أن يقال نحوُ ما قيل على الأول. ومذهبُ ابن حزم[2] وابنِ ميسرة أنه على الروح فقط، ومذهبُ أبي الهذيل[3] وأتباعِه أنَّ الميت لا يشعر بشيءٍ أصلاً إلَّا بين النفختين.

والحقُّ أنَّ الموتى يسمعون في الجملة وهذا على أحد وجهين:

أوَّلهما: أن يخلق الله عز وجل في بعض أجزاء الميت قوةً يسمع بها متى شاء الله تعالى السلامَ ونحوَه مما يشاء الله سبحانه سماعَه إياه، ولا يمنع من ذلك

(١) أهوال القبور لابن رجب ص١٠٩، وفيه تعقيباً على تصحيح عبد الحق: يشير إلى أن رواته كلهم ثقات، وهو كذلك إلا أنه غريب بل منكر.
(٢) في الفصل في الملل والنحل ٤/ ٦٧.
(٣) هو محمد بن الهذيل البصري العلاف، صاحب التصانيف، رأس المعتزلة، توفي سنة (٢٣٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٤٢.

كونُه تحت أطباق الثرى، وقد انحلَّت منه هاتيك البنيةُ وانفصمت العُرى، ولا يكاد يتوقَّفُ في قبول ذلك مَن يجوِّز أن يَرى أعمَى الصينِ بقَّة أندلس.

وثانيهما: أن يكون ذلك السماعُ للروح بلا وساطةِ قوةٍ في البدن، ولا يمتنع أن تسمع بل أن تحسَّ وتدرك مطلقاً بعد مفارقتها البدن بدون وساطةِ قوًى فيه، وحيث كان لها على الصحيح تعلُّقٌ لا يعلم حقيقته وكيفيتَه إلا الله عز وجل بالبدن كلِّه أو بعضِه بعد الموت، وهو غيرُ التعلُّق بالبدن الذي كان لها قبله، أجرى الله سبحانه عادتَه بتمكينها من السمع، وخَلَقه لها عند زيارة القبر، وكذا عند حمل البدن إليه وعند الغسل مثلاً، ولا يلزمُ من وجود ذلك التعلُّق والقولِ بوجود قوة السمع ونحوِه فيها نفسها أن تسمع كلَّ مسموعٍ؛ لِمَا أنَّ السماع مطلقاً ـ وكذا سائر الإحساسات ـ ليس إلَّا تابعاً للمشيئة، فما شاء الله تعالى كان، وما لم يشأ لم يكن، فيُقْتَصَر على القول بسماع ما ورد السمعُ بسماعه من السلام ونحوه، وهذا الوجهُ هو الذي يترجَّحُ عندي، ولا يلزمُ عليه التزامُ القولِ بأنَّ أرواح الموتى مطلقاً في أفنية القبور؛ لِمَا أنَّ مدار السماع عليه مشيئةُ الله تعالى، والتعلُّقُ الذي لا يعلم كيفيتَه وحقيقتَه إلا هو عز وجل، فلتكن الروحُ حيث شاءت أو لا تكن في مكانٍ كما هو رأيُ مَن يقول بتجرُّدها.

ويؤخذ من كلامٍ ذكره العارف ابن برجان في «شرح أسماء الله تعالى الحسنى» تحقيقٌ على وجهٍ آخَرَ، وهو أنَّ للشخص نفساً مُبْرَأَةً من باطنِ ما خُلق منه الجسمُ وهي روحُ الجسم، وروحاً أَوْجَدها الله تبارك وتعالى من باطن ما برأ منه النفسَ، وهي للنفس بمنزلة النفس للجسم، فالنفسُ حجابها، وبعد المفارقة في العبد المؤمن تُجْعَلُ الحقيقةُ الروحانية عامرةً العلوَ من السماء الدنيا إلى السماء السابعة، بل إلى حيث شاء الله تعالى من العلوِّ في سرورٍ ونعيمٍ، وتُجعل الحقيقةُ النفسانيةُ عامرةً السفلَ من قبره إلى حيث شاء الله تعالى من الجوِّ، ولذلك لقي رسول الله ﷺ موسى قائماً يصلِّي في قبره، وإبراهيم عليه السلام تحت الشجرة[1]، قبل

---

(١) حديث رؤية النبي ﷺ موسى قائماً يصلي في قبره أخرجه أحمد (١٢٢١٠)، ومسلم (٢٣٧٥) من حديث أنس ﷺ. وحديث رؤية النبي ﷺ إبراهيم تحت الشجرة أخرجه البخاري (١٣٨٦) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.

صعوده عليه الصلاة والسلام إلى السماء، ولقيهما عليهما السلام بعد الصعود في السماوات العلا[١]، فتلك أرواحُهما وهذه نفوسُهما وأجسادُهما في قبورهما.

وكذا يقال في الكافر، إلا أنَّ الحقيقة الروحانية له لا تكون عامرةً العلوَّ، فلا تُفتح لهم أبوابُ السماء، بل تكون عامرةً دارَ شقائها والعياذُ بالله تعالى.

وبين الحقيقتين اتصالٌ، وبوساطة ذلك ومشيئته عز وجل يَسمع مَن سلَّم عليه في قبره السلامَ، ولا يختصُّ السماعُ في السلام عند الزيارة ليلةَ الجمعة ويومَها وبكرةَ السبت، أو يومَ الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها، بل يكون ذلك في السلام عند الزيارة مطلقاً، فالميتُ يُسْمِعُ الله تعالى روحَه السلامَ عليه من زائره في أيِّ وقتٍ كان، ويُقْدِرُه سبحانه على ردِّ السلام كما صرّح به في بعض الآثار[٢].

وما أخرجه العقيليُّ من أنهم يسمعون السلامَ ولا يستطيعون ردَّه[٣]، محمولٌ على نفي استطاعةِ الردِّ على الوجه المعهود الذي يسمعُه الأحياء. وقيل: ردُّ السلام وعدمُه مما يختلف باختلاف الأشخاص، فربَّ شخصٍ يُقْدِرُه الله تعالى على الردِّ ولا يثابُ عليه لانقطاع العمل، وشخصٍ آخَرَ لا يُقْدِرُه عز وجل.

وعندي أنَّ التعلُّق أيضاً مما يتفاوتُ قوةً وضعفاً بحَسَبِ الأشخاص، بل وبحَسَبِ الأزمان أيضاً، وبذلك يُجمع بين الأخبار والآثار المختلفة. وأما الجوابُ عن الآية التي الكلامُ فيها ونحوِها مما يدلُّ بظاهره على نفي السماع فيُعْلَم ممَّا تقدَّم، فليُفْهَمْ والله تعالى أعلم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ مبتدأٌ وخبر، أي: ابتدأكم ضعفاءَ وجعلَ الضَّعْفَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) منها حديث ابن عباس الذي أخرجه ابن عبد البر وصححه عبد الحق، وقد سلف ص٤٨٦-٤٨٧ من هذا الجزء.

(٣) الضعفاء ٤/١٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وورد ذلك أيضاً في حديث أنس عند مسلم (٢٨٧٤) وقد سلف ص٤٨٦ من هذا الجزء، وفيه: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا».

أساس أمركم، كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، فـ «مِن» ابتدائية، وفي الضعف استعارةٌ مكنيةٌ حيث شبِّه بالأساس والمادَّة، وفي إدخال «من» عليه تخييلٌ.

ويجوز أن يُراد من الضَّعف الضعيفُ بإطلاق المصدر على الوصف مبالغةً، أو بتأويله به، أو يراد: من ذي ضَعْفٍ، والمرادُ بذلك النطفةُ، أي: الله تعالى الذي ابتدأ خَلْقَكم من أصلٍ ضعيفٍ وهو النطفةُ، كقوله تعالى: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٨]. وهذا التفسيرُ وإن كان مأثوراً عن قتادةَ إلَّا أنَّ الأوَّلَ أَوْلَى وأنسبُ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وذلك عند بلوغكم الحُلُم، أو تعلُّقِ الروح بأبدانكم.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ إذا أخذ منكم السنّ، والمرادُ بالضَّعف هنا ابتداؤه ولذا أخَّر الشيب عنه، أو الأعمُّ فقوله سبحانه: «شيبة» للبيان أو للجمع بين تغييرِ قواهم وظواهرهم.

وفَتَحَ عاصمٌ وحمزةُ ضاد: «ضعف» في الجميع[1]، وهي قراءةُ عبد الله وأبي رجاء[2].

وقرأ الجمهور بضمِّها فيه، والضمُّ والفتحُ لغتان في ذلك كما في الفَقْر والفُقْر، الفتحُ لغةُ تميم والضمُّ لغةُ قريش، ولذا اختار النبيُّ ﷺ قراءةَ الضمِّ كما ورد في حديثٍ رواه أبو داوود والترمذيُّ وحسَّنه وأحمدُ وابنُ المنذر والطبرانيُّ والدارقطنيُّ وغيرُهم عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قرأتُ على النبيِّ ﷺ: (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ) أي: بالفتح، فقال: «﴿من ضُعْف﴾ يا بنيَّ»[3] أي: بالضم؛ لأنها لغةُ قومه عليه الصلاة والسلام، ولم يقصد ﷺ بذلك ردَّ القراءة الأخرى لأنها ثابتةٌ بالوحي أيضاً كالقراءة التي اختارها.

---

(١) التيسير ص١٧٥، والنشر ٢/ ٣٤٥، وقد صح عن حفص الفتح والضم كما ذكر صاحب النشر.

(٢) البحر ٧/ ١٨٠.

(٣) مسند أحمد (٥٢٢٧)، وسنن أبي داود (٣٩٧٨)، وسنن الترمذي (٢٩٣٦)، والمعجم الأوسط (٩٣٧٠)، وعزاه لابن المنذر والدارقطني السيوطي في الدر ٥/ ١٥٨.

وروي عن عاصم الضمُّ أيضاً، وعنه أيضاً الضمُّ في الأوَّلَيْنِ والفتحُ في الأخير[١]. وروي عن أبي عبد الرحمن والجحدريِّ والضحاك الضمُّ في الأول والفتحُ فيما بعدُ[٢]. وقرأ عيسى بضمِّ الضاد والعين، وهي لغة أيضاً فيه[٣].

وحُكي عن كثيرٍ من اللغويين أنَّ الضُّعفَ بالضمِّ ما كان في البدن، والضَّعْفَ بالفتح ما كان في العقل، والظاهرُ أنه لا فرقَ بين المضموم والمفتوح، وكونهما مما يوصف به البدنُ والعقل.

والمراد بـ «ضعف» الثاني عينُ الأول، ونكِّر لمشاكلة «قوة»، وبالأخير غيرُه، فإنه ضعفُ الشيخوخة وذاك ضعفُ الطفولية، والمراد بـ «قوة» الثانية عينُ الأولى ونكِّرت لمشاكلة «ضعفاً»، وحديثُ النكرة إذا أُعيدتْ كانت غيراً أغلبيٌّ، وتكلَّف بعضهم لتحصيل المغايرة فيما نُكِّر وكُرِّر في الآية، فتدبر.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ خَلْقَه من الأشياء التي من جملتها ما ذُكر من الضعف والقوة والشيبة، وخَلْقُها إما بمعنى خَلْقِ أسبابها أو محالِّها، وإما إيجادها أنفسها وهو الظاهرُ، ولا داعي للتأويل فإنها ليست بعدمٍ صرفٍ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ المبالغُ في العلم والقدرة، فإنَّ الترديد فيما ذكر من الأحوال المختلفة مع إمكان غيره من أوضح دلائل العلم والقدرة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامةُ، سمِّيت بها لأنها تقوم في آخر ساعةٍ من ساعات الدنيا، أو لأنها تقع بغتةً، وصارت عَلَماً لها بالغلبة، كالنجم للثريا والكوكب للزُّهرة. والمراد بقيامها وجودُها أو قيامُ الخلائق فيها.

---

(١) ذكرهما عن عاصم الشهاب في الحاشية ٧/ ١٢٩، والمشهور عنه الفتح في الثلاثة، روى ذلك عنه أبو بكر، وقال الداني في التيسير ص١٧٥-١٧٦: وكذلك روى حفص عن عاصم فيهنَّ غير أنه ترك ذلك واختار الضم اتِّباعاً منه لروايةٍ حدثه بها الفضيل بن مرزوق عن عطية العوفي عن عبد الله بن عمر أن النبي أقرأه ذلك بالضم، ورَدَّ عليه الفتح وأباه، وعطية يضعَّف، وما رواه حفص عن عاصم عن أئمته أصح، وبالوجهين آخُذُ في روايته؛ لأتابع عاصماً على قراءته، وأوافق حفصاً على اختياره.

(٢) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٣ عن أبي عبد الرحمن والجحدري والضحاك أنهم ضموا الضاد في الأول والثاني، وفتحوا في الأخير.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٣، والبحر ٧/ ١٨٠.

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟﴾ أي: ما أقاموا في القبور كما روي عن الكلبيِّ ومقاتل، والمراد به: ما أقاموا بعد الموت ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي: قطعةٍ من الزمان قليلةٍ.

ورَوَى غيرُ واحدٍ عن قتادة أنهم يَعْنُون: ما لبثوا في الدنيا غير ساعة.

ورجّح الأول بأنه الأظهر؛ لأنَّ لبثهم مغيًّا بيوم البعث كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وليس لبثُهم في الدنيا كذلك.

وقيل: يعنون: ما لبثوا فيما بين فَناء الدنيا والبعثِ، وهو ما بين النفختين، وفي الحديث الصحيحِ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون» قيل: أربعون يوماً يا أبا هريرة؟ قال: أَبَيْتُ. قيل: أربعون شهراً؟ قال: أَبَيْتُ. قيل: أربعون سنة؟ قال: أَبَيْتُ[1]. وعَنَى بقوله ﷺ: أبيتُ: امتنعتُ من بيان ذلك لكم، أو: أبيتُ أن أسأل النبيَّ ﷺ عن ذلك، ولهذا الحديث قيل: لا يُعلم أهي أربعون سنةً أم أربعون ألفَ سنةٍ؟

وحكى السفارينيُّ في «البحور الزاخرة» عن بعضهم دعوى اتفاقِ الروايات على أنَّ ما بين النفختين أربعون عاماً. وأنا أقول: الحقُّ أنه لا يعلمه إلا اللهُ تعالى، ودعوى الاتِّفاقِ لم يقم عندي دليلٌ عليها.

وذكر الزمخشريُّ أنَّ ذلك وقت ينقطعُ عذابُهم فيه[2].

واستقلُّوا مدة لبثهم كذباً على ما رُوي عن الكلبي، أو نسياناً لِمَا عَرَاهم من هول المطلع على ما قيل.

وجوّز أن يكون استقلالُهم تلك المدةَ بالإضافة إلى مدة عذابهم يومئذ، ولا يَبْعدُ علمُهم بها سواءٌ كان هذا القولُ في أول وقت الحشر أو في أثنائه أو بعد دخول النار.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥).

(٢) الكشاف ٣/٢٢٧، وهذا الوقت كما ذكر الشهاب في الحاشية ٧/١٢٩ هو بعد إخراجهم من القبور إلى أن يدخلوا في النار.

وجوّز أن يكونوا عدُّوا مدةَ بقائهم في الدنيا ساعةً لعدم انتفاعهم بها، والكثيرُ بلا نفعٍ قليلٌ، كما أنَّ القليلَ مع النفع كثيرٌ، فالكلامُ تأسُّفٌ وتحسُّرٌ على إضاعتهم أيامَ حياتهم.

وبين «الساعة» و«ساعة» جناسٌ تامٌّ مماثلٌ، كما أطبق عليه البلغاء إلا مَن لا يعتدُّ به، ولا يضرُّ في ذلك اختلافُ الحركة الإعرابية، ولا وجودُ «أل» في إحدى الكلمتين لزيادتها على الكلمة، وكذا لا يضرُّ اتحادُ مدلولهما في الأصل؛ لأنَّ المعرَّف فيه كالمنكَّر بمعنى القطعةِ من الزمان؛ لمكان النقل في المعرَّفِ وصيرورتِه عَلَماً على القيامة كسائر الأعلام المنقولة، وأَخْذُ أحدهما من الآخر لا يضرُّ أيضاً كما يوضِّحُ ذلك ما قرَّروه في جناس الاشتقاق.

وظنَّ بعضُهم أنَّ الساعة في القيامة مجازٌ، ولذا أنكر التجنيسَ هنا إذ التجنيسُ المذكورُ لا يكون بين حقيقةٍ ومجازٍ، فلا تجنيس في نحو: ركبتُ حماراً ولقيتُ حماراً معمَّماً، تعني رجلاً بليداً.

واشتهر أنه لم يقع في القرآن الكريم هذا النوعُ من الجناس إلا في هذا الموضع، واستنبط شيخ الإسلام ابن حجر عليه الرحمة موضعاً آخر، وهو قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ۞ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾(١) [النور: ٤٣-٤٤] لأن «الأبصار» الأول جمعُ بصرٍ، و«الأبصار» الثاني مرادٌ به ما هو جمعُ بصيرة.

وتعقَّب بأنه وإن كان «الأبصار» الثاني مراداً(٢) به ما هو جمعُ بصيرة إلا أنه ليس من باب الحقيقة، بل بطريق المجاز والاستعارة؛ لأن البصيرة ما تُجمع على أبصار بل على بصائر، فقد قال علماء العربية: إنَّ صيغة أفعال من جموع القلَّة لا تطَّردُ إلا في اسمِ ثلاثيٍّ مفتوح الفاء كبَصَرٍ وأبصار، أو مكسورِها كعِنَب وأعناب، أو مضمومِها كرُطَبٍ وأَرْطاب، ساكنِ العين كثوبٍ وأثواب، أو محرَّكِها كما تقدَّم، وكعضُدٍ وأعضاد وفَخِذٍ وأفخاذ، وصيغةُ فعائل من جموع الكثرة لا تطَّردُ

(١) سلف ١٨/ ٤٢٢-٤٢٣.
(٢) في (م): مراد.

إلا في اسمٍ رباعيٍّ مؤنثٍ بالتاء أو بالمعنى ثالثُه مدَّةٌ، كسحابةٍ وسحائب، وبصيرةٍ وبصائر، وحَلوبة وحَلائب، وشمال وشمائل، وعجوز وعجائز، وسعيد علم امرأةٍ وسعائد، فاستُعيرت «الأبصار» للبصائر بجامعِ ما بينَهما من الإدراك والتمييز، وقد سمعتَ أنَّ هذا النوع لا يكون بين حقيقةٍ ومجازٍ فليُحْفَظْ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإفك ﴿كَانُوا۟﴾ أي: في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ ۝٥٥﴾ أي: يُصْرَفون عن الصدق والتحقيق، والغرضُ من سَوْقِ الآية الإغراقُ في وصف المجرمين بالتمادي في التكذيب، والإصرارِ على الباطل.

أو: مثلَ ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبيَّن لهم الآن أنه ما كان إلا ساعةً، فسوقُ الكلام للتعجُّب من اغترارهم بلامِعِ السراب، والغرضُ أن يَحْقِرَ عندهم ما فيه من التمتُّعات وزخارفِ الدنيا كي يُقلعوا عن العناد، ويرجعوا إلى سبيل الرشاد، فكأنه قيل: مثلَ ذلك الإفك العجيب الشأن كانوا يؤفكون في الدنيا اغتراراً بما عددُه ساعة استقصاراً، والصارفُ لهم هو الله تعالى، أو الشيطان، أو الهوى، وأيًّا ما كان فليس ذاك إلا لسوء اختيارهم وخباثةِ استعدادهم.

وفي الآية على أحد الأقوال دليلٌ على وقوع الكذب في الآخرة من الكفرة. واستدل بها بعضُهم على نفي عذاب القبر، وليس بشيء.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ في الدنيا من الملائكة أو الإنس، أو منهما جميعاً ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في علمه وقضائه، أو ما كتبه وعيَّنه سبحانه، أو اللوح المحفوظ، أو القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وأيًّا ما كان فالجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بما عنده.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم - وفيه من البُعْدِ ما فيه - أنَّ الكلام على التقديم والتأخير، والأصل: وقال الذين أوتوا العلم والإيمان في كتاب الله: لقد لبثتم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾[1]، والكلامُ ردٌّ لِمَا قالوه مؤكَّدٌ باليمين، أو توبيخٌ وتفضيحٌ وتهكُّمٌ بهم، فتأمَّل.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٥٨ عن قتادة، وينظر تفسير الطبري ١٨/ ٥٢٧.

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم تُوعَدون في الدنيا، والفاءُ فصيحةٌ، كأنه قيل: إن كنتم منكرين البعثَ فهذا يومُه، أي: فنُخْبِرُكم أنه قد تبيَّن بطلانُ إنكارِكم. وجوَّز أن تكون عاطفةً والتعقيبُ ذكريٌّ، أو تعليليةً.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أنه حقٌّ؛ لتفريطكم في النظر فتستعجلون به استهزاءً. وقيل: لا تعلمون البعثَ ولا تعترفون به، فلذا صار مصيركم إلى النار.

وقرأ الحسن: «البَعَث» بفتح العين فيهما، وقرئ بكَسْرِهما وهو اسمٌ والمفتوحُ مصدرٌ[(١)]، وفي الآية من الدلالة على فضل العلماء مالا يخفى.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يقعُ ذلك من إقسام الكفار وقولِ أولي العلم لهم ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: عذرُهم. وقرأ الأكثر: «تنفع» بالتاء[(٢)] محافظةً على ظاهر الأمر للفظ[(٣)] وإن توسَّط بينهما فاصلٌ.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الاستعتابُ طلبُ العُتْبَى، وهي الاسمُ من الإعتاب بمعنى إزالةِ العَتَبِ، كالعطاء والاستعطاء، أي: لا يُطلب منهم إزالةُ عتبِ الله تعالى ـ والمراد به غضبُه سبحانه عليهم ـ بالتوبة والطاعة؛ فإنه قد حقَّ عليهم العذابُ.

وإن شئتَ قلت: أي: لا يقال لهم: أَرْضُوا ربَّكم بتوبةٍ وطاعةٍ، كما كان يقال لهم ذلك في الدنيا.

وقيل: أي: لا يستقيلون فيُستقالون بردِّهم إلى الدنيا.

وقال ابن عطية: هذا إخبارٌ عن هول يوم القيامة وشدَّةِ أحواله على الكفرة بأنهم لا ينفعُهم الاعتذار، ولا يُعطَوْنَ عُتْبَى وهي الرضا، و«يُستعتبون» بمعنى يُعتَبون، كما تقول: يملك ويستملك، والبابُ في اسْتَفْعَلَ أنه طلب الشيء، وليس هذا منه؛ لأنَّ المعنى يفسُدُ إذا كان المفهوم منه: ولا يُطْلَبُ منهم عُتْبَى[(٤)]. انتهى.

---

(١) البحر ٧/ ١٨٠، وقراءة الحسن ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ١٦٦.
(٢) وهي قراءة الكوفيين. التيسير ص١٧٦، والنشر٢/ ٣٤٦..
(٣) كذا في الأصل و(م)، وجاء في تفسير أبي السعود٧/ ٦٦ (والكلام منه): محافظة على ظاهر اللفظ، وهو أولى.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٤.

فجَعَل اسْتَفْعَلَ بمعنى فَعَلَ، وحاصل المعنى عليه على ما في «البحر»: هم من الإهمال وعدمِ الالتفات إليهم بمنزلةِ مَن لا يؤهَّلُ للعَتَب، وقيل: المعنى عليه: هم لا يعاتَبون على سيئاتهم بل يعاقبون[1].

وما ذكرناه أوّلاً هو الذي ينبغي أن يعوَّل عليه، ويا ليت شعري، أي ما ادَّعاه ابنُ عطية من الفساد إذا كان المفهوم منه: لا يُطلب منهم عُتْبَى، على ما سمعتَ؟!

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۢ﴾ أي: وبالله تعالى لقد وَصَفْنا للناس من كلِّ صفةٍ كأنها مَثَلٌ في غرابتها، وقَصَصْنا عليهم كلَّ صفةٍ عجيبةِ الشأن، كصفةِ المبعوثين يومَ القيامة، وما يقولون وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يُسمع من استعتابهم، فضَرْبُ المثل اتِّخاذُه وصُنْعُه من ضرب الخاتم واللَّبِن، والمثلُ مجازٌ عن الصفة الغريبة. والمراد بـ «هذا القرآن» إمَّا: هذه السورة الجليلة الشأنِ، أو المجموع وهو الظاهرُ، و«من» تبعيضية، وجوِّزت الزيادة.

وقيل: المعنى: وبالله تعالى لقد بيَّنَّا للناس من كلِّ مثلٍ يُنبِّؤهم عن التوحيد والبعثِ وصِدْقِ الرسول عليه الصلاة والسلام، فضَرَبَ بمعنى بيَّن، والمثلُ على أصله، وقيل: بمعنى الدليل العجيب، و«القرآن» بمعنى المجموع.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: مع ضَرْبنا لهم من كلِّ مثلٍ في هذا القرآن الجليل الشأنِ لئن جئتهم بآيةٍ من آياته ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لفَرْطِ عتوِّهم وعنادهم وقساوةِ قلوبهم، مخاطِبين لك وللمؤمنين: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: مزوِّرون.

وجوِّز حملُ الآيةِ على المعجزة، أي: لئن جئتهم بمعجزةٍ من المعجزات التي اقترحوها ليقولَنَّ الذين كفروا.. إلخ.

والإتيانُ بالموصول دون الضمير لبيان السبب الحامل على القول المذكور، وإذا أُريدَ بالناس ما يعمُّ الكفرة وغيرَهم فوجهُ الإظهار ظاهرٌ. وتوحيدُ الخطاب في «جئتهم» على ما يقتضيه الظاهرُ، وأمَّا جمعه في قولهم: «إن أنتم» فلئلَّا يبقى بزَعْمِهم له عليه الصلاة والسلام شاهدٌ من المؤمنين، حيث جعلوا الكلَّ مدَّعين.

---

(١) البحر ٧/ ١٨١.

وقال الإمام: في توحيد الخطاب في «جئتهم» وجمعِه في «أنتم» لطيفةٌ، وهي أنَّ الله تعالى قال: إن جئتهم بكلِّ آيةٍ جاءت بها الرسلُ عليهم السلام ويمكنُ أن يجاء بها يقولوا: أنتم كلُّكم أيها المدَّعون للرسالة مُبطلون(١). انتهى، ولا يخفى أنَّ ما ذكرناه أحسنُ وألطفُ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الطَّبعِ الفظيع، وجوَّز أن يكون المعنى: مثلَ ذلك القول ﴿يَطْبَعُ﴾ أي: يَختمُ ﴿اللَّهُ﴾ الذي جلَّت عَظَمتُه وعَظُمَتْ قدرتُه ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: لا يطلبون العلم، ولا يتحرَّون الحقَّ، بل يصرُّون على خرافاتٍ اعتقدوها، وترَّهاتٍ ابتدعوها، فإنَّ الجهل المركَّب يمنع إدراك الحقِّ، ويوجبُ تكذيبَ المحقِّ، ومن هنا قالوا: هو شرٌّ من الجهل البسيط، وما ألطفَ ما قيل:

قال حمارُ الحكيم توما ... لو أنصفوني لكنتُ أَرْكَب
لأنني جاهلٌ بسيطٌ ... وصاحبي جاهلٌ مركب(٢)

وإطلاقُ العلم على الطلب مجازٌ لِمَا أنه لازمٌ له عادةً.

وقيل: المعنى: يطبعُ الله تعالى على قلوب الذين ليسوا من أولي العلم. وليس بذاك.

والمراد من «الذين لا يعلمون» يحتمل أن يكون: الذين كفروا، فيكون قد وضع الموصول موضعَ ضميرهم للنعي بما في حيِّز الصلة، ويحتمل أن يكون عامًّا، ويدخلُ فيه أولئك دخولاً أوليًّا. وظاهرُ كلام بعض الأجلَّة يميلُ إلى الاحتمال الأول. وقد تقدَّم الكلامُ في طَبْعِه وخَتْمِه عز وجل على القلب(٣).

﴿فَاصْبِرْ﴾ أي: إذا علمتَ حالَهم وطَبْعَ اللهِ تعالى على قلوبهم فاصْبِرْ على مكارِهِهم من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وقد وَعَدَك عز وجل بالنصرة وإظهارِ الدين وإعلاء كلمة الحقِّ، ولا بدَّ من إنجازه والوفاءِ به لا محالة.

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/١٣٨.
(٢) المثل السائر ٢/٣٥٨.
(٣) ينظر ما سلف ١/٣٩١ وما بعد و٦/٣٧٣-٣٧٤.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يحملنَّك على الخفَّة والقلق ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ بما تتلو عليهم من الآيات البيِّنة، بتكذيبهم إياها، وإيذائهم لك بأباطيلهم التي من جملتها قولُهم: «إن أنتم إلا مبطلون» فإنهم شاكُّون ضالُّون، ولا يُسْتَبْدَعُ أمثالُ ذلك منهم. وقيل: أي: لا يوقنون بأنَّ وعد الله حقٌّ، وهو كما ترى.

والحمل وإن كان لغيره ﷺ لكنَّ النهي راجعٌ إليه عليه الصلاة والسلام، فهو من باب: لا أَرَيَنَّكَ هاهنا، وقد مرَّ تحقيقه، فكأنه قيل: لا تَخِفَّ لهم جزعاً. وفي الآية من إرشاده تعالى لنبيِّه ﷺ وتعليمِه سبحانه له كيف يتلقَّى المكارهَ بصدرٍ رحيبٍ مالا يخفى.

وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوبُ: «ولا يستحقَّنَّك» بحاءٍ مهملةٍ وقافٍ(١)، من الاستحقاق، والمعنى: لا يفتننَّكَ الذين لا يوقنون ويكونوا أحقَّ بك من المؤمنين، على أنه مجازٌ عن ذلك؛ لأنَّ مَن فَتَنَ أحداً استماله إليه حتى يكون أحقَّ به من غيره، والنهيُ على هذه القراءة راجعٌ إلى أمته عليه الصلاة والسلام دونه ﷺ؛ لمكان العصمة، وقد تقدَّم نظائرُ ذلك وما للعلماء من الكلام فيها.

وقرأ الجمهور بتشديد النون، وخفَّفها ابنُ أبي عبلةَ ويعقوب(٢).

ومن لطيف ما يُروَى ما أخرجه ابنُ أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكمُ، والبيهقيُّ في «سننه» عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، أنَّ رجلاً من الخوارج ناداه وهو في صلاة الفجر فقال: (وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَٰسِرِينَ) فأجابه كرم الله تعالى وجهه وهو في الصلاة: (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)(٣). ولا بِدْعَ في هذا الجواب من بابِ مدينةِ العلم وأخي رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

---

(١) المحتسب ٢/١٦٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٤، والبحر ٧/ ١٨١-١٨٢.

(٢) النشر ٢/ ٢٤٦ عن يعقوب.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/ ٣٠٧، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٣٠، والمستدرك ٣/ ١٤٦، وسنن البيهقي ٢/ ٢٤٥، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٥٨.

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ إلى آخره. قيل: الألِفُ إشارةٌ إلى ألفةِ طبعِ المؤمنين، واللامُ إلى لؤم طَبْعِ الكافرين، والميم إلى مغفرة ربِّ العالمين جلَّ شأنه، والرومُ إشارةٌ إلى القلب، وفارس المشارُ إليهم بالضمير النائبِ عن الفاعل إشارةٌ إلى النفس، والمؤمنون إشارةٌ إلى الروح والسرِّ والعقل، ففي الآية إشارةٌ إلى أنَّ حالَ أهلِ الطلب يتغيَّر بتغيُّر الأوقات، فيغلبُ فارسُ النفسِ رومَ القلب تارةً، ويغلبُ رومُ القلب فارسَ النفس بتأييدِ الله تعالى ونَصْرِه سبحانه تارةً أخرى، وذلك في بضع سنين من أيام الطلب، ويومئذ يفرح المؤمنون الروحُ والسرُّ والعقل، وعلى هذا المنهاج سلك النيسابوريُّ(١).

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه إشارةٌ إلى حال المحجوبين ووقوفِهم على ظواهر الأشياء، وما من شيءٍ إلا له ظاهرٌ، وهو ما تدركهُ الحواسُّ الظاهرة منه، وباطنٌ وهو ما يدركه العقلُ بإحدى طرق الإدراك من وجوه الحكمة فيه، ومنه ما هو وراء طور العقل، وهو ما يحصل بواسطة الفيض الإلهي وتهذيبِ النفس أتمَّ تهذيب، وهو وإن لم يكن من مستَنْبَطاتِ العقل إلَّا أنَّ العقل يقبله، وليس معنى أنه ما وراء طور العقل أن العقل يُحيله ولا يقبله كما يتوهَّم، ومما ذكرنا يعلم أنَّ الباطن لا يجب أن يُتوصَّل إليه بالظاهر، بل قد يحصل لا بواسطته، وذلك أعلى قَدْراً من حصوله بها، فقولُ مَن يقول: إنه لا يمكن الوصولُ إلى الباطن إلا بالعبور على الظاهر، لا يخلو عن بحث.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِى رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ أي: يُسَرُّون بالسماع في روضة الشهود، وذلك غذاءُ أرواحهم ونعيمُها، وأعلى أنواعِ السماع في هذه النشأة عند السادة الصوفية ما يكون من الحضرة الإلهية بالأرواح القدسية والأسماع الملكوتية، وهذه الأسماعُ لم يفارقها سماعُ ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٧٢] واشتهر عندهم السماعُ في سماع الأصوات الحسنة، وسماعِ الأشياء المحرِّكة لِمَا غَلَب عليهم من الأحوال، من الخوف والرجاء والحبِّ والتعظيم، وذلك كسماع القرآن والوَعْظِ والدُّفِّ والشَّبابة والأوتار والمزمار والحُداء والنشيد،

(١) في غرائب القرآن ٢١/ ٣٤.

وفي ذلك الممدوحُ والمذموم. وفي «قواعد» عزِّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام الكبرى تفصيلُ الكلام في ذلك على أتمِّ وجه[١]، وسنذكر إن شاء الله تعالى قريباً ما يتعلَّق بذلك، واللهُ تعالى هو الموفِّقُ للصواب.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى أنه ينبغي استغراقُ الأوقات في تنزيه الله سبحانه، والثناءِ عليه جل وعلا بما هو سبحانه تعالى أهلُه، فإنَّ ذلك روضةُ هذه النشأة، وفي الأثر أن حِلَقَ الذِّكر رياضُ الجنة[٢].

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ فيه إشارةٌ إلى أن الفرع لا يلزم أن يكون كأصله:

إنما الوَرْدُ من الشوك ولا يَنْبتُ النرجِسُ إلا من بَصَلْ[٣]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الاشتراك في الجنسية من أسباب الألفة: إنَّ الطيور على أشباهها تقع.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنه عز وجل لم يُكْرِه أحداً على ما هو عليه إنْ حقًّا وإن باطلاً، وإنما وقع التعاشُقُ بين النفوس بحسب استعدادها وما هي عليه، فأعطَى سبحانه جلَّتْ قدرتُه كلَّ عاشقٍ معشوقَه الذي هام به قلبُ استعدادِه، وصار حبُّه مِلْءَ فؤاده، وهذا سرُّ الفرح، وما ألطفَ ما قال قيس بن ذريح:

تعلَّق روحي روحَها قبل خَلْقِنا ومِن قبلِ ما كنَّا نطافاً وفي المهدِ
فزادَ كما زِدْنا فأصبح نامياً وليس إذا متنا بمنفصمِ العقدِ
ولكنه باقٍ على كلِّ حادثٍ وزائرُنا في ظلمة القبر واللَّحدِ[٤]

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ الآية فيها إشارةٌ إلى أنَّ طبيعة الإنسان ممزوجةٌ من هدايةِ الروح وإطاعتِها، ومن ضلال النفس وعصيانِها، فالناسُ إذا أظلَّتْهم المحنة، ونالتهم

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ٢/ ١٨١ وما بعدها.
(٢) أخرجه أحمد (١٢٥٢٣)، والترمذي (٣٥١٠) من حديث أنس رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
(٣) البيت لابن الوردي، وهو في شرح اللامية للشريف مسعود بن حسن القناوي ص١١٥.
(٤) الأغاني ٩/ ١٩٦، وتنسب أيضاً لمجنون ليلى، وهي في ديوانه ص١١٤.

الفتنةُ، ومسَّتْهم البليَّة، وانكسرت نفوسُهم وسَكَنَتْ دواعيها، وتخلَّصت أرواحُهم عن أَسْرِ ظُلْمةِ شهواتها، رَجَعَتْ أرواحُهم إلى الحضرة، ووافَقَتْها النفوسُ على خلاف طباعها، فدَعَوْا ربَّهم مُنيبين إليه، فإذا جاد سبحانه عليهم بكَشْفِ ما نالهم، ونَظَر جلَّ وعلا باللطف فيما أصابهم، عاد منهم مَن تمرَّد إلى عادته المذمومةِ وطبيعته الدنيَّةِ المشؤومة.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الشرور ليست مرادةً لذاتها، بل هي كبطِّ الجرح[1]، وقَطْعِ الأصبع التي فيها أَكِلَة.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ فيه إشارةٌ لأهل الوراثة المحمدية أهلِ الإرشاد بأن يصبروا على مكارِهِ المنكِرين المحجوبين، الذين لا يوقنون بصدق أحوالهم، ولذا يستخفُّون بهم، وينظرون إليهم بنظر الحقارة، ويعيِّرونهم وينكرون عليهم فيما يقولون ويفعلون.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الموقنين، وأن يحفظنا وأولادَنا وإخوانَنا من الأمراض القلبية والقالبية بحرمةِ نبيِّه الأمين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى بعون الله تعالى الجزء العشرون من روح المعاني

ويليه إن شاء الله الجزء الحادي والعشرون ويبدأ

بسورة لقمان

---

(١) أي: شَقُّه. القاموس (بطط).

(٣١) سورة لقمان مكية وآياتها أربع وثلاثون

سورةُ لقمان من السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية ، وتهتم بالتركيز حول دعائم الإيمان كما هو الحال في السور المكية ، وتُعْنَى بإقامة الحجج والبراهين على وحدانية رب العالمين . سُميت سورةَ لقمان لأن الله تعالى ذكر فيها خبر لقمان الحكيم ، ووصاياه المجيدة الثمينة التي تضمنت فضيلة الحكمة ، ومعرفةَ سرِّ الوجود الدالِّ على وحدانية الربّ المعبود ، وهو عبدٌ حبشيٍ وليس بنّبي ولكنَّ الله رزقه الحكمة والسداد والرشاد ، فكان ينطق بها ويعلمها الناس « ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ أنْ اشكرْ للهِ ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غني حميد » .

ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم ، معجزة محمد الخالدة وحجته الباقية الدائمة ، الشاهدة بصدق ما جاء به من عند الله ، الذي أنزله الله هدايةً ورحمةً للمؤمنين ، ففيه النور والضياء ، والفوز والسعادة لمن تمسك بتعاليمه ، واسترشد بهدايته ، وسار على نهجه السديد . « آلم . تلك آياتُ الكتاب الحكيم . هدىً ورحمةً للمحسنين . الذين يقيمون الصلاةَ ويُؤْتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون . أُولئك على هُدَىً من ربهم وأُولئك هم المفلحون » وإلى جانب هؤلاء السعداء تتحدث الآياتُ الكريمة عن فريقٍ من الأشقياء ، جعلوا القرآن وراء ظهورهم ، واستبدلوا مزاميرَ الشيطان بآياتِ القرآن ، سيراً مع الهوى وتلبيةً

لنوازع النفس الخبيثة الأمّارة بالسوء ، ولم يكتفوا بذلك بل عَمُوا وصَمّوا عن سماع آياتِ الله ، وسخروا من كلام رب العالمين بأنواع من السخرية والاستهزاء « ومن الناسِ من يشتري لَهْوَ الحديث ليُضلَّ عن سبيل الله بغير علمٍ ويتّخذَها هُزُواً ، أولئك لهم عذابٌ مهين . وإذا تُتْلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأنْ لم يَسْمَعْها ، كأنَّ في أُذنيه وَقْراً فبشّرْه بعذابٍ أليم » .

وتتحدث السورة الكريمة عن دلائل القدرة الباهرة ، والإبداع العجيب ، في هذا الكون الهائل ، الدقيق النظام ، المتناسق التكوين ، الذي يأخذ بالقلب ، ويَبْهر العقل ، ويواجه الإنسان مواجهةً جاهرة لا يملك معها إلا التسليم بوحدانية الخالقِ العظيم « خَلَقَ السمواتِ بغيرِ عمدٍ ترونها ، وألقى في الأرض رواسيَ أن تميدَ بكم ، وبثَّ فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ كريم . هذا خَلْقُ الله فأروني ماذا خَلَقَ الذين من دونه ؟ بلِ الظالمونَ في ضلالٍ مبين » ثم تتحدث السورة عن لقمان الحكيم ، وعن تلك الوصايا الرشيدة ، التي هي أثر من آثار الحكمة التي يهبها الله لمن يشاء من عباده ، وهي دُرَرٌ وغُرَر خرجت من فمٍ لا ينطق إلا بالحكمة ، ومن أبٍ لا يريد إلا النصح والهداية والإرشاد لولده ، فجاءت نصيحةً صادقةً هادفة ، تنمُّ عن عاطفةٍ أبوية مُخْلِصة « وإذْ قال لقمانُ لابْنِهِ وهو يَعِظُه يا بُنَيَّ لا تشركْ بالله إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيم . ووصَّيْنا الإنسانَ بوالديهِ حَمَلَتْه أُمُّه وَهْناً على وَهْنٍ ، وفِصَالُه في عامينِ أَنْ اشْكُرْ لي ولوالديكَ إليَّ المصير . وإنْ جاهداكَ على أن تُشركَ بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطِعْهما وصاحِبْهما في الدنيا معروفاً ، واتَّبِعْ سبيلَ من أَنَابَ إليَّ ، ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » وبعد التحذير من الإشراك بالله وعقوقِ الوالدين ، يرشد ولده إلى جملةٍ من الفضائل ومكارم الأخلاق فيقول

في بقية وصيته « يا بُنَيَّ إنها إن تكُ مثقال حبةٍ من خردل فتكنْ في صخرةٍ ، أو في السموات أو في الأرضِ يأتِ بها اللهُ ، إن اللهَ لطيفٌ خبير . يا بُنيَّ أقمِ الصلاةَ وأْمُرْ بالمعروفِ وانْهَ عن المنكر ، واصبْر على ما أصابَك ، إنَّ ذلك من عَزْمِ الأمور . ولا تُصَعِّر خدَّكَ للنَّاسِ ، ولا ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحاً ، إن الله لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخور . واقصِدْ في مشيكَ واغْضُضْ من صوتك ، إنَّ أنكر الأصواتِ لصوتُ الحمير » . وبعد هذه الوصية الجامعة من لقمان الحكيم – الذي سميت السورةُ باسمه تخليداً لذكره وإشادةً بمآثره ونصائحه – يأتي الحديث عن نِعَم الله المستفيضة على عباده المستلزمة لعبادته وشكره ، ويُعقِّبها بذكر أهل الكفر والجحود ، الذين يجادلون في آيات الله ويجحدون نعم الله ، ويعبدون غيره تقليداً للآباء الذين عبدوا الأوثان ، ويبدو الجحود والإنكار – مع توالي نِعَم الله – بشعاً شنيعاً قبيحاً ، تنفر منه الفطرة ويقشعر منه ضمير الإنسان الحيّ « ألم تَرَوْا أنَّ الله سخَّر لكم ما في السموات وما في الأرضِ ، وأَسْبَغَ عليكم نِعَمه ظاهرةً وباطنةً ، ومن الناس من يُجَادل في الله بغير علمٍ ولا هُدَىً ولا كتابٍ منير . وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتَّبعُ ما وجدنا عليه آباءنا ، أَوَ لَوْ كان الشيطانُ يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ »

ثم تتحدث الآيات الكريمة عن علم الله الواسع الشامل ، الذي أحاط علمه بكل ذرةٍ في الكون ، وتقرّر قدرة الله التي لا تُحدّ ، وعلمَهُ الذي لا ينفد ، ثم حكمته في الخلق والإيجاد ، والإحياء والإفناء ، فالكل على الله سهلٌ يسير « للهِ ما في السمواتِ والأرضِ إنَّ اللهَ هو الغنيُّ الحميد . ولو أنَّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّه من بعده سبعةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كلماتُ الله ، إن الله عزيز حكيم . ما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكم إلاّ كنَفْسٍ واحدة إنَّ الله سميع بصير » . ثم تصوِّرُ الآيات

موقف الناس وهم في لُجَّة البحر ، والموجُ يغشاهم من كل جانب ، وهم على ظهر الفُلْك وقد غشيتهم الأخطار والأهوال ، وأحاطت بهم من كل جانب ، وهنا ينسى الناسُ آلهتهم وأصنامهم التي عبدوها من دون الله ، ولا يبقى لهم أملٌ إلا في الله العليِّ القدير ، يفزعون إليه مخلصين له الدين ، لينقذهم ممّا هم فيه من كرب وضيق « ألم ترأنَّ الفُلْكَ تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياتِه ، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لكل صبَّار شكور . وإذا غشَيهم موجٌ كالظُّلَلَ دعَوُا اللهَ مخلصينَ له الدين ، فلما نَجَّاهم إلى البَّر فمنهم مُقْتَصِدٌ ، وما يجحد بآياتنا إلا كلُّ ختَّارٍ كَفور » .

وتختم السورة الكريمة ببيان ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه الوالد ولده ، ولا المولود والده ، ولا يفيد فيه حسبٌ ولا نسب إلاَّ من أحسن عمله في الدنيا ، وأخلص العبادة لله « يا أيها الناسُ اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يَجْزي والدٌ عن وَلَده ، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ، إنَّ وَعدَ الله حقٌّ ، فلا تَغُرنّكم الحياةُ الدنيا ولا يَغُرنَّكم بالله الغَرور . إن الله عنده علم الساعة ، ويُنزّل الغيثَ ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرضٍ تموت ، إن الله عليم خبير »

سورة لقمان

[٧٠٢] أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾(١) قال: نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية.

[٧٠٣] وأخرج جويبر عن ابن عباس قال: نزلت في النضر بن الحارث اشترى قينة وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول أطعميه وأسقيه وغنيه هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه فنزلت.

[٧٠٤] وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله [ﷺ] عن الروح فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾(٢) فقالوا: تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾(٣) الآية.

[٧٠٥] وأخرج ابن إسحاق عن عطاء بن يسار قال نزلت بمكة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٤)فلما هاجر إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا: ألم يبلغنا منك أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٥) إيانا تريد أم قومك؟ فقال: «كلا عنيت» قالوا فأنك تتلوا إنا قد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء فقال رسول الله [ﷺ]: «هي في علم الله قليل» فأنزل الله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾(٦) وأخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس.

---

[٧٠٢] (١) سورة لقمان: الآية (٦).

[٧٠٤] (٢) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

(٣) سورة لقمان: الآية (٢٧).

[٧٠٥] (٤) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

(٥) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

(٦) سورة لقمان: الآية (٢٧).

[٧٠٦] وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة وابن جرير عن قتادة قال: قال المشركون إنما هذا كلام يوشك أن ينفذ فنزل ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١) الآية.

[٧٠٧] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: جاء رجل من أهل البادية فقال: إن امرأتي حبلى فأخبرني بما تلد وبلادنا مجدبة فأخبرني متى ينزل الغيث وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾(٢).

* * *

---

[٧٠٦] (١) سورة لقمان: الآية (٢٧).

[٧٠٧] (٢) سورة لقمان: الآية (٣٤).

سورة لقمان

(مكية كلها إلا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ [لقمان: ٢٧] الآيتين وإلا آية نزلت بالمدينة وهي ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [لقمان: ٤] لأن الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة وهي ثلاث وقيل (أربع وثلاثون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨] إشارة إلى كونه معجزة وقال: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الروم: ٥٨] إشارة إلى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ولم يؤمنوا بها، وإلى هذا أشار بعد هذا بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [لقمان: ٧].

وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

فقوله ﴿هُدًى﴾ أي بيانًا وفرقانًا، وأما التفسير فمثل تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾ [البقرة: ١، ٢] وكما قيل هناك: إن المعنى بـ(ذلك) هذا، كذلك قيل بأن المراد بـ(تلك) هذه، ويمكن أن يقال كما قلنا هناك: إن (تلك) إشارة إلى الغائب معناها آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند إنزال هذه الآيات التي نزلت مع ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ لم تكن جميع الآيات نزلت فقال (تلك) إشارة إلى الكل، أي آيات القرآن تلك آيات.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] ولم يقل: الحكيم، وههنا قال: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢] فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر في أحواله فقال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ وقال هناك: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فقوله: ﴿هُدًى﴾ في مقابلة قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ وقوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ في مقابلة قوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذي الحكم

كقوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]أي ذات رضا.

المسألة الثانية: قال هناك: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقال هاهنا ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئًا آخر قال: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي يهتدي به من يتقي الشرك والعناد والتعصب، وينظر فيه من غير عناد، ولما زاد ههنا رحمة قال: ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي المتقين الشركِ والعناد الآتين بكلمة الإحسان فالمحسن هو الآتي بالإيمان والمتقي هو التارك للكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]ومن جَانَبَ الكفرَ كان متقيًا وله الجنة، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسنًا وله الزيادة لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال: ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ لأن رحمة الله قريب من المحسنين.

المسألة الثالثة: قال هناك: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]وقال هاهنا: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ ولم يقل: يؤمنون، لما بينا أن المتقي هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمنًا والمحسن هو الآتي بحق الإيمان، ويلزمه أن لا يكون كافرًا، فلما كان المتقي دالاً على المؤمن في الالتزام صرح بالإيمان هناك تبيينًا ولما كان المحسن دالاً على الإيمان بالتنصيص لم يصرح بالإيمان، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قد ذكرنا ما في الصلاة وإقامتها مرارًا وما في الزكاة والقيام بها، وذكرنا في تفسير الأنفال في أوائلها أن الصلاة ترك التشبه بالسيد فإنها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى تجب له العبادة ولا تجوز عليه العبادة، وترك التشبه لازم على العبد أيضًا في أمور فلا يجلس عند جلوسه ولا يتكئ عند اتكائه، والزكاة تشبه بالسيد فإنها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات، والتشبه لازم على العبد أيضًا في أمور، كما أن عبد العالم لا يتلبس بلباس الأجناد، وعبد الجندي لا يتلبس بلباس الزهاد، وبهما تتم العبودية.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾

لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكيمة بين من حال الكفار أنهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره، ثم إن فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه: الأول: أن ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح، الثاني: هو أن الحديث إذا كان لهوًا لا فائدة فيه كان أقبح، الثالث: هو أن اللهو قد يقصد به الإحماض كما ينقل عن ابن عباس أنه قال: أحمضوا، ونقل عن النبي ﷺ أنه قال: «رَوِّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً فَسَاعَةً»(١). رواه الديلمي عن أنس مرفوعًا ويشهد له ما في مسلم

(١) أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٣٩٣)، حديث رقم (٦٧٢) من طريق أبي طاهر المقدسي حدثنا الموقري عن الزهري عن أنس أن النبي ﷺ قال... فذكره. وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٥٢٤)، حديث رقم (١٤٠٠).

وقال: رواه الديلمي وأبو نعيم والقضاعي عن أنس رفعه وفي رواية (القلب) بالإفراد ويشهد له ما في مسلم وغيره من قوله ﷺ «يا حنظلة ساعة وساعة» وفي المناوي قال أبو الدرداء إني لأجم فؤادي ببعض الباطل أي اللهو الجائز لا =

«يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» (١) والعوام يفهمون منه الأمر بما يجوز من المطايبة، والخواص يقولون: هو أمر بالنظر إلى جانب الحق فإن الترويح به لا غير فلما لم يكن قصدهم إلا الإضلال لقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كان فعله أدخل في القبح.

ثم قال تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ عائد إلى الشراء أي يشتري بغير علم ويتخذها أي يتخذ السبيل هزوًا أولئك ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ قوله: ﴿مُّهِينٌ﴾ إشارة إلى أمر يفهم منه الدوام، وذلك لأن الملك إذا أمر بتعذيب عبد من عبيده، فالجلاد إن علم أنه ممن يعود إلى خدمة الملك ولا يتركه الملك في الحبس يكرمه ويخفف من تعذيبه، وإن علم أنه لا يعود إلى ما كان عليه وأمره قد انقضى، فإنه لا يكرمه. فقوله: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إشارة إلى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر، فإن عذاب المؤمن ليطهر فهو غير مهين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

أي يشتري الحديث الباطل، والحق الصراح يأتيه مجانًا يعرض عنه، وإذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث إن المشتري يطلب المشترى مع أنه يطلبه ببذل الثمن، ومن يأتيه الشيء لا يطلبه ولا يبذل شيئًا، ثم إن الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأي شيء يجده ويشتريها، وهم ما كانوا يطلبونها، وإذا جاءتهم مجانًا ما كانوا يسمعونها، ثم إن فيه أيضًا مراتب.

الأولى: التولية عن الحكمة وهو قبيح.

والثاني: الاستكبار، ومن يشتري حكاية رستم وبهرام ويحتاج إليها كيف يكون مستغنيًا عن الحكمة حتى يستكبر عنها؟ وإنما يستكبر الشخص عن الكلام وإذا كان يقول أنا أقول مثله، فمن لا يقدر يصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التي من عند الله؟

الثالث: قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ شغل المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة.

الرابع: قوله: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أدخل في الإعراض. ثم قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي له عذاب مهين بشره أنت به وأوعده، أو يقال: إذا كان حاله هذا ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

=نشط للحق، وقال علي رضي الله عنه: أجموا هذه القلوب فإنها تمل كما تمل الأبدان، وذكر ﷺ القرآن والشعر فجاء أبو بكر فقال أقراءة وشعر فقال نعم ساعة هذا وساعة ذاك.

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٠٦/ ٢٧٥٠).

والترمذي في (سننه) (٤/ ٦٦٦)، حديث رقم (٢٥١٤)، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٤١٦)، حديث رقم (٤٢٣٩)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٧٨)، جميعًا من طريق سعيد بن إياس الجريري عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسيدي . . . به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

لما بين حال من إذا تتلى عليه الآيات ولى، بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار، فهذا له مراتب من الإقبال والقبول والعمل به، فإن من سمع شيئًا وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم إن هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف: إحداها: توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب، الثانية: تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرف إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالاً للراحة إلى القلب، ولا يبين النقمة، وإنما ينبه عليها تنبيهًا، الثالثة: قال: عذاب، ولم يصرح بأنهم فيه خالدون، وإنما أشار إلى الخلود بقوله: ﴿مُّهِينٌ﴾ وصرح في الثواب بالخلود بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾، الرابعة: أكد ذلك بقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ ولم يذكره هناك، الخامسة: قال هناك لغيره: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ﴾ وقال ههنا بنفسه: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾، ثم لم يقل: أبشركم به، لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم ما يكون، لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله، وإنما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١] ولولا قوله: ﴿مِّنۡهُ﴾ لما عظمت البشارة، ولو كانت ﴿مِّنۡهُ﴾ مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير إضافة فإن قيل: فقد بشر بنفس الجنة بقوله: ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] نقول: البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها، بل بها وبما ذكر بعدها إلى قوله تعالى: ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٢] والنزل ما يهيأ عند النزول والإكرام العظيم بعده ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كامل القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل، كامل العلم يفعل الأفعال كما ينبغي، فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر.

ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾.

بين عزته وحكمته بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ اختلف قول العلماء في السموات فمنهم من قال: إنها مبسوطة كصفيحة مستوية، وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال: إنها مستديرة وهو قول جميع المهندسين، والغزالي رحمه الله قال: نحن نوافقهم في ذلك فإن لهم عليها

دليلاً من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز، وإن كان في الباب خبر نؤوله بما يحتمله، فضلاً من أن ليس في القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحًا، بل فيه ما يدل على الاستدارة كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] والفلك اسم لشيء مستدير، بل الواجب أن يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو مصفحة فهي مخلوقة بقدرة الله لا موجودة بإيجاب وطبع، وإذا علم هذا فنقول: السماء في مكان وهو فضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس إلا بقدرة مختارة وإليه الإشارة بقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي ليس على شيء يمنعها الزوال من موضعها وهي لا تزول إلا بقدرة الله تعالى وقال بعضهم: المعنى أن السموات بأسرها ومجموعها لا مكان لها لأن المكان ما يعتمد عليه ما فيه فيكون متمكنًا والحيز ما يشار إلى ما فيه بسببه يقال: ههنا وهناك على هذا، قالوا: إن من يقع من شاهق جبل فهو في الهواء في حيز إذ يقال له: هو ههنا وهناك، وليس في مكان إذ لا يعتمد على شيء، فإذا حصل على الأرض حصل في مكان، إذا علم هذا فالسماوات ليست في مكان تعتمد عليه فلا عمد لها وقوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه راجع إلى السموات أي ليست هي بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد، والثاني: أنه راجع إلى العمد أي بغير عمد مرئية، وإن كان هناك عمد غير مرئية فهي قدرة الله وإرادته.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

أي جبالاً راسية ثابتة ﴿أَن تَمِيدَ﴾ أي كراهية أن تميد وقيل: المعنى أن لا تميد، واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح، ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما نرى الأراضي الرملة ينتقل الرمل الذي فيها من موضع إلى موضع، ثم قال تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي سكون الأرض فيه مصلحة حركة الدواب فأسكنا الأرض وحركنا الدواب ولو كانت الأرض متزلزلة وبعض الأراضي يناسب بعض الحيوانات لكانت الدابة التي لا تعيش في موضع تقع في ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب، أما إذا كانت الأرض ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك في المواضع التي تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده، وتمامها بسكون الأرض لأن البذر إذا لم يثبت إلى أن ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الأرض متحركة كالرمل لما حصل الثبات ولما كمل النبات، والعدول من المغايبة إلى النفس فيه فصاحة وحكمة، أما الفصاحة فمذكورة في باب الالتفات من أن السامع إذا سمع كلامًا طويلاً من نمط واحد، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك إذا قلت قال: زيد كذا وكذا، وقال خالد كذا وكذا، وقال عمرو كذا ثم إن بكرًا قال قولاً حسنًا، يستطاب لما قد تكرر القول مرارًا. وأما الحكمة فمن وجهين أحدهما: أن خلق الأرض ثقيل، والسماء في

غير مكان قد يقع لجاهل أنه بالطبع، وبث الدواب يقع لبعضهم أنه باختيار الدابة، لأن لها اختيار، فنقول: الأول طبيعي والآخر اختياري للحيوان، ولكن لا يشك أحد في أن الماء في الهواء من جهة فوق ليس طبعًا فإن الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختيارًا، إذ الماء لا اختيار له فهو بإرادة الله تعالى، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الثاني: هو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان، متكثرة في كل مكان، فأسنده إلى نفسه صريحًا ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته، وقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي من كل جنس، وكل جنس فتحته زوجان، لأن النبات إما أن يكون شجرًا، وإما أن يكون غير شجر، والذي هو الشجر إما أن يكون مثمرًا، وإما أن يكون غير مثمر، والمثمر كذلك ينقسم قسمين، وقوله تعالى: ﴿كَرِيمٍ﴾ أي ذي كرم، لأنه يأتي كثيرًا من غير حساب أو مكرم مثل بغض للمبغض.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق.

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي بين أو مبين للعاقل أنه ضلال، وهذا لأن ترك الطريق والحيد عنه ضلال، ثم إن كان الحيد يمنة أو يسرة فهو لا يبعد عن الطريق المستقيم مثل ما يكون المقصد إلى وراء فإنه يكون غاية الضلال، فالمقصد هو الله تعالى، فمن يطلبه ويلتفت إلى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال، لكن من وجهه إلى الله قد يصل إلى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة، ومن يطلبه ولا يلتفت إلى ما سواه يكون كالذي على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب. وأما الذي تولى لا يصل إلى المقصود أصلاً، وإن دام في السفر، والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم في غير موضعها أو الواضعون أنفسم في عبادة غير الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم بإشراك من لا يخلق شيئًا بمن خلق كل شيء بقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وبين أن المشرك ظالم ضال، ذكر ما يدل على أن ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وإن لم يكن هناك نبوة وهذا إشارة إلى معنى، وهو أن اتباع النبي عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه إظهارًا للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة، بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبي عليه

السلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وأنه أدركه بالحكمة، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ عبارة عن توفيق العمل بالعلم، فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة، وإن أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى، فنقول: حصول العمل على وفق المعلوم، والذي يدل على ما ذكرنا أن من تعلم شيئًا ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيمًا وإنما يكون مبخوتًا، ألا ترى أن من يلقي نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال: إنه حكيم، وإن ظهر لفعله مصلحة وخلو عن مفسدة، لعدم علمه به أولاً، ومن يعلم أن الإلقاء فيه إهلاك النفس ويلقي نفسه من ذلك المكان وتنكسر أعضاؤه لا يقال: إنه حكيم، وإن علم ما يكون في فعله، ثم الذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فإن (أن) في مثل هذا تُسَمَّى المفسرة ففسر الله إيتاء الحكمة بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ وهو كذلك، لأن من جملة ما يقال: إن العمل موافق للعلم، لأن الإنسان إذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر، فإن اشتغل بالأهم كان عمله موافقًا لعلمه وكان حكمة، وإن أهمل الأهم كان مخالفًا للعلم ولم يكن من الحكمة في شيء، لكن شكر الله أهم الأشياء فالحكمة أول ما تقتضي، ثم إن الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع إلا الشاكر بقوله: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه، وفي الآية مسائل ولطائف، الأولى: فسر الله إيتاء الحكمة بالأمر بالشكر، لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فينبغي أن يكون قد أوتي الحكمة والجواب: أن قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أمر تكوين معناه آتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين، وفي الكافر الأمر بالشكر أمر تكليف.

المسألة الثانية: قال في الشكر: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ بصيغة المستقبل، وفي الكفران ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾، وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد، كقول القائل: من دخل داري فهو حر، ومن يدخل داري فهو حر، فنقول: فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر، وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة، فمن شكر ينبغي أن يكرر، والكفر ينبغي أن ينقطع فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران، ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله، بل أبدًا يكون منه شيء في العدم يريد الشاكر إدخاله في الوجود، كما قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩] وكما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فأشار إليه بصيغة المستقبل تنبيهًا على أن الشكر بكماله لم يوجد وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام، فقال بصيغة الماضي.

المسألة الثالثة: قال تعالى هنا: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ﴾ بتقديم الشكر على الكفران، وقال في سورة الروم: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤] فنقول: هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ

أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] وههنا الذكر للترغيب، لأن وعظ الأب للابن يكون بطريق اللطف والوعد، وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [الروم: ٤٤] يحقق ما ذكرنا أولاً، لأن المذكور في سورة الروم لما كان بعد اليوم الذي لا مرد له تكون الأعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضي ﴿وَمَنْ عَمِلَ﴾ [الروم: ٤٤]، وههنا لما كان المذكور في الابتداء قال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ بلفظ المستقبل وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن حمد الحامدين، حميد في ذاته من غير حمدهم، وإنما الحامد ترتفع مرتبته بكونه حامدًا لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرًا في نفسه وحين جعلناه واعظًا لغيره وهذا لأن علو مرتبة الإنسان بأن يكون كاملاً في نفسه ومكملاً لغيره فقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ إشارة إلى الكمال وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ إشارة إلى التكميل، وفي هذا لطيفة وهي أن الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الأجانب والأقارب فإن إرشاد الولد أمر معتاد، وأما تحمل المشقة في تعليم الأباعد فلا، ثم إنه في الوعظ بدأ بالأهم وهو المنع من الإشراك وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أما أنه ظلم فلأنه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] في عبادة الخسيس أو لأنه وضع العبادة في غير موضعها وهي غير وجه الله وسبيله، وأما أنه عظيم فلأنه وضع في موضع ليس موضعه، ولا يجوز أن يكون موضعه، وهذا لأن من يأخذ مال زيد ويعطي عمرًا يكون ظلمًا من حيث إنه وضع مال زيد في يد عمرو، ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتمليك لاحق، وأما الإشراك فوضع المعبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبودًا أصلاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها في الصورة بين أنها غير ممتنعة، بل هي واجبة لغير الله في بعض الصور مثل خدمة الأبوين، ثم بين السبب فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ يعني لله على العبيد نعمة الإيجاد ابتداء بالخلق ونعمة الإبقاء بالرزق وجعل بفضله للأم ما له صورة ذلك وإن لم يكن لها حقيقة فإن الحمل به يظهر الوجود، وبالرضاع يحصل التربية والبقاء فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ أي صارت بقدرة الله سبب وجوده ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، أي صارت بقدرته أيضًا

سبب بقائه، فإذا كان منها ما له صورة الوجود والبقاء وجب عليه ما له شبه العبادة من الخدمة، فإن الخدمة لها صورة العبادة، فإن قال قائل: وصى الله بالوالدين وذكر السبب في حق الأم، فنقول: خص الأم بالذكر وفي الأب ما وجد في الأم فإن الأب حمله في صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ، وقوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله، فإن الوجود في الحقيقة من الله وفي الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ ثم بين الفرق وقال: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ يعني نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي في الدنيا والآخرة، فإن إلي المصير أو نقول: لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال: الجزاء عليَّ وقت المصير إليّ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

يعني أن خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله، أما إذا أفضى إليه فلا تطعهما، وقد ذكرنا تفسير الآية في العنكبوت، وقال ههنا ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾، يعني صاحبهما بجسمك فإن حقهما على جسمك، واتبع سبيل النبي عليه السلام بعقلك، فإنه مربي عقلك، كما أن الوالد مربي جسمك.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾.

لما قال: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وقع لابنه أن ما يفعل في خفية يخفى فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ﴾ أي الحسنة والسيئة إن كانت في الصغر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر في موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَتَكُن﴾ بالفاء لإفادة الاجتماع يعني إن كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية في موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله لأن الفاء للاتصال بالتعقيب.

المسألة الثانية: لو قيل: الصخرة لا بد من أن تكون في السموات أو في الأرض فما الفائدة في ذكرها؟ ولأن القائل لو قال: هذا رجل أو امرأة أو ابن عمرو، لا يصح هذا الكلام لكون ابن

عمرو داخلاً في أحد القسمين فكيف يفهم هذا؟ فنقول: الجواب عنه من أوجه أحدها: ما قاله بعض المفسرين وهو أن المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهي لا في الأرض ولا في السماء، والثاني: ما قاله الزمخشري وهو أن فيه إضمارًا تقديره فتكن في صخرة أو في موضع آخر في السموات أو في الأرض، والثالث: أن نقول: تقديم الخاص وتأخير العام في مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز، أما الثاني فلما بينتم أن من قال: هذا في دار زيد أو في غيرها أو في دار عمرو، لا يصح لكون دار عمرو داخلة في قوله أو في غيرها، وأما الأول فلأن قول القائل: هذا في دار زيد أو في دار عمرو أو في غيرها، صحيح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الأخص أو نقول: خفاء الشيء يكون بطرق منها أن يكون في غاية الصغر ومنها أن يكون بعيدًا، ومنها أن يكون في ظلمة، ومنها أن يكون من وراء حجاب، فإن انتفت الأمور بأسرها بأن يكون كبيرًا قريبًا في ضوء من غير حجاب فلا يخفى في العبادة، فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط، فقوله: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ﴾ إشارة إلى الصغر وقوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ إشارة إلى الحجاب وقوله: ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارة إلى البعد فإنها أبعد الأبعاد وقوله: ﴿أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارة إلى الظلمات فإن جوف الأرض أظلم الأماكن، وقوله: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ أبلغ من قول القائل: يعلمها الله، لأن من يظهر له الشيء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره فقوله: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ أي يظهرها الله للأشهاد وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي نافذ القدرة ﴿خَبِيرٞ﴾ أي عالم ببواطن الأمور.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾

لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة وهي العبادة لوجه الله مخلصًا، وبهذا يعلم أن الصلاة كانت في سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت.

ثم قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي إذا كملت أنت في نفسك بعبادة الله فكمل غيرك، فإن شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا في أنفسهم ويكملوا غيرهم، فإن قال قائل: كيف قدم في وصيته لابنه الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر، وقبل قدم النهي عن المنكر على الأمر بالمعروف فإنه أول ما قال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ﴾ ثم قال: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؟ فنقول هو كان يعلم من ابنه أنه معترف بوجود الله فما أمره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذي يترتب على هذا المعروف، فإن المشرك بالله لا يكون نافيًا لله في الاعتقاد وإن كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف في مقابلته منكر والمعروف في معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه، فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لأنه ورد في التفسير أن ابنه كان مشركًا فوعظه ولم يزل يعظه حتى أسلم، وأما ههنا فأمر أمرًا مطلقًا

والمعروف مقدم على المنكر ثم قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يعني أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من الأمور الواجبة المعزومة أي المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول، كما تقول: أكلي في النهار رغيف خبز، أي مأكولي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

لما أمره بأن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره وكان يخشى بعدهما من أمرين أحدهما: التكبر على الغير بسبب كونه مكملاً له، والثاني: التبختر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ تكبرًا ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ تبخترًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر ﴿فَخُورٍ﴾ يعني من يكون مفتخرًا بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه، وفي الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم قال: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وفي النهي قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ لأن في طرف الإثبات من لا يكون كاملاً لا يمكن أن يصير مكملاً فقدم الكمال، وفي طرف النفي من يكون متكبرًا على غيره متبخترًا لأنه لا يتكبر على الغير إلا عند اعتقاده أنه أكبر منه من وجه، وأما من يكون متبخترًا في نفسه لا يتكبر، ويتوهم أنه يتواضع للناس فقدم نفي التكبر ثم نفي التبختر، لأنه لو قدَّم نفي التبختر للزم منه نفي التكبر فلا يحتاج إلى النهي عنه. ومثاله أنه لا يجوز أن يقال لا تفطر ولا تأكل، لأن من لا يفطر لا يأكل، ويجوز أن يقال: لا تأكل ولا تفطر، لأن من لا يأكل قد يفطر بغير الأكل، ولقائل أن يقول: إن مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لا تفطر ولا تأكل أي لا تفطر بأن تأكل ولا يكون نهيين بل واحدًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

لما قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذي يخالف غاية الاختلاف، وهو مشي المتماوت الذي يرى من نفسه الضعف تزهدًا فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي كن وسطًا بين الطرفين المذمومين.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي؟ فنقول: نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يصيبه عد،

ولا يعلمه أحد والذي يظهر: وجوه الأول: هو أن الإنسان لما كان شريفًا تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطرًا فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشي، فإن عجز عن إدراك مقصوده ينادي مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشيًا إليه فإن عجز عن إبلاغ كلامه إليه، وبعض الحيوانات يشارك الإنسانَ في تحصيل المطلوب بالصوت كما أن الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لا تتعدى إلى غيرها، والإنسان يميز البعض عن البعض فإذا كان المشي والصوت مفضيين إلى مقصود واحد لما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر، الثاني: هو أن الإنسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فإنه حركة وسكون، وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره، وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه إلا لله، وقد أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان: ١٦]أي أصلح ضميرك فإن الله خبير، بقي الأمران فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال، الثالث: هو أن لقمان أراد إرشاد ابنه إلى السداد في الأوصاف الإنسانية والأوصاف التي هي للملك الذي هو أعلى مرتبة منه، والأوصاف التي للحيوان الذي هو أدنى مرتبة منه. فقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ إشارة إلى المكارم المختصة بالإنسان فإن الملك لا يأمر ملكًا آخر بشيء ولا ينهاه عن شيء. وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ الذي هو إشارة إلى عدم التكبر والتبختر إشارة إلى المكارم التي هي صفة الملائكة فإن عدم التكبر والتبختر صفتهم. وقوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ إشارة إلى المكارم التي هي صفة الحيوان، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لِمَ ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشي؟ نقول. أما على قولنا: إن المشي والصوت كلاهما موصلان إلى شخص مطلوب إن أدركه بالمشي إليه فذاك، وإلا فيوقفه بالنداء، فنقول: رفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة، وربما يخرق الغشاء الذي داخل الأذن. وأما السرعة في المشي فلا تؤذي أو إن كانت تؤذي فلا تؤذي غير من في طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار، ولأن المشي يؤذي آلة المشي والصوت يؤذي آلة السمع وآلة السمع على باب القلب، فإن الكلام ينتقل من السمع إلى القلب ولا كذلك المشي، وأما على قولنا الإشارة بالشيء والصوت إلى الأفعال والأقوال فلأن القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لأن اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى.

المسألة الثانية: كيف يفهم كونه أنكر مع أن مس المنشار بالمبرد وحت النحاس بالحديد أشد تنفيرًا؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن المراد أن أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد ما ذكرتم وما ذكرتم في أكثر الأمر لمصلحة وعمارة فلا ينكر، بخلاف صوت الحمير وهذا وهو الجواب الثاني.

المسألة الثالثة: أنكر هو أفعل التفضيل فمن أي باب هو؟ نقول: يحتمل أن يكون من باب أطوع له من بنانه، بمعنى أشدها طاعة فإن أفعل لا يجيء في مفعل ولا في مفعول ولا في باب العيوب إلا ما شذ، كقولهم أطوع من كذا للتفضيل على المطيع، وأشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول، وأحمق من فلان من باب العيوب، وعلى هذا فهو في باب أفعل كأشغل في باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر، أو نقول هو من باب أشغل مأخوذًا من نكر الشيء فهو منكر، وهذا أنكر منه، وعلى هذا فله معنى لطيف، وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو غير ذلك، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح، وفي بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق فصوته منكور، ويمكن أن يقال هو من نكير كأجدر من جدير.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾

لما استدل بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [لقمان: ١٠] على الوحدانية، وبين بحكاية لقمان أن معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة، وما جاء به النبي عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الأخلاق كلها حكمة بالغة، ولو كان تعبدًا محضًا للزم قبوله، فضلاً عن أنه على وفق الحكمة، استدل على الوحدانية بالنعمة لأنا بينا مرارًا أن الملك يخدم لعظمته، وإن لم ينعم ويخدم لنعمته أيضًا، فلما بين أنه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد وإلقائه في الأرض الرواسي. وذكر بعض النعم بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [لقمان: ١٠] ذكر بعده عامة النعم فقال: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي سخر لأجلكم ما في السموات، فإن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله وفيها فوائد لعباده، وسخر ما في الأرض لأجل عباده، وقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً﴾ وهي ما في الأعضاء من السلامة ﴿وَبَاطِنَةً﴾ وهي ما في القوى فإن العضو ظاهر وفيه قوة باطنة، ألا ترى أن العين والأذن شحم وغضروف ظاهر، واللسان والأنف لحم وعظم ظاهر، وفي كل واحد معنى باطن من الإبصار والسمع والذوق والشم، وكذلك كل عضو، وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائمًا، وهذا أحسن مما قيل فإن على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الأنفس فقوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يكون إشارة إلى النعم الآفاقية، وقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ يكون إشارة إلى النعم الأنفسية، وفيهما أقوال كثيرة مذكورة في جميع كتب التفاسير، ولا يبعد أن يكون ما ذكرناه مقولاً منقولاً، وإن لم يكن فلا يخرج من أن يكون سائغًا معقولاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني لما ثبت الوحدانية بالخلق والإنعام فمن

الناس من يجادل في الله ويثبت غيره، إما إلهًا أو منعمًا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب، والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب، وبيانه هو أن العلم تدخل فيه الأشياء الواضحة اللائحة التي تعلم من غير هداية هاد، ثم الهدى يدخل فيه الذي يكون في كتاب والذي يكون من إلهام ووحي، فقال تعالى: ﴿يُجَٰدِلُ﴾ ذلك المجادل لا من علم واضح، ولا من هدى أتاه من هاد، ولا من كتاب وكأن الأول إشارة إلى من أوتي من لدنه علمًا كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] والثاني: إشارة إلى مرتبة من هدى إلى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] والثالث: إشارة إلى مرتبة من اهتدى بواسطتين ولهذا قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢] وقال في هذه السورة: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢] فالكتاب هدى لقوم النبي عليه السلام، والنبي هداه من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الأمين، فقال تعالى: يجادل من يجادل لا بعلم آتيناه من لدنا كشفًا، ولا بهدى أرسلناه إليه وحيًا، ولا بكتاب يتلى عليه وعظًا. ثم فيه لطيفة أخرى وهو أنه تعالى قال في الكتاب: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ لأن المجادل منه من كان يجادل من كتاب ولكنه محرف مثل التوراة بعد التحريف، فلو قال: ولا كتاب، لكان لقائل أن يقول: لا يجادل من غير كتاب، فإن بعض ما يقولون فهو في كتابهم ولأن المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم، فقال: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ فإن ذلك الكتاب مظلم، ولما لم يحتمل في المرتبة الأولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى منير أو حق أو غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح فإن النبي عليه السلام يدعوهم إلى كلام الله، وهم يأخذون بكلام آبائهم، وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء، ثم إن ههنا شيئًا آخر وهو أنهم قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ يعني نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل، والقول أدل من الفعل لأن الفعل يحتمل أن يكون جائزًا، ويحتمل أن يكون حرامًا، وهم تعاطوه، ويحتمل أن يكون واجبًا في اعتقادهم والقول بين الدلالة، فلو سمعنا قول قائل: افعل، ورأينا فعله يدل على خلاف قوله، لكان الواجب الأخذ بالقول، فكيف والقول من الله والفعل من الجهال، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ

﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ استفهامًا على سبيل التعجب في الإنكار يعني الشيطان يدعوهم إلى العذاب والله يدعو إلى الثواب، وهم مع هذا يتبعون الشيطان. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ لما بين حال المشرك والمجادل في الله بَيَّنَ حال المسلم المستسلم لأمر الله فقوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى الإيمان وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إشارة إلى العمل الصالح فتكون الآية في معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٨].

قوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي تمسك بحبل لا انقطاع له وترقى بسببه إلى أعلى المقامات. **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال هاهنا: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وقال في سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]فعدى هاهنا بإلى وهناك باللام، قال الزمخشري: معنى قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]أي جعل نفسه لله سالمًا أي خالصًا والوجه بمعنى النفس والذات، ومعنى قوله: ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يسلم نفسه إلى الله كما يسلم واحد متاعًا إلى غيره ولم يزد على هذا، ويمكن أن يزاد عليه ويقال: من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم إلى الله، لأن إلى للغاية واللام للاختصاص، يقول القائل: أسلمت وجهي إليك، أي توجهت نحوك وينبئ هذا عن عدم الوصول لأن التوجه إلى الشيء قبل الوصول وقوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها للوصول، إذا علم هذا فنقول في البقرة قالت اليهود والنصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١١١] فقال الله ردًا عليهم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١]ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]أي أنتم مع أنكم تتركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمنًا قليلاً تدخلون (النار) ومن كان بكليته لله لا يدخلها، هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقض بالصورة التي هي ألزم أولى فأورد عليهم المخلص الذي ليس له أمر إلا الله وقال: أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها، ثم بين كذبهم وقال: بلى، وبين أن له فوق الجنة درجة وهي العندية بقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١١٢]وأما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول إلى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الأولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة. ثم قال تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أوثق العرى جانب الله لأن كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له، ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ يعني استمسك بعروة توصله إلى الله وكل شيء عاقبته إليه فإذا حصل في الحال ما إليه عاقبته في عاقبته في غاية الحسن وذلك لأن من يعلم أن عاقبة الأمور إلى واحد ثم يقدم إليه الهدايا قبل الوصول إليه يجد فائدته عند القدوم عليه، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

لما بين حال المسلم رجع إلى بيان حال الكافر فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ﴾ أي لا تحزن إذا كفر كافر فإن من يُكَذِّب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لا يحزن، بل قد يؤنب المكذب على الزيادة في التكذيب إذا لم يكن من الهداة ويكون المكذب من العداة ليخجله غاية التخجيل، وأما إذا كان لا يرجو ظهور صدقه يتألم من التكذيب، فقال: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾، فإن المرجع إلي فأنبئهم بما عملوا فيخجلون وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم فينبئهم بما أضمرته صدورهم، وذات الصدور هي المهلك، ثم إن الله تعالى فصل ما ذكرنا وقال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي بقاؤهم مدة قليلة ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي نسلط عليهم أغلظ عذاب حتى يدخلوا بأنفسهم عذابًا غليظًا فيضطرون إلى عذاب النار فرارًا من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يعذبونهم بمقامع من نار، وفيه وجه آخر لطيف وهو أنهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الأمر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدي ربهم بمحضر الأنبياء، وهو يتحقق بقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

الآية متعلقة بما قبلها من وجهين: أحدهما: أنه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين أنهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضي أن يكون الحمد كله لله، لأن خالق السموات والأرض يحتاج إليه كل ما في السموات والأرض، وكون الحمد كله لله يقتضي أن لا يعبد غيره، لكنهم لا يعلمون هذا، والثاني: أن الله تعالى لما سلى قلب النبي ﷺ بقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم﴾ أي لا تحزن على تكذيبهم فإن صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم إلينا، قال وليس لا يتبين إلا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لأنهم معترفون بأن خلق السموات والأرض من الله، وهذا يصدقك في دعوى الوحدانية ويبين كذبهم في الإشراك فـ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور صدقك وكذب مكذبيك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ استعمالاً للفعل مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل: فلان يعطي ويمنع، ولا يكون في ضميره من يعطي بل يريد أن له عطاءً ومنعًا فكذلك ههنا قال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ليس لهم علم، وعلى الأول يكون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ له مفعول مفهوم وهو أنهم لا

يعلمون أن الحمد كله لله، والثاني أبلغ لأن قول القائل: فلان لا علم له بكذا، دون قوله: فلان لا علم له، وكذا قوله: فلان لا ينفع زيدًا ولا يضره، دون قوله: فلان لا يضر ولا ينفع.

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

ذكر بما يلزم منه، وهو أنه يكون له ما فيهما والأمر كذلك عقلاً وشرعًا، أما عقلاً فلأن ما في السموات المخلوقة مخلوق وإضافة خلقه إلى من منه خلق السموات والأرض لازم عقلاً لأنها ممكنة، والممكن لا يقع ولا يوجد إلا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب أهل السنة أو بواسطة كما يقوله غيرهم، وكيفما فرض فكله من الله لأن سبب السبب سبب، وأما شرعًا فلأن من يملك أرضًا وحصل منها شيء ما يكون ذلك لمالك الأرض فكذلك كل ما في السموات والأرض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والأرض وإذا كان الأمر كذلك تحقق أن الحمد كله لله. ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فيه معان لطيفة: أحدها: أن الكل لله وهو غير محتاج إليه غير منتفع به وفيها منافع فهي لكم خلقها فهو غني لعدم حاجته حميد مشكور لدفعه حوائجكم بها، وثانيها: أن بعد ذكر الدلائل على أن الحمد كله لله ولا تصلح العبادة إلا لله افترق المكلفون فريقين مؤمن وكافر، والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال: إنه غني عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين، وحميد في نفسه فيتبين به إصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون، وثالثها: هو أن السموات وما فيها والأرض وما فيها إذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غني إلا الله فهو الغني المطلق وكل محتاج فهو حامد، لاحتياجه إلى من يدفع حاجته فلا يكون الحميد المطلق إلا الغني المطلق فهو الحميد، وعلى هذا (يكون) الحميد بمعنى المحمود، والله إذا قيل له الحميد لا يكون معناه إلا الواصف، أي وصف نفسه أو عباده بأوصاف حميدة، والعبد إذا قيل له حامد يحتمل ذلك المعنى، ويحتمل كونه عابدًا شاكرًا له.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

لما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ وكان ذلك موهمًا لتناهي ملكه لانحصار ما في السموات وما في الأرض فيهما، وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ ويكتب بها والأبحر مداد لا تفنى عجائب صنع الله، وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجيبة، ووجهها أن العجائب بقوله: كن، وكن كلمة وإطلاق اسم السبب على المسبب جائز. يقول الشجاع لمن يبارزه: أنا موتك، ويقال للدواء في حق المريض: هذا شفاؤك، ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة لأنه كان أمرًا

عجيبًا وصنعًا غريبًا لوجوده من غير أب، فإن قال قائل: الآية واردة في اليهود حيث قالوا: الله ذكر كل شيء في التوراة ولم يبق شيء لم يذكره، فقال: الذي في التوراة بالنسبة إلى كلام الله تعالى ليس إلا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية، وقيل أيضًا إنها نزلت في واحد قال للنبي عليه السلام: إنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] وتقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فنزلت الآية دالة على أنه خير كثير بالنسبة إلى العباد، وبالنسبة إلى الله وعلومه قليل، وقيل أيضًا إنها نزلت ردًا على الكفار حيث قالوا بأن ما يورده محمد سينفد، فقال إنه كلام الله وهو لا ينفد. وما ذكر من أسباب النزول ينافي ما ذكرتم من التفسير، لأنها تدل على أن المراد الكلام، فنقول: ما ذكرتم من اختلاف الأقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا، لأنه إذا صلح جوابًا لهذه الأشياء التي ذكرتموها وهي متباينة علم أنها عامة وما ذكرنا لا ينافي هذا، لأن كلام الله عجيب معجز لا يقدر أحد على الإتيان بمثله، وإذا قلنا بأن عجائب الله لا نهاية لها دخل فيها كلامه، لا يقال: إنك جعلت الكلام مخلوقًا، لأنا نقول: المخلوق هو الحرف والتركيب وهو عجيب، وأما الكلمات فهي من صفات الله تعالى، واعلم أن الآية وإن كانت نازلة على ترتيب غير الذي هو مكتوب، ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله، فإنه بأمر الرسول كتب كذلك، وأمر الرسول من أمر الله وذلك محقق متيقن من سنن الترتيب الذي فيه، ثم إن الآية فيها لطائف: الأولى: قال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ وحد الشجرة وجمع الأقلام ولم يقل: ولو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام، ولا قال: ولو أن ما في الأرض من شجرة قلم، إشارة إلى التكثير، يعني ولو أن بعدد كل شجرة أقلامًا، الثانية: قوله ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد، ثم قوله: ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ إشارة إلى بحار غير موجودة، يعني لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر أخر، وقوله: ﴿سَبْعَةُ﴾ ليس لانحصارها في سبعة، وإنما الإشارة إلى المدد والكثرة ولو بألف بحر، والسبعة خصصت بالذكر من بين الأعداد، لأنها عدد كثير يحصر المعدودات في العادة، والذي يدل عليه وجوه: الأول: هو أن ما هو معلوم عند كل أحد لحاجته إليه هو الزمان والمكان، لأن المكان فيه الأجسام والزمان فيه الأفعال، لكن المكان منحصر في سبعة أقاليم والزمان في سبعة أيام، ولأن الكواكب السيارة سبعة، وكان المنجمون ينسبون إليها أمورًا، فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة في العادة فاستعملت في كل كثير، الثاني: هو أن الآحاد إلى العشرة وهي العقد الأول وما بعده يبتدئ من الآحاد مرة أخرى فيقال أحد عشر واثنا عشر، ثم المئات من العشرات والألوف من المئات، إذا علم هذا فنقول: أقل ما يلتئم منه أكثر المعدودات هو الثلاثة، لأنه يحتاج إلى طرفين مبدأ ومنتهى ووسط، ولهذا يقال أقل ما يكون الاسم والفعل منه هو ثلاثة أحرف، فإذا كانت الثلاثة هو القسم الأول من العشرة التي هو العدد الأصلي تبقى السبعة القسم الأكثر، فإذا أريد بيان الكثرة ذكرت السبعة، ولهذا فإن

المعدودات في العبادات من التسبيحات في الانتقالات في الصلوات ثلاثة، والمرار في الوضوء ثلاثة تيسيرًا للأمر على المكلف اكتفاءً بالقسم الأول، إذا ثبت هذا فنقول: قوله عليه السلام: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ»(١) إشارة إلى قلة الأكل وكثرته من غير إرادة السبعة بخصوصها، ويحتمل أن يقال: إن لجهنم سبعة أبواب بهذا التفسير، ثم على هذا فقولنا: للجنة ثمانية أبواب إشارة إلى زيادتها فإن فيها الحسنى وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على كثرة غيرها، والذي يدل على ما ذكرنا في السبعة أن العرب عند الثامن يزيدون واوًا، يقول الفراء: إنها واو الثمانية وليس ذلك إلا للاستئناف لأن العدد بالسبعة يتم في العرف، ثم بالثامن استئناف جديد، اللطيفة الثالثة: لم يقل في الأقلام المدد لوجهين: أحدهما: هو أن قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ بينا أن المراد منه هو أن يكون بعدد كل شجرة موجودة أقلام فتكون الأقلام أكثر من الأشجار الموجودة وقوله في البحر: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ إشارة إلى أن البحر لو كان أكثر من الموجود لاستوى القلم والبحر في المعنى، والثاني: هو أن النقصان بالكتابة يلحق المداد أكثر فإنه هو النافد والقلم الواحد يمكن أن يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد في البحر الذي هو كالمداد.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لما ذكر أن ملكوته كثير أشار إلى ما يحقق ذلك فقال: إنه عزيز حكيم أي كامل القدرة فيكون له مقدورات لا نهاية لها وإلا لانتهت القدرة إلى حيث لا تصلح للإيجاد وهو حكيم كامل العلم ففي علمه ما لا نهاية له فتحقق أن البحر لو كان مدادًا لما نفد ما في علمه وقدرته.

ثم قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ لما بين كمال قدرته وعلمه ذكر ما يبطل استبعادهم للمعشر وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ومن لا نفاد لكلماته يقول للموتى، كونوا، فيكونوا.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ سميع لما يقولون بصير بما يعملون، فإذًا كونه قادرًا على البعث ومحيطًا بالأقوال والأفعال يوجب ذلك الاجتناب التام والاحتراز الكامل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

يحتمل أن يقال: إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠] على وجه العموم ذكر منها بعض ما هو فيهما على وجه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأطعمة)، باب: (المؤمن يأكل في معي واحد) (٩/ ٤٤٧)، حديث رقم (٥٣٩٦) من طريق الأعرج... به، ومسلم في كتاب (الأشربة)، باب: (المؤمن يأكل في معي واحد) (٣/ ١٨٥/ ١٦٣٢) من طريق أبي صالح... به، جميعًا عن أبي هريرة... به.

الخصوص بقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ إشارة إلى ما في السموات، وقوله بعد هذا: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٣١] إشارة إلى ما في الأرض. ويحتمل أن يقال إن وجهه هو أن الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] والدهر هو الليالي والأيام، قال الله تعالى: هذه الليالي والأيام التي تنسبون إليها الموت والحياة هي بقدرة الله تعالى فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ ثم إن قائلاً لو قال: إن ذلك اختلاف مسير الشمس تارة تكون القوس التي هي فوق الأرض أكثر من التي تحت الأرض فيكون الليل أقصر والنهار أطول وتارة تكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ يعني إن كنتم لا تعترفون بأن هذه الأشياء كلها في أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة إلى الله تعالى، فالآجال إن كانت بالمدد والمدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس إلا بالله وقدرته.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: إيلاج الليل في النهار يحتمل وجهين، أحدهما: أن يقال: المراد إيلاج الليل في زمان النهار أي يجعل في الزمان الذي كان فيه النهار الليل، وذلك لأن الليل إذا كان مثلاً اثنتي عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجودًا في زمان كان فيه النهار، وثانيهما: أن يقال: المراد إيلاج زمان الليل في النهار أي يجعل زمان الليل في النهار وذلك لأن الليل إذا كان كما ذكرنا اثنتي عشرة ساعة إذا قصر صار زمان الليل موجودًا في النهار ولا يمكن غير هذا لأن إيلاج الليل في النهار محال الوجود فما ذكرنا من الإضمار لا بد منه لكن الأول أولى لأن الليل والنهار أفعال والأفعال في الأزمنة لأن الزمان ظرف فقولنا الليل في زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل في النهار لأن الثاني يجعل الظرف مظروفًا. إذا ثبت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ أي يوجده في وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم إيجاد الليل على إيجاد النهار في كثير من المواضع كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِ﴾ [الإسراء: ١٢] وقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقوله: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤] ومن جنسه قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك: ٢] وهذا إشارة إلى مسألة حكمية، وهي أن الظلمة قد يظن بها أنها عدم النور والليل عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك إذ في الأزل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لممكن ولا يمكن أن يقال: كان فيه موت أو ظلمة أو ليل، فهذه الأمور كالأعمى والأصم فالعمى والصمم ليس مجرد عدم البصر وعدم السمع إذ الحجر والشجر لا بصر لهما ولا سمع ولا يقال لشيء منهما: إنه أصم أو أعمى، إذا علم هذا فنقول: ما يتحقق فيه العمى والصمم لا بد من أن يكون فيه اقتضاء لخلافهما وإلا لما كان يقال له: أعمى وأصم، وما يكون فيه اقتضاء شيء، ويترتب عليه مقتضاه لا تطلب النفس له سببًا، لأن من يرى المتعيش في السوق، لا يقول: لم دخل السوق وما يثبت على خلاف

المقتضى تطلب النفس له سببًا، كمن يرى ملكًا في السوق يقول لم دخل، فإذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول: لم صار فلان أعمى؟ ولا يقول: لم صار فلان بصيرًا؟ وإذا كان كذلك قدم الله تعالى ما تطلب النفس سببه وهو الليل الذي هو على وزان العمى والظلمة والموت لكون كل واحد طالبًا سببه ثم ذكر بعده الأمر الآخر.

المسألة الثانية: قال: ﴿يُولِجُ﴾ بصيغة المستقبل وقال في الشمس والقمر: ﴿وَسَخَّرَ﴾ بصيغة الماضي لأن إيلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

المسألة الثالثة: قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذي فيه سلطان القمر على النهار الذي فيه سلطان الشمس لما بينا أن تقديم الليل كان لأن الأنفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار، وههنا كذلك، لأن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب، والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذي لا يكون عجيبًا.

المسألة الرابعة: ما تعلق قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بما تقدم؟ نقول: لما كان الليل والنهار محل الأفعال بين أن ما يقع في هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى على الله.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الخطاب مع النبي ﷺ وعليه الأكثرون، وكأنه ترك الخطاب مع غيره، لأن من هو غيره من الكفار لا فائدة للخطاب معهم لإصرارهم، ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبي عليه الصلاة والسلام ناظرون إليه، الوجه الثاني: أن يقال: المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحدًا فيقول لجمع عظيم: يا مسكين إلى الله مصيرك، فمن نصيرك، ولماذا تقصيرك؟ فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يكون خطابًا من ذلك القبيل أي يا أيها الغافل ألم تر هذا الأمر الواضح.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨] وأشار إلى الإرادة والكمال بقوله: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] وبقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ [لقمان: ٢٩] وعلى الجملة فقوله: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ إشارة إلى كل صفة سلبية فإنه إذا كان غنيًا لا يكون عرضًا محتاجًا إلى الجوهر في القوام، ولا جسمًا محتاجًا إلى الحيز في الدوام، ولا شيئًا من الممكنات المحتاجة إلى الموجد، وذكر بعده جميع الأوصاف الثبوتية صريحًا وتضمنًا، فإن الحياة في ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق أي ذلك الاتصاف بأنه هو الحق والحق هو

الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذي لا زوال له وهو الثبوت، فإن المذهب الصحيح أن وجوده غير حقيقته فكل ما عداه فله زوال نظرًا إليه والله له الثبوت والوجود نظرًا إليه فهو الحق وما عداه الباطل لأن الباطل هو الزائل يقال: بطل ظله، إذا زال وإذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تامًّا لا نقص فيه، ثم اعلم أن الحكماء قالوا: الله تام وفوق التمام، وجعلوا الأشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتف وتام وفوق التمام (فالناقص) ما ليس له ما ينبغي أن يكون له كالصبي والمريض والأعمى (والمكتفي) وهو الذي أعطي ما يدفع به حاجته في وقته كالإنسان والحيوان الذي له من الآلات ما يدفع به حاجته في وقتها لكنها في التحلل والزوال (وَالتَّامُّ) ما حصل له كل ما جاز له، وإن لم يحتج إليه كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزداد ولا ينقص الله منها لهم شيئًا كما قال جبريل عليه السلام «**لَوْ دَنَوْتُ أُنْمُلَةً لَاحْتَرَقْتُ**» لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] (وَفَوْقَ التَّمَام) هو الذي حصل له ما جاز له وحصل لما عداه ما جاز له أو احتاج إليه لكن الله تعالى حاصل له كل ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال، فهو تام وحصل لغيره كل ما جاز له أو احتاج إليه فهو فوق التمام إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إشارة إلى التمام وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي فوق التمام وقوله: ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ أي في صفاته وقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي في ذاته وذلك ينافي أن يكون جسمًا في مكان لأنه يكون حينئذ جسدًا مقدرًا بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيرًا بالنسبة إلى المفروض لكنه كبير مطلقًا أكبر من كل ما يتصور.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ لما ذكر آية سماوية بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [لقمان: ٢٩] وأشار إلى السبب والمسبب ذكر آية أرضية، وأشار إلى السبب والمسبب فقوله: ﴿ٱلْفُلْكَ تَجْرِى﴾ إشارة إلى المسبب وقوله: ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى السبب أي إلى الريح التي هي بأمر الله ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ يعني يريكم بإجرائها بنعمته ﴿مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي بعض آياته، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صبار في الشدة شكور في الرخاء، وذلك لأن المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء عند النعم والآلاء فيصبر إذا أصابته نقمة ويشكر إذا أتته نعمة وورد في كلام النبي ﷺ «**الْإِيمَانُ نِصْفَانِ نِصْفٌ صَبْرٌ وَنِصْفٌ شُكْرٌ**»(١) إشارة إلى أن التكاليف

---

(١) إسناده ضعيف جدًّا: أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ١٢٧)، حديث رقم (١٥٩) من طريق عتبة بن السكن عن العلاء بن خالد عن يزيد الرقاشي عن أنس... به، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٧/ ١٢٣)، حديث رقم (٩٧١٥)، والخرائطي في (فضيلة الشكر) (١/ ٣٩)، حديث رقم (١٨)، كلاهما من طريق مسلم بن إبراهيم=

أفعال وتروك والتروك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام «الصَّوْمُ صَبْرٌ وَالأَفْعَالُ شُكْرٌ عَلَى الْمَعْرُوفِ»(١) .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

لما ذكر الله أن في ذلك لآيات ذكر أن الكل معترفون به غير أن البصير يدركه أولا ومن في بصره ضعف لا يدركه أولا، فإذا غشيه موج ووقع في شدة اعترف بأن الكل من الله ودعاه مخلصًا أي يترك كل من عداه وينسى جميع من سواه، فإذا نجاه من تلك الشدة قد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وقد يعود إلى الشرك وهو المراد بقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ وحد الموج وجمع الظلل، وقيل في معناه كالجبال، وقيل كالسحاب إشارة إلى عظم الموج، ويمكن أن يقال الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول وإذا نظرت في الجرية الواحدة من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة.

المسألة الثانية: قال في العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ﴾ ثم قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فنقول: لما ذكر ههنا أمرًا عظيمًا وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار، أو مقتصد في الإخلاص فبقي معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ في مقابلة قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [لقمان: ٣١] يعني يعترف بها الصبار الشكور، ويجحدها الختار الكفور والصبار في موازنة الختار لفظًا ومعنى، والكفور في موازنة الشكور، أما لفظًا فظاهر، وأما معنى فلأن الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر، لأن الصبور إن لم يكن يعهد مع أحد لا يعهد منه الإضرار، فإنه يصبر ويفوض الأمر إلى الله وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على العهد فينقضه، وأما أن الكفور في مقابلة الشكور معنى فظاهر.

=أخبرنا العلاء بن خالد القرشي... به، وأورده الألباني في (ضعيف الجامع) (٥١١٨)، وقال: ضعيف جدًا. وكذلك في (الضعيفة) (٦٢٥)، وفي إسناده العلاء بن خالد القرشي قال الحافظ: ضعيف رماه أبو سلمة بالكذب وشيخه يزيد الرقاشي ضعيف زاهد.

(١) لم أجده.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

لما ذكر الدلائل من أول السورة إلى آخرها وعظ بالتقوى لأنه تعالى لما كان واحدًا أوجب التقوى البالغة فإن من يعلم أن الأمر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير، ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذي يحكم الله فيه بين العباد، وذلك لأن الملك إذا كان واحدًا ويعهد منه أنه لا يعلم شيئًا ولا يستعرض عباده، لا يخاف منه مثل ما يخاف إذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف، ثم أكده بقوله: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ وذلك لأن المجرم إذا علم أن له عند الملك من يتكلم في حقه ويقضي ما يخرج عليه برفد من كسبه لا يخاف مثل ما يخاف إذا علم أنه ليس له من يقضي عنه ما يخرج عليه، ثم ذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالأدنى على الأعلى، وذكر الولد والوالد جميعًا فيه لطيفة، وهي أن من الأمور ما يبادر الأب إلى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد لا يبادر إلى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد، ومنها ما يبادر الولد إلى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد كالإهانة، فإن من يريد إحضار والد أحد عند وال أو قاض يهون على الابن أن يدفع الإهانة عن والده ويحضر هو بدله، فإذا انتهى الأمر إلى الإيلام يهون على الأب أن يدفع الإيلام عن ابنه ويتحمله هو بنفسه فقوله: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ في دفع الآلام ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ في دفع الإهانة، وفي قوله: ﴿لَا يَجْزِي﴾ وقوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾ (لطيفة أخرى) وهي أنا ذكرنا أن الفعل يتأتى وإن كان ممن لا ينبغي ولا يكون من شأنه لأن الملك إذا كان يخيط شيئًا يقال: إنه يخيط، ولا يقال: هو خياط، وكذلك من يحيك شيئًا ولا يكون ذلك صنعته يقال: هو يحيك، ولا يقال: هو حائك، إذا علمت هذا فنقول: الابن من شأنه أن يكون جازيًا عن والده لما له عليه من الحقوق والوالد يجزي لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال في الوالد: ﴿لَا يَجْزِي﴾ وقال في الولد ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهو يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون تحقيقًا لليوم يعني اخشوا يومًا هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق، والثاني: أن يكون تحقيقًا لعدم الجزاء يعني: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ لأن الله وعد بـ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤] ووعد الله حق، فلا يجزي والأول أحسن وأظهر.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني إذا كان الأمر كذلك فلا تغتروا بالدنيا فإنها زائلة لوقوع (ذلك) اليوم المذكور بالوعد الحق.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يعني الدنيا لا ينبغي أن تغركم بنفسها ولا ينبغي أن تغتروا (بها) وإن حملكم على محبتها غار من نفس أمارة أو شيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه الدنيا إلى نفسها فيميل إليها ومنهم من يوسوس في صدره الشيطان ويزين في عينه الدنيا ويؤمله ويقول: إنك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة، فنهاهم عن الأمرين وقال: كونوا قسما ثالثًا، وهم الذين لا يلتفتون إلى الدنيا ولا إلى من يحسن الدنيا في الأعين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

يقول بعض المفسرين: إن الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره، وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك، لأن الله يعلم الجوهر الفرد الذي كان في كثيب رمل في زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة، ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره، ولأن يعلم أنه يوجد بعد هذه السنين ذرة في برية لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر وإنما الحق فيه أن نقول: لما قال الله: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ وذكر أنه كائن بقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ كأن قائلاً قال فمتى يكون هذا اليوم؟ فأجيب بأن هذا العلم ما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن، ثم ذكر الدليلين الذين ذكرناهما مرارًا على البعث: أحدهما: إحياء الأرض بعد موتها كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٤٩، ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩] وقال هاهنا: يا أيها السائل إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على إحياء الأرض حيث قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [الشورى: ٢٨] وقال: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ﴾ [الروم: ١٩] وثانيهما: الخلق ابتداء كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] إلى غير ذلك فقال هاهنا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ إشارة إلى أن الساعة وإن كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها، وكما هو قادر على الخلق في الأرحام كذلك يقدر على الخلق من الرخام، ثم قال لذلك الطالب علمه: يا أيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيان مرساها، فلك أشياء أهم منها لا تعلمها، فإنك لا تعلم معاشك ومعادك، ولا تعلم ماذا تكسب غدًا مع أنه فعلك وزمانك، ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك، فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون؟ فالله ما أعلمك كسب غدك مع أن لك فيه فوائد تبنى عليها الأمور من يومك، ولا أعلمك أين تموت مع أن لك فيه أغراضًا تهيئ أمورك

بسبب ذلك العلم، وإنما لم يعلمك لكي تكون في وقت بسبب الرزق راجعًا إلى الله تعالى متوكلاً على الله ولا أعلمك الأرض التي تموت فيها كي لا تأمن الموت وأنت في غيرها، فإذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه، وهي الساعة، وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون، وقد أعلمك الله على لسان أنبيائه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ لما خصص أولا علمه بالأشياء المذكورة، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ذكر أن علمه غير مختص بها، بل هو عليم مطلقًا بكل شيء، وليس علمه علمًا بظاهر الأشياء فحسب، بل خبيرٌ علمه واصل إلى بواطن الأشياء، والله أعلم بالصواب.

تفسير سورة لقمان

وهي مكية غير آيتين؛ قال قتادة: أولهما ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى آخر الآيتين. وقال ابن عباس: ثلاث آيات، أولهن ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[١]. وهي أربعٌ وثلاثون آية[٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ مضى الكلام في فواتح السُّوَر. و«تِلْكَ» في موضع رفعٍ على إضمار مبتدأ، أي: هذه تلك. ويقال: «تِيكَ آياتُ الكتابِ الحكيم» بدلاً من تلك[٣]. والكتاب: القرآن. والحكيم: المُحْكِم، أي: لا خللَ فيه ولا تناقُض. وقيل: ذو الحكمة. وقيل: الحاكم[٤] ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال، مثل: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف:٧٣] وهذه قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم والكسائي. وقرأ حمزة: «هُدًى وَرَحْمَةٌ» بالرفع، وهو من وجهين: أحدهما ـ على إضمار مبتدأ؛ لأنه أوَّلُ آية. والآخر ـ أن يكون خبر «تِلْكَ»[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٩.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١.

(٤) سلفت هذه المعاني ١/ ٢٤٣ و٤٢٩ و٥/ ١٥.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١، وينظر السبعة ص ٥١٢، والتيسير ص ١٧٦.

والمحسن: الذي يعبدُ اللهَ كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه[(١)]. وقيل: هم المحسنون في الدِّين وهو الإسلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٢٥]. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في موضع الصفة، ويجوز الرفع على القطع بمعنى: هم الذين، والنصب بإضمار أعني[(٢)]. وقد مضى الكلام في هذه الآية والتي بعدها في «البقرة»[(٣)] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ «مَنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء [أو بالصفة]. و«لَهْوَ الْحَدِيثِ»: الغناء؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. النحَّاس: وهو ممنوعٌ بالكتاب والسنة، والتقدير: من يشتري ذا لهوٍ أو ذاتَ لهوٍ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. أو يكون التقدير: لمَّا كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنَّه اشترى اللَّهو[(٤)].

قلت: هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدلَّ بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه. والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٦١]. قال ابن عباس: هو الغناء بالْحِمْيريّة؛ اسمدي لنا، أي: غنِّي لنا[(٥)].

والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. قال

---

(١) هكذا ورد تعريفه في حديث جبريل المشهور الذي أخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر ابن الخطاب ﷺ.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١.

(٣) ١/ ٢٥٣ - ٢٧٩.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢، وما بين حاصرتين منه، ووقع في النسخ: كأنه اشتراها للَّهو.

(٥) زاد المسير ٨/ ٨٦، وأخرجه البيهقي في السنن ١٠/ ٢٢٣، وابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٥.

مجاهد: الغناء والمزامير. وقد مضى في «سبحان»[١] الكلامُ فيه. وروى الترمذِيُّ عن أبي أُمامةَ عن رسول الله ﷺ قال: «لا تَبيعوا القَيْنات ولا تشتروهنَّ ولا تُعلِّموهنَّ، ولا خيرَ في تجارةٍ فيهنَّ وثمنُهنَّ حرام، في مثل هذا أُنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ، إنما يُروى من حديث القاسم عن أبي أُمامة، والقاسم ثقةٌ وعليٌّ بن يزيد يُضعَّف في الحديث. قاله محمد بن إسماعيل[٢]. قال ابن عطية[٣]: وبهذا فسَّر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد، وذكره أبو الفرج الْجَوْزي[٤] عن الحسن وسعيد بن جُبير وقتادة والنَّخَعيّ.

قلت: هذا أعلى ما قيل في هذه الآية، وحلفَ على ذلك ابنُ مسعودٍ بالله الذي لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ إنه الغناء. وروى سعيد بن جُبير عن أبي الصَّهباء البكري قال: سُئِلَ عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فقال: الغناء واللهِ الذي لا إله إلا هو. يُردِّدها ثلاثَ مرات[٥]. وعن ابن عمر أنه الغناء. وكذلك قال عكرمة وميمون بن مِهران ومكحول[٦]. وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال: قال عبد الله بن مسعود: الغناء يُنبِتُ النفاقَ في القلب[٧]. وقاله مجاهد، وزاد: إنَّ لهوَ الحديث في الآية الاستماعُ إلى الغناء وإلى

---

(١) ١٣/١١٨ .

(٢) سنن الترمذي (٣١٩٥)، وعلل الترمذي الكبير ١/ ٥١١ - ٥١٢ وفي إسناده - أيضاً - عبيد الله بن زحر، وهو ضعيف. والحديث في مسند أحمد (٢٢٢٨٠).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٤) في تلبيس إبليس ص ٢٢٥ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٧ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ٦/ ٣٠٩ ، والطبري ١٨/ ٥٣٤ - ٥٣٥ ، والحاكم ٢/ ٤١١ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٨ عن عكرمة.

(٧) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٦٨٠) ، والبيهقي ١٠/ ٢٢٣ . قلنا: وأخرجه أبو داود (٤٩٢٧) عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً، لكن في إسناده مجهول.

مثله من الباطل[١]. وقال الحسن: لهوُ الحديث المعازِفُ والغناء[٢]. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل، والباطل في النار[٣]. وقال ابن القاسم: سألتُ مالكاً عنه فقال: قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] أفحقٌّ هو[٤]؟! وترجم البخاري (بَابٌ: كلُّ لهوٍ باطلٌ إذا شغلَ عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه: تعالَ أُقامِرْكَ)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾[٥]. فقوله: (إذا شَغَل عن طاعة الله) مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وعن الحسن أيضاً: هو الكفر والشرك[٦]. وتأوَّله قومٌ على الأحاديث التي يَتَلَهَّى بها أهل الباطل واللعِب. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه اشترى كُتبَ الأعاجم: رستم، وأسفنديار، فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريشٌ: إنَّ محمداً قال كذا، ضَحِك منه، وحدَّثهم بأحاديثَ ملوك الفرس، ويقول: حديثي هذا أحسنُ من حديث محمد. حكاه الفرَّاء والكلبي وغيرهما[٧]. وقيل: كان يشتري المغنِّيات فلا يظفَرُ بأحدٍ يريد الإسلام إلَّا انطلق به إلى قَيْنَتهِ فيقول: أطعميه وأسقيه وغَنِّيه، ويقول: هذا خيرٌ ممَّا يدعوك إليه محمدٌ من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه. وهذا القول والأوَّل ظاهرٌ في الشراء[٨]. وقالت طائفة: الشراء في هذه الآية

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٦ و٥٣٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٩ .

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٨/٢٧ من طريق حرملة بن عبد العزيز، عن مالك بنحوه.

وفي الموطأ ٢/ ٩٥٨ قال يحيى الليثي: سمعت مالكاً يقول: لا خير في الشطرنج وكرهها، وسمعته يكره اللعب بها وبغيرها من الباطل، ويتلو هذه الآية: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

(٥) صحيح البخاري قبل الحديث (٦٣٠١).

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٢٨ عن الضحاك وابن زيد، وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٨ - ٥٣٩ عنهما.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٢٣ ، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٦ - ٣٢٧ ، وذكره البغوي ٣/ ٤٨٩ عن الكلبي.

(٨) الكشاف ٣/ ٢٢٩ .

مستعار، وإنما نزلتِ الآيةُ في أحاديثَ قريشٍ وتلَهِّيهم بأمر الإسلام وخوضهم في الباطل. قال ابن عطية: فكان تركُ ما يجب فِعْلُه، وامتثالُ هذه المنكرات شراءً لها؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾[1] [البقرة:١٦]؛ اشتروا الكفر بالإيمان، أي: استبدلوه منه واختاروه عليه[2]. وقال مُطَرِّف: شراءُ لهوِ الحديث استحبابُه. قتادة: ولعلَّه لا يُنفقُ فيه مالاً، ولكِنْ سماعُه شراؤه[3].

قلت: القولُ الأوَّلُ أولى ما قيل به في هذا الباب؛ للحديث المرفوع فيه، وقول الصحابة والتابعين فيه. وقد زاد الثعلبيُّ والواحِديُّ في حديث أبي أُمامة: «وما من رجلٍ يرفع صوتَه بالغناء إلَّا بعثَ الله عليه شيطانين أحدَهما على هذا المَنْكِب والآخر على هذا المَنْكِب، فلا يزالان يضربانِ بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»[4]. وروى الترمذي وغيرُه من حديث أنسٍ وغيرِهِ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «صَوتانِ ملعونانِ فاجرانِ أنهَى عنهما: صوتُ مزمارٍ ورنَّةُ شيطانٍ عند نغمةٍ ومَرَحٍ، ورَنَّةٌ عند مصيبةٍ لطمُ خدودٍ وشقُّ جيوب»[5]. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه عن عليٍّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بكسر المزامير» خرَّجه أبو طالب الغَيْلاني[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٦.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٤٤١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨٩ من طريق الثعلبي، كلاهما من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً. وكذلك أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٩٢). وإسناده ضعيف كما تقدم آنفاً. وأخرجه الطبراني (٧٧٤٩) من طريق آخر فيه الوليد بن الوليد؛ قال فيه الدارقطني: منكر الحديث.

(٥) لم نقف عليه عند الترمذي من حديث أنس، وأخرجه البزار كشف الآثار (٧٩٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٢٠٠) و(٢٢٠١) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه الطيالسي (١٦٨٣)، وعبد بن حميد (١٠٠٦)، والترمذي (١٠٠٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ. وأخرجه ابن سعد ١/ ١٣٨، والبزار في مسنده (١٠٠١)، والحاكم ٤/ ٤٠ من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

(٦) هو محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان، أحد شيوخ الخطيب البغدادي، ولد سنة ٣٤٨هـ، وتوفي سنة ٤٤٠هـ السير ١٧/ ٥٩٨ - ٦٠٠. والحديث أخرجه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٨٤)، وابن =

وخرَّج ابن بشران[١] عن عكرمة عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «بُعثتُ بِهَدْمِ المزامير والطبل»[٢]. وروى الترمذيُّ من حديث عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلَتْ أُمَّتي خمسَ عشرةَ خَصْلةً حَلَّ بها البلاء..» فذكر منها: «اتُّخِذَتِ القَيْناتُ والمعازِف»[٣]. وفي حديث أبي هريرة: «وظهرتِ القِيانُ والمعازِفُ»[٤]. وروى ابن المبارك، عن مالك بن أنس، عن محمد بن الْمُنْكَدِر، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلَس إلى قَينةٍ يسمَعُ منها صُبَّ في أُذنِه الآنُكُ[٥] يومَ القيامة»[٦]. وروى أسد بن موسى، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن محمد بن المُنكدِر قال: بلغَنا أنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: «أينَ عبادي الذين كانوا يُنزِّهون أنفسَهم وأسماعَهم عن اللهو ومزامير الشيطان، أحِلُّوهم رياضَ المسكِ، وأخبِروهم أنِّي قد أحللتُ عليهم رضواني». وروى ابن وهب، عن مالك، عن محمد بن المنكدر مثلَه، وزاد بعد قوله: «المسك» ثم يقول للملائكة: أسمِعوهم حمدي وشكري وثنائي، وأخبروهم ألَّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»[٧]. وقد رُويَ مرفوعاً هذا المعنى من

= الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٧ من طريق موسى بن عمير، عن جعفر بن محمد، به. موسى بن عمير كذبه أبو حاتم وضعفه ابن عدي. الميزان ٤/ ٢١٥ . ومحمد بن علي بن الحسين والد جعفر روايته عن علي مرسلة. التهذيب ٣/ ٦٥٠ .

(١) هو عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران إمام محدث، وهو مسند العراق، ولد سنة ٣٣٩هـ، وتوفي سنة ٤٣٠هـ، ودفن في حلب. السير ١٧/ ٤٥٠ - ٤٥١ .

(٢) أخرجه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٦ - ٢٢٧ من طريق ابن بشران، به. وأخرجه تمام في فوائده (١٢٣٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٢١٠) وقال: هذا حديث غريب، لا نعلم أحداً رواه غير الفرج بن فضالة، وقد تكلَّم فيه بعض أهل الحديث وضعَّفه من قبل حفظه.

(٤) سنن الترمذي (٢٢١١) وفي إسناده رُميح الجذامي، وهو مجهول فيما قاله الحافظ في التقريب.

(٥) أي: الرصاص. النهاية (أنك).

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥١/ ٢٦٣ من طريق أبي نعيم الحلبي، عن ابن المبارك، به. وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧٨٦ وقال: قال أحمد بن حنبل: هذا حديث باطل.

(٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٣) عن مالك، به. وإسناده منقطع.

حديث أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ استمعَ إلى صوت غناءٍ لم يؤذَنْ له أن يسمع الرُّوحانيين» فقيل: ومَنِ الرُّوحانيون يا رسولَ الله؟ قال: «قُرَّاء أهل الجنة» خرَّجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»(١) وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»(٢) مع نظائره: «فمن شرِبَ الخمرَ في الدنيا لم يشرَبْها في الآخرة، ومن لبسَ الحريرَ في الدنيا لم يلبَسْه في الآخرة»(٣). إلى غير ذلك. وكلُّ ذلك صحيحُ المعنى على ما بيَّنَّاه هناك. ومن رواية مكحول عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَات وعنده جاريةٌ مغنِّيةٌ فلا تُصلُّوا عليه»(٤). ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء. وهي المسألة:

الثانية ـ وهو الغناء المُعتاد عند المشتَهِرين به، الذي يُحرِّك النفوس ويبعثها على الهوى والغَزَل، والمُجون الذي يُحرِّك الساكنَ ويبعثُ الكامنَ، فهذا النوع إذا كان في شعرٍ يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهنَّ، وذكر الخمور والمُحرَّمات لا يُختلف في تحريمه؛ لأنَّه اللهوُ والغناءُ المذمومُ بالاتِّفاق. فأمَّا ما سلِمَ من ذلك فيجوز القليلُ منه في أوقات الفرح، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخَنْدَق وحَدْوِ أنْجشَة وسَلَمة بن الأكْوع. فأمَّا ما ابتدعَتْه الصوفيةُ اليومَ من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبَّابات والطار والمعازف والأوتار فحرام. ابن العربيّ: فأمَّا طبل الحرب فلا حرجَ فيه؛ لأنَّه يقيمُ النفوسَ، ويُرهِبُ

---

(١) ١/ ١٥٤.

(٢) ص ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٣) أخرجه بتمامه النسائي في الكبرى (٦٨٤٠)، والحاكم ٤/ ١٤١ من حديث أبي هريرة ﷺ.

والطرف الأول أخرجه أحمد (٤٦٩٠)، والبخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر ﷺ. والطرف الثاني أخرجه أحمد (١١١٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. و(١١٩٨٥)، والبخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣) من حديث أنس ﷺ. وأحمد (١٦١١٨)، والبخاري (٥٨٣٣) من حديث عبد الله بن الزبير ﷺ. ومسلم (٢٠٧٤) من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٤) ذكره ابن حزم في المحلى ٩/ ٥٧ من طريق عمر بن موسى، عن مكحول، به. وقال: عمر بن موسى مجهول، ومكحول لم يلق عائشة.

العدوَّ[١]. وفي اليَرَاعة تردُّد. والدُّفُّ مباح. الجوهريّ: وربما سمُّوا قصبة الراعي التي يَزْمُر بها هَيْرعةً ويَراعةً[٢]. قال القشيريّ: ضُرِبَ بين يدي النبيِّ ﷺ يومَ دخل المدينة، فهَمَّ أبو بكر بالزَّجر، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُنَّ يا أبا بكرٍ حتى تعلمَ اليهودُ أنَّ ديننَا فَسيح» فكُنَّ يضرِبْنَ ويقُلْنَ: نحنُ بناتُ النجّار، حبَّذا محمدٌ من جارِ[٣]. وقد قيل: إنَّ الطبلَ في النكاح كالدُّفِّ، وكذلك الآلات المُشْهِرة للنكاح يجوز استعمالُها فيه بما يَحسُنُ من الكلام ولم يكن فيه رَفَثٌ.

الثالثة ـ الاشتغال بالغناء على الدوام سَفَهٌ تُرَدُّ به الشهادة، فإن لم يَدُمْ لم تُردَّ. وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال: سألتُ مالك بن أنس عمَّا يُرخِّص فيه أهلُ المدينة من الغناء، فقال: إنما يفعلُه عندنا الفُسَّاق. وذكر أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبريّ قال: أمَّا مالك بن أنس فإنَّه نهى عن الغناء وعن استماعِه، وقال: إذا اشترى جاريةً ووجدها مغنيةً كان له ردُّها بالعيب، وهو مذهب سائر أهل المدينة، إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنه زكريا السَّاجي أنه كان لا يرى به بأساً. وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: فأمَّا مالكٌ فيُقال عنه: إنَّه كان عالماً بالصناعة، وكان مذهبُه تحريمَها. ورُوِيَ عنه أنه قال: تعلمتُ هذه الصناعةَ وأنا غلامٌ شاب، فقالت لي أمي: أيْ بُنيَّ، إنَّ هذه الصناعةَ يَصلُح لها من كان صبيحَ الوجه ولستَ كذلك، فاطلُبِ العلومَ الدينية. فصحبتُ ربيعةَ، فجعلَ اللهُ في ذلك خيراً. قال أبو الطيب الطبريّ: وأمَّا مذهب أبي حنيفة فإنه يكره الغناءَ مع إباحته شرب النَّبيذ، ويجعلُ سماع الغناء من الذنوب. وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة: إبراهيم والشَّعبيِّ وحماد والثوري وغيرِهم، لا اختلافَ بينهم في ذلك. وكذلك لا يُعرَفُ بين أهل البصرة خلافٌ في كراهية ذلك والمنع منه، إلَّا ما

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٢ .

(٢) الصحاح (هرع).

(٣) طرفه الأول أخرجه أحمد (٢٤٨٥٥) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها. وطرفه الثاني أخرجه ابن ماجه (١٨٩٩) بنحوه من حديث أنس بن مالك ﷺ.

رُوِيَ عن عُبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأساً. قال: وأما مذهب الشافعيِّ فقال: الغناء مكروهٌ يُشبه الباطل، ومنِ استكثرَ منه فهو سفيهٌ تُردُّ شهادتُه. وذكر أبو الفرج الجَوْزي عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاثَ رواياتٍ؛ قال: وقد ذكر أصحابُنا عن أبي بكر الخَلَّال وصاحبِه عبد العزيز إباحةَ الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزُّهديَّات؛ قال: وعلى هذا يُحمَلُ ما لم يكره أحمد، ويدلُّ عليه أنه سُئِلَ عن رجلٍ ماتَ وخلَفَ ولداً وجاريةً مغنيةً، فاحتاج الصبيُّ إلى بيعها فقال: تُباعُ على أنها ساذجةٌ لا على أنها مُغنِّية. فقيل لها: إنها تساوي ثلاثين ألفاً، ولعلَّها إن بيعَتْ ساذجةً تُساوي عشرين ألفاً؟ فقال: لا تُباع إلَّا على أنها ساذَجةٌ. قال أبو الفرج: وإنما قال أحمد هذا؛ لأنَّ هذه الجارية المغنيَّة لا تُغنِّي بقصائد الزهد، بل بالأشعار المُطربةِ المُثيرةِ إلى العشق. وهذا دليلٌ على أنَّ الغناء محظورٌ؛ إذ لو لم يكن محظوراً ما جاز تفويتُ المال على اليتيم. وصار هذا كقول أبي طلحةَ للنبيِّ ﷺ: عندي خمرٌ لأيتام؟ فقال: «أرِقْها»[١]. فلو جازَ استصلاحُها لمَا أُمِر بتضييع مال اليتامى. قال الطبريّ: فقد أجمعَ علماءُ الأمصار على كراهةِ الغناء والمنعِ منه، وإنَّما فارق الجماعةَ إبراهيمُ بن سعد وعبيد الله العنبري؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالسوادِ الأعظم»[٢] و«من فارق الجماعة ماتَ ميتةً جاهلية»[٣]. قال أبو الفرج: وقال القفَّال من أصحابنا: لا تُقبَلَ شهادةُ المُغنِّي والرقَّاص[٤].

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٢١٨٩)، وأبو داود (٣٦٧٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وهو في صحيح مسلم (١٩٨٣) وفيه أن السائل رجل، ولم تتعين تسميته بأبي طلحة.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس ﷺ. قال البوصيري: في إسناده أبو خلف الأعمى، واسمه حازم بن عطاء، وهو ضعيف. قلنا: وفي إسناده معان بن رفاعة، وهو لين الحديث فيما قاله الحافظ في التقريب.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٨٧)، والبخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٩٤٤)، ومسلم (١٨٤٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من تلبيس إبليس ص ٢٢٢ - ٢٢٤ دون قوله: وقال ابن خويز منداد... فجعل الله في ذلك خيراً.

قلت: وإذ قد ثبت أنَّ هذا الأمر لا يجوز فأَخْذُ الأجرةِ عليه لا تجوز. وقدِ ادَّعى أبو عمر بن عبد البر[١] الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك. وقد مضى في الأنعام عند قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] وحسْبُك.

الرابعة ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: وأمَّا سماعُ القَيناتِ فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شيءٌ منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها، فكيف يُمنَعُ من التلذُّذِ بصوتها. أمَا أنه لا يجوز انكشافُ النساء للرجال، ولا هَتْكُ الأستار، ولا سماعُ الرَّفَث، فإذا خرج ذلك إلى ما لا يَحِلُّ ولا يجوز، مُنِعَ من أوَّله، واجتُثَّ من أصله[٢]. وقال أبو الطيِّب الطبريّ: أمَّا سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرَمٍ فإنَّ أصحاب الشافعيِّ قالوا: لا يجوز، سواء كانت حرَّةً أو مملوكة. قال: وقال الشافعيُّ: وصاحبُ الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيهٌ تُرَدُّ شهادتُه، ثم غلَّظ القول فيه فقال: فهي دِياثة. وإنَّما جعل صاحبَها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً[٣].

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قراءة العامة بضمِّ الياء، أي: ليُضِلَّ غيرَه عن طريق الهدى، وإذا أضلَّ غيرَه فقد ضلَّ. وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن وحميد وأبو عمرو ورُوَيْس وابن أبي إسحاق بفتح الياء على اللازم، أي: لِيَضِلَّ هو نفسه[٤]. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قراءةُ المدنيِّين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفًا على «مَنْ يَشْتَرِي» ويجوز أن يكون مُستأنَفاً. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: «وَيَتَّخِذَها»

---

(١) في الكافي ١/ ٤٤٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٢.

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٣٤.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢، وينظر السبعة ص ٢٦٧، والتيسير ص ١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٩. وينظر ما سلف ١٢/ ١٤٢.

بالنصب عطفًا على «لِيُضلَّ»[١]. ومن الوجهين جميعاً لا يَحسُنُ الوقفُ على قوله: «بغَيْرِ عِلْمٍ» والوقف على قوله: «هُزُوًا»[٢]، والهاء في «يَتَّخذَها» كنايةٌ عن الآيات. ويجوز أن يكون كنايةً عن السبيل؛ لأنَّ السبيلَ يؤنَّثُ ويُذكَّر[٣]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: شديدٌ يُهينهم. قال الشاعر:

ولقد جزِعْتُ إلى النَّصارى بعد ما لَقيَ الصليبُ من العذابِ مُهينا[٤]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني القرآن. ﴿وَلَّىٰ﴾ أي: أعرض[٥] ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ نصب على الحال[٦]. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ثِقَلاً وصَمَماً. وقد تقدَّم[٧]. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تقدَّم أيضاً[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ لـمَّا ذكر عذابَ الكفار ذكر نعيمَ المؤمنين. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي: وعدَهم اللهُ هذا وعداً حقًّا لا خُلْفَ فيه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم أيضاً[٩].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ . وقد اختلف في القراءة عن عاصم، ففي رواية أبي بكر عنه بالرفع، وفي رواية حفص بالنصب. وينظر السبعة ص ٥١٢ ، والتيسير ص ١٧٦ .

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٣٧ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .

(٤) قائله جرير، وهو في الكامل ٣/ ١٠٧٥ .

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩ .

(٦) البيان ٢/ ٢٥٤ .

(٧) ٨/ ٣٤٥ .

(٨) ١/ ٣٠١ .

(٩) معنى «العزيز» سلف ٣/ ٤٠٣ - ٤٠٤ ، ومعنى «الحكيم» سلف ١/ ٤٢٩ .

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ تكون «تَرَوْنَها» في موضع خفضٍ على النعت لـ «عَمَد» فيُمكن أن يكون ثَمَّ عَمَدٌ ولكن لا تُرى. ويجوز أن تكون في موضع نصبٍ على الحال من «السَّماوات» ولا عَمَدَ ثَمَّ البتّة[1]. النحَّاس: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: الأَولى أن يكونَ مُستأنَفاً[2]، ولا عَمَدَ ثَمَّ. قاله مكيّ[3]. ويكون «بغَيْرِ عَمَدٍ» التمام[4]. وقد مضى في «الرعد»[5] الكلامُ في هذه الآية. ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابت[6]. ﴿أَن تَمِيدَ﴾ في موضع نصب؛ أي: كراهية أن تميد. والكوفيون يُقدِّرونه بمعنى: لئلَّا تميد. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ عن ابن عباس: من كلِّ لونٍ حَسَن. وتأوَّله الشَّعبيُّ على الناس؛ لأنَّهم مخلوقونَ من الأرض؛ قال: مَنْ كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم، ومَن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم. وقد تأوَّلَ غيرُه أنَّ النُّطفةَ مخلوقةٌ من تراب، وظاهرُ القرآن يدلُّ على ذلك.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر[7]. والخلق بمعنى المخلوق[8]، أي: هذا الذي ذكرتُه مما تُعاينون «خَلْقُ اللهِ»[9] أي: مخلوقُ الله، أي: خلقَها من غير

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٤ .
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .
(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٤ .
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .
(٥) ٦/١٢ - ٧ .
(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥ .
(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣ ، والكلام الذي قبله منه.
(٨) الكشاف ٣/ ٢٣٠ .
(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٠ .

شريك. ﴿فَأَرُونِي﴾ معاشرَ المشركين ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام. ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المشركون ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خُسرانٍ ظاهر[١]. و«ما» استفهامٌ في موضع رفعٍ بالابتداء، وخبرُه «ذا»، وذا بمعنى الذي. و«خلق» واقعٌ على هاءٍ محذوفة[٢]، تقديره: فأروني أيَّ شيءٍ خَلَقَ الذين من دونه، والجملة في موضع نصبٍ بـ «أروني» وتُضمَرُ الهاءُ مع «خلق» تعودُ على الذين، أي: فأروني الأشياءَ التي خلقَها الذين من دونه[٣]. وعلى هذا القول تقول: ماذا تعلمتَ، أنحوٌ أم شِعرٌ؟ ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ «أروني» و«ذا» زائدة، وعلى هذا القول يقول: ماذا تعلمتَ، أنحواً أم شعراً؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ مفعولان. ولم ينصرِفْ «لُقْمان» لأنَّ في آخره ألفاً ونوناً زائدتين، فأشبهَ فُعلانَ الذي أُنثاه فُعلَى، فلم ينصرِفْ في المعرفة؛ لأنَّ ذلك ثِقَلٌ ثانٍ، وانصرفَ في النكرة؛ لأنَّ أحدَ الثِّقَلين قد زال. قاله النحَّاس[٤]. وهو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارَح، وهو آزر أبو إبراهيم. كذا نسبه محمد بن إسحاق[٥]. وقيل: هو لقمان بن عنقاء بن سرون، وكان نُوبيًّا من أهل أيلة. ذكره السُّهيليُّ[٦]. قال وهب: كان ابنَ أخت أيوب. وقال مقاتل: ذُكِرَ أنه كان ابنَ خالة أيوب[٧]. الزَّمخشريُّ: وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٤٤ - ٥٤٥، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٠ بمعناه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٥.

(٤) في إعراب القرن ٣/ ٢٨٣ وما قبله منه.

(٥) عرائس المجالس ص ٣٥٠.

(٦) في التعريف والإعلام ص ١٣٤. ووقع في مطبوعه: «يثرون» بدل «سرون».

(٧) عرائس المجالس ص ٣٥٠.

كان من أولاد آزر، عاش ألف سنةٍ، وأدركه داود عليه السلام وأخذَ عنه العلم، وكان يُفتي قبل مَبعثِ داود، فلمَّا بُعِثَ قطع الفتوى فقيل له، فقال: لا أكتفِي إذ كُفيتُ[١]. وقال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل[٢]. وقال سعيد بن المسيِّب: كان لقمانُ أسودَ من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاهُ اللهُ تعالى الحكمةَ، ومنعَه النبوَّة[٣]. وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبيًّا. وقال بنبوَّته عِكرمةُ والشَّعبيُّ، وعلى هذا تكون الحكمةُ النبوَّةَ. والصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمةِ الله تعالى - وهي الصواب في المعتقدات والفقه في الدِّين والعقل - قاضيًا في بني إسرائيل، أسودَ مشقَّقَ الرِّجلين ذا مشافر، أي: عظيم الشفتين. قاله ابن عباس وغيره. ورُوِيَ من حديث ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لم يكُنْ لقمانُ نبيًّا، ولكن كان عبداً كثيرَ التفكُّرِ، حَسَن اليقين، أحبَّ اللهَ تعالى فأحبَّه، فمنَّ عليه بالحكمة، وخيَّره في أن يجعلَه خليفةً يحكم بالحق، فقال: ربِّ، إنْ خيَّرتني قبلتُ العافية وتركتُ البلاء، وإن عزمتَ عليَّ فسمعًا وطاعةً فإنك ستعصمني». ذكره ابن عطية[٤]. وزاد الثعلبيُّ[٥]: فقالت له الملائكة بصوتٍ لا يراهم: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأنَّ الحاكمَ بأشدِّ المنازلِ وأكدرِها، يغشاه المظلومُ من كلِّ مكان، إن يُعَنْ فبالْحَرِيِّ أن ينجو، وإن أخطأَ أخطأَ طريقَ الجنة، ومن يكُنْ في الدنيا ذليلاً خيرٌ من أن يكون فيها شريفاً، ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفَتْه الدنيا ولا يُصيبُ الآخرة. فعجبتِ الملائكةُ من حُسنِ مَنطقِه، فنام نومةً، فأُعطِيَ الحكمةَ فانتبه يتكلَّم بها، ثم نُودِيَ داودُ بعده فقَبِلها - يعني الخلافة - ولم يَشْتَرِطْ ما اشترطَه لقمان، فهَوى في الخطيئة غيرَ مرة، كلُّ ذلك يعفو الله عنه. وكان لقمانُ يُوازِرُه بحكمته، فقال له داود: طوبى لك يا لقمان،

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣١ .

(٢) عرائس المجالس ص ٣٥٠ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ ، وأخرجه الطبري ٣٨/ ٥٤٧ مختصراً.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٧ .

(٥) في عرائس المجالس ص ٣٥١ ، وأخرجه بتمامه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦/ ٨٥ - ٨٦ .

أُعطيتَ الحكمةَ، وصُرِفَ عنك البلاءُ، وأُعطي داودُ الخلافةَ، وابتُلي بالبلاءِ والفتنة.

وقال قتادة: خيَّر اللهُ تعالى لقمانَ بين النبوَّة والحكمة، فاختار الحكمةَ على النبوَّة، فأتاه جبريلُ عليه السلام وهو نائمٌ فذَرّ عليه الحكمةَ، فأصبح وهو ينطِقُ بها، فقيل له: كيفَ اخترتَ الحكمة على النبوَّةِ وقد خيَّرك ربُّكَ؟ فقال: إنه لو أرسل إليَّ بالنبوَّة عَزْمةً[1] لرَجَوْتُ فيها العونَ منه، ولكنه خيَّرني فخِفتُ أن أضعُفَ عن النبوَّة، فكانتِ الحكمةُ أحبَّ إليَّ[2].

واختُلِفَ في صَنعته؛ فقيل: كان خياطاً. قاله سعيد بن المسيِّب[3]، وقال لرجلٍ أسود: لا تحزَنْ من أنَّكَ أسود، فإنَّه كان مِنْ خيرِ الناس ثلاثةٌ من السودان: بلال، ومِهْجع مولى عمر، ولقمان[4]. وقيل: كان يحتطب كلَّ يومٍ لمولاه حُزْمةَ حطب. وقال لرجلٍ ينظر إليه: إن كنتَ تراني غليظَ الشَّفتينِ فإنه يخرج من بينهما كلامٌ رقيق، وإن كنتَ تراني أسودَ فقلبي أبيض[5]. وقيل: كان راعياً، فرآه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: ألستَ عبدَ بني فلان؟ قال: بلى. قال: فما بَلَغَ بِكَ ما أرى؟ قال: قَدَرُ الله، وأدائي الأمانة، وصِدقُ الحديث، وتركُ ما لا يعنيني. قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر[6].وقال خالد الرَّبَعي: كان نجاراً، فقال له سيِّدُه: اذبَحْ لي شاةً وائتني بأطيبها مُضْغتين. فأتاه باللسان والقلب، فقال له: ما كان فيها شيءٌ أطيبَ من هذين؟ فسكت، ثم أمره بذبْحِ شاةٍ أخرى، ثم قال له: ألْقِ أخبثَها مُضْغتين. فألقى اللسان والقلب، فقال له: أمرتُكَ أن تأتيني بأطيبَ مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتُكَ أن تُلقي أخبثَها فألقيتَ اللسانَ والقلب؟! فقال له: إنه ليس شيءٌ أطيبَ منهما إذا

---

(١) أي: حقًّا من حقوقه، وواجباً من واجباته. النهاية (عزم).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ .

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص ٦٤ ، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٩١ ، وزاد المسير ٦/ ٣١٨ .

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٤٧ - ٥٤٨ .

(٥) الكشاف ٣/ ٢٣١ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ - ٣٣٢.

طابا، ولا أخبثَ منهما إذا خَبُثا[١].

قلت: هذا معناه مرفوعٌ في غير ما حديث، من ذلك قولُه ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صَلُحتْ صَلُحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[٢]. وجاء في اللسان آثارٌ كثيرةٌ صحيحةٌ وشهيرة؛ منها قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ وقاه اللهُ شرَّ اثنتين وَلَج الجنة: ما بين لَحْيَيْه ورجليه»... الحديث[٣]. وَحِكَم لقمانَ كثيرةٌ مأثورةٌ هذا منها. وقيل له: أيُّ الناس شرٌّ؟ قال: الذي لا يُبالي أن رآه الناس مُسيئاً[٤].

قلتُ: وهذا أيضاً مرفوعٌ معنًى؛ قال ﷺ: «كلُّ أمتي معافًى إلَّا المُجاهِرون، وإنَّ من المُجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليل عملاً ثم يصبحُ وقد ستَره اللهُ فيقول: يا فلان، عملتُ البارحةَ كذا وكذا. وقد باتَ يستره ربُّه، ويُصبح يَكْشِفُ سِترَ الله عنه». رواه أبو هريرة، خرَّجه البخاري[٥]. وقال وهب بن مُنبِّه: قرأتُ من حكمة لقمان أرجَحَ من عشرة آلاف باب[٦]. ورُوِيَ أنه دخل على داودَ عليه السلام وهو يَسْرُد الدروع، وقد ليَّن الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسألَه، فأدركَتْه الحكمةُ فسكت، فلما أتمَّها لبِسَها وقال: نِعْمَ لُبوسُ الحربِ أنتِ. فقال: الصمتُ حكمة، وقليلٌ فاعِلُه. فقال له داود: بحقٍّ ما سُمِّيتَ حكيماً[٧].

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فيه تقديران: أحدهما أن تكون «أن» بمعنى أي مفسِّرة، أي: قلنا له: اشكر. والقول الآخر أنها في موضع نصب، والفعل داخلٌ في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢١٤، وأحمد في الزهد ص ٦٥، والطبري ٣٨/٥٤٨.

(٢) سلف ١/ ٢٨٧.

(٣) سلف ١٢/ ٨٥.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٧.

(٥) في صحيحه (٦٠٦٩)، وهو في صحيح مسلم (٢٩٩٠).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٣.

(٧) الكشاف ٣/ ٢٣١.

صلتها، كما حكى سيبويه: كتبتُ إليه أن قُمْ. إلَّا أن هذا الوجه عنده بعيد[١]. وقال الزجَّاج: المعنى: ولقد آتينا لقمانَ الحكمة لأَنْ يشكر الله تعالى[٢]. وقيل: أي: بأنِ اشكُرْ لله تعالى فشكر، فكان حكيماً بشكره لنا. والشكر لله: طاعتُه فيما أمر به. وقد مضى القول في حقيقته لغةً ومعنًى في «البقرة»[٣] وغيرها. ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: من يُطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأنَّ نفع الثواب عائدٌ إليه. ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: كفر النعم فلم يوحِّد الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن عبادة خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ عند الخلق؛ أي: محمود[٤]. وقال يحيى بن سلاَّم: «غَنِيٌّ» عن خلقه «حَمِيدٌ» في فعله[٥]

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ قال السُّهَيْليُّ: اسم ابنه ثاران؛ في قول الطبري والقُتَبيّ[٦]. وقال الكلبي: مشكم. وقيل: أنعم. حكاه النقَّاش[٧].

وذكر القُشيريُّ أنَّ ابنَه وامرأته كانا كافرين، فما زال يعظهُما حتى أسلما. قلت: ودلَّ على هذا قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وفي «صحيح مسلم»[٨] وغيره عن عبد الله قال: لمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لا يظلِمُ نفسَه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنُّون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣. وكلام سيبويه في الكتاب ٣/ ١٦٢.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥.
(٣) ٢/ ١٠٤ - ١٠٦.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٨.
(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٣٣.
(٦) التعريف والإعلام ص ١٣٤، وهو في المعارف لابن قتيبة ص ٥٥.
(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٣٣.
(٨) (١٢٤)، وقد سلف ٨/ ٤٤٥.

بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

واختُلِفَ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فقيل: إنه من كلام لقمان. وقيل: هو خبرٌ من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به في تأكيد المعنى، ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لمَّا نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أشفقَ أصحابُ رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يظلم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فسكنَ إشفاقُهم، وإنما يسكن إشفاقُهم بأن يكون خبراً من الله تعالى، وقد يسكن الإشفاقُ بأن يذكرَ اللهُ ذلك عن عبدٍ قد وصفَه بالحكمة والسَّداد[١].

و«إذ» في موضع نصبٍ بمعنى اذكر. وقال الزجَّاج في كتابه في القرآن: إنَّ «إذ» في موضع نصبٍ بـ «آتينا» والمعنى: ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ إذ قال. النحَّاس: وأحسبه غلطاً؛ لأنَّ في الكلام واواً تمنع من ذلك. وقال: ﴿يَـٰبُنَىِّ﴾ بكسر الياء؛ لأنَّها دالَّةٌ على الياء المحذوفة، ومَنْ فتحَها فلِخفَّة الفتحة عنده[٢]، وقد مضى في «هود»[٣] القولُ في هذا. وقوله: «يا بني» ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه، وإنَّما هو على وجه الترقيق، كما يقُال للرجل: يا أُخَيَّ، وللصبي: هو كُوَيْس.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ هاتان الآيتان اعتراضٌ بين أثناء

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٨.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٤، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٩٦.

(٣) ١١/ ١٢٣، ووقع في النسخ الخطية: يوسف.

وصيَّة لقمان. وقيل: إنَّ هذا ممَّا أوصى به لقمانُ ابنَه؛ أخبر الله به عنه، أي: قال لقمان لابنه[١]: لا تُشرِك بالله ولا تُطِعْ في الشرك والديك، فإنَّ الله وصَّى بهما في طاعتهما ممَّا لا يكون شركاً ومعصيةً لله تعالى. وقيل: أي: وإذ قال لقمان لابنه، فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصَّينا الإنسان بوالديه، أي: قلنا له: اشكُرْ لله، وقلنا له: ووصَّينا الإنسان. وقيل: وإذا قال لقمان لابنه: لا تُشرك، ونحن وصَّينا الإنسان بوالديه حسناً، وأمرنا الناس بهذا، وأمر لقمان به ابنَه. ذكر هذه الأقوال القشيريُّ. والصحيح أنَّ هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وَقَّاص، كما تقدَّم في «العنكبوت»[٢]، وعليه جماعة المفسرين.

وجملةُ هذا الباب أنَّ طاعة الأبوين لا تُراعى في ركوب كبيرةٍ ولا في ترك فريضةٍ على الأعيان، وتلزم طاعتهُما في المباحات، ويُستحسن في ترك الطاعات الندب، ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أنَّ هذا أقوى من الندب، لكن يُعلَّلُ بخوف هلكةٍ عليها، ونحوه مما يُبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب. وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعَتْه أمُّه من شهود العِشاء شفقةً فلا يُطِعْها[٣].

الثانية ـ لمَّا خصَّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرَّضاع حصلَ لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة، وأشبهَ ذلكَ قولَه ﷺ حين قال له رجلٌ: من أَبَرُّ؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أبوك» فجعل له الرُّبعَ من المَبرَّة كما في هذه الآية[٤]، وقد مضى هذا كلُّه في «سبحان»[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٣٤٨/٤ ، وزاد المسير ٦/ ٣٢٠ .

(٢) ٣٣٩/١٦-٣٤٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٣٤٩/٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٣٤٨/٤ .

(٥) ٥٢/١٣ - ٥٣ .

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: حملَتْه في بطنها وهي تزداد كلَّ يوم ضعفاً على ضعف. وقيل: المرأة ضعِيفةُ الخِلقة، ثم يُضْعِفها الحمل[١]. وقرأ عيسى الثَّقفيّ: «وَهَناً على وَهَن» بفتح الهاء فيهما، ورُويت عن أبي عمرو، وهما بمعنًى واحد[٢]. قال قَعْنَب ابن أم صاحب:

هـل لـلـعـواذلِ مـن نـاهٍ فَـيـزْجُـرَهـا   إنَّ الـعـواذِلَ فـيـهـا الأَيْـنُ والـوَهَـنُ[٣]

يقال: وَهَن يَهِنُ، ووَهُنَ يَوْهَنُ، ووَهِنَ يَهِنُ، مثلُ وَرِمَ يَرِمُ[٤].

وانتصب «وَهْناً» على المصدر، ذكره القشيري. النحَّاس[٥]: على المفعول الثاني بإسقاط حرف الجر، أي: حملته بضعفٍ على ضعف.

وقرأ الجمهور: «وَفِصَالُهُ»، وقرأ الحسن ويعقوب: «وفَصْله» وهما لغتان، أي: وفصاله في انقضاء عامين، والمقصود من الفصام الفطام، فعبَّر بغايته ونهايته[٦]. ويقال: انفصلَ عن كذا أي: تميَّز، وبه سُمِّيَ الفَصِيلُ.

الرابعة ـ الناسُ مُجْمِعون على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات، وأما في تحريم اللبن فحدَّدتْ فرقةٌ بالعام لا زيادةَ ولا نقص. وقالت فرقةٌ: العامان وما اتَّصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متَّصلَ الرضاع. وقالت فرقة: إنَّ

---

(١) مجمع البيان ٢١/ ٥٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٦٧، والشاذة ص ١١٦ - ١١٧، والمشهور عن أبي عمرو بمثل قراءة العامة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣٤.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٤.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩، وزاد المسير ٦/ ٣١٩، وقراءة «وفصله» في المحتسب٢/ ١٦٧ عن الحسن ويعقوب وأبي رجاء والجحدري وقتادة، وفي الشاذة ص ١١٦ عن الجحدري. وزاد في زاد المسير نسبتها إلى طلحة بن مصرف.

فُطمَ الصبيّ قبل العامين وتركَ اللبن، فإنَّ ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرِّم[١]؛ وقد مضى هذا في «البقرة»[٢] مستوفًى.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ «أن» في موضع نصبٍ في قول الزجَّاج، وأن المعنى: ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لي. النحَّاس: وأجوَدُ منه أن تكون «أن» مفسِّرة، والمعنى قلنا له: أنِ اشكُرْ لي ولوالديك[٣]. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية[٤]. وقال سفيان بن عُيَيْنة: من صلَّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما[٥].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ قد بيَّنَّا أنَّ هذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لمَّا أسلم، وأنَّ أمَّه ـ وهي حَمْنة بنت أبي سفيان بن أُميَّة ـ حلفت ألَّا تأكل؛ كما تقدَّم في الآية قبلها.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوف[٦]، أي: مصاحِباً معروفاً؛ يقال: صاحبتُه مُصاحبةً ومُصاحَباً. و«مَعْرُوفاً» أي: ما يَحْسُن[٧].

والآية دليلٌ على صلة الأبوين الكافرَيْن بما أمكن من المال إن كانا فقيرين،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

(٢) ٤/ ١٠٦ - ١١١.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٩٦.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٣٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤٩١.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٦.

وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق؛ وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق للنبيِّ عليه الصلاة والسلام وقد قَدِمت عليها خالتُها ـ وقيل: أمُّها من الرضاعة ـ فقالت: يا رسول الله، إنَّ أمِّي قدِمَتْ عليَّ وهي راغبةٌ، أفأَصِلُها؟ قال: «نعم». وراغبة قيل: معناه: عن الإسلام. قال ابن عطية: والظاهر عندي أنها راغبةٌ في الصِّلة، وما كانت لِتقْدَم على أسماء لولا حاجتُها. ووالدة أسماء هي قُتيلة بنت عبد العُزَّى بن عبد أسد، وأمُّ عائشة وعبد الرحمن هي أم رُومان، قديمةُ الإسلام[١].

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصيَّةٌ لجميع العالم؛ كأن المأمور الإنسان. و«أَنَابَ» معناه: مال ورجع إلى الشيء، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين. وحكى النقَّاش أنَّ المأمور سعد، والذي أناب أبو بكر؛ وقال: إنَّ أبا بكرٍ لمَّا اسلمَ أتاه سعدٌ وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزُّبير فقالوا: آمنتَ؟ قال: نعم. فنزلت فيه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] فلمَّا سمعَها الستة آمنوا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨][٢]. وقيل: الذي أناب النبيُّ ﷺ[٣]. وقال ابن عباس: ولمَّا أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعُوَيْمر، فلم يبقَ منهم مشركٌ إلا عُتبة.

ثم توعَّد عزَّ وجلَّ بِبعثِ مَن في القبور والرجوع إليه للجزاءِ والتوقيفِ على صغيرِ الأعمال وكبيرِها[٤].

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

المعنى: وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ. وهذا القول من لقمان إنَّما قُصِدَ به إعلامُ ابنه

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩، والحديث سلف ٦/ ١٤.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.
(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢٠، ونسبه إلى ابن السائب.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

بقدر قدرة الله تعالى. وهذه الغاية التي أمكنَه أن يفهَمَه؛ لأنَّ الخردلَةُ يقال: إنَّ الحِسَّ لا يُدرِكُ لها ثِقَلًا؛ إذ لا تُرجِّحُ ميزاناً[1]. أي: لو كان للإنسان رزقٌ مثقالَ حبَّةِ خَرْدَلٍ في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقَها إلى مَنْ هي رِزقُه، أي: لا تهتمَّ للرزق حتى تشتغِلَ به عن أداء الفرائض، وعن اتباع سبيل من أناب إليَّ.

قلت: ومن هذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ لعبد الله بن مسعود: «لا تُكثِرْ هَمَّكَ، ما يُقَدَّرُ يكون، وما تُرْزَقُ يأتيك»[2]. وقد نطقتْ هذه الآية بأنَّ الله تعالى قد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً، سبحانه لا شريكَ له. ورُوِيَ أنَّ ابنَ لقمان سأل أباه عن الحبَّةِ تقع في سُفل البحر أيعلَمُها الله؟ فراجعه لقمانُ بهذه الآية. وقيل: المعنى أنه أراد الأعمال، المعاصي والطاعات، أي: إن تَكُ الحسنةُ أو الخطيئةُ مثقالَ حبةٍ يأتِ بها الله، أي: لا تفوتُ الإنسانَ المقدَّرَ وقوعُها منه. وبهذا المعنى يتحصَّل في الموعظة ترجيةٌ وتخويفٌ مضافٌ ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى. وفي القول الأوّل ليس فيه ترجيةٌ ولا تخويف.

قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ عبارةٌ تصلح للجواهر، أي: قدر حبة، وتصلح للأعمال، أي: ما يزِنُه على جهة المماثلة قَدْرُ حبة. ومما يؤيِّد قولَ من قال: هي من الجواهر، قراءةُ عبد الكريم الجَزَري «فتِكِنَّ» بكسر الكاف وشدِّ النون، من الكَنِّ الذي هو الشيء المُغطَّى. وقرأ جمهور القُرَّاء: «إِنْ تَكُ» بالتاء من فوق «مِثْقَالَ» بالنصب على خبر كان، واسمُها مضمرٌ تقديره: مسألتك، على ما رُوي، أو المعصية والطاعة على القول الثاني[3]، ويدلُّ على صحته قولُ ابن لقمان لأبيه: يا أبتِ إن عملتُ الخطيئةَ حيث لا يراني أحدٌ كيف يعلمُها الله؟ فقال لقمان له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٨٠٦)، واللالكائي في شرح أصول السنة (١٠٨٠) عن مالك بن عبد الله المعافري أن رسول الله ﷺ... فذكره. إسناده منقطع.

(٣) من قوله: وقد نطقت هذه الآية... إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠، وما بين حاصرتين منه.

﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية[١]. فما زال ابنه يضطرب حتى مات قاله مقاتل.

والضمير في «إِنَّهَا» ضمير القصة، كقولك: إنها هندٌ قائمةٌ، أي: القصة إنها إن تَكُ مثقالَ حبة. والبصريون يُجيزون: إنها زيدٌ ضربتُه؛ بمعنى إن القصة. والكوفيون لا يُجيزون هذا إلا في المؤنث كما ذكرنا[٢].

وقرأ نافع: «مِثقالُ» بالرفع[٣]، وعلى هذا «تكُ» يرجع إلى معنى خردلة، أي: إن تَكُ حبةً من خردل. وقيل: أسند إلى المثقال فِعلاً فيه علامةُ التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنثٍ هو منه[٤]؛ لأنَّ مثقالَ الحبة من الخردل إمَّا سيئة أو حسنة، كما قال: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فأنَّث وإن كان المِثلُ مذكراً؛ لأنه أراد الحسنات، وهذا كقول الشاعر:

مَشَيْنَ كما اهتزَّتْ رِماحٌ تسفَّهَتْ ... أعالِيَها مَرُّ الرياحِ النَّواسِمِ[٥]

و«تَكُ» ها هنا بمعنى تقع، فلا تقتضي خبراً.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ قيل: معنى الكلام: المبالغةُ والانتهاء في التفهيم، أي: أنَّ قدرتَه تعالى تنال ما يكون في تضاعيف صخرةٍ وما يكون في السماء والأرض[٦]. وقال ابن عباس: الصخرة تحت الأرَضين السبع وعليها الأرض[٧]. وقيل: هي الصخرة على ظهر الحوت[٨]. وقال السُّدِّي: هي صخرةٌ ليست في

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٢ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٤ .

(٣) السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٥٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠ .

(٥) قائله ذو الرمة، وقد سلف ١/ ٣١١ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٢ .

(٨) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٥٦ عن عبد الله بن الحارث، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٣٧ .

السماوات والأرض[١]، بل هي وراءَ سبع أرضين عليها مَلَك قائم؛ لأنه قال: ﴿صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وفيهما غُنْيةٌ عن قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ وهذا الذي قاله ممكن، ويمكن أن يُقال: قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ تأكيدٌ، كقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وصَّى ابنَه بعُظْم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا إنما يُريد به بعد أن يمتثل ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع[٢]. ولقد أحسن من قال:

وابدأ بنفسِكَ فانْهَهَا عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ

في أبياتٍ تقدَّم في «البقرة»[٣] ذِكرُها.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ﴾ يقتضي حضًّا على تغيير المنكر وإن نَالَكَ ضرر، فهو إشعارٌ بأن المغيِّر يؤذَى أحياناً، وهذا القَدْرُ على جهة النَّدبِ والقوَّة في ذات الله، وأما على اللزوم فلا[٤]، وقد مضى الكلام في هذا مستوفًى في «آل عمران» و«المائدة»[٥]. وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها،

---

(١) زاد المسير ٦/ ٣٢١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٣) ٢/ ٥٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٥) ٥/ ٧٣ و٨/ ١٠٥ - ١٠٦.

وألّا يخرج من الجزَع إلى معصية الله عزَّ وجلّ[١]. وهذا قولٌ حسنٌ لأنه يعمُّ.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكاره. وقيل: إنَّ إقامةَ الصلاة والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر من عزم الأمور، أي: ممَّا عزمَه اللهُ وأمرَ به. قاله ابن جُريج. ويَحتمل أن يريد أنَّ ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحَزم السالكين طريق النجاة. وقول ابن جُريج أصوب[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن مُحَيْصِن: «تصاعر» بالألف بعد الصاد. وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد: «تُصَعِّر»[٣]. وقرأ الجَحدرِيُّ: «تُصْعر» بسكون الصاد[٤]، والمعنى متقارب. والصَّعَر: الميل، ومنه قول الأعرابي: وقد أقام الدهرُ صعري، بعد أن قمتُ صعرَه. ومنه قول عمرو بن حُنَيّ التَّغلبي[٥]:

وكنا إذا الجبَّار صَعَّرَ خدَّهُ أقمنا له من مَيْلِهِ فَتقوَّمِ

وأنشده الطبري: «فتقوَّمَا». قال ابن عطية: وهو خطأ؛ لأنَّ قافيةَ الشعر مخفوضة. وفي بيتٍ آخر:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ بقسمه الثاني.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ دون قول ابن عباس.

(٣) ينظر السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٧٦ .

(٤) الشاذة ص ١١٧ ، وزاد المسير ٦/ ٣٢٢ ونسبها أيضاً إلى أبي بن كعب وأبي رجاء وابن السميفع.

(٥) كما في الشعر والشعراء ص ١٣ .

أقمنا له من خَدِّهِ المُتصعِّرِ[١]

قال الهروي: «ولا تُصاعِرْ» أي: لا تُعرِضْ عنهم تكبُّراً عليهم؛ يقال: أصاب البعيرَ صَعَرٌ وصَيَدٌ إذا أصابه داء يَلْوي منه عنقَه. ثم يُقال للمتكبِّر: فيه صَعَرٌ وصَيَدٌ، فمعنى: «لا تُصَعِّر» أي: لا تُلزِمْ خدَّكَ الصَّعَر. وفي الحديث: «يأتي على الناس زمانٌ ليس فيهم إلا أَصْعَرُ أو أبتر» والأصعر: المُعرِضُ بوجهِه كِبْراً، وأراد رُذالةَ الناس الذين لا دينَ لهم. وفي الحديث: «كُلُّ صعَّارٍ ملعونٌ» أي: كلُّ ذي أُبَّهةٍ وكِبْرٍ.

الثانية - معنى الآية: ولا تُمِلْ خدَّكَ للناس كِبْراً عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم. وهذا تأويل ابن عباس وجماعة[٢]. وقيل: هو أن تلوِيَ شِدقَكَ إذا ذُكِرَ الرجلُ عندك كأنك تحتقره[٣]، فالمعنى: أقبِلْ عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً، وإذا حدَّثك أصغرُهم فأصغِ إليه حتى يُكمِلَ حديثَه، وكذلك كان النبيُّ ﷺ يفعل[٤].

قلت: ومن هذا المعنى ما رواه مالك، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تَباغضوا، ولا تَدابروا، ولا تحاسدوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً، ولا يحِلُّ لمسلمٍ أن يهجُرَ أخاه فوقَ ثلاث»[٥]. فالتدابرُ: الإعراضُ وتركُ الكلام والسلامُ ونحوه. وإنما قيل للإعراض تدابر؛ لأنَّ مَنْ أبغضْتَه أعرضْتَ عنه وولَّيتَه دُبُرَك، وكذلك يصنع هو بك. ومن أحببتَه أقبلتَ عليه بوجهك، وواجهتَه لتسُرَّه ويَسُرَّك، فمعنى التدابر موجودٌ فيمن صَعَّر خدَّه، وبه فسَّر مجاهدُ الآية. وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: قوله: «ولا تُصاعِرْ خَدَّكَ للنَّاسِ» كأنه نهى أن يُذِلَّ نفسَه من غير حاجة، ونحو ذلك رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ليسَ للإنسان أن يُذِلَّ نفسَه»[٦].

---

(١) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣٩ عن أبي الجوزاء.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٥ .

(٥) أخرجه أحمد (١٢٠٧٣) ، والبخاري (٦٠٦٥) ، ومسلم (٢٥٥٩).

(٦) سلف ٥/ ٧٤ - ٧٥ .

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: مُتبختراً متكبراً، مصدر في موضع الحال[(١)]، وقد مضى في «سبحان»[(٢)]. وهو النشاط والمشي فَرَحاً في غير شغلٍ وفي غير حاجة. وأهلُ هذا الخُلُق ملازمون للفخر والخُيَلاء، فالمَرِحُ مختالٌ في مشيته[(٣)]. روى يحيى بن جابر الطائي عن ابن عائذ الأزْدي، عن غُضيف بن الحارث قال: أتيتُ بيتَ المقدس أنا وعبد الله بن عُبيد بن عُمير قال: فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسمعتُه يقول: إنَّ القبرَ يُكلِّمُ العبدَ إذا وُضِعَ فيه فيقول: يا ابنَ آدمَ ما غَرَّك بي؟! ألم تعلم أني بيتُ الوَحدة؟! ألم تعلم أني بيتُ الظُّلمة؟! ألم تعلم أني بيتُ الحق؟! يا ابن آدم ما غَرَّكَ بي؟ لقد كنتَ تمشي حولي فَدَّاداً. قال ابن عائذ: قلتُ لغُضيف: ما الفدَّادُ يا أبا أسماء؟ قال: كبعض مِشيتِكَ يا ابن أخي أحياناً[(٤)]. قال أبو عبيد: والمعنى ذا مالٍ كثيرٍ وذا خُيلاء[(٥)]. وقال ﷺ: «مَنْ جرَّ ثوبَه خُيَلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[(٦)]. والفخور: هو الذي يُعدِّدُ ما أُعطِيَ، ولا يشكر اللهَ تعالى. قاله مجاهد[(٧)]. وفي اللفظة الفخرُ بالنسب وغير ذلك[(٨)].

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ١٩﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ لمَّا نهاه عن الخُلُق الذميم رسَمَ له

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦.

(٢) ١٣/ ٨٥.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٤٥ من طريق يحيى بن جابر، به.

(٥) غريب الحديث ١/ ٢٠٤.

(٦) أخرجه أحمد (٥٣٥١)، والبخاري (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥) من حديث ابن عمر ﷺ.

(٧) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٦٢.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

الخُلقَ الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي: توسَّط فيه. والقصد: ما بين الإسراع والبطء[١]، أي: لا تَدِبَّ دبيبَ المُتَماوِتين، ولا تَثِبْ وثبَ الشطار؛ وقال رسول الله ﷺ: «سرعةُ المشي تُذهِبُ بهاءَ المؤمن». فأما ما رُويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع؛ فإنما أرادت السرعةَ المرتفعةَ عن دبيب المتماوِت، والله أعلم[٢]. وقد مدح اللهُ سبحانه مَنْ هذه صفته حسبما تقدَّم بيانُه في «الفرقان»[٣].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: انقُصْ منه[٤]، أي: لا تتكلف رفع الصوت وخُذْ منه ما تحتاج إليه، فإنَّ الجهرَ بأكثر من الحاجة تكلُّفٌ يؤذي. والمراد بذلك كلِّه التواضع؛ وقد قال عمر لمؤذِّنٍ تكلَّف رفْعَ الأذان بأكثرَ من طاقته: لقد خشيتُ أن ينشقَّ مُرَيْطَاؤك. والمؤذِّن هو أبو محذورة سَمُرة بن مِعْيَر. والمُرَيْطاء: ما بين السُّرَّة إلى العانة[٥].

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: أقبحُها وأوحشُها؛ ومنه: أتانا بوجهٍ منكر[٦]. والحمارُ مَثَلٌ في الذَّمِّ البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقُه، ومن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٤ ، والحديث: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٩٠ من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن، وهو ضعيف. وأخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٢٧ من حديث أبي هريرة أيضاً، وفي إسناده عمار بن مطر، وهو متروك. وأخرجه ٧/ ٢٥٣٩ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وفي إسناده الوليد بن سلمة، وهو متروك، وكذبه غير واحد.

وأخرجه ٥/ ١٦٧٣ من حديث ابن عمر ﷺ، وفي إسناده عمر بن محمد بن صهبان، وهو متروك. وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٩٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي إسناده مجهولون، وفيه أيضاً عبد السلام بن صالح بن سليمان الأزدي، وهو صاحب مناكير.

(٣) ١٥/ ٤٦٥ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٩ .

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٩ .

استفحاشِهم لذكره مجرَّداً أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون: الطويل الأذنين؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة. وقد عُدَّ في مساوئ الآداب أن يجريَ ذِكْرُ الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً وإن بلغت منه الرُّجْلة(١). وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعاً وتذلُّلاً لله تبارك وتعالى.

الرابعة - في الآية دليلٌ على تعريف قُبحِ رفع الصوت في المخاطبة والمُلاحاة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية(٢). وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «وإذا سمعتُم نهيقَ الحمير فتعوَّذوا بالله من الشيطان، فإنَّها رأَتْ شيطاناً»(٣). وقد رُوِيَ: أنه ما صاح حمارٌ ولا نبحَ كلبٌ إلَّا أن يرى شيطاناً(٤). وقال سفيان الثَّوري: صياحُ كلِّ شيءٍ تسبيحٌ إلَّا نهيق الحمير. وقال عطاء: نهيقُ الحمير دعاءٌ على الظَّلَمة(٥).

الخامسة - وهذه الآية أدبٌ من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم(٦)، أو بترك الصياح جملةً؛ وكانت العرب تَفْخَر بجهارة الصوت الجَهِير وغيرِ ذلك(٧)، فمن كان منهم أشدَّ صوتاً كان أعزَّ، ومن كان أخفضَ كان أذلَّ(٨)، حتى قال شاعرهم:

جَهِيرُ الكلامِ جهيرُ العُطاس ... جَهِيرُ الرُّواء جَهِيرُ النَّغَمْ

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٤، والرُّجلة: فعل الرجل الذي لا دابة له. تهذيب اللغة ١١/ ٣٢.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٤٤.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٠٣)، وصحيح مسلم (٢٧٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في مسند أحمد (٨٢٦٨).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٣٤١.

وَيَغْدُو على الأيْنَ عَدْوَى الظَّلِيم ويعلو الرجالَ بخَلْقٍ عَمَمْ[(١)]

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: لو أنَّ شيئاً يُهابُ لصوته لكان الحمار، فجعلهم في المثلِ سواء[(٢)].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ اللام للتأكيد، ووحَّد الصوتَ وإن كان مضافاً إلى الجماعة؛ لأنَّه مصدَرٌ، والمصدر يدلُّ على الكثرة، وهو مصدرُ صاتَ يَصُوتُ صَوْتاً، فهو صائت. ويُقال: صوَّت تصويتاً فهو مُصوِّتٌ. ورجل صاتٌ أي: شديد الصوت، بمعنى صائت[(٣)]، كقولهم: رجل مالٌ ونالٌ، أي: كثير المال والنوال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكرَ نِعمَه على بني آدم، وأنه سخَّر لهم «ما في السَّماواتِ» من شمسٍ وقمرٍ ونجومٍ وملائكةٍ تحوطُهم وتجرُّ إليهم منافعهم[(٤)]. «وما في الأرض» عامٌّ في الجبال والأشجار والثمار وما لا يُحصى. ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أي: أكملَها وأتمَّها. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة: «وأصْبَغَ» بالصاد على بدلها من السين؛ لأنَّ حروف الاستعلاءِ تجتذب السين من

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ ، والشعر للراجز العماني كما في البيان والتبيين ١/ ١٢٦ ؛ قال الجاحظ: الأين: الإعياء. والظليم: ذكر النعام. ويقال: إنه لقمم الجسم، وإن جسمه لَعمم، إذا كان تاماً.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤١ .

(٣) تهذيب اللغة ١٢/ ٢٢٣ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ .

سُفْلِها إلى عُلوِّها فتردُّها صاداً. والنِّعَم: جمع نِعمة كسِدْرة وسِدَر بفتح الدال[١]، وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحفص. الباقون: «نِعمةً» على الإفراد[٢]، والإفراد يدلُّ على الكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وهي قراءة ابن عباس من وجوهٍ صحاح. وقيل: إن معناها الإسلام[٣]؛ قال النبيُّ ﷺ لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية: «الظاهرةُ الإسلام وما حَسُن من خَلْقك، والباطنةُ ما سترَ عليك من سيِّئ عملِك»[٤]. النحَّاس: وشرحُ هذا أن سعيد بن جُبير قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قال: يُدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عزَّ وجلَّ على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لمَّا كان الإسلامُ يؤول أمرُه إلى الجنة سُمِّيَ نعمة[٥]. وقيل: الظاهرة: الصحة وكمال الخلق، والباطنة: المعرفة والعقل[٦]. وقال المُحاسبي: الظاهرة: نِعَمُ الدنيا، والباطنة: نِعَمُ العُقْبى. وقيل: الظاهرة: ما يُرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة: ما يجده المرءُ في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفع اللهُ تعالى عن العبد من الآفات. وقد سرد الماوَرْديُّ[٧] في هذا أقوالاً تسعةً، كلُّها ترجعُ إلى هذا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تقدَّم معناها في «الحج»[٨] وغيرِها. نزت في يهوديٍّ جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن ربِّكَ، مِن أيِّ شيءٍ هو؟ فجاءت صاعقةٌ فأخذَتْه. قاله مجاهد[٩]. وقد مضى هذا في «الرعد»[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ ، وقراءة «وأصبغ» شاذة.
(٢) السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٧٧ .
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨ .
(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس ٤/ ٤٠٢ موقوفاً على ابن عباس ﷺ.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨ .
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ بنحوه.
(٧) في النكت والعيون ٤/ ٣٤٢ - ٣٤٣ .
(٨) ١٤/ ٣٢٦ - ٣٢٧ .
(٩) النكت والعيون ٤/ ٣٤٣ .
(١٠) ١٢/ ٣٥ .

وقيل: إنها نزلت في النَّضر بن الحارث، كان يقول: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله. قاله ابن عباس[(١)]. ﴿يُجَٰدِلُ﴾ يخاصم ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أي: بغير حُجَّة[(٢)] ﴿وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أي: نيِّرٌ بيِّن، إلا الشيطان فيما يُلقي إليهم. ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٢١] وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية بعدُ. ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يتبعونه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى. ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ لأنَّ العبادةَ من غير إحسانٍ ولا معرفةِ القلب لا تنفع؛ نظيره: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [طه: ١١٢]. وفي حديث جبريل قال: فأخبِرْني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك»[(٣)]. ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا الله. وقد مضى في «البقرة»[(٤)]. وقد قرأ عليُّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه والسُّلَمِيُّ وعبدا لله بن مسلم بن يسار: «وَمَنْ يُسَلِّم»[(٥)]. النحَّاس: و«يُسلِّم» في هذا أعرف، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ومعنى: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ قصدت بعبادتي إلى الله عزَّ وجلَّ،[(٦)] ويكون «يُسلِّم» على التكثير، إلَّا أنَّ المستعملَ في سلَّمتُ أنه بمعنى دفعتُ؛

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٤٣ لكن نسبه إلى أبي مالك.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣.

(٣) سلف ٢/ ١٣١.

(٤) ٤/ ٢٨٤.

(٥) الشاذة ص ١١٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٣ عن أبي عبد الرحمن السلمي وعبد الله بن مسلم، والكشاف ٣/ ٢٣٥ عن علي بن أبي طالب، وفي زاد المسير ٦/ ٣٢٥ عن أبي عبد الرحمن وأبي العالية وقتادة.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧.

يقال: سلَّمتُ في الحنطة، وقد يُقال: أسلمتُ. الزمخشريُّ[١]: قرأ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «وَمَنْ يُسَلِّم» بالتشديد؛ يقال: أسلِمْ أمرَكَ وسلِّمْ أمرَكَ إلى الله تعالى، فإن قلتَ: ماله عُدِّيَ بإلى، وقد عدَّى باللام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]؟ قلتُ: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاتُه ونفسُه سالماً لله، أي: خالصاً له. ومعناه معَ إلى راجعٌ إلى أنه سلَّم إليه نفسَه كما يُسلِّم المتاعَ إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد التوكيل عليه والتفويض إليه.[٢]

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مصيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ أي: نجازيهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: نُبقيهم في الدنيا مدَّةً قليلةً يتمتَّعون بها. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نُلجئهم ونسوقهم. ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو عذاب جهنم. ولفظ «مَنْ» يصلح للواحد والجمع، فلهذا قال: «كُفْرُهُ» ثم قال: «مَرْجِعُهُمْ» وما بعده على المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: هم يعترفون بأنَّ الله خالقهم فلِمَ يعبدون غيره؟! ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا ينظرون ولا يتدبَّرون. ﴿لِلَّهِ مَا

---

(١) في الكشاف ٣/ ٢٣٥.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤ .

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملكاً وخلقاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: الغنيُّ عن خلقه وعن عبادتهم، وإنما أمرَهم لينفعهم. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المحمود على صنعه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

لمَّا احتجَّ على المشركين بما احتجَّ بيَّن أن معاني كلامِه سبحانه لا تنفد، وأنها لا نهايةَ لها. وقال القفَّال: لمَّا ذكر أنه سخَّر لهم ما في السماوات وما في الأرض وأنه أسبغَ النِّعم نبَّه على أنَّ الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحارَ مداداً، فكُتِبَ بها عجائبُ صُنْعِ الله الدالَّةِ على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب. قال القُشَيْرِيُّ: فردَّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات، وحملُ الآية على الكلام القديم أوْلى، والمخلوق لا بُدَّ له من نهاية، فإذا نُفيتِ النهايةُ عن مقدوراته فهو نفيُ النهاية عما يُقدَّر في المستقبل على إيجاده، فأمَّا ما حصره الوجودُ وعدَّه فلا بُدَّ من تناهيه، والقديمُ لا نهايةَ له على التحقيق. وقد مضى الكلام في معنى «كَلِمَاتُ اللهِ» في آخر «الكهف». وقال أبو عليٍّ: المرادُ بالكلمات ـ والله أعلم ـ ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود. وهذا نحوٌ ممَّا قاله القفَّال، وإنَّما الغرضُ الإعلام بكثرة معاني كلمات الله وهي في نفسها غيرُ متناهية، وإنما قرَّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى، لأنه غايةُ ما يعهده البشر من الكثرة، لا أنها تنفذ بأكثر من هذه الأقلام والبحور. ومعنى نزول الآية يدلُّ على أن المُرادَ بالكلمات الكلامُ القديم.

قال ابن عباس: إنَّ سببَ هذه الآية أنَّ اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ونحن قد أوتينا التوراةَ فيها كلامُ الله وأحكامُه، وعندك أنها تبيانُ كلِّ شيء؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراةُ قليلٌ من كثير» ونزلت هذه الآية، والآية مدنية[1]. قال أبو جعفر النحَّاس[2]: فقد تبيَّنَ أنَّ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢.

الكلماتِ ها هنا يُرادُ بها العلمُ وحقائقُ الأشياء؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ عَلِم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالقٌ في السماوات والأرض من كلِّ شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذَّرِّ، وعلم الأجناس كلَّها وما فيها من شعرةٍ وعضوٍ، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق، وما يتصرَّف فيه من ضروب الطَّعم واللون، فلو سَمَّى كلَّ دابةٍ وحدَها، وسَمَّى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحوَّلت عليه من الأحوال، وما زاد فيها في كلِّ زمان، وبيَّنَ كلَّ شجرةٍ وحدَها وما تفرَّعت إليه، وقدَّر ما يَيبسُ من ذلك في كلِّ زمان، ثم كتب البيان على كلِّ واحدٍ منها ما أحاط الله جلَّ ثناؤه به منها، ثم كان البحر مداداً لذلك البيان الذي بيَّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدُّه من بعده سبعةُ أبحُرٍ لكان البيانُ عن تلك الأشياء أكثر.

قلت: هذا معنى قول القفَّال، وهو قولٌ حسنٌ إن شاء الله تعالى. وقال قومٌ: إنَّ قريشاً قالت: سيتِمُّ هذا الكلامُ لمحمدٍ وينحسر، فنزلت. وقال السُّدِّي: قالت قريشٌ: ما أكثرَ كلام محمد! فنزلت[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء، وخبره في الجملة التي بعدها، والجملة في موضع الحال، كأنه قال: والبحرُ هذه حالُه. كذا قدَّرها سيبويه. وقال بعض النَّحويين: هو عطفٌ على «أنَّ» لأنها في موضع رفعٍ بالابتداء. وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق: «وَالْبَحْرَ» بالنصب على العطف على «ما» وهي اسمُ «أنَّ»[٢]. وقيل: أي: ولو أنَّ البحر يمدُّه أي: يزيدُ فيه[٣]. وقرأ ابن هُرْمُز والحسن: «يُمِدُّه» من أمدَّ. قالت فرقة: هما بمعنًى واحد. وقالت فرقة: مدَّ الشيءُ بعضَه بعضاً[٤]، كما تقول: مدَّ النيلُ الخليجَ، أي: زادَ فيه[٥]. وأمدَّ الشيءُ ما ليس

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) المصدر السابق، وكلام سيبويه في الكتاب ٢/ ١٤٤، وقراءة أبي عمرو في السبعة ص ٥١٣، والتيسير ص ١٧٧.

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٦٩، وهي قراءة شاذة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.

منه[١]. وقد مضى هذا في «البقرة» و«آل عمران»[٢]. وقرأ جعفر بن محمد: «والبحرُ مِدادُه»[٣]. ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ تقدَّم[٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تقدَّم أيضاً[٥]. وقال أبو عبيدة[٦]: البحر ها هنا الماءُ العذبُ الذي يُنبِتُ الأقلامَ، وأمَّا الماءُ الملح فلا يُنبِتُ الأقلامَ.

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قال الضحَّاك: المعنى: ما ابتداءُ خلقكم جميعاً إلَّا كخلقِ نفسٍ واحدة، وما بَعثُكم يومَ القيامة إلَّا كبعثِ نفسٍ واحدة. قال النحَّاس: وهكذا قدَّره النَّحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٧] [يوسف:٨٢]. وقال مجاهد: لأنَّه يقول للقليل والكثير: كن فيكون[٨]. ونزلت الآية في أبيّ بن خلف وأبي الأشدين[٩] ومُنَبِّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق، قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ الله تعالى قد خلقَنا أطواراً، نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عِظاماً، ثم تقول: إنا نُبعث خَلْقاً جديداً جميعاً في ساعةٍ واحدة! فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ لأنَّ الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخلْقُه للعالم كخلقه لنفس واحدة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يفعلون[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤ .

(٢) ١/ ٣١٦ - ٣١٧ و٥/ ٣٠٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤ ، وهي قراءة شاذة.

(٤) عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الكهف.

(٥) معنى العزيز سلف ٢/ ٤٠٣-٤٠٤، ومعنى الحكيم سلف ١/ ٤٢٩ .

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٢٨ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٩٢ .

(٩) في (م): الأسدين.

(١٠) النكت والعيون ٤/ ٣٤٥ .

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ﴾ تقدَّم في «الحج» و«آل عمران»[(١)]. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذلَّلهما بالطُّلوع والأفول تقديراً للآجال وإتماماً للمنافع. ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال الحسن: إلى يوم القيامة. قتادة: إلى وقته في طلوعه وأُفوله لا يَعْدوه ولا يَقْصر عنه[(٢)]. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: مَنْ قدر على هذه الأشياء فلا بُدَّ من أن يكون عالماً بها، والعالم بها عالمٌ بأعمالكم.

وقراءة العامَّة «تعملون» بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَميُّ ونصر بن عاصم والدُّوريُّ عن أبي عمرو بالياء على الخبر[(٣)].

﴿ذَلِكَ﴾ أي: فعلَ اللهُ تعالى ذلك لتعلموا وتُقِرُّوا ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي الشيطان. قاله مجاهد. وقيل: ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ العليُّ في مكانته، الكبيرُ في سلطانه[(٤)].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿تَجْرِي﴾ في موضع الخبر. ﴿فِي الْبَحْرِ

---

(١) في النسخ الخطية: الحج والأنعام. وقد سلف ١٤/ ٤٣٨ - ٤٣٩ و٥/ ٨٥ - ٨٦ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٦ .

(٣) الشاذة ص ١١٧ من رواية عباس الدوري عن أبي عمرو، والمشهور عن أبي عمرو مثل قراءة العامة.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٤٦ .

﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بلطفه بكم وبرحمته لكم في خلاصكم منه.

وقرأ ابن هُرْمُز: «بِنعماتِ الله»[١] جمع نعمة، وهو جمع السلامة، وكان الأصلُ تحريك العين فأُسكنت.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ «مِنْ» للتبعيض، أي: ليريكم جَرْيَ السفن. قاله يحيى بن سلاَّم. وقال ابن شجرة: «مِنْ آياتِهِ» ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه. النقَّاش: ما يرزقهم اللهُ منه. وقال الحسن: مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطرق، ومفتاح السماء الدُّعاء. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبَّارٌ لقضائه، شكورٌ على نعمائه[٢]. وقال أهل المعاني: أراد لكل مؤمن بهذه الصفة؛ لأنَّ الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان[٣]. والآية: العلامة، والعلامةُ لا تستبينُ في صدر كلِّ مؤمن، إنما تستبينُ لمن صبر على البلاء، وشكر على الرخاء. قال الشعبيُّ: الصبرُ نصفُ الإيمان، والشكرُ نصفُ الإيمان، واليقينُ الإيمان كلُّه، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[٤] وقال عليه السلام: «الإيمانُ نصفان، نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ قال مقاتل: كالجبال. وقال الكلبي: كالسَّحاب ـ وقاله قتادة ـ جمع ظُلَّة؛ شبَّه الموجَ بها؛ لكبرها وارتفاعها[٦]. قال النابغة في وصف بحر:

---

(١) المحتسب ٢/ ١٧٠ ، والشاذة ص ١١٧ ونسبها أيضاً للأعمش.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٧ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٥ .

(٤) من قوله: قال الشعبي.. إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ٣٤٧ .

(٥) سلف ١٢/ ١٠٧ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٥ دون قول قتادة، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٤٧ .

يـمـاشـيـهـنَّ أخـضـرُ ذو ظـلالٍ   عـلـى حـافـاتـهِ فِـلَـقُ الـدِّنـانِ[١]

وإنما شبَّه الموجَ وهو واحد بالظُّلِّ وهو جمع؛ لأنَّ الموجَ يأتي شيئاً بعد شيءٍ ويركبُ بعضُه بعضاً كالظُّلل[٢]. وقيل: هو بمعنى الجمع، وإنما لم يُجْمَع لأنه مصدر. وأصلُه من الحركة والازدحام، ومنه: ماجَ البحر، والناس يموجون. قال كعب[٣]:

فـجـئـنـا إلـى مـوجٍ مـن الـبـحـر وَسْـطُـهُ   أحـابـيـشُ مـنـهـا حـاسِـرٌ ومُـقـنَّـعُ

وقرأ محمد ابن الحنفية: «مَوْجٌ كالظِّلال» جمع ظِلّ[٤]. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ موحِّدين له لا يدعون لخلاصهم سواه. وقد تقدَّم. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ يعني من البحر[٥]. ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال ابن عباس: مُوفٍ بما عاهدَ عليه الله في البحر[٦]. النقاش يعني: عدلَ في العهد، وفَى في البَرِّ بما عاهد الله عليه في البحر. وقال الحسن: «مُقْتَصِدٌ» مؤمنٌ متمسِّكٌ بالتوحيد والطاعة. وقال مجاهد: «مُقْتَصِدٌ» في القول، مضمِرٌ للكفر[٧]. وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: فمنهم مقتصدٌ ومنهم كافر. ودلَّ على المحذوف قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختَّار: الغدار. والخَتْرُ: أسوأ الغدر[٨]. قال عمرو بن معدِ يكرِب:

فـإنَّـكَ لـو رأيـتَ أبـا عُـمـيـرٍ   مـلأتَ يـديـكَ مـن غـدْرٍ وخَـتْـرِ

وقال الأعشى:

---

(١) مجاز القرآن ٢/١٢٩، وقال: ويروى: يعارضهن. قلنا: وكذلك هو في ديوان النابغة ـ وهو الجعدي ـ ص ١٦٣، ووقع في النسخ الخطية: وغاشيهنَّ. والدِّنان جمع دَنّ: وهو وعاء ضخمٌ للخمر ونحوها. المعجم الوسيط (دنن).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٠.

(٣) وهو ابن مالك في ديوانه ص ١٨٢.

(٤) الشاذة ص ١١٧.

(٥) النكت والعيون ٤/٣٤٨، وقد سلف ما أشار إليه المصنف ١٠/ ٤٧٥.

(٦) مجمع البيان ٢١/ ٦٩.

(٧) النكت والعيون ٤/٣٤٨.

(٨) تهذيب اللغة ٧/ ٢٩٤.

حِصنٌ حَصينٌ وجارٌ غيرُ خَتَّارِ بالأبْلَقِ الفَرْدِ من تَيماءَ منزِلُهُ

قال الجوهري: الخَتْرُ الغدر؛ يقال: خترَه فهو ختَّار[١]. الماورديُّ: وهو قول الجمهور. وقال عطية: إنه الجاحد. ويقال: خَتَرَ يَخْتُرُ ويَخْتِرُ ـ بالضم والكسر ـ خَتْراً. ذكره القُشَيريُّ. وجحدُ الآيات إنكارُ أعيانها. والجَحدُ بالآيات إنكارُ دلائلها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ يعني الكافر والمؤمن، أي: خافوه ووحِّدوه.[٢] ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ تقدَّم معنى «يَجْزِي» في البقرة[٣] وغيرها. فإن قيل: فقد قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ لم تَمَسَّه النارُ إلا تَحِلَّة القسم»[٤]. وقال: «من ابتُلي بشيءٍ من هذه البنات فأحسنَ إليهنَّ كُنَّ له حجاباً من النار»[٥]. قيل له: المعنيُّ بهذه الآية أنه لا يحمل والدٌ ذنبَ ولده، ولا مولودٌ ذنبَ والده، ولا يؤاخَذُ أحدُهما عن الآخر. والمعنيُّ بالأخبار أنَّ ثوابَ الصبرِ على الموت والإحسانِ إلى البنات يحجبُ العبدَ عن النار، ويكون الولدُ سابقاً له إلى الجنة. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث[٦] ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أي: تخدعنَّكم ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ بزينتها وما تدعوا إليه فتتَّكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قراءة العامة هنا وفي

(١) الصحاح (ختر).

(٢) النكت والعيون ٤/٣٤٨ .

(٣) ٢/ ٧٥ - ٧٦ .

(٤) سلف ٤/ ١٢ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٦٠٦٠)، والبخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٦ .

سورة الملائكة[١] والحديد[٢] بفتح الغين، وهو الشيطان في قول مجاهدٍ وغيره[٣]، وهو الذي يغرُّ الخلقَ ويُمنِّيهم الدنيا ويُلهيهم عن الآخرة، وفي سورة «النساء» [الآية: ١٢٠]: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السَّمَيْفَع بضمِّ الغين[٤]، أي: لا تغترُّوا. كأنه مصدرُ غرَّ يَغُرُّ غُروراً. قال سعيد بن جُبير: هو أن يعمل بالمعصية ويتمنَّى المغفرة[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

زعم الفرَّاء أنَّ هذا معنى النفي، أي: ما يعلمه أحدٌ إلا الله تعالى. قال أبو جعفر النحَّاس: وإنَّما صارَ فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول ﷺ على ذلك؛ لأنَّه ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾: أنَّها هذه[٦]. قلت: قد ذكرنا في سورة «الأنعام» حديثَ ابن عمر في هذا، خرَّجه البخاري[٧]. وفي حديث جبريل عليه السلام قال: أخبرني عن الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل» هُنَّ خمسٌ لا يعلمهُنَّ إلى اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاوَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قال: «صدقت». لفظ أبي داود الطيالسيّ[٨]. وقال عبد الله بن

---

(١) يعني سورة فاطر الآية (٥).

(٢) الآية (١٤).

(٣) مجمع البيان ٢١/ ٦٩ .

(٤) المحتسب ٢/ ١٧٢ عن سماك، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٦ عن سماك وأبي حيوة، وهي قراءة شاذة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٤٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٦ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٩ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٠ .

(٧) في صحيحه (٤٦٩٧)، وقد سلف ٨/ ٤٠١ .

(٨) في مسنده (٢١) ، وأخرجه بغير هذا السياق أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

مسعود: كلُّ شيءٍ أوتي نبيُّكم ﷺ غير خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.. الآية إلى آخرها[1]. وقال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمُها إلا الله تعالى، ولا يعلمُها مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسل[2]. فمنِ ادَّعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه. ثم إنَّ الأنبياء يعلمون كثيراً من الغيب بتعريف الله تعالى إيَّاهم. والمرادُ إبطالُ كونِ الكَهنة والمنجِّمين ومن يستسقي بالأنواء، وقد يُعرَفُ بطول التجارب أشياءُ من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك، حسبما تقدَّم ذِكرُه في الأنعام[3]. وقد تختلف التجربةُ وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده. وروي أنَّ يهودياً كان يحسب حساب النجوم، فقال لابن عباس: إن شئتَ نبَّأتُكَ نجمَ ابنك، وأنه يموت بعد عشرة أيام، وأنت لا تموتُ حتى تعمى، وأنا لا يحول عليَّ الحولُ حتى أموت. قال: فأين موتُكَ يا يهودِيُّ؟ فقال: لا أدري. فقال ابن عباس: صدقَ الله ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فرجعَ ابنُ عباس فوجدَ ابنَه محموماً، وماتَ بعد عشرة أيام. وماتَ اليهوديُّ قبل الحول، ومات ابن عباس أعمى. قال عليُّ بن الحسين راوي هذا الحديث: هذا أعجَبُ الأحاديث. وقال مقاتل: إنَّ هذه الآية نزلت في رجلٍ من أهل البادية اسمُه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبيَّ ﷺ فقال: إنَّ امرأتي حُبلى فأخبرني ماذا تلد، وبلادنا جدبةٌ فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني متى أموتُ، وقد علمتُ ما علمتُ اليوم فأخبرني ماذا أعملُ غداً، وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. ذكره القُشَيْرِيُّ والماوَرْدِيُّ[4]. وروى أبو المَلِيح، عن أبي عَزَّة الهُذليِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرادَ الله تعالى قَبْضَ رُوحِ عبدٍ بأرضٍ جعلَ له إليها حاجةً فلم ينتهِ حتى يَقْدَمَها» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الله

(١) أخرجه أحمد (٣٦٥٩).

(٢) زاد المسير ٦/ ٣٣١ .

(٣) ٨/ ٤٠٢ - ٤٠٦ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٣٥١ .

عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ..﴾ إلى قوله: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ﴾ ذكره الماورديُّ[١]، وخرَّجه ابن ماجه[٢] من حديث ابن مسعود بمعناه. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٣] مستوفًى.

وقراءة العامة: «وَيُنَزِّلُ» مُشدَّداً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخفَّفاً[٤]. وقرأ أُبَيُّ بن كَعْب: «بِأَيَّةِ أَرْضٍ»[٥] الباقون «بِأَيِّ أَرْضٍ». قال الفرَّاء: اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أيّ[٦]. وقيل: أراد بالأرض المكان فذكَّر؛ قال الشاعر:

فـلا مُـزْنـةٌ وَدَقَـتْ ودْقَـهـا ... ولا أرضَ أبـقَـلَ إبـقـالَـهـا[٧]

وقال الأخفش: يجوز: مررتُ بجاريةٍ أيِّ جاريةٍ، وأيَّة جارية[٨]. وشبَّه سيبويه تأنيث «أيّ» بتأنيث كُلٍّ في قولهم: كُلَّتُهُنَّ[٩]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ «خَبِيرٌ» نعتٌ لـ«عليم» أو خبرٌ بعد خبر[١٠]. والله تعالى أعلم.

تم الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء السابع عشر، ويبدأ بتفسير سورة السجدة

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣٥٠، وأخرجه أحمد (١٥٥٣٩)، والترمذي (٢١٤٧).

(٢) في سننه (٤٢٦٣).

(٣) ص ٤ - ٧١.

(٤) السبعة ص ١٦٤ - ١٦٥، والتيسير ص ٧٥.

(٥) زاد المسير ٦/ ٣٣٠ - ٣٣١ عن أُبي بن كعب وابن مسعود وابن أبي عبلة، وهي قراءة شاذة.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٠.

(٧) قائله عامر بن جوين الطائي، وقد سلف ٩/ ٢٥١.

(٨) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٥٩ بنحوه.

(٩) الكشاف ٣/ ٢٣٩، وينظر الكتاب لسيبويه ٢/ ٤٠٧.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٩٠.

سُورَةُ لُقمَان

مكيَّةٌ، وقيل: إلَّا آيةً وهي: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فإنَّ وجوبَهُما بالمدينةِ، وهو ضعيفٌ لأنَّهُ لا ينافي شرعيَّتَهُما بمكَّةَ.

وقيلَ: إلا ثلاثًا من قولِهِ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾.

وآيُها أربعٌ وثلاثونَ، وقيلَ: ثلاثٌ وثلاثونَ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ سبقَ بيانهُ في (يونُس).

(٣) ـ ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ حالانِ عنِ الآياتِ، والعاملُ فيهِما معنى الإشارةِ، ورفعَهُما حمزةُ[1] على الخبرِ بعدَ الخبرِ أو الخبرِ لمحذوفٍ.

(٤) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بيانٌ لإحسانِهِم، أو تخصيصٌ لهذهِ الثَّلاثةِ من شُعَبِهِ لفضلِ اعتدادٍ بها، وتكريرُ الضَّميرِ للتَّوكيدِ ولِمَا حيلَ بينهُ وبينَ خبرِهِ.

(٥) ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ لاستجماعِهِم العقيدةَ الحقَّةَ والعملَ الصَّالحَ.

(٦) ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾: ما يُلهي عمَّا يَعني؛ كالأحاديثِ التي لا أصلَ لها، والأساطيرِ التي لا اعتبارَ فيها، والمضاحِكِ وفضولِ الكلامِ،

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٦).

والإضافـةُ بمعنـى (مِن) وهـي تَبيينيَّةٌ إن أرادَ بالحديـثِ المنكرَ، وتبعيضيَّـةٌ إن أرادَ به الأعـمَّ منهُ.

وقيلَ: نزلت في النَّضرِ بـن الحارثِ اشترى كتبَ الأعاجمِ وكانَ يحدِّثُ بها قريشًا ويقولُ: إن كانَ محمَّدٌ يحدِّثُكم بحديثِ عادٍ وثمودَ فأنا أحدِّثُكم بحديثِ رُسْتَمَ وإسفنديارَ والأكاسرةِ[1].

وقيـلَ: كانَ يشـتري القِيَانَ[2] ويحملُهنَّ على معاشـرةِ مَن أرادَ الإسـلامَ ومنعِه عنهُ[3].

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دينِـه، أو قـراءةِ كتابـِهِ. وقـرأَ ابنُ كثيرٍ وأبـو عمرٍو بفتحِ اليـاءِ[4] بمعنى: ليَثْبُـتَ على ضلالـِهِ ويزيدَ فيهِ.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بحالِ ما يشتريهِ، أو بالتجارةِ حيثُ استبدلَ[5] اللَّهوَ بقراءةِ القرآنِ.

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾: ويَتَّخِـذَ السَّـبيلَ سـخريةً. وقـد نصبَـهُ حمـزةُ والكسـائيُّ ويعقـوبُ وحفـصٌ عطفًـا علـى ﴿لِيُضِلَّ﴾[6].

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٨٦) عن الكلبي ومقاتل. وهو في «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٣٢). ورواه بنحوه البيهقي في «الشعب» (٥٩١٤) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا إسناد ساقط. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٩٩) من طريق آخر عن ابن عباس دون ذكر الآية. وفيه شيخ لم يسم.

(٢) في نسخة الخيالي: «المغنيات».

(٣) رواه جويبر عن ابن عباس كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٥٠٤). وجويبر متروك.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

(٥) في نسخة التفتازاني: «اشترى».

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٦).

﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لإهانتِهم الحقَّ باستئثارِ[1] الباطلِ عليهِ.

(٧) ـ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرًا﴾: متكبِّرًا لا يعبأُ بها ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ مُشابهًا حالهُ حالَ مَن لم يَسمَعْها ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرًا﴾: مُشابهًا مَن في أذنهِ ثِقلٌ لا يقدرُ أن يسمعَ، والأُولى حالٌ من المستكنِّ في ﴿وَلَّىٰ﴾ أو في ﴿مُسۡتَكۡبِرًا﴾، والثانيةُ بدلٌ منها أو حالٌ من المستكنِّ في ﴿لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾، ويجوزُ أن يكونا استئنافين.

﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أعلِمْهُ بأنَّ العذابَ يَحيقهُ[2] لا محالةَ.

وقرأَ نافعٌ: ﴿فِيٓ أُذۡنَيۡهِ﴾[3].

وذكرُ البشارةِ على التهكُّمِ.

(٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: لهم نعيمُ جناتٍ، فعُكِسَ للمبالغةِ.

(٩) ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ من الضَّميرِ في ﴿لَهُمۡ﴾، أو من ﴿جَنَّٰتُ﴾، والعاملُ ما تعلَّقَ به اللَّامُ.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدرانِ مؤكِّدانِ، الأوَّلُ لنفسهِ والثَّاني لغيرهِ؛ لأنَّ قولهُ: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ﴾ وعدٌ، وليسَ كلُّ وعدٍ حقًّا.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يَغْلبُهُ شيءٌ فيمنعَهُ عن إنجازِ وعدهِ ووعيدهِ.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ إلا ما تَستدعيهِ حكمتُهُ.

(١٠) ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ قد سبقَ في الرَّعدِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بإيثار».

(٢) في نسخة الفاروقي: «يحيق به».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٤٤)، و«التيسير» (ص: ٩٩).

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾: جبالًا شوامخ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: كراهةَ أن تميلَ[1] بكم؛ فإنَّ بساطةَ[2] أجزائِها يقتضي تبدُّلَ أحيازِها وأوضاعِها لامتناعِ اختصاصِ كلٍّ منها لذاتِه أو لشيءٍ من لوازمِه بحيِّزٍ ووضعٍ معيَّنين.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾: من كلِّ صنفٍ كثيرِ المنفعةِ، وكأنَّهُ استدلَّ بذلك على عِزَّتِهِ التي هي كمالُ القدرةِ، وحكمتهِ التي هي كمالُ العلمِ، ومهَّدَ بهِ قاعدةَ التَّوحيدِ وقرَّرها بقولِه:

(١١) ـ ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: هذا الذي ذُكرَ مخلوقُهُ، فماذا خلقَ آلهتُكم حتى استحقُّوا مشاركتَهُ؟

و﴿مَاذَا﴾ نَصبٌ بـ﴿خَلَقَ﴾، أو (ما) مرتفعٌ بالابتداءِ وخبرُهُ (ذا) بصِلَتهِ و﴿أروني﴾ معلَّقٌ عنهُ.

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إضرابٌ عن تبكيتِهِم إلى التَّسجيلِ عليهم بالضَّلالِ الذي لا يَخْفَى على ناظرٍ، ووضَعَ الظَّاهرَ مَوضِعَ المضمَرِ للدَّلالةِ على أنَّهم ظالِمونَ بإشراكِهم.

(١٢) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني: لُقمانَ بنَ باعُوراءَ مِن أولادِ آزرَ[3]، ابنُ أختِ أيوبَ أو خالَتِهِ، وعاشَ ألفَ سنةٍ[4] حتى أدركَ داودَ وأخذَ منهُ العلمَ، وكانَ يُفتي قبلَ مبعثِهِ، والجمهورُ على أنَّهُ كانَ حكيمًا ولم يكن نبيًّا.

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «تميد».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «تشابه». قال الشهاب: قوله: «فإنّ بساطة أجزائها» وفي نسخة: «تشابه أجزائها»، وهو تعليل لميدانها. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) قوله: «من أولاد آزر..» هو أحد الأقوال فيه، وقيل: كان عبداً أسود، وقوله: «باعوراء» بعين مهملة ممدوداً، ووقع في «الكشاف»: «باعور» بدون ألف، وهو اسم عبراني. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) «ألف سنة» من نسخة الخيالي، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٦/ ٥٩٦).

والحكمةُ في عُرْفِ العلماءِ: استكمالُ النَّفسِ الإنسانيَّةِ باقتباسِ العلومِ النَّظريةِ واكتسابِ الملكةِ التَّامَّةِ على الأفعالِ الفاضلَةِ على قَدْرِ طاقَتها.

ومِن حكمتِه: أنَّهُ صحبَ داودَ شهورًا، وكانَ يَسردُ الدِّرعَ فلم يَسأَلْه عنها، فلمَّا أتمَّها لَبِسَها وقال: نِعمَ لبوسُ الحربِ أنتَ! فقال: الصَّمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعلهُ[1].

وأنَّ داودَ قال لهُ يومًا: كيفَ أصبحتَ؟ فقال: أصبحتُ في يدَي غيرِي[2].

وأنَّهُ أُمرَ بأنْ يذبحَ شاةً ويأتيَ بأطيَبِ مضغتينِ منها، فأتى باللِّسانِ والقلبِ، ثمَّ بعدَ أيَّامٍ أُمرَ بأن يأتيَ بأخبثِ مُضغَتَيْنِ منها فأتَى بهما أيضًا، فسألَهُ عن ذلكَ فقال: هما أطيبُ شيءٍ إذا طابَا، وأخبثُ شيءٍ إذا خَبُثا[3].

﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾: لأنِ اشكُرْ، أو: أي اشكُرْ، فإنَّ إيتاءَ الحكمةِ في معنى القولِ.

﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾ لأنَّ نفعَهُ عائدٌ إليها، وهو دَوامُ النِّعمةِ واستحقاقُ مزيدِها ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ لا يحتاجُ إلى الشُّكرِ ﴿حَمِيدٌ﴾: حقيقٌ بالحمدِ وإن لم يُحمَد، أو محمودٌ يَنطقُ بحمدِهِ جميعُ مخلوقاتِهِ بلسانِ الحالِ.

(١٣) ـ ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ﴾ أَنْعَم، أو أَشْكَم، أو مَاثَانَ ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾ تصغيرُ إشفاقٍ. ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾

وقرأ ابنُ كثيرٍ هنا: ﴿يا بُنَيْ﴾ بإسكانِ الياء، وقُنبلٌ: ﴿يا بُنَيْ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

---

(١) ذكره بنحوه بلاغاً يحيى بن آدم في «تفسيره» (٢/ ٧٤٨). قوله: «الصَّمت حُكْمٌ» الحُكم: الحِكْمةُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ١٢]. وهو مَثَلٌ. انظر: «جمهرة الأمثال» (١/ ٥٦٩)، و«مجمع الأمثال» (١/ ٤٠٢)، و«المستقصى» (١/ ٣٢٨).

(٢) ذكره الكرماني في «لباب التفاسير» (٧/ ١١٤) عن بعض التفاسير.

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (٢٧١)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٤٨)، عن خالد الربعي.

بإسكانِ الياء، وحفصٌ فيهما وفي ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ ﴾ بفتحِ الياء، ومثلُه البَزِّيُّ في الأخير، وقرأ الباقون في الثلاثةِ بكسرِ الياء[1].

قيلَ: كانَ كافرًا فلم يزَلْ بهِ حتَّى أسلمَ، ومَن وقفَ على ﴿لَا تُشْرِكْ﴾ جعلَ ﴿بِٱللَّهِ﴾ قسمًا.

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنَّهُ تسويةٌ بينَ مَن لا نعمةَ إلا منهُ ومَن لا نِعمةَ منهُ.

(١٤) ـ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا ﴾: ذاتَ وَهْنٍ، أو: تَهِنُ وَهْنًا ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾؛ أي تضعفُ ضَعفًا فوقَ ضَعفٍ، فإنَّها لا تزالُ يتضاعفُ[2] ضعفُها، والجملةُ في موضعِ الحالِ.

وقُرِئَ بالتحريكِ[3]، يقالُ: وَهَنَ يَهِنُ وَهْنًا، ووَهِنَ يَوْهَنُ وَهَنًا.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾: وفطامُهُ في انقضاءِ عامينِ، وكانت ترضعُهُ في تلكَ المدَّةِ، وقُرِئَ: (وفَصْلُهُ)[4]، وفيهِ دليلٌ على أنَّ أقصى مدةِ الرَّضاعِ حولانِ.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تفسيرٌ لـ(وصَّينا) أو علَّةٌ لهُ، أو بدلٌ من (والديهِ) بدلَ الاشتمالِ، وذكرُ الحَملِ والفِصالِ في البينِ اعتراضٌ مؤكِّدٌ للتَّوصيةِ في حقِّها خصوصًا، ومِنْ ثمَّ قالَ عليهِ السَّلامُ لمن قالَ لهُ: مَن أبَرُّ؟: «أمَّكَ ثمَّ أمَّكَ ثمَّ أمَّكَ» ثمَّ قالَ بعدَ ذلكَ «ثمَّ أباكَ»[5].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٦).

(٢) في نسخة التفتازاني: «يتزايد».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧ ـ ١١٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٧)، عن أبي عمرو في غير المشهور عنه وعيسى الثقفي.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧ ـ ١١٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٧)، عن الجحدري والحسن بخلاف وقتادة وأبي رجاء ويعقوب.

(٥) رواه أبو داود (٥١٣٩)، والترمذي (١٨٩٧) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وقال: =

﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأحاسبكَ على شُكرِكَ وكفرِكَ.

(١٥) - ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ باستحقاقِهِ الإشراكَ تقليدًا لهمَا، وقيل: أرادَ بنفيِ العلمِ به نفيَهُ.

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صِحابًا معروفًا يرتضيهِ الشَّرعُ ويقتضيهِ الكرمُ.

﴿وَٱتَّبِعْ﴾ في الدِّينِ ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ بالتَّوحيدِ والإخلاصِ في الطَّاعةِ ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: مَرجِعُكَ ومَرجِعُهُما ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأَنْ أُجازِيَكَ على إيمانِكَ وأجازيَهُما على كفرِهما.

والآيتانِ معترضتَانِ في تضاعيفِ وصيَّةِ لقمانَ تأكيدًا لِمَا فيها من النَّهيِ عن الشِّركِ؛ كأنَّهُ قال: وقد وصَّينا بمثلِ ما وصَّى بهِ، وذكرُ الوالدينِ للمبالغةِ في ذلكَ، فإنَّهما مع أنَّهُما تِلْوَا الباري في استحقاقِ التَّعظيمِ والطَّاعةِ لا يجوزُ أن يَستَحِقَّاه[1] في الإشراكِ فما ظنُّكَ بغيرِهما؟

ونزولُهما في سَعْدِ بنِ أبي وقاصٍ وأمِّه، مكثَتْ لإسلامِهِ ثلاثًا لم تَطْعَمْ فيها شيئًا[2]، ولذلكَ قيلَ: من أنابَ إليهِ: أبو بكرٍ، فإنَّهُ أسلمَ بدعوتِهِ[3].

(١٦) - ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾؛ أي: إنَّ الخَصْلَةَ من الإساءةِ أو الإحسانِ إن تكُ مَثَلًا في الصِّغرِ كحبَّةِ الخردَلِ.

= «حديث حسن»، ورواه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) في نسخة الفاروقي: «لا يجوز تقليدهما». وفي نسخة الطبلاوي: «يستحقا».

(٢) رواه مسلم (١٧٤٨) كتاب فضائل الصحابة، عقب الحديث (٢٤١٢) من حديث سعد رضي الله عنه.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (١/ ٣٥٨) من رواية عطاء عن ابن عباس.

ورفعَ نافعٌ ﴿مِثْقَالُ﴾[١] على أنَّ الهاءَ ضميرُ القصَّةِ، و(كانَ) تامَّةٌ، وتأنيثُها لإضافةِ المثقالِ إلى الحبَّةِ كقولِ الشَّاعرِ[٢]:

كَمَا شَـرِقَتْ صَـدْرُ القَنَاةِ مِـنَ الدَّمِ[٣]

أو لأنَّ المرادَ بِه الحَسنَةُ أو السَّيِّئةُ.

﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في أخفَى مكانٍ وأحرزِهِ كجوفِ صخرةٍ، أو أعلاهُ كمحدَّبِ السَّماواتِ، أو أسفلِه كمقعَّرِ الأرضِ.

وقُرِئَ بكسرِ الكافِ[٤] من: وَكَنَ الطَّائرُ: إذا استقرَّ في وُكْنَتِهِ.

﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾: يُحضِرُها فيحاسِبُ عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يَصِلُ علمُهُ إلى كلِّ خفيٍّ ﴿خَبِيرٌ﴾: عالمٌ بكنهِهِ.

(١٧) ـ ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلًا لنفسِك ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلًا لغيرِك ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من الشَّدائدِ سيَّما في ذلك.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشـارةٌ إلـى الصَّبـرِ، أو إلـى كلِّ ما أَمَـرَ بـهِ[٥] ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ممَّا

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «كقوله».

(٣) عجز بيتٍ للأعشى، انظر: «ديوانه» (ص: ١١٩)، و«الكتاب» (١/ ٥٢)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ١٨٧)، و«معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٦٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٩٤). وصدره:

وَتَشْـرَقَ بِالقَـوْلِ الـذِي قَـدْ أَذَعْتَـهُ

والشَّرَقُ: الشَّجَى والغُصَّةُ، وقد شَرِقَ بريقِه: إذا غَصَّ، وصدرُ القَناةِ: هو ما فوقَ نصفِها.

(٤) وسكون النون؛ أي: (فتكِنْ)، وقرئ كذلك أيضاً لكن بشدِّ النون المفتوحة، وقرئ: (فتُكَنَّ) بضم ففتح والنون مشددة، ونسبت كل لقوم، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٥٠)، و«البحر» (١٧/ ٢١).

(٥) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «أمره».

عَزَمَهُ اللهُ مِنَ الأمورِ؛ أي قطَعَهُ قَطْعَ إيجابٍ، مصدرٌ أطلِقَ للمفعولِ، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى الفاعلِ من قولِهِ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١]؛ أي: جَدَّ.

(١٨) - ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: لا تُمِلْهُ عنهم، ولا تُوَلِّهم صَفْحَةَ وجهِكَ كما يفعلُهُ المتكبِّرونَ، مِن الصَّعَرِ وهو الصَّيَدُ: داءٌ يَعتَري البعيرَ فيلوي عُنُقَهُ.

وقرأ نافعٌ وأبو عمرٍو وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿وَلَا تُصاعِر﴾[١]، وقُرِئَ: (ولا تُصْعِرْ)[٢]، والكلُّ واحدٌ مثلَ: عَلَاه وأَعْلاهُ وعَالَاهُ.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾؛ أي: فَرَحًا، مصدرٌ وقعَ موقعَ الحالِ، أو: تمرحُ مرَحًا، أو: لأجلِ المرحِ وهو البطَرُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ علَّةٌ للنَّهيِ، وتأخيرُ الفَخُورِ وهو مقابلٌ للمصعِّرِ خدَّهُ والمُختالُ للماشي مرحًا = لتَوافُقِ رؤوسِ الآيِ.

(١٩) - ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾: توسَّطْ فيهِ بينَ الدَّبيبِ والإسراعِ، وعنهُ عليهِ السَّلامُ: «سُرْعَةُ المشيِ تُذهِبُ بهاءَ المؤمنِ»[٣].

وقولُ عائشةَ: (كانَ إذا مشى أسرعَ)، فالمرادُ ما فوقَ دبيبِ المتماوِتِ[٤].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٦).

(٢) هي قراءة الجحدري كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨).

(٣) رواه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ١٣٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه ابن عدي في «الكامل» (٨/ ٣٥٩) عن أبي سعيد وابن عمر رضي الله عنهم، و(٦/ ٢٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما. وأسانيدها ضعيفة جدا، وقد فصلنا طرقه ورواياته مع عللها في تحقيقنا لـ«روح المعاني» (٢١/ ٦٥). وانظر: «الكافي الشاف» (ص: ١٣٠).

(٤) أوردَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهاية» (مادة: موت): أنَّ عائشَةَ نظرَتْ إلى رَجُلٍ كادَ يموتُ تَخافُتًا فقالَت: ما لِهَذا؟ فقيل: إنَّه مِن القُرَّاءِ، فقالَتْ: كان عُمَرُ سيِّدَ القُرَّاءِ، وكان إذا مَشى أسرَعَ، وإذا قالَ أسمَعَ، وإذا =

وقُرِئَ بقطعِ الهمزةِ[1] مِن أَقْصَدَ الرَّامِي: إذا سدَّدَ سهمَهُ نحوَ الرَّمِيَّةِ.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾: وانقُصْ منهُ وأقْصِرْ ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾: أوحشَها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ والحمارُ مَثَلٌ في الذَّمِّ سِيَّما نُهَاقُهُ، ولذلكَ يُكْنَى عنهُ فيقالُ: طويلُ الأذنينِ.

وفي تمثيلِ الصَّوتِ المرتفعِ بصوتِه ثمَّ إخراجِهِ مُخرجَ الاستعارةِ مبالغةٌ شديدةٌ، وتوحيدُ الصَّوتِ لأنَّ المرادَ تفضيلُ الجنسِ في النَّكيرِ[2] دونَ الآحادِ، أو لأنَّهُ مصدرٌ في الأصلِ.

(٢٠) - ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بأنْ جعلَهُ أسبابًا محصِّلةً لمنافعِكُم ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأن مكَّنكُم من الانتفاعِ بِهِ بوسطٍ أو بغيرِ وسطٍ.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: محسوسةً ومعقولةً، ما تعرفونهُ وما لا تعرفونَهُ. وقد مرَّ شرحُ النِّعمةِ وتفصيلُها في الفاتحةِ.

وقُرِئَ: (وأصبَغَ) بالإبدالِ[3]، وهو جارٍ[4] في كلِّ سينٍ اجتمعَ مَنَ الغينِ أو الخاءِ أو القافِ كصَلَخ وصَقَر، وقرأَ نافعٌ وأبو عمرٍو وحفصٌ: ﴿نِعَمَهُۥ﴾ بالجمعِ والإضافةِ[5].

= ضَرَبَ أوجَعَ. ورواه عن عائشة رضي الله عنها ابن طيفور في «بلاغات النساء» (ص: ١١ - ١٢)، وروى نحوه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٧٠) عن الشفاء ابنة عبد الله.

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨) عن الحجازي.

(٢) في نسخة الفاروقي: «النكر».

(٣) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٦٨) عن يحيى بن عمارة.

(٤) في نسخة الخيالي: «جائز».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾: في توحيدِهِ وصفاتِهِ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفادٍ من دليلٍ ﴿وَلَا هُدًى﴾ راجعٍ إلى رسولٍ ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أنزلهُ اللهُ، بل بالتَّقليدِ كما قال:

(٢١) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ وهو منعٌ صريحٌ من التَّقليدِ في الأصولِ.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ الضَّميرُ لهم ولآبائِهم ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾: إلى ما يَؤولُ إليهِ من التَّقليدِ أو الإشراكِ، وجَوابُ (لو) محذوفٌ مثلَ: لاتَّبعوهُ، والاستفهامُ للإنكارِ والتَّعجيبِ.

(٢٢) ـ ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأَنْ فوَّضَ أمرَهُ إليهِ وأقبلَ بشَراشِرهِ عليهِ، مِن أسلَمْتُ المتاعَ إلى الزَّبونِ، ويؤيدُهُ القراءةُ بالتَّشديدِ[١]، وحيثُ عُدِّيَ باللَّامِ فلِتَضمُّنِ معنى الإخلاصِ.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عملِهِ ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: تعلَّقَ بأوثَقِ ما يُتعلَّقُ بِهِ، وهو تمثيلٌ للمتوكِّلِ المشتغِلِ بالطَّاعةِ بمَن أرادَ أن يترقَّى شاهقَ جبلٍ فتمسَّكَ بأوثقِ عُرى الحبلِ المتدلِّي منه.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ إذ الكلُّ صائرٌ إليه.

(٢٣) ـ ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ فإنَّهُ لا يضرُّكَ في الدُّنيا والآخرةِ.

وقُرِئَ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ مِن حَزَنَ[٢]، وليس بمُستَفِيضٍ[٣].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨) عن علي والسلمي وعبد الله بن مسلم بن يسار.

(٢) وهي قراءة السبعة عدا نافعاً فإنه قرأ بالأولى. انظر: «التيسير» (ص: ٩١).

(٣) قولُهُ: (ليسَ بمُستفيضٍ) أي: شائع؛ تبعَ فيهِ الزَّمخشريّ، واللغتان مشهورتان والقُرَّاءتان مُتواتِرتان؛ بأن هذهِ قراءَة نافعٍ لكنَّهُ يُشيرُ إلى ما نقلَ عن الزَّمخشريِّ أنَّ المعروف في الاستعمالِ ماضي الأفعال ومضارع الثُّلاثيّ، والعهدَة في ذلكَ عليه. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ في الدَّارينِ ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ بالإهلاكِ والتَّعذيبِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فمُجازٍ عليهِ فضلًا عمَّا في الظاهرِ.

(٢٤) ـ ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾: تمتيعًا أو زمانًا قليلًا، فإنَّ ما يزولُ بالنِّسبةِ إلى ما يدومُ قليلٌ.

﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ يَثقُلُ عليهِم ثِقَلَ الأجرامِ الغِلاظِ، أو يَضُمُّ إلى الإحراقِ الضَّغطَ.

(٢٥) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ لوُضوحِ الدَّليلِ المانعِ من إسنادِ الخلقِ إلى غيرِهِ بحيثُ اضطرُّوا إلى إذعانهِ.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ على إلزامِهم وإلجائِهم إلى الاعترافِ بما يوجبُ بطلانَ معتقدِهم.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ ذلكَ يَلْزَمُهم.

(٢٦) ـ ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لا يَستحِقُّ العبادةَ فيهما غيرُهُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن حمدِ الحامدينَ ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾: المستحِقُّ للحَمْدِ وإن لم يُحْمَد.

(٢٧) ـ ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾: ولو ثبتَ كونُ الأشجارِ أقلامًا، وتوحيدُ ﴿شَجَرَةٍ﴾ لأنَّ المرادَ تفصيلُ الآحادِ[1].

---

(١) قوله: «لأن المراد تفصيل الآحاد»؛ أي: لأن المراد تفصيل الشجر واستقصاؤها شجرة حتى لا يبقى واحدة من جنسها إلا وقد بُريت أقلاماً، ولو لم يفرد لم يفد هذا المعنى؛ إذ الجمع يتحقق بما فوق الثلاثة إلا أن يدخل عليه لام استغراق، وبهذا ظهر وجه التعبير بأقلام لأنها لعمومها في معنى الجمع. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ والبحرُ المحيطُ بشُعَبِهِ مداداً ممدوداً[(١)] بسَبْعَةِ أبحُرٍ فأغنَى عن ذكرِ المدادِ ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ لأَنَّهُ من مَدَّ الدَّواةَ وأمدَّهَا، ورفعُهُ للعطفِ على محلِّ ﴿أنَّ﴾ ومَعمولِها، و﴿يَمُدُّهُۥ﴾ حالٌ، أو الابتداءِ[(٢)] علـى أَنَّهُ مُستأنَفٌ، أو الواوُ للحالِ، ونصَبَهُ البَصرِيَّانِ[(٣)] بالعَطْفِ على اسمِ ﴿أنَّ﴾، أو إضمارِ فعلٍ يُفسِّرُهُ ﴿يَمُدُّهُۥ﴾.

وقُرِئَ: (تُمِدُّهُ) و(يُمِدُّهُ) بالتَّاءِ والياءِ[(٤)].

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بكَتْبِها بتلك الأقلامِ بذلكَ المدادِ، وإيثارُ جمعِ القلَّةِ للإشعارِ بأنَّ ذلكَ لا يفي بالقَليلِ فكيفَ بالكثيرِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجِزُهُ شيءٌ ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرجُ عن علمِهِ وحكمتِهِ أمرٌ، والآيةُ جوابٌ لليَهُودِ؛ سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ ـ أو أمروا وفدَ قريشٍ أن يسألوهُ ـ عن قولِهِ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] وقد أنزلَ التوراةَ وفيها علمُ كلِّ شيءٍ[(٥)].

---

(١) قوله: «مداداً» حال من (البحر)، و«ممدوداً» تفسيرٌ له فهو عطف بيان. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) قوله: «أو الابتداء» عطفٌ على مدخول لام «للعطف». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٣٧).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٧)، و«النشر» (٢/ ٣٤٧). والبصريان: أبو عمرو ويعقوب.

(٤) بالياء نسبت لابن مسعود والحسن وابن مصرف وغيرهم. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٦٩)، و«البحر» (١٧/ ٢٣٣). وبالتاء في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨) عن بعضهم.

(٥) رواه مطولًا الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣) من طريق ابن إسحاق، قال: ثني رجل من أهل مكة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: (أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا محمد...) الحديث. ورواه الطبري أيضاً من طريق محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار، قال: (لما نزلت بمكة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: اليهود، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبار يهود، فقالوا: يا محمد...). =

(٢٨) ـ ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: إلَّا كخَلْقِها وبعثِها، إذ لا يَشغلُهُ شأنٌ عن شأنٍ، لأنَّهُ يكفي لوجودِ الكلِّ تعلُّقُ إرادتِهِ الواجبةِ مع قدرتِهِ الذَّاتيَّةِ كما قالَ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمعُ كلَّ مَسموعٍ ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصرُ كلَّ مُبْصَرٍ، لا يشغلهُ إدراكُ بعضِها عن بعضٍ فكذلكَ الخلقُ.

(٢٩) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي﴾: كلٌّ من النَّيِّرينِ يجري في فَلَكِهِ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى مُنتَهى معلومٍ: الشَّمسُ إلى آخرِ السَّنةِ، والقمرُ إلى آخرِ الشَّهرِ.

وقيلَ: إلى يومِ القيامةِ.

والفرقُ بينَهُ وبينَ قولِهِ: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]: أنَّ الأجلَ هاهنا مُنتَهى الجري، وثَمَّ[1] غرضُهُ حقيقةً أو مجازًا[2]، وكِلَا المعنيينِ حاصلٌ في الغاياتِ.

= وفي هذين الخبرين التصريح بأن اليهود خاطبوا النبي ﷺ بذلك في المدينة ما يدل على أن الآية مدنية، لكن سنديهما ضعيفان لإبهام شيخ ابن إسحاق فيهما.

وقد قال الزمخشري: وهذه الآيةُ عند بَعْضِهم مَدَنِيَّةٌ وأنَّها نزلَتْ بَعد الهجرةِ.

ثم قال: وقيل: هي مَكِّيَّةٌ، وإنَّما أَمَر اليهُودُ وَفْدَ قُرَيْشٍ أن يَقُولُوا لِرسُولِ الله: أَلَستَ تَتْلُو فيما أُنزِلَ عَليك: أنَّا قَدْ أُوتينَا التَّوراةَ وفيها عِلمُ كُلِّ شيءٍ.

قلت: وقوله: «ألست تتلو...» ورد هذا في خبري ابن عباس وعطاء بن يسار المتقدمين على أنه من كلام اليهود للنبي ﷺ في المدينة دون واسطة مشركي مكة.

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «وثمة».

(٢) قوله: «والفرق بينه وبين قوله: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾» حاصله: أن الأجل المجرور بـ (إلى) منتهى الجَرْي، وباللام غرضُه؛ أي: علَّته المختصَّة به، فالغرض الاختصاص.

وعبارة «الكشاف»: الانتهَاءُ والاختصَاصُ كُلُّ واحِدٍ منهُما مُلائِمٌ لِصحَّةِ الغَرضِ؛ لأنَّ قَولك: =

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: عالمٌ بكُنهِهِ.

(٣٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى[1] الذي ذُكرَ مِن سَعَةِ العلمِ وشُمولِ القُدرَةِ وعَجائبِ الصُّنعِ واختصاصِ الباري بها ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾: بسببِ أَنَّهُ الثَّابتُ في ذاتِهِ الواجبُ مِن جميعِ جهاتِهِ، أو: الثابتُ إلهيتُهُ ﴿وأنَّ ما تَدْعُون مِن دُونَه الباطلُ﴾: المعدومُ في حدِّ ذاتِهِ لا يوجدُ ولا يتَّصِفُ إلا بجَعْلِه، أو: الباطلُ إلهيَّتُه.

وقرأَ البصريَّانِ والكوفيُّونَ غيرَ أبي بكرٍ بالياءِ[2].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ مترفِّعٌ عن كلِّ شيءٍ ومتسلِّطٌ عليه.

(٣١) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾: بإحسانِهِ في تَهيئَةِ أسبابِهِ، وهو استشهادٌ آخَرُ على باهرِ قُدرَتِهِ وكمالِ حكمتِهِ وشُمولِ إنعامِهِ، والباءُ للصِّلَةِ أو الحالِ.

وقُرِئَ: (الفُلُكَ) بالتَّثقيلِ[3]، و: (بنِعْمَاتِ اللهِ) بسكونِ العينِ[4]، وقد جوَّزَ في مثلِهِ الكسرُ والفتحُ والسُّكونُ[5].

= ﴿يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مَعناه: يَبْلغُه ويَنتهِي إليه، وقَولَك: ﴿يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تُرِيدُ: يَجْرِي لإِدْراك أَجلٍ مُسَمًّى، تجعَلُ الجَرْيَ مُختصًّا بإِدْراكِ أَجلٍ مُسَمًّى، ألَا تَرى أنَّ جزْيَ الشَّمس مُختصٌّ بآخِرِ السَّنةِ، وجَرْيَ القَمر بآخر الشهر.

ووجهُ كون الغرض حقيقةً أو مجازاً: أنه إن كان بلوغُ الجَرْي إلى منتهاه هو المقصودَ؛ فهو غرضٌ حقيقة، وإن لم يَكُنْه بل ما يقع فيه، فهو غرضٌ مجازاً. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٣٩).

(١) «إشارة إلى» من نسخة الخيالي والطبلاوي.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٥٨)، و«النشر» (٢/ ٣٢٧). البصريان: أبو عمرو ويعقوب. الكوفيون: حمزة والكسائي وعاصم، أبو بكر أحد راويي عاصم، والآخر: حفص.

(٣) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٧٠) عن موسى بن الزبير.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٧٠) عن الأعرج والأعمش.

(٥) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٧١)، وفيه: ما كان على «فِعلةٍ» ففي جمعه بالتاء ثلاث لغات: فِعِلات، =

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾: دلائلِهِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المشاقِّ فيُتعِبُ نفسَهُ بالتفكُّرِ في الآفاقِ والأنفسِ ﴿شَكُورٍ﴾ يعرفُ النِّعمَ ويَتعرَّفُ مانِحَها، أو: للمُؤمنينَ(١) فإنَّ الإيمانَ نِصفانِ: نصفٌ صَبرٌ ونصفٌ شُكْرٌ.

(٣٢) ـ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾: عَلاهُم وغطَّاهُم ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾، كما يُظِلُّ من جبلٍ أو سَحابٍ أو غيرِهما. وقُرِئَ: (كالظِّلالِ) جمعُ ظُلَّةٍ(٢) كقُلَّةٍ وقِلالٍ.

﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لزوالِ ما ينازعُ الفِطرةَ مِن الهوى والتَّقليدِ بما دَهاهُم من الخوفِ الشَّديد ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: مقيمٌ على الطَّريقِ القصدِ الذي هو التَّوحيد، أو متوسِّطٌ في الكفرِ لانزجارِهِ بعضَ الانزجارِ.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾: غدَّارٍ؛ فإنَّهُ نقضٌ للعَهْدِ الفِطريِّ، أو لِمَا كانَ في البحرِ، والخَترُ: أشدُّ الغَدْرِ ﴿كَفُورٍ﴾ للنِّعَمِ.

(٣٣) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾: لا يقضي عنهُ. وقُرِئَ: (لا يُجزِئ)(٣) مِن أجزأَ: إذا أغنَى.

والرَّاجعُ إلى الموصوفِ محذوفٌ؛ أي: لا يجزِي فيهِ(٤).

= وفِعَلات، وفِعْلات؛ كسِدْرةٍ وسِدِرات، وسِدْرات، وكذلك «فُعلة» فيها الثلاث أيضاً: الإتباع، والعدول عن ضمة العين إلى فتحها، والسكون هرباً من اجتماع الضمتين: كغُرْفة، وغُرُفات وغُرَفات، وغُرْفات.

(١) قوله: «أو للمؤمنين» عطف على مقدَّر معلق بـ﴿شَكُورٍ﴾، والمعنى: شكور لنعمه تعالى أو للمؤمنين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٤٠).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨) عن محمد ابن الحنفية.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨) عن أبي السمال وعامر بن عبد الله وأبي السوار.

(٤) أي: جملة ﴿لَّا يَجْزِى﴾ صفةُ ﴿يَوْمًا﴾، والعائدُ محذوفٌ؛ والتقدير: لا يجزي فيه. ومثله في القراءة الأخرى.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ عطفٌ على ﴿وَالِدٌ﴾ أو مبتدأٌ خبرُه: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وتغييرُ النَّظمِ للدَّلالةِ على أنَّ المولودَ أَوْلَى بأَنْ لا يَجزيَ، وقطعِ طمعِ مَن توقَّعَ منَ المؤمنينَ أن ينفعَ أباهُ الكافرَ في الآخرةِ.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثَّوابِ والعقابِ ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكنُ خُلفهُ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: الشَّيطانُ بأن يرجِّيَكُم التَّوبةَ والمغفرةَ فيجسِّرَكم على المعاصِي.

(٣٤) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: علمُ وقتِ قيامِها؛ لِمَا رويَ أنَّ الحارثَ بن عمرٍو أتى رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: متى قيامُ السَّاعة؟ وإني قد ألقيتُ حبَّاتِي في الأرضِ فمتَى السَّماءُ تمطرُ؟ وحملُ امرأتي ذكرٌ أم[1] أنثى؟ وما أعملُ غدًا؟ وأينَ أموتُ؟ فنزلت[2].

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني والخيالي: «أو».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٨٥) وابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٩) عن مجاهد ولم يسم الرجل، وهو في «تفسير مجاهد» (ص: ٥٤٣)، دون تسمية الرجل أيضاً.

ورواه ابن المنذر في «تفسيره» عن عكرمة كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠)، وسمى الرجل: الوارث من بني مازن.

وذكره مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ٤٤٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣) دون عزو، واسم صاحب القصة عندهما: الوارث بن عمرو بن حارثة بن محارب.

وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٧)، واسم الرجل فيه: الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب.

وذكره الواحدي أيضاً في «البسيط» (١٨/ ١٢٨) وعزاه لمجاهد ومقاتل، واسم الرجل في مطبوعه: الوارث بن عمرو المجازي. ولعله محرف عن: المحاربي.

فهذا الخبر مع الاختلاف في اسم صاحب القصة لم يرو بسند متصل إلى النبي ﷺ، وإنما هي مراسيل عن عكرمة ومجاهد ومقاتل.

وعنه عليه السلام: «مفاتِحُ الغيبِ خمسٌ» وتلا هذه الآيةَ[١].

﴿ويُنْزِلُ الغَيْثَ﴾ في إبَّانِهِ المقدَّرِ لهُ، والمحلِّ المعيَّنِ لهُ في علمِه، وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ بالتَّشديدِ[٢].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكرٌ أم أنثى؟ أتامٌّ أم ناقصٌ؟

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِن خيرٍ أو شرٍّ، وربما تَعزمُ على شيءٍ وتفعلُ خلافَهُ.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أيِّ وقتٍ تموتُ.

رويَ أنَّ ملكَ الموتِ مرَّ على سليمانَ عليهِ السَّلامُ فجعلَ ينظرُ إلى رجلٍ من جُلَسائهِ يديم النظرَ، فقالَ الرَّجلُ: مَن هذا؟ قالَ: ملكُ الموتِ، فقالَ: كأنَّهُ يريدُني، فمُرِ الرِّيحَ أن تحملَني وتلقيَني بالهندِ، ففعلَ، فقالَ المَلَكُ: كان دوامُ نظري إليهِ تعجُّبًا منهُ إذْ أُمرتُ أن أقبضَ روحَهُ بالهندِ وهو عندَك[٣].

وإنَّما جُعلَ العلمُ للهِ والدِّرايةُ للعَبْدِ لأنَّ فيها معنى الحيلةِ، فيُشعِرُ بالفرقِ بينَ العِلْمينِ، ويدلُّ على أنَّهُ إن عملَ حيلةً وأنفدَ[٤] فيها وُسعَهُ لم يعرِفْ ما هوَ ألحقُ به[٥] من كسبهِ وعاقبتِهِ، فكيفَ بغيرِهِ ممَّا لم يُنصَبْ لهُ دليلٌ عليهِ.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٩٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ١٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٢٦٨) عن الأعمش عن خيثمة، وكذا رواه عبد الله بن الإمام أحمد في «الزهد» (٢٢٢) وزاد: وعن حمزة عن شهر بن حوشب.

(٤) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «وأبعد».

(٥) في نسخة الفاروقي: «ألصق به». قال الشهاب: قوله: «ما هو الحق به»؛ أي: اللائق به، وقيل: إنه أفعل تفضيل من (لَحِق) بمعنى: ألصقُ، ويؤيده أنه وقع في نسخة بدله: «ألصق» أفعل من اللصوق. انظر: «حاشية الخفاجي».

وقُرِئَ: (بأَيَّةِ أَرْضٍ)[١]، وشبَّهَ سيبويهِ تأنيثَها بتأنِيث (كُلّ) في: (كُلَّتُهُنَّ)[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يعلمُ الأشياءَ كلَّها ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلمُ بواطنَها كما يعلَمُ ظواهِرَها.

وعنهُ عليهِ السَّلام: «مَن قَرَأَ سُورَةَ لُقْمَانَ كانَ لهُ لُقْمَانُ رفيقًا يومَ القيامةِ، وأعطيَ منَ الحسناتِ عشرًا عشرًا بعددِ مَن عَمِلَ[٣] بالمَعرُوفِ ونَهَى عن المُنْكَرِ»[٤].

***

(١) نسبت لموسى الأسواري وابن أبي عبلة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٥٦).

(٢) انظر: «الكتاب» لسيبويه (٢/ ٤٠٧).

(٣) في نسخة التفتازاني: «من أمر».

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٨٤) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٣١) سورة لقمان مكية
وآياتها أربع وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾

تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه الآية، وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا أرحامهم وقراباتهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراؤوا ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكوراً، فن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه، عطف بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء، بالألحان وآلات الطرب[1]. روى ابن جرير عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ فقال عبد الله بن مسعود: الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث

(١) قال السيوطي: أخرج ابن جويبر: نزلت في النضر بن الحارث، اشترى قينة، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وقيل: إن النضر هذا كان من بني عبد الدار، وكان قد تعلم أخبار فارس في الجاهلية.

مرات، وقال الحسن البصري: نزلت هذه الآية ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم﴾ في الغناء والمزامير، وقيل: أراد بقوله: ﴿يشتري لهو الحديث﴾ اشتراء المغنيات من الجواري، قال ابن أبي حاتم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ، قال: «لا يحل بيع المغنيات، ولا شراؤهن، وأكل أثمانهن حرام، وفيهن أنزل الله عزَّ وجلَّ عليَّ: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾»[1]، قال الضحّاك: ﴿لهو الحديث﴾ يعني الشرك، وبه قال ابن أسلم، واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله، وقوله: ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ أي إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله، وقوله تعالى: ﴿ويتخذها هزواً﴾ قال مجاهد: ويتخذ سبيل الله هزواً يستهزئ بها، وقال قتادة: يعني ويتخذ آيات الله هزواً. وقول مجاهد أولى. وقوله: ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ أي كما استهانوا بآيات الله وسبيله، أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر، ثم قال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً﴾ أي هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولى عنها وأعرض وأدبر، وتصامم وما به من صمم، كأنه ما سمعها لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها، ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ أي يوم القيامة يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

هذا ذكر مآل الأبرار، من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله ﴿لهم جنات النعيم﴾ أي يتنعمون فيها بأنواع الملاذ، من المآكل والمشارب والملابس والمساكن، والمراكب، والنساء، والنضرة، والسماع، الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائماً لا يظعنون ولا يبغون عنها حولا. وقوله تعالى: ﴿وعد الله حقاً﴾ أي هذا كائن لا محالة، لأنه وعد الله، والله لا يخلف الميعاد لأنه الكريم المنان، الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء، ﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء، ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين، ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾.

* خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السماوات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال تعالى: ﴿خلق السموات بغير عمد﴾ قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد، وقال ابن عباس: لها عمد لا ترونها، وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة الرعد، ﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ يعني الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء، ولهذا قال: ﴿أن تميد بكم﴾ أي لئلا تميد بكم، وقوله تعالى: ﴿وبث فيها من كل دابة﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي وابن جرير.

أي وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق، بقوله: ﴿وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ أي من كل زوج من النبات ﴿كريم﴾ أي حسن المنظر، وقال الشعبي: من دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم، وقوله تعالى: ﴿هذا خلق الله﴾ أي هذا الذي ذكره تعالى من خلق السماوات والأرض وما بينهما صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره وحده لا شريك له في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ أي مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد، ﴿بل الظالمون﴾ يعني المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿في ضلال﴾ أي جهل وعمى ﴿مبين﴾ أي واضح ظاهر لا خفاء به.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

اختلف السلف في لقمان: هل كان نبياً أو عبداً صالحاً؟ على قولين: الأكثرون على الثاني، قال ابن عباس: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة، وقال ابن جرير عن خالد الربعي قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة فذبحها، قال أخرج أطيب مضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله، ثم قال اذبح لنا هذه الشاة فذبحها فقال: أخرج أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولاه: أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما: فقال لقمان، إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا، وقال مجاهد: كان لقمان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً، غليظ الشفتين مصفح القدمين قاضياً على بني إسرائيل. وقوله: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ أي الفهم والعلم والتعبير، ﴿أن اشكر لله﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عزَّ وجلَّ على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه، ثم قال تعالى: ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين، لقوله تعالى: ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾، وقوله: ﴿ومن كفر فإن الله غني حميد﴾ أي غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عما سواه، فلا إلـه إلا الله ولا نعبد إلا إياه.

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا

يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ أي هو أعظم الظلم. عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذلك، ألا تسمع إلى قول لقمان ﴿يا بنيَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾»[1]، ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده، البر بالوالدين كما قال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن؛ وقال ههنا: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن﴾، قال مجاهد: مشقة وهن الولد؛ وقال قتادة: جهداً على جهد؛ وقال عطاء الخراساني: ضعفاً على ضعف، وقوله: ﴿وفصاله في عامين﴾ أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ الآية، ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأنه قال في الآية الأخرى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾، وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة، وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾، ولهذا قال: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير﴾ أي فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء. عن سعيب بن وهب قال: قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبي ﷺ، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني رسول رسول الله ﷺ إليكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تطيعوني لا آلوكم خيراً، وإن المصير إلى الله إلى الجنة أو إلى النار، إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت[2].

وقوله تعالى: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ أي إن حرصا عليك كل الحرص، على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعك ذلك أن تصاحبهما في الدنيا ﴿معروفاً﴾ أي محسناً إليهما، ﴿واتبع سبيل من أناب إليّ﴾ يعني المؤمنين، ﴿ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾، روى الطبراني عن داود بن أبي هند أن سعد بن مالك[3] قال: أنزلت فيّ هذه الآية: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ الآية، قال: كنت رجلاً براً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعيّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء؛ فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نَفْساً نَفْساً ما تركت ديني هذا لشيء؛ فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت.

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، وهذا القول من كلام معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٣) سعد بن مالك هو سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنه.

عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾
وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

هذه وصايا نافعة حكاها الله سبحانه عن (لقمان الحكيم) ليمتثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿يا بنيّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل﴾ أي إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل، وكانت مخفية في السماوات أو في الأرض ﴿يأت بها الله﴾ أي أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ الآية، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو ذاهبة في أرجاء السماوات والأرض، فإن الله يأتي بها لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي لطيف العلم فلا تخفى عليه الأشياء، وإن دقّت ولطفت وتضاءلت، ﴿خبير﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم، وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله ﴿فتكن في صخرة﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع، والظاهر - والله أعلم - أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة فإن الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه، كما قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائناً ما كان»[1]، ثم قال: ﴿يا بنيّ أقم الصلاة﴾ أي بحدودها وفروضها وأوقاتها، ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ أي بحسب طاقتك وجهدك، ﴿واصبر على ما أصابك﴾ لأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، لا بد أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر، وقوله: ﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾ أي إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور.

وقوله تعالى: ﴿ولا تصعر خدك للناس﴾ يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم، ولكن أَلِنْ جانبك وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط»، قال ابن عباس يقول: لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك، وقال زيد بن أسلم ﴿ولا تصعر خدك للناس﴾: لا تتكلم وأنت معرض، وقال إبراهيم النخعي: يعني بذلك التشدق في الكلام، والصواب القول الأول، قال الشاعر[2]:

وكنا إذا الجبار صعَّر خده أقمنا له من ميله فتقوما

وقوله تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي خيلاء متكبراً جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك يبغضك الله، ولهذا قال: ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي مختال معجب في نفسه ﴿فخور﴾ أي على غيره، وقال تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾. عن ثابت بن قيس بن شماس قال: ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه فقال: «إن الله لا يحب كل مختال فخور» فقال رجل

(١) أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.
(٢) هو عمرو بن حي التغلبي.

من القوم: والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها ويعجبني شراك نعلي وعلّاقة سوطي، فقال: « ليس ذلك الكبر، إنما الكبر أن تسفه الحق، وتغمط الناس »[1]، وقوله: ﴿ واقصد في مشيك ﴾ أي امش مقتصداً مشياً ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط بل عدلاً وسطاً بين بين، وقوله: ﴿ واغضض من صوتك ﴾ أي لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال: ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ قال مجاهد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم، لأن رسول الله ﷺ قال: « ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يتيء ثم يعود في قيئه »، وروى النسائي عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً »[2]. فهذه وصايا نافعة جداً، وهي من قصص القرآن العظيم، عن لقمان الحكيم، وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ﴾

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السماوات، من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار، وما خلق لهم في الأرض من أنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله أي في توحيده وإرساله الرسل، ومجادلته في ذلك بغير علم ولا مستند، من حجة صحيحة ولا كتاب مأثور صحيح، ولهذا قال تعالى: ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ أي مبين مضيئ ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿ اتبعوا ما أنزل الله ﴾ أي على رسوله من الشرائع المطهرة، ﴿ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله تعالى: ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أي فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾.

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) ﴾

(١) أخرجه الطبراني عن ثابت بن قيس وفيه قصة طويلة. (٢) أخرجه النسائي وبقية الجماعة سوى ابن ماجة.

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله أي أخلص له العمل، وانقاد لأمره واتبع شرعه، ولهذا قال: ﴿وهو محسن﴾ أي في عمله باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه، ﴿وإلى الله عاقبة الأمور * ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ أي لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وبما جئت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، وإلى الله مرجعهم ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ أي فيجزيهم عليه، ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فلا تخفى عليه خافية، ثم قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً﴾ أي في الدنيا، ﴿ثم نضطرهم﴾ أي نلجئهم ﴿إلى عذاب غليظ﴾ أي فظيع صعب شاق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾.

۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين، أنهم يعرفون أن الله خالق السماوات والأرض، وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له، ولهذا قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله﴾ أي إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾، ثم قال تعالى: ﴿لله ما في السموات والأرض﴾ أي هي خلقه وملكه، ﴿إن الله هو الغني الحميد﴾ أي الغنى عما سواه وكل شيء فقير إليه، ﴿الحميد﴾ في جميع ما خلق له الحمد في السماوات والأرض، وهو المحمود في الأمور كلها.

وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه، وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، فقال تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً وأمده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله، لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ولو جاء أمثالها مدداً، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ولم يرد الحصر، فقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾، فليس المراد بقوله: ﴿بمثله﴾ آخر فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله، ثم هلم جرا، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته، قال الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلاماً وجعل البحر مداداً، وقال الله: إن من أمري كذا ومن أمري كذا لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام، وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ أي ما خلق جميع الناس، وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته، إلا كنسبة خلق نفس واحدة،

الجميع هيّن عليه، ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾، ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ أي لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكيده، ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾، وقوله: ﴿إن الله سميع بصير﴾ أي كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة، ولهذا قال تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ الآية .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى أنه ﴿يولج الليل في النهار﴾ يعني يأخذ منه في النهار فيطول ذاك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار وهذا يكون في الشتاء ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى﴾ قيل إلى غايه محدودة، وقيل إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت الله ورسوله أعلم؟ قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت»[1]، وعن ابن عباس أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، قال: وكذلك القمر[2]، وقوله: ﴿وإن الله بما تعملون خبير﴾ المعنى أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، وقوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ أي إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق أي الإلّه الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه، الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾ أي العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، فالكل خاضع حقير بالنسبة إليه .

* أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر، لتجري فيه الفلك بأمره، أي بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت، ولهذا قال: ﴿ليريكم من آياته﴾ أي من قدرته ﴿إن في ذلك لآيات

(١) أخرجه الشيخان عن أبي ذر الغفاري مرفوعاً . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً .

لكل صبار شكور﴾ أي صبار في الضراء، شكور في الرخاء، ثم قال تعالى: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل﴾ أي كالجبال والغمام ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾، كما قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه﴾، وقال تعالى: ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾ قال مجاهد: أي كافر، كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾، وقال ابن زيد، هو المتوسط في العمل، وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى: ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد﴾ الآية، فالمقتصد ههنا هو المتوسط في العمل، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال، والأمور العظام، والآيات الباهرات في البحر؛ ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ الختار: هو الغدّار، قاله مجاهد والحسن وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والختر أتم الغدر وأبلغه. قال عمرو بن معد يكرب:

وإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر

وقوله: ﴿كفور﴾ أي جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها.

* ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (٣٣)

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد، وآمراً لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لا يجزي والد عن ولده﴾ أي لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه، ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ يعني الشيطان(١)، فإنه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه، وليس من ذلك شيء، بل كان كما قال تعالى: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾، قال وهب بن منبه: قال عزير عليه السلام: لما رأيت بلاء قومي اشتد حزني وكثر همي وأرق نومي، فتضرعت إلى ربي وصليت وصمت، فأنا في ذلك التضرع أبكي إذ أتاني الملَك، فقلت له: خبرني هل تشفع أرواح الصديقين للظلمة، أو الآباء لأبنائهم؟ قال: إن القيامة فيها فصل القضاء، وملك ظاهر ليس فيه رخصة لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه، ولا عبد عن سيده، ولا يهتم أحد به بغيره، ولا يحزن لحزنه ولا أحد يرحمه، كل مشفق على نفسه، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان، كل يهمه همه ويبكي ذنبه، ويحمل وزره ولا يحمل وزره معه غيره(٢).

* ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه.

نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن يشاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، شقياً أو سعيداً، علم الملائكة الموكلون بذلك، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها، ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ الآية، وقد وردت السنّة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب، روى الإمام أحمد عن أبي بريدة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمسٌ لا يعلمهن إلا الله عزَّ وجلَّ: ﴿إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾»، عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾»[1]

وعن مجاهد قال: جاء رجل من أهل البادية فقال: إن امرأتي حبلى فأخبرني ما تلد؟ وبلادنا مجدبة، فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إن الله عنده علم الساعة - إلى قوله - عليم خبير﴾ قال مجاهد وهي مفاتيح الغيب التي قال الله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾[2]، وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من حدثك أنه يعلم ما في غد، فقد كذب، ثم قرأت ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾. وقوله تعالى: ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن فلن يطلع عليهن ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة أو في أي شهر أو ليل أو نهار، ﴿وينزل الغيث﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً، ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود وما هو، ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غداً لعلك المصاب غداً، ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ أي ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر، أو سهل أو جبل. وقد جاء في الحديث: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة»[3]. وروي مثله عن ابن مسعود، وبمعناه عن أسامة.

[آخر تفسير سورة لقمان، والحمد لله رب العالمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل]

✲ ✲ ✲

(١) أخرجه البخاري والإمام أحمد.
(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير.

تفسير سورة لقمان

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾ .

تقدم فى أول سورة « البقرة » عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ،وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل فى اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم ، وأيقنوا بالجزاء فى الدار الآخرة ، فرغبوا إلى اللّه فى ثواب ذلك ، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أى:على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلى، ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب اللّه وينتفعون بسماعه ، كما قال [الله](١) تعالى :﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣]، عطف بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام اللّه ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال : هو ـ واللّه ـ الغناء .

قال ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى يزيد بن يونس ، عن أبى صخر ، عن أبى معاوية البجلى ، عن سعيد بن جبير ، عن أبى الصهباء البكرى ، أنه سمع عبد اللّه بن مسعود ـ وهو يسأل عن هذه الآية :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ـ فقال عبد اللّه : الغناء ، واللّه الذى لا إله إلا هو ، يرددها (٢) ثلاث مرات (٣) .

(١) زيادة من أ .
(٢) فى ت : « فرددها » .
(٣) تفسير الطبرى (٢١/ ٣٩) .

حدثنا عمرو بن على ، حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا حُمَيْد الخراط ، عن عمار ، عن سعيد ابن جبير ، عن أبى الصهباء : أنه سأل ابن مسعود عن قول الله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال : الغناء (١).

وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعِكْرِمة ، وسعيد بن جُبَيْر ، ومجاهد ، ومكحول ، وعمرو بن شعيب ، وعلى بن بَذِيمة .

وقال الحسن البصرى : أنزلت هذه الآية :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فى الغناء والمزامير .

وقال قتادة : قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراؤه استحبابه ، بحَسْب المرء من الضلالة أن يختارَ حديثَ الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع .

وقيل : عنى بقوله : ﴿ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ : اشتراء المغنيات من الجوارى .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحْمَسى : حدثنا وكيع ، عن خلاد الصفار ، عن عُبَيد الله بن زَحْر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم بن عبد الرحمن (٢) ، عن أبى أمامة ، عن النبى ﷺ قال : « لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ،وأكل أثمانهن حرام ،وفيهن أنزل الله عز وجل عَلَىّ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ » .

وهكذا رواه الترمذى وابن جرير ، من حديث عُبَيد الله بن زحر بنحوه (٣) ، ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب . وضُعف(٤) على بن يزيد المذكور .

قلت : على ، وشيخه ، والراوى عنه ، كلهم ضعفاء . والله أعلم .

وقال الضحاك فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ يعنى : الشرك . وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله .

وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله .

وعلى قراءة فتح الياء ، تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلا للأمر القدرى ، أى : قُيضوا لذلك ليكونوا كذلك .

وقوله : ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا ، يستهزئ بها .

وقال قتادة : يعنى : ويتخذ آيات الله هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله تعالى :﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى : كما استهانوا بآيات الله وسبيله ، أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر .

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/٣٩) .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٩٥) ، وتفسير الطبرى (٢١/ ٤٠) .

(٤) فى ت : « وفى إسناده » .

ثم قال تعالى :﴿ وَإِذَا تتْلَىٰ عَلَيْه آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْه وَقْراً ﴾ أى : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب ، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ، ولى عنها وأعرض وأدبر وتَصَامّ وما به من صَمَم ، كأنه ما يسمعها ؛ لأنه يتأذى بسماعها ، إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرَبَ له فيها ، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : يوم القيامة يؤلمه ، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ .

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء فى الدار الآخرة ، الذين آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين ،وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة (١) لشريعة الله ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أى : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسارّ، من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمراكب والنساء ، والنضرة والسماع الذى لم يخطر ببال أحد ، وهم فى ذلك مقيمون دائما فيها ، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولا .

وقوله :﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ أى : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان ، الفعال لما يشاء ، القادر على كل شىء ، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ ، الذى قد قهر كل شىء ، ودان له كل شىء ، ﴿الْحَكِيمُ ﴾ ، فى أقواله وأفعاله ، الذى جعل القرآن هدى للمؤمنين﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] ، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١١) ﴾ .

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما ، فقال: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ ، قال الحسن وقتادة : ليس لها عَمَد مرئية ولا غير مرئية .

وقال ابن عباس ، وَعكْرِمة ، ومجاهد : لها عمد لا ترونها . وقد تقدم تقرير هذه المسألة فى أول سورة « الرعد » بما أغنى (٢) عن إعادته .

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِى ﴾ يعنى : الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أى : لئلا تميد بكم .

وقوله : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى : وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها

(١) فى ف : « التابعة » ، وفى أ : « المتابعة » .

(٢) فى ت : « بما يغنى » .

وألوانها إلا الذى خلقها.

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** ﴾ أى : من كل زوج من النبات كريم ، أى : حسن المنظر .

وقال الشعبى : والناس ـ أيضاً ـ من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

وقوله : ﴿ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ** ﴾ أى : هذا الذى ذكره تعالى من خلق السموات ، والأرض وما بينهما، صادر عن فعل اللّه وخلقه وتقديره ، وحده لا شريك له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾ أى : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ، ﴿ **بَلِ الظَّالِمُونَ** ﴾ يعنى: المشركين باللّه العابدين معه غيره ، ﴿ **فِي ضَلَالٍ** ﴾ أى : جهل وعمى ، ﴿ **مُّبِينٍ** ﴾ أى : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢)** ﴾ .

اختلف السلف فى لقمان ، عليه السلام : هل كان نبياً ، أو عبداً صالحا من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثانى .

وقال سفيان الثورى ، عن الأشعث ، عن عِكْرِمَة ، عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً .

وقال قتادة ، عن عبد اللّه بن الزبير، قلت لجابر بن عبد اللّه : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النوبة .

وقال يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه اللّه الحكمة ومنعه النبوة .

وقال الأوزاعى ، رحمه اللّه : حدثنى عبد الرحمن بن حَرْمَلَة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد بن المسيب : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهْجَع مولى عمر بن الخطاب ، ولقمان الحكيم ، كان أسوداً نوبياً ذا مشافر (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا أبى ، عن أبى الأشهب (٢) ، عن خالد الرَّبَعِىّ قال : كان لقمان عبداً حبشيا نجارا ، فقال له مولاه : اذبح لنا هذه الشاة . فذبحها ، فقال : أخْرِجْ أطيب مُضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فمكث ما شاء الله ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة . فذبحها ، فقال : أخرج أخبث مضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٤٣) .

(٢) فى أ : « الأشعث » .

مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما . فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا (١) .

وقال شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد : كان لقمان عبداً صالحاً ، ولم يكن نبيا .

وقال الأعمش : قال مجاهد : كان لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين ، مشقق القدمين .

وقال حَكَّام بن سَلْم ، عن سعيد الزبيدى ، عن مجاهد : كان لقمان الحكيم عبدا حبشيا غليظ الشفتين ، مُصَفح القدمين ، قاضيا على بنى إسرائيل .

وذكر غيره : أنه كان قاضيا على بنى إسرائيل فى زمن (٢) داود ، عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حُمَيد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو بن قيس قال : كان لقمان ، عليه السلام ، عبداً أسود غليظ الشفتين ، مُصَفَّح القدمين ، فأتاه رجل وهو فى مجلس أناس يحدثهم ، فقال له : ألست الذى كنت ترعى معى الغنم فى مكان كذا وكذا ، قال : نعم . فقال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث ، والصمت عما لا يعنينى (٣).

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا (٤) عبد الرحمن ابن يزيد (٥) عن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك ، فقال له : ألست عبد بنى فلان الذى كنت ترعى بالأمس ؟ قال: بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قَدَرُ الله ، وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وتركى ما لا يعنينى .

فهذه الآثار منها ما هو مُصرَّح فيه بنفى كونه نبيا ، ومنها ما هو مشعر بذلك ؛ لأن كونه عبداً قد مَسَّه الرق ينافى كونه نبيا ؛ لأن الرسل كانت تبعث فى أحساب قومها ؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا ، وإنما ينقل كونه نبيا عن عكرمة ـ إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث وَكِيع (٦) ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة فقال : كان لقمان نبياً. وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفى ، وهو ضعيف ، والله (٧) أعلم .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى عبد الله بن عياش القتْبَانى ، عن عُمَر مولى غُفْرَة قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان ، أنت عبد بنى الحسحاس ؟ قال : نعم . قال : أنت راعى الغنم ؟ قال : نعم .قال : أنت الأسود ؟ قال : أما سوادى فظاهر ، فما الذى يعجبك من أمرى ؟ قال : وَطْء الناس بسَاطك ، وغَشْيُهم بابك ، ورضاهم بقولك . قال :يا ابن أخى(٨)، إن صَغَيتَ (٩) إلى ما أقول لك كنت كذلك . قال لقمان : غضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة طعمتى، وحفظى فرجى ، وقولى بصدق ، ووفائى بعهدى ، وتكرمتى ضيفى ، وحفظى جارى ، وتركى ما لا يعنينى ، فذاك الذى صيرنى إلى ما (١٠) ترى .

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/٤٣) .
(٢) فى أ : « زمان » .
(٣) تفسير الطبرى (٢١/٤٤) .
(٤) فى أ : « بن » .
(٥) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » .
(٦) فى ت : « عن وكيع » .
(٧) فى ت : « فالله » .
(٨) فى ف ، أ : « أبى » .
(٩) فى ف ، أ : « إن صنعت » .
(١٠) فى ت ، ف ، أ : « كما » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نُفَيل ، حدثنا عمرو بن واقد ، عن عَبْدَةَ بن رَبَاح، عن ربيعة ، عن [١] أبى الدرداء ، رضى اللّه عنه ، أنه قال يوماً ـ وذُكرَ لقمان الحكيم ـ فقال : ما أوتى ما أوتى عن أهل ولا مال ، ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلا صَمْصَامة سكيتا ، طويل التفكر ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد قط يبزق ولا يتنخَّع ، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل ، ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد، وكان قد تزوج وولد له أولاد ، فماتوا فلم يبك عليهم . وكان يغشى السلطان ، ويأتى الحكام، لينظر ويتفكر ويعتبر [٢] ، فبذلك أوتى ما أوتى .

وقد ورد أثر غريب عن قتادة ، رواه ابن أبى حاتم ، فقال :

حدثنا أبى ، حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعى ، حدثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة قال : خيَّر اللّه لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة على النبوة . قال: فأتاه جبريل وهو نائم فَذَرَّ عليه الحكمة ـ أو : رش عليه الحكمة ـ قال : فأصبح ينطق بها .

قال سعيد : فسمعت عن قتادة يقول : قيل للقمان : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيَّرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إلىَّ بالنبوة عَزْمَة لرجوت فيه الفوز منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيَّرنى فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلىَّ.

فهذا من رواية سعيد بن بشير ، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه ، فاللّه أعلم .

والذى رواه سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة ، فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ** ﴾ أى: الفقه فى الإسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه .

وقوله : ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ**﴾ أى : الفهم والعلم والتعبير ، ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ** ﴾ أى : أمرناه أن يشكر اللّه ، عز وجل ، على ما آتاه اللّه ومنحه ووهبه من الفضل ، الذى خصه [٣] به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** ﴾ أى : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين[٤] لقوله [٥] تعالى: ﴿ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** ﴾ [الروم : ٤٤] .

وقوله : ﴿ **وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ أى : غنى عن العباد ، لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغنى عما سواه ؛ فلا إله إلا اللّه ، ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده إلى » .
(٢) فى ت : « ويعتب » .
(٣) فى أ : « خصصه »
(٤) فى ت ، ف : « الشاكر » .
(٥) فى ف : « كقوله » .

فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده ـ وهو : لقمان بن عنقاء بن سدون . واسم ابنه : ثاران فى قول حكاه السهيلى . وقد ذكره [اللّه] (١) تعالى بأحسن الذكر ، فإنه آتاه الحكمة ، وهو يوصى ولده الذى هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ؛ ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد اللّه وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال محذراً له : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ أى: هو أعظم الظلم.

قال البخارى حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة (٢) ، عن عبد اللّه ، رضى اللّه عنه ، قال : لما نزلت : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ [الأنعام:٨٢] ، شق ذلك على أصحاب رسول اللّه ﷺ ، وقالوا : أينا لم يَلْبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : «إنه ليس بذاك ، ألا (٣) تسمع إلى قول لقمان : ﴿ **يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ » .

ورواه مسلم من حديث الأعمش ، به (٤) .

ثم قَرَنَ بوصيته إياه بعبادة اللّه وحده البّر بالوالدين . كما قال تعالى : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الإسراء : ٢٣] . وكثيرا ما يقرن تعالى بين ذلك فى القرآن وقال ههنا : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ** ﴾ . قال مجاهد : مشقة وَهْن الولد .

وقال قتادة : جهداً على جهد .

وقال عطاء الخراسانى : ضعفا على ضعف .

وقوله : ﴿ **وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** ﴾ أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين ، كما قال تعالى: ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا** ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

وإنما يذكر تعالى تربيةَ الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلاً ونهاراً ، ليُذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه ، كما قال تعالى : ﴿ **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ [الإسراء : ٢٤] ؛ولهذا قال: ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ أى : فإنى سأجزيك (٥) على ذلك أوفر الجزاء .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عبد اللّه بن أبى شيبة ، ومحمود بن غَيْلان قالا : حدثنا عبيد اللّه ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق (٦) ، عن سعيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ ابن جبل ، وكان بعثه النبى ﷺ ، فقام فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: إنى [رسول] (٧) رسول اللّه ﷺ إليكم : أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تطيعونى لا آلوكم خيراً ، وأن المصير إلى

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت : « روى البخارى بسنده » . (٣) فى أ : « ألم » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٢٤) .
(٥) فى أ : « سأجازيك » .
(٦) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بسنده » . (٧) زيادة من ت ، أ .

الله، وإلى الجنة أو إلى النار ، إقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت .

وقوله : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ أي : إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما (١) على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ،ولا يمنعنَّك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفا ، أي : محسناً إليهما ، ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ يعني : المؤمنين ، ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قال الطبراني في كتاب العشرة : حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد ، حدثنا مسلمة بن علقمة ، عن داود بن أبي هند [عن أبي عثمان النهدي](٢) : أن سعد بن مالك قال : أنزلت فيَّ هذه الآية : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية ، وقال : كنت رجلا براً بأمي ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لَتَدَعَنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فَتُعَيَّر بي ، فيقال : «ياقاتل أمه ». فقلت : لا تفعلي يا أمَه ، فإني لا أدع ديني هذا لشيء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً [آخر] (٣) وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لكي مائة نفس فخرجت نَفْساً نَفْساً، ما تركت ديني هذا لشيء ،فإن شئت فكلي ، وإن شئت لا تأكلي .فأكلت (٤) .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ .

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ؛ ليمتثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي : إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة [من] (٥) خردل . وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله : ﴿ إِنَّهَا﴾ ضمير الشأن والقصة .وجوز على هذا رفع ﴿ مِثْقَالُ﴾ والأول أولى .

وقوله :﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أي : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما قال تعالى :﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وقال تعالى :

---

(١) في أ : « تبايعهما » . (٢) زيادة من أسد الغابة ، والدر المنثور . (٣) زيادة من ت ، ف .
(٤) وذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ٢١٦) عن داود بن أبي هند .
(٥) زيادة من ت ، أ .

﴿فمن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] ، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة فى داخل صخرة صَمَّاء ، أو غائبة ذاهبة فى أرجاء السموات أو الأرض (١) ، فإن اللّه يأتى بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض؛ ولهذا قال :﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، ﴿خَبِير﴾ بدبيب النمل فى الليل البهيم .

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله :﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ : أنها صخرة تحت الأرضين (٢) السبع ، ذكره السُّدِّى بإسناده ذلك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة إن صح ذلك ، ويروى هذا عن عطية العوفى ، وأبى مالك ، والثورى ، والمنهال بن عمرو ، وغيرهم . وهذا واللّه أعلم ، كأنه متلقى من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب ، والظاهر ـ واللّه أعلم ـ أن المراد : أن هذه الحبة فى حقارتها لو كانت داخل صخرة ، فإن اللّه سيبديها ويظهرها بلطيف علمه ، كما قال(٣) الإمام أحمد :

حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا دَراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صَمَّاء، ليس لها باب ولا كُوَّة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان » (٤) .

ثم قال : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ أى : بحدودها وفروضها وأوقاتها ،﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أى : بحسب طاقتك وجهدك،﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ ،علم أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، لابد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ أى : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

وقوله :﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تُعرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ولكن أَلِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء فى الحديث: « ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه مُنْبَسِط ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخِيلَة ، والمخيلة لا يحبها اللّه » .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله :﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تتكبر فتحقرَ (٥) عبادَ اللّه ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك . وكذا روى العوفى وعكرمة عنه .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم :﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ : لا تكلّم وأنت معرض . وكذا رُوى عن مجاهد ، وعِكْرِمة ، ويزيد بن الأصم ، وأبى الجوزاء ، وسعيد بن جُبَيْر ، والضحاك ، وابن يزيد ، وغيرهم.

وقال إبراهيم النَّخعِى : يعنى بذلك : التشديق فى الكلام .

---

(١) فى ف : « والأرض » . (٢) فى ف ،أ : « الأرض » . (٣) فى ت : « كما روى » .
(٤) المسند (٣/٢٨) ، وحسنه الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٢٥) وفيه ابن لهيعة عن دراج وهما ضعيفان .
(٥) فى ت ، أ : « فتحتقر » .

والصواب القول الأول .

قال ابن جرير : وأصل الصَّعَر: داء يأخذ الإبل فى أعناقها أو رؤوسها ، حتى تُلفَتَ [(١)] أعناقُها عن رؤوسها ، فشبه به الرجل المتكبر ، ومنه قول عمرو بن حُنى التَّغْلَبى :

وَكُنَّا إذَا الجَبَّارُ صَعّر خَدّه أقَمْنَا لَه مِنْ مَيْلِه فَتَقَوّمَا [(٢)]

وقال أبو طالب فى شعره :

وكُنَّا قَديماً لا نقر ظُلامَة إذ ما ثَنوا صُعْر الرؤوس نُقِيمها [(٣)]

وقوله : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى : جذلا متكبراً جباراً عنيداً ، لا تفعل ذلك يبغضك الله؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي : مختال معجب فى نفسه ، فخور : أى على غيره ، وقال تعالى [(٤)] : ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء : ٣٧] ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى ، حدثنا محمد بن عمران ابن أبى ليلى ، حدثنا أبى ، عن ابن أبى ليلى ، عن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى [(٥)] ، عن ثابت بن قيس بن شَمَّاس قال : ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه ، فقال : «إن الله لا يحب كل مختال فخور » .فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله إنى لأغسل ثيابى فيعجبنى بياضها ، ويعجبنى شراك نعلى ، وعِلاقة سَوْطى ، فقال : « ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تَسفَه الحق وتَغْمط[(٦)] النَاس » [(٧)].

ورواه من طريق أخرى بمثله ، وفيه قصة طويلة ، ومقتل ثابت ووصيته بعد موته [(٨)].

وقوله : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أى : امش مشياً مقتصدا ليس بالبطىء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين .

وقوله : ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أى : لا تبالغ فى الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أى : غاية مَنْ رفع صوته أنه يُشبه بالحمير فى علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه فى هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال: « ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه » .

وقال النسائى عند تفسير هذه الآية : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن جعفر بن ربيعة، عن الأعرج [(٩)] ،عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ [أنه] [(١٠)] قال : « إذا سمعتم صياح الديكة

---

(١) فى ت : « تلتفت » ، وفى أ : « بلغت » .

(٢) البيت فى مجاز القرآن لأبى عبيدة (٢/١٢٧) .

(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٦٩) .

(٤) فى أ : « وقد قال الله تعالى » . (٥) فى ت : « وروى الطبرانى بإسناده » . (٦) فى ت ، ف : « تغمص » .

(٧) المعجم الكبير (٢/ ٦٩) وفيه انقطاع بين ابن أبى ليلى وثابت .

(٨)المعجم الكبير (٢/ ٧٠) من طريق عبد الرحمن بن يزيد، عن عطاء، عن بنت ثابت بقصة أبيها ، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٢٢): «وبنت ثابت بن قيس لم أعرفها ، وبقية رجاله رجال الصحيح» .

(٩) فى ت : « وروى النسائى عند تفسير هذه الآية بإسناده » . (١٠) زيادة من أ .

فاسألوا اللّه من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير [١] فتعوذوا باللّه من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً » .

وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه ، من طرق ، عن جعفر بن ربيعة به [٢] ، وفى بعض الألفاظ : « بالليل » ، فاللّه أعلم .

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهى من قَصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها أنموذجاً ودستوراً إلى ذلك .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن إسحاق ، أخبرنا ابن المبارك ، أخبرنا سفيان ، أخبرنى نَهْشَل بن مُجَمِّع الضبى عن قزعة ، عن ابن عمر [٣] ، رضى اللّه عنه [٤] ، قال : أخبرنا رسول اللّه ﷺ قال: « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن اللّه إذا استودع شيئا حفظه » [٥] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن الأوزاعى ، عن موسى بن سليمان ، عن القاسم [بن مُخَيْمرة يحدث عن أبى موسى الأشعرى] [٦] أن رسول اللّه ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى ، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل ، مذلة بالنهار»[٧].

وقال : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عثمان ، عن ضَمْرَة ، حدثنا السَّرِىّ بن يحيى [٨] قال : قال لقمان لابنه : يا بنى ، إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وقال : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا عبد الرحمن المسعودى[٩] ، عن عَوْن بن عبد اللّه قال : قال لقمان لابنه : يا بنى ، إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام ـ يعنى السلام ـ ثم اجلس فى ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا فى ذكر اللّه فَأجِلْ سهمك معهم ، وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

وحدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا ضمرة [١٠] ، عن حفص ابن عمر ، رضى اللّه عنه ، قال : وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه ، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة ، حتى نفذ الخردل ، فقال : يا بنى ، لقد وعظتك موعظة لو وُعظَها جبل لتفطر . قال : فتفطر ابنه .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عبد الباقى المِصِّيصى، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحرانى ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفى ، حدثنا أيمَن [١١] بن سفيان المقدسى ، عن خليفة ابن سلام ، عن عطاء بن أبى رباح [١٢] ، عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « اتخذوا

---

(١) فى ت : « الحمار » .

(٢) النسائى فى السنن الكبرى (١١٣٩١) وصحيح البخارى برقم (٣٣٠١)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٩) وسنن أبى داود برقم (٥١٠٢) وسنن الترمذى برقم (٣٤٥٩) .

(٣) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٤) فى ت ، ف : « عنهما » .

(٥) المسند (٨٧/٢) .

(٦) زيادة من أ ، و المستدرك .

(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤١١/٢) وقال : « هذا متن شاهده إسناد صحيح » وأقره الذهبى.

(٨) فى ت : « وروى أيضا بإسناده عن السرى بن يحيى » . (٩) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن القاسم بن مخيمرة ».

(١٠) فى ت : « وروى أيضا » . (١١) فى ت ،أ ،ف ،هـ : « أنس » ، والتصويب من المعجم الكبير وكتب الرجال .

(١٢) فى ت : « وروى الطبرانى بسنده » .

السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشى ، وبلال المؤذن » (١) .

قال أبو القاسم الطبرانى : أراد الحبش .

فصل فى الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان ، عليه السلام ، لابنه ، وقد جمع فى ذلك الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا كتاباً مفرداً [و] (٢) نحن ، نذكر منه مقاصده ، قال :حدثنا إبراهيم بن المنذر،حدثنا عبد الله ابن موسى المدنى ، عن أسامة بن زيد ، عن حفص بن عبيد الله بن أنس بن مالك : سمعت رسول الله ﷺ يقول :«رُبَّ أشعثَ ذى طِمْرَين يُصْفَح عن أبواب الناس ،إذا (٣) أقسم على الله لأبره»(٤).

ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان ، عن ثابت وعلى بن زيد ، عن أنس ، عن النبى ﷺ ، فذكره ، وزاد ، منهم البراء بن مالك (٥).

[وروى أيضا عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشينة »] (٦) .

وقال أبو بكر بن سهل التميمى : حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، عن عياش بن عباس ، عن عيسى بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر ، رضى الله عنه ، أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكى عند قبر رسول الله ﷺ ، فقال له : ما يبكيك يا معاذ ؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : « إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة » (٧) .

حدثنا الوليد بن شجاع ، حدثنا عَثَّام بن على ، عن حميد بن عطاء الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :« رُبَّ ذى طمرين لا يُؤبَه له، لو أقسم على الله لأبره ، لو قال :اللهم إنى أسألك الجنة لأعطاه الجنة ، ولم يعطه من الدنيا شيئاً » (٨) .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن سالم بن أبى الجعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أمتى من لو أتى باب أحدكم يسأله ديناراً أو درهما أو

---

(١) المعجم الكبير (١١/١٩٨) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٢٣٥) : « فيه أبين بن سفيان وهو ضعيف »

(٢) زيادة من ت ، ف .

(٣) فى ت ، ف: « لو » .

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٥٠٥٤) « مجمع البحرين » قال : « حدثنا أحمد بن يحيى الحلوانى ، حدثنا إبراهيم بن المنذر، فذكر مثله ـ ثم قال ـ : لم يروه عن حفص إلا أسامة » ، وله شاهد فى صحيح مسلم برقم (٢٦٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

تنبيه : سقط هذا الحديث من مخطوطة التواضع والخمول لابن أبى الدنيا ، وكذا الرواية بعده .

(٥) ورواه الترمذى فى السنن برقم(٣٨٥٤) من طريق سيار عن جعفر بن سليمان به،وقال:« هذا حديث حسن صحيح من هذا الوجه »

(٦) زيادة من ت ، أ .

(٧) التواضع والخمول لابن أبى الدنيا برقم(٨) .

(٨) سقط الحديث من مخطوطة التواضع والخمول ، ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٣٢٤٦) من طريق ابن أبى الدنيا .

فلساً لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله (١) الدنيا لم يعطه إياها ، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذو طمرين لايؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » (٢) .

وهذا مرسل من هذا الوجه .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا جعفر بن سليمان ، حدثنا عَوْف قال : قال أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من ملوك الجنة كُل (٣) أشعثَ أغبر ذى طمرين لا يُؤبَه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم يُنصَت لهم، حوائج أحدهم تتجلجل فى صدره ، لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم » (٤).

قال : وأنشدنى عمر بن شَبَّة ، عن ابن عائشة قال : قال عبد الله بن المبارك :

ألا رُبّ ذى طِمْرَيـن فى مَنْزِل غَداً زَرَابِيـه مَبْثُـوثَـةٌ ونَـمَـارِقُـه
قَد اطَّرَدَتْ أنهـاره حَـوْلَ قَصـْره وَأَشرَقَ والتَـفَّتْ عَلَـيه حَدَائِقُه (٥)

وروى ـ أيضا ـ من حديث عُبَيد الله بن زَحْر ، عن على بن زيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة مرفوعا : « قال الله : منْ أغبط أوليائى عندى : مؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه فى السر ، وكان غامضا فى الناس ، لا يشار إليه بالأصابع . إن صبر على ذلك». قال : ثم نَقَد رسول الله بيده وقال : « عُجِّلت منيته ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه » (٦) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : أحب عباد الله (٧) إلى الله الغرباء . قيل : ومن الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم ، يجمعون يوم القيامة إلى عيسى ابن مريم (٨) .

وقال الفضيل بن عياض : بلغنى أن الله تعالى (٩) يقول للعبد يوم القيامة : ألم أنعم عليك ؟ ألم أعطك ؟ ألم أسترك ؟ ألم . . ؟ألم . . ؟ ألم أخمل ذكرك ؟ ثم قال الفضيل : إن استطعت ألا تُعرَف فافعل ، وما عليك ألا يُثنى عليك ، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس محموداً عند الله.

وكان ابن مُحَيْرِيز يقول : اللهم إنى أسألك ذكرا خاملا .

وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك ، واجعلنى فى نفسى من أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك .

ثم قال (١٠) :

باب ما جاء فى الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصرى ، حدثنا ابن وهب ، عن عمر بن الحارث وابن لَهيعة ، عن يزيد ابن أبى حبيب ، عن سِنَان بن سعد ، عن أنس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حَسب امرئ من

(١) فى ت : « ولو سأل الله » .
(٢) التواضع والخمول لابن أبى الدنيا برقم (١) ، وهو مرسل .
(٣) فى ت ، ف ، أ : « من هو » .
(٤) ورواه ابن أبى الدنيا فى الأولياء برقم (٩) عن الحسن مرسلاً بنحوه ، وقد سقط هذا الحديث من مخطوطة التواضع والخمول .
(٥) التواضع والخمول لابن أبى الدنيا برقم (٥) .
(٦) التواضع والخمول برقم (١٣) وقد قال ابن حبان :«إذا روى عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم فهو مما عملته أيديهم».
(٧) فى أ : « أحب العباد » .
(٨) التواضع والخمول برقم (١٦) .
(٩) فى ت ، أ : « عز وجل » .
(١٠) أى ابن أبى الدنيا .

الشر ـ إلا من عصم الله ـ أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم » (١) .

وروى مثله عن إسحاق بن البهلول ، عن ابن أبى فُدَيْك ، عن محمد بن عبد الواحد الأخْنَسِىّ، عن عبد الواحد بن أبى كثير ، عن جابر بن عبد الله مرفوعا ، مثله (٢) .

وروى عن الحسن مرسلا نحوه (٣) ، فقيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ؟ فقال : إنما المراد من يشار إليه فى دينه بالبدعة وفى دنياه بالفسق (٤) .

وعن على ، رضى الله عنه ، قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تَسُر الأبرار ، وتغيظ الفجار .

وقال إبراهيم بن أدهم ، رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة .

وقال أيوب : ما صدق الله عبده إلا سره ألا يشعر بمكانه .

وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس .

وقال سِمَاك بن سلمة : إياك وكثرة الأخلاء .

وقال أبَان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم لك دينك فأقل من المعارف؛ كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم .

وقال : حدثنا على بن الجَعْد ، أخبرنا شعبة ، عن عَوْف ، عن أبى رَجَاء قال : رأى طلحة قوما يمشون معه ، فقال : ذباب طمع ، وفراش النار .

وقال ابن إدريس ، عن هارون بن عنترة (٥) ، عن سليم بن حنظلة قال : بينا نحن حول أبى إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

وقال ابن عون ، عن الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس ، فقال : والله لو تعلمون ما أغلِقُ عليه بابى ، ما اتبعنى منكم رجلان .

وقال حماد بن زيد : كنا إذا مررنا على المجلس ، ومعنا أيوب ، فسلم ، ردوا ردا شديدا ، فكان ذلك يَغُمه .

وقال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر : كان أيوب يطيل قميصه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كانت فى طول القميص ، واليوم فى تشميره . واصطنع مرة نعلين على حذو نعلى النبى ﷺ ، فلبسهما أياما ثم خلعهما ، وقال : لم أر الناس يلبسونهما .

وقال إبراهيم النَّخَعى: لا تلبس من الثياب ما يُشهر فى الفقهاء ، ولا ما يزدريك السفهاء .

وقال الثورى : كانوا يكرهون من الثياب الجياد ، التى يُشتَهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التى يحتقر فيها ، ويستذل دينه .

---

(١) التواضع والخمول برقم (٣٠) وفيه سنان بن سعد ضعيف .

(٢) التواضع والخمول برقم (٣١) وقال العراقى : « ليس معروفاً من حديث جابر إنما هو معروف من حديث أبى هريرة » .

(٣) التواضع والخمول برقم (٣٢) .

(٤) التواضع والخمول برقم (٣٣) .

(٥) فى أ : « هارون بن أبى عشيرة » .

وحدثنا خالد بن خداش : حدثنا حماد ، عن أبى حسنة ـ صاحب الزيادى ـ قال : كنا عند أبى قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية ، فقال : إياكم وهذا الحمار النهاق .

وقال الحسن ، رحمه الله : إن قوما جعلوا الكبر فى قلوبهم ، والتواضع فى ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعظم من صاحب المطرف بمطرفه (١) ، مالهم تفاقدوا .

وفى بعض الأخبار أن موسى ، عليه السلام ، قال لبنى إسرائيل : ما لكم تأتونى عليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب ، البسوا ثياب الملوك ، وألينوا قلوبكم بالخشية .

فصل فى حسن الخلق

قال أبو التياح ، عن أنس ، رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا (٢) .

وعن عطاء، عن ابن عمر: قيل : يارسول الله ، أىّ المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقا»(٣).

وعن نوح بن عباد ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة . وإنه ليبلغ بسوء خلقه دَرَك جهنم وهو عابد »(٤). وعن سنَان بن هارون ، عن حميد ، عن أنس مرفوعا : « ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»(٥) ، وعن عائشة مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار » (٦).

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس، حدثنا عبد الله بن إدريس، أخبرنى أبى وعمى، عن جدى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخلُ الناسَ الجنة، فقال: « تقوى الله وحسن الخلق» . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال: « الأجوفان: الفم والفرج » (٧) .

وقال أسامة بن شَريك : كنت عند رسول الله ﷺ ، فجاءته الأعراب من كل مكان ، فقالوا : يارسول الله ، ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال : « حسن الخلق » (٨) .

وقال يعلى بن مملك (٩) ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء ـ يبلغ به ـ قال : « ما [من] (١٠) شىء أثقل فى الميزان من حسن الخلق » (١١) ، وكذا رواه عطاء ، عن أم الدرداء ، به (١٢) .

وعن مسروق ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا » (١٣).
حدثنا عبد الله بن أبى بدر ، حدثنا محمد بن عبيد (١٤) ، عن محمد بن أبى سارة ، عن الحسن

(١) فى ت ، أ : « المطرق بمطرقه » .
(٢) التواضع والخمول برقم (١٦٣) .
(٣) التواضع والخمول برقم (١٦٤) .
(٤) التواضع والخمول برقم (١٦٨).
(٥) التواضع والخمول برقم (١٦٩) .
(٦) التواضع والخمول برقم (١٦٦) .
(٧) التواضع والخمول برقم (١٧٠) .
(٨) التواضع والخمول برقم (١٧١) .
(٩) فى ت ،أ ،ف ،هـ: « سماك » والصواب ماأثبتناه من كتب الرجال .
(١٠) زيادة من أ .
(١١) التواضع والخمول برقم (١٧٢) .
(١٢) التواضع والخمول برقم (١٧٣) .
(١٣) التواضع والخمول برقم (١٧٤) .
(١٤) فى ت ، ف : « عنين » ، وفى أ : « عيسى » والصواب ما أثبتناه من التواضع والخمول لابن أبى الدنيا ، وكتب الرجال .

ابن على قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليعطى العبد من الثواب على حسن الخلق ، كما يعطى المجاهد فى سبيل الله ، يغدو عليه الأجر ويروح » (١) .

وعن مكحول، عن أبى ثعلبة مرفوعا: «إن أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجلساً ، أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى منزلا فى الجنة مساويكم أخلاقا، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » (٢) .

وعن أبى أويس ، عن محمد بن المنْكَدر ، عن جابر مرفوعا : « ألا أخبركم بأكملكم إيمانا ، أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يؤلفون ويألفون » (٣) .

وقال الليث ، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة ، عن بكر بن أبى الفرات قال : قال رسول الله ﷺ : « ما حَسَّن الله خَلْق رجل وخُلُقه فَتَطْعَمَه النار » (٤) .

وعن عبد الله بن غالب الحُدَّانى ، عن أبى سعيد مرفوعا : « خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن : البخل ، وسوء الخلق » (٥) ، وقال ميمون بن مهْرَان ، عن رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ؛ وذلك أن صاحبه لا يخْرج من ذنب إلا وقع فى آخر » (٦) .

حدثنا على بن الجعد ، حدثنا أبو المغيرة الأحْمَسِىّ ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن رجل من قريش قال : قال رسول الله ﷺ : « مامن ذَنب أعظم عند الله من سوء الخلق ؛ إن الخلق الحسن ليذيب الذنوب كما تذيب الشمس الجليد ،وإن الخلق السيىء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل»(٧).

وقال عبد الله بن إدريس ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبى هريرة مرفوعا : « إنكم لا تَسَعُون الناس بأموالكم ، ولكن يَسَعُهم منكم بسط وجوه وحسن خلق » (٨) .

وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل فى ذم الكبر

قال علقمة ، عن ابن مسعود ـ رفعه ـ : « لا يدخل الجنة مَنْ فى قلبه (٩) مثقال حبة من كِبْر ، ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال حبة (١٠) من إيمان » (١١) .

وقال إبراهيم بن أبى عَبْلَة ، عن أبى سلمة ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، أكبه الله على وجهه فى النار » (١٢) .

حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية، عن عمر بن راشد، عن إياس بن سلمة، عن أبيه مرفوعا: «لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب»(١٣).

وقال مالك بن دينار : ركب سليمان بن داود ، عليهما (١٤) السلام ، ذات يوم البساط فى مائتى

---

(١) التواضع والخمول برقم (١٧٦) .
(٢) التواضع والخمول برقم (١٧٧) .
(٣) التواضع والخمول برقم (١٧٨) .
(٤) التواضع والخمول برقم (١٨٠)
(٥) التواضع والخمول برقم (١٨٢) .
(٦) التواضع والخمول برقم (١٨٣) .
(٧) التواضع والخمول برقم (١٨٤) .
(٨) التواضع والخمول برقم (١٩٠) .
(٩) فى ت ، ف ، أ : « ذرة » .
(١٠) فى ف ، أ : « ذرة » .
(١١) التواضع والخمول برقم (١٩٢) .
(١٢) التواضع والخمول برقم (١٩٦) .
(١٣) التواضع والخمول برقم (١٩٨) .
(١٤) فى ت : « عليه » .

ألف من الإنس ، ومائتى ألف من الجن ، فَرُفع حتى سمع تسبيح الملائكة فى السماء ، ثم خفضوه حتى مست قدمه ماء البحر ، فسمعوا صوتا لوكان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسف به أبعد مما رفع .

حدثنا أبو خَيْثَمة، حدثنا يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال : كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان، حتى إن أحدنا ليُقذر نفسه، يقول: خرج من مجرى البول مرتين (١) .

وقال الشعبى : من قتل اثنين فهو جبار ، ثم تلا : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ ﴾ [القصص:١٩] وقال الحسن : عجبا لابن آدم، يغسل الخرء بيده فى اليوم مرتين ثم يتكبر ! يعارض جبار السموات، قال : حدثنا خالد بن خداش، حدثنا حماد بن زيد، عن على بن الحسن، عن الضحاك بن سفيان، فذكر الحديث . ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم (٢) .

وقال الحسن، عن يحيى ، عن أبى قال : إن مطعم ابن آدم ضرب مثل للدنيا وإن قَزّحَه ومَلَّحه.

وقال محمد بن الحسين بن على ـ من ولد على رضى الله عنه ـ : ما دخل قلبَ رجل شىء من كبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك .

وقال يونس بن عبيد : ليس مع السجود كبر ، ولا مع التوحيد نفاق .

ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال فى مشيته ، وذلك قبل أن يستخلف ، فطعنه طاوس فى جنبه بأصبعه ، وقال : ليس هذا شأن (٣) من فى بطنه خرء ؟ . فقال له كالمعتزر إليه: يا عم، لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها .

قال أبو بكر بن أبى الدنيا : كانت بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا (٤) هذه المشية .

فصل فى الاختيال

عن أبى ليلى ، عن ابن بُرَيْدة ، عن أبيه مرفوعا : «مَنْ جَرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه » (٥).

ورواه عن إسحاق بن إسماعيل ، عن سفيان ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر مرفوعا مثله(٦).

وحدثنا محمد بن بكَّار ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزِّناد ، عن أبيه ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة مرفوعاً : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره »(٧). و «بينما رجل يتبختر فى برديه ، أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» (٨) .

وروى الزهرى عن سالم ، عن أبيه : « بينما رجل . . . » إلى آخره (٩) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

(١) التواضع والخمول برقم (٢٠٠) .
(٢) التواضع والخمول برقم (٢١٠) .
(٣) فى ف ، أ : « مشى » .
(٤) فى ف ، أ : « يتعلمون » .
(٥) التواضع والخمول برقم (٢٣٨) .
(٦) التواضع والخمول برقم (٢٣٩) .
(٧) التواضع والخمول برقم (٢٣٢) .
(٨) التواضع والخمول برقم (٢٣٣).
(٩) التواضع والخمول برقم (٢٣٤) .

اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ﴾ .

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة ، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيؤون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا ، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار . وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ، أي : في توحيده وإرسال الرسل . ومجادلته في ذلك بغير علم ،ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ** ﴾ أي : مبين يضيء . ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ** ﴾ أي : لهؤلاء المجادلين في توحيد الله :﴿ **اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾ أي : على رسوله من الشرائع المطهرة،﴿ **قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** ﴾ أي : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله :﴿ **أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٧٠] أي : فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ **أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ .

﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله ، أي : أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ؛ ولهذا قال :﴿ **وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ أي : في عمله ، باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ، ﴿ **فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** ﴾ أي : فقد أخذ موثقا من الله متيناً أنه لا يعذبه ، ﴿ **وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ . وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ** ﴾ أي : لا تحزن يا محمد عليهم في كفرهم بالله وبما جئت به ؛ فإن قدر الله نافذ فيهم ، إلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا ، أي : فيجزيهم عليه ،﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ ، فلا تخفى عليه خافية .

ثم قال :﴿ **نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا** ﴾ أي : في الدنيا ، ﴿ **ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ** ﴾ أي : نلجئهم ﴿ **إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ** ﴾ أي : فظيع صعب مشق على النفوس ، كما قال تعالى :﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** ﴾ [يونس: ٦٩ ، ٧٠].

﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالقُ السموات والأرض ، وحدهَ لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خَلْقٌ له وملك له ؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [أى :إذْ قامت عليكم الحجة باعترافكم][1]، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال :﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : هو خلقه وملكه ،﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى: الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله ، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل : « لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك »، فقال تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [أى : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مداداً ومَده سبعة أبحر] [2] معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونَفِدَ ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مَدَدا .

وإنما ذكرت « السبعة » على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ولا [أن] [3] ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم ، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التى لا تصدق ولا تكذب ، بل كما قال تعالى فى الآية الآخرى :﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] ، فليس المراد بقوله : ﴿ بِمِثْلِهِ ﴾ آخر فقط ، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله ، ثم هلم جرا ؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته .

وقال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاما ، وجعل البحر مدادا ، وقال الله : « إن من أمرى كذا ، ومن أمرى كذا » لنفد ما فى البحور ، وتكسرت الأقلام .

وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاما ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفد عجائب ربى وحكمته وخلقه وعلمه .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٢، ٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم اللّه كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل اللّه ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ الآية .

يقول : لو كان ذلك البحر مدادا لكلمات اللّه والأشجار كلها أقلاما ، لا نكسرت الأقلام ، وفنى ماء البحر ، وبقيت . كلمات اللّه قائمة لا يفنيها شىء ؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه . إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول .

وقد روى أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود ، قال ابن إسحاق : حدثنى ابن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن أحبار يهود قالوا لرسول اللّه ﷺ بالمدينة :يا محمد، أرأيت قولك : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ؟ [الإسراء : ٨٥] ، إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول اللّه ﷺ: « كلا » . فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شىء ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « إنها فى علم اللّه قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم » .وأنزل اللّه فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ الآية .

وهكذا روى عن عكرمة ، وعطاء بن يَسَار . وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية لا مكية ، والمشهور أنها مكية ، واللّه (١) أعلم .

وقوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عزيز قد عزَ كلَّ شىء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شؤونه .

وقوله :﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى : ما خَلْقُ جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة [خلق] (٢) نفس واحدة ، الجميع هين عليه و﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] أى : لا يأمر بالشىء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشىء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده (٣) .﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] .

وقوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ [إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ] (٤) ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) ﴾ .

يخبر تعالى أنه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ بمعنى : يأخذ منه فى النهار ، فيطولُ ذلك ويقصر هذا،

---

(١) فى ت ، ف : « فاللّه » . (٢) زيادة من ت ، ف ، أ . (٣) فى ت ، ف ، أ : « وتوكيده » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، وفى هـ: « الآية » .

وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ، ثم يسرع فى النقص فيطول الليل ويقصر النهار ، وهذا يكون فى الشتاء ، ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة . وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح ، ويستشهد للقول الأول بحديث أبى ذر ، رضى اللّه عنه ، الذى فى الصحيحين : أن رسول اللّه ﷺ قال : « يا أبا ذر ، أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟» . قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأذن ربَّها فيوشك أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت » (١) .

وقال ابن أبى الحاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا يحيى بن أيوب ، عن ابن جُرَيْج، عن عَطَاء بن أبى رباح (٢) ، عن ابن عباس أنه قال : الشمس بمنزلة الساقية ، تجرى بالنهار فى السماء فى فلكها ، فإذا غربت جرت بالليل فى فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها ، قال : وكذلك القمر . إسناده صحيح .

وقوله :﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ (٣) وَالْأَرْضِ﴾ [الحج : ٧٠] . ومعنى هذا : أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء ، كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أى : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أى : الموجود الحق ، الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ؟ فإنه الغنى عما سواه، وكل شىء فقير إليه ؛ لأن كل ما (٤) فى السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده ، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذَرّة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك ؛ ولهذا قال :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أى: العلى: الذى لا أعلى منه ، الكبير : الذى هو أكبر من كل شىء ، فكل (٥) شىء خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾ .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٣) وصحيح مسلم برقم (١٥٩) .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٣) فى ت : « السموات » وهو خطأ .

(٤) فى ت : « من » .

(٥) فى ت ، ف : « وكل » .

يخبر تعالى أنه هو الذى سَخَّر البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، أى : بلطفه وتسخيره ؛ فإنه لولا ما جعل فى الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ﴾ أى : من قدرته، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء .

ثم قال: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ أى : كالجبال والغمام ، ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كما قال تعالى :﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ،وقال:﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

ثم قال :﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ، كما قال تعالى :﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل .

وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله :﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، فالمقتصد ههنا هو : المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضا ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال و الأمور العظام والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم اللّه عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ : فالخَتَّار : هو الغَدَّار . قاله مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، ومالك عن (١) زيد بن أسلم ، وهو الذى كلما عاهد نقض عهده ، والخَتْر : أتَم الغدر وأبلغه ، قال عمرو بن معد يكرب :

وإنـــَّكَ لَو رَأيـــتَ أبـــَا عـُمـــَير   مَلأتَ يَديْكَ مِنْ غـَدْر وَخَتْر (٢)

وقوله : ﴿ كَفُورٍ ﴾ أى : جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾ .

يقول تعالى منذرا للناس يوم المعاد ، وآمرا لهم بتقواه والخوف منه،والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ أى : لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه.

ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [أى : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة] (٣) ، ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ يعنى : الشيطان . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة . فإنه يغر ابن آدم ويَعِدُهُ ويمنيه ، وليس من ذلك شىء بل كما قال تعالى :

---

(١) فى أ : « و » .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢١/ ٥٤) .

(٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] .

قال وهب بن منبه : قال عزير ، عليه السلام : لما رأيت بلاء قومى اشتد حزنى وكثر همى ، وأرق نومى ، فضرعت (١) إلى ربى وصليت وصمت فأنا فى ذلك أتضرع أبكى إذ أتانى الملك فقلت له : أخبرنى هل تشفع أرواح المصدقين (٢) للظلمة ، أو الآباء لأبنائهم ؟ قال : إن القيامة فيها (٣) فصل القضاء وملك ظاهر ، ليس فيه رخصة ، لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن ، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده ، ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ، ولا عبد عن سيده ، ولا يهتم أحد بغيره (٤) ولا يحزن لحزنه ، ولا أحد يرحمه ، كل مشفق على نفسه ، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان ، كل يَهُم همه ويبكى عَوله ، ويحمل وزره ، ولا يحمل وزره معه غيره . رواه ابن أبى حاتم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾ .

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر اللّه تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ، ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لايعلمه إلا اللّه ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء اللّه من خلقه . وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه [اللّه] (٥) تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء اللّه من خلقه . وكذلك لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها وأخراها ، ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد اللّه كان ، لاعلم لأحد بذلك . وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ الآية [الأنعام : ٥٩] . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب .

قال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى حسين بن واقد ، حدثنى عبد اللّه بن بُرَيدة ، سمعت أبى ـ بُرَيدة ـ (٦) يقول : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (٧) .

هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجوه .

حديث ابن عمر : قال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد اللّه بن دينار ، عن ابن عمر (٨) قال : قال رسول اللّه (٩) ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا اللّه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ

---

(١) فى ف : « وتضرعت » (٢) فى ت ، ف : « الصديقين » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « إن يوم القيامة فيه ».
(٤) فى ت « ولا يهتم بهم أحد » . (٥) زيادة من ت ، ف ، أ . (٦) فى ت:«وروى الإمام أحمد بإسناده عن بريدة » .
(٧) المسند (٥/٣٥٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .
(٨) فى ت : « وروى البخارى عن عبد الله بن عمر » . (٩) فى ت : « النبى » .

أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » .

انفرد بإخراجه البخارى فرواه فى « كتاب الاستسقاء » من صحيحه ، عن محمد بن يوسف الفريابى ، عن سفيان بن سعيد الثورى ، به [١] . ورواه فى التفسير من وجه آخر فقال :

حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر : أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس » . ثم قرأ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ** ﴾ ، انفرد به أيضا [٢] .

ورواه الإمام أحمد عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن عمر بن محمد ؛ أنه سمع أباه يحدث ، عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ » [٣] .

[**حديث ابن مسعود** ، رضى الله عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنى عمرو بن مُرَّة ، عن عبد الله بن سلمة قال : قال عبد الله [٤] : أوتى نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾] [٥] [٦] .

وكذا رواه عن محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، به . وزاد فى آخره : قال: قلت له : أنت سمعته من عبد الله ؟ قال : نعم . أكثر من خمسين مرة [٧] .

ورواه أيضا عن وَكِيع ، عن مِسْعَر ، عن عمرو بن مرة به [٨] .

وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه .

حديث أبى هريرة : قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق ، عن جرير ، عن أبى حيان ، عن أبى زُرْعَةَ ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه [٩] ؛ أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس ، إذ أتاه رجل يمشى ، فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » . قال : يارسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : «الإسلام :أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان». فقال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : « الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله، متى الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، فذاك من أشراطها . وإذا كان الحفاة

(١) المسند (٢/ ٢٤) وصحيح البخارى برقم (١٠٣٥) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٧) .
(٣) المسند (٢/ ٨٥) .
(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال » .
(٥) زيادة من ف ، أ .
(٦) المسند (١/ ٣٨٦)
(٧) المسند (١/ ٤٣٨) .
(٨) المسند (١/ ٤٤٥) .
(٩) فى ت : « وروى البخارى » .

العُرَاة رؤوسِ الناسِ ، فذاك من أشراطها ، فى خمس لا يعلمهن [(١)] إلا الله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ** .... ﴾ » ، ثم انصرف الرجل فقال : « ردوه عَلَيَّ » . فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئاً ، فقال : « هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم» [(٢)] .

ورواه البخارى أيضا فى « كتاب الإيمان » ، ومسلم من طرق ، عن أبى حيان ، به [(٣)] . وقد تكلمنا عليه فى أول شرح البخارى . وذكرنا ثم حديثَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى ذلك بطوله، وهو من أفراد مسلم [(٤)] .

حديث ابن عباس : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا عبد الحميد ، حدثنا شَهْر ، حدثنا عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : جلس رسول الله ﷺ مجلسا له ، فأتاه جبريل فجلس بين يدى رسول الله ﷺ [(٥)] واضعاً كفيه على ركبتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، [حدثنى] [(٦)] ما الإسلام ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإسلام : أن تسلم وجهك لله عز وجل ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد أسلمت » . قال : يا رسول الله ، فحدثنى ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان: أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ، والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره » . قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : « إذا [(٧)] فعلت ذلك فقد آمنت » . قال : يا رسول الله ، حدثنى ما الإحسان ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإحسان: أن تعمل لله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله ، فحدثنى متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : « سبحان الله . فى خمسٍ لا يعلمهن إلا هو [(٨)] : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ ، ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك ؟ » . قال : أجل ، يا رسول الله ، فحدثنى . قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيت الأَمَة ولدت ربَّتها ـ أو : ربها ـ ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون فى البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة [كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها » . قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال : « العرب »] [(٩)] [(١٠)] .

حديث غريب ، ولم يخرجوه

حديث رجلٍ من بنى عامر : روى الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن ربعى بن حِرَاش ، عن رجل من بنى عامر ؛ أنه استأذن على النبى ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه : « اخرُجى إليه ، فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له : فليقل : « السلام عليكم ، أأدخل ؟ » قال : فسَمعتُه يقول ذلك ، فقلت : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن، فدخلت، فقلت : بم أتيتنا به ؟ قال : « لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن

---

(١) فى ت : « لا يعلمهم » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٧) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠) وصحيح مسلم برقم (٩) .

(٤) صحيح مسلم برقم (٨) .

(٥) فى ف ، أ : « بين يديه » .

(٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .

(٧) فى ف : « فإذا » .

(٨) فى أ : « الله » .

(٩) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند

(١٠) المسند (١/ ٣١٨) .

تَدَعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ؛ وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم » . قال : فقال : فهل بقى من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : « قد عَلم اللّه عز وجل خيراً ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا اللّه عز وجل : الخمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ »(١). وهذا إسناد صحيح .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتى حبلى ، فأخبرنى ما تلد ؟ وبلادنا جَدبَةٌ ، فأخبرنى متى ينزل الغيث ؟ وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرنى متى أموت ؟ فأنزل اللّه عز وجل :﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ [وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ](٢) ﴾ ، إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ . قال مجاهد : وهى(٣) مفاتيح الغيب التى قال اللّه تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير .

وقال الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ : قال قتادة : أشياء استأثر اللّه بهن ، فلم يُطلع عليهن مَلَكا مقرباً ، ولا نبيا مرسلا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ، فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة ، فى أى سنة أو فى أى شهر ، أو ليل أو نهار ، ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ ، فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ، ليلا أو نهاراً ، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ ، فلا يعلم أحد ما فى الأرحام ، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود ، وما هو ،﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ ، أخير أم شر ، ولا تدرى يا ابن آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غدا ، لعلك المصاب غدا ، ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الأرض ، أفى بحر أم بر ، أو سهل أو جبل ؟

وقد جاء فى الحديث : « إذا أراد اللّه قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة » ، فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير ، فى مسند أسامة بن زيد :

حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن أيوب، عن أبى المليح، عن أسامة(٥) بن زيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما جعل اللّه ميتة (٦) عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » (٧) .

وقال عبد اللّه بن الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو داود الحَفَرىّ ، عن

---

(١) المسند (٥/٣٦٨) .
(٢) زيادة من ت ، ف ، أ . (٣) فى أ : « وهن » .
(٤) تفسير الطبرى (٢١/٥٦) .
(٥) فى ت : « فروى أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير فى مسند أسامة » .
(٦) فى ت ، ف ، أ : « منية » .
(٧) المعجم الكبير (١/١٧٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٩٦) ، « ورجاله رجال الصحيح» وفيها: « منية » بدل : « ميتة » .

سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن مَطَر بن عُكَامِس قال : قال رسول الله ﷺ (١) : « إذا قضى الله ميتة عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة » .

وهكذا رواه الترمذى فى « القدر » ، من حديث سفيان الثورى ، به (٢) . ثم قال : « حسن غريب ، ولا يعرف لمطر عن النبى ﷺ غير هذا الحديث .وقد رواه أبو داود فى « المراسيل » (٣) ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب ، عن أبى المليح بن أسامة (٤) ، عن أبى عزة(٥) قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها ـ أو قال : بها ـ حاجة » .

وأبو عزة هذا هو : يَسَار (٦) بن عبد الله ، ويقال : ابن عبد الهُذَلى .

وأخرجه الترمذى من حديث إسماعيل [بن إبراهيم ـ وهو ابن عُلَيّة (٧) ، وقال : صحيح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأصفهانى ، حدثنا المؤمل بن إسماعيل] (٨) ، حدثنا عبيد الله بن أبى حميد ، عن أبى المليح ، عن أبى عزة الهذلى قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة ، فلم ينته حتى يقدمها » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ (٩) .

حديث آخر : قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن ثابت الجَحْدَرِىّ ومحمد بن يحيى القُطَعى قالا : حدثنا عُمَر بن على ، حدثنا إسماعيل ، عن قيس ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » .ثم قال البزار : وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعه إلا عُمَر بن على المُقَدّمى (١٠) .وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى سليمان بن أبى مسيح(١١) قال : أنشدنى محمد بن الحكم لأعشى هَمْدان :

فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُه ... سِوَى حَنُوط غَدَاةَ البَيْن مَعْ خرَق
وَغَيْرَ نَفْحَة أعْوَاد تُشَبّ لَهُ ... وَقلّ ذَلكَ مِنْ زَاد لمُنْطَلق !
لاَ تَأسَيَنّ عَلَى شَىْء فكُلّ فَتى ... إلَى مَنيّته سَيَّارُ فى عَنَق (١٢)
وَكُلّ مَنْ ظَنّ أنّ الموتَ يُخْطئُه ... مُعَلَّلٌ بأعَاليل مِنَ الحَمق
بأيّمَا بَلْدَة تُقْدَرْ منيته ... إنْ لا يُسَيَّرْ إلَيهَا طَائعاً يُسَق

(١) فى ت : «روى عبد الله بن الإمام أحمد بإسناده أن رسول الله ﷺ قال » .
(٢) زوائد المسند (٥/ ٢٢٧) وسنن الترمذى برقم (٢١٤٦) .
(٣) لم أجده فى المطبوع من المراسيل .
(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد » . (٥) فى أ : « عن أبى عزة الهذلى » . (٦) فى ف : « بشار » .
(٧) المسند (٣/ ٤٢٩) وسنن الترمذى برقم (٢١٤٧) .
(٨) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٩) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٢٤٨) « مجمع البحرين » من طريق عباد بن صهيب،عن عبيد الله بن أبى حميد به،وعباد ابن صهيب متروك .
(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٣٦٧) من طريق محمد بن خالد الوهبى ،عن إسماعيل بن أبى خالد بنحوه .
(١١) فى ت ، ف ، أ : « شيخ » . (١٢) فى ت : « يسير فى غنق » .

أورده الحافظ ابن عساكر ، رحمه اللّه ، فى ترجمة عبد الرحمن بن عبد اللّه بن الحارث [١] ، وهو أعشى هَمْدَان ، وكان الشعبى زوجَ أخته ، وهو مُزَوّج بأخت الشعبى أيضا ، وقد كان ممن طلب العلم وتَفَقَّه ، ثم عدل إلى صناعة الشعر فعُرف به .

وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعُمَر بن شَبَّة ، كلاهما عن عمر بن على [٢] مرفوعا : «إذا كان أجل أحدكم بأرض أوثَبَتْه [٣] إليها حاجة ، فإذا بلغ أقصى أثره [٤] ، قبضه اللّه عز وجل ، فتقول الأرض يوم القيامة : رب ، هذا ما أودعتنى » [٥] .

قال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أيوب ، عن أبى المليح ، عن أسامة أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما جعل اللّه منية عبد بأرض ، إلا جعل له إليها حاجة » [٦] .

[آخر تفسير سورة « لقمان » والحمد للّه رب العالمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل] [٧]

---

(١) لم أجد الأبيات فيما بين يدى من تاريخ دمشق ولا فى المختصر لابن منظور .

(٢) فى ت ، ف : « عكرمة » .

(٣) فى ف : « أتت » .

(٤) فى ت ، ف : « أمره » .

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤٢٦٣) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٢٦٤) : « هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات ». والكلام هنا متعلق برواية البزار ولم أستسغ تقديمها ؛ لورودها هكذا فى النسخ .

(٦) المعجم الكبير (١/ ١٧٨) وقد مر ذكره .

(٧) زيادة من ت ، ف ، أ .

[٣٢٠و] / سورة لقمان

مكيّة، قيل: إلّا آيةً، هي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ[1] يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [لقمان، ٣١/٤]، فإنّ وجوبهما بالمدينة، وهو ضعيف؛ لأنّه ينافي شرعيّتهما في مكّة.[2] وقيل:[3] إلّا ثلاثًا؛ مِن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾... إلخ [لقمان، ٣١/٢٧].[4]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

﴿الٓمٓ ۞ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ سلفَ بيانه في نظائره. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: ذي الحكمة لاشتماله عليها، أو هو وصف له بنَعتِه تعالى، أو أصله "الحكيمِ مُنزِلُه أو قائلُه"، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، فانقلب مرفوعًا، فاستكَنّ في الصفة المشبَّهة. وقيل: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ "فَعِيل" بمعنى "مُفْعَل"، كما قالوا: "أَعقَدتُ اللبَنَ، فهو عَقيد"، أي: مُعقَد، وهو قليل. وقيل: بمعنى "فاعِل".

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحاليّة مِن "الآيات"، والعاملُ فيهما معنى الإشارة. وقُرئا بالرفع[5] على أنّهما خبران آخران لاسم الإشارة، أو لمبتدأٍ محذوف.

---

[1] م – الذين.

[2] نقَل القول وضعّفه البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢١٢.

[3] نقَله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢١٢.

[4] ط س – قيل: إلّا آيةً، هي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [لقمان، ٣١/٤]، فإنّ وجوبهما بالمدينة، وهو ضعيف؛ لأنّه ينافي شرعيّتهما في مكّة. وقيل: إلّا ثلاثًا؛ مِن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾... إلخ [لقمان، ٣١/٢٧]؛ ط س + وهي أربع وثلاثون آيةً. وقيل: ثلاث وثلاثون.

[5] أي: "هُدًى وَرَحْمَةٌ". قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٦.

﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: العاملين للحسنات، فإن أريدَ بها مشاهيرها المعهودة في الدين فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بيان لِما عملوها مِن الحسنات، على طريقة قوله:

الألمعيّ الذي يظنّ بك الظـ ـنّ كأن قد رأى وقد سَمِعا[١]

وإن أريدَ بها جميعُ الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلاث بالذكر مِن بين سائر شُعَبها لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها. وتخصيص الوجه الأوّل بصورة كون الموصول صفةً لـ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، والوجه الأخير بصورة كونه مبتدأ ممّا لا وجهَ له.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مطلوب، والناجون مِن كلّ مَهروب لحِيازتهم قُطرَي العلم والعمل، وقد مرّ ما فيه مِن المقال في مطلع سورة البقرة بما لا مَزيد عليه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ محلّه الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه، أو بتقدير الموصوف. و﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ موصولة أو موصوفة محلّها الرفع على الخبريّة، والمعنى: وبعضُ الناس، أو وبعضٌ مِن الناس الذي يشتري، أو فريقٌ يشتري، على أنّ مناط الإفادة والمقصودَ بالأصالة هو اتّصافُهم بما في حيّز الصلة أو الصفة، لا كونُهم ذوات أولئك المذكورين، / كما مرّ في قوله [٣٢٠ظ]
تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ الآيةَ [البقرة، ٢/٨].

و﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ما يُلهي عمّا يَعني مِن المهمّات، كالأحاديث التي لا أصلَ لها، والأساطيرِ التي لا اعتدادَ بها، والمَضاحكِ، وسائرِ ما لا خيرَ فيه مِن فضول الكلام.

---

[١] لأوس بن حجر في ديوانه، ص ٣٥. "الألمعيّ": الحديد اللسان والقلب، وقد أبانه بقوله:
الذي يظنّ بك الظـ ـنّ كأن قد رأى وقد سمعا
الكامل للمبرّد، ٤/٣٣.

والإضافة بمعنى "مِن" التبيينيّة إن أريدَ بـ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ المُنكَرُ، وبمعنى التبعيضيّة إن أريدَ به الأعمّ مِن ذلك.

وقيل: نزلت الآية في النضر بن الحارث؛ اشترى كتب الأعاجم، وكان يحدّث بها قريشًا، ويقول: إن كان محمّد عليه السلام يحدّثكم بحديث عاد وثمود، فأنا أحدّثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة.[١] وقيل: كان يشتري القِيانَ ويحملهنّ على معاشرة مَن أراد الإسلام ومنعِه عنه.[٢]

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: دينِه الحقّ المُوصلِ إليه تعالى، أو عن قراءة كتابه الهادي إليه تعالى. وقُرئ: "لِيَضِلَّ" بفتح "الياء"،[٣] أي: ليَثبُت ويستمرّ على ضلاله، أو ليزداد فيه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بحال ما يشتريه، أو بالتجارة، حيث استبدل الشرّ البحتَ بالخير المَحض. ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفًا على ﴿يُضِلَّ﴾، والضميرُ للسبيل، فإنّه ممّا يُذكّر ويؤنّث، وهو دين الإسلام، أو القرآن، أي: ويتّخذَها ﴿هُزُوًا﴾ مهزوءً به. وقُرئ: "وَيَتَّخِذُهَا" بالرفع[٤] عطفًا على ﴿يَشْتَرِى﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾، والجمعُ باعتبار معناها كما أنّ الإفراد في الفعلَين باعتبار لفظها، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بذِكر المشار إليه للإيذان ببُعد مَنزلتهم في الشرارة، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن الاشتراء للإضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لِما اتّصفوا به مِن إهانتهم الحقّ بإيثار الباطل عليه، وترغيبِ الناس فيه.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: على المشتري، أُفردَ الضمير فيه وفيما بعده كالضمائر الثلاثة الأُوَل باعتبار لفظة ﴿مَن﴾[٥] / بعد ما جُمع فيما بينهما باعتبار معناها. [٣٢١و]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٣.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٢/٤.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُويس بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢٩٩/٢.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٦/٢.

٥ في الآية السابقة.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾ التي هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾،[١] و﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.[٢] ﴿وَلَّىٰ﴾ أعرضَ عنها غيرَ معتدٍّ بها ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ مبالغًا في التكبّر ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال مِن ضمير ﴿وَلَّىٰ﴾، أو مِن ضمير ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾، والأصل "كأنّه"، فحُذف ضمير الشأن، وخُفِفَت المثقّلة، أي: مُشبِهًا حالُه حالَ مَن لم يسمعها وهو سامع، وفيه رمز إلى أنّ مَن سمِعها لا يُتَصوَّر منه التولية والاستكبار، لِما فيها مِن الأمور الموجِبة للإقبال عليها والخضوع لها، على طريقة قَول مَن قال:

كـأنّـك لـم تـجـزعْ عـلى ابـن طـريـف[٣]

﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ حال مِن ضمير ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، أي: مُشبِهًا حالُه حالَ مَن في أذنَيه ثِقَلٌ مانع مِن السماع، ويجوز أن يكونا استئنافَين. وقُرئ: "فِي أُذْنَيْهِ" بسكون "الذال".[٤] ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأَعلِمْه بأنّ العذاب المُفرِط في الإيلام لاحِقٌ به لا محالةَ. وذِكر البشارة للتهكّم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى إثرَ بيان[٥] الكافرين بها، أي: الذين آمنوا بآياته تعالى[٦] وعمِلوا بموجَبها ﴿لَهُمْ﴾ بمقابلة ما ذُكر مِن إيمانهم وأعمالهم ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: نعيمُ جنّاتٍ، فعُكس للمبالغة. والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، والأحسن أن يُجعل ﴿لَهُمْ﴾ هو الخبر لـ﴿إِنَّ﴾، و﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ مرتفِعًا به على الفاعليّة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَهُمْ﴾،[٧] أو مِن ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾،

---

١ لقمان، ٣١/٢.
٢ لقمان، ٣١/٣.
٣ وفي هامش م: صدره:
أيا شجر الخابور ما لك مُورقًا
مِن قصيدة للَيلى بنت طريف التغلبيّة، ترثي أخاها الوليد. انظر: شرح شواهد المغني للسيوطي، ١/١٤٨.
٤ قرأ بها نافع المدني. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.
٥ س + حال.
٦ ط س – تعالى.
٧ في الآية السابقة.

لاشتماله على ضميرَيهما، والعامل ما تعلّق به "اللام". ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ مصدران مؤكِّدان، والأوّل لنفسه، والثاني لغيره؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾[1] في معنى: وعدَهم الله جنّاتِ النعيم، فأكّد معنى الوعد بالوعد. وأمّا ﴿حَقّٗا﴾ فدالّ على معنى الثبات، أُكِّد به معنى الوعد، ومؤكِّدُهما جميعًا ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾.[2] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء ليمنعه / مِن إنجاز وعدِه، أو تحقيقِ وعيده، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة والمصلحة. [٣٢١ظ]

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾... إلخ استئناف مَسوق للاستشهاد بما فُصِّل فيه على عزّته تعالى التي هي كمال القدرة، وحكمتِه التي هي كمال العلم، وتمهيدِ قاعدة التوحيد وتقريرِه، وإبطالِ أمرِ الإشراك وتبكيتِ أهله. و"العَمَد" جمعُ "عِماد" كـ"أَهَبٍ" جمعِ "إهاب"، وهو ما يُعْمَدُ به، أي: يُسنَد. يقال: "عمَدتُ الحائطَ" إذا أدعمتَه، أي: بغير دعائم، على أنّ الجمع لِتعدّد السماوات.

وقوله تعالى: ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ استئناف جيء به للاستشهاد على ما ذُكر مِن خلقه تعالى لها غيرَ مَعمودة بمشاهدتهم لها كذلك، أو صفةٌ لِـ﴿عَمَدٖ﴾، أي: خلَقها بغير عَمَدٍ مرئيّة، على أنّ التقييد للرمز إلى أنّه تعالى عَمَدها بعَمَدٍ لا تُرى، هي عَمَد القدرة.

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ بيان لصنعه البديع في قرار الأرض إثرَ بيان صنعه الحكيم في قرار السماوات، أي: ألقى فيها جبالًا ثوابت. وقد مرّ ما فيه مِن الكلام في سورة الرعد.[3] ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ كراهةَ أن تَميل بكم، فإنّ بساطة أجزائها تقتضي تبدّلَ أحيازها وأوضاعها، لامتناع اختصاص كلّ منها لذاته أو لشيءٍ مِن لوازمه بحيّز معيّن ووضعٍ مخصوص.

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ الرعد، ٣/١٣.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ مِن كلّ نوع مِن أنواعها، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر، ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ بسبب ذلك الماء ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ مِن كلّ صنف كثير المنافع. والالتفات إلى "نون العظمة" في الفعلين لإبراز مزيد الاعتناء بأمرهما.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

﴿هَٰذَا﴾ أي: ما ذُكر مِن السماوات والأرض وما تعلّق بهما مِن الأمور المعدودة ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقه، ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ ممّا اتّخذتموهم شركاءَ له سبحانه في العبادة حتّى استحقّوا به المعبوديّة. و﴿مَاذَا﴾ نصب بـ﴿خَلَقَ﴾، أو ﴿مَا﴾ مرتفع بالابتداء، وخبره ﴿ذَا﴾ بصلته، / و﴿أَرُونِى﴾ متعلّق به. [٣٢٢و]

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إضراب عن تبكيتهم بما ذُكر إلى التسجيل عليهم بالضلال البيّنِ المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدّمات المعقولة الحقّة، لاستحالة أن يفهموا منها شيئًا فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه، أو يتأثّروا مِن الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه. ووضعُ الظاهر موضعَ ضميرهم للدلالة على أنّهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه، ومتعدّون عن الحدّ، وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان بطلان الشرك. وهو لقمان بن باعوراء مِن أولاد آزَر ابن أخت أيّوب عليه السلام أو خالتِه، وعاش حتّى أدرك داود عليه السلام، وأخذ منه العلم، وكان يُفتي قبل مَبعثه. وقيل: كان قاضيًا في بني إسرائيل. والجمهور على أنّه كان حكيمًا، ولم يكن نبيًّا. و"الحكمة" في عرف العلماء: "استكمال النفس الإنسانيّة باقتباس العلوم النظريّة، واكتسابُ المَلَكة التامّة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها".[١]

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٣/٤.

ومِن حكمته أنّه صحب داود عليه السلام شهورًا، وكان يسرد الدرع، فلم يسأله عنها، فلمّا أتمّها لبِسها، فقال: «نِعمَ لَبوسُ الحرب أنت»، فقال: «الصمت حكمة، وقليل فاعله»، فقال له داود عليه السلام: «بحقٍّ ما سُمّيتَ حكيمًا».[١]

وأنّ داود عليه السلام قال له يومًا: «كيف أصبحتَ؟» فقال: «أصبحتُ في يدي غيري»، فتفكّر داود عليه السلام فيه فصعِق صعقة.[٢]

وأنّه أمَره مولاه بأن يذبح شاةً[٣] ويأتيَ بأطيب مضغتين منها، فأتى باللسان والقلب، ثمّ بعد أيّام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها، فأتى بهما أيضًا، فسأله عن ذلك، فقال: «هما أطيبُ شيء إذا طابا، وأخبثُ شيء إذا خَبُثا».[٤]

ومعنى ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ / أي: اشكر له تعالى، على أنّ ﴿أَن﴾ مفسِّرة، فإنّ "إيتاء الحكمة" في معنى القول. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ﴾... إلخ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، موجِب للامتثال بالأمر، أي: ومَن يشكر له تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ لأنّ منفعته -التي هي ارتباط العتيد واستجلابُ المزيد- مقصورة عليها. [٣٢٢ظ]

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن كلّ شيء، فلا يحتاج إلى الشكر ليتضرّر بكفر مَن كفر، ﴿حَمِيدٞ﴾ حقيق بالحمد، وإن لم يحمده أحد، أو محمود بالفعل، يَنطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال. وعدم التعرّض لكونه تعالى مشكورًا[٥] لِمَا أنّ الحمد متضمّن للشكر؛ بل هو رأسه، كما قال عليه السلام: «الحمد رأس الشكر، لم يشكر اللهَ عبدٌ لم يحمده»،[٦] فإثباته له تعالى إثبات للشكر له قطعًا.

﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾

﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ﴾ أَنْعَم، وقيل: أَشكَم، وقيل: ماثان، ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٣/٤.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤١٢/٨.

٣ س: شاتًا.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٦/٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٣/٤.

٥ ط س: شكورًا.

٦ المصنّف لعبد الرزّاق، ٤٢٠/٨ (٢٠٤٨١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٩/١ (الفاتحة، ٢/١).

تصغير إشفاق. وقُرئ: "يَا بُنَيْ" بإسكان "الياء"،[١] وبكسرها.[٢] ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ قيل: كان ابنه كافرًا فلم يزل به حتّى أسلم. ومَن وقف على ﴿لَا تُشْرِكْ﴾ جعل ﴿بِاللَّهِ﴾ قسمًا. ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل للنهي، أو الانتهاء عن الشرك.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾... إلخ كلام مستأنَف اعترُض به على نهج الاستطراد في أثناء وصيّة لقمان تأكيدًا لِما فيها مِن النهي عن الشرك. وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ اعتراض بين المفسَّرِ والمفسِّرِ. وقوله تعالى: ﴿وَهْنًا﴾ حال مِن ﴿أُمُّهُ﴾، أي: ذاتَ وَهْن، أو مصدر مؤكِّد لفعل هو الحال، أي: تَهِنُ وَهنًا. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ صفة للمصدر، أي: كائنًا على وَهْن، أي: تَضعُف ضعفًا فوقَ ضعف، فإنّها لا يزال يتضاعف ضَعفها.

وقُرئ: "وَهَنًا عَلَى وَهَنٍ" بالتحريك،[٣] يقال: وَهَنَ يَهِن وَهْنًا، وَوَهِنَ يَوْهَنُ وَهَنًا.

﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أي: فِطامه في تمام عامين، وهي مدّة الرضاع عند الشافعي،[٤] وعند أبي حنيفة رحمهما الله هي ثلاثون شهرًا.[٥] وقد بُيِّن وجهه في موضعه. وقُرئ: "وَفَصْلُهُ".[٦]

﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ تفسير لـ﴿وَصَّيْنَا﴾، وما بينهما اعتراض مؤكِّد للوصيّة في حقّها خاصّةً، ولذلك قال عليه السلام لِمَن قال له عليه السلام: «مَنْ أَبَرُّ؟»:[٧] «أُمَّكَ[٨] ثمّ أُمَّكَ»، ثمّ قال بعد ذلك: / «ثمّ أباك».[٩] [٣٢٣و]

---

[١] مِن غير تشديد. قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

[٢] مع تشديدها. قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الثقفي وأحمد بن موسى عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٨.

[٤] انظر: الحاوي الكبير للماوردي، ٣٦٧/١١.

[٥] انظر: الهداية للمرغيناني، ٢١٧/١.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وقتادة والجَحدري ويعقوب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤١٤/٨.

[٧] وفي هامش م: أي: أفعلُ البرّ. «منه».

[٨] وفي هامش م: أي: برّ أمّك. «منه».

[٩] سنن أبي داود، ٤٥٣/٧ (٥١٣٩)؛ سنن الترمذي، ٣٠٩/٤ (١٨٩٧).

﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ تعليل لوجوب الامتثال بالأمر، أي: إليّ الرجوع، لا إلى غيري، فأجازيك على ما صدَر عنك مِن الشكر والكفر.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ﴾ أي: بشركته له تعالى في استحقاق العبادة ﴿عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك. ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صِحابًا معروفًا يرتضيه الشرع، ويقتضيه المروءة. ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة، ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مرجعُك ومرجعُهما ومرجعُ مَن أناب إليّ، ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلًّا منكم بما صدَر عنه مِن الخير والشرّ.

﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾... إلخ شروع في حكاية بقيّة وصايا لقمان إثرَ تقرير ما في مطلعها مِن النهي عن الشرك وتأكيده بالاعتراض. ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إنّ الخَصلة مِن الإساءة أو الإحسان إن تَكُ مثلًا في الصغر كحَبّة الخَردل. وقُرئ برفع ﴿مِثْقَالَ﴾،[1] على أنّ الضمير للقصّة، و"كان" تامّة. والتأنيث لإضافة المثقال إلى الحبّة، كما في قول مَن قال:

كما شرِقَتْ صدرُ القناة مِن الدمِ[2]

أو لأنّ المراد به الحسنة أو السيّئة.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

٢ صدره:

وتَشرَقَ بالقول الذي قد أذعتَه

للأعشى الكبير في ديوانه، ص ١٢٣. و"تَشرَق" مِن "شَرق بِريقه" إذا غصّ، وهو مِن باب "عَلِم يعلَم". و"أذعتَه" -بالذال المعجمة والعين المهملة- مِن "الإذاعة"، وهي الإفشاء. و"القناة": الرمح. وأنّثَ "شَرِقت" وإن كان مسندًا الى "صدر" وهو مذكّر؛ لأنّه اكتسب التأنيث مِن المضاف إليه. شرح شواهد المغني للسيوطي، ٨٨٢/٢.

﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ[١] أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فتكُن مع كونها في أقصى غايات الصغر والقَماءة في أخفى مكان وأحرَزِه، كجوف الصخرة، أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: يُحضِرْها ويُحاسِبْ عليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصلُ علمه إلى كلّ خفيّ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بكُنهه.

وبعد ما أمره بالتوحيد الذي هو أوّل ما يجب على الإنسان في ضمن النهي عن الشرك، ونبّهَه على كمال علم الله تعالى وقدرته، أمرَه بالصلاة التي هي أكمل العبادات تكميلًا له مِن حيث العمل بعد تكميله مِن حيث الاعتقاد، فقال مستميلًا
[٣٢٣ظ] له: ﴿يَٰبُنَيَّ / أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلًا لنفسك، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلًا لغيرك، ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ مِن الشدائد والمِحَن، لا سيّما فيما أُمِرتَ به.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كلّ ما ذُكر، وما فيه مِن معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لِما مرّ مرارًا مِن الإشعار ببُعد منزلته في الفضل. ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: ممّا عزمه الله تعالى وقطعه على عباده مِن الأمور لمزيد مزيّتها. مصدر أطلق على المفعول. وقد جُوّز أن يكون بمعنى الفاعل مِن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد، ٢١/٤٧]، أي: جَدَّ. والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق مِن الأمر والنهي، وإيذان بأنّ ما بعدها ليس بمثابته.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تُمِلْه ولا تولِّهم صفحةَ وجهك كما هو دَيدن المتكبّرين، مِن "الصَعَرِ"، وهو الصَّيَد؛ وهو داء يصيب البَعير، فيُلوى منه عنقُه. وقُرئ: "وَلَا تُصَاعِرْ".[٢] وقُرئ: "وَلَا تُصْعِرْ"[٣] مِن "الإفعال"، والكلّ بمعنًى، مِثل: "علاه" و"عالاه" و"أعلاه".

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: فرحًا، مصدر وقع موقع الحال، أو مصدر مؤكِّد لِفعلٍ هو الحال، أي: تمرح مرَحًا، أو لأجل المرَح والبطَر.

---

[١] م ط س: السماء.

[٢] قرأ بها نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٦/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ تعليل للنهي، أو موجَبه،[1] وتأخير "الفَخور" مع كونه بمقابلة "المصعِّر خدَّه" عن "المختال" وهو بمقابلة "الماشي مَرحًا" لرعاية الفواصل.

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ بعد الاجتناب عن المرَح فيه، أي: توسَّطْ بين الدبيب والإسراع، وعنه عليه السلام: «سرعة المشي يُذهب بهاء المؤمن».[2] وقول عائشة في عمر رضي الله تعالى[3] عنهما: «كان إذا مشى أسرع»،[4] فالمراد به ما فوق دبيب المتماوِت. وقُرئ بقطع "الهمزة"[5] مِن "أقصَدَ الرامي" إذا سدّد سهمَه نحو الرميّة.

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ وانقص منه واقصر، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ أي: أوحَشها ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ تعليل للأمر على أبلغ وجه وآكَده، مبنيٌّ على تشبيه الرافعين أصواتَهم بالحمير، وتمثيلِ أصواتهم بالنُّهاق، وإفراطٌ في التحذير عن رفع الصوت والتنفير عنه. وإفراد الصوت مع إضافتهِ إلى الجمع لِما أنّ المراد ليس بيانَ حالِ صوت كلّ واحد مِن آحادِ هذا الجنس حتّى يُجمع؛ بل بيانُ حال صوتِ هذا الجنس مِن بين / أصوات سائر الأجناس. [٣٢٤و]

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ رجوع إلى سَنَن ما سلف قبل قصّة لقمان مِن خطاب المشركين، وتوبيخٌ لهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد. والمراد بالتسخيرِ إمّا جعلُ المسخَّرِ بحيث ينفع المسخَّرَ له أعمَّ مِن أن يكون منقادًا له يتصرّف فيه

---

١ م ط س - أو موجَبه ["صح" في هامش م].

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٥/٧؛ حلية الاولياء لأبي نعيم، ٢٩٠/١٠.

٣ ط س - تعالى.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٨/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٥/٤. وذكره ابن الأثير في النهاية، «موت». وهو في الطبقات لابن سعد، ٢٢٠/٣، مِن قول الشفاء ابنة عبد الله.

٥ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤١٦/٨.

كيف يشاء، ويستعمله حسبما يريد كعامّة ما في الأرض مِن الأشياء المسخَّرة للإنسان المستعمَلة له مِن الجماد والحيوان، أو لا يكون كذلك؛ بل يكون سببًا لحصول مراده مِن غير أن يكون له دخل في استعماله، كجميع ما في السماوات مِن الأشياء التي نِيطت بها مصالح العباد معاشًا أو معادًا، وإمّا جَعْلُه منقادًا للأمر مذلَّلًا، على أنّ معنى ﴿لَكُم﴾ لأجلكم، فإنّ جميع ما في السماوات والأرض مِن الكائنات مسخَّرة لله تعالى مستتبِعة لمنافع الخلق، وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخَّرًا له[1] بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخَّر لله تعالى.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ محسوسةً ومعقولةً، معروفةً لكم وغيرَ معروفة، وقد مرّ شرح "النعمة" وتفصيلها في الفاتحة. وقُرِئ: "أَصْبَغَ" بـ"الصاد"،[2] وهو جارٍ في كلّ "سين" قارَنَه "الغين" أو "الخاء" أو "القاف" كما تقول في "سلَخ": "صلَخ"، وفي "سَقْر": "صَقْر"، وفي "سالغ":[3] "صالغ". وقُرِئ: "نِعْمَةً".[4]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفادٍ مِن دليل، ﴿وَلَا هُدًى﴾ مِن جهة الرسول عليه السلام ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أنزله الله سبحانه؛ بل بمجرّد التقليد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لمَن يجادل، والجمع باعتبار المعنى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ يريدون به عبادة الأصنام. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي: آباءَهم، / لا أنفسَهم كما قيل،[5] فإنّ مدار إنكار الاتّباع واستبعادِه [٣٢٤ظ]

---

[1] م ط س – وإن كان مسخَّرًا له ["صح" في هامش م].

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن زكريّا بن يحيى بن عمارة عن أبيه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٨.

[3] وفي هامش م: سلَغَت الشاة: خرجَت ناباها. «منه». | انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «سلغ».

[4] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

[5] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٦/٤.

كونُ المتبوعين تابعين للشيطان، لا كونُ أنفسهم كذلك، أي: أيتّبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه مِن الشرك ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فهم متوجِّهون إليه حسب دعوته. والجملة في حيّز النصب على الحاليّة، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ مِن سورة البقرة [البقرة، ١٧٠/٢] بما لا مزيدَ عليه.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأن فوّض إليه مجامع أموره، وأقبل عليه بكلّيته، وحيث عُدّي بـ"اللام" قُصِد معنى الاختصاص. وقُرئ بالتشديد.[١] ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في أعماله، آتٍ بها جامعةً بين الحسن الذاتي والوصفي، وقد مرّ في آخر سورة النحل. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: تعلّق بأوثَقِ ما يُتعلّق به مِن الأسباب، وهو تمثيل لحال المتوكِّل المشتغِل بالطاعة بحال مَن أراد أن يترقّى إلى شاهِق جبل، فتمسّك بأوثَقِ عُرى الحبل المتدلّي منه، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحد غيره ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فيجازيه أحسنَ الجزاء.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ فإنّه لا يضرّك في الدنيا ولا في الآخرة. وقُرئ: "فَلَا يُحْزِنْكَ"،[٢] مِن "أَحْزَنَ" المنقولِ مِن "حَزِنَ" بكسر "الزاء"، وليس بمستفيض. ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ لا إلى غيرنا، ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ في الدنيا مِن الكفر والمعاصي بالعذاب والعقاب. والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد في الأوّل باعتبار لفظها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل للتنبئة المعبَّر بها عن التعذيب.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وعبد الله بن مسلم بن يسار. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٨.

٢ قرأ بها نافع المدني. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ تمتيعًا، أو زمانًا قليلًا، فإنّ ما يزول وإن كان بعد أمَدٍ طويل بالنسبة إلى ما يدوم قليل. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يثقل عليهم ثِقَلَ الأجرام الغلاظ، أو يُضمّ إلى الإحراق الضغطُ والتضييق.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

[٣٢٥و] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ / لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لغاية وضوح الأمر بحيث اضطُرّوا إلى الاعتراف به. ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضًا. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئًا مِن الأشياء، فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم. وقيل: لا يعلمون أنّ ذلك يلزمهم.

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١] فلا يستحقّ العبادةَ فيهما غيرُه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن العالَمين، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحِقّ للحمد وإن لم يحمَده أحد، أو المحمودُ بالفعل يحمَده كلّ مخلوق بلسان الحال.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ أي: لو أنّ الأشجار أقلام. وتوحيد "الشجرة" لِما أنّ المراد تفصيل الآحاد. ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد نَفاده ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي: والحال أنّ البحر المحيط بسَعته يمدّه الأبحر السبعة مدًّا لا ينقطع أبدًا، وكُتبت بتلك الأقلام وبذلك المِداد كلماتُ الله ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ونفِدت تلك الأقلام والمِداد، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف، ١٨/١٠٩].

---

[١] م ط س: وما في الأرض.

وقُرئ: "يُمِدُّهُ"[١] مِن "الإمداد" بـ"الياء" و"التاء". وإسناد المدّ إلى الأبحر السبعة دون البحر المحيط مع كونه أعظمَ منها وأطمَّ؛ لأنّها هي المجاوِرة للجبال ومنابعِ المياه الجارية، وإليها يَنصبّ الأنهار العظام أوّلًا، ومنها يَنصبّ[٢] إلى البحر المحيط ثانيًا. وإيثارُ جمع القِلّة في الكلمات للإيذان بأنّ ما ذُكر لا يَفي بالقليل منها، فكيف بالكثير؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يَخرج عن علمه وحكمته أمرٌ، فلا تنفَد كلماته المؤسَّسة عليهما.

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

/ ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: إلّا كخَلقها وبَعثها في سهولة التأتّي، إذ لا يشغله شأن عن شأن؛ لأنّ مناط وجود الكلّ تعلّق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتيّة، حسبما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا[٣] لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل، ١٦/٤٠]. [٣٢٥ظ]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع كلّ مسموع، ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصرُ كلَّ مبصَر، لا يشغله عِلم بعضِها عن عِلم بعض، فكذلك الخلق والبعث.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قيل: الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: عامّ لكلّ أحد ممّن يصلح للخطاب، وهو الأوفَق لِما سبق وما لحِق، أي: ألَمْ تعلم علمًا قويًا جاريًا مَجرى الرؤية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يُدخِل كلَّ واحد منهما في الآخر، ويضيفه إليه، فيتفاوت بذلك حالُه زيادةً ونقصانًا، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ عطفٌ على ﴿يُولِجُ﴾، والاختلاف بينهما صيغةً،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٩.

٢ س: تنصبّ.

٣ م ط س: أمرنا.

لِما أنّ إيلاج أحد المَلَوَين[١] في الآخر متجدِّد في كلّ حين، وأمّا تسخير النيّرَين فأمر لا تعدّدَ فيه ولا تجدّدَ، وإنّما التعدّد والتجدّد في آثاره، وقد أشيرَ إلى ذلك حيث قيل:

﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ أي: بحسب حركته الخاصّة وحركته القسريّة على المدارات اليوميّة المتخالفة المتعدّدة حسب تعدّد الأيّام جريًا مستمرًا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قدّره الله تعالى لجريهما، وهو يوم القيامة، كما رُوي عن الحسن رحمه الله،[٢] فإنّه لا ينقطع جريهما إلّا حينئذ.

والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفَين لبيان الواقع بطُرق الاستطراد، وعلى تقدير اختصاصه به عليه السلام يجوز أن تكون حالًا مِن ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، فإنّ جريانهما إلى يوم القيامة مِن جملة ما في حيّز رؤيته عليه السلام.

هذا، وقد جُعل جريانهما عبارةً عن حركتهما الخاصّة بهما في فلكهما، والأجلُ المسمّى عن منتهى دورتهما، وجُعل مدّةُ الجريان للشمس سنةً، وللقمر شهرًا، فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرهما، / وتنبيهٌ على كيفيّة إيلاج أحد المَلَوَين [٣٢٦و] في الآخر، وكونِ ذلك بحسب اختلاف جرَيان الشمس على مداراتها اليوميّة، فكلّما كان جريانُها متوجّهًا إلى سَمت الرأس تزداد القوس التي هي فوق الأرض كِبَرًا، فيزداد النهار طولًا بانضمام بعض أجزاء الليل إليه إلى أن يبلغ المدار الذي هو أقرب المدارات إلى سَمْت الرأس، وذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان، ثمّ ترجع متوجّهةً إلى التباعد عن سَمْت الرأس، فلا تزال القِسيّ التي فوق الأرض تزداد صِغرًا، فيزداد النهارُ قِصَرًا بانضمام بعض أجزائه إلى الليل إلى أن يبلغ المدار الذي هو أبعد المَدارات اليوميّة عن سَمْت الرأس، وذلك عند بلوغها برجَ الجَدْي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾... إلخ، داخل معه في حيّز الرؤية على تقديرَي خصوص الخطاب وعمومه،

---

[١] المَلَوان: الليل والنهار. الصحاح للجوهري، «ملا».

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٠٢؛ تفسير القرطبي، ١٤/٧٨.

فإنّ مَن شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبيرِ اللائق لا يكاد يَغفُل عن كون صانعه عزّ وجلّ محيطًا بجلائل أعماله ودقائقها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تُلِيَ مِن الآيات الكريمة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتها في الفضل، وهو مبتدأ، خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: بسبب بيان أنّه تعالى هو الحقّ إلهيّتُه فقط ولأجلِه، لكونها ناطقة بحقّيّة التوحيد، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: ولأجل بيان بطلان إلهيّة ما يدعونه مِن دونه تعالى، لكونها شاهدةً بذلك شهادةً بيّنةً لا ريبَ فيها. وقُرئ بـ"التاء"،[1] والتصريحُ بذلك مع أنّ الدلالة على اختصاص حقّيّة الإلهيّة به تعالى مستتبِعة للدلالة على بطلان إلهيّة ما عداه لإبراز كمال الاعتناءِ / بأمر التوحيد، وللإيذان بأنّ الدلالة على بطلان ما ذُكر ليست بطريق الاستتباع فقط؛ بل بطريق الاستقلال أيضًا. [٣٢٦ظ]

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: وبيانِ أنّه تعالى هو المترفّع عن كلّ شيء، المتسلّطُ عليه، فإنّ ما في تضاعيف الآيات الكريمة مبيِّن لاختصاص العلوّ والكبرياء به تعالى أيَّ بيان.

هذا، وقيل:[2] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن سَعة العلم وشمولِ القدرة وعجائبِ الصنع واختصاصِ الباري تعالى به بسبب أنّه الثابت في ذاته الواجبُ مِن جميع جهاته، أو الثابتُ إلهيّته. وأنت خبير بأنّ حقّيّته تعالى وعلوَّه وكبرياءَه وإن كانت صالحةً لمناطيّة ما ذُكر مِن الأحكام المعدودة لكنّ بطلان إلهيّة الأصنام لا دخلَ له في المناطيّة قطعًا، فلا مساغَ[3] لنظمه في سلك الأسباب؛ بل هو تعكيس للأمر، ضرورةَ أنّ الأحكام المذكورة هي المقتضية لبطلانها، لا أنّ بطلانها يقتضيها.

---

[1] أي: "تَدْعُونَ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

[2] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢١٧/٤.

[3] وفي هامش م: اللّهمّ إلّا أن يُجعل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾... إلخ خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: والأمر أنّ ما يدعون مِن دونه الباطل، على أنّ الجملة معترضة، وُسِّطت بين المعطوفين مسارعةً إلى تحقيق حقّيّته تعالى وتقريرها. «منه».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه. وهو استشهاد آخر على باهر قدرته، وغايةِ حكمته، وشمولِ إنعامه. و"الباء" إمّا متعلّقة بـ﴿تَجْرِى﴾، أو بمقدّر هو حال مِن فاعله، أي: ملتبسةً بنعمته تعالى. وقُرئ: "الفُلُكَ" بضمّ "اللام"،[١] و"بِنِعْمَاتِ اللهِ"،[٢] وعين "فِعلَاتٍ" يجوز فيه الكسر والفتح والسكون.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بعضَ دلائل وَحدته وعلمه وقدرته.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ تعليل لِما قبله، أي: إنّ فيما ذُكر لآياتٍ عظيمةً في ذاتها، كثيرةً في عددها، لكلّ مَن يبالغ في الصبر على المشاقّ، فيُتعب نفسه في التفكّر في الأنفس والآفاق، ويبالغ في الشكر على نَعمائه. وهما صفتا المؤمن، فكأنّه قيل: لكلّ مؤمن.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

[٣٢٧و] ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: عَلاهم وأحاط بهم ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ / كما يُظِلّ مِن جبل أو سحاب أو غيرهما. وقُرئ: "كَالظِّلَالِ"،[٣] جمع "ظُلّة"، كـ"قُلّة" و"قِلال". ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة مِن الهوى والتقليد بما دهاهم مِن الدواهي والشدائد.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: مقيم على القصد السويّ الذي هو التوحيد، أو متوسّطٌ في الكفر لانزجاره في الجملة. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدّارٍ، فإنّه نقضٌ للعهد الفطري، أو رفضٌ لِما كان في البحر. و"الخَتْر": أشدّ الغَدر وأقبحُه. ﴿كَفُورٍ﴾ مبالغٍ في كفران نِعم الله تعالى.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزبير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والأعمش وابن يعمر. وعن ابن أبي عبلة: "بِنَعِمَاتِ" بفتح النون وكسر العين. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٢٣/٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمد بن الحنفيّة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ٣٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لا يقضي عنه. وقُرئ: "لَا يُجْزِئُ"،[1] مِن "أَجزأ" إذا أغنى. والعائد إلى الموصول محذوف، أي: لا يَجزي فيه. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ عطف على ﴿وَالِدٌ﴾، أو هو مبتدأ، خبرُه: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وتغيير النظم للدلالة على أنّ المولود أَولى بأن يَجزي، وقطعِ طمَع مَن توقّع مِن المؤمنين أن ينفع أباه الكافرَ في الآخرة.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن إخلافه أصلًا، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان المبالغ في الغرور، بأن يحملكم على المعاصي بتزيينها لكم، ويُرجئكم التوبة والمغفرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ٣٤﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ علمُ وقتِ قيامها، لِما رُوي أنّ الحارث بن عمرو[2] أتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «متى الساعة؟ وإنّي قد ألقيتُ حبّاتي في الأرض، فمتى السماء تُمطر؟ وحملُ امرأتي ذكر أم أنثى؟ وما أعمل غدًا؟ وأين أموت؟» فنزلت.[3] وعنه عليه السلام: «مفاتح / الغيب خمس»، وتلا هذه الآية.[4] [٣٢٧ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب وأبي السماك وعامر بن عبد الله وأبي السوار. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٩؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٢٤/٨.

٢ اختُلف في اسم السائل؛ ففي **أسباب النزول** للواحدي، ص ٣٤٧: "الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة، مِن أهل البادية". وفي **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٢٣/٧: "الوارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة، مِن أهل البادية". وفي **الدرّ المنثور** للسيوطي، ٥٣٠/٦: "الوارث، مِن بني مازن بن حفص بن قيس بن عيلان". وفي **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٢٥/٨: "الحارث بن عمارة المحاربي".

٣ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤٤٧/٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٥/٣.

٤ **مسند أحمد**، ٣٨٦/٨ (٤٧٦٦)؛ **صحيح البخاري**، ١١٥/٦ (٤٧٧٨).

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في إبّانه الذي قدّره، وإلى محلّه الذي عيّنه في علمه. وقُرئ: "يُنْزِلُ"[١] مِن "الإنزال". ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ مِن ذكر أو أنثى، أو تامّ أو ناقص.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ مِن النفوس ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِن خير أو شرّ، وربّما يعزم على شيء منهما فيفعل خلافَه، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أيّ وقت تموت.

رُوي أنّ ملَك الموت مرّ على سليمان عليهما السلام، فجعل ينظر إلى رجل مِن جلسائه، فقال الرجل: «مَن هذا؟» قال: «ملَك الموت»، فقال: «كأنّه يريدني، فَمُرِ الريح أن تحملني وتلقيَني ببلاد الهند»، ففعل، ثمّ قال الملَك لسليمان عليهما السلام: «كان دوام نظري إليه تعجّبًا منه حيث كنتُ أُمِرت بأن أقبِض روحه بالهند وهو عندك».[٢]

ونسبةُ العلم إلى الله تعالى والدرايةِ إلى العبد للإيذان بأنّه إن أعمَلَ حِيَلَهُ وبذَلَ في التعرّف وُسعَه لم يعرف ما هو لاحقٌ به مِن كسبه وعاقبته، فكيف بغيره ممّا لم يُنصب[٣] له دليل عليه؟ وقُرئ: "بِأَيَّةِ أَرْضٍ".[٤] وشَبّه سيبويه تأنيثَها بتأنيث "كلّ" في "كلّتهنّ".

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فلا يَعزُب عن علمه شيء مِن الأشياء التي مِن جملتها ما ذُكر. ﴿خَبِيرٌۢ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة لقمان كان لقمان رفيقًا له يوم القيامة، وأعطي مِن الحسنات عشرًا بعدد مَن عمل بالمعروف ونهى عن المنكر».[٥]

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٩/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٥/٣.

٣ س: ينضب.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٠.

٥ ط س + تم. | الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٩/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٤٠/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٣١

سورة لقمان

مكية أو إلاّ «ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام» الآيتين فمدنيتان، وهي أربع وثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الم﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿تِلكَ﴾ أي: هذه الآياتُ ﴿آياتُ الكِتابِ﴾: القرآنِ ﴿الحَكِيمِ﴾: ذي الحِكمة ـ والإضافةُ بمعنى: مِن ـ ٣ ـ هو ﴿هُدًى ورَحْمةٌ﴾، بالرفع، ﴿لِلمُحسِنِينَ﴾ ـ وفي قراءة العامّة بالنصب حالاً من الآيات، العاملُ فيها ما في «تلك» من معنى الإشارة ـ ٤ ـ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾: بيانٌ للمُحسنين، ﴿ويُؤتُونَ الزَّكاةَ، وهُم بِالآخِرةِ هُم يُوقِنُونَ﴾. «هم» الثاني: توكيد. ٥ ـ ﴿أُولئِكَ علَى هُدًى، مِن رَبِّهِم وأُولئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ﴾: الفائزون.

٦ ـ ﴿ومِنَ النّاسِ مَن يَشتَرِي لَهوَ الحَدِيثِ﴾ أي: ما يُلهي منه عمّا يَعني ﴿لِيَضِلَّ﴾...............

سورة لقمان

قولُه: (هَذِهِ الآيَاتُ) أو السُّورةُ.

قولُه: (هُوَ) أو: هي، على أنَّ ﴿هُدًى﴾ خبرٌ لمحذوفٍ، وجوَّزَ أن يكونَ خبراً بعد خبرٍ.

قولُه: (بالرَّفعِ) حمزةُ[1].

قولُه: (حَالاً) الأظهرُ: حالانِ.

قولُه: (مِنْهُ) أي: منَ الحديثِ، و(مِنَ) بيانُ (ما)، عنِ ابنِ عبَّاسٍ وغيره منَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ: كلُّ كلامٍ

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥١٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٦٣).

ـ بفتحِ الياء وضمِّها ـ ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: طريق الإسلام ﴿بِغَيرِ عِلمٍ، ويَتَّخِذَها﴾، بالنصب عطفًا على «يضلّ»، وبالرفع عطفًا على «يشتري»، ﴿هُزُوًا﴾: مهزوءًا بها ـ ﴿أُولَئِكَ لَهُم عَذابٌ مُهِينٌ﴾: ذو إهانة ـ ٧ ـ ﴿وإذا تُتلَى علَيهِ آياتُنا﴾ أي: القُرآنُ ﴿وَلَّى مُستكبِرًا﴾: مُتكبرًا، ﴿كَأَنْ لَم يَسمَعْها، كَأَنَّ في أُذُنَيهِ وَقْرًا﴾: صمَمًا. وجُملتا التشبيه: حالان من ضمير «ولّى»، أو الثانيةُ بيان للأُولى. ﴿فبَشِّرْهُ﴾: أعلِمْه ﴿بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾: مُؤلم. وذِكر البِشارة تهكّمٌ به. وهو النضر بن الحارث، كان يأتي الحِيرةَ يَتجُر فيشتري كُتب أخبار الأعاجم، ويُحدّث بها أهل مكّة، ويقول: إنّ مُحمّدًا يُحدّثكم أحاديث عادٍ وثمودَ، وأنا أُحدّثكم أحاديث فارسَ والرومِ. فيستملحون حديثه ويتركون استماع القُرآن.

سوى كتابِ اللهِ وحديثِ رسولِهِ وحكايةِ الصَّالحينَ فهو لهوٌ[1].

قولُه: (بِفَتحِ اليَاءِ) مكّيٌّ وبصريٌّ[2].

قولُه: (طَرِيقِ الإِسلامِ) أو قراءةِ كتابِهِ.

قولُه: (بالنَّصبِ) حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ[3].

قولُه: (ذُو إِهَانَةٍ) لإهانتِهِمُ الحقَّ بإيثارِ الباطلِ عليهِ.

قولُه: (مُتَكبِّراً) لا يعبأُ بها، ولا يلتَفِتُ إليها.

قولُه: (حَالانِ) أي: مشابهاً حالُهُ حالَ مَن لا يسمَعُها، ومشابهاً مَن في أُذُنَيهِ ثِقَلٌ لا يقدرُ أن يسمَعَ.

قولُه: (ضَمِيرِ: ﴿وَلَّى﴾) أو: ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾.

قولُه: (بيَانٌ) أو بدلٌ.

قولُه: (مُؤلِمٍ) بفتحِ اللَّامِ، وقيلَ: بالكسرِ.

قولُه: (وَهُو) أي: النَّازلُ في شأنِهِ.

قولُه: (الحِيرَةَ) بالكسرِ، بلدٌ قُربَ الكوفةِ.

قولُه: (الأعَاجِمِ) كرُسْتُمَ وإسفنديارَ والأكاسرةِ.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ إلا من قول أبي عثمان النهدي، ذكره إسماعيل حقي في «روح البيان» (٧/ ٦٥).
ولا شك أنه ـ لو صح عن ابن عباس ـ فإن «حكاية الصالحين» مقحم ننزه الحبر عنه، والعجب من المصنف ـ أو من قائله ـ كيف استقام له أن يقرنه بكتاب الله وسنة رسوله.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٦٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٦٣).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥١٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٦٣).

٨ ـ ٩ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُم جَنّاتُ النَّعِيمِ خالِدِينَ فِيها﴾: حالٌ مُقدّرة أي: مُقدَّرًا خلودُهم فيها إذا دخلوها، ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾ أي: وعَدَهم اللهُ ذلك وحقَّه حقًّا، ﴿وهُوَ العَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء، فيمنعَه عن إنجاز وعده ووعيده ﴿الحَكِيمُ﴾ الذي لا يضع شيئًا إلاّ في محلّه، ١٠ ـ ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيرِ عَمَدٍ، تَرَونَها﴾ أي العمدَ: جمع عِماد وهو الأسطوانة، وهو صادق بأن لا عمدَ أصلاً، ﴿وألقَى في الأرضِ رَواسِيَ﴾: جِبالاً مُرتفعة لـ ﴿أن﴾ لا ﴿تَمِيدَ﴾: تتحرّكَ ﴿بِكُم، وبَثَّ فِيها مِن كُلِّ دابّةٍ، وأنزَلْنا﴾ ـ فيه التفات عن الغَيبة ـ ﴿مِنَ السَّماءِ ماءً، فأنبَتْنا فِيها مِن كُلِّ زَوجٍ كَرِيمٍ﴾: صِنف حسن.

١١ ـ ﴿هذا خَلقُ اللهِ﴾ أي: مخلوقه. ﴿فأرُونِي﴾: أخبروني يا أهل مكّة: ﴿ماذا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ غيره، أي: آلِهتكم حتّى أشركتموها به؟ تعالى. وما: استفهام إنكار مبتدأ، وذا: بمعنى «الذي» بصلته خبرُه، وأروني: مُعلَّق عن العمل، وما بعده سدّ مسدّ المفعولَين........

وقيلَ: كانَ يشتري المغنِّياتِ ويحملُهُنَّ على معاشرةِ مَن أرادَ الإسلامَ ومَنعِه عنهُ.

قولُه: (أَصلاً) وهو الأصلُ، وهو الظَّاهرُ.

قولُه: (مُرتَفِعَةً) وهو معنى قولِ القاضي: شوامخَ[1]. والأَولى: ثوابتَ.

قولُه: (لـ﴿أَنْ﴾ لا) أو: كراهةَ أن تميلَ.

قولُه: (حَسَنٍ) كثيرِ المنفعَةِ.

قولُه: (أخبِرُوني) لا يحتاجُ إلى هذا التَّأويلِ، ولا إلى تخصيصِ أهلِ مكَّةَ.

قولُه: (أي: آلِهَتُكُم) بل كلُّ ما عُبِدَ من دونِ اللهِ.

قولُه: (إنكَارٍ) منكرٌ وجهُهُ غيرُ معروفٍ.

قولُه: (مُبتَدَأٌ) فيهِ: أنَّ ﴿مَاذَا﴾ كلمةُ استفهامٍ نصبٌ بـ﴿خَلَقَ﴾، أو ﴿مَا﴾ مرتفعٌ بالابتداءِ، خبرُهُ ﴿ذا﴾ بصلتِهِ، ففي كلامِ الشَّيخِ خلطٌ بين القولينِ.

قولُه: (مُعَلَّقٌ) يعني: على الوَجهينِ.

قولُه: (عَنِ العَمَلِ) أي: في (ما).

قولُه: (أَو مَا بَعْدَهُ) لعَلَّها بمعنى: الواوِ[2]، أو بمعنى التَّخييرِ في التَّعبيرِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢١٣).

(٢) وهكذا جاءت في نسخ المتن بالواو، فأغنت عن تكلف جعل (أو) بمعنى الواو.

﴿بَلِ﴾: للانتقال ﴿الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: بيّنٍ بإشراكهم وأنتم منهم.

١٢ ـ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾، منها العِلمُ والدِّيانة والإصابة في القول ـ وحِكَمُه كثيرة مأثورة، كان يُفتي قبل بَعث داودَ، وأدرك زَمنَه وأخذ عنه العِلم وترك الفُتيا، وقال في ذلك: ألا أكتفي إذا كُفيتُ؟ وقيل له: أيُّ الناس شرّ؟ قال: الذي لا يُبالي أن رآه الناس مُسيئًا ـ ﴿أَنِ﴾ أي: وقلنا له: أنِ ﴿اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ على ما أعطاك من الحِكمة. ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنّ ثواب شُكره له، ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ النِّعمةَ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود في صُنعه. ١٣ ـ ﴿وَ﴾ اذكرْ ﴿إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ، وَهُوَ يَعِظُهُ: يَا بُنَيَّ﴾ ـ تصغيرُ إشفاق ـ ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ. إِنَّ الشِّرْكَ﴾ بالله ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فرجَعَ إليه وأسلمَ.

١٤ ـ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾: أمرناه أن يَبَرّهما ـ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ فوَهَنَتْ ﴿وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: ضعُفتْ.........................

قولُه: (وأَنْتُم مِنهُم) الأظهرُ: أنّه وضعَ الظَّاهرَ موضعَ المضمرِ للدِّلالةِ على أنّهم ظالمونَ بإشراكِهم.

قولُه: (مِنْهَا العِلمُ) والجمهورُ على أنّه لم يكن نبيًّا، وقيلَ: كانَ عبداً نوبيًّا من سودانِ مصرَ، وقيلَ: حبشيًّا نجَّاراً أو خيَّاطاً.

قولُه: (كَانَ يُفْتِي) ويَقْضي.

قولُه: (فِي ذَلِكَ) أي: في سببِ تركِ الفُتْيَا.

قولُه: (قُلْنَا لَهُ: ﴿أَنِ..﴾) فيه أنَّ (أنْ) المفسِّرةَ بعدَ القولِ الصَّريحِ غيرُ صحيحٍ، وكذا المصدريَّةُ، فإنَّ المقولَ لا بُدَّ أن يكونَ جملةً، فالأولى عدَمُ تقديرِ القولِ، فإنَّ إيتاءَ الحكمةِ في معنى القولِ.

قولُه: (ثَوَابَ شُكرِهِ) الأحسنُ: نَفعَهُ، وهو دوامُ النِّعمةِ واستحقاقُ مزيدِها في الدَّارينِ.

قولُه: (عَن خَلقِه) فضلاً عن شكرِهِم.

قولُه: (مَحمُودٌ) نطقَ بحمدِه جميعُ مصنوعاتِه، أو: حقيقٌ بالحمدِ حُمِدَ أو لم يُحْمَد.

قولُه: (وأَسْلَمَ) على ما قيلَ: إنّه كانَ كافراً.

قولُه: (أَن يَبَرَّهُمَا) الأظهرُ: ببرِّهِما.

قولُه: (فَوَهَنَتْ) أو: تَهِنُ [وهناً]، أو: ذاتَ وهنٍ، أو مبالغةٌ.

قولُه: (أي: ضَعُفَتْ) أو: تضعُفُ ضَعْفاً فوقَ ضعفٍ، فإنّها لا تزالُ يتضاعفُ ضَعفُها.

للحَمل وضعُفت للطلق وضعُفت للولادة، ﴿وفِصالُهُ﴾ أي: فِطامه ﴿في عامَين﴾ ـ وقلنا له: ﴿أنِ اشكُرْ لي ولوالِدَيكَ ـ إليَّ المَصِيرُ﴾ أي: المَرجِع ـ ١٥ ـ ﴿وإن جاهَداكَ علَى أن تُشرِكَ بي ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ﴾، مُوافقةٌ للواقع، ﴿فلا تُطِعْهُما، وصاحِبْهُما في الدُّنيا مَعرُوفًا﴾ أي: بالمعروف: البِرّ والصِّلة، ﴿واتَّبِعْ سَبِيلَ﴾: طريق ﴿مَن أنابَ﴾: رجَع ﴿إليَّ﴾ بالطاعة. ﴿ثُمَّ إليَّ مَرجِعُكُم، فأُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ فأُجازيكم عليه. وجملة الوصيّة وما بعدها اعتراض.

١٦ ـ ﴿يا بُنَيَّ، إنَّها﴾ أي: الخَصلةَ السيّئة ﴿إن تَكُ مِثقالَ حَبَّةٍ مِن خَردَلٍ، فتَكُنْ في صَخرةٍ أو في السَّماواتِ أو في الأرضِ﴾ أي: في أخفى مكان من ذلك ﴿يأتِ بِها اللهُ﴾، ....

قولُه: (للوِلادَةِ) والأظهرُ: للتَّربيةِ في الإرضاعِ وغيرِه إلى الفطامِ، فإنَّ الطَّلْقَ والولادةَ متقاربانِ، ولعلَّهُ عليهِ السَّلامُ قالَ: «بِرَّ أمَّكَ، ثُمَّ أمَّكَ، ثُمَّ أُمَّكَ، ثُمَّ أبَاكَ»[1] لهذهِ الأحوالِ الثَّلاثِ المختصَّةِ بالأمِّ.

قولُه: (وقُلْنَا لَهُ) فيهِ ما قُلنا له[2]، قالَ القاضي: تفسيرٌ لـ﴿وَصَّيْنَا﴾، أو علَّةٌ له، أو بدلٌ من ﴿وَالِدَيْهِ﴾ بدلَ اشتمالٍ[3].

عنِ ابنِ عيينةَ: مَن صلَّى الصَّلواتِ الخمسِ فقد شكرَ اللهَ، ومَن دَعَا لوالدَيْهِ في أدبارِ الصَّلواتِ الخمسِ فقد شكرَ والديهِ[4].

قولُه: (مُوَافَقَةٌ) أي: فلا مفهومَ، وقيلَ: أرادَ بنفي العلمِ [به] نَفْيَهُ.

قولُه: (أي: بالمَعرُوفِ) والأظهرُ: صحاباً معروفاً يرتضيهِ الشَّرعُ ويقتضيهِ الكرمُ.

قولُه: (اعتِرَاضٌ) في تضاعيفِ وصيَّةِ لقمانَ؛ تأكيداً لما فيها مِن النَّهي عنِ الشِّركِ.

قولُه: (السَّيِّئَةَ) أو الحسنةَ.

قولُه: (مِنْ ذَلِكَ) ممَّا ذُكِرَ من السَّماواتِ والأرضِ، أخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن السُّدِّيِّ قالَ: هذه الصَّخرةُ ليسَت في السَّماواتِ ولا في الأرضِ، هي تحتَ سبعةِ أرضينَ، عليها ملكٌ قائمٌ، كذا في «الهيئةِ السَّنيَّةِ» للسُّيوطيِّ[5].

---

(١) رواه أبو داود (٥١٣٩)، والترمذي (١٨٩٧) من حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه، ولفظه عند أبي داود: قال: قلت يا رسول الله: من أبر؟ قال: «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أباك، ثم الأقرب، فالأقرب».

قال الترمذي: هذا حديث حسن. ورواه بنحوه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لعله يريد ما تقدم قريبا من قوله في تعقب الجلال: «فيه أنَّ (أنْ) المفسِّرةَ بعدَ القولِ الصَّريحِ غيرُ صحيحٍ. . .».

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢١٤).

(٤) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢١/ ٢٠٤) (٢٢١١).

(٥) لم أجده في «الهيئة السنية» وذكره السيوطي في «الحبائك في أخبار الملائك» (ص: ١١٣).

فيحاسبُ عليها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ باستخراجها ﴿خَبِيرٌ﴾ بمكانها. ١٧ ـ ﴿يا بُنَيَّ، أَقِمِ الصَّلاةَ، وأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ، وانْهَ عَنِ المُنكَرِ، واصبِرْ عَلَى ما أَصابَكَ﴾ بسبب الأمر والنهي ـ ﴿إِنَّ ذلِكَ﴾ المذكورَ ﴿مِن عَزْمِ الأُمُورِ﴾ أي: معزوماتها التي يُعزم عليها لوجوبها ـ ١٨ ـ ﴿ولا تُصَعِّرْ﴾، وفي قراءة: «تُصاعِرْ»، ﴿خَدَّكَ لِلنّاسِ﴾: لا تُمِل وجهَك عنهم تكبّرًا، ﴿ولا تَمشِ في الأرضِ مَرَحًا﴾ أي: خُيلاءَ ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُختالٍ﴾: متبختر في مشيه ﴿فَخُورٍ﴾ على الناس ـ ١٩ ـ ﴿واقصِدْ في مَشيِكَ﴾: توسّطْ فيه بين الدبيب والإسراع وعليك السكينةُ والوقار، ﴿واغضُضْ﴾: اخفِض ﴿مِن صَوتِكَ. إِنَّ أَنكَرَ الأَصْواتِ﴾: أقبحَها ﴿لَصَوتُ الحَمِيرِ﴾ أوّلُه زفيرٌ، وآخِرُه شهيقٌ.

قولُه: (فيُحَاسِبُ) أي: يُحضِرُها فيُجازي، وهما مجزومانِ.

قولُه: (والنَّهيِ) يعني: خُصوصاً، وغيرُهُما عموماً.

قولُه: (المَذكُورَ) أي: كُلَّ ما أمرَهُ، أو: الصَّبرَ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وبصريٍّ وحمزةَ والكسائيِّ[(١)].

قولُه: (وَجهَكَ) الأظهرُ: صفحَةَ وجهِكَ، في «القاموسِ»: الخدَّانِ: اللَّذانِ يكتنفانِ الأنفَ عن يمينٍ وشمالٍ[(٢)].

قولُه: (أي: خُيَلاءَ) ظاهِرُهُ: أنَّه مفعولٌ مطلقٌ؛ لأنَّ خيلاءَ نوعٌ من المشيِ، أو التَّقديرُ: ذا مَرَحٍ؛ أي: بَطِرٍ، وهو يحتمِلُ الحالَ والوصفَ بالمصدرِ، أو: مصدرٌ وقعَ موقعَ الحالِ بتأويلِهِ بالوصفِ؛ أي: فَرِحاً، أو: مبالغةٌ[(٣)].

قولُه: (عَلَى النَّاسِ) وتأخيرُ الفخورِ ـ وهو مقابلٌ للمصعِّرِ، والمختالُ للماشي، فإنَّ الاختيالَ هو مَشيَةُ المتكبِّرِ ـ لمراعاةِ الفاصلةِ.

قولُه: (اخفِضْ) فـ﴿مِنْ﴾ تبعيضيَّةٌ مفعولٌ، أو: انقُصْ واقصُرْ، فـ﴿مِن﴾ صلةٌ.

قولُه: (أَقبَحَهَا) وأوحَشَها، قالَ سفيانُ الثَّوريُّ: صوتُ كلِّ شيءٍ تسبيحٌ إلَّا صوتَ الحميرِ[(٤)]. فإنَّها تصيحُ لرؤيةِ الشَّيطانِ، ولذلك يكونُ أنكرَ.

= والأثر عند ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣٣٨٤)

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥١٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٦٥).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٢٧٩).

(٣) أي: هو وصف بالمصدر على سبيل المبالغة كقولك: رجلٌ عدلٌ. فهو أبلغ من: رجلٌ عادلٌ.

(٤) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٥)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٢١/ ٢١٩) (٢٢١٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٦٢).

٢٠ ـ ﴿أَلَم تَرَوا﴾: تعلموا ـ يا مُخاطَبين ـ ﴿أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم ما في السَّماواتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم لتنتفعوا بها ﴿وما في الأرضِ﴾ من الثمار والأنهار والدوابّ، ﴿وأسبَغَ﴾: أوسَعَ وأتمَّ ﴿علَيكُم نِعَمَهُ ظاهِرةً﴾ ـ وهي حُسن الصورة وتسوية الأعضاء وغير ذلك ـ ﴿وباطِنةً﴾ هي المعرفة وغيرها؟ ﴿ومِنَ النّاسِ﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿مَن يُجادِلُ في اللهِ بِغَيرِ عِلمٍ ولا هُدًى﴾ من رسول ﴿ولا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ أنزله الله بل بالتقليد، ٢١ ـ ﴿وإذا قِيلَ لَهُمُ: اتَّبِعُوا ما أنزَلَ اللهُ، قالُوا: بَل نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا علَيهِ آباءَنا﴾. قال تعالى: ﴿أَ﴾ يتّبعونه ﴿وَلَو كانَ الشَّيطانُ يَدعُوهُم إلَى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ أي: مُوجِباتِه؟ لا.

٢٢ ـ ﴿ومَن يُسلِمْ وَجهَهُ إلَى اللهِ﴾ أي: يُقبِلْ على طاعته،.........................

قلتُ: ولذا يُتعَوَّذُ باللهِ من الشَّيطانِ عند صوتِه كما وردَ في الحديثِ[1]، قالَ الطِّيبيُّ: قوله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ﴾ تعليلٌ للأمرِ بغضِّ الصَّوتِ على الاستئنافِ، كأنَّهُ قيلَ: لمَ أغُضُّ الصَّوتَ؟ فأجيبَ: لأنَّكَ إن رفعْتَ صوتَكَ كنت بمنزلةِ الحمارِ في أخسِّ أحوالِهِ[2].

قولُه: (وغَيرُ ذَلِكَ) من النِّعَمِ المحسوسَةِ، وقرأ نافعٌ وأبو عَمرٍو وحفصٌ: ﴿نِعَمَهُ﴾ بالجمعِ والإضافةِ[3].

قولُه: (وغيرُهَا) مِنَ النِّعَمِ المعقُولَةِ، قيل: الظَّاهرةُ: العافيةُ والأمانُ، والباطنةُ: العفوُ والغفرانُ، وقيل: المرادُ بهما: الإسلامُ والإيمانُ، وقيل: حُسْنُ الخَلْقِ والخُلُقِ.

قولُه: (أي: أَهْلِ مَكَّةَ) بالجرِّ أو الرَّفعِ، ولا وجهَ للتَّخصيصِ.

قولُه: (بَل بالتَّقلِيدِ) فقولُه: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: مستفادٍ من دَليلٍ عقليٍّ.

قولُه: (﴿أَ﴾يتَّبِعُونَهُ) أي: ما وجَدوا عليه آباءَهُم، فالهمزةُ للإنكارِ على التَّقليدِ والتَّعجُّبِ منه، والواوُ وصليَّةٌ؛ يعني: التقليدُ في أمرِ التَّوحيدِ غيرُ سديدٍ، خصُوصاً إذا كانَ ينجرُّ إلى عذابٍ شديدٍ، والضَّميرُ في: ﴿يَدْعُوهُم﴾ لهم، أو لآبائِهم ولهُم[4].

قولُه: (لا) أي: لا ينبَغي اتِّباعُهُم.

قولُه: (أي: يُقْبِلْ) يريدُ: أنَّ الوجهَ بمعنى الذَّاتِ، والمرادُ من إسلامِهِ: إسلامُ أمورِهِ، والمعنى: يفوِّضُ

---

(١) روى البخاري (٣٣٠٣)، ومسلم (٢٧٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه قال: «وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنه رأى شيطاناً».

(٢) انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٢٩٩).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥١٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٦٥).

(٤) في النسخ: «أو لهم»، ولعل الصواب هو المثبت.

﴿وهُوَ مُحسِنٌ﴾: مُوحّد، ﴿فقدِ استَمسَكَ بِالعُرْوةِ الوُثقى﴾: بالطرف الأوثق الذي لا يُخاف انقطاعُه ـ ﴿وإلَى اللهِ عاقِبَةُ الأُمورِ﴾: مَرجِعها ـ ٢٣ ـ ﴿ومَن كَفَرَ فلا يَحزُنْكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿كُفرُهُ﴾: لا تهتمّ بكُفره. ﴿إلَينا مَرجِعُهُم، فنُنَبِّئُهُم بِما عَمِلُوا. إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها كغيره فمُجازٍ عليه، ٢٤ ـ ﴿نُمَتِّعُهُم﴾ في الدنيا ﴿قَلِيلاً﴾ أيام حياتهم، ﴿ثُمَّ نَضطَرُّهُم﴾ في الآخرة ﴿إلَى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾. وهو عذاب النار، لا يجدون عنه مَحيصًا.

٢٥ ـ ﴿ولَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿سألتَهُم: مَن خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ؟ لَيَقُولُنَّ: اللهُ﴾. حُذف منه نونُ الرفع لتوالي الأمثال، وواوُ الضمير لالتقاء الساكنين. ﴿قُلِ: الحَمدُ للهِ﴾ على ظُهور الحُجّة عليهم بالتوحيد. ﴿بَل أكثَرُهُم لا يَعلَمُونَ﴾ وجوبَه عليهم.........................

أمرَهُ إليه، ويُقبِلُ بشَراشِرِه[١] عليه، ويؤيِّدُه قراءةُ الأعمشِ بالتَّشديدِ[٢]، وحيثُ عُدِّيَ باللَّامِ نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] فلِتَضَمُّنِ معنى الإخلاصِ.

قولُه: (مُوَحِّدٌ) أو في عَمَلِهِ.

قولُه: (بالطَّرَفِ الأَوثَقِ) أي: تعَلَّقَ بأوثَقِ ما يُتعَلَّقُ به، وهو تمثيلٌ للمتوكِّلِ المشتغلِ بالطَّاعةِ بمن أرادَ أن يترقَّى شاهِقَ جبلٍ فتمسَّكَ بأوثَقِ عُرى الحَبْلِ المتدلِّي منه.

قولُه: (لا تَهْتَمَّ لكُفرِهِ) فإنَّه لن يضرَّكَ، وقولُ البيضاويِّ: وقُرِئَ: (فَلَا يُحزِنكَ) من أحزنَهُ وليسَ بمستفيضٍ[٣]. خطأٌ من وجهين؛ فإنَّ القراءةَ لنافعٍ[٤]، وهي متواترةٌ فوقَ المستفيضِ بمعنى: المشهورِ، وفي «القاموسِ»: حزنَهُ الأمرُ وأحزَنَهُ: جعلَهُ حَزيناً[٥].

قولُه: (أيَّامَ حَيَاتِهِم) أي: زماناً قليلاً، أو: تَمتيعاً قليلاً، فإنَّ ما يزولُ بالنِّسبةِ إلى ما يدومُ قليلٌ.

قولُه: (وَهُو عَذَابُ النَّارِ) يثقُلُ عليهم ثِقَلَ الأجرامِ الغِلاظِ، أو يَضمُّ إلى الإحراقِ الضَّغطَ.

قولُه: (لامُ قَسَمٍ) موطِّئَةٌ.

قولُه: (وُجُوبَهُ) أي: التَّوحيدَ، أو ظهورَها عليهم.

---

(١) الشراشر: النَّفْس والأثقال والمحبة وجميع الجسد. «القاموس المحيط» (ص: ٤١٥).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨) عن علي والسلمي وعبد الله بن مسلم بن يسار.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢١٦).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٩)، و«حجة القراءات» (ص: ١٨١).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١١٨٩).

٢٦ ـ ﴿لِلهِ ما في السَّماواتِ والأرضِ﴾ مُلكًا وخلقًا وعبيدًا، فلا يستحقّ العِبادة فيهما غيرُه. ﴿إنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ﴾ عن خلقه ﴿الحَمِيدُ﴾ المحمود في صُنعه.

٢٧ ـ ﴿ولَو أنَّ ما في الأرضِ مِن شَجَرةٍ أقلامٌ، والبَحرَ﴾: عطفٌ على اسم «أنَّ» ﴿يَمُدُّهُ مِن بَعدِهِ سَبعةُ أبحُرٍ﴾ مِدادًا، ﴿ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ﴾ المُعبَّر بها عن معلوماته، بكَتبها بتلك الأقلام بذلك المداد، وبأكثرَ من ذلك، لأنّ معلوماته ـ تعالى ـ غير مُتناهية. ﴿إنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾: لا يُعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يخرج شيء عن عِلمه وحِكمته. ٢٨ ـ ﴿ما خَلقُكُم ولا بَعثُكُم إلا كَنَفسٍ واحِدةٍ﴾ خلقًا وبعثًا لأنه بكلمة «كُنْ فيكُونُ». ﴿إنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾: يسمع كُلّ مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ يُبصر كُلّ مُبصَر، لا يَشغله شيء عن شيء.

٢٩ ـ ٣٠ ـ ﴿ألَم تَرَ﴾: تعلمْ ـ يا مُخاطَبًا ـ ﴿أنَّ اللهَ يُولِجُ﴾:........................

قولُه: (عَطفٌ عَلى اسمِ ﴿أنَّ﴾) وهو [في][1] قراءَةِ البصريِّ وغيرِه[2] بالرَّفعِ للعطفِ على محلِّ ﴿أنَّ﴾ ومعمولِها و﴿يَمُدُّهُ﴾ حالٌ؛ أي: لو ثبَتَ كونُ الأشجارِ أقلاماً والبحرِ المحيطِ بسَعَتِه مِداداً ممدوداً بسبعَةِ أبحُرٍ.

قولُه: (مِدَادًا) خبرُ ﴿أنَّ﴾ على قراءةِ البصريِّ[3]، وأغنى عن ذكرِ المدادِ ﴿يمدُّهُ﴾؛ لأنَّه من مَدِّ الدَّواةِ؛ أي: زادَ في مِدادِها.

قالَ شيخُ مشايخِنا مَولانا شيخُ الإسلامِ وقطبُ الأنامِ الشَّيخُ أبو الحسَنِ البكريُّ[4] تغمَّدَهُ اللهُ برحمتِهِ في «تفسيرِهِ»: ذِكرُ السَّبعةِ ليسَ للحَصْرِ بل للمبالغةِ، وإنَّما خُصَّ بالذِّكرِ لكثرَةِ ما يُعَدُّ بها مِن الكواكبِ السَّيَّارةِ والسَّماواتِ والأرضينَ وغيرِهَا، ولأنَّها عَدَدٌ تنحصرُ فيهِ المعدوداتُ، إذ كلُّ أحدٍ يحتاجُ في حاجتِهِ إلى زمانٍ ومكانٍ، والزَّمانُ ينحصرُ في سبعةِ أيَّامٍ، والمكانُ في سبعةِ أقاليمَ، انتهى.

قولُه: (بِكَلِمَةِ: كُنْ) المُعبِّرِ بها عن تعلُّقِ إرادَتِهِ.

قولُه: (يَا مُخَاطَبًا) إشارةٌ إلى أنَّ المنادَى نكِرةٌ غيرُ مقصودةٍ، وهو غير[5] ظاهرٌ، فالصَّحيحُ: أنَّ الخطابَ عامٌّ لكُلِّ أحدٍ، أو: له ﷺ أصالةً ولغيرِه تبعاً.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٧)، و«النشر» (٢/ ٣٤٧) عن أبي عمرو ويعقوب البصريين.

(٣) كذا قال، وفيه نظر، فاسم ﴿أن﴾ مرفوع وهذا منصوب.

(٤) هو: محمد بن محمد بن عبد الرحمن، أبو الحسن البكري الصدِّيقي: مفسر، متصوف مصري، من علماء الشافعية. مولده ووفاته بالقاهرة. كان يقيم عاماً بمصر وعاماً بمكة، وشاع ذكره في أقطار الأرض مع صغر سنة، وله تفسيران أحدهما لم يطبع بعد وهو: «تسهيل السبيل» والثاني طبع وهو: «الواضح الوجيز» (ت: ٩٥٢هـ). وانظر: «الأعلام» (٧/ ٥٧).

(٥) «غير»: سقطت من (م) و(ص) و(ن).

يُدخِل ﴿اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُولِجُ النَّهارَ﴾: يُدخله ﴿في اللَّيلِ﴾، فيزيد كُلٌّ منهما بما نقَص من الآخَر، ﴿وسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ، كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجرِي﴾ في فلكه ﴿إلَى أجَلٍ مُسَمًّى﴾: يوم القيامة، ﴿وأنَّ اللهَ بِما تَعمَلُونَ خَبِيرٌ؟ ذلِكَ﴾ المذكور ﴿بِأنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾: الثابت، ﴿وأنَّ ما يَدعُونَ﴾، بالياء والتاء: يعبدون ﴿مِن دُونِهِ الباطِلُ﴾: الزائل، ﴿وأنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ﴾ على خلقه بالقهر ﴿الكَبِيرُ﴾: العظيم.

٣١ ـ ﴿ألَم تَرَ أنَّ الفُلكَ﴾ السُّفن ﴿تَجرِي في البَحرِ بِنِعْمَةِ اللهِ، لِيُرِيَكُم﴾ ـ يا مُخاطَبين ـ بذلك ﴿مِن آياتِهِ؟ إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ﴾: عِبرًا ﴿لِكُلِّ صَبّارٍ﴾ عن معاصي الله ﴿شَكُورٍ﴾ لنِعمته.

٣٢ ـ ﴿وإذا غَشِيَهُم﴾ أي: علا الكُفّارَ ﴿مَوجٌ كالظُّلَلِ﴾: كالجِبال التي تُظِلّ مَن تحتها ﴿دعَوُا اللهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الدُّعاءَ بأن يُنجيَهم، أي: لا يدعون معه غيره، ﴿فلَمّا نَجّاهُم إلَى البَرِّ فمِنهُم مُقتَصِدٌ﴾: مُتوسِّط بين الكُفر والإيمان، ومنهم باقٍ على كفره. ﴿وما يَجحَدُ بِآياتِنا﴾، ومنها الإنجاءُ من الموج، ﴿إلاّ كُلُّ خَتّارٍ﴾: غَدّار ﴿كَفُورٍ﴾ لنِعم الله تعالى.

قولُه: (يَومِ القِيَامَةِ) فالمرادُ بالأجَلِ: غايةُ المدَّةِ ونهايَتُها.

قولُه: (المَذْكُورُ) من سَعَةِ العِلمِ وشمولِ القدرَةِ وعجائِبِ الصُّنعِ، واختصاصُ الباري بها بالإجماعِ من المشرِكينَ أيضاً.

قولُه: (باليَاءِ) الغيبةُ بصريٌّ وكوفيٌّ غيرُ شعبةَ[1].

قولُه: (العَظِيمُ) شأنُه وبرهانُه.

قولُه: (عَن مَعَاصِي اللهِ) وعلى طاعاتِهِ وفي مصيباتِه.

قولُه: (لِنِعَمِهِ) يعرِفُ النِّعَمَ، ويتعرَّفُ المنعِمَ.

قولُه: (عَلا) وغَطَّى.

قولُه: (كالجِبَالِ) أو السَّحابِ.

قولُه: (بَيْنَ الكُفْرِ) لانزجارِهِ بعضَ الانزجارِ، أو: مقيمٌ على الطَّريقِ القصدِ الَّذي هو التَّوحيدُ.

قولُه: (ومِنهَا الإنجَاءُ) الأظهرُ: التَّنجيَةُ.

قولُه: (غَدَّارٍ) غيرِ صبَّارٍ على العهدِ الفِطريِّ، أو البحريِّ[2]، والخَتْرُ: أشدُّ الغَدرِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٦٧).

(٢) أي: ما كان في البحر إذا غشيهم الموج.

٣٣ ـ ﴿يا أيُّها النّاسُ﴾ أي أهلَ مكّة، ﴿اتَّقوا رَبَّكُم واخشَوا يومًا، لا يَجزِي﴾: يُغني ﴿والِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ فيه شيئًا ﴿ولا مَولُودٌ هُوَ جازٍ عَن والِدِهِ﴾ فيه ﴿شَيئًا! إنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ. فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنيا﴾ عن الإسلام، ﴿ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ﴾ في حِلمه وإمهاله ﴿الغَرُورُ﴾: الشيطانُ.
٣٤ ـ ﴿إنَّ اللهَ عِندَهُ عِلمُ السّاعةِ﴾: متى تقومُ؟ ﴿ويُنْزِلُ﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿الغَيثَ﴾ بوقت يعلمه، ﴿ويَعلَمُ ما في الأرحامِ﴾ أذكرٌ أم أنثى؟ ولا يعلم واحدًا من الثلاثة غيرُ الله تعالى ـ ﴿وما تَدرِي نَفسٌ: ماذا تَكسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شرّ؟ ويعلمه الله ـ تعالى ـ ﴿وما تَدرِي نَفسٌ: بِأيِّ أرضٍ تَمُوتُ﴾؟ ويعلمه الله تعالى ـ ﴿إنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ بكُلِّ شيء ﴿خَبِيرٌ﴾ بباطنه كظاهره.........................

قولُه: (أيْ: أَهلَ مَكَّةَ) لعلَّهُم خُصُّوا لأنَّهم من أهلِ البيتِ، وأهلُ البيتِ منهم.

قولُه: (يُغنِي) أو يقضِي.

قولُه: (بالبَعثِ) المتضمِّنِ للثَّوابِ والعقابِ.

قولُه: (الشَّيطَانُ) بأن يسوِّفَكُم في التَّوبةِ ويرجِّيَكُمُ المغفرةَ، فيحملَكُم على المعاصي، أو بقولِهِ: لا بعثَ ولا ثوابَ ولا عقابَ.

قولُه: (مَتَى تَقُومُ) أي: عِلمُ وقتِ قيامِها.

قولُه: (بالتَّخفِيفِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ وحمزةُ والكسائيُّ(١).

قولُه: (بوَقتٍ) ومحَلٍّ.

قولُه: (أَذَكَرٌ أم أُنثَى) أتامٌّ أم ناقصٌ؟

وقيلَ: من كافرٍ ومؤمنٍ، ومُطيعٍ وعاصٍ، وغيرِ ذلك.

قولُه: (ولا يَعلَمُ وَاحِداً) يريدُ أنَّ العِلمَ بهذه الأشياءِ الثَّلاثةِ مختَصٌّ باللهِ، وهذا لا يفهمُ ممَّا سبَقَ بخلافِ ما سيأتي من الشَّيئَينِ، فإنَّ الحصرَ مستَفادٌ منهُما.

قولُه: (وشَرٍّ) الأظهرُ: (أو) فربَّما يعزمُ على أحدِهِما ويفعلُ خلافَهُ.

قولُه: (ويَعْلَمُهُ اللهُ) كما لا تَدْري في أيِّ وقتٍ تموتُ واللهُ يعلمُهُ، وقيلَ: معنى ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾: بأيِّ قدمٍ أو مقامٍ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٦٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٦٧).

روى البخاريّ عن ابن عُمرَ حديثَ: «مَفاتِيحُ الغَيبِ خَمسةٌ: إنَّ اللهَ عِندَهُ عِلمُ السّاعةِ» إلى آخِر السُّورة.

قولُه: (خَمسَةٌ) هذا ظاهرٌ، بخلافِ ما في البيضاويِّ: (خمسٌ)[1]. ولعلَّهُ باعتبارِ أنَّ المفتاحَ آلةُ الفتْحِ، والأظهرُ أنَّ المرادَ: خمسُ كلماتٍ، أو خمسُ جُمَلٍ، أو قضايا، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢١٨). وما فيه هو الموافق لما في روايات البخاري (١٠٣٩) وأطرافه.

سورة لقمان

أخرج ابنُ الضريس وابن مردويه والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أنزلت سورة لقمان بمكة[1]. ولا استثناء في هذه الرواية، وفي رواية النحاس في «تاريخه»[2] عنه استثناءُ ثلاث آياتٍ منها، وهي: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى تمام الثلاث، فإنها نزلْنَ بالمدينة، وذلك أنه ﷺ لمَّا هاجر قال له أحبار اليهود: بَلَغَنا أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] أعَنَيْتَنا أم قومَك؟ قال: «كلًّا عَنَيْتُ» فقالوا: إنك تعلمُ أننا أوتينا التوراةَ، وفيها بيانُ كلِّ شيءٍ. فقال عليه الصلاة والسلام: «ذلك في علم الله تعالى قليلٌ» فأنزل الآيات.

ونقل الداني عن عطاء، وأبو حيان عن قتادة، أنهما قالا: هي مكيةٌ إلا آيتين، هما: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيتين[3].

وقيل: هي مكيةٌ إلا آيةً، وهي قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فإنَّ إيجابهما بالمدينة. وأنت تعلم أنَّ الصلاة فُرِضتْ بمكةَ ليلة الإسراء كما في صحيح البخاريِّ وغيره[4]، فما ذُكر من أنَّ إيجابها بالمدينة غيرُ مسلَّم، ولو سلِّم فيكفي كونُهم مأمورين بها بمكةَ ولو ندباً، فلا يتمُّ التقريبُ فيها؛ نعم المشهورُ أنَّ الزكاة إيجابها بالمدينة، فلعل ذلك القائل أراد أن إيجابهما معاً تحقَّق بالمدينة لا أنَّ إيجابَ كلٍّ منهما تحقَّق فيها، ولا يضرُّ في ذلك أنَّ إيجاب الصلاة كان بمكة.

---

(١) فضائل القرآن لابن الضريس ص٣٣، ودلائل النبوة ٧/ ١٤٤، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٥٨، وعنه نقل المصنف.

(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ١٥٨، ولعله أراد ناسخه إلا أنه أطلق عليه ذلك نظراً إلى موضوعه، والخبر في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٩.

(٣) البيان في عدِّ آي القرآن للداني ص٢٠٦، والبحر ٧/ ١٨٣.

(٤) صحيح البخاري (٣٤٩)، وصحيح مسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وقيل: إنَّ الزكاة إيجابُها كان بمكة كالصلاة، وتقديرُ الأنصباء هو الذي كان بالمدينة، وعليه لا تقريبَ فيهما.

وآيُها ثلاثٌ وثلاثون في المكيِّ والمدنيِّ، وأربعٌ وثلاثون في عدد الباقين.

وسببُ نزولها ـ على ما في «البحر» ـ أنَّ قريشاً سألتْ عن قصة لقمان مع ابنه وعن برِّ والديه، فنزلت[1].

ووجه مناسبتها لِمَا قبلها ـ على ما فيه أيضاً ـ أنه قال تعالى فيما قبلُ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ وأشار إلى ذلك في مفتتح هذه السورة، وأنه كان في آخر ما قبلها ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ وفيها ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾[2].

وقال الجلال السيوطيُّ: ظهر لي في اتِّصالها بما قَبْلَها مع المؤاخاة في الافتتاح بـ «ألم» أن قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: فيما قبلُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ الآيةَ، فهذا عينُ إيقانهم بالآخرة وهم المحسنون الموصوفون بما ذكر. وأيضاً ففي كلتا السورتين جملةٌ من الآيات وابتداء الخلق.

وذكر في السابقة: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ وقد فسِّر بالسماع، وذكر هنا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وقد فسِّر بالغناء وآلات الملاهي[3]. اهـ. وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك.

وأقول في الاتِّصال أيضاً: إنه قد ذكر فيما تقدَّم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وهنا قوله سبحانه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وكلاهما يفيد سهولةَ البعث وقرَّر[4] ذلك هنا بقوله عز قائلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) البحر ٧/ ١٨٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تناسق الدرر للسيوطي ص٧٣.

(٤) في الأصل: ونوّر.

وذكر سبحانه هناك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وقال عز وجل هنا: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فذكر سبحانه في كلٍّ من الآيتين قِسْماً لم يذكره في الأخرى، إلى غير ذلك.

وما ألطفَ هذا الاتِّصال من حيث إن السورة الأولى ذكر فيها مغلوبية الروم وغَلَبتهم، المَبْنيَّتين على المحاربة بين مَلِكَيْنِ عظيمين من ملوك الدنيا تَحارَبا عليها وخرجا[1] بذلك عن مقتضى الحكمة؛ فإنَّ الحكيم لا يحارب على دنيا دنيَّةٍ لا تعدِلُ عند الله جناحَ بعوضةٍ، وهذه ذكر فيها قصة عبدٍ مملوك على كثيرٍ من الأقوال، حكيمٍ زاهدٍ في الدنيا، غير مكترثٍ بها ولا ملتفتٍ إليها، أوصى ابنَه بما يأبى المحاربةَ ويقتضي الصبرَ والمسالمةَ، وبين الأمرين من التقابُل ما لا يخفى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ أي: ذي الحكمة، ووَصْفُ الكتاب بذلك عند بعض المغاربة مجازٌ؛ لأنَّ الوصف بذلك للتملُّك وهو لا يملك الحكمة بل يَشْتَمِلُ عليها ويتضمَّنها، فلأَجْلِ ذلك وُصف بالحكيم بمعنى: ذي الحكمة. واستَظْهَر الطيبيُّ أنه على ذلك من الاستعارة المكنية[2].

والحقُّ أنه من باب: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] على حدِّ: لابِنٍ وتامرٍ. نعم يجوز أن يكون هناك استعارةٌ بالكناية، أي: الناطق بالحكمة كالحي.

ويجوز أن يكون الحكيم من صفاته عز وجل ووُصِفَ الكتاب به من باب الإسناد المجازيِّ، فإنه منه سبحانه بدأ، وقد يُوصف الشيء بصفةِ مبدئه كما في قول الأعشى:

وغريبةٍ تأتي الملوك حكيمةٍ ‏ ‏ قد قلتُها ليقال مَن ذا قالها[3]

---

(١) في (م): وخرج.
(٢) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٣) ديوان الأعشى ص١٥١.

وأن يكون الأصل: الحكيم مُنْزِلُه، أو: قائلُه، فحذف المضافُ إلى الضمير المجرور وأُقيم المضافُ إليه مقامَه، فانقلب مرفوعاً ثم استكنَّ في الصفة المشبهة.

وأن يكون «الحكيم» فعيلاً بمعنى مُفْعَل، كما قالوا: عقدتُ العسل فهو عقيد، أي: مُعْقَد، وهذا قليل. وقيل: هو بمعنى حاكم. وتمامُ الكلام في هذه الآية قد تقدَّم في الكلام على نظيرها[1].

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحالية من «آيات»، والعاملُ فيهما معنى الإشارة على ما ذكره غيرُ واحد، وبُحث فيه.

وقرأ حمزةُ والأعمش والزعفرانيُّ وطلحةُ، وقنبل من طريق أبي الفضل الواسطي ونظيفٍ بالرفع[2] على الخبر بعد الخبر لـ «تلك» على مذهب الجمهور، أو الخبرِ لمحذوفٍ، أي: هي، أو هو، هدًى ورحمةٌ عظيمةٌ.

﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ أي: العاملين الحسنات، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً للمتعاطفَيْنِ، وقولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ إما مجرورٌ على أنه صفةٌ كاشفةٌ أو بدلٌ أو بيانٌ لِمَا قبله، وإمَّا منصوبٌ أو مرفوع على القطع، وعلى كلٍّ فهو تفسيرٌ لـ «المحسنين» على طريقة قول أوس بن حجر:

الألْمعيّ الذي يَظنُّ بك الظـ ... ـنَّ كأنْ قد رأى وقد سمعا[3]

فقد حكي عن الأصمعي أنه سئل عن الألمعيِّ فأنشده ولم يَزِدْ عليه[4]. وهذا

(١) ١١/٩، عند تفسير قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].

(٢) التيسير ص١٧٦، والنشر ٢/٣٤٦ عن حمزة، وذكرها عنهم أبو حيان في البحر ٧/١٨٣. ونظيف هو ابن عبد الله أبو الحسن الكسروي الحلبي، من كبار القراء، قرأ على قنبل في قول جماعة من المحققين، وقيل: بل على أحمد بن محمد اليقطيني عن قنبل. وانفرد عنه الهذلي بتقديم البسملة على التكبير، لم يروه أحد سواه. طبقات القراء لابن الجزري ٢/٣٤٢.

(٣) ديوان أوس بن حجر ص٥٣، والكشاف ٣/٢٢٩، والبحر ٧/١٨٣، ورواية الديوان: لك، بدل: بك.

(٤) الكشاف ٣/٢٢٩.

ظاهرٌ على تقديرِ أنْ يراد بالحسنات مشاهيرُها المعهودةُ في الدِّين، وأمَّا على تقدير أن يراد بها جميعُ ما يَحْسُنُ من الأعمال، فلا يَظْهَرُ إلا باعتبارِ جَعْلِ المذكورات بمنزلة الجميع من باب: كلُّ الصيد في جوف الفَرَا[1].

وقيل: إذا أُريدَ بالحسنات المذكوراتُ يكون الموصولُ صفةً كاشفةً، وقولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ استئنافاً، وإذا أُريدَ بها جميعُ ما يَحْسُنُ من الأعمال، وكان تخصيصُ المذكورات بالذكر لفَضْلِ اعتدادٍ بها، يكون الموصول مبتدأً وجملةُ «أولئك على هدى» إلخ خبرَه، والكلامُ استئنافٌ بذِكْرِ الصفة الموجبة للاستئهال.

وقيل: إنَّ الموصول على التقديرين صفةٌ، إلَّا أنه على التقدير الأول كاشفةٌ، وعلى التقدير الثاني صفةٌ مادحةٌ للوصف لا للموصوف.

وبناءُ «يوقنون» على «هم» للتقوِّي، وأُعيدَ الضمير للتأكيد، ولدَفْعِ تَوهُّم كونِ «بالآخرة» خبراً، وجَبْراً للفصل بين المبتدأ وخبرِه، ولم يؤخَّر الفاصلُ للفاصلة.

وذكر بعضُ أجلَّة المفسِّرين في قوله تعالى أولَ سورة البقرة: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [الآية: ٤] أنَّ بناء «يوقنون» على «هم» يدلُّ على أنَّ مقابليهم ليسوا من اليقين في ظلٍّ ولا فَيْءٍ، وأنَّ تقديم «في الآخرة»[2] يدلُّ على أنَّ ما عليه مُقابِلوهم ليس من الآخرة في شيءٍ، وذلك لإفادةِ تقديم الفاعلِ المعنويِّ وتقديمِ الجارِّ على متعلَّقه الاختصاصَ، فانظر هل يتسنَّى نحوُ ذلك هنا؟

وقد مرَّ أولَ سورة البقرة[3] ما يُعلم منه وجهُ اختيارِ اسم الإشارة ووجهُ تكراره، وفي الآية كلامٌ بعدُ لا يخفى على مَن راجَعَ ما ذكروه من الكلام على ما يُشْبِهها هناك وتأمَّلَ، فراجعْ وتأمَّلْ.

---

(١) الفرا: حمار الرحش، وهو في المثل دون همز لأن الأمثال موضوعة على الوقف، وأصل المثل أن قوماً خرجوا للصيد فصاد أحدهم ظبياً، وآخر أرنباً، وآخر فراً، فقال لأصحابه: كل الصيد...، أي: كلُّه دونه. جمهرة الأمثال٢/ ١٦٢، والمستقصى٢/ ٢٢٤، ومجمع الأمثال٢/ ١٣٦، والقاموس(فرأ).

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: بالآخرة.

(٣) ١/ ٣٧٢-٣٧٣.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعضٌ من الناس، أو بعضُ الناس ﴿مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: الذي - أو فريقٌ - يشتري، على أنَّ مناط الإفادة والمقصودَ بالأصالة هو اتِّصافُهم بما في حيِّز الصلة أو الصفة، لا كونُهم ذواتِ أولئك المذكورين.

والجملةُ عطفٌ على ما قبلها بحَسَبِ المعنى، كأنه قيل: من الناس هادٍ مهديٌّ، ومنهم ضالٌّ مضلٌّ، أو عطف قصةٍ على قصة.

وقيل: إنها حالٌ من فاعل الإشارة، أي: أُشيرُ إلى آيات الكتاب حالَ كونها هدًى ورحمةً والحالُ «من الناس مَن يشتري» إلخ.

و«لهو الحديث» على ما روي عن الحسن: كلُّ ما شَغَلَكَ عن عبادة الله تعالى وذِكْرِه، من السَّمَر والأضاحيك والخرافات والغناء ونحوِها، والإضافةُ بمعنى «من» إن أريد بالحديث المنكَرُ، كما في حديث «الحديثُ في المسجد يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ البهيمةُ الحشيشَ»[1] بناءً على أنها بيانيةٌ.

وتبعيضيةٌ إن أريدَ به ما هو أعمُّ منه بناءً على مذهب بعض النحاة كابن كيسان والسيرافي؛ قالوا: إضافةُ ما هو جزءٌ من المضاف إليه بمعنى «من» التبعيضيةِ، كما يدلُّ عليه وقوعُ الفصل بها في كلامهم، والذي عليه أكثرُ المتأخِّرين وذهب إليه ابن السرَّاج[2] والفارسيُّ - وهو الأصحُّ - أنها على معنى اللام، كما فصَّله أبو حيان في «شرح التسهيل» وذكره شارحُ «اللمع».

وعن الضحاك أنَّ لهو الحديث: الشرك. وقيل: السحر.

وأخرج ابن أبي شيبة وابنُ أبي الدنيا وابنُ جريرٍ وابنُ المنذر، والحاكمُ وصحَّحه، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان»، عن أبي الصهباء قال: سألتُ عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ) قال: هو واللهِ الغناء[3]. وبه فسَّر كثيرٌ.

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ١/ ١٥٢: لم أقف له على أصل. وسلف ١٠/ ٢٥٨.

(٢) ينظر الأصول في النحو ١/ ٥٣، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١٣٢.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ٣٠٩، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٣٥، والمستدرك ٢/ ٤٤٥، والشعب (٥٠٩٨)، وعزاه لابن أبي الدنيا وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٥٩.

والأحسنُ تفسيرُه بما يعمُّ كلَّ ذلك كما ذكرناه عن الحسن، وهو الذي يقتضيه ما أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» وابن أبي الدنيا وابن جرير وابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه والبيهقيُّ في «سننه» عن ابن عباس أنه قال: «لهو الحديث» هو الغناءُ وأشباهُه[١]. وعلى جميع ذلك يكون الاشتراءُ استعارةً لاختياره على القرآن واستبدالِه به.

وأخرج ابن عساكر عن مكحول في قوله تعالى: ﴿مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال: الجواري الضاربات[٢].

وأخرج آدم وابن جرير والبيهقيُّ في «سننه» عن مجاهد أنه قال فيه: هو اشتراؤُه المغنِّي والمغنِّيَةَ، والاستماعُ إليه وإلى مثله من الباطل[٣].

وفي روايةٍ ذكرها البيهقيُّ في «الشعب»[٤] عن ابن مسعود أنه قال في الآية: هو رجلٌ يشتري جاريةً تغنِّيه ليلاً أو نهاراً.

واشتهر أنَّ الآية نزلت في النضر بن الحارث؛ ففي روايةِ جويبرٍ عن ابن عباس[٥] أنه اشترى قينةً فكان لا يسمعُ بأحدٍ يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسْقِيه وغنِّيه، ويقول: هذا خيرٌ ممَّا يدعوكَ إليه محمدٌ ـ ﷺ ـ من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه. فنزلت.

وفي «أسباب النزول» للواحدي عن الكلبيِّ ومقاتل أنه كان يخرجُ تاجراً على فارس فيشتري أخبار الأعاجم ـ وفي بعض الروايات كتبَ الأعاجم ـ فيرويها ويحدِّثُ بها قريشاً، ويقول لهم: إنَّ محمداً (عليه الصلاة والسلام) يحدِّثكم بحديث

---

(١) الأدب المفرد (٧٨٦) و(١٢٦٥)، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٣٥، وسنن البيهقي ١٠/ ٢٢٣، وعزاه لابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٥٩.

(٢) تاريخ ابن عساكر ١٨/ ١٤٦.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٣٧، وسنن البيهقي ١٠/ ٢٢٥، وعزاه لآدم (وهو ابن أبي إياس) السيوطي في الدر ٥/ ١٦٠.

(٤) في الأصل و(م): السنن، وهو خطأ، والمثبت من الدر المنثور ٥/ ١٦٠، والكلام منه، والخبر في شعب الإيمان (٥١٠٤).

(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ١٥٩.

عاد وثمود، وأنا أحدِّثكم بحديثِ رستم وإسفنديار، وأخبارِ الأكاسرة. فيَسْتَمْلِحون حديثَه ويتركون استماعَ القرآن، فنزلت[١].

وقيل: إنها نزلت في ابن خطل، اشترى جاريةً تغنِّي بالسب[٢].

ولا يأبى نزولَها فيمَن ذُكر الجمعُ في قوله تعالى بعدُ: (أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ) كما لا يخفى على الفَطِنِ.

والاشتراءُ على أكثر هذه الروايات على حقيقته، ويحتاج في بعضها إلى عموم المجاز، أو الجمعِ بين الحقيقة والمجاز كما لا يخفى على مَن دقق النظر، وجَعْلِ المغنِّية ونحوِها نفسَ لَهْوِ الحديث مبالغةً كما جُعِلَ «النساء» في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [آل عمران: ١٤] نفس الزينة.

وفي «البحر»: إن أُريدَ بلهو الحديث ما يقع عليه الشراء كالجواري المغنِّيات وككتب الأعاجم فالاشتراءُ حقيقةٌ، ويكونُ الكلام على حذف مضافٍ، أي: مَن يشتري ذاتَ لهوِ الحديث[٣].

وقال الخفاجيُّ عليه الرحمة: لا حاجةَ إلى تقدير ذات؛ لأنه لمَّا اشتُريت المغنية لغنائها فكأنَّ المشتَرَى هو الغنَاء نفسه[٤]. فتدبَّره.

وفي الآية عند الأكثرين ذمٌّ للغناء بأعلى صوتٍ، وقد تضافرتِ الآثارُ وكلماتُ كثيرٍ من العلماء الأخيار على ذمِّه مطلقاً لا في مقامٍ دون مقام، فأخرج ابنُ أبي الدنيا والبيهقيُّ في «شعبه» عن ابن مسعود قال: إذا ركِب الرجلُ الدابة ولم يسمِّ رَدِفَه شيطانٌ فقال: تغنَّه. فإن كان لا يُحْسِنُ قال: تمنَّه[٥].

وأخرجا أيضاً عن الشعبي عن القاسم بن محمد أنه سئل عن الغناء فقال

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٦٢.
(٢) البحر ٧/ ١٨٣.
(٣) البحر٧/ ١٨٣-١٨٤.
(٤) حاشية الشهاب ٧/ ١٣٣.
(٥) شعب الإيمان (٥١٠٣)، وعزاه لابن أبي الدنيا السيوطي في الدر ٥/ ١٥٩، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (١٩٤٨١).

للسائل: أنهاك عنه وأكرهُه لك. فقال السائل: أحرامٌ هو؟ قال: انظر يا ابن أخي إذا ميَّز الله تعالى الحقَّ من الباطل في أيِّهما يَجعَلُ سبحانه الغناء؟[١].

وأخرجا عنه أيضاً أنه قال: لعن الله تعالى المغنِّي والمغنَّى له[٢].

وفي «السنن» عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «الغناء ينبتُ النفاقَ في القلب كما ينبتُ الماء البقلَ»[٣] وأخرَج عنه نحوه ابن أبي الدنيا[٤]، ورواه ابن عدي[٥] عن أبي هريرة، والديلميُّ عنه وعن أنس[٦]، وضعَّفه ابن القطان[٧]، وقال النووي[٨]: لا يصحُّ، وقال العراقي: رفعُه غير صحيح لأنَّ في إسناده مَن لم يسمَّ[٩]. وفيه إشارة إلى أنَّ وقفه على ابن مسعود صحيح وهو في حكم المرفوع إذ مثلُه لا يقال من قِبَلِ الرأي.

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن أبي أمامةَ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما رفع أحدٌ صوته بغناءٍ إلا بعث الله تعالى إليه شيطانين يجلسان على مَنْكِبَيْه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك»[١٠].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٥٩، وهو في سنن البيهقي ١٠/ ٢٢٤ من طريق يحيى بن سليم عن عبيد الله بن عمر عن القاسم.

(٢) الشعب (٥١٠٥)، وعزاه لابن أبي الدنيا السيوطي في الدر ٥/ ١٥٩.

(٣) سنن البيهقي ١٠/ ٢٢٣، وأخرجه أبو داود (٤٩٢٧) دون التشبيه. وقال الحافظ في التلخيص الحبير ٤/ ١٩٩: وفيه شيخ لم يسمَّ، وفي الباب عن أبي هريرة رواه ابن عدي، وقال ابن طاهر: أصح الأسانيد في ذلك أنه من قول إبراهيم.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً، كما في الدر المنثور ٥/ ١٥٩، وفيض القدير ٤/ ٤١٣.

(٥) في الأصل: ورواه عدي، وقوله: ابن عدي، ساقط في (م)، ووقع في مطبوع فيض القدير ٤/ ٤١٣ (والكلام منه): أبو عدي، والصواب ما أثبتناه، وهو في الكامل ٤/ ١٥٩٠، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣١٠) وقال: هذا حديث لا يصح.

(٦) فيض القدير ٤/ ٤١٣، وهو في مسند الفردوس ٣/ ١١٥ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٧) في بيان الوهم والإيهام ٣/ ٢٥٠، ونقله المصنف عنه بواسطة المناوي في فيض القدير.

(٨) كما في فيض القدير ٤/ ٤١٣.

(٩) المغني عن حمل الأسفار للعراقي على هامش الإحياء ٢/ ٢٨٦، والكلام من فيض القدير.

(١٠) الدر المنثور ٥/ ١٥٩، وهو قطعة من حديث أخرجه أيضاً الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٩٢)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٤١، والبغوي ٣/ ٤٨٩، من طريق

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقيُّ عن أبي عثمان الليثي قال: قال يزيد بن الوليد الناقص: يا بني أمية إياكم والغناءَ فإنه ينقصُ الحياءَ، ويزيدُ في الشهوة، ويهدمُ المروءة، وإنه لينوب عن الخمر ويفعلُ ما يفعلُ السُّكْرُ، فإن كنتم لا بدَّ فاعلين فجنِّبوه النساء فإنَّ الغناء داعيةُ الزنى(١).

وقال الضحَّاك: الغناءُ مَنْفَدةٌ للمال، مَسْخَطةٌ للربِّ، مفسدةٌ للقلب.

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والترمذيُّ وابن ماجه وابن جَريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ وغيرهم، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القَيْناتِ، ولا تشتروهنَّ، ولا تعلِّموهنَّ، ولا خيرَ في تجارةٍ فيهنَّ، وثَمنُهنَّ حرامٌ، في مثل هذا أُنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِى لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ إلى آخر الآية»(٢).

وفي رواية ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى حرَّم القَيْنةَ وبيعَها وثمنَها وتعليمَها والاستماعَ إليها» ثم قرأ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِى لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾(٣). ويعودُ هذا ونحوُه إلى ذمِّ الغناء.

وقيل: الغناء جاسوسُ القلب، وسارقُ المروءة والعقول، يتغلغلُ في سويداء القلوب، ويطَّلعُ على سرائر الأفئدة، ويدبُّ إلى بيت التخييل فينشر ما غُرِزَ فيها من الهوى والشهوة والسخافة والرعونة، فبينما ترى الرجل وعليه سَمْتُ الوقار وبهاءُ

= عبيد الله بن زَحْر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة به. وأخرج قطعة أخرى منه غير المذكورة أحمد والترمذي وابن ماجه كما سيرد قريباً. وعبيد الله بن زحر الإفريقي ضعيف، وعلي بن يزيد الألهاني ضعيف جدًّا. وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٧٤٩) من طريق آخر فيه الوليد بن الوليد، وهو منكر الحديث كما قال الدارقطني وغيره. الميزان ٤/ ٣٤٩.

(١) شعب الإيمان (٥١٠٨)، وعزاه لابن أبي الدنيا السيوطي في الدر ٥/ ١٥٩.

(٢) مسند أحمد (٢٢٢٨٠)، وسنن الترمذي (١٢٨٢) و(٣١٩٥)، وسنن ابن ماجه (٢١٦٨)، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٣٢، والمعجم الكبير (٧٨٦٢)، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٥٩، وهو قطعة من حديث أبي أمامة السالف وإسناده ضعيف جدًّا كما سلف قريباً.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٥٩، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣٠٩)، وأعله بليث بن أبي سليم.

العقل وبهجةُ الإيمان ووقارُ العلم، كلامُه حكمةٌ، وسكوتهُ عبرةٌ، فإذا سمع الغناء نقصَ عقلُه وحياؤه، وذهبت مروءته وبهاؤه، فيَسْتَحْسِنُ ما كان قبل السماع يستقبحُه، ويبدي من أسراره ما كان يكتمُه، وينتقل من بهاء السكوت والسكون إلى كثرة الكلام والهذيان، والاهتزازِ كأنه جانّ، وربما صفَّق بيديه، ودقَّ الأرض برجليه، وهكذا تفعل الخمر، إلى غير ذلك.

واختلف العلماء في حُكْمِه؛ فحكَى تحريمَه عن الإمام أبي حنيفة ﷺ القاضي أبو الطيب والقرطبيُّ والماورديُّ والقاضي عياض[١].

وفي «التاتارخانية»: اعلم أنَّ التَّغنِّيَ حرامٌ في جميع الأديان. وذكر في «الزيادات»[٢] أنَّ الوصية للمغنِّين والمغنِّيات مما هو معصيةٌ عندنا وعند أهل الكتاب. وحُكي عن ظهير الدين المرغيناني[٣] أنه قال: مَن قال لمقرئ زماننا أحسنتَ عند قراءته كَفَر. وصاحبا «الهداية» و«الذخيرة» سمَّياه كبيرةً. هذا في التغنِّي للناس في غير الأعياد والأعراس، ويدخل فيه تغنِّي صوفية زماننا في المساجد، والدعوات بالأشعار والأذكار مع اختلاط أهل الأهواء والمُرْدِ، بل هذا أشدُّ من كلِّ تغنٍّ؛ لأنه مع اعتقاد العبادة، وأمَّا التغنِّي وحده بالأشعار لدَفْعِ الوحشة، أو في الأعياد والأعراس، فاختلفوا فيه، والصوابُ منعُه مطلقاً في هذا الزمان. انتهى.

وفي «الدر المختار»[٤]: التغنِّي لنفسه لدفع الوحشة لا بأس به[٥] عند العامة

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٤٦٢، وإكمال المعلم للقاضي عياض ٣/ ٣٠٦. أما الماوردي فقد قال في الحاوي ١٧/ ١٨٨: كرهه (يعني الغناء) الشافعي وأبو حنيفة ومالك في أصح ما نقل عنهم، فلم يبيحوه على الإطلاق ولم يحظروه على الإطلاق، فتوسطوا فيه بالكراهة بين الحظر والإباحة.

(٢) كما في البحر الرائق٧/ ٨٨. وكتاب الزيادات في فروع الحنفية لمحمد بن الحسن الشيباني.

(٣) هو الحسن بن علي أبو المحاسن، له كتاب الأقضية والشروط، والفتاوى، والفوائد، وغيرها، تفقه على برهان الدين الكبير عبد العزيز بن عمر بن مازه، وعلى أبيه علي بن عبد العزيز ظهير الدين الكبير المرغيناني المتوفى سنة (٥٠٦هـ). الفوائد البهية ص١٠٧ و٢٠٤. وينظر كلامه في البحر الرائق ٨/ ٢٣.

(٤) ٢/ ١٦٨.

(٥) جاء في حاشية (م): قوله: لا بأس به.. إلخ، لِمَا جاء عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء بن مالك وكان من زهَّاد الصحابة، وكان يتغنى. وأُجيبَ بأنه يجوز أن يكونَ =

على ما في «العناية»، وصحَّحه العينيُّ[(١)] وغيرُه، قال: ولو فيه وعظٌ وحكمةٌ فجائزٌ اتِّفاقاً، ومنهم مَن أجازه في العرس كما جاز ضربُ الدفِّ فيه، ومنهم مَن أباحه مطلقاً، ومنهم مَن كرهه مطلقاً. انتهى. وفي «البحر»: والمذهبُ حرمتُه مطلقاً فانقطع الاختلاف[(٢)]، بل ظاهرُ «الهداية» أنه كبيرةٌ ولو لنفسه، وأقرَّه المصنفُ، وقال: ولا تُقبل شهادةُ مَن يسمع الغناء أو يجلسُ مجلسَه. انتهى كلام «الدر».

وذكر الإمام أبو بكر الطرطوشي[(٣)] في كتابه في «تحريم السماع» أنَّ الإمام أبا حنيفة يكره الغناء ويجعلُه من الذنوب، وكذلك مذهبُ أهل الكوفة سفيان وحماد وإبراهيم والشعبيِّ وغيرهم، لا اختلافَ بينهم في ذلك، ولا نعلم خلافاً بين أهل البصرة في كراهة ذلك والمنعِ منه. انتهى. وكأنَّ مراده بالكراهة الحرمةُ، والمتقدِّمون كثيراً ما يريدون بالمكروه الحرام، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨].

ونَقَل عليه الرحمةُ فيه أيضاً عن الإمام مالكٍ أنه نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال: إذا اشترى جاريةً فوجدها مغنِّيةً فله أنْ يردَّها بالعيب. وأنه سُئل: ما[(٤)] يرخِّصُ فيه أهل المدينة من الغناء؟ فقال: إنما يفعلُه عندنا الفسَّاق.

= معنى يتغنى: ينشد الأشعار، أي: المباحة. اهـ منه. قلت: قوله: زهَّاد، تحرف في حاشية (م) إلى: دهاة، والمثبت من فتح القدير لابن الهمام ٦/ ٣٦، والبناية في شرح الهداية ٧/ ١٧٥.

(١) جاء في هامش (م): قوله: وصححه العيني، وإليه ذهب شمس الأئمة السرخسي. اهـ منه. وينظر كلام العيني والسرخسي في البناية في شرح الهداية ٧/ ١٧٥، وفتح القدير ٦/ ٣٥-٣٦.

(٢) البحر الرائق ٧/ ٨٩.

(٣) في الأصل و(م): الطرسوسي، وهو تصحيف، والمثبت من إغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٣٠٢، والكلام منه، ومثله في عون المعبود ١٣/ ٢٢٣. وأبو بكر الطرطوشي هو محمد بن الوليد بن خلف الفهري الأندلسي، شيخ المالكية، عالم الإسكندرية، له مؤلف في تحريم الغناء، وكتاب في الزهد، ومؤلف في البدع والحوادث، وغير ذلك، توفي سنة (٥٢٠هـ). سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٩٠.

(٤) في إغاثة اللهفان: عما، ومثله في تفسير القرطبي ١٦/ ٤٦٢، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٠/ ٣٣٦.

ونُقِلَ التحريم عن جمعٍ من الحنابلة على ما حكاه شارح «المقنع»[١] وغيرُه.
وذكر شيخ الإسلام ابنُ تيميةَ في كتاب «البلغة»[٢] أنَّ أكثر أصحابهم على التحريم.
وعن عبد الله ابن الإمام أحمد أنه قال: سألتُ أبي عن الغناء؟ فقال: ينبتُ النفاق في القلب، لا يعجبني. ثم ذكر قولَ مالكٍ: إنما يفعلُه عندنا الفسَّاق[٣].

وقال المحاسبيُّ في رسالة «الإنشاد»[٤]: الغناء حرامٌ كالميتة.

ونَقَل الطرطوشي[٥] أيضاً عن كتاب «أدب القضاء» أنَّ الإمام الشافعي رضي الله عنه قال: إنَّ الغناء لهوٌ مكروهٌ يُشْبِهُ الباطل والمحال، مَن استكثر منه فهو سفيهٌ تُردُّ شهادتُه[٦]. وفيه أنه صرَّحَ أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه، وأنكروا على مَن نسب إليه حِلَّه، كالقاضي أبي الطيب الطبري[٧]، والشيخ أبي إسحاق في«التنبيه»[٨]، وذكر بعضُ تلامذة البغوي في كتابه الذي سماه «التقريب» أنَّ الغناء حرامٌ فعلُه وسماعُه. وقال ابن الصلاح في «فتاواه» بعد كلام طويل: فإذن هذا السماعُ حرامٌ بإجماع أهل الحلِّ والعقد من المسلمين[٩]. انتهى.

---

(١) «الشرح الكبير على كتاب المقنع» لشمس الدين أبي الفرج ابن قدامة المقدسي ٢٩/ ٣٧٠.
(٢) لم نقف على كتاب البلغة لابن تيمية، وإنما هو لتلميذه أحمد بن إبراهيم الواسطي الحزامي عماد الدين المتوفى سنة (٧١١هـ)، واسم كتابه: البلغة والإقناع في حل شبهة مسألة السماع، وله بلغة أخرى في الفقه الحنبلي، وهو مختصر الكافي. الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي ص٧١، وكشف الظنون ١/ ٢٥٢.
(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٣٢٧، وهو في مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله ٣/ ١٠٠٤ دون قول مالك.
(٤) في (م): الإنشاء.
(٥) في الأصل و(م): الطرسوسي، وهو تصحيف.
(٦) ونقل كلام الشافعي في كتاب أدب القضاء أيضاً الغزالي في إحياء علوم الدين٢/ ٢٦٩، وابن القيم في إغاثة اللهفان ١/ ٣٢٤، وهو بنحوه في الأم ٦/ ٢١٤-٢١٥.
(٧) في الأصل و(م): والطبري، وهو خطأ، والمثبت من إغاثة اللهفان ٢/ ٣٢٤، وعنه نقل المصنف.
(٨) إغاثة اللهفان ١/ ٣٢٤، وكلام أبي إسحاق في التنبيه ص١٢٣، ولفظه: ولا تصح - يعني الإجارة - على منفعة محرَّمة، كالغناء والزمر وحمل الخمر. اهـ. قال ابن القيم: ولم يذكر فيه خلافاً. اهـ. قلت: ولكن أبا إسحاق قال في المهذب ٢/ ٣٢٧: ويكره الغناء وسماعه من غير آلة مطربة، ولا يحرم.
(٩) فتاوى ابن الصلاح ص ٣٠١.

والذي رأيته في «الشرح الكبير للجامع الصغير»[١] للفاضل المُناويِّ أنَّ مذهب الشافعيِّ أنه مكروهٌ تنزيهاً عند أَمْنِ الفتنة.

وفي «المنهاج»: يُكره الغناءُ بلا آلةٍ. قال العلَّامة ابن حجر[٢]: لِمَا صحَّ عن ابن مسعود رضي الله عنه. وذَكَر الحديثَ السابق الموقوفَ عليه، وأنه جاء مرفوعاً من طرقٍ كثيرةٍ بيَّنها في كتابه «كفُّ الرَّعاع عن محرَّمات اللهو والسماع»[٣].

ثم قال: وزَعْمُ أنه لا دلالةَ فيه على كراهته لأنَّ بعض المباح كلبس الثياب الجميلة ينبتُ النفاقَ في القلب وليس بمكروهٍ، يُردُّ بأنَّا لا نسلِّم أنَّ هذا ينبتُ نفاقاً أصلاً، ولئن سلَّمناه فالنفاقُ مختلفٌ، فالنفاقُ الذي ينبته الغناءُ من التخنُّث وما يترتَّبُ عليه أقبحُ وأشنع كما لا يخفى.

ثم قال: وقد جزم الشيخان - يعني النووي والرافعي - في موضعٍ بأنه معصيةٌ، وينبغي حملُه على ما فيه وصفُ نحوِ خمرٍ أو تشبُّبٌ بأمردَ أو أجنبيةٍ، ونحو ذلك ممَّا يُحْمَلُ غالباً على معصية، قال الأذرعيُّ: أمَّا ما اعتيد عند محاولةِ عملٍ وحمل ثقيل، كحداء الأعراب لإبلهم والنساءِ لتسكين صغارهنَّ، فلا شكَّ في جوازه، بل ربَّما يُندَبُ إذا نشَّط على سيرٍ، أو رغَّب في خير، كالحداء[٤] في الحجِّ والغزو، وعلى هذا يُحْمَلُ ما جاء عن بعض الصحابة. انتهى، وقضيةُ قولهم: بلا آلةٍ، حرمتُه مع الآلة، قال الزركشيُّ: لكنَّ القياس تحريمُ الآلة فقط، وبقاءُ الغناء على الكراهة. انتهى[٥].

ومِثْلُ الاختلافِ في الغناء الاختلافُ في السماع، فأباحه قومٌ كما أباحوا الغناء، واستدلُّوا على ذلك بما رواه البخاريُّ عن عائشة قالت: دخل عليَّ النبيُّ ﷺ

---

(١) واسمه: فيض القدير، والكلام فيه ٤/ ٤١٤.

(٢) في تحفة المحتاج بشرح المنهاج ١٠/ ٢١٨.

(٣) كف الرعاع على هامش الزواجر ١/ ١٠ و١٦. وقد ذكر فيه الحديث مرفوعاً عن ابن مسعود وأبي هريرة وجابر، وحديث ابن مسعود وأبي هريرة تقدم الكلام فيهما، وأما حديث جابر ففيه علي بن حماد، قال الدارقطني: متروك. وعبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد، قال أبو حاتم: أحاديثه منكرة، وقال ابن الجنيد: لا يساوي فلساً. فيض القدير ٤/ ٤١٤.

(٤) في الأصل: كالجد.

(٥) يعني كلام ابن حجر في «تحفة المحتاج في شرح المنهاج».

وعندي جاريتان تغنِّيان بغناءِ بُعَاث، فاضْطَجَع على الفراش وحوَّل وجهه - وفي روايةٍ لمسلم: تسجَّى بثوبه - ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارةُ الشيطان عند النبيِّ ﷺ! فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «دعهما»، فلما غَفَلَ غمزْتُهما فخرجتا، وكان يوم عيد، الحديثَ(١).

ووجهُ الاستدلال أنَّ هناك غناءً أو سماعاً، وقد أنكر عليه الصلاة والسلام إنكارَ أبي بكر رضي الله عنه، بل فيه دليلٌ أيضاً على جواز سماع الرجل صوتَ الجارية ولو لم تكن مملوكةً؛ لأنه عليه الصلاة والسلام سمع ولم ينكر على أبي بكر سماعَه، بل أنْكَر إنكارَه، وقد استمرَّتا تغنيان إلى أنْ أشارت إليهما عائشةُ بالخروج. وإنكارُ أبي بكر على ابنته رضي الله عنها مع عِلْمِه بوجود رسول الله ﷺ كان لظنٍّ أنَّ ذلك لم يكن بعلمه عليه الصلاة والسلام؛ لكونه دخل فوجده مغطًّى بثوبه فظنَّه نائماً.

وفي «فتح الباري»(٢): استدلَّ جماعةٌ من الصوفية بهذا الحديث على إباحة الغناء وسماعه بآلةٍ وبغيرِ آلةٍ، ويكفي في ردِّ ذلك ما رواه البخاريُّ أيضاً بُعيدَه عن عائشةَ أيضاً قالت: دخل عليَّ أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنِّيان بما تقاوَلَت الأنصار يوم بعاث، قالت: وليستا بمغنِّيتين. فقال أبو بكر: أبمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟! وذلك في يوم عيدٍ. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إنَّ لكلِّ قوم عيداً وهذا عيدُنا»(٣) فنفت فيه عنهما من طريق المعنَى ما أثبتته لهما باللفظ؛ لأنَّ الغناء يطلقُ على رفع الصوت وعلى الترنُّم الذي تسمِّيه العربُ النَّصْبَ - بفتح النون وسكونِ المهملة - وعلى الحداء، ولا يسمَّى فاعلُه مغنِّياً وإنما يسمَّى بذلك مَن ينشدُ بتمطيطٍ وتكسيرٍ وتهييجٍ وتشويقٍ، بما فيه تعريضٌ بالفواحش أو تصريحٌ.

قال القرطبيُّ(٤): قولُها: ليستا بمغنِّيتين، أي: ليستا ممن يَعْرِفُ الغناءَ كما تعرفُه

---

(١) صحيح البخاري (٩٤٩)، وصحيح مسلم (٨٩٢).

(٢) ٢/ ٤٤٢.

(٣) صحيح البخاري (٩٥٢).

(٤) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم، والكلام من كتابه: المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ٢/ ٥٣٤، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في الفتح ٢/ ٤٤٢.

المغنِّياتُ المعروفاتُ بذلك، وهذا منها تحرُّزٌ[١] عن الغناء المعتاد عند المشتهِرينَ به، وهو الذي يحرك الساكنَ ويبعثُ الكامن، وهذا النوعُ إذا كان في شعرٍ فيه وصفُ محاسنِ النساء والخمرِ وغيرِهما من الأمور المحرَّمة لا يُختلفُ في تحريمه، وأمَّا ما ابتدعه الصوفيةُ في ذلك فمن قبيل ما لا يُختلف في تحريمه، لكنَّ النفوس الشهوانيةَ غَلَبتْ على كثيرٍ ممن يُنسب إلى الخير، حتى لقد ظهرت في[٢] كثيرٍ منهم فعلاتُ المجانين والصبيان، حتى رقصوا بحركاتٍ متطابقةٍ وتقطيعاتٍ متلاحقة، وانتهى التواقُحُ بقومٍ منهم إلى أن جعلوها من باب القُرَبِ وصالحِ الأعمال، وأنَّ ذلك يُثْمِر سَنيَّ الأحوال، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة وقولِ أهلِ المَخْرَقة، والله تعالى المستعان. انتهى كلام القرطبي، وكذا الغرضُ من كلام «فتح الباري»، وهو كلامٌ حسنٌ، بيدَ أنَّ قوله: وإنما يسمَّى بذلك مَن يُنْشِدُ.. إلخ، لا يخلو عن شيءٍ، بناءً على أنَّ المتبادر عمومُ ذلك لِمَا يكونُ في المنشَدِ منه[٣] تعريضٌ أو تصريحٌ بالفواحش ولِمَا لا يكونُ فيه ذلك.

وقال بعض الأجلَّة: ليس في الخبر الإباحةُ مطلقاً، بل قُصارى ما فيه إباحتُه في سرورٍ شرعيٍّ كما في الأعياد والأعراس، فهو دليلٌ لمن أجازه في العرس كما أجاز ضربَ الدُّفِّ فيه.

وأيضاً إنكارُ أبي بكر ﷺ ظاهرٌ في أنه كان سمع من رسول الله ﷺ ذمَّ الغناءِ والنهيَ عنه، فظنَّ عمومَ الحُكْم فأنْكَر، وبإنكاره عليه الصلاة والسلام عليه إنكارَه تبيَّن له عدمُ العموم. وفي الخبر الآخَرِ ما يدلُّ على أنه أوضحَ له ﷺ الحالَ مقروناً ببيانِ الحكمة، وهو أنه يومُ عيدٍ فلا يُنْكَرُ فيه مثلُ هذا، كما لا يُنْكَر في الأعراس. ومع هذا أشار ﷺ بالتفافه بثوبه وتحويلِ وجهه الشريف إلى أنَّ الإعراض عن ذلك أولى.

وسماعُ صوتِ الجاريةِ الغيرِ المملوكة بمثلِ هذا الغناء إذا أُمِنَتِ الفتنةُ مما لا بأس به، فليكن الخبرُ دليلاً على جوازه.

---

(١) في الأصل و(م): وهذا منهما تجوز، والمثبت من المفهم وفتح الباري.
(٢) في المفهم والفتح: من.
(٣) قوله: منه، ليس في الأصل.

واستدلَّ بعضُهم على ذلك بما جاء عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء بن مالك ـ وكان من دهاة الصحابة رضي الله عنه ـ وكان يتغنَّى[(١)]. ولا يخفى ما فيه؛ فإنَّ هذا التغنِّيَ ليس بالمعنَى المشهور، ونحوُه التغنِّي في قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس منَّا مَن لم يتغنَّ بالقرآن»[(٢)] وسفيان بن عيينة وأبو عبيدة فسَّرا التغنِّيَ في هذا الحديث بالاستغناء، فكأنه قيل: ليس منَّا مَن لم يَسْتَغْنِ بالقرآن عن غيره.

وهو مع هذا تغنٍّ لإزالة الوحشة عن نفسه في عقر داره، ومثلُه ما روي عن عبد الرحمن[(٣)] بن عوف قال: أتيتُ بابَ عمر رضي الله عنه فسمعتُه يغنِّي:

فكيف ثوائي بالمدينة بعدما ... قضى وطراً منها جميل بنُ معمر

أراد به جميلاً الجمحيَّ وكان خاصًّا به، فلمَّا استأذنتُ عليه قال لي: أسمعتَ ما قلتُ؟ قلت: نعم. قال: إنَّا إذا خَلَوْنا قلنا ما يقول الناسُ في بيوتهم[(٤)].

وحرَّم جماعةٌ السماعَ مطلقاً، وقال الغزاليُّ[(٥)]: السماعُ إمَّا محبوبٌ بأنْ غَلَبَ على السامع حبُّ الله تعالى ولقائه؛ ليستخرج به أحوالاً من المكاشفات والملاطفات، وإما مباحٌ بأن كان عنده عشقٌ مباحٌ لحليلته، أوْ لم يغلب عليه حبُّ الله تعالى ولا الهوى، وإما محرَّمٌ بأنْ غلب عليه هوًى محرَّمٌ.

وسئل العز بن عبد السلام عن استماع الإنشاد في المحبة والرقص فقال: الرقصُ بدعةٌ لا يتعاطاه إلا ناقصُ العقل، فلا يصلُح إلا للنساء، وأمَّا استماعُ الإنشاد المحرِّك للأحوال السَّنِية وذِكْرِ أمور الآخرة فلا بأس به، بل يُندَبُ عند

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٧/ ١٧، والحاكم ٣/ ٢٩١ وصححه. وليس فيهما قوله: وكان من دهاة الصحابة، وقد ذكرنا ص١٦ من هذا الجزء أن الصواب: زهَّاد، بدل: دهاة.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وسلف ١٣/ ٥٤٤.

(٣) في الأصل و(م): عبد الله، وهو خطأ، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٤) الكامل للمبرد ٢/ ٥٦٤-٥٦٥، وذكر القصة الزبير بن بكار كما في أسد الغابة ١/ ٣٥١، والتمهيد ٢٢/ ١٩٧-١٩٨، فجعل المتغنِّي عبد الرحمن والداخل عمر. قال ابن الأثير: وروى محمد بن يزيد هذا الخبر فقلبه، والزبير أعلم بهذا الشأن. اهـ. وقال ابن عبد البر: والصواب ما قال الزبير.

(٥) في الإحياء ٢/ ٣٠٦، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في كف الرعاع ١/ ١٩.

الفتور وسآمةِ القلب، ولا يحضُر السماعَ مَن في قلبه هوًى خبيثٌ؛ فإنه يحرِّك ما في القلب.

وقال أيضاً: السماعُ يختلفُ باختلاف السامعين والمسموعِ منهم، وهم إما عارفون بالله تعالى، ويختلفُ سماعُهم باختلافِ أحوالهم:

فمن غَلَبَ عليه الخوفُ أثَّر فيه السماعُ عند ذكر المخوفات نحوَ حزنٍ وبكاءٍ وتغيُّر لون، وهو إما خوفُ عقابٍ، أو [خوف] فواتِ ثوابٍ، أو [فوات] أنسٍ وقُرْبٍ، وهو أفضلُ الخائفين والسامعين، وتأثيرُ القرآن فيه أشدُّ.

ومَن غلب عليه الرجاءُ أثَّر فيه السماعُ عند ذكر المُطْمِعات والمُرْجِيات، فإن كان رجاؤه للأنس والقُرْبِ كان سماعُه أفضلَ سماع الراجين، وإن كان رجاؤه للثواب، فهذا في المرتبة الثانية، وتأثيرُ السماع في الأول أشدُّ من تأثيره في الثاني.

ومَن غلب عليه حبُّ الله تعالى لإنعامه فيؤثِّر فيه سماعُ الإنعام والإكرام، أو لجماله سبحانه المطلَقِ فيؤثِّرُ فيه ذكرُ شرف الذات وكمالِ الصفات، وهو أفضلُ مما قبله؛ لأنَّ سبب حبِّه أفضلُ الأسباب، ويشتدُّ التأثير فيه عند ذكر الإقصاء والإبعاد.

ومَن غلب عليه التعظيمُ والإجلال، وهو أفضلُ من جميع ما قبله، وتختلفُ أحوال هؤلاء في المسموع منه، فالسماعُ من الوليِّ أشدُّ تأثيراً من السماع من عاميٍّ، ومن نبيٍّ أشدُّ تأثيراً منه ومن وليٍّ، ومن الربِّ عز وجل أشدُّ تأثيراً من السماع من نبيٍّ؛ لأنَّ كلام المهيب أشدُّ تأثيراً في الهائب من كلام غيره، كما أنَّ كلام الحبيب أشدُّ تأثيراً في المحبِّ من كلام غيره، ولهذا لم يشتغل النبيون والصدِّيقون وأصحابُهم بسماع الملاهي والغناء، واقتصروا على كلام ربِّهم جلَّ شأنه.

ومَن يغلب عليه هوًى مباحٌ ـ كمَن يعشقُ حليلته ـ فهو يؤثِّر فيه آثارَ الشوق وخوف الفراق ورجاء التلاق، فسماعُه لا بأس به.

ومَن يغلب عليه هوًى محرَّمٌ ـ كعشق أمردَ أو أجنبيةٍ ـ فهو يؤثِّر فيه السعيَ إلى الحرام، وما أدَّى إلى الحرام فهو حرام.

وأما مَن لم يجد في نفسه شيئاً من هذه الأقسام الستة فيكره سماعه من جهةِ أنَّ الغالب على العامَّة إنما هي الأهواءُ الفاسدةُ، فربما هيَّجه السماعُ إلى صورةٍ محرَّمةٍ، فيتعلَّق بها ويميلُ إليها، ولا يحرُمُ عليه ذلك لأنَّا لا نتحقَّقُ السببَ المحرِّم. وقد يحضرُ السماعَ قومٌ من الفَجَرة فيبكون وينزعجون لأغراضٍ خبيثةٍ انطوَوْا عليها، ويراؤون الحاضرين بأنَّ سماعهم لشيءٍ محبوب، وهؤلاء قد جمعوا بين المعصية وبين إيهام كونهم من الصالحين. وقد يحضر السماعَ قومٌ قد فقدوا أهاليهم ومَن يعزُّ عليهم، ويذكِّرهم المنشدُ فراقَ الأحبَّةِ وعدم الأنس، فيبكي أحدُهم ويُوهِمُ الحاضرين أنَّ بكاءه لأَجْلِ ربِّ العالمين جل وعلا، وهذا مراءٍ بأمرٍ غيرِ محرَّمٍ.

ثم قال: اعْلَمْ أنه لا يحصلُ السماعُ المحمودُ إلا عند ذكر الصفات الموجبةِ للأحوال السنيَّةِ والأفعال الرضيَّة، ولكلِّ صفةٍ من الصفات حالٌ مختصٌّ بها، فمَن ذَكَر صفةَ الرحمة أو ذُكِّر بها كانت حالُه حالَ الراجين وسَمْعُه سماعَهم، ومَن ذَكَر شدةَ النقمة أو ذكِّر بها كانت حالُه حالَ الخائفين وسماعُه سماعَهم، وعلى هذا القياسُ، وقد تَغلبُ الأحوال على بعضهم بحيث لا يصغي إلى ما يقوله المنشدُ، ولا يلتفتُ إليه لغلبةِ حاله الأولى عليه[1]. انتهى، وقد نقله بعضُ الأجلَّة وأقرَّه، وفيه ما يخالفُ ما نُقِل عن الغزالي.

ونقل القاضي حسين[2] عن الجنيد قدِّس سرُّه أنه قال: الناسُ في السماع إما عوامٌ وهو حرامٌ عليهم لبقاء نفوسهم، وإما زهَّادٌ وهو مباحٌ لهم لحصول مجاهدتهم، وإما عارفون وهو مستحبٌّ لهم لحياة قلوبهم. وذكر نحوَه أبو طالب المكيُّ[3]، وصحَّحه السهرورديُّ عليه الرحمة في «عوارفه»[4].

(١) فتاوى العز بن عبد السلام ص٣١٩-٣٢٥، وما سلف بين حاصرتين منه ومن كف الرعاع ١/ ٢٠.

(٢) كما في كف الرعاع ١/ ١٨.

(٣) محمد بن علي بن عطية الحارثي، المكي المنشأ العجمي الأصل، الزاهد شيخ الصوفية، توفي سنة (٣٨٦هـ). السير ١٦/ ٥٣٦. وينظر كلامه في كتابه قوت القلوب ٢/ ٦١-٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في كف الرعاع ١/ ١٨.

(٤) ينظر عوارف المعارف في التصوف للشيخ شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي الشافعي المتوفى سنة (٦٣٢هـ) ص ١٠٩، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في كف الرعاع ١/ ١٩.

والظاهرُ أنَّ الجنيد أراد بالحرام معناه الاصطلاحيَّ، واستظهر بعضهم أنه لم يُرِدْ ذلك وإنما أراد أنه لا ينبغي.

ونقل بعضهم عن الجنيد قدِّس سرُّه أنه سئل عن السماع فقال: هو ضلالٌ للمبتدي، والمنتهي لا يحتاج إليه. وفيه مخالفةٌ لِمَا سمعتَ.

وقال القشيريُّ[1] رحمه الله تعالى: إنَّ للسماع شرائطَ منها معرفةُ الأسماء والصفات؛ ليعلم صفاتِ الذات من صفات الأفعال، وما يمتنعُ في نعت الحقِّ سبحانه وما يجوزُ وصفُه تعالى به وما يجبُ، وما يصحُّ إطلاقه عليه عز شأنه من الأسماء وما يمتنعُ. ثم قال: فهذه شرائطُ صحة السماع على لسان أهل التحصيل من ذوي العقول، وأمَّا عند أهل الحقائق فالشرطُ فناءُ النفسِ بصِدْقِ المجاهَدةِ، ثم حياةُ القلب بروح المشاهدة، فَمَنْ لم تتقدَّم بالصحة معاملتُه، ولم تحصل بالصِّدق منازلتُه، فسماعُه ضياعٌ، وتواجُدُه طِباعٌ، والسماعُ فتنةٌ يدعو إليها استيلاءُ العشق إلا عند سقوط الشهوة وحصولِ الصفوة. وأطال بما يطولُ ذِكْرُه، قيل: وبه يتبيَّن تحريمُ السماع على أكثر متصوِّفة الزمان؛ لفَقْدِ شروط القيام بأدائه.

ومن العجب أنهم ينسبون السماع والتواجُدَ إلى رسول الله ﷺ، ويروون عن عطيةَ أنه عليه الصلاة والسلام دخل على أصحاب الصُّفَّة يوماً فجلس بينهم، وقال عليه الصلاة والتحية: «هل فيكم مَن ينشدنا أبياتاً؟» فقال واحد:

لَسَعتْ حيةُ الهوى كبدي ... ولا طبيبَ لها ولا راقي
إلا الحبيب الذي شُغِفْتُ به ... فعنده رُقيتي وترياقي

فقام عليه الصلاة والسلام وتَمايَلَ حتى سقط الرداءُ الشريف عن منكبيه، فأخذه أصحابُ الصفَّةِ فقسَّموه فيما بينهم بأربع مئةِ قطعةٍ[2].

---

(١) في كتاب السماع له، كما في كف الرعاع ١/ ٢٢.
(٢) أخرجه ابن طاهر في السماع كما في اللسان ٤/ ٢٧٠، وقال الذهبي في الميزان ٣/ ١٦٤ في ترجمة عمار بن إسحاق: كأنه واضعُ هذه الخرافة التي فيها: قد لسعت حية الهوى كبدي، فإن الباقين ثقات. اهـ. وقال ابن تيمية كما في المقاصد الحسنة ص٣٣٣: هذا كذب باتفاق أهل العلم بالحديث، وما روي في ذلك فموضوع. اهـ. وقال ابن حجر الهيتمي في كف الرعاع ١/ ٤٣: من الأحاديث الموضوعة الكذب، التي لا تحلُّ روايتها إلا لبيان حالها حتى

وهو لعمري كذبٌ صريحٌ وإفكٌ قبيحٌ، لا أصلَ له بإجماع محدِّثي أهلِ السنَّة، وما أراه إلا من وضع الزنادقة، فهذا القرآنُ العظيم يتلوه جبريلُ عليه السلام عليه ﷺ، ويتلوه هو أيضاً ويسمعُه من غير واحدٍ، ولا يعتريه عليه الصلاة والسلام شيءٌ مما ذكروه في سماع بيتين هما كما سمعتَ، سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

وأنا أقول: قد عَمَّتِ البلوى بالغناء والسماع في سائر البلاد والبقاع، ولا يُتَحاشَى من ذلك في المساجد وغيرها، بل قد عيِّن مغنُّون يغنُّون على المنائر في أوقاتٍ مخصوصةٍ شريفةٍ بأشعارٍ مشتملةٍ على وصف الخمر والحانات، وسائر ما يعدُّ من المحظورات، ومع ذلك قد وظِّف لهم من غلَّة الوقف ما وظِّف، ويسمُّونهم الممجِّدين، ويَعُدُّون خلوَّ الجوامع من ذلك من قِلَّة الاكتراث بالدِّين.

وأشنعُ من ذلك ما يفعله أبالسةُ المتصوِّفة ومَرَدتُهم، ثم إنهم قبَّحهم الله تعالى إذا اعتُرِض عليهم بما اشتَملَ عليه نشيدُهم من الباطل، يقولون: نعني بالخمر المحبةَ الإلهية، وبالسُّكر غلبتَها، وبميَّةَ وليلى وسعدى مثلاً المحبوبَ الأعظم، وهو الله عز وجل، وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وفي «القواعد الكبرى» للعزِّ بن عبد السلام[(١)]: ليس من أدب السماع أن يشبَّه غلبةُ المحبة بالسُّكر من الخمر فإنه سوءُ أدبٍ، وكذا تشبيهُ المحبة بالخمر لأنَّ الخمر أمُّ الخبائث، فلا يشبَّه ما أحبَّه الله تعالى بما أبغضه وقضى بخُبْثِه ونجاستِه، فإنَّ تشبيه النفيس بالخسيس سوءُ أدبٍ بلا شكٍّ فيه، وكذا التشبيهُ بالخصر والردف، ونحوِ ذلك من التشبيهات المستَقْبَحات، ولقد كُره لبعضهم قولُه: أنتم روحي ومعلم[(٢)] راحتي، ولبعضهم قولُه: فأنت السمعُ والبصر؛ لأنه شبَّه مَن لا شبيهَ له بروحه الخسيسةِ وسمعِه وبصرِه اللذَيْنِ لا قَدْرَ لهما.

ثم إنه وإن أباح بعضَ أقسام السماع حطَّ على مَن يرقصُ ويصفِّقُ عنده فقال[(٣)]:

= لا يغتر العامة بها ما رواه الكذاب ابن طاهر بسنده الباطل عن أنس، وذكر الحديث.

(١) ٢/ ١٨٤.

(٢) في القواعد: ومعكم.

(٣) في القواعد ٢/ ١٨٦.

أما الرقصُ والتصفيقُ فخفَّةٌ ورعونةٌ مشبَّهةٌ برعونة الإناث، لا يفعلها إلا أرعنُ أو متصنعٌ كذَّاب، وكيف يتأتَّى الرقصُ المتَّزنُ بأوزان الغناء ممن طاش لبُّه وذهب قلبه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «خيرُ القرون قَرْني ثم الذين يَلُونَهم»[١] ولم يكن أحدٌ من هؤلاء الذين يُقتدَى بهم يفعلُ شيئاً من ذلك، وإنَّما استَحْوذَ الشيطانُ على قوم يظنُّون أنَّ طربهم عند السماع إنما هو متعلِّقٌ بالله تعالى شأنُه. ولقد مانوا[٢] فيما قالوا، وكَذَبوا فيما ادَّعوا، من جهة أنهم عند سماع المطربات وجدوا لذتين: إحداهما: لذةُ قليلٍ من الأحوال[٣] المتعلِّقةِ بذي الجلال. والثانية: لذةُ الأصوات والنغماتِ والكلماتِ الموزونات، المُوجِبات لِلَذَّاتٍ ليست من آثار الدِّين ولا متعلِّقةً بأموره، فلمَّا عَظُمتْ عندهم اللذَّاتُ غلطوا فظنُّوا أنَّ مجموع ما حصل لهم إنما حصل بسبب حصول ذلك القليل من الأحوال، وليس كذلك، بل الأغلبُ عليهم حصولُ لذَّاتِ النفوس التي ليست من الدِّين في شيءٍ.

وقد حرَّم بعضُ العلماء التصفيقَ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما التصفيق للنساء»[٤] ولعن رسول الله ﷺ المتشبِّهات من النساء بالرجال، والمتشبِّهين من الرجال بالنساء[٥]. ومَن هاب الإله وأدرك شيئاً من تعظيمه لم يُتصوَّر منه رقصٌ ولا تصفيقٌ، ولا يَصْدُران إلا من جاهل، ويدلُّ على جهالة فاعلهما أنَّ الشريعة لم تَرِدْ بهما في كتاب ولا سنَّةٍ، ولم يفعل ذلك أحدٌ من الأنبياء، ولا معتَبَرٌ من أتباعهم، وإنما يفعل ذلك الجهلةُ السفهاء الذين التبست عليهم الحقائقُ بالأهواء، وقد قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

ولقد مضى السَّلَفُ وأفاضلُ الخلف ولم يلابِسوا شيئاً من ذلك، فما ذاك إلا غرضٌ من أغراض النفس، وليس بقربةٍ إلى الربِّ جل وعلا، وفاعلُه إن كان ممن يقتدَى به ويعتقد أنه ما فعله إلا لكونه قربةً فبئسَ ما صنع؛ لإيهامه أنَّ هذا من الطاعات، وإنما هو من أقبح الرُّعونات.

---

(١) سلف ١١/ ٥٥.

(٢) أي: كذبوا. القاموس (مان).

(٣) في القواعد: إحداهما لذة المعارف والأحوال.

(٤) أخرجه البخاري (١٢٣٤) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري (٥٨٨٥) من حديث ابن عباس ﷺ.

وأمَّا الصياحُ والتغاشي ونحوُهما فتصنُّعٌ ورياء، فإن كان ذلك عن حالٍ لا يقتضيهما فإثمُ الفاعل من جهتين: إحداهما: إيهامُه الحالَ الثابتة الموجبة لهما. والثانية: تصنُّعه ورياؤه. وإن كان عن مقتضٍ أَثِمَ إثْمَ رياءٍ لا غير.

وكذلك نتفُ الشعور وضربُ الصدور وتمزيقُ الثياب محرَّمٌ لِمَا فيه من إضاعة المال، وأيُّ ثمرةٍ لضَرْبِ الصدور ونتفِ الشعور وشقِّ الجيوب إلا رعونات صادرة عن النفوس؟! اهـ كلامُه، ومنه يُعلم ما في نَقْلِ الإسْنَويِّ عنه رحمه الله تعالى أنه كان يرقصُ في السماع، والعلَّامة ابن حجر قال: يُحمل ذلك على مجرَّد القيام والتحرُّك لغَلَبةٍ وَجْدٍ وشهودٍ وتَجَلٍّ لا يعرفه إلا أهله[1]. ومن ثَمَّ قال الإمام إسماعيلُ الحضرميُّ مُوْقِفُ الشمسِ[2] عن قومٍ يتحرَّكون في السماع: هؤلاء قومٌ يروِّحون قلوبَهم بالأصوات الحسنة حتى يصيروا روحانيين، فهم بالقلوب مع الحقِّ وبالأجساد مع الخلق، ومع هذا فلا يؤمَنُ عليهم العدوُّ، ولا يعوَّلُ عليهم فيما فَعَلوا، ولا يُقتدَى بهم فيما قالوا. اهـ.

وما ذكره فيمَن يصدُرُ عنه نحوُ الصياحِ والتغاشي عن حالٍ يقتضيه لا يخلو عن شيءٍ، فقد قال البلقينيُّ فيما يصدُر عنهم من الرقص الذي هو عند جمع ليس بمحرَّمٍ ولا مكروهٍ؛ لأنه مجرَّدُ حركاتٍ على استقامةٍ أو اعوجاج، ولأنه عليه الصلاة والسلام أقرَّ الحبشةَ عليه في مسجده يوم عيد[3]، وعند آخرين مكروهٌ، وعند هذا القائل حرامٌ إذا كثُر بحيث أسقط المروءة: إن كان[4] باختيارهم فهم كغيرهم،

---

(١) بنحوه في كف الرعاع ١/ ٤٨.

(٢) هو إسماعيل بن محمد الحضرمي اليمني، أبو العباس، كان إماماً من أئمة المسلمين وعَلَماً من أعلام الولاية، يحكى من كراماته أنه كان في سفر، فقاربت الشمس من الغروب وهو بعيد عن المدينة، فطلب من الشمس أن تقف، فوقفت حتى بلغ مقصده، توفي سنة (٦٧٧هـ). جامع كرامات الأولياء ١/ ٣٥٥.

(٣) أخرجه البخاري (٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها. قال ابن حجر في كف الرعاع ١/ ٥٢: إن ذلك لم يكن من الحبشة رقصاً على غناء، ولا ضرباً بالأقدام، ولا إشارة بالأكمام، بل كان لعباً بالسلاح، وتأهُّباً للكفاح، تدريباً على استعمال السلاح في الحرب، وتمريناً على الكر والفر والطعن والضرب.

(٤) قوله: إن كان. . . إلخ، هو جملة مقول القول. لقوله: فقد قال البلقيني. . .

وإلا فليسوا بمكلَّفين. واستوضحه بعضُ الأجلَّة وقال: يجبُ اطِّراده في سائر ما يُحكى عن الصوفية ممَّا يخالف ظواهرَ الشرع، فلا يحتجُّ به لأنه إن صدر عنهم في حالِ تكليفهم فهم كغيرهم، أو مع غيبتهم لم يكونوا مكلَّفين به.

والذي يظهر لي أنَّ غناء الرجل بمثْلِ هذه الألحانِ إنْ كان لدَفْعِ الوحشةِ عن نفسه فمباحٌ غيرُ مكروهٍ كما ذهب إليه شمسُ الأئمة السرخسيُّ، لكنْ بشرطِ أنْ لا يسمعَه مَن يُخشى عليه الفتنةُ من امرأةٍ أو غيرِها. ولا مَن يستخفُّ به ويسترذلُه، وبشرطِ أنْ لا يغيِّر اسمٌ معظَّمٌ بنحوِ زيادةٍ ليست فيه في أصلِ وَضْعِه؛ لأَجْلِ أنْ لا يَخْرجَ عن مقتضَى الصنعة، مثل أن يقول في الله: إيلاه، وفي محمد: موحامَّد، هذا مع كونِ ما يتغنَّى به ممَّا لا بأسَ بإنشاده.

وإن كان للناس لِلَهْوِ في غير حادثِ سرورٍ كعرسٍ، بأجرةٍ أو بدونها، ازدُري به لذلك أو لم يُزْدَرَ، كان ما يتغنَّى به مباحَ الإنشاد أو لم يكن، فحرامٌ وإن أُمنت الفتنة، وأراه من الصغائر كما يقتضيه كلام الماورديِّ حيث قال: وإذا قلنا بتحريم الأغاني والملاهي فهي من الصغائر دون الكبائر(١).

وإن كان في حادثِ سرورٍ، فهو مباحٌ إن أُمنت الفتنة، وكان ما يُتَغنَّى به جائزَ الإنشاد، ولم يُغيَّر فيه اسمٌ معظَّمٌ، ولم يكن سبباً للازدراء به وهَتْكِ مروءته، ولا لاجتماع الرجال والنساء على وجهٍ محظور. وإن كان سبباً لمحرَّمٍ فهو حرامٌ، وتتفاوتُ مراتبُ حرمته حَسْبَ تفاوُتِ حرمة ما كان هو سبباً له.

وإن كان للناس لا لِلَهوٍ بل لتنشيطهم على ذكر الله تعالى، كما يُفعل في بعض حِلَقِ التهليل في بلادنا، فمحتمِلُ الإباحةِ إن لم يتضمَّن مفسدةً، ولعله إلى الكراهة أقرب.

وربما يقال: إنه حينئذٍ قربةٌ كالحُدَاء ـ وهو ما يقال خلف الإبل من رَجَزٍ(٢) وغيره ـ إذا كان منشِّطاً لسيرٍ هو قربةٌ، لأنَّ وسيلةَ القربة قربةٌ اتفاقاً.

---

(١) الحاوي ١٧/ ١٩٢.

(٢) في الأصل و(م): زجر، والمثبت هو الصواب. ينظر نهاية المحتاج ٨/ ٢٩٦، ومغني المحتاج ٤/ ٤٣٠.

فيقال: لم نقف على خبرٍ في اشتمال حِلَقِ الذكر على عهد رسول الله ﷺ، وكذا على عهد خلفائه وأصحابِه ﷺ ـ وهم أحرصُ الناس على القُرَبِ ـ على هذا الغناء ولا على سائر أنواعه، وصحَّت أحاديثُ في الحداء[١]، ولذا أطلق جمعٌ القولَ بنَدْبِه، وكونُهم نَشِطينَ بدون ذلك لا يمنعُ أن يكون فيهم مَن يزيدُه ذلك نشاطاً. فلو كان لذلك قربةٌ لفعلوه ولو مرةً، ولم يُنقل أنهم فعلوه أصلاً.

على أنه لا يَبعُدُ أن يقال: إنه يشوِّش على الذاكرين، ولا يتمُّ لهم معه تدبُّرُ معنى الذكرِ وتصوُّرُه، وهو بدون ذلك لا ثوابَ فيه بالإجماع. ولعل ما يُفعل على المنائر مما يسمُّونه تمجيداً منتظِمٌ عند الجهلة في سلكِ وسائلِ القرب، بل يَعدُّه أكثرهم قربةً من حيث ذاتُه، وهو لعمري عند العالِم بمعزلٍ عن ذلك.

وإن كان لحاجةِ مرضٍ تعيَّنَ شفاؤه به فلا شكَّ في جوازه.

والإكبابُ على المباح منه يخرمُ المروءة، كاتخاذه حرفةً، وقولُ الرافعي: لا يخرمُها إذا لاق به، ردَّه الزركشيُّ بأنَّ الشافعيَّ نصَّ على ردِّ شهادته[٢]، وجرى عليه أصحابُه؛ لأنها حرفةٌ دَنِيَّةٌ ويعدُّ فاعلُها في العُرْفِ ممن لا حياءَ له.

وعن الحسن أنَّ رجلاً قال له: ما تقولُ في الغناء؟ قال: نِعْمَ الشيءُ الغناءُ، يوصَلُ به الرَّحِمُ، وينفَّس به عن المكروب، ويُفْعَلُ فيه المعروف. قال: إنما أعني الشَّدْوَ. قال: وما الشَّدْوُ[٣]، أتعرف منه شيئاً؟ قال: نعم. قال: فما هو؟ فاندفع الرجل يغنِّي ويَلْوي شدقَيْهِ ومنخرَيْه، ويكسر عينيه، فقال الحسن: ما كنتُ أرى أنَّ عاقلاً يبلغ من نفسه ما أرى.

واختلفوا في تعاطي خارم المروءة على أوجُهٍ؛ ثالثها: إن تعلَّقتْ به شهادةٌ حَرُمَ وإلا فلا؛ قال بعض الأجلَّة: وهو الأوجَهُ؛ لأنه يحرُمُ عليه التسبُّبُ في إسقاط ما تحمَّله وصار أمانةً عنده لغيره، ويظهر لي أنه إن كان ذلك من عالِمٍ يُقْتَدى به، أو

---

(١) ينظر حديث سلمة بن الأكوع عند البخاري (٤١٩٦)، ومسلم (١٨٠٢)، وحديث أنس بن مالك ﷺ عند البخاري (٦١٦١)، ومسلم (٢٣٢٣).

(٢) سلف كلام الشافعي ص١٧ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل و(م): الشد، في الموضعين، وهو تصحيف.

كان ذلك سبباً للازدراء، حَرُمَ أيضاً، وأنَّ سماعه ـ أي: استماعَه، لا مجرَّدَ سماعِه بلا قصدٍ ـ عند أمنِ الفتنة، وكونِ ما يُتغنَّى به جائزَ الإنشادِ، وعدمِ تسبُّبه لمعصيةٍ كاستدامةِ مغنٍّ لغناءٍ آثم به، مباحٌ، والإكبابُ عليه كما قال النوويُّ: يُسْقِطُ المروءةَ، كالإكباب على الغناء المباح، والاختلافُ في تعاطي مسقطها قد ذكرناه آنفاً. وأمَّا سماعُه عند عَدَم أمن الفتنة، وكونِ ما يُتغنَّى به غيرَ جائزِ الإنشاد، وكونِه متسبِّباً لمعصيةٍ، فحرامٌ، وتتفاوتُ مراتبُ حرمته، ولعلها تصلُ إلى حرمةٍ كبيرةٍ.

ومن السماع المحرَّم سماعُ متصوِّفةِ زماننا وإن خلا عن رقصٍ، فإنَّ مفاسده أكثرُ من أن تُحْصَى، وكثيرٌ مما يسمعونه من الأشعار من أشنع ما يُتلَى، ومع هذا يعتقدونه قربةً، ويزعمون أنَّ أكثرهم رغبةً فيه أشدُّهم رغبةً أو رهبةً، قاتلهم الله تعالى أنَّى يؤفكون.

ولا يخفى على مَن أحاط خُبراً بما تقدَّم عن القشيريِّ وغيره أنَّ سماعَهم مذمومٌ عند مَن يعتقدون انتصاره لهم، ويحسبون أنهم وإياه من حزبٍ واحدٍ، فويلٌ لمن شفعاؤه خُصماؤه، وأحبَّاؤه أعداؤه.

وأمَّا رَقْصُهم عليه فقد زادوا به في الطنبور رنَّةً، وضمُّوا ـ كَسَر الله تعالى شوكتَهم ـ بذلك إلى السَّفَهِ جُنَّةً. وقد أفاد بعضُ الأجلَّة أنه لا تقبل شهادةُ الصوفية الذين يرقصون على الدفِّ الذي قيل: يباحُ ـ أو يسنُّ ـ ضربُه لعرسٍ وختانٍ وغيرهما من كلِّ سرورٍ، ومنه قدومُ عالِمٍ ينفع المسلمين، رادًّا على مَن زعم القبولَ، فقال: وعن بعضهم: تُقبلُ شهادة الصوفية الذين يرقصون على الدفِّ لاعتقادهم أنَّ ذلك قربةٌ كما تُقبلُ شهادة حنفيٍّ شرب النبيذ لاعتقاده إباحتَه، وكذا كلُّ مَن فَعَلَ ما اعْتَقَد إباحتَه. اهـ، وردَّ بأنه خطأٌ قبيحٌ؛ لأنَّ اعتقاد الحنفيِّ نشأ عن تقليدٍ صحيحٍ، ولا كذلك غيرُه، وإنما منشؤه الجهلُ والتقصيرُ فكان خيالاً باطلاً لا يُلتفت إليه. اهـ.

ثم إنِّي أقول: لا يبعدُ أن يكون صاحبَ حالٍ يحرِّكه السماعُ ويثيرُ منه ما يلجئُه إلى الرقص أو التصفيق، أو الصَّعْقِ والصياح، أو تمزيقِ[1] الثياب، أو نحوِ ذلك

---

(١) في (م): وتمزيق.

مما هو مكروهٌ أو حرامٌ، فالذي يظهر لي في ذلك أنه إنْ عَلِمَ من نفسه صدورَ ما ذكر كان حكمُ الاستماع في حقِّه حكمَ ما يترتَّب عليه، وإن تردَّد فيه فالأحوطُ في حقِّه إن لم نقل بالكراهة عدمُ الاستماع، ففي الخبر: «دَعْ ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُك»(١).

ثم إنَّ مَن حَصَلَ له شيءٌ من ذلك بمجرَّد السماع من غيرِ قَصْدٍ، ولم يقدر على دفعه أصلاً، فلا لومَ ولا عتابَ فيه عليه، وحُكْمُه في ذلك حُكْمُ مَن اعتراه نحوُ عطاسٍ وسعالٍ قَهْرِيَّيْنِ، ولا يُشترط في دَفْع اللوم والعتاب عنه كونُ ذلك مع غيبته، فلا يجب على مَن صدر منه ذلك إن لم يَغِبْ إعادةُ الوضوء للصلاة مثلاً.

ولْيُنْظَرْ فيما لو اعتراه وهو في الصلاة بدون غيبة، هل حُكْمُه حُكْمُ نحوِ العطاس والسعال إذا اعتراه فيها أم لا؟ والذي سمعتُه عن بعض الكبار الثاني، فتدبَّر.

ومن الناس مَن يعتريه شيءٌ مما ذكر عند سماع القرآن، إمَّا مطلقاً أو إذا كان بصوتٍ حسنٍ، وقلَّما يقع ذلك من سماع القرآن أو غيره لكاملٍ؛ وعن عائشة رضي الله عنها أنه قيل لها: إنَّ قوماً إذا سمعوا القرآن صُعِقوا؟ فقالت: القرآن أكرمُ من أن يُسرق منه عقولُ الرجال، ولكنه كما قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣](٢).

وكثيراً ما يكون لضَعْفِ تحمُّل الوارد، وبعضُ المتصنِّعين يفعلُه رياءً. وعن ابن سيرين أنه سُئل عمَّن يسمع القرآن فيصعق؟ فقال: ميعادُ ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائطٍ، فيُقرأ عليهم القرآنُ من أوَّله إلى آخره، فإن صُعقوا فهو كما قالوا.

ولا يَرِدُ على إباحة الغناء وسماعِه في بعض الصُّور خبرُ ابن مسعود: «الغناء ينبتُ النفاقَ في القلب كما ينبتُ الماءُ البقلَ» لا لأنَّ الغناء فيه مقصورٌ وأنَّ المراد به غنى المال الذي هو ضدُّ الفقر؛ إذ يَرُدُّ ذلك أنَّ الخبر روي من وجهٍ آخر بزيادةِ:

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢٣)، والترمذي (٢٥١٨)، والنسائي ٨/ ٣٢٧ من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١١١-١١٢.

«والذكر يُنْبِتُ الإيمانَ في القَلْبِ كما يُنْبِتُ الماءُ الزرعَ»[١] ومقابلةُ الغناء بالذكر ظاهرٌ في [أنَّ][٢] المراد به التغنِّي، على أنَّ الرواية كما قال بعضُ الحفاظ بالمدِّ، بل لأنَّ المراد أنَّ الغناء من شأنه أنْ يترتَّبَ عليه النفاقُ ـ أي: العَمَليُّ ـ بأن يحرِّك إلى غدرٍ وخُلْفِ وعدٍ وكذبٍ ونحوِها، ولا يلزمُ من ذلك اطِّرادُ الترتُّب، وربما يشير إلى ذلك التشبيهُ في قوله: «كما ينبتُ الماء البقلَ»، فإنَّ إنباتَ الماءِ البقلَ غيرُ مطَّردٍ، ونظيرُ ذلك في الكلام كثير، والقائلُ بإباحته في بعض الصور إنما يبيحه حيث لا يترتَّبُ عليه ذلك. نعم لا شكَّ أنَّ ما هذا شأنُه الأحوطُ بعد كلِّ قيل وقال عدمُ الرغبةِ فيه، كذا قيل.

وقيل: يجوز أن يكون أُريدَ بالنفاق الإيمانيُّ، ويؤيِّدهُ مقابلتُه في بعض الروايات بالإيمان، ويكونُ مساقُ الخبر للتنفير عن الغناء؛ إذ كان الناسُ حديثي عهدٍ بجاهليةٍ كان يُستعمل فيها الغناء للَّهو، ويُجتمع عليه في مجالس الشرب، ووجهُ إنباته للنفاق إذ ذاك أنَّ كثيراً منهم لقُرْبِ عَهْدِه بلذَّةِ الغناء وما يكون عنده من اللهو والشرب وغيره من أنواع الفسق يتحرَّك قلبه لِمَا كان عليه، ويحنُّ حنينَ العِشَارِ إليه، ويكره لذلك الإيمانَ الذي صدَّه عمَّا هنالك، ولا يستطيعُ لقوَّةِ شوكة الإسلام أن يُظْهِرَ ما أَضْمَر، وينبذُ الإيمانَ وراءَ ظهره ويتقدَّمُ إلى ما عنه تأخَّر، فلم يَسَعْه إلا النفاقُ لمَّا اجْتَمَعَ عليه مخافةُ الردَّة والاشتياق، فتأمَّلْ ذاك واللهُ تعالى يتولَّى هُداك.

وأمَّا الآيةُ فإن كان وجه الاستدلال بها تسميةَ الغناء لهواً، فكم لهوٍ هو حلالٌ، وإنْ كان الوعيدَ على اشترائه واختياره، فلا نسلِّم أنَّ ذلك على مجرَّدِ الاشتراء؛ لجواز أن يكون على الاشتراء ليضل عن سبيل الله تعالى، ولا شكَّ أنَّ ذلك من الكبائر، ولا نزاعَ لنا فيه، وقال ابنُ عطية: الذي يترجَّح أن الآية نزلت في لهوِ الحديث مضافاً إلى الكفر، فلذلك اشتدَّت ألفاظُ الآية بقوله تعالى: (لِيُضِلَّ) إلخ[٣]. اهـ.

---

(١) وردت هذه الزيادة في الرواية الموقوفة على ابن مسعود عند البيهقي ١٠/ ٢٢٣، وينظر التلخيص الحبير ٤/ ٢٠٠.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٦.

ومما ذكرنا يُعلَم ما في الاستدلال بها على حُرْمةِ الملاهي، كالرباب والجنك[١] والسنطير[٢] والكمنجة والمزمار وغيرها من الآلات المطربة، بناءً على ما رُوي عن ابن عباس والحسنِ أنهما فسَّرا «لهو الحديث» بها، نعم إنه يحرُمُ استعمالُها واستماعُها لغير ما ذكر، فقد صحَّ من طرقٍ خلافاً لِمَا وَهِمَ فيه ابنُ حزم الضالُّ المضلُّ، فقد علَّقه البخاريُّ وَوَصَله الإسماعيليُّ وأحمدُ وابنُ ماجه وأبو نعيم وأبو داود بأسانيدَ صحيحةٍ لا مَطْعنَ فيها، وصحَّحه جماعةٌ آخرون من الأئمة كما قاله بعضُ الحفاظ، أنه ﷺ قال: «ليكوننَّ في أمتي قومٌ يستحلُّون الخز والخمر والمعازف»[٣] وهو صريحٌ في تحريم جميع آلاتِ اللهو المُطْرِبةِ.

---

(١) الجنك: آلة يضرب بها كالعود، معرَّب. التاج (جنك).

(٢) السنطير: آلة من آلات الطرب تشبه القانون، أوتارها من نحاس يضرب عليها. المعجم الوسيط (سنط).

(٣) صحيح البخاري (٥٥٩٠)، ومسند أحمد (٢٢٩٠٠)، وسنن أبي داود (٤٠٣٩)، وسنن ابن ماجه (٤٠٢٠)، وعزاه للإسماعيلي وأبي نعيم في مستخرجيهما ابن حجر في الفتح ١٠/ ٥٣، ووصله أيضاً ابن حبان (٦٧٥٤)، والطبراني (٣٤١٧)، وهو من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.
ورواية أحمد وابن ماجه سياقها مختلف، ورواية أبي داود مختصرة بلفظ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الخز والحرير». وجاء عند البخاري: الحِرَ بالحاء المهملة المكسورة والراء الخفيفة، وهو الفَرْج، والمعنى: يستحلُّون الزنا، ووقع عند أبي داود بمعجمتين والتشديد؛ قال الحافظ في الفتح: والراجح بالمهملتين، ويؤيِّده ما وقع في الزهد لابن المبارك من حديث عليٍّ بلفظ: «يوشك أن تستحل أمتي فروج النساء والحرير» ووقع عند الداودي بالمعجمتين ثم تعقبه بأنه ليس بمحفوظ لأن كثيراً من الصحابة لبسوه، وقال ابن العربي: الخزُّ بالمعجمتين والتشديد مختلف فيه، والأقوى حلُّه، وليس فيه وعيد ولا عقوبة بإجماع.
وقد تكلم ابن حزم في المحلى ٩/ ٥٩ على هذا الحديث فقال: وهذا منقطع، ولا يصح في هذا الباب شيءٌ أبداً، وكل ما فيه فموضوع، ووالله لو أُسند جميعه أو واحد منه فأكثر من طريق الثقات إلى رسول الله ﷺ لما ترددنا في الأخذ به. اهـ.
وكلام ابن حزم هذا ردَّه كثير من العلماء والمحدثين، منهم النووي في شرح صحيح مسلم ١/ ١٨، والزركشي كما في فتح الباري ١٠/ ٥٢، وابن الصلاح في علوم الحديث ص٦٨، وقال ابن الصلاح: وأخطأ ـ يعني ابن حزم ـ من وجوه، والحديث صحيح معروف الاتصال بشرط الصحيح، والبخاري قد يفعل ذلك لكون الحديث معروفاً من جهة الثقات عن ذلك الشخص الذي علقه عنه، وقد يفعل ذلك لكونه قد ذكر ذلك الحديث في موضع آخر من كتابه مسنداً متصلاً، وقد يفعل ذلك لغير ذلك من الأسباب التي لا يصحبها خلل الانقطاع، والله أعلم.

ومما يُشْبِهُ الصريحَ في ذلك ما رواه ابنُ أبي الدنيا في كتاب «ذم الملاهي» عن أنس، وأحمدُ والطبرانيُّ عن ابن عباس وأبي أمامةَ مرفوعاً: «ليكوننَّ في هذه الأمة خَسْفٌ وقذفٌ ومسخٌ، وذلك إذا شربوا الخمورَ واتخذوا القينات وضربوا بالمعازف»(١) وهي الملاهي التي سمعتَها، ومنها الصنجُ العَجَميُّ، وهو صُفْرٌ يُجعَلُ عليه أوتارٌ يُضرَبُ بها على ما ذهب إليه غيرُ واحدٍ، خلافاً للماورديِّ حيث قال: إن الصنج يُكْرَهُ مع الغناء ولا يُكره منفرداً؛ لأنه بانفراده غيرُ مُطْرِبٍ. ولعله أراد به العربيَّ، وهو قطعتان من صُفرٍ تُضْرَبُ إحداهما بالأخرى، فإنه بحسب الظاهر هو الذي لا يُطْرِبُ منفرداً، لكن يزيدُ الغناءَ طرباً، وذُكر أنه يستعمله المخنَّثون في بعض البلاد، ولا يبعُدُ عليه القولُ بالحرمة.

ومنها اليراعُ وهو الشبابةُ، فإنه مُطْرِبٌ بانفراده، بل قال بعض أهل الموسيقى: إنه آلةٌ كاملةٌ جامعةٌ لجميع النغمات إلا يسيراً. وقد أطنب الإمام الدَّوْلعيُّ(٢) وهو من أجلَّة العلماء في دلائل تحريمه، ومنها القياسُ وهو إما أَوْلَى أو مَساوٍ، وقال: العجبُ كلُّ العجبِ ممن هو من أهل العلم يزعم أنَّ الشبابة حلالٌ. اهـ.

ومنه يُعلم ما في قول التاج السبكيِّ في «توشيحه»: لم يقرَّ عندي دليلٌ على تحريم اليراع مع كثرة التتبُّع، والذي أراه الحِلَّ، فإن انضمَّ إليه محرَّمٌ فلكلٍّ منهما حُكْمُه، ثم الأَوْلى عندي لمن ليس من أهل الذوق الإعراضُ عنه مطلقاً؛ لأنَّ غايةَ ما فيه حصولُ لذةٍ نفسانيةٍ وهي ليست من المطالب الشرعية، وأما أهلُ الذوق فحالُهم مسلَّمٌ إليهم، وهم على حَسَبِ ما يجدونه من أنفسهم(٣). اهـ.

---

(١) عزاه لابن أبي الدنيا من حديث أنس بهذا اللفظ السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٣٢٤، وهو بنحوه من حديث أبي أمامة وابن عباس في مسند أحمد من زوائد ابنه عبد الله (٢٢٧٩٠)، وعزاه للطبراني من حديث أبي أمامة وحده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٠، وفي إسناده فرقد السبخي وهو ضعيف.

(٢) في الأصل و(م) وكف الرعاع ١/ ١١١ (والكلام منه): الدولقي، والصواب ما أثبتناه. والدَّولعية بفتح أوله وعين مهملة من قرى الموصل. وهو أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين، ضياء الدين التغلبي الأرقمي الموصلي الشافعي، خطيب دمشق، توفي سنة (٥٩٨هـ). سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٥٠، ومعجم البلدان ٢/ ٤٨٦.

(٣) كف الرعاع ١/ ١٢١.

وحُكي عن العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد أنهما كانا يسمعان ذلك، والظاهرُ أنه كذبٌ لا أصل له، وبذلك جزم بعضُ الأجلَّة[1].

ولا يبعدُ حِلُّها إذا صفر فيها كالأطفال والرِّعاءِ على غير القانون المعروف من الإطراب.

ومنها العودُ، وهو آلةٌ للَّهو غيرُ الطنبور، وأطلقه بعضهم عليه، وحكايةُ النَّجِسِ ابنِ طاهرٍ[2] عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازيِّ أنه كان يسمعُ العود من جملةِ كذبه وتهوُّرِه، كدعواه إجماعَ الصحابة والتابعين على إباحة الغناء واللَّهو، ومثلُه في المجازفة وارتكابِ الأباطيل على الجَزْم ابنُ حَزْمٍ، لا الدفُّ فيجوزُ ضَرْبُه من رجلٍ وامرأةٍ لا من امرأةٍ فقط، خلافاً للحَليميِّ[3]، واستماعُه لعرسٍ ونكاحٍ وكذا غيرُهما من كلِّ سرورٍ في الأصحِّ. وبحِلِّ ذي الجلاجل منه ـ وهي إما نحوُ حِلَقٍ تُجعل داخلَه كدفِّ العرب، أو صنوجٌ عِرَاضٌ من صُفْرٍ تُجعَلُ في حروفِ دائرته كدفِّ العجم ـ جَزَمَ جماعةٌ، وجزم آخرون بحرمته، وبها أقول؛ لأنه كما قال الأذرعي: أشدُّ إطراباً من أكثر الملاهي المتفقِ على تحريمها.

وبعضُ المتصوِّفة ألَّفوا رسائلَ في حِلِّ الأوتار والمزامير وغيرِها من آلات اللهو، وأتوا فيها بكذبٍ عجيبٍ على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، وعلى أصحابه ﵃ والتابعين والعلماء العاملين، وقلَّدهم في ذلك مَن لعب به الشيطانُ، وهوى به الهوى إلى هوَّة الحرمان، فهو عن الحقِّ بمعزلٍ، وبينه وبين حقيقةِ التصوُّف ألفُ ألفِ منزلٍ.

---

(١) جاء تحتها في الأصل: كابن حجر.

(٢) محمد بن طاهر المقدسي الحافظ، الظاهري الصوفي، ذو التصانيف، قال ابن عساكر: جمع أطراف الكتب الستة، فأخطأ في مواضع خطأً فاحشاً. وقال ابن ناصر: محمد بن طاهر لا يحتج به، وقال أيضاً: كان لُحنةً وكان يصحِّف. وقال الذهبي: ليس بالقوي؛ فإنه له أوهام في تواليفه، وله انحراف عن السنَّة إلى تصوُّفٍ غير مرضيٍّ. سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٦١، والميزان ٣/ ٥٨٧. وكلام ابن طاهر في كف الرعاع ١/ ٦١ و١٣٠-١٣١، والزواجر ٢/ ١٩٣.

(٣) في المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ١٩، حيث قال: وضرب الدفِّ لا يحل إلا للنساء؛ لأنه في الأصل من أعمالهن، ولعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء. اهـ. ونقل ذلك عنه ابن حجر في كف الرعاع ١/ ٨٣.

وإذا تحقَّق لديك قولُ بعض الكبار بحلِّ شيء من ذلك فلا تغترَّ به؛ لأنه مخالفٌ لِمَا عليه أئمةُ المذاهب الأربعة وغيرُهم من الأكابر، المؤيَّدِ بالأدلَّةِ القوية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وكلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترك ما عدا رسول الله ﷺ، ومَن رُزق عقلاً مستقيماً وقلباً من الأهواء الفاسدةِ سليماً لا يشكُّ في أنَّ ذلك ليس من الدِّين، وأنه بعيدٌ بمراحلَ عن مقاصد شريعة سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

واستدلَّ بعضُ أهل الإباحة على حلِّ الشبابة بما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن نافعٍ عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع صوتَ زمارةِ راعٍ فجعل إصبعيه في أذنيه وعدل عن الطريق، وجعل يقول: يا نافع أتسمعُ؟ فأقول: نعم، فلما قلت: لا، رجع إلى الطريق ثم قال: هكذا رأيتُ رسول الله ﷺ يفعله[1]. وأخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقيُّ عن نافع أيضاً[2]. وسئل عنه الحافظ محمد بن نصر[3] السَّلاميُّ فقال: إنه حديثٌ صحيح.

ووجه الاستدلال به أنه ﷺ لم يأمر ابنَ عمر وكان عمره إذ ذاك كما قال الحافظ المذكور سبعَ عَشْرةَ سنةً بسدِّ أذنيه، ولا نَهى الفاعلَ، فلو كان ذلك حراماً لأَمَر ونهى عليه الصلاة والسلام، وسدُّ أذنيه عليه الصلاة والسلام يحتمل أن يكون لكونه عليه الصلاة والسلام إذ ذاك في حالِ ذكرٍ أو فكرٍ، وكان السماعُ يشغله عليه الصلاة والسلام والتحيةُ، ويحتمل أن يكون إنما فَعَله ﷺ تنزيهاً؛ وقال الأذرعيُّ: بهذا الحديث استدلَّ أصحابنا على تحريم المزامير، وعليه بَنَوْا التحريم في الشبابة[4]. اهـ.

والحقُّ عندي أنه ليس نصّاً في حُرمتها؛ لأنَّ سدَّ الأذنين عند السماع من باب فِعْلِه ﷺ وليس ممَّا وَضح فيه أمرُ الجبلَّة، ولا ثَبَتَ تخصيصُه به عليه الصلاة

---

(١) صحيح ابن حبّان (٦٩٣)، وأخرجه أيضاً أحمد (٤٥٣٥)، وأبو داود (٤٩٢٤).

(٢) شعب الإيمان (٥١٢٠)، وعزاه لابن أبي الدنيا السيوطي في الدر ٥/ ١٦٠.

(٣) كذا في الأصل و(م) وكف الرعاع ١/ ١١٧، والزواجر ٢/ ١٩٦، والصواب: محمد بن ناصر، وهو الإمام أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد السَّلامي البغدادي المحدث الحافظ، وكان من أئمة اللغة أيضاً، توفي سنة (٥٥٠هـ). سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٦٥.

(٤) الزواجر ٢/ ١٩٦.

والسلام، ولا ممَّا وضح أنه بيانٌ لنصٍّ علم جهته من الوجوب والندب والإباحة، فإن كان ممَّا عُلِمَتْ صفته فلا يخلو من أن تكون الوجوبَ أو الندبَ أو الإباحةَ، لا جائز أن تكون الوجوبَ المستلزمَ لحرمة سماع اليراع؛ إذ لا قائل بأنه يجبُ على أحدٍ سدُّ الأذنين عند سماع محرَّم؛ إذ يأمن الإثم بعدم القَصْدِ، فقد قالوا: إنَّ الحرام الاستماعُ لا مجرَّدُ السماع بلا قصدٍ، وفي «الزَّواجر»: الممنوعُ هو الاستماعُ لا السماعُ لا عن قصد اتفاقاً، ومن ثمَّ صرَّح أصحابنا ـ يعني الشافعيةَ ـ أنَّ مَن بجواره آلاتٌ محرَّمةٌ ولا يمكنُه إزالتُها لا يلزمه النقلةُ، ولا يأثمُ بسماعها لا عن قصدٍ وإصغاءٍ[1]. اهـ. والظاهر أنَّ الأمر كذلك عند سائر الأئمة.

نعم لهم تفصيلٌ في القعود في مكانٍ فيه نحوُ ذلك، قال في «تنوير الأبصار» وشَرْحِه «الدر المختار»[2]: دُعي إلى وليمةٍ وثَمَّةَ لعبٌ وغناءٌ قَعَدَ وأَكَلَ، ولو على المائدة لا ينبغي أن يقعد بل يخرجُ مُعْرِضاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨]، فإن قدر على المنع فَعَلَ، وإلَّا يَقْدِرْ صَبَرَ[3] إن لم يكن ممَّن يُقْتَدَى به، فإن كان مقتدًى به ولم يقدر على المنع خرج ولا يقعد، لأنَّ فيه شينَ الدِّينِ، والمحكيُّ عن الإمام أبي حنيفةَ رضي الله عنه كان قبل أن يصير مقتدًى به[4]، وإن عَلم أولاً لا يَحضُرُ أصلاً سواءٌ كان ممن يقتدَى به أوْ لا. اهـ فتعيَّن كونُها الندبَ أو الإباحةَ وكِلَا الأمرين لا يستلزمان الحرمةَ، فيحتمل أن يكون ذلك حراماً أو مكروهاً يندب سدُّ الأذنين عند سماعه احتياطاً من أن يدعوَ إلى الاستماع المحرَّم أو المكروه.

وإن كان ممَّا لم تُعلم صفتُه، فقد قالوا فيما كان كذلك: المذاهب فيه بالنسبة إلى الأمة خمسةٌ: الوجوبُ، والندبُ، والإباحة، والوقفُ، والتفصيلُ: وهو أنه إن ظهر قَصْدُ القُربةِ فالندبُ، وإلا فالإباحةُ، ويُعلم مما ذكرنا الحالُ على كلِّ مذهبٍ.

---

(١) الزواجر ٢/١٩٦.

(٢) ٢/٣٨٠.

(٣) قوله: فإن قدر على المنع فعل وإن لا يقدر صبر...، هذا فيما لو كان المنكَر في المنزل لا على المائدة. حاشية ابن عابدين ٦/٣٤٨.

(٤) قوله: والمحكي عن الإمام...، يعني به قول أبي حنيفة: ابتليتُ بهذا مرةً فصبرتُ هداية. حاشية ابن عابدين ٦/٣٤٨.

والذي يغلبُ على الظنِّ أنَّ ما أشار إليه الخبرُ: إن كان الزمرُ بزمارةِ الراعي على وجه التأنُّق وإجراء النغمات التي تحرِّك الشهوات، كما يفعلُه مَن جَعَلَ ذلك صنعتَه اليومَ، فاستماعُه حرامٌ، وسدُّ الأذنين المشارُ إليه فيه لعله كان منه عليه الصلاة والسلام تعليماً للأمة أحدَ طرق الاحتياط المعلومِ حالُه؛ لئلَّا يجرَّهم ذلك إلى الاستماع، وإلا فالاستماعُ لمكان العصمة ممَّا لا يتصوَّر في حقِّه ﷺ، ومَن عرف قَدْرَ الصحابة واطَّلع على سبيلهم وحِرْصِهم على التأسِّي به عليه الصلاة والسلام لم يشكَّ في أنَّ ابن عمر رضي الله عنه سدَّ أذنيه أيضاً تاسِّياً، ويكون حينئذٍ قولُه عليه الصلاة والسلام الذي يشير إليه الخبرُ له رضي الله عنه: «أتسمع؟» على معنى: تَسمَّعْ أَتَسْمَعُ؟ وإنما أسقط «تسمَّع» لدلالة الحال عليه؛ إذ مَن سدَّ أذنيه لا يسمع، وإنما أَذِنَ له ﷺ بذلك لموضع الحاجة، وهذا أقربُ من احتمال كونِ سدِّ الأذنين منه ﷺ لأنه كان في حالِ ذكرٍ أو فكرٍ، وكان يشغلُه ﷺ عند السماع.

وأمَّا عدمُ نهيه عليه الصلاة والسلام مَن كان يَزْمرُ عن الزَّمْرِ والإنكارِ عليه فلا يسلَّم دلالتُه على الجواز؛ فإنه يجوز أن يكون الصوتُ جاء من بعيدٍ وبين الزامر وبينه عليه الصلاة والسلام ما يمنعُ من الوصول إليه، أوْ لَمْ يعرف عينَه ﷺ لأنَّ الصوت قد جاء من وراء حجاب، ولا تتحقَّقُ القدرة معه على الإنكار. ويجوز أيضاً أن يكون التحريم معلوماً من قبلُ، وعُلم من النبيِّ ﷺ الإصرارُ عليه، وأن يكون قد علم إصرار ذلك الفاعل على فِعْلِه، فيكون ذلك كاختلاف أهل الذمة إلى كنائسهم، وفي مثل ذلك لا يدلُّ السكوتُ وعدمُ الإنكار على الجواز إجماعاً، ومَن قال بأنَّ الكافر غيرُ مكلَّفٍ بالفروع قال: يجوز أن يكون ذلك الزامرُ كافراً، وأنَّ السكوت في حقِّه ليس دليلَ الجواز.

وإن كان الزمرُ بها لا على وجه التأنق وإجراءِ النغمات التي تحرِّكُ الشهوات فلا بُعْدَ في أن يقال بالجواز والإباحة فعلاً واستماعاً، وسدُّ الأذنين عليه لغايةِ التنزُّهِ اللائقِ به عليه الصلاة والسلام، وقولُ الأذرعيِّ في الجواب: إن قوله في الخبر: زمارة راع، لا يعيِّنُ أنها الشبابةُ، فإنَّ الرعاة يضربون بالشعيبية وغيرها = يوهم أنَّ ما يسمَّى شعيبيةً مباحٌ مفروغٌ منه، وفيه نظرٌ؛ فإنها عبارةٌ عن عدَّةِ قصباتٍ صغارٍ

ولها إطرابٌ بحسب حذقِ مُتعاطيها، فهي شبابةٌ أو مزمارٌ لا محالةَ[(١)]. وفي إباحة ذلك كلامٌ.

وبعد هذا كلِّه نقول: إن الخبر المذكورَ رواه أبو داود وقال: إنه منكر[(٢)]. وعليه لا حجةَ فيه للطرفين، وكفى الله تعالى المؤمنين القتال.

ثم إنك إذا ابتليتَ بشيءٍ من ذلك فإياك ثم إياك أن تعتقد أنَّ فِعْلَه أو استماعَه قربةٌ كما يعتقد ذلك من لا خَلاقَ له من المتصوِّفة، فلو كان الأمر كما زعموا لَما أَهمل الأنبياء أن يفعلوه ويأمروا أتباعهم به، ولم ينقل ذلك عن أحدٍ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا أشار إليه كتابٌ من الكتب المنزلة من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

ولو كان استعمال الملاهي المطربات أو استماعُها من الدِّين ومما يقرِّبُ إلى حضرة ربِّ العالمين، لبيَّنه ﷺ وأوضحَه كمالَ الإيضاح لأمته، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده ما تركتُ شيئاً يقرِّبكم من الجنة ويباعدُكم عن النار إلا أمرتُكم به، وما تركتُ شيئاً يقرِّبكم من النار ويباعدُكم عن الجنة إلَّا نهيتُكم عنه»[(٣)] وما ذكر داخلٌ في الشقِّ الثاني كما لا يخفى على مَن له قلبٌ سليم وعقلٌ مستقيمٌ، فتأمَّل وأَنْصِفْ، وإياك من الاعتراض قبل أن تُراجِعَ وتَعْرِف، ولنا عودةٌ إن شاء الله تعالى للكلام في هذا المطلب، يسَّر الله تعالى ذلك لنا بحرمة حبيبه الأعظم ﷺ.

واستدلَّ بعضهم بالآية ـ على القول بأنَّ لهو الحديث الكتبُ التي اشتراها النضر بنُ الحارث ـ على حرمة مطالعة كتب تواريخ الفرس القديمة، وسماع ما فيها وقراءتِه. وفيه بحثٌ، ولا يخفَى أنَّ فيها من الكذب ما فيها، فالاشتغالُ بها لغير غرضٍ دينيٍّ خوضٌ في الباطل، وعدَّه ابنُ نجيم في رسالته في بيان المعاصي من الصغائر، ومثَّل له بذِكرِ تنعُّمِ الملوك والأغنياء[(٤)]، فافهم هذا.

---

(١) الزواجر ٢/ ١٩٦.
(٢) سنن أبي داود إثر الحديث (٤٩٢٤).
(٣) أخرجه هناد في الزهد (٤٩٤)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٢٧، والحاكم ٢/ ٤ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٤) رسائل ابن نجيم ص٢٥٢.

ومن الغريب البعيدِ ـ وفيه جَعْلُ الاشتراء بمعنى البيع ـ ما ذهب إليه صاحبُ «التحرير» قال: يظهر لي أنه أراد سبحانه بلهو الحديث ما كانوا يُظهرونه من الأحاديث في تقوية دينهم والأمرِ بالدوام عليه، وتغييرِ صفة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأنَّ التوراة تدلُّ على أنه من ولد إسحاق عليه السلام، يقصدون صدَّ أتباعهم عن الإيمان، وأطلق اسم الاشتراء لكونهم يأخذون على ذلك الرشا والجعائلَ من ملوكهم، وقال: يؤيِّده قولُه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو كما ترى.

والمراد بسبيله تعالى دينُه عزَّ وجلَّ، أو قراءةُ كتابه سبحانه، أو ما يعمُّهما، واللامُ في «لِيُضِلَّ» للتعليل. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: «لِيَضِلَّ» بفتح الياء[1]، والمراد: لِيَثْبُتَ على ضلاله ويزيدَ فيه، فإنَّ المخبَرَ عنه ضالٌّ قبلُ، واللامُ للعاقبة، وكونُها على أصلها ـ كما قيل ـ بعيدٌ.

وجوَّز الزمخشريُّ أن يكون قد وضع «لِيَضِلَّ» على هذه القراءة موضعَ لِيُضِلَّ، من قِبَلِ أنَّ مَن أضلَّ كان ضالًّا لا محالةَ، فدلَّ بالرديف وهو الضلال على المردوف وهو الإضلال[2]. ووجهُ الدلالة أنه أريدَ بالضلال الضلالُ المضاعَفُ في شأنِ مَن جانَبَ سبيلَ الله تعالى وتَرَكَه رأساً، وهذا الضلالُ لا ينفكُّ عن الإضلال وبالعكس، وبه يندفعُ نظرُ صاحب «الفرائد» بأنَّ الضلال لا يلزمُه الإضلالُ، وفيه تَوافُقُ القراءتين وبقاءُ اللام على حقيقتها، وهي على الوجهين متعلِّقةٌ بقوله سبحانه: (يَشْتَرِى) وقولُه عز وجل: (بِغَيْرِ عِلْمٍ) يجوزُ أن يكون متعلِّقاً به أيضاً، أي: يشتري ذلك بغير علمٍ بحالِ ما يشتريه، أو بالتجارة حيث استبدل الضلال بالهدى والباطلَ بالحق. ويجوزُ أن يكون متعلِّقاً بـ «يُضِل»، أي: لِيُضِلَّ عن سبيله تعالى جاهلاً أنها سبيلُه عز وجل، أو جاهلاً أنه يضلُّ، أو جاهلاً الحقَّ.

﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفاً على «يُضِلَّ»، والضميرُ للسبيل فإنه مما يذكَّرُ ويؤنَّث، وجوِّز أن يكون للآيات. وقيل: يجوز أن يكون للأحاديث؛ لأنَّ الحديثَ اسمُ جنسٍ بمعنى الأحاديث، وهو كما ترى. ﴿هُزُوًا﴾ أي: مهزوءاً به.

---

(١) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٠.

وقرأ جمعٌ من السبعة: «يتَّخذُها» بالرفع[١] عطفاً على «يشتري» وجوِّز أن يكون على إضمارِ «هو».

﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ لِمَا اتَّصفوا به من إهانتهم الحقَّ بإيثارِ الباطل عليه وترغيبِ الناس فيه، والجزاءُ من جنس العمل. و«أولئك» إشارةٌ إلى «مَن»، وما فيه من معنى البعدِ للإشارة إلى بُعْدِ المنزلة في الشرارة، والجمعُ في اسم الإشارة والضميرِ باعتبار معناها كما أنَّ الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ ففي الآية مراعاةُ اللفظ، ثم مراعاةُ المعنى، ثم مراعاةُ اللفظ، ونظيرُها في ذلك قولُه تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ الآية [الطلاق: ١١]، قال أبو حيان: ولا نعلم جاء في القرآن ما حُمِلَ على اللَّفْظِ ثم على المعنى ثم على اللفظ غير هاتين الآيتين[٢]. وقال الخفاجيُّ: ليس كذلك، فإنَّ لها نظائرَ[٣].

أي: وإذا تتلى على المشتري المذكورِ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ الجليلةُ الشأنِ ﴿وَلَّىٰ﴾ أعْرَضَ عنها غيرَ معتدٍّ بها ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ مبالغاً في التكبُّر، فالاستفعالُ بمعنى التفعُّلِ ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حالٌ من ضميرِ «ولَّى»، أو من ضمير «مستكبراً»، أي: مشابهاً حالُه في إعراضه تكبُّراً أو في تكبُّره حالَ مَن لم يسمعها وهو سامع، وفيه رمزٌ إلى أنَّ مَن سمعها لا يتصوَّر منه التوليةُ والاستكبارُ؛ لِمَا فيها من الأمور الموجبة للإقبال عليها والخضوعِ لها، على طريقة قول الخنساء[٤]:

أَيَا شَجَرَ الخابورِ مالَكَ مُورِقاً ... كأنك لم تَجْزَعْ على ابن طريفِ

---

(١) هي قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر وابن كثير وأبي بكر. التيسير ص١٧٦، والنشر ٢/٣٤٦، وقرأ بها من العشرة أبو جعفر.

(٢) البحر ٧/١٨٤.

(٣) حاشية الشهاب ٨/١٣٣.

(٤) كذا ذكر، والصواب أنه لأخت الوليد بن طريف التغلبية الخارجية ترثي أخاها الوليد، كما في العقد الفريد ٣/٢٦٩، والأغاني ١٢/٩٣، والحماسة البصرية ١/٢٢٩، والحماسة الشجرية ١/٣٢٨، ووفيات الأعيان ٦/٣٢، وخزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة ص١٣٤، وسماها ابن الشجري وابن حجة والبصري: ليلى، وفي وفيات الأعيان: الفارعة، وقيل: فاطمة، وكانت تسلك سبيل الخنساء في مراثيها لأخيها صخر.

و«كأنْ» المخففةُ ملغاةٌ لا حاجةَ إلى تقديرِ ضمير شأنٍ فيها، وبعضُهم يقدِّره.

﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ أي: صمماً مانعاً من السماع، وأصلُ معنى الوَقْر: الحملُ الثقيل، استُعيرَ للصَّمَم ثم غَلَبَ حتى صار حقيقةً فيه. والجملةُ حالٌ من ضميرِ «لم يسمعها»، أو هي بدلٌ منها بدلَ كلٍّ من كلٍّ، أو بيانٌ لها، ويجوز أن تكون حالاً من أحد السابقَيْنِ، ويجوز أن تكون كلتا الجملتين مستأنفتين، والمرادُ من الجملة الثانية الترقِّي في الذمِّ، وتثقيلُ «كأنَّ» في الثانية كأنه لمناسبته للثقل في معناه.

وقرأ نافع: «في أُذْنيه» بسكون الذال تخفيفاً[1].

﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ أي: أَعْلِمْه أنَّ العذاب المُفْرِط في الإيلام لاحِقٌ به لا محالةَ، وذِكْرُ البشارة للتهكُّم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيانٌ لحالِ المؤمنين بآياته تعالى إثر بيانِ حالِ الكافرين بها، أي: إنَّ الذين آمنوا بآياته تعالى وعملوا بموجبها ﴿لَهُمۡ﴾ بمقابلةِ ما ذُكر من إيمانهم وعملهم ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أي: النعيم الكثير، وإضافة الجنات إليه باعتبارِ اشتمالها عليه، نظير قولك: كتب الفقه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ لهم نعيمَها بطريقٍ برهانيٍّ، فهو أبلغ من: لهم نعيمُ الجنات، إذ لا يستدعي ذلك أن تكون نفسُ الجنات ملكاً لهم، فقد يتنعَّم بالشيءِ غيرُ مالكه.

وقيل في وجه الأبلغية: إنه لجعل النعيم فيه أصلاً ميِّزتْ به الجنات، فيفيدُ كثرةَ النعيم وشهرتَه.

وأيّاما كان فجناتُ النعيم هي الجناتُ المعروفة. وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن دينار قال: جناتُ النعيم بين جناتِ الفردوس وبين جنات عدنٍ، وفيها جَوَارٍ خُلِقْنَ من وَرْدِ الجنة. قيل: ومَن يسكنُها؟ قال: الذين همُّوا بالمعاصي فلمَّا ذكروا عظمتي راقبوني، والذين انْثَنَتْ أصلابُهم في خشيتي[2]. والله تعالى أعلمُ بصحَّة الخبر.

والجملةُ خبرُ «إنَّ»؛ قيل: والأحسنُ أن يُجعَلَ «لهم» هو الخبر لـ «إنَّ» و«جنات

---

(١) التيسير ص٩٩، والنشر ٢/ ٢١٦.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٦٠.

النعيم» مرتفعاً به على الفاعلية، وقولُه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ من الضمير المجرورِ أو المستتر في «لهم» بناءً على أنه خبرٌ مقدَّمٌ، أو من «جنات» بناءً على أنه فاعل الظرف لاعتماده بوقوعه خبراً، والعاملُ ما تعلَّق به اللام.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «خالدون» بالواو[1]، وهو بتقدير هو[2].

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لنفسه، أي: لِمَا هو كنفسه وهي الجملةُ الصريحةُ في معناه، أعني قولَه تعالى: (لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ) فإنه صريحٌ في الوعد. وقوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لتلك الجملة أيضاً، إلا أنه يعدُّ مؤكِّداً لغيره؛ إذ ليس كلُّ وعدٍ حقّاً في نفسه. وجوِّز أن يكون مؤكِّداً لـ «وعد الله» المؤكِّد، وأن يكون مؤكِّداً لتلك الجملة معدوداً من المؤكِّد لنفسه بناءً على دلالتها على التحقيق والثبات من أوجهٍ عدَّةٍ، وهو بعيد، وفي «الكشف»: لا يصحُّ ذلك، لأنَّ الأخبار المؤكَّدة لا تخرج عن احتمال البطلان، فتأمَّل.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيءٌ ليمنع من إنجاز وعده وتحقيقِ وعيده ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ الذي لا يفعلُ إلا ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة، ويُفهم هذا الحصرُ من الفحوى. والجملةُ تذييلٌ لحقِّية وعدِه تعالى المخصوصِ بمن ذُكر، المومي إلى الوعيد لأضدادهم.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ إلخ استئنافٌ جيء به للاستشهاد بما فصِّل فيه على عزَّته عزَّ وجلَّ التي هي كمالُ القدرة، وحكمتِه التي هي كمالُ العلم وإتقانِ العملِ، وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره، وإبطال أمر الإشراك وتبكيت أهله. والعَمَدُ جمعُ عمادٍ، كأَهَبٍ جمع إهاب، وهو ما يُعْمَدُ به، أي: يُسْنَدُ، يقال: عَمَدْتُ الحائط: إذا دَعمته، أي: خَلَقها بغير دعائمَ، على أنَّ الجمع لتعدُّد السماوات.

وقوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئنافٌ في جواب سؤالٍ تقديرُه: ما الدليلُ على ذلك؟ فهو مسوقٌ لإثبات كونها بلا عَمَدٍ؛ لأنها لو كانت لها عمدٌ رؤيت، فالجملةُ لا محلَّ

---

(١) البحر ٧/ ١٨٤.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: هم. وقد ذكر السمين في الدر ٩/ ٦٢ في إعراب «خالدون» على هذه القراءة وجهين؛ الأول: أن يكون هو الخبر، وجملة «لهم جنات» ـ أو الجارُّ وحده ـ حالٌ. والثاني: أن يكون «خالدون» خبراً ثانياً لـ «إنَّ».

لها من الإعراب، والضميرُ المنصوبُ لـ «السماوات»، والرؤيةُ بَصَريةٌ لا علميةٌ حتى يلزمَ حذفُ أحد مفعوليها.

وجوِّز أن يكون صفةً لـ «عمد» فالضميرُ لها، أي: خَلَقها بغير عمدٍ مرئيةٍ، على التقييد للرمز إلى أنه تعالى عمدها بعمدٍ لا تُرى، وهي عمد القدرة، وروي ذلك عن مجاهد.

وكونُ عمادها في كلِّ عصرٍ الإنسانَ الكاملَ في ذلك العصر، ولذا إذا انقطع الإنسانُ الكامل وذلك عند انقطاع النوعِ الإنساني تُطْوى السماواتُ كطيِّ السجلِّ للكتب = كلامٌ لا عمادَ له من كتابٍ أو سنَّةٍ فيما نعلم، وفوق كلِّ ذي علمٍ عليمٌ.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ بيانٌ لصنعه تعالى البديعِ في قرار الأرض إثر بيانِ صُنْعِه عزَّ وجل الحكيمِ في قرار السماوات، أي: ألقى فيها جبالاً شوامخَ أو ثوابتَ كراهةَ ﴿أَن تَمِيدَ﴾ أو: لئلا تميدَ، أي: تضطرب ﴿بِكُمْ﴾ لو لم يُلْقِ سبحانه وتعالى فيها رواسيَ؛ لِمَا أنَّ الحكمة اقتضت خَلْقَها على حالٍ لو خَلَتْ معه عن الجبال لمادت بالمياه المحيطة بها الغامرةِ لأكثرها، والرياح العواصفِ التي تقتضي الحكمةُ هبوبَها، أو بنحو ذلك، وقد يعدُّ منه حركةُ ثقيلٍ عليها، وقد ذكر بعض الفلاسفة أنه يلزم بناءً على كرية الأرض ووجوبِ انطباق مركز ثقلها على مركز العالم حركتُها مع ما فيها من الجبال بسبب حركةِ ثقيلٍ من جانبٍ منها إلى آخر لتغيُّر مركزِ الثقل حينئذٍ، إلا أنه لم يظهر ذلك لكون الأثقال المتحرِّكة عليها كلا شيءٍ بالنسبة إليها مع ما فيها، ولعل مَن يَعُدُّ حركةَ الثقيل عليها من أسباب الميدِ لو خلت من الجبال يقول: لا يبعُدُ حركةُ ثقيلٍ عليها كماءٍ جرى من مكانٍ إلى آخر فاجتمع حتى صار بحراً عظيماً، مع ما ينضمُّ إلى ذلك مما تنقلُه الأهوية من الرمال الكثيرة والتراب يكون له مقدارٌ يعتدُّ به بالنسبة إلى الأرض خاليةً من الجبال، فتتحرَّكُ بحركته إلى خلافِ جهته.

ثم إنَّ الميدَ ـ لولا الرواسي ـ بنحو المياه والرياح متصوَّرٌ على تقدير كون الأرض كريةً كما ذهب إليه الغزالي، وكذا ذهب إلى كرية السماء، وجاء في روايةٍ عن ابن عباس ما يقتضيه، وإليه ذهب أكثرُ الفلاسفة مستدلِّين عليه بما في

«التذكرة»[1] وشروحِها وغيرِ ذلك، وهو الذي يشهدُ له الحسُّ والحَدْسُ، وعلى تقدير كونها غيرَ كرويةٍ كما ذهب إليه مَن ذهب، واختلفوا في شكلها عليه، وتفصيلُ ذلك يطلبُ من محلِّه.

ولا دلالةَ في الآية على انحصار حكمةِ إلقاء الرواسي فيها بسلامتها عن الميدِ، فإنَّ لذلك حِكَماً لا تُحصى، وكذا لا دلالةَ فيها على عدم حركتها على الاستدارة دائماً كما ذهب إليه أصحاب فيثاغورس، ووراءه مذاهبُ أظهرُ بطلاناً منه. نعم الأدلَّة النقليةُ والعقليةُ على ذلك كثيرةٌ.

﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي: أَوْجَدَ وأَظْهَرَ، وأصل البثِّ: الإثارةُ والتفريقُ، ومنه: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة:٦] و﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة:٤] وفي تأخيره إشارةٌ إلى توقُّفه على إزالة الميد.

﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ من كلِّ نوعٍ من أنواعها.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطرُ، والمرادُ بالسماء جهةُ العلوِّ، وجوِّز تفسيرُها بالمُظِلَّة وكونُ الإنزال منها بضربٍ من التأويل، وتركُ التأويل لا ينبغي أن يعوَّل عليه إلا إذا وُجد من الأدلة ما يضطرُّنا إليه؛ لأنَّ ذلك خلافُ المشاهَد.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: بسبب ذلك الماء ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صنف ﴿كَرِيمٍ ١٠﴾ أي: شريفٍ كثير المنفعة. والالتفاتُ إلى ضمير العظمة في الفعلين لإبراز مزيدِ الاعتناء بهما لتكرُّرِهما، مع ما فيهما من استقامة حال الحيوان وعمارة الأرض ما لا يخفى.

﴿هَٰذَا﴾ أي: ما ذكر من السماوات والأرض وسائرِ الأمور المعدودة ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقُه ﴿فَأَرُونِى﴾ أي: أَعْلِموني وأخبروني، والفاءُ واقعةٌ في جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، أي: إذا علمتُم ذلك فأروني ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ مما اتَّخذتُموهم شركاءَ له سبحانه في العبادة حتى استحقُّوا به العبودية، و«ماذا» يجوز أن يكون اسماً واحداً استفهامياً ويكون مفعولاً لـ «خَلَقَ» مقدَّماً لصدارته، وأن يكون «ما»

(١) هو كتاب التذكرة النصيرية في الهيئة للعلامة نصير الدين الطوسي، وهو مختصر وله شروح، منها شرح السيد علي بن محمد الجرجاني. كشف الظنون ١/ ٣٩١.

وحدها اسمُ استفهامٍ مبتدأ و«ذا» اسم موصول خبرها، وتكون الجملة معلَّقاً عنها سادَّةً مسدَّ المفعول الثاني لـ «أروني». وأن يكون «ماذا» كله اسماً موصولاً، فقد استُعمل كذلك على قلَّةٍ على ما قال أبو حيان[1]، ويكون مفعولاً ثانياً له، والعائدُ محذوفٌ في الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝١١﴾ إضرابٌ عن تبكيتهم بما ذُكر إلى التسجيل عليهم بالضلال البيِّن المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدِّمات المعقولة الحقَّةِ؛ لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه، أو يتأثَّروا من الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه، ووُضِعَ الظاهرُ موضع ضميرهم للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه، ومتعدُّون عن الحدِّ، وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ كلامٌ متسأنفٌ مسوقٌ لبيان بطلان الشرك بالنقل، بعد الإشارة إلى بطلانه بالعقل.

ولقمانُ اسمٌ أعجميٌّ لا عربيٌّ مشتقٌّ من اللقم، وهو على ما قيل: ابن باعوراء. قال وهب: وكان ابنَ أختِ أيوب عليه الصلاة والسلام. وقال مقاتل: كان ابنَ خالته، وقال عبد الرحمن السهيليُّ: هو ابن عنقا بن سرون[2].

وقيل: كان من أولاد آزر وعاش ألفَ سنة، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعثه، فلمَّا بُعث قَطَع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكْتَفي إذا كُفيت؟

وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل. ونُقل ذلك عن الواقديِّ، إلا أنه قال: وكان زمانُه بين محمدٍ وعيسى عليهما الصلاة والسلام. وقال عكرمة والشعبيُّ: كان نبيّاً. والأكثرون على أنه كان في زمن داودَ عليه السلام، ولم يكن نبيًّا.

واختلف فيه أكان حرًّا أو عبداً؟ والأكثرون على أنه كان عبداً. واختلفوا فقيل:

---

(١) في البحر ٧/ ١٨٥.

(٢) التعريف والإعلام للسهيلي ص١٣٤، ووقع في مطبوعه: يثرون، بدل: سرون. ونقله القرطبي ١٦/ ٤٦٧ عن السهيلي كما ذكره المصنف.

حبشيًّا، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد، وأخرج ذلك ابنُ مردويه[١] عن أبي هريرة مرفوعاً. وذكر مجاهد في وَصْفِهِ أنه كان غليظ الشفتين مصفَّحَ القدمين.

وقيل: كان نوبيًّا مشقَّقَ الرجلين ذا مشافر، وجاء ذلك في رواية عن ابن عباسٍ وابن المسيب ومجاهد. وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير قال: قلتُ لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفطَسَ من النُّوبة[٢].

وأخرج هو وابن جرير وابن المنذر عن ابن المسيب أنه قال: إنَّ لقمان كان أسودَ من سودان مصر ذا مشافر، أعطاه الله تعالى الحكمةَ ومنعه النبوة[٣].

واختلف فيما كان يعانيه من الأشغال؛ فقال خالد بن الربيع: كان نجاراً، بالراء. وفي «معاني» الزجَّاج: كان نجَّاداً بالدال[٤]، وهو على وزن كَتَّان: مَن يعالجُ الفُرُشَ والوسائدَ ويَخيطُهما.

وأخرج ابن أبي شيبةَ، وأحمدُ في «الزهد» وابنُ المنذر عن ابن المسيب أنه كان خيَّاطاً[٥]. وهو أعمُّ من النجَّاد.

وعن ابن عباس ﵄ أنه كان راعياً.

وقيل: كان يحتطبُ لمولاه كلَّ يومٍ حزمةً.

ولا وثوقَ لي بشيءٍ من هذه الأخبار، وإنما نقلتُها تأسِّياً بمن نقلها من المفسرين الأخيار، غير أنِّي أختار أنه كان رجلاً صالحاً حكيماً ولم يكن نبيّاً.

و«الحكمة» على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: العقلُ والفهمُ والفطنة[٦].

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٦٠.
(٢) الدر المنثور ٥/ ١٦٠.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٤٧، وعزاه لابن أبي حاتم وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٦١.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٨٦، ووقع في مطبوع معاني القرآن: نجاراً، رسمت بالراء ولم تقيَّد.
(٥) الزهد لأحمد ص٦٤، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر السيوطي في الدر٥/ ١٦١.
(٦) الدر المنثور ٥/ ١٦١.

وأخرج الفريابيُّ وأحمد في «الزهد» وابن جرير وابنُ أبي حاتم عن مجاهدٍ: أنها العقلُ والفقهُ والإصابةُ في القول(١).

وقال الراغب: هي معرفةُ الموجودات، وفعلُ الخيرات(٢).

وقال الإمام: هي عبارةٌ عن توفيق العمل بالعلم، ثم قال: وإنْ أردنا تحديداً بما يدخل فيه حكمة الله تعالى فنقول: حصولُ العمل على وفق المعلوم(٣).

وقال أبو حيان: هي المنطقُ الذي يُتَّعظ به ويتنبه ويتناقله الناس لذلك(٤).

وقيل: إتقان الشيء علماً وعملاً.

وقيل: كمالٌ حاصلٌ باستكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتسابِ الملكة التامَّة على الأفعال الفاضلة على قَدْرِ طاقتها.

وفسَّرها كثيرٌ من الحكماء بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بقَدْرِ الطاقة البشرية.

ولهم تفسيراتٌ أُخَرُ، وما لها وما عليها من الجرح والتعديل مذكوران في كتبهم.

ومن حكمته قولُه لابنه: أي بنيَّ، إنَّ الدنيا بحرٌ عميقٌ، وقد غَرِقَ فيها ناسٌ كثيرٌ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى، وحَشْوَها الإيمانَ، وشراعها التوكُّلَ على الله تعالى، لعلك أنْ تنجوَ ولا أراك ناجياً.

وقوله: مَن كان له من نفسه واعظٌ كان له من الله عز وجل حافظٌ، ومَن أنصف الناسَ من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزًّا، والذلُّ في طاعة الله تعالى أقربُ من التعزُّز بالمعصية.

وقوله: ضَرْبُ الوالد لولده كالسماد للزرع.

وقوله: يا بنيَّ، إياك والدَّينَ، فإنه ذلُّ النهار همُّ الليل.

---

(١) الزهد ص٦٤، وتفسير الطبري ١٨/٥٤٦، وعزاه للفريابي وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/١٦١، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/١٠٥.

(٢) مفردات الراغب (حكم).

(٣) تفسير الرازي ٢٥/١٤٥.

(٤) البحر ٧/١٨٦.

وقوله: يا بنيَّ ارْجُ الله عز وجل رجاءً لا يُجريك على معصيته تعالى، وخَفِ الله سبحانه خوفاً لا يُؤْيِسُكَ من رحمته تعالى شأنُه.

وقوله: مَن كذب ذهب ماءُ وجهه، ومَن ساء خُلُقُه كَثُرَ غمُّه. ونَقْلُ الصخور من مواضعها أيسرُ من إفهام مَن لا يفهم.

وقوله: يا بنيَّ حملْتُ الجندلَ والحديدَ وكلَّ شيءٍ ثقيلٍ، فلم أحمل شيئاً هو أثقلُ من جار السوء، وذقتُ المِرارَ فلم أذُقْ شيئاً هو أمرُّ من الفقر، يا بنيَّ لا تُرسل رسولك جاهلاً، فإنْ لم تجد حكيماً فكن رسولَ نفسك، يا بني إياك والكذبَ فإنه شهيٌّ كلحم العصفور عما قليلٍ يغلي صاحبه، يا بني احْضُرِ الجنائزَ ولا تَحْضُر العرسَ؛ فإنَّ الجنائز تذكِّرك الآخرةَ والعرسُ يشهِّيكَ الدنيا، يا بني لا تأكل شبعاً على شبعٍ فإن إلقاءك إياه للكلب خيرٌ من أن تأكله، يا بني لا تكن حلواً فتُبلع، ولا مرًّا فتُلْفَظْ.

وقوله لابنه: لا يأكل طعامَكَ إلا الأتقياء، وشاوِرْ في أمرك العلماء.

وقوله: لا خيرَ لك في أن تتعلَّم ما لم تعلم ولمَّا تَعْمَلْ بما قد عَلِمْتَ، فإنَّ مَثَلَ ذلك مَثَلُ رجلٍ احْتَطَبَ حطباً فحمل(١) حزمةً وذهب يحملها فعجز عنها، فضمَّ إليها أخرى.

وقوله: يا بنيَّ إذا أردتَ أن تواخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك، فإنْ أنْصَفَكَ عند غضبه وإلا فاحْذَرْه.

وقوله: لتكن كلمتُك طيبةً، وليكن وجهُك بسطاً، تكُنْ أحبَّ إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.

وقوله: يا بنيَّ أَنْزِلْ نفسَك من صاحبك منزلةَ مَن لا حاجةَ له بك ولا بدَّ لك منه، يا بنيَّ كُنْ كَمَنْ لا يبتغي محمدةَ الناس ولا يكسب ذمَّهم، فنفسُه منه في غناءٍ والناسُ منه في راحة.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب: فحزم، ينظر حلية الأولياء ٤/ ٧١، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥١.

وقوله: يا بنيَّ امتنِعْ بما يخرج من فيك فإنك ما سكتَّ سالم، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعُك.

إلى غير ذلك مما لا يحصى.

﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أي اشكر، على أنَّ «أنْ» تفسيرية، وما بعدها تفسيرٌ لإيتاء الحكمة، وفيه معنى القولِ دون حروفه سواءٌ كان بإلهامٍ أو وحيٍ أو تعليمٍ. وجوِّز أن يكون تفسيراً للحكمة باعتبار ما تضمَّنه الأمرُ.

وجَعَلَ الزجَّاج[1] «أنْ» مصدريةً بتقديرِ اللام التعليلية، ولا يفوتُ معنى الأمر كما مرَّ تحقيقُه. وحكى سيبويه: كتبتُ إليه بأنْ قُمْ[2]، والجارُّ متعلِّقٌ بـ «آتينا». وجوِّز كونُها مصدريةً بلا تقديرٍ، على أنَّ المصدر بدلُ اشتمالٍ من الحكمة، وهو بعيد.

﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ إلخ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله موجبٌ للامتثال بالأمر، أي: ومَن يَشْكُرْ له تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنَّ نفعه من ارتباط العتيد[3] واستجلابِ المزيد والفوزِ بجنة الخلود مقصورةٌ عليها.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن كلِّ شيءٍ، فلا يحتاجُ إلى الشكر ليتضرَّر بكُفْرِ مَن كفر ﴿حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ حقيقٌ بالحمد وإن لم يحمده أحدٌ، أو محمودٌ بالفعل ينطقُ بحمده تعالى جميعُ المخلوقات بلسان الحال، فـ «حميد» فعيلٌ بمعنى محمود على الوجهين.

وعدمُ التعرُّض لكونه سبحانه وتعالى مشكوراً لِمَا أنَّ الحمد متضمِّنٌ للشكر، بل هو رأسُه كما قال ﷺ: «الحمدُ رأسُ الشكر، لم يَشْكُرِ اللهَ تعالى عبدٌ لم يَحْمَدْه»[4] فإثباتُه له تعالى إثباتٌ للشكر له قطعاً.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٩٥.

(٢) الكتاب ٣/ ١٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٨٦.

(٣) العتيد: الحاضر المهيأ. القاموس (عتد). ووقع في(م): القيد، وهو تصحيف.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٩٥٧٤)، والبيهقي في الشعب (٤٣٩٥) من طريق قتادة عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، وفي إسناده انقطاع، وسلف ١/ ٢٥٥.

وفي اختيار صيغة المضيِّ في هذا الشقِّ قيل: إشارةٌ إلى قبح الكفران، وأنه لا ينبغي إلا أن يعدَّ في خبرِ كان، وقيل: إشارةٌ إلى أنه كثيرٌ متحقِّقٌ، بخلاف الشكر: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وجوابُ الشرط محذوفٌ قام مقامه قولُه تعالى: (فَإِنَّ ٱللَّهَ) إلخ، وكان الأصلُ: ومَن كفر فإنما يكفر على نفسه لأنَّ الله غنيٌّ حميد، وحاصلُه: ومَن كفر فضررُ كفرِه عائدٌ عليه؛ لأنه تعالى غنيٌّ لا يحتاجُ إلى الشكر ليتضرَّر سبحانه بالكفر، محمودٌ بحسب الاستحقاق أو بنطق أَلْسِنَةِ الحال، فكِلَا الوصفين متعلِّقان بالشقِّ الثاني.

وجوِّز أن يكون «غني» تعليلاً لقوله سبحانه: (فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ)، وقولَه عز وجل: «حميد» تعليلاً للجواب المقدَّر للشرط الثاني بقرينةِ مقابله، وهو: فإنما يكفر على نفسه، وأن يكون كلٌّ منهما متعلِّقاً بكلٍّ منهما، ولا يخفى ما في ذلك من التكلُّف الذي لم يَدْعُ إليه [داعٍ][1] ولم تَقُمْ عليه قرينةٌ، فتدبَّر.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ تاران على ما قال الطبريُّ والقتبيُّ[2]. وقيل: ماثان بالمثلثة. وقيل: أَنْعَم. وقيل: أَشْكَم، وهما بوزن أَفْعَل. وقيل: مَشْكَم بالميم بدل الهمزة.

و«إذ» معمولٌ لاذكر محذوفاً، وقيل: يحتملُ أن يكون ظرفاً لـ «آتينا»، والتقدير: وآتيناه الحكمةَ إذ قال، واختُصر لدلالة المقدَّم عليه.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ جملةٌ حالية، والوعظُ كما قال الراغب[3]: زجرٌ مقترنٌ بتخويفٍ، وقال الخليل: هو التذكيرُ بالخير فيما يرقُّ له القلبُ[4].

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تصغيرُ إشفاقٍ ومحبةٍ، لا تصغيرُ تحقيرٍ:

ولـكـنْ إذا مـا حُـبَّ شـيءٌ تـولَّـعَـتْ ... به أحرفُ التصغير من شدَّة الوَجْدِ[5]

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ١٣٥، والكلام منه.
(٢) ذكره عنهما السهيلي في التعريف والإعلام ص١٣٤، وقول القتبي في المعارف ص٥٦.
(٣) في مفرداته (وعظ).
(٤) العين ٢/ ٢٢٨، والكلام من مفردات الراغب (وعظ).
(٥) درة الغواص ص١٣، وحاشية الشهاب ٧/ ١٣٥.

وقال آخر:

ما قلتُ حُبيبي من التحقير بل يَعْذُبُ اسمُ الشيء بالتصغير[(١)]

وقرأ البزي هنا: «يا بنيْ» بالسكون، وفيما بعد: «يا بنيِّ إنها» بكسر الياء، و: «يا بنيَّ أقم» بفتحها، وقنبل بالسكون في الأولى والثالثة والكسر في الوسطى، وحفص والمفضل عن عاصم بالفتح في الثلاثة على تقدير: يا بُنيًا، والاجتزاءِ بالفتحة عن الألف، وقرأ باقي السبعة بالكسر فيها[(٢)].

﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ قيل: كان ابنُه كافراً ولذا نهاه عن الشرك، فلم يَزَلْ يَعِظُه حتى أسلم، وكذا قيل في امرأته. وأخرج ابن أبي الدنيا في «نعت الخائفين» عن الفضل الرقاشي قال: ما زال لقمانُ يَعِظُ ابنه حتى مات. وأخرج عن حفص بن عمر الكندي قال: وضع لقمان جراباً من خَرْدَلٍ وجعل يَعِظُ ابنَه موعظةً ويُخرج خردلةً، فنفد الخردل فقال: يا بنيَّ، لقد وعظتُك موعظةً لو وعظتُها جبلاً لتفطَّر، فتفطَّرَ ابنُه[(٣)].

وقيل: كان مسلماً والنهيُ عن الشرك تحذيرٌ له عن صدوره منه في المستقبل.

والظاهرُ أن الباء متعلِّقٌ بما عنده، ومَن وقف على «لا تشرك» جعل الباء للقسم، أي: أُقْسِمُ بالله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⑬﴾ والظاهرُ أنَّ هذا من كلام لقمان، ويقتضيه كلامُ مسلم في صحيحه[(٤)]، والكلام تعليلٌ للنهي أو الانتهاء عن الشرك، وقيل: هو خبرٌ من الله تعالى شأنُه منقطعٌ عن لقمان متصلٌ به في تأكيد المعنى.

وكونُ الشرك ظلماً لِمَا فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وكونُه عظيماً لِمَا فيه من التسوية بين مَن لا نعمةَ إلا منه سبحانه ومَن لا نعمةَ له.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ١٣٥.

(٢) التيسير ص١٧٦، والنشر ٢/ ٢٨٩، والبحر ٧/ ١٨٦، وعنه نقل المصنف.

(٣) الخبران في الدر المنثور ٥/ ١٦٢.

(٤) برقم (١٢٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٤٢٤٠)، والبخاري (٦٩٣٧)، وهو من حديث ابن مسعود ﷺ قال: لمَّا نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ إلخ كلامٌ مستأنفٌ اعتُرِضَ به على نهج الاستطراد في أثناء وصيةِ لقمان تأكيداً لِمَا فيه من النهي عن الإشراك، فهو من كلام الله عز وجل لم يقله سبحانه للقمان.

وقيل: هو من كلامه تعالى قاله جل وعلا له، وكأنه قيل: قلنا له اشكر وقلنا له وصينا الإنسان.. إلخ.

وفي «البحر»: لمَّا بيَّن لقمانُ لابنه أنَّ الشرك ظلمٌ ونهاه عنه، كان ذلك حثّاً على طاعة الله تعالى، ثم بيَّن أنَّ الطاعة أيضاً تكون للأبوين وبيَّن السبب في ذلك، فهو من كلام لقمان مما وصى به ابنه، أخبر الله تعالى عنه بذلك[(١)]. وكِلَا القولين كما ترى.

والمعنى: وأَمَرْنا الإنسان برعاية والديه ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا﴾ أي: ضعفاً﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: ضعف، والمصدرُ حالٌ من«أمه» بتقدير مضافٍ، أي: ذاتَ وَهْنٍ، وجوِّز جَعْلُه نفسه حالاً مبالغةً، لكنه مخالفٌ للقياس إذ القياسُ في الحال كونُه مشتقّاً. ويجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً لفعلٍ مقدَّرٍ، أي: تَهِنُ وَهْناً، والجملة حالٌ من «أمه» أيضاً. وأيّاً ما كان فالمرادُ: تَضْعفُ ضَعْفاً متزايداً بازدياد ثقل الحمل إلى مدة الطلق. وقيل: ضَعْفاً متتابعاً، وهو ضعفُ الحمل وضَعْفُ الطلق وضَعْفُ النفاس.

وجوِّز أن يكون حالاً من الضمير المنصوب في «حملته» العائدِ على «الإنسان» وهو الذي يقتضيه ما أخرجه ابنُ جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال: «وهناً» الولد «على وهن» الوالدةُ وضَعْفُها[(٢)]. والمرادُ أنها حملته حالَ كونه ضعيفاً على ضعيفٍ مِثْلِه، وليس المراد أنها حملته حالَ كونه متزايدَ الضعف ليقال: إنَّ ضَعْفَه لا يتزايد بل ينقص.

وقرأ عيسى الثقفي وأبو عمرو في رواية: «وَهَناً على وَهَنٍ» بفتح الهاء فيهما[(٣)]،

---

(١) البحر ٧/١٨٦.
(٢) تفسير الطبري ١٨/٥٥١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/١٦٦.
(٣) القراءات الشاذة ص١١٦-١١٧، والمحتسب ٢/١٦٧، والبحر ٧/١٨٧.

فاحتمل أن يكون من باب تحريك العين إذا كانت حرفَ حَلْقٍ كالشَّعْر والشَّعَر على القياس المطَّرد عند الكوفيِّ كما ذهب إليه ابن جنِّي[١]، وأن يكون مصدرَ وَهِنَ بكسر الهاء يَوْهَنُ بفتحها، فإنَّ مصدره جاء كذلك، وهذا كما يقال: تَعِبَ يَتْعَبُ تَعَباً كما قيل، وكلامُ صاحب «القاموس» ظاهرٌ في عدم اختصاص أحد المصدرين بأحد الفعلين قال: الوَهْنُ: الضَّعْفُ في العمل، ويحرَّك، والفعل كوَعَدَ ووَرِثَ وكَرُمَ[٢].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي: فطامُه وتَرْكُ إرضاعه. وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادةُ والجحدريُّ ويعقوب: «وفَصْلُه»[٣]، وهو أعمُّ من الفصال، والفصالُ هاهنا أَوْقَعُ من الفصل لأنه موقعٌ يختصُّ بالرضاع وإن رجعا إلى أصلٍ واحدٍ على ما قال الطيبيُّ[٤].

﴿فِي عَامَيْنِ﴾ أي: في انقضاء عامين، أي: في أول زمانِ انقضائهما، وظاهرُ الآية أنَّ مدَّةَ الرضاع عامان، وإلى ذلك ذهب الإمام الشافعيُّ والإمامُ أحمدُ وأبو يوسفَ ومحمدٌ، وهو مختارُ الطحاويِّ، وروي عن مالك، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنَّ مدة الرضاع الذي يتعلَّق به التحريمُ ثلاثون شهراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]، ووجهُ الاستدلال به أنه سبحانه وتعالى ذكر شيئين وضرب لهما مدةً، فكانت لكلٍّ واحدٍ منهما بكمالها، كالأجل المضروب للدَّيْنَيْنِ على شخصين، بأن قال: أَجَّلْتُ الدَّيْنَ الذي لي على فلانٍ والدَّيْنَ الذي على فلان سنةً، فإنه يُفْهَمُ أنَّ السَّنة بكمالها لكلٍّ، أو على شخصٍ بأن قال: لفلانٍ عليَّ ألفُ درهمٍ وعشرةُ أقفزةٍ إلى سنةٍ، فصدَّقه المقرُّ له في الأجل، فإذا مضت السنةُ يتمُّ أجلُهما جميعاً إلا أنه قام النقصُ في أحدهما - أعني مدَّةَ الحمل - لقول عائشة الذي لا يقال مثلُه إلَّا سماعاً: الولدُ لا يبقى في بطن أمِّه أكثر من سنتين ولو بقَدْرِ فَلْكةِ مغزلٍ[٥]. فتبقى مدَّةُ الفصال على ظاهرها، وما ذُكر هنا أقلُّ مدَّتِه، وفيه بحث.

---

(١) في المحتسب ١/ ٨٤.
(٢) القاموس «وهن».
(٣) القراءات الشاذة ص١١٦، والمحتسب ٢/ ١٦٧، والبحر ٧/ ١٨٧.
(٤) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٥) سلف ١٣/ ٥٨، والكلام من فتح القدير لابن الهمام ٣/ ٦.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تفسيرٌ لـ «وصَّينا» كما اختاره النحاس[(١)]، فـ «أنْ» تفسيرية. وجوَّز أن تكون مصدريةً بتقدير لام التعليل قبلها، وهو متعلِّقٌ بـ «وصَّينا»، وبلا تقديرٍ على أن يكون المصدر بدلاً من «والديه» بدلَ الاشتمال، وعليه كأنه قيل: وصَّينا الإنسان بوالديه شُكْرِهما، وذكر شكرَ الله تعالى لأنَّ صحة شكرهما تتوقَّفُ على شكره عز وجل، كما قيل في عكسه: «لا يشكرُ الله تعالى مَن لا يشكرُ الناس»[(٢)]، ولذا قرن بينهما في الوصية، وفي هذا من البُعْدِ ما فيه. وأمَّا القولُ بأنَّ الأمر يأبى التفسيرَ والتعليلَ والبدليةَ فليس بشيءٍ كما أشرنا إليه قريباً.

وعلى الأوجُهِ الثلاثة يكون قوله تعالى: (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ) إلى (عَامَيْنِ) اعتراضاً مؤكِّداً للتوصية في حقِّ الأم خصوصاً؛ لذكر ما قاسته في تربيته وحمله، ولذا قال النبيُّ ﷺ - كما في حديثٍ صحيح رواه الترمذيُّ وأبو داود عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده - لمن سأله عمَّن يبرُّه: «أمَّك» وأجابه عن سؤاله به ثلاثَ مرات[(٣)].

وعن بعض العرب أنه حمل أمَّه إلى الحجِّ على ظهره وهو يقول في حُدائه:

أحـمـلُ أمـيِّ وهـي الـحـمَّـالَـهْ
تُـرضـعـنـي الـدِّرَّة والـعُـلَالـهْ
ولا يُـجـازَى والـدٌ فَـعَـالَـه[(٤)]

ولله تعالى درُّ مَن قال:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٠٤)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) سنن أبي داود (٥١٣٩)، وسنن الترمذي (١٨٩٧)، قال الترمذي: هذا حديث حسن، وقد تكلم شعبة في بهز بن حكيم، وهو ثقة عند أهل الحديث. وأخرج نحوه أحمد (٨٣٤٤)، والبخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) العين ١/ ٨٨، والكامل للمبرد ١/ ٤٣٧، والكشاف ٣/ ٢٣٢، واللسان (علل) وفيه: العُلاله: اللبن بعد حلب الدِّرَّة تنزله الناقة.
وقال المبرد: الدِّرَّة: اسم ما يدرُّ من ثدييها. والفَعَال كسحاب: اسم الفعل الحسن. القاموس (فعل).

لأمِّك حقٌّ لو علمتَ كبيرُ ... كثيرُك يا هذا لديه يسيرُ
فكم ليلةٍ باتت بثِقْلِكَ تشتكي ... لها من جراها(١) أنةٌ وزفيرُ
وفي الوضع لو تدري عليها مشقَّةٌ ... فمن غصصٍ لها الفؤادُ يطيرُ
وكم غَسَلتْ عنك الأذى بيمينها ... وما حِجْرُها إلا لديك سريرُ
وتَفديك ممَّا تشتكيه بنفسها ... ومن ثديها شِرْبٌ لديك نَميرُ
وكم مرَّةٍ جاعتْ وأعطتك قُوْتَها ... حُنُوًّا وإشفاقاً وأنت صغيرُ
فآهاً لذي عقلٍ ويَتَّبعُ الهوى ... وآهاً لأعمى القلب وهو بصيرُ
فدونك فارْغَبْ في عميمِ دعائها ... فأنت لِمَا تدعو به لفقير

واختلف في المراد بالشكر المأمور به، فقيل: هو الطاعةُ وفِعْلُ ما يُرْضَى، كالصلاة والصيام بالنسبة إليه تعالى، وكالصلة والبرِّ بالنسبة إلى الوالدين، وعن سفيان بن عيينة: مَن صلَّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومَن دعا لوالديه في أدبارها فقد شكرهما. ولعل هذا بيانٌ لبعض أفراد الشكر.

﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ تعليلٌ لوجوب الامتثال بالأمر، أي: إليَّ الرجوعُ لا إلى غيري، فأجازيك على ما صَدَرَ عنك ممَّا يخالفُ أمري.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ﴾ أي: باستحقاقه الإشراكَ، أو بشركته له تعالى في استحقاق العبادة، والجارُّ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿عِلْمٌ﴾، و«ما» مفعولُ «تشرك» كما اختاره ابنُ الحاجب، ثم قال: ولو جُعل «تشرك» بمعنى تكفر، وجُعلت «ما» نكرةً أو بمعنى الذي، بمعنى: كفراً أو الكفر، وتكونُ نصباً على المصدرية، لكان وجهاً حسناً، والكلامُ عليه أيضاً بتقدير مضافٍ، أي: وإنْ جاهدك الوالدان على أن تكفر بي كفراً ليس لك، أو الكفرَ الذي ليس لك بصحته أو بحقِّيته علم ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك، والمرادُ استمرارُ نفي العلم لا نفيُ استمراره، فلا يكون الإشراك إلا تقليداً.

وفي «الكشاف»: أراد سبحانه بنفي العلم نفيَ ما يُشْرِكُ، أي: لا تشرك بي

---

(١) في الأصل: جواها.

ما ليس بشيءٍ، يريد عزَّ وجلَّ الأصنامَ، كقوله سبحانه: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ﴾ [العنكبوت: ٤٢][1]. وجعله الطيبيُّ[2] على ذلك من باب نفي الشيء بنفي لازمه، وذلك أنَّ العلم تابعٌ للمعلوم، فإذا كان الشيءُ معدوماً لم يتعلَّق به موجوداً، ونَقَلَ عن ابن المنير[3] أنه عليه من باب:

على لاحبٍ لا يُهتَدَى بمناره[4]

أي: ما ليس بإلهٍ، فيكون لك علم بإلهيته.

وفي «الكشف»: أنَّ الزمخشري أراد أنه بولغ في نفي الشريك حتى جُعِلَ كَلَا شيءٍ، ثم بولغ حتى ما لا يصحُّ أن يتعلَّق به علمٌ والمعدومُ يصحُّ أن يُعْلَم ويصحُّ أن يقال: إنه شيءٌ، فأُدخل في سلك المجهول مطلقاً وليس من قبيل نفي العلم لنفي وجوده، وهذا تقريرٌ حسن، وفيه مبالغةٌ عظيمةٌ منه يظهر ترجيحُ هذا المسلك في هذا المقام على أسلوب:

ولا تَرى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ[5]

اهـ، فافهم ولا تغفل.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ أي: صِحَاباً معروفاً يرتضيه الشرعُ ويقتضيه الكَرَمُ والمروءةُ، كإطعامهما وإكسائهما، وعدمِ جفائهما وانتهارِهما، وعيادتِهما إذا مرضا، ومواراتهما إذا ماتا.

وذكر «في الدنيا» لتهوين أمر الصحبة، والإشارةِ إلى أنها في أيامٍ قلائلَ وشيكةِ الانقضاء، فلا يضرُّ تحمُّل مشقَّتها لقلَّةِ أيامها وسرعةِ انصرامها. وقيلَ: للإشارة إلى أنَّ الرفق بهما في الأمور الدنيوية دون الدينية. وقيل: ذكره لمقابلته بقوله تعالى: (ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ).

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٢.

(٢) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٣) في الانتصاف ٣/ ٢٣٢.

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٦٦، وسلف ١/ ٤٥٧ و٢/ ٢٤١، وغيرها.

(٥) وقبله: لا يُفْزِعُ الأرنبَ أهوالُها. والبيت لابن الأحمر، وهو في ديوانه ص٦٧، وسلف ٤/ ٨٨ و٥/ ٥٦ وغيرها.

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: رجع ﴿إِلَيَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص بالطاعة، وحاصلُه: اتَّبعْ سبيل المخلِصينَ لا سبيلهما.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعُك ورجوعُهما، وزاد بعضهم: مَن أناب، وهو خلافُ الظاهر، وأيَّاما كان ففيه تغليبٌ للخطاب على الغيبة.

﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ بأن أجازي كلّاً منكم بما صدر عنه من الخير والشر.

والآيةُ نزلت في سعد بن أبي وقاص؛ أخرج أبو يعلى والطبرانيُّ وابنُ مردويه وابنُ عساكر عن أبي عثمان النَّهْديِّ أنَّ سعد بن أبي وقاص قال: أنزلت فيَّ هذه الآيةُ: (وَإِن جَٰهَدَاكَ) الآيةَ، كنتُ رجلاً برّاً بأمِّي، فلما أسلمتُ قالت: يا سعد، وما هذا الذي أراك قد أحدَثْتَ؟ لتَدَعَنَّ دينَك هذا أو لا آكلُ ولا أشربُ حتى أموت، فتعيَّرُ بي فيقال: يا قاتلَ أمِّه. قلت: لا تفعلي يا أمَّه فإنِّي لا أدعُ ديني هذا لشيءٍ. فمكثتْ يوماً وليلةً لا تأكل، فأصبحت قد جهدتْ، فمكثت يوماً [آخر] وليلةً لا تأكل فأصبحت قد اشتدَّ جهدها، فلما رأيتُ ذلك قلتُ: يا أمه، تعلمين واللهِ لو كانت لك مئة نفسٍ فخرجتْ نَفْساً نَفْساً ما تركتُ ديني هذا لشيءٍ، فإنْ شئتِ فكُلي وإن شئتِ لا تأكلي. فلمَّا رأت ذلك أكلتْ، فنزلت هذه الآية[1].

وذكر بعضهم أن هذه وما قبلها ـ أعني قولَه تعالى: (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ) الآيةَ ـ نزلتا فيه، قيل: ولكون النزول فيه قيل: «مَن أناب» بتوحيد الضمير، حيث أُريدَ بذلك أبو بكر رضي الله عنه، فإنَّ إسلام سعد كان بسبب إسلامه.

أخرج الواحديُّ[2] عن عطاءٍ عن ابن عباس قال: إنه يريد بمن أناب أبا بكر[3]، وذلك أنه حين أسلم رآه عبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وعثمان وطلحة والزبير، فقالوا لأبي بكر: آمنتَ وصدَّقْتَ محمداً ﷺ؟ فقال أبو بكر: نعم. فأتوا

(١) الدر المنثور ٥/ ١٦٥، وما بين حاصرتين منه، وهو في تاريخ ابن عساكر ٢٠/ ٣٣١. وأخرج نحوه مطولاً مسلم (١٧٤٨)، وأبو يعلى (٧٨٢) من طريق مصعب بن سعد عن أبيه.
(٢) في أسباب النزول ص٣٦٣.
(٣) في الأصل و(م): أبو بكر، والمثبت من أسباب النزول.

رسول الله ﷺ فآمنوا وصدَّقوا، فأنزل الله تعالى يقول لسعد: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني أبا بكر رضي الله عنه.

وابنُ جريج يقول كما أخرج عنه ابن المنذر: «مَن أناب»: محمدٌ ﷺ[1]. وغيرُ واحدٍ يقول: هو ﷺ والمؤمنون. والظاهرُ هو العموم.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ إلخ رجوعٌ إلى القصة بذِكْرِ بقيةِ ما أُريدَ حكايتُه من وصايا لقمان، إثر تقريرِ ما في مطلعه من النهي عن الشرك وتأكيدِه بالاعتراض ﴿إِنَّهَآ﴾ أي: الخصلة من الإساءة والإحسان؛ لفَهْمِها من السياق. وقيل ـ وهو كما ترى ـ: «إنها» أي: التي سألتَ عنها، فقد روي أنَّ لقمان سأله ابنُه: أرأيتَ الحبةَ تقع في مغاص البحر، أيعلمها الله تعالى؟ فقال: «يا بني إنها» أي: التي سألت عنها ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إنْ تكن مَثَلاً في الصغر كحبة الخردل.

والمثقالُ ما يقدَّر به غيرُه لتساوي ثقلهما، وهو في العُرْفِ معلوم. وقرأ نافع والأعرج وأبو جعفر: «مثقالُ» بالرفع[2] على أنَّ الضمير للقصة، و«تَكُ» مضارعُ كان التامَّة، والتأنيثُ لإضافة الفاعل إلى المؤنَّث، كما في قول الأعشى:

وتَشْرَقَ بالقول الذي قد أذَعْتَه ... كما شَرِقَتْ صَدْرُ القناةِ من الدم[3]

أو لتأويله بالزِّنةِ أو الحسنة والسيئة.

﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فتكنْ مع كونها في أقصى غايات الصغر والقماءة في أَخْفَى مكانٍ وأَحْرَزِه، كجوف الصخرة، أو حيث كانت في العالم العلويِّ أو السفليِّ.

وقيل: في أَخْفَى مكانٍ وأَحْرزِه كجوفِ الصخرة، أو أعلاه كمحدَّبِ السماوات، أو أسفله كمقعَّر الأرض. ولا يخفى أنه لا دلالة في النظم على تخصيص المحدَّب والمقعَّر، ولعل المقام يقتضيه إذ المقصود المبالغة، و«في» في قوله تعالى: (فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ) لا يأبى ذلك؛ لأنها ذُكرت بحسب المكانية، أو

(١) الدر المنثور ٥/ ١٦٦.

(٢) التيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٤ عن نافع وأبي جعفر.

(٣) ديوان الأعشى ص١٨٣، وسلف ٤/ ٣٦٦ و٦/ ٣١ و١٢/ ٢٢٦.

للمشاكلة، أو هي بمعنى على، وعبِّر بها للدلالة على التمكُّن، ومع هذا الظاهرُ ما تقدَّم.

وفي «البحر» أنه بدأ بما يتعقَّلُه السامعُ أوَّلاً وهو كينونةُ الشيء في صخرةٍ، وهو ما صَلُبَ من الحجر وعَسُرَ الإخراج منه، ثم أَتْبعَه بالعالم العلويِّ وهو أغربُ للسامع، ثم أَتْبعَه بما يكون مقرَّ الأشياءِ للشاهد وهو الأرض(١).

وقيل: إنَّ خفاءَ الشيءِ وصعوبةَ نيلِه بطرقٍ بغاية صغره، وببُعْدِه عن الرائي، وبكونه في ظلمةٍ، وباحتجابه. ف «مثقال حبةٍ من خردلٍ» إشارةٌ إلى غاية الصغر، و«في صخرة» إشارةٌ إلى الحجاب، و«في السماوات» إشارةٌ إلى البعد، و«في الأرض» إشارةٌ إلى الظلمة فإنَّ جوف الأرض أشدُّ الأماكن ظلمةً.

وأيّاً ما كان فليس المراد ب «صخرة» صخرةً معيَّنة، وعن ابن عباس والسديِّ أنَّ هذه الصخرة هي التي عليها الأرضُ. وأخرج ابن مردويه(٢) عن ابن عباس أنَّ الأرض على نونٍ، والنونُ على بحرٍ، والبحرُ على صخرةٍ خضراءَ، خضرةُ الماء منها، والصخرةُ على قرن ثورٍ، وذلك الثورُ على الثرى، ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله تعالى. وفسر بعضهم الصخرة بهذه الصخرة. وقيل: هي صخرة في الريح.

قال ابن عطية: وكلُّ ذلك ضعيفٌ لا يثبُتُ سندُه، وإنما معنى الكلامِ المبالغةُ والانتهاءُ في التفهيم، أي: إنَّ قدرته عز وجل تنالُ ما يكون في تضاعيف صخرةٍ، وما يكون في السماء، وما يكون في الأرض(٣). اهـ.

والأقوى عندي وَضْعُ هذه الأخبار ونحوِها، فليست الأرضُ إلا في حجر الماء وليس الماءُ إلا في جوف الهواء، وينتهي الأمرُ إلى عرش الرحمن جل وعلا، والكلُّ في كفِّ قدرة الله عز وجل.

وقرأ عبد الكريم الجزري: «فتَكِنَّ» بكسر الكاف وشدِّ النون وفَتْحِها(٤). وقرأ

---

(١) البحر ٧/ ١٨٧-١٨٨.

(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ١٦٦.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠.

(٤) المحتسب ٢/ ١٦٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠، والبحر ٧/ ١٨٧. ووقع في الأصل و(م): عبد الرحيم الجزري، والمثبت من المصادر. =

محمد بن أبي فجّة البعلبكيُّ: «فتُكَنَّ» بضمِّ التاء وفتح الكاف والنونِ مشدَّدةً. وقرأ قتادة: «فتَكِنْ» بفتح التاء وكسر الكاف وسكون النون[١]، ورُويت هذه القراءةُ عن الجزريِّ أيضاً. والفعلُ في جميع ما ذُكر من وَكَنَ الطائرُ: إذا استقرَّ في وكنته[٢]، أي: عشِّه، ففي الكلام استعارةٌ أو مجازٌ مرسلٌ كما في المشفر[٣].

والضمير للمحدَّثِ عنه فيما سبق، وجوِّز أن يكون للابن، والمعنى: إن تَخْتَفِ أو تَخْفَ وقتَ الحساب يُحْضِرْكَ الله تعالى، ولا يخفى أنه غيرُ ملائمٍ للجواب، أعني قولَه تعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ أي: يُحْضِرُها فيحاسبُ عليها، وهذا إما على ظاهره، أو المرادُ: يجعلها كالحاضر المشاهد لذكرها والاعتراف بها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يَصِلُ عِلْمُه تعالى إلى كلِّ خفيٍّ ﴿خَبِيرٌ ١٦﴾ عالمٌ بكنهه. وعن قتادة: لطيفٌ باستخراجها خبيرٌ بمستقرِّها. وقيل: ذو لطفٍ بعباده، فيلطفُ بالإتيان بها بأحد الخصمين، «خبير» عالم بخفايا الأشياء. وهو كما ترى.

والجملةُ علةٌ مصحِّحة للإتيان بها، أخرج ابن أبي حاتم عن عليِّ بنِ رباح اللخميِّ أنه لمَّا وَعَظَ لقمانُ ابنَه وقال: (إِنَّهَآ إِن تَكُ) الآيَةَ، أخذ حبةً من خردلٍ فأتى بها إلى اليرموك - وهو وادٍ في الشام - فألقاها في عرضِهِ، ثم مكث ما شاء الله تعالى، ثم ذكرها وبسط يده فأقبل بها ذبابٌ حتى وضعها في راحته[٤]. والله تعالى أعلم.

وبعدَ ما أَمَرَه بالتوحيد الذي هو أولُ ما يجب على المكلَّف في ضمن النهي عن الشرك، ونبَّهه على كمال عِلْمِه تعالى وقدرته عز وجل، أَمَرَه بالصلاة التي هي أكملُ العبادات تكميلاً له[٥] من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد، فقال مستميلاً

= وعبد الكريم الجزري هو ابن مالك، أبو سعيد الحرَّاني مولى بني أمية، ويقال له: الخِضْرِمي بالخاء المعجمة المكسورة، وهي من قرى اليمامة، توفي سنة (١٢٧هـ). التهذيب ٢/ ٦٠٢. والقراءة ذكرها ابن خالويه ص١١٧ عن الأنباري.

(١) القراءتان في القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٨٧، والكلام منه.

(٢) بفتح الواو وضمها وسكونِ الكاف أو ضمها مع ضم الواو. حاشية الشهاب ٧/ ١٣٧.

(٣) المِشْفَر: شفة البعير، وقد يستعمل في الناس على الاستعارة. التاج (شفر).

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٦٣.

(٥) قوله: له، ساقط من (م)، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٧٢، والكلام منه.

له: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلاً لنفسك، ويُروى أنه قال له: يا بني إذا جاء وقتُ الصلاة فلا تؤخِّرها لشيءٍ، صلِّها واستَرِحْ منها فإنها دينٌ، وصلِّ في جماعةٍ ولو على رأس زجٍّ(١).

﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك، والظاهرُ أنه ليس المرادُ معروفاً ومنكراً معيَّنين، وأخرج ابن أبي حاتم(٢) عن ابن جبير أنه قال: «وأمر بالمعروف» يعني التوحيد «وانه عن المنكر» يعني الشرك.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من الشدائد والمحن، لا سيما فيما أُمرتَ به من إقامة الصلاة والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، واحتياجُ الأخيرين للصبر على ما ذُكر ظاهرٌ، والأولِ لأنَّ إتمام الصلاة والمحافظةَ عليها قد يَشُقُّ، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال ابن جبير: واصبر على ما أصابك في أمر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول: إذا أَمرْتَ بمعروفٍ أو نَهيْتَ عن منكرٍ وأصابك في ذلك أذًى وشدةٌ فاصبر عليه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الصبر على ما أصابك، عند ابن جبير، وهو يناسبُ إفرادَ اسم الإشارة، وما فيه من معنى البعدِ للإشعار ببعدِ منزلته في الفضل. أو الإشارةُ إلى الصبر وإلى سائر ما أُمر به، والإفراد للتأويل بما ذكر، وأمرُ البعد على ما سمعت.

﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ أي: ممَّا عزمه الله تعالى وقَطَعه قَطْعَ إيجابٍ، وروي ذلك عن ابن جُريج، والعزمُ بهذا المعنى مما ينسب إلى الله تعالى، ومنه ما ورد من عزمات الله عز وجل، والمراد به هنا المعزومُ، إطلاقاً للمصدر على المفعول، والإضافةُ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الأمور المعزومة.

وجوِّز أن يكون العزمُ بمعنى الفاعل، أي: عازم الأمور، من عَزَمَ الأمر، أي: جدَّ، فعزم الأمور من باب الإسناد المجازيِّ كمكر الليل، لا من باب الإضافة على معنى في وإنْ صحَّ.

---

(١) الزج: الحديدة في أسفل الرمح. القاموس (زجج).
(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ١٦٦.

وقيل: يريد: من مكارم الأخلاق وعزائمِ أهل الحزم السالكين طريقَ النجاة.

واستَظْهَر أبو حيان أنه أراد: من لازمات الأمور الواجبة، ونَقَل عن بعضهم أنَّ العزم هو الحزمُ بلغة هذيل، والحزمُ والعزمُ أصلان. وما قاله المبرِّد من أنَّ العين قُلبتْ حاءً ليس بشيءٍ، لاطِّراد تصاريف كلٍّ من اللفظين، فليس أحدُهما أصلاً للآخر[1].

والجملةُ تعليلٌ لوجوب الامتثال بما سبق، وفيه اعتناءٌ بشأنه.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تُمِلْه عنهم، ولا تولِّهم صفحةَ وجهك كما يفعلُه المتكبِّرون، قاله ابن عباس وجماعةٌ، وأنشدوا:

وكنَّا إذا الجبارُ صعَّر خدَّه ... أقمنا له من ميله فتقوَّما[2]

فهو من الصَّعر بمعنى الصَّيد[3]، وهو داءٌ يعتري البعير فيُلوَى منه عنقه، ويستعارُ للتكبُّر كالصَّعر.

وقال ابن خويزمنداد: نُهي أن يذلَّ نفسه من غير حاجةٍ فيلوي عنقَه. ورجِّح الأولُ بأنه أوفقُ بما بعدُ، ولامُ «للناس» تعليليةٌ، والمراد: ولا تصعِّر خدَّك لأَجْلِ الإعراض عن الناس، أو صلة.

وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ: «تُصاعر» بألفٍ بعد الصاد[4]. وقرأ الجحدريُّ: «تُصْعِر» مضارعُ أَصْعَرَ[5]، والكلُّ واحدٌ، مثل: علَّاه وعالاه وأَعْلاه.

---

(١) البحر ٧/ ١٨٨.

(٢) البيت من قصيدة للمتلمس كما في الأصمعيات ص٢٤٥، وجمهرة أشعار العرب ١/ ١٣٣، ومختارات ابن الشجري ١/ ٢٨، ومعجم الشعراء للمرزباني ص١٣، واللسان (صعر). وهذا البيت كما في معجم الشعراء يروى أيضاً من قصيدة لعمرو بن جني التغلبي قافيتها بالميم المكسورة، برواية: فتقوَّم، وهو أمر بالاستقامة، أي: فتقوَّمْ أنت. وذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٢٧، والطبري ١٨/ ٥٥٩ منسوباً لعمرو بن جني ولكن بالرواية الأولى. وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١، والبحر ٧/ ١٨٢.

(٣) بكسر الصاد، ويحرك. القاموس (صيد).

(٤) التيسير ص١٧٦، والنشر ٢/ ٣٤٦، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٨٨.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي أحطُّ الأماكن منزلةً ﴿مَرَحًا﴾ أي: فَرَحاً وبَطَراً، مصدرٌ وقع موقعَ الحال للمبالغة أو لتأويله بالوصف، أو: تمرح مرحاً، على أنه مفعولٌ مطلق لفعلٍ محذوف، والجملةُ في موضع الحال. أو: لأَجْلِ المرح على أنه مفعولٌ له.

وقرئ: «مرِحاً» بكسر الراء[1] على أنه وصفٌ في موضع الحال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ تعليلٌ للنهي أو موجبه، والمختال من الخيلاء وهو التَّبَخْتُر في المشي كبراً، وقال الراغب: التكبُّر عن تخيُّلِ فضيلةٍ تراءت للإنسان من نفسه، ومنه تُؤوِّلَ لَفْظُ الخيل لِمَا قيل: إنه لا يركب أحدٌ فرساً إلَّا وَجَدَ في نفسه نخوةً[2].

والفَخورُ من الفخر، وهو المباهاةُ في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه، ويدخل في ذلك تعدادُ الشخص ما أعطاه لظهور أنه مباهاةٌ بالمال، وعن مجاهدٍ تفسيرُ الفَخور بمن يعدِّد ما أَعْطَى ولا يشكرُ الله عز وجل.

وفي الآية عند الزمخشريِّ لفٌّ ونشرٌ معكوسٌ، حيث قال: المختالُ مقابلٌ للماشي مَرَحاً، وكذلك الفخورُ للمصعِّرِ خدَّه كبراً[3]، وذلك لرعاية الفواصل على ما قيل، ولا يأبى ذلك كونُ الوصية لم تكن باللسان العربي كما لا يخفى.

وجوِّز أن يكون هناك لفٌّ ونشرٌ مرتَّبٌ، فإنَّ الاختيال يناسبُ الكبر والعُجْبَ، وكذا الفخر يناسبُ المشي مرحاً، والكلامُ على رفع الإيجاب الكلِّيِّ، والمراد السلبُ الكليُّ، وجوِّز أن يبقى على ظاهره، وصيغةُ «فخور» للفاصلة، ولأنَّ ما يُكره من الفخر كثرته فإنَّ القليل منه يَكثُر وقوعُه، فلطفُ الله تعالى بالعفو عنه، وهذا كما لَطَفَ بإباحة اختيال المجاهد بين الصفَّين، وإباحة الفخر بنحو المال لمقصدٍ حسن.

---

(١) لم نقف على مَن ذكرها عند هذه الآية، وإنما ذكروها عند الآية (٣٧) من سورة الإسراء.
(٢) مفردات الراغب (خيل).
(٣) الكشاف ٣/ ٢٣٤.

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ بعد الاجتناب عن المرح فيه، أي: توسَّطْ فيه بين الدبيب والإسراع، من القَصْدِ: وهو الاعتدال، وجاء في عدة رواياتٍ - إلَّا أنَّ في أكثرها مقالاً يُخْرِجُها عن صلاحية الاحتجاجِ بها كما لا يخفى على مَن راجَعَ «شرح الجامع الصغير» للمناوي[(١)] - عن النبيِّ ﷺ: «سرعةُ المشي تُذْهِبُ بهاءَ المؤمن»[(٢)] أي: هيبتَه وجمالَه، أي: تُوْرِثُه حقارةً في أعين الناس، وكأنَّ ذلك لأنها تدلُّ على الخفة، وهذا أقربُ من قول المُنَاوي: لأنها تُتْعِبُ فتغيرٌ البدنَ والهيئة[(٣)].

وقال ابن مسعود: كانوا يُنهون عن خَبَبِ اليهود ودبيبِ النصارى، ولكن مشياً بين ذلك.

وما في «النهاية» من أنَّ عائشة نظرت إلى رجلٍ كاد يموت تخافتاً فقالت: ما لهذا؟ فقيل: إنه من القرَّاء. فقالت: كان عمر رضي الله عنه سيدَ القراء، وكان إذا مشى أسرع، وإذا قال أَسْمعَ، وإذا ضرب أَوْجَعَ[(٤)]. فالمراد بالإسراع فيه ما فوق دبيب

---

(١) فيض القدير ٤/ ١٠٤ و١٤٠، وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٩٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفيه محمد بن عبد الملك بن قريب الأصمعي، قال الخطيب: لم أسمع له بذكر إلا في هذا الحديث، وقال الذهبي: وهو حديث منكر جدًّا. الميزان ٣/ ٦٣٢، وفيض القدير ٤/ ١٠٤، وقال المناوي: وأعله ابن حبّان بأبي معشر وقال: اختلط آخراً وكثرت المناكير في روايته فبطل الاحتجاج به.
وأخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٢٧ من حديث أبي هريرة أيضاً، وفي إسناده عمار بن مطر وهو متروك. وأخرجه ٧/ ٢٥٣٩ من حديث أبي سعيد الخدري وفي إسناده الوليد بن سلمة، وهو متروك وكذبه غير واحد.
وأخرجه ابن حبان ٢/ ٨٢، وابن عدي ٥/ ١٦٧٣ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفي إسناده عمر بن محمد بن صهبان، قال ابن حبان: كان ممن يروي عن الثقات المعضلات التي إذا سمعها مَن الحديثُ صنعتُه لم يشكَّ أنها معمولة، يجب التنكب عن روايته في الكتب.
وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٩٩) من حديث أنس رضي الله عنه، وفي إسناده مجهولون، وفيه أيضاً عبد السلام بن صالح الأزدي، وهو صاحب مناكير.

(٣) فيض القدير ٤/ ١٠٤.

(٤) النهاية في غريب الحديث (موت).

المتماوت[١]، وهو الذي يُخفي صوتَه ويُقِلُّ حركاته ممَّن[٢] يتزيَّا بزيِّ العبَّاد، كأنه يتكلَّفُ في اتصافه بما يقرِّبُه من صفات الأموات؛ ليوهم أنه ضَعُفَ من كثرة العبادة، فلا ينافي الآيةَ، وكذا ورد في صفته ﷺ إذ يمشي كأنما ينحطُّ من صببٍ[٣]، وكذا لا ينافيها قولُه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إذ ليس الهون فيه المشيَ كدبيب النمل.

وذكر بعض الأفاضل أنَّ المذموم اعتيادُ الإسراع بالإفراط فيه.

وقال السخاويُّ: محلُّ ذمِّ الإسراع ما لم يُخْشَ من بطءِ السير تفويتُ أمرٍ دينيٍّ[٤]، لكن أنت تعلم أنَّ الإسراع المُذْهِبَ للخشوع لإدراك الركعة مع الإمام مثلاً مما قالوا: إنه ممَّا لا ينبغي، فلا تغفل.

وعن مجاهد: أنَّ القَصْدَ في المشي التواضُعُ فيه. وقيل: جَعْلُ البصر موضعَ القدم. والمعوَّلُ عليه ما تقدَّم.

وقرئ: «وأَقْصِدْ» بقَطْعِ الهمزة، ونَسَبَها ابنُ خالويه للحجازيِّ[٥]، من أَقْصَدَ الرامي: إذا سدَّد سهمه نحو الرميَّة ووجَّهَه إليها ليصيبها، أي: سدِّد في مشيك، والمراد: امشِ مشياً حسناً، وكأنه أُريدَ التوسُّطُ به بين المشيين السريعِ والبطيءِ، فتتوافق القراءتان.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: انقُصْ منه واقْصِرْ، من قولك: فلان يغضُّ من فلانٍ، إذا قصر به ووضع منه وحطَّ من درجته. وفي «البحر»: الغضُّ ردُّ طموح

---

(١) جاء في حاشية (م): ورأى عمر ﷺ رجلاً متماوتاً فقال: لا تُمِتْ علينا ديننا أماتك الله. ورأى رجلاً مطأطئاً رأسه فقال: ارفع رأسك فإن الإسلام ليس بمريض. اهـ منه. والخبران في النهاية (موت).

(٢) في الأصل و(م): مما، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ١٣٨، والكلام منه.

(٣) قطعة من حديث هند بن أبي هالة، أخرجه الترمذي في الشمائل (٧)، والقاضي عياض كما في شرح الشفا للملا علي القاري ١/ ٣٣٤.

(٤) المقاصد الحسنة ص٢٤٠، ونقله المصنف عنه بواسطة المناوي في فيض القدير ٤/ ١٠٤، وعبارة السخاوي: وهو محمود لمن يخشى من البطء في السير تفويت أمر ديني ونحوه.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٨٩، والكلام منه.

الشيء كالصوت والنظر[١]، ويستعمل متعدِّياً بنفسه كما في قوله:

فـغُـضَّ الـطَّـرْفَ إنَّـك مـن نـمـيـرٍ[٢]

ومتعدِّياً بمن كما هو ظاهر قول الجوهري: غضَّ من صوته[٣]. والظاهر أنَّ ما في الآية من الثاني، وتكلَّف بعضُهم جَعْلَ «من» فيها للتبعيض، وادَّعى آخرُ كونَها زائدةً في الإثبات. وكانت العرب تفتخرُ بجهارة الصوت وتَمدحُ به في الجاهلية، ومنه قولُ الشاعر:

جـهـيـرُ الـكـلام جـهـيـرُ الـعـطـاس جـهـيـرُ الـرُّوَاءِ جـهـيـرُ الـنَّـغَـمْ
ويخطو على الأين[٤] خَطْوَ الظليم ويـعـلـو الـرجـالَ بـخَـلْـقٍ عَـمَـمْ[٥]

والحكمةُ في غضِّ الصوت المأمورِ به أنه أوفرُ للمتكلِّم، وأبسطُ لنَفْسِ السامع وفَهْمِه.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أي: أقبحها، يقال: وجهٌ منكَر، أي: قبيح، قال في «البحر»: وهو أفعل بُني من فِعْلِ المفعول، كقولهم: أشغل من ذات النحيين، وبناؤه من ذلك شاذٌّ[٦].

---

(١) البحر ٧/ ١٨٩.
(٢) وصدره: فلا كعباً بلغت ولا كلابا، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٨٢١.
(٣) الصحاح (غضض).
(٤) في الأصل: على ابن العم، وفي (م): على العم، والمثبت من المصادر على ما يأتي.
(٥) الكامل للمبرد ٢/ ٦٩٤، والبيان والتبيين ١/ ١٢٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢، وأساس البلاغة (جهر)، وتفسير القرطبي ١٦/ ٤٨٤-٤٨٥، والبحر ٧/ ١٨٩. والبيت لرجل يمدح هارون الرشيد كما ذكر المبرد والجاحظ، ورواية الجاحظ: النياط، بدل: العطاس، وقال في شرحه: النياط: معاليق القلب. والأين: الإعياء. والظليم: ذكر النعام. ويقال: إنه لعَمَمُ الجسم، و: إن جسمه لعَمَم، إذا كان تامًّا.
(٦) البحر ٧/ ١٨٩، وقوله: بني من فعل المفعول، أي: مبنيٌّ من فعلٍ مبنيٍّ للمفعول. وقوله: أشغل من ذات النحيين، قال العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٥٦٤: يعنون امرأة منهم، وهي في هذا المثل مفعولة لأنها شُغلت. اهـ. والنحي: زق السمن، وجاء في قصة هذا المثل: أن رجلاً في الجاهلية انتهى إلى امرأة تبيع السمن، ففتح نحياً من أنحائها وذاقه ثم دفع فم النحي في إحدى يديها، ثم فعل ذلك بآخر ودفعه في يدها الأخرى، ففجر بها ولم =

وقال بعض: أي: أصعبها على السمع وأوحشها، من نَكُرَ بالضمِّ نكارةً، ومنه ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر:٦] أي: أمرٍ صعبٍ لا يُعرف.

والمراد بالأصوات أصواتُ الحيوانات، أي: إنَّ أنكر أصوات الحيوانات ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ جمع حمارٍ كما صرَّح به أهلُ اللغة، ولم يخالف فيه غيرُ السهيليِّ قال: إنه فعيلٌ اسم جمع كالعبيد، وقد يطلق على اسم الجمعِ الجمعُ عند اللغويين.

والجملةُ تعليلٌ للأمر بالغضِّ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، حيث شبَّه الرافعون أصواتَهم بالحمير، وهم مثلٌ في الذمِّ البليغ والشتيمة، ومثِّلت أصواتُهم بالنهاق الذي أولُه زفير وآخِرُه شهيق، ثم أُخلي الكلامُ من لَفْظِ التشبيه وأُخرج مخرَجَ الاستعارة، وفي ذلك من المبالغة في الذمِّ والتهجين والإفراطِ في التثبيط عن رَفْع الصوت والترغيبِ عنه ما فيه.

وإفرادُ الصوت مع جمع ما أُضيف هو إليه؛ للإشارة إلى قوة تشابُهِ أصوات الحمير حتى كأنها صوتٌ واحدٌ هو أنكرُ الأصوات، وقال الزمخشريُّ: إنَّ ذلك لِمَا أنَّ المراد ليس بيانَ حالِ صوتِ كلِّ واحدٍ من آحادِ هذا الجنس حتى يُجمع، بل بيانُ صوتِ هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس(١).

قيل: فعلى هذا كان المناسب: لصوتُ الحمار، بتوحيد المضاف إليه.

وأجيب بأنَّ المقصود من الجمع التتميمُ والمبالغةُ في التنفير، فإنَّ الصوت إذا توافقت عليه الحمير كان أنكر.

وأورد عليه أنه يُوهم أنَّ الأنكرية في التوافُق دون الانفراد، وهو لا يناسب المقام.

وأجيب بأنه لا يُلتفت إلى مثل هذا التوهُّم.

وقيل: لم يجمع الصوتُ المضافُ لأنه مصدرٌ، وهو لا يثنَّى ولا يُجمع ما لم تُقْصد الأنواع، كما في «أنكر الأصوات»، فتأمل.

= تدفعه خوفاً على السمن، وتنظر القصة بتمامها في جمهرة الأمثال ٢/ ٣٢١-٣٢٢، ومجمع الأمثال ١/ ٣٧٦-٣٧٧، والمستقصى ١/ ٩٩.

(١) بنحوه في الكشاف ٣/ ٢٣٤.

والظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ من كلام لقمان لابنه تنفيراً له عن رفع الصوت، وقيل: هو من كلام الله تعالى، وانتهت وصيةُ لقمان بقوله: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ ردَّ سبحانه به على المشركين الذين كانوا يتفاخرون بجهارة الصوت ورَفْعِه، مع أنَّ ذلك يؤذي السامعَ ويقرَعُ الصماخَ بقوةٍ، وربما يخرقُ الغشاءَ الذي هو داخلَ الأذن، وبيَّن عزَّ وجل أنَّ مثلَهم في رفع أصواتهم مَثَلُ الحمير، وأنَّ مَثَلَ أصواتهم التي يرفعونها مَثَلُ نهاقها في الشدة مع القبح الموحش.

وهذا الذي يليقُ أن يُجعَلَ وَجْهَ شَبَهٍ، لا الخلوُّ عن ذكر الله تعالى كما يُتَوَهَّم بناءً على ما أخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوريِّ قال: صياحُ كلِّ شيءٍ تسبيحُه إلا الحمار[1]. لما أنَّ وجهَ الشَّبَهِ ينبغي أن يكون صفةً ظاهرةً، وخلوُّ صوت الحمار عن الذكر ليس كذلك، على أنَّا لا نسلِّمُ صحةَ هذا الخبر، فإنَّ فيه ما فيه.

ومثلُه ما شاع بين الجَهَلة من أنَّ نهيق الحمار لَعْنٌ للشيعة الذين لا يزالون ينهقون بسبِّ الصحابة ﷺ، ومِثْلُ هذا من الخرافات التي يمجُّها السمعُ ما عدا سمعَ طويل الأذنين.

والظاهرُ أنَّ المراد بالغضِّ من الصوت الغضُّ منه عند التكلُّم والمحاورة. وقيل: الغضُّ من الصوت مطلقاً، فيشملُ الغضَّ منه عند العطاس، فلا ينبغي أن يرفع صوتَه عنده إنْ أَمْكَنَه عدمُ الرفع، وروي عن أبي عبد الله ﷺ ما يقتضيه، ثم إنَّ الغضَّ ممدوحٌ إن لم يَدْعُ داعٍ شرعيٌّ إلى خلافه.

وأُرْدِفَ الأمرُ بالقَصْدِ في المشي بالأمر بالغضِّ من الصوت لِمَا أنه كثيراً ما يتوصَّلُ إلى المطلوب بالصوت بعد العجز عن التوصُّل إليه بالمشي، كذا قيل.

هذا وأَبْعَدَ بعضُهم في الكلام على هذين الأمرين، فقال: إنَّ الأول إشارةٌ إلى التوسُّط في الأفعال، والثاني إشارةٌ إلى الاحتراز من فضول الكلام والتوسُّطِ في الأقوال، وجَعَل قوله تعالى: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ إلخ إشارةً إلى إصلاح الضمير، وهو كما ترى.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٦٧.

وقرأ ابن أبي عبلة: «أصواتُ الحمير» بالجمع بغير لام التأكيد[(١)].

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ رجوعٌ إلى سَنَنِ ما سَلَفَ قبل قصة لقمانَ من خطاب المشركين، وتوبيخٌ لهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد.

والتسخير على ما قال الراغب: سياقةُ الشيء إلى الغرض المختصِّ به قهراً[(٢)].

وفي «إرشاد العقل السليم»: المرادُ به إمَّا جَعْلُ المسخَّرِ بحيث ينفعُ المسخَّرَ له أَعَمّ من أن يكون منقاداً له يتصرَّفُ فيه كيف يشاء، ويستعمله كيف يريد، كعامة ما في الأرض من الأشياء المسخَّرة للإنسان، المستعملةِ له من الجماد والحيوان، أو لا يكون كذلك، بل يكون سبباً لحصول مراده من غير أن يكون له دَخْلٌ في استعماله، كجميع ما في السماوات من الأشياء التي نيطت بها مصالحُ العباد معاشاً أو معاداً، وإما جَعْلُه منقاداً للأمر مذلَّلاً على أنَّ معنى «لكم»: لأَجْلِكم؛ فإنَّ جميع ما في السماوات والأرض من الكائنات مسخَّرةٌ لله تعالى مستتبِعةٌ لمنافع الخَلْقِ، وما يستعملُه الإنسان حَسْبَما يشاء وإن كان مسخَّراً له بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخَّرٌ لله عز وجل[(٣)].

﴿وَأَسْبَغَ﴾ أي: أتمَّ وأوْسَعَ ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ جمع نعمةٍ، وهي في الأصل: الحالةُ المُسْتَلَذَّةُ؛ فإنَّ بناء الفِعْلةِ كالجِلْسةِ والرِّكْبةِ للهيئة، ثم استُعملت فيما يلائمُ من الأمور الموجبة لتلك الحالة إطلاقاً للمسبَّب على السبب، وفي معنى ذلك قولُهم: هي ما يُنتفع به ويُسْتَلَذُّ، ومنهم مَن زاد: ويحمدُ عاقبتُه، وقال بعضهم: لا حاجةَ إلى هذه الزيادة لأنَّ اللذة عند المحقِّقين أمرٌ تُحمَدُ عاقبتُه، وعليه لا يكون لله عزَّ وجل على كافرٍ نعمةٌ.

ونقل الطيبيُّ عن الإمام أنه قال: النعمةُ عبارةٌ عن المنفعة المفعولةِ على جهة الإحسان إلى الغير، ومنهم مَن يقول: المنفعةُ الحسنةُ المفعولةُ على جهة الإحسان

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢.

(٢) مفردات الراغب (سخر).

(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٧٤.

إلى الغير، قالوا: وإنما زِدْنا قيدَ الحسنة لأنَّ النعمة يستحَقُّ بها الشكرُ، وإذا كانت قبيحةً لا يُستحقُّ بها الشكر، والحقُّ أنَّ هذا القيدَ غيرُ معتبرٍ؛ لأنه يجوز أن يُستَحقَّ الشكرُ بالإحسان وإن كان فعلُه محظوراً؛ لأنَّ جهة الشكر كونُه إحساناً وجهة استحقاق الذمِّ والعقاب الحظر، فأيُّ امتناعٍ في اجتماعهما؟ ألا ترى أنَّ الفاسق يستحقُّ الشكر لإنعامه والذمَّ لمعصية الله تعالى، فلمَ لا يجوزُ أن يكون الأمر ها هنا كذلك. أما قولُنا: المنفعةُ، فلأنَّ المضرَّة المحضَةَ لا تكون نعمةً، وقولُنا: المفعولةُ على جهة الإحسان؛ لأنه لو كان نفعاً وقَصَدَ الفاعل به نَفْعَ نفسِه لا نَفْعَ المفعولِ به لا يكونُ نعمةً، وذلك كمَن أَحْسَنَ إلى جاريته ليربح عليها[1]. اهـ، ويُعلم منه حكمُ زيادة: ويحمد عاقبته.

﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي: محسوسةً ومعقولةً، معروفةً لكم وغيرَ معروفةٍ.

وعن مجاهدٍ: النعمةُ الظاهرةُ ظهورُ الإسلام والنصرةُ على الأعداء، والباطنةُ الإمدادُ من الملائكة عليهم السلام.

وعن الضحاك: الظاهرةُ حُسْنُ الصورةِ وامتدادُ القامةِ وتسويةُ الأعضاء، والباطنةُ: المعرفة.

وقيل: الظاهرةُ البصرُ والسمعُ واللسانُ وسائرُ الجوارح، والباطنةُ: القلبُ والعقلُ والفهم.

وقيل: الظاهرةُ نعمُ الدنيا، والباطنة نعمُ الآخرة.

وقيل: الظاهرةُ: نحوُ إرسال الرسل، وإنزالِ الكتب، والتوفيقِ لقبول الإسلام، والإتيانِ به، والثبات على قدم الصدق، ولزومِ العبودية. والباطنةُ: ما أصاب الأرواح في عالم الذرِّ من رشاش نور النور، وأولُ الغيث قَطْرٌ ثم ينسكبُ.

ونقل بعض الإمامية عن الباقر رضي الله عنه أنه قال: الظاهرةُ النبيُّ ﷺ وما جاء به من معرفة الله تعالى وتوحيده، والباطنةُ: ولايتُنا أهلَ البيت وعَقْدُ مودَّتنا[2].

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وتفسير الرازي ٢٥٨/١.
(٢) مجمع البيان ٢١/٦١.

والتعميمُ الذي أشرنا إليه أولاً أَوْلَى، لكنْ أخرج البهيقيُّ في «شعب الإيمان» عن عطاء قال: سألتُ ابنَ عباس ﵄ عن قوله تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ قال: هذه من كنوز علمي، سألتُ رسول الله ﷺ قال: «أمَّا الظاهرةُ فما سوَّى مِن خَلْقِكَ، وأما الباطنةُ فما سَتَر من عورتك، ولو أبداها لقَلاكَ أهلُكَ فمَن سواهم»[١].

وفي روايةٍ أخرى رواها ابن مردويه والديلميُّ والبيهقيُّ وابن النجار عن ابن عباس أنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ﴾ إلخ قال: «أمَّا الظاهرةُ فالإسلامُ وما سوَّى مِن خَلْقِكَ وما أسبغ عليك من رزقه، وأما الباطنةُ فما سَتَر من مساوئ عملك»[٢].

فإنْ صحَّ ما ذُكر فلا يُعْدَلُ عنه إلى التعميم، إلَّا أنْ يقال: الغرضُ من تفسير الظاهرة والباطنة بما فسَّرنا به التمثيلُ، وهو الظاهرُ، لا التخصيصُ وإلَّا لتعارَضَ الخبران.

ثم إنَّ ظاهر هذين الخبرين يقتضي كونَ الذنب ـ وهو المعبَّرُ عنه في الأول بما ستر من العورة، وفي الثاني بما ستر من مساوئ العمل ـ نعمةً، ولم نرَ في كلامهم التصريحَ بإطلاقها عليه، ويلزمُه أنَّ مَن كثُرتْ ذنوبُه كثُرتْ نعم الله تعالى عليه، فكأنَّ المراد أنَّ النعمة الباطنة هي سترُ ما ستر من العورة ومساوئ العمل، ولم يقل كذلك اعتماداً على وضوح الأمر، وجاء في بعض الآثار ما يقتضي ذلك؛ أخرج ابن أبي حاتم والبيهقيُّ عن مقاتل أنه قال في الآية: «ظاهرة» الإسلام و«باطنة» سترُه تعالى عليكم المعاصي[٣]. بل جاء في بعض روايات الخبر الثاني:

---

(١) شعب الإيمان (٤٥٠٤) وهو من طريق محمد بن عبد الرحمن العرزمي، عن أبيه، عن جده ـ وهو عبد الملك بن سليمان ـ عن عطاء به.
ومحمد بن عبد الرحمن العرزمي قال الدارقطني: متروك الحديث هو وأبوه وجدُّه. الميزان ٣/ ٦٢٧.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٦٧، وأخرجه أيضاً الثعلبي في تفسيره ٧٥/ ٣١٨، وهو من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٦٧، وهو في الشعب (٤٥٠٣).

«وأما ما بطن فسترُ مساوئ عملك». وجوَّز أن يكون «ما» في «ما ستر» في الخبرين مصدريةً، و«من» صلةُ «ستر» لا بيان لـ «ما».

وقرأ يحيى بن عمارة: «وأَصْبَغَ» بالصاد(١)، وهي لغةُ بني كلب يُبْدِلون من السين إذا اجتمعت مع أحد الحروف المستعلية الغينِ والخاءِ والقافِ صاداً، فيقولون في سَلَخ: صَلَخ، وفي سَقَر: صَقَر، وفي سائغ: صائغ، ولا فرق في ذلك بين أن يَفْصِلَ بينهما فاصلٌ وأنْ لا يَفْصِلَ، وظاهرُ كلام بعضهم أنه لا فرقَ أيضاً بين أن تتقدَّم السينُ على أحد تلك الأحرف وأن تتأخَّر، واشترط آخر تقدُّم السين، وذكر الخفاجيُّ أنه إبدالٌ مطَّردٌ(٢).

وقرأ بعض السبعة وزيد بن علي رضي الله عنهما: «نعمةً» بالإفراد(٣). وقرئ «نعمتَه» بالإفراد والإضافة(٤)، وَوُجِّهَ الإفراد بإرادة الجنس، كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [ابراهيم:٣٤]. وقال الزجَّاج: مَن قرأ «نعمةً» فعلى معنى ما أعطاهم من التوحيد، ومَن قرأ «نعمه» بالجمع فعلى جميع ما أنعم به عليهم(٥). والأول أَوْلَى.

ونصب «ظاهرةً وباطنةً» في قراءة التعريف على الحالية وفي قراءة التنكير على الوصفية.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ من الجدال، وهو المفاوضةُ على سبيل المنازعةِ والمغالَبةِ، وأصلُه من جَدَلْتُ الحبل، أي: أحكمتُ فتلَه، كأنَّ المتجادلَيْنِ يفتلُ كلٌّ منهما صاحبه عن رأيه. وقيل: الأصل في الجدال الصراعُ وإسقاطُ الإنسان صاحبَه على الجدالة، وهي الأرضُ الصلبة، وكأنَّ الجملة في موضع الحال من ضميره تعالى فيما قبلُ، أي: ألم تروا أنَّ الله سبحانه فَعَلَ ما فَعَلَ من الأمور الدالَّةِ على

(١) المحتسب ٢/١٦٨، والبحر ٧/١٩٠.
(٢) حاشية الشهاب ٧/١٣٩.
(٣) هي قراءة حمزة والكسائي وشعبة وابن كثير وابن عامر. التيسير ص١٧٧، والنشر ٢/٣٤٦-٣٤٧. وقرأ بها من العشرة يعقوب وخلف.
(٤) المحتسب ٢/١٦٨ عن يحيى بن عمارة.
(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/١٩٩.

وحدته سبحانه وقدرته عز وجل، والحالُ من الناس مَن ينازعُ ويخاصِمُ كالنضر بن الحارث وأبيّ بن خلف، كانا يجادلان النبيَّ ﷺ.

﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في توحيده عزَّ وجلَّ وصفاتِه جلَّ شأنُه، كالمشركين المنكرين وحدتَه سبحانه وعمومَ قدرته جلَّت قدرتُه، وشمولَها للبعث، ولم يقل: فيه، بدل «في الله» بإرجاع الضمير للاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ تهويلاً لأمر الجدال.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفادٍ من دليلٍ عقليٍّ ﴿وَلَا هُدًى﴾ راجعٍ إلى رسولٍ مأخوذٍ منه. وجوِّز جَعْلُ الهدى نفسَ الرسول مبالغةً، وفيه بُعْدٌ ﴿وَلَا كِتَٰبٍ﴾ أنزله الله تعالى ﴿مُّنِيرٍ ٢٠﴾ أي: ذي نور، والمرادُ به: واضح الدلالة على المقصود. وقيل: منقذٍ من ظلمة الجهل والضلال، بل يجادلون بمجرَّد التقليد كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لمن يجادل، والجمعُ باعتبار المعنى ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ يريدون عبادةَ ما عبدوه من دون الله عز وجل، وهذا ظاهرٌ في منع التقليد في أصول الدين، والمسألةُ خلافيةٌ، فالذي ذهب إليه الأكثرون ورجَّحه الإمام الرازي[1] والآمديّ[2] أنه لا يجوزُ التقليد في الأصول، بل يجب النظرُ، والذي ذهب إليه عبيد الله بن الحسن العنبريُّ[3] وجماعةٌ الجوازُ، وربما قال بعضهم: إنه الواجبُ على المكلَّف، وإنَّ النظر في ذلك والاجتهادَ فيه حرامٌ، وعلى كلٍّ يصحُّ عقائدُ المقلِّد المحقِّ، وإن كان آثماً بترك النظر على الأول.

وعن الأشعريِّ: أنه لا يصحُّ إيمانه، وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: هذا مكذوبٌ عليه؛ لِمَا يلزمُه تكفيرُ العوامِّ، وهم غالبُ المؤمنين، والتحقيقُ أنه إن كان التقليدُ أخذاً لقول الغير بغيرِ حجةٍ، مع احتمالِ شكٍّ ووهمٍ بأنْ لا يجزمَ المقلِّد، فلا يكفي إيمانُه قطعاً لأنه لا إيمانَ مع أدنى تردُّدٍ فيه، وإنْ كان لكنْ جزماً فيكفي

---

(١) في المحصول ٦/ ٩١.

(٢) في الإحكام ٤/ ٢٣١.

(٣) القاضي، وثقه النسائي، وقال ابن حبان: من سادات أهل البصرة فقهاً وعلماً، وهو القائل: لَأنْ أكونَ ذَنَباً في الحق أحبُّ إليَّ مِن أن أكون رأساً في الباطل، توفي سنة (١٦٨هـ). التهذيب ٣/ ٧.

عند الأشعريِّ وغيره، خلافاً لأبي هاشم في قوله: لا يكفي، بل لابدَّ لصحة الإيمان من النظر. وذكر الخفاجيُّ أنه لا خلافَ في امتناع تقليد مَن لم يعلم أنه مستنِدٌ إلى دليلٍ حقٍّ[1]. وظاهرُ ذمِّ المجادِلين بغير علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ أنه يكفي في النظر الدليلُ النقليُّ الحقُّ كما يكفي فيه الدليلُ العقلي.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي: يدعو آباءهم لا أنفسَهم كما قيل، فإنَّ مدارَ إنكار الاستتباع كونُ المتبوعين تابعينَ للشياطين، وينادي عليه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠] ويُعلم منه حالُ رجوعِ الضمير إلى المجموع، أي: أولئك المجادلين وآباءَهم.

﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ أي: إلى ما يؤولُ إليه أو يتسبَّبُ منه، من الإشراك وإنكارِ شمول قدرته عز وجل للبعث، ونحوِ ذلك من الضلالات، وجوِّز بقاءُ «عذاب السعير» على حقيقته.

والاستفهامُ للإنكار ويُفهَمُ التعجيب من السياق، أو للتعجيب ويُفهَمُ الإنكار من السياق. والواوُ حاليةٌ، والمعنى: أيتَّبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم، أي: في حالِ دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب. وجوِّز كونُ الواو عاطفةً على مقدَّرٍ، أي: أيتبعونهم لو لم يكن الشيطان يدعوهم إلى العذاب ولو كان يدعوهم إليه. وهما قولان مشهوران في الواو الداخلة على «لو» الوصلية ونحوِها.

وكذا في احتياجها إلى الجواب قولان: قولٌ بالاحتياج، وقولٌ بعدمه لانسلاخها عن معنى الشرط، ومَن ذهب إلى الأول قدَّره هنا: لا يتَّبعوهم، وهو ممَّا لا غبارَ عليه على تقدير كون الواو عاطفةً، وأمَّا على تقدير كونها حاليةً فزعم بعضُهم أنه لا يتسنَّى، وفيه نظر. وقد مرَّ الكلامُ على نحو هذه الآية الكريمة، فتذكَّر[2].

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأنْ فوَّضَ إليه تعالى جَميعَ أموره، وأقبل عليه

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ١٣٩.
(٢) ينظر ما سلف ٣/ ٨٧.

سبحانه بقلبه وقالبه، فالإسلامُ كالتسليم: التفويضُ، والوجهُ: الذاتُ، والكلامُ كنايةٌ عما أشرنا إليه من تسليم الأمور جميعها إليه تعالى، والإقبالِ التامِّ عليه عز وجل، وقد يعدَّى الإسلام باللام قصداً لمعنى الإخلاص.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والسلميُّ وعبد الله بن مسلم بن يسار: «يسلِّم» بتشديد اللام من التسليم(١)، وهو أشهر في معنى التفويض من الإسلام.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في أعماله، والجملةُ في موضع الحال.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ تعلَّقَ أتمَّ تعلُّقٍ بأَوْثَقِ ما يتعلَّقُ به من الأسباب، وهذا تشبيهٌ تمثيليٌّ مركَّبٌ، حيث شبِّه حالُ المتوكِّل على الله عز وجل، المفوِّضِ إليه أمورَه كلَّها، المحسنِ في أعماله، بمن ترقَّى في جبلٍ شاهقٍ أو تدلَّى منه فتمسَّك بأَوْثَقِ عروةٍ من حبلٍ متينٍ مأمونٍ انقطاعُه. وجوِّز أن يكون هناك استعارةٌ في المفرد ـ وهو العروةُ الوثقى ـ بأن يشبَّه التوكُّل النافعُ المحمودُ عاقبتُه بها، فتستعارُ له.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: هي صائرةٌ إليه عز وجل لا إلى غيره جلَّ جلالُه، فلا يكونُ لأحدٍ سواه جلَّ وعلا تصرُّفٌ فيها بأمرٍ ونهيٍ وثوابٍ وعقابٍ، فيجازي سبحانه هذا المتوكِّلَ أحسنَ الجزاء، وقيل: فيجازي كلّاً من هذا المتوكِّلِ وذاك المجادل بما يليقُ به بمقتضى الحكمة.

و«أل» في «الأمور» للاستغراق، وقيل: تحتمل العهدَ على أنَّ المراد: الأمور المذكورة من المجادلة وما بعدها.

وتقديمُ «إلى الله» للحصر ردّاً على الكفرة في زَعْمِهم مرجعية آلهتهم لبعض الأمور، واختار بعضُهم كونَه إجلالاً للجلالة ورعايةً للفاصلة ظنّاً منه أنَّ الاستغراق مُغْنٍ عن الحصر، وهو ليس كذلك.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ أي: فلا يهمَّنَّك ذلك ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ رجوعُهم بالبعث يومَ القيامة ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ أي: بعملهم، أو: بالذي عملوه في الدنيا من الكفر والمعاصي بالعذاب والعقاب.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٩٠.

وقيل: إلينا مرجعُهم في الدارين فنجازيهم بالإهلاك والتعذيب. والأولُ أظهرُ.

وأيًّاما كان فالجملةُ في موضع التعليل، كأنه قيل: لا يهمنَّك كُفْرُ مَن كَفَرَ لأنَّا ننتقمُ منه ونعاقبُه على عمله، أو: الذي عَمِلَه. والجمعُ في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى مَن كما أنَّ الإفراد في الأول باعتبار لَفْظِها.

وقرئ في السبع: «ولا يُحْزِنْكَ» مضارع أَحْزَنَ مزيد حَزِنَ اللازم(١)، وقدِّر اللزومُ ليكون للنقل فائدةٌ، وحَزَنَ وأَحْزَنَ لغتان؛ قال اليزيديُّ: حَزَنَه لغةُ قريش، وأَحْزَنَه لغةُ تميم، وقد قرئ بهما. وذكر الزمخشريُّ أنَّ المستفيض في الاستعمال ماضي الإفعالِ ومضارعُ الثلاثيِّ(٢)، والعهدةُ في ذلك عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ تعليلٌ للتنبئة المعبَّرِ بها عن المجازاة، أي: يجازيهم سبحانه لأنه عزَّ وجلَّ عليمٌ بالضمائر، فما ظنُّك بغيرها؟

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ تمتيعاً قليلاً، أو: زماناً قليلاً؛ فإنَّ ما يزولُ بالنسبة إلى ما يدوم قليلٌ ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ ثقيلٍ عليهم ثِقَلَ الأجرام الغِلَاظ، والمرادُ بالاضطرار ـ أي: الإلجاء ـ إلزامُهم ذلك العذابَ الشديد إلزامَ المضطرِّ الذي لا يقدر على الانفكاك ممَّا أُلجئَ إليه.

وفي «الانتصاف»: تفسيرُ هذا الاضطرارِ ما في الحديث من أنَّهم لشدةِ ما يكابدون من النار يطلبون البَرْدَ، فيرسَلُ عليهم الزمهريرُ، فيكون أشدَّ عليهم من اللهب، فيتمنَّوْنَ عودَ اللهب اضطراراً، فهو اختيارٌ عن اضطرارٍ، وبأذيال هذه البلاغة تعلَّق الكنديُّ حيث قال:

يرون الموت قدَّاماً وخلفاً فيختارون والموت اضطرارُ(٣)

وقيل: المعنى: نضمُّ إلى الإحراق الضغطَ والتضييقَ، فلا تغفل.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: خلقهنَّ الله تعالى،

(١) هي قراءة نافع كما في التيسير ص٩١-٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١٤٠.

(٣) الانتصاف ٣/ ٢٣٥-٢٣٦، والبيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ٢١١، وفيه: فيجتازون، بدل: فيختارون.

وجوّز أن يكون التقديرُ: اللهُ خلقهنَّ، والأولُ أولى كما فصِّل في محلِّه. وقولُهم ذلك لغايةِ وضوحِ الأمر بحيث اضطُرُّوا إلى الاعتراف به.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان ما هم عليه من إشراك غيره تعالى به جلَّ شأنُه في العبادة التي لا يستحقُّها غيرُ الخالق والمنعم الحقيقي. وجوّز جَعْلُ المحمودِ عليه جَعْلَ دلائل التوحيد بحيث لا ينكرها المكابرُ أيضاً.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٥﴾ أن ذلك يلزمهم؛ قيل: وفيه إيغالٌ حسنٌ[١]، كأنه قال سبحانه: وإنَّ جهلهم انتهى إلى أنْ لا يعلموا أنَّ الحمد لله ما موقعه في هذا المقام، وقد مرَّ تمامُ الكلام في نظير الآية في «العنكبوت»[٢]، فتذكَّر.

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خَلْقاً وملكاً وتصرُّفاً ليس لأحدٍ سواه عزَّ وجل، استقلالاً ولا شركةً، فلا يستحقُّ العبادةَ فيهما غيرُه سبحانه وتعالى بوجهٍ من الوجوه، وهذا إبطالٌ لمعتقدهم من وجهٍ آخر؛ لأنَّ المملوك لا يكون شريكاً لمالكه، فكيف يستحقُّ ما هو حقُّه من العبادة وغيرها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن كلِّ شيءٍ ﴿ٱلۡحَمِيدُ ٢٦﴾ المستحقُّ للحَمْدِ وإن لم يحمده جلَّ وعلا أحدٌ، أو: المحمودُ بالفعل يحمدُه كلُّ مخلوقٍ بلسان الحال. وكأنَّ الجملة جوابٌ عما يوشكُ أن يخطر ببعض الأذهان السقيمة من أنه: هل اختصاصُ ما في السماوات والأرض به عز وجل لحاجته سبحانه إليه؟ وهو جوابٌ بنفي الحاجة على أبلغ وجهٍ، فقد كان يكفي في الجواب: إن الله غنيٌّ، إلا أنه جيء بالجملة متضمِّنةً للحصر للمبالغة، وجيء بالحميد أيضاً تأكيداً لِمَا تُفيده من نفي الحاجة بالإشارة إلى أنه تعالى منعمٌ على مَن سواه سبحانه، أو متَّصفٌ بسائر صفات الكمال، فتأمَّل جدًّا.

---

(١) الإيغال: هو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [يس: ٢١] فقوله: «وهم مهتدون» إيغال لأنه يتم المعنى بدونه؛ إذ الرسول مهتد لا محالة، ولكن فيه زيادة مبالغة في الحث على اتباع الرسل والترغيب فيه. الإتقان ٢/ ٨٦٩.

(٢) عند تفسير الآية (٦٣) منها.

وقال الطيبيُّ[1]: إنَّ قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تهاوُنٌ بهم، وإبداءٌ أنه تعالى مستَغْنٍ عنهم وعن حَمْدِهم وعبادتهم، ولذلك علَّل بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: عن حمد الحامدين ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المستحقُّ للحمد وإن لم يحمدوه عز وجل.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ أي: لو ثبت كونُ ما في الأرض من شجرةٍ أقلاماً، فـ «أنَّ» وما بعدها فاعلُ ثبت مقدَّر بقرينةِ كون «أنَّ» دالةً على الثبوت والتحقُّق، وإلى هذا ذهب المبرِّدُ[2]، وقال سيبويه: إنَّ ذلك مبتدأ مستغنٍ عن الخبر؛ لذكر المسنَدِ والمسنَدِ إليه بعده[3]. وقيل: مبتدأ خبرُه مقدَّرٌ قبله، وقال ابن عصفور: بعده.

و«ما في الأرض» اسم «أنَّ»، و«من شجرة» بيانٌ لـ «ما» أو للضمير العائدِ إليها في الظرف، فهو في موضع الحال منها أو منه، أي: ولو ثبت أنَّ الذي استقرَّ في الأرض كائناً من شجرةٍ، و«أقلام» خبرُ «أنَّ» قال أبو حيان[4]: وفيه دليلٌ [على بطلان] دعوى الزمخشريِّ وبعضِ العجم ممن ينصُرُ قولَه أنَّ خبر «أنَّ» الجائيةِ بعد «لو» لا يكون اسماً جامداً ولا اسماً مشتقّاً، بل يجب أن يكون فعلاً، وهو باطلٌ، ولسانُ العرب طافحٌ بخلافه، قال الشاعر:

ولو أنها عصفورةٌ لحسبتُها مسومةً تدعو عُبيداً وأَزْنَما[5]

وقال آخر:

---

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) ينظر المقتضب ٣/ ٧٧-٧٨.

(٣) الكتاب ٣/ ١٣٩، وعبارته: و«لو» بمنزلة «لولا»، ولا تبتدأ بعدها الأسماء سوى «أنَّ»، نحو: لو أنك ذاهب.

(٤) في البحر ٧/ ١٩٠، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٥) البيت للعوام بن شوذب كما في المعاني الكبير ٢/ ٩٢٧، والنقائض ٢/ ٥٨٥، ومعجم الشعراء للمرزباني ص١٦٣. قال ابن قتيبة: أي: لو أن عصفورة طارت لحسبتها من جبنك خيلاً معلَّمة تدعو عبيداً وأزنم. وذكره ابن دريد في الجمهرة ٣/ ١٩ وقال: عبيد وأزنم بطنان من بني يربوع.

ما أطيبَ العيشَ لو أنَّ الفتى حجرٌ تنبو الحوادثُ عنه وهو ملمومُ[(١)]

إلى غير ذلك. وتعقِّب بأنَّ اشتراط كونِ خبرها فعلاً إنما هو إذا كان مشتقّاً، فلا يَرِدُ «أقلام» هنا، ولا ما ذُكر في البيتين، وأمَّا قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ [الأحزاب:٢٠] فـ «لو» فيه للتمنِّي والكلامُ في خبر «أنَّ» الواقعةِ بعد «لو» الشرطية.

والمراد بـ «شجرة»: كلُّ شجرة، والنكرةُ قد تعمُّ في الإثبات إذا اقتضى المقامُ ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤]، وقولِ ابن عباس رضي الله عنهما لبعض أهل الشام وقد سأله عن المُحْرِم إذا قتل جرادةً: أيتصدَّقُ بتمرةٍ فديةً لها؟: تَمرةٌ خيرٌ من جرادة، على ما اختاره جمعٌ، ولا نسلِّم المنافاةَ بين هذا العموم وهذه التاء. فكأنه قيل: ولو أنَّ كلَّ شجرةٍ في الأرض أقلامٌ.. إلخ، وكونُ كلِّ شجرةٍ أقلاماً باعتبارِ الأجزاء أو الأغصان، فيؤُول المعنى إلى: لو أنَّ أجزاءَ أو أغصانَ كلِّ شجرةٍ في الأرض أقلامٌ.. إلخ.

ويُحسِّنُ إرادةَ العموم في نحو ما نحن فيه كونُ الكلام الذي وقعت فيه النكرةُ شرطاً بـ «لو»، وللشرط مطلقاً قُرْبٌ ما من النفي، فما ظنُّك به إذا كان شرطاً بها، وإن كانت هنا ليست بمعناها المشهورِ من انتفاء الجواب لانتفاء الشرط أو العكس، بل هي دالةٌ على ثبوتِ الجواب، أو حرفُ شرطٍ في المستقبل على ما فصِّل في «المغني»[(٢)].

واختيار «شجرة» على أشجار أو شجر لأنَّ الكلام عليه أبعدُ عن اعتبار التوزيع - بأن تكون كلُّ شجرةٍ من الأشجار أو الشجر قلماً - المخلِّ بمقتضى المقام من المبالغة بكثرة كلماته تعالى شأنه.

وفي «البحر» أنَّ هذا مما وقع فيه المفردُ موقعَ الجمع، والنكرةُ موقع المعرفة، ونظيرُه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة:١٠٦] ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر:٢] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل:٤٩] وقول العرب: هذا

---

(١) البيت لتميم بن أبيّ بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٧٣، والخصائص ١/ ٣١٨، والمغني ص٣٥٦.

(٢) ص٣٤١-٣٤٤.

أولُ فارسٍ، وهذا أفضلُ عالمٍ، يراد: من الآيات، و: من الرحمات، و: من الدواب، و: أولُ الفرسان، و: أفضل العلماء، ذُكِرَ المفردُ النكرةُ وأريدَ به معنى الجمع المعرَّف باللام، وهو مهيعٌ في كلام العرب معروفٌ، وكذلك يقدَّرُ هنا: من الشجرات، أو: من الأشجار(١). اهـ، فلا تغفل.

وقال الزمخشريُّ: إنه قال سبحانه: (شَجَرَةٍ) على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجرٌ؛ لأنه أُريدَ تفصيلُ الشجر شجرةً شجرةً حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا وقد بُرِيَتْ أقلاماً(٢).

وتعقَّب بأنَّ إفادة المفرد التفصيلَ بدون تكرارٍ غيرُ معهودٍ، والمعهودُ إفادته ذلك بالتكرير، نحو: جاؤوني رجلاً رجلاً، فتأمل.

واختيارُ جمع القلة في «أقلام» مع أنَّ الأنسب للمقام جمعُ الكثرة؛ لأنه لم يُعهد للقلم جمعٌ سواه، وقِلَامٌ غيرُ متداوَلٍ، فلا يحسُنُ استعماله.

﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ أي: المحيط، فـ «أل» للعهد لأنه المتبادرُ، ولأنه الفردُ الكامل(٣)، إذ قد يُطْلَقُ على شُعَبِه وعلى الأنهار العظام كدجلة والفرات، وجوِّز إرادةُ الجنس، ولعل الأولَ أبلغُ.

﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد نفادِه، وقيل: من ورائه ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ مفروضةٍ، كلٌّ منها مثلُه في السعة والإحاطة وكثرةِ الماء، والمراد بالسبعة الكثرةُ بحيث تشملُ المئةَ والألفَ مثلاً، لا خصوصُ العددِ المعروفِ، كما في قوله ﷺ: «المؤمنُ يأكلُ في معًى واحدٍ، والكافرُ يأكل في سبعة أمعاءٍ»(٤) واختيرتْ لها لأنها عددٌ تامٌّ كما عرفْتَ عند الكلام في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦] وكثيرٌ من المعدودات التي لها شأنٌ كالسماوات والكواكب السيارة والأقاليم الحقيقية وأيامِ الأسبوع إلى غير ذلك منحصرٌ في سبع، فلعل في ذكرها هنا دون

---

(١) البحر ٧/ ١٩٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٦.
(٣) في (م): للكامل، وهو تصحيف.
(٤) أخرجه أحمد (٤٧١٨)، والبخاري (٥٣٩٤)، ومسلم (٢٠٦٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

سبعين ـ المتجوَّزِ به عن الكثرة أيضاً ـ رمزاً إلى شأن كون تلك الأبحر عظيمةً ذاتَ شأنٍ، ولمَّا لم تكن موضوعةً في الأصل لذلك، بل للعدد المعروفِ القليلِ جاء تمييزُها «أبحر» بلفظ القلَّةِ دون بحور ـ وإن كان لا يراد به إلا الكثرةُ ـ ليناسبَ بين اللفظين، فكما تجوِّز في السبعة واستُعملت للتكثير، تجوِّز في «أبحر» واستُعمل فيه أيضاً.

وكان الظاهرُ بعد جَعْلِ ما في الأرض من شجرةٍ أقلاماً أن يقال: والبحرُ مدادٌ، لكنْ جيء بما في النظم الجليل لأنَّ «يمده» يغني عن ذكر المداد؛ لأنه من قولك: مَدَّ الدواةَ وأمدَّها، أي: جعلها ذاتَ مدادٍ وزاد في مدادها، ففيه دلالةٌ على المداد مع ما يزيد في المبالغة، وهو تصويرُ الإمداد المستمرِّ حالاً بعد حالٍ كما تُؤْذِنُ به صيغةُ المضارع، فأفاد النظمُ الجليل جَعْلَ البحر المحيط بمنزلةِ الدواة، وجَعْلَ أبحرٍ سبعةٍ مثلَه مملوءةً مداداً، فهي تصبُّ فيه مدادَها أبداً صبّاً لا ينقطع.

ورُفع «البحر» ـ على ما استظهره أبو حيان فيه[1] ـ على الابتداء، وجملةُ يمدُّه خبرُه، والواوُ للحال، والجملةُ حالٌ من الموصول أو الضميرِ الذي في صلته، أي: لو ثبت كونُ ما في الأرض من شجرةٍ أقلاماً في حال كون البحر ممدوداً بسبعةِ أبحر، ولا يضرُّ خلوُّ الجملة عن ضمير ذي الحال، فإنَّ الواو يحصلُ بها من الربط ما لا يتقاعد عن الضمير؛ لدلالتها على المقارنة.

وأشار الزمخشريُّ[2] إلى أنَّ هذه الجملةَ وما أشبهها كقوله:

وقد أغتدي والطيرُ في وكناتها بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيكلِ[3]

و: جئتُ والجيشُ مصطفٌّ، من الأحوال التي حُكْمُها حكمُ الظروف لأنها في معناها؛ إذ معنى: جئتُ والجيشُ مصطفٌّ، مثلاً، ومعنى: جئتُ وقتَ اصطفافِ الجيش، واحدٌ، وحيث إنَّ الظرف يربطه بما قبله تعلُّقُه به وإن لم يكن فيه ضميرٌ وهو إذا وقع حالاً استقرَّ فيه الضمير، فما يشبهُه كأنه فيه ضميرٌ مستقرٌّ.

---

(١) أي: في البحر ٧/ ١٩١.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٣٦.

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو من ديوانه ص١٩. قوله: بمنجردٍ، هو الفرس القصير الشعر. والأوابد: الوحش. والهيكل: الفرس الضخم. قاله شارح الديوان.

ولا يَرِدُ عليه اعتراضُ أبي حيان(١) بأنَّ الظرف إذا وقع حالاً ففي العامل فيه ضميرٌ ينتقل إلى الظرف، والجملةُ الاسمية إذا كانت حالاً بالواو فليس فيها ضميرٌ منتقل، فكيف يقال إنها في حكم الظرف؟ نعم الحقُّ أنَّ الربط بالواو كافٍ عن الضمير، ولا يحتاجُ معه إلى تكلُّف هذه المؤونة.

وجوِّز أن تكون الجملةُ حالاً من «الأرض»، والعاملُ فيه معنى الاستقرار، والرابطُ ما سمعتَ، أو «أل» التي في «البحر» بناءً على رأي الكوفيين من جواز كونِ «أل» عوضاً عن الضمير، كما في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص:٥٠] أي: ولو ثبت كونُ الذي استقرَّ في الأرض من شجرةٍ أقلاماً حالَ كونِ بحرِها ممدوداً بسبعةِ أبحرٍ.

قال في «الكشف»: ولا بدَّ أن يُجعل «من شجرة» بياناً للضمير العائد إلى «ما» لئلَّا يلزَم الفصلُ بين أجزاء الصلة بالأجنبي، و«البحر» على تقديرِ جَعْلِ «أل» فيه عوضاً عن المضاف إليه العائدِ إلى «الأرض» يحتملُ أن يراد به المعهود وأن يراد به غيره.

وقال الطيبيُّ: إنَّ «البحر» على ذلك يعمُّ جميعَ الأبحُرِ؛ لقرينة الإضافة، ويفيدُ أنَّ السبعة خارجةٌ عن بحر الأرض، وعلى ما سواه يحتملُ الحصةَ المعهودة المعلومةَ عند المخاطب(٢).

ورُدَّ بأنه لا فَرْقَ بينهما، بل كونُ بحرها للعهد أظهرُ؛ لأنَّ العهد أصل الإضافة، ولا ينافيه كونُ الأرض شاملةً لجميع الأقطار؛ لأنَّ المعهود البحرُ المحيطُ وهو محيطٌ بها كلِّها.

وجوَّز الزمخشريُّ كونَ رَفْعِه بالعطف على محلِّ «أنَّ» ومعمولها، وجملة «يمدُّه» حالٌ، على تقدير: لو ثبت كونُ ما في الأرض من شجرة أقلاماً وثبت البحرُ ممدوداً بسبعةِ أبحر(٣).

---

(١) في البحر ٧/ ١٩١-١٩٢.
(٢) بنحوه في حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٣٦.

وتعقِّب بأنَّ الدالَّ على الفعل المحذوفِ هو «أنَّ» وخبرُه على ما قرِّر في بابه، فإذَنْ لا يمكن إفضاءُ المحذوف إلى المعطوف دون ملاحظةِ دالٍّ، وفي هذا العطف إخراجٌ عن الملاحظة.

وأجيبَ بأنه يُحتَمَلُ في التابع ما لا يُحتَمَلُ في المتبوع، ثم لا يخفى أنَّ العطف على هذا من عَطْفِ المفردِ على المفرد، لا المفردِ على الجملة كما قيل، إذ الظاهرُ أنَّ المعطوف عليه إنما هو المصدرُ الواقعُ فاعلاً لـ «ثَبَتَ» وهو مفردٌ لا جملة.

وجوِّز أن يكون العطفُ على ذلك أيضاً بناءً على رأي مَن يجعلُه مبتدأً.

وتعقِّب بأنه يلزمُ أن يلي «لو» الاسمُ الصريحُ الواقعُ مبتدأً؛ إذ يصير التقدير: ولو البحرُ، وذلك على ما قال أبو حيان[1] لا يجوز إلا في ضرورةِ شعرٍ، نحو قوله:

لـو بـغـيـرِ الـمـاء حَـلْـقـي شَـرَق   كنتُ كالغصَّانِ بالماء اعتصاري[2]

وأجيبَ بأنه يُغتَفَرُ في التابع ما لا يُغتفر في المتبوع، كما في نحو: ربَّ رجلٍ وأخيه يقولان ذلك.

وقال بعضهم: إنه يلزم على العطف السابق أن يلي «لو» الاسمُ الصريحُ، وهو أيضاً مخصوصٌ بالضرورة. وأجاب بما أُجيب، وفيه عندي تأمُّلٌ.

وجوِّز كونُ الرفع على الابتداء، وجملةُ «يمدُّه» خبر المبتدأ، والواوُ واوُ المعية، وجملة المبتدأ وخبرِه في موضع المفعول معه، بناءً على أنه يكونُ جملةً كما نُقل عن ابن هشام[3]، ولا يخفى بعدُه.

وجوز كونُ الواو على ذلك للاستئناف، وهو استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: ما المداد حينئذ؟ فقيل: «والبحر» إلخ.

---

(١) في البحر ٧/ ١٩١.

(٢) البيت لعدي بن زيد، وسلف ١٢/ ٣٦٦. وجاء في حاشية (م): الاعتصار بالماء أن يشربه قليلاً قليلاً ليسيغ ما غصَّ به من الطعام. اهـ منه.

(٣) في المغني ص٦٠٦.

وتعقِّب بأنَّ اقتران الجواب بالواو وإن كانت استئنافيةً غيرُ معهود، وما قيل: إنه يقترن بها إذا كان جواباً للسؤال على وجه المناقشة لا للاستعلام، مما لا يُعتمد عليه، ومن هنا قيل: الظاهرُ على إرادة الاستئناف أن يكون نحوياً.

وجوِّز في هذا التركيب غيرُ ما ذكر من أوجُهِ الإعراب أيضاً.

وقرأ البصريان: «والبحرَ» بالنصب[١] على أنه معطوفٌ على اسم «أنَّ» و«يمدُّه» خبرٌ له، أي: ولو أنَّ البحر ممدودٌ بسبعة أبحر.

قال ابن الحاجب في «أماليه»: ولا يستقيمُ أن يكون «يمده» حالاً؛ لأنه يؤدِّي إلى تقييد المبتدأ الجامد بالحال، ولا يجوز؛ لأنها لبيان الفاعل أو المفعول، والمبتدأ ليس كذلك، ويؤدِّي أيضاً إلى كون المبتدأ لا خبر له، ولا يستقيم أن يكون «أقلام» خبراً له؛ لأنه خبر الأول. اهـ، ولم يَذكُر احتمالَ تقدير الخبر لظهور أنه خلافُ الظاهر.

وجوِّز أن يكون منصوباً عل شريطة التفسير عطفاً على الفعل المحذوف، أعني ثبت، ودخولُ «لو» على المضارع جائز، وجملة «يمدُّه» إلخ حينئذٍ لا محلَّ لها من الإعراب.

وقرأ عبد الله: «وبحرٌ» بالتنكير والرفع[٢]، وخرَّج ذلك ابن جنِّي على أنه مبتدأٌ وخبرُه محذوفٌ، أي: هناك بحرٌ يمدُّه.. إلخ، والواوُ واوُ الحال لا محالةَ، ولا يجوز أن يعطف على «أقلام» لأنَّ البحر وما فيه ليس من حديث الشجر والأقلام، وإنما هو من حديث المداد[٣].

وفي «البحر»: أن الواو على هذه القراءة للحال أو للعطف على ما تقدَّم، وإذا كانت للحال كان «بحر» مبتدأ، وسوَّغ الابتداءَ به مع كونه نكرةً تقدُّمُ تلك الواو، فقد عُدَّ من مسوِّغات الابتداء بالنكرة، كما في قوله:

---

(١) التيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٧.

(٢) المحتسب ٢/ ١٦٩، والبحر ٧/ ١٩١.

(٣) المحتسب ٢/ ١٦٩.

سَرَيْنـا ونـجـمٌ قـد أضـاء فـمـذ بـدا مـحـيَّـاكَ أخْـفَـى ضـوؤه كـلَّ شـارقِ[1]

اهـ. ولا يَخْفَى أنه إذا عُطف على فاعل «ثبت» فجملةُ «يمده» في موضع الصفة له لا حالٌ منه، وجوَّز ذلك مَن جوَّز مجيءَ الحال من النكرة. والظاهرُ على تقدير كونه مبتدأً جَعْلُ الجملة خبرَه، ولا حاجةَ إلى جَعْلِ خبره محذوفاً كما فعل ابن جنِّي.

وقرأ ابن مسعود وأبيٌّ: «تَمدُّه» بتاء التأنيث من مدَّ كالذي في قراءة الجمهور[2]. وقرأ ابن مسعود أيضاً والحسنُ وابن مصرِّفٍ وابن هرمز: «يُمِدُّه» بضم الياء التحتية من الإمداد[3]. قال ابن الشيخ: يَمُدُّ بفتحٍ فضمٍّ ويُمِدُّ بضمٍّ فكَسْرٍ لغتان بمعنًى. وقرأ جعفر بن محمد رضي الله عنهما: «والبحر مدادُه»[4] أي: ما يُكتب به من الحبر، وقال ابن عطية: هو مصدر[5].

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ جواب «لو»، وفي الكلام اختصارٌ يسمَّى حَذْفَ إيجازٍ، ويدلُّ على المحذوف السياقُ، والتقدير: ولو أنَّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ ممدودٌ بسبعةِ أبحُرٍ وكتبتْ بتلك الأقلامِ وبذلك المدادِ كلماتُ الله تعالى ما نَفِدَتْ لعَدَمِ تناهيها ونَفَدَ تلك الأقلامُ والمدادُ لتناهيها، ونظير ذلك في الاشتمال على إيجاز الحذف قولُه تعالى: ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦] أي: فحَلَقَ رأسَه لدَفْعِ ما به من الأذى ففديةٌ.

والمراد بكلماته تعالى كلماتُ عِلْمِه سبحانه وحكمتِه جلَّ شأنه، وهو الذي يقتضيه سببُ النزول على ما أخرج ابنُ جريرٍ[6] عن عكرمة قال: سأل أهلُ الكتاب رسولَ الله ﷺ عن الروح، فأنزل سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى

---

(١) البحر ٧/ ١٩١، والبيت سلف ٥/ ٦٩.

(٢) البحر ٧/ ١٩١ عن ابن مسعود وابن عباس، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٧ عن بعضهم.

(٣) المحتسب ٢/ ١٦٩، والبحر ٧/ ١٩١.

(٤) المحتسب ٢/ ١٦٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، والبحر ٧/ ١٩١.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٦) في تفسيره ١٨/ ٥٧٣.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فقالوا: تزعم[1] أنَّا لم نُؤتَ من العلم إلَّا قليلاً وقد أُوتينا التوراةَ وهي الحكمةُ ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فنزلت: (وَلَوْ أَنَّمَا) إلخ. وظاهر هذا أنَّ اليهود قالوا ذلك له عليه الصلاة والسلام مشافهةً، وهو ظاهرٌ في أنَّ الآية مدنيةٌ.

وقيل: إنهم أمروا وفدَ قريشٍ أن يقولوا له ﷺ ذلك، وهذا القائلُ يقول: إنها مكية.

وحاصل الجواب أنه: وإنْ كان ما أُوتيتُموه خيراً كثيراً لكونه حكمةً إلا أنه قليلٌ بالنسبة إلى حكمته عز وجل.

وفي روايةٍ أنه نزل بمكة قوله تعالى: (وَيَسْـَٔلُونَكَ) إلخ، فلمَّا هاجر عليه الصلاة والسلام أتاه أحبارُ اليهود فقالوا: بلغنا أنك تقول: (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أفعنيتَنا أم قومك؟ فقال ﷺ: «كلاً عَنَيْتُ» فقالوا: ألستَ تتلو فيما جاءك أنَّا أوتينا التوراة وفيها علمُ كلِّ شيء؟ فقال عليه الصلاةُ والتحيةُ: «هي في عِلْم الله تعالى قليلٌ، وقد أتاكم ما إنْ عَمِلْتُم به نَجَوْتُم» قالوا: يا محمد، كيف تزعُم هذا وأنت تقول: (وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا) فكيف يجتمع؟ فقال ﷺ: «هذا علمٌ قليلٌ وخيرٌ كثيرٌ»، فأنزل الله تعالى هذه الآية[2]. وهذا نصٌّ في أنَّ الآية مدنية.

وقيل: المرادُ بها مقدوراتُه جل وعلا وعجائبُه عزَّ وجلَّ التي إذا أراد سبحانه شيئاً منها قال تبارك وتعالى له: (كُن فَيَكُونُ)، ومن ذلك قولُه تعالى في عيسى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] وإطلاقُ الكلمات على ما ذكر من إطلاق السبب على المسبَّب، وعلى هذا وجهُ ربط الآية بما قبلها أظهرُ على ما قيل، وهو أنه سبحانه لمَّا قال: (لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وكان موهِماً لتناهي ملكه جلَّ جلالُه، أَرْدَفَ سبحانه ذلك بما هو ظاهرٌ بعدم التناهي. وهذا ما اختاره الإمام في المراد بكلماته تعالى[3]، إلا أنَّ في انطباقه علىَ سبب النزول خفاءً.

---

(١) جاء في حاشية (م): قوله: فقالوا: تزعم، عن ابن جريج أن القائل حيي بن أخطب. اهـ منه.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ١٨/ ٥٧٢-٥٧٣، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الرازي ٢٥/ ١٥٦-١٥٧.

وعن أبي مسلم: المرادُ بها ما وَعَدَ سبحانه به أهلَ طاعته من الثواب، وما أوْعَدَ جلَّ شأنُه به أهلَ معصيته من العقاب، وكأنَّ الآية عليه بيانٌ لأكثرية ما لم يظهر بعدُ من ملكه تعالى بعدَ بيانِ كثرة ما ظهر.

وقيل: المرادُ بها ما هو المتبادرُ منها، بناءً على ما أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن قتادة قال: قال المشركون: إنما هذا كلامٌ يوشك أن ينفد، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية[1]. وفي وجهِ رَبْطِ الآية عليه بما قبلها وكذا بما بعدها خفاءٌ جدّاً، إلا أنه لا يقتضي كونَها مدنيةً.

وإيثارُ الجمع المؤنَّث السالم بناءً على أنه كجمع المذكَّر جمعُ قلَّة؛ لإشعاره ـ وإن اقترن بما قد يفيدُ معه الاستغراق والعمومَ من «أل» أو الإضافة نظراً لأصل وَضْعِه وهو القلَّة ـ بأنَّ ذلك لا يفي بالقليل، فكيف بالكثير؟

وقرأ الحسن: «ما نَفِدَ» بغير تاءٍ «كلامُ الله» بدل «كلمات الله»[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعْجِزُه جلَّ شأنه شيءٌ ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ لا يخرج عن علمه تعالى وحكمتِه سبحانه شيءٌ، والجملةُ تعليلٌ لعدم نفادِ كلماته تبارك وتعالى.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: إلا كخَلْقِها وبَعْثِها في سهولةِ التأتِّي بالنسبة إليه عزَّ وجلَّ؛ إذ لا يشغله تعالى شأنٌ عن شأنٍ؛ لأنَّ مناط وجود الكلِّ تعلُّقُ إرادته تعالى الواجبة أو قولُه جلَّ وعلا: «كن» مع قدرته سبحانه الذاتية وإمكان المتعلق، ولا توقُّفَ لذلك على آلةٍ ومباشَرةٍ تقتضي التعاقُبَ ليختلف عنده تعالى الواحدُ والكثيرُ كما يختلفُ ذلك عند العباد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمعُ كلَّ مسموعٍ ﴿بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ يبصرُ كلَّ مُبصَرٍ في حالةٍ واحدةٍ لا يشغلُه إدراكُ بعضها عن إدراك بعضٍ، فكذا الخلقُ والبعثُ، وحاصله: كما أنه تعالى شأنُه ببصرٍ واحدٍ يدرك سبحانه المبصَراتِ وبسَمْعٍ واحدٍ يسمعُ جلَّ وعلا المسموعات ولا يشغلُه بعضُ ذلك عن بعضٍ، كذلك فيما يرجع إلى القدرة

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٠٦، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٧٢، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٦٨.
(٢) البحر ٧/ ١٩٢.

والفعل، فهو استشهادٌ بما سلَّموه، فشبَّه المقدورات فيما يراد منها بالمدرَكات فيما يُدْرَكُ منها، كذا في «الكشف».

واستشكل كونُ ذلك مسلَّماً بأنه قد كان بعضُهم إذا طعنوا في الدين يقول: أسرُّوا قولكم لئلَّا يسمع إلهُ محمد ﷺ. فنزل: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

وأجيبَ بأنه لا اعتداد بمثله من الحماقة بعد ما رُدَّ عليهم ما زعموا وأُعْلِموا بما أَسرُّوا.

وقيل: إنَّ الجملة تعليلٌ لإثبات القدرة الكاملة بالعلم الواسع، وأنَّ شيئاً من المقدورات لا يشغله سبحانه عن غيره؛ لعِلْمِه تعالى بتفاصيلها وجزئياتها فيتصرَّفُ فيها كما يشاء، كما يقال: فلانٌ يجيدُ عَمَلَ كذا لمعرفته بدقائقه ومتمِّماته. والمقصودُ من إيراد الوصفين إثباتُ الحشر والنشر لأنهما عمدتان فيه، ألا ترى كيف عقَّب ذلك بما يدلُّ على عظيم القدرة وشمول العلم؟

وأيّاً ما كان يندفعُ توهُّمُ أنَّ المناسب لِمَا قبلُ أن يقال: إنَّ الله قويٌّ قديرٌ، أو نحوُ ذلك، دون ما ذُكر؛ لأنَّ الخَلْقَ والبعث ليسا من المسموعات والمبصَرات.

وعن مقاتلٍ أنَّ كفار قريش قالوا: إنَّ الله تعالى خَلَقَنا أطواراً؛ نطفةً علقةً مضغةً لحماً، فكيف يبعثُنا خلقاً جديداً في ساعةٍ واحدة؟ فنزلت.

وذكر النقَّاش أنها نزلت في أبيّ بن خلف وأبي الأسود ونبيهٍ ومنبهٍ ابني الحجاج، وذَكر في سبب نزولها فيهم نحوَ ما ذُكر، وعلى كون سبب النزول ذلك قيل: المعنى: إنه تعالى سميعٌ بقولهم ذلك بصيرٌ بما يُضْمِرونه، وهو كما ترى.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قيل: خطابٌ لسيد المخاطبين ﷺ. وقيل: عامٌّ لكلِّ مَن يَصْلُحُ للخطاب، وهو الأوفَقُ لِمَا سبق وما لَحِقَ، أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يُدْخِلُ كلَّ واحدٍ منها في الآخر ويضيفُه سبحانه إليه، فيتفاوتُ بذلك حالُه زيادةً ونقصاناً. وعَدَلَ عن: يولجُ أحدَ المَلَوَيْنِ[1] في

---

(١) الملوان: الليل والنهار. القاموس (ملو).

الآخر، مع أنه أخصرُ؛ للدلالة على استقلال كلٍّ منهما في الدلالة على كمال القدرة.

وقدَّم الليل على النهار لمناسبته لعالَم الإمكان المظلم من حيث إمكانُه الذاتي، وفي بعض الآثار: «كان العالَم في ظلمةٍ فرشَّ الله تعالى عليهم من نوره»[1]. وهذا الإيلاجُ إنما هو في هذا العالَم، ليس عند ربِّك صباحٌ ولا مساءٌ.

وقدَّم الشمس على القمر في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ مع تقديم الليل الذي فيه سلطانُ القمر على النهارِ الذي فيه سلطانُ الشمس لأنها كالمبدأ للقمر، ولأنَّ تسخيرها لغايةِ عظمها أعظمُ من تسخير القمر، وأيضاً آثارُ ذلك التسخير أعظمُ من آثار تسخيره.

وقال الإمامُ في تعليل تقديم كلٍّ على ما قدِّم عليه: لأنَّ الأنفس تطلب سببَ المقدَّم أكثر مما تطلب سببَ المؤخَّر، وبيَّن ذلك بما بيَّن[2]. ولعل ما ذكرناه أولى، لا سيما إذا صحَّ أنَّ نور القمر مستفادٌ من ضياء الشمس.

وعطف قوله سبحانه: (وَسَخَّرَ) على قوله تعالى: (وَيُولِجُ) والاختلافُ بينهما صيغةً لِمَا أنَّ إيلاجَ أحدِ المَلَويْنِ في الآخر متجدِّدٌ في كلِّ حينٍ، وأمَّا التسخيرُ فأمرٌ لا تعدُّدَ فيه ولا تجدُّدَ، وإنَّما التعدُّدُ والتجدُّدُ في آثاره كما يشير إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحدٍ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِيٓ﴾ يسير سيراً سريعاً مستمراً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ أي: منتهًى للجَرْي ﴿مُّسَمًّى﴾ سمَّاه الله تعالى وقدَّره لذلك، وهو كما قال الحسن: يوم القيامة، فإنه لا ينقطعُ جَرْيُ النيِّرين وتبطلُ حركتُهما إلا في ذلك اليوم.

والظاهرُ أنَّ هذا الجريَ هو هذه الحركةُ التي يشاهدها كلُّ ذي بصرٍ من أهل المعمورة، وهي عند الفلاسفة بواسطةِ الفلك الأعظم فإنَّ حركته كذلك، وبها حركةُ

---

(١) سلف ١/ ٤٦٧ و٢٠/ ٢٤٥.

(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ١٦٠ وفيه: أن تقديم الليل كان لأن الأنفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار، وكذلك فإن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب، والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذي لا يكون عجيباً.

سائر الأفلاك وما فيها من الكواكب، وتسمَّى: حركةَ الكلِّ، والحركةَ اليومية، والحركةَ السريعة، والحركةَ الأولى، والحركة على خلاف التوالي، والحركة الشرقية، وبعضُهم يسمِّيها الحركة الغربية.

وقيل: ما يعمُّ هذه الحركةَ وحركتَهما الخاصةَ بهما، وهي حركتُهما بواسطة فلكيهما على التوالي من المغرب إلى المشرق، وهي للقمر أسرعُ منها للشمس، وليس في العقل الصريح والنقلِ الصحيح ما يأبى إثباتَ هاتين الحركتين لكلٍّ من النيِّرين كما لا يخفى على المنصف العارف، ومنتهى هذا الجري العامِّ لهاتين الحركتين يومُ القيامة أيضاً.

والجملةُ على تقدير عموم الخطاب اعتراضٌ بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطراد، وعلى تقدير اختصاصه به ﷺ يجوزُ أن تكون حالاً من الشمس والقمر؛ فإن جَرْيَهما إلى يوم القيامة من جملة ما في حيِّز رؤيته ﷺ.

وقيل: جَرْيُهما عبارةٌ عن حركتهما الخاصةِ بهما، والأجلُ المسمَّى لجري الشمس آخِرُ السنة المسمَّاة بالسنة الشمسية الحقيقية، وهي زمانُ مفارقة الشمس أيَّةَ نقطةٍ تُفْرَضُ من فَلَكِ البروج إلى عَوْدِها إليها بحركتها الخاصةِ، وجَعَلوا ابتداءها من حين حلول الشمس رأس الحمل، ومدتُها عند بعضٍ ثلاثُ مئةٍ وخمسةٌ وستُّون يوماً بليلته وربعُ يومٍ كذلك، وعند بطليموس ثلاثُ مئةٍ وخمسةٌ وستُّون يوماً بليلته وخمسُ ساعاتٍ وخمسةٌ وخمسون دقيقةً واثنتا عشرة ثانيةً، وعند بعض المتأخِّرين ثلاثُ مئةٍ وخمسةٌ وستُّون يوماً وخمسُ ساعاتٍ وستٌّ وأربعون دقيقةً وأربعٌ وعشرون ثانيةً. وعند الحكيم محيي الدِّين الكَسْرُ الزائد خمسُ ساعات ودقيقةٌ، وبالرصد الجديد الذي تولاه الطوسيُّ بمراغة: خمسُ ساعاتٍ وتسعٌ وأربعون دقيقةً، ووُجِدَ برصدِ سمرقند أزيدَ من هذا بربع دقيقة.

وأما الاصطلاحيةُ فاعتبرها بعضٌ كالروم والأقدمين من الفرس ثلاثَ مئةٍ وخمسةً وستين[1] يوماً بليلته وربعَ يومٍ كذلك، وأخذ الكسر ربعاً تامًّا إلَّا أنَّ الروم يجعلون ثلاثَ سنين ثلاثَ مئةٍ وخمسةً وستِّين، ويكبسون في الرابعة بيومٍ، والفرس

---

(١) في (م): وستون.

كانوا يكبسون في مئةٍ وعشرين سنةً بشهر. واعتبرها بعضٌ آخَرُ كالقِبْطِ والمستعمِلين لتاريخ الفرس من المحدَثين ثلاثَ مئةٍ وستِّين يوماً بليلته، وأَسْقَطَ الكسر رأساً.

ولجري[1] القمر آخرُ الشهر القمريِّ الحقيقيِّ، وهو زمانُ مفارقةِ القمرِ أيَّ وضعٍ يَعْرِضُ له من الشمس إلى عوده إليه، وجَعَلوا ابتداءَه من اجتماع الشمس والقمر، وزمان ما بين الاجتماعين المتتاليين كـ «ط لا ن» من الأيام ودقائقها وثوانيها تقريباً. وأمَّا الشهر الغيرُ الحقيقيِّ فالمعتبرُ فيه الهلالُ، ويختلف زمانُ ما بين الهلالين كما هو معروفٌ.

قيل: وعلى هذا فالجملةُ بيانٌ لحُكْمِ تسخيرهما، أو تنبيهٌ على كيفية إيلاج أحد الملوين في الآخر، وكونِ ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية، فكلَّما كان جريانُها متوجِّهاً إلى سمت الرأس تزداد القوسُ التي فوق الأرض كبراً، فيزدادُ النهارُ طولاً بانضمام بعض أجزاء الليل إليه، إلى أن يبلُغَ المدارَ الذي هو أقربُ المدارات إلى سمت الرأس، وذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان، ثم ترجعُ متوجِّهةً إلى التباعُد عن سمت الرأس، فلا تزال القسيُّ التي فوق الأرض تزداد صغراً فيزدادُ النهار قصراً بانضمام بعض أجزائه إلى الليل إلى أن يبلغ المدار الذي هو أبعدُ المدارات اليومية عن سمت الرأس، وذلك عند بلوغها رأسَ الجدي[2].

وأنت تعلم أنه لا مدخل لجريان القمر في الإيلاج، فالتعرُّض له في الآية الكريمة يُبْعِدُ هذا الوجه، ولعل الأظهر على تقديرِ جَعْلِ جَرْيِهما عبارةً عن حركتهما الخاصَّةِ بهما أنْ يُجعل الأجلُ المسمَّى عبارةً عن يوم القيامة، أو يُجْعَلَ عبارةً عن آخِرِ السنة والشهرِ المعروفَيْنِ عند العرب، فتأمَّل.

وجَرَى يتعدَّى بإلى تارةً وباللام أخرى، وتعديتُه بالأول باعتبارِ كونِ المجرور غايةً، وبالثاني باعتبارِ كونه غرضاً، فتكون اللامُ لامَ تعليلٍ أو عاقبةٍ، وجَعَلَها الزمخشريُّ للاختصاص[3]، ولكلٍّ وجهٌ. ولم يظهر لي وجهُ اختصاص هذا المقام

---

(١) معطوف على «الجري» في قوله: والأجلِ المسمَّى لجري الشمس...
(٢) في تفسير أبي السعود ٧/ ٧٦ (والكلام منه): برج الجدي، بدل: رأس الجدي.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٣٧.

بإلى وغيره باللام. وقال النيسابوريُّ: وَجْهُ ذلك أنَّ هذه الآيةَ صدِّرَتْ بالتعجيب فناسَبَ التطويل[١]، وهو كما ترى فتدبَّر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٩﴾ عطفٌ على قوله: (أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ) إلخ داخلٌ معه في حيِّز الرؤية على تقديرَيْ خصوص الخطاب وعمومِه، فإنَّ مَن شاهَدَ مثلَ ذلك الصُّنْع الرائق والتدبيرِ اللائق لا يكاد يغفلُ عن كون صانعه عزَّ وجلَّ محيطاً بجلائل أعماله ودقائقها.

وقرأ عياش عن أبي عمرو: «بما يعملون» بياء الغيبة[٢].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تضمَّنَته الآياتُ وأشارت إليه من سعة العلم، وكمالِ القدرة، واختصاصِ الباري تعالى شأنُه بها.

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: بسبب أنه سبحانه وحده الثابتُ المتحقِّقُ في ذاته، أي: الواجب الوجود.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ إلهاً ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدومُ في حدِّ ذاته، وهو الممكنُ الذي لا يوجدُ إلا بغيره، وهو الواجبُ تعالى شأنُه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على الأشياء ﴿ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠﴾ عن أن يكون له سبحانه شريكٌ، أو يتَّصفَ جل وعلا بنقصٍ، لا شيءَ[٣] أعلى منه - تعالى شأنُه - شأناً وأكبرَ سلطاناً.

ووجهُ سببية الأول لِمَا ذُكر: أنَّ كونه تعالى وحده واجبَ الوجود في ذاته يستلزمُ أن يكون هو سبحانه وحده الموجِدَ لسائر المصنوعات البديعة الشأنِ، فيدلُّ على كمال قدرته عزَّ وجلَّ وحده، والإيجابُ قد أبطل في الأصول، ومَن صَدَرتْ عنه جميعُ هاتيك المصنوعات لا بدَّ من أن يكون كاملَ العلم على ما بيِّن في الكلام.

---

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ٢١/ ٥٧.
(٢) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٩٣.
(٣) في (م): بشيء.

ووجهُ سببية الثالث لذلك أنَّ كونه تعالى وحده عليّاً على جميع الأشياء، متسلِّطاً عليها، متنزِّهاً عن أن يكون له سبحانه شريكٌ أو يتَّصفَ بنقصٍ عزَّ وجلَّ، يستلزمُ كونَه تعالى وحده واجبَ الوجود في ذاته، وقد سمعتَ الكلام فيه.

وأمَّا وجهُ سببيةِ كونِ ما يدعونه من دونه إلهاً باطلاً ممكِناً في ذاته لذلك، فهو أنَّ إمكانه ـ على علوِّ شأنه عندهم على ما عَدَاه ممَّا لم يعتقدوا إلهيته ـ يستلزمُ إمكانَ غيره ممَّا سوى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ ما فيه ممَّا يدلُّ على إمكانه موجودٌ في ذلك حَذْوَ القذَّةِ بالقذَّة؛ ومتى كان ما يدعونه إلهاً من دونه تعالى وغيرِه ممَّا سوى الله سبحانه وتعالى ممكناً، انحصر وجوبُ الوجود في الله تعالى، فيكون جلَّ وعلا وحده واجبَ الوجود في ذاته، وقد علمتَ إفادته للمطلوب، وكأنه إنما قيل: «أنَّ ما يدعون من دونه الباطلُ» دون: أنَّ ما سواه الباطلُ مثلاً، نظير قول لبيد:

ألَا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ[1]

تنصيصاً على فظاعةِ ما هم عليه، واستلزامُ ذلك إمكانَ ما سوى الله تعالى من الموجودات من باب أولى، بناءً على ما يزعمُ المشركون في آلهتهم من علوِّ الشأن.

ولم يَكْتفِ في بيان السبب بقوله سبحانه: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ بل عَطَفَ عليه ما عَطَفَ، ـ مع أنه ممَّا يعود إليه وتُشْعِرُ تلك الجملة به ـ إظهاراً لكمال العناية بالمطلوب، وبما يفيدُه منطوقُ المعطوف من بطلان الشريك، وكونِه تعالى هو العليَّ الكبير.

وقيل: أي: ذلك الاتصافُ بما تضمَّنته الآياتُ من عجائب القدرة والحكمة بسبب أنَّ الله تعالى هو الإله الثابتُ إلهيتُه، وأنَّ مَن دونه سبحانه باطلُ الإلهية، وأنَّ الله تعالى هو العليُّ الشأنِ الكبيرُ السلطان[2]. ومدارُ أمر السببية على كونه سبحانه هو الثابتَ الإلهيةِ، وبيَّن ذلك الطيبيُّ[3] بأنه قد تقرَّر أنَّ مَن كان إلهاً كان قادراً خالقاً عالماً، إلى غير ذلك من صفات الكمال، ثم قال: إنَّ قوله تعالى:

---

(١) ديوان لبيد ص٢٥٦، وسلف ٢/ ١٤٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٧.
(٣) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ) كالفذلكة لِمَا تقدَّم من قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم) إلى هذا المقام، وقولَه تعالى: (وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ) كالفذلكة لتلك الفواصل المذكورة هنالك كلِّها. ولعل ما قدَّمنا أولى بالاعتبار.

وقال العلَّامةُ أبو السعود في الاعتراض على ذلك: وأنت خبيرٌ بأنَّ حقِّيتَه تعالى وعلوَّه وكبرياءه وإنْ كانت صالحةً لمناطيَّةِ ما ذكر من الصفات، لكنَّ بطلان إلهية الأصنام لا دَخْلَ له في المناطية قطعاً، فلا مساغ لنَظْمِه في سلك الأسباب، بل هو تعكيسٌ للأمر ضرورةَ أنَّ الصفات المذكورة هي المقتضيةُ لبطلانها، لا أنَّ بطلانها يقتضيها[(١)]. انتهى، وفيه تأمُّلٌ، والعَجَبُ منه أنه ذكر مثل ما اعترض عليه في نظير هذه الآية في سورة الحجِّ، ولم يتعقَّبْه بشيء[(٢)].

وجوَّز أن يكون المعنى: ذلك ـ أي: ما تُلي من الآيات الكريمة ـ بسبب بيانِ أنَّ الله هو الحقُّ إلهيتُه فقط ولأَجْلِه؛ لكونها ناطقةً بحقِّيةِ التوحيد، ولأَجْلِ بيانِ بطلان إلهية ما يدعون من دونه لكونها شاهدةً [بذلك] شهادةً بينةً لا ريب فيها، ولأَجْلِ بيانِ أنه تعالى هو المرتفعُ على كلِّ شيءٍ المتسلِّطُ عليه، فإنَّ ما في تضاعيف تلك الآيات الكريمة مبيِّنٌ لاختصاص العلوِّ والكبرياء به أيَّ بيانٍ[(٣)]. وهو وجهٌ لا تكلُّف فيه سوى اعتبارِ حذف مضافٍ كما لا يخفى.

وكأنه إنما قيل هنا: «وأنَّ ما يدعون من دونه الباطل» بدون ضمير الفصل، وفي سورة الحج: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الآية: ٦٢] بتوسيط ضمير الفصل؛ لِمَا أنَّ الحطَّ على المشركين وآلهتهم في هذه السورة دون الحطِّ عليهم في تلك السورة.

وقال النيسابوريُّ في ذلك: إنَّ آية الحجِّ وقعت بين عَشْرِ آياتٍ، كلُّ آيةٍ مؤكَّدةٌ مرةً أو مرتين، فناسَبَ ذلك توسيط الضمير بخلاف ما هنا.

ويمكن أن يقال: تقدَّم في تلك السورة ذكرُ الشيطان مراتٍ، فلهذا ذُكرت تلك

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ٧٦-٧٧.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١١٧.

(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٧٦، وما سلف بين حاصرتين منه.

المؤكِّدات، بخلافِ هذه السورة فإنه لم يتقدَّم ذكرُ الشيطان فيها نحوَ ذكره هناك[١].

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر: «تدعون» بتاء الخطاب[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ استشهادٌ آخَرُ على باهرِ قدرتِه جلَّ وعلا، وغايةِ حكمته عزَّ وجلَّ، وشمول إنعامه تبارك وتعالى، والمرادُ بنعمة الله تعالى إحسانُه سبحانه في تهيئة أسباب الجري من الريح وتسخيرها، فالباءُ للتعدية كما في: مررتُ بزيدٍ، أو سببيةٌ متعلِّقة بـ «تجري».

وجوِّز أن يراد بنعمته تعالى ما أَنْعَمَ جلَّ شأنُه به مما تحملُه الفلك من الطعام والمتاع ونحوِه، فالباءُ للملابسة والمصاحبة متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من ضمير «الفُلْك»، أي: تجري مصحوبةً بنعمته تعالى.

وقرأ موسى بن الزبير: «الفُلُك» بضم اللام[٣]، ومثلُه معروفٌ في «فُعْل» مضمومِ الفاء؛ حُكي عن عيسى بن عمر[٤] أنه قال: ما سُمع فُعْل بضمِّ الفاء وسكونِ العين إلَّا وقد سمع فيه فُعُل بضمِّ العين. وفي «الكشاف»: كلُّ «فُعْل» يجوز فيه «فُعُل»، كما يجوزُ في كلِّ «فُعُل» «فُعْل»[٥]. وجُعِل ضمُّ العين للإتباع وإسكانُها للتخفيف.

وقرأ الأعرج والأعمش وابن يعمر: «بِنِعْماتِ الله» بكَسْرِ النون وسكونِ العين جمعاً بالألف والتاء[٦]، وهو جمعُ نِعْمة بكَسْرٍ فسكون، ويجوزُ كما قال غيرُ واحد في كلِّ جمعِ مثلِه تسكينُ العين على الأصل، وكَسْرُها إتْباعاً للفاء، وفتحُها تخفيفاً.

---

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ١٧/ ١١٥

(٢) التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

(٣) المحتسب ٢/ ١٧٠، والبحر ٧/ ١٩٣. ولم نقف على ترجمة موسى بن الزبير، ولكن الطيبي في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية نقل عن ابن جني أنه قال: هي قراءة ابن موسى بن الزبير، فلعله على هذا: أحمد بن موسى بن الزبير السلمي، وقد ذكره ابن حبان في الثقات ٨/ ٥ وقال: يروي عن الدراوردي وحاتم بن إسماعيل، عداده في أهل المدينة، قديم الموت، روى عنه يعقوب بن محمد الزهري.

(٤) كما في المحتسب ٢/ ١٧٠، وحاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٣٧.

(٦) القراءات الشاذة ص١١٧، والمحتسب ٢/ ١٧٠، والبحر ٧/ ١٩٣.

وقرأ ابن أبي عبلة: «بنَعِمات الله» بفَتْح النون وكَسْرِ العين جمعاً لنَعْمةٍ بفتح النون[١]، وهي اسمٌ للتنعُّم. وقيل: بمعنى النِّعْمةِ بالكسر.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بعضَ دلائل ألوهيته تعالى، ووحدتِه سبحانه، وقدرته جلَّ شأنُه، وعِلْمِه عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣١﴾ تعليلٌ لِمَا قبله، أي: إنَّ فيما ذُكر لآياتٍ عظيمةً في ذاتها كثيرةً في عددها لكلِّ مُبالغٍ في الصبر على بلائه سبحانه، ومبالغٍ في الشكر على نعمائه جلَّ شأنُه.

و«صبار شكور» كنايةٌ عن المؤمن، من باب: حيٌّ مستوي القامةِ عريضُ الأظفار؛ فإنه كنايةٌ عن الإنسان، لأنَّ هاتين الصفتين عُمْدتا الإيمان؛ لأنه وجميعَ ما يتوقَّفُ عليه إمَّا تركٌ للمألوف غالباً وهو بالصبر، أو فِعْلٌ لِمَا يُتقرَّبُ به وهو شكرٌ لعمومه فِعْلَ القلب والجوارح واللسان، ولذا ورد: الإيمانُ نصفان: نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكر[٢]. وذِكْرُ الوصفين بعد الفُلْكِ فيه أتمُّ مناسبةٍ؛ لأنَّ الراكب فيه لا يخلو عن الصبر والشكر.

وقيل: المراد بالصبَّار: كثيرُ الصبر على التعب في كَسْبِ الأدلَّة من الأنفس والآفاق، وإلَّا فلا اختصاصَ للآيات بمن تَعِبَ مطلقاً.

وكِلَا الوصفين بُنيا بناءَ مبالغةٍ، وفعَّال ـ على ما في «البحر» ـ أبلغُ من فَعُول لزيادة حُروفه[٣]. قيل: وإنما اختير زيادةُ المبالغة في الصبر إيماءً إلى أنَّ قليلَه لشدَّة مرارته وزيادةِ ثقله على النفس كثيرٌ.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾ أي: عَلَاهم وغطَّاهم، من الغشاء بمعنى الغطاء من فوق، وهو المناسبُ هنا. وقيل: أي: أتاهم، من الغشيان بمعنى الإتيان. وضمير «غشيهم» إن اتَّحد بضمير المخاطبين قبله ففي الكلام التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة، وإلَّا فلا التفاتَ.

---

(١) البحر ٧/ ١٩٣.

(٢) حديث ضعيف، وسلف ١١/ ٣٧٢.

(٣) البحر ٧/ ١٩٣.

والموجُ ما يعلو من غوارب الماء، وهو اسمُ جنسٍ واحدُه موجة، وتنكيرُه للتعظيم والتكثير، ولذا أُفرد مع جَمْع المشبَّهِ به في قوله تعالى: ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ وهو جمعُ ظلَّةٍ، كغُرْفةٍ وغُرَف، وقُرْبة وقُرَب، والمرادُ بها ما أظلَّ من سحابٍ أو جبلٍ أو غيرهما.

وقال الراغب: الظلَّة: السحابة تُظِلُّ، وأكثرُ ما يقال فيما يُسْتَوْخَمُ ويُكْرَه[١]. وفسَّر قتادةُ الظُّللَ هنا بالسحاب، وبعضُهم بالجبال. وقرأ محمد بن الحنفية ﷺ: «كالظلال»[٢] وهو جمعُ ظلَّة أيضاً، كعُلْبةٍ وعِلَاب، وجُفْرةٍ وجِفَار[٣].

و«إذا» ظرفٌ لقوله تعالى: ﴿دَعَوُا۟﴾ أي: دعوا ﴿ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ إذا غشيهم موجٌ كالظلل، وإنما فعلوا ذلك حينئذٍ لزوال ما ينازعُ الفطرةَ من الهوى والتقليدِ بما دهاهم من الخوف الشديد.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ سالكُ القَصْدِ - أي: الطريقِ المستقيمِ - لا يعدلُ عنه لغيره، وأصلُه: استقامةُ الطريق، ثم أُطلق عليه مبالغةً، والمرادُ بالطريق المستقيم التوحيدُ مجازاً، فكأنه قيل: فمنهم مقيمٌ على التوحيد، وقولُ الحسن: أي: مؤمنٌ يعرِفُ حقَّ الله تعالى في هذه النعمة، يرجعُ إلى هذا.

وقيل: «مقتصد» من الاقتصاد بمعنى التوسُّطِ والاعتدال، والمرادُ حينئذٍ على ما قيل: متوسِّطٌ في أقواله وأفعاله بَيْنَ الخوفِ والرجاء، مُوْفٍ بما عاهَدَ عليه الله تعالى في البحر، وتفسيرُه بموفٍ بعهده مرويٌّ عن ابن عباس ﵄.

ويدخل في هذا البعضِ على هذا المعنى عكرمةُ بن أبي جهل، فقد روى السدِّيُّ عن مصعب بن سعدٍ عن أبيه قال: لمَّا كان فتحُ مكة أمر رسول الله ﷺ الناسَ أن يكفُّوا عن قَتْلِ أهلها إلا أربعةَ نفرٍ منهم، قال: «اقتلوهم وإنْ وجدتُموهم متعلِّقين بأستار الكعبة» عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بنُ خَطَلَ، ومقيس بن صُبابة[٤]،

---

(١) مفردات الراغب (ظلل).

(٢) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٩٣.

(٣) الجُفْرة: جوف الصدر، وسعةٌ من الأرض مستديرةٌ، ومن الفرس: وسَطُه. القاموس (جفر).

(٤) في الأصل و(م): وقيس بن ضبابة، والصواب في الأول ما أثبتناه، أما الثاني فقال الحافظ =

وعبد الله بن أبي سرح، فأما عكرمةُ فركب البحر فأصابتهم ريحٌ عاصفةٌ، فقال أهلُ السفينة: أَخْلِصوا فإنَّ آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً هاهنا. فقال عكرمة: لئن لم ينجِّني في البحر إلا الإخلاصُ ما ينجِّني في البر غيرُه، اللهم إنَّ لك عليَّ عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أنْ آتيَ محمداً ﷺ حتى أضع يدي في يده، فلأجدنَّه عفوًّا كريماً. فجاء وأسلم(١).

وقيل: متوسِّطٌ في الكفر لانزجاره بما شاهد بعضَ الانزجار.

وقيل: متوسطٌ في الإخلاص الذي كان عليه في البحر، فإنَّ الإخلاص الحادث عند الخوف قلَّما يبقى لأحدٍ عند زوال الخوف.

وأيّاً ما كان فالظاهرُ أنَّ المقابل لقِسْمِ المقتصد محذوفٌ دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾.

والآيةُ دليلُ ابن مالك ومَن وافقه على جوازِ دخول الفاء في جواب «لمَّا»(٢)، ومَن لم يجوِّز قال: الجوابُ محذوفٌ، أي: فلما نجَّاهم إلى البرِّ انقسموا قسمين فمنهم مقتصدٌ ومنهم جاحد.

والختَّارُ من الختر، وهو أشدُّ الغَدْر، ومنه قولهم: إنك لا تمدُّ لنا شبراً من غَدْرٍ إلا مَدَدْنا لك باعاً من خَتْرٍ(٣). وبنحو ذلك فسَّره ابن عباس رضي الله عنهما لابن الأزرق، وأنشد قولَ الشاعر:

لقد علمتْ واستيقنتْ ذات نفسها ... بأنْ لا تخافَ الدهرَ صَرْمي ولا خَتْري(٤)

ونحوُه قولُ عمرو بن معدي كرب:

= في الإصابة ١٠/ ٢٤٥: هو بضم المهملة وموحَّدتين عند أكثر أهل اللغة، وقال ابن دريد: بالضاد المعجمة. اهـ. وجاء في القاموس وشرحه: حُبابة، بالحاء.

(١) أخرجه النسائي في المجتبى ٧/ ١٠٥-١٠٦، وسلف ١١/ ٩١.

(٢) مغني اللبيب ص٣٧٠، وذكر ابن مالك جواز دخول الفاء في جواب «لما» في التسهيل ص٢٤١.

(٣) في الأصل و(م): غدر، وهو خطأ، والمثبت من أساس البلاغة «ختر».

(٤) أخرجه السيوطي في الإتقان ١/ ٤١٠ ضمن الخبر الطويل في سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس رضي الله عنهما.

وإنَّــك لــو رأيــتَ أبــا عُــمــيــرٍ   مَــلأْتَ يــديــك مــن غَــدْرٍ وخَــتْــرِ[١]

وفي «مفردات» الراغب: الخترُ غدرٌ يَخْتِرُ فيه الإنسان، أي: يَضْعُفُ ويكسر لاجتهاده فيه[٢].

أي: وما يجحد بآياتنا ويكفُر بها إلا كلُّ غدَّارٍ أشدَّ الغدر؛ لأنَّ كفره نقضٌ للعهد الفطري. وقيل: لأنه نقضٌ لِمَا عاهد الله تعالى عليه في البحر من الإخلاص له عز وجل.

﴿كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ مبالغٍ في كفران نِعَمِ الله تعالى. و«ختَّار» مقابلٌ لـ «صبَّار»؛ لأنَّ مَن غَدَرَ لم يَصْبِرْ على العهد، و«كفور» مقابل لـ «شكور».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أمرٌ بالتقوى على سبيل الموعظة والتذكير بيومٍ عظيم بعد ذِكْرِ دلائل الوحدانية، و«يجزي» من جَزَى بمعنى قضى، ومنه قيل للمتقاضي: المتجازي، أي: لا يقضي والدٌ عن ولده شيئاً.

وقرأ أبو السَّمَّال وعامر بنُ عبد الله وأبو السَّوَّار: «لا يُجزِئُ» بضم الياء وكَسْرِ الزاي مهموزاً[٣]، ومعناه: لا يغني والدٌ عن ولده ولا يُفيدُه شيئاً، من أَجْزَأْتُ عنك مجزأً فلانٍ، أي: أَغْنَيْتُ. وقرأ عكرمة: «لا يُجْزَى» بضمِّ الياء وفَتْحِ الزاي مبنيًّا للمفعول[٤].

والجملةُ على القراءات صفةُ «يوماً» والراجعُ إلى الموصوف محذوفٌ، أي: فيه، فإمَّا أن يحذف برمَّته، وإمَّا على التدريج بأنْ يُحذَفَ حرفُ الجرِّ فيُعدَّى الفعلُ إلى الضمير، ثم يحذف منصوباً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ إمَّا عطفٌ على «والدٍ» فهو فاعلُ «يجزي»، وقولُه تعالى: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ في موضع الصفة له، والمنفيُّ عنه هو الجزاءُ في

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٢٩، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٨٠، والكشاف ٣/ ٢٣٨، وتفسير القرطبي ١٦/ ٤٩٤.

(٢) مفردات الراغب (ختر).

(٣) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٩٤.

(٤) البحر ٧/ ١٩٤.

الآخرة، والمثبَتُ له الجزاءُ في الدنيا. أو معنى «هو جاز» أنَّ[(١)] من شأنه الجزاءَ لعظيمِ حقِّ الوالد، أو المراد بـ «لا يجزي»: لا يُقبل منه ما هو جازٍ به.

وإما مبتدأ والمسوِّغُ للابتداء به مع أنه نكرةٌ تقدُّمُ النفي ـ وذهل المهدويُّ عن ذلك فمنع صحةَ كونه مبتدأً ـ وجملةُ «هو جازٍ» خبره. و«شيئاً» مفعولٌ به، أو منصوبٌ على المصدرية لأنه صفةُ مصدرٍ محذوف، وعلى الوجهين قيل: تَنازَعَه «يجزي» و«جازٍ».

واختيارُ ما لا يفيدُ التأكيدَ في الجملة الأولى وما يفيدُه في الجملة الثانية؛ لأنَّ أكثر المسلمين وأجلَّتهم حين الخطابِ كان آباؤهم قد ماتوا على الكفر وعلى الدِّين الجاهليِّ، فلمَّا كان غَناءُ الكافر عن المسلم بعيداً لم يَحْتَجْ نفيُه إلى التأكيد، ولمَّا كان غَناءُ المسلم عن الكافر ممَّا يقع في الأوهام أكِّد نفيُه. قاله الزمخشري[(٢)].

وتعقَّبه ابن المنير بأنه يتوقَّفُ صحتُه على أنَّ هذا الخطاب كان خاصّاً بالموجودين حينئذٍ، والصحيحُ أنه عامٌّ لهم ولكلِّ مَن ينطلق عليه اسم الناس[(٣)].

وردَّه في «الكشف» بأنَّ المقدِّمتين فاسدتان؛ أمَّا الثانيةُ: فلِمَا تقرَّر في أصول الفقه أنَّ «يا أيها الناس» يتناول الموجودين، وأمَّا لغيرهم فبالإعلام أو بطريقِه، والمالكيةُ موافقةٌ. وأمَّا الأولى: فعلى تقدير التسليم لا شكَّ أنَّ أجلَّة المؤمنين وأكابرهم إلى انقراض الدنيا هم النبيُّ ﷺ وأصحابه ﷺ، ومعلومٌ أنَّ أكثرهم قُبض آباؤهم على الكفر، فمن أين التوقيف. اهـ.

واختار ابن المنير في وجه ذلك: أنَّ الله تعالى لمَّا أكَّد الوصيةَ بالآباء، وقَرَنَ وجوبَ شكرهم بوجوب شكره عزَّ وجلَّ، وأَوْجَبَ على الولد أن يكفيَ والده ما يسوءُه بحسب نهاية إمكانه، قَطَع سبحانه هاهنا وَهْمَ الوالد في أن يكون الولد في القيامة يجزيه حقَّه عليه، ويكفيه ما يلقاه من أهوال يوم القيامة كما أوجَبَ الله تعالى عليه في الدنيا ذلك في حقِّه، فلمَّا كان جزاءُ الولد عن الوالد مظنَّةَ الوقوع لأنه

---

(١) في (م): أي، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ١٤٤، والكلام منه.
(٢) في الكشاف ٣/ ٢٣٨ بنحوه.
(٣) الانتصاف مع الكشاف ٣/ ٢٣٨.

سبحانه حضَّ عليه في الدنيا كان جديراً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم، ولا كذلك العكسُ(١).

وقريبٌ منه ما قاله الإمام(٢): إنَّ الولد من شأنه أن يكون جازياً عن والده لِمَا عليه من الحقوق، والوالد(٣) يجزي لِمَا فيه من الشفقة(٤)، وليس ذلك بواجبٍ عليه، فلذا قال سبحانه في الوالد: ﴿لَّا يَجْزِى﴾ وفي الولد: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ﴾ ألا ترى أنه يقال لمن يَحيكُ وليست الحياكةُ صنعتُه: هو يَحيك، ولمن يحيكُ وهي صنعتُه: هو حائك.

وقيل: إنَّ التأكيد في الجملة الثانية للدلالة على أنَّ المولود أولى بأنْ لا يجزي لأنه دون الوالد في الحنوِّ والشفقة، فلمَّا كان أولى بهذا الحكم استحقَّ التأكيد. وفي القلب منه شيء.

وقد يقال: إنَّ العرب كانوا يدَّخرون الأولاد لنَفْعِهم ودَفْعِ الأذى عنهم وكفايةِ ما يهمُّهم، ولعل أكثر الناس اليومَ كذلك، فأُريدَ حَسْمُ توهُّم نَفْعِهم ودَفْعِهم الأذى وكفايةِ المهمِّ في حقِّ آبائهم يوم القيامة، فأكِّدت الجملةُ المفيدةُ لنفي ذلك عنهم.

وعُدَّ من جملة المؤكِّدات التعبيرُ بالمولود؛ لأنه مَن وُلِدَ بغير واسطةٍ، بخلافِ الولد فإنه عامٌّ يشملُ ولدَ الولد، فإذا أفادت الجملة أنَّ الولد الأدنى لا يجزي عن والده عُلم أنَّ مَن عَدَاه من ولد الولد لا يجزي عن جدِّه من باب أَوْلَى.

واعتُرض بأنَّ هذه التفرقةَ بين الولد والمولود لم يثبتها أهلُ اللغة. ورُدَّ بأنَّ الزمخشريَّ والمطرزي ذكرا ذلك(٥)، وكفى بهما حجَّةً، ثم إنَّ في عموم الولد لولد الولد أيضاً مقالاً، فقد ذهب جمعٌ أنه خاصٌّ بالولد الصُّلْبيِّ حقيقةً.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) في تفسيره ٢٥/ ١٦٣.
(٣) في الأصل و(م): والولد، وهو تصحيف، والمثبت من تفسير الرازي.
(٤) في (م): النفقة، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وتفسير الرازي.
(٥) الكشاف ٣/ ٢٣٨، وذكره عنه وعن المطرزي الشهاب في الحاشية ٧/ ١٤٥. وسيأتي ما للمطرزي من كلام في هذه المسألة في كتابه المغرب.

وقال صاحب «المغرب»: يقال للصغير مولود وإن كان الكبير مولوداً أيضاً؛ لقُرْبِ عهده من الولادة، كما يقال: لبنٌ حليبٌ ورُطَبٌ جَنيٌّ للطريِّ منهما[(١)]، ووجَّهَ أمرُ التأكيد عليه بأنه إذا كان الصغير لا يجزي حينئذٍ مع عدم اشتغاله بنفسه لعدم تكليفه في الدنيا، فالكبيرُ المشغولُ بنفسه من باب أَوْلَى، وهو كما ترى.

وخصَّص بعضهم العمومَ بغير صبيان المسلمين؛ لثبوت الأحاديث بشفاعتهم لوالديهم. وتعقَّب بأنَّ الشفاعة ليست بقضاءٍ، ولو سلِّم فلتَوَقُّفِها على القبول يكون القضاءُ منه عز وجل حقيقةً، فتدبر.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ قيل: بالثواب والعقاب، على تغليب الوعد على الوعيد، أو هو بمعناه اللغويِّ ﴿حَقٌّ﴾ ثابتٌ متحقِّقٌ لا يُخْلَفُ، وعدمُ إخلاف الوعد بالثواب مما لا كلامَ فيه، وأمَّا عدمُ إخلافِ الوعد بالعقاب ففيه كلامٌ، والحقُّ أنه لا يُخْلَفُ أيضاً، وعدمُ تعذيب مَن يُغفر له من العصاة المتوعَّدين فليس من إخلاف الوعيد في شيءٍ؛ لِمَا أنَّ الوعيد في حقِّهم كان معلَّقاً بشرطٍ لم يُذكر ترهيباً وتخويفاً. والجملةُ على هذا تعليلٌ لنفي الجزاء.

وقيل: المراد: إنَّ وعد الله بذلك اليوم حقٌّ، والجملةُ مستأنفةٌ استئنافاً بيانيّاً، كأنه لمَّا قيل: يا أيها الناس اتقوا يوماً.. إلخ[(٢)]، سأل سائل: أيكون[(٣)] ذلك اليوم؟ فقيل: «إنَّ وعد الله حقٌّ»، أي: نعم يكون لا محالةَ لمكانِ الوعد به، فهو جوابٌ على أبلغ وجهٍ، وإليه يشيرُ كلام الإمام[(٤)].

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بأنْ تُلْهِيَكم بلذَّاتها عن الطاعات ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ أي: الشيطان ـ كما روي عن ابن عباس وعكرمةَ وقتادةَ ومجاهدٍ والضحاك ـ بأنْ يحملكم على المعاصي بتزيينها لكم، ويرجِّيَكم التوبةَ والمغفرةَ منه تعالى، أو يَذْكُرَ لكم أنها لا تضرُّ مَن سَبَقَ في علم الله تعالى موتُه على الإيمان، وأنَّ تَرْكَها لا ينفعُ مَن سَبَقَ في العلم موتُه على الكفر.

---

(١) المغرب للمطرزي ٢/ ٣٧٠.
(٢) ولفظ الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾.
(٣) في (م): أن يكون، بدل: أيكون، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.
(٤) في تفسيره ٢٥/ ١٦٤، وسيأتي كلامه في هذه الآية بتمامه ص١٠٨-١٠٩ من هذا الجزء.

وعن أبي عبيدة: كلُّ شيءٍ غرَّكَ حتى تعصي الله تعالى وتتركَ ما أمرك سبحانه به فهو غَرورٌ، شيطاناً أو غيرَه[١].

وإلى ذلك ذهب الراغب[٢]؛ قال: الغرورُ كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطان، وقد فسِّر بالشيطان إذ هو أخبثُ الغارِّين، وبالدنيا لِمَا قيل: الدنيا تَغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرُّ، وأصل الغَرور مِن غَرَّ فلاناً: إذا أصاب غِرَّتَه - أي: غَفْلَته - ونال منه ما يريدُ، والمراد به الخداع.

والظاهرُ أنَّ «بالله» صلةُ «يغرَّنَّكم»، أي: لا يخدعنَّكم بذكر شيءٍ من شؤونه تعالى يُجْسِرُكم على معاصيه سبحانه. وجوِّز أن يكون قَسَماً، وفيه بعدٌ.

وقرأ ابن أبي إسحاق وابنُ أبي عبلة ويعقوب: «تغرَّنْكم» بالنون الخفيفة[٣].

وقرأ سماك[٤] بن حرب وأبو حيوة: «الغُرور» بضمِّ الغين[٥]، وهو مصدرٌ والكلامُ من باب: جدَّ جدُّه، ويمكن تفسيرُه بالشيطان بجَعْلِه نفسَ الغرورِ مبالغة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلخ، أخرج ابنُ المنذر عن عكرمة أنَّ رجلاً يقال له: الوارث بن عمرو جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد، متى قيامُ الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تُخْصِبُ؟ وقد تركْتُ امرأتي حُبْلَى فما تَلِدُ؟ وقد علمتُ ما كسبتُ اليومَ فماذا أَكْسِبُ غداً؟ وقد علمتُ بأيِّ أرضٍ ولدتُ فبأيِّ أرضٍ أموت؟ فنزلت هذه الآية[٦]. وذكر نحوَه محيي السنَّةِ البغويُّ، والواحديُّ، والثعلبي[٧]. فهي[٨]

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٢٩.

(٢) في مفرداته (غرر).

(٣) البحر ٧/ ١٩٤.

(٤) في الأصل و(م): سمال، والصواب ما أثبتناه، وهو سماك بن حرب الذهلي البكري الكوفي أبو المغيرة، حدث عن جمع من الصحابة والتابعين، توفي سنة(١٢٣هـ). سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٤٥.

(٥) المحتسب ٢/ ١٧٢، والبحر ٧/ ١٩٤.

(٦) الدر المنثور ٥/ ١٦٩، وأخرج نحوه الطبري ١٨/ ٥٨٥ عن مجاهد.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٦، وأسباب النزول للواحدي ص٣٦٤، وتفسير الثعلبي ٧/ ٣٢٣، ووقع في تفسير البغوي وأسباب النزول: الحارث، بدل: الوارث.

(٨) في (م): فهو.

نظراً إلى سبب النزول جوابٌ لسؤالٍ محقَّقٍ، ونظراً إلى ما قبلها من الآي جوابٌ لسؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّ قائلاً يقول: متى هذا اليوم الذي ذُكر مِن شأنه ما ذُكر؟ فقيل: «إن الله» إلخ.

ولم يقل: إنَّ علمَ الساعة عند الله، مع أنه أَخْصَرُ، لأنَّ اسم الله سبحانه أحقُّ بالتقديم، ولأنَّ تقديمه وبناءَ الخبر عليه يفيدُ الحصر كما قرَّره الطيبيُّ[1]، مع ما فيه من مزيةِ تكرُّر الإسناد، وتقديمُ الظرف يفيدُ الاختصاص أيضاً، بل لفظُ «عند» كذلك؛ لأنها تفيد حِفْظَه بحيث لا يُوْصَلُ إليه، فيفيدُ الكلامُ من أوجهٍ اختصاصَ عِلْمِ وَقْتِ القيامة بالله عزَّ وجل.

وقولُه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ - أي: في إبَّانه[2] من غير تقديمٍ ولا تأخيرٍ، في بلدٍ لا يتجاوزُه به، وبمقدارٍ تقتضيه الحكمةُ - الظاهرُ أنه عطفٌ على الجملة الظرفية المبنيَّة على الاسم الجليل، على عَكْسِ قوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ [المؤمنون: ٢١] فيكون خبراً مبنيًّا على الاسم الجليل مثل المعطوف عليه، فيفيد الكلامُ الاختصاصَ أيضاً.

والمقصودُ تقييداتُ التنزيل الراجعةُ إلى العلم، لا مَحْضُ القدرة على التنزيل إذ لا شبهةَ فيه، فيرجعُ الاختصاص إلى العلم بزمانه ومكانه ومقدارِه، كما يشير إلى ذلك كلامُ «الكشف».

وقال العلَّامةُ الطيبيُّ في «شرح الكشاف»: دلالةُ هذه الجملة على علم الغيب من حيث دلالةُ المقدور المُحْكَم المتقَنِ على العلم الشامل[3].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ - أي: أذكرٌ أم أنثى، أتامٌّ أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال - عطفٌ على الجملة الظرفية أيضاً نظير ما قبله، وخُولِفَ بين «عنده علم الساعة» وبين هذا ليدلَّ في الأول على مزيد الاختصاص؛ اعتناءً بأمر الساعة، ودلالةً على شدة خفائها، وفي هذا على استمرار تجدُّد

---

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) بكسر الهمزة وتشديد الباء، أي: وقته. حاشية الشهاب ٧/ ١٤٥.

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

التعلُّقات بحسب تجدُّد المتعلّقات مع الاختصاص. ولم يُراعَ هذا الأسلوبُ فيما قبله بأن يقال: ويعلم الغيثَ، مثلاً؛ إشارةً بإسناد التنزيل إلى الاسم الجليل صريحاً إلى عظم شأنه لِمَا فيه من كثرة المنافع لأجناس الخلائق، وشيوع الاستدلال بما يترتَّب عليه من إحياء الأرض على صحة البعث المشارِ إليه بالساعة في الكتاب العظيم؛ قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۝٤٩ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم:٤٩-٥٠] وقال سبحانه: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩] إلى غير ذلك.

وربما يقال: إنَّ لتنزيل الغيث وإن لم يكن الغيثَ المعهودَ دخلاً في البعث[1] بناءً على ما ورد من حديث مطر السماء بعد النفخة الأولى مطراً كمنيِّ الرجال[2].

وقيل: الاختصاصُ راجعٌ إلى التنزيل وما ترجع إليه تقييداتُه التي يقتضيها المقام من العلم، وفي ذلك ردٌّ على القائلين: مُطِرْنا بنوء كذا[3]، وللاعتناء بردِّ ذلك لِمَا فيه من الشرك في الربوبية عَدَل عن: يعلم، إلى «ينزِّل». وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ أي: كلُّ نفسٍ برَّةً كانت أو فاجرةً، كما يدلُّ عليه وقوعُ النكرة في سياق النفي ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي: في الزمان المستقبل من خيرٍ أو شرٍّ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ عطفٌ ـ على ما استظهره صاحب «الكشف» ـ على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وأشار إلى أنه لمَّا كان الكلامُ مسوقاً للاختصاص لا لإفادة أصل العلم له تعالى ـ فإنه غير منكرٍ ـ لزم من النفي على سبيل الاستغراق اختصاصُه به عزَّ وجل على سبيل الكناية على الوجه الأبلغ.

---

(١) في (م): المبعث.

(٢) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة ١٥/ ١٩١-١٩٥، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٣١٤-٣١٦، والحاكم ٤/ ٤٩٦-٤٩٨ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً، وفي إسناده أبو الزعراء الكندي عبد الله بن هانئ، قال فيه البخاري كما ذكر العقيلي: لا يتابع على حديثه.

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، وسلف ٥/ ٢١٤ وعند تفسير الآية (٩٧) من سورة الأنعام.

وفي العدول عن لفظ العلم إلى لفظ الدراية لِمَا فيها من معنى الختل والحيلة لأنَّ أصل دَرَى: رمى الدَّرِيَّة، وهي الحلقةُ التي يَقْصِدُ رَمْيَها الرماةُ، وما يُتعلَّمُ عليه الطعنُ، والناقةُ التي يسيِّبها الصائدُ ليأنَسَ بها الصيدُ، فيستتر من ورائها فيرميه، وفي كلٍّ حيلة، ولكونها عِلْماً بضَرْبٍ من الختل والحيلة لا تُنْسَبُ إليه عزَّ وجل إلا إذا أوِّلَتْ بمطلق العلم، كما في خبر: خمسٌ لا يدريهنَّ إلا الله تعالى[(١)].

وقيل: قد يقال: الممنوعُ نسبتُها إليه سبحانه بانفراده تعالى، أمَّا مع غيره تبارك اسمه تغليباً فلا، ويفهم من كلام بعضهم صحةُ النسبة إليه جلَّ وعلا على سبيل المشاكلة كما في قوله:

لاهــــمَّ لا أدري وأنـــت الـــداري[(٢)]

فلا حاجة إلى ما قيل[(٣)]: إنه كلامُ أعرابيٍّ جلفٍ لا يعرفُ ما يجوزُ إطلاقُه على الله تعالى وما يمتنع. فيكون المعنى: لا تعرفُ كلُّ نفسٍ وإن أَعْمَلَتْ حِيَلَها ما يلصقُ بها ويختصُّ ولا يتخطَّاها، ولا شيء أخصُّ بالإنسان من كَسْبِه وعاقبتِه، فإذا لم يكن له طريقٌ إلى معرفتهما كان من معرفة ما عَدَاهما أبعدَ وأبعدَ، وقد روعي في هذا الأسلوب الإدماجُ المذكور، ولذا لم يقل: ويعلم ماذا تكسبُ كلُّ نفسٍ ويعلمُ أنَّ كلَّ نفسٍ بأيِّ أرضٍ تموت.

وجوِّز أن يكون أصلُ «وينزل الغيث»: وأنْ ينزِّلَ الغيث، فحُذف «أن» وارتفع الفعلُ، كما في قوله:

ألا أيـهـذا الـزاجـري أحـضُـرُ الـوغـى[(٤)]

---

(١) كذا نقل المصنف لفظه عن الشهاب في الحاشية ٧/ ١٤٥، وقد عزاه الشهاب للبخاري، ولم نقف عليه بهذا اللفظ، وإنما لفظ الحديث عند البخاري (١٠٣٩) وعند غيره: «خمس لا يعلمها» وفي رواية: «لا يعلمهن» كما سيرد، غير أنه جاء في آخر الحديث ـ كما سيرد أيضاً ـ قوله ﷺ: «وما يدري أحد متى يجيء المطر» قال ابن حجر في الفتح ٢/ ٥٢٥: زاد الإسماعيلي: «إلا الله».

(٢) الرجز للعجاج، وهو في ديوانه ص١٢١، والبحر ٧/ ١٩٤، وحاشية الشهاب ٧/ ١٤٥، ورواية الديوان: يا رب لا أدري. . . .

(٣) القائل هو أبو حيان في البحر ٧/ ١١٠، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١٤٥.

(٤) وعجزه: وأن أشهد اللذات هل أنت مُخْلدي. وهو لطرفة، وهو في ديوانه ص٣٢، وسلف ٢/ ٢٧٧ و٧/ ٢٤٤ و١٠/ ١٤٥ وغيرها.

وكذا قوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ والعطفُ على «علم الساعة»، فكأنه قيل: إن الله عنده علمُ الساعة وتنزيلُ الغيث وعِلْمُ ما في الأرحام، ودلالةُ ذلك على اختصاص عِلْمِ تنزيلِ الغيث به سبحانه ظاهرٌ؛ لظهور أنَّ المراد بعنده تنزيلُ الغيث: عنده علمُ تنزيله. وإذا عطف «ينزل» على «الساعة» كان الاختصاصُ أظهرَ لانسحاب «عِلْم» المضافِ إلى «الساعة» إلى الإنزال حينئذٍ، فكأنه قيل: إنَّ الله عنده علم الساعةِ وعلمُ تنزيلِ الغيث، وهذا العطفُ لا يكاد يتسنَّى في «ويعلم»؛ إذ يكون التقدير: وعنده عِلْمُ عِلْمِ ما في الأرحام، وليس ذاك بمرادٍ أصلاً.

وجعل الطيبيُّ[1] «وما تدري نفسٌ» إلخ معطوفاً على خبر «إنَّ» من حيث المعنى بأن يُجعل المنفيُّ مثبتاً، بأن يقال: ويعلم ماذا تكسبُ كلُّ نفسٍ غداً ويعلم أنَّ كلَّ نفسٍ بأيِّ أرضٍ تموت، وقال: إنَّ مثل ذلك جائزٌ في الكلام إذا روعي نكتةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١] فإنَّ العطف فيه باعتبارِ رجوع التحريم إلى ضدِّ الإحسان وهي الإساءة، وذَكر في بيانِ نكتةِ العدول عن المثبت إلى المنفيِّ نحوَ ما ذكرنا آنفاً.

وتعقَّب ذلك صاحبُ «الكشف» بأنَّ عنه مندوحةً، أي: بما ذكر من عَطْفِه على جملة «إنَّ الله عنده علم الساعة».

وقال الإمام في وجه نظم الجمل: الحقُّ أنه تعالى لمَّا قال: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾ إلخ، وذَكَرَ سبحانه أنه كائنٌ بقوله عزَّ قائلاً: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فكأنَّ قائلاً يقول: فمتى هذا اليوم؟ فأجيبَ بأنَّ هذا العلم مما لم يحصل لغيره تعالى، وذلك قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ثم ذكر جلَّ وعلا الدليلين اللذين ذُكرا مراراً على البعث: أحدهما: إحياءُ الأرض بعد موتها، المشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾. والثاني: الخلقُ ابتداءً، المشارُ إليه بقوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾، فكأنه قال عزَّ وجل: يا أيها السائل، إنك لا تعلمُ وقتها ولكنها كائنةٌ، والله تعالى قادرٌ عليها كما هو سبحانه قادرٌ على إحياء الأرض وعلى الخلق في الأرحام، ثم بعَّد جلَّ شأنُه له أن يعلم ذلك بقوله عزَّ وجل: ﴿وَمَا تَدْرِى﴾ إلخ، فكأنه قال تعالى: يا أيها

---

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

السائل إنك تسأل عن الساعة أيان مُرساها، وإنَّ من الأشياء ما هو أهمُّ منها لا تعلمه، فإنك لا تعلم معاشَك ومعادك، فما تعلمُ ماذا تكسب غداً مع أنه فعلُكَ وزمانُك، ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانُك، فكيف تعلمُ قيامَ الساعة متى يكون، والله تعالى ما علَّمك كَسْبَ غَدِكَ، ولا علَّمك أين تموت، مع أنَّ لك في ذلك فوائدَ شتَّى، وإنما لم يعلِّمك لكي تكون في كلِّ وقتٍ بسبب الرزق راجعاً إلى الله تعالى متوكِّلاً عليه سبحانه، ولكيلا تأمَنَ الموتَ إذا كنتَ في غير الأرض التي أَعْلَمكَ سبحانه أنك تموت فيها، فإذا لم يُعْلِمْكَ ما تحتاجُ إليه كيف يُعْلمُك ما لا حاجةَ لك إليه، وهو وقتُ القيامة، وإنما الحاجةُ إلى العلم بأنها تكونُ وقد أعلمك جل وعلا بذلك على ألسنة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام(١). انتهى، ولا يخفى أنَّ الظاهر على ما ذكره أن يقال: ويخلق ما في الأرحام، كما قال سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ ووجهُ العدول عن ذلك إلى ما في النظم الجليل غيرُ ظاهرٍ، على أنَّ كلامه بعدُ لا يخلو عن شيءٍ.

وكونُ المراد اختصاصَ علم هذه الخمس به عزَّ وجلَّ هو الذي تدلُّ عليه الأحاديثُ والآثار، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة من حديث طويل أنه ﷺ سئل: متى الساعةُ؟ فقال للسائل: «ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائل، وسأُخبِركُ عن أشراطها: إذا ولدت الأمةُ ربَّها؛ وإذا تطاوَلَ رعاةُ الإبل البُهْمُ في البنيان، في خمسٍ لا يعلمهنَّ إلا الله تعالى» ثم تلا النبيُّ ﷺ: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ الآية»(٢) أي: إلى آخر السورة كما في بعض الروايات(٣)، وما وقع عند البخاريِّ في التفسير من قوله: إلى «الأرحام»(٤) تقصيرٌ من بعض الرواة.

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ١٦٤-١٦٥.

(٢) صحيح البخاري (٥٠)، وصحيح مسلم (٩). وقوله: ربها، أي: مالكها وسيدها. وقوله: البهم، يجوز في الميم الكسر على أنها صفة الإبل، يعني: الإبل السود. ويجوز فيها الضم على أنها صفة الرعاة، ووصفوا بذلك إما لأنهم سود الألوان، وإما لأنهم مجهولو الأنساب، وإما لأنهم لا شيء لهم على اعتبار أن الراعي يرعى بالأجرة. ينظر فتح الباري ١/ ١٢٢-١٢٣.

(٣) هي رواية مسلم.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٧٧)، والكلام من فتح الباري ١/ ١٢٤.

وأخرجا أيضاً هما وغيرُهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاحُ ـ وفي رواية: مفاتِحُ ـ الغيب خمسٌ لا يعلمها إلَّا الله تعالى: لا يعلمُ أحدٌ ما يكون في غدٍ، ولا يعلم أحدٌ ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفسٌ ماذا تَكْسِبُ غداً، وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت، وما يدري أحدٌ متى يجيْءُ المطر»(١).

وأخرج أحمد والبزار وابن مردويه والرويانيُّ والضياء بسندٍ صحيح عن بريدة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خمسٌ لا يعلمهنَّ إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية»(٢).

وظاهرُ هذه الأخبار يقتضي أنَّ ما عدا هذه الخمسِ من المغيَّبات قد يعلمه غيرُه عز وجل، وإليه ذهب مَن ذهب؛ أخرج حميد بن زنجويه(٣) عن بعض الصحابة ﵁ أنه ذكر العلم بوقت الكسوف قبل الظهور، فأُنكِرَ عليه فقال: إنما الغيبُ خمسٌ ـ وتلا هذه الآية ـ وما عدا ذلك غيبٌ يعلمه قومٌ ويجهله قومٌ.

وفي بعض الأخبار ما يدلُّ على أنَّ عِلْمَ هذه الخمس لم يُؤْتَ للنبيِّ ﷺ، ويلزمُه أنه لم يؤتَ لغيره ﷺ من بابِ أَوْلَى؛ أخرج أحمد والطبرانيُّ عن ابن عمر ﵄ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أوتيتُ مفاتيحَ كلِّ شيءٍ إلا الخمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية»(٤).

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أوتي نبيُّكم ﷺ مفاتيحَ كلِّ شيءٍ غيرَ الخمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية(٥).

وأخرج ابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: لم يغمَّ على نبيِّكم ﷺ

---

(١) صحيح البخاري (١٠٣٩)، وهو عند أحمد بنحوه (٤٧٦٦)، ولم نقف عليه عند مسلم.
(٢) مسند أحمد (٢٢٩٨٦)، ومسند البزار (٢٢٤٩- كشف)، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٦٩.
(٣) كما في فتح الباري ١/ ١٢٤.
(٤) مسند أحمد (٥٥٧٩)، والمعجم الكبير (١٣٣٤٤).
(٥) مسند أحمد (٣٦٥٩)، ومسند أبي يعلى (٥١٥٣)، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٨٧، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٦٩.

إلا الخمسُ من سرائر الغيب، هذه الآية في آخر لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى آخر السورة[(١)].

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والبخاري في «الأدب» عن ربعيٍّ بن حِرَاشٍ قال: حدَّثني رجلٌ من بني عامر أنه قال: يا رسول الله، هل بقي من العلم شيءٌ لا تعلمه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد علَّمني الله تعالى خيراً، وإنَّ من العلم ما لا يعلمه إلا الله تعالى، الخمسُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية[(٢)].

وصرَّح بعضهم باستئثار الله تعالى بهن؛ أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في الآية: خمسٌ من الغيب استأثر الله تعالى بهنَّ فلم يُطْلِعْ عليهنَّ مَلَكاً مقرَّباً ولا نبيّاً مرسَلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ولا يدري أحدٌ من الناس متى تقومُ الساعة، في أيِّ سنةٍ ولا في أيِّ شهر، أليلاً أم نهاراً؟ ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحدٌ متى ينزلُ الغيثُ، أليلاً أم نهاراً؟ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلم أحدٌ ما في الأرحام أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود؟ولا تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً، أخيراً أم شرًّا؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ليس أحدٌ من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحرٍ أم في برٍّ، في سهلٍ أم في جبل[(٣)]؟

والذي ينبغي أن يُعْلَم أنَّ كلَّ غيبٍ لا يعلمه إلَّا الله عز وجل، وليس المغيباتُ محصورةً بهذه الخمس، وإنما خصَّت بالذكر لوقوع السؤال عنها، أو لأنها كثيراً ما تشتاقُ النفوسُ إلى العلم بها، وقال القسطلانيُّ: ذَكَر ﷺ خمساً وإن كان الغيبُ لا يتناهى؛ لأنَّ العدد لا ينفي زائداً عليه، ولأن هذه الخمسةَ هي التي كانوا يدَّعون عِلْمَها. انتهى، وفي التعليل الأخير نظر لا يخفى.

وأنه يجوزُ أن يُطْلِعَ الله تعالى بعض أصفيائه على إحدى هذه الخمس، ويرزقَه عزَّ وجلَّ العلمَ بذلك في الجملة، وعِلْمُها الخاصُّ به جل وعلا ما كان على وجه الإحاطة والشمول لأحوال كلٍّ منها وتفصيله على الوجه الأتم، وفي «شرح المناوي

---

(١) الدر المنثور٥/١٦٩، وفيه: يعم، بدل: يغم.

(٢) مسند أحمد (٢٣١٢٧)، والأدب المفرد (١٠٨٤)، والكلام من الدر المنثور ٥/١٦٩.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٨٥، والدر المنثور ٥/ ١٦٩.

الكبير للجامع الصغير» في الكلام على حديث بريدةَ السابق «خمسٌ لا يعلمهنَّ إلا الله»: على وجه الإحاطة والشمول كلّيّاً وجزئيّاً، فلا ينافيه إطْلاعُ الله تعالى بعضَ خواصِّه على بعض المغيَّبات حتى من هذه الخمس؛ لأنها جزئياتٌ معدودةٌ، وإنكارُ المعتزلة لذلك مكابرةٌ[1]. انتهى.

ويُعلَم مما ذكرنا وجهُ الجمع بين الأخبار الدالة على استئثار الله تعالى بعلم ذلك وبين ما يدلُّ على خلافه كبعض إخباراته ﷺ بالمغيَّبات التي هي من هذا القبيل، يَعْلَم ذلك مَن راجَعَ نحو «الشفا» و«المواهب اللدنية» مما ذكر فيه معجزاتُه ﷺ وإخبارُه ﷺ بالمغيبات[2].

وذكر القسطلانيُّ أنه عزَّ وجل إذا أمر بالغيث وسوقه إلى ما شاء من الأماكن عَلِمتْه الملائكةُ الموكَّلون به ومَن شاء سبحانه مِن خَلْقِه عز وجل، وكذا إذا أراد تبارك وتعالى خَلْقَ شخصٍ في رحمٍ يُعْلِمُ سبحانه الملكَ الموكَّلَ بالرَّحِم بما يريد جلَّ وعلا، كما يدلُّ عليه ما أخرجه البخاريُّ عن أنس بن مالك عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى وكَّل بالرَّحِم مَلَكاً يقول: يا ربِّ نطفةٌ، يا ربِّ علقةٌ، يا ربِّ مضغةٌ، فإذا أراد الله تعالى أن يقضي خَلْقَه قال: أذكَرٌ أم أنثى، شقيٌّ أم سعيد، فما الرزق والأَجَل؟ فيُكْتَبُ في بطن أمه»[3] فحينئذٍ يعلمُ بذلك الملكُ ومَن شاء الله تعالى من خَلْقِه عزَّ وجل، وهذا لا ينافي الاختصاصَ والاستئثار بعلم المذكورات بناءً على ما سمعتَ منَّا من أنَّ المراد بالعلم الذي استأثر سبحانه به العلمُ الكامل بأحوال كلٍّ على التفصيل، فما يَعْلَمُ به الملك ويَطَّلع عليه بعض الخواصِّ يجوز أن يكون دون ذلك العلم، بل هو كذلك في الواقع بلا شبهةٍ.

وقد يقال فيما يحصُلُ للأولياء من العلم بشيءٍ مما ذكر: إنه ليس بعلم يقينيٍّ، قال علي القاري في «شرح الشفا»: الأولياء وإن كان قد ينكشفُ لهم بعضُ الأشياء، لكن علمهم لا يكون يقينيّاً، وإلهامهم لا يفيد إلا أمراً ظنّيّاً.

---

(١) فيض القدير ٣/ ٤٥٨.

(٢) ينظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٦٥٠-٦٧٩، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٧/ ٢٠٤-٢٣٧.

(٣) صحيح البخاري (٣١٨)، وأخرجه مسلم (٢٦٤٦).

ومثلُ هذا عندي - بل هو دونه بمراحل - علمُ النجوميِّ ونحوِه بواسطة أماراتٍ عنده بنزولِ الغيث، وذكورةِ الحمل أو أنوثتِه، أو نحو ذلك، ولا أرى كُفْرَ مَن يدَّعي مثلَ هذا العلم، فإنه ظنٌّ عن أمرٍ عاديٍّ، وقد نقل العسقلانيُّ في «فتح الباري» عن القرطبيِّ أنه قال: مَن ادَّعى عِلْمَ شيءٍ من الخمس غيرَ مُسْنِدِه إلى رسول الله ﷺ كان كاذباً في دعواه، وأمَّا ظنُّ الغيب فقد يجوزُ من المنجِّم وغيره إذا كان عن أمرٍ عاديٍّ وليس ذلك بعلم(١). وعليه فقولُ القسطلانيِّ: مَن ادَّعى علمَ شيءٍ منها فقد كفر بالقرآن العظيم، ينبغي أن يُحمل العلمُ فيه على نحو العلم الذي استأثر الله تعالى به، دون مطلق العلم الشامل للظنِّ وما يشبهُه.

وبعد هذا كلِّه إنَّ أمر الساعة أخفى الأمورِ المذكورة، وإنَّ ما أَطْلَعَ الله تعالى عليه نبيَّه ﷺ من وقت قيامها في غاية الإجمال، وإن كان أتمَّ من علم غيره من البشر ﷺ، وقوله ﷺ: «بعثتُ أنا والساعةُ كهاتين»(٢) لا يدلُّ على أكثر من العلم الإجماليِّ بوقتها.

ولا أظنُّ أنَّ خواصَّ الملائكة عليهم السلام أعلمُ منه ﷺ بذلك، ويؤيِّد ظنِّي ما رواه الحميديُّ في «نوادره»(٣) بالسند عن الشعبيِّ قال: سأل عيسى بن مريم جبريلَ عليهما السلام عن الساعة فانتفض بأجنحته، وقال: ما المسؤول بأعلم من السائل. والمرادُ التساوي في العلم بأنَّ الله تعالى استأثر بعلمها على الوجه الأكمل.

ويُرشِدُ إلى العلم الإجماليِّ بها ذِكْرُ أشراطها كما لا يخفى، ويجوزُ أن يكون الله تعالى قد أَطْلَعَ حبيبه ﷺ على وقت قيامها على وجهٍ كاملٍ لكنْ لا على وجهٍ يحاكي عِلْمَه تعالى به، إلا أنه سبحانه أوجبَ عليه ﷺ كَتْمَه لحكمةٍ، ويكونُ ذلك من خواصِّه ﷺ، وليس عندي ما يفيد الجَزْمَ بذلك.

هذا وخصَّ سبحانه المكان في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾

---

(١) فتح الباري ١/ ١٢٤. والقرطبي هو أبو العباس أحمد بن عمر شيخ القرطبي المفسِّر، وكلامه في كتابه المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/ ١٥٦.

(٢) أخرجه أحمد(١٢٢٤٥)، والبخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس ﷺ، وسلف ٩/ ٥٢٢.

(٣) كما في فتح الباري ١/ ١٢١، وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٢٢٨).

ليُعْرَفَ الزمانُ من بابِ أَوْلَى، فإنَّ الأول في وسع النفس في الجملة بخلاف الثاني، وأخرج أحمدُ وجماعةٌ عن أبي عَزَّةَ الهذليِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى قَبْضَ عبدٍ بأرضٍ جعل له إليها حاجةً، فلم يَنْتهِ حتى يَقْدَمَها» ثم قرأ ﷺ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1].

وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» عن خيثمةَ: أنَّ ملك الموت مرَّ على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجلٍ من جلسائه يديمُ النظرَ إليه، فقال الرجل: مَن هذا؟ قال: ملكُ الموت. فقال: كأنه يريدني، فَمُرِ الريحَ أن تحملني وتلقيني بالهند. ففعل، فقال الملك: كان دوامُ نظري إليه تعجُّباً منه؛ إذ أُمِرْتُ أن أقبِضَ روحَه بالهند وهو عندك[2].

و«تدري» في الموضعين معلَّقةٌ، فالجملةُ من قوله تعالى: ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ﴾ في موضع المفعول، ويجوزُ أن تكون «ماذا» كلُّها موصولاً منصوبَ المحلِّ بـ «تدري»، كأنه قيل: وما تدري نفسٌ الشيءَ الذي تكسبُه غداً. و«بأيِّ» متعلِّقٌ بـ «تموت»، والباء ظرفية، والجملةُ في موضع نصبٍ بـ «تدري».

وقرأ غير واحد من السبعة: «يُنزِلُ» من الإنزال[3]. وقرأ موسى الأسواريُّ وابن أبي عبلة: «بأيَّةِ أرضٍ» بتاء التأنيث[4]؛ لإضافتها إلى المؤنَّث، وهي لغةٌ قليلةٌ فيها كما أنَّ كلّاً إذا أضيفت إلى مؤنَّثٍ قد تؤنَّث نادراً، فيقال: كُلُّهُنَّ فَعلْنَ ذلك، فليُعْلَمْ واللهُ عزَّ وجلَّ أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ مبالغٌ في العلم فلا يعزُبُ عن علمه سبحانه شيءٌ من الأشياء ﴿خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ يعلم بَوَاطِنَها كما يعلم ظواهِرَها، فالجمعُ بين الوصفين للإشارة إلى التسوية بين علمِ الظاهر والباطن عنده عز وجل، والجملةُ ـ على ما قيل ـ في موضع التعليل لعلمه سبحانه بما ذكر.

---

(١) مسند أحمد (١٥٥٣٩)، وسنن الترمذي (٢١٤٧)، وسنن ابن ماجه (٢٢٦٣). قال الترمذي: هذا حديث صحيح، وأبو عزة له صحبة، واسمه يسار بن عبد.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٠٥.

(٣) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي. التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٩٤، والكلام منه.

وقيل: جوابُ سؤالٍ نشأ من نفي دراية الأنفس ماذا تكسبُ غداً، وبأيِّ أرضٍ تموت، كأنه قيل: فَمَن يعلم ذلك؟ فقيل: «إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ» وهو جوابٌ بأنَّ الله تعالى يعلم ذلك وزيادةً.

ولا يخفى أنه إذا كانت هذه الجملةُ من تتمَّةِ الجملتين اللتين قبلها كانت دلالةُ الكلام على انحصار العلم بالأمرين اللذين نُفي العلمُ بهما عن كلِّ نفسٍ ظاهرةً جدّاً، فتأمَّلْ ذاك والله عزَّ وجلَّ يتولَّى هُداك.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في السورة الكريمة: ﴿الٓمٓ﴾ إشارةٌ إلى آلائه تعالى، ولُطْفِه جلَّ شأنُه، ومَجْدِه عز وجل.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحضور القلب والإعراض عن السِّوَى، وهي صلاةُ خواصِّ الخواصِّ، وأمَّا صلاةُ الخواصِّ فبِنَفْي الخطراتِ الرَّدِيَّةِ والإرادات الدنيوية، ولا يضرُّ فيها طلبُ الجنة ونحوُه، وأمَّا صلاةُ العوامِّ فما يفعله أكثر الناس، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ببذل الوجود للملك المعبود لنيل المقصود، وهي زكاةُ الأخصِّ، وزكاةُ الخاصة ببذل المال كلِّه لتصفية قلوبهم عن صدأ محبة الدنيا، وزكاةُ العامة ببذل القَدْرِ المعروف من المال المعلوم على الوجه المشروع المشهورِ لتزكية نفوسهم عن نجاسة البخل.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ هو ما يشغلُ عن الله تعالى ذكره، ويحجُبُ عنه عزَّ وجل استماعه، وأما الغناءُ فهو عند كثيرٍ منهم أقسامٌ منها ما هو من لهوِ الحديث، ونَقَل بعضهم عن الجنيد قدِّس سرُّه أنه قال: السماعُ على أهل النفوس حرامٌ لبقاء نفوسهم، وعلى أهل القلوب مباحٌ لوفورِ علومهم وصفاءِ قلوبهم، وعلى أصحابنا واجبٌ لفناء حظوظهم.

وعن أبي بكر الكنانيِّ: سماعُ العوامِّ على متابعة الطبع، وسماعُ المريدين رغبةٌ ورهبةٌ، وسماعُ الأولياء رؤيةُ الآلاء والنعم، وسماعُ العارفين على المشاهدة، وسماعُ أهل الحقيقة على الكشف والعيان، ولكلٍّ من هؤلاء مصدرٌ ومقام.

وذكروا أنَّ من القوم مَن يسمعُ في الله ولله وبالله ومن الله جل وعلا، ولا يسمع بالسمع الإنسانيِّ بل يسمعُ بالسمع الربانيِّ، كما في الحديث القدسيِّ: «كنتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به»(١).

وقالوا: إنما حرِّمَ اللهوُ لكونه لهواً، فَمَنْ لا يكون لهواً بالنسبة إليه لا يحرُمُ عليه؛ إذ علةُ الحرمة في حقِّه منتفيةٌ، والحكم يدورُ مع العلة وجوداً وعدماً. ويلزمُهم القولُ بحِلِّ شُرْبِ المُسْكِرِ لمن لا يُسْكِرُه، لا سيما لمن يَزيدُه نشاطاً للعبادة مع ذلك، ومن زنادقة القلندرية(٢) مَن يقول بحِلِّ الخمر والحشيشةِ ونحوِها من المُسْكِرات المحرَّمةِ بلا خلافٍ، زاعمين أنَّ استعمال ذلك يفتحُ عليهم أبوابَ الكشوف، وبعضُ الجهلة الذين لعب بهم الشيطانُ يطلبون منهم المددَ في ذلك الحال، قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قيل: هي إدراكُ خطابِ الحقِّ بوصف الإلهام، وذكروا أنَّ الحكمة موهبةُ الأولياء كما أنَّ الوحي موهبةُ الأنبياء عليهم السلام، فكلٌّ ليس بكسبيٍّ، إلا أنَّ للكسب مدخلاً ما في الحكمة، فقد ورد: «مَن أَخْلَصَ لله تعالى أربعين صباحاً تفجَّرتْ ينابيع الحكمة من قلبه»(٣).

والحكمةُ التي يزعم الفلاسفة أنها حكمةٌ ليست بحكمةٍ؛ إذ هي من نتائج الفكر، ويؤتاها المؤمنُ والكافر، وقلَّما تسلَمُ من شوائب آفات الوهم، ولهذا وقع الاختلافُ العظيم بين أهلها، وعدَّها بعضُ الصوفية من لهو الحديث، ولم يَبْعُدْ في ذلك عن الصواب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، وسلف ١/ ١٣٢ و٤/ ١٥٥.

(٢) هم طائفة يحلقون ذقونهم، ويقولون إن رسول الله ﷺ أطعم شيخهم قلندر عنباً، وكلَّمه بلسان العجم، وقد سئل عنهم ابن تيمية فقال: هم من أهل الضلالة والجهالة، وأكثرهم كافرون بالله ورسوله، لا يرون وجوب الصلاة ولا يحرمون ما حرَّم الله ورسوله، وقد يكون فيهم من هو مسلم، لكن مبتدع ضال أو فاسق فاجر، ومن قال: إن قلندر موجود في زمن النبي ﷺ، فقد كذب وافترى. مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٦٣.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١٥٠٧) و(١٥٠٨) و(١٥٠٩) من حديث أبي أيوب وأبي موسى وابن عباس ﷺ، ثم قال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

وأشارت قصة لقمان إلى التوحيد ومقامِ جَمْعِ الجمع وعَينِ الجمع، واتِّباعِ سبيل الكاملين، والإعراض عن السِّوى وتكميلِ الغير، والصبرِ على الشدائد، والتواضعِ للناس، وحُسْنِ المماشاة والمعاملةِ والسيرةِ، وتركِ التماوُتِ في المشي، وتركِ رفع الصوت.

وقيل: «الحمير» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ هم الصوفيةُ الذين يتكلَّمون بلسان المعرفة قبل أن يؤذَن لهم. وطبَّق بعضهم جميع ما في القصة على ما في الأنفس.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قال الجنيد: النعمُ الظاهرةُ حُسْنُ الأخلاق، والنعمُ الباطنة أنواعُ المعارف.

وقيل على قراءة الإفراد: النعمةُ الظاهرة اتِّباعُ ظاهر العلم، والباطنةُ طلبُ الحقيقة في الاتِّباع.

وقيل: النعمةُ الظاهرة نَفْسٌ بلا زلَّةٍ، والباطنةُ قلبٌ بلا غفلةٍ.

﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ يشيرُ إلى أهل الجدل من الفلاسفة، فإنهم يجادلون في ذات الله تعالى وصفاته عزَّ وجلَّ كذلك عند التحقيق؛ لأنهم لا يعتبرون كلامَ الرسل عليهم الصلاة والسلام ولا الكتبَ المنزلةَ من السماء، وأكثرُ علومهم مشوبٌ بآفةِ الوهم، ومع هذا فشؤون الله جل وعلا طورٌ ما وراء طور العقل:

هيهاتَ أن تصطاد عنقاءُ البقا ... بلعابهنَّ عناكبَ الأفكار[1]

وأبعدُ من محدَّب الفَلَكِ التاسع حصولُ علمٍ بالله عزَّ وجلَّ وبصفاته جلَّ شأنه يُعتدُّ به بدون نورٍ إلهيٍّ يستضيء العقلُ به، وعقولُهم في ظلماتٍ بعضُها فوق بعضٍ، وقد سدَّتْ أبوابُ الوصول إلَّا على متَّبعٍ للرسول ﷺ. قال بعضهم مخاطباً لحضرة صاحب الرسالة ﷺ:

وأنت بابُ الله أيُّ امرئ ... أتاه من غيرك لا يَدْخُلُ

---

(١) سلف ١٣/ ١١٨.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنه سبحانه تمامٌ وفوق التمام، والمرادُ بالأول: مَن حصل له كلُّ ما جاز له، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ والمراد بالثاني: مَن حصل له ذلك وحَصَل لِمَا عداه ما جاز له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ووراء هذين الشيئين ناقصٌ وهو ما ليس له ما ينبغي كالصبيِّ والمريض والأعمى، ومُكْتَفٍ وهو مَن أعطي ما تندفعُ به حاجتُه في وقته كالإنسان الذي له من الآلات ما تندفعُ به حاجته في وقته، لكنها في معرض التحلُّل والزوال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية ذَكر غيرُ واحدٍ حكاياتٍ عن الأولياء متضمِّنةً لإطْلاع اللهِ تعالى إياهم على ما عَدَا عِلْمِ الساعة من الخمس، وقد علمتَ الكلام في ذلك.

وأغربُ ما رأيتُ ما ذكره الشعرانيُّ عن بعضهم أنه كان يبيع المطر، فيُمْطِر على أرض مَن يشتري منه متى شاء، ومَن له عقلٌ مستقيم لا يقبل مثلَ هذه الحكاية. وكم للقُصَّاص أمثالها من روايةٍ، نسألُ الله تعالى أن يحفظنا وإياكم من اعتقادِ خرافاتٍ لا أصل لها، وهو سبحانه وليُّ العصمة والتوفيق.

(٣٢) سورة السجدة مكية وآياتها ثلاثون

سورة السجدة من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة من الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والبعث والجزاء ، والمحور الخاص الذي تدور عليه السورة هو موضوع البعث بعد الموت الذي طال جدل المشركين حوله ، واتخذوه ذريعة لتكذيب رسول الله عليه الصلاة والسلام .
سُميتْ السورةُ الكريمة سورةَ السجدة لأن الله تعالى ذكر فيها أوصاف المؤمنين الأبرار الذين إذا اسمعوا آياتِ الله تُتْلى عليهم خرّوا سُجَّداً لله ، تعظيماً لجلاله ، وتصديقاً بآياته ، وتذللاً وخضوعاً لما سمعوا من آيات القرآن « إنما يؤمنُ بآياتنا الذين ذُكِّرُوا بها خَرُّوا سُجَّداً وسبَّحوا بحمدِ ربهم ، وهم لا يستكبرون » .
تبتدىء السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم ، الذي هو النعمة العظمى على العباد ، أنزله الباري جلَّ وعلا منزَّهاً عن الشك والارتياب ، مصوناً عن التحريف والتبديل ، لا تحوم حول ساحته الشبهاتُ والأباطيل ، ومع وضوح إعجازه ، وسطوعِ آياته ، وسمّو أحكامه وبيانه ، اتهمه المشركون بأنه من صنع محمد ومن افترائه وتأليفه ، فجاءت الايات الكريمة تردُّ هذا البهتان بروائع الحجة والبرهان ﴿ آلم . تنزيلُ الكتابِ لا ريب فيه من ربِّ العالمين . أم يقولون افتراه ، بل هو الحقُّ من ربك ، لتُنْذِر قوماً ما أتاهم من نذيرٍ من قبلك لعلَّهم يهتدون﴾ ثم تحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ، على طريقة القرآن

من لفت الأنظار إلى وجود الواحد القهار بآثار قدرته في الكائنات العلوية والسفلية ، وما أبدع في هذا الكون المنظور من جميل الصُنْع ، وآثار القدرة الباهرة ﴿ اللهُ الذي خلق السمواتِ والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من وليٍّ ولا شفيعٍ ، أفلا تتذكرون ؟ يدبّرُ الأمرَ من السَّماء إلى الأرضِ ، ثم يَعْرُجُ إليه في يومٍ كان مقداره ألف سنةٍ ممَّا تعدون﴾ ثم تنتقل الآيات للحديث عن خلق الإنسان الذي هو مظهر من مظاهر قدرة الله بهذا التكوين العجيب ، والتصوير الفائق الجميل ﴿ ذلكَ عالِمُ الغيبِ والشهادةِ ، العزيزُ الرحيمُ . الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وبَدَأَ خَلْقَ الإنسانِ من طين . ثم جَعَلَ نَسْلَه من سُلاَلَةٍ من مَاءٍ مَهِين . ثم سَوَّاه ونَفَخَ فيهِ من روحه ، وجَعَل لكم السَّمْع والأَبْصارَ والأَفْئدَةَ قليلاً ما تشكرون﴾ .

ولما كان إنكار المشركين للبعث مبنياً على أساس استبعادهم للحياة مرة ثانية بسبب أنَّ أجسامهم تَبْلى ، وأجزاءهم تتلاشى وتتمزق وتغيب في مجاهل الأرض ، ذكر القرآن الكريم تلك الشبهة السخيفة التي تدلُّ على ضعف عقول المشركين ، فلو فكروا في بدء الخلق وأصل التكوين لما استبعدوا ذلك على قدرة الله ، لأن الذي خلق من العَدم ، قادر على إعادة الإنسان بعد أن تَتَفَتَّتَ أجزاؤه وتصبح ذَرَّاتٍ ورُفاتاً ، فإن الإعادة بمنطق العقل السليم أسهلُ من البدء ، وإنْ كان الكلُّ على الله سهلاً يسيراً ﴿ وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلقٍ جديد ؟ بلْ همْ بلقاء ربهم كافرون . قلْ يتوفاكم مَلَكُ الموتِ الذي وُكِّلَ بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون﴾ وتتحدث السورة الكريمة عن الذل والهوان الذي يلقاه المجرمون في أرض المحشر وقد نكسوا رءوسهم خجلاً وحياءً من ربِّ العزة جلَّ وعلا حين يقفون بين يديه للحساب ، ويتمنون العودة للدنيا لإصلاح عملهم وتدارك ما فات ، ولكنْ هيهات ﴿ ولو ترى

إذِ المجرمونَ ناكسوا رءوسهم عند ربهم ، ربَّنا أَبْصَرْنا وسَمِعْنا فارْجعنا نَعْمَلْ صَالحاً إنا موقنون . ولو شئنا لآتَيْنا كلَّ نفسٍ هداها ولكنْ حقَّ القول مني لأملأنَّ جهنم من الجِنَّةِ والناس أجمعين . فذوقوا بما نسيتم لقاءَ يومِكُمْ هذا إنّا نسيناكم ، وذُوقوا عذاب الخُلْد بما كنتم تعملون﴾ ومن الحديث عن أهل الشقاوة ومصيرهم المشئوم ينتقل الحديث إلى أهل السعادة وما أعدَّ الله لهم من النعيم ممَّا لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على على قلب بشر ، فقد كانوا في الدنيا أبراراً تتجافى جنوبهم عن المضاجع طاعةً لله ﴿إنما يؤمن بآياتِنا الذين إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سُجَّداً ، وسبَّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يَدْعُون ربَّهم خوفاً وطمعاً ، وممَّا رزقناهم ينفقون . فلا تَعلمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جزاءً بما كانوا يعملون . أفمنْ كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ لا يستوون﴾ وتنتقل الآياتُ للحديث عن يوم الحساب ، الذي يفصل الله تعالى فيه بعد له بين الخلائق فلا يُفلت أحدٌ من الجزاء ، ولا يُظلم أحد شيئاً ، ويَعْقُبه بالآيات والنُّذر في إهلاك الظالمين المكذبين ، تحذيراً لكفار مكة الذين كذبوا رسول الله ﷺ لئلا يحلَّ بهم ما حلَّ بمن سبقهم ، فلقد رأوا مصارع الأقوام وسكنوا ديارهم ، أفلا يعتبرون ؟ ﴿إنَّ ربك هو يفصِلُ بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . أوَ لم يَهْدِ لهم كم أهلكنا من قَبْلِهم من القُرونِ يَمْشُونَ في مَسَاكِنِهم ؟ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ أفلا يسمعون﴾ ؟ وتختم السورة الكريمة بإنذار المشركين الذين لا يزالون متمردين ، يهزءون ويسخرون من يوم الحساب والبعث والنشور لاعتقادهم باستحالته ، وتأمر الرسول ﷺ بالصبر على تكذيب هؤلاء المكذبين حتى يأتي اليوم الموعود ﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ؟ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم يُنْظرون . فأعرِضْ عنهم وانتظرْ إنهم منتظرون﴾ .

سورة السجدة

[٧٠٨] ك.. أخرج البزار عن بلال قال.. كنا نجلس في المسجد وناس من أصحاب رسول الله [ﷺ] يصلون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾(١) في إسناده عبدالله بن شبيب ضعيف.

[٧٠٩] وأخرج الترمذي وصححه عن أنس أن هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾(٢) نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة.

[٧١٠] وأخرج الواحدي وابن عساكر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي بن أبي طالب أنا أحد منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملأ للكتيبة منك فقال له علي أسكت فإنما أنت فاسق فنزلت: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾(٣). وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار مثله وأخرج ابن عدي والخطيب في تاريخه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله.

[٧١١] وأخرج الخطيب وابن عساكر من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط وذلك في سباب كان بينهما كذا في هذه الرواية أنها نزلت في عقبة بن الوليد لا الوليد.

[٧١٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة قال الصحابة: إن لنا يوماً يوشك أن نستريح فيه وننعم فقال المشركون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٤) فنزلت.

* * *

---

[٧٠٨] (١) سورة السجدة: الآية (١٦).

[٧٠٩] (٢) سورة السجدة: الآية (١٦) ـ والحديث رواه الواحدي ص (٢٠٠).

[٧١٠] (٣) سورة السجدة: الآية (١٨) ـ رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٠٠).

[٧١٢] (٤) سورة السجدة: الآية (٢٨).

سورة السجدة

وتسمى سورة المضاجع مكية عند أكثرهم وهي تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

لما ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الأصل وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة في هذه السورة فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وقد علم ما في قوله: ﴿الٓمٓ﴾ وفي قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال من قبل: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣] وقال في البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وذلك لأن من يرى كتابًا عند غيره، فأول ما تصير النفس طالبة تطلب ما في الكتاب فيقول ما هذا الكتاب؟ فإذا قيل: هذا فقه أو تفسير فيقول بعد ذلك: تصنيف من هو؟ ولا يقال أولا: هذا الكتاب تصنيف من؟ ثم يقول: في ماذا هو؟ إذا علم هذا فقال أولا: هذا الكتاب هدى ورحمة، ثم قال هاهنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لأن كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس إلى مطاعته.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

يعني أتعترفون به أم تقولون هو مفترى، ثم أجاب وبين أن الحق أنه حق من ربه ثم بين فائدة التنزيل وهو الإنذار.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كيف قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ مع أن النذر سبقوه؟ الجواب: من وجهين، أحدهما: معقول والآخر منقول، أما المنقول فهو أن قريشًا كانت أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ وهو بعيد، فإنهم كانوا من أولاد إبراهيم وجميع أنبياء بني إسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان الله يترك قومًا من وقت آدم إلى زمان محمد بلا دين ولا شرع؟ وإن كنت تقول بأنهم ما جاءهم رسول بخصوصهم يعني ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصًا بالعرب بل أهل

الكتاب أيضًا لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وإنما أتى الرسل آباءهم، وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم كيف والذي عليه الأكثرون أن آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفارًا ولأن النبي أوعدهم وأوعد آباءهم بالعذاب، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وأما المعقول وهو أن الله تعالى أجرى عادته على أن أهل عصر إذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده ويرسل رسولاً، ثم إنه إذا أراد طهرهم بإزالة الشرك والكفر من قلوبهم وإن أراد طهر وجه الأرض بإهلاكهم، ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الأرض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ أي بعد الضلال الذي كان بعد الهداية لم يأتهم نذير.

المسألة الثانية: لو قال قائل: التخصيص بالذكر يدل على نفي ما عداه فقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ يوجب أن يكون إنذاره مختصًا بمن لم يأته نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير فلا يكون الكتاب منزلاً إلى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولاً إليهم، نقول: هذا فاسد من وجوه أحدها: أن التخصيص لا يوجب نفي ما عداه، والثاني: أنه وإن قال به قائل لكنه وافق غيره في أن التخصيص إن كان له سبب غير نفي ما عداه لا يوجب نفي ما عداه، وههنا وجد ذلك لأن إنذارهم كان أولى، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ولم يفهم منه أنه لا ينذر غيرهم أو لم يأمر بإنذار غيرهم وإنذار المشركين كان أولى، لأن إنذارهم كان بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم ينذروا إلا بسبب إنكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لأجل ذلك، الثالث: هو أن على ما ذكرنا لا يرد ما ذكره أصلا، لأن أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون مرسلا إلى الكل على درجة سواء، وبهذا يتبين حسن ما اخترناه، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني تنذرهم راجيًا أنت اهتداءهم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

لما ذكر الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد وإقامة الدليل، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الله مبتدأ وخبره الذي خلق، يعني الله هو الذي خلق السموات والأرض ولم يخلقهما إلا واحد فلا إله إلا واحد، وقد ذكرنا أن قوله تعالى: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إشارة إلى ستة أحوال في نظر الناظرين وذلك لأن السموات والأرض وما بينهما ثلاثة أشياء ولكل واحد منها ذات وصفة فنظرًا إلى خلقه ذات السموات حالة ونظرًا إلى خلقه صفاتها أخرى ونظرًا إلى ذات الأرض وإلى صفاتها كذلك ونظرًا إلى ذوات ما بينهما وإلى صفاتها كذلك فهي ستة أشياء

على ستة أحوال وإنما ذكر الأيام لأن الإنسان إذا نظر إلى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه الزمان والأيام أشهر الأزمنة، وإلا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل ما يقول القائل لغيره:

إِنَّ يَـوْمًـا وُلِـدْتَ فِـيـهِ كَـانَ يَـوْمًـا مُـبَـارَكًـا

وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلاً ولا يخرج عن مراده، لأن المراد هو الزمان الذي هو ظرف ولادته.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ اعلم أن مذهب العلماء في هذه الآية وأمثالها على وجهين: أحدهما: ترك التعرض إلى بيان المراد، وثانيهما: التعرض إليه والأول أسلم والى الحكمة أقرب، أما أنه أسلم فذلك لأن من قال: أنا لا أتعرض إلى بيان هذا ولا أعرف المراد من هذا، لا يكون حاله إلا حال من يتكلم عند عدم وجوب الكلام أو لا يعلم شيئًا لم يجب عليه أن يعلمه، وذلك لأن الأصول ثلاثة التوحيد والقول بالحشر والاعتراف بالرسل لكن الحشر أجمعنا واتفقنا أن العلم به واجب والعلم بتفصيله أنه متى يكون غير واجب، ولهذا قال تعالى في آخر السورة المتقدمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]فكذلك الله يجب معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الإجمال وتعاليه عن وصمات الإمكان وصفات النقصان، ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هي، وصفة الاستواء مما لا يجب العلم بها فمن ترك التعرض إليه لم يترك واجبًا، وأما من يتعرض إليه فقد يخطئ فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالأول غاية ما يلزمه أنه لا يعلم، والثاني يكاد أن يقع في أن يكون جاهلاً مركبًا وعدم العلم الجهل المركب كالسكوت والكذب ولا يشك أحد في أن السكوت خير من الكذب، وأما أنه أقرب إلى الحكمة فذلك لأن من يطالع كتابًا صنفه إنسان وكتب له شرحًا والشارح دون المصنف فالظاهر أنه لا يأتي على جميع ما أتى عليه المصنف، ولهذا كثيرًا ما نرى أن الإنسان يورد الإشكالات على المصنف المتقدم ثم يجيء من ينصر كلامه ويقول: لم يرد المصنف هذا وإنما أراد كذا وكذا، وإذا كان حال الكتب الحادثة التي تكتب عن علم قاصر كذلك، فما ظنك بالكتاب العزيز الذي فيه كل حكمة يجوز أن يدعي جاهل أني علمت كل سر في هذا الكتاب، وكيف ولو ادعى عالم أني علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلاني يستقبح منه ذلك، فكيف من يدعي أنه علم كل ما في كتاب الله؟ ثم ليس لقائل أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لأن تأخير البيان إلى وقت الحاجة جائز ولعل القرآن ما لا يحتاج إليه أحد غير نبيه فبين له لا لغيره، إذا ثبت هذا علم أن في القرآن ما لا يعلم، وهذا أقرب إلى ذلك الذي لا يعلم، للتشابه البالغ الذي فيه، لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفي بعض ما يعلمه قطعًا أنه ليس بمراد، وهذا لأن قائلاً إذا قال إن هذه الأيام أيام قرء فلانة يعلم أنه لا يريد أن هذه الأيام أيام موت فلانة ولا يريد أن هذه الأيام أيام سفر فلانة، وإنما المراد منحصر في الطهر أو الحيض فكذلك ههنا يعلم أن المراد ليس ما يوجب نقصًا في ذاته لاستحالة ذلك، والجلوس

والاستقرار المكاني من ذلك الباب فيجب القطع بنفي ذلك والتوقف فيما يجوز بعده، والمذهب الثاني: خطر ومن يذهب إليه فريقان: أحدهما: من يقول: المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكاني، وثانيهما: من يقول: المراد الاستيلاء، والأول جهل محض والثاني يجوز أن يكون جهلاً والأول مع كونه جهلاً هو بدعة وكاد يكون كفرًا، والثاني وإن كان جهلاً فليس بجهل يورث بدعة، وهذا كما أن واحدًا إذا اعتقد أن الله يرحم الكفار ولا يعاقب أحدًا منهم يكون جهلاً وبدعة وكفرًا، وإذا اعتقد أنه يرحم زيدًا الذي هو مستور الحال لا يكون بدعة، غاية ما يكون أنه اعتقاد غير مطابق، ومما قيل فيه: إن المراد منه استوى على ملكه، والعرش يعبر به عن الملك، يقال: الملك قعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية وإن لم يدخلها، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]إشارة إلى البخل، مع أنهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة، ولو كان مراد الله ذلك لكان كذبًا جل كلام الله عنه، ثم لهذا فضل تقرير وهو أن الملوك على درجات، فمن يملك مدينة صغيرة أو بلادًا يسيرة ما جرت العادة بأن يجلس أول ما يجلس على سرير، ومن يكون سلطانًا يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك في خدمته يكون له سرير يجلس عليه، وقدامه كرسي يجلس عليه وزيره، فالعرش والكرسي في العادة لا يكون إلا عند عظمة المملكة، فلما كان ملك السموات والأرض في غاية العظمة، عبر بما ينبئ في العرف عن العظمة، ومما ينبهك لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا﴾ [الإنسان: ٢]و﴿إِنَّا زَيَّنَّا﴾ [الصافات: ٦]﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ [ق: ١٦]و﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ [الحجر: ٩]أيظن أو يشك مسلم في أن المراد ظاهره من الشريك وهل يجد له محملاً، غير أن العظيم في العرف لا يكون واحدًا وإنما يكون معه غيره، فكذلك الملك العظيم في العرف لا يكون إلا ذا سرير يستوي عليه فاستعمل ذلك مريدًا للعظمة، ومما يؤيد هذا أن المقهور المغلوب المهزوم يقال له: ضاقت به الأرض حتى لم يبق له مكان، أيظن أنهم يريدون به أنه صار لا مكان له وكيف يتصور الجسم بلا مكان، ولا سيما من يقول بأن إلهه في مكان كيف يخرج الإنسان عن المكان؟ فكما يقال للمقهور الهارب: لم يبق له مكان، مع أن المكان واجب له، يقال للقادر القاهر: هو متمكن وله عرش، وإن كان التنزه عن المكان واجبًا له، وعلى هذا كلمة (ثم) معناها خلق السموات والأرض، ثم القصة أنه استوى على الملك، وهذا كما يقول القائل: فلان أكرمني وأنعم علي مرارًا، ويحكي عنه أشياء، ثم يقول: إنه ما كان يعرفني ولا كنت فعلت معه ما يجازيني بهذا، فنقول: (ثم) للحكاية لا للمحكي، الوجه الآخر: قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش، واستوى جاء بمعنى استولى نقلاً واستعمالاً. أما النقل فكثير مذكور في (كتاب اللغة) منها ديوان الأدب وغيره مما يعتبر النقل عنه. وأما الاستعمال فقول القائل:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وعلى هذا فكلمة (ثم)، معناها ما ذكرنا كأنه قال: خلق السماوات والأرض، ثم ههنا ما هو

أعظم منه استوى على العرش، فإنه أعظم من الكرسي والكرسي وسع السماوات والأرض، والوجه الثالث: قيل: إن المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولا يفيد أنه في مكان، وذلك لأن الإنسان يقول: استقر رأي فلان على الخروج، ولا يشك أحد أنه لا يريد أن الرأي في مكان وهو الخروج، لما أن الرأي لا يجوز فيه أن يقال إنه متمكن أو هو مما يدخل في مكان إذا علم هذا فنقول: فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن، حتى إذا قال قائل: استقر زيد على الفلك أو على التخت، يفهم منه التمكن وكونه في مكان، وإذا قال قائل: استقر الملك على فلان، لا يفهم أن الملك في فلان، فقول القائل: الله استقر على العرش لا ينبغي أن يفهم كونه في مكان ما لم يعلم أنه مما يجوز عليه أن يكون في مكان أو لا يجوز، فإذن فهم كونه في مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز أن يكون في مكان، فجواز كونه في مكان إن استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشيء على نفسه وهو محال، ثم الذي يدل على أنه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كون العرش مكانًا له وجوه من القرآن أحدها: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ [الحج: ٦٤] وهذا يقتضي أن يكون غنيًّا على الإطلاق، وكل ما هو في مكان فهو في بقائه محتاج إلى مكان، لأن بديهة العقل حاكمة بأن الحيز إن لم يكن لا يكون المتحيز باقيًا، فالمتحيز ينتفي عند انتفاء الحيز، وكل ما ينتفي عند انتفاء غيره فهو محتاج إليه في استمراره، فالقول باستقراره يوجب احتياجه في استمراره وهو غني بالنص، الثاني: قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى، فإذن لا يكون في ذلك الوقت في مكان، فجاز عليه أن لا يكون في مكان، وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون في مكان، الثالث: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] ووجه التمسك به هو أن (على) إذا استعمل في المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا: فلان على السطح وكلمة مع إذا استعملت في متمكنين يفهم منها اقترانهما بالذات كقولنا: زيد مع عمرو، إذا استعمل هذا فإن كان الله في مكان ونحن متمكنون، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] كان ينبغي أن يكون للاقتران وليس كذلك، فإن: قيل كلمة (مع) تستعمل لكون ميله إليه وعلمه معه أو نصرته يقال الملك الفلاني مع الملك الفلاني، أي بالإعانة والنصر، فنقول: كلمة (على) تستعمل لكون حكمه على الغير، يقول القائل: لولا فلان على فلان لأشرف في الهلاك ولأشرف على الهلاك، وكذلك يقال لولا فلان على أملاك فلان أو على أرضه لما حصل له شيء منها ولا أكل حاصلها، بمعنى الإشراف والنظر، فكيف لا نقول في استوى على العرش إنه استوى عليه بحكمه كما نقول هو معناه بعلمه، الرابع: قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولو كان في مكان لأحاط به المكان وحينئذٍ فإما أن يرى وإما أن لا يرى، لا سبيل إلى الثاني بالاتفاق لأن القول بأنه في مكان ولا يرى باطل بالإجماع، وإن كان يرى فيرى في مكان أحاط به فتدركه الأبصار. وأما إذا لم يكن في مكان فسواء يرى أو لا يرى لا

يلزم أن تدركه الأبصار. أما إذا لم ير فظاهر. وأما إذا رؤي فلأن البصر لا يحيط به فلا يدركه. وإنما قلنا إن البصر لا يحيط به لأن كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان، ولو تدبر الإنسان القرآن لوجده مملوءًا من عدم جواز كونه في مكان، كيف وهذا الذي يتمسك به هذا القائل يدل على أنه ليس على العرش بمعنى كونه في المكان، وذلك لأن كلمة (ثم) للتراخي فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فقبله إما أن يكون في مكان أو لا يكون، فإن كان يلزم محالان أحدهما: كون المكان أزليًّا، ثم إن هذا القائل يدعى مضادة الفلسفي فيصير فلسفيًّا يقول بقدم سماء من السماوات، والثاني: جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يفضي إلى حدوث الباري أو يبطل دلائل حدوث الأجسام، وإن لم يكن مكان وما حصل في مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان، ولو جاز لما أمكن أن يقال بأن الجسم لو كان أزليًّا، فإما أن يكون في الأزل ساكنًا أو متحركًا لأنهما فرعا الحصول في مكان، وإذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم، لأنه إن سلم أنه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وإن لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم في الأزل لم يكن في مكان ثم حصل في مكان فلا يتم دليله في حدوث العالم، فيلزمه أن لا يقول بحدوثه، ثم إن هذا القائل يقول: إنك تشبه الله بالمعدوم فإنه ليس في مكان ولا يعلم أنه جعله معدومًا حيث أحوجه إلى مكان، وكل محتاج نظرًا إلى عدم ما يحتاج إليه معدوم ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام.

ثم قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ لما ذكر أن الله خالق السموات والأرض، قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والأرض واحد هو إله السموات، وهذه الأصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا، وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى: لا إله غير الله، ولا نصرة من غير الله ولا شفاعة إلا بإذن الله فعبادتكم لهم لهذه الأصنام باطلة ضائعة لا هم خالقوكم ولا ناصروكم ولا شفعاؤكم، ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ما علمتموه من أنه خالق السموات والأرض وخلق هذه الأجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الأصنام حتى تنصركم والملك العظيم لا يكون عنده لهذه الأشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة.

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾

لما بين الله تعالى الخلق بين الأمر كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] والعظمة تتبين بهما فإن من يملك مماليك كثيرين عظماء تكون له عظمة، ثم إذا كان أمره نافذًا فيهم يزداد في أعين الخلق، وإن لم يكن له نفاذ أمر ينقص من عظمته، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾

معناه، والله أعلم أن أمره ينزل من السماء على عباده وتعرج إليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الأمر، فإن العمل أثر الأمر. وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فيه وجوه أحدها: أن نزول الأمر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون وهو في يوم فإن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة فينزل في مسيرة خمسمائة سنة، ويعرج في مسيرة خمسمائة سنة، فهو مقدار ألف سنة، ثانيها: هو أن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة فقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يعني ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في زمان يوم منه ألف سنة، فكم يكون شهر منه، وكم تكون سنة منه، وكم يكون دهر منه، وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله ﴿مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] لأن تلك إذا كانت إشارة إلى دوام نفاذ الأمر، فسواء يعبر بالألف أو بالخمسين ألفًا لا يتفاوت إلا أن المبالغة تكون في الخمسين أكثر وتبين فائدتها في موضعها إن شاء الله تعالى: (وَفِي هَٰذِهِ لَطِيفَةٌ) وهو أن الله ذكر في الآية المتقدمة عالم الأجسام والخلق، وأشار إلى عظمة الملك، وذكر في هذه الآية عالم الأرواح والأمر بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ والروح من عالم الأمر كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وأشار إلى دوامه بلفظ يوهم الزمان والمراد دوام البقاء كما يقال في العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول، وإنما الواقع في الزمان يمتد فيوجد في أزمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة، فأشار هناك إلى عظمة الملك بالمكان وأشار إلى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه والزمان بحكمه وأمره. واعلم أن ظاهر قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في يوم يقتضي أن يكون أمره في يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره في زمان حادث فيكون حادثًا وبعض من يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى الحروف، وكلمة (كن) فكيف فهم من كلمة على كونه في مكان، ولم يفهم من كلمة في كون أمره في زمان ثم بين أن هذا الملك العظيم النافذ الأمر غير غافل، فإن الملك إذا كان آمرًا ناهيًا يطاع في أمره ونهيه، ولكن يكون غافلاً لا يكون مهيبًا عظيمًا كما يكون مع ذلك خبيرًا يقظًا لا تخفى عليه أمور الممالك والمماليك فقال: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ولما ذكر من قبل عالم الأشباح بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [السجدة: ٤] وعالم الأرواح بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ يعلم ما في الأرواح ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعلم ما في الأجسام أو نقول: قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ إشارة إلى ما لم يكن بعد ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ إشارة إلى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لأنه أقوى وأشد إنباء عن كمال العلم، ثم قال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لما بين أنه عالم ذكر أنه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة، رحيم واسع الرحمة على البررة.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وأتمه بتوابعه ومكملاته ذكر الدليل

الدال عليها من الأنفس بقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ يعني أحسن كل شيء مما ذكره وبين أن الذي بين السموات والأرض خلقه وهو كذلك لأنك إذا نظرت إلى الأشياء رأيتها على ما ينبغي صلابة الأرض للنبات وسلاسة الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء لنقدر عليه في كل موضع وحركة النار إلى فوق، لأنها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق العالم فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لا شيء هناك يقبل الاحتراق.

وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ قيل المراد آدم عليه السلام فإنه خلق من طين، ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والآدمي أصله مني والمني أصله غذاء، والأغذية إما حيوانية، وإما نباتية، والحيوانية بالآخرة ترجع إلى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو طين.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ على التفسير الأول ظاهر لأن آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة، وعلى التفسير الثاني هو أن أصله من الطين، ثم يوجد من ذلك الأصل سلالة هي من ماء مهين، فإن قال قائل: التفسير الثاني غير صحيح لأن قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ . . . ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ دليل على أن جعل النسل بعد خلق الإنسان من طين، فنقول: لا بل التفسير الثاني أقرب إلى الترتيب اللفظي فإنه تعالى بدأ بذكر الأمر من الابتداء في خلق الإنسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ما ذكرتم يبعد أن يقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ عائد إلى آدم أيضًا لأن كلمة ثم للتراخي فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة، وذلك بعد خلق آدم، واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ﴾ [غافر: ٥٧] ودلائل الأنفس أدل على نفاذ الإرادة فإن التغيرات فيها كثيرة وإليه الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي كان طينًا فجعله منيًا ثم جعله بشرًا سويًا، وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ إضافة الروح إلى نفسه كإضافة البيت إليه للتشريف، واعلم أن النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بأن عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله بقوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ أي الروح التي هي ملكه كما يقول القائل داري وعبدي، ولم يقل أعطاه من جسمه لأن الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ مخاطبًا ولم يخاطب من قبل وذلك لأن الخطاب يكون مع الحي فلما قال: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ خاطبه من بعده وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، فإن قيل:

الخطاب واقع قبل ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] فنقول: هناك لم يذكر الأمور المرتبة وإنما أشار إلى تمام الخلق، وهاهنا ذكر الأمور المرتبة وهي كون الإنسان طينًا ثم ماءً مهينًا ثم خلقًا مسوى بأنواع القوى مقوى فخاطب في بعض المراتب دون البعض.

المسألة الثانية: الترتيب في السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة، وذلك لأن الإنسان يسمع أولاً من الأبوين أو الناس أمورًا فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الأمور ويجربها ثم يحصل له بسبب ذلك إدراك تام وذهن كامل فيستخرج الأشياء من قبله ومثاله شخص يسمع من أستاذ شيئًا ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها، ثم يصير له أهلية التصنيف فيكتب من قلبه كتابًا، فكذلك الإنسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الأمور الخفية.

المسألة الثالثة: ذكر في السمع المصدر وفي البصر والفؤاد الاسم، ولهذا جمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع، لأن المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها فعل واحد فإن الإنسان لا يضبط في زمان واحد كلامين، والأذن محله ولا اختيار لها فيه فإن الصوت من أي جانب كان يصل إليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بإدراك البعض دون البعض، وأما الإبصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار فإنها تتحرك إلى جانب مرئي دون آخر وكذلك الفؤاد محل الإدراك وله نوع اختيار يلتفت إلى ما يريد دون غيره وإذا كان كذلك فلم يكن للمحل في السمع تأثير والقوة مستبدة، فذكر القوة في الأذن وفي العين والفؤاد للمحل نوع اختيار، فذكر المحل لأن الفعل يسند إلى المختار، ألا ترى أنك تقول: سمع زيد ورأى عمرو، ولا تقول: سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو، إلا نادرًا، لما بينا أن المختار هو الأصل وغيره آلته، فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له، والعين كالأصل وقوة الإبصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته، فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة وفي الأبصار والأفئدة الاسم الذي هو محل القوة ولأن السمع له قوة واحدة ولها فعل واحد ولهذا لا يسمع الإنسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك في زمان واحد صورتين وأكثر ويستبينهما.

المسألة الرابعة: لم قدم السمع ههنا والقلب في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] فنقول ذلك يحقق ما ذكرنا، وذلك لأن عند الإعطاء ذكر الأدنى وارتقى إلى الأعلى فقال: أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب، وعند السلب قال: ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذي يسمعون به ممن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها، وقد ذكرنا هناك ما هو السبب في تأخير الأبصار مع أنها في الوسط فيما ذكرنا من الترتيب وهو أن القلب والسمع سلب قوتهما بالطبع فجمع بينهما وسلب قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكرها متأخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ۝١٠ ﴾

لما قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩] بين عدم شكرهم بإتيانهم بضده وهو الكفر وإنكار قدرته على إحياء الموتى وقد ذكرنا أن الله تعالى، في كلامه القديم، كلما ذكر أصلين من الأصول الثلاثة لم يترك الأصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٢، ٣] الوحدانية بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [السجدة: ٤، ٩] ذكر الأصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الواو للعطف على ما سبق منهم فإنهم قالوا: محمد ليس برسول والله ليس بواحد، وقالوا: الحشر ليس بممكن.

المسألة الثانية: أنه تعالى قال في تكذيبهم الرسول في الرسالة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ [يونس: ٣٨] بلفظ المستقبل وقال في تكذيبهم إياه في الحشر ﴿ وَقَالُوٓاْ﴾ بلفظ الماضي، وذلك لأن تكذيبهم إياه في رسالته لم يكن قبل وجوده وإنما كان ذلك حالة وجوده فقال: ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني هم فيه، وأما إنكارهم للحشر كان سابقًا صادرًا منهم ومن آبائهم فقال: ﴿ وَقَالُوٓاْ﴾ .

المسألة الثالثة: أنه تعالى صرح بذكر قولهم في الرسالة حيث قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ [يونس: ٣٨] وفي الحشر حيث قال: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا﴾ ولم يصرح بذكر قولهم في الوحدانية، وذلك لأنهم كانوا مصرين في جميع الأحوال على إنكار الحشر والرسول، وأما الوحدانية فكانوا يعترفون بها في المعنى، ألا ترى أن الله تعالى قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فلم يقل: قالوا: إن الله ليس بواحد، وإن كانوا قالوه في الظاهر.

المسألة الرابعة: لو قال قائل: لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذي لا ريب فيه ولما ذكر الوحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من طين، ولما ذكر إنكارهم الحشر لم يذكر الدليل، نقول في الجواب: ذكر دليله أيضًا وذلك لأن خلق الإنسان ابتداء دليل على قدرته على إعادته، ولهذا استدل الله على إمكان الحشر بالخلق الأول كما قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وكذلك خلق السموات كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي أئنا كائنون في خلق جديد أو واقعون فيه ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾ إضراب عن الأول يعني ليس إنكارهم لمجرد الخلق ثانيًا بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة

حتى لو صدقوا بالخلق الثاني لما اعترفوا بالعذاب والثواب، أو نقول: معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم، فإنهم أنكروه فأنكروا المفضى إليه، ثم بين ما يكون لهم من الموت إلى العذاب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

يعني لا بد من الموت ثم من الحياة بعده وإليه الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ إشارة إلى أنه لا يغفل عنكم وإذا جاء أجلكم لا يؤخركم إذ لا شغل له إلا هذا، وقوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ ينبئ عن بقاء الأرواح فإن التوفي الاستيفاء والقبض هو الأخذ والإعدام المحض ليس بأخذ، ثم إن الروح الزكي الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم، والأول ينمو ويزيد ويزداد صفاؤه وقوته والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته، والحكماء يقولون: إن الأرواح الطاهرة تتعلق بجسم سماوي خير من بدنها وتكمل به، والأرواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق الثاني فإن أرادوا ما ذكر بها فقد وافقونا وإلا فيغير النظر في ذلك بحسب إرادتهم فقد يكون قولهم حقًّا وقد يكون غير حق، فإن قيل: هم أنكروا الإحياء والله ذكر الموت وبينهما مباينة نقول فيه وجهان أحدهما: أن ذلك دليل الإحياء ودفع استبعاد ذلك فإنهم قالوا: ما عدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك؟ فقال: الملك يقبض الروح والأجزاء تتفرق فجمع الأجزاء لا بعد فيه، وأمر الملك برد ما قبضه لا صعوبة فيه أيضًا، فقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي الأرواح معلومة فترد إلى أجسادها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

لما ذكر أنهم يرجعون إلى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الإجمال بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ يعني لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجبًا، وقوله: ﴿تَرَىٰٓ﴾ يحتمل أن يكون خطابًا مع الرسول ﷺ تشفيًا لصدره فإنهم كانوا يؤذونه بالتكذيب، ويحتمل أن يكون عامًّا مع كل أحد كما يقول القائل إن فلانًا كريم إن خدمته ولو لحظة يحسن إليك طول عمرك ولا يريد به خاصًّا، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لبيان شدة الخجالة لأن الرب إذا أساء إليه المربوب، ثم وقف بين يديه يكون في غاية الخجالة.

ثم قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ يعني يقولون أو قائلين ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ وحذف يقولون إشارة إلى غاية خجالتهم لأن الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم، وقوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحًا، وقولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ معناه إنا في الحال آمنا ولكن النافع الإيمان والعمل الصالح، ولكن العمل الصالح لا يكون إلا عند التكليف به وهو في الدنيا فارجعنا للعمل، وهذا باطل منهم فإن الإيمان لا يقبل في

الآخرة كالعمل الصالح، أو نقول: المراد منه أنهم ينكرون الشرك كما قالوا: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فقالوا إن هذا الذي جرى علينا ما جرى إلا بسبب ترك العمل الصالح وأما الإيمان فإنا موقنون وما أشركنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

جوابا عن قولهم: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] وبيانه هو أنه تعالى قال: إني لو أرجعتكم إلى الإيمان لهديتكم في الدنيا ولما لم أهدكم تبين أني ما أردت وما شئت إيمانكم فلا أردكم، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا﴾ صريح في أن مذهبنا صحيح حيث نقول: إن الله ما أراد الإيمان من الكافر وما شاء منه إلا الكفر، ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ أي وقع القول وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص: ٨٥] هذا من حيث النقل وله وجه في العقل وهو أن الله تعالى لم يفعل فعلاً خاليًا عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف في أنه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل؟ وإذا علم أن فعله لا يخلو عن الحكمة فقال الحكماء: حكمة أفعاله بأمرها لا تدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الإجمال، فكل ضرب يكون في العالم وفساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلي وهو أن الفعل إما أن يكون خيرًا محضًا أو شرًّا محضًا أو خيرًا مشوبًا بشر وهذا القسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلان، إذا علم هذا فخلق الله عالمًا فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوي وخلق عالمًا فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلي ولم يخلق عالمًا فيه شر محض، ثم إن العالم السفلي الذي هو عالمنا، وإن كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الأول الذي خيره غالب، فإنك إذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالضار، تجد المنافع أكثر، وإذا قابلت الشرير بالخير تجد الخير أكثر، وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر، ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلاً من أول عمره إلى آخره كالأنبياء عليهم السلام والأولياء، والكافر لا يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلاً غاية ما في الباب أن الكفر يحبط خيره ولا ينفعه، إنما يستحيل نظرًا إلى العادة أن يوجد كافر لا يسقي العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه في عمره، وكيف لا وهو في زمن صباه كان مخلوقًا على الفطرة المقتضية للخيرات، إذا ثبت هذا فنقول: قالوا: لولا الشر في هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة في الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذي فيه الخير الغالب والشر القليل ثم إن ترك خلق هذا القسم إن كان لما فيه من الشر فترك الخير الكثير لأجل الشر القليل لا يناسب الحكمة، ألا ترى أن التاجر إذا طلب منه درهم بدينار، فلو امتنع وقال: في هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكي فيقال له: لكن في مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار في ملكك وكذلك

الإنسان لو ترك الحركة اليسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب إلى مخالفة الحكمة فإذا نظر إلى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف فخلق العالم الذي يقع فيه الشر وإلى هذا أشار بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فقال الله تعالى في جوابهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لأن الخير فيه كثير، ثم بين لهم خيره بالتعليم، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] يعني أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوي لا يناسب الحكمة. وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب، فقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] إشارة إلى الشر، وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ [البقرة: ٣١] فإن قال قائل: فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر، فيقال له: ما قاله الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ يعني لو شئنا لخلصنا الخير من الشر، لكن حينئذٍ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول، فما كان يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة، لأن ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة، وإن كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فيخلقه لما فيه من الخير الكثير، وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح إن الخير في القضاء والشر في القدر، فالله قضى بالخير ووقع الشر في القدر بفعله المنزه عن القبح والجهل، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ لأنه تعالى قال لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص: ٨٥] وهذا إشارة إلى أن النار لمن في العالم السفلي، والذين في العالم العلوي مبرءون عن دخول النار وهم الملائكة، وهذا يقتضي أن لا يكون إبليس من الملائكة وهو الصحيح. وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون تأكيدًا وهو الظاهر، والثاني: أن يكون حالاً، أي مجموعين، فإن قيل كيف جعل جميع الإنس والجن مما يملأ بهم النار؟ نقول: هذا لبيان الجنس، أي جهنم تملأ من الجن والإنس لا غير أمنًا للملائكة، ولا يقتضي ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملأت الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس، فإن قيل: فهذا يقتضي أن تكون جهنم ضيقة تمتلئ ببعض الخلق، نقول: هو كذلك وإنما الواسع الجنة التي هي من الرحمة الواسعة، والله أعلم. ولما بين الله تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا﴾ أنهم لا رجوع لهم قال لهم: إذا علمتم أنكم لا رجوع لكم.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٤﴾

وفي تفسير الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ﴾ لقاء يحتمل أن يكون منصوبًا بذوقوا، أي

ذوقوا لقاء يومكم بما نسيتم، وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسي هو الميثاق الذي أخذ منهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أو بما في الفطرة من الوحدانية فينسى بالإقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوبًا بقوله: ﴿نَسِيتُمْ﴾ أي بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا، وعلى هذا لو قال قائل: النسيان لا يكون إلا في المعلوم أولاً إذا جهل آخرًا، نقول: لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم، ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان إشارة إلى كونهم منكرين لأمر ظاهر كمن ينكر أمرًا كان قد علمه.

المسألة الثانية: قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون إشارة إلى اليوم، أي: فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم، وثانيها: أن يكون إشارة إلى لقاء اليوم، أي فذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء، وثالثها: أن يكون إشارة إلى العذاب، أي: فذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم، ثم قال: إنا نسيناكم، أي تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعله الناسي قطعًا لرجائكم، ثم ذكر ما يلزم من تركه إياهم كما يترك الناسي وهو خلود العذاب، لأن من لا يخلصه الله فلا خلاص له، فقال: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. إشارة إلى أن الإيمان بالآيات كالحاصل، وإنما ينساه البعض فإذا ذكر بها خرّ ساجدًا له، يعني انقادت أعضاؤه له، وسبح بحمده، يعني ويحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك، وهم لا يستكبرون، يعني وكان قلبه خاشعًا لا يتكبر ومن لا يستكبر عن عبادته فهو المؤمن حقًا.

ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

يعني بالليل قليلاً ما يهجعون، وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي يصلون، فإن الدعاء والصلاة من باب واحد في المعنى أو يطلبونه وهذا لا ينافي الأول لأن الطلب قد يكون بالصلاة، والحمل على الأول أولى لأنه قال بعده: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وفي أكثر المواضع التي ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣] وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يحتمل أن يكون مفعولاً له ويحتمل أن يكون حالاً، أي خائفين طامعين كقولك: جاءوني زورًا أي زائرين، وكأن في الآية الأولى إشارة إلى المرتبة العالية وهي العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا﴾ فإنه يدل على أن عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وإن لم يكن خوف وطمع. وفي الآية الثانية

إشارة إلى المرتبتين الأخيرتين وهي العبادة خوفًا كمن يخدم الملك الجبار مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعًا في بره، ثم بين ما يكون لهم جزاء فعلهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

يعني مما تقر العين عنده ولا تلتفت إلى غيره يقال: إن هذا لا يدخل في عيني، يعني عيني تطلع إلى غيره، فإذا لم يبق تطلع للعين إلى شيء آخر لم يبق للعين مسرح إلى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد، وهذا فيه لطيفة وهي أن من العبد شيئًا وهو العمل الصالح، ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاحقة من الثواب والإكرام، فلله تعالى أن يقول: جزاء الإحسان إحسان، وأنا أحسنت أولا والعبد أحسن في مقابلته، فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض، وله أن يقول: جعلت الأول تفضلاً لا أطلب عليه جزاء، فإذا أتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شيء: لأني أبرأته مما عليه من النعم فكان هو آتيًا بالحسنة ابتداء، وجزاء الإحسان إحسان، فأجعل الثواب جزاء، كلاهما جائز، لكن غاية الكرم أن يجعل الأول هبة ويجعل الثاني مقابلاً وعوضًا لأن العبد ضعيف لو قيل له بأن فعلك جزاء فلا تستحق جزاء، وإنما الله يتفضل، يثق ولكن لا يطمئن قلبه، وإذا قيل له الأول غير محسوب عليك والذي أتيت به أنت به باد ولك عليه استحقاق ثواب، يثق ويطمئن ثم إذا عرف أن هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول: فعلي جزاء نعم الله السابقة ولا أستحق به جزاء، فإذا أثابه الله تعالى يقول: الذي أتيت به كان جزاء، وهذا ابتداء إحسان من الله تعالى يستحق حمدًا وشكرًا فيأتي بحسنة فيقول الله: إني أحسنت إليه جزاء فعله الأول وما فعلت أولا لا أطلب له جزاء، فيجازيه ثالثًا فيشكر العبد ثالثًا فيجازيه رابعًا وعلى هذا لا تنقطع المعاملة بين العبد والرب، ومثله في الشاهد اثنان تحابا فأهدى أحدهما إلى الآخر هدية ونسيها والمهدي إليه يتذكرها فأهدى إلى المهدي عوضًا فرآه المهدي الأول ابتداء لنسيانه ما أهداه إليه فجازاه بهدية فقال المحب الآخر: ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة، وهذه هدية ما عوضتها فيعوض ويعوض عنه المحب الآخر ويتسلسل الأمر بينهما ولا ينقطع التهادي والتحاب، بخلاف من أرسل إلى واحد هدية وهو يتذكرها فإذا بعث إليه المهدي إليه عوضًا يقول المهدي: هذا عوض ما أهديت إليه، فيسكت ويترك الإهداء فينقطع، واعلم أن التكاليف يوم القيامة، وإن ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لا ترتفع بل العبد يعبد ربه في الجنة أكثر مما يعبده في الدنيا، وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال في حقهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] غاية ما في الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هي بمقتضى الطبع ومن جملة الأسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هذا وكيف لا وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك وإن قرب العبد منه بل تزداد لذتها.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴾

لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل: هل يستوي الفريقان، ثم بين أنهما لا يستويان، ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل، فقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا أن الله أحسن ابتداء لا لعوض فلما آمن العبد وعمل صالحًا قبله منه كأنه ابتداء فجازاه بأن أعطاه الجنة ثم قال تعالى: ﴿نُزُلًا﴾ إشارة إلى أن بعدها أشياء لأن النزل ما يعطي الملك النازل، وقت نزوله قبل أن يجعل له راتبًا أو يكتب له خبزًا، وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يحقق ما ذكرنا، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ إشارة إلى حال الكافر، وقد ذكرنا مرارًا أن العمل الصالح له مع الإيمان أثر أما الكفر إذا جاء فلا التفات إلى الأعمال، فلم يقل: وأما الذين فسقوا وعملوا السيئات لأن المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل، لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه، وقوله في حق المؤمنين: ﴿لَهُمْ﴾ بلام التمليك زيادة إكرام لأن من قال لغيره: اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولاً على العارية وله استرداده، وإذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية إليه وليس له استرداده بحكم قوله وكذلك في قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥] ألا ترى أنه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان في علمه أنه يخرجه منها قال: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ولم يقل: لكما الجنة، وفي الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال: (لكم الجنة) و﴿لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا﴾ إشارة إلى معنى حكمي، وهو أن المؤلم إذا تمكن والألم إذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الأطباء: إن حرارة حمى الدق بالنسبة إلى حرارة الحمى البلغمية نسبة النار إلى الماء المسخن، ثم إن المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمكن الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية، وكذلك الإنسان إذا وضع يده في ماء بارد يتألم من البرد، فإذا صبر زمانًا طويلاً تثلج يده ويبطل عنه ذلك الألم الشديد مع فساد مزاجه، إذا علمت هذا فقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ إشارة إلى أن الألم لا يسكن عنهم بل يرد عليهم في كل حال أمر مؤلم يجدد، وقوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يقرر ما ذكرنا ومعناه أنهم في الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار، فلما ذاقوه كان أشد إيلامًا لأن من لا يتوقع شيئًا فيصيبه يكون أشد تأثيرًا، ثم إنهم في الآخرة كما في الدنيا يجزمون أن لا عذاب إلا وقد وصل إليهم ولا يتوقعون شيئًا آخر

من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الأول، وكانوا يكذبون به بقولهم: لا عذاب فوق ما نحن فيه، فإذن معنى قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ليس مقتصرًا على تكذيبهم الذي كان في الدنيا بل ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ وقيل لهم: ذوقوا عذابًا كذبتم به من قبل، أما في الدنيا بقولكم لا عذاب في الآخرة، وأما في الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق ما نحن فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾

يعني قبل عذاب الآخرة نذيقهم عذاب الدنيا فإن عذاب الدنيا لا نسبة له إلى عذاب الآخرة لأن عذاب الدنيا لا يكون شديدًا، ولا يكون مديدًا فإن العذاب الشديد في الدنيا يهلك فيموت المعذب ويستريح منه فلا يمتد، وإن أراد المعذب أن يمتد عذاب المعذب لا يعذبه بعذاب في غاية الشدة، وأما عذاب الآخرة فشديد ومديد.

وفي الآية مسألتان:

إحداهما: قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ في مقابلته العذاب الأقصى والعذاب الأكبر في مقابلته العذاب الأصغر، فما الحكمة في مقابلة الأدنى بالأكبر؟ فنقول: حصل في عذاب الدنيا أمران: أحدهما: أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل في عذاب الآخرة أيضًا أمران أحدهما: أنه بعيد والآخر أنه عظيم كثير، لكن القرب في عذاب الدنيا هو الذي يصلح للتخويف به، فإن العذاب العاجل وإن كان قليلاً قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلا، وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل، وأما في عذاب الآخرة فالذي يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال في عذاب الدنيا: ﴿الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ ليحترز العاقل عنه ولو قال: (لنذيقنهم من العذاب الأصغر) ما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلاً وقال في عذاب الآخرة (الأكبر) لذلك المعنى، ولو قال: دون العذاب الأبعد الأقصى، لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبر، وبالجملة فقد اختار الله تعالى في العذابين الوصف الذي هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل هذه الترجي والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه؟ نقول: فيه وجهان أحدهما: معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤] يعني تركناكم كما يترك الناسي حيث لا يلتفت إليه أصلا، فكذلك ههنا نذيقهم على الوجه الذي يفعل بالراجي من التدريج، وثانيهما: معناه نذيقهم العذاب إذاقة يقول القائل: لعلهم يرجعون، بسببه، ونزيد وجهًا آخر من عندنا، وهو أن كل فعل يتلوه أمر مطلوب

من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الأمر، كما يقال: فلان اتجر ليربح، ثم إن هذا التعليل إن كان في موضع لا يحصل الجزم بحصول الأمر من الفعل نظرًا إلى نفس الفعل وإن حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فإنه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء كذا، كما يقال: يتجر رجاء أن يربح، وإن حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك في صحة قولنا يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظرًا إلى التجارة وإن كان الجزم حاصلاً نظرًا إلى الفعل، لا يصح أن يقال يرجو وإن كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل: فلان حز رقبة عدوه رجاء أن يموت، لا يصح لحصوله الجزم بالموت عقيب الحز نظرًا إليه وإن أمكن أن لا يموت نظرًا إلى قدرة الله تعالى، ويصحح قولنا قوله تعالى في حق إبراهيم: ﴿وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ [الشعراء: ٨٢] مع أنه كان عالمًا بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلاً من نفس الفعل أطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى: ﴿وَارْجُواْ الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦] مع أن الجزم به لازم إذا علم ما ذكرنا فنقول: في كل صورة قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ فإن نظرنا إلى الفعل لا يلزم الجزم، فإن من التعذيب لا يلزم الرجوع لزومًا بينًا فصح قولنا يرجو وإن كان علمه حاصلاً بما يكون، غاية ما في الباب أن الرجاء في أكثر الأمر استعمل فيما لا يكون الأمر معلومًا فأوهم أن لا يجوز الإطلاق في حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجي يجوز في حق الله تعالى، ولا يلزم منه عدم العلم، وإنما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفادًا من الفعل فيصح حقيقة الترجي في حقه على ما ذكرنا من المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ يعني لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من النعم أولا والنقم ثانيًا ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد، لأن من يكفر بالله ظالم فإن الله لذوي البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شيء كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] أي دليلك الله لا يحتاج المستنير الباطن إلى دليل على الله، ولهذا قال بعض العارفين: رأيت الله قبل كل شيء فمن لم يكفه الله فسائر الموجودات سواء، كان فيها نفع أو ضر كاف في معرفة الله كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] فإن لم يكفهم ذلك فبسبغه عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فالأول الذي لا يحتاج إلى غير الله هو عدل والثاني

الذي يحتاج إلى دليل فهو متوسط، والثالث الذي لم تكفه الآفاق ظالم، والرابع الذي لم تقنعه النعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه آخر، وهو الذي إذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلالته، فإن الأكثر كان من صفتهم أنهم إذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين إليه فهذا لما عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي لما لم ينفعهم العذاب الأدنى فأنا منتقم منهم بالعذاب الأكبر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ لما قرر الأصول الثلاثة على ما بيناه عاد إلى الأصل الذي بدأ به وهو الرسالة المذكورة في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ وقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٩] بل كان قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من النبي ﷺ ووجود من كان على دينه إلزامًا لهم، وإنما لم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته، وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك بالمجمع عليه، وقوله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قيل معناه: فلا تكن في شك من لقاء موسى فإنك تراه وتلقاه، وقيل بأنه رآه ليلة المعراج، وقيل: معناه فلا تكن في شك من لقاء الكتاب فإنك تلقاه كما لقي موسى الكتاب، ويحتمل أن تكون الآية واردة لا للتقرير بل لتسلية النبي عليه السلام فإنه لما أتى بكل آية وذكر بها وأعرض عنها قومه حزن عليهم، فقيل له: تذكر حال موسى ولا تحزن فإنه لقي ما لقيت وأوذي كما أوذيت، وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة، وهي أن أحدًا من الأنبياء لم يؤذه قومه إلا الذين لم يؤمنوا به، وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فإن لم يؤمن به آذاه مثل فرعون وغيره ومن آمن به من بني إسرائيل أيضًا آذاه بالمخالفة وطلب أشياء منه مثل طلب رؤية الله جهرة ومثل قوله: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾[المائدة: ٢٤] ثم بين له أن هدايته غير خالية عن المنفعة كما أنه لم تخل هداية موسى، فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٣ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه السلام: «**أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ**» ثم بين أن ذلك يحصل بالصبر، فقال: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فكذلك اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٢٥ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝٢٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هذا يصلح جوابًا لسؤال: وهو أنه لما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم

اختلفوا وصاروا فرقًا وسبيل الحق واحد، فقال فيهم هداة والله بين المبتدع من المتبع كما يبين المؤمن من الكافر يوم القيامة، وفيه وجه آخر، وهو أن الله تعالى بين أنه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الأمم فينبغي أن لا يأمن من آمن وإن لم يجتهد، فإن المبتدع معذب كالكافر، غاية ما في الباب، أن عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ قد ذكرنا أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾[هود: ١١٠] تقرير لرسالة محمد ﷺ وإعادة لبيان ما سبق في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[السجدة: ٣] ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ وقوله: ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ زيادة إبانة، أي مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ اعتبر فيه السمع، لأنهم ما كان لهم قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم، فقال: أفلا يسمعون، يعني ليس لهم درجة المتعلم الذي يسمع الشيء ويفهمه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ لما بين الإهلاك وهو الإماتة بين الإحياء ليكون إشارة إلى أن الضر والنفع بيد الله، والجرز الأرض اليابسة التي لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات. ثم قال تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ قدم الأنعام على الأنفس في الأكل لوجوه أحدها: أن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان، والثاني: وهو أن الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه. وأما غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان، فكأن الحيوان يأكل الزرع، ثم الإنسان يأكل من الحيوان، الثالث: إشارة إلى أن الأكل من ذوات الدواب والإنسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة. ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأن الأمر يرى بخلاف حال الماضين، فإنها كانت مسموعة، ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إلى آخر السورة، فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة في أولها بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾[السجدة: ٣] وفي آخرها بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾[السجدة: ٢٣] وذكر التوحيد بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[السجدة: ٤] وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[السجدة: ٧] وفي آخر

السورة ذكره بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة: ٢٦] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ﴾ وذكر الحشر في أولها بقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] وفي آخرها بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يقبل إيمانهم في تلك الحالة، لأن الإيمان المقبول هو الذي يكون في دار الدنيا، ولا ينظرون، أي لا يمهلون بالإعادة إلى الدنيا ليؤمنوا فيقبل إيمانهم، ثم لما بين المسائل وأتقن الدلائل ولم ينفعهم. قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تناظرهم بعد ذلك وإنما الطريق بعد هذا القتال. وقوله: ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ يحتمل وجوهًا أحدها: وانتظر هلاكهم فإنهم ينتظرون هلاكك، وعلى هذا فرق بين الانتظارين، لأن انتظار النبي ﷺ بأمر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان، وثانيها: وانتظر النصر من الله فإنهم ينتظرون النصر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين، وثالثها: وانتظر عذابهم بنفسك فإنهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء، كما قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠] وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] إلى غير ذلك، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب. والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين.

تفسير سورة السجدة

وهي مكِّيةٌ، غيرَ ثلاثِ آياتٍ نزلت بالمدينة، وهي قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ إلى تمام ثلاثِ آيات؛ قاله الكلبيُّ ومقاتل[1]. وقال غيرهما: إلَّا خمسَ آيات، من قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[2]. وهي ثلاثون آيةً. وقيل: تسعٌ وعشرون.

وفي الصحيح عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يومَ الجمعة: ﴿الٓمٓ . تَنزِيلُ﴾ السجدة، و ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ الحديث[3].

وخرَّج الدراميُّ أبو محمد في «مسنده» عن جابر بن عبد الله قال: كان النبيُّ ﷺ لا ينامُ حتى يقرأ ﴿الٓمٓ . تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[4].

قال الدَّراميُّ: وأخبرنا أبو المغيرة قال: حدثتنا[5] عَبْدةُ، عن خالد بن مَعْدَان قال: اقرؤوا المُنْجِيَةَ، وهي ﴿الٓمٓ . تَنزِيلُ﴾، فإنه بلغني أنَّ رجلاً كان يقرؤها، ما يقرأ شيئاً غيرَها، وكان كثيرَ الخطايا، فَنشرَتْ جناحها عليه وقالت: ربِّ اغْفِرْ له، فإنه كان يُكْثِرُ[6] قراءتي. فشفَّعها الربُّ فيه وقال: «اكتُبوا له بكلِّ خطيئةٍ حسنةً،

---

(١) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٥٢ ، وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٠ عن ابن عباس.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٥٢ .

(٣) صحيح مسلم (٨٧٩)، وهو عند أحمد (١٩٩٣). وأخرجه أيضاً أحمد (١٠١٠٢)، والبخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) سنن الدرامي (٣٤١١)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٦٥٩)، والترمذي (٢٨٩٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٠٦) - (٧٠٩).

(٥) في النسخ: حدثنا، وهو خطأ.

(٦) بعدها في (د) و (م): من

وارفَعوا له درجة»[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإجماع على رَفْع: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ولو كان منصوباً على المصدر لجاز، كما قرأ الكوفيون: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: ٣-٥][٢].

و «تَنْزِيلُ» رَفْعٌ بالابتداء، والخبرُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. أو خبرٌ على إضمارِ مبتدأ، أي: هذا تنزيلُ، أو: المَتْلوُّ تنزيلُ، أو: هذه الحروفُ تنزيلُ. ودلَّت «الم» على ذكر الحروف. ويجوز أن يكون «لَا رَيْبَ فِيهِ» في موضع الحال من «الكتاب»، و ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الخبر، قال مكّيّ[٣]: وهو أَحْسَنُها.

ومعنى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: لا شكَّ فيه أنَّه من عندِ الله، فليس بسحرٍ ولا شعرٍ ولا كَهَانةٍ ولا أساطيرِ الأوّلين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ هذه «أَمْ» المنقطعةُ التي تقدَّر بِبَلْ وألفِ

(١) سنن الدرامي (٣٤٠٨)، وهو ضعيف لإرساله. خالد بن معدان: ثقة عابد يرسل كثيراً، وأبو المغيرة: هو عبد القدُّوس بن الحجاج، ثقة. كذا في «تقريب التهذيب». وعبدة: هي بنت خالد بن معدان ذكرها ابن حبان في الثقات ٧/ ٣٠٧.

(٢) وهي قراءة حفص وابن عامر وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون من السبعة بضم اللام. السبعة ص٥٣٩، والتيسير ص١٨٣. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩١.

(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٧، وما قبله منه.

الاستفهام، أي: بل أيقولون[(١)]. وهي تدلُّ على خروجٍ من حديثٍ إلى حديث، فإنه عزَّ وجلَّ أَثْبَتَ أنه تنزيلٌ من ربِّ العالمين، وأنَّ ذلك ممَّا لا ريبَ فيه، ثم أَضْرَبَ عن ذلك إلى قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: افْتَعلَه واخْتَلقَه.

﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ كذَّبهم في دَعْوَى الافتراء. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ قال قتادةُ: يعني قريشاً، كانوا أمَّةً أميَّةً لم يأتهم نذيرٌ من قَبلِ محمدٍ ﷺ[(٢)]. و «لِتُنْذِرَ» متعلِّقٌ بما قَبْلَها فلا يُوقَفُ على «مِن ربِّكَ». ويجوز أن يتعلَّق بمحذوف، التقدير: أنزله لتنذر قوماً، فيجوز الوقفُ على «مِن ربِّكَ»[(٣)]. و «ما» في قوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم﴾ نفيٌ. ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ صلة، و «نَذِيرٍ» في محلِّ الرفع، وهو المُعْلِمُ المُخَوِّف.

وقيل: المرادُ بالقوم أهلُ الفَترة بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام؛ قاله ابن عباس ومقاتل[(٤)]. وقيل: كانت الحجَّةُ ثابتةً لله جلَّ وعزَّ عليهم بإنذارِ مَن تقدَّم من الرسل وإنْ لم يَرَوْا رسولاً، وقد تقدَّم هذا المعنى[(٥)].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عرَّفهم كمالَ قدرته ليسمعوا القرآن ويتأمَّلوه. ومعنى «خَلَقَ»: أَبْدَعَ وأَوْجَدَ بعد العدَمَ وبعد أن لم تكن شيئاً.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من يوم الأحد إلى آخرِ يومِ الجمعة. قال الحسن: من أيام الدنيا. وقال ابن عباس: إنَّ اليوم من الأيام الستة التي خَلَقَ الله فيها السماواتِ

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٣ ، والإملاء للعكبري ٤/ ١٨٣ .

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٩٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٧ .

(٤) ذكره عنهما البغوي في تفسيره ٣/ ٤٩٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٧ .

(٥) ينظر ١٣/ ٤٤ ، وسلف الكلام على أهل الفترة ٧/ ٣٩٠ .

والأرضَ مقدارُهُ ألفُ سنةٍ من سِنِي الدنيا. وقال الضحَّاك: في ستةِ آلافِ سنة، أي: في مدَّةِ ستةِ أيامٍ من أيام الآخرة[١].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدَّم في «الأعراف» و «البقرة»[٢] وغيرِهما، وذكرنا ما للعلماء في ذلك مستوفىً في «الكتاب الأَسْنَى في شَرْحِ أسماءِ اللهِ الحُسْنَى»[٣]. وليست «ثُمَّ» للترتيب، وإنَّما هي بمعنى الواو.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: ما للكافرين من وليٍّ يَمنعُ من عذابهم «ولا شفيعٍ». ويجوز الرفعُ على الموضع[٤]. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ في قدرته ومخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يُنزل القضاءَ والقَدَر[٥]. وقيل: يُنزل الوحيَ مع جبريل[٦]. وروى عمرو بن مرَّةَ عن عبد الرحمن بن سابط قال: يدبِّر أمرَ الدنيا أربعةٌ: جبريلُ، وميكائيلُ، ومَلَكُ الموتُ، وإسرافيلُ، صلواتُ الله عليهم أجمعين. فأمَّا جبريلُ فموكَّلٌ بالرياح والجنود، وأمَّا ميكائيلُ فموكَّلٌ بالقَطْرِ والماء، وأمَّا مَلَكُ الموت فموكَّلٌ بقبض الأرواح، وأمَّا إسرافيلُ فهو يَنْزِلُ بالأمر عليهم[٧].

---

(١) أخرج قول ابن عباس والضحاك الطبري ١٨/ ٥٩٤ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٨ : وهذا قول ضعيف مُكرَهَةٌ ألفاظُ هذه الآية عليه، رادَّةٌ له الأحاديثُ التي بيَّنت أيامَ خَلْقِ الله تعالى المخلوقات.

(٢) ٩/ ٢٣٨ وما بعدها، و ١/ ٣٨٠ وما بعدها.

(٣) ص١٨٧ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩١ .

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٥٠ ، والبغوي ٣/ ٤٩٧ دون نسبة.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٧ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٥٣ ، وأخرجه أبو الليث في التفسير ٣/ ٢٨ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٧٨) و(٣٨٠)، والبيهقي في الشعب (١٥٨).

وقد قيل: إنَّ العرش موضعُ التدبير، كما أنَّ ما دون العرش موضعُ التفصيل؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ [الرعد: ٢]، وما دون السماوات موضع التصريف؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ قال يحيى بن سلام: هو جبريلُ يصعَد إلى السماء بعد نزوله بالوحي. النقَّاش: هو الملَك الذي يدبِّر الأمرَ من السماء إلى الأرض. وقيل: إنَّها أخبارُ أهلِ الأرض تَصْعَدُ إليه مع حَمَلتِها من الملائكة؛ قاله ابن شجرة[1]. ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وقيل: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: يرجع ذلك الأمرُ والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يومُ القيامة.

وعلى الأقوال المتقدِّمة؛ فالكنايةُ في «يَعْرُجُ» كنايةٌ عن المَلَك، ولم يَجْرِ له ذِكْرٌ لأنه مفهومٌ من المعنى، وقد جاء صريحاً في ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ قولُه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

والضميرُ في ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود على السماء على لغةِ مَن يذكِّرها، أو على مكان المَلَكِ الذي يَرْجعُ إليه. أو على اسم الله تعالى؛ والمرادُ: إلى الموضع الذي أَقرَّه فيه، وإذا رَجَعَتْ إلى الله فقد رجعت إلى السماء، أي: إلى سِدْرة المنتهى؛ فإنه إليها يرتفع ما يُصْعَدُ به من الأرض، ومنها ينزل ما يُهْبَطُ به إليها، ثَبت معنى ذلك في «صحيح» مسلم[2].

والهاءُ في «مِقْدَارُهُ» راجعةٌ إلى التدبير، والمعنى: كان مقدارُ ذلك التدبيرِ ألفَ

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) برقم (١٧٣)، وهو عند أحمد (٣٦٦٥)، وهو من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، ولفظه: لمَّا أُسري برسول الله ﷺ، انتُهِيَ به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها يَنتهي ما يُعرَج به من الأرض فيُقبَض منها، وإليها ينتهي ما يُهبَطُ به من فوقها فيُقبَض منها...

سنةٍ من سِني الدنيا، أي: يقضي أمرَ كلِّ شيءٍ لألفِ سنةٍ في يومٍ واحد، ثم يُلْقِيه إلى ملائكته، فإذا مَضَتْ قَضَى لألفِ سنةٍ أخرى، ثم كذلك أبداً؛ قاله مجاهد[١].

وقيل: الهاءُ للعُروج. وقيل: المعنى: أنه يدبِّر أمرَ الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ثم يَعْرجُ إليه ذلك الأمرُ، فيَحْكُم فيه في يومٍ كان مقداره ألفَ سنة[٢].

وقيل: المعنى: يدبِّر أمرَ الشمس في طلوعِها وغروبِها ورجوعِها إلى موضعها من الطُّلوع، في يومٍ كان مقدارهُ في المسافة ألفَ سنة.

وقال ابن عباس: المعنى: كان مقدارُه لو سارَه غيرُ المَلَكِ ألفَ سنة؛ لأنَّ النزولَ خمسُ مئة، والصعود خمس مئة. ورُوي ذلك عن جماعةٍ من المفسِّرين، وهو اختيارُ الطَّبريِّ[٣]؛ ذكره المهدويُّ. وهو معنى القول الأول، أي: إنَّ جبريل لسرعةِ سَيْرِه يقطعُ مسيرةَ ألفِ سنةٍ في يومٍ من أيامكم؛ ذكره الزمخشريُّ[٤].

وذكر الماورديُّ[٥] عن ابن عباس والضَّحَّاكِ: أنَّ المَلَك يصعد في يومٍ مسيرةَ ألفِ سنة. وعن قتادةَ: أنَّ المَلَك ينزل ويصعد في يومٍ مقدارُه ألفَ سنة. فيكونُ مقدارُ نزوله خمسَ مئة سنة، ومقدارُ صعودِه خمس مئةٍ على قول قتادةَ والسدِّي. وعلى قول ابن عباس والضحاك: النزولُ ألفُ سنة، والصعودُ ألفُ سنة.

﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: مما تَحْسُبون من أيام الدنيا. وهذا اليومُ عبارةٌ عن زمان يتقدَّر بألف سنة من سِني العالَم، وليس بيومٍ يستوعبُ نهاراً بين ليلتين؛ لأنَّ ذلك ليس عند الله. والعربُ قد تعبِّر عن مدَّةِ العصر باليوم، كما قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٥٤ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٨/ ٥٩٥ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٤١ .

(٣) في تفسيره ١٨/ ٥٩٦ ، وقد أخرج قول ابن عباس بنحوه ١٨/ ٥٩٣ ، وأخرجه أيضاً عن مجاهد وقتادة.

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٤٠ ، ويعني بالقول الأول قولَ يحيى بن سلام.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٣٥٤ .

يـومـان يـومُ مـقـامـاتٍ وأنـديـةٍ ويـومُ سـيـرٍ إلـى الأعـداء تـأويـبِ[١]

وليس يريد يومين مخصوصين، وإنَّما أراد أنَّ زمانهم ينقسم شَطْرين، فعبَّر عن كلِّ واحدٍ من الشطرين بيوم[٢].

وقرأ ابن أبي عبلة: «يُعْرَجُ» على البناء للمفعول. وقرئ: «يَعُدُّونَ» بالياء[٣].

فأمَّا قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فمُشْكِلٌ مع هذه الآية. وقد سأل عبد الله بن فيروز الدَّيلميُّ عبدَ الله بن عباس عن هذه الآية، وعن قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقال: أيامٌ سمَّاها سبحانه، وما أدري ما هي؟ فأكره أن أقول فيها مالا أعلم. ثم سئل عنها سعيد بن المسيِّب فقال: لا أدري. فأخبرتُه بقول ابن عباس فقال ابن المسيِّب للسائل: هذا ابنُ عباس اتَّقى أن يقول فيها وهو أعلمُ منِّي[٤].

ثم تكلَّم العلماءُ في ذلك فقيل: إنَّ آية ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ هو إشارة إلى يوم القيامة، بخلاف هذه الآية، والمعنى: أنَّ الله تعالى جعله في صعوبته على الكفار كخمسين ألفَ سنة؛ قاله ابن عباس[٥]. والعربُ تَصِفُ أيامَ المكروه بالطول وأيامَ السرورِ بالقِصَر؛ قال:

ويـومٍ كـظـلِّ الـرُّمْـح قـصَّـر طـولَـه دَمُ الـزِّقِّ عـنَّـا واصْـطِـفـاقُ الـمزاهِـرِ[٦]

---

(١) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص٩٤ ، والخزانة ٤/ ٢٧ . والكلام في النكت والعيون ٤/ ٣٥٤ . قال البغدادي: المقامة بالفتح: المجلس، وروى أبو عمرو بالضم بمعنى الإقامة. وتأويب: صفةُ سيرٍ، وهو السرعة في السير والإمعان فيه.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٥٤ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٤١ ، ونسب ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٨ قراءة: (يعدُّون) للأعمش والحسن بخلاف عنه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٠٨ . وقوله: فأخبرته بقول ابن عباس، القائل هو ابن أبي مليكة، وهو الذي روى الخبر. وأخرجه بنحوه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧-٢٢٨ ، والطبري ٢٣/ ٢٥٤ ، والحاكم ٤/ ٦١٠ .

(٥) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٩٩ .

(٦) قائله يزيد بن الطثريه، كما في الحيوان ٦/ ١٧٩ ، والصحاح (صفق)، وجمهرة الأمثال ٢/ ١٩ ، =

وقيل: إنَّ يومَ القيامة فيه أيام، فمنه ما مقدارُه ألفُ سنة، ومنه ما مقدارُه خمسون ألفَ سنة[١].

وقيل: أوقاتُ القيامة مختلفةٌ، فيعذَّب الكافر بجنسٍ من العذاب ألفَ سنة، ثم ينتقل إلى جنسٍ آخرَ مدَّتُه خمسون ألفَ سنة.

وقيل: مواقفُ القيامة خمسون موقفاً، كلُّ موقفٍ ألفُ سنةٍ. فمعنى: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: مقدارُ وقتٍ أو موقفٍ من يوم القيامة.

وقال النحَّاس[٢]: اليومُ في اللغة بمعنى الوقتِ، فالمعنى: تعرج الملائكةُ والروحُ إليه في وقتٍ كان مقدارُهُ ألفَ سنة، وفي وقتٍ آخَرَ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة.

وعن وهب بن منبِّهٍ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: ما بين أسفلِ الأرض إلى العرش[٣].

وذكر الثعلبيُّ عن مجاهدٍ وقتادةَ والضحَّاك في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أراد: من الأرض إلى سِدرة المنتهى التي فيها جبريل. يقول تعالى: يسير جبريلُ والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرةَ خمسين ألفَ سنةٍ في يومٍ واحدٍ من أيام الدنيا[٤].

وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يعني إلى المكان الذي أمرهم الله تعالى أن يعرجوا إليه. وهذا كقولِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أراد أرضَ الشام.

= وثمار القلوب للثعالبي ص٦٢٦، ومجمع الأمثال ١/ ٤٣٧ وأساس البلاغة (رمح). وذكره صاحب اللسان (صفق) وقال: قال ابن بري: نسب الجوهري هذا البيت ليزيد بن الطثرية، وصوابه لشبرقة بن الطفيل .اهـ. ويعني بدم الزق: الخمر، ووقع في ثمار القلوب: دم الدَّنّ.

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٠٠.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٣٠٠.

(٣) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٢٩٩.

(٤) ذكره عن مجاهد وقتادة البغوي ٣/ ٤٩٧-٤٩٨.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى المدينة.

وقال أبو هريرة: قال النبيُّ ﷺ: «أتاني مَلكٌ من ربِّي عزَّ وجلَّ برسالةٍ، ثم رَفَعَ رِجلَه، فوضعها فوقَ السماءِ، والأخرى على الأرض لم يَرفَعْها بعد»(١).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: عَلِم ما غاب عن الخَلقِ وما حَضَرهم. و«ذَٰلِكَ» بمعنى أنا. حسبما تقدَّم بيانُه في أوّل «البقرة»(٢). وفي الكلام معنى التهديدِ والوعيد، أي: أَخْلِصوا أفعالَكم وأقوالَكم، فإني أُجازي عليها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وابنُ عامر: «خَلْقَهُ» بإسكان اللام. وفتَحها الباقون(٣)، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلباً لسُهولتها. وهو فعلٌ ماضٍ في موضعِ خفضٍ نعتٍ لـ «شيء». والمعنى على ما روي عن ابن عباس: أَحْكَمَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه، أي: جاء به على ما أراد، لم يتغيَّر على إرادته. وقولٌ آخر: أنَّ كلَّ شيءٍ خَلَقَه حَسَن؛ لأنه لا يَقْدِرُ أحدٌ أن يأتيَ بمثله، وهو دالٌّ على خالقه(٤).

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٦٨٥)، وابن عدي في الكامل ٤/ ١٣٩٢ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٠ : فيه صدقة بن عبد الله التنيسي، والأكثر على تضعيفه، ووثقه يحيى بن معين ودُحيم. اهـ. وقال ابن عديّ: أحاديث صدقة منها ما توبع عليه، وأكثره مما لا يتابع عليه، وهو إلى الضعف أقرب منه إلى الصدق .اهـ. وقد حسَّنه المناوي في فيض القدير ١/ ١٠٥ .

(٢) ١/ ٢٤٢ .

(٣) السبعة ص٥١٦ ، والتيسير ص١٧٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٢ .

وَمن أَسْكَنَ اللَّامَ فهو مصدرٌ عند سيبويه؛ لأنَّ قوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ يدلُّ على: خَلَق كلَّ شيءٍ خَلْقاً، فهو مثل: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨] و ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤][1]. وعند غيره منصوبٌ على البدل من «كلّ» أي: الذي أَحْسَنَ خَلْقَ كلِّ شيءٍ. وهو مفعولٌ ثانٍ عند بعضِ النَّحْويين، على أن يكون معنى «أَحْسَنَ»: أَفْهَمَ وأَعْلَمَ، فيتعدَّى إلى مفعولين، أي: أَفْهَم كلَّ شيءٍ خَلْقَه[2].

وقيل: هو منصوبٌ على التفسير، والمعنى: أَحْسَن كلَّ شيء خَلْقاً.

وقيل: هو منصوبٌ بإسقاطِ حرف الجرّ، والمعنى: أَحْسَن كلَّ شيء في خَلْقِه، وروي معناه عن ابن عباس[3].

و﴿أَحْسَنَ﴾ أي: أَتْقَنَ وأَحْكَم، فهو حَسَنٌ[4] من جهةِ ما هو لمقاصده التي أُريدَ لها، ومِن هذا المعنى [ما] قال ابن عباس وعكرمةُ: ليست اسْتُ القرد بحسنةٍ، ولكنَّها متقَنةٌ محكَمةٌ[5].

وروى ابن أبي نجيحٍ عن مجاهد: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قال: أتقنه، وهو مثلُ قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] أي: لم يخلق الإنسان على خَلْقِ البهيمة ولا خَلَقَ البهيمةَ [على] خَلْقِ الإنسان[6].

---

(١) ينظر الكتاب ١/ ٣٨١-٣٨٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٢، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٧.
قال سيبويه: وقال: «كتابَ الله» توكيداً، كما قال: «صُنْعَ الله»، وكذلك: «وَعْدَ الله» [الروم: ٥]؛ لأن الكلام الذي قبله وَعْد وصُنْع، فكأنه قال جل وعز: وَعْداً وصُنْعاً وخَلْقاً وكتاباً. اهـ. فالهاء على هذا القول تعود على الله تعالى، و«خَلْقَه» مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة. الدر المصون ٩/ ٨٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٢.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٠١.

(٤) في (ظ) و (م): أحسن، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٩، والكلام منه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٩، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ٥٩٧ - ٥٩٨ من طريق عكرمة عنه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٠٠-٣٠١، وما بين حاصرتين منه. وأخرج قول مجاهد الطبري ١٨/ ٥٩٨.

ويجوز: «خَلْقُهُ» بالرفع، على تقدير: ذلك خَلْقُه[١].

وقيل: هو عمومٌ في اللفظ؛ خصوصٌ في المعنى، والمعنى: حسَّن خَلْقَ كلِّ شيءٍ حَسَنٍ.

وقيل: هو عمومٌ في اللفظ والمعنى: أي: جعل كلَّ شيء خَلَقَه حسناً، حتى جَعَلَ الكلبَ في خَلْقِه حسناً؛ قاله ابن عباس[٢]. وقال قتادة في اسْتِ القرد: حسنة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ يعني آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ تقدَّم في «المؤمنون»[٤] وغيرها. وقال الزَّجَّاج: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾: ضعيف. وقال غيره: «مَهِينٍ»: لا خَطَر له عند الناس[٥].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ رَجَع إلى آدم، أي: سوَّى خَلْقَه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾، ثم رجع إلى ذرِّيَّته، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾.

وقيل: ثم جعل ذلك الماءَ المَهِينَ خَلْقاً معتدلاً، وركَّب فيه الروحَ، وأضافه إلى نَفْسِه تشريفاً، وأيضاً فإنه مِن فِعْله وخَلْقِه، كما أضاف العبدَ إليه بقوله: «عَبْدي». وعبَّر عنه بالنفخ؛ لأنَّ الروح في جنس الريح. وقد مضى هذا مبيَّناً في «النساء»[٦] وغيرها. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ثم أنتم لا تشكرون، بل تكفرون.

---

(١) ذكر هذا القول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٠٤، وعنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٢. قال الزجاج: ولا أعلم أحداً قرأ بها.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٥٥، وأخرجه عن ابن عباس ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٧٢، وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٠١.

(٣) لم نقف عليه، وأخرج عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٠٩ عن قتادة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قال: أَحْسَنَ خَلْقَ كلِّ شيء.

(٤) ١٥/ ١٧ - ١٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٢، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٠٥.

(٦) ٧/ ٢٣٢.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا قولُ مُنْكِري البعثِ، أي: هَلَكْنا وبَطَلْنا وصِرْنا تراباً. وأصلُه من قول العرب: ضلَّ الماء في اللَّبن: إذا ذهب. والعربُ تقول للشيء غَلَبَ عليه غيرُه حتى خَفِيَ فيه أثرُه: قد ضلَّ، قال الأخطل:

كنتَ القَذَى في موجِ أكْدرَ مُزْبِدٍ ... قَذَفَ الأَتيُّ به فضلَّ ضلالا[1]

وقال قُطْرُب: معنى ضلَلْنا: غِبْنا[2] في الأرض. وأنشد قولَ النابغة الذبيانيِّ:

فآبَ مُضِلُّوهُ بعينٍ جَليَّةٍ ... وغُودِرَ بالجَوْلانِ حَزْمٌ ونَائِلُ[3]

وقرأ ابن مُحيصِن ويحيى بنُ يَعْمُر: «ضَلِلْنَا» بكسر اللَّام، وهي لغة[4]. قال الجوهريُّ[5]: وقد ضَلَلْتُ أضِلُّ؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ [سبأ: ٥٠]. فهذه لغةُ نجدٍ، وهي الفصيحة. وأهلُ العالية يقولون: «ضَلِلْتُ» - بكسر اللام - أضَلُّ. وهو ضالٌّ تالٌّ، وهي الضلالةُ والتلالة. وأضلَّه، أي: أضاعه وأهلكه. يقال: أُضِلَّ الميّت: إذا دُفن؛ قال: وآب[6] مُضِلُّوه، البيت.

---

(١) ديوان الأخطل ص٥٠ . وقوله: الأَتيُّ، أي: السيل الغريب. القاموس (أتى)، والكلام في تفسير الطبري ١٨/ ٦٠٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٣٥٦ .

(٢) في (د) و(ظ): أغبنا، وفي النكت والعيون ٤/ ٣٥٦ (والكلام منه): غُيِّبنا.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٥٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠ ، واللسان (ضلل). وهو في ديوانه ص٩٠ برواية: مصَلُّوه. وفي الجمهرة ٣/ ٢٢٨ برواية: مصَلُّوهم. قال ابن دريد: لأنهم كانوا نصارى، ويروي الكوفيون: مُضِلُّوه. أي: دافِنوه. اهـ وقال صاحب اللسان: وقوله: بعينٍ جَليَّة، أي: بخبر صادق أنه مات، والجولان: موضع بالشام. أي: دُفن بدَفْن النعمان الحزمُ والعطاء. والنعمان هو ابن الحارث بن شمر الغساني، والبيت من قصيدة في رثائه.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٨ عن يحيى بن وثاب، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣ عن أبي رجاء وطلحة.

(٥) في الصحاح (ضلل).

(٦) في (م): فآب، والمثبت من النسخ الخطية والصحاح.

ابن السِّكِّيت: أضللتُ بعيري: إذا ذهب منك. وضَللت المسجدَ والدار: إذا لم تَعْرِفْ موضعَهما. وكذلك كلُّ شيءٍ مقيمٍ لا يُهتَدَى له. وفي الحديث: «لعلِّي أَضِلُّ الله»[(١)] يريد: أضلُّ عنه، أي: أَخْفَى عليه، من قوله تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خَفِينا. وأضلَّه الله فضَلَّ؛ تقول: إنك تَهدِي الضالَّ ولا تهدي المتضالَّ.

وقرأ الأعمش والحسن: «صَلِلْنا» بالصاد، أي: أنتنَّا. وهي قراءة عليّ بن أبي طالب ﷺ[(٢)]. النحاس: ولا يُعرف في اللغة: صَلِلْنا، ولكن [يُعرف صَلَلْنا] يقال: صَلَّ اللحمُ وأَصَلَّ، وخَمَّ وأَخَمَّ: إذا أَنْتَن[(٣)]. الجوهريُّ: صلَّ اللحم يصِلُّ ـ بالكسر ـ صُلولاً، أي: أنتن، مطبوخاً كان أو نيئاً؛ قال الحُطَيئة:

ذاك فتًى يَبذُل ذا قِدْرِهِ   لَا يُفْسِدُ اللحمَ لديه الصُّلولْ

وأصَلَّ مِثْلُه[(٤)].

﴿إِنَّا[(٥)] لَفي خَلْقٍ جديدٍ﴾ أي: نُخلَق بعد ذلك خَلْقاً جديداً؟ ويُقرأ: ﴿أَءِنَّا﴾[(٦)]. النحاس: وفي هذا سؤالٌ صعبٌ من العربية؛ يقال: ما العاملُ في «إذَا»، و«إنَّ» لا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠١٢) من حديث معاوية بن حيدة ﷺ في قصة الرجل الذي طلب أن يحرقوه بعد موته ثم يَذْروه، وقد سلف نحوه ١٤/ ٢٧٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) المحتسب ٢/ ١٧٣، دون ذكر الأعمش، وزاد نسبتها لابن عباس وأبان بن سعيد بن العاص، وقال: وقرأ أيضاً بالصاد ـ مفتوحة اللام ـ الحسن بخلاف. غير أن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠، وأبا حيان في البحر المحيط ٧/ ٢٠٠ نسبا إليهم القراءة بفتح اللام.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣، وما سلف بين حاصرتين منه، وبنحوه قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٣١. قال السمين في الدر المصون ٩/ ٨٤ ـ بعد أن ذكر قول النحاس ـ: وقد عرفها غيرُ أبي جعفر. اهـ. وقال ابن جني في المحتسب ٢/ ١٧٤: صَلَّ يَصِلُّ، وصَلَّ يَصَلُّ ـ بالفتح ـ، والكسرُ أقوى اللغتين.

(٤) الصحاح (صلل)، والبيت في شرح ديوان الحطيئة ص٧٧.

(٥) في (د) و(ظ): أينا، وهي قراءة على ما يأتي.

(٦) قرأ نافع والكسائي: «إنا». والباقون من السبعة بالاستفهام؛ كلٌّ على أصله. ينظر السبعة ص٢٨٥-٢٨٦، والتيسير ص١٣٢ - ١٣٣.

يعمل ما بَعْدَها فيما قَبْلَها؟ والسؤالُ في الاستفهام أشدُّ؛ لأنَّ ما بعدَ الاستفهام أَجْدَرُ أَلَّا يَعمَلَ فيما قبلَه من «إنَّ»، كيف وقد اجتمعا؟ فالجوابُ على قراءة مَن قرأ: «إنَّا»: أنَّ العامل «ضَلَلْنَا»، وعلى قراءة مَن قرأ: «أئِنَّا» أنَّ العامل مضمَر، والتقدير: أَنُبْعَثُ إذا مِتْنا؟ وفيه أيضاً سؤالٌ آخَر، يقال: أين جوابُ «إذَا» على القراءة الأولى لأنَّ فيها معنى الشرط؟ فالقولُ في ذلك أنَّ بعدها فعلاً ماضياً؛ فلذلك جازَ هذا[(١)].

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: ليس لهم جحودُ قدرةِ الله تعالى عن الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته، ولكنهم اعتقدوا أنْ لا حسابَ عليهم، وأنَّهم لا يَلْقَوْن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ لمَّا ذَكَر استبعادَهم للبعث؛ ذَكَر تَوفِّيهم وأنه يُعيدُهم. ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ مِن تَوَفَّى العددَ والشيء: إذا استوفاه وقَبَضَه جميعاً. يقال: تَوفَّاه الله، أي: استوفى روحَه ثم قَبَضَه. وتَوفَّيتُ مالي من فلان، أي: استوفيته.

﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ واسمه عزرائيل، ومعناه: عبد الله؛ كما تقدَّم في «البقرة»[(٢)]. وتَصرُّفُه كلُّه بأمرِ الله تعالى وبخَلْقِه واختراعه. وروي في الحديث أنَّ: «البهائم كلّها يتوفَّى الله أرواحَها دون مَلَك الموت» كأنه يعدم حياتها؛ ذكره ابن عطية[(٣)].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٣، والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٥.

(٢) ٢/ ٢٦٥. وتسمية ملك الموت بعزرائيل أمر اشتهر عند كثير من أهل التفسير، ولم ينقل في ذلك نص صحيح.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠. والحديث أخرجه بنحوه العقيلي في الضعفاء ٤/ ٣٢١، وأبو الشيخ في العظمة (١٢٣٢)، وابن الجوزي في الموضوعات (١٦٤٥) عن أنس ﷺ. قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع، وقال العقيلي: هذا الحديث لا أصل له.

قلت: وقد روي خلافُه، وأنَّ مَلَك الموت يتوفَّى أرواحَ جميعِ الخلائق حتى البرغوثُ والبعوضة. روى جعفر بن محمد عن أبيه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى مَلَك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبيُّ ﷺ: «ارْفُقْ بصاحبي فإنَّه مؤمن» فقال مَلَك الموت عليه السلام: «يا محمد، طِبْ نَفْساً وقَرَّ عَيْناً، فإنِّي بكلِّ مؤمنٍ رفيقٌ، واعلَمْ أنَّ ما من أهلِ بيتِ مَدَرٍ ولا شعرٍ في بَرٍّ ولا بحرٍ إلَّا وأنا أَتَصفَّحُهم في كلِّ يومٍ خمسَ مرات، حتى لَأَنا أَعْرَفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم. والله يا محمد لو أنِّي أردتُ أن أقبضَ روحَ بعوضةٍ ما قدرتُ على ذلك حتى يكون الله هو الآمِرُ بقَبْضِها». قال جعفر بن عليٍّ: بلغني أنه يتصفَّحُهم عند مواقيت الصلوات؛ ذكره الماورديُّ[1].

وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت البغداديُّ قال: حدَّثني أبو محمد الحسن بن محمد الخلَّالُ قال: حدَّثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصفَّار قال: حدَّثنا أبو بكر حامد المصريُّ قال: حدَّثنا يحيى بنُ أيوب العلَّاف قال: حدثنا سليمان ابن مُهير الكلابيُّ قال: حضرتُ مالك بن أنس ﷺ فأتاه رجلٌ فسأله: أبا عبد الله، البراغيثُ؛ أمَلَكُ الموت يقبض أرواحها؟ قال: فأطْرقَ مالك طويلاً ثم قال: ألَها أنفُسٌ؟ قال: نعم! قال: مَلَكُ الموت يقبض أرواحها؛ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.

قال ابن عطيةَ بعد ذِكْرِه الحديثَ[2]: وكذلك الأمرُ في بني آدم، إلَّا أنه نوعٌ شُرِّفَ

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣٧٥، وجعفر بن علي هو جعفر بن محمد بن علي راوي الخبر، وقد أخرجه هكذا منقطعاً أبو الشيخ في العظمة (٤٧٥)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٢٥٤)، والبزار (٧٨٤)، والطبراني في الكبير (٤١٨٨) من طريق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن الحارث بن الخزرج الأنصاري، عن أبيه، عن النبي ﷺ. وفي إسناده عمرو بن شَمِر، قال الحافظ في الإصابة ٣/ ٩٣: متروك الحديث.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠، ويعني بالحديث حديث أنس السالف: «البهائم كلُّها يتوفى الله أرواحها...».

بتصرُّفِ مَلَكٍ وملائكةٍ معه في قَبْضِ أرواحهم.

فخَلَقَ الله تعالى مَلَك الموت، وخَلَق على يديه قَبْضَ الأرواح واسْتِلَالَها من الجسام وإخراجَها منها، وخَلَق الله تعالى جنداً يكونون معه يعملون عَمَلَه بأمره، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»(١). والبارئُ خالقُ الكلِّ، الفاعِلُ حقيقةً لكلِّ فِعْلٍ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]. ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فملَكُ الموت يقبض، والأعوانُ يعالِجون، والله تعالى يُزْهِق الروح. وهذا هو الجمعُ بين الآيِ والأحاديث، لكنه لمَّا كان مَلَكُ الموت متولِّيَ ذلك بالوساطة والمباشَرة، أُضيف التوفِّي إليه كما أضيف الخَلْقُ للمَلَك، كما تقدَّم في «الحج»(٢).

ورُوي عن مجاهدٍ: أنَّ الدنيا بين يدي مَلَك الموت كالطَّسْتِ بين يدي الإنسان يأخذ من حيث شاء(٣). وقد رويَ هذا المعنى مرفوعاً، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»(٤). ورويَ أنَّ مَلَك الموت لمَّا وكَّله الله تعالى بقَبْضِ الأرواح قال: ربِّ جعلتني أُذكر بسوءٍ ويشتمني بنو آدم. فقال الله تعالى له: «إنِّي أجعل للموت عِلَلاً وأسباباً من الأمراض والأسقام يَنْسِبون الموتَ إليها فلا يذكُرك أحدٌ إلَّا بخير». وقد

(١) ٨/ ٤١٠.

(٢) ١٤/ ٣١٥ - ٣١٦.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٠٩، والطبري ١٨/ ٦٠٤، وأبو الشيخ في العظمة (٤٣٥) و(٤٣٦).

(٤) ص٩٣، وذكر المصنف في هذا المعنى حديثاً عن ابن عباس في قصة الإسراء، ولم نقف عليه عند غير المصنف، وأخرج ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٧٢ عن زهير بن محمد عن النبي ﷺ مثل خبر مجاهد، وهو منقطع.

ذكرناه في «التذكرة» مستوفًى[١] ـ وقد ذَكَرنا أنه يدعو الأرواحَ فتَجيئُه ويقبضها، ثم يُسلِّمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب ـ بما فيه شفاءٌ لمن أراد الوقوفَ على ذلك[٢].

الثانية: استدلَّ بهذه الآيةِ بعضُ العلماء على جواز الوكالة من قوله: ﴿وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: بقبض الأرواح. قال ابن العربيِّ[٣]: وهذا أُخذ من لَفْظِه لا من معناه، ولو اطَّرد ذلك لقلنا في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]: إنها نيابةٌ عن الله تبارك وتعالى، ووكالةٌ في تبليغ رسالته، ولقلنا أيضاً في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: إنه وكالةٌ؛ فإنَّ الله تعالى ضَمِنَ الرزقَ لكلِّ دابَّةٍ، وخَصَّ الأغنياءَ بالأغذية، وأَوْعَزَ إليهم بأنَّ رِزْقَ الفقراء عندهم، وأمر بتسليمه إليهم مقدَّراً[٤] معلوماً في وقتٍ معلوم، دبَّره بعلمه، وأَنْفَذه من حُكْمِه، وقدَّره بحِكْمته. والأحكامُ لا تتعلَّق بالألفاظ إلَّا أنْ تَرِد على موضوعاتها الأصليةِ في مقاصدها المطلوبة، فإنْ ظَهَرَتْ في غير مَقْصِدِها لم تُعلَّق عليها. أَلَا ترى أنَّ البيع والشراء معلومُ اللفظ والمعنى، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١] ولا يقال: هذه الآيةُ دليلٌ على جواز مبايعةِ السيد لعبده؛ لأنَّ المَقصِدَيْن مختلفان.

أَمَا إنه إذا لم يكن بدٌّ من المعاني فيقال[٥]: إنَّ هذه الآيةَ دليلٌ على أنَّ للقاضي أن يَسْتَنيبَ مَن يأخذ الحقَّ ممَّن هو عليه قسراً دون أن يكون له في ذلك فِعْلٌ، أو يرتبط به رضاً إذا وجد ذلك.

---

(١) ص٧٠، وأخرج نحوه أبو الشيخ في العظمة (٤٣٩) عن جابر بن زيد قوله.

(٢) ينظر التذكرة ص١١٩ وما بعدها، وذكر فيه المصنف حديث البراء ﷺ، وقد سلف تخريجه ٩/٢١٨ و ١٤/٣٨٧.

(٣) في أحكام القرآن ٣/١٤٨٨ - ١٤٨٥.

(٤) في (خ) و(م): مقداراً، والمثبت من باقي النسخ وأحكام القرآن لابن العربي.

(٥) العبارة في أحكام القرآن: أما إنه إذا لم يكن بدٌّ من التسوُّر على المعاني، ودفعِ الجهل عنها في غير موضعها، والإعراض عن المقاصد في ذلك فيقال.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ابتداءٌ وخبر. قال الزجّاج[١]: والمخاطبةُ للنبيِّ ﷺ مخاطبةٌ لأمته. والمعنى: ولو ترى يا محمدُ مُنْكِري البعثِ يومَ القيامة لرأيتَ العجبَ. ومذهبُ أبي العباس غيرُ هذا، وأن يكون المعنى: يا محمدُ، قل للمجرم: ولو ترى إذ المجرمون ناكِسو رؤوسهم عند ربِّهم لندمتَ على ما كان منك[٢].

﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: من النَّدم والخِزْي والحُزن والذُّلِّ والغمِّ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عند محاسبةِ ربِّهم وجزاءِ أعمالهم. ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ربَّنا ﴿أَبْصَرْنَا﴾ أي: أَبْصَرنا ما كنَّا نكذِّب ﴿وَسَمِعْنَا﴾ ما كنَّا نُنْكِر. وقيل: ﴿أَبْصَرْنَا﴾ صِدْقَ وَعيدك ﴿وَسَمِعْنَا﴾ تصديقَ رُسُلك، أَبْصَرُوا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع.

﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ أي: إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: مصدِّقون بالبعث؛ قاله النقَّاش. وقيل: مصدِّقون بالذي جاء به محمدٌ ﷺ أنه حقّ؛ قاله يحيى بن سلام. قال سفيان الثوريُّ: فأكْذَبهم الله تعالى فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨][٣].

وقيل: معنى «إِنَّا مُوقِنُونَ» أي: قد زالت عنَّا الشُّكوكُ الآن، وكانوا يسمعون ويُبصرون في الدنيا، ولكن لم يكونوا يتدبَّرون، وكانوا كَمَن لا يُبْصِر ولا يسمع، فلمَّا تنبَّهوا في الآخرة صاروا حينئذٍ كأنهم سمعوا وأبصروا.

وقيل: أي: ربَّنا لك الحجةُ، فقد أَبْصَرنا رسلك وعجائبَ خَلْقِك في الدنيا،

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٠٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٤ ، وأبو العباس هو محمد بن يزيد المبرِّد.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٥٩ .

وسمعنا كلامهم، فلا حجةَ لنا. فهذا اعترافٌ منهم، ثم طلبوا أن يُردُّوا إلى الدنيا ليؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

قال محمد بن كعب القُرَظيُّ: لمَّا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ يقول: لو شئتُ لهديتُ الناسَ جميعاً فلم يَخْتلِفْ منهم أحدٌ ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ الآيةَ. ذَكره ابن المبارك في «رقائقه» في حديثٍ طويل. وقد ذَكَرناه في «التذكرة»(١).

النحَّاس(٢): ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ في معناه قولان: أحدهما: أنه في الدنيا. والآخَر: أنَّ سياق الكلام يدلُّ على أنه في الآخرة، أي: لو شئنا لرددْناهم إلى الدنيا والمحنةِ كما سألوا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: حقَّ القولُ منِّي لأعذِّبنَّ مَن عصاني بنارِ جهنَّم. وعَلِم الله تبارك وتعالى [أنه] لو ردَّهم لعادوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وهذه الهدايةُ معناها خَلْقُ المعرفةِ في القلب. وتأويلُ المعتزلة: ولو شئنا لأكْرهناهم على الهداية بإظهارِ الآيات الهائلة، لكنْ لا يَحْسُنُ منه فِعْلُه؛ لأنه يَنْقُض الغرضَ المُجْرَى بالتكليف إليه، وهو الثوابُ الذي لا يُستحقُّ إلَّا بما يفعله المكلَّف باختياره(٣).

---

(١) ص٤١٧، وقد ذكره المصنف فيه بتمامه، وورد بعضه في الزهد لابن المبارك ص٩١ (زوائد نعيم) وسقط معظمه بسبب سقط ورقة من الأصل كما ذكر محققه. وأخرجه من طريق ابن المبارك الطبري ١٧/ ١١٩.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٤٢.

وقالت الإماميَّة في تأويلها[١]: إنه يجوز أنْ يريد هُداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحداً، لكنْ حقَّ القولُ منه أنه يملأ جهنم، فلا يجب على الله تعالى عندنا هدايةُ الكلِّ إليها، قالوا: بل الواجبُ هدايةُ المعصومين، فأمَّا مَن له ذنبٌ فجائزٌ هدايته إلى النار جزاءً على أفعاله.

وفي جواز ذلك مَنْعٌ؛ لقَطْعِهم على أنَّ المراد: هُداها إلى الإيمان.

وقد تكلَّم العلماء عليهم في هذين التأويلين بما فيه كفايةٌ في أصول الدين. وأقربُ ما لهم في الجواب أنْ يقال: فقد بَطَل عندنا وعندكم أنْ يهديَهم الله سبحانه على طريق الإلجاءِ والإجبار[٢] والإكراه، فصار يؤدِّي ذلك إلى مذهب الجَبْريَّة، وهو مذهبٌ رَذْلٌ عندنا وعندكم، فلم يبق إلَّا أنَّ المهتدين من المؤمنين إنَّما هَداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصحَّ التكليفُ، فَمَن شاء آمَنَ وأطاع اختياراً لا جَبْراً؛ قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨]، وقال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان:٢٩]. ثم عقَّب هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠، والتكوير:٢٩]. فوقع إيمانُ المؤمنين بمشيئتهم، ونَفَى أن يشاؤوا إلَّا أن يشاء الله، ولهذا أفرَطَتْ[٣] المُجْبرةُ لمَّا رأَوْا أنَّ هدايتهم إلى الإيمان معذوقٌ[٤] بمشيئة الله تعالى، فقالوا: الخَلْقُ مجبورون في طاعتهم كلِّها، التفاتاً إلى قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. وفرَّطت القدريةُ لمَّا رأوا أنَّ هدايتهم إلى الإيمان معذوقٌ بمشيئة العباد، فقالوا: الخَلْقُ خالقون لأفعالهم، التفاتاً منهم إلى قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.

---

(١) الكلام من هذا الموضع حتى آخر تفسير الآية من حز الغلاصم لشيث بن إبراهيم ص٨٦ – ٨٨.

(٢) في حز الغلاصم: على طريق الإلجاء؛ لأن الإلجاء هو الإجبار...

(٣) في النسخ: فرطت، والمثبت من حز الغلاصم.

(٤) في (ظ): أن هدايتهم مقرونة.

ومذهبُنا هو الاقتصادُ في الاعتقاد، وهو مذهبٌ بين مَذْهَبَي المُجْبرةِ والقدرية، وخيرُ الأمور أوساطُها. وذلك أنَّ أهل الحقِّ قالوا: نحن نفرِّق بين ما اضطُرِرْنا إليه وبين ما اخْتَرْناه، وهو أنَّا نُدْرِكُ تَفْرِقةً بين حركة الارتعاش الواقعةِ في يد الإنسان بغيرِ مُحاولتِه وإرادتِه ولا مقرونة بقُدْرَته، وبين حركةِ الاختيار إذا حرَّك يده حركةً مماثلةً لحركة الارتعاش. ومَن لا يفرِّق بين الحركتين: حركةِ الارتعاش وحركة الاختيار ـ وهما موجودتان في ذاته، ومحسوستان في يده بمشاهدته وإدراكِ حاسَّته ـ فهو معتوهٌ في عقله، ومختلٌّ في حِسِّه، وخارجٌ من حِزْب العقلاء. وهذا هو الحقُّ المُبين، وهو طريقٌ بين طريقي الإفراطِ والتفريط، و:

كِـلَا طَـرَفَـيْ قَـصْـدِ الأمـور ذَمِـيـمُ[(١)]

وبهذا الاعتبارِ اختارَ أهلُ النَّظر من العلماء أنْ سَمَّوْا هذه المنزلةَ بين المنزلتين كَسْباً[(٢)]، وأخذوا هذه التسميةَ من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه من النسيان الذي لا ذِكْرَ معه، أي: لم يعملوا لهذا اليوم، فكانوا بمنزلةِ النَّاسِين. والآخَر: أنَّ ﴿نَسِيتُمْ﴾ بمعنى[(٣)] تركتُم، وكذا ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ﴾؛ واحتجَّ محمد بنُ يزيد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: ١١٥] قال: والدليلُ على

---

(١) سلف ٧/ ٢٢٩ عن الإمام حَمْد بن محمد الخطابي، وصدره: ولا تَغْلُ في شيءٍ من الأمر واقْتَصِدْ. وإنما ضمَّنه الخطابي في شعره، كما ذكر البغدادي في الخزانة ٢/ ١٢٢ - ١٢٣ ، حيث ذكر صدره برواية ثانية وقرن به بيتاً آخر وقال: وكمله بالمصاريع الثلاثة صاحب العباب في شرح أبيات الآداب (وهو حسن بن صالح العدوي اليمني) وقال البغدادي: ولا أعلم قائل هذين البيتين، ولا رأيتهما إلا في كتاب العباب.

(٢) مذهب الأشاعرة في مسألة الكسب يؤول إلى سلب الإرادة عن العبد والوقوع في مذهب المجبِرة.

(٣) في النسخ: بما، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٤ ، والكلام منه.

أنَّه بمعنى تَرَكَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ أخبر عن إبليس أنه قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٠] فلو كان آدم ناسياً لكان قد ذكَّره، وأنشد:

كأنه خارجاً من جَنْبِ صَفْحَتِهِ   سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأَدِ(١)

أي: تركوه. ولو كان من النِّسْيان لكانوا(٢) قد عملوا به مرَّةً.

قال الضحَّاك: «نَسِيتُمْ» أي: تركتُم أمري. يحيى بن سلام: أي: تركتُم الإيمان بالبعث في هذا اليوم. ﴿نَسِينَٰكُمْ﴾: تركناكم من الخير؛ قاله السُّدّي. مجاهد: تركناكم في العذاب(٣).

وفي استئناف قوله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ وبناءِ الفعل على «إنَّ» واسمِها تشديدٌ في الانتقام منهم. والمعنى: فذوقوا هذا، أي: ما أنتم فيه من نَكْسِ الرؤوس والخِزي والغَمِّ بسبب نسيان الله. أو: ذوقوا العذاب المخلَّد، وهو الدائم الذي لا انقطاعَ له في جهنم.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني في الدنيا من المعاصي. وقد يعبَّر بالذَّوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوماً؛ لإحساسها به كإحساسها بذوقِ المطعوم؛ قال عمر بن أبي ربيعة(٤):

فذُقْ هَجْرَها إنْ كنتَ تَزْعُم أنَّه   رشادٌ(٥) ألَا يا ربَّما كَذَبَ الزَّعْمُ

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٢، والخزانة ٣/ ١٨٥ وفيه: الهاء في «كأنه» عائدة على قرن ثور مذكورٍ قبلاً، وخارجاً حال من الهاء، والضمير في صفحته عائد على كلب مذكورٍ قبلاً، والسَّفُّود خبر كأن، وهي الحديدة التي يشوى بها الكباب، شبَّه قرنَ الثور النافذَ من الكلب عندما ضربه به بسَفُّود فيه شواءٌ. والمفتأد المشتَوَى والمطبخ، وهو محل الفَأْد، وهو الطبخ والنضج.

(٢) في النسخ: لكان، والمثبت من إعراب القرآن.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٠.

(٤) كذا نقل المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٠، والكلام منه، والذي في المصادر أنه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، كما في مجالس ثعلب ص٢٣٦، وأمالي القالي ٢/ ٢٠، والأغاني ٩/ ١٥٠، ومصارع العشاق ١/ ٣٢١، واللسان (زعم)، والخزانة ٩/ ١٣٣.

(٥) في النسخ: أنها فساد، والمثبت من النكت والعيون، وهو موافق للمصادر.

الجوهريُّ[١]: وذُقْت ما عند فلان، أي: خَبِرْتُه. وذُقْتُ القَوْس: إذا جَذَبتَ وَتَرَها لتَنْظُر ما شِدَّتُها. وأذاقه الله وَبَالَ أمره؛ قال طُفيل:

فـذوقـوا كـمـا ذُقـنـا غَـدَاة مُـحَـجِّـرٍ من الغيظ في أكبادِنا والتَّحَوُّبِ[٢]

وتذوَّقته، أي: ذُقْتُه شيئاً بعد شيء. وأمرٌ مُسْتَذاقٌ، أي: مجرَّبٌ معلوم؛ قال الشاعر:

وعـهـدُ الـغـانـيـات كـعـهـدِ قَـيْـنٍ وَنَـتْ عـنـه الـجـعـائـل مُـسْـتـذاقِ[٣]

والذوَّاق: المَلُول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾

هذه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، أي: إنَّهم لإلْفِهم الكفرَ لا يؤمنون بك، إنَّما يؤمنُ بك وبالقرآن المتدبِّرون له والمتَّعِظُون به، وهم الذين إذا قُرئ عليهم القرآن ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ قال ابن عباس: ركَّعاً ـ قال المهدوِيُّ: وهذا على مذهب مَن يرى الركوعَ عند قراءةِ السَّجدة ـ واستدلَّ بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤][٤].

وقيل: المرادُ به السُّجود، وعليه أكثرُ العلماء، أي: خَرُّوا سُجَّداً لله تعالى على وجوههم تعظيماً لآياته وخَوْفاً من سَطْوته وعذابه.

﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: خلَطوا التسبيح بالحمد، أي: نزَّهوه وحَمِدوه، فقالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، سبحان ربِّيَ الأعلى وبحمده، أي: تنزيهاً

---

(١) في الصحاح (ذوق).

(٢) سلف ٦/ ٢٣ ، وطفيل هو ابن عوف الغَنَوي.

(٣) قائله نهشل بن حَرِّيّ، كما في الحيوان ٥/ ٣٠ ، وأمالي المرتضى ٢/ ٢٢٧ ، وتهذيب اللغة ٩/ ٢٦٣ ، وأساس البلاغة (ذوق)، ومنتهى الطلب ٨/ ١٧ ، واللسان (ذوق). قال المرتضى: القين: الحدَّاد، والجعائل جمع جعالة، وهي أجرته، أراد: أن القين إذا عدم الجُعالة؛ رحل ولم يستقرَّ في مكان.

(٤) ذكر خبر ابن عباس ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦١ .

لله تعالى عن قول المشركين. وقال سفيان: ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: صَلَّوا حَمْداً لربِّهم. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته؛ قاله يحيى بن سلام. النقَّاش: لا يَسْتَكْبِرون كما اسْتَكْبَرَ أهلُ مكة عن السجود[١].

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع وتَنْبُو عن مواضع الاضطجاع. وهو في موضعِ نصبٍ على الحال، أي: مُتجافيةً جنوبُهم. والمضاجعُ جمعُ مَضْجَع، وهي مواضع النوم. ويَحتمِلُ: عن وقتِ الاضطجاع، ولكنَّه مَجازٌ، والحقيقةُ أَوْلى. ومنه قولُ عبد الله بن رَوَاحة:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابَه ... إذا انشقَّ معروفٌ من الصبحِ ساطِعُ
يبيتُ يُجافي جَنْبَه عن فراشه ... إذا استثقلتْ بالمشركين المَضَاجِعُ[٢]

قال الزجَّاج والرُّمَّانيّ: التَّجافي: التَّنَحِّي إلى جهةِ فوق. وكذلك هو في الصَّفْح عن المخطئ في سَبٍّ ونحوِه. والجُنوبُ جمعُ جَنْب[٣].

وفيما تتجافَى جنوبُهم عن المضاجع لأَجْلِه قولان: أحدهما: لذكرِ الله تعالى، إمَّا في صلاةٍ، وإمَّا في غيرِ صلاة؛ قاله ابن عباس والضحاك. الثاني: للصلاة[٤].

وفي الصلاة التي تتجافَى جُنوبُهم لأَجْلها أربعةُ أقوال:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٦١.

(٢) سلف البيتان ٦/ ٣٤٦ باختلاف يسير في البيت الأول، وهما بهذه الرواية في صحيح البخاري (١١٥٥) حيث أخرج من طريق الهيثم بن أبي سنان: أنه سمع أبا هريرة ﷺ ـ وهو يَقْصُصُ في قَصَصه ـ وهو يذكر رسول الله ﷺ: إنَّ أخاً لكم لا يقول الرَّفَثَ. يعني بذلك عبد الله بن رواحة، ثم ذكر ثلاثة أبيات منها هذان البيتان.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢، وقول الزجاج بنحوه في معاني القرآن ٤/ ٢٠٧.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٦١ - ٣٦٢، وأخرج قول ابن عباس والضحاك الطبري ١٨/ ٦١٢ - ٦١٣.

أحدها: التَّنفُّلُ بالليل؛ قاله الجمهور من المفسِّرين، وعليه أكثرُ الناس، وهو الذي فيه المدحُ[١]، وهو قولُ مجاهدٍ والأوزاعيِّ ومالك بنِ أنس والحسن بنِ أبي الحسن وأبي العالية وغيرهم[٢]. ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ﴾ لأنَّهم جُوْزُوا على ما أَخْفَوْا بما خَفِي، والله أعلم. وسيأتي بيانُه.

وفي قيام الليل أحاديثُ كثيرةٌ؛ منها حديثُ معاذ بن جَبَل أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «ألَا أدُلُّك على أبوابِ الخير: الصومُ جُنَّة، والصَّدقةُ تُطْفِئُ الخطيئةَ كما يُطْفِئُ الماءُ النارَ، وصلاةُ الرجلِ من جَوْفِ الليل» قال: ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ أخرجه أبو داود الطَّيالسيُّ في «مسنده»، والقاضي إسماعيل بنُ إسحاق، وأبو عيسى الترمذيُّ وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[٣].

الثاني: صلاةُ العشاء التي يقال لها: العتمة؛ قاله الحسن وعطاء[٤]. وفي الترمذيِّ عن أنس بن مالك: أنَّ هذه الآيةَ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ نزلت في انتظارِ الصلاة التي تُدْعَى: العَتَمَة، قال: هذا حديثٌ حسنٌ [صحيح] غريب[٥].

الثالث: التَّنفُّل ما بين المغرب والعشاء؛ قاله قتادةُ وعكرمة[٦]. ورَوى أبو داود[٧] عن أنس بن مالك: أنَّ هذه الآيةَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ قال: كانوا يتنفَّلون ما بين المغرب والعشاء.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٦٣، وأخرجه عن الحسن أبو داود (١٣٢١)، وعبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٠، والطبري ١٨/ ٦١٢ عنه وعن مجاهد.

(٣) سنن الترمذي (٢٦١٦)، ومسند الطيالسي (٥٦٠)، وهو عند أحمد (٢٢٠١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٦٣.

(٥) سنن الترمذي (٣١٩٦)، وما بين حاصرتين منه، وهو موافق لما في تحفة الأشراف ١/ ٤٢٩، وتحفة الأحوذي ٩/ ٥٥.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٦٣.

(٧) في سننه (١٣٢١)، وأخرجه الطبري ١٨/ ٦٠٩ - ٦١١.

الرابع: قال الضحاك: تَجَافي الجَنْبِ: هو أن يصلّي الرجل العشاء والصبح في جماعة. وقاله أبو الدَّرداء وعُبادة[١].

قلت: وهذا قولٌ حَسَنٌ، وهو يجمع الأقوال بالمعنى، وذلك أنَّ مُنتظِرَ العشاءِ - إلى أنْ يصلِّيَهَا - في صلاةٍ وذكرٍ لله جلَّ وعزَّ، كما قال النبيُّ ﷺ: «لا يَزالُ الرجلُ في صلاةٍ ما انْتظَر الصلاة»[٢]. وقال أنس: المرادُ بالآية انتظارُ صلاة العشاء الآخِرة؛ لأنَّ رسول الله ﷺ كان يؤخِّرها إلى نحوِ ثُلُثِ الليل، قال ابن عطيةَ[٣]: وكانت الجاهليةُ ينامون مِن أوَّل الغروب ومن أيِّ وقتٍ شاء الإنسان، فجاء انتظارُ وقتِ العشاء غريباً شاقًّا.

ومصلِّي الصبحِ في جماعةٍ لاسيَّما في أوّل الوقت كما كان عليه الصلاة والسلام يصلِّيها. والعادةُ أنَّ مَن حافَظَ على هذه الصلاة في أوّل الوقت، يقومُ سَحَراً يتوضَّأ ويصلِّي ويذكر الله عزَّ وجلَّ إلى أنْ يَطْلعُ الفجر. فقد حَصَل التَّجافي أوَّلَ الليل وآخِرَه. يَزِيدُ هذا ما رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن صلَّى العشاءَ في جماعةٍ فكأنَّما قامَ نصفَ اللَّيل، ومَن صلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ فكأنَّما قامَ اللَّيلَ كلَّه»[٤]. ولفظُ الترمذيِّ وأبي داودَ في هذا الحديث: «مَن شَهِدَ العشاءَ في جماعةٍ كان له قيامُ نصفِ ليلةٍ، ومَن صلَّى العشاءَ والفَجْرَ في جماعةٍ كان له كقيامِ ليلة»[٥]. وقد مضى في سورة النور عن كعب فيمَن صلَّى بعدَ العشاءِ الآخِرة

---

(١) ذكره عن الضحاك ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢ ، وعن أبي الدرداء وعبادة الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٣٦٣ ، والبغوي ٣/ ٥٠٠ . قال ابن عطية: وهذا قول حسن يساعده لفظ الآية.

(٢) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (٦٤٧).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢ ، وما قبله منه، وخبر أنس ﷺ سلف بنحوه قريباً. وأحاديث تأخير النبي ﷺ لصلاة العشاء سلفت ٢/ ٤٥٢ .

(٤) صحيح مسلم (٦٥٦)، وسلف ٤/ ١٨٠ - ١٨١ ، و١٥/ ٣٣٧ .

(٥) سنن الترمذي (٢٢١)، وسنن أبي داود (٥٥٥)، وسلف ٤/ ١٨١ .

أربعَ ركعاتٍ كنَّ له بمنزلةِ ليلةِ القَدْر[(١)].

وجاءت آثارٌ حِسَانٌ في فَضْلِ الصلاة بينَ المغرب والعشاء وقيامِ الليل. ذكر ابن المبارك قال: أخبرنا يحيى بن أيوب قال: حدَّثني محمد بن الحجاج ـ أو ابن أبي الحجاج ـ أنه سمع عبد الكريم يحدِّث: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن ركع عَشْرَ ركعاتٍ بين المغرب والعشاء بُنيَ له قصرٌ في الجنة». فقال له عمر بن الخطاب: إذاً تَكْثُر قصورُنا وبيوتُنا يا رسولَ الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثرُ[(٢)] وأفضلُ» أو قال: «أَطْيبُ»[(٣)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: صلاةُ الأوَّابين الخلوةُ التي بين المغرب والعشاء حتى يثوبَ الناس إلى الصلاة[(٤)].

وكان عبد الله بن مسعود يصلِّي في تلك الساعةِ ويقول: [نِعْمَ] صلاةُ الغفلةِ بين المغرب والعشاء؛ ذكره ابن المبارك[(٥)].

ورواه الثعلبيُّ مرفوعاً عن ابن عمر قال: قال النبيُّ ﷺ: «مَن جَفَتْ جَنْباهُ عن المَضَاجِعِ ما بينَ المغربِ والعشاءِ؛ بُنيَ له قصران في الجنة مسيرةَ عام، وفيهما من

---

(١) ينظر ١٥/ ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٢) في (د) و(م): أكبر.

(٣) الزهد لابن المبارك (١٢٦٤) دون قوله: أو ابن أبي الحجاج، وعبد الكريم هو ابن الحارث، وهذا إسناد منقطع. كما أن محمد بن الحجاج اللخمي قال عنه البخاري: منكر الحديث. وقال ابن عدي: هو وضع حديث الهريسة. وقال الدارقطني: كذاب. الميزان ٣/ ٥٠٩ .

(٤) الزهد لابن المبارك (١٢٦٠)، وفي إسناده موسى بن عبيدة بن نشيط، قال عنه الحافظ في التقريب: ضعيف.

(٥) في الزهد (١٢٦١)، وما سلف بين حاصرتين منه. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٤٧٢٥)، والطبراني في الكبير (٩٤٥٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٣٠ : فيه جابر الجعفي، وفيه كلام كثير. اهـ. وقال عنه الحافظ في التقريب: ضعيف. وأخرجه الطبراني (٩٤٤٩) بإسناد آخر عن ابن مسعود. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٣٠ : فيه ليث بن أبي سليم، وفيه كلام. اهـ. وقال عنه الحافظ في التقريب: صدوق اختلط جدًّا ولم يتميز حديثه فتُرك.

الشجر ما لو نَزَلَها أهلُ المشرقِ والمغرب لأَوْسَعتْهم فاكهةً»[(١)]. وهي صلاةُ الأوَّابين وغَفْلة الغافلين، وإنَّ من الدعاء المستجابِ الذي لا يُردُّ الدعاءَ بين المغرب والعشاء.

فصل في فضل التَّجَافي: ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال: إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ: ستعلمون اليومَ مَن أصحابُ الكَرَم؛ لِيَقُم الحامِدون لله على كلّ حال. فيقومون فيُسَرَّحون إلى الجنة. ثم ينادي ثانيةً: ستعلمون اليومَ مَن أصحابُ الكَرَم؛ لِيَقُمِ الذين كانت جنوبُهم تتجافَى عن المضاجع ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. قال: فيقومون فيُسَرَّحون إلى الجنة. قال: ثم ينادي ثالثةً: ستعلمون اليوم مَن أصحابُ الكرم؛ لِيَقُمِ الذين كانوا ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، فيقومون فيسرَّحون إلى الجنة[(٢)].

ذكره الثعلبيُّ مرفوعاً عن أسماء بنتِ يزيد: قال النبيُّ ﷺ: «إذا جَمَعَ الله الأوَّلين والآخِرين يومَ القيامة جاء منادٍ فنادى بصوتٍ تسمعه الخلائقُ كلُّهم: سيعلم أهلُ الجمع اليومَ مَن أَوْلى بالكَرَمِ، لِيَقُمِ الذين كانت تتجافى جنوبُهم عن المضاجع. فيقومون وهم قليل، ثم ينادي الثانيةَ: ستعلمون اليوم مَن أَوْلَى بالكرم؛ لِيَقُمِ الذين لا تُلهِيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْر الله. فيقومون، ثم ينادي الثالثةَ: ستعلمون اليوم مَن أَوْلى بالكرم؛ لِيَقُمِ الحامِدون لله على كلِّ حال في السَّرَّاء والضرَّاء. فيقومون وهم قليل، فيسرَّحون جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسَبُ سائرُ الناس»[(٣)].

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) الزهد (٣٥٣ - زوائد نعيم)، وأخرجه أيضاً الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (١١٢٢)، وحسن إسناده الحافظ في المطالب العالية ٤/ ٣٧٥ ، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٠ .

(٣) أخرجه هناد في الزهد (١٧٦)، وأبو الليث في التفسير ٣/ ٣٠ من طريق عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد به. وعبد الرحمن بن إسحاق الواسطي ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه عبد بن حميد (١٥٨١) من طريق أبان بن أبي عياش عن شهر بن حوشب به. وأبان متروك، كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٣٩٨ - ٣٩٩ من طريق عبد الله بن =

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر، عن رجل، عن أبي العلاء بن الشِّخِّير، عن أبي ذرّ قال: ثلاثةٌ يَضْحَك الله إليهم ويَستبشرُ الله بهم: رجلٌ قام من الليل وترك فراشَه ودِفْئه، ثم توضَّأ فأَحْسَنَ الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، فيقولُ الله لملائكته: ما حَمَلَ عبدي على ما صَنَع؟ فيقولون: ربَّنا أنت أَعْلَمُ به منَّا. فيقول: أنا أعلمُ به ولكنْ أَخْبِروني. فيقولون: رَجَّيتَه شيئاً فَرَجَاه، وخوَّفْتَه فخافه. فيقول: أُشْهِدُكم أنِّي قد أَمَّنتُه مما خاف، وأَوْجَبْتُ له ما رَجَاه. قال: ورجلٌ كان في سَرِيَّةٍ فلقيَ العدوَّ، فانهزم أصحابه وثَبَتَ هو حتى يُقتَلَ أو يَفْتح الله عليهم، فيقول الله لملائكته مثلَ هذه القصة. ورجل سَرَى في ليلةٍ، حتى إذا كان في آخِر الليل نزل هو وأصحابه، فنام أصحابه وقام هو يصلِّي، فيقول الله لملائكته...» وذكر القصة[1].

قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحال، أي: داعِينَ. ويَحتَمِل أن تكون صفةً مُستأنَفَةً، أي: تتجافى جنوبُهم وهم أيضاً في كلِّ حالٍ يدعون ربَّهم لَيْلَهم ونهارَهم[2]. و﴿خَوۡفٗا﴾ مفعولٌ من أَجْلِه. ويجوز أن يكون مصدراً. ﴿وَطَمَعٗا﴾ مثله، أي: خوفاً من العذاب، وطمعاً في الثواب. ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ تكونُ «ما» بمعنى الذي، وتكونُ مصدراً، وفي كِلَا الوجهين يجب أن تكون منفصلةً من «مِن»[3].

= عطاء عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ وصححه. غير أن عبد الله بن عطاء لم يدرك عقبة بن عامر، كما ذكر المِزِّي في تهذيب الكمال ١٥/ ٣١٢.

(١) الزهد لابن المبارك (١٢١٢). وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٨٢) عن معمر، عن سعيد الجريري، عن أبي العلاء به. وأخرجه بنحوه الطبراني مرفوعاً من حديث أبي الدرداء ﷺ كما في مجمع الزوائد ٢/ ٢٥٥. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٥. و«ما» في هذا الموضع موصولة بـ «مِن» في رسم المصحف، وذكر أبو عمرو الداني في المقنع ص٦٩: أن «من ما» مقطوعة في ثلاثة مواضع: الآية (٢٥) من سورة النساء، والآية (٢٨) من سورة الروم، والآية (١٠) من سورة المنافقين.

و«يُنْفِقُون» قيل: معناه الزكاةُ المفروضة. وقيل: النوافل، وهذا القولُ أَمْدَحُ[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قرأ حمزةُ: ﴿ما أُخْفيْ لهم﴾ بإسكان الياء. وفَتَحها الباقون[(٢)]. وفي قراءةِ عبدالله: «ما نُخْفي» بالنون مضمومة[(٣)]. وروى المفضَّل عن الأعمش: «ما يُخْفَى لهم» بالياء المضمومةِ وفَتْحِ الفاء[(٤)]. وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة: «مِن قُرَّاتِ أَعْيُن»[(٥)].

فمَنْ أَسْكَنَ الياءَ مِن قوله: «ما أُخفِيْ» فهو مستقبَلٌ، وألفُه ألفُ المتكلِّم، و«ما» في موضعِ نصبٍ بـ«أُخفي» وهي استفهام، والجملةُ في موضع نصب؛ لوقوعها موقعَ المفعولَيْنِ[(٦)]، والضميرُ العائدُ على «ما» محذوف[(٧)].

ومَن فَتَح الياءَ فهو فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمفعول، و«ما» في موضع رفعٍ بالابتداء، والخبرُ «أُخْفيَ» وما بعده، والضميرُ في «أُخْفيَ» عائدٌ على «ما»[(٨)].

قال الزَّجَّاج: ويُقرأ: «ما أَخْفَى لهم»، بمعنى: ما أَخْفَى الله لهم[(٩)]. وهي قراءةُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٢) السبعة ص٥١٦، والتيسير ص١٧٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٥) المحتسب ٢/ ١٧٤.

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٨، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٩٣ - ١٩٤.

(٧) وهذا إذا جعلنا «ما» موصولة بمعنى الذي، فـ«ما» يجوز أن تكون استفهامية كما سلف، ويجوز أن تكون موصولة ويكون العائد محذوفاً، والتقدير: أخفيه، وتكون «ما» في موضع نصب بـ«تعلم». مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٨ - ٥٦٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢، والدر المصون ٩/ ٨٧ - ٨٨.

(٨) ويجوز في «ما» الوجهان على هذه القراءة أيضاً، فإن كانت استفهامية فهي في موضع رفع بالابتداء، وإن كانت موصولة فهي في موضع نصب بـ«تعلم»، والعائد هو الضمير المرفوع في «أخفيَ». ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٨ - ٥٦٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٨.

محمد بنِ كعب[١]، و«ما» في موضعِ نصب.

المهدوِيُّ: ومَن قرأ: «قرَّات أعين» فهو جمعُ قُرَّة، وحَسُنَ الجمعُ فيه لإضافته إلى جمع، والإفرادُ لأنَّه مصدر، وهو اسمٌ للجنس.

وقال أبو بكر الأنبارِيُّ: وهذا غيرُ مخالفٍ للمصحف؛ لأنَّ تاء «قُرَّة» تكتَبُ تاءً على لغةِ مَن يُجري الوصلَ على الوقف، كما كتبوا: «رحمت الله» بالتاء. ولا يُستنكر سقوطُ الألفِ من «قُرَّات» في الخطِّ، وهو موجودٌ في اللَّفْظ، كما لم يُستنكَر سقوطُ الألف من السماوات، وهي ثابتةٌ في اللسان والنُّطق.

والمعنى المرادُ: أنه أَخبر تعالى بما لهم من النعيم الذي لم تَعْلَمْه نفسٌ ولا بشرٌ ولا مَلَك. وفي معنى هذه الآيةِ قال النبيُّ ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: أعْدَدْتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قَلْبِ بشر» ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. خرَّجه الصَّحيح من حديثِ سهل بن سعد الساعديِّ[٢].

وقال ابن مسعود: في التوراة مكتوبٌ: على الله للذين تتجافى جنوبُهم عن المضاجع ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشر[٣]. وقال ابن عباس: الأمرُ في هذا أجلُّ وأعظمُ من أن يُعرف تفسيره[٤].

قلت: وهذه الكرامةُ إنَّما هي لأعلى أهلِ الجنة منزلاً، كما جاء مبيَّناً في «صحيح» مسلم[٥] عن المغيرة بنِ شُعبةَ يرفعُه إلى رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٢) صحيح مسلم (٢٨٢٥)، وهو عند أحمد (٢٢٨٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١١٢، والطبري ١٨/ ٦١٧.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٥٣.

(٥) برقم (١٨٩): (٣١٢).

عليه السلام ربَّه فقال: يا ربِّ، ما أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً؟ قال: هو رجلٌ يأتي بعدما يُدخَل أهلُ الجنة الجنةَ، فيقال له: ادخُل الجنةَ. فيقول: أيْ ربّ، كيف وقد نَزَل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذَاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثلُ مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربِّ! فيقول: لك ذلك ومثلُه معه ومثلُه ومثلُه ومثلُه ومثلُه[١]، فقال في الخامسة: رضيتُ رَبِّ! فيقال: هذا لك وعَشَرةُ أمثاله، ولك ما اشتهتْ نَفْسُك ولذَّتْ عينك. فيقول: رضيتُ رَبِّ! قال: رَبِّ، فأعلاهم منزلةً؟ قال: أولئك الذين أردتُ؛ غَرَسْتُ كرامتَهم بيدي، وخَتمتُ عليها، فلم تَرَ عينٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يَخْطُرْ على قلب بشر». قال: «ومصْداقُه من كتاب الله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾». وقد رُوي عن المغيرة موقوفاً قوله[٢].

وخرَّج مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ، ذُخْراً، بَلْهَ ما أَطْلَعَكُمْ [الله] عليه» ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٣].

وقال ابن سيرين: المرادُ به: النظرُ إلى الله تعالى.

وقال الحسن: أَخْفَى القومُ أعمالاً، فأَخْفَى الله تعالى لهم ما لا عينٌ رَأَتْ ولا أذنٌ سمعت[٤].

---

(١) في (ظ): «ومثله معه». في المواضع الأربعة.

(٢) صحيح مسلم (١٨٩): (٣١٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٢٤): (٤) وما بين حاصرتين منه. وهو عند أحمد (١٠٠١٧)، والبخاري (٤٧٨٠).
قوله: بله، هو من أسماء الأفعال، بمعنى: دع واترك. والمعنى: دَعْ عنك ما أطلعكم الله عليه، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم. ينظر النهاية (بله)، وشرح النووي لصحيح مسلم ١٧/ ١٦٦ .

(٤) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٤ .

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ أي: ليس المؤمنُ كالفاسق؛ فلهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثوابَ العظيم. قال ابن عباس وعطاء ابن يَسار: نزلت الآية في عليّ بن أبي طالب والوليد بنِ عُقبة بن أبي مُعَيْط، وذلك أنهما تَلاحَيَا، فقال له الوليد: أنا أَبْسَطُ منك لساناً، وأَحَدُّ سِناناً، وأَرَدُّ للكتيبة، وروي: وأَمْلأُ في الكتيبة جسداً. فقال له عليٌّ: اسكتْ! فإنك فاسقٌ، فنزلت الآية[(١)].

وذكر الزجَّاج والنَّحَّاس أنها نزلت في عليٍّ وعُقبةَ بنِ أبي مُعَيْط؛ قال ابن عطية[(٢)]: وعلى هذا يَلزمُ أن تكون الآيةُ مكّيةً؛ لأنَّ عُقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قُتل في طريق مكةَ مُنْصَرَفَ رسولِ الله ﷺ من بدر. ويُعترضُ القولُ الآخَرُ بإطلاق اسمِ الفسْقِ على الوليد. وذلك يَحتَمِلُ أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيءٍ كان في نفسه، أوْ لِمَا رُوي من نَقْلِه عن بني المُصْطَلِق ما لم يكن، حتى نزلت فيه: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] على ما يأتي في «الحُجُرات» بيانُه، ويَحتمِلُ أن تُطْلِقَ الشريعة ذلك عليه؛ لأنه كان على طرفٍ ممَّا يتَّقى[(٣)]، وهو الذي شرب الخمر في زمن عثمان ﷺ، وصلَّى الصبحَ بالناس ثم التفتَ وقال: أتريدون أن أزيدكم[(٤)]، ونحو هذا ممَّا يطول ذِكْرهُ.

---

(١) أخرجه عن ابن عباس أحمد في فضائل الصحابة (١٠٤٣)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٦٧-٣٦٨. وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٧٩ - ٥٨٠ دون تسمية علي ﷺ والوليد. وأخرجه عن عطاء الطبري ١٨/ ٦٢٥.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٣، وما قبله منه. وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٠٨، أما النحاس فالذي ذكره في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٦، وفي معاني القرآن ٥/ ٣٠٧: الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وليس عقبة بن أبي معيط.

(٣) في (د): نبغي، وفي (م) ومطبوع المحرر الوجيز: يبغي، ولم تجود في (خ)، وسقط هذا الموضع من (ز)، والمثبت من (ظ).

(٤) أخرجه مسلم (١٧٠٧)، وأحمد (٦٢٤) و(١٢٣٠).

الثانية: لمَّا قسم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسَّقهم بالكفر - لأنَّ التكذيب في آخِر الآية يقتضي ذلك[١] - اقتضى ذلك نفيَ المساواةِ بين المؤمن والكافر؛ ولهذا منع القِصَاص بينَهما؛ إذ مِن شَرْطِ وجوبِ القِصَاصِ المساواةُ بين القاتل والمقتول. وبذلك احتجَّ علماؤنا على أبي حنيفةَ في قَتْلِه المسلمَ بالذِّمِّيّ. وقال: أراد نَفْيَ[٢] المساواةِ هاهنا في الآخِرة في الثواب، وفي الدنيا في العدالة. ونحن حَمَلْناه على عمومه، وهو أصحّ؛ إذ لا دليلَ يخصُّه؛ قاله ابن العربيّ[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ قال الزَّجَّاج وغيره: «مَنْ» يَصْلُح للواحد والجمع[٤]. النحَّاس[٥]: لفظُ «مَنْ» يؤدِّي عن الجماعة، فلهذا قال: «لا يستوون»؛ هذا قولُ كثيرٍ من النحويين. وقال بعضهم: «لا يستوون» لاثنين؛ لأنَّ[٦] الاثنين جمع، لأنه واحدٌ جُمع مع آخَر. وقاله الزجَّاج أيضاً. والحديثُ يدلُّ على هذا القول؛ لأنه عن ابن عباس وغيره قال: نزلت ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ في عليّ بن أبي طالب ﷺ، ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾ في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط[٧]. وقال الشاعر:

أليس الموتُ بينهما سواءً إذا ماتوا وصاروا في القبورِ[٨]

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أخبر عن مَقَرِّ

---

(١) يعني في آخر الآية (٢٠).
(٢) في (د) و(ظ): بنفي.
(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٠ .
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٨ .
(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٦ .
(٦) في إعراب القرآن: إلا أن، بدل: لأن.
(٧) سلف في المسألة الأولى.
(٨) سلف ٦/ ١٢١ .

الفريقين غداً؛ فللمؤمنين جناتُ المأوى، أي: يأوون إلى الجنات، فأضاف الجناتِ إلى المأوى؛ لأنَّ ذلك الموضع يتضمَّن جنات. ﴿نُزُلًا﴾ أي: ضيافة. والنُّزُلُ: ما يُهيَّأ للنازِلِ والضَّيف. وقد مضى في آخِرِ «آل عمران»[١] وهو نصبٌ على الحال من الجنات، أي: لهم الجناتُ معدَّةً، ويجوز أن يكون مفعولاً له.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ أي: خرجوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مُقامُهم فيها. ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي: إذا دَفَعهم لهبُ النار إلى أعلاها رُدُّوا إلى موضعهم فيها؛ لأنهم يطمعون في الخروج منها. وقد مضى هذا في «الحج»[٢].

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: يقول لهم خَزَنةُ جهنم، أو يقول الله لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ والذوق يُستعمل محسوساً ومعنًى. وقد مضى في هذه السورة بيانُه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قال الحسنُ وأبو العاليةِ والضحَّاك وأبيّ بن كعب وإبراهيم النَّخَعيُّ: العذابُ الأدنى: مصائبُ الدنيا وأسقامُها مما يُبْتَلَى به العبيد حتى يتوبوا. وقاله ابن عباس[٤]. وعنه أيضاً: أنه الحدود[٥].

(١) ٥/ ٤٨٢ - ٤٨٣.

(٢) ١٤/ ٣٤٥.

(٣) ص٢٦ و٢٧ من هذا الجزء.

(٤) أخرج قولهم الطبري ١٨/ ٦٢٧ - ٦٢٩، وأخرجه بنحوه عن أبيٍّ أيضاً مسلم (٢٧٩٩)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٧٣).

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٦٢٩. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٣: ويتجه على هذا التأويل أن تكون في فَسَقَة المؤمنين.

وقال ابن مسعود والحسين بن عليٍّ وعبد الله بن الحارث: هو القتلُ بالسيف يومَ بدر[١].

وقال مقاتل: الجوعُ سبعَ سنين بمكة حتى أكلوا الجِيَفَ[٢]؛ وقاله مجاهد[٣]. وعنه أيضاً: العذاب الأدنى: عذابُ القبر، وقاله البراء بن عازب[٤]، قالوا: والأكبرُ: عذابُ يوم القيامة؛ قال القُشَيريُّ: وقيل: عذاب القبر، وفيه نظر؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. قال: ومَن حَمَل العذابَ على القتل قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجع مَن بقيَ منهم. ولا خلافَ أنَّ العذاب الأكبر عذابُ جهنَّم، إلَّا ما رويَ عن جعفر بن محمد: أنه خروجُ المهديِّ بالسيف، والأدنى غلاءُ السعر[٥].

وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على قولِ مجاهدٍ والبراء: أي: لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه؛ كقوله: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، وسُمِّيتْ إرادةُ الرجوعِ رجوعاً كما سُمِّيتْ إرادة القيام قياماً في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾، ويدلُّ عليه قراءةُ مَن قرأ: «يُرْجَعُون» على البناء للمفعول؛ ذكره الزَّمَخْشري[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحدَ أظلَمُ لنفسه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾

---

(١) أخرج قولهم الطبري ١٨/ ٦٢٩ - ٦٣٠ ، وفيه: الحسن بن علي، بدل: الحسين، وكذلك وقع في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٣ .

(٢) ذكره البغوي ٣/ ٥٠٢ .

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٦٣٠ بلفظ: القتل والجوع لقريش في الدنيا.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٦٥ ، وأخرجه عن مجاهد الطبري ١٨/ ٦٣١ .

(٥) ذكره عن جعفر الصادق الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٣٦٥ .

(٦) في الكشاف ٣/ ٢٤٥ .

أي: بحُجَجِه وعلاماته ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ بتركِ القبول. ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ لتكذيبهم وإعراضهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي: فلا تكن يا محمد في شكٍّ من لقاء موسى؛ قاله ابن عباس، وقد لقِيَه ليلةَ الإسراء[(١)]. قتادة: المعنى: فلا تَكُنْ في شكٍّ من أنَّك لقيتَه ليلةَ الإسراء[(٢)]. والمعنى واحد.

وقيل: فلا تكن في شكٍّ من لقاء موسى في القيامة، وستلقاه فيها[(٣)].

وقيل: فلا تكن في شكٍّ من لقاء موسى الكتابَ بالقبول؛ قاله مجاهدٌ والزجّاج[(٤)].

وعن الحسن أنه قال في معناه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ فأوذيَ وكُذِّب، فلا تكن في شكٍّ من أنه سيلقاك ما لقِيَه من التكذيب والأذى. فالهاءُ عائدةٌ على محذوف، والمعنى: مِن لقاءِ ما لاقَى. النحّاس[(٥)]: وهذا قولٌ غريب، إلَّا أنه من رواية عمرو بن عُبيد.

وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: قل يتوفَّاكم مَلَكُ الموت الَّذي وُكِّلَ

---

(١) ذكره عن ابن عباس بنحوه البغوي ٣/ ٥٠٣ ، وحديث ابن عباس في لقاء النبي ﷺ موسى عليه السلام في الإسراء أخرجه البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥)، والطبري ١٨/ ٦٣٦ .

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٦٣٦ ، وأخرجه بنحوه مسلم إثر الحديث (١٦٥).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٦٦ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٠٩ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٧ ، وما قبله منه.

بكم، فلا تكن في مِرْيةٍ من لقائه، فجاء معترِضاً بين ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وبين ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[١].

والضميرُ في «وجَعَلْناه» فيه وجهان: أحدهما: جعلنا موسى؛ قاله قتادة. الثاني: جعلنا الكتاب؛ قاله الحسن[٢].

﴿وجَعَلْنا منهم أَيِمَّةً﴾ أي: قادةً وقُدْوةً يُقتَدَى بهم في دينهم. والكوفيون يقرؤون: ﴿أَيِمَّةً﴾[٣]؛ النحاس[٤]: وهو لحنٌ عند جميع النَّحْويين؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمةٍ واحدة، وهو من دقيقِ النحو؛ وشَرْحُه: أنَّ الأصل: «أأْمِمَة»، ثم أُلقيتْ حركةُ الميم [الأولى] على الهمزة وأُدغمت الميم [في الميم] وخفِّفت الهمزة الثانية لئلَّا يجتمعَ همزتان، والجمعُ بين همزتين في حرفين بعيد، فأمَّا في حرفٍ واحدٍ[٥] فلا يجوز إلَّا بتخفيف الثانية، نحو قولك: آدم وآخر. ويقال: هذا أَوَمُّ من هذا وأَيَمّ، بالواو والياء. وقد مضى هذا في «براءة»[٦]، والله تعالى أعلم.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون الخَلْقَ إلى طاعتنا. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: أَمَرْناهم بذلك. وقيل: «بأمْرِنا» أي: لأمْرِنا، أي: يهدون الناس لدِيننا. ثم قيل: المرادُ الأنبياءُ عليهم السلام؛ قاله قتادة[٧]. وقيل: المرادُ الفقهاءُ والعلماء.

﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ قراءةُ العامَّة: «لَمَّا» بفَتْحِ اللام وتشديدِ الميم وفَتْحِها، أي: حين

---

(١) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٤ .

(٢) النكت والعيون ٤/٣٦٦ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٨/ ٦٣٧ .

(٣) وهي قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، وسهَّل الثانية نافع وأبو عمرو وابن كثير. ينظر التيسير ص٣٢ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٧ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) يعني في كلمة واحدة. ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٩ .

(٦) ١٠/ ١٢٧ .

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٦ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٣٤٤ دون نسبة. وأخرج الطبري عن قتادة أنه قال في معنى «أئمة»: رؤساء في الخير.

صبروا. وقرأ يحيى وحمزةُ والكسائيُّ وخَلَف ورُوَيْس عن يعقوب: ﴿لِمَا صَبَرُوا﴾[(١)] أي: لِصَبْرِهم جعلناهم أئمةً. واختاره أبو عبيد اعتباراً بقراءة ابنِ مسعود: «بما صَبَروا» بالباء[(٢)].

وهذا الصبرُ صبرٌ على الدِّين وعلى البلاء. وقيل: صبروا عن الدنيا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيُجازي كُلًّا بما يَستحقّ. وقيل: يقضي بين الأنبياء وبين قومهم؛ حكاه النقاش[(٣)].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ وقتادة وأبو زيد عن يعقوب: «نَهْدِ لَهُمْ» بالنون، فهذه قراءةٌ بيِّنة[(٤)]. النحاس: وبالياء فيها إشكالٌ؛ لأنه يقال: الفعل لا يخلو من فاعل، فأين الفاعلُ لـ «يَهْدِ»؟ فتكلَّم النحويون في هذا؛ فقال الفراء: «كَمْ» في موضعِ رفعٍ بـ «يَهْدِ». وهذا نقضٌ لأصول النحويِّين في قولهم: إنَّ الاستفهام لا يعمل فيه ما قَبْلَه، ولا في «كَمْ» بوجهٍ، أعني ما قَبْلَها. ومذهبُ أبي العباس: أنَّ «يهْدِ» يدلُّ على الهُدَى؛ والمعنى: أَوَلَمْ يَهْدِ لهم الهُدَى. وقيل: المعنى: أَوَلَمْ يَهْدِ اللهُ لهم، فيكون معنى الياءِ والنون واحداً، أي: أَوَلَمْ نُبَيِّن لهم إهلاكَنا القرونَ الكافرةَ مِن قَبْلِهم. وقال الزجَّاج: «كَمْ» في موضعِ نصبٍ بـ «أَهْلَكْنا»[(٥)].

---

(١) السبعة ص٥١٦، والتيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٧ عن حمزة والكسائي ورويس.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٢، وتفسير الطبري ١٨/ ٦٣٨.

(٣) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٨ عن السلمي وقتادة، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٨ عن علي وابن عباس والسلمي.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٨، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٣، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢١١.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ﴾ يَحتمِل الضميرُ في «يَمْشُون» أن يعود على الماشين في مساكن المُهْلَكين، أي: وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون. ويَحتمِل أن يعود على المهلَكين فيكون حالاً، والمعنى: أهلكناهم ماشين في مساكنهم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾ آياتِ اللهِ وعِظَاتِه فيتَّعِظُون؟!

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾ أي: أَوَلَمْ يعلموا كمالَ قُدْرَتِنا بسَوْقِنا الماءَ إلى الأرض اليابسة التي لا نباتَ فيها لِنُحْيِيَها. الزَّمخْشريُّ[(١)]: الجُرُز: الأرضُ التي جُرِز نباتُها، أي: قُطع؛ إمَّا لعُدْمِ الماء، وإمَّا لأنه رُعيَ وأُزيل. ولا يقال للَّتي لا تُنْبِتُ كالسِّباخ: جُرُز، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا﴾.

قال ابن عباس: هي أرضٌ باليمن. وقال مجاهد: هي أَبْيَن[(٢)]. وقال عكرمة: هي الأرضُ الظَّمْأَى. وقال الضحَّاك: هي الأرضُ الميتةُ العَطْشَى. وقال الفرَّاء[(٣)]: هي الأرض التي لا نباتَ فيها. وقال الأصمعيُّ: هي الأرضُ التي لا تُنْبِتُ شيئاً. وقال محمد بن يزيد: يَبْعُدُ أن تكون إلَّا أرضاً بعينها لدخول الألفِ واللام، إلَّا أنه يجوز على قول ما قال ابن عباس والضحاك[(٤)]. [قال أبو جعفر:] والإسنادُ عن ابن عباس صحيحٌ لا مطعنَ فيه. وهذا إنَّما هو نعتٌ، والنعتُ للمعرفة يكون بالألف واللام، وهو مشتقٌّ من قولهم: رجلٌ جَرُوزٌ: إذا كان لا يُبْقي شَيئاً إلَّا أَكَلَه؛ قال الراجز:

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٧.

(٢) أخرج القولين الطبري ١٨/ ٦٤١ - ٦٤٢، وذكرهما النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٨. وأبين: موضع في اليمن. ينظر معجم البلدان ١/ ٨٦.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٣٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٨ - ٢٩٩، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ: يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام إلا أنه يجوز على قول من قال العباس والضحاك، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

خَــبٌّ جَــروزٌ وإذا جــاع بَــكَــى ويـأكـل الـتـمـرَ ولا يُـلـقـي الـنَّـوَى[١]

وكذلك ناقةٌ جَروزٌ: إذا كانت تأكل كلَّ شيء تَجِدُه. وسيفٌ جُراز: أي: قاطِعٌ ماضٍ. وَجَرَزتِ الجرادُ الزَّرْعَ: إذا استأصلته بالأكل. وحكى الفرَّاء[٢] وغيره أنه يقال: أرضٌ جُرْز وجُرُز وجَرْز وجَرَز. وكذلك بُخل ورُغب ورُهب؛ في الأربعة أربعُ لغات.

وقد روي أنَّ هذه الأرضَ لا أنهارَ فيها، وهي بعيدةٌ من البحر، وإنَّما يأتيها في كلِّ عامٍ واديان، فيزرعون ثلاثَ مراتٍ في كلِّ عام. وعن مجاهد أيضاً: أنَّها أرضُ النِّيل.

﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ من الكلأ والحشيش ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من الحَبِّ والخَضِرِ والفواكه ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذا فيعلمون أنَّا نقدِرُ على إعادتهم؟!

و«فَنُخْرِجُ» يكون معطوفاً على «نَسُوقُ»، أو منقطعاً ممَّا قَبْلَه. «تَأْكُلُ مِنْهُ أَنعَامهم» في موضعِ نصبٍ على النعت.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ «مَتَى» في موضع رفعٍ، ويجوز أن يكون في موضع نصبٍ على الظَّرْف[٣]. قال قتادة: الفتح: القضاء[٤]. وقال الفرَّاء والقُتَبيُّ: يعني فتحَ مكة[٥]. وأَوْلى مِن هذا ما قاله مجاهد، قال: يعني يومَ القيامة.

---

(١) الرجز للشماخ، وهو في ديوانه ص٣٨٠ - ٣٨١ ، والأول منهما برواية: خبٌّ جبانٌ. وهو برواية المصنف في المقصور والممدود للفراء ص٦٧ ، ومقاييس اللغة ٢/ ٧٩ ، والصحاح (حطب) والنكت والعيون ٤/ ٣٦٧ ، واللسان (حثا) و(حطب). وفيه: الخب، أي: اللئيم.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٣٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٩ .

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣١٤ ، وأبو الليث ٣/ ٣٣ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٣ ، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٣٤٧ .

ويُروى أنَّ المؤمنين قالوا: سيحكُم الله عزَّ وجلَّ بيننا يومَ القيامة، فيثيبُ المحسنَ ويعاقب المسيء، فقال الكفار على التَّهَزّي: متى يومُ الفتح؟ أي: هذا الحُكْم. ويقال للحاكم: فاتح وفتَّاح؛ لأنَّ الأشياء تنفتح على يديه وتنفصل. وفي القرآن: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩][١] وقد مضى هذا في «البقرة»[٢] وغيرها.

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ على الظَّرف. وأجاز الفرَّاء الرفع[٣]. ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يؤخَّرون ويُمْهَلون للتوبة، إن كان يومُ الفتحِ يومَ بدرٍ أو فتحَ مكة. ففي بدر قُتلوا، ويومَ الفتحِ هربوا، فلحقهم خالد بنُ الوليد فقتلهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قيل: معناه: فأَعْرِضْ عن سَفَهِهم ولا تُجِبْهم إلَّا بما أُمرتَ به ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي: انتظرْ يومَ الفتح، يومَ يحكُم الله لك عليهم[٤].

ابن عباس: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن مُشْركي قريش بمكة، وأنَّ هذا منسوخٌ بالسيف في «براءة» في قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥][٥]، ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ أي: موعدي لك. قيل: يعني يومَ بدر. ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي: ينتظرون بكم حوادثَ الزمان.

وقيل: الآيةُ غيرُ منسوخة؛ إذ قد يقع الإعراضُ مع الأمر بالقتال؛ كالهُدْنة وغيرها. وقيل: أَعْرِضْ عنهم بعد ما بَلَّغتَ الحُجَّة، وانتَظِرْ إنهم منتظرون.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٢) ٢/ ٢١٤ - ٢١٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٠ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٠ .

(٥) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨١ من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس.

إن قيل: كيف ينتظرون القيامةَ وهم لا يؤمنون؟ ففي هذا جوابان:

أحدهما: أن يكون المعنى: إنهم منتظرون الموتَ، وهو من أسباب القيامة، فيكون هذا مجازاً.

والآخر: أنَّ فيهم مَن يشكُّ، وفيهم مَن يؤمن بالقيامة، فيكون هذا جواباً لهذين الصِّنْفَين. والله أعلم[١].

وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «إِنَّهم مُنْتَظَرون» بفتح الظاء[٢]. ورويتْ عن مجاهدٍ وابن مُحَيْصِن. قال الفرَّاء: لا يصحّ هذا إلَّا بإضمارٍ، مَجازُه: إنهم منتظَرون بهم. قال أبو حاتم: الصحيحُ الكسر[٣]، أي: انتظر عذابهم إنَّهم منتظِرون هلاكَك.

وقد قيل: إنَّ قراءةَ ابن السَّمَيْفَع ـ بفتح الظاء ـ معناها: وانتَظِرْ هلاكَهم، فإنَّهم أَحِقَّاءُ بأن يُنْتظَر هلاكُهم، يعني أنَّهم هالكون لا مَحالةَ، [أو] وانتظر ذلك، فإنَّ الملائكة في السماء ينتظرونه؛ ذكره الزمخشرِيّ[٤]. وهو معنى قولِ الفرَّاء. والله أعلم.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٠.

(٢) المحتسب ٢/ ١٧٥، والكشاف ٣/ ٤٧.

(٣) ذكر قول أبي حاتم ابنُ جني في المحتسب ٢/ ١٧٥، ولم نقف على قول الفراء في معاني القرآن له.

(٤) في الكشاف ٢/ ٢٤٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

مكيَّةٌ، وهي ثلاثونَ آيةً، وقيل: تِسعٌ وعِشرونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الٓمٓ﴾ إنْ جُعِلَ اسمًا للسُّورَةِ أو القرآنِ فمُبتدَأٌ خبرُه:

(٢) ـ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عَلى أنَّ التَّنزيلَ بمَعنى المُنزَلِ، وإن جُعلَ تعديدًا للحروفِ كان ﴿تَنزِيلُ﴾ خبرَ محذوفٍ، أو مبتدأً خبرُه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فيكونُ ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حالًا مِن الضَّميرِ في ﴿فِيهِ﴾ لأنَّ المصدَرَ لا يعملُ فيما بعدَ الخبرِ، ويجوزُ أنْ يكون[1] خبرًا ثانيًا، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ أو اعتراضٌ، والضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ لِمَضمونِ الجُملَةِ[2]، ويؤيِّدُه قولُه:

(٣) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فإنَّه إنكارٌ لكونِه مِن ربِّ العالمينَ، وقولُه: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنَّه تقريرٌ له.

---

(١) قوله: «ويجوز أن يكون»؛ أي: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «خبراً ثانياً» أي: بجعل ﴿تَنزِيلُ﴾ خبراً أولَ لـ ﴿الٓمٓ﴾ أو لمحذوف، فإن جُعل ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأ؛ كان ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبراً ثانياً له، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبراً أول. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٤٣).

(٢) قوله: «والضمير في ﴿فِيهِ﴾» راجع «لمضمون الجملة» زاد في «الكشاف»: كأنه قيل: لا ريب في ذلك؛ أي: في كونه منزلاً من رب العالمين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٤٣).

ونظمُ الكلامِ على هذا: أنَّه أشارَ أوَّلًا إلى إعجازِه، ثم رتَّبَ عليه أنَّ تنزيلَهُ مِن ربِّ العالمينَ، وقرَّرَ ذلك بنفيِ الرَّيبِ عنه، ثمَّ أضربَ عن ذلك إلى ما يقولونَ فيه على خلافِ ذلك إنكارًا له وتعجيبًا منه، فإنَّ ﴿أَمْ﴾ مُنقَطِعَةٌ، ثمَّ أضربَ عنه إلى إثباتِ أنَّه الحقُّ المنزَلُ مِن اللهِ، وبيَّنَ المقصودَ من تنزيلِه فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ إذ كانوا أهلَ الفَترةِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارِكَ إيَّاهُم.

(٤) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ مَرَّ بَيانُه في (الأعرافِ).

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾: ما لَكُم إذا جاوَزْتُم رِضا اللهِ أحدٌ ينصرُكُم ويشفَعُ لَكُم، أو: ما لَكُم سِواه وَلِيٌّ ولا شفيعٌ، بل هو الذي يَتولَّى مَصالِحَكُم وينصرُكُم في مواطنِ نَصْرِكُم ـ على أنَّ الشَّفيعَ مُتجوَّزٌ به للناصرِ ـ فإذا خذلَكُم لم يبقَ لَكُم وليٌّ ولا ناصِرٌ ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بمواعظِ اللهِ.

(٥) ـ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: يدبِّرُ أمرَ الدُّنيا بأسبابٍ سَماويَّةٍ كالملائكةِ وغيرِها، نازلةٍ آثارُها إلى الأرضِ ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾: ثم يَصْعدُ إليه ويَثْبُتُ في علمِه مَوجودًا ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: في برهةٍ مِن الزَّمانِ مُتطاولَةٍ، يعني بذلك: استطالةَ ما بينَ التَّدبيرِ والوُقوعِ.

وقيل: يُدبِّرُ الأمرَ بإظهارِهِ في اللوحِ، فيَنزلُ به الملكُ ثمَّ يعرجُ إليه في زمانٍ هو كألفِ سَنةٍ؛ لأنَّ مسافةَ نزولِه وعروجِه مسيرةُ ألفِ سنةٍ، فإنَّ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ مسيرةُ خمسِ مئةِ سنةٍ.

وقيل: يَقضِي قضاءَ ألفِ سنةٍ، فينزلُ به الملكُ ثمَّ يعرجُ بعد الألفِ لألفٍ آخرَ.

وقيل: يدبرُ الأمرَ إلى قيامِ السَّاعةِ ثمَّ يعرجُ إليه الأمرُ كلُّه يومَ القِيامةِ[1].

---

(١) ذكر الأقوال السابقة الكرماني في «لباب التفاسير» (٦/ ١٤٢).

وقيل: يدبِّرُ المأمورَ به مِن الطَّاعاتِ منزَلًا مِن السَّماءِ إلى الأرضِ بالوَحيِ، ثمَّ لا يعرجُ إليه خالصًا كمَا يَرتَضيهِ إلا في مُدَّةٍ مُتطاوِلَةٍ[١] لقلَّةِ المُخلِصينَ والأَعمالِ الخُلَّصِ.

وقُرِئَ: (يُعْرَج)[٢]، و: (يَعُدُّون)[٣].

(٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيدبِّرُ أمرَها على وَفْقِ الحكمَةِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: الغالبُ على أمرِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على العِبادِ في تَدبيرِه، وفيه إيماءٌ بأنَّه يراعي المَصالحَ تَفضُّلًا وإحسانًا.

(٧ ـ ٨) ـ ﴿الذي أَحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ﴾ موفِّرًا عليهِ ما يستعدُّه ويَليقُ به على وَفقِ الحكمَةِ والمصلَحَةِ، و﴿خَلْقَه﴾ بدلٌ مِن ﴿كُلَّ﴾ بدلَ الاشتمالِ.

وقيل: عَلِمَ كيفَ يخلقُه، من قولِه: (قيمَةُ المرءِ ما يُحسِنُه)[٤]؛ أي: يُحسِنُ مَعرِفتَه، و﴿خَلْقَه﴾ مَفعولٌ ثانٍ.

وقرأَ نافِعٌ والكوفيُّونَ بفتحِ اللامِ[٥] على الوَصفِ، فالشَّيءُ على الأوَّلِ مخصوصٌ بمُنفَصِلٍ وعلى الثَّاني بمُتَّصِلٍ.

---

(١) قوله: «إلا في مُدَّةٍ مُتطاوِلة» يعني: يراد بـ﴿أَلۡفَ سَنَةٍ﴾: المدةُ المتطاولةُ لا التَّعيينُ والتَّوقيتُ، يعني بذلك استطالَةَ ما بينَ التَّدبيرِ والوُقوع. انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٣٣٣).

(٢) هي قراءة ابن أبي عبلة كما في «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٦١٨)، وزاد في «زاد المسير» (٣/ ٤٣٨) نسبتها لمعاذ القارئ، وابن السميفع.

(٣) نسبت للحسن والأعمش والسلمي وابن وثاب، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٦١٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٥٨)، و«البحر» (١٧/ ٢٥٠)، وتحرفت (يعدون) في مطبوع «مختصر الشواذ» إلى: (يعبدون).

(٤) نسب هذا القول إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «تفسير السمعاني» (١/ ٣٩٥).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يعني: آدمَ ﴿مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾: ذريَّتَه، سُمِّيَت به لأنها تنسلُّ منه؛ أي: تَنفَصِلُ ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾: ممتهَنٌ.

(٩) ـ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾: قوَّمَه بتصويرِ أعضائِه على ما يَنبغي ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أضافَه إلى نفسِه تشريفًا وإشعارًا بأنَّه خلقٌ عَجيبٌ، وأنَّ له شأنًا له مناسبةٌ ما إلى الحضرةِ الرُّبوبيَّةِ، ولأجلِه قيل: مَن عرَفَ نفسَهُ فقَدْ عرَفَ ربَّه[1].

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ خصوصًا لتَسمَعُوا وتُبصِرُوا وتَعقِلُوا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرونَ شُكرًا قليلًا.

(١٠) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: صِرنا تُرابًا مَخلوطًا بترابِ الأَرضِ لا نتميَّزُ منه، أو: غِبنا فيها.

وقُرِئَ: (ضَلِلنا) بالكسرِ[2] مِن ضَلَّ يَضِلُّ، و: (صَلَلْنا)[3] مِن صَلَّ اللحمُ: إذا أنتَنَ.

---

(١) أي: من عرف نفسه بالضعف والافتقار إلى الله تعالى والعبودية له، عرف ربه بالقوة والقهر والربوبية والكمال المطلق والصفات العليا. نُسب هذا القول للنبي ﷺ، وقال النووي في «فتاويه» (١/ ٢٤٨): ليس هو بثابت. وقال ابن تيمية في «الفتاوى» (١٦/ ٣٤٩): وبعض الناس يروي هذا عن النبي ﷺ، وليس هذا من كلام النبي ﷺ، ولا هو في شيء من كتب الحديث، ولا يعرف له إسناد.
وللحافظ السيوطي تأليف سماه: «القول الأشبه في حديث: من عرف نفسه فقد عرف ربه»، وهو مطبوع في دار اللباب ضمن مجموع رسائله.

(٢) رويت عن علي وابن عباس، ونسبت أيضا لعليّ بن الحسين وجعفر بن محمد ويحيى بن يعمر وابن محيصن وأبي رجاء وطلحة بن مصرف وابن وثاب. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٠٠)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٦١٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٠)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٣٩)، و«البحر» (١٧/ ٢٥٣).

(٣) قيدها بعضهم بفتح اللام وآخرون بكسرها، ونسبت لعلي وابن عباس والحسن وأبان بن سعيد بن العاص وغيرهم. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣١)، و«المحتسب» (٢/ ١٧٣)، و«إعراب =

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿إذا﴾ على الخبرِ[1].

والعاملُ فيه ما دلَّ عليه: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو: نُبعَثُ، أو: يُجدَّدُ خَلقُنا.

وقرأ نافعٌ والكِسائيُّ ويَعقوبُ: ﴿إنَّا﴾ على الخبرِ[2].

والقائلُ أُبَيُّ بن خلفٍ[3]، وإسنادُه إلى جميعِهِم لرِضاهُم به.

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾: بالبَعثِ، أو بتلقِّي مَلَكِ الموتِ وما بعدَه ﴿كَٰفِرُونَ﴾: جاحدونَ.

(١١) ـ ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم﴾: يَستَوْفي نفوسَكُم لا يتركُ منها شيئًا، أو: لا يُبْقي منكم أحدًا، والتَّفعُّلُ والاستفعالُ يَلتقِيَانِ كثيرًا؛ كتَنَقَّصْتُه واستَنْقَصْتُه[4]، وتَعجَّلْتُه واستَعْجَلْتُه.

﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾: بقَبْضِ أرواحِكُم وإحصاءِ آجالِكُم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ للحِسابِ والجَزاءِ.

(١٢) ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مِن الحياءِ والخزيِ: ﴿رَبَّنَآ﴾ قائلينَ: رَبَّنا ﴿أَبْصَرْنَا﴾ ما وعدتَنا ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديقَ رُسلِكَ ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدُّنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذ لم يبقَ لنا شكٌّ بما شاهَدْنا[5].

= القرآن» للنحاس (٣/ ٢٠٠)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٦١٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٠)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٣٩)، و«البحر» (١٧/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٢).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٤٩).

(٤) في نسخة الخيالي: «كتقصيته واستقصيته».

(٥) في نسخة التفتازاني: «شهدنا».

وجَوابُ (لو) مَحذوفٌ تقديرُهُ: لَرأيتَ أمرًا فظيعًا، ويجوزُ أَنْ يكونَ للتَّمنِّي، والمضيُّ فيها وفي ﴿إِذِ﴾ لأنَّ الثَّابتَ في علمِ اللهِ بمَنزلَةِ الواقعِ، ولا يُقدَّرُ لـ﴿تَرَىٰٓ﴾ مفعولٌ لأن المعنى: لو تَكونُ مِنكَ رُؤيَةٌ في هذا الوقتِ، أو يُقدَّرُ ما دلَّ عليه صِلةُ ﴿إِذِ﴾[1]، والخطابُ للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ أو لكلِّ أَحدٍ.

(١٣) - ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾: ما تَهتَدي به إلى الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ بالتَّوفيقِ له ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾: ثبتَ قضائي وسَبَقَ وَعيدي، وهو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وذلك تَصريحٌ بعَدمِ إيمانِهم لعدمِ المَشيئَةِ المسبَّبِ عن سَبْقِ الحكمِ بأَنَّهم مِن أهلِ النَّارِ، ولا يدفعُه جَعْلُ ذوقِ العَذابِ مُسبَّبًا عن نسيانِهم العاقبةَ وعدمِ تَفكُّرِهِم فيها بقوله:

(١٤) - ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فإنَّه مِن الوَسائطِ والأسبابِ المُقتَضِيَةِ له[2].

﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾: تَركْنَاكُم مِن الرَّحمةِ أو في العذابِ تركَ المَنسِيِّ، وفي استئنافِه وبناءِ الفِعْلِ على (إنَّ) واسمِها تَشديدٌ في الانتقامِ مِنهم.

---

(١) قوله: «أو يقدِّر ما دل عليه صلة ﴿إِذِ﴾» وتقديره: ولو ترى نكوسَ المجرمين رؤوسَهم. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٤٧).

(٢) قوله: «ولا يدفعه»؛ أي: جعلُ عدم المشيئة مسبَّباً عن الحكم بأنهم من أهل النار «بقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾»: متعلِّق بـ(جَعْلُ)، «فإنه»؛ أي: النسيان «من الوسائط والأسباب المقتضية له»؛ أي: لذوقهم العذاب. وحاصل السؤال ما يقال: كيف جعل ذوقَهم العذاب في الآية الأولى مسبباً عن دخولهم النار، المسبَّب عن عدم إيمانهم، المسبَّب عن عدم مشيئته، المسبَّب عن حكمة الله تعالى بأنهم من أهل النار، وفي الثانية مسبَّباً عن نسيانهم؟

فأجاب بأن جعلَ ذوقهم العذابَ مسبباً عن نسيانهم لا ينافي جعلَه مسبَّباً عن غيره؛ لأن الشيءَ إذ تعدَّدت أسبابُه جاز أن يُنسَب إلى كلٍّ منهما. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٤٧).

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كرَّرَ الأمرَ للتَّأكيدِ، ولِمَا نيطَ به مِن التَّصريحِ بمَفعولِه، وتعليلِه بأفعالِهم السَّيِّئةِ مِن التَّكذيبِ والمعاصي كما علَّلَه بتركِهم تَدبُّرَ أَمرِ العاقبَةِ[1] والتَّفكُّرَ فيها؛ دلالةً على أنَّ كُلًّا مِنهما يَقتَضي ذلك.

(١٥) ـ ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾: وُعِظُوا بها ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ خوفًا مِن عَذابِ اللهِ ﴿وَسَبَّحُواْ﴾: ونزَّهُوه عمَّا لا يَليقُ به كالعجزِ عن البَعثِ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حامدينَ لَه شُكرًا على ما وَفَّقَهُم للإسلامِ وآتاهم الهُدى ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمانِ والطَّاعةِ كما يفعلُ مَن يُصِرُّ مُستكبرًا.

(١٦) ـ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾: ترتفِعُ وتَتنحَّى ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾: الفُرُشِ ومَواضعِ النَّومِ ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾: داعينَ إيَّاه ﴿خَوْفًا﴾ من سَخَطِه ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمتِه.

وعن النَّبيِّ ﷺ في تَفسيرِها: «قيامُ العبدِ مِن الليلِ»[2].

وعنه عليه السَّلامُ: «إذا جمعَ اللهُ الأوَّلينَ والآخرينَ جاءَ مُنادٍ يُنادي بصوتٍ يُسمِعُ الخَلائقَ كُلَّهُم: سيعلَمُ أهلُ الجمعِ اليومَ مَن أَوْلَى بالكرمِ، ثمَّ يرجعُ فينادي: لِيَقُم الذين كانَتْ تتجافَى جُنوبُهم عن المضاجعِ، فيقومونَ وهُم قَليلٌ، ثمَّ يرجعُ فيُنادي: ليَقُم الذين كانوا يحمَدُونَ اللهَ في البَأساءِ والضَّرَّاءِ، فيقومونَ وهُم قَليلٌ، فيُسَرَّحونَ جميعًا إلى الجنَّةِ ثمَّ يُحاسَبُ سائرُ النَّاسِ»[3].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «الآخرة». وقوله: «كما علَّله»؛ أي: الذوق «بتركهم...» في قوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٤٨).

(٢) رواه باللفظ المذكور الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٠٢٢)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦١٥)، من طريق شهر بن حوشب عن معاذ، وهذا إسناد ضعيف لضعف شهر بن حوشب، ثم هو لم يسمع من معاذ. لكن الحديث صحيح بطرقه وشواهده، فقد رواه بمعناه الترمذي (٢٦١٦) وصححه، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٤٨) وصححه.

(٣) رواه إسحاق بن راهويه في «مسنده» (٢٣٠٥)، ورواه أيضاً هناد في «الزهد» (١٧٦)، والثعلبي في =

وقيل: كان ناسٌ مِن الصَّحابةِ يصلُّونَ من المَغربِ إلى العشاءِ فنزَلَتْ فيهِم[1].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: في وُجوهِ الخَيْرِ.

(١٧) ـ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ لا مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرسَلٌ ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مما تَقَرُّ به عيونُهم، وعنه عليهِ السَّلامُ: «يقولُ اللهُ: أعدَدْتُ لِعبادِي الصَّالحينَ ما لا عينٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَت ولا خطرَ على قَلبِ بشرٍ، بَلْهَ ما أُطلِعْتُم[2] عليه»، اقرَؤُوا إن شئتُم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾[3].

= «تفسيره» (٢١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣)، وهو من طريق عبد الرحمن بن إسحاق عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد به، وعبد الرحمن بن إسحاق هو الواسطي، وهو ضعيف كما في «التقريب».

ورواه عبد بن حميد في «مسنده» (١٥٨١) من طريق أبان بن أبي عياش عن شهر به. وأبان متروك كما في «التقريب».

وله شاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٥٠٨) من طريق عبد الله بن عطاء عن عقبة وصححه، لكن عبد الله بن عطاء لم يدرك عقبة كما ذكر المزي في «تهذيب الكمال» (١٥/ ٣١٢).

وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٥٣ ـ زوائد نعيم)، والحارث بن أبي أسامة كما في «بغية الباحث» (١١٢٢)، وقال الحافظ في «المطالب العالية» (٤٥٥٧): هذا موقوف إسناده حسن.

(١) رواه ابن مردويه كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٣/ ٨٦)، ورواه بإسناد صحيح أبو داود (١٣٢١) و(١٣٢٢)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦١٠).

ورواه الترمذي (٣١٩٦) بلفظ: (أن هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ نزلت في انتظار هذه الصلاة التي تدعى العتمة).

(٢) في نسخة الخيالي: «ما أطلعتهم»، وهي رواية أبي الوقت، كما في «إرشاد الساري» (٧/ ٢٩١).

(٣) رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

وقرأ حمزةُ ويعقوبُ: ﴿أُخْفِي﴾[1] على أنَّه مُضارعُ أَخْفَيْتُ، وقُرِئَ: (نُخْفي)[2]، و(أَخْفَى)[3] والفاعلُ للكلِّ هـو اللهُ تـعالى، و(قُرَّاتِ أَعيُنٍ)[4] لاختلافِ أنواعِها، و﴿ما﴾ مَوصولةٌ والعلمُ بمعنى المعرفةِ، أو استفهاميَّةٌ معلَّقٌ عنها الفِعلُ.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: جُزُوا جزاءً، أو: أُخْفِي للجزاءِ، فإنَّ إخفاءَهُ لعلوِّ شأنِه.

وقيل: هذا لقومٍ أخفَوا أعمالَهُم فأخفَى اللهُ ثوابَهُم.

(١٨) - ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗا﴾: خارجًا عن الإيمانِ ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ في الشَّرَفِ والمَثوبَةِ، تأكيدٌ وتصريحٌ، والجمعُ للحَملِ على المَعنى.

(١٩) - ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّـٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ فإنَّها المأوَى الحقيقيُّ والدُّنيا مَنزِلٌ مرتحَلٌ عنها لا محالةَ، وقيل: المأوى جنَّةٌ مِن الجنانِ.

﴿نُزُلَۢا﴾ سبقَ في سورةِ آل عمران ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: بسببِ أعمالِهم، أو: على أعمالِهم.

(٢٠) - ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ مكانَ جنَّةِ المأوى للمُؤمنينَ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ عبارةٌ عن خلودِهِم فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إهانةً لهم وزيادةً في غَيظِهِم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٧)، و«النشر» (٢/ ٣٤٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣١)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٠٢)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) ذكرها الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٠٨)، ونسبها الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٢٩٤) لمحمد بن كعب.

(٤) نسبت لابن مسعود وأبي الدرداء وأبي هريرة، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٩)، و«المحتسب» (٢/ ١٧٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٦٣).

(٢١) ـ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: عذابِ الدُّنيا، يريد: ما مُحِنوا بهِ مِن السَّنةِ سبعَ سنينَ والقتلِ والأسرِ ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾: عذابِ الآخرةِ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: لعلَّ مَن بَقِيَ مِنهم ﴿يَرْجِعُونَ﴾: يتوبونَ عن الكفرِ.

رُوِيَ أنَّ الوليدَ بن عُقبةَ فاخرَ عَلِيًّا رضيَ اللهُ عنهُ يومَ بدرٍ، فنزلَتْ هذه الآياتُ[1].

---

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٩)، وكذا الأصفهاني في «الأغاني» (٥/ ١٥٣)، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي، وهو ضعيف.

ورواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٤٣)، والآجري في «الشريعة» (١٥٩٢)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ١١٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٣٢١)، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس، وهذا إسناد ساقط.

وكذا أورده عن ابن عباس في تفاسيرهم السمرقندي والثعلبي والواحدي والبغوي وابن عطية وابن الجوزي، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦٢٥)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٣)، عن عطاء بن يسار مرسلاً. وليس في شيء من هذه المصادر أن القصة وقعت في بدر، ونقل السيوطي في «حاشيته» (١٠/ ٢٠١) عن الشيخ وَلِيِّ الدِّينِ العراقي قوله: وهو غَيرُ مُستقيمٍ؛ فإنَّ الوليدَ يَصغُرُ عَن ذلك. ا. هـ. وقد نبه الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٣١) على ذلك أيضاً فقال: (تنبيه) قوله: أن ذلك شجر بينهما يوم بدر غلط فاحش، فما كان الوليد حينئذ رجلاً.

وناقش الآلوسي في «روح المعاني» (٢١/ ١٦٤) هذه المسألة، فقال بعد أن ذكر عن السيوطي ما نقله عن الشيخ ولي الدين: (بعض الأخبار تقتضي أنه لم يكن مولوداً يوم بدر أو كان صغيراً جدًّا...)، ثم عاد فذكر عن الزبير بن بكار وغيره من أهل العلم بالسير: (أم كلثوم بنت عقبة لما خرجت مهاجرة إلى النبي صلّى الله تعالى عليه وسلم في الهدنة سنة سبع خرج أخواها الوليد وعمارة ليرداها، وهو ظاهر في أنه لم يكن صبياً يوم الفتح إذ من يكون كذلك كيف يكون ممن خرج ليرد أخته قبل الفتح، وبعض الأخبار تقتضي أنه كان رجلاً يوم بدر، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه «الإصابة» أنه قدم في فداء ابن عم أبيه الحارث بن أبي وجرة بن أبي عمرو بن أمية وكان أسر يوم بدر فافتداه بأربعة آلاف. وقال: حكاه أهل المغازي ولم يتعقبه بشيء، وسوق كلامه ظاهر في ارتضائه ووجه اقتضائه ذلك أن ما تعاطاه من أفعال الرجال دون الصبيان).

(٢٢) ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ فلم يَتفكَّر فيها، و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعادِ الإعراضِ عنها مع فَرْطِ وُضوحِها وإرشادِها إلى أسبابِ السَّعادَةِ بعد التَّذكيرِ بها عقلًا، كما في بيتِ الحَماسَةِ:

لا يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إلَّا ابْنُ حُرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا[1]

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ فكيفَ بمَن كانَ أظلمَ مِن كلِّ ظالمٍ!

(٢٣) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كما آتيناكَ ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾: شَكٍّ ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ مِن لقائِكَ الكتابَ، كقولـه[2]: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٦]، فإنَّا آتيناك مِن الكتابِ مثلَ ما آتيناهُ[3] منه، فليسَ ذلك ببِدْعٍ لم يَكُن قَطُّ حتى ترتابَ فيه.

أو: مِن لِقاءِ مُوسى الكتابَ.

أو: مِن لقائِكَ مُوسى، وعنه عليه السَّلامُ: «رأيتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي مُوسَى عليهِ السَّلامُ رَجُلًا آدَمَ طُوالًا جَعْدًا كأنَّه مِن رِجالِ شَنُوءَةَ»[4].

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: المنزَلَ على موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

---

(١) البيت لجعفر بن عُلْبَةَ ـ بضم العين وسكون اللام بعدها باء ـ الحارثي. انظر: «الحماسة» بشرح المرزوقي (١/ ٣٩)، وبشرح التبريزي (٢/ ٨٦)، و«الحماسة البصرية» (١/ ٤٦٤). والمرادُ بالغَمَّاءِ: شِدَّةُ اقتِحَامِ الحَرْبِ؛ أي: لا يَكشِفُ الأمرَ العَظيمَ إلَّا رَجُلٌ كَريمٌ يَرَى قحمَ الموتِ ثمَّ يَتوسَّطُها، وقال التبريزي: قوله: «إلا ابن حرة»؛ أي: لم تلده أمَة، والعرب تمدح أولاد الحرائر لأن أَنَفتهم عظيمة. المعنى: لا يكشف الأمر الشديد عن القوم إلا كريم الطرفين يرى شدائد الحرب ثم يقصدها بسيوف مصقولة غير مفكر فيها.

(٢) في نسخة الطبلاوي: «لقوله»، في نسخة التفتازاني: «من قوله».

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «فإنا لقيناك من الكتاب مثل ما لقيناه».

(٤) رواه البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥).

(٢٤) ـ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ إلى ما فيهِ مِن الحكمِ والأحكامِ ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إيَّاهُم به، أو بتوفيقِنا له ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ ورُوَيسٌ: ﴿لِمَا صَبُروا﴾[1]؛ أي: لصَبرِهِم على الطَّاعةِ، أو عن الدُّنيا.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لإمعانِهِم فيها النَّظرَ.

(٢٥) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يقضي فيَميزُ الحقَّ مِن الباطلِ بتَمييزِ المُحِقِّ مِن المُبطِلِ ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أَمرِ الدِّينِ.

(٢٦) ـ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الواوُ للعَطفِ على مَنْوِيٍّ مِـن جنسِ المعطوفِ، والفاعِلُ ضميرُ ما دلَّ عليه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾؛ أي: كثرةُ مَن أَهلَكْنَاهُم من القرونِ الماضيَةِ، أو ضميرُ الله بدليلِ[2] القراءةِ بالنُّونِ[3].

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ يعني: أهلَ مَكَّةَ يمرُّونَ في مَتاجرِهِم على دِيارِهِم.

وقُرِئَ: (يمشُّونَ) بالتَّشديدِ[4].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تَدبُّرٍ واتِّعاظٍ.

(٢٧) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾: التي جُرِزَ نَباتُها؛ أي: قُطِعَ وأزيلَ، لا التي لا تُنبتُ؛ لقولِه: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٦)، و«النشر» (٢/ ٣٤٧).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «بدلالة».

(٣) أي: (نهد)، نسبت لعلي وابن عباس والسلمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٩).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٩) عن علي واليماني وعيسى، و«المحتسب» (٢/ ١٧٥) عن ابن السميفع، وهو اليماني.

وقيل: اسمُ مَوضِعٍ باليمنِ[1].

﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾: مِن الزَّرعِ ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ كالتبنِ والورقِ ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحَبِّ والثَّمرِ ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فيَستَدِلُّونَ به على كمالِ قُدرَتِه وفَضلِه.

(٢٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾: النَّصرُ، أو الفَصلُ بالحُكومَةِ، مِن قولِه: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الوَعدِ به.

(٢٩) ـ ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وهو يومُ القيامةِ؛ فإنَّه يومُ نَصرِ المُسلمينَ[2] على الكفرةِ والفَصلِ بينَهُم.

وقيل: يومُ بَدرٍ، أو يومُ فتحِ مَكَّةَ[3]، والمرادُ بالذين كفَرُوا: المقتولونَ مِنْهم فيه؛

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦٤١ ـ ٦٤٢)، وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٦)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٣٠٦)، والسمعاني في «تفسيره» (٤/ ٢٥٤)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٠٩)، جميعهم عن ابن عباس بلفظ: (أرض باليمن).
قلت: فقول المصنف: «اسم موضع..» فيه نظر، لأنها بحسب الخبر موضع لا اسم موضع، لا سيما وقد روى عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٠٩) عن مجاهد أنها أبين.

(٢) في نسخة التفتازاني: «المؤمنين».

(٣) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية عن الحسن في خبر لا يصح كما سنبين. وممن فسره بفتح مكة: الكلبي كما في «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١)، و«التيسير في التفسير» عند هذه الآية، والفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢٣٣)، ورده النحاس بقوله: ويوم فتح مكة قد نفع مَن آمن إيمانه. قال: وأولى من هذا ما قاله مجاهد قال: يعني: يوم القيامة.
قلت: ومن فسره بفتح مكة استدل بقصة لا تصح، ومفادها: أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة تحصَّن بنو جَذِيمة على أعلى جبل، فأرسل إليهم خالد بن الوليد يستنزلهم، فقالوا: قد أسلمنا، قال: فانزلوا إن أسلمتم، فنزلوا فوضع فيهم السيف فقتلهم لأنهم كانوا قتلوا عوفًا أبا عبد الرحمن بن عوف وجدًّا لِخالد قبل ذَلِكَ. =

فإنَّه لا ينفَعُهُم إيمانُهُم حالَ القتلِ ولا يمهَلونَ، وانطباقُهُ جواباً عن[1] سُؤالِهِم مِن حَيثُ المَعنى باعتبارِ ما عُرِفَ مِن غَرضِهِم، فإنَّهُم لَمَّا أرادُوا به الاستعجالَ تَكذيبًا واستهزاءً أُجيبوا بما يمنعُ الاستعجالَ.

(٣٠) ـ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبالِ بتكذيبِهِم، وقيل: هو مَنسوخٌ بآيةِ السَّيفِ.

﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النُّصرَةَ عليهِم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ الغلبةَ عليكَ.

وقُرِئَ بالفَتحِ[2] على مَعنى: إنَّهُم أَحِقَّاءُ بأَنْ يُنتَظَرَ هَلاكهُم، أو: إنَّ الملائكةَ يَنتظِرُونَهم.

عن النبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أُعطِيَ مِن الأجرِ كأنَّما أَحيا ليلةَ القَدرِ»[3].

= كذا ذكرها أبو حفص النسفي والسمرقندي عن الكلبي، وأبو حفص عن الحسن، والفراء دون عزو، ومحل الاستدلال أن خالداً رضي الله عنهم قد قتلهم بعد أن أعلنوا إسلامهم فلم ينفعهم ذلك ولم يستفيدوا منه حقن دمائهم، وهذا مع أنه لا سند له يصح مردود عقلاً ونقلاً:

أما عقلاً ففيه أن خالداً رضي الله عنه قتلهم بعد أن أسلموا وأعلنوا إسلامهم ـ وعلم منهم هو ذلك ـ بسبب إحنة كانت بينه وبينهم في الجاهلية، ولا يجوز نسبة هذا لصحابي جليل، ولا يمكن أن يمر هذا عند رسول الله ﷺ مرور الكرام أن يقتل قوم بعد أن أشهروا إسلامهم وعُلم منهم ذلك.

وأما نقلاً فيرده ما رواه البخاري (٤٣٣٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (بَعَثَ النَّبيُّ ﷺ خالدَ بنَ الوليد إلى بني جَذِيمةَ، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يُحْسِنوا أنْ يَقولوا: أسلَمْنا، فجعلوا يقولون: صَبَأْنا صَبَأْنا، فجَعَل خالدٌ يَقتلُ منهم ويأسِرُ...) الحديث. وهذا ينسف ما استدلوا به من أساسه، حيث قالوا: صبأنا، ولم يقولوا: أسلمنا، فقتلوا لأن ما أشهروه هو الكفر في الظاهر، لا الإسلام كما في ذاك الخبر.

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «على».

(٢) هي قراءة ابن السميفع، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٩)، و«المحتسب» (٢/ ١٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٦).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٢٦٠) من حديث أبي ـ رضي الله عنه ـ دون ذكر تبارك، وفي إسناده =

وعنه عليه السَّلامُ: «مَن قرَأَ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ في بيتِه لم يدخُلِ الشَّيطانُ بيتَهُ ثلاثةَ أيَّامٍ»(١).

* * *

= أبو عصمة نوح بن أبي مريم قال عنه الحافظ في «التقريب»: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

ورواه بذكر السجدة وتبارك ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وزاد: «بين المغرب والعشاء الآخرة». قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٣١): في إسناده داود بن معاذ وهو ساقط.

قلت: وقد روي مرسلاً ضمن حديث طويل رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢٩٦) عن إسحاقَ بنِ عبدِ الله بن أبي فَرْوةَ، قال: (بَلَغَنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال...)، فذكره.

وروي من قول طاوس وعطاء، رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٨١٨) عن أبي يونسَ عن طاوسٍ قال: (مَن قرأ (الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةَ)، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ كان مثلُ أجرِ ليلةِ القَدْر)، قال (يعني أبو يونس): فمرَّ عطاءٌ فقُلْنا لرجلٍ منَّا: ائته فاسأله، فقال: صَدَق، ما تركتُهما منذُ سمعْتُهما.

(١) قال الشيخ ولي الدين العراقي: لم أقف عليه، انظر: «حاشية السيوطي» (١٠/ ٢٠٨)، وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٨٩): «غريب جدًّا».

(٣٢) سورة السجدة مكية وآياتها ثلاثون

روى البخاري عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة (ألم تنزيل) السجدة و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾، وروى الإمام أحمد عن جابر قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ألم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا، وقوله: ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ من رب العالمين ﴾، ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ بل يقولون افتراه أي اختلقه من تلقاء نفسه، ﴿ بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ أي يتبعون الحق .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء، فخلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، وقد تقدم الكلام على ذلك، ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ أي بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه، ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ يعني أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير، لا إله إلا هو ولا رب سواه. وقوله تعالى: ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ أي يتنزل أمره

من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن﴾ الآية، وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسمك السماء خمسمائة سنة، وقال مجاهد والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين، ولهذا قال تعالى: ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة﴾ أي المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها، هو العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، ﴿الرحيم﴾ بعباده المؤمنين.

ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها، قال زيد بن أسلم: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ قال: أحسن خلق كل شيء، كأنه جعله من المقدم والمؤخر؛ ثم لما ذكر تعالى خلق السماوات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ يعني خلق أبا البشر آدم من طين، ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ أي يتناسلون كذلك من نطفة، تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، ﴿ثم سوّاه﴾ يعني آدم لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً، ﴿ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ يعني العقول، ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي بهذه القوى التي رزقكموها الله عزَّ وجلَّ، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه عزَّ وجلَّ.

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا ﴿أئذا ضللنا في الأرض﴾ أي تمزقت أجسامنا، وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت، ﴿أئنا لفي خلق جديد﴾ أي أئنا لنعود بعد تلك الحال؟ يستبعدون ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾، ثم قال تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾، الظاهر أن ملك الموت شخص معين، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور[1]، وله أعوان؛ وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت، قال مجاهد: حويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء، وقال كعب الأحبار: والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات ينظر هل فيه أحد أمر أن يتوفاه[2]، وقوله تعالى: ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ أي يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.

(١) قاله قتادة وغير واحد من علماء السلف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عزَّ وجلَّ، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم أي من الحياء والخجل، يقولون ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ أي نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى: ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾، وهكذا هؤلاء يقولون ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا﴾ أي إلى دار الدنيا ﴿نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ أي قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدنيا لكانوا كفاراً يكذبون بآيات الله، ويخالفون رسله، كما قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾، ﴿ولكن حقَّ القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ أي من الصنفين فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ، ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، ﴿إنا نسيناكم﴾ أي سنعاملكم معاملة الناسي، لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾، وقوله تعالى: ﴿وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ أي بسبب كفركم وتكذيبكم، كما قال تعالى: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ أي إنما يصدق بها ﴿الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً﴾ أي استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً، ﴿وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ أي عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، قال الله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾، ثم قال تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ يعني بذلك قيام الليل وترك النوم، والاضطجاع على الفرش الوطيئة، قال مجاهد والحسن: يعني بذلك قيام الليل، وعن أنس وعكرمة: هو الصلاة بين العشاءين، وعن أنس أيضاً: هو انتظار صلاة العتمة، وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة وصلاة الغداة في جماعة ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ أي خوفاً من وبال عقابه، وطمعاً في جزيل ثوابه ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة

والمتعدية، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفيء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل - ثم قرأ - ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ حتى بلغ ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» فقلت: بلى يا رسول الله، فقال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله»؟ فقلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه ثم قال: «كفّ عليك هذا» فقلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم»[1].

وروى ابن أبي حاتم، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال: «إن شئت نبأتك بأبواب الخير، الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة وقيام الرجل في جوف الليل» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ الآية؛ وعن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق «سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم» ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع - الآية - فيقومون وهم قليل»، وقال بلال: لما نزلت هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ الآية، كنا نجلس في المجلس وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ أي فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات، من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفوا أعمالهم، كذلك أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقاً، فإن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر، قال البخاري: قوله تعالى ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ الآية، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة اقرأوا إن شئتم ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾[3]. وفي الحديث: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[4]، وروى مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: سأل موسى عليه السلام ربه عزَّ وجلَّ ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أُدخِلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد أخذ الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٢) أخرجه البزار عن زيد بن أسلم عن أبيه.

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والإمام أحمد.

(٤) أخرجه مسلم من حديث حماد بن سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً.

رب، فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت ربي، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله معه، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول: رضيت رب، قال رب فأعلاهم منزلة، قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر. قال: ومصداقه من كتاب الله عزَّ وجلَّ ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ الآية(١) .

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن عدله وكرمه، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة، من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله بمن كان فاسقاً، أي خارجاً عن طاعة ربه، مكذباً رسل الله، كما قال تعالى: ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾، وقال تعالى: ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾؟ وقال تعالى: ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ أي عند الله يوم القيامة، وقد ذكر عطاء والسدي أنها نزلت في (علي بن أبي طالب) و (عقبة بن أبي معيط) ولهذا فصل حكمهم فقال: ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم بآيات الله، وعملوا بمقتضاها وهي الصالحات، ﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ أي التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة وكرامة، ﴿ بما كانوا يعملون ۝ وأما الذين فسقوا ﴾ أي خرجوا عن الطاعة، ﴿ فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾، كقوله: ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ الآية، قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم، والملائكة تقمعهم، ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وقوله تعالى: ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾، قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه، وقال مجاهد: يعني به عذاب القبر، وقال عبد الله بن مسعود: العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر، قال السدي: لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير فأصيبوا أو غرموا، ومنهم من جمع له الأمران، وقوله تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ أي لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها، وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها، قال قتادة: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة وأعوز أشد العوز، ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ أي سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام

(١) أخرجه مسلم عن المغيرة بن شعبة مرفوعاً ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله (موسى) عليه السلام، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة، وقوله تعالى: ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء، وفي الحديث: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً آدم جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازن النار، والدجال» في آيات أراهن الله إياها ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به. وروى ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ قال من لقاء موسى ربه عزَّ وجلَّ[1]، وقوله تعالى: ﴿وجعلناه﴾ أي الكتاب الذي آتيناه ﴿هدى لبني إسرائيل﴾، كما قال تعالى في الإسراء: ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل أن لا تتخذوا من دوني وكيلا﴾. وقوله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ أي لما كانوا صابرين على أوامر الله، وترك زواجره، وتصديق رسله، واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم لما بدّلوا وحرّفوا سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب﴾ قال قتادة: لما صبروا عن الدنيا، وقال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا، وسئل سفيان عن قول علي رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾؟ قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤساء، قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾، كما قال هٰهنا: ﴿إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي من الاعتقادات والأعمال.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل، ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾، ولهذا قال: ﴿يمشون في مساكنهم﴾ أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ذهبوا منها كأن لم يغنوا فيها، كما قال: ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾، وقال: ﴿وكأين

(١) أخرجه الطبراني.

من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم، وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل ﴿أفلا يسمعون﴾ أي أخبار من تقدم كيف كان من أمرهم. وقوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجزر﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم، في إرساله الماء من السماء أو من السيح، وهو ما تحمله الأنهار ويتحدر من الجبال، إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال تعالى: ﴿إلى الأرض الجزر﴾ وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وأنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾، وأرض مصر رخوة تحتاج من الماء مالو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها فيسوق الله تعالى إليها النيل، بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبداً. روى قيس بن حجاج قال: لما فتحت مصر أتى أهلها (عمرو بن العاص) وكان أميراً بها، فقالوا أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، قال وما ذاك؟ قالوا ذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما كان قبله، فأقاموا والنيل لا يجري حتى هموا بالجلاء، فكتب (عمرو) إلى (عمر بن الخطاب) بذلك فكتب إليه عمر إنك قد أصبت بالذي فعلت، قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد: فإنك إن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك، قال فألقى البطاقة في النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقد قطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم[1]. ولهذا قال تعالى: ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾، كما قال تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً﴾ الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿أفلا يبصرون﴾؟ وقال ابن عباس في قوله ﴿إلى الأرض الجرز﴾ قال: هي التي لا تمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول، وقال عكرمة والضحاك: الأرض الجرز التي لا نبات فيها وهي مغبرة، قلت وهذا كقوله تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾ الآيتين.

* وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾ أي متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا وينتقم لك منا، فتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين، قال الله تعالى: ﴿قل يوم الفتح﴾

(١) رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي في كتاب السنّة.

أي إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الأخرى ﴿لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون﴾، كما قال تعالى: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم﴾ الآيتين. والمراد بالفتح القضاء والفصل، كقوله: ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ الآية، وكقوله: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون﴾ أي أعرض عن هؤلاء المشركين، وبلّغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله تعالى: ﴿اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو﴾ الآية، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد، وقوله: ﴿إنهم منتظرون﴾ أي أنت منتظر وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ وسترى عاقبة صبرك عليهم، وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك، من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

[آخر تفسير سورة السجدة، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة السجدة (١)

وهى مكية.

قال البخارى في « كتاب الجمعة » : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن هُرمُزَ الأعرجِ(٢) ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : كان النبى (٣)ﷺ يقرأ فى الفجر يوم الجمعة : ﴿**الٓمٓ . تنزيل**﴾ السجدة ، و﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ**﴾ .

ورواه مسلم أيضا من حديث سفيان الثورى ، به (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا الحسن بن صالح ، عن لَيْث ، عن أبى الزبير، عن جابر قال : كان النبى ﷺ لاينام حتى يقرأ ﴿**الٓمٓ . تنزيل**﴾ السجدة ، و ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾ تفرد به أحمد (٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿**الٓمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)**﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ** ﴾ أى: لاشك فيه ولا مرية أنه نزل (٦) ،﴿ **مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

ثم قال مخبراً عن المشركين : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ** ﴾، بل يقولون :﴿**افْتَرَاهُ** ﴾ أى : اختلقه من تلقاء نفسه ، ﴿ **بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ أى : يتبعون الحق .

﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦)**﴾ .

(١) فى أ : « سورة آلم السجدة » . (٢) فى ت : « وروى البخارى بإسناده » . (٣) فى ت : « رسول الله » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٨٩١) وصحيح مسلم برقم (٨٨٠) .
(٥) المسند (٣/ ٣٤٠) .
(٦) فى ف ، أ : « منزل » .

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش . وقد تقدم الكلام على ذلك .

﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾أى : بل هو المالك لأزمة الأمور ، الخالق لكل شىء ، المدبر لكل شىء ، القادر (١) على كل شىء ، فلا ولى لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه .

﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعنى : أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه ـ تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد ، أو وزير أو عديل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وقد أورد النسائى ههنا حديثا فقال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب ، حدثنى محمد بن الصباح ، حدثنا أبو عبيدة الحداد ، حدثنا الأخضر بن عَجْلان ،عن ابن جُرَيْج المكى ، عن عطاء (٢) ، عن أبى هريرة، أن رسول اللّه ﷺ أخذ بيدى فقال : « إن اللّه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش فى اليوم (٣) السابع ، فخلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والشجر يوم الإثنين ، والمكروه يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة فى آخر ساعة من النهار بعد العصر ، وخلقه من أديم الأرض ، بأحمرها وأسودها ، وطيبها وخبيثها ، من أجل ذلك جعل اللّه من بنى آدم الطيب والخبيث » (٤) .

هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتنا ، وقد أخرج مسلم والنسائى أيضا من حديث الحجاج بن محمد الأعور ، عن ابن جُرَيج ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد اللّه بن رافع، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحو من هذا السياق (٥) .

وقد علله البخارى فى كتاب « التاريخ الكبير » فقال : « وقال بعضهم : أبو هريرة عن كعب الأخبار وهو أصح » (٦) ، وكذا علله غير واحد من الحفاظ ، واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أى : يتنزل (٧) أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال اللّه تعالى :﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢].

وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض [مسيرة] (٨) خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ،وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة عين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ

(١) فى ت ، ف ، أ : « القاهر » . (٢) فى ت : « وروى مسلم والنسائى حديثا » . (٣) فى ت : « على العرش يوم » .
(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٢) .
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠١٠) .
(٦) التاريخ الكبير للبخارى (١/ ٤١٣ ، ٤١٤) وممن أعله من الحفاظ ابن المدينى كما نقل ذلك البيهقى فى الأسماء والصفات ص (٢٧٥)،وقد رد ذلك الشيخ ناصر الألبانى فى صحيحته برقم (١٨٣٣) ،والحديث يحتاج إلى بحث ، والله أعلم .
(٧) فى ت ، ف : « يتنزل » . (٨) زيادة من ت ، ف ، أ .

مِّمَّا تَعُدُّون﴾.

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها، وصغيرها وكبيرها ـ هو ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذى قد عزّ كلّ شىء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، ﴿الرَّحِيمِ﴾ بعباده المؤمنين. فهو عزيز فى رحمته، رحيم فى عزته [وهذا هو الكمال: العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل] (١).

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ۝﴾.

يقول تعالى: إنه الذى أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال: أحسن خلق كل شىء. كأنه جعله من المقدم والمؤخر.

ثم لما ذكر خلق السموات والأرض، شرع فى ذكر خلق الإنسان فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾، يعنى: خلق أبا البشر آدم من طين، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أى: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يعنى: آدم، لما خلقه من تراب خلقه سويا مستقيما، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾، يعنى: العقول، ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أى: بهذه القوى التى رزقكموها اللّه عز وجل (٢). فالسعيد من استعملها فى طاعة ربه عزوجل.

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۝ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض (٣) وذهبت، ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ أى: أئنا لَنَعُودُ بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك (٤)، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قُدرتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قُدْرة الذى بدأهم وخلقهم من العدم، الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

ثم قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص

---

(١) زيادة من ت، ف. (٢) فى ف، أ: «تعالى». (٣) فى أ: «الأرضين».
(٤) فى أ: «تلك الحال».

معين من الملائكة ، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره فى سورة « إبراهيم » (١) ، وقد سمى فى بعض الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان . وهكذا (٢) ورد فى الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت .

قال مجاهد : حُويت له الأرض فجعلت له مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء (٣) . ورواه زهير بن محمد عن النبى ﷺ ، بنحوه مرسلا . وقاله ابن عباس ، رضى الله عنهما .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن أبى يحيى المقرى ، حدثنا (٤) عمرو بن شمر(٥) عن جعفر بن محمد قال : سمعت أبى يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبى ﷺ : « ياملك الموت ، ارفق بصاحبى فإنه مؤمن » . فقال مَلَك الموت: يامحمد ، طبْ نفساً وقَر عيناً فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما فى الأرض بيت مَدَر ولا شَعَر ، فى بر ولا(٦) بحر ، إلا وأنا أتصفحه فى كل يوم خمس مرات ، حتى إنى أعرفُ (٧) بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد ، لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قَدَرتُ على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها(٨) .

قال جعفر : بلغنى أنه إنما يتصفحهم عند (٩) مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه المَلَك ، ودفع عنه الشيطان ، ولقنه المَلَك : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فى تلك الحال العظيمة .

وقال عبد الرزاق : حدثنا محمد بن مسلم ، عن إبراهيم بن مَيْسَرة قال : سمعت مجاهداً يقول(١٠) : ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يُطيف به كل يوم مرتين .

وقال كعب الأحبار : والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات . ينظر هل فيه أحد أمر أن (١١) يتوفاه . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

---

(١) عند الآية السابعة والعشرين ، وقد جاء الحديث بتمامه فى نسخة ت .

(٢) فى ت : « كما » . (٣) فى ت : « شاء » . (٤) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن » .

(٥) فى ت ، ف ، أ ، هـ : « عمر بن سمرة » ،والتصويب من البداية والنهاية والمعجم .

(٦) فى ت : « أو » . (٧) فى ف ، أ : « لأعرف » .

(٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/ ٢٢٠)،والبزار فى مسنده برقم (٧٨٤) « كشف الأستار » من طريق إسماعيل بن أبان ،عن عمرو ابن شمر الجعفى ، عن جعفر بن محمد عن أبيه ، عن الحارث بن الخزرج عن أبيه ، أنه سمع رسول الله ﷺ فذكر نحوه ، فأسنده ولم يرسله ،ذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة وقال : « عمرو بن شمر متروك الحديث » .

(٩) فى ف : « فى » . (١٠) فى ت : « وقال مجاهد » . (١١) فى ت ، ف ، أ : « به » .

الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة ، وحالهم حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدى الله حقيرين ذليلين ، ناكسى رؤوسهم ، أى : من الحياء والخجل ، يقولون : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١)﴾ أى : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك ، كما قال تعالى :﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] . وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا (٢) دخلوا النار بقولهم :﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠] . وهكذا هؤلاء يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ﴾أى: إلى الدار الدنيا ، ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أى : قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات (٣) الله ويخالفون رسله ، كما قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٧ ـ ٢٩] . وقال ههنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] .

﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : من الصنفين ، فدارهم النار(٤) لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها ، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك .

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أى : يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ : ذوقوا [هذا] (٥) العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ، ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أى : [إنا] (٦) سنعاملكم معاملة الناسى ؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئا ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة ، كما قال تعالى :﴿ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [الجاثية: ٣٤] .

وقوله : ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بسبب كفركم وتكذيبكم (٧) ، كما قال فى الآية الأخرى :﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا . إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا . جَزَاءً وِفَاقًا . إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا . وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا . وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا . فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٢٤ ـ ٣٠] .

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا

---

(١) بعدها فى ف ، أ : « فارجعنا نعمل صالحاً ».
(٢) فى ت : « إذ » .
(٣) فى ت ، ف : « بآيات » .
(٤) فى ت ، ف : « قد ذرأتهم للنار » .
(٥) زيادة من أ .
(٦) زيادة من ت .
(٧) فى ت : « كفرهم وتكذيبهم » .

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا** ﴾ أي: إنما يصدق بها ﴿ **الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا** ﴾ أي: استمعوا لها وأطاعوها قولا وفعلا، ﴿ **وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [أي](١) عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، [وقد] (٢) قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [غافر: ٦٠].

ثم قال [تعالى: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** ﴾ يعنى بذلك: قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة. قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى] (٣): ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ** ﴾، يعنى بذلك: قيام الليل.

وعن أنس، وعكرمة، ومحمد بن المنكَدِر، وأبى حازم، وقتادة: هو الصلاة بين العشاءين. وعن أنس أيضاً: هو انتظار صلاة العتمة. رواه ابن جرير بإسناد جيد (٤).

وقال الضحاك: هو صلاة العشاء فى جماعة، وصلاة الغداة فى جماعة.

﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا** ﴾ أى: خوفاً من وبال عقابه، وطمعاً فى جزيل ثوابه، ﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن رَوَاحة، رضى الله عنه:

وَفِينَا رَسُولُ اللّه يَتْلُو كِتَابَه ... إذَا انشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنْ الصُّبْح سَاطِعُ
[أرَانا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنَا ... به مُوقنَاتٌ أنَّ مَا قَالَ واقع](٥)
يَبِيتُ يُجَافِى جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشه ... إذَا اسْتَثْقَلَتْ بالْمُشْرِكين المَضَاجِعُ

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح وعفان قالا: حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا عطاء بن السائب، عن مُرَّة الهمدانى، عن ابن مسعود (٦)، عن النبى ﷺ قال: « عجب ربنا من رجلين: رجل ثار من وطَائه ولحافه، ومن بين أهله وحيه (٧) إلى صلاته، [فيقول ربنا: أيا ملائكتى، انظروا إلى عبدى، ثار من فراشه ووطائه، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته] (٨) رغبة فيما عندى، وشفقة مما عندى. ورجل غزا فى سبيل الله، عز وجل، فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار، وما له فى

(١) زيادة من ت، ف. (٢) زيادة من ت. (٣) زيادة من ت، ف.
(٤) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٣).
(٥) زيادة من ت، ف، أ.
(٦) فى ت: « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن مسعود ».
(٧) فى ت، ف، أ: « من بين بنيه وأهله ». (٨) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

الرجوع ، فرجع حتى أهرَيق دمه ، رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى . فيقول الله ، عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى ، حتى أهريق دمه » .

وهكذا رواه أبو داود فى « الجهاد » ، عن موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، به بنحوه(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن عاصم بن أبى النَّجُود ، عن أبى وائل (٢) ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبى ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبى الله (٣) ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار . قال : « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » . ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل فى(٤) جوف الليل » . ثم قرأ : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** ﴾، حتى بلغ ﴿ **يَعْمَلُونَ** ﴾. ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » فقلت : بلى ، يارسول الله . فقال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سَنَامه الجهاد فى سبيل الله » . ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » فقلت : بلى ، يا نبى الله. فأخذ بلسانه ثم قال : « كُفّ عليك هذا ».فقلت : يارسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به . فقال : « ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكُب الناس فى النار على وجوهم ـ أو قال : على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم » .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه فى سننهم ، من طرق عن معمر ، به (٥) . وقال (٦) الترمذى: حسن صحيح . ورواه ابن جرير من حديث شعبة ، عن الحكم قال : سمعت عُرْوَة بن النزال (٧) يحدث عن معاذ بن جبل ؛ أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام العبد فى جوف الليل » ، وتلا هذه الآية :﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾(٨) .

ورواه أيضا من حديث الثورى ، عن منصور بن المعتمر ، عن الحكم ، عن ميمون بن أبى شبيب، عن معاذ ، عن النبى ﷺ بنحوه ، ومن حديث الأعمش ، عن حبيب بن أبى ثابت ، والحكم عن ميمون بن أبى شبيب ،عن معاذ مرفوعا بنحوه . ومن حديث حماد بن سلمة ، عن عاصم بن أبى النَّجُود ، عن شهر ، عن معاذ بن جبل ، عن النبى ﷺ ، فى قوله تعالى :﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ**

---

(١) المسند (١/٤١٦) وسنن أبى داود برقم (٥٢٣٦) .
(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .
(٣) فى ت : « يارسول الله » . (٤) فى ت : « من » .
(٥) المسند (٥/٢٣١) وسنن الترمذى برقم (٢٦١٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٤) وسنن ابن ماجة برقم (٣٩٧٣) .
(٦) فى ت : « رواه » . (٧) فى أ : « الزبير » .
(٨) تفسير الطبرى (٢١/٦٤) .

الْمَضَاجِعِ ﴾، قال : « قيام العبد من الليل » (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنَان الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا فطْر بن خليفة ، عن حبيب بن أبى ثابت ، والحكم ، وحكيم بن جُبَيْر ، عن ميمون بن أبى شبيب ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبى ﷺ فى غزوة تبوك فقال : « إن شئت أنبأتك بأبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وقيام الرجل فى جوف الليل » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : **﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾**.

ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا على بن مُسْهِر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شَهْر بن حَوْشَب (٢) ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يُسمعُ الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم مَن أولى بالكرم . ثم يرجع فينادى : ليقم (٣) الذين كانت **﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾** الآية ، فيقومون وهم قليل » (٤) .

وقال البزار : حدثنا عبد الله بن شَبِيب ، حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر ، حدثنا عبد الحميد بن سليمان ، حدثنى مصعب ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : قال بلال (٥) لما نزلت هذه الآية : **﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾** [الآية] (٦) ، كنا نجلس فى المجلس ، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية : **﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾**.

ثم قال : لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه ، وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق (٧) .

وقوله : **﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** أى : فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد ، لَمَّا أخفوا أعمالهم (٨) أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقا ؛ فإن الجزاء من جنس العمل .

قال الحسن [البصرى] (٩) : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ، ولم يخطر (١٠) على قلب بشر . رواه ابن أبى حاتم .

قال البخارى : قوله : **﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾** الآية : حدثنا على بن

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٤ ، ٦٥) .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٣) فى ت : « لتقم » .

(٤) ورواه إسحاق بن راهويه فى مسنده ، وأبو يعلى فى المسند الكبير كما فى المطالب العالية (٤/ ٣٧٣) من حديث أسماء بنت يزيد رضى الله عنها .

(٥) فى ت : « وقال البزار بإسناده عن بلال قال » .

(٦) زيادة من ت ، ف .

(٧) مسند البزار برقم (٢٢٥٠) « كشف الأستار » ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠) : « فيه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف » .

(٨) فى ت ، ف ، أ : « أعمالهم كذلك » .

(٩) زيادة من أ . (١٠) فى ت : « ولا يخطر » .

عبد اللّه، حدثنا سفيان ، عن أبى الزّناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ قال : « قال اللّه تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر » . قال أبو هريرة : فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾.

قال : وحدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قال اللّه مثله [١]. قيل لسفيان : روايةً ؟ قال : فَأَىُّ شىء ؟

ورواه مسلم والترمذى من حديث سفيان بن عيينة ، به [٢] . وقال الترمذى : حسن صحيح .

ثم قال البخارى : حدثنا إسحاق بن نصر ،حدثنا أبو أسامة ، عن الأعمش ،حدثنا [٣] أبو صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « يقول اللّه تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذُخْراً منْ بَله ما أطْلعْتم عليه » ، ثم قرأ : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

قال أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، قرأ أبو هريرة : « قُرَّات أَعْيُنٍ ». انفرد به البخارى من هذا الوجه [٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه تعالى قال : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

أخرجاه فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق [٥] . ورواه الترمذى فى التفسير ، وابن جرير ، من حديث عبد الرحيم بن سليمان ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ بمثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح [٦] .

وقال حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة [٧]،رضى اللّه عنه ، قال حماد: أحسبه عن النبى [٨] ﷺ قال :« من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ،لا تبلى ثيابه ،ولا يفنى شبابه ،فى الجنة ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

---

(١) فى ف ، أ : « تعالى » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٧) .

(٣) فى ف ، أ : « عن » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٠) وفى البخارى « رواية أبى معاوية » بعد الحديث المتقدم .

(٥) المسند (٢/ ٣١٣) وصحيح البخارى برقم (٨٤٩٨) من طريق عبد الله عن معمر به ، ولم أجده فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق .

(٦) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٢) وتفسير الطبرى (٢١/ ٦٦) .

(٧) فى ت : « وروي مسلم عن أبى هريرة » .

(٨) فى ت : « رسول الله » .

رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة ، به (١) .

وروى (٢) الإمام أحمد : حدثنا هارون ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى أبو صخر ، أن أبا حازم حدثه قال : سمعت (٣) سهل بن سعد الساعدى ، رضى الله عنه ، يقول : شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة ، حتى انتهى ، ثم قال فى آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، ثم قرأ هذه الآية :﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ [يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا]** (٤) ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **يَعْمَلُونَ** ﴾.

وأخرجه مسلم فى صحيحه عن هارون بن معروف ، وهارون بن سعيد ، كلاهما عن ابن وهب، به (٥) .

وقال ابن جرير : حدثنى العباس بن أبى طالب ، حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا سلام بن أبى مطيع ، عن قتادة ، عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ ، يروى عن ربه ، عز وجل ، قال : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر » . لم يخرجوه (٦) .

وقال (٧) مسلم أيضا فى صحيحه : حدثنا ابن أبى عمر وغيره ، حدثنا سفيان ، حدثنا مُطَرِّف بن طَرِيف وعبد الملك بن سعيد ، سمعا الشعبى يخبر عن المغيرة بن شعبة قال : سمعته على المنبر ـ يرفعه إلى النبى ﷺ ـ قال : « سأل موسى ، عليه السلام (٨) ربه عز وجل: ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال: هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أى رب ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقول : لك ذلك ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، ومثله، فقال فى الخامسة : رضيت رب . فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله (٩) ، ولك ما اشتهت نفسك ولَذَّت عينك. فيقول : رضيت رب . قال : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أرَدتُ ، غَرَسْتُ كرامتهم بيدى، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع (١٠) أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » ، قال : ومصداقه من كتاب الله :﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ .

ورواه الترمذى عن ابن أبى عمر ، وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشعبى، عن المغيرة ولم يرفعه ، والمرفوع أصح (١١) .

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٦) .

(٢) فى أ : « وقال » .

(٣) فى ت : « وروى مسلم أيضا عن » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٥) المسند (٥/ ٣٣٤) ، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٥) .

(٦) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٧) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) فى ت: « ﷺ » .

(٩) فى ف ، أ : « وعشرة أمثاله معه » .

(١٠) فى ف « تستمع » .

(١١) صحيح مسلم برقم (١٨٩) ، وسنن الترمذى برقم (٣١٩٨) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا جعفر بن منير المدائنى ، حدثنا أبو بدر شجاعُ بن الوليد ، حدثنا زياد ابن خَيْثَمَة ، عن محمد بن جُحَادة ، عن عامر[1] بن عبد الواحد قال : بلغنى أن الرجل من أهل الجنة يمكث فى مكانه سبعين سنة ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أنَى لك أن يكون لنا منك نصيب ؟ فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا من المزيد . فيمكث معها سبعين سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيقول: من أنت ؟ فتقول : أنا التى [2] قال الله : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾.

وقال ابن لَهِيعة : حدثنى عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جُبَير قال : تدخل عليهم الملائكة فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس فى جناتهم ، وذلك قوله : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾، ويُخبرُون أن الله عنهم[3] راض .

وقال ابن جرير : حدثنا سهل بن موسى الرازى ، حدثنا الوليد بن مسلم ،عن صفوان بن عمرو،عن أبى اليمان الهوزنى ـ أو غيره ـ قال : الجنة مائة درجة ،أوّلها درجة فضة وأرضها فضة،ومساكنها فضة ، [وآنيتها فضة] [4] وترابها المسك . والثانية ذهب ،وأرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ،وآنيتها ذهب ،وترابها المسك .والثالثة لؤلؤ ،وأرضها لؤلؤ ،ومساكنها اللؤلؤ ، وآنيتها اللؤلؤ،وترابها المسك . وسبع وتسعون بعد ذلك ،ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ثم تلا هذه الآية :﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون** ﴾[5].

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن الغِطْرِيف ،عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس [6] ،عن النبى ﷺ ،عن الروح الأمين قال : «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ،ينقص بعضها من بعض ، فإن بقيت حسنة [واحدة] [7] وسع الله له فى الجنة » ، قال : فدخلت على « يزداد » فَحَدَّثَ بمثل هذا الحديث ، قال : فقلت : فأين ذهبت الحسنة؟ قال : ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** ﴾[الأحقاف : ١٦].قلت : قوله تعالى : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾ ، قال : العبد يعمل سراً أسرّه إلى الله ، لم يُعلم به الناس ، فأسرَّ الله له يوم القيامة قُرَّة أعين [8] .

﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾**

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم عن عباس » .
(٢) فى أ : « أنا من الذين » .
(٣) فى ت : « عليهم » .
(٤) زيادة من ت ، ف ،أ ، والطبرى .
(٥) تفسير الطبرى (٢١/٦٦) .
(٦) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس » .
(٧) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .
(٨) تفسير الطبرى (٢١/٦٧) .

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن عدله [وكرمه] (١) أنه لايساوى فى حُكمه يوم القيامة من كان مُؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، بمن كان فاسقا ، أى : خارجا عن طاعة ربه مكذبا لرُسُله إليه (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [الجاثية : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [الحشر : ٢٠] ؛ ولهذا قال تعالى : ههنا : ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ** ﴾ أى : عند الله يوم القيامة .

وقد ذكر عطاء بن يَسَار والسُّدِّى وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب ، وعقبة بن أبى مُعَيط ؛ ولهذا فَصَّل حكمهم فقال : ﴿ **أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها (٣) ، وهى الصالحات ، ﴿ **فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ** ﴾ أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ، ﴿ **نُزُلاً** ﴾ أى : ضيافة وكرامة ﴿ **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا** ﴾ أى : خرجوا عن الطاعة ، ﴿ **فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا** ﴾ كقوله : ﴿ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا** ﴾ الآية [الحج : ٢٢] .

قال الفُضَيل بن عياض : والله إن الأيدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم .

﴿ **وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ** ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا .

وقوله : ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ [لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ]** (٤) ﴾ قال (٥) ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها ، وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى مثله عن أبى بن كعب ، وأبى العالية ، والحسن ، وإبراهيم النَّخَعى ، والضحاك، وعلقمة ، وعطية ، ومجاهد ، وقتادة ، وعبد الكريم الجَزَرى ، وخَصِيف .

وقال ابن عباس ـ فى رواية عنه ـ :يعنى به إقامة الحدود عليهم .

وقال : البراء بن عازب ، ومجاهد ، وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر .

وقال النسائى : أخبرنا عمرو بن على ، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن إسرائيل ، عن أبى

---

(١) زيادة من أ .
(٢) فى ت ، ف : « لرسل الله » .
(٣) فى ت : « قلوبهم بلقاء الله ومقتضاها » .
(٤) زيادة من ت .
(٥) فى ت : « وقال » .

إسحاق ، عن أبي الأحوص وأبي عبيدة (١) ، عن عبد الله : ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ** ﴾ قال : سنون أصابتهم (٢) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثني عبيد الله بن عُمَر القواريري ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن عَزْرَة (٣) ، عن الحسن العُرَني ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أبي ليلى(٤) ، عن أبي بن كعب في هذه الآية : ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ** ﴾ قال : المصيبات (٥) والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام (٦) .

ورواه مسلم من حديث شعبة ، به موقوفا نحوه (٧) . وعند البخاري عن ابن مسعود ، نحوه(٨).

وقال عبد الله بن مسعود (٩) أيضا ، في رواية عنه : العذاب الأدنى : ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم .

قال السُّدِّي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غَرموا (١٠) ، ومنهم من جمع له الأمران .

وقوله : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا** ﴾ أي : لا أظلم ممن ذَكَّرَه الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ، كأنه لا يعرفها .

قال قتادة ، رحمه الله : إياكم والإعراض عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة ، وأعوز أشد العوَز (١١) ، وعظم من أعظم الذنوب .

ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك : ﴿ **إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ** ﴾ أي : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

وقال ابن جرير : حدثني عمران بن بكار الكلاَعي ، حدثنا محمد بن المبارك ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا عبد العزيز بن عبيد الله ، عن عبادة بن نُسَيّ ، عن جنادة بن أبي أمية (١٢) ، عن معاذ ابن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد (١٣) لواء في غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، فقد أجرم ، يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ** ﴾ »(١٤) .

---

(١) في ت : « وروى النسائي بإسناده » .
(٢) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٩٥) .
(٣) في ف ، أ : « عررة ».
(٤) في ت : « وروى عبد الله بن الإمام أحمد » .
(٥) في ت ، أ : « المضمار » .
(٦) زوائد المسند (٥/١٢٨) .
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٧٩٩) .
(٨) صحيح البخاري برقم (٤٨٢٠) ولفظه : « مضي خمس : الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام » .
(٩) في ت : « وعن ابن مسعود » .
(١٠) في ت : « هزموا » .
(١١) في ت ، أ : « وأعور أشد العورة » .
(١٢) في ت : « وروى ابن جرير بإسناده » .
(١٣) في ت : « اعتقد » ، وفي أ : « أعقد » .
(١٤) تفسير الطبري (٢١/٦٩) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث إسماعيل بن عياش ، به ، وهذا حديث غريب جداً .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة .

وقوله : ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾: قال قتادة : يعنى به ليلة الإسراء [(١)] . ثم روى عن أبى العالية الرِّياحى قال : حدثنى ابن عم نبيكم ـ يعنى ابن عباس ـ قال : قال رسول ﷺ : « أريتُ ليلة أسرى بى موسى بن عمران ، رجلا آدم طُوَالا جَعْداً ، كأنه من رجال شَنُوءة . ورأيت عيسى رجلا مربوع الخلق ، إلى الحمرة والبياض ، مبسط الرأس ، ورأيت مالكا خازن النار والدجال ، فى آيات أراهن اللّه إياه »،﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾، أنه قد رأى موسى ، ولقى موسى ليلة أسرى به [(٢)] .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا الحسن بن على الحُلْوانى ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة ، عن أبى العالية ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ فى قوله :﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، قال : جُعل موسى هُدى لبنى إسرائيل ، وفى قوله : ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾، قال : من لقاء موسى ربه عز وجل [(٣)] .

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى : الكتاب الذى آتيناه ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ، [كما قال تعالى فى سورة الإسراء :﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلا ﴾ [الإسراء: ٢] .

وقوله :﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ، أى : لما كانوا صابرين على أوامر اللّه وترك نواهيه وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به ، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر اللّه ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ثم لما بدلوا وحَرّفوا وأوَّلوا ، سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاد صحيحاً [(٤)] ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا [(٥)]﴾ قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا : وكذلك قال الحسن بن صالح .

قال سفيان: هكذا كان هؤلاء ،ولا ينبغى للرجل أن يكون إماماً يُقتَدى به حتى يتحامى عن الدنيا .

قال وَكِيع : قال سفيان : لابد للدين من العلم ، كما لابد للجسد من الخبز .

(١) فى ت : « الأسرى » .

(٢) انظر الأثر عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء وتخريجه هناك .

(٣) المعجم الكبير للطبرانى (١٢/ ١٦٠) ،وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٤) فى ت : « فلا عملاً صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً » .

(٥) فى ف ، أ : « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب » .

وقال ابن بنت الشافعي : قرأ أبي على عمي ـ أو : عمي على أبي ـ سئل سفيان عن قول علي، رضي اللّه عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ ، قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين .

ولهذا قال تعالى][1] : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ [وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ] [2] فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ [الجاثية : ١٦ ، ١٧] ، كما قال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : من الاعتقادات والأعمال .

﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى : أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك اللّه قبلهم من الأمم الماضية ، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ؟ ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٩٨] ؛ ولهذا قال : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ، ذهبوا منها، ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ٩٢] ، كما قال : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل : ٥٢]، وقال : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٥ ، ٤٦] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي : إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم ، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل [3] متظاهرة.

﴿ أَفَلا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : أخبار من تقدم ، كيف كان أمرهم ؟

وقوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ : يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السيح ، وهو : ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾، وهي [الأرض] [4] التي لا نبات فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ٨]، أي : يَبَساً لا تنبت شيئاً .

(١ ، ٢) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٣) في ت ، أ : « دلالات » .

(٤) زيادة من ت ، أ .

وليس المراد من قوله: ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أرض مصر فقط، بل هى بعض المقصود، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست [هى] [١] المقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية، فإنها فى نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر، وهى أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً لينبُتَ الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور فى غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء.

قال ابن لَهيعة، عن قيس بن حجاج، عمن حدثه قال: لما فُتحت مصر، أتى أهلُها عمرو بن العاص ـ [وكان أميرًا بها] [٢] ـ حين دخل بؤونة من أشهر العجم، فقالوا: أيها الأمير، إن لنيلنا سُنَّة لا يجرى إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عَمَدنا إلى جارية بكْر بين [٣] أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا ما لا يكون فى الإسلام، إن الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا بؤونة والنيل لا يجرى، حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذى فعلت، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى هذا، فألقها فى النيل. فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد... فإنك إن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك. قال: فألقى البطاقة فى النيل، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة، وقطع الله تلك السُنَّة عن أهل مصر إلى اليوم. رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائى الطبرى فى كتاب « السنة » له [٤].

ولهذا قال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. [مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ] [٥] ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾.

وقال ابن أبى نَجيح، عن رجل، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ قال: هى التى لا تُمطر إلا مطراً لا يغنى عنها شيئا، إلا ما يأتيها من السيول.

وعن ابن عباس، ومجاهد: هى أرض باليمن.

وقال الحسن، رحمه الله: هى قرى فيما بين اليمن والشام.

وقال عِكْرِمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّىّ، وابن زيد: الأرض الجرز: التى لا نبات فيها

(١) زيادة من ت، أ. (٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: « من ».
(٤) كتاب السنة للالكائى برقم (٦٦) « قسم كرامات الأولياء »: حدثنا محمد بن أبى بكر، حدثنا محمد بن مخلد، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن صالح، عن ابن لهيعة به، وهو مرسل.
(٥) زيادة من ت، ف، أ.

وهى مغبرة .

قلت : وهذا كقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : ٣٣ ـ ٣٥] .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوعَ بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم ، استبعادا وتكذيباً وعناداً : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ ﴾ ؟ أى : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تُدَال علينا ، ويُنتَقم لك منا ،فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين ! قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أى : إذا حَل بكم بأس الله وسَخَطه وغضبه في الدنيا وفى الأخرى ، ﴿ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٣ ـ ٨٥] ، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتحُ مكة فقد أبعد النَّجْعة ، وأخطأ فأفحش ، فإن يوم الفتح قد قَبِل رسولُ الله ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم ؛ لقوله : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل، كقوله تعالى : ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٨] ، وكقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ١٥] ، وقال : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة : ٨٩] ، وقال : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال : ١٩] .

ثم قال : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أى : أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، كقوله : ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد .

وقوله : ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أى: أنت منتظر ،وهم منتظرون ، ويتربصون بكم الدوائر ، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور : ٣٠] ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله ، فى نصرتك وتأييدك ، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك ، من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل،[والله أعلم] (١) .

[آخر تفسير سورة « الم السجدة »] (٢)

---

(١) زيادة من ف .

(٢) زيادة من ت .

[٣٢٨و] / سورة السجدة

مكيّة، وهي ثلاثون آيةً، وقيل: تسع وعشرون.[١]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣﴾

﴿الٓمٓ﴾ إمّا اسم للسورة فمحلّه الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا مسمًّى بـ﴿الٓمٓ﴾، والإشارة إليها قبل جريان ذكرها قد عرفتَ سرَّها، وإمّا مسرود على نمط التعديد، فلا محلّ له مِن الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على الأوّل خبرٌ بعد خبرٍ، على أنّه مصدر أُطلقَ على المفعول مبالغةً، وعلى الثاني خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: المؤلَّف مِن جنس ما ذُكر تنزيلُ الكتاب. وقيل: خبر لـ﴿الٓمٓ﴾، أي: المسمّى به تنزيل الكتاب، وقد مرّ مرارًا أنّ ما يُجعل عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتساب إليه، وإذ لا عهدَ بالتسمية قبلُ فحقّها الإخبارُ بها.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ خبر ثالث على الوجه الأوّل، وثانٍ على الأخيرين. وقيل: خَبر لـ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ متعلّق بمضمَر هو حال مِن الضمير المجرور، أي: كائنًا منه تعالى، لا بـ﴿تَنزِيلُ﴾؛ لأنّ المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر، والأوجَه حينئذ[٢] أنّه الخبر، و﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ حال مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أو اعتراض، والضمير في ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى مضمون الجملة، كأنّه قيل: لا ريب في ذلك، أي: في كونه منزّلًا مِن ربّ العالمين.

---

[١] ط س + آية.

[٢] وفي هامش م: أي: على تقدير كون ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مبتدأ. «منه».

ويؤيّده قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فإنّ قولهم هذا إنكار منهم لكونه مِن ربّ العالمين، فلا بدّ أن يكون مَورده حكمًا مقصودَ الإفادة، لا قيدًا للحكم بنفي الريب عنه، وقد رُدّ عليهم ذلك وأُبطِل حيث جيء بـ"أَم" المنقطعة إنكارًا له، وتعجيبًا منه لغاية ظهور بطلانه، واستحالةِ كونه مُفترًى.

ثم أُضربَ عنه إلى بيان حقّيّة ما أنكروه حيث قيل: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ بإضافة اسم الربّ إلى ضميره عليه السلام بعد إضافته فيما سبق إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] تشريفًا له عليه السلام، ثمّ أُيّدَ ذلك ببيان غايته حيث قيل: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فإنّ بيان غاية الشيء وحكمتِه -لا سيّما عند كونها غايةً / حميدةً مستتبِعةً لمنافعَ جليلة في وقت شدّة الحاجة إليها- ممّا يقرّر وجود الشيء ويؤكّده لا محالةَ. [٣٢٨ظ]

ولقد كانت قريش أضلّ الناس وأحوجَهم إلى الهداية بإرسال الرسول وتنزيلِ الكتاب، حيث لم يُبعَث إليهم مِن رسول قبله عليه السلام، أي: ما أتاهم مِن نذير مِن قبل إنذارك، أو مِن قبل زمانك. والترجّي معتبَر مِن جهته عليه السلام، أي: لتنذرهم راجيًا لاهتدائهم، أو لرجاء اهتدائهم.

واعلم أنّ ما ذُكر مِن التأييد إنّما يتسنّى على ما ذُكر مِن كون ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢] مبتدأً، وأمّا على سائر الوجوه فلا تأييدَ أصلًا؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] خبر رابع على الوجه الأوّل،[٤] وخبرٌ ثالث على الوجهين الأخيرين،[٥] وأيًّا ما كان فكونه مِن ربّ العالمين حكمٌ مقصودُ الإفادة، لا قيدٌ لحكمٍ آخَر، فتدبّر.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] وفي هامش م: هو كون ﴿الٓمٓ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف. «منه».

[٥] وفي هامش م: هما كون ﴿الٓمٓ﴾ مَسرودًا على نمط التعديد، وكونُه مبتدأ. «منه».

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ مرّ بيانه فيما سلَف. ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: ما لكم إذا جاوَزتم رضاه تعالى أحدٌ ينصركم ويشفع لكم ويجيركم مِن بأسِه، أو ما لكم سواه وليّ ولا شفيع؛ بل هو الذي يتولّى مصالحَكم وينصركم في مواطن النصر، على أنّ "الشفيع" عبارة عن الناصر مجازًا، فإذا خذَلكم لم يبقَ لكم وليّ ولا نصير.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ألَا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكّرون بها؟ أو أتَسمعونها فلا تتذكّرون بها؟ فالإنكار على الأوّل متوجِّه إلى عدم السماع وعدمِ التذكّر معًا، وعلى الثاني على عدم التذكّر مع تحقّق ما يوجبه مِن السماع.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: يدبّر أمر الدنيا بأسباب سماويّة مِن الملائكة وغيرها نازلةً آثارها وأحكامها إلى الأرض، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: يثبت في علمه موجودًا بالفعل ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: في بُرهة مِن الزمان متطاولة. والمراد بيان طول امتداد / ما بين تدبير الحوادث وحدوثِها مِن الزمان. [٣٢٩و]

وقيل: يدبّر أمر الحوادث اليوميّة بإثباتها في اللوح المحفوظ، فيَنزل بها الملائكة ثمّ يَعرج إليه في زمان هو كألْفِ سنة ممّا تعدّون، فإنّ ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عامٍ.

وقيل: يقضي قضاء ألف سنةٍ، فينزل به الملَك ثمّ يعرج بعد الألفِ لألْفٍ آخر.

وقيل: يدبّر أمر الدنيا جميعًا إلى قيام الساعة، ثمّ يَعرج إليه الأمر كلّه عند قيامها.

وقيل:[١] يدبّر المأمور به مِن الطاعات منزّلًا مِن السماء إلى الأرض بالوحي، ثمّ لا يعرج إليه خالصًا إلّا في مدّة متطاولة لقِلّة المخلِصين والأعمال الخُلَّص.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٢٠/٤.

وأنت خبير بأنّ قِلّة الأعمال الخالصة لا يقتضي بُطْء عروجها إلى السماء؛ بل قِلّته. وقُرئ: "يَعُدُّونَ" بـ"الياء".[1]

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الله عزّ وجلّ باعتبار اتّصافه بما ذُكر مِن خلق السماوات والأرض، والاستواءِ على العرش، وانحصارِ الولاية والنصرة فيه، وتدبيرِ أمر الكائنات على ما ذُكر مِن الوجه البديع. وهو مبتدأ خبرُه ما بعده، أي: ذلك العظيم الشأنِ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيدبّر أمرَهما حسبما يقتضيه الحكمة، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على عباده، وهما خبران آخَران. وفيه إيماءٌ إلى أنّه تعالى متفضِّل في جميع ما ذُكر، فاعلٌ بالإحسان.

﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾

﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ خبر آخر، أو نصب على المدح، أي: حسّن كلّ مخلوق خلَقَه؛ إذ ما مِن مخلوق خلَقه إلّا وهو مرتَّب على ما يقتضيه الحكمة، وأوجبَتْه المصلحة، فجميع المخلوقات حسَنة وإن تفاوتت إلى حسَنٍ وأحسنَ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين، ٩٥/٤].

[٣٢٩ظ] / وقيل: عَلِم كيف يخلقه، مِن قوله: "قيمة المرء ما يُحسِن"،[2] أي: يُحسن معرفتَه ويعرفه معرفةً حسنةً بتحقيق وإتقان.

وقُرئ: "خَلْقَهُ"[3] على أنّه بدل اشتمالٍ مِن ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾، والضمير للمبدَل منه، أي: حسّن خلق كلّ شيء. وقيل: بدل الكلّ على أنّ الضمير لله تعالى، و"الخَلْق" بمعنى المخلوق، أي: حسّن كلَّ مخلوقاته. وقيل: هو مفعول ثانٍ لِـ﴿أَحْسَنَ﴾ على تضمينه معنى "أعطى"، أي: أعطى كلَّ شيء خلْقَه اللائقَ به بطريق الإحسان والتفضّل.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش ويحيى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٠.

[2] مِن قول عليّ رضي الله عنه. فتوح الغيب للطيبي، ٣٣٧/١٢.

[3] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

وقيل: هو مفعوله الأوّل، و﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مفعوله الثاني، و"الخَلْق" بمعنى المخلوق، وضميرُه لله سبحانه، على تضمين الإحسان معنى الإلهام والتعريف، والمعنى: ألهَمَ خلقَه كلَّ شيء ممّا يحتاجون إليه.

وقال أبو البقاء: «عرّف مخلوقاتِه كلَّ شيء يحتاجون إليه»،[١] فيئُول إلى معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٥٠].

﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ مِن بين جميع المخلوقات ﴿مِن طِينٍ﴾ على وجه بديع يَحارُ العقول في فهمه حيث بَرَأَ آدم عليه السلام على فطرة عجيبة منطوية على فطرة سائرِ أفراد الجنس انطواءً إجماليًّا مستتبِعًا لخروج كلّ فرد منها مِن القوّة إلى الفعل بحسب استعداداتها المتفاوتة قُربًا وبُعدًا، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾... إلخ، أي: ذرّيّته، سمّيت بذلك لأنّها تَنسِل وتنفصل منه. ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ هو المنيّ المُمتهَن.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي: عدّلَه بتكميل أعضائه في الرحِم وتصويرِها على ما ينبغي، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أضافَه إليه تعالى تشريفًا له وإيذانًا بأنّه خَلق عجيب وصُنع بديع، وأنّ له شأنًا له مناسَبة إلى حضرة[٢] الربوبيّة، وأنّ أقصى ما ينتهي إليه العقول البشريّة مِن معرفته هذا القدرُ الذي يُعبَّر عنه تارةً بالإضافة إليه تعالى، وأخرى بالنسبة إلى أمره تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء، ١٧/٨٥].

/ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ الجَعل إبداعي، و"اللام" متعلّقة به، والتقديم على المفعول الصريح لِما مرّ مرّات مِن الاهتمام بالمقدَّم والتّشويق إلى المؤخَّر، مع ما فيه مِن نوع طول يُخِلّ تقديمه بجَزالة النظم الكريم، أي: خلقَ لمنفعتكم تلك المشاعرَ لتعرفوا أنّها -مع كونها في أنفسها نِعمًا جليلةً [٣٣٠و]

---

[١] التبيان لأبي البقاء، ١٠٤٨/٢.

[٢] ط س: الحضرة.

لا يقادَر قدرُها-وسائلُ إلى التمتّع بسائر النِّعم الدينيّة والدنيويّة الفائضة عليكم، وتشكروها بأن تَصرفوا كلًّا منها إلى ما خُلق هو له، فتُدركوا بسَمعكم الآياتِ التنزيليّةَ الناطقة بالتوحيد والبعث، وبأبصاركم الآياتِ التكوينيّةَ الشاهدة بهما، وتستدلّوا بأفئدتكم على حقّيّتهما.

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بيان لكفرهم بتلك النِّعم بطريق الاعتراض التذييلي، على أنّ القِلّة بمعنى النفي، كما ينبئ عنه ما بعده، أي: شكرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تشكرون.

وفي حكاية أحوال الإنسان مِن مبدأ فطرته إلى نفخ الروح فيه بطريق الغيبة وحكايةِ أحواله بعد ذلك بطريق الخطاب المنبئ عن استعداده للفهم وصلاحيّته له مِن الجزالة ما لا غايةَ وراءَه.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠﴾

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات إيذانًا بأنّ ما ذُكر مِن عدم شكرهم بتلك النِّعم موجِب للإعراض عنهم وتعديدِ جناياتهم لغيرهم بطريق المُباثّة: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: صرنا ترابًا مخلوطًا بترابها بحيث لا نتميّز منه، أو غِبنا فيها بالدفن. وقُرئ: "ضَلِلْنَا" بكسر "اللام"،[1] مِن باب "عَلِمَ"، و"صَلَلْنَا" بـ"الصاد" المهملة،[2] مِن "صَلَّ اللحمُ" إذا أنتَنَ. وقيل: مِن "الصَّلّة"، وهي الأرض، أي: صِرنا مِن جنس الصَّلّة.

قيل: القائل أبيّ بن خلف، ولِرضاهم بقوله أُسندَ القول إلى الكلّ.

[٣٣٠ظ] والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما يدلّ عليه / قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ وهو "نُبعَثُ" أو "يُجَدّد خَلقُنا". و"الهمزة" لتذكير الإنكارِ السابق وتأكيدِه. وقُرئ: "إِنَّا"[3] على الخبر. وأيًّا ما كان فالمعنى على تأكيد الإنكار، لا إنكارِ التأكيد

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٠.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء وطلحة وجعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٠.

[3] قرأ بها نافع والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

كما هو المتبادر مِن تقدّم "الهمزة" على "إنّ"، فإنّها مؤخَّرة عنها في الاعتبار، وإنّما تقديمُها عليها لاقتضائها الصدارة.

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ إضراب وانتقال مِن بيان كفرهم بالبعث إلى بيان ما هو أبلغ وأشنَع منه، وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة وما يلقَونه فيها مِن الأحوال والأهوال جميعًا.

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿قُلْ﴾ بيانًا للحقّ وردًّا على زعمهم الباطل: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ لا كما تزعمون أنّ الموت مِن الأحوال الطبيعيّة العارضة للحيوان بموجَب الجِبِلّة، أي: يقبض أرواحكم بحيث لا يدَع فيكم شيئًا، أو لا يترك منكم أحدًا، على أشدّ ما يكون مِن الوجوه وأفظعِها، مِن ضرب وجوهكم وأدباركم.

﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: بقبض أرواحكم، وإحصاءِ آجالكم، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للحساب والجزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهم القائلون: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ،[١] أو جنسُ المجرمين، وهم مِن جملتهم،[٢] ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مِن الحياء والخِزي عند ظهور قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا. ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ربّنا ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: صِرنا ممّن يُبصر ويَسمع، وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصَرة والآيات المسموعة، وكنّا مِن قبلُ عُميًا وصمًّا لا ندرك شيئًا، ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ عملًا ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه تلك الآيات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ادّعاء منهم لصحّة الأفئدة، والاقتدارِ على فهم معاني الآيات، والعملِ بموجَبها، كما أنّ ما قبله ادّعاء لصِحّة مَشعَرَي البصر والسمع،

---

١ السجدة، ١٠/٣٢.

٢ م ط س - أو جنسُ المجرمين، وهم مِن جملتهم ["صح" في هامش م].

كأنّهم قالوا: وأيقَنّا وكنّا مِن قبلُ لا نَعقِل شيئًا أصلًا، وإنّما عدلوا إلى الجملة الاسميّة المؤكَّدة / إظهارًا لِثباتهم على الإيقان، وكمالِ رغبتهم فيه، وكلّ ذلك [٣٣١و] للجِدّ في الاستدعاء طمعًا في الإجابة إلى ما سألوه مِن الرجعة، وأنّى لهم ذلك.

ويجوز أن يقدَّر لكلّ مِن الفعلين مفعول مناسب له ممّا يبصرونه ويسمعونه، فإنّهم حينئذٍ يشاهدون الكفر والمعاصي على صوَر منكَرة هائلة، ويخبرهم الملائكة بأنّ مصيرهم إلى النار لا محالةَ، فالمعنى: أبصَرنا قُبح أعمالنا، وكنّا نراها في الدنيا حسنةً، وسمعنا أنّ مردّنا إلى النار، وهو الأنسب لِما بعده مِن الوعد بالعمل الصالح.

هذا، وقد قيل: المعنى: وسمعنا منك تصديق رسلك. وأنت خبير بأنّ تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون بإظهار مدلول ما أخبروا به مِن الوعد والوعيد، لا بالإخبار بأنّهم صادقون حتّى يسمعوه. وقيل: وسمعنا قولَ الرسل، أي: سمِعناه سمعَ طاعة وإذعان.

ولا يُقَدَّر لـ﴿تَرَىٰ﴾ مفعول، إذ المعنى: لو تكون منك رؤية في ذلك الوقت، أو يُقدَّر ما ينبئ عنه صِلةُ ﴿إذ﴾. والمضيّ فيها وفي ﴿لَوْ﴾ باعتبار أنّ الثابت في علم الله تعالى بمنزلة الواقع. وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي: لَرأيتَ أمرًا فظيعًا لا يُقادَر قدرُه. والخطاب لكلّ أحد ممّن يصلح له كائنًا مَن كان؛ إذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغِها مِن الفظاعة إلى حيث لا يختصّ استغرابها واستفظاعُها بِراءٍ دون راءٍ ممَّن اعتاد مشاهدةَ الأمور البديعة، والدواهي الفظيعة؛ بل كلّ مَن يتأتّى منه الرؤية يتعجّب مِن هولها وفظاعتها.

هذا، ومَن علّل عموم الخطاب[1] بالقصد إلى بيان أنّ حالَهم قد بلغت مِن الظهور إلى حيث يمتنع خفاؤها البتّة، فلا تختصّ رؤية راءٍ دون راءٍ؛ بل كلّ مَن يتأتّى منه الرؤية فله مدخل في هذا الخطاب؛ فقد نأى عن تحقيق الحقّ؛ لأنّ المقصود بيان كمال فظاعة حالهم، كما يفصح عنه الجواب المحذوف، لا بيانُ كمال ظهورها، فإنّه مَسوق مَساق المسلَّمات، فتدبّر.

---

[1] وفي هامش م: وهو صاحب المفتاح. | السكّاكي في مفتاح العلوم، ١/١٨٠.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣﴾

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ مقدَّر بقولٍ معطوف على ما قُدِّر قبلَ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾... إلخ،[١] أي: ونقول: لو شئنا، أي: لو تعلّقت مشيئتنا تعلّقًا فعليًا بأن نعطي كلَّ نفسٍ مِن النفوس البَرّة[٢] والفاجرة ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح لأعطيناها إيّاه في الدنيا التي هي دار الكسب، وما أخّرناه إلى دار الجزاء.

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي: سبقَت كلمتي حيث قلت لإبليس / عند [٣٣١ظ] قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٢-٨٣]: ﴿فَالْحَقُّ[٣] وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٤-٨٥]، وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ كما يلوّح به تقديم ﴿الْجِنَّةِ﴾ على ﴿النَّاسِ﴾، فبموجَب ذلك القول لم نَشَأْ إعطاءَ الهدى على العموم؛ بل منَعْناه مِن أتباع إبليس الذين أنتم مِن جملتهم حيث صرفتم اختياركم إلى الغيّ بإغوائه، ومشيئتُنا لأفعال العباد مَنوطة باختيارهم إيّاها، فلمّا لم تختاروا الهدى واخترتم الضلالة لم نشَأْ إعطاءَه لكم، وإنّما أعطيناه الذين اختاروه مِن النفوس البَرّة، وهم المَعنِيّون بما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الآيةَ،[٤] فيكون مناطُ عدمِ مشيئته إعطاءَ الهدى في الحقيقة سوءَ اختيارهم، لا تحقّقَ القولِ.

وإنّما قيّدنا المشيئة بما مرّ مِن التعلّق الفعلي بأفعال العباد عند حدوثها، لأنّ المشيئة الأزليّة مِن حيث تعلّقُها بما سيكون مِن أفعالهم إجمالًا متقدّمةٌ على تحقّق كلمة العذاب، فلا يكون عدمُها مَنوطًا بتحقّقِها، وإنّما مناطه علمه تعالى أزَلًا بِصَرف اختيارِهم فيما سيأتي إلى الغَيّ، وإيثارِهم له على الهدى، فلو أُريدت هي مِن تلك الحيثيّة لاستُدرِك بعدمها، ونِيط ذلك بما ذُكر مِن المَناط،

---

١ السجدة، ٣٢/١٢.

٢ س: البرّه.

٣ وفي هامش م: مقول لقوله: "حيث قلتُ".

٤ السجدة، ٣٢/١٥.

على منهاج قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال، ٢٣/٨]. فمَن توهَّم[١] أنّ المعنى: ولو شئنا لأعطينا كلّ نفس ما عندنا مِن اللطف الذي لو كان منهم اختياره لَاهتَدَوا، ولكن لم نعطهم لمّا علمنا منهم اختيارَ الكفر وإيثارَه، فقد اشتبه عليه الشئون.[٢]

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٤ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ١٥﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما يُعرِب عنه ما قبله مِن نفي الرجع إلى الدنيا، أو على الوعيد المحكي. و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ للإيذان بأنّ تعذيبهم ليس لمجرّد سبق الوعيد به فقط؛ بل هو وسَبْقُ الوعيد أيضًا بسببٍ موجِب له مِن قِبَلهم، كأنّه قيل: لا رَجْعَ لكم إلى الدنيا، أو حقّ وعيدي فذوقوا بسبب نسيانكم لقاءَ هذا اليوم الهائل، وتركِكم التفكّرَ فيه والاستعدادَ له بالكلّيّة. ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: تركناكم في العذاب ترْكَ المنسيّ بالمرّة.

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تكرير للتأكيد والتشديدِ، وتعيينِ المفعول المطويّ للذَّوق، والإشعارِ / بأنّ سببه ليس مجرّد ما ذُكِر مِن [٣٣٢و] النسيان؛ بل له أسباب أُخَر مِن فنون الكفر والمعاصي التي كانوا مستمرّين عليها في الدنيا. وعدم نظم الكلّ في سِلك واحدٍ للتنبيه على استقلال كلّ منها في استيجاب العذاب. وفي إبهام المَذوق أوّلًا وبيانِه ثانيًا بتكرير الأمر وتوسيطِ الاستئناف المنبئ عن كمال السخط بينهما مِن الدلالة على غاية التشديد في الانتقام منهم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ استئناف مَسوق لتقرير عدم استحقاقهم

---

١ يعني النسفي في مدارك التنزيل، ٨/٣.

٢ وفي هامش م: وكذا مَن قال: «المعنى: لو علمناها أهلًا للهدى لهديناها». «منه». | نقله الطيبي عن بعضهم في فتوح الغيب، ٣٤٢/١٢.

لإيتاءِ الهدى والإشعارِ بعدم إيمانهم لو أُوتوه بتعيين مَن يستحقّه بطريق القصر، كأنّه قيل: إنكم لا تؤمنون بآياتنا، ولا تعملون بموجَبها عملًا صالحًا، ولو رجعناكم إلى الدنيا كما تدّعون حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام، ٢٨/٦]، وإنّما يؤمن بها ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ أي: وُعِظوا ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ آثِرَ ذي أثِيرٍ مِن غير تردّدٍ ولا تَلَعثُمٍ، فضلًا عن التسويف إلى معاينةِ ما نطقَت به مِن الوعد والوعيد، أي: سقطوا على وجوههم، ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ونزّهوه عند ذلك عن كلّ ما لا يليق به مِن الأمور التي مِن جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التي أجلُّها الهداية بإيتاء الآيات والتوفيقُ للاهتداء بها.

والتعرّض لعنوان الربوبيّة بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلّة التسبيح والتحميد، وبأنّهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيّته تعالى لهم.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: والحال أنّهم خاضعون له تعالى، لا يستكبرون عمّا فعلوا مِن الخرور والتسبيح والتحميد.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ١٦﴾

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي: تنبو وتتنحّى ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: الفُرُشِ ومواضعِ المنام. والجملة مستأنَفة لبيان بقيّة محاسنهم، وهم المتهجّدون بالليل.

قال أنس رضي الله عنه: «نزلت فينا معاشِرَ الأنصار، / كنّا نصلّي المغرب، فلا نرجع إلى رحالنا حتّى نصلّي العشاء مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم».[1] [٣٣٢ظ]

وعن أنس أيضًا أنّه قال: «نزلت في أناس مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كانوا يصلّون مِن صلاة المغرب إلى صلاة العشاء، وهي صلاة الأوّابين».[2]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣١/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٥٣/٣.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٢/٣. وأخرجه بنحوه أبو داود في سننه، ٤٨٧/٢.

وهو قول أبي حازم،[١] ومحمّد بن المنكدر،[٢] وهو مرويّ عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[٣] عنهما.[٤]

وقال عطاء: «هم الذين لا ينامون حتّى يصلّوا العشاء الآخرة والفجرَ في جماعة».[٥]

والمشهور أنّ المراد منه صلاة الليل،[٦] وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة،[٧] لقوله صلّى الله عليه وسلّم:[٨] «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهرُ الله المحرّم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاةُ الليل».[٩]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في تفسيرها: «قيام العبد مِن الليل».[١٠]

وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين جاءَ منادٍ ينادي بصوتٍ يُسمِعُ الخلائق كلَّهم: "سيعلم أهلُ الجمع مَن أولى بالكرَم"، ثمّ يرجع فينادي: "لِيَقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع"، فيقومون وهم قليل،

---

١ هو سلمة بن دينار المَديني المخزومي، أبو حازم (ت. ١٤٠هـ/٧٥٧م)، الإمام، القدوة، الواعظ، شيخ المدينة النبويّة، القاصّ، الزاهد. وُلد في أيّام ابن الزبير وابن عمر. وروى عن سهل بن سعد وأبي أمامة بن سهل وسعيد بن المسيّب، بعث إليه سليمان بن عبد الملك ليأتيه، فقال: «إن كانت له حاجة فليأتِ، وأمّا أنا فما لي إليه حاجة». قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «ما رأيت أحدًا الحكمةُ أقرب إلى فيه مِن أبي حازم» أخباره كثيرة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٩٦/٦؛ والأعلام للزركلي، ١١٣/٣.

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٥٣/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٨٥/١٥. | هو محمّد بن المنكَدر بن عبد الله بن الهدير بن عبد العزّى القرشي التيمي المدني، أبو عبد الله (ت. ١٣٠هـ/٧٤٨م)، الإمام، الحافظ، القدوة، شيخ الإسلام. روى عن عائشة وأبي هريرة وابن عمر وجابر وابن عبّاس وابن الزبير وغيرهم رضي الله عنهم. قال سفيان الثوري: «كان مِن معادن الصدق، ويجتمع إليه الصالحون، ولم ندرك أحدًا أجدَر أن يَقبل الناس منه إذا قال: "قال رسول الله" منه». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٥٣/٥؛ والأعلام للزركلي، ١١٢/٧.

٣ س - تعالى.

٤ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٠٣/٦؛ والدرّ المنثور للسيوطي، ٥٤٦/٦.

٥ معالم التنزيل للبغوي، ٣٠٤/٦؛ اللباب لابن عادل، ٤٨٥/١٥. وانظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣١/٧.

٦ وفي هامش م: أي: التهجّد. «منه».

٧ انظر: جامع البيان للطبري، ٦١٢/١٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠٤/٦.

٨ س: عليه السلام.

٩ صحيح مسلم، ٨٢١/٢ (١١٦٣)؛ سنن أبي داود، ٩٦/٤ (٢٤٢٩).

١٠ جامع البيان للطبري، ٦١٥/١٨؛ مسند أحمد، ٣٥٢/٣٦ (٢٢٠٢٢).

ثـمّ يرجع فيقـول: "لِيَقـم الذيـن يحمـدون الله[1] في البأسـاء والضرّاء"، فيقومون وهـم قليل، فيسرَحون جميعًا إلى الجنّة، ثمّ يحاسَب سائر الناس».[2]

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ حال مِن ضمير ﴿جُنُوبُهُمْ﴾، أي: داعين له تعالى على الاستمرار ﴿خَوْفًا﴾ مِن سخطه وعذابه وعدمِ قبول عبادته، ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ مِن المال ﴿يُنفِقُونَ﴾ في وجوه البرّ والحسنات.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ مِن النفوس، لا ملَكٌ مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسَل، فضلًا عمّن عداهم ﴿مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾ أي: لأولئك الذين عُدّدت نُعوتهم الجليلة ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ممّا تَقَرُّ به أعينُهم. وعنه عليه السلام: «يقول الله عزّ وجلّ: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأَت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب بشَر، بَلْهَ ما اطّلعتم عليه، اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾».[3]

[٣٣٣و] / وقُرئ: "مَا أُخْفِي لَهُمْ"،[4] و"مَا نُخْفِي لَهُمْ"،[5] و"مَا أَخْفَيْتُ لَهُمْ"[6] على صيغة المتكلّم، و"مَا أَخْفَى لَهُمْ"[7] على البناء[8] للفاعل، وهو الله سبحانه. وقُرئ: "قُرَّاتِ أَعْيُنٍ"[9] لاختلاف أنواعها. و"العِلم" بمعنى المعرفة، و﴿مَا﴾ موصولة، أو استفهاميّة عُلّق عنها الفعل.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: جُزُوا جزاءً، أو أُخفِي لهم للجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا مِن الأعمال الصالحة. قيل: هؤلاء القوم أخفَوا أعمالهم، فأخفى الله تعالى ثوابهم.

---

١ س – الله.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٢/٧. وبنحوه في شعب الإيمان للبيهقي، ٥٣٩/٤ (٢٩٧٥).

٣ صحيح البخاري، ١١٨/٤ (٣٢٤٤)؛ صحيح مسلم، ٢١٤١/٤ (٢٨٢٤).

٤ أي: بإسكان "الياء". قرأ بها يعقوب وحمزة. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وابن محيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨١.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن كعب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٧/٨.

٨ س + على.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وأبي هريرة رضي الله عنهم وعوف العقيلي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٧/٨.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨﴾

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أي: أَبعدَ ظهور ما بينهما مِن التباين البيّن يُتوهَّم كونُ المؤمِن الذي حُكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذي ذُكرت أحوالُه. ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ التصريحُ به مع إفادة الإنكار لنفي المشابهة بالمرّة على أبلغ وجهٍ وآكدِه لبناء التفصيل الآتي عليه. والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها.

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ تفصيل لمراتب الفريقين في الآخرة بعد ذكر أحوالهما في الدنيا. وأضيفت "الجنّة" إلى "المَأوى" لأنّها المأوى الحقيقي، وإنّما الدنيا منزل مرتحَل عنه لا محالةَ. وقيل: ﴿الْمَأْوَىٰ﴾ جنّة مِن الجنّات. وأيًّا ما كان فلا يَبعد أن يكون فيه رمز إلى ما ذُكر مِن تجافيهم عن مضاجعهم التي هي مأواهم في الدنيا.

﴿نُزُلًا﴾ أي: ثوابًا، وهو في الأصل ما يُعدّ للنازل مِن الطعام والشراب. وانتصابه على الحاليّة. ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الأعمال الصالحة، أو بأعمالهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴾

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا عن الطاعة ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾ أي: ملجأهم ومنزلهم ﴿النَّارُ﴾ مكانَ جنّات المأوى للمؤمنين، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ استئناف لبيان كيفيّة كون النارِ مأواهم.

[٢٣٣ظ] يُروى أنّه يضربهم لهَب النار / فيرتفعون إلى طبقاتها حتّى إذا قَرُبُوا مِن بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم اللهَب فيَهْوُون إلى قَعرها، وهكذا يُفعَل بهم أبدًا.[١]

---

١ عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٣ (الحج، ٢٢/٢٢)؛ واللباب لابن عادل، ٥١/١٤ (الحج، ٢٢/٢٢).

وكلمة ﴿فِي﴾ للدلالة على أنّهم مستقِرّون فيها، وإنّما الإعادة مِن بعضِ طبقاتها إلى بعضٍ.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ تشديدًا عليهم وزيادةً في غيظهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾ أي: بعذاب النار ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ على الاستمرار في الدنيا.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: عذابِ الدنيا، وهو ما مُحِنوا به مِن السنة سبعَ سنين والقتلِ والأسرِ، ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ الذي هو عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعلّ الذين يشاهدونه وهم في الحياة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون عن الكفر.

رُوي أنّ الوليد بن عتبة[1] فاخَر عليًّا رضي الله عنه يوم بدر، فنزلت هذه الآيات:[2] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ بيان إجمالي لحال مَن قابلَ آيات الله تعالى بالإعراض بعد بيان حال مَن قابَلَها بالسجود والتسبيح والتحميد. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإعراض عنها عقلًا مع غاية وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين، كما في بيت **الحماسة**:[3]

---

١ وفي هامش م: هو ابن أبي مُعيط. | كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب: "ابن عقبة". وهو الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط بن أبي عمرو بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي (ت. بعد ١٠١هـ/٧٢٠م). هو أخو أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه لأمّه، بن مُسلِمة الفتح؛ بعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على صدقات بني المصطلِق، وبعثه عمر على صدقات بني تغلب، وولي الكوفة لعثمان رضي الله عنه، وجاهد بالشام، ثمّ اعتزل بالجزيرة بعد قتل أخيه عثمان، وكان سخيًّا، شاعرًا. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣/٤١٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٦/١١٢.

٢ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٢٢٢. وفي **الكشف والبيان** للثعلبي، ٧/٣٣٣: «كان بينهما تنازع وكلام في شيء، فقال الوليد لعليّ: "اسكت، فإنّك صبيّ، وأنا واللهِ أبسطُ منك لسانًا، وأحدّ منك سِنانًا، وأشجع جَنانًا، وأملأ منك حشوًا في الكتيبة"، فقال له عليّ: "اسكت، فإنّك فاسق"، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ الآية».

٣ لجعفر بن علبة الحارثي الحماسي، أي: لا يكشف الشدّة، ويزيلها إلّا رجل كريم يرى قُحَم الموت، ويتحقّق غمرات الممارسة حتى كأنّه يشاهدها، ثمّ يتوسّطها، ولا يعدل عنها. و"الغمّاء": الغمّ والكربة. **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٨/١٦. وانظر: **شرح ديوان الحماسة** للمرزوقي، ص ٣٩.

لا يكشفُ الغمّاءَ إلّا ابنُ حُرّة يرى غمَراتِ الموت ثمّ يزورها[١]

أي: هو أظلم مِن كلّ ظالم، وإن كان سبك التركيب على نفي الأظلم مِن غير تعرّض لنفي المُساوي، وقد مرّ مرارًا.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مِن كلّ مَن اتّصف بالإجرام وإن هانَت جريمته ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف ممّن هو أظلم مِن كلّ ظالم، وأشدُّ جُرمًا مِن كلّ مُجرم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، عُبّر عنها باسم الجنس لتحقيق المجانَسة بينها وبين الفرقان، والتنبيه على أنّ إيتاءَه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم كإيتائها لموسى عليه السلام.

﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ مِن لقاء الكتاب الذي هو الفرقان، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل، ٢٧/٦]، والمعنى: إنّا آتينا موسى مثلَ ما آتيناك مِن الكتاب، ولَقّيناهُ مثل ما لَقّيناك مِن الوحي، فلا تكن في شكّ مِن أنّك لُقِيتَ مثلَه ونظيرَه.

[٣٣٤و] وقيل: مِن لقاء موسى الكتابَ، أو مِن لقائك موسى عليه السلام، / وعنه عليه السلام: «رأيت ليلةَ أسري بي موسى عليه السلام رجلًا آدم طوالًا جَعدًا، كأنّه مِن رجال شَنُوءة».[٢]

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قيل: لم يُتعبّد بما في التوراة وَلَدُ إسماعيل.

---

[١] وفي هامش م: المِصراع مَخروم؛ أُسقِط عن أوّله "الواو"، كما في قول خُبيب رضي الله عنه:
لستُ أبالي حين أُقتَلُ مسلمًا
على أيّ شِقّ كان لله مصرعي
أي: ولست. «منه». | "الخَرْم" في الشعر: ذهاب "الفاءِ" مِن "فَعُولُن"، أو "الميمِ" مِن "مُفاعَلَتُن". القاموس المحيط للفيروزابادي، «خرم». والبيت في مسند أحمد، ٤٦١/١٣ (٨٠٩٦)؛ وصحيح البخاري، ١٢٠/٩ (٧٤٠٢)، بلفظ: "ولست أبالي".

[٢] صحيح البخاري، ١١٦/٤ (٣٢٣٩)؛ صحيح مسلم، ١٥١/١ (١٦٥). | شَنوءة بطن مِن الأزد، مِن القحطانيّة، وهم بنو نَصر بن الأزد، وبنو شَنوءة هذا هم الذين يقال لهم: "أزد شنوءة". نهاية الأرب للقلقشندي، ٣٠٨/١.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ بقيَّتهم بما في تضاعيف الكتاب مِن الحِكم والأحكام إلى طريق الحقّ، أو يهدونهم إلى ما فيه مِن دين الله وشرائعه، ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إيّاهم بذلك، أو بتوفيقنا له، ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ هي "لمّا" التي فيها معنى الجزاء، نحو: "أحسنتُ إليك لمّا جئتَني". والضمير للأئمّة، تقديره: لمّا صبروا جعلناهم أئمّةً، أو هي ظرف بمعنى الحين، أي: جعلناهم أئمّة حين صبروا، والمراد صبرهم على مشاقّ الطاعات، ومُقاساةِ الشدائد في نصرة الدين، أو صبرُهم عن الدنيا. وقُرئ: "لِمَا صَبَرُوا"،[١] أي: لِصبرهم.

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي في تضاعيف الكتاب ﴿يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر، والمعنى: كذلك لنجعلنّ الكتاب الذي آتيناكَهُ هُدًى لأمّتك، ولنجعلنّ منهم أئمّةً يهدون مثلَ تلك الهداية.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ أي: يقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قيل: بين الأنبياء وأممهم، وقيل: بين المؤمنين والمشركين. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيميّز بين المُحقّ والمُبطل ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أمور الدين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ "الهمزة" للإنكار، و"الواو" للعطف على منويّ يقتضيه المقام. وفعل الهداية إمّا مِن قَبيل: "فلان يُعطي" في أنّ المراد إيقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول، وإمّا بمعنى التبيين، والمفعولُ محذوف، والفاعل ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: أَغَفلوا ولم يَفْعَلِ الهدايةَ لهم -أو وَلَم يُبيّنْ لهم مَآلَ أمرهم- كثرةُ إهلاكنا ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ مثلِ عادٍ وثمود وقومِ لوط.

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

وقُرِئ: "نَهْدِ لَهُمْ" بنونِ العظَمة،[١] وقد جُوّز أن يكون الفاعل على القراءة الأولى أيضًا ضميرَه تعالى، فيكون قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾... إلخ استئنافًا مُبيّنًا لكيفيّة هدايته تعالى.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي: يمرّون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم، ويشاهدون آثار هلاكهم. والجملة حال مِن ضمير ﴿لَهُمْ﴾. وقُرِئ: "يُمَشُّونَ"[٢] للتكثير.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن كثرة إهلاكنا للأمم الخالية العاتية، أو في مساكنهم ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمةً في أنفسها، كثيرةً في عددها. / ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ هذه [٣٣٤ظ] الآيات سماعَ تدبّر واتّعاظ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي: التي جُرِز نباتُها، أي: قُطعَ وأُزيلَ بالمرّة. وقيل: هو اسم موضعٍ باليمن. ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ مِن تلك الأرض ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ أي: مِن ذلك الزرع ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ كالتِّبن والقَصِيل وَالوَرَقِ وبعضِ الحبوب المخصوصة بها. وقُرِئ: "يَأْكُلُ" بـ"الياء".[٣]

﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحبوب التي يَقْتاتُها الإنسان والثمارِ. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلّوا به على كمال قدرته تعالى وفضلِه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ كان المسلمون يقولون: إنّ الله سيفتح لنا على المشركين، أو يفصل بيننا وبينهم، وكان أهل مكّة إذا سَمِعُوه يقولون بطريق الاستعجال تكذيبًا واستهزاءً:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وأبي عبد الرحمن السلمي. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٩٦/٧ (طه، ١٢٨/٢٠).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن حمزة وابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٢.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي: النصر، أو الفصلُ بالحكومة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّ الله تعالى ينصركم، أو يفصل بيننا وبينكم؟

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٩﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم وتحقيقًا للحقّ: ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ "يومُ الفتح": يوم القيامة، وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم، ويومُ نصرهم عليهم. وقيل: هو يوم بدر. وعن مجاهد والحسن رحمهما الله: «يومُ فتحِ مكّة».[١]

والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتنبيه على أنّه ليس ممّا ينبغي أن يُسأَل عنه، لكونه أمرًا بيّنًا غنيًّا عن الإخبار به، وكذا إيمانُهم واستنظارهم يومئذ، وإنّما المحتاج إلى البيان عدمُ نفع ذلك الإيمان وعدمُ الإنظار، كأنّه قيل: لا تستعجلوا، فكأنّي بكم قد آمنتم فلم ينفعكم، واستنظرتم فلم تُنظَرُوا. وهذا على الوجه الأوّل ظاهر، وأمّا على الأخيرين فالموصول عبارة عن المقتولين يومئذ، لا عن كافّة الكفرة كما في الوجه الأوّل، كيف لا وقد نَفَع الإيمانُ الطلقاءَ يومَ الفتح، وناسًا آمنوا يومَ بدرٍ.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبالِ بتكذيبهم، ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النصرةَ عليهم وهلاكَهم، ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ قيل: أي: الغلبةَ عليكم، كقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة، ٩/٥٢]. والأظهَر أن يقال: إنّهم منتظرون هلاكَهم كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ الآية [البقرة، ٢/٢١٠]، ويقرُب منه ما قيل: وانتظِر عذابَنا إنّهم منتظروه، فإنّ استعجالهم المذكور وعكوفَهم على ما هم عليه مِن الكفر والمعاصي في حكم انتظارِهم العذابَ المترتّب عليه لا محالةَ.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥١٧؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤٤٢.

وقُرِئَ على صيغة المفعول[١] على معنَى أنّهم أحِقّاء بأن يُنتظَر هلاكُهم، أو فإنّ الملائكة ينتظرونه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾ [السجدة] و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك] أُعطي مِن الأجر كأنّما أحيى ليلة القدر».[٢] وعنه عليه السلام: «مَن قرأ: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾ [السجدة] في بيتِه لم يدخل الشيطان بيتَه ثلاثة أيّام».[٣]

---

١ أي: "مُنتَظَرُونَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٣ ط س + تم. | الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٣/٤. قال الزيلعي: «غريب جدًّا». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٨٩/٣.

٣٢

سُورَةُ السَّجْدَةِ

مكية، ثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الم﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿تَنزِيلُ الكِتابِ﴾: القُرآنِ مبتدأٌ ﴿لا رَيبَ﴾: شكّ ﴿فِيهِ﴾: خبرٌ أوّل ﴿مِن رَبِّ العالَمِينَ﴾: خبرٌ ثانٍ. ٣ ـ ﴿أم﴾ بل ﴿يَقُولُونَ: افتراهُ﴾ مُحمّد؟ لا ﴿بَل هُوَ الحَقُّ مِن رَبِّكَ، لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَومًا، ما﴾: نافية ﴿أتاهُم مِن نَذِيرٍ مِن قَبلِكَ، لَعَلَّهُم يَهتَدُونَ﴾ بإنذارِكَ.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

قولُه: (مُبْتَدَأٌ) أو خبرٌ محذوفٍ؛ أي: هذا المتلوُّ، على أنَّ التَّنزيلَ بمعنى: المنزَّلِ، والإضافةُ من بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ.

قولُه: (شَكَّ) لأنَّ نافيَ الرَّيبِ معه، وهو كونُه مُعجِزاً.

قولُه: (بَل) الظَّاهرُ: تقديرُ الهمزةِ أيضاً ليصِحَّ.

قولُه: (لَا) أي: ما افترَاهُ.

قولُه: (نَافيةٌ) وقولُه إذا كانوا أهلَ الفترَةِ فيه إشكالٌ؛ إذ أهلُ الفترَةِ في عذابِهم خلافٌ، فالأحسنُ قولُ الصَّفويِّ: فإنَّهُ ما أتاهم رسُولٌ منهم مبعُوثٌ إليهم ينذرُهُم، وإنْ كانُوا يُلْزَمُونَ بشرائعِ الرُّسُلِ من قَبْلُ، وكانُوا مُقَصِّرينَ في البحثِ عنها، لاسيَّما دِينُ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلامُ[1].

قولُه: (بإِنْذَارِكَ) إيَّاهم.

---

(١) وانظر: «جامع البيان في تفسير القرآن» (٣/ ٣٢٦)، ففيه بعض الكلام وبقيته في «جوامع التبيان» ولم يطبع بعد.

٤ ـ ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ وما بَيْنَهُما في سِتَّةِ أيّامٍ﴾، أوّلها الأحد وآخرها الجمعة، ﴿ثُمَّ استَوَى علَى العَرْشِ﴾، هو في اللغة سريرُ المُلك، استواءً يليق به، ﴿مالَكُم﴾ ـ يا كُفّار مكّة ـ ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: غيرَه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾: اسم «ما» بزيادة «من» أي: ناصرٍ، ﴿ولا شَفِيعٍ﴾: يدفع عذابه عنكم. ﴿أفلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ هذا، فتؤمنون به؟

٥ ـ ﴿يُدَبِّرُ الأمرَ مِنَ السَّماءِ إلَى الأرضِ﴾ مُدّةَ الدنيا، ﴿ثُمَّ يَعرُجُ﴾ يرجِع الأمر والتدبير ﴿إلَيهِ في يَومٍ، كانَ مِقدارُهُ ألفَ سَنةٍ مِمّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا. وفي سورةِ «سأَلَ»: «خَمسِينَ ألفَ سَنةٍ»، وهو يوم القيامة لشِدّة أهواله بالنسبة إلى الكافر. وأمّا المؤمن فيكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة، يُصلّيها في الدنيا كما جاء في الحديث.

٦ ـ ﴿ذلِكَ﴾ الخالق المدبِّر ﴿عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ﴾ أي: ما غاب عن الخلق وما حضر، ﴿العَزيزُ﴾: المنيع في مُلكه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأهل طاعته، ....

قولُه: (وهُوَ في اللُّغَةِ) والمرادُ به شَرْعاً: الجِسمُ الأعظَمُ المحيطُ بجميعِ المخلوقاتِ.

قولُه: (يَلِيقُ بِهِ) هذا مذهَبُ السَّلَفِ، وتقدَّمَ تأويلُ بعضِ الخلَفِ(١).

قولُه: (هَذا) الوَعظُ.

قولُه: (مُدَّةَ الدُّنيَا) ظرفٌ لـ﴿يُدَبِّرُ﴾؛ أي: يدبِّرُ أمرَ الدُّنيا منزِّلاً من السَّماءِ إلى الأرضِ إلى يومِ القيامَةِ، فإنَّ السَّماءَ محلُّ حُكمِ اللهِ، ومنه تَنزِلُ الأمورُ.

قولُه: (يَرجِعُ الأمْرُ) أي: ذلك الأمرُ كلُّهُ؛ أي: يصيرُ إلى اللهِ لأنْ يحكُمَ فيهِ، فقولُه: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ ظرفٌ لـ﴿يَعْرُجُ﴾ لا لـ﴿يُدَبِّرُ﴾ فتدَبَّر.

قولُه: (وفي سُورَةِ ﴿سَأَلَ﴾(٢)) حاصلُهُ: أنَّ يومَ القيامةِ طويلُ مُدَّة [خمسين](٣) ألفَ سنةٍ في الدُّنيا، ويكونُ طويلاً على الكافرينَ وقصيراً على المؤمنينَ الكاملينَ، والباقونَ على مراتِبِهِم، وفي الآيَةِ هذهِ أقوالٌ كَثيرَةٌ للسَّلفِ والخَلفِ، وهذا أظهرُها.

قولُه: (ومَا حَضَرَ) أي: لهم.

قولُه: (المَنِيعُ) الغالِبُ الَّذي لا يغالبُهُ أحدٌ.

---

(١) في سورة الأعراف [٥٤].

(٢) قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

(٣) سقطت من كل النسخ، وسياق آية المعارج تقتضيها.

٧ ـ ٨ ـ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ـ بفتح اللام، فعلاً ماضيًا: صفةٌ، وبسكونها: بدلُ اشتمال ـ ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسانِ﴾ آدمَ ﴿مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾: ذُرِّيته ﴿مِن سُلالَةٍ﴾: علَقةٍ ﴿مِن ماءٍ مَهِينٍ﴾: ضعيف، هو النُّطفة، ٩ ـ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ أي: خَلْقَ آدمَ، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ﴾، أي: جعله حيًّا حسّاسًا بعد أن كان جمادًا، ﴿وجَعَلَ لَكُمُ﴾ أي: لذُرِّيته ﴿السَّمْعَ﴾ بمعنى الأسماع ﴿والأبصارَ والأفئِدَةَ﴾: القُلوب. ﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ ما: زائدة مؤكِّدة للقِلَّة.

١٠ ـ ١١ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: منكرو البعث: ﴿أإذا ضَلَلْنا في الأرضِ﴾: غبنا فيها بأن صِرنا تُرابًا مُختلطًا بتُرابها ﴿أإنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ استفهامُ إنكار، بتحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين في الموضعين. قال تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقاءِ رَبِّهِم﴾: بالبعث ﴿كافِرُونَ. قُلْ﴾ لهم: ﴿يَتَوَفّاكُم مَلَكُ المَوتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُم﴾ أي: بقبضِ أرواحكم، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرجَعُونَ﴾ أحياءً، فيُجازيكم بأعمالكم.

قولُه: (بفَتحِ اللّامِ) نافعٌ وكوفيٌّ[1].

قولُه: (صِفَةٌ) لـ﴿شَيْءٍ﴾ أو لـ﴿كُلَّ﴾.

قولُه: (بَدَلُ اشتِمالٍ) من ﴿كُلَّ﴾، وضميرُ ﴿خَلْقَهُ﴾ عائدٌ إلى: ﴿كُلَّ﴾.

قولُه: (ضَعيفٍ) أو مُمتهَنٍ مبتَذَلٍ حَقيرٍ.

قولُه: (أي: خَلْقَ آدمَ) أو نسلَه، والثّاني أظهرُ لمعنى ﴿ثُمَّ﴾.

قولُه: (لذُرِّيَّتِهِ) هذا غيرُ مَرضيٍّ لتوهُّمِ خروجِ آدمَ، والأَولى أن يُقالَ: فيه التِفاتٌ من مُفرَدٍ غائبٍ إلى جمعِ مُخاطَبٍ.

قولُه: (للقِلَّةِ) أي: تشكرون شكراً قليلاً، مع أنَّ الشّاكرينَ قليلٌ، قالَ تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

قولُه: (بأنْ صِرْنا) هذا جمْعٌ بين القولَين، فإنَّ «ضلَّ» إما بمعنى: صارَ، وإمَّا بمعنى: غابَ.

قولُه: (استفهامُ إنكارٍ) وتعجُّبٍ، والثّاني للتّأكيد، وقرأ شاميٌّ بالإخبارِ في الأوَّلِ، ونافعٌ والكسائيُّ في الثّاني[2]، وكلٌّ على أصلِهِ المتقدِّمِ ذكرُه.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥١٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٦٨).

(٢) أي: بالإخبار في الثاني، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٧، ٥١٦).

١٢ ـ ﴿ولَو تَرَى إِذِ المُجرِمُونَ﴾: الكافرون ﴿ناكِسُو رُؤُوسِهِم عِندَ رَبِّهِم﴾: مُطأطئوها حياءً، يقولون: ﴿رَبَّنا، أبصَرْنا﴾ ما أنكرنا من البعث، ﴿وسَمِعْنا﴾ منك تصديق الرُّسل فيما كذّبناهم فيه. ﴿فارجِعْنا﴾ إلى الدنيا، ﴿نَعمَلْ صالِحًا﴾ فيها. ﴿إنّا مُوقِنُونَ﴾ الآنَ. فما ينفعهم ذلك ولا يرجعون. وجواب «لو»: لرأيتَ أمرًا فظيعًا.

١٣ ـ قال تعالى: ﴿ولَو شِئنا لآتَينا كُلَّ نَفسٍ هُداها﴾، فتهتدي بالإيمان والطاعة باختيار منها، ﴿ولكِن حَقَّ القَولُ مِنِّي﴾، وهو: ﴿لأملَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ﴾: الجنّ ﴿والنّاسِ أجمَعِينَ﴾. وتقول لهم الخزنة إذا دخلوها: ١٤ ـ ﴿فذُوقُوا﴾ العذابَ ﴿بِما نَسِيتُم لِقاءَ يَومِكُم هذا﴾ أي: بترككم الإيمانَ به ـ ﴿إنّا نَسِيناكُم﴾: تركناكم في العذاب ـ ﴿وذُوقُوا عَذابَ الخُلدِ﴾ الدائمِ ﴿بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ من الكُفر والتكذيب.

قولُه: (الكَافِرُونَ) بقرينةِ طَلَبِ الرَّجعَةِ.

قولُه: (حَيَاءً) وندامَةً.

قولُه: (أَمراً فَظِيعاً) أو: ﴿لَو﴾ للتَّمنِّي فلا تطلُب جواباً، والمخاطَبُ في ﴿تَرَى﴾ رسولُ اللهِ ﷺ، أو كلُّ أحدٍ، ولا يُقدَّرُ له مفعولٌ، فإنَّ معناهُ: لو يكونُ معكَ رؤيةٌ في هذا الوقتِ، أو يُقدَّرُ ما يدُلُّ عليه الظَّرفُ.

قولُه: (باختِيَارٍ مِنْهَا) وبتوفيقٍ منَّا، الَّذي هو إعطاءٌ للهدايةِ.

قولُه: (وهُوَ) أي: ﴿حقَّ القولُ﴾ أي: ثبَتَ قضَائي، وسبَقَ وَعيدِي[1] وهو: [﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾][2].

قولُه: (الجِنّ) واللَّامُ للإشارةِ إلى المجرِمينَ، أو الَّذينَ هم في عِلمِ اللهِ أشقياءُ، فلا يُشكِلُ بقولِه: ﴿أَجْمَعِيْنَ﴾ وايمُ اللهِ إنَّ هذهِ الآيَةَ لكسَرَت أنيابَ المعتزلةِ، ولكن ﴿مَن لمْ يجعَلِ اللهُ لَهُ نوراً فمَا لَهُ مِنْ نورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قولُه: (تَقُولُ لَهُمُ الخَزَنَةُ) على سَبيلِ التَّقريعِ.

قولُه: (العَذَابَ) أشارَ إلى مفعولٍ محذوفٍ، والمرادُ به: ما هُم فيه من نَكسِ الرُّؤوسِ والخِزْيِ والغَمِّ، حتَّى لا يكونَ تَكراراً لقولِه تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ [السجدة: ١٤] فالظَّاهرُ أن يُقدَّرَ: (ويقالُ لهُم)، فقط اللَّهمَّ إلَّا أن يُؤوَّلَ «إذا دخلُوهَا» بمعنى: قارَبوا دُخولها، أو يُحمَلُ الأمرُ الثَّاني على التَّأكيدِ.

---

(١) في (م) و(ص): «وعيدي وجزائي»، والمثبت موافق لما في «أنوار التنزيل».

(٢) ما بين معكوفتين من «أنوار التنزيل».

١٥ ـ ﴿إنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنا﴾: القُرآنِ ﴿الَّذِينَ إذا ذُكِّرُوا﴾: وُعِظوا ﴿بِها خَرُّوا سُجَّدًا، وسَبَّحُوا﴾ مُلتبسين ﴿بِحَمدِ رَبِّهِم﴾ أي: قالوا: سُبحانَ اللهِ وبحمده، ﴿وهُم لا يَستكبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطاعة،
١٦ ـ ﴿تَتَجافَى جُنُوبُهُم﴾: ترتفعُ ﴿عَنِ المَضاجِعِ﴾: مواضعِ الاضطجاع بفُرُشها لصلاتهم بالليل تهجّدًا، ﴿يَدعُونَ رَبَّهُم خَوفًا﴾ من عِقابه ﴿وطَمَعًا﴾..........................

قولُه: (وُعِظُوا) وقولُه تعالى: ﴿خَرُّوا﴾ أي: خَوفاً من عَذابِ اللهِ.

قولُه: (أي قَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمدِهِ) أي: نَزَّهوهُ عمَّا لا يليقُ به كالعَجْزِ عن البعثِ، وحَمِدوه شُكراً على ما هداهُم ووفَّقَهُم.

قولُه: (والطَّاعَةِ) ومنها السَّجدَةُ في أوقاتِها.

قولُه: (تَرتَفِعُ) وتتنحَّى، وفي نسبةِ التَّجافي إلى الجَنْبِ مبالغةٌ لا تَخفى.

قولُه: (الاضْطجَاعِ) فيهِ: أنَّ المضاجِعَ موضِعُ الضَّجعِ، وهو وضْعُ الجَنبِ بالأرضِ، فقولُه: (بفُرُشِهَا) ليسَ مفهومَهُ اللُّغويَّ، وكذا قولُ البيضاويِّ: الفرشُ ومواضعُ النَّومِ[١]، إلَّا أن يُقالَ: اللَّامُ للعهدِ بقرينَةِ المقامِ، وهو الظَّاهرُ من الكَلامِ.

قولُه: (تَهَجُّدًا) ويدُلُّ عليه الأحاديثُ الصِّحاحُ[٢]، وعن بعضٍ: هو صلاةُ العِشاءِ والصُّبحِ في جماعةٍ[٣]، وعن بعضٍ: هو صلاةُ الأوَّابينَ بينَ العِشاءَينِ[٤]، وعن بعضٍ: هو انتظارُ صلاةِ العِشاءِ[٥].

قولُه: (مِنْ عِقَابِهِ) وحِجابِهِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٢١).

(٢) روى أحمد في «مسنده» (٢٢٠٢٢) من حديث معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ [السجدة: ١٦] قال: «قيام العبد من الليل».

وبمعناه رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) من قول أبي الدرداء والضحاك وغيرهما، انظر: «تفسير القرطبي» (١٤/ ١٠٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٣٧).

(٤) روى أبو داود (١٣٢١) عن أنس بن مالك، في هذه الآية: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون﴾، قال: كانوا يتيقظون ما بين المغرب والعشاء يصلون.

وروى البيهقي في «السنن الكبرى» (٤٧٥٠) عن ابن المنكدر وأبي حازم يقولان: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾: هي ما بين المغرب وصلاة العشاء، صلاة الأوابين.

(٥) روى الترمذي (٣١٩٦) عن أنس بن مالك: أن هذه الآية: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ نزلت في انتظار هذه الصلاة التي تدعى العتمة.

وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

في رحمته، ﴿ومِمَّا رَزَقْناهُم يُنفِقُونَ﴾ يتصدّقون. ١٧ ـ ﴿فلا تَعلَمُ نَفسٌ ما أُخفِيَ﴾: خُبِّئ ﴿لَهُم مِن قُرَّةِ أعيُنٍ﴾: ما تَقِرّ به أعينهم ـ وفي قراءة بسكون الياء: مضارعٌ ـ ﴿جَزاءً بِما كانُوا يَعمَلُونَ﴾.

١٨ ـ ﴿أفمَن كانَ مُؤمِنًا كَمَن كانَ فاسِقًا؟ لا يَستَوُونَ﴾ أي: المؤمنون والفاسقون. ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ ﴿أمّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ فلَهُم جَنّاتُ المأوَى نُزُلاً﴾ ـ هو ما يُعَدّ للضيف ـ ﴿بِما كانُوا يَعمَلُونَ، وأمّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ بالكُفر والتكذيب ﴿فمأواهُمُ النّارُ، كُلَّما أرادُوا أن يَخرُجُوا مِنها أُعِيدُوا فِيها، وقِيلَ لَهُم: ذُوقُوا عَذابَ النّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ. ولَنُذِيقَنَّهُم مِنَ العَذابِ الأدنَى﴾ عذابِ الدنيا بالقتل والأسر والجدب سِنينَ والأمراض ﴿دُونَ﴾: قبلَ ﴿العَذابِ الأكبَرِ﴾ عذاب الآخرة، ﴿لَعَلَّهُم﴾ أي: مَن بقي منهم ﴿يَرجِعُونَ﴾ إلى الإيمان، ....

قولُه: (فِي رَحمَتِهِ) من جنَّتِهِ وثوابِهِ وقُربِهِ.

قولُه: (أَعْيُنُهُم) وفي الحديثِ: «أعْدَدْتُ لعبادِيَ الصَّالحينَ ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بَشَرٍ» رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ[١].

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ[٢].

قولُه: (مُضَارِعٌ) معلومٌ، والفاعلُ هو «اللهُ»، قيلَ: هذا لقومٍ أخفَوا أعمالَهم فأخفَى اللهُ جزاءَهُم جزاءً وفاقاً. وهو قولٌ حسَنٌ.

قولُه: (والفَاسِقُونَ) الخارِجونَ عن الإيمانِ، رُوِيَ: أنَّها نزلَت في عليٍّ والوليدِ بن عُقبَةَ[٣].

قولُه: (مَا يُعَدُّ) ويُحضَّرُ قبلَ الضِّيافةِ، ونصبُهُ على الحالِ من ضَميرِ: ﴿جَنَّاتُ﴾.

قولُه: (والجَدْبِ) القَحطِ.

قولُه: (سِنِينَ) سبعٌ.

قولُه: (والأَمْرَاضِ) والمصائبِ.

قولُه: (أي: مَنْ بَقِيَ) و«لعلَّ» لترَجّي المخاطَبِينَ.

(١) رواه البخاري (٤٧٨٠)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥١٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٦٩).

(٣) رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٤٣)، والآجري في «الشريعة» (١٥٩٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٣/ ٢٣٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٢٢ ـ ﴿وَمَن أظلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ﴾: القُرآنِ، ﴿ثُمَّ أعرَضَ عَنها﴾؟ أي: لا أحدَ أظلم منه. ﴿إنّا مِنَ المُجرِمِينَ﴾ أي: المُشركين ﴿مُنتَقِمُونَ﴾.

٢٣ ـ ٢٤ ـ ﴿ولَقَد آتَينا مُوسَى الكِتابَ﴾: التوراة ـ ﴿فَلا تَكُنْ في مِرْيَةٍ﴾: شكٍّ ﴿مِن لِقائِهِ﴾. وقد التقيا ليلةَ الإسراء ـ ﴿وجَعَلْناهُ﴾ أي: مُوسَى أو الكتابَ ﴿هُدًى﴾ هاديًا ﴿لِبَني إسرائيلَ، وجَعَلْنا مِنهُم أئمّةً﴾، بتحقيق الهمزتين وإبدال الثانية ياء: قادةً، ﴿يَهدُونَ﴾ الناس ﴿بِأمرِنا، لَمّا صَبَرُوا﴾ على دِينهم وعلى البلاء من عدوّهم، ﴿وكانُوا بِآياتِنا﴾ الدالّة على قُدرتنا ووَحدانيّتنا ﴿يُوقِنُونَ﴾. وفي قراءة بكسر اللام وتخفيف الميم. ٢٥ ـ ﴿إنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفصِلُ بَينَهُم يَومَ القِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾ من أمر الدِّين.

قولُه: (أيْ: لا أَحَدَ) مفهومٌ من: ﴿مَنْ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ، و﴿ثُمَّ﴾ لاستِبْعادِ الإعراضِ عنها مع فَرطِ وضوحِها وإرشادِها إلى أسبابِ السَّعادَةِ، ولذا قالَ تعالى في الكهف: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧] أي: فلم يَتفكَّر فيها.

قولُه: (أي: المُشرِكِينَ) فكيفَ مَن كانَ أظلَمَ من كلِّ ظالِمٍ.

قولُه: (التَّورَاةَ) كما آتَيْناكَ القُرآنَ.

قولُه: (وقَدِ التَقَيَا) أي: من لقائكَ موسَى، أو: مِن لقاءِ موسَى الكتابَ، أو: مِن لقاءِ موسى ربَّهُ بعدَ الموتِ، فاطمَعْ أنت أيضاً، كذا فسَّرَه ﷺ. رواهُ الطَّبرانيُّ[1].

قولُه: (أَو الكِتَابَ) المنزلَ عليهِ.

قولُه: (هَادِيًا) بأحَدِ التَّأويلاتِ الثَّلاثةِ.

قولُه: (بتَحقِيقِ) تقدَّمَ[2].

قولُه: (قَادَةً) جمعُ قائِدٍ، و﴿أَئِمَّةً﴾ جمعُ إمامٍ.

قولُه: (النَّاسَ) إلى ما فيه مِن الحِكَمِ والأحكامِ بتَوفيقِنا له، أو بأمرِنا إيَّاهم بأن يَهْدوا.

قولُه: (عَلى دِينِهِم) أو: عنِ الدُّنيا، وحمزةُ والكسائيُّ بكسرِ اللَّامِ وتخفيفِ الميمِ[3]؛ أي: لصَبْرِهم.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ١٦٠) (١٢٧٥٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٠): رجاله رجال الصحيح.

(٢) انظر سورة التوبة الآية رقم: (١٢).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥١٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٦٩).

٢٦ ـ ﴿أَوَلَم يَهدِ لَهُم كَم أَهلَكْنا مِن قَبلِهِم﴾، أي: يَتبيَّنْ لكُفّار مكّة إهلاكُنا كثيرًا، ﴿مِنَ القُرُونِ﴾: الأُمم بكُفرهم، ﴿يَمشُونَ﴾: حالٌ من ضمير «لهم» ﴿في مَساكِنِهِم﴾ في أسفارهم إلى الشام وغيرها، فيعتبروا؟ ﴿إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ﴾: دلالات على قُدرتنا. ﴿أفلا يَسمَعُونَ﴾ سماعَ تدبّر واتّعاظ؟ ٢٧ ـ ﴿أَوَلَم يَرَوا أنّا نَسُوقُ الماءَ إِلَى الأرضِ الجُرُزِ﴾: اليابسة التي لا نبات فيها، ﴿فنُخرِجُ بِهِ زَرعًا، تأكُلُ مِنهُ أنعامُهُم وأنفُسُهُم؟ أفلا يُبصِرُونَ﴾ هذا، فيعلمون أنّا نقدر على إعادتهم؟

٢٨ ـ ٢٩ ـ ﴿ويَقُولُونَ﴾ للمؤمنين: ﴿متَى هذا الفَتحُ﴾ بيننا وبينكم، ﴿إِن كُنتُم صادِقِينَ؟ قُلْ: يَومَ الفَتحِ﴾ بإنزال العذاب بهم ﴿لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إيمانُهُم، ولا هُم يُنظَرُونَ﴾: يُمهَلون لتوبة أو مَعذرة. ٣٠ ـ ﴿فأَعرِضْ عَنهُم، وانتَظِرْ﴾ إنزال العذاب بهم. ﴿إِنَّهُم مُنتَظِرُونَ﴾ بك حادثَ موتٍ أو قتلٍ، فيستريحون منك. وهذا قبلَ الأمر بقتالهم.

قولُه: (إِهْلَاكُنَا كَثِيراً) أو: كثرَةُ إهلاكِنا، أو: كثرةُ من أهلكناهُم.

قولُه: (الأُمَمِ) الماضيَةِ.

قولُه: (فِي أَسْفَارِهِم) متعلّقٌ بـ﴿يَمْشُونَ﴾ فحقُّهُ تقديمُهُ.

قولُه: (﴿مَسَاكِنِهِمْ﴾) دُورِهِم، أو ديارِهِم.

قولُه: (اليَابِسَةِ) الَّتي جُرِزَ نباتُها؛ أي: قُطِعَ وأُزِيلَ، لا الَّتي لا تُنْبِتُ؛ لِمَا بعدَهُ[1].

قولُه: (هَذا) الإخراجَ، ولمَّا كانَ هذا مرئيًّا ناسَبَ ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ بخلافِ الأوَّلِ فإنَّهُ مسموعٌ، فقالَ: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

قولُه: (لِلْمُؤْمِنِينَ) الأظهرُ: للنَّبيِّ والمؤمنينَ.

قولُه: (بَيْنَنَا وبَيْنَكُم) فالمرادُ بـ﴿الفتح﴾: النَّصرُ، أو استعجالُ العَذابِ.

قولُه: (بِإِنْزَالِ العَذَابِ بِهِم) يومَ القيامةِ، أو يومَ بَدرٍ.

قولُه: (حَادِثَ مَوْتٍ) بالإضافَةِ.

قولُه: (وهَذا قَبْلَ الأَمْرِ) إنْ كانَ المرادُ: أعرِضْ عن قتالِهِم، وإلَّا فقيلَ: معناهُ: لا تُبالِ بتكذيبِهِم، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) أي: ما جاء في تمام الآية من قوله تعالى: ﴿فنخرج به زرعاً. . .﴾ الآية.

سورة السجدة

وتسمَّى المضاجع أيضاً كما في «الإتقان»[1]، وفي «مجمع البيان» أنها كما تسمَّى سورةَ السجدة تسمَّى سجدةَ لقمان، لئلَّا تَلْتَبِسَ بحم السجدة[2].

وأُطْلِقَ القولُ بمكِّيتها، أخرج ابن الضُّريس وابنُ مردويه والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن عباس أنها نزلت بمكة[3]. وأخرج ابنُ مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله[4].

وجاء في روايةٍ أخرى عن الحبر استثناءٌ، أخرج النحاس عنه رضي الله عنه أنه قال: نزلت سورةُ السجدة بمكة سوى ثلاثِ آياتٍ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ إلى تمام الآيات الثلاث[5]. ورُوي مثلُه عن مجاهدٍ والكلبيِّ.

واستثنى بعضُهم أيضاً آيتين أُخريَيْنِ، وهما قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إلخ، واستدلَّ عليه ببعض الروايات في سبب النزول، وستطَّلع على ذلك إن شاء الله تعالى. واستُبْعِدَ استثناؤهما لشدَّة ارتباطهما بما قبلهما.

وهي تسعٌ وعشرون آيةً في البصريِّ، وثلاثون في الباقية، ووَجْهُ مناسبتها لِمَا قبلها اشتمالُ كلٍّ على دلائل الألوهية. وفي «البحر»: لمَّا ذَكَرَ سبحانه فيما قبلُ دلائلَ التوحيد وهو الأصلُ الأول، ثم ذكر جلَّ وعلا المعادَ وهو الأصلُ الثاني،

---

(١) الإتقان ١/ ١٧٣.

(٢) مجمع البيان ٢١/ ٧١.

(٣) فضائل القرآن لابن الضريس ص٣٣-٣٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٤٤، والدر المنثور ٥/ ١٧٠.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٧٠.

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٨٠.

وختم جلَّ شأنُه به السورةَ، ذكر تعالى في بدء هذه السورة الأصل الثالث وهو النبوّة[١].

وقال الجلال السيوطيُّ في وجه الاتصال بما قبلها: إنها شرحٌ لمفاتح الغيب الخمسة التي ذُكرت في خاتمة ما قبلُ:

فقولُه تعالى: (ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) شَرَحَ قوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ) ولذلك عقّب بقوله سبحانه: (عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ).

وقولُه تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ) شَرَحَ قولَه سبحانه: (وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ).

وقولُه تبارك وتعالى: (ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ) الآياتِ شَرَحَ قولَه جلَّ جلاله: (وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ).

وقولُه عز وجل: (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ) (وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا) شَرَحَ قولَه تعالى: (وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا).

وقولُه جلّ وعلا: (أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ) إلى قوله تعالى: (قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾) شَرَحَ قولَه سبحانه: (وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)[٢]. اهـ، ولا يخلو عن نظر.

وجاء في فضلها أخبارٌ كثيرةٌ، أخرج أبو عبيد وابنُ الضُّريس من مُرْسَلِ المسيَّب بن رافع، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تجيءُ ألم تنزيل ـ وفي رواية: ألم السجدة ـ يومَ القيامة لها جناحان تظلُّ صاحبها وتقولُ: لا سبيلَ عليه لا سبيل عليه»[٣].

وأخرج الدارميُّ والترمذيُّ وابنُ مردويه عن طاوس قال: (الٓمٓ) السجدة، و(تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) تفضُلان على كلِّ سورةٍ في القرآن بستِّين حسنةً[٤].

---

(١) البحر ٧/١٩٦.

(٢) تناسق الدرر ص٧٣-٧٤.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد ص١٣٥، ولابن الضريس ص١٠٠.

(٤) سنن الدارمي (٣٤١٢)، وهو في سنن الترمذي إثر الحديث (٢٨٩٢) وفيه: بسبعين حسنة.

وفي روايةٍ عن ابن عمر: تفضُلان ستِّين درجةً على غيرهما من سور القرآن[١].

وأخرج أبو عبيد في «فضائله» وأحمد وعبد بن حميد والدارمي والترمذي والنسائي، والحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر قال: كان النبيُّ ﷺ لا ينام حتى يقرأ (الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ) السجدة و(تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ)[٢].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ (تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) و(الٓمٓ * تَنزِيلُ) السجدة بين المغرب والعشاء الآخِرةِ فكأنما قام ليلة القدر»[٣]. وروى نحوَه هو والثعلبيُّ والواحديُّ من حديث أبيّ بن كعب[٤]. والثعلبيُّ دونهم من حديث ابن عباس[٥]. وتعقَّب ذلك الشيخ وليُّ الدين قائلاً: لم أقف عليه، وهذه الرواياتُ كلُّها موضوعةٌ.

لكنْ رأيتُ في «الدر المنثور» أنَّ الخرائطيَّ أخرج في «مكارم الأخلاق» من طريق حاتم بن محمد عن طاوس أنه قال: ما على الأرض رجلٌ يقرأ (الٓمٓ * تَنزِيلُ) السجدة و(تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) في ليلةٍ إلا كُتب له مثلُ أجر ليلةِ القدر. قال حاتم: فذكرت ذلك لعطاء فقال: صدق طاوس، والله ما تركتُهنَّ منذ سمعتُ بهنَّ إلا أنْ أكون مريضاً[٦]. ولم أقف على ما قيل في هذا الخبر صحةً

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٣٦.

(٢) فضائل القرآن ص١٣٦، ومسند أحمد (١٤٦٥٩)، ومسند عبد بن حميد (١٠٤٠)، وسنن الدارمي (٣٤١١)، وسنن الترمذي (٢٨٩٢)، وعمل اليوم والليلة للنسائي (٧٠٦)-(٧٠٩)، والمستدرك ٢/ ٤١٢، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٧٠، وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (١٢٠٧) و(١٢٠٩).

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٧٠. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣١: في إسناده داود بن معاذ، وهو ساقط.

(٤) تفسير الثعلبي ٧/ ٣٥١، وهو فيه من طريق ابن عباس عن أبيٍّ عن النبي ﷺ، وفي إسناده أبو عصمة نوح بن أبي مريم، قال عنه الحافظ في التقريب: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع. وهو في الوسيط للواحدي ٣/ ٤٤٩ من طريق هارون بن كثير، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي أمامة، عن أبي بن كعب به. قال الذهبي في الميزان ٤/ ٢٨٦: هارون بن كثير عن زيد بن أسلم مجهول، وزيد عن أبيه نكرة.

(٥) تخريج أحاديث الكشاف ص١٣١، وينظر الموضوعات لابن الجوزي ٢/ ٣٠٣-٣٠٦.

(٦) الدر المنثور ٥/ ١٧١.

وضعفاً ووضعاً، وفيه أخبارٌ كثيرةٌ في فضلها غير هذا، واللهُ تعالى أعلم بحالها.

وكان ﷺ يقرؤها و(هَلْ أَتَىٰ) في صلاة فجر الجمعة، وهو مُشْعِرٌ بفَضْلِها، والحديثُ في ذلك صحيحٌ لا مقال فيه؛ أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والنسائيُّ وابن ماجه عن أبي هريرةَ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر يومَ الجمعة (الٓمٓ * تَنزِيلُ) السجدة و(هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ)[1]. وأخرج أبو داود وهؤلاء إلا البخاريَّ نحوَه عن ابن عباس[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾ إنْ جُعل اسماً للسورة أو القرآنِ فمحلُّه الرفعُ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هذا الم، وقولُه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرٌ بعد خبرٍ على أنه مصدرٌ باقٍ على معناه لقَصْدِ المبالغة، أو بتقديرِ مضافٍ، أو هو مؤوَّلٌ باسم المفعول ـ أي: مُنْزَلٌ ـ وإضافتُه إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى الموصوف، أو بيانيةٌ بمعنى مِن، وقولُه سبحانه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبرٌ ثالثٌ، وقولُه تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ خبرٌ رابعٌ.

وجوَّز أن يكون (الٓمٓ) مبتدأ وما بعده أخبارٌ له، أي: المسمَّى بالم الكتابُ المنزلُ لا ريبَ فيه كائنٌ من ربِّ العالمين. وتعقِّب بأنَّ ما يُجعل عنواناً للموضوع حقُّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتساب إليه، وإذ لا عَهْدَ بالنسبة قبلُ فحقُّها الإخبارُ بها.

وقال أبو البقاء: «الم» يجوزُ أن يكون مبتدأً، و«تنزيل» بمعنى منزَلٍ خبرُه، و«لا ريب فيه» حال من «الكتاب» والعامل فيها المضافُ، وهي حالٌ مؤكِّدةٌ، و«من ربّ» متعلِّقٌ بـ «تنزيل»، ويجوز أن يكون متعلِّقاً بمحذوفٍ هو حالٌ من الضمير

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ١٤١، وصحيح البخاري (٨٩١)، وصحيح مسلم (٨٨٠)، وسنن النسائي ٢/ ١٥٩، وسنن ابن ماجه (٨٢٣)، وهو عند أحمد (١٠١٠٢).

(٢) صحيح مسلم (٨٧٩)، وسنن أبي داود (١٠٧٥)، وسنن النسائي ٣/ ١١١، وهو عند أحمد (١٩٩٣).

المجرور في «فيه» والعامل فيها الظرف لا «ريب» لأنه هنا مبنيٌّ[(١)]. وفيه ما سمعتَ، وهذا التعلُّقُ يجوز أيضاً على تقدير أن يكون «الم» خبر مبتدأ محذوفٍ وما بعده أخباراً لذلك المحذوف.

وإن جُعِلَ «الم» مسروداً على نمط التعديد فلا محلَّ له من الإعراب، وفي إعراب ما بعدُ عدةُ أوجهٍ، قال أبو البقاء: يجوزُ أن يكون «تنزيل» مبتدأ و«لا ريب فيه» الخبر و«من ربِّ» حالٌ كما تقدم، ولا يجوزُ على هذا أن يتعلَّق بـ «تنزيل» لأنَّ المصدر قد أُخْبِرَ عنه، ويجوز أن يكون الخبر «من ربِّ»، و«لا ريبَ» حالاً من «الكتاب»، وأن يكون خبراً بعد خبرٍ[(٢)]. انتهى.

ووجهُ مَنْعِ التعلُّق بالمصدر بعد ما أُخبر عنه أنه عاملٌ ضعيفٌ، فلا يتعدَّى عملُه لِمَا بعد الخبر، وعن التزام حديث التوسُّع في الظرف سعةٌ هنا، أو أنَّ المتعلِّق من تمامه والاسمُ لا يخبَرُ عنه قبل تمامه.

وجوَّز ابن عطية تعلُّق «من ربِّ» بـ «ريب»[(٣)]. وفيه أنه بعيدٌ عن المعنى المقصود.

وجوَّز الحوفي كونَ «تنزيل» خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: المؤلَّفُ من جنس ما ذُكر تنزيلُ الكتاب، وقال أبو حيان: الذي أختارُه أن يكون «تنزيل» مبتدأ و«لا ريب فيه» اعتراضٌ لا محلَّ له من الإعراب، و«من ربِّ العالمين» الخبر[(٤)].

وضمير «فيه» راجعٌ لمضمون الجملة، أعني كونه منزلاً من ربِّ العالمين، لا للتنزيل ولا للكتاب، كأنه قيل: لا ريبَ في ذلك، أي: في كونه منزلاً من ربِّ العالمين، وهذا ما اعتمد عليه الزمخشريُّ وذكر أنه الوجهُ، ويشهدُ لوجاهته قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فإنَّ قولهم: هذا مفترًى، إنكارٌ لأنْ يكونَ من ربِّ

---

(١) الإملاء ٤/ ١٨٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٧. وقال أبو حيان في البحر ٧/ ١٩٧: ليس بجيد؛ لأن نفي الريب عنه مطلقاً هو المقصود.

(٤) البحر ٧/ ١٩٦.

العالمين[1]، أي: فالأنسبُ أن يكون نفيُ الريب عمَّا أنكروه، وهو كونُه من ربِّ العالمين جلَّ شأنه، وقيل: أي: فلا بدَّ من أنْ يكونَ مورده حكماً مقصوداً بالإفادة لا قيداً للحكم بنفي الريب عنه. وفيه بحثٌ.

وكذا قولُه سبحانه: (بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ) فإنه تقريرٌ لِمَا قبله، فيكونُ مثله في الشهادة، ثم قال في نظم الكلام على ذلك: إنه أسلوبٌ صحيحٌ مُحْكَمٌ، أَثْبتَ سبحانه أولاً أنَّ تنزيله من ربِّ العالمين وأن ذلك مما لا ريب فيه، أي: لا مدخلَ للريب في أنه تنزيلُ الله تعالى، وهو أبعدُ شيءٍ منه؛ لأنَّ نافيَ الريب ومميطَه معه لا ينفك أصلاً عنه، وهو كونُه معجزاً للبشر، ثم أضرب جلَّ وعلا عن ذلك إلى قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ)؛ لأن «أم» هي المنقطعةُ الكائنةُ بمعنى بل والهمزة، إنكاراً لقولهم وتعجيباً منه؛ لظهورِ عجز بُلغائهم عن مثل أقصرِ سورةٍ منه، فهو إمَّا قولُ متعنِّتٍ مكابرٍ، أو جاهلٍ عمِيَتْ منه النواظر، ثم أضرب سبحانه عن الإنكار إلى إثبات أنه الحقُّ من ربك[2].

وفي «الكشف» أنَّ الزمخشريَّ بيَّن وجاهة كون «تنزيل الكتاب» مبتدأً و«لا ريب فيه» اعتراضاً و«من ربِّ العالمين» خبراً بحُسْنِ موقع الاعتراض إذ ذاك، ثم حُسْنِ الإنكار على الزاعم أنه مفترًى مع وجود نافي الريب ومميطِه، ثم إثباتِ ما هو المقصودُ وعدمِ الالتفات إلى شَغْبِ هؤلاء المكابِرَةِ بعد التلخيص البليغ بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وما في إيثار لفظ «الحق» وتعريفِه تعريفَ الجنس من الحُسْنِ. ويَقْرُبُ عندي من هذا الوجه جَعْلُ «تنزيل» مبتدأ، وجملة «لا ريب فيه» في موضع الحال من «الكتاب» و«من رب» خبراً، فتدبَّرْ ولا تغفل.

وزعم أبو عبيدة أنَّ «أم» بمعنى بل الانتقالية، وقال: إنَّ هذا خروجٌ من حديثٍ إلى حديثٍ[3]، وليس بشيء.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٣١، وقوله: إن هذا خروج من حديث...، هو من كلام أبي حيان في البحر ٧/ ١٩٧، وعنه نقل المصنف.

والظاهر أنَّ «من ربك» في موضع الحال، أي: كائناً من ربِّك. وقيل: يجوزُ جَعْلُه خبراً ثانياً.

وإضافةُ الربِّ إلى «العالمين» أولاً، ثم إلى ضمير سيد المخاطَبين ﷺ ثانياً، بعدَ ما فيه من حُسْنِ التخلُّص إلى إثبات النبوَّةِ وتعظيم شأنِه علا شأنُه، فيه أنه ﷺ العبدُ الجامع الذي جُمِعَ فيه ما فرِّقَ في العالم بالأسر، ووروده على أسلوب الترقِّي دلَّ على أنَّ جمعيته ﷺ أتمُّ مما لكلِّ العالَم، وحقَّ له ذلك صلواتُ الله تعالى وسلامه عليه.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ بيانٌ للمقصود من تنزيله، فقيل: هو متعلِّقٌ بـ «تنزيل». وقيل: بمحذوفٍ، أي: أنزله لتنذر.. إلخ. وقيل: بما تعلَّق به «من ربك».

و«قوماً» مفعولٌ أول لـ «تنذر»، والمفعول الثاني محذوفٌ، أي: العقابَ. و«ما» نافيةٌ كما هو الظاهر، و«من» الأولى صلةٌ، و«نذير» فاعلُ «أتاهم»، ويطلق على الرسول وهو المشهورُ، وعلى ما يعمُّه والعالِمَ الذي ينذرُ عنه عزَّ وجل؛ قيل: وهو المرادُ هنا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وجوِّز أن يكون النذير ها هنا مصدراً بمعنى الإنذار.

و«من قبلك» أي: من قبل إنذارك، أو: من قبل زمانك، متعلِّقٌ بـ «أتى»، والجملةُ في موضع الصفة لـ «قوماً»، والمراد بهم قريشٌ على ما ذهب إليه غيرُ واحد؛ قال في «الكشف»: الظاهرُ أنه لم يُبْعَثْ إليهم رسولٌ منهم قبلَ رسول الله ﷺ، وكانوا مُلْزَمين بشرائع الرسل من قبلُ وإن كانوا مقصِّرين في البحث عنها، لاسيما دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إن قلنا: إنَّ دعوتي موسى وعيسى عليهما السلام لم تعمَّا، وهو الأظهر. وقد تقدَّم لك القولُ بانقطاع حُكْمِ نبوَّةِ كلِّ نبيٍّ ما عدا نبيِّنا ﷺ بعد موته، فلا يكلَّفُ أحدٌ مطلقاً يجيءُ بعده باتِّباعه، والقولُ بالانقطاع إلا بالنسبة لمن كان من ذريته[1].

---

(١) ينظر ما سلف ٢٠/ ٢٠٣-٢٠٤.

والظاهرُ أنَّ قريشاً كانوا ملزمين بملَّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وأنهم لم يزالوا على ذلك إلى أن فَشَتْ في العرب عبادةُ الأصنام التي أحدثها فيهم عمرو الخزاعيُّ لعنه الله تعالى، فلم يبق منهم على الملَّة الحنيفية إلا قليلٌ، بل أقلُّ من القليل، فهم داخلون في عموم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فإنه عامٌّ للرسول وللعالِم الذي يُنْذِرُ، كذا قيل.

واستشكل مع ما هنا، وأُجيب بأن المراد هنا: ما أتاهم نذيرٌ منهم من قبلك، وإليه يشير كلامُ «الكشف»، وهناك: إلَّا خلا فيها نذيرٌ منها أو من غيرها، أو يُحمل النذير فيه على الرسول، وفي تلك الآية على الأعم، قال أبو حيان في تفسير سورة الملائكة: إنَّ الدعاء إلى الله تعالى لم ينقطع عن كلِّ أمة، إمَّا بمباشرةٍ من أنبيائهم وإما بنقلٍ، إلى وقتِ بعثةِ محمد ﷺ، والآياتُ التي تدلُّ على أنَّ قريشاً ما جاءهم نذيرٌ معناها: لم يباشرهم وآباءهم الأقربين، وأمَّا أنَّ النذارةَ انقطعت فلا، نعم لمَّا شَرَعَتْ آثارُها تندرِسُ بُعِثَ محمدٌ ﷺ. وما ذكره أهلُ علم الكلام من حالِ أهل الفترات فإنَّ ذلك على حسب الفرض لا أنه واقعٌ، فلا توجَدُ أمةٌ على وجه الأرض إلا وقد علمت الدعوة إلى الله عزَّ وجل وعبادته[1]. انتهى.

وفي القلب منه شيءٌ، ومقتضاه أنَّ المنفيَّ هاهنا إتيانُ نذيرٍ مباشرٍ - أي: نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام - قريشاً الذين كانوا في عصره ﷺ قبله ﷺ، وأنه كان فيهم مَن ينذرُهم ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده بالنقل، أي: عن نبيٍّ كان يدعو إلى ذلك، والأول مما لا ينبغي أن يختلف فيه اثنان، بل لا ينبغي أن يتوقَّف فيه إنسان، والثاني مظنونُ التحقُّق في زيد بن عمرو بن نفيل العدويِّ والدِ سعيدٍ أحدِ العشرة، فإنه عاصَرَ النبيَّ ﷺ، واجتمع وآمن به قبل بعثته ﷺ، ولم يُدْرِكْها إذ قد مات وقريشٌ تبني الكعبة، وكان ذلك قبل البعثة بخمس سنين، وكان على ملَّة إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام، فقد صحَّ عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيتُ زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، والذي نفسي بيده ما أصبح أحدٌ منكم على دين إبراهيم

---

(١) البحر ٧/ ٣١٠.

غيري[١]. وفي بعض طرق الخبر عنه أيضاً بزيادةٍ: وكان يقول: اللهم إني لو أعلمُ أحبَّ الوجوه إليك عبدتُك به، ولكنِّي لا أعلم. ثم يسجدُ على راحلته[٢].

وذكر موسى بن عقبة في المغازي: سمعتُ مَن أَرْضَى يحدِّث أنَّ زيد بن عمرو كان يعيبُ على قريشٍ ذَبْحَهم لغير الله تعالى، وصحَّ أنه لم يأكل من ذبائح المشركين التي أُهِلَّ بها لغير الله[٣].

وأخرج الطيالسيُّ في مسنده عن ابنه سعيد أنه قال: قلتُ للنبيِّ ﷺ: إنَّ أبي كان كما رأيتَ وكما بلغك، أفأستغفرُ له؟ قال: «نعم فإنه يُبعث يومَ القيامة أمةً وحده»[٤].

ولا يبعُدُ ممن كان هذا شأنه الإنذارُ والدعوةُ إلى عبادة الله تعالى، بل مَن أنصفَ يرى تضمُّنَ كلامه الذي حكته أسماءُ، وإنكارَه على قريشٍ الذبحَ لغير الله تعالى الذي ذكره الطيالسيُّ[٥]، الدعوةَ إلى دين إبراهيم عليه السلام وعبادةِ الله سبحانه وحده. وكذا تضمَّن كلامه النقل أيضاً.

ويُعلم مما نقلناه أن الرجل ﷺ لم يكن نبيّاً وهو ظاهرٌ، وزعم بعضُهم أنه كان نبيًّا، واستدلَّ على ذلك بأنه كان يسندُ ظهره إلى الكعبة ويقول: هلمُّوا إليَّ فإنه لم

---

(١) علقه البخاري (٣٨٢٨)، ووصله ابن سعد ٣/ ٣٨٠، والحاكم ٣/ ٤٤٠ وصححه، والذهبي في السير ١/ ١٢٨، وأخرجه أيضاً ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٥.

(٢) وردت هذه الزيادة في رواية ابن إسحاق للحديث التي في سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٥، وذكرها الذهبي في السير ١/ ١٢٩، وابن حجر في التهذيب ١/ ٦٦٩، وعندهم جميعاً: راحته، بدل: راحلته.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٢٦) من حديث ابن عمر ﷺ، وفيه: ... ثم قال زيد: إني لستُ آكلُ إلا ما ذكر اسم الله عليه، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله. إنكاراً لذلك وإعظاماً له.

(٤) مسند الطيالسي (٢٣٤)، وأخرجه أحمد (١٦٤٨)، وفي إسناده المسعودي، قال الذهبي في السير ١/ ١٢٩: المسعودي ليس بحجة.

(٥) ورد إنكاره على قريش ذلك ضمن حديث سعيد بن زيد الذي سلفت قطعة منه آنفاً، وورد ذلك أيضاً في حديث ابن عمر عند البخاري، وقد سلف تخريجه قريباً.

يَبْقَ على دين الخليل غيري. وصحةُ ذلك ممنوعةٌ، وعلى فَرَضِ التسليم لا دليلَ فيه على المقصود، كما لا يخفى على مَن له أدنى ذوق.

ومِثْلُ زيدٍ رضي الله عنه قسُّ بنُ ساعدة الإياديُّ، فإنه رضي الله عنه كان مؤمناً بالله عز وجل داعياً إلى عبادته سبحانه وحده، وعاصَر النبيَّ ﷺ، ومات قبل البعثة على الملَّة الحنيفية، وكان من المعمَّرين، ذكر السجستاني أنه عاش ثلاث مئةٍ وثمانين سنة[(١)]، وقال المرزباني: ذكر كثيرٌ من أهل العلم أنه عاش ستَّ مئة سنة[(٢)]، وذكروا في شأنه أخباراً كثيرةً، لكنْ قال الحافظُ ابن حجر في كتابه «الإصابة»: قد أفرد بعضُ الرواة طريقَ [حديث] قسٍّ وفيه شعرُه وخطبتُه، وهو في الطوالات للطبراني وغيرها، وطرقُه كلُّها ضعيفةٌ، وعَدَّ منها ما عَدَّ فليراجَعْ[(٣)].

ثم إنَّ الإشكال إنما يتوهَّم لو أُريدَ بقريش جميعُ أولاد قصيٍّ أو فهرٍ أو النضر أو إلياس أو مضر، أمَّا إذا أُريدَ مَن كان منهم حين بعث ﷺ فلا، كما لا يخفى على المتأمِّل، فتأمَّل.

وقيل: المراد بهم العربُ: قريشٌ وغيرُهم، ولم يأتِ المعاصرين منهم رسولَ الله ﷺ نذيرٌ من الأنبياء عليهم السلام غيرُه ﷺ، وكان فيهم مَن ينذر ويدعو إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وحده وليس بنبيٍّ على ما سمعتَ آنفاً، وأمَّا العرب غيرُ المعاصرين فلم يأتهم من عهد إسماعيل عليه السلام نبيٌّ منهم، بل لم يُرْسَلْ إليهم نبيٌّ مطلقاً، وموسى وعيسى وغيرُهما من أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام لم يُبعثوا إليهم على الأظهر، وخالد بنُ سنانٍ العبسيُّ عند الأكثرين ليس بنبيٍّ، وخبرُ ورود بنتٍ له عجوزٍ على النبيِّ ﷺ، وقوله ﷺ لها: «مرحباً بابنة نبيٍّ ضيَّعه قومُه» ونحوُه من الأخبار مما للحفَّاظ فيه مقالٌ لا يَصْلُحُ معه للاستدلال، وفي شروح «الشفا» و«الإصابة» للحافظ ابن حجر بعضُ الكلام في ذلك[(٤)].

---

(١) المعمرون لأبي حاتم السجستاني كما في الإصابة ٨/ ٢٥٣-٢٥٤.
(٢) معجم الشعراء للمرزباني ص٢٢٢، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في الإصابة ٨/ ٢٥٤.
(٣) الإصابة ٨/ ٢٥٥، وما سلف بين حاصرتين منه، وحديث قس في الأحاديث الطوال للطبراني (٢٢).
(٤) «نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض» للخفاجي ٤/ ٥٥٢، والإصابة ٣/ ١٧٧-١٨٢،
=

وقيل: المراد بهم أهلُ الفترة من العرب وغيرِهم حتى أهل الكتاب، والمعنى: ما أتاهم نذيرٌ من قبلك بعد الضلال الذي حدث فيهم.

هذا وكأنِّي بك تَحمِلُ النذير هنا على الرسول الذي ينذر عن الله عز وجل، وكذا في قوله تعالى: (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) ليوافق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل:٣٦] وأظنُّ أنك تجعلُ التنوين في «أمة» للتعظيم، أي: وإن من أمةٍ جليلةٍ معتنًى بأمرها إلا خلا فيها نذيرٌ، ولقد بعثنا في كلِّ أمةٍ جليلةٍ معتنًى بأمرها رسولاً[١].

أو تعتبر العربَ أمةً، وبني إسرائيل أمةً، ونحو ذلك أمةً، دون أهل عصرٍ واحدٍ، وتحملُ مَن لم يأتهم نذيرٌ على جماعةٍ من أمةٍ لم يأتهم بخصوصهم نذير. ومما يُستأنس به في ذلك أنه حين يُنْفَى إتيانُ النذير يُنْفَى عن قومٍ ونحوِه لا عن أمة، فليتأمل، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمامُ الكلام في هذا المقام.

وجوِّز كونُ «ما» موصولةً وقعت مفعولاً ثانياً لـ «تنذر» و«من نذير» عليه متعلِّقٌ بـ «أتاهم»، أي: لتنذر قوماً العقابَ الذي أتاهم من نذيرٍ من قبلك، أي: على لسان نذيرٍ من قبلك، واختاره أبو حيان[٢]، وعليه لا مجالَ لتوهُّم الإشكال، لكنْ لا يخفَى أنه خلافُ المتبادر الذي عليه أكثر المفسرين.

والاقتصارُ على الإنذار في بيان الحكمة لأنه الذي يقتضيه قولهم: «افتراه»، دون التبشير.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ أي: لأَجْلِ أن يهتدوا بإنذارك إياهم، أو: راجياً لاهتدائهم. وجَعْلُ الترجِّي مستعاراً للإرادة منسوباً إليه عز وجل نزعةٌ اعتزالية.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾

= وحديث: «مرحباً بابنة...» ذكر له ابن حجر روايات كثيرة، وأخرجه هو عن سعيد بن جبير وقال: وهذا أصح ما وقفت عليه في ذلك مع إرساله. اهـ، ولكن ذكر الخفاجي أنه يعارضه حديث البخاري: «لا نبي بيني وبين عيسى». وقد سلف الكلام في المسألة ٢٠/ ٨٨.

(١) بعدها في الأصل: منهم.

(٢) في البحر ٧/ ١٩٧.

مرَّ بيانه فيما سلف على مذهبي السلف والخلف[١].

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ أي: ما لكم مجاوِزِينَ اللهَ عزَّ وجلَّ ـ أي: رضاه سبحانه وطاعتَه تعالى ـ وليٌّ ولا شفيعٌ، أي: لا ينفعكم هذان من الخلق عنده سبحانه دون رضاه جلَّ جلاله، فـ «من دونه» حالٌ من مجرورِ «لكم»، والعاملُ الجارُّ أو متعلَّقه، وعلى هذا المعنى لا دليلَ في الخطاب على أنه تعالى شفيعٌ دون غيره ليقال: كيف ذاك وتعالى جلَّ شأنه أن يكون شفيعاً؟ وكفى في ذلك ردُّه ﷺ على الأعرابي حيث قال: إنَّا نستشفعُ بالله تعالى إليك[٢].

وقد يقال: الممتنعُ إطلاقُ الشفيع عليه تعالى بمعناه الحقيقيِّ، وأمَّا إطلاقُه عليه سبحانه بمعنى الناصر مجازاً فليس بممتنعٍ، ويجوزُ أن يعتبر ذلك هنا، وحينئذٍ يجوز أن يكون «من دونه» حالاً مما بعدُ قدِّمَ عليه لأنه نكرةٌ، و«دون» بمعنى غير، والمعنى: ما لكم وليٌّ ولا ناصرٌ غيرُ الله تعالى. ويجوز أن يكون حالاً من المجرور كما في الوجه السابق، والمعنى: ما لكم إذا جاوزتُم ولايتَه ونصرتَه جلَّ وعلا وليٌّ ولا ناصر.

ويظهر لي أنَّ التعبير بالشفيع هنا من قَبيل المشاكلة التقديرية؛ لِمَا أنَّ المشركين المنذَرين كثيراً ما كانوا يقولون في آلهتهم: هؤلاء شفعاؤنا، ويزعمون أنَّ كلَّ واحدٍ منها شفيعٌ لهم.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ أي: ألا تسمعون هذه المواعظَ فلا تتذكرون بها، أو: أتسمعونها فلا تتذكرون بها، فالإنكارُ على الأول متوجِّهٌ إلى عدم السماع وعدمِ التذكُّر معاً، وعلى الثاني إلى عدم التذكُّر مع تحقُّقِ ما يوجبُه من السماع.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ قيل: أي: أمْرَ الدنيا وشؤونَها، وأصلُ التدبير: النظرُ في دابر الأمر والتفكُّر فيه ليَجِيءَ محمودَ العاقبة، وهو في حقِّه عزَّ وجلَّ مجازٌ عن إرادة الشيء على وجه الإتقان ومراعاةِ الحكمة، والفعلُ مضمَّنٌ معنى الإنزال، والجارَّان في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلِّقان به، و«من» ابتدائيةٌ و«إلى»

---

(١) عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف.
(٢) سلف ٧/ ١٧٦ و١٦/ ٢٢٣، وفيه: عليك، بدل: إليك.

انتهائيةٌ، أي: يريده تعالى على وجه الإتقان ومراعاة الحكمة مُنْزِلاً له من السماء إلى الأرض، وإنزالُه من السماء باعتبار أسبابه، فإنَّ أسبابه سماويةٌ من الملائكة عليهم السلام وغيرِهم.

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ أي: يصعدُ ويرتفعُ ذلك الأمرُ بعد تدبيره ﴿إِلَيْهِ﴾ عزَّ وجل، وهذا العروجُ مجازٌ عن ثبوته في علمه تعالى، أي: تعلُّقِ عِلْمِه سبحانه به تعلُّقاً تنجيزيّاً بأن يعلمه جل وعلا موجوداً بالفعل، أو عن كتابته في صحف الملائكة عليهم السلام القائمين بأمره عز وجل موجوداً كذلك.

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾ أي: في برهةٍ متطاولةٍ من الزمان، فليس المراد حقيقةَ العدد، وعبّر عن المدة المتطاولة بالألْفِ لأنها منتهى المراتب وأقصى الغايات، وليس مرتبةٌ فوقها إلا ما يتفرَّع منها من أعداد مراتبها.

والفعلان متنازعان في الجارِّ والمجرور، وقد أُعمل الثاني منهما فيه، فتفيد الآيةُ طولَ امتداد الزمان بين تعلُّق إرادته سبحانه بوجود الحوادث في أوقاتها متقنةً مراعًى فيها الحكمةُ، وبين وجودها كذلك، وظاهرها يقتضي أنَّ وجودها لا يتوقَّفُ على تعلُّق الإرادة مرةً أخرى، بل يكفي فيه التعلُّقُ السابق. وقيل: «في يوم» متعلِّقٌ بـ «يعرج» وليس الفعلان متنازعين فيه، والمرادُ بعروج الأمر إليه بعد تدبيره سبحانه إياه وصولُ خبر وجوده بالفعل كما دبَّر جل وعلا بواسطة الملك، وعَرْضُه ذلك في حضرةٍ قد أعدَّها سبحانه للإخبار[1] بما هو جلَّ جلالُه أعلمُ به، إظهاراً لكمال عظمته تبارك وتعالى وعظيمِ سلطنته جلَّت سلطنتُه، وهذا كعرض الملائكة عليهم السلام أعمالَ العباد الوارد في الأخبار، و«ألف سنةٍ» على حقيقتها، وهي مسافةُ ما بين الأرض ومحدَّب السماء الدنيا بالسير المعهود للبشر، فإنَّ ما بين السماء والأرض خمسُ مئة عام وثخن السماء كذلك كما جاء في الأخبار الصحيحة[2]،

(١) في (م): للاختبار، وهو تصحيف.
(٢) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص٢١، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٥١) و(٨٥٢) عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفاً. ورويت فيه أحاديث مرفوعة، إلا أنها كلها ضعيفة، ينظر حديث أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٨٨٢٨)، والترمذي (٣٢٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٤٩). وحديث أبي ذر ﷺ عند البزار (٤٠٧٥)، والبيهقي في الأسماء =

والملكُ يقطع ذلك في زمانٍ يسير، فالكلامُ على التشبيه، فكأنه قيل: يريد تعالى الأمرَ متقناً مراعًى فيه الحكمةُ بأسبابٍ سماويةٍ نازلةٍ آثارُها وأحكامُها إلى الأرض، فيكون كما أراد سبحانه، فيعرج ذلك الأمر مع الملك ويرتفعُ خبرُه إلى حضرته سبحانه في زمانٍ هو كألف سنةٍ مما تعدُّون.

وقيل: العروجُ إليه تعالى صعودُ خبرِ الأمر مع الملك إليه عز وجل، كما هو مرويٌّ عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة والضحاك، والفعلان متنازعان في «يوم»، والمراد أنه زمانُ تدبير الأمر لو دبَّره البشر، وزمانُ العروج لو كان منهم أيضاً، وإلا فزمانُ التدبير والعروج يسيرٌ.

وقيل: المعنى: يدبِّر أمر الدنيا بإظهاره في اللوح المحفوظ، فينزلُ الملك الموكَّلُ به من السماء إلى الأرض، ثم يرجع الملك أو الأمرُ مع الملك إليه تعالى في زمانٍ هو نظراً للنزول والعروج كألف سنة مما تعدُّون، وأُريدَ به مقدارُ ما بين الأرض ومقعَّرِ سماء الدنيا ذهاباً وإياباً، والظاهر أن «يدبِّر» عليه مضمَّنٌ معنى الإنزال، والجارَّان متعلِّقان به لا بفعلٍ محذوفٍ، أي: فينزل به الملكُ من السماء إلى الأرض كما قيل.

وزعم بعضهم أنَّ ضمير «إليه» للسماء، وهي قد تُذكَّر كما في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨].

وقيل: المعنى: يدبِّر سبحانه أمرَ الدنيا كلِّها من السماء إلى الأرض لكلِّ يومٍ من أيام الربِّ جلَّ شأنه، وهو ألفُ سنة كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، ثم يصير إليه تعالى ويثبتُ عنده عز وجل ويُكتبُ في صحف ملائكته جل وعلا كلَّ وقتٍ من أوقات هذه المدة ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود، إلى أن تبلغ المدة آخرها، ثم يدبِّر أيضاً ليومٍ آخر، وهلمَّ جرّاً إلى أن تقوم الساعةُ. ويشير إلى هذا ما روي عن مجاهد قال: إنه تعالى يدبِّر ويلقي إلى الملائكة أمور ألف سنةٍ من سنيننا، وهو اليومُ عنده تعالى،

= والصفات (٨٥٠)، والذهبي في تذكرة الحفاظ ٢/ ٧٤٨. وحديث العباس بن عبد المطلب ﷺ عند أحمد (١٧٧٠)، وينظر ما سلف ١٣/ ٤٢٦ و١٧/ ٨٤ وما بعد.

فإذا فرغت ألقى إليهم مثلَها. وعليه «الأمر» بمعنى الشأن، والجارَّان متعلِّقان به أو بمحذوف حال منه، ولا تضمين في «يدبر»، والعروجُ إليه تعالى مجازٌ عن ثبوته وكَتْبِه في صحف الملائكة، و«ألف سنة» على ظاهره، و«في يوم» متعلِّق[1] بالفعلين وأُعمل الثاني، كأنه قيل: يدبِّر الأمر ليومٍ مقدارُه كذا ثم يعرج إليه تعالى فيه، كما تقول: قصدتُ ونظرتُ في الكتاب، أي: قصدتُ إلى الكتاب ونظرتُ فيه، ولا يَمنعُ اختلافُ الصلتين من التنازع، وتكرارُ التدبير إلى يوم القيامة يدلُّ عليه العدولُ إلى المضارع مع أنَّ الأمر ماضٍ، كأنه قيل: يجدّد هذا الأمر مستمرًّا.

وقيل: المعنى: يدبِّر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه تعالى ذلك الأمرُ كلُّه، أي: يصير إليه سبحانه ليحكم فيه في يومٍ كان مقدارُه ألف سنة، وهو يوم القيامة، وعليه «الأمر» بمعنى الشأن، والجارَّان متعلِّقان به أو بمحذوف حال منه، كما في سابقه، والعروجُ إليه تعالى: الصيرورةُ إليه سبحانه، لا ليثبتَ في صحف الملائكة بل ليَحْكُمَ جل وعلا فيه، و«في يوم» متعلِّقٌ بالعروج، ولا تنازُع، والمرادُ بيوم مقدارُه كذا: يومُ القيامة، ولا ينافي هذا قولَه تعالى: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] بناءً على أحد الوجهين فيه لتفاوت الاستطالة على حَسَبِ الشدة، أو لأنَّ ثَمَّ خمسين موطناً كلُّ موطنٍ ألف سنةٍ.

وقيل: المعنى: يُنْزِلُ الوحيَ مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض ثم يَرْجِعُ إليه تعالى ما كان من قبوله أو ردِّه مع جبريل عليه السلام في يوم مقدارُ مسافة السير فيه ألفَ سنةٍ، وهو ما بين السماء والأرض هبوطاً وصعوداً، فالأمرُ عليه مرادٌ به الوحيُ، كما في قوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] والعروجُ إليه تعالى عبارةٌ عن خبر القبول والردِّ مع عروج جبريل عليه السلام والتدبير والعروج في اليوم لكن على التوسُّع والتوزيع، فالفعلان متنازعان في الظرف ولكن لا اختلافَ في الصلة، ولا تُنافي الآيةُ على هذا قولَه تعالى شأنه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ بناءً على الوجه الآخر فيه ـ وستَعْرِفُهما إن شاء الله تعالى ـ لأنَّ العروج فيه إلى العرش وفيها إلى السماء الدنيا، وكلاهما عروجٌ إلى الله تعالى على التجوُّز.

---

(١) في (م): يتعلق.

وقيل: المراد بالأمر: المأمورُ به من الطاعات والأعمال الصالحات، والمعنى: يُنْزِلُ سبحانه ذلك مدبَّراً من السماء إلى الأرض، ثم لا يُعمل به، ولا يَصعد إليه تعالى ذلك المأمور به خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولةٍ لقلة الخلَّص من العباد، وعليه «يدبر» مضمَّنٌ معنى الإنزال، و«من» و«إلى» متعلِّقان به، ومعنى العروجِ: الصعودُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠] والغرضُ من الألْفِ استطالةُ المدة، والمعنى استقلالُ عبادة الخلَّص واستطالةُ مدةِ ما بين التدبير والوقوع، و«ثم» للاستبعاد، واستُدلَّ لهذا المعنى بقوله تعالى إثر ذلك: (قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ) لأنَّ الكلامَ بعضُه مربوطٌ بالبعض، وقلةُ الشكر مع وجود تلك الإنعامات دالةٌ على الاستقلال المذكور.

وقيل: المعنى: يدبِّر أمر الشمس في طلوعها من المشرق وغروبها في المغرب ومدارِها في العالم من السماء إلى الأرض، وزمانُ طلوعها إلى أن تغربَ وتَرْجِعَ إلى موضعها من الطلوع مقدارُه في المسافة ألفُ سنةٍ، وهي تقطعُ ذلك في يوم وليلة.

هذا ما قالوه في الآية الكريمة في بيان المراد منها، ولا يخفَى على ذي لبٍّ تكلُّفُ أكثر هذه الأقوال ومخالفتُه للظاهر جدًّا، وهي بين يديك فاخْتَرْ لنفسك ما يحلو.

ويظهر لي أنَّ المراد بالسماء جهةُ العلوِّ، مثلُها في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] وبعروج الأمر إليه تعالى صعودُ خبره كما سمعتَ عن الجماعة، و«في يوم» متعلِّق بالعروج بلا تنازُعٍ، وأقول: إنَّ الآية من المتشابه، وأعتقدُ أنَّ الله تعالى يدبِّر أمورَ الدنيا وشؤونَها ويريدُها متقَنةً وهو سبحانه مستوٍ على عرشه، وذلك هو التدبيرُ من جهة العلوِّ، ثم يصعد خبرُ ذلك مع الملك إليه عزَّ وجل إظهاراً لمزيد عظمته جلَّتْ عظمتُه وعظيم سلطنته عَظُمَتْ سلطنتُه، إلى حِكَمٍ هو جلَّ وعلا أعلمُ بها، وكلُّ ذلك بمعنًى لائقٍ به تعالى، مُجامِعٍ للتنزيه مُباينٍ للتشبيه حَسْبَما يقوله السَّلَفُ في أمثاله، وقولُ بعضهم: العرشُ موضعُ التدبير، وما دونه موضعُ التفصيل، وما دون السماوات موضعُ التصريف، فيه رائحةٌ ما مما ذكرنا.

وأمَّا تقديرُ يوم العروج هنا بألفِ سنةٍ وفي آيةٍ أخرى بخمسين ألف سنةٍ فقد كثُر الكلام في توجيهه، وقد تقدَّم لك بعضٌ منه.

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم، وابنُ الأنباري في «المصاحف»، والحاكمُ وصحَّحه عن عبد الله بن أبي مليكة قال: دخلتُ على ابن عباس رضي الله عنهما أنا وعبدُ الله بنُ فيروز مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، فسأله عن قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فكأنَّ ابن عباس اتَّهمه فقال: ما يومٌ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة؟ فقال: إنما سألتُك لتخبرني. فقال رضي الله عنه: هما يومان ذَكَرهما الله تعالى في كتابه، الله تعالى أعلمُ بهما، وأكره أنْ أقول في كتاب الله مالا أعلم. فضرب الدهر من ضرباته حتى جلستُ إلى ابن المسيب، فسأله عنهما إنسانٌ فلم يخبر ولم يَدْرِ، فقلت: ألا أخبرك بما سمعتُ من ابن عباس؟ قال: بلى. فأخبرته، فقال للسائل: هذا ابن عباس رضي الله عنهما أبى أن يقول فيهما وهو أعلم منِّي(١).

وبعضُ المتصوِّفة يسمُّون اليومَ المقدَّر بألفِ سنةٍ باليوم الربوبيِّ، واليومَ المقدَّر بخمسين ألفَ سنةٍ باليوم الإلهي، ومحيي الدين قدِّس سرُّه يسمِّي الأولَ يومَ الربِّ والثاني يوم المعارج، وقد ذكر ذلك وأياماً أُخَر كيوم الشأن، ويومِ المثل، ويومِ القمر، ويوم الشمس، ويوم زُحل، وأيام سائرِ السيارة، ويومِ الحمل، وأيامِ سائر البروج في «الفتوحات».

وقد سألتُ رئيسَ الطائفة الكشفية(٢) الحادثةِ في عَصْرِنا في كربلاء عن مسألةٍ، فكتب في جوابها ما كتب، واستَطْردَ بيانَ إطلاقات اليوم، وعدَّ من ذلك أربعةً وستِّين إطلاقاً، منها إطلاقُه على اليوم الربوبي، وإطلاقُه على اليوم الإلهي، وأطال الكلام في ذلك المقام.

ولعلنا إن شاء الله تعالى ننقل لك منه شيئاً معتدًّا به في موضعٍ آخر، وسنذكر إن شاء الله تعالى أيضاً تمام الكلام فيما يتعلَّق بالجمع بين هذه الآية وقوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٧١، وهو في تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٠٨، والمستدرك ٤/ ٦١٠، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧-٢٢٨، والطبري ٢٣/ ٢٥٤.

(٢) نسبة إلى الكشف والإلهام، ويقال لهم أيضاً: الشيخية، ولهم شطحات وزندقات، ومؤسس هذه الطائفة أحمد بن زين الدين الصقري المطيري الأحسائي البحراني، متفلسف إمامي ولد =

وقوله تعالى: (مِمَّا تَعُدُّونَ) صفةُ «ألف» أو صفة «سنة».

وقرأ ابن أبي عبلة: «يُعْرَج» بالبناء للمفعول[١]، والأصل: يُعْرَجُ به، فحُذف الجارُّ واستتر الضمير. وقرأ جناح بن حبيش: «ثم يَعْرجُ الملائكةُ إليه» بزيادة «الملائكة»، قال أبو حيان: ولعله تفسيرٌ منه لسقوطه في سواد المصحف[٢].

وقرأ السلميُّ وابن وثاب والأعمشُ والحسن بخلاف عنه: «يعدُّون» بياء الغيبة[٣].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذاتُ الموصوف بتلك الصفات المقتضية للقدرة التامَّة والحكمةِ العامَّة ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: كلّ ما غاب عن الخلق ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: كلّ ما شاهده الخلق، فيدبِّر سبحانه ذلك على وفق الحكمة. وقيل: «الغيبُ» الآخرةُ، و«الشهادة» الدنيا. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ على أمره ﴿ٱلرَّحِيمُ ⑥﴾ للعباد، وفيه إيماءٌ بأنه عزَّ وجلَّ متفضِّلٌ فيما يفعل جلَّ وعلا. واسمُ الإشارة مبتدأٌ والأوصاف الثلاثة بعده أخبارٌ له، ويجوزُ أن يكون الأول خبراً والأخيران نعتان للأول.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما بخفض الأوصاف الثلاثة، على أنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى «الأمر» مرفوعُ المحلِّ على أنه فاعلُ «يعرج»، والأوصافُ مجرورةٌ على البدلية من ضمير «إليه»[٤]. وقرأ أبو زيد النحويُّ بخفض الوصفين الأخيرين على أنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى الله تعالى مرفوعُ المحلِّ على الابتداء، و«عالم» خبره، والوصفان مجروران على البدلية من الضمير[٥].

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ خبرٌ رابعٌ، أو نعتٌ ثالثٌ، أو نصبٌ

= في الأحساء وتعلم في بلاد فارس، وتنقل بينها وبين العراق، وسكن البحرين، وله الكثير من المصنفات، توفي سنة (١٨٢٦م). هدية العارفين ١/ ١٨٥، والأعلام ١/ ١٢٩.

(١) الكشاف ٣/ ٢٤١، والبحر ٧/ ١٩٨.

(٢) البحر ٧/ ١٩٩، وذكر القراءة أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٨، والبحر ٧/ ١٩٩، وهي في القراءات الشاذة ص١١٧، وتحرفت فيه إلى: يعبدون.

(٤) البحر ٧/ ١٩٩.

(٥) البحر ٧/ ١٩٩، والقراءة في القراءات الشاذة ص١١٧.

على المدح، وجوَّز أبو البقاء كونَه خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هو الذي، وكونَ «العزيز» مبتدأً و«الرحيم» صفتَه وهذا خبرَه[(١)]. وجملة «خَلَقَه» في محلِّ جرٍّ صفةِ «شيءٍ»، ويجوزُ أن تكون في محلِّ نصبِ صفة «كلّ»، واحتمالُ الاستئناف بعيدٌ.

أي: حسَّن سبحانه كلَّ مخلوقٍ من مخلوقاته؛ لأنه ما من شيءٍ منها إلا وهو مرتَّبٌ على ما اقتضته الحكمةُ واستدعته المصلحةُ، فجميع المخلوقات حسنةٌ وإن تفاوتَتْ في مراتب الحُسْنِ، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ونفيُ التفاوتِ في خَلْقِه تعالى في قوله سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] على معنًى ستعرفُه إن شاء الله تعالى غيرُ منافٍ لِمَا ذُكر.

وجوَّز أن يكون المعنى: عَلِمَ كيف يخلقه، من قوله: قيمةُ المرء ما يُحْسِنُ، وحقيقتُه: يُحْسِنُ معرفتَه، أي: يعرفُه معرفةً حسنةً بتحقيقٍ وإيقان. ولا يَخْفَى بعدُه.

وقرأ العربيان وابن كثير: «خَلْقَه» بسكون اللام[(٢)]، فقيل: هو بدلُ اشتمالٍ من «كلّ»، والضميرُ المضافُ هو إليه له، وهو باقٍ على المعنى المصدري.

وقيل: هو بدلُ كلٍّ من كلٍّ، أو بدلُ بعضٍ من كلٍّ، والضميرُ لله تعالى وهو بمعنى المخلوق.

وقيل: هو مفعولٌ ثانٍ لـ «أحسن» على تضمينه معنى أعطى، أي: أعطى سبحانه كلَّ شيءٍ خَلْقَه اللائقَ به بطريق الإحسان والتفضُّل.

وقيل: هو المفعولُ الأولُ، و«كل شيء» المفعولُ الثاني، وضميرُه لله سبحانه، على تضمين الإحسان معنى الإلهام كما قال الفرَّاء[(٣)]، أو التعريف كما قال أبو البقاء[(٤)]، والمعنى: أَلْهَمَ أو عرَّفَ خَلْقَه كلَّ شيءٍ مما يحتاجون إليه، فيؤُول إلى

---

(١) الإملاء ٤/ ١٨٤.

(٢) التيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٧، وهي قراءة يعقوب وأبي جعفر من العشرة، والعربيان هما ابن عامر وأبو عمرو.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٣٠.

(٤) في الإملاء ٤/ ١٨٤.

معنى قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

واختار أبوعليٍّ في «الحجة» ما ذكره سيبويه في «الكتاب» أنه مفعولٌ مطلقٌ لـ «أحسن» من معناه، والضميرُ لله تعالى، نحو قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨] و﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٦٠][١].

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي: آدمَ عليه السلام ﴿مِن طِينٍ ۝٧﴾، أو: بدأ خَلْقَ هذا الجنس المعروفِ «من طين»، حيث بدأ خَلْقَ آدم عليه السلام خَلْقاً منطوياً على فطرةِ سائر أفراد الجنس انطواءً إجماليّاً منه.

وقرأ الزهريُّ: «بدا» بالألف بدلاً من الهمزة[٢]؛ قال في «البحر»[٣]: وليس القياسُ في هَدَاْ: هَدَا بإبدال الهمزة ألِفاً، بل قياسُ هذه الهمزة التسهيلُ بين بين، على أنَّ الأخفش حكى في قرأتُ: قَرَيْتُ، قيل: وهي لغة الأنصار، فهم يقولون[٤] في بدأ: بَدِي بكَسْرِ عينِ الكلمة وياء بعدها، وطَيِّئٌ يقولون في فَعِلَ هذا نحو بَقِيَ: بَقَى كَرَمَى، فاحتمل أن تكون قراءةُ الزهري على هذه اللغة، بأن يكون الأصلُ: بَدِيَ، ثم صار بَدَا، وعلى لغة الأنصار قال[٥] ابن رواحة:

باسمِ الإلهِ وبه بَدِيْنا ... ولو عَبَدْنا غيرَه شَقِيْنا[٦]

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ أي: ذرِّيته، سمِّيتْ بذلك لأنها تنسل وتنفصِلُ منه ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ أي: خلاصةٍ، وأصلُها ما يُسَلُّ ويخلصُ بالتصفية ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ ممتَهَنٍ لا يُعْتَنَى به وهو المنيُّ.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ عدَّله بتكميل أعضائه في الرحم، وتصويرِها على ما ينبغي، وأصلُ التسوية: جَعْلُ الأجزاء متساويةً، و«ثم» للترتيب الرُّتْبي أو الذِّكْريِّ.

---

(١) الكتاب ١/ ٣٨١-٣٨٢، والحجة ٥/ ٤٦٠.
(٢) المحتسب ٢/ ١٧٣، والبحر ٧/ ١٩٩.
(٣) ٧/ ١٩٩.
(٤) في البحر: وهي لغيةٌ، والأنصار تقول...
(٥) في البحر: أو على لغة الأنصار وقال.
(٦) الصحاح «بدا»، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٩، والبحر ٧/ ١٩٩، والدر المصون ٩/ ٨٣، واللسان (بدا).

﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أضاف الروح إليه تعالى تشريفاً له، كما في: بيت الله تعالى، وناقة الله تعالى، وإشعاراً بأنه خَلْقٌ عجيبٌ وصنعٌ بديع.

وقيل: أضافه لذلك إيماءً إلى أنَّ له شأناً له مناسبةٌ ما إلى حضرة الربوبية، ومن هنا قال أبو بكر الرازي: مَن عَرَفَ نفسَه فقد عرف ربه.

ونَفْخُ الروح قيل: مجازٌ عن جَعْلِها متعلِّقةً بالبدن، وهو أوفقُ بمذهب القائلين بتجرُّد الروح وأنَّها غيرُ داخلةٍ في البدن من الفلاسفة وبعضِ المتكلِّمين، كحجة الإسلام الغزالي عليه الرحمةُ.

وقيل: هو على حقيقته، والمباشرُ له المَلَكُ الموكَّلُ على الرَّحِم، وإليه ذهب القائلون بأنَّ الروح جسمٌ لطيفٌ كالهواء سارٍ في البدن سريانَ ماءِ الورد في الورد، والنارِ في الجمر، وهو الذي تشهدُ له ظواهرُ الأخبار، وأقام العلَّامةُ ابنُ القيم عليه نحوَ مئةِ دليل(١).

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ التفاتٌ إلى الخطاب لا يخفَى موقعُ ذِكْرِه بعد نَفْخِ الروح، وتشريفُه بخِلْعةِ الخطاب حين صَلُحَ للخطاب، والجَعْلُ إبداعيٌّ، واللامُ متعلِّقةٌ به، والتقديمُ على المفعول الصريح لِمَا مرَّ مراراً من الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، مع ما فيه من نوعِ طولٍ يخلُّ تقديمُه بجزالة النظم الكريم.

وتقديم السمع لكثرة فوائده، فإنَّ أكثر أمور الدِّين لا تُعلَم إلا من جهته، وأُفرد لأنه في الأصل مصدر. وقيل: للإيماء إلى أنَّ مُدْرَكَه نوعٌ واحدٌ وهو الصوتُ، بخلاف البصر فإنه يدرِكُ الضوءَ واللونَ والشكلَ والحركةَ والسكونَ، وبخلافِ الفؤاد فإنه يدرك مدرَكاتِ الحواسِّ بواسطتها وزيادة على ذلك.

أي: خَلَقَ لمنفعتكم تلك المشاعرَ؛ لتعرفوا أنها ـ مع كونها في أنفسها نعماً جليلةً لا يقادَرُ قَدْرُها ـ وسائلُ إلى التمتُّع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم، وتشكروها بأنْ تَصْرِفوا كلّاً منها إلى ما خُلِقَ هو له، فتُدْرِكوا بسَمْعِكم الآياتِ التنزيليةَ الناطقةَ بالتوحيد والبعثِ، وبأبصاركم الآياتِ التكوينيةَ الشاهدةَ بهما، وتستدلُّوا بأفئدتكم على حقِّيتهما.

---

(١) ينظر المسألة التاسعة عشرة من كتاب الروح لابن القيم.

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝﴾ بيانٌ لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلي، والقلَّةُ بمعنى النفي كما ينبئُ عنه ما بعده. ونُصب الوصفُ على أنه صفةٌ لمحذوف وقع معمولاً لـ «تشكرون»، أي: شكراً قليلاً[(١)] ـ أو زماناً قليلاً ـ تشكرون.

واستظهر الخفاجيُّ عليه الرحمةُ كونَ الجملة حاليةً لا اعتراضيةً[(٢)].

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات، إيذاناً بأنَّ ما ذكر من عدم شكرهم تلك النعمَ موجبٌ للإعراض عنهم، وتعديدِ جناياتهم لغيرهم بطريق المباثَّة. وروي أنَّ القائل أبيُّ بن خلف، فضمير الجمع لرضا الباقين بقوله.

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ضعنا فيها بأنْ صِرْنا تراباً مخلوطاً بترابها بحيث لا نتميَّزُ منه، فهو من ضلَّ المتاع: إذا ضاع. أو: غبنا فيها بالدفن وإن لم نَصِرْ تراباً، وإليه ذهب قطرب، وأنشد قول النابغة يرثي النعمان بن المنذر:

وآبَ مـضـلُّـوه بـعـيـنٍ جـلـيـةٍ ... وغُـودِرَ بـالـجـولان حـزمٌ ونـائـل[(٣)]

وقرأ يحيى بن يعمر وابن محيصن وأبو رجاء وطلحة وابن وثاب: «ضَلِلْنا» بكسر اللام[(٤)]، ويقال: ضلَّ يَضِلُّ كضَرَبَ يَضْرِبُ، وضلَّ يَضَلُّ كعَلِمَ يَعْلَمُ وهما بمعنًى، والأولُ اللغةُ المشهورةُ الفصيحةُ، وهي لغةُ نجد، والثاني لغة أهل

---

(١) بعدها في (م): تشكرون.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٥٠.

(٣) ديوان النابغة ص٩٠، وأمالي القالي ١/ ٢٤٧، والصحاح «ضلل»، والنكت والعيون ٤/ ٣٥٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠، واللسان «ضلل». ورواية الديوان: مُصَلُّوه، وهي رواية الأصمعي كما ذكر البكري في اللآلي ١/ ٥٥٩، وقال: يريد جاء قوم بالخبر، وجاء قوم بعدهم بخبر آخر جلا الشكَّ في الخبر الأول، جَعَلَهم بمنزلة المصلِّي من الخيل، وهو الذي يتلو السابق، وقال أبو عبيدة: مصلُّوه يعني أصحاب الصلاة وهم الرهبان. اهـ. وذكره ابن دريد في الجمهرة ٣/ ٢٢٨ برواية: مصلُّوهم، وقال: لأنهم كانوا نصارى. ونقل البكري عن أبي الحسن الطوسي قوله: وقد سمعت مَن يروي: مُصِلُّوه بالصاد المكسورة، من الصِّلَّة، والصِّلَّة: الأرض. وذكر صاحب اللسان في شرحه: قوله: بعين جلية، أي: بخبر صادق أنه مات، وقوله: وغودر. . .، أي: دُفن بدفن النعمان الحزم والعطاء. والنعمان هو ابن الحارث بن شمر الغساني.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣، والبحر ٧/ ٢٠٠.

العالية. وقرأ أبو حيوة: «ضُلِّلْنا» بضمِّ الضاد المعجَمةِ وكَسْرِ اللام[(١)]، ورُوِيَتْ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه[(٢)].

وقرأ الحسن والأعمش وأبان بن سعيد بن العاصي: «صَلَلْنا» بالصاد المهملة وفتحِ اللام، ونُسبت إلى عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابنِ عباس رضي الله عنهما[(٣)]، وعن الحسن أنه كسر اللامَ[(٤)]، ويقال فيه نحوُ ما يقال في ضلَّ بالضاد المعجمة وزيادة أَصَلَّ بالهمزة كأفْعَلَ.

قال الفراء: والمعنى: صرنا بين الصَّلَّة، وهي الأرضُ اليابسةُ الصلبةُ كأنها من الصليل؛ لأنَّ اليابس الصلب إذا انشقَّ يكون له صليلٌ. وقيل: أنتنَّا، من الصَّلَّة وهو النتن، وقيل للأرض: الصَّلَّة؛ لأنها استُ الدنيا، وتقول العرب: ضع الصَّلَّة على الصَّلَّة.

وقال النحاس: لا نعرفُ في اللغة «صَلِلْنا» ولكن [يعرف «صلَلْنا»] يقال: أَصَلَّ اللحمُ وصَلَّ، وأَخَمَّ وخمَّ إذا أنتن[(٥)]. وهذا غريب منه.

وقرأ ابن عامر: «إذا» بترك الاستفهام[(٦)]، والمرادُ الإخبارُ على سبيل الاستهزاء والتهكُّم.

والعامل في «إذا» ما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو: نُبعث، أو: يُجدَّد خَلْقُنا، ولا يصحُّ أن يكون هو العامل؛ لمكان الاستفهام و«إنَّ»، وكلٌّ منهما لا يعمل ما بعده فيما قبله، ويُعتبر ما ذكر من نُبعَثُ أو يجدَّد خَلْقُنا جواباً

---

(١) وتشديدها كما في البحر ٧/ ٢٠٠، وهي في القراءات الشاذة ص١١٨.

(٢) البحر ٧/ ٢٠٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠، والبحر ٧/ ٢٠، وذكرها ابن جني عنهم ٢/ ١٧٣، ولكنه قيَّدها بكسر اللام.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣١، والمحتسب ٢/ ١٧٣، والبحر ٧/ ٢٠٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣، وما سلف بين حاصرتين منه، وبنحوه قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٣١. وقال السمين في الدر المصون ٩/ ٨٤ متعقباً ما قاله النحاس: وقد عرفها غير أبي جعفر. وينظر الصحاح (صلل)، والمحتسب ٢/ ١٧٤.

(٦) التيسير ص١٣٢، والنشر ١/ ٣٧٣، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

لـ «إذا» إذا اعتُبرت شرطيةً لا ظرفيةً محضةً. والهمزة للإنكار، والمرادُ تأكيدُ الإنكار، لا إنكارُ التأكيد كما هو المتبادر من تقديمها على أداته، فإنها مؤخَّرةٌ عنها في الاعتبار، وتقديمُها عليها لقوَّةِ اقتضائها الصدارة.

وقرأ نافع والكسائيُّ ويعقوب: «إنَّا» بترك الاستفهام[1] على نحو ما ذكر آنفاً.

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾ إضرابٌ وانتقالٌ عن بيان كفرهم بالبعث إلى بيانِ ما هو أبلغُ وأشنعُ منه، وهو كفرُهم بلقاء ملائكة ربِّهم عند الموت وما يكون بعده جميعاً.

وقيل: هو إضرابٌ وترقٍّ من التردُّد في البعث واستبعادِه إلى الجزم بجَحْدِه، بناءً على أنَّ لقاء الربِّ كنايةٌ عن البعث، ولا يضرُّ فيه ـ على ما قال الخفاجيُّ ـ كونُ الاستفهام السابق إنكارياً وهو يؤُول إلى الجحد[2]، فتأمل.

﴿قُلْ﴾ ردّاً عليهم ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ يستوفي نفوسَكم لا يتركُ منها شيئاً من أجزائها، أو لا يترك شيئاً من جزئياتها ولا يبقي أحداً منكم، وأصل التوفِّي: أَخْذُ الشيء بتمامه، وفسِّر بالاستيفاء لأنَّ التفعُّل والاستفعال يلتقيان كثيراً، كتَقَضَّيْتُه واسْتَقْضَيْتُه، وتعجَّلْتُه واستَعْجَلْتُه.

ونسبةُ التوفِّي إلى ملك الموت باعتبارِ أنه عليه السلام يباشرُ قَبْضَ الأنفُسِ بأمره عزَّ وجلَّ كما يشير إليه قولُه سبحانه: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: بقبضِ أنفُسِكم ومعرفةِ انتهاءِ آجالكم.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بنِ عليٍّ رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ على رجلٍ من الأنصار يعودُه، فإذا ملكُ الموت عليه السلام عند رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «يا ملك الموت ارفقْ بصاحبي فإنه مؤمن» فقال: أَبْشِر يا محمد فإنِّي بكلِّ مؤمنٍ رفيقٌ، واعلم يا محمدُ، إنِّي لأقبضُ روحَ ابنِ آدم فيصرخُ أهله، فأقوم في جانبٍ من الدار فأقول: والله ما لي من ذنبٍ وإنَّ لي لعودةً وعودةً، الحذرَ الحذرَ، وما خَلَقَ الله تعالى من أهل بيتٍ ولا مدرٍ ولا شعرٍ ولا وبرٍ في برٍّ

---

(١) التيسير ص١٣٢، والنشر ١/ ٣٧٣.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٥٠.

ولا بحرٍ إلا وأنا أتصفَّحُهم فيه كلَّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مرَّاتٍ، حتى إنِّي لأعْرَفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله يا محمد إني لا أقدرُ أقبضُ روحَ بعوضةٍ حتى يكون الله تبارك وتعالى الذي يأمر بقَبْضِه(١). وأخرج نحوه الطبرانيُّ وأبو نعيم وابنُ منده(٢).

ونسبتُه إليه عزَّ وجلَّ في قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر:٤٢] باعتبار أنَّ أفعال العباد كلَّها مخلوقةٌ له جلَّ وعلا لا مدخل للعباد فيها بسوى الكَسْبِ كما يقوله الأشاعرة، أو باعتبارِ أنَّ ذلك بإذنه تعالى ومشيئته جلَّ شأنُه، ونسبتُه إلى الرسل في قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١] وإلى الملائكة في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل:٢٨] لِمَا أنَّ مَلَكَ الموت لا يستقلُّ به، بل له أعوانٌ كما جاء في الآثار يعالجون نَزْعَ الروح، حتى إذا قَرُبَ خروجُها قبضها ملكُ الموت(٣).

وقيل: المراد بملك الموت الجنس، وقال بعضُهم: إنَّ بعض الناس يتوفَّاهم ملكُ الموت وبعضُهم يتوفَّاهم الله عز وجل بنفسه؛ أخرج ابن ماجه عن أبي أمامة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى وكَّل ملكَ الموت عليه السلام بقبض الأرواح إلا شهداءَ البحر؛ فإنه سبحانه يتولَّى قبضَ أرواحهم»(٤).

وجاء ذلك أيضاً في خبرٍ آخر يفيدُ أنَّ مَلَك الموت للإنس غيرُ مَلَكِ الموت للجنِّ والشياطين وما لا يعقل؛ أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٧٤، وهو في العظمة لأبي الشيخ (٤٧٥)، وإسناده منقطع، وروي مرفوعاً متصلاً ولكن بإسناد فيه متروك كما سيرد في التعليق الذي بعده.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٧٣، وهو في المعجم الكبير(٤١٨٨) من طريق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن الحارث بن الخزرج الأنصاري، عن أبيه، عن النبيِّ، وأخرجه هكذا مرفوعاً متصلاً أيضاً ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني(٢٢٥٤)، والبزار(٧٨٤)، وفي إسناده عمرو بن شمر، قال عنه الحافظ في الإصابة ٣/ ٩٣: متروك الحديث.

(٣) أخرج الطبري ٩/ ٩٠، عند تفسير الآية (٦١) من سورة الأنعام عن ابن عباس قال: إن لمَلَكِ الموت أعواناً من الملائكة. وأخرج عن قتادة قال: يلي قبضها الرسل، ثم يدفعونها إلى ملك الموت. وينظر حديث أبي هريرة في سنن النسائي ٤/ ٨-٩، وفيه: «إذا حُضِر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية...» الحديث.

(٤) سنن ابن ماجه (٢٧٧٨)، وضعفه البوصيري في الزوائد ٣/ ١٥٩.

وكَّل ملكُ الموت عليه السلام بقبض أرواح المؤمنين، فهو الذي يلي قَبْضَ أرواحهم، ومَلَكٌ في الجنّ، ومَلَكٌ في الشياطين، ومَلَكٌ في الطير والوحشِ والسباع والحيتان والنمل، فهم أربعةُ أملاكٍ، والملائكةُ يموتون في الصعقة الأولى، وإنَّ ملك الموت يلي قَبْضَ أرواحهم ثم يموتُ، وأما الشهداءُ في البحر فإنَّ الله تعالى يلي قَبْضَ أرواحهم لا يَكِلُ ذلك إلى مَلَكِ الموت بكرامتهم عليه سبحانه(١).

والذي ذهب إليه الجمهورُ أنَّ ملك الموت لمن يعقل وما لا يعقل من الحيوان واحدٌ، وهو عزرائيل، ومعناه: عبد الله فيما قيل، نعم له أعوانٌ كما ذكرنا، وخبرُ الضحاك عن ابن عباس اللهُ تعالى أعلمُ بصحته.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑪﴾ بالبعث للحساب والجزاء.

ومناسبةُ هذه الآية لِمَا قبلها ـ على ما ذكرنا في توجيه الإضراب ـ ظاهرةٌ؛ لأنهم لمَّا جَحَدوا لقاء ملائكة ربِّهم عند الموت وما يكون بعده، ذُكر لهم حديثُ توفِّي ملك الموت إياهم إيماءً إلى أنهم سيلاقونه، وحديثُ الرجوع إلى الله تعالى بالبعث للحساب والجزاء.

وأمَّا على ما قيل فوجهُ المناسبةِ أنهم لمَّا أنكروا البعثَ والمعادَ ردَّ عليهم بما ذكر لتضمُّن قوله تعالى: (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) البعثَ، وزيادةُ ذِكْرِ توفِّي ملكِ الموت إياهم وكونه موكلاً بهم لتوقُّفِ البعث على وفاتهم، ولتهديدهم وتخويفهم، وللإشارة إلى أنَّ القادر على الإماتة قادرٌ على الإحياء.

وقيل: إنَّ ذلك لردِّ ما يُشْعِرُ به كلامُهم من أنَّ الموت بمقتضى الطبيعة، حيث أسندوه إلى أنفسهم في قولهم: (أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ) فليس عندهم بفعلِ الله تعالى ومباشرةِ ملائكته. ولا يخفى بعدُه.

وأبعدُ منه ما قيل في المناسبة: إنَّ عزرائيل وهو عبدٌ من عبيده تعالى إذا قدر على تخليص الروح من البدن مع سريانِها فيه سريانَ ماء الورد في الورد، والنارِ في

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٧٣، وفيه: لكرامتهم، بدل: بكرامتهم. ووقع في الأصل و(م): ابن جويبر، وهو خطأ. وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

الجمر، فكيف لا يقدر خالقُ القوى والقُدَرِ جلَّ شأنُه على تمييز أجزائهم المختلطة بالتراب، وكيف يستبعد البعث مع القدرة الكاملة له عزَّ وجل، لِمَا أنَّ ذلك السريان مما خفي على العقلاء حتى أنكره بعضُهم، فكيف بجهلة المشركين. فتأمل.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «تَرْجِعون» بالبناء للفاعل[1].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهم القائلون: «أئذا ضَلَلْنا في الأرض»، أو جنسُ المجرمين وهم من جملتهم ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ مُطْرِقُوها من الحياء والخِزْي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حين حسابِهم؛ لِمَا يَظهَرُ من قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «نكسوا رؤوسَهم» فعلاً ماضياً ومفعولاً[2].

﴿رَبَّنَآ﴾ بتقدير القول الواقع حالاً، والعاملُ فيه «ناكسوا»، أي: يقولون ربَّنا.. إلخ، وهو أَوْلَى من تقدير: يستغيثون بقولهم: ربَّنا.

﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: صِرْنا ممن يُبْصِرُ ويَسْمَعُ، وحَصَلَ لنا الاستعدادُ لإدراك الآياتِ المبصَرَةِ والآياتِ المسموعة، وكنَّا من قَبْلُ عُمياً صمّاً لا ندرِكُ شيئاً.

﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ حَسْبَما تقتضيه تلك الآيات. وهذا ـ على ما قيل ـ ادِّعاءٌ منهم لصحة مُشْعري البصر والسمع.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ استئنافٌ لتعليل ما قبله. وقيل: استئنافٌ لم يُقْصَدْ به التعليلُ. وعلى التقديرين هو متضمِّنٌ لادِّعائهم صحةَ الأفئدة، والاقتدارَ على فَهْمِ معاني الآيات والعملِ بما يوجبها، وفيه من إظهار الثبات على الإيقان وكمالِ رغبتهم فيه ما فيه، وكأنه لذلك لم يقولوا: أبصرنا وسمعنا وأيقنَّا فارْجعْنا.. إلخ. ولعل تأخير السمع لأنَّ أكثر العمل الصالح الموعودِ يترتَّبُ عليه دون البصر، فكان عدمُ الفصل بينهما بالبصر أولى.

ويجوزُ أن يقدَّر لكلٍّ من الفعلين مفعولٌ مناسبٌ له مما يبصرونه ويسمعونه، بأن يقال: أبصرنا البعثَ الذي كنَّا نُنْكِرُه، وما وَعَدْتَنا به على إنكاره، وسمعنا منك

---

(١) البحر ٧/ ٢٠٠، وهي قراءة يعقوب من العشرة كما في النشر ٢/ ٢٠٨.
(٢) البحر ٧/ ٢٠١.

ما يدلُّ على تصديق رسلك عليهم السلام، ويراد به نحوُ قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] لا الإخبارُ الصريح بلفظ: إن رسلي صادقون، مثلاً.

أو يقال: أبصرنا البعثَ وما وعَدْتَنا به، وسمعنا قولَ الرسل، أي: سمعناه سَمْعَ طاعةٍ وإذعانٍ.

أو يقال: أَبْصَرْنا قُبْحَ أعمالِنا التي كنَّا نراها في الدنيا حَسَنةً، وسمعنا قولَ الملائكة لنا: إنَّ مردَّكم إلى النار.

وقيل: أرادوا: أبصرنا رسلك وسمعنا كلامهم حين كنَّا في الدنيا. أو: أبصرنا آياتِكَ التكوينيةَ وسمعنا آياتِكَ التنزيليةَ في الدنيا، فلك الحجةُ علينا وليس لنا حجةٌ فارْجِعْنا.. إلخ. ولا يَخْفَى حالُ هذا القيل.

وعلى سائر هذه التقادير وجهُ تقديم الإبصار على السماع ظاهرٌ.

و«لو» هي التي سمَّاها غيرُ واحدٍ امتناعيةً، وجوابُها محذوفٌ تقديره: لرأيتَ أمراً فظيعاً لا يقادَرُ قَدْرُه. والخطاب في «ترى» لكلِّ أحدٍ ممَّن يصحُّ منه الرؤيةُ؛ إذ المرادُ بيانُ كمال سوء حالهم، وبلوغِها من الفظاعة إلى حيث لا يختصُّ استغرابُها واستفظاعُها بِراءٍ دون راءٍ ممَّن اعتاد مشاهدةَ الأمور البديعة والدَّواهي الفظيعة، بل كلُّ مَن يتأتَّى منه الرؤيةُ يتعجَّبُ من هولها وفظاعتِه. وقيل: لأنَّ القَصْدَ إلى بيان أنَّ حالهم قد بلغت من الظهور إلى حيث يمتنعُ خفاؤها البتةَ فلا يختصُّ برؤيتها راءٍ دون راءٍ. والجوابُ المقدَّر أوفقُ بما ذُكر أوَّلاً. والفعلُ منزَّلٌ منزلةَ اللازم، فلا يقدَّر له مفعولٌ، أي: لو تَكُنْ منك رؤيةٌ في ذلك الوقت لرأيتَ أمراً فظيعاً.

وجوِّز أن يكون الخطابُ خاصّاً بسيد المخاطبين ﷺ، و«لو» للتمنِّي، كأنه قيل: ليتك ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم لِتَشْمَتَ بهم، وحُكْمُ التمنِّي منه تعالى حُكْمُ الترجِّي، وقد تقدَّم، ولا جوابَ لها حينئذٍ عند الجمهور. وقال أبو حيان وابن مالك: لا بدَّ لها من الجواب، استدلالاً بقول مهلهل في حرب البسوس:

فلو نُبِشَ المقابرُ عن كليبٍ فيُخْبَرَ بالذَّنائب أيُّ زِيرِ

بيومِ الشَّعْثَمينِ[(١)] لقَرَّ عيناً وكيف لقاءُ مَن تحت القبورِ[(٢)]

فإنَّ «لو» فيه للتمنِّي بدليلِ نصبِ «فيخبر» وله جوابٌ وهو قوله: لقَرَّ.

ورُدَّ بأنها شرطيةٌ، و«يخبرَ» عطفٌ على مصدرٍ متصيَّدٍ من «نبش»، كأنه قيل: لو حصل نبشٌ فإخبارٌ. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف.

وقال الخفاجيُّ[(٣)] عليه الرحمة: لو قيل: إنها لتقدير التمنِّي معها كثيراً أُعطيت حُكْمَه، واستُغْني عن تقدير الجواب فيها إذا لم يذكر كما في الوصلية، ونُصب جوابها، كان أسهل مما ذكر.

وجوِّز أن يقدَّر لـ «ترى» مفعولٌ دلَّ عليه ما بعدُ، أي: لو ترى المجرمين أو لو ترى نَكْسَهم رؤوسَهم.

والمضيُّ في «لو» الامتناعية و«إذ» لأنَّ إخباره تعالى عمَّا تحقَّق في عِلْمِه الأزلي ـ لتحقُّقِه ـ بمنزلة الماضي، فيُستعمل فيه ما يدلُّ على المُضيِّ مجازاً كـ «لو» و«إذ».

هذا ومن الغريب قولُ أبي العباس في الآية: المعنى: قل يا محمد للمجرم:

---

(١) جاء في هامش الأصل: قول مهلهل: بيوم الشعثمين، لم يفسروه، والظاهر أنه موضع كانت به وقعة، قاموس. اهـ منه. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) البحر٧/ ١٣٧، ونقل المصنف قوله وقول ابن مالك بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١٥١، والبيتان في الأصمعيات ص١٥٤، والكامل للمبرد ٢/ ٧٤٠، وأمالي القالي ٢/ ١٣١، ومغني اللبيب ص٣٥٢، ومعجم البلدان ٣/ ٨. وفيه: سوق الذنائب: قرية دون زبيد من أرض اليمن. وقال المبرد: يقال: فلانٌ زير نساء، إذا كان صاحبَ نساء، وكان كليب يقول: إن مهلهلاً زير نساء لا يدرك بثأر، ورَفَع أيّاً بالابتداء والخبر محذوف، فكأنه قال: أيُّ زير أنا في هذا اليوم. وقال البغدادي في شرح أبيات المغني ٥/ ٧١: الباء في «بيوم الشعثمين» متعلقة بمحذوف صفة لزير، ويوم الشعثمين هو يوم واردات ـ وهو اسم موضع التقت فيه تغلب وبكر وظفرت فيه تغلب ـ وفيه حذف مضاف، أي: يوم قَتْلِ الشعثمين، وهما شعثم وعبد شمس ابنا معاوية بن عامر بن ذهل بن ثعلبة. ثم ذكر فيهما وفي اسمهما أقوالاً غير ذلك، ثم قال: وقصَّر صاحب القاموس في قوله: وقول مهلهل: بيوم الشعثمين، لم يفسِّروه، والظاهر أنه موضعٌ كانت به وقعة. اهـ.

(٣) في الحاشية ٧/ ١٥١، وما قبله منه.

ولو ترى، وقد حكاه عنه أبو حيان ثم قال: رأى أنَّ الجملة معطوفةٌ على «يتوفَّاكم» داخلةٌ تحت «قل» السابق، ولذا لم يَجْعَلِ الخطابَ فيه للرسول ﷺ[1]. انتهى كلامُه فلا تغفل.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ مقدَّرٌ بقولٍ معطوفٍ على ما قدِّر[2] قبل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾ إلخ، وهو جوابٌ لقولهم: «ارْجِعْنا» يفيدُ أنهم لو أُرْجِعوا لعادوا لِمَا نُهوا عنه لسوء اختيارهم، وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى إعطاءَهم الهدى، أي: ونقول: لو شئنا، أي: لو تعلَّقَتْ مشيئتُنا تعلُّقاً فعلياً بأنْ نُعطيَ كلَّ نفسٍ من النفوس البرَّة والفاجرة هداها، أي: ما تهتدي به إلى الإيمان والعملِ الصالح ـ وفسَّره بعضُهم بنفس الإيمان والعملِ الصالح، والأولُ أَوْلَى، وأما تفسيرُه بما سأله الكفرةُ من الرجوع إلى الدنيا، أو بالهداية إلى الجنة، فليس بشيءٍ ـ لأعطيناها إياه في الدنيا التي هي دارُ الكَسْبِ، وما أخَّرناه إلى دار الجزاء.

﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي: ثبتَ وتحقَّق قولي وسَبَقَتْ كلمتي حيث قلتُ لإبليس عند قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥] وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)﴾ كما يلوِّحُ به تقديمُ الجِنَّة على الناس، فإنه في الخطاب لإبليس مقدَّمٌ، وتقديمُه هناك لأنه الأَوْفَقُ لمقام تحقير ذلك المخاطب عليه اللعنة، وقيل: التقديمُ في الموضعين لأنَّ الجهنَّميين من الجِنَّة أكثر.

ويُعلم مما ذكرنا وجهُ العدول عن ضمير العظمة في قوله سبحانه: (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا) إلى ضمير الوحدة في قوله جل وعلا: (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي) وذلك لأنَّ ما ذُكر إشارةٌ إلى ما وقع في الردِّ على اللعين، وقد وقع فيه القولُ والإملاء مسنَدَين إلى ضمير الوحدة؛ ليكون الكلام على طرز (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ) في توحيد الضمير.

---

(١) البحر ٧/ ٢٠٠، وأبو العباس هو المبرد.

(٢) في (م): على مقدَّرٍ، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٨٣.

وقد يقال: ضميرُ العظمة أوفقُ بالكثرة الدالِّ عليها «كل نفس»، والضمير الآخر أوفقُ بما دون تلك الكثرة الدالِّ عليه «من الجنة والناس».

أو يقال: إنه وحَّد الضمير في الوعيد لِمَا أنَّ المعنيَّ به المشركون، فكأنه أخرج الكلام على وجهٍ لا يَتوهَّم فيه متوهِّمٌ نوعاً من أنواع الشركة أصلاً، أو أخرج على وجهٍ يلوِّحُ بما عَدَلوا عنه من التوحيد إلى ما ارتكبوه ـ مما أَوْجَبَ لهم الوعيدَ ـ من الشرك.

أو يقال: وحَّد الضمير في «لأملأن» لأن الإملاء لا تعدُّد فيه، فتوحيد الضمير أوفقُ به، ويقال نظيرُ ذلك في «حقَّ القول منِّي»، والإيتاء يتعدَّد بتعدُّد المؤتى، فضميرُ العظمة أوفقُ به، ويقال نظيره في «شئنا»، فتدبر.

ولا يلزمُ من قوله تعالى: (أَجْمَعِينَ) دخولُ جميع الجنِّ والإنس فيها ـ وأما قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فالورودُ فيه غيرُ الدخول، وقد مرَّ الكلام في ذلك ـ لأنَّ «أجمعين» تفيدُ عمومَ الأنواع لا الأفراد، فالمعنى: لأملأنها من ذينك النوعين جميعاً، كـ: ملأتُ الكيسَ من الدراهم والدنانير جميعاً، كذا قيل. ورُدَّ بأنه لو قُصِدَ ما ذُكِرَ لكان المناسبُ التثنيةَ دون الجمع، بأن يقال: كليهما، واستُظْهِرَ أنها لعموم الأفراد، والتعريفُ في «الجِنَّة والناس» للعهد، والمرادُ عصاتُهما، ويؤيِّده الآيةُ المتضمِّنةُ خطابَ إبليس.

وحاصل الآية: لو شئنا إيتاءَ كلِّ نفسٍ هداها لآتيناها إياه، لكنْ تحقَّقَ القولُ منِّي لأملأنَّ جهنَّم.. إلخ، فبمَوْجِبِ ذلك القولِ لم نشأ إعطاء الهدى على العموم، بل منعناه من أتباع إبليس الذين أنتم من جملتهم، حيث صرفتُم اختياركم إلى الغيِّ بإغوائه، ومشيئتُنا لأفعال العباد منوطةٌ باختيارهم إياها، فلمَّا لم تختاروا الهدى واخترتُم الضلالَ لم نشأ إعطاءه لكم، وإنما أعطيناه الذين اختاروه من البَرَرة، وهم المعنيون بما سيأتي إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الآيةَ. فيكون مناطُ عدم مشيئته تعالى إعطاءَ الهدى في الحقيقة سوءَ اختيارهم لا تحقُّقَ القول، وإنما قيِّدت المشيئةُ بما مرَّ من التعلُّق الفعليِّ بأفعال العباد عند حدوثها لأنَّ المشيئة الأزليةَ من حيث تعلُّقُها بما سيكون من أفعالهم إجمالاً متقدِّمةٌ على تحقُّق كلمة العذاب، فلا يكون عدمُها منوطاً بتحقُّقها، وإنما مناطُه عِلْمُه تعالى أنه

لا يَصْرِفُ[١] اختيارهم فيما سيأتي إلى الغيِّ وإيثارهم له على الهدى، فلو أُريدت هي من تلك الحيثية لاستُدْرِكَ بعدمها بأنْ يقال: ولكن لم نشأ، ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] كذا قال بعض الأجلَّة.

وقد يقال: يجوز أن يراد بالمشيئة المشيئةُ الأزلية من حيث تعلُّقُها بما سيكون من أفعالهم، ويرادَ بالقول علمُ الله تعالى، فإنه وكذا كلمةُ الله سبحانه يُطْلَقُ على ذلك كما قال الراغب، وذَكَر منه قولَه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦][٢] وحاصلُ المعنى: لو شئنا في الأزل إيتاءَ كلِّ نفسٍ هداها في الدنيا لآتيناها إياه، ولكنْ ثَبَتَ وتحقَّق عِلْمي أزلاً بتعذيب العصاة، فبموجب ذلك لم نشأ؛ إذ لابدَّ من وقوع المعلوم على طبق العلم لئلَّا يلزمَ انقلابُ العلم جهلاً، ووقوعُ ذلك يستدعي وجودَ العصاة؛ إذ تعذيبُ العصاة فرعُ وجودهم، ومشيئةُ إيتاء الهدى كلَّ نفسٍ تستلزمُ طاعةَ كلِّ نفس ضرورةَ استلزام العلَّة للمعلول، فيلزمُ أن تكون النفسُ المعذَّبة عاصيةً طائعةً وهو محالٌ، وهذا المحالُ جاء من مشيئته إيتاءَ كلِّ نفسٍ هُداها مع علمه تعالى بتعذيب العصاة، فإمَّا أنْ ينتفي العلمُ المذكور وهو محالٌ؛ لأنَّ تعلُّق علمه سبحانه بالمعلوم على ما هو عليه ضروريٌّ، فتعيَّن انتفاءُ المشيئة لذلك ويَرجِعُ[٣] هذا بالآخرة إلى أنَّ سبب انتفاء مشيئته إيتاءَ الهدى للعصاة سوءُ ما هم عليه في أنفسهم؛ لأن المشيئة تابعةٌ للعلم والعلمُ تابعٌ للمعلوم في نفسه، فعلمُه تعالى بتعذيب العصاة يستدعي علمَه سبحانه إياهم بعنوان كونهم عصاةً، فلا يشاؤُهم جلَّ جلالُه إلا بهذا العنوان الثابتِ لهم في أنفسهم، ولا يشاؤهم سبحانه على خلافه لأنَّ مشيئته تعالى إياهم كذلك تستدعي تعلُّق العلم بالشيءِ على خلاف ما هو عليه في نفس الأمر، وليس ذلك علماً.

---

(١) كذا في الأصل و(م): أنه لا يصرف، ولعله مصحف عن: أزلاً بصرف، كما في تفسير أبي السعود ٧/ ٨٣، وعنه نقل المصنف.

(٢) مفردات الراغب (قول).

(٣) في (م): ويرجح، وهو تصحيف.

ويمكن أن يبقى العلمُ على ظاهره ويقال: إنه تعالى لم يشأ هداهم لأنه جلَّ وعلا قال لإبليس عليه اللعنة أنه سبحانه يعذِّب أتباعه ولا بدّ، ولا يقول تعالى خلافَ ما يعلم، فلا يشاء تبارك وتعالى خلافَ ما يقول، ويرجع بالآخرة أيضاً إلى أنه تعالى لم يشأ هداهم لسوء ما هم عليه في أنفسهم بأدنى تأمُّلٍ.

ومآلُ الجواب على التقريرين: لا فائدةَ لكم في الرجوع؛ لسوء ما أنتم عليه في أنفسكم. ولا يخفى أنَّ ما ذكر مبنيٌّ على القول بالأعيان الثابتة، وأنَّ الشقيَّ شقيٌّ في نفسه، والسعيد سعيدٌ في نفسه، وعلمُ الله تعالى إنما تعلَّق بهما على ما هما عليه في أنفسهما، وأنَّ مشيئته تعالى إنما تعلَّقتْ بإيجادهما حَسْبَما عَلِمَ جلَّ شأنُه، فوُجِدا في الخارج بإيجاده تعالى إياهما على ما هما عليه في أنفسهما، فإذا تمَّ هذا تمَّ ذاك، وإلا فلا.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما يُعْرِبُ عنه ما قبلُ من نفي الرجع إلى الدنيا، أو على قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ إلخ، ولعل هذا أسرعُ تبادراً، وجَعَلَها بعضهم واقعةً في جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، أي: إذا يئستُم من الرجوع، أو: إذا حقَّ القول، فذوقوا، وجوَّز كونُها تفصيليةً، والأمرُ للتهديد والتوبيخ.

والباء في قوله سبحانه: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ للسببية، و«ما» مصدريةٌ، و«هذا» صفةُ «يوم» جيء به للتهويل، وجوَّز كونُه مفعولَ «ذوقوا» وهو إشارةٌ إلى ما هم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغمِّ، وعلى الأول يكون مفعولُ «ذوقوا» محذوفاً، والوصفيةُ أظهرُ، أي: فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وتَرْكِكم التفكُّرَ فيه والتزوُّدَ له بالكلِّية. وهذا تصريحٌ بسبب العذاب من قِبَلِهم فلا ينافي أن يكون له سببٌ آخرُ حقيقياً كان أو غيرَه، والتوبيخُ به من بين الأسباب لظهوره وكونه صادراً منهم لا يَسَعُهم إنكارُه. والمراد بنسيانهم ذلك تركُهم التفكُّرَ فيه والتزوُّدَ له كما أشرنا إليه، وهو بهذا المعنى اختياريٌّ يوبَّخُ عليه، ولا يكاد يصحُّ إرادةُ المعنى الحقيقيِّ وإن صحَّ التوبيخُ عليه باعتبار تعمُّدِ سببه من الانهماك في اتِّباع الشهوات.

ومثلُه في كونه مجازاً النسيانُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: تركناكم في العذاب تَرْكَ المنسيِّ بالمَرَّةِ. وجَعَلَ بعضُهم هذا من باب المشاكلة، ولم يَعْتَبِرِ كونَ الأول مجازاً مانعاً منها، قيل: والقرينةُ على قَصْدِ المشاكلة فيه أنه قصد جزاؤهم

من جنس العمل، فهو على حدِّ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وقولُه تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ تكريرٌ للتأكيد والتشديدِ، وتعيينِ المفعولِ المُبْهَمِ للذوق، والإشعارِ بأنَّ سببه ليس مجرَّدَ ما ذكر من النسيان، بل له أسبابٌ أُخَرُ من فنون الكفر والمعاصي التي كانوا مستمرِّينَ عليها في الدنيا، ولمَّا كان فيه زيادةٌ على الأول حَصَلتْ به مغايرتُه له، استحقَّ العطفَ عليه. ولم يُنْظَم الكلُّ في سلكٍ واحدٍ للتنبيه على استقلال كلٍّ من النسيان وما ذُكر في استيجاب العذاب.

وفي إبهام المذوق أولاً وبيانِه ثانياً بتكرير الأمر، وتوسيطِ الاستئناف المنبئ عن كمال السخط بينهما، من الدلالة على غاية التشديد في الانتقام منهم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير عدم استحقاقهم لإيتاء الهدى، والإشعارِ بعدم إيمانهم لو أوتوه بتعيين مَن يستحقُّه بطريق القَصْر، كأنه قيل: إنكم لا تؤمنون بآياتنا الدالَّةِ على شؤوننا ولا تعملون بموجبها عملاً صالحاً ولو أرجعناكم إلى الدنيا، وإنما يؤمن ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ أي: وُعظوا ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ آثِرَ ذي أثيرٍ[1]، من غير تردُّدٍ ولا تلعثُم، فضلاً عن التسويف إلى معاينة ما نطقتْ به من الوعد والوعيد، أي: سقطوا ساجدين تواضعاً لله تعالى وخشوعاً وخوفاً من عذابه عزَّ وجلَّ.

قال أبو حيان: هذه السجدة من عزائم سجود القرآن. وقال ابن عباس: السجودُ هنا الركوع. ورُوي عن ابن جريجٍ ومجاهدٍ أنَّ الآية نزلت بسبب قومٍ من المنافقين كانوا إذا أُقيمت الصلاةُ خرجوا من المسجد، فكأنَّ الركوع يقصدُ من هذا، ويلزمُ على هذا أن تكون الآيةُ مدنيةً، ومِن مذهب ابن عباس أنَّ القارئ لآية السجدة يركعُ، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤][2]. اهـ. ولا يخفى ما في الاستدلال من المقال.

﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: ونزَّهوه تعالى عند ذلك عن كلِّ ما لا يليقُ به

---

(١) أي: أوّلَ كلِّ شيء. الصحاح (أثر).

(٢) البحر ٧/٢٠٢.

سبحانه من الأمور التي من جملتها العجزُ عن البعث ملتبسين بحَمْدِه تعالى على نعمائه جلَّ وعلا التي أجلُّها الهدايةُ بإيتاء الآيات والتوفيق إلى الاهتداء بها، فالحمدُ في مقابلة النعمة، والباءُ للملابَسةِ والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، والتعرُّضُ لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلَّة التسبيح والتحميد، بأنهم[1] يفعلونهما بملاحظةِ ربوبيته تعالى لهم.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥﴾ عن الإيمان والطاعةِ كما يفعلُ مَن يصرُّ مستكبراً كأنْ لم يَسْمَعِ الآيات، والجملةُ عطفٌ على الصلة أو حالٌ من أحد ضميري «خرُّوا» و«سبَّحوا»، وجوِّز عطفُها على أحد الفعلين.

وقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ لبيان بقية محاسنهم، وجوِّز أن تكون حاليةً أو خبراً ثانياً للمبتدأ. والتجافي: البعدُ والارتفاع. والجُنوبُ جمع جنبٍ: الشقوق، وذكر الراغب أنَّ أصل الجَنْبِ الجارحةُ، ثم يستعار في الناحية التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك، نحو اليمين والشمال[2].

و«المضاجع» جمعُ المضجع: أماكنُ الاتِّكاء للنوم، أي: تتنحَّى وترتفعُ جنوبُهم عن مواضع النوم، وهذا كنايةٌ عن تَرْكِهم النومَ، ومثلُه قولُ عبد الله بن رواحة يَصِفُ النبيَّ ﷺ:

نبيٌّ تَجافَى جَنْبُه عن فراشه إذا استثقَلَتْ بالمشركين المضاجعُ[3]

والمشهورُ أنَّ المراد بذلك التجافي القيامُ لصلاة النوافل بالليل، وهو قول الحسن ومجاهدٍ ومالكٍ والأوزاعيِّ وغيرهم، وفي الأخبار الصحيحة ما يشهدُ له؛ أخرج أحمدُ، والترمذيُّ وصحَّحه، والنسائيُّ، وابنُ ماجه، ومحمد بن نصر في كتاب «الصلاة»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفرٍ،

(١) في تفسير أبي السعود ٧/ ٨٤ (والكلام منه): وبأنهم.
(٢) مفردات الراغب (جنب).
(٣) البيت في صحيح البخاري (١١٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ برواية:
يبيت يجافي جنبه..........

فأصبحتُ يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبيَّ الله أخبرني بعملٍ يدخلُني الجنة ويباعدُني من النار؟ قال: «لقد سألْتَ عن عظيم، وإنه يسيرٌ على مَن يسَّره الله تعالى عليه، تعبدُ الله ولا تشركُ به شيئاً، وتقيمُ الصلاة، وتُؤتي الزكاةَ، وتصومُ رمضان، وتحجُّ البيت» ثم قال: «أَلَا أدلُّك على أبواب الخير؟ الصومُ جُنَّةٌ، والصدقةُ تطفئُ الخطيئةَ، وصلاةُ الرجل في جوف الليل» ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، الحديث[1].

وقال أبو الدرداء وقتادةُ والضحاك: هو أن يصلِّيَ الرجل العشاءَ والصبحَ في جماعةٍ[2].

وعن الحسن وعطاء: هو أن لا ينامَ الرجلُ حتى يصلِّي العشاء؛ أخرج الترمذيُّ وصحَّحه وابن جرير وغيرُهما عن أنس قال: إنَّ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تُدْعَى العَتَمة[3].

وفي روايةٍ أخرى عنه أنه قال فيها: نزلت فينا معاشرَ الأنصار، كنَّا نصلِّي المغربَ فلا نرجعُ إلى رحالنا حتى نصلِّيَ العشاءَ مع النبيِّ ﷺ[4].

وقيل: هو أن يصلِّي الرجل المغربَ ويصلِّي بعدها إلى العشاء، فقد أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» وابن عديٍّ وابنُ مردويه عن مالك بن دينار قال: سألتُ أنس بنَ مالكٍ عن هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ قال: كان قومٌ من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأوَّلين يصلُّون المغربَ ويصلُّون بعدها إلى عشاءِ الآخرة، فنزلت هذه الآيةُ فيهم[5].

---

(١) مسند أحمد (٢٢٠١٦)، وسنن الترمذي (٢٦١٦)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٣٠)، وسنن ابن ماجه (٣٩٧٣)، وتفسير الطبري ١٨/ ٦١٤، والمستدرك ٢/ ٤١٢-٤١٣، والشعب (٣٣٤٩)، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٧٥.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٣، والبغوي ٣/ ٥٠٠، والقرطبي ١٧/ ٣٠، وجاء عندهم جميعاً بدل قتادة: عبادة، وهو عبادة بن الصامت ﷺ كما صرح بذلك البغوي.

(٣) سنن الترمذي (٣١٩٦)، وتفسير الطبري ١٨/ ٦١١.

(٤) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ١٧٤.

(٥) الكامل ٢/ ٦١٢، وعزاه لعبد الله بن أحمد وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٧٥. وفي إسناده الحارث بن وجيه، قال عنه يحيى كما ذكر ابن عدي: ليس حديثه بشيء، وقال النسائي: ضعيف.

وقال قتادة وعكرمة: هو أن يصلِّي الرجل ما بين المغرب والعشاء؛ واستُدلَّ له بما أخرجه محمد بن نصر عن عبد الله بن عيسى قال: كان ناس من الأنصار يصلون ما بين المغرب والعشاء فنزلت فيهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾(١).

وأخرج ابن جريرٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية: تتجافَى جنوبُهم لذكر الله تعالى، كلَّما استيقظوا ذكروا الله عز وجل، إمَّا في الصلاة وإما في قيامٍ أو قعودٍ أو على جنوبهم، لا يزالون يذكرون الله تعالى(٢). ورَوَى نحوه هو ومحمد بن نصر عن الضحاك(٣).

والجمهورُ عوَّلوا على ما هو المشهور، وفي فضل التهجُّد ما لا يُحصى من الأخبار، وأفضلُه على ما نصَّ عليه غيرُ واحدٍ ما كان في الأسحار.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ حالٌ من ضمير «جنوبهم» وقد أُضيف إليه ما هو جزءٌ، وجوِّز على احتمال كون جملة «تتجافى» إلخ حاليةً أن تكون حالاً ثانيةً ممَّا جُعِلَتْ تلك حالاً منه، وعلى احتمال كونها خبراً ثانياً للمبتدأ أن تكون خبراً ثالثاً، وجوِّز كونها مستأنفةً. والظاهرُ أنَّ المراد بدعائهم ربَّهم سبحانه المعنى المتبادر، وقيل: المراد به الصلاة.

﴿خَوْفًا﴾ أي: خائفين من سخطه تعالى وعذابه عزَّ وجلَّ، وعدمِ قبول عبادتهم ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته تبارك وتعالى، فالمصدران حالان من ضمير «يدعون»، وجوِّز أن يكونا مصدرين لمقدَّرٍ، أي: يخافون خوفاً ويطمعون طمعاً، وتكونُ الجملة حينئذٍ حالاً، وأن يكونا مفعولاً له، ولا يخفى أنَّ الآية على الحالية أمدحُ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ إياه من المال ﴿يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ في وجوه الخير ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ أي: كلُّ نفسٍ من النفوس، لا مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ فضلاً عمَّن عَدَاهم، فإنَّ النكرة في سياق النفي تعمُّ. والفاءُ سببيةٌ أو فصيحةٌ، أي: أُعْطُوا فوق رجائِهم فلا تعلمُ نفس ﴿مَّا أُخْفِيَ لَهُم﴾ أي: لأولئك الذين عدِّدَتْ نعوتُهم الجليلة

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٧٥، وأخرج نحوه أبو داود (١٣٢١) و(١٣٢٢)، والطبري ١٨/ ٦٠٩-٦١١ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٦١٣.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٧٦، وهو في تفسير الطبري ١٨/ ٦١٢.

﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: مما تَقَرُّ به أعينٌ، وفي إضافة القُرَّةِ إلى الأعين على الإطلاق لا إلى أعينهم تنبيهٌ على أنَّ ما أخفي لهم في غايةِ الحسن والكمال.

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلب بشر، بَلْهَ ما أَطلَعْتُكم عليه، اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»(١).

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ، والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود قال: إنه لمكتوبٌ في التوراة: لقد أعدَّ الله تعالى للذين تتجافى جنوبُهم عن المضاجع ما لم تَرَ عينٌ ولم تَسْمَعْ أذنٌ ولم يخطر على قلب بشر، ولا يعلمُ مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ. وإنه لفي القرآن: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٢).

﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: جُوزوا جزاءً بسبب ما كانوا يعملونه من الأعمال الصالحة، فـ «جزاء» مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ مقدَّرٍ، والجملةُ مستأنفةٌ، وجوِّز جَعْلُها حاليةً.

وقيل: يجوزُ جَعْلُه مصدراً مؤكِّداً لمضمون الجملة المتقدِّمة.

وقيل: يجوز أن يكون مفعولاً له لقوله تعالى: «لا تعلم نفس» على معنى: منعتُ العلمَ للجزاء، أو لـ «أُخفي» فإنَّ إخفاءه لعلوِّ شأنه.

وعن الحسن أنه قال: أَخفَى القومُ أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله تعالى لهم ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ. أي: أَخْفَى ذلك ليكون الجزاءُ من جنس العمل. وفي «الكشف» أنَّ هذا يدلُّ على أنَّ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ﴾ رابطةٌ للَّاحق بالسابق، وأصلُه: فلا يعلمون، والعدول لتعظيم الجزاء، وعدمُ ذكر الفاعل في

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٨٠)، وصحيح مسلم (٢٨٢٤)، وقوله: بله ما أطلعتكم عليه، أي: دع ذلك فإنه سهل في جنب ما ادُّخر لهم. وجاء في رواية البخاري: من بَلْهِ، أي: من غير. ينظر شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ١٦٦، وفتح الباري ٨/ ٥١٦-٥١٧، وحاشية الشهاب ٧/ ٥٣.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١١٢، وتفسير الطبري ١٨/ ٦١٧، والمعجم الكبير (٩٠٣٩)، والمستدرك ٢/ ٤١٤، وعزاه للفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٧٦.

«أُخفي» ترشيحٌ له؛ لأنَّ جازِيَهُ مَن هو العظيمُ وحده فلا يذهب وَهلٌ إلى غيره سبحانه. اهـ فتأمل.

وقرأ حمزة ويعقوب والأعمش: «أُخْفيْ» بسكون الياء فعلاً مضارعاً للمتكلِّم[(١)]، وابنُ مسعود: «نخفي» بنون العظمة[(٢)]. والأعمش أيضاً: «أَخْفَيْتُ» بالإسناد إلى ضمير المتكلِّم وحده[(٣)]، ومحمد بن كعب: «أَخْفَى» فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل[(٤)].

و«ما» في جميع ذلك اسمٌ موصولٌ مفعولُ «تعلم»، والعلمُ بمعنى المعرفة، والعائدُ الضميرُ المستتر النائب عن الفاعل على قراءة الجمهور، وضميرُه محذوفٌ على غيرها.

وقال أبو البقاء: يجوز أن تكون «ما» استفهاميةً، وموضعُها رفعٌ بالابتداء و«أُخْفيَ لهم» خبرُه على قراءةِ مَن فتح الياء، وعلى قراءة مَن سكَّنها وجَعَل «أُخْفيْ» مضارعاً يكون «ما» في موضع نصبٍ بـ «أُخْفيْ»[(٥)]. ويُعلم منه حالُها على سائر القراءات، وإذا كانت استفهاميةً يجوز أن يكون العلمُ بمعنى المعرفة، وأن يكون على ظاهره، فيتعدَّى لمفعولين تسدُّ الجملةُ الاستفهاميةُ مسدَّهما، وعلى كلٍّ من احتمالي الموصولية والاستفهامية فالإبهامُ للتعظيم.

وقرأ عبد الله وأبو الدرداء وأبو هريرة وعونٌ العقيلي: «من قرَّات» على الجمع بالألِفِ والتاء[(٦)]، وهي روايةٌ عن أبي عمرو وأبي جعفر والأعمش[(٧)]، وجمع

---

(١) التيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٧، والبحر ٧/ ٢٠٢.
(٢) القراءات الشاذة ص١١٨، والبحر ٧/ ٢٠٢.
(٣) القراءات الشاذة ص١١٨، والبحر ٧/ ٢٠٢.
(٤) البحر ٧/ ٢٠٢.
(٥) الإملاء ٤/ ١٨٥.
(٦) القراءات الشاذة ص١١٨، والمحتسب ٢/ ١٧٤، والبحر ٧/ ٢٠٢-٢٠٣. ووقع في الأصل و(م): والعقيلي. والصواب ما أثبتناه. وعون العقيلي له اختيار في القراءة، أخذ القراءة عرضاً عن نصر بن عاصم، وروى القراءة عنه المعلى بن عيسى. طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٦٠٦.
(٧) البحر٧/ ٢٠٣ عن أبي جعفر والأعمش، والمشهور عن أبي عمرو وأبي جعفر الإفراد.

المصدر أو اسمه لاختلاف أنواع القرَّة. والجارُّ والمجرور في موضع الحال.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أي: أَبَعْدَ ظهور ما بينهما من التبايُنِ البيِّنِ يُتوهَّم كونُ المؤمن الذي حُكيت أوصافه الفاضلةُ كالفاسق الذي ذُكرت أحوالُه القبيحةُ العاطلة. وأصل الفسق: الخروجُ، من فَسَقَتِ الثمرةُ: إذا خرجتْ من قشرها، ثم استُعمل في الخروج عن الطاعة وأحكامِ الشرع مطلقاً، فهو أعمُّ من الكفر، وقد يخصُّ به كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] وكما هنا لمقابلته بالمؤمن، مع ما ستسمعُه بعدُ إن شاء الله تعالى.

﴿لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ التصريحُ به ـ مع إفادة الإنكار لنفي المشابهة بالمَرَّة على أبلغ وجهٍ وآكَدِه ـ لزيادة التأكيد وبناءِ التفصيل الآتي عليه، والجمعُ باعتبار معنى «مَن» كما أنَّ الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها.

وقيل: الضمير لاثنين وهما المؤمنُ والكافر، والتثنيةُ جمعٌ.

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ تفصيلٌ لمراتب الفريقين بعد نفي استوائهما، وقيل: بعد ذِكْرِ أحوالهما في الدنيا، وأضيفت الجنان إلى «المأوى» لأنها المأوى والمسكنُ الحقيقيُّ، والدنيا منزلٌ مرتَحَلٌ عنه لا محالةَ. وقيل: «المأوى» عَلَمٌ لمكانٍ مخصوص من الجنان[1] كعدن، وقيل: جنةُ المأوى؛ لِمَا روي عن ابن عباس أنها تأوي إليها أرواحُ الشهداء. وروي أنها عن يمينِ العرش. ولا يخفَى ما في جَعْلِه عَلَماً من البُعْدِ، وأيّاً ما كان فلا يبعُدُ أن يكون فيه رمزٌ إلى ما ذكر من تَجافيهم عن مضاجعهم التي هي مأواهم في الدنيا.

وقرأ طلحة: «جنة المأوى» بالإفراد[2].

﴿نُزُلًا﴾ أي: ثواباً، وهو في الأصل ما يعدُّ للنازل من الطعام والشراب والصِّلة، ثم عمَّ كلَّ عطاءٍ، وانتصابُه على أنه حالٌ من «جنات»، والعاملُ فيه الظرفُ. وجوَّز أن يكون جمعَ نازلٍ فيكون حالاً من ضمير «الذين آمنوا».

---

(١) في الأصل: الجنات.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٨.

وقرأ أبو حيوة: «نُزْلاً» بإسكان الزاي[1]، كما في قوله:

وكنَّا إذا الجبَّارُ بالجيش ضافنا جَعَلْنا القنا والمرهَفاتِ له نُزْلا[2]

﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾ أي: بسبب الذي كانوا يعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة، على أنَّ «ما» موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ والباءُ سببية، وكونُ ذلك سبباً بمقتضَى فَضْلِه تعالى ووَعْدِه عزَّ وجلّ فلا ينافي حديثَ: «لا يدخلُ أحدكم الجنةَ بعمله»[3]. ويجوز أن تكون الباء للمقابلة والمعاوضةِ كعَلَى في نحو: بعتُكَ الدار على ألف درهمٍ، أي: فلهم ذلك على الذي كانوا يعملونه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا عن الطاعة فكفروا وارتكبوا المعاصي ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾ أي: فمسكنُهم ومحلُّهم ﴿النَّارُ﴾ وذكر بعضهم أنَّ المأوى صار متعارفاً فيما يكون ملجأً للشخص ومستراحاً يستريح إليه من الحرِّ والبرد ونحوهما، فإذا أُريدَ هنا يكون في الكلام استعارةٌ تهكُّمية كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١]. وجوِّز أن يكون استعمال ذلك من باب المشاكلة؛ لأنه لمَّا ذكر في أحد القسمين: «فلهم جنات المأوى»، ذكر في الآخر: «فمأواهم النار».

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا﴾ استئنافٌ لبيان كيفية كونِ النار مأواهم، والكلامُ على حدِّ قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧] على ما قيل، والمعنى: كلما شارَفوا الخروجَ منها وقرُبوا منه أُعيدوا فيها ودُفعوا إلى قعرها، فقد روي أنهم يضربُهم لهبُ النار فيرتفعون إلى أعلاها حتى إذا قرُبوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربُهم اللهبُ فيهوون إلى قعرها، وهكذا يُفعل بهم أبداً[4].

وقيل: الكلام على ظاهره إلا أنَّ فيه حذفاً، أي: كلما أرادوا أن يخرجوا منها فخرجوا من معظمها أُعيدوا فيها، ويشيرُ إلى أنَّ الخروج من معظمها قولُه تعالى: ﴿فِيهَا﴾ دون: إليها. وجوِّز أن يكون الكلام هنا عبارةً عن خلودهم فيها. وأيّاً ما كان لا منافاةَ بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

---

(١) البحر ٧/ ٢٠٣.

(٢) سلف ٥/ ٢٣٥.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٤) و(٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) ذكر نحوه الزمخشري في الكشاف ٣/ ٩ عن الحسن، والطبري ١٦/ ٤٩٨ دون نسبة.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ تشديداً عليهم وزيادةً في غيظهم ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾ أي: بعذاب النار ﴿تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ على الاستمرار في الدنيا، وأُظهرت «النار» مع تقدُّمها قبلُ لزيادة التهديد والتخويف، وتعظيمِ الأمر.

وذكر ابنُ الحاجب في «أماليه» وجهاً آخر للإظهار، وهو أنَّ الجملة الواقعة بعد القول حكايةٌ لِمَا يقال لهم يومَ القيامة عند إرادتهم الخروجَ من النار، فلا يناسبُ ذلك وضعَ الضمير؛ إذ ليس القولُ حينئذٍ مقدَّماً عليه ذِكْرُ النار، وإنما ذَكَرَها سبحانه قبلُ إخباراً عن أحوالهم.

ونظر فيه الطيبيُّ[1] عليه الرحمةُ بأنَّ هذا القولَ داخلٌ أيضاً في حيِّز الإخبار؛ لعَطْفِه على «أُعيدوا» الواقعِ جواباً لـ «كلما»، فكما جاز الإضمارُ في المعطوف عليه جاز فيه أيضاً إن لم يُقْصَدْ زيادةُ التهديد والتخويف.

ورُدَّ بأنَّ المانع أنه حكايةٌ لِمَا يقال لهم يومَ القيامة، والأصل في الحكاية أن تكون على وفق المحكيِّ عنه دون تغييرٍ ولا إضمارٍ في المحكيِّ لعدم تقدُّم ذكر النار فيه.

وتعقَّب بأنه قد يناقَش فيه بأنَّ مراده أنه يجوز رعايةُ المحكيِّ والحكاية، وكما أنَّ الأصل رعايةُ المحكيِّ الأصلُ الإضمارُ إذا تقدَّم الذكرُ، فلا بدَّ من مرجِّحٍ.

وقال بعض المحققين: أراد ابن الحاجب أنَّ الإظهار هو المناسبُ في هذه الجملة نظراً إلى ذاتها ونظراً إلى سياقها؛ أما الأولُ فلأنها تقال من غير تقدُّم ذِكْرِ النار، وأما الثاني فلأنَّ سياق الآية للتهديد والتخويف وتعظيم الأمر، وفي الإظهار من ذلك ما ليس في الإضمار، وهذا بعيدٌ من أن يَرِدَ عليه نظرُ الطيبيِّ.

والإنصافُ أنَّ كلًّا من الإضمار والإظهار جائزٌ، وأنه رجَّح الإظهارَ اقتضاءُ السياق لذلك. ونُقل عن الراغب ما يدلُّ على أنَّ المقام في هذه الآية مقامُ الضمير، حيث ذُكر عنه أنه قال في «درة التنزيل»: إنه تعالى قال هاهنا: (ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ) وقال سبحانه في آيةٍ أخرى: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٢] فذكَّر جلَّ وعلا هاهنا وأنَّث سبحانه هناك، والسرُّ في ذلك أنَّ

---

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١٥٤.

النار هاهنا وقعت موقعَ الضميرِ والضميرُ لا يوصف، فأُجري الوصفُ على العذاب المضافِ إليها وهو مذكَّر، وفي تلك الآية لم يَجْرِ ذكرُ النار في سياقها، فلم تقع النارُ موقعَ الضمير، فأُجْري الوصف عليها وهي مؤنَّثةٌ دون العذاب، فتأمل.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: الأقرب، وقيل: الأقل. وهو عذابُ الدنيا فإنه أقربُ من عذاب الآخرة وأقلُّ منه. واختُلف في المراد به؛ فروَى النسائيُّ وجماعةٌ وصحَّحه الحاكم عن ابن مسعود: أنه سنونَ أصابتهم(١). ورُوي ذلك عن النخعيِّ ومقاتل.

ورَوَى الطبرانيُّ وآخرون وصحَّحه الحاكم عن ابن مسعود أيضاً أنه ما أصابهم يومَ بدر(٢). وروي نحوُه عن الحسن بن عليٍّ ﷺ بلفظ: هو القتلُ بالسيف نحو يوم بدر(٣).

وعن مجاهد: القتلُ والجوع.

وأخرج مسلم، وعبد الله بنُ أحمد في زوائد «المسند»، وأبو عوانة في «صحيحه»، وغيرُهم، عن أبي بن كعب أنه قال: هو مصائبُ الدنيا والرومُ والبطشةُ والدخان(٤). وفي لفظ مسلم: أو الدخان(٥).

وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس أنه قال: هو مصائب الدنيا وأسقامها وبلاياها(٦). وفي رواية عنه وعن الضحاك وابن زيد بلفظ: مصائب الدنيا في الأنفس والأموال.

---

(١) سنن النسائي الكبرى (١١٣٣١)، وعزاه للحاكم السيوطي في الدر ٥/ ١٧٨.

(٢) المعجم الكبير (٩٠٣٨)، وتفسير الطبري ١٨/ ٦٢٩، والمستدرك ٢/ ٤١٤.

(٣) البحر ٧/ ٢٠٣، وأخرجه الطبري ١٨/ ٦٣٠ بلفظ: القتل بالسيف صبراً.

(٤) مسند أحمد (٢١١٧٣)، وعزاه لأبي عوانة السيوطي في الدر ٥/ ١٧٨، وسيأتي تخريجه عند مسلم، وأخرجه أيضاً الطبري ١٨/ ٦٢٨، والحاكم ٤/ ٤٢٨. قوله: والروم، هي رواية مسلم والحاكم، وجاء في تفسير الطبري والدر: اللزوم، وفي مسند أحمد: اللزام، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].

(٥) صحيح مسلم (٢٧٩٩)، وزاد: شعبة الشاك في البطشة أو الدخان. اهـ. وشعبة هو أحد رجال الإسناد.

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٦٢٧، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٧٨.

وفي معناه ما أخرج ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني قال: سألتُ عبادة بن الصامت عن قوله تعالى: (وَلَنُذِيقَنَّهُم) الآيةَ، فقال: سألتُ رسول الله ﷺ عنها فقال ﷺ: «هي المصائبُ والأسقام والآصار، عذابٌ للمسرف في الدنيا دون عذاب الآخرة» قلت: يا رسول الله، فما هي لنا؟ قال: «زكاةٌ وطَهورٌ»[(١)].

وفي روايةٍ عن ابن عباس أنه الحدود.

وأخرج هنَّاد عن أبي عبيدة أنه فسَّره بعذاب القبر[(٢)]. وحكي عن مجاهدٍ أيضاً.

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هو عذابُ يوم القيامة كما روي عن ابن مسعود وغيره، وقال ابن عطية: لا خلافَ في أنه ذلك. وفي «التحرير» أنَّ أكثرهم على أنَّ العذاب الأكبر عذابُ يوم القيامة في النار. وقيل: هو القتلُ والسبي والأسر. وعن جعفر بن محمد رضي الله عنهما أنه خروج المهديِّ بالسيف[(٣)]. انتهى. وعليهما يفسَّر العذابُ الأدنى بالسنين أو الأسقام، أو نحوِ ذلك مما يكون أدنى مما ذُكر. وعن بعض أهل البيت تفسيرُه بالدابة والدجَّال، والمعوَّل عليه ما عليه الأكثر.

وإنما لم يقل: الأصغر، في مقابلة «الأكبر»، أو: الأبعد، في مقابلة «الأدنى»؛ لأنَّ المقصود هو التخويفُ والتهديد، وذلك إنما يحصل بالقُرْبِ لا بالصِّغر، وبالكِبَر لا بالبُعْدِ؛ قاله النيسابوري ملخِّصاً له من كلام الإمام[(٤)]. وكذا أبو حيان، إلا أنه قال: إنَّ الأدنى يتضمَّنُ الأصغر لأنه منقضٍ بموت المعذَّب، والأكبر يتضمَّنُ الأبعد لأنه واقعٌ في الآخرة، فحصلت المقابلةُ من حيث التضمُّنُ، وصرَّح بما هو آكَدُ في التخويف[(٥)].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: لعل مَن بقي منهم يتوبُ؛ قاله ابن مسعود. وقال الزمخشريُّ: أو لعلهم يريدون الرجوعَ ويطلبونه، كقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٧٨.

(٢) الزهد لهناد (٣٤٥).

(٣) نقل المصنف كلام ابن عطية وكلام صاحب التحرير عن البحر ٧/ ٢٠٣، ولم نقف على كلام ابن عطية في المحرر.

(٤) غرائب القرآن ٢١/ ٦٧، وينظر تفسير الرازي ٢٥/ ١٨٣-١٨٤.

(٥) البحر ٧/ ٢٠٣-٢٠٤.

صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] وسمِّيت إرادةُ الرجوع رجوعاً كما سمِّيت إرادةُ القيام قياماً في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] ويدلُّ عليه قراءةُ مَن قرأ: «يُرْجَعون» على البناء للمفعول[١]. انتهى.

وهو على ما حُكي عن مجاهدٍ ورُوي عن أبي عبيدة، فيتعلَّق «العلهم» إلخ بقوله تعالى: (وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ) كما في الأول، إلَّا أنَّ الرجوع هنالك التوبةُ، وهاهنا الرجوعُ إلى الدنيا، ويكون من باب: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] أو يكون الترجِّي راجعاً إليهم، ووجهُ دلالة القراءة المذكورة عليه أنه لا يصحُّ الحمل فيها على التوبة.

والظاهرُ التفسيرُ المأثور، والقراءةُ لا تأباه؛ لجوازِ أن يكون المعنى عليها: لعلهم يُرجعهم ذلك العذاب عن الكفر إلى الإيمان. و«لعل» لترجِّي المخاطَبين كما فسَّرها بذلك سيبويه[٢]، وعن ابن عباس تفسيرُها هنا بـ «كي»، وكأنَّ المراد: كي نُعرِّضَهم بذلك للتوبة.

وجَعَلَها الزمخشريُّ لتَرجِّيه سبحانه، ولاستحالةِ حقيقةِ ذلك منه عزَّ وجلَّ حمله على إرادته تعالى، وأَوْرَدَ على ذلك سؤالاً أجاب عنه على مذهبه في الاعتزال[٣]، فلا تلتفت إليه.

هذا والآياتُ من قوله تعالى: (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا) إلى هنا نزلت في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان بن عفان رضي الله عنه لأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس؛ أخرج أبو الفرج الأصبهانيُّ في كتاب «الأغاني» والواحديُّ وابن عديٍّ وابن مردويه والخطيبُ وابن عساكر من طرقٍ عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنا أحدُّ منك سناناً، وأبْسطُ منك لساناً، وأملأُ للكتيبة منك. فقال عليٌّ رضي الله عنه: اسكت فإنما أنت فاسقٌ. فنزلت (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا) إلخ[٤].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٥.

(٢) سلف كلامه ١/ ٢٢٧.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٤٥.

(٤) الأغاني ٥/ ١٤٠، وأسباب النزول للواحدي ص٣٦٧-٣٦٨، والكامل لابن عدي ٦/ ٢١٣١، =

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديِّ نحوَ ذلك، وأخرج هذا أيضاً عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنها نزلت في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والوليد بن عقبة، ولم يذكر ما جرى[1]. وفي روايةٍ أخرى عنه أنها نزلت في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه ورجلٍ من قريش ولم يسمِّه.

وفي «الكشاف»: روي في نزولها أنه شَجَر بين عليٍّ رضي الله عنه والوليد بن عقبة يومَ بدرٍ كلامٌ، فقال له الوليد: اسكت فإنك صبيٌّ، أنا أَشَبُّ منك شباباً، وأَجْلَدُ منك جَلَداً، وأَذْرَبُ منك لساناً، وأحدُّ منك سناناً، وأشجعُ منك جناناً، وأملأ منك حشواً في الكتيبة. فقال له عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: اسكت فإنك فاسق. فنزلت[2].

ولم نره بهذا اللفظ مسنداً، وقال الخفاجيُّ: قال ابن حجر: إنه غلطٌ فاحش، فإنَّ الوليد لم يكن يومَ بدرٍ رجلاً، بل كان طفلاً لا يتصوَّر منه حضورُ بدرٍ وصدورُ ما ذكر[3].

ونقل الجلال السيوطيُّ عن الشيخ وليِّ الدِّين: هو غير مستقيمٍ، فإنَّ الوليد يصغرُ عن ذلك.

وأقول: بعضُ الأخبار تقتضي أنه لم يكن مولوداً يوم بدرٍ، أو كان صغيراً جدّاً؛ أخرج أبو داود في «السنن» من طريق ثابت بن الحجاج، عن أبي موسى عبد الله الهمدانيِّ عنه أنه قال: لمَّا افتتح رسولُ الله ﷺ مكة جعل أهلُ مكة يأتونَه بصبيانهم فيمسحُ على رؤوسهم، فأُتي بي إليه ﷺ وأنا مخلَّقٌ، فلم يمسَّني من أجل الخلوق[4]. إلا أنَّ ابن عبد البر قال: إنَّ أبا موسى مجهول، وأيضاً ذكر الزبير وغيره من أهل العلم بالسِّيَرَ أنَّ أمَّ كلثوم بنتَ عقبة لمَّا خرجت مهاجرةً إلى النبيِّ ﷺ

= وتاريخ بغداد ١٣/ ٣٢١، وتاريخ ابن عساكر ٦٣/ ٢٣٥، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٧٧-١٧٨. وأخرجه أيضاً أحمد في فضائل الصحابة (١٠٤٣).

(١) الخبران في الدر المنثور ٥/ ١٧٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٤٥-٢٤٦.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ١٥٤، وكلام ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣١ دون قوله: بل كان طفلاً... إلخ.

(٤) سنن أبي داود (٤١٨١)، وهو عند أحمد (١٦٣٧٩).

في الهدنة سنةَ سبعٍ، خرج أخواها الوليدُ وعمارة ليردَّاها، وهو ظاهر في أنه لم يكن صبياً يوم الفتح؛ إذ مَن يكون كذلك كيف يكون ممن خرج ليردَّ أخته قبل الفتح[1]؟

وبعضُ الأخبار تقتضي أنه كان رجلاً يوم بدر، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه «الإصابة» أنه قَدِمَ في فداء ابن عمِّ أبيه الحارث بن أبي وَجْزَةَ بن أبي عمرو بن أمية، وكان أُسر يومَ بدر فافتداه بأربعة آلاف، وقال: حكاه أهل المغازي[2]. ولم يتعقَّبه بشيءٍ، وسَوْقُ كلامه ظاهرٌ في ارتضائه، ووجهُ اقتضائه ذلك أنَّ ما تعاطاه من أفعال الرجال دون الصبيان، وهذا الذي ذكرناه عن ابن حجر يخالف ما ذكره عنه الخفاجيُّ عليه الرحمة مما مرَّ آنفاً.

ولا ينبغي أن يقال: يجوزُ أن يكون صغيراً ذلك اليوم صغراً يمكنُ معه عادةً الحضورُ، فحضر وجرى ما جرى؛ لأنَّ وَصْفَه بالفسق بمعنى الكفر والوعيدَ عليه بما سمعتَ في الآيات مع كونه دون البلوغ مما لا يكاد يذهب إليه إلا مَن يلتزم أنَّ التكليف بالإيمان إذ ذاك كان مشروطاً بالتمييز.

ولا أن يقال: يجوزُ أن تكون هذه القصة بعد إسلامه، وقد أطلق عليه «فاسقٌ» وهو مسلم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦] فقد قال ابن عبد البر: لا خلافَ بين أهل العلم بتأويل القرآن أنها نزلت فيه، حيث إنه ﷺ بعثه مصدِّقاً إلى بني المصطلق، فعاد وأخبر أنهم ارتدُّوا ومنعوا الصدقة[3]. ولم يكن الأمرُ كذلك؛ لأنَّ الفسق هاهنا بمعنى الكفر، وهناك ليس كذلك.

ثم اعلم أنَّ القول بأنها نزلت في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والوليدِ لكلامٍ جرى يوم بدر يقتضي أنها مدنيةٌ، والمختارُ عند بعضهم خلافُه[4].

---

(١) الاستيعاب ١١/٢٢-٢٣، وقال أيضاً: والحديث منكر مضطرب لا يصح.
(٢) الإصابة ١٠/٣١٣.
(٣) الاستيعاب ١١/٢٣.
(٤) وذكر الزجاج في معاني القرآن ٤/٢٠٨ أنها نزلت في عليٍّ وعقبة بن أبي معيط، وأخرجه الخطيب وابن عساكر كما ذكر السيوطي في أسباب النزول ص٢٩٣، وقال: كذا في هذه =

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ بيانٌ إجماليٌّ لمن قابل آيات الله تعالى بالإعراض بعد بيان حالِ مَن قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد، وكلمة «ثم» لاستبعاد الإعراض عنها عقلاً مع غايةِ وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين كما في قول جعفر بن عُلْبَةَ الحارثيِّ:

ولا يكشف الغمَّاء إلا ابنُ حُرَّةٍ يرى غمراتِ الموتِ ثم يزورُها[1]

والمرادُ أنَّ ذلك أظلمُ من كلِّ ظالم.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قيل: أي: مِن كلِّ مَن اتَّصف بالإجرام وكَسْبِ الأمورِ المذمومة وإن لم يكن بهذه المثابة ﴿مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فكيف ممن هو أظلمُ من كلِّ ظالم، وأشدُّ جرماً من كلِّ جارم؟ ففي الجملة إثباتُ الانتقام منه بطريقٍ برهانيٍّ.

وجوِّز أن يراد بالمجرم المُعْرِضُ المذكور، وقد أقيم المظهَرُ مقام المضمَر الراجع إلى «مَن» باعتبارِ معناها، وكان الأصل: إنَّا منهم منتقمون، ليؤذِنَ بأنَّ علَّةَ الانتقام ارتكابُ هذا المُعْرِضِ مثلَ هذا الجرم العظيم.

وفسَّر البغوي «المجرمين» هنا بالمشركين[2]. وقال الطيبيُّ[3] عليه الرحمةُ بعد حكايته: ولا ارتيابَ أنَّ الكلام في ذمِّ المُعْرِضين، وهذا الأسلوبُ أذمُّ لأنه يقرِّر أنَّ الكافر إذا وُصف بالظلم والإجرام حُمِلَ على نهاية كفره وغايةِ تمرُّده، ولأنَّ هذه الآية

= الرواية أنها نزلت في عقبة لا الوليد. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٣: وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية لأن عقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قتل في طريق مكة منصرف رسول الله ﷺ من بدر.

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ٢٥، وللمرزوقي ١/ ٤٩، والحماسة البصرية ١/ ٤٦، والكشاف ٣/ ٢٤٦، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٥٤، والتذكرة السعدية ص١٠٠. قال المرزوقي: أي: لا يكشف الخصلة الشديدة إلا رجل كريم يرى قُحَمَ الموت ثم يتوسطها ويصبر فيها، وإنما قال: ابن حُرَّة؛ لينبه على زوال الهجنة منه.

ووقع في الأصل و(م): علية، وهو تصحيف؛ قال البغدادي في الخزانة ١٠/ ٣١٠: جعفر بن عُلْبة بضم العين وسكون اللام بعدها موحدة، يكنى أبا عارم، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، شاعر مقلٌّ غَزِل، وفارس مذكور في قومه. اهـ. وقال التبريزي: وعُلبة مسمًّى بالعُلبة التي يحتلب فيها، وهو إناء من جلود يؤطر حولها قضيب، أي: يُعطف.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٥٠٣.

(٣) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

كالخاتمة لأحوال المكذِّبين القائلين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ﴾[1] [السجدة: ٣] والتخلُّصِ إلى قصة الكليم مسلاةً لقلب الحبيب عليهما الصلاة والسلام، إلى آخر ما ذكره فلْيُراجَعْ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنسَ الكتاب ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ أي: شكٍّ. وقرأ الحسن: «مُرْيَة» بضم الميم[2].

﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي: لقائكَ ذلك الجنسَ، على أنَّ «اللقاء» مصدرٌ مضافٌ إلى المفعول، وفاعلُه محذوفٌ وهو ضمير النبيِّ ﷺ، والضميرُ المذكور لـ «الكتاب» المرادِ به الجنسُ، وإيتاءُ ذلك الجنس باعتبار إيتاء التوراة، ولقاؤه باعتبار لقاء القرآن، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] وقولِه سبحانه: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

وحَمَلَ بعضُهم «الكتاب» على العهد، أي: الكتاب المعهودَ، وهو التوراةُ، ولمَّا لم يصحَّ عودُ الضمير إليه ظاهراً لأنه ﷺ لم يَلْقَ عينَ ذلك الكتاب، قيل: الكلام على تقدير مضافٍ، أي: لقاءِ مِثْلِه، أو على الاستخدام[3]، أو أنَّ الضمير راجعٌ إلى القرآن المفهوم منه، ولا يخفى ما في كلٍّ من البُعْد.

والمعنى: إنَّا آتينا موسى مثلَ ما آتيناك من الكتاب، ولقَّيْناه من الوحي مثلَ ما لقَّيناك من الوحي، فلا تكن في شكٍّ من أنك لقيتَ مثلَه ونظيره، وخلاصةُ ما تؤذِنُ به الفاءُ التفريعية: إنَّ معرفتك بأنَّ موسى عليه السلام أوتي التوراةَ ينبغي أن تكون سبباً لإزالة الرَّيْبِ عنك في أمر كتابك، ونهيُه ﷺ عن أن يكون في شكٍّ المقصودُ منه نهيُ أمته ﷺ، والتعريضُ بمن اتَّصف بذلك.

وقيل: المصدر مضافٌ إلى الفاعل، والمفعولُ محذوفٌ هو ضميره ﷺ، أي: من لقائه إياكَ ووصولِه إليك. وفي التعبير باللقاء دون الإيتاء من تعظيم شأنه ﷺ ما لا يخفى على المتدبِّر، وقد يقال: إنَّ التعبير به على الوجه السابق مؤذنٌ بالتعظيم أيضاً لكنْ من حيثيةٍ أخرى، فتدبَّر.

---

(١) كذا في حاشية الطيبي، وواضح أن قولهم هو: «افتراه» دون ما قبلها.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٤، والبحر ٧/ ٢٠٥.
(٣) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

وقيل: «الكتاب»: التوراة، وضمير «لقائه» عائدٌ إليه من غير تقدير مضافٍ ولا ارتكابِ استخدام، و«لقاء» مصدرٌ مضافٌ إلى مفعوله، وفاعلُه «موسى»، أي: من لقاء موسى الكتابَ، أو مضافٌ إلى فاعله ومفعولُه «موسى»، أي: من لقاء الكتابِ موسى ووصولِه إليه، فالفاءُ مثلُها في قوله:

لـيـس الـجـمـالُ بـمـئـزرٍ فـاعْـلَـمْ وإنْ رُدِّيـتَ بُـرْدا[١]

دخلتْ على الجملة المعترضة بَدَلَ الواو اهتماماً بشأنها.

وعن الحسن أنَّ ضمير «لقائه» عائدٌ على ما تضمَّنه الكلامُ من الشدة والمحنة التي لقي موسى عليه السلام، فكأنه قيل: ولقد آتينا موسى هذا العبءَ الذي أنت بسبيله فلا تمترِ أنك تلقَى ما لقي هو من الشدة والمحنة بالناس[٢]، والجملةُ اعتراضيةٌ. ولا يخفى بعدُه.

وأبعدُ منه بمراحل ما قيل: الضمير لملك الموت الذي تقدَّم ذكره، والجملةُ اعتراضيةٌ أيضاً، بل ينبغي أن يُجلَّ كلامُ الله تعالى عن مثل هذا التخريج.

وأخرج الطبرانيُّ وابن مردويه، والضياء في «المختارة» بسندٍ صحيح عن ابن عباس أنه قال في الآية: أي: من لقاء موسى[٣]. وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد نحوَه[٤]. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية أنه قال كذلك، فقيل له: أَوَ لقيَ ﷺ موسى؟ قال: نعم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

(١) التمثيل والمحاضرة ص٦٥، والحماسة البصرية ١/ ٥٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٧٤.

(٢) البحر ٧/ ٢٠٥، وذكره أيضاً النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٧، وقال: وهذا قول غريب، إلا أنه من رواية عمرو بن عبيد.

(٣) كذا ذكر المصنف، والذي في الدر المنثور ٥/ ١٧٩ (والكلام منه): عن ابن عباس عن النبي ﷺ، وفيه أيضاً: «من لقاء موسى ربَّه»، وكذا أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٧٥٨)، والضياء في المختارة ١٠/ ٣٥. وصنيع المصنف رحمه الله يشير إلى أنه ذكره في معرض الاستدلال على القول بأن معنى الآية: فلا تكن في شكٍّ من لقاء موسى، ويدل على ذلك ما سيأتي بعده عن مجاهد وأبي العالية.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٧٩ بلفظ: «فلا تكن في مرية من لقائه» قال: من أن تلقى موسى.

رُسُلِنَآ﴾ [الزخرف:٤٥][(١)]. وأراد بذلك لقاءه ﷺ إياه ليلةَ الإسراء كما ذكر في الصحيحين وغيرهما[(٢)]، وروي نحوُ ذلك عن قتادة وجماعةٍ من السلف[(٣)]، وقاله المبرِّدُ حين امتحن الزجّاج بهذه الآية[(٤)]، وكأنَّ المراد من قوله تعالى: (فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ) على هذا وعدُه تعالى نبيَّه ﷺ بلقاء موسى، وتكون الآية نازلةً قبل الإسراء، والجملةُ اعتراضية بالفاء بدل الواو كما سمعتَ آنفاً، وجَعْلُها مفرَّعةً على ما قبلها غيرُ ظاهرٍ، وبهذا اعترض بعضهم على هذا التفسير، وبالفرار إلى الإعراض سلامةٌ من الاعتراض، وكأنّي بك ترجِّحُه على التفسير الأول من بعض الجهات، والله تعالى الموفِّق.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ الذي آتيناه موسى. وقال قتادة: أي: وجعلنا موسى عليه السلام ﴿هُدًى﴾ أي: هادياً من الضلالة ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ خصُّوا بالذكر لِمَا أنهم أكثرُ المنتفعين به. وقيل: لأنه لم يُتعبَّد بما في كتابه عليه الصلاة والسلام ولدُ إسماعيل ﷺ.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ قال قتادة: رؤساء في الخير سوى الأنبياءِ عليهم السلام، وقيل: هم الأنبياء الذين كانوا في بني إسرائيل﴿يَهْدُونَ﴾ بقيتَهم بما في تضاعيف الكتاب من الحِكَم والأحكام إلى طريق الحقِّ، أو يهدونهم إلى ما فيه من دين الله تعالى وشرائعه عز وجل.

﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم بأنْ يَهْدُوا، على أنَّ الأمر واحدُ الأوامر، وهذا على القول بأنهم أنبياءُ ظاهرٌ، وأما على القول بأنهم ليسوا بأنبياء فيجوز أن يكون أمره تعالى إياهم بذلك على حدِّ أمر علماء هذه الأمة بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الآية [آل عمران:١٠٤].

وجوِّز أن يكون الأمرُ واحدَ الأمور، والمرادُ: يهدون بتوفيقنا.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٧٩.
(٢) صحيح البخاري (٣٢٣٩)، وصحيح مسلم (١٦٥)، وتفسير الطبري ١٨/ ٦٣٦.
(٣) أخرجه عن قتادة مسلم إثر الحديث (١٦٥)، وذكره البغوي ٣/ ٥٠٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٤، وذكره الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٠٩.

﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ قال قتادة: على ترك الدنيا. وجوَّز غيرُه أن يكون المراد: لمَّا صبروا على مشاقِّ الطاعة ومقاساة الشدائد في نصرة الدين.

و«لمَّا» يحتمل أن تكون هي التي فيها معنى الجزاء، نحو: لمَّا أكرمتني أكرمتُك، أي: لمَّا صبروا جعلناهم[١] أئمةً، ويحتمل أن تكون هي التي بمعنى الحين الخاليةِ عن معنى الجزاء، والظاهرُ أنها حينئذٍ ظرفٌ لـ «جعلنا»، أي: جعلناهم أئمةً حين صبروا. وجوَّز أبو البقاء كونَها ظرفاً لـ «يهدون»[٢].

وقرأ عبد الله وطلحةُ والأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ ورويس: «لِمَا» بكسر اللام وتخفيف الميم[٣]، على أنَّ اللام للتعليل و«ما» مصدرية، أي: لصَبْرِهم، وهو متعلِّقٌ بـ «جعلنا» أو بـ «يهدون».

وقرأ عبد الله أيضاً: «بما» بالباء السببية و«ما» المصدرية، أي: بسبب صبرهم[٤].

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي في تضاعيف الكتاب. وقيل: المراد بها ما يعمُّ الآيات التكوينية، والجارُّ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: كانوا يوقنون بها لإمعانهم فيها النظر لا بغيرها من الأمور الباطلة. وهو تعريضٌ بكفرة أهل مكة، والجملةُ معطوفةٌ على «صبروا»، فتكون داخلةً في حيِّز «لما»، وجوِّز أن تكون معطوفةً على «جعلنا»، وأن تكون في موضع الحال من ضمير «صبروا»، والمراد كذلك: لنجعلنَّ الكتاب الذي آتيناكه ـ أو لنجعلنَّك ـ هدًى لأمتك، ولنجعلنَّ منهم أئمةً يهدون مثل تلك الهداية.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ أي: يقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قيل: بين الأنبياء عليهم السلام وأممهم، وقيل: بين المؤمنين والمشركين ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيميِّز سبحانه بين المحقِّ والمبطل ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ من أمور الدين.

---

(١) في الأصل و(م): جعلنا، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ٨٧.

(٢) الإملاء ٤/ ١٨٦-١٨٧.

(٣) التيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٧، والبحر ٧/ ٢٠٥.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٥، والبحر ٧/ ٢٠٥.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الهمزةُ للإنكار، والواوُ للعطف على منويٍّ يقتضيه المقامُ ويناسبُ المعطوفَ معنًى على ما اختاره غير واحد، وفعلُ الهداية إما من قبيل: فلان يعطي، في أنَّ المراد إيقاعُ نفس الفعل بلا ملاحظةِ المفعول، وإما بمعنى التبيين والمفعولُ محذوفٌ، والفاعلُ ضميرٌ عائدٌ إلى ما في الذهن ويفسِّره قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾، و«كم» في محلِّ نصبٍ بـ «أهلكنا»، أي: أغَفِلوا ولم يَفْعَل الهدايةَ لهم ـ أو: ولم يبيِّن لهم مآلَ أمرهم، أو طريقَ الحقِّ ـ كثرةُ مَن أهلكنا أو كثرةُ إهلاك مَن أهلكنا من القرون الماضية مثلَ عاد وثمود وقوم لوط.

ولا يجوز أن تكون «كم» فاعلاً؛ لصدارتها، كما نصَّ على ذلك الزجَّاج حاكياً له عن البصريين[1]. وقال الفرَّاء: «كم» في موضع رفع بـ «يهد»، كأنك قلت: أو لم يَهْدِ لهم القرونُ الهالكةُ فيتَّعظوا[2]. ولا أن يكون محذوفاً؛ لأن الفاعل لا يُحذف إلا في مواضعَ مخصوصةٍ ليس هذا منها، ولا مضمَراً عائداً إلى ما بعدُ لأنه يلزمُ عودُ الضمير إلى متأخرٍ لفظاً ورتبةً في غير محلِّ جوازه، ولا الجملةُ نفسُها لأنها لا تقع فاعلاً على الصحيح إلا إذا قُصِدَ لفظُها، نحو: تَعْصِمُ لا إله إلا الله الدماءَ والأموال.

وجوَّز أن يكون الفاعلُ ضميرَه تعالى شأنُه لسَبْقِ ذكره سبحانه في قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ) إلخ، وأُيِّد بقراءة زيد: «نهد لهم» بنون العظمة[3]؛ قال الخفاجيُّ[4]: والفعل معلَّقٌ[5] بـ «كم» عن المفعول وهو مضمونُ الجملة لتضمُّنه معنى العلم. فلا تغفل.

﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: يمرُّون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم، ويشاهدون آثارَ هلاكهم، والجملةُ حالٌ من ضمير «لهم»، وقيل: من «القرون». والمعنى: أهلكناهم حالَ غفلتهم. وقيل: مستأنفةٌ بيانٌ لوجهِ هدايتهم.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢١١.
(٢) معاني القرآن ٢/ ٣٣٣، وفيه: أولم تهدهم القرون...
(٣) القراءات الشاذة ص١١٨ عن عليٍّ وابن عباس والسلمي.
(٤) في الحاشية ٧/ ١٥٥.
(٥) قوله: معلق، ساقط من (م).

وقرأ ابن السميفع: «يمشُّون» بالتشديد(١) على أنه تفعيلٌ من المشي للتكثير.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من إهلاكنا للأمم الخالية العاتيةِ، أو: في مساكنهم ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمةً في أنفسها كثيرةً في عددها ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ هذه الآياتِ سماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الكلامُ فيه كالكلام في «أولم يهد»، أي: أعَمُوا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾ بسوقِ السحاب الحامل له، وقيل: نسوقُ نفسَ الماء بالسيول، وقيل: بإجرائه في الأنهار ومن العيون.

﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي: التي جُرِزَ نباتُها ـ أي: قُطِعَ ـ إمَّا لعُدْمِ الماء، وإما لأنه رُعي وأُزيل، كما في «الكشاف»(٢).

وفي «مجمع البيان»: «الأرض الجرز»: اليابسةُ التي ليس فيها نباتٌ لانقطاع الأمطار عنها، من قولهم: سيفٌ جُرَاز، أي: قَطَّاعٌ لا يُبقي شيئاً إلا قطعه، وناقةٌ جراز: إذا كانت تأكل كلَّ شيء فلا تبقي شيئاً إلا قطعته بفيها، ورجلٌ جَرُوز، أي: أكول، قال الراجز:

خَبٌّ جَروزٌ وإذا جاع بكى(٣)

وقال الراغب(٤): الجرُزُ مُنْقَطِعُ النبات من أصله، وأرض مجروزةٌ: أُكل ما عليها، وفي مَثَلٍ: لا تَرْضَى شانئةٌ إلا بجَرْزَةٍ(٥)، أي: بالاستئصال، والجارِزُ:

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٨، والمحتسب ٢/ ١٧٥.
(٢) ٣/ ٢٤٧.
(٣) مجمع البيان ٢١/ ٩٠، والرجز للشماخ، وهو في ديوانه ص٣٨٠، والمقصور والممدود للفراء ص٦٧، ومقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ٧٩، والصحاح (حطب)، والنكت والعيون ٤/ ٣٦٧، واللسان (حثا) و(حطب)، وفيه: الخب: اللئيم. ورواية الديوان: خبٌّ جبانٌ.
(٤) في مفرداته «جرز».
(٥) في الأصل و(م): بجروزة، وهو تصحيف، والمثبت من مفردات الراغب، ومثله في جمهرة الأمثال ٢/ ٤١٨، والمستقصى ٢/ ٢٥٤، وأساس البلاغة (جرز)، ومجمع الأمثال ٢/ ٢١٢، والصحاح واللسان (جرز). وهو مَثَلٌ في العداوة، وأنَّ المُبْغِض لا يرضى إلا باستئصالِ مَن يبغضه.

الشديدُ من السعال، تُصُوِّرَ منه معنى الجَرْزِ وهو القطعُ بالسيف. اهـ، ويفهَمُ مما قاله أنَّ «الجُرُز» يطلقُ على ما انقطع نباتُه لكونه ليس من شأنه الإنباتُ كالسباخ، وهو غير مناسبٍ هنا لقوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾.

والظاهرُ أنَّ المراد: الأرض المتَّصفة بهذه الصفة أيَّ أرضٍ كانت، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنها قرًى بين اليمن والشام(١). وأخرج هو وابن جرير وابن المنذر وابن أبي شيبة عن ابن عباس أنها أرض باليمن(٢).

وإلى عدم التعيين ذهب مجاهدٌ؛ أخرج عنه جماعةٌ أنه قال: الأرضُ الجرز هي التي لا تُنْبِتُ، وهي أَبْيَنُ(٣) ونحوُها من الأرض.

وقرئ: «الجُرْز» بسكون الراء(٤).

وضمير «به» للماء، والكلامُ على ظاهره عند السلف الصالح، وقالت الأشاعرة: المراد: فنخرج عنده.

والزرعُ في الأصل مصدرٌ وعبِّر به عن المزروع، والمراد به ما يخرج بالمطر مطلقاً، فيشمل الشجر وغيرَه، ولذا قال سبحانه: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ أي: من ذلك الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ كالتِّبْنِ والقصيل والورق وبعضِ الحبوب المخصوصة بها ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالبقول والحبوب التي يقتاتُها الإنسان.

وفي «البحر»: يجوز أن يراد بالزرع النباتُ المعروفُ، وخُصَّ بالذكر تشريفاً له، ولأنه أعظمُ ما يُقصَدُ من النبات، ويجوز أن يراد به النباتُ مطلقاً، وقدَّم الأنعام لأنَّ انتفاعها مقصورٌ على ذلك، والإنسان قد يتغذَّى بغيره، ولأنَّ أكلها منه مقدَّمٌ لأنها تأكلُه قبل أن يُثْمِرَ ويخرجَ سنبلُه. وقيل: ليترقَّى من الأدنى إلى الأشرف، وهم بنو آدم(٥).

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٧٩.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٧٩، وهو في تفسير الطبري ١٨/ ٦٤١.

(٣) موضع في اليمن، والخبر أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٠، والطبري ١٨/ ٦٤٢.

(٤) البحر ٧/ ٢٠٥.

(٥) بنحوه في البحر ٧/ ٢٠٥.

وقرأ أبو حيوة وأبو بكر في رواية: «يأكل» بالياء التحتية[١].

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝﴾ أي: ألا ينظرون[٢] فلا يبصرون ذلك ليستدلُّوا به على كمال قدرته تعالى وفضلِه عز وجل.

وجُعلت الفاصلةُ هنا «يبصرون» لأنَّ ما قبله مرئيٌّ، وفيما قبله: «يسمعون» لأنَّ ما قبله مسموعٌ. وقيل: ترقِّياً إلى الأعلى في الاتِّعاظ مبالغةً في التذكير ورَفْعِ العذر.

وقرأ ابن مسعود: «تبصرون» بالتاء الفوقية[٣].

﴿وَيَقُولُونَ﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي: الفصلُ للخصومة بينكم وبيننا، وكأن هذا متعلِّقٌ بقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ).

وقيل: أي: النصر علينا؛ أخرج ابن جرير وابنُ أبي حاتم عن قتادة قال: قال الصحابة ﷺ: إنَّ لنا يوماً يوشكُ أن نستريح فيه وننتقمَ فيه. فقال المشركون: متى هذا الفتحُ.. إلخ، فنزلت: (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ) ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝﴾[٤] أي: في أنَّ الله تعالى هو يفصلُ بين المحقِّين والمبطلين. وقيل: في أنَّ الله تعالى ينصرُكم علينا.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم وتحقيقاً للحقِّ: ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝﴾ أخرج الفريابيُّ وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: «يوم الفتح»: يوم القيامة[٥]. وهو كما في «البحر» منصوبٌ بـ «لا ينفع»[٦].

والمرادُ بـ «الذين كفروا» إما أولئك القائلون المستهزئون، فالإظهار في مقام

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٨، والبحر ٧/ ٢٠٥.
(٢) في الأصل و(م): يبصرون، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ٨٨، والكلام منه.
(٣) البحر ٧/ ٢٠٥.
(٤) الدر المنثور ٥/ ١٧٩، وهو في تفسير الطبري ١٨/ ٦٤٤.
(٥) الدر المنثور ٥/ ١٧٩، وهو في تفسير الطبري ١٨/ ٦٤٥.
(٦) البحر ٧/ ٢٠٦.

الإضمار لتسجيل كفرهم وبيانِ علَّة الحكم، وإمَّا ما يعمُّهم وغيرَهم وحينئذٍ يُعلَمُ حُكْمُ أولئك المستهزئين بطريقٍ برهانيٍّ.

والمراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ استمرارُ النفي، والظاهرُ أنَّ الجملة عطفٌ على «لا ينفع» إلخ والقيدُ معتبرٌ فيها.

وظاهرُ سؤالهم بقولهم: «متى هذا الفتح» يقتضي الجوابَ بتعيين اليوم المسؤول عنه، إلا أنه لمَّا كان غرضُهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء أُجيبوا على حَسَبِ ما عُرف من غرضهم، فكأنه قيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزؤوا فكأنِّي بكم وقد حصلتُم في ذلك اليوم وآمنتُم فلم ينفعكم الإيمان، واستَنْظَرتُم في إدراك العذاب فلم تُنْظَروا، وهذا قريبٌ من الأسلوب الحكيم.

هذا وتفسير «يوم الفتح» بيوم القيامة ظاهرٌ على القول بأنَّ المراد بالفتح الفصلُ للخصومة، فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ولا يكاد يتسنَّى على القول بأنَّ المرادَ به النصرُ على أولئك القائلين إذا كانوا عانين به النصرَ والغلبةَ عليهم في الدنيا كما هو ظاهرٌ ممَّا سمعتَ عن مجاهد، وعليه قيل: المراد بيوم الفتح يوم بدر، وأخرج ذلك الحاكمُ وصححه والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]. وقيل: يوم فتح مكة؛ وحُكي ذلك عن الحسن ومجاهد.

واستشكل كِلَا القولين بأنَّ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ ظاهرٌ في عدم قبول الإيمان من الكافر يومئذٍ، مع أنه آمن ناسٌ يومَ بدرٍ فقُبِلَ منهم، وكذا يوم فتح مكة.

وأجيبَ بأنَّ الموصول على كلٍّ منهما عبارةٌ عن المقتولين في ذلك اليوم على الكفر، فمعنى لا ينفعهم إيمانُهم: أنهم لا إيمان لهم حتى ينفعَهم، فهو على حدِّ قوله:

على لاحبٍ لا يُهْتَدَى بمناره[2]

---

(١) المستدرك ٢/ ٤١٤، ودلائل النبوة ٢/ ٣٢٨ بزيادة: فلم ينفع الذين كفروا إيمانُهم بعد الموت.

(٢) وعجزه: إذا سافه العودُ النبَاطيُّ جَرْجَرا، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٦٦، =

سواء أريدَ بهم قومٌ مخصوصون استهزؤوا أم لا، وسواءٌ عُطِفَ قولُه تعالى: (وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) على المقيد أو على المجموع، فتأمل.

وتعقَّب بأنَّ ذلك خلافُ الظاهر، وأيضاً كونُ يوم الفتح يومَ بدرٍ بعيدٌ عن كون السورة مكيةً، وكذا كونُه يومَ فتح مكة، ويُبْعِدُ هذا أيضاً قلَّةُ المقتولين في ذلك اليوم جداً. تدبَّر.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، وعن ابن عباس أنَّ ذلك منسوخٌ بآية السيف. ولا يخفى أنه يحتمل أنَّ المراد الإعراضُ عن مناظرتهم لعدم نَفْعِها، أو تخصيصه بوقتٍ معيَّنٍ، فلا يتعيَّنُ النسخ.

﴿وَانتَظِرْ﴾ النصرةَ عليهم وهلاكَهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝﴾ قال الجمهور: أي: الغلبةَ عليكم، كقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

وقيل: الأظهرُ أن يقال: إنهم منتظِرون هلاكَهم، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٠].

ويقرُبُ منه ما قيل: وانتظر عذابنا لهم إنهم منتظروه[1]، أي: هذا حُكْمُهم وإن كانوا لا يشعرون، فإنَّ استعجالهم المذكورَ وعكوفَهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي في حُكْمِ انتظارهم العذابَ المترتِّبَ عليه لا محالة.

وقرأ اليمانيُّ: «منتظَرون» بفتح الظاء اسم مفعول[2]، على معنى: إنهم أحقَّاءُ أن يُنْتَظَر هلاكُهم، أو: إنَّ الملائكة عليهم السلام ينتظرونه، والمراد: إنهم هالكون لا محالة.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة: قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي الالتفات إلى الأسباب والاعتمادُ عليها. وقولُه سبحانه:

= وسلف ٢/ ٢٤١، ويريد به نفي المنار والاهتداء به، أي: ليس به علَمٌ ولا منار فيهتدى به.

(١) في (م): منتظرون، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٨٨، والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٨، والمحتسب ٢/ ١٧٥، والبحر ٧/ ٢٠٦.

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ تدبير العباد عند تدبيره عز وجل لا أثر له، فطوبى لمن رُزق الرضا بتدبير الله تعالى واستَغْنَى به عن تدبيره.

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ فيه إرشادٌ إلى أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يستقبحَ شيئاً من المخلوقات، وقد حُكي أنَّ نوحاً عليه السلام بصق على كلبٍ أجربَ، فأنطق الله تعالى الكلب فقال: يا نوح أعِبْتَني أم عبتَ خالقي؟! فناح عليه السلام لذلك زماناً طويلاً. فالأشياءُ كلُّها حسنةٌ كلٌّ في بابه، والتفاوتُ إضافيٌّ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ إلى آخر الآية بعد قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ إلخ إشارةٌ إلى التنقُّل في أطوار الحسن، والعروجِ في معارجه، فكم بين الطين والإنسان السميع البصير العالِم، فإن الإنسان مشكاةُ أنوار الذات والصفات، والطين بالنسبة إليه كَلَا شيءٍ.

﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى حالِ كاملي الإيمان، وعلوِّ شأنِ السجود والتسبيحِ والتحميد والتواضعِ لعظمته عز وجل.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ إشارةٌ إلى سهرهم في مناجاة محبوبهم وملاحظةِ جلاله وجماله.

وفي قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ أي: من المعارف وأنواعِ الفيوضات ﴿يُنفِقُونَ﴾ إشارةٌ إلى تكميلهم للغير بعد كمالهم في أنفسهم.

وذكَر القومُ أنَّ العذاب الأدنى الحرصُ على الدنيا، والعذابَ الأكبر العذابُ على ذلك.

وقال بعضهم: الأولُ التعبُ في طلب الدنيا، والثاني شتاتُ السرِّ.

وقيل: الأول حرمانُ المعرفة، والثاني الاحتجابُ عن مشاهدة المعروف.

وقيل: الأول الهوان، والثاني الخذلان.

﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى ما ينبغي أن يكون المرشدُ عليه من الأوصاف، وهو الصبرُ على مشاقِّ العبادات

وأنواعِ البليَّات، وحَبْسُ النفس عن ملاذِّ الشهوات، والإيقانُ بالآيات، فَمَنْ يدَّعي الإرشادَ وهو غيرُ متصفٍ بما ذكر فهو ضالٌّ مضلِّلٌ.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنه ينبغي الإعراضُ عن المنكرين المستهزئين بالعارفين والسالكين إذا لم ينجَعْ فيهم الإرشادُ والنصيحةُ، وإلى أنهم هالكون لا محالةَ؛ فإنَّ الإنكار الذي لا يعذر صاحبه سمٌّ قاتل، وسهمٌ هدفه المقَاتِلُ، نعوذُ بالله تعالى من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ بحرمة حبيبه الأكرمِ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

(٣٣) سُورَةُ الأحزاب مدنيّة وآياتها ثلاث وسبعون

سورة الأحزاب من السور المدنية التي تتناول جانب التشريع وبخاصةٍ في أمور الأسرة ، فقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة ، فشرعت الأحكام لهم بما يكفل سعادتهم في الدنيا والآخرة ، كما أنها أبطلت بعض العــادات والتقاليد الموروثة التي كانت متفشيةً في المجتمع الجاهلي مثل التبنّي ، والظهار ، واعتقاد أنَّ الرجل الذكيَّ اللبيب له قلبان في جوفه ، كما تعرضت هذه السورة لغزوة الخندق وتحزّب المشركين وتألبهم على المسلمين ، ثم تعرضت لموقف المنافقين وفضحت وكشفت أسرارهم وخفاياهم ، وتناولت كذلك غزوةَ بني قريظة وإجلاءهم من ديارهم ، وتناولت بعض الآداب الاجتماعية كآداب الدعوة إلى الوليمة ، وآداب الستر والحجاب ، وعدم التبرج ، وآداب احترام الرسول الأعظم ﷺ ، إلى آخر ما هنالك من آداب احتماعية فاضلة .

سميت السورةُ الكريمة «سورةَ الأحزاب» لأن المشركين تحزَّبوا على المؤمنين وضربوا حصاراً على المدينة المنورة ، واجتمعوا من كل ناحية ليستأصلوا النبيَّ ﷺ وصحبَه ، وهم كفار مكة ، وغَطَفان ، وبنو قريظة ، وأوباش العرب الذين تمالئوا وتحزبوا جميعاً على حرب المسلمين ، ولكنَّ الله تعالى ردَّ كيدهم في نحورهم ، وهزم جموعهم بالريح فكانت آيةً باهرة ، ومعجزة ظاهرة على تأييد الله لرسوله ولعباده المؤمنين بالنصرة عليهم بدون قتال ، ومن أجل ذلك سميت سورة

الأحزاب إشارةً لقوله تعالى ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وَعَدنَا اللهُ ورسولُه ، وصدقَ اللهُ ورسُولَه ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾ وقد اشتهرت هذه الغزوة بـ « غزوةِ الخندق » لأن المسلمين حفروا خندقاً حول المدينة المنورة تحصيناً لهم من تلك الجموع الكثيرة وكان ذلك بإشارة سلمان الفارسي على النبي عليه الصلاة والسلام.

ابتدأت السورة الكريمة بخطاب النبي ﷺ بالأمر بتقوى الله ، والالتزام بشريعته المطهرة ، والتوكل عليه وحده فهو نعم الوليُّ والناصر ﴿يا أيها النبيُّ اتَّقِ اللهَ ولا تطع الكافرينَ والمُنافقينَ ، إن الله كان عليماً حكيماً . واتَّبعْ ما يُوحى إليكَ من ربِّكَ إن الله كان بما تعملون خبيراً . وتوكَّلْ على الله ، وكفى بالله وكيلاً﴾ ثم تناولت السورة بعض العادات الجاهلية التي كانت ديناً متوارثاً فأبطلتها ، وطهَّرت المجتمع الإسلامي من رواسب المجتمع الجاهلي مثل « فكرة التبنّي » التي شاعت حينذاك وهي أن يتبنَّى الرجلُ ولد غيره ويُلحقه بنسبه دون أن يكون من صُلبه ، ومثلُ اعتقادهم بأن المرأة التي يظاهر منها الرجل تصبح أماً له لا يجوز نكاحها بحال ، ومثل اعتقادهم بأن الرجل اللبيب له قلبان في صدره ، وكل هذا من خرافات أهل الجاهلية ﴿ما جعلَ اللهُ لرجلٍ من قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكَم اللائي تُظَاهِرونَ منهنَّ أمَّهاتِكُمْ ، وما جَعَلَ أَدْعياءَكُمْ أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم ، واللهُ يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل﴾ .
وانتقلت السورة للحديث عن « غزوة الأحزاب » وصوَّرتها تصويراً دقيقاً بتآلب قوى الشر والبغي على المسلمين ، وكشفت عن خفايا المنافقين الذين كانوا – وما زالوا – مصدرَ شرٍّ وبلاء على الإسلام والمسلمين ، ففضحتهم وحذَّرتْ من طُرقهم في التخذيل والتثبيط ، وأطالت الحديثَ عنهم حتى لم تُبْقِ لهم سِتْراً ولم تُخْفِ لهم أمراً ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءَتْكُمْ جنودٌ فأرسلنا عليهم

ريحاً وجنوداً لَم ترَوْها ، وكان الله بما تعملون بصيراً . إذْ جاءُوكم من فَوْقِكم ، ومن أسفلَ منكم ، وإذْ زاغتِ الأَبْصارُ وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجرَ ، وتظنُّون باللهِ الظنونا . هنالكَ ابتُلِيَ المؤمنون وزُلْزِلوا زِلْزَالاً شديداً . وإذ يقولُ المنافقونَ والذينَ في قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله ورسولُه إلا غروراً ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿وردَّ اللهُ الذينَ كفروا بغيظِهِمْ لم يَنَالُوا خيْراً ، وكَفَى اللهُ المؤمنينَ القِتَالَ وكانَ اللهُ قوياً عزيزاً﴾ وتكميلاً لغزوة الأحزاب تتحدث السورة الكريمة عن « غزوة بني قريظة » وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع رسول الله وأعانوا عليه المشركين فغزاهم رسول الله ﷺ حتى أجلاهم عن ديارهم ﴿وأنزلَ الذين ظاهر وهم من أهل الكتاب من صياصيهم – أي حصونهم – وقذف في قلوبهم الرعبَ ، فريقاً تقتلونَ وتأسرونَ فريقاً . وأورثكم أرضَهم وديَارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً) وتتحدث السورة الكريمة عن آداب الأسرة بدءاً بأسرة القائد الكريم والنبي العظيم محمد عليه الصلاة والسلام فقد خيَّرت الآيات زوجاتِ النبي الطاهرات بالصبر على شظف العيش وضيق الحال مع رسول الله ﷺ وبين فراقهن ليستمتعن بنعيم الدنيا ، وأمرتهن بعد ذلك بالاستقرار في البيوت وعدم التبرج الممقوت ﴿يا أيها النبيُّ قل لأزواجكَ إنَ كنتنَّ تُردْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالَيْن أُمتِّعْكُنَّ وأُسرحكُنَّ سراحاً جميلاً . وإن كنتُنَّ تُردْنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة فإنَّ اللهَ أعدَّ للمحسناتِ منكنَّ أجراً عظيماً﴾ رُوي أن النبي ﷺ لما نزلت عليه آيةُ الخيار بدأ بعائشة رضي الله عنها فقال لها : إني ذاكرٌ لكِ أمراً ما أحبُّ أن تَعْجلي فيه حتى تستأمري أبويْكِ ؟ قالت : وما هو ؟ فتلا عليها ﴿يا أيها النبيُّ قل لأزواجك﴾ الآية قالت عائشة : أفيكَ أستأمُر أبويَّ ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله والدار الآخرة ، ثم خيَّر

نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهن أجمعين ، ونزلت الآيات الكريمة في شأنهن إلى قوله تعالى ﴿ وقَرْنَ في بيوتكنَّ ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة ، وآتينَ الزكاةَ ، وأطعْنَ الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِّرَكم تطهيراً ﴾ وتحدثت السورة عن آداب دخول بيوت النبي ﷺ وعن آداب الدعوة إلى تناول طعام الوليمة ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبي إلاّ أَنْ يُؤْذَنَ لكم إلى طعامٍ غير ناظرينَ إِنَاهُ ، ولكنْ إذا دُعيتم فادخلوا فإذا طَعِمْتُمْ فانتشروا ولا مُسْتأْنِسينَ لحديث ، إن ذلكم كان يؤذي النبيَّ فيستحيي منكم واللهُ لا يستحيي من الحق ، وإذا سألتموهنَّ متاعاً فاسألوهنَّ من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تَنْكحوا أزواجَه من بعدِه أبداً ، إنَّ ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ ولما كانت فتنةُ المجتمع بتبرج النساء فتنةً عظيمة جاء الأمر الإلهي للرسول ﷺ بأمر نسائه وسائر نساء المؤمنين بالحجاب الشرعي صيانة للمجتمع من عوامل التحلل والانهيار ﴿ يا أيها النبيُّ قلْ لأزواجكَ وبَنَاتِكَ ونساء المؤمنينَ يُدْنين عليهن من جلابيبهنَّ ، ذلك أدْنى أن يُعرفن فلا يُؤْذَيْن وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ وتختم السورة الكريمة بالحديث عن الساعة وأهوالِها ، وشدائِدها ، وعن الكافرين والمنافقين وهم ينالون عذاب جهنم ويصلون سعيرها ﴿ يوم تُقلَّبُ وجوهُهم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربَّنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربَّنا آتِهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة .

سورة الأحزاب

[٧١٣] أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي [ﷺ] أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ﴾ [الأحزاب: ٤] الآية.

[٧١٤] أخرج الترمذي وحسّنه عن ابن عباس قال قام النبي [ﷺ] يوماً يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه ألا ترى أن له قلبين قلباً معكم وقلباً معه فأنزل الله ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾(٢).

[٧١٥] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق خصيف عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة قالوا: كان رجل يدعى ذا القلبين فنزلت.

[٧١٦] ك.. وأخرج ابن جرير من طريق قتادة عن الحسن مثله وزاد وكان يقول لي نفسي تأمرني ونفسي تنهاني.

[٧١٧] وأخرج من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال نزلت في رجل من بني فهم قال إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد.

[٧١٨] وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنها نزلت في رجل من قريش من بني جمح(٣) يقال له جميل بن معمر.

قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] الآية.

[٧١٩] أخرج البخاري(٤) عن ابن عمر قال ما كنا ندعوا زيد بن حارثة إلا

---

[٧١٣] (١) سورة الأحزاب: الآية (١).

[٧١٤] (٢) سورة الأحزاب: الآية (٤).

[٧١٨] (٣) بالأصل (جمع) وهو تصحيف بيّن.

[٧١٩] (٤) من طريق معلى بن أسد عن عبد الرحمن بن المختار عن موسى بن عقبة ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٠١) من طريق موسى بن عقبة عن سالم عن عبد الله بنحوه.

زيد بن محمد حتى نزل في القرآن: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٩] الآية.

[٧٢٠] أخرج البيهقي في الدلائل[2] عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعوداً وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا وما أتت قط علينا ليلة أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها فجعل المنافقون يستأذنوا النبي [ﷺ] يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له فيتسللون إذ استقبلنا النبي [ﷺ] رجلاً وجلا حتى أتى علي فقال: «**إئتني بخبر القوم**» فجئت فإذا الريح في عسكرهم شبراً فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم بها وهم يقولون الرحيل الرحيل فجئت فأخبرته خبر القوم وأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾[3] الآية.

[٧٢١] وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل[4] من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال خط رسول الله [ﷺ] الخندق عام الأحزاب فأخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة فأخذ رسول الله [ﷺ] المعول فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتى المدينة فكبر وكبر المسلمون ثم ضربها الثانية فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها فكبر وكبر المسلمون ثم ضربها الثالثة فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها فكبر وكبر المسلمون فسئل عن ذلك فقال: «**ضربت الأولى فأضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربت الثانية فأضاءت لي قصور الحمر من أرض الروم وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربت الثالثة فأضاءت لي قصور صنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها**» فقال المنافقون: ألا تعجبون يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وإنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق من الفرق لا

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٥).

[٧٢٠] (٢) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (١٤٨/٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٥٤/١).

(٣) سورة الأحزاب: الآية (٩).

[٧٢١] (٤) ورواه ابن سعد في الطبقات (٦/١/٤)، وابن جرير (٨٦/٢١).

تستطيعون أن تبرزوا فنزل القرآن: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾[1].

[٧٢٢] وأخرج جرير عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في معتب بن قشير الأنصاري وهو صاحب هذه المقالة.

[٧٢٣] وأخرج ابن إسحاق والبيهقي أيضاً عن عروة بن الزبير ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما قال: قال معتب بن قشير كان محمد يرى أن يأكل من كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط وقال أوس بن قيظي في ملأ من قومه أن بيوتنا عورة وهي خارجة من المدينة إئذن لنا فنرجع إلى نسائنا وأبنائنا فأنزل الله على رسوله حين فزع عنهم ما كانوا فيه من البلاء يذكرهم نعمته عليهم وكفايته إياهم بعد سوء الظن منهم ومقالة من قال من أهل النفاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾[2] الآية.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ [الأحزاب: ٢٣] الآية.

[٧٢٤] أخرج مسلم والترمذي وغيرهما[3] عن أنس قال غاب عمي أنس بن النضر عن بدر فكبر عليه فقال أول مشهد قد شهده رسول الله [ﷺ] غبت عنه لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله [ﷺ] ليرين الله ما أصنع فشهد يوم أحد فقاتل حتى قتل. فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية ونزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[4] إلى آخرها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] الآية.

[٧٢٥] أخرج مسلم وأحمد والنسائي[5] من طريق أبي الزبير عن جابر قال: أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله [ﷺ] فلم يؤذن له ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لهما فدخلا والنبي [ﷺ] جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر: لأكلمن النبي [ﷺ] لعله يضحك فقال عمر: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر ـ سألتني

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (١٢).

[٧٢٣] (٢) سورة الأحزاب: الآية (٩).

[٧٢٤] (٣) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٠٢) من طريقين ووجهين مختلفين.

(٤) سورة الأحزاب: الآية (٢٣).

[٧٢٥] (٥) صحيح مسلم كتاب الطلاق (٢٩) والإمام أحمد في مسنده (٣/٣٢٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/٣٨) والنسائي (٦/٥٦ و ٥٩) والبخاري من وجه آخر (٣/١٧٦).

النفقة فوجأت عنقها فضحك النبي [ﷺ] حتى بدا ناجذه وقال: **«هن حولي يسألنني النفقة»** فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقول تسألان النبي [ﷺ] ما ليس عنده وأنزل الله الخيار فبدأ بعائشة فقال: **«إني ذاكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك»** قالت ما هو فتلا عليها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾(1) الآية قالت عائشة: أفيك استأمر أبوي بل اختار الله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية.

[٧٢٦] ك.. أخرج الترمذي وحسنه من طريق عكرمة عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي [ﷺ] فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾(2) الآية.

[٧٢٧] ك.. وأخرج الطبراني بسند لا بأس به عن ابن عباس قال: قالت النساء يا رسول الله ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾(3) الآية وتقدم حديث أم سلمة في آخر سورة آل عمران.

[٧٢٨] وأخرج ابن سعد عن قتادة قال: لما ذكر أزواج النبي [ﷺ] قالت النساء: لو كان فينا خير لذكرنا فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾(4) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ [الأحزاب: ٣٦] الآيات.

[٧٢٩] أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال خطب النبي [ﷺ] زينب وهو يريدها لزيد فظنت أنه يريدها لنفسه فلما علمت أنه يريدها لزيد أبت فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾(5) الآية فرضيت وسلمت.

[٧٣٠] وأخرج ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: خطب رسول الله [ﷺ] زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت أنا خير منه حسباً فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾(6) الآية كلها، وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس مثله.

---

(1) سورة الأحزاب: الآية (٢٨).

[٧٢٦] (2) سورة الأحزاب: الآية (٣٥).

[٧٢٧] (3) سورة الأحزاب: الآية (٣٥).

[٧٢٨] (4) سورة الأحزاب: الآية (٣٥).

[٧٢٩] (5) سورة الأحزاب: الآية (٣٦).

[٧٣٠] (6) سورة الأحزاب: الآية (٣٦).

[٧٣١] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول امرأة هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبي [ﷺ] فزوجها زيد بن حارثة سخطت هي وأخوها قالا إلا أردنا رسول الله [ﷺ] فزوجنا عبده فنزلت.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] الآية.

[٧٣٢] أخرج البخاري عن أنس أن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾(١) نزلت في بنت جحش وزيد بن حارثة.

[٧٣٣] وأخرج الحاكم(٢) عن أنس قال جاء زيد بن حارثة يشكو إلى رسول الله [ﷺ] من زينب بنت جحش فقال النبي [ﷺ]: «**أمسك عليك أهلك**» فنزلت: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾(٣).

[٧٣٤] وأخرج مسلم وأحمد(٤) والنسائي قال لما انقضت عدة زينب قال رسول الله [ﷺ] لزيد: «**اذهب فاذكرها علي**» فانطلق فأخبرها فقالت: ما أنا بصانعة شيأ حتى أؤامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله [ﷺ] فدخل عليها بغير إذن ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله [ﷺ] أطعمنا عليها الخبز واللحم فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام فخرج رسول الله [ﷺ] واتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه ثم أخبر أن القوم قد خرجوا فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾(٥) الآية.

[٧٣٥] وأخرج الترمذي عن عائشة قالت: لما تزوج النبي [ﷺ] زينب قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾(٦) الآية.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٣] الآية.

[٧٣٦] أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال لما نزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ

---

[٧٣٢] (١) سورة الأحزاب: الآية (٣٧).
[٧٣٣] (٢) المستدرك (٢/ ٤١٧) ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة (٣/ ٦٦).
(٣) سورة الأحزاب: الآية (٣٧).
[٧٣٤] (٤) مسند أحمد (٣/ ١٩٥).
(٥) سورة الأحزاب: الآية (٥٣).
[٧٣٥] (٦) سورة الأحزاب: الآية (٤٠).

يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾[1] قال أبو بكر يا رسول الله ما أنزل الله عليك خيراً إلا أشركنا فيه فنزلت: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٧] الآية.

[٧٣٧] أخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري قالا لما نزلت: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[3] قال رجال من المؤمنين: هنيئاً لك يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾[4] الآية وأنزل في سورة الأحزاب: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾[5].

[٧٣٨] وأخرج البيهقي في دلائل النبوة عن الربيع بن أنس قال لما نزلت: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾[6] نزل بعدها: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[7] فقالوا يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فما يفعل بنا؟ فنزل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾[8] قال الفضل الكبير الجنة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] الآية.

[٧٣٩] أخرج الترمذي وحسّنه والحاكم وصححه من طريق السدّي عن أبي صالح عن ابن عباس عن أم هانىء بنت أبي طالب قالت خطبني رسول الله [ﷺ] فاعتذرت إليه فعذرني فأنزل الله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾[9] فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر.

[٧٤٠] وأخرج ابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن صالح عن أم هانىء قالت نزلت فيَّ هذه الآية: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ

---

[٧٣٦] (١) سورة الأحزاب: الآية (٥٦).
(٢) سورة الأحزاب: الآية (٤٣).
[٧٣٧] (٣) سورة الفتح: الآية (٢).
(٤) سورة الفتح: الآية (٥).
(٥) سورة الأحزاب: الآية (٤٧).
[٧٣٨] (٦) سورة الأحقاف: الآية (٩).
(٧) سورة الفتح: الآية (٢).
(٨) سورة الأحزاب: الآية (٤٧).
[٧٣٩] (٩) سورة الأحزاب: الآية (٥٠).

﴿وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾(١) أراد النبي [ﷺ] أن يتزوجني فنهى عني إذ لم أهاجر.

قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً﴾ [الأحزاب: ٥٠] الآية.

[٧٤١] أخرج ابن سعد عن عكرمة في قوله: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً﴾(٢) الآية. قال: نزلت في أم شريك الدوسية.

[٧٤٢] وأخرج ابن سعد عن منير بن عبدالله الدؤلي أن أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية عرضت نفسها على النبي [ﷺ] وكانت جميلة فقبلها فقالت عائشة ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير. قالت أم شريك: فأنا تلك فسماها الله مؤمنة فقال ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾(٣) فلما نزلت هذه الآية قالت عائشة: أن الله يسرع لك في هواك.

قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١] الآية.

[٧٤٣] أخرج الشيخان(٤) عن عائشة أنها كانت تقول أما تستحي المرأة أن تهب نفسها فأنزل الله: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ﴾(٥) الآية فقالت عائشة: أرى ربك يسارع لك في هواك.

[٧٤٤] وأخرج ابن سعد عن أبي رزين قال: همّ رسول الله [ﷺ] أن يطلق من نسائه فلما رأين ذلك جعلنه في حل من أنفسهن يؤثر من يشاء على من يشاء فأنزل الله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾(٦) الآية.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ [الأحزاب: ٥٢] الآية.

[٧٤٥] أخرج ابن سعد عن عكرمة لما خير رسول الله [ﷺ] أزواجه اخترن الله ورسوله فأنزل الله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾(٧).

---

[٧٤٠] (١) سورة الأحزاب: الآية (٥٠).
[٧٤١] (٢) سورة الأحزاب: الآية (٥٠).
[٧٤٢] (٣) سورة الأحزاب: الآية (٥٠).
[٧٤٣] (٤) رواه البخاري عن حيان بن موسى عن ابن المبارك ومسلم عن شريح بن يونس عن عباد كلاهما عن عاصم والواحدي في أسباب النزول ص (٢٠٤و٢٠٥).
(٥) سورة الأحزاب: الآية (٥١).
[٧٤٤] (٦) سورة الأحزاب: الآية (٥٠و ٥١).
[٧٤٥] (٧) سورة الأحزاب: الآية (٥٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية.

[٧٤٦] تقدم حديث عمر في سورة البقرة.

[٧٤٧] وأخرج الشيخان[(١)] عن أنس قال لما تزوج النبي [ﷺ] زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام وقعد ثلاثة ثم انطلقوا فجئت فأخبرت النبي [ﷺ] أنهم انطلقوا فجاء حتى دخل وذهبت أدخل قالت الحجاب بيني وبينه وأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[(٢)].

[٧٤٨] وأخرج الترمذي[(٣)] وحسّنه عن أنس قال كنت مع رسول الله [ﷺ] فأتى باب امرأة عرس بها فإذا عندها قوم فانطلق ثم رجع وقد خرجوا فدخل فأرخى بيني وبينه ستراً فذكرته لأبي طلحة فقال لئن كان كما تقول لينزلن في هذا شيء فنزلت آية الحجاب.

[٧٤٩] وأخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي [ﷺ] في قعب فمر عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه أصبعي فقال: أوه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين. فنزلت آية الحجاب.

[٧٥٠] ك.. وأخرج ابن مردويه[(٤)] عن ابن عباس قال: دخل رجل على النبي [ﷺ] فأطال الجلوس فخرج النبي [ﷺ] ثلاث مرات ليخرج فلم يفعل فدخل عمر فرأى الكراهية في وجهه فقال للرجل لعلك آذيت النبي [ﷺ] فقال النبي [ﷺ]: **«لقد قمت ثلاثاً لكي يتبعني فلم يفعل»** فقال له عمر: يا رسول الله لو اتخذت حجاباً فأن نساءك لسن كسائر النساء وذلك أطهر لقلوبهن فنزلت آية الحجاب قال الحافظ ابن حجر: يمكن الجمع بأن ذلك وقع قبل قصة زينب فلقربه منها أطلق نزول آية الحجاب بهذا السبب ولا مانع من تعدد الأسباب.

---

[٧٤٧] (١) صحيح البخاري عن محمد بن عبدالله الرقاشي وصحيح مسلم عن يحيى بن خبيب الحارثي كلاهما عن المعتمر ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٠٥و٢٠٦).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٥٣).

[٧٤٨] (٣) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٠٦).

[٧٥٠] (٤) انظر المعجم الكبير للطبراني (١١/٤٣٩).

[٧٥١] وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب قال: كان رسول الله [ﷺ] إذا نهض إلى بيته بادروه فأخذوا المجالس فلا يعرف ذلك في وجه رسول الله [ﷺ] ولا يبسط يده إلى الطعام استحياءً منهم فعوتبوا في ذلك فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾(١) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية.

[٧٥٢] ك.. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: بلغ النبي [ﷺ] أن رجلاً يقول لو قد توفي النبي [ﷺ] تزوجت فلانة من بعده فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾(٢) الآية.

[٧٥٣] وأخرج عن ابن عباس قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي [ﷺ] بعده قال سفيان: ذكروا أنها عائشة.

[٧٥٤] ك.. وأخرج عن السدي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فأنزلت هذه الآية.

[٧٥٥] ك.. وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: نزلت في طلحة بن عبيدالله لأنه قال إذا توفي رسول الله [ﷺ] تزوجت عائشة.

[٧٥٦] وأخرج جويبر عن ابن عباس أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي [ﷺ] فكلمها وهو ابن عمها فقال النبي [ﷺ]: **«لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا»** فقال: يا رسول الله إنها ابنة عمي والله ما قلت لها منكراً ولا قالت لي قال النبي [ﷺ] **«قد عرفت ذلك أنه ليس أحد أغير من الله وإنه ليس أحد أغير مني»** فمضى ثم قال: يمنعني من كلام ابنة عمي لأتزوجنها من بعده فأنزل الله هذه الآية.. قال ابن عباس: فاعتق ذلك الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله وحج ماشياً توبة من كلمته(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] الآية.

---

[٧٥١] (١) سورة الأحزاب: الآية (٥٣).
[٧٥٢] (٢) سورة الأحزاب: الآية (٥٣).
[٧٥٦] (٣) انظر الدر المنثور (٥/ ٢١٤).

[٧٥٧] أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[1] الآية قال نزلت في الذين طعنوا على النبي [ﷺ] حين اتخذ صفية بنت حيي وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنزلت في عبدالله بن أُبي وناس معه قذفوا عائشة فخطب النبي [ﷺ] وقال: «من يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني» فنزلت[2].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] الآية.

[٧٥٨] ك.. أخرج البخاري[3] عن عائشة قالت: خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله [ﷺ] في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق فدخلت فقالت يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا قالت فأوحى الله إليه ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال: «إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن»

[٧٥٩] وأخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي مالك قال: كان نساء النبي [ﷺ] يخرجن بالليل لحاجتهن وكان أُناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذين فشكوا ذلك فقيل ذلك للمنافقين فقالوا إنما نفعله بالأماء فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[4] ثم أخرج نحوه عن الحسن ومحمد بن كعب القرظي.

* * *

---

[٧٥٧] (١) سورة الأحزاب: الآية (٥٧).

(٢) وللحديث أصل في الصحيحين انظر صحيح البخاري (٣/٢١٩ و ٢٢٩)، وصحيح مسلم التوبة (٥٦).

[٧٥٨] (٣) صحيح البخاري (٦/ ١٥٠)، وصحيح مسلم كتاب السلام (١٧).

[٧٥٩] (٤) سورة الأحزاب: الآية (٥٩).

سورة الأحزاب

(سبعون وثلاث آيات وهي مدنية بإجماع)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ①﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ .

في تفسير الآية مسائل:

الأولى: في الفرق بين النداء والمنادى بقوله: يا رجل، ويا أيها الرجل، وقد قيل فيه ما قيل ونحن نقول: قول القائل يا رجل يدل على النداء وقوله يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضًا وينبئ عن خطر خطب المنادي له أو غفلة المنادى أما الثاني: فمذكور وأما الأول: فلأن قوله: (يا أي) جعل المنادى غير معلوم أولاً فيكون كل سامع متطلعًا إلى المنادى فإذا خص واحدًا كان في ذلك إنباء الكل لتطلعهم إليه، وإذا قال: يا زيد أو يا رجل، لا يلتفت إلى جانب المنادى إلا المذكور إذا علم هذا فنقول: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ لا يجوز حمله على غفلة النبي لأن قوله ﴿النَّبِيُّ﴾ ينافي الغفلة لأن النبي عليه السلام خبير فلا يكون غافلاً فيجب حمله على خطر الخطب.

المسألة الثانية: الأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبي عليه السلام كان متقيًا فما الوجه فيه؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: منقول وهو أنه أمر بالمداومة فإنه يصح أن يقول القائل للجالس: اجلس ههنا إلى أن أجيئك، ويقول القائل للساكت: قد أصبت فاسكت تسلم، أي دم على ما أنت عليه، والثاني: وهو معقول لطيف، وهو أن الملك يتقي منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبي لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا بالمعنى الثاني، وأما الثالث فالمخلص لا يأمنه ما دام في الدنيا. وكيف والأمور الدنيوية شاغلة والآدمي في الدنيا تارة مع الله، وأخرى مقبل على ما لا بد منه، وإن كان معه الله وإلى هذا إشارة بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦] يعني يرفع الحجاب عني وقت الوحي ثم أعود إليكم كأني منكم فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور الوجه الثاني: هو أن النبي عليه الصلاة والسلام كل لحظة كان يزداد علمه ومرتبته حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه تركا للأفضل، فكان له في كل ساعة تقوى متجددة فقوله: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ على هذا أمر

بما ليس فيه وإلى هذا أشار عليه الصلاة والسلام بقوله: «مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ»(١) ولأنه طلب من ربه بأمر الله إياه به زيادة العلم حيث قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وأيضًا إلى هذا وقعت الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»(٢) يعني يتجدد له مقام يقول: الذي أتيت به من الشكر والعبادة لم يكن شيئًا، إذا علم هذا فالنبي ﷺ بحكم ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [فصلت: ٦] كان قد وقع له خوف ما يسير من جهة ألسنة الكفار والمنافقين ومن أيديهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فأمره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد إلا الحق وزاد الله به درجته فكان ذلك بشارة له، في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ أنت ما بقيت في الدرجة التي يقنع منك بتقوى، مثل تقوى الآحاد أو تقوى الأوتاد بل لا يقنع منك إلا بتقوى تنسيك نفسك ألا ترى أن الإنسان إذا كان يخاف فوت مال إن هجم عليه غاشم يقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ويتركه، فكذلك النبي عليه الصلاة والسلام أمر بمثل هذه التقوى ومع هذه التقوى لا يبقى الخوف من أحد غير الله وخرج هذا مخرج قول القائل لمن يخاف زيدًا أو عمرًا: خف عمرًا فإن زيدًا لا يقدر عليك إذا كان عمرو معك فلا يكون ذلك أمرًا بالخوف من عمرو فإنه يخاف وإنما يكون ذلك نهيًا عن الخوف من زيد في ضمن الأمر بزيادة الخوف من عمرو حتى ينسيه زيدًا.

ثم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يقرر قولنا أي اتق الله تقوى تمنعك من طاعتهم.

المسألة الثالثة: لم خص الكافرين والمنافقين بالذكر مع أن النبي ﷺ ينبغي أن لا يطيع أحدًا غير الله؟ نقول: لوجهين أحدهما: أن ذكر الغير لا حاجة إليه لأن غيرهما لا يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام الاتباع، ولا يتوقع أن يصير النبي عليه السلام مطيعًا له بل يقصد اتباعه ولا يكون عنده إلا مطاعًا، والثاني: هو أنه تعالى لما قال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ منعه من طاعة الكل لأن كل من طلب من النبي عليه الصلاة والسلام طاعته فهو كافر أو منافق لأن من يأمر النبي عليه الصلاة والسلام بأمر إيجاب معتقدًا على أنه لو لم يفعله يعاقبه بحق يكون كافرًا.

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا في (المنامات) (١/ ١١٦)، حديث رقم (٢٤٣) من طريق الحسين بن موسى الخراساني عن شيخ من بني سليم قال: رأيت النبي ﷺ في منامي فقلت: يا رسول الله ما حالك؟ قال: أحدثك؟ قلت: حدثني قال... فذكره، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٢٣٣)، حديث رقم (٢٤٠٦). وقال: رواه الديلمي بسند ضعيف عن علي مرفوعا، وفي الموضوعات الكبرى للقاري بلفظ من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون. ثم قال: لا يعرف إلا في منام ابن رواد، وقال العراقي في تخريجه: لا أعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال رأيت في المنام رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله أوصني. فقال ذلك، بزيادة في آخره، والزيادة هي: ومن لم يكن على الزيادة فهو في النقصان. ولله در الإمام البستي حيث يقول: زيادة المرء في دنياه نقصان. وربحه غير محض الخير خسران قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢] الآية.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب (الذكر)، باب: (استحباب الاستغفار والاستكثار فيه) (٤/ ٢٠٧٥/ ٤١)، وأبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (في الاستغفار) (٢/ ٦٥٤)، حديث رقم (١٥١٥)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢١١)، جميعًا من طريق حماد... به.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ إشارة إلى أن التقوى ينبغي أن تكون عن صميم قلبك لا تخفى في نفسك تقوى غير الله كما يفعله الذي يرى من نفسه الشجاعة حيث يخاف في نفسه ويتجلد فإن التقوى من الله وهو عليم، وقوله: ﴿ حَكِيمًا﴾ إشارة إلى دفع وهم متوهم وهو أن متوهما لو قال: إذا قال الله شيئًا وقال جميع الكافرين والمنافقين مع أنهم أقارب النبي عليه الصلاة والسلام شيئًا آخر ورأوا المصلحة فيه وذكروا وجهًا معقولاً فاتباعهم لا يكون إلا مصلحة فقال الله تعالى: إنه حكيم، ولا تكون المصلحة إلا في قول الحكيم، فإذا أمرك الله بشيء فاتبعه ولو منعك أهل العالم عنه.

قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾

يقرر ما ذكرنا من أنه حكيم فاتباعه هو الواجب، ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لما قال: إنه عليم بما في قلوب العباد، بين أنه عالم خبير بأعمالكم فسووا قلوبكم وأصلحوا أعمالكم. ثم قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ يعني اتق الله وإن توهمت من أحد فتوكل على الله فإنه كفى به دافعًا ينفع ولا يضر معه شيء وإن ضر لا ينفع معه شيء.

ثم قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ قال بعض المفسرين: الآية نزلت في أبي معمر كان يقول: لي قلبان أعلم وأفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد، فرد الله عليه بقوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾، وقال الزمخشري: قوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي ما جعل لرجل قلبين كما لم يجعل لرجل أمين ولا لابن أبوين، وكلاهما ضعيف بل الحق أن يقال: إن الله لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]فكان ذلك أمرًا له بتقوى لا يكون فوقها تقوى ومن يتقي ويخاف شيئًا خوفًا شديدًا لا يدخل في قلبه شيء آخر ألا ترى أن الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف فكأن الله تعالى قال: يا أيها النبي اتق الله حق تقاته، ومن حقها أن لا يكون في قلبك تقوى غير الله فإن المرء ليس له قلبان حى يتقي بأحدهما الله وبالآخرة غيره فإن اتقى غيره فلا يكون ذلك إلا بصرف القلب عن جهة الله إلى غيره وذلك لا يليق بالمتقي الذي يدعي أنه يتقي الله حق تقاته، ثم ذكر للنبي عليه الصلاة والسلام أنه لا ينبغي أن يتقي أحدًا ولا مثل ما اتقيت في حكاية زينب زوجة زيد حيث قال الله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] يعني مثل تلك التقوى لا ينبغي أن تدخل في قلبك ثم لما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام بتلك

الحالة ذكر ما يدفع عنه السوء. فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي وما جعل الله دعي المرء ابنه ثم قدم عليه ما هو دليل قوي على اندفاع القبح وهو قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي إنكم إذا قلتم لأزواجكم: أنت علي كظهر أمي، فلا تصير هي أمًا بإجماع الكل، أما في الإسلام فلأنه ظهار لا يحرم الوطء، وأما في الجاهلية فلأنه كان طلاقًا حتى كان يجوز للزوج أن يتزوج بها من جديد، فإذا كان قول القائل لزوجته: أنت أمي أو كظهر أمي، لا يوجب صيرورة الزوجة أمًا كذلك قول القائل للدعي: أنت أبي، لا يوجب كونه ابنًا فلا تصير زوجته زوجة الابن فلم يكن لأحد أن يقول في ذلك شيئًا فلم يكن خوفك من الناس له وجه كيف ولو كان أمرًا مخوفًا ما كان يجوز أن تخاف غير الله أو ليس لك قلبان وقلبك مشغول بتقوى الله فما كان ينبغي أن تخاف أحدًا.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ فيه لطيفة وهو أن الكلام المعتبر على قسمين أحدهما: كلام يكون عن شيء كان فيقال والثاني: كلام يقال فيكون كما قيل، والأول كلام الصادقين الذين يقولون ما يكون والآخر كلام الصديقين الذين إذا قالوا شيئًا جعله الله كما قالوه وكلاهما صادر عن قلب والكلام الذي يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار أو نباح الكلب، لأن الكلام المعتبر هو الذي يعتمد عليه والذي لا يكون عن قلب وروية لا اعتماد عليه، والله تعالى لما كرم ابن آدم وفضله على سائر الحيوانات ينبغي أن يحترز من التخلق بأخلاقها، فقول القائل: هذا ابن فلان، مع أنه ليس ابنه ليس كلامًا فإن الكلام في الفؤاد وهذا في الفم لا غير، واللطيفة هي أن الله تعالى هاهنا قال: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ وقال في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠] يعني نسبة الشخص إلى غير الأب قول لا حقيقة له ولا يخرج من قلب ولا يدخل أيضًا في قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن العاقل ينبغي أن يكون قوله إما عن عقل أو عن شرع فإذا قال: فلان ابن فلان، ينبغي أن يكون عن حقيقة أو يكون عن شرع بأن يكون ابنه شرعًا وإن لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولدًا وكانت الزوجة من قبل زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه فإنا نلحقه بالزوج الثاني فلقيام الفراش ونقول إنه ابنه وفي الدعي لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به لأنه لا يقول إلا الحق وهذا خلاف الحق لأن أباه مشهور ظاهر ووجه آخر فيه وهو أنهم قالوا: هذه زوجة الابن فتحرم، وقال الله تعالى: هي لك حلال، وقولهم لا اعتبار به فإنه بأفواههم كأصوات البهائم، وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ يؤكد قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ يعني يجب اتباعه لكونه حقًا ولكونه هاديًا وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ فيه لطيفة وهو أن الكلام الذي بالفم فحسب يشبه صوت البهائم الذي يوجد لا عن قلب، ثم إن الكلام الذي بالقلب قد يكون حقًا وقد يكون باطلاً، لأن من يقول شيئًا عن اعتقاد قد يكون مطابقًا فيكون

حقًّا، وقد لا يكون فيكون باطلاً، فالقول الذي بالقلب وهو المعتبر من أقوالكم قد يكون حقًّا وقد يكون باطلاً لأنه يتبع الوجود، وقول الله حق لأنه يتبعه الوجود فإنه يقول عما كان أو يقول فيكون، فإذن قول الله خير من أقوالكم التي عن قلوبكم فكيف تكون نسبته إلى أقوالكم التي بأفواهكم، فإذن لا يجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغي وتتركوا قول الله الحق فمن يقول بأن تزوج النبي عليه الصلاة والسلام بزينب لم يكن حسنًا يكون قد ترك قول الله الحق وأخذ بقول خرج عن الفم.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ إشارة إلى أن اتباع ما أنزل الله خير من الأخذ بقول الغير.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ أرشد وقال: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي أعدل فإنه وضع الشيء في موضعه وهو يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون ترك الإضافة للعموم أي أعدل كل كلام كقول القائل: الله أكبر، وثانيهما: أن يكون ما تقدم منويًّا كأنه قال: ذلك أقسط من قولكم هو ابن فلان، ثم تمم الإرشاد وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ يعني قولوا لهم إخواننا وأخو فلان فإن كانوا محررين فقولوا: مولى فلان.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ يعني قول القائل لغيره: يا بني، بطريق الشفقة، وقول القائل لغيره: يا أبي، بطريق التعظيم، فإنه مثل الخطأ ألا ترى أن اللغو في اليمين مثل الخطأ وسبق اللسان فكذلك سبق اللسان في قول القائل. ابني، والسهو في قوله: ابني، من غير قصد إلى إثبات النسب سواء، وقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ مبتدأ خبره محذوف يدل عليه ما سبق وهو الجناح يعني ما تعمدت قلوبكم فيه جناح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر الذنوب ويرحم المذنب وقد ذكرنا كلامًا شافيًا في المغفرة والرحمة في مواضع، ونعيد بعضها ههنا فنقول: المغفرة هو أن يسترد القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته حتى إن العبد إذا ستر عيب سيده مخافة عقابه لا يقال: إنه غفر له، والرحمة هو أن يميل إليه بالإحسان لعجز المرحوم إليه لا لعوض فإن من مال إلى إنسان قادر كالسلطان لا يقال رحمه، وكذا من أحسن إلى غيره رجاء في خيره أو عوضًا عما صدر منه آنفًا من الإحسان لا يقال رحمه، إذا علم هذا فالمغفرة إذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه ستر عيبه ثم رآه مفلسًا عاجزًا فرحمه وأعطاه ما كفاه، وإذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة وهو قليل يكون معناها أنه مال إليه لعجزه فترك عقابه ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه.

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ تقرير لصحة ما صدر منه عليه الصلاة والسلام من التزوج بزينب وكأن هذا جواب عن سؤال وهو أن قائلاً لو قال: هب أن الأدعياء ليسوا بأبناء كما قلت لكن من سماه غيره ابنًا إذا كان لدعيه شيء حسن لا يليق بمروءته أن يأخذه منه ويطعن فيه عرفًا، فقال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جوابًا عن ذلك السؤال وتقريره هو أن دفع الحاجات على مراتب؛ دفع حاجة الأجانب ثم دفع حاجة الأقارب الذين على حواشي النسب ثم دفع حاجة الأصول والفصول ثم دفع حاجة النفس، والأول عرفًا دون الثاني وكذلك شرعًا فإن العاقلة تتحمل الدية عنهم ولا تتحملها عن الأجانب والثاني دون الثالث أيضًا وهو ظاهر بدليل النفقة والثالث دون الرابع فإن النفس تقدم على الغير وإليه أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «ابۡدَأۡ بِنَفۡسِكَ ثُمَّ بِمَنۡ تَعُولُ» إذا علمت هذا فالإنسان إذا كان معه ما يغطي به إحدى الرجلين أو يدفع به حاجة عن أحد شقي بدنه، فلو أخذ الغطاء من أحدهما وغطى به الآخر لا يكون لأحد أن يقول له: لم فعلت؟ فضلاً عن أن يقول: بئسما فعلت، اللهم إلا أن يكون أحد العضوين أشرف من الآخر مثل ما إذا وقى الإنسان عينه بيده ويدفع البرد عن رأسه الذي هو معدن حواسه ويترك رجله تبرد فإنه الواجب عقلاً، فمن يعكس الأمر يقال له: لم فعلت، وإذا تبين هذا فالنبي ﷺ أولى بالمؤمن من نفسه فلو دفع المؤمن حاجة نفسه دون حاجة نبيه يكون مثله مثل من يدهن شعره ويكشف رأسه في برد مفرط قاصدًا به تربية شعره ولا يعلم أنه يؤذي رأسه الذي لا نبات لشعره إلا منه، فكذلك دفع حاجة النفس فراغها إلى عبادة الله تعالى ولا علم بكيفية العبادة إلا من الرسول عليه الصلاة والسلام، فلو دفع الإنسان حاجته لا للعبادة فهو ليس دفعًا للحاجة لأن دفع الحاجة ما هو فوق تحصيل المصلحة وهذا ليس فيه مصلحة فضلاً عن أن يكون حاجة وإذا كان للعبادة فترك النبي الذي منه يتعلم كيفية العبادة في الحاجة ودفع حاجة النفس مثل تربية الشعر مع إهمال أمر الرأس، فتبين أن النبي ﷺ إذا أراد شيئًا حرم على الأمة التعرض إليه في الحكمة الواضحة.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ تقريرًا آخر، وذلك لأن زوجة النبي ﷺ ما جعلها الله تعالى في حكم الأم إلا لقطع نظر الأمة عما تعلق به غرض النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا تعلق خاطره بامرأة شاركت الزوجات في التعلق فحرمت مثل ما حرمت أزواجه على غيره، فلو قال قائل: كيف قال: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ وقال من قبل: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ﴾ [الأحزاب: ٤] إشارة إلى أن غير من ولدت لا تصير أمًّا بوجه، ولذلك قال تعالى في موضع

آخر: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢]فنقول: قوله تعالى في الآية المتقدمة: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]جواب عن هذا معناه أن الشرع مثل الحقيقة، ولهذا يرجع العاقل عند تعذر اعتبار الحقيقة إلى الشريعة. كما أن امرأتين إذا ادعت كل واحدة ولدًا بعينه ولم يكن لهما بينة وحلفت إحداهما دون الأخرى حكم لها بالولد، وإن تبين أن التي حلفت دون البلوغ أو بكر ببينة لا يحكم لها بالولد، فعلم أن عند عدم الوصول إلى الحقيقة يرجع إلى الشرع، لا بل في بعض المواضع على الندور تغلب الشريعة الحقيقة، فإن الزاني لا يجعل أبًا لولد الزنى. إذا ثبت هذا فالشارع له الحكم فقول القائل: هذه أمي، قول يفهم لا عن حقيقة ولا يترتب عليه حقيقة. وأما قول الشارع [فهو] حق والذي يؤيده هو أن الشارع به الحقائق حقائق فله أن يتصرف فيها، ألا ترى أن الأم ما صارت أمًّا إلا بخلق الله الولد في رحمها، ولو خلقه في جوف غيرها لكانت الأم غيرها، فإذا كان هو الذي يجعل الأم الحقيقية أمًّا فله أن يسمى امرأة أمًّا ويعطيها حكم الأمومة، والمعقول في جعل أزواجه أمهاتنا هو أن الله تعالى جعل زوجة الأب محرمة على الابن، لأن الزوجة محل الغيرة والتنازع فيها، فإن تزوج الابن بمن كانت تحت الأب يفضي ذلك إلى قطع الرحم والعقوق، لكن النبي عليه الصلاة والسلام أشرف وأعلى درجة من الأب وأولى بالإرضاء، فإن الأب يربي في الدنيا فحسب، والنبي عليه الصلاة والسلام يربي في الدنيا والآخرة، فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء، فإن قال قائل: فلِمَ لم يقل: إن النبي أبوكم، ويحصل هذا المعنى؟ أو لم يقل: إن أزواجه أزواج أبيكم؟ فنقول: لحكمة، وهي أن النبي لما بينا أنه إذا أراد زوجة واحد من الأمة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبي عليه الصلاة والسلام، فلو قال: أنت أبوهم، لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد، ولأنه لما جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الأب لقوله عليه الصلاة والسلام: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ» ولذلك فإن المحتاج إلى القوت لا يجب عليه صرفه إلى الأب، ويجب عليه صرفه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ثم إن أزواجه لهم حكم زوجات الأب حتى لا تحرم أولادهن على المؤمنين ولا أخواتهن ولا أمهاتهن، وإن كان الكل يحرمن في الأم الحقيقية والرضاعية.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ إشارة إلى الميراث، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ إشارة إلى الوصية، يعني إن أوصيتم فغير الوارثين أولى، وإن لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم، فإن قيل: فعلى هذا أي تعلق للميراث والوصية بما ذكرت؟ نقول: تعلق قوي خفي لا يتبين إلا لمن هداه الله بنوره، وهو أن غير النبي عليه الصلاة والسلام في حال حياته لا يصير له مال الغير، وبعد وفاته لا يصير ماله لغير ورثته، والنبي عليه الصلاة والسلام في حال حياته كان يصير له مال الغير إذا أراده ولا يصير ماله لورثته بعد وفاته كأن الله تعالى عوض النبي عليه الصلاة والسلام عن قطع ميراثه بقدرته على تملك مال الغير

وعوض المؤمنين بأن ما تركه يرجع إليهم، حتى لا يكون حرج على المؤمنين في أن النبي ﷺ إذا أراد شيئًا يصير له ثم يموت ويبقى لورثته فيفوت عليهم ولا يرجع إليهم فقال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ يعني بينكم التوارث فيصير مال أحدكم لغيره بالإرث والنبي لا توارث بينه وبين أقاربه فينبغي أن يكون له بدل هذا أنه أولى في حياته بما في أيديكم الثاني: هو أن الله تعالى ذكر دليلاً على أن النبي عليه الصلاة والسلام أولي بالمؤمنين وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، ثم إذا أراد أحد برًّا مع صديق فيوصي له بشيء فيصير أولى من قريبه وكأنه بالوصية قطع الإرث وقال هذا مالي لا ينتقل عني إلا إلى من أريده، فكذلك الله تعالى جعل لصديقه من الدنيا ما أراده ثم ما يفضل منه يكون لغيره وقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ فيه وجهان أحدهما: في القرآن وهو آية المواريث والوصية، والثاني: في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] وأكده بالحكاية التي خشي فيها الناس لكي لا يخشى فيها أحدًا غيره وبين أنه لم يرتكب أمرًا يوجب الخشية بقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ [الأحزاب: ٦] أكده بوجه آخر وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ كأنه قال: اتق الله ولا تخف أحدًا واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين في أنهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين إرسالهم وأمرهم بالتبليغ.

المسألة الثانية: خص بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن موسى وعيسى كان لهما في زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجًا على قومهما، وإبراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه في الشعائر بعضها، ونوحًا لأنه كان أصلاً ثانيًا للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان، وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الإرشاد للأولاد ولهذا لم يكن في زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب، وأما نوح فكان مخلوقًا للنبوة وأرسل للإنذار ولهذا أهلك قومه وأغرقوا.

المسألة الثالثة: في كثير من المواضع يقول الله: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [البقرة: ٨٧] و﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾ [المائدة: ١٧] إشارة إلى أنه لا أب له إذ لو كان لوقع التعريف به، وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ غلظ الميثاق هو سؤالهم عما فعلوا في الإرسال كما قال تعالى: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] وهذا لأن الملك إذا أرسل رسولاً وأمره بشيء وقبله فهو ميثاق، فإذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله في أفعاله وأقواله يكون ذلك تغليظًا للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص في الرسالة،

وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] هو الإخبار بأنهم مسئولون عنها كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رعيته»(١) وكما أن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الأنبياء قائمين بأمور أمتهم وإرشادهم إلى سبيل الرشاد.

قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يعني أرسل الرسل وعاقبة المكلفين إما حساب وإما عذاب، لأن الصادق محاسب والكافر معذب، وهذا كما قال علي عليه السلام: «الدُّنْيَا حَلَالُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عَذَابٌ»(٢) وهذا مما يوجب الخوف العام فيتأكد قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾

تحقيقًا لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك لأن واقعة اجتماع الأحزاب واشتداد الأمر على الأصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبي عليه السلام الخندق، كان الأمر في غاية الشدة والخوف بالغًا إلى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه فإنه كاف أمره ولا يأمن مكره فإنه قادر على كل ممكن فكان قادرًا على أن يقهر المسلمين بالكفار مع أنهم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم، وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ إشارة إلى ما فعل الله بهم من إرسال ريح باردة عليهم في ليلة شاتية وإرسال الملائكة وقذف الرعب في قلوبهم حتى كان البعض يلتزق بالبعض

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (النكاح)، باب: (المرأة راعية في بيت زوجها) (٩/ ٢١٠)، حديث رقم (٥٢٠٠) من طريق ابن عمر... به، ومسلم في كتاب (الإمارة)، باب: (فضيلة الإمام العادل) (٣/ ٢٠/ ١٤٥٩) من طريق عبد الله بن دينار... به.

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود في (الزهد) (١/ ١١٥)، حديث رقم (١٠٩)، وابن أبي الدنيا (١/ ١٨)، حديث رقم (١٧)، كلاهما من طريق سيار عن جعفر قال سمعت مالكا قال: قالوا العلي بن أبي طالب... فذكره. وأورده الفتني في (تذكرة الموضوعات) (١/ ١٧٤)، وقال: عن علي موقوفًا بسند منقطع وقال مخرج الإحياء: لم أجده، يعني مطلقًا مرفوعًا.

من خوف الخيل في جوف الليل والحكاية مشهورة، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ إشارة إلى أن الله علم التجاءكم إليه ورجاءكم فضله فنصركم على الأعداء عند الاستعداء، وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غير الله فإن قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي الله يقضي حاجتكم وأنتم لا ترون، فإن كان لا يظهر لكم وجه الأمن فلا تلتفتوا إلى عدم ظهوره لكم لأنكم لا ترون الأشياء فلا تخافون غير الله والله بصير بما تعملون فلا تقولوا بأنا نفعل شيئًا وهو لا يبصره فـ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]وقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ بيان لشدة الأمر وغاية الخوف، وقيل: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من جانب الشرق ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من جانب الغرب وهم أهل مكة و﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي مالت عن سننها فلم تلتفت إلى العدو لكثرته ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ كناية عن غاية الشدة، وذلك لأن القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقلص فيلتصق بالحنجرة وقد يفضي إلى أن يسد مجرى النفس لا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾ الألف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعني تظنون كل ظن لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئًا ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة، لأن المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام: «ظُنُّوا بِاللَّهِ خَيْرًا» ومن الكافر الظن السوء كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧]وقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣]فإن قال قائل المصدر لا يجمع، فما الفائدة في جمع الظنون؟ فنقول: لا شك في أنه منصوب على المصدر ولكن الاسم قد يجعل مصدرًا كما يقال ضربته سياطًا وأدبته مرارًا فكأنه قال: ظننتم ظنًّا بعد ظن أي ما ثبتم على ظن فالفائدة هي أن الله تعالى لو قال: تظنون ظنًّا، جاز أن يكونوا مصيبين فإذا قال: ظنونًا، تبين أن فيهم من كان ظنه كاذبًا لأن الظنون قد تكذب كلها وقد يكذب بعضها إذا كانت في أمر واحد مثاله إذا رأى جمع من بعيد جسمًا وظن بعضهم أنه زيد وآخرون أنه عمرو وقال ثالث إنه بكر، ثم ظهر لهم الحق قد يكون الكل مخطئين والمرئي شجر أو حجر. وقد يكون أحدهم مصيبًا ولا يمكن أن يكونوا كلهم مصيبين فقوله: ﴿ٱلظُّنُونَا﴾ أفاد أن فيهم من أخطأ الظن، ولو قال: تظنون بالله ظنًّا، ما كان يفيد هذا.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

أي عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق، والامتحان من الله ليس لاستبانة الأمر له بل لحكمة أخرى وهي أن الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه أراد إظهار الأمر

لغيره من الملائكة والأنبياء، كما أن السيد إذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده غيره من العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالمًا بأنه يخالفه فيبين الأمر عند الغير فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه حيث لا يقع لأحد أنها بظلم أو من قلة حلم، وقوله: ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ أي أزعجوا وحركوا فمن ثبت منهم كان من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وبذكر الله تطمئن مرة أخرى، وهم المؤمنون حقًّا.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

فسر الظنون وبينها، فظن المنافقون أن ما قال الله ورسوله كان زورًا ووعدهما كان غرورًا حيث قطعوا بأن الغلبة واقعة وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي لا وجه لإقامتكم مع محمد كما يقال لا إقامة على الذل والهوان أي لا وجه لها، ويثرب اسم للبقعة التي هي المدينة ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي عن محمد، واتفقوا مع الأحزاب تخرجوا من الأحزان ثم السامعون عزموا على الرجوع واستأذنوه وتعللوا بأن بيوتنا عورة أي فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على أتباعه ثم بين الله كذبهم بقوله: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ وبين قصدهم وما تكن صدورهم وهو الفرار وزوال القرار بسبب الخوف.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾.

إشارة إلى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت لأن من يفعل فعلاً لغرض، فإذا فاته الغرض لا يفعله، كمن يبذل المال لكي لا يؤخذ منه بيته فإذا أخذ منه البيت لا يبذله فقال الله تعالى هم قالوا بأن رجوعنا عنك لحفظ بيوتنا ولو دخلها الأحزاب وأخذوها منهم لرجعوا أيضًا، وليس رجوعهم عنك إلا بسبب كفرهم وحبهم الفتنة، وقوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ احتمل أن يكون المراد المدينة واحتمل أن يكون البيوت، وقوله: ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ﴾ يحتمل أن يكون المراد الفتنة ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ فإنها تزول وتكون العاقبة للمتقين، ويحتمل أن يكون المراد المدينة أو البيوت أي ما تلبثوا بالمدينة إلا يسيرًا فإن المؤمنين يخرجونهم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

بيانًا لفساد سريرتهم وقبح سيرتهم لنقضهم العهود فإنهم قبل ذلك تخلفوا وأظهروا عذرًا وندمًا، وذكروا أن القتال لا يزال لهم قدمًا ثم هددهم بقوله: ﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ وقوله: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾ إشارة إلى أن الأمور مقدرة لا يمكن الفرار مما وقع عليه القرار، وما قدره الله كائن فمن أمر بشيء إذا خالفه يبقى في ورطة العقاب آجلاً ولا ينتفع بالمخالفة عاجلاً، ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كأنه يقول ولو فررتم منه في يومكم مع أنه غير ممكن لما دمتم بل لا تمتعون إلا قليلاً فالعاقل لا يرغب في شيء قليل مع أنه يفوت عليه شيئًا كثيرًا، فلا فرار لكم ولو كان لما متعتم بعد الفرار إلا قليلاً.

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

بيانًا لما تقدم من قوله: ﴿ لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ تقرير لقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم ﴾ أي ليس لكم ولي يشفع لمحبته إياكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم السوء إذا أتاكم.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ .

أي الذين يثبطون المسلمين ويقولون: تعالوا إلينا ولا تقاتلوا مع محمد ﷺ، وفيه وجهان أحدهما: أنهم المنافقون الذين كانوا يقولون للأنصار لا تقاتلوا وأسلموا محمدًا إلى قريش، وثانيهما: اليهود الذين كانوا يقولون لأهل المدينة تعالوا إلينا وكونوا معنا، وهلم بمعنى تعال أو احضر ولا تجمع في لغة الحجاز وتجمع في غيرها فيقال للجماعة: هلموا وللنساء هلمن، وقوله: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يؤيد الوجه الأول وهو أن المراد منهم المنافقون وهو يحتمل وجهين أحدهما: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ ﴾ بمعنى يتخلفون عنكم ولا يخرجون معكم وحينئذٍ قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي بخلاء حيث لا ينفقون في سبيل الله شيئًا، وثانيهما: لا يأتون البأس بمعنى لا يقاتلون معكم ويتعللون عن الاشتغال بالقتال وقت الحضور معكم، وقوله: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي بأنفسهم وأبدانهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

إشارة إلى غاية جبنهم ونهاية روعهم، واعلم أن البخل شبيه الجبن، فلما ذكر البخل بين سببه وهو الجبن والذي يدل عليه هو أن الجبان يبخل بماله ولا ينفقه في سبيل الله لأنه لا يتوقع الظفر فلا يرجو الغنيمة فيقول هذا إنفاق لا بدل له فيتوقف فيه، وأما الشجاع فيتيقن الظفر والاغتنام فيهون عليه إخراج المال في القتال طمعًا فيما هو أضعاف ذلك، وأما بالنفس والبدن فكذلك فإن الجبان يخاف قرنه ويتصور الفشل فيجبن ويترك الإقدام، وأما الشجاع فيحكم بالغلبة والنصر فيقدم، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم﴾ أي غلبوكم بالألسنة وآذوكم بكلامهم يقولون: نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم وكسرتم العدو وقهرتم، ويطالبونكم بالقسم الأوفر من الغنيمة وكانوا من قبل راضين من الغنيمة بالإياب، وقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ قيل الخير المال ويمكن أن يقال معناه أنهم قليلو الخير في الحالتين كثيرو الشر في الوقتين في الأول يبخلون، وفي الآخر كذلك.

ثم قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ يعني لم يؤمنوا حقيقة وإن أظهروا الإيمان لفظًا فأحبط الله أعمالهم التي كانوا يأتون بها مع المسلمين، وقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ إشارة إلى ما يكون في نظر الناظر كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وذلك لأن الإحباط إعدام وإهدار، وإعدام الأجسام إذا نظر الناظر يقول الجسم بتفريق أجزائه، فإن من أحرق شيئًا يبقى منه رماد، وذلك لأن الرماد إن فرقته الريح يبقى منه ذرات، وهذا مذهب بعض الناس والحق هو أن الله يعدم الأجسام ويعيد ما يشاء منها، وأما العمل فهو في العين معدوم وإن كان يبقى يبقى بحكمه وآثاره، فإذا لم يكن له فائدة واعتبار فهو معدوم حقيقة وحكمًا فالعمل إذا لم يعتبر فهو معدوم في الحقيقة بخلاف الجسم.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

أي من غاية الجبن عند ذهابهم كانوا يخافونهم وعند مجيئهم كانوا يودون لو كانوا في البوادي ولا يكونون بين المقاتلين مع أنهم عند حضورهم كأنهم غائبون حيث لا يقاتلون كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾

لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو أنهم قالوا: هذا ما وعدنا الله من الابتلاء ثم قالوا: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] وقولهم: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ليس إشارة إلى ما وقع فإنهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وإنما هي إشارة إلى بشارة وهو أنهم قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾ وقد وقع وصدق الله في جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بوقوعه وتسليمًا عند وجوده.

ثم قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

إشارة إلى وفائهم بعهدهم الذي عاهدوا الله أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر، ومنهم من هو بعد في القتال ينتظر الشهادة وفاء بالعهد ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ بخلاف المنافقين فإنهم قالوا: لا نولي الأدبار، فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم وقوله: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي بصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا وأخلفوا، وقوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ ذلك فيمنعهم من الإيمان أو يتوب عليهم إن أراد، وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبي عليه الصلاة والسلام عن إيمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ حيث ستر ذنوبهم و﴿رَّحِيمًا﴾ حيث رحمهم ورزقهم الإيمان فيكون هذا فيمن آمن بعده أو نقول: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ مع أنه كان غفورًا رحيمًا لكثرة ذنبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم فقال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ أي مع غيظهم لم يشفوا صدرًا ولم يحققوا أمرًا ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي لم يحوجهم إلى قتال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ غير محتاج إلى قتالهم عزيزًا قادرًا على استئصال الكفار وإذلالهم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾

أي عاونوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة من صياصيهم من قلاعهم وقذف في قلوبهم الرعب حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبي ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وهم الرجال، ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ وهم الصبيان والنسوان، فإن قيل هل في تقديم المفعول حيث قال ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وتأخيره حيث قال: ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ فائدة؟ قلت: قد أجبنا أن ما من شيء من القرآن إلا وله فوائد منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر، والذي يظهر من هذا والله أعلم أن القائل يبدأ بالأهم فالأهم والأعرف فالأعرف والأقرب فالأقرب، والرجال كانوا مشهورين فكان القتل واردًا عليهم والأسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبي والأسر أظهر من القتل لأنه يبقى فيظهر لكل أحد أنه أسير فقدم من المحلين ما هو أشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الأخفى، وإن شئنا نقول بعبارة توافق المسائل النحوية فنقول قوله: ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ فعل ومفعول والأصل في الجمل الفعلية تقديم الفعل على المفعول والفاعل، أما أنها جملة فعلية فلأنها لو كانت اسمية لكان الواجب في فريق الرفع وكان يقول: فريق منهم تقتلونهم، فلما نصب كان ذلك بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره: تقتلون فريقًا تقتلون، والحامل على مثل هذا الكلام شدة الاهتمام ببيان المفعول، وههنا كذلك لأنه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم وأنه قذف في قلوبهم الرعب فلو قال: تقتلون، إلى أن يسمع السامع مفعول تقتلون يكون زمان وقد يمنعه مانع فيفوته فلا يعلم أنهم هم المقتولون، فأما إذا قال: فريقًا، مع سبق في قلوبهم الرعب إلى سمعه يستمع إلى تمام الكلام وإذا كان الأول فعلاً ومفعولاً قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها على الأصل فعدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم إذا عرف حالهم وما يجيء بعده يكون مصروفًا إليهم، ولو قال بعد ذلك: وفريقًا تأسرون، فمن سمع فريقًا ربما يظن أن يقال فيهم يطلقون، أو لا يقدرون عليهم فكان تقديم الفعل ههنا أولى، وكذلك الكلام في قوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾ وقوله: ﴿ وَقَذَفَ ﴾ فإن قذف الرعب قبل الإنزال لأن الرعب صار سبب الإنزال، ولكن لما كان الفرح في إنزالهم أكثر، قدم الإنزال على قذف الرعب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾.
فيه ترتيب على ما كان، فإن المؤمنين أولاً تملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها ثم

تملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم ثم أموالهم التي كانت في بيوتهم وقوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ قيل: المراد القلاع، وقيل: المراد الروم وأرض فارس، وقيل: كل ما يؤخذ إلى يوم القيامة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ هذا يؤكد قول من قال إن المراد من قولهم: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ هو ما سيؤخذ بعد بني قريظة، ووجهه هو أن الله تعالى لما ملكهم تلك البلاد ووعدهم بغيرها دفع استبعاد من لا يكون قوي الاتكال على الله تعالى وقال أليس الله ملككم هذه فهو على كل شيء قدير يملككم غيرها.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

وجه التعلق هو أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله: «**الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»(١) ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فإنهن أولى الناس بالشفقة، ولهذا قدمهن في النفقة، وفي الآية مسائل فقهية منها أن التخيير هل كان واجبًا على النبي عليه السلام أم لا؟ فنقول: التخيير قولاً كان واجبًا من غير شك لأنه إبلاغ الرسالة، لأن الله تعالى لما قال له: قل لهم، صار من الرسالة، وأما التخيير معنى فمبني على أن الأمر للوجوب أم لا؟ والظاهر أنه للوجوب، ومنها أن واحدة منهن لو اختارت الفراق هل كان يصير اختيارها فراقًا والظاهر أنه لا يصير فراقًا وإنما تبين المختارة نفسها بإبانة من جهة النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ ومنها أن واحدة منهن إن اختارت نفسها وقلنا بأنها لا تبين إلا بإنابة من جهة النبي عليه السلام فهل كان يجب على النبي عليه السلام الطلاق أم لا؟ الظاهر نظرًا إلى منصب النبي عليه السلام أنه كان يجب، لأن الخلف في الوعد من النبي غير جائز بخلاف واحد منا، فإنه لا يلزمه شرعًا الوفاء بما يعد ومنها أن المختارة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا، والظاهر أنها لا تحرم، وإلا لا يكون التخيير ممكنًا لها من التمتع بزينة الدنيا، ومنها أن من اختارت الله ورسوله كان يحرم على النبي عليه الصلاة والسلام طلاقها أم لا؟ الظاهر الحرمة نظرًا إلى منصب الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى أن النبي عليه السلام لا يباشره أصلًا، بمعنى أنه لو أتى به لعوقب أو عوتب، وفيها لطائف لفظية منها تقديم اختيار الدنيا، إشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام غير ملتفت إلى جانبهن غاية الالتفات وكيف وهو مشغول بعبادة ربه، ومنها قوله عليه

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (في حق المملوك) (٤/ ٢١٩٣)، حديث رقم (٥١٥٦)، وابن ماجه في كتاب (الوصايا)، باب: (هل أوصى النبي ﷺ) (٢/ ٩٠١)، حديث رقم (٢٦٩٨)، وأحمد في (مسنده) (١/ ٧٨)، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٨/ ١١) من طريق محمد بن الفضيل عن مغيرة... به.

السلام: ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ إشارة إلى ما ذكرنا، فإن السراح الجميل مع التأذي القوي لا يجتمع في العادة، فعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يتأثر من اختيارهن فراقه بدليل أن التسريح الجميل منه، ومنها قوله: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ﴾ إعلامًا لهن بأن في اختيار النبي عليه السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة وهذه الثلاثة هي الدين وقوله: ﴿ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ أي لمن عمل صالحًا منكن، وقوله: ﴿ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فيه معنى الإيمان، وقوله: ﴿ لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾ لبيان الإحسان حتى تكون الآية في المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [لقمان: ٢٢]وقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٨]وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٨٢]والأجر العظيم الكبير في الذات الحسن في الصفات الباقي في الأوقات، وذلك لأن العظيم في الأجسام لا يطلق إلا على الزائد في الطول وفي العرض وفي العمق، حتى لو كان زائدًا في الطول يقال له طويل، ولو كان زائدًا في العرض يقال له عريض، وكذلك العميق، فإذا وجدت الأمور الثلاثة قيل عظيم، فيقال جبل عظيم إذا كان عاليًا ممتدًا في الجهات، وإن كان مرتفعًا فحسب يقال جبل عال، إذا عرفت هذا فأجر الدنيا في ذاته قليل وفي صفاته غير خال عن جهة قبح، لما في مأكوله من الضرر والثقل، وكذلك في مشروبه وغيره من اللذات وغير دائم، وأجر الآخرة كثير خال عن جهات القبح دائم فهو عظيم.

قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

ثم قال تعالى:﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

لما خيرهن النبي ﷺواخترن الله ورسوله أدبهن الله وهددهن للتوقي عما يسوء النبي عليه السلام ويقبح بهن من الفاحشة التي هي أصعب على الزوج من كل ما تأتي به زوجته وأوعدهن بتضعيف العذاب وفيه حكمتان إحداهما: أن زوجة الغير تعذب على الزني بسبب ما في الزنا من المفاسد وزوجة النبي تعذب إن أتت به لذلك ولإيذاء قلبه والإزراء بمنصبه، وعلى هذا بنات النبي عليه السلام كذلك ولأن امرأة لو كانت تحت النبي ﷺوأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبي عليه السلام، ويكون ذلك الغير خيرًا عندها من النبي وأولى، والنبي أولى من النفس التي هي أولى من الغير، فقد نزلت منصب النبي مرتبتين فتعذب من العذاب ضعفين، ثانيتهما: أن هذا إشارة إلى شرفهن، لأن الحرة عذابها ضعف عذاب الأمة إظهارًا لشرفها، ونسبة النبي إلى غيره من الرجال نسبة السادات إلى العبيد لكونه أولى بهم من أنفسهم، فكذلك زوجاته وقرائبه اللاتي هن أمهات المؤمنين، وأم الشخص امرأة حاكمة عليه واجبة الطاعة، وزوجته مأمورة

محكومة له وتحت طاعته، فصارت زوجة الغير بالنسبة إلى زوجة النبي عليه السلام كالأمة بالنسبة إلى الحرة، واعلم أن قول القائل من يفعل ذلك في قوة قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] من حيث إن ذلك ممكن الوقوع في أول النظر، ولا يقع في بعض الصور جزمًا وفي بعض يقع جزمًا من مات فقد استراح، وفي البعض يتردد السامع في الأمرين، فقوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ عندنا من القبيل الأول، فإن الأنبياء صان الله زوجاتهم عن الفاحشة، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي ليس كونكن تحت النبي عليه السلام وكونكن شريفات جليلات مما يدفع العذاب عنكن، وليس أمر الله كأمر الخلق حيث يتعذر عليهم تعذيب الأعزة بسبب كثرة أوليائهم وأعوانهم أو شفعائهم وإخوانهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ بيانًا لزيادة ثوابهن، كما بين زيادة عقابهن ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ في مقابلة قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ مع لطيفة وهي أن عند إيتاء الأجر ذكر المؤتي وهو الله، وعند العذاب لم يصرح بالمعذب فقال: ﴿يُضَٰعَفْ﴾ إشارة إلى كمال الرحمة والكرم، كما أن الكريم الحي عند النفع يظهر نفسه وفعله، وعند الضر لا يذكر نفسه، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ وصف رزق الآخرة بكونه كريمًا، مع أن الكريم لا يكون إلا وصفًا للرزاق إشارة إلى معنىً لطيف، وهو أن الرزق في الدنيا مقدر على أيدي الناس، التاجر يسترزق من السوقة، والمعاملين والصناع من المستعملين، والملوك من الرعية والرعية منهم، فالرزق في الدنيا لا يأتي بنفسه، وإنما هو مسخر للغير يمسكه ويرسله إلى الأغيار. وأما في الآخرة فلا يكون له مرسل وممسك في الظاهر فهو الذي يأتي بنفسه، فلأجل هذا لا يوصف في الدنيا بالكريم إلا الرزاق، وفي الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق.

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ لما ذكر أن عذابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن مثلا أجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة إلى الإماء، فقال: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ﴾ ومعنى قول القائل ليس فلان كآحاد الناس، يعني ليس فيه مجرد كونه إنسانًا، بل وصف أخص موجود فيه، وهو كونه عالمًا أو عاملاً أو نسيبًا أو حسيبًا، فإن الوصف الأخص إذا وجد لا يبقى التعريف بالأعم، فإن من عرف رجلاً ولم يعرف منه غير كونه رجلاً يقول: رأيت رجلاً، فإن عرف علمه يقول رأيت زيدًا أو عمرًا، فكذلك قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني فيكن غير ذلك

أمر لا يوجد في غيركن وهو كونكنّ أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين، وكما أن محمدًا عليه السلام ليس كأحد من الرجال، كما قال عليه السلام: «لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ» كذلك قرائبه اللاتي يشرفن به وبين الزوجين نوع من الكفاءة.

ثم قوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون متعلقًا بما قبله على معنى لستن كأحد إن اتقيتن فإن الأكرم عند الله هو الأتقى، وثانيهما: أن يكون متعلقًا بما بعده على معنى إن اتقيتن فلا تخضعن والله تعالى لما منعهن من الفاحشة وهي الفعل القبيح منعهن من مقدماتها وهي المحادثة مع الرجال والانقياد في الكلام للفاسق. ثم قوله تعالى: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي فسق وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي ذكر الله، وما تحتجن إليه من الكلام والله تعالى لما قال: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ ذكر بعده ﴿ وَقُلْنَ﴾ إشارة إلى أن ذلك ليس أمرًا بالإيذاء والمنكر بل القول المعروف وعند الحاجة هو المأمور به لا غيره.

قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ من القرار وإسقاط أحد حرفي التضعيف كما قال تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥]وقيل بأنه من الوقار كما يقال وعد يعد عد وقول: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قيل معناه لا تتكسرن ولا تتغنجن، ويحتمل أن يكون المراد لا تظهرن زينتكن وقوله تعالى: ﴿ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فيه وجهان أحدهما: أن المراد من كان في زمن نوح والجاهلية الأخرى من كان بعده، وثانيهما: أن هذه ليست أولى تقتضي أخرى بل معناه تبرج الجاهلية القديمة كقول القائل: أين الأكاسرة الجبابرة الأولى.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ يعني ليس التكليف في النهي فقط حتى يحصل بقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ بل فيه وفي الأوامر ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي ترك التشبه بالجبار المتكبر ﴿ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي هي تشبه بالكريم الرحيم ﴿ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ﴾ أي ليس التكليف منحصرًا في المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به وكل ما نهى الله عنه فانتهين عنه.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

يعني ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولا تنفعن الله فيما تأتين به. وإنما نفعه لكن وأمره تعالى إياكن لمصلحتكن، وقوله تعالى: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ فيه لطيفة وهي أن الرجس قد يزول عينًا ولا يطهر المحل فقوله تعالى: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي يزيل عنكم الذنوب ويطهركم أي يلبسكم خلع الكرامة، ثم إن الله تعالى ترك خطاب المؤنثات

وخاطب بخطاب المذكرين بقوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم، واختلفت الأقوال في أهل البيت، والأولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلي منهم لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بنت النبي عليه السلام وملازمته للنبي.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ أي كلمات النبي عليه السلام إشارة إلى ما ذكرنا من أن التكاليف غير منحصرة في الصلاة والزكاة، وما ذكر الله في هذه الآية فقال: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ﴾ ليعلمن الواجبات كلها فيأتين بها، والمحرمات بأسرها فينتهين عنها.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ إشارة إلى أنه خبير بالبواطن، لطيف فعلمه يصل إلى كل شيء ومنه اللطيف الذي يدخل في المسام الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ لما أمرهن ونهاهن وبين ما يكون لهن وذكر لهن عشر مراتب الأولى: الإسلام والانقياد لأمر الله، والثانية: الإيمان بما يرد به أمر الله، فإن المكلف أولاً يقول: كل ما يقوله أقبله، فهذا إسلام، فإذا قال الله شيئًا وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو إيمان ثم اعتقاده يدعوه إلى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو المرتبة الثالثة المذكورة بقوله: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ ثم إذا آمن وعمل صالحًا كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق في كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ ثم إن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ ثم إنه إذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ أو نقول: لما ذكر هذه الحسنات أشار إلى ما يمنع منها وهو إما حب الجاه أو حب المال من الأمور الخارجية أو الشهوة من الأمور الداخلة، والغضب

منهما يكون لأنه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمر مشتهى فقوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ أي المتواضعين الذين لا يميلهم الجاه عن العبادة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ أي الباذلين الأموال الذين لا يكنزونها لشدة محبتهم إياها.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ يعني هم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله، واعلم أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا، وفي قوله بعد هذا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]وقال من قبل: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]لأن الإكثار من الأفعال البدنية غير ممكن أو عسر فإن الإنسان أكله وشربه وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائمًا بالصلاة ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار، وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]ولأن جميع الأعمال صحتها بذكر الله تعالى وهي النية.

ثم قال تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ تمحو ذنوبهم وقوله: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ذكرناه فيما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

قيل بأن الآية نزلت في زينب حيث أراد النبي ﷺتزويجها من زيد بن حارثة فكرهت إلا النبي عليه السلام وكذلك أخوها امتنع فنزلت الآية فرضيا به، والوجه أن يقال إن الله تعالى لما أمر نبيه بأن يقول لزوجاته إنهن مخيرات فهم منه أن النبي ﷺلا يريد ضرر الغير فمن كان ميله إلى شيء يمكنه النبي عليه السلام من ذلك، ويترك النبي عليه السلام حق نفسه لحظ غيره، فقال في هذه الآية لا ينبغي أن يظن ظان أن هوى نفسه متبعه وأن زمام الاختيار بيد الإنسان كما في الزوجات، بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله فما أمر الله هو المتبع وما أراد النبي هو الحق ومن خالفهما في شيء فقد ضل ضلالاً مبينًا، لأن الله هو المقصد والنبي هو الهادي الموصل، فمن ترك المقصد ولم يسمع قول الهادي فهو ضال قطعًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ

إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾

وهو زيدٌ أنعم الله عليه بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالتحرير والإعتاق ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ همَّ زيد بطلاق زينب فقال له النبي: أمسك، أي لا تطلقها ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ قيل في الطلاق، وقيل في الشكوى من زينب، فإن زيدًا قال فيها: إنها تتكبر علي بسبب النسب وعدم الكفاءة ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ من أنك تريد التزوج بزينب ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ من أن يقولوا أخذ زوجة الغير أو الابن ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُۖ﴾ ليس إشارة إلى أن النبي خشي الناس ولم يخش الله بل المعنى الله أحق أن تخشاه وحده ولا تخش أحدًا معه وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضًا، فاجعل الخشية له وحده كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ أي لما طلقها زيد وانقضت عدتها وذلك لأن الزوجة ما دامت في نكاح الزوج فهي تدفع حاجته وهو محتاج إليها، فلم يقض منها الوطر بالكلية ولم يستغن وكذلك إذا كان في العدة له بها تعلق لإمكان شغل الرحم فلم يقض منها بعد وطره، وأما إذا طلق وانقضت عدتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلق فيقضي منها الوطر وهذا موافق لما في الشرع لأن التزوج بزوجة الغير أو بمعتدته لا يجوز فلهذا قال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ﴾ وكذلك قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ﴾ أي إذا طلقوهن وانقضت عدتهن، وفيه إشارة إلى أن التزويج من النبي عليه السلام لم يكن لقضاء شهوة النبي عليه السلام بل لبيان الشريعة بفعله فإن الشرع يستفاد من فعل النبي، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي مقضيًا ما قضاه كائن.

ثم بين أن تزوجه عليه السلام بها مع أنه كان مبينًا لشرع مشتمل على فائدة كان خاليًا من المفاسد.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

يعني كان شرع من تقدمه كذلك، كان يتزوج الأنبياء بنسوة كثيرة أبكار ومطلقات الغير ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي كل شيء بقضاء وقدر والقدر التقدير وبين المفعول والمقدور فرق مقول بين القضاء والقدر، فالقضاء ما كان مقصودًا في الأصل والقدر ما يكون تابعًا له، مثاله من كان يقصد مدينة فنزل بطريق تلك المدينة بخان أو قرية يصح منه في العرف أن يقول في جواب من يقول: لم جئت إلى هذه القرية؟ إني ما جئت إلى هذه وإنما قصدت المدينة الفلانية وهذه وقعت

في طريقي وإن كان قد جاءها ودخلها وإذا عرفت هذا فإن الخير كله بقضاء وما في العالم من الضرر بقدر، فالله تعالى خلق المكلف بحيث يشتهي ويغضب، ليكون اجتهاده في تغليب العقل والدين عليهما مثابًا عليه بأبلغ وجه فأفضى ذلك في البعض إلى أن زنى وقتل فالله لم يخلقهما فيه مقصودًا منه القتل والزنى وإن كان ذلك بقدر الله إذا علمت هذا ففي قوله تعالى أولا ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ وقوله ثانيًا ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ لطيفة وهي أنه تعالى لما قال ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ قال ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي تزويجنا زينب إياك كان مقصودًا متبوعًا مقضيًّا مراعى، ولما قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾ إشارة إلى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي كان ذلك حكمًا تبعيًّا، فلو قال قائل هذا قول المعتزلة بالتوليد والفلاسفة بوجوب كون الأشياء على وجوه مثل كون النار تحرق حيث قالوا: الله تعالى أراد أن يخلق ما ينضج الأشياء وهو لا يكون إلا محرقًا بالطبع فخلق النار للنفع فوقع اتفاق أسباب أوجبت احتراق دار زيد أو دار عمرو، فنقول: معاذ الله أن نقول بأن الله غير مختار في أفعاله أو يقع شيء لا باختياره، ولكن أهل السنة يقولون أجرى الله عادته بكذا أي وله أن يخلق النار بحيث عند حاجة إنضاج اللحم تنضج وعند مساس ثوب العجوز لا تحرق، ألا ترى أنها لم تحرق إبراهيم عليه السلام مع قوتها وكثرتها لكن خلقها على غير ذلك الوجه بمحض إرادته أو لحكمة خفية ولا يسأل عما يفعل، فنقول: ما كان في مجرى عادته تعالى على وجه تدركه العقول البشرية نقول بقضاء، وما يكون على وجه يقع لعقل قاصر أن يقول لم كان ولماذا لم يكن على خلافه نقول بقدر.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

يعني كانوا هم أيضًا مثلك رسلا، ثم ذكره بحالهم أنهم جردوا الخشية ووحدوها بقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فصار كقوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠] وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي محاسبًا فلا تخش غيره أو محسوبًا فلا تلتفت إلى غيره ولا تجعله في حسابك.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

لما بين الله ما في تزوج النبي عليه السلام بزينب من الفوائد بين أنه كان خاليًا من وجوه المفاسد، وذلك لأن ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصرًا في التزوج بزوجة الابن فإنه غير جائز فقال الله تعالى: إن زيدًا لم يكن ابنًا له لا بل أحد الرجال لم يكن ابن محمد، فإن قائل النبي كان أبا أحد من الرجال لأن الرجل اسم الذكر من أولاد آدم قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا

وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١٧٦]والصبي داخل فيه، فنقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن الرجل في الاستعمال يدخل في مفهومه الكبر والبلوغ ولم يكن للنبي عليه السلام ابن كبير يقال إنه رجل، والثاني: هو أنه تعالى قال: ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ ووقت الخطاب لم يكن له ولد ذكر، ثم إنه تعالى لما نفى كونه أبًا عقبه بما يدل على ثبوت ما هو في حكم الأبوة من بعض الوجوه فقال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ فإن رسول الله كالأب للأمة في الشفقة من جانبه، وفي التعظيم من طرفهم بل أقوى فإن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، والأب ليس كذلك، ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وذلك لأن النبي الذي يكون بعده نبي إن ترك شيئًا من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده، وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى، إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يعني علمه بكل شيء دخل فيه أن لا نبي بعده فعلم أن من الحكمة إكمال شرع محمد ﷺبتزوجه بزوجة دعيه تكميلاً للشرع وذلك من حيث إن قول النبي ﷺيفيد شرعًا لكن إذا امتنع هو عنه يبقى في بعض النفوس نفرة، ألا ترى أنه ذكر بقوله ما فهم منه حل أكل الضب ثم لما لم يأكله بقي في النفوس شيء ولما أكل لحم الجمل طاب أكله مع أنه في بعض الملل لا يؤكل وكذلك الأرنب.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾.

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن السورة أصلها ومبناها على تأديب النبي ﷺوقد ذكرنا أن الله تعالى بدأ بذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع الله وهو التقوى وذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع أهله وأقاربه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]والله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما يأمر به أنبياءه المرسلين فأرشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ كما قال لنبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

ثم ههنا لطيفة وهي أن المؤمن قد ينسى ذكر الله فأمر بدوام الذكر، أما النبي لكونه من المقربين لا ينسى ولكن قد يغتر المقرب من الملك بقربه منه فيقل خوفه فقال: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]فإن المخلص على خطر عظيم وحسنة الأولياء سيئة الأنبياء وقوله: ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ قد ذكرنا أن الله في كثير من المواضع لما ذكر وصفه بالكثرة إذ لا مانع من الذكر على ما بينا.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي إذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم إياه على وجه

التعظيم والتنزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد منه الصلاة وقيل للصلاة تسبيحه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ إشارة إلى المداومة وذلك لأن مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله عليه السلام «لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ» [١] ولم يذكر وسطكم ففهم منه المبالغة في العموم..

ثم قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

يعني هو يصلي عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريضًا للمؤمنين على الذكر والتسبيح ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يعني يهديكم برحمته والصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار فقيل بأن اللفظ المشترك يجوز استعماله في معنييه معًا وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا القول إلى الشافعي رضي الله عنه وهو غير بعيد فإن أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب نقول الرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العناية جزأ منهما ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ بشارة لجميع المؤمنين وإشارة إلى أن قوله ﴿يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ غير مختص بالسامعين وقت الوحي.

ثم قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ لما بين الله عنايته في الأولى بين عنايته في الآخرة وذكر السلام لأنه هو الدليل على الخيرات فإن من لقي غيره وسلم عليه دل على المصافاة بينهما وإن لم يسلم دل على المنافاة، وقوله: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي يوم القيامة وذلك لأن الإنسان في دنياه غير مقبل بكليته على الله وكيف وهو حالة نومه غافل عنه وفي أكثر أوقاته مشغول بتحصيل رزقه، وأما في الآخرة فلا شغل لأحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ لو قائل قال: الإعداد إنما يكون ممن لا يقدر عند الحاجة إلى الشيء عليه، وأما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز فحيث يلقاه الله يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الإعداد من قبل؟ فنقول: الإعداد للإكرام لا للحاجة وهذا كما أن الملك إذا قيل له: فلان واصل، فإذا أراد إكرامه يهيئ له بيتًا وأنواعًا من الإكرام ولا يقول بأنه إذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه ما يرضيه فكذلك الله لكمال الإكرام أعد للذاكر أجرًا كريمًا والكريم قد ذكرناه في الرزق أي أعد له أجرًا يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فإنه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه إلا بقدر.

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ مناسب لحالهم لأنهم لما ذكروا الله في دنياهم حصل لهم

---

(١) هذا حديث قدسي من رواية أبي ذر في الصحيح أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٤/ ٢٥٧٧) من طريق أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر . . . به.

معرفة، ولما سبحوه تأكدت المعرفة حيث عرفوه كما ينبغي بصفات الجلال ونعوت الكمال والله يعلم حالهم في الدنيا فأحسن إليهم بالرحمة، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾ وقال: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣] والمتعارفان إذا التقيا وكان أحدهما شفيقًا بالآخر والآخر معظمًا له غاية التعظيم لا يتحقق بينهما إلا السلام وأنواع الإكرام.

ثم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾.

قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبي عليه السلام من ربه فقوله في ابتدائها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع ربه، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع أهله، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع عامة الخلق، وقوله تعالى: ﴿ شَٰهِدٗا﴾ يحتمل وجوهًا أحدها: أنه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣] وعلى هذا فالنبي بعث شاهدًا أي متحملاً للشهادة ويكون في الآخرة شهيدًا أي مؤديًا لما تحمله، ثانيها: أنه شاهد أن لا إله إلا الله، (وعلى هذا لطيفة) وهو أن الله جعل النبي شاهدًا على الوحدانية والشاهد لا يكون مدعيًا فالله تعالى لم يجعل النبي في مسألة الوحدانية مدعيًا لها لأن المدعي من يقول شيئًا على خلاف الظاهر والوحدانية أظهر من الشمس والنبي عليه السلام كان ادعى النبوة فجعل الله نفسه شاهدًا له في مجازاة كونه شاهدًا لله فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون: ١] وثالثها: أنه شاهد في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط وشاهد في الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد وقوله: ﴿ وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا﴾ فيه ترتيب حسن وذلك من حيث إن النبي عليه السلام أرسل شاهدًا بقوله لا إله إلا الله ويرغب في ذلك بالبشارة فإن لم يكف ذلك يرهب بالإنذار ثم لا يكتفي بقولهم لا إله إلا الله بل يدعوهم إلى سبيل الله كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله: ﴿ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ أي مبرهنًا على ما يقول مظهرًا له بأوضح الحجج وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفيه لطائف إحداها: قوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ حيث لم يقل: وشاهدًا بإذنه ومبشرًا، وعند الدعاء قال: وداعيًا بإذنه، وذلك لأن من يقول عن ملك: إنه ملك الدنيا لا غيره، لا يحتاج فيه إلى إذن منه فإنه وصفه بما فيه وكذلك إذا قال: من يطيعه يسعد ومن يعصه يشقى يكون مبشرًا ونذيرًا ولا يحتاج إلى إذن من الملك في ذلك، وأما إذا قال: تعالوا إلى سماطه، واحضروا على خوانه، يحتاج فيه إلى إذنه فقال تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ ووجه آخر وهو أن النبي يقول إني أدعو إلى الله والولي يدعو إلى الله، والأول لا إذن له فيه من أحد، والثاني مأذون من جهة النبي عليه السلام كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]

وقال عليه الصلاة والسلام: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا» (١) والنبي عليه السلام هو المأذون من الله في الدعاء إليه من غير واسطة.

اللطيفة الثانية: قال في حق النبي عليه السلام: سراجًا، ولم يقل: إنه شمس، مع أنه أشد إضاءة من السراج لفوائد منها: أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شيء والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فإذا انطفأ الأول يبقى الذي أخذ منه، وكذلك إن غاب والنبي عليه السلام كان كذلك إذ كل صحابي أخذ منه نور الهداية كما قال عليه السلام: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ» (٢) وفي الخبر لطيفة وإن كانت ليست من التفسير ولكن الكلام يجر الكلام وهي أن النبي عليه السلام لم يجعل أصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم لأن النجم لا يؤخذ منه نور بل له في نفسه نور إذا غرب هو لا يبقى نور مستفاد منه، وكذلك الصحابي إذا مات فالتابعي يستنير بنور النبي عليه السلام ولا يأخذ منه إلا قول النبي عليه السلام وفعله، فأنوار المجتهدين كلهم من النبي عليه السلام ولو جعلهم كالسرج والنبي عليه السلام أيضًا سراج كان للمجتهد أن يستنير بمن أراد منهم ويأخذ النور ممن

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (العلم)، باب: (نشر العلم) (٣/ ٣٢١)، حديث رقم (٣٦٦٠) من طريق يحيى... به، والترمذي في كتاب (العلم)، باب: (في الحث على تبليغ السماع) (٥/ ٣٤)، حديث رقم (٢٦٥٨).

قال: حدثنا أبو داود. وقال أبو عيسى: حديث زيد بن ثابت حديث حسن، وابن ماجه في كتاب (الزهد)، باب: (الهم بالدنيا) (٢/ ١٣٧٥)، حديث رقم (٤١٠٥) من طريق محمد بن جعفر... به، وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٨٣)، قال: حدثنا يحيى بن سعيد، والدارمي في كتاب (المقدمة)، باب: (الاقتداء بالعلماء) (١/ ٧١)، حديث رقم (٢٢٩) من طريق عصمة بن الفضل عن حرمي بن عمارة... به، وابن حبان في (صحيحه) (موارد الظمآن) (١/ ١٦٩)، حديث رقم (٧٢) من طريق أبي داود الطيالسي، جميعًا (يحيى، أبو داود الطيالسي، محمد بن جعفر، حرمى بن عمارة) عن شعبة... به.

(٢) ضعيف: أورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٤/ ١٩٠)، حديث رقم (٢٠٩٨).

وقال: عبد بن حميد في مسنده من طريق حمزة النصيبي عن نافع عن ابن عمر وحمزة ضعيف جدًا، ورواه الدارقطني في غرائب مالك من طريق جميل بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر وجميل لا يعرف ولا أصل له في حديث مالك ولا من فوقه، وذكره البزار من رواية عبد الرحيم بن زيد العمى عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن عمر وعبد الرحيم كذاب، ومن حديث أنس أيضا وإسناده واه ورواه القضاعي في مسند الشهاب له من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وفي إسناده جعفر بن عبد الواحد الهاشمي وهو كذاب، ورواه أبو ذر الهروي في كتاب السنة من حديث مندل عن جويبر عن الضحاك بن مزاحم منقطعًا وهو في غاية الضعف قال أبو بكر البزار: هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ وقال ابن حزم: هذا خبر مكذوب موضوع باطل وقال البيهقي في الاعتقاد عقب حديث أبي موسى الأشعري الذي أخرجه مسلم بلفظ: «النجوم أمنة أهل السماء فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» قال البيهقي روي في حديث موصول قوي يعني حديث عبد الرحيم العمى وفي حديث منقطع يعني حديث الضحاك بن مزاحم «مثل أصحابي كمثل النجوم في السماء من أخذ بنجم منها اهتدى» قال والذي رويناه ههنا من الحديث الصحيح يؤدي بعض معناه، قلت: صدق البيهقي هو يؤدي صحة التشبيه للصحابة بالنجوم خاصة أما في الاقتداء فلا يظهر في حديث أبي موسى نعم يمكن أن يتلمح ذلك من معنى الاهتداء بالنجوم وظاهر الحديث إنما هو إشارة إلى الفتن الحادثة بعد انقراض عصر الصحابة من طمس السنن وظهور البدع وفشو الفجور في أقطار الأرض، والله المستعان.

اختار، وليس كذلك فإن مع نص النبي عليه السلام لا يعمل بقول الصحابي فيؤخذ من النبي النور ولا يؤخذ من الصحابي فلم يجعله سراجًا وهذا يوجب ضعفًا في حديث سراج الأمة والمحدثون ذكروه، وفي تفسير السراج وجه آخر وهو أن المراد منه القرآن وتقديره إنا أرسلناك، وسراجًا منيرًا عطفًا على محل الكاف أي وأرسلنا سراجًا منيرًا وعلى قولنا إنه عطف على ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يكون معناه وذا سراج لأن الحال لا يكون إلا وصفًا للفاعل أو المفعول، والسراج ليس وصفًا لأن النبي عليه السلام لم يكن سراجًا حقيقة أو يكون كقول القائل: رأيته أسدًا، أي شجاعًا فقوله: ﴿وَسِرَاجًا﴾ أي هاديًا مبينًا كالسراج يرى الطريق ويبين الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على مفهوم تقديره إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا فاشهد وبشر ولم يذكر فاشهد للاستغناء عنه، وأما البشارة فإنها ذكرت إبانة للكرم ولأنها غير واجبة لولا الأمر. وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ هو مثل قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٣٥] فالعظيم والكبير متقاربان وكونه من الله كبيرا فكيف إذا كان مع ذلك كبارة أخرى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

إشارة إلى الإنذار يعني خالفهم وورد عليهم وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي دعه إلى الله فإنه يعذبهم بأيديكم وبالنار، ويبين هذا قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي الله كاف عبده، قال بعض المعتزلة: لا يجوز تسمية الله بالوكيل لأن الوكيل أدون من الموكل وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ حجة عليه وشبهته واهية من حيث إن الوكيل قد يوكل للترفع وقد يوكل للعجز والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرف، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يتبين إذا نظرت في الأمور التي لأجلها لا يكفي الوكيل الواحد منها أن لا يكون قويًا قادرًا على العمل كالملك الكثير الأشغال يحتاج إلى وكلاء لعجز الواحد عن القيام بجميع أشغاله، ومنها أن لا يكون عالمًا بما فيه التوكيل، ومنها أن لا يكون غنيًا، والله تعالى عالم قادر وغير محتاج فيكفي وكيلاً.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى في هذه السورة ذكر مكارم الأخلاق وأدب نبيه

على ما ذكرناه، لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل فكلما ذكر للنبي مكرمة وعلمه أدبًا ذكر للمؤمنين ما يناسبه، فكما بدأ الله في تأديب النبي عليه الصلاة والسلام بذكر ما يتعلق بجانب الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] وثنى بما يتعلق بجانب من تحت يده من أزواجه بقوله بعد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] وثلث بما يتعلق بجانب العامة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] كذلك بدأ في إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ثم كما ثلث في تأديب النبي بجانب الأمة ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم، فقال بعد هذا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وبقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: إذا كان الأمر على ما ذكرت من أن هذا إرشاد إلى ما يتعلق بجانب من هو من خواص المرء فلِمَ خص المطلقات اللاتي طلقن قبل المسيس بالذكر؟ فنقول: هذا إرشاد إلى أعلى درجات المكرمات ليعلم منها ما دونها وبيانه هو أن المرأة إذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكد العهد، ولهذا قال الله تعالى في حق الممسوسة ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] وإذا أمر الله بالتمتع والإحسان مع من لا مودة بينه وبينها فما ظنك بمن حصلت المودة بالنسبة إليها بالإفضاء أو حصل تأكدها بحصول الولد بينهما والقرآن في الحجم صغير ولكن لو استنبطت معانيه لا تفي بها الأقلام ولا تكفي لها الأوراق، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] لو قال: لا تضربهما أو لا تشتمهما، ظن أنه حرام لمعنى مختص بالضرب أو الشتم، أما إذا قال: لا تقل لهما أف، علم منه معان كثيرة وكذلك هاهنا لما أمر بالإحسان مع من لا مودة معها علم منه الإحسان مع الممسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه.

وقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ التخصيص بالذكر إرشاد إلى أن المؤمن ينبغي أن ينكح المؤمنة فإنها أشد تحصينًا لدينه، وقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ يمكن التمسك به في أن تعليق الطلاق بالنكاح، لا يصح لأن التطليق حينئذ لا يكون إلا بعد النكاح والله تعالى ذكره بكلمة (ثم)، وهي للتراخي، وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ بين أن العدة حق الزوج فيها غالب وإن كان لا يسقط بإسقاطه لما فيه من حق الله تعالى، وقوله: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ أي تستوفون أنتم عددها ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قيل بأنه مختص بالمفوضة التي لم يسم لها إذا طلقت قبل المسيس وجب لها المتعة، وقيل بأنه عام، وعلى هذا فهو أمر وجوب أو أمر ندب اختلف العلماء فيه، فمنهم من قال للوجوب فيجب مع نصف المهر المتعة أيضًا، ومنهم من قال للاستحباب فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشيء، وقوله تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ الجمال في التسريح أن لا يطالبها بما آتاها.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾

ذكر للنبي عليه السلام ما هو الأولى فإن الزوجة التي أوتيت مهرها أطيب قلبًا من التي لم تؤت، والمملوكة التي سباها الرجل بنفسه أطهر من التي اشتراها الرجل لأنها لا يدري كيف حالها، ومن هاجرت من أقارب النبي عليه السلام معه أشرف ممن لم تهاجر، ومن الناس من قال بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه إعطاء المهر أولاً، وذلك لأن المرأة لها الامتناع إلى أن تأخذ مهرها والنبي عليه السلام ما كان يستوفي ما لا يجب له، والوطء قبل إيتاء الصداق غير مستحق وإن كان حلالا لنا وكيف والنبي عليه السلام إذا طلب شيئًا حرم الامتناع عن المطلوب والظاهر أن الطالب في المرة الأولى إنما يكون هو الرجل لحياء المرأة، فلو طلب النبي عليه السلام من المرأة التمكين قبل المهر للزم أن يجب وأن لا يجب وهذا محال ولا كذلك أحدنا، وقال: ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ يعني حينئذ لا يبقى لها صداق فتصير كالمستوفية مهرها، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ إشارة إلى أن هبتها نفسها لا بد معها من قبول، وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾ قال الشافعي رضي الله عنه: معناه إباحة الوطء بالهبة وحصول التزوج بلفظها من خواصك، وقال أبو حنيفة: تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك أبدًا، والترجيح يمكن أن يقال بأن على هذا فالتخصيص بالواهبة لا فائدة فيه فإن أزواجه كلهن خالصات له وعلى ما ذكرنا يتبين للتخصيص فائدة، وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ معناه أن ما ذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك وأما حكم أمتك فعندنا علمه ونبينه لهم وإنما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام فإن له في النكاح خصائص ليست لغيره وكذلك في السراري. وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ﴾ أي تكون في فسحة من الأمر فلا يبقى لك شغل قلب فينزل الروح الأمين بالآيات على قلبك الفارغ وتبلغ رسالات ربك بجدك واجتهادك، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر الذنوب جميعًا ويرحم العبيد.

قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾.

لما بين أنه أحل له ما ذكرنا من الأزواج بين أنه أحل له وجوه المعاشرة بهن حتى يجتمع كيف يشاء ولا يجب عليه القسم، وذلك لأن النبي عليه السلام بالنسبة إلى أمته نسبة السيد المطاع، والرجل وإن لم يكن نبيًا فالزوجة في ملك نكاحه والنكاح عليها رق، فكيف زوجات النبي عليه السلام بالنسبة إليه، فإذن هن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات، والإرجاء التأخير والإيواء الضم ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ يعني إذا طلبت من كنت تركتها فلا جناح عليك في شيء من ذلك، ومن قال بأن القسم كان واجبًا مع أنه ضعيف بالنسبة إلى المفهوم من الآية قال: المراد: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ﴾ أي تؤخرهن إذا شئت إذ لا يجب القسم في الأول وللزوج أن لا ينام عند أحد منهن، وإن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك فابدأ بمن شئت وتمم الدور والأول أقوى.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ﴾.

يعني إذا لم يجب عليك القسم وأنت لا تترك القسم ﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ لتسويتك بينهن ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ بخلاف ما لو وجب عليك ذلك، فليلة تكون عند إحداهن تقول: ما جاءني لهوى قلبه إنما جاءني لأمر الله وإيجابه عليه ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ﴾ من الإرجاء والإيواء إذ ليس لهن عليك شيء حتى لا يرضين.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

أي إن أضمرن خلاف ما أظهرن فالله يعلم ضمائر القلوب فإنه عليم، فإن لم يعاتبهن في الحال فلا يغتررن فإنه حليم لا يعجل.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

لما لم يوجب الله على نبيه القسم وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله ذكر لهن ما جازاهن به من تحريم غيرهن على النبي عليه السلام ومنعه من طلاقهن بقوله: ﴿وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾ قال المفسرون: من بعدهن، والأولى أن

يقال: لا يحل لك النساء من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما يؤتيهن من الوصل والهجران والنقص والحرمان.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ يفيد حرمة طلاقهن إذ لو كان جائزًا لجاز أن يطلق الكل، وبعدهن إما أن يتزوج بغيرهن أو لا يتزوج فإن لم يتزوج يدخل في زمرة العزاب والنكاح فضيلة لا يتركها النبي، وكيف وهو يقول: «النِّكَاحُ سُنَّتِي» وإن تزوج بغيرهن يكون قد تبدل بهن وهو ممنوع من التبدل.

المسألة الثالثة: من المفسرين من قال بأن الآية ليس فيها تحريم غيرهن ولا المنع من طلاقهن بل المعنى أن لا يحل لك النساء غير اللاتي ذكرنا لك من المؤمنات المهاجرات من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك، وأما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن، وقوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ منع من شغل الجاهلية فإنهم كانوا يبادلون زوجة بزوجة فينزل أحدهم عن زوجته ويأخذ زوجة صديقه ويعطيه زوجته، وعلى التفسيرين وقع خلاف في مسألتين إحداهما: حرمة طلاق زوجاته، والثانية: حرمة تزوجه بالكتابيات فمن فسر على الأول حرم الطلاق ومن فسر على الثاني حرم التزوج بالكتابيات.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي حسن النساء قال الزمخشري: قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ في معنى الحال، ولا يجوز أن يكون ذو الحال قوله: ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ لغاية التنكير فيه ولكون ذي الحال لا يحسن أن يكون نكرة فإذن هو النبي عليه السلام، يعني لا يحل لك النساء ولا أن تبدل بهن من أزواج وأنت معجب بحسنهن.

المسألة الخامسة: ظاهر هذا ناسخ لما كان قد ثبت له عليه السلام من أنه إذا رأى واحدة فوقعت في قلبه موقعًا كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها، وهذه المسألة حكمية وهي أن النبي عليه السلام وسائر الأنبياء في أول النبوة تشتد عليهم برحاء الوحي ثم يستأنسون به فينزل عليهم وهم يتحدثون مع أصحابهم لا يمنعهم من ذلك مانع، ففي أول الأمر أحل الله من وقع في قلبه تفريغًا لقلبه وتوسيعًا لصدره لئلا يكون مشغول القلب بغير الله، ثم لما استأنس بالوحي وبمن على لسانه الوحي نسخ ذلك، إما لقوته عليه السلام للجمع بين الأمرين، وإما أنه بدوام الإنزال لم يبق له مألوف من أمور الدنيا، فلم يبق له التفات إلى غير الله، فلم يبق له حاجة إلى إحلال التزوج بمن وقع بصره عليها.

المسألة السادسة: اختلف العلماء في أن تحريم النساء عليه هل نسخ أم لا؟ فقال الشافعي: نسخ، وقد قالت عائشة ما مات النبي إلا وأحل له النساء، وعلى هذا فالناسخ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] إلى أن قال: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ وقال: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ على قول من يقول لا يجوز نسخ الكتاب بخبر الواحد إذ الناسخ غير متواتر إن كان خبرًا.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ لم يحرم عليه المملوكات لأن الإيذاء لا يحصل

بالمملوكة، ولهذا لم يجز للرجل أن يجمع بين ضرتين في بيت لحصول التسوية بينهما وإمكان المخاصمة، ويجوز أن يجمع الزوجة وجمعًا من المملوكات لعدم التساوي بينهن ولهذا لا قسم لهن على أحد.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي حافظًا عالمًا بكل شيء قادرًا عليه، لأن الحفظ لا يحصل إلا بهما.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾.

لما ذكر الله تعالى في النداء الثالث ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾[الأحزاب: ٤٥] بيانًا لحاله مع أمته العامة قال للمؤمنين في هذا النداء لا تدخلوا إرشادًا لهم وبيانًا لحالهم مع النبي عليه السلام من الاحترام ثم إن حال الأمة مع النبي على وجهين أحدهما: في حال الخلوة والواجب هناك عدم إزعاجه وبين ذلك بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾. وثانيهما: في الملأ والواجب هناك إظهار التعظيم كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب: ٥٦] وقوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي لا تدخلوا بيوت النبي إلى طعام إلا أن يؤذن لكم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

لما بين من حال النبي أنه داع إلى الله بقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾[الأحزاب: ٤٦] قال هاهنا: لا تدخلوا إلا إذا دعيتم يعني كما أنكم ما دخلتم الدين إلا بدعائه فكذلك لا تدخلوا عليه إلا بعد دعائه وقوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾ منصوب على الحال. والعامل فيه على ما قاله الزمخشري ﴿لَا تَدْخُلُواْ﴾ قال وتقديره ولا تدخلوا بيوت النبي إلا مأذونين غير ناظرين.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم، فلا يكون منعًا من الدخول في غير وقت الطعام بغير الإذن، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه: ولا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام، فيكون الإذن مشروطًا بكونه إلى الطعام فإن لم يؤذن لكم إلى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام لا يجوز، نقول: المراد هو الثاني ليعم النهي عن الدخول، وأما قوله فلا يجوز إلا بالإذن الذي إلى طعام، نقول: قال الزمخشري: الخطاب مع قوم كانوا يجيئون حين الطعام ويدخلون من غير إذن فمنعوا من الدخول في وقته بغير إذن، والأولى أن يقال: المراد هو الثاني لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل، وقوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفي ما عداه، لا سيما إذا علم أن غيره مثله فإن من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله إلى غير طعامه بإذنه، فإن غير الطعام ممكن وجوده مع الطعام، فإن من الجائز أن يتكلم معه وقتما يدعوه إلى طعام ويستقضيه في حوائجه ويعلمه مما عنده من العلوم مع زيادة الإطعام، فإذا رضي بالكل فرضاه بالبعض أقرب إلى الفعل فيصير من باب ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾ يعني أنتم لا تنتظروا وقت الطعام فإنه ربما لا يتهيأ.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ فيه لطيفة وهي أن العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن: لا تدخلها إلا بإذن، يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلًا لا بالدعاء ولا بالدعاء، فقال: لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين إذا قيل لكم لا تدخلوا لا تدخلوا وإذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا، وإناه قيل وقته وقيل استواؤه وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ﴾ يفيد الجواز وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ يفيد الوجود، فقوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ﴾ ليس تأكيدًا بل هو يفيد فائدة جديدة.

المسألة الثالثة: لا يشترط في الإذن التصريح به، بل إذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ﴾ من غير بيان فاعل، فالآذن إن كان الله أو النبي أو العقل المؤيد بالدليل جاز والنقل دال عليه حيث قال تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١] وحد الصداقة لما ذكرنا، فلو جاء أبو بكر وعلم أن لا مانع في بيت عائشة من بيوت النبي عليه السلام من تكشف أو حضور غير محرم عندها أو علم خلو الدار من الأهل أو هي محتاجة إلى إطفاء حريق فيها أو غير ذلك، جاز الدخول.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ كان بعض الصحابة أطال المكث يوم وليمة النبي عليه السلام في عرس زينب، والنبي عليه السلام لم يقل له شيئًا، فوردت الآية جامعة لآداب، منها المنع من إطالة المكث في بيوت الناس، وفي معنى البيت موضع مباح اختاره

شخص لعبادته أو اشتغاله بشغل فيأتيه أحد ويطيل المكث عنده، وقوله: ﴿وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ قال الزمخشري: هو عطف على ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ﴾ مجرور، ويحتمل أن يكون منصوبًا عطفًا على المعنى، فإن معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ لا تدخلوها هاجمين، فعطف عليه ﴿وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ﴾ ثم إن الله تعالى بين كون ذلك أدبًا وكون النبي حليمًا بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ إشارة إلى أن ذلك حق وأدب، وقوله كان إشارة إلى تحمل النبي عليه السلام، ثم ذكر الله أدبًا آخر وهو قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ لما منع الله الناس من دخول بيوت النبي عليه السلام، وكان في ذلك تعذر الوصول إلى الماعون، بين أن ذلك غير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب، وقوله ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يعني العين روزنة القلب، فإذا لم تر العين لا يشتهي القلب. أما إن رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر، وعدم الفتنة حينئذ أظهر، ثم إن الله تعالى لما علم المؤمنين الأدب أكده بما يحملهم على محافظته، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ قيل سبب نزوله أن بعض الناس قيل هو طلحة بن عبيد الله، قال: لئن عشت بعد محمد لأنكحن عائشة، وقد ذكرنا أن اللفظ العام لا يغير معناه سبب النزول، فإن المراد أن إيذاء الرسول حرام، والتعرض لنسائه في حياته إيذاء فلا يجوز، ثم قال لا بل ذلك غير جائز مطلقًا، ثم أكد بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي إيذاء الرسول.

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

يعني إن كنتم لا تؤذونه في الحال وتعزمون على إيذائه أو نكاح أزواجه بعده، فالله عليم بذات الصدور.

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

ثم إن الله تعالى لما أنزل الحجاب استثنى المحارم بقوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في الحجاب أوجب السؤال من وراء الحجاب على الرجال، فلم لم يستثن الرجال عن الجناح، ولم يقل: لا جناح على آبائهن؟ فنقول: قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ

حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣] أمر بسدل الستر عليهن وذلك لا يكون إلا بكونهن مستورات محجوبات وكان الحجاب وجب عليهن، ثم أمر الرجال بتركهن كذلك، ونهوا عن هتك أستارهن فاستثنين عند الآباء والأبناء (وفيه لطيفة): وهي أن عند الحجاب أمر الله الرجل بالسؤال من وراء حجاب، ويفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الأولى، وعند الاستثناء قال تعالىٰ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ عند رفع الحجاب عنهن، فالرجال أولى بذلك.

المسألة الثانية: قدم الآباء لأن اطلاعهم على بناتهن أكثر، وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات في حال صغرهن، ثم الأبناء ثم الإخوة وذلك ظاهر. إنما الكلام في بني الإخوة حيث قدمهم الله تعالى على بني الإخوات، لأن بني الأخوات آباؤهم ليسوا بمحارم إنما هم أزواج خالات أبنائهم، وبني الأخوة آباؤهم محارم أيضًا، ففي بني الأخوات مفسدة ما وهي أن الابن ربما يحكي خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الإخوة.

المسألة الثالثة: لم يذكر الله من المحارم الأعمام والأخوال، فلم يقل: ولا أعمامهن ولا أخوالهن، لوجهين أحدهما: أن ذلك علم من بني الإخوة وبني الأخوات، لأن من علم أن بني الأخ للعمات محارم علم أن بنات الأخ للأعمام محارم، وكذلك الحال في أمر الخال، ثانيهما: أن الأعمام ربما يذكرون بنات الأخ عند أبنائهم وهم غير محارم، وكذلك الحال في ابن الخال.

المسألة الرابعة: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ مضافة إلى المؤمنات حتى لا يجوز التكشف للكافرات في وجه.

المسألة الخامسة: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ هذا بعد الكل، فإن المفسدة في التكشف لهم ظاهرة، ومن الأئمة من قال: المراد من كان دون البلوغ.

ثم قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ عند المماليك دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ في غاية الحسن في هذا الموضع، وذلك لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم، فقال: إن الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض، فخلوتكم مثل ملئكم بشهادة الله تعالى فاتقوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احترامًا كمل بيان حرمته، وذلك لأن حالته منحصرة في اثنتين حالة خلواته، وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ وحالة يكون في ملأ. والملأ إما الملأ الأعلى، وإما الملأ الأدنى، أما في الملأ الأعلى فهو محترم، فإن الله وملائكته

يصلون عليه . وأما في الملأ الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ .

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الصلاة الدعاء يقال في اللغة صلى عليه، أي دعا له، وهذا المعنى غير معقول في حق الله تعالى فإنه لا يدعو له، لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث. فقال الشافعي رضي الله عنه: استعمل اللفظ بمعان، وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣] والذي نزيده هاهنا هو أن الله تعالى قال هناك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣] جعل الصلاة لله وعطف الملائكة على الله، وههنا جمع نفسه وملائكته وأسند الصلاة إليهم فقال: ﴿يُصَلُّونَ﴾ وفيه تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا لأن إفراد الواحد بالذكر وعطف الغير عليه يوجب تفضيلاً للمذكور على المعطوف، كما أن الملك إذا قال يدخل فلان وفلان أيضًا، يفهم منه تقديم لا يفهم لو قال: فلان وفلان يدخلان، إذا علمت هذا، فقال في حق النبي عليه السلام إنهم يصلون إشارة إلى أنه في الصلاة على النبي عليه السلام كالأصل وفي الصلاة على المؤمنين الله يرحمهم، ثم إن الملائكة يوافقونه فهم في الصلاة على النبي عليه السلام يصلون بالإضافة كأنها واجبة عليهم أو مندوبة سواء صلى الله عليه أو لم يصل وفي المؤمنين ليس كذلك.

المسألة الثانية: هذا دليل على مذهب الشافعي لأن الأمر للوجوب فتجب الصلاة على النبي عليه السلام ولا تجب في غير التشهد فتجب في التشهد.

المسألة الثالثة: سئل النبي عليه السلام كيف نصلي عليك يا رسول الله؟ فقال: «**قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»[(١)].

المسألة الرابعة: إذا صلى الله وملائكته عليه فأي حاجة إلى صلاتنا؟ نقول: الصلاة عليه ليس لحاجته إليها وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه، وإنما هو لإظهار تعظيمه، كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له إليه، وإنما هو لإظهار تعظيمه منا شفقة علينا ليثيبنا عليه، ولهذا قال عليه السلام: «**من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرًا**»[(٢)].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الدعوات)، باب: (الصلاة على النبي ﷺ) (١١/ ١٥٦)، حديث رقم (٦٣٥٧). قال: حدثنا آدم، ومسلم في كتاب (الصلاة)، باب: (الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد) (١/ ٦٦/ ٣٠٥) من طريق محمد بن جعفر... به، جميعًا (آدم، محمد، أبو الوليد الطيالسي) عن شعبة... به.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الصلاة)، باب: (الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد) (١/ ٣٠٦/ ٧٠)، وأبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (في الاستغفار) (٢/ ٦٥٩)، حديث رقم (١٥٣٠)، والترمذي في كتاب (الصلاة)، باب: (ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ) (٢/ ٣٥٥)، حديث رقم (٤٨٥).

قال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم. =

المسألة الخامسة: لم يترك الله النبي عليه السلام تحت منة أمته بالصلاة حتى عوضهم منه بأمره بالصلاة على الأمة حيث قال: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وقوله: ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أمر فيجب ولم يجب في غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا: السلام عليك أيها النبي، في التشهد وهو حجة على من قال بعدم وجوبه وذكر المصدر للتأكيد ليكمل السلام عليه ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد لأنها كانت مؤكدة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾

فصل الأشياء بتبيين بعض أضدادها، فبين حال مؤذي النبي ليبين فضيلة المسلم عليه واللعن أشد المحذورات لأن البعد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار وغيره. ألا ترى أن الملك إذا تغير على مملوك إن كان تأذيه غير قوي يزجره ولا يطرده ولو خير المجرم (بين) أن يضرب أو يطرد عندما يكون الملك في غاية العظمة والكرم يختار الضرب على الطرد، ولا سيما إذا لم يكن في الدنيا ملك غير سيده، وقوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ إشارة إلى بعد لا رجاء للقرب معه، لأن المبعد في الدنيا يرجو القربة في الآخرة، فإذا أبعد في الآخرة فقد خاب وخسر، لأن الله إذا أبعده وطرده فمن الذي يقربه يوم القيامة، ثم إنه تعالى لم يحصر جزاءه في الإبعاد بل أوعده بالعذاب بقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر إيذاء الله وإيذاء الرسول وذكر عقيبه أمرين اللعن والتعذيب فاللعن جزاء الله، لأن من آذى الملك يبعده عن بابه إذا كان لا يأمر بعذابه، والتعذيب جزاء إيذاء الرسول لأن الملك إذا آذى بعض عبيده كبير يستوفي منه قصاصه، لا يقال: فعلى هذا من يؤذي الله ولا يؤذي الرسول لا يعذب، لأنا نقول: انفكاك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال لأن من آذى الله فقد آذى الرسول، وأما على الوجه الآخر وهو أن من يؤذي النبي عليه السلام ولا يؤذي الله كمن عصى من غير إشراك، كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر، فقد آذى النبي عليه السلام غير أن الله تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلعنه بكونه يبعده عن الباب.

المسألة الثانية: أكد العذاب بكونه مهينًا لأن من تأذى من عبده وأمر بحبسه وضربه فإن أمر بحبسه في موضع مميز، أو أمر بضربه رجلاً كبيرًا يدل على أن الأمر هين، وإن أمر بضربه على

=والنسائي في كتاب (السهو)، باب: (الفضل في الصلاة على النبي ﷺ) (٣/ ٧٥)، حديث رقم (١٢٩٥)، جميعًا من طريق إسماعيل بن جعفر. . . به.

ملأ وحبسه بين المفسدين ينبىء عن شدة الأمر، فمن آذى الله ورسوله من المخلدين في النار فيعذب عذابًا مهينًا، وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ للتأكيد لأن السيد إذا عذب عبده حالة الغضب من غير إعداد يكون دون ما إذا أعد له قيدًا وغلا، فإن الأول يمكن أن يقال هذا أثر الغضب فإذا سكت الغضب يزول ولا كذلك الثاني.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

لما كان الله تعالى مصليًا على نبيه لم ينفك إيذاء الله عن إيذائه، فإن من آذى الله فقد آذى الرسول فبين الله للمؤمنين أنكم إن أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبي كما صليت عليه، لا ينفك إيذاؤكم عن إيذاء الرسول فيأثم من يؤذيكم لكون إيذائكم إيذاء الرسول، كما أن إيذائي إيذاؤه وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله والملائكة والرسول والمؤمنين صار لا يكاد ينفك إيذاء أحد منهم عن إيذاء الآخر كما يكون حال الأصدقاء الصادقين في الصداقة، وقوله: ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ احتراز عن الأمر بالمعروف من غير عنف زائد، فإن من جلد مائة على شرب الخمر أو حد أربعين على لعب النرد آذى بغير ما اكتسب أيضًا، ومن جلد على الزنى أو حد الشرب لم يؤذ بغير ما اكتسب، ويمكن أن يقال: لم يؤذ أصلاً لأن ذلك إصلاح حال المضروب، وقوله: ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ البهتان هو الزور وهو لا يكون إلا في القول والإيذاء قد يكون بغير القول فمن آذى مؤمنًا بالضرب أو أخذ ماله لا يكون قد احتمل بهتانًا، فنقول: المراد والذين يؤذون المؤمنين بالقول. وهذا لأن الله تعالى أراد إظهار شرف المؤمن، فلما ذكر أن من آذى الله ورسوله لعن، وإيذاء الله بأن ينكر وجود الله بعد معرفة دلائل وجوده أو يشرك به من لا يبصر ولا يسمع أو من لا يقدر ولا يعلم أو من هو محتاج في وجوده إلى موجد وهو قول ذكر إيذاء المؤمن بالقول، وعلى هذا خص الأنبياء بالقول بالذكر لأنه أعم وأتم، وذلك لأن الإنسان لا يقدر أن يؤذي الله بما يؤلمه من ضرب أو أخذ ما يحتاج إليه فيؤذيه بالقول، ولأن الفقير الغائب لا يمكن إيذاؤه بالفعل، ويمكن إيذاؤه بالقول بأن يقول فيه ما يصل إليه فيتأذى، والوجه الثاني في الجواب هو أن نقول: قوله بعد ذلك: ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ مستدرك فكأنه قال: احتمل بهتانًا إن كان بالقول وإثمًا مبينًا كيفما كان الإيذاء، وكيفما كان فإن الله خص الإيذاء القولي بالذكر لما بينا أنه أعم ولأنه أتم لأنه يصل إلى القلب، فإن الكلام يخرج من القلب واللسان دليله ويدخل في القلب والآذان سبيله.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾.

لما ذكر أن من يؤذي المؤمنين يحتمل بهتانًا وكان فيه منع المكلف عن إيذاء المؤمن، أمر المؤمن باجتناب المواضع التي فيها التهم الموجبة للتأذي لئلا يحصل الإيذاء الممنوع منه. ولما كان الإيذاء القولي مختصًا بالذكر اختص بالذكر ما هو سبب الإيذاء القولي وهو النساء فإن ذكرهن بالسوء يؤذي الرجال والنساء بخلاف ذكر الرجال فإن من ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذى أقاربها أكثر من تأذيها، ومن ذكر رجلاً بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه، وكان في الجاهلية تخرج الحرة والأمة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع التهم، فأمر الله الحرائر بالتجلبب.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ قيل: يعرفن أنهن حرائر فلا يتبعن، ويمكن أن يقال: المراد يعرفن أنهن لا يزنين لأن من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها فيعرفن أنهن مستورات لا يمكن طلب الزنى منهن. وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر لكم ما قد سلف برحمته ويثيبكم على ما تأتون به راحمًا عليكم.

وقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

لما ذكر حال المشرك الذي يؤذي الله ورسوله، والمجاهر الذي يؤذي المؤمنين، ذكر حال المسر الذي يظهر الحق ويضمر الباطل وهو المنافق، ولما كان المذكور من قبل أقوامًا ثلاثة نظرًا إلى اعتبار أمور ثلاثة: وهم المؤذون الله، والمؤذون الرسول، والمؤذون المؤمنين، ذكر من المسرين ثلاثة نظرًا إلى اعتبار أمور ثلاثة أحدها: المنافق الذي يؤذي الله سرًا، والثاني: الذي في قلبه مرض الذي يؤذي المؤمن باتباع نسائه، والثالث: المرجف الذي يؤذي النبي عليه السلام بالإرجاف بقوله: غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ، وهؤلاء وإن كانوا قومًا واحدًا إلا أن لهم ثلاث اعتبارات وهذا في مقابلة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] حيث ذكر أصنافًا عشرة وكلهم يوجد في واحد فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار.

وقوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنسلطنك عليهم ولنخرجنهم من المدينة، ثم لا يجاورونك وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج، ويحتمل أن يكون المراد لنغرينك بهم، فإذا أغريناك لا يجاورونك، والأول: كقول القائل: يخرج فلان ويقرأ، إشارة إلى أمرين، والثاني: كقوله: يخرج فلان ويدخل السوق ففي الأول يقرأ وإن لم يخرج وفي الثاني لا يدخل إلا إذا خرج. والاستثناء فيه لطيفة وهي أن الله تعالى وعد النبي عليه السلام أنه يخرج أعداءه من المدينة

وينفيهم على يده إظهارًا لشوكته، ولو كان النفي بإرادة الله من غير واسطة النبي لأخلى المدينة عنهم في ألطف آن [بقوله] كن فيكون، ولكن لما أراد الله أن يكون على يد النبي لا يقع ذلك إلا بزمان وإن لطف فقال: ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو أن يتهيئوا ويتأهبوا للخروج.

قوله تعالى: ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾.

أي في ذلك القليل الذي يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين من باب الله وبابك وإذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة، ولا يجدون ملجأ بل أينما يكونون يطلبون ويؤخذون ويقتلون.

ثم قال تعالى ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

يعني هذا ليس بدعًا بكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمكذبين ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي ليست هذه السنة مثل الحكم الذي يبدل وينسخ فإن النسخ يكون في الأحكام، أما الأفعال والأخبار فلا تنسخ.

ثم قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

لما بين حالهم في الدنيا أنهم يلعنون ويهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم في الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها فقال: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ أي عن وقت القيامة ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ لا يتبين لكم، فإن الله أخفاها لحكمة هي امتناع المكلف عن الاجتراء وخوفهم منها في كل وقت.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ إشارة إلى التخويف، وذلك لأن قول القائل: الله يعلم متى يكون الأمر الفلاني، ينبئ عن إبطاء الأمر، ألا ترى أن من يطالب مديونًا بحقه فإن استمهله شهرًا أو شهرين ربما يصبر ذلك، وإن قال له: اصبر إلى أن يقدم فلان من سفره، يقول الله يعلم متى يجيء فلان، ويمكن أن يكون مجيء فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال ههنا: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ يعني هي في علم الله فلا تستبطئوها فربما تقع عن قريب والقريب فعيل يستوي فيه المذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ولهذا لم يقل: لعل الساعة تكون قريبة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا

ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ يعني كما أنهم ملعونون في الدنيا عندكم فكذلك ملعونون عند الله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[الأحزاب: ٥٧] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ مطيلين المكث فيها مستمرين لا أمد لخروجهم.

وقوله: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لما ذكر خلودهم بين تحقيقه وذلك لأن المعذب لا يخلصه من العذاب إلا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه، ولا ولي لهم يشفع ولا نصير يدفع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

لما بين أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين أن بعض أعضائهم أيضًا لا يدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدنيا فإن الإنسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده فإن من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنة أو يطأطئ رأسه كي لا يصيب وجهه، وفي الآخرة ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ فما ظنك بسائر أعضائهم التي تجعل جنة للوجه ووقاية له ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فيتحسرون ويندمون حيث لا تغنيهم الندامة والحسرة، لحصول علمهم بأن الخلاص ليس إلا للمطيع. ثم يقولون: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ يعني بدل طاعة الله تعالى أطعنا السادة وبدل طاعة الرسول أطعنا الكبراء وتركنا طاعة سيد السادات وأكبر الأكابر فبدلنا الخير بالشر، فلا جرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شر النيران، ثم إنهم يطلبون بعض التشفي بتعذيب المضلين ويقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ أي بسبب ضلالهم وإضلالهم وفي قوله تعالى: ﴿ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ معنى لطيف وهو أن الدعاء لا يكون إلا عند عدم حصول الأمر المدعو به والعذاب كان حاصلاً لهم واللعن كذلك فطلبوا ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ وزيادة اللعن بقولهم: ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾

لما بين الله تعالى أن من يؤذي الله ورسوله يلعن ويعذب وكان ذلك إشارة إلى إيذاء هو كفر، أرشد المؤمنين إلى الامتناع من إيذاء هو دونه وهو لا يورث كفرًا، وذلك مثل من لم يرض بقسمة النبي عليه السلام وبحكمه بالفيء لبعض وغير ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ وحديث إيذاء موسى مختلف فيه، قال بعضهم: هو إيذاؤهم إياه بنسبته إلى

عيب في بدنه، وقال بعضهم: [إنَّ] قارون قرر مع امرأة فاحشة حتى تقول عند بني إسرائيل: إن موسى زنى بي، فلما جمع قارون القوم والمرأة حاضرة ألقى الله في قلبها أنها صدقت ولم تقل ما لقنت وبالجملة الإيذاء المذكور في القرآن كاف وهو أنهم قالوا له: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤] وقولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وقولهم: ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ [البقرة: ٦١] إلى غير ذلك فقال للمؤمنين: لا تكونوا أمثالهم إذا طلبكم الرسول إلى القتال أي لا تقولوا: (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه: (وَإِذَا أَمَرَكُمُ الرَّسُولُ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) وقوله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ على الأول ظاهر لأنه أبرز جسمه لقومه فرأوه وعلموا فساد اعتقادهم ونطقت المرأة بالحق وأمر الملائكة حتى عبروا بهارون عليهم فرأوه غير مجروح فعلموا براءة موسى عليه السلام عن قتله الذي رموه به، وعلى ما ذكرنا ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ أي أخرجه عن عهدة ما طلبوا بإعطائه البعض إياهم وإظهاره عدم جواز البعض وبالجملة قطع الله حجتهم ثم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم، وقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ أي ذا وجاهة ومعرفة، والوجيه هو الرجل الذي يكون له وجه أي يكون معروفًا بالخير، وكل أحد وإن كان عند الله معروفًا لكن المعرفة المجردة لا تكفي في الوجاهة، فإن من عرف غيره لكونه خادمًا له وأجيرًا عنده لا يقال: هو وجيه عند فلان، وإنما الوجيه من يكون له خصال حميدة تجعل من شأنه أن يعرف ولا ينكر وكان كذلك.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال، أما الأفعال فالخير، وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله ومن قال الصدق قال قولاً سديدًا، ثم وعدهم على الأمرين بأمرين: على الخيرات بإصلاح الأعمال فإن بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالدًا في الجنة، وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ فطاعة الله هي طاعة الرسول، ولكن جمع بينهما لبيان شرف فعل المطيع فإنه يفعله الواحد اتخذ عند الله عهدًا وعند الرسول يدًا، وقوله: ﴿فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ جعله عظيمًا من وجهين أحدهما: أنه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب، حتى إن من أراد أن يضرب غيره سوطًا ثم نجا منه لا يقال: فاز

فوزًا عظيمًا، لأن العذاب الذي نجا منه لو وقع ما كان يتفاوت الأمر تفاوتًا كثيرًا، والثاني: أنه وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدي.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾.

لما أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدب النبي عليه السلام بأحسن الآداب، بين أن التكليف الذي وجهه الله إلى الإنسان أمر عظيم فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ أي التكليف وهو الأمر بخلاف ما في الطبيعة، واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس في السموات ولا في الأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه؛ الجبل لا يطلب منه السير والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا في الملائكة لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في الأمانة وجوه كثيرة منها من قال: هو التكليف وسمي أمانة لأن من قصر فيه فعليه الغرامة، ومن وفر فله الكرامة. ومنهم من قال: هو قول لا إله إلا الله، وهو بعيد فإن السموات والأرض والجبال بألسنتها ناطقة بأن الله واحد لا إله إلا هو، ومنهم من قال: الأعضاء فالعين أمانة ينبغي أن يحفظها والأذن كذلك واليد كذلك، والرجل والفرج واللسان، ومنهم من قال: معرفة الله بما فيها، والله أعلم.

المسألة الثانية: في العرض وجوه منهم من قال: المراد العرض، ومنهم من قال: الحشر، ومنهم من قال: المقابلة أي قابلنا الأمانة على السموات فرجحت الأمانة على أهل السموات والأرض.

المسألة الثالثة: في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وجهان أحدهما: أن المراد هي بأعيانها، والثاني: المراد أهلوها، ففيه إضمار تقديره: إنا عرضنا الأمانة على أهل السموات والأرض.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ لم يكن إباؤهن كإباء إبليس في قوله تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١] من وجهين أحدهما: أن هناك السجود كان فرضًا، وههنا الأمانة كانت عرضًا، وثانيهما: أن الإباء كان هناك استكبارًا وههنا استصغارًا استصغرن أنفسهن، بدليل قوله: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾.

المسألة الخامسة: ما سبب الإشفاق؟ نقول: الأمانة لا تقبل لوجوه أحدها: أن يكون عزيزًا صعب الحفظ كالأواني من الجواهر التي تكون عزيزة سريعة الانكسار، فإن العاقل يمتنع عن قبولها ولو كانت من الذهب والفضة لقبلها ولو كانت من الزجاج لقبلها، في الأول لأمانه من هلاكها، وفي الثاني لكونها غير عزيزة الوجود والتكليف كذلك، والثاني: أن يكون الوقت زمان

شهب وغارة فلا يقبل العاقل في ذلك الوقت الودائع، والأمر كان كذلك لأن الشيطان وجنوده كانوا في قصد المكلفين إذ الغرض كان بعد خروج آدم من الجنة، الثالث: مراعاة الأمانة والإتيان بما يجب كإيداع الحيوانات التي تحتاج إلى العلف والسقي وموضع مخصوص يكون برسمها، فإن العاقل يمتنع من قبولها بخلاف متاع يوضع في صندوق أو في زاوية بيت والتكليف كذلك فإنه يحتاج إلى تربية وتنمية.

المسألة السادسة: كيف حملها الإنسان ولم تحملها هذه الأشياء؟ فيه جوابان أحدهما: بسبب جهله بما فيها وعلمهن، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. والثاني: أن الأشياء نظرت إلى أنفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن، والإنسان نظر إلى جانب المكلف، وقال المودع عالم قادر لا يعرض الأمانة إلا على أهلها وإذا أودع لا يتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

المسألة السابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فيه وجوه: أحدها: أن المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم ما يعاقب عليه من الإخراج من الجنة، ثانيها: المراد الإنسان يظلم بالعصيان ويجهل ما عليه من العقاب، ثالثها: إنه كان ظلومًا جهولا، أي كان من شأنه الظلم والجهل يقال فرس شموس ودابة جموح وماء طهور أي من شأنه ذلك، فكذلك الإنسان من شأنه الظلم والجهل فلما أودع الأمانة بقي بعضهم على ما كان عليه وبعضهم ترك الظلم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] وترك الجهل كما قال تعالى في حق آدم عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وقال في حق المؤمنين عامة: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] رابعها: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ في ظن الملائكة حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] وبين علمه عندهم حيث قال تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١] وقال بعضهم في تفسير الآية: إن المخلوق على قسمين مدرك وغير مدرك، والمدرك منه من يدرك الكلي والجزئي مثل الآدمي، ومنه من يدرك الجزئي كالبهائم ثم تدرك الشعير الذي تأكله ولا تتفكر في عواقب الأمور ولا تنظر في الدلائل والبراهين، ومنه من يدرك الكلي ولا يدرك الجزئي كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والأكل، قالوا: وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١] فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات، والتكليف لم يكن إلا على مدرك الأمرين إذ له لذات بأمور جزئية، فمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هي مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته، وأما غيره فإن كان مكلفًا يكون مكلفًا لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة بل بمعنى الخطاب فإن المخاطب يسمى مكلفًا لما أن المكلف مخاطب فسمي المخاطب مكلفًا. وفي الآية لطائف:

الأولى: الأمانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان أمينًا عليها والقول قول الأمين فهو فائز، بقي أولاده أخذوا الأمانة منه والآخذ من الأمين ليس بمؤتمن، ولهذا وارث المودع لا يكون القول قوله

ولم يكن له بد من تجديد عهد وائتمان، فالمؤمن اتخذ عند الله عهدًا فصار أمينًا من الله فصار القول قوله فكان له ما كان لآدم من الفوز. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣] أي كما تاب على آدم في قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] والكافر صار آخذًا للأمانة من المؤتمن فبقي في ضمانه، ثم إن المؤمن إذا أصاب الأمانة في يده شيء بقضاء الله وقدره كان ذلك من غير تقصير منه والأمين لا يضمن ما فات بغير تقصير، والكافر إذا أصاب الأمانة في يده شيء ضمن وإن كان بقضاء الله وقدره، لأنه يضمن ما فات وإن لم يكن بتقصير.

اللطيفة الثانية: خص الأشياء الثلاثة بالذكر لأنها أشد الأمور وأحملها للأثقال، وأما السموات فلقوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] والأرض والجبال لا تخفى شدتها وصلابتها، ثم إن هذه الأشياء لما كانت لها شدة وصلابة عرض الله تعالى الأمانة عليها واكتفى بشدتهن وقوتهن فامتنعن، لأنهن وإن كن أقوياء إلا أن أمانة الله تعالى فوق قوتهن، وحملها الإنسان مع ضعفه الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] ولكن وعده بالإعانة على حفظ الأمانة بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] فإن قيل: فالذي يعينه الله تعالى كيف يعذب فلم يعذب الكافر؟ نقول: قال الله تعالى: «**أَنَا أُعِينُ مَنْ يَسْتَعِينُ بِي وَيَتَوَكَّلُ عَلَيَّ**» والكافر لم يرجع إلى الله تعالى فتركه مع نفسه فيبقى في عهدة الأمانة.

اللطيفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إشارة إلى أن فيه مشقة بخلاف ما لو قال: فأبين أن يقبلنها وقبلها الإنسان، ومن قال لغيره: افعل هذا الفعل، فإن لم يكن في الفعل تعب يقابل بأجرة فإذا فعله لا يستحق أجرة فقال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا﴾ إشارة إلى أنه مما يستحق الأجر عليه أي على مجرد حمل الأمانة، وإما على رعايتها حق الرعاية فيستحق الزيادة فإن قيل: فالكل حملوها، غاية ما في الباب أن الكافر لم يأت بشيء زائد على الحمل فينبغي أن يستحق الأجر على الحمل، فنقول: الفعل إذا كان على وفق الإذن من المالك الآمر يستحق الفاعل الأجرة، ألا ترى أنه لو قال: احمل هذا إلى الضيعة التي على الشمال، فحمل ونقلها إلى الضيعة التي على الجنوب لا يستحق الأجرة ويلزمه ردها إلى الموضع الذي كان فيه كذلك الكافر حملها على غير وجه الإذن فغرم وزالت حسناته التي عملها بسببه.

قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

أي حملها الإنسان ليقع تعذيب المنافق والمشرك، فإن قال قائل: لِم قدم التعذيب على التوبة؟ نقول: لما سمى التكليف أمانة والأمانة من حكمها اللازم أن الخائن يضمن وليس من حكمها اللازم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والأجر على الحفظ إحسان والعدل قبل الإحسان.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لم عطف المشرك على المنافق، ولم يعد اسمه تعالى فلم يقل ويعذب الله المشركين وعند التوبة أعاد اسمه وقال: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ﴾ ولو قال: ويتوب على المؤمنين، كان المعنى حاصلاً؟ نقول: أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله كالكلام المستأنف ويجب هناك ذلك الفاعل فقال: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ﴾ ويحقق هذا قراءة من قرأ (وَيَتُوبُ اللَّهُ) بالرفع.

المسألة الثانية: ذكر الله في الإنسان وصفين الظلوم والجهول وذكر من أوصافه وصفين فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي كان غفورًا للظلوم ورحيمًا على الجهول، وذلك لأن الله تعالى وعد عباده بأنه يغفر الظلم جميعًا إلا الظلم العظيم الذي هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وأما الوعد فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وأما الرحمة على الجهل فلأن الجهل محل الرحمة ولذلك يعتذر المسيء بقوله: ما علمت.

وههنا لطيفة: وهي أن الله تعالى أعلم عبده بأنه غفور رحيم، وبصره بنفسه فرآه ظلومًا جهولاً ثم عرض عليه الأمانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي الأمي وآله.

سورة الأحزاب

مدنيَّةٌ في قول جميعِهم، نزلت في المنافقين وإيذائهم رسولَ الله ﷺ، وَطعْنِهم فيه وفي مناكَحته وغيرها، وهي ثلاثٌ وسبعون آيةً. وكانت هذه السورةُ تَعْدِلُ سورةَ البقرة. وكانت فيها آيةُ الرَّجْم: «الشَّيخُ والشيخةُ إذا زَنَيا فارجموهُما الْبَتَّةَ نَكالاً من الله واللهُ عزيزٌ حكيم»؛ ذكره أبو بكر الأنباريُّ عن أُبَيٍّ بن كعب[1]. وهذا يَحْمِلُه أهلُ العلم على أنَّ الله تعالى رَفَع من الأحزاب إليه ما يَزيدُ على ما في أيدينا، وأنَّ آية الرَّجْم رُفع لَفْظُها، وقد حدَّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال: حدّثنا أبو عبيد القاسم بنُ سلَّام قال: حدَّثنا ابن أبي مريم، عن ابن لَهيعة، عن أبي الأسود، عن عروةَ، عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تَعْدِلُ على عهد رسول الله ﷺ مئتي آية، فلمَّا كُتب المصحفُ لم يقدر منها إلَّا على ما هي الآن[2]. قال أبو بكر: فمعنى هذا من قول أمِّ المؤمنين عائشة: أنَّ الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يَزيد على ما عندنا.

قلت: هذا وجهٌ من وجوه النسخ، وقد تقدَّم في «البقرة» القولُ فيه مستوفًى[3] والحمد لله.

ورَوَى زِرٌّ قال: قال لي أُبَيّ بن كعب: كم تعدُّون سورةَ الأحزاب؟ قلت: ثلاثاً

---

(١) هو عند ابن الأنباري في المصاحف كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٧٩ ، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٩٠-١٩١ ، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١٢٠٧)، والنسائي في الكبرى (٧١١٢)، وسيرد لفظه بتمامه.

(٢) هو عند ابن الأنباري فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٨٠ ، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٩٠ ، وفيهما: فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها . . . الخ. والقائل: حدثنا أحمد ابن الهيثم. . . هو ابن الأنباري. وقد ردَّ الباقلاني هذه الروايات في الانتصار ١/ ٣٩٤ ، ونقلنا كلامه ٢/ ٣٠٢ .

(٣) ٢/ ٣٠٠ .

وسبعين آية. قال: فوالذي يحلفُ به أُبَيّ بن كعب، إنْ كانت لَتَعْدِلُ سورةَ البقرة أو أَطْول، ولقد قرأنا منها آية الرجم: «الشيخ والشيخةُ إذا زَنَيَا فارْجُمُوهما الْبَتَّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم»(١). أراد أُبَيٌّ أنَّ ذلك من جملة ما نُسخ من القرآن. وأمَّا ما يُحكى أنَّ تلك الزيادةَ كانت في صحيفةٍ في بيت عائشةَ فأكلتها الدَّاجِنُ؛ فِمنْ تأليفِ الملاحِدَةِ والرَّوَافِض(٢).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ضُمَّت «أيّ» لأنه نداءٌ مُفْرَد، والتنبيهُ لازِمٌ لها. و«النبيّ» نعتٌ لأيّ عند النَّحْويين، إلَّا الأَخْفَشَ فإنه يقول: إنَّه صلةٌ لأيّ(٣). مكّيّ: ولا يُعرفُ في كلام العرب اسمٌ مفردٌ صلة لشيء(٤). النحَّاس: وهو خطأٌ عند أكثر النَّحْويين؛ لأنَّ الصِّلة لا تكونُ إلَّا جملةً. والاحتيالُ له فيما قال، أنَّه لمَّا كان نعتاً لازماً سُمِّيَ صلةً، وهكذا الكوفيون يسمُّون نعتَ النكرة صلةً لها(٥).

ولا يجوز نَصْبُه على الموضع عند أكثر النحويين. وأجازه المازنيُّ، جَعَلَه كقولك: يا زيدُ الظريفَ، بنصبِ «الظريف» على موضع زيد؛ مكّيّ(٦): وهذا نعتٌ

(١) سلف تخريج حديث أُبيّ قبل تعليق، وينظر فتح الباري ١٢/ ١٤٣ .

(٢) الكشاف للزمخشري ٣/ ٢٤٨ . وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٢ : بل راويها ثقة غير متهم... وكأن المصنف (يعني الزمخشري) فهم أن ثبوت هذه الزيادة يقتضي ما تدَّعيه الروافض: أن القرآن ذهب منه أشياء، وليس ذلك بلازم، بل هذا مما نسخت تلاوته وبقي حكمه، وأكل الدواجن لها وقع بعد النسخ. اهـ. وينظر تأويل مختلف الحديث ص٢١٠ . والخبر أخرجه ابن ماجه (١٩٤٤).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠١ .

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٧٢ ، وغيَّر محقِّقُه لفظ: لشيء، إلى لفظ: لأيّ.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٣٠١ .

(٦) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٧٢ ، وما قبله منه.

يُستغنَى عنه، ونعتُ «أيّ» لا يُستغنَى عنه، فلا يَحْسُنُ نَصْبُه على الموضع. وأيضاً فإنَّ نعت «أيّ» هو المنادَى في المعنى فلا يَحْسُنُ نَصْبُه.

ورويَ أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا هاجر إلى المدينة وكان يحبُّ إسلامَ اليهود: قُريظةَ والنَّضير وبني قَيْنُقَاع، وقد تابعه ناسٌ منهم على النِّفاق، فكان يُلينُ لهم جانبَه، ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى منهم قبيحٌ تَجاوَزَ عنه، وكان يسمع منهم، فنزلت(١).

وقيل: إنها نزلت ـ فيما ذَكَر الواحديُّ والقُشَيْريُّ والثَّعلبيُّ والماوَرْدِيُّ وغيرهم ـ في أبي سفيان بن حرب، وعِكرمةَ بنِ أبي جهل، وأبي الأعور عمرو(٢) بن سفيان، نزلوا المدينة على عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول ـ رأسِ المنافقين ـ بعد أُحُد، وقد أعطاهم النبيُّ ﷺ الأمانَ على أن يكلِّموه، فقام معهم عبد الله بنُ سعد بن أبي سَرْح وطُعْمةُ بن أُبَيْرِق، فقالوا للنبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب: ارْفُضْ ذِكْرَ آلهتنا اللّات والعزَّى ومَناة، وقُلْ إنَّ لها شفاعةً ومنعةً لمَن عَبَدَها، ونَدَعُك وربَّك. فَشَقَّ على النبيِّ ﷺ ما قالوا. فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي في قتلهم. فقال النبيُّ ﷺ: «إني قد أعطيتُهم الأمان» فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه. فأمر النبيُّ ﷺ أن يُخْرَجوا من المدينة، فنزلت الآية(٣): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: خَفِ الله ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة، يعني أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ من أهل المدينة، يعني عبد الله بنَ أُبَيّ وطُعْمةَ وعبد الله بنَ سعد بن أبي سَرْحٍ فيما نُهيتَ عنه، ولا تَمِلْ إليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكفرهم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يَفْعَلُ بهم.

الزَّمخشريُّ(٤): ورُويَ أنَّ أبا سفيان بن حرب وعكرمة بنَ أبي جهل وأبا الأعور

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٨ . قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٢ : لم أجده.

(٢) في النسخ: عمر، والمثبت هو الصواب. ينظر الإصابة ٧/ ١١٤ .

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٣٦٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٠٥ ، وبنحوه في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٤ ، والنكت والعيون ٤/ ٣٦٦ ، والكشاف ٣/ ٢٤٨ . قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٢ : هكذا ذكره الثعلبي والواحدي دون سند. اهـ. وسيذكره المصنف عن الزمخشري.

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٤٨ .

السُّلَميَّ قدِموا على النبيِّ ﷺ في المُوادَعة التي كانت بينه وبينهم، وقام معهم عبد الله ابن أبَيٍّ ومُعَتِّب بنُ قُشَير والجَدّ بن قيس، فقالوا لرسول الله ﷺ: ارْفُضْ ذِكْرَ آلهتنا. وذَكَر الخبر بمعنى ما تقدَّم. وأنَّ الآية نزلت في نَقْضِ العهدِ ونَبْذِ الموادعة. ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ من أهل المدينة فيما طلبوا إليك.

ورويَ أنَّ أهل مكة دَعَوْا رسول الله ﷺ إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شَطْرَ أموالهم، ويزوِّجه شيبةُ بن ربيعة بنتَه، وخوَّفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إنْ لم يرجع، فنزلت[1].

النحَّاس[2]: ودلَّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ على أنه كان يميلُ إليهم استدعاءً لهم إلى الإسلام، أي: لو علم الله عزَّ وجلَّ أنَّ مَيْلك إليهم فيه منفعةٌ لَمَا نَهاكَ عنه؛ لأنه حكيم. ثم قيل: الخطابُ له ولأمته.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القرآن. وفيه زَجْرٌ عن اتِّباع مَراسِمِ الجاهلية، وأَمْرٌ بجهادهم ومُنابذتهم، وفيه دليلٌ على تَرْكِ اتِّباعِ الآراء مع وجود النصّ. والخطابُ له ولأمته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قراءةُ العامَّةِ بتاءٍ على الخطاب، وهو اختيارُ أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ السُّلَميُّ وأبو عمرو وابنُ أبي إسحاقَ: «يعملون» بالياء على الخبر، وكذلك في قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩][3].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٨ . وذكره بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٨٠ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وعزاه لابن جرير، ولم نقف عليه في تفسيره.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٠١ .

(٣) السبعة ص٥١٨ و ٥١٩ ، والتيسير ص١٧٧ عن أبي عمرو.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: اعتَمِدْ عليه في كلِّ أحوالك فهو الذي يمنعُك[١]، ولا يضرُّك مَن خَذَلك. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: حافظاً.

وقال شيخٌ من أهل الشام: قدِم على النبيِّ ﷺ وفدٌ من ثَقيفٍ، فطلبوا منه أنْ يمتِّعهم باللَّات سنةً ـ وهي الطاغيةُ التي كانت ثَقيف تعبدها ـ وقالوا: لتعلم قريش منزلتنا عندك، فَهَمَّ النبيُّ ﷺ بذلك، فنزلت: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: كافياً لك ما تخافُه منهم[٢].

و«بالله» في موضع رفعٍ لأنه الفاعل. و«وكيلاً» نصبٌ على البيان أو الحال[٣].

قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قال مجاهد: نزلت في رجلٍ من قريش كان يُدْعَى ذا القلبين من دهائه، وكان يقول: إنَّ لي في جَوْفي قلبين، أَعْقِلُ بكلٍّ واحدٍ منهما أفضلَ من عَقْلِ محمد. قال: وكان من فِهْر[٤].

الواحديُّ والقُشَيْريُّ وغيرهما: نزلت في جميل بن معمر الفِهْريّ، وكان رجلاً حافظاً لِمَا يسمع. فقالت قريش: ما حفظَ[٥] هذه الأشياءَ إلَّا وله قلبان. وكان يقول: لي قلبان أَعْقِلُ بهما أفضلَ من عقل محمد. فلمَّا هُزِمَ المشركون يومَ بدر ومعهم جميل ابن معمر، رآه أبو سفيان في العِير وهو معلِّقٌ إحدى نَعْلَيْه في يده والأخرى في رجله،

---

(١) في (ظ): ينفعك.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٧٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٨، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٧٢).

(٥) في (م): يحفظ.

فقال أبو سفيان: ما حالُ الناس؟ قال: انهزَموا. قال: فما بالُ إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال: ما شعرتُ إلَّا أنهما في رجليّ؛ فعرفوا يومَئذٍ أنه لو كان له قلبان لَمَا نسي نَعْلَه في يده[١].

وقال السُّهَيْليُّ: كان جميل بنَ معمر الجُمَحيُّ، وهو ابنُ معمر بن حبيب بن وهب ابن حُذافة بن جُمَح، واسم جمح: تَيْم، وكان يدعَى ذا القلبين، فنزلت فيه الآية، وفيه يقول الشاعر:

وكيف ثَوائي بالمدينة بعد ما ... قضى وَطَراً منها جَمِيلُ بن معمر[٢]

قلت: كذا قالوا: جميل بن معمر. وقال الزَّمخشريُّ: جميل بنُ أسد الفِهْري[٣].

وقال ابن عباس: سببها أنَّ بعض المنافقين قال: إنَّ محمداً له قلبان؛ لأنه ربَّما كان في شيء؛ فنَزَعَ في غيره نزعةً ثم عاد إلى شأنه الأوّل، فقالوا ذلك عنه، فأَكْذَبهم الله عزَّ وجلَّ[٤].

وقيل: نزلت في عبد الله بن خَطَل[٥].

وقال الزُّهريُّ وابن حَيَّان: نزل ذلك تمثيلاً في زيد بن حارثة لمَّا تبنَّاه النبيُّ ﷺ، فالمعنى: كما لا يكون لرجلٍ قلبان، كذلك لا يكون ولدٌ واحدٌ لرجلين[٦]. قال

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٦٩ - ٣٧٠، وتفسير البغوي ٣/ ٥٠٥ - ٥٠٦. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٧٠ - ٣٧١ بنحوه وعزاه للسدّي.

(٢) التعريف والإعلام ص١٣٥، وذكر البيت أيضاً المبرد في الكامل ٢/ ٥٦٤، وابن عبد البر في التمهيد ٢٢/ ١٩٧، والحافظ في الإصابة ٢/ ٩٨.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٤٩، وترجم له الحافظ في الإصابة ٢/ ٩٦، فسماه: جميل بن أسيد، وذكر في اسمه أقوالاً ثم قال: وقيل: إن ذا القلبين جميل بن معمر؛ قاله السهيلي، والمشهور أنه غيره.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٧-٣٦٨. وأخرجه بنحوه أحمد (٢٤١٠)، والترمذي (٣١٩٩)، والطبري ١٩/ ٧، والحاكم ٢/ ٤١٥. وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم فتعقبه الذهبي بقول: قابوس ضعيف. اهـ. وقابوس هو ابن أبي ظبيان أحد رجال الإسناد.

(٥) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢١٣ - ٢١٤، والنحاس في معاني القرآن ٥/ ٣١٩.

(٦) أخرجه عن الزهري بنحوه الطبري ١٩/ ٩، وذكره عن مقاتل بن حيان الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٧١.

النحاس[١]: وهذا قولٌ ضعيفٌ لا يصحُّ في اللغة، وهو من مُنْقطِعات الزُّهريّ، رواه معمر عنه.

وقيل: هو مَثَلٌ ضُرب للمُظاهِر، أي: كما لا يكون للرجل قلبان، كذلك لا تكون امرأة المُظاهِرِ أمَّه حتى تكون له أُمَّان[٢].

وقيل: كان الواحدُ من المنافقين يقول: لي قلبٌ يأمرني بكذا، وقلبٌ يأمرني بكذا، فالمنافقُ ذو قلبين، فالمقصودُ ردُّ النفاق.

وقيل: لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى في قلب، كما لا يجتمع قلبان في جوف، فالمعنى: لا يجتمع اعتقادان متغايران في قلب.

ويظهر من الآية بجملتها نَفْيُ أشياءَ كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت، وإعلامٌ بحقيقة الأمر، والله أعلم.

الثانية: القلبُ بَضْعة[٣] صغيرةٌ على هيئة الصَّنَوْبَرة، خَلَقَها الله تعالى في الآدميِّ وجعلها محلًّا للعلم، فيحصي به العبد من العلوم ما لا يَسَع في أسفار، يكتبه الله تعالى فيه بالخطِّ الإلهيِّ، ويضبطه فيه بالحفظ الرَّبَّاني، حتى يحصيَه ولا ينسى منه شيئاً. وهو بين لَمَّتَين: لَمَّة من المَلك، ولَمَّة من الشيطان[٤]. كما قال ﷺ؛ خرَّجه الترمذيُّ، وقد مضى في «البقرة»[٥].

وهو محلُّ الخَطَرات والوساوس، ومكانُ الكفر والإيمان، وموضعُ الإصرار والإنابة، ومجرى الانزعاج والطمأنينة. والمعنى في الآية: أنه لا يجتمع في القلب

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٣١٩.

(٢) ذكره البغوي ٣/ ٥٠٣ عن الزهري ومقاتل.

(٣) البَضْعة ـ وقد تكسر ـ: القطعة من اللحم. القاموس (بضع).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٢. واللمة: الخَطْرة تقع في القلب. النهاية (لمم).

(٥) ٤/ ٣٥٥، وهو عند الترمذي (٢٩٨٨).

الكفرُ والإيمان، والهدى والضلال، والإنابة والإصرار؛ وهذا نفيٌ لكلٍّ ما تَوَهَّمه أحدٌ في ذلك من حقيقة أو مجاز[١]، والله أعلم.

الثالثة: أعْلَم الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية أنه لا أحدَ بقلبين، ويكون في هذا طعنٌ على المنافقين الذين تقدَّم ذكرهم، أي: إنَّما هو قلبٌ واحد، فإمَّا فيه إيمانٌ، وإما فيه كفر؛ لأن درجة النفاق كأنها متوسِّطةٌ، فنفاها الله تعالى، وبيَّن أنه قلبٌ واحد. وعلى هذا النحو يَستشهدُ الإنسان بهذه الآية متى نسيَ شيئاً أو وهم، يقول على جهة الاعتذار: ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه[٢].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يعني قولَ الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهرِ أمِّي. وذلك مذكورٌ في سورة المجادلة، على ما يأتي بيانُه إن شاء الله تعالى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أجْمعَ أهل التفسير على أنَّ هذا نَزَل في زيد بن حارثة. وروى الأئمةُ أنَّ ابن عمر قال: ما كنَّا ندعو زيد بن حارثةَ إلَّا زيد بنَ محمد حتى نزلت: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[٣].

وكان زيدٌ فيما روي عن أنس بن مالك وغيره مَسْبِيًّا من الشام، سَبَتْه خيلٌ من تِهامةَ، فابتاعه حكيم بنُ حزام بن خُويلد، فوهبه لعمته خديجةَ، فوهبته خديجةُ للنبيِّ ﷺ، فأعتقه وتبنَّاه، فأقام عنده مدَّة، ثم جاء عمُّه وأبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما النبيُّ ﷺ وذلك قبل البعث: «خَيِّراه، فإن اختاركما فهو لكما دونَ فِداءٍ». فاختار الرقَّ مع رسول الله ﷺ على حرِّيته وقومه، فقال محمدٌ ﷺ عند ذلك: «يا معشرَ قريش، اشْهَدوا أنه ابني يرثُني وأَرِثُه» وكان يطوفُ على حِلَق قريشٍ يُشهدهم على

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٨ .

(٣) أخرجه أحمد (٥٤٧٩)، والبخاري (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥).

ذلك، فرضيَ ذلك عمُّه وأبوه وانصرفا[١]. وكان أبوه لمَّا سُبي يدور على الشام ويقول:

بكيتُ على زيدٍ ولم أدرِ ما فَعَلْ ... أحَيٌّ فيُرجَى أم أتَى دونَه الأجَلْ
فواللهِ لا أدري وإني لسائلٌ ... أغالَكَ بعدِي السَّهلُ أم غالك الجبلْ
فيا ليت شِعْري هل لك الدهرَ أوْبَةٌ ... فحسبي من الدنيا رجوعُك لي بَجَلْ
تُذَكِّرُنِيهِ الشمسُ عند طلوعها ... وتَعْرِضُ ذكراه إذا غَرْبُها أَفَلْ
وإنْ هَبَّت الأرياحُ[٢] هَيَّجْنَ ذِكرَه ... فيا طولَ ما حُزْني عليه وما وَجَلْ
سَأُعْمِل نَصَّ العِيسِ في الأرض جاهداً ... ولا أَسْأَمُ التَّطوافَ أو تسأمُ الإبلْ
حياتيَ أو تأتي عليَّ مَنِيَّتي ... فكلُّ امرئٍ فانٍ وإنْ غَرَّه الأملْ[٣]

فأُخبر أنه بمكة، فجاء إليه فهلك عنده، ورويَ أنه جاء إليه، فخيَّره النبيُّ ﷺ ـ كما ذكرنا ـ وانصرف[٤]. وسيأتي من ذِكْرِه وفَضْلِه وشَرَفه شفاءٌ عند قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الآية: ٣٧] إن شاء الله تعالى.

وقتل زيد بمُؤْتَةَ من أرض الشام سنةَ ثمانٍ من الهجرة، وكان النبيُّ ﷺ أمَّره في تلك الغَزَاة، وقال: «إنْ قُتل زيدٌ فجعفر، فإن قُتل جعفر فعبد الله بنُ رواحة». فقُتل

---

(١) ذكر هذا الخبر مطولاً ابن سعد في الطبقات ٣/ ٤٠ - ٤٢ ثم قال: هذا كله حدثنا به هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، وعن جميل بن مرثد الطائي وغيرهما، وقد ذَكر بعضَ هذا الحديث عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس. اهـ وذكره عن ابن عباس أيضاً ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ٤٩، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٨١ وعزاه لابن مردويه. ولم نقف عليه عن أنس ﷺ.

(٢) في المصادر: الأرواح. والأرواح جمع ريح، جمعه على الأصل؛ لأن الأصل فيه الواو. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ١/ ١٦٣.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٨، وطبقات ابن سعد ٣/ ٤١، والاستيعاب ٤/ ٤٩، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٣، وصفة الصفوة ١/ ٣٧٨. قوله: بَجَلْ، هي كلمة بمعنى حَسْب، ومعناهما جميعاً الاكتفاء بالشيء. وقوله: إذا غَرْبُها أفل، الأفول: غيبوبة الشمس، ونسب الغروب إلى الأفول اتساعاً ومجازاً. والنَّصُّ: أرْفَعُ السير. الإملاء المختصر ١/ ١٦٢ - ١٦٣.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٥.

الثلاثة في تلك الغزاة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ولمَّا أَتى رسولَ الله ﷺ نَعْيُ زيدٍ وجعفر بكى وقال: «أخَوَاي ومُؤْنساي ومحدِّثاي»(١).

قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ نزلت في زيد بن حارثة، على ما تقدَّم بيانُه. وفي قول ابن عمر: ما كنَّا ندعو زيدَ بنَ حارثة إلَّا زيد بنَ محمد، دليلٌ على أنَّ التَّبَنِّيَ كان معمولاً به في الجاهلية والإسلام، يُتوارثُ به ويُتناصر، إلى أنْ نَسَخَ الله ذلك بقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: أَعْدَلُ. فرَفَعَ الله حُكْمَ التَّبَنِّي، ومَنَع من إطلاق لفظه، وأَرْشَدَ بقوله إلى أنَّ الأَوْلى والأَعْدلَ أن يُنسبَ الرجل إلى أبيه نَسَباً(٢).

فيقال: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جَلَدُ الرجل وظَرْفُه ضمَّه إلى نفسه، وجعل له نصيبَ الذكر من أولاده من ميراثه، وكان يُنْسب إليه فيقال: فلان بن فلان(٣).

وقال النحَّاس(٤): هذه الآيةُ ناسخةٌ لِمَا كانوا عليه من التبنِّي، وهو مِن نَسْخِ السنَّة بالقرآن، فأمر أن يَدْعوا مَن دَعَوْا إلى أبيه المعروفِ، فإنْ لم يكن له أبٌ معروفٌ نَسَبوه

(١) الاستيعاب ٤/ ٥٣ والمفهم ٦/ ٣٠٦ . وقوله: «إن قتل زيد فجعفر...» أخرجه البخاري (٤٢٦١) من حديث ابن عمر ﷺ. وأخرجه أحمد (١٧٥٠) من حديث عبد الله بن جعفر ﷺ. و(٢٢٥٥١) من حديث أبي قتادة ﷺ.

(٢) المفهم ٦/ ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٥٠ .

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٣ .

إلى وَلائه، فإن لم يكن له وَلاءٌ معروفٌ قال[١]: يا أخي، يعني في الدِّين؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

الثانية: لو نَسَبه إنسانٌ إلى أبيه من التبنِّي فإنْ كان على جهة الخطأ، وهو أن يَسْبِقَ لسانُه إلى ذلك من غير قصدٍ، فلا إثمَ ولا مؤاخذةَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٢]. وكذلك لو دعوتَ رجلاً إلى غير أبيه وأنت ترى أنه أبوه، ليس عليك بأسٌ؛ قاله قتادة[٣].

ولا يَجري هذا المَجرى ما غَلَبَ عليه اسمُ التبنِّي، كالحال في المِقْداد بن عمرو؛ فإنه كان غلب عليه نسبُ التبنِّي، فلا يكاد يُعرف إلَّا بالمقداد بن الأسود؛ فإنَّ الأسود ابن عبد يغوث كان قد تبنَّاه في الجاهلية وعُرِف به، فلمَّا نزلت الآية قال المِقْداد: أنا ابنُ عمرو[٤]، ومع ذلك فبقي الإطلاقُ عليه. ولم يُسمع فيمَن مضى مَن عَصَّى مُطْلِقَ ذلك عليه وإن كان متعمِّداً. وكذلك سالم مولى أبي حذيفة، كان يُدْعَى لأبي حذيفة. وغير هؤلاء ممن تُبُنِّيَ وانْتَسبَ لغير أبيه وشُهِر بذلك وغَلب عليه. وذلك بخلاف الحال في زيد بن حارثة؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه: زيد بنُ محمد، فإن قاله أحدٌ متعمِّداً عَصَى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: فعليكم الجُناح. والله أعلم. ولذلك قال بعده: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: «غَفُوراً» للعَمْد، و«رَحِيماً» برفع إثم الخطأ[٥].

الثالثة: وقد قيل: إنَّ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ

---

(١) في (م): قال له.

(٢) المفهم ٦/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١١، والطبري ١٩/ ١٣.

(٤) ذكره بهذا اللفظ أبو العباس في المفهم ٦/ ٣٠٧، والكلام منه، وذكره الحافظ في الإصابة ٩/ ٢٧٣ بنحوه عن ابن الكلبي.

(٥) المفهم ٦/ ٣٠٧.

﴿وَكِيلًا﴾ مُجْمَل، أي: وليس عليكم جُناحٌ في شيءٍ أخطأتُم به، وكانت فُتْيَا عطاءٍ وكثيرٍ من العلماء على هذا: إذا حَلَفَ رجلٌ ألَّا يفارق غريمه حتى يستوفيَ منه حقَّه، فأخذ منه ما يرى أنه جيِّدٌ من دنانير، فوجدها زُيُوفاً[(١)]، أنه لا شيءَ عليه. وكذلك عنده إذا حلف ألَّا يسلِّم على فلان، فسلَّم عليه وهو لا يعرفه، أنه لا يَحْنَثُ؛ لأنه لم يتعمَّد ذلك. و[﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾] «ما» في موضع خفضٍ ردًّا على «ما» التي مع «أخطأتُم»، ويجوز أن تكون في موضع رفعٍ على إضمار مبتدأ، والتقدير: ولكن الذي تؤاخَذون به ما تَعمَّدت قلوبكم. قال قتادةُ وغيره: مَن نَسب رجلاً إلى غير أبيه ـ وهو يرى أنه أبوه ـ خطأً، فذلك مِن الذي رَفَع الله فيه الجُناح[(٢)].

وقيل: هو أن يقول له في المخاطبة: يا بُنيّ؛ على غير تَبَنٍّ[(٣)].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ «بأفواهِكم» تأكيدٌ لبطلان القول، أي: إنه قولٌ لا حقيقةَ له في الوجود، إنَّما هو قولٌ لسانيٌّ فقط. وهذا كما تقول: أنا أمشي إليك على قَدَم، فإنَّما تريد بذلك المبرَّة، وهذا كثير[(٤)]. وقد تقدَّم هذا المعنى في غير موضع[(٥)]. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ «الحقّ» نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: يقول القولَ الحقّ. و﴿يَهْدِى﴾ معناه: يبيِّن، فهو يتعدَّى بغير حرفِ جرٍّ.

الخامسة: الأدعياءُ جمع الدَّعيِّ، وهو الذي يُدْعَى ابناً لغير أبيه، أو يدَّعي غيرَ أبيه، والمصدرُ: الدِّعْوة بالكسر. فأمر تعالى بدعاء الأدعياء إلى آبائهم للصُّلْب، فَمَن جُهل ذلك فيه ولم تَشْتَهِر أنسابُهم كان مَوْلًى وأخاً في الدِّين. وذكر الطبريُّ أنَّ أبا بَكْرة قرأ هذه الآية وقال: أنا ممَّن لا يُعرف أبوه، فأنا أخوكم في الدِّين ومولاكم. قال

(١) في النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٣ والكلام منه: زجاجاً، والمثبت من (م).

(٢) سلف في المسألة الثانية.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٢٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٩. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ من الآية السابقة.

(٥) ينظر ٥/ ٤٠٥ و ١٠/ ١٧٤.

الراوي عنه: ولو علم ـ واللهِ ـ أنَّ أباه حمارٌ لانتمى إليه. ورجالُ الحديث يقولون في أبي بكرةَ: نُفَيْع بن الحارث[١].

السادسة: روى الصحيح عن سعد بن أبي وَقّاص وأبي بكرةَ كلاهما قال: سَمِعَتْه أُذناي ووعاه قلبي محمداً ﷺ يقول: «مَن ادَّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غيرُ أبيه، فالجنةُ عليه حرام»[٢]. وفي حديث أبي ذرٍّ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «ليس مِن رجلٍ ادَّعى لغير أبيه وهو يعلمُه إلَّا كَفَرَ»[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

فيه تسعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ هذه الآيةُ أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت في صدر الإسلام، منها: أنَّه ﷺ كان لا يصلِّي على مَيِّتٍ عليه دَيْن، فلمَّا فتح الله عليه الفتوحَ قال: «أنا أَوْلى بالمؤمنين من أنفسهم، فَمَن تُوُفِّيَ وعليه دَينٌ فعلَيَّ قضاؤه، ومَن ترك مالاً فلورثته» أخرجه الصحيحان[٤]. وفيهما أيضاً: «فأيُّكم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٩ ، وخبر أبي بكرة في تفسير الطبري ١٩/ ١٣ . قال الحافظ في التهذيب ٤/ ٢٣٨ : نفيع بن الحارث بن كلدة، أبو بكرة الثقفي، وقيل: اسمه مسروح، وقيل: كان أبوه عبداً للحارث بن كلدة يقال له: مسروح، فاستلحق الحارث أبا بكرة.

(٢) صحيح البخاري (٦٧٦٦) و(٦٧٦٧)، وصحيح مسلم (٦٣): (١١٥) واللفظ له، وهو عند أحمد (١٤٥٤). ونصب «محمداً» على البدل من الضمير في «سمعته أذناي». شرح النووي لصحيح مسلم ٢/ ٥٣ .

(٣) صحيح البخاري (٣٥٠٨)، وصحيح مسلم (٦١)، وهو عند أحمد (٢١٤٦٥). قال أبو العباس في المفهم ١/ ٢٥٤ : مَن فَعَل ذلك مستحلًّا فهو كافرٌ حقيقةً، فيبقى الحديث على ظاهره، أما إن كان غير مستحلٍّ، فيكون الكفر الذي في الحديث محمولاً على كفران النعم والحقوق.

(٤) صحيح البخاري (٢٢٩٨)، وصحيح مسلم (١٦١٩): (١٤)، وهو عند أحمد (٧٨٩٩) وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

تَرَكَ دَيْناً أو ضَياعاً فأنا مولاه»(١). قال ابن العربيّ: فانقلبت الآن الحالُ بالذنوب، فإنْ تركوا مالاً ضُويق العَصَبةُ فيه، وإن تركوا ضَياعاً أُسلموا إليه، فهذا تفسيرُ الولاية المذكورة في هذه الآية بتفسير النبيِّ ﷺ وتبيينِه(٢)، ولا عِطْرَ بعد عَرُوس(٣).

قال ابن عطية(٤): وقال بعض العلماء العارفين: هو أَوْلى بهم من أنفسهم؛ لأنَّ أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهم يدعوهم إلى النجاة. قال ابن عطيةَ: ويؤيِّد هذا قولُه عليه الصلاة والسلام: «أنا آخِذٌ بحُجَزِكم عن النارِ وأنتم تقتحمون فيها تقحُّم الفَراش».

قلت: هذا قولٌ حسنٌ في معنى الآية وتفسيرها، والحديثُ الذي ذُكر أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما مَثَلي ومَثَلُ أمَّتي كمَثَلِ رجلٍ استوقد ناراً، فجعلت الدوابُّ والفَراشُ يَقَعْنَ فيه، وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكم وأنتم تَقَحَّمُون فيه»(٥). وعن جابرٍ مثلُه؛ وقال: «وأنتم تَفَلَّتون من يدي»(٦). قال العلماء: الحُجْزَةُ للسراويل، والمَعْقِد للإزار، فإذا أراد الرجلُ إمساكَ مَن يخافُ سقوطَه أَخَذَ بذلك الموضع منه. وهذا مَثَلٌ لاجتهاد نبيِّنا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا، وحرصِه على تَخلُّصنا من الهَلَكات التي بين أيدينا، فهو أَوْلى بنا من أنفسنا. ولِجَهْلنا بقَدْرِ ذلك، وغلبةِ شَهَواتنا علينا، وظَفَرِ عدوِّنا اللعين بنا، صِرْنا أحقرَ من

(١) صحيح البخاري (٢٣٩٩)، وصحيح مسلم (١٦١٩): (١٥)، وهو عند أحمد (٨٤١٨) وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في (م): وتنبيهه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٦ . وقوله: لا عطر بعد عروس، ذكره ابن قتيبة دون نسبة في الشعر والشعراء ٢/ ٦٢٦ عَجُزَ بيت، وصدره: فالآن قبل وفاتي. وذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٢١١ ، والزمخشري في المستقصى ٢/ ٢٦٤ . قال الميداني: يضرب لمن لا يدَّخر عنه نفيس.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠ .

(٥) صحيح مسلم (٢٢٨٤)، وهو عند أحمد (٧٣٢١) و(٨١١٧)، والبخاري (٦٤٨٣).

(٦) صحيح مسلم (٢٢٨٥).

الفَراش وأذلَّ من الفراش[١]، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم!

وقيل: أَوْلى بهم، أي إنه إذا أمر بشيءٍ، ودَعَتْ النفسُ إلى غيره، كان أمرُ النبيِّ ﷺ أَوْلى[٢].

وقيل: أَوْلى بهم، أي: هو أَوْلى بأن يحكُم على المؤمنين فينفذ حكمُه في أنفسهم، أي: فيما يَحْكُمون به لأنفسهم ممَّا يخالفُ حُكْمَه.

الثانية: قال بعضُ أهلِ العلم: يجبُ على الإمام أن يقضيَ من بيت المال دَيْنَ الفقراء اقتداءً بالنبيِّ ﷺ؛ فإنه قد صرَّح بوجوبِ ذلك عليه حيث قال: «فعلَيَّ قضاؤه». والضَّيَاعُ ـ بفتح الضَّاد ـ مصدرُ ضاع، ثم جُعل اسماً لكلِّ ما هو بصددِ أن يضيع، من عيالٍ وبنينَ لا كافلَ لهم، ومالٍ لا قَيِّمَ له. وسمِّيت الأرضُ ضَيعةً لأنَّها معرَّضةٌ للضَّياع، وتُجمع ضِياعاً بكسر الضَّاد[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ شرَّف الله تعالى أزواجَ نبيِّه ﷺ بأنْ جَعَلهنَّ أمهاتِ المؤمنين، أي: في وجوبِ التعظيم والمبرَّةِ والإجلال، وحُرْمةِ النكاحِ على الرجال، وحَجْبِهنَّ رضي الله تعالى عنهنَّ بخلافِ الأمَّهات[٤]. وقيل: لمَّا كانت شَفَقتهنَّ عليهم كشفقة الأمَّهات أُنزلنَ منزلةَ الأمهات. ثم هذه الأمومةُ لا توجِبُ ميراثاً كأمومة التَّبنِّي. وجاز تَزْويجُ بناتهنَّ؛ ولا يُجعلنَ أخواتٍ للناس. وسيأتي عددُ أزواجِ النبيِّ ﷺ في آية التخيير[٥] إن شاء الله تعالى.

واختلف الناس؛ هل هنَّ أمهاتُ الرجال والنساءِ، أمْ أمَّهاتُ الرجال خاصةً؟

---

(١) المفهم ٦/ ٨٦ - ٨٧ ، ووقعت العبارة الأخيرة فيه: حتى صرنا أحقر من الفَراش والجنادب وأذلَّ من الطين اللازب.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٣ .

(٣) المفهم ٤/ ٥٧٥ - ٥٧٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠ .

(٥) ينظر ص١١٩ من هذا الجزء.

على قولين: فروى الشعبيُّ عن مسروقٍ، عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ امرأة قالت لها: يا أُمَّهْ، فقالت لها: لستُ لك بأمٍّ، إنَّما أنا أمُّ رجالِكم. قال ابن العربيّ[(١)]: وهو الصحيح.

قلت: لا فائدةَ في اختصاص الحَصْرِ في الإباحة للرجال دون النساء، والذي يَظهرُ لي أنهنَّ أمَّهاتُ الرجال والنساء؛ تعظيماً لحقِّهن على الرجال والنساء. يدلُّ عليه صدرُ الآية: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، وهذا يشملُ الرجالَ والنساء ضرورةً. ويدلُّ على ذلك حديثُ أبي هريرةَ وجابر، فيكون قوله: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ عائداً إلى الجميع. ثم إنَّ في مصحف أُبيّ بن كعب: «وأزواجُه أمَّهاتُهم وهو أبٌ لهم»[(٢)]. وقرأ ابن عباس: «مِن أنفسهم وهو أبٌ [لهم] وأزواجُه [أمهاتهم]»[(٣)]. وهذا كلُّه يوهنُ ما رواه مسروق - إنْ صح - من جهة الترجيح، وإن لم يصح فيَسقطُ الاستدلالُ به في التخصيص، وبقينا على الأصل الذي هو العمومُ الذي يسبقُ إلى الفهوم. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ قيل: إنه أراد بالمؤمنين الأنصارَ، وبالمهاجرين قريشاً. وفيه قولان:

أحدهما: أنه ناسخٌ للتوارثِ بالهجرة؛ حكى سعيد عن قتادة قال: كان نزل في سورة الأنفال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ [الآية: ٧٢] فتوارَثَ المسلمون بالهجرة؛ فكان لا يَرثُ الأعرابيُّ المسلمُ من قريبه المسلمِ

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٦ - ١٤٩٧ وما قبله منه، والخبر أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٦٥ و٦٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٧٠.

(٢) ذكرها الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٣٥، والنحاس في معاني القرآن ٣/ ٣٦٨ وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٩ عن ابن مسعود ﷺ، وقد سلفت ٧/ ٨٦، و١١/ ١٧٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠، وما بين حاصرتين منه. وسترد في المسألة السادسة.

المهاجِرِ شيئاً حتى يهاجر، ثم نسخ ذلك في هذه السورة بقوله: ﴿وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[١].

الثاني: أن ذلك ناسخٌ للتوارث بالحِلْفِ والمؤاخاة في الدِّين؛ روى هشام بن عُروة، عن أبيه، عن الزبير: ﴿وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وذلك أنَّا معشرَ قريش لمَّا قَدِمْنا المدينةَ قَدِمْنا ولا أموالَ لنا، فوجَدْنا الأنصارَ نِعْمَ الإخوان فآخيناهم، فأَوْرَثونا وأَوْرَثناهم، فآخَى أبو بكر خارجةَ بن زيد، وآخيتُ أنا كعب بنَ مالك، فجئتُ فوجدتُ السلاحَ قد أثْقلَه، فواللهِ لو مات[٢] عن الدنيا ما وَرِثَه غيري، حتى أنزل الله تعالى هذه الآيةَ، فرجعنا إلى مواريثنا.

وثبت عن عُروةَ أنَّ رسول الله ﷺ آخَى بين الزُّبير وبين كعب بن مالك، فارْتُثَّ كعبٌ يومَ أُحُدٍ، فجاء الزُّبير يقوده بزمام راحلته، فلو مات يومئذٍ كعبٌ عن الضِّحِّ والريح لورثه الزُّبير، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾. فبيَّن الله تعالى أنَّ القرابة أَوْلى من الحِلْف، فتُركت الوراثة بالحِلْف وورثوا بالقرابة[٣]. وقد مضى في «الأنفال» الكلامُ في توريث ذوي الأرحام[٤].

وقوله: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يَحتمِلُ أن يريد القرآن، ويَحتمِلُ أن يريد اللوحَ المحفوظ

---

(١) أخرجه الطبري ١١/ ٢٩٢ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٢٩٤ . وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٧٥ ، وعنه نقل المصنف.

(٢) في النسخ: لقد مات، وكذا في النكت والعيون ٤/ ٣٧٥ ، والكلام منه، وهو خطأ. وقد أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٧٤٢ (٩٢٠٦)، والحاكم ٤/ ٣٤٤ - ٣٤٥ ، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وقُتل الزُّبير ﷺ سنة ست وثلاثين منصرفَه من وقعة الجمل، ومات كعب بن مالك ﷺ سنة أربعين، وقيل: سنة خمسين. ينظر السير ١/ ٦٤ و ٢/ ٥٢٦ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٧ ، وخبر عروة أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٤/ ١٩٤ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٠/ ١٨٧ . قوله: فارتُثّ، الارتثاث: أن يُحمل الجريح وهو ضعيف قد أثخنته الجراح. وقوله: الضِّح والريح، أراد أنه لو مات عما طلعت عليه الشمس وجرت عليه الريح، كنَى بهما عن كثرة المال. النهاية (رثث) و(ضحح).

(٤) ١٠/ ٩٠ .

الذي قَضَى فيه أحوالَ خَلْقِه[١]. و﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿بِهِۦ﴾ لا بقوله: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ بالإجماع؛ لأنَّ ذلك كان يوجب تخصيصاً ببعض المؤمنين، ولا خلافَ في عمومها، وهذا حَلُّ إشكالها؛ قاله ابن العربي[٢].

النحَّاس[٣]: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ يجوز أن يتعلَّق «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» بـ «أُولُو» فيكون التقدير: وَأُولُو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين. ويجوز أن يكون المعنى: أوْلَى من المؤمنين.

وقال المَهْدويُّ: وقيل: إنَّ معناه: وأولو الأرحام بعضُهم أَوْلى ببعضٍ في كتاب الله إلَّا ما يجوز لأزواج النبيِّ ﷺ أن يُدْعَين أمهاتِ المؤمنين. والله تعالى أعلم.

الخامسة: واختُلف في كونهنَّ كالأمَّهات في المَحْرَمِ وإباحةِ النظر على وجهين:

أحدهما: هنَّ مَحْرَمٌ، لا يَحْرُم النظر إليهنَّ [لتحريم نكاحِهن].

الثاني: أنَّ النظر إليهنَّ محرَّم؛ لأنَّ تحريم نكاحِهنَّ إنَّما كان حِفْظاً لحقِّ رسولِ الله ﷺ فيهنَّ، وكان من حِفْظِ حقِّه تحريمُ النظر إليهنّ؛ ولأنَّ عائشة رضي الله عنها كانت إذا أرادت دخولَ رجلٍ عليها، أَمرت أختها أسماء أن تُرضعه ليصير ابناً لأختها من الرضاعة، فيصير مَحْرَماً يَستبيحُ النَّظر[٤].

وأمَّا اللاتي طَلَّقَهنَّ رسول الله ﷺ في حياته، فقد اختُلف في ثُبوت هذه الحرمة لهنَّ على ثلاثة أوجه:

أحدها: ثبتتْ لهنَّ هذه الحرمةُ تغليباً لحرمة رسول الله ﷺ.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٧٥.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٧.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٧٤، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرج مالك في الموطأ ٢/ ٦٠٣ عن سالم بن عبد الله بن عمر: أن عائشة أمَّ المؤمنين أرسلت به وهو يرضع إلى أختها أمّ كلثوم بنت أبي بكر الصديق فقالت: أرضعيه عشر رضعات حتى يدخل عليَّ...

الثاني: لا يثبتُ لهنَّ ذلك، بل هنَّ كسائر النساء؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قد أثبت عصمَتَهنَّ، وقال: «أزواجي في الدنيا هنَّ أزواجي في الآخرة»[١].

الثالث: مَن دخل بها رسول الله ﷺ منهنَّ ثبتتْ حرمتُها وحَرُم نكاحُها وإن طلَّقها؛ حِفْظاً لحرمته وحراسةً لخلوته. ومَن لم يَدْخلْ بها لم تثبتْ لها هذه الحرمةُ، وقد همَّ عمر بن الخطاب ﷺ برجمِ امرأةٍ فارَقَها رسول الله ﷺ فتزوَّجت، فقالت[٢]: لِمَ هذا! وما ضَرَبَ عليَّ رسولُ الله ﷺ حجاباً، ولا سُمِّيتُ أمَّ المؤمنين، فكفَّ عنها عمر ﷺ[٣].

السادسة: قال قومٌ: لا يجوز أن يُسَمَّى النبيُّ ﷺ أباً لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. ولكن يقال: مِثْل الأبِ للمؤمنين، كما قال: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلِّمكم...» الحديثَ. خرَّجه أبو داود[٤]. والصحيح أنه يجوز أن يقال: إنه أبٌ للمؤمنين، أي: في الحرمة، وقولُه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: في النسب. وسيأتي.

وقرأ ابن عباس: «مِنْ أنفُسهم وهو أبٌ لهم وأزواجُه أمهاتهم»[٥]. وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال: حُكَّها يا غلام؟ فقال: إنَّها في مصحف أُبَيٍّ، فذهب إليه فسأله، فقال له أُبَيٌّ: إنه كان يُلْهِيني القرآنُ ويلهيكَ الصَّفْقُ بالأسواق. وأَغْلَظ

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٧٤ . والحديث ذكره ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٣٢ بلفظ: زوجاتي في الدنيا...، وقال: لم أجده بهذا اللفظ، وفي البخاري عن عمار أنه ذكر عائشة فقال: إني لأعلم أنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، وأخرجه أبو الشيخ في كتاب السنة من حديثه مرفوعاً. اهـ. وخبر عمار في صحيح البخاري (٣٧٧٢).

(٢) في (ظ): فارقها رسول الله ﷺ قبل البناء بها أرادت أن تتزوج فقالت.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٧٤ . وخبر عمر ذكره أيضاً ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٦ ، وأخرجه ابن سعد ٨/ ١٤٦ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في سننه (٨).

(٥) قوله: أمهاتهم، من (ظ)، وقد سلفت هذه القراءة في المسألة الثالثة.

لعمر(١). وقد قيل في قول لوطٍ عليه السلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ [هود:٧٨]: إنَّما أراد المؤمنات، أي: تزوَّجوهن. وقد تقدَّم(٢).

السابعة: قال قومٌ: لا يقال: بناتُه أخواتُ المؤمنين، ولا أخوالُهن أخوالُ المؤمنين وخالاتُهم. قال الشافعيُّ ﷺ: تزوَّج الزبير أسماء بنتَ أبي بكر الصدِّيقِ وهي أختُ عائشة، ولم يقل: هي خالةُ المؤمنين(٣). وأطلق قومٌ هذا وقالوا: معاويةُ خالُ المؤمنين(٤)؛ يعني في الحرمة لا في النَّسَب.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ يريد الإحسانَ في الحياة، والوصيةَ عند الموت، أي: إنَّ ذلك جائز؛ قاله قتادةُ والحسنُ وعطاء(٥). وقال محمد ابن الحنفِيّة: نزلت في إجازةِ الوصية لليهوديِّ والنَّصرانيِّ(٦). أي: يُفعَل هذا مع الوَليِّ والقريبِ وإن كان كافراً، فالمشركُ وَليٌّ في النَّسَب لا في الدِّين، فيوصَى له بوصية.

واختلف العلماء؛ هل يُجعل الكافر وصيًّا؟ فجوَّز بعضٌ ومَنَع بعضٌ. وردَّ النَّظرَ إلى السلطان في ذلك بعضٌ؛ منهم مالكٌ رحمه الله تعالى. وذهب مجاهد وابن زيد والرُّمَّانيُّ إلى أنَّ المعنى: إلى أوليائكم من المؤمنين. ولفظُ الآية يَعْضُد هذا المذهبَ، وتعميمُ [لفظِ] الوليِّ أيضاً حَسَنٌ. وولايةُ النَّسب لا تُدفَع [في] الكافر، وإنَّما يُدفع أن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٦٩.

(٢) ١١/ ١٧٧.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٥٩، وتفسير البغوي ٣/ ٥٠٧.

(٤) ذكر البيهقي في الدلائل ٣/ ٤٥٩ في «باب قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ وتزوّج أمّ حبيبة بنت أبي سفيان» عن ابن عباس قال: كانت المودةُ التي جعل الله بينهم تزويجَ النبي ﷺ أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت أمَّ المؤمنين، وصار معاوية خال المؤمنين. اهـ. وهو من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عنه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٤، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ١٩.

يُلقَى إليه بالمودَّة كوليِّ الإسلام[١].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ «الكتاب» يَحتمِلُ الوجهين المذكورين المتقدِّمين في «كتابِ اللهِ»[٢]. و«مسطوراً» من قولك: سطرتُ الكتابَ: إذا أثبتَّه أسطاراً[٣]. وقال قتادةُ: أي: مكتوباً عند الله عزَّ وجلَّ ألَّا يرث كافرٌ مسلماً. قال قتادة: وفي بعض القراءة: «كان ذلك عند اللهِ مكتوباً»[٤]. وقال القُرَظيُّ: كان ذلك في التوراة[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ⑦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي: عَهْدَهم على الوفاء بما حمِّلوا، وأن يبشِّرَ بعضُهم ببعض، ويصدِّقَ بعضُهم بعضاً، أي: كان مسطوراً حين كتب الله ما هو كائنٌ، وحين أخذ الله تعالى المواثيقَ من الأنبياء. ﴿وَمِنكَ﴾ يا محمد ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وإنَّما خصَّ هؤلاء الخمسة ـ وإنْ دَخلوا في زمرة النبيِّين ـ تفضيلاً لهم. وقيل: لأنَّهم أصحابُ الشرائع والكتب، وأولُو العزم من الرسل، وأئمةُ الأمم.

ويَحتمِلُ أن يكون هذا تعظيماً في قَطْعِ الوَلايةِ بين المسلمين والكافرين، أي: هذا مما لم تَختلِفْ فيه الشرائع، أي: شرائعُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، أي: كان في ابتداء الإسلام توارثٌ بالهجرة، والهجرةُ سببٌ متأكِّدٌ في الدِّيانة، ثم توارثوا

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وقول مجاهد وابن زيد أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٢٠ .

(٢) في المسألة الرابعة.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠ .

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢ .

(٥) ذكره البغوي ٣/ ٥٠٨ .

بالقرابة مع الإيمان وهو سببٌ وكِيد. فأمَّا التَّوارُثُ بين مؤمنٍ وكافرٍ فلم يكن في دينِ أحدٍ من الأنبياء الذين أخذ عليهم المواثيق، فلا تُداهِنوا في الدِّين، ولا تُمالِئوا الكفَّارَ، ونظيرُه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣] ومِن تَرْكِ التفرُّقِ في الدِّين تَرْكُ موالاةِ الكفار.

وقيل: أي: النبيُّ أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ومأخوذاً به المواثيقُ من الأنبياء.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة، وأن يصدِّق بعضُهم بعضاً. والميثاقُ هو اليمينُ بالله تعالى، فالميثاقُ الثاني تأكيدٌ للميثاق الأول باليمين.

وقيل: الأولُ هو الإقرارُ بالله تعالى، والثاني في أمر النبوّة، ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ الآية [آل عمران: ٨١]. أي: أخذ عليهم أن يُعلنوا أنَّ محمداً رسولُ الله ﷺ، ويعلن محمدٌ ﷺ أنْ لا نبيَّ بعده.

وقدَّم محمداً في الذِّكر لِمَا رَوى قتادةُ عن الحسن عن أبي هريرةَ: أنَّ رسول الله ﷺ سُئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ قال: «كنتُ أولَهم في الخلق، وآخِرَهم في البعث»(١). وقال مجاهد: هذا في ظَهْر آدمَ عليه

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ٩١٩ و ١٢٠٩، وتمام في فوائده (١٣٩٩)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٣)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٥٩ - ٤٦٠. وأخرجه ابن سعد ١/ ١٤٩، والطبري ١٩/ ٢٣ من طريق قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهو أشبه.

قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص٣٢٧: وله شاهد بلفظ: كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد. اهـ. وأخرج الشاهد أحمد (٢٠٥٩٦) من حديث مَيْسَرَةِ الفَجْر ﷺ. والترمذي (٣٦٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: حسن صحيح غريب.

الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ⑧﴾

قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: لِيَسْألَ الأنبياءَ عن تبليغهم الرسالةَ إلى قومهم؛ حكاه النقَّاش. وفي هذا تنبيهٌ، أي: إذا كان الأنبياء يُسألون، فكيف مَن سواهم؟

الثاني: لِيَسْأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم؛ حكاه عليّ بنُ عيسى.

الثالث: لِيَسْأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم؛ حكاه ابن شجرة.

الرابع: ليسأل الأفواهَ الصادقةَ عن القلوب المُخْلِصة[١]. وفي التنزيل: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] وقد تقدَّم.

وقيل: فائدةُ سؤالِهم توبيخُ الكفار، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذابُ جهنَّم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ⑨﴾

يعني غزوة الخَنْدق والأحزاب وبني قُرَيظة، وكانت حالاً شديدة مُعْقَبةً بنعمةٍ ورخاء وغبطة، وتضمَّنت أحكاماً كثيرةً وآياتٍ باهراتٍ عزيزةً، ونحن نذكر من ذلك بعون الله تعالى ما يكفي في **عشر مسائل**:

الأولى: اختلف في أيِّ سنةٍ كانت؛ فقال ابنُ إسحاق: كانت في شوَّال من السنة الخامسة[٢]. وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالكٍ رحمه الله: كانت وقعةُ الخندق

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٧٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٤ .

سنةَ أربعٍ، وهي وبنو قُريظةَ في يومٍ واحد، وبين بني قريظةَ والنَّضيرِ أربعُ سنين[1].

قال ابن وهب: وسمعتُ مالكاً يقول: أمر رسولُ الله ﷺ بالقتال من المدينة، وذلك قولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] قال: ذلك يوم الخندق؛ جاءت قريش من هاهنا، واليهودُ من هاهنا، والنَّجْدية من هاهنا. يريد مالك أنَّ الذين جاؤوا من فوقهم بنو قريظةَ، ومن أسفلَ منهم قريشٌ وغَطَفان[2].

وكان سببها: أنَّ نفراً من اليهود؛ منهم كنانةُ بن الربيع بن أبي الحُقَيق، وسلَّام ابن أبي الحُقَيق، وسلَّام بن مِشْكم؛ وحُيَيّ بنُ أخْطبَ؛ النَّضريُّون، وهَوْذة بنُ قيس، وأبو عمار من بني وائل ـ وهم كلُّهم يهود، وهم الذين حَزَّبوا الأحزابَ وألَّبوا وجمعوا ـ خرجوا في نفرٍ من بني النَّضير ونَفَرٍ من بني وائلٍ، فأتوا مكة فدَعَوْا [قريشاً] إلى حرب رسول الله ﷺ، وواعَدوهم من أنفسهم بعونِ مَن انْتَدَبَ إلى ذلك، فأجابهم أهلُ مكةَ إلى ذلك، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غَطَفَان، فدعَوْهم إلى مثل ذلك، فأجابوهم. فخرجت قريشٌ يقودهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غَطَفان وقائدُهم عُيينة بنُ حصن بن حُذيفة بن بدر الفَزَاريُّ على فَزارة، والحارث بنُ عوف المُرِّيُّ على بني مُرَّة، ومسعود بن رُخَيلةَ على أشْجَع. فلمَّا سمع رسول الله ﷺ باجتماعهم وخروجِهم شاوَرَ أصحابه، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق، فرضِيَ رأيَه. وقال المهاجرون يومئذ: سلمانُ منَّا. وقال الأنصارُ: سلمان منَّا. فقال رسول الله ﷺ: «سلمانُ منَّا أهلَ البيت»[3].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٨، وأخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٣٩٧ من طريق أحمد بن حنبل عن موسى بن داود عن مالك. قال البيهقي: لا اختلاف بينهم في الحقيقة... فمن قال: سنة أربع، أراد بعد أربع سنين وقبل بلوغ الخمس، ومن قال: سنة خمس، أراد بعد الدخول في السنة الخامسة وقبل انقضائها.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٨.

(٣) الدرر في اختصار المغازي والسير ص١٩٠، وما سلف بين حاصرتين منه. وقوله: «سلمان منا..» =

وكان الخندقُ أوَّلَ مشهدٍ شَهِدَه سلمانُ مع رسول الله ﷺ وهو يومئذٍ حرٌّ. فقال: يا رسول الله، إنَّا كنَّا بفارس إذا حُوصِرْنا خَنْدَقْنا(١).

فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين، ونكص المنافقون، وجعلوا يتسلَّلون لِواذاً، فنزلت فيهم آياتٌ من القرآن ذكرها ابنُ إسحاق وغيره. وكان مَن فَرَغَ من المسلمين من حصَّته عاد إلى غيره، حتى كملَ الخندق. وكانت فيه آياتٌ بيِّناتٌ وعلاماتٌ للنبوَّات(٢).

قلت: ففي هذا الذي ذكرناه من هذا الخبر من الفقه وهي:

الثانية: مشاورةُ السلطانِ أصحابَه وخاصَّتَه في أمر القتال، وقد مضى ذلك في «آل عمران» و«النمل»(٣).

وفيه التحصُّنُ من العدوِّ بما أَمْكَن من الأسباب واستعمالها، وقد مضى ذلك في غير موضع(٤).

وفيه أنَّ حَفْرَ الخندق يكون مقسوماً على الناس، فَمَن فَرَغَ منهم عاونَ مَن لم يفرغ، فالمسلمون يدٌ على مَن سواهم؛ وفي البخاريِّ ومسلم عن البَرَاء بن عازِبٍ قال: لمَّا كان يومُ الأحزاب وخَنْدقَ رسول الله ﷺ، رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنِّي الغبارُ جِلدةَ بطنِه، وكان كثير الشَّعَر، فسمعته يرتجِزُ بكلماتِ ابنِ رَواحةَ ويقول:

= أخرجه مطولاً ومختصراً ابن سعد ٤/ ٨٢ - ٨٣ و ٧/ ٣١٨، والطبري ١٩/ ٣٩ - ٤٢، والطبراني في الكبير (٦٠٤٠)، والحاكم ٣/ ٥٩٨، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٤١٨ من حديث عمرو بن عوف المزنيِّ ﷺ.

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٥٦٦.

(٢) الدرر ص١٩١، وينظر ما ذكره ابن هشام في السيرة ٢/ ٢١٧ عن ابن إسحاق من المعجزات. قوله: لِواذاً، قال ابن هشام: اللواذ: الاستتار بالشيء عند الهرب.

(٣) ٥/ ٣٨٠ وعند تفسير الآية (٣٢) من سورة النمل.

(٤) ينظر ٥/ ٣٠٠ و ٧/ ١٠٨.

اللَّهمَّ لولا أنتَ ما اهْتَدَيْنا ... ولا تَصَدَّقْنا ولا صَلَّيْنا
فأنْزِلَن سِكينةً عَلَيْنَا ... وثَبِّت الأقدامَ إنْ لاقَيْنا[1]

وأمَّا ما كان فيه من الآيات وهي:

الثالثة: فروى النسائيُّ[2] عن أبي سُكَينةَ - رجلٍ من المحرَّرين - عن رجلٍ من أصحاب رسولِ الله ﷺ قال: لمَّا أمر رسول الله ﷺ بحفرِ الخندق عَرَضَتْ لهم صخرةٌ حالتْ بينهم وبين الحفر، فقام رسولُ الله ﷺ وأخذ المِعْولَ، ووضعَ رداءه ناحيةَ الخندقِ وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ الآية [الأنعام: ١١٥]، فَنَدَرَ ثُلُثُ الحجرِ، وسلمانُ الفارسيُّ قائمٌ ينظُرُ، فَبَرَق مع ضربةِ رسول الله ﷺ بَرْقَةٌ، ثم ضَرَبَ الثانيةَ وقال: ﴿وَتَمَّتْ﴾ الآيةَ، فَنَدَر الثُّلثُ الآخَر، فبَرَقتْ برقةٌ، فرآها سلمان، ثم ضربَ الثالثةَ وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ الآية، فنَدَرَ الثلثُ الباقي. وخرج رسول الله ﷺ فأخذ رداءه وجلس، قال سلمانُ: يا رسولَ الله! رأيتُك حين ضربتَ، ما تَضْرِبُ ضربةً إلَّا كانت معها بَرْقةٌ؟ قال له رسول الله ﷺ: «رأيتَ ذلك يا سلمان؟» فقال: إيْ والذي بَعثكَ بالحقِّ يا رسول الله! قال: «فإنِّي حينَ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الأولى رُفعتْ لي مَدَائنُ كِسرى وما حَوْلَها، ومدائنُ كثيرةٌ حتَّى رأيتُها بعينيَّ - قال له مَن حَضَرهُ من أصحابه: يا رسول الله، ادعُ الله أن يفتحَها علينا ويغنِّمَنا ذراريهم[3] ويخرِّبَ بأيدينا بلادَهم، فدعا رسول الله ﷺ - ثم ضربتُ الضربةَ الثانيةَ، فرُفعتْ لي مَدائنُ قَيْصَرَ وما حَوْلَها حتَّى رأيتُها بعينيَّ - قالوا: يا رسول الله، ادعُ الله تعالى أنْ يفتحَها علينا ويغنِّمنا ذراريهم ويخرِّبَ بأيدينا بلادَهم، فدعا رسول الله ﷺ - ثم ضربتُ الضربةَ الثالثةَ، فرُفعتْ لي مَدَائنُ الحبشةِ وما حَوْلَها من القُرى حتَى رأيتُها بعينيَّ» قال

(١) صحيح البخاري (٣٠٣٤)، وصحيح مسلم (١٨٠٣)، وهو عند أحمد (١٨٥١٣) و(١٨٥٧٠). ونقله المصنف عن الأحكام الصغرى لعبد الحق ٢/ ٥١٠ .

(٢) في المجتبى ٦/ ٤٣ .

(٣) في سنن النسائي: ديارهم، في الموضعين.

رسول الله ﷺ عند ذلك: «دَعوا الحبشةَ ما وَدَعُوكم، واتركوا التُّرْكَ ما تَرَكوكم»

وخرَّجه أيضاً عن البَرَاء قال: لمَّا أَمَرَنا رسول الله ﷺ أن نحفِر الخندق، عَرَضَ لنا صخرةٌ لا تأخذُ فيها المعاولُ، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ فألقى ثوبه وأخذ المِعْوَلَ وقال: «باسم الله»، فضَرب ضربةً فكسر ثلثَ الصخرة، ثم قال: «الله أكبر، أُعْطِيتُ مفاتيحَ الشام، واللهِ إنِّي لأُبْصِرُ إلى قصورها الحمراءِ الآن من مكاني هذا» قال: ثم ضرب أخرى وقال: «باسم الله» فكسر ثلثاً آخرَ ثم قال: «الله أكبر، أُعطِيتُ مفاتيحَ فارسَ، والله إنِّي لأُبْصِرُ قَصْرَ المدائنِ الأبيضَ». ثم ضرب الثالثةَ وقال: «باسم الله» فقطع الحجر وقال: الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ اليمن، واللهِ إنِّي لأُبْصِرُ بابَ صَنْعاءَ». صحَّحه أبو محمد عبدُ الحقّ(١).

الرابعة: فلمَّا فرغ رسول الله ﷺ من حَفْرِ الخندق، أقبلت قريش في نحو عشرة آلافِ بمَن معهم من كنانةَ وأهلِ تِهامةَ، وأقبلت غَطَفان بمن معها من أهل نجد، حتى نزلوا إلى جانب أُحُد، وخرج رسول الله ﷺ، والمسلمون حتى نزلوا بظَهْر سَلْعٍ في ثلاثة آلافٍ، وضربوا عَسْكَرهم والخندقُ بينهم وبين المشركين. واستَعْمَلَ على المدينة ابنَ أُمِّ مَكْتوم، في قول ابن شهاب.

وخرج عدوُّ الله حُيَيّ بن أَخْطَبَ النَّضريُّ حتى أتى كعب بنَ أسد القُرَظِيَّ، وكان صاحبَ عقدِ بني قريظةَ ورئيسَهم، وكان قد وادَعَ رسولَ الله ﷺ وعاقَدَه وعاهَدَه. فلمَّا سمع كعب بنُ أسد بحُيَيّ بن أَخْطَبَ أغلق دونَه بابَ حصنِه وأبَى أن يفتح له، فقال له: افتح لي يا أخي(٢)، فقال له: لا أفتحُ لك، فإنك رجلٌ مشؤوم، تَدْعوني إلى خلافِ محمدٍ وأنا قد عاقَدْتُه وعاهَدْتُه، ولم أَرَ منه إلَّا وفاءً وصدقاً فلستُ بناقضٍ ما بيني وبينَه. فقال حُيَيّ: افتح لي حتى أكلِّمك وأنصرف عنك، فقال: لا أفعل، فقال:

---

(١) في الأحكام الصغرى ٢/ ٥١٠ ، وهو في سنن النسائي الكبرى (٨٨٠٧). وأخرجه أحمد (١٨٦٩٤).

(٢) في الدرر ص١٩٣ (والكلام منه): افتح لي يا كعب بن أسد. ونحوه وقع في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٠ ، وتفسير الطبري ١٩/ ٣٢ ، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٧١ .

إنَّما تخاف أن آكُلَ معك جَشِيشَتك[١]، فغضب كعبٌ وفتح له. فقال: يا كعب! إنَّما جئتك بعزِّ الدَّهر، جئتك بقريش وسادتها، وغَطَفانَ وقادتها، قد تَعاقَدوا على أن يستأصلوا محمداً ومَن معه، فقال له كعب: جئتني واللهِ بذلِّ الدَّهر، وبجَهَامٍ لا غيثَ فيه[٢]، وَيْحَكَ يا حُيَيّ! دَعْني فلستُ بفاعلٍ ما تدعوني إليه. فلم يزل حُيَيٌّ بكَعْبٍ يَعِدُه ويَغُرُّه، حتى رجع إليه وعاقَدَه على خِذلانِ محمدٍ ﷺ وأصحابِه، وأن يسير معهم. وقال له حُييّ بن أخطب: إن انصرفتْ قريش وغَطفانُ دخلتُ عندك بِمَن معي من اليهود.

فلما انتهى خبرُ كعبٍ وحُيَيّ إلى النبيِّ ﷺ بعث سعد بنَ عُبادة وهو سيدُ الخزرج، وسيدَ الأوْسِ سعد بنَ معاذ، وبعث معهما عبد الله بنَ رَواحة وخَوَّات بنَ جُبير، وقال لهم رسول الله ﷺ: «انْطَلِقوا إلى بني قُريظةَ، فإن كان ما قيل لنا حقّاً فالْحنوا لنا لَحْناً [نعرفه][٣] ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس، وإن كان كذباً فاجْهَروا به للناس». فانطَلَقوا حتى أَتَوْهم، فوجودهم على أخبثِ ما قيل لهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عهدَ له عندنا. فشاتَمهم سعد بنُ معاذ وشاتَموه، وكانت فيه حدَّةٌ، فقال له سعد بن عُبادة: دَعْ عنك مُشاتَمتهم، فالذي بيننا وبينهم أكثرُ من ذلك[٤]. ثم أقبل سعدٌ وسعدٌ حتى أَتَيا رسولَ الله ﷺ في جماعةِ المسلمين، فقالا: عَضَل والقَارَة؛ يُعرِّضان بغدرِ عَضَل والقارَةِ بأصحاب الرَّجيع خُبيبٍ وأصحابِه. فقال النبيُّ ﷺ: «أَبْشِروا يا

---

(١) الجشيشة هي أن تطحن الحنطة طحناً جليلاً، ثم تُجعل في القدور ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ، وقد يقال لها: دشيشة. النهاية (جشش).

(٢) الجَهام: السحاب الذي فرغ ماؤه، أي: الذي تَعْرِضُه عليَّ من الدِّين لا خيرَ فيه، كالجهام الذي لا ماء فيه. النهاية (جهم).

(٣) زيادة من الدرر ص١٩٣ (والكلام منه)، وهو موافق لما في تفسير الطبري ١٩/ ٣٣ ، وتاريخه ٢/ ٥٧٢ . ووقع في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٢ : أعرفه. والمعنى: أشيرا إليَّ ولا تُفْصِحا، وعرِّضا بما رأيتما. النهاية (لحن).

(٤) في الدرر: أكبر من المشاتمة، وفي السيرة وتفسير الطبري: أربى من المشاتمة.

معشرَ المسلمين».

وعَظُم عند ذلك البلاءُ واشتدَّ الخوف، وأَتى المسلمين عدوُّهم من فوقهم، يعني من فوق الوادي من قِبَلِ المَشْرِق، ومن أَسْفَلَ منهم؛ من بطنِ الوادي من قِبَل المَغْرِب، حتى ظَنُّوا بالله الظُّنونا. وأَظْهَرَ المنافقون كثيراً مما كانوا يُسِرُّون، فمنهم مَن قال: إنَّ بيوتنا عورةٌ، فلْننصَرِفْ إليها، فإنا نخاف عليها. وممَّن قال ذلك: أَوْس بنُ قَيْظيّ. ومنهم مَن قال: يَعِدُنا محمدٌ أن يفتح كنوزَ كسرى وقَيصر، وأحدُنا اليوم لا يأمَنُ على نفسه [أن][1] يذهب إلى الغائط! وممن قال ذلك: مُعَتِّب بنُ قُشير أحدُ بني عمرو بن عوف. فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون بضعاً وعشرين ليلةً؛ قريباً من شهرٍ؛ لم يكن بينهم حَرْبٌ إلَّا الرَّميُ بالنَّبْل والحصى.

فلمَّا رأى رسول الله ﷺ أنه اشتدَّ على المسلمين البلاءُ بعث إلى عُيَيْنَة بنِ حصن الفَزَاريِّ، وإلى الحارث بن عوف المُرِّيِّ، وهما قائدا غَطَفان، فأعطاهما ثلثَ ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غَطفان، ويخذلا قريشاً ويرجعا بقومهما عنهم. وكانت هذه المقالةُ مُراوَضةً ولم تكن عقداً. فلمَّا رأى رسول الله ﷺ منهما أنَّهما قد أنابا ورضِيَا، أَتى سعد بنَ معاذ وسعد بنَ عبادةَ فذَكَر ذلك لهما واستشارهما، فقالا: يا رسول الله، هذا أمر تحبُّه فنصنعَه لك، أو شيءٌ أَمَرك الله به فنسمعُ له ونطيع، أو أمرٌ تصنعُه لنا؟ قال: «بل أمرٌ أَصنعُه لكم، واللهِ ما أصنعُه إلَّا أنِّي قد رأيتُ العربَ قد رمتكم عن قَوْسٍ واحدة». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، والله لقد كنَّا نحن وهؤلاء القومُ على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمِعوا قَطُّ أن ينالوا منَّا ثمرةً إلَّا شِراءً أو قِرًى، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك نعطيهم أموالنا! واللهِ لا نعطيهم إلَّا السيفَ حتى يحكم الله بيننا وبينهم! فسُرَّ رسول الله ﷺ بذلك وقال: «أنتم وذاك». وقال لعيينةَ والحارثِ: «انْصرِفا فليس لكما عندنا إلَّا السيفُ». وتَناول سعدٌ الصحيفةَ وليس فيها شهادةٌ فمحاها.

---

(١) زيادة من الدرر ص١٩٥، والكلام منه.

الخامسة: فأقام رسولُ الله ﷺ والمسلمون على حالهم، والمشركون يحاصرونهم ولا قتالَ بينهم؛ إلَّا أنَّ فوارسَ من قريشٍ ـ منهم عمرو بنُ عبد وُدٍّ العامريُّ من بني عامر بن لُؤَيّ، وعِكرمةُ بنُ أبي جهل، وهُبَيرةُ بن أبي وَهْبٍ، وضِرار بنُ الخطَّاب الفِهريُّ، وكانوا فرسانَ قريشٍ وشجعانَهم ـ أقبلوا حتى وقفوا على الخندق، فلَّما رأَوْه قالوا: إنَّ هذه لَمكيدةٌ ما كانت العربُ تَكيدُها! ثم تَيمَّموا مكاناً ضيِّقاً من الخندق، فضربوا خيلَهم فاقتحمت بهم، وجاوزوا الخندق، وصاروا بين الخندق وبين سَلْع، وخرج عليّ بن أبي طالب في نفرٍ من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثُّغرةَ التي اقتَحموا منها، وأقبلت الفرسانُ نحوهم، وكان عمرو بنُ عبد وُدٍّ قد أثبتته الجراح يومَ بَدْرٍ فلم يشهد أُحُداً، وأراد يومَ الخندق أن يُرَى مكانُه، فلمَّا وقف هو وخيلُه نادى: مَن يبارز؟ فبرز له عليُّ بنُ أبي طالب وقال له: يا عمرو، إنك عاهدتَ الله فيما بلغَنا أنك لا تُدْعَى إلى إحدى خَلَّتين إلَّا أخذتَ إحداهما؟ قال: نعم. قال: فإنِّي أدعوك إلى الله والإسلام. قال: لا حاجةَ لي بذلك. قال: فأدعوكَ إلى البِرَاز. قال: يا ابن أخي، والله ما أحبُّ أنْ أقتلك لِمَا كان بيني وبين أبيك. فقال له عليٌّ: أنا واللهِ أحبُّ أن أقتلك. فحَمِيَ عمرو بن عبد وُدٍّ ونزل عن فرسه، فعقره وصار[1] نحو عليٍّ، فتنازَلا وتَجاوَلا وثار النَّقْعُ بينهما حتى حال دونهما، فما انجلى النَّقْع حتى رُئيَ عليٌّ على صدر عمرو يقطعُ رأسَه، فلمَّا رأى أصحابهُ أنه قد قتله عليٌّ اقتحموا بخيلهم الثُّغْرةَ مُنْهزِمين هاربين. وقال عليٌّ رضي الله عنه في ذلك:

نَصَرَ الحجارةَ من سَفَاهةِ رأيهِ ... ونَصَرْتُ دِينَ محمدٍ بضِرابِ

نازَلْتُه فتركتُه[2] متجدِّلاً ... كالجِذْع بين دَكادكٍ[3] ورَوَابي

وعففتُ عن أثوابه ولوَ انَّني ... كنتُ المقطَّرَ بَزَّني أثوابي[4]

---

(١) في الدرر: وسار.

(٢) في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٥: فصددت حين تركته.

(٣) جمع دكدك، وهو الرمل الليّن. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ٣/ ٦.

(٤) لم يرد هذا البيت في الدرر، وهو في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٥. والمقطَّر: الذي أُلقي على أحد =

لا تَحسِبنَّ اللهَ خاذلَ دِينِه ونبيِّه يا معشرَ الأحزابِ

قال ابن هشام: أكثرُ أهلِ العلم بالسِّيَر[١] يشكُّ فيها لعليّ.

قال ابن هشام[٢]: وألقى عِكرمةُ بن أبي جهلٍ رُمْحه يومئذٍ وهو منهزمٌ عن عمرو، فقال حسان بن ثابت في ذلك:

فرَّ وألقى لنا رُمْحَهُ لعلك عِكرِمَ لم تَفْعَلِ
وولَّيتَ تَعْدُو كعَدْوِ الظَّليم[٣] ما إن تجورُ عن المَعْدِلِ
ولم تُلْقِ ظهرَك مستأنساً كأنَّ قَفاك قَفَا فُرْعُلِ

قال ابن هشام: فُرْعُل: صغيرُ الضِّباع.

وكانت عائشةُ رضي الله عنها في حصنِ بني حارثةَ، وأُمُّ سعد بن معاذٍ معها، وعلى سعدٍ دِرْعٌ مُقلِّصةٌ قد خرجت منها ذراعُه، وفي يده حربتُه وهو يقول:

لَبِّثْ قليلاً يَلْحَقِ الهَيْجا حَمَلْ[٤] لا بأسَ بالموت إذا كان[٥] الأجَلْ

ورُميَ يومئذٍ سعد بنُ معاذ بسهمٍ فقطع منه الأكْحل[٦].

واختُلف فيمَن رماه؛ فقيل: رماه حِبَّان بن قيس بن العَرِقة، أحدُ بني عامر بن

= قُطريه، أي: جانبيه، يقال: طعنه فقَطَرَه. وبزَّني: سلبني وجرَّدني. الإملاء المختصر ٣/ ٦.

(١) في السيرة ٢/ ٢٢٥: بالشعر.

(٢) في السيرة ٢/ ٢٢٦.

(٣) الظليم: ذكر النعام، الإملاء المختصر ٣/ ٦.

(٤) في النسخ ومطبوع الإملاء المختصر: جمل، بالجيم، وهو خطأ؛ قال أبو ذر صاحب الإملاء: حَمَل هنا اسم رجل، وقال السهيلي في الروض الأنف ٣/ ٢٨٠: عنى به حمل بن سعدانة بن حارثة بن معقل..، وكذا نقل الحافظ في الإصابة ٢/ ٢٨٨ عن أبي محمد الأسود الغندجاني، وقال الزمخشري في المستقصى في أمثال العرب ٢/ ٢٧٨: لا يبعد أن يراد به حَمَل بن بدر، صاحب الغبراء.

(٥) كذا في النسخ، وفي المصادر: حان.

(٦) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٦ - ٢٢٧ وأخرجه مطولاً أحمد (٢٥٠٩٧)، والطبري في التاريخ ٢/ ٥٧٥-٥٧٦ من حديث عائشة رضي الله عنها. قوله: درع مقلَّصة: أي قصيرة ارتفعت وانقبضت. الإملاء المختصر ٣/ ٦. قال ابن الأثير في النهاية (قلص): يقال: قلَّصت الدرع وتقلَّصت.

لؤيّ، فلمَّا أصابه قال له: خُذْها وأنا ابنُ العَرِقة. فقال له سعد: عرَّقَ الله وجهك في النار[١]. وقيل: إنَّ الذي رماه خَفاجةُ بن عاصم بن حبَّان[٢]. وقيل: بل الذي رماه أبو أسامةَ الجُشَمِيُّ حليفُ بني مخزوم.

ولحسان مع صفيةَ بنتِ عبد المطلب خبرٌ طريفٌ يومئذ؛ ذكره ابنُ إسحاق وغيره:

قالت صفيةُ بنتُ عبد المطلب رضي الله عنها: كنَّا يومَ الأحزاب في حِصن حسان بن ثابت، وحسان معنا في النساء والصبيان، والنبيُّ ﷺ وأصحابُه في نحر العدوِّ لا يستطيعون الانصرافَ إلينا، فإذا يهوديٌّ يدور، فقلتُ لحسان: انزِلْ إليه فاقتُلْه، فقال: ما أنا بصاحِبِ هذا يا ابنةَ عبدِ المطَّلب! فأخذتُ عموداً ونزلتُ من الحصن فقتلتُه، فقلت: يا حسان، انزل فاسلبه، فلم يمنعني من سَلَبه إلَّا أنه رجل. فقال: مالي بسلبه حاجةٌ يا ابنةَ عبدِ المطَّلب! قالت[٣]: فنزلتُ فسلبتُه[٤]. قال أبو عمر ابنُ عبد البرِّ[٥]: وقد أنكر هذا عن حسان جماعةٌ من أهل السِّيَر وقالوا: لو كان في حسان من الجُبْنِ ما وصفتُم لهجاه بذلك الذين كان يهاجيهم في الجاهلية والإسلام، ولَهُجِيَ بذلك ابنُه عبد الرحمن؛ فإنه كان كثيراً ما يهاجي الناسَ من شعراء العرب، مثل النجاشيِّ وغيره.

السادسة: وأتى رسولَ الله ﷺ نُعيم بنُ مسعود بن عامر الأشجعيُّ، فقال: يا رسول الله، إنِّي قد أسلمتُ ولم يعلم قومي بإسلامي، فمُرْني بما شئتَ، فقال له

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٧، والدرر ص١٩٧. وأخرجه أحمد (٢٤٢٩٤) مختصراً، والبخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩) مطولاً من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في النسخ: جبارة، والمثبت من سيرة هشام ٢/ ٢٢٨، والبداية والنهاية ٢/ ٤٩.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: قال.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٨، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الطبري في التاريخ ٢/ ٥٧٧، وليس فيهما قولها: فنزلت فسلبته. وإسناده منقطع كما ذكر السهيلي في الروض الأنف ٣/ ٢٨١. وأنكر ذلك عن حسان ﷺ وقال: وإن صحَّ؛ فلعل حسان أن يكون معتلًّا في ذلك اليوم بعلّة منعته من شهود القتال.

(٥) في الدرر ص١٩٨.

رسول الله ﷺ: «إنَّما أنت رجلٌ واحدٌ من غَطَفان، فلو خرجتَ فخذَّلْتَ عنَّا إن استطعتَ؛ كان أحبَّ إلينا من بقائك معنا[1]، فاخرجْ فإنَّ الحرب خُدْعة»[2].

فخرج نُعيم بنُ مسعود حتى أتى بني قُريظةَ ـ وكان يُنادِمُهم في الجاهلية ـ فقال: يا بني قريظة، قد عرفتُم وُدِّي إياكم، وخاصَّةَ ما بيني وبينَكم. قالوا: قُلْ، فلستَ عندنا بمُتَّهَم. فقال لهم: إنَّ قريشاً وغَطَفان ليسوا كأنتم، البلدُ بلدُكم، فيه أموالُكم وأبناؤكم ونساؤكم، وإنَّ قريشاً وغَطَفانَ قد جاؤوا لحربِ محمدٍ وأصحابِه، وقد ظاهَرْتُموهم عليه، فإن رأوا نُهْزةً[3] أصابوها، وإن كان غير ذلك لَحقوا ببلادهم وخلَّوْا بينكم وبينَ الرجل، ولا طاقةَ لكم به، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُناً. ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لهم: قد عرفتُم وُدِّي لكم معشرَ قريش، وفراقي محمداً، وقد بلغني أمرٌ أرى من الحقِّ أنْ أبلِّغَكموه نُصْحاً لكم، فاكتموا عليَّ. قالوا: نفعلُ. قال: تعلمون[4] أنَّ معشر يهودَ قد نَدِموا على ما كان من خذلانهم محمداً، وقد أرسلوا إليه: إنَّا قد نَدِمنا على ما فعلنا، فهل يرضيكَ أنْ نأخذ من قريشٍ وغَطَفانَ رُهُناً رجالاً ونسلِّمهم إليكم تضربوا أعناقهم؟ ثم نكون معك على ما بقي منهم حتى نستأصلهم. ثم أتى غَطَفان، فقال مثلَ ذلك.

فلمَّا كان ليلةَ السبت ـ وكان ذلك من صُنْعِ الله عزَّ وجلَّ لرسوله والمؤمنين ـ أَرسل أبو سفيان إلى بني قُرَيظةَ عِكرمةَ بن أبي جهل في نفرٍ من قريش وغَطَفان يقول لهم: إنَّا لَسْنا بدارِ مُقامٍ، قد هلك الخُفُّ والحافر، فاغْدُوا صبيحةَ غدٍ للقتال حتى

---

(١) في (ظ): من أن تقاتل معنا.

(٢) الدرر ص١٩٨، والخبر في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٩. وقوله: الحرب خُدْعة، أخرجه أحمد (١٤٣٠٨)، والبخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩) من حديث جابر ﷺ. وأخرجه أحمد (٨١١٢)، والبخاري (٣٠٢٧)، ومسلم، (١٧٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) النُّهْزَة: الفرصة، وانتهزها: اغتنمها. القاموس (نهز).

(٤) في الدرر: أتعلمون. ووقع في السيرة: تعلَّموا، وفي تاريخ الطبري ٢/ ٥٧٨: فاعلموا.

نُناجِزَ محمداً. فأرسَلوا إليهم: إنَّ اليومَ يومُ السبت، وقد علمتُم ما نال منَّا مَن تَعدَّى في السبت، ومع ذلك فلا نقاتلُ معكم حتى تعطونا رُهُناً. فلمَّا رجع الرسول بذلك قالوا: صَدَقَنا واللهِ نُعيم بنُ مسعود! فردُّوا إليهم الرسلَ وقالوا: والله لا نعطيكُم رُهُناً أبداً، فاخرُجوا معنا إن شئتُم، وإلَّا فلا عهدَ بيننا وبينكم. فقال بنو قريظة: صَدَقَ واللهِ نُعيم بنُ مسعود! وخذَّل الله بينهم واختلفت كلمتُهم، وبعث الله عليهم رِيحاً عاصِفاً في ليالٍ شديدةِ البرد؛ فجعلت الريح تقلبُ آنيتَهم وتكفَأُ قُدورَهم[١].

السابعة: فلما اتَّصل برسول الله ﷺ اختلافُ أمرِهم، بعث حذيفةَ بنَ اليَمان ليأتيَه بخبرهم، فأتاهم واستَتَر في غِمَارهم، وسمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، ليتعرَّفْ كلُّ امرئٍ جليسَه. قال حذيفةُ: فأخذتُ بيدِ جليسي وقلت: مَن أنت؟ فقال: أنا فلان. ثم قال أبو سفيان: يا[٢] معشر قريش! إنَّكم والله ما أصبحتُم بدارِ مُقامٍ، ولقد هلك الكُراع والخُفُّ وأَخْلَفَتْنا بنو قُريظة، ولقينا من هذه الريح ما تَرَوْنَ، ما يستمسك لنا بناءٌ، ولا تَثْبُتُ لنا قِدْرٌ، ولا تقوم لنا نار، فارْتَحِلوا فإنِّي مُرْتَحِلٌ. ووثب على جمله، فما حلَّ عِقالَ يده إلَّا وهو قائم[٣].

قال حذيفةُ: ولولا عهدُ رسول الله ﷺ لي إذ بعثني وقال لي: «مُرَّ إلى القوم، فاعلَمْ ما هم عليه، ولا تُحدِثْ شيئاً»، لقتلتُه بسهم، ثم أتيتُ رسول الله ﷺ عند رحيلهم، فوجدتُه قائماً يصلِّي في مِرْطٍ لبعض نسائه؛ مَرَاجِلَ ـ قال ابن هشام: المَراجِلُ ضربٌ من وَشْي اليمن ـ فأخبرتُه فحمِد الله[٤].

قلت: وخبرُ حذيفةَ هذا مذكورٌ في صحيحِ مسلمٍ، وفيه آياتٌ عظيمة، رواه جريرٌ

---

(١) الدرر ١٩٨ - ٢٠٠، وبنحوه في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٩ - ٢٣١، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٧٨ - ٥٧٩.

(٢) قبلها في (م): ويلكم.

(٣) أي: لم يحلَّ يد جمله إلا بعد أن قام به. والعِقال: الحبل الذي يُعقل به البعير.

(٤) أخرجه ابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٢ - ٢٣٣، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه أحمد (٢٣٣٣٤)، والطبري في التاريخ ٢/ ٥٨٠ - ٥٨١ ونقله المصنف من الدرر ص٢٠٠ - ٢٠١.

عن الأعمش، عن إبراهيم التَّيْمِيِّ، عن أبيه قال: كنَّا عند حذيفةَ، فقال رجل: لو أدركتُ رسولَ الله ﷺ قاتَلْتُ معه وأبلَيْتُ. فقال حذيفةُ: أنت كنتَ تفعلُ ذلك؟! لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ ليلةَ الأحزاب وأَخَذَتْنا ريحٌ شديدةٌ وقَرٌّ. فقال رسول الله ﷺ: «ألَا رجلٌ يأتيني بخبرِ القومِ جَعَلَه اللهُ معي يومَ القيامة»؟ فسَكَتْنا فلم يُجِبْه منَّا أحدٌ، ثم قال: «ألَا رجلٌ يأتينا بخبرِ القومِ جَعَلَه الله معي يومَ القيامة»؟ فسَكَتْنا فلم يُجِبْه أحدٌ. فقال: «قُمْ يا حذيفةُ فأْتِنا بخبرِ القومِ» فلم أَجِدْ بُدًّا إذ دعاني باسمي أنْ أقوم. قال: «اذهَبْ فَأْتني بخبرِ القوم ولا تَذْعَرْهم عَلَيَّ»: قال: فلمَّا وَلَّيتُ مِن عندِه جعلتُ كأنَّما أمشي في حَمَّام حتى أتيتُهم، فرأيتُ أبا سفيان يَصْلي ظَهْرَه بالنار، فوضعت سهماً في كَبِد القَوس فأردتُ أنْ أرْمِيَه، فذَكَرتُ قول رسول الله ﷺ: «ولا تَذْعَرْهم عَلَيَّ»، ولو رميتُه لأَصَبْتُه. فرجعتُ وأنا أمشي في مثل الحَمَّام، فلمَّا أتيتُه فأخبرتُه بخبر القوم وفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فأَلْبَسني رسول الله ﷺ من فضلِ عباءةٍ كانت عليه يصلِّي فيها، فلم أَزَلْ نائماً حتى أصبحتُ، فلمَّا أصبحتُ قال: «قُم يا نَوْمَان»[(١)].

ولـمَّا أصبح رسول الله ﷺ وقد ذهب الأحزابُ، رجع إلى المدينة ووضع المسلمون سلاحهم، فأتاه جبريلُ عليه السلام في صورةِ دِحْيَةَ بن خليفة الكلبيِّ على بغلةٍ عليها قطيفةُ ديباجٍ فقال له: يا محمد، إن كنتُم قد وضعتُم سلاحكم فما وَضَعَتِ الملائكةُ سلاحها، إنَّ الله يأمرك أن تخرج إلى بني قُريظةَ، وإنِّي متقدِّمٌ إليهم فمزلزِلٌ بهم حصونَهم[(٢)]. فأمر رسول الله ﷺ - وهي:

---

(١) صحيح مسلم (١٧٨٨). قوله: ولا تذعرهم علي، أي: لا تُفزعهم فتُهيِّجهم عليّ، وقوله: يَصْلي ظهره، أي: يسخنه بالنار، وقوله: كأنما أمشي في حمَّام: أي لم يصبه شيءٌ من ذلك البرد بفضل طاعة رسول الله ﷺ، وهي من كراماته، ألا ترى أنه لما فرغ من ذلك العمل أخذه البرد كما كان أول مرة؟ وقوله: قُررتُ، أي: أصابني القُرّ، وهو البرد. المفهم ٣/ ٦٤٧ - ٦٤٨ .

(٢) الدرر ص٢٠١ ، ورواه ابن إسحاق عن الزهري كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٣ . وأخرج نحوه أحمد (٢٤٢٩٥) و(٢٥٠٩٧)، والبخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩): (٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الثامنة ـ منادياً فنادى: لا يُصلِّينَّ أحدٌ العصرَ إلَّا في بني قُريظة، فتخوَّف ناسٌ فَوْتَ الوقت فصَلَّوْا دون بني قُريظة. وقال آخرون: لا نصلِّي العصرَ إلَّا حيث أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ وإنْ فاتنا الوقت. قال: فما عنَّف واحداً من الفريقين(١). وفي هذا من الفقه تصويبُ المجتهدين، وقد مضى بيانُه في «الأنبياء»(٢).

وكان سعد بن معاذ إذْ أصابه السهمُ دعا ربَّه فقال: اللَّهُمَّ إن كنتَ أبقيْتَ من حرب قريشٍ فأبقني لها؛ فإنه لا قوم أَحَبّ [إليَّ] أن أجاهدهم من قومٍ كذَّبوا رسولك وأخرجوه. اللّهُمَّ وإن كنتَ وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادةً، ولا تُمِتْني حتى تُقرَّ عيني في بني قُريظة(٣).

وروى ابن وَهْب عن مالك قال: بلغني أنَّ سعد بنَ معاذ مَرَّ بعائشةَ رضي الله عنها ونساءٍ معها في الأُطُم(٤) الذي [يقال له:] فارع، وعليه دِرعٌ مُقَلِّصةٌ مُشَمِّرَ الكُمَّيْن، وبه أثرُ صُفرةٍ وهو يرتجز:

لَبِّثْ قليلاً يُدْرِكِ الهَيْجا حَمَلْ(٥) لا بأسَ بالموت إذا حان الأَجَلْ

فقالت عائشةُ رضي الله عنها: لستُ أخافُ أن يصاب سعدٌ اليومَ إلَّا في أطرافه، فأصيب في أَكْحَله. وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك: قالت عائشةُ رضي الله عنها: ما رأيتُ رجلاً أَجْمَلَ من سعد بن معاذ ـ حاشا رسولَ الله ﷺ ـ فأصيبَ في أكحله، ثم قال: اللهمَّ إن كان حربُ قُريظةَ لم يبقَ منه شيءٌ فاقبضني إليك، وإن كان

---

(١) أخرجه البخاري (٤١١٩)، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنها، واللفظ لمسلم.

(٢) ١٤/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٣) الدرر ص٢٠١، وما بين حاصرتين منه، والخبر بنحوه عند البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩): (٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) الأُطُم: حصن مبني بالحجارة. القاموس (أطم).

(٥) في النسخ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٠٢، والكلام منه: جمل، وسلف الكلام عليه ص٧٦ من هذا الجزء.

قد بقيتْ منه بقيةٌ فأَبقني حتى أجاهد مع رسولك أعداءَه، فلمَّا حُكِّم في بني قُريظةَ تُوُفِّيَ، ففرح الناس وقالوا: نرجو أن يكون قد استُجيبتْ دعوتُه[١].

التاسعة: ولمَّا خرج المسلمون إلى بني قُريظةَ أعطَى رسول الله ﷺ الرايةَ عليّ بنَ أبي طالب، واستَخْلَف على المدينة ابنَ أمِّ مَكْتوم، ونهض عليٌّ وطائفةٌ معه حتى أَتَوْا بني قريظةَ ونازَلوهم، فسمعوا سبَّ الرسولِ ﷺ، فانصرف عليٌّ إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسولَ الله، لا تَبلُغْ إليهم، وعَرَّضَ له. فقال له: «أظنُّكَ سمعتَ منهم شَتْمي، لو رَأَوْني لَكَفُّوا عن ذلك» ونهضَ إليهم، فلمَّا رأوه أَمْسَكوا، فقال لهم: «نقضتُم العهدَ يا إخوةَ القرود، أخزاكم الله وأنزلَ بكم نقمتَه» فقالوا: ما كنتَ جاهلاً يا محمد فلا تَجْهَلْ علينا. ونزل رسول الله ﷺ فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلةً. وعَرَض عليهم سيِّدهُم كعبٌ ثلاثَ خصالٍ ليختاروا أيّها شاؤوا: إمَّا أن يُسْلِموا ويتَّبعوا محمداً على ما جاء به فيَسْلَموا. قال: وتُحْرِزوا أموالَكم ونساءَكم وأبناءَكم، فواللهِ إنكم لتعلمون أنه الذي تجدونه مكتوباً في كتابكم. وإمَّا أنْ يقتُلوا أبناءَهم ونساءَهم، ثم يتقدَّمون فيقاتلون حتى يموتوا عن آخرهم[٢]. وإمَّا أن يُبيِّتوا المسلمين ليلةَ السبت في حين طمأنينتهم فيقتلوهم قتلاً. فقالوا له: أمَّا الإسلامُ فلا نُسْلِمُ ولا نخالفُ حكمَ التوراة، وأمَّا قتلُ أبنائنا ونسائنا فما جزاؤهم المساكين منَّا أن نقتلهم، ونحن لا نتعدَّى في السبت.

ثم بعثوا إلى أبي لُبابةَ، وكانوا حلفاءَ بني عمرو بن عوف وسائرِ الأوْس، فأتاهم فجمعوا إليه أبناءهم ونساءهم ورجالَهم وقالوا له: يا أبا لُبابةَ، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ فقال: نعم. وأشار بيده إلى حَلْقه أنَّه الذبحُ إنْ فَعلتم. ثم ندم أبو لبابةَ في الحين، وعلم أنه خان اللهَ ورسولَه، وأنه أمرٌ لا يَسْتُره الله عليه عن نبيِّه ﷺ[٣]. فانْطلَق

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٠٢ وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) في النسخ: من آخرهم، والمثبت من الدرر ص٢٠٣ .

(٣) في (ظ): لا يستره الله على نبيه، وفي الدرر ص٢٠٣ (والكلام منه): لا يستره الله عن نبيِّه.

إلى المدينة ولم يرجع إلى النبيِّ ﷺ، فربط نفسَه في سارِيةٍ، وأَقْسَم أَلَّا يبرحَ من مكانه حتى يتوب الله عليه. فكانت امرأتُه تَحُلُّه لوقتِ كلِّ صلاة.

قال ابن عُيينة وغيرُه: فيه نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢٧]. وأَقسم أَلَّا يدخل أرضَ بني قُريظة أبداً، مكاناً أصاب فيه الذنب. فلمَّا بلغ ذلك النبيَّ ﷺ مِن فِعْلِ أبي لُبابةَ قال: «أمَا إنَّه لو أتاني لاستغفرتُ له، وأمَّا إذْ فَعَلَ ما فَعَلَ، فلا أُطْلِقُه حتى يُطْلقَه الله تعالى». فأنزل الله تعالى في أمر أبي لبابةَ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ١٠٢]. فلمَّا نزل فيه القرآن أمر رسول الله ﷺ بإطلاقه(١).

فلمَّا أصبح بنو قريظةَ نزلوا على حُكْمِ رسولِ الله ﷺ، فتواثَبَ الأوْسُ إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله، قد علمتَ أنَّهم حلفاؤنا، وقد أَسْعَفْتَ(٢) عبدالله بنَ أُبَيّ ابن سلول في بني النَّضِير حلفاءِ الخَزْرج، فلا يَكُنْ حظُّنا أَوْكَسَ وأَنقصَ عندك من حَظِّ غيرنا، فهم مَوَالينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشرَ الأوس، أَلَا تَرْضَوْن أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟» قالوا: بلَى. قال: «فذلك إلى سعد ابن معاذ». وكان رسولُ الله ﷺ قد ضَرَبَ له خيمةً في المسجد؛ ليعودَه مِن قريبٍ في مرضه مِن جُرْحِه الذي أصابه في الخندق. فحَكَم فيهم بأن تُقتل المقاتِلة، وتُسْبَى الذُّرِّيَّةُ والنساء، وتقسمَ أموالُهم. فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حَكَمْتَ فيهم بحكم الله تعالى من فوقِ سبعِ أَرْقِعة»(٣).

---

(١) الدرر ص٢٠٢ - ٢٠٤، وبنحوه في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٤ - ٢٣٧. وأخرجه البيهقي في الدلائل ٤/ ١٢ و ١٥ ضمن خبرين، الأول عن موسى بن عقبة، والثاني عن معبد بن كعب بن مالك، وقد سلف بعضه ٩/ ٤٩١.

(٢) في الدرر ص٢٠٥ (والكلام منه): شفعت.

(٣) الدرر ص٢٠٥ - ٢٠٦، وبنحوه في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠. وحكم سعد بن معاذ في بني قريظة أخرجه أحمد (٢٤٢٩٥)، والبخاري (٤١٢٢) ومسلم (١٧٦٩) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه أحمد (١١١٦٨)، والبخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وقوله: أرقعة، أي: سماوات. المفهم ٣/ ٥٩٥.

وأمر رسول الله ﷺ فأُخرجوا إلى موضعٍ بسوق المدينة اليومَ - زمنَ ابنِ إسحاق - فخندقَ بها خنادقَ، ثم أمر عليه الصلاةُ والسلام، فضُرِبتْ أعناقُهم في تلك الخنادق. وقُتل يومئذٍ حُييّ بنُ أخْطب وكعب بن أسد، وكانا رأسَ القوم، وكانوا من الستِّ مئة إلى السبع مئة. وكان على حُييٍّ حُلَّةٌ فُقَّاحِيَّةٌ[(١)] قد شقَّقها عليه من كلِّ ناحيةٍ كموضع الأَنْمَلة[(٢)]، أنملةً أنملةً لئلَّا يُسْلبَها. فلمَّا نظر إلى رسول الله ﷺ حين أُتي به ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبلٍ قال: أمَا واللهِ ما لُمتُ نفسي في عداوتك، ولكنَّه مَن يَخْذِل اللهَ يُخْذَل. ثم قال: يا أيها الناس، لا بأسَ بأمر الله، كتابٌ وقَدَرٌ ومَلْحمةٌ كُتبتْ على بني إسرائيل. ثم جلس فضُربت عنقُه[(٣)].

وقَتل من نسائهم امرأة، وهي بُنانةُ امرأةُ الحكم القُرَظِيِّ، التي طَرَحت الرَّحى على خَلَّاد بن سُويد فقتلته[(٤)].

وأَمر رسول الله ﷺ بقتلِ كلِّ مَن أَنْبتَ منهم وتَرْكِ مَن لم يُنْبِتْ. وكان عطيةُ القُرَظِيُّ ممن لم يُنْبِتْ، فاستحياه رسول الله ﷺ، وهو مذكور في الصحابة. ووَهب رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شمَّاس ولدَ الزَّبِير[(٥)] بن باطا فاستحياهم، منهم عبدُ الرحمن بن الزَّبير أسلم وله صحبة. وَوَهَب أيضاً عليه الصلاة والسلام رفاعةَ بن سَمَوْءل القُرظيَّ لأمِّ المنذر سلمى بنتِ قيس، أختِ سَليط بن قيس من بني النجار، وكانت قد صلَّت إلى القبلتين، فأسلم رفاعةُ وله صحبةٌ ورواية[(٦)].

---

(١) أي: على لون الورد حين همَّ أن يتفتَّح، والفُقَّاحةُ: واحدةُ الفُقَّاح، وهو زهر النبت حين ينفتح أيًّا كان لونه. اللسان (فقح).

(٢) الأَنْمَلة بالفتح: واحدة الأنامل، وهي رؤوس الأصابع. الصحاح (نمل).

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤١ .

(٤) الدرر ص٢٠٦ ، وأخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٢ ، وأحمد (٢٦٣٦٤)، وأبو داود (٢٦٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها، مطولاً دون ذكر اسم المرأة.

(٥) بفتح الزاي وكسر الباء. الروض الأنف ٣/ ٢٨٤ .

(٦) الدرر ص٢٠٦ - ٢٠٧ ، وذكر ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٤ أن رفاعة كان رجلاً قد =

وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال: أتى ثابت بنُ قيس بن شمَّاس إلى ابن باطا ـ وكانت له عنده يدٌ ـ وقال: قد استوهبتُك من رسول الله ﷺ ليدك التي لك عندي. قال: ذلك يَفْعلُ الكريم بالكريم، ثم قال: وكيف يعيش رجلٌ لا ولدَ له ولا أهل؟ قال: فأتى ثابتٌ إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأعطاه أهلَه وولده. فأتى فأعْلَمه فقال: كيف يعيشُ رجلٌ لا مالَ له؟ فأتى ثابتٌ النبيَّ ﷺ فطلبه فأعطاه مالَه. فرجع إليه فأخبره، قال: ما فَعلَ ابن أبي الحُقَيق الذي كأنَّ وجهه مرآة صِينيَّة؟ قال: قُتل. قال فما فَعَلَ المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظةَ وبني عمرو بن قُريظة. قال: قُتلوا. قال: فما فَعَلتِ الفئتان؟[1] قال: قُتلتا. قال: برئَتْ ذمَّتُكَ، ولن أصبَّ فيها دلواً أبداً ـ يعني النَّخْلَ ـ فألْحِقْني بهم. فأبى أن يقتله فقتله غيره. واليدُ التي كانت لابن باطا عند ثابتٍ أنه أَسره يومَ بُعاث، فجزَّ ناصيته وأَطْلقَه.

العاشرة: وقسَّم ﷺ أموالَ بني قُريظةَ، فأَسْهَمَ للفارس ثلاثةَ أَسْهُمٍ، وللراجل سهماً. وقد قيل: للفارس سهمان، وللراجل سهم. وكانت الخيلُ للمسلمين يومئذٍ ستةً وثلاثين فرساً. ووقع للنبيِّ ﷺ مِن سَبْيهم ريحانةُ بنتُ عمرو بن خنافة[2] أحد بني عمرو ابن قُريظة، فلم تَزَلْ عنده إلى أن مات ﷺ[3]. وقيل: إنَّ غَنيمة قريظةَ هي أوّل غنيمةٍ قُسم فيها للفارس والراجل، وأوّلُ غنيمةٍ جُعِلَ فيها الخُمس. وقد تقدَّم أنَّ أوّل ذلك كان في بعث عبد الله بن جَحْش[4]، فالله أعلم.

= بلغ، فلاذ بسلمى ـ وكان يعرفهم قبل ذلك ـ فطلبته من رسول الله ﷺ، فوهبه لها.

(١) في (د): القينان، وفي أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٩ (والكلام منه): القينتان. ولم ترد هذه العبارة في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٢ - ٢٤٣ ، حيث ذكر الخبر بنحوه عن ابن إسحاق.

(٢) بالخاء المعجمة، وقيل: قنافة بالقاف، عرض عليها رسول الله ﷺ الإسلام فامتنعت، ثم أسلمت بعد ذلك. وقد قيل: أعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها، وقيل: خيَّرها فاختارت أن تبقى في ملكه. ينظر الإصابة ١٢/ ٢٦٧ . وسيذكرها المصنف ص١٢٣ من هذا الجزء.

(٣) وسيأتي ص١٢٣ أنها ماتت في حياته ﷺ، وهو الذي رجحه الواقدي. ينظر طبقات ابن سعد ٨/ ١٣٠ - ١٣١ .

(٤) الدرر ص٢٠٧ ، وسلف الكلام عن الخمس في سرية عبد الله بن جحش ؓ ٣/ ٤٢١ و ١٠/ ١٨ .

قال: أبو عمر[١]: وتهذيبُ ذلك أن تكون غنيمةُ قريظةَ أوّلَ غنيمةٍ جرى فيها الخمسُ بعد نزول قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية [الأنفال: ٤١]، وكان عبد الله بن جَحْش قد خمَّس قبل ذلك في بَعْثِه، ثم نزل القرآن بمثلِ ما فَعَلَه؛ وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه.

وكان فَتْحُ قريظةَ في آخِرِ ذي القَعدةِ وأوّلِ ذي الحِجَّة من السنة الخامسة من الهجرة. فلمَّا تمَّ أمر بني قريظةَ أجيبتْ دعوةُ الرجل الفاضل الصالح سعد بنِ معاذ، فانفجر جرحُه، وانفتح عِرْقُه، فجرى دمه ومات ﷺ. وهو الذي أتى الحديث فيه: «اهتَزَّ لموته عَرْشُ الرّحمن» يعني سكّانَ العرش من الملائكة فرِحوا بقدوم روحه واهتزُّوا له[٢].

وقال ابن القاسم عن مالك: حدَّثني يحيى بن سعيد قال: لقد نزل لموت سعد بن معاذٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ، ما نزلوا إلى الأرض قبلها[٣].

قال مالك: ولم يُسْتشهَدْ يومَ الخَنْدق من المسلمين إلَّا أربعةٌ أو خمسة[٤].

قلت: الذي اسْتُشْهِد يومَ الخندق من المسلمين ستةُ نفرٍ فيما ذكر أهل العلم بالسِّيَر: سعد بن معاذ أبو عمرو من بني عبد الأشهل، وأنس بن أوْس بن عَتيك، وعبد الله بن سهل، وكلاهما أيضاً من بني عبد الأشهل. والطُّفيل بنُ النعمان، وثعلبة ابنُ عَنَمَة[٥]، وكلاهما من بني سلمةَ، وكعب بن زيد من بني دينار بن النجار، أصابه سَهْمٌ غَرْبٌ فقتله، ﷺ[٦].

---

(١) في الدرر ص ١٨٢ (طبعة دار المعارف).

(٢) الدرر ص٢٠٧ . والحديث أخرجه أحمد (١٤١٥٣)، والبخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦) عن جابر ﷺ.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٠٣ ، وأخرجه ابن سعد ٣/ ٤٣٠ ، والنسائي في المجتبى ٤/ ١٠٠-١٠١ من حديث ابن عمر ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٠٠ .

(٥) بفتح العين المهملة والنون، كذا قيده الحافظ في الإصابة ٢/ ٢٤ .

(٦) الدرر ص٢٠٨ ، وبنحوه في السيرة ٢/ ٢٥٢ . قال ابن هشام: سهمُ غَرْبٍ، وسهمٌ غَرْبٌ، بإضافة =

وقُتل من الكفار ثلاثةٌ: منبِّه بنُ عثمان بن عبيد بن السبَّاق بن عبد الدار، أصابه سهمٌ مات منه بمكة. وقد قيل: إنَّما هو عثمان بن أمية بن منبِّه بن عبيد بن السبَّاق. ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميُّ، اقتحم الخندق فتورَّط فيه فقُتِل، وغَلَبَ المسلمون على جسده، فروي عن الزهريِّ أنَّهم أعطَوْا رسولَ الله ﷺ في جسده عشرةَ آلافِ درهمٍ فقال: «لا حاجةَ لنا بجسده ولا بثمنه» فخلَّى بينهم وبينه. وعمرو بن [عبد] ودٍّ الذي قتله عليٌّ مبارزةً، وقد تقدَّم(١).

واستُشْهِدَ يومَ قُريظةَ من المسلمين خَلَّاد بنُ سُويد بن ثعلبةَ بن عمرو من بني الحارث بن الخزرج، طَرَحت عليه امرأةٌ من بني قُريظةَ رحًى فقتلته. ومات في الحصار أبو سنان بن مِحْصَن بن حُرْثان الأسديُّ، أخو عُكاشة بن مِحْصَن، فَدَفَنه رسول الله ﷺ في مقبرة بني قُريظة التي يتدافَنُ فيها المسلمون السكانُ بها اليوم. ولم يُصَب غيرُ هذين، ولم يَغْزُ كفارُ قريش المؤمنين بعد الخندق(٢).

وأسند الدارِميُّ أبو محمد في «مسنده»: أخبرنا يزيد بن هارون، عن ابن أبي ذِئب، عن المَقْبُريِّ، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، عن أبيه قال: حُبِسْنا يومَ الخندق حتى ذهب هَوِيٌّ من الليل حتى كُفِيْنا، وذلك قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. فأمر النبيُّ ﷺ بلالاً فأقام فصلَّى الظهرَ، فأَحْسَن كما كان يصلِّيها في وقتها، ثم أمره فأقام العصرَ فصَلَّاها، ثم أمره فأقام المغرب فصلَّاها، ثم أمره فأقام العشاءَ فصلَّاها، وذلك قبل أن ينزل:

= ومن غير إضافة: هو الذي لا يُعرف من أين جاء، ولا مَن رمى به.

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٥٣، والدرر ص٢٠٨، وما بين حاصرتين منهما، وسلف الكلام في المسألة الخامسة.

(٢) الدرر ص٢٠٨، وبنحوه في السيرة ٢/ ٢٥٤. وسلف خبر المرأة التي قتلت خلاد بن سويد ص٨٦ من هذا الجزء. وأخرج أحمد (١٨٣٠٨)، والبخاري (٤١١٠) عن سليمان بن صُرَد ﷺ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول حين أجْلى الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم».

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٨][١]. خرَّجه النسائيُّ أيضاً[٢]. وقد مضت هذه المسألة في «طه»[٣]. وقد ذكرنا في هذه الغَزاة أحكاماً كثيرةً لمَن تأمَّلها في مسائلَ عشرٍ. ثم نرجع إلى أول الآيِ، وهي تسعَ عَشْرةَ آيةً تضمَّنت ما ذكرناه[٤].

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الأحزاب ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ قال مجاهد: هي الصَّبا، أُرسلت على الأحزاب يومَ الخندق حتى ألْقَتْ قُدُورَهم ونَزَعَتْ فَسَاطِيطَهم، قال: والجنودُ: الملائكةُ، ولم تُقاتِلْ يومئذٍ[٥].

وقال عِكْرِمةُ: قالت الجَنوب للشَّمال ليلةَ الأحزاب: انْطَلِقي لنُصْرةِ النبيِّ ﷺ، فقالت الشَّمال: إنَّ مَحْوَةَ[٦] لا تَسْرِي بليل. فكانت الريح التي أُرسلت عليهم الصَّبا.

وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلكَتْ عادٌ بالدَّبُور»[٧].

وكانت هذه الريحُ معجزةً للنبيِّ ﷺ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ والمسلمين كانوا قريباً منها، لم يكن بينهم وبينها إلَّا عرضُ الخندق، وكانوا في عافيةٍ منها، ولا خبرَ عندهم بها.

---

(١) سنن الدارمي (١٥٢٤)، وهو عند أحمد (١١١٩٨). والهَوِيّ: الحين الطويل من الزمان، وقيل: هو مختصٌّ بالليل. النهاية (هوا).

(٢) في المجتبى ٢/ ١٧ .

(٣) ١٤/ ٣٠ .

(٤) من الآية (٩) إلى آخر الآية (٢٧).

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٨ .

(٦) محوة: ريح الشمال، سميت بذلك لأنها تمحو السحاب وتذهب بها، وهي مَعرِفة لا تنصرف، ولا تدخلها ألف ولام. اللسان (محا). ووقع في (ظ): الحُرة، وهو موافق لما في تفسير الطبري ١٩/ ٢٥ ، وفيه تخريج الخبر.

(٧) أخرجه أحمد (١٩٥٥) و(٢٠١٣)، والبخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠). وهو عند البخاري من طريق مجاهد عن ابن عباس وعند أحمد ومسلم من الطريقين. والصبا: الريح الشرقية، والدَّبُور: الريح الغربية.

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وقُرئ بالياء[١]، أي: لم يَرَها المشركون. قال المفسِّرون: بعث الله تعالى عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطَّعَتْ أَطْنابَ الفساطيط، وأطفأت النيران، وأَكْفأت القُدور، وجالت الخيلُ بعضُها في بعض، وأرسل الله عليهم الرُّعْب، وكَثُر تكبير الملائكة في جوانب العسكر، حتى كان سيِّدُ كلِّ خباءٍ يقول: يا بني فلان هلمَّ إليَّ، فإذا اجتمعوا قال لهم: النَّجَاءَ النَّجَاءَ، لِمَا بعث الله تعالى عليهم من الرعب[٢].

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وقرئ: «يعملون» بالياء على الخبر، وهي قراءةُ أبي عمرو. الباقون بالتاء[٣]، يعني من حَفْرِ الخندق والتحرُّزِ من العدوّ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ «إذْ» في موضع نصبٍ بمعنى: واذكر. وكذا: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ [الآية: ١٣]. «مِن فوقِكُم» يعني من فوق الوادي، وهو أعلاه من قِبَلِ المَشْرِق، جاء منه عَوْف بنُ مالك[٤] في بني نَصْر، وعيينةُ ابن حِصْنٍ في أهل نَجْدٍ، وطُليحةُ بن خُوَيْلد الأَسَديُّ في بني أسد. «ومِن أَسْفَلَ منكم» يعني من بطن الوادي من قِبَل المغرب، جاء منه أبو سفيان بنُ حرْب على أهل مكة، ويزيد بنُ جَحْشٍ على قريش، وجاء أبو الأعور السُّلَميُّ ومعه حُيَيّ بنُ أخْطب اليهوديُّ في يهود بني قُريظة مع عامر بن الطُّفَيل من وجه الخندق[٥].

﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: شَخصت. وقيل: مالت؛ فلم تلتفتْ إلَّا إلى عدوِّها

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٨.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٥٠٩. وأخرج نحوه الطبري ١٩/ ٢٨ عن قتادة.

(٣) السبعة ص٥١٩، والتيسير ص١٧٧.

(٤) كذا. ولعله مالك بن عوف. ينظر الإصابة ٧/ ١٧٩ و٩/ ٦٤.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٧٩.

دَهَشاً من فَرْط الهَوْل.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي: زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجرَ، وهي الحلاقيم، واحدُها: حَنْجَرة[١]. فلولا أنَّ الحلوقَ ضاقت عنها لخرجت؛ قاله قتادة[٢].

وقيل: هو على معنى المبالغةِ على مذهب العرب على إضمار كاد؛ قال:

إذا ما غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هتَكْنا حجابَ الشمس أو قَطَرَتْ دَمَا[٣]

أي: كادت تَقْطُر.

ويقال: إنَّ الرئة تنتفخ[٤] عند الخوف، فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغُ الحَنْجَرةَ مثلاً؛ ولهذا يقال للجبان: انتفخ سَحْرُه[٥].

وقيل: إنه مثلٌ مضروبٌ في شدَّة الخوف ببلوغ القلوبِ الحناجرَ وإن لم تَزُلْ عن أماكنها مع بقاء الحياة[٦]. قال معناه عكرمة؛ روى حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمةَ قال: بَلَغ فَزَعُها[٧]. والأَظْهَرُ أنه أراد اضطرابَ القلب وضَرَبانَه، أي: كأنه لشدَّة اضطرابه بلغ الحنجرة. والحَنْجَرة والحُنْجُور ـ بزيادة النون[٨] ـ: حرفُ الحَلْق.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٣ .

(٣) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٤٩٧ برواية: أو تمطر الدما. وذكره برواية المصنف ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٧٦٠ ، والبصري في الحماسة ١/ ١٧ . وقد ذكر هذا القول ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص١٣٠ .

(٤) في (د) و(ظ) و(م): تنفتح.

(٥) ذكر هذا القول الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٦١ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٥٣ ، والبغوي ٣/ ٥١٦ . والسَّحْر: الرئة. القاموس (سحر).

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٢٩ ، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧١ ، والطبري ١٩/ ٣٥ .

(٨) يعني بزيادة النون على «حجر»، ينظر الصحاح (حجر).

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا۠﴾ قال الحسن: ظنَّ المنافقون أنَّ المسلمين يُستأصَلون، وظنَّ المؤمنون أنَّهم يُنصرون[١]. وقيل: هو خطابٌ للمنافقين، أي: قُلتم: هلكَ محمدٌ وأصحابه.

واختلف القرَّاء في قوله تعالى: ﴿الظُّنُونَا۠﴾ و﴿الرَّسُولَا۠﴾ و﴿السَّبِيلَا۠﴾ [الآيتان: ٦٦و٦٧] آخِرَ السورة؛ فَأَثبت أَلِفاتِها في الوقف والوصل نافعٌ وابن عامر[٢]، ورويَ عن أبي عمرو والكسائيِّ[٣]؛ تمسُّكاً بخطِّ المصحف، مصحفِ عثمان، وجميعِ المصاحف في جميع البلدان[٤]. واختاره أبو عبيد، إلَّا أنه قال: لا ينبغي للقارئ أن يُدرج القراءة بعدهنَّ، لكنْ يقف عليهنّ. قالوا: ولأنَّ العرب تفعل ذلك في قوافي أشعارهم ومَصَاريعها؛ قال:

نحن جلبنا القُرَّحَ القَوافِلَا تَسْتَشْفِرُ[٥] الأواخِرُ الأوائلا[٦]

وقرأ أبو عمرو والجَحْدريُّ ويعقوبُ وحمزةُ بحَذْفِها في الوصل والوقف معاً[٧]؛ قالوا: هي زائدةٌ في الخطِّ كما زِيدَتْ الألفُ في قوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧][٨] فكتبوها كذلك، وغير هذا. وأمَّا الشعرُ فموضعُ ضرورةٍ، بخلاف القرآن فإنه أَفْصَحُ اللغات ولا ضرورةَ فيه. قال ابن الأنباريِّ: ولم يُخالِف المصحفَ مَن

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٥ - ٣٦ .

(٢) وأثبتها أيضاً عاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص٥١٩ ، والتيسير ص١٧٨ .

(٣) والمشهور عنهما غيره على ما يأتي. وذكرها عن أبي عمرو ابن مجاهد في السبعة ص٥٢٠ .

(٤) ذكره أبو عمرو الداني في المُقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار ص٣٩ .

(٥) المثبت من (خ)، وفي غيرها: تستنفر.

(٦) الرجز لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٣٥ ، قال شارحه: القرَّح القوافلا، يعني الخيل المسنَّة الضامرة، يقال: قفل الفرس: إذا ضمر. وقوله: «تستثفر الأواخر الأوائلا»، أي: يتلو أواخرُ الخيل أوائلَها، ويروى: تستشرف، وتستفرم.

(٧) السبعة ص٥١٩ ، والتيسير ص١٧٨ ، والنشر ٢/ ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٨) يعني أن رسم المصحف «ولا أوضعوا» وكذلك في النمل: «أولا أذبحنه» [الآية: ٢١] بزيادة ألف. ينظر المقنع ص٤٥ .

قرأ: «الظنونَ» و«السبيلَ» و«الرسولَ» بغير ألف في الحروف الثلاثة، وخطُّهنَّ في المصحف بألفٍ؛ لأنَّ الألف التي في «أطعنا»، أو الدَّاخِلةَ[١] في أوّل «الرسول، والظنون، والسبيل» كفَى من الألف المتطرِّفةِ المتأخِّرةِ، كما كَفَتْ أَلِفُ أبي جادٍ من أَلِفِ هوَّاز[٢].

وفيه حجةٌ أخرى: أنَّ الألف أُنزلت منزلةَ الفتحةِ وما يُلحَقُ دِعامة للحركة التي تسبق، والنيةُ فيه السقوط، فلمَّا عُمل على هذا كانت الألفُ مع الفتحة كالشيء الواحد يوجب الوقفُ سقوطَها[٣]، ويُعمَل على أنَّ صورة الألف في الخطِّ لا توجِبُ موضعاً في اللفظ، وأنَّها كالألف في «ساحران» وفي «فاطر السماوات والأرض» وفي «واعَدْنَا مُوسى»، وما يشبههنَّ ممَّا يُحذف من[٤] الخطِّ وهو موجودٌ في اللفظ، ويثبت في اللفظ وهو مُسْقَطٌ من الخط.

وفيه حجةٌ ثالثةٌ: هي أنه كُتب على لغة مَن يقول: لقيتُ الرجُلَا، وقرئ على لغة مَن يقول: لقيت الرجلَ، بغير ألف. أخبرنا أحمد بن يحيى عن جماعةٍ من أهل اللغة أنَّهم رَوَوْا عن العرب: قام الرَّجُلُو، بواو، ومررتُ بالرَّجُلي، بياء، في الوصل والوقف. ولقيتُ الرجُلا، بألف في الحالتين كلتيهما. قال الشاعر:

أسائلةٌ عُميرةُ عن أبيها خلالَ الجيش تَعْتَرِفُ الرِّكابا[٥]

---

(١) في (م): والداخلة.

(٢) يعني بها حروف: أبجد هوَّز حطِّي كلمن صعفض قريسات، التي هي أصل حروف التهجِّي، وأصل أبجد: أبو جاد، وأصل هوّز: هوّاز، وقد كفت ألف أبجد من ألف هوَّاز، فكلما مُثِّل الحرف مرةً؛ استُغنيَ عن إعادته. ينظر المحكم في نَقْط المصاحف للداني ص٢٩ وما بعدها، والفهرست لابن النديم ص٧ .

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): سقوطهما.

(٤) في (د) و(ظ): في.

(٥) البيت لبشر بن أبي خازم، وهو في ديوانه ص٧٣ ، والصحاح (عرف)، وأساس البلاغة (عرف). ووقع في الصحاح: الركب، بدل: الجيش. وقوله: تعترف، قال الجوهري: اعترفتُ القوم: إذا سألتَهم عن خبر لتعرفه.

فأثْبتَ الألفَ في «الركاب» بناءً على هذه اللغة. وقال الآخر:

إذا الجوزاءُ أردفت الثُّريا ظننتُ بآل فاطمةَ الظُّنونا[1]

وعلى هذه اللغة بنَى نافعٌ وغيره.

وقرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن والكسائيُّ بإثباتها في الوقف وحَذْفِها في الوصل[2]. قال ابن الأنباريِّ: ومَن وَصَلَ بغير ألفٍ ووَقَفَ بألفٍ فجائزٌ أن يحتجَّ بأنَّ الألف احتاج إليها عند السَّكْتِ حرصاً على بقاء الفتحة، وأنَّ الألف تَدْعَمُها وتقوِّيها.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾

«هنا» للقريب من المكان. و«هنالك» للبعيد. و«هناك» للوسط. ويُشارُ به إلى الوقت، أي: عند ذلك اختُبِر المؤمنون ليتبيَّن المخْلِصُ من المنافق. وكان هذا الابتلاءُ بالخوف والقتال والجوع والحَصْر والنِّزال. ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي: حرِّكوا تحريكاً. قال الزَّجَّاج: كلُّ مصدرٍ من المضاعَفِ على فِعلال يجوز فيه الكسرُ والفتحُ، نحو: قلقلتُه قِلقالاً وقَلقالاً، وزُلزلوا زِلزالاً وزَلزالاً. والكسرُ أَجْوَدُ؛ لأنَّ غيرَ المضاعَفِ على الكسر، نحو: دحرجتُه دِحراجاً[3]. وقراءةُ العامة بكسر الزاي، وقرأ عاصم والجحدرِيُّ[4]: «زَلزالاً» بفتح الزَّاي.

قال ابن سلام: أي: حُرِّكوا بالخوف تحريكاً شديداً. وقال الضحَّاك: هو

---

(١) البيت لخُزيمة بن نَهْد، كما في الأغاني ١٣/ ٧٨، وجمهرة الأمثال ١/ ١٢٣، ومجمع الأمثال ١/ ٧٥. وفي كتاب الأمثال لأبي عبيد ص٣٤٥: حزيمة، بالحاء، وأشار إليه الميداني حيث قال: ويروى: حزيمة، كذا رواه أبو الندى في أمثاله. وفاطمة هي بنت يَذْكُر بنِ عَنَزَة، وكان خزيمة يهواها.

(٢) وهي قراءة عاصم من رواية حفص أيضاً. السبعة ص٥١٩، والتيسير ص١٧٨.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢١٨ - ٢١٩.

(٤) كذا في النسخ، ولعل صواب العبارة: عاصم الجحدري دون واو (وهو ابن العجاج)، أما عاصم بن أبي النجود ـ وهو أحد القراء السبعة ـ فقراءته كقراءة الجمهور، وقد نسبها لعاصم الجحدري ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص١١٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٣، وأبو حيان في البحر ٧/ ٢١٧ وزاد نسبتها لعيسى.

إزاحتُهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلَّا موضعُ الخندق. وقيل: إنه اضطرابهم عمَّا كانوا عليه، فمنهم مَن اضْطَربَ في نفسه، ومنهم مَن اضْطَربَ في دينه[١].

و«هنالِك» يجوز أن يكون العاملُ فيه: «ابْتُليَ»، فلا يُوْقَفُ على «هنالك». ويجوز أن يكون «وتَظُنُّون بالله الظُّنونا»؛ فيوقَفُ على «هنالك»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ ونفاقٌ: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلاً من القول. وذلك أنَّ طُعْمَةَ بن أُبَيْرِق ومُعَتِّب بن قُشير وجماعةً نحوٌ من سبعين رجلاً قالوا يومَ الخندق: كيف يَعِدنا كنوزَ كِسْرى وقَيْصر ولا يستطيع أحدُنا أن يتبرَّز؟! وإنَّما قالوا ذلك لمَا فَشَا في أصحاب النبيِّ ﷺ مِن قوله عند ضرب الصخرة، على ما تقدَّم في حديث النَّسائيِّ[٣]، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ الطائفةُ تقع على الواحد فما فوقه. وعُنيَ به هنا أوْس بن قَيْظِيٍّ والدُ عَرَابَةَ بن أوس، الذي يقول فيه الشَّمَّاخ:

إذا مـا رايـةٌ رُفِـعَـتْ لـمَـجْـدٍ ... تـلـقَّـاهـا عَـرابـةُ بـالـيـمـيـنِ[٤]

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٨٠ - ٣٨١ ، وابن سلام هو يحيى.

(٢) وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٣ : ومن قال: إن العامل فيه: «وتظنون» فليس بالقوي؛ لأن البدأة ليست متمكنة.

(٣) ص٧٣ من هذا الجزء.

(٤) الدرر ص١٩٤ ، والتعريف والإعلام للسهيلي ص١٣٧ ، وسلف البيت ٦/ ٣٨ .

و «يَثْرِب» هي المدينة، وسَمَّاها رسول الله ﷺ طَيْبَةَ وطابة[١]. وقال أبو عبيدة[٢]: يثرب اسم أرضٍ، والمدينةُ ناحيةٌ منها. السُّهَيْليُّ[٣]: وسُمِّيتْ يثرب لأنَّ الذي نزلها من العماليق اسمُه يثرب بن عميل[٤] بن مهلائيل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم. وفي بعض هذه الأسماء اختلاف. وبنو عميل هم الذين سكنوا الجُحْفَة، فأجْحفت بهم السيول فيها، وبها سمِّيت الجُحْفة.

﴿لا مَقَامَ لكم﴾ بفتح الميم قراءةُ العامّة. وقرأ حفصٌ والسُّلَميُّ والجحدرِيُّ وأبو حَيْوَةَ بضمِّ الميم[٥]، يكون مصدراً من أَقام يُقيم، أي: لا إقامةَ، أو موضعاً يقيمون فيه. ومَن فتح فهو اسمُ مكان[٦]، أي: لا موضعَ لكم تقيمون فيه.

﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ أي: إلى منازلكم؛ أَمَروُهم بالهروب من عسكر النبيِّ ﷺ. قال ابن عباس: قالت اليهود لعبد الله بن أُبَيّ ابن سلول وأصحابِه من المنافقين: ما الذي يحملكم على قَتْلِ أنفسِكم بيدِ أبي سفيان وأصحابِه؟! فارجعوا إلى المدينة فإنَّا مع القوم، فأنتم آمنون.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ في الرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وهم بنو حارثةَ بن الحارث، في قول ابن عباس. وقال يزيد بن رُومان: قال ذلك أوس بن قَيظِيٍّ عن ملأ من قومه[٧]. ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: سائبةٌ ضائعةٌ ليست بحصينة،

---

(١) تسميتها طيبة عند أحمد (٢١٥٩٩)، والبخاري (٤٠٥٠)، ومسلم (١٣٨٤) من حديث زيد بن ثابت ﷺ. وتسميتها طابة عند أحمد (٢٣٦٠٤)، والبخاري (١٤٨١)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حميد الساعدي ﷺ.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٣٤ . ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٠٦ .

(٣) في التعريف والإعلام ص١٣٧ .

(٤) وقع في مطبوع التعريف والإعلام: عبيل، في الموضعين.

(٥) السبعة ص٥٢٠ ، والتيسير ص١٧٨ عن حفص.

(٦) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٦ .

(٧) أخرج القولين الطبري ١٩/ ٤٤ .

وهي مما يلي العدوَّ. وقيل: مُمْكِنةٌ للسُّرَّاق لخُلوِّها من الرجال. يقال: دارٌ مُعْوِرةٌ وذاتُ عَوْرةٍ: إذا كان يَسْهُلُ دخولُها. يقال: عَوِرَ المكان عَوَراً فهو عَوِر. وبيوتٌ عَوِرَة. وأَعْوَرَ فهو مُعْوِر. وقيل: عَوِرةٌ: ذاتُ عَوْرة. وكلُّ مكانٍ ليس بممنوعٍ ولا مستورٍ فهو عَوْرة؛ قاله الهرَوِيُّ.

وقرأ ابن عباس وعِكرمةُ ومجاهد وأبو رجاء العُطارِديُّ: «عَوِرة» بكسر الواو[١]، يعني قصيرة الجدران فيها خَلَل؛ تقول العرب: دارُ فلانٍ عَوِرةٌ: إذا لم تكن حصينةً. وقد أَعْوَر الفارِس: إذا بَدَا فيه خَلَلٌ للضَّرب والطَّعْنِ؛ قال الشاعر:

متى تَلْقَهم لم تَلْقَ في البيت مُعْوِراً ولا الضيفَ مفجوعاً ولا الجارَ مُرْمِلَا[٢]

الجوهريُّ[٣]: والعَوْرةُ: كلُّ خَلَلٍ يُتَخوَّف منه في ثَغرٍ أو حرب. النحاس[٤]: يقال: أَعْوَرَ المكان: إذا تَبيَّنتْ فيه عورةٌ، وأَعْوَرَ الفارس: إذا تَبيَّن منه موضعُ الخلل.

المهدوِيُّ: ومَن كَسَرَ الواوَ في «عورة» فهو شاذٌّ، ومِثْلُه قولُهم: رجلٌ عَوِرٌ، أي: لا شيءَ له، وكان القياسُ أن يُعَلَّ فيقال: عارٍ، كيومٍ راحٍ، ورجلٍ مالٍ[٥]؛ أصلُهما: رَوِح ومَوِل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ تكذيباً لهم وردًّا عليهم فيما ذكروه. ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: ما يريدون إلَّا الهربَ. قيل: من القتل. وقيل: من الدِّين. وحكى النَّقَّاش أنَّ هذه الآيةَ نزلت في قبيلتين من الأنصار: بني حارِثةَ وبني سَلِمة، وهَمُّوا أن

---

(١) المحتسب ٢/ ١٧٦.

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١٢٩، وسيرة ابن هشام ١/ ٥٢٤ برواية:

متى تلقهم لا تلق في البيت عورة ولا الجار محروماً ولا الأمر ضائعاً

وذكره الحصري القيرواني في زهر الآداب ٢/ ٩٠٦ بنحوه مع بيتين آخرين في مدح آل جفنة.

(٣) في الصحاح (عور).

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٠٦.

(٥) بنحوه في المحتسب ٢/ ١٧٦.

يتركوا مراكزهم يومَ الخندق، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ الآية [آل عمران: ١٢٢]، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ قالوا: واللهِ ما ساءَنا ما كنَّا هَمَمْنا به؛ إذ اللهُ وليُّنا[١].

وقال السُّدِّيُّ: الذي استأذنه منهم رجلان من الأنصار من بني حارثةَ؛ أحدهما: أبو عَرابةَ بن أوس، والآخَر: أوْس بنُ قَيْظِيٍّ. قال الضحَّاك: ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ وهي البيوتُ أو المدينة، أي: من نواحيها وجوانِبها، الواحدُ: قُطْر، وهو الجانبُ والناحية. وكذلك القُتْر لغةٌ في القُطْر[٣]. ﴿ثم سُئلوا الفتنةَ لأَتَوْها﴾ أي: لجاؤوها؛ هذا على قراءة نافعٍ وابن كثير بالقَصْر. وقرأ الباقون بالمدِّ[٤]، أي: لأَعْطَوْها من أنفسهم، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقد جاء في الحديث: أنَّ أصحاب النبيِّ ﷺ كانوا يعذَّبون في الله ويُسألون الشِّرْكَ، فكلٌّ أعطى ما سألوه إلَّا بلالاً[٥]. وفيه دليلٌ على قراءة المدِّ، من الإعطاء.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٨٣ ، وفيه: إن كان الله ولينا.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٨٢ ، وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٨٨ . ولعل في رواية السّديّ وهماً، فقد سلف ص٩٦ أن أوس بن قيظي هو أبو عرابة بن أوس.

(٣) الصحاح (قتر) و(قطر).

(٤) السبعة ص٥٢٠ ، والتيسير ص١٧٨ . وزاد ابن مجاهد نسبتها لابن عامر، وهي روايةٌ عن ابن ذكوان، كما ذكر ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٤٨ .

(٥) أخرجه أحمد (٣٨٣٢)، وابن ماجه (١٥٠) من حديث ابن مسعود ﷺ مطولاً، وفيه: وأتاهم على ما أرادوا، بدل: أعطى ما سألوا، وسلف بنحوه ١٢/ ٤٣٣ - ٤٣٤ .

ويدلُّ على قراءةِ القَصْرِ قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ فهذا يدلُّ على «لَأَتَوْها» مقصوراً[(١)].

وفي «الفتنة» هنا وجهان: أحدهما: سُئلوا القتالَ في العصبية لأسرعوا إليه؛ قاله الضحَّاك. الثاني: ثم سئلوا الشركَ لأجابوا إليه مسرعين؛ قاله الحسن[(٢)].

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ﴾ أي: بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلَّا قليلاً حتى يهلكوا؛ قاله السُّدِّيُّ والقُتَبيُّ والحسن والفرَّاء[(٣)]. وقال أكثر المفسِّرين: أي: وما احْتَبَسوا عن فتنة الشِّرك إلَّا قليلاً، ولأجابوا بالشرك مسرعين[(٤)]، وذلك لضَعْفِ نيَّاتهم ولِفَرْطِ نفاقهم؛ فلو اختلطتْ بهم الأحزابُ لأظْهَروا الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ غزوةِ الخندقِ وبعدَ بدر. قال قتادةُ: وذلك أنَّهم غابوا عن بدرٍ ورأَوْا ما أعطى الله أهلَ بدر من الكرامة والنصر، فقالوا: لئن أشْهَدَنا اللهُ قتالاً لنقاتلنَّ.

وقال يزيد بنُ رومان: هم بنو حارثةَ؛ هَمُّوا يومَ أُحُدٍ أن يفشلوا مع بني سَلِمة، فلمَّا نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألَّا يعودوا لمِثْلِها، فذكر اللهُ لهم الذي أعطَوْه من أنفسهم[(٥)]. ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي: مسؤولاً عنه.

---

(١) قال النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٠٧ . أي: لو دخل عليهم الكفار لجاؤوهم. وهذا خلاف ما عاهدوا الله عليه. وقال أيضاً: الحديث في أمر بلال لا يشبه الآية؛ لأن الله عزَّ وجلَّ خبّر عن هؤلاء بهذا الخبر، وبلال وأصحابه إنما أكرهوا.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٤ ، وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٣٣ .

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٦٢ عن السدي، وتفسير البغوي ٣/ ٥١٧ عن الحسن، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٧ ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٤٩ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥١٧ .

(٥) أخرج قول قتادة وقول يزيد بن رومان الطبري ١٩/ ٤٧ .

قال مقاتل والكَلْبيُّ: هم سبعون رجلاً بايعوا النبيَّ ﷺ ليلةَ العقبة وقالوا: اشْتَرِطْ لنفسك ولربِّك ما شئت. فقال: «أَشْتَرِطُ لربِّي أن تعبدوه ولا تُشرِكوا به شيئاً، وأَشْتَرِطُ لنفسي أن تَمنعوني مما تمنعون منه نساءَكم وأموالَكم وأولادَكم» فقالوا: فما لنا إذا فَعَلْنا ذلك يا نبيَّ الله؟ قال: «لكم النَّصْرُ في الدُّنيا، والجنةُ في الآخرة»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي: إنَّ الله لَيسألُهم عنه يومَ القيامة[١].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: مَن حَضَر أجلُه مات أو قُتل، فلا ينفع الفِرار. ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا بعد الفِرار إلى أن تنقضي آجالُكم، وكلُّ ما هو آتٍ فقريبٌ.

وروى السَّاجيُّ عن يعقوبَ الحضرميِّ: «وإذاً لايُمتَّعون» بياء[٢]. وفي بعض الروايات: «وإذاً لا تُمتَّعوا» نصبٌ بـ«إذاً». والرفعُ بمعنى: ولا تمتَّعون، و«إذاً» ملغاةٌ، ويجوز إعمالُها. فهذا حُكْمُها إذا كان قبلها الواوُ أو الفاء. فإذا كانت مبتدأةً نَصَبْتَ بها فقلت: إذاً أُكْرِمَك[٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعكم منه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٥١٧ . قال البغوي: وهذا القول ليس بمَرْضيٍّ؛ لأن الذين بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة كانوا سبعين نفراً، لم يكن فيهم شاكٌّ ولا مَن يقول هذا القول، وإنما الآية في قوم عاهدوا الله أن يقاتلوا ولا يَفِرُّوا فنقضوا العهد.

(٢) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٤ دون نسبة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٧ .

سُوٓءًا﴾ أي: هلاكاً. ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ أي: خيراً ونصراً وعافيةً. ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ أي: لا قريباً ينفعهم ولا ناصِراً ينصُرهم.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨﴾

قوله تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾ أي: المُعْتَرِضين[1] منكم لأنْ يَصُدُّوا الناسَ عن النبيِّ ﷺ، وهو مُشْتقٌّ من: عاقني عن كذا، أي: صَرَفني عنه. وعوَّق، على التكثير ﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ﴾ على لغةِ أهلِ الحجاز. وغيرُهم يقولون: «هَلُمُّوا» للجماعة، وهَلُمِّي للمرأة؛ لأنَّ الأصل: «ها» التي للتنبيه؛ ضُمَّتْ إليها «لُمَّ»، ثم حُذفت الألف استخفافاً وبُنيتْ على الفتح. ولم يَجُز فيها الكسرُ ولا الضمُّ لأنَّها لا تنصرف. ومعنى «هَلُمّ»: أَقْبِلْ[2].

وهؤلاء طائفتان، أي: منكم مَن يُثبِّط ويُعوِّق. والعَوْقُ: المنعُ والصَّرْفُ؛ يقال: عاقَه يَعوقُه عَوْقاً، وعوَّقه واعتاقه بمعنًى واحد[3]. قال مقاتل: هم عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابُه المنافقون.

﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ﴾ فيهم ثلاثةُ أقوال: أحدها: أنهم المنافقون؛ قالوا للمسلمين: ما محمدٌ وأصحابه إلا أَكَلةُ رأس، وهو هالكٌ ومَن معه، فهلمَّ إلينا[4].

الثاني: أنَّهم اليهود من بني قُريظة؛ قالوا لإخوانهم من المنافقين: هلمَّ إلينا، أي: تعالَوْا إلينا وفارِقوا محمداً فإنه هالك، وإنَّ أبا سفيان إن ظَفِر لم يُبق منكم أحداً.

---

(١) في إعراب القرآن للنحاس: المتعرضين.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٨، وينظر تفصيل الكلام على «هلم» في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٧٥.

(٣) الصحاح (عوق).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٤، والطبري ١٩/ ٥٠ عن قتادة. قوله: أكلة رأس، أي: قليل يشبعهم رأس واحد. اللسان (أكل).

الثالث: ما حكاه ابن زيد: أنَّ رجلاً من أصحاب النبيِّ ﷺ [انصرف مِن عندِه يومَ الأحزاب، فوجد أخاه بين يديه شواءٌ ورغيفٌ، فقال: أنت هكذا ورسول الله ﷺ] بين(١) الرماح والسيوف! فقال أخوه ـ وكان من أمِّه وأبيه ـ: هلمَّ إليَّ، قد تُبع بك وبصاحبك، أي: قد أُحيط بك وبصاحبك. فقال له: كذبتَ، والله لأخبرنَّه بأمرك. وذهب إلى رسول الله ﷺ ليُخْبِرَه، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾. ذكره الماوَرْدِي(٢)، والثعلبيُّ ـ أيضاً ولفظُه: قال ابن زيد: هذا يومَ الأحزاب؛ انطلقَ رجلٌ مِن عندِ النبيِّ ﷺ، فوجد أخاه بين يديه رغيفٌ وشِواءٌ ونبيذ، فقال له: أنت في هذا ونحن بين الرماح والسيوف؟! فقال: هَلُمَّ إلى هذا، فقد تُبع لك ولأصحابك، والذي تحلف به لا يستقلُّ بها محمد أبداً. فقال: كذبتَ. فذهب إلى النبيِّ ﷺ يخبرُه، فوجده قد نزل عليه جبريل بهذه الآية.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خوفاً من الموت. وقيل: لا يحضرون القتالَ إلَّا رِياءً وسُمْعة.

قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاءَ عليكم، أي: بالحفر في الخندق والنَّفقةِ في سبيل الله؛ قاله مجاهد وقتادة. وقيل: بالقتال معكم. وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم. وقيل: أشِحَّةً بالغنائم إذا أصابوها؛ قاله السُّدِّي(٣).

---

(١) في (ظ): كان بين.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٣٨٤ - ٣٨٥، وما سلف بين حاصرتين منه. وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٥١، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٨٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٨٥، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ١٨٩. قال ابن عطية =

وانتصب على الحال؛ قال الزَّجَّاج[١]. ونَصْبُه عند الفرَّاء من أربع جهات: إحداها: أن يكون على الذمِّ؛ ويجوز أن يكون عنده نصباً بمعنى: يعوِّقون أشحةً. ويجوز أن يكون التقدير: والقائلين أشحةً. ويجوز عنده: «ولا يأتون البأسَ إلَّا قليلاً» يأتونه أشحةً، أي: أشحةً على الفقراء بالغنيمة جبناءَ. النحاس[٢]: ولا يجوز أن يكون العاملُ فيه «المعوِّقين» ولا «القائلين»؛ لئلَّا يفرَّق بين الصلة والموصول[٣].

ابن الأنباريِّ[٤]: «إلَّا قليلاً» غير تامٍّ؛ لأنَّ «أَشِحَّةً» متعلِّقٌ بالأول، فهو ينتصب من أربعةِ أوجهٍ: أحدُها: أن تنصبه على القَطْعِ من «المعوِّقين» كأنه قال: قد يَعلمُ الله الذي يعوِّقون عن القتال ويَشِحُّون عن الإنفاق على فقراء المسلمين. ويجوز أن يكون منصوباً على القطع من «القائلين»، أي: وهم أشحةً. ويجوز أن تنصبه على القطع ممَّا في «يأتون»، كأنه قال: ولا يأتون البأس إلَّا جبناء بخلاء. ويجوز أن تنصب «أشحةً» على الذمِّ. فمِن هذا الوجهِ الرابع يَحسُن أن تقف على قوله: «إلَّا قليلاً». ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ وقفٌ حَسَنٌ. ومثلُه: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ حالٌ من المضمَر في «سَلَقُوكُمْ» وهو العاملُ فيه.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ وَصَفَهم بالجبن، وكذا سبيلُ الجبان ينظرُ يميناً وشمالاً محدِّداً بصرَه، وربَّما غُشي عليه. وفي

= في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٥: والصواب تعميم الشح أن يكون بكل ما فيه للمؤمنين منفعة.

(١) كذا في النسخ. وفي مطبوع إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٨ (والكلام منه): قال أبو إسحاق. (وهو الزجاج). ولعل الصواب: قاله؛ بدل: قال. فقوله: «انتصب على الحال» عند الزجاج في معانيه ٤/ ٢٢٠، والكلام بعده ليس فيه، إنما هو عند النحاس في الإعراب.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٠٨. وما قبله منه، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨.

(٣) يعني: لأنه يكون داخلاً في صلة الألف واللام، وقد فرّق بينهما بقوله: «ولا يأتون البأس إلا قليلاً» وهو غير داخل في الصلة. مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٧٤. قال الآلوسي في روح المعاني ٢١/ ١٦٥: وتُعقِّب: بأن الفاصل من متعلِّقات الصلة، وإنما يظهر الرد على كونه حالاً من «المعوِّقين»؛ لأنه قد عُطف على الموصول قبل تمام صلته.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٤١ - ٨٤٢.

«الخَوْف» وجهان: أحدهما: من قتال العدوِّ إذا أَقْبلَ؛ قاله السِّدي. الثاني: الخوفُ من النبيِّ ﷺ إذا غَلَب؛ قاله ابن شجرة. ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ خوفاً من القتال على القول الأول. ومن النبيِّ ﷺ على الثاني. ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ لذهابِ عقولهم حتى لا يصحُّ منهم النظر إلى جهة. وقيل: لشدَّة خوفهم حذاراً أن يأتيَهم القتلُ من كلِّ جهة[1].

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وحكى الفرَّاء: «صَلَقوكم» بالصَّاد. وخطيبٌ مِسْلاق ومِصْلاق: إذا كان بليغاً[2]. وأصلُ الصَّلْق: الصوت، ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الصَّالِقةَ والحالِقةَ والشَّاقَّةَ»[3]. قال الأعشى:

فيهم المجدُ والسَّماحةُ والنَّجْـ ـدَةُ فيهم والخاطبُ السَّلَّاقُ[4]

قال قتادةُ: ومعناه: بَسَطوا ألسنتَهم فيكم في وقتِ قسمةِ الغنيمة، يقولون: أَعْطِنا أَعْطِنا، فإنَّا قد شَهِدْنا معكم، فعند الغنيمة أشَحُّ قومٍ وأبسطُهم لساناً، ووقتَ البأس أَجْبَنُ قومٍ وأَخْوَفُهم[5]. قال النحاس: هذا قولٌ حسن؛ لأنَّ بعده «أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ»[6]. وقيل: المعنى: بالَغوا في مُخاصمتكم والاحتجاجِ عليكم. وقال القتبيُّ[7]: المعنى: آذَوْكم بالكلام الشديد، والسَّلْق: الأذى، ومنه قول الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٨٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٩، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٩، وقال الفراء: ولا يجوز «صلقوكم» في القراءة.

(٣) أخرجه الطرسوسي في مسند عبد الله رضي الله عنهما (٢٠) دون قوله: والشاقة، وفي إسناده عفير بن معدان، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب، وله شاهد عند البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤) عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: أنا بريءٌ مما برئ منه رسول الله ﷺ؛ فإن رسول الله ﷺ برئَ من الصالقة والحالقة والشاقة. الصالقة: هي التي ترفع صوتها بالندب والنياحة. والحالقة: هي التي تحلق رأسها عند المصيبة. والشاقة: التي تشق ثوبها. الترغيب والترهيب ٤/ ٢٥٤.

(٤) الصحاح (سلق)، وهو في مجاز القرآن ٢/ ١٣٥ برواية: المِسْلَاقُ، وفي الديوان ص٢٦٥: المِصْلَاقُ.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٤.

(٦) في النسخ: أشحة عليكم، والمثبت من معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٣٦، وهو الصواب.

(٧) في تفسير غريب القرآن ص٣٤٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٨٦.

ولــقــد سَــلَــقْــنَ هــوازنــاً بـنَـواهِـلٍ حـتـى انـحـنـيـنـا[١]

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: على الغنيمة؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: على المال أن ينفقوه في سبيل الله؛ قاله السدِّي[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ يعني بقلوبهم وإن كان ظاهرُهم الإيمان؛ والمنافق كافرٌ على الحقيقة؛ وَصَفهم[٣] الله عزَّ وجلَّ بالكُفر.

﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: لم يُثِبْهم عليها؛ إذ لم يقصدوا وجهَ الله تعالى بها.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: وكان نفاقُهم على الله هيِّناً. الثاني: وكان إحباطُ عملِهم على الله هيِّناً[٤].

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ۖ﴾ أي: لجُبنهم يظنُّون الأحزاب لم ينصرفوا وكانوا انصرفوا، ولكنَّهم لم يتباعَدوا في السير ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ تمنَّوا أن يكونوا مع الأعراب، حَذَراً من القتل وتَربُّصاً للدَّوائر.

وقرأ طلحةُ بن مُصرِّف: «لو أنهم بُدًّى في الأعراب»؛ يقال: بادٍ وبُدًّى، مثل غازٍ وغُزًّى. ويُمَدّ مثل: صائم وصُوَّام[٥]. بدا فلان يبدو: إذا خرج إلى البادية. وهي

---

(١) قائله عبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص١٤٢، ومنتهى الطلب في أشعار العرب ٢/ ١٦٧، ومختارات ابن الشجري ٢/ ٣٩، وهو عندهم برواية: صَلَقْن... حتى ارتوينا، وهو برواية المصنف في النكت والعيون ٤/ ٣٨٦.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٨٦.

(٣) في النسخ: لوصفهم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٩ والكلام منه.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٨٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٩، والقراءة عن طلحة بن مصرف في القراءات الشاذة ص١١٩، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٧٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

البِداوة والبَداوة، بالكسر والفتح. وأصلُ الكلمة من البَدْو، وهو الظُّهور.

﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ وقرأ يعقوب في رواية رُوَيس: ﴿يسَّاءلون[١] عن أنبائكم﴾ أي: عن أخبار النبيِّ ﷺ؛ يتحدَّثون: أمَا هَلَكَ محمدٌ وأصحابه! أمَا غلبَ أبو سفيان وأحزابُه! أي: يودُّوا لو أنَّهم بادون سائلون عن أنبائكم من غير مشاهدةِ القتال لفَرْطِ جُبْنِهم. وقيل: أي: هم أبداً لجبنهم يسألون عن أخبار المؤمنين، وهل أصيبوا. وقيل: كان منهم في أطراف المدينة مَن لم يحضر الخندق، جعلوا يسألون عن أخباركم ويتمنَّوْن هزيمةَ المسلمين. ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: رمياً بالنَّبل والحجارةِ على طريق الرياء والسمعة، ولو كان ذلك للهِ لكان قليلُه كثيراً.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ هذا عتابٌ للمتخلِّفين عن القتال، أي: كان لكم قدوةٌ في النبيِّ ﷺ حيث بذل نفسَه لنُصْرةِ دينِ الله في خروجه إلى الخندق. والأُسوةُ: القُدوة. وقرأ عاصم: «أُسوة» بضمِّ الهمزة. الباقون بالكسر[٢]، وهما لغتان. والجمعُ فيها واحدٌ عند الفرَّاء؛ والعلَّةُ عنده في الضمِّ على لغة مَن كَسَرَ في الواحدة: الفرقُ بين ذوات الواو وذوات الياء؛ فيقولون: كِسْوة وكُساً، ولِحية ولِحًى[٣].

الجوهريُّ[٤]: والأُسوةُ والإسوةُ؛ بالضمِّ والكسر لغتان. والجمع أُسًى وإِسًى.

---

(١) في النسخ: يتساءلون، والمثبت من النشر ٢/٣٤٨ . قال ابن الجزري: بتشديد السين وفتحها وألف بعدها.

(٢) السبعة ص٥٢٠ - ٥٢١ ، والتيسير ص١٧٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٠٩ .

(٤) في الصحاح (أسا).

وروى عقبة بن حسان الهَجَريُّ عن مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قال: في جوع النبيِّ ﷺ. ذكره الخطيبُ أبو بكرٍ أحمدُ وقال: تفرَّد به عقبة بنُ حسان عن مالك، ولم أكْتُبْه إلَّا بهذا الإسناد[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ﴾ الأُسوة: القُدوة. والأسوة ما يُتَأسَّى به، أي: يتُعزَّى به. فيقتدَى به في جميع أفعاله، ويُتعزَّى به في جميع أحواله. فلقد شُجَّ وجهُه، وكُسرت رَبَاعِيتُه، وقُتل عمُّه حمزةُ، وجاع بطنُه، ولم يُلْفَ إلَّا صابراً محتسِباً، وشاكراً راضياً. وعن أنس بن مالك، عن أبي طلحةَ قال: شَكَوْنا إلى رسول الله ﷺ الجوعَ، ورَفَعْنا [عن بطوننا] عن حَجَرٍ حجرٍ، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين. خرَّجه أبو عيسى الترمذيُّ وقال فيه: حديثٌ غريبٌ[٢]. وقال ﷺ لمَّا شُجَّ: «اللهمَّ اغفِرْ لقومي فإنَّهم لا يَعْلَمون» وقد تقدَّم[٣].

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى: لِمَن كان يرجو لقاءَ الله بإيمانه، ويصدِّق بالبعث الذي فيه جزاءُ الأفعال. وقيل: أي: لِمَن كان يرجو ثوابَ الله في اليوم الآخر[٤].

ولا يجوز عند الحُذَّاقِ من النَّحْويين أن يُكتب «يرجو» إلَّا بغير ألفٍ إذا كان لواحدٍ؛ لأنَّ العلَّة التي في الجمع ليست في الواحد[٥].

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ خوفاً من عقابه، ورجاءً لثوابه. وقيل: إنَّ «لِمَنْ» بدلٌ من قوله:

---

(١) ذكر الحديث مع قول الخطيب ابن حجر في اللسان ٥/ ١٨١ وقال: أخرجه الخطيب في الرواة عن مالك، وذكره أيضاً عن الدارقطني في غرائب مالك وقال: قال الدارقطني بعد تخريجه: هذا حديث باطل وإسناده مجهول. اهـ. وقد أخرجه أيضاً ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤/ ١٢٨ .

(٢) سنن الترمذي (٢٣٧١)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) ١٠/ ٣٩٩ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٨٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٩ ، والكلام أعلاه يعني في اللغة، أما في المصحف؛ فإن رسم «يرجو» بألف بعد الواو. ينظر المقنع لأبي عمرو الداني ص٢٦-٢٧ .

«لَكُمْ»، ولا يُجيزه البَصْريون؛ لأنَّ الغائب لا يُبْدَلُ من المخاطَب، وإنَّما اللامُ من «لِمَن» متعلِّقةٌ بـ «حسنة»، و«أُسْوة» اسمُ «كان» و«لكم» الخبر[١].

واختُلِفَ فيمَن أُرِيدَ بهذا الخطاب على قولين: أحدهما: المنافقون؛ عطفاً على ما تقدَّم من خطابهم. الثاني: المؤمنون؛ لقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[٢].

واختلف في هذه الأُسوةِ بالرسول عليه الصلاةُ والسلام؛ هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب؟ على قولين: أحدهما: على الإيجاب حتى يقوم دليلٌ على الاستحباب. الثاني: على الاستحباب حتى يقوم دليلٌ على الإيجاب. ويَحتمِلُ أن يُحمل على الإيجاب في أمور الدِّين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ ومن العرب مَن يقول: «راءَ» على القلب[٤]. ﴿قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ﴾ يريد قولَه تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]، فلمَّا رأوا الأحزاب يومَ الخندق قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾؛ قاله قتادة[٥].

وقولٌ ثانٍ رواه كثير بن عبد الله بن عمرو المزنيُّ، عن أبيه، عن جدِّه قال: خَطَب رسول الله ﷺ عامَ ذكرت الأحزاب فقال: «أخبرني جبريلُ عليه السلام أنَّ أمَّتي ظاهرةٌ عليها ـ يعني على قصور الحِيرةِ ومدائنِ كسرى ـ فأبشروا بالنصر». فاستبشر

---

(١) بنحوه في الإملاء للعكبري ٤/ ١٩٢ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٨٨ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٠ .

(٥) أخرجه مطولاً الطبري ١٩/ ٦٠ - ٦١ ، ونقله المصنف عن النكت والعيون ٤/ ٣٨٨ .

المسلمون وقالوا: الحمدُ لله، موعد صادق؛ إذ وُعدنا بالنَّصْر بعد الحَصْر. فطَلَعت الأحزاب فقال المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ذكره الماورديُّ[١].

و«ما وَعَدَنا»؛ إن جعلتَ «ما» بمعنى الذي؛ فالهاءُ محذوفةٌ، وإن جعلتها مصدراً لم تَحتَجْ إلى عائدٍ. ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ قال الفرَّاء[٢]: وما زادهم النظرُ إلى الأحزاب. وقال علي بن سليمان: «رأى» يدلُّ على الرؤية، وتأنيثُ الرؤية غيرُ حقيقيّ، والمعنى: ما زادهم الرؤيةُ إلَّا إيماناً بالربِّ وتسليماً للقضاء؛ قاله الحسن[٣]. ولو قال: ما زادوهم لجاز.

ولمَّا اشتدَّ الأمرُ على المسلمين، وطال المُقامُ في الخندق، قام عليه الصلاة والسلام على التَلِّ الذي عليه مسجدُ الفتح في بعض الليالي، وتَوقَّع ما وَعَدَه الله من النصر وقال: «مَن يذهبُ ليأتيَنا بخبرهم وله الجنةُ» فلم يُجِبْه أحدٌ. فقال ثانياً وثالثاً، فلم يُجبه أحد، فنظر إلى جانبه وقال: «مَن هذا»؟ فقال: حذيفة. فقال: «أَلَمْ تَسْمَعْ كلامي منذُ الليلة»؟ قال حذيفةُ: فقلت: يا رسول الله، مَنَعني أن أُجيبكَ الضُّرُّ والقُرّ. قال: «انْطَلِقْ حتى تَدْخُلَ في القوم، فتسمعَ كلامهم وتأتيَني بخبرهم. اللهمَّ احْفَظْهُ مِن بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، حتى تردَّه إليَّ، انْطَلِقْ ولا تُحْدِثْ شيئاً حتى تأتيَني». فانْطَلَقَ حذيفةُ بسلاحه، ورفع رسول الله ﷺ يده يقول: «يا صَرِيخَ المكروبين، ويا مُجِيبَ المضطرِّين، اكشِفْ هَمِّي وغَمِّي وكَرْبي، فقد ترى حالي وحالَ أصحابي». فنزل جبريلُ وقال: «إنَّ الله قد سمع دَعْوَتك وكفاكَ هَوْلَ عدوِّك». فخرَّ رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول: «شكراً شكراً كما رحِمتني ورحِمتَ أصحابي». وأخبره جبريلُ أنَّ الله تعالى مرسلٌ عليهم ريحاً، فبشَّر أصحابه بذلك.

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣٨٩ . وكثير قاله عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: ضعيف.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٤٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣١٠ ، وما قبله منه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٨٩ .

قال حذيفةُ: فانتهيتُ إليهم وإذا نيرانُهم تتَّقدُ، فأقبلتْ ريحٌ شديدةٌ فيها حصباءُ، فما تركت لهم ناراً إلَّا أطفأتها، ولا بناءً إلَّا طرحته، وجعلوا يتترَّسون من الحصباء. وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح في قريش: النَّجاءَ النَّجاءَ ! وفَعَلَ كذلك عُيينةُ بن حِصْنٍ والحارثُ بن عَوْفٍ والأقرعُ بن حابس.

وتفرَّقت الأحزاب، وأصبح رسول الله ﷺ، فعاد إلى المدينة وبه من الشَّعَث ما شاء الله، فجاءته فاطمةُ بغَسُولٍ، فكانت تغسلُ رأسه، فأتاه جبريل فقال: وضَعْتَ السلاحَ ولم تَضَعْه أهل السماء، ما زلتُ أتبعهم حتى جاوزتُ بهم الرَّوحاءَ، ثم قال: انهضْ إلى بني قُريظة». وقال أبو سفيان: ما زلتُ أسمع قَعْقعةَ السلاحِ حتى جاوزتُ الرَّوْحاء[١].

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ رفع بالابتداء، وصَلُحَ الابتداءُ بالنَّكرة لأنَّ «صَدَقُوا» في موضع النعت. ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾. «مَن» في موضع رفعٍ بالابتداء[٢]. وكذا ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ والخبرُ في المجرور. والنَّحْبُ: النَّذْرُ والعَهْدُ، تقول منه: نَحَبتُ أَنْحُبُ بالضم. قال الشاعر:

وإذ نحَّبتْ كَلْبٌ على الناس أيُّهم[٣] أَحَقُّ بتاجِ الماجِدِ المتكرِّمِ[٤]

(١) لم نقف عليه بهذا السياق، وينظر ما سلف ص٨١ - ٨٢ من هذا الجزء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٠.

(٣) في النسخ: إنهم، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٤) البيت للفرزدق، وهو في مجاز القرآن ٢/ ١٣٦، وتفسير الطبري ١٩/ ٦٢. والأغاني ٢١/ ٢٨٢. وذكره ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٤٨ برواية: ... أيُّنا على النحب أعطى للجزيل وأفضل، وقال في شرحه: النحب: الخطار، وهو الرهان.

وقال آخر:

قد نَحَبَ المجدُ علينا نَحْبَا[١]

وقال آخر:

أَنَحْبٌ فيُقْضَى أم ضلالٌ وباطِلُ[٢]

وروى البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ[٣] عن أنس قال: قال عمّي أنس بنُ النَّضْر ـ سُمِّيتُ به ـ ولم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ، فكَبُر عليه فقال: أوّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَه رسولُ الله ﷺ غِبتُ عنه، أمّا واللهِ لئن أَرَانِي الله مَشْهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعدُ لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أَصْنَعُ. قال: فهاب أن يقول غيرها. فشَهِدَ مع رسول الله ﷺ يومَ أُحُد من العام القابِلِ، فاستقبله سعد بن معاذ[٤]، فقال: يا أبا عمرو، أين؟ قال: واهاً[٥] لريح الجنة! أَجِدُها دون أُحُد. فقاتَلَ حتى قُتِل، فوُجِد في جسده بضعٌ وثمانون ما بين ضربةٍ وطعنةٍ ورَمْية. فقالت عَمَّتي الرُّبَيِّع بنتُ النَّضْر: فما عرفتُ أخي إلَّا بِبَنانه. ونزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ لفظُ الترمذيِّ، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

وقالت عائشةُ رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية: منهم طلحة بنُ عبيد الله؛ ثَبَتَ مع رسول الله ﷺ حتى أصيبت يدُه،

---

(١) اللسان (نحب) وفيه: عليك، بدل: علينا، وقبله: يا عمرو يا ابن الأكْرَمِين نَسْبا، قال ابن منظور: أراد نَسَباً، فخفف لمكان نَحْب، أي: لا يزايلك، فهو لا يقضي ذلك النذرَ أبداً، والنَّحْب: النَّذْر.

(٢) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص ١٣١، وصدره: ألا تسألان المرء ماذا يحاولُ.

(٣) صحيح البخاري (٢٨٠٥)، وصحيح مسلم (١٩٠٣)، وسنن الترمذي (٣٢٠٠)، وهو عند أحمد (١٣٠١٥).

(٤) في النسخ: سعد بن مالك، والمثبت من المصادر.

(٥) كلمةُ تحنُّنٍ وتلهُّف. شرح النووي لصحيح مسلم ١٣/٤٨. والقائل: يا أبا عمرو، هو أنس بن النضر ﷺ، وأبو عمرو: كنية سعد بن معاذ ﷺ، ثم قال أنس: واهاً.... قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٩/٦١: لم ينتظر جوابه لغلبة اشتياقه إلى إيفاء ميثاقه وعهده لربه.

فقال النبيُّ ﷺ: «أوْجَبَ طلحةُ الجنةَ»[١].

وفي الترمذيِّ عنه: أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابيٍّ جاهلٍ: سَلْهُ عمَّن قضَى نَحْبَه مَن هو؟ وكانوا لا يجتَرؤون على مسألته، يوقِّرونه ويَهابونه، فسأله الأعرابيُّ، فأَعْرضَ عنه، ثم سأله، فأَعْرَضَ عنه، ثم إنِّي اطَّلعتُ من باب المسجد وعليَّ ثيابٌ خُضْرٌ، فلمَّا رآني النبيُّ ﷺ قال: «أين السائلُ عمَّن قضى نَحْبَه»؟ قال الأعرابيُّ: أنا يا رسول الله. قال: «هذا ممن قَضَى نَحْبَه». قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلَّا من حديث يونس بنِ بكير[٢].

وروى البيهقيُّ عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ حين انصرف من أُحُد، مرَّ على مصعب بن عُمير وهو مقتولٌ على طريقه، فوقف عليه ودَعَا له، ثم تلا هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ إلى ﴿تَبْدِيلًا﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهدُ أنَّ هؤلاء شهداءُ عند الله يومَ القيامة، فأْتُوهم وزُوروهم، والذي نَفْسي بيده لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلَّا ردُّوا عليه»[٣].

وقيل: النَّحْبُ: الموت، أي: مات على ما عَاهَد عليه؛ عن ابن عباس[٤].

---

(١) روي عن عائشة رضي الله عنها حديثان بهذا المعنى، الأول أخرجه الحاكم ٢/ ٤١٥ وصححه، وتعقبه الذهبي بأن فيه إسحاق بن يحيى بن طلحة، وهو متروك، والثاني أخرجه أبو يعلى (٤٨٩٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٤٨ وقال: فيه صالح بن موسى وهو متروك. اهـ. ويغني عنه ما أخرجه أحمد (١٤١٧)، وابن أبي شيبة ١٢/ ٩١ عن الزبير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ، يعني يوم أحد: «أوجب طلحة». وأخرجه الترمذي (١٦٩٢) و(٣٧٣٨) بأطول منه. قال ابن الأثير في النهاية (وجب): أي: عمل عملاً أوجب له الجنة.

(٢) سنن الترمذي (٣٢٠٣) و(٣٧٤٢). وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٨ ثم قال: فهذا أدَلُّ دليل على أن النَّحب ليس من شروطه الموت.

(٣) دلائل النبوة ٣/ ٢٨٤، وقال البيهقي: كذا وجدته في كتابي عن أبي هريرة. اهـ. وأخرجه الحاكم ٢/ ٢٤٨ وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: أنا أحسبه موضوعاً. اهـ. وأخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٢٨٤، والحاكم ٣/ ٢٠٠ وصححه من حديث أبي ذر ﷺ دون قوله: «أشهد أن هؤلاء ... إلى آخر الحديث.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٤.

والنَّحْبُ أيضاً: الوقتُ والمدَّة. يقال: قضى فلانٌ نَحْبَه: إذا مات، وقال ذو الرمَّة:

عَشِيَّةَ فرَّ الحارِثيُّون بعد ما قَضَى نَحْبَه في مُلْتَقى الخيلِ هَوْبَرُ[1]

والنَّحْبُ أيضاً: الحاجةُ والهِمَّة؛ يقول قائلهم: ما لي عندهم نَحْبٌ، وليس المرادَ بالآية.

والمَعْنيُّ في هذا الموضع بالنَّحْب: النَّذْرُ كما قدَّمنا أولاً، أي: منهم مَن بَذَلَ جهدَه على الوفاء بعهده حتى قُتل، مثل حمزةَ وسعد بنِ معاذ وأنس بنِ النضر وغيرهم، ومنهم مَن ينتظر الشهادةَ، وما بدَّلوا عهدَهم ونَذْرَهم.

وقد روي عن ابن عباس أنه قرأ: «فمنهم مَن قَضَى نَحْبَه ومنهم من ينتظر ومنهم من بدل تبديلاً»[2].

قال أبو بكر الأنباريُّ: وهذا الحديثُ عند أهل العلم مردود؛ لخلافه الإجماعَ، ولأنَّ فيه طعناً على المؤمنين والرجالِ الذين مَدَحهم الله وشرَّفهم بالصِّدْقِ والوفاء، فما يُعرف فيهم مغيِّرٌ، وما وُجِدَ من جماعتهم مبدِّلٌ ﷺ.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: أمرَ الله بالجهاد ليجزيَ الصادقين في الآخرة بصِدْقهم. ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ في الآخرة ﴿إِن شَآءَ﴾ أي: إن شاء أن يعذِّبهم لم يُوفِّقْهم للتوبة، وإن لم يشأ أن يعذِّبهم تاب عليهم قبل الموت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ قال محمد بن عمرو

---

(١) ديوانه ٢/٦٤٧، قال شارحه: يعني يزيد بن هوبر الحارثي، فقال: هوبر، للقافية.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣٧٨.

يرفعه إلى عائشةَ: قالت: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ها هنا أبو سفيان وعُيينة بن بدر، رجع أبو سفيان إلى تِهامَة، ورجع عُيينةُ إلى نجدٍ ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بأن أرسل عليهم ريحاً وجنوداً حتى رجعوا ورجعتْ بنو قُريظةَ إلى صياصيهم. فكُفيَ أمرَ قريظَةَ بالرعب. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ [أي: لا يُردُّ] أمره ﴿عَزِيزًا﴾ لا يُغلَب[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني الذين عاوَنوا الأحزابَ قريشاً وغَطَفَان، وهم بنو قُريظةَ. وقد مضى خبرهم[2]. ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: حصونهم، واحدُها: صِيصِيَة[3]؛ قال الشاعر:

فأصبحت الثِّيران صَرْعَى وأصبحتْ ... نساءُ تميمٍ يبتَدِرْنَ الصَّيَاصِيَا[4]

ومنه قيل لشوكة الحائك التي بها يُسوِّي السَّداةَ واللُّحْمة: صِيصِيَة؛ قال دريدُ ابن الصِّمَّة:

فجئتُ إليه والرماحُ تَنُوشُه ... كوقْعِ الصَّيَاصِي في النسيجِ الممدَّدِ[5]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٠ - ٣١١، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) ص٨٤ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) في (د) و(م): صيصة. والمثبت من باقي النسخ وهو الصواب. ينظر النهاية (صيص)، والتاج (صيص).

(٤) نسبه ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٤٩ لسحيم عبد بني الحسحاس. وذكره صاحب اللسان (صيا) والتاج (صيص) شاهداً على أن الصياصي قرون البقر، برواية: فأصبحت الثيران غرقى وأصبحت ... يلتقطن الصياصيا، أي: يلتقطن القرون لينسجن بها، يريد لكثرة المطر غرق الوحش. ونسبه بهذه الرواية ابنُ سيده للنابغة الجعدي، كما في اللسان (جذم).

(٥) ديوان دريد بن الصمة ص ٤٨، والصحاح (صيص) والكلام منه.

ومنه: صِيصِيَةُ الديك التي في رجله. وصَياصِي البقر: قُرونُها ؛ لأنَّها تمتنعُ بها، وربَّما كانت تُركَّب في الرماح مكانَ الأسِنَّة. ويقال: جَذَّ اللهُ صِئْصِئَهُ[(١)]، أي: أصْلَه.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجالُ ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساءُ والذُّرِّيَّةُ، على ما تقدَّم.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ بعدُ ؛ قال يزيد بنُ رُومان وابن زيد ومقاتل: يعني حُنَين[(٢)]، ولم يكونوا نالوها، فوعدهم الله إيَّاها. وقال قتادة: كنَّا نتحدَّثُ أنها مكة. وقال الحسن: هي فارسُ والرُّوم. وقال عِكرمة: كلُّ أرضٍ تُفتح إلى يوم القيامة[(٣)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فيه وجهان: أحدهما: على ما أراد بعباده من نقمةٍ أو عفْوٍ قديرٌ ؛ قاله محمد بن إسحاق. الثاني: على ما أراد أن يفتحه من الحصون والقُرَى قدير ؛ قاله النقاش[(٤)].

وقيل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممَّا وَعَدَكُموه ﴿قَدِيرًا﴾ لا تُردُّ قُدرتُه، ولا يجوز عليه العَجْزُ تعالى. ويقال: تأسِرون وتأسُرون، بكسر السِّين وضمِّها ؛ حكاه الفراء[(٥)].

---

(١) في (ظ): صيصيئه، وفي معاني النحاس ٥/ ٣٤١ : صيصته. والصِّئْصِئ: الأصل، كالضِّئْضِئ، ينظر اللسان (صأصأ) و(ضأضأ).

(٢) كذا في النسخ ، وفي المصادر: خيبر ، على ما يأتي .

(٣) هذه الأقوال في النكت والعيون ٤/ ٣٩٣ ، والكشاف ٣/ ٢٥٨ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٨٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٢٥ ، وزاد المسير ٦/ ٣٧٥ . وأخرج الطبري ١٩/ ٨٢ - ٨٣ قول الحسن وقول يزيد بن رومان وابن زيد .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٩٣ . وقول ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١١٨ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٤١ . ورويَ ضم السين كما في القراءات الشاذة ص ١١٩ عن أبي حيوة .

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

فيه ثماني مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ قال علماؤنا: هذه الآية متَّصلةٌ بمعنى ما تقدَّم من المنع من إيذاء النبيِّ ﷺ، وكان قد تأذَّى ببعض الزوجات. قيل: سألْنَه شيئاً من عَرَض الدنيا. وقيل: زيادةً في النفقة. وقيل: آذَيْنَه بغيْرةِ بعضهنَّ على بعض. وقيل: أُمِر ﷺ بتلاوة هذه الآية عليهنَّ وتَخْييرهنَّ بين الدنيا والآخرة. وقال الشافعيُّ رحمه الله تعالى: إنَّ مَنْ مَلَك زوجةً فليس عليه تخييرُها. وأُمِر ﷺ أن يخيِّر نساءَه فاخترْنَه.

وجملةُ[١] ذلك: أنَّ الله سبحانه خيَّر النبيَّ ﷺ بين أن يكون نبيًّا مَلِكاً، وعرض عليه مفاتيح خزائنِ الدنيا، وبين أن يكون نبيًّا مِسكيناً، فشاوَرَ جبريلَ، فأشار عليه بالمسكنة فاختارها[٢]، فلمَّا اختارها ـ وهي أعلى المنزلتين ـ أمره الله عزَّ وجلَّ أن يخيِّر زوجاتِه، فربَّما كان فيهنَّ مَن يكره المُقامَ معه على الشدَّة تنزيهاً له.

وقيل: إنَّ السبب الذي أُوجِبَ التخييرُ لأجله، أنَّ امرأةً من أزواجه سألته أن يَصُوغَ لها حَلْقةً من ذهب، فصاغ لها حَلْقةً من فضةٍ وطَلاها بالذهب ـ وقيل: بالزَّعْفَرَان ـ فأبتْ إلَّا أن تكون من ذهب، فنزلت آيةُ التخيير فخيَّرهنَّ، فقلن: اخترنا اللهَ ورسوله[٣].

وقيل: إنَّ واحدةً منهنَّ اختارت الفِراق[٤]. فالله أعلم.

---

(١) في (خ): وعلة، وفي (ظ): وحكمة.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٧١٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وتنظر شواهده في حاشية المسند.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) المدونة ٢/ ٣٨٢ عن ابن شهاب.

روى البخاريُّ ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحدٍ منهم، قال: فأُذِنَ لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأُذِن له، فوجد النبيَّ ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً. قال: فقال: والله لأقولنَّ شيئاً أُضحكُ النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، لو رأيتَ بنتَ خارِجَة، سألَتْني النفقةَ فقمتُ إليها فَوَجَأْتُ عُنقَها. فضحك رسول الله ﷺ وقال: «هنَّ حَوْلي كما تَرَى يَسْأَلْنَنِي النفقةَ». فقام أبو بكر إلى عائشةَ يَجَأُ عنقَها، وقام عمر إلى حفصةَ يَجَأُ عنقَها، كلاهما يقول: تَسْأَلْنَ رسولَ الله ﷺ ما ليس عنده ؟! فقلنَ: واللهِ لا نسألُ رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده. ثم اعتزلهنَّ شهراً، أو تسعاً وعشرين. ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ حتى بلغ ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. قال: فبدأ بعائشةَ فقال: «يا عائشةُ، إني أريدُ أن أَعْرِضَ عليكِ أمراً أُحِبُّ أَلَّا تَعْجَلي فيه حتى تستشيري أبويك»، قالت: وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيكَ يا رسولَ الله أستشيرُ أبويَّ ! بل أختارُ الله ورسولَه والدارَ الآخرة، وأسألكَ أَلَّا تخبرَ امرأةً من نسائك بالذي قلتُ. قال: «لا تسألُني امرأةٌ منهنَّ إلَّا أخبرتها، إنَّ الله لم يبعثني مُعَنِّتاً ولا مُتَعَنِّتاً، ولكنْ بعثني معلِّماً مُيَسِّراً»[1].

وروى الترمذيُّ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: لمَّا أُمِر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: «يا عائشةُ، إنِّي ذاكِرٌ لكِ أمراً فلا عليكِ أَلَّا تستعجلي حتى تستأمري أبويْكِ» قالت: وقد عَلم أنَّ أبويَّ لم يكونا ليأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إنَّ الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ حتى بلغ ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾» فقلتُ: أفي هذا أستأمرُ أبويَّ ! فإنِّي أريد اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، وفَعَلَ أزواجُ النبيِّ ﷺ مثلَ

(١) صحيح مسلم (١٤٧٨)، وهو عند أحمد (١٤٥١٥)، ولم يخرجه البخاري، إنما أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها كما سيأتي.

ما فعلتُ. قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح(١). قال العلماء: وأمَّا أمرُ النبيِّ ﷺ عائشةَ أن تشاوِرَ أبويها ؛ لأنه كان يحبُّها، وكان يخاف أن يحملها فَرْطُ الشباب على أن تختار فِراقَه، ويعلم مِن أبويها أنهما لا يشيران عليها بفراقه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ كان للنبيِّ ﷺ أزواجٌ، منهنَّ مَن دَخَل بها، ومنهنَّ مَن عَقَدَ عليها ولم يدخل بها، ومنهنَّ مَن خطبها فلم يَتمَّ نكاحُه معها.

فأولهُنَّ: خديجةُ بنتُ خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ بنِ كلاب. وكانت قبله عند أبي هالة، واسمُه زُرارة بنُ النبَّاش الأسديُّ، وكانت قبلَه عند عَتيق بنِ عابد، وَلَدت منه غلاماً اسمُه عبدُ مَناف. وولدت من أبي هالةَ هند بنَ أبي هالة، وعاش إلى زمن الطاعون، فمات فيه. ويقال: إنَّ الذي عاش إلى زمن الطاعون هند بنُ هند، وسُمعت نادِبَتُه تقول حين مات: واهندُ بن هنداه، واربِيبَ رسول الله. ولم يتزوَّج رسول الله ﷺ على خديجةَ غيرَها حتى ماتت(٢). وكانت يومَ تَزوَّجها رسول الله ﷺ بنتَ أربعين سنة، وتُوفِّيتْ بعد أن مضى من النبوَّة سبعُ سنين، وقيل: عشر. وكان لها حين توفِّيت خمسٌ وستُّون سنة. وهي أولُ امرأةٍ آمنت به. وجميعُ أولاده منها غير إبراهيم. قال حكيم بن حزام: توفِّيت خديجةُ، فخرجنا بها من منزلها حتى دفنَّاها بالحَجُون، ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها، ولم تكن يومئذٍ سُنَّةُ الجنازة الصلاةَ عليها(٣).

ومنهنَّ: سَوْدةُ بنتُ زَمْعةَ بنِ قيس بن عبد شمس العامريةُ، أسلمت قديماً وبايعت، وكانت عند ابن عمٍّ لها يقال له: السكرانُ بن عمرو، وأسلم أيضاً، وهاجرا جميعاً إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، فلمَّا قَدِما مكةَ مات زوجها. وقيل: مات

(١) سنن الترمذي (٣٢٠٤)، وهو عند أحمد (٢٦١٠٨)، والبخاري (٤٧٨٥)، ومسلم (١٤٧٥).

(٢) التعريف والإعلام ص ١٣٨.

(٣) تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير لابن الجوزي ص ١٩، وخبر حكيم بن حزام أخرجه ابن سعد ٨/ ١٨، وفي إسناده الواقدي.

بالحبشة. فلمَّا حلَّت خطبها رسول الله ﷺ، فتزوَّجها ودخل بها بمكة، وهاجر بها إلى المدينة. فلمَّا كبرت أراد طلاقَها، فسألته ألَّا يفعل وأن يدعها في نسائه، وجعلت ليلتها لعائشةَ ـ حَسْبَما هو مذكورٌ في الصحيح[(١)] ـ فأَمْسَكَها، وتوفِّيت بالمدينة في شوَّال سنةَ أربعٍ وخمسين[(٢)].

ومنهن: عائشةُ بنتُ أبي بكر الصدِّيق، وكانت مسمَّاةً لجُبير بن مطعِم، فخطبها رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، دَعْني أسُلُّها من جُبيرٍ سَلًّا رفيقاً[(٣)]؛ فتزَّوجها رسول الله ﷺ بمكةَ قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث سنين؛ [وهي بنت ست سنين] وبنى بها بالمدينة وهي بنتُ تسع، وبقيت عنده تسعَ سنين، ومات رسول الله ﷺ وهي بنتُ ثمان عشرةَ، ولم يتزوَّج بِكراً غيرَها، وماتت سنةَ سبعِ وخمسين[(٤)]، وقيل: ثمانٍ وخمسين.

ومنهنَّ: حفصةُ بنتُ عمر بن الخطاب القُرَشِيَّةُ العَدَويَّة، تزوَّجها رسول الله ﷺ ثم طلَّقها، فأتاه جبريل فقال: «إنَّ الله يأمرك أن تُراجع حفصةَ، فإنَّها صوَّامةٌ قوَّامة»[(٥)]

---

(١) صحيح البخاري (٢٥٩٣)، وصحيح مسلم (١٤٦٣)، وهو عند أحمد (٢٤٣٩٥).

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٠، وينظر طبقات ابن سعد ٨/ ٥٢ - ٥٧.

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٠، وأخرجه ابن سعد ٨/ ٥٩ عن عبد الله بن أبي مليكة، وهو مرسل. وأخرجه ٨/ ٥٨ بنحوه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في (ظ): ثلاث وخمسين، وفي باقي النسخ: تسع وخمسين، والمثبت من تلقيح الفهوم ص ٢٠، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) الصحيح أن رسول الله ﷺ طلَّق حفصة ثم ارتجعها؛ أخرجه أبو داود (٢٢٨٣)، والنسائي ٦/ ٢١٣، وابن ماجه (٢٠١٦) من حديث عمر ﷺ. أما الخبر بتمامه أعلاه، فقد أخرجه البزار (٢٦٦٨) (زوائد)، والطبراني في الكبير ٢٣/ (٣٠٦) من حديث عمار بن ياسر ﷺ؛ قال الهيثمي في المجمع ٩/ ٢٤٤: في إسناده الحسن بن أبي جعفر، وهو ضعيف. وأخرجه الطبراني أيضاً في الأوسط (١٥١) من حديث أنس ﷺ؛ قال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم، ورواه الطبراني أيضاً في الكبير ١٧/ (٨٠٤) بنحوه من حديث عقبة بن عامر ﷺ؛ قال الهيثمي في المجمع: فيه عمرو بن صالح الحضرمي، ولم أعرفه. غير أن الذهبي قال في السير ٢/ ٢٢٩: إسناده صالح! وأخرجه الطبراني أيضاً في الكبير ١٨/ (٩٣٤) من =

فراجَعَها.قال الواقِديُّ: وتوفِّيت في شعبان سنةَ خمسٍ وأربعين في خلافةِ معاويةَ، وهي ابنةُ ستِّين سنة. وقيل: ماتت في خلافة عثمان بالمدينة[١].

ومنهنَّ: أمُّ سلمةَ، واسمُها هند بنتُ أبي أميَّةَ المخزوميةُ، واسمُ أبي أمية سُهيل. تزوَّجها رسول الله ﷺ في ليالٍ بَقينَ من شوّال سنةَ أربع، زوَّجها منه ابنُها سلمةُ على الصحيح[٢]، وكان عُمَرُ ابنُها صغيراً، وتوفِّيت في سنة تسعٍ وخمسين. وقيل: سنة ثنتين وستِّين، والأولُ أصحُّ. وصلَّى عليها سعيد بنُ زيد. وقيل: أبو هريرة. وقُبِرت بالبقِيع، وهي ابنةُ أربعٍ وثمانين سنة[٣].

ومنهنَّ: أمُّ حبيبةَ، واسمُها رَمْلة بنتُ أبي سفيان. بعث رسول الله ﷺ عمرو بنَ أميةَ الضَّمْريَّ إلى النجاشيِّ ليخطب عليه أمَّ حبيبةَ، فزوَّجه إياها، وذلك سنةَ سبعٍ من الهجرة، وأَصْدَقَ النَّجاشيُّ عن رسول الله ﷺ أربعَ مئة دينار، وبعث بها مع شُرَحْبيل بن حَسَنة، وتوفِّيت سنةَ أربعٍ وأربعين[٤]. وقال الدَّارقُطْنيُّ: كانت أمُّ حبيبةَ تحت عبيد الله بن جحشٍ، فمات بأرض الحبشة على النَّصْرانية، فزوَّجها النَّجاشيُّ النبيَّ ﷺ، وأَمْهَرَها عنه أربعةَ آلاف[٥]، وبعث بها إليه مع شُرَحْبيل بن حَسَنة[٦].

ومنهنَّ: زينب بنتُ جَحْش بن رِئاب الأَسَديَّة؛ وكان اسمُها بَرَّةَ، فَسمَّاها

= حديث قيس بن زيد؛ قال أبو نعيم فيما نقله عنه الحافظ في لسان الميزان ٤/٤٧٨ : هو مجهول؛ لا تصح له صحبة ولا رؤية، وقال الحافظ في الإصابة ١٢/١٩٨ : مرسل.

(١) تلقيح الفهوم ص ٢١ ، وقول الواقدي ذكره أيضاً ابن سعد ٨/٨٦ .

(٢) المغازي لابن إسحاق ص ٢٦١ . وذكره الحافظ في الإصابة ٤/٢٣١ ، وقال: قال البلاذري: ويقال إن الذي زوجه إياها ابنها عمر ، والأول أثبت .

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢١ .

(٤) تلقيح الفهوم ص ٢١ - ٢٢ .

(٥) بعدها في (ظ): درهم .

(٦) سنن الدارقطني (٣٦٠٩) ، وهو عند أحمد (٢٧٤٠٨)، وأبي داود (٢١٠٧) ، والنسائي في المجتبى ٦/١١٩ .

رسول الله ﷺ زينب، وكان اسم أبيها بُرَّة، فقالت: يا رسول الله، بدّل اسمَ أبي؛ فإنَّ البُرَّةَ حقيرة، فقال لها النبيُّ ﷺ: «لو كان أبوكِ مؤمناً سمَّيناه باسم رجلٍ منَّا أهل البيت، ولكنِّي قد سمَّيته جحشاً، والجحشُ أكبر من البُرّة». ذكر هذا الحديث الدَّارَقُطْنيّ[1]. تزوَّجها رسول الله ﷺ بالمدينة في سنةِ خمسٍ من الهجرة، وتوفِّيت سنةَ عشرين، وهي بنتُ ثلاثٍ وخمسين[2].

ومنهنَّ: زينب بنتُ خُزيمة بن الحارث [بن عبد الله] بن عمرو بن عبد مَنَاف بن هلال بن عامر بن صَعْصعة الهِلاليةُ، كانت تسمَّى في الجاهلية أمَّ المساكين؛ لإطعامها إياهم. تَزوَّجها رسول الله ﷺ في رمضان على رأس واحد وثلاثين شهراً من الهجرة، فمكثت عنده ثمانيةَ أشهرٍ، وتوفِّيت في حياته في آخِرِ ربيع الأوّل على رأس تسعةٍ وثلاثين شهراً من الهجرة، ودُفنت بالبَقيع[3].

ومنهنَّ: جُوَيرية بنتُ الحارث بن أبي ضِرار الخُزاعيةُ المُصْطَلِقيَّة، أصابها في غزوةِ بني المُصْطَلِق، فوقعت في سهم ثابت بنِ قيس بن شَمَّاس، فكاتَبها فقضى رسولُ الله ﷺ كتابتها وتزوَّجها، وذلك في شعبان سنةَ ستٍّ، وكان اسمها بَرَّة، فسمَّاها رسول الله ﷺ جُوَيرية، وتوفِّيت في ربيع الأول سنةَ ستٍّ وخمسين. وقيل: سنة خمسين، وهي ابنةُ خمس وستين[4].

ومنهنَّ: صفية بنتُ حُيَيّ بن أخْطَب الهارونيةُ، سباها النبيُّ ﷺ يومَ خَيْبر

---

(١) في المؤتلف والمختلف كما ذكر السهيلي في الروض الأنف ٢/ ٢١٦، والحافظ في الفتح ١٠/ ٥٧٦ وضعفه. ولم نقف عليه في المطبوع منه. والكلام من التعريف والإعلام ص ١٣٩. وأول الحديث في صحيح مسلم (٢١٤٢) عن زينب بنت أم سلمة قالت: ودخَلَتْ عليه زينب بنت جحش واسمها بَرَّة، فسماها زينب، و (٢١٤١) من حديث أبي هريرة.

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٢.

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٢، وما سلف بين حاصرتين منه ومن طبقات ابن سعد ٨/ ١١٥.

(٤) تلقيح الفهوم ص ٢٢، وبنحوه في طبقات ابن سعد ٨/ ١١٦ - ١٢٠، وحديث تغيير اسمها أخرجه مسلم (٢١٤٠).

واصطفاها لنفسه، فأسلمت وأعتقها، وجعل عِتْقَها صَدَاقها. وفي الصحيح: أنَّها وقعت في سهم دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ، فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعةِ أَرْؤُس[(١)]، وماتت في سنة خمسين. وقيل: سنة اثنتين وخمسين، ودُفنت بالبقيع[(٢)].

ومنهنَّ: رَيحانة بنتُ زيد بن عمرو بن خُنافة من بني النَّضير، سباها رسول الله ﷺ وأعتقها، وتزوَّجها في سنة ستٍّ، وماتت مَرْجِعَه من حَجة الوَداع، فدفنها بالبقيع. قال الواقديُّ: ماتت سنةَ ستَّ عشرةَ، وصلَّى عليها عمر[(٣)]. قال أبو الفرج الجَوْزِي[(٤)]: وقد سمعتُ مَن يقول: إنه كان يطؤها بِملْك اليمين ولم يُعْتِقْها.

قلت: ولهذا ـ والله أعلم ـ لم يذكرها أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلِيُّ في عِدَادِ أزواج النبيِّ ﷺ[(٥)].

ومنهنَّ: ميمونةُ بنتُ الحارث الهلالِية؛ تزوَّجها رسول الله ﷺ بِسَرِفٍ على عشرةِ أميالٍ من مكة، وذلك في سنة سبعٍ من الهجرة في عُمْرة القَضِيَّة، وهي آخِرُ امرأةٍ تزوَّجها رسول الله ﷺ، وقدَّر الله تعالى أنَّها ماتت في المكان الذي بنى بها فيه رسول الله ﷺ، ودُفنت هنالك، وذلك في سنة إحدى وستِّين. وقيل: ثلاث وستِّين. وقيل: ثمان وثلاثين[(٦)].

---

(١) صحيح مسلم ص ١٠٤٥ حديث (١٣٦٥): (٨٧)، وهو عند أحمد (١٣٥٧٥)، وأخرجه بنحوه البخاري (٣٧١)، وهو من حديث أنس ﷺ.

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٣ .

(٣) كذا نقل المصنف كلام الواقدي عن ابن الجوزي في تلقيح الفهوم ص ٢٣، والذي أخرجه ابن سعد عن الواقدي في الطبقات ٨/ ١٢٩ - ١٣١ أنها ماتت عند رسول الله ﷺ، أما الكلام المذكور أعلاه فهو في حق مارية القبطية، كما ذكر ابن سعد عن الواقدي أيضاً ٨/ ٢١٦ . وينظر الإصابة ١٢/ ٢٦٧ - ٢٦٨ و١٣/ ١٢٥ - ١٢٦ .

(٤) كذا ذكر المصنف، والصواب أن القائل الواقدي. ينظر تلقيح الفهوم ص ٢٣، وطبقات ابن سعد ٨/ ١٣١ .

(٥) ينظر التعريف والإعلام ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٦) في (م): ثمان وستين، والمثبت من النسخ الخطية، وتلقيح الفهوم ص ٢٤، والكلام منه. وذكر الذهبي في السير ٢/ ٢٤٥ أنها ماتت قبل عائشة رضي الله عنها.

فهؤلاء المشهوراتُ من أزواج النبيِّ ﷺ، وهنَّ اللاتي دَخَل بهنَّ رضي الله عنهنّ[(١)].

فأمَّا مَن تزوَّجَهُنَّ ولم يدخل بهنَّ ؛ فمنهنَّ: الكلابِيةُ. واختلفوا في اسمها ؛ فقيل: فاطمة. وقيل: عَمْرة. وقيل: العالية. قال الزهريُّ: تزوَّج فاطمةَ بنتَ الضحاك الكلابيةَ، فاستعاذت منه فطلَّقها، وكانت تقول: أنا الشقيَّة. تزوَّجها في ذي القعدة سنة ثمانٍ من الهجرة، وتوفِّيت سنةَ ستِّين[(٢)].

ومنهنَّ: أسماء بنتُ النعمان بن أبي الجَوْن بن الحارث الكِنْدية، وهي الجَوْنية. قال قتادة: لمَّا دخل عليها دعاها، فقالت: تعال أنت، فطلَّقها. وقال غيره: هي التي استعاذت منه[(٣)]. وفي البخاريِّ قال: تزوَّج رسول الله ﷺ أميمةَ بنتَ شَراحيل، فلمَّا أُدخلت عليه بسط يده إليها، فكأنَّها كرهت ذلك، فأمر أبا أُسَيد أن يجهِّزها ويكسوَها ثوبين[(٤)]. وفي لَفْظٍ آخَرَ: قال أبو أُسيد: أُتيَ رسول الله ﷺ بالجَوْنية، فلمَّا دخل عليها قال: «هَبي لي نفسك» فقالت: وهل تَهَبُ الملِكةُ نفسَها للسُّوقة ! فأهوى بيده ليضعها عليها لتَسْكُنَ ؛ فقالت: أعوذ بالله منك ! فقال: «قد عُذتِ بمَعَاذ» ثم خرج علينا فقال: «يا أبا أُسَيد، اكْسُها رازِقيَّين وألحقها بأهلها»[(٥)].

ومنهنَّ: قُتَيْلةُ بنتُ قيسٍ أختُ الأشعث بن قيس، زوَّجها إياه الأشعث، ثم

---

(١) وذكرهن ابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ٨٨ - ٩٠ عدا ريحانة بنت زيد وقال: فهؤلاء أزواجه اللاتي لم يختلف فيهن ، وهن إحدى عشرة امرأة ، وأما اللواتي اختلف فيهن ، ممن ابتنى بها وفارقها ، أو عقد عليها ولم يدخل بها ، أو خطبها ولم يتم له العقد منها ، فقد اختُلف فيهن وفي أسباب فراقهن اختلافاً كثيراً يوجِبُ التوقُّف عن القطع بالصحة في واحدة منهن .

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٤ .

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٥ .

(٤) صحيح البخاري (٥٢٥٦ ، ٥٢٥٧) من حديث سهل بن سعد وأبي أُسَيد رضي الله عنهما .

(٥) صحيح البخاري (٥٢٥٥) ، وهو عند أحمد (١٦٠٦١) . قوله: رازقيين ، وفي رواية رازقيتين ، الرازقية: ثياب كَتَّان بيض . النهاية (رزق) .

انصرف إلى حَضْرَمَوْت، فحمَلها إليه فبلغه وفاةُ النبيِّ ﷺ، فردَّها إلى بلاده، فارتدَّ وارتدَّت معه. ثم تزوَّجها عِكرمة بنُ أبي جَهْل، فوَجَدَ من ذلك أبو بكر وَجْدًا شديداً. فقال له عمر: إنَّها والله ما هي من أزواجه، ما خيَّرها ولا حَجَبها. ولقد برَّأها الله منه بالارتداد. وكان عروةُ ينكر أن يكون تزوَّجها(١).

ومنهنَّ: أمُّ شَرِيكٍ الأَزْديَّةُ، واسمُها غُزَيَّة بنتُ جابر بن حكيم، وكانت قبله عند أبي بكر بن أبي سلمى(٢)، فطلَّقها النبيُّ ﷺ ولم يدخل بها. وهي التي وهبت نفسها. وقيل: إنَّ التي وهبت نفسها للنبيِّ ﷺ خَوْلة بنتُ حكيم(٣).

ومنهنَّ: خَوْلة بنتُ الهُذَيل بن هُبَيرة، تزوَّجها رسول الله ﷺ، فهَلَكَت قبل أن تصل إليه.

ومنهنَّ: شَرَافُ بنتُ خليفة، أختُ دِحْية، تزوَّجها ولم يدخل بها.

ومنهنَّ: ليلى بنتُ الخَطِيم، أختُ قيس، تزوَّجها وكانت غَيوراً، فاستقالته فأَقالها.

ومنهنَّ: عَمْرةُ بنتُ معاوية الكِنْدية، تزوَّجها النبيُّ ﷺ. قال الشعبيُّ: تزوَّج امرأةً من كِنْدَةَ، فجيء بها بعد ما مات.

ومنهنَّ: ابنةُ جُنْدب بن ضَمْرةَ الجُنْدُعِية. قال بعضهم: تزوَّجها رسول الله ﷺ. وأنكر بعضُهم وجود ذلك.

ومنهنَّ: الغِفارِيَّة. قال بعضهم: تزوَّج امرأةً من غِفار، فأمرها فنزعت ثيابها،

---

(١) تلقيح الفهوم ص ٢٥ ، وبنحوه في طبقات ابن سعد ٨/ ١٤٧ - ١٤٨ . وقال ابن عبد البر في الاستيعاب ١٣/ ١٣٦ : وفيها اختلاف كثير جدًّا .

(٢) كذا في النسخ، وفي تلقيح الفهوم ص٢٦ : أبي بكر بن سلمى، والذي في طبقات ابن خياط ص١١٦ : أبو العَكَر بن أبي سُميّ، وفي الاستيعاب ١٣/ ٢٤٣ ، والإصابة ٤/ ٢١٨ : أبو العَكَر بن سُميّ؛ قال الحافظ: أبو العَكَر بفتح المهملة والكاف.

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٦ ، وينظر طبقات ابن سعد ٨/ ١٥٤ - ١٥٨ .

فرأى بياضاً فقال: «إلْحَقِي بأهلك». ويقال: إنَّما رأى البياضَ بالكلابية[١].

فهؤلاء اللاتي عقد عليهنَّ ولم يدخل بهنَّ، ﷺ.

فأمَّا مَن خطبهنَّ فلم يتمَّ نكاحُه معهنَّ ؛ ومَن وَهَبَتْ له نفسها:

فمنهنَّ: أمُّ هانئ بنتُ أبي طالب، واسمُها فاختة؛ خطبها النبيُّ ﷺ فقالت: إنِّي امرأة مُصْبِيَة، واعتذرَتْ إليه فعَذَرَها[٢].

ومنهنَّ: ضُباعةُ بنتُ عامر.

ومنهنَّ: صفِيةُ بنتُ بَشامة بنِ نَضْلةَ، خطبها النبيُّ ﷺ وكان أصابها سِباءً، فخيَّرها النبيُّ ﷺ، فقال: «إنْ شئتِ أنا وإنْ شئتِ زَوْجك»؟ قالت: زوجي. فأرسلها، فلعنتها بنو تميم ؛ قاله ابن عباس[٣].

ومنهنَّ: أمُّ شَريك، وقد تقدَّم ذكرها.

ومنهنَّ: ليلى بنتُ الخَطِيم، وقد تقدَّم ذكرها.

ومنهنَّ: خولةُ بنتُ حكيم بن أمية، وهبت نفسها للنَّبيِّ ﷺ فأرْجَأها، فتزوَّجها عثمان بن مظعون.

ومنهنَّ: جَمْرةُ بنتُ الحارث بن عَوف المزَنيِّ ؛ خطبها النبيُّ ﷺ فقال أبوها: إنَّ بها سوءاً. ولم يكن بها، فرجع إليها أبوها وقد بَرِصَت، وهي أمُّ شَبيب بنِ البَرْصاءِ الشاعر[٤].

---

(١) تلقيح الفهوم ص ٢٦ . وحديث الغفارية أخرجه ابن إسحاق في المغازي ص ٢٦٨ عن سعد بن زيد الأنصاري . وأخرجه الحاكم ٤/ ٣٤ عن زيد بن كعب عجرة عن أبيه . وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٨٢٩) عن زيد بن كعب بن عجرة ، ولم يقل عن أبيه . ومداره على جميل بن زيد الطائي ، وقد قال عنه ابن معين: ليس بثقة ، وقال البخاري: لم يصح حديثه . الميزان ١/ ٤٢٣ .

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٦ ، وأخرج نحوه أحمد (٧٦٥٠) ، ومسلم (٢٥٢٧): (٢٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ ومصبية ، أي: ذات صبيان . النهاية (صبا) .

(٣) أخرجه ابن سعد ٨/ ٥٤ بإسناد فيه الكلبي . والكلام من تلقيح الفهوم ص ٢٧ .

(٤) تلقيح الفهوم ص ٢٧ ، وشبيب شاعر إسلامي فصيح من شعراء الدولة الأموية. الأغاني ١٢/ ٢٧١ .

ومنهنَّ: سودةُ القرشيةُ ؛ خطبها رسول الله ﷺ وكانت مُصْبِيةً. فقالت: أخاف أن يَضْغُوَ صِبْيَتِي عند رأسك. فحمِدَها وَدَعَا لها[١].

ومنهنَّ: امرأةٌ لم يُذكر اسمها. قال مجاهد: خطب رسول الله ﷺ امرأةً فقالت: أستأمر أبي. فلقيتُ أباها فأذن لها، فلقِيت رسول الله ﷺ فقال: «قد الْتَحَفْنَا لحافاً غيرَك»[٢].

فهؤلاء جميعُ أزواج النبيِّ ﷺ.

وكان له من السَّراري سُرِّيَّتان: ماريةُ القبطيةُ وريْحانة ؛ في قول قتادة. وقال غيره: كان له أربعٌ: مارية، وريحانة، وأخرى جميلةٌ أصابها في السَّبْي، وجاريةٌ وهبتها له زينبُ بنتُ جحش[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ «إنْ» شرطٌ، وجوابُه: «فتَعالَيْن» ؛ فعلّق التخيير على شرط. وهذا يدلُّ على أنَّ التخيير والطلاق المعلَّقَينِ على شرطٍ صحيحان، فينفذان ويمضيان، خلافاً للجهَّال المبتدعةِ الذين يزعمون أنَّ الرجل إذا قال لزوجته: أنتِ طالقٌ إنْ دخلتِ الدارَ، أنه لا يقع الطلاقُ إن دخلتِ الدار ؛ لأنَّ الطلاق الشرعيَّ هو المنجَّزُ في الحال لا غير[٤].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ هو جوابُ الشرط، وهو فعلُ جماعةِ النساء، من قولك: تعال[٥]، وهو دعاءٌ إلى الإقبال إليه ؛ يقال: تعالَ، بمعنى: أَقْبِل، وُضع لمن له جلالةٌ ورفعةٌ، ثم صار في الاستعمال لكلِّ داعٍ[٦] إلى الإقبال، وأمَّا في هذا

---

(١) تلقيح الفهوم ص ٢٧ ، وأخرجه مطولاً أحمد (٢٩٢٣) . ويضغو ، أي: يصيحوا ويضجُّوا . النهاية (ضغا) .

(٢) أخرجه ابن سعد ٨/ ١٦١ بإسناد فيه الواقدي ، والكلام من تلقيح الفهوم ص ٢٧ .

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٨ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٣ .

(٥) في (م) وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٤ (والكلام منه): تعالى ، والمثبت من النسخ الخطية .

(٦) في (ظ): مدعو.

الموضع فهو على أصله ؛ فإنَّ الداعيَ هو رسولُ الله ﷺ .﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ قد تقدَّم الكلام في المُتْعة في «البقرة»[(١)]. وقرئ: «أُمَتِّعُكُنَّ» بضمِّ العين، وكذا: «وأُسَرِّحُكُنَّ» بضمِّ الحاء، على الاستئناف[(٢)]. والسراحُ الجميل: هو أن يكون طلاقاً للسُّنة من غير ضِرارٍ ولا مَنْعِ واجبٍ لها.

الخامسة: اختلف العلماء في كيفية تخييرِ النبيِّ ﷺ أزواجَه على قولين:

الأوّل: أنَّه خيَّرهنَّ ـ بإذن الله تعالى ـ في البقاء على الزوجية، أو الطَّلاق، فاخْتَرْنَ البقاءَ ؛ قالته عائشةُ ومجاهدٌ وعكرمةُ والشعبيُّ وابن شهاب وربيعة .

ومنهم مَن قال: إنَّما خيَّرهنَّ بين الدنيا فيفارقهنَّ، وبين الآخرة فيمسكهنَّ ؛ لتكون لهنَّ المنزلةُ العليا كما كانت لزوجهنَّ، ولم يخيِّرهنَّ في الطلاق ؛ ذكره الحسن وقتادة، ومن الصحابة عليٌّ فيما رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال: لم يخيِّر رسول الله ﷺ نساءه إلَّا بين الدنيا والآخرة[(٣)].

قلت: القولُ الأوّل أصحُّ ؛ لقول عائشةَ رضي الله عنها لمَّا سُئلت عن الرجل يخيِّر امرأته فقالت: قد خيَّرَنا رسولُ الله ﷺ، أفكان طلاقاً! في رواية: فاخترناه فلم يَعُدَّه طلاقاً[(٤)]. ولم يثبتْ عن رسول الله ﷺ إلَّا التخييرُ المأمورُ به بين البقاء والطلاق، ولذلك قال: «يا عائشةُ إنِّي ذاكرٌ لكِ أمراً، فلا عليكِ ألَّا تَعْجَلي فيه حتى تستأمري أبويك». ومعلومٌ أنه لم يُرِد الاستئمارَ في اختيار الدنيا وزينتها على الآخرة. فثبت أنَّ

(١) ٤/ ١٦٢ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١١٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٤ و١٥١٥ . وحديث علي أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٥٨٨) و(٥٨٩) من طريق محمد بن عبيد الله بن أبي رافع ، عن عمر بن علي بن الحسين ، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه . ومحمد بن عبيد الله بن أبي رافع ، قال فيه الحافظ في التقريب: ضعيف . اهـ . وعلي بن الحسين أبو عمر بن علي بن الحسين لم يدرك جدَّه .

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٦٥٣) و(٢٥٣٧٦) والبخاري (٥٢٦٣) و(٥٢٦٤) ومسلم (١٤٧٧): (٢٥) و(٢٧).

الاستمار إنَّما وقع في الفُرْقة أو النكاح[١]. والله أعلم.

السادسة: اختلف العلماء في المخيَّرة إذا اختارت زوجَها؛ فقال جُمهور العلماء من السَّلَف وغيرهم وأئمةِ الفتوى: إنه لا يلزمه طلاقٌ، لا واحدةٌ ولا أكثر؛ هذا قولُ عمر بن الخطاب وعليٍّ وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس وعائشة. ومن التابعين عطاء ومسروق وسليمان بن يسار وربيعة وابن شهاب[٢].

وروي عن عليٍّ وزيدٍ أيضاً: إن اختارت زوجَها فواحدةٌ بائنةٌ. وهو قولُ الحسن البصريِّ والليث، وحكاه الخطَّابيُّ والنقَّاش عن مالك[٣]. وتعلَّقوا بأنَّ قوله: اختاري، كنايةٌ في[٤] إيقاع الطلاق، فإذا أضافه إليها وقعت طلقة، كقوله: أنتِ بائن.

والصحيح الأوّل؛ لقول عائشةَ: خيَّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يَعُدَّه علينا طلاقاً. أخرجه الصحيحان[٥].

قال ابن المنذر: وحديثُ عائشةَ يدلُّ على أنَّ المخيَّرة إذا اختارت زوجها لم يكن طلاقاً. ويدلُّ على أنَّ اختيارها نفسَها يوجب الطلاق. ويدلُّ على معنًى ثالثٍ، وهو أنَّ المخيَّرة إذا اختارت نفسَها أنَّها تطليقةٌ يملك زوجُها رجعتها؛ إذ غيرُ جائزٍ أن يطلِّق رسول الله ﷺ بخلافِ ما أمره الله. ورُوي هذا عن عمر وابن مسعود وابن عباس. وبه قال ابن أبي ليلى والثوريُّ والشافعيُّ.

ورُوي عن عليٍّ: أنها إذا اختارت نفسها أنَّها واحدةٌ بائنة. وهو قولُ أبي حنيفة

---

(١) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٣٤٥، وبنحوه في أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٥٧. والحديث سلف ص١١٨ من هذا الجزء.

(٢) بنحوه في الإشراف ٤/ ١٧٨، و الاستذكار ١٧/ ١٦٤ - ١٦٦، والمفهم ٤/ ٢٥٧.

(٣) المفهم ٤/ ٢٥٧ - ٢٥٨، وكلام الخطابي في معالم السنن ٣/ ٢٤٧، وذكره عن علي وزيد والحسن ابنُ المنذر في الإشراف ٤/ ١٧٨.

(٤) في (م): عن، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٨، والكلام منه.

(٥) سلف في المسألة السابقة.

وأصحابه. ورواه ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك.

وروي عن زيد بن ثابت: أنَّها إذا اختارت نفسها أنَّها ثلاث. وهو قول الحسن البصريِّ، وبه قال مالك والليث[1]؛ لأنَّ زوال الملك إنما يكون بذلك[2].

وروي عن عليٍّ ﷺ: أنَّها إذا اختارت زوجها[3] فليس بشيءٍ. وروي عنه: أنَّها إذا اختارت زوجها فواحدةٌ رجعية[4].

السابعة: ذهب جماعةٌ من المدنيِّين وغيرِهم إلى أنَّ التمليك والتخيير سواءٌ، والقضاءُ ما قضت فيهما جميعاً؛ وهو قولُ عبد العزيز بن أبي سلمة. قال ابن شعبان: وقد اختاره كثيرٌ من أصحابنا، وهو قولُ جماعةٍ من أهل المدينة. قال أبو عمر[5]: وعلى هذا القولِ أكثرُ الفقهاء. والمشهورُ من مذهب مالكٍ الفرقُ بينهما، وذلك أنَّ التمليك عند مالكٍ هو قولُ الرجل لامرأته: قد ملَّكتُكِ، أي: قد ملَّكتكِ ما جَعَلَ الله لي من الطلاق، واحدةً أو اثنتين أو ثلاثاً، فلمَّا جاز أن يملِّكها بعضَ ذلك دونَ بعضٍ وادَّعى ذلك، كان القولُ قولَه مع يمينه إذا ناكَرَها. وقالت طائفةٌ من أهل المدينة: له المناكرةُ في التمليك وفي التخيير؛ سواء في المدخول بها [وغير المدخول بها]. والأوّلُ قولُ مالك في المشهور.

وروى ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك: أنَّ للزوج أن يناكِر المخيَّرة في الثلاث، وتكون طلقةً بائنةً كما قال أبو حنيفة. وبه قال ابن الجَهْم. قال سُحْنون: وعليه أكثرُ أصحابنا[6].

---

(١) بنحوه في الأشراف ٤/ ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) في النسخ عدا (ظ): لأن الملك إنما يكون بذلك، والمثبت من (ظ). وذكر الباجي في المنتقى ٤/ ٥٨ أن قولها: اخترت نفسي، إنما يقتضي ملكَها لنفسها، وإزالةَ ملكِ الزوج عنها.

(٣) في النسخ: نفسها، والمثبت من الكشاف ٣/ ٢٥٨ ، وسلف هذا القول عن علي ﷺ في بداية المسألة.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١١٩٧٤) و(١١٩٧٧)، وابن أبي شيبة ٥/ ٥٩ ، والبيهقي ٧/ ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٥) في الكافي ٢/ ٥٨٨ - ٥٩٠ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) عقد الجواهر الثمينة ٢/ ١٧١ .

وتحصيلُ مذهبِ مالك: أنَّ المخيَّرة إذا اختارت نفسها وهي مدخولٌ بها فهو الطَّلاقُ كلُّه، وإن أنكر زوجها فلا نكرةَ له، وإن اختارت واحدةً فليس بشيء، وإنَّما الخيارُ البَتَاتُ، إمَّا أَخَذَتْه وإمَّا تركته[١]؛ لأنَّ معنى التخييرِ: التسريحُ؛ قال الله تعالى في آية التخيير: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فمعنى التسريح: البتاتُ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩] والتسريحُ بإحسانٍ هو الطَّلْقةُ الثالثة؛ رُوي ذلك عن النبيِّ ﷺ كما تقدَّم[٢].

ومن جهة المعنى: إنَّ قوله: اختاريني، أو اختاري نفسك، يقتضي ألَّا يكون له عليها سبيلٌ إذا اختارت نفسها، ولا يملك منها شيئاً؛ إذ قد جعل إليها أن تُخرجَ ما يملكه منها، أو تُقيم معه إذا اختارته، فإذا اختارت البعضَ من الطَّلاق لم يُعْمَل بمقتضى اللفظ، وكانت بمنزلةِ مَن خُيِّر بين شيئين فاختار غيرَهما. وأمَّا التي لم يدخل بها فله مُناكَرتُها في التخيير والتمليك إذا زادت على واحدةٍ؛ لأنَّها تَبِينُ في الحال.

الثامنة: اختلفت الرواية عن مالكٍ متى يكون لها الخيار؟ فقال مرةً: لها الخيارُ ما دامت في المجلس قبل القيام أو الاشتغالِ بما يدلُّ على الإعراض. فإن لم تَخْتَرْ ولم تَقْضِ شيئاً حتى افترقا من مجلسهما بَطَلَ ما كان من ذلك إليها، وعلى هذا أكثرُ الفقهاء.

وقال مرةً: لها الخيارُ أبداً ما لم يعلم أنها تَركت، وذلك يُعلم بأنْ تمكِّنه من نفسها بوطءٍ أو مباشرةٍ، فعلى هذا إن منعت نفسها ولم تختر شيئاً؛ كان له رَفْعُها إلى الحاكم لتُوقِعَ أو تُسْقِطَ، فإنْ أبتْ أَسقط الحاكم تمليكَها.

وعلى القول الأول: إذا أخذتْ في غير ذلك من حديثٍ أو عملٍ أو مشيٍ، أو ما ليس من التخيير في شيء[٣] كما ذكرنا، سقط تخييرُها. واحتجَّ بعض أصحابنا لهذا

(١) الاستذكار ١٣/ ١٦٧ .

(٢) ٤/ ٥٧ .

(٣) في النسخ عدا (ظ): بشيء، بدل: في شيء، والمثبت من (ظ). وفي الكافي ٢/ ٥٨٩ (والكلام منه): أو ما ليس من التمليك في شيء.

القول بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠].

وأيضاً؛ فإنَّ الزوج أَطْلَقَ لها القولَ ليعرف الخيار منها[١]، فصار كالعقد بينهما، فإن قَبِلَته؛ وإلَّا سقط، كالذي يقول: قد وهبتُ لكَ أو بايَعْتُك، فإن قَبِلَ؛ وإلَّا كان الملك باقياً بحاله. هذا قولُ الثوريِّ والكوفيين والأوزاعيِّ والليث والشافعيِّ وأبي ثور، وهو اختيارُ ابن القاسم[٢].

ووجهُ الرواية الثانية: أنَّ ذلك قد صار في يدها وملَكَته على زوجها بتمليكه إياها، فلمَّا مَلَكَتْ ذلك وجب أن يبقى في يدها كبقائه في يد زوجها.

قلت: وهذا هو الصحيحُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام لعائشة: «إنِّي ذاكِرٌ لك أمراً، فلا عليكِ ألَّا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» رواه الصحيح، وخرَّجه البخاريُّ، وصحَّحه الترمذيُّ. وقد تقدَّم في أول الباب[٣]. وهو حجةٌ لمن قال: إنه إذا خيَّر الرجل امرأته أو ملَّكها، أنَّ لها أن تقضي في ذلك وإن افترقا من مجلسهما؛ روي هذا عن الحسن والزُّهْريِّ[٤]، وقاله مالك في إحدى روايتيه. قال أبو عبيد: والذي عندنا في هذا الباب اتِّباعُ السنَّةِ في عائشةَ في هذا الحديث، حين جعل لها التأخير[٥] إلى أن تستأمر أبويها، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجاً من الأمر. قال المَرْوزِيُّ: هذا أصحُّ الأقاويلِ عندي، وقاله ابنُ المنذر والطَّحَاويّ[٦].

(١) في (ظ): لها.

(٢) وكلهم يقول: الخيار لها ما لم يقوما من المجلس. ينظر الإشراف ٤/ ١٧٨ ، والاستذكار ١٧/ ٧٤ و ١٦٨ .

(٣) ص١١٨ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه عنهما عبد الرزاق (١١٩٤٣) و(١١٩٤٤)، وذكره ابن عبد البر في الاستذكار ١٧/ ٧٨ .

(٥) في (م): التخيير.

(٦) ينظر اختلاف العلماء للمروزي ص ٢٠٠ ، والإشراف ٤/ ١٧٨ ، ومختصر اختلاف العلماء للجصاص ٢/ ٤٢٣ ، والاستذكار ١٧/ ١٦٨ .

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝٣٠ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ۝٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ **فيه ثلاثُ مسائل:**

الأولى: قال العلماء: لمَّا اختار نساءُ النبيِّ ﷺ رسولَ الله ﷺ شَكَرهنَّ الله على ذلك، فقال تَكْرِمةً لهنَّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٢]. وبيَّن حُكْمَهنَّ عن غيرهن فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وجعل ثوابَ طاعتهنَّ وعقابَ معصيتهنَّ أكثرَ ممَّا لغيرهنَّ، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ فأخبر تعالى أنَّ مَن جاء من نساء النبيِّ ﷺ بفاحشةٍ ـ والله عاصِمٌ رسولَه عليه الصلاة والسلام من ذلك كما مرَّ في حديث الإفك[1] ـ يضاعفُ لها العذابُ ضعفين؛ لشَرَفِ منزلتهنَّ، وفَضْلِ درجتهنَّ، وتقدُّمِهنَّ على سائر النساء أجمع. وكذلك بيَّنت الشريعة[2] في غيرِ ما موضعٍ ـ حَسْبما تقدَّم بيانُه غيرَ مرةٍ[3] ـ أنه كلَّما تضاعفت الحُرُماتُ فهُتِكت، تضاعفت العقوبات؛ ولذلك ضُوعف حدُّ الحرِّ على العبد، والثَّيِّبِ على البكر.

وقيل: لمَّا كان أزواج النبيِّ ﷺ في مَهْبِط الوحي وفي منزلِ أوامرِ الله ونواهيه، قَوِيَ الأمر عليهنَّ، ولَزِمهنَّ بسبب مكانتهن أكثر ممَّا يلزم غيرهن، فضوعفَ لهنَّ الأجر والعذاب[4].

---

(١) ينظر ١٥/ ١٦١ وما بعدها.

(٢) في (ظ): ثبتت الشريعة، وفي أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٢٢ (والكلام منه): ثبت في الشريعة.

(٣) ١٠/ ١٩٨ - ١٩٩، و١٣/ ١٣٥، و١٤/ ٣٥٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢.

وقيل: إنَّما ذلك لِعظَمِ الضَّرَرِ في جرأتهنَّ(١) بإيذاء رسول الله ﷺ، فكانت العقوبة على قَدْرِ عِظَم الجريمةِ في إيذاء رسول الله ﷺ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]. واختار هذا القولَ الكِيَا الطبريّ(٢).

الثانية: قال قوم: لو قُدِّر الزنى من واحدةٍ منهنَّ ـ وقد أعاذهنَّ الله من ذلك ـ لكانت تُحدُّ حدَّين لِعظَمِ قَدْرِها، كما يزاد حدُّ الحرَّةِ على الأَمَة. والعذابُ بمعنى الحدِّ، قال الله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]. وعلى هذا فمعنى الضِّعفين معنى المِثْلَيْن أو المرتين. وقال أبو عبيدة(٣): ضِعف الشيء شيئان حتى يكون ثلاثة. وقاله أبو عمرو فيما حكى الطبريُّ عنه(٤)، فيضافُ إليه عذابان مِثْلُه، فيكون ثلاثةَ أَعْذِبةٍ. وضعَّفه الطبريُّ. وكذلك هو غيرُ صحيح وإن كان له باللفظ تعلُّقُ الاحتمال. وكونُ الأجرِ مرَّتين ممَّا يُفْسِدُ هذا القول؛ لأنَّ العذاب في الفاحشة بإزاءِ الأجر في الطاعة؛ قاله ابن عطية(٥).

وقال النَّحاس(٦): فرَّق أبو عمرو بين «يُضَاعَف» و«يضعَّف»؛ قال: «يُضَاعَف» للمرار الكثيرة، و«يضعَّف» مرَّتين. وقرأ: «يضعَّف» لهذا(٧). وقال أبو عبيدة: «يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ» يجعلُ ثلاثةَ أعذبة.

قال النحاس(٨): التفريقُ الذي جاء به أبو عمرو وأبو عبيدةَ لا يعرفه أحدٌ من أهل

---

(١) في النسخ: جرائمهن، والمثبت من أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٣٤٦ ، والكلام منه.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ٣٤٦ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٣٦ - ١٣٧ .

(٤) في التفسير ١٩/ ٩١ . وأبو عمرو: هو ابن العلاء البصري، أحد القراء السبعة.

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢ .

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٤٣ .

(٧) السبعة ص ٥٢١ ، والتيسير ص ١٧٩ ، وسيرد ما ورد فيها من قراءات في المسألة التالية.

(٨) في معاني القرآن ٥/ ٣٤٤ .

اللغة عَلِمتُه، والمعنى في «يضاعَف» و«يضعَّف» واحد، أي: يُجعل ضعفين، كما تقول: إن دفعتَ إليَّ درهماً دفعتُ إليك ضِعْفَيهِ، أي: مِثْلَيه، يعني درهمين. ويدلُّ على هذا: ﴿نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ ولا يكون العذابُ أكثر من الأجر. وقال في موضعٍ آخَر: ﴿ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب:٦٨] أي: مِثْلَين. وروى معمر عن قتادة: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال: عذابُ الدنيا وعذاب الآخرة.

قال القشيريُّ أبو نصر: الظاهِرُ أنه أراد بالضعفينِ المِثْلَين؛ لأنه قال: ﴿نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾. فأمَّا في الوصايا؛ لو أوصى لإنسانٍ بضعفَيْ نصيبِ ولدِه فهو وصيةٌ بأن يُعطَى مثلَ نصيبه ثلاث مراتٍ؛ فإنَّ الوصايا تجري على العُرْفِ فيما بين الناس، وكلامُ الله يُرَدُّ تفسيره إلى كلام العرب، والضِّعْفُ في كلام العرب: المِثْلُ إلى ما زاد، وليس بمقصورٍ على مِثْلَيْن. يقال: هذا ضِعْفُ هذا، أي: مِثْلُه. وهذا ضِعْفاه، أي: مِثْلاه، فالضِّعْفُ في الأصل زيادةٌ غيرُ محصورة؛ قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ لم يُرِدْ مِثْلاً ولا مِثْلين. كلُّ هذا قولُ الأزهريّ[(١)]. وقد تقدَّم في «النور» الاختلافُ في حدِّ مَن قَذَفَ واحدةً منهنّ[(٢)]، والحمد لله.

الثالثة: قال أبو رافع: كان عمر ﷺ كثيراً ما يقرأ سورةَ يوسفَ وسورةَ الأحزاب في الصبح، وكان إذا بلغ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ رفع بها صوته، فقيل له في ذلك، فقال: «أُذكِّرهنَّ العَهْدَ»[(٣)].

قرأ الجمهور: ﴿مَن يَأْتِ﴾ بالياء، وكذلك: ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ حملاً على لفظِ «مَن». والقنوتُ: الطاعة، وقد تقدَّم[(٤)]. وقرأ يعقوب: «مَن تَأْتِ»، و«تَقْنُتْ» بالتاء من فوق، حملاً على المعنى[(٥)].

---

(١) في تهذيب اللغة ١/ ٤٨٠ - ٤٨١ .

(٢) ١٥/ ١٢٩ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨١ .

(٤) ٤/ ١٨٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨١ ، وذكر قراءة: «تأت» عن يعقوب ابن جني في المحتسب ٢/ ١٧٩ ، وذكر =

وقال قوم: الفاحشةُ إذا وردت مُعرَّفةً فهي الزِّنى واللواط. وإذا وردت منكَّرةً فهي سائرُ المعاصي. وإذا وردت منعوتةً [بالبيان] فهي عقوقُ الزوجِ وفسادُ عِشْرتِه(١).

وقالت فرقة: بل قولُه: «فاحشةٍ مُبَيِّنَةٍ» تعمُّ جميعَ المعاصي. وكذلك الفاحشةُ كيف وردت(٢). وقرأ ابن كثير: ﴿مبيَّنةٍ﴾ بفتح الياء. وقرأ نافع وأبو عمرو بكسرها(٣).

وقرأت فرقةٌ: «يُضَاعِفْ» بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى(٤).

وقرأ أبو عمرو فيما روى خارجةُ: «نضاعِف» بالنون المضمومة ونصبِ «العذاب» وهذه قراءةُ ابن مُحَيْصِن. وهذه مفاعلةٌ من واحد، كطارَقْتُ النعلَ وعاقبتُ اللِّصّ(٥).

وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿يُضَاعَفْ﴾ بالياء وفتح العين، ﴿العذابُ﴾ رفعاً(٦).

[وقرأ أبو عمرو: ﴿يُضَعَّفْ﴾ على بناء المبالغة بالياء، ﴿العذابُ﴾ رفعاً] وهي قراءةُ الحسن وابن كثير وعيسى(٧).

وقرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿نُضَعِّف﴾ بالنون وكسر العين المشدَّدة، ﴿العذابَ﴾ نصباً(٨).

= قراءة: «تقنت» ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١١٩، والمشهور عن يعقوب كقراءة الجمهور.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨١، وما بين حاصرتين منه. وقال ابن عطية: ولذلك يصفها بالبيان إذ لا يمكن سترها، والزنا وغيره هو مما يتستَّر به ولا يكون مُبيناً.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢.

(٣) القراءة بفتح الياء هي قراءة ابن كثير وعاصم من رواية أبي بكر، وقرأ الباقون بكسرها. التيسير ص ٩٥، وينظر السبعة ص ٢٣٠.

(٤) قراءة شاذة؛ ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٥٩، وأبو حيان في البحر ٧/ ٢٢٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢، والمشهور عن أبي عمرو: «يضعَّف»، كما سلف، وسيرد.

(٦) وهي قراءة عاصم أيضاً. السبعة ص ٥٢١، والتيسير ص ١٧٩. والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨، وما بين حاصرتين منه. وسلفت قراءة أبي عمرو في المسألة السابقة. ولم نقف على من نسب هذه القراءة لابن كثير، والقراءة المتواترة عنه هي الآتي ذكرها.

(٨) السبعة ص ٥٢١، والتيسير ص ١٧٩. قال أبو حيان في البحر ٧/ ٢٢٨: مَن فَتَح العين رَفَع «العذاب»، ومَن كسرها نَصَبَه.

قال مقاتل: هذا التَّضعيف في العذاب إنَّما هو في الآخرة؛ لأنَّ إيتاء الأجر مرَّتين أيضاً في الآخرة. وهذا حسنٌ؛ لأنَّ نساء النبيِّ ﷺ لا يأتينَ بفاحشةٍ توجب حدًّا. وقد قال ابن عباس: ما بَغَت امرأة نبيٍّ قطُّ، وإنَّما خانت في الإيمان والطاعة(١).

وقال بعض المفسِّرين: العذابُ الذي تُوُعِّدْنَ به ضعفين هو عذابُ الدنيا وعذابُ الآخرة، فكذلك الأجر. قال ابن عطية(٢): وهذا ضعيفٌ، اللهمَّ إلَّا أن يكون أزواجُ النبيِّ ﷺ لا تَرْفَع عنهنَّ حدودُ الدنيا عذابَ الآخرة، على ما هي حالُ الناس عليه بحكمِ حديثِ عُبادة بنِ الصَّامت(٣)، وهذا أمرٌ لم يُرْوَ في أزواج النبيِّ ﷺ، ولا حُفِظَ تقرُّره. وأهلُ التفسير على أنَّ الرزق الكريم الجنةُ؛ ذكره النحَّاس(٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ يعني في الفضل والشَّرف. وقال: «كَأَحَدٖ» ولم يقل: كواحدةٍ؛ لأنَّ أحداً نفيٌ من المذكَّر والمؤنَّث(٥)، والواحدِ والجماعة. وقد يقال على ما ليس بآدميٍّ؛ يقال: ليس فيها أحدٌ، لا شاةٌ ولا بعير.

وإنما خصَّص النساء بالذكر لأنَّ فيمَن تقدَّم آسيةُ ومريم. وقد أشار إلى هذا

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣١٠، وسلف ١١/ ١٣٥.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٦٧٨)، والبخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩)، ولفظه عند البخاري: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تَزْنوا ولا تقتلوا أولادكم... فمَن وفَى منكم فأجْرُه على الله، ومَن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفَّارةٌ له...».

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣١٢.

(٥) في (د) و(خ): لأن أحداً يعني من المذكر والمؤنث، وفي معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٢٤ (والكلام منه): لأن أحداً نفي عام للمذكر والمؤنث...

قتادة[١]، وقد تقدَّم في «آل عمران» الاختلافُ في التفضيل بينهنَّ، فتأمَّلْه هناك[٢]. ثم قال: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ أي: خِفْتُنَّ الله. فبيَّن أنَّ الفضيلة إنَّما تتمُّ لهنَّ بشرط التقوى؛ لِمَا منحهنَّ الله من صحبة الرسول، وعظيمِ المحلِّ منه، ونزولِ القرآن في حقِّهنّ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ في موضع جزمٍ بالنهي، إلَّا أنه مبنيٌّ كما بُني الماضي، هذا مذهبُ سيبويه[٣]، أي: لا تُلِنَّ القولَ، أَمَرهنَّ الله أن يكون قولُهنَّ جَزْلاً وكلامُهنَّ فَصْلاً، ولا يكون على وجهٍ يُظْهِر[٤] في القلب علاقةً بما يَظْهَر عليه من اللِّين، كما كانت الحالُ عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينِه، مثل كلامِ المريبات والمُوْمِسات. فنهاهنَّ عن مثل هذا.

قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ بالنصب على جواب النَّهي ﴿ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أي: شكٌّ ونفاق؛ عن قتادةَ والسُّدِّيّ. وقيل: تَشوُّفٌ لفجورٍ، وهو الفسقُ والغَزَل؛ قاله عكرمة. وهذا أصوبُ، وليس للنفاق مدخلٌ في هذه الآية[٥].

وحكى أبو حاتم أنَّ الأعرج قرأ: «فَيَطْمِعَ» بفتح الياء وكسر الميم. النحاس[٦]: أحسبُ هذا غلطاً، وأنْ يكون قرأ: «فيَطمَعِ» بفتح الميم وكسرِ العين[٧] بعطْفِه على «تَخْضَعْنَ» فهذا وجهٌ جيدٌ حسن. ويجوز: «فيُطْمِعَ» بمعنى: فيُطْمِعَ الخضوعُ أو القول.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢ . وأخرج عبد الرزاق ٢/ ١١٦ ، والطبري ١٩/ ٩٤ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قال: كأحد من نساء هذه الأمة.

(٢) ٥/ ١٢٦ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٢ ، وينظر الكتاب ١/ ٢٠ .

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٢٣ (والكلام منه): يُحْدِث.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣ ، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٦ ، والطبري ١٩/ ٩٥ . وأخرجا عن عكرمة قال: شهوة الزنا.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣١٣ ، وما قبله منه.

(٧) في النسخ: بفتح الياء،وكسر العين، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وذكر ابن جني في المحتسب ٢/ ١٨١ عن الأعرج أنه قرأ بها، يعني بكسر العين.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال ابن عباس: أَمَرهنَّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١). والمرأةُ تُنْدَبُ إذا خاطبت الأجانب ـ وكذا المحرَّماتُ عليها بالمصاهرة ـ إلى الغِلْظةِ في القول من غير رفعِ صوتٍ؛ فإنَّ المرأة مأمورةٌ بخفْضِ الكلام. وعلى الجملة فالقولُ المعروفُ: هو الصوابُ الذي لا تُنْكِره الشريعةُ ولا النفوس.

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ **فيه أربعُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ﴾؛ قرأ الجمهور: ﴿وَقِرنَ﴾ بكسر القاف. وقرأ عاصمٌ ونافعٌ بفتحها(٢). فأمَّا القراءةُ الأولى فتَحتمِلُ وجهين:

أحدهما: أن يكون من الوَقَار؛ تقول: وقَرَ يَقِرُ وَقاراً، أي: سَكَن، والأمرُ: قِرْ، وللنساء: قِرْن، مثل: عِدْنَ وزِنَّ.

والوجهُ الثاني ـ وهو قولُ المبرِّد ـ أن يكون من القَرار؛ تقول: قَرِرتُ بالمكان ـ بفتح الراء ـ أَقِرُّ، والأصلُ: اقْرِرْنَ، بكسر الراء، فحذفت الراء الأولى تخفيفاً، كما قالوا في ظَلِلْتُ: ظِلْتُ، ومَسِسْتُ: مِسْت(٣)، ونقلوا حركتها إلى القاف، واستغني عن ألف الوصل لتحرُّكِ القاف.

قال أبو عليّ: بل على أنْ أُبدلَت الراءُ ياءً كراهةَ التضعيف، كما أبدلت في قيراط

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) السبعة ص ٥٢١ - ٥٢٢، والتيسير ص ١٧٩.

(٣) وذلك بأن تُحذف السين الأولى وتحوَّل كسرتها إلى الميم، ومنهم مَن لا يحوِّل ويترك الميم على حالها مفتوحة، وكذلك: ظلت، يجوز كسر الظاء وفتحها، وهو من شواذِّ التخفيف. ينظر الصحاح (مسس).

ودينار، ويصير للياء حركةُ الحرفِ المبدَل منه، فالتقدير: اقْيِرْنَ، ثم تُلقى حركةُ الياء على القاف كراهةَ تحرُّكِ الياء بالكسر، فتسقط الياءُ لاجتماع الساكنَيْنِ، وتسقط همزةُ الوصل لتحرُّكِ ما بَعْدَها، فيصير: «قِرْن».

وأمَّا قراءةُ أهلِ المدينة وعاصم، فَعَلَى لغةِ العرب: قَرِرْتُ في المكان: إذا أقمتَ فيه ـ بكسر الراء ـ أَقَرُّ بفتح القاف، من باب حَمِد يَحْمَد، وهي لغةُ أهل الحجاز، ذكرها أبو عبيد في «الغريب المصنف» عن الكسائيِّ، وهو من أجلِّ مشايخه، وذكرها الزَّجاج وغيرُه، والأصل: «اقْرَرْن»، حُذفت الراء الأولى لِثِقَلِ التضعيف، وأُلقيت حركتها على القاف فتقول: قَرْن. قال الفرَّاء: هو كما تقول: [هل][1] أَحَسْتَ صاحِبَك؟ أي: هل أَحْسَسْت.

وقال أبو عثمان المازنيُّ: قَرِرتُ به عيناً، بالكسر لا غير، من قُرَّة العين. ولا يجوز: قَرِرت في المكان ـ بالكسر ـ وإنَّما هو: قَرَرت، بفتح الراء[2].

وما أنكره من هذا لا يقدحُ في القراءة إذا ثبتت عن النبيِّ ﷺ، فيُستدلُّ بما ثبت عنه من القراءة على صحة اللغة.

وزعم[3] أبو حاتم أيضاً: أنَّ «قَرْن» لا مذهبَ له في كلام العرب؛ قال النحَّاس[4]: وأمَّا قولُ أبي حاتم: إنه لا مذهبَ له، فقد خُولفَ فيه، وفيه مذهبان: أحدهما ما حكاه الكِسائيُّ، والآخر: ما سمعتُ عليّ بنَ سليمان يقول؛ قال: وهو من قَرِرْتُ به عَيْناً أَقَرُّ، والمعنى: واقْرَرْنَ به عَيْناً في بيوتكنَّ. وهو وجهٌ حسن، إلَّا أنَّ

---

(١) ما بين حاصرتَين من معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٤٢ .

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٤٢ ، والغريب المصنف لأبي عبيد ٢/ ٤٨٩ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢٥ ، والحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٤٧٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٣ - ٣١٤ ، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٧٧ و٩/ ٢٨٠ ، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٩٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣ .

(٣) في (د) و(م): وذهب، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٣ ، والكلام منه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣١٤ .

الحديث يدلُّ على أنه من الأول، كما روي: أنَّ عماراً قال لعائشةَ رضي الله عنها: إنَّ الله قد أمرك أن تَقَرِّي في منزلك، فقالت: يا أبا اليَقْظان، ما زلتَ قوَّالاً بالحقِّ! فقال: الحمدُ للهِ الذي جعلني كذلك على لسانك[١].

وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ: «واقْرِرْنَ» بألِفِ وَصْلٍ وراءَيْنِ الأُولى مكسورة[٢].

الثانية: معنى هذه الآية: الأمرُ بلزوم البيت، وإن كان الخطابُ لنساء النبيِّ ﷺ فقد دخل غيرُهنّ فيه بالمعنى. هذا لو لم يَرِدْ دليلٌ يخصُّ جميع النساء، كيف والشريعةُ طافحةٌ بلزومِ النساءِ بيوتَهنّ، والانكفافِ عن الخروج منها إلَّا لضرورة، على ما تقدَّم في غير موضع[٣].

فأمر الله تعالى نساء النبيِّ ﷺ بملازمة بيوتهنَّ، وخاطبهنَّ بذلك تشريفاً لهنَّ، ونهاهنَّ عن التبرُّج، وأَعْلَمَ أنه فعلُ الجاهلية الأولى فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾. وقد تقدَّم معنى التبرّجِ في «النور»[٤]. وحقيقتُه: إظهارُ ما سَتْرُه أَحْسَنُ، وهو مأخوذٌ من السَّعة؛ يقال: في أسنانه بَرَج: إذا كانت متفرِّقةً؛ قاله المبرِّد[٥].

واختلف الناس في «الجاهليَّة الأُولَى»؛ فقيل: هي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام، كانت المرأةُ تلبس الدِّرع من اللؤلؤ، فتمشي وسط الطريق تَعرِضُ نفسَها على الرجال[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٤، وأخرجه بنحوه الطبري في التاريخ ٤/ ٥٤٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣.

(٣) ينظر ١/ ٢٩٢ و٦/ ١٤٨ و١٥/ ٢٩٣.

(٤) ١٥/ ٣٤٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٤.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٥٢٨ عن الكلبي، وذكره بنحوه الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٤٢، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٠٠.

وقال الحَكَم بن عُتيبة: ما بين آدم ونوحٍ، وهي ثمان مئة سنةٍ، وحُكيتْ لهم سِيَرٌ ذميمة.

وقال ابن عباس: ما بين نوحٍ وإدريس. الكلبيُّ: ما بين نوحٍ وإبراهيم. قيل: إنَّ المرأة كانت تلبسُ الدِّرع من اللؤلؤ غيرَ مَخِيطِ الجانبين، وتلبسُ الثيابَ الرقاقَ ولا تواري بَدَنَها.

وقالت فرقة: ما بين موسى وعيسى. الشعبيُّ: ما بين عيسى ومحمدٍ ﷺ. أبو العالية: هي زمانُ داودَ وسليمانَ؛ كان فيه للمرأة قميصٌ من الدرِّ غير مخيطِ الجانبين[١].

وقال أبو العباس المبرِّدُ: والجاهليةُ الأولى كما تقول: الجاهليةُ الجَهْلاءُ، قال: وكان النساء في الجاهلية الجهلاءِ يُظْهِرْنَ ما يَقْبُحُ إظهارُهُ، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخِلْمِها[٢]، فينفرد خِلْمُها بما فوقَ الإزار إلى الأعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل، وربَّما سأل أحدهما صاحبه البَدَلَ.

وقال مجاهد: كان النساء يتمشَّينَ بين الرجال، فذلك التبرُّج[٣].

قال ابن عطيةَ[٤]: والذي يَظْهَرُ عندي أنه أشار للجاهلية التي لَحِقْنَها، فأُمِرْنَ بالنُّقلةِ عن سيرتهنَّ فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكَفَرة؛ لأنهم كانوا لا غَيْرَة عندهم، فكان أمرُ النساء دون حجبةٍ، وجَعلها أُولى بالنسبة إلى ما كُنَّ عليه[٥]،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣ ، دون قوله: إن المرأة كانت تلبس... الخ. وأخرج الطبري أقوال الحكم وابن عباس والشعبي ٩/ ٩٨ - ٩٩ .

(٢) في (د) و(م): وخلها، وفي (ظ): وخدنها، وكذا في الموضع الثاني، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٤ ، والكلام منه، وذكره أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٠٠ وقال: والخِلْم: الصاحب.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٩٩ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤ .

(٥) في المحرر الوجيز: وجعلها أولى بالإضافة إلى حالة الإسلام.

وليس المعنى أنَّ ثَمَّ جاهليةً أخرى. وقد أُوْقِعَ اسم الجاهلية على تلك المدَّة التي قبل الإسلام، فقالوا: جاهليٌّ في الشعراء. وقال ابن عباس في البخاريِّ[١]: سمعتُ أبي في الجاهلية يقول، إلى غيرِ هذا.

قلت: وهذا قولٌ حسن. ويُعتَرضُ بأنَّ العرب كانت أهلَ قَشَفٍ وضَنْكٍ في الغالب، وأنَّ التنعُّم وإظهارَ الزينة إنَّما جرى في الأزمان السابقة، وهي المرادُ بالجاهلية الأولى، وأنَّ المقصود من الآية مخالفةُ مَن قَبْلَهنَّ من المِشية على تَغْنيجٍ وتكسيرٍ وإظهارِ المحاسن للرجال، إلى غير ذلك ممَّا لا يجوز شرعاً. وذلك يشملُ الأقوالَ كلَّها ويَعمُّها، فيَلْزَمنَ البيوت، فإنْ مسَّت الحاجةُ إلى الخروج فَلْيَكُن على تَبَذُّلٍ[٢] وتستُّرٍ تامٍّ. والله الموفِّق.

الثالثة: ذكر الثعلبيُّ وغيره: أنَّ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ كانت إذا قرأت هذه الآيةَ تبكي حتى تَبُلَّ خِمارها. وذكر أنَّ سَوْدَةَ قيل لها: لم لا تَحُجِّين ولا تَعْتَمرين كما يفعل أَخَواتُك؟ فقالت: قد حَجَجْتُ واعتمرتُ، وأمرني الله أنْ أقرَّ في بيتي. قال الراوي: فواللهِ ما خرجتْ من باب حجرتها حتى أُخرجَتْ جنازتُها. رضوان الله عليها[٣].

قال ابن العربيِّ[٤]: لقد دخلتُ نَيِّفاً على ألف قريةٍ، فما رأيتُ[٥] أَصْوَنَ عيالاً ولا أَعَفَّ نساءً من نساء نابلس، التي رُمي بها الخليلُ ﷺ بالنار؛ فإنِّي أَقَمتُ فيها فما رأيتُ امرأةً في طريقٍ نهاراً، إلَّا يومَ الجمعة؛ فإنَّهنَّ يخرجن إليها حتى يَمتلئَ المسجدُ

(١) برقم (٣٨٤٠).

(٢) التبذُّل: تَرْكُ التَّزَيُّن. اللسان (بذل).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣ ، وخبر عائشة أخرجه ابن سعد ٨/ ٨١ ، وأحمد في الزهد ص ٢٠٥ . وخبر سودة أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٥/ ١٩٦ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٢٣ .

(٥) بعدها في النسخ عدا (ظ): نساء، والمثبت من (ظ) وأحكام القرآن لابن العربي.

منهنَّ، فإذا قُضِيَت الصلاةُ وانقلَبْنَ إلى منازلهنَّ لم تقع عيني على واحدةٍ منهنَّ إلى الجمعة الأخرى. وقد رأيتُ بالمسجد الأقصى عفائفَ ما خَرجْنَ من مُعْتَكَفِهنَّ حتى استُشْهِدْنَ فيه.

الرابعة: قال ابن عطية: بكاءُ عائشةَ رضي الله عنها إنَّما كان بسبب سَفَرها أيامَ الجمل، وحينئذٍ قال لها عمَّار: إنَّ الله قد أمرك أن تَقرِّي في بيتك[١].

قال ابن العربيِّ[٢]: تعلَّق الرافضةُ بهذه الآيةِ على أمِّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها؛ إذ قالوا: إنَّها خالفت أمرَ رسول الله ﷺ حين خرجت تقودُ الجيوش، وتُباشِرُ الحروب، وتقتحم مَأْزِقَ الطَّعْنِ والضَّرْبِ فيما لم يُفرَضْ عليها ولا يجوز لها. قالوا: ولقد حُصِرَ عثمان، فلمَّا رأت ذلك أمرت برواحِلِها فقُرِّبت لتخرج إلى مكة، فقال لها مَرْوان: أَقيمي هنا يا أمَّ المؤمنين، ورُدِّي هؤلاء الرَّعَاع؛ فإنَّ الإصلاح بين الناس خيرٌ من حَجِّك. قال ابن العربيِّ: قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: إنَّ عائشةَ رضي الله عنها [كانت] نَذَرت الحجَّ قبل الفتنة، فلم تَرَ التخلُّفَ عن نَذْرِها، ولو خرجت في[٣] تلك الثائرة لكان ذلك صواباً لها.

وأمَّا خروجُها إلى حربِ الجمل فما خَرَجَتْ لحربٍ، ولكنْ تعلَّق الناسُ بها، وشكَوْا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتَهارُجِ الناس، ورجَوْا بركتَها، وطمِعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخَلْق، وظنَّت هي ذلك، [فخرجت] مقتديةً بالله في قوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. والأمرُ بالإصلاح مُخاطَبٌ به جميعُ الناس من ذكر أو أنثى، حُرٍّ أو عبد. فلم يُرِدِ الله تعالى بسابِقِ قضائه ونافِذِ حُكْمِه أن يقع إصلاح، ولكن جرت

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣، وقول عمار ﷺ سلف في المسألة الأولى.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٢٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن: عن.

مطاعناتٌ وجراحاتٌ حتى كاد يَفْنَى الفريقان، فعمَدَ بعضهم إلى الجمل فعَرْقَبه، فلمَّا سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشةَ رضي الله تعالى عنها، فاحْتَمَلَها إلى البصرة، وخرجت في ثلاثين امرأةً، قَرَنَهُنَّ عليٌّ بها حتى أوصلوها إلى المدينة بَرَّةً تقيَّةً، مجتهدةً مصيبةً، مثابةً فيما تأوَّلَتْ، مأجورةً فيما فعلت؛ إذ كلُّ مجتهدٍ في الأحكام مصيبٌ. وقد تقدَّم في «النحل» اسمُ هذا الجمل[1]، وبه يُعْرَفُ ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: فيما أمر ونَهى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال الزَّجَّاج[2]: قيل: يراد به نساءُ النبيِّ ﷺ. وقيل: يراد به نساؤه وأهلُه الذين هم أهلُ بيته؛ على ما يأتي بيانُه بعدُ. و«أهلَ البيتِ» نصبٌ على المدح. قال: وإن شئتَ على النداء[3]. قال: ويجوز الرفع والخفض. قال النحاس[4]: إنْ خُفِضَ على أنه بدلٌ من الكاف والميم لم يَجُزْ عند أبي العباس محمد بن يزيد؛ قال: لا يُبْدَلُ من المخاطبة[5] ولا من المخاطَب؛ لأنَّهما لا يحتاجان إلى تبيين. ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ مصدرٌ فيه معنى التوكيد.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾

---

(١) لم نقف عليه عند المصنف، وقد ذكره السهيلي في التعريف والإعلام ص ٩٤ عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل:٨]، فذكر أن اسمه: عسكر.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٢٢٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣١٤ .

(٣) في النسخ: على البدل، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٥ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣١٥ ، وما قبله منه.

(٥) في إعراب القرآن: المخاطِب.

هذه الألفاظُ تعطي أنَّ أهل البيت نساؤه. وقد اختلف أهلُ العلم في أهل البيت؛ مَن هم؟ فقال عطاء وعِكرمةُ وابنُ عباس: هم زوجاتُه خاصَّةً، لا رجلَ معهنَّ. وذهبوا إلى أنَّ البيت أريدَ به مساكنُ النبيِّ ﷺ[1]؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

وقالت فرقةٌ منهُم الكَلْبيُّ: هم عليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسين خاصةً، وفي هذا أحاديثُ عن النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام[2]، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾ بالميم، ولو كان للنساء خاصةً لكان: عنكنَّ ويطهِّركنَّ. إلَّا أنه يَحتمِلُ أن يكون خَرَجَ على لفظِ الأهل، كما يقولُ الرجلُ لصاحبه: كيف أهلُك؟ أي: امرأتُكَ ونساؤك، فيقول: هم بخيرٍ، قال الله تعالى: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ [هود: ٧٣].

والذي يَظْهَر من الآية أنَّها عامةٌ في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم. وإنَّما قال: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾ لأنَّ رسول الله ﷺ وعَليًّا وحسَناً وحُسَيْناً كان فيهم، وإذا اجتمع المذكَّر والمؤنَّثُ غُلِّبَ المذكَّر، فاقتضت الآيةُ أنَّ الزوجات من أهل البيت؛ لأنَّ الآية فيهنَّ، والمخاطبة لهنَّ، يدلُّ عليه سياقُ الكلام. والله أعلم. أما إنَّ أمَّ سلمةَ قالت: نزلت هذه الآيةُ في بيتي، فدعا رسول الله ﷺ عليًّا وفاطمةَ وحَسَنًا وحُسَيْناً، فدخل

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤، إلا أن فيه: مقاتل، بدل: عطاء. وأخرجه عن ابن عباس الواحدي في أسباب النزول ص ٣٧٤، وابن عساكر في تاريخه ٦٩/ ١٥٠، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٩٨ لابن أبي حاتم وابن مردويه. وأخرجه عن عكرمة الطبري ١٩/ ١٠٧ - ١٠٨.

(٢) منها حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم (٢٤٢٤) والطبري ١٩/ ١٠٢، قالت: خرج النبيُّ ﷺ غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّل من شعرٍ أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾. ومنها حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ عند أحمد (١٦٠٨)، ومسلم (٢٤٠٤)، والطبري ١٩/ ١٠٦. وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ عند الطبري ١٩/ ١٠١ - ١٠٢. وحديث أنس ﷺ عند أحمد (١٣٧٢٨)، والطبري ١٩/ ١٠٢. وحديث واثلة بن الأسقع ﷺ عند أحمد (١٦٩٨٨)، والطبري ١٩/ ١٠٣ - ١٠٤. وحديث أم سلمة رضي الله عنها وسيأتي. وقد ذكرها جميعاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

معهم تحت كساءٍ خَيْبَريٍّ وقال: «هؤلاء أهلُ بيتي» وقرأ الآيةَ وقال: «اللهمَّ أَذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ وطهِّرهُم تطهيراً» فقالت أمُّ سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: «أنتِ على مكانك وأنتِ على خير» أخرجه الترمذيُّ وغيره وقال: هذا حديثٌ غريب[١].

وقال القُشيريُّ: وقالت أمُّ سلمةَ: أَدْخَلْتُ رأسي في الكساء وقلتُ: أنا منهم يا رسولَ الله؟ قال: «نعم»[٢].

وقال الثعلبيُّ: [قيل:] هم بنو هاشم، فهذا يدلُّ على أنَّ البيتَ يرادُ به بيت النَّسَب، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم. وروي نحوُه عن زيد بن أرقم ﷺ أجمعين[٣].

وعلى قول الكَلْبيِّ يكون قولُه: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ ابتداءَ مُخاطَبةِ[٤] أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ أزواجَ النبيِّ ﷺ، على جهة الموعظة وتعديدِ النعمة بِذِكْرِ ما يُتلى في بيوتهنَّ من آيات الله تعالى والحكمة. قال أهلُ العلمِ بالتأويل: «آيات الله»: القرآن. «والحكمة»: السُّنة.

والصحيحُ أنَّ قولَه: «واذكُرْنَ» مَنْسوقٌ على ما قَبْلَه، وقال: «عنكم»؛ لقوله: «أهل»، فالأهلُ مذكَّرٌ، فسمَّاهنَّ - وإنْ كُنَّ إناثاً - باسم التذكير، فلذلك صار: «عنكم». ولا اعتبارَ بقول الكلبيِّ وأشباهِه، فإنَّه توجد له أشياءُ في هذا التفسيرِ ما لو كان[٥] في زمن السَّلَف الصالح لَمَنَعوه من ذلك وحَجَروا عليه. فالآياتُ كلُّها من

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٠٥) بنحوه، ونقله المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤ عدا آخره، وهو قوله: «أنت على مكانك...» فهو من سنن الترمذي. ووقع في المحرر بدلاً منه: «أنت من أزواج النبي، وأنت إلى خير» وأخرجه بنحوه أحمد (٢٦٥٠٨)، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) أخرج نحو هذه الرواية أحمد (٢٦٥٤٠) و(٢٦٥٥٠)، والبغوي في التفسير ٣/ ٥٢٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وحديث زيد بن أرقم أخرجه مسلم (٢٤٠٨).

(٤) في (د) و(م): ابتداء مخاطبة الله تعالى أي مخاطبة، والمثبت من باقي النسخ.

(٥) في (ظ): كانت.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ منسوقٌ بعضُها على بعض، فكيف صار في الوسط كلاماً مُنْفصِلاً لغيرهنَّ! وإنَّما[١] هذا شيءٌ جرى في الأخبار أنَّ النبيِّ عليه الصلاة والسلام لمَّا نزلت عليه هذه الآيةُ دعا عليًّا وفاطمةَ والحسن والحسين، فعمَد النبيُّ ﷺ إلى كساءٍ فلفَّها عليهم، ثم أَلْوَى بيده إلى السماء فقال: «اللّهُمَّ هؤلاء أهلُ بيتي، اللَّهمَّ أَذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ وطَهِّرْهُم تَطْهيراً». فهذه دعوةٌ من النبيِّ ﷺ لهم بعد نزول الآية، أحبَّ أن يُدخلهم في الآية التي خوطب بها الأزواج، فذهب الكلبيُّ ومَن وافقه فصيَّرها لهم خاصَّةً، وهي دعوةٌ لهم خارجةٌ من التنزيل.

الثانية: لفظُ الذِّكْر يحتمِلُ ثلاثةَ مَعَانٍ:

أحدها: أي: اذْكُرْنَ موضعَ النعمة؛ إذ صيَّركُنَّ الله في بيوتٍ تُتلى فيها آياتُ الله والحكمة.

الثاني: اذْكُرْنَ آياتِ الله، واقْدِرْنَ قَدْرَها، وفكِّرنَ فيها حتى تكون منكنَّ على بالٍ لتتَّعِظْنَ بمواعظِ الله تعالى، ومَن كان هذا حالُه ينبغي أن تَحْسُنَ أفعالُه.

الثالث: «اذْكُرْنَ» بمعنى: احْفَظْنَ واقْرأْنَ وأَلْزِمْنَه الألسنةَ، فكأنه يقول: احفَظْنَ أوامر الله تعالى ونَواهِيَهُ، وذلك هو الذي يُتلى في بيوتكنَّ من آيات الله[٢]. فأمر الله سبحانه وتعالى أن يُخْبِرْنَ بما ينزل من القرآن في بيوتهنَّ، وما يَرَيْنَ من أفعال النبيِّ عليه الصلاة والسلام ويَسمعنَ من أقواله، حتى يبلِّغنَ ذلك إلى الناس، فيعملوا ويقتدوا. وهذا يدلُّ على جواز قبولِ خبرِ الواحد من الرجال والنساء في الدِّين.

الثالثة: قال ابن العربيِّ[٣]: في هذه الآيةِ مسألةٌ بديعةٌ، وهي أنَّ الله تعالى أمر

---

(١) في (ظ): فكيف صار في الوسط كلام منفصل وإنما...

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٥.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٢٦، وما قبله منه.

نبيِّه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن، وتعليمِ ما علمه من الدِّين، فكان إذا قرأ على واحدٍ ـ أو ما اتَّفق ـ سقط عنه الفرض، وكان على مَن سمعه أن يبلِّغه إلى غيره، ولا يلزمُه أن يذكُره لجميع الصحابة، ولا كان عليه إذا علَّم ذلك أزواجَه أن يخرج إلى الناس فيقول لهم: نزل كذا، ولا: كان كذا. ولهذا قلنا: يجوز العملُ بخبرِ بُسْرةَ في إيجابِ الوضوء مِن مسِّ الذَّكَر[١]؛ لأنَّها رَوَتْ ما سمعتْ، وبلَّغت ما وَعَت. ولا يلزم أن يبلّغ ذلك الرجال، كما قال أبو حنيفة، على أنه قد نُقل عن سعد بن أبي وقَّاص وابنِ عمر[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: روى الترمذيُّ[٣] عن أمِّ عُمارةَ الأنصاريةِ أنَّها أتت النبيَّ ﷺ فقالت: ما أرى كلَّ شيءٍ إلَّا للرجال، وما أرى النساءَ يُذْكَرنَ بشيء! فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآيَة. هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

و«المسلمين» اسمُ «إنَّ». «والمسلمات» عطفٌ عليه. ويجوز رَفْعُهنَّ عند البصريين، فأمَّا الفرَّاءُ فلا يجوز عنده إلَّا فيما لا يتبيَّن فيه الإعراب[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٢٩٣)، وأبو داود (١٨١)، والترمذي (٨٢)، والنسائي في المجتبى ١/ ١٠٠، وابن ماجه (٤٧٩). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وبُسْرةُ هي بنت صفوان بن نوفل القرشية الأسدية، بنت أخي ورقة بن نوفل، لها سابقة قديمة وهجرة. الإصابة ١٢/ ١٥٨.

(٢) أخرجه عنهما مالك في الموطأ ١/ ٤٢، وابن المنذر في الأوسط ١/ ١٩٤.

(٣) في سننه (٣٢١١).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٥.

الثانية: بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذي يعمُّ الإيمانَ وعَمَلَ الجوارح، ثم ذكر الإيمانَ تخصيصاً له وتنبيهاً على أنه عُظْمُ الإسلام ودِعامتُه. والقانت: العابِدُ المطيع. والصادق معناه: فيما عوهِدَ عليه أن يفيَ به. والصابرُ: عن الشهوات وعلى الطاعات في المَكْره والمَنْشَط. والخاشعُ: الخائفُ للهِ. والمتصدِّق: بالفرض والنَّفْل. وقيل: بالفرض خاصَّةً، والأوّل أمْدَحُ. والصائم كذلك(١).

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي: عمَّا لا يَحِلُّ من الزِّنى وغيره. وفي قوله: «والحافظات» حذفٌ يدلُّ عليه المتقدِّم، تقديرُه: والحافِظاتِها، فاكتفى بما تقدَّم. وفي «الذَّاكرات» أيضاً مثلُه(٢)، ونظيرُه قولُ الشاعر:

وكُمْتاً مُدَمَّاةً كأنَّ مُتونَها ... جرى فوقها واستشعرتْ لَوْنَ مُذْهَبِ(٣)

وروى سيبويه: «لَوْنَ مُذْهَبِ» بالنصب. وإنَّما يجوز الرفع على حذف الهاء، كأنه قال: واستشعرته، فيمَن رَفَع لوناً(٤).

والذاكِر قيل: في أدبار الصلوات، وغُدُوًّا وعَشِيًّا، وفي المضاجع، وعند الانتباه من النوم. وقد تقدَّم هذا كلُّه مفصَّلاً في مواضعه، وما يترتَّب عليه من الفوائد

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٥ ، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢٧ .

(٣) قائله طفيل الغنوي كما في الكتاب ١/ ٧٦ ، والإنصاف لأبي البركات الأنباري ١/ ٨٨ ، والحلل للبطليوسي ص ١٤٦ ، وهو في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢٧ دون نسبة، وذكره الزمخشري في أساس البلاغة (شعر) برواية: وِراداً مُدمَّاةً وكمتاً كأنما...
والكُمت جمع كُميت، وهو لونٌ بين الحمرة والسواد. والمُذْهَب هنا اسمٌ للذهب، وَصَف خيلاً كُمتاً مُشْرَبةً حُمرةً وهي المدمَّاة، وشبَّه ما أُشربت كُمتَتُها من الحمرة بالذهب. ينظر شرح الشواهد للشنتمري ص١٠٠ . وقال البطليوسي: معنى استشعرت: لبسته شعاراً، والشعار: ما ولي الجسد، والدثار فوقه. والمتون: الظهور. قال الزجاج: المعنى: جرى فوقها لونُ مُذهبٍ واستشعرته.

(٤) يعني إذا أُعمل فيها الفعل الثاني وهو «استشعرت» نُصبت، وهو ما استشهد به سيبويه. وإذا أعمل فيها الفعل الأول وهو «جرى» رُفعت. ينظر شرح الشواهد للشنتمري ص ١٠٠ . والكلام من معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٥٠ .

والأحكام، فأغنى عن الإعادة. والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

قال مجاهد: لا يكون ذاكراً للهِ تعالى كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً(١).

وقال أبو سعيد الخدريُّ ﷺ: مَن أيقظَ أهله بالليل وصلَّيا أربعَ ركعاتٍ، كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: روى قتادة وابن عباس ومجاهدٌ في سبب نزول هذه الآية: أنَّ رسول الله ﷺ خطب زينب بنتَ جحش، وكانت بنتَ عمَّتِه، فظنَّت أنَّ الخطبة لنفسه، فلمَّا تبيَّن أنه يريدها لزيد، كرهت وأَبَتْ وامتنعت، فنزلت الآية. فأذعنت زينبُ حينئذٍ وتزوَّجته(٣).

في رواية: فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش، وأنَّ زيداً كان بالأمس عبداً، إلى أن نزلت هذه الآية، فقال له أخوها: مُرْني بما شئتَ فزوَّجها من زيد(٤).

وقيل: إنَّها نزلت في أمِّ كلثوم بنتِ عقبةَ بنِ أبي مُعَيْط، وكانت وَهَبَتْ نَفْسَها

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٧ .

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٠٩). وأخرجه أيضاً أبو داود (١٣٠٩) و(١٤٥١)، والنسائي في الكبرى (١٣١٢) و(١١٣٤٢)، وابن ماجه (١٣٣٥) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٨ ، وأخرج قولهم الطبري ١٩/ ١١٢ - ١١٣ ، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ١١٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٢٧ - ١٥٢٨ ، وذكر هذه الرواية أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٠٤ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٧١ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٦١ .

للنبيِّ ﷺ، فزوَّجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك هي وأخوها وقالا: إنَّما أَرَدْنا رسولَ الله ﷺ فزوَّجَنا غيره[١]؛ فنزلت الآية بسبب ذلك، فأجابا إلى تزويج زيد؛ قاله ابن زيد[٢].

وقال الحسن: ليس لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا أمر الله عزَّ وجلَّ ورسولُه ﷺ بأمرٍ أن يعصياه[٣].

الثانية: لفظة: «ما كان» و«ما ينبغي» ونحوهما، معناها: الحظرُ والمنع. فتجيء لحظْرِ الشيءِ والحكمِ بأنه لا يكون، كما في هذه الآية، وربَّما كان امتناع ذلك الشيء عقلاً كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠]. وربما كان العلم بامتناعه شرعاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]. وربَّما كان في المندوبات، كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل، ونحو هذا[٤].

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ بل نصٌّ في أنَّ الكفاءة لا تُعتبر في الأحساب، وإنَّما تُعتبر في الأديان، خلافاً لمالكٍ والشافعيِّ والمغيرة وسُحْنون. وذلك أنَّ المواليَ تزوَّجَتْ في[٥] قريش؛ تزوَّجَ زيدٌ زينب بنتَ جحش. وتزوَّج المِقداد بنُ الأسود ضباعةَ بنت الزبير. وزوَّج أبو حذيفةَ سالماً من هند بنتِ الوليد بن عُتبة[٦]. وتزوَّج بلالٌ أختَ

(١) في (د): فزوجها، والمثبت من باقي النسخ وهو الموافق لما في المحرر الوجيز والكلام منه. وفي تفسير الطبري: فزَوَّجَنا عبده.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٦ . وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ١١٤ . وأم كلثوم رضي الله عنها كانت ممن أسلم قديماً، وبايعت، وهاجرت إلى المدينة، تزوجها زيد بن حارثة، ثم الزبير، ثم عبد الرحمن بن عوف، ثم عمرو بن العاص فماتت عنده. الإصابة ١٣/ ٢٧٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٥ .

(٥) في (د): من.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٢٨ ، وخبر تزويج أبي حذيفة لسالم مولاه من هند بنت الوليد بن عتبة، وهي بنت أخي أبي حذيفة، أخرجه البخاري (٤٠٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

عبد الرحمن بن عوف(١). وقد تقدَّم هذا المعنى في غير موضع(٢).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قرأ الكوفيون: ﴿أَن يَكُونَ﴾ بالياء. وهو اختيارُ أبي عبيد؛ لأنه قد فرقَ بين المؤنَّث وبين فعله. الباقون بالتاء؛ لأنَّ اللفظ مؤنثٌ، فتأنيثُ فِعْلِه حَسَنٌ. والتذكيرُ على أنَّ الخِيَرة بمعنى التخيُّر(٣)، فالخِيَرةُ مصدرٌ بمعنى الاختيار. وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «الخِيْرة» بإسكان الياء(٤). وهذه الآية في ضِمْنِ قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

ثم توعَّد تعالى وأخبر أنَّ مَن يَعْصِ اللهَ ورسولهَ فقد ضَلّ. وهذا أدلُّ دليلٍ على ما ذهب إليه الجمهورُ من فقهائنا وفقهاءِ أصحاب الإمام الشافعيِّ وبعض الأصوليين؛ من أنَّ صيغةَ «افْعَلْ» للوجوب في أَصْلِ وَضْعِها؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى نَفَى خِيَرةَ المكلَّفِ عند سماعِ أَمْرِه وأمرِ رسوله ﷺ، ثم أَطْلَقَ على مَن بقيتْ له خِيَرةٌ عند صدورِ الأمر اسمَ المعصية، ثم علَّق على المعصية بذلك الضلالَ، فلَزِمَ حملُ الأمرِ على الوجوب. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

فيه تسع مسائل:

(١) أخرجه الدارقطني (٣٧٩٧) من طريق حنظلة بن أبي سفيان عن أمه. وذُكر ليحيى بن معين فأنكره وقال: هذا باطل، ما كانت أخت عبد الرحمن بن عوف قط تحت بلال. تاريخ يحيى بن معين برواية الدوري ٩٣/١.

(٢) ينظر ٤٥٨/٣ وعند المسألة التاسعة عشرة من تفسير الآيات (٢٢ - ٢٨) من سورة القصص.

(٣) في (د) و(م): التخيير، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣١٦/٣، والكلام منه. وقرأ: «تكون» بالتاء نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر في رواية ابن ذكوان، والباقون من السبعة بالياء. السبعة ص ٥٢٢، والتيسير ص ١٧٩.

(٤) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١١٩ عن عيسى بن سليمان.

الأولى: روى الترمذيُّ[١] قال: حدَّثنا عليّ بن حُجْر قال: حدثنا داود بن الزِّبْرِقان، عن داود بن أبي هند، عن الشعبيّ، عن عائشةَ رضي الله تعالى عنها قالت: لو كان رسولُ الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوَحْي لَكَتَمَ هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق فأعتقْته: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾. وإنَّ رسول الله ﷺ لمَّا تزوَّجها قالوا: تَزوَّج حَلِيلةَ ابْنِه، فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وكان رسولُ الله ﷺ تبنَّاه وهو صغيرٌ، فلبث حتى صار رجلاً يقال له: زيد بن محمد، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] فلانٌ مولى فلانٍ، وفلانٌ أخو فلانٍ، هو أقسطُ عند الله [يعني أعدل]. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ [غريبٌ] قد روي عن داود بن أبي هند، عن الشعبيّ، عن مسروق، عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: لو كان النبيُّ ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾. هذا الحرفُ لم يُرْوَ بطوله.

قلت: هذا القَدْرُ هو الذي أخرجه مسلم في «صحيحه»[٢] وهو الذي صححه الترمذيُّ في «جامعه»[٣]. وفي البخاريِّ عن أنس بن مالك أنَّ هذه الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنتِ جحشٍ وزيد بنِ حارثة[٤].

وقال عمر وابن مسعود وعائشة والحسن: ما أنزل الله على رسوله آيةً أشدَّ عليه

---

(١) في سننه (٣٢٠٧)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) برقم (١٧٧): (٢٨٨)، وهو عند أحمد (٢٦٠٤١). وأخرجه البخاري (٧٤٢٠) من حديث أنس ﷺ.

(٣) برقم (٣٢٠٨).

(٤) صحيح البخاري (٤٧٨٧).

من هذه الآية(١). وقال الحسن وعائشةُ: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكَتَم هذه الآيةَ لشدَّتها عليه(٢).

وروي في الخبر: أنه أمسى زيدٌ فأوى إلى فراشه، قالت زينب: ولم يَسْتَطِعْني زيد، وما أمتنع منه غير ما مَنَعَه الله منِّي، فلا يقدِرُ عَلَيَّ(٣). هذه روايةُ أبي عِصْمةَ نوح ابنِ أبي مريم، رَفَعَ الحديثَ إلى زينب أنَّها قالت ذلك(٤).

وفي بعض الروايات: أنَّ زيداً تورَّم ذلك منه حين أراد أن يقربها(٥)، فهذا قريبٌ من ذلك.

وجاء زيدٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: إنَّ زينب تؤذيني بلسانها وتفعل وتفعل! وإنِّي أريد أن أطلِّقها، فقال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ الآية(٦). فطلَّقها زيدٌ، فنزلت: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

واختلف الناس في تأويل هذه الآية؛ فذهب قتادةُ وابن زيد وجماعةٌ من المفسِّرين ـ منهم الطبريُّ وغيره ـ إلى أنَّ النبيَّ ﷺ وقع منه استحسانٌ لزينبَ بنتِ جحش وهي في عِصْمةِ زيد، وكان حريصاً على أن يطلِّقها زيدٌ فيتزوَّجها هو، ثم إنَّ زيداً لمَّا أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غِلظةَ قولٍ وعصيانَ أمرٍ، وأذًى باللسان،

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٠٦ عن عمر ﷺ، وذكره البغوي ٣/ ٥٣٢ عن ابن عمر وابن مسعود وعائشة، وأخرجه عن الحسن عبد الرزاق ٢/ ١١٧ ، والطبري ١٩/ ١١٥ .

(٢) أخرجه عن الحسن عبد الرزاق ٢/ ١١٧ ، والطبري ١٩/ ١١٥ ، وسلف عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) نوادر الأصول ص ١٨٩ . وذكره الآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ٥ ، مختصراً بلفظ: ما كنت أمتنع منه غير أن الله عز وجل منعني منه.

(٤) ونوح ابن أبي مريم قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

(٥) نوادر الأصول ص١٨٩ .

(٦) أخرج نحوه البخاري (٧٤٢٠) عن أنس ﷺ قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتَّقِ اللهَ وأَمْسِكْ عليكَ زَوْجَكَ».

وتعظُّماً بالشرف، قال له: «اتَّقِ الله ـ أي: فيما تقول عنها ـ وأَمْسِكْ عليك زوجَك» وهو يخفي الحرصَ على طلاقِ زيدٍ إيَّاها. وهذا الذي كان يُخفي في نفسه، ولكنه لَزِمَ ما يجبُ من الأمر بالمعروف(١).

وقال مقاتل: زوَّج النبيُّ ﷺ زينبَ بنتَ جحش من زيدٍ، فمكثت عنده حيناً، ثم إنَّه عليه الصلاةُ والسلام أتى زيداً يوماً يطلبه، فأبصر زينبَ قائمةً، وكانت بيضاءَ جميلةً جسيمةً من أتمِّ نساء قريش، فهَوِيَها وقال: «سبحان الله مقلِّب القلوب»! فسمعت زينبُ بالتسبيحة فذكَرتها لزيد، ففطِن زيدٌ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإنَّ فيها كِبْراً، تعظمُ عليَّ وتؤذيني بلسانها، فقال عليه الصلاةُ والسلام: «أَمْسِكْ عليك زوجَك واتَّقِ الله».

وقيل: إنَّ الله بعث ريحاً فرفعت الستر وزينبُ مُتَفَضِّلةٌ في منزلها، فرأى زينب فوقعت في نفسه، ووقع في نفس زينب أنَّها وقعت في نفس النبيِّ ﷺ، وذلك لمَّا جاء يطلب زيداً، فجاء زيدٌ فأخبرته بذلك، فوقع في نفس زيدٍ أن يطلِّقها. وقال ابن عباس: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ الحبَّ لها(٢).

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: تستحييهم. وقيل: تخافُ وتَكْرهُ لائمةَ المسلمين لو قُلْتَ:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨١، وقول الطبري في تفسيره ١٩/ ١١٥، وأخرج الطبري خبر قتادة وابن زيد ١٩/ ١١٥ - ١١٦.

(٢) ذكر خبر ابن عباس الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٨٩، وقد ردَّ العلماء هذه الأخبار ونزَّهوا النبي ﷺ عما نُسب إليه فيها، فقد قال ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٣١: وهذه الروايات كلُّها ساقطةُ الأسانيد، وقولهم: إن النبي ﷺ رآها فوقعت في قلبه. باطل. ا هـ. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم ها هنا آثاراً عن بعض السلف أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها. ا هـ. وردَّها أيضاً القاضي عياض في الشفا ٢/ ٤٢٥، وذكر عن القشيري قوله: وهذا إقدامٌ عظيم من قائله، وقلةُ معرفةٍ بحقِّ النبي ﷺ وبفضله، وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهي ابنة عمته، ولم يزل يراها منذ وُلدت، ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ، وهو زوَّجها لزيد. ا هـ. وقال أبو العباس في المفهم ١/ ٤٠٦: قد اجترأ بعض المفسرين في تفسير هذه الآية، ونسب إلى رسول الله ﷺ ما لا يليق به، ويستحيل عليه؛ إذ قد عصمه الله منه، ونزَّهه عن مثله. وينظر فتح الباري ٨/ ٥٢٣.

طلِّقها، ويقولون: أَمَرَ رجلاً بطلاقِ امرأته ثم نكحَها حين طلَّقها. ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ في كلِّ الأحوال. وقيل: واللهُ أحقُّ أن تستحيَ منه، ولا تأمر زيداً بإمساك زوجته بعد أن أَعْلَمَك الله أنها ستكونُ زوجتَك، فعاتَبَه الله على جميع هذا.

وروي عن عليِّ بن الحسين: أنَّ النبيَّ ﷺ كان قد أَوحَى الله تعالى إليه أنَّ زيداً يطلِّق زينبَ، وأنه يتزوَّجُها بتزويجِ اللهِ إياها [له]، فلمَّا تشَكَّى زيدٌ للنبيِّ ﷺ خُلُقَ زينبَ، وأنَّها لا تُطيعُه، وأَعْلَمَه أنه يريدُ طلاقَها، قال له رسول الله ﷺ على جهةِ الأدبِ والوصيَّةِ: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [أي:] في قولك: ﴿وأمسك عليك زوجك﴾ وهو يعلمُ أنه سيفارقُها ويتزوَّجُها، وهذا هو الذي أَخْفَى في نفسه، ولم يُرِدْ أن يأمره بالطَّلاقِ لما عَلِمَ أنه سيتزوَّجُها، وخشيَ رسولُ الله ﷺ أن يلحقه قولٌ من الناس في أن يتزوَّج زينبَ بعد زيدٍ، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتَبَه الله تعالى على هذا القَدْرِ من أنْ خَشِيَ الناسَ في شيءٍ قد أباحه الله له، بأنْ قال: «أَمْسِكْ»، مع عِلْمِه بأنه يطلِّق. وأَعْلَمَه أنَّ الله أحقُّ بالخشية، أي: في كلِّ حال(١).

قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: وهذا القولُ أحسنُ ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهلُ التحقيق من المفسِّرين والعلماءِ الراسخين، كالزُّهريِّ والقاضي بكر بن العلاء القشيريِّ(٢)، والقاضي أبي بكر بن العربيِّ(٣) وغيرهم. والمرادُ بقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ إنَّما هو: إرجافُ المنافقين بأنه نَهَى عن تزويج نساءِ الأبناءِ وتَزوَّجَ بزوجةِ ابنِه. فأمَّا ما روي أنَّ النبيَّ ﷺ هَوِيَ زينب امرأةَ زيد ـ وربَّما أَطْلَقَ بعضُ المُجَّان لفظَ عَشِق ـ فهذا إنَّما يَصْدُرُ عن جاهلٍ بعصمةِ النبيِّ ﷺ عن مِثْلِ هذا، أو

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٦، وما سلف بين حاصرتين منه. وأخرج خبر علي بن الحسين الطبري ١٩/ ١١٦ - ١١٧، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٤٦٦. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم عن السدي، كما ذكر ابن كثير، وذكره أيضاً الحافظ في الفتح ٥/ ٥٢٣.

(٢) المفهم ١/ ٤٠٦، وبكر بن العلاء القشيري هو بكر بن محمد بن العلاء، أبو الفضل البصري المالكي، صنف التصانيف في المذهب، وسكن مصر، وتوفي فيها سنة (٣٤٤هـ). السير ١٥/ ٥٣٧.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٣١.

مُسْتَخِفٌ بحُرْمَتِه[١].

قال الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»[٢] ـ وأسند إلى عليّ بن الحسين قولَه ـ: فعليّ بنُ الحسين جاء بهذا من خزانةِ العلمِ جَوْهراً من الجواهر، ودُرًّا من الدُّرر، أنَّه إنَّما عَتَب الله عليه في أنَّه قد أَعْلَمَه أنْ ستكونُ هذه من أزواجك، فكيف قال بعد ذلك لزيدٍ: «أمْسِكْ عليكَ زَوجك» وَأَخَذَتْهُ[٣] خشيةُ الناسِ أن يقولوا: تَزَوَّجَ امرأة ابنه، والله أحقُّ أن تخشاه.

وقال النحَّاس[٤]: قال بعض العلماء: ليس هذا من النبيِّ ﷺ خطيئةً؛ ألا ترى أنَّه لم يؤمر بالتوبة ولا بالاستغفار منه. وقد يكون الشيءُ ليس بخطيئةٍ إلَّا أنَّ غيره أَحْسَنُ منه، وأَخفى ذلك في نفسه خشيةَ أن يُفْتَن الناس.

الثانية: قال ابن العربيِّ[٥]: فإن قيل: لأيِّ معنًى قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وقد أخبره الله أنَّها زوجُه؟ قلنا: أراد أن يختبر منه ما لم يُعْلِمْه الله به؛ من رغبته فيها أو رغبته عنها، فأبدى له زيدٌ من النُّفرة عنها والكراهة فيها ما لم يكن عَلِمَه منه في أمرها. فإن قيل: كيف يأمره بالتمسُّك بها وقد عَلِم أنَّ الفراق لا بدَّ منه؟ وهذا تَنَاقُض. قلنا: بل هو صحيحٌ؛ للمقاصد الصحيحة، كإقامةِ[٦] الحجةِ ومعرفةِ العاقبة، ألا ترى أنَّ الله تعالى يأمر العبدَ بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن، فليس في مخالفةِ مُتَعَلَّقِ الأمرِ لمتعلَّقِ[٧] العلمِ ما يَمنعُ من الأمر به عقلاً وحُكْماً. وهذا من نفيس العلم فتيقَّنوه وتقبَّلوه.

---

(١) المفهم ٤٠٦/١ .

(٢) ص ١٨٩ .

(٣) في النسخ عدا (ظ): وأخذتك، والمثبت من (ظ).

(٤) في إعراب القرآن ٣١٦/٣ .

(٥) في أحكام القرآن ١٥٣٢/٣ .

(٦) في (م) وأحكام القرآن: لإقامة.

(٧) في النسخ الخطية: بمتعلق، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

وقوله: «واتَّقِ الله» أي: في طلاقها، فلا تطلِّقها. وأراد نهيَ تنزيهٍ لا نهيَ تحريم؛ لأنَّ الأَوْلَى ألَّا يطلِّق. وقيل: «اتَّقِ اللهَ» فلا تَذُمَّها بالنسبة إلى الكِبْر وأذى الزوج. «وَتُخْفي في نَفْسِكَ» قيل: تعلُّقَ قلبه. وقيل: مفارقةَ زيدٍ إياها. وقيل: عِلمَه بأنَّ زيداً سيطلِّقها؛ لأنَّ الله قد أعلمه بذلك.

الثالثة: رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال لزيد: «ما أَجِدُ في نفسي أَوْثَقَ منكَ، فاخْطُبْ زينبَ عَلَيَّ» قال: فذهبتُ ووليتها ظهري توقيراً للنبيِّ ﷺ، وخطبتُها، ففرحَتْ وقالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوامِرَ ربِّي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، فتزوَّجها النبيُّ ﷺ ودخل بها[(١)].

قلت: معنى هذا الحديثِ ثابتٌ في الصحيح. وتَرْجَم له النَّسائيُّ: صلاةُ المرأةِ إذا خُطِبَتْ واستخارتُها ربَّها[(٢)]. روى الأئمةُ ـ واللفظُ لمسلم ـ عن أنس قال: لمَّا انقضتْ عِدَّةُ زينبَ قال رسول الله ﷺ لزيد: «فاذْكُرْها عَلَيَّ» قال: فانطلق زيدٌ حتى أتاها وهي تُخَمِّر عجينها. قال: فلمَّا رأيتُها عَظُمتْ في صدري حتى ما أستطيع أن أنظرَ إليها أنَّ رسول الله ﷺ ذَكَرها، فولَّيتُها ظهري ونَكَصْتُ على عَقبي، فقلتُ: يا زينب، أَرسل رسولُ الله ﷺ يَذْكُرك. قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوامِرَ ربِّي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن. وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. قال: فقال: ولقد رأيتُنا أنَّ رسول الله ﷺ أطعمنا الخبزَ واللحم حين امتدَّ النهار، الحديثَ[(٣)]. في رواية «حتى تركوه»[(٤)]. وفي روايةٍ عن أنس أيضاً قال: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ أَوْلَمَ على

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧، وأخرجه مطولاً ابن سعد ٨/ ١٠٤ عن أنس ﷺ، وهو في الصحيح ـ على ما يأتي ـ دون قوله: ما أجد في نفسي...الخ.

(٢) المجتبى ٦/ ٧٩.

(٣) صحيح مسلم (١٤٢٨): (٨٩)، وهو عند أحمد (١٣٠٢٥). قوله: فلما رأيتها عظمت...، قال النووي في شرح صحيح مسلم ٩/ ٣٢٨: معناه أنه هابها واستجلَّها من أجل إرادة النبيِّ ﷺ تَزَوُّجَها، فعاملها معاملةَ مَن تَزَوَّجها ﷺ في الإعظام والإجلال والمهابة.

(٤) صحيح مسلم (١٤٢٨): (٩١) بلفظ: أطعمهم خبزاً ولحماً حتى تركوه. قال النووي: يعني حتى شبعوا وتركوه لشبعهم.

امرأةٍ [من نسائه] ما أَوْلَمَ على زينب، فإنَّه ذَبَحَ شاة[١].

قال علماؤنا: فقولُه عليه الصلاةُ والسلام لزيد: «فاذْكُرها عَلَيَّ» أي: اخطُبْها، كما بيَّنه الحديثُ الأول. وهذا امتحانٌ لزيدٍ واختبارٌ له، حتى يَظْهَرَ صَبْرُه وانقيادُه وطوعُه[٢].

قلت: وقد يُستنبَطُ من هذا: أن يقول الإنسان لصاحبه: اخطبْ عليَّ فلانة، لزوجِه المطلَّقةِ منه، ولا حَرَجَ في ذلك. والله أعلم.

الرابعة: لمَّا وَكَلَتْ أمرَها إلى الله وصحَّ تفويضُها إليه؛ تولَّى اللهُ إنكاحَها؛ ولذلك قال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾. وروى الإمام جعفر بنُ محمد عن آبائه عن النبيِّ ﷺ: «وَطَراً زَوَّجْتُكَها»[٣]. ولمَّا أَعْلَمه الله بذلك دخل عليها بغير إذنٍ، ولا تجديدِ عقدٍ، ولا تقريرِ صَداقٍ، ولا شيء ممَّا يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا. وهذا من خُصوصيَّاته ﷺ التي لا يُشاركه فيها أحدٌ بإجماعٍ من المسلمين[٤].

ولهذا كانت زينب تُفاخِرُ نساءَ النبيِّ ﷺ وتقول: زَوَّجَكُنَّ آباؤكنَّ وزوَّجني الله تعالى. أخرجه النَّسائيُّ عن أنس بن مالك قال: كانت زينبُ تَفْخَر على نساء النبيِّ ﷺ تقول: إنَّ الله عزَّ وجلَّ أَنْكَحَني من السماء. وفيها نزلت آيةُ الحجاب[٥]. وسيأتي[٦].

الخامسة: المُنْعَمُ عليه في هذه الآيةِ هو زيدُ بنُ حارثة، كما بيَّنَّاه؛ وقد تقدَّم خبرُه في أول السورة[٧]. ورُوِيَ أنَّ عمَّه لقيَه يوماً وكان قد ورد مكةَ في شغلٍ له، فقال: ما

---

(١) صحيح مسلم (١٤٢٨): (٩٠)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (١٣٣٧٨)، والبخاري (٥١٦٨).

(٢) المفهم ٤/ ١٤٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧ ، والكشاف ٣/ ٢٦٣، والقراءة شاذة .

(٤) المفهم ٤/ ١٤٧ .

(٥) سنن النسائي (المجتبى) ٦/ ٨٠ ، وهو عند أحمد (١٣٣٦١)، والبخاري (٧٤٢١) .

(٦) ص٢٠٢ من هذا الجزء.

(٧) ص٥٥ من هذا الجزء.

اسمك يا غلام؟ قال: زيد، قال: ابنُ مَن؟ قال: ابنُ حارثة. قال: ابنُ مَن؟ قال: ابنُ شَراحيل الكلبيِّ. قال: فما اسمُ أمِّك؟ قال: سُعْدَى، وكنت في أخوالي طَيِّئ. فضمَّه إلى صدره، وأرسل إلى أخيه وقومِه، فحضروا وأرادوا منه أن يُقيم معهم، فقالوا: لمن أنت؟ قال: لمحمد بن عبد الله. فأَتَوْه وقالوا: هذا ابنُنا فَرُدَّه علينا. فقال: «أَعْرِضُ عليه، فإن اختارَكم فخذوا بيده». فبعث إلى زيد وقال: «هل تَعْرِفُ هؤلاء؟» قال: نعم! هذا أبي، وهذا أخي، وهذا عمِّي. فقال له النبيُّ ﷺ: «فأيَّ صاحبٍ كنتُ لك؟» فبكى وقال: لِمَ سألتني عن ذلك؟ قال: «أُخيِّرك، فإنْ أَحْببتَ أن تَلْحق بهم فالحقْ، وإن أردتَ أن تُقيم فأنَا مَن قد عَرَفْت»، فقال: ما أَختارُ عليك أحداً. فجذَبه عمُّه وقال: يا زيد، اخْتَرتَ العبوديَّة على أبيك وعمِّك! فقال: إيْ واللهِ، العبوديةُ عند محمدٍ أحبُّ إليَّ من أن أكون عندكم. فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا أنِّي وارِثٌ ومَوْروث». فلم يزل يقال: زيد بن محمد، إلى أن نزل قولُه تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ ونزل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[1].

السادسة: قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْليُّ ﷺ[2]: كان يقال: زيدُ بنُ محمد حتى نزل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ فقال: أنا زيد بنُ حارثة. وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد. فلمَّا نُزِع عنه هذا الشرفُ وهذا الفخرُ[3]، وعَلِم اللهُ وحشتَه من ذلك، شرَّفه بِخَصِيصةٍ لم[4] يَخُصَّ بها أحداً من أصحاب النبيِّ ﷺ، وهي أنه سمَّاه في القرآن، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ يعني: من زينب. ومَن ذَكَره الله تعالى باسمه في الذِّكر الحكيم حتى صار اسمُه قرآناً يُتْلَى في المحاريب، [فقد] نوَّه به

---

(١) أخرجه بنحوه ابن مردويه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، كما في الدر المنثور ٥/ ١٨١ . وأخرجه بنحوه مختصراً الترمذي (٣٨١٥) عن جَبَلة بن حارثة أخي زيد، وقال: حديث حسن غريب. وسلف الخبر بنحوه ١٤/١١٨ .

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٣٩ - ١٤٠ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) بعدها في النسخ: منه، والمثبت من التعريف والإعلام.

(٤) في النسخ: لم يكن، والمثبت من التعريف والإعلام.

غايةَ التَّنْويه، فكان في هذا تأنيسٌ له، وعِوَضٌ من الفخر بأبوَّة محمدٍ ﷺ له. ألَا ترى إلى قولِ أُبَيّ بن كعب حين قال له النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك سورةَ كذا» فبكى وقال: أوَذُكِرتُ هنالك[١]؟ وكان بكاؤه من الفرح حين أُخبر أنَّ الله تعالى ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآناً يُتلى، مخلَّداً لا يَبِيد[٢]، يَتْلوه أهلُ الدنيا إذا قرؤوا القرآن، وأهلُ الجنةِ كذلك أبداً، لا يزال على ألسنةِ المؤمنين، كما لم يَزَلْ مذكوراً على الخصوص عند ربِّ العالمين؛ إذ القرآنُ كلامُ الله القديم، وهو باقٍ لا يَبِيد، فاسمُ زَيْدٍ هذا في الصُّحُف المكرَّمة المرفوعةِ المطهَّرة، تَذْكُره في التلاوة السَّفَرةُ الكرامُ البَرَرَة. وليس ذلك لاسمٍ من أسماء المؤمنين إلَّا لنبيٍّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى له ممَّا نُزع عنه. وزاد في الآية أنْ قال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإيمان؛ فدلَّ على أنه من أهل الجنة، عَلِم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلةٌ أخرى.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَطَرًا﴾ الوَطَر: كلُّ حاجةٍ للمرء له فيها هِمَّةٌ، والجمعُ: الأوطار. قال ابن عباس: أي: بلغ ما أراد من حاجته، يعني الجماع[٣]. وفيه إضمارٌ، أي: لـمَّا قضى وَطَرَهُ منها وطلَّقها، زوَّجْناكَها. وقراءةُ أهل البيت: «زَوَّجْتُكها»[٤]. وقيل: الوَطَرُ عبارةٌ عن الطلاق؛ قاله قتادة[٥].

الثامنة: ذهب بعضُ الناس من هذه الآية، ومِن قولِ شعيب: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ إلى أنَّ ترتيب هذا المعنى في المهورِ ينبغي أن يكون: «أُنْكِحُه إياها» فيقدَّم

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٣٢٠)، والبخاري (٤٩٦٠)، ومسلم (٧٩٩) من حديث أنس ﷺ، وعندهم: الله سمَّاني لك، بدل: أوذكرت هنالك.

(٢) في (ظ): لا يبلى.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧ دون نسبة.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٦٣، وسلفت هذه القراءة في المسألة الرابعة، وهي قراءة شاذة.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٧، والطبري ١٩/ ١١٨.

ضمير الزوج كما في الآيتين[١]. وكذلك قولهُ عليه الصلاةُ والسلام لصاحب الرداء: «اذهَبْ فقد أَنْكَحْتُكها بما معك من القرآن»[٢]. قال ابنُ عطية[٣]: وهذا [عندي] غيرُ لازمٍ؛ لأنَّ الزوجَ في الآية مخاطَبٌ؛ فحسُنَ تقديمُه، وفي المهور يستوي الزوجان، فقدِّم[٤] مَن شِئْتَ، ولم يبقَ ترجيحٌ إلَّا بدرجةِ الرجال، وأنَّهم القوَّامون.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ دليلٌ على ثبوت الوليِّ في النكاح، وقد تقدَّم الخلافُ في ذلك[٥]. رُويَ أنَّ عائشةَ وزينب تَفاخَرَتا، فقالت عائشة: أنا التي جاء بي المَلَكُ إلى النبيِّ ﷺ في سَرَقةٍ من حرير فيقول: «هذه امرأتُك» خرَّجه الصحيح. وقالت زينب: أنا التي زوَّجني الله من فوق سبع سماوات[٦].

وقال الشعبيُّ: كانت زينب تقول لرسول الله ﷺ: إنِّي لأَدِلُّ عليك بثلاثٍ؛ ما مِن نسائك امرأةٌ تَدِلُّ بهنَّ: أنَّ جَدِّي وجدَّك واحدٌ، وأنَّ الله أنكحك إيَّاي من السماء، وأنَّ السَّفير في ذلك جبريل[٧].

وروي عن زينبَ أنَّها قالت: لمَّا وقعتُ في قلب رسول الله ﷺ لم يَسْتَطِعْني زيد،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧، وفيه: لِمَا في الآيتين.

(٢) قطعة من حديث سهل بن سعد ﷺ أخرجه أحمد (٢٢٨٥٠)، والبخاري (٥٠٣٠)، ومسلم (١٤٢٥)، وسلف بنحوه ٦/ ٢٢٣.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) قوله: يستوي، من (ظ)، واللفظ عند ابن عطية: وفي المهور الزوجان غائبان فقدم...

(٥) ٣/ ٤٦٢.

(٦) كذا ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧، وأخرجه الطبري ١٧/ ١٩٤-١٩٥، والطبراني ٢٤/ (١٢٢) عن محمد بن عبد الله بن جحش، وفيه قول عائشة: «أنا التي نزل عذري من السماء» بدلاً من قولها أعلاه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤٠: وفيه المعلَّى بن زياد، وهو متروك. اهـ. غير أن قول عائشة وقول زينب أعلاه كلاهما في الصحيح ولكن في خبرين منفصلين، وقد سلف حديث زينب رضي الله عنها في المسألة الرابعة، أما حديث عائشة رضي الله عنها فهو في صحيح البخاري (٥١٢٥)، وصحيح مسلم (٢٤٣٨)، وأخرجه أحمد (٢٤١٤٢). قولها: سرقة من حرير، أي: في قطعة من جيد الحرير، وجمعها: سَرَق. النهاية (سرق).

(٧) أخرجه الطبري ١٩/ ١١٨.

وما أمتنع منه غير ما يمنعه الله تعالى منّي فلا يقدرُ عليّ[١].

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ هذه مخاطبةٌ من الله تعالى لجميع الأمة؛ أعْلَمهم أنَّ هذا ونحوَه هو السَّنَنُ الأقدمُ في الأنبياء، أنْ ينالوا ما أحلَّه لهم[٢]، أي: سَنَّ لمحمدٍ ﷺ التوسعةَ عليه في النكاح سُنَّةَ الأنبياء الماضية كداودَ وسليمان .فكان لداودَ مئةُ امرأةٍ وثلاثُ مئة سُرِّيَّة، ولسليمان ثلاثُ مئة امرأة وسبعُ مئة سُرِّية[٣]. وذكر الثعلبيُّ عن مقاتل وابن الكلبيِّ أنَّ الإشارة إلى داود عليه السلام، حيث جمع الله بينه وبين مَن فُتن بها[٤]. و«سُنَّةَ» نصبٌ على المصدر، أي: سَنَّ الله له سُنةً واسعة. و«الذين خَلَوْا» هم الأنبياء، بدليلِ وَصْفِهم بعدُ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) سلف في المسألة الأولى.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٦٤ ، وسلف ٦/ ٤١٨ . وما ذكره عن عدد النساء لداود وسليمان عليهما السلام ليس فيه نص صحيح، ويرجع ذلك إلى الإسرائيليات. والأليق في تفسير الآية ما نقله المصنف عن ابن عطية قبل هذا ا لكلام. وقال ابن كثير في معنى الآية: أي: هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا ردٌّ على مَن توهّم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه الذي كان قد تبنّاه.

(٤) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧ ، وهو كلام باطل، لا يليق بمقام الأنبياء. قال الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ٢٧ : هذا مما لا يُلتفت إليه، والقصة عند المحققين لا أصل لها. اهـ. وسلف الردّ على من زعم أن النبي ﷺ رأى زينب، فوقعت في نفسه، وسيرد الكلام على بطلان قصة افتتان داود عليه السلام بالمرأة عند تفسير الآية (٢٤) من سورة ص.

الأولى: لمَّا تَزوَّجَ زينبَ قال الناس: تَزَوَّجَ امرأةَ ابنِه؛ فنزلت الآيةُ، أي: ليس هو بأبيه حتى تَحْرُمَ عليه حَليلتُه، ولكنَّه أبو أمَّته في التبجيل والتعظيم، وأنَّ نساءه عليهم حرام. فأَذْهبَ الله بهذه الآيةِ ما وَقَعَ في نفوسِ المنافقين وغيرِهم، وأَعْلَم أنَّ محمداً لم يكن أبا أحدٍ من الرجال المعاصرين له في الحقيقة. ولم يقصد بهذه الآية أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن له ولد، فقد وُلِدَ له ذكورٌ: إبراهيم، والقاسم، والطيِّب، والمطهَّر[(١)]؛ ولكنْ لم يعش له ابنٌ حتى يصير رجلاً. وأمَّا الحسنُ والحسين فكانا طِفْلَين، ولم يكونا رجلين مُعاصِرَيْن له.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ قال الأخفش والفرَّاء[(٢)]: أي: ولكنْ كان رسولَ الله. وأجاز[(٣)]: «ولكنْ رسولُ الله وخاتَمُ» بالرفع. وكذلك قرأ ابن أبي عَبْلة وبعضُ الناس: «ولكِنْ رسولُ اللهِ» بالرفع، على معنى: هو رسولُ الله وخاتمُ النبيين[(٤)]. وقرأت فرقة: «ولكنَّ» بتشديد النون ونصبِ «رسول الله» على أنه اسمُ «لكنَّ»، والخبرُ محذوف[(٥)].

﴿وَخَاتَمَ﴾ قرأ عاصمٌ وحده بفتح التاء[(٦)]، بمعنى: أنَّهم به خُتِموا، فهو كالخاتَمِ والطابَعِ لهم. وقرأ الجمهورُ بكَسْرِ التاءِ، بمعنى أنه خَتَمهم، أي: جاء آخِرَهم[(٧)].

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ١٢٢ عن قتادة، وسيرد الكلام عن أولاده ﷺ ١٤/ ٢٤١ .

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٦٠ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٤٤ ، ونقله المصنف عنهما بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣١٧ .

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): وأجازا، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس، والكلام عن الفراء، وهو في معاني القرآن له ٣/ ٣٤٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ ، والقراءة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٤٤ ، والقراءات الشاذة ص ١٢٠ دون نسبة.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٢٠ ، والمحتسب ٢/ ١٨١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ ، والكلام منه.

(٦) السبعة ص ٥٢٢ ، والتيسير ص ١٧٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ .

وقيل: الخاتَم والخاتِم لغتان، مثل طابَع وطابِع، ودانَق ودانِق، وطابَق من اللحم وطابِق[(١)].

الثالثة: قال ابن عطية[(٢)]: هذه الألفاظُ عند جماعةِ علماءِ الأمةِ خَلَفاً وسَلَفاً متلقَّاةٌ على العموم التامِّ، مقتضيةٌ نصًّا أنَّه لا نبيَّ بعده ﷺ. وما ذكره القاضي ابنُ الطيِّب في كتابه المسمَّى بـ «الهداية[(٣)]» من تَجْويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية، ضعيفٌ. وما ذكره الغزَاليُّ في هذه الآية وهذا المعنى في كتابه الذي سمَّاه بـ «الاقتصاد»[(٤)] إلحادٌ عندي، وتَطرُّقٌ خبيثٌ إلى تشويشِ عقيدةِ المسلمين في خَتْمِ محمدٍ ﷺ النبوَّةَ، فالحذَرَ الحذرَ منه! واللهُ الهادي برحمته.

قلت: وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا نبوّةَ بعدي إلَّا ما شاء الله»[(٥)]. قال أبو عمر: يعني الرؤيا ـ والله أعلم ـ التي هي جزءٌ منها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليس يبقى بعدي من النبوَّة إلَّا الرؤيا الصالحة»[(٦)].

وقرأ ابن مسعود: «من رجالكم ولكنْ نبيًّا خَتَمَ النبيِّين». قال الرُّمَّاني: خُتم به عليه الصلاة والسلام الاستصلاح، فَمَن لم يَصْلُحْ به فميئوسٌ من صلاحه[(٧)].

---

(١) في اللسان (طبق): الطابَق والطابِق: ظرف يطبخ فيه، فارسي معرب.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ .

(٣) واسمه: هداية المسترشدين في الكلام، والقاضي ابن الطيب هو أبو بكر الباقلاني. ينظر كشف الظنون ٢/ ٢٠٤٢ .

(٤) واسمه: الاقتصاد في الاعتقاد، وذكر فيه ص٢٢٦ أن منكر قوله ﷺ: «لا نبيَّ بعدي» إنما هو مُنكِرٌ لإجماع الأمة على أنه لا نبيَّ ولا رسولَ بعده ﷺ. وفي الكلام تفصيل؛ ينظر ثمة.

(٥) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٣١٥) عن أنس ﷺ، وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٥٥ عن المغيرة بن شعبة ﷺ، وقد سلف ١/ ١٢٣ . قال ابن الجوزي: هذا الاستثناء موضوع. اهـ وقد سلف دون الاستثناء ١/ ٣٩٨ و٩/ ٣٢٣ و٣/ ٣٤١ .

(٦) التمهيد ١/ ٣١٤ و٥/ ٥٥ . والحديث أخرجه بهذا اللفظ مالك في الموطأ ٢/ ٩٥٦ ، وبنحوه البخاري (٦٩٩٠) عن أبي هريرة ﷺ، وسلف ١١/ ٢٥٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ ، وقراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص ١٢٠ .

قلت: ومن هذا المعنى قولُه عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ لأتمِّم مَكارمَ الأخلاق»(١). وفي «صحيح» مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء كمَثَل رجلٍ بَنَى داراً فأتمَّها وأكْمَلَها إلَّا موضعَ لَبِنَةٍ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجَّبون منها ويقولون: لولا مَوْضِعُ اللَّبِنة!» قال رسولُ الله ﷺ: «فأنا مَوْضِعُ اللَّبِنة؛ جئتُ فختمتُ الأنبياءَ»(٢). ونحوه عن أبي هريرة، غير أنه قال: «فأنا اللَّبِنَة وأنا خاتَم النَّبِيِّين»(٣).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١﴾

أَمَر الله تعالى عبادَه بأنْ يذكُروه ويشكُروه، ويُكْثِروا من ذلك على ما أنْعَمَ به عليهم. وجعل تعالى ذلك دون حدٍّ؛ لسهولته على العبد، ولِعظَم الأجْرِ فيه؛ قال ابن عباس: لم يُعْذَر أحدٌ في تَرْكِ ذِكْرِ الله إلَّا مَن غُلب على عقله. وروى أبو سعيد عن النبيِّ ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ حتى يقولوا مجنون»(٤).

وقيل: الذكرُ الكثير: ما جرى على الإخلاص من القلب، والقليل: ما يقع على حُكْم النفاق كالذِّكر باللسان.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾

أي: اشغلوا ألسنتكم في مُعْظَم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير. قال مجاهد: وهذه كلماتٌ يقولهنَّ الطاهِرُ والمحدِث والجُنُب(٥).

---

(١) سلف ٩/ ٤٢٠ .

(٢) صحيح مسلم (٢٢٨٧)، وهو عند أحمد (١٤٨٨٨)، والبخاري (٣٥٣٤).

(٣) صحيح مسلم (٢٢٨٦): (٢٢)، وهو عند أحمد (٩١٦٧)، والبخاري (٣٥٣٥).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ ، وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٩/ ١٢٤ . وخبر أبي سعيد ﷺ أخرجه أحمد (١١٦٥٣)، وابن عدي في الكامل ٣/ ٩٨٠ ، وفي إسناده درَّاج أبو السمح؛ ضعَّفه أحمد والنسائي وأبو حاتم، وساق له ابن عدي ٣/ ٩٧٩-٩٨٠ أحاديث؛ منها هذا الحديث، وقال: عامَّتُها لا يتابعُ عليها، وينظر ميزان الاعتدال ٢/ ٢٤-٢٥ .

(٥) الكشاف ٣/ ٢٦٥ .

وقيل: ادعوه؛ قال جرير:

فلا تَنْسَ تسبيحَ الضُّحى إنَّ يوسفاً دَعَا ربَّه فاختاره حين سبَّحا[١]

وقيل: المرادُ: صَلُّوا لله بكرةً وأصِيلاً، والصلاةُ تسمَّى تسبيحاً. وخصَّ الفجر والمغرب والعشاء بالذكر لأنها أحقُّ بالتحريض عليها؛ لاتِّصالها بأطراف الليل. وقال قتادة والطبريُّ: الإشارةُ إلى صلاة الغداة وصلاة العصر[٢].

والأصِيل: العشيُّ، وجمعُه: أصائل. والأُصُلُ بمعنى الأصيل، وجمعُه: آصال؛ قاله المبرِّد. وقال غيره: أُصُل جمعُ أصيل، كرغيف ورُغُف. وقد تقدَّم[٣].

مسألة: هذه الآيةُ مدنيَّة، فلا تعلُّقَ بها لِمَن زعم أنَّ الصلاة إنَّما فُرضت أولاً صلاتين في طرفي النهار. والروايةُ بذلك ضعيفة[٤]، فلا التفاتَ إليها ولا معوّل عليها. وقد مضى الكلامُ في كيفية فَرْضِ الصلاة وما للعلماء في ذلك في «سبحان»[٥]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: لمَّا نزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ قال المهاجرون والأنصار: هذا لك يا رسول الله خاصَّةً، وليس لنا فيه شيء، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٦].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤١٠ ، وفيه: ... إن يونساً... فانتاشه حين سبحا، ولم نقف عليه في ديوان جرير. قوله: انتاشه، أي: أنقذه.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ١٢٣ ، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٩ ، والطبري ١٩/ ١٢٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٨ ، وتقدم ٩/ ٤٣٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ . وأخرج البيهقي في السنن الكبرى ١/ ٣٥٩ عن قتادة قال: كان بدء الصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي.

(٥) ١٣/ ١٢ - ١٣ .

(٦) أخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٠٦، وذكره بنحوه أيضاً البغوي ٣/ ٥٣٤ عن أنس، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

قلت: وهذه نعمةٌ من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم، ودليلٌ على فضلها على سائر الأمم؛ وقد قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. والصلاةُ من الله على العبد هي رحمتُه له وبركتُه لديه. وصلاةُ الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين واستغفارُهم لهم، كما قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧] وسيأتي. وفي الحديث: أنَّ بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام: أيُصَلِّي ربُّك جلَّ وعزَّ؟ فأَعْظَم ذلك، فأوحى الله جلَّ وعزَّ إليه: إنَّ صلاتي بأنَّ رحمتي سَبَقَتْ غَضَبِي. ذكره النحاس(١).

وقال ابن عطية: ورَوَتْ فرقةٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قيل له: يا رسول الله، كيف صلاةُ الله على عباده؟ قال: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رحمتي سَبَقَتْ غضبي». واختُلف في تأويل هذا القول، فقيل: إنه كلُّه(٢) من كلام الله تعالى، وهي صلاتُه على عباده. وقيل: سُبُّوحٌ قُدُّوس من كلام محمدٍ ﷺ، وقدَّمه بين يدي نُطْقِه باللفظ الذي هو صلاةُ الله، وهو: «رحمتي سبقت غضبي» من حيث فَهِمَ من السائل أنه تَوَهَّم في صلاة الله على عباده وجهاً لا يَليقُ بالله عزَّ وجلَّ؛ فقدَّم التنزيهَ والتعظيمَ بين يَدَيْ إخبارِه(٣).

قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من الضلالةِ إلى الهُدَى، ومعنى هذا: التثبيتُ على الهداية؛ لأنَّهم كانوا في وقتِ الخطابِ على الهداية. ثم أَخْبَرَ تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيساً لهم فقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

اختُلف في الضمير الذي في «يَلْقَوْنَهُ» على مَن يعود؛ فقيل: على الله تعالى،

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣١٨ ، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٩ عن الحسن قوله.

(٢) في (د): كلام، وفي (م): كلمة.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٩ . والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٤٣) عن أبي هريرة ﷺ.
وأخرجه عبد الرزاق (٢٨٩٨) ضمن خبر طويل عن عطاء، وذكره الدارقطني في العلل ٨/ ٢٨٧ عن أبي هريرة ﷺ، وعن جابر ﷺ، وعن عطاء عن بعض أصحاب النبي ﷺ، قال الدارقطني: وهذا أصح. اهـ.
وفي جميع هذه الروايات أن النبي ﷺ هو السائل، وأن المسؤول هو جبريل عليه السلام.

أي: كان بالمؤمنين رحيماً، فهو يؤمِّنُهم من عذاب الله يومَ القيامة، وفي ذلك اليوم يَلْقَوْنه. و﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي: تحيةُ بعضِهم لبعض. ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: سلامةٌ لنا ولكم من عذاب الله.

وقيل: هذه التحيةُ من الله تعالى، المعنى: فيسلِّمهم من الآفات، أو يبشِّرهم بالأمن من المخافات. ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: يومَ القيامة بعد دخول الجنة. قال معناه الزجَّاج[(١)]؛ واستشهد بقوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠].

وقيل: «يومَ يَلْقَوْنَه» أي: يومَ يَلْقَون مَلَك الموت؛ وقد ورد أنه لا يقبضُ روحَ مؤمنٍ إلَّا سلَّم عليه؛ روي عن البَراء بن عازِب قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ فيسلِّم ملكُ الموت على المؤمن عند قَبْضِ روحِه، لا يقبضُ روحَه حتى يسلِّم عليه[(٢)].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

هذه الآيةُ فيها تأنيسٌ للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين، وتكريمٌ لجميعهم. وهذه الآيةُ تَضَمَّنَتْ من أسمائه ﷺ ستةَ أسماء، ولنبيِّنا ﷺ أسماءٌ كثيرةٌ وسماتٌ جليلة ورد ذكرها في الكتاب والسنَّة والكتبِ المتقدِّمة. وقد سمَّاه الله في كتابه محمداً وأحمد. وقال ﷺ فيما رَوَى عنه الثِّقاتُ العُدولُ: «لِي خمسةُ أسماءٍ: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشَرُ الناسُ على قدمي، وأنا العاقب»[(٣)]. وفي «صحيح» مسلم من حديث جُبير بن مُطْعِم: وقد سمَّاه الله رَؤُوفاً رحيماً[(٤)].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٣١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٩، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٦٧.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٧٣٤)، والبخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم ﷺ، وسلف ١٠/ ٤٥١. قوله: على قدمي، قيل: على سابقتي، وقيل: على سنتي، وقيل: بعدي، أي يتبعوني إلى يوم القيامة. المفهم ٦/ ١٤٦.

(٤) صحيح مسلم (٢٣٥٤): (١٢٥).

وفيه أيضاً عن أبي موسى الأشعريِّ قال: كان رسول الله ﷺ يسمِّي لنا نفسَه أسماءً، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمُقَفِّي، والحاشِرُ، ونبيُّ التوبة، ونبيُّ الرحمة»[١].

وقد تتبَّع القاضي أبو الفضل عِياض في كتابه المسمَّى بـ «الشِّفا»[٢] ما جاء في كتاب الله وفي سنَّة رسول الله ﷺ، وممَّا نُقِل في الكتب القديمة[٣] وإطلاق الأمة أسماءً كثيرةً وصفاتٍ عديدة، قد صَدَقَتْ عليه ﷺ مُسَمَّياتها، ووُجِدَتْ فيه معانيها.

وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربيّ في «أحكامه»[٤] في هذه الآية من أسماء النبيِّ ﷺ سبعةً وستين اسماً. وذكر صاحبُ «وسيلة المتعبِّدين إلى مُتابعةِ سيِّدِ المرسَلين»[٥] عن ابن عباس: أنَّ لمحمدٍ ﷺ مئة وثمانين اسماً، مَن أرادها وجدها هناك.

وقال ابن عباس: لمَّا نزلت هذه الآيةُ دعا رسول الله ﷺ عليًّا ومعاذاً، فبعثهما إلى اليمن، وقال: «اذهبا، فبشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويسِّرا ولا تُعَسِّرا، فإنَّه قد أُنزل عليَّ...» وقرأ الآية[٦].

---

(١) صحيح مسلم (٢٣٥٥)، وهو عند أحمد (١٩٥٢٥).

(٢) ١/ ٤٤٤ وما بعدها.

(٣) في (م): المتقدمة.

(٤) ٣/ ١٥٣٤.

(٥) صاحبه عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي الصوفي، نزيل دمشق، المتوفَّى سنة (٥٧٠هـ). ينظر كشف الظنون ٢/ ٢١٠، وإيضاح المكنون ٢/ ٧٠٨.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٩، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وأخرجه أيضاً النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٥٨، والطبراني في الكبير (١١٨٤١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٢: رواه الطبراني، وفيه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، وهو ضعيف. اهـ. وسيذكره المصنف بأطول مما هنا. والذي أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ، أن رسول الله ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن، فقال: «يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتَطاوَعا ولا تختلفا». وليس فيه ذكر الآية. وخبر إرسال علي ﷺ إلى اليمن ثابت في الصحيح أيضاً.

قوله تعالى: ﴿شَٰهِدًا﴾ قال سعيد عن قتادة: «شاهدًا» على أمَّته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم، ونحو ذلك. ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ معناه: للمؤمنين برحمة الله وبالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ معناه: للعصاة والمكذِّبين من النار وعذابِ الخُلْد. ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ الدعاءُ إلى الله هو تبليغُ التوحيدِ والأخذُ به، ومكافحةُ الكَفَرة. و﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ معناه هنا: بأمره إياك وتقديرِه ذلك في وقته وأوانه. ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ استعارة للنور الذي يتضمَّنه شَرْعُه[١].

وقيل: «وَسِرَاجًا» أي: هادِياً من ظلم الضلالة، وأنت كالمصباح المضيء. وَوَصَفَه بالإنارة لأنَّ من السُّرُج ما لا يُضيء، إذا قَلَّ سلِيطه[٢] ودَقَّت فَتيلتُه. وفي كلام بعضهم: ثلاثةٌ تُضْني: رسولٌ بطيء، وسِراجٌ لا يُضيءُ، ومائدةٌ يُنتظَر لها مَن يَجيء. وسُئل بعضهم عن المُوْحِشَيْن فقال: ظلامٌ ساتِر، وسِراجٌ فاتِر[٣].

وأسند النحَّاس[٤] قال: حدَّثنا محمد بن إبراهيم الرازي، قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن صالح الأَزْديُّ، قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن محمد المُحاربيُّ[٥]، عن شَيبان النَّحْويِّ قال: حدَّثنا قتادةُ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ دعا رسولُ الله ﷺ عليًّا ومُعاذاً فقال: «انْطَلِقا، فيسِّرا ولا تُعسِّرَا، فإنَّه قد نزل عليَّ الليلةَ آيةٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ من النار ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال: شهادة أنْ لا إله إلا الله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ قال: بالقرآن». وقال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٩، وأخرج خبر قتادة بنحوه الطبري ١٩/ ١٢٦.

(٢) أي: زيته. القاموس (سلط).

(٣) الكشاف ٣/ ٢٦٦.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٣٥٨.

(٥) سلف الخبر مختصراً قريباً، وسلف تخريجه.

وجاء عند الطبراني وابن أبي حاتم: عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، بدل: عبد الرحمن ابن محمد المحاربي، وعبد الرحمن العرزمي ضعيف، كما ذكر الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٥٨٥.

الزَّجاج[١]: «وسِرَاجاً» أي: وذا سِراجٍ مُنير، أي: كتابٍ نيِّرٍ[٢]. وأجاز أيضاً أن يكون بمعنى: وتالياً كتابَ الله.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الواوُ عاطفةٌ جملةً على جملةٍ، والمعنى منقطِعٌ من الذي قَبْلَه. أَمَره تعالى أن يبشِّر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى.

وعلى قول الزَّجَّاج: ذا سراجٍ منير، أو: وتالياً سراجاً منيراً، يكون معطوفاً على الكاف في «أَرْسَلْنَاكَ»[٣].

قال ابن عطية[٤]: قال لنا أَبي ﷺ: هذه مِن أَرْجَى آيةٍ عندي في كتاب الله تعالى؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أمر نبيَّه أن يبشِّر المؤمنين بأنَّ لهم عنده فضلاً كبيراً؛ وقد بيَّن تعالى الفضلَ الكبير في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]. فالآيةُ التي في هذه السورةِ خبرٌ، والتي في ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ تفسيرٌ لها.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: لا تُطِعْهم فيما يُشيرون عليك من المُداهنة في الدِّين ولا تُمالئهم. والكافِرون: أبو سفيان، وعكرمةُ، وأبو الأعْوَر السُّلَميُّ؛ قالوا: يا محمد، لا تَذْكُرْ آلهتنا بسوءٍ نتَّبِعْك. والمنافقون: عبد الله بن أُبَيٍّ، وعبد الله بن سعد، وطُعْمةُ بن أُبَيْرِق، حَثُّوا النبيَّ ﷺ على إجابتهم بتَعِلَّة المصلحة[٥].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٣١ .

(٢) في معاني القرآن : بين .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٦٦ . قال السمين في الدر المصون ٩/ ١٣٠ : وفيه نظر ؛ لأن السراج هو القرآن ، ولا يوصف بالإرسال ، بل الإنزال ، إلا أن يقال : إنه حُمل على المعنى كقوله : علفتها تبناً وماءً بارداً ...

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٩ .

(٥) سلف خبرهم ص٥٠ من هذا الجزء.

﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ أي: دَعْ أنْ تُؤذيَهم مجازاةً على أذِيَّتهم إياك. فأمره تبارك وتعالى بتَرْكِ معاقبتهم، والصَّفْحِ عن زَلَلِهم، فالمصدرُ على هذا مضافٌ إلى المفعول. ونُسخ من الآية على هذا التأويل ما يَخُصُّ الكافرين، وناسخُه آيةُ السيف. وفيه معنًى ثانٍ: أي: أَعْرِضْ عن أقوالهم وما يؤذونك، ولا تَشْتَغِلْ به، فالمصدرُ على هذا التأويلِ مضافٌ إلى الفاعل. وهذا تأويلُ مجاهدٍ[١]، والآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السيف.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أمرَه بالتوكُّل عليه وآنَسَه بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾. وفي قوَّة الكلامِ وعدٌ بنَصْرٍ. والوكيلُ: الحافظُ القائمُ على الأمر[٢].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ لمَّا جرت قصةُ زيدٍ وتطليقه زينب، وكانت مدخولاً بها، وخطبها النبيُّ ﷺ بعد انقضاء عِدَّتها ـ كما بيَّنَّاه ـ خاطَبَ الله المؤمنين بحُكْم الزوجة تُطلَّق قبل البناء، وبيَّن ذلك الحكمَ للأمة، فالمطلَّقةُ إذا لم تكن ممسوسةً لا عِدَّةَ عليها بنصِّ الكتاب وإجماعِ الأمَّة على ذلك. فإنْ دخل بها فعليها العدَّة إجماعاً[٣].

الثانية: النكاح: الوطء[٤]، وتسميةُ العَقْدِ نكاحاً لمُلابَسَتِهِ له من حيث إنه طريقٌ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٠، وخبر مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ١٢٧ بلفظ: ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ قال: أعرض عنهم.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٣٩ - ١٥٤٠.

(٤) في (ظ) و(م): النكاح حقيقة في الوطء، والمثبت من باقي النسخ والكشاف ٣/ ٢٦٧، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه.

إليه. ونظيرهُ تسميتهم الخمرَ إثماً؛ لأنه سببٌ في اقتراف الإثم. ولم يَرِدْ لفظُ النكاحِ في كتاب الله إلّا في معنى العقد؛ لأنه في معنى الوَطْءِ [من باب التصريح به]، ومن[1] آداب القرآن الكنايةُ عنه بلفظِ: الملامسة والمماسَّة والقُرْبان والتَّغَشِّي والإتيان.

الثالثة: استدلَّ بعضُ العلماء بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ وبمهلةِ «ثُمَّ» على أنَّ الطلاق لا يكون إلّا بعد نكاح، وأنَّ مَن طلَّق المرأة قبل نكاحِها ـ وإن عَيَّنها ـ فإنَّ ذلك لا يَلْزمه. وقال هذا نَيِّفٌ على ثلاثين مِن صاحبٍ وتابعٍ وإمامٍ، سَمَّى البخاريُّ منهم اثنين وعشرين[2]. وقد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ: «لا طلاقَ قبل نكاحٍ»[3] ومعناه: أنَّ الطلاق لا يقع حتى يحصل النكاح. قال حبيب بن أبي ثابت: سُئل عليّ بن الحسين رضي الله عنهما عن رجلٍ قال لامرأةٍ: إن تزوَّجتُكِ فأنتِ طالقٌ؟ فقال: ليس بشيء؛ ذَكَر الله عز وجل النكاحَ قبل الطلاق[4].

وقالت طائفةٌ من أهل العلم: إنَّ طلاقَ المعيَّنةِ الشَّخْصِ أو القبيلةِ أو البلدِ لازمٌ قبل النكاح[5]؛ منهم مالكٌ وجميعُ أصحابه، وجَمْعٌ عظيم من علماء الأمة. وقد مضى في «براءة» الكلامُ فيها ودليلُ الفريقين. والحمد لله[6]. فإذا قال: كلُّ امرأةٍ أتزوَّجها

(١) في النسخ: وهو من، والمثبت من الكشاف.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٠ ، والذين سماهم البخاري في كتاب الطلاق، باب: لا طلاق قبل النكاح، هم خمس وعشرون. قال البخاري: وقال ابن عباس: جعل الله الطلاق بعد النكاح، ويُروى في ذلك عن علي وسعيد بن المسيب. . . الخ، وذكرهم. قال الحافظ في الفتح ٩/ ٣٨٦ : وقد تجوّز البخاري في نسبة جميع من ذكر عنهم إلى القول بعدم الوقوع مطلقاً، مع أن بعضهم يفصّل، وبعضهم يُختلف عليه، ولعل ذلك هو النكتة في تصديره النقل عنهم بصيغة التمريض.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٨) من حديث المسور بن مخرمة ﷺ. وأخرجه ابن أبي شيبة ٥/ ١٥ - ١٦ ، والبيهقي ٧/ ٣١٨ ، وابن عبد البر في الاستذكار ١٨/ ١٢٤ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ. وأخرجه الترمذي (١١٨١)، وأبو داود (٢١٩٠)، وابن ماجه (٢٠٤٧) بلفظ: «لا طلاق فيما لا يملك» وقد سلف بهذا اللفظ ١٠/ ٣١١ .

(٤) أخرجه سعيد بن منصور (١٠٣٣) بنحوه. ونقله المصنف من معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٥) ينظر المنتقى للباجي ٤/ ١١٥ .

(٦) ١٠/ ٣١٠ - ٣١١ ، وينظر قول مالك وغيره من الأئمة في الإشراف ٤/ ١٨٥ ، والاستذكار ١٨/ ١١٤ .

[طالقٌ][(١)]، وكلُّ عبدٍ أشتريه حرٌّ، لم يَلْزَمْه شيءٌ. وإن قال: كلُّ امرأةٍ أَتزوَّجُها إلى عشرين سنةً، أو: إن تزوَّجتُ من بلدِ فلان، أو من بني فلان، فهي طالِقٌ، لَزِمَه الطلاقُ ما لم يَخَفِ العَنَتَ على نفسه في طول السِّنين، أو يكون عمرُه في الغالب لا يَبلغُ ذلك، فله أن يتزوَّج. وإنَّما لم يَلْزَمْه الطلاقُ إذا عمَّم لأنه ضيَّق على نفسه المَناكح، فلو منعناه ألَّا يتزوَّج لَحَرِجَ وخِيفَ عليه العَنَتُ. وقد قال بعض أصحابنا: إنَّه إن وُجد ما يتسرَّر به لم ينكِح، وليس بشيء، وذلك أنَّ الضَّروراتِ والأعذارَ ترفع الأحكام، فيصير هذا من حيث الضرورةُ كَمَن لم يحلف؛ قاله ابن خُوَيْزِمَنْدَاد.

الرابعة: استدلَّ داودُ ومَن قال بقوله: أنَّ المطلَّقة الرجعيةَ إذا راجعها زوجُها قبل أن تنقضي عِدَّتُها، ثم فارَقَها قبل أن يَمَسَّها، أنه ليس عليها أن تُتِمَّ عِدَّتها ولا عِدَّةً مستقبَلةً؛ لأنَّها مطلَّقةٌ قبلَ الدخولِ بها.

وقال عطاء بن أبي رباح وفرقةٌ: تَمضي في عِدَّتها من طلاقها الأوّل - وهو أحدُ قولي الشافعيِّ - لأنَّ طلاقه لها إذا لم يمسَّها في حكم مَن طلَّقها في عِدَّتها قبل أن يُراجعها. ومَن طلَّق امرأتَه في كلِّ طُهرٍ مرَّةً بَنَتْ ولم تستأنف.

وقال مالك إذا فارقَها قبل أن يمسَّها: إنَّها لا تبني على ما مضى من عِدَّتها، وإنَّها تُنشِئُ من يومِ طلَّقها عِدَّةً مستقبلَةً. وقد ظَلَم زوجُها نفسَه وأخطأ إنْ كان ارتَجَعها ولا حاجةَ له بها. وعلى هذا أكثرُ أهل العلم؛ لأنها في حكم الزَّوْجات المدخولِ بهنَّ في النفقة والسُّكنى وغير ذلك؛ ولذلك تستأنفُ العِدَّة من يومِ طُلِّقت، وهو قولُ جمهورِ فقهاءِ البَصْرةِ والكوفةِ ومكةَ والمدينة والشام. وقال الثوريُّ: أَجْمَعَ الفقهاءُ عندنا على ذلك.

الخامسة: فلو كانت بائنةً غيرَ مبتوتةٍ فتزوَّجها في العِدَّة، ثم طلَّقها قبل الدخول؛ فقد اختلفوا في ذلك أيضاً، فقال مالك والشافعيُّ وزُفَر وعثمان البَتِّيُّ: لها نصفُ

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، وينظر عقد الجواهر الثمينة ٢/ ١٧٧ .

الصَّدَاقِ وتُتمُّ بقيةَ العِدَّة الأولى. وهو قول الحسن وعطاء وعكرمةَ وابن شهاب. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثَّوريُّ والأوزاعيُّ: لها مهرٌ كاملٌ للنكاح الثاني وعِدَّةٌ مستقبلة. جعلوها في حكم المدخولِ بها لاعتدادها من مائه. وقال داود: لها نصفُ الصَّداق، وليس عليها بقيةُ العِدَّة الأولى ولا عِدَّةٌ مستقبلة(١). والأَوْلى ما قاله مالك والشافعيُّ، والله أعلم.

السادسة: هذه الآيةُ مخصِّصةٌ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ولقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]، وقد مضى في «البقرة»، ومضى فيها الكلامُ في المُتعة(٢)، فأغنى عن الإعادة هنا.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه دَفْعُ المتعةِ بِحَسَبِ المَيْسَرَةِ والعُسْرة؛ قاله ابن عباس. الثاني: أنه طلاقُها طاهراً من غير جِماعٍ؛ قاله قتادة(٣).

وقيل: فسرِّحوهنَّ بعد الطلاق إلى أهلهنَّ، فلا يجتمع الرجلُ والمطلَّقة في موضعٍ واحد.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قال سعيد: هي منسوخةٌ بالآية التي في «البقرة»، وهي قوله: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [الآية: ٢٣٧] أي: فلم يذكر المتعة(٤). وقد مضى الكلام في هذا في «البقرة» مستوفى(٥).

وقوله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾: طلِّقوهنَّ. والتسريحُ كنايةٌ عن الطَّلاق عند أبي حنيفة؛ لأنه

---

(١) ذكر المصنف هذه المسألة والتي قبلها عن الاستذكار ١٨/ ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) ينظر ٤/ ٣٥ و١٦٢ وما بعدها.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤١٣ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٩/ ١٢٨ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٦٠ ، وأخرجه الطبري ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧ و١٩/ ١٢٩ .

(٥) ٤/ ١٦٧ .

يُستعمل في غيره فيحتاج إلى النية. وعند الشافعيِّ صريحٌ. وقد مضى في «البقرة» القولُ فيه(١)، فلا معنى للإعادة .﴿جَمِيلًا﴾ سُنَّة، غير بِدْعة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

فيه تسع عشرة مسألة:

الأولى: روى السُّدِّيُّ عن أبي صالح، عن أمِّ هانئ بنتِ أبي طالب قالت: خَطَبني رسولُ الله ﷺ، فاعْتَذَرتُ إليه فعذَرَني، ثم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أَحِلُّ له؛ لأنِّي لم أهاجر، كنتُ من الطُّلَقاء. خرَّجه أبو عيسى وقال: هذا حديثٌ حسنٌ لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه(٢). قال ابن العربيّ(٣): وهو ضعيفٌ جدًّا، ولم يأتِ هذا الحديثُ من طريقٍ صحيحٍ يُحتجُّ بها.

الثانية: لمَّا خيَّر رسولُ الله ﷺ نساءَه فاخترْنَه، حَرُم عليه التزوُّجُ بغيرهنَّ والاستبدالُ بهنَّ، مكافأةً لهنَّ على فِعْلهنَّ، والدليلُ على ذلك قولُه تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٢]. وهل كان يَحِلُّ له أن يطلِّق واحدةً منهنَّ بعد

---

(١) ٤/ ٦٧ .

(٢) سنن الترمذي (٣٢١٤)، ووقع في المطبوع: حسن صحيح..، وما ذكره المصنف موافق لما في تحفة الأشراف ١٢/ ٤٥٠ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٤١ .

ذلك؟ فقيل: لا يَحِلُّ له ذلك جزاءً لهنَّ على اختيارهنَّ له. وقيل: كان يَحِلُّ له ذلك كغيره من الناس ولكن لا يتزوَّج بَدَلَهَا.

ثم نسخَ هذا التحريم فأباح[١] له أن يتزوَّج بمن شاء عليهنَّ من النساء، والدليلُ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ والإحلالُ يقتضي تَقَدُّم حَظْرٍ، وزوجاتُه اللَّاتي في حياته لم يكنَّ محرَّماتٍ عليه، وإنَّما كان حرم عليه التزويجُ بالأجنبيَّات، فانصرف الإحلالُ إليهنَّ. ولأنَّه قال في سياق الآية: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ الآية، ومعلومٌ أنه لم يكن تحته أحدٌ من بنات عمِّه ولا من بناتِ عمَّاته، ولا من بنات خاله ولا من بنات خالاته، فثبت أنه أحلَّ له التزويج بهذا ابتداء. وهذه الآيةُ وإن كانت متقدِّمةً في التلاوة فهي متأخِّرةُ النزولِ عن الآيةِ المنسوخةِ بها، كآيتي الوفاة في «البقرة»[٢].

وقد اختلف الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ فقيل: المرادُ بها أنَّ الله تعالى أحلَّ له أن يتزوَّج كلَّ امرأةٍ يؤتيها مَهْرَها؛ قاله ابن زيد والضحَّاك[٣]. فعلى هذا تكونُ الآيةُ مبيحةً جميعَ النساء حاشا ذوات المحارِم.

وقيل: المراد: أحلَلْنا لك أزواجَك الكائنات[٤] عندك؛ لأنهنَّ قد اخترْنكَ على الدنيا والآخرة؛ قاله الجمهور من العلماء. وهو الظاهر؛ لأنَّ قوله: «آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ» ماضٍ، ولا يكون الفعلُ الماضي بمعنى الاستقبال إلَّا بشروط.

ويجيءُ الأمر على هذا التأويل ضيِّقًا على النبيِّ ﷺ. ويؤيِّد هذا التأويلَ ما قاله ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يتزوَّج في أيِّ الناس شاء، وكان يَشُقُّ ذلك على نسائه، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ وحرم عليه بها النساءُ إلَّا من سُمِّيَ، سُرَّ نساؤه بذلك[٥].

---

(١) في (ظ): فأبيح.

(٢) يعني الآية (٢٣٤) والآية (٢٤٠).

(٣) أخرج قولهما الطبري ١٩/ ١٣٠ .

(٤) قبلها في (خ) و(د) و(م): أي، والمثبت من باقي النسخ وهو موافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤١ ، والكلام منه.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ١٣٤.

قلت: والقولُ الأوّلُ أصح لمَا ذكرناه. ويدلُّ أيضًا على صحَّته ما خرَّجه الترمذيُّ عن عطاء قال: قالت عائشةُ رضي الله عنها: ما مات رسولُ الله ﷺ حتى أحلَّ الله تعالى له النساءَ. قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أحَلَّ الله تعالى السَّراري لنبيِّه ﷺ ولأمَّته مطلقاً، وأَحَلَّ الأزواجَ لنبيِّه عليه الصلاة والسلام مُطْلَقًا، وأحلَّه للخَلْقِ بعَدِهِ(٢). وقولُه: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: ردَّه عليك من الكفار. والغنيمةُ قد تسمَّى فيئاً، أي: ممَّا أفاء الله عليك من النساء المأخوذِ على وجه القَهْرِ والغلبة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ أي: أَحْلَلْنا لك ذلك زائداً [إلى ما عندَكَ] من الأزواج اللَّاتي آتيتَ أجورهنَّ وما مَلَكَتْ يمينُك، على قول الجمهور؛ لأنه لو أراد: أحللنا لك كلَّ امرأةٍ تزوَّجْتَ وآتيتَ أَجْرَها، لَمَا قال بعد ذلك: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ لأنَّ ذلك داخلٌ فيما تقدَّم(٣).

قلت: وهذا لا يلزمُ، وإنَّما خصَّ هؤلاء بالذِّكر تشريفًا، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فيه قولان: الأوّل: لا يَحِلُّ لك من قَرابتك - كبنات عمِّك العباسِ وغيرِهِ من أولاد عبد المطَّلب، وبناتِ أولادِ بناتِ عبد المطَّلب، وبنات الخال من وَلَد بنات عبد مناف بن زُهْرة - إلَّا من أَسْلَم؛ لقوله ﷺ: «المسلمُ مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجِرُ مَن هَجَر ما نَهى الله تعالى عنه»(٤).

---

(١) سنن الترمذي (٣٢١٦)، وهو عند أحمد (٢٤١٣٧)، وضعَّفه ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) أخرجه أحمد (٦٥١٥)، والبخاري (١٠)، وسلف ٦/ ٥٠٦ ، وذكر هذا القول ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٤٣ .

الثاني: لا يَحِلُّ لك منهنَّ إلَّا مَن هاجَر إلى المدينة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ [الأنفال: ٧٢] ومَن لم يُهاجِرْ لم يَكْمُل، ومَن لم يَكْمُل لم يَصْلُحْ للنبيِّ ﷺ الذي كَمُل وشَرُف وعَظُم ﷺ(١).

السادسة: قوله تعالى: ﴿مَعَكَ﴾ المَعِيَّةُ هنا: الاشتراكُ في الهجرة؛ لا في الصُّحبة فيها، فَمَن هاجَرَ حَلَّ له(٢)، كان في صُحبته إذ هاجرَ أو لم يكن. يقال: دخل فلانٌ معي وخرج معي، أي: كان عملُه كعملي، وإن لم يقترن فيه عَمَلُكما. ولو قلت: خرجنا معاً لاقتضَى ذلك المعنيين جميعاً: الاشتراكَ في الفعل، والاقترانَ [فيه].

السابعة: ذكر الله تبارك وتعالى العمَّ فَرْداً والعمَّات جَمْعاً. وكذلك قال: «خالِكَ»، و«خالاتِكَ»، والحكمةُ في ذلك: أنَّ العمَّ والخالَ في الإطلاق اسمُ جنسٍ كالشاعر والرَّاجِز؛ وليس كذلك العمةُ والخالة. وهذا عُرْفٌ لغويّ، فجاء الكلامُ عليه بغايةِ البيانِ لرفعِ الإشكال، وهذا دقيقٌ فتأمَّلوه؛ قاله ابن العربيّ(٣).

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ عطف على «أحْلَلْنا». المعنى: وأحْللنا لك امرأةً تَهَبُ نفسَها من غير صَدَاق. وقد اختُلف في هذا المعنى؛ فروي عن ابن عباس أنه قال: لم تكن عند رسول الله ﷺ امرأةٌ إلَّا بعقدِ نكاحٍ، أو مِلْكِ يمين. فأمَّا بالهبة فلم يكن عنده منهنَّ أحد(٤).

وقال قومٌ: كانت عنده موهوبةٌ.

قلت: والذي في الصحيحين يقوِّي هذا القولَ ويَعْضُدُه؛ روى مسلم عن عائشةَ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٤ .

(٢) في (ظ): فمن هاجرت حلت له، والمثبت من باقي النسخ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٤ ، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٤٤ - ١٥٤٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩١ - ٣٩٢ ، وأخرجه مختصراً الطبري ١٩/ ١٣٤ ، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٠٦٦).

رضي الله عنها أنها قالت: كنتُ أغار على اللّاتي وَهَبْنَ أنفسهنَّ لرسول الله ﷺ وأقول: أَمَا تستحي امرأةٌ تَهَبُ نفسها لرجل! حتى أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ فقلتُ: واللهِ ما أرى رَبَّكَ إلَّا يُسارعُ في هواك[١]. وروى البخاريُّ عن عائشةَ أنَّها قالت: كانت خَوْلة بنتُ حكيم من اللائي وهبنَ أنفسهنَّ لرسول الله ﷺ[٢]. فدلَّ هذا على أنهنَّ كنَّ غيرَ واحدةٍ. والله تعالى أعلم.

الزَّمَخْشَريُّ[٣]: وقيل: الموهوباتُ أربعٌ: ميمونة بنتُ الحارث، وزينب بنت خُزَيمة أمُّ المساكين الأنصاريةُ، وأمُّ شَرَيكٍ بنتُ جابر، وخَوْلة بنتُ حكيم.

قلت: وفي بعض هذا اختلافٌ. قال قتادةُ: هي ميمونةُ بنتُ الحارث[٤]. وقال الشعبيُّ: هي زينب بنتُ خزيمةَ أمُّ المساكين، امرأةٌ من الأنصار[٥]. وقال عليّ بن الحسين والضحَّاك ومقاتل: هي أمُّ شريكٍ بنتُ جابر الأَسْدية[٦]. وقال عروة بن الزبير: أمُّ حكيم بنتُ الأَوْقَص السُّلَمية[٧].

التاسعة: وقد اختلف في اسم الواهبةِ نَفْسَها؛ فقيل: هي أمُّ شَرِيكٍ الأنصاريةُ،

---

(١) صحيح مسلم (١٤٦٤)، وأخرجه أحمد (٢٥٠٢٦)، والبخاري (٤٧٨٨).

(٢) رواه البخاري بإثر الحديث (٥١١٣) عن عائشة تعليقاً، وأخرجه (بالرقم السابق) عن عروة قوله. ثم قال عروة: فقالت عائشة: أما تستحي المرأة... الخ بمثل ما سلف. والكلام في التعريف والإعلام للسهيلي ص١٤١ .

(٣) في الكشاف ٣/ ٢٦٨ .

(٤) ذكره عن قتادة البغوي ٣/ ٥٣٧ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤١٥ . قال ابن كثير في البداية والنهاية ٨/ ٢٢٣ : وأما حكاية الماوردي عن الشعبي أن زينب بنت خزيمة أمَّ المساكين أنصاريةٌ فليس بجيد؛ فإنها هلالية بلا خلاف. اهـ وقد ذكره البغوي ٣/ ٥٣٧ عن الشعبي فقال: الهلالية. وينظر ما سلف ص١٢٢ من هذا الجزء.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٥٣٧ ، وأخرجه عن علي بن الحسين الطبري ١٩/ ١٣٥ - ١٣٦ . ويقال: الأَسْدية والأَزْدية، وقد سلف ذكرها ص١٢٥ من هذا الجزء، وينظر ما سيأتي في المسألة التي بعدها.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٢٢٦٨)، والطبري ١٩/ ١٣٦ وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٢ ، وسمَّوْها: خولة بنت حكيم بن الأوقص. وذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة ١٣/ ١٩٦ أن أم حكيم هذه هي خولة بنت حكيم.

اسمُها غُزيَّة. وقيل: غُزَيلة. وقيل: ليلى بنت حكيم. وقيل: هي ميمونةُ بنتُ الحارث حين خطبها النبيُّ ﷺ، فجاءها الخاطبُ وهي على بعيرها فقالت: البعيرُ وما عليه لرسول الله ﷺ. وقيل: هي أمُّ شريكٍ العامريةُ، وكانت عند أبي العَكَر الأَزْديّ، وقيل: عند الطُّفيل بن الحارث، فولدت له شَريكاً. وقيل: إنَّ رسول الله ﷺ تزوَّجها؛ ولم يَثْبُتْ ذلك. والله تعالى أعلم؛ ذكره أبو عمر بن عبد البر(١). وقال الشعبيُّ وعروةُ: هي زينب بنتُ خزيمةَ أمُّ المساكين(٢). والله تعالى أعلم.

العاشرة: قرأ جمهور الناس: ﴿إِن وَهَبَتْ﴾ بكَسْرِ الألف، وهذا يقتضي استئنافَ الأمر، أي: إن وقع فهو حلالٌ له. وقد روي عن ابن عباس ومجاهدٍ أنهما قالا: لم يكن عند النبيِّ ﷺ امرأةٌ موهوبة. وقد دَلَلْنا على خلافه. وروى الأئمة من طريقِ سهلٍ وغيرِهِ في الصحاح: أنَّ امرأةً قالت لرسول الله ﷺ: جئتُ أَهَبُ لك نفسي، فسكت حتى قام رجل فقال: زَوِّجْنِيها إن لم يكن لك بها حاجة(٣). فلو كانت هذه الهبةُ غيرَ جائزةٍ لَمَا سَكَتَ رسول الله ﷺ؛ لأنه لا يُقِرُّ على الباطل إذا سمعه، غير أنه يحتملُ أن يكون سكوته منتظِراً بياناً، فنزلت الآية بالتحليل والتخيير. فاختار تركها، وزوَّجها من غيره. ويحتمل أن يكون سكت ناظراً في ذلك حتى قام الرجل لها طالباً(٤).

وقرأ الحسن البصريُّ وأُبَيُّ بن كعب والشعبيُّ: «أنْ» بفتح الألف(٥). وقرأ الأعمش: «وامرأةً مؤمِنةً وهَبَتْ». قال النحاس(٦): وكَسْرُ «إنْ» أَجْمعُ للمعاني؛ لأنَّه

---

(١) في الاستيعاب ١٣/ ٢٤٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص ١٤١ ، والكلام من بداية المسألة منه. قال الحافظ في الإصابة ١٣/ ٢٣٨ : والذي يظهر أن أم شريك واحدة، اختلف في نسبتها: أنصارية، أو عامرية من قريش، أو أزدية من دوس.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٢ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٧٩٨)، والبخاري (٢٣١٠)، ومسلم (١٤٢٥).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٦ .

(٥) القراءات الشاذة ص ١٢٠ ، والمحتسب ٢/ ١٨٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٩٢ ، والكلام منه.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٦٢ ، وما قبله منه، وذكر ابن خالويه القراءة في القراءات الشاذة ص ١٢٠ عن ابن مسعود ﷺ.

قيل: إنَّهن نساء. وإذا فتح كان المعنى على واحدةٍ بعينها؛ لأنَّ الفتح على البدل من امرأة، أو بمعنى: لِأَنْ.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿مُّؤْمِنَةً﴾ يدلُّ على أنَّ الكافرة لا تَحِلُّ له. قال إمام الحرمين: وقد اختُلف في تحريم الحرَّة الكافرة عليه. قال ابن العربيّ[١]: والصحيحُ عندي تحريمها عليه. وبهذا يتميَّز علينا؛ فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظُّه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبُه عنها أطهر[٢]؛ فَجُوِّزَ لنا نكاح الحرائر الكتابيات، وقُصِر هو ﷺ لجلالته على المؤمنات. وإذا كان لا يَحِلُّ له مَن لم تُهاجِرْ لنقصانِ فَضْلِ الهجرة؛ فأحْرَى ألَّا تَحِلَّ له الكتابية الكافرة[٣] لنقصان الكفر.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾ دليلٌ على أنَّ النكاح عقدُ مُعاوَضةٍ على صفاتٍ مخصوصة، قد تقدَّمت في «النساء» وغيرها[٤]. وقال الزجَّاج: معنى «إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا للنَّبِيِّ»: حَلَّتْ. وقرأ الحسن: «أَنْ وَهَبتْ» بفتح الهمزة. و«أنْ» في موضعِ نصبٍ؛ قال الزجَّاج: أي: لأَنْ. وقال غيرُه: «أَنْ وهبت» بدلُ اشْتِمَالٍ من «امرأة»[٥].

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: إذا وهبت المرأة نفسَها وقَبِلَها النبيُّ ﷺ؛ حَلَّتْ له، وإن لم يقبلها لم يَلْزَم ذلك. كما إذا وَهَبْتَ لرجلٍ شيئاً فلا يجبُ عليه القبولُ. بَيْدَ أنَّ من مكارمِ أخلاقِ نبيِّنا أن يقبل من الواهب هبتَه، ويرى الأكارمُ أنَّ ردَّها هُجْنةٌ في العادة، ووصمةٌ على الواهب وإذايةٌ لقلبه؛ فبيَّن الله ذلك في حقِّ رسوله ﷺ، وجعله قرآناً يُتْلَى؛ ليرفع عنه الحرج، ويُبْطِلَ بُطْلَ الناس[٦]

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٤٦ ، وما قبله منه.

(٢) في (ظ): عنه أظهر.

(٣) في أحكام القرآن: الحرة.

(٤) ينظر ٤/ ٣٩٤ ، و٦/ ٢١٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٠ ، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٣٢ - ٢٣٣ ، وسلف هذا الكلام في المسألة العاشرة.

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤١ (والكلام منه): وليبطل ظن الناس .

في عادتهم وقولهم.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ أي: هبةُ النساءِ أنفسَهنَّ خالصةٌ ومَزِيَّةٌ[١]، فلا يجوز أن تَهَب المرأة نفسَها لرجل. ووجهُ الخاصيَّة: أنها لو طلبتْ فَرْضَ المهر قبل الدخول لم يكن لها ذلك. فأمَّا فيما بيننا فللمفوّضةِ طلبُ المهرِ قبل الدخول، ومَهْر المِثْلِ بعد الدخول.

الخامسة عشرة: أجمع العلماء على أنَّ هبةَ المرأةِ نفسَها غيرُ جائزٍ، وأنَّ هذا اللَّفْظَ من الهبة لا يَتِمُّ عليه نكاحٌ، إلَّا ما رُوي عن أبي حنيفةَ وصاحبيه فإنهم قالوا: إذا وَهَبتْ فأشْهَدَ هو على نفسه بمهرٍ؛ فذلك جائز. قال ابن عطية[٢]: فليس في قولهم إلَّا تجويزُ العبارةِ ولفظةِ الهبة، وإلَّا فالأفعالُ التي اشترطوها هي أفعالُ النكاحِ بعينه، وقد تقدَّمت هذه المسألة في «القصص» مستوفاةً. والحمد لله[٣].

السادسة عشرة: خَصَّ الله تعالى رسولَه في أحكام الشريعة بمعانٍ لم يُشارِكْه فيها أحدٌ - في بابِ الفرضِ والتحريمِ والتحليلِ - مَزِيَّةً على الأمة وهيبةً[٤] له، ومَرْتَبةً خُصَّ بها؛ ففُرِضَتْ عليه أشياءُ ما فُرِضَتْ على غيره، وحَرُمت عليه أفعالٌ لم تحرم عليهم، وحُلِّلتْ له أشياءُ لم تُحَلَّل لهم، منها متفَقٌ عليه، و[منها] مختلفٌ فيه.

فأمَّا ما فُرض عليه فتسعةٌ: الأوّل: التهجُّد بالليل؛ يقال: إنَّ قيام الليل كان واجِباً عليه إلى أن مات؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ . قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ الآية [المزمل:١-٢]. والمنصوصُ أنه كان واجباً عليه ثم نُسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً

---

(١) بعدها في (خ) و(د) و(م): لا تجوز، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٢ ، والكلام منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٢ ، وما قبله منه.

(٣) عند المسألة التاسعة من تفسير الآيات (٢٢ - ٢٨) من سورة القصص.

(٤) في (ظ): وهبة، وفي (خ) و(د) و(م): وُهبت، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٩ (والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه).

لَكَ﴾ [الإسراء:٧٩] وسيأتي. الثاني: الضُّحى. الثالث: الأَضْحى[١]. الرابع: الوتر، وهو يدخل في قِسْم التهجُّد. الخامس: السِّواك. السادس: قضاءُ دَيْنِ مَن مات مُعْسِراً. السابع: مُشاورةُ ذوي الأحلام في غير الشَّرائع. الثامن: تخييرُ النساء. التاسع: إذا عَمِلَ عملاً أَثْبتَه[٢]. زاد غيره: وكان يجبُ عليه إذا رأى منكراً أَنكَره وأَظْهَره؛ لأنَّ إقراره لغيره على ذلك يدلُّ على جوازه؛ ذكره صاحب «البيان»[٣].

وأمَّا ما حرم عليه فجملتُه عشرة: الأوّل: تحريمُ الزكاة عليه وعلى آله. الثاني: صدقةُ التطوُّع عليه، وفي آله تفصيلٌ باختلاف. الثالث: خائنةُ الأَعْيُنِ، وهو أنْ يُظْهِرَ خلافَ ما يُضْمِر، أو ينخدع عمَّا يجب. وقد ذمَّ بعضَ الكفار عند إذنه، ثم أَلانَ له القولَ عند دخوله[٤]. الرابع: حرَّم عليه إذا لبس لَأْمتَه أن يخلعها عنه، أو يحكمَ الله بينه وبين مُحارِبِه. الخامس: الأكلُ متَّكِئاً. السادس: أكلُ الأطعمةِ الكريهةِ الرائحةِ. السابع: التبدُّل بأزواجه، وسيأتي[٥]. الثامن: نكاحُ امرأةٍ تَكْرهُ صُحبته. التاسع: نكاحُ الحرَّة الكتابية. العاشر: نكاحُ الأَمَة[٦].

وحرَّم الله عليه أشياءَ لم يحرِّمها على غيره تنزيهاً له وتطهيراً. فحرَّم عليه الكتابةَ وقولَ الشعر وتعليمَه؛ تأكيداً لحجته وبياناً لمعجزته؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨]. وذكر النقَّاش أنَّ النبيَّ ﷺ ما

---

(١) يعني الأضحية، وأخرج أحمد (٢٠٨١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أُمِرتُ بالأضحى والوتر، ولم تُكتب» وفي رواية عند أحمد (٢٠٥٠): «ثلاث هن عليَّ فرائض، وهن لكم تطوُّع: الوتر، والنحر، وصلاة الضحى». وذكر الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١١٨ أن هذا الحديث ضعيف من جميع طرقه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٩ - ١٥٥٠ .

(٣) ٩/ ١٤٢ ، وصاحبه هو أبو الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني اليمني.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) ص١٩٧ من هذا الجزء.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٥٠ .

مات حتى كَتَب، والأولُ هو المشهور[١]. وحرم عليه أن يمدَّ عينيه إلى ما متّع به الناس؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [طه: ١٣١].

وأمَّا ما أُحِلَّ له ﷺ فجملتُه ستةَ عَشَرَ: الأوّل: صَفِيُّ المَغْنَم. الثاني: الاستبدادُ بخُمسِ الخُمْسِ أو الخُمس. الثالث: الوصال. الرابع: الزيادةُ على أربعِ نِسْوةٍ. الخامس: النكاحُ بلفظ الهبة. السادس: النكاح بغير وليٍّ. السابع: النكاح بغير صَدَاق. الثامن: نكاحُه في حالة الإحرام. التاسع: سقوطُ القَسْمِ بين الأزواج عنه، وسيأتي[٢]. العاشر: إذا وقع بصره على امرأةٍ وجب على زوجها طلاقُها؛ وحلَّ له نكاحُها؛ قال ابن العربيّ[٣]: هكذا قال إمامُ الحرمين، وقد مضى ما للعلماء في قصة زيدٍ من هذا المعنى. الحادي عشر: أنه أعتق صفيَّة وجعل عِتْقَها صَدَاقَها. الثاني عشر: دخولُه مكةَ بغير إحرام، وفي حقِّنا فيه اختلافٌ. الثالث عشر: القتالُ بمكة. الرابع عشر: أنه لا يُوْرَث. وإنَّما ذُكر هذا في قسم التحليل لأنَّ الرجل إذا قارَبَ الموتَ بالمرض زال عنه أكثرُ ملكِه، ولم يبق له إلَّا الثلثُ خالصاً، وبقي ملكُ رسول الله ﷺ [بعد موته]، على ما تقرَّر بيانُه في آية المواريث، وفي سورة مريم بيانُه أيضاً[٤]. الخامس عشر: بقاءُ زوجيَّتِهِ من بعد الموت. السادس عشر: إذا طلَّق امرأةً تَبْقَى حرمتُه عليها فلا تُنكح. وهذه الأقسامُ الثلاثةُ تقدَّم مُعْظَمُها مفصَّلاً في مَواضِعِه. وسيأتي إن شاء الله تعالى.

وأبيح له عليه الصلاةُ والسلامُ أَخْذُ الطعامِ والشراب من الجائع والعطشان، وإن كان مَن هو معه يخاف على نفسه الهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ

(١) وقد ذكر الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٢٦ - ١٢٨ عدداً من العلماء الذين قالوا بهذا القول والآثار التي استدلُّوا بها.

(٢) ص١٩٠ من هذا الجزء.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥١ ، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) ينظر ٦/ ١٠٠ و١٣/ ٤١٥ .

﴿أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وعلى كلِّ أحدٍ من المسلمين أن يَقيَ النبيَّ ﷺ بنفسه. وأُبيح له أن يَحميَ لِنفسه[١].

وأكرمه الله بتحليل الغنائم. وجُعلت الأرضُ له ولأُمَّته مسجداً وطهوراً. وكان من[٢] الأنبياء لا تصحُّ صلاتهم إلَّا في المساجد. ونُصِرَ بالرُّعب، فكان يخافه العدوُّ من مَسِيرة شهرٍ. وبُعث إلى كافةِ الخَلْقِ، وقد كان مَن قبلَه من الأنبياء يبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض[٣].

وجُعلت معجزاته كمعجزاتِ الأنبياءِ قبلَه وزيادة. وكانت معجزةُ موسى عليه السلام العصا وانفجارَ الماءِ من الصخرة، وقد انشقَّ القمر للنبيِّ ﷺ، وخرج الماء من بين أصابعه ﷺ. وكانت معجزةُ عيسى ﷺ إحياءَ الموتى وإبراءَ الأكْمَهِ والأبرص، وقد سبَّح الحصى في يد النبيِّ ﷺ، وحنَّ الجِذعُ إليه، وهذا أبلغ. وفضَّله الله عليهم بأنْ جَعَلَ القرآنَ معجزةً له، وجعل معجزتَه فيه باقيةً إلى يوم القيامة، ولهذا جُعلت نبوَّتُه مؤبَّدةً لا تُنسخ إلى يوم القيامة[٤].

السابعة عشر: قوله تعالى: ﴿أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: ينكِحَها، يقال: نَكَح واستَنْكَح، مثل عَجِب واستَعْجَبَ، وعَجِل واسْتَعْجَلَ. ويجوز أن يَرِد الاستنكاحُ بمعنى طَلَبِ النكاح، أو طلبِ الوَطْء. و«خَالِصَةً» نصبٌ على الحال؛ قاله الزجَّاج[٥].

---

(١) لقوله ﷺ: «لا حِمَى إلَّا للّه ولرسوله» أخرجه أحمد (١٦٤٢٢)، والبخاري (٢٣٧٠) من حديث الصَّعب ابن جَثَّامةَ ﷺ. ومعنى الحمى: أن يحمي أرضاً من الموات، يمنع الناس رَعْي ما فيها من الكلأ؛ ليختصَّ بها دونهم، ولكنه ﷺ لم يحم لنفسه شيئاً، وإنما حَمى للمسلمين. ينظر المغني لابن قدامة ٨/ ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) كذا في النسخ، وحق الكلام أن يكون دون كلمة من.

(٣) يشير إلى حديث النبي ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يُعْطَهنَّ أحدٌ قبلي...» وقد سلف ٤/ ٢٥٨ ، وسيأتي عند تفسير الآية (٣١) من سورة الأحقاف.

(٤) من قوله: وأبيح له عليه الصلاة والسلام أخذ الطعام والشراب، إلى هذا الموضع ليس في (ظ)، ولعله ليس من أصل الكتاب، إنما وقع في حواشيه ثم أقحم فيه.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٢٣٣ .

وقيل: حالٌ من ضميرٍ متَّصلٍ بفعلٍ مُضمَرٍ دلَّ عليه المضْمَر، تقديره: أَحْلَلْنَا لك أزواجَك، وأَحْلَلنا لك امرأةً مؤمنة، أحللناها خالصةً بلفظِ الهبة وبغيرِ صَدَاقٍ وبغير وليّ.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۗ﴾ فائدتُه أنَّ الكفار وإن كانوا مخاطَبين بفروع الشريعة عندنا فليس لهم في ذلك دخولٌ؛ لأنَّ تصريفَ الأحكام إنَّما يكون فيهم على تقدير الإسلام(١).

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي: ما أَوْجَبْنا على المؤمنين، وهو ألَّا يتزوَّجوا إلَّا أربعَ نسوةٍ بمهرٍ وبيِّنةٍ ووَليّ. قال معناه أُبَيّ بنُ كعب وقتادةُ وغيرُهما(٢).

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌۗ﴾ أي: ضِيقٌ في أمرٍ أنت فيه محتاجٌ إلى السّعة، أي: بيَّنَّا هذا البيانَ وَشَرَحْنا هذا الشَّرح «لكَيْلا يكونَ عليكَ حَرَجٌ». فـ «لكيلا» متعلِّقٌ بقوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ أي: فلا يضيق قلبك حتى يَظْهَرَ منك أنَّك قد أَثِمْتَ عند ربِّك في شيء. ثم آنس تعالى جميعَ المؤمنين بغفرانه ورحمته فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ قرئ مهموزاً وغيرَ مهموز(٣)، وهما

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٥٣.

(٢) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/١١٩ - ١٢٠، والطبري ١٩/١٣٧. وأخرجه عن أبيٍّ ﷺ الطبري ١٩/١٣٤، دون ذكر المهر والبينة والولي.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: «ترجئ» مهموزاً، والباقون من السبعة بغير همز. السبعة ص ٥٢٣، والتيسير ص ١١٩.

لغتان، يقال: أَرْجَيْتُ الأمرَ وأَرْجَأْته: إذا أَخَّرتَه. ﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾ تَضُمُّ، يقال: آوى إليه ـ ممدودةَ الألف ـ: ضمَّ إليه. وأَوى ـ مقصورةَ الألف ـ: انضمَّ إليه.

الثانية: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، وأصحُّ ما قيل فيها: التوسعةُ على النبيِّ ﷺ في تَرْكِ القَسْم، فكان لا يجبُ عليه القَسْمُ بين زوجاته. وهذا القولُ هو الذي يُناسب ما مضى، وهو الذي ثبت معناه في الصَّحيح عن عائشةَ رضي الله عنها؛ قالت: كنتُ أغار على اللَّائي وَهَبْنَ أنفُسَهُنَّ لرسول الله ﷺ وأقولُ: أوتَهَبُ المرأة نفسَها لرجل؟ فلمَّا أنزل الله عز وجل: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ قالت: قلتُ: واللهِ ما أرى ربَّك إلَّا يُسارعُ في هواك[(١)]. قال ابن العربيِّ[(٢)]: هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي ينبغي أن يعوَّل عليه. والمعنى المرادُ: هو أنَّ النبيَّ ﷺ كان مخيَّراً في أزواجه، إن شاء أن يَقْسِم قَسَم، وإن شاء أن يترك القَسْمَ تَرَك. فخُصَّ النبيُّ ﷺ بأنْ جُعِل الأمرُ إليه فيه، لكنه كان يَقْسِمُ من قِبَل نفسه دون فَرْضٍ ذلك عليه؛ تطييباً لنفوسهنَّ، وصوناً لهنَّ عن أقوال الغَيْرةِ التي ترقى[(٣)] إلى ما لا ينبغي.

وقيل: كان القَسْمُ واجباً على النبيِّ ﷺ، ثم نُسِخَ الوجوبُ عنه بهذه الآية. قال أبو رَزين: كان رسول الله ﷺ قد همَّ بطلاق بعض نسائه فقُلْنَ له: اقْسِمْ لنا ما شئتَ. فكان ممن آوى عائشةُ وحفصةُ وأمُّ سلمة وزينبُ، فكان قسمتُهنَّ[(٤)] من نفسه وماله سواءً بينهنّ. وكان ممن أَرْجَى سودةُ وجُوَيْرِيةُ وأمُّ حبيبةَ وميمونةُ وصفيةُ؛ فكان يقسِمُ لهنَّ ما شاء[(٥)].

---

(١) سلف ص١٨٢ من هذا الجزء.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥٦ .

(٣) في (م): التي تؤدي، وفي أحكام القرآن: التي ربما ترقت.

(٤) في (ظ): فكانت قسمته لهن.

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ١٢٠ ، والطبري ١٩/ ١٣٩ و١٤٠ و١٤١ .

وقيل: المرادُ الواهبات؛ روى هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة في قوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ قالت: هذا في الواهبات أنفسَهنَّ[١]. قال الشعبيُّ: هنَّ الواهباتُ أنفسَهنَّ؛ تَزوَّج رسول الله ﷺ منهنَّ وتَرك منهنّ[٢].

وقال الزُّهْريُّ: ما علمنا أنَّ رسول الله ﷺ أَرْجأ أحداً من أزواجه، بل آواهنَّ كلَّهن[٣].

وقال ابن عباس وغيره: المعنى في طلاق مَن شاء ممن حَصَلَ في عصمته، وإمساكِ مَن شاء[٤]. وقيل غيرُ هذا. وعلى كلٍّ معنًى؛ فالآيةُ معناها التَّوسِعةُ على رسول الله ﷺ والإباحةُ. وما اخترناه أصحُّ، والله أعلم.

الثالثة: ذهب هبةُ الله في الناسخ والمنسوخ إلى أنَّ قوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ الآيةَ، ناسخٌ لقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ الآيةَ. وقال: ليس في كتاب الله ناسخٌ تقدَّم المنسوخَ سوى هذا. وكلامُه يُضعَّفُ من جهات[٥]. وفي «البقرة» عِدَّةُ المتوفَّى عنها أربعةُ أشهرٍ وعَشْرٌ، وهو ناسخٌ للحَوْل وقد تقدَّم عليه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ «ابْتَغَيْتَ»: طَلبتَ، والابتغاء: الطَّلب، و«عَزَلْتَ»: أزلْتَ، والعُزْلة: الإزالة، أي: إن أردتَ أنْ تُؤْويَ إليك امرأةً ممن عزلتهنَّ من القسمة وتضمَّها إليك؛ فلا بأسَ عليك في ذلك. وكذلك حكمُ الإرجاء، فدَلَّ أحدُ الطرفين على الثاني.

الخامسة: قولُه تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: لا ميلَ، يقال: جَنَحت السفينةُ، أي: مالت إلى الأرض. أي: لا ميلَ عليك باللَّوْم والتوبيخ.

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وسلف بنحوه مطولاً ص١٨٢ من هذا الجزء، وفي بداية هذه المسألة.

(٢) أخرجه ابن سعد ٨/ ١٥٤ - ١٥٥، وأحمد في العلل ومعرفة الرجال ١/ ١٤٣.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢١١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٣، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ١٤٠.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٣. وهبة الله هو ابن سلامة البغدادي أبو القاسم الضرير المفسِّر.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ﴾ قال قتادةُ وغيره: أي: ذلك التخييرُ الذي خيَّرناك في صحبتهنَّ أدنى إلى رِضَاهُنَّ إذ كان من عندنا؛ لأنهنَّ إذا عَلِمْنَ أنَّ الفعل[١] من الله قَرَّت أعيُنُهنَّ بذلك ورَضِيْنَ[٢]؛ لأنَّ المرء إذا علم أنه لا حقَّ له في شيءٍ، كان راضياً بما أوتيَ منه وإنْ قلَّ. وإن عَلِمَ أنَّ له حقًّا، لم يُقْنِعْه ما أوتيَ منه، واشتدَّتْ غَيْرتُه عليه وعَظُمَ حِرْصُه فيه. فكان ما فَعَل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه في أحوالِ أزواجه أقربَ إلى رضاهنَّ معه، وإلى استقرار أعْيُنِهنَّ بما يسمح به لهنَّ، دون أن تتعلَّق قلوبهنَّ بأكثر منه[٣].

وقرئ: «تُقِرَّ أعينَهن» بضمِّ التاء ونصبِ الأعين. «وتُقَرَّ أعينُهن» على البناء للمفعول[٤].

وكان عليه الصلاةُ والسلام مع هذا يشدِّد على نفسه في رعاية التَّسْويةِ بينهنَّ، تطييباً لقلوبهنَّ[٥] ـ كما قدَّمناه ـ ويقول: «اللهمَّ هذه قُدْرَتي فيما أَمْلِكُ، فلا تَلُمْني فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ»[٦] يعني قلبَه؛ لإيثاره عائشةَ رضي الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك في شيء من فِعْلِه. وكان في مرضه الذي تُوفِّيَ فيه يُطافُ به محمولاً على بيوت أزواجه، إلى أن استأذنهنَّ أن يقيم في بيت عائشة؛ قالت عائشةُ: أوَّلُ ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونةَ، فاستأذنَ أزواجَه أن يُمرَّض في بيتها ـ يعني بيت عائشةَ ـ فأذِنَّ له... الحديثَ، خرجه الصحيح[٧]. وفي الصحيح أيضاً عن عائشةَ رضي الله

(١) في (د) و(ز) و(ظ): العدل.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ١٤٥ بنحوه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٥٧ .

(٤) قراءتان شاذتان، وقد ذكرهما الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٦٩ ، وذكر الأولى ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٠ عن ابن محيصن.

(٥) في (خ): تطميناً لنفوسهن، وفي (ظ): تطييباً لنفوسهن.

(٦) أخرجه أحمد (٢٥١١١)، والترمذي (١١٤٠)، وأبو داود (٢١٣٤)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٦٣-٦٤ ، وابن ماجه (١٩٧١)، من حديث عائشة رضي الله عنها. وسلف ٧/ ١٦٧ - ١٦٨ .

(٧) صحيح البخاري (١٩٨)، وصحيح مسلم (٤١٨) واللفظ له، وهو عند أحمد (٢٥٩١٤).

عنها قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليتفقد، يقول: «أين أنا اليوم، أين أنا غداً» استبطاءً ليوم عائشةَ رضي الله عنها. قالت: فلمّا كان يومي قَبَضَه الله تعالى بين سَحْري ونَحْري، ﷺ[1].

السابعة: على الرجل أن يعدِل بين نسائه، لكلِّ واحدةٍ منهنَّ يومٌ[2] وليلةٌ؛ هذا قولُ عامَّةِ العلماء. وذهب بعضُهم إلى وجوب ذلك في الليل دون النهار. ولا يُسقِطُ حقَّ الزوجة مرضُها ولا حَيضُها، ويلزمه المُقامُ عندها في يومها وليلتها. وعليه أن يعدل بينهنَّ في مرضه كما يفعل في صحته، إلَّا أن يَعْجِز عن الحركة، فيقيم حيث غَلبَ عليه المرض، فإذا صحَّ استأنف القَسْم. والإماءُ والحرائرُ والكتابيَّات والمسلمات في ذلك سواء. قال عبد الملك: للحُرَّة ليلتان وللأَمَةِ ليلة. وأمَّا السَّراري فلا قَسْمَ بينهنَّ وبين الحرائر، ولا حظَّ لهنَّ فيه.

الثامنة: ولا يجمع بينهنَّ في منزلٍ واحدٍ إلَّا برِضَاهُنَّ، ولا يدخل لإحداهُنَّ في يومِ الأخرى وليلتِها لغير حاجة. واختُلف في دخوله لحاجةٍ وضرورة، فالأكثرون على جوازه؛ مالكٌ وغيره. وفي كتاب ابن حبيب مَنْعُه[3]. وروى ابن بُكَيْر عن مالك عن يحيى بن سعيد: أنَّ معاذ بن جبل كانت له امرأتان، فإذا كان يومُ هذه لم يشرب من بيت الأخرى الماءَ[4]. قال ابن بُكير: وحدَّثنا مالك عن يحيى بن سعيد: أنَّ معاذ بن جبل كانت له امرأتان ماتتا في الطاعون. فأَسْهَم بينهما أيهما تُدلَّى أوَّل[5].

التاسعة: قال مالك: ويعدلُ بينهنَّ في النفقة والكسوةِ إذا كنَّ معتدلاتِ الحال،

---

(١) صحيح البخاري (١٣٨٩) وصحيح مسلم (٢٤٤٣) واللفظ له. قولها: سَحْري ونحري، السَّحْر: الرئة، والنحر: أعلى الصدر. المفهم ٦/ ٣٢٨ .

(٢) في النسخ: يوماً، والمثبت من الكافي ٢/ ٥٦١ ، والكلام منه.

(٣) المفهم ٤/ ٢٠٥ .

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد للإمام أحمد ص ٢٢٨ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٤ .

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٤ من طريق الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد به.

ولا يلزم ذلك في المختلفاتِ المناصبِ. وأجاز مالك أن يفضِّل إحداهما في الكسوة على غيرِ وجهِ الميل. فأمَّا الحُبُّ والبغضُ فخارجان عن الكَسْبِ، فلا يتأتَّى العدلُ فيهما، وهو المعنيُّ بقوله ﷺ في قَسْمِه: «اللهمَّ هذا فِعْلي فيما أَمْلِكُ، فلا تَلُمْني فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ». أخرجه النَّسائيُّ وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها. وفي كتاب أبي داود: يعني القلبَ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩](١)، وقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾. وهذا هو وجهُ تخصيصِه بالذِّكر هنا؛ تنبيهاً منه لنا على أنه يعلم ما في قلوبنا من ميل بعضِنا إلى بعضِ مَن عِنْدَنا من النساء دون بعض، وهو العالِمُ بكلِّ شيءٍ ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥] ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] لكنه سَمَح في ذلك؛ إذ لا يستطيعُ العبدُ أن يَصْرِفَ قلبَه عن ذلك الميلِ، وإلى ذلك يعودُ قولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقد قيل في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ وهي:

العاشرة: أي: ذلك أقربُ ألَّا يَحزنَّ إذا لم تجتمع إحداهنَّ مع الأخرى وتُعاين الأثَرَةَ والميل(٢). وروى أبو داود عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن كانت له امرأتان فمالَ إلى إحداهُما، جاء يوم القيامة وشِقُّه مائل»(٣).

﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ توكيدٌ للضمير، أي: وَيَرْضَيْنَ كلُّهن. وأجاز أبو حاتم والزجَّاج: «وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ» على التوكيد للمضمَر الذي في «آتيتهنَّ». والفرَّاءُ لا يُجيزُه؛ لأنَّ المعْنى ليس عليه؛ إذ كان المعنى: وترضى كلُّ واحدةٍ منهنَّ، وليس المعنى: بما أعطيتهنَّ كلَّهنَّ. النحاس: والذي قاله حَسَن(٤).

---

(١) المفهم ٤/ ٢٠٥ - ٢٠٦، وسلف الحديث في المسألة السادسة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢١.

(٣) سنن أبي داود (٢١٣٣)، وسلف ٧/ ١٦٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢١ - ٣٢٢، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٣٣، وقول الفراء =

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ خبرٌ عامٌّ، والإشارةُ إلى ما في قلبِ رسول الله ﷺ من مَحبَّةِ شخصٍ دون شخص. وكذلك يَدْخلُ في المعنى أيضاً المؤمنون[1]. وفي البخاريِّ عن عمرو بن العاص: أنَّ النبيَّ ﷺ بعثه على جيشِ ذاتِ السلاسل، فأتيتُه فقلت: أيُّ الناسِ أحبُّ إليك؟ فقال: «عائشة» فقلتُ: من الرجال؟ قال: «أبوها» قلتُ: ثم مَن؟ قال: «عمر بن الخطاب...» فعدَّ رجالاً[2]. وقد تقدَّم القولُ في القلب بما فيه كفايةٌ في أوَّل «البقرة»[3]، وفي أول هذه السورة[4].

يروى أنَّ لقمان الحكيم كان عبداً نجاراً قال له سيِّده: اذبَحْ شاةً وائتني بأَطْيَبِها بَضْعَتَيْن، فأتاه باللسان والقلب. ثم أمره بذبح شاةٍ أخرى فقال له: أَلْقِ أَخْبَثَهَا بَضْعَتين، فألقى اللسانَ والقلبَ، فقال: أَمَرْتُكَ أن تأتيَني بأَطْيَبِها بَضْعتين، فأتيتني باللسان والقلب، وأَمَرْتُكَ أن تُلقيَ بأخبثها بَضْعَتين، فألقيتَ اللسانَ والقلبَ! فقال: ليس شيءٌ أطيبَ منهما إذا طابا، ولا أخبثَ منهما إذا خَبُثا[5].

قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: اختلف العلماء في تأويل قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ على أقوالٍ سبعةٍ:

= في معاني القرآن له ٢/ ٣٤٦ . وقرأ: «كلُّهن» بالنصب أبو إياس جُؤية بن عائذ، كما في القراءات الشاذة ص١٢٠ ، والمحتسب ٢/ ١٨٢ .

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٣ .

(٢) صحيح البخاري (٣٦٦٢)، وهو عند أحمد (١٧٨١١)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٣) ١/ ٢٨٦ .

(٤) ص٥٤ من هذا الجزء.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢١٤ ، وأحمد في الزهد ص ٦٥ ، والطبري ١٨/ ٥٤٨ ، وابن حبان في روضة العقلاء ص ٢٩ عن خالد الرَّبَعي قوله. ووقع في جميع المصادر: مضغتين، بدل: بضعتين.

الأول: أنَّها منسوخةٌ بالسُّنّة، والناسخُ لها حديثُ عائشةَ؛ قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أُحِلَّ له النساء. وقد تقدَّم[١].

الثاني: أنَّها منسوخةٌ بآيةٍ أخرى؛ روى الطَّحَاويُّ عن أمِّ سلمةَ قالت: لم يَمُتْ رسولُ الله ﷺ حتى أَحَلَّ الله له أن يتزوَّج مِن النساء مَن شاء[٢]، إلّا ذاتَ مَحْرَم، وذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾[٣]. قال النَّحاس[٤]: وهذا ـ واللهُ أعلم ـ أوْلى ما قيل في الآية، وهو وقولُ عائشةَ واحدٌ في النَّسْخ. وقد يجوز أن تكون عائشةُ أرادت: أُحِلَّ له ذلك بالقرآن. وهو مع هذا قولُ عليّ بنِ أبي طالب وابنِ عباس وعليّ بن الحسين والضحَّاك. وقد عارض بعضُ الفقهاءِ الكوفيين فقال: مُحالٌ أن تَنْسَخَ هذه الآيةُ ـ يعني ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ ـ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون، ورجَّح قولَ مَن قال: نُسِخَتْ بالسُّنَّة.

قال النحَّاس[٥]: وهذه المعارضةُ لا تَلْزَمُ، وقائلُها غالِطٌ؛ لأنَّ القرآن بمنزلةِ سورةٍ واحدةٍ، كما صحَّ عن ابن عباس: أنزل الله القرآنَ جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا في شهر رمضان[٦]. ويبيِّن لك أنَّ اعتراضَ هذا لا يلزمُ قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾

(١) ص١٨٠ من هذا الجزء.

(٢) في (ظ): ما شاء.

(٣) شرح مشكل الآثار (٥٢٤)، وأخرجه أيضاً النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٧، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. وفي إسناده عمر بن أبي بكر الموصلي، قال فيه أبو حاتم كما في العلل لابنه ٦/ ١٠٠: ذاهب الحديث، متروك الحديث. اهـ. وأخرجه ابن سعد ٨/ ١٩٤ بإسناد آخر فيه الواقدي.

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٧ - ٥٨٨.

(٥) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٨

(٦) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٢٢، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٣.

[البقرة: ٢٤٠] منسوخةٌ على قولِ أهلِ التأويل - لا نَعْلَم بينهم خلافاً - بالآية التي قبلها ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

الثالث: أنَّه ﷺ حُظِرَ عليه أن يتزوَّج على نسائه؛ لأنهنَّ اخْتَرْنَ الله ورسولَه والدار الآخرة؛ هذا قولُ الحسن وابنِ سيرين وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. قال النحاس[(١)]: وهذا القولُ يجوز أن يكون هكذا ثم نُسخ.

الرابع: أنه لمَّا حرَّم عليهنَّ أن يتزوَّجْنَ بعده حرَّم عليه أن يتزوَّج غيرهنَّ؛ قاله أبو أمامة بنُ سهل بن حُنَيف[(٢)].

الخامس: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد الأصناف التي سُمِّيت؛ قاله أُبَيّ بن كعب وعكرمةُ وأبو رَزين، وهو اختيارُ محمد بن جرير[(٣)].

ومَن قال: إنَّ الإباحةَ كانت له مُطْلَقةً، قال هنا: «لا يَحِلُّ لك النساءُ» معناه: لا تَحِلُّ لك اليهوديَّاتُ ولا النَّصْرانياتُ. وهذا تأويلٌ فيه بُعْدٌ[(٤)]، ورويَ عن مجاهدٍ وسعيد بن جُبير وعكرِمَة أيضاً. وهو القولُ السادس؛ قال مجاهد: لئلَّا تكون كافرةٌ أُمًّا للمؤمنين. وهذا القولُ يَبْعُد؛ لأنه يقدِّره: مِن بَعْدِ المسلمات، ولم يَجْرِ للمسلمات ذِكْرٌ[(٥)]. وكذلك قدَّر: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ أي: ولا أن تطلِّق مُسْلِمةً لتستبدل بها كتابيَّة[(٦)].

---

(١) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٩٠ ، وما قبله منه.

(٢) الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٩٠ .

(٣) في التفسير ١٩/ ١٥٠ ، والكلام من الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٩٠ - ٥٩١ . وأخرجه عن أبي ابن كعب ﷺ ابن سعد ٨/ ١٩٦ ، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١٢٠٨)، والطبري ١٩/ ١٤٧ - ١٤٨ . وأخرجه عن أبي رزين ابن سعد ٨/ ١٩٦ . وعن عكرمة الطبري ١٩/ ١٤٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٤ .

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٩١ .

(٦) أخرجه بنحوه عن مجاهد ابن سعد ٨/ ١٩٥ - ١٩٦ ، والطبري ١٩/ ١٥١ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥٩ .

السابع: أنَّ النبيَّ ﷺ كان له حلالٌ أن يتزوَّج مَن شاء ثم نُسخ ذلك. قال: وكذلك كانت الأنبياء قبله ﷺ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظِيّ(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ قال ابن زيد: هذا شيءٌ كانت العرب تفعلُه؛ يقول أحدُهم: خُذْ زوجتي وأعطني زوجتَك(٢)، روى الدَّارَقُطْنِيُّ عن أبي هريرةَ قال: كان البَدَلُ في الجاهلية أنْ يقول الرجل للرجل: تَنْزِلُ لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدُك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ قال: فدخل عُيينةُ بن حِصْن الفَزَاريُّ على رسول الله ﷺ وعنده عائشةُ، فدخل بغير إذنٍ، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عُيينةُ، فأين الاستئذانُ؟» فقال: يا رسول الله، ما استأذنتُ على رجلٍ من مُضَرَ منذ أدركت. قال: مَن هذه الحُميراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذه عائشةُ أمُّ المؤمنين» قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخَلْق. فقال: «يا عُيينةُ، إنَّ الله قد حرَّم ذلك». قال: فلمَّا خرج قالت عائشة: يا رسول الله، مَن هذا؟ قال: «أحمقُ مطاعٌ، وإنَّه على ما تَرَيْنَ لَسيِّدُ قومِه»(٣).

وقد أنكر الطبريُّ والنحَّاس وغيرُهما ما حكاه ابن زيد عن العرب، من أنَّها كانت تُبادِلُ بأزواجها(٤). قال الطبريّ(٥): وما فعلتِ العربُ قطُّ هذا، وما رُوي من حديث عيينةَ بن حِصن من أنَّه دخل على رسول الله ﷺ وعنده عائشة... الحديث، فليس بتبديلٍ، ولا أراد ذلك، وإنَّما احتقر عائشةَ لأنَّها كانت صبيةً، فقال هذا القول.

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٩٢ .

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ١٥٢ ، وذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٩١ - ٥٩٢ .

(٣) سنن الدارقطني (٣٥١٣)، وأخرجه أيضاً البزار (٢٢٥١ - كشف). وهو من طريق إسحاق بن عبد الله ابن أبي فروة، عن زيد بن أسلم، عن عطاء، عن أبي هريرة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٢ : فيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك. اهـ. وكذا قال فيه الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب، وتنظر أقوال الأئمة في تكذيبه وتركه في تهذيب التهذيب ١/ ١٢٣ .

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ١٥٣ ، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٩٢ .

(٥) هذا قول ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٤ ، وليس قول الطبري.

قلت: وما ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرةَ، من أنَّ البَدَلَ كان في الجاهلية، يدلُّ على خلافِ ما أنكرا من ذلك، والله أعلم(١).

قال المبرِّد: وقرئ: «لا يَحِلُّ» بالياء والتاء. فَمَن قرأ بالتاء؛ فعلى معنى جماعةِ النساء، وبالياء من تحت على معنى جميع النساء. وزعم الفرَّاء قال: اجتمعت القُرَّاء على القراءة بالياء. وهذا غلطٌ، وكيف يقال: اجتمعت القراء، وقد قرأ أبو عمرو بالتاء بلا اختلافٍ عنه؟!(٢)

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ قال ابن عباس: نزل ذلك بسبب أسماءَ بنتِ عُمَيس؛ أعجب رسولَ الله ﷺ - حين مات عنها جعفر بن أبي طالبٍ - حُسنُها، فأراد أن يتزوَّجها، فنزلت الآية. وهذا حديثٌ ضعيفٌ؛ قاله ابن العربيّ(٣).

الرابعة: في هذه الآية دليلٌ على جواز أن ينظر الرجل إلى مَن يريد زواجَها. وقد أراد المغيرة بنُ شُعبةَ زواجَ امرأةٍ، فقال له النبيُّ ﷺ: «انظر إليها، فإنه أَجْدَرُ أن يُؤْدَمَ بينكما»(٤). وقال عليه الصلاة والسلام لآخَرَ: «انظُرْ إليها، فإنَّ في أعين الأنصار شيئاً» أخرجه الصحيح(٥). قال الحميديُّ وأبو الفرج الجوزيُّ: يعني صِغَراً أو زَرَقاً. وقيل: رَمَصاً(٦).

الخامسة: الأمرُ بالنظر إلى المخطوبة إنَّما هو على جهةِ الإرشادِ إلى المصلحة؛

---

(١) لا حجة للمصنف في قوله هذا، فإن راوي الحديث عن زيد هو إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك كما سلف ذكره.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٢، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٤٦. وقراءة أبي عمرو في السبعة ص٥٢٣، والتيسير ص١١٩.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥٨، وقد ذكر ابن العربي الخبر دون نسبة، وأورده عن ابن عباس البغوي ٣/ ٥٣٩.

(٤) أخرجه أحمد (١٨١٣٧)، والترمذي (١٠٨٧)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٦٩ - ٧٠، وابن ماجه (١٨٦٦) من حديث أنس ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث حسن. قوله: أن يؤدم بينكما، أي: يوفَّق ويؤلَّف. شرح سنن ابن ماجه للسندي ١/ ٥٧٥.

(٥) صحيح مسلم (١٤٢٤)، وهو عند أحمد (٧٨٤٢)، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) المفهم ٤/ ١٢٧، دون ذكر الحميدي، وقول الحميدي في مسنده إثر الحديث (١١٧٢). والرَّمَص: وسخ أبيض يجتمع في المُوق. القاموس (رمص).

فإنه إذا نظر إليها فلعلَّه يرى منها ما يرغِّبه في نكاحها. ومما يدلُّ على أنَّ الأمر على جهةِ الإرشادِ، ما ذكره أبو داودَ من حديث جابرٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا خَطَبَ أحدُكم المرأة، فإن استطاعَ أنْ ينظُرَ منها إلى ما يَدْعوهُ إلى نِكاحِها فَلْيَفْعَلْ»[1]. فقوله: «فإن استطاعَ فَلْيَفْعَلْ» لا يقالُ مثلُه في الواجب. وبهذا قال جمهورُ الفقهاءِ مالكٌ والشافعيُّ والكوفيُّون وغيرُهم وأهلُ الظاهر. وقد كره ذلك قومٌ لا مبالاةَ بقولهم؛ للأحاديث الصحيحة[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾. قال سهل بن أبي حَثْمَةَ: رأيتُ محمد بنَ مَسْلَمَةَ يطارد ثُبَيْتَةَ[3] بنتَ الضحاك على إجَّارٍ من أجاجير المدينة، فقلتُ له: أتفعلُ هذا؟ فقال: نعم، قال النبيُّ ﷺ: «إذا أَلْقَى الله في قلبِ أَحَدِكُم خِطْبةَ امرأةٍ فلا بأسَ أنْ ينظُرَ إليها»[4]. الإجَّار: السَّطح بلُغةِ أهلِ الشَّام والحجاز. قال أبو عبيد[5]: وجمعُ الإجَّارِ: أجاجيرُ وأَجَاجِرةٌ.

السادسة: اختُلف فيما يجوز أن ينظر منها؛ فقال مالكٌ: ينظر إلى وجهها وكفَّيها، ولا ينظر إلَّا بإذنها. وقال الشافعيُّ وأحمد: بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترةً[6]. وقال الأوزاعيُّ: ينظر إليها ويجتهد وينظر مَواضِعَ اللحم منها. وقال داود: ينظر إلى سائر جسدها؛ تمسُّكاً بظاهر اللفظ. وأصولُ الشريعةِ تردُّ عليه في تحريم الاطِّلاع على العَوْرة[7]. والله أعلم.

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٨٢)، وهو عند أحمد (١٤٥٨٦)، والكلام من المفهم ٤/ ١٢٥ .

(٢) المفهم ٤/ ١٢٥ - ١٢٦ .

(٣) في (د) بثينة، وفي (ظ): ببثينة. قال الحافظ في الإصابة ١٢/ ١٩٩ : المشهور أنها بالمثلثة. قاله أبو موسى.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٤ ، وأخرجه بهذا اللفظ المزي في تهذيب الكمال ٢٥/ ٣٠٢ (في ترجمة محمد ابن سليمان بن أبي حثمة)، وبنحوه أحمد (١٦٠٢٨) وابن حبان (٤٠٤٢)، وإسناده ضعيف، غير أن مرفوعه يصحُّ بشواهده.

(٥) في غريب الحديث ١/ ٢٧٦ .

(٦) في (ظ): متسترة.

(٧) المفهم ٤/ ١٢٦ .

السابعة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ اختلف العلماء في إحلالِ الأَمَة الكافرة للنبيِّ ﷺ على قولين:

أحدهما: تَحِلُّ؛ لعمومِ قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾. قاله مجاهدٌ وسعيد بنُ جبير وعطاءٌ والحكم؛ قالوا: قولُه تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: لا تَحِلُّ لك النساءُ من غير المسلمات، فأمَّا اليهودياتُ والنّصرانياتُ والمشركاتُ فحرامٌ عليك، أي: لا يَحِلُّ لك أن تتزوَّج كافرةً فتكونَ أُمًّا للمؤمنين ولو أعجبك حُسْنُها، إلَّا ما مَلَكَتْ يمينك، فإنَّ له أن يتسرَّى بها[1].

القولُ الثاني: لا تَحِلُّ؛ تنزيهاً لقَدْرِه عن مباشرةِ الكافرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، فكيف به ﷺ؟!

و «ما» في قوله: «إلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ» في موضعِ رفعِ بدلٍ من «النساء». ويجوزُ أن تكون في موضعِ نصبٍ على الاستثناء، وفيه ضَعْفٌ. ويجوز أن تكون مصدريةً، والتقدير: إلَّا مِلْكَ يمينِك، ومِلك بمعنى مملوك، وهو في موضع نصبٍ لأنه استثناءٌ من غير الجنس الأول[2].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾

فيه ستَّ عَشْرةَ مسألة:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٦٩ - ٣٧٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٤. وتُعقِّب بأنه إذا كان بمعنى مملوك صار من جملة النساء، فلا يكون منقطعاً، ويكون الرفع أرجح. ينظر البحر ٧/ ٢٤٥، والدر المصون ٩/ ١٣٨.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ «أنْ» في موضعِ نصبٍ على معنى: إلَّا بأن يؤذَنَ لكم، ويكون الاستثناء ليس من الأول. ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ نصبٌ على الحال، أي: لا تدخلوا في هذه الحال. ولا يجوزُ في «غَيْر» الخفضُ على النَّعت للطعام؛ لأنَّه لو كان نعتاً لم يكن بدٌّ من إظهار الفاعِلِينَ، وكان يقول: غير ناظرين إناه أنتم. ونظيرُ هذا من النحو: هذا رجلٌ مع رجلٍ مُلازِمٌ له، وإن شئتَ قلت: هذا رجلٌ مع رجلٍ ملازمٍ له هو[1].

وهذه الآيةُ تضمَّنَتْ قصَّتين[2]: إحداهما: الأدبُ في أمر الطعام والجلوس. والثانية: أمرُ الحجاب. وقال حماد بن زيد: هذه الآيةُ نزلت في الثُّقلاء[3].

فأمَّا القصةُ الأولى فالجمهورُ من المفسِّرين على أنَّ سببها: أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا تزوَّج زينبَ بنتَ جحش امرأةَ زيد أَوْلَمَ عليها، فدعا الناس، فلمَّا طَعِموا جلس طوائفُ منهم يتحدَّثون في بيت رسول الله ﷺ وزوجتُه مولِّيةٌ وجهَها إلى الحائط، فثَقُلُوا على رسول الله ﷺ. قال أنس: فما أدري أأنا أخبرتُ النبيَّ ﷺ أنَّ القوم قد خرجوا، أو أخبرني. قال: فانطلَقَ حتى دخل البيت، فذهبتُ أَدخلُ معه، فألقى السِّتْرَ بيني وبينَه ونزل الحجاب. قال: ووُعِظَ القومُ بما وُعظوا به، وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أخرجه الصحيح[4].

وقال قتادةُ ومقاتلٌ في كتاب الثعلبيِّ: إنَّ هذا السببَ جرى في بيت أمِّ سلمة[5]. والأوَّلُ الصحيح، كما رواه الصحيح.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٣ .

(٢) في (ظ): قضيتين.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢١٤ عن سليمان بن أرقم.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٩١)، وصحيح مسلم (١٤٢٨)، وهو عند أحمد (١٢٠٢٣).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٥ ، وأخرجه عن قتادة الطبري ١٩/ ١٦٦ .

وقال ابن عباس: نزلت في ناسٍ من المؤمنين كانوا يتحيَّنُون طعامَ النبيِّ ﷺ، فيدخلون قبل أن يُدْرِكَ الطعامُ، فيقعدون إلى أن يدرِك، ثم يأكلون ولا يخرجون[١].

وقال إسماعيل بن أبي حكيم[٢]: وهذا أدبٌ أدَّبَ الله به الثُّقلاء. وقال ابن أبي عائشةَ في كتاب الثعلبيِّ: حَسْبُكَ من الثُّقلاءِ أنَّ الشَّرعَ لم يَحتَمِلْهم[٣].

وأمَّا قصةُ الحجابِ فقال أنس بن مالك وجماعةٌ: سببُها أمرُ القعودِ في بيتِ زينَب، القصةُ المذكورةُ آنفاً. وقالت عائشةُ رضي الله عنها وجماعةٌ: سببُها أنَّ عمر قال: قلتُ: يا رسول الله، إنَّ نساءك يَدْخلُ عليهنَّ البَرُّ والفاجِرُ، فلو أمرتَهنَّ أن يَحتجِبْنَ، فنزلت الآية[٤]. وروى الصحيح عن ابن عمر قال: قال عمر: وافقتُ ربِّي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر[٥].

هذا أصحُّ ما قيل في أمر الحجاب، وما عدا هذين القولين من الأقوال والرواياتِ فواهيةٌ، لا يقوم شيءٌ منها على ساق، وأضعفُها ما روي عن ابن مسعود: أنَّ عمر أمر نساء النبيِّ ﷺ بالحجاب، فقالت زينب بنت جحش: يا ابن الخطاب، إنك تَغَارُ علينا والوحيُ ينزل في بيوتنا! فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[٦] وهذا باطلٌ؛ لأنَّ الحجاب نزل يومَ البناء بزينب، كما

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٥ .

(٢) القُرشيُّ مولاهم، المدني، كان عاملاً لعمر بن عبد العزيز، توفِّي سنة (١٣٠هـ). التهذيب ١/ ١٤٦ . وقوله في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٥ ، وابن أبي عائشة هو موسى.

(٤) هو قطعة من حديث أنس ﷺ عند أحمد (١٥٧)، والبخاري (٤٠٢)، وسيأتي في المسألة الثامنة. وأخرجه عن عائشة بمعناه أحمد (٢٥٨٦٦)، والبخاري (١٤٦)، ومسلم (٢١٧٠)، وسيأتي حديث عائشة رضي الله عنها في المسألة السادسة عشرة.

(٥) صحيح مسلم (٢٣٩٩).

(٦) أخرجه أحمد (٤٣٦٢) مطولاً، والطبري ١٩/ ١٦٥ و١٦٩ . والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٣ .

بيَّنَّاه. أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وغيرهم[(١)].

وقيل: إنَّ رسول الله ﷺ كان يَطْعَمُ ومعه بعضُ أصحابه، فأصابت يَدُ رجلٍ منهم يدَ عائشةَ، فكره النبيُّ ﷺ، فنزلت آيةُ الحجاب[(٢)].

قال ابن عطية[(٣)]: وكانت سيرةُ القوم إذا كان لهم طعامُ وليمةٍ أو نحوُه أن يبكِّر مَن شاء إلى الدعوة ينتظرون طَبْخَ الطعام ونُضْجَه. وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك، فَنَهَى الله المؤمنين عن أمثالِ ذلك في بيت النبيِّ ﷺ، ودخل في النَّهي سائرُ المؤمنين، والتزم الناس أدبَ اللهِ تعالى لهم في ذلك، فَمَنَعهم من الدخول إلَّا بإذنٍ عند الأكل، لا قَبْلَه لانتظارِ نُضْجِ الطعام.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ دليلٌ على أنَّ البيت للرجل، ويُحكَم له به، فإنَّ الله تعالى أضافه إليه. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤] قلنا: إضافةُ البيوتِ إلى النبيِّ ﷺ إضافةُ مِلْكٍ، وإضافةُ البيوت إلى الأزواج إضافةُ مَحَلٍّ، بدليلِ أنه جعل فيها الإذنَ للنبيِّ ﷺ، والإذنُ إنَّما يكون للمالك[(٤)].

الثالثة: واختلف العلماء في بيوت النبيِّ ﷺ إذ كان يَسْكُن فيها أهلُه بعد موته؛ هل هي مِلكٌ لهنَّ أم لا؟ على قولين: فقالت طائفةٌ: كانت مِلكاً لهنَّ، بدليلِ أنهنَّ سَكَنَّ فيها بعد موتِ النبيِّ ﷺ إلى وفاتهنَّ، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ وهب ذلك لهنَّ في حياته.

الثاني: أنَّ ذلك كان إسكاناً كما يُسْكِنُ الرجلُ أهلَه، ولم يكن هبةً، وتَمادى

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٩١)، وصحيح مسلم (١٤٢٨)، وسنن الترمذي (٣٢١٨)، وهو من حديث أنس ﷺ، وسلف قريباً.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ١٦٧ ، والواحدي في أسباب النزول ص٣٧٩ عن مجاهد. وأخرج نحوه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥٣) من طريق مجاهد عن عائشة.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٥ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٣ .

سُكْناهنَّ بها إلى الموت[١]. وهذا هو الصحيح، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بنُ عبد البَرِّ وابنُ العربيِّ وغيرهم[٢]، فإنَّ ذلك من مؤونتهنَّ التي كان رسول الله ﷺ استثناها لهنَّ، كما استثنى لهنَّ نفقاتِهنَّ حين قال: «لا تَقْتَسِم وَرَثَتِي ديناراً ولا درهماً، ما تركتُ بعد نفقةِ أهلي ومؤونةِ عاملي فهو صدقة»[٣]. هكذا قال أهلُ العلم، قالوا: ويدلُّ على ذلك أنَّ مساكنهنَّ لم يَرِثْها عنهنَّ وَرَثَتُهنَّ. قالوا: ولو كان ذلك مِلكاً لهنَّ كان لا شكَّ قد وَرِثَه عنهنَّ وَرَثَتُهنَّ. قالوا: وفي تَرْكِ وَرَثَتِهنَّ ذلك دليلٌ على أنَّها لم تكن لهنَّ مِلكاً، وإنَّما كان لهنَّ سُكْنى حياتَهنَّ، فلمَّا تُوُفِّينَ جُعل ذلك زيادةً في المسجد الذي يَعمُّ المسلمين نَفْعُه، كما جُعل ذلك [في] الذي كان لهنَّ من النفقات في تركة رسول الله ﷺ لمَّا مَضَيْنَ لسبيلهنَّ، فزيد إلى أصل المال، فصُرف في منافع المسلمين ممَّا يعمُّ جميعَهم نفعُه[٤]. والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: غيرَ مُنتظِرين وقتَ نُضْجِه. و«إِنَاهُ» مقصورٌ، وفيه لغات: «إِنًى» بكسر الهمزة؛ قال الشيبانيُّ[٥]:

وكِسْرَى إذ تقسَّمه بَنُوه ... بأسيافٍ كما اقْتُسِم اللِّحامُ
تمخَّضَت المَنونُ له بيومٍ ... أَنَى ولكلِّ حاملةٍ تمامُ[٦]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) التمهيد ٨/ ١٧٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٤ .

(٣) أخرجه أحمد (٧٣٠٣)، والبخاري (٢٧٧٦)، ومسلم (١٧٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، ووقع عندهم: نسائي، بدل: أهلي، وينظر ما سيأتي ص٢٢٩ من هذا الجزء. قال الحافظ في الفتح ٥/ ٤٠٦ : المراد بالعامل هنا: القيِّمُ على الأرض والأجيرُ وغيرهما، أو الخليفةُ بعدَه.

(٤) التمهيد ٨/ ١٧٣ - ١٧٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) هو خالد بن حِقٍّ الشيباني، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٦٩ .

(٦) سيرة ابن هشام ١/ ٦٩ ، ونُسب البيتان أيضاً لعمرو بن حسان أحد بني الحارث بن همام، كما في اللسان (حمل) و(مخض). وذكر صاحب جمهرة أشعار العرب ١/ ١٩٩ البيت الثاني ضمن قصيدة للنابغة الذبياني. قوله: أنى، أي: حان، ومصدره: إِنًى . واللِّحام جمع اللحم. الصحاح (لحم) و(أنا).

وقرأ ابن أبي عبلةَ: «غيرِ ناظِرِينَ إِنَاه» مجروراً صفةً لـ «طعام». الزمخشريُّ: وليس بالوجه؛ لأنَّه جَرى على غيرِ ما هو له، فمِن حقِّ ضميرِ ما هو له أن يبرز إلى اللَّفْظِ، فيقال: غيرِ ناظرين إناه أنتم، كقولك: هندٌ زيدٌ ضارِبَتُه هي[١].

وأَنًى ـ بفَتْحِها ـ وأَناءً بفتح الهمزة والمدّ؛ قال الحطيئة:

وأخَّرتُ العَشاءَ إلى سُهَيْلٍ أو الشِّعْرَى فطالَ بيَ الأَناءُ[٢]

يعني: إلى طلوع سهيل. وإناه مصدرُ أَنَى الشيءُ يأني: إذا فَرَغَ وحان وأَدْرَكَ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ فأكَّد المنعَ، وحَصَر[٣] وقتَ الدخولِ بأنْ يكونَ عند الإذنِ على جهةِ الأدب، وحِفْظِ الحَضْرَةِ الكريمة من المُبَاسَطَةِ المكروهة. قال ابن العربيِّ[٤]: وتقديرُ الكلام: ولكنْ إذا دُعيتم وأُذِنَ لكم في الدخول فادخلوا، وإلَّا فَنَفْسُ الدعوةِ لا تكون إذناً كافياً في الدخول. والفاءُ في جوابِ «إذا» لازمةٌ لمَا فيها من معنى المجازاة.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ أمرَ تعالى بعدَ الطعامِ بأن يتفرَّق جَمْعُهم وينتشر[٥]. والمرادُ إلزامُ الخروجِ من المنزل عند انقضاءِ المقصودِ من الأكل. والدليلُ على ذلك أنَّ الدخول حرام، وإنَّما جاز لأَجْلِ الأَكْلِ، فإذا انقضى الأكلُ زالَ السبب المُبيحُ، وعاد التحريم إلى أصله[٦].

السادسة: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ الضيف يأكل على مِلْكِ المُضِيف، لا على

(١) الكشاف ٣/ ٢٧١ ، وسلف نحو هذا الكلام في المسألة الأولى.

(٢) الصحاح وأساس البلاغة (أني) وفيه: وآنيت، بدل: وأخرت. وهو في الديوان ص٥٤ برواية: وآنيت العشاء... فطال بي العشاء.

(٣) في (د) و(ز) و(م): وخص.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٦٥ ، وما قبله منه.

(٥) في (د) و(م): بأن يتفرق جميعهم وينتشروا.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٦ .

مِلك نَفْسِه؛ لأنه قال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ فلم يَجعل له أكثرَ من الأكل، ولا أضاف إليهم[١] سواه، وبقي الملكُ على أصله.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ عطفٌ على قوله: «غيرَ ناظِرِينَ» و«غَيْرَ» منصوبةٌ على الحال من الكاف والميم في «لكم»، أي: غيرَ ناظرين ولا مستأنسين[٢]. والمعنى المقصودُ: لا تَمكُثوا مُسْتَأنِسين بالحديث كما فعل أصحابُ رسول الله ﷺ في وليمة زينب. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يَمتنعُ من بيانه وإظهاره. ولمَّا كان ذلك يقع من البشر لِعِلَّةِ الاستحياء نفَى عن الله تعالى العلةَ الموجِبةَ لذلك في البشر. وفي الصحيح عن أمِّ سلمةَ قالت: جاءت أمُّ سُليم إلى النبيِّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنَّ الله لا يستحيي من الحقّ، فهل على المرأة من غُسْلٍ إذا احْتَلَمَتْ؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا رَأَتِ الماءَ»[٣].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ الآيةَ. روى أبو داودَ الطَّيَالِسيُّ عن أنس بن مالك قال: قال عمر: وافقتُ ربي في أربع...، الحديثَ. وفيه: قلتُ يا رسول الله: لو ضَرَبْتَ على نسائك الحجابَ؛ فإنَّه يَدْخُلُ عليهنَّ البَرُّ والفاجِرُ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[٤].

واختُلف في المتاع؛ فقيل: ما يُتَمتَعُ به من العَوَاريِّ[٥]. وقيل: فَتْوَى. وقيل: صُحفُ القرآن. والصوابُ أنه عامٌّ في جميع ما يمكن أن يُطْلَب من المَوَاعين وسائرِ

---

(١) في (م): إليه، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٥ ، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦ ، وسلف الكلام على «غير» أيضاً في المسألة الأولى والثالثة.

(٣) صحيح البخاري (١٣٠)، وصحيح مسلم (٣١٣)، وهو عند أحمد (٢٦٥٠٣).

(٤) مسند الطيالسي ص٩-١٠ ، وأخرجه أحمد (١٥٧)، والبخاري (٤٠٢) عن أنس بلفظ: وافقت ربي في ثلاث، فذكر ثلاثاً مما في حديث الطيالسي، منها ما ذكره المصنف في سبب نزول آيات الحجاب، وقد سلف نحوه في المسألة الأولى من حديث عمر ﷺ.

(٥) العواريُّ: مشدَّدة ومخففة جمع العاريَّة مشددة وقد تخفف: ما تداولوه بينهم. القاموس (عور).

المرافق للدِّين والدنيا.

التاسعة: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ الله تعالى أَذِنَ في مَسْألتهنَّ من وراء حجابٍ في حاجةٍ تَعْرِضُ، أو مسألةٍ يُستفتينَ فيها، ويَدخُلُ في ذلك جميعُ النساء بالمعنى، وبما تَضمَّنَتْه أصولُ الشريعةِ من أنَّ المرأةَ كلَّها عورةٌ، بدنَها وصوتَها، كما تقدَّم[١]، فلا يجوز كَشْفُ ذلك إلَّا لحاجةٍ، كالشهادة عليها، أو داءٍ يكون ببدنها، أو سؤالها عمَّا يَعْرِضُ وتعين عندها[٢].

العاشرة: استدلَّ بعضُ العلماء بأخذِ الناس عن أزواج النبيِّ ﷺ من وراء حجابٍ على جوازِ شهادةِ الأعمى، وبأنَّ الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها، وعلى إجازة شهادته أكثرُ العلماء، ولم يُجِزْها أبو حنيفةَ والشافعيُّ وغيرهما؛ قال أبو حنيفة: تجوز في الأنساب[٣]. وقال الشافعيُّ: لا تجوز إلَّا فيما رآه قبل ذهابِ بَصَرِهِ.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يريد: من الخواطر التي تَعْرِضُ للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال[٤]، أي: ذلك أَنْفَى للريبةِ وأَبْعَدُ للتُّهمة وأقوى في الحماية. وهذا يدلُّ على أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يثقَ بنفسه في الخلوة مع مَن لا تَحِلُّ له؛ فإنَّ مُجانبةَ ذلك أحسنُ لحاله، وأَحْصَنُ لنفسه، وأتمُّ لِعِصْمَتِه[٥].

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، هذا تكرارٌ للعلَّة وتأكيدٌ لحكمِها، وتأكيدُ العللِ أقوى في الأحكام.

---

(١) ٧/ ١٨٣ ، و١٢/ ٢٣٧ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٧ ، وفيه : ويعن، بدل: وتعين.

(٣) قال ابن حزم في المحلى ٩/ ٤٣٣ : ولا يعرف أصحابه هذه الرواية. وذَكَر أن هذا هو قول زفر، ثم ذكر عن أبي حنيفة أنه قال في شهادة الأعمى: لا تقبل في شيء أصلاً. وهذا القول هو الذي ذكره الجصاص في أحكام القرآن ١/ ٤٩٨ عن أبي حنيفة ومحمد.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٧ .

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ روى إسماعيل ابن إسحاق قال: حدَّثنا محمد بن عبيد قال: حدَّثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة، أنَّ رجلاً قال: لو قُبض رسول الله ﷺ تزوَّجتُ عائشةَ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، ونزلت: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦][(١)].

وقال القُشَيْرِيُّ أبو نصرٍ عبدُ الرحيم: قال ابن عباس: قال رجلٌ من سادات قريشٍ ـ من العشرة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ على حِراء ـ في نفسه: لو تُوفِّي رسول الله ﷺ لتزوَّجتُ عائشةَ، وهي بنتُ عمِّي[(٢)]. قال مقاتلٌ: هو طلحةُ بن عبيد الله[(٣)]. قال ابن عباس: وندم هذا الرجلُ على ما حدَّث به في نفسه، فمشى إلى مكةَ على رجليه، وحَملَ على عشرة أَفْراسٍ في سبيل الله، وأَعْتَقَ رقيقاً، فكفَّر الله عنه[(٤)].

وقال ابن عطية[(٥)]: روي أنَّها نزلت بسبب أنَّ بعض الصحابة قال: لو مات رسول الله ﷺ لتزوَّجتُ عائشةَ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فتأذَّى به، هكذا كَنَى عنه ابنُ عباس ببعض الصحابة. وحكى مكِّي عن معمر أنه قال: هو طلحةُ بن عبيدُ الله.

قلت: وكذا حكى النحاس[(٦)] عن معمرٍ أنه طلحة. ولا يصحُّ؛ قال ابن عطية[(٧)]: لله دَرُّ ابنِ عباس! وهذا عندي لا يصحُّ على طلحةَ بنِ عبيد الله.

قال شيخنا الإمامُ أبو العباس[(٨)]: وقد حُكي هذا القولُ عن بعض فُضَلاءِ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٢ عن معمر به، دون قوله: ونزلت ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٧٩ مختصراً وبنحوه أخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٨٠.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢١٤ – ٢١٥ بنحوه مطولاً وعزاه للطبري، ولم نقف عليه في تفسير الطبري.

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٧٣.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦.

(٨) في المفهم ٤/ ١٤٩.

الصحابة، وحاشاهم عن مثله! وإنَّما الكذبُ[١] في نَقْلِه، وإنَّما يليقُ مثلُ هذا القولِ بالمنافقين الجُهَّال.

يُروى أنَّ رجلاً من المنافقين قال حين تزوَّج رسول الله ﷺ أمَّ سلمةَ بعد أبي سلمةَ، وحفصةَ بعد خُنيس بن حُذافة: ما بالُ محمدٍ يتزوَّج نساءنا! والله لو قد مات لأَجَلْنا[٢] السهامَ على نسائه، فنزلت الآيةُ في هذا، فحرَّم الله نكاحَ أزواجِهِ مِن بَعْدِه، وجَعَلَ لهنَّ حُكْمَ الأمَّهات[٣]. وهذا من خصائصه تمييزاً لشرفه وتنبيهاً على مرتبته ﷺ. قال الشافعيُّ رحمه الله: وأزواجهُ ﷺ اللاتي مات عنهنَّ لا يَحِلُّ لأحدٍ نكاحُهنَّ، ومَن استَحَلَّ ذلك كان كافراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

وقد قيل: إنَّما مَنع من التزوُّج بزوجاته؛ لأنَّهنَّ أزواجُه في الجنة، وأنَّ المرأة في الجنة لآخِرِ أزواجِها؛ قال حذيفةُ لامرأته: إنْ سَرَّكِ أن تكوني زوجتي في الجنة إنْ جَمَعَنا الله فيها فلا تَزوَّجي من بعدي؛ فإنَّ المرأة لآخِرِ أزواجِها[٤]. وقد ذكرنا ما للعلماء في هذا في «كتاب التذكرة» من أبواب الجنة[٥].

الرابعة عشرة: اختلف العلماء في أزواج النبيِّ ﷺ بعد موته؛ هل بَقِيْنَ أزواجاً أم زالَ النكاحُ بالموت، وإذا زال النكاحُ بالموت فهل عليهنَّ عِدةٌ أم لا؟ فقيل: عليهنَّ العِدَّةُ؛ لأنه تُوُفِّيَ عنهنَّ، والعِدَّةُ عبادةٌ. وقيل: لا عِدَّةَ عليهنَّ؛ لأنَّها مدةُ تربُّصٍ لا يُنتظَر بها الإباحة. وهو الصحيح؛ لقوله عليه الصلاةُ والسلام: «ما تركتُ بعد نفقةِ

---

(١) في (ظ): وإنما الوهم والكذب.

(٢) الإجالةُ: الإدارة، يقال في الميسر: أَجِلِ السهام، وأجال السهامَ بين القوم: حرَّكها وأفضى بها في القسمة. اللسان. (جول).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٦٩.

(٥) ص٤٨١ - ٤٨٢.

عيالي» وروي: «أهلي»[(١)]، وهذا اسمٌ خاصٌ بالزوجيَّة، فأَبْقَى عليهنَّ النفقةَ والسُّكنى مدةَ حياتِهنَّ لكونهنَّ نساءَه، وحرمنَ على غيره، وهذا هو معنى بقاءِ النكاح. وإنَّما جُعل الموتُ في حقِّه عليه الصلاة والسلام لهنَّ بمنزلةِ المغيَّبِ في حقِّ غيره؛ لكونهنَّ أزواجاً له في الآخرة قطعاً بخلافِ سائرِ الناس؛ لأنَّ الرجل لا يُعلَم كونُه مع أهله في الدار الآخرة[(٢)] في دارٍ واحدة، فربَّما كان أحدُهما في الجنة والآخَرُ في النار، فبهذا انقطع السببُ في حقِّ الخَلْقِ وبقي في حقِّ النبيِّ ﷺ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «زوجاتي في الدنيا هنَّ زوجاتي في الآخرة»[(٣)]. وقال عليه الصلاة والسلام: «كلُّ سببٍ ونَسَبٍ ينقطع إلَّا سببي ونسبي، فإنَّه باقٍ إلى يوم القيامة»[(٤)].

فرع: فأمَّا زوجاتُه عليه الصلاة والسلام اللاتي فارَقَهنَّ في حياته مثلَ الكَلْبية وغيرها؛ فهل كان يَحلُّ لغيره نكاحُهن؟ فيه خلاف. والصحيح جوازُ ذلك؛ لِمَا روي أنَّ الكلبيةَ التي فارقها رسول الله ﷺ تزوَّجها عكرمة بنُ أبي جهل على ما تقدَّم[(٥)]. وقيل: إنَّ الذي تزوَّجها الأشعثُ بن قيس الكِنْديّ. قال القاضي أبو الطيِّب: الذي تزوَّجها مُهاجِر بنُ أبي أميَّة[(٦)]، ولم ينكر ذلك أحدٌ، فدلَّ على أنه إجماع.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ يعني أَذِيَّةَ رسولِ الله ﷺ، أو نكاحَ أزواجه، فجعل ذلك من جملة الكبائر ولا ذنبَ أعظمُ منه.

السادسة عشرة: قد بيَّنَّا سببَ نزولِ الحجاب من حديث أنس وقولِ عمر، وكان

---

(١) أخرجه بالرواية الأولى ابن حبان (٦٦٠٩)، وبالثانية الشافعي في المسند ٢/ ١٩٠ . وأخرجه أحمد (٧٣٠٣)، والبخاري (٢٧٧٦)، ومسلم (١٧٦٠) بلفظ: نفقة نسائي، وسلف ص٢٠٥ من هذا الجزء. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٧ .

(٢) قوله: في الدار الآخرة، من (ظ).

(٣) سلف ص٦٦ من هذا الجزء.

(٤) سلف ٥/ ١٥٩ .

(٥) ص١٢٥ من هذا الجزء.

(٦) القرشيُّ المخزوميُّ، أخو أمِّ سلمةَ زوجِ النبيِّ ﷺ، ولَّاه النبيُّ ﷺ على صدقات صنعاء، ثم ولَّاه أبو بكر ﷺ، وقاتل أهلَ الردَّة. الإصابة ٩/ ٢٩٤ .

يقول لسَوْدَةَ إذا خرجت ـ وكانت امرأةً طويلة ـ: قد رأيناكِ يا سودةُ، حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله آيةَ الحجاب[١]. ولا بُعْدَ في نزول الآية عند هذه الأسبابِ كلِّها، والله أعلم. بَيْدَ أنه لمَّا ماتت زينب بنتُ جحش قال: لا يشهد جنازَتها إلَّا ذو مَحْرَمٍ منها؛ مُراعاةً للحجاب الذي نزل بسببها. فدلَّته أسماء بنت عُميس على سترها في النَّعْش في القُبَّة، وأَعْلَمَتْه أنَّها رأَتْ ذلك في بلاد الحبشة، فصَنعَه عمر[٢]. ورُوي أنَّ ذلك صُنع في جنازةِ فاطمةَ بنتِ النبيِّ ﷺ[٣].

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

الباريُ سبحانه وتعالى عالمٌ بما بدا وما خَفي، وما كان وما لم يكن، لا يَخْفَى عليه ماضٍ تَقَضَّى، ولا مستقبَلٌ يأتي. وهذا على العموم تمدُّحٌ به، وهو أهلُ المَدْحِ والحمد. والمرادُ به هاهنا التوبيخُ والوعيدُ لمن تقدَّم التعريضُ به في الآية قَبْلَها، ممَّن أُشيرَ إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، ومَن أُشيرَ إليه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ فقيل لهم في هذه الآيةِ: إنَّ الله تعالى يَعْلَم ما تُخفونه من هذه المعتَقدات والخواطِرِ المكروهةِ ويُجازيكم عليها[٤]. فصارت هذه الآيةُ مُنْعَطِفَةً على ما قَبْلَها مبيِّنةً لها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٨٦٦)، والبخاري (١٤٦)، ومسلم (٢١٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر ما سلف في المسألة الأولى في سبب نزول الحجاب.

(٢) بنحوه في السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٧٢، وتهذيب الأسماء للنووي. ٢/ ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٣) أخرجه ابن سعد ٨/ ٢٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٣٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

الأولى: لمَّا نزلت آيةُ الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ: ونحن أيضاً نكلِّمهنَّ من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية[(١)].

الثانية: ذكر الله تعالى في هذه الآية مَن يَحِلُّ للمرأة البُروزُ له، ولم يذكر العمَّ والخال لأنهما يَجريان مجرى الوالدين. وقد يسمَّى العمُّ أباً؛ قال الله تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وإسماعيلُ كان العمَّ[(٢)].

قال الزجَّاج: العمُّ والخال ربَّما يَصِفَان المرأةَ لولديهما، فإنَّ المرأة تَحِلُّ لابن العمِّ وابن الخال، فكُره لهما الرؤية[(٣)]؛ وقد كَرِه الشعبيُّ وعكرمةُ أن تضع المرأة خمارَها عند عمِّها أو خالها[(٤)]. وقد ذُكر في هذه الآيةِ بعضُ المحارِم وذُكر الجميعُ في سورة النور، فهذه الآيةُ بعضُ تلك، وقد مضى الكلامُ هناك مستوفًى[(٥)]، والحمد لله.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ لمَّا ذكر الله تعالى الرخصةَ في هذه الأصناف وانجزمت الإباحةُ، عَطَفَ بأمرهنَّ بالتقوى عَطْفَ جملةٍ. وهذا في غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال: اقْتَصِرْنَ على هذا واتَّقِيْنَ اللهَ فيه أنْ تتعدَّيْنَه إلى غيره. وخَصَّ النساءَ بالذِّكر وعيَّنهنَّ في هذا الأمر؛ لقلَّةِ تَحفُّظِهنَّ وكَثْرةِ استرسالهنَّ. والله أعلم. ثم توعَّد تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

هذه الآيةُ شرَّف الله بها رسولَه عليه الصلاة والسلام حياتَه وموتَه، وذَكَر منزلته منه، وطهَّر بها سوءَ فِعْلِ مَن استَصْحَبَ في جهته فكرةَ سوءٍ، أو في أمر زوجاتِه ونحوِ

(١) الوسيط ٣/ ٤٨٠، والكشاف ٣/ ٢٧٢، وذكر نحوه الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٤٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٢.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٣٦.

(٤) أخرجه عنهما الطبري ١٩/ ١٧٣، وقوله: تضع المرأةُ خِمارَها، أي: تخلعه.

(٥) ١٥/ ٢٠٨.

ذلك[١]. والصلاةُ من الله رحمتُه ورضوانه، ومن الملائكة الدعاءُ والاستغفار، ومن الأمَّة الدعاءُ والتعظيمُ لأمره.

مسألة: واختلف العلماء في الضمير في قوله: «يُصَلُّونَ» فقالت فرقةٌ: الضميرُ فيه لله والملائكة، وهذا قولٌ من الله تعالى شرَّف به ملائكته، فلا يَصْحَبُه الاعتراضُ الذي جاء في قول الخطيب: مَن يُطِع اللهَ ورسولَه فقد رَشَد، ومَن يَعْصِهما فقد غَوَى. فقال له رسول الله ﷺ: «بئسَ الخطيبُ أنتَ، قُلْ: ومَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه» أخرجه الصحيح[٢]. قالوا: لأنَّه ليس لأحدٍ أن يجمع ذِكْرَ اللهِ تعالى مع غيره في ضمير، ولله أن يفعل في ذلك ما يشاء.

وقالت فرقة: في الكلام حَذْفٌ، تقديرُه: إنَّ الله يصلِّي وملائكته يصلُّون، وليس في الآية اجتماعٌ في ضمير.

[وقالت فرقة: بل جَمَعَ الله تعالى الملائكةَ مع نَفْسِه في ضمير] وذلك جائزٌ للبشرِ فِعْلُه. ولم يَقُلْ رسول الله ﷺ: «بئس الخطيبُ أنت» لهذا المعنى، وإنَّما قاله لأنَّ الخطيب وقف على: ومَن يَعْصِهما، وسَكَت سكتة[٣]. واستدلُّوا بما رواه أبو داود عن عديّ بن حاتم: أنَّ خطيباً خَطَبَ عند النبيِّ ﷺ فقال: مَن يُطِع اللهَ ورسولَه ومَن يَعْصِهما. فقال: «قُم ـ أو اذهب ـ بئس الخطيبُ أنت»[٤]. إلَّا أنه يحتمل أن يكون لمَّا خطَّأه في وَقْفِه وقال له: «بئس الخطيبُ». أصْلَح له بعد ذلك جميعَ كلامه، فقال: «قُلْ: ومَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه» كما في كتاب مسلم. وهو يؤيِّد القولَ الأوّلَ بأنَّه لم

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٧.

(٢) صحيح مسلم (٨٧٠)، وهو عند أحمد (١٨٢٤٧)، وهو من حديث عدي بن حاتم ﷺ. والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٧ - ٣٩٨، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) سنن أبي داود (١٠٩٩) و(٤٩٨١)، وهو عند أحمد (١٩٣٨٣). وقد ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨، وأبو العباس في المفهم ٢/ ٥١٠ دليلاً آخر، وهو حديث ابن مسعود ﷺ عند أبي داود (١٠٩٧) و(٢١١٩): أن النبي ﷺ خطب فقال: «مَنْ يُطع الله ورسوله فقد رشد، ومَن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه...» فجمع ذكر الله تعالى مع رسوله في ضمير واحد.

يقف على «ومَن يَعْصِهِما».

وقرأ ابن عباس: «وملائكتُه» بالرفع على موضعِ اسمِ اللهِ قبلَ دخولِ «إنَّ». والجمهورُ بالنصب عطفاً على المكتوبة[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ **فيه خمسُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أَمَر الله تعالى عبادَه بالصلاة على نبيِّه محمدٍ ﷺ دون أنبيائه تشريفاً له، ولا خلافَ في أنَّ الصلاةَ عليه فرضٌ في العمرِ مرةً، وفي كلِّ حينٍ من الواجبات وجوبَ السُّنَنِ المؤكَّدةِ التي لا يسعُ تَرْكُها ولا يُغْفِلُها إلَّا مَن لا خيرَ فيه. الزَّمَخْشَريُّ[٢]: فإن قلتَ: الصلاةُ على رسول الله ﷺ واجبةٌ، أم مندوبٌ إليها؟ قلتُ: بل واجبةٌ. وقد اختلفوا في حال وجوبِها؛ فمنهم مَن أَوْجَبَها كلَّما جرى ذكره. وفي الحديث: «مَن ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عَليَّ فدخل النار، فأَبْعَده الله»[٣].

ويُروى أنه قيل له: يا رسول الله، أرأيتَ قولَ الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ فقال النبيُّ ﷺ: «هذا من العلم المكنون، ولولا أنَّكم سألتُموني عنه ما أخبرتُكم به، إنَّ الله تعالى وكَّل بي مَلَكين فلا أُذْكَر عند مسلم فيصلِّي عليَّ إلَّا قال ذانك المَلَكَان: غفر الله لك، وقال الله تعالى وملائكتُه جواباً لذَيْنِك المَلَكين: آمين. ولا أُذْكَر عند عبدٍ مسلمٍ فلا يصلِّي عليَّ إلَّا قال ذانك المَلَكَان: لا غَفَرَ الله لك، وقال الله تعالى وملائكتُه لذَيْنِك المَلَكَين: آمين»[٤].

ومنهم مَن قال: تجب في كلِّ مجلسٍ مرةً وإنْ تَكَرَّر ذِكْره، كما قيل[٥] في آية

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨، وقراءة الرفع في القراءات الشاذة ص١٢٠.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٣) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه ابن حبان (٩٠٧)، وفيه: ومن ذكرتَ عنده فلم يصلِّ عليك . . . .

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٧٥٣) من حديث الحسن بن علي ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٣: فيه الحكم بن عبد الله بن خطاف، وهو كذاب.

(٥) في (خ) و(د) و(م): قال، وليست في باقي النسخ، والمثبت من الكشاف.

السجدة وتشميت العاطس. وكذلك في كلِّ دعاءٍ في أوَّله وآخِره.

ومنهم مَن أَوْجَبها في العمر. وكذلك قال في إظهار الشهادتين. والذي يقتضيه الاحتياطُ: الصلاةُ عند كلِّ ذِكْرٍ، لِمَا ورد من الأخبار في ذلك.

الثانية: واختلفت الآثارُ في صفة الصلاة عليه ﷺ، فروى مالكٌ عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بنِ عُبادة، فقال له بشير بن سعد، أَمَرَنا الله أنْ نصلِّيَ عليك يا رسول الله، فكيف نصلِّي عليك؟ قال: فسَكَتَ رسول الله ﷺ حتى تمنَّينا أنه لم يَسْأَلْه، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صلَّيتَ على إبراهيم، وبارِكْ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنَّك حَميدٌ مَجيدٌ، والسلامُ كما قد عَلِمتُم»(١). ورواه النَّسائيُّ عن طلحةَ مثلَه، بإسقاطِ قوله: «في العالمين» وقولِه: «والسلامُ كما قد علمتم»(٢). وفي الباب عن كعب بن عُجْرةَ، وأبي حُميدٍ الساعديِّ، وأبي سعيد الخُدْريِّ، وعليّ بن أبي طالب، وأبي هريرة، وبُريدةَ الخزاعيِّ، وزيد بن خارجة، ويقال: ابن جارية(٣). أخرجها أئمةُ أهلِ الحديث في كتبهم(٤). وصحَّح الترمذيُّ حديثَ كعب بن عُجْرة. خرَّجه مسلم في «صحيحه» مع

---

(١) الموطأ ١/ ١٦٥ - ١٦٦ ، ومن طريق مالك أخرجه أحمد (٢٢٣٥٢)، ومسلم (٤٠٥)، ووقع في جميع هذه المصادر: «... وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين...».
قوله: «والسلام كما قد عَلِمْتُم» أي: كما علمتم في التشهد، وهو قولهم: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. وروي: عُلِّمتم، وكلاهما صحيح. شرح النووي لصحيح مسلم ٤/ ١٢٥ .

(٢) المجتبى ٣/ ٤٨ ، وهو عند أحمد (١٣٩٦). والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٧١ .

(٣) في النسخ: ابن حارثة، والمثبت من سنن الترمذي إثر الحديث (٤٨٣).

(٤) حديث كعب بن عجرة أخرجه أحمد (١٨١٠٤)، والبخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).
وحديث أبي حميد الساعدي أخرجه أحمد (٢٣٦٠٠)، والبخاري (٦٣٦٠)، ومسلم (٤٠٧).
وحديث أبي سعيد الخدري أخرجه أحمد (١١٤٣٣)، والبخاري (٦٣٥٨).
وحديث أبي هريرة أخرجه النسائي في الكبرى (٩٧٩٢). وحديث زيد بن خارجة أخرجه أحمد (١٧١٤)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٤٨ - ٤٩ . وحديث بريدة أخرجه أحمد (٢٢٩٨٨)، وفيه أبو داود الأعمى نفيع بن الحارث، وهو متروك كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وحديث علي أخرجه البيهقي في الشعب (١٥٨٨) وسيأتي.

حديث أبي حميدٍ الساعديّ(١).

قال أبو عمر(٢): روى شُعبةُ والثوريُّ عن الحكم، عن(٣) عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجرة قال: لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، هذا السلامُ عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: «قل: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما صَلَّيْتَ على إبراهيمَ، وبارك على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيم، إنَّك حميد مجيد» وهذا لفظُ حديثِ الثوريِّ لا حديثِ شعبةَ، وهو يدخل في التفسير المسْنَدِ(٤) لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ فبيَّن كيف الصلاةُ عليه، وعلَّمهم في التحيات كيف السلام عليه، وهو قوله: «السلامُ عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه».

وروى المسعوديُّ عن عون بن عبد الله، عن أبي فاختةَ، عن الأسود، عن عبد الله أنه قال: إذا صلَّيتُم على النبيِّ ﷺ فأَحْسِنُوا الصلاةَ عليه؛ فإنكم لا تدرون لعلَّ ذلك يُعْرَضُ عليه. قالوا: فعلِّمنا! قال: قولوا: اللهمَّ اجْعَلْ صلواتِك ورحمَتك وبركاتِك على سيِّد المرسَلين وإمامِ المتَّقين وخاتَم النبيين محمدٍ عبدك ونبيِّك ورسولِك إمامِ الخيرِ وقائدِ الخير ورسولِ الرحمة. اللهمَّ ابعثه مَقاماً محموداً يَغْبِطُه به الأوَّلون والآخِرون. اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ مجيد. اللهمَّ بَارِكْ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد(٥).

---

(١) صحيح مسلم (٤٠٦)، (٤٠٧)، وحديث كعب بن عجرة عند الترمذي (٤٨٣) وقد سلف تخريجهما في التعليق السابق.

(٢) في التمهيد ١٦/ ١٨٥ .

(٣) في النسخ: ابن، وهو تصحيف.

(٤) بعدها في (د) و(م): إليه.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٩٠٦).

وروينا بالإسناد المتَّصِل في كتاب «الشفا» للقاضي عياض عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: عَدَّهُنَّ في يَدِي رسولُ الله ﷺ وقال: «عَدَّهُنَّ في يدي جبريلُ وقال: هكذا أُنزلتْ مِن عندِ ربِّ العزَّةِ: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنكَ حميدٌ مجيد. اللهمَّ بارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهمَّ وتَرَحَّمْ على محمدٍ وعلى آل محمد كما ترحَّمتُ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم وتحنَّنْ على محمد وعلى آل محمد كما تحنَّنتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»(١).

قال ابن العربيّ(٢): من هذه الروايات صحيحٌ ومنها سقيم، وأصحُّها ما رواه مالكٌ فاعْتَمِدوه. وروايةُ غيرِ مالكٍ من زيادةِ الرحمةِ مع الصلاةِ وغيرِها لا يَقْوَى. وإنَّما على الناس أن ينظروا في أديانهم نَظَرَهم في أموالهم، وهم لا يأخذون في البيع ديناراً مَعيباً، وإنَّما يختارون السالمَ الطيِّب، كذلك لا يؤخذ من الروايات عن النبيِّ ﷺ إلَّا ما صحَّ سندُه، لئلَّا يدخل في حيِّز الكذبِ على رسول الله ﷺ، فبينما هو يَطْلبُ الفضلَ إذا به قد أصاب النَّقْصَ، بل ربَّما أصابَ الخسرانَ المبين.

الثالثة: في فضلِ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ، ثَبتَ عنه ﷺ أنَّه قال: «مَن صلَّى عليَّ صلاةً؛ صلَّى اللهُ عليه بها عَشْراً»(٣).وقال سهلُ بن عبد الله: الصلاةُ على محمدٍ ﷺ أفضلُ العبادات؛ لأنَّ الله تعالى تَوَلَّاها هو وملائكتُهُ، ثم أمر بها المؤمنين، وسائرُ العبادات ليس كذلك.

قال أبو سليمان الدَّارانيُّ: مَن أراد أن يَسْأَل اللهَ حاجةً؛ فَلْيَبدأ بالصلاة على

---

(١) الشفا ٢/ ١٦١ - ١٦٢ ، وأخرجه البيهقي في الشعب (١٥٨٨) وقال: وهو إسناد ضعيف.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٧٢ .

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٥٤)، ومسلم (٤٠٨) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٦٥٦٨)، ومسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

النبيِّ ﷺ، ثم يَسأل اللهَ حاجتَه، ثم يختم بالصلاة على النبيِّ ﷺ، فإنَّ الله تعالى يقبل الصلاتين، وهو أكرمُ مِن أنْ يَردَّ ما بينَهما.

وروى سعيد بن المسيِّب عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: الدعاءُ يُحجَب دون السماء حتى يصلَّى على النبيِّ ﷺ، فإذا جاءت الصلاةُ على النبيِّ ﷺ رُفع الدعاء[١].

وقال النبيُّ ﷺ: «مَن صلَّى عليَّ في كتابٍ لم تَزَل الملائكةُ يصلُّون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب»[٢].

الرابعة: واختلف العلماء في الصلاة على النبيِّ ﷺ في الصلاة؛ فالذي عليه الجمُّ الغفير والجمهورُ الكثير: أنَّ ذلك من سُنن الصلاة ومُستَحبَّاتها. قال ابن المنذر: يُستَحَبُّ ألَّا يصلِّي أحدٌ صلاةً إلَّا صلَّى فيها على رسول الله ﷺ، فإنْ تَركَ ذلك تارِكٌ فصلاتُه مُجزيةٌ في مذهب مالكٍ وأهلِ المدينة وسفيان الثوريِّ وأهلِ الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم. وهو قولُ جُملِ[٣] أهلِ العلم. وحُكي عن مالكٍ وسفيانَ أنَّها في التشهُّدِ الأخير مستحَبَّةٌ، وأنَّ تارِكَها في التشهُّد مُسيء. وشذَّ الشافعيُّ فأَوْجَبَ على تارِكها في الصلاة الإعادةَ. وأوجبَ إسحاقُ الإعادةَ مع تعمُّدِ تَرْكِها دون النسيان[٤].

وقال أبو عمر[٥]: قال الشافعيُّ: إذا لم يصلِّ على النبيِّ ﷺ في التشهُّد الأخيرِ بعد التشهُّد وقبلَ التسليم أعاد الصلاة. قال: وإن صلَّى عليه قبل ذلك لم تَجْزِه. وهذا قولٌ حكاه عنه حَرْملةُ بن يحيى، لا يكاد يُوجَدُ هكذا عن الشافعيِّ إلَّا من روايةِ حَرْملةَ

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٤٨٦). قال ابن العربي في عارضة الأحوذي ٢/ ٢٧٣ : مثل هذا إذ قاله عمر لا يكون إلا توقيفاً؛ لأنه لا يُدْرَك بنظر.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٣٧ : فيه بشر بن عبد الله الدارسي، كذَّبه الأزدي وغيره. وقال المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ١٤٤: وروي من كلام جعفر بن محمد موقوفاً عليه، وهو أشبه.

(٣) في (م): جل، والمثبت من النسخ الخطية وهو موافق لما في الشفا ٢/ ١٤٣ ، والكلام منه.

(٤) الشفا ٢/ ١٤٢ - ١٤٣

(٥) في التمهيد ١٦/ ١٩١ .

عنه، وهو من كبارِ أصحابِه الذين كتبوا كُتُبَه. وقد تقلَّده أصحابُ الشافعيِّ ومالوا إليه وناظَروا عليه، وهو عندهم تحصيلُ مَذْهَبِه.

وزعم الطَّحَاويُّ(١) أنه لم يَقُلْ به أحدٌ من أهلِ العلمِ غيرُه. وقال الخطَّابيُّ(٢) وهو من أصحاب الشافعيِّ: وليست بواجبةٍ في الصلاة، وهو قولُ جماعةِ الفقهاء إلَّا الشافعيَّ، ولا أَعلمُ له فيها قدوةً.

والدليلُ على أنَّها ليست من فروضِ الصلاةِ عَمَلُ السَّلَفِ الصَّالح قبلَ الشافعيِّ وإجماعُهم عليه، وقد شُنِّع عليه في هذه المسألة جدًّا. وهذا تَشَهُّدُ ابنِ مسعودٍ الذي اختاره الشافعيُّ ـ وهو الذي علَّمه [له] النبيُّ ﷺ ـ ليس فيه الصلاةُ على النبيِّ ﷺ، وكذلك كلُّ مَنْ رَوَى التشهُّد عنه ﷺ(٣).

وقال ابن عمر: كان أبو بكر يعلِّمنا التشهُّدَ على المنبر كما تعلِّمون الصبيان في الكتاب. وعلَّمه أيضاً على المنبر عمرُ، وليس فيه ذِكْرُ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ(٤).

قلت: قد قال بوجوب الصلاةِ على النبيِّ ﷺ في الصلاة محمد بنُ الموَّاز من أصحابنا فيما ذَكَر ابنُ القَصَّار وعبدُ الوهَّاب(٥)، واختاره ابن العربيِّ للحديث الصحيح: إنَّ الله أمرنا أن نصلِّيَ عليك، فكيف نصلِّي عليك؟ فعلَّم الصلاةَ ووَقْتَها فتعيَّنَتْ كيفيةً ووقتاً(٦).

---

(١) قوله في مختصر اختلاف العلماء للجصاص ١/ ٢١٩ .

(٢) في معالم السنن ١/ ٢٢٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة القاضي عياض في الشفا ٢/ ١٤٥ .

(٣) الشفا ٢/ ١٤٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وتشهُّد ابن مسعود الذي علمه له النبي ﷺ: «التحيات لله، والصلوات، والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ـ فإذا قالها أصابت كلَّ عبدٍ لِلهِ صالح في السماء والأرض ـ أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله...» أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

(٤) الشفا ٢/ ١٤٦ ، وخبرا عمر وابن عمر رضي الله عنهما أخرجهما الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٢٦١ و٢٦٤ .

(٥) الشفا ٢/ ١٤٤ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٧٢ ، والحديث سلف في المسألة الثانية عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

وذكر الدَّارَقُطْنيُّ عن أبي جعفر محمد بن عليٍّ بن الحسين أنه قال: لو صلَّيتُ صلاةً لم أصلِّ فيها على النبيِّ ﷺ ولا على أهلِ بيته لرأيتُ أنَّها لا تَتِم. وروي مرفوعاً عنه عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ. والصوابُ أنه قولُ أبي جعفر؛ قاله الدَّارَقُطْنيّ(١).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا﴾ قال القاضي أبو بكر بنُ بُكَيْر: نزلت هذه الآيةُ على النبيِّ ﷺ، فأمر الله أصحابه أن يسلِّموا عليه. وكذلك مَن بعدَهم أُمِروا أن يسلِّموا عليه عند حضورهم قبرَه وعند ذكره(٢). وروى النسائيُّ(٣) عن عبد الله بن أبي طلحةَ، عن أبيه: أنَّ رسول الله ﷺ جاء ذاتَ يومٍ والبشرى(٤) في وجهه، فقلت: إنَّا لنَرى البُشْرى في وجهك! فقال: «إنه أتاني المَلَكُ فقال: يا محمدُ، إنَّ ربَّك يقول: أَمَا يُرضيك أنه لا يصلِّي عليك أحدٌ إلَّا صلَّيتُ عليه عشراً، ولا يسلِّم عليك أحدٌ إلَّا سلَّمتُ عليه عشراً».

وعن محمد بن عبد الرحمن: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما منكم مِن أحدٍ يُسلِّم عليَّ إذا متُّ إلَّا جاءني سلامُه مع جبريل؛ يقول: يا محمد، هذا فلان بنُ فلان يقرأ عليك السلامَ، فأقول: وعليه السلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه»(٥).

وروى النسائيُّ(٦) عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله ملائكةً سيَّاحين

---

(١) كذا ذكر القاضي عياض في الشفا ٢/ ١٤٧ عن الدارقطني، ونقله عنه المصنف رحمه الله، وفي هذا الكلام وهمان: الأول: في قوله: ابن مسعود، والصواب: أبو مسعود الأنصاري، كما أخرجه عنه الدارقطني في السنن (١٣٤٣) مرفوعاً. والوهم الثاني: في قوله: الصواب أنه من قول أبي جعفر، والذي ذكره الدارقطني في العلل ٦/ ١٩٨ أن الصواب أنه من قول أبي مسعود، وكذا أخرجه عنه موقوفاً في السنن (١٣٤٤) (١٣٤٥). والموقوف والمرفوع كلاهما مداره على جابر الجعفي، وهو ضعيف كما ذكر الدارقطني إثر الحديث (١٣٤٣).

(٢) الشفا ٢/ ١٣٨ .

(٣) في المجتبى ٣/ ٤٤ و٥٠ ، وهو عند أحمد (١٦٣٦١).

(٤) في (م): والبشر يرى، وهي رواية.

(٥) لم نقف عليه، ويغني عنه الحديث الصحيح بعده.

(٦) في المجتبى ٣/ ٤٣ ، وهو عند أحمد (٣٦٦٦).

في الأرض يبلِّغوني من أمَّتي السلام». قال القُشيريُّ: والتسليم قولُك: سلامٌ عليك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: اختلف العلماء في إذايةِ اللهِ بماذا تكون؟ فقال الجمهور من العلماء: معناه بالكفر ونِسْبةِ الصاحبةِ والولدِ والشريك إليه، ووصفِه بما لا يليق به(١)، كقول اليهودِ لعنهم الله: يدُ الله مغلولةٌ. والنصارى: المسيحُ ابنُ الله. والمشركون: الملائكةُ بناتُ الله والأصنامُ شركاؤه.

وفي «صحيح» البخاريِّ قال الله تعالى: «كذَّبني ابنُ آدمَ ولم يكن له ذلك، وشَتَمني ولم يكن له ذلك..» الحديث. وقد تقدَّم في سورة مريم(٢).

وفي «صحيح» مسلم(٣) عن أبي هريرةَ قال: قال الله تبارك وتعالى: «يؤذيني ابنُ آدمَ يقول: يا خيبةَ الدهرِ، فلا يقولنَّ أحدكم: يا خيبةَ الدهر، فإنِّي أنا الدهرُ؛ أقلِّبُ ليلَه ونهارَه، فإذا شئتُ قَبَضْتُهما». هكذا جاء هذا الحديثُ موقوفاً على أبي هريرةَ في هذه الرواية(٤). وقد جاء مرفوعاً عنه: «يُؤذيني ابنُ آدمَ يَسُبُّ الدَّهْر، وأنا الدَّهْرُ؛

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨.

(٢) صحيح البخاري (٤٤٨٢)، وتقدم ١٣/ ٥٢٥.

(٣) برقم (٢٢٤٦): (٣).

(٤) المفهم ٥/ ٥٤٧، وكذا ذكر المزي في التحفة ١٠/ ٥٥ أنه موقوف من رواية عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة. وقد جاء في النسخ التي بين أيدينا مرفوعاً من رواية عبد الرزاق وغيره. ولم يشر القاضي عياض في إكمال المعلم، ولا النووي في شرح صحيح مسلم إلى وقف رواية عبد الرزاق هذه، ولعل ذلك راجع إلى اختلاف النسخ. قال أبو العباس: غير أنه ممَّا يُعلم أنه من قول رسول الله ﷺ قطعاً؛ لأن مضمونه حكاية عن الله تعالى، ولا يعرفها أبو هريرة إلا من جهة رسول الله ﷺ وقد رُوي معناه مسنداً مرفوعاً من طريق آخر. اهـ. وأخرجه أحمد (٧٥١٨) والبخاري (٦١٨٢) بنحوه عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً. قوله: «يؤذيني ابن آدم» أي: يخاطبني من القول بما يتأذَّى به مَن يصح في حقه التأذِّي. وقوله: «فإني أنا الدهر» أي: أنا الذي أفعل ما ينسبونه للدهر. ينظر المفهم ٥/ ٥٤٧ - ٥٤٩.

أقلِّبُ الليلَ والنهار» أخرجه أيضاً مسلم(١).

وقال عكرمة: معناه: بالتصوير والتعرُّضِ لفعلِ ما لا يفعلُه إلَّا اللهُ بنحتِ الصورِ وغيرِها(٢)، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَعنَ الله المصوِّرين»(٣).

قلتُ: وهذا ممَّا يقوِّي قولَ مجاهدٍ في المنع من تصوير الشجر وغيرها؛ إذ كلُّ ذلك صفةُ اختراعٍ وتشبُّهٍ بفعلِ اللهِ الذي انفرد به سبحانه وتعالى. وقد تقدَّم هذا في سورة النمل(٤) والحمد لله.

وقالت فرقةٌ: ذلك على حذفِ مضافٍ، تقديره: يؤذون أولياءَ الله. وأمَّا إذايةُ رسولِه ﷺ فهي كلُّ ما يؤذيه من الأقوال في غير معنًى واحد، ومن الأفعال أيضاً(٥)؛ أمَّا قولُهم: فساحر، شاعر، كاهن، مجنون. وأمَّا فِعْلُهم: فكَسْرُ رَبَاعِيته وشجُّ وجهه يومَ أُحُد، وبمكةَ إلقاءُ السَّلَى على ظهره وهو ساجد(٦)، إلى غير ذلك.

وقال ابن عباس: نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتَّخذ صفيةَ بنتَ حُيَيّ(٧).

وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأنَّ إيذاءَ الله ورسوله لا يكون إلَّا بغير حقٍّ أبداً. وأمَّا إيذاءُ المؤمنين والمؤمنات فمنه، ومنه(٨).

الثانية: قال علماؤنا: والطعنُ في تأمير أسامةَ بنِ زيد أذيَّةٌ له عليه الصلاة والسلام(٩). روى الصحيح عن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ بَعْثاً، وأمَّر عليهم

(١) في صحيحه (٢٢٤٦): (٢)، وهو عند أحمد (٧٢٤٥)، والبخاري (٤٨٢٦).
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ٨/ ٤٨٥، والطبري ١٩/ ١٧٨.
(٣) قطعة من حديث أبي جحيفة ﷺ أخرجه البخاري (٥٣٤٧).
(٤) عند تفسير الآية (٦٠) منها.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨.
(٦) حديث إلقاء السَّلَى على ظهره ﷺ أخرجه مطولاً أحمد (٣٧٢٢)، والبخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤) عن ابن مسعود ﷺ.
(٧) أخرجه الطبري ١٩/ ١٧٩.
(٨) الكشاف ٣/ ٢٧٣.
(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨.

أسامةَ بن زيد، فطعن الناس في إمْرَته[١]، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إنْ تَطْعُنوا في إمْرَتِه فقد كُنْتُم تطعُنون في إمرةِ أبيه من قبلُ، وَايْمُ اللهِ إنْ كان لَخليقاً للإمارة، وإنْ كان لَمِن أحبِّ الناسِ إليَّ، وإنَّ هذا لَمِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ بَعْدَه»[٢]. وهذا البعثُ ـ والله أعلم ـ هو الذي جهَّزه رسول الله ﷺ مع أسامةَ وأمَّره عليهم، وأمَره أن يَغْزُو «أُبْنَى»، وهي القرية التي عند مُؤْتَة، الموضع الذي قُتل فيه زيدٌ أبوه مع جعفر بن أبي طالب وعبد الله بنِ رَوَاحة. فأمره أن يأخذ بثأر أبيه، فطَعَن مَن في قلبه رَيْبٌ في إمْرَته، من حيث إنَّه كان من الموالي، ومن حيث إنَّه كان صغيرَ السنِّ؛ لأنه كان إذ ذاك ابنَ ثمانِ عَشْرةَ سنةً، فمات النبيُّ ﷺ وقد برز هذا البعثُ عن المدينة ولم ينفصِلْ بعدُ عنها، فنفَّذه أبو بكر بعد رسول الله ﷺ[٣].

الثالثة: في هذا الحديثِ أَوْضحُ دليلٍ على جواز إمامةِ المَوْلَى والمَفْضولِ على غيرهما ما عدا الإمامةَ الكبرى. وقد قدَّم رسول الله ﷺ سالماً مولى أبي حُذيفةَ على الصلاة بقُبَاء، فكان يؤمُّهم وفيهم أبو بكر وعمرُ وغيرُهم من كبراء قريش[٤]. وروى الصحيحُ عن عامر بن واثِلةَ: أنَّ نافع بنَ عبد الحارث لقي عمر بعُسْفان، وكان عمر يستعملُه على مكة، فقال: مَن استعملتَ على هذا الوادي؟ قال: ابن أَبْزى. قال: ومَن ابنُ أَبْزَى؟ قال: مَوْلًى من مَوالينا. قال: فاستَخْلفتَ عليهم مَوْلًى! قال: إنه لقارئٌ لكتاب الله، وإنه لعالمٌ بالفرائض. قال: أمَا إنَّ نبيَّكم قد قال: «إنَّ الله يرفعُ بهذا الكتابِ أقواماً ويَضَعُ به آخرين»[٥].

الرابعة: كان أسامةُ ﷺ الحِبَّ ابنَ الحِبِّ، وبذلك كان يُدْعَى، وكان أسودَ شديد

---

(١) في (ظ): إمارته. وهو موافق لرواية البخاري للحديث على ما يأتي.

(٢) صحيح البخاري (٦٦٢٧)، وصحيح مسلم (٢٤٢٦)، وهو عند أحمد (٥٨٨٨).

(٣) المفهم ٦/٣٠٨ .

(٤) سلف ٢/ ٤١ .

(٥) صحيح مسلم (٨١٧)، وهو عند أحمد (٢٣٢). وابن أبزى هو عبد الرحمن بن أبزى الخزاعيُّ مولاهم، وله صحبة. الإصابة ٦/٢٥٨ .

السواد، وكان زيدٌ أبوه أبيضَ من القُطْن. هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح(١). وقال غير أحمد: كان زيدٌ أَزْهَرَ اللون وكان أسامةُ شديدَ الأُدْمَة(٢). ويروى أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُحسِّن أسامةَ وهو صغيرٌ ويمسحُ مُخاطَه، وينقِّي أَنْفَه ويقول: «لو كان أسامةُ جاريةً لزيَّنَّاه وجَهَّزْناه وحبَّبناه إلى الأزواج»(٣).

وقد ذُكر أنَّ سبب ارتدادِ العرب بعد النبيِّ ﷺ: أنه لمّا كان عليه الصلاة والسلامُ في حجَّة الوداع بجبل عرفةَ عَشِيَّةَ عرفةَ عند النَّفْر، احتَبسَ النبيُّ ﷺ قليلاً بسبب أسامةَ إلى أن أتاه، فقالوا: ما احتَبس إلَّا لأَجْلِ هذا! تحقيراً له. فكان قولُهم هذا سببَ ارتدادِهم. ذكره البخاريُّ في التاريخ بمعناه(٤). والله أعلم.

الخامسة: كان عمرُ ﷺ يفرضُ لأسامةَ في العطاء خمسةَ آلافٍ، ولابنه عبدِ الله أَلْفَين؛ فقال له عبد الله: فضَّلتَ عليَّ أسامةَ وقد شَهِدْتُ ما لم يَشْهَدْ! فقال: إنَّ أسامةَ كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منكَ، وأباه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك، ففضَّلَ ﷺ محبوبَ رسولِ الله ﷺ على محبوبه. وهكذا يجب أن يُحَبَّ ما أَحَبَّ رسولُ الله ﷺ ويُبْغَض ما(٥) أَبْغَض.

وقد قابَلَ مَرْوان هذا الحبَّ بنقيضه، وذلك أنه مرَّ بأسامةَ بنِ زيدٍ وهو يصلِّي عند بابِ بيتِ النبيِّ ﷺ فقال له مَرْوان: إنَّما أردتَ أنْ يُرى مَكانُك، فقد رأينا مكانك، فَعَلَ

---

(١) سنن أبي داود، إثر الحديث (٢٢٦٨).

(٢) إكمال المعلم ٤/ ٦٥٦، والمفهم ٤/ ١٩٩. وقال نحوه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني: إثر الحديث (٢٥٥).

(٣) أخرجه بنحوه ابن سعد ٤/ ٦٢، أحمد (٢٥٠٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها. وذكره السهيلي في الروض الأنف ٤/ ٢٤٨.

(٤) التاريخ الكبير ٢/ ٢٠ عن عروة بن الزبير، وأخرجه أيضاً ابن سعد ٤/ ٦٣.

(٥) في النسخ عدا (ظ): من، والمثبت من (ظ) والمفهم ٦/ ٣٠٩، والكلام منه. وخبر عمر ﷺ ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ١٤٥، وأخرجه بنحوه الترمذي (٣٨١٣) من حديث عمر ﷺ، وقال: حسن غريب. وأخرجه بنحوه أيضاً أبو يعلى (١٦٢)، وابن حبان (٧٠٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الله بك وفعَل! قولاً قبيحاً. فقال له أسامةُ: إنَّكَ آذَيْتَنِي، وإنَّك فاحِشٌ مُتفحِّشٌ، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى يُبغِضُ الفاحشَ المتفحِّشَ». فانظُرْ ما بين الفعلين، وقِسْ ما بين الرجلين، فقد آذى بنو أمية النبيَّ ﷺ في أحبابه، وناقَضوه في مَحابِّه[(١)].

قوله تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ معناه: أُبعِدوا من كلِّ خيرٍ. واللَّعنُ في اللغة: الإبعادُ، ومنه اللِّعان. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ تقدَّم معناه في غيرِ موضعٍ. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

إذايةُ المؤمنين والمؤمناتِ هي أيضاً بالأفعال والأقوالِ القبيحة، كالبهتان والتكذيب الفاحشِ المختلَق. وهذه الآيةُ نظيرُ الآيةِ التي في النساء: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الآية: ١١٢] كما قال هنا. وقد قيل: إنَّ من الإذاية تعييرُه بحَسَبٍ مذموم، أو حِرْفةٍ مذمومة، أو شيء يَثْقُلُ عليه إذا سَمِعَه؛ لأنَّ أذاهُ في الجملة حرامٌ. وقد ميَّز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسولِ وأذى المؤمنين، فجعل الأوّلَ كفراً والثاني كبيرةً، فقال في أذى المؤمنين: ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وقد بيَّنّاه.

ورويَ أنَّ عمر بن الخطاب قال لأُبيِّ بن كعب: قرأتُ البارحةَ هذه الآيةَ ففزِعْتُ منها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ الآية، واللهِ إنِّي لأَضْربُهم وأَنْهَرهُمْ. فقال له أُبيٌّ: يا أميرَ المؤمنين، لستَ منهم، إنَّما أنت معلِّمٌ ومقوِّم[(٢)].

---

(١) المفهم ٦/٣٠٩ - ٣١٠ ، وخبر مروان (وهو ابن الحكم) مع أسامة ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ١/١٤٧ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢١٧٦٤)، وابن حبان (٥٦٩٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٤٠٥)، والضياء في المختارة (١٣١٦) و(١٣١٧). وليس الأمر على إطلاقه في بني أمية، ففيهم الصحابة الكبار، والأئمة الثقات والخلفاء العدول.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣٩٨ ، وينظر الدر المنثور ٥/ ٢٢٠ .

وقد قيل: إنَّ سببَ نزولِ هذه الآيةِ أنَّ عمر رأى جاريةً من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زينتها، فخرج أهلُها فآذَوْا عمرَ باللسان، فأنزل الله هذه الآية[١].

وقيل: نزلت في عليٍّ، فإنَّ المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه ﷺ[٢].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ قد مضى الكلامُ في تفصيلِ أزواجِه واحدةً واحدة[٣]. قال قتادةُ: مات رسول الله ﷺ عن تِسْعٍ. خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأمّ حبيبةَ، وَسَوْدة، وأمّ سلمةَ. وثلاث من سائر العرب: ميمونة، وزينب بنت جحشٍ، وجُوَيْرِيَّة. وواحدة من بني هارون: صفية[٤].

وأمَّا أولادُه؛ فكان للنبيِّ ﷺ أولادٌ ذكورٌ وإناث.

فالذكورُ من أولاده: القاسم، أمُّه خديجةُ، وبه كان يُكْنَى ﷺ، وهو أولُ مَن مات من أولاده، وعاش سنتين. وقال عروةُ: وَلَدَتْ خديجةُ للنبيِّ ﷺ القاسمَ والطاهِرَ وعبدَ الله والطيِّب[٥]. وقال أبو بكر البرقيُّ: ويقال: إنَّ الطاهِرَ هو الطيِّبُ، وهو عبد الله[٦].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٨٢ عن ابن عباس.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٣٨٢ عن مقاتل.

(٣) ص١١٩ من هذا الجزء وما بعدها.

(٤) تلقيح الفهوم لابن الجوزي ص٣٠ ، وأخرجه بنحوه مطولاً البيهقي في الدلائل ٧/ ٢٨٩ .

(٥) تلقيح الفهوم ص٣١ ، وصفة الصفوة ١/ ١٤٧ - ١٤٨ ، وفيهما: المطيّب، بدل: الطيب. وفيهما أيضاً: ويقال: إن الطيب والمطيب ولدا في بطن.

(٦) وهذا هو الصحيح، كما قال ابن القيم في زاد المعاد ١/ ١٠٠ ، وكذا سيرد آخر هذه المسألة. وينظر جمهرة الأنساب للكلبي ص٣٠ ، وإمتاع الأسماع ٥/ ٣٣٤ . والكلام من تلقيح الفهوم ص٣١ .

وإبراهيم أمُّه ماريةُ القبطيَّةُ، وُلد في ذي الحجة سنةَ ثمانٍ من الهجرة، وتُوفِّيَ ابنَ ستَّةَ عَشَر شهراً وقيل: ثمانية عشر؛ ذكره الدارقطني. ودُفِنَ بالبقيع[(١)]. وقال ﷺ: «إنَّ له مُرْضِعاً تُتِمُّ رضاعَه في الجنة». وجميعُ أولادِ النبيِّ ﷺ من خديجةَ سوى إبراهيم. وكلُّ أولادِه ماتوا في حياته غيرَ فاطمة[(٢)].

وأمَّا الإناثُ من أولاده؛ فِمنهنَّ: فاطمةُ الزهراء بنتُ خديجةَ، وَلَدَتْها وقريشٌ تبني البيتَ قبلَ النبوَّةِ بخمسِ سنينَ، وهي أصغرُ بناتِه، وتَزوَّجها عليٌّ رضي الله عنهما في السنة الثانية من الهجرة في رمضان، وبنَى بها في ذي الحجة. وقيل: تزوَّجها في رجب، وتُوفِّيت بعد رسول الله ﷺ بيسيرٍ[(٣)]، وهي أوّلُ مَن لَحِقَه من أهل بيته رضي الله عنها.

ومنهنَّ: زينب؛ أمُّها خديجة، تزوَّجها ابنُ خالتِها أبو العاصي بنُ الربيع، وكانت أمُّ [أبي] العاصي هالة بنت خُوَيْلد أختَ خديجة[(٤)]. واسمُ أبي العاصي لَقيط. وقيل: هاشم. وقيل: هُشيم. وقيل: مِهْشَم[(٥)]. وكانت أكبرَ بناتِ رسولِ الله ﷺ، وتوفِّيتْ سنةَ ثمانٍ من الهجرة، ونزل رسول الله ﷺ في قبرها[(٦)].

ومنهنّ: رُقَيَّة؛ أمُّها خديجة، تزوَّجها عُتبة بن أبي لَهَب قبل النبوَّة، فلمَّا بُعث رسول الله ﷺ وأُنزل عليه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ قال أبو لهبٍ لابنه: رأسي مِن رأسِكَ حرامٌ إنْ لم تطلِّق ابنتَه، ففارَقَها ولم يكن بَنَى بها. وأَسْلَمَتْ حين أَسْلَمَتْ أمُّها

(١) تلقيح الفهوم ص٣١ ، دون قوله: ذكره الدارقطني، ولم نقف عليه عند الدارقطني، وأخرجه ابن سعد ٣/ ٧ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) تلقيح الفهوم ص ٣١ ، وحديث: «إن له مرضعاً...» أخرجه أحمد (١٨٥٠٠)، والبخاري (١٣٨٢).

(٣) تلقيح الفهوم ص ٣١ - ٣٢ .

(٤) تلقيح الفهوم ص ٣٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) في النسخ عدا (ظ): مقسم، والمثبت من (ظ)، والاستيعاب ١٢/ ٢٤ ، والإصابة ١١/ ٢٣١ ، قال ابن عبد البر: والأكثر لقيط.

(٦) تلقيح الفهوم ص ٣٢ - ٣٣ .

خديجة، وبايعتْ رسول الله ﷺ هي وأخواتُها حين بايعه النساء، وتزوَّجها عثمان بن عفان[١]، وكانت نساء قريش يَقُلْنَ حين تزوَّجها عثمان:

أحسنُ شخصين رأى إنسانُ رقيَّةٌ وبعلُها عثمانُ[٢]

وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين، وكانت قد أَسْقَطتْ من عثمان سقطاً، ثم وَلَدتْ بعد ذلك عبد الله، وكان عثمان يُكْنَى به في الإسلام، وبلغ ستَّ سنين، فنقره ديكٌ في وجهه فمات، ولم تلد له شيئاً بعد ذلك. وهاجرت إلى المدينة، ومَرِضَتْ ورسولُ الله ﷺ يتجهَّزُ إلى بدرٍ، فخلَّف عثمانَ عليها، فتوفِّيت ورسول الله ﷺ ببدر، على رأس سبعةَ عَشَرَ شهراً من الهجرة. وقَدِمَ زيد بن حارثة بشيراً من بدر، فدخل المدينة حين سوِّي التراب على رُقَيَّة. ولم يشهد دَفْنَها رسولُ الله ﷺ.

ومنهنَّ: أمُّ كلثوم؛ أمُّها خديجة، تزوَّجها عُتيبةُ بن أبي لهب - أخو عتبةَ - قبل النبوَّة، وأمره أبوه أن يفارِقَها للسبب المذكور في أمر رقية، [ففارَقها] ولم يكن دخل بها، فلم تزل بمكة مع رسول الله ﷺ، وأسلمت حين أسلمت أمُّها، وبايعتْ رسولَ الله ﷺ مع أخواتها حين بايعه النساء، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله ﷺ. فلمَّا توفِّيتْ رقيةُ تزوَّجها عثمان، وبذلك سمِّي ذا النُّورَيْن. وتوفِّيت في حياة النبيِّ ﷺ في شعبان سنةَ تسعٍ من الهجرة. وجلس رسول الله ﷺ على قبرها، ونزل في حفرتها عليٌّ والفضلُ وأسامةُ.

وذكر الزبير بن بكَّار أنَّ أكبر ولدِ النبيِّ ﷺ: القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، وكان يقال له: الطيِّب، والطَّاهر، ووُلد بعد النبوّة ومات صغيراً. ثم أمُّ كلثوم، ثم فاطمةُ، ثم رقيةُ. فمات القاسم بمكةَ، ثم مات عبد الله[٣].

الثانية: لمَّا كانت عادةُ العربيَّات التبذُّلَ، وكنَّ يَكْشِفْنَ وجوهَهنَّ كما يفعل

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٣٦ . وتلقيح الفهوم ص ٣٣ ، والكلام منه.

(٢) ذكره السهيلي في الروض الأنف ٢/ ٧٩ .

(٣) تلقيح الفهوم ص ٣٣ - ٣٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وينظر طبقات ابن سعد ٣/ ٧ و٨/ ٣٧ .

الإماء، وكان ذلك داعيةً إلى نظر الرجال إليهنَّ، وتَشعُّبِ الفكرة فِيهنَّ، أمر الله رسوله ﷺ أن يأمرهنَّ بإرخاء الجلابيب عليهنَّ إذا أردْنَ الخروجَ إلى حَوائِجهنَّ - وكنَّ يتبرَّزْنَ في الصحراء قبل أنْ تُتَّخذ الكُنُف - فيقع الفرقُ بينهنَّ وبين الإماء، فتُعرف الحرائر بسترهنَّ، فيكُفُّ عن معارضتهنَّ مَن كان عَزْباً أو شابًّا[١]. وكانت المرأةُ من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تتبرَّز للحاجة، فيتعرَّضُ لها بعض الفُجَّار يظنُّ أنها أمة، فتصيحُ به فيذهب، فشَكَوْا ذلك إلى النبيِّ ﷺ. ونزلت الآيةُ بسبب ذلك. قال معناه الحسن وغيره[٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ الجلابيبُ جمعُ جِلْباب، وهو ثوبٌ أكبرُ من الخِمار. وروي عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء[٣]. وقد قيل: إنه القِناع. والصحيحُ أنه الثوبُ الذي يستر جميعَ البدن. وفي «صحيح» مسلم عن أمّ عطيَّةَ: قلتُ: يا رسولَ الله، إحدانا لا يكون لها جِلْبابٌ؟ قال: «لِتُلْبِسْها أختُها من جِلْبابها»[٤].

الرابعة: واختلف الناس في صورة إرخائه؛ فقال ابن عباس وعَبيدةُ السَّلْمانيُّ: ذلك أن تَلْوِيه المرأةُ حتى لا يظهر منها إلَّا عينٌ واحدةٌ تُبصِرُ بها. وقال ابن عباس أيضاً وقتادةُ: ذلك أن تَلْوِيَه فوقَ الجبين وتَشُدَّه، ثم تَعْطِفه على الأنف وإن ظهرت عيناها، لكنه يَسْتُر الصدرَ ومُعْظَمَ الوجه[٥]. وقال الحسن: تغطِّي نصفَ وَجْهِهَا[٦].

الخامسة: أمر الله سبحانه جميعَ النساء بالسَّتْر، وأنَّ ذلك لا يكون إلَّا بما لا

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٩ ، ووقع في مطبوعه: غزلاً، بدل: عزباً.

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ١٧٦ ، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ١٢٣ ، وتفسير الطبري ١٩/ ١٨٢ - ١٨٣ ، وأسباب النزول للواحدي ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٩٩ .

(٤) صحيح مسلم (٨٩٠)، وأخرجه مطولاً أحمد (٢٠٧٨٩)، والبخاري (١٦٥٢).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٩ ، والأخبار المذكورة أخرجها بنحوها الطبري ١٩/ ١٨٢ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٧٨ .

يَصِفُ جِلْدَها، إلَّا إذا كانت مع زوجها؛ فلها أن تلبس ما شاءت؛ لأنَّ له أن يستمتع بها كيف شاء.

ثبت أنَّ النبيَّ ﷺ استيقظ ليلةً فقال: «سبحانَ الله، ماذا أُنزل الليلةَ من الفتن، وماذا فُتح من الخزائن، مَن يُوقِظُ صواحبَ الحُجَر؟ رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة»(١).

وروي أنَّ دِحْيَةَ الكلْبيَّ لمَّا رجع من عند هِرَقْل فأعطاه النبيُّ ﷺ قُبْطِيَّةً؛ فقال: «اجْعَلْ صَديعاً لك قميصاً، وأَعْطِ صاحبتَكَ(٢) صَديعاً تَخْتَمِرُ به» ـ والصَّديعُ: النصف ـ ثم قال له: «مُرْها تجعل تحته شيئاً لئلَّا يَصِفَ»(٣).

وذكر أبو هريرةَ رقَّةَ الثياب للنساء فقال: الكاسياتُ العاريات، الناعماتُ الشقيَّات(٤).

ودخل نسوةٌ من بني تميم على عائشةَ رضي الله عنها عليهنَّ ثيابٌ رِقَاقٌ، فقالت عائشة: إنْ كنتُنَّ مؤمناتٍ فليس هذا بلباسِ المؤمنات، وإنْ كنتنَّ غيرَ مؤمناتٍ فتمتَّعنه(٥). وأُدخلت امرأةٌ عروسٌ على عائشةَ رضي الله عنها وعليها خمارٌ قُبْطِيٌّ مُعَصْفَر، فلمَّا رأتها قالت: لم تؤمن بسورة النور امرأةٌ تلبسُ هذا(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥) و(١١٢٦) من حديث أم سلمة رضي الله عنها. قوله: الحُجَر. بضم الحاء وفتح الجيم، جمع حجرة، وهي منازل أزواج النبي ﷺ، وإنما خصَّهن لأنهن الحاضرات حينئذٍ، وفي قوله: «كاسية» و«عارية» أقوال منها: كاسية في الدنيا بالثياب لوجود الغنى، عارية في الآخرة من الثواب لعدم العمل في الدنيا. ومنها: كاسية بالثياب لكنها لا تستر عورتها، فتعاقب في الآخرة بالعري جزاءً على ذلك، وقيل غير ذلك. ينظر الفتح ١/ ٢١٠ و١٣/ ٢٣ .

(٢) في (ظ): زوجتك.

(٣) أخرجه أبو داود (٤١١٦) من حديث دحية ﷺ. وفي الباب عن أسامة بن زيد ﷺ عند أحمد (٢١٧٨٦). قوله: قُبْطية، هي الثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء. النهاية (قبط).

(٤) في (د): المتنعمات. والخبر أخرجه بنحوه من قول أبي هريرة مالك في الموطأ ٢/ ٩١٣ ، وسيأتي عنه مرفوعاً.

(٥) في (د) و(م): فتمتعينه.

(٦) لم نقف على هذين الخبرين عن عائشة رضي الله عنها.

وثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «نساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مائلاتٌ مُمِيلاتٌ، رؤوسُهنَّ مثلُ أَسْنمةِ البُخْتِ، لا يَدْخلْنَ الجنةَ ولا يَجِدْنَ ريحَها»[(١)].

وقال عمر ﷺ: ما يمنعُ المرأةَ المسلمةَ إذا كانت لها حاجةٌ أن تخرج في أطمارِها[(٢)] أو أطمارِ جارتها مُسْتَخْفِيةً، لا يعلم بها أحدٌ حتى ترجع إلى بيتها.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي: الحرائر، حتى لا يَختلطْنَ بالإماء، فإذا عُرِفْنَ لم يقابلْنَ بأذى[(٣)] من المعارضة مراقبةً لرتبةِ الحرِّية، فتنقطع الأطماعُ عنهن. وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى يُعلم من هي. وكان عمر ﷺ إذا رأى أمَةً قد تقنَّعتْ ضَرَبَها بالدِّرَّة، محافظةً على زيِّ الحرائر[(٤)].

وقد قيل: إنه يجب السِّترُ والتقنُّع الآن في حقِّ الجميع من الحرائر والإماء. وهذا كما أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ منعوا النساء المساجدَ بعد وفاة رسول الله ﷺ مع قوله: «لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله»[(٥)] حتى قالت عائشة رضي الله عنها: لو عاش رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا لَمَنَعهنَّ من الخروج إلى المساجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل[(٦)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تأنيسٌ للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمرِ المشروع.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٦٦٥)، ومسلم (٢١٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺ. وسلف ١٥/ ٣٤١ قوله: كاسيات عاريات، أي: كاسيات بالثياب التي لا تستر منهن حجم عورة، أو تبدي من محاسنها ما لا يحل لها أن تبديه. والأسنمة جمع سنام، والبُخت جمع بُختية، وهي ضرب من الإبل عِظامُ الأسنمة؛ شبَّه رؤوسهن بها لِمَا رفعن من ضفائر شعورهن على أوساط رؤوسهن. ينظر المفهم ٥/ ٤٥٠ - ٤٥١ .

(٢) جمع طِمْر، وهو الثوب الخَلَق، أو الكساء البالي من غير الصوف. القاموس (طمر).

(٣) في (خ) و(د) و(م): بأدنى، والمثبت من باقي النسخ وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٩ ، والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٩ ، وخبر عمر أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٢٣٠ - ٢٣١ ، وبنحوه عبد الرزاق (٥٠٦٤).

(٥) أخرجه أحمد (٤٦٥٥)، والبخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢): (١٣٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وسلف ٢/ ٣٢٢ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٤٦٠٢)، والبخاري (٨٦٩)، ومسلم (٤٤٥) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه.

قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الآية. أهلُ التفسيرِ على أنَّ الأوصاف الثلاثةَ لشيءٍ واحد، كما روى سفيان بن سعيد عن منصور، عن أبي رَزين قال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قال: هم شيءٌ واحدٌ، يعني أنَّهم قد جمعوا هذه الأشياء[1]. والواو مُقْحَمةٌ، كما قال:

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَام   ولَيْثِ الكَتيبة في المُزْدَحَمْ

أراد: إلى الملك القَرْم ابنِ الهُمام ليثِ الكتيبة، وقد مضى في «البقرة»[2].

وقيل: كان منهم قومٌ يُرْجِفون، وقومٌ يتبعون النساء للرِّيبة، وقومٌ يشكِّكون المسلمين.

قال عكرمةُ وشَهْر بن حَوْشَب: «الذين في قلوبهم مرضٌ» يعني الذين في قلوبهم الزِّنى. وقال طاوسٌ: نزلت هذه الآية في أمر النساء. وقال سلمةُ بن كُهيل: نزلت في أصحاب الفواحش[3]، والمعنى متقارب.

وقيل: المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ شيءٌ واحدٌ، عبَّر عنهم بلَفْظَين، دليلهُ آيةُ المنافقين في أوَّلِ «البقرة». والمُرْجِفون في المدينة قومٌ كانوا يُخْبِرون المؤمنين بما

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٦.

(٢) ٢/ ٨٥.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٧٩. وقول عكرمة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٤، والطبري ١٩/ ١٨٤. وأخرج قول طاوس عبد الرزاق ٢/ ١٢٣.

يَسوءُهم من عدوِّهم، فيقولون إذا خرجتْ سرايا رسول الله ﷺ: إنَّهم قد قُتلوا أو هُزِموا، وإنَّ العدوَّ قد أتاكم، قاله قتادةُ وغيره[١]. وقيل: كانوا يقولون: أصحابُ الصُّفَّة قومٌ عُزَّاب، فهم الذين يتعرَّضون للنساء.

وقيل: هم قومٌ من المسلمين يَنْطِقون بالأخبار الكاذبةِ حُبًّا للفتنة. وقد كان في أصحابِ الإفكِ قومٌ مسلمون، ولكنَّهم خاضوا حُبًّا للفتنة.

وقال ابن عباس: الإرجافُ: التِماسُ الفتنة[٢]. والإرجافُ: إشاعةُ الكذبِ والباطلِ للاغتمام به. وقيل: تحريك القلوب، يقال: رجفت الأرضُ ـ أي: تحرَّكتْ وتزلزلت ـ تَرْجُف رَجْفاً. والرَّجَفان: الاضطرابُ الشديد. والرَّجَّاف: البحر، سُمِّي به لاضطرابه؛ قال الشاعر:

المُطعِمونَ اللَّحمَ كلَّ عَشِيَّةٍ   حتى تَغيبَ الشمسُ في الرَّجَّاف[٣]

والإرجافُ: واحدُ أَرَاجيفِ الأخبار. وقد أَرْجَفوا في الشيء، أي: خاضوا فيه.

قال الشاعر:

فإنَّا وإن عيَّرتُمونا بقتلهِ   وأَرْجَفَ بالإسلام باغٍ وحاسدُ[٤]

وقال آخر:

أَبِالأَرَاجيفِ يا ابنَ اللُّؤمِ تُوْعِدُني   وفي الأراجيف خِلْتُ اللؤمُ والخَوَرُ[٥]

(١) تفسير الطبري ١٩/ ١٨٥ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٢٤ .

(٣) تهذيب اللغة ١١/ ٤٣ ، والصحاح (رجف) والكلام منه، وأساس البلاغة (رجف)، ووقع في هذه المصادر: الشحم، بدل: اللحم. وذكره ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١/ ١٧٨ عن مطرود بن كعب الخزاعي في رثاء عبد المطلب، وصدره فيه: والمطعمين إذا الرياح تناوحت... ، وينظر اللسان (رجف).

(٤) قائله عبدالله بن جحش ﷺ ، وسلف ٣/ ٤٢٧ .

(٥) نسب للَّعين المِنْقَري كما في الكتاب ١/ ١١٩ - ١٢٠ ، والحيوان ٤/ ٢٦٧ ، والخزانة ١/ ٢٥٧ . ونسبه صاحب اللسان (خيل) لجرير. ووقع في جميع هذه المصادر: أبالأراجيز، بدل: أبالأراجيف. وذكر =

فالإرجافُ حرامٌ لأنَّ فيه إذايةً، فدلَّت الآيةُ على تحريم الإيذاء بالإرجاف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنُسلِّطنَّك عليهم[١] فتستأصلهم بالقتل.

قال ابن عباس: لم يَنْتَهوا عن إيذاءِ النساءِ، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أغْرَاه بهم، ثم إنه[٢] قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]، وإنَّه أمَره بلَعْنِهم، وهذا هو الإغراء. وقال محمد بن يزيد: قد أغْراه بهم في الآية التي تَلي هذه مع اتِّصالِ الكلامِ بها، وهو قولُه عز وجل: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ فهذا فيه معنى الأمرِ بِقَتْلِهِم وأَخْذِهم، أي: هذا حُكْمُهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف. وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ: «خمسٌ يُقتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَمِ»[٣] فهذا فيه معنى الأمرِ كالآية سواء. النحاس[٤]: وهذا مِن أَحْسَنِ ما قيل في الآية.

وقيل: إنَّهم قد انتَهَوْا عن الإرجاف فلم يُغْرَ بِهِم. ولامُ «لَنُغْرِيَنَّكَ» لامُ القَسَم، واليمينُ واقعةٌ عليها، وأُدخلت اللامُ في «إنْ» تَوْطِئةً لها.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصب على الحال من الضمير في «يُجَاوِرُونَكَ»، فكان الأمرُ كما قال تبارك وتعالى؛ لأنهم لم يكونوا إلَّا أَقِلَّاءَ. فهذا أحدُ جَوَابي الفرَّاء[٥]، وهو الأَوْلَى عنده، أي: لا يجاورونك إلَّا في حالِ قِلَّتِهم. والجوابُ الآخَرُ أنْ يكون المعنى: إلَّا وقتاً قليلاً، أي: لا يَبْقَوْنَ معك إلَّا مدَّة يسيرةً، أي: لا يجاورونك فيها إلَّا جِواراً قليلاً حتى

= البغدادي أن القصيدة لامية، وأن الصواب: والفشلُ، بدل: والخور. ووقع في الحيوان: جَلْبُ اللؤمِ والكسلِ.

(١) هذا قول ابن عباس في تفسير هذه الآية، كما أخرجه الطبري ١٩/ ١٨٥ ، وعلقه البخاري قبل الحديث (٤٧٩٧).

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢٦ (والكلام منه): لأنه، بدل: ثم إنه. وقد ذكر النحاس هذا الكلام دون نسبة.

(٣) سلف ١/ ٣٦٨ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢٦ ، وما قبله منه.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٥٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٢٦ .

يَهْلَكوا، فيكون نعتاً لمصدرٍ أو ظرفٍ محذوف. ودلَّ على أنَّ مَن كان معك ساكناً بالمدينة فهو جارٌ، وقد مضى في «النساء»[(١)].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ هذا تَمامُ الكلامِ عند محمد بن يزيد، وهو منصوبٌ على الحال[(٢)]. وقال ابن الأنباريّ[(٣)]: «قلِيلاً ملعونين» وقفٌ حسن. النحاس[(٤)]: ويجوز أن يكون التَّمَامُ «إلّا قليلاً»، وتنصب «مَلْعُونِينَ» على الشَّتْم، كما قرأ عيسى بن عمر: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤][(٥)]. وقد حُكي عن بعض النَّحْويين أنه قال: يكون المعنى: أينما ثُقِفوا أُخِذُوا ملعونين. وهذا خطأٌ، لا يَعملُ ما [كان] مع المجازاة فيما قَبْلَه.

وقيل: معنى الآيةِ: إنْ أَصَرُّوا على النفاق لم يكن لهم مُقامٌ بالمدينة إلّا وهم مَطْرودون ملعونون. وقد فُعِلَ بهم هذا؛ فإنَّه لمَّا نزلت سورةُ «براءة» جُمِعوا، فقال النبيُّ ﷺ: «يا فلانُ، قُمْ فاخْرُجْ فإنك منافق، ويا فلان قم» فقام إخوانهم من المسلمين وتَوَلَّوا إخراجَهم من المسجد[(٦)].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، أي: سَنَّ الله جلَّ وعزَّ فيمَن أَرْجَفَ بالأنبياء وأَظْهَرَ نفاقَه أن يؤخذ ويُقتل. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: تحويلاً وتغييراً؛ حكاه النقَّاش. وقال السُّدِّيّ: يعني أنَّ مَن قُتل بحقٍّ فلا دِيةَ على قاتله[(٧)].

---

(١) ٦/ ٣٠٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٧.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٤٣.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢٧، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) وهي قراءة عاصم، وقرأ الباقون برفع التاء. السبعة ص ٧٠٠، والتيسير ص ٢٢٥.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٩٦) مطولاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما دون قوله: فقام إخوانهم...، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٣٤: فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، وهو ضعيف.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٤٢٥.

المهدَوِيُّ: وفي الآيةِ دليلٌ على جواز تَرْكِ إنفاذِ الوعيد، والدليلُ على ذلك بقاءُ المنافقين معه حتى مات. والمعروفُ من أهل الفضل إتمامُ وَعْدِهم وتأخيرُ وعيدهم، وقد مضى هذا في «آل عمران»(١) وغيرِها.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ هؤلاء المُؤذُونَ لرسول الله ﷺ لَمَّا تُوُعِّدوا بالعذاب سألوا عن الساعة، استبعاداً وتكذيباً، مُوهِمين أنَّها لا تكون. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أَجِبْهم عن سؤالهم، وقُلْ: عِلْمُها عند الله، وليس في إخفاءِ الله وَقْتَها عنِّي ما يُبْطِلُ نبوَّتي. وليس من شرط النبيِّ أن يعلم الغيبَ بغيرِ تعليمٍ من الله جلّ وعزّ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: ما يُعْلِمُك ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: في زمانٍ قريب. وقال ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتين» وأشار إلى السبَّابة والوسطى، خرَّجه أهلُ الصحيح(٢).

وقيل: أي: ليست الساعةُ تكون قريباً. فحذف هاءَ التأنيث ذهاباً بالساعة إلى اليوم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ولم يقل: قريبةٌ، ذهاباً بالرحمة إلى العفو؛ إذ ليس تأنيثُها أصليًّا. وقد مضى هذا مستوفًى(٣).

وقيل: إنَّما أَخْفَى وقتَ الساعةِ ليكون العبدُ مستعدًّا لها في كلِّ وقت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: طَرَدَهم وأَبْعَدَهم. واللعنُ: الطَّرْدُ

---

(١) ٥/ ٤٧٨ .

(٢) صحيح البخاري (٦٥٠٣)، وصحيح مسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد ﷺ، وسلف ١٢/ ٢٦٨ .

(٣) ٩/ ٢٥٠ .

والإبعادُ عن الرحمة. وقد مضى في «البقرة» بيانُه[(١)]. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فأنّثَ السعير لأنَّها بمعنى النارِ ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يُنجيهم من عذابِ اللهِ والخلودِ فيه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ قراءةُ العامّةِ بضمِّ التاء وفتحِ اللّام، على الفعل المجهول. وقرأ عيسى الهمدانيُّ وابن أبي إسحاق[(٢)]: «نُقَلِّبُ» بنونٍ وكَسْرِ اللّام[(٣)] «وجوهَهم» نصباً. وقرأ عيسى أيضاً: «تُقَلِّبُ» بضمِّ التاء وكَسْرِ اللام[(٤)]، على معنى: تُقلِّب السعيرُ وجوهَهم. وقرأ أبو حيوة باختلاف عنه، وأبو جعفر وشيبة: تَقَلَّبُ؛ بفتح التاء واللام؛ على معنى تَتَقَلَّبُ[(٥)].

وهذا التقليبُ تغييرُ ألوانِهم بلفحِ النار، فَتَسْوَدُّ مرةً وتَخْضَرُّ أخرى. وإذا بدِّلت جلودُهم بجلودٍ أُخَرَ فحينئذٍ يتمنَّوْنَ أنهم ما كفروا، ويقولون: يا ليتنا. ويجوز أن يكون المعنى: يقولون يومَ تقلَّب وجوههم في النار: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ أي: لم نكفرُ فننجوَ من هذا العذاب كما نجا المؤمنون. وهذه الألفُ تقع في الفواصل، فيوقَفُ عليها ولا يوصَلُ بها. وكذا «السبيلا» وقد مضى في أول السورة[(٦)].

---

(١) ٢/ ٢٤٧.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وابن إسحاق، والمثبت من (ظ) وفتح القدير ٤/ ٣٠٦.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٠ عن أبي حيوة.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٠، والكلام منه. وقد ذكر أبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٢ أن الذي قرأ «نقلّب» بالنون هو عيسى البصري (وهو ابن عمر الثقفي النحوي)، أما الذي قرأ: «تُقلّب» بالتاء فهو عيسى الكوفي (وهو ابن عمر الهمداني). وينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٥) من قوله: وقرأ أبو حيوة... إلى هذا الموضع، ليس في (م). وقد ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٠ عن أبي حيوة، وذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٢ عن أبي جعفر، لكن القراءة المشهورة عن أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ كقراءة الجماعة.

(٦) ص٩٣ من هذا الجزء.

وقرأ الحسن: «إنَّا أطَعْنا ساداتِنا» بكسر التاء[١]، جمع سادة، وكان في هذا زجرٌ عن التقليد. والسادةُ جمعُ السيد، وهو فَعَلة، مثل كَتَبة، وفَجَرة، وساداتنا جمع الجمع. والسادةُ والكبراءُ بمعنًى. وقال مقاتل[٢]: هم المُطْعِمون في غزوة بدر. والأظْهَرُ العمومُ في القادة والرؤساء في الشِّرْكِ والضَّلالة، أي: أَطَعْناهم في معصيتك وما دَعَوْنا إليه ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي: عن السَّبيل وهو التوحيد، فلما حُذفَ الجارُّ وُصِلَ الفعلُ فنصب. والإضلالُ لا يتعدَّى إلى مفعولين من غير توسُّطِ حرفِ الجرِّ، كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الفرقان: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال قتادة: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة[٣].

وقيل: عذاب الكفر وعذاب الإضلال، أي: عذِّبهم مِثْلَيْ ما تُعَذِّبنا، فإنَّهم ضَلُّوا وأَضَلُّوا. ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ ابن مسعود وأصحابه ويحيى وعاصم بالباء. الباقون بالثاء[٤]، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس[٥]؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] وهذا المعنى كثير. وقال محمد بن أبي السَّرِي: رأيتُ في المنام كأنِّي في مسجدِ عَسْقَلان، وكأنَّ رجلاً يُناظِرُني فيمَن يبغض أصحاب محمدٍ ﷺ، فقال: والْعَنْهُمْ لعناً كثيراً، ثم كَرَّرَها حتى غاب عنِّي، لا يقولُها إلَّا بالثاء[٦]. وقراءةُ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٨، وهي قراءة ابن عامر كما في السبعة ص ٥٢٣، والتيسير ص ١٧٩.

(٢) في (د) و(م): قتادة، وذكره عن مقاتل الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٨٣.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٤٤ في تفسير قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

(٤) السبعة ص ٥٢٣، والتيسير ص ١٧٩.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢٨.

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٥٥/ ٢٣٢ بنحوه مطولاً، ثم روى عن ابن عدي قوله: ابن أبي السري العسقلاني كثير الغلط.

الباء تَرْجِعُ في المعنى إلى الثاء؛ لأنَّ ما كبر كان كثيراً عظيمَ المِقْدار.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾

لمَّا ذكر الله تعالى المنافقين والكفَّارَ الذين آذَوْا رسولَ الله ﷺ والمؤمنين، حذَّر المؤمنين من التعرُّضِ للإيذاء، ونهاهم عن التَّشَبُّهِ ببني إسرائيلَ في إذايتِهِم[١] نبيَّهم موسى.

واختلف الناس فيما أوذي به محمد ﷺ وموسى، فحكى النقَّاشُ أنَّ إذايتهم محمداً عليه الصلاة والسلام قولُهم: زيد بنُ محمد. وقال أبو وائل: إذايته أنه ﷺ قَسَم قَسْماً، فقال رجلٌ من الأنصار: إنَّ هذه القِسمةَ ما أُرِيدَ بها وجهُ الله، فذُكر ذلك للنبيِّ ﷺ، فغضب وقال: «رَحِمَ الله موسى، لقد أُوذيَ بأكثرَ من هذا فَصَبَر»[٢].

وأمَّا إذايةُ موسى ﷺ فقال ابن عباس وجماعةٌ: هي ما تضمَّنه حديثُ أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ، وذلك أنه قال: «كان بنو إسرائيلَ يغتسلون عُراةً، وكان موسى عليه السلام يتستَّر كثيراً ويُخْفِي بَدَنَه، فقال قومٌ: هو آدرُ[٣] وأبرصُ، أو به آفةٌ، فانطلق ذاتَ يومٍ يغتسلُ في عينٍ بأرض الشام وجَعَل ثيابَه على صخرةٍ، ففرَّ الحجرُ بثيابه واتَّبعه موسى عرياناً يقول: ثَوْبي حَجَرُ ثوبي حَجَرُ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيلَ، فنظروا إليه، فإذا هو مِن أَحْسَنِهم خَلْقاً وأَعْدَلِهم صورةً، وليس به الذي قالوا، فهو قولُه تبارك وتعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾»[٤]. أخرجه البخاريُّ ومسلم

(١) كذا في النسخ الخطية في هذا الموضع، وفي المواضع التالية. وكذا ورد في سياق كلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠١، ووقع في (م) أذيتهم.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٠٨)، والبخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢) من طريق أبي وائل (وهو شقيق بن سلمة) عن ابن مسعود ﷺ، والكلام من النكت والعيون ٤/ ٤٢٦.

(٣) الآدَر هو ذو الأُدْرة: وهي عِظَمُ الخصيتين وانتفاخهما. المفهم ٦/ ١٩٠.

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ١٩٠ - ١٩٤. وسيأتي شرح قوله: ثوبي حجر.

بمعناه(١). ولفظُ مسلم: قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيلَ يغتسلون عراةً ينظر بعضُهم إلى سَوْءَةِ بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسلُ وَحْدَه، فقالوا: والله ما يمنعُ موسى أنْ يغتسلَ معنا إلَّا أنه آدَرُ! قال: فذهب يوماً(٢) يغتسل، فوضع ثوبَه على حجر، ففرَّ الحجر بثوبه، قال: فجمَحَ موسى عليه السلام بإثره يقول: ثَوْبي حَجَرُ ثوبي حَجَرُ، حتى نظرت بنو إسرائيلَ إلى سَوْءة موسى وقالوا: واللهِ ما بموسى من بأسٍ، فقام الحجر حتى نُظر إليه، قال: فأخذ ثوبَه فطفِق بالحجر ضرْباً». قال أبو هريرةَ: واللهِ إنَّه بالحجر نَدَبٌ ستةٌ أو سبعةٌ؛ ضَرْبُ موسى بالحجر. فهذا قول.

وروي عن ابن عباس عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: آذَوْا موسى بأن قالوا: قَتَلَ هارونَ؛ وذلك أنَّ موسى وهارون خرجا من فَحْص التِّيه(٣) إلى جبلٍ، فمات هارون فيه، فجاء موسى فقالت بنو إسرائيلَ لموسى: أنت قَتَلْتَه، وكان أَلْيَنَ لنا منكَ وأشدَّ حُبًّا. فآذَوْه بذلك، فأمر الله تعالى الملائكةَ، فحملته حتى طافوا به في بني إسرائيل، ورَأَوْا آيةً عظيمةً دلَّتهم على صِدْقِ موسى، ولم يكن فيه أثرُ القتل. وقد قيل: إنَّ الملائكة تكلَّمت بموته ولم يَعْرِف موضعَ قبرِه إلَّا الرَّخَم، وإنه تعالى جعله أَصَمَّ أَبْكَم(٤).

ومات هارونُ قبل موسى في التِّيه، ومات موسى قبل انقضاء مدَّةِ التِّيه بشهرين(٥).

وحكى القُشَيريُّ عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أنَّ الله تعالى أَحْيا

(١) صحيح البخاري (٢٧٨) و(٣٤٠٤)، وصحيح مسلم (٣٣٩)، وهو عند أحمد (١٠٦٧٨).

(٢) في صحيح مسلم: مرة.

(٣) الفَحْص: ما استوى من الأرض، والتِّيه: المفازة يُتاه فيها، وهي هنا الموضع الذي تاه فيه بنو إسرائيل. اللسان (فحص) (تيه).

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ١٩٤ ، والنكت والعيون ٤/ ٤٢٧ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٧٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠١ . والرخم: طائر غزير الريش أبيض اللون مبقَّعٌ بسواد. المعجم الوسيط (رخم).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٢٧ .

هارونَ فأخبرهم أنه لم يقتله، ثم مات.

وقد قيل: إنَّ إذاية موسى عليه السلام رَمْيُهم إياه بالسِّحْرِ والجنون. والصحيح الأوّل. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونوا فعلوا كلَّ ذلك، فبرَّأه الله من جميع ذلك.

مسألة: في وضع موسى عليه السلامُ ثوبَه على الحجر ودخولِه في الماء عُرياناً دليلٌ على جوازِ ذلك، وهو مذهبُ الجمهور. ومَنَعَه ابنُ أبي لَيْلَى، واحْتَجَّ بحديثٍ لم يصحَّ، وهو قوله ﷺ: «لا تَدْخُلوا الماءَ إلّا بمئزرٍ، فإنَّ للماءِ عامِراً». قال القاضي عِياض: وهو ضعيفٌ عند أهلِ العلم(١).

قلت: أَمَا إنَّه يُسْتَحَبُّ التستُّر لِمَا رواه إسرائيلُ عن عبد الأعلى: أنَّ الحسن بن عليٍّ دخل غَديراً وعليه بُرْدٌ له مُتوشِّحاً به، فلمَّا خرج قيل له، فقال: إنَّما تَستَّرتُ ممن يراني ولا أراه. يعني: من ربِّي والملائكة(٢).

فإن قيل: كيف نادى موسى عليه السلام الحجرَ نداءَ مَن يَعْقِلُ؟ قيل: لأنه صَدَر عن الحجر فِعْلُ مَن يَعْقِل. و«حَجرُ» منادى مُفْرَدٌ محذوفُ حرفِ النداء، كما قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ﴾ [يوسف:٢٩]. و«ثوبي» منصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ، التقدير: أعطني ثوبي، أو اترك ثوبي، فحذف الفعل لدلالة الحال عليه(٣).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: عظيماً. والوجيهُ عند العرب: العظيمُ القَدْرِ الرفيعُ المنزلةِ. ويُروى أنه كان إذا سأل الله شيئاً أعطاه إياه. وقرأ ابن مسعود:

---

(١) المفهم ٦/ ١٩٠ - ١٩١ وكلام القاضي عياض في إكمال المعلم ٧/ ٣٥٠ ، والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٦٥٢ ، عن جابر ﷺ. وفي إسناده يحيى بن سعيد التميمي المدني، قال فيه البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث، وقال ابن عدي وغيره: يروي عن الثقات البواطيل. الميزان ٤/ ٣٧٨ .

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج عبد الرزاق (١١١٤) من طريق جابر الجعفي عن الشعبي، أو عن أبي جعفر محمد بن علي أن الحسن والحسين دخلا الفرات وعلى كل واحد منهما إزاره ثم قالا: إن في الماء - أو إن للماء - ساكناً. وجابر الجعفي ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٣) المفهم ٦/ ١٩٠ .

«وكان عَبْدًا لِلهِ»[١]. وقيل: معنى «وَجِيهًا» أي: كلَّمه تكليماً[٢].

قال أبو بكر الأنباريُّ في «كتاب الرّدّ»: زَعَم مَن طَعَنَ في القرآن، أنَّ المسلمين صَحَّفوا: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ وأنَّ الصوابَ عنده: «وكان عَبْدًا لِلهِ وَجِيْهًا». وذلك يدلُّ على ضعفِ مَقْصِدِه ونقصانِ فَهْمِه وقِلَّةِ عِلْمِه. وذلك أنَّ الآية لو حُملت على قوله، وقُرئت: «وكان عبداً»، نقصَ الثناءُ على موسى عليه السلام، وذلك أنَّ «وَجِيهًا» يكون عند أهلِ الدنيا وعند أهلِ زمانه وعند أهلِ الآخرة، فلا يُوقَفُ على مكان المدح؛ لأنَّه إن كان وجيهاً عند بني الدنيا كان ذلك إنعاماً من الله عليه لا يَبِينُ معه ثناءٌ عليه من الله. فلمَّا أَوْضَح الله تعالى موضعَ المدحِ بقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ استحقَّ الشَّرفَ وأَعْظَمَ الرفعةِ بأنَّ الوجاهة عند الله، فَمَن غيَّر اللفظةَ صَرَفَ عن نبيِّ اللهِ أَفْخَرَ الثناءِ وأَعْظَمَ المَدْح[٣].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: قصداً وحقًّا. وقال ابن عباس: أي: صواباً[٤]. وقال قتادة ومقاتل: يعني قولوا قولاً سديداً في شأنِ زينبَ وزيدٍ، ولا تَنْسُبُوا النبيَّ ﷺ إلى ما لا يَحِلُّ.

وقال عكرمة وابن عباس أيضاً: القول السديد: لا إله إلا الله[٥].

وقيل: هو الذي يُوافقُ ظاهرُه باطنَه. وقيل: هو ما أُرِيدَ به وجهَ الله دون غيره.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٠ ، والمحتسب ٢/ ١٨٥ ، والبحر ٧/ ٢٥٣ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٨٢ .

(٣) سلف الكلام بنحوه مفصلاً ١/ ١٢٨ .

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٨٤ ، والبغوي ٣/ ٥٤٦ .

(٥) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما البيهقي في الأسماء والصفات (٢٠٥)، وعن عكرمة الطبري ١٩/ ١٩٦ .

وقيل: هو الإصلاحُ بين المتشاجرين. وهو مأخوذٌ من تسديد السهم ليُصابَ به الغَرَضُ[١].

والقولُ السديد يعمُّ الخيراتِ، فهو عامٌّ في جميع ما ذُكر وغير ذلك، وظاهِرُ الآيةِ يعطي أنه إنَّما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول وجهةِ المؤمنين. ثم وَعَدَ جلَّ وعزَّ بأنه يجازي على القول السديد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب[٢]، وحَسْبُكَ بذلك درجةً ورِفْعةَ منزلةٍ. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: فيما أمر به ونَهى عنه ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

لمَّا بيَّن تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بيَّن، أمر بالتزامِ أَوَامره. والأمانةُ تعمُّ جميعَ وظائف الدِّين على الصحيح من الأقوال، وهو قولُ الجمهور. روى الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله: حدَّثنا إسماعيل بن نصرٍ، عن صالح بن عبد الله، عن محمد بن يزيد[٣] بن جوهر، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى لآدمَ: يا آدمُ، إنِّي عَرَضْتُ الأمانةَ على السماواتِ والأرضِ فلم تُطِقْها، فهل أنت حامِلُها بما فيها؟ قال: وما فيها يا رب؟ قال: إنْ حَمَلْتَها أُجِرْتَ، وإن ضيَّعتَها عُذِّبتَ. فاحْتَمَلَها بما فيها، فلم يَلْبَثْ في الجنة إلَّا قَدْرَ ما بين صلاةِ الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطانُ منها»[٤].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٢٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠١.

(٣) في (ظ): زيد.

(٤) لم نقف عليه عند الحكيم الترمذي، وأخرجه الطبري ١٩/ ١٩٧، وأبو بكر الأنباري في الأضداد ص٣٨٨-٣٨٩. وأخرجه الطبري ١٩/ ١٩٨ عن الضحاك قوله.

فالأمانةُ هي الفرائضُ التي ائْتَمَن اللهُ عليها العبادَ. وقد اختُلف في تفاصيل بَعْضِها على أقوال؛ فقال ابن مسعود: هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها. وروي عنه أنَّها في كلِّ الفرائض، وأشدُّها أمانةُ المال(١).

وقال أُبَيّ بن كَعْب: من الأمانة أن ائتُمنت المرأةُ على فَرْجِها(٢).

وقال أبو الدرداء: غُسْلُ الجنابةِ أمانةٌ، وإنَّ الله تعالى لم يأمن ابنَ آدم على شيء من دِينه غيرها(٣). وفي حديثٍ مرفوع: «الأمانةُ الصلاةُ» إنْ شئتَ قلتَ: قد صلَّيتُ، وإنْ شئتَ قلتَ: لم أُصَلِّ. وكذلك الصيامُ وغُسْلُ الجنابة(٤).

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أولُ ما خَلَقَ الله تعالى من الإنسان فَرْجُه، وقال: هذه أمانةٌ استَوْدَعْتُكَها، فلا تَلْبِسها إلَّا بحقّ. فإنْ حَفِظْتَها حَفِظْتُك، فالفرجُ أمانةٌ، والأُذنُ أمانةٌ، والعينُ أمانةٌ، واللسانُ أمانةٌ، والبطنُ أمانةٌ، واليدُ أمانةٌ، والرِّجْلُ أمانةٌ، ولا إيمانَ لمن لا أمانةَ له(٥).

وقال السُّدِّيُّ: هي ائتمانُ آدمَ ابنَه قابيلَ على ولده وأهله، وخيانتُه إياه في قَتْلِ أخيه. وذلك أنَّ الله تعالى قال له: يا آدمُ، هل تعلمُ أنَّ لي بيتاً في الأرض. قال: اللهمَّ لا! قال: فإنَّ لي بيتاً بمكةَ فَأْتِه، فقال للسماء: احْفَظِي ولدي بالأمانة، فأَبَتْ. وقال للأرض: احفظي ولدي بالأمانة، فأَبَتْ، وقال للجبال كذلك فأَبَتْ. فقال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢، وسلف ٦/ ٤٢٤.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٥، والطبري ١٩/ ٢٠٠.

(٣) أخرجه أبو داود إثر الحديث (٤٢٩)، والطبري ١٩/ ٢٠٠ واللفظ له.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٩، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٥ من طريق زيد بن أسلم عن النبي ﷺ مرسلاً بلفظ: «الأمانة ثلاث: الصلاة، والصيام، والغسل من الجنابة».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٢٧٥)، وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٢٩٦. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٢٨ - ٤٢٩ مختصراً دون نسبة. قوله: فلا تلبسها، أي: فلا تخلطها. ينظر اللسان (لبس). ووقع في مكارم الأخلاق: فلا تضعها إلا في حقها. ولفظ المصنف موافق لما في النكت والعيون.

لقابيل: احْفَظْ ولدي بالأمانة، فقال: نعم، تذهبُ وترجع فتجد ولدك كما يسرُّك. فرجع فوجده قد قَتَلَ أخاه، فذلك قولُه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ الآية[١].

وروى معمر عن الحسن: أنَّ الأمانةَ عُرِضَتْ على السَّماوات والأرض والجبال، قالت[٢]: وما فيها؟ قيل لها: إنْ أَحْسَنْتِ جُوزِيتِ، وإن أَسَأْتِ عُوقِبت. فقالت: لا[٣]. قال مجاهد: فلمَّا[٤] خَلَقَ الله تعالى آدمَ عَرَضها عليه، قال: وما هي؟ قال: إنْ أَحْسَنْتَ أَجَرتُكَ، وإن أسأتَ عذَّبتُك. قال: فقد تَحمَّلتُها يا ربّ. قال مجاهد: فما كان بين أن تحمَّلها إلى أنْ أُخْرِجَ من الجنة إلَّا قَدْرَ ما بين الظهر والعصر[٥].

وروى عليّ بن أبي طلحةَ عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ قال: الأمانةُ الفرائضُ، عرضها الله عزَّ وجلَّ على السماوات والأرض والجبال، إنْ أدَّوْها أثابَهم، وإنْ ضيَّعوها عذَّبَهم. فكَرِهوا ذلك وأَشْفَقُوا من غير معصية، ولكنْ تعظيماً لدين الله عزَّ وجلَّ ألَّا يقوموا به. ثم عرضَها على آدمَ، فقَبِلها بما فيها. قال النحاس[٦]: وهذا القولُ هو الذي عليه أهلُ التفسير.

وقيل: لمَّا حضرت آدمَ ﷺ الوفاةُ أُمر أن يَعْرِضَ الأمانةَ على الخَلْق، فعرضها فلم

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٠٣ - ٢٠٤ ضمن خبر طويل من طريق السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) في (ظ): بما فيها فقالت.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٣٠ . وأخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية من طريق أبي معمر عون بن معمر عن الحسن البصري.

(٤) في (ظ): لما.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٣٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٥ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٨٥ ، وسلف نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما أول تفسير هذه الآية.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٨٣ ، وما قبله منه، وأخرج خبر ابن عباس أيضاً الطبري ١٩/ ١٩٨ ، وابن الأنباري في الأضداد ص ٣٨٩ - ٣٩٠ .

يقبلها إلَّا بنوه[١].

وقيل: هذه الأمانةُ هي ما أَوْدَعَه الله تعالى في السماوات والأرض والجبال والخَلْقِ من الدلائل على رُبوبيته أن يُظْهِروها، فأَظْهَرُوها، إلَّا الإنسانَ، فإنه كَتَمها وجَحَدها؛ قاله بعضُ المتكلِّمين[٢].

ومعنى «عَرَضْنَا»: أَظْهَرْنا، كما تقول: عَرَضْتُ الجاريةَ على البيع. والمعنى: إنَّا عرضنا الأمانةَ وتضييعَها على أهل السماوات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: أن يَحْمِلْنَ وِزْرَهَا، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]. ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ قال الحسن: المرادُ: الكافرُ والمنافق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه ﴿جَهُولًا﴾ بربِّه. فيكون ـ على هذا ـ الجوابُ مَجازاً، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢][٣].

وفيه جوابٌ آخرُ على أن يكون حقيقةً: أنه عَرَضَ على السماوات والأرض والجبال الأمانةَ وتضييعَها، وهي الثوابُ والعقاب، أي: أَظْهَر لهنَّ ذلك، فلم يحملنَ وِزْرَها[٤]، وأَشْفَقْنَ وقُلْنَ: لا نبتغي[٥] ثواباً ولا عقاباً، وكلٌّ يقول: هذا أمرٌ لا نُطيقُه، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أَمَرْتَنا به وسَخَّرتنا له[٦]؛ قاله الحسن وغيره[٧]. قال العلماء: معلومٌ أنَّ الجماد لا يفهمُ ولا يُجيبُ، فلا بدَّ من تقدير الحياة على القول الأخير. وهذا العرضُ عَرْضُ تخييرٍ لا إلزام، والعرضُ على الإنسان إلزامٌ.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٨٣ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٢٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٩ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) في النسخ عدا (ظ): وأشفقت وقالت لا أبتغي. . . والمثبت من (ظ).

(٦) في النسخ عدا (ظ): فيما أمرن به وسخرن له والمثبت من (ظ).

(٧) سلف نحوه عن الحسن، وأخرجه بنحوه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ١٢٥ عن الحسن وقتادة.

وقال القفَّال وغيره: العرضُ في هذه الآيةِ ضَرْبُ مَثَلٍ، أي إنَّ السماواتِ والأرضَ - على كِبَرِ أجْرامها - لو كانت بحيث يجوز تكليفُها، لثَقُلَ عليها تقلُّد الشرائع؛ لِمَا فيها من الثواب والعقاب، أي: إنَّ التكليفَ أمرٌ حقُّه أن تعجز عنه السماواتُ والأرض والجبال، وقد كُلِّفَه الإنسان وهو ظلومٌ جهولٌ لو عَقَل. وهذا كقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [الحشر: ٢١]. قال القفَّال: فإذا تقرَّر[١] أنه تعالى يضربُ الأمثالَ، وورد علينا من الخبر ما لا يخرجُ إلَّا على ضرب المثل، وَجَبَ حَمْلُه عليه.

وقال قوم: إنَّ الآيَةَ من المجاز، أي: إنَّا إذا قايَسْنا ثِقَلَ الأمانةِ بقوَّةِ السماواتِ والأرضِ والجبال، رأينا أنَّها لا تُطِيقُها، وأنها لو تَكَلَّمتْ لأَبَتْ وأَشْفَقَتْ، فعبَّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ الآيةَ. وهذا كما تقول: عرضتُ الحِمْلَ على البعير فأباه، وأنت تريد: قايَسْتُ قوَّتَه بِثِقَلِ الحِمْلِ، فرأيتُ أنَّها تقصرُ عنه[٢].

وقيل: «عَرَضْنَا» بمعنى: عارضنا الأمانةَ بالسماوات والأرض والجبال، فضعُفَتْ هذه الأشياء عن الأمانة، ورَجَحت الأمانةُ بثقلها عليها.

وقيل: إنَّ عَرْضَ الأمانة على السماوات والأرض والجبال إنَّما كان من آدمَ عليه السلام. وذلك أنَّ الله تعالى لمَّا استخلفه على ذرِّيته، وسلَّطه على جميع ما في الأرض من الأنعام والطير والوحش، وعهِد إليه عهداً أمره فيه ونهاه وحرَّم وأحلَّ، فقبله ولم يَزَلْ عاملاً به. فلمَّا أنْ حَضَرَتْه الوفاةُ سأل الله أنْ يُعلِمه مَن يستخلفُ بعده، ويقلِّدهُ من الأمانة ما تَقلَّدَه، فأمره أن يعرض ذلك على السماوات بالشَّرط الذي أخذ عليه، من الثواب إن أطاع، ومن العقاب إن عصى، فأبيْن أن يَقْبَلْنَه شَفَقاً من عذاب الله. ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال كلِّها، فأَبَيْنَه[٣]. ثم أمره أن يعرض

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): «في».

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢ - ٤٠٣ .

(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: فأبياه.

ذلك على ولده، فعرضه عليه، فقبِله بالشرط، ولم يَهَبْ منه ما تَهيَّبت السماوات والأرض والجبال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه ﴿جَهُولًا﴾ بعاقبةِ ما تَقلَّد لربِّه[1].

قال الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن عليٍّ: عجبتُ من هذا[2] القائلِ من أين أتى بهذه القصة! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلافِ ما قال، وإن نظرنا إلى ظاهرِهِ وجدناه بخلاف ما قال، وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بعيداً ممَّا قال! وذلك أنه ردَّد ذِكْرَ الأمانة ولم يذكر ما الأمانةُ، إلَّا أنه يُوْمِئُ في مَقَالَتِهِ إلى أنَّه سلَّطه[3] على جميع ما في الأرض، وعَهِدَ الله إليه عَهْداً فيه أمرُه ونهيُه وحِلُّه وحرامه، وزعم أنَّه أَمَره أن يعرض ذلك على السماوات والأرض والجبال! فما تصنعُ السماوات والأرض والجبال بالحلال والحرام؟! وما التسليطُ على الأنعام والطير والوحش! وكيف إذا عَرَضه على ولده فقَبِلَه يكون[4] في أعناق ذرِّيته مِن بَعْدِه! وفي مبتدأ الخبر في التنزيل أنه عَرَضَ الأمانة على السماوات والأرض والجبال حتى ظهر الإباء منهم، ثم ذكر أنَّ الإنسان حَمَلَها، أي: مِن قِبَل نفسه، لا أنَّه حُمِّل ذلك، فسمَّاه «ظَلُوماً» أي: لنفسه، «جَهُولاً» بما فيها.

وأمَّا الآثارُ التي هي بخلافِ ما ذكر، فحدَّثني أبي رَحِمَه الله قال: حدثنا الفيضُ ابن الفضل الكوفيُّ، حدثنا السَّرِيُّ بن إسماعيل، عن عامرٍ الشَّعبيِّ، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: لمَّا خَلَقَ الله الأمانةَ مَثَّلها صخرةً، ثم وَضَعَها حيث شاء، ثم دعا لها السماواتِ والأرضَ والجبالَ ليَحْمِلْنَها، وقال لهنَّ: إنَّ هذه «الأمانة»، ولها ثوابٌ وعليها عقابٌ. قالوا: يا ربِّ، لا طاقةَ لنا بها. وأَقبلَ الإنسان من قَبْل أن يُدعى، فقال للسماوات والأرض والجبال: ما وقوفُكم؟ قالوا: دعانا ربُّنا أنْ نَحمِلَ

---

(١) ذكره أبو بكر الأنباري في الأضداد ص ٣٩٠ - ٣٩١ عن بعض المفسرين.

(٢) في (ظ): عجبت لهذا.

(٣) في (ظ): سلط.

(٤) قوله: يكون، من (ظ)، وليس في باقي النسخ.

هذه، فَأَشْفَقْنَا منها ولم نُطِقْها، قال: فحرَّكها بيده وقال: واللهِ لو شئتُ أنْ أَحْمِلَها لحملتُها، فَحمَلَها حتى بلغ بها إلى رُكْبَتَيه، ثم وضعها وقال: والله لو شئتُ أَنْ أَزْدادَ لازْدَدْتُ، قالوا: دونك! فحملها حتى بلغ بها حَقْوَيه[١]، ثم وضعها وقال: والله لو شئتُ أن أزداد لازْدَدْتُ، قالوا: دونَكَ، فحملها حتى وضعها على عاتِقِه، فلمَّا أَهْوَى ليضعها[٢]، قالوا: مَكَانك! إنَّ هذه الأمانةُ، ولها ثوابٌ وعليها عقابٌ، وأَمَرَنا ربُّنا أن نحملها فأشفقنا منها، وحَمَلْتَها أنت من غير أن تُدعى لها، فهي في عنقك وفي أعناق ذرِّيتك إلى يوم القيامة، إنَّك كنت ظلوماً جهولاً[٣]. وذَكَر أخباراً عن الصحابة والتابعين تقدَّم أكثرها.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي: التزمَ القيامَ بحقِّها، وهو في ذلك ظلومٌ لنفسه ـ وقال قتادة: للأمانة ـ جهولٌ بقَدْرِ ما دخل فيه. وهذا تأويلُ ابن عباس وابن جبير[٤]. وقال الحسن: جهولٌ بربِّه. قال: ومعنى «حملها»: خان فيها، وقاله[٥] الزجَّاج. والآيةُ في الكافر والمنافق. والعصاةُ على قَدْرِهم على هذا التأويل[٦].

وقال ابن عباس وأصحابه والضحاك وغيره: «الإنسان»: آدمُ، تحمَّل الأمانةَ فما تمَّ له يومٌ حتى عصى المعصيةَ التي أخرجته من الجنة[٧].

وعن ابن عباس أنَّ الله تعالى قال له: أتحملُ هذه الأمانةَ بما فيها؟. قال: وما فيها؟ قال: إن أَحْسَنْتَ جُزِيْتَ، وإن أَسَأْتَ عُوقبتَ. قال: أنا أحملُها بما فيها بين

---

(١) الحَقو: الخصر.

(٢) في (ظ): فلما أراد أن يضعها.

(٣) لم نقف على كلام الحكيم الترمذي وخبر ابن مسعود ﷺ ذكره بنحوه البغوي ٣/ ٥٤٧ . والسري ابن إسماعيل قال فيه الحافظ في التقريب: متروك الحديث.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢ ، دون قول قتادة، وأخرج قول قتادة الطبري ١٩/ ٢٠٥ .

(٥) في النسخ عدا (ظ): وقال، والمثبت من (ظ).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢ ، دون قوله: وقاله الزجاج، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٣٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢ ، وسلف نحوه عن ابن عباس ص٢٤٤ من هذا الجزء.

أُذني وعاتقي. فقال الله تعالى له: إنِّي سأُعِينُك؛ قد جعلتُ لبصرك حجاباً فَأَغْلِقه عمَّا لا يَحلُّ لك، ولفَرْجِكَ لباساً فلا تَكْشِفْهُ إلَّا على ما أَحْلَلْتُ لك(١).

وقال قوم: «الإنسان»: النوعُ كله. وهذا حَسَنٌ مع عمومِ الأمانة(٢)، كما ذَكَرْناه أوَّلاً. وقال السُّدِّي: الإنسانُ قابيل(٣). فالله أعلم.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ اللَّامُ في «لِيُعَذِّبَ» متعلِّقةٌ بـ «حَمَلَ» أي: حملها ليعذِّب العاصي ويثيب المطيع، فهي لامُ التعليل؛ لأنَّ العذاب نتيجةُ حَمْلِ الأمانة(٤). وقيل بـ «عرضنا»، أي: عَرَضْنا الأمانةَ على الجميع ثم قلَّدناها الإنسانَ لِيَظْهرَ شِرْكُ المشركِ ونفاقُ المنافقِ ليعذِّبهم الله، وإيمانُ المؤمنِ لِيُثيبه الله.

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ﴾ قراءةُ الحسنِ بالرفع، يَقْطَعُهُ من الأوَّل؛ أي: يتوبُ الله عليهم بكلِّ حال. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ خبرٌ بعدَ خبرٍ لـ «كان». ويجوز أن يكون نعتاً لغفور، ويجوز أن يكون حالاً من المُضْمَرِ(٥). والله أعلم بالصواب.

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢ ، والبغوي ٣/ ٥٤٦ دون نسبة. وأخرجه الطبري ١٩/ ٢٠١ عن ابن زيد. وأخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية ـ عن زيد بن أسلم وعن أبي حازم.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٠٥ ، وقد سلف مطولاً ص٢٤٥ من هذا الجزء.

(٤) وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٣ : اللام لام العاقبة؛ لأن الإنسان لم يحمل ليقع العذاب، لكن حمل، فصار الأمر وآل إلى أن يعذب مَنْ نافقَ ومن أشرك، وأن يتوب على من آمن. وينظر الدر المصون ٩/ ١٤٦ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٩ ، وذكر قراءة الحسن أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢١ عن الأعمش.

سُورَةُ الأَحْزَابِ

مدنيَّةٌ، وهي ثلاثٌ وسبعونَ آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ناداه بالنَّبيِّ وأمرَهُ بالتَّقوَى تعظيمًا له وتفخيمًا لشأنِ التَّقوَى، والمرادُ به: الأمرُ بالثَّباتِ عليه ليكونَ مانعًا له عمَّا نُهِيَ عنه بقولِه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يعودُ بوهنٍ في الدِّينِ.

رُوِيَ أنَّ أبا سُفيانَ وعكرمةَ بنَ أبي جهلٍ وأبا الأعوَرِ السُّلَميَّ قدمُوا عليه في الموادَعةِ التي كانَت بينَه وبينَهُم، وقامَ معهم ابن أُبيٍّ ومُعَتِّبُ بنُ قُشَيرٍ وجَدُّ بن قيسٍ فقالوا له: ارفُضْ ذكرَ آلِهَتِنا وقلْ: إنَّ لها شفاعةً، وندعُكَ وربَّكَ، فنزلَتْ[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالحِ والمفاسدِ ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكمُ إلَّا بما تقتضيهِ الحكمَةُ.

(٢) ـ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ كالنَّهيِ عن طاعَتِهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فمُوحٍ إليك ما يصلحُه[٢]، ومُغنٍ من الاستماعِ إلى الكَفَرةِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٣١٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٥١) من غير سند، وذكره أيضاً مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٥٠٠)، والفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٣٤)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٣٤٧).

(٢) فاعله ضمير «ما» هذه، ومفعوله ضمير (ما تعملون)، وفي نسخة: «ما يصلحك». انظر: «حاشية الخفاجي».

وقرأ أبو عَمرٍو بالياءِ[1] على أنَّ الواوَ ضميرُ الكَفَرَةِ والمنافقينَ؛ أي: إنَّ اللهَ خبيرٌ بمَكايدِهِم فيدفَعُها عنك.

(٣) ـ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾: وكِلْ أمرَكَ إلى تَدبيرِه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ موكولًا إليه الأمورُ كلُّها.

(٤) ـ ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾؛ أي: ما جمعَ قَلْبَيْنِ في جوفٍ؛ لأنَّ القلبَ معدِنُ الرُّوحِ الحيوانيِّ المتعلِّقِ للنَّفسِ الإنسانيِّ أولًا، ومنبعُ القُوَى بأسرِها، وذلك يمنعُ التَّعدُّدَ.

﴿وما جَعَلَ أزواجَكُمُ اللَّائي تَظَّهَّرون منهنَّ أُمَّهاتِكم وما جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْناءَكُمْ﴾: وما جعلَ الزَّوجيَّةَ والأمومةَ في امرأةٍ، ولا الدَّعوةَ والنبوَّةَ في رجلٍ.

والمرادُ بذلك ردُّ ما كانت العربُ تزعمُ مِن أنَّ اللبيبَ الأريبَ له قَلْبانِ، ولذلك قيلَ لأبي مَعمرٍ أو[2] جميلِ بنِ أسدٍ الفِهْرِيِّ: ذو القَلْبَينِ[3]، والزَّوجَة

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٧٧).

(٢) «أو»: ليس في نسخة الفاروقي. وأفاض الخفاجي في توجيه فروق النسخ في هذا الموضع، فانظر في «حاشيته».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٧١ـ٤٧٢)، و«تأويلات أهل السنة» (٨/ ٣٤٩)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ٦)، و«النكت والعيون» (٤/ ٣٧٠ ـ ٣٧١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٥١)، و«التيسير في التفسير» لأبي حفص النسفي عند هذه الآية، واسمه في هذه المصادر: «جميل بن معمر أبو معمر»، وفي كتب الصحابة: جميل بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح القرشي، وهو من مسلمة الفتح. انظر: «الاستيعاب» (١/ ٢٤٧)، و«أسد الغابة» (١/ ٤٣٣)، و«الإصابة» (١/ ٥٠٠).

وقول المؤلف: «جميل بن أسد»، كذا ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٤٧) عن الفراء، وهكذا رواه ابن بشكوال في «غوامض الأسماء المبهمة» (٢/ ٧٠٥) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابـن عباس. ووقع في مطبوع «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٤): «جميل بن أوس».

المظاهـرَ عنهـا كالأمِّ، ودَعِـيَّ الرَّجـلِ ابنَه[١]، ولذلـك كانوا يقولـونَ لزيدِ بـنِ حارثَةَ الكلبـيِّ عتيـقِ رسـولِ اللهِ: ابـنُ محمَّدٍ.

أو المرادُ: نفيُ الأمومَةِ والبنوَّةِ عن المُظاهَرِ عنها والمتبنَّى، ونفيُ القَلبينِ لتَمهيدِ أَصلٍ يُحملانِ عليه[٢]، والمعنى: كما لم يجعَلِ اللهُ قَلْبينِ في جوفٍ لأدائِه إلى تَناقُضٍ ـ وهو أن يكونَ كلٌّ مِنْهما أصلًا لكلِّ القُوَى وغيرَ أصلٍ ـ لم يجعلِ الزَّوجةَ والدَّعِيَّ اللَّذَينِ لا ولادةَ بينَهُما وبينَه أمَّه وابنَه اللَّذَينِ بينَهُما وبينَهُ وِلادةٌ.

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿اللَّايْ﴾ بالياءِ وحدَهُ على أنَّ أصلَـه: اللاءِ بهمزَةٍ فخُفِّفَت، وعن الحِجازِيَّيْنِ مِثلُه، وعنهما وعن يعقوبَ بالهمزِ وحدَهُ[٣].

وأصـلُ ﴿تَظَّهَّـرُونَ﴾: تَتظهَّـرُونَ، فأُدغِمَـت التَّـاءُ الثَّانيَـةُ فـي الظَّـاءِ، وقـرأَ ابـنُ عامـرٍ: ﴿تَظَّاهَـرُونَ﴾ بالإدغـامِ، وحـمـزةُ والكِسـائيُّ بالحـذفِ، وعاصـمٌ: ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ مِن ظاهرَ[٤].

وقـرئ: (تُظَهِّـرُونَ) مِن ظَهَّر بمعنـى ظاهرَ؛ كعَقَّـد بمعنى عاقَـدَ، و(تَظْهَرونَ) مـن الظُّهورِ[٥].

---

(١) قوله: «والزوجة» بالنصب عطف على (اللبيبَ)، وكذا «دعيَّ الرجل». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٥٥).

(٢) أي: يحمل النَّفيان على الأصل. انظر: «حاشية القونوي» (١٥/ ٢٩٦).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٧ ـ ١٧٨)، و«النشر» (١/ ٤٠٤) وفيه: قرأ ابنُ عامر والكوفيونَ بإثباتِ ياءٍ ساكنةٍ بعد الهمزة، وقرأ الباقون بحذفها وهم: نافعٌ وابنُ كثير وأبو عمرٍو وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ، واختُلِف عن هؤلاء في تحقيق الهمزة وتسهيلها وإبدالِها، فقرأ يعقوبُ وقالونُ وَقُنبلٌ بتحقيق الهمزة، وقرأ أبو جعفرٍ ووَرشٌ بتسهيلها بَيْنَ بَيْنَ، واختُلِف عن أبي عمرٍو والبَزِّيِّ ما بين التَّسهيل كذلك، أو إبدالِ الهمزة ياءً ساكنةً.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٩) الأولى عن الحسن والثانية عن أبي عمرو في رواية هارون.

ومعنى الظِّهارِ: أن يقولَ للزَّوجَةِ: (أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمِّي) مأخوذٌ من الظهرِ باعتبارِ اللفظِ كالتَّلبِيَةِ مِن (لَبَّيكَ)، وتَعدِيَتُه بـ(مِن) لتَضمُّنِه معنى التَّجنُّبِ؛ لأنَّه كان طلاقًا في الجاهليَّةِ، وهو في الإسلامِ يَقتَضِي الطَّلاقَ، أو الحرمَةَ إلى أداءِ الكفَّارةِ؛ كما عُدِّيَ (آلَى) بها وهو بمعنى: حلَفَ.

وذكرُ الظَّهرِ للكنايةِ عن البَطنِ الذي هو عمودُهُ فإنَّ ذِكرَهُ يقاربُ ذكرَ الفَرْجِ، أو للتَّغليظِ في التَّحريمِ، فإنَّهُم كانوا يحرِّمونَ إتيانَ المَرأةِ وظهرُهَا إلى السَّماءِ.

و(أدعياء): جمع دَعِيٍّ على الشُّذوذِ، وكأنَّه شُبِّهَ بفَعيلٍ بمَعنى فاعلٍ فجُمِعَ جمعَهُ.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى كلِّ ما ذُكِرَ، أو إلى الأخيرِ.

﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ لا حقيقةَ له في الأعيانِ كقولِ الهاذي.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾: ما له حَقيقَةٌ عينيَّةٌ مطابقَةٌ له ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾: سبيلَ الحَقِّ.

(٥) ـ ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾: انسُبُوهُم إليهِم، وهو إفرادٌ للمَقصودِ من أقوالِه الحقَّةِ، وقولُه: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ تعليلٌ له، والضَّميرُ لمصدَرِ (ادعو)، و﴿أَقْسَطُ﴾ أفعَلُ تفضيلٍ قُصِدَ به الزيادَةُ مُطلَقًا مِن القِسْطِ بمعنى العدلِ، ومعناه: البالغُ في الصِّدقِ.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فتَنسِبُوهُم إليهِم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فهُمْ إخوانُكُم في الدِّينِ ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾: وأولياؤُكُم فيه، فقولوا: هذا أخي ومَوْلاي، بهذا التَّأويلِ.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾: ولا إثمَ عليكم فيما فَعَلْتُموهُ مِن ذلك مُخطِئينَ؛ قبلَ النَّهيِ أو بعدَهُ، على النِّسيانِ أو سبقِ اللِّسانِ.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكنِ الجُناحُ فيما تعمَّدَت، أو: ولكنْ ما تعمَّدَتْ فيه الجناحُ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لعفوِه عن المُخطِئِ.

واعلم أنَّ التَّبنِّيَ لا عبرةَ له عندَنا، وعندَ أبي حنيفةَ يوجبُ عتقَ مَملوكِه ويثبتُ النَّسبَ لِمَجهولِه الذي يمكنُ إلحاقُهُ بِه[1].

وأُجيبَ: بأنَّه لا فصلَ؛ لأنَّ المَعطوفَ المَوصولَ مَع الصِّلَةِ على مثلِه وهو: (ما أخطَأْتُم)[2].

(٦) - ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ في الأمورِ كلِّها، فإنَّه لا يأمرُهُم ولا يَرْضَى[3] مِنْهُم إلَّا بما فيه صلاحُهُم ونجاحُهُم بخلافِ النَّفسِ، فلذلك أطلقَ، فيَجِبُ عليهم أن يكونَ أحبَّ إليهم مِن أَنفُسِهِم، وأمرُهُ أنفَذَ عليهم مِن أمرِهَا، وشفَقَتُهم عليه أتمَّ مِن شَفقَتِهِم عليها.

---

(١) قال المظهري في «تفسيره» (٧/ ٢٨٥): وهذا سهوٌ منه، فإن عند أبي حنيفة رحمه الله لا يعتق المملوك بقوله: تبنيتك وجعلتك ابني، وكذا لا يثبت النسب إذا قال لمجهول النّسب: تبنيتك وجعلتك ابني، بل عنده أن السيد إذا قال لعبده: هذا ابني، يعتق عليه سواءٌ كان يولد مثله لمثله أو لا، تصحيحاً لكلامه وحملاً له على المجاز؛ كأنه قال: هذا حر، إطلاقاً للسبب على المسبَّب، إذ البنوة سبب للحرية لقوله ﷺ: «من ملك ذا رحم محرم منه عتق عليه»، وقد خالف أبا حنيفة صاحباه فيما إذا قال لعبده هو أكبر سناً منه: هذا ابني، فإنهما قالا: (لا يعتق)؛ بناء على خلافية في الأصولِ... إلى آخر ما قال.

(٢) انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٣٧٨).

(٣) في نسخة الفاروقي: «ولا يرتضي».

رُوِيَ أَنَّه عليهِ السَّلامُ أرادَ غزوةَ تبوكٍ فأمرَ النَّاسَ بالخُروجِ، فقال ناسٌ: نَستَأذِنُ آباءَنا وأمهاتِنا، فنزَلَتْ[1].

وقرئ: (وهو أبٌ لهم)[2]؛ أي: في الدِّينِ، فإنَّ كُلَّ نبيٍّ أبٌ لأُمَّتِه من حيثُ إنَّه[3] أصلٌ فيما به الحياةُ الأبديَّةُ، ولذلك صارَ المؤمنونَ إخوةً.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾: مُنَزَّلاتٌ مَنزِلَتَهُنَّ في التَّحريمِ واستحقاقِ التَّعظيمِ، وفيما عدا ذلك فكالأجنبيَّاتِ، ولذلك قالت عائشَةُ رضيَ اللهُ عنها: لسنَا أُمَّهاتِ النِّساءِ[4].

﴿وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾: وذَوُو القراباتِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التَّوارُثِ، وهو نسخٌ لِمَا كانَ في صَدرِ الإسلامِ مِن التَّوارُثِ بالهجرةِ والموالاةِ في الدِّينِ.

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: في اللوحِ، أو: فيما أَنْزَلَ، وهو هذه الآيةُ أو آيةُ المواريثِ، أو: فيما فرضَ اللهُ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بيانٌ[5] لأولي الأرحامِ، أو صلةٌ لـ(أولي)؛ أي: أولوا الأرحامِ بحقِّ القَرابَةِ أَوْلَى بالميراثِ مِن المؤمنينَ بحقِّ الدِّينِ، ومِن المُهاجرينَ بحقِّ الهجرةِ.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٧٣) عن النقاش. وقال ابن العربي في «أحكام القرآن» (٣/ ٥٤١): موضوع.

(٢) وهي قراءة ابن مسعود، رواها الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٥).

(٣) في نسخة الفاروقي: «فإن كل نبي أب لأمته لأنه».

(٤) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٤٢٢) ولفظه: عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت لها: يا أمه، فقالت: أنا أم رجالكم لست بأمكِ. ورواه بنحوه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٠/ ٦٧)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٩٣٦).

(٥) في نسخة الفاروقي: «من بيان».

﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ استثناءٌ من أعمِّ ما تُقدَّرُ الأَولويَّةُ فيه مِن النَّفعِ، والمرادُ بفعلِ المَعروفِ: التَّوصِيَةُ[1]، أو منقطعٌ.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾: كان ما ذكرَ في الآيتينِ ثابتًا في اللوحِ أو القُرآنِ، وقيل: في التَّوراةِ.

(٧) ـ ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ مقدَّرٌ بـ: اذكر، وميثاقُهم: عهودُهُم بتَبليغِ الرِّسالَةِ والدُّعاءِ إلى الدِّينِ القَيِّمِ.

﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ خصَّهُم بالذِّكرِ لأَنَّهم مشاهيرُ أَربابِ الشَّرائعِ، وقدَّمَ نبيَّنا عليه السَّلامُ تَعظيمًا له.

﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾: عظيمَ الشَّأنِ، أو: مُؤكَّدًا باليمينِ، والتَّكريرُ لبَيانِ هذا الوصفِ.

(٨) ـ ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾؛ أي: فَعَلنا ذلك ليسألَ اللهُ يومَ القيامةِ الأنبياءَ الذين صدَقوا عهدَهُم عمَّا قالوه لقومِهِم، أو تصديقِهم إيَّاهُم[2]؛ تَبكيتًا لهم.

أو: المصدِّقينَ لهم[3] عن تَصديقِهِم، فإنَّ مُصدِّقَ الصَّادقِ صادِقٌ.

أو: المؤمنينَ الذين صدَقوا عهدَهُم حين أَشهدَهُم على أنفسِهم عن صِدقِهِم عهدَهُم.

﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ عطفٌ على ﴿أَخذنا﴾ مِن حيثُ إنَّ بعثةَ الرُّسلِ

---

(١) في نسخة الفاروقي: «الوصية».

(٢) قوله: «أو تصديقهم إياهم» عطف على «ما قالوه»؛ أي: ليَسأل الأنبياءَ: ما الَّذي أجَابتْهُم بِهِ أُمَمُهم؟.

(٣) قوله: «أو المصدقين لهم» هو مع ما بعده عطف على «الأنبياء». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٥٩).

وأخـذَ الميثـاقِ مِنهُـم لإثابـةِ المؤمنينَ، أو علـى مـا دلَّ عليـه: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ كأنَّه قال: فأثـابَ المؤمنيـنَ وأعـدَّ للكافرينَ.

(٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني: الأحزابَ، وهُم قُرَيشٌ وغَطَفانُ ويَهودُ قُريظةَ والنَّضيرِ، وكانوا زهاءَ اثنَيْ عشرَ ألفًا[١].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾: ريحَ الصَّبا ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: الملائكةُ.

رُوِيَ أنَّه لَمَّا سَمِعَ بإقبالِهم ضربَ الخندقَ على المدينةِ، ثمَّ خرجَ إليهم في ثَلاثةِ آلافٍ والخندقُ بينَه وبينَهُم، ومضى على الفريقينِ قريبُ شهرٍ لا حربَ بينَهُم إلا التَّراميَ بالنَّبلِ والحجارةِ، حتى بعثَ اللهُ عليهم صَباً باردةً في ليلةٍ شاتِيَةٍ فأخصَرَتْهُم[٢]، وسَفَتِ التُّرابَ في وُجوهِهِم، وأطفأت نيرانَهُم، وقلعَتْ خِيامَهُم، وماجتِ الخيلُ بعضُها في بعضٍ، وكبَّرت الملائكةُ في جوانبِ العسكَرِ، فقالَ طُلَيحَةُ بنُ خُوَيلدٍ الأسديُّ: أمَّا مُحمَّدٌ فقَدْ بدأكُمْ بالسِّحرِ فالنَّجاءَ النَّجاءَ! فانهزَمُوا مِن غيرِ قِتالٍ[٣].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن حفرِ الخَندَقِ.

وقرأ البَصرِيَّانِ بالياءِ[٤]؛ أي: بما يعمَلُ المُشرِكُونَ مِن التَّحزُّبِ والمحاربةِ.

﴿بَصِيرًا﴾ رائيًا.

---

(١) ذكره السمعاني في «تفسيره» (٤/ ٢٦٢).

(٢) أي: أوقعتهم في الخَصَر؛ وهو البرد، في «الصحاح» (مادة: خصر): الخصَر بالتحريك: البرد، وقد خَصِرَ الرجل: إذا آلمه البرد في أطرافه.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٧٧)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢١٩) وما بعدها.

(٤) وكذا عزاها الأزهري في «معاني القراءات» (٢/ ٢٧٨) إلى أبي عمرو ويعقوب. وهي في المشهور قراءة أبو عمرو وحده، كما نصَّ عليه ابن مهران في «المبسوط» (١/ ٣٥٥)، والجزري في «شرح طيبة النشر» (ص: ٢٩٦)، وانظر: «السبعة» (ص: ٥١٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

(١٠) ـ ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدلٌ مِن ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: مِن أَعْلَى الوادي مِن قِبَلِ المشرقِ بنو غطفانَ ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: مِن أسفلِ الوادي مِن قِبَلِ المغربِ قُرَيشٌ ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾: مالَتْ عن مُستوى نظرِهَا حيرةً وشُخوصًا ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ رُعبًا؛ فإنَّ الرِّئَةَ تنتَفِخُ مِن شدَّةِ الرَّوعِ، فيرتفِعُ القلبُ بارتفاعِهَا إلى رأسِ الحَنْجَرَةِ، وهي مُنتَهَى الحُلقومِ مدخلُ الطَّعامِ والشَّرابِ.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾: الأنواعَ مِن الظَّنِّ، فظنَّ المخلصونَ الثُّبَّتُ القلوبِ أنَّ اللهَ منجزُ وعدِهِ في إعلاءِ دينِهِ، أو مُمتَحِنُهُم فخافوا الزَّلَلَ وضعفَ الاحتمالِ، والضِّعافُ القُلوبِ والمنافقونَ ما حُكِيَ عنهم.

والألِفُ مَزيدَةٌ في أمثالِهِ تَشبيهًا للفَواصلِ بالقَوافي، وقد أجرى نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ فيها الوصلَ مُجرى الوَقفِ، ولَمْ يَزِدْها أبو عمرٍو وحمزَةُ ويعقوبُ مُطلَقًا وهو القِياسُ[1].

(١١) ـ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: اختُبِرُوا فظهرَ المخلصُ مِن المنافقِ، والثابتُ مِن المُتزلزلِ ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ من شدَّةِ الفَزعِ. وقرئ: (زَلزالًا) بالفَتحِ[2].

(١٢) ـ ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفُ اعتقادٍ: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مِن الظَّفَرِ وإعلاءِ الدِّينِ ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾: وعدًا[3] باطِلًا.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٩)، و«المبسوط» لابن مهران (ص: ٣٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٩) عن الجحدري.

(٣) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «قولًا».

قيل: قائلُه مُعَتِّبُ بنُ قُشَيرٍ؛ قال: يَعِدُنا مُحمدٌ فتحَ فارسَ والرُّومِ، وأحدُنا لا يقدِرُ أن يتبرَّزَ فَرَقًا، ما هذا إلا وَعدُ غُرورٍ[1].

(١٣) ـ ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ﴾ يعني: أوسَ بنَ قَيْظِيٍّ وأتباعَه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ أهلَ المدينَةِ.

وقيل: هو اسمُ أرضٍ وقعَتِ المدينَةُ في ناحيَةٍ مِنْها.

﴿لا مَقام﴾: لا مَوضِعَ قيامٍ ﴿لَكُمۡ﴾ هاهنا، وقرأ حفصٌ بالضَّمِّ[2] على أنَّه مَكانٌ أو مَصدَرٌ مِن أقامَ.

﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾ إلى مَنازِلِكُم هاربينَ.

وقيل: المعنى: لا مقامَ لَكُم على دينِ محمَّدٍ فارجِعُوا إلى الشِّركِ وأَسلِمُوه لتَسْلَمُوا، أو: لا مقامَ لَكُم بيثرِبَ فارجِعُوا كُفَّارًا ليُمْكِنَكُم المقامُ بها.

﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ للرُّجوعِ ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾: غيرُ حَصِينَةٍ،

---

(١) ذكره ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٢٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٣٥). ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٩ ـ ٤٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٤١٨ ـ ٤٢٠)، من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده، وكثير متروك. وليس فيه تسمية القائل.

ورواه الطبري دون تسمية القائل أيضاً عن قتادة وابن زيد.

وقصة تبشير النبي ﷺ بمدائن كسرى وقيصر وقعت عند كسر الصخرة التي عرضت لهم أثناء حفر الخندق أخرجها النسائي (٣١٧٦) من طريق أبي سكينة ـ رجل من المحررين ـ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. ورواها الإمام أحمد في «المسند» (١٨٦٩٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٠٧)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

وأصلُها الخَلَلُ، ويجوزُ أن يكونَ تخفيفَ العَورَةِ، مِن عَوِرَت الدَّارُ: إذا اختلَّتْ، وقد قُرِئَ بها.

﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هيَ حَصينَةٌ ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾: وما يريدونَ بذلك إلا الفِرارَ مِن القتالِ.

(١٤) ـ ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ دُخِلَتِ المدينةُ، أو بيوتُهُم ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾: مِن جَوانِبِها، وحذفُ الفاعلِ للإيماءِ بأنَّ دُخولَ هؤلاء المُتحزِّبينَ عليهِم[١] ودخولَ غيرِهِم مِن العساكرِ سِيَّانِ في اقتضاءِ الحُكمِ المرتَّبِ عليه.

﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾: الرِّدَّةَ ومُقاتلةَ المسلمينَ ﴿لَآتَوْهَا﴾: لأعطَوْها، وقرأَ الحِجازِيَّانِ بالقصرِ[٢] بمعنى: لَجَاؤُوها وفَعَلُوها.

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾: بالفتنَةِ؛ أي[٣]: بإعطائِها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثَما السُّؤالُ والجَوابُ.

وقيل: وما لَبِثُوا بالمدينةِ بعدَ الارتدادِ إلا يَسيرًا.

(١٥) ـ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ يعني: بني حارثةَ عاهَدُوا رسولَ اللهِ ﷺ يومَ أُحُدٍ حينَ فَشِلُوا، ثمَّ تابُوا أن لا يَعودوا لِمثلِه.

﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾: مَسؤولًا عن الوفاءِ به مجازًى عليه.

(١٦) ـ ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ فإنَّه لا بُدَّ لكلِّ شَخصٍ مِن حتفِ أنفٍ أو قتلٍ في وقتٍ مُعَيَّنٍ سبقَ بِهِ القَضاءُ وجرى عليهِ القَلَمُ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «لهم».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

(٣) في نسخة الطبلاوي: «أو بإعطائها». وأشار الخفاجي إلى النسختين في «حاشيته».

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: وإنْ نفعَكُم الفرارُ ـ مثلًا ـ فمُتِّعْتُم بالتَّأخيرِ لم يَكُن ذلك التَّمتيعُ إلا تَمتيعًا أو زمانًا قَليلًا.

(١٧) ـ ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾؛ أي: أو يصيبُكُم بسوءٍ إن أرادَ بِكُم رحمةً، فاخْتُصِرَ الكلامُ كما في قولِه:

مُتَقَلِّــدًا سَــيْفًا وَرُمْحَــا[١]

أو: حُمل الثَّاني على الأوَّلِ لِمَا في العصمَةِ مِن مَعنى المنعِ.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يَنفَعُهُم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفعُ الضرَّ عنهم.

(١٨) ـ ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾: المثبِّطينَ عن رَسولِ اللهِ عليه السَّلامُ وهم المنافقونَ ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ مِن ساكني المدينةِ: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾: قَرِّبُوا أنفسَكُم إلينا، وقد ذُكرَ أصلُه في (الأنعامِ).

﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: إلا إتيانًا أو زمانًا أو بأسًا قليلاً، فإنَّهم يعتذرونَ ويثبِّطونَ ما أَمكنَ[٢] لَهُم، أو: يخرجونَ مع المؤمنينَ ولكنْ لا يقاتلونَ إلا قليلًا؛ كقَوْلِه: ﴿مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠].

---

(١) عجز بيت لعبد الله بن الزِّبَعْرى، وهو في ديوانه (ص: ٣٢)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٦٨)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ١٢١)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٧٧)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٢٩١) و(٢/ ٢٠٤)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٣١) و«تفسير الطبري» (١/ ١٣٧). ومعناه: متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً. وصدره:

يــا ليــت زوجــك قــد غــدا

ويروى:

ورأيــتُ زوجَــكَ فــي الوغــى

(٢) في نسخة الخيالي: «ويتثبطون»، وفي نسخة التفتازاني: «وينتظرون».

وقيل: إنَّه مِن تتمَّةِ كلامِهِم، ومَعناه: ولا يأتي أصحابُ مُحمَّدٍ حربَ الأحزابِ ولا يُقاومُونَهُم إلا قليلًا.

(١٩) ـ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: بُخلاءَ عَليكُم بالمعاونةِ، أو النَّفقةِ في سبيلِ اللهِ، أو الظَّفَرِ والغَنيمةِ، جمعُ شحيحٍ، ونصبُها على الحالِ مِن فاعلِ ﴿يَأْتُونَ﴾ أو ﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾، أو على الذَّمِّ.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في أحداقِهِم ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ﴾: كنظرِ المَغشيِّ عليه أو كدَورانِ عينِه[1]، أو: مشبَّهينَ به، أو مشبَّهةً بعينِه.

﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾: مِن مُعالجةِ سَكَراتِ المَوتِ خوفًا ولِوَاذًا بك.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وحِيزَتِ الغَنائمُ ﴿سَلَقُوكُمْ﴾: ضَرَبوكُم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾: ذَرِبَةٍ يطلبونَ الغنيمةَ، والسَّلْقُ: البَسْطُ بقهرٍ باليدِ أو اللسانِ.

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ نصبٌ على الحالِ أو الذَّمِّ، ويؤيِّدُه قراءةُ الرَّفعِ[2]، وليس بتكريرٍ لأنَّ كُلًّا مِنْهُما مُفيدٌ[3] مِن وَجْهٍ.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ إخلاصًا ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾: فأظهَرَ بُطلانَها إذ لم تَثْبُت لهم أعمالٌ فتَبْطُلَ، أو: أبطلَ تَصنُّعَهُم ونفاقَهُم.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباطُ ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: هيِّنًا؛ لتعلُّقِ الإرادةِ به وعدمِ ما يمنعُهُ عنه.

---

(١) في نسخة الخيالي: «عينيه».

(٢) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦١٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٧٦)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٢٩٩)، عن ابن أبي عبلة.

(٣) في نسخة الفاروقي: «مقيد». وأشار إلى النسختين الخفاجي في «حاشيته» فقال: وقولُهُ: مُقيّد من وجه يعني أنَّ تغاير القيدين جعلهما مُتغايِر، وفي نسخَةٍ: (مُفيد) بالفاءِ والمعنى واحد.

(٢٠) ـ ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾؛ أي: هؤلاء لجُبنِهم يظنُّونَ أنَّ الأحزابَ لم ينهزِمُوا وقد انهزَمُوا، ففَرُّوا إلى داخلِ المدينَةِ.

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كَرَّةً ثانيةً ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾: تمنَّوْا أنَّهُم خارجونَ إلى البدوِ حاصلونَ بين الأعرابِ ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كلَّ قادمٍ مِن جانبِ المدينَةِ ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾: عمَّا جرى عليكُم.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ هذه الكرَّةَ ولم يرجِعوا إلى المدينةِ وكان قتالٌ ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وخَوْفًا مِن التَّعييرِ.

(٢١) ـ ﴿لَقَدْ كانَ لكُمْ في رَسولِ اللهِ إسوةٌ حَسَنةٌ﴾: خَصلةٌ حَسنَةٌ من حقِّها أن يُؤتَسَى بها كالثَّباتِ في الحربِ ومُقاساةِ الشَّدائدِ.

أو: هو في نفسِه قدوةٌ يَحسُنُ التَّأسِّي بـه كقولِك: (في البيضَةِ عشرونَ مَنًّا حديدًا)[١]؛ أي: هي في نَفسِها هذا القَدْرُ مِن الحديدِ.

وقرأ عاصِمٌ بضمِّ الهمزَةِ[٢] وهو لغةٌ فيه.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾؛ أي: ثـوابَ اللهِ، أو لقـاءَه ونعيـمَ الآخـرةِ، أو أيـامَ اللهِ واليـومَ الآخِـرَ خصوصًـا.

وقيـل: هـو كقولِـكَ: (أرجو زيـدًا وفضلَه) فـإنَّ اليـومَ الآخرَ يومُ الله بحسَـب الحكـم[٣]، والرَّجـاءُ يحتمِلُ الأمـلَ والخوفَ.

---

(١) قوله: «في البَيْضَةِ عشرونَ منًّا حَديداً» المراد بالبيضة: بيضة الحديد، وهي الكرة أو ما يوضع على الرأس وهو المغفر، والمنُّ بتشديد النون وزن معروف، و«حديداً» بدل منه، وفي نسخة: «مَنَا» بالقصر والتخفيف والإضافة إلى «حديد»، وهو لغة فيه بمعنى المن أيضاً. انظر: «حاشية الخفاجي». وقال الجاربردي في «الحاشية» (ج٢/ و٢٨١أ): المنا أفصح من المنِّ.

(٢) وقراءة الباقين بكسرها، انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

(٣) قوله: «فإنّ اليوم الآخر يوم الله..» يعني: أنه في معنى يوم الله لشدّة اختصاص ذلك اليوم به من بين =

و﴿لِّمَن كَانَ﴾ صلةٌ لـ﴿حَسَنَةٌ﴾ أو صفةٌ لها.

وقيل: بدلٌ مِن ﴿لَكُمْ﴾ والأكثرُ على أنَّ ضميرَ المخاطبِ لا يبدلُ منه.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾: وقَرَنَ بالرَّجاءِ كثرةَ الذِّكرِ المؤدِّيَةَ إلى ملازمةِ[1] الطَّاعةِ، فإنَّ المؤتسِيَ بالرَّسولِ عليه السَّلامُ مَن كان كذلك.

(٢٢) ـ ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بقولِه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]، وقولِه عليهِ السَّلامُ: «سيشتَدُّ الأمرُ باجتماعِ الأحزابِ عليكُم والعاقبَةُ لَكُم عليهِم»[2]، وقولِه عليه السَّلامُ: «إنَّهم سائرونَ إلَيْكُم بعدَ تسعٍ أو عشرٍ»[3].

وقرأ حمزةُ وأبو بكرٍ بكسرِ الرَّاءِ وفتحِ الهمزةِ[4].

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾: وظهرَ صِدقُ خبرِ اللهِ ورسولِه، أو: صَدَقا في النُّصرةِ والثَّوابِ كما صَدَقا في البلاءِ، وإظهارُ الاسمِ للتَّعظيمِ.

= أيامه بحسب نفوذ حكمه فيه ظاهراً وباطناً من غير احتمال أن يكون لغيره فيه حكم كما في قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] فتعلقه به لشدة ظهوره مغن عن إضافته لضميره على ما عرف في أشباهه من هذا الباب، وفي نسخة: «داخل فيها بحسب الحكم»؛ أي: في جملة أيامه. انظر: «حاشية الخفاجي».

(١) في نسخة الخيالي: «المؤذنة بملازمة» وفي نسخة الطبلاوي: «المؤدية لملازمة».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) قال الشيخ ولي الدين العراقي: «لم أقف عليه»، انظر: «حاشية السيوطي» (١٠/ ٢٣١)، وكذا قال ابن حجر: لم أجده. انظر: «الكافي الشاف» (ص: ١٣٣). وقد ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢١٦) عن الكلبي.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦١).

﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ فيه ضميرٌ لِمَا رأوا، أو الخَطْبِ، أو البلاءِ[١].

﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ باللهِ ومواعيدِهِ ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامرِهِ ومَقاديرِه.

(٢٣) ـ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ مِن الثَّباتِ مع الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ، والمقاتلَةِ لإعلاءِ[٢] الدِّينِ، مِن (صَدَقَنِي): إذا قالَ لكَ الصِّدْقَ، فإنَّ المعاهَدَ إذا وفَّى[٣] بعهدِهِ فقدْ صدَقَ فيه.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾: نَذْرَهُ بأَنْ قاتلَ حتى استُشهدَ كحمزَةَ ومُصعَبِ بنِ عُمَيرٍ وأنسِ بنِ النَّضْرِ، والنَّحْبُ: النَّذْرُ، استُعِيرَ للمَوتِ لأنَّه كنَذْرٍ لازِمٍ في رقبةِ كلِّ حيوانٍ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الشَّهادةَ، كعُثمانَ وطَلْحَةَ ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ العهدَ ولا غيَّرُوهُ ﴿تَبْدِيلًا﴾: شيئًا مِن التَّبديلِ.

رُوِيَ أنَّ طلحةَ ثبتَ معَ رَسولِ اللهِ ﷺ يومَ أُحُدٍ حتَّى أُصيبَتْ يَدُه، فقالَ عليهِ السَّلامُ: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ»[٤].

وفيه تعريضٌ لأهلِ النِّفاقِ ومَرَضِ القلبِ بالتَّبديلِ، وقوله:

---

(١) قولـه: «فيـه ضمير لمـا رأوا»؛ أي: في ﴿زَادَهُمْ﴾ ضمير مستتر يعودُ لِمَا رأوا المفهومِ من قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ و«ما» تحتمِلُ الموصولية أو المصدرية، والخطب والبلاء مفهومان من السياق أو الإشارة. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «مع أعداء الدين».

(٣) في نسخة التفتازاني: «أوفى».

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٣٧٥). وفي «صحيح البخاريِّ» (٤٠٣٦) عَن قيسِ بن أبي حازمٍ: رأيتُ يدَ طَلْحَةَ وهي شَلَّاءَ وَقَى بِها رَسُولَ اللهِ ﷺ يومَ أُحُدٍ. وروى الترمذي (١٦٩٢) وحسنه، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٧٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤٣١٢) وصححه، مِن حَديثِ الزُّبيرِ مرفوعًا: «أوجبَ طَلحَةُ»، وقوله: «أوجب»؛ أي: عمل عملاً أوجب له الجنة، انظر: «النهاية» (مادة: وجب).

(٢٤) - ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ تعليلٌ للمَنطوقِ والمعرَّضِ به، وكأنَّ المنافقينَ قصدُوا بالتَّبديلِ عاقبةَ السُّوءِ كما قصدَ المخلِصونَ بالثَّباتِ والوفاءِ العاقبةَ الحُسْنَى، والتَّوبَةُ عليهم مَشروطةٌ بتوبَتِهم، أو المرادُ بها التَّوفيقُ للتَّوبَةِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لِمَن تابَ.

(٢٥) - ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني الأحزابَ ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾: مَغيظينَ[1] ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾: غيرَ ظافرينَ، وهما حالانِ بتداخُلٍ أو تعاقُبٍ.

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بالرِّيحِ والملائكةِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداثِ ما يُريدُه ﴿عَزِيزًا﴾: غالبًا على كلِّ شيءٍ.

(٢٦) - ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾: ظاهَرُوا الأحزابَ ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: قُرَيظةَ ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾: مِن حُصونِهم، جمعُ صِيْصِيَةٍ وهي ما يُتحصَّنُ به، ولذلك يقالُ لقرنِ الثَّورِ والظَّبيِ وشَوكَةِ الدِّيكِ.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾: الخوفَ، وقُرِئَ بالضَّمِّ[2] ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وقُرِئَ بضَمِّ السِّينِ[3].

رُوِيَ أنَّ جبريلَ أتى رَسولَ اللهِ عليهما السَّلامُ صَبيحةَ الليلةِ التي انهزمَ فيها الأحزابُ فقال: أَتَنْزِعُ لَأْمَتَكَ والملائكةُ لم يَضَعُوا السِّلاحَ؟ إنَّ اللهَ يَأمرُكَ بالسَّيرِ إلى بني قُريظةَ وأنا عامِدٌ إليهم، فأَذِّنْ في النَّاسِ: أن لا تصلُّوا[4] العصرَ إلا ببني قُريظَةَ،

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «متغيظين». وأشار إلى النسختين الخفاجي في «الحاشية».

(٢) بضم العين وهي قراءة ابن عامر والكسائي، انظر: «السبعة» (ص: ٢١٧)، و«التيسير» (ص: ٩١).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠) عن أبي حيوة.

(٤) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «يصلوا».

فحاصرَهُم إحدى وعِشرينَ أو خَمْسًا وعشرينَ حتَّى جَهَدَهُم الحصارُ، فقالَ لَهُم: «تنزلونَ على حكمِي؟»، فأبَوْا فقال: «على حكمِ سعدِ بنِ مُعاذٍ» فرضُوا به، فحكَمَ سَعدٌ بقتلِ مُقاتِلتِهِم وسَبْيِ ذَراريهم ونِسائِهِم، فكَبَّرَ النَّبيُّ عليهِ السَّلامُ وقال: «لقَدْ حكَمْتَ بحُكمِ اللهِ مِن فوقِ سَبعَةِ أرقِعَةٍ»[1] فقُتِلَ مِنهُم ستُّ مئةٍ أو أكثرُ وأُسِرَ سبعُ مئةٍ[2].

(٢٧) ـ ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾: مزارعَهُم ﴿وَدِيَـٰرَهُمْ﴾: حصونَهم ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾: نقودَهُم ومَواشيَهم وأثاثَهُم.

رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ جعلَ عقارَهُم للمُهاجرينَ، فتكلَّمَ فيه الأنصارُ فقال: «إنَّكُم في مَنازِلِكُم»[3]، ....

(١) قال في «النهاية»: «سبعَة أَرقِعَةٍ» بالقافِ يعني: سبعَ سَماواتٍ، كلُّ سماءٍ يقالُ لها: رَقِيعٌ، والجمعُ: أَرْقِعَةٌ، ويقال: الرَّقِيعُ اسمُ سماءِ الدُّنيَا فأَعطى كُلَّ سماءٍ اسمَها. انظر: «النهاية» (مادة: رقع).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣٣) وما بعدها، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٧٢) وما بعدها، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٥) وما بعدها. وقوله: «إلا القدر الأخير» يعني: قوله ﷺ: «لقَد حَكمتَ بحُكمِ الله مِن فَوقِ سَبْعَةِ أَرقِعَةٍ» وهذا مرسل، فإن علقمة بن وقاص ليس له صحبة، قال الحافظ في «التقريب»: أخطأ من زعم أن له صحبة. لكن روي نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص، رواه النسائي في «الكبرى» (٥٩٠٦) ولفظه: (حَكَمْتَ فيهم بِحُكم الله الذي حَكَمَ به فوقَ سَبعِ سماواتٍ). وإسناده صحيح كما قال الذهبي في «العلو للعلي الغفار» (ص: ٣٥).
وأصل القصة عند البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
ونزول قريظة على حكم سعد رضي الله عنه رواه أيضا البخاري (٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه: «حكمت بحكم الله» أو: «بحكم الملك». وقول النبي ﷺ: (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة) رواه البخاري (٤١١٩)، ومسلم (١٧٧٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواهُ الواقدِيُّ مِن رِوايَةِ خارجَةَ بنِ زَيدٍ عَن أمِّ العَلاءِ، انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩). والتعليق الآتي.

وقال عُمَرُ رضيَ اللهُ عنه: أمَا تُخَمِّسُ كما خَمَّسْتَ يومَ بدرٍ؟ قال: «لا، إنَّما جُعِلَت هذه لي طُعْمَةً»[1].

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ كفارسَ والرُّومِ، وقيل: خيبرُ، وقيل: كلُّ أرضٍ تُفتَحُ إلى يومِ القيامةِ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فيقدرُ على ذلك.

(٢٨) - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾: السَّعَةَ والتَّنعُّمَ فيها.

﴿وَزِينَتَهَا﴾: زخارِفَها ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾: أُعطِكُنَّ المتعةَ ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: طلاقًا مِن غيرِ ضِرارٍ وبدعةٍ.

رُوِيَ أنَّهُنَّ سألنَهُ ثيابَ الزِّينةِ وزيادةَ النَّفقَةِ فنزلَتْ، فبدأَ بعائشةَ فخيَّرَها فاختارَتِ اللهَ ورسولَهُ، ثمَّ اختارَتِ الباقياتُ اختيارَهَا، فشكرَ لَهنَّ اللهُ ذلكَ فأنزلَ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾[2].

وتعليقُ التَّسريحِ بإرادَتِهنَّ الدُّنيَا وجعلُها قسيمًا لإرادَتِهنَّ الرُّسولَ يدلُّ على أنَّ المخيَّرةَ إذا اختارَتْ زوجَهَا لم تَطْلُق - خِلافًا لزَيدٍ والحسنِ ومالكٍ

---

(١) رواه الواقدي من طريق المسور بن رفاعة، انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٣٧٧).

وقد تابع المصنف الزمخشري في ذكر هذين الخبرين هنا، بينما هما في بني النضير لا بني قريظة كما هو واضح منهما، وتعقبه الآلوسي في «روح المعاني» (٢١/ ٢٦٣) فقال: وعليه لا يحسن من الزمخشري ذكره هاهنا مع أن الآيات عنده في شأن بني قريظة.

(٢) رواه عن الحسن مرسلًا: الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٨٦)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٧٤٧٦).

ورواه البخاري (٤٧٨٥) - ومعلقا بصيغة الجزم (٤٧٨٦) -، ومسلم (١٤٧٥/ ٢٢)، والترمذي (٣٢٠٤)، عن عائشة رضي الله عنها دون قوله: «فشكر...».

وإحدى الرِّوايتينِ عن عليٍّ[١] ـ ويؤيِّدُه قولُ عائشةَ: خيَّرَنا رسولُ اللهِ فاختَرْنَاه ولم يُعدَّ طلاقًا[٢].

وتقديمُ التَّمتيعِ على التَّسريحِ المسبَّبِ عنه مِن الكَرَمِ وحُسنِ الخُلُقِ.

وقيل: لأنَّ الفُرقةَ كانَت بإرادَتهنَّ كاختيارِ المخيَّرةِ نفسَها، فإنَّه طلقةٌ رَجعيَّةٌ عندَنا وبائنةٌ عندَ الحنفيَّةِ[٣]، واختُلِفَ في وجوبِه للمَدخولِ بها، وليس فيه ما يدلُّ عليه[٤].

وقُرِئَ: (أمتِّعُكُنَّ وأُسرِّحُكُنَّ) بالرَّفعِ[٥] على الاستئنافِ.

(٢٩) ـ ﴿وإن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ تُستحقَرُ دونَه الدُّنيا وزينتُها، و(مِن) للتَّبيينِ لأنَّهنَّ كلَّهُن كُنَّ مُحسناتٍ.

(٣٠) ـ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾: بكبيرةٍ ﴿مُّبَيَّنَةٍ﴾: ظاهرٍ قُبحُها، على قراءةِ ابنِ كثيرٍ وأبي بَكرٍ، والباقونَ بكسرِ الياءِ[٦].

---

(١) روي عن عليٍّ رضي الله عنه: أنها إذا اختَارَتْ زوْجَها فواحِدَةٌ رَجْعِيَّةٌ، وإن اختارَتْ نفسَها فواحِدَةٌ بائنةٌ، رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١١٩٧٤) و(١١٩٧٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٨٠٩٣) و(١٨٠٩٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٣٤٥ و٣٤٦)، وابن حزم في «المحلى» (١٠/ ١٢١). وهذه الرواية هي الأشهر عن علي رضي الله عنه كما ذكر البيهقي.
وروي عنه أيضاً: أنَّها إن اختَارَتْ زوْجَهَا فليْسَ بشَيءٍ، رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١١٩٨١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٣٤٦)، من طريق أبي جعفرٍ محمدِ بنِ عليٍّ عن عليٍّ رضي الله عنه، وهو منقطع لأن أبا جعفر لم يسمع من علي.

(٢) رواه البخاري (٥٢٦٢)، ومسلم (١٤٧٧).

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «عند أبي حنيفة».

(٤) انظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٧/ ٣٩٦).

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠) عن حميد الخزاز.

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٢٢٩ ـ ٢٣٠)، و«التيسير» (ص: ٩٥).

﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾: ضِعْفَي عذابِ غَيرِهِنَّ؛ أي: مِثلَيْه؛ لأنَّ الذَّنبَ مِنْهنَّ أقبَحُ، فإنَّ زيادةَ قُبحِهِ تَتْبعُ زيادةَ فضلِ المُذنِبِ والنِّعمةِ عليه، ولذلك جُعِلَ حدُّ الحُرِّ ضِعْفَيْ حَدِّ العَبدِ، وعوتِبَ الأنبياءُ بما لا يُعاتَبُ به غيرُهُم.

وقرأ البَصرِيَّانِ: ﴿يُضَعَّفْ﴾، وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ: ﴿نُضَعِّفْ﴾ بالنُّونِ وبناءِ الفاعلِ ونصبِ ﴿العَذابَ﴾[1].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ لا يمنعهُ عنِ التَّضعيفِ كونُهنَّ نساءَ النَّبيِّ، وكيفَ وهو سببُه؟

(٣١) - ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ﴾: ومَن يَدُم على الطَّاعةِ ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولعلَّ ذكرَ اللهِ للتَّعظيمِ لقولِه: ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾: مرَّةً على الطَّاعةِ، ومَرَّةً على طلبِهِنَّ رِضَا النَّبيِّ بالقَناعَةِ وحُسْنِ المُعاشَرَةِ.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿ويَعْمَل﴾ بالياءِ أَيْضًا حملًا على لفظِ (مَن)، و﴿يُؤتِها﴾ على أنَّ فيه ضميرَ اسمِ اللهِ[2].

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ في الجنَّةِ زيادةً على أجرِهَا.

(٣٢) - ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أصلُ (أَحَدٍ): (وَحَدٌ) بمَعنى الواحدِ، ثمَّ وُضِعَ في النَّفي العامِّ مُستَوِيًا فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ والواحدُ والكثيرُ[3].

والمعنى: لَستنَّ كجماعةٍ واحِدةٍ مِن جماعاتِ النِّساءِ في الفضلِ ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ مخالفَةَ حُكمِ اللهِ ورضا رَسولِه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢١)، و«التيسير» (ص: ١٧٩)، و«النشر» (٢/ ٣٤٨). والبصريان: أبو عمرو ويعقوب.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢١)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٣) في نسخة الفاروقي: «والأكثر».

﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾: فلا تَجِئْنَ بقولِكُنَّ خاضعًا لَيِّنًا مثلَ قولِ المُرِيْباتِ ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾: فُجورٌ.

وقُرِئَ بالجزمِ[1] عطفًا على محلِّ فعلِ النَّهي على أنَّه نَهْيُ مريضِ[2] القَلبِ عن الطَّمعِ عَقِيبَ نَهيِهِنَّ عن الخضوعِ بالقَوْلِ.

﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾: حسَنًا بعيدًا عن الرِّيبةِ.

(٣٣) ـ ﴿وقِرْنَ في بُيُوتِكُنَّ﴾ من وَقَرَ يَقِرُ وَقَارًا، أو: مِن قَرَّ يَقِرُّ، حُذِفَت الأولى مِن راءي (اقْرِرْنَ) ونُقِلَت كسرتُها إلى القافِ فاستُغْنِي عن همزةِ الوصلِ، ويؤيِّدُه قراءةُ نافعٍ وعاصمٍ بالفتحِ[3] مِن قَرِرْتُ أَقَرُّ لغةً فيه، ويحتملُ أن يكونَ مِن قَارَ يَقَارُ: إذا اجتمَعَ.

﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ﴾: ولا تتبخترْنَ في مَشيِكُنَّ ﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾: تبرُّجًا مثلَ تَبرُّجِ النِّساءِ في أيَّامِ الجاهليَّةِ القديمةِ؛ قيل: هي ما بينَ آدمَ ونوحٍ[4].

وقيل: الزَّمانُ الذي وُلِدَ فيه إبراهيمُ، كانت المرأةُ تلبَسُ دِرعًا من اللؤلؤِ فتَمشِي وسطَ الطَّريقِ تَعرِضُ نفسَها على الرِّجالِ، والجاهليَّةُ الأخرى ما بينَ عيسى ومُحمَّدٍ عليهما السَّلامُ.

وقيل: الجاهليَّةُ الأولى جاهليَّةُ الكفرِ قبلَ الإسلامِ، والجاهليَّةُ الأخرى جاهليَّةُ

---

(١) أي: (فيطمعِ) بكسر العين لالتقاء الساكنين، نسبت لأبي السمال وأبان بن عثمان وابن هرمز، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٨١)، و«البحر» (١٧/ ٣١٩).

(٢) في نسخة التفتازاني: «لمريض».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢١)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٩٨٩) عن الحكم.

الفُسوقِ في الإسلامِ، ويعضُدُهُ قولُه عليه السَّلامُ لأبي الدَّرداءِ: «إنَّ فيكَ جاهليَّةً» قال: جاهِليَّةُ كُفْرٍ أو إسلامٍ؟ قال «جاهليَّةُ كُفرٍ»[1].

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في سائرِ ما أمرَكُم به ونهاكُم عنه.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾: الذَّنبَ المدنِّسَ لعِرضِكُم، وهو تعليلٌ لأمرِهنَّ ونهيهنَّ على الاستئنافِ، ولذلك عمَّمَ الحكمَ.

﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نصبٌ على النِّداءِ أو المدحِ ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ عن المعاصي ﴿تَطْهِيرًا﴾.

واستعارةُ الرِّجسِ للمَعصِيَةِ، والتَّرشيحُ بالتَّطهيرِ للتَّنفيرِ عنها.

وتخصيصُ الشِّيعَةِ أهلَ البَيتِ بفاطمَةَ وعليٍّ وابنَيهِما رضيَ اللهُ عَنْهُم لِمَا رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ خرجَ ذاتَ غُدوَةٍ وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِن شعرٍ أسودَ فجلسَ، فأتَت فاطمَةُ فأدخلَها فيه، ثمَّ جاءَ عَلِيٌّ فأدخلَهُ فيه، ثمَّ جاءَ الحَسَنُ والحُسَينُ فأدخلَهُمَا فيه، ثمَّ قال: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾»[2] والاحتجاجُ بذلك على عِصمَتِهِم وكونِ إجماعِهِم حُجَّةً= ضَعيفٌ؛ لأنَّ التَّخصيصَ بهم لا يناسبُ ما قبلَ الآيةِ وما بعدَها، والحديثُ يَقتَضِي أنَّهم أهلُ البيتِ لا أنَّه ليسَ غيرُهُم.

(٣٤) - ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾: من الكتابِ الجامعِ بينَ الأمرينِ، وهو تذكيرٌ بما أنعمَ عليهنَّ حيثُ جعلَهنَّ أهلَ بيتِ النبوَّةِ ومَهْبِطَ الوحيِ، وما شاهدنَ مِن بُرَحَاءِ الوَحيِ ممَّا يوجبُ قوَّةَ الإيمانِ والحرصَ على الطَّاعةِ؛ حثًّا على الانتهاءِ والائتمارِ فيما كُلِّفنَ بِهِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٩٩) عن ابن زيد مرسلًا.

(٢) رواه مسلم (٢٠٨١). من حديث عائشة رضي الله عنها

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعلمُ ويُدبِّرُ ما يَصلحُ في الدِّينِ، ولذلك خيَّرَكُنَّ ووعظَكُنَّ، أو يعلمُ مَن يصلحُ لنبُوَّتِه ومَن يصلحُ أن يكونَ أهلَ بيتِه.

(٣٥) - ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾: الدَّاخِلينَ في السِّلمِ المُنقادِينَ لحُكْمِ اللهِ.

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: المصدِّقينَ بما يجِبُ أن يصدَّقَ به[1].

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾: المُداومينَ على الطَّاعةِ.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في القولِ والعَملِ.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطَّاعاتِ وعن المعاصي.

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾: المتواضعينَ للهِ بقُلوبِهِم وجوارِحِهم.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما وجبَ في مالِهم.

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصَّومَ المَفروضَ.

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الحرامِ.

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بقُلوبِهم وألسِنَتِهم.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ لِمَا اقترَفُوا من الصَّغائرِ لأنَّهنَّ مُكفِّراتٌ ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعَتِهِم، والآيةُ وَعدٌ لهنَّ ولأمثالهنَّ على الطَّاعةِ والتدرُّعِ بهذه الخِصالِ.

رُوِيَ أنَّ أزواجَ النَّبيِّ قُلنَ: يا رسولَ اللهِ! ذكرَ اللهُ الرِّجالَ في القرآنِ بخيرٍ، فما فينا خيرٌ نُذكرُ به؟ فنزلَتْ[2].

---

(١) «به» من نسخة الفاروقي.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٦١٤)، وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٨)، ورواه أيضاً الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١١)، ولفظه: قلن النساء: يا رسول الله! ما باله يذكر المؤمنين، ولا يذكر المؤمنات؟ فنزلت ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩١): «رواه الطبراني، وفيه قابوس وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله ثقات». وحسن إسناده المصنف في الموضع المذكور من «الدر المنثور».

وقيل: لَمَّا نزلَ فيهنَّ ما نزلَ، قال نِساءُ المسلمينَ: فما نزلَ فينا شَيءٌ؟ فنزلَتْ[١].

وعطفُ الإناثِ على الذُّكورِ لاختلافِ الجنسينِ وهو ضروريٌّ، وعطف الزَّوجينِ على الزَّوجينِ لتغايُرِ الوَصفينِ فليسَ بضَروريٍّ، ولذلك تركَ في قولِه: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥]، وفائدَتُه: الدَّلالةُ على أنَّ إعدادَ المعَدِّ لهم للجمعِ بينَ هذه الصِّفاتِ.

(٣٦) ـ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾: ما صحَّ له ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾؛ أي: قَضى رَسولُ اللهِ، وذكرُ اللهِ لتَعظيمِ أَمرِه، والإشعارِ بأنَّ قَضاءَه قضاءُ اللهِ؛ لأنَّه نزلَ في زينبَ بنتِ جَحشٍ بنتِ عمَّتِه أُميمةَ بنتِ عبدِ المطَّلبِ، خطبَها رَسولُ اللهِ لزيدِ بنِ حارثةَ فأَبَتْ هيَ وأَخوهَا عبدُ اللهِ[٢].

وقيل: في أُمِّ كُلثومٍ بنتِ عُقبةَ؛ وهبَتْ نفسَهَا للنَّبيِّ عليهِ السَّلامُ فزَوَّجَها مِن زَيدٍ[٣].

﴿أن تَكُونَ لهم الخِيَرَةُ مِن أَمرِهِم﴾: أن يختاروا مِن أَمرِهِم شيئًا، بل يَجِبُ عليهِم أَنْ يجعَلُوا اختيارَهُم تبَعًا لاختيارِ اللهِ ورَسُولِه، والخِيَرَةُ: ما يُتَخيَّرُ، وجمعُ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٠٩)، ورواه أيضاً عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٤٣) عن قتادة مرسلًا.

(٢) رواه الدارقطني في «سننه» (٣٧٩١)، ورواه أيضاً الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٣٩)، وفيه الحسين ابن أبي السري وحفص بن سليمان، قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ١١٠): «الحسين ابن أبي السري ضعفه أبو داود وغيره، وحفص بن سليمان الأسدي قال البخاري: تركوه». ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٢ و١١٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بإسنادين ضعيفين.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٤)، عن ابن زيد، وهو معضل.

الضَّميرِ الأوَّلِ لعمومِ (مُؤمِنٍ) و(مؤمنةٍ) مِن حيثُ إنَّهُما في سياقِ النَّفيِ، وجمعُ الثَّاني للتَّعظيمِ.

وقرأَ الكوفيُّونَ وهِشامٌ: ﴿يَكُونَ﴾ بالياءِ[1].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ بَيِّنَ الانحرافِ عن الصَّوابِ.

(٣٧) - ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بتَوفيقِه للإسلامِ، وتَوفيقِكَ لعِتقِه واختِصاصِه ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بما وفَّقَك اللهُ فيهِ وهو زيدُ بن حارثةَ:

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ زينبَ، وذلك أنَّه عليه السَّلامُ أبصرَهَا بعدَما أنكحَها إيَّاهُ فوقعتْ في نفسِهِ، فقال: «سُبحانَ اللهِ مُقلِّبِ القُلوبِ»، وسَمِعَت زينَبُ بالتَّسبيحَةِ فذكرَتْ لزيدٍ، ففَطِنَ لذلك ووقعَ في نفسِهِ كراهَةُ صُحبَتِها، فأتى النبيَّ وقال: أُرِيدُ أَنْ أُفارِقَ صاحِبَتِي، فقال: «ما لك، أرابَك مِنها شيءٌ؟» قال: لا واللهِ ما رأيتُ مِنْها إلا خيرًا، ولكنَّها لشَرَفِها تتعظَّمُ عليَّ، فقالَ له: «﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾»[2].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٢) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ١١١): غريب بهذا اللفظ. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٣٤): ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرج الطبري معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله. قلت: هو في «تفسير الثعلبي» (٢١/ ٤٥٢)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٦) عن ابن زيد.

وهذا الحديث لا يصح سنداً ولا متناً، أما السند فلانقطاعه مع ضعف ابن زيد نفسه، وأما المتن فلما في قوله: «أبصرَهَا بعْدَما أنكحهَا إيَّاهُ فوقَعتْ في نفْسِه»، وللقاضي عياض في الرد على هذا الخبر في كتابه «الشفا» كلام طويل، وقد نقل عن القشيري قوله: وكيف يقال: رآها فأعجبَتْه، وهي بنتُ عمَّتِه، ولم يزَلْ يرَاها منذُ وُلِدَت، ولا كان النساءُ يحتجِبْنَ منه عليه السلام؟ وهو زوَّجَها لزيدٍ، وإنَّما جعلَ اللهُ تعالى طلاقَ زيدٍ لها، وتزويجَ النبيِّ ﷺ إياها؛ لإزالةِ حرمةِ التبنِّي وإبطالِ سنَّتِه؛ كما قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى =

﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمرِها فلا تُطَلِّقْها ضرارًا وتعلُّلًا بتكَبُّرِها.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وهو نِكاحُها إن طلَّقَها، أو إرادةُ طَلاقِها.

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ تعييرَهُم إيَّاكَ به ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ إن كانَ فيه ما يُخشى، والواوُ للحالِ، وليسَتِ المُعاتبَةُ على الإخفاءِ وحدَهُ فإنه حَسَنٌ، بل على الإخفاءِ مخافةَ قالَةِ النَّاسِ وإظهارِ ما يُنافي إضمارَهُ، فإنَّ الأَوْلَى في أمثالِ ذلك أن يَصمُتَ أو يفوِّضَ الأمرَ إلى ربِّه.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾: حاجةً بحيثُ ملَّهَا ولم يبقَ له فيها حاجَةٌ، وطَلَّقَها وانقضَتْ عدتُها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.

وقيل: قضاءُ الوَطَرِ كنايَةٌ عن الطَّلاقِ؛ مثل: لا حاجةَ لي فيكِ.

وقُرِئَ: (زَوَّجْتُكَها)[1] والمعنى: أنَّه أَمَرَ بتَزويجِها منه، أو جعلَهَا زَوْجتَهُ بلا واسطةِ عقدٍ، ويؤيِّدُه: أنَّها كانَتْ تقولُ لسَائرِ نساءِ النَّبيِّ: إنَّ اللهَ تَولَّى إنكاحِي وأنتنَّ زَوَّجَكُنَّ أَولياؤكنَّ[2].

= ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧].

وقال أيضاً: وأصحُّ ما في هذا ما حكاه أهلُ التفسيرِ عن عليِّ بن الحسينِ رضي الله عنهما: أنَّ اللهَ تعالى كان أعلمَ نبيَّه عليه السلام أنَّ زينبَ ستكونُ من أزواجِه، فلمَّا شكَاها إليه زيدٌ قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧]، وأخفَى في نفسِه ما أعلمَه اللهُ تعالى به من أنَّه سيتزوَّجُها ممَّا اللهُ مُبدِيه ومُظهِرُه بتمامِ التزويجِ وطلاقِ زيدٍ لها. قلت: خبر علي بن الحسين رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٦ ـ ١١٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٦٦).

(١) نسبت لعلي بن أبي طالب وأولاده الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية رضي الله عنهم، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٨٧)، و«البحر» (١٧/ ٣٣١)، وتحرفت في مطبوع «مختصر الشواذ» إلى: «زوجنكها» بالنون.

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٠) عن أنس رضي الله عنه بلفظ: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ =

وقيل: كانَ زيدٌ السَّفيرَ في خطبَتِها[١]، وذلك ابتلاءٌ عظيمٌ وشاهدٌ بيِّنٌ على قوَّةِ إيمانِه.

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ علَّةٌ للتزويجِ، وهو دليلٌ على أنَّ حُكمَهُ وحكمَ الأمَّةِ واحدٌ إلَّا ما خصَّهُ الدَّليلُ.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: أمرُه الذي يريدُه ﴿مَفْعُولًا﴾: مكونًا لا محالةَ كما كان تزويجُ زينبَ.

(٣٨) ـ ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾: قَسَمَ له وقدَّرَ، مِن قولِهم: فرَضَ له في الدِّيوانِ، ومنه: فروضُ العساكرِ؛ لأَرزاقِهم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: سنَّ ذلك سُنَّتَهُ ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ من الأنبياءِ، وهي[٢] نفيُ الحرجِ عَنْهُم فيما أباحَ لَهُم.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾: قضاءً مَقضِيًّا وحُكمًا مبتوتًا.

(٣٩) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ أو مدحٌ لهم منصوبٌ أو مرفوعٌ.

وقُرِئَ: (رسالةَ اللهِ)[٣].

﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تعريضٌ بعدَ تصريحٍ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾: كافِيًا للمَخاوِفِ، أو: محاسبًا فينبغي أن لا يُخْشَى إلَّا منه.

= تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات.

(١) رواه مسلم (١٤٢٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني والخيالي: «وهو». والمثبت من نسخة الطبلاوي.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠) عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٤٠) ـ ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ على الحقيقةِ فيَثْبُتَ بينَهُ وبينَه ما بينَ الوالِدِ ووَلَدِهِ مِن حُرمَةِ المصاهرَةِ وغيرِها، ولا ينتقضُ عمومُهُ بكونِه أبًا للطَّاهرِ والقاسمِ وإبراهيمَ؛ لأنَّهُم لم يَبلُغوا مبلغَ الرِّجالِ ولو بلَغُوا كانوا رجالَهُ لا رِجالَهُم.

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ وكلُّ رسولٍ أبو أمَّتِه، لا مُطلَقًا، بل مِن حيثُ إنَّه شَفِيقٌ ناصِحٌ لهم واجبُ التَّوقيرِ والطَّاعةِ عليهِم، وزيدٌ مِنْهُم ليسَ بينَهُ وبينَهُ ولادةٌ.

وقُرِئَ: (رسولُ اللهِ) بالرَّفعِ[1] على أنَّه خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ.

و(لكنَّ) بالتَّشديد[2] على حذف الخَبر؛ أي: ولكنَّ رسولَ الله مَن عرَفتُم أنه لم يَعِشْ له وَلدٌ ذَكَرٌ.

﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾: وآخرَهُم الذي ختمَهُم، أو خُتِمُوا به على قراءةِ عاصمٍ بالفَتحِ[3]، ولو كانَ له ابنٌ بالغٌ لاقَ منصبَه بأن يكونَ نبيًّا كما قالَ عليه السَّلامُ في إبراهيمَ حينَ تُوفِّيَ: «لو عاشَ لكانَ نَبِيًّا»[4].

---

(١) ذكرها ابن مجاهد كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١)

(٢) رويت عن أبي عمرو في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١)، و«المحتسب» (٢/ ١٨١).

(٣) وقرأ الباقون بكسرها، انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٤) رواه ابن ماجه (١٥١١) من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف جدًّا، فيه إبراهيم بن عثمان أبو شيبة الكوفي قاضي واسط، قال عنه الحافظ في «التقريب»: متروك الحديث.

قال النووي في «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ١٠٣): وأما ما روي عن بعض المتقدمين: (لو عاش إبراهيم لكان نبيًا) فباطلٌ، وجَسارة على الكلام في المغيَّباتِ، ومجازَفةٌ وهجومٌ على عظيمٍ مِن الزَّلاتِ.

قلت: قد روى البخاري (٦١٩٤) عن ابن أبي أوفى قوله: ولو قُضي أن يكون بعد محمد نبيٌّ عاش ابنه، ولكن لا نبيَّ بعده. =

ولا يقدحُ فيه نزولُ عيسى عليهِ السَّلامُ بعدَهُ؛ لأنَّه إذا نزلَ كانَ على دينِهِ، مع أنَّ المرادَ مِنه أنَّه آخرُ مَن نُبِّئَ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلَمُ مَن يليقُ بأنْ يَختمَ به النبوَّةَ وكيفَ ينبَغِي شأنُه.

(٤١) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾ يَغْلِبُ الأوقاتَ ويعمُّ أنواعَ ما هو أهلُه مِن التَّقديسِ والتَّحميدِ والتَّهليلِ والتَّمجيدِ.

(٤٢) ـ ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾: أوَّلَ النَّهارِ وآخرَه خصوصًا، وتخصيصُهُما بالذِّكرِ للدَّلالةِ على فَضلِهِما على سائرِ الأوقاتِ لكونِهما مَشهودينَ؛ كإفرادِ التَّسبيحِ من جُملةِ الأذكارِ لأنَّه العُمدةَ فيها.

وقيل: الفِعْلانِ مُوجَّهانِ إليهِما[1].

وقيل: المرادُ بالتَّسبيحِ الصَّلاةُ.

(٤٣) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ﴾ بالرَّحمةِ ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ بالاستغفارِ لكم والاهتمامِ بما يُصلِحُكُم، والمرادُ بالصَّلاةِ: المُشترَكُ، وهو العنايةُ بصلاحِ أمرِكُم وظهورِ شَرَفِكُم، مستعارٌ مِن الصَّلْوِ[2].

وقيل: التَّرحُّمُ والانعطافُ المعنويُّ، مأخوذٌ مِن الصَّلاةِ المشتمِلَةِ على الانعطافِ الصُّوْريِّ الذي هو الرُّكوعُ والسُّجودُ، واستغفارُ الملائكة ودعاؤُهُم للمؤمنينَ تَرحُّمٌ عليهِمْ، سِيَّمَا وهو سَببٌ للرَّحمةِ مِن حيثُ إنَّهُم مجابُو الدَّعوةِ.

= وروى الإمام أحمد في «المسند» (١٢٣٥٨) بإسناد حسن عن أنس قال: لو عاش إبراهيمُ ابنُ النبيِّ ﷺ لكان صِدِّيقًا نبيًّا.

(١) قوله: «الفعلان»؛ أي: (اذكروا) و(سبحوا). انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٧٧).

(٢) قوله: «مستعار من الصَّلْو» بإسكان اللام واحد الصَّلَوينِ، وهما عِرْقان ـ وقيل: عظمان ـ ينحنيان في الركوع والسجود. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٧٧).

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: مِـن ظلمـاتِ الكفـرِ والمعصيـةِ إلـى نورِ الإيمـانِ والطَّاعةِ.

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حتَّـى اعتَنـى بصَـلاحِ أمرِهـم وإنافـةِ قَدْرِهـم، واسـتعملَ فـي ذلـك ملائكتَـه المقرَّبيـنَ.

(٤٤) ـ ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ مِن إضافَةِ المصدرِ إلـى المفعولِ؛ أي: يُحَيَّوْنَ ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾: يومَ لقائِه عندَ الموتِ، أو الخروجِ عن القبرِ، أو دخـولِ الجنَّةِ ﴿سَلَٰمٌ﴾: إخبارٌ بالسَّلامةِ عن كلِّ مَكروهٍ وآفةٍ.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ هـي الجنَّـةُ، ولعـلَّ اختلافَ النَّظـمِ لِمُحافظَـةِ الفواصلِ والمُبالغـةِ فيما هـو أهَمُّ.

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على مَن بُعِثْتَ إليهم بتَصديقِهم وتكذيبِهم، ونَجاتِهم وضلالِهم، وهو حالٌ مُقدَّرةٌ.

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾: إلـى الإقرارِ بـه وبتَـوحيدِه، وما يجبُ الإيمانُ به مِن صِفاتِه.

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بتَيْسيرِه، أطلقَ له مِن حيثُ إنَّه مِن أَسبابِهِ[1]، وقيدَ به الدَّعوَةَ إيذانًا بأنَّه[2] أمرٌ صعبٌ لا يَتأَتَّى إلا بمعونةٍ مِن جَنابِ قُدسِه.

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ يُستضاءُ بـه عن ظُلمـاتِ الجَهالَـةِ، ويُقتبَسُ مِن نـورِهِ أنوارُ البصائرِ.

---

(١) قوله: (أطلق له)؛ أي: أطلق الإذن للتيسير، بمعنى أنه عبَّر به عنه «من حيث إنه»؛ أي: الإذن «من أسبابه»؛ أي: التيسير. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٧٨).

(٢) قوله: (إيذاناً بأنه)؛ أي: بأن الدعاء إلى الإيمان. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٧٨).

(٤٧) ـ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ على سائرِ الأُمَمِ أو على أجرِ أعمالِهم، ولعلَّه معطوفٌ على مَحذوفٍ مثل: فراقِبْ أحوالَ أُمَّتِك.

(٤٨) ـ ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ تهييجٌ له على ما هو عليهِ مِن مُخالَفَتِهم ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾: إيذاءَهُم إيَّاكَ ولا تحتَفِل بهِ، أو: إيذاءَكَ إيَّاهُم مجازاةً ومؤاخَذةً على كُفرِهِم، ولذلك قيل: إنَّه مَنسوخٌ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنَّه يَكفيكَهُم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: مَوكولًا إليهِ الأمرُ في الأحوالِ كلِّها.

ولعلَّه تَعالى لَمَّا وَصفَهُ بخمسِ صِفَاتٍ قابَلَ كُلًّا مِنْها بخطابٍ يناسِبُه، فحَذَفَ مقابلَ الشَّاهِدِ ـ وهو الأمرُ بالمراقبَةِ ـ لأنَّ ما بعدَهُ كالتَّفصيلِ له، وقابلَ المبشِّرَ بالأَمرِ ببشارةِ المؤمنينَ، والنَّذيرَ بالنَّهيِ عن مُراقبَةِ الكُفَّارِ والمبالاةِ بأذاهُم، والدَّاعيَ إلى اللهِ بتَيسيرِهِ بالأمرِ بالتَّوكُّلِ عليهِ، والسِّراجَ المُنيرَ بالاكتفاءِ به، فإنَّ مَن أنارَهُ اللهُ بُرهانًا على جميعِ خلقِهِ كانَ حَقيقًا بأَنْ يَكتَفِيَ به عن غيرِه.

(٤٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾: تُجامِعُوهُنَّ.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ بألفٍ وضَمِّ التَّاءِ[1].

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾: أيامٍ يتربَّصْنَ فيها بأنفُسِهنَّ ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾: تَسْتوفونَ عَدَدَها، مِن عددْتُ الدَّراهِمَ فاعتَدَّها، كقولِك: كِلْتُه فاكتَالَهُ، أو: تَعدُّونَها، والإسنادُ إلى الرِّجالِ للدلالةِ على أنَّ العِدَّةَ حقُّ الأزواجِ كما أشعرَ به قولُه[2]: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٢).

(٢) «قوله» من نسخة الفاروقي.

وعن ابنِ كثيرٍ: (تَعْتَدُونَها) مخفَّفًا[1] على إبدالِ إحدى الدَّالينِ بالتَّاءِ، أو على أَنَّه مِن الاعتداءِ بمَعنى: تَعْتَدُونَ فيها.

وظاهرُه يَقتَضِي عدمَ وُجوبِ العدَّةِ بمجرَّدِ الخَلوَةِ، وتخصيصُ المؤمناتِ ـ والحكمُ عامٌّ ـ للتَّنبيهِ على أنَّ مِن شأنِ المؤمنِ أنْ لا يَنكحَ إلا مؤمنةً تخيُّرًا لنُطَفِه، وفائدةُ ﴿ثُمَّ﴾ إزاحَةُ ما عسى يُتوهَّمُ أنَّ تَراخِيَ الطَّلاقِ ريثَما تُمْكِنُ الإصابةُ كما يؤثِّرُ في النَّسبِ يؤثِّرُ في العدَّةِ.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾؛ أي: إن لم يَكُن مَفروضًا لها فإنَّ الواجِبَ للمَفروضِ لها نصفُ المَفروضِ دونَ المتعةِ، ويجوزُ أن يُؤوَّلَ التَّمتيعُ بما يَعمُّهُما، أو الأمرِ بالمُشتركِ بينَ الوُجوبِ والنَّدبِ، فإنَّ المتعةَ سنَّةٌ للمَفروضِ لها.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾: أخرجوهُنَّ مِن مَنازِلِكُم إذ ليسَ لكم عليهنَّ عدَّةٌ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ مِن غيرِ ضرارٍ ولا منعِ حَقٍّ، ولا يجوزُ تَفسيرُه بالطَّلاقِ السُّنِّيِّ؛ لأَنَّه مُرتَّبٌ على الطَّلاقِ، والضَّميرُ لغيرِ المدخولِ بهنَّ.

(٥٠) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾: مُهورَهُنَّ؛ لأنَّ المهرَ أجرٌ على البُضْعِ، وتقييدُ الإحلالِ لَهُ بإعطائِها معجَّلةً لا لتوقُّفِ الحِلِّ عليه بل لإيثارِ الأفضلِ له؛ كتَقييدِ إحلالِ المملوكَةِ بكونِها مَسبيَّةً بقولِه: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ فإنَّ المُشتراةَ لا يَتحقَّقُ بَدءُ أَمرِها وما جرَى عَلَيْها[2]،

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠)، والمشهور عنه مثل قراءة الجمهور بالتشديد.

(٢) قوله: «بكونها مسبية»؛ أي: باشر سباءها وشاهده، وقوله: «لا يتحقق بدء أمرها» لجواز كون السبي ليس في محله. انظر: «حاشية الخفاجي».

وفي «حاشية ابن التمجيد» (١٥/ ٣٩١): «بدوّ أمرها» قال: البدوُّ على وزن العتوِّ، من بدا يبدو بمعنى: ظهر، أي: فإن الجارية المشتراة لا يتحقق ظهور أمرها في الحل؛ إذ يحتمل أن تكون =

وتقييدِ القرائبِ بكونِها مُهاجراتٍ معَه في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾.

ويحتملُ تَقييدُ الحِلِّ بذلك في حَقِّهِ خاصَّةً، ويعضُدُه قولُ أمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالبٍ: خَطَبني رَسولُ اللهِ ﷺ فاعتذَرْتُ إليهِ، فعَذَرني، ثمَّ أنزلَ اللهُ هذه الآيَةَ، فلم أَحِلَّ له لأنِّي لم أُهاجِرْ معَهُ، كنتُ مِن الطُّلَقاءِ[١].

﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ نصبٌ بفعلٍ يُفسِّرُه ما قبلَهُ، أو عطفٌ على ما سبقَ، ولا يَدفعُه التَّقييدُ بـ﴿إِن﴾ التي للاستقبالِ فإنَّ المعنيَّ بالإحلالِ: الإعلامُ بالحلِّ؛ أي: أعلَمْناكَ حِلَّ امرأةٍ مُؤمِنَةٍ تَهَبُ لك نفسَها ولا تطلبُ مهرًا إن اتَّفقَ، ولذلك نكَّرَها.

واختُلِفَ في اتِّفاقِ ذلك، والقائلُ به ذكرَ أربعًا: ميمونةَ بنتَ الحارثِ، وزينبَ بنتَ خُزَيمةَ الأنصاريَّةَ، وأمَّ شَرِيكٍ بنتَ جابرٍ، وخولَةَ بنتَ حكيمٍ[٢].

وقُرِئَ: (أن) بالفتحِ[٣]؛ أي: لأَنْ وهبَتْ، أو: مُدَّةَ أن وهبَتْ، كقولِك: (اجلِسْ ما دامَ زيدٌ جالسًا).

﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ شرطٌ للشَّرطِ الأوَّلِ في استيجابِ الحلِّ؛ فإنَّ هِبَتَها نفسَها منه لا تُوجِبُ له حِلَّها إلَّا بإرادَتِه نكاحَها، فإنَّها جارِيَةٌ مَجرى القَبولِ.

والعدولُ عن الخِطابِ إلى الغَيبَةِ بلفظِ النَّبيِّ مكرَّرًا، ثمَّ الرُّجوعُ إليهِ في قَوْلِه:

= مغصوبة بخلاف التي سباها المالك من دار الحرب فإنها لا تحتمل غير الحل.

(١) رواه الترمذي (٣٢١٤) وحسنه، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٢٧٥٤) وصححه.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢١/ ٤٩٦).

(٣) وهي قراءة الحسن، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٤٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١).

﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ = إيذانٌ بأنَّه مما خُصَّ به لشرفِ نُبوَّتِه، وتقريرٌ لاستحقاقِه الكرامةَ لأجلِه.

واحتجَّ به أصحابُنا على أنَّ النِّكاحَ لا ينعقِدُ بلفظِ الهبَةِ؛ لأنَّ اللفظَ تابعٌ للمَعنى، وقد خُصَّ عليه السَّلامُ بالمعنى فيختصُّ باللفظِ.

والاستنكاحُ: طلبُ النِّكاحِ والرَّغبةُ فيه.

و﴿خَالِصَةً﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ؛ أي: خلصَ إحلالُها أو إحلالُ ما أحلَلْنا لكَ على القيودِ المذكورةِ خلوصًا لك، أو حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿وَهَبَتْ﴾، أو صفةٌ لِمصدرٍ مَحذوفٍ؛ أي: هِبَةً خالصَةً.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ مِن شَرائطِ العقدِ، ووُجوبِ القَسْمِ، والمهرِ بالوَطءِ حيثُ لم يُسَمَّ.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ مِن تَوسيعِ الأمرِ فيها أنَّه كيفَ يَنبَغي أَنْ يفرضَ عليهِم[1]، والجملةُ اعتراضٌ بينَ قولِه: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ومُتعلَّقِه وهو ﴿خَالِصَةً﴾ للدَّلالةِ على أنَّ الفرقَ بينَهُ وبينَ المؤمنينَ في نحوِ ذلك لا لمُجرَّدِ[2] قصدِ التَّوسيعِ عليه، بل لِمَعانٍ تَقتَضِي التَّوسيعَ عليه والتَّضييقَ عليهِمْ تَارَةً، والعكسَ أُخرى.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَا يَعسُرُ التَّحرُّزُ عنه ﴿رَّحِيمًا﴾ بالتَّوسِعَةِ في مَظانِّ الحرجِ.

(٥١) ـ ﴿تُرْجِئُ مَن تشاءُ مِنهُنَّ﴾: تُؤخِّرُها وتتركُ مُضاجعَتَها ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾: وتَضُمُّ إليك مَنْ تشاءُ وتُضاجِعُها، أو: تُطلِّقُ مَن تَشاءُ وتُمسكُ مَن تشاءُ.

---

(١) قوله: «من توسيع الأمر فيها» بعدم تعيين العدد كالحرائر، وقوله: «كيف ينبغي..» معمول «علمنا»؛ أي: علمنا ما ينبغي فيه وفعلناه على مقتضى علمنا وحكمتنا. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «لا بمجرد».

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ: ﴿تُرْجِي﴾ بالياءِ[1]، والمَعنى واحدٌ.

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾: طلبتَ ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ طلَّقْتَ بالرَّجعةِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في شيءٍ مِن ذلك.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾: ذلك التَّفويضُ إلى مَشيئَتِكَ أقربُ إلى قرَّةِ عُيونِهنَّ، وقلةِ حزنهنَّ، ورضاهنَّ جميعًا؛ لأنَّه حكمٌ كلُّهُنَّ فيه سواءٌ، ثمَّ إنْ سَوَّيْتَ بينَهُنَّ وجدْنَ ذلك تفضُّلًا منك، وإن رجَّحْتَ بعضَهُنَّ عَلِمْنَ أنَّه بحُكْمِ اللهِ فتَطمَئِنُّ نُفوسُهُنَّ.

وقُرِئَ: (تُقِرَّ) بضمِّ التَّاءِ، و(أَعْيُنَهُنَّ) بالنَّصب[2]، و(تُقَرَّ) بالبناءِ للمَفعولِ[3].

و﴿كُلُّهُنَّ﴾ تأكيدُ نونِ ﴿يرضين﴾، وقرئَ بالنَّصبِ تأكيدًا لـ(هنَّ)[4].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فاجتَهِدُوا في إحسانِه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذاتِ الصُّدورِ ﴿حَلِيمًا﴾ لا يُعاجِلُ بالعقوبَةِ، فهو حقيقٌ بأَنْ يُتَّقَى.

(٥٢) ـ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ باليَاءِ؛ لأنَّ تَأنيثَ الجَمعِ غيرُ حَقيقِيٍّ، وقرأَ البَصرِيَّانِ بالتَّاءِ[5].

﴿مِنۢ بَعْدُ﴾: مِن بعدِ التِّسعِ، وهو في حقِّهِ كالأربعِ في حقِّنَا، أو: مِن بعدِ اليومِ حتَّى لَوْ ماتَت واحدةٌ لم يَحلَّ له نِكاحُ أُخرَى.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٣)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٢١) عن ابن محيصن.

(٣) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٢١) عن نصر بن علي.

(٤) أي: لـ(هُنَّ) في ﴿ءَاتَيْتَهُنَّ﴾. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١)، و«المحتسب» (٢/ ١٨٢)، عن أبي إياس جؤية بن عائذ.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٩)، و«النشر» (٢/ ٣٤٩).

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ فتطلِّقَ واحدةً وتنكِحَ مكانَها أخرى، و﴿مِنۡ﴾ مزيدةٌ لتأكيدِ الاستغراقِ.

﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾: حسنُ الأزواجِ المستبدَلَةِ، وهو حالٌ مِن فاعلِ ﴿تَبَدَّلَ﴾ دونَ مَفعولِه وهو ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ لتوغُّلِه في التَّنكيرِ، وتقديرُه: مَفروضًا إعجابُكَ بهنَّ.

واختُلِفَ في أنَّ الآيةَ مُحكمَةٌ، أو منسوخةٌ بقولِه: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ على المعنى الثَّاني[1]، فإنَّه وإنْ تقدَّمَها قراءةً فهو مسبوقٌ بها نزولًا.

وقيل: المعنى: لا يَحِلُّ لك النِّساءُ مِن بعد الأجناسِ الأربعةِ اللاتي نصَّ على إحلالهنَّ لك، ولا أَنْ تبدَّلَ بهنَّ أزواجًا مِن أجناسٍ أُخَر.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ استثناءٌ مِن ﴿ٱلنِّسَآءُ﴾ لأنَّه يتناوَلُ الأزواجَ والإماءَ، وقيل: مُنقَطِعٌ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ فتحفَّظُوا أمرَكُم ولا تتَخطَّوْا ما حَدَّ لكم.

(٥٣) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾: إلَّا وقتَ أَنْ يُؤذنَ لَكُم، أو: إلا مَأذونًا لَكُم.

﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿يُؤۡذَنَ﴾ لأنَّه مُتضمِّنٌ معنى: يُدعَى؛ للإشعارِ بأنَّه لا يَحسُنُ الدُّخولُ على الطَّعامِ مِن غيرِ دعوةٍ وإن أذنَ، كما أشعرَ به قولُه: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾: غيرَ مُنتظرينَ وقتَهُ أو إدراكَهُ، حالٌ مِن فاعلِ ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾ أو المجرورِ في ﴿لَكُمۡ﴾.

وقُرِئَ بالجَرِّ[2] صفَةً لـ﴿طَعَامٍ﴾، فيكونُ جاريًا على غيرِ مَن هو لهُ بلا إبرازِ الضَّميرِ، وهو غيرُ جائزٍ عندَ البَصريِّينَ.

---

(١) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص: ٦٢٧).

(٢) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٢١) عن نصر بن علي، و«الكشاف» (٧/ ٨٥) عن ابن أبي عبلة.

وقد أمالَ حمزَةُ والكسائيُّ ﴿إِنَىٰهُ﴾[1] لأنَّه مَصدرُ أَنى الطَّعامُ: إذا أدرَكَ.

﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ تفرَّقُوا ولا تمكُثوا، والآيةُ خِطابٌ لقومٍ كانُوا يَتحيَّنُونَ طعامَ رسولِ اللهِ عليهِ السَّلامُ فيَدخلونَ ويَقعدونَ مُنتظرينَ لإدراكِه، مخصوصةٌ بهم وبأمثالِهم، وإلَّا لَمَا جازَ لأحدٍ أن يدخلَ بيوتَهُ بالإذنِ لغيرِ الطَّعامِ[2]، ولا اللَّبْثُ بعد الطَّعامِ لِمُهمٍّ.

﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾: لحديثِ بعضِكُم بعضًا أو لحديثِ أهلِ البيتِ بالتَّسمُّعِ له، عطفٌ على ﴿نَٰظِرِينَ﴾، أو مقدرٌ بفعلٍ؛ أي: ولا تدخُلُوا، أو: ولا تمكثُوا مُستأنِسينَ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ اللَّبثَ ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ لتَضييقِ المنزِلِ عليه وعلى أهلِه، وإشغالِه فيما لا يعنيه ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ مِن إخراجِكُم؛ لقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: أنَّ إخراجَكُم حقٌّ فيَنبغي أن لا يُتركَ حياءً كما لـم يتركهُ اللهُ تركَ الحييِّ فأَمَرَكُم بالخروجِ.

وقُرِئَ: (لا يستحي) بحذفِ الياءِ الأولى وإلقاءِ حركَتِها على الحاءِ[3].

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾: شيئًا ينتفَعُ بـه ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ المتاعَ ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾: سترٍ.

رُوِيَ أنَّ عُمرَ رضـيَ اللهُ عنهُ قال: يا رسولَ الله! يدخلُ عليك البَرُّ والفاجِرُ فلو أمرتَ أُمَّهاتِ المؤمنينَ بالحجابِ، فنزلَتْ[4].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٣).

(٢) عبارة «الكشاف» (٧/ ٨٤): و«إلا لَمَا جازَ لأحَدٍ أن يَدخُلَ بيُوت النَّبيِّ إلاَّ أَن يُؤذَنَ لهُ إِذناً خاصًّا، وهو الإذنُ إلى الطَّعام فحَسْبُ».

(٣) انظر: «الكشاف» (٧/ ٨٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٩٦)، دون نسبة. وهي لغة تميم وبكر بن وائل، ولغة قريش وعامة العرب بياءين، انظر: «لغات القرآن» للفراء (ص: ٢١).

(٤) رواه البخاري (٤٧٩٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

وقيل: إنَّه عليه السَّلامُ كان يَطْعَمُ ومعَهُ بعضُ أصحابِه، فأصابَتْ يدُ رَجُلٍ يدَ عائشةَ فكَرِهَ النَّبيُّ ذلك، فنزلَتْ[1].

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الخواطرِ الشَّيطانيَّةِ.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾: وما صحَّ لكُم ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾: أن تفعَلُوا ما يكرهُه ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾: مِن بعدِ وَفاتِه أو فراقِه.

وخُصَّ التي لم يَدخُل بها لِمَا رُوِيَ: أنَّ أشعثَ بنَ قيسٍ تزوَّجَ المستعيذةَ في أيَّامِ عُمَرَ، فهمَّ برَجْمِهما[2]، فأُخبرَ بأنَّه عليه السَّلامُ فارَقها قبلَ أَنْ يَمسَّها، فترَكَ مِن غيرِ نكيرٍ[3].

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٥٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٢٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، ورجح الدارقطني في «العلل» (١٤/ ٣٣٨) إرساله.

(٢) في نسخة الخيالي نسخة الطبلاوي: «برجمها».

(٣) ذكره الغزالي في «الوسيط» (٥/ ٢١)، وقال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٣/ ٢٩٢): (لا أصل له في كتب الحديث؛ نعم روى أبو نعيم في «المعرفة» في ترجمة قُتَيلة من حديث داود عن الشعبي مرسلاً، وأخرجه البزار من وجه آخر عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس موصولاً، وصحَّحه ابن خزيمة والضياء من طريقه في «المختارة»: أن النبي ﷺ طلَّق قتيلة بنت قيس أخت الأشعث، طلَّقها قبل الدخول، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل، فشقَّ ذلك على أبي بكر، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله! إنها ليست من نسائه، لم يحزها النبي ﷺ، وقد برَّأها الله منه بالردة. وكانت قد ارتدت مع قومها ثم أسلمت، فسكن أبو بكر. وروى الحاكم من طريق هشام بن الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: خلف على أسماء بنت النعمان المهاجر بن أبي أمية، فأراد عمر أن يعاقبها، فقالت: والله ما ضرب عليَّ الحجاب، ولا سمِّيت أم المؤمنين، فكفَّ عنها.

وروى الحاكم بسنده إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى: أنه تزوج حين قدم عليه وفد كندة قتيلة بنت قيس أخت الأشعث، ولم تدخل عليه، فقيل: إنه أوصى أن تخيَّر فاختارت النكاح، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بحضرموت، فبلغ ذلك أبا بكر، فقال: لقد هممتُ بأن أحرق عليهما، فقال عمر: ما هي =

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ يعني: إيذاءَهُ ونكاحَ نِسائِه ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾: ذنبًا عظيمًا، وفيه تَعظيمٌ مِن اللهِ لرَسُولِه، وإيجابٌ لحُرمَتِه حيًّا وميتًا، ولذلك بالغَ في الوعيدِ عليه، فقال:

(٥٤) - ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا﴾ كنِكَاحِهِنَّ على ألسِنَتِكُم ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صُدورِكُم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلمُ ذلك فيُجازيكُم به، وفي هذا التَّعميمِ مع البرهانِ على المقصودِ مزيدُ تهويلٍ ومبالغةٍ في الوَعيدِ.

(٥٥) - ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ استثناءٌ لِمَن لا يجبُ الاحتجابُ عَنْهُم.

رُوِيَ أنَّه لَمَّا نَزلَتْ آيةُ الحجابِ قال الآباءُ والأبناءُ والأقاربُ: يا رسولَ اللهِ! أَونُكَلِّمُهنَّ أيضًا مِن وَراءِ حِجابٍ؟ فنزلَتْ[(١)].

وإنما لم يَذكُرِ العَمَّ والخالَ لأَنَّهُما بمنزلةِ الوالدينِ، ولذلك سمَّى العمَّ أبًا في قولِه: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] أو لأَنَّه كَرِهَ تركَ الاحتجابَ مِنْهُما مخافةَ أن يَصِفَا لأبنائِهما.

= من أمهات المؤمنين، ولا دخل بها، ولا ضرب عليها الحجاب، فسكن.
وروى البيهقي بإسناده إلى الزهري قال: بلغنا أن العالية بنت ظبيان التي طلَّقها تزوجت قبل أن يحرِّم الله نساءه، فنكحت ابن عم لها وولدت فيهم).
وروى ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٤٦) من طريق ابن الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس قال: خلف على أسماء بنت النعمان المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة فأراد عمر أن يعاقبهما فقالت: والله ما ضرب علي الحجاب ولا سميت أم المؤمنين فكف عنها.
وذكر ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ٣٥٧) أقوالاً في اسمها ونسبتها، وصحح أن اسمها أميمة بنت النعمان بن شراحيل.

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢١/ ٥٣٦)، و«النكت والعيون» (٤/ ٤٢١)، و«زاد المسير» (٦/ ٤١٧).

﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: نساءَ المؤمناتِ ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ مِن العبيدِ والإماءِ، وقيل: مِن الإماءِ خاصَّةً، وقد مرَّ في سورةِ النُّورِ.

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيما أُمِرْتُنَّ به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفى عليه خافِيَةٌ.

(٥٦) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ يَعْتَنون بإظهارِ شَرَفِه وتعظيمِ شأنِه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾: اعتَنُوا أنتُم أيضًا فإنَّكُم أولى بذلك، وقولُوا: اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ وقولوا: السَّلامُ عليكَ أيُّها النَّبيُّ، وقيل: وانقادوا لأوامرِهِ.

والآيةُ تدلُّ على وجوبِ الصَّلاةِ والسَّلامِ عليه في الجملَةِ.

وقيل: تَجِبُ الصَّلاةُ كلَّما جَرَى ذِكرُه لقولِه عليهِ السَّلامُ: «رَغِمَ أنفُ رَجُلٍ ذُكِرتُ عِندَهُ فلَمْ يُصَلِّ عليَّ» (١)، وقولِه: «مَن ذُكِرت عندَهُ فلم يصلِّ عليَّ فدخلَ النارَ فأبعدَهُ اللهُ (٢)» (٣).

وتجوزُ الصَّلاةُ على غيرِه تَبَعًا، وتكرَهُ استِقلالًا؛ لأنَّه في العُرْفِ صارَ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) في نسخة الخيالي زيادة: «من رحمته».

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠٢٢) عن جابر بن سمرة، و(١٢٥٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٣٩) عن حديث جابر: «رواه الطبراني بأسانيد وأحدها حسن»، وقال عن حديث ابن عباس (١٠/ ١٦٥): «رواه الطبراني، وفيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان، وفيه ضعف». وروي عن عدد من الصحابة جمع أحاديثهم الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٦٤ - ١٦٧).

شعارًا لذكرِ الرُّسُلِ، ولذلك كُرِهَ أن يقالَ: محمَّدٌ عزَّ وجلَّ وإن كانَ عزيزًا وجليلًا[١].

(٥٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: يرتكبونَ ما يكرهانِه مِن الكُفرِ والمَعاصي، أو يؤذونَ رَسولَ اللهِ بكسرِ رَباعِيَتِه[٢]، وقولِهم: شاعِرٌ مَجنونٌ، ونحوِ ذلك، وذكرُ اللهِ للتَّعظيمِ له، ومن جوَّزَ إطلاقَ اللفظِ الواحدِ على مَعنيينِ فسَّرَه بالمعنيَينِ باعتبارِ المعمولَينِ[٣].

﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: أبعدَهُم مِن رَحمَتِه ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يهينهُمْ مع الإيلامِ.

(٥٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾: بغيرِ جِنايَةٍ استَحقُّوا بها ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾: ظاهرًا.

قيل[٤]: إنَّها نَزَلَتْ في مُنافِقينَ يؤذونَ عليًّا رضيَ اللهُ عنهُ[٥].

وقيل: في أهلِ الإفكِ[٦].

---

(١) انظر: «الأذكار» للنووي (ص: ٢٢٦ ـ ٢٢٧).

(٢) وردت فيه أحاديث في الصحيحين، منها ما رواه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠)، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) قوله: «فسره»؛ أي: ﴿يُؤْذُونَ﴾ «بالمعنيين» هما ارتكاب ما يكرهانه من الكفر والمعاصي، وكسر رباعيته.. إلخ «باعتبار المعمولين» هما: الله ورسوله؛ أي: فسره باعتبار الله بارتكاب ما يكرهه الله، وباعتبار رسوله بكسر رباعيته.. إلخ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٨٧).

(٤) في نسخة الفاروقي: «روي».

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٠٦).

(٦) عزاه الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٤٢٣) إلى الضحاك.

وقيل: في زُنَاةٍ كانوا يَتَّبِعونَ النِّساءَ وهُنَّ كارِهاتٌ[1].

(٥٩) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ يُغطِّينَ وُجوهَهُنَّ وأبدانَهُنَّ بمَلاحِفهِنَّ إذا بَرزْنَ لحاجَةٍ، و﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ؛ فإنَّ المرأةَ ترخي جِلبابَها وتتلفَّعُ ببعضٍ.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾: يُميَّزنَ عن[2] الإماءِ والقَيْناتِ.

﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾: فلا يؤذيَهنَّ أهلُ الرِّيبَةِ بالتَّعرُّضِ لهنَّ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَا سلفَ ﴿رَّحِيمًا﴾ بعبادِه حيثُ يُراعي مصالِحَهُم حتى الجُزئيَّاتِ منها.

(٦٠) ـ ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ عن نفاقِهِم ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: ضعفُ إيمانٍ وقلَّةُ ثباتٍ عليه، أو فجورٌ عن تَزَلْزُلِهم في الدِّينِ أو فُجورِهِم.

﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: يُرْجِفونَ أخبارَ السُّوءِ عن سرايَا المسلمينَ، ونحوَها[3] مِن إرجافِهِم، وأصلُه: التَّحريكُ، مِن الرَّجفَةِ وهي الزَّلزَلَةُ، سُمِّيَ به الإخبارُ الكاذبُ لكونِه مُتزَلْزِلًا غيرَ ثابتٍ.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾: لنأمرنَّكَ بقتالِهم وإجلائِهِم، أو ما يَضطرُّهُم إلى طلبِ الجلاءِ.

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطفٌ على ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالةِ على أنَّ الجَلاءَ ومُفارقَةَ جوارِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ أعظَمُ ما يُصيبُهُم.

---

(١) عزاه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٥٦٠) إلى الضحاك والسدي والكلبي.

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «من».

(٣) قوله: «ونحوها»؛ أي: ونحو أخبار السوء. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٨٨).

﴿فِيهَآ﴾: في المدينةِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: زمانًا، أو: جوارًا قَليلًا.

(٦١) - ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصبٌ على الشَّتمِ أو الحالِ، والاستثناءُ شامِلٌ له أيضًا؛ أي: لا يُجاوِرُونَكَ إلَّا مَلعونِينَ، ولا يجوزُ أَنْ يَنتَصِبَ عن قولِه: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾؛ لأنَّ ما بعدَ كلمةِ الشَّرطِ لا يعملُ فيما قبلَها.

(٦٢) - ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ؛ أي: سنَّ اللهُ ذلك في الأُمَمِ الماضِيَةِ، وهو أن يُقتلَ الذين نافَقُوا الأنبياءَ وسَعَوا في وهنِهِم بالإرجافِ ونحوِه أينَمَا ثُقِفُوا.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لأنَّه لا يُبدِّلُها أو لا يقدرُ أحدٌ أن يبدِّلَها.

(٦٣) - ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: عن وَقتِ قيامِها استهزاءً، أو تَعنُّتًا، أو امتحانًا.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لم يُطلِعْ عليهِ مَلَكًا ولا نَبيًّا ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾: شيئًا قريبًا، أو: تكونُ السَّاعةُ عن قريبٍ، وانتصابُه على الظَّرفِ، ويجوزُ أن يكونَ التَّذكيرُ لأنَّ السَّاعةَ في معنى اليومِ، وفيه تهديدٌ للمُستعجِلينَ وإسكاتٌ للمُتعنِّتِينَ.

(٦٤) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾: نارًا شديدةَ الاتِّقادِ.

(٦٥) - ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحفَظُهُم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفَعُ العذابَ عَنْهُم.

(٦٦) - ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾: تُصرَفُ مِن جِهَةٍ إلى جِهَةٍ كاللحمِ يُشوَى بالنَّارِ، أو مِن حالٍ إلى حالٍ، وقُرِئَ: (تَقَلَّبُ)[١] بمعنى: تَتقَلَّب، و: (نُقَلِّبُ)[٢].

---

(١) قراءة الحسن وعيسى وأبي جعفر الرؤاسي. انظر «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١).

(٢) في نسخة التفتازاني: «تقلّب»، ولم تعجم في نسخة الطبلاوي، والمثبت من نسخة الفاروقي =

ومتعلِّقُ الظَّرفِ: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فلَنْ نُبتَلَى بهذا العَذابِ.

(٦٧) ـ ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ يَعْنونَ قادَتَهُم الذين لَقَّنوهُم الكفرَ.

وقرأ ابنُ عامرٍ ويعقوبُ: ﴿ساداتِنا﴾[1] على جمعِ الجمعِ للدَّلالةِ على الكثرةِ.

﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ بما زيَّنوا لنا.

(٦٨) ـ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾: مِثْلَي ما آتيتَنا منه لأنَّهُم ضَلُّوا وأَضَلُّوا ﴿والعَنْهُم لعنًا كَثِيرًا﴾ كثيرَ العددِ. وقرأ عاصِمٌ بالباءِ[2]؛ أي: لعنًا هو أشدُّ اللعنِ وأعظمُه.

(٦٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾: فأظهرَ براءَتَهُ مِن مَقولِهم، يعني: مُؤدَّاهُ ومضمونَه، وذلك أنَّ قارونَ حرَّضَ امرأةً على قذفِهِ بنَفسِهَا فعصمَهُ اللهُ كما مرَّ في القصصِ.

أو اتَّهَمَهُ ناسٌ بقَتلِ هارونَ لَمَّا خرجَ معه إلى الطُّورِ، فماتَ هناك فحَمَلَتْهُ الملائكةُ ومَرُّوا بهم حتى رأوهُ غيرَ مَقتولٍ[3].

وقيل: أحياهُ اللهُ فأخبرَهُم ببراءَتِه[4].

= والخيالي، وكلاهما قرئ به. فقرأ (نقلِّب) بالنون ابن أبي عبلة كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١)، وقرأ (تُقلَّب) بالتاء ـ والفعل للسعير ـ عيسى بن عمر الكوفي كما في «المحتسب» (٢/ ١٨٤).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٩)، و«النشر» (٢/ ٣٤٩).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٩٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤١١٠) وصححه، والضياء في «المختارة» (٦١١)، عن علي رضي الله عنه موقوفاً.

(٤) رواه الطبري في «التاريخ» (١/ ٢٥٦) من قول عمرو بن ميمون.

أو: قذفوهُ بعيبٍ في بدنِه من برصٍ أو أُدْرَةٍ لفرطِ تَستُّرِهِ حياءً، فأطلعَهُم اللهُ على أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنه[1].

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾: ذا قُربةٍ ووَجاهَةٍ منه. وقُرِئَ: (وكانَ عَبْدًا للهِ وَجِيهًا)[2].

(٧٠) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ارتكابِ ما يكرهُهُ فضلًا عمَّا يُؤذِي رَسولَه ﴿وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا﴾: قاصدًا إلى الحقِّ، مِن سَدَّ يَسِدُّ سَدادًا، والمرادُ: النَّهيُ عن ضدِّهِ كحديثِ زينبَ مِن غيرِ قصدٍ[3].

(٧١) ـ ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾: يوفِّقْكُم للأعمالِ الصالحةِ، أو يُصلِحْها بالقبولِ والإثابةِ عليها.

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ ويجعَلْها مُكفَّرَةً باستقامَتِكُم في القولِ والعملِ.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامرِ والنَّواهِي ﴿فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ يعيشُ في الدُّنيَا حَميدًا وفي الآخرةِ سَعيدًا.

(٧٢) ـ ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ تقريرٌ للوَعدِ السَّابقِ بتَعظيمِ الطَّاعةِ، وسمَّاها أمانَةً مِن حيثُ إنَّها واجبَةُ الأداءِ، والمعنى: أنَّها لِعظمةِ[4] شأنِها بحيثُ لو عُرِضَت على هذه الأجرامِ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مطولًا.

(٢) وهي قراءة ابن مسعود والأعمش وأبي حيوة، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٨٥).

(٣) قوله: «كحديث زينب من غير قصد» إيضاحه ما في «الكشاف»: والمرادُ نهيُهم عمَّا خاضوا فيه من حديث زينبَ من غير قَصْد وعَدْل في القول. قال: والسَّدادُ: القَصْدُ إلى الحَقِّ والقَوْلُ بالعَدْلِ. انظر: «الكشاف» (٧/ ١٠١).

(٤) في نسخة الطبلاوي: «العظم».

العِظَامِ وكانَتْ ذات شُعورٍ وإدراكٍ لأَبَيْنَ[١] أَنْ يَحمِلْنَها وأشفَقْنَ مِنْهَا وحملَهَا الإنسانُ مَع ضعفِ بِنيَتِه ورَخاوَةِ قُوَّتِه، لا جرمَ فإنَّ الرَّاعِيَ لها والقائمَ بحقوقِها فائزٌ بخيرِ الدَّارينِ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ حيثُ لم يفِ بها ولم يُراعِ حقَّها ﴿جَهُولًا﴾ بكُنْهِ عاقِبَتِها، وهذا وصفٌ للجنسِ باعتبارِ الأغلَبِ.

وقيل: المرادُ بالأمانَةِ: الطاعَةُ التي تعمُّ الطَّبيعيَّةَ والاختياريَّةَ، وبعَرْضِها: استدعاؤُها الذي يعمُّ طلبَ الفعلِ مِن المختارِ وإرادةَ صُدورِه مِن غيرِه، وبحملِها: الخيانَةُ فيها والامتناعُ عن أدائِها، ومنه قولُهُم: حامِلُ الأمانَةِ ومُحتَمِلُهَا، لِمَن لا يُؤدِّيها فتبرَأَ ذِمَّتُه[٢]، فيكونُ الإباءُ عنه إتيانًا بما يمكنُ أن يَتأَتَّى منه، والظُّلمُ والجَهالَةُ للخيانةِ والتَّقصيرِ.

وقيل: إنَّه تَعالى لَمَّا خلَقَ هذه الأجرامَ خلَقَ فيها فهمًا وقالَ لها: إنِّي فرضتُ فَريضَةً وخلقتُ جنَّةً لِمَن أَطاعَنِي فيها ونارًا لِمَن عَصاني، فقُلْنَ: نحنُ مُسخَّراتٌ على ما خَلَقْتَنا لا نَحتَمِلُ فريضَةً ولا نَبْغِي ثَوابًا ولا عقابًا، ولمَّا خُلِقَ آدمُ عليهِ السَّلامُ عُرِضَ عليه مثلُ ذلك فحملَه وكانَ ظلومًا لنَفْسِه بتَحمُّلِه ما يشقُّ عليها جهولًا بوَخامَةِ عاقِبَتِه[٣].

ولعلَّ المرادَ بالأمانَةِ: العَقلُ والتَّكليفُ، وبعَرْضِهَا عليهِنَّ: اعتبارُهَا بالإضافَةِ إلى استعدادِهِنَّ، وبإبائِهِنَّ: الإباءُ الطَّبيعي الذي هو عدمُ اللَّياقَةِ والاستعدادِ، وبحملِ

(١) في نسخة الفاروقي: «لأبت».

(٢) قوله: (فتبرأ ذمته)، منصوب في جواب النفي: «حاشية الخفاجي».

(٣) رواه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٥٠١) عن الضحاك، وابن الأنباري في «الأضداد» (ص: ٣٩٠) عن ابن جريج.

الإنسانِ: قابليّتُهُ واستعدادُه لها، وكونُه ظَلومًا جهولًا لِمَا غلبَ عليه من القوَّةِ الغَضبيَّةِ والشَّهويَّةِ، وعلى هذا يَحْسُنُ أن يكونَ عِلَّةً للحملِ عليه، فإنَّ مِن فوائدِ العَقلِ أن يكونَ مُهيمنًا على القوَّتينِ حافِظًا لهما عن التَّعدِّي ومجاوزةِ الحَدِّ، ومُعظَمُ مَقصودِ التَّكليفِ تَعديلُهُمَا وكَسْرُ سَوْرَتِهِمَا.

(٧٣) ـ ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ تعليلٌ للحَمْلِ مِن حيثُ إنَّه نَتيجَتُه؛ كالتَّأْديبِ للضَّربِ في: ضربتُه تأديبًا، وذَكَرَ التَّوبةَ في الوعدِ إشعارًا بأنَّ كونَهُم ظلومًا جهولًا في جِبِلَّتِهِم لا يُخْلِيهِمْ عن فَرَطاتٍ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ حيثُ تابَ عن فَرَطَاتِهم وأثابَ بالفوزِ على طاعاتِهِم.

قال عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سورَةَ الأحزابِ وعَلَّمَها أهلَهُ وما مَلَكَتْ يمينُه أُعْطِيَ الأَمانَ مِن عذابِ القَبْرِ»(١).

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٣١١ ـ ٣١٢) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه. وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٣٣) سورة الأحزاب مدنية وآياتها ثلاث وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾

قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله، وقوله تعالى: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾[1] أي لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله، ولهذا قال تعالى: ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ أي من قرآن وسنّة، ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي فلا تخفى عليه خافية، ﴿وتوكل على الله﴾ أي في جميع أمورك وأحوالك، ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ أي وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأناب إليه.

* ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥)﴾

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي، أمراً معروفاً حسياً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله أنت عليَّ كظهر أمي أماً له، كذلك لا يصير الدعيُّ ولداً للرجل

---

(١) دعا أهل مكة النبي ﷺ أن يرجع عن قوله، على أن يعطوه شطراً من أموالهم، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة، فأنزل الله ﴿يا أيها النبي ...﴾ الآية. أخرجه جويبر، وذكره في اللباب.

إذا تبناه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم﴾، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ما هنّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن (زيد بن حارثة) رضي الله عنه مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة، فكان يقال له (زيد بن محمد) فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾، كما قال تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾، وقال ههنا: ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ يعني تبنّيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان، ﴿والله يقول الحق﴾ أي العدل، ﴿وهو يهدي السبيل﴾ أي الصراط المستقيم. وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش كان يقال له ذو القلبين[1]، وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليه. وقال عبد الرزاق عن الزهري في قوله: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾، قال: بلغنا أن ذلك كان في (زيد بن حارثة) ضرب له مثل، يقول ليس ابن رجل آخر ابنك، وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد: أنها نزلت في زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير والله سبحانه وتعالى أعلم، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام، من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياء، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط والبر.

روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال: إن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾[2]. وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾، وقال تبارك وتعالى في آية التحريم: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ احترازاً عن زوجة الدعي فإنه ليس من الصلب، فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحبيب، فليس مما نهي عنه في هذه الآية، بدليل ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدمنا على رسول الله ﷺ - أغيلمة بني عبد المطلب - على جمرات لنا من جمع، فجعل يلطخ أفخاذنا ويقول: «أبنيّ لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس»[3] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني»، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم أي عوضاً عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «أنت مني وأنا منك» وقال لجعفر رضي الله عنه: «أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي»، وقال لزيد رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا». كما قال تعالى: ﴿فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾.

(١) هو جميل بن معمر الجمحي

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(٣) أخرجه أحمد وأهل السنن إلا الترمذي.

وقد جاء في الحديث: «ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر»[١]؛ وهذا تشديد وتهديد، ووعيد أكيد، في التبري من النسب المعلوم، ولهذا قال تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾، ثم قال تعالى: ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ أي إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ، ورفع إثمه كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾، وفي الحديث: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»[٢]، وفي الحديث الآخر: «إن الله تعالى رفع عن أمتي الخطأ والنسيان والأمر الذي يكرهون عليه»، وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي إنما الإثم على من تعمد الباطل، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ الآية، وروى الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، ثم قال: قد كنا نقرأ: [ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم][٣]، وفي الحديث الآخر: «ثلاث في الناس كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم».

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مقدمٌ على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾، وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين». وفي الصحيح أيضاً أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: يا رسول الله والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر»؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾، وقال البخاري عند هذه الآية الكريمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، إقرأوا إن شئتم: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾. فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه»[٤]. وقال تعالى: ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ أي في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع.

وقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي في حكم الله ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري عن عمرو بن العاص مرفوعاً.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٤) أخرجه البخاري ورواه أحمد وابن أبي حاتم.

أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: أنزل الله عزَّ وجلَّ فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾، وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فواخيناهم ووارثناهم، فآخى أبو بكر رضي الله عنه (خارجة بن زيد)، وآخى عمر رضي الله عنه فلاناً، وآخى عثمان رضي الله عنه رجلاً من بني زريق (ابن سعد الزرقي) ويقول بعض الناس غيره، قال الزبير رضي الله عنه: وواخيت أنا (كعب بن مالك) فجئته فابتعلته، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش، والأنصار خاصة، فرجعنا إلى مواريثنا. وقوله تعالى: ﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ أي ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية، وقوله تعالى: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت، لما له في ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي والله أعلم.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة وبقية الأنبياء، أنه أخذ عليهم العهد والميثاق، في إقامة دين الله تعالى وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ الآية، فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم، وقد صرح بذكرهم أيضاً في قوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك. وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم﴾ فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم، وقد قيل: إن المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذر من صلب آدم عليه الصلاة والسلام، كما قال أبي بن كعب: ورفع أباهم آدم فنظر إليهم يعني ذريته، وأن فيهم الغني والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك فقال: رب لو سويت بين عبادك فقال: إني أحببت أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم﴾ وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ العهد، **وقوله تعالى:** ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل، وقوله تعالى: ﴿وأعد

للكافرين﴾ أي من أممهم ﴿عذاباً أليماً﴾ أي موجعاً، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ونصحوا الأمم، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين، والمارقين والقاسطين.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه، إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم، عام تألبوا عليهم وتحزبوا، وذلك عام الخندق، وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهود بني النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم (سلام بن أبي الحقيق) و (سلام بن مشكم) و (كنانة ابن الربيع) خرجوا إلى مكة، فاجتمعوا بأشراف قريش، وألبوهم على حرب النبي ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدهم (أبو سفيان) صخر بن حرب، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر، وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم﴾، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف، فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم، يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم وجعل النساء والذراري في آطام المدينة، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل، فذهب إليهم (حيي بن أخطب) فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالأوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، ثم أرسل الله عزَّ وجلَّ على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً﴾ قال مجاهد: وهي الصَّبا، ويؤيده الحديث الشريف: «نصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدبور».

وقوله تعالى: ﴿وجنوداً لم تروها﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إليّ فيجتمعون إليه فيقول: النجاء لما ألقى الله عزَّ وجلَّ في قلوبهم من الرعب، روى مسلم في صحيحه عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقال له رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت، فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة

الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتي بخبر القوم يكون معي يوم القيامة» فلم يجبه منّا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله، ثم قال ﷺ: «يا حذيفة قم فأتنا بخبر من القوم» فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال: «ائتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ»، قال فمضيت كأنما أمشي في حمّام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: لا تذعرهم عليّ ولو رميته لأصبته، قال: فرجعت كأنما أمشي في حمّام فأتيت رسول الله ﷺ، ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان»[1].

وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة قال: ذكر حذيفة رضي الله عنه مشاهدهم مع رسول الله ﷺ، فقال جلساؤه: أما والله لو شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا، فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعوداً وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة لليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً في أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم فيتسللون ونحن ثلثمائة أو نحو ذلك إذا استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً، حتى أتى علي وما عليَّ جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي، قال فأتاني ﷺ، وأنا جاث على ركبتي فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة، قال: «حذيفة؟» فتقاصرت الأرض فقلت: بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم فقمت، فقال: «إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم» قال: وأنا من أشد الناس فزعاً وأشدهم قراً قال: فخرجت فقال رسول الله ﷺ: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته»، قال: فوالله ما خلق الله تعالى فزعاً ولا قراً في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد فيه شيئاً، قال: فلما وليت قال ﷺ: «يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني» قال: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد، فإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول: الرحيل الرحيل ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش، فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني»، قال: فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت المعسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم بها، ثم خرجت نحو النبي ﷺ، فلما انتصفت في الطريق أو نحواً من ذلك، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين فقالوا: أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملة يصلي فوالله ما عدا أن رجعت راجعني القر وجعلت أقرقف، فأومأ إلي رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي، فدنوت منه، فأسبل علي شملة، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. فأخبرته خبر القوم وأخبرته أني تركتهم يرتحلون، وأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

عليكم إذا جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾[١] ولأبي داود : وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى[٢] ؛ وقوله تعالى: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم﴾ أي الأحزاب ﴿ومن أسفل منكم﴾ تقدم عن حذيفة رضي الله عنه أنهم بنو قريظة، ﴿وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾ أي من شدة الخوف والفزع، ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين، وقال محمد بن إسحاق: ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق، حتى قال (معتب بن قشير): كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط، وقال الحسن في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ ظنون مختلفة ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال، قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ: « نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا » قال: فضرب وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم بالريح[٣]

هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً، فحينئذ ظهر النفاق وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم، ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾، أما المنافق فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة تنفس بما يجده من الوسواس في نفسه، لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال، قال الله تعالى: ﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب﴾ يعني المدينة كما جاء في الصحيح: « أريت في المنام دار هجرتكم أرض بين حرتين فذهب وَهْلي[٤] أنها هجر فإذا هي يثرب » وفي لفظ المدينة، وقوله: ﴿لا مقام لكم﴾ أي ههنا يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة، ﴿فارجعوا﴾ أي إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿ويستأذن فريق منهم النبي﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بنو حارثة، قالوا: بيوتنا نخاف عليها السراق، يعني اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة، أي ليس دونها ما يحجبها من العدو، فهم يخشون عليها منهم، قال الله تعالى: ﴿وما هي بعورة﴾ أي ليست كما يزعمون ﴿إن يريدون إلا فراراً﴾ أي هرباً من الزحف .

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي في دلائل النبوة .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الإمام أحمد بمثله .

(٤) وَهْلي : أي ظني .

مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً، وهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع[1]، وهذا ذم لهم في غاية الذم، ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف أن لا يولوا الأدبار ولا يفروا من الزحف: ﴿وكان عهد الله مسئولاً﴾ أي وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد لا بد من ذلك، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً﴾ أي بعد هربكم وفراركم، ثم قال تعالى: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله﴾ أي يمنعكم، ﴿إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث.

۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم من شهود الحرب، والقائلين لإخوانهم أي أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم ﴿هلم إلينا﴾ أي إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار وهم مع ذلك ﴿لا يأتون البأس إلا قليلاً ⁂ أشحة عليكم﴾ أي بخلاء بالمودة والشفقة عليكم، وقال السدي ﴿أشحة عليكم﴾ أي في الغنائم، ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ أي من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾ أي فإذا كان الأمن تكلموا كلاماً فصيحاً عالياً، وادعوا لأنفسهم الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك، قال ابن عباس: ﴿سلقوكم﴾ أي استقبلوكم، وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأه مقاسمة أعطونا أعطونا، قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق، وهم مع ذلك ﴿أشحة على الخير﴾ أي ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر

أفي السلم أعيار[1] جفـــاء وغلظة ... وفي الحرب أمثال النساء العوارك؟

---

(١) هكذا فسرها قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير . (١) الأعيار: جمع عير وهو الحمار .

أي في حال المسالمة كأنهم الحمر، وفي الحرب كأنهم النساء الحيض، ولهذا قال تعالى: ﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ أي سهلاً هيناً عنده.

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف، ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ بل هم قريب منهم وإن لهم عودة إليهم، ﴿ وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ﴾ أي ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة، بل في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم، ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾ أي ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً، لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم والله سبحانه وتعالى العالم بهم.

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته، ولهذا قال تعالى للذين تضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ أي هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين، المصدقين بموعود الله لهم، وجعله العاقبة لهم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴾ قال ابن عباس: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب ﴾ أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال تعالى: ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، ومعنى قوله جلت عظمته: ﴿ وما زادهم ﴾ أي ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إلا إيماناً ﴾ بالله، ﴿ وتسليماً ﴾ أي انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ.

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾

لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق، و ﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ﴾ قال بعضهم: أجله، وقال البخاري: عهده، وهو يرجع إلى الأول

﴿ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾ أي وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه. روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نرى هذه الآيات نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ الآية، وروى الإمام أحمد عن ثابت قال: قال أنس عمي (أنس بن النضر) رضي الله عنه، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله عزَّ وجلَّ ما أصنع، قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحد، فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال له أنس رضي الله عنه: يا أبا عمرو أين، واهاً لريح الجنة إني أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه، قال: فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع ابنة النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه، قال: فنزلت هذه الآية ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾ قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنهم[1]. وعن طلحة رضي الله عنه قال: لما رجع رسول الله ﷺ من أُحد صعد المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وعزّى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر، ثم قرأ هذه الآية: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه﴾ الآية كلها، فقام إليه رجل من المسلمين فقال: يا رسول الله من هؤلاء؟ فأقبلتُ وعليَّ ثوبان أخضران حضرميان فقال: «أيها السائل هذا منهم»[2].

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ يعني عهده ﴿ومنهم من ينتظر﴾ يوماً فيه القتال فيصدق في اللقاء، وقال الحسن: ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ يعني موته على الصدق والوفاء، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك، ومنهم من لم يبدل تبديلاً، وقال بعضهم: نحبه نذره، وقوله تعالى: ﴿وما بدلوا تبديلاً﴾ أي وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين ﴿عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار﴾، وقوله تعالى: ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾ أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال، ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه منهم، كما قال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾، فهذا علم بالشيء بعد كونه وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده، وكذا قال الله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم﴾ أي بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به ومحافظتهم عليه ﴿ويعذب المنافقين﴾ وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم والترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن جرير عن موسى بن طلحة.

۞ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلّهية، ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد، ولكن قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ فسلط عليهم هواء فرّق شملهم، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم ﴿لم ينالوا خيراً﴾ لا في الدنيا من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعداوة وهمهم بقتله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم؛ بل كفى الله وحده ونصر عبده وأعز جنده، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «لا إلّه إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده»(١)، وفي الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم». وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾، إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها لم يغزهم المشركون بل غزاهم المسلمون في بلادهم، قال محمد بن إسحاق: لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم»، فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان رسول الله ﷺ هو يغزوهم بعد ذلك حتى فتح الله تعالى مكة، وقوله تعالى: ﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾ أي بحوله وقوته ردّهم خائبين لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله، فله الحمد والمنة.

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قد تقدم أن (بني قريظة) لما قدمت الأحزاب، ونزلوا على المدينة نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة (حيي بن أخطب) لعنه الله دخل حصنهم، ولم يزل بسيدهم (كعب بن أسد) حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك قد جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه، فقال له كعب: بل والله أتيتني بذل الدهر، فلم يزل يفتل في الذروة والغارب، حتى أجابه، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أيده الله تعالى ونصره، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة، في بيت أم سلمة رضي الله عنها، إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام متعجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال ﷺ: «نعم»، قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة، فنهض رسول الله ﷺ

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر، وقال ﷺ: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»، فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق، وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين، وتبعهم رسول الله ﷺ.

وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم (سعد بن معاذ) سيد الأوس رضي الله عنه، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون: يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم، ويرققونه عليهم ويعطفونه، وهو ساكت لا يرد عليهم، فلما أكثروا عليه قال رضي الله عنه: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم، فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت» فقال رضي الله عنه: وحكمي نافذ عليهم؟ قال ﷺ: «نعم»، قال: وعلى من في هذه الخيمة؟ قال: «نعم»، قال: وعلى من ههنا، وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال رضي الله عنه: إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبي ذريتهم وأموالهم، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة»، ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد، فخدت في الأرض وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسبي من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم﴾ أي عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿من أهل الكتاب﴾ يعني بني قريظة من اليهود من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً طمعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ فعليهم لعنة الله، وقوله تعالى: ﴿من صياصيهم﴾ يعني حصونهم[1]، ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ وهو الخوف لأنهم كانوا مالأوا المشركين على حرب النبي ﷺ، وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم فانعكس عليهم الحال، ولهذا قال تعالى: ﴿فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة، والأسراء هم الصغار والنساء، ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم﴾ أي جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿وأرضاً لم تطؤوها﴾ قيل: خيبر، وقيل: مكة، وقيل: فارس والروم، قال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾
وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والسدي وغير واحد من السلف.

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسول الله ﷺ، بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره، ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن، الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخيِّر أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك – وقد علم أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه – قالت: ثم قال: «إن الله تعالى قال: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾» إلى تمام الآيتين، فقلت له: في أي هذا استأمر أبويّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة[1]. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قالت عائشة رضي الله عنها: أنزلت آية التخيير فبدأ بي أول امرأة من نسائه. فقال ﷺ: «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك» قالت وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه قالت ثم قال: «إن الله تبارك وتعالى قال: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ الآيتين، قالت عائشة رضي الله عنها فقلت أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خير نساءه كلهن، فقلن مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهن[2].

وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ، والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر رضي الله عنه، فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ﷺ ساكت، فقال عمر رضي الله عنه: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد – امرأة عمر – سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: «هن حولي يسألنني النفقة»، فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده، فنهاهم رسول الله ﷺ فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال: وأنزل الله عزَّ وجلَّ الخيار، فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال: «إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك» قالت وما هو؟ قال فتلا عليها: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ الآية. قالت عائشة رضي الله عنها أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله تعالى ورسوله، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال ﷺ: «إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها»[3]، قوله تعالى: ﴿فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً﴾ أي أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن، قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش (عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة) رضي الله عنهن، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النضيرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري وفي بعض رواياته عن عائشة قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه البخاري ومسلم عن الزهري عن عائشة بمثله.
(٣) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، بأن من يأت منهن ﴿بفاحشة مبينة﴾ قال ابن عباس: هي النشوز وسوء الخلق، وهذا شرط والشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾، وكقوله ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾، فلما كانت منزلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً، ولهذا قال تعالى: ﴿من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ يعني في الدنيا والآخرة[1]، ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي سهلاً هيناً، ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله﴾ أي تطع الله ورسوله وتستجب ﴿نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ أي في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ[2]، بأنهن إذا اتقين الله عزَّ وجلَّ كما أمرهن، فإنه لا يشبهن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، ثم قال تعالى: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ قال السدي: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال تعالى: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي دغل، ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها، وقوله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ أي إلزمن بيوتكن، فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية، الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهنّ تَفِلات»[3]، وفي رواية: «وبيوتهن خير لهن» وروى الحافظ البزار عن أنس رضي الله عنه قال: جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قعدت - أو كلمة نحوها - منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى»، وعن النبي ﷺ قال: «إن المرأة عورة

---

(١) قاله زيد بن أسلم ومجاهد.
(٢) ونساء الأمة تبع لهن في ذلك.
(٣) تَفِلات: أي غير متطيبات.

فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون بروحة ربها وهي في قعر بيتها »[١] ، وفي الحديث: « صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها »[٢] ، وقوله تعالى: ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال فذلك تبرج الجاهلية، وقال قتادة: كانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك، وقال مقاتل: التبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج .

وقوله تعالى: ﴿ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله﴾ نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين، ﴿ وأطعن الله ورسوله﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص، وقوله تعالى: ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا، لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، روى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق: ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة، وليس المراد أنهن المراد فقط دون غيرهن، فقد روى ابن أبي حاتم عن العوام بن حوشب رضي الله عنه عن ابن عم له قال: دخلت مع أبي على عائشة رضي الله عنها فسألتها عن علي رضي الله عنه، فقالت رضي الله عنها: تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه ؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً رضي الله عنهم فألقى عليهم ثوباً فقال: « اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » قالت: فدنوت منهم فقلت يا رسول الله وأنا من أهل بيتك ؟ فقال ﷺ: « تنحي فإنك على خير »[٣] .

وروى مسلم في صحيحه عن يزيد بن حبان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن سلمة إلى (زيد ابن أرقم) رضي الله عنه، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي والله لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا وما لا، فلا تكلفوا فيه، ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: « أما بعد ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله عزَّ وجلَّ ورغب فيه، ثم قال: « وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي » فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم ؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل

---

(١) أخرجه الحافظ البزار والترمذي .

(٢) أخرجه الحافظ البزار عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً وإسناده جيد .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

عباس رضي الله عنهم، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال: نعم(١). والذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ أي واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنّة، واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي عنهما أولاهن بهذه النعمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته فقرابته أحق بهذه التسمية كما تقدم في الحديث: «وأهل بيتي أحق»، وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال: «هو مسجدي هذا»، فهذا من هذا القبيل، فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء، كما ورد في الأحاديث الأخر، ولكن إذا كان ذاك أُسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ أي بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته أعطاكن ذلك وخصكن بذلك، قال ابن جرير: واذكروا نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ أي ذا لطف بكن إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة وهي (السنّة) خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً.

۞ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ يا نبي الله: ما لي أسمع الرجال يذكرون في القرآن، والنساء لا يذكرن؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾(٢). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال النساء للنبي ﷺ: ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ الآية(٣). وقوله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام وهو أخص منه لقوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فيسلبه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه. وقوله تعالى: ﴿والقانتين والقانتات﴾ القنوت هو الطاعة في سكون، قال تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء

(١) رواه مسلم في صحيحه.
(٢) رواه النسائي في سننه عن أم سلمة رضي الله عنها.
(٣) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الليل ساجداً وقائماً﴾، وقال تعالى: ﴿كل له قانتون﴾ فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها وهو ﴿الإيمان﴾ ثم القنوت ناشيء عنهما ﴿والصادقين والصادقات﴾ هذا في الأقوال فإن الصدق خصلة محمودة، وهو علامة على الإيمان كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا، «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر» الحديث. ﴿والصابرين والصابرات﴾ هذه سجية الأثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدر كائن لا محالة، وتلقي ذلك بالصبر والثبات وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي أصعبه في أول وهلة ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ الخشوع هو السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته كما في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ الصدقة هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم، وقد ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - فذكر منهم - ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وفي الحديث الآخر: «والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار» والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً.

﴿والصائمين والصائمات﴾ والصوم زكاة البدن، يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة، كما قال سعيد ابن جبير: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله تعالى: ﴿والصائمين والصائمات﴾ ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة، كما قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» ناسب أن يذكر بعده ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ أي عن المحارم والمآثم إلا عن المباح، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾، وقوله تعالى: ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾، روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[1]. وفي الحديث: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «ذكر الله عزَّ وجلَّ»[2]، وروي ان رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: أي المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أكثرهم لله تعالى ذكراً»، قال: فأي الصائمين أكثر أجراً؟ قال ﷺ: «أكثرهم لله عزَّ وجلَّ ذكراً» ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك يقول رسول الله ﷺ: «أكثرهم لله ذكراً» فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: ذهب الذاكرون بكل خير، فقال رسول الله ﷺ: «أجل»[3]. وقوله تعالى: ﴿أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم، أي أن الله تعالى قد أعد لهم أي هيأ لهم ﴿مغفرة﴾ منه لذنوبهم و﴿أجراً عظيماً﴾ وهو الجنة.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه بمثله.
(٢) أخرجه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل مرفوعاً.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ (زينب بنت جحش) لزيد بن حارثة رضي الله عنه، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسباً، وكانت امرأة فيها حدة، فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾ الآية كلها[1]، وقال عبد الرحمن بن أسلم: نزلت في (أم كلثوم) بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها، وكانت أول من هاجر من النساء يعني بعد صلح الحديبية فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقال: قد قبلت، فزوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه يعني - والله أعلم - بعد فراقه زينب، فسخطت هي وأخوها، وقالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ، فزوجنا عبده، قال، فنزل القرآن: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ إلى آخر الآية، وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ على (جليبيب) امرأة من الأنصار إلى أبيها فقال: حتى أستأمر أمها، فقال ﷺ: «نعم إذاً» قال، فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر لها، فقالت: لاها الله إذن ما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبيباً، وقد منعناها من فلان وفلان، قال: والجارية في سترها تسمع، قال فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره، إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه، قال: فكأنها جلت عن أبويها، وقالا: صدقت، فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه، قال ﷺ: «فإني قد رضيته»، قال: فزوجها، ثم فزع أهل المدينة فركب جليبيب فوجدوه قد قتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس رضي الله عنه: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة[2]. وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في (الاستيعاب) أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ نزلت هذه الآية: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ وقال ابن جريج عن طاووس قال: إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر، فنهاه وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾، وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال: ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾، كقوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾

(١) وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل أنها نزلت في (زينب بنت جحش) حين خطبها رسول الله ﷺ لمولاه زيد بن حارثة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه.

فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ، أنه قال لمولاه (زيد بن حارثة) رضي الله عنه، وهو الذي (أنعم الله عليه) أي بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ﴿وأنعمت عليه﴾ أي بالعتق من الرق، وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر، حبيباً إلى النبي ﷺ يقال له (الحب) ويقال لابنه أسامة (الحب ابن الحب) قالت عائشة رضي الله عنها: ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمّره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه[1]، وكان رسول الله ﷺ قد زوّجه بابنة عمته (زينب بنت جحش) الأسدية رضي الله عنها، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهماً وخماراً وملحفة ودرعاً؛ فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» قال الله تعالى: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾. روى ابن أبي حاتم عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي بن الحسين رضي الله عنهما ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾، فذكرت له، فقال: لا، ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد رضي الله عنه ليشكوها إليه قال: «اتق الله وأمسك عليك زوجك» فقال: قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه.

وروى ابن جرير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾، وقوله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾ الوطر: هو الحاجة والأرب، أي لما فرغ منها وفارقها زوجناكها، وكان الذي ولي تزويجها منه الله عزَّ وجلَّ، بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر، عن أنس رضي الله عنه قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها عليَّ» فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول: إن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤمر ربي عزَّ وجلَّ، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ، فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ وأطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل ﷺ يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن: يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر، فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾ الآية كلها[2]، وقد روى البخاري رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ، فتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات»[3] وقوله تعالى: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه مسلم والنسائي بنحوه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك.

أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾ أي إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنّى (زيد بن حارثة) رضي الله عنه، فكان يقال له (زيد بن محمد) فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة، ولهذا قال تعالى في آية التحريم ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ ليحترز من الابن الدعي، فإن ذلك كان كثيراً فيهم، وقوله تعالى: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾ أي فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقوله تعالى: ﴿سنّة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه، ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ أي وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يمدح تبارك وتعالى ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾ أي إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ﴿ويخشونه﴾ أي يخافونه ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي وكفى الله ناصراً ومعيناً، وسيد الناس في هذا المقام، بل وفي كل مقام (محمد) رسول الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسره وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله: ما يمنعك أن تقول منه، فيقول رب خشيت الناس فيقول فأنا أحق أن يخشى»(١). وقوله تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ نهى أن يقال بعد هذا (زيد بن محمد) أي لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم، فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضي الله عنها فماتوا صغاراً، وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين، فمات في حياته ﷺ ثلاث، وتأخرت فاطمة

(١) أخرجه أحمد ورواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري.

رضي الله عنها حتى أصيبت به ﷺ ثم ماتت بعده لستة أشهر، وقوله تعالى: ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾ فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة.

وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ. روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة»[١]. **حديث آخر**: روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي» قال فشق ذلك على الناس فقال: «ولكن المبشرات» قالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة»[٢]، **حديث آخر**: روى أبو داود الطيالسي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[٣]. **حديث آخر**: قال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأكملها وأحسنها وأجملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بنيانك قال رسول الله ﷺ فكنت أنا اللبنة». **حديث آخر**: قال الإمام أحمد عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال، قال لي النبي ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته». **حديث آخر**: عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»[٤]. فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر تبارك وتعالى في كتابه العزيز أنه لا نبي بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال، ضال مضل.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة الذكر لربهم تبارك وتعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن، لما

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.
(٢) أخرجه أحمد والترمذي.
(٣) أخرجه الطيالسي ورواه البخاري ومسلم والترمذي بنحوه. (٤) أخرجاه في الصحيحين عن طريق الزهري.

لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب، روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال ﷺ: «ذكر الله عزَّ وجلَّ»[1]. وعن عبدالله بن بشر قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال ﷺ: «من طال عمره وحسن عمله»، وقال الآخر: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا فرني بأمر أتشبث به، قال ﷺ: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى»[2]. وفي الحديث: «أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقولوا مجنون»[3]، وقال رسول الله ﷺ: «ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة»[4]، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة، إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإن الله تعالى لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على تركه فقال: ﴿اذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته، والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله تعالى كثيرة جداً[5].

وقوله تعالى: ﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أي عند الصباح والمساء، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾، وقوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ هذا تهييج إلى الذكر، أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾، وقال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» والصلاة من الله تعالى: ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية، وقال غيره: الصلاة من الله عزَّ وجلَّ: الرحمة، وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾، وقوله تعالى: ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين، ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق وبصّرهم الطريق، الذي ضل عنه الدعاة إلى الكفر أو البدعة، وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم. روى الإمام البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد وروى الترمذي وابن ماجه الفصل الأخير منه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

(٤) أخرجه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً .

(٥) صنف العلماء في الأذكار كتباً كثيرة ومن أحسنها كتاب (الأذكار) للإمام النووي .

عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي، قد أخذت صبياً لها، فألصقته إلى صدرها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟» قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: «فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها»، وقوله تعالى: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ أي تحيتهم من الله تعالى يوم يلقونه سلام، أي يوم يسلم عليهم، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ وقال قتادة: المراد أنهم يحيي بعضهم بعضاً بالسلام يوم يلقون الله في الدار الآخرة، واختاره ابن جرير. (**قلت**): وقد يستدل بقوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾، وقوله تعالى: ﴿وأعد لهم أجراً كريماً﴾ يعني الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخَّاب[1] في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً[2]. وقال وهب بن منبه: إن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له (شعياء) أن قم في قومك بني إسرائيل، فإني منطق لسانك بوحي، وأبعث أمياً من الأميين، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشراً ونذيراً، لا يقول الخنا، أفتح به أعيناً كمها وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبرّ شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلال، وأعلِّم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأعرف به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلي، ألهمهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلون

(١) سخّاب: أي كثير الصخب وهو الذي يرفع صوته في الأسواق.

(٢) أخرجه البخاري والإمام أحمد عن عطاء بن يسار.

لي قياماً وقعوداً، ويقاتلون في سبيل الله صفوفاً وزحوفاً، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفاً، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهبان بالليل، ليوث بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين والصديقين، والشهداء الصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، وأعز من نصرهم وأؤيد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم، أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئاً مما في أيديهم، أجعلهم ورثة لنبيهم، والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدأته بأولهم، ذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم[1].

وقال ابن عباس: لما نزلت ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وقد كان أمر علياً ومعاذاً رضي الله عنهما أن يسيرا إلى اليمن، فقال: «انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، إنه قد أنزل عليّ: ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾[2]». فقوله تعالى: ﴿ شاهداً ﴾ أي لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾، كقوله: ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾، وقوله عزّ وجلّ ﴿ ومبشراً ونذيراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب، وقوله جلت عظمته ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه ﴾ أي داعياً للخلق إلى عبادة ربهم، ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ أي وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند. وقوله جلّ وعلا: ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم ﴾ أي لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه، ﴿ ودع أذاهم ﴾ أي اصفح وتجاوز عنهم وكل أمرهم إلى الله تعالى، ولهذا قال جلّ جلاله: ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾.

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة، منها إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، لقوله تبارك وتعالى: ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها، وقوله تعالى: ﴿ المؤمنات ﴾ خرج مخرج الغالب، إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق، وقد استدل ابن عباس وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح، لأن الله تعالى قال: ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ فعقب النكاح بالطلاق، وهذا مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل، وذهب مالك وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح، فيما إذا قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، فعندهما متى تزوجها طلقت منه، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية، قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: إذا قال (كل امرأة أتزوجها فهي طالق) ليس بشيء، من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿ يا أيها الذين

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه رحمه الله.

(٢) رواه ابن أبي حاتم والطبراني.

آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾ ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح ؟ وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال، قال رسول الله ﷺ : « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك »[١] وفي رواية : « لا طلاق قبل النكاح »[٢] ، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً. وقوله تعالى: ﴿ فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾ المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها، قال الله تعالى: ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾. وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ تزوج (أميمة بنت شراحيل) فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين. قال علي بن أبي طلحة: إن كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمى لها صداقاً أمتعها على قدر عسره ويسره وهو السراح الجميل .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ، بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن وهي الأجور ههنا كما قاله مجاهد وغير واحد، وقد كان مهره لنسائه اثني عشرة أوقية ونصف، فالجميع خمسمائة درهم إلا (أم حبيبة بنت أبي سفيان) فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار، وإلا (صفية بنت حيي) فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها، وكذلك (جويرية بنت الحارث) المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها – رضي الله عنهن أجمعين – وقوله تعالى: ﴿ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك﴾ أي وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام، وكانتا من السراري رضي الله عنهما. وقوله تعالى: ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ الآية، كان النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وحرم

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن وهو أحسن شيء في هذا الباب .

(٢) أخرجه ابن ماجه عن المسور بن مخرمة .

ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت وهذا شنيع فظيع، روى ابن أبي حاتم عن أم هانىء قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله تعالى: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك﴾ قالت: فلم أكن أحل له، ولم أكن ممن هاجر معه، كنت من الطلقاء، وقال قتادة: المراد من هاجر معه إلى المدينة، وفي رواية عنه ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ أي أسلمن، وقوله تعالى: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك﴾ أي ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة، إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك، عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «هل عندك من شيء تصدقها إياه؟» فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله ﷺ: «إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فالتمس شيئاً» فقال: لا أجد شيئاً، فقال: «التمس ولو خاتماً من حديد» فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «هل معك من القرآن شيء؟» قال: نعم سورة كذا وسورة كذا - السور يسميها - فقال له النبي ﷺ: «زوجتكها بما معك من القرآن»(١).

وعن ثابت قال: كنت مع أنس جالساً وعنده ابنة له، فقال أنس: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله هل لك فيَّ حاجة؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها فقال: «هي خير منك، رغبت في النبي فعرضت عليه نفسها»(٢). وقال ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت الحكيم، وعن عروة كنا نتحدث أن خولة بنت الحكيم كانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ، وكانت امرأة صالحة، **والغرض** من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير، كما روى البخاري عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. وقد قال ابن عباس: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له، أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي إن اختار ذلك(٣). وقوله تعالى: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ قال عكرمة: أي لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً، أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها، ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ، وقوله تعالى: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد.

(٢) أخرجه البخاري والإمام أحمد.

(٣) أخرج ابن سعد: أن أم شريك غزية بنت جابر الدوسية عرضت نفسها على النبي ﷺ وكانت جميلة فقبلها، فقالت عائشة: ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير، قالت أم شريك: فأنا تلك فسماها الله: مؤمنة، فقال ﴿وامرأة مؤمنة ...﴾ الآية، فلما نزلت قالت عائشة: إن الله يسرع لك في هواك.

أيمانهم﴾ أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر، وما شاءوا من الإماء، واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم، وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه[١] ﴿لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

* تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

﴿ترجي﴾ أي تؤخر ﴿من تشاء منهن﴾ أي من الواهبات، ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي من شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك إن شئت عدت فيها فأويتها، ولهذا قال: ﴿ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾، قال الشعبي: كن نساءاً وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم ينكحن بعده، منهن أم شريك، وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ الآية، أي من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القسم لهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت، وتترك من شئت؛ ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ﷺ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة، وروى البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذلك إليَّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً[٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾ أي إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختياراً منك، لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن واعترفن بمنتك عليهن، في قسمتك وإنصافك لهن وعدلك فيهن، وقوله تعالى: ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ أي من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه، كما روي عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[٣]، زاد أبو داود: يعني القلب. ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿وكان الله عليماً﴾ أي بضمائر السرائر، ﴿حليماً﴾ أي يحلم ويغفر[٤]

لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

---

(١) قاله مجاهد والحسن وقتادة وابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم﴾.

(٢) اختار ابن جرير أن الآيـة عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن جميعاً وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي.

(٣) أخرجه أصحاب السنن الأربعة وإسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٤) أخرج ابن سعد عن أبي رزين قال: همَّ رسول الله ﷺ أن يطلق نساءه، فلما رأين ذلك جعلنه في حل من أنفسهن، يؤثر من يشاء على من يشاء، فأنزل الله: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك - إلى قوله - ترجي من تشاء﴾ ذكره السيوطي.

هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ على حسن صنيعهن، في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج، لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن، روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء[1]. وروى ابن أبي حاتم عن أم سلمة أنها قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهن﴾[2] فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها والله أعلم. وقال آخرون: بل معنى الآية ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ أي من بعدما ذكرنا لك من صفة النساء، اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات، والخال والخالات، والواهبة، وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك.

قال ابن جرير عن زياد عن رجل من الأنصار قال، قلت لأبي بن كعب: أرأيت لو أن أزواج النبي ﷺ توفين أما كان له أن يتزوج؟ فقال: وما يمنعه من ذلك؟ قال، قلت: قول الله تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ فقال: إنما أحل الله له ضرباً من النساء، فقال تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك - إلى قوله تعالى - إن وهبت نفسها للنبي﴾ ثم قيل له: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾، وروى الترمذي عن ابن عباس قال نهي رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك﴾، فأحل الله فتياتكم المؤمنات، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي، وحرم كل ذات دين غير الإسلام، ثم قال: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن - إلى قوله تعالى - خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء[3]. وقال مجاهد: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ أي من بعد ما سمى لك، لا مسلمة ولا يهودية، ولا نصرانية، ولا كافرة، وقال عكرمة ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾: أي التي سمى الله، واختار ابن جرير رحمه الله أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً، وهذا الذي قاله جيد ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ولا منافاة والله أعلم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي عزَّ وجلَّ في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾، وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ، لمَّا تمالأن عليه في الغيرة ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ فنزلت كذلك، وفي رواية لمسلم: ذكر أسارى بدر وهي قضيه رابعة. وفي البخاري عن أنس بن مالك قال، قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة في قول قتادة والواقدي وغيرهما، قال البخاري عن أنس بن مالك: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت، فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا﴾الآية[1] .

وروى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال: أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه، فصنعت أم سليم حيساً ثم جعلته في تَوْر[2]، فقالت: اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ وأقرئه مني السلام وأخبره أن هذا منا له قليل، - قال أنس: والناس يومئذ في جَهْد - فجئت به ، فقلت : يا رسول الله بَعثتْ بهذا أم سليم إليك ، وهي تقرئك السلام وتقول أخبره أن هذا منا له قليل، فنظر إليه ثم قال: « ضعه » فوضعه في ناحية البيت ثم قال: « اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً » فسمى رجالاً كثيراً، وقال: « ومن لقيت من المسلمين »، فدعوت من قال لي ومن لقيت من المسلمين فجئت والبيت والصفة والحجرة ملأى من الناس، فقلت: يا أبا عثمان كم كانوا ؟ فقال: كانوا زهاء ثلاثمائة، قال أنس: فقال لي رسول الله ﷺ : « جئْ به » فجئت به إليه فوضع يده عليه ودعا، وقال: « ما شاء الله » ثم قال: « ليتحلق عشرة عشرة وليسموا، وليأكل كل إنسان مما يليه » فجعلوا يسمون ويأكلون حتى أكلوا كلهم، فقال لي رسول الله ﷺ : « ارفعه » قال: فجئت فأخذت التور، فنظرت فيه فما أدري أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت، قال: وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وزوج رسول الله ﷺ التي دخل

(١) رواه البخاري عن أنس بن مالك وأخرجه مسلم والنسائي بنحوه .

(٢) الحيس: طعام خليط من تمر وسمن وأَقِط. التور: وعاء صغير للشرب .

بها معهم مولية وجهها إلى الحائط فأطالوا الحديث، فشقوا على رسول الله ﷺ وكان أشد الناس حياء، ولو أعلموا كان ذلك عليهم عزيزاً، فقام رسول الله ﷺ على حجره وعلى نسائه، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه ابتدروا الباب، فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل البيت وأنا في الحجرة فمكث رسول الله ﷺ في بيته يسيراً وأنزل الله عليه القرآن فخرج وهو يتلو هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾ الآيات، قال أنس: فقرأهن عليَّ قبل الناس فأنا أحدث الناس بهن عهداً[1].

فقوله تعالى: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة، ثم استثنى من ذلك فقال تعالى: ﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾ أي غير متحينين نضجه واستواءه، أي لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هـذا مما يكرهه الله ويذمـه؛ وهذا دليل على تحريم التطفيل وهو الذي تسميه العرب الضيفن[2]، ثم قال تعالى: ﴿ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا﴾، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو غيره»[3]، وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ: «لو دعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدي إليَّ كراع لقبلت، فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل وانتشروا في الأرض»، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ أي كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ﴿إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم﴾ وقيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك، من شدة حيائه عليه السلام، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿والله لا يستحيي من الحق﴾ أي ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه، ثم قال تعالى: ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب﴾ أي وكما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب. ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب، وقوله تعالى: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾ قال ابن عباس: نزلت في رجل همَّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده، قال رجل لسفيان: أهي عائشة؟ قال: قد ذكروا ذلك، وقال السدي: إن الذي عزم على ذلك (طلحة بن عبيد الله) رضي الله عنه، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم، وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾، ثم قال تعالى: ﴿إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾

---

(١) رواه ابن أبي حاتم واللفظ له وأخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي بنحوه.

(٢) صنّف الخطيب البغدادي كتاباً في ذم الطفيليين وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عمر

أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾[1]

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بيّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن﴾ الآية، وفيها زيادات على هذه، وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ههنا، وقوله تعالى: ﴿ولا نسائهن﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات، وقوله تعالى: ﴿وما ملكت أيمانهن﴾ يعني به أرقاءهن من الإناث كما تقدم التنبيه عليه، قال سعيد بن المسيب: إنما يعني به الإماء فقط، وقوله تعالى: ﴿واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ أي واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فراقبن الرقيب.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء، وقال ابن عباس: يصلون يبرّكون، وقال سفيان الثوري: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار، والمقصود من هذه الآية، أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين (العلوي) و (السفلي) جميعاً، قال ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: هل يصلي ربك؟ فناداه ربه عزَّ وجلَّ: يا موسى سألوك هل يصلي ربك فقل نعم: أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي، فأنزل الله عزَّ وجلَّ على نبيه ﷺ: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾[2].

وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم﴾ الآية، وفي الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف»، وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله ما تيسر، روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن كعب بن عجرة قال: قيل يا رسول الله أما السلام عليك

---

(١) نزلت الآية في طلحة بن عبيد الله، قال: أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا، لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه بعده، فأنزل الله هذه الآية. أخرجه ابن أبي حاتم وأخرج جويبر عن ابن عباس: أن رجلاً أتى بعض أزواج الرسول فكلمها، وهو ابن عم لها، فكره الرسول ذلك، فقال الرجل: يمنعني من كلام ابنة عمي، لأتزوجنها من بعده فنزلت الآية، قال ابن عباس: فأعتق ذلك الرجل رقبة، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله وحج ماشياً، توبة من كلمته.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

فقد عرفناه فكيف الصلاة ؟ قال: « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ». وروى ابن أبي حاتم عن كعب بن عجرة قال: لما نزلت ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ قال: قلنا يا رسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال: « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد »، ومعنى قولهم: أما السلام عليك فقد عرفناه هو الذي في التشهد وفيه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. **حديث آخر**: وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قلنا: يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلي عليك ؟ قال: « قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ». **حديث آخر**: قال مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد ابن عبادة فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك ؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم »[1]. ومن ههنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير، فإن تركه لم تصح صلاته، على أن الجمهور على خلافه وحكوا الإجماع على خلافه وللقول بوجوبه ظواهر الحديث، فلا إجماع في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً، والله أعلم.

(فضائل الصلاة على النبي ﷺ)

روى أبو عيسى الترمذي عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاةً »[2]. **حديث آخر**: وروى الترمذي عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: « يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه » قال أبي: قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال: « ما شئت » قلت الربع، قال: « ما شئت فإن زدت فهو خير لك » قلت فالنصف قال: « ما شئت فإن زدت فهو خير لك » قلت: فالثلثين، قال: « ما شئت فإن زدت فهو خير لك » قلت أجعل لك صلاتي كلها، قال: « إذن تُكفى همك ويغفر لك ذنبك ». **طريق أخرى**: روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال: قام رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجداً فأطال السجود حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها فدنوت منه ثم جلست فرفع رأسه فقال: « من هذا » قلت: عبد الرحمن، قال: « ما شأنك ؟ » قلت: يا رسول الله سجدت سجدة خشيت أن يكون الله قبض روحك فيها، فقال: « إن جبريل أتاني فبشرني أن الله عزَّ وجلَّ يقول لك من

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) تفرد بروايته الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت فسجدت لله عزَّ وجلَّ شكراً ». **حديث آخر**: قال الإمام أحمد عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه: أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه، فقالوا يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك، فقال: « إنه أتاني الملك فقال: يا محمد أما يرضيك أن ربك عزَّ وجلَّ يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً قلت: بلى »[1]. **حديث آخر**: روى مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه بها عشراً ». **حديث آخر**: قال الإمام أحمد عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: من صلى على رسول الله ﷺ صلاة صلى الله عليه وملائكته لها سبعين صلاة، فليقلَّ عبد من ذلك أو ليكثر، وسمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع، فقال: « أنا محمد النبي الأمي - قاله ثلاث مرات - ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتجوز بي عوفيت وعوفيت أمتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه ». **حديث آخر**: قال الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات ». **حديث آخر**: قال الإمام أحمد عن علي بن الحسين عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: « البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل عليّ ». **حديث آخر**: قال إسماعيل القاضي عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إن أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصل عليّ »، وروي عن الحسن البصري أن رسول الله ﷺ قال: « بحسب امرىء من البخل أن أذكر عنده فلا يصليّ عليّ ».

حديث آخر: قال الترمذي عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليَّ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة »[2]. وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ كلما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي؛ وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس، بل تستحب، ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَةَ[3] يوم القيامة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم »، وحكي عن بعضهم: أنه إنما تجب الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - في العمر مرة واحدة امتثالاً لأمر الآية، ثم هي مستحبة في كل حال، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة.

فصل

وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث: اللهم صل على

---

(١) أخرجه أحمد ورواه النسائي بنحوه.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب ورواه البخاري بنحوه.

(٣) ترة: مكروهاً وحسرة عليهم.

محمد وآله وأزواجه وذريته، فهذا جائز بالإجماع، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم، فقال قائلون: يجوز ذلك، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾، وبقوله: ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾، وبقوله: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ﴾ الآية. وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: « اللهم صلِّ عليهم » فأتاه أبي بصدقته فقال: « اللهم صل على آل أبي أوفى »[1]، **وقال الجمهور من العلماء**: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: قال أبو بكر صلى الله عليه، أو قال علي صلى الله عليه، وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: قال محمد عزَّ وجلَّ، وإن كان عزيزاً جليلاً، لأن هذا من شعار ذكر الله عزَّ وجلَّ، وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنّة على الدعاء لهم، ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى ولا لجابر وامرأته، وهذا مسلك حسن. وأما السلام، فقال الجويني من أصحابنا: هو في معنى الصلاة فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: علي عليه السلام، وسواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيخاطب به فيقال: سلام عليك وسلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم، وهذا مجمع عليه، انتهى ما ذكره.

(**قلت**): وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علي رضي الله عنه بأن يقال عليه السلام من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه؛ وهذا وإن كان معناه صحيحاً لكن ينبغي أن يسوى بين الصحابة في ذلك فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه رضي الله عنهم أجمعين، قال عكرمة عن ابن عباس: لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة، وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أما بعد فإن ناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عَدْلَ الصلاة على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا، فرهم أن تكون صلاتهم على النبيين، ودعاؤهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك[2]

فرع: قال النووي: إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول: صلى الله عليه فقط، ولا عليه السلام فقط. وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ فالأولى أن يقال ﷺ تسليماً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

يقول تعالى متهدداً ومتوعداً من آذاه، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره، وإيذاء رسوله بعيب أو بنقص – عياذاً بالله من ذلك – قال عكرمة ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله ﴾ نزلت في المصورين، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « يقول الله عزَّ وجلَّ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره »

(١) أخرجاه في الصحيحين. (٢) قال ابن كثير: أثر حسن.

ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا، فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله عزَّ وجلَّ فنهى عن ذلك، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب، والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومن آذاه فقد آذى الله كما أن من أطاعه فقد أطاع الله، كما قال رسول الله ﷺ: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[1]. وقوله تعالى: ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾ أي ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ وهذا هو البهت الكبير أن يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الرافضة الذين يتنقصون الصحابة، ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، فإن الله عزَّ وجلَّ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً، فهم في الحقيقة منكسو القلوب، يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين، وقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أي الربا أربى عند الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم» ثم قرأ: ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾[2].

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ * لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية، والجلباب هو الرداء فوق الخمار، وهو بمنزلة الإزار اليوم، قال الجوهري: الجلباب الملحفة، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً لها:

تمشي النسور إليه وهي لاهية مشي العذارى عليهن الجلابيب

قال ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة، وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى، وقال عكرمة: تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها،

(١) أخرجه أحمد والترمذي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها(١). وسئل الزهري هل على الوليدة خمار، متزوجة أو غير متزوجة؟ قال: عليها الخمار إن كانت متزوجة، وتنهى عن الجلباب، لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات، وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾.

وروي عن سفيان الثوري أنه قال: لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة وإنما نهي عن ذلك لخوف الفتنة لا لحرمتهن، واستدل بقوله تعالى: ﴿ونساء المؤمنين﴾، وقوله: ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ أي إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر، قال السدي: كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة، فيعرضون للنساء وكان مساكن أهل المدينة ضيقة، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا: هذه حرة فكفوا عنها، وإذا رأو المرأة ليس عليها جلباب قالوا: هذه أمة فوثبوا عليها، وقال مجاهد: يتجببن فيعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة، وقوله تعالى: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك، ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ قال عكرمة وغيره: هم الزناة ههنا، ﴿والمرجفون في المدينة﴾ يعني الذين يقولون جاء الأعداء وجاءت الحروب، وهو كذب وافتراء، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿لنغرينك بهم﴾ قال ابن عباس: أي لنسلطنك عليهم، وقال قتادة: لنحرشنك بهم، وقال السدي: لنعلمنك بهم، ﴿ثم لا يجاورونك فيها﴾ أي في المدينة ﴿إلا قليلاً ملعونين﴾ حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ﴿أينما ثقفوا﴾ أي وجدوا، ﴿أخذوا﴾ لذلتهم وقلتهم، ﴿وقتّلوا تقتيلاً﴾. ثم قال تعالى: ﴿سنّة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أي هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم، ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم، ﴿ولن تجد لسنّة الله تبديلاً﴾ أي وسنّة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير.

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

يقول تعالى مخبراً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة، وأرشده أن يرد علمها إلى الله عزّ وجلّ، لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾، كما قال تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾، وقال: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾، وقال: ﴿أتى أمر الله فلا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أم سلمة.

تستعجلوه﴾، ثم قال: ﴿إن الله لعن الكافرين﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿وأعد لهم سعيراً﴾ أي في الدار الآخرة ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها، ﴿لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ أي ليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه، ثم قال: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾ أي يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يتمنون أن لو كانوا في الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا﴾، وقال تعالى: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا، ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلَ﴾ قال طاووس: ﴿سادتنا﴾يعني الأشراف و ﴿كبراءنا﴾ يعني العلماء، أي اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ أي بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿والعنهم لعناً كبيراً﴾ قرىء (كبيراً) وقرىء (كثيراً) وهما متقاربان في المعنى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾

أخرج الإمام البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب في جلده إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله عزَّ وجلَّ أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عزّ وجلّ، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه، فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لَنَدَباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً - قال - فذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾»[1]. وعن ابن عباس في قوله: ﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ قال، قال قومه له: إنك آدر، فخرج ذات يوم يغتسل فوضع ثيابه على صخرة فخرجت الصخرة تشتد بثيابه، وخرج يتبعها عرياناً، حتى انتهت به إلى مجالس بني إسرائيل. قال: فرأوه ليس بآدر فذلك قوله: ﴿فبرأه الله مما قالوا﴾، وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، قال. فقلت: يا عدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[2]. وقوله تعالى: ﴿وكان عند الله وجيهاً﴾ أي له وجاهة وجاه عند ربه عزَّ وجلَّ، قال الحسن البصري: كان مستجاب الدعوة عند الله، وقال غيره من السلف: لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن منع الرؤية لما يشاء عزَّ وجلَّ، وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في

(١) أخرجه البخاري مطولاً في أحاديث الأنبياء ورواه في باب التفسير مختصراً.

(٢) أخرجاه في الصحيحين واللفظ لأحمد.

أخيه هارون أن يرسله[1] الله معه فأجاب الله سؤاله فقال: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا ﴿قولاً سديداً﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه، بأن يصلح لهم أعمالهم أن يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، ثم قال تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ وذلك أنه يجار من نار الجحيم، ويصير إلى النعيم المقيم، عن أبي موسى الأشعري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا فقال: «إن الله تعالى أمرني أن آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً» ثم أتى النساء فقال: «إن الله أمرني أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً». وعن ابن عباس موقوفاً: «من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله»، قال عكرمة: القول السديد لا إله إلا الله، وقال غيره: السديد الصدق، وقال مجاهد: هو السداد، وقال غيره: هو الصواب، والكل حق.

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

قال ابن عباس: يعني بالأمانة (الطاعة) عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها، فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت، فأخذها آدم فحملها، فذلك قوله تعالى: ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ وعنه الأمانة (الفرائض) عرضها الله على السماوات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا عليه من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله تعالى: ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ يعني غراً بأمر الله. وهكذا قال مجاهد والضحاك والحسن البصري: إن الأمانة هي الفرائض، وقال آخرون: هي الطاعة، وقال أبي بن كعب من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها، وقال قتادة: الأمانة الدين والفرائض والحدود، وقال زيد بن أسلم: الأمانة ثلاثة: الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة؛ وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله وبالله المستعان. عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال﴾ قال: عرضها على السبع الطباق الطرائق التي زينت بالنجوم، وحملة

(١) أي يجعله رسولاً معه.

العرش العظيم، فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت، قالت: لا، ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد التي شدت بالأوتاد، وذللت بالمهاد، قال، فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال، قيل لها: إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت، قالت: لا، ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب، قال، قيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيهن؟ قال لها: إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت، قالت: لا[١]. وقال مقاتل بن حيان: إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن والسماوات والأرض والجبال، فبدأ بالسماوات فعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة، فقال لهن أتحملن هذه الأمانة، وَلَكِنَّ عليَّ الفَضْلُ والكرامة والثواب في الجنة؟ فقلن: يا رب إنا لا نستطيع هذا الأمر، وليس بنا قوة ولكنا لك مطيعون، ثم عرض الأمانة على الأرضين فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها مني وأعطيكن الفضل والكرامة في الدنيا؟ فقلن: لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطيق ولكنا لك سامعون مطيعون لا نعصيك في شيء أمرتنا به، ثم قرب آدم فقال له: أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها؟ فقال عند ذلك آدم: مالي عندك؟ قال: يا آدم إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت فإني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار، قال: رضيت يا رب، وتحملها فقال الله عزَّ وجلَّ عند ذلك: قد حملتكها فذلك قوله تعالى: ﴿وحملها الإنسان﴾[٢].

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها - أو قال - يكفر كل شيء إلا الأمانة، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له: أدِّ أمانتك فيقول: أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال له: أد أمانتك، فيقول: أنَّى يا رب، وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال له: أد أمانتك، فيقول: أنَّى يا رب وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول: اذهبوا به إلى أمه الهاوية، فيذهب به إلى الهاوية، فيهوي فيها حتى ينتهي إلى قعرها فيجدها هنالك كهيئتها فيحملها فيضعها على عاتقه، فيصعد بها إلى شفير جهنم، حتى إذا رأى أنه قد خرج زلت قدمه فهوى في أثرها أبد الآبدين» **قال: والأمانة في الصلاة، والأمانة في الصوم، والأمانة في الوضوء، والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع**، فلقيت البراء فقلت: ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله؟ فقال: صدق[٣]، ومما يتعلق بالأمانة ما روي عن حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنّة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل كجمر دحرجته على رجلك، تراه مُنْتَبِراً[٤]، وليس فيه شيء - قال: ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله - قال: فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال: للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله وما في قلبه حبة خردل من إيمان، ولقد أتى عليَّ زمان، وما أبالي أيكم

(١) ذكره ابن أبي حاتم من كلام الحسن البصري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان موقوفاً.

(٣) أخرجه ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) المَجْل: انتفاخ في اليد من العمل الشاق أو النار، منتبراً: متورماً.

بايعت إن كان مسلماً ليردنّه عليّ دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه عليّ ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً»[1]. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا، حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة طِعمة»[2].

وقوله تعالى: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ أي إنما حمّل بني آدم الأمانة وهي التكاليف ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات﴾ وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿والمشركين والمشركات﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله، ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ أي وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

[آخر تفسير سورة الأحزاب ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد .

(٢) أخرجه أحمد والطبراني. و (الطِعمة): الجهة التي يُرتزق منها .

تفسير سورة الأحزاب

[وهى] (١)مدنية .

قال [عبد الله بن] الإمام أحمد (٢) : حدثنا خلف بن هشام ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم ابن بَهْدَلَة ، عن زِرٍّ قال : قال لى أُبَىّ بن كعب : كَأَين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كَأين تعدها ؟ قال : قلت : ثلاثاً وسبعين آية . فقال: قَط ! لقد رأيتها وإنها لتعادل « سورة البقرة » ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالاً من الله ، والله عليم (٣) حكيم » (٤) .

ورواه النسائى من وجه آخر ، عن عاصم ـ وهو ابن أبى النجود ، وهو ابن بَهْدَلَة ـ به (٥) . وهذا إسناد حسن ، وهو يقتضى أنه كان (٦) فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣) ﴾ .

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فَلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى ، وقد قال طَلْق بن حبيب : التقوى: أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله .

وقوله : **﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾** أى: لا تسمع منهم ولا تستشرهم ، **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾** أى: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم فى أقواله وأفعاله. ولهذا قال: **﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾** أى: من قرآن وسنة ، **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾** أى: فلا تخفى عليه خافية . **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾** أى: فى جميع أمورك وأحوالك ، **﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ**

---

(١) زيادة من ت ، أ .

(٢) فى هـ : « قال الإمام أحمد : إنما قاله عبد الله بن أحمد » ، وفى ت ، ف ، أ : « قال الإمام أحمد » وأثبتنا ما بين القوسين ليستقيم السياق ، والذى فى المسند : « حدثنا عبد الله ، حدثنا خلف » .

(٣) فى ت ، أ : « عزيز » .

(٤) المسند (٥/ ١٣٢) .

(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٧١٥٠) .

(٦) فى أ : « أنه قد كان » .

وكِيلاً﴾ أى: وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ﴾.

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوى أمراً حسياً معروفاً ،وهو أنه كما لايكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ،ولا تصير زوجته التى يظاهر منها بقوله :أنت عَلَى كظهر أمى أماً له ،كذلك لايصير الدَّعىّ ولداً للرجل إذا تبنَّاه فدعاه ابنا له، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾، كقوله: ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾[المجادلة :٢] .

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾: هذا هو المقصود بالنفى ؛فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثة مولى النبى ﷺ ،كان النبى ﷺ قد تبناه قبل النبوة ،وكان يقال له :« زيد بن محمد » ،فأراد اللّه تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ،كما قال فى أثناء السورة :﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ،وقال ههنا:﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يعنى :تبنيكم لهم قول لايقتضى أن يكون ابنا حقيقيا ،فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ،فما يمكن أن يكون له أبوان ،كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾: قال سعيد بن جبير :﴿يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ أى : العدل .وقال قتادة : ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أى: الصراط المستقيم .

وقد ذكر غير واحد: أن هذه الآية نزلت فى رجل من قريش ،كان يقال له: « ذو القلبين » ،وأنه كان يزعم أن له قلبين ،كل منهما بعقل وافر .فأنزل اللّه هذه الآية رداً عليه .هكذا روى العَوْفى عن ابن عباس .قاله مجاهد ،وعكرمة ،والحسن ،وقتادة ،واختاره ابن جرير .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ،حدثنا زهير ،عن قابوس ـ يعنى ابن أبى ظَبْيَان ـ أن أباه حدثه قال :قلت لابن عباس :أرأيت قول اللّه تعالى (١) :﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾، ما عنى بذلك ؟قال :قام رسول اللّه ﷺ يوماً يصلى ،فخَطَر خَطْرَة ،فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبين ،قلباً معكم وقلباً معهم؟فأنزل اللّه، عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾(٢).

---

(١) فى ف : « عز وجل » .
(٢) المسند (١/ ٢٦٧) .

وهكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن صاعد الحرانى ـ وعن عبد بن حميد ، عن أحمد بن يونس ـ كلاهما عن زهير ، وهو ابن معاوية ، به . ثم قال : وهذا حديث حسن. وكذا رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من حديث زهير ، به (١) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، فى قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ قال: بلغنا أن ذلك كان فى زيد بن حارثة ، ضُرِب له مثل ، يقول : ليس ابن رجل آخر ابنك (٢) .

وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : أنها نزلت فى زيد بن حارثة . وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ : هذا أمر ناسخ لما كان فى ابتداء الإسلام من جواز إدعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر [الله] (٣) تعالى برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط .

قال البخارى ، رحمه الله: حدثنا مُعَلى (٤) بن أسد ، حدثنا عبد العزيز بن المختار ، حدثنا موسى ابن عقبة قال : حدثنى سالم عن عبد الله بن عمر ؛ أن زيداً بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾.

وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى ، من طرق ، عن موسى بن عقبة ، به (٥) .

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك ؛ ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة : يا رسول الله ، كنا (٦) ندعو سالما ابنا ، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل عَلَيّ ، وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئاً ، فقال ﷺ: « أرضعيه تحرمى عليه » الحديث(٧) .

ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تعالى زوجة الدعي ، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش زوجة(٨) زيد بن حارثة ، وقال : ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وقال فى آية التحريم : ﴿ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣]، احترازاً عن زوجة الدعىّ ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة، فمنزل منزلة ابن الصلب شرعاً ، بقوله ، عليه السلام(٩) فى الصحيحين: « حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب»(١٠). فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحبيب ، فليس مما نهى عنه فى هذه الآية ، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى ، من حديث سفيان الثورى ، عن سلمة بن كُهَيْل ،

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٩٩) وتفسير الطبرى (٢١/ ٧٤) .

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٩٢) . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ . (٤) فى ف : « يعلى » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٧).

(٦) فى ت ، ف ، أ : « إنا كنا » .

(٧) الحديث فى صحيح مسلم برقم (١٤٥٣) عن عائشة ، رضى الله عنها .

(٨) فى ف : « مطلقة » . (٩) فى أ : « ﷺ » .

(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٤٥) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

عن الحسن العُرَنى ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بنى عبد المطلب على حُمُرَات لنا من جَمْع ، فجعل يَلْطَخ أفخاذنا ويقول: « أُبَيْنِىّ لا ترموا الجمرة [1] حتى تطلع الشمس »[2] . قال أبو عُبَيد وغيره : « أُبَيْنِيّ » : تصغير بنى [3] . وهذا ظاهر الدلالة ، فإن هذا كان فى حجة الوداع سنة عشر ، وقوله : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ﴾ فى شأن زيد بن حارثة ، وقد قتل فى يوم مؤتة سنة ثمان، وأيضاً ففى صحيح مسلم ، من حديث أبى عَوَانة الوضاح بن عبد الله اليَشْكُرى ، عن الجَعْد أبى عثمان البصرى ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا بُنى » . ورواه أبو داود والترمذى [4] .

وقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾: أمر [الله] [5] تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم ، إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا [6] آباءهم، فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم، أى: عوضاً عما فاتهم من النسب . ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عُمرة القضاء ، وتبعتهم ابنة حمزة تنادى : يا عم ، يا عم . فأخذها على وقال لفاطمة : دونَك ابنة عَمِّك فاحتمليها [7] . فاختصم فيها على ، وزيد ، وجعفر فى أيّهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة [8] ؛ فقال على : أنا أحق بها وهى ابنة عمى . وقال زيد : ابنة أخى . وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمى ، وخالتها تحتى ـ يعنى أسماء بنت عميس ـ فقضى النبى [9] ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم». وقال لعلى : « أنت منى ، وأنا منك». وقال لجعفر : « أشبهت خَلْقى وخُلُقى». وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » [10] .

ففى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها : أنه ، عليه الصلاة والسلام [11] ، حكم بالحق، وأرضى كلاً من المتنازعين ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن عيينة بن عبد الرحمن ، عن أبيه قال : قال أبو بكْرَة : قال الله، عز وجل : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾، فأنا ممن لا يُعرَف أبوه ، وأنا من إخوانكم فى الدين. قال أبى : والله إنى لأظنه لو علم أن أباه كان حماراً لانتمى [12] إليه .

---

(١) فى ف : « جمرة العقبة » .

(٢) المسند (١/ ٣١١) وسنن أبى داود برقم (١٩٤٠) وسنن النسائى (٥/ ٢٧٠) وسنن ابن ماجة برقم (٣٠٢٥) .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « ابنى » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢١٥١) وسنن أبى داود برقم (٤٩٦٤) وسنن الترمذى برقم (٤٨٣١) .

(٥) زيادة من ت ، أ .   (٦) فى أ : « يعلموا » .

(٧) فى ت ، أ : « فاحتملتها » .   (٨) فى أ : « بحجته » .   (٩) فى أ : « فقضى بها النبى» .

(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٦٩٩) من حديث البراء، رضى الله عنه .

(١١) فى ف : « ﷺ » .

(١٢) فى ت : « لانتسب » .

وقد جاء في الحديث: « من ادعى لغير أبيه، وهو يعلمه، كفر [(١)] » [(٢)]. وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد، في التبرى من النسب المعلوم؛ ولهذا قال: ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾.

ثم قال: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ﴾ أي: إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع؛ فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه، كما أرشد إليه في قوله آمراً عباده أن يقولوا: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة ٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله: قد فعلت » [(٣)]. وفي صحيح البخاري، عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ، فله أجر » [(٤)]. وفي الحديث الآخر: « إن الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما يُكرَهُون [(٥)] عليه ».

وقال هاهنا: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي: وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى [(٦)]: ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾. وفي الحديث المتقدم: « من ادعى إلى غير أبيه، وهو يعلمه، إلا كفر ». وفي القرآن المنسوخ: « فإن [(٧)] كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم ».

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر أنه قال: بعث الله [(٨)] محمداً ﷺ، بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده. ثم قال: قد كنا نقرأ: «ولا ترغبوا عن آبائكم [فإنه كفر بكم ـ أو: إن كفراً بكم ـ أن ترغبوا عن آبائكم] [(٩)] »، وإن رسول الله ﷺ قال: « لا تطروني [كما أطرى] [(١٠)] عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبده ورسوله» [(١١)]. وربما قال مَعْمَر: « كما أطرت النصارى ابن مريم » [(١٢)].

ورواه في الحديث الآخر: « ثلاث في الناس كفر: الطَّعْن في النَّسبَ، والنِّياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم » [(١٣)].

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) ﴾.

---

(١) في أ: « وهو يعلمه إلا كفر ».
(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٥٠٨) من حديث أبي ذر، رضي الله عنه، بلفظ مقارب.
(٣) صحيح مسلم برقم (١٢٦) من حديث ابن عباس.
(٤) صحيح البخاري برقم (٧٣٥٢).
(٥) في أ: « والأمر يكرهون ». (٦) في ف: « الله ». (٧) في أ: « فإنه ».
(٨) في ت: « إن الله بعث »، وفي ف: « إن الله، عز وجل، بعث ».
(٩، ١٠) زيادة من ت، ف، والمسند.
(١١) في ف، أ: « أنا عبد الله وقولوا عبد الله ورسوله ».
(١٢) المسند (١/٤٧).
(١٣) المسند (٥/٣٤٢) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٩٣٤) كلاهما عن أبي مالك الأشعري بلفظ: « أربع في أمتي من أمر الجاهلية =

قد علم اللّه تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مُقَدّماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] . وفى الصحيح: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين »[(١)]. وفى الصحيح أيضاً أن عمر، رضى اللّه عنه، قال: يا رسول اللّه، واللّه لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى. فقال: « لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» : فقال: يا رسول اللّه [(٢)]، لأنت أحب إلى من كل شىء حتى من نفسى. فقال: « الآن يا عمر » [(٣)] .

ولهذا قال تعالى فى هذه الآية: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

وقال البخارى عندها[(٤)]: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا [محمد بن] [(٥)] فُلَيح، حدثنا أبى، عن هلال بن على، عن عبد الرحمن بن أبى عَمْرَة، عن أبى هريرة، رضى اللّه عنه، عن النبى ﷺ قال: « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن شئتم: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عَصَبَتُه مَن كانوا. فإن ترك دَيْناً أو ضَياعاً، فليأتنى فأنا مولاه». تفرد به البخارى [(٦)].

ورواه أيضاً فى « الاستقراض » وابن جرير، وابن أبى حاتم، من طرق، عن فليح، به مثله[(٧)]. ورواه الإمام أحمد، من حديث أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن رسول اللّه بنحوه [(٨)] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى فى قوله تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ عن أبى سلمة، عن جابر بن عبد اللّه، عن النبى ﷺ كان يقول: « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأيما رجل مات وترك ديناً، فإلى. ومن ترك مالاً فلورثته[(٩)] » . ورواه أبو داود، عن أحمد ابن حنبل [(١٠)]، به نحوه.

وقوله: ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أى: فى الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا

= لا يتركوهن: الفخر فى الأنساب » ثم ذكر هذه الثلاث .

(١) صحيح البخارى برقم (١٤) .

(٢) فى أ : « فقال: واللّه يا رسول اللّه » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٦٣٢) .

(٤) فى ف ، ت ، أ: « عند هذه الآية الكريمة » .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخارى .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٨١) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٢٣٩٩) وتفسير الطبرى (٢١/ ٧٧) .

(٨) المسند (٢/ ٣٣٤) .

(٩) فى ف : « فهو لورثته » .

(١٠) المسند (٣/ ٢٩٦) وسنن أبى داود برقم (٢٩٥٦) .

تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشافعى فى المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم. وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء. ونص الشافعى على أنه يقال ذلك. وهل يقال لهن: أمهات المؤمنات، فيدخل النساء (١) فى جمع المذكر السالم تغليباً؟ فيه قولان: صح عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: لا يقال ذلك. وهذا أصح الوجهين فى مذهب الشافعى، رحمه الله(٢).

وقد روى عن أُبى بن كعب، وابن عباس أنهما قرآ: « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم »، وروى نحو هذا عن معاوية، ومجاهد، وعِكْرِمة، والحسن: وهو أحد الوجهين فى مذهب الشافعى. حكاه البغوى وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذى رواه أبو داود:

حدثنا عبد الله بن محمد النفيلى، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عَجْلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعَلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه »، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرِّمّة.

وأخرجه النسائى وابن ماجه، من حديث ابن عجلان (٣).

والوجه الثانى: أنه لايقال ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُم** ﴾: وقوله: ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ﴾ أى: فى حكم الله ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ** ﴾ أى: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التى كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته (٤) وذوى رحمه، للأخوة التى آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد أورد فيه ابن أبى حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام، رضى الله عنه، فقال: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى بكر المصعبى ـ من ساكنى بغداد ـ عن عبد الرحمن بن أبى الزِّناد، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن الزبير بن العوام قال: أنزل الله، عزوجل، فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** ﴾، وذلك أنا معشرٌ قريش لما قَدمنا المدينة(٥)، قَدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نِعْمَ الإخوانُ، فواخيناهم وورثناهم. فواخى أبو بكر خارجة بن زيد، وآخى عمر فلانا، وآخى عثمان بن عفان رجلاً من بنى زُرَيق، سعد الزرقى، ويقول بعض الناس غيره. قال الزبير:

---

(١) فى ف، أ: « فيدخل النساء فيه ». (٢) فى ت: « رضى الله عنه ».
(٣) سنن أبى داود برقم (٨) وسنن النسائى (١/٣٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٣).
(٤) فى ت: « أقاربه ». (٥) فى ت: « لما قدمنا إلى المدنية ».

وواخيت أنا كعب بن مالك، فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بنى، لو مات يومئذ عن الدنيا، ما ورثه غيرى، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى مواريثنا .

وقوله : ﴿ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ أى : ذهب الميراث، وبقى النصر والبر والصلة والإحسان والوصية .

وقوله: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ أى: هذا الحكم، وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول، الذى لايبدل، ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد. وإن كان قد يقال (١): قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى (٢) ، وقضائه القدرى الشرعى .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة، وبقية الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهد والميثاق فى إقامة دين الله، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً فى هذه الآية، وفى قوله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى :١٣] ، فذكر الطرفين والوسط ، الفاتح والخاتم ، ومن بينهما على [هذا] (٣) الترتيب. فهذه هى الوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ [وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ](٤) ﴾ ، فبدأ فى هذه الآية بالخاتم ؛ لشرفه ـ صلوات الله [وسلامه] (٥) عليه ـ ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله [وسلامه] (٦) عليهم .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة الدمشقى ، حدثنا محمد بن بكار ، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنى قتادة، عن الحسن (٧)، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ ، فى قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ الآية: قال النبى ﷺ: « كنت أول النبيين فى الخلق

(١) فى ت ، ف: « وإن كان تعالى » .
(٢) فى ت: « إلى ما هو جار فى قدره الأول »، وفى ف: « إلى هو جار فى قدره الأزلى » .
(٣) زيادة من ف . (٤) زيادة من ت ، ف . (٥، ٦) زيادة من ف ، أ .
(٧) فى ت : « روى ابن أبى الدنيا » .

وآخرهم فى البعث، [فَبُدِئَ بى] (١) قبلهم » (٢) سعيد بن بشير فيه ضعف .

وقد رواه سعيد بن أبى عروبة ،عن قتادة مرسلاً ،وهو أشبه ،ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً، فالله أعلم .

وقال أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن على، حدثنا أو أحمد، حدثنا حمزة الزيات، حدثنا على بن ثابت ،عن أبى حازم (٣)، عن أبى هريرة قال: خيار ولد آدم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى ، وعيسى ،ومحمد ،وخيرهم محمد ﷺ أجمعين (٤). موقوف ،وحمزة فيه ضعف (٥) .

وقد قيل : إن المراد بهذا الميثاق الذى أخذ منهم حين أخرجوا فى صورة الذّر من صلب آدم، كما قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أُبى بن كعب قال: ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم ـ يعنى: ذريته ـ وأن فيهم الغنى والفقير، وحسن الصورة، ودون ذلك، فقال: رب، لوسويتَ بين عبادك؟ فقال: إنى أحببت أن أشكر. وأرى فيهم الأنبياء مثل السرج، عليهم كالنور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذى يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ [وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ] (٦)﴾ الآية وهذا قول مجاهد أيضاً .

وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ: العهد .

وقوله: ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾، قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل .

وقوله: ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى: من أممهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى: موجعاً، فنحن نشهد أن الرسل قد بَلّغُوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلى، الذى لا لبس فيه، ولاشك، ولا امتراء، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عبادة المؤمنين، فى صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح

(١) زيادة من ت ، ف ، والدلائل والكامل .

(٢) ورواه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص(٦) وابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٧٣) وتمام فى الفوائد برقم (٣ ١٠٠) من طرق عن سعيد بن بشير عن قتادة به، وفى إسناده علتان :

الأولى: الحسن البصرى مدلس وقد عنعن .

الثانية: سعيد بن بشير ضعيف وقد خولف، خالفه أبو هلال وسعيد بن أبى عروبة كما ذكره المؤلف فقالا: عن قتادة مرسلاً ، ا . هـ. مستفاداً من السلسلة الضعيفة برقم (٦٦١) للشيخ ناصر الألبانى .

(٣) فى ت: « وروى أبو بكر البزار بإسناده » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٣٦٨) « كشف الأستار » .

(٥) فى ت: « موقوف ضعيف » .

(٦) زيادة من ت ، ف .

المشهور.

وقال موسى بن عُقْبَة وغيره كانت فى سنة أربع .

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهود بنى النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبى الْحُقَيْق، وسلام بن مِشْكَم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش، وألّبوهم على حرب رسول الله(١) ﷺ ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً . وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عُيَينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلى الشرق (٢)، وذلك بإشارة سلمان الفارسى، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفَر، وكان فى حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات .

وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم فى أعالى أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسندوا (٣) ظهورهم إلى سَلْع ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجالة والخيالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والذرارى فى آطام المدينة، وكانت بنو قريظة ـ وهم طائفه من اليهود ـ لهم حصن شرقى المدينة، ولهم عهد من النبى ﷺ وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حُيَىّ بن أخطب النَّضَرى [اليهودى] (٤)، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعَظُم الخَطْب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾.

ومكثوا محاصرين للنبى ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لايصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامرى ـ وكان من الفرسان الشجعان المشهورين فى الجاهلية ـ ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فلم (٥) يبرز إليه أحد، فأمر عليا فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله على، رضى الله عنه، فكان علامة على النصر .

ثم أرسل الله، عز وجل، على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق (٦) لهم خيمة ولا شىء ولا تُوقَد لهم نار ، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾(٧) .

قال مجاهد: وهى الصبا، ويؤيده الحديث الآخر: « نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور » .

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثَنَّى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عِكْرِمة قال: قالت

---

(١) فى ف : « النبى » .
(٢) فى ف : « المشرق » .
(٣) فى ت ، ف :« فأسندوا » .
(٤) زيادة من ت .
(٥) فى ت ،ف:« فيقال » .
(٦) فى ت: « يبق » .
(٧) بعدها فى ف: ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾.

الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقى ننصر رسول الله ﷺ. فقالت الشمال: إن الحرة لا تسرى بالليل . قال: فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا (١) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبى سعيد الأشَجّ ، عن حفص بن غياث ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، فذكره .

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يونس، حدثنا ابن وَهْب ، حدثنى عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر قال : أرسلنى خالى عثمان بن مَظْعون ليلة الخندق فى برد شديد وريح إلى المدينة ، فقال : ائتنا بطعام ولحاف . قال : فاستأذنت رسول الله ﷺ ، فأذن لى ، وقال : « من أتيت من أصحابى فمرهم يرجعوا » . قال : فذهبت والريح تسفى كل شىء ، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبى ﷺ ، قال : فما يلوى أحد منهم عنقه . قال : وكان معى ترس لى ، فكانت الريح تضربه علىّ ، وكان فيه حديد ، قال : فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفى ، فأنفدها (٢) إلى الأرض (٣) .

وقوله : ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ : وهم الملائكة ، زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بنى فلان إلىّ . فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء . لما ألقى الله تعالى فى قلوبهم من الرعب .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القُرَظِىّ قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله ، رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا بن أخى. قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا . قال : قال حذيفة : يابن أخى ، والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُوِيًا من الليل ، ثم التفت فقال: « مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ - يشرط له النبى ﷺ أنه يرجع - أدخله الله الجنة » . قال : فما قام رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُوِياً من الليل ثم التفت إلينا، فقال مثله، فما قام منا رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُوِياً من الليل ثم التفت إلينا فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة » . فما قام رجل من القوم ؛ من شدة الخوف، وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يقم أحد ، دعانى رسول الله ﷺ. فلم يكن لي بد من القيام حين دعانى فقال : « يا حذيفة ، اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ، ولا تُحْدِثَنّ شيئا حتى تأتينا » . قال : فذهبت فدخلت [فى القوم] (٤) ، والريح وجنود الله ، عز وجل، تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقرّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناءً ، فقام أبو سفيان فقال : يامعشر قريش ، لينظر امرؤ مَنْ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى ، فقلت : من أنت؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكُرَاع والخُفّ ، وأخلفتنا بنو قُرَيظة ، وبلَغَنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح الذى ترون (٥). والله

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٨٠) .

(٢) فى أ : « فابعدها » .

(٣) تفسير الطبرى (٢١/ ٨٠) .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والسيرة النبوية . (٥) فى أ : « ما ترون » .

ما تطمئن لنا قدر ، ولا تَقُوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإنى مُرْتَحل ، ثم قام إلى جَمَله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقَالَه إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول اللّه ﷺ إلى : « ألا تحدث شيئاً حتى تأتينى » ثم شئتُ ،لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول اللّه ﷺ وهو قائم يصلى فى مِرْط لبعض نسائه مُرَحل ، فلما رآنى أدخلنى بين رجليه ، وطرح على طرف المِرْط ،ثم ركع ،وسجد وإنى لفيه ،فلما سلم أخبرته الخبر ،وسمعت غَطَفَان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم [١] .

وقد رواه مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش ،عن إبراهيم التيمى ،عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان ، رضى اللّه عنه ، فقال له رجل : لو أدركت رسول اللّه ﷺ ،قاتلتُ معه وأبليتُ. فقال له حذيفة :أنت كنتَ تفعل ذلك ؟ لقد رأيْتُنا مع رسول اللّه ﷺ ليلة الأحزاب فى ليلة ذات ريح شديدة وقُرّ ،فقال رسول اللّه ﷺ :« ألا رجل يأتى بخبر القوم ، يكون معى يوم القيامة ؟ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ،ثم الثالثة مثله. ثم قال :« يا حذيفة ،قم فأتنا بخبر من القوم » . فلم أجد بدّاً إذ دعانى باسمى أن أقوم ، فقال: « ائتنى بخبر القوم ، ولا تَذْعَرْهم عَلَىّ » . قال : فمضيت كأنما أمشى فى حَمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يَصْلى ظهره بالنار ،فوضعت سهما فى كَبِد قوسى،وأردت أن أرميَه ،ثم ذكرتُ قولَ رسول اللّه ﷺ : « لا تَذْعَرْهم عَلَىَّ » ،ولو رَمَيْته لأصبته . قال:فرجعت كأنما أمشى فى حَمّام ، فأتيت رسول اللّه ﷺ ، ثم أصابنى البرد حين فَرَغتُ وقُررْتُ فأخبرتُ رسول اللّه ﷺ ، وألبسنى من فضل عبَاءَة كانت عليه يصلى فيها ،فلم أزل نائما حتى الصبح،فلما أن أصبحت قال رسول اللّه ﷺ :« قم يا نومان [٢] » [٣] .

ورواه يونس بن بُكَيْر ، عن هشام بن سعد ،عن زيد بن أسلم: أن رجلاً قال لحذيفة ، رضى اللّه عنه :نشكو إلى اللّه صحبتكم لرسول اللّه ﷺ ؛إنكم أدركتموه ولم ندركه ،ورأيتموه ولم نره .فقال حذيفة :ونحن نشكو إلى اللّه إيمانكم به ولم تروه ،واللّه لا تَدْرى يا بن أخى لو أدركتَه كيف كنتَ تكون . لقد رأيتنا مع رسول اللّه ﷺ ليلة الخندق فى ليلة باردة مَطِيرة . . . ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً [٤] .

وروى بلال بن يحيى العَبْسى ، عن حذيفة نحو ذلك أيضاً [٥] .

وقد أخرج الحاكم والبيهقى فى « الدلائل » ،من حديث عكرمة بن عمار ،عن محمد بن عبد اللّه الدؤلى ،عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة قال :ذَكَر حذيفة مشاهدهم مع رسول اللّه [٦] ﷺ ،فقال

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣١) .

(٢) فى أ : « نوام » .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٧٨٨) .

(٤) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٤٥٤) من طريق أحمد بن عبد الجبار ، عن يونس بن بكير به .

(٥) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣١) ومن طريقه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٤٥٠) عن موسى بن أبى المختار ،عن بلال العبسى ،عن حذيفة .

(٦) فى ت : « مع النبى » .

جلساؤه : أما واللّه لو شَهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا . فقال حذيفة : لا تمنوا ذلك . لقد رأيتُنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعُود ، أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتَت علينا قطّ أشدّ ظلمةً ولا أشد ريحاً ، فى أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهى ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبى ﷺ ويقولون : « إن بيوتنا عورة وما هى بعورة » . فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم فيتسللون ، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك ، إذ استقبلنا رسول اللّه ﷺ رَجُلاً رجلاً حتى أتى عَلَيّ وما عَلَيّ جُنَّة [١] من العدو ولا من البرد إلا مِرْط لامرأتى ، ما يجاوز ركبتى . قال : فأتانى ﷺ وأنا جَاثٍ على ركبتىَ فقال: « من هذا؟» فقلت : حَذيفة . قال : « حذيفة » . فتقاصرتُ بالأرض [٢] فقلت : بلى يا رسول اللّه ، كراهية أن أقوم . [قال : قم] [٣] ، فقمت ، فقال : « إنه كائن فى القوم خبر فأتنى بخبر القوم » ـ قال : وأنا من أشد [الناس] [٤] فزعاً ، وأشدهم قُرّاً ـ قال : فخرجت ، فقال رسول اللّه ﷺ : «اللهم ، احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته». قال : فواللّه ما خلق اللّه فزعاً ولا قرّا فى جوفى إلا خرج من جوفى ، فما أجد فيه شيئا . قال : فلما وليت قال : «يا حذيفة ، لاتُحدثَنّ فى القوم شيئاً حتى تأتينى» . قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم تَوَقَّدُ ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته ، ويقول: الرحيلَ الرحيلَ ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهماً من كنانتى أبيض الريش ، فأضعه فى كَبِد قوسى لأرميه به فى ضوء النار ، فذكرت قول رسول اللّه ﷺ : « لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتينى » ، [فأمسكت] [٥] ورددت سهمى إلى كنانتى ، ثم إنى شَجَّعت نفسى حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون : يا آل عامر ، الرحيلَ الرحيلَ ، لا مُقام لكم. وإذا الريح فى عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً ، فواللّه إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وَفَرَسَتْهُمُ [٦] الريح تضربهم بها ، ثم خرجت نحو النبى ﷺ ، فلما انتصفت فى الطريق أو نحوا من ذلك ، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك [٧] مُعْتَمّين ، فقالوا : أخْبر صاحبك أن اللّه تعالى كفَاه القوم. فرجعت إلى رسول اللّه ﷺ ، وهو مشتمل فى شملة يصلى ، فواللّه ما عدا أن رجعت رَاجَعَنى القُرُّ وجعلت أقَرْقِفُ ، فأومأ إلى رسول اللّه ﷺ [بيده] [٨] وهو يصلى ، فدنوت منه ، فأسبل على شملته. وكان رسول اللّه ﷺ إذا حَزَبَه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم ، وأخبرته أنى تركتهم يترحلون[٩] ، وأنزل اللّه تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾[١٠] .

وأخرج أبو داود فى سننه منه : كان رسول اللّه ﷺ : إذا حزبه أمر من حديث عكرمة بن عمار، به [١١] .

---

(١) فى أ : « جنبة » . (٢) فى ت : « إلى الأرض » . (٣) زيادة من ت ، ف ، والدلائل .
(٤ ، ٥) زيادة من ت ، ف : والدلائل . (٦) فى ت ، ف : « وفرشهم » . (٧) فى ف: « نحواً من ذلك » .
(٨) زيادة من ت ، ف ، والدلائل . (٩) فى أ : « يرتحلون » .
(١٠) دلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٤٥١).
(١١) سنن أبى داود برقم (١٣١٩) .

وقوله : ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أى : الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: تقدم عن حذيفة أنهم بنو قريظة ، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أى : من شدة الخوف والفزع ، ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾.

قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول اللّه ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن اللّه سيفعل ذلك (١) .

وقال محمد بن إسحاق فى قوله : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾: ظن المؤمنون (٢) كل ظن ، ونجم النفاق حتى قال مُعَتّب (٣) بن قشير ـ أخو بنى عمرو بن عوف ـ : كان محمد يَعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط .

وقال الحسن فى قوله : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾: ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون (٤)، وأيقن المؤمنون أن ما وعد اللّه ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وقال (٥) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عاصم الأنصارى ، حدثنا أبو عامر (ح) وحدثنا أبى، حدثنا أبو عامر العقدى ، حدثنا الزبير ـ يعنى : ابن عبد اللّه ، مولى عثمان بن عفان ـ عن رُتَيْج ابن عبد الرحمن بن أبى سعيد ، عن أبيه ، عن أبى سعيد قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول اللّه، هل من شىء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ : « نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا، وآمن رَوْعاتنا » . قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح ، فهزمهم بالريح .

وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل ، عن أبى عامر العقدى (٦) .

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون فى غاية الجهد والضيق ، ورسول اللّه ﷺ بين أظهرهم : أنهم ابتُلوا واختُبروا وزُلزلوا زلزالاً شديداً ، فحينئذ ظهر النفاق ، وتكلم الذين فى قلوبهم مرض بما فى نفوسهم : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أما المنافق، فنجم نفاقه، والذى فى قلبه شبهة أو

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٨٣) .
(٢) فى ت : « ظن المنون » .
(٣) فى أ : « معقب » .
(٤) فى ت : « سيستأصلون » .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) المسند (٣/ ٣) .

حَسِيكَة، ضَعُف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس فى نفسه ؛لضعف إيمانه ،وشدة ما هو فيه من ضيق الحال .وقوم آخرون قالوا كما قال الله :﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يعنى : المدينة ، كما جاء فى الصحيح :« أريت [فى المنام] (١) دارَ هجرتكُم ، أرض بين حَرّتين فذهب وَهَلى أنها هَجَر، فإذا هى يثرب» (٢)، وفى لفظ : « المدينة » .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد :حدثنا إبراهيم بن مهدى ، حدثنا صالح بن عمر ، عن يزيد ابن أبى زياد ،عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ،عن البراء ، رضى الله عنه ، قال :قال رسول الله ﷺ: « من سَمَّى المدينة يثرب ،فليستغفر الله ،هى طابة ،هى طابة » (٣) .

تفرد به الإمام أحمد ، وفى (٤) إسناده ضعف ، والله أعلم .

ويقال : إنما كان أصل تسميتها « يثرب » برجل نزلها من العماليق ، يقال له :يثرب بن عبيل بن مهلابيل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح . قاله السهيلى ، قال :وروى عن بعضهم أنه قال:إن لها [فى التوراة] (٥) أحد عشر اسما :المدنية ،وطابة ،وطيبة ،والمسكينة، والجابرة،والمحبة ،والمحبوبة ،والقاصمة ،والمجبورة ،والعذراء ،والمرحومة .

وعن كعب الأحبار قال : إنا نجد فى التوراة يقول الله للمدينة : ياطيبة ،وياطابة ،ويامسكينة ، [لا تقلى الكنوز ،أرفع أحاجرك على أحاجر القرى] (٦) .

وقوله:﴿ لا مُقَامَ لَكُمْ ﴾أى :هاهنا ،يعنون عند النبى ﷺ فى مقام المرابطة،﴿ فَارْجِعُوا ﴾أى :إلى بيوتكم ومنازلكم.﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾: قال العوفى ،عن ابن عباس :هم بنو حارثة قالوا:بيوتنا نخاف عليها السَّرَق .وكذا قال غير واحد .

وذكر ابن إسحاق : أن القائل لذلك هو أوس بن قَيظىّ ،يعنى :اعتذروا فى الرجوع إلى منازلهم بأنها عَورة ،أى :ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، فهم يخشون عليها منهم .قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أى : ليست كما يزعمون ، ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أى : هَرَباً من الزحف .

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾: أنهم لو

---

(١) زيادة من ت ، ف ، والبخارى .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٣٥) من حديث أبى موسى ،رضى الله عنه .

(٣) المسند (٤/ ٢٨٥) .

(٤) فى ت : « ففى » . (٥) زيادة من ت ، ف ، أ . (٦) زيادة من ف ، أ .

دَخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة ، وقُطر من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة ، وهى الدخول فى الكفر ، لكفروا سريعاً . وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع .

هكذا فسرها قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد ، وابن جرير ، وهذا ذم لهم فى غاية الذم .

ثم قال تعالى : يذكرهم بما كانوا عاهدوا اللّه من قبل هذا الخوف ، ألا يولوا الأدبار ولا يفروا (١) من الزحف ، ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾ أى : وإن اللّه سيسألهم عن ذلك العهد ، لابد من ذلك .

ثم أخبرهم أن فرَارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ، ولا يطول أعمارهم ، بل ربما كان ذلك سببا فى تعجيل أخذهم غرّة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أى : بعد هرَبكم وفراركم ، ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ [النساء : ٧٧] .

ثم قال : ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى : يمنعكم ، ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ أى : ليس لهم ولا لغيرهم من دون اللّه مجير ولا مغيث(٢) .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) ﴾ .

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب ، والقائلين لإخوانهم ، أى: أصحابهم (٣) وعُشَرائهم وخلطائهم ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أى : إلى ما نحن فيه من الإقامة فى الظّلال والثمار ، وهم مع ذلك ﴿ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُم ﴾ أى : بخلاء بالمودة ، والشفقة عليكم.

وقال السُّدى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُم ﴾ أى : فى الغنائم .

﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى : من شدة خوفه وجزعه ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أى : فإذا كان الأمن، تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً ، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية فى الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون فى ذلك .

وقال ابن عباس : ﴿ سَلَقُوكُم(٤) ﴾ أى: استقبلوكم .

---

(١) فى ت ، ف : « ألا يولون ولا يفرون » . (٢) فى ت ، ف ، أ : « من دون الله وليًا مجيرًا مغيثًا » .

(٣) فى ت : « أى لأصحابهم » .

(٤) فى أ: «سلقوكم بألسنة » .

وقال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم ، وأسوأه مقاسمة : أعطونا ، أعطونا ، قد [١] شهدنا معكم . وأما عند البأس فأجبن قوم ، وأخذله للحق .

وهم مع ذلك أشحة على الخير ، أى : ليس فيهم خير ، قد جَمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم[٢] كما قال فى أمثالهم الشاعر [٣] :

أفى السِّلم أعْيَاراً [٤] جَفَاءً وغلْظَةً ... وَفى الحَرْب أمْثَالَ النِّسَاء العَوَارك

أى : فى حال المسالمة كأنهم الحمير . والأعيار : جمع عير ، وهو الحمار . وفى الحرب كأنهم النساء الحُيَّض ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ أى : سهلا هينا عنده .

﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) ﴾ .

وهذا أيضا من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخوف والخور ، ﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ ، بل هم قريب منهم ، وإن لهم عودة إليهم ﴿ وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ﴾ أى : ويَوَدّون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون [٥] حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية ، يسألون عن أخباركم ، وما كان من أمركم مع عدوكم ، ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أى : ولو كانوا بين أظهركم ، لما قاتلوا معكم إلا قليلاً ؛ لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) ﴾ .

هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول اللّه ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله ؛ ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبى [٦] ﷺ يوم الأحزاب ، فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه ، عز وجل ، صلوات اللّه وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أى : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ؟ ولهذا قال : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ .

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود اللّه لهم ، وجَعْله العاقبةَ حاصلةً لهم فى

(١) فى أ : « فقد » . (٢) فى ت : « فيهم » .
(٣) البيت لهند بنت عتبة ، وهو فى السيرة النبوية لابن هشام (١/٦٥٦) .
(٤) فى ت : « أعيار » . (٥) فى ت : « لا يكونوا » . (٦) فى ت : « برسول الله » .

الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾.

قال ابن عباس وقتادة: يعنون قوله تعالى في «سورة البقرة»: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ ولهذا قال: ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾.

وقوله: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾: دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس (١) وأحوالهم، كما قاله جمهور الأئمة: إنه (٢) يزيد وينقص. وقد قررنا ذلك في أول «شرح البخاري»، ولله الحمد والمنة.

ومعنى قوله: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أي: ذلك الحال والضيق والشدة [ما زادهم] (٣) ﴿ إِلا إِيمَانًا ﴾ بالله، ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ أي: انقيادا لأوامره، وطاعة لرسوله.

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) ﴾.

لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لايولون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾، قال بعضهم: أجله.

وقال البخاري: عهده. وهو يرجع إلى الأول.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ أي: وما غيروا عهد الله، ولا نقضوه ولا بدلوه.

قال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه (٤) قال: لما نسخنا الصُحُف (٥)، فَقَدْتُ آيةً من «سورة الأحزاب» كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا مع خُزَيْمَةَ بن ثابت الأنصاري ـ الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ـ: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾.

---

(١) في ف: «بالنسبة إلى إيمان الناس». (٢) في ت: «أن الإيمان». (٣) زيادة من ت.
(٤) في ت: «روى البخاري عن زيد بن ثابت». (٥) في ت، أ: «المصحف».

انفرد به البخارى دون مسلم . وأخرجه أحمد فى مسنده ، والترمذى والنسائى ـ فى التفسير من سننيهما ـ من حديث الزهرى ، به (١) . وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

وقال(٢) البخارى أيضا : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، حدثنى أبى ، عن ثُمَامَةَ ، عن أنس بن مالك قال: نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾(٣) .

انفرد به البخارى من هذا الوجه ، ولكن له شواهد من طرق أخر . قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت (٤) قال : قال أنس : عمى أنس بن النضر سُمِيت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبْتُ (٥) عنه ، لئن أرانى الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيَنَ الله ما أصنع . قال: فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ [يوم] (٦) أحد ، فاستقبل سعدَ بن معاذ فقال له أنس (٧) : يا أبا عمرو، أين. واهاً لريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قُتل قال: فَوُجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته ـ عمتى الرُّبَيّع ابنة النضر (٨) ـ : فما عرفتُ أخى إلا ببنانه . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ **رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** ﴾. قال : فكانوا يُرَون أنها نزلت فيه ، وفى أصحابه .

ورواه مسلم والترمذى والنسائى ، من حديث سليمان بن المغيرة ، به (٩) . ورواه النسائى أيضا وابن جرير ، من حديث حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ، به نحوه (١٠) .

وقال (١١) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حميد ، عن أنس أن عمه ـ يعنى : أنس بن النضر ـ غاب عن قتال بدر ، فقال : غُيِّبتُ عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين ، لئن الله أشهدنى قتالاً للمشركين، لَيَرَيَنّ الله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى : أصحابه ـ وأبرأ إليك مما جاء هؤلاء ـ يعنى : المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد ـ يعنى : ابن معاذ ـ دون أحد ، فقال : أنا معك . قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع . قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف ، وطَعنةَ رمحٍ ، ورمية سهم. وكانوا (١٢) يقولون : فيه وفى أصحابه [نزلت] (١٣) : ﴿ **فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ** ﴾.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٤) والمسند (١٨٨/٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠١) .

(٢) فى ت : « روى » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٣) .

(٤) فى ت : « روى الإمام أحمد » . (٥) فى ت : « غبت » . (٦) زيادة من ف ، والمسند .

(٧) أنس بن النضر . (٨) فى ت : « عمة الربيع بنت النضر » .

(٩) المسند (١٩٣/٤) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٠) .

(١٠) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٤) وتفسير الطبرى (٩٣/٢١) .

(١١) فى ت: « وروى » . (١٢) فى ت ، ف ، أ : « وطعنة برمح ورمية بسهم فكانوا » .

(١٣) زيادة من ف .

وأخرجه الترمذى فى التفسير عن عبد بن حميد، والنسائى فيه أيضا، عن إسحاق بن إبراهيم، كلاهما، عن يزيد بن هارون، به (١) . وقال الترمذى : حسن . وقد رواه البخارى فى المغازى عن حسان بن حسان، عن محمد بن طلحة بن مُصَرِّف، عن حميد، عن أنس، به (٢) ، ولم يذكر نزول الآية . ورواه ابن جرير، من حديث المعتمر بن سليمان، عن حميد، عن أنس، به (٣) .

وقال (٤) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن الفضل العسقلانى، حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان ابن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله ، حدثنى أبى، عن جدى، عن موسى بن طلحة، عن أبيه طلحة قال : لما أن رجع النبى ﷺ من أحد، صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وعزّى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ(٥) ﴾ . فقام إليه رجل من المسلمين فقال : يا رسول الله، من هؤلاء ؟ فأقبلتُ وعَلَيّ ثوبان أخضران حَضْرَمِيَّان فقال : « أيها السائل، هذا منهم » .

وكذا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطَّلْحى، به (٦) . وأخرجه الترمذى فى التفسير والمناقب أيضا، وابن جرير، من حديث يونس بن بُكَيْر، عن طلحة بن يحيى، عن موسى وعيسى ابنى طلحة، عن أبيهما، به (٧) . وقال : حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث يونس .

وقال أيضا : حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى، حدثنا أبو عامر ـ يعنى : العقدى ـ حدثنا إسحاق ـ يعنى : ابن طلحة بن عبيد الله ـ عن موسى بن طلحة قال : [دخلت على معاوية ، رضى الله عنه ، فلما خرجت، دعانى فقال : ألا أضع عندك يابن أخى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ؟ أشهد لَسَمِعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نحبه » (٨) .

ورواه (٩) ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عبد الحميد الحِمَّانى، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطَّلْحى، عن موسى بن طلحة قال] (١٠) : قام معاوية بن أبى سفيان فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نحبه » (١١) .

ولهذا قال مجاهد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ قال : عهده، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ قال : يوما

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٢٠١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٣) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٠٤٨) .
(٣) تفسير الطبرى (٢١/ ٩٣) . (٤) فى ت : « وروى » .
(٥) بعدها فى ت ، ف ، أ : « فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً » .
(٦) تفسير الطبرى (٢١/ ٩٤) .
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٢٠٣) .
(٨) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٠٢) من طريق عمرو بن عاصم، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة ، به وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإنما روى عن موسى بن طلحة عن أبيه » .
(٩) فى ت : « وروى » . (١٠) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .
(١١) تفسير الطبرى (٢١/ ٩٣) .
(١٢) فى أ : « فتصدق » .

وقال الحسن : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ يعنى : موته على الصدق والوفاء . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل (١) تبديلاً . وكذا قال قتادة ، وابن زيد .

وقال بعضهم : ﴿ نَحْبَهُ ﴾ : نذره .

وقوله : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أى : وما غيروا عهدهم ، وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَد (٢) كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز (٣) الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم(٤) ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ(٥) الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ(٦) أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، فهذا علم بالشيء بعد (٧) كونه ، وإن كان العلم (٨) السابق حاصلاً به قبل وجوده . وكذا قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى : بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، ومحافظتهم عليه . ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ : وهم الناقضون لعهد الله ، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته فى الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان ، وعمل (٩) الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين ، لكانت هذه الريح عليهم أشدّ من الريح العقيم على عاد ، ولكن قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ [وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ](١٠) ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوَى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذى فرق

---

(١) فى ت : « من بدل » . (٢) فى ت : « وقد » . (٣) فى ت : « فيميز » .
(٤) فى ت : « بما علمه منهم » ، وفى ف : « بما يعلمه منهم » . (٥) فى ت : « يعلم » .
(٦) فى ت : « يبلو » . (٧) فى ف : « قبل » . (٨) فى ت : « العالم » .
(٩) فى ت ، ف : « والعمل » . (١٠) زيادة من أ .

جماعتهم،وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحَنَقهم،لم ينالوا خيراً لا فى الدنيا ،مما كان فى أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا فى الآخرة بما تحملوه [١] من الآثام فى مبارزة الرسول ،صلوات اللّه وسلامه عليه،بالعداوة ،وهمهم بقتله ،واستئصال جيشه ،ومن هَمّ بشىء وصَدق هَمَّه بفعله ،فهو فى الحقيقة كفاعله .

وقوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أى :لم يحتاجوا [٢] إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى اللّه وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ؛ ولهذا قال رسول اللّه ﷺ [٣] : « لا إله إلا اللّه وحده ،صدق وعده ،ونصر عبده ،وأعز جنده ،وهزم الأحزاب وحده ،فلا شىء بعده » . أخرجاه من حديث أبى هريرة [٤] .

وفى الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبى خالد ،عن عبد اللّه بن أبى أوْفى قال :دعا رسول اللّه ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ،سريع الحساب ،اهزم الأحزاب .اللهم ،اهزمهم وزلزلهم » [٥] .

وفى قوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾: إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ،وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ،بل غزاهم المسلمون فى بلادهم .

قال محمد بن إسحاق : لما [٦] انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول اللّه ﷺ فيما بلغنا : «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ،ولكنكم تغزونهم» ،فلم تغز [٧] قريش بعد ذلك ،وكان هو يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح اللّه عليه مكة .

وهذا الحديث الذى ذكره محمد بن إسحاق [٨] حديث صحيح ، كما قال [٩] الإمام أحمد :

حدثنا يحيى ،عن سفيان ،حدثنى أبو إسحاق قال : سمعت سليمان بن صُرَد يقول [١٠] :قال رسول اللّه ﷺ يوم الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » .

وهكذا رواه البخارى فى صحيحه ،من حديث الثورى وإسرائيل ، عن أبى إسحاق ،به [١١] .

وقوله تعالى :﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أى:بحوله وقوته ،ردهم خائبين ،لم ينالوا خيراً ،وأعز اللّه الإسلام وأهله،وصدق وعده ،ونصر رسوله وعبده ،فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ

(١) فى ت : « مما عملوا » . (٢) فى أ : « لم تحتاجوا » . (٣) فى ت : « ولهذا كان رسول اللّه ﷺ يقول » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٢٤) باختلاف فى اللفظ .
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٩٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٢) .
(٦) فى ت ، ف : « فلما » . (٧) فى أ : « تعد » . (٨) فى ت : « وهذا الذى ذكره ابن إسحاق » .
(٩) فى ت : « رواه » . (١٠) فى ت : « قال » .
(١١) المسند (٤/٢٦٢) وصحيح البخارى برقم (٤١٠٩) .

اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾.

قد تقدم أن بنى قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ،ونزلوا على المدينة ، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول اللّه ﷺ من العهد ،وكان ذلك بسفارة حُيَىّ بن أخطب النَّضَرى ـ لعنه اللّه ـ دخل حصنهم،ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ،وقال له فيما قال :ويحك ،قد جئتك بعز الدهر ،أتيتك بقريش وأحابيشها ،وغطفان وأتباعها ،ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه. فقال له كعب : بل واللّه أتيتنى بذُلِّ الدهر .ويحك يا حيى ، إنك مشؤوم ،فدعنا (١) منك. فلم يزل يفتل فى الذِّروة والغَارب حتى أجابه ،واشترط له حُيى (٢) إن ذهب الأحزاب ،ولم يكن من أمرهم شىء ،أن يدخل معهم فى الحصن ،فيكون له (٣) أسوتهم .فلما نَقَضت قريظةُ،وبلغ ذلك رسول اللّه ﷺ ،ساءه ،وشق عليه وعلى المسلمين جداً ،فلما أيد اللّه ونَصر ،وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ،ورجع رسول اللّه ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً ، ووضع الناس السلاح. فبينما رسول اللّه ﷺ يغتسل (٤) من وعثاء تلك المرابطة فى بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق ،على بغلة عليها قطيفة [من] (٥) ديباج ،فقال :أوَضعت السلاح يا رسول اللّه ؟ قال : «نعم» .قال :لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ،وهذا الآن رجوعى من طلب القوم .ثم قال: إن اللّه يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة .وفى رواية فقال له: عذيرَك من مقاتل ، أوضعتم السلاح ؟ قال: « نعم » . قال :لكنا لم نضع أسلحتنا بعد ،انهض إلى هؤلاء .قال :« أين ؟ ».قال: بنى قريظة ، فإن اللّه أمرنى أن أزلزل عليهم .فنهض رسول اللّه ﷺ من فوره ،وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة،وكانت على أميال من المدينة،وذلك بعد صلاة الظهر ،وقال : « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » .فسار الناس ،فأدركتهم الصلاة فى الطريق ،فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا :لم يرد منا رسول اللّه ﷺ إلا تعجيل السير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا فى بنى قريظة. فلم يُعنِّف واحدًا من الفريقين .وتبعهم رسول اللّه ﷺ ،وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ،وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب . ثم نازلهم رسول اللّه ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ،فلما طال عليهم الحال،نزلوا على حكم سعد بن معاذ ـ سيد الأوس ـ لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية،واعتقدوا أنه يحسن إليهم فى ذلك ،كما فعل عبد اللّه بن أبى بن سلول فى مواليه بنى قينقاع،حين استطلقهم من رسول اللّه ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى فى أولئك ،ولم يعلموا أن سعداً ، رضى اللّه عنه ، كان قد أصابه سهم فى أكحَله أيام الخندق ، فكواه رسول اللّه ﷺ فى أكحله،وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب .وقال سعد فيما دعا به : اللهم،إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها .وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ،فافجرها ولاتمتنى حتى تُقرّ عينى من بنى قريظة .فاستجاب اللّه دعاءه ،وقَدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم ،فعند ذلك استدعاه رسول اللّه ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ،فلما

---

(١) فى ت : « دعنا » . (٢) فى أ : « حتى » . (٣) فى ت : « لهم » . (٤) فى ت : « يغسل رأسه » .
(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

أقبل وهو راكب [على حمار] (١) قد وطَّؤوا له عليه ،جعل الأوس يلوذون به ويقولون : ياسعد، إنهم مواليك ،فأحسن فيهم .ويرققونه عليهم ويعطفونه ،وهو ساكت لا يرد عليهم .فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم .فعرفوا أنه غير مستبقيهم ،فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ :« قوموا إلى سيدكم » .فقام إليه المسلمون،فأنزلوه إعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ،ليكون أنفذ لحكمه فيهم .فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء ـ وأشار إليهم ـ قد نزلوا على حكمك ، فاحكم فيهم بما شئت». قال :وحكمى نافذ عليهم ؟ قال : «نعم». قال :وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال : «نعم». قال:وعلى من هاهنا .وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله ﷺ ـ وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً (٢) وإكراماً وإعظاماً ـ فقال له رسول الله ﷺ :«نعم» .فقال :إنى أحكم أن تقتل مُقَاتلتهم ،وتُسْبى ذريتهم وأموالهم .فقال له رسول الله ﷺ : « لقد حكمتَ بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » (٣) ،وفى رواية : « لقد حكمت بحكم المَلك » . ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فَخُدّت فى الأرض ،وجيء بهم مكتفين،فضرب أعناقهم ،وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة ،وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم (٤) ،وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه فى كتاب السيرة ،الذى أفردناه موجزاً ومقتصًا (٥) ،ولله الحمد والمنة .

ولهذا قال تعالى :﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم ﴾ أى: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : بنى قريظة من اليهود ،من بعض أسباط بنى إسرائيل ،كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما ،طَمَعاً فى اتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة :٨٩] ، فعليهم لعنة الله .

وقوله:﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى:حصونهم.كذا قال مجاهد،وعِكْرِمة،وعطاء،وقتادة، والسُّدِّى،وغيرهم (٦) ومنه سميت صياصى البقر ،وهى قرونها ؛لأنها أعلى شىء فيها .

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف ؛ لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب رسول الله (٧) ﷺ ،وليس من يعلم كمن لا يعلم ،فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليَعزّوا (٨) فى الدنيا ،فانعكس

---

(١) زيادة من ت ،ف ، والبداية والنهاية . (٢) فى ت : « إجلالا له » .

(٣) رواه ابن إسحاق فى السيرة كما فى البداية والنهاية (١٢٣/٤) من طريق عاصم بن عمر،عن عبد الرحمن بن عمر،عن علقمة بن وقاص قال : قال رسول الله ﷺ فذكره ،وأظن فى السند خطأ . ورواه ابن سعد فى الطبقات (٤٢٦/٣) من طريق محمد ابن صالح التمار،عن سعد بن إبراهيم،عن عامر بن سعد ،عن أبيه سعد بن أبى وقاص مرفوعاً بلفظ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » ، وأصله فى صحيح البخارى من دون قوله : « فوق سبع سموات » برقم (٣٠٤٣) من حديث أبى سعيد الخدرى.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢٣٩/٢) .

(٥) فى ت ، ف ، أ : « وبسيطاً » .

(٦) فى ت : « كذا قال مجاهد وغير واحد من السلف » ، وفى أ : « كذا قال مجاهد وغيرهم من السلف » .

(٧) فى ف : « النبى » . (٨) فى ت ، ف ، أ : « ليغزوهم » .

عليهم الحال، وانقلب الفال (١)، انشمر (٢) المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العز ذلوا(٣)، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة، فصارت الجملة أن هذه هى الصفقة الخاسرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ(٤) فَرِيقًا﴾، فالذين قتلوا هم المقاتلة، والأسراء هم الأصاغر والنساء.

قال (٥) الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم بن بشير، أخبرنا عبد الملك بن عمير، عن عطية القرظى قال: عُرضت على النبى ﷺ يوم قريظة فشكوا فىَّ، فأمر بى النبى ﷺ أن ينظروا: هل أنبت بعد؟ فنظروا فلم يجدونى أنبت، فخلى عنى وألحقنى بالسبى.

وكذا رواه أهل السنن كلهم من طرق، عن عبد الملك بن عمير، به(٦). وقال الترمذى: «حسن صحيح». ورواه النسائى أيضاً، من حديث ابن جُرَيْج، عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن عطية، بنحوه (٧).

وقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ أى: جعلها لكم من قتلكم (٨) لهم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾: قيل: خيبر. وقيل: مكة. رواه مالك، عن زيد بن أسلم. وقيل: فارس والروم. وقال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾: قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن عمرو، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص قال: أخبرتنى (٩) عائشة قالت: خرجت يوم الخندق أقفو الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائى، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجَنَّه، قالت: فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه دِرْع من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم، فمر وهو يرتجز (١٠) ويقول:

لَبِّثْ قَليلاً يَشْهَد الهَيْجَا حَمَلْ ... مَا أَحْسَنَ الموتَ إذا حَانَ الأَجَلْ

قالت: فقمت فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه تَسْبغَة (١١) له ـ تعنى المغفر ـ فقال عمر: ما جاء بك؟ لعمرى والله إنك لجريئة (١٢)، وما يؤمنُك أن يكون بلاء أو يكون تَحَوّز. قالت: فمازال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت بى (١٣)

---

(١) فى ت، أ: «وانقلب عليهم الفال». (٢) فى أ: «اشمر». (٣) فى ت: «فلما راموا العز أذلوا».
(٤) فى ت: «يقتلون ويأسرون». (٥) فى ت: «روى».
(٦) المسند (٥/ ٣١١) وسنن أبى داود برقم (٤٤٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٥٨٤) وسنن النسائى (٨/ ٩٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٤٢).
(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٦١٩).
(٨) فى ت، ف: «قبلكم».
(٩) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده عن».
(١٠) فى ت: «يرتجل».
(١١) فى ت: «مشيقة»، وفى ف: «نشيقة». (١٢) فى ت: «محدبة». (١٣) فى ت، ف: «لى».

ساعتئذ، فدخلت فيها، فرفعْ الرجل التسبغة[١] عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال: يا عمر، ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التَحَوّز أو الفرار إلا إلى الله تعالى؟ قالت: ويرمى سعداً رجل من قريش، يقال له ابن العَرِقة بسهم[٢]، وقال له: خذها وأنا ابن العَرِقة فأصابَ أكْحَلَه فقطعه، فدعا الله سعد فقال: اللهم، لا تمتنى حتى تُقر عينى من قريظة. قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه فى الجاهلية، قالت: فرقأ كَلْمُه، وبعث الله الريح على المشركين، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً. فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا فى صياصيهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من أدَم فضربت على سعد فى المسجد، قالت: فجاءه جبريل، عليه السلام، وإن على ثناياه لنقع الغبار، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ لا، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح، أخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم. قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته، وأذّن فى الناس بالرحيل أن يخرجوا، [فخرج رسول الله ﷺ][٣] فمر على بنى غَنْم[٤] وهم جيران المسجد حوله فقال: ومن مر بكم؟ قالوا: مر بنا دحية الكلبى ـ وكان دحية الكلبى تشبه لحيته، وسنه ووجهه جبريل، عليه الصلاة والسلام، فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ. فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح. قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ [فقال رسول الله ﷺ: «انزلوا على حكم سعد بن معاذ». فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ][٥] فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمل عليه، وحَفّ به قومه، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل النّكاية، ومن قد علمت، قالت: ولايَرْجعُ إليهم شيئاً، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لى ألا أبالى فى الله لومة لائم. قال[٦]: قال أبو سعيد[٧]: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه». فقال عمر: سيدنا الله. قال: «أنزلوه». فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: «احكم فيهم». قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال رسول الله: «لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله». ثم دعا سعد فقال: اللهم، إن كنت أبقيتَ على نبيك من حرب قريش شيئاً، فأبقنى لها. وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم، فاقبضنى إليك. قال: فانفجر كَلْمُه، وكان قد برئ منه إلا مثل الُخرْص، ورجع إلى قبته التى ضرب عليه رسول الله.

قالت عائشة: فَحَضَره رسولُ الله ﷺ وأبو بكر، وعمر: قالت: فوالذى نفس محمد بيده، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر، وأنا فى حجرتى. وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

قال علقمة: فقلت: أىْ أمَّه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته[٨].

---

(١) فى ف: «النشيقة».
(٢) فى ت، ف: «بسهم له».
(٣) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(٤) فى ت، ف: «تميم».
(٥) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(٦) فى ت، ف، أ: «قالت».
(٧) فى أ: «أبو سعد».
(٨) المسند (٦/١٤١).

وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن نمير، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة نحوا من هذا، ولكنه [١] أخصر منه، وفيه دُعاء سعد، رضى الله عنه [٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾.

هذا أمر من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه [٣]، بأن يخيِّر نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يَحصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل، فاخترن، رضى الله عنهن وأرضاهن، الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة.

قال[٤] البخارى: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهرى، قال: أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن، أن عائشة، رضى الله عنها، زوج النبى ﷺ أخبرته: أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه، فبدأ بى رسول الله ﷺ فقال: « إنى ذاكر لك أمراً، فلا عليك أن تستعجلى حتى تستأمرى أبويك »، وقد عَلِمَ أن أبويّ لم يكونا يأمرانى بفراقه. قالت: ثم قال: « وإن الله قال: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾** » إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففى أى هذا أستأمر أبوى؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة [٥].

وكذا رواه معلقاً عن الليث: حدثنى يونس، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن عائشة، فذكره وزاد: قالت: ثم فعل أزواج النبى ﷺ مثل ما فعلت [٦].

وقد حكى البخارى أن مَعْمَرًا اضطرب، فتارة [٧] رواه عن الزهرى، عن أبى سلمة، وتارة رواه عن الزهرى، عن عُرْوَة، عن عائشة [٨].

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عَبَدة الضَّبِّى، حدثنا أبو عَوَانة، عن عمر بن أبى سلمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: لما نزل الخيار قال لى رسول الله ﷺ: « إنى أريد أن أذكر لك أمراً، فلا تقضى فيه شيئاً حتى تستأمرى أبويك ». قالت: قلت: وما هو يا رسول الله؟ قال: فردّه عليها. فقالت: فما هو يا رسول الله؟ قالت: فقرأ عليها: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾** إلى آخر الآية. قالت: فقلت: بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ففرح بذلك النبى ﷺ [٩].

---

(١) فى ت، أ: « ولكن ».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤١١٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٩).
(٣) فى ت: « ﷺ ».
(٤) فى ت: « فروى ».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٥).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٦).
(٧) فى أ: « فيه قتادة و ».
(٨) صحيح البخارى (٨/ ٥٢٠) « فتح ».
(٩) تفسير الطبرى (٢١/ ١٠٠).

وحدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: لما نزلت آية التخيير، بدأ بى رسول الله ﷺ، فقال: « يا عائشة، إنى عارض عليك أمراً، فلا تفتاتى فيه [بشىء] (١) حتى تعرضيه على أبويك أبى بكر وأم رومان ». فقلت: يا رسول الله، وما هو؟ قال: « قال الله عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً . وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ». قالت: فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ولا أؤامر فى ذلك أبوىّ أبا بكر وأم رومان، فضحك رسول الله ﷺ ثم استقرأ الحُجَر فقال: « إن عائشة قالت كذا وكذا ». فقلن: ونحن نقول مثل ما قالت عائشة، رضى الله عنهن كلهن (٢).

ورواه ابن أبى حاتم، عن أبى سعيد الأشَجِّ، عن أبى أسامة، عن محمد بن عمرو، به.

قال ابن جرير: وحدثنا سعيد بن يحيى الأموى، حدثنا أبى، عن (٣) محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبى بكر، عن عَمرة، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل إلى نسائه أمر أن يخيرهن، فدخل علَىَّ فقال: « سأذكر لك أمراً فلا تعجلى حتى تستشيرى أباك ». فقلت: وما هو يانبى الله؟ قال: «إنى أمرت أن أخيركن»، وتلا عليها آية التخيير، إلى آخر الآيتين. قالت: فقلت: وما الذى تقول لا تعجلى حتى تستشيرى أباك؟ فإنى أختار الله ورسوله، فَسُرَّ بذلك، وعَرَض على نسائه فتتابعن كُلّهن، فاخترنَ الله ورسوله (٤).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يزيد بن سِنان البصرى، حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى عُقَيل، عن الزهرى، أخبرنى عُبيد الله بن عبد الله بن أبى ثَور، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قالت عائشة، رضى الله عنها: أنزلت آية التخيير فبدأ بى أَوَّلَ امرأة من نسائه، فقال: « إنى ذاكر لك أمراً، فلا(٥) عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك ». قالت: قد عَلم (٦) أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه. قالت: ثم قال: «إن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ »الآيتين. قالت عائشة: فقلت: أفى هذا أستأمر أبوىّ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خير نساءه كلهن، فقلن مثل ما قالت عائشة، رضى الله عنهن.

وأخرجه البخارى ومسلم جميعاً، عن قتيبة، عن الليث، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، مثله (٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صَبيح، عن مسروق، عن عائشة قالت: خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدها علينا شيئاً. أخرجاه من حديث الأعمش(٨).

---

(١) زيادة من ت، ف، والطبرى.
(٢) تفسير الطبرى (٢١/١٠١).
(٣) فى أ: « أنبانا ».
(٤) تفسير الطبرى (٢١/١٠١).
(٥) فى أ: « الا ». (٦) فى ف: « أعلم ».
(٧) كذا ولم أجده بهذا السند فيهما، ولا ذكره المزى فى تحفة الأشراف ولعلى أتداركه فيما بعد.
(٨) المسند (٦/٤٥) وصحيح البخارى برقم (٥٢٦٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن أبى الزبير، عن جابر قال: أقبل أبو بكر، رضى الله عنه، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس، والنبى ﷺ جالس: فلم يؤذن له. ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له. ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلا والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتنى النفقة آنفاً، فوجأت عنقها. فضحك النبى ﷺ حتى بدا ناجذه [(١)] وقال: «هن حولى يسألننى النفقة». فقام أبو بكر، رضى الله عنه، إلى عائشة ليضربها، وقام عمر، رضى الله عنه، إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده. فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده. قال: وأنزل الله، عز وجل، الخيار، فبدأ بعائشة فقال: «إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك». قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ الآية، قالت عائشة، رضى الله عنها: أفيك أستأمر أبوى؟ بل أختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال: «إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا، ولكن بعثنى معلماً ميسراً [(٢)]، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتُها».

انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى، فرواه هو والنسائى، من حديث زكريا بن إسحاق المكى، به[(٣)].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج بن يونس، حدثنا على بن هاشم بن البريد، عن محمد بن عبيد [الله بن على] [(٤)] ابن أبى رافع، عن عثمان بن على بن الحسين، عن أبيه، عن على، رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ خيَّر نساءه الدنيا والآخرة، ولم يخيرهن الطلاق [(٥)].

وهذا منقطع، وقد رُوى عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك. وهو خلاف الظاهر من الآية، فإنه قال: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أى: أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن.

وقد اختلف العلماء فى جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن، على قولين، وأصحهما نعم لو وقع، ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم.

قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حُيَىّ النَّضرِيَّة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضى الله عنهن وأرضاهن.

[ولم يتزوج واحدة منهن، إلا بعد أن توفيت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ابن كلاب، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالته فآمنت به ونصرته، وكانت له وزير صدق، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، رضى الله عنها، فى الأصح، ولها خصائص منها: أنه لم يتزوج عليها غيرها، ومنها أن أولاده كلهم منها، إلا إبراهيم، فإنه من سريته مارية، ومنها أنها خير نساء الأمة.

---

(١) فى ف: «نواجذه». (٢) فى ت: «مبشراً».

(٣) المسند (٣/٣٢٨) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٢٠٨).

(٤) زيادة من ت، ف، والمسند.

(٥) زوائد المسند (١/٧٨).

واختلف فى تفضيلها على عائشة على ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف.

وسئل شيخنا أبو العباس بن تيمية عنهما فقال: اختصت كل واحدة منهما بخاصية، فخديجة كان تأثيرها فى أول الإسلام، وكانت تُسلِّى رسول الله ﷺ وتثبته، وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غُرة الإسلام، واحتملت الأذى فى الله وفى رسوله وكان نصرتها للرسول فى أعظم أوقات الحاجة، فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها. وعائشة تأثيرها فى آخر الإسلام، فلها من التفقه فى الدين وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع بنيها بما أدت إليهم من العلم، ما ليس لغيرها. هذا معنى كلامه، رضى الله عنه.

ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، بعث إليها السلام مع جبريل، فبلغها رسول الله ﷺ ذلك. روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: أتى جبريل، عليه السلام، النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة، قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هـى أتتك فاقرأها السلام من ربها ومنِّى، وبشرها ببيت فى الجنة، من قَصَب، لا صَخَب فيه ولا نَصَب (١) وهذه لعَمْر الله خاصة، لم تكن لسواها. وأمَّا عائشة، رضى الله عنها، فإن جبريل سلم عليها على لسان النبى ﷺ، فروى البخارى بإسناده أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومًا: « يا عائشة، هذا جبريل يقرئك السلام». فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ(٢).

ومن خواص خديجة، رضى الله عنها: أنه لم تسوءه قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاءً، ولا عتب قط، ولا هجر، وكفى بهذه منقبة وفضيلة.

ومن خواصها: أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة.

فصل:

فلمَّا توفاها الله تزوج بعدها سودة بنت زمعة، رضى الله عنها، وهى سودة بنت زمعة بن قيس ابن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن جبل بن عامر بن لؤى، وكبرت عنده، وأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة، فأمسكها. وهذا من خواصها: أنها آثرت بيومها حب النبى ﷺ تقرباً إلى رسول الله ﷺ، وحبا له، وإيثاراً لمقامها معه، فكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة، ويقسم لنسائه، ولا يقسم لها وهى راضية بذلك مؤثرة، لترضى رسول الله ﷺ.

وتزوج الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر، رضى الله عنهما، وهى بنت ست سنين قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث، وبنى بها بالمدينة أول مقدمه فى السنة الأولى، وهى بنت تسع، ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة، وتوفيت بالمدينة، ودفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلى عليها أبو هريرة سنة ثمان وخمسين، ومن خصائصها: أنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، كما ثبت ذلك عنه فى البخارى وغيره، أنه سئل أىُّ الناس أحب إليك؟ قال: « عائشة». قيل: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»(٣).

ومن خصائصها أيضاً: أنه لم يتزوج بكراً غيرها، ومن خصائصها: أنه كان ينزل عليه الوحى وهو

(١) صحيح البخارى برقم (٣٨٢٠).

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٧٦٨).

(٣) لم أقف عليه فى صحيح البخارى. وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٨٧٩) من حديث عمرو بن العاص، رضى الله عنه.

فى لحافها دون غيرها .

ومن خصائصها: أن الله، عزوجل، لما أنزل عليه آية التخيير بدأ بها فخيرها، فقال: « ولا عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » . فقالت : أفى هذا أستأمر أبواى ، فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة. فاستن بها بقية أزواجه ﷺ ، وقلن كما قالت .

ومن خصائصها : أن الله، سبحانه، برأها مما رماها به أهل الإفك ، وأنزل فى عذرها، وبراءتها، وحياً يتلى فى محاريب المسلمين ، وصلواتهم إلى يوم القيامة ، وشهد لها أنها من الطيبات ، ووعدها المغفرة والرزق الكريم ، وأخبر ، سبحانه، أن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لها ، ولم يكن بذلك الذى قيل فيها شر لها ، ولا عيب لها ، ولا خافض من شأنها ، بل رفعها الله بذلك، وأعلا قدرها وعظم شأنها، وأصار لها ذكراً بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء ، فيا لها من منقبة ما أجلها . وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها، حيث قالت : ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بوحى يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئنى الله بها ، فهذه صديقة الأمة ، وأم المؤمنين ، وحب رسول الله ﷺ ، وهى تعلم أنها بريئة مظلومة ، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها ، قد بلغ أذاهم إلى أبويها ، وإلى رسول الله ﷺ ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها ، فما ظنك بمن قد صام يوماً أو يومين، أو شهراً أو شهرين، قد قام ليلة أو ليلتين، فظهر عليه شىء من الأحوال ، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم ، ويُغتنم بصالح دعائهم ، وأنهم يجب على الناس احترامهم وتعظيمهم وتعزيزهم وتوقيرهم، فيتمسح بأثوابهم ، ويقبل ثرى أعتابهم، وأنهم من الله بالمكانة التى تنتقم لهم لأجلها من تنقصهم فى الحال ، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال ، وإن إساءة الأدب عليهم ذنب لا يكفره شىء إلا رضاهم .

ولو كان هذا من وراء كفاية لهان ، ولكن من وراء تخلف ، وهذه الحماقات والرعونات نتاج الجهل الضميم ، والعقل غير المستقيم ، فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه ، غافل عن جرمه وعيوبه وذنوبه ، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والازدراء على من لعله عند الله خير منه . نسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

وينبغى للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيماً ، وهو عند الله حقيراً ، ومن خصائص عائشة، رضى الله عنها: أن الأكابر من الصحابة، رضى الله عنهم ، كان إذا أشكل الأمر عليهم من الدين ، استفتوها فيجدون علمه عندها .

ومن خصائصها : أن رسول الله ﷺ توفى فى بيتها . ومن خصائصها : أن الملك أرى صورتها للنبى ﷺ قبل أن يتزوجها فى خرقة حرير ، فقال النبى ﷺ : « إن يكن هذا من عند الله يمضه »(١). ومن خصائصها : أن الناس كانوا يتحرون هداياهم يومها من رسول الله ﷺ تقرباً إلى الرسول ﷺ، فيتحفونه بما يحب فى منزل أحب نسائه إليه، رضى الله عنهم أجمعين ، وتكنى أم عبد الله، وروى أنها أسقطت من النبى ﷺ سقطاً ، ولا يثبت ذلك .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٧٨) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله عند حبيش بن حذافة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وممن شهد بدراً، توفيت سنة سبع، وقيل: ثمان وعشرين، ومن خواصها: ما ذكره الحافظ أبو محمد المقدسي في مختصره في السيرة: أن النبي ﷺ طلقها، فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة.

وقال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا أحمد بن طاهر بن حرملة بن يحيى، حدثنا جدي حرملة، حدثنا ابن وهب، حدثني عمرو بن صالح الحضرمي، عن موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عقبة بن عامر، أن النبي ﷺ طلق حفصة، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فوضع التراب على رأسه، وقال: ما يعبأ الله بابن الخطاب بعد هذا. فنزل جبريل، عليه السلام، على النبي ﷺ فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر(١).

وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، واسمها رملة بنت صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى أرض الحبشة، فتنصر بالحبشة، وأتم الله لها الإسلام، وتزوجها رسول الله ﷺ وهي بأرض الحبشة، وأصدقها عند النجاشي أربعمائة دينار، وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بها إلى أرض الحبشة، وولي نكاحها عثمان بن عفان، وقيل: خالد بن سعيد بن العاص، وهي التي أكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها لما قدم أبو سفيان المدينة، وقالت له: إنك مشرك، ومنعته الجلوس عليه.

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد، توفيت سنة اثنين وستين، ودفنت بالبقيع، وهي آخر أزواج النبي ﷺ موتاً، وقيل: بل ميمونة، ومن خصائصها: أن جبريل دخل على النبي ﷺ، وهي عنده فرأته في صورة دحية الكلبي. ففي صحيح مسلم عن أبي عثمان قال: أنبئت أن جبريل أتى النبي ﷺ، وعنده أم سلمة، فقال: فجعل يتحدث، ثم قام فقال نبي الله ﷺ لأم سلمة: «من هذا؟» أو كما قال. قالت: هذا دحية الكلبي. قالت: وايم الله، ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ، يخبر أنه جبريل، أو كما قال، قال سليمان التيمي: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من أسامة بن زيد(٢). وزوجها ابنها ـ عمر ـ من رسول الله ﷺ، وردت طائفة ذلك بأن ابنها لم يكن له من السن حينئذ ما يعقد التزويج، ورد الإمام أحمد ذلك، وأنكر على من قاله، ويدل على صحة قول أحمد ما رواه مسلم في صحيحه أن عمر بن أبي سلمة ـ ابنها ـ سأل النبي ﷺ عن القبلة للصائم؟ فقال: «سل هذه» يعني: أم سلمة فأخبرته أن رسول الله ﷺ يفعله، فقال: لسنا كرسول الله ﷺ، يحل الله لرسوله ما شاء. فقال رسول الله ﷺ: «إني أتقاكم لله وأعلمكم به»(٣) أو كما قال. ومثل هذا لا يقال لصغير جدا، وعمر ولد بأرض الحبشة قبل الهجرة. وقال البيهقي: وقول من زعم أنه كان صغيراً،

---

(١) المعجم الكبير (١٧/ ٢٩١) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٣٤): «فيه عمرو بن صالح الحضرمي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٥١).

(٣) صحيح مسلم برقم (١١٠٨).

دعوى ولم يثبت صغره بإسناد صحيح .

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش من بنى خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وهى بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وكانت قبل عند مولاه زيد بن حارثة ، فطلقها فزوجه الله إياها من فوق سبع سموات ، وأنزل عليه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ فقام فدخل عليها بلا استئذان ، وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج النبى ﷺ ، وتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سمواته ، وهذا من خصائصها . توفيت بالمدينة سنة عشرين ، ودفنت بالبقيع .

وتزوج النبى ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية ، وكانت تحت عبد الله بن جحش ، تزوجها سنة ثلاث من الهجرة ، وكانت تسمى أم المساكين ، ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً ، شهرين أو ثلاثة ، وتوفيت ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وكانت سبيت فى غزوة بنى المصطلق ، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها ، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها ، وتزوجها سنة ست من الهجرة ، وتوفيت سنة ست وخمسين ، وهى التى أعتق المسلمون بسببها مائة أهل بيت من الرقيق ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ ، وكان ذلك من بركتها على قومها .

وتزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حيى ، من ولد هارون بن عمران أخى موسى ، سنة سبع ، فإنها سبيت من خيبر ، وكانت قبله تحت كنانة بن أبى الحقيق ، فقتله رسول الله ﷺ ، توفيت سنة ست وثلاثين ، وقيل : سنة خمسين . ومن خصائصها : أن رسول الله ﷺ أعتقها وجعل عتقها صداقها . قال أنس : أمهرها نفسها ، وصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة ، ويجوز للرجل أن يجعل عتق جاريته صداقها ، وتصير زوجته على منصوص الإمام أحمد ، رحمه الله . قال الترمذى : حدثنا إسحاق بن منصور ، وعبد بن حميد ، قالا : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن ثابت ، عن أنس قال : بلغ صفية أن حفصة قالت : صفية بنت يهودى ، فبكت ، فدخل عليها النبى ﷺ وهى تبكى فقال : « ما يبكيك ؟» قالت : قالت لى حفصة : إنى ابنة يهودى . فقال النبى ﷺ : « إنك لابنة نبى وإن عمك لنبى ، وإنك لتحت نبى ، فبما تفخر عليك؟» ثم قال : « اتق الله يا حفصة » (١). قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه . وهذا من خصائصها ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجها بسَرَف وهو على تسعة أميال من مكة ، وهى آخر من تزوج من أمهات المؤمنين ، توفيت سنه ثلاث وستين ، وهى خالة خالد بن الوليد ، وخالة ابن عباس ، فإن أمه أم الفضل بنت الحارث وهى التى اختلف فى نكاح النبى ﷺ لها . هل نكحها حلالاً أو محرماً ؟ والصحيح إنما تزوجها حلالاً كما قال أبو رافع الشفير فى نكاحها .

قال الحافظ أبو محمد المقدسى وغيره : وعقد على سبع ولم يدخل بهن ، فالصلاة على أزواجه تابعة لاحترامهن وتحريمهن على الأمة ، وأنهن نساؤه ﷺ فى الدنيا والآخرة ، فمن فارقها فى حياتها ولم يدخل ، لا يثبت لها أحكام زوجاته اللاتى دخل بهن صلى الله عليه وعلى أزواجه وآله وذريته وسلم تسليما] (٢).

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٨٩٤) وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » .

(٢) زيادة من ت .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾.

يقول تعالى واعظاً نساء النبى ﷺ ،اللاتى اخترن اللّه ورسوله والدار الآخرة ،واستقر (١) أمرهن تحت رسول اللّه ﷺ أن يخبرهن (٢) بحكمهن [وتخصيصهن] (٣) دون سائر النساء ،بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة ـ قال ابن عباس :وهى النشوز وسوء الخلق .وعلى كل تقدير فهو شرط،والشرط لا يقتضى الوقوع كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ،وكقوله : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨] ، ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] ، ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الزمر : ٤].فلما كانت محلتهن رفيعة ،ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً ،صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع ؛ولهذا قال : ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾.

قال مالك ،عن زيد بن أسلم : ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ قال : فى الدنيا والآخرة .

وعن ابن أبى نَجِيح [عن مجاهد] (٤) مثله .

﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلا هيناً .

ثم ذكر عدله وفضله فى قوله : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : يطع (٥) اللّه ورسوله ويستجيب ﴿ نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ أى : فى الجنة،فإنهن فى منازل رسول اللّه ﷺ،فى أعلى عليين ،فوق منازل جميع الخلائق ،فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾.

هذه آداب أمر اللّه بها نساء النبى ﷺ ،ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك ،فقال مخاطباً لنساء النبى [ﷺ] (٦) بأنهن إذا اتقين اللّه كما أمرهن ،فإنه لايشبههن أحد من النساء ،ولا يلحقهن فى الفضيلة

---

(١) فى ت : « فاستقر » . (٢) فى أ : « يخبرن » . (٣) زيادة من أ .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) فى ت ، ف : « يطيع » . (٦) زيادة من ت ، وفى ف : « صلوات اللّه وسلامه عليه » .

والمنزلة، ثم قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾.

قال السُّدِّى وغيره: يعنى بذلك: ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال؛ ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أى: دَغَل، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: قال ابن زيد: قولا حسناً جميلا معروفاً فى الخير.

ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أى: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أى: الزمن بيوتكن فلا [1] تخرجن لغير حاجة. ومن الحوائج الشرعية الصلاة فى المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن تَفِلات»، وفى رواية: « وبيوتهن خير لهن » [2].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا حميد بن مَسْعَدة [3]، حدثنا أبو رجاء الكلبى، روح بن المسيب ثقة، حدثنا ثابت البنانى [4]، عن أنس، رضى الله عنه، قال: جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله تعالى، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: « من قعد ـ أو كلمة نحوها ـ منكن فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين [5] فى سبيل الله ».

ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب، وهو رجل من أهل البصرة مشهور [6].

وقال [7] البزار أيضاً: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة، عن مُوَرِّق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله، عن النبى ﷺ قال: « إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون [8] بروْحَة ربها وهى فى قَعْر بيتها ».

ورواه الترمذى، عن بُنْدَار، عن عمرو بن عاصم، به نحوه [9].

وروى البزار بإسناده المتقدم، وأبو داود أيضاً، عن النبى ﷺ قال: « صلاة المرأة فى مَخْدعها أفضل من صلاتها فى بيتها، وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها » [10]. وهذا إسناد [11] جيد.

---

(١) فى ت: « ولا ».

(٢) رواه بهذا اللفظ أبو داود فى السنن برقم (٥٦٥) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه، وبالرواية الثانية برقم (٥٦٧) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما، وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر.

(٣) فى أ: « مسعود ». (٤) فى ت: « وروى أبو بكر البزار بإسناده ». (٥) فى ت: « المجاهد ».

(٦) مسند البزار برقم (١٤٧٥) « كشف الأستار » ورواه أبو يعلى فى المسند (٦/ ١٤٠) وابن حبان فى المجروحين (١/ ٢٩٩) من طريق أبى رجاء الكلبى بنحوه. قال ابن حبان: « وكان روح ممن يروى عن الثقات الموضوعات، ويقلب الأسانيد، ويرفع الموقوفات » ثم قال: « لا تحل الرواية عنه ولا كتابة حديثه إلا للاختبار ». وقال ابن عدى فى الكامل: « أحاديثه غير محفوظة ».

(٧) فى ت: « وروى ». (٨) فى أ: « ما يكون ».

(٩) سنن الترمذى برقم (١١٧٣) وقال الترمذى: « هذا حديث حسن غريب ». ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (١٦٨٥) ومن طريقه ابن حبان فى صحيحه برقم (٣٢٩) « موارد » عن عمرو بن عاصم، به، وشك ابن خزيمة فى سماع قتادة هذا الحديث من مورق.

(١٠) سنن أبى داود برقم (٥٧٠).

(١١) فى ت: « إسناده ».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشى بين يدى الرجال، فذلك تبرج الجاهلية.

وقال قتادة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: يقول: إذا خرجتن من بيوتكن ـ وكانت لهن(١) مشية وتكسر وتغنُّج ـ فنهى الله عن ذلك.

وقال مُقاتل بن حيَّان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: والتبرج: أنها تلقى الخمار على رأسها، ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين فى التبرج.

وقال ابن جرير: حدثنى ابن زهير، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داود ـ يعنى ابن أبى الفرات ـ حدثنا على بن أحمر، عن عِكْرِمة (٢) عن ابن عباس قال: تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل. وكان رجال الجبل صباحاً وفى النساء دَمَامة. وكان نساء السهل صباحاً وفى الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلا من أهل السهل فى صورة غلام، فآجر نفسه منه، فكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذى يُزَمّر فيه الرِّعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمَع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه فى السنة، فيتبرَّجُ النساء للرجال. قال: ويتزيَّن (٣) الرجال لهن، وإن رجلا من أهل الجبل هَجَم عليهم فى عيدهم ذلك، فرأى النساء وصَبَاحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن، فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (٤).

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، نهاهن أولا عن الشر ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة ـ وهى: عبادة الله وحده لا شريك له ـ وإيتاء الزكاة، وهى: الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾: وهذا نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فى أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولا واحداً، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح.

وروى ابن جرير: عن عِكْرِمة أنه كان ينادى فى السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، نزلت (٥) فى نساء النبى ﷺ خاصة، وهكذا روى ابن أبى حاتم قال:

حدثنا على بن حرب الموصلى، حدثنا زيد بن الْحُبَاب، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوى، عن عِكْرِمة عن (٦) ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال: نزلت فى نساء النبى ﷺ خاصة.

---

(١) فى أ: « لها ». (٢) فى ت: « وروى ابن جرير بإسناده ». (٣) فى ت، ف: « وتنزل ».
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/٤).
(٥) فى ت: « أنزلت ». (٦) فى ت: « وروى ابن أبى حاتم بسنده إلى ».

وقال عكرمة : من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ .

فإن كان المراد أنهن كُنّ سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن، ففي هذا نظر ؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك :

الحديث الأول : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أخبرنا علي بن زيد (١) ، عن أنس ابن مالك ، رضي الله عنه ، قال : إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ، يقول : «الصلاة يا أهل البيت، ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾».

ورواه الترمذي عن عبد بن حميد ، عن عفان ، به . وقال : حسن غريب (٢) (٣) .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو نعيم، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، أخبرني أبو داود ، عن أبي الحمراء قال : رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ ، [قال: رأيت رسول الله ﷺ] (٤) إذا طلع الفجر ، جاء إلى باب علي وفاطمة فقال : « الصلاة الصلاة، ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾»(٥) .

أبو داود الأعمى هو : نفيع بن الحارث ، كذاب .

حديث آخر : وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن مصعب ، حدثنا الأوزاعي ، حدثنا شداد أبو عمار (٦) قال : دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم ، فذكروا علياً ، رضي الله عنه ، فلما قاموا قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ ؟ قلت : بلى . قال : أتيت فاطمة أسألها عن علي فقالت : تَوَجه إلى رسول الله ﷺ ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين ، آخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل ، فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسنا وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ، ثم لف عليهم (٧) ثوبه ـ أو قال : كساءه ـ ثم تلا هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾، « اللهم (٨) هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق » ، وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبي عمير (٩) ، عن الوليد بن مسلم ، عن أبي عمرو الأوزاعي بسنده نحوه ـ زاد في آخره: قال واثلة : فقلت : وأنا يا رسول الله ـ صلى الله عليك ـ من أهلك ؟ قال : « وأنت من أهلي » قال واثلة : إنها من أرجى ما أرتجي(١٠) .

ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصل ، عن الفضل بن دُكَيْن ، عن عبد السلام بن حرب ، عن كلثوم المحاربي ، عن شداد أبي عمار قال : إني لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا علياً

---

(١) في ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده » . (٢) في ت : « حديث حسن » .

(٣) المسند (٣/٢٥٩) وسنن الترمذي برقم (٣٢٠٦) .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبري .

(٥) تفسير الطبري (٢٢/٦) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٢٠٠) من طريق منصور بن الأسود ، عن أبي داود بنحوه .

(٦) في ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن شداد بن عمار » .

(٧) في ت : « عليهما » . (٨) في ت ، ف : « وقال : اللهم » . (٩) في أ : « عمر » .

(١٠) المسند (٤/١٠٧) وتفسير الطبري (٢٢/٦) .

فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن الذى شتموه، إنى عند رسول الله ﷺ إذ جاء على وفاطمة وحسن حسين فألقى ﷺ عليهم كساء له، ثم قال: « اللهم هؤلاء أهل بيتى، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ». قلت: يا رسول الله، وأنا؟ قال: « وأنت ». قال: فوالله إنها لأوثق عملى عندى (١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء بن أبى رباح، حدثنى من سمع أم سلمة تذكر أن النبى ﷺ كان فى بيتها، فأتته فاطمة، رضى الله عنها، ببرمة فيها خَزِيرة، فدخلت بها عليه فقال لها: « ادعى زوجك وابنيك ». قالت: فجاء على وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامة له على دكان (٢) تحته كساء خيبرى، قالت: وأنا فى الحجرة أصلى، فأنزل الله، عز وجل، هذه الآية: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾. قالت: فأخذ فضل الكساء فغطاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: « اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا »، قالت: فأدخلت رأسى البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال: « إنك إلى خير، إنك إلى خير » (٣).

فى إسناده من لم يسم (٤)، وهو شيخ عطاء، وبقية رجاله ثقات.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن أبى المعدل (٥)، عن عطية الطُّفَاوِىّ، عن أبيه؛ أن أم سلمة حدثته قالت (٦): بينما رسول الله ﷺ فى بيتى يوماً إذ قال الخادم: إن فاطمة وعليا بالسدّة قالت: فقال لى: « قومى فَتَنَحى عن (٧) أهل بيتى ». قالت: فقمت فتنحيت فى البيت قريباً، فدخل على وفاطمة، ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره فقبلهما، واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى، وقَبَّل فاطمة وقَبَّل عليا، وأغدق عليهم خَميصَة سوداء وقال: « اللهم، إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتى ». قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله؟ صلى الله عليك. قال: « وأنت » (٨).

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا [الحسن بن عطية، حدثنا] (٩) فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبى سعيد، عن أم سلمة؛ أن هذه الآية نزلت فى بيتها: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ قالت: وأنا جالسة على باب البيت فقلت: يا رسول

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢/٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢/ ٦٥) من طريق على بن عبد العزيز عن الفضل بن دكين، أبو نعيم به.

(٢) فى ف: « وكان ».

(٣) المسند (٦/ ٢٩٢) وقد سمى شيخ عطاء فى رواية الطبرانى فى المعجم الكبير (٩/ ١١) فقال عن عطاء بن أبى رباح، عن عمر بن أبى سلمة بنحوه.

(٤) فى أ: « يسمع ». (٥) فى أ: « العدل ».

(٦) فى ت: « وروى الإمام أحمد بسنده أن أم سلمة قالت ».

(٧) فى أ: « فتنحى لى عن ».

(٨) المسند (٦/ ٢٩٦).

(٩) زيادة من: ت، ف، و« الطبرى ».

الله، ألستُ من أهل البيت ؟ فقال : « إنك إلى خير ، أنت من أزواج النبى ﷺ » قالت : وفى البيت رسول الله ﷺ وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، رضى الله عنهم (١) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً ، عن أبى كُرَيْب ، عن وَكِيع ، عن عبد الحميد بن بَهْرَام ، عن شَهْر بن حَوْشَب ، عن أم سلمة بنحوه (٢) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا خالد بن مَخْلَد ، حدثنى موسى بن يعقوب، حدثنى هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعَة قال: أخبرتنى أم سلمة ، رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ جمع فاطمة والحسن والحسين ، ثم أدخلهم تحت ثوبه ، ثم جأر إلى الله، عزوجل ، ثم قال : « هؤلاء أهل بيتى » . قالت أم سلمة : فقلت : يا رسول الله، أدخلنى معهم . فقال : « أنت من أهلى » (٣) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً، عن أحمد بن محمد الطوسى ، عن عبد الرحمن بن صالح، عن محمد بن سليمان الأصبهانى ، عن يحيى بن عبيد المكى ، عن عطاء ، عن عمر بن أبى سلمة، عن أمه بنحو ذلك (٤) .

طريق أخرى : قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبْ ، حدثنا مصعب بن المقدام ، حدثنا سعيد بن زربى، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة ، عن أم سلمة قالت : جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ ببُرْمَة لها قد صنعت فيها عَصيدَة تحملها على طبق ، فوضعتها بين يديه فقال : «أين ابن عمك وابناك ؟» فقالت : فى البيت . فقال : « ادعيهم » . فجاءت إلى على فقالت : أجِبْ رسولَ الله أنت وابناك. قالت أم سلمة : فلما رآهم مقبلين مد يده إلى كساء كان على المنامة ، فمده وبسطه ، وأجلسهم عليه ، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله ، فضمه فوق رؤوسهم ، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه ، عزوجل، فقال : «اللهم ، هؤلاء أهل بيتى ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » (٥) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا عبد الله (٦) بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن حكيم بن سعد قال : ذكرنا على بن أبى طالب عند أم سلمة ، فقالت : فى بيتى نزلت: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾. قالت أم سلمة : جاء رسول الله ﷺ إلى بيتى فقال : « لاتأذنى لأحد » . فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها . ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه عن أمه وجده ، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه ، ثم جاء على فلم أستطع أن أحجبه ، فاجتمعوا فَجَلّلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ، ثم قال : « هؤلاء أهل بيتى، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » . فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط . قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا ؟ قالت : فوالله ما أنعم ، وقال : «إنك إلى خير» (٧) .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا محمد بن بشر (٨) ، عن زكريا ، عن مصعب ابن شيبة ، عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة ، رضى الله عنها : خرج رسول الله(٩) ﷺ ذات

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢/٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/٢٤٩) من طريق فضيل بن مرزوق به مختصرًا .

(٢) تفسير الطبرى (٢٢/٦) ورواه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٧٧٠) من طريق عبد الحميد بن بهرام، به . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٣٣٣) من طريق زبيد ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة .

(٣) تفسير الطبرى (٢٢/٧) ورواه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٧٦٣) من طريق خالد بن مخلد القطوانى به .

(٤) تفسير الطبرى (٢٢/٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/٢٨٦) من طريق شريك ، عن عطاء ، عن أم سلمة .

(٥) تفسير الطبرى (٢٢/٧) .

(٦) فى أ : « عبد الملك » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٢/٧) ورواه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٧٦٢) من طريق جرير بن عبد الحميد ، عن الأعمش بنحوه .

(٨) فى أ : « بشير » . (٩) فى ف : « النبى » .

غداة، وعليه مِرْط مُرَحَّل من شَعْر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾.

ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن بشر [١]، به [٢].

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُرَيج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد ابن يزيد، عن العوام ـ يعني: ابن حَوْشَب ـ عن عم له قال: دخلت مع أبي على عائشة، فسألتها عن علي، رضي الله عنه، فقالت، رضي الله عنها: تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا عليا وفاطمة وحسنا وحسينا، فألقى عليهم ثوباً فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت: فدنوت منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: «تَنَحّي، فإنك على خير».

حديث آخر: قال ابن جرير حدثنا المثنى، حدثنا بكر [٣] بن يحيى بن زَبّان العَنَزيّ، حدثنا مِنْدَل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ، وفي علي، وحسن، وحسين، وفاطمة: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾» [٤].

قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة، كما تقدم.

وروى ابن أبي حاتم من حديث هارون بن سعد العِجْلي، عن عطية، عن أبي سعيد موقوفاً، فالله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا بُكَيْر بن مسمار قال: سمعت عامر بن سعد قال: قال سعد: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: «رب، هؤلاء أهلي وأهل بيتي» [٥].

حديث آخر: وقال مسلم في صحيحه: حدثني زُهَير بن حرب، وشُجاع بن مَخْلَد جميعاً، عن ابن عُلَيَّة ـ قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثني أبو حَيَّان، حدثني يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا وحُصَين بن سَبْرَةَ وعمر بن مسلم [٦] إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً [رأيتَ رسول الله ﷺ وسمعتَ حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً] [٧]؛ حَدِّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا بن أخي، والله لقد

---

(١) في أ: «بشير».

(٢) تفسير الطبري (٢٢/٥) وصحيح مسلم برقم (٢٠٨١).

(٣) في ف: «بكير».

(٤) تفسير الطبري (٢٢/٥).

(٥) رواه الطبري في تفسيره (٢٢/٧) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٤٣٩) من طريق أبي بكر الحنفي، عن بكير بن مسمار، به.

(٦) في ت، ف، أ: «سلمة». (٧) زيادة من ت، ف، ومسلم.

كَبِرَت (١) سنِّى، وقدم عهدى، ونسيتُ بعض الذى كنتُ أعى من رسول الله ﷺ، فما حَدَّثتُكم فاقبلوا، وما لا فلا تُكَلِّفونيه. ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوما خطيباً بماء يدعى خُما ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذَكّر، ثم قال: « أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك (٢) أن يأتى رسول ربى فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ». فَحَثّ على كتاب الله ورَغَّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتى، أذَكّركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى » ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد ؟أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصَّدَقة بعده. قال: ومن هم؟ قال هم آل على، وآل عَقِيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حُرِمَ الصدقة ؟ قال: نعم (٣).

ثم رواه عن محمد بن بكَّار بن الريَّان، عن حسان بن إبراهيم، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد ابن حيَّان (٤)، عن زيد بن أرقم، فذكر الحديث بنحو ما تقدم، وفيه: فقلنا له: من أهل بيته ؟ نساؤه؟ قال: لا وايم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعَصَبته الذين حُرموا الصدقة بعده (٥).

هكذا وقع فى هذه الرواية، والأولى أولى، والأخذ بها أحرى. وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين فى الحديث الذى رواه، إنما المراد بهم آله الذين حُرموا الصدقة، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله، وهذا الاحتمال أرجح؛ جمعا بينها وبين الرواية التى قبلها، وجمعا أيضاً بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت، فإن فى بعض أسانيدها نظراً، والله أعلم. ثم الذى لا يشكّ فيه من تَدَبر القرآن أن نساء النبى ﷺ داخلات فى قوله: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾، فإن سياق الكلام معهن؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** ﴾ أى: اعملن بما ينزل الله على رسوله فى بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة وغير واحد. واذكرن هذه النعمة التى خصصتن (٦) بها من بين الناس، أن الوحى ينزل فى بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة [الصديقة] (٧) بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحىُ فى فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه (٨). قال بعض العلماء، رحمه الله: لأنه لم يتزوج بكراً سواها، ولم ينم معها رجل فى فراشها سواه، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه الرتبة العلية. ولكن إذا كان أزواجه من أهل

(١) فى أ « كبر ». (٢) فى ف: « فيوشك ».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨).
(٤) فى أ: « حسان ».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨).
(٦) فى أ: « خصصتهن ». (٧) زيادة من أ. (٨) فى ت: « رسول الله ﷺ ».

بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية، كما تقدم فى الحديث: « وأهل بيتى أحق ». وهذا يشبه ما ثبت فى صحيح مسلم: أن رسول اللّه ﷺ لما سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم، فقال: « هو مسجدى هذا » (١). فهذا من هذا القبيل؛ فإن الآية إنما نزلت فى مسجد قُباء، كما ورد فى الأحاديث الأخر. ولكن إذا كان ذاك أُسّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول اللّه ﷺ أولَى بِتَسميتَه بذلك، واللّه أعلم.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا أبو عَوَانة، عن حُصَين بن عبد الرحمن، عن أبى جميلة (٢) قال: إن الحسن بن على استُخلفَ حين قُتل على، رضى اللّه عنهما(٣)، قال: فبينما هو يصلى إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر وزعم حصين أنه بلغه أن الذى طعنه رجل من بنى أسد، وحسن ساجد قال: فيزعمون أن الطعنة وقعت فى وَركه، فمرض منها أشهراً، ثم بَرَأ فقعد على المنبر، فقال: يا أهل العراق، اتقوا اللّه فينا، فإنا أمراؤكم وضيفانكم، ونحن أهل البيت الذى قال اللّه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قال: فما زال يقولها حتى ما بقى أحد من أهل المسجد إلا وهو يَحِنّ بكاء.

وقال السُّدِّى، عن أبى الديلم قال: قال على بن الحسين لرجل من أهل الشام: أما قرأت فى الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؟ قال: نعم، ولأنتم هم؟ قال: نعم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أى: بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته (٤) بكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكن ذلك وخصكن بذلك.

قال ابن جرير، رحمه اللّه: واذكرن نعمة اللّه عليكن بأن جعلكن فى بيوت تتلى فيها آيات اللّه والحكمة، فاشكرن اللّه على ذلك واحمدنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أى: ذا لطف بكن، إذ جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آياته والحكمة. وهى السنة، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً.

وقال قتادة: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: يمتن عليهن بذلك. رواه ابن جرير.

وقال عطية العَوْفى فى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعنى: لطيف باستخراجها، خبير بموضعها. رواه ابن أبى حاتم، ثم قال: وكذا روى عن الربيع بن أنس، عن قتادة (٥).

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ

(١) صحيح مسلم برقم (١٣٩٨) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى اللّه عنه.
(٢) فى ت: « وروى ابن أبى حاتم بسنده ». (٣) فى ت، ف، أ: « عنه ». (٤) فى ت: « بمخبرته ».
(٥) فى ت: « وقتادة ».

وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثنا (١) عبد الرحمن بن شيبة، سمعت أم سلمة زوج النبى ﷺ تقول: قلت للنبى ﷺ: ما لنا لا نُذكَرُ فى القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت (٢): فلم يَرعنى منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسَرّح شعرى، فلففت شعرى، ثم خرجت إلى حُجْرة من حُجَر بيتى، فجعلت سمعى عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: « ياأيها الناس، إن اللّه يقول: إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » إلى آخر الآية.

وهكذا رواه النسائى وابن جرير، من حديث عبد الواحد بن زياد، به مثله (٣).

طريق أخرى عنها: قال النسائى أيضاً: حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا سُوَيْد، أخبرنا عبد اللّه بن شَرِيك، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أم سلمة أنها قالت للنبى ﷺ: يا نبى اللّه، ما لى أسمع الرجال يذكرون فى القرآن، والنساء لا يذكرن؟ فأنزل اللّه: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾(٤).

وقد رواه ابن جرير، عن أبى كُرَيْب، عن أبى معاوية، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة: أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، حدثه عن أم سلمة، رضى اللّه عنها، قالت: قلت: يا رسول اللّه، أيذكر الرجال فى كل شىء ولا نذكر؟ فأنزل اللّه: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ الآية (٥).

طريق أخرى: قال سفيان الثورى، عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول اللّه، يذكر الرجال ولا نذكر؟ فأنزل اللّه: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ الآية.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب قال: حدثنا سَيَّار بن مظاهر العَنَزى (٦)، حدثنا أبو كُدَيْنة يحيى بن المهلَّب، عن قابوس بن أبى ظَبْيَان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال النساء للنبى ﷺ: ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟ فأنزل اللّه: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ الآية (٧).

وحدثنا بشر (٨)، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد (٩)، عن قتادة قال: دخل نساء على نساء النبى ﷺ، فقلن: قد ذَكَرَكُنّ اللّه فى القرآن، ولم نُذكَر بشىء، أما فينا ما يذكر؟ فأنزل اللّه، عز وجل: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ الآية (١٠).

---

(١) فى ت: « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ». (٢) فى ف: « قال ».

(٣) المسند (٦/ ٣٠٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٥) وتفسير الطبرى (٢٢/ ٩).

(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٤).

(٥) تفسير الطبرى (٢٢/ ٨).

(٦) فى ف، أ: « سنان بن مظاهر العمرى ».

(٧) تفسير الطبرى (٢٢/ ٨).

(٨) فى ف، أ: « بشير ».

(٩) فى ف، أ: « سعد ».

(١٠) تفسير الطبرى (٢٢/ ٨).

فقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه، لقوله(١) تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وفى الصحيحين: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن». فيسلبه(٢) الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه كما قررناه فى أول شرح البخارى.

[وقوله](٣): ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾: القنوت: هو الطاعة فى سكون، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فالإسلام بعده مرتبة(٤) يرتقى إليها، ثم القنوت ناشئ عنهما.

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾: هذا فى الأقوال، فإن الصدق خَصلة محمودة؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجَرَّب عليه كِذْبة لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام(٥)، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا، «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار. ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يكذب ويتَحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»(٦) والأحاديث فيه كثيرة جداً.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾: هذه سَجيّة الأثبات، وهى الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وتَلَقّى ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أى: أصعبه فى أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها.

﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾: الخشوع(٧): السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته، [كما فى الحديث](٨): «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾: الصدقة: هى الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال(٩) طاعة لله، وإحسانا إلى خلقه، وقد ثبت فى الصحيحين: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم: «ورجل تصدق بصدقة

---

(١) فى أ: «كقوله». (٢) فى ت، ف، أ: «فسلبه». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «قربة». (٥) فى ت، ف: «جاهلية ولا إسلام».
(٦) فى ت، ف، أ: «أتى بعجز الحديث وآخر صدره». (٧) فى ت، ف، أ: «أى».
(٨) زيادة من ت، ف، أ. (٩) فى أ: «الأعمال».

فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »(١) . وفى الحديث الآخر : « والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار » (٢) .

[وفى الترمذى عن أنس بن مالك ،رضى الله عنه ،عن النبى ﷺ ،قال :« إن الصدقة تطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء » .

وفى الصحيحين عن عدى بن حاتم قال :قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ،ليس بينه وبينه ترجمان ،فينظر أيمن منه ،فلا يرى إلا ما قدم ،وينظر أشأم منه ،فلا يرى إلا ما قدم،وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه .فاتقوا النار ولو بشق تمرة » .

وفى حديث أبى ذر أنه قال :سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجى العبد من النار ؟قال :« الإيمان بالله» .قلت :يا نبى الله ،مع الإيمان عمل ؟ قال :« ترضخ مما خولك الله » ،أو :« ترضخ مما رزقك الله » ؛ولهذا لما خطب النبى ﷺ يوم العيد قال فى خطبته :« يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن،فإنى رأيتكن أكثر أهل النار » .وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار ،وقال عمر بن الخطاب ،رضى الله عنه : ذكر لى أن الأعمال تتباهى ،فتقول الصدقة :أنا أفضلكم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال :ضرب رسول الله ﷺ ،مثل البخيل والمتصدق ،كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ،أو جنتان من حديد .قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما ،فجعل المتصدق ،كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه ،حتى تغشى أنامله ،وتعفو أثره ،وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت ،وأخذت كل حلقة مكانها . قال أبو هريرة :فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه هكذا فى جيبه .فلو رأيته يوسعها ولا يتسع .وقد قال تعالى :﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [التغابن : ١٦] . فجود الرجل يحببه إلى أضداده ،وبخله يبغضه إلى أولاده . كما قيل:

ويظهر عيبَ المرء فى الناس بخلُه وتستره عنهم جميعا سخاؤه

تعط بأثواب السخاء فإننى أرى كل عيب والسخاء غطاؤه] (٣)

والأحاديث فى الحث عليها كثيرة جداً ، له موضع بذاته .

﴿**وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ**﴾: فى الحديث الذى رواه ابن ماجه : « والصوم زكاة البدن » أى : تزكيه وتطهره وتنقيه من الأخلاط الرديئة طبعا وشرعا .

قال (٤) سعيد بن جبير :من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل فى قوله : ﴿**وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ**﴾ .

---

(١) صحيح البخارى برقم (١٤٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) .

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٦١٤) من حديث كعب بن عجرة ،رضى الله عنه ، وقال :« هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه». ورواه أحمد فى المسند ٣/ ٣٢١ من حديث جابر بن عبد الله ،رضى الله عنه ،ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦١٦) وابن ماجة فى السنن برقم (٣٩٧٣) من حديث معاذ ،رضى الله عنه .

(٣) زيادة من ت . (٤) فى أ : « كما قال » .

ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة ـ كما قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباء فليتزوج ، فإنه أغَضُّ للبصر ،وأحْصَن للفرج ،ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء » (١) ـ ناسب أن يذكر بعده : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾أى :عن المحارم والمآثم إلا عن المباح ،كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾[المؤمنون : ٥ ـ ٧].

وقوله : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ﴾: قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ،حدثنا هشام بن عبيد الله ،حدثنا محمد بن جابر ،عن على بن الأقمر ،عن الأغَرّ أبى مسلم (٢) ،عن أبى سعيد الخدرى ،رضى الله عنه ،أن رسول الله ﷺ قال :« إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل ،فصليا ركعتين ،كتبا (٣) تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

وقد رواه أبو داود ،والنسائى ،وابن ماجه ،من حديث الأعمش، [عن على بن الأقمر] (٤) ، عن الأغر أبى مسلم ،عن أبى سعيد وأبى هريرة ،عن النبى ﷺ ،بمثله (٥) .

وقال(٦) الإمام أحمد :حدثنا حسن ،حدثنا ابن لَهِيعة ،حدثنا دَرَّاج ،عن أبى الهيثم ،عن أبى سعيد الخُدْرى ،رضى الله عنه ،أنه قال :قلت :يا رسول الله ،أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال :« الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » .

قال : قلت : يا رسول الله ،ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال :« لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله أفضل منه » (٧) .

وقال(٨) الإمام أحمد :حدثنا عفان ،حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ،عن العلاء ،عن أبيه ،عن أبى هريرة ،رضى الله عنه ،قال :كان النبى ﷺ يسير فى طريق مكة ،فأتى على جُمْدان فقال : « هذا جُمْدان ،سيروا فقد سبق المُفَرّدون » .قالوا :وما المُفَرّدون (٩) ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً (١٠)» . ثم قال : « اللهم اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « اللهم ، اغفر للمحلقين » . قالوا: والمقصرين ؟ قال : « والمقصرين » .

تفرد به من هذا الوجه ،ورواه مسلم دون آخره (١١) .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) .
(٢) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده ». (٣) فى ت ، أ : « كانا » .
(٤) زيادة من ت ، ف ، وسنن أبى داود وابن ماجه .
(٥) سنن أبى داود برقم (١٣٠٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٥) .
(٦) فى ت : « وروى » .
(٧) المسند (٣/ ٧٥) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف .
(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ف ، أ : « وما المفردون يا رسول الله ؟ » .
(١٠) فى ف ، أ : « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » .
(١١) المسند (٢/ ٤١١) وصحيح مسلم برقم (١٣٠٢) وإنما رواه مسلم دون أوله ،والله أعلم .

وقال (١) الإمام أحمد : حدثنا حُجَين بن المثنى ،حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة ،عن زياد بن أبى زياد ـ مولى عبد الله ابن عَيَّاش (٢) بن أبى ربيعة ـ أنه بلغه عن معاذ بن جبل ،رضى الله عنه،أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « ما عمل آدمى عملا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله».وقال معاذ: قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير أعمالكم ،وأزكاها عند مليككم ،وأرفعها فى درجاتكم،وخير لكم من تعاطى الذهب والفضة ،ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « ذكر الله ، عز وجل » (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ،حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا زَبَّان بن فائد ،عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنىّ ، عن أبيه،عن رسول الله ﷺ : أن رجلا سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ فقال : « أكثرهم (٤) لله ذكراً ».قال : فأى الصائمين أكثر أجراً ؟ قال : « أكثرهم لله ذكرا».ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك يقول رسول الله ﷺ : « أكثرهم لله ذكراً».فقال أبو بكر لعمر ،رضى الله عنهما :ذهب الذاكرون بكل خير .فقال رسول الله ﷺ : «أجل» (٥) .

وسنذكر بقية الأحاديث الواردة فى كثرة الذكر عند قوله تعالى فى هذه السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الآية [الأحزاب : ٤١، ٤٢] ،إن شاء الله تعالى.

وقوله : ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى : هيأ لهم (٦) منه لذنوبهم مغفرة وأجرًا عظيماً وهو الجنة .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) ﴾.

قال العوفى ،عن ابن عباس :قوله :﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية ،وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ،فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها ،فقالت : لست بناكحته ،فقال رسول الله ﷺ : « بل فانكحيه » .قالت :يا رسول الله ،أؤامر فى نفسى . فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ الآية ،قالت :قد رضيته لى منكحا يا رسول الله ؟ قال : «نعم».قالت :إذاً لا أعصى رسول الله ﷺ ،قد أنكحته نفسى (٧) .

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى ف ، أ: « عباس ».
(٣) المسند (٥/ ٢٣٩) .
(٤) فى أ : « أكثركم » .
(٥) المسند (٣/ ٤٣٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٧٤) :« وفيه زبان بن فائد وهو ضعيف ،وقد وثق ،وكذلك ابن لهيعة ، وبقية رجاله ثقات » .
(٦) فى ت ، ف : « أعد لهم » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩) .

وقال ابن لَهِيعة ،عن ابن أبى عمرة ،عن عكرمة ،عن ابن عباس قال :خطب رسول اللّه ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ،فاستنكفت منه ،وقالت :أنا خير منه حسبا ـ وكانت امرأة فيها حدة ـ فأنزل اللّه ،عز وجل :﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية كلها .

وهكذا قال مجاهد ،وقتادة ،ومقاتل بن حيان :أنها نزلت فى زينب بنت جحش [الأسدية] (١) حين خطبها رسول اللّه ﷺ على مولاه زيد بن حارثة ،فامتنعت ثم أجابت .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ،نزلت فى أم كلثوم (٢) بنت عقبة بن أبى مُعَيْط ،وكانت أول من هاجر من النساء ـ يعنى : بعد صلح الحديبية ـ فوهبت نفسها للنبى ﷺ ،فقال :قد قبلت . فزوجها زيد بن حارثة ـ يعنى واللّه أعلم بعد فراقه زينب ـ فسخطت هى وأخوها وقالا :إنما أردنا رسول اللّه ﷺ فزوّجَنا عبده . قال :فنزل القرآن : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية . قال :وجاء أمر أجمع من هذا : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ قال : فذاك خاص وهذا جمَاع .

وقال (٣) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ،أخبرنا مَعْمَر ،عن ثابت البُنَانى ،عن أنس قال : خطب النبى ﷺ على جُلَيْبِيب امرأة من الأنصار إلى أبيها ،فقال :حتى أستأمر أمها .فقال النبى ﷺ :فنعم (٤) إذاً .قال .قال :فانطلق الرجل إلى امرأته ، [فذكر ذلك لها] (٥) ،فقالت :لاها اللّه ذا(٦)،ما وجد رسول اللّه ﷺ إلا جلَيبيبا ،وقد منعناها من فلان وفلان ؟ قال :والجارية فى سترها (٧) تسمع.قال :فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبى ﷺ بذلك .فقالت الجارية :أتريدون أن تَرُدّوا على رسول اللّه ﷺ أمره ؟إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه .قال :فكأنها جَلَّت عن أبويها ،وقالا : صدقت.فذهب أبوها إلى رسول اللّه ﷺ فقال : إن كنت رضيته فقد رضيناه .قال :« فإنى قد رضيته».قال:فزوجها (٨) ،ثم فزع أهل المدينة ،فركب جُلَيْبِيب فوجدوه قد قتل ،وحوله ناس من المشركين قد قتلهم ،قال أنس :فلقد رأيتها [وإنها] (٩) لمن أنفق بيت بالمدينة (١٠) .

وقال (١١) الإمام أحمد :حدثنا عفان ،حدثنا حماد ـ يعنى :ابن سلمة ـ عن ثابت ،عن كنانة بن نعيم العدوى ،عن أبى برزة الأسلمى أن جليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يَمُرّ بهن ويلاعبهن،فقلت لامرأتى: لا يدخلن اليوم عليكم (١٢) جُليبيبٌ ،فإنه إن دخل عليكم (١٣) لأفعلن ولأفعلن . قال:وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيّم لم يزوجها حتى يعلم : هل لنبى اللّه ﷺ فيها حاجة أم لا . فقال رسول اللّه ﷺ لرجل من الأنصار :« زوجنى ابنتك » .قال :نعم ،وكرامة يا رسول اللّه(١٤)،ونُعْمَة عين .فقال :إنى لست أريدها لنفسى .قال :فلمن يارسول اللّه ؟ قال : لجليبيب.

(١) زيادة من أ .
(٢) فى أ : « أم مكتوم » .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) فى ف :« لنعم » .
(٥) زيادة من ت ، ف ، والمسند .
(٦) فى هـ ، أ : « إذا » والمثبت من ت ، ف والنهاية لابن الأثير .
(٧) فى ت : « خدرها » .
(٨) فى أ : « فتزوجها » .
(٩) زيادة من ت ، ف ، والمسند .
(١٠) المسند (١٣٦/٣) .
(١١) فى ت : « وروى » .
(١٢ ، ١٣) فى أ : « عليكن » .
(١٤) فى أ : « برسول اللّه »

فقال: يا رسول الله، أشاور أمها. فأتى أمها فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتك؟ فقالت: نعم ونُعمة عين. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب. فقالت: أَجُلَيبيب إنيه [١]؟ أجليبيب إنيه [٢]؟ لا، لعمر الله لا تزوّجه. فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها. قالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟! ادفعوني إليه، فإنه لن يضيعني. فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: شأنَك بها. فَزَوّجها جليبيبا. قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزاة له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: « هل تفقدون من أحد »؟ قالوا: نفقد فلانا ونفقد فلانا. قال: « انظروا هل تفقدون من أحد؟ » قالوا: لا. قال: « لكني أفقد جليبيبا». قال: « فاطلبوه في القتلى ». فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. [فقالوا: يا رسول الله، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه] [٣]. فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه، فقال: قتل سبعة [وقتلوه] [٤]، هذا مني وأنا منه. مرتين أو ثلاثا، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه [وحفر له، ما له سرير إلا ساعد النبي ﷺ] [٥]. ثم وضعه في قبره، ولم يذكر أنه غسله، رضي الله عنه. قال ثابت: فما كان في الأنصار أيّم أنفق منها. وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتا: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ؟ فقال: « اللهم، صب عليها [الخير] [٦] صبا، ولا تجعل عيشها كَدًّا » كذا قال، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها.

هكذا أورده الإمام أحمد بطوله [٧]، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله [٨].
وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في « الاستيعاب » أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ تلت [٩] هذه الآية: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [١٠].

وقال ابن جُرَيْج [أخبرني عامر بن مصعب، عن طاوس قال: إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر، فنهاه، وقرأ ابن عباس، رضي الله عنه [١١]: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ [١٢] لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾] [١٣].

فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وفي الحديث: « والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ». ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾، كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

(١، ٢) في هـ، ت، ف، أ: « ابنه » والتصويب من المسند.
(٣، ٤، ٥، ٦) زيادة من ت، ف، والمسند.
(٧) المسند (٤/٤٢٢).
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٤٨٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٢٤٦).
(٩) في أ: « نزلت ».
(١٠) الاستيعاب (١/٢٥٩).
(١١) في أ: « عنهما ».
(١٢) في ت: « تكون ».
(١٣) زيادة من ت، ف، أ.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذى أنعم الله عليه، أى: بالإسلام ومتابعة الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أى: بالعتق من الرق، وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر، حبيباً إلى النبى ﷺ، يقال له: الحِبّ، ويقال لابنه أسامة: الحِبّ ابن الحِبّ. قالت عائشة، رضى الله عنها: ما بعثه رسول الله ﷺ فى سرية إلا أمره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه. رواه أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد، عن وائل بن داود، عن عبد الله البهى عنها [(١)].

وقال[(٢)] البزار: حدثنا خالد بن يوسف، حدثنا أبو عَوَانة (ح)، وحدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو عوانة، أخبرنى عمران بن أبى سلمة [(٣)]، عن أبيه: حدثنى أسامة بن زيد قال: كنت فى المسجد، فأتانى العباس وعلى بن أبى طالب، رضى الله عنهما، فقالا: يا أسامة، استأذن لنا على رسول الله ﷺ. قال: فأتيتُ رسولَ الله فأخبرته، فقلت: على والعباس يستأذنان؟ فقال: «أتدرى ما حاجتهما؟» فقلت: لا يا رسول الله. فقال: « لكنى أدرى »، قال: فأذن لهما. قالا: يا رسول الله، جئناك لتخبرنا: أىُّ أهلك أحبُّ إليك؟ فقال: « أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد»، قالا: يارسول الله، ما نسألك عن فاطمة. قال: « فأسامة بن زيد بن حارثة، الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه » [(٤)].

وكان رسول الله ﷺ قد زَوّجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية ـ وأمها أميمة [(٥)] بنت عبد المطلب ـ وأصدقها عشرة دنانير، وستين درهماً، وخمارا، ومِلْحَفَة، ودرْعاً، وخمسين مُدّا من طعام، وعشرة أمداد من تمر. قاله مقاتل بن حيان، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: « أمسك عليك زوجك، واتق الله ». قال الله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.

ذكر ابن جرير، وابن أبى حاتم هاهنا آثاراً عن بعض السلف، رضى الله عنهم، أحببنا أن نضرب

---

(١) المسند (٦/٢٢٧).

(٢) فى ت: « وروى ».

(٣) فى ت، ف، أ، هـ: « عمر بن أبى سلمة »، والصواب ما أثبتناه.

(٤) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٨١٩) من طريق أبى عوانة بنحوه، وقال الترمذى: « حديث حسن صحيح ».

(٥) فى ت: « أمية ».

عنها صَفحا لعدم صحتها فلا نوردها .

وقد روى الإمام أحمد هاهنا أيضاً حديثاً ، من رواية حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً (١) .

وقد روى البخارى أيضاً بعضه مختصراً فقال : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا مُعَلّى (٢) بن منصور ، عن حماد بن زيد ، حدثنا ثابت ، عن أنس بن مالك قال : إن هذه الآية : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** ﴾ نزلت فى شأن زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة، رضى اللّه عنهما (٣) .

وقال (٤) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن على ابن زيد بن جُدْعان قال : سألنى على بن الحسين ما يقول الحسن فى قوله : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ [وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ]**(٥) ﴾ ؟ فذكرت له فقال: لا، ولكن اللّه أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال : اتق اللّه ، وأمسك عليك زوجك . فقال : قد أخبرتك أنى مُزَوّجكها، وتخفى فى نفسك ما اللّه مبديه .

وهكذا رُوى عن السُّدّى أنه قال نحو ذلك .

وقال (٦) ابن جرير : حدثنى إسحاق بن شاهين ، حدثنى خالد ، عن داود عن عامر ، عن عائشة، رضى اللّه عنها ، أنها قالت : لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب اللّه، لكتم : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** ﴾ (٧) .

وقوله : ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا** ﴾: الوطر : هو الحاجة والأرب ، أى : لما فَرَغ منها، وفارقها ، زَوّجناكها ، وكان الذى وَلى تزويجها منه هو اللّه، عز وجل ، بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر .

قال (٨) الإمام أحمد : حدثنا هاشم ـ يعنى : ابن القاسم أبو النضر ـ حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت ، عن أنس ، رضى اللّه عنه ، قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول اللّه ﷺ لزيد بن حارثة : «اذهب فاذكرها على» . فانطلق حتى أتاها وهى تُخَمِّر عَجينها ، قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى ـ حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ـ أنّ رسول اللّه ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهرى ونكصت (٩) على عقبى، وقلت : يا زينب ، أبشرى ، أرسلنى رسول اللّه ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى

---

(١) الحديث فى المسند (٣/١٤٩) والغرابة من قوله : « فرأى رسول اللّه ﷺ امرأته زينب وكأنه دخله » . فقد شك مؤمل فى الرواية ، وهو سيئ الحفظ .

(٢) فى أ : « يعلى » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٧) .

(٤) فى ت : « وروى » . (٥) زيادة من ف . (٦) فى ت : « وروى » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٢/١١) وأصله فى الصحيح بلفظ : « من حدثك بثلاث » .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ف ، أ : « وركضت » .

أؤامر ربى، عز وجل. فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا حين دَخَلْتُ على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ [واتبعته] (١) فجعل يتتبع حُجر نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر. قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بينى وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿**لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ**﴾ الآية.

ورواه مسلم والنسائى من طرق، عن سليمان (٢) بن المغيرة، به (٣).

وقد روى البخارى، رحمه الله، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات (٤).

وقد قدمنا فى «سورة النور» عن محمد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة، فقالت زينب، رضى الله عنها (٥): أنا التى نزل تزويجى من السماء، وقالت عائشة: أنا التى نزل عُذْرى من السماء، فاعترفت لها زينب، رضى الله عنها (٦).

وقال (٧) ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن المغيرة، عن الشعبى قال: كانت زينب تقول للنبى ﷺ: إنى لأدل عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تدل بهن: إن جدى وجدك واحد، وإنى أنكحنيك الله من السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام (٨).

وقوله: ﴿**لِكَيْلا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا**﴾ أى: إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال له: «زيد بن محمد»، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ. ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ**﴾، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة؛ ولهذا قال فى آية التحريم: ﴿**وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ**﴾ [النساء: ٢٣] ليحترز من الابن الدَّعِى؛ فإن ذلك كان كثيرا فيهم.

وقوله: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**﴾ أى: وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتَّمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب فى علم الله ستصير من أزواج النبى ﷺ.

---

(١) زيادة من ت، ف، أ، والمسند. (٢) فى أ: «سليم».
(٣) المسند (٣/ ١٩٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن النسائى (٦/ ٧٩).
(٤) صحيح البخارى برقم (٧٤٢٠).
(٥) فى ت: «عنهما».
(٦) عند الآية: ١١.
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) تفسير الطبرى (٢٢/ ١١).

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ﴾.

يقول تعالى :﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أى :فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التى طقلها دَعِيه زيد بن حارثة .

وقوله : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ أى : هذا حكم اللّه فى الأنبياء قبله ،لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم فى ذلك حَرَج،وهذا رَدٌّ على من تَوَهَّم من المنافقين نقصاً فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودَعِيه ،الذى كان قد تبناه.

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ أى :وكان أمره الذى يقدره كائناً لا محالة ،وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل ،فما شاء [اللّه] (١) كان ،وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾.

يمدح تعالى (٢) : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أى :إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ،﴿ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾ أى :يخافونه ولايخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات اللّه ،﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أى :وكفى باللّه ناصراً ومعيناً .وسيد الناس فى هذا المقام ـ بل وفى كل مقام ـ محمد رسول اللّه ﷺ ؛فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب ،إلى جميع أنواع بنى آدم،وأظهر اللّه كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ،فإنه قد كان النبى يبعث (٣) إلى قومه خاصة ، وأما هو،صلوات اللّه عليه ،فإنه بُعث إلى جميع الخلق عَرَبهم وعجمهم ،﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده،فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه،رضى اللّه عنهم ،بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله،فى ليله ونهاره،وحَضره وسفره ،وسره وعلانيته،فرضى اللّه عنهم وأرضاهم .ثم ورثه كُل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ،فبنورهم يقتدى المهتدون ،وعلى منهجهم يسلك الموفقون .فنسأل اللّه الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم .

قال (٤) الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمَيْر ،أخبرنا الأعمش ،عن عمرو بن مُرَّة ،عن أبى البَخْتَرى،عن أبى سعيد الخدرى ،رضى اللّه عنه ،قال :قال رسول اللّه ﷺ :« لا يَحْقرَنّ أحدكم نفسه أن يرى أمر اللّه فيه مقال ثم لا (٥) يقوله،فيقول اللّه :ما يمنعك أن تقول فيه ؟فيقول : رب،خشيت الناس .فيقول :فأنا أحق أن يخشى (٦) » .

---

(١) زيادة من ت .

(٢) فى ت ،ف :« يمدح اللّه تعالى » ،وفى أ: « يمدح اللّه عز وجل » .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « وكان النبى قبله إنما يبعث » .

(٤) فى ت :«روى » .

(٥) فى ت : « أن لا » .

(٦) فى أ : « يخشاه » .

ورواه أيضاً عن عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن زبيد ، عن عمرو بن مرة (١) .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى كُرَيْب ، عن عبد الله بن نمير وأبى معاوية ، كلاهما عن الأعمش ، به(٢).

وقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ، نهى (٣) [تعالى] (٤) أن يقال بعد هذا: « زيد بن محمد » أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه ، فإنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ؛ فإنه ولد له القاسم ، والطيب ، والطاهر ، من خديجة فماتوا صغارا ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضا رضيعا (٥) ، وكان له من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم، وفاطمة ، رضى الله عنهم (٦) أجمعين ، فمات فى حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به، صلوات الله وسلامه عليه، ثم ماتت بعده لستة أشهر .

وقوله : ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ ، كقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فهذه الآية نص فى (٧) أنه لا نبى بعده ، وإذا كان لا نبى بعده فلا رسول [بعده] (٨) بطريق الأولى والأحرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبى، ولا ينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر الأزدى ، حدثنا زُهَيْر بن محمد ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبىّ بن كعب(٩) ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : « مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لَبِنة لم يَضَعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ! فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » .

ورواه الترمذى ، عن بُنْدَار ، عن أبى عامر العقدى ، به (١٠) ، وقال : حسن صحيح .

حديث آخر : قال (١١) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا المختار بن فُلفُل ، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبى » . قال : فشَقّ ذلك على الناس قال: قال(١٢): « ولكن المبشرات » . قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : « رؤيا الرجل المسلم ، وهى جزء من أجزاء النبوة » .

وهكذا روى الترمذى عن الحسن بن محمد الزعفرانى ، عن عفان بن مسلم، به(١٣). وقال : صحيح غريب من حديث المختار بن فُلفُل .

---

(١) المسند (٣/ ٣٠ ، ٧٣) .

(٢) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٠٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٤٢) : « هذا إسناد صحيح » .

(٣) فى أ : « ينهى » . (٤) زيادة من أ . (٥) فى أ : « أيضا صغيرا رضيعا » .

(٦) فى أ : « عنهن » . (٧) فى أ : « على » . (٨) زيادة من أ .

(٩) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبى بن كعب » .

(١٠) المسند (٥/ ١٣٦) وسنن الترمذى برقم (٣٦١٣) .

(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) فى ت ، ف ، أ : « فقال » .

(١٣) المسند (٣/ ٢٦٧) وسنن الترمذى برقم (٢٢٧٢) .

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا سَليم بن حَيَّان، عن سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة! فأنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء، عليهم السلام».

ورواه البخاري، ومسلم، والترمذي، من طرق، عن سليم [١] بن حيان، به [٢]. وقال الترمذي: صحيح غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: مثلي ومثل النبيين [من قبلي] [٣] كمثل رَجُل بنى داراً فأتمها إلا لَبنَة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة». انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش، به [٤].

حديث آخر: قال [الإمام] [٥] أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عثمان بن عُبَيد الراسبي قال: سمعت أبا الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نبوة بعدي إلا المبشرات». قال: قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الحسنة ـ أو قال ـ: الرؤيا الصالحة» [٦].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة [٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتا فأحسنها وأكملها وأجملها، إلا موضع لَبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون: ألا وَضَعت هاهنا لبنة فيتم بنيانك؟!» قال رسول الله ﷺ: «فكنت أنا اللبنة».

أخرجاه من حديث عبد الرزاق [٨].

حديث آخر: عن أبي هريرة أيضا: قال [٩] الإمام مسلم: حدثنا يحيى بن أيوب [١٠] وقتيبة وعلي ابن حجر قالوا: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «فُضلت على الأنبياء بست: أعْطِيتُ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وأحِلَّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون».

(١) في ف: «سليمان».
(٢) مسند الطيالسي برقم (١٧٨٥) وصحيح البخاري برقم (٣٥٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٧) وسنن الترمذي برقم (٢٨٦٢).
(٣) زيادة من ت، أ، والمسند.
(٤) المسند (٣/ ٩) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٦).
(٥) زيادة من أ.
(٦) المسند (٥/ ٤٥٤) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٧٣): «ورجاله ثقات».
(٧) في ت: «وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، رضي الله عنه».
(٨) المسند (٢/ ٣١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٦) ولم أجده في البخاري ولم يعزه المزي في تحفة الأشراف إلا لمسلم.
(٩) في ت: «وروى».
(١٠) في أ: «يعقوب».

ورواه الترمذى وابن ماجه ،من حديث إسماعيل بن جعفر ،وقال الترمذى :حسن صحيح[١].

حديث آخر :قال الإمام أحمد:حدثنا أبو معاوية ،حدثنا الأعمش،عن أبى صالح ،عن أبى سعيد الخدرى قال :قال رسول الله ﷺ :« مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ،كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة ،فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » .

ورواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة ،وأبى كُرَيْب ، كلاهما عن أبى معاوية ،به [٢] .

حديث آخر :قال [٣] الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ،حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سُويد الكلبى ،عن عبد الأعلى بن هلال السلمى ،عن العِرباض بن سارية قال :قال النبى ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنْجَدِل فى طينته » [٤] .

حديث آخر : قال [٥] الزهرى :أخبرنى محمد بن جبير بن مطعم ،عن أبيه ،رضى الله عنه، قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول :« إن لى أسماء :أنا محمد ،وأنا أحمد ،وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ،وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ،وأنا العاقب الذى ليس بعده [٦] نبى». أخرجاه فى الصحيحين [٧] .

وقال[٨] الإمـام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ،حدثنا ابن لَهيعة ،عن عبد الله بن هُبَيْرة ،عن عبد الرحمن بن جبير قال :سمعت عبد الله بن عمرو يقول :خرج علينا رسول الله ﷺ يوما كالمودِّع، فقال :« أنا محمد النبى الأمى ـ ثلاثا ـ ولا نبى بعدى :أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه ، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش ،وتجوز بى ،وعُوفيتُ وعُوفيتْ [٩] أمتى ؛فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم ،فإذا ذُهب بى فعليكم بكتاب الله ،أحلّوا حلاله ، وحرّموا حرامه » .تفرد به الإمام أحمد [١٠] .

ورواه [١١] [الإمام] [١٢] أحمد أيضا عن يحيى بن إسحاق ،عن ابن لَهيعة ،عن عبد الله بن هبيرة،عن عبد الله بن مريج [١٣] الخولانى ،عن أبى قيس ـ مولى عمرو بن العاص ـ عن عبد الله بن عمرو فذكر مثله سواء [١٤] [١٥] .

والأحاديث فى هذا كثيرة ،فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ،صلوات الله وسلامه عليه،إليهم ،ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ،وإكمال الدين الحنيف له .وقد أخبر تعالى فى كتابه ،ورسوله فى السنة المتواترة عنه :أنه لا نبى بعده ؛ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده

---

(١) صحيح مسلم برقم (٥٢٣) وسنن الترمذى برقم (١٥٥٣) وسنن ابن ماجة برقم (٥٦٧) .
(٢) تقدم الحديث من قريب .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) المسند (٤/١٢٧) .
(٥) فى ت :« وقال » . (٦) فى أ : « بعدى » .
(٧) صحيح البخارى برقم (٣٥٣٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤) .
(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ت : « وعرفت » .
(١٠) المسند (٢/١٢) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .
(١١) فى ف : « وحدثنى » . (١٢) زيادة من ف ، أ . (١٣) فى أ : « سريح » .
(١٤) فى أ : « سواه » .
(١٥) المسند (٢/١٧٢) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

فهو كذاب أفاك ،دجال ضال مضل ،ولو تخرق (١) وشعبذ ،وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنَيرجيَّات(٢) ،فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ،كما أجرى الله ،سبحانه وتعالى، على يد الأسود العَنْسى باليمن ،ومسيلمة الكذاب باليمامة ،من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ،ما علم كل ذى لب وفهم وحجًى أنهما كاذبان ضالان ،لعنهما الله .وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ،[فكل واحد من هؤلاء الكذابين] (٣) يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من (٤) جاء بها .وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ،فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق ،أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره،ويكون فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالم ، كما قال تعالى :﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الآية [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢].وهذا بخلاف الأنبياء ،عليهم السلام،فإنهم فى غاية البر والصدق (٥) والرشد والاستقامة [والعدل] (٦) فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه ،مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات،والأدلة الواضحات ،والبراهين الباهرات ،فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمراً ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) ﴾ .

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى،المنعم عليهم بأنواع النعم وأصناف (٧) المنن ،لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب .

قال الإمام أحمد :حدثنا يحيى بن سعيد ،عن عبد الله بن سعيد (٨) ،حدثنى مولى ابن عياش(٩) عن أبى بَحرية (١٠) ، عن أبى الدرداء ،رضى الله عنه ،قال: قال رسول الله ﷺ :« ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ،وأرفعها فى درجاتكم ،وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق ،وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟»قالوا :وما هو يا رسول الله ؟ قال : «ذكر الله ،عزوجل ».

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه ،من حديث عبد الله بن سعيد بن أبى هند ،عن زياد ـ مولى ابن عياش (١١) ـ عن أبى بَحريَّة ـ واسمه عبد الله بن قيس التراغمى ـ عن أبى الدرداء ،به (١٢).قال الترمذى :ورواه بعضهم عنه فأرسله .

---

(١) فى أ : « تمخرق » . (٢) فى أ : « النيرنجيات » . (٣) زيادة من أ .
(٤) فى أ : « ما » . (٥) فى أ :« الصدقة » . (٦) زيادة من أ .
(٧) فى أ : « وصنوف » . (٨) فى أ : « سعد » . (٩) فى أ : « عباس » .
(١٠) فى أ : « عن أبى عرة » . (١١) فى أ : « عباس » .
(١٢) المسند (٥/ ١٩٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٧٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٩٠) .

قلت: وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ في مسند [الإمام] (١) أحمد، من حديث زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عيّاش: أنه بلغه عن معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ، بنحوه، فالله أعلم.

وقال (٢) الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا فرج بن فَضَالة، عن أبي سعد الحِمْصي قال: سمعت أبا هريرة يقول: دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه: «اللهم، اجعلني أُعظِم شكرك، وأتبع نصيحتك، وأكثر ذكرك، وأحفظ وصيتك» (٣).

ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى، عن وكيع، عن أبي فضالة الفرج بن فضالة، عن أبي سعيد الحمصي، عن أبي هريرة، فذكر مثله وقال: غريب (٤).

وهكذا رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن فرج بن فضالة، عن أبي سعيد المدني (٥) عن أبي هريرة فذكره (٦).

وقال (٧) الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدي، عن معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس قال: سمعت عبد الله بن بُسْر يقول: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، أيّ الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله». وقال الآخر: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا (٨)، فمرني بأمر أتشبث به. قال: «لا يزال لسانك رَطْباً بذكر الله» (٩).

وروى الترمذي وابن ماجه [منه] (١٠) الفصل الثاني، من حديث معاوية بن صالح، به (١١). وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال (١٢) الإمام أحمد: حدثنا سُرَيج (١٣)، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث قال: إنّ درّاجا أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون» (١٤).

وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مُكرم العَمِّي، حدثنا سعيد بن سفيان (١٥) الجَحْدَري، حدثنا الحسن بن أبي جعفر، عن عقبة بن أبي ثُبَيت (١٦) الراسبي، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اذكروا الله ذكراً كثيراً [حتى] (١٧) يقول

---

(١) زيادة من أ. (٢) في ت: «وروى».
(٣) المسند (٢/٤٧٧).
(٤) سنن الترمذي برقم (٣٦٠٤).
(٥) في أ: «المزني».
(٦) المسند (٢/٣١١).
(٧) في ت: «وروى». (٨) في ت: «عليّ».
(٩) المسند (٤/١٩٠).
(١٠) زيادة من ف، أ.
(١١) سنن الترمذي برقم (٣٣٧٥) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٩٣).
(١٢) في ت: «وروى». (١٣) في أ: «شريح».
(١٤) المسند (٣/٦٨) وفيه دراج، عن أبي الهيثم ضعيف.
(١٥) في أ: «سفر». (١٦) في أ: «سبب». (١٧) زيادة من ت، ف، أ، والمعجم.

المنافقون: تراؤون » (١) .

وقال (٢) الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا شداد أبو طلحة الراسبى، سمعت أبا الوازع جابر بن عمرو يحدث عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه ، إلا رأوه حسرة يوم القيامة » (٣) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ : إن الله لم يفرض [على عباده] (٤) فريضة إلا [جعل لها حدا معلوما ، ثم] (٥) عذر أهلها فى حال عذر، غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهى إليه ، ولم يعذر أحداً فى تركه ، إلا مغلوبا على تركه، فقال : ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء : ١٠٣]، بالليل والنهار ، [فى البر والبحر](٦)، وفى السفر والحضر، والغنى والفقر ، والصحة والسقم ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال ، وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته .

والأحاديث والآيات والآثار فى الحث على ذكر الله كثيرة جدا ، وفى هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار (٧) من ذلك .

وقد صنف الناس فى الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائى والمعمرى وغيرهما (٨) ، ومن أحسن الكتب المؤلفة فى ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيى الدين النووى، رحمه الله تعالى (٩) .

---

(١) المعجم الكبير للطبرانى (١٢/ ١٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٧٦) : « فيه الحسين بن أبى جعفر الجعفرى وهو ضعيف » .

(٢) فى أ : « زاده » .

(٣) المسند (٢/ ٢٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٨٠) : «رجاله رجال الصحيح » .

(٤ ـ ٦) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٧) فى أ : « الإكثار » . (٨) فى ت : « والمعمرى والكلم الطيب لشيخ الإسلام وغيرهم » .

(٩) وقد طبع كتاب الأذكار بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط فى دار الهدى وعليه تخريج لابن علان اسمه : « الفتوحات الربانية » طبع فى الهند .

هذا وقد جاء فى نسخة « ت » بعد هذه الفقرة ما يلى :

« فذكر الله أصل موالاة الله ، عز وجل ، ورأسها . والغفلة أصل معاداته ورأسها ، فإن العبد لايزال يذكر ربه حتى يحبه فيواليه، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه ويعاديه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ وما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمة بمثل ذكر الله ، فالذكر جلاب النعم دفاع النقم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفى القراءة الأخرى : ﴿ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله ومادة الإيمان وقوته بذكر الله، فمن كان أكمل إيماناً وأكثر ذكراً كان دفاع الله عنه ، ودفعه أعظم . ومن نقص نقص ذكر بذكر ونسيان بنسيان ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ والذكر رأس الشكر ، والشكر جلاب النعم ، موجب للمزيد . قال بعض السلف : ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن برك . ومجالس الذكر رياض الجنة كما روى ابن أبى الدنيا من حديث جابر، عن عبد الله قال : خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال : « يأيها الناس ارتعوا فى رياض الجنة » قلنا يا رسول الله : وما رياض الجنة ؟ قال : «مجالس الذكر » ، ثم قال: « اغدوا وروحوا فاذكروا فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه » . فمجالس الذكر مجالس الملائكة كما فى الصحيحين عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة فَضْلاً عن كتاب الناس يطوفون فى الطريق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلم إلى حاجتكم، فتحف بأجنحتها إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : ما يقول عبادى ؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال: وهل رأونى ؟ قال : يقولون : لا والله يا ربنا ما رأوك ، فيقول : كيف لو أنهم رأونى؟ قال: فيقولون : لو أنهم رأوك

=

= كانوا أشد عبادة وأشد تحميدا وتمجيداً ، وأكثر تسبيحا ، فيقول : ما يسألونى ؟ فيقولون : يسألونك الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ياربنا ما رأوها ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد حرصاً عليها ، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة ، فيقول: مم يتعوذون ؟ قال : فيقولون : من النار ، فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون: لا والله ياربنا ما رأوها، فيقول : كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة، فيقول : فأشهدكم أنى قد غفرت لهم ، فيقول ملك من الملائكة : إن فيهم فلاناً ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » ، فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم، فلهم نصيب من قوله: ﴿وجعلني مباركًا أينما كنت﴾ [مريم : ٣١]، وإن الله ، عزوجل، ليباهى بالذاكرين الملائكة ، كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى قال: خرج معاوية على حلقة فى المسجد، فقال : ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله . قال : ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذلك . قال: أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً منى، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه . قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومَنّ علينا بك . قال : « آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ » قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك ؟ قال : « أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكن أتانى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة » فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى ، دليل على شرف الذكر عنده ومحبته له وأن له مزية على غيره من الأعمال .

والذكر نوعان : أحدهما : ذكر أسماء الرب وصفاته والثناء عليه ، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به وهذا أيضاً نوعان : أحدهما : إنشاء الثناء بها من الذاكر ، وهذا النوع هو المذكور فى الحديث نحو : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، ولا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، ونحو ذلك ، فأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه نحو : سبحان الله عدد خلقه ، فهذا أفضل من مجرد سبحان الله ، وقول : الحمد لله عدد ما خلق فى السماء ، وعدد ما خلق فى الأرض ، وعدد ما خلق بينهما ، وعدد ما هو خالق ، أفضل من مجرد قولك : الحمد لله ، وهذا فى حديث جويرية أن النبى ﷺ قال لها : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم ، لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » . رواه مسلم. وفى الترمذى وسنن أبى داود عن سعد بن أبى وقاص أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة بين يديها نوى أو حصى تسبح به ، فقال : « أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل ؟ » فقال: سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق فى الأرض ، وسبحان الله عدد ما بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك » .

والنوع الثانى : الخبر عن الرب تبارك وتعالى بأحكام أسمائه وصفاته نحو قولك : إن الله ، عزوجل ، يسمع أصوات عباده ، ويرى حركاتهم ، ولا يخفى عليه خافية من أعمالهم ، وهو أرحم من آبائهم وأمهاتهم ، وهو على كل شىء قدير ، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد الواجد ونحو ذلك . وأفضل هذا النوع الثناء عليه بما أثنى به على نفسه ، وبما أثنى عليه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل كما قال : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ، وهذا النوع أيضاً ثلاثة أنواع : حمد ، وثناء، ومجد .

فالحمد: الإخبار عنه بصفات كماله مع محبته والرضا عنه ، ولايكون المحب الساكت حامداً ، ولا المثنى بلا محبة حامداً ، حتى يجمع له المحبة والثناء ، فإن كرر المحامد شيئا بعد شىء ، كانت ثناء ، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجداً. قد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة فى أول سورة فاتحة الكتاب ، فإذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله : حمدنى عبدى، وإذا قال : ﴿الرحمن الرحيم﴾ ، قال: أثنى على عبدى . وإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ قال: مجدنى عبدى .

والنوع الثانى من الذكر: ذكر أمره ونهيه وأحكامه ، وهذا أيضاً نوعان : أحدهما : ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا وأحب كذا وسخط كذا ، والثانى : ذكره عند أمره فيبادر إليه ، وعند نهيه فيهرب منه ، فذكر أمره ونهيه شىء ، وذكره عند أمره ونهيه شىء آخر ، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر ، فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه .

فائدة :

فهذا ذكره هو الفقه الأكبر ، وما دونه من أفضل الذكر إذا صحت فيه النية ، ومن ذكره تعالى ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله على عبيده ، وهذا من أجل أنواع الذكر ، فهذه خمسة أنواع ، وهى تكون بالقلب واللسان ، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان ؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ، ويصحح المحبة ، ويثير الحياء ، ويبعث على المخافة ، ويدعو إلى المراقبة ، ويردع عن التقصير فى الطاعة والتهاون فى المعاصى والسيئات ، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئا ما من تلك الأثمار ، وإن أثمر شيئا ما، فثمرته ضعيفة .

والذكر أفضل من الدعاء؛ لأن الذكر ثناء على الله ، عزوجل، بجميل صفاته وآلائه وأسمائه ، والدعاء سؤال العبد حاجته ، فأين هذا من هذا ؟ ولهذا جاء فى الحديث : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » . ولهذا كان مستحبًا فى الدعاء أن يبدأ الداعى بحمد الله والثناء عليه بين يدى حاجته، ثم يسأل حاجته كما جاء فى حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ =

= سمع رجلاً يدعو فى صلاته لم يحمد الله ولم يصل على النبى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد عجل هذا » ، ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صلى أحدكم ، فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى ﷺ ، ثم يدعو بما شاء » . رواه الإمام أحمد والترمذى، وقال: حديث حسن صحيح . وهكذا دعا ذو النون الذى قال فيه النبى ﷺ : « دعوة أخى ذى النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » وفى الترمذى : « دعوة أخى ذى النون إذ دعا بها فى بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له » . وهكذا عامة الأدعية النبوية ، ومنه قول النبى ﷺ فى دعاء الكرب : « لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم». ومنه حديث بريدة الأسلمى ، رواه أهل السنن أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول : اللهم أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فقال : « والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى » . وروى أبو داود والنسائى من حديث أنس أنه كان مع النبى ﷺ جالسًا ورجل يصلى ثم دعا : اللهم أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم فقال النبى ﷺ: « لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى » وروى أبو داود والنسائى من حديث أنس، فأخبر النبى ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر ، وأنه اسم الله الأعظم ، فكان ذكر الله والثناء عليه أنجح ما سأل به حوائجه ، فهذا من فوائد الذكر، وهو أنه يجعل الدعاء مستجابا فلهذا قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ فالدعاء الذى يتقدمه الذكر والثناء أقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد ، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه ، كان أبلغ فى الإجابة وأفضل . فإنه يكون قد توسل إلى المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعرض ، بل صرح ، بشدة حالته وضرورته وفقره ومسكنته ، فهذا المقتضى منه وأوصاف المسؤول مقتضى منه، فاجتمع المقتضى من السائل والمقتضى من المسؤول فى الدعاء ، فكان أبلغ وألطف موقعاً وأتم معرفة وعبودية ، وأنت ترى فى الشاهد ولله المثل الأعلى أن الرجل إذا توسل إلى من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره ، وذكر حاجته هو وفقره ومسكنته ، كان أعطف لقلب المسؤول، وأقرب إلى قضاء حاجته من أن يقول له ابتداء أعطنى كذا وكذا ، فإذا عرف هذا فتأمل قول موسى ، عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ وقول ذى النون فى دعائه: ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقول أبينا آدم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وفى الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه؛ قال يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال : «قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » فجمع فى هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله ، والتوسل إلى ربه بفضله وجوده، وأنه المتفرد بغفران الذنوب ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا فهكذا آداب الدعاء والعبودية .

وقراءة القرآن أفضل الأذكار وهى أفضل من الذكر ، والذكر أفضل من الدعاء ، وهذا من حيث النظر إلى كل واحد منهما مجرداً، وقد تعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل ، بل تعينه فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل ، وهذا كالتسبيح فى الركوع والسجود ، فإنه أفضل من قراءة القرآن ، وكذلك التشهد ، وكذلك رب اغفر لى بين السجدتين ، وقول رب اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى بين السجدتين أفضل من القراءة . وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة ، ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة . وكذلك إجابة المؤذن ، والقول كما يقول ، أفضل من القراءة ، وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله على خلقه ، لكن لكل مقام مقال ، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره ، واختلت الحكمة ، وفقدت المصلحة المطلوبة منه ، وهكذا الأذكار المفيدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة اللّهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن ، مثاله أن يحدث له من التفكر فى ذنوبه فيحصل له توبة واستغفار أو يحصل له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن، فيعدل إلى الأذكار والدعوات التى تحصنه وتحوطه ، وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة القرآن ، لم يحضر قلبه فيها. وإذا أقبل على الذكر والدعاء إليها اجتمع قلبه كله على الله ، وأحدث له تضرعاً وخشوعاً وابتهالاً ، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع له ، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأكثر أجراً ، وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نص وفرقان بين فضيلة الشىء فى نفسه وبين فضيلته العارضة ، فيعطى كل ذى حق حقه ويضع كل شىء موضعه ، فللعين موضع ، وللرجل موضع ، وللماء موضع ، وللحم موضع ، وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التى هى نظام الأمر والنهى ، والله الموفق .

وهكذا الصابون والأشنان أنفع للثوب فى وقت ، والتحمير وماء الورد أنفع له فى وقت . وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله ، يوماً : سئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار ؟ فقال: إذا كان الثوب نقيا فالبخور وماء الورد نافع له ، وإن كان دنساً فالصابون والماء الجارى أنفع له فقال : كيف والثياب لا تزال دنسة ؟

ومن هذا الباب أن سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن ، ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث والطلاق والخلع والعدد ونحوها، بل هذه الآيات فى وقتها ، وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص . ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر=

وقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾ أي: عند الصباح والمساء، كقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾: هذا تهييج إلى الذكر، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُون. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «يقول الله: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» (١).

والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية. ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عنه.

وقال غيره: الصلاة من الله: الرحمة [ورد بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾](٢).

وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم.

وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار (٣)، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [غافر: ٧ ـ ٩].

وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصّرهم الطريق الذي ضَلَّ عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم (٤) من الطغام (٥). وأما رحمته بهم في الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس، رضي الله عنه، قال: مر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطَأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني، ابني، وَسَعَت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت

= والدعاء، وهي جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه، فكانت أفضل من كل القراءة والذكر والدعاء بمفرده بجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء فهذا أصل نافع جداً للعبد يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وينزلها منازلها لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها فيربح عليه إبليس الفضل الذي بينهما أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل عن مفضولها، وإن كان ذلك وقته فتفوته مصلحته بالكلية لظنه أن اشتغاله به أكثر ثواباً وأعظم أجراً» ا. هـ.

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٤٠٥) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) زيادة من ت. (٣) في ت: «والاستغفار إليهم». (٤) في ت، أ: «وأتباعهم».

(٥) في أ: «الطغاة».

هذه لتلقى ابنها فى النار . قال : فَخَفَّضهم رسول اللّه ﷺ وقال: « ولا اللّه [(١)] ، لا يلقى حبيبه فى النار» .

إسناده على شرط الصحيحين ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة [(٢)] ، ولكن فى صحيح الإمام البخارى ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول اللّه ﷺ رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها ، فألصقته إلى صدرها ، وأرضعته فقال: « أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ » قالوا : لا . قال : « فواللّه ، للّه أرحم بعباده من هذه بولدها » [(٣)] .

وقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾: الظاهر أن المراد ـ واللّه أعلم ـ ﴿ تَحِيَّتُهُم ﴾ أى : من اللّه تعالى يوم يلقونه ﴿ سَلامٌ ﴾ أى: يوم يسلم عليهم كما قال تعالى : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس :٥٨] .

وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى [(٤)] بعضهم بعضا بالسلام ، يوم يلقون اللّه فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير .

قلت : وقد يستدل بقوله [(٥)] تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا [(٦)] ﴾ يعنى : الجنة وما فيها من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمناكح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٤٨) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا فُلَيْح بن سليمان ، عن هلال بن على [(٧)] ، عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول اللّه ﷺ فى التوراة . قال : أجل ، واللّه إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن : «﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ [(٨)] ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر [(٩)] ، ولن يقبضَه اللّه حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن لا إله إلا اللّه ، فيفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا » .

---

(١) فى أ : « لا والله » .

(٢) المسند (٣/١٠٤) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٩٩٩) .

(٤) فى ت : « يحيون » .

(٥) فى ت ، ف ، أ : « وقد يستدل له بقوله » .

(٦) فى ت : « عظيما » وهو خطأ

(٧) فى ت : « روى الإمام أحمد بإسناده » .

(٨) فى ت : « لا بفظ » ، وفى أ : « لا فظ » .

(٩) فى ف : « يعفو ويصفح ويغفر » .

وقد رواه البخارى فى « البيوع » عن محمد بن سِنان ، عن فُلَيْح بن سليمان ، عن هلال بن على به . ورواه فى التفسير عن عبد اللّه ـ قيل : ابن رجاء ، وقيل : ابن صالح ـ عن عبد العزيز بن أبى سلمة ، عن هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد اللّه بن عمرو ، به (١) . ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه، عن عبد اللّه بن رجاء ، عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون ، به .

وقال البخارى فى البيوع : وقال سعيد ، عن هلال ، عن عطاء ، عن عبد اللّه بن سلام .

وقال وهب بن منبه : إن اللّه أوحى إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل ـ يقال له : شعياء ـ : أن قم فى قومك بنى إسرائيل ، فإنى منطق لسانك بوحى وأبعث أميا من الأميين ، أبعثه [مبشرًا] (٢) ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه، من سكينته ، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه مبشرا ونذيرا ، لا يقول الخنا ، أفتح به أعينا كُمْهًا (٣) ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، أسَدّده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخَمَالة ، وأعرف به بعد النُّكْرَة ، وأكثر به بعد القلة، وأغنى به بعد العَيْلَة، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فئَاماً من الناس عظيمة (٤) من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين لما جاءت به رسلى(٥): ألهمهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد ، فى مساجدهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلون لى قياما وقعودا ، ويقاتلون فى سبيل اللّه (٦) صفوفا وزُحوفا ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألوفا ، يطهرون الوجوه والأطراف ، ويشدون الثياب فى الأنصاف ، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم فى صدورهم، رهبان بالليل ليُوث بالنهار، وأجعل فى أهل بيته وذريته السابقين، والصديقين والشهداء والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، أعز من نصرهم، وأؤيد من دعا لهم ، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم ، أو أراد أن ينتزع شيئا مما فى أيديهم. أجعلهم ورثة لنبيهم، والداعية إلى ربهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم ، أختم بهم الخير الذى بدأته بأولهم ، ذلك فضلى أوتيه من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم .

هكذا رواه ابن أبى حاتم ، عن وهب بن منبه اليمانى ، رحمه اللّه .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن صالح ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد

---

(١) المسند (٢/ ١٧٤) وصحيح البخارى برقم (٢١٢٥) ورقم (٤٨٣٨) .

(٢) زيادة من ت ، ف . (٣) فى ت : « أعينا عميا كمها » . (٤) فى ت : « عظيم » .

(٥) فى ت : « الرسل » . (٦) فى أ : « فى سبيلى » .

ابن عبيد الله العَرْزَمي (١)، عن شَيْبَان النحوي، أخبرني قتادة، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس (٢) قال: لما نزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ـ وقد كان أمر عليا ومعاذا أن يسيرا إلى اليمن ـ فقال: « انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، إنه قد أنزل على: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾» .

ورواه الطبراني عن محمد بن نصر بن حميد البزاز البغدادي، عن عبد الرحمن بن صالح الأزدي، عن عبد الرحمن [بن محمد] (٣) بن عبيد الله العرزمي، بإسناده مثله (٤) . وقال في آخره: « فإنه قد أنزل (٥) على: يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا على أمتك ومبشرا بالجنة، ونذيرا من النار، وداعيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه، وسراجا منيرا بالقرآن » .

وقوله: ﴿شَاهِدًا﴾ أي: لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾. [كقوله: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾] (٦) [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيرا للكافرين من وبيل العقاب.

وقوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أي: داعيا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي: وأمرُك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لايجحدها إلا معاند.

وقوله: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي: لا تطعهم و[لا] (٧) تسمع منهم في الذي يقولونه(٨) ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾، أي: اصفح وتجاوز عنهم، وكِلْ أمرهم إلى الله، فإن فيه كفايةً لهم؛ ولهذا قال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها أحكام (٩) كثيرة. منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده؛ لقوله: ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ (١٠) الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُن ﴾. وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها .

(١) في أ: « عبد الله القرشي » .
(٢) في ت: « ثم روى ابن أبي حاتم بإسناده إلى ابن عباس » .
(٣) زيادة من ت، ف، والمعجم .
(٤) المعجم الكبير (١١/ ٣١٢) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٩٢): « وفيه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي وهو ضعيف » .
(٥) في ت، أ: « أنزلت » .
(٦) زيادة من ت، ف، أ .
(٧) زيادة من ت .
(٨) في أ: « في الذين يتولونهم » .
(٩) في ت « اشتملت على أحكام » .
(١٠) في ت: « نكحتموا » .

وقوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾: خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتابية فى ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس، وسعيد بن المسَيَّب، والحسن البصرى، وعلى بن الحسين، زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ (١) الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعى، وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من السلف والخلف، رحمهم الله تعالى.

وذهب مالك وأبو حنيفة، رحمهما الله، إلى صحة الطلاق قبل النكاح؛ فيما إذا قال: « إن تزوجت فلانة فهى طالق »: فعندهما متى تزوجها طلقت منه. واختلفا فيما إذا قال: « كل امرأة أتزوجها فهى طالق ». فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزى، حدثنا النضر بن شُمَيْل، حدثنا يونس ـ يعنى: ابن أبى إسحاق ـ سمعت آدم مولى خالد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: [إذا قال](٢): كل امرأة أتزوجها فهى طالق، قال: ليس بشىء من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية.

وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحْمَسِى، حدثنا وَكيع، عن مطر، عن الحسن بن مسلم بن يَنّاق(٣)، عن ابن عباس قال: إنما قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح؟!

وهكذا روى محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكْرِمة، عن ابن عباس قال: قال الله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فلا طلاق [قبل النكاح] (٤).

وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك ». رواه الإمام أحمد والترمذى، وأبو داود، وابن ماجه (٥). وقال الترمذى: « هذا حديث حسن ». وهو أحسن شىء روى فى هذا الباب. وهكذا روى ابن ماجه عن على، والمِسْوَر بن مَخْرَمَة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لاطلاق قبل نكاح » (٦).

[وفى الآية دليل على أن المسيس مطلق، ويراد به الوطء] (٧).

---

(١) فى ت: « نكحتموا ».
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى ت: « وروى أيضا بإسناده ».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) المسند (٢/ ١٨٩) وسنن الترمذى برقم (١١٨١) وسنن أبى داود برقم (٢١٩١) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٤٧).
(٦) سنن ابن ماجه برقم (٢٠٤٨) من طريق على بن الحسين، عن هشام بن سعد، عن الزهرى، عن عروة، عن المسور، به. وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١٣٢): « هذا إسناد حسن، على بن الحسين وهشام بن سعد مختلف فيهما ». وبرقم (٢٠٤٩) من طريق جويبر، عن الضحاك، عن النزال بن سبرة، عن على، به. وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١٣٢): « هذا إسناد ضعيف لاتفاقهم على ضعف جويبر بن سعيد البجلى، لكن لم ينفرد به جويبر، فقد رواه البيهقى فى الكبرى (٧/ ٣٢٠) من طريق معاذ العنبرى، عن حميد الطويل، عن الحسن عن على به، ثم رواه من طريق سعيد عن جويبر به موقوفا من الطريقين معًا ».
(٧) زيادة من ت.

وقوله (١) : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ : هذا أمر مجمع عليه بين العلماء : أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج فى فورها من(٢) شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها ، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضا .

وقوله : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ : المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وقال: ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] .

وفى صحيح البخارى ، عن سهل بن سعد وأبى أسَيد ؛ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شَرَاحيل ، فلما أدخلت (٣) عليه بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسَيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رَازقيَّين (٤) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : إن كان سمى لها صداقا ، فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقا فأمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠) ﴾ .

يقول تعالى مخاطبا نبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتى أعطاهن مُهُورَهُنَّ ، وهى الأجور هاهنا . كما قاله مجاهد وغير واحد ، وقد كان مَهْرُه لنسائه اثنتى (٥) عشرة أوقية ونَشّا وهو نصف (٦) أوقية ، فالجميع خمسمائة درهم ، إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى ، رحمه الله ، أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حُيَىّ فإنه اصطفاها من سَبْى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جُوَيرية بنت الحارث المصطلقية ، أدّى عنها كتابتها إلى ثابت ابن قيس بن شماس وتزوجها ، رضى الله عن جميعهن (٧) .

---

(١) فى هـ : « وقال » . (٢) فى ت : « فى فورها متى » ، وفى أ : « فى قرئها من » .
(٣) فى ت : « فلما دخلت » وفى ف ، أ : « فلما أن دخلت » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٥٦ ، ٥٢٥٧) .
(٥) فى ت : « ثنتى » . (٦) فى ت : « والنش النصف » .
(٧) فى ت : « رضى الله عنهن أجمعين » .

وقوله : ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أى : وأباح لك التسرى مما أخذت من المغانم(١)، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما . وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ، عليه السلام، وكانتا من السرارى ، رضى الله عنهما .

وقوله : ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ : هذا عدل وَسط بين الإفراط والتفريط ؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم (٢) ما فَرّطت (٣) فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع (٤) فظيع .

وإنما قال : ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ﴾ فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه، وجمع الإناث لنقصهن كقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل : ٤٨] ، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام : ١] ، وله نظائر كثيرة .

وقوله : ﴿اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ : قال ابن أبى حاتم ، رحمه الله :

حدثنا محمد بن عمار بن(٥) الحارث الرازى ، حدثنا عبيد الله (٦) بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن السدى ، عن أبى صالح (٧) ، عن أم هانئ قالت : خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه بعذرى ، ثم أنزل الله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ إلى قوله : ﴿اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالت : فلم أكن أحل له ، ولم أكن ممن هاجر معه ، كنت من الطلقاء .

ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ، عن عبيد الله بن موسى ، به (٨) .

ثم رواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى صالح ، عنها بنحوه .

ورواه الترمذى فى جامعه (٩) . وهكذا قال أبو رَزين وقتادة : إن المراد : من هاجر معه إلى المدينة. وفى رواية عن قتادة: ﴿اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أى: أسلمن. وقال الضحاك: قرأ ابن مسعود: «واللاَّتى هَاجَرْنَ مَعَك».

وقوله : ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أى : ويحل لك ـ يأيها النبى ـ المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان ، كقوله تعالى إخباراً عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود : ٣٤] ، وكقول موسى : ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ

---

(١) فى أ : « الغنائم » . (٢) فى أ: « وحرم » . (٣) فى ت : « ما حرموا » .
(٤) فى ف ، أ : « شنيع » . (٥) فى أ : « و » . (٦) فى أ : « عبد الله » .
(٧) فى ت : «روى ابن أبى حاتم بإسناده » .
(٨) تفسير الطبرى (٢٢/١٥) .
(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢١٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح لا أعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدى » .

﴿فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ [يونس : ٨٤] . وقال هاهنا :﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ ،وقد قال الإمام أحمد (١) :

حدثنا إسحاق ،أخبرنا مالك ،عن أبى حازم ،عن سهل بن سعد الساعدى ؛أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت :يا رسول الله ، إنى قد وهبت نفسى لك . فقامت قياما طويلا ،فقام رجل فقال : يا رسول الله ،زوّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله ﷺ :« هل عندك من شىء تُصدقها إياه » ؟فقال :ما عندى إلا إزارى هذا .فقال رسول الله ﷺ :« إن أعطيتها إزارك جلستَ لا إزار لك ،فالتمس شيئًا » . فقال : لا أجد شيئاً .فقال :« التمس ولو خاتما من حديد » فالتمس فلم يجد شيئا ،فقال له النبى ﷺ: « هل معك من القرآن شىء ؟ » قال: نعم؛ سورة كذا ، وسورة كذا ـ لسور يسميها ـ فقال له رسول الله ﷺ :« زوجتكها بما معك من القرآن » .

أخرجاه من حديث مالك (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان (٣) ،حدثنا مرحوم ،سمعت ثابتا يقول (٤) :كنت مع أنس جالسا وعنده ابنة له ،فقال أنس :جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت :يا نبى الله ،هل لك فىّ حاجة ؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها .فقال: « هى خير منك ،رغبت فى النبى ،فعرضت عليه نفسها » .

انفرد بإخراجه البخارى ،من حديث مرحوم بن عبد العزيز [العطار](٥) ،عن ثابت البُنَانى ،عن أنس ،به (٦) .

وقال (٧) أحمد أيضا :حدثنا عبد الله بن بكر ،حدثنا سنان بن ربيعة ،عن الحضرمى ،عن أنس ابن مالك :أن امرأة أتت النبى ﷺ فقالت :يا رسول الله ، ابنة لى كذا وكذا .فذكرت من حسنها وجمالها ،فآثرتك بها .فقال :« قد قبلتها » .فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشتك شيئاً قط ،فقال :« لا حاجة لى فى ابنتك » .لم يخرجوه (٨) .

وقال (٩) ابن أبى حاتم :حدثنا أبى ،حدثنا منصور بن أبى مُزَاحم ،حدثنا ابن أبى الوضاح ـ يعنى : محمد بن مسلم ـ عن هشام بن عُروة ،عن أبيه ،عن عائشة قالت :التى وهبت نفسها للنبى ﷺ خولة بنت حكيم (١٠) .

وقال ابن وهب ،عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبى الزِّناد ،عن هشام بن عروة ،عن أبيه :أن خولة بنت حكيم بن الأوقص ،من بنى سُلَيم ،كانت من اللاتى وَهَبْن أنفسهن لرسول الله ﷺ(١١).

وفى رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن ،عن هشام ،عن أبيه :كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم

(١) فى ت :« وقد روى البخارى ومسلم » .
(٢) المسند (٥/٣٣٦) وصحيح البخارى برقم (٥١٣٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٥) ولكنه عند مسلم من طريق يعقوب وعبد العزيز بن أبى حازم وسفيان بن عيينة والدراوردى وزائدة كلهم عن أبى حازم بنحوه .
(٣) فى أ :« عثمان » . (٤) فى ت : « وروى البخارى أن ثابتا قال » . (٥) زيادة من أ .
(٦) المسند (٣/٢٦٨) وصحيح البخارى برقم (٥١٢٠) .
(٧) فى ت :« وروى » .
(٨) المسند (٣/١٥٥) .
(٩) فى ت : « وروى » .
(١٠) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٧/٥٥) من طريق منصور بن أبى مزاحم ، به .
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٢/٢٣) .

كانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ، وكانت امرأة صالحة (١).

فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم، أو هي امرأة أخرى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحْمَسِي، حدثنا وَكيع، حدثنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، وعمر بن الحكم، وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوج رسول ﷺ ثلاث عشرة امرأة، ست من قريش، خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة. وثلاث من بني عامر بن صَعْصَعَة، وامرأتان من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وزينب أم المساكين ـ امرأة من بني أبي بكر بن كلاب من القرطاء ـ وهي التي اختارت الدنيا، وامرأة من بني الجون، وهي التي استعاذت منه، وزينب بنت جحش الأسدية، والسبيتان صفية بنت حيي بن أخطب، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية(٢).

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن ابن عباس: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ قال: هي ميمونة بنت الحارث.

فيه انقطاع: هذا مرسل، والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي زينب بنت خُزَيمة الأنصارية، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته، فالله أعلم.

والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ كثير، كما قال (٣) البخاري، حدثنا زكريا ابن يحيى، حدثنا أبو أسامة قال: هشام بن عُرْوَه حَدثنا عن أبيه، عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ وأقول: أتهب امرأة (٤) نفسها؟ فلما أنزل الله: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرَى ربَّك إلا يُسَارع في هواك (٥).

وقد قال(٦) ابن أبي حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن منصور الجعفي، حدثنا يونس ابن بُكَيْر، عن عَنْبَسَة بن الأزهر، عن سِماك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له.

ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن يونس بن بُكَيْر (٧). أي: إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به؛ لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: إن اختار ذلك.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٢٣).

(٢) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٧٠) من طريق وكيع بلفظ: «تزوج رسول الله ﷺ امرأة من بني الجون فطلقها وهي التي استعاذت منه».

(٣) في ت: «كما روى». (٤) في ت، أ: «المرأة».

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٧٨٨).

(٦) في ت: «وروى».

(٧) تفسير الطبري (٢٢ / ١٧).

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة: أى لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً. وكذا قال مجاهد والشعبى وغيرهما.

أى: إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ فى بَرْوَع (١) بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفى عنها زوجها، والموت والدخول سواء فى تقرير (٢) المهر وثبوت مهر المثل فى المفوضة لغير النبى ﷺ، فأما هو، عليه السلام، فإنه لا يجب عليه للمفوضة شىء ولو دخل بها؛ لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود، كما فى قصة زينب بنت جحش، رضى الله عنها. ولهذا قال قتادة فى قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلا للنبى ﷺ.

[وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾](٣): قال أبى بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة وابن جرير فى قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِم﴾ أى: منْ حَصْرِهم فى أربع نسوة حرائر وما شاؤوا (٤) من الإماء، واشتراط الولى والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة، وقد رخصنا لك فى ذلك، فلم نوجب عليك شيئاً منه؛ ﴿لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر (٥)، حدثنا هشام بن عُرْوَة، عن أبيه (٦)، عن عائشة، رضى الله عنها؛ أنها كانت تُعَيِّر (٧) النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحى المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل الله، عز وجل: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، قالت: إنى أرَى ربَّك يسارع لك فى هواك (٨).

وقد تقدم أن البخارى رواه من حديث أبى أسامة، عن هشام بن عُرْوَة، فدل هذا على أن المراد بقوله: ﴿تُرْجِي﴾ أى: تؤخر ﴿مَن تَشَاءُ مِنْهُن﴾ أى: من الواهبات [أنفسهن] (٩) ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ أى: من شئت قبلتها، ومن شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن

(١) فى أ: « تزويج ». (٢) فى ت: « تقدير ».
(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: « وما يشاء ». (٥) فى أ: « بشير ».
(٦) فى ت: « وروى الإمام أحمد بإسناده ».
(٧) فى ف: « تغير من النساء » وفى أ: « تغير النساء ».
(٨) المسند (٦/١٥٨).
(٩) زيادة من ت.

=

شئت عُدْتَ فيها فآويتها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾. قال عامر الشعبى فى قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾: كن نساء وهبن أنفسهن للنبى ﷺ فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم يُنْكحن بعده، منهن أم شريك.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾أى: من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت، وتترك من شئت.

هكذا يروى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وأبى رَزين، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم، ومع هذا كان، صلوات الله وسلامه عليه، يقسم لهن؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه، صلوات الله وسلامه عليه، واحتجوا بهذه الآية الكريمة.

وقال (١) البخارى: حدثنا حبّان بن موسى، حدثنا عبد الله ـ هو ابن المبارك ـ أخبرنا عاصم الأحول، عن مُعَاذة (٢) عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذاك إلىَّ فإنى لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً (٣).

فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من (٤) ذلك عدم وجوب القسم، وحديثها الأول يقتضى أن الآية نزلت فى الواهبات، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة فى الواهبات وفى النساء اللاتى عنده، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم. وهذا الذى اختاره حسن جيد قوى، وفيه جمع بين الأحاديث؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أى: إذا علمن أن الله قد وضع عنك (٥) الحَرَج فى القسم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لاجناح عليك فى أى ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك فى ذلك، واعترفن بمنتك (٦) عليهن فى قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه، كما قال (٧) الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبى قلَابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا فعلى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك».

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى أ: «معاذ».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٩).
(٤) فى أ: «فى». (٥) فى أ: «عليك». (٦) فى أ: «بأمانتك».
(٧) فى ت: «كما روى».

ورواه أهل السنن الأربعة ،من حديث حماد بن سلمة (١) ـ وزاد أبو داود بعد قوله :فلا تلمني(٢) فيما تملك ولا أملك : يعني القلب .وإسناده صحيح ،ورجاله كلهم ثقات .ولهذا عقب ذلك بقوله :﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أي :بضمائر السرائر ،﴿حَلِيمًا ﴾ أي :يحلم ويغفر .

﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾.

ذكر غير واحد من العلماء ـ كابن عباس ،ومجاهد ،والضحاك ،وقتادة ،وابن زيد ،وابن جرير،وغيرهم ـ أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبى ﷺ ورضاً عنهن ،على حسن صنيعهن فى اختيارهن اللّه ورسوله والدار الآخرة ،لما خيرهن رسول اللّه ﷺ ،كما تقدم فى الآية .فلما اخترن رسول اللّه ﷺ ،كان جزاؤهن أن [اللّه] (٣) قَصَره عليهن ،وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ،أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ،ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسرارى فلا حجر عليه فيهن .ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر (٤) فى ذلك ونسخ حكم هذه الآية ،وأباح له التزوج (٥) ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوّج لتكون المنة للرسول (٦) ﷺ عليهن .

قال (٧) الإمام أحمد :حدثنا سفيان ،عن عمرو ،عن عطاء ،عن عائشة ،رضى اللّه عنها ، قالت:ما مات رسول اللّه ﷺ حتى أحل اللّه له النساء (٨) .

ورواه أيضاً من حديث ابن جُرَيْج ،عن عَطاء ،عن عبيد بن عمير (٩) ،عن عائشة .ورواه الترمذى والنسائى فى سننيهما (١٠) .

وقال (١١) ابن أبى حاتم :حدثنا أبو زُرْعَة ،حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة ،حدثنى عمر بن أبى بكر ،حدثنى المغيرة بن عبد الرحمن الحزامى (١٢) ،عن أبى النضر مولى عمر بن عبيد اللّه (١٣) ،عن عبد اللّه بن وهب بن زَمْعَة ،عن أم سلمة أنها قالت :لم يمت رسول اللّه ﷺ حتى أحل اللّه له أن يتزوج من النساء ما شاء ،إلا ذات محرم ،وذلك قول اللّه، عز وجل : **﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾**.

فجعلت هذه ناسخة للتى بعدها فى التلاوة ،كآيتى عدة الوفاة فى البقرة ،الأولى ناسخة للتى بعدها ،واللّه(١٤) أعلم .

---

(١) المسند (٦/ ١٤٤) وسنن أبى داود برقم (٢١٣٤) وسنن الترمذى برقم (١١٤٠) وسنن النسائى (٧/ ٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٧١) .
(٢) فى أ : « فلا تملنى » .
(٣) زيادة من ت ،أ .
(٤) فى ت : « الحرج » .
(٥) فى أ : « التزويج » .
(٦) فى ف : « لرسول اللّه » .
(٧) فى ت : « روى » .
(٨) المسند (٦/ ٤١) .
(٩) فى أ: « عن عمير بن عبيد » .
(١٠) المسند (٦/ ١٨٠) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٦) وسنن النسائى (٦/ ٥٦) .
(١١) فى ت : « وروى » .
(١٢) فى أ : « الخزاعى » .
(١٣) فى أ : « عبد اللّه » .
(١٤) فى ت : « فاللّه » .

وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لا يَحلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْد﴾ أى: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتى أحللنا لك من نسائك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات (١) والخال والخالات (٢) والواهبة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك. هذا مرويّ عن أبى بن كعب، ومجاهد، وعكْرِمة، والضحاك - فى رواية - وأبى رَزين - فى رواية عنه - وأبى صالح، والحسن، وقتادة - فى رواية - والسدى، وغيرهم.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن داود بن أبى هند، حدثنى محمد بن أبى موسى، عن زياد - رجل من الأنصار (٣) - قال: قلت لأبى بن كعب: أرأيت لو أن أزواج النبى ﷺ تُوُفين، أما كان له أن يتزوج؟ فقال: وما يمنعه من ذلك؟ قال: قلت: قوله: ﴿لا تَحِلُّ (٤) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْد﴾. فقال: إنما أحل الله له ضربا من النساء، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِي﴾ ثم قيل له: ﴿لا تحلُّ (٥) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْد﴾.

ورواه عبد الله بن أحمد من طرق، عن داود، به (٦). وروى الترمذى، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله: ﴿لا تَحِلُّ (٧) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْد وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، فأحل الله فتياتكم المؤمنات ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِي﴾، وحرم كل ذات دين غير الإسلام، ثم قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ (٨)﴾ إلى قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء (٩).

وقال مجاهد: ﴿لا تَحِلُّ (١٠) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْد﴾ أى: من بعد ما سمى لك، لا (١١) مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة.

وقال أبو صالح: ﴿لا تَحِلُّ (١٢) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْد﴾: أمر ألا يتزوج أعرابية ولا غريبة (١٣)، ويتزوج بعد من نساء تهامة، وما شاء من بنات العم والعمة، والخال والخالة، إن شاء ثلاثمائة.

وقال عكرمة: ﴿لا تَحِلُّ (١٤) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْد﴾ أى: التى سمى الله.

---

(١) فى ت: «وبنات العمات».
(٢) فى أ: «الخالة».
(٣) فى ت: «فروى ابن جرير بإسناده عن رجل من الأنصار».
(٤، ٥) فى ت، أ: «لا يحل».
(٦) تفسير الطبرى (٢٢/ ٢١) وزوائد المسند (٥/ ١٣٢).
(٧) فى أ: «لا يحل».
(٨) بعدها فى أ: «مما أفاء الله عليك».
(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢١٥) وقال: «هذا حديث حسن إنما نعرفه من حديث عبد الحميد بن بهرام، قال: سمعت أحمد بن الحسن يقول: قال أحمد بن حنبل: لا بأس بحديث عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب».
(١٠) فى أ: «لا يحل».
(١١) فى أ: «من».
(١٢) فى أ: «لا يحل».
(١٣) فى أ: «عربية».
(١٤) فى أ: «لا يحل».

واختار ابن جرير، رحمه الله، أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفى النساء اللواتى فى عصمته وكن تسعاً. وهذا الذى قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف؛ فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا، ولا منافاة، والله أعلم.

ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روى أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها، وعزم على فراق سودة حتى وهبته يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله: ﴿ **لا تَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُن** ﴾، وهذا الذى قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح، ولكن لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتى فى عصمته، وأنه لايستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال، والله أعلم.

فأما قَضية سَوْدَة ففى الصحيح عن عائشة، رضى الله عنها، وهى سبب نزول قوله تعالى: ﴿ **وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا [وَالصُّلْحُ خَيْرٌ]** (١) ﴾ الآية [النساء: ١٢٨] (٢).

وأما قضية (٣) حفصة فروى أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه، من طرق عن يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، عن صالح بن صالح بن حَى (٤) عن سلمة بن كُهَيْل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها. وهذا إسناد (٥) قوى (٦).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يونس بن بُكَيْر، عن الأعمش، عن أبى صالح (٧)، عن ابن عمر قال: دخل عمر على حفصة وهي تبكى، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؟ إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلى؛ والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً. ورجاله على شرط الصحيحين (٨).

وقوله: ﴿ **وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُن** ﴾، فنهاه عن الزيادة عليهن، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه (٩).

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكرُه هاهنا، فقال:

حدثنا إبراهيم بن نصر، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن إسحاق بن عبد الله (١٠) القرَشى، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار (١١)، عن أبى هُرَيرة، رضى الله عنه،

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٢٨ من سورة النساء.

(٣) فى ت: «قصة». (٤) فى أ: «يحيى». (٥) فى ت: «إسناده».

(٦) سنن أبى داود برقم (٢٢٨٣) وسنن النسائى (٦/ ٢١٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠١٦).

(٧) فى ت: «وروى الإمام الحافظ أبو يعلى بسنده».

(٨) مسند أبى يعلى (١/ ١٦٠).

(٩) فى أ: «يمينك». (١٠) فى أ: «عبيد الله»

(١١) فى ت: «وروى البزار بإسناده».

قال: كان البَدَلُ في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلْني امرأتك وأبادلُك بامرأتي. أي: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي. فأنزل الله: ﴿ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ قال: فدخل عيينة بن حصن (١) على النبي ﷺ، وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: « فأين الاستئذان؟ » فقال يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مُضَر منذ أدركت. ثم قال: من هذه الحُمَيْراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله ﷺ: « هذه عائشة أم المؤمنين ». قال: أفلا أنزل لك على أحسن الخلق (٢)؟ قال: « يا عيينة إن الله قد حرم ذلك ». فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال: هذا أحمق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه ».

ثم قال البزار إسحاق (٣) بن عبد الله: لين الحديث جداً، وإنما ذكرناه لأنا لم نحفظه إلا من هذا الوجه، وبيَّنا العلة فيه (٤).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) ﴾.

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول (٥) عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم: ٥]، فنزلت كذلك (٦).

وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهي قضية رابعة.

وقد قال(٧) البخاري: حدثنا مُسَدَّد، عن يحيى، عن حُمَيْد، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن

(١) في أ: « عيينة الفزاري ».
(٢) في ت: « قال انزل لي عنها وأنا أنزل لك عن أحسن الخلق »، وفي أ: « قال أنزل لك عن أحسن الخلق ».
(٣) في ت: « ثم قال البزار: في إسناده إسحاق ».
(٤) مسند البزار برقم (٢٢٥١) « كشف الأستار » وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٩٢): « وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وهو متروك».
(٥) في ت: « لقول ».
(٦) صحيح البخاري برقم (٤٠٢).
(٧) في ت: « وروى ».

الخطاب: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب (١).

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة، في قول قتادة والواقدي وغيرهما.

وزعم أبو عُبَيدة معمر بن المثنى، وخَلِيفة بن خياط: أن ذلك كان في سنة ثلاث، فالله أعلم.

قال (٢) البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله الرَّقاشي، حدثنا مُعْتَمِر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مِجْلَز، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فَطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو [كأنه] (٣) يتهيأ (٤) للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام، فلما قام [قام] (٥) من قام، وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى [الحجاب] (٦) بيني وبينه، فأنزل الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ**﴾ الآية.

وقد رواه أيضاً في موضع آخر، ومسلم والنسائي، من طرق، عن معتمر بن سليمان، به (٧).

ثم رواه البخاري منفرداً به من حديث أيوب، عن أبي قِلابة، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، [بنحوه (٨). ثم قال (٩): حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس ابن مالك] (١٠) قال: بُنِي [على] (١١) النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلْتُ على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون. فدعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا نبي الله، ما أجد أحداً أدعوه. قال: « ارفعوا طعامكم »، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ». قالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك، بارك الله لك؟ فَتَقَرَّى حجر نسائه كُلِّهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة. ثم رجع رسول الله (١٢) ﷺ فإذا رهط ثلاثة [في البيت] (١٣) يتحدثون. وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حُجْرة عائشة، فما أدري أخبرتُه أم أخبر أن القوم خَرَجُوا؟ فرجع حتى إذا وضع رجله في أُسْكُفة الباب داخله، وأخرى خارجة، أرْخَى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٣٩٩).

(٢) في ت: « وروى ».

(٣) زيادة من ت، ف، أ، والبخاري. (٤) في ت: « تهيأ ». (٥، ٦) زيادة من ت، ف، أ، والبخاري.

(٧) صحيح البخاري برقم (٤٧٩١) وبرقم (٦٢٣٩، ٦٢٧١) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٢٠).

(٨) صحيح البخاري برقم (٤٧٩٢).

(٩) في ت: « قال البخاري ». (١٠) زيادة من ت، ف، أ.

(١١) زيادة من ت، ف، والبخاري، وفي أ: « بني الله على النبي ».

(١٢) في ت: « النبي ».

(١٣) زيادة من ت، ف، أ، والبخاري.

انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب [الستة] (١) ، سوى النسائي في اليوم والليلة ، من حديث عبد الوارث (٢) .

ثم رواه عن إسحاق ـ هو ابن منصور ـ عن عبد الله بن بكر (٣) السهمي ، عن حُمَيد ، عن أنس، بنحو ذلك (٤) ، وقال : « رجلان » انفرد به من هذا الوجه . وقد تقدم في أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس .

وقال ابن أبي حاتم (٥) : حدثنا أبي ، حدثنا أبو المظفر ، حدثنا جعفر بن سليمان ، عن الجعد ـ أبي عثمان اليَشْكُرِي ـ عن أنس بن مالك قال : أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه ، فصنعت أم سليم حيسا ثم وضعته (٦) في تَوْر ، فقالت : اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ ، وأقرئه مني السلام ، وأخبره أن هذا منا له قليل ـ قال أنس : والناس يومئذ في جَهد ـ فجئت به فقلت : يا رسول الله ، بعثت بهذا أم سُلَيم إليك ، وهي تقرئك السلام ، وتقول : أخبره أن هذا منا له قليل ، فنظر إليه ثم قال: « ضعه » فوَضَعته في ناحية البيت ، ثم قال : « اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً » . وسمى رجالا كثيراً ، وقال : «ومن لقيتَ من [المسلمين » . فدعوتُ مَن قال لي ، ومن لقيت من] (٧) المسلمين ، فجئت والبيت والصُّفَّة والحجرة مَلأى من الناس ـ فقلت : يا أبا عثمان ، كم كانوا ؟ فقال : كانوا زهاء ثلاثمائة ـ قال أنس : فقال لي رسول الله ﷺ : « جئْ به » . فجئتُ به إليه ، فوضع يده عليه ، ودعا وقال : « ما شاء الله » . ثم قال : « ليتحَلَّق عَشَرة عَشَرة ، وليسموا (٨) ، وليأكل كل إنسان مما يليه » . فجعلوا يسمون ويأكلون ، حتى أكلوا كلهم . فقال لي رسول الله ﷺ : « ارفعه » . قال : فجئتُ فأخذت التَّورَ فما أدري أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت ؟ قال : وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله، وزَوجُ رسول الله ﷺ التي دخل بها معهم مُولّية وجهها إلى الحائط ، فأطالوا الحديث ، فشقوا على رسول الله ﷺ ، وكان أشد الناس حياء ـ ولو أعلموا (٩) كان ذلك عليهم عزيزاً ـ فقام رسول الله ﷺ فخرج فسلم على حُجَره وعلى نسائه ، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثَقَّلوا عليه ، ابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ، ودخل البيت وأنا في الحجرة ، فمكث رسولُ الله ﷺ في بيته يسيراً ، وأنزل الله عليه القرآن ، فخرج وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** ﴾ . قال أنس : فقرأهن عَلَيّ قبل الناس ، فأنا أحْدثُ الناس بهن عهداً .

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٢) صحيح البخاري برقم (٤٧٩٣) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠١٠١) .
(٣) في أ : « بكير » .
(٤) صحيح البخاري برقم (٤٧٩٤) .
(٥) في ت : « روى مسلم والنسائي » .
(٦) في ت ، ف : « جعلت » .
(٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) في ت ، ف ، أ : « ويسموا » .
(٩) في ت ، ف ، أ : « علموا » .

وقد رواه مسلم والترمذى والنسائى جميعاً، عن قتيبة، عن جعفر بن سليمان، به (١). وقال الترمذى: حسن صحيح وعلَّقه البخارى فى كتاب النكاح فقال:

وقال إبراهيم بن طَهْمَان، عن الجَعْد أبى عثمان، عن أنس، فذكر نحوه (٢).

ورواه مسلم أيضاً عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الجعد، به (٣). وقد روى هذا الحديث عبد الله بن المبارك، عن شَرِيك، عن بيان بن بشر، عن أنس، بنحوه.

وروى (٤) البخارى والترمذى، من طريقين آخرين، عن بَيَان بن بشر الأَحْمَسِى الكوفى، عن أنس، بنحوه (٥).

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً، من حديث أبى نَضْرَة العبدى، عن أنس بن مالك، بنحوه (٦). ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد، ومن حديث الزهرى، عن أنس، بنحو ذلك (٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزُ وهاشم بن القاسم قالا: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ: « اذهب فاذكرها على ». قال: فانطلق زيد حتى أتاها، قال: وهى تُخَمِّر عجينها، فلما رأيتُها عَظُمت فى صدرى... وذكر تمام الحديث، كما قدمناه عند قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾، وزاد فى آخره بعد قوله: وَوَعَظ القوم بما وعظوا به. قال هاشم فى حديثه: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾.

وقد أخرجه مسلم والنسائى، من حديث سليمان بن المغيرة (٨)، به (٩).

وقال (١٠) ابن جرير: حدثنى أحمد بن عبد الرحمن ـ ابن أخى ابن وهب ـ حدثنى عمى عبد الله ابن وهب، حدثنى يونس عن الزهرى، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: إن أزواج رسول الله ﷺ كُنَّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع ـ وهو صعيد أفيح ـ وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك. فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة. حرصاً أن (١١) ينزل الحجاب، قالت (١٢): فأنزل الله الحجاب (١٣).

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٨) وسنن النسائى (٦/ ١٣٦).
(٢) صحيح البخارى برقم (٥١٦٣).
(٣) صحيح مسلم برقم (١٤٢٨).
(٤) فى أ: « ورواه ».
(٥) صحيح البخارى برقم (٥١٧٠) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٩).
(٦) فى أ: « بنحوه ولم يخرجوه ».
(٧) تفسير الطبرى (٢٢/ ٢٧).
(٨) فى هـ، أ: « جعفر بن سليمان »، والتصويب من ت، ف، ومسلم.
(٩) المسند (٣/ ١٩٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن النسائى (٦/ ٧٩).
(١٠) فى ت: « وروى ».
(١١) فى ف، أ: « حرصا أن أن ».
(١٢) فى ت: « قال ».
(١٣) تفسير الطبرى (٢٢/ ٢٨).

هكذا وقع فى هذه الرواية. والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم ، من حديث هشام بن عُرْوَة ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جَسِيمَةً لا تَخفَى على من يعرفها ، فرآها عمر بن الخطاب فقال : يا سودة ، أما واللّه ما تَخْفَيْن علينا ، فانظرى كيف تخرجين ؟ قالت : فانكفأت راجعة ، ورسولُ اللّه ﷺ فى بيتى ، وإنه ليتعشى ، وفى يده عَرْق ، فدخلت فقالت : يا رسول اللّه ، إنى خرجت لبعض حاجتى ، فقال لى عمر كذا وكذا . قالت : فأوحى اللّه إليه ، ثم رُفِعَ عنه وإن العَرْق فى يده ، ما وضعه . فقال : « إنه قد أذنَ لكن أن تخرجن لحاجتكن » . لفظ البخارى (١) .

فقوله : ﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِى ﴾ : حَظَر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول اللّه ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الإسلام ، حتى غار اللّه لهذه الأمة، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ؛ ولهذا قال رسول اللّه ﷺ : « إياكم والدخول على النساء » (٢) .

ثم استثنى من ذلك فقال : ﴿ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أى غير متحينين نضجه واستواءه ، أى : لا ترقبوا الطعام حتى (٣) إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا يكرهه اللّه ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفيل ، وهو الذى تسميه العرب الضيفن ، وقد صنف الخطيب البغدادى فى ذلك كتابا فى ذم الطفيليين . وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها .

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا ﴾ . وفى صحيح مسلم عن ابن عمر، رضى اللّه عنهما ، قال: قال رسول اللّه ﷺ : « إذا دعا أحدكم أخاه فَلْيجب ، عُرساً كان أو غيره » (٤) . وأصله فى الصحيحين وفى الصحيح أيضا ، عن رسول اللّه ﷺ : « لو دُعيت إلى ذراع لأجبت ، ولو أهدى إلىَّ كُرَاع لقبلت، فإذا فَرَغتم من الذى دُعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل، وانتشروا فى الأرض» (٥)؛ ولهذا قال : ﴿ وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ ، أى : كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ، ونسُوا أنفسهم ، حتى شَقَّ ذلك على رسول اللّه ﷺ ، كما قال [اللّه] (٦) تعالى: ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ (٧) ﴾ .

وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه (٨) كان يشق عليه ويتأذى به ، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه ، عليه السلام ، حتى أنزل اللّه عليه النهى عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ ﴾ أى : ولهذا نهاكم عن ذلك وزجَركم عنه .

---

(١) المسند (٦/ ٥٦) وصحيح البخارى برقم (٤٧٩٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٧٠) .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٣٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢١٧٢) من حديث عقبة بن عامر ، رضى اللّه عنه .

(٣) فى أ : « الطعام إذا طبخ حتى » .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٢٩) .

(٥) فى صحيح البخارى برقم (٢٥٦٨) من حديث أبى هريرة ، رضى اللّه عنه .

(٦) زيادة من ف .

(٧) بعدها فى أ : ﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾

(٨) فى أ : « إذن » .

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾أى: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم [١] حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب.

وقال [٢] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن مِسْعَر، عن موسى ابن أبى كثير، عن مجاهد، عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبى [٣] ﷺ حَيْساً فى قَعْب، فمر عمر فدعاه، فأصابت إصبعه إصبعى، فقال: حَسِّ [٤] ـ أو: أوّه ـ لو أطاع فيكن ما رأتك [٥] عين. فنزل الحجاب [٦].

﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أى: هذا الذى أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾: قال [٧] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن أبى حماد، حدثنا مِهْرَان، عن سفيان، عن داود بن أبى هند، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال: نزلت فى رَجُل هَمَّ أن يتزوج بعض نساء النبى ﷺ. قال رجل لسفيان: أهى عائشة؟ قال: قد ذكروا ذاك.

وكذا قال مقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدى أن الذى عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله، رضى الله عنه، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفى عنها رسول الله ﷺ من أزواجه [٨] أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده؛ لأنهن أزواجه فى الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين، كما تقدم. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها فى حياته [٩] هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه فى عموم قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم فى حلها لغيره ـ والحالة هذه ـ نزاعا، والله أعلم.

وقال [١٠] ابن جرير: حدثنى [محمد] [١١] بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود، عن عامر؛ أن نبى الله ﷺ مات وقد ملك قيلة بنت [١٢] الأشعث ـ يعنى: ابن قيس ـ فتزوجها عكرمة بن أبى جهل بعد ذلك، فشق ذلك على أبى بكر مشقة شديدة، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله، إنها ليست من نسائه، إنها لم يُخَيِّرها رسول الله ﷺ ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة التى ارتدت

(١) فى ت: «لأحدهم». (٢) فى ت: «وروى». (٣) فى ت: «رسول الله».
(٤) فى هـ: «خير»، وفى ت، ف، أ: «حسن»، والمثبت من النهاية لابن الأثير ١/٣٨٥.
(٥) فى ت، أ: «ما رأتكن».
(٦) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤١٩) من طريق زكريا بن يحيى عن ابن أبى عمر، به.
(٧) فى ت: «روى». (٨) فى ف، أ: «زوجاته». (٩) فى ت: «حياتها».
(١٠) فى ت: «وروى». (١١) زيادة من ف، أ، والطبرى. (١٢) فى أ: «قتيلة ابنة».

مع قومها . قال : فاطمأن أبو بكر ، رضى الله عنهما (١) ، وسكن (٢) .

وقد عظم تبارك وتعالى ذلك ، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ، ثم قال : ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أى : مهما تكنه ضمائركم وتنطوى عليه سرائركم ، فإن الله (٣) يعلمه ؛ فإنه لا تخفى (٤) عليه خافية ، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر : ١٩] .

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)﴾ .

لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب ، بيَّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم فى سورة النور ، عند قوله : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ إلى آخرها [النور : ٣١] ، وفيها زيادات على هذه . وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته . وقد سأل بعض السلف فقال : لِمَ لَمْ يذكر العم والخال فى هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبى : بأنهما لم يذكرا ؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما .

قال ابن جرير : حدثنى محمد بن المثنى ، حدثنا حجاج بن منْهال ، حدثنا حماد ، حدثنا داود ، عن الشعبى وعكرمة فى قوله : ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ قلت : ما شأن العم والخال لم يذكرا ؟ قالا : هما(٥) ينعتانها لأبنائهما . وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها .

وقوله : ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ : يعنى بذلك : عَدَم الاحتجاب من النساء المؤمنات .

وقوله : ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ : يعنى به : أرقاءَهن من الذكور والإناث ، كما تقدم التنبيه عليه ، وإيراد الحديث فيه (٦) .

قال سعيد بن المسيب : إنما يعنى به : الإماء فقط . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أى : واخشينه فى الخلوة والعلانية ، فإنه شهيد على كل شىء ، لا تخفى عليه خافية ، فراقبن الرقيب .

---

(١) فى ت ، ف : « عنه » .

(٢) تفسير الطبرى (٢٢/٢٩) .

(٣) فى ف : « فإنه » . (٤) فى ت ، ف : « لا يخفى » . (٥) فى أ : « لأنهما » .

(٦) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٣١ من سورة النور .

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾.

قال البخارى: قال أبو العالية: صلاة اللّه: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون: يبرّكون. هكذا علقه البخارى عنهما [١].

وقد رواه أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية كذلك. وروى مثله عن الربيع أيضاً. وروى على بن أبى طلحة، عن ابن عباس كما قاله سواء، رواهما ابن أبى حاتم.

وقال أبو عيسى الترمذى: وروى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب: الرحمة، وصلاة الملائكة: الاستغفار.

ثم قال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو الأوْدىّ، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، قال الأعمش عن عطاء [٢] بن أبى رباح: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾** قال: صلاته تبارك وتعالى: سبّوح قدوس، سبقت رحمتى غضبى.

والمقصود من هذه الآية: أن اللّه سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلى عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً.

وقد قال [٣] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنى أبى، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر ـ يعنى: ابن المغيرة ـ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن بنى إسرائيل قالوا لموسى، عليه السلام: هل يصلى ربك؟ فناداه ربه: يا موسى، سألوك: «هل يصلى ربك؟» فقل: نعم، إنما أصلى أنا وملائكتى على أنبيائى ورسلى. فأنزل اللّه، عز وجل، على نبيه ﷺ: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾**.

وقد أخبر أنه، سبحانه وتعالى [٤]، يصلى على عباده المؤمنين فى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾** [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣]. وقال تعالى: **﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ [٥]. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾** [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]. وفى الحديث: «إن اللّه وملائكته يصلون على ميامن الصفوف». وفى

---

(١) صحيح البخارى (٨/٥٣٢) «فتح».

(٢) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده عن عطاء».

(٣) فى ت: «وقد روى».

(٤) فى ت: «وقد أخبر اللّه تعالى»، وفى ف: «وقد أخبر أنه سبحانه بأنه».

(٥) فى ت: «المؤمنين» وهو خطأ.

الحديث الآخر: « اللهم، صل على آل أبى أوفى». وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر ـ وقد سألته أن يصلى عليها وعلى زوجها ـ: « صلى الله عليك، وعلى زوجك [١] » [٢].

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر، والله المستعان.

قال البخارى ـ عند تفسير هذه الآية [٣] ـ: حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد، حدثنا أبى، عن مِسْعَر، عن الحكم، عن ابن أبى ليلى، عن كعب بن عُجْرَة قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: « قولوا: اللهم، صل على محمد، وعلى آل محمد، [كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد] [٤] كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد » [٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة [٦]، عن الحكم قال: سمعت ابن أبى ليلى قال: لقينى كعب بن عُجْرَةَ فقال: ألا أهدى لك هدية؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، قد علمنا ـ أو: عرفنا ـ كيف السلام [٧] عليك، فكيف الصلاة؟ قال: « قولوا: اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على [آل] [٨] إبراهيم إنك حميد مجيد. اللّهم، بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد ».

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم، من طرق متعددة، عن الحكم ـ وهو ابن عتبة [٩] ـ زاد البخارى: وعبد الله بن عيسى، كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، فذكره [١٠].

وقال ابن أبى حاتم [١١]: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا هُشَيْم بن بُشَيْر، عن يزيد بن أبى زياد، حدثنا عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن كعب بن عُجْرَة قال: لما نزلت: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾. قال: قلنا: يا رسول الله، قد علمنا السلام[١٢]، فكيف الصلاة عليك؟ قال: « قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما

---

(١) فى ف، أ: « وعلى آل زوجك ».

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/٣٩٨) وابن حبان فى صحيحه برقم (١٩٥١) « موارد » من طريق الأسود بن قيس عن نبيح العنزى عن جابر رضى الله عنه.

(٣) فى ت: « روى البخارى فى صحيحه ».

(٤) زيادة من ت، ف، والبخارى.

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٧).

(٦) فى ت: « وروى الإمام أحمد بإسناده ».

(٧) فى أ: « نسلم ».

(٨) زيادة من ت، ف، والمسند.

(٩) فى أ: « عيينة ».

(١٠) المسند (٤/٢٤١) وصحيح البخارى برقم (٣٣٧٠) وبرقم (٦٣٥٧) وبرقم (٤٧٩٧) وصحيح مسلم برقم (٤٠٦) وسنن أبى داود برقم (٩٧٦) وسنن الترمذى برقم (٤٨٣) وسنن النسائى (٣/٤٧) وسنن ابن ماجة برقم (٩٠٤).

(١١) فى أ: « وقال البخارى ».

(١٢) فى ت، ف، أ: « السلام عليك ».

باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. إنك حميد مجيد». وكان عبد الرحمن بن أبى ليلى يقول: وعلينا معهم.

ورواه الترمذى بهذه الزيادة (١).

ومعنى قولهم: «أما السلام عليك فقد عرفناه»: هو الذى فى التشهد الذى كان يعلمهم إياه، كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وفيه: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته».

حديث آخر: قال (٢) البخارى: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، عن ابن (٣) الهاد، عن عبد الله بن خَبَّاب، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام(٤)، فكيف نصلى عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، كما صليت على آل إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم». [وفى رواية] (٥): قال أبو صالح، عن الليث: «على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم».

حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا ابن أبى حازم والدَّرَاوَرْدى، عن يزيد ـ يعنى: ابن الهاد ـ قال: «كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم».

وأخرجه النسائى وابن ماجه، من حديث ابن الهاد، به(٦).

حديث آخر: قال (٧) الإمام أحمد: قرأت على عبد الرحمن: مالك، عن عبد الله بن أبى بكر، عن أبيه، عن عمرو بن سُلَيم أنه قال: أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلى عليك؟ قال: «قولوا: اللهم» صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على [آل] (٨) إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

وقد أخرجه بقية الجماعة، سوى الترمذى، من حديث مالك، به (٩).

حديث آخر: قال مسلم: حدثنا يحيى التميمى قال: قرأت على مالك، عن نُعَيم بن عبد الله المُجمِّر، أخبرنى محمد بن عبد الله بن زيد الأنصارى ـ قال: وعبد الله بن زيد هو الذى كان أُرِىَ النداء بالصلاة ـ أخبره عن أبى مسعود الأنصارى ـ قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد ابن عُبَادة، فقال له بَشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلى عليك [يا رسول الله] (١٠)، فكيف نصلى عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد عَلِمتم».

وقد رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى من حديث مالك، به (١١). وقال الترمذى: حسن

---

(١) سنن الترمذى برقم (٤٨٣) وقال: «حديث حسن صحيح»

(٢) فى ت: «روى». (٣) فى أ: «أبى». (٤) فى أ: «هذا السلام عليك».

(٥) زيادة من ت.

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٨).

(٧) فى ت: «وروى».

(٨) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(٩) المسند (٥/٤٢٤) وصحيح البخارى برقم (٣٣٦٩) وصحيح مسلم برقم (٤٠٧) وسنن أبى داود برقم (٩٧٩) وسنن النسائى (٣/٤٩) وسنن ابن ماجة برقم (٩٠٥).

(١٠) زيادة من ت، ف، أ، ومسلم.

(١١) صحيح مسلم برقم (٤٠٥) وسنن أبى داود برقم (٩٨٠) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٠) وسنن النسائى (٣/٤٥).

صحيح .

وروى الإمام أحمد ،وأبو داود ،والنسائى ،وابن خُزَيمة ،وابن حبّان ،والحاكم فى مستدركه ،من حديث محمد بن إسحاق ،عن محمد بن إبراهيم التيمى ،عن محمد بن عبد اللّه بن زيد بن عبد ربه ، عن أبى مسعود البدرى أنهم قالوا: يا رسول اللّه ،أما السلام فقد عرفناه ،فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا فى صلاتنا ؟ فقال :« قولوا : اللّهم ،صَلِ على محمد وعلى آل محمد . . . » وذكره [١] .

ورواه الشافعى ،رحمه اللّه ، فى مسنده ،عن أبى هريرة ،بمثله [٢].ومن هاهنا ذهب الشافعى، رحمه اللّه ،إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول اللّه ﷺ فى التشهد الأخير ،فإن تركه لم تصح صلاته .وقد شَرَع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشنع على الإمام الشافعى فى اشتراطه ذلك فى الصلاة ،ويزعم أنه قد تفرد بذلك ،وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبرى والطحاوى والخطابى وغيرهم ،فيما نقله القاضى عياض .وقد تَعَسّف القائل [٣] فى رده على الشافعى ،وتكلف فى دعواه الإجماع فى ذلك ،[وقال ما لم يحط به علما] [٤]، فإنه قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول اللّه ﷺ فى الصلاة كما هو ظاهر الآية ،ومفسر [٥] بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة ،منهم:ابن مسعود ،وأبو مسعود البدرى ،وجابر بن عبد اللّه ،ومن التابعين :الشعبى ،وأبو جعفر الباقر ، ومقاتل بن حيان . وإليه ذهب الشافعى ،لا خلاف عنه فى ذلك ولا بين [٦] أصحابه أيضا ،وإليه ذهب [الإمام] [٧] أحمد أخيرا فيما حكاه عنه أبو زُرْعَة الدمشقى ،به.وبه قال إسحاق ابن راهويه ،والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن الموّاز المالكى ،رحمهم اللّه ،حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال فى الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوه ،وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على الآل ممن [٨] حكاه البَنْدَنيجِىّ ،وسُلَيم الرازى ،وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسى ،ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالى قولا عن الشافعى .والصحيح أنه وجه ،على أن الجمهور على خلافه ،وحكوا الإجماع على خلافه ،وللقول بوجوبه ظواهر الحديث ،واللّه أعلم .

والغَرَض أن الشافعى ،رحمه اللّه ، لقوله [٩] بوجوب الصلاة على النبى ﷺ فى الصلاة ـ سَلَفٌ وَخَلَفٌ [١٠] كما تقدم ، للّه الحمد والمنة ،فلا إجماع على خلافه فى هذه المسألة لا قديما ولا حديثا ، واللّه أعلم .

ومما يؤيد ذلك :الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى ـ وصححه ـ والنسائى وابن خزيمة ،وابن حبان فى صحيحيهما ،من رواية حَيْوة بن شُرَيْح المصرى ، عن أبى هانئ حميد بن

(١) المسند (٤/ ١١٩) وسنن أبى داود برقم (٩٨١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٧٧) والمستدرك (١/ ٦٦٨) وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم » .

(٢) مسند الشافعى برقم (٢٦٨) « بدائع المنن » ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٧٥) من طريق داود بن قيس ،عن نعيم بن عبد اللّه ، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه .

(٣) فى أ : « تعسف هذا القائل » . (٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ت :« ومشعر » .

(٦) فى أ : « من » . (٧) زيادة من ت ، ف ، أ . (٨) فى ف : « فيما » وفى أ : « فيمن » .

(٩) فى أ : « يقول » . (١٠) فى أ : « سلفًا وخلفًا » .

هانئ، عن عمرو بن مالك أبى على الجَنْبى (١)، عن فضالة بن عبيد، رضى الله عنه، قال: سمع رسول الله ﷺ رجلا يدعو فى صلاته، لم يمجد الله ولم يصل على النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: « عَجل هذا ». ثم دعاه فقال له ولغيره: « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله، عز وجل، والثناء عليه، ثم ليصل على النبى ثم ليدعُ [بعد] (٢) بما شاء » (٣).

وكذا الحديث الذى رواه ابن ماجه، من رواية عبد المهيمن ابن عباس بن سهل بن سعد الساعدى، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه، ولا صلاة لمن لم يصل على النبى، ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار » (٤).

ولكن عبد المهيمن هذا متروك. وقد رواه الطبرانى من رواية أخيه « أبى بن عباس »، ولكن فى ذلك نظر (٥)، وإنما يعرف من رواية « عبد المهيمن »، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل، عن أبى داود الأعمى، عن بُرَيدة قال: قلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلى عليك؟ قال: « قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد ».

أبو داود الأعمى اسمه: نفيع بن الحارث، متروك (٦).

حديث آخر موقوف: رويناه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب ويزيد بن هارون، ثلاثتهم عن نوح بن قيس: حدثنا سلامة الكندى: أن عليا، رضى الله عنه، كان يعلم الناس هذا الدعاء: اللّهم داحى المدْحُوَّات، وبارئ المسموكات، وَجَبَّار القلوب على فطْرَتها شقيها وسعيدها. اجعل شرائف صلواتك، ونوامى بركاتك، ورأفة تحننك، على محمد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما أغلق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ جيشات الأباطيل، كما حُمِّل فاضطلع بأمرك لطاعتك، مستوفزا فى مرضاتك، غير نكل فى قَدَم، ولا واهن فى عزم، واعيا لوحيك، حافظا لعهدك، ماضيا على نفاذ أمرك، حتى أورى قبسا لقابس، آلاء الله تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم، [وأقام] (٧) مُوضحات الأعلام، ومُنِيرات الإسلام ونائرات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبَعيثُك نعمة، ورسولك بالحق رحمة. اللهم افسح له مُفسحَات فى عدلك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك. مهنَّآت له غير مكدرات، من فوز ثوابك المعلول وجزيل عطائك المجمول. اللّهم، أعل على بناء البانين

---

(١) فى أ: « الحسينى ».

(٢) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٣) المسند (٦/ ١٨) وسنن أبى داود برقم (١٤٨١) وسنن الترمذى برقم (٣٤٧٧) وسنن النسائى (٣/ ٤٤).

(٤) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ١٦٧): « هذا إسناد ضعيف لاتفاقهم على ضعف عبد المهيمن ».

(٥) المعجم الكبير للطبرانى (٦/ ١٢١).

(٦) المسند (٥/ ٣٥٣).

(٧) زيادة من ت، ف.

بنيانه[١]، وأكرم مثواه لديك ونزله. وأتمم[٢] له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة، مرضى المقالة، ذا منطق عدل، وخُطَّة فصل، وحجة وبرهان عظيم[٣].

هذا مشهور من كلام على، رضى الله عنه، وقد تكلم عليه ابن قتيبة فى مشكل الحديث، وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوى فى جزء جمعه فى فضل الصلاة على النبى ﷺ، إلا أن فى إسناده نظرا.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى: سلامة[٤] الكندى هذا ليس بمعروف، ولم يدرك عليا[٥]. كذا قال. وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى هذا الأثر عن محمد بن على الصائغ، عن سعيد بن منصور، حدثنا نوح بن قيس، عن سلامة الكندى قال: كان على، رضى الله عنه، يعلمنا الصلاة على النبى ﷺ فيقول: «اللهم، داحى المَدْحُوّات» وذكره[٦].

حديث آخر موقوف: قال ابن ماجه: [حدثنا الحُسَين بن بَيَان][٧]، حدثنا زياد بن عبد الله، حدثنا المسعودى، عن عون بن عبد الله، عن أبى فَاختة، عن الأسود بن يزيد[٨]، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يُعْرَض عليه. قال: فقالوا له: فَعَلِّمنا. قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك، إمام الخير وقائد الخير، ورسول الرحمة. اللهم ابعثه مقاماً محموداً يَغْبِطُه به الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد [وعلى آل محمد][٩]، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد[١٠].

وهذا موقوف، وقد روى إسماعيل القاضى عن عبد الله بن عمرو ـ أو: عمر ـ على الشك من الراوى قريباً من هذا[١١].

حديث آخر: قال[١٢] قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا أبو

(١) فى أ: «اللهم علِّ بناء الناس بناءه». (٢) فى أ: «وأتم».

(٣) رواه أبو نعيم فى عوالى سعيد بن منصور برقم (١٨) فقال: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا مسعدة بن سعد، حدثنا سعيد بن منصور فذكره، ورواه الحنائى فى الفوائد (١٠/١٦٢/ب) ـ كما فى حاشية العوالى ـ من طريق يزيد بن هارون، به.

(٤) فى ف: «سلام».

(٥) سلامة الكندى ذكره البخارى فى التاريخ الكبير (٤/ ١٩٥) وابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٤/ ٣٠٠) وأشار ابن أبى حاتم إلى هذا الحديث وقال: «مرسل».

(٦) المعجم الأوسط برقم (٤٦٥٣) «مجمع البحرين» لكن فيه: «حدثنا مسعدة بن سعد، حدثنا سعيد بن منصور» فلعل الحافظ نقله هنا من مسند العشرة.

(٧) زيادة من ت، ف، وابن ماجه. (٨) فى ت: «وروى ابن ماجة بإسناده».

(٩) زيادة من ت، ف، وابن ماجة.

(١٠) سنن ابن ماجة برقم (٩٠٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٣١١): «هذا إسناد رجاله ثقات إلا أن المسعودى واسمه عبد الرحمن بن عتبة بن مسعود اختلط بآخره، ولم يتميز حديثه الأول بالآخر، فاستحق الترك. قاله ابن حبان».

(١١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٦٢).

(١٢) فى ت: «وروى».

إسرائيل، عن يونس بن خبّاب قال: خطبنا بفارس فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فقال: أنبأني من سمع ابن عباس يقول: هكذا أنزل. فقلنا ـ أو: قالوا ـ: يا رسول الله، عَلِمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: «اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وارحم محمداً وآل محمد، كما رحمت آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، [وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد](١)» (٢).

فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبى ﷺ، كما هو قول الجمهور: ويعضده حديث الأعرابى الذى قال: اللهم، ارحمنى ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حجرت (٣) واسعاً».

وحكى القاضى عياض عن جمهور المالكية منعه، قال: وأجازه أبو محمد بن أبى زيد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا شعبة، عن عاصم بن عبيد الله(٤) قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال: سمعت النبى (٥) ﷺ يقول: «من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلى على، فَلْيُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر».

ورواه ابن ماجه، من حديث شعبة، به (٦).

حديث آخر: قال (٧) الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعى، ويونس ـ هو ابن محمد ـ قالا: حدثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبى عمرو، عن أبى الحويرث، عن محمد ابن جبير بن مطعم، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتى دخل نخلا، فسجد فأطال السجود، حتى خفت ـ أو: خشيت ـ أن يكون الله قد توفاه أو قبضه. قال: فجئت أنظر، فرفع رأسه فقال: «ما لك يا عبد الرحمن؟» قال: فذكرت ذلك له فقال: «إن جبريل، عليه السلام، قال لى: ألا أبشرك؟ إن الله، عز وجل، يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلّم عليك سلمتُ عليه» (٨).

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا عمرو بن أبى عمرو، من عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج(٩) رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته، فدخل فاستقبل القبلة، فخر ساجدا، فأطال

---

(١) زيادة من ت، أ، والطبرى.
(٢) تفسير الطبرى (٢٢/ ٣١).
(٣) فى أ: «تحجرت».
(٤) فى أ: «عبد الله». (٥) فى ف: «رسول الله».
(٦) المسند (٣/ ٤٤٥) وسنن ابن ماجة برقم (٩٠٧).
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) المسند (١/ ١٩١).
(٩) فى هـ: «قال» وفى ت، ف، أ: «قام» والمثبت من المسند.

السجود، حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها، فدنوت منه ثم جلست، فرفع رأسه فقال: « من هذا؟» فقلت: عبد الرحمن. قال: « ما شأنك؟ » قلت: يا رسول الله، سجدت سجدة خشيت أن [يكون] (١) الله، عز وجل، قبض نفسك فيها. فقال: « إن جبريل أتانى فبشرنى أن الله، عز وجل، يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه ـ فسجدتُ لله، عز وجل، شكراً» (٢).

حديث آخر: قال (٣) [الحافظ] (٤) أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بَحير ابن عبد الله بن معاوية بن بحير بن ريسان، [حدثنا عمرو بن الربيع بن طارقة] (٥)، حدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا عبد الله (٦) بن عمر، عن الحكم بن عتيبة (٧)، عن إبراهيم النَّخَعى، عن الأسود بن يزيد، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه، ففزع عمر، فأتاه بمِطْهَرة من خلفه، فوجد النبى ﷺ ساجدا فى مَشربة (٨)، فتنحّى عنه من خلفه حتى رفع النبى ﷺ رأسه، فقال: « أحسنت يا عمر حين وجدتنى ساجدا فتنحيت عنى، إن جبريل أتانى فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات (٩)، ورفعه عشر درجات» .

وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه « المستخرج (١٠) على الصحيحين » (١١). وقد رواه إسماعيل القاضى، عن القعنبى، عن سلمة بن وَرْدان، عن أنس، عن عمر بنحوه (١٢). ورواه أيضا عن يعقوب بن حميد، عن أنس بن عياض، عن سلمة بن وَرْدان، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن عمر بن الخطاب، بنحوه (١٣).

حديث آخر: قال (١٤) أبو عيسى الترمذى: حدثنا بُنْدَار، حدثنا محمد بن خالد بن عَثْمَةَ، حدثنى موسى بن يعقوب الزَّمْعىّ، حدثنى عبد الله بن كَيْسَان؛ أن عبد الله بن شداد أخبره، عن عبد الله بن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: « أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة » .

تفرد بروايته الترمذى، رحمه الله، ثم قال: هذا حديث حسن غريب (١٥).

حديث آخر: قال إسماعيل القاضى: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن يعقوب بن زيد ابن طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: « أتانى آت من ربى فقال لى: ما من عبد يصلى عليك صلاة إلا

---

(١) زياد من ت، ف، أ، والمسند.
(٢) المسند (١/ ١٩١).
(٣) فى ت: « وروى ».
(٤) زيادة من ت.
(٥) زيادة من المعجم الصغير.
(٦) فى أ: « عبيد الله ».
(٧) فى أ: « عيينة ».
(٨) فى أ: « مسرية ».
(٩) فى ت، ف: « عشراً ».
(١٠) فى ف، أ: « المختارة ».
(١١) المعجم الصغير (٢/ ٨٩) والمختارة برقم (٩٣). وقال الطبرانى: « لم يروه عن عبيد الله بن عمر إلا يحيى بن أيوب، تفرد به عمرو ابن الربيع ».
(١٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٤).
(١٣) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥).
(١٤) فى ت: « وروى ».
(١٥) سنن الترمذى برقم (٤٨٤).

صلى الله عليه بها عشراً ». فقام رجل [(١)] فقال :يا رسول الله ،ألا أجعل نصف دعائى لك ؟قال : «إن شئت» . قال: ألا أجعل ثلثى دعائى لك ؟ قال :« إن شئت » . قال :ألا أجعل دعائى لك كله ؟ قال:«إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة» . فقال شيخ ـ كان بمكة ،يقال له :مَنِيع [(٢)] ـ لسفيان : عمن أسنده ؟ قال :لا أدرى [(٣)] .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضى : حدثنا سعيد بن سَلام العطار ،حدثنا سفيان ـ يعنى: الثورى ـ عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبى بن كعب ، عن أبيه قال :كان رسول الله ﷺ يخرج فى جوف الليل فيقول :« جاءت الراجفة ،تتبعها الرادفة،جاء الموت بما فيه ». قال أبى : يا رسول الله ،إنى أصلى من الليل ،أفأجعل لك ثلث صلاتى ؟قال رسول الله ﷺ : «الشطر» . قال: أفأجعل لك شطر صلاتى ؟قال رسول الله ﷺ : « الثلثان » . قال أفأجعل لك صلاتى كلها ؟ قال : « إذن يغفر الله لك ذنبك كله » [(٤)].

وقد رواه [(٥)] الترمذى بنحوه فقال: حدثنا هَنّاد ،حدثنا قَبِيصة ،حدثنا سفيان ،عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل ،عن الطفيل بن أبى بن كعب ،عن أبيه قال :كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « ياأيها الناس ، اذكروا الله ،اذكروا الله ،جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ،جاء الموت بما فيه،جاء الموت بما فيه » . قال أبى :قلت : يا رسول الله ،إنى أكثر الصلاة عليك ،فكم أجعل لك من صلاتى ؟ قال:« ما شئت » .قلت : الربع ؟ قال : « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك » . قلت: فالنصف ؟ قال :« ما شئت، فإن زدت فهو خير لك ».قلت : فالثلثين ؟ قال :« ما شئت، فإن زدت فهو خير لك ».قلت :أجعل لك صلاتى كلها ؟ قال:« إذن تكفى همّك ،ويغفر لك ذنبك » .

ثم قال : هذا حديث حسن [(٦)] .

وقال الإمام أحمد :حدثنا وَكِيع ،حدثنا سفيان ،عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل ،عن الطفيل بن أبى ،عن أبيه قال : قال رجل : يا رسول الله ،أرأيت إن جعلتُ صلاتى كلها عليك ؟ قال :« إذن يكفيك الله ما أهَمَّك من دنياك وآخرتك » [(٧)] .

حديث آخر : قال الإمام أحمد :حدثنا أبو كامل ،حدثنا حماد بن سلمة ،عن ثابت ،عن سليمان مولى الحسن بن على ،عن عبد الله بن أبى طلحة ،عن أبيه ؛أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم،والسرور يرى فى وجهه ،فقالوا: يا رسول الله ،إنا لنرى السرور فى وجهك .فقال :« إنه أتانى الملك فقال : يامحمد ، أما يرضيك أن ربك ، عز وجل ، يقول: إنه لا يصلى عليك أحد من أمتك

---

(١) فى أ : « فقام إليه رجل » .
(٢) فى أ : « سبع » .
(٣) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (١٣) .
(٤) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (١٤) .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٤٥٧) .
(٧) المسند (٥/١٣٦) .

إلا صليت عليه عشراً ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً ؟ قال: بلى » .

ورواه النسائى من حديث حماد بن سلمة، به (١) . وقد رواه إسماعيل القاضى ، عن إسماعيل بن أبى أويس ، عن أخيه ، عن سليمان بن بلال ، عن عُبَيد الله بن عمر ، عن ثابت ، عن أبى طلحة ، بنحوه (٢) (٣) .

طريق أخرى : قال [الإمام] (٤) أحمد: حدثنا سُرَيْج (٥) ، حدثنا أبو مَعْشَر ، عن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة ، عن أبى طلحة الأنصارى قال : أصبح رسول الله ﷺ يوما طيب النفس ، يرى فى وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله ، أصبحت اليوم طيب النفس ، يرى فى وجهك البشر ؟ قال : «أجل ، أتانى آت من ربى ، عز وجل، فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة ، كَتَب الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » (٦) .

هذا أيضا إسناد جيد ، ولم يخرجوه .

حديث آخر : روى (٧) مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ؛ عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عَلَىّ واحدة ، صلى الله عليه بها عشراً » .

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، وفى الباب عن عبد الرحمن بن عوف ، وعامر بن ربيعة ، وعمار ، وأبى طلحة ، وأنس ، وأبى بن كعب (٨) .

وقال(٩) الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا شريك ، عن ليث ، عن كعب ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال: « صلوا على؛ فإنها زكاة لكم . وسلوا الله لى الوسيلة ؛ فإنها درجة فى أعلى الجنة ، لا ينالها إلا رجل ، وأرجو أن أكون أنا هو » .

تفرد به أحمد (١٠) ، وقد رواه البزار من طريق مجاهد ، عن أبى هريرة ، بنحوه فقال: حدثنا محمد ابن إسحاق البكَّالى ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا داود بن عُلَيَّة ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « صلوا على ، فإنها زكاة لكم ، وسلوا الله لى الدرجة الوسيلة من الجنة » فسألناه ـ أو : أخبرنا ـ فقال : « هى درجة فى أعلى الجنة ، وهى لرجل ، وأنا أرجو أن أكون ذلك الرجل » .

---

(١) المسند (٤/ ٣٠) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٨٨) .
(٢) فى ف : « بمثله » .
(٣) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (١) .
(٤) زيادة من ف . (٥) فى أ : « شريح » .
(٦) المسند (٤/ ٢٩) .
(٧) فى ت : « وروى » .
(٨) صحيح مسلم برقم (٤٠٨) وسنن أبى داود برقم (١٥٣٠) وسنن الترمذى برقم (٤٨٥) وسنن النسائى (٣/ ٥٠) .
(٩) فى ت : « وروى » .
(١٠) المسند (٢/ ٣٦٥) .

فى إسناده بعض من تُكُلِّم فيه (١) .

حديث آخر :قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق ،حدثنا ابن لَهِيعة ،[عن عبد اللّه بن هبيرة](٢)،عن عبد الرحمن بن مَريج الخولانى ،سمعت أبا قيس ـ مولى عمرو بن العاص ـ سمعت عبد اللّه بن عمرو يقول : من صلى على رسول اللّه ﷺ صلاة ،صلى اللّه عليه وملائكته بها سبعين صلاة ،فَلْيُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر . وسمعت عبد اللّه بن عمرو يقول : خرج علينا رسول اللّه ﷺ يوما كالمودع فقال : « أنا محمد النبى الأمى ـ قاله ثلاث مرات ـ ولا نبى بعدى ،أوتيت فواتح الكلام(٣) وخواتمه وجوامعه ،وعَلِمتُ كم خزنة النار وحملة العرش ،وتجوز بى ،عُوفيت وعوفيت أمتى ،فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ،فإذا ذُهِب بى فعليكم بكتاب اللّه ،أحلوا حلاله ،وحرموا حرامه » (٤) .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسى: حدثنا أبوسَلَمة الخراسانى ،حدثنا أبو إسحاق ،عن أنس قال :قال رسول اللّه ﷺ :« من ذُكرت عنده فَلْيصلّ على ،ومن صَلَّى على مرة واحدة صلى اللّه عليه عشراً » .

ورواه النسائى فى « اليوم والليلة » ،من حديث أبى داود الطيالسى ،عن أبى سلمة ـ وهو المغيرة ابن مسلم الخراسانى ـ عن أبى إسحاق عمرو بن عبد اللّه السَّبِيعى ،عن أنس ، به (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فضيل ،حدثنا يونس بن عمرو ـ يعنى : يونس بن أبى إسحاق ـ عن بُرَيد (٦) بن أبى مريم ،عن أنس قال :قال رسول اللّه ﷺ :« من صلى على صلاة واحدة ،صلى اللّه عليه عشر صلوات ،وحط عنه عشر خطيئات » (٧) .

حديث آخر : قال (٨) الإمام أحمد :حدثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيد [قالا] (٩) : حدثنا سليمان بن بلال ،عن عمارة بن غَزِيَّة (١٠) ،عن عبد اللّه بن الحسين ،عن أبيه على بن الحسين ،عن أبيه ؛أن رسول اللّه ﷺ قال: « البخَيل من ذُكرت عنده ،ثم لم يصل على» .وقال أبو سعيد :« فلم يصل على » .

ورواه الترمذى من حديث سليمان بن بلال ،ثم قال: هذا حديث حسن غريب صحيح (١١) .

ومن الرواة من جعله من مسند « الحسين بن على » ،ومنهم من جعله من مسند « على » نفسه .

---

(١) مسند البزار برقم (٣٦٣) « كشف الأستار » وقال الهيثمى : « فيه داود بن علية ،ضعفه ابن معين والنسائى وغيرهما ووثقه ابن نمير،وقال موسى بن داود الضبى :ثنا ذؤاد بن علبة وأثنى عليه خيرا ،وقال ابن عدى :هو فى جملة الضعفاء ممن يكتب حديثه » .كذا فيه ذؤاد بن علبة وهو الصواب .انظر :الكامل (٣/ ١٢١) والتهذيب (٣/ ٢٢١) والميزان (٢/ ٣٢) .

(٢) زيادة من ت ،ف ،أ ،والمسند .

(٣) فى ف ، أ : « الكلم » .

(٤) المسند (٢/ ١٧٢) .

(٥) السنن الكبرى برقم (٩٨٨٩) .

(٦) فى أ :« زيد » .

(٧) المسند (٣/ ١٠٢) .

(٨) فى ت :« وروى » .

(٩) زيادة من ت ،ف ، أ ، والمسند.

(١٠) فى أ : « غمير » .

(١١) المسند (١/ ٢٠١) .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضى : حدثنا حجاج بن منْهال ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن معبد ابن هلال العَنَزى ، حدثنى رجل من أهل دمشق ، عن عوف بن مالك ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن أبخل الناس من ذُكرت عنده فلم يصل على » (١) .

حديث آخر مرسل : قال إسماعيل : وحدثنا سليمان بن حَرب ، حدثنا جرير بن حازم ، سمعت الحسن يقول : قال رسول الله ﷺ : « بحسب امرئ من البخل أن أذْكر عنده فلا يُصَلِّى على » (٢) ، صلوات الله عليه .

حديث آخر : قال (٣) الترمذى : حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقى ، حدثنا رِبْعى بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن سعيد بن أبى سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على . [ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له] (٤) ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة » . ثم قال : حسن غريب (٥) .

قلت : وقد رواه البخارى فى الأدب ، عن محمد بن عبيد الله ، حدثنا ابن أبى حازم ، عن كثير بن زيد ، عن الوليد بن رباح ، عن أبى هريرة مرفوعا ، بنحوه (٦) . ورويناه من حديث محمد بن عمرو، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، به . قال الترمذى : وفى الباب عن جابر وأنس .

قلت : وابن عباس ، وكعب بن عُجْرَة ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث فى أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا﴾ [الإسراء : ٢٣].

وهذا الحديث والذى قبله دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء [منهم الطحاوى والحليمى] (٧)، ويتقوى بالحديث الآخر الذى (٨) رواه ابن ماجه :

حدثنا جُبارة بن المغَلِّس ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عمرو بن دينار ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسى الصلاة عَلَيَّ خَطِئَ طريق الجنة » (٩) .

جُبَارة ضعيف . ولكن رواه إسماعيل القاضى من غير وجه ، عن أبى جعفر محمد بن على الباقر قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسى الصلاة عليّ خَطِئَ طريق الجنة » . وهذا مرسل يتقوى بالذى قبله [والله أعلم] (١٠) (١١) .

وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة فى المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب فى بقية ذلك المجلس، بل

---

(١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٣٧) .
(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٣٨) .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والترمذى .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٥٤٥) .
(٦) الأدب المفرد للبخارى برقم (٢١) .
(٧) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٨) فى ت: « بما » .
(٩) سنن ابن ماجة برقم (٩٠٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/٣١٣) : « هذا إسناد ضعيف لضعف جبارة بن المغلس » .
(١٠) زيادة من ف ، أ .
(١١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٤١) .

تستحب . نقله الترمذى عن بعضهم ، ويتأيد بالحديث الذى رواه الترمذى :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن صالح ـ مولى التَّوْأمة ـ عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا اللّه فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَةٌ ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » .

تفرد به الترمذى من هذا الوجه . ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد بن هارون ، كلاهما عن ابن أبى ذئب ، عن صالح ـ مولى التوأمة ـ عن أبى هريرة ، مرفوعا مثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

وقد رُوى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، من غير وجه ، وقد رواه إسماعيل القاضى من حديث شعبة ، عن سليمان ، عن ذَكْوَان ، عن أبى سعيد قال : « ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبى ﷺ ، إلا كان عليهم حسرة ، وإن دخلوا الجنة لمَا يرون [من] (٢) الثواب » (٣) .

وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ، عليه السلام ، فى العمر مرة واحدة ، امتثالا لأمر الآية ، ثم هى مستحبة فى كل حال ، وهذا هو الذى نصره القاضى عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ فى الجملة . قال : وقد حكى الطبرانى (٤) أن محمل الآية على الندب، وادعى فيه الإجماع . قال: ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّب فيه من سنن الإسلام ، وشعار أهله .

قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نبينه .

فمنه : بعد النداء للصلاة ؛ للحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا كعب بن علقمة ، أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول : إنه سمع (٥) عبد اللّه بن عمرو بن العاص يقول : إنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىَّ ؛ فإنه من صلى عَلَىَّ صلاةً صلى اللّه عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد اللّه ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه (٦) الشفاعة » .

وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث كعب بن علقمة (٧) .

طريق أخرى : قال إسماعيل القاضى : حدثنا محمد بن أبى بكر ، حدثنا عمرو بن على ، عن أبى

(١) سنن الترمذى برقم (٣٣٨٠) والمسند (٢/ ٤٥٣) .
(٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، وفضل الصلاة .
(٣) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥٥) .
(٤) فى ت : « الطبرى » .
(٥) فى ت : « عن » .
(٦) فى ت : « له » .
(٧) المسند (٢/ ١٦٨) وصحيح مسلم برقم (٣٨٤) وسنن أبى داود برقم (٥٢٣) وسنن الترمذى برقم (٣٦١٤) وسنن النسائى (٢/ ٢٥) .

بكر الجُشَمى، عن صفوان بن سليم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: « من سأل الله لى الوسيلة، حقَّت عليه شفاعتى يوم القيامة » (١).

حديث آخر: قال إسماعيل القاضى: حدثنا سليمان (٢) بن حرب، حدثنا سعيد بن زيد، عن ليث، عن كعب ـ هو كعب الأحبار ـ عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا عَلَيَّ، فإن صلاتكم عليَّ زكاة لكم، وسلوا الله لى الوسيلة». قال: فإما حَدّثنا وإما سألناه، فقال: « الوسيلة أعلى درجة فى الجنة، لا ينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون ذلك (٣) الرجل ».

ثم رواه عن محمد بن أبى بكر، عن معتمر، عن ليث ـ وهو ابن أبى سليم ـ به (٤). وكذا الحديث الآخر:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا بكر بن سوادة، عن زياد بن نعيم، عن وَفاء (٥) الحضرمى، عن رُوَيْفع بن ثابت الأنصارى؛ أن رسول الله ﷺ قال: « من صلى على محمد وقال: اللهم، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة، وجبت له شفاعتى ».

وهذا إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه (٦).

أثر آخر (٧): قال إسماعيل القاضى: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنى مَعْمَر، عن ابن (٨) طاوس، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وأعطه سُؤْلَه فى الآخرة والأولى، كما آتيت إبراهيم وموسى، عليهما السلام. إسناد جيّد قوى صحيح (٩).

ومن ذلك: عند دخول المسجد والخروج منه: للحديث الذى رواه الإمام أحمد (١٠):

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ليث بن أبى سليم، عن عبد الله بن الحسن (١١)، عن أمه فاطمة بنت الحسين، عن جدته [فاطمة] (١٢) بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال: « اللّهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب رحمتك». وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: « اللهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب فضلك » (١٣).

وقال إسماعيل القاضى: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا سفيان (١٤) بن عمر التميمى، عن

(١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥٠).
(٢) فى أ: « سليم ».
(٣) فى ف، أ: « أكون أنا ذلك ».
(٤) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٤٦، ٤٧).
(٥) فى ف، أ: « ورقاء ».
(٦) المسند (٤/١٠٨).
(٧) فى أ: « حسن ».
(٨) فى أ: « أبى ».
(٩) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥٢).
(١٠) فى ت: « ومنه عند دخول المسجد لما روى الإمام أحمد ».
(١١) فى ت، أ: « الحسين ».
(١٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(١٣) المسند (٦/٢٨٢).
(١٤) فى أ: « سيف ».

سليمان الضَّبِّىّ ، عن على بن الحسين قال : قال على بن أبى طالب ، رضى الله عنه [١] : إذا مررتم بالمساجد فصلوا على النبى ﷺ [٢] .

وأما الصلاة عليه ﷺ فى الصلاة ، فقد قدمنا الكلام عليها فى التشهد الأخير ، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء مع [٣] الشافعى ، رحمه الله [٤] . وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولا واحدا ، وهل تستحب ؟ على قولين للشافعى .

ومن ذلك [٥] : الصلاة عليه ﷺ فى صلاة الجنازة : فإن السنة أن يقرأ فى التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفى الثانية يصلى على النبى ﷺ ، وفى الثالثة يدعو للميت ، وفى الرابعة يقول : اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده .

قال الشافعى ، رحمه الله : حدثنا مُطَرِّف بن مازن ، عن مَعْمَر ، عن الزهرى : أخبرنى أبو أمامة ابن [٦] سهل بن حُنَيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبى ﷺ : أن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ثم يصلى على النبى ﷺ ويخلص الدعاء للجنازة ، وفى التكبيرات لايقرأ فى شىء منها ، ثم يسلم سرا فى نفسه [٧] .

ورواه النسائى ، عن أبى أمامة نفسه أنه قال : من السنة ، فذكره [٨] .

وهذا من الصحابى فى حكم المرفوع على الصحيح .

ورواه إسماعيل القاضى ، عن محمد بن المثنى ، عن عبد الأعلى ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن أبى أمامة بن سهل ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : السنة فى الصلاة على الجنازة . . . فذكره [٩] .

وهكذا رُوِى عن أبى هريرة ، وابن عمر ، والشعبى .

ومن ذلك [١٠] : فى صلاة العيد : قال إسماعيل القاضى [١١] : حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدَّسْتَوَائى ، حدثنا حَمَّاد بن أبى سليمان ، عن إبراهيم ، عن [١٢] علقمة : أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد [١٣] ، فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة ، وتحمد ربك وتصلى على

---

(١) فى ت : « وعن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، قال » .
(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٨٠) .
(٣) فى ت ، أ: « منهم » .
(٤) فى ت ، أ : « مع الشافعى وأحمد ، رحمهما الله » .
(٥) فى ت : « ومنه » .
(٦) فى ت : « فروى الشافعى ، رحمه الله ، بإسناده عن » .
(٧) الأم (١/ ٢٣٩) .
(٨) سنن النسائى (٤/ ٧٥) .
(٩) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٩٤) .
(١٠) فى ت : « ومنه الصلاة على النبى ﷺ » .
(١١) فى ت : « روى القاضى إسماعيل » .
(١٢) فى ت : « بن » .
(١٣) فى ت ، أ : « عقبة صلى العيد يوما » .

النبى ﷺ ،ثم تدعو ،وتكبر وتفعل مثل ذلك ،ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ،ثم تكبر وتفعل مثل ذلك،ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ،ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلى على النبى ﷺ ثم تدعو وتكبر،وتفعل مثل ذلك ،ثم تركع . فقال حذيفة وأبو موسى : صدق أبو عبد الرحمن .إسناد [١] صحيح [٢] .

ومن ذلك : أنه يُستَحَبّ ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ قال الترمذى :

حدثنا أبو داود ، أخبرنا النضر بن شميل [٣] ، عن أبى قُرّة الأسدى ،عن سعيد بن المسيَّب ،عن عمر بن الخطاب [٤] قال :الدعاء موقوف بين السماء والأرض ،لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك [٥] .

وهكذا رواه أيوب بن موسى ،عن سعيد بن المسيب ، عن عمر بن الخطاب ،قوله.ورواه معاذ بن الحارث ،عن أبى قرة ،عن سعيد بن المسيب ،عن عمر مرفوعا [٦] .وكذا رواه رَزِين بن معاوية [٧] فى كتابه مرفوعاً ،عن النبى ﷺ قال :« الدعاء موقوف بين السماء والأرض ،لا يصعد حتى يصلى على،فلا تجعلونى كَغُمَر الراكب ،صلوا على أول الدعاء وأوسطه وآخره » [٨] .

وهذه الزيادة إنما تروى من رواية جابر بن عبد اللّه فى مسند الإمام عبد بن حُميد الكَشى [حيث][٩] قال :حدثنا جعفر بن عون ،أخبرنا موسى بن عبيدة ،عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم،عن أبيه قال:قال جابر : قال لنا رسول اللّه ﷺ : « لا تجعلونى كقدح الراكب ،إذا علق تعاليقه أخذ قدحه فملأه من الماء ،فإن كان له حاجة فى الوضوء توضأ ،وإن كان له حاجة فى الشرب شرب وإلا أهراق ما فيه ،اجعلونى فى أول الدعاء ،وفى وسط الدعاء ،وفى آخر الدعاء » .فهذا حديث غريب ، وموسى بن عُبَيدة ضعيف الحديث [١٠] .

ومن [آكد] [١١] ذلك :دعاء القنوت:لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ،وابن خزيمة [١٢] ، وابن حبَّان ،والحاكم ،من حديث أبى الحوراَء [١٣] ،عن الحسن بن على ،رضى اللّه عنهما ،قال: علَّمَنى رسول اللّه ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر :« اللهم اهدنى فيمن هديت ،وعافنى فيمن عافيت ،

---

(١) فى ت ،ف ، أ : « إسناده » .
(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٨٨) .
(٣) فى أ : « سهيل » .
(٤) فى ت : « روى الترمذى بإسناده عن عمر بن الخطاب » .
(٥) سنن الترمذى برقم (٤٨٦) .
(٦) أخرجه الواحدى ومن طريقه الحافظ الرهاوى فى الأربعين كما فى تخريج الكشاف للحافظ ابن حجر (ص ١٣٧) .
(٧) فى ت : « ورواه رزين بن أبى معاوية » .
(٨) ذكره ابن الأثير فى جامع الأصول (٤/ ١٥٥) رواية رزين .
(٩) زيادة من ف ،أ .
(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٣٠) ورواه البزار فى مسنده برقم (٣١٥٦) « كشف الأستار » من طريق موسى بن عبيدة به .
(١١) زيادة من ت ، أ .
(١٢) فى أ : « وابن جرير » .
(١٣) فى أ : « الجوزاء » .

وتولنى فيمن توليت، وبارك لى فيما أعطيت، وقنى شر ما قضيت، فإنك تقضى ولا يقضى عليك، إنه لا يَذِلّ من واليت (١)، تباركت [ربنا] (٢) وتعاليت » (٣) .

وزاد النسائى فى سننه بعد هذا: وصلى الله على النبى محمد .

ومن ذلك: أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه [فى] (٤) يوم الجمعة وليلة الجمعة: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن على الجَعْفِى، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبى الأشعث الصنعانى(٥)، عن أوس بن أوس الثقفى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا على من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة على » . قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرَمّتْ؟ ـ يعنى: وقد بليت ـ قال: « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجه، من حديث حسين بن على الجعفى (٦) . وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطنى، والنووى فى الأذكار .

حديث آخر: قال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا عمرو بن سَوَّاد المصرى (٧)، حدثنا عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبى هلال، عن زيد بن أيمن (٨)، عن عُبادة بن نُسَىّ، عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: « أكثروا الصلاة علىّ يوم الجمعة؛ فإنه مشهود تشهده الملائكة . وإن أحداً لن يصلى على إلا عُرضت عَلَىّ صلاته حتى يفرغ منها » . قال: قلت: وبعد الموت؟ قال: « [وبعد الموت] (٩)، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » [فنبى الله حى يرزق] (١٠) .

هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع بين عُبادة بن نَسى وأبى الدرداء، فإنه لم يدركه(١١)، والله أعلم .

وقد روى البيهقى من حديث أبى أمامة وأبى مسعود، عن النبى ﷺ فى الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة (١٢)، ولكن فى إسنادهما ضعف، والله أعلم . وروى مرسلا عن الحسن

---

(١) فى ف، أ: « واليت، ولا يعز من عاديت » .

(٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند .

(٣) المسند (١/ ١٩٩) وسنن أبى داود برقم (١٤٢٥) وسنن الترمذى برقم (٤٦٤) وسنن النسائى (٣/ ٢٤٨) وسنن ابن ماجة برقم (١١٧٨) وصحيح ابن خزيمة (١٠٩٥) وصحيح ابن حبان (٢/ ١٤٨) والمستدرك (٣/ ١٧١) .

(٤) زيادة من ت .

(٥) فى ت: « روى الإمام أحمد بإسناده » .

(٦) المسند (٤/ ٨) وسنن أبى داود برقم (١٠٤٧) وسنن النسائى (٣/ ٩١) وسنن ابن ماجة برقم (١٦٣٦) .

(٧) فى أ: « عمرو بن ندار المقرى » .

(٨) فى ف: « ثابت » .

(٩، ١٠) زيادة من ت، ف، وابن ماجة .

(١١) سنن ابن ماجة برقم (١٦٣٧) .

(١٢) السنن الكبرى للبيهقى (٣/ ٢٤٩) من حديث أبى أمامة، رضى الله عنه، ولم أجده عنده من حديث أبى مسعود وإنما هو من حديث أنس، رضى الله عنه .

البصرى، فقال إسماعيل القاضى:

حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن ـ هو البصرى ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: « لا تأكل الأرض جَسَدَ من كَلّمه [١] روحُ القدس ». مرسل حسن [٢].

وقال الشافعى: أخبرنا إبراهيم بن محمد، أخبرنا صفوان بن سليم [٣] أن النبى ﷺ قال: « إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة، فأكثروا الصلاة على ». هذا مرسل [٤].

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر فى الخطبتين، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك؛ لأنها [٥] عبادة، وذكر الله فيها شرط[٦]، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة. هذا مذهب الشافعى وأحمد، رحمهما الله.

ومن ذلك: أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره، صلوات الله وسلامه عليه: قال[٧] أبو داود:

حدثنا ابن عوف ـ هو محمد ـ حدثنا [٨] المقرى، حدثنا حَيْوَة، عن أبى صخر حميد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: « ما من [٩] أحد يسلم على إلا رَدّ الله على روحى، حتى أرد عليه السلام ».

تفرد به أبو داود، وصححه النووى فى الأذكار [١٠]. ثم قال [١١] أبو داود:

حدثنا أحمد بن صالح قال: قرأت على عبد الله بن نافع، أخبرنى ابن أبى ذئب، عن سعيد المَقْبُرى، عن أبى هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: « لا تجعلوا بيوتكم قُبُوراً، ولا تجعلوا قبرى عيداً، وصلوا على، فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم ».

تفرد به أبو داود أيضا [١٢]. وقد رواه الإمام أحمد عن سُرَيْج، عن عبد الله بن نافع ـ وهو الصائغ ـ به [١٣]. وصححه النووى أيضاً. وقد روى من وجه آخر عن على، رضى الله عنه. قال القاضى إسماعيل [١٤] بن إسحاق فى كتابه « فضل الصلاة على النبى ﷺ »:

حدثنا إسماعيل بن أبى أُوَيْس، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب [عمن أخبره][١٥] من أهل بيته، عن على بن الحسين بن على: أن رجلا كان يأتى كل

(١) فى أ: « كلم ».
(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٢٣).
(٣) فى أ: « صفوان بن أبى سليم ».
(٤) الأم (١/ ١٨٤).
(٥) فى ت: « لأنهما ».
(٦) فى ت: « مشروط ».
(٧) فى ت: « فروى ».
(٨) فى أ: « بن ».
(٩) فى أ: « ما منكم من ».
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٠٤١).
(١١) فى ت: « روى ».
(١٢) سنن أبى داود برقم (٢٠٤٢).
(١٣) المسند (٢/ ٣٦٧).
(١٤) فى أ: « القاضى ابن إسماعيل ».
(١٥) زيادة من أ، وفى هـ: « عن أخيه » والمثبت من ت، ف، أ.

غداة فيزور قبر النبى ﷺ ويصلى عليه ، ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه على بن الحسين ، فقال له على ابن الحسين : ما يحملك على هذا ؟ قال : أحب السلام على النبى ﷺ . فقال له على بن الحسين: هل لك أن أحدثك حديثا عن أبى ؟ قال : نعم . فقال له على بن الحسين : أخبرنى أبى ، عن جدى أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا قبرى عيداً ، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على وسلموا حيثما كنتم فتبلغنى (١) صلاتكم وسلامكم » .

فى إسناده رجل مبهم لم يُسَمَّ (٢) . وقد رُوى من وجه آخر مرسلا ، قال عبد الرزاق فى مصنفه، عن الثورى ، عن ابن عَجْلان ، عن رجل ـ يقال له : سهيل ـ عن الحسن بن الحسن بن على؛ أنه رأى قوماً عند القبر فنهاهم ، وقال : إن النبى ﷺ قال : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيثما كنتم ؛ فإن صلاتكم تبلغنى » (٣) . فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم [فوق الحاجة] (٤) ، فنهاهم .

وقد رُوى أنه رأى رجلا ينتاب القبر فقال : يا هذا ، ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء ، أى: الجميع يبلغه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وقال الطبرانى فى معجمه الكبير : حدثنا أحمد بن رِشْدين المصرى ، حدثنا سعيد بن أبى مريم، حدثنا محمد بن جعفر ، أخبرنى حميد بن أبى زينب ، عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهم ، عن أبيه ؛ أن رسول الله ﷺ قال: « صلوا على حيثما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغنى»(٥).

ثم قال الطبرانى: حدثنا العباس بن حمدان الأصبهانى، حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان، أخبرنا يزيد بن هارون عن (٦) شيبان ، عن الحكم بن عبد الله بن خطاف (٧) ، عن أم أنيس بنت الحسن بن على ، عن أبيها قال : قال رسول الله ﷺ : « أرأيت قول الله ، عز وجل : ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾ ؟» فقال: « إن هذا من المكتوم ، ولولا أنكم سألتمونى عنه لما أخبرتكم ، إن الله وكل بى ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلى على إلا قال ذانك الملكان : « غفر الله لك » . وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين : « آمين » . ولا يصلى أحد إلا قال ذانك الملكان : «غفر الله لك». ويقول الله وملائكته جوابا لذينك الملكين : « آمين » .

غريب جداً ، وإسناده فيه ضعف شديد (٨) .

---

(١) فى ف ، أ : « فستبلغنى » .

(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٢٠) .

(٣) المصنف برقم (٦٧٢٦) .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) المعجم الكبير (٣/ ٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٦٢) : « فيه حميد بن أبى زينب لم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٦) فى هـ ، ت ، أ ، ف : « بن أبى » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبرانى .

(٧) فى هـ ، ت ، أ ، ف : « خطاب » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبرانى وكتب الرجال .

(٨) المعجم الكبير (٣/ ٨٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٣) : « فيه الحكم بن عبد الله بن خطاف وهو كذاب » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ،عن سفيان ،عن عبد الله بن السائب ،عن زاذان ،عن عبد الله بن مسعود ،رضى الله عنه ؛أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض،يبلغونى من (١) أمتى السلام».

وهكذا رواه النسائى من حديث سفيان الثورى وسليمان بن مِهْرَان الأعمش،كلاهما عن عبد الله ابن السائب ،به (٢) .

فأما الحديث الآخر :« من صلى عَلَيّ عند قبرى سمعته ،ومن صلى على من بعيد بُلغته » ـ ففى إسناده نظر ، تفرد به محمد بن مروان السدى الصغير،وهو متروك ،عن الأعمش ،عن أبى صالح،عن أبى هريرة مرفوعاً (٣) .

قال أصحابنا :ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تلبيته أن يصلى على النبى ﷺ : لما روى (٤) عن الشافعى والدارقطنى من رواية صالح بن محمد بن زائدة ،عن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق قال :كان يُؤمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلى على النبي ﷺ على كل حال (٥) .

وقال إسماعيل القاضى :حدثنا عارم بن الفضل ،حدثنا عبد الله بن المبارك ،حدثنا زكريا ،عن الشعبى ،عن وهب بن الأجدع قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول :إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً،وصلوا عند المقام ركعتين ،ثم ائتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت ،فكبروا سبع تكبيرات ،تكبيرا بين حمد الله وثناء عليه ،وصلاة على النبى ﷺ ،ومسألة لنفسك ،وعلى المروة مثل ذلك (٦) .

إسناد جيد حسن قوى .

وقالوا : ويستحب الصلاة على النبى ﷺ مع ذكر الله عند الذبح:واستأنسوا بقوله (٧) تعالى:﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ٤]،قال بعض المفسرين :يقول الله تعالى : « لا أذكر إلا ذكرت معى » .وخالفهم فى ذلك الجمهور ،وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الرب تعالى ،كما عند الأكل،والدخول ،والوقاع وغير ذلك ،مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبى ﷺ .

حديث آخر:قال إسماعيل القاضى : حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى ،حدثنا عمر بن هارون،عن موسى بن عبيدة ،عن محمد بن ثابت ،عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «صلوا على أنبياء الله ورسله ؛ فإن الله بعثهم كما بعثنى» .

فى إسناده ضعيفان ،وهما عمر بن هارون وشيخه (٨) ،والله أعلم .وقد رواه عبد الرزاق ،عن الثورى ،عن موسى بن عبيدة الربّذى ، به (٩) .

---

(١) فى ف ، أ : « عن » .
(٢) المسند (١/ ٤٤١) وسنن النسائى (٣/ ٤٣) .
(٣) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (٣/ ٢٩٢) من طريق الأصمعى عن السدى به ،ثم روى بإسناده عن ابن قتيبة قال : سألت ابن نمير عن حديث :« من صلى عليّ عند قبرى » فقال : «دع ذا ،محمد بن مروان ليس بشىء» .
(٤) فى ت : « لما رواه » .
(٥) الأم (٢/ ١٣٤) .
(٦) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٨١) .
(٧) فى ف : « بقول الله » .
(٨) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٤٥) وعمر بن هارون متروك ،وموسى بن عبيدة ضعيف .
(٩) المصنف لعبد الرزاق برقم (٣١١٨) .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة عليه عند طنين الأذن ،إن صح الخبر فى ذلك ،على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة قد رواه فى صحيحه فقال : حدثنا زياد بن يحيى ،حدثنا مَعْمَر بن محمد بن عبيد الله ، عن أبيه محمد (١) ،عن أبيه أبى رافع (٢) قال :قال رسول الله ﷺ : « إذا طنت أذن أحدكم فَلْيذكرنى وليصل على ،ولْيَقُل : ذَكَر الله مَن ذكرنى بخير » . إسناده غريب ،وفى ثبوته نظر (٣) ،والله أعلم .

[وهاهنا مسألة] (٤) :

وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبى ﷺ كلما كتبه ،وقد ورد فى الحديث من طريق كادح بن رحمة ،عن نَهْشَل ،عن الضحاك ،عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «من صلى علىّ فى كتاب ،لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمى فى ذلك الكتاب » (٥) .

وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة ،وقد رُوى من حديث أبى هريرة ،ولا يصح أيضاً(٦)،قال الحافظ أبو عبد الله الذهبى شيخُنا : أحسبه موضوعاً .وقد رُوى نَحوُه عن أبى بكر،وابن عباس .ولا يصح من ذلك شيء (٧) ، والله أعلم .وقد ذكر الخطيب البغدادى فى كتابه :« الجامع لآداب الراوى والسامع (٨) » ،قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل ،رحمه الله : كثيراً ما يكتب اسم النبى ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة ،قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظاً (٩) .

[فصل] (١٠)

وأما الصلاة على غير الأنبياء ،فإن كانت (١١) على سبيل التبعية كما تقدم فى الحديث : « اللهم، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته » ،فهذا جائز بالإجماع ،وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم :

---

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « عن على بن أبى رافع » والصواب ما أثبتناه .

(٢) فى ت : « بإسناده عن أبى رافع » .

(٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الصغير (٢/ ١٢٠) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٤٥١) من طريق معمر به ،وقال ابن عدى :« معمر بن محمد بن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه منكر الحديث ،ومقدار ما يرويه لا يتابع عليه » .

(٤) زيادة من ت .

(٥) أخرجه أبو القاسم الأصبهانى فى الترغيب والترهيب برقم (١٦٩٩) من طريق أحمد بن جعفر الهاشمى عن سليمان بن الربيع عن كادح بن رحمة به .

(٦) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٢٣٤) « مجمع البحرين » من طريق يزيد بن عياض عن الأعرج ،عن أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٧) أما حديث ابن عباس فسبق ،وأما حديث أبى بكر فرواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ٢٤٩) من طريق أبى داود النخعى ، عن أيوب بن موسى ، عن القاسم ، عن أبى بكر ،رضى الله عنه ، وداود النخعى وضاع .

(٨) فى ت : « والسائل » .

(٩) الجامع لأخلاق الراوى (١/ ٢٧١) ثم قال عقبه : « وقد خالفه غيره من الأئمة المتقدمين فى ذلك » .

(١٠) زيادة من ف ، أ .

(١١) فى ت ، ف ، أ : « كان » .

فقال قائلون : يجوز ذلك ، واحتجوا بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُه ﴾، وبقوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٧]، وبقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا (١) وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُم ﴾ [التوبة: ١٠٣] ، وبحديث عبد الله بن أبى أوْفَى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صَلِّ عليهم » . وأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » . أخرجاه فى الصحيحين. وبحديث جابر : أن امرأته قالت : يا رسول الله ، صل عَلَيَّ وعلى زوجى. فقال : « صلى الله عليكِ وعلى زوجك » (٢) .

وقال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال : « قال أبو بكر صلى الله عليه » . أو: « قال على صلى الله عليه » . وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال : « قال محمد ، عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلا ؛ لأن هذا من شعار ذكر الله ، عز وجل . وحملوا ما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعارا لآل أبى أوفى ، ولا لجابر وامرأته . وهذا مسلك حسن .

وقال آخرون: لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم فى ذلك ، والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك : هل هو من باب التحريم ، أو الكراهة التنزيهية ، أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال ، حكاها الشيخ أبو زكريا النووى فى كتاب الأذكار . ثم قال: والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد فى ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة فى اللسان (٣) بالأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، كما أن قولنا : « عز وجل » ، مخصوص بالله سبحانه وتعالى، فكما لا يقال : « محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلا ، لا يقال: « أبو بكر ـ أو : على ـ صلى الله عليه» . هذا لفظه بحروفه . قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجُوَيْنى من أصحابنا : هو فى معنى الصلاة ، فلا يستعمل فى الغائب ، ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : « على عليه السلام» ، وسواء فى هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به ، فيقال : سلام عليكم ، أو سلام عليك ، أو السلام عليك أو عليكم . وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره (٤) .

قلت : وقد غلب هذا فى عبارة كثير من النساخ للكتب ، أن يفرد على ، رضى الله عنه ، بأن يقال: « عليه السلام » ، من دون سائر الصحابة ، أو : « كرم الله وجهه » وهذا وإن كان معناه

(١) فى ت ، ف : « تطهرهم بها وتزكيهم » وهو خطأ .
(٢) تقدم تخريج هذين الحديثين فى هذه السورة .
(٣) فى ت ، ف ، أ : « فى لسان السلف » .
(٤) الأذكار ص (١٥٩، ١٦٠) .

صحيحاً ، لكن ينبغى أن يُسَاوى بين الصحابة فى ذلك ؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان [بن عفان] (١) أولى بذلك منه ، رضى الله عنهم أجمعين .

قال إسماعيل القاضى : حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنى عثمان بن حكيم بن عَبَّاد بن حُنَيف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : لا تصح (٢) الصلاة على أحد إلا على النبى ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة (٣) (٤) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا حسين بن على ، عن جعفر بن بَرْقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله : أما بعد ، فإن أناسا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدْلَ الصلاة على النبى ﷺ ، فإذا جاءك كتابى هذا فمُرْهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ، ويدعوا ما سوى ذلك . أثر حسن (٥) .

قال إسماعيل القاضى : حدثنا معاذ بن أسد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنى خالد بن يَزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن نُبَيه بن وهب ؛ أن كعباً دخل على عائشة ، رضى الله عنها ، فذكروا رسول الله ﷺ ، فقال كعب : ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبى ﷺ ، سبعون ألفاً بالليل ، وسبعون ألفاً بالنهار، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه (٦) .

[فرع] (٧) :

قال النووى : إذا صلى على النبى ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : « صلى الله عليه فقط » ، ولا : « عليه السلام » فقط ، وهذا الذى قاله منتزع من هذه الآية الكريمة ، وهى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾، فالأولى أن يقال : ﷺ تسليما .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾ .

---

(١) زيادة من ف .

(٢) فى ت ، ف ، أ : « لا تصلح » .

(٣) فى ت ، ف ، أ: « بالاستغفار » .

(٤) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٧٥) ولفظه عنده « لا تصلوا على أحد إلا على النبى ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار ».

(٥) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٧٦) .

(٦) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (١٠٢) .

(٧) زيادة من : ت ، أ .

يقول تعالى : متهدداً ومتوعداً مَن آذاه ، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك ، وأذَى رسوله بعيب أو تنقص ، عياذا بالله من ذلك .

قال عِكْرِمة فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه ﴾ : نزلت فى المصوِّرين .

وفى الصحيحين ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيَّب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله ، عز وجل : يؤذينى ابن آدم ، يَسُبّ الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (١) .

ومعنى هذا : أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر ، فعل بنا كذا وكذا . فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ، عز وجل ، فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعى وأبو عبيد وغيرهما من العلماء ، رحمهم الله .

وقال العَوْفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه ﴾ : نزلت فى الذين طعنوا [على النبى ﷺ] (٢) فى تزويجه صفية بنت حُيَى بن أخطب .

والظاهر أن الآية عامة فى كل من آذاه بشىء ، من آذاه فقد آذى الله ، ومن (٣) أطاعه فقد أطاع الله ، كما قال (٤) الإمام أحمد :

حدثنا يونس ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن عَبيدة بن أبى رائطة الحذاء التميمى ، عن عبد الرحمن [بن زياد] (٥) ، عن عبد الله بن المغفل المزنى قال : قال النبى ﷺ : « الله الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غَرَضا بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

وقد رواه الترمذى من حديث عَبيدة بن أبى رائطة ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن عبد الله بن المغفل ، به . ثم قال : وهذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٦) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ أى : ينسبون إليهم ما هم بُرَآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ، ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ وهذا هو البهت البيّن أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العيب والتنقص(٧) لهم ، ومن أكثر من يدخل فى هذا الوعيد الكفرةُ بالله ورسوله (٨) ، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برّأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ؛ فإن الله ، عز وجل ، قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) .
(٢) زيادة من ت ، أ .
(٣) فى أ : « كما أن من » .
(٤) فى ت : « كما روى » .
(٥) زيادة من ت ، أ ، والمسند .
(٦) المسند (٤/ ٨٧) وسنن الترمذى برقم (٣٨٦٢) .
(٧) فى ت : « والنقص » .
(٨) فى أ : « ورسله » .

والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم[١] ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم فى الحقيقة منكوسو القلوب [٢] ، يذمون الممدوحين ، ويمدحون المذمومين .

وقال [٣] أبو داود : حدثنا القَعْنَبِىّ ، حدثنا عبد العزيز ـ يعنى : ابن محمد ـ عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، أنه قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : « ذكرُكَ أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه » .

وهكذا رواه الترمذى ، عن قتيبة ، عن الدراوردى ، به . قال : حسن صحيح [٤] .

وقد قال [٥] ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن عمار بن أنس ، عن ابن أبى مُلَيْكَة ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أىُّ الربا أربى عند الله ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أربى الربا عند الله استحلالُ عرض امرئ مسلم» ، ثم قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [٦].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾ .

يقول تعالى آمراً رسوله ،صلى الله عليه وسلم تسليما،أن يأمر النساء المؤمنات ـ خاصة أزواجَه وبناته لشرفهن ـ بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء . والجلباب هو : الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، وقتادة ، والحسن البصرى ، وسعيد ابن جبير ، وإبراهيم النَّخَعِى ، وعطاء الخراسانى ، وغير واحد . وهو بمنزلة الإزار اليوم .

قاله الجوهرى : الجلباب : الملحفة ، قالت امرأة من هذيل ترثى قتيلا لها :

تَمْشى النّسور إليه وَهْيَ لاهيَةٌ مَشْيَ العَذَارى عَلَيْهن الجَلابيبُ [٧] .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين [٨] إذا خرجن من بيوتهن فى

---

(١) فى أ : « وينتقصونهم » . (٢) فى ت : « قلوبهم منكوسة » . (٣) فى ت : « وروى » .
(٤) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٤) وسنن الترمذى برقم (١٩٣٤) .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٦٧١١) من طريق يحيى بن واضح عن عمار بن أنس ، به .
(٧) الصحاح (١/١٠١) .
(٨) فى ت ، ف ، أ : « المؤمنات » .

حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدين عيناً واحدة .

وقال محمد بن سيرين : سألت عَبيدةَ السّلمانى عن قول اللّه تعالى : ﴿ **يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ** ﴾ ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى .

وقال عكرمة : تغطى ثُغْرَة نحرها بجلبابها تدنيه عليها .

وقال [1] ابن أبى حاتم : أخبرنا أبو عبد اللّه الظّهرانى [2] فيما كتب إلىّ ، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر ، عن ابن خُثَيْم ، عن صفية بنت شيبة ، عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ** ﴾ ، خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سُود يلبسنها [3] .

وقال[4] ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنى الليث ، حدثنا يونس بن يزيد قال: وسألناه [5] ـ يعنى : الزهرى ـ : هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة ، وتنهى عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر إلا محصنات [6] . وقد قال اللّه تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ** ﴾ .

وروى عن سفيان الثورى أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة ، إنما ينهى عن ذلك لخوف الفتنة ؛ لا لحرمتهن ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ **وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ** ﴾ أى : إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أنَّهن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر، قال السدى فى قوله تعالى : ﴿ [**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ**] [7] **قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ** ﴾ قال : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، يتعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضَيِّقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ،فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة ، كفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب، قالوا : هذه أمة. فوثبوا إليها [8] .

وقال مجاهد : يتجلببن فيعلم أنهن حرائر ، فلا يعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة .

وقوله : ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ أى : لما سلف فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك .

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر : ﴿ **وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ﴾ قال عكرمة وغيرة : هم الزناة هاهنا ﴿ **وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ** ﴾ يعنى: الذين يقولون: « جاء

---

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى أ : « الطبرانى » .

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٠١) ورواه الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة عن عائشة مثله ، وأخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٥٩).

(٤) فى ت : « وروى » . (٥) فى ت : « سئل » . (٦) فى أ : « بالحرائر المحصنات » .

(٧) زيادة من أ . (٨) فى ت ، ف : « عليها » .

الأعداء » و « جاءت الحروب » ، وهو كذب وافتراء ،لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أى: لنسلطنَّك عليهم . وقال قتادة ، رحمه الله : لنحرّشنَّك بهم . وقال السدى : لنعلمنك بهم .

﴿ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا ﴾ أى : فى المدينة ﴿ إِلا قَلِيلاً . مَلْعُونِينَ ﴾ حال منهم فى مدة إقامتهم فى المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ،﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ أى: وجدوا، ﴿أُخِذُوا﴾ لذلتهم وقلتهم،﴿ وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ .

ثم قال : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ أى : هذه سنته فى المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ أى : وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً لرسوله ﷺ : أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك . وأرشده أن يرد علمها إلى الله ،عز وجل ، كما قال له فى سورة « الأعراف » ، وهى مكية وهذه مدنية ، فاستمر الحال فى ردّ علمها إلى الذى يقيمها ، لكن [1] أخبره أنها قريبة بقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ، كما قال : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ، وقال : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١] ، وقال: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١].

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى : فى الدار الآخرة : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى :ماكثين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها، ﴿ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ أى : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا ﴾ أى : يسحبون فى النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال العرصات بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ

(١) فى ت : « لكنه » .

الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]، وقال تعالى : ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ [الحجر : ٢] . وهكذا أخبر عنهم في حالتهم [١] هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ، ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾. وقال طاوس : سادتنا : يعنى الأشراف ، وكبراءنا : يعنى العلماء . رواه ابن أبى حاتم .

أى : اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة ، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء ، ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ أى : بكفرهم وإغوائهم إيانا ، ﴿ والعنهم لعنا كثيرا [٢] ﴾ . قرأ بعض القراء بالباء الموحدة . وقرأ آخرون بالثاء المثلثة ، وهما قريبا المعنى ، كما فى حديث عبد الله بن عمرو : أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى . قال : « قل : اللّهم ، إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » . أخرجاه فى الصحيحين [٣]، يروى « كبيراً » و « كثيراً » ، وكلاهما بمعنى صحيح .

واستحب بعضهم أن يجمع الداعى بين اللفظين فى دعائه ، وفى ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة ، وهذا تارة ، كما أن القارئ مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فَحَسَن ، وليس له الجمع بينهما ، والله أعلم .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا ضِرَار بن صُرَد ، حدثنا على بن هاشم ، عن [محمد بن] [٤] عبيد الله بن أبى رافع ، عن أبيه [٥] ، فى تسمية من شهد مع على ، رضى الله عنه : الحجاج بن عمرو بن غَزِيَّة ، وهو الذى كان يقول عند اللقاء : يا معشر الأنصار ، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه : ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾؟ [٦] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها (٦٩) ﴾ .

قال البخارى عند تفسير [٧] هذه الآية : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا عوف ، عن الحسن [ومحمد] [٨] وخلاس ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن موسى كان رجلا حَيِيًّا ، وذلك قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ [٩].

---

(١) فى ت ، ف ، أ : « حالهم » .
(٢) فى ت : « كثيرا كبيرا أو كلاهما » وفى ف ، أ : « كبيرا » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٥) .
(٤) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى .
(٥) فى ت : « وروى أبو القاسم الطبرانى بإسناده عن أبى رافع » .
(٦) المعجم الكبير (٣/ ٢٢٣) .
(٧) فى ت : « روى البخارى عند تفسيره » .
(٨) زيادة من ت ، أ ، والبخارى .
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٩) .

هكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصراً جداً ، وقد رواه فى أحاديث « الأنبياء » بهذا السند بعينه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، كان رجلا حَيِيا ستِّيرا ، لا يُرَى من جلده شَىء استحياء منه ، فآذاهُ من آذاهُ من بنى إسرائيل ، فقالوا :ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما بَرص وإما أُدْرَة وإما آفة ، وإن الله ،عز وجل، أراد أن يُبرِّئه مما قالوا لموسى ، عليه السلام ، فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلمَّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حَجَر ، ثوبى حَجَر ، حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل ، فرأوه عُرياناً أحسن ما خلق الله ،عز وجل،وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبَه فلبسه ، وطَفِقَ بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لَنَدباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ـ قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا** ﴾ ».

وهذا سياق حسن مطول ، وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا عوف ، عن الحسن ، عن النبى ﷺ ـ وخلاس ، ومحمد ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا** ﴾ قال : قال النبى ﷺ : « إن موسى كان رجلا حَيِيا سَتِّيرا ، لا يكاد يرى من جلده شىء استحياء منه » (٢) .

ثم ساق الحديث كما رواه البخارى مطولا ، ورواه فى تفسيره (٣)عن روح ، عن عوف ، به . ورواه ابن جرير من حديث الثورى ، عن جابر الجعفى ، عن عامر الشعبى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحو هذا (٤) .وهكذا رواه من حديث سليمان بن مِهْرَان الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَيْر ، وعبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ** ﴾ قال : قال قومه له : إنك آدر . فخرج ذات يوم يغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه ، وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالس بنى إسرائيل ، قال : فرأوه ليس بآدر، فذلك قوله : ﴿ **فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا** ﴾ .

وهكذا رواه العوفى ، عن ابن عباس سواء .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المعلى الأدمىّ قالا : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن أنس ، عن النبى ﷺ قال : « كان موسى ، عليه السلام ، رجلا حَيِيا ، وإنه أتى ـ أحسبه قال : الماء ـ ليغتسل ،فوضع ثيابه على صخرة ،وكان لا يكاد تبدو عورته ، فقال(٥) بنو إسرائيل : إن موسى آدر ـ أو : به آفة ، يعنون : أنه لا يضع ثيابه ـ

(١) صحيح البخارى برقم (٣٤٠٤) .
(٢) المسند (٣/ ٥١٤) .
(٣) فى أ : « ورواه عنه فى تفسيره » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٣٦) .
(٥) فى ف ، أ : « فقالت » .

فاحتملت الصخرة ثيابة حتى صارت بحذاء مجالس بنى إسرائيل ، فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال، أو كما قال ، فذلك قوله : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام ، عن سفيان ابن حسين ، حدثنا الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (٢)، عن على بن أبى طالب ، رضى اللّه عنهم ، فى قوله : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ قال : صعد موسى وهارون الجبل ،فمات هارون ، عليه السلام ، فقال بنو إسرائيل لموسى ، عليه السلام : أنت قتلته ، كان ألين لنا منك وأشد حياء . فآذوه من ذلك ، فأمر اللّه الملائكة فحملته،فمروا (٣) به على مجالس بنى إسرائيل ، فتكلمت بموته، فما عرف موضع قبره إلا الرَّخَم ، وإن اللّه جعله أصم أبكم .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن على بن موسى الطوسى ، عن عباد بن العوام ، به (٤) .

ثم قال : وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى ، وجائز أن يكون الأول هو المراد ، فلا قول أولى من قول اللّه ،عز وجل .

قلت : يحتمل أن يكون الكل مراداً ، وأن يكون معه غيره ، واللّه أعلم .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ،عن شَقيق ، عن عبد اللّه قال : قسم رسول اللّه ﷺ ذات يوم قسما ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة (٦) ما أريد بها وجه اللّه . قال : فقلت : يا عدو اللّه ، أما لأخبرن رسول اللّه ﷺ بما قلت . قال : فذكر (٧) ذلك للنبى ﷺ فاحمر وجهه ، ثم قال : « رحمة اللّه على موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

أخرجاه فى الصحيحين (٨) من حديث سليمان بن مِهْرَان الأعمش ، به (٩) .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبى هاشم (١٠) ـ مولى الهمدانى ، عن زيد بن زائد ، عن عبد اللّه بن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ لأصحابه : « لا يبلِّغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئاً ، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا [سليم الصدر] » (١١) .فأتى رسول اللّه ﷺ مالٌ فقسمه ، قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : واللّه ما أراد محمد بقسمته وجه اللّه ولا الدار الآخرة . قال : فَتَثَبَّتُ حتى سمعت (١٢) ما قالا ، ثم أتيت رسول اللّه ﷺ فقلت : يا رسول اللّه ، إنك قلت لنا : « لا يبلغنى أحد عن أصحابى شيئاً » ، وإنى مررت بفلان وفلان ، وهما يقولان كذا وكذا . فاحمر وجه رسول اللّه ﷺ وشَقَّ عليه ، ثم قال : « دعنا منك ، لقد أوذى موسى بأكثر من هذا ، فصبر » (١٣) .

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٥٢) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٢):« وفيه إسحاق بن عبد اللّه بن أبى فروة وهو متروك » .
(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٣) فى أ : « فمرت » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٣٧) .
(٥) فى ت : « وروى » . (٦) فى أ : « لقسمة » .
(٧) فى ت ، أ : « فذكرت » . (٨) فى ت : « أخرجه البخارى ومسلم » .
(٩) المسند (١/ ٣٨٠) وصحيح البخارى برقم (٣٤٠٥) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٢) .
(١٠) فى أ : « هشام » . (١١) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند . (١٢) فى أ : « فقلت حين سمعت » .
(١٣) المسند (١/ ٣٩٥) .

وقد رواه أبو داود فى الأدب ، عن محمد [بن يحيى الذهلى ، عن محمد بن يوسف الفريابى ، عن إسرائيل عن الوليد] [١] بن أبى هاشم [٢] به مختصراً : « لا يبلغنى أحد [من أصحابى] [٣] عن أحد شيئاً ؛ إنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » [٤] .

وكذا رواه الترمذى فى « المناقب » ، عن الذُّهْلى سواء ، إلا أنه قال : « زيد بن زائدة ».ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل ، عن عبد الله بن محمد ، عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد ، كلاهما عن إسرائيل ، عن السُّدِّى ، عن الوليد بن أبى هاشم ، به مختصراً أيضاً ، فزاد فى إسناده السدى ، ثم قال : غريب من هذا الوجه [٥].

وقوله : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أى : له وجاهة وجاه عند ربه ،عز وجل .

قال الحسن البصرى : كان مستجابَ الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله ،عز وجل .

وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة [عند الله] [٦]: أنه شفع فى أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله ، وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا ﴿ قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ أى : مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى : يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم فى المستقبل يلهمهم التوبة منها .

ثم قال : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ : وذلك أنه يجار من النار ، ويصير إلى النعيم المقيم .

قال [٧] ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عَوْن ، حدثنا خالد ، عن لَيْث ، عن أبى بُرْدَة ، عن أبى موسى الأشعرى قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا ، فقال : « إن الله أمرنى أن آمركم ، أن تتقوا الله وتقولوا قولا سديداً » . ثم أتى النساء فقال : « إن الله أمرنى أن آمركن : أن تتقين الله وتقلن قولا سديداً » [٨] .

وقال [١] ابن أبى الدنيا فى كتاب « التقوى » : حدثنا محمد بن عباد بن موسى ، حدثنا عبد

(١) زيادة من ت ، ف ، أ ، وأبى داود . (٢) فى ف ، أ : « هشام » . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، وأبى داود .
(٤) سنن أبى داود برقم (٤٨٦٠) .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٨٩٦) .
(٦) زيادة من ت . (٧) فى ت : « وروى » .
(٨) ورواه أحمد فى مسنده (٣٩١/٤) من طريق شيبان عن ليث ، به .

العزيز بن عمران الزهرى ، حدثنا عيسى بن سَمُرة ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه (٢) ، عن عائشة، رضى الله عنها ، قالت : ما قام رسول الله ﷺ على المنبر إلا سمعته يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾الآية . غريب جدًا .

وروى من حديث عبد الرحيم بن زيد العَمِّى ، عن أبيه ، عن محمد بن كعب ،عن ابن عباس موقوفا (٣) ، من سره أن يكون أكرم الناس ، فليتق الله .

قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله .

وقال غيره : السديد : الصدق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال غيره : هو الصواب . والكل حق .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) ﴾ .

قال العَوْفى ، عن ابن عباس :يعنى بالأمانة :الطاعة ، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها (٤). فقال لآدم : إنى قد عرضتُ الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها (٥) ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، الأمانة : الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم .وإن ضيعوها عذبهم (٦) ،فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيما لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو (٧) قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ يعنى : غراً بأمر الله .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن أبى بشر(٨) ، عن سعيد بن جبير ، عن (٩) ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قال : عرضت على آدم فقال :خذها بما فيها ، فإن أطعت غَفَرت لك، وإن عَصَيت عذبتك . قال : قبلت ، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم ، حتى أصاب الخطيئة .

وقد روى الضحاك ، عن ابن عباس ، قريبا من هذا . وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه ، والله أعلم . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحـاك ، والحسن البصرى ، وغير واحد :

---

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى ت : « بسنده » . (٣) فى ت : « مرفوعا » .
(٤) فى ت : « يطقها » ، وفى أ : « يطعنها » . (٥) فى أ : « يطعنها ». (٦) فى ت ، أ : « عذبهم الله ».
(٧) فى أ : « وهى » . (٨) فى أ : « حدثنا محمد بن جعفر ،حدثنا شعبة ، عن أبى بشر » .
(٩) فى ت : « وروى ابن جرير بسنده إلى » .

[ألا] (١) إن الأمانة هى الفرائض .

وقال آخرون : هى الطاعة .

وقال الأعمش ، عن أبى الضحى ، عن مسروق [قال](٢) : قال أبى بن كعب : من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها .

وقال قتادة : الأمانة : الدين والفرائض والحدود .

وقال بعضهم :الغسل من الجنابة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم قال : الأمانة ثلاثة : الصلاة ،والصوم ، والاغتسال من الجنابة.

وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هى (٣) متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهى بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عُوقِبَ ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه ، إلا من وفق اللّه ، وباللّه المستعان .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة [البصرى] (٤)، حدثنا حماد بن واقد ـ يعنى: أبا عمر الصفار ـ سمعت أبا معمر(٥) ـ يعنى : عون بن معمر ـ يحدث عن الحسن ـ يعنى: البصرى (٦) ـ أنه تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ قال: عرضها على السبع الطباق الطرائق التى زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جُزِيت ،وإن أسأت عُوقِبت. قالت : لا . ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التى شدت بالأوتاد ، وذللت بالمهاد، قال : فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا . ثم عرضها على الجبال الشم (٧) الشوامخ الصعاب الصلاب ، قال: قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا .

وقال مقاتل بن حيان : إن اللّه حين خلق خلقه ، جمع بين الإنس والجن ، والسموات والأرض والجبال ، فبدأ بالسموات فعرض عليهن الأمانة وهى الطاعة ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة ، ولكن على الفضل والكرامة والثواب فى الجنة . . ؟ فقلن : يا رب ، إنا لا نستطيع هذا الأمر، وليست بنا قوة ، ولكنا لك مطيعين . ثم عرض الأمانة على الأرضين ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها منى ، وأعطيكن الفضل والكرامة (٨) ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطيق، ولكنا لك سامعين مطيعين ، لا نعصيك فى شىء تأمرنا به . ثم قرب آدم فقال له : أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم : ما لى عندك ؟ قال : يا آدم ، إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة ، فلك عندى الكرامة والفضل وحسن الثواب فى الجنة . وإن عصيت ولَم ترْعَها حق رعايتها

(١ ، ٢) زيادة من أ . (٣) فى ت : « وهى » . (٤) زيادة من أ .
(٥) فى أ : « أبا عمر » . (٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى » .
(٧) فى أ : « الصم » . (٨) فى أ : « والكرامة فى الدنيا » .

وأسأت ، فإنى معذبك ومعاقبك وأنزلك النار . قال : رضيت [يا] (١) رب . وتَحمَّلها(٢)، فقال الله عز وجل : قد حَمَّلْتُكَهَا. فذلك قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الإنسَانُ ﴾ .رواه ابن أبى حاتم .

وعن (٣) مجاهد أنه قال : عرضها على السموات فقالت : يا رب ، حملتنى الكواكب وسكان السماء وما ذكر ، وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة . قال : وعرضها على الأرض فقالت : يا رب ، غرست فى الأشجار ، وأجريت فىّ الأنهار وسكان الأرض وما ذكر ،وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة. وقالت الجبال مثل ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ فى عاقبة أمره . وهكذا قال ابن جُرَيْج .

وعن ابن أشوع أنه قال : لما عرض الله عليهن حمل الأمانة ، ضَجَجْنَ إلى الله ثلاثة أيام ولياليهن ، وقلن : ربنا . لا طاقة لنا بالعمل ، ولا نريد الثواب .

ثم قال (٤) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هارون بن زيد بن أبى الزرقاء الموصلى ، حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم فى هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ [الآية] (٥) ، فقال الإنسان : بين أذنى وعاتقى فقال الله تعالى (٦) :إنى مُعينك عليها ، أى : معينك على عينيك بطبقتين ، فإذا نازعاك إلى ما أكره فأطبق . ومعينك على لسانك بطبقتين ، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبق . ومعينك على فرجك بلباس ، فلا تكشفه إلى ما أكره .

ثم روى عن أبى حازم نحو هذا .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قول الله ،عز وجل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قال : إن الله عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين ، ويجعل لهن ثوابا وعقابا ، ويستأمنهن على الدين . فقلن: لا،نحن مسخرات لأمرك ، لا نريد ثوابا ولا عقابا . قال(٧) : وعرضها الله على آدم فقال: بين أذنى وعاتقى . قال ابن زيد : فقال الله تعالى له : أما إذْ تحملت هذا فسأعينك ، أجعل لبصرك حجاباً ، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فأرخ عليه حجابه ، وأجعل للسانك بابا وغلقا ، فإذا خشيت فأغلق ، وأجعل لفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك .

وقال ابن جرير : حدثنى سعيد (٨) بن عمرو السَّكُونى ، حدثنا بقيَّة ، حدثنا عيسى بن إبراهيم ، عن موسى بن أبى حبيب ، عن (٩) الحكم بن عمير ـ وكان من أصحاب النبى ﷺ ـ قال : قال النبى ﷺ : « إن الأمانة والوفاء نزلا على ابن آدم مع الأنبياء ، فأرسلوا به ، فمنهم رسول الله ، ومنهم نبى ، ومنهم نبى رسول ، ونزل القرآن وهو كلام الله ، ونزلت العربية والعجمية ، فعلموا أمر القرآن وعلموا أمر السنن بألسنتهم ، ولم يدع الله شيئا من أمره مما يأتون وما يجتنبون وهى الحجج عليهم ، إلا بينه لهم . فليس أهل لسان إلا وهم يعرفون الحسن والقبيح ،ثم الأمانة أول شىء يرفع ويبقى

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى أ : « وتحملتها » . (٣) فى ت : « وقال » .
(٤) فى ت : « ثم روى » . (٥) زيادة من ت ، ف ، أ . (٦) فى ت ، ف :« عز وجل » .
(٧) فى أ : « قال رسول الله ﷺ » (٨) فى أ : « سعد » . (٩) فى ت: « وروى ابن جرير بإسناده إلى».

أثرها فى جذور [١] قلوب الناس ، ثم يرفع الوفاء والعهد والذمم وتبقى الكتب [٢] ، فعالم يعمل، وجاهل يعرفها وينكرها ولا يحملها ، حتى وصل إلىّ وإلى أمتى ، ولا يهلك على الله إلا هالك ، ولا يغفله إلا تارك . فالحذر أيها الناس ، وإياكم والوسواس الخناس ، فإنما يبلوكم أيكم أحسن عملا»[٣] .

هذا حديث غريب جدا ، وله شواهد من وجوه أخرى .

ثم قال ابن جرير : حدثنا محمد بن خلف العسقلانى، حدثنا عبد الله بن عَبد المجيد الحنفى، أخبرنا أبو العوام القطان ، حدثنا قتادة ،وأبان بن أبى عياش [٤] ، عن خُلَيد العَصَرى [٥] ، عن أبى الدرداء، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « خمس من جاء بهن يوم القيامة مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن ، وأعطى الزكاة من ماله طَيب النفس بها ـ وكان يقول: وايم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن ـ [وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلا] [٦] ، وأدى الأمانة » . قالوا : يا أبا الدرداء ، وما أداء الأمانة؟ قال : الغسل من الجنابة ، فإن الله لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيره .

وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحمن العنبرى،عن أبى على عبيد الله بن عبد المجيد[٧] الحنفى ، عن أبى العوام عمران بن دَاور [٨] القطان ، به [٩] .

وقال ابن جرير [١٠] أيضا :حدثنا تميم بن المنتصر ، أخبرنا إسحاق ، عن شريك ، عن الأعمش، عن عبد الله [١١] بن السائب ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبى ﷺ أنه قال : «القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها ـ أو قال : يكفر كل شىء ـ إلا الأمانة ، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له : أد أمانتك . فيقول : أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له : أد أمانتك . فيقول : أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له : أد أمانتك . فيقول : أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول : اذهبوا به إلى أمه الهاوية . فيذهب به إلى الهاوية ، فيهوى فيها حتى ينتهى إلى قعرها ، فيجدها هنالك كهيئتها، فيحملها فيضعها على عاتقه ، فيصعد بها إلى شفير جهنم ، حتى إذا رأى أنه قد خرج زلَّت فهوى فى أثرها أبد الآبدين » . قال : والأمانة فى الصوم ، والأمانة فى الوضوء ، والأمانة فى الحديث ، وأشد ذلك الودائع . فلقيت البراء فقلت : ألا تسمع إلى ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال: صدق .

قال شريك : وحدثنا عياش [١٢] العامرى ، عن زاذان ، عن [١٣] عبد الله بن مسعود ، رضى

(١) فى أ : « صدور » . (٢) فى ت : « الكسب » .
(٣) تفسير الطبرى (٢٢/٣٩) وله شاهد من حديث حذيفة أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٦٤٩٧) وسيأتى .
(٤) فى أ : « أبى عباس » . (٥) فى ت : « ثم روى ابن جرير بإسناده » .
(٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، و تفسير الطبرى . (٧) فى أ : « عبد الحميد » . (٨) فى أ : « داود » .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/٣٩) وسنن أبى داود برقم (٤٢٩) .
(١٠) فى ت : « وروى ابن أبى جرير » (١١) فى أ : « عبيد الله »
(١٢) فى أ : « عباس » . (١٣) فى ت : « وعن » .

الله عنه ، عن النبى ﷺ ، بنحوه . ولم يذكر: « الأمانة فى الصلاة وفى كل شىء » (١) . إسناده جيد، ولم يخرجوه .

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذى رواه الإمام أحمد (٢) :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا « أن الأمانة نزلت فى جذر (٣) قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » . ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر [الوكت ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر] (٤) المجل كجمر دحرجته [على رجلك ، تراه مُنتبرًا وليس فيه شىء » . قال : ثم أخذ حصى(٥) فدحرجه] (٦) على رجله ، قال : « فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلا أمينا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده وأظرفه وأعقله . وما فى قلبه حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى عَلَىَّ زمان وما أبالى أيكم بايعت ، إن كان مسلماً ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانيا أو يهودياً ليردنه علىّ ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانا وفلانا .

وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الأعمش ، به(٧) .

وقال(٨) الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهِيعة ، عن الحارث بن يزيد (٩) الحضرمى ، عن عبد الله بن عمرو ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أربعٌ إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حِفْظ أمانة ، وصِدْق حديث ، وحُسْن خليقة، وعِفَّة طُعمة » .

هكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص (١٠) .

وقد قال الطبرانى فى مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب : حدثنى يحيى بن أيوب العلاف المصرى(١١) ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا ابن لِهَيعة ، عن الحارث بن يزيد ، عن ابن حجَيرة ، عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمة ». فزاد فى الإسناد: « ابن حُجَيرة » ، وجعله من (١٢) مسند ابن عمر (١٣) .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢/ ٤٠) .

(٢) فى ت : « الذى فى الصحيحين » . (٣) فى أ : « صدر » . (٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند.

(٥) فى ت ، أ : « حصاة » . (٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .

(٧) المسند (٥/ ٢٨٣) وصحيح البخارى برقم (٦٤٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٤٣) .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « زيد » .

(١٠) المسند (٢/ ١٧٧) .

(١١) فى ف ، أ : « المقرى » . (١٢) فى أ : « فى ».

(١٣) مجمع الزوائد (٤/ ١٤٥) وقال الهيثمى : « رواه أحمد والطبرانى فى الكبير ، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن ، وبقية رجاله رجال الصحيح ».

وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، قال عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد [١] : حدثنا شريك، عن أبى إسحاق الشيبانى ، عن خُنَاس بن سُحَيم ـ أو قال : جَبَلَة بن سُحَيم ـ قال : أقبلت مع زياد ابن حُدَيْر من الجابية فقلتُ فى كلامى : لا والأمانة . فجعل زياد يبكى ويبكى، فظننت أنى أتيتُ أمراً عظيما ، فقلت له : أكان يكره هذا ؟ فقال : نعم . كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهى[٢] .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع ، قال [٣] أبو داود : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائى ، عن ابن بُرَيدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «من حلف بالأمانة فليس منا » ، تفرد به أبو داود ، رحمه الله [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أى : إنما حمل ابن آدم الأمانة وهى التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفا من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ، ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ ، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ،عز وجل ،ومخالفة رسله ، ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى : وليرحم [٥] المؤمنين من الخلق [٦] الذى آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

[آخر تفسير سورة « الأحزاب »][٧]

(١) فى ت : « فروى ابن المبارك بإسناد » .
(٢) الزهد برقم (٢١٣) .
(٣) فى ت : « رواه » .
(٤) سنن أبى داود برقم (٣٢٥٣) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٣١٨) « موارد » من طريق وكيع عن الوليد بن ثعلبة ، به .
(٥) فى أ : « وليرحم الله ». (٦) فى أ : « الحلف » . (٧) زيادة من ف .

/ سورة الأحزاب

مدنيّة، وآيُها ثلاث وسبعون.[١]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في ندائه عليه السلام بعنوان النبوّة تنويةٌ بشأنه، وتنبيهٌ على سموّ مكانه. والمراد بالتقوى المأمورِ به الثباتُ عليه والازدياد منه، فإنّ له بابًا واسعًا وعرضًا عريضًا لا يُنال مَداه.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: المجاهرين بالكفر، ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ المضمِرين له، أي: فيما يعود بوهنٍ في الدين، وإعطاءِ دنيّةٍ فيما بين المسلمين.

رُوي أنّ أبا سفيان بن حرب وعِكرمة بن أبي جهل[٢] وأبا الأعور السُّلَمي[٣] قدِموا عليه عليه السلام في الموادَعة التي كانت بينه عليه السلام وبينهم، وقام معهم عبد الله بنُ أبيّ ومُعَتِّب بن قُشَير والجَدُّ بنُ قيس، فقالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ارفُض ذكرَ آلهتنا، وقل: إنّها تشفع وتنفع، وندَعك وربَّك»،

---

[١] ط س: وهي ثلاث وسبعون آيةً.

[٢] هو عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي، القرشي، المكّي، أبو عثمان (ت. ١٣هـ/٦٣٤م)، الشريف، الرئيس، الشهيد. لمّا قُتل أبوه تحوّلت رئاسة بني مخزوم إلى عكرمة، ثمّ إنّه أسلم، وحسن إسلامه بالمرّة. قال أبو إسحاق السبيعي: «نزل عكرمة يوم اليرموك، فقاتل قتالًا شديدًا، ثمّ استشهد، فوجدوا به بِضعًا وسبعين مِن طعنة، ورمية، وضربة». وقال عروة وابن سعد وطائفة: «قُتل يوم أجنادين». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٢٤/١؛ والأعلام للزركلي، ٢٤٤/٤.

[٣] هو عمرو بن سفيان بن عبد شمس، أبو الأعور السلمي. مشهور بكُنيته. قال مسلم والحاكم في الكُنى: «له صحبة». وقال ابن أبي حاتم، عن أبيه: «أدرك الجاهليّة، ولا صحبةَ له، وحديثه مرسل». كان أميرَ جيش الشام في غزوة عمّوريّة، وغزا قُبرص سنة ستٍّ وعشرين، وكانت له مواقفُ بصفّين مع معاوية. انظر: الإصابة لابن حجر، ٥٢٩/٤.

فشقّ ذلك على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين، وهمّوا بقتلهم، فنزلت.[١] أي: اتّقِ الله في نقض العهد ونبذِ الموادَعة، ولا تساعد الكافرين مِن أهل مكّة، والمنافقين مِن أهل المدينة فيما طلبوا إليك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مبالغًا في العلم والحِكمة، فيعلم جميعَ الأشياء مِن المصالح والمفاسد، فلا يأمرك إلّا بما فيه مصلحة، ولا ينهاك إلّا عمّا فيه مفسدة، ولا يحكم إلّا بما يقتضيه الحكمة البالغة. فالجملة تعليل للأمر والنهي، مؤكِّد لِوجوب الامتثال بهما.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾

﴿وَٱتَّبِعْ﴾ أي: في كلّ ما تأتي وتذَر مِن أمور الدين ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مِن الآيات التي مِن جُملتها هذه الآية الآمِرةُ بتقوى الله، الناهيةُ عن مساعدة الكفرة والمنافقين. والتعرّض لعنوان الربوبيّة لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قيل: الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، / والجمعُ للتعظيم. وقيل: له عليه السلام وللمؤمنين. وقيل: للغائبين [٣٣٥ظ] بطريق الالتفات،[٢] ولا يخفى بُعده. نعم، يجوز أن يكون للكلّ على ضربٍ مِن التغليب.

وأيًا ما كان فالجملة تعليل للأمر، وتأكيد لموجَبِه، أمّا على الوجهين الأوّلَين فبطريق الترغيب والترهيب، كأنّه قيل: إنّ الله خبير بما تعملونه مِن الامتثال وتركِه، فيُرتّب على كلٍّ منهما جزاءَه ثوابًا وعقابًا، وأمّا على الوجه الأخير فبطريق الترغيب فقط، كأنّه قيل: إنّ الله خبير بما يعمله كِلا الفريقين، فيرشِدُك إلى ما فيه صلاح حالك، وانتظامُ أمرك، ويُطلِعك على ما يعملونه مِن المكائد والمفاسد، ويأمرُك بما ينبغي لك أن تعمله في دفعها وردّها، فلا بدّ مِن اتّباع الوحي والعملِ بمقتضاه حتمًا.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٤/٤.

٢ جوّزه أبو حيّان في البحر المحيط، ٤٥١/٨.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ③﴾

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فوّض جميعَ أمورك إليه، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظًا موكولًا إليه كلُّ الأمور.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ④ ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑤﴾

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ شروع في إلقاء الوحي الذي أُمِر عليه السلام باتّباعه، وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى تمهيدًا لِما يعقُبه مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، وتنبيهًا على أنّ كون المُظاهَر منها أُمًّا وكونَ الدَّعِيّ ابنًا -أي: بمنزلة الأمّ والابن في الآثار والأحكام المعهودة فيما بينهم- في الاستحالة بمنزلة اجتماع قلبَين في جوف واحد.

وقيل: هو ردّ لِما كانت العرب[1] تزعم مِن أنّ اللبيب الأريب له قلبان، ولذلك قيل لأبي معمر[2] أو لجميل بن أسد الفِهري:[3] "ذو القَلبَين".

---

[1] س + كانت.

[2] هو جميل بن معمر بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمح الجمحي، له صحبة. وهو الذي أخبر قريشًا بإسلام عمر، ثمّ أسلم، وشهد حُنينًا، وقتل زهير بن الأبجَر في قصّة مشهورة، شهِد جميل بن معمر فتح مصر، ومات في أيّام عمر، وحزِن عليه حزنًا شديدًا، قال ابن عبد البرّ: «وكان يسمّى "ذا القلبين" فيما ذكره الزبير عن عمّه مصعب، قال: وفيه نزلت: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب، ٤/٣٣]». انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٢٤٧/١؛ والإصابة لابن حجر، ٦٠٥/١.

[3] هو جميل بن أسيد -وقيل: أسد- الفِهري، يُكنى أبا مَعمر، قال مقاتل في تفسيره، ٤٧١/٣، في قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب، ٤/٣٣]: «نزلت في أبي معمر الفهري». وقال الفرّاء في معاني القرآن، ٣٣٤/٢: «نزلت في أبي معمر جميل بن أسيد، كان أهل مكّة يقولون: لأبي معمر قلبان وعقلان في صدره مِن قوّة حفظه». انظر: غوامض الأسماء لابن بشكوال، ٧٠٥/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٦٠٤/١.

أي: ما جمع الله قلبَين في رجلٍ. وذِكر الجوف لزيادة التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج، ٢٢/٤٦]، ولا زوجيّةً وأمومةً[1] في امرأة، ولا دِعوةً وبُنوّةً في شخص، لكن لا بمعنى نفي الجمع بين حقيقة الزوجيّة والأمومة، ونفيِ الجمع بين حقيقة الدِّعوة والبُنوّة كما في القلب، ولا بمعنى نفي الجمع بين أحكام الزوجيّة وأحكام الأمومة، ونفيِ الجمع بين أحكام الدِّعوة / وأحكامِ البُنوّة على الإطلاق؛ بل بمعنى نفي الجمع [٣٣٦و] بين حقيقة الزوجيّة وأحكام الأمومة، ونفيِ الجمع بين حقيقة الدِّعوة وأحكامِ البُنوّة، لإبطال ما كانوا عليه مِن إجراء أحكام الأمومة على المُظاهَر منها، وإجراءِ أحكام البُنوّة على الدَّعيّ.

ومعنى "الظِّهار" أن يقول لزوجته: "أنتِ علَيّ كظَهر أمّي"، مأخوذ مِن "الظَّهْر" باعتبار اللفظ، كـ"التلْبية" مِن "لَبَّيك". وتعديته بـ"مِن" لتَضمّنه معنى التجنّب -لأنّه كان طلاقًا في الجاهليّة، وهو في الإسلام يقتضي الطلاق أو الحرمةَ إلى أداء الكفّارة- كما عُدّي "آلَى" بها، وهو بمعنى "حَلَفَ".

وذِكر الظِّهار للكناية عن البطن الذي هو عموده، فإنّ ذِكره قريب مِن ذِكر الفَرج، أو للتغليظ في التحريم، فإنّهم كانوا يحرّمون إتيان الزوجة وظهرُها إلى السماء.

وقُرئ: "اللَّائِي".[2] وقُرئ: "اللَّاءِ".[3] وقُرئ: "تَظَاهَرُونَ"[4] بحذف إحدى "التاءين" مِن "تتَظاهَرون"، و"تَظَّاهَرُونَ"[5] بإدغام "التاء" الثانية في "الظاء"،

---

[1] س: ولا أمومةً.

[2] م س: اللّائِي. | ولم أجد القراءة بياء مكسورة؛ إلّا إن أراد ما يشبه الياء، وهو الهمزة المسهّلة المكسورة، فسيأتي الإشارة إليها. وقرأ بياء ساكنة وقفًا أبو عمرو وأبو جعفر وورش عن نافع والبزّي عن ابن كثير، وهو أحد الوجهين عن أبي عمرو والبزّي في حالة الوصل. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٠٤.

[3] قرأ بها يعقوب وقالون عن نافع وقُنبل عن ابن كثير. وقرأ أبو جعفر وورش وصلًا كذلك لكن بتسهيل الهمزة بينَ بينَ، وهو الوجه الثاني عن أبي عمرو والبزّي في حالة الوصل. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٠٤.

[4] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٧.

[5] قرأ بها ابن عامر الشامي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٧.

و"تَظَّهَّرُونَ"[١] مِن "اظَّهَّر" بمعنى "تَظَهَّر"، و"تُظَهِّرُونَ"[٢] مِن "ظَهَّرَ" بمعنى "ظاهَرَ"، كـ"عَقَّدَ" بمعنى "عاقَدَ"، و"تَظْهَرُونَ"[٣] مِن "ظَهَرَ ظُهورًا".

و"أَدْعياءُ" جمع "دَعِيّ"، وهو الذي يُدعَى ولدًا على الشذوذ، لاختصاص "أفعِلاء" بـ"فَعيل" بمعنى "فاعِل"، كـ"تَقيّ" و"أتقياء"، كأنّه شُبِّه به في اللفظ، فجُمع جَمعَه، كـ"قُتَلاء" و"أُسَرَاء".

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما يُفهَم ممّا ذُكِر مِن الظِّهار والدعاء، أو إلى الأخير الذي هو المقصود مِن مَساق الكلام، أي: دعاءُكم بقولكم: "هذا ابني" ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ فقط مِن غير أن يكون له مِصداق وحقيقة في الأعيان، فإذن هو بمَعزِل مِن استتباع أحكام البنوّة كما زعمتم.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ المطابقَ للواقع، ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: سبيلَ الحقّ / لا غير، فَدَعُوا أقوالَكم، وخذوا بقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ أي: انسِبوهم إليهم، وخُصُّوهم بهم. [٣٣٦ظ]

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعليل له، والضمير لمَصدر "ادعوا"، كما في قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة، ٨/٥]. و﴿أَقْسَطُ﴾ "أَفْعَل" تفضيل، قُصد به الزيادة مطلقًا مِن "القِسْط" بمعنى العَدْل، أي: الدعاء لآبائهم بالِغ في العدل والصدق في حكم الله تعالى وقضائه.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ فتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ فهم إخوانكم ﴿فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ وأولياؤكم فيه، أي: فادعوهم بالأخوّة الدينيّة والمَولَويّة. ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: إثمٌ ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي: فيما فعلتموه مِن ذلك مُخطئين بالسهو أو النسيانِ أو سَبقِ اللسان، ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: ولكنّ الجُناح فيما تَعمّدت قُلوبكم بعد النهي، أو ما تعمّدت قلوبكم فيه الجُناح.

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٢/٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن هارون عن أبي عمرو. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٢/٨.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لعفوه عن المخطئ.

وحكم التبنّي بقوله: "هو ابني" إذا كان عبدًا للقائلِ: العِتقُ على كلّ حال، ولا يَثبت نسبه منه إلّا إذا كان مجهولَ النسب، وكان بحيث يولَد مِثلُه لمِثل المتبنِّي، ولم يُقِرّ قبله بنسبه مِن غيره.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: في كلّ أمر مِن أمور الدين والدنيا، كما يَشهد به الإطلاق، فيجب عليهم أن يكون عليه السلام أحبَّ إليهم مِن أنفسهم، وحكمُه أنفذَ عليهم مِن حُكمها، وحقُّه آثرَ لديهم مِن حقوقها، وشفقتُهم عليه أقدمَ مِن شفقتهم عليها.

رُوي أنّه عليه السلام أراد غزوة تبوك، فأمر الناسَ بالخروج، فقال ناس: "نستأذِن آباءَنا وأمّهاتِنا"، فنزلت.[1]

[٣٣٧و] وقُرئ: "وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ"،[2] أي: في الدين، فإنّ كلّ نبيّ / أبٌ لأمّته مِن حيث إنّه أصل فيما به الحياة الأبديّة، ولذلك صار المؤمنون إخوةً.

﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ أي: منزَّلات منازلَهنّ في التحريم واستحقاقِ التعظيم، وأمّا فيما عدا ذلك فهنّ كالأجنبيّات، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: «لسنا أمّهاتِ النساء».[3]

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ أي: ذَوو[4] القرابات ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ في التوارث. وهو نَسخٌ لِما كان في صدر الإسلام مِن التوراث بالهجرة والموالاة في الدين.

---

١ أحكام القرآن لابن العربي، ٥٤١/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٥/٤. لكن قال ابن العربي: «الحديث في غزوة تبوك موضوع».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب وابن عبّاس رضي الله عنهم وجعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٣.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٥/٤. وأخرجه الدارقطني في المؤتلف والمختلف، ٩٣٦/٢، بلفظ: «لستُ أمّ نسائكم، إنّما أنا أمّ الرجال».

٤ م: ذووا.

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في اللوح، أو فيما أنزله، وهو هذه الآية، أو آية المواريث، أو فيما فرض الله تعالى.

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بيان لـ"أُولي الأرحام"، أو صلة لـ﴿أَوْلَىٰ﴾، أي: أولوا الأرحام بحقّ القرابة أَولى بالميراث مِن المؤمنين بحقّ الدين، ومن المهاجرين بحقّ الهجرة.

﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ استثناء مِن أعمّ ما يقدَّر الأولويّة فيه مِن النفع، والمرادُ بفعل المعروف التوصية، أو منقطع.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: كان ما ذكر مِن الآيتين ثابتًا في اللوح أو القرآن. وقيل: في التوراة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي: اذكر وقتَ أخذِنا مِن النبيّين كافّةً عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين الحقّ، ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ تخصيصُهم بالذِّكر مع اندراجهم في النبيّين اندراجًا بيّنًا للإيذان بمزيد مَزيّتهم وفضلهم، وكونِهم مِن مشاهير أرباب الشرائع وأساطينِ أولي العزم مِن الرسل. وتقديمُ نبيّنا عليهم الصلاة والسلام لإبانة خطَره الجليل.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهدًا عظيمَ الشأن، أو مؤكَّدًا باليمين، وهذا هو الميثاق / الأوّلُ بعينه وأَخذُه هو أخذُه. والعطف مبنيّ على تنزيل التغاير [٣٣٧ظ]
العنواني منزلةَ التغاير الذاتي تفخيمًا لشأنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود، ١١/٥٨] إثرَ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا[١] جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود، ١١/٥٨].

---

١ م ط س: فلمّا.

﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ متعلّق بمُضمَر مستأنَف مَسوقٍ لبيان ما هو داعٍ إلى ما ذُكر مِن أخذ الميثاق وغايةٌ له، لا بـ﴿أَخَذْنَا﴾، فإنّ المقصود تذكيرُ نفس الميثاق، ثمّ بيانُ الغرض منه بيانًا قصديًّا، كما ينبئ عنه تغييرُ الأسلوب بالالتفات إلى الغيبة، أي: فعلَ اللهُ ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياءَ. ووضعُ الصادقين موضعَ ضميرهم للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّهم صادقون فيما سُئِلُوا عنه، وإنّما السؤالُ لحكمةٍ تقتضيه، أي: ليسأل الأنبياءَ الذين صدقوا عهودَهم عمّا قالوه لقومهم، أو عن تصديقهم إيّاهم تبكيتًا لهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥]، أو المصدِّقين لهم عن تصديقهم، فإنّ مُصدِّق الصادق صادقٌ، وتصدِيقَهُ صِدقٌ.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدَهم؛[١] فيأباه مَقام تذكير ميثاق النبيّين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطفٌ على ما ذُكر مِن المُضمَر، لا على ﴿أَخَذْنَا﴾ كما قيل.[٢] والتوجيه بأنّ بعثة الرسل وأخذَ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين، أو بأنّ المعنى أنّ الله تعالى أكّد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين؛ تعسّفٌ ظاهر، مع أنّه مُفضٍ إلى كون بيان إعداد العذاب الأليم للكافرين غيرَ مقصود بالذات. نعم يجوز عطفه على ما دلّ عليه / قوله تعالى: [٣٣٨و]
﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، كأنّه قيل: فأثاب المؤمنين، وأعدّ للكافرين... الآيةَ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إن جُعِل "النعمة" مصدرًا فالجارّ متعلّق بها، وإلّا فهو متعلّق بمحذوف هو حال منها، أي: كائنةً عليكم،

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٦/٤.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٢٥/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٢٦/٤.

﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ ظرف لنَفس "النعمة"، أو لثبوتها لهم. وقيل: منصوب بـ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾، على أنه بدل اشتمال مِن ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾.

والمراد بـ"الجنود" الأحزابُ، وهم قريش وغطفان ويهود قريظةَ والنضيرِ، وكانوا زُهاءَ اثنَي عشر ألفًا، فلمّا سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بإقبالهم ضرَب الخندق على المدينة بإشارة سلمان الفارسي، ثمّ خرج في ثلاثة آلاف مِن المسلمين، فضرب مُعَسكَرَه[1] والخندقُ بينه وبين القوم، وأمرَ بالذراري والنساء فرُفِعوا في الآطام، واشتدّ الخوف، وظنّ المؤمنون كلَّ ظنّ، ونَجَم النفاق في المنافقين، حتّى قال معتّب بن قُشَير: «كان محمّد يعِدنا كنوز كسرى وقيصر، لا نقدر أن نذهب إلى الغائط».[2]

ومضى على الفريقين قريب مِن شهر لا حربَ بينهم إلّا أنّ فوارس مِن قريش -منهم عمرو بن عبد وَدّ، وعكرمة ابن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطّاب،[3] ومِرداس[4] أخو بني محارب- قد ركبوا خيولهم وتيمّموا مِن الخندق مكانًا مضيقًا، فضربوا خيولَهم فاقتحموا، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسَلْع، فخرج عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر مِن المسلمين حتّى أخذ عليهم الثُّغْرة التي اقتحموا منها، فأقبلت الفرسان نحوهم، وكان عمرو مُعلِمًا[5] ليُرى مكانه، فقال له عليّ رضي الله عنه: «يا عمرو، إنّي أدعوك إلى الله ورسوله والإسلام»، قال: «لا حاجة لي إليه»، قال: «فإنيّ أدعوك إلى النزال»، قال: «يا ابن أخي، واللهِ لا أحبّ أن أقتلك»، قال عليّ رضي الله عنه: «لكنّي واللهِ أحبّ أن أقتلك»، فحَمي عمرو عند ذلك، وكان غيورًا مشهورًا بالشجاعة،

---

[1] س: معسكرة.

[2] **الكشّاف** للزمخشري، ٥٢٦/٣. وانظر: **جامع البيان** للطبري، ٣٠/١٩.

[3] هو ضرار بن الخطّاب بن مِرداس بن كثير بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فِهر الفِهري (ت. ١٣هـ/٦٣٤م). له صحبة، كان فارسًا شاعرًا، وكان أبوه رئيس بني فِهر في زمانه، ولم يكن في قريش أشعر منه. قاتل المسلمين يوم أُحُد والخندق أشدّ قتال، وأسلم يوم فتح مكّة. له أخبار في فتح الشام، واستشهد في وقعة أجنادين. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٣٩٢/٣؛ **والأعلام** للزركلي، ٢١٥/٢.

[4] لعلّ الصواب: "ابن مِرداس". انظر: ترجمة ضرار بن الخطّاب السابقة.

[5] أعْلَمَ الفارسُ: جعل لنفسه علامة الشجعان، فهو مُعْلِم. **الصحاح** للجوهري، «علم».

واقتحم عن فرسه فعقَره، أو ضرب وجهه، ثمّ أقبل على عليّ، فتناوَلا وتجاوَلا، فضربه عليّ رضي الله عنه ضربةً فيها نفْسه، فلمّا قتله انهزمت خيله حتّى اقتحمت مِن الخندق هاربةً، وقُتِل مع عمرو رجلان؛ منبّه بن عثمان بن عبد الدار، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، قتله أيضًا عليّ رضي الله عنه.[١]

وقيل: لم يكن بينهم إلّا الترامي بالنَّبل والحجارة، حتّى أنزل الله تعالى النصر،[٢] وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ عطفٌ على ﴿جَآءَتۡكُمۡ﴾، مَسوق لبيان النعمة إجمالًا، وسيأتي بقيّتها في آخر القصّة.

﴿وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ وهم الملائكة عليهم السلام، وكانوا ألفًا.

بعث الله عليهم صَبًا باردةً في ليلة شاتية، فأَخْصَرَتهم[٣] وسَفَت الترابَ في وجوههم، وأمرَ الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطّعت الأطناب،[٤] وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيلُ بعضها في بعضٍ، وقُذف في قلوبهم الرعب، وكبّرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خُوَيلد الأسدي: «أمّا محمّد فقد بدأكم بالسحر، / فالنجاءَ النجاءَ»، فانهزموا مِن غير قتال.[٥] [٣٣٨ظ]

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن حفر الخندق وترتيب مبادي الحِراب. وقيل: مِن التجائكم إليه، ورجائكم مِن فضله. وقُرئ بـ"الياء"،[٦] أي: بما يعمله الكفّار، أي: مِن التحرّز والمحاربة، أو مِن الكفر والمعاصي. ﴿بَصِيرًا﴾ ولذلك فعلَ ما فعلَ مِن نصركم عليهم. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله.

﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ⑩﴾

﴿إِذۡ جَآءُوكُم﴾ بدل مِن ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ﴾[٧] ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ مِن أعلى الوادي مِن

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥/٨؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٧/٦.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٣.

٣ "فأَخْصَرَتهم" آلمتهم بالبَرْد، مِن "الخَصَر" بالتحريك؛ أي: البَرْد. و"قد خَصِرَ الرجل"، إذا آلَمَه البَرْد في أطرافه. انظر: الصحاح للجوهري، «خصر».

٤ الطُّنب: حَبل الخِباء، والجمع "أطناب". الصحاح للجوهري، «طنب».

٥ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٦/٤.

٦ قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

٧ في الآية السابقة.

جهة المشرق، وهم بنو غَطَفان ومَن تابعهم مِن أهل نجدٍ، قائدهم عُيينة بن حصين وعامر بن الطفيل في هوازن، وضامَّتهم اليهود مِن قريظة والنضير.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: مِن أسفل الوادي مِن قِبَل المغرب، وهم قريش ومَن شايَعهم مِن الأحابيش[١] وبني كِنانة وأهل تِهامة، وقائدُهم أبو سفيان، وكانوا عشرة آلافٍ.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ عطفٌ على ما قبله، داخلٌ معه في حكم التذكير، أي: حين مالت عن سَنَنها، وانحرفت عن مستوى نظرها حَيرةً وشُخوصًا. وقيل: عدَلت عن كلّ شيء، فلم تلتفت إلّا إلى عدوّها لشدّة الرَّوع.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ لأنّ الرِّئة تنتفخ مِن شدّة الفزع، فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، وهي منتهى الحُلقوم. وقيل: هو مَثَل في اضطراب القلوب ووَجيبِها وإن لم تبلغ الحناجرَ حقيقةً.

[٣٣٩و] / والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ لمَن يُظهر الإيمان على الإطلاق، أي: تظنّون به تعالى أنواع الظنون المختلفة، حيث ظنّ المخلصون الثُّبَّتُ القلوبِ أنّ الله تعالى يُنجز وعدَه في إعلاء دينه، كما يُعرِب عنه ما سَيُحكى عنهم مِن قولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآيةَ [الأحزاب، ٢٢/٣٣]، أو يمتحنهم فخافوا الزلَل وضعفَ الاحتمال، والضِّعافُ القلوبِ والمنافقون ما حُكِي عنهم ممّا لا خيرَ فيه.

والجملة معطوفة على ﴿زَاغَتِ﴾، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة، والدلالةِ على الاستمرار. وقُرئ: "الظُّنُونَ" بغير "ألف"،[٢] وهو القياس، وزيادتُها لمراعاة الفواصل، كما تُزاد في القوافي.

---

١ الأحابيش: قال الجوهري: «هم بطن مِن قريش». وقال المؤيَّد صاحب حماة في تاريخه: «هم مِن بطون كنانة بن خزيمة». قال الجوهري: «وسمّي بذلك بجبل أسفلَ مكّة اسمه حبشي، اجتمع عنده بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمة، فحالفوا قريشًا على أنّهم يد واحدة على عدوّهم ما سجا ليل ووضح نهار، وما أرسي حبشي مكانه، فسمُّوا الأحابيش». قال صاحب حماة: «وليسوا مِن الحبشة كما يتوهّمه بعضهم». نهاية الأرب للقلقشندي، ١٦٤/١.

٢ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وحمزة. وقرأ ابن كثير والكسائي وخلف وحفص بـ"ألف" في الوقف دون الوصل. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ ظرف زمان، أو ظرف مكان لِما بعده، أي: في ذلك الزمان الهائل، أو المكان الدحض ﴿ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: عُومِلوا معاملةَ مَن يُختبَر، فظهر المخلِص مِن المنافق، والراسخُ مِن المتزَلزل، ﴿وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ مِن الهَول والفزع. وقُرئ بفتح "الزاء".[١]

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عطفٌ على ﴿إِذْ زَاغَتِ﴾.[٢] وصيغة المضارع لِما مرّ مِن الدلالة على استمرار القول، واستحضار صورته، ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: ضعفُ اعتقاد: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مِن إعلاء الدين والظفَر ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: وعدَ غرورٍ. وقيل: قولًا باطلًا. القائل مُعتّب بن قُشير، وأضرابُه راضون به، قال: «يَعدِنا محمّد بفتح كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يتبرّز فرَقًا، ما هذا إلّا وعدُ غرور».[٣]

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ هم أوسُ بن قيظي[٤] وأتباعه. وقيل: عبد الله بن أبيّ وأشياعه: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ هو اسم المدينة المطهّرة. وقيل: اسم بقعة وقعت المدينة في ناحية منها، وقد نهى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن تُسمّى بها كراهةً لها، وقال: «هي طيبة» أو «طابة».[٥] كأنّهم ذكروها بذلك الاسم

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى والجحدري. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٤٥٩.

[٢] الأحزاب، ٣٣/١٠.

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٥٢٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٢٢٦.

[٤] هو أوس بن قيظي بن عمرو بن زيد بن جشم بن حارثة بن الحارث بن أوس الأنصاري الأوسي، شهِد أحُدًا هو وابناه؛ عرابة، وعبد الله. ويقال: إنّ أوس بن قيظي كان منافقًا، وإنّه الذي قال: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب، ٣٣/١٣]. **الإصابة** لابن حجر، ١/٣٠٥.

[٥] أخرج أحمد في مسنده، ٣٠/٤٨٣ (١٨٥١٩)؛ وابن شبّة في **تاريخ المدينة**، ١/١٦٥، عن البراء، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن سمّى المدينةَ يثرب فليستغفر الله عزّ وجلّ، هي طابة هي طابة».

مخالفةً له صلّى الله عليه وسلّم. ونداؤهم إيّاهم بعنوان أهليّتهم لها ترشيح لِما بعده مِن الأمر بالرجوع إليها.

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ لا موضعَ إقامة لكم، أو لا إقامةَ لكم ههنا، يريدون المعسكَر. وقُرئ بفتح "الميم"،[1] أي: لا قيامَ، أو لا موضعَ قيام لكم، ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ أي: إلى منازلكم بالمدينة. مرادهم الأمر بالفرار، لكنّهم عبّروا عنه بالرجوع ترويجًا لمقالهم، وإيذانًا بأنّه ليس مِن قبيل الفِرار المذموم.

وقيل: المعنى: لا قيامَ لكم في دين محمّد عليه السلام، فارجعوا إلى ما كنتم عليه مِن الشرك، أو فارجعوا عمّا بايعتموه عليه، وأسلِموه إلى أعدائه، أو لا مُقامَ لكم في يثرب، فارجعوا كفّارًا ليتسنّى لكم المُقام بها، والأوّل هو الأنسب لِما بعده، فإنّ قوله: / ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ معطوف على ﴿قَالَت﴾. [٣٣٩ظ] وصيغة المضارع لِما مرّ مِن استحضار الصورة، وهم بنو[2] حارثة وبنو[3] سلمة، استأذنوه عليه السلام في الرجوع ممتثلين بأمرهم.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل مِن ﴿يَسْتَـْٔذِنُ﴾، أو حال مِن فاعله، أو استئناف مبنيّ على السؤال عن كيفيّة الاستئذان. ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: غيرُ حصينةٍ، مُعرِضةٌ للعدوّ والسرّاق، فأْذَن لنا حتّى نحصِّنَها ثمّ نرجعَ إلى العسكر. و"العَورةُ" في الأصل: الخلَلُ، أُطلِقت على المختَلّ مبالغةً. وقد جُوّز أن تكون تخفيفَ "عَوِرَة" مِن "عَوِرَت الدارُ" إذا اختلَّت، وقد قُرئ بها.[4] والأوّل هو الأنسب بمَقام الاعتذار، كما يُفصح عنه تصدير مقالِهم بحرف التحقيق.

﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ والحال أنّها ليست كذلك. ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ ما يريدون بالاستئذان ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ مِن القتال.

---

[1] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

[2] م س: بنوا.

[3] م س: بنوا.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن يعمر وقتادة وأبي رجاء وأبي حيوة وابن أبي عبلة وأبي طالوت وابن مقسم وإسماعيل بن سليمان عن ابن كثير. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٠/٨.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ١٤﴾

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ أسندَ الدخول إلى "بيوتهم" وأُوقِعَ عليهم لِما أنّ المراد فرضُ دخولها وهم فيها، لا فرضُ دخولها مطلقًا، كما هو المفهوم لو لم يُذكر الجارّ والمجرور، ولا فرضُ الدخول عليهم مطلقًا، كما هو المفهوم لو أُسند إلى الجارّ والمجرور.

﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: مِن جميع جوانبها، لا مِن بعضها دون بعض، فالمعنى: لو كانت بيوتهم مختلّةً بالكلّيّة، ودخلها كلّ مَن أراد مِن أهل الدعارة والفساد ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟﴾ مِن جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة والرجفة الهائلة ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: الرِّدّةَ والرجعةَ إلى الكفر مكانَ ما سُئِلوا الآن مِن الإيمان والطاعة ﴿لَءَاتَوْهَا﴾ لأعطَوها غيرَ مُبالين بما دهاهم مِن الداهية الدهياء، والغارة الشَّعواء. وقُرئ: "لَأَتَوْهَا" بالقصر،[1] أي: لفعلوها وجاءوها، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَا﴾ بالفتنة، أي: ما أَلبَثوها وما أخَّروها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يسَع السؤالَ والجوابَ مِن الزمان، فضلًا عن التعلّل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن.

وقيل: ما لبثوا بالمدينة بعد الارتداد إلّا يسيرًا. والأوّل هو اللائق بالمَقام.

هذا، وأمّا تخصيص فرض الدخول بتلك العساكر المتحزِّبة فمَع منافاته للعموم المستفاد مِن تجريد الدخول عن الفاعل ففيه ضربٌ مِن فساد الوضع، لِما عرفت مِن أنّ مساق النظم الكريم لبيان أنّهم إذا دُعوا إلى الحقّ تعلّلوا بشيء يسير، وإن دُعوا إلى الباطل سارعوا إليه آثِرَ ذِي أثير مِن غير صارفٍ يَلويهم، ولا عاطفٍ يَثْنِيهم. ففرضُ الدخول عليهم مِن جهة العساكر المذكورة، وإسنادُ سؤالِ الفتنة والدعوةِ إلى الكفر إلى طائفةٍ أخرى مع أنّ العساكر هم المعروفون بعداوة الدين، المباشرون لقتال المؤمنين، المصِرّون على الإعراض عن الحقّ، المجِدّون في الدعاء إلى الكفر والضلال؛ بمَعزِل مِن التقريب.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن ذكوان بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾

/ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ فإنّ بني حارثة عاهدوا [٣٤٠و] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومَ أُحُد حين فشِلوا أن لا يعودوا لمثله. وقيل: هم قوم غابوا عن وقعة بدر، ورأوا ما أعطى الله أهل بدر مِن الكرامة والفضيلة، فقالوا: "لئن أشهدَنا الله قتالًا لنُقاتلنّ".[١]

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ مطلوبًا مقتضًى حتّى يوفّى به. وقيل: مسئولًا عن الوفاء به، ومُجازًى عليه.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ فإنّه لا بدّ لكلّ شخصٍ مِن حتفِ أنفٍ أو قتلِ سيفٍ في وقت معيّن سبَق به القضاء، وجرى عليه القلم.

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: وإن نفعكم الفرار مثلًا فمُتِّعتم بالتأخير لم يكن ذلك التَّمتيع إلّا تمتيعًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: أو يصيبُكم بِسُوءٍ إن أراد بكم رحمة، فاختُصِر الكلام، أو حُمل الثاني على الأوّل، لِما في العِصمة مِن معنى المنع.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم الضرر.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: المثبِّطين للناس عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهم المنافقون، ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ مِن منافقي المدينة: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾

---

[١] جامع البيان للطبري، ١٩/٤٤٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٠.

وهو صوت سُمِّي به فعل متعَدٍّ، نحو: "أحْضِر" أو "قَرِّبْ"، ويستوي فيه الواحد والجماعة على لغة أهل الحجاز، وأمّا بنو تميم فيقولون: "هلُمّ يا رجل"، و"هلُمّوا يا رجالُ". أي: قرّبُوا / أنفسكم إلينا، وهذا يدلّ على أنّهم عند هذا [٣٤٠ظ] القول خارجون مِن المعسكَر، متوجّهون نحو المدينة.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ أي: الحِراب والقتال ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إتيانًا، أو زمانًا، أو بأسًا قليلًا، فإنّهم يعتذرون ويثبّطون ما أمكن لهم، ويخرجون مع المؤمنين، يوهمونهم أنّهم معهم، ولا تراهم يبارِزون ويقاتلون إلّا شيئًا قليلًا إذا اضطرّوا إليه، كقوله تعالى: ﴿مَا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.[1] وقيل: إنّه مِن تتمّة كلامهم، معناه: ولا يأتي أصحاب محمّد حربَ الأحزاب ولا يقاومونهم إلّا قليلًا.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاء عليكم بالمعاونة، أو النفقةِ في سبيل الله، أو الظفَرِ والغنيمة، جمع "شَحيح"، ونصبه على الحاليّة مِن فاعل ﴿يَأْتُونَ﴾،[2] أو مِن ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾،[3] أو على الذمّ.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في أحداقهم ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ صفة لمصدر ﴿يَنظُرُونَ﴾، أو حال مِن فاعله، أو لمصدر ﴿تَدُورُ﴾، أو حال مِن ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾، أي: ينظرون نظرًا كائنًا كنَظَر المغشيّ عليه مِن معالجة سكرات الموت حذَرًا وخورًا ولِواذًا بك، أو ينظرون كائنين كالذي... إلخ، أو تدور أعينهم دورانًا كائنًا كدوران عينه، أو تدورُ أعينُهم كائنةً كعَينه.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وحِيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾ ضَربوكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وقالوا: وَفِروا قِسمتَنا، فإنّا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم، وبمَكاننا غَلبتم عدوَّكم،

---

[1] الأحزاب، ٢٠/٣٣.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة.

وبنا نُصِرتم عليه. و"السَّلْق": البَسط بقهرٍ باليد أو اللسان. وقُرئ: "صَلَقُوكُمْ".[١]
﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ نصب على الحاليّة، أو الذمّ، ويؤيّده القراءةُ بالرفع.[٢]

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن صفات السّوء ﴿لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ بالإخلاص، ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي: أظهَر بطلانها، إذ لم يَثبُت لهم أعمال فتَبطُلَ، أو أبطل تصنّعهم ونفاقهم، فلم يبقَ مستتبِعًا لمنعفةٍ دنيويّة أصلًا.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيّنًا. وتخصيص يُسرِه بالذكر مع أنّ كلّ شيء عليه تعالى يسير لبيان أنّ أعمالهم حقيقةٌ بأن يُظهَرَ حبوطها، لكمال تعاضد الدواعي، وعدمِ الصوارف بالكلّيّة.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

/ ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ أي: هؤلاء لِجُبنهم يظنّون أنّ الأحزاب [٣٤١و]
لم ينهزموا، ففرُّوا إلى داخل المدينة. ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرّةً ثانيةً ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾ تمنّوا أنّهم خارجون إلى البَدوِ حاصلون بين الأعراب. وقُرئ: "بُدًّى"[٣] جمع "بادٍ"، كـ"غازٍ" و"غُزًّى".

﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كلَّ قادم مِن جانب المدينة. وقُرئ: "يَسَّاءَلُونَ"،[٤] أي: يتَساءلون، ومعناه: يقول بعضهم لبعض: ماذا سمعتَ؟ ماذا بلغَك؟ أو يتساءلون الأعرابَ، كما يقال: رأيت الهلالَ وتراءَيناه، فإنّ صيغة "التفاعل" قد تُجَرَّد عن معنى كون ما أُسنِدَت إليه فاعلًا مِن وجهٍ، ومفعولًا مِن وجهٍ، ويُكتفى بتعدّد الفاعل، كما في المثال المذكور ونظائره.

﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ عمّا جرى عليكم. ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم﴾ هذه الكرّةَ ولم يرجعوا إلى المدينة، وكان قتالٌ ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وخوفًا مِن التعيير.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٤/٨.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٣.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٤.
٤ قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ خَصلة حسنة حقُّها أن يؤتَسى بها، كالثبات في الحرب، ومُقاساةِ الشدائد، أو هو في نفسه قدوة يَحِقُّ التأسِّي به، كقولك: "في البيضة عشرونَ مَنَا حَدِيدٍ"،[1] أي: هي نفسها هذا القدرُ مِن الحديد. وقُرئ بكسر "الهمزة"،[2] وهي لغة فيها.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ أي: ثوابَ الله، أو لقاءَه، أو أيّامَ الله واليومَ الآخر خصوصًا. وقيل: هو مِثل قولك: "أرجو زيدًا وفضلَه"، فإنّ اليوم الآخر مِن أيّام الله تعالى. و﴿لِّمَن كَانَ﴾ صلة لـ﴿حَسَنَةٌ﴾، أو صفة لها، وقيل: بدل مِن ﴿لَكُمْ﴾، والأكثرون على أنّ ضمير المخاطب لا يُبدَل منه.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾ أي: وقَرَنَ الرجاءَ ذِكْرَ اللهِ ﴿كَثِيرًا﴾ أي: ذكرًا كثيرًا، أو زمانًا كثيرًا، فإنّ المثابَرةَ على ذكره تعالى تؤدّي إلى ملازمة الطاعة، وبها يتحقّق الائتِساء برسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ بيان لِما صدر عن خُلّص المؤمنين عند اشتباه الشئون واختلاط الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم، أي: لمّا شاهدوهم حسبما وُصِفوا لهم ﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ مشيرين إلى ما شاهدوه مِن حيث هو، مِن غير أن يخطر ببالهم لفظ يدلّ عليه، فضلًا عن تذكيره وتأنيثه، فإنّهما مِن أحكام اللفظ، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام، ٧٨/٦]. وجعلُه إشارة إلى الخَطب أو البلاء مِن نتائج النظر الجليل، فتدبّر.

---

[1] كذلك ضبطها المؤلّف بالإضافة والتخفيف. قال الشهاب الخفاجي: «المراد بـ"البيضة" بيضة الحديد، وهي الكرة، أو ما يوضع على الرأس، وهو المِغفر. و"المَنُّ" بتشديد النون وزنٌ معروف، و"حديد" بدلٌ منه، وفي نسخة: "مَنَا" بالقصر والتخفيف والإضافة، وهو لغة فيه». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٦٥/٧.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

نعم، يجوز التذكير باعتبار الخبر الذي هو ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فإنّ ذلك العنوان أوّلُ ما يخطر ببالهم عند المشاهدة، ومرادُهم بذلك ما وُعِدوه بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة، ٢/٢١٤]، / وقولِه [٣٤١ظ] عليه السلام: «سيشتدّ الأمر باجتماع الأحزاب عليكم، والعاقبةُ لكم عليهم»،[١] وقولِه عليه السلام: «إنّ الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع ليالٍ أو عشرٍ».[٢]

وقُرئ بكسر "الراء" وفتحِ "الهمزة".[٣]

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله، أو صدَقا في النصرة والثواب كما صدَقا في البلاء. وإظهار الاسم للتعظيم.

﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي: ما رأوه ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله تعالى وبمواعيده، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره ومقاديره.

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المؤمنين بالإخلاص مطلقًا، لا الذين حُكيت محاسنهم خاصّةً ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ مِن الثبات مع الرسول عليه السلام، والمقاتلةِ لأعداء الدين، وهم رجال مِن الصحابة رضي الله عنهم نذروا أنّهم إذا لَقُوا حربًا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثَبَتوا وقاتلوا حتّى يُستَشهَدوا، وهم عثمان بن عفّان، وطلحة بن عُبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل،[٤]

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٢٩.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٣١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٢٩. قال الوليّ العراقي: لم أقِف عليه، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. الفتح السماوي للمناوي، ٣/٩٢٨.

٣ "بكسر الراء" يعني بإمالة فتحتها. قرأ بذلك حمزة وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٤٦.

٤ هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل القرشي العدوي، أبو الأعور (ت. ٥١هـ/٦٧١م). أحد العشرة المشهود لهم بالجنّة، ومِن السابقين الأوّلين البدريّين، شهد المشاهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشهد حصار دمشق وفتحها، فوّلاه عليها أبو عبيدة بن الجرّاح، فهو أوّل مَن عمل نيابة دمشق مِن هذه الأمّة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١/١٢٤؛ والإصابة لابن حجر، ٣/١٨٧؛ والأعلام للزركلي، ٣/٩٤.

وحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر، وغيرُهم، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

ومعنى ﴿صَدَقُواْ﴾: أتَوا بالصدق، مِن "صَدَقَنِي" إذا قال الصدقَ. ومحلّ ﴿مَا عَٰهَدُواْ﴾ النصب، إمّا بطرح الخافض عنه وإيصال الفعل إليه، كما في قولهم: «صَدَقَني سِنَّ بَكْرِه»،[1] أي: في سِنّه، وإمّا بجعلِ المعاهَدِ عليه مصدوقًا على المجاز، كأنّهم خاطَبوه خطابَ مَن قال لكَومائه:[2]

نَـحَـرَتْـنِـيَ الأعـــداءُ إنْ لـم تُـنْـحَـرِي[3]

وقالوا له: سَنَفِي بك، وحيث وَفَوا به فقد صَدَقوه، ولو كانوا نَكَثوه لَكَذَبوه، ولكان مكذوبًا.

﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ تفصيل لحال الصادقين، وتقسيمٌ لهم إلى قسمين. و"النَّحْبُ": النذر، وهو أن يَلتزم الإنسان شيئًا مِن أعماله، ويوجبَه على نفسه. و"قضاؤُه": الفراغ منه والوفاء به. ومحلّ الجارّ والمجرور الرفع على الابتداء على أحد الوجهين المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآيةَ [البقرة، ٢/٨]، أي: فبعضُهم أو فبعضٌ منهم مَن خرج عن العهدة، كحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر[4] عمّ أنس بن مالك، وغيرهم، رضوان الله تعالى[5] عليهم أجمعين، فإنّهم قد قضَوا نذورهم، سواء كان النذر على حقيقته بأن يكون ما نذروه أفعالَهم الاختياريّة التي هي المقاتلة المغيّاةُ بما ليس منها ولا يدخل تحت النذر، وهو الموتُ شهيدًا، أو كان مستعارًا لِالتزامه على ما سيأتي.

---

[1] مَثَل يُضرب في الصدق؛ و"البَكْر": الفَتِيُّ مِن الإبل، وأصله: أنّ رجلًا ساوَمَ رجُلًا في بَكْرٍ، فقال: "ما سِنُّه؟" فقال صاحبه: "هِدَعْ هِدَعْ"، وهذه لفظة يُسَكَّن بها الصِغار مِن الإبل، فلمّا سمع المشتري هذه الكلمة، قال: "صدَقَني سِنَّ بَكره"، ونُصب "سِنّ" على معنى: "عَرَّفَني سنَّ". انظر: **مجمع الأمثال** للميداني، ٣٩٢/١.

[2] الكَوْماء: الناقة العظيمة السنام. **الصحاح** للجوهري، «كوم».

[3] وفي هامش م: صدره:

أومَـى إلـى الـكـومـاء هـذا طـارق

نسبه أبو هلال العسكري إلى بعض الإسلاميّين. انظر: **ديوان المعاني** للعسكري، ٤٧/١. وقال النويري: «يروى لحسّان بن ثابت». **نهاية الأرب** للنويري، ٢٠٣/٣.

[4] س: النضير.

[5] س – تعالى.

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: وبعضهم أو وبعضٌ منهم ﴿مَن يَنتَظِرُ﴾ أي: قضاءَ نحبِه، لكونه موقِنًا، كعثمان وطلحةَ وغيرهما ممَّن استشهد بعد ذلك، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فإنّهم مستمرّون على نذورهم، قد قضَوا بعضها، وهو الثبات مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والقتالُ إلى حين نزول الآية الكريمة، ومنتظرون لقضاء بعضها الباقي، وهو القتال إلى الموت شهيدًا.

هذا، ويجوز أن يكون "النَّحبُ" مستعارًا لِالتزام الموت شهيدًا، إمّا بتنزيل التزام أسبابه التي هي أفعال اختياريّة للناذِر منزلة التزام نفسه، وإمّا بتنزيل نفسه منزلةَ أسبابه، وإيرادِ الالتزام عليه، وهو الأنسب بمقام المدح.

وأيًا ما كان ففي وصفهم بالانتظار المنبئ عن الرغبة في المنتَظَر / شهادةٌ حقّةٌ بكمال اشتياقهم إلى الشهادة. وأمّا ما قيل[1] مِن أنّ "النَّحب" استُعير للموت؛ لأنّه كنذرٍ لازم في رقبة كلّ حيوانٍ؛ فمَسخٌ للاستعارة، وذهابٌ برَونقها، وإخراجٌ للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلّيّة. [٣٤٢و]

﴿وَمَا بَدَّلُواْ﴾ عطفٌ على ﴿صَدَقُواْ﴾، وفاعلُه فاعلُه، أي: وما بدّلوا عهدَهم وما غيّروه ﴿تَبْدِيلًا﴾ أي: تبديلًا ما، لا أصلًا، ولا وصفًا؛ بل ثبتوا عليه راغبين فيه، مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون، أمّا الذين قضَوا فظاهر، وأمّا الباقون فيَشهد به انتظارهم أصدقَ شهادةٍ. وتعميم عدم التبديل للفريق الأوّل مع ظهور حالهم للإيذان بمساواة الفريق الثاني لهم في الحُكم. ويجوز أن يكون ضمير ﴿بَدَّلُواْ﴾ للمنتظرين خاصّةً بناءً على أنّ المحتاج إلى البيان حالُهم.

وقد رُوي أنّ طلحة رضي الله عنه ثبتَ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومَ أُحد حتّى أصيبت يده، فقال عليه السلام: «أوجَبَ طلحة الجنّةَ»، وفي رواية: «أوجَبَ طلحةُ»،[2] وعنه عليه السلام في رواية جابر: «مَن سرّه أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»،[3]

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٢٩.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٣٢. وقوله عليه الصلاة والسلام: «أوجَبَ طلحةُ» أخرجه الترمذي في السنن، ٥/٦٤٣ (٣٧٣٨).

٣ سنن الترمذي، ٥/٦٤٤ (٣٧٣٩)؛ المستدرك للحاكم، ٣/٤٢٤ (٥٦١٢).

وفي رواية عائشة رضي الله عنها: «مَن سرّه أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض وقد قضى نَحبَه فلينظر إلى طلحة»،[1] وهذا يشير إلى أنّه مِن الأوّلين حكمًا.

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ متعلّق بمُضمَر مستأنَف مَسوقٍ بطريق الفَذْلكة لبيان ما هو داعٍ إلى وقوع ما حُكي مِن الأحوال والأقوال على التفصيل وغايةٌ له، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾،[2] كأنّه قيل: وقعَ جميع ما وقعَ ليجزي الله الصادقين بما صدر عنهم مِن الصدق والوفاء قولًا وفعلًا. ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بما صدر عنهم مِن الأعمال والأقوال المحكيّة ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبَهم، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا.

وقيل: متعلّق بما قبله مِن نفي التبديل المنطوق، وإثباتِه المعرَّضِ به، كأنّ المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء، كما قصد المخلِصون بالثبات والوفاء العاقبةَ الحسنى.

وقيل: تعليل لـ﴿صَدَقُوا۟﴾،[3] وقيل: لِما يُفهَم مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾،[4] وقيل: لِما يستفاد مِن قوله تعالى: / ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾،[5] كأنّه [٣٤٢ظ]
قيل: ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخَطب ليجزي... الآيةَ، فتأمّل، وبالله التوفيق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لِمَن تاب، وهو اعتراض فيه بعث إلى التوبة.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ رجوع إلى حكاية بقيّة القصّة، وتفصيلِ تتمّة النعمة المشارِ إليها إجمالًا بقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا

---

[1] المعجم الأوسط للطبراني، ٩/١٤٩ (٩٣٨٢)؛ مسند أبي يعلى، ٨/٣٠١ (٤٨٩٨).
[2] الأحزاب، ٨/٣٣.
[3] في الآية السابقة.
[4] الأحزاب، ٢٢/٣٣.
[5] الأحزاب، ٢٢/٣٣.

﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾،[١] معطوفٌ إمّا على المُضمَر المقدَّر قبل قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾،[٢] كأنّه قيل إثرَ حكاية الأمور المذكورة: وقعَ ما وقعَ مِن الحوادث وردّ اللهُ... إلخ.

وإمّا على ﴿أَرْسَلْنَا﴾،[٣] وقد وُسِّط بينهما بيانُ كون ما نزل بهم واقعةً طامّةً تحيّرت بها العقول والأفهام، وداهيةً تامّةً تحاكّت منها الرُّكَب، وزلّت الأقدام، وتفصيلُ ما صدر عن فريقي أهل الإيمان وأهل الكفر والنفاق مِن الأحوال والأقوال لإظهار عِظَم النعمة، وإبانةِ خطَرها الجليل ببيان وصولها إليهم عند غاية احتياجهم إليها، أي: فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها ورددنا بذلك الذين كفروا. والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخالِ الرَّوعة.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ حال مِن الموصول، أي: ملتبسين به، وكذا قوله تعالى: ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ بتداخلٍ أو تعاقب، أي: غيرَ ظافرين بخير، أو الثانية بيان للأولى، أو استئناف.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بما ذُكر مِن إرسال الريح والجنود، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداث كلّ ما يريد، ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا على كلّ شيء.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: عاونوا الأحزاب المردودة ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو[٤] قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ مِن حصونهم، جمع "صِيصِية"، وهي ما يُتحصَّن به، ولذلك تُقال لِقَرن الثَّور والظبي وشَوك الديك.

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوفَ الشديدَ بحيث أسلموا أنفسهم للقتل، وأهليَهم وأولادَهم للأسر حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ / فَرِيقًا﴾ مِن غير أن يكون مِن جهتِهم حَراك فضلًا عن المخالفة والاستعصاء. [٣٤٣و]

[١] الأحزاب، ٩/٣٣.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] الأحزاب، ٩/٣٣.
[٤] م س: بنوا.

رُوي أنّ جبريل عليه السلام أتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم صبيحةَ الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا السلاح، فقال: «أَتَنزِع لَأْمَتَك والملائكة ما وضعوا السلاح؟ إنّ الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إليهم»، فأذّن في الناس أن لا يصلّوا العصر إلّا ببني قريظة. فحاصروهم إحدى وعشرين -أو خمسًا وعشرين- ليلةً حتّى جَهَدهم الحصار، فقال لهم: «تنزلون على حكمي»، فأبَوا فقال: «على حكم سعد بن معاذ»، فرضوا به، فحَكَم سعد بقتل مُقاتِلَتهم، وسَبيِ ذراريهم ونسائهم، فكبّر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: «لقد حكمت بحُكم الله مِن فوق سبعة أرقعة». فقُتل منهم ستّمائة مُقاتل -وقيل: مِن ثمانمائة إلى تسعمائة- وأُسِرَ سبعمائة.[١]

وقُرئ: "تَأْسُرُونَ" بضمّ "السين"،[٢] كما قُرئ: "الرُّعُبَ" بضمّ "العين".[٣] ولعلّ تأخيرَ المفعول في الجملة الثانية مع أنّ مساق الكلام لتفصيله وتقسيمه، كما في قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة، ٨٧/٢]، وقولِه تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة، ٧٠/٥] لمراعاة الفواصل.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ﴾ أي: حصونَهم ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ نقودَهم وأثاثَهم ومواشيَهم.

رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جعل عَقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقالت الأنصار في ذلك، فقال عليه السلام: «إنكم في منازلكم»، فقال عمر رضي الله عنه: «أمَا تُخمِّس كما خَمّستَ يوم بدر؟» قال عليه السلام: «لا، إنّما جُعِلَتْ هذه لي طعمةً دون الناس»، قالوا: «رضينا بما صنعَ الله ورسوله».[٤]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٣. وقصّة حكم سعد في بني قريظة في صحيح البخاري، ٣٥/٥ (٣٨٠٤)؛ وصحيح مسلم، ١٣٨٨/٣ (١٧٦٨).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي البرهسم وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٤.

[٣] قرأ بها ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٤٣٩/٣. قال الزيلعي: «رواه الواقدي في كتاب المغازي»، وذكر نحوه. انظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٠٤/٣.

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ أي: أورثكم في علمه وتقديره أرضًا لم تقبضوها بعدُ كفارس والروم. وقيل: كلُّ أرض تُفتح إلى يوم القيامة. وقيل: خيبر.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فقد شاهدتم بعضَ مقدوراته في إيراث الأراضي التي تسلّمتُموها، فقيسوا عليها ما عداها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ / أي: السَّعةَ والتنعّمَ فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ وزخارفَها ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أي: أَقْبِلنَ بإرادتكنّ واختياركنّ لإحدى الخَصلتين، كما يقال: "أقبلَ يخاصِمُني"، و"ذهب يكلِّمني"، و"قام يهدِّدني". [٣٤٣ظ]

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ بالجَزم جوابًا للأمر، وكذا ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي: أعطيكُنّ المتعةَ وأطلِّقكنّ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ طلاقًا مِن غير ضِرار. وقُرئ بالرفع[1] على الاستئناف.

رُوي أنّهنّ سألنَه عليه السلام ثيابَ الزينة وزيادةَ النفقة، فنزلت.[2] فبدأ بعائشة فخيّرها فاختارت اللهَ ورسولَه والدارَ[3] الآخرةَ، ثمّ اختارت الباقيات اختيارَها، فشكر لهنّ اللهُ ذلك فنزل: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ [الأحزاب، ٣٣/٥٢].[4]

واختُلِف في أنّ هذا التخيير هل كان تفويضَ الطلاق إليهنّ حتّى يقع الطلاق بنفس الاختيار أو لا؟ فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم إلى أنّه لم يكن تفويضَ الطلاق، وإنّما كان تخييرًا لهنّ بين الإرادتين على أنّهنّ إن أردنَ الدنيا فارَقَهنّ عليه السلام، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾. وذهب آخرون إلى أنّه كان تفويضًا للطلاق إليهنّ، حتّى لو أنّهنّ اخترن أنفسهنّ كان ذلك طلاقًا.[5]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد الخرّاز. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٤٧٣.

[2] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/٣٢؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٥٣٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٢٣٠.

[3] وفي هامش م: "والدارَ" بيان.

[4] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/٣٢؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٥٣٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٢٣٠.

[5] انظر: **معالم التنزيل** للبغوي، ٦/٣٤٧؛ **واللباب** لابن عادل، ١٥/٥٣٦.

وكذا اختُلِف في حكم التخيير، فقال عمر وابن مسعود وابن عبّاس رضي الله تعالى[1] عنهم: إذا خَيّر رجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شيء أصلًا، ولو اختارت نفسها وقعت طلقة بائنة عندنا، ورجعيّة عند الشافعي، وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان رحمهم الله.[2]

[٣٤٤و] ورُوي عن زيد بن ثابت أنّها إن اختارت زوجَها / يقع طلقة واحدة، وإن اختارت نفسها يقع ثلاث طلقات، وهو قول الحسن ورواية عن مالك.[3]

ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنّها إذا اختارت زوجها فواحدة رجعيّة، وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة. ورُوي عنه أيضًا أنّها إن اختارت زوجَها لا يقع شيء أصلًا، وعليه إجماع فقهاء الأمصار.[4] وقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها: «خيّرَنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاخترناه، ولم يَعدّه طلاقًا».[5]

وتقديم التمتيع على التسريح مِن باب الكرَم، وفيه قطع لمَعاذيرهنّ مِن أوّل الأمر.

والمتعة في المطلّقة التي لم يُدخَل بها ولم يُفرَض لها صَداق عند العقد واجبةٌ عندنا، وفيما عداهنّ مستحبّة، وهي دِرع وخِمار وملحفة بحسب السَّعة والإقتار، إلّا أن يكون نصف مهرها أقلَّ مِن ذلك، فحينئذ يجب لها الأقلُّ منهما، ولا ينقص مِن خمسة دراهم.[6]

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: تُرِدنَ رسولَه. وذِكرُ الله عزّ وجلّ للإيذان بجلالة محلّه عليه السلام عندَه تعالى. ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: نَعِيمَها الذي

---

١ س – تعالى.
٢ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٧/٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٣٦/١٥.
٣ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٧/٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٣٦/١٥.
٤ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٧/٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٣٦/١٥.
٥ صحيح البخاري، ٤٣/٧ (٥٢٦٢)؛ صحيح مسلم، ١١٠٤/٢ (١٤٧٧).
٦ انظر: الهداية للمرغيناني، ١٩٩/١.

لا قدرَ عنده للدنيا وما فيها جميعًا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ بمقابلة إحسانهنّ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادَرُ قدرُه، ولا يُبلَغ غايتُه.

و"مِن" للتبيين؛ لأنّ كلّهنّ مُحسنات. وتجريد الشرطيّة الأولى عن الوعيد للمبالغة في تحقيق معنى التخيير، والاحترازِ عن شائبة الإكراه، وهو السرّ فيما ذُكر مِن تقديم التمتيع على التسريح، وفي وصف السراح بالجميل.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ تلوين للخطاب، وتَوجيهٌ له إليهنّ، لإظهار الاعتناء بنُصحهنّ. ونداؤهنّ ههنا وفيما بعده بالإضافة إليه عليه السلام لأنّها التي يدور عليها ما يرد عليهنّ مِن الأحكام.

﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ بكبيرةٍ ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ ظاهرةِ القبح، مِن "بَيَّنَ" بمعنى "تَبيَّنَ"، وقُرئ بفتح "الياء"،[1] والمراد بها كلّ ما اقترفنَ مِن الكبائر. وقيل: هي عصيانهنّ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونشوزُهنّ، وطلبهنّ منه ما يشقّ عليه، أو ما يضيق به ذرعه، ويغتمّ لأجله. وقُرئ: "تَأْتِ" بالفوقانيّة.[2]

﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي: يُعذَّبن ضعفَي عذاب غيرهنّ، أي: مِثلَيه لأنّ الذنب منهنّ أقبح، فإنّ زيادة قبحه / تابعة لزيادة فضل المذنب والنعمةِ عليه، ولذلك جُعِل حَدّ الحُرّ ضعف حَدّ الرقيق، وعوتب الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم[3] بما لا يعاتَب به الأمم. [٣٤٤ظ]

وقُرئ: "يُضَعَّفْ"[4] على البناء للمفعول، و"يُضَاعِفْ"،[5] و"نُضَعِّفْ"[6] بـ"نون" العظمة على البناء للفاعل ونصب ﴿ٱلْعَذَابُ﴾.

---

١ قرأ بها ابن كثير وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري وابن عمير وزيد بن عليّ ورَوح ويزيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٤.

٣ س: عليهم السلام.

٤ قرأ بها أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

٥ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤٧٣.

٦ قرأ بها ابن كثير وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعه عن التضعيف كونُهنّ نساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ بل يدعوه إليه لِمراعاة حقّه.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ٣١﴾

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ وقُرئ: بـ"التاء"،[1] أي: ومَن يدُم على الطاعة ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مرّةً على الطاعة والتقوى، وأخرى على طلبهنّ رِضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالقناعة، وحُسن المعاشرة. وقُرئ: "يَعْمَلْ" بـ"الياء"،[2] حَملًا على لفظ ﴿مَن﴾، و"يُؤْتِهَا"[3] على أنّ فيه ضمير اسم الله تعالى.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا﴾ في الجنّة زيادة على أجرها المضاعف ﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾ مرضيًا.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ٣٢﴾

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أصلُ ﴿أَحَدٍ﴾ "وَحَدٍ" بمعنى الواحد، ثمّ وُضِع في النفي مستويًا فيه المذكّر والمؤنّث، والواحدُ والكثير. والمعنى: لستُنّ كجماعة واحدة مِن جماعات النساء في الفضل والشرف ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفةَ حُكم الله تعالى ورِضا رسوله، أو إن اتّصفتُنّ بالتقوى كما هو اللائق بحالكنّ.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ عند مخاطبة الناس، أي: لا تَجِئْنَ بقولكنّ خاضعًا ليّنًا على سَنَن قول المُريبات والمُومِسات ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: فجورٌ ورِيبةٌ. وقُرئ بالجزم[4] عطفًا على محلّ فعل النهي، على أنّه نهيٌ لِمريض القلب

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري وابن عمير وزيد بن عليّ ورَوح ويزيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٤.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

[3] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

[4] أي: "فَيَطْمَعْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وأبان بن عثمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٥.

عن الطمع عقيبَ نهيهنّ عن الإطماع بالقول الخاضع، كأنّه قيل: فلا تخضعنَ بالقول، فلا يطمَعْ مريضُ القلب.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ بعيدًا عن الريبة والإطماع بجَدٍّ وخُشونة مِن غير تَخْنيث،[1] أو قولًا حَسَنًا مع كونه خَشِنًا.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾

/ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أمرٌ مِن "قَرَّ يَقَرُّ" مِن باب "عَلِمَ"، وأصله "اقْرَرْنَ"، فحذفت "الراء" الأولى، وأُلقيَت فتحتها على ما قبلها، كما في قولك: "ظَلْنَ"، أو مِن "قَارَ يَقَارُ" إذا اجتمع. وقُرِئَ بكسر "القاف"،[2] مِن "وَقَرَ يَقِرُ وَقارًا" إذا ثبتَ واستقرَّ، وأصله "اوْقِرْنَ"، ففُعِل به ما فُعِلَ بـ"عِدْنَ" مِن "وَعَدَ"، أو مِن "قَرَّ يَقِرُّ" حذفت إحدى راءَي "اقْرِرْنَ"، ونُقِلَت كسرتها إلى "القاف"، كما تقول: "ظِلْنَ". [٣٤٥و]

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ أي: لا تَتَبَخْتَرنَ في مَشيكنّ ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: تبرّجًا مثلَ تبرُّج النساء في الجاهليّة القديمة، وهي ما بين آدم ونوح. وقيل: ما بين إدريس ونوح عليهم السلام. وقيل: الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام، كانت المرأة تلبس دِرعًا مِن اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرِض نفسها على الرجال. وقيل: زمن داود وسليمان عليهما[3] السلام. والجاهليّة الأخرى ما بين عيسى ومحمّد عليهما السلام.

وقيل: الجاهليّة الأولى جاهليّة الكفر، والجاهليّة الأخرى الفسوق في الإسلام، ويؤيّده قوله عليه السلام لأبي الدرداء: «إنّ فيك جاهليّةً»، قال: «جاهليّةُ كفرٍ أو جاهليّة إسلام؟» قال: «بل جاهليّة كفر».[4]

---

[1] ط: تحثيث؛ س: تحنيس.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

[3] م: عليهم.

[4] جامع البيان للطبري، ٩٩/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٧/٣. وفي الصحيحين أنّه قاله لأبي ذرّ رضي الله عنه، دون قوله: «جاهليّةُ كفرٍ أو جاهليّة إسلام؟»... إلخ. صحيح البخاري، ١٥/١ (٣٠)؛ صحيح مسلم، ١٢٨٢/٣ (١٦٦١).

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أُمِرن بهما لإنافتهما على غيرهما، وكونِهما أصلَي الطاعات البدنيّة والماليّة، ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: في كلّ ما تأتُنَّ وَما تذَرُنَّ، لا سيّما فيما أُمِرتُنّ به ونُهِيتُنَّ عنه.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: الذنبَ المدنِّس لعِرضكم، وهو تعليل لأمرهِنّ ونهيهِنّ على الاستئناف، ولذلك عُمّم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهنّ، وصُرِّح بالمقصود حيث قيل بطريق النداء أو المدح: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ مرادًا بهم مَن حواهم بيت النبوّة، ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ مِن أوضار الأوزار والمعاصي ﴿تَطْهِيرًا﴾ بليغًا.

واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير لمزيد التنفير عنها. وهذه كما ترى آية بيّنة / وحجّة نيّرة على كون نساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم [٣٤٥ظ] مِن أهل بيته، قاضيةٌ ببطلان رأيِ الشيعة في تخصيصهم أهليّة البيت بفاطمة رضي الله عنها وعليّ وابنَيه رضوان الله تعالى[1] عليهم. وأمّا ما تمسّكوا به مِن أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خرج ذاتَ غَدوةٍ وعليه مِرط مرجَّل[2] مِن شعر أسود، وجلس، فأتت فاطمة فأدخلها فيه، ثمّ جاء عليّ فأدخله فيه، ثمّ جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه، ثمّ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.[3] فإنّما يدلّ على كونهم مِن أهل البيت، لا على أنّ مَن عداهم ليسوا كذلك، ولو فُرِضَتْ دلالتُه على ذلك لَما اعتُدَّ بها، لكونها في مقابلة النصّ.

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: اذكرن للناسَ بطريق العِظة والتذكير ما يُتلى

---

[1] س - تعالى.

[2] في صحيح مسلم، ١٨٨٣/٤ (٢٤٢٤): "مرحَّل" بالحاء. قال ملّا عليّ القاري: «"مرحَّل" -بفتح الحاء المهملة المشدّدة- ضرب مِن بُرود اليمن، لِما عليه مِن تصاوير الرَّحْل، كذا ذكره شارح، ورُوي بجيم؛ وهو ما عليه صورة المراجل، بمعنى: القدور». مرقاة المفاتيح للقاري، ٣٩٦٢/٩.

[3] صحيح مسلم، ١٨٨٣/٤ (٢٤٢٤)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٢١٢/٢-٢١٣ (٢٨٥٨).

في بيوتكنّ ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ مِن الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البيّنةَ الدالّةَ على صدق النبوّة بنظمه المعجز، وكونِه حكمةً منطويةً على فنون العلوم والشرائع. وهو تذكير بما أنعَم عليهنّ، حيث جعلهنّ أهل بيت النبوّة، ومهبطِ الوحي، وما شاهدن مِن بُرَحاء الوحي[١] ممّا يوجب قوّةَ الإيمان، والحرصَ على الطاعة، حثًّا على الانتهاء والائتمارِ فيما كُلِّفْنَه.

والتعرّض للتلاوة في البيوت دون النزول فيها -مع أنّه الأنسب لكونها مهبِط الوحي- لعمومها لجميع الآيات، ووقوعِها في كلّ البيوت، وتكرُّرِها الموجِبِ لتمكّنهنّ مِن الذكر والتذكير، بخلاف النزول. وعدم تعيين التالي لِتَعُمَّ تلاوةَ جبريل، وتلاوةَ النبيّ عليهما السلام، وتلاوتَهنّ، وتلاوةَ غيرهنّ تعليمًا وتعلّمًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعلم ويدبّر ما يصلح في الدين، ولذلك فعلَ ما فعلَ مِن الأمر والنهي، أو يعلم مَن يصلح للنبوّة، ومَن يستأهل أن يكون مِن أهل بيته.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ أي: الداخلين في السِّلم المنقادين لحكم الله تعالى مِن الذكور والإناث، ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المصدّقين بما يجب أن يصدَّق به مِن الفريقين، ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ المداوِمين على الطاعات القائمين بها، ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في القول والعمل، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعات، وعن المعاصي، ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم، ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما وجب في مالهم،

---

١ بُرَحاء الوحي: شدّته. انظر: الصحاح للجوهري، «برح».

[٣٤٦و] / ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصومَ المفروضَ، ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الحرام، ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بقلوبهم وألسنتهم، ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ بسبب ما عملوا مِن الحسنات المذكورة ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ لِما اقترفوا مِن الصغائر؛ لأنّهنّ مكفّرات بما عملوا مِن الأعمال الصالحة، ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ على ما صدر عنهم مِن الطاعات.

والآية وعدٌ لهنّ ولأمثالهنّ على الطاعة، والتدرّعِ بهذه الخصال الحميدة.

رُوي أنّ أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ورضي عنهنّ قُلن: «يا رسول الله، ذكرَ الله الرجال في القرآن بخير، أَفَما فينا خيرٌ نُذكَر به؟ إنّا نخاف أن لا تُقبل منّا طاعة»، فنزلت.[١] وقيل: السائلة أمّ سلمة.[٢]

ورُوي أنّه لمّا نزل في نساء النبيّ عليه السلام ما نزل قال نساء المؤمنين: «فما نزل فينا شيء»، فنزلت.[٣]

وعطفُ الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين، وهو ضروري. وأمّا عطف الزوجين على الزوجين فلتغاير الوصفين، فلا يكون ضروريًا، ولذلك تُرِك في قوله تعالى: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾ [التحريم، ٦٦/٥]. وفائدته الدلالة على أنّ مدارَ إعِداد ما أُعِدّ لهم جمعُهم بين هذه النعوت الجميلة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾ أي: ما صحّ وما استقام لرجل ولا امرأة مِن المؤمنين ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا﴾ أي: إذا قضى رسول الله، وذكرُ الله تعالى لتعظيم أمره، أو للإشعارِ بأنّ قضاءه عليه السلام قضاء الله عزّ وجلّ؛ لأنّه نزل

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٣.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤٥/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٣.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٥/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٧١/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٩/٣.

في زينب بنت جحش[١] بنتِ عمّته أميمة بنت عبد المطّلب،[٢] خطبها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لزيد بن حارثة، فأبَت هي وأخوها عبد الله.[٣]

وقيل: في أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط،[٤] / وهبت نفسها للنبيّ عليه السلام، فزوّجها مِن زيد، فسخِطت هي وأخوها، وقالا: «إنّما أردنا رسول الله، فزَوّجَنا عبدَه».[٥] [٣٤٦ظ]

﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: أن يختاروا مِن أمرهم ما شاءوا؛ بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعًا لرأيه عليه السلام، واختيارَهم تِلوًا لِاختياره. وجمعُ الضميرين لعموم ﴿مُؤْمِنٍ﴾ و﴿مُؤْمِنَةٍ﴾، لوقوعهما في سياق النفي. وقيل: الضمير الثاني للرسول عليه السلام، والجمع للتعظيم. وقُرئ: "تَكُونَ" بـ"التاء".[٦]

---

١ هي زينب بنت جحش الأسديّة (ت. ٢٠هـ/٦٤١م)، أمّ المؤمنين، زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وأمّها أميمة عمّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، تزوّجها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة ثلاث، وقيل: سنة خمس، ونزلت بسببها آية الحجاب، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة، وقد وَصفت عائشةُ زينبَ بالوصف الجميل في قصّة الإفك، وأنّ الله عصمها بالورع. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢/٢١١؛ **والإصابة** لابن حجر، ٨/١٥٣؛ **والأعلام** للزركلي، ٣/٦٦.

٢ هي أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشميّة، عمّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. اختُلف في إسلامها، فنفاه محمّد بن إسحاق، وقال ابن سعد: «أمّها فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن محزوم، وتزوّجها في الجاهليّة حُجير بن رئاب الأسدي، فولدت له عبد الله، وعبيد الله، وأبا أحمد، وزينب، وحَمنة. وأطعمها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أربعين وَسقًا مِن تمر خيبر». قال ابن حجَر: «فعَلى هذا كانت لمّا تزوّج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ابنتها زينب موجودةً». انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢/٢٧٤؛ **والإصابة** لابن حجر، ٨/٣٣-٣٤.

٣ **جامع البيان** للطبري، ١٩/١١٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٢٣٢.

٤ هي أمّ كُلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعيط الأمويّة (ت. نحو ٣٣هـ/٦٥٣م). أوّل مَن هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لمّا علمت بهجرته صلّى الله عليه وسلّم خرجت ماشية مِن مكّة إلى المدينة تتبعه، ولحِقها أخواها لإعادتها، فلم ترجع. فتزوّجها في المدينة زيد بن حارثة، واستشهد في غزوة مؤتة، فتزوّجها الزبير بن العوّام، فولدت له زينب، وفارقها، فتزوّجها عبد الرحمن بن عوف، فولدَت له إبراهيم وحميدًا، ومات عنها، قال ابن سعد: «ولا نعلم قرشيّة خرجت مِن بيت أبوَيها مسلمةً مهاجرة إلّا أمّ كُلثوم». انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢/٢٧٦؛ **والإصابة** لابن حجر، ٨/٤٦٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٥/٢٣١.

٥ **جامع البيان** للطبري، ١٩/١١٤؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/٤٧.

٦ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن ذكوان عن ابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٤٨.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في أمر مِن الأمور، ويَعملْ فيه برأيه ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ طريقَ الحقّ ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أي: بيّن الانحراف عن سَنن الصواب.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ أي: واذكر وقتَ قولك ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بتوفيقه للإسلام، وتوفيقك لحُسن تربيته ومراعاته، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعمل بما وفّقك الله له مِن فنون الإحسان التي مِن جملتها تحريرُه، وهو زيد بن حارثة. وإيرادُه بالعنوان المذكور لبيان منافاة[١] حاله لِما صدر عنه عليه السلام مِن إظهار خلاف ما في ضميره؛ إذ هو إنّما يقع عند الاستحياء أو الاحتشام، وكلاهما ممّا لا يُتصوّر في حقّ زيدٍ.

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: زينبَ، وذلك أنّه عليه السلام أبصرها بعد ما أنكحها إيّاه، فوقعت في نفسه حالةٌ جِبِلّيّة لا يكاد يسلم عنها البشر، فقال: «سبحان اللهِ مقلّبِ القلوب»، وسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرَتْها لزيد، ففَطِن لذلك، فوقع في نفسه كراهةُ صحبتها، فأتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، وقال: «أريدُ أن أفارق صاحبتي»، فقال: «ما لك، أرَابَك منها شيء؟» قال: «لا واللهِ
[٣٤٧و] ما رأيتُ منها إلّا خيرًا، ولكنّها لشرفها تتعظّم عليّ»، / فقال: «أمسِك عليكَ زوجك»،[٢] ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمرها، فلا تطلّقها إضرارًا وتَعلّلًا بتكبّرها، ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وهو نكاحها إن طلّقها، أو إرادةُ طلاقها، ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ تعييرَهم إيّاك به، ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ إن كان فيه ما يُخشى، و"الواو" للحال.

---

١ س: منافاه.

٢ جامع البيان للطبري، ١١٦/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٧/٨.

وليست المعاتبة على الإخفاء وحدَه؛ بل على الإخفاء مخافةَ قالةِ الناس، وإظهارِ ما ينافي إضماره، فإنّ الأَولى في أمثال ذلك أن يَصمت، أو يفوّض الأمر إلى رأيه.[١]

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ بحيث لم يبقَ له فيها حاجة، وطلّقها، وانقضت عدّتها، وقيل: "قضاء الوَطَر" كناية عن الطلاق، مثل: "لا حاجةَ لي فيكِ". ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وقُرئ: "زَوَّجْتُكَهَا"،[٢] والمراد الأمر بتزويجها منه عليه السلام. وقيل: جعلُها زوجتَه بلا واسطة عَقدٍ، ويؤيّده أنّها كانت تقول لسائر نساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله تعالى تولّى نكاحي، وأنتنّ زوَّجكنّ أولياؤكنّ».[٣] وقيل: كان زيد السفيرَ في خِطبتها، وذلك ابتلاء عظيم، وشاهدُ عدلٍ بقوّة إيمانه.

﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ ضِيق ومشقّة ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ أي: في حقّ تزوُّجهنّ ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ فإنّ لهم في رسول الله أسوةً حسنةً، وفيه دلالة على أنّ حكمه عليه السلام وحُكمَ الأمّة سواء، إلّا ما خصّه الدليل.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما يُريدُ تكوينه مِن الأمور، أو مأمورَه الحاصل بـ"كُنْ" ﴿مَفْعُولًا﴾ مكوَّنًا لا محالةَ. اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما صحّ وما استقام في الحكمة أن يكون له ضيق ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: قَسَم له وقدَّر، مِن قولهم: "فرَض له في الديوان كذا"، ومنه فروض العساكر لأُعطِياتهم.

---

١ أي: إلى رأي زيد رضي الله عنه كما صرّح به الألوسي في روح المعاني، ٢٠٤/١١. والعبارة في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٣/٤: "أو يفوّض الأمر إلى ربّه".

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والحسن والحسين رضي الله عنهم وابن الحنفيّة وجعفر بن محمّد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٣/٨.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٣/٤. وهو بنحوه في صحيح البخاري، ١٢٤/٩ (٧٤٢٠).

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ اسم موضوع موضعَ المصدر، كقولهم: "تُرْبًا وجَندلًا"،[١] مؤكِّد لِما قبله مِن نفي الحرج، أي: سَنّ الله ذلك سنّةً ﴿فِى ٱلَّذِينَ / خَلَوْا۟﴾ مضَوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن الأنبياء عليهم السلام حيث وسّع عليهم في باب النكاح وغيره، ولقد كانت لداود عليه السلام مائةُ امرأة، وثلاثُمائة سُرِّيّة، ولسليمان عليه السلام ثلاثمائة امرأة، وسبعمائة سُرِّيّة. [٣٤٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: قضاءً مقضيًّا، وحكمًا مَبتوتًا. اعتراض وُسِّط بين الموصولين الجاريَين مَجرى الواحد، للمسارعة إلى تقرير نفي الحرَج وتحقيقِه.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾،[٢] أو مدح لهم، بالنصب أو بالرفع. وقُرئ: "رِسَالَةَ اللهِ".[٣] ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ في كلّ ما يأتون ويذرون، لا سيّما في أمر تبليغ الرسالة، حيث لا يَخْرِمون منها حرفًا، ولا تأخذهم في ذلك لومةُ لائم.

﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في وصفهم بقَصرهم الخشيةَ على الله تعالى تعريضٌ بما صدر عنه عليه السلام مِن الاحتراز عن لائمة الخَلق بعد التصريح في قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.[٤]

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ كافيًا للمخاوف، فينبغي أن لا يُخشَى غيرُه، أو محاسبًا على الصغيرة والكبيرة، فيجب أن يكون حقّ الخشية منه تعالى.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الوالد وولده مِن حرمة المصاهرة وغيرها. ولا ينتقض عمومه

---

١ "تُرْبًا وجَندلًا"، أي: رغمًا وهَوانًا وخَيبة. فتوح الغيب للطيبي، ١٢/٤٣٧. وانظر: الكتاب لسيبويه، ١/٣١٤.

٢ في الآية السابقة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤٨٤.

٤ الأحزاب، ٣٣/٣٧.

بكونه عليه السلام أبًا للطاهر والقاسم وإبراهيم؛ لأنّهم لم يبلغوا الحلُم، ولو بلغوا لكانوا رجالًا له عليه السلام، لا لهم.

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: كان رسولَ الله، وكلُّ رسول أبو أمّته، لكن لا حقيقةً؛ بل بمعنى أنّه شفيق ناصح لهم، وسبب لحياتهم الأبديّة، وما زَيد إلّا واحدٌ مِن رجالكم الذين لا وِلاد بينهم وبينه عليه السلام، فحكمه حكمهم، وليس للتبنّي والادّعاء حكم سوى التقريب والاختصاص.

﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: كان آخِرَهُم الذين خُتِموا به. وقُرئ بكسر "التاء"،[١] أي: كان خاتِمَهم، ويؤيّده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَلَكِنْ نَبِيًّا خَتَمَ النَّبِيِّينَ".[٢]

وأيًّا ما كان فلو كان له ابن بالغ لكان نبيًّا، ولم يكن هو عليه السلام خاتَم النبيّين، / كما يُروى أنّه قال في إبراهيم حين توفّي: «لو عاش لكان نبيًّا».[٣] [٣٤٨و]

ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده عليهما السلام؛ لأنّ معنى كونه خاتَم النبيّين أنّه لا ينبّأ أحد بعدَه، وعيسى ممّن نُبّئ قبله، وحين ينزل إنّما ينزل عاملًا على شريعة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، مصلّيًا إلى قبلته، كأنّه بعض أمّته.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ومِن جملته هذه الأحكام والحِكَم التي بيّنها لكم، وكنتم منها في شكّ مريب.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بما هو أهله مِن التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يَعمّ الأوقات والأحوال، ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ ونزّهوه عمّا لا يليق به ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: أوّلَ النهار وآخِرَه، على أنّ تخصيصهما بالذِّكر

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ١٩/١٢٢.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٤٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٣٣. وفي صحيح البخاري، ٨/٤٣ (٦١٩٤)، عن إسماعيل: قلتُ لابن أبي أوفى: رأيتَ إبراهيم ابنَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ قال: «مات صغيرًا، ولو قُضي أن يكون بعدَ محمّد صلّى الله عليه وسلّم نبيّ عاش ابنه، ولكن لا نبيّ بعده».

ليس لقَصر التسبيح عليهما دون سائر الأوقات؛ بل لإبانة فضلهما على سائر الأوقات؛ لكونهما مشهودَين، كإفراد التسبيح به مِن بين الأذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدةَ فيها. وقيل: كِلا الفعلَين متوجّه إليهما، كقولك: "صُم وصلِّ يومَ الجمعة". وقيل: المراد بالتسبيح الصلاة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾... إلخ استئناف جارٍ مَجرى التعليل لِما قبله مِن الأمرين، فإنّ صلاته تعالى عليهم مع عدم استحقاقهم لها وغِناه عن العالمين ممّا يوجب عليهم المداومةَ على ما يستوجبه تعالى عليهم مِن ذِكره تعالى وتسبيحه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ عطفٌ على المستكِنّ في ﴿يُصَلِّى﴾، لمكان الفصل المغني عن التأكيد بالمنفصل، لكن لا على أن يراد بالصلاة الرحمةَ أوّلًا، والاستغفارَ ثانيًا، فإنّ استعمال اللفظ الواحد في معنيَين متغايرَين ممّا لا مساغَ له؛ بل على أن يراد بها معنًى مَجازي عامّ، يكون كِلا المعنيَين فردًا حقيقيًّا له، وهو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاح أمرهم، فإنّ كلًّا مِن الرحمة والاستغفار فردٌ حقيقي له، أو الترحّم والانعطاف المعنوي المأخوذ مِن الصلاة المشتملةِ على الانعطاف الصوري الذي هو الركوع والسجود. / ولا ريب في أنّ استغفار [٣٤٨ظ]
الملائكة ودعاءهم للمؤمنين ترحّم عليهم. وأمّا أنّ ذلك سبب للرحمة لكونهم مُجابي الدعوة كما قيل،[1] فاعتبارُه يَنْزِعُ إلى الجمع بين المعنيَين المتغايرَين، فتدبّر.

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ متعلّق بـ﴿يُصَلِّى﴾، أي: يعتني بأموركم هو وملائكتُه ليُخرِجكم بذلك مِن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ اعتراض مقرِّر لمَضمون ما قبله، أي: كان بكافّة المؤمنين -الذين أنتم مِن زُمرتهم- رحيمًا، ولذلك يفعل بكم ما يفعل مِن الاعتناء بإصلاحكم بالذات وبالواسطة، ويهديكم إلى الإيمان والطاعة،

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٣٤/٤.

أو كان بكم رحيمًا، على أنّ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مُظهَرٌ وُضِع موضعَ المُضمَر مدحًا لهم وإشعارًا بعِلّة[١] الرحمة.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ بيان للأحكام الآجِلة لرحمته تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة التي هي العناية بأمرهم، وهدايتُهم إلى الطاعة، أي: ما يُحَيَّون به، على أنّه مصدر أضيفَ إلى مفعوله يومَ لقائه عند الموت، أو عند البعث مِن القبور، أو عند دخول الجنّة، تسليم عليهم مِن الله عزّ وجلّ تعظيمًا لهم، أو مِن الملائكة بشارةً لهم بالجنّة، أو تكرمةً لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد، ١٣/٢٣-٢٤]، أو إخبار بالسلامة عن كلّ مكروهٍ وآفة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم بعد دخول الجنّة عقيبَ بيان آثار رحمته الواصِلة إليهم قبل ذلك. ولعلّ إيثارَ الجملة / الفِعليّة على الاسميّة المناسبة لِما قبلها بأن يقال مثلًا: "وأجرُهم أجرٌ كريم" أو "ولهم أجرٌ كريم" للمبالغة في الترغيب والتشويق إلى الموعود ببيان أنّ الأجر الذي هو المقصد الأقصى مِن بين سائر آثار الرحمة موجودٌ بالفعل، مُهَيَّؤٌ لهم، مع ما فيه مِن مراعاة الفواصل. [٣٤٩و]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على مَن بُعِثتَ إليهم، تراقب أحوالهم، وتشاهد أعمالَهم، وتتحمّل منهم الشهادةَ بما صدر عنهم مِن التصديق والتكذيب وسائرِ ما هم عليه مِن الهدى والضلال، وتؤدّيها يوم القيامة أداءً مقبولًا فيما لهم وما عليهم. وهو حال مقدَّرة.

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ تبشِّر المؤمنين بالجنّة، وتنذر الكفّار بالنار.

---

١ س: لعلّة.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى الإقرار به وبوحدانيته وبسائر ما يجب الإيمان به مِن صفاته وأفعاله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتيسيره، أطلق عليه مجازًا لِما أنّه مِن أسبابه، وقيّد به الدعوة إيذانًا بأنّها أمر صعب المَنال، وخَطبٌ في غاية الإعضال، لا يتأتّى إلّا بإمدادٍ مِن جناب قدسه، كيف لا وهو صرفٌ للوجوه عن القِبَلِ المعبودة، وإدخالٌ للأعناق في قلادةٍ غير معهودة.

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ يُستضاء به في ظلمات الجهل والغواية، ويُهتَدَى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧﴾

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على مقدَّر يقتضيه المقام، ويستدعيه النظام، كأنّه قيل: فراقِب أحوالَ الناس، وبشِّر المؤمنين منهم ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ أي: على مؤمني سائر الأمم في الرتبة والشرف، أو زيادةً على أجور أعمالهم بطريق التفضّل والإحسان.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨﴾

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ نهي عن مداراتهم في أمر الدعوة، واستعمالِ لين الجانب في التبليغ، والمسامحة في الإنذار، كُنِي عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغةً في الزجر والتنفير عن المنهيّ عنه بنظمه في سِلكها،
[٣٤٩ظ] / وتصويرِه بصورتها. ومَن حملَ النهي على التهييج والإلهاب[1] فقد أبعد عن التحقيق بمراحل.

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي: لا تُبالِ بأذيّتهم لك بسبب تصلّبك في الدعوة والإنذار. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في كلّ ما تأتي وما تذَر مِن الشئون التي مِن جملتها هذا الشأن، فإنّه تعالى يكفيكهم.

---

[1] انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٣٧٦/١٢.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولًا إليه الأمور في كلّ الأحوال. وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتعليل الحكم وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي.

ولَمّا وُصِف عليه السلام بنعوتٍ خمسة قُوبلَ كلّ منها بخطاب يناسبه، خلا أنّه لم يُذكَر مقابلُ "الشاهد" صريحًا -وهو الأمر بالمراقبة- ثِقةً بظهور دلالة مقابل المبشِّر عليه، وهو الأمر بالتبشير حسبما ذُكر آنفًا. وقوبل "النذير" بالنهي عن مداراة الكفّار والمنافقين، والمسامحةِ في إنذارهم كما تَحقَّقتَه. وقوبل "الداعي إليه تعالى بإذنه" بالأمر بالتوكّل عليه مِن حيث إنّه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به. وقوبل "السراج المنير" بالاكتفاء به تعالى، فإنّ مَن أيّده الله تعالى بالقوّة القدسيّة، ورشّحه للنبوّة، وجعله برهانًا نيّرًا يهدي الخلق مِن ظلمات الغيّ إلى نور الرشاد؛ حقيقٌ بأن يكتفي به عن كلّ ما سواه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: تُجامعوهنّ، وقُرئ: "تُمَاسُّوهُنَّ" بضمّ "التاء".[1]

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ بأيّام يتربّصن فيها بأنفسهنّ ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ تستوفون عددَها، مِن "عدَدتُ الدراهمَ فاعتدّها"، وحقيقته عَدّها لنفسه، وكذلك "كِلتُه فاكتالَه". والإسناد إلى الرجال للدلالة على أنّ العدّة حقّ الأزواج كما أشعرَ به قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾.[2]

وقُرئ: "تَعْتَدُونَهَا"[3] على إبدال إحدى "الدالين" بـ"الياء"، أو على أنّه مِن "الاعتداء" بمعنى: تَعتَدون فيها.

والخلوة الصحيحة في حكم المسّ، وتخصيصُ المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيّات / للتنبيه على أنّ المؤمن مِن شأنه أن يتخيّر لنطفته، ولا ينكح إلّا مؤمنةً. [٣٥٠و]

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨.

٢ س + عليهنّ.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤٩٠.

وفائدةُ ﴿ثُمَّ﴾ إزاحةُ ما عسى يُتوهَم أنّ تراخي الطلاق ريثما يمكن الإصابة يؤثّر في العدّة كما يؤثّر في النسب.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: إن لم يكن مفروضًا لها في العقد، فإنّ الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة، فإنّها مستحبّة عندنا في روايةٍ، وفي أخرى غيرُ مستحبّة.[١]

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أي: أخرجوهنّ مِن منازلكم؛ إذ ليس لكم عليهنّ عدّة، ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ مِن غير ضِرار ولا منعِ حقّ، ولا مساغَ لتفسيره بالطلاق السنّي؛ لأنّه إنّما يتسنّى في المدخول بهنّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنّ، فإنّها أجور الأبضاع، وإيتاؤها إمّا إعطاؤها معجّلةً، أو تسميتُها في العقد، وأيًّا ما كان فتقييد الإحلال له عليه السلام به ليس لتوقّف الحلّ عليه ضرورةَ أنّه يصحّ العقد بلا تسميةٍ، ويجب مهر المِثل أو المتعة على تقديرَي الدخول وعدمه؛ بل لإيثار الأفضل والأولى له عليه السلام، كتقييد إحلال المَملوكة بكونها مَسبيّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ فإنّ المشتراة لا يُتحقَّق بَدءُ أمرها وما جرى عليها، وكتقييد القرائب بكونهنّ مهاجراتٍ معه في قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ ويحتمل تقييد الحِلّ بذلك في حقّه عليه السلام خاصّة، ويعضُده قول أمّ هانئ بنت أبي طالب: «خطَبني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،[٢] فاعتذرتُ إليه، فعذَرني، ثمّ أنزل الله هذه الآية، فلم أحِلّ له؛ لأنّي لم أهاجر معه، كنتُ مِن الطُّلَقاء».[٣]

---

١ انظر: البناية للعيني، ١٥٤/٥.

٢ م - صلّى الله عليه وسلّم.

٣ سنن الترمذي، ٣٥٥/٥ (٣٢١٤)؛ المستدرك للحاكم، ٢٠٢/٢ (٢٧٥٤).

﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً﴾ بالنصب عطفًا على مفعول ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾؛ إذ ليس معناه إنشاءَ الإحلال الناجز؛ بل إعلام مطلق الإحلال المنتظِم لِما سبق ولحِق. وقُرئ بالرفع[١] على أنّه مبتدأ خبره محذوف، أي: أحللناها لك أيضًا.

/ ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أي: ملّكته بَضْعَها بأيّ عبارةٍ كانت بلا مهرٍ إن اتّفق ذلك، كما ينبئ عنه تنكيرها، لكن لا مطلقًا؛ بل عند إرادته عليه السلام استنكاحها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ أي: أن يتملّك بَضْعَها كذلك، أي: بلا مَهر، فإنّ ذلك جارٍ منه عليه السلام مَجرى القبول. [٣٥٠ظ]

وحيث لم يكن هذا نصًّا في كون تمليكها بلفظ الهبة لم يصلح أن يكون مَناطًا للخلاف في انعقاد النكاح بلفظ الهبة إيجابًا أو سلبًا.

واختُلف في اتّفاق هذا العقد، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لم يكن عنده عليه السلام أحدٌ منهنّ بالهبة».[٢] وقيل: الموهوبات أربع: ميمونةُ بنت الحارث،[٣] وزينبُ بنت خزيمة الأنصاريّة،[٤] وأمُّ شريك بنتُ جابر،[٥] وخولةُ بنت حكيم.[٦]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٩٢/٨.

٢ **جامع البيان** للطبري، ١٣٤/١٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٥٠/٣.

٣ هي ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلاليّة (ت. ٥١هـ/٦٧١م)، أمّ المؤمنين، آخر امرأة تزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وآخر مَن مات مِن زوجاته. كان اسمها "بَرّة"، فسمّاها "ميمونة"، بايعت بمكّة قبل الهجرة، وكانت زوجة أبي رَهم بن عبد العزّى العامري، ومات عنها، فتزوّجها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة ٧هـ، عاشت ٨٠ سنة. وتوفّيت في سرَف، وهو الموضع الذي كان فيه زواجها بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم قُرب مكّة، ودفنت به. وكانت صالحة فاضلة. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢٣٨/٢؛ **والإصابة** لابن حجر، ٣٢٢/٨؛ **والأعلام** للزركلي، ٣٤٢/٧.

٤ هي زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلاليّة (ت. ٤هـ/٦٢٥م). أمّ المؤمنين، كانت تُدعى في الجاهليّة أمّ المساكين، تزوّجها عبيدة بن الحارث، وقتل عنها ببدر، فتزوّجها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة ٣هـ، ولبثت عنده ثمانية أشهر أو أقلّ، وماتت بالمدينة، وعمرها نحو ثلاثين سنة. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٥٧/٨؛ **والأعلام** للزركلي، ٦٦/٣.

٥ هي أمّ شريك بنت جابر الغفاريّة. ذكرها أحمد بن صالح في أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اللاتي لم يدخل بهنّ. وقال ابن الأثير: ذكرها ابن حبيب في المبايِعات. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٩٤٢/٤؛ **والإصابة** لابن حجر، ٤١٥/٨.

٦ هي خولة بنت حكيم بن أميّة بن حارثة السلميّة، امرأة عثمان بن مظعون، ومات عنها. يقال: كنيتها أمّ شريك، ويقال لها: خُويلة بالتصغير، وكانت صالحة فاضلة، قال هشام بن عروة عن أبيه: كانت خولة بنت حكيم مِن اللاتي وهبن أنفسهنّ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٨٣٢/٤؛ **والإصابة** لابن حجر، ١١٦/٨.

وإيراده عليه السلام في الموضعين بعنوان النبوّة بطريق الالتفات للتكرِمة والإيذانِ بأنّها المَناط لثبوت الحُكم، فيختصّ به عليه السلام حسب اختصاصها به، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ﴾ أي: خَلُص لك إحلالُها خالصةً، أي: خُلوصًا، فإنّ "الفاعلة" في المصادر غير عزيز، كـ"العافية" و"الكاذبة"، أو خَلُص إحلال[1] ما أحللنا لك مِن المذكورات على القيود المذكورة خالصةً.

ومعنى قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على الأوّل أنّ الإحلال المذكور في المادّة المعهودة غيرُ متحقِّق في حقّهم، وإنّما المتحقِّق هناك الإحلال بمَهر المِثل، وعلى الثاني أنّ إحلال الجميع على القيود المذكورة غيرُ متحقِّق في حقّهم؛ بل المتحقِّق فيه إحلال البعض المعدود على الوجه المعهود.

وقُرئ: "خَالِصَةٌ" بالرفع[2] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: ذاك خلوصٌ لك وخصوصٌ، أو هي -أي: تلك المرأة أو الهبة- خالصةٌ لك، لا تتجاوز المؤمنين، حيث لا تحِلّ لهم بغير مَهر المِثل، ولا تصحّ الهبة؛ بل يجب مَهر المِثل.

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على المؤمنين ﴿فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ أي: في حقّهنّ. اعتراض مقرِّر لِما قبله مِن خُلوص الإحلال المذكور لرسول
[٣٥١و] الله / صلّى الله عليه وسلّم وعدمِ تجاوزه للمؤمنين ببيان أنّه قد فُرض عليهم مِن شرائط العقد وحقوقه ما لم يُفرض عليه عليه السلام تكرمةً له وتوسعةً عليه، أي: قد علمنا ما ينبغي أن يُفرض عليهم في حقّ أزواجهم ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ وعلى أيّ حدٍّ وأيّ صفةٍ يحِقّ أن يُفرض عليهم، ففرَضنا ما فرَضنا على ذلك الوجه، وخَصَصناك ببعض الخصائص؛ ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞ﴾ أي: ضِيق. و"اللام" متعلّقة بـ﴿خَالِصَةٗ﴾ باعتبار ما فيها مِن معنى ثبوت الإحلال وحصولِه له عليه السلام، لا باعتبار اختصاصه به عليه السلام؛ لأنّ مدار انتفاء الحرج هو الأوّل، لا الثاني الذي هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ لِما يعسُر التحرّز عنه، ﴿رَّحِيمٗا﴾ ولذلك وَسّع الأمرَ في مواقع الحرج.

---

[1] س: حلال.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٦.

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١﴾

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: تؤخِّرها وتترك مضاجعتها، ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ وتضمّ إليك مَن تشاء منهنّ وتضاجعها، أو تُطلّق مَن تشاء منهنّ، وتُمسك مَن تشاء. وقُرئ: "تُرْجِئُ" بـ"الهمزة"،[١] والمعنى واحد. ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ أي: طلبتَ ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ طلّقتَ بالرجعة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في شيء ممّا ذُكر.

وهذه قسمة جامعة لِما هو الغرض؛ لأنّه إمّا أن يطلّق أو يمسك، فإذا أمسك ضاجع أو ترك، وقسمَ أو لم يقسِم، وإذا طلّق فإمّا أن يخلّي المعزولة أو يبتغيَها.

ورُوي أنّه أرجى منهنّ سَودةَ وجُويريةَ[٢] وصفيّةَ[٣] وميمونةَ وأمَّ حبيبة،[٤]

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وشعبة عن عاصم. **النشر** لابن الجزري، ٤٠٦/١.

[٢] هي جُوَيرية بنت الحارث بن أبي ضرار، مِن خزاعة (ت. ٥٦هـ/٦٧٦م)، أمّ المؤمنين. كانت تحت مسافع بن صفوان المصطلِقي، فقُتل يوم المريسيع، وكان أبوها سيّدَ قومه في الجاهليّة، فسبيت مع بني المصطلِق، فافتداها أبوها، ثمّ زوّجها لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكان اسمها بَرّة، فغيّره النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وسمّاها جُويرية، وكانت مِن فُضلَيات النساء أدبًا وفصاحةً. توفّيت في المدينة وعمرها ٦٥ سنة. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٧٢/٨؛ و**الأعلام** للزركلي، ١٤٨/٢.

[٣] هي صفيّة بنت حيَي بن أخطب (ت. ٥٠هـ/٦٧٠م)، أمّ المؤمنين، مِن بني النضير، من سِبط لاوي بن يعقوب، ثمّ مِن ذريّة هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام. كانت تحت سلام بن مشكم، ثمّ خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، فقُتل يوم خيبر، فصارت صفيّة مع السبي، فأخذها دِحية ثمّ استعادها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأعتقها وتزوّجها. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٢١٠/٨؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٠٦/٣.

[٤] هي رَملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أميّة، أمّ حبيبة (ت. ٤٤هـ/٦٦٤م)، أمّ المؤمنين. كانت مِن فصيحات قريش، ومِن ذوات الرأي والحَصافة. تزوّجها أولًا عُبيد الله بن جحش، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة، ثمّ ارتدّ عبيد الله، فأعرضت عنه إلى أن مات، فأرسل إليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخطبها وعهِد للنجاشي بعقد نكاحه عليها، ووكّلت هي خالد بن سعيد بن العاص، فأصدقها النجاشيُّ مِن عنده أربع مائة دينار، وذلك سنة ٧هـ، ولها مِن العمر بضع وثلاثون سنةً. وكان أبوها لا يزال على الجاهليّة، فلمّا بلغه ما صنع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عجِب له، وقال: «ذلك الفحل لا يُقرَع أنفه». توفّيت بالمدينة. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٤٠/٨؛ و**الأعلام** للزركلي، ٣٣/٣.

فكان يقسم لهنّ ما شاء كما شاء، وكانت ممّا آوى إليه عائشةُ وحفصةُ[١] وأمُّ سلمة وزينبُ.[٢] وأرجى خمسًا وآوى أربعًا. ورُوي أنّه كان يسوّي بينهنّ مع ما أُطلقَ له وخُيّر، إلّا سودة، فإنّها وهبت ليلتها لعائشةَ رضي الله عنهنّ،[٣] وقالت: «لا تطلّقني حتّى أحشرَ في زمرة نسائك».[٤]

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن تفويض الأمر إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: أقربُ إلى قُرّة عيونهنّ ورضاهنّ جميعًا؛ لأنّه حكمٌ كلّهنّ فيه سواء، ثمّ إن سوّيتَ بينهنّ وجدنَ ذلك تفضّلًا منك، وإن رجّحتَ بعضهنّ علِمنَ أنّه بحكم الله، فتطمئنّ به نفوسهنّ.

وقُرئ: "تُقِرَّ" بضمّ "التاء" ونصب ﴿أَعْيُنَهُنَّ﴾،[٥] و"تُقَرَّ"[٦] على البناء للمفعول. و﴿كُلُّهُنَّ﴾ تأكيد لـ"نون" ﴿يَرْضَيْنَ﴾، / وقُرئ بالنصب[٧] على أنّه تأكيدٌ لِـ"هُنَّ". [٣٥١ظ]

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ مِن الضمائر والخواطر، فاجتهِدوا في إحسانها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغًا في العِلم، فيعلم كلّ ما تبدونه وتخفونه، ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فلا تغترّوا بتأخيرها فإنّه إمهال، لا إهمالٌ.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

---

[١] هي حفصة بنت أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب (ت. ٤٥هـ/٦٦٥م)، أمّ المؤمنين. وُلدت بمكّة، وتزوّجها خنيس بن حذافة السهمي، فكانت عنده إلى أن ظهر الإسلام، فأسلما، وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها، فخطبها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن أبيها، فزوّجه إيّاها سنة اثنتين أو ثلاث للهجرة. رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم طلّقها تطليقة ثمّ ارتجعها، وذلك أنّ جبريل قال له: «أرجع حفصة، فإنّها صوّامة قوّامة، وإنّها زوجتك في الجنّة». انظر: الإصابة لابن حجر، ٨٦/٨؛ والأعلام للزركلي، ٢٦٤/٢.

[٢] جامع البيان للطبري، ١٣٩/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٥/٨.

[٣] س: عنها.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٥٥٢/٣. وهو في مسند الشافعي، ٢٧/٢-٢٨ (٨٣)، عن ابن عبّاس.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٦.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٦.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي إياس جؤية. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٦.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ بـ"الياء" لأنّ تأنيث الجمع غير حقيقي، ولوجود الفصل. وقُرئ بـ"التاء".[١] ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: مِن بعدِ التسع، وهو في حقّه كالأربع في حقّنا. وقال ابن عبّاس وقتادة: «مِن بعد هؤلاء التسع اللاتي خيَّرتَهنّ فاختَرنَكَ». وقيل: مِن بعدِ اختيارهنّ الله ورسولَه، ورضاهنّ بما تُؤتيهنّ مِن الوَصل والهجران.

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ أي: تتبدّل، بحذف إحدى "التاءين" ﴿بِهِنَّ﴾ أي: بهؤلاء التسع ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجٍ﴾ بأن تطلِّق واحدة منها، وتنكِح مكانها أخرى. و﴿مِنۡ﴾ مزيدة لتأكيد الاستغراق.

أراد الله تعالى لهنّ كرامةً وجزاءً على ما اخترنَ ورضينَ، فقصرَ رسولَه عليهنّ، وهنّ التسع اللاتي توفّي عليه السلام عنهنّ، وهنّ: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وسَودة بنت زَمعةَ، وأمّ سلمة بنت أبي أميّة، وصفيّة بنت حُييّ الخيبريّة، وميمونة بنت الحارث الهلاليّة، وزينب بنت جحش الأسديّة، وجويريّة بنت الحارث المُصطَلِقيّة.

وقال عِكرمة: «المعنى: لا يحلّ لك النساء مِن بعدِ الأجناس الأربعة اللاتي أحللناهنّ لك بالصفة التي تقدّم ذِكرها مِن الأعرابيّات والغرائبِ، أو مِن الكتابيّات، أو مِن الإماء بالنكاح».[٢] ويأباه قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾، فإنّ معنى إحلال الأجناس المذكورة إحلالُ نكاحِهنّ، فلا بدّ أن يكون معنى التبدّل بهنّ إحلال نكاحِ غيرِهنّ بدلَ إحلال نكاحِهنّ، وذلك إنّما يُتصوّر بالنسخ الذي ليس مِن الوظائف البشريّة.

﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ أي: حُسنُ الأزواج المستبدَلة، وهو حال مِن فاعل ﴿تَبَدَّلَ﴾، لا مِن مفعوله، / وهو ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجٍ﴾، لتوغّله في التنكير، قيل: تقديره: [٣٥٢و]
مفروضًا إعجابُك بهنّ، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكَةٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ﴾[٣] [البقرة، ٢/٢٢١].

---

١ أي: "لَا تَحِلُّ". قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ١٩/١٤٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٨/٥٥.

٣ م ط س: أعجبتك.

وقيل: هي أسماء بنت عُمَيس الخَثعميّة[١] امرأة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه،[٢] أي: هي ممَّن أعجَبه عليه السلام حسنُهنّ.

واختُلف في أنّ الآية محكمة أو منسوخة، قيل: بقوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾.[٣] وقيل: بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾،[٤] وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف. وقيل: بالسنّة. وعن عائشة رضي الله عنها: «ما مات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى أُحِلَّ له النساء».[٥] وقال أنس رضي الله عنه: «مات عليه السلام على التحريم».[٦]

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثناء مِن ﴿ٱلنِّسَآءُ﴾؛ لأنّه يتناول الأزواج والإماء. وقيل: منقطع.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ حافظًا مهيمنًا، فاحذروا مجاوزةَ حدودِه، وتخطِّيَ حلالِه إلى حرامه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

---

١ هي أسماء بنت عُميس بن مَعد بن تَيم بن الحارث الخثعمي (ت. نحو ٤٠هـ/٦٦١م). أسلَمت قبل دخول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم دار الأرقم بمكّة، وهاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، فولدت له عبد الله ومحمّدًا وعَوفًا، ثمّ قُتل عنها جعفر شهيدًا في وقعة مؤتة، فتزوّجها أبو بكر الصدّيق فولدَت له محمّدًا، وتوفّي عنها أبو بكر فتزوّجها عليّ بن أبي طالب، فولَدت له يحيى وعونًا. وماتت بعد عليّ. وصفَها أبو نُعيم بمهاجِرة الهجرتين ومُصلّية القِبلتين. انظر: الإصابة لابن حجر، ١٤/٨؛ والأعلام للزركلي، ٣٠٦/١.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٤/٣.

٣ في الآية السابقة.

٤ الأحزاب، ٥٠/٣٣.

٥ مسند أحمد، ١٦٥/٤٠ (٢٤١٣٧)؛ سنن الترمذي، ٣٥٦/٥ (٣٢١٦).

٦ معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٧/٦؛ اللباب لابن عادل، ٥٧٥/١٥. وأخرج البيهقي في السنن الكبرى، ٨٦/٧ (١٣٣٤٧)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لمّا خيّرهن الله اخترنَ الله ورسولَهُ والدارَ الآخرة، فقصَرَه عليهنّ، فأنزل الله عليه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ شروع في بيان ما يجب مراعاته على الناس مِن حقوق نساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إثرَ بيان ما يجب مراعاته عليه عليه السلام مِن الحقوق المتعلِّقة بهنّ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا تدخلوها في حال مِن الأحوال إلّا حالَ كونكم مأذونًا لكم. وقيل: مِن أعمّ الأوقات، أي: لا تدخلوها في وقت مِن الأوقات إلّا وَقتَ أن يؤذن لكم.[١] ورُدّ عليه بأنّ النحاة نصّوا على أنّ الوقوع موقعَ الظرف مختصّ بالمصدر الصريح دون المأوّل، لا يقال: "آتيك أن يصيحَ الديك"، وإنّما يقال: "آتيك صياحَ الديك".

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ متعلّق بـ﴿يُؤْذَنَ﴾ بتضمين معنى الدعاء للإشعار بأنّه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وإن تحقّق الإذن، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: غيرَ منتظرين وقتَه، أو إدراكَه. وهو حال مِن فاعل ﴿لَا تَدْخُلُواْ﴾ على أنّ الاستثناء واقع على الوقت والحال معًا عند مَن يجوِّزه، أو مِن المجرور في ﴿لَكُمْ﴾.

وقُرئ بالجرّ[٢] صفةً لـ﴿طَعَامٍ﴾، فيكون جاريًا على غير مَن هو له بلا إبراز الضمير، ولا مساغَ له عند البصريّين. وقُرئ بالإمالة؛[٣] لأنّه مصدر "أَنَى الطعامَ" أي: أدرك.

﴿وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ﴾ استدراك مِن النهي عن الدخول بغير إذن، وفيه دلالة بيّنة على أنّ المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ فتفرّقوا ولا تلبثوا؛ لأنّه خطاب لقوم كانوا يَتَحيَّنون / طعام النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه، [٣٥٢ظ]

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٤/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٧/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٦.

٣ أي: بإمالة ألِف ﴿إِنَىٰهُ﴾. قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وهشام بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٤٣/٢.

مخصوصةٌ بهم وبأمثالهم، وإلّا لَما جاز لأحد أن يدخل بيوته عليه السلام بإذنٍ لغير الطعام، ولا اللبثُ بعد الطعام لأمرٍ مهمّ.

﴿وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: لِحديث بعضكم بعضًا، أو لِحديث أهل البيت بالتسمّع له. عطفٌ على ﴿نَٰظِرِينَ﴾، أو مقدَّر بفعل، أي: ولا تدخلوا، أو لا تمكثوا مستأنسين... إلخ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الاستئناس الذي كنتم تفعلونه مِن قبلُ ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله، وإيجابُه للاشتغال بما لا يَعنيه، وصدِّه عن الاشتغال بما يَعنيه. ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ أي: مِن إخراجكم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فإنّه يستدعي أن يكون المستحيَى منه أمرًا حقًّا متعلِّقًا بهم، لا أنفسَهم، وما ذلك إلّا إخراجُهم، فينبغي أن لا يُترك حياءً، ولذلك لم يتركه تعالى، وأمركم بالخروج. والتعبير عنه بـ"عدم الاستحياء" للمشاكلة. وقُرئ: "لَا يَسْتَحِي" بحذف "الياء" الأولى وإلقاءِ حركتها إلى ما قبلها.[1]

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء النبيّ المدلولِ عليهنّ بذِكر بيوته عليه السلام ﴿مَتَٰعًا﴾ أي: شيئًا يُتمتّع به مِن الماعون وغيره، ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ أي: المتاعَ ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي: سترٍ.

رُوي أنّ عمر رضي الله عنه قال: «يا رسول الله، يدخل عليك البَرّ والفاجر، فلو أمرتَ أمّهات المؤمنين بالحجاب»، فنزلت.[2] وقيل: إنّه عليه السلام كان يَطعم ومعه بعض أصحابه، فأصابت يدُ رجل منهم يدَ عائشة رضي الله عنها، فكَرِه النبيّ عليه السلام[3] ذلك، فنزلت.[4]

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما ذكر مِن عدم الدخول بغير إذن، وعدمِ الاستئناس للحديث عند الدخول، وسؤالِ المتاع مِن وراء حجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: أكثرُ تطهيرًا مِن الخواطر الشيطانيّة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٦.

٢ مسند أحمد، ٢٩٩/١ (١٦٠)؛ صحيح البخاري، ١١٨/٦ (٤٧٩٠).

٣ م - عليه السلام.

٤ جامع البيان للطبري، ١٦٧/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٦٠/٨.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي: وما صحّ وما استقام لكم ﴿أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن تفعلوا في حياته فعلًا يكرهه ويتأذّى به، ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: مِن بعد وفاته، أو فِراقه.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن إيذائه عليه السلام ونكاحِ أزواجه مِن بعده، وما فيه مِن / معنى البعد للإيذان ببُعد منزلته في الشرّ والفساد. [٣٥٣و]
﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: أمرًا عظيمًا وخَطبًا هائلًا لا يقادَر قدرُه. وفيه مِن تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلّى الله عليه وسلّم وإيجابِ حُرمته حيًّا وميتًا ما لا يخفى، ولذلك بالَغ تعالى في الوعيد حيث قال: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ ممّا لا خيرَ فيه –كنكاحهنّ– على ألسنتكم ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم بما صدر عنكم مِن المعاصي البادية والخافية لا محالةَ، وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيدُ تهويل وتشديدٍ ومبالغةٍ في الوعيد.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ استئناف لبيان مَن لا يجب الاحتجاب عنهم.

رُوي أنّه لمّا نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: "يا رسول الله، أوَنكلّمهم أيضًا مِن وراء الحجاب"، فنزلت.[1]

وإنّما لم يُذكر العمّ والخال لأنّهما بمنزلة الوالدَين، ولذلك سمّي العمّ أبًا في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة، ١٣٣/٢]، أو لأنّه اكتُفي عن ذكرهما بذِكر أبناء الإخوة وأبناءِ الأخوات، فإنّ مَناط عدم لزوم الاحتجاب بينهنّ وبين الفريقين عَينُ ما بينهنّ وبين العمّ والخال مِن العُمومة والخُئولة، لِما أنهنّ عمّات لأبناء الإخوة، وخالات لأبناء الأخوات. وقيل: لأنّه كُرِه ترك الاحتجاب منهما مخافةَ أن يصِفاهنّ لأبنائهما.

---

[1] التفسير الوجيز للواحدي، ص ٨٧٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٧/٣.

﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: نساءِ المؤمنات ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ مِن العبيد والإماء. وقيل: مِن الإماء خاصّةً، وقد مرّ في سورة النور.[١]

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ في كلّ ما تأتُنّ وما تذَرُنّ، لا سيّما فيما أُمِرتُنّ به ونُهيتُنّ عنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفى عليه خافية، / ولا يتفاوت في علمه الأحوال. [٣٥٣ظ]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ وقُرئ: "وَمَلَائِكَتُهُ" بالرفع[٢] عطفًا على محلّ ﴿إِنَّ﴾ واسمها عند الكوفيّين، وحَملًا على حذف الخبر ثِقةً بدلالة ما بعده عليه على رأي البصريّين.

﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ قيل: الصلاة مِن الله تعالى الرحمة، ومِن الملائكة الاستغفار. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أراد أنّ الله يرحمه، والملائكةَ يدعون له».[٣] وعنه أيضًا: «﴿يُصَلُّونَ﴾ يُبرّكون».[٤] وقال أبو العالية: «صلاة الله تعالى[٥] عليه ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاتهم دعاؤهم له».[٦] فينبغي أن يراد بها في ﴿يُصَلُّونَ﴾ معنًى مجازي عامّ يكون كلّ واحد مِن المعاني المذكورة فردًا حقيقيًا له، أي: يعتنون بما فيه خيره وصلاحُ أمره، ويهتمّون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه، وذلك مِن الله سبحانه بالرحمة، ومِن الملائكة بالدعاء[٧] والاستغفار.[٨]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ اعتنوا أنتم أيضًا بذلك، فإنّكم أولى به. ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ قائلين: "اللّٰهمّ صلّ على محمّد وسلّم"، أو نحو ذلك. وقيل: المراد بـ"التسليم" انقياد أمره.

---

١ النور، ٣١/٢٤.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعبد الوارث عن أبي عمرو. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٢/٨.
٣ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤٨١/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٨٥/١٥.
٤ **جامع البيان** للطبري، ١٧٤/١٩. وذكره البخاري في **صحيحه**، ١٢٠/٦، معلّقًا.
٥ س – تعالى.
٦ **تفسير مجاهد**، ص ٥٥٢. وذكره البخاري في **صحيحه**، ١٢٠/٦، معلّقًا.
٧ س – بالدعاء.
٨ س: بالاستغفار.

والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه عليه الصلاة والسلام[١] مطلقًا مِن غير تعرّض لوجوب التكرار وعدمه. قيل: يجب ذلك كلّما جَرى ذكره، لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «رَغِم أنفُ رجل ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليّ»،[٢] وقولِه عليه السلام: «مَن ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليّ دخل النار، فأبعده الله».[٣]

ويُروى أنّه عليه السلام قال: «وكّل الله تعالى بي ملَكَين، فلا أُذكَر عند مسلم فيصلّي عليّ إلّا قال ذانِكَ الملَكان: "غفرَ الله لك"، وقال الله تعالى وملائكته جوابًا لذَينِك الملَكين: "آمين"، / ولا أُذكَر عند مسلم فلا يصلّي عليّ [٣٥٤و] إلّا قال ذانِك الملَكان: "لا غفرَ الله لك"، ويقول الله تعالى وملائكتُه جوابًا لذَينِك الملَكَين: "آمين"».[٤]

ومنهم مَن قال: يجب في كلّ مجلس مرّة، وإن تكرّر ذكره عليه السلام، كما قيل في آية السجدة وتشميتِ العاطس، وكذلك في كلّ دعاء، في أوّله وآخره. ومنهم مَن قال بالوجوب في العمر مرّةً، وكذا قال في إظهار الشهادتين.

والذي يقتضيه الاحتياط ويستدعيه معرفةُ علوّ شأنه صلّى الله عليه وسلّم أن يصلّى عليه كلّما جرى ذِكره الرفيع.

وأمّا الصلاة عليه في الصلاة بأن يقال: "اللّهمّ صلّ على محمّدٍ وعلى آل محمّدٍ، كما صلّيتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد"، فليس[٥] بشرط في جواز الصلاة عندنا.[٦] وعن إبراهيم النخعي رحمه الله أنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يكتفون عن ذلك بما في التشهّد، وهو "السلام عليك أيّها النبيّ".[٧] وأمّا الشافعي رحمه الله فقد جعلها شرطًا.[٨]

---

[١] م - عليه الصلاة والسلام.

[٢] **سنن الترمذي**، ٥/٥٥٠ (٣٥٤٥)؛ **المستدرك** للحاكم، ١/٧٣٤ (٢٠١٦).

[٣] **المعجم الكبير** للطبراني، ١٢/٨٣ (١٢٥٥١). وهو في **صحيح ابن حبّان**، ٣/١٨٨ (٩٠٧)، بلفظ: "فدخَلَ" بالفاء.

[٤] **المعجم الكبير** للطبراني، ٣/٨٩ (٢٧٥٣)؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/٦٣.

[٥] س: فليست.

[٦] انظر: **ردّ المحتار** لابن عابدين، ١/٤٧٧.

[٧] **المبسوط** للسرخسي، ١/٢٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٥٥٨.

[٨] أي: قوله: " اللّهمّ صلّ على محمّدٍ"، وأما الزيادة على ذلك باللفظ الوارد فمستحبّ عنده. انظر: **المجموع** للنووي، ٣/٤٦٣.

وأمّا الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تَبعًا، ويُكره استقلالًا؛ لأنّه في العرف شعار ذِكر الرسل، ولذلك كُرِه أن يقال: "محمّد عزّ وجلّ" مع كونه عزيزًا جليلًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أُرِيدَ بالإيذاء إمّا فِعلُ ما يكرهانه مِن الكفر والمعاصي مجازًا، لاستحالة حقيقة التّأذّي في حقّه تعالى، وقيل في إيذائه تعالى: هو قولُ اليهود والنصارى والمشركين: "يد الله مغلولة"، و"ثالث ثلاثة"، و"المسيح ابن الله"، و"الملائكة بنات الله"، و"الأصنام شركاؤه"، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. وقيل: قول الذين يُلحدون في آياته، وفي إيذاء الرسول عليه السلام هو قولهم: شاعر، ساحر، كاهن، مجنون. وقيل: هو كَسر رَباعيَته وشجُّ وجهه الكريم يوم أُحد. وقيل: طَعنهم في نكاح صفيّة، والحقّ هو العموم فيهما.

وإمّا إيذاؤه عليه السلام خاصّة بطريق الحقيقة، وذكرُ الله عزّ وجلّ لتعظيمه والإيذانِ بجلالة مِقداره عنده تعالى، وأنّ إيذاءَه عليه السلام إيذاءٌ له سبحانه.

[٣٥٤ظ] / ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردَهم وأبعدهم مِن رحمته ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئًا منها، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يصيبهم في الآخرة خاصّةً.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يفعلون بهم ما يتأذّون به مِن قولٍ أو فعلٍ. وتقييده بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ -أي: بغير جناية يستحقّون بها الأذِيّةَ- بعد إطلاقه فيما قبله للإيذانِ بأنّ أذى الله ورسولِه لا يكون إلّا غيرَ حقّ، وأمّا أذى هؤلاء فمِنه ومِنه. ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهرًا بيّنًا.

قيل: إنّها نزلت في منافقين كانوا يؤذون عليًا رضي الله عنه ويُسمِعونه ما لا خيرَ فيه.[١] وقيل: في أهل الإفك. وقال الضحّاك والكلبي: «في زُناة يتّبعون النساء إذا برزنَ بالليل لقضاء حوائجهنّ».[٢] وكانوا لا يتعرّضون إلّا للإماء، ولكن ربّما كان يقع منهم التعرّض للحرائر أيضًا جهلًا أو تجاهلًا لاتّحاد الكلّ في الزّيّ واللباس. والظاهر عمومه لكلّ ما ذكر ولِما سيأتي مِن أراجيف المرجفين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٩﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ بعد ما بيّن سوءُ حال المؤذين زجرًا لهم عن الإيذاء أُمِر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأن يأمر بعضَ المتأذّين منهم بما يدفع إيذاءَهم في الجملة مِن التستّر والتميّز عن مواقع الإيذاء، فقيل: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ "الجلباب": ثوب أوسعُ مِن الخِمار، ودون الرداء، تَلويه المرأة على رأسها، وتُبقِي منه ما تُرسله على صدرها. وقيل: هي المِلحفة وكلُّ ما يُتستّر به، أي: يُغطِّينَ بها وجوهَهنّ وأبدانَهنّ إذا بَرزنَ لداعية مِن الدواعي. و﴿مِن﴾ للتبعيض، لِما مرّ مِن أنّ المعهود التّلَفّعُ ببعضها وإرخاءُ بعضها. وعن السُّدّي: «تغطّي إحدى عَينيها وجَبهتَها، والشّقّ الآخر إلّا العين».[٣]

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن التغطّي ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب / ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ ويُمَيَّزن عن الإماء والقيّناتِ اللاتي هنّ مواقع تعرّضهم وإيذائهم، ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ مِن جهة أهل الريبة بالتعرّض لهنّ. [٣٥٥و]

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِما سلف منهنّ مِن التفريط، ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده حيث يراعي مِن مصالحهم أمثالَ هاتيك الجزئيّات.

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٥٩/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٣٨/٤.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٦٣/٨؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٨٦/٦.

٣ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٦٠/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٤/٨.

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠﴾

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عمّا هم عليه مِن النفاق وأحكامِه الموجبة للإيذاء، ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ عمّا هم عليه مِن التزلزل وما يستتبعه ممّا لا خيرَ فيه، ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مِن الفريقين عمّا هم عليه مِن نشر أخبار السُّوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك مِن الأراجيف الملفَّقة المستتبِعة للأذيّة. وأصل "الإرجاف" التحريك، مِن "الرَّجْفة" التي هي الزلزلة، وُصفت به الأخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنأمرنّك بقتالهم وإجلائهم، أو بما يضطرّهم إلى الجلاء، ونُحرِّضنّك على ذلك، ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطفٌ على جواب القسَم. و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ الجلاء ومفارقةَ جِوار الرسول عليه السلام أعظمُ ما يصيبهم ﴿فِيهَآ﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زمانًا أو جِوارًا قليلًا، ريثما يتبيّن حالهم مِن الانتهاء وعدمه.

﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١﴾

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم، أو الحال، على أنّ الاستثناء وارد عليه أيضًا على رأي مَن يُجوّزه كما مرّ في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾،[1] ولا سبيلَ إلى انتصابه عن قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ لأنّ ما بعد كلمة الشرط لا يَعمل فيما قَبلها.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: سنَّ الله ذلك في الأمم الماضية سنّةً، وهي أن يُقتّل الذين نافقوا الأنبياء عليهم السلام وسَعَوا في توهين أمرهم بالإرجاف ونحوه أينما ثُقِفوا. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أصلًا لابتنائها على أساس الحكمة التي عليها يدور فلك التشريع.

---

[1] الأحزاب، ٥٣/٣٣.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: عن[1] / وقتِ قيامها، كان المشركون [٣٥٥ظ]
يسألونه عليه السلام عن ذلك استعجالًا بطريق الاستهزاء، واليهودُ امتحانًا، لِما أنّ الله تعالى عَمَّى وقتها في التوراة وسائر الكتب.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يُطلِع عليه ملَكًا مقرّبًا، ولا نبيًّا مرسلًا. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ خطاب مستقِلّ له عليه السلام غيرُ داخل تحت الأمر، مَسوق لبيان أنّها مع كونها غيرَ معلومة للخلق مرجوّةُ المجيء عن قريب، أي: أيّ شيء يُعلِمك بوقت قيامِها؟ أي: لا يُعلِمُك به شيء أصلًا.

﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: شيئًا قريبًا، أو تكون الساعة في وقتٍ قريب. وانتصابه على الظرفيّة، ويجوز أن يكون التذكير باعتبار أنّ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في معنى اليوم أو الوقت. وفيه تهديد للمستعجلين، وتبكيت للمتعنّتين. والإظهار في حيّز الإضمار للتهويل وزيادةِ التقرير وتأكيدِ استقلال الجملة كما أشيرَ إليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ على الإطلاق، أي: طرَدهم وأبعدهم مِن رحمته العاجلة والآجلة، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿سَعِيرًا﴾ نارًا شديدة الاتّقاد، يقاسونها في الآخرة.

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحفظهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يخلّصهم منها.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ ظرف لعدم الوجدان. وقيل: لـ﴿خَـٰلِدِينَ﴾.[2] وقيل: لـ﴿نَصِيرًا﴾.[3] وقيل: مفعول لـ"اذكرْ"، أي: يوم تُصَرَّفُ وجوهُهم فيها مِن جهة إلى جهة،

---

[1] س + أيّ.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة.

كاللحم يُشوَى في النار، أو يُطبَخ في القِدر، فيدور به الغليان مِن جهة إلى جهة، أو مِن حال إلى حال، أو يُطرَحُون فيها مقلوبين منكوسين.

وقُرِئ: "تَقَلَّبُ"[١] بحذف إحدى "التاءَين" مِن "تَتَقَلَّب"، و"نُقَلِّبُ" بإسناد الفعل إلى "نون" العظمة، ونصبِ ﴿وُجُوهُهُمْ﴾،[٢] و"تُقَلِّبُ"[٣] بإسناده إلى "السعير".

وتخصيص "الوجوه" بالذِّكر لِما أنّها أكرم الأعضاء، ففيه مزيد تفظيع للأمر، وتهويلٍ للخَطب، ويجوز أن تكون عبارةً عن كلّ الجسد، فقوله تعالى:[٤] ﴿يَقُولُونَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية حالهم الفظيعة، كأنّه قيل: فماذا / يصنعون عند ذلك؟ فقيل: يقولون متحسّرين على ما فاتهم: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فلا نُبتَلى بهذا العذاب، أو حال مِن ضمير ﴿وُجُوهُهُمْ﴾، أو مِن نفسها، أو هو العامل في ﴿يَوْمَ﴾. [٣٥٦و]

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿يَقُولُونَ﴾،[٥] والعدول إلى صيغة الماضي للإشعار بأنّ قولهم هذا ليس مستمرًا كقولهم السابق؛ بل هو ضرب اعتذارٍ، أرادوا به ضربًا مِن التشفّي بمضاعفة عذاب الذين أَلْقَوهم في تلك الورطة، وإن علموا عدمَ قبوله في حقّ خلاصهم منها.

﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ يعنون قادتهم الذين لقّنوهم الكفر. وقُرِئ: "سَادَاتِنَا"[٦] للدلالة على الكثرة. والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكِبَر لتقوية الاعتذار، وإلّا فهم في مقام التحقير والإهانة. ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ بما زيّنوا لنا الأباطيل، و"الألِف" للإطلاق، كما في ﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.[٧]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعيسى وأبي جعفر الرواسي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٠٧/٨.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن كرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٧.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٧.
٤ م - تعالى.
٥ في الآية السابقة.
٦ قرأ بها ابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.
٧ في الآية السابقة.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: مِثلَي العذاب الذي آتيتَناه؛ لأنّهم ضلّوا وأضلّوا، ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ أي: شديدًا عظيمًا. وقُرئ: "كَثِيرًا".[1] وتصدير الدعاء بالنداء مكرّرًا للمبالغة في الجُؤار واستدعاءِ الإجابة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ قيل: نزلت في شأن زيد وزينب، وما سمع فيه مِن قالة الناس.[2]

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ أي: فأظهر براءته عليه السلام ممّا قالوا في حقّه، أي: مِن مضمونه ومؤدّاه الذي هو الأمر المَعيب، وذلك أنّ قارون أغرى مُومِسةً على قذفه عليه السلام بنفسها، بأن دفع إليها مالًا عظيمًا، فأظهر الله تعالى نزاهته عليه السلام عن ذلك بأن أقرّت المُومِسة بالمصانَعة الجارية بينها وبين قارون، وفُعلَ بقارون ما فُعلَ / كما فُصّل في سورة القَصص.[3] [٣٥٦ظ]

وقيل: اتّهمه ناس بقتل هارون عند خروجه معه إلى الطور، فمات هناك، فحملته الملائكة، ومرّوا به حتّى رأوه غير مقتول.[4]

وقيل: أحياه الله تعالى فأخبرهم ببراءته. وقيل: قَرَفُوه[5] بعَيبٍ في بدَنه مِن برَص أو أُدرة[6] لفَرط تَسَتُّره حياءً، فأَطْلَعَهم الله[7] تعالى على براءته بأن فَرّ الحَجر بثوبه حين وضعه عليه عند اغتساله، والقصّة مشهورة.[8]

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخَلف وابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

٢ التفسير البسيط للواحدي، ١٨/٢٩٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٦٣.

٣ القصص، ٢٨/٧٦.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٦٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٣٩.

٥ وفي هامش م: اتّهموه.

٦ الأُدْرة: مرض يَنتفخ منه الخصيتان ويكبران. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٧/١٨٥.

٧ س – الله.

٨ جامع البيان للطبري، ١٩/١٩٢؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٦٦.

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ ذا قُربة ووَجاهة. وقُرئ: "وَكَانَ عَبْدًا للهِ وَجِيهًا".[١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في كلّ ما تأتون وما تذرون، لا سيّما في ارتكاب ما يكرهه فضلًا عمّا يؤذي رسوله عليه السلام، ﴿وَقُولُواْ﴾ في كلّ شأن مِن الشئون ﴿قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ قاصدًا إلى الحقّ، مِن "سَدَّ يَسُدُّ سَدادًا"، يقال: "سَدَّدَ السهمَ نحوَ الرميّة" إذا لم يعدل به عن سَمتها، والمراد نهيهم عمّا خاضوا فيه مِن حديث زينب الجائِر عن العدل والقصد.

﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾

﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يوفّقكم للأعمال الصالحة، أو يُصلحها بالقبول والإثابة عليها، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ ويجعَلْها مكفَّرة باستقامتكم في القول والعمل.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامر والنواهي التي مِن جملتها هذه التكليفات ﴿فَقَدۡ فَازَ﴾ في الدارين ﴿فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادَر قدرُه، ولا يُبلَغ غايتُه.

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ لمَا بيِّن عِظَم شأن طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين عنها مِن العذاب الأليم ومَنالِ المُراعين لها مِن الفَوز العظيم عُقِّب ذلك ببيان عِظَم شأن ما يُوجِبُها مِن التكاليف الشرعيّة، وصعوبةِ أمرها بطريق التمثيل، مع الإيذان بأنّ ما صدر عنهم مِن الطاعة وتركها صدَر عنهم بعد القبول والالتزام، / وعُبّر عنها [٣٥٧و] بالأمانة تنبيهًا على أنّها حقوق مَرعيّة أودعها الله تعالى المكلّفين، وائتَمنهم عليها،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٧.

وأوجب عليهم تَلَقِّيَها بحسن الطاعة والانقياد، وأمرهم بمراعاتها، والمحافظةِ عليها وأدائِها مِن غير إخلال بشيء مِن حقوقها، وعُبّر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذُكر مِن السماوات وغيرها بالعَرْض عليهنّ لإظهار مَزيد الاعتناء بأمرها، والرغبةِ في قبولهنّ، وعن عدم استعدادهنّ لقَبولها بالإباء والإشفاقِ منها لتهويل أمرها وتربية فخامتها، وعن قَبولها بالحمل لتَحقيق معنى الصعوبة المعتبَرة فيها، بجَعلها مِن قَبيل الأجسام الثقيلة التي يُستعمل فيها القوى الجسمانيّة التي أشدّها وأعظمُها ما فيهنّ مِن القوّة والشدّة.

والمعنى: أنّ تلك الأمانة في عِظَم الشأن بحيث لو كُلِّفَت هاتيك الأجرام العظام التي هي مَثَلٌ في القوّة والشدّة مراعاتَها، وكانت ذات شعور وإدراك، لَأبَينَ قَبولَها، وأشفَقنَ منها، ولكن صُرِف الكلام عن سَننه بتصوير المفروض بصورة المحقَّق رَومًا لِزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحِه.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: عند عرضها عليه، إمّا باعتبارها بالإضافة إلى استعداده، أو بتكليفه إيّاها يوم الميثاق، أي: تكلّفها والتزمَها مع ما فيه مِن ضعف البُنية ورِخاوة القوّة، وهو إمّا عبارة عن قَبوله لها بموجَب استعداده الفطري، أو عن اعترافه بقوله: "بلى".

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ اعتراض وُسِّط بين الحَمل وغايتِه للإيذان مِن أوّل الأمر بعدم وفائه بما عهِده وتَحَمَّله، أي: إنّه كان مفرِطًا في الظلم، مبالغًا في الجهل، أي: بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجَب فطرتهم السليمة. أو اعترافُهم السابق دون مَن عَداهم مِن الذين لم يُبدّلوا فطرةَ الله / تبديلًا. [٣٥٧ظ]

وإلى الفريق الأوّل أشيرَ بقوله عزّ وجلّ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: حمَلَها الإنسان ليعذِّب الله بعض أفراده الذين لم يُراعوها ولم يقابلوها بالطاعة، على أنّ "اللام" للعاقبة، فإنّ التعذيب وإن لم يكن غَرضًا له مِن الحَمل لكن لمّا ترتّب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده[١]

---

[١] س: فراده.

تَرتُّبَ الأغراض على الأفعال المعلَّلة بها أُبرِز في مَعرِض الغرض، أي: كان عاقبة حَمْل الإنسان لها أن يعذِّب الله تعالى هؤلاءِ مِن أفراده لخيانتهم الأمانةَ، وخروجِهم عن الطاعة بالكلّيّة.

وإلى الفريق الثاني أشيرَ بقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: كان عاقبةُ حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء مِن أفراده، أي: يقبل توبتَهم لعدم خَلعهم رِبقةَ الطاعة عن رقابهم بالمرّة، وتلافيهم لِما فرَط منهم مِن فرطاتٍ قلّما يخلو عنها الإنسان بحُكم جِبِلّته، وتدارُكِهم لها بالتوبة والإنابة.

والالتفات إلى الاسم الجليل أوّلًا لتهويلِ الخطب وتربيةِ المَهابة. والإظهارُ في موقع الإضمار ثانيًا لإبراز مزيد الاعتناءِ بأمر المؤمنين توفيةً لكلٍّ مِن مقامَي الوعيد والوعدِ حقَّه، والله تعالى أعلم.

وجعلُ ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾ التي شأنها أن تكون مِن جهته تعالى عبارة عن الطاعة التي هي مِن أفعال المكلَّفين التابعة للتكليف[1] بمَعزِل مِن التقريب. وحملُ الكلام على تقرير الوعد الكريم الذي يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[2] بجَعل تعظيم شأن الطاعة ذريعةً إلى ذلك بأنّ مَن
[٣٥٨و] قام بحقوق مِثل هذا الأمر العظيم الشأن وراعاها فهو جدير بأن يفوز / بخير الدارين،[3] يأباه وصفه بالظلم والجهلِ أوّلًا، وتعليلُ الحَمل بتعذيب فريقٍ، والتوبةِ على فريقٍ ثانيًا.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾ مطلق الانقياد الشامل الطبيعي والاختياري، وبـ"عَرضها" استدعاؤها الذي يَعمّ طلبَ الفعل مِن المختار، وإرادةَ صدوره مِن غيره، وبـ"حَملها" الخيانةُ فيها، والامتناعُ عن أدائها، فيكون "الإباء" امتناعًا عن الخيانة، وإتيانًا بالمراد، فالمعنى: أنّ هذه الأجرام مع عِظمها وقوّتها أَبَيْنَ الخيانةَ لأمانتنا، وأَتَيْنَ بما أمرناهنّ به، كقوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت، ١١/٤١]، وخانَها الإنسان حيث لم يَأْتِ بما أمرناه به، إنّه كان ظلومًا جهولًا.

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٤/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٠/٤.

[2] الأحزاب، ٧١/٣٣.

[3] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٠/٤.

وقيل: إنّه تعالى لمّا خلَق هذه الأجرام خلَق فيها فهمًا، وقال لها: إنّي فرضت فريضةً، وخلقت جنّةً لمَن أطاعني فيها، ونارًا لمَن عصاني، فقلنَ: "نحن مسخَّرات لِما خَلقتنا، لا نحتمل فريضة، ولا نبغي ثوابًا ولا عقابًا"، ولمّا خلَق آدمَ عليه السلام عرَض عليه مِثل ذلك، فحملَه، وكان ظلومًا لنفسه بتحمّله ما يشقّ عليها، جهولًا بوَخامة عاقبته.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡأَمَانَةَ﴾ العقل أو التكليف، وبـ"عَرْضها عليهنّ" اعتبارُها بالإضافة إلى استعدادهنّ، وبـ"إبائهنّ" الإباءُ الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعدادِ لها، وبـ"حَمل الإنسان" قابليّتُه واستعدادُه لها، و"كونُه ظلومًا جهولًا" لِما غلب عليه مِن القوّة الغضبيّة والشهويّة، وهذا قريب مِن التحقيق، فتأمّل، والله الموفِّق.

وقُرئ: "وَيَتُوبُ اللهُ"[١] على الاستئناف.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مبالغًا في المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم، وغفر لهم فرطاتهم، وأثاب بالفوز على طاعاتهم.

قال عليه الصلاة والسلام:[٢] «مَن قرأ سورة الأحزاب، وعلَّمها أهلَه وما ملكت يمينُه؛ أعطي الأمان مِن عذاب القبر».[٣]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس والحسين بن عليّ رضي الله عنهم والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٨٨.

٢ م: عليه السلام.

٣ ط س + تم. | **الكشف والبيان** للثعلبي، ٦٥/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤٥٧/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٣٣

سورة الأحزاب

مدنية، ثلاث وسبعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿يا أيُّها النَّبِيُّ، اتَّقِ اللهَ﴾: دُم على تقواه، ﴿ولا تُطِعِ الكافِرِينَ والمُنافِقِينَ﴾ فيما يُخالف شريعتك ـ ﴿إنَّ اللهَ كانَ عَلِيمًا﴾ بما يكون قبل كونه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يخلقه ـ ٢ ـ ﴿واتَّبِعْ ما يُوحَى إلَيكَ مِن رَبِّكَ﴾ أي: القُرآنَ ـ ﴿إنَّ اللهَ كانَ بِما يَعمَلُونَ خَبِيرًا﴾. وفي قراءة بالفوقانيّة ـ ٣ ـ ﴿وتَوَكَّلْ علَى اللهِ﴾ في أمرك. ﴿وكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ حافظًا لك! وأُمّتُه تبعٌ له في ذلك كُلّه.

٤ ـ ﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِن قَلبَينِ في جَوفِهِ﴾...

سورة الأحزاب

قولُه: (دُمْ على تَقْوَاهُ) ومنها: عدمُ إطاعَةِ الكافِرينَ.

قولُه: (فِيمَا يُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ) بوَهْنٍ في الدِّينِ.

قولُه: (أي: القُرآنَ) أو كالنَّهيِ عن طاعَتِهم.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ البصريِّ[1]، وهي أولى بأن تكونَ أصْلاً.

قولُه: (بالفَوقَانِيَّةِ) على تَعميمِ الخِطابِ، أو تَعظيمِ المخاطَبِ، أو للتَّغليبِ وهو الأظهَرُ، والتَّحتانيَّةُ: على الالتفاتِ، والواو: ضميرُ الكَفَرةِ.

قولُه: (حَافِظاً لَكَ) مَوكولاً إليه أمرُكَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥١٨).

ردًّا على من قال من الكُفّار: «إنّ له قلبين، يعقِل بكُلّ منهما أفضلَ من عقلِ مُحمّد»، ﴿وما جَعَلَ أزواجَكُمُ اللائي﴾ - بهمزة وياء وبلا ياء - ﴿تَظَّهَّرُونَ﴾، بلا ألف قبل الهاء وبها، والتاء الثانية في الأصل مُدغمة في الظاء، ﴿مِنهُنَّ﴾ - يقول الواحد مثلاً لزوجته: «أنتِ عليَّ كظَهرِ أُمّي» - ﴿أُمّهاتِكُم﴾ أي: كالأمّهات في تحريمها بذلك، المُعَدّ في الجاهليّة طلاقًا، وإنّما تجب به الكفّارة بشرطه كما ذُكر في سورة «المُجادَلة»، ﴿وما جَعَلَ أدعِياءَكُم﴾:........................

قولُه: (رَدًّا) والمعنى: لم يرَ في حكمَتِهِ أن يجعلَ لأحدٍ قَلبَينِ؛ لأنَّ القلبَ سلطانٌ، ولا يَليقُ بملكِهِ إلّا سلطانٌ واحدٌ.

قولُه: (بهَمزَةٍ ويَاءٍ) كوفيٌّ وشاميٌّ[1].

قولُه: (وبِلا يَاءٍ) قالونُ وقُنبُلٌ، وبياءٍ ساكنةٍ من غيرِ همزٍ أبو عَمرٍو وبزّيٌّ، وبتسهيلِ الهمزِ من غَيرِ ياءٍ ورشٌ[2]، فعبارتُهُ قاصرةٌ جدًّا كعبارةِ البيضاويِّ[3] في هذا المقامِ.

قولُه: (بلا أَلِفٍ قَبْلَ الهَاءِ) مع تشديدِ الظَّاءِ والهاءِ: نافعٌ ومكّيٌّ وبصريٌّ[4].

قولُه: (وبِهَا) أي: بألِفٍ قبلَ الهاءِ مع تخفيفِ الظَّاءِ: حمزةُ والكسائيُّ، ومعَ تشديدِها: شاميٌّ، ومع ضمِّ التَّاءِ وتخفيفِ الظَّاءِ وكسرِ الهاءِ: عاصمٌ[5]، فهذه أربعُ قراءاتٍ، ذكرَهَا الشَّيخُ على وجهٍ لا ينتَفِعُ به المبتَدي، ويَتْعَبُ في تقريرِهِ وتحريرِهِ المنتَهي.

قولُه: (والتَّاءُ) مبتدأٌ خبرُه (مُدغَمَةٌ) يعني: على بعضِ القراءاتِ كما بيَّنَّا.

قوله: (فِي تَحرِيمِهَا) أي: الأزواجِ.

قولُه: (بذَلِكَ) التَّشبيهِ.

قولُه: (المَعدُودِ) صفةُ المشارِ إليه.

قولُه: (طَلاقًا) تحصلُ به الفُرْقةُ الأبديَّةُ، وإلّا فهو في الإسلامِ يقتَضي الحُرمَةَ إلى أداءِ الكفّارةِ، والطَّلاقَ أيضاً في بعضِ الصُّورِ عندَنا بأن قالَ: أنت عَلَيَّ مِثلُ أمّي، أو كأمّي، ونَوى الطَّلاقَ، بانَتْ[6].

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٥٤).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٢٤).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥١٩).

(٥) انظر المصدر السابق.

(٦) انظر: «الهداية» (٢/ ٢٦٥).

جمع دَعِيّ ـ وهو من يُدعَى لغير أبيه ابنًا له ـ ﴿أبناءَكُم﴾ حقيقة. ﴿ذلِكُم قَولُكُم بِأفواهِكُم﴾ أي: اليهودِ والمنافقين، قالوا لمّا تزوج النبيّ ﷺ زينبَ بنتَ جحش التي كانت امرأة زيدِ ابنِ حارثةَ، الذي تبنّاه النبيّ ﷺ، قالوا: تزوّج مُحمّد امرأةَ ابنِه. فأكذبَهم الله ـ تعالى ـ في ذلك: ﴿واللهُ يَقولُ الحَقَّ﴾ في ذلك، ﴿وهُوَ يَهدِي السَّبِيلَ﴾ سبيل الحقّ. ٥ ـ لكن ﴿ادعُوهُم لِآبائِهِم ـ هُوَ أَقسَطُ﴾: أعدلُ ﴿عِندَ اللهِ ـ فإن لَم تَعلَمُوا آباءَهُم فإخوانُكُم في الدِّينِ ومَوالِيكُم﴾: بنو عمّكم، ﴿ولَيسَ علَيكُم جُناحٌ فِيما أخطأتُم بِهِ﴾ في ذلك، ﴿ولكِن ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُم﴾ فيه، وهو بعدَ النهي. ﴿وكانَ اللهُ غَفُورًا﴾ لِما كان من قولكم قبل النهي......

قولُه: (والمُنَافِقِينَ) بيانٌ للخطابِ المضافِ إليهِ، والإشارةُ إلى الأخيرِ لا إلى كلِّ ما ذُكِرَ.

قولُه: (قَالُوا لَمَّا تَزَوَّجَ) أعادَ «قالُوا» لطولِ الفَصْلِ.

قولُه: (فكَذَّبَهُم) وفي نسخةٍ: «فأَكْذَبَهُم»[1] أي: نسبَهُم إلى الكذِبِ.

قولُه: (لَكِن) الظَّاهِرُ: هـو؛ أي: الحقُّ هذا الأمرُ والحُكْمُ المطابقُ للواقعِ، هذا على تقييدِ المصنِّفِ ﴿الحقَّ﴾ وأمَّا على إطلاقِ البيضاويِّ[2] ـ وهو الحقُّ ـ فهو إفرادٌ للمقصودِ من أقوالِهِ الحقَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَقسَطُ﴾ تعليلٌ له.

قولُه: (أَعدَلُ) قصدَ به الزِّيادَةَ مطلقاً، ومعناهُ: البالِغُ في الصِّدقِ.

قولُه: (بَنُو عَمِّكُم) المولَى وإن جاءَ بهذا المعنى لكنَّه غيرُ مناسبٍ لهذا المبنى؛ أي: فقولوا: هذا أخي ومَولاي، يعني: الأخوَّةَ والولايةَ في الدِّينِ، أو ﴿مواليكُم﴾ إن كانوا محرَّرينَ فإنَّ من مَعاني المولى: «المعتَق» بالفتحِ، وإطلاقُه لا يحتاجُ إلى تأويلٍ.

قولُه: (في ذَلِكَ) قبلَ النَّهيِ فالخطأُ بمعنى الجهلِ، أو بعدَهُ على النِّسيانِ أو سَبْقِ اللِّسانِ.

قولُه: (فِيهِ) أي: فيه الجُناحِ، أو الجُنَاحُ فيما تعمَّدَتْ، فعلى الأوَّلِ: ﴿ما تعمَّدَتْ﴾ في محلِّ الجرِّ عطفاً على ﴿ما أخطأْتُم﴾، وعلى الثَّاني: في محلِّ الرَّفعِ على الخبريَّةِ.

قولُه: (وهُو) أي: الجُناحُ.

قولُه: (بَعدَ النَّهيِ) بقَيدِ التَّعمُّدِ.

قولُه: (قَبلَ النَّهيِ) يَرِدُ عليه: أنَّه لا قُبْحَ قبلَ النَّهي على المذهبِ الحقِّ، فالصَّوابُ: ﴿غفوراً﴾ لعفوِهِ عن المخطئِ، وفي «المدارِكِ»: لا يؤاخذُكُم بالخطأ، ويقبلُ التَّوبَةَ من المتعمِّدِ[3].

---

(١) وهكذا هي في النسخ المعتمدة في المتن.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٢٥).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ١٧).

﴿رَحِيمًا﴾ بكم في ذلك.

٦ - ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فيما دعاهم إليه ودعتْهم أنفسهم إلى خِلافه، ﴿وأزواجُهُ أُمَّهاتُهُم﴾ في حُرمة نكاحهنّ عليهم، ﴿وأُولُو الأرحامِ﴾: ذَوو القراباتِ ﴿بَعضُهُم أَولَى بِبَعضٍ﴾ في الإرث ﴿في كِتابِ اللهِ مِنَ المُؤمِنِينَ والمُهاجِرِينَ﴾ أي: منَ الإرث بالإيمانِ والهِجرةِ، الذي كان أوّلَ الإسلام فنُسِخ. ﴿إلاّ﴾ لكنْ ﴿أن تَفعَلُوا إلَى أَولِيائكُم مَعرُوفًا﴾ بوصيّة فجائز. ....

قولُه: (فِي ذَلِكَ) الأظهرُ: في ذلكُم؛ أي: في الرُّخصَةِ المذكورَةِ ورَفعِ الجُناحِ.

قولُه: (إلى خِلافِهِ) وقُرِئَ: (وهو أبٌ لهم)[1] أي: في الدِّينِ، فإنَّ كلَّ نبيٍّ أبٌ لأمَّتِهِ من حيثُ إنَّهُ أصلٌ فيما به الحياةُ الأبديَّةُ، ولذلك صارَ المؤمنونَ إخوةً.

قولُه: (فِي حُرْمَةِ نِكَاحِهِنَّ) على التَّأبيدِ، ولم يتعَدَّ التَّحريمُ إلى بناتهنَّ، وفي استِحقاقِ تعظيمِهنَّ لا في المَحْرَميَّةِ[2] والإرْثِ، وقالت عائشةُ رضي الله عنها: لَسْنا أمّهاتُ النِّساءِ[3]؛ إذ لا يتحقَّقُ فيهنَّ هذا المجموعُ، وقالَت أمُّ سلمةَ: أنا أمُّ الرِّجالِ والنِّساءِ[4]، وهو الظَّاهرُ من الضَّميرِ الرَّاجعِ إلى ﴿المؤمنينَ﴾ الشَّاملينَ للرِّجالِ والنِّساءِ، ولا يلزمُ من إطلاقِ المجازِ المنزَّلِ منزلَةَ الشَّيءِ أن يكونا في جميعِ الأحكامِ سواءً كقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فإنَّ حكمَ الأخوَّةِ عامٌّ في الرِّجالِ والنِّساءِ مع عدَمِ المشاركةِ في أكثرِ الأحكامِ.

قولُه: (فِي الإِرْثِ) أي: التَّوارُثِ.

قولُه: (أي: مِنَ الإِرْثِ) إشارَةٌ إلى أنَّ ﴿مِنَ﴾ صلةٌ لـ«أُولي»، يعني: ﴿أولو الأرحامِ﴾ بحقِّ القرابةِ أولى بالميراثِ من المؤمنينَ بحقِّ الإيمانِ، والمهاجرينَ بحقِّ الهجرَةِ.

وقيل: ﴿مِنَ﴾ بيانٌ لـ«أولِي الأرحامِ».

قولُه: (لَكِن) أي: فعلُكُم إلى أحبابِكُم[5].

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٢٠) ونسبت لابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في (ص): «الحرمة».

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٧٨)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٩٣٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٤٢٢).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٧٨).

(٥) أي: لكن فعلكم إلى أحبابكم معروفا جائز.

﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ أي: نَسخُ الإرثِ بالإيمان والهجرة بإرث ذوي الأرحام ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾. وأريد بالكتاب في الموضعين اللوحُ المحفوظ.

٧ ـ ﴿وَ﴾ اذكرْ ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ حين أُخرجوا من صُلب آدم كالذَّرِّ: جمع ذَرَّة ـ وهي أصغر النمل ـ ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ بأن يعبدوا الله ويدعوا إلى عِبادته ـ وذِكر الخمسة من عطف الخاصّ على العامّ ـ ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾: شديدًا، بالوفاء بما حُمِّلوه ـ وهو اليمينُ بالله تعالى، ثمّ أخذُ المِيثاق ـ ٨ ـ ﴿لِيَسْأَلَ﴾ اللهُ ﴿الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ في تبليغ الرسالة، تبكيتًا للكافرين بهم، ﴿وَأَعَدَّ﴾ ـ تعالى ـ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ بهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾: مُؤلمًا. هو عطفٌ على «أخذنا».

٩ ـ ١٠ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ من الكُفّار متحزّبون

قولُه: (اللَّوحُ) أو القرآنُ، أو آيةُ المواريثِ، أو: في حُكمِ اللهِ.

قولُه: (ويَدْعُوا) ويتعاوَنوا.

قولُه: (عَطْفِ الخَاصِّ) لكونِهم أولي العَزمِ، أو لأنَّهم مشاهيرُ لأربابِ الشَّعائرِ، وقدَّمَ نبيَّنا إشارةً إلى تعظيمِهِ، وإيماءً إلى تقديمِ وجودِه سابقاً، وتقديمِ رُتبتِه لاحقاً، وتلويحاً إلى أنّه واسطةُ عقْدِ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ.

قولُه: (شَدِيداً) أو عظيمَ الشَّأنِ، والتَّكريرُ لبيانِ هذا الوصفِ، ويجوزُ أن يكونَ مُتعَلَّقَ ﴿لِيَسْأَلَ﴾ على وجهِ الالتفاتِ.

قولُه: (ثُمَّ أَخْذُ المِيثَاقِ) ظاهرُه أنّه مصدرٌ قدَّرَهُ ليتعلَّقَ به ﴿لِيَسْأَلَ﴾، وقدَّرَ القاضِي: فعَلْنا ذلك[1]. قلنا: هو عينُ ﴿أَخَذْنَا﴾، فلا فائدةَ في تقديرِه، فالأولى تقديرُ: فعل ذلك.

قولُه: (هُو عَطفٌ) وهو دليلٌ على ما قلنا من تعلُّقِ: ﴿لِيَسْأَلَ﴾ بـ﴿أَخَذْنَا﴾، وقيل: عطفٌ على: ﴿لِيَسْأَلَ﴾ بتأويلِهِ بالمضارعِ، وقيل: على ما دلَّ عليه ﴿لِيَسْأَلَ﴾ إنْ كانَ ﴿الصَّادِقِينَ﴾ يعمُّ المؤمنينَ، وهو ظاهِرُ القرآنِ، وإلَّا كانَ موضعُهُ الضَّمير، كأنّه قال: فأثابَ المؤمنينَ وأعدَّ للكافرينَ.

وقيل: الأظهرُ أنَّ الواو للحالِ من فاعلِ: ﴿يسأل﴾ بتقديرِ: قد، أو بدونِهِ.

قولُه: (مُتحَزِّبُونَ) أي: مجتمِعونَ؛ يعني: الأحزابَ، وهم قريشٌ وغَطَفانُ ويهودُ قريظةَ والنَّضيرِ، وكانوا قَدْرَ اثني عشرَ ألفاً، وقيل: خمسةَ عشرَ ألفاً، والمؤمنونَ ثلاثةُ آلافٍ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٢٦).

أيامَ حفر الخندق، ﴿فأرسَلْنا عليهم رِيحًا، وجُنُودًا لَم تَرَوها﴾: ملائكةً - ﴿وكانَ اللهُ بِما تَعمَلُونَ﴾، بالتاء من حفر الخندق، وبالياء من تحزيب المشركين، ﴿بَصِيرًا - إذ جاؤُوكُم مِن فَوقِكُم ومِن أسفَلَ مِنكُم﴾: من أعلى الوادي وأسفله من المشرق والمغرب، ﴿وإذ زاغَتِ الأبصارُ﴾: مالتْ عن كُلّ شيء إلى عدوّها من كُلّ جانب، ﴿وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَناجِرَ﴾: جمع حَنجَرة - وهي منتهى الحُلقوم - من شِدّة الخوف، ﴿وتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَ﴾ المُختلِفة بالنصر واليأس.

١١ - ﴿هُنالِكَ ابتُلِيَ المُؤمِنُونَ﴾: اختُبروا ليتبيّن المُخلص من غيره، ﴿وزُلزِلُوا﴾: حُرّكوا ﴿زِلزالاً شَدِيدًا﴾ من شِدّة الفزع، ١٢ - ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ يَقُولُ المُنافِقُونَ والَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾: ضعفُ اعتقاد: ....

قولُه: (الخَندَقِ) كـ«جعفرٍ» حفيرٌ حولَ أسوارِ المُدُنِ، معرَّبُ كَنْدَه[1]، وكانَ بِشَوْرِ سَلْمَانَ.

قولُه: (مَلائِكَةً) والرِّيحُ: الصَّبا.

قولُه: (وبالياءِ) بصريٌّ[2].

قولُه: (مِنْ أَعلَى الوَادِي) بنو غطفانَ.

قولُه: (وأَسفَلِهِ) قريشٌ.

قولُه: (مِنَ المَشرِقِ) لفٌّ ونشرٌ، وقيل: المرادُ بذلك المبالغةُ؛ يعني: من جمِيْعِ الجهاتِ محيطينَ بكم، نحوَ: ﴿يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

قولُه: (جَمعُ حَنجَرَةٍ) وهذا مَثَلٌ في الاضطرابِ؛ إذ لا انتقالَ للقَلبِ عن مَقَرِّهِ.

قولُه: (بالنَّصرِ) للمؤمنِ الكامِلِ.

قولُه: (واليَأسِ) للمؤمنِ الضَّعيفِ، وأمَّا إدخالُ ظَنِّ المنافقينَ، كما فعلَهُ القاضي[3] فغيرُ ظاهرٍ للسَّابقِ واللَّاحقِ.

قولُه: (المُخلِصَ) أي: الكامِلَ.

قولُه: (حُرِّكُوا) أي: أزعِجُوا.

قولُه: (ضَعْفُ اعْتِقَادٍ) أي: شُبهَةٌ، لم تطمئنَّ قلوبُهُم بالإيمانِ.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٨٨١).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥١٩).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٢٦).

﴿ما وَعَدَنا اللهُ ورَسُولُهُ﴾ بالنصر ﴿إلاّ غُرُورًا﴾: باطلاً. ١٣ ـ ﴿وإذ قالَتْ طائفةٌ مِنهُم﴾ أي: المنافقين: ﴿يا أهلَ يَثرِبَ﴾ ـ هي أرض المدينة، ولم تنصرف للعلميّة ووزن الفعل ـ ﴿لا مُقامَ لَكُم﴾، بضمّ الميم وفتحها، أي: لا إقامة ولا مكانة. ﴿فارجِعُوا﴾ إلى منازلكم من المدينة. وكانوا خرجوا مع النبيّ إلى سَلعِ جبلٍ خارجَ المدينة للقتال. ﴿ويَستأذِنُ فَرِيقٌ مِنهُمُ النَّبيَّ﴾ في الرُّجوع، ﴿يَقُولُونَ: إنَّ بُيُوتَنا عَورةٌ﴾: غيرُ حصينة نخشى عليها. قال تعالى: ﴿وما هِيَ بِعَورةٍ. إنْ﴾: ما ﴿يُرِيدُونَ إلاّ فِرارًا﴾ من القِتال، ١٤ ـ ١٥ ـ ﴿ولَو دُخِلَتْ﴾ أي: المدينةُ ﴿عليهِم مِن أقطارِها﴾: نواحيها، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ أي: سألهم الداخلون ﴿الفِتْنَةَ﴾: الشِّركَ، ﴿لآتَوها﴾ ـ بالمدّ والقصر ـ.........

قولُه: (بالنَّصْرِ) الظَّاهرُ: من النَّصرِ.

قولُه: (بَاطِلاً) أي: وَعداً باطلاً.

قولُه: (أي: المُنَافِقِينَ) تفسيرٌ للضَّميرِ، والمرادُ بالطَّائفةِ: عبدُ اللهِ بن أبيٍّ وأصحابُهُ.

قولُه: (بِضَمِّ المِيمِ) حفصٌ[1].

قولُه: (أيْ: لا إِقَامَةَ) أو: مكانَ إقامةٍ.

قولُه: (ولا مَكانَةَ) أي: مكانَ القيامِ، أو مصدرٌ، يعني: هاهنا[2].

قولُه: (مِنَ المَدِينَةِ) أي: هاربينَ.

قولُه: (سَلْعٍ) بفتحِ السِّينِ وسكونِ اللَّامِ[3]، أسندَ المسلمونَ ظهورَهُم إلى سَلْعٍ ووجوهَهُم نحوَ العدوِّ، والخندقُ بينهم.

قولُه: (﴿فَرِيْقٌ مِنْهُمْ﴾) قالَ الضَّحَّاكُ: رجعَ ثمانونَ رجلاً من غَيرِ الإذنِ[4].

قولُه: (نَخْشَى عَلَيهَا) السُّرَّاقَ.

قولُه: (أي: المَدِينَةُ) أو بيوتُهم.

قولُه: (الشِّركَ) أو الرِّدَّةَ، أو مقاتلةَ المسلمينَ.

قولُه: (والقَصرِ) للحِرْميَّينِ[5].

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٠).

(٢) عبارة البيضاوي: ﴿لا مَقام﴾ [بفتح الميم]: لا مَوضِعَ قيامٍ ﴿لكم﴾ هاهنا.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٧٢٩).

(٤) انظر: «تفسير الماوردي» (٤/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١٤٩).

(٥) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٥٧٤)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٧٨).

أي: أعطَوها وفعلوها، ﴿وما تَلَبَّثُوا بِها إلاّ يَسِيرًا، ولَقَد كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِن قَبلُ، لا يُوَلُّونَ الأدبارَ. وكانَ عَهدُ اللهِ مَسؤُولاً﴾ عن الوفاء به.

١٦ ـ ﴿قُلْ: لَن يَنفَعَكُمُ الفِرارُ، إن فَرَرتُم مِنَ المَوتِ أوِ القَتلِ، وإذًا﴾ إن فررتم ﴿لا تُمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا بعد فِراركم ﴿إلاّ قَلِيلاً﴾: بقيّةَ آجالكم. ١٧ ـ ﴿قُلْ: مَن ذا الَّذِي يَعصِمُكُم﴾: يُجيركم ﴿مِنَ اللهِ، إن أرادَ بِكُم سُوءًا﴾: هلاكًا وهزيمة، ﴿أو﴾ يُصيبُكم بسوء، إن ﴿أرادَ﴾ اللهُ ﴿بِكُم رَحْمَةً﴾ خيرًا؟ ﴿ولا يَجِدُونَ لَهُم مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ﴿وَلِيًّا﴾ ينفعهم ﴿ولا نَصِيرًا﴾ يدفع الضُّرّ عنهم.

١٨ ـ ﴿قَد يَعلَمُ اللهُ المُعَوِّقِينَ﴾: المُثبِّطين ﴿مِنكُم والقائِلِينَ لِإخوانِهِم: هَلُمَّ﴾: تعالَوا ﴿إلَينا. ولا يأتُونَ البأسَ﴾: القِتال ﴿إلاّ قَلِيلاً﴾ رياءً وسُمعة،..

قولُه: (أي: أَعطَوهَا) معنى: الأوَّل.

قولُه: (وفَعَلُوهَا) أي: جاؤُوهَا.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ أي: بإعطاءِ الفتنَةِ ﴿إلَّا﴾ تلبُّثاً ﴿يسيراً﴾ قَدْرَ سؤالٍ وجوابٍ، وقيل: وما لبِثُوا بالمدينةِ بعدَ الارتدادِ إلَّا لُبْثاً ـ أو زماناً ـ يسيراً، فإنَّ اللهَ أهلكَهُم، أو أخرجَهُم.

قولُه: (عَنِ الوَفَاءِ بِهِ) مُجازًى عليهِ.

قولُه: (إِنْ فَرَرْتُم) أي: وإن نفعَكُمُ الفِرارُ مثلاً على الفرضِ، والتَّقديرُ: فمُتِّعتُم بالتَّأخيرِ.

قولُه: (بَقِيَّةَ آجَالِكُم) أي: تمتيعاً أو زماناً قليلاً، فإنَّه لا بُدَّ لكُلِّ شخصٍ من مَوتٍ أو قتْلٍ في وقتٍ معيَّنٍ سَبَقَ به القضاءُ وجرى عليه القلَمُ.

قولُه: (﴿أَو﴾ يُصِيبُكُم) يعني: فاختُصِرَ الكلامُ، وعندي أنَّ معناهُ: مَن يمنعُكُم مِنْ مُرادِ اللهِ... إلخ.

قولُه: (المُثَبِّطِينَ) هذا تفسيرٌ بما هو أغرَبُ، وهم المنافقونَ الَّذينَ يعوِّقونَ ويمنَعونَ المسلمينَ عن معاونتِهِ ﷺ، فقولُهُ تعالى: ﴿وَالْقَائِلِيْنَ﴾ عطفٌ باختلافِ الصِّفةِ، والمرادُ بالإخوانِ: سكَّانُ المدينةِ، وهم الأنصارُ.

قولُه: (تَعَالَوا ﴿هَلُمَّ﴾)(١) لازمٌ هنا؛ أي: أقبِلُوا، ومتعدٌّ في ﴿هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ [الأنعام: ١٥٠] أي: أَحْضِروا، والمعنى: تعالوا فنحنُ في ظلالٍ وثمارٍ وراحةٍ في بُيوتِنا.

قولُه: (رِيَاءً وسُمْعَةً) عِلَّتانِ للإتيانِ، أو التَّقديرُ: إلَّا إتياناً، أو زماناً، أو بأساً، قليلاً.

---

(١) كذا في النسخ، والذي في المتن من العكس ـ أي: مجيء (تعالوا) بعد ﴿هلم﴾ تفسيرا لها ـ هو الأنسب.

١٩ ـ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُم﴾ بالمُعاونة ـ جمع شحيح وهو حالٌ من ضمير «يأتون» ـ ﴿فَإِذا جاءَ الخَوفُ رأيتَهُم يَنظُرُونَ إِلَيكَ، تَدُورُ أَعيُنُهُم كالَّذِي﴾: كنظرِ أو كدَورانِ الذي ﴿يُغشَى عليهِ مِنَ المَوتِ﴾ أي: سَكَراتِه، ﴿فَإِذا ذَهَبَ الخَوفُ﴾ وحِيزَتِ الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾: آذَوكم أو ضربوكم ﴿بِأَلسِنَةٍ حِدادٍ، أَشِحَّةً علَى الخَيرِ﴾ أي: الغنيمةِ يطلبونها ـ ﴿أُولئِكَ لَم يُؤمِنُوا﴾ حقيقةً، ﴿فَأَحبَطَ اللهُ أَعمالَهُم. وكانَ ذلِكَ﴾ الإحباط ﴿علَى اللهِ يَسِيرًا﴾ بإرادته ـ ٢٠ ـ ﴿يَحسِبُونَ الأَحزابَ﴾ من الكُفّار ﴿لَم يَذهَبُوا﴾ إلى مكّة لِخوفهم منهم، ﴿وإِن يأتِ الأَحزابُ﴾ كرّة أُخرى ﴿يَوَدُّوا﴾: يتمنَّوا ﴿لَو أَنَّهُم بادُونَ في الأَعرابِ﴾ أي: كائنون في البادية، ﴿يَسأَلُونَ عَن أَنبائِكُم﴾: أخبارِكم مع الكُفّار،.........

قولُه: (بالمُعَاوَنَةِ) أو النَّفقةِ، أو الظَّفَرِ والغنيمَةِ.

قولُه: (وَهُو حَالٌ) أو منصوبٌ على الذَّمِّ.

قولُه تعالى: (﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوفُ﴾) أي: وقتُ الحرْبِ.

وقولُه: (﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾) أي: في أحداقِهِم.

قولُه: (أو كَدَوَرانِ) أي: دوراناً كدَوَرانِ عَينِ الَّذي، أو ينظرُونَ إليه كنظَرِ الَّذي، فقولُه: ﴿كَالَّذِي﴾ صفةُ مَصدَرٍ محذُوفٍ بتَقديرِ مضافَينِ أو مضافٍ.

قولُه: (سَكَرَاتِهِ) أي: من معالجَةِ سكراتِ الموتِ؛ يعني: ينظرونَ إليك كذا؛ خوفاً ولِواذًا بك.

قولُه: (آذَوْكُم) اجترَؤوا عليكُم.

قولُه: (أو ضَرَبُوكُم) السَّلْقُ: البسطُ للِّسانِ[1].

قولُه: (أي: الغَنِيمَةِ) وليسَ بتكريرٍ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهُما مُقيَّدٌ من وجهٍ.

قولُه: (حَقِيقَةً) أي: إخلاصاً.

قولُه: (بإِرَادَتِهِ) أي: هيِّناً؛ لتعلُّقِ الإرادةِ به، وعدمِ ما يمنعُهُ عنهُ.

قولُه: (لِخَوفِهِم) وجُبْنِهم، ففَرُّوا إلى داخِلِ المدينةِ.

قولُه: (كَرَّةً أُخرَى) مع ما رَأوا مِن كيفيَّةِ فِرارِ الكفَّارِ وعدمِ ظهورِهم وقَرارِهم.

قولُه: (أي: كَائِنُونَ فِي البَادِيَةِ) في جملةِ البدَويينَ، والأظهرُ: خارجونَ إلى البَدوِ حاصِلونَ بينَ الأعرابِ.

قولُه: (أَخبَارِكُم) كلَّ قادِمٍ من جانِبِ المدينةِ.

---

(١) انظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٨٥٠). وفي البيضاوي: السَّلْقُ: البَسْطُ بقهرٍ باليدِ أو اللسانِ.

﴿ولَو كانُوا فِيكُم﴾ هذه الكرّةَ ﴿ما قاتَلُوا إلاّ قَلِيلاً﴾ رِياءً وخوفًا من التعيير.

٢١ ـ ﴿لَقَد كانَ لَكُم في رَسُولِ اللهِ إسْوةٌ﴾ ـ بكسر الهمزة وضمّها ـ ﴿حَسَنةٌ﴾: اقتداءٌ به، في القِتال والثبات في مواطنه، ﴿لِمَن﴾: بدلٌ من «لكم» ﴿كانَ يَرجُو اللهَ﴾: يخافُه ﴿واليَومَ الآخِرَ، وذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ بخِلاف من ليس كذلك. ٢٢ ـ ﴿ولَمّا رأَى المُؤمِنُونَ الأحزابَ﴾ من الكُفّار ﴿قالُوا: هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورَسُولُهُ﴾ من الابتلاء والنصر، ﴿وصَدَقَ اللهُ ورَسُولُهُ﴾ في الوعد. ﴿وما زادَهُم﴾ ذلك ﴿إلاّ إيمانًا﴾: تصديقًا بوعد الله ﴿وتَسلِيمًا﴾ لأمره.

قولُه: (هَذِهِ الكَرَّةَ) ولم يَرجِعوا إلى المدينةِ، وكانَ قتالٌ.

قولُه: (وضَمِّهَا) عاصمٌ[١]؛ أي: خصلةٌ من حقِّها أن يُؤتَسَى بها؛ أي: يُقتَدى.

قولُه: (اقتِدَاءٌ) تعريفُ القُدْوةِ بالمصدرِ غيرُ معروفٍ، ففي «القاموسِ»: القدوةُ ـ مثلَّثةٌ ـ: ما تسنَّنتَ به واقتديْتَ به.

قولُه: (في القِتَالِ) فإنَّه قاتلَ بنفسِه، فكُسِرَت رَباعِيَتُه وشُجَّ وجهُهُ الكريمُ.

قولُه: (بَدَلٌ مِنْ: ﴿لَكُمْ﴾) الأكثرُ على أنَّ ضميرَ المخاطَبِ لا يُبدَلُ منه، فالصَّحيحُ أنَّه صلةٌ لـ﴿حَسَنَةٌ﴾ أو صفةٌ لها لا لـ﴿أُسْوَةٌ﴾ لأنَّها قد وصفَتْ.

قولُه: (يَخَافُهُ) أو يأمُلُهُ.

وقولُهُ تعالى: (﴿وَذَكَرَ اللهَ﴾) عطفٌ على ﴿كَانَ﴾ وقرَنَ بالرَّجاءِ كثرةَ الذِّكرِ المؤدِّيةِ إلى ملازَمَةِ الطَّاعةِ، فإنَّ المقتديَ بالرَّسولِ مَن كانَ كذلك.

قولُه: (مِنَ الابتِلَاءِ) لقولِه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾الآية [البقرة: ٢١٤] وقولِه ﷺ: «إنَّهم سائرُونَ إليكُم بعدَ تِسعٍ أو عشرٍ»[٢].

قولُه: (والنَّصرِ) الظَّاهرُ: أو النَّصرِ، والمشارُ إليه بـ﴿هذا﴾: ما رأينا، أو الخَطْبُ أو البلاءُ.

قولُه: (فِي الوَعدِ) أي: صَدَقا في النُّصرَةِ كما صَدَقا في البلاءِ، وإظهارُ اسمِهما للتَّعظيمِ.

قولُه: (ذَلِكَ) هو المشارُ إليه بـ﴿هذا﴾.

قولُه: (لأَمْرِهِ) وقضائِهِ وقَدَرِهِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٧٥).

(٢) قال ابن حجر في «الكاف الشاف» (ص: ١٣٣): لم أجده.

٢٣ ـ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ، صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ علَيهِ﴾ من الثبات مع النبيّ، ﴿فمِنهُم مَن قَضَى نَحْبَهُ﴾: ماتَ أو قُتل في سبيل الله، ﴿ومِنهُم مَن يَنتَظِرُ﴾ ذلك، ﴿وما بَدَّلُوا تَبدِيلاً﴾ في العهد ـ وهم بخلاف حال المنافقين ـ ٢٤ ـ ﴿لِيَجزِيَ اللهُ الصّادِقِينَ بِصِدقِهِم ويُعَذِّبَ المُنافِقِينَ، إن شاءَ﴾ بأن يُميتهم على نِفاقهم، ﴿أو يَتُوبَ علَيهِم. إنَّ اللهَ كانَ غَفُورًا﴾ لمن تاب ﴿رَحِيمًا﴾ به.

٢٥ ـ ﴿ورَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الأحزابَ ﴿بِغَيظِهِم، لَم يَنالُوا خَيرًا﴾: مُرادَهُم من الظفر بالمؤمنين، ﴿وكَفَى اللهُ المؤمِنِينَ القِتالَ﴾ بالريح والملائكة ـ ﴿وكانَ اللهُ قَوِيًّا﴾ على إيجاد ما يُريده ﴿عَزِيزًا﴾: غالبًا على أمره ـ ٢٦ ـ ﴿وأنزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُم، مِن أهلِ الكِتابِ﴾ أي: قُريظةَ ....

قولُه: (مِنَ الثَّبَاتِ) فإنَّ المعاهِدَ إذا وَفَّى بعهدِه فقد صَدَقَ فيه.

قولُه: (أو قُتِلَ) بأن قاتَلَ حتَّى استُشهدَ كحمزةَ ومصعبِ بنِ عُمَيرٍ وأنسِ بن النَّضرِ، والنَّحبُ: النَّذرُ، واستُعيرَ للموتِ لأنَّهُ كنَذرٍ لازمٍ في رقبةِ كلِّ حيوانٍ.

وقيل: النَّحبُ: المدَّةُ[1].

قولُه: (ذلِكَ) أي: الموتَ أو الشَّهادةَ؛ كعثمانَ وطلحةَ.

قولُه: (في العَهدِ) والظَّاهرُ: وما بدَّلوا العَهْدَ شيئاً من التَّبديلِ.

قولُه: (وهُم بخِلَافِ حَالِ المُنَافِقِينَ) يعني: فيه تعريضٌ لهم بالتَّبديلِ، وقولُه: ﴿لِيَجْزِيَ. . . ﴾ إلخ، تعليلٌ للمنطوقِ والمعرَّضِ به، كأنَّه قالَ: ما بدَّلَ المؤمنُونَ، وبدَّلَ المنافقونَ ﴿ليجزي﴾.

قولُه: (بأنْ يُمِيتَهُم) أو يقبلَ توبتَهُم إن تابوا، أو يوفِّقَهُم للتَّوبةِ.

قولُه: (أي: الأَحزَابُ) وقولُه: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي: مَغيظينَ.

قولُه: (مِنَ الظَّفَرِ) أي: غير ظافِرينَ، حالانِ مُتَداخلانِ أو مُتَرادِفانِ، والفرقُ بينهما: أنَّ التَّداخلَ هو أن يعملَ الحالُ الأولى في الثَّانيةِ، ويكونَ الحالانِ لشيئينِ لفظاً، والتَّرادفُ: أن يكونَ لشيءٍ واحدٍ.

قولُه: (والمَلائِكَةِ) أو كفى اللهُ مداومَةَ القتالِ؛ فلمْ تَغزُ قريشٌ المسلمينَ بعدَ الخندقِ، وقد قالَ ﷺ: «الآنَ نَغزُوهُم ولَمْ يغزُونَا»[2].

قولُه: (أيْ: قُرَيظَةَ) عاوَنوا الأحزابَ، ونقَضوا عهدَ النَّبيِّ ﷺ، مع أنَّ آباءَهُم نزَلوا المدينةَ قديماً طَمَعاً في اتِّباعِ النَّبيِّ الأمِّيِّ المكتوبِ في التَّوراةِ، فلمَّا جاءَهُم ما عَرَفوا كفَروا به.

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١/ ٧٥٠).

(٢) رواه البخاري (٤١١٠) من حديث سليمان بن صرد الخزاعي رضي الله عنه بلفظ: «الآنَ نَغزُوهم ولا يَغزُوننا، نحن نَسيرُ إليهم».

﴿مِن صَياصِيهِم﴾: حصونهم جمعُ صِيصِية، وهو ما يُتحصَّن به، ﴿وقَذَفَ في قُلُوبِهِم الرُّعْبَ﴾: الخوفَ، ﴿فَرِيقًا تقتُلُونَ﴾ منهم ـ وهم المُقاتِلة ـ ﴿وتأسِرُونَ فَرِيقًا﴾ منهم أي: الذراريَّ، ٢٧ ـ ﴿وأورَثَكُم أرضَهُم ودِيارَهُم وأموالَهُم وأرضًا لَم تَطَؤُوها﴾ بعدُ. وهي خَيبر أُخذتْ بعد قُريظة. ﴿وكانَ اللهُ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرًا﴾.

٢٨ ـ ﴿يا أيُّها النَّبِيُّ، قُلْ لِأزواجِكَ﴾ وهُنَّ تِسع، وطلبنَ منه من زِينة الدنيا ما ليس عِنده: ﴿إن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَياةَ الدُّنيا وزِينتَها فتعالَينَ، أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي: مُتعةَ الطلاق، ﴿وأُسَرِّحْكُنَّ سَراحًا جَمِيلاً﴾: أُطلِّقكنَّ، مِن غير ضِرار، ٢٩ ـ ﴿وإن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ ورَسُولَهُ والدّارَ الآخِرَةَ﴾ أي: الجنّةَ ﴿فإنَّ اللهَ أعَدَّ لِلمُحسِناتِ مِنكُنَّ﴾ بإرادة الآخِرة ....

قولُه: (الخَوفَ) قالَ القاضي: وقُرِئَ بالضَّمِّ[1]. وهو قراءةُ الشَّاميِّ[2].

قولُه: (أي: الذَّرارِيَّ) والنِّساءَ.

قولُه تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ مزارعَهُم ﴿وَدِيَارَهُمْ﴾ حصونَهُم ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ نقودَهُم ومواشيَهُم وأثاثَهُم.

قولُه: (وهِيَ خَيبَرُ) أو مكَّةُ، أو أرضُ الرُّومِ وفارسَ، أو كلُّ أرضٍ تُفتَحُ إلى يوم القيامةِ.

قولُه: (وهُنَّ تِسْعٌ) قالَ عكرمةُ: كانَ تحتَهُ يومئذٍ تِسعُ نِسوَةٍ: خمسٌ من قريشَ: عائشةُ، وحفصةُ، وأمُّ حبيبةَ بنتُ أبي سفيانَ، وسودَةُ بنتُ زمعةَ، وأمُّ سلمةَ، وكانَتْ تحتَهُ صفيَّةُ، وميمونةُ، وزينبُ، وجويريةُ كذا في «المبهماتِ»[3].

قولُه: (مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا) أي: زَخارِفِها.

قولُه: (مَا لَيْسَ عِنْدَهُ) من السَّعَةِ والتَّنعُّم ظنًّا منهنَّ أنَّه اختُصَّ بنفائسِ اليهودِ وذخائرِهِم، وقلنَ: نساءُ كسرى وقيصرَ في الحُلَلِ والحُليِّ والإماءِ، ونحنُ على ما تراهُ من الفاقَةِ والضِّيقِ، وآلمن قلبَهُ الشَّريفَ.

قولُه: (أيْ: مُتعَةَ) أي: أُعْطِكُنَّ.

قولُه: (مِنْ غَيرِ) أي: طلاقاً من غَيرِ ضِرارٍ وبدعَةٍ.

قولُه: (بإِرَادَةِ) متعلِّقٌ بالـ﴿محسناتِ﴾.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٢٩).

(٢) والكسائي أيضاً، انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٨١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣١٢).

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٨٦) وعزاه لابن أبي حاتم.

﴿أجرًا عَظِيمًا﴾ أي: الجنّة. فاخترْنَ الآخرةَ على الدنيا.

٣٠ ـ ٣١ ـ ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ، مَن يأتِ مِنكُنَّ بِفاحِشةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ ـ بفتح الياء وكسرها ـ أي: بُيِّنَتْ أو هي بيِّنة ﴿يُضاعَفْ﴾، وفي قراءة: «يُضعَّفْ» بالتشديدِ، وفي أُخرى: «نُضعِّفْ» بالنونِ معه ونصبِ «العَذابَ»، ﴿لَها العَذابُ ضِعفَينِ﴾: ضِعفي عذاب غيرهنّ أي: مِثلَيه ـ ﴿وكانَ ذٰلِكَ علَى اللهِ يَسِيرًا ـ ومَن يَقنُتْ﴾: يُطِعْ ﴿مِنكُنَّ لِلهِ ورَسُولِهِ وتَعمَلْ صالِحًا نُؤتِها أجرَها مَرَّتَينِ﴾ أي: مِثلَي ثواب غيرهنّ من النساء ـ وفي قراءة بالتحتانيّة..

قولُه: (أي: الجَنَّةَ) الَّتي تُستَحْقَرُ دُونَها الدُّنيا وزينتُها.

و(مِن) للتَّبيينِ؛ لأنَّهنَّ كلُّهُنَّ كنَّ محسناتٍ، وقيل: للتَّبعيضِ، فإنَّ واحدةً اختارَتِ الدُّنيا فصارَت تجمعُ البعرَ وتتعيَّشُ به.

قولُه: (بفَتحِ اليَاءِ) مكِّيٌّ وشعبةُ[1].

قولُه: (بَيِّنَةٌ) أي: ظاهرٌ قُبْحُها، عن ابنِ عبَّاسٍ: هي النُّشوزُ وسوءُ الخُلُقِ[2].

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للبصريِّ[3].

قولُه: (وفِي أُخرَى) لمكِّيٍّ وشاميٍّ[4].

قولُه: (مَعَهُ) أي: مع التَّشديدِ.

قولُه: (أي: مِثلَيْهِ) لأنَّ الذَّنبَ أقبحُ من العارفينَ، والشَّرطُ لا يَقتَضي الوُقوعَ، قالَ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ الآيةَ [الزخرف: ٨١].

قولُه: (يُطِعْ) ولعلَّ ذِكرَ اللهِ للتَّعظيمِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾، فإنَّ العملَ الصَّالحَ هو الطَّاعةُ، والأصلُ في العطفِ التَّغايرُ، فالمرادُ بالإطاعةِ أوَّلاً هو حسنُ المعاشرَةِ.

قولُه: (مِثْلَي ثَوَابٍ) أو: مرَّةً على الطَّاعةِ، ومرَّةً على طلبهنَّ رضاءَ النَّبيِّ ﷺ بالقناعةِ وحُسْنِ المعاشرَةِ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ[5].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٩٥).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٠٤٠).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢١)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٧٥).

(٤) انظر المصادر السابقة.

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢١)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٧٦).

في «تَعملْ» و«نُؤتِها» ـ ﴿وأعتَدْنا لَها رِزقًا كَرِيمًا﴾ في الجنّة زيادةً.

٣٢ ـ ﴿يا نِساءَ النَّبيِّ، لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ﴾: كجماعة ﴿مِنَ النِّساءِ، إنِ اتَّقَيتُنَّ﴾ اللهَ فإنكنّ أعظم. ﴿فلا تَخضَعْنَ بِالقَولِ﴾ للرجال، ﴿فَيَطمَعَ الَّذِي في قَلبِهِ مَرَضٌ﴾: نفاق، ﴿وقُلْنَ قَولاً مَعرُوفًا﴾ من غير خُضوع، ٣٣ ـ ٣٤ ـ ﴿وقِرْنَ﴾، بكسر القاف وفتحها، ﴿في بُيُوتِكُنَّ﴾ ـ من القرار وأصله «اقرِرْنَ» بكسر الراء وفتحها من: قَررتُ،...

قولُه: (في «يَعْمَلْ») حملاً على لفظِ ﴿مَنْ﴾ كما أنَّ قراءةَ التَّاءِ حملاً على معنى ﴿مَنْ﴾.

قولُه: (و﴿نُؤْتِهَا﴾) على أنَّ فيهِ ضميرَ اسمِ اللهِ.

قولُه: (فِي الجَنَّةِ) أي: أعلى مَراتِبِها.

قولُه: (زِيَادَةً) على أجْرِها، ويجوزُ أن يكونَ في ذلك وَعدٌ دنياويٌّ، وكريمٌ من جهةِ أنّه حلالٌ من غيرِ كَدٍّ وإذلالٍ.

قولُه: (كجَمَاعَةٍ) أصلُ ﴿أحدٍ﴾: وَحَدٌ بمعنى: واحِدٍ، ثمَّ وُضِعَ في النَّفي العامِّ مستوياً فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ، والواحدُ والأكثرُ، والمعنى: لستُنَّ كجماعةٍ واحدةٍ من جماعاتِ النِّساءِ في الفضلِ، كذا ذكرَهُ «الكشَّافُ»[1] والبيضاويُّ[2]، وعندَ صاحبِ «البحرِ»: معناهُ: ليسَ كلُّ واحدةٍ منكنَّ كشخصٍ واحدٍ من نساءِ عصرِكُنَّ[3].

قولُه: (اللهَ) مخالفتَهُ، أو عقابَهُ، أو: راعَيتُنَّ التَّقوى ودُمْتُنَّ عليها.

قولُه: (للرِّجَالِ) أي: لا تَكلَّمْنَ كلاماً ليِّناً.

قولُه: (نِفَاقٌ) وفجُورٌ.

قولُه: (بكَسرِ القَافِ) من وَقَرَ يَقِرُ وَقاراً: إذا سَكَنَ، فـ(قِرْنَ) كـ«عِدْنَ».

قولُه: (وفَتْحِهَا) نافعٌ وعاصمٌ[4]، من قارَ يَقَارُ، إذا اجتمعَ فـ﴿قَرْنَ﴾ كـ«خَفْنَ».

قولُه: (مِنَ القَرَارِ) يعني: أنَّ القراءَتَينِ من القَرارِ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٣٦).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٣١).

(٣) انظر: «البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٧٤).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢١)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٧٧).

بفتح الراء وكسرها. نُقلت حركة الراء إلى القاف وحُذفت مع همزة الوصل ـ ﴿ولا تبرَّجْنَ﴾، بترك إحدى التاءين من أصله، ﴿تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ أي: ما قبل الإسلام من إظهار النساء محاسنَهنّ للرجال ـ والإظهار بعد الإسلام مذكور في آيةِ «ولا يُبدِينَ زِينتَهُنَّ إلاّ ما ظَهَرَ مِنها» ـ ﴿وأقِمْنَ الصَّلاةَ وآتِينَ الزَّكاةَ، وأطِعْنَ اللهَ ورَسُولَهُ ـ إنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ﴾: الإثمَ، يا ﴿أهلَ البيتِ﴾ أي: نساءَ النبيِّ،....

قولُه: (بفَتحِ الرَّاءِ) من قَرِرْتُ بالكسرِ، أَقَرُّ بالفتحِ، وهو لغةٌ في قَرَّ يَقَرُّ قراراً[1]، وهو معنى قولِهِ: (وكَسرِهَا)، وكانَ حقُّهُ التَّقديمَ؛ لأنَّه قراءَةُ الجمهورِ ولغتُهم، واللَّفُّ المرتَّبُ، وفي بعضِ النُّسَخِ: «نُقِلَتْ حركةُ الرَّاءِ إلى القافِ وحُذِفَتْ همزةُ الوصلِ»[2]؛ يعني: استغناءً عنها كما حُذِفَت إحدى الرَّاءينِ؛ لالتِقاءِ السَّاكنَينِ.

قولُه: (بتَرْكِ إِحْدَى التَّاءَينِ) والبَزِّيُّ بتشديدِ التَّاءِ وصلاً[3]؛ أي: لا تتبختَرْنَ في مشيِكُنَّ.

قولُه: (مَحَاسِنَهُنَّ) وزينَتَهُنَّ.

قولُه: (بَعدَ الإِسْلَامِ) أي: الَّذي هو تبرُّجُ الجاهليَّةِ الأخرى، فيه: أنَّ الثَّانيةَ عينُ الأولى فلا فائدةَ في التَّقييدِ، ولذا قالَ القاضِي: أي: تبرُّجاً مِثلَ تبرُّجِ النِّساءِ في أيَّامِ الجاهليَّةِ القديمَةِ[4]. يعني: ﴿الأولى﴾ لا أُخرى لها، كما قيلَ في: ﴿أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠].

قولُه: (الإِثْمَ) أي: الذَّنبَ المدنِّسَ لعِرْضِكُم، أو: خبائِثَ القَلْبِ، أو: ما ليسَ للهِ فيه رِضًى.

قولُه: (يَا) يعني: نُصِبَ ﴿أَهْلَ﴾ على النِّداءِ، وقيل: على المَدْحِ.

قولُه: (أيْ: نِسَاءَ النَّبِيِّ) عن ابنِ عبَّاسٍ وعكرمةَ: أنَّها نزلَتْ فيهنَّ[5].

وأخرجَ التِّرمذيُّ: أنَّها لمَّا نزلَتْ دعا النَّبيُّ ﷺ فاطمةَ وحسناً وحسيناً وعليًّا وقالَ: «اللَّهمَّ هؤلاءِ أهلُ بيتِي»[6]، فالظَّاهرُ أنَّ الحُكْمَ عامٌّ للرِّجالِ والنِّساءِ جميعاً من أهلِ البيتِ على سبيلِ التَّغليبِ، فقيلَ: ﴿عَنكُمُ﴾ ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ حتَّى لا يختَصَّ بهِنَّ.

---

(١) انظر: «الصحاح» (٢/ ٧٩٠).

(٢) وهكذا هي في النسخ المعتمدة في المتن، لكن فيه: «مع همزة الوصل» وهو أصوب، قال البيضاوي في «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٣١): حُذِفَت الأولى مِن راءي (اقْرِرْنَ) ونُقِلَت كسرتُها إلى القافِ فاستُغنِي عن همزةِ الوصلِ.

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٨٣).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٣١).

(٥) رواه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤١٠) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه.

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٦٧) عن عكرمة.

(٦) رواه الترمذي (٣٧٨٧) من حديث عمر بن أبي سلمة، ربيب النبي ﷺ، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

﴿ويُطَهِّرَكُم﴾ منه ﴿تَطهيرًا ـ واذكُرْنَ ما يُتلَى في بُيُوتِكُنَّ مِن آياتِ اللهِ﴾: القُرآنِ ﴿والحِكْمةِ﴾: السُّنّة. ﴿إنَّ اللهَ كانَ لَطِيفًا﴾ بأَوليائه ﴿خَبِيرًا﴾ بجميع خلقه.

٣٥ ـ ﴿إنَّ المُسلِمِينَ والمُسلِماتِ، والمُؤمِنِينَ والمُؤمِناتِ، والقانِتِينَ والقانِتاتِ﴾: المُطيعات، ﴿والصّادِقِينَ والصّادِقاتِ﴾ في الإيمان، ﴿والصّابِرِينَ والصّابِراتِ﴾ على الطاعات، ﴿والخاشِعِينَ﴾: المُتواضعين ﴿والخاشِعاتِ، والمُتَصَدِّقِينَ والمُتَصَدِّقاتِ، والصّائمِينَ والصّائماتِ، والحافِظِينَ فُرُوجَهُم والحافِظاتِ﴾ عن الحرام، ﴿والذّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا والذّاكِراتِ، أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَغفِرةً﴾ للمعاصي، ﴿وأجرًا عَظِيمًا﴾ على الطاعات.

٣٦ ـ ﴿وما كانَ لِمُؤمِنٍ ولا مُؤمِنةٍ، إذا قَضَى اللهُ ورَسُولُهُ أمرًا، أن تَكُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ ﴿لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ أي: الاختيارُ ﴿مِن أمرِهِم﴾ خلافَ أمر الله ورسوله ـ نزلتْ في عبدالله بن جحش وأُخته زينب خطبها النبيّ، ....

قولُه: (مِنْهُ) أي: الرِّجْسِ.

قولُه: (والسُّنَّةِ) فيهِ أنَّ السُّنَّةَ ممَّا لا يُتلى، ولذا قالَ القاضي: من الكِتابِ الجامِعِ بينَ الأمرينِ[1].

قولُه: (فِي الإِيمَانِ) الصَّوابُ: في القولِ والعَمَلِ، أو: في جميعِ الأحوالِ.

قولُه: (عَلَى الطَّاعَاتِ) وعنِ السَّيِّئاتِ، وفي البليَّاتِ.

قولُه: (المُتَوَاضِعَاتِ)[2] للهِ بالقلوبِ والجوارحِ.

قولُه تعالى: ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾ أي: بقلوبِهم وألسنتِهم[3].

قولُه: (للمَعَاصِي) أي: لِمَا اقترفوا من الصَّغائرِ؛ لأنَّهنَّ مُكفِّراتٍ دونَ الكبائرِ.

قولُه: (باليَاءِ) كوفيٌّ وهشامٌ[4].

قولُه: (الاختِيَارُ خلافَ أمرِ اللهِ) بل يجبُ عليهِم أن يجعَلوا اختيارَهُم تبعاً لاختيارِ اللهِ ورسولِهِ، وجَمَعَ الضَّميرينِ لعمومِ: مؤمنٍ ومؤمنةٍ، من حيثُ إنَّهما في سياقِ النَّفي.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٣١).

(٢) في المتن المعتمد جاء الوصف للذكور، والمؤدى واحد؛ لأن ما وصف به أحدهما ينسحب على الآخر.

(٣) قوله: «بقلوبهم وألسنتهم» الظاهر أنه من وصف الذاكرين والذاكرات كليهما على تغليب الذكور، لا الذاكرات وحدهن وإلا لقال: بقلوبهن وألسنتهن، ولألزم القصور في التعبير.

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٧٩).

وعنَى لزيد بن حارثة، فكرها ذلك حين علما لظنّهما قبلُ أنّ النبيّ ﷺ خطبها لنفسه، ثمّ رضيا للآية ـ ﴿ومَن يَعصِ اللهَ ورَسُولَهُ فقَد ضَلَّ ضَلالاً مُبينًا﴾: بيّنًا. فزوّجها النبيّ لزيد. ثمّ وقع بصره عليها بعد حين، فوقع في نفسه حُبّها وفي نفس زيد كراهتُها، ثمّ قال للنبيّ: أريد فِراقها. فقال: «أمسِكْ علَيكَ زَوجَكَ» كما قال تعالى.

٣٧ ـ ﴿وإذ﴾ منصوب بـ «اذكرْ» ﴿تَقُولُ لِلَّذِي أنعَمَ اللهُ علَيهِ﴾ بالإسلام، ﴿وأنعَمتَ علَيهِ﴾ بالإعتاق، وهو زيد بن حارثة كان من سبْي الجاهليّة، اشتراه رسول الله ﷺ قبل البِعثة وأعتقه وتبنّاه: ﴿أمسِكْ علَيكَ زَوجَكَ، واتَّقِ اللهَ﴾ في أمر طلاقها. ﴿وتُخفِي في نَفسِكَ ما اللهُ مُبدِيهِ﴾: مُظهِرُه من محبّتها وأنْ لو فارقها زيد تزوّجتَها، ﴿وتَخشَى النّاسَ﴾ أن يقولوا: تزوّجَ زوجةَ ابنه. ﴿واللهُ أحَقُّ أن تَخشاهُ﴾ في كُلّ شيء ويُزوّجَكها،..

قولُه: (عَنَى) أي: أرادَ.

قولُه: (ذَلِكَ) الإشارةُ إلى مصدَرِ: «عَنَى».

قولُه: (حينَ عِلْمِهِ) مصدرٌ، والضَّميرُ لـ«ذلكَ».

قولُه: (قَبْلُ) إفادةَ[1] الإرادةِ.

قولُه: (فوَقَعَ) فقالَ: «سبحانَ مُقَلِّبِ القلُوبِ»[2]، قلتُ: فيه إشارةٌ إلى تقلُّبِ قلبِهِ الشَّريفِ وقَلْبِ زيدٍ أيضاً[3].

قولُه: (بالإِعْتَاقِ) والمحبَّةِ.

قولُه: (وتَبَنَّاهُ) بعدَ ما خيَّرَهُ بينَهُ وبينَ أبوَيْهِ، فاختارَهُ عليهما.

قولُه: (في أَمْرِ طَلَاقِهَا) فإنَّ أبغضَ الحلالِ إلى اللهِ الطَّلاقُ.

قولُه: (مِنْ) بيانُ: ﴿مَا﴾، و(أَنْ) عطفٌ على (مَحَبَّتِهَا).

---

(١) هكذا ضبطناها بالنصب مفعولًا به للظن؛ أي: لظنهما إفادةَ الإرادة. . .، والله أعلم.

(٢) ذكره مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ٤٩٣).

(٣) وردت آثار في هذه القصة تناقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها، والمعتمد عند المحققين: أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه. وكل ما عدا هذا فهو من الباطل الذي ينبغي تنزيه النبي ﷺ عنه، ولا يجوز تسويد الكتب به.

وانظر: «فتح الباري» (٨/ ٥٢٤).

ولا عليك من قول الناس. ثمّ طلّقها زيد وانقضتْ عِدّتها. قال تعالى: ﴿فلمّا قَضَى زَيدٌ مِنها وَطَرًا﴾: حاجة ﴿زَوَّجْناكَها﴾ ـ فدخل عليها النبيّ بغير إذن، وأشبعَ المسلمين خُبزًا ولحمًا ـ ﴿لِكَيلا يَكُونَ علَى المُؤمِنِينَ حَرَجٌ في أزواجِ أدعِيائِهِم، إذا قَضَوا مِنهُنَّ وَطَرًا. وكانَ أمرُ اللهِ﴾: مَقضِيُّه ﴿مَفعُولاً﴾.

٣٨ ـ ﴿ما كانَ علَى النَّبِيِّ مِن حَرَجٍ فِيما فَرَضَ﴾: أحلّ ﴿اللهُ لَهُ، سُنَّةَ اللهِ﴾ أي: كسُنّة الله ـ فنُصب بنزع الخافض ـ ﴿في الَّذِينَ خَلَوا مِن قَبلُ﴾ من الأنبياء أنْ لا حرجَ عليهم في ذلك توسعةً لهم في النّكاح ـ ﴿وكانَ أمرُ اللهِ﴾: فِعله ﴿قَدَرًا مَقدُورًا﴾: مَقضِيًّا ـ ٣٩ ـ ﴿الَّذِينَ﴾: نعت لِـ «الذين» قبله ﴿يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ ويَخشَونَهُ، ولا يَخشَونَ أحَدًا إلاّ اللهَ﴾، فلا يخشون قالةَ الناس فيما أحلّه الله لهم، ﴿وكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾: ....

قولُه: (حَاجَةً) بحيثُ مَلَّهَا، ولم يَبْقَ له فيها حاجَةٌ، وطلَّقَها وانقضَتْ عدَّتُها.

قولُه: (بغَيْرِ إِذْنٍ) ووقعَ التَّزويجُ بلا وليٍّ من بَشَرٍ ولا شاهِدٍ ولا مَهْرٍ، ولهذا كانت تفتَخِرُ وتقولُ: زوَّجَني اللهُ مِنْ فَوقِ سَبعِ سماواتٍ[1]، والسَّفيرُ جبريلُ، وقيل: زيدٌ[2]، وذلك ابتلاءٌ عظيمٌ، وشاهدٌ بيِّنٌ على قُوَّةِ إيمانِهِ.

قولُه: (ولَحْماً) يعني: في عُرْسِها.

قولُه: (أَحَلَّ) أو قَسَمَ وقدَّرَ.

قولُه: (كسُنَّةِ اللهِ) الظَّاهرُ نصبُهُ على المصدرِ؛ أي: سُنَّ ذلك سُنَّةً.

قولُه: (فِي ذلِكَ) أي: فيما أباحَ لهم من كثرَةِ الأزواجِ وغيرِها.

قولُه: (فِعلُهُ) الظَّاهرُ: قضاؤُهُ.

قولُه: (مَقْضِيًّا) أي: حُكماً مَقطوعاً.

قولُه: (نَعْتٌ) أو مدْحٌ منصوبٌ أو مرفوعٌ.

قولُه: (قَالَةَ النَّاسِ) ففيه تعريضٌ بعد تصريحٍ، أو: فلا يمنعُهُم شيءٌ عن الإبلاغِ، ولذلكَ قالَت عائشةُ: لو كتمَ محمَّدٌ ﷺ شيئاً لكتمَ ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ إلى: ﴿أَنْ تَخْشَاهُ﴾، رواهُ ابنُ جريرٍ وغيرُه[3].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٢٠) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) وهذا رواه مسلم (١٤٢٨) عن أنسٍ قال: لَمَّا انقَضَتْ عِدَّةُ زينبَ قال رسولُ اللهِ ﷺ لزيد: «فاذْكُرْها عَلَيَّ»، قال: فانطلق زيدٌ حتى أتاها وهي تُخَمِّرُ عجينَها. . .، الحديث.

(٣) رواه الترمذي (٣٢٠٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٧٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

حافظًا لأعمال خلقه ومُحاسِبَهم!

٤٠ ـ ﴿ما كانَ مُحَمّدٌ أبا أحَدٍ مِن رِجالِكُم﴾ ـ فليس أبا زيدٍ، أي: والدَه، فلا يحرمُ عليه التزوّج بزوجته زينب ـ ﴿ولكِنْ﴾ كان ﴿رَسُولَ اللهِ وخاتِمَ النَّبِيِّينَ﴾. فلا يكون له ابنٌ رجلٌ بعده يكون نبيًّا. وفي قراءة بفتح التاء كآلة الخَتم، أي: به خُتموا. ﴿وكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمًا﴾، منه أنْ لا نبيَّ بعده. وإذا نزل السيِّد عِيسَى يحكمُ بشريعته.

قولُه: (حَافِظاً) أو: كافياً للمخاوفِ، من: حسبيَ اللهُ؛ أي: كافيَّ.

قولُه: (ومُحَاسِبَهُم) عطفٌ على: (حَافِظَهُم) ولوِ اقتصرَ على الثَّاني كانَ أظهرَ، وفي نسخةٍ: «ومحاسبتِهم» عطفٌ على (أعمالِ) يعني: فينبَغي أن لا يُخشى إلَّا منهُ.

قولُه: (أَبَا زَيْدٍ) على الحقيقةِ.

قولُه: (رَجُلٌ) فإنَّ القاسمَ وإبراهيمَ لم يبلُغا مبلغَ الرِّجالِ، ولو بلغا كانا رجالَهُ لا رجالَهُم.

قولُه: (يَكُونُ نَبِيًّا) يعني: لو كانَ له ابنٌ بالِغٌ لاقَ منصبَهُ أن يكونَ نبيًّا أخذاً من قولِهِ ﷺ: «لو عاشَ إبراهيمُ لكانَ نبيًّا»[1].

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لعاصمٍ[2].

قولُه: (كَآلَةِ الخَتْمِ) وعلى قراءةِ الجمهورِ؛ أي: آخِرَهُم الَّذي ختمَهُم، فهو اسمُ فاعِلٍ.

قولُه: (وإِذَا نَزَلَ) يعني: لا يقدَحُ فيه نزولُ عيسى بعدَهُ؛ لأنَّه إذا نزلَ كانَ مؤيِّداً له، مع أنَّ المرادَ: آخِرُ مَن نُبِّئَ.

(١) رواه ابن ماجه (١٥١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وللقاري نص مهم أسوقه لتحقق الفائدة من «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٩/ ٣٧٢١) حيث قال: قال النووي في «تهذيبه»: وأما ما روي عن بعض المتقدمين حديث: «لو عاش إبراهيم لكان نبياً» فباطل، وجسارة على الكلام بالمغيبات ومجازفة وهجوم على عظيم. وقال ابن عبد البر في «تمهيده»: لا أدري ما هذا، فقد وَلَد نوح غيرَ نبي، ولو لم يلد إلا نبياً لكان كل أحد نبياً؛ لأنه من ولد نوح. انتهى. ثم قال القاري بعد أن تعقب كلامهما: هذا وقد قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة»: وهذا عجيب من النووي مع وروده عن ثلاثة من الصحابة، ولا يظن بالصحابي أن يهجم على مثل هذا بظنه.

قلتُ (القائل القاري): مع أنهم لم يقولوه موقوفاً، بل أسندوه مرفوعاً، كما بينه خاتمة الحفاظ السيوطي بأسانيده في رسالة على حدة، مع أن من القواعد المقررة في الأصول أن موقوف الصحابي إذا لم يتصور أن يكون من رأي فهو في حكم المرفوع، فإنكار النووي وابن عبد البر لذلك: إما لعدم اطلاعهما، أو لعدم ظهور التأويل عندهما.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٢).

٤١ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، اذكُرُوا اللهَ ذِكرًا كَثِيرًا﴾ أي: اذكروه في جميع الأحوال، ٤٢ ـ ﴿وسَبِّحُوهُ بُكرةً وأصِيلاً﴾: أوّلَ النهار وآخِره. ٤٣ ـ ٤٤ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي علَيكُم﴾ أي: يرحمُكم ﴿ومَلائكتُهُ﴾ أي: يستغفرون لكم، ﴿لِيُخرِجَكُم﴾: ليديم إخراجَه إياكم ﴿مِنَ الظُّلُماتِ﴾ أي: الكُفر ﴿إلَى النُّورِ﴾ أي: الإيمان، ﴿وكانَ بِالمُؤمِنِينَ رَحِيمًا، تَحِيَّتُهُم﴾ منه ـ تعالى ـ ﴿يَومَ يَلقَونَهُ سَلامٌ﴾ بلسان الملائكة، ﴿وأعَدَّ لَهُم أجرًا كَرِيمًا﴾. هو الجنّة.

٤٥ ـ ﴿يا أيُّها النَّبِيُّ، إنّا أرسَلْناكَ شاهِدًا﴾ على من أُرسلتَ إليهم، ﴿ومُبَشِّرًا﴾ مَن صدّقك بالجنّة، ﴿ونَذِيرًا﴾: مُنذرًا من كذّبك بالنار، ٤٦ ـ ﴿وداعِيًا إلَى اللهِ﴾: إلى طاعته ﴿بِإذنِهِ﴾: بأمره، ﴿وسِراجًا مُنِيرًا﴾..........

قولُه: (وآخِرَهُ) خُصوصاً من الأوقاتِ، كمَّا خصَّ التَّسبيحَ من الأذكارِ للدِّلالةِ على فضلِهما على سائرِ الأوقاتِ؛ لكونِهما مشهودَينِ له، ولاكتنافِهما بطرَفَيِّ اللَّيلِ والنَّهارِ، ولعمومِ الذِّكرِ وُصِفَ بالكثرةِ ولم يقيَّدْ بوقتٍ.

وقيلَ: الفعلانِ موجَّهانِ إليهما على التَّنازُعِ، فقيل: المرادُ بهما الدَّوامُ.

قولُه: (أي: يَستَغفِرُونَ) يعني: المرادُ بالصَّلاةِ: المعنى المشترَكُ، وهو العنايةُ بصَلاحِ أمرِكُم وظهُورِ شَرَفِكُم، مستعارٌ من الصَّلاةِ بالمعنى اللُّغويِّ، وهو الدُّعاءُ، فإنَّهُ يكونُ مُسَبَّباً عن العنايَةِ بالمدعُوِّ إليه، فلا يلزمُ الجمْعُ بينَ الحقيقَةِ والمجازِ، أو المعنيَينِ المجازيينِ.

قولُه: (الكُفرِ) أي: أنواعِهِ، أو: ليخرجَكُم من ظُلُماتِ المعاصِي إلى نورِ الطَّاعةِ، أو من ظلماتِ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ إلى نورِ اليَقينِ، أو مِنْ ظلماتِ الغَفْلةِ إلى نورِ الحُضورِ، أو من ظلماتِ الجهالةِ إلى نورِ العِلمِ.

قولُه: (مِنْهُ تَعَالَى) من إضافةِ المصدَرِ إلى المفعولِ؛ أي: يُحَيَّونَ يومَ لقائِهِ عندَ الموتِ، أو الخروجِ عند الجزاءِ، أو دخولِ الجنَّةِ أو فيها.

قولُه: (بلِسَانِ المَلائكَةِ) أو بلا واسطَةٍ، وهو حينئذٍ إخبارٌ بالسَّلامةِ عن كُلِّ مكرُوهٍ وآفةٍ، بخلافِ ما في الدُّنيا فإنَّه دعاءٌ، ويمكنُ أن يكونَ لمجرَّدِ التَّعظيمِ، ولتحيَّةِ التَّكريمِ، ويؤيِّدُه وقوعُهُ مكرَّراً.

قولُه: (هُوَ الجَنَّةُ) ونعيمُها.

قولُه: (إلَيهِم) بتَصديقِهِم وتكذيبِهِم، وهو حالٌ مقدَّرةٌ.

قولُه: (بأَمْرِهِ) وتيسيرِهِ.

أي: مِثلَه في الاهتداء به، ٤٧ ـ ﴿وبَشِّرِ المُؤمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِنَ اللهِ فَضلاً كَبِيرًا﴾ هو الجنّة، ٤٨ ـ ﴿ولا تُطِعِ الكافِرِينَ والمُنافِقِينَ﴾ فيما يُخالف شريعتك، ﴿ودَعْ﴾: اتركْ ﴿أذاهُم﴾: لا تُجازِهم عليه إلى أن تُؤمر فيهم بأمر، ﴿وتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ ـ فهو كافيك ـ ﴿وكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾: مُفوَّضًا إليه!

٤٩ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إذا نَكَحتُمُ المُؤمِناتِ، ثُمَّ طَلَّقتُمُوهُنَّ مِن قَبلِ أن تَمَسُّوهُنَّ﴾ ـ وفي قراءة: «تُماسُّوهُنَّ» ـ أي: تُجامِعوهنَّ،........

قولُه: (أي: مِثلَهُ) والمرادُ بالسِّراجِ: الشَّمسُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وإنَّما ذكرتُ هذا لِمَا بلغَني عن بعضِ المدرِّسينَ في المسجدِ الحرامِ أنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ شُبِّهَ بالسِّراجِ دونَ الشَّمسِ والشَّمعِ لكلامٍ لا يليقُ ذكرُه في هذا المقامِ.

قولُه: (هُوَ الجَنَّةُ) الأظهرُ: ﴿فضلاً﴾ على سائرِ الأممِ، أو: على أجرِ أعمالِهم بتضعيفِ الحسناتِ.

ولعلَّهُ[١] معطوفٌ على محذوفٍ مثل: فراقِبْ أحوالَ أمَّتِكَ.

قولُه: (فِيمَا يُخَالِفُ) على ما أنتَ عليه[٢].

قولُه: (لا تُجَازِهِم) إشارةٌ إلى أنَّ المصدَرَ مضافٌ إلى المفعولِ؛ أي: إيذاءَكَ إيَّاهم، وقيل: إيذاءَهُم إيَّاكَ، ولا تبالِ به، أو: لا تؤاخِذْهُم على كُفرِهِم، فيكونُ منسُوخاً، وبهذا يظهرُ لك ما في كلامِ الشَّيخِ من الخَلْطِ بينَ القولينِ[٣].

قولُه: (كَافِيكَ) أي: يكفيكَهُم.

قولُه: (مُفَوَّضاً) يعني: التَّوكُّلُ بمعنى التَّفويضِ، وهو بمعنى المفعولِ.

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ[٤].

قولُه: (أي: تُجَامِعُوهُنَّ) والخلوةُ الصَّحيحةُ في حُكْمِ الجِماعِ عندَنا قضاءً لا ديانَةً.

---

(١) أي: قوله تعالى: ﴿وبشر﴾.

(٢) عبارة البيضاوي: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ تهييجٌ له على ما هو عليهِ من مُخالَفَتِهم

(٣) جاء في «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٩٠): ﴿وَدَعْ أَذاهُمْ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يأمره بترك أن يؤذيهم هو ويعاقبهم، فكان المعنى: واصفح عن زللهم، ولا تؤذهم، فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول، ونسخ من الآية على هذا التأويل ما يخص الكافرين، وناسخه آية السيف، والمعنى الثاني: أن يكون قوله: ﴿وَدَعْ أَذاهُمْ﴾ بمعنى: أعرض عن أقوالهم وما يؤذونك به، فالمصدر على هذا التأويل مضاف إلى الفاعل.

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٢).

﴿فما لكُم عليهِنَّ مِن عِدّةٍ تعتَدُّونَها﴾: تُحصُونها بالأقراء وغيرها. ﴿فمَتِّعُوهُنَّ﴾: أعطوهنّ ما يستمتعن به، أي: إن لم يُسَمَّ لهنَّ أصدِقةٌ ـ وإلاّ فلهنّ نِصف المُسمَّى، فقط. قاله ابن عبّاس، وعليه الشافعيّ ـ ﴿وسَرِّحُوهُنَّ سَراحًا جَميلاً﴾: خلّوا سبيلهنّ من غير إضرار.

٥٠ ـ ﴿يا أيُّها النَّبيُّ، إنّا أحلَلْنا لَكَ أزواجَكَ اللاّتِي آتيتَ أجُورَهُنَّ﴾: مُهورَهنّ، ﴿وما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمّا أفاءَ اللهُ علَيكَ﴾ من الكُفّار بالسبي كصَفيّة وجُوَيرية، ﴿وبَناتِ عَمِّكَ وبَناتِ عَمّاتِك، وبَناتِ خالِكَ وبَناتِ خالاتِكَ اللاّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ﴾ بخِلاف من لم يهاجرن،..........

قولُه: (تُحصُونَهَا) وقولُ البيضاويِّ: عن ابنِ كثيرٍ: (تعتدونَهَا) مُخَفَّفاً[١]. غيرُ صحيحٍ[٢].

قولُه: (بالأَقْرَاءِ) أي: الحِيَضِ، أو الأطهارِ، على خلافِ المذهَبَينِ.

قولُه: (وغَيْرِهَا) بالأشهُرِ للآيسةِ والصَّغيرةِ.

قولُه: (أَصْدِقَة) جمعُ: صَداقٍ، وهو المهرُ.

قولُه: (وعَلَيهِ الشَّافِعِيُّ) وفي «المدارِكِ»: تجبُ المتعةُ للَّتي طلَّقَها قبلَ الدُّخُولِ بها ولم يُسَمِّ لها مهراً دونَ غيرِها[٣]؛ يعني: فإنَّها تُستحَبُّ لها.

قولُه: (مِنْ غَيرِ إِضْرَارٍ) ولا منْعِ حَقٍّ.

قولُه: (مُهُورَهُنَّ) لأنَّ المهرَ أجرٌ على البُضْعِ، وتقييدُ الإحلالِ له بإعطائِها معجَّلة لبيانِ الأفضَلِ، وفي «المدارِكِ»: إيتاؤُهَا: إعطاؤُها عاجلاً، أو فَرضُها وتسميتُها عقداً[٤].

قلتُ: الثَّاني أيضاً بيانُ الأكمَلِ لا شرطٌ للحِلِّ.

قولُه: (بالسَّبْيِ) هذا القَيدُ لإيثارِ الأحوطِ، فإنَّ المشتراةَ لا يتحقَّقُ بَدْءُ أمرِها وما جَرى عليها.

قولُه: (بخِلافِ مَنْ لَم يُهَاجِرْنَ) والمرادُ بقولِه: (مهاجراتٌ معه): مشتركاتٌ في الهجرَةِ لا في الصُّحبَةِ؛ كقولِه: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٤٤].

ثمَّ اعلمْ: أنَّ التَّقييدَ بالقرائبِ لإيثارِ الأفضلِ، وللردِّ على النَّصارى، فإنَّهُم لا يتزوَّجُونَ امرأةً بينهُم وبينها سبعةُ أجدادٍ، وعلى اليهودِ يتزوَّجُ أحدُهُم ابنةَ أخيهِ وأختِه.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٣٥).

(٢) يعني: ليس من المتواتر، وإلا فقد ورد ذلك في الشواذ. انظر «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٣٧).

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٣٨).

﴿وامرأةً مُؤمنةً إن وَهَبَتْ نَفسَها لِلنَّبِيِّ، إن أرادَ النَّبيُّ أن يَستَنكِحَها﴾: يطلبَ نِكاحَها بغير صَداق، ﴿خالِصةً لَكَ مِن دُونِ المُؤمنِينَ﴾ النِّكاحُ بلفظ الهِبة من غير صَداق ـ ﴿قَد عَلِمْنا ما فَرَضْنا علَيهِم﴾ أي: المؤمنين ﴿في أزواجِهِم﴾ من الأحكام ألاّ يزيدوا على أربع نسوة، ولا يتزوّجوا إلاّ بوليّ وشهود ومَهر، ﴿و﴾ في ﴿ما مَلَكَتْ أيمانُهُم﴾ من الإماء بشراء وغيره، بأن تكون الأمة ممّن تحِلّ لمالكها كالكتابيّة بخلاف المجوسيّة والوثنيّة، وأن تُستبرأ قبل الوطء ـ ﴿لِكَيلا﴾: مُتعلّق بما قبلَ ذلك ....

وأمَّا التَّقييدُ بالهجرَة فيحتمِلُ أن يكونَ لتوقُّف الحِلِّ عليه في حقِّهِ خاصَّةً، ويعضدُه قولُ أمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالبٍ: خطبَني رسولُ اللهِ ﷺ فاعتذرْتُ إليه فعذَرَني، ثمَّ أنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، فلم أحِلَّ له لأنّي لم أهاجِرْ معَهُ، هكذا ذكرَهُ صاحبُ «المدارك»[1] والبيضاويُّ[2]، والحديثُ رواهُ التِّرمذيُّ والحاكمُ[3].

وفيه: أنّه فَهْمٌ منها لا روايةٌ عنِ النَّبيِّ ﷺ.

قولُه: (يَطلُبَ نِكَاحَهَا) ويرغَبَ فيه.

قولُه: (النِّكَاحُ) وعندَنا اختصاصُهُ بتركِ المهْرِ فقط[4].

قولُه: (إلَّا بِوَلِيٍّ) أي: فيما يحتاجُ إليه عندَنا[5].

قولُه: (ومَهْرٍ) ذِكْرُ المهرِ غيرُ شرطٍ عندَنا، بل لو نَفَى المهرَ صحَّ ولزِمَهُ مهرُ المِثْلِ[6].

قولُه: (وغَيرِهِ) من وجوهِ المِلْكِ: كالهِبَةِ والإرثِ والوصيَّةِ والسَّبي.

قولُه: (بخِلافِ المَجُوسِيَّةِ والوَثَنِيَّةِ) وهذا مذهَبُ مالكٍ والشَّافعيِّ وأحمدَ في روايةٍ[7]، وقالَ أبو حنيفةَ: يجوزُ استرقاقُ العجمِ منهُم دون العربِ[8].

قولُه: (بِمَا قَبْلَ ذَلِكَ) وهو ﴿خالِصَةً﴾؛ أي: اختصَصْناكَ بأشياءَ في التَّزوُّجِ، وجملةُ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ اعتراضٌ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٣٥).

(٣) رواه الترمذي (٣٢١٤) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٧٤) وصححه.

(٤) أي: اختصاص النبي ﷺ بإسقاط المهر في الهبة. انظر: «المبسوط» للسرخسي (٥/ ٥٩).

(٥) انظر: «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٥٥).

(٦) انظر: «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» (٢/ ٢٨٧).

(٧) انظر: «مواهب الجليل» (٣/ ٣٨١)، و«روضة الطالبين» للنووي (٧/ ١٣٢)، و«المغني» (٩/ ٢١٢).

(٨) وقولهم بعدُ جوازُ ذلك، انظر: «درر الحكام شرح غرر الأحكام» (١/ ٣٣٣).

وفي «المبسوط» للسرخسي (١٠/ ١١٩): عبدة الأوثان من العجم؛ فلا خلاف في جواز استرقاقهم.

﴿يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾: ضِيق في النّكاح. ﴿وكانَ اللهُ غَفُورًا﴾ لما يَعسرُ التحرّز عنه ﴿رَحِيمًا﴾ بالتوسعة في ذلك.

٥١ ـ ﴿تُرجِئُ﴾، بالهمزِ والياءِ بَدَلَه: تُؤخّرُ ﴿مَن تَشاءُ مِنهُنَّ﴾ أي: أزواجِك عن نَوبتها، ﴿وتُؤوِي﴾: تَضمُّ ﴿إليكَ مَن تَشاءُ﴾ منهنّ فتأتيها ﴿ومَنِ ابتَغَيتَ﴾: طلبتَ ﴿مِمَّن عَزَلتَ﴾ من القِسمة، ﴿فلا جُناحَ عليكَ﴾ في طلبها وضمّها إليك. خُيِّر في ذلك بعد أن كان القَسْمُ واجبًا عليه. ﴿ذلِكَ﴾ التخيير ﴿أدنى﴾: أقربُ إلى ﴿أن تَقَرَّ أعيُنُهُنَّ ولا يَحزَنَّ، ويَرضَينَ بِما آتَيتَهُنَّ﴾ ما ذُكر المُخيَّرَ فيه، ﴿كُلُّهُنَّ﴾: تأكيدٌ للفاعل في «يَرضَينَ». ﴿واللهُ يَعلَمُ ما في قُلُوبِكُم﴾ من أمر النساء والميل إلى بعضهنّ ـ وإنّما خيَّرناك فيهنّ تيسيرًا عليك في كُلّ ما أردتَ ـ ﴿وكانَ اللهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَلِيمًا﴾ عن عقابهم.

٥٢ ـ ﴿لا تَحِلُّ﴾، بالتاء والياءِ، ﴿لَكَ النِّساءُ مِن بَعدُ﴾: بعدِ التّسع التي اخترنَك، ﴿ولا أن تَبَدَّلَ﴾ ـ بترك إحدى التاءين في الأصل ـ ﴿بِهِنَّ مِن أزواجٍ﴾ بأن تُطلّقهنّ أو بعضهنّ وتنكحَ بدلَ مَن طلّقتَ، ﴿ولَو أعجَبَكَ حُسنُهُنَّ، إلاّ ما مَلَكَت يَمِينُكَ﴾.........

قولُه: (فِي ذَلِكَ) أي: مظانِّ الحَرَجِ.

قولُه: (والياءِ) السَّاكنةِ: نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ[1].

قولُه: (بَدَلٌ) أي: عوضُ الهمزِ المضمومِ، لا أنَّهُ أُبدِل منهُ، فإنَّ كلَّ قراءةٍ من مادَّةٍ وإن كانَ معناهما واحداً.

قولُه: (بالتَّاءِ) للتَّأنيثِ بصريٌّ، والباقونَ بالياءِ[2]؛ لأنَّ تأنيثَ الجمعِ غيرُ حقيقيٍّ، وإذا جازَ بغيرِ فصْلٍ في ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: ٣٠] فمعَ الفصلِ أجوزُ.

قولُه: (بَعْدِ التِّسْعِ) أو مِن بعدِ اليومِ، حتَّى لو ماتَتْ واحدةٌ لم يحلَّ له نِكاحُ أخرى، أو من بعدِ هؤلاءِ التِّسعِ، وهو في حقِّهِ كالأربعِ في حقِّنا.

قولُه: (بتَرْكِ) والبَزِّيُّ بتشديدِ التَّاءِ[3].

قولُه تعالى: (﴿حُسْنُهُنَّ﴾) أي: حُسنُ الأزواجِ الَّتي يُرادُ إبدالُها، وفي «المدارِكِ»: عن عائشةَ وأمِّ سلمةَ: ما ماتَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى أحَلَّ اللهُ له أن يتزوَّجَ مِن النِّساءِ ما شاءَ[4].........

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٧٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٧٩).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٨٣).

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤١). ورواه من حديث عائشة رضي الله عنها الترمذي (٣٢١٦)، والنسائي (٣٢٠٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

من الإماء فتحِلُّ لك. وقد ملكَ بعدهنّ ماريةَ، وولدتْ له إبراهيمَ، ومات في حياته. ﴿وكانَ اللهُ علَى كُلِّ شَيءٍ رَقِيبًا﴾: حفيظًا.

٥٣ ـ ٥٤ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَدخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلاّ أن يُؤذَنَ لَكُم﴾ في الدُّخول بالدُّعاء ﴿إلَى طَعامٍ﴾، فتدخلوا ﴿غَيرَ ناظِرِينَ﴾: منتظرين ﴿إناهُ﴾: نُضجَه، مصدر: أَنَى يأنِي ـ ﴿ولكِن إذا دُعِيتُم فادخُلُوا، فإذا طَعِمتُم فانتَشِرُوا ـ ولا﴾ تمكثوا ﴿مُستأنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ من بعضكم لبعض ـ ﴿إنَّ ذلِكُم﴾ المكث ﴿كانَ يُؤذِي النَّبِيَّ، فيَستَحْيِي مِنكُم﴾ أن يُخرجكم، ﴿واللهُ لا يَستَحْيِي مِنَ الحَقِّ﴾ أن يُخرجكم، أي: لا يتركُ بيانه. وقُرِئَ: «يَستَحِي» بياء واحدة ـ ....

يعني: أنَّ الآيَةَ نُسِخَت، ونَسْخُها إمَّا بالسُّنَّةِ، أو بقولِهِ: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾، وترتيبُ النُّزولِ ليسَ على ترتيبِ المصحَفِ.

قولُه: (مِنَ الإِمَاءِ) استثناءٌ من ﴿النِّسَآءُ﴾.

قولُه: (في الدُّخُولِ) أي: إلَّا بأن يُؤذَنَ، أو: وقتَ أن يُؤذَنَ، أو: إلَّا مأذونًا.

قولُه: (بالدُّعَاءِ) قالَ القاضي: متعلِّقٌ بـ﴿يُؤْذَنَ﴾ لأنَّهُ متضمِّنٌ معنى يُدعى؛ للإشعارِ بأنَّه لا يحسُنُ الدُّخولُ على الطَّعامِ من غيرِ دعوةٍ وإن أَذِنَ[1]؛ يعني: دلالةً بفتحِ البابِ ورفعِ الحجابِ، كما أشعرَ به: ﴿غَيْرَ نَاظِرِيْنَ﴾.

قولُه: (نُضْجَهُ) بالضَّمِّ؛ أي: إدراكَهُ، وقيلَ: ﴿إناه﴾ وقتَهُ.

قولُه: (تَمْكُثُوا) أو تدخُلوا، أو عطفٌ على: ﴿نَاظِرِيْنَ﴾، أو على ﴿غَيْرَ﴾، والآيةُ خطابٌ لقومٍ كانوا يتحيَّنونَ طعامَ رسولِ اللهِ فيدخُلونَ ويقعُدونَ منتظرينَ لإدراكِهِ مخصوصةٌ بهم وبأمثالِهم، وإلَّا لَمَا جازَ لأحدٍ أن يدخُلَ بيوتَهُ بالإذْنِ لغَيْرِ الطَّعامِ، ولا اللَّبثُ بعدَ الطَّعامِ لمُهِمٍّ، وفيه دليلٌ على تحريمِ التَّطفُّلِ؛ أي: الدُّخولِ في طعامٍ لم يُدعَ إليه.

قولُه: (أنْ يُخرِجَكُم) أي: من إخراجِكُم، إذ لو كانَ المرادُ الاستحياءَ من أنفسِهِم لقيلَ: واللهُ لا يستحيي منكُم.

قولُه: (أنْ يُخرِجَكُم) يعني: أنَّ إخراجَكُم حقٌّ فينبَغي أن لا يُتْرَكَ حياءً، كما لم يتركْهُ اللهُ تَرْكَ الحيِيِّ فأمَرَكُم بالخروجِ.

قولُه: (وقُرِئَ: (يستحي)) يعني: مع ﴿لا﴾[2]، فهو اختصارٌ مُخِلٌّ.

قولُه: (بِيَاءٍ وَاحِدَةٍ) أي: بحذفِ الياءِ الأولى بعدَ إلقاءِ حركَتِها على الحاءِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٣٧).

(٢) في (ص): «قوله وقرئ يستحي يعني مع إبقاء حركتها».

﴿وإذا سألتُموهُنَّ﴾ أي: أزواجَ النبيِّ ﴿مَتاعًا فاسألُوهُنَّ مِن وَراءِ حِجابٍ﴾: سِتر. ﴿ذلِكُم أطهَرُ لِقُلُوبِكُم وقُلُوبِهِنَّ﴾ من الخواطر المُريبة، ﴿وما كانَ لَكُم أن تُؤذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ بشيء، ﴿ولا أن تَنكِحُوا أزواجَهُ مِن بَعدِهِ أبَدًا. إنَّ ذلِكُم كانَ عِندَ اللهِ﴾ ذنبًا ﴿عَظِيمًا. إن تُبدُوا شَيئًا أو تُخفُوهُ﴾ من نِكاحهنَّ بعده ﴿فإنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمًا﴾ فيُجازيكم عليه.

٥٥ ـ ﴿لا جُناحَ عليهِنَّ في آبائِهِنَّ ولا أبنائِهِنَّ ولا إخوانِهِنَّ، ولا أبناءِ إخوانِهِنَّ ولا أبناءِ أخَواتِهِنَّ، ولا نِسائِهِنَّ﴾ أي: المُؤمنات، ﴿ولا ما مَلَكَتْ أيمانُهُنَّ﴾ من الإماء والعبيد، أن يروهنّ ويكلّموهنّ من غير حجاب، ﴿واتَّقِينَ اللهَ﴾ فيما أُمِرتنَّ به. ﴿إنَّ اللهَ كانَ على كُلِّ شَيءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفى عليه شيء.

٥٦ ـ ﴿إنَّ اللهَ ومَلائكتَهُ يُصَلُّونَ على النَّبِيِّ﴾ مُحمّد. ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، صَلُّوا علَيهِ وسَلِّمُوا تَسلِيمًا﴾، أي: قولوا: اللّهمَّ صلِّ على مُحمّد وسَلِّمْ.........................

قولُه: (أي: أَزْوَاجَ النَّبِيِّ) أي: طلبتُم أزواجَهُ حاجَةً.

قولُه: (سِتْرٍ) بالكسرِ، وأمَّا بالفتحِ فمصدَرٌ.

قولُه: (المُرِيبَةِ) الموقِعَةِ في الرِّيبَةِ؛ إذِ الرُّؤيةُ سببُ التَّعلُّقِ والفتنَةِ.

قولُه: (بشَيءٍ) أو بوجهٍ؛ أي: ما صحَّ لكم أن تفعَلوا ما يكرهُهُ.

قولُه تعالى: (﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾) أي: من بعدِ موتِهِ أو فراقِهِ، وخُصَّتِ الَّتي لم يدخُلْ بها.

قولُه: (فيُجَازِيْكُم عَلَيهِ) أي: على كلٍّ من المُبدَى والمُخْفَى، أو على كلِّ شيءٍ يترتَّبُ عليه الجزاءُ.

قولُه: (أي: المُؤْمِنَاتِ) والعَمُّ والخالُ بمنزلةِ الوالدَينِ، فلا حاجَةَ إلى ذِكرِهِما.

قولُه: (والعَبِيْدِ) تقدَّمَ الخلافُ[1].

قولُه: (فيمَا أُمِرْتُنَّ بِهِ) في السِّرِّ والعلانيةِ.

قولُه: (مُحَمَّدٍ) أي: يَعْتَنُونَ بإظهارِ شرفِهِ وتعظيمِ شأنِهِ.

قولُه: (أي: قُوْلُوا) أو: انقادُوا لأوامرِهِ، والآيةُ تدُلُّ على وجوبِ الصَّلاةِ والسَّلامِ عليهِ في الجملةِ، وذهبَ الطَّحاويُّ وبعضٌ إلى وجوبِها كلَّما جَرى ذِكْرُهُ[2]، وقيلَ[3]: يتداخلُ في المجلِسِ.

---

(١) انظر الآية رقم: (٣١) من سورة النور.

(٢) وانظر: «الهداية» (١/ ٥٣).

(٣) بعدها في (ص): «كلما». وانظر: «حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح» (ص: ٢٧٢)، وفيه: قال بعضهم يتداخل الوجوب إذا اتحد المجلس وتكفي صلاة واحدة كسجود التلاوة إذ لو وجبت كل مرة لأفضى إلى الحرج. =

٥٧ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهم الكُفّار، يصفون الله بما هو منزّه عنه من الولد والشريك ويُكذّبون رسوله، ﴿لَعَنَهُمُ اللهُ في الدُّنيا والآخِرةِ﴾: أبعدَهم، ﴿وأعَدَّ لَهُم عَذابًا مُهِينًا﴾: ذا إهانة، وهو النار.

٥٨ ـ ﴿والَّذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ والمُؤمِناتِ بِغَيرِ ما اكتَسَبُوا﴾: يرمونهم بغير ما عملوا ﴿فقَدِ احتَمَلُوا بُهتانًا﴾: تحمّلوا كذبًا ﴿وإثمًا مُبِينًا﴾: بيّنًا. ٥٩ ـ ﴿يا أيُّها النَّبِيُّ، قُلْ لِأزواجِكَ وبَناتِكَ ونِساءِ المُؤمِنِينَ: يُدنِينَ علَيهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾: جمعُ جِلباب ـ وهي المُلاءة التي تشتمل بها المرأة ـ أي: يُرخِين بعضها على الوجوه إذا خرجْن لحاجتهنّ إلاّ عينًا واحدة. ﴿ذلِكَ أدنَى﴾: ....

قولُه: (ويُكَذِّبُونَ) أي: ينسبونَ إليهِما ما لا يليْقُ بهِما، أو: يفعلونَ ما يكرَهانِهِ.

قولُه: (أَبعَدَهُم) من رحمَتِهِ.

قولُه: (ذَا إهَانَةٍ) يهينُهُم مع الإيلامِ، يعني: عذاباً جِسْمانيًّا ورُوحانيًّا.

قولُه: (عَمِلُوا) من القَولِ والفِعْلِ؛ أي: ينسبونَ إليهم ما هم بُرآءُ منهُ، أو المرادُ: بغيرِ جنايةٍ استحقُّوا الأذى بها، والمعنى الأوَّلُ أظهرُ لقولِهِ: ﴿بُهْتَانًا﴾.

قولُه: (بَيِّنًا) أي: ظاهراً كالغيبةِ.

قولُه: (وهيَ المُلاءَةُ) وهي رداءٌ فوقَ الخِمارِ، يسترُ من فوقٍ إلى أسفلَ؛ يعني: يُرْخينَها عليهنَّ ويغطِّينَ وجوهَهُنَّ وأبدانَهُنَّ.

قولُه: (بَعْضَهَا) الظَّاهرُ أنَّهُ أرادَ أنَّ ﴿مِنْ﴾ للتَّبعيضِ، وفيه: أنَّ النَّظمَ ﴿يُدْنِيْنَ عَلَيْهِنَّ﴾ دونَ: على وجوهِهِنَّ، ولو قالَ: «بعضَ الجلبابِ» لكانَ له وجهٌ، وأمَّا وجهُ التَّبعيضِ في الآيةِ أنَّه لا يختَصُّ بنوعٍ منها دونَ نوعٍ، أو المعنى: يتجلبَبْنَ ببعضِ ما لهنَّ من الجلابيبِ.

قولُه: (إلَّا عَيْناً وَاحِدَةً) كذا نقلَهُ البغويُّ عن ابنِ عبَّاسٍ[1]، لكن فيه حرجٌ مع نَوعٍ من العَيْبِ، ولذا قَلَّ مَن يعمَلُ بهذا، وما رآهُ المسلمونَ حسناً فهو عندَ اللهِ حَسَنٌ[2]، كذا خطرَ لي، ولم أرَ من تعرَّضَ لهذهِ المسألةِ.

= وفي «حاشية ابن عابدين» (١/ ٥١٦): الوجوب يتداخل في المجلس فيكتفي بمرة للحرج كما في السجود، إلا أنه يندب تكرار الصلاة في المجلس الواحد بخلاف السجود.

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٦٦٤)

(٢) هذا رواه أحمد في «مسنده» (٣٦٠٠)، والطيالسي في «مسنده» (٢٤٣)، والبزار في «مسنده» (١٨١٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤٤٦٥)، من قول ابن مسعود رضي الله عنه. .

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وله شاهد أصح منه إلا أن فيه إرسالًا.

أقربُ إلى ﴿أن يُعرَفْنَ﴾ بأنهنّ حرائر، ﴿فلا يُؤذَيْنَ﴾ بالتعرّض لهنّ بخِلاف الإماء فلا يُغطِّين وجوههنّ، فكان المنافقون يتعرضون لهنّ. ﴿وكانَ اللهُ غَفُورًا﴾ لِما سلف منهنّ من ترك السَّتر ﴿رَحِيمًا﴾ بهنّ إذ ستَرهنّ.

٦٠ ـ ﴿لَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿لَم يَنتَهِ المُنافِقُونَ﴾ عن نِفاقهم، ﴿والَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ بالزنى، ﴿والمُرجِفُونَ في المَدِينَةِ﴾ المؤمنين بقولهم: «قد أتاكم العدوّ، وسراياكم قُتلوا أو هُزموا»، ﴿لَنُغرِيَنَّكَ بِهِم﴾: لنُسلّطنّك عليهم، ﴿ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ﴾: يُساكنونك ﴿فِيها إلاّ قَلِيلاً﴾، ثمّ يُخرجون..........

قولُه: (بأنّهنَّ) أو: يُميَّزنَ من الإماءِ.

قولُه: (المُنَافِقُونَ) أو: ناسٌ من الفُسَّاقِ.

قولُه: (السَّتْرِ) يحتملُ الفتحَ والكسرَ، لكن فيه: أن لا قُبْحَ قبلَ الشَّرعِ، فالصَّوابُ أن يُقالَ: لِمَا عسى يَصدرُ عنهُنَّ من الإخلالِ في أمرِ التَّسَتُّرِ.

قولُه: (بهنَّ) أو بعبادِهِ، حيثُ يُراعي مصالِحَهُم حتَّى الجزئيَّاتِ منها.

قولُه: (بالزِّنَا) عن فجورِهِم، أو: ضَعْفُ إيمانٍ عن تزلزلِهِم في الدِّينِ.

قولُه: (المُؤمِنِينَ) كأنَّه حَمَلَ الإرجافَ على أحَدِ المعاني اللُّغويَّةِ، وهو التَّحريكُ، وجعلَ (المؤمنينَ) مفعولاً مقدَّراً، وهو غيرُ ظاهِرِ المعنى، ففي «القاموسِ»: أرجفَ القومُ: خاضوا في أخبارِ الفتَنِ ونحوِها، ومنهُ: ﴿والْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِيْنَةِ﴾[1].

فالمعنى: يبالغونَ في أخبارِ السُّوءِ عن سَرايا المسلمينَ ونحوِها.

ويمكنُ أن يُقالَ: الإرجافُ: هو الإخبارُ عن غيرِ حقيقةٍ مطلقاً، وتقييدُهُ بالسُّوءِ يكونُ بالقرينةِ، أو لأنَّهُ سوءٌ في نفسِهِ لكونِهِ كذباً، ولذا قالَ ﷺ: «كَفَى بالمرءِ كَذِباً أنْ يحدِّثَ بكُلِّ ما سَمِعَ»[2]، فإذا كانَ النَّاقِلُ كاذباً فكيفَ بالمخْبِرِ ابتداءً؟ وهو المرجِفُ الحقيقيُّ، فبهذا المعنى ينصَلِحُ كلامُ المصنِّفِ، ويَصِحُّ كونُ المؤمنينَ مفعولاً لـ﴿المرْجِفُونَ﴾، واللهُ أعلمُ.

قولُه: (لنُسَلِّطَنَّكَ) ونأمُرَكَ بقتالِهِم وإجلائِهِم، أو ما يضطرُّهُم إلى طلبِ الجلاءِ.

قولُه: (يُسَاكِنُونَكَ) عطفٌ على: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ الجَلاءَ ومفارقةَ جوارِ الرَّسولِ أعظمُ ما يُصيبُهُم، وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيْلاً﴾ أي: زماناً، أو جواراً، أو عدداً، قليلاً، أو معنى ﴿قَلِيْلاً﴾: أذلّاءُ، و﴿ملعونينَ﴾ صفتُهُ، أو نصبٌ على الذَّمِّ.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٨١٢).

(٢) رواه مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٦١ ـ ﴿مَلعُونِينَ﴾: مُبعَدِين عن الرحمة، ﴿أينَما ثُقِفُوا﴾: وُجدوا ﴿أُخِذُوا، وقُتِّلُوا تَقتِيلاً﴾ أي: الحكمُ فيهم هذا على جِهة الأمر به، ٦٢ ـ ﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ أي: سنَّ الله ذلك ﴿في الَّذِينَ خَلَوا مِن قَبلُ﴾ من الأُمم الماضية في مُنافقهيم المُرجفين المؤمنين، ﴿ولَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبدِيلاً﴾ منه.

٦٣ ـ ٦٤ ـ ﴿يَسألُكَ النّاسُ﴾ أي: أهلُ مكّة ﴿عَنِ السّاعةِ﴾: متى تكون؟ ﴿قُلْ: إنّما عِلمُها عِندَ اللهِ. وما يُدرِيكَ﴾: يُعلمك بها؟ أي: أنت لا تعلمها ﴿لَعَلَّ السّاعةَ تَكُونُ﴾: تُوجد ﴿قَرِيبًا. إنَّ اللهَ لَعَنَ الكافِرِينَ﴾: أبعدَهم، ﴿وأعَدَّ لَهُم سَعِيرًا﴾ نارًا شديدة يدخلونها ٦٥ ـ ﴿خالِدِينَ﴾: مُقدَّرًا خُلودُهم ﴿فِيها أبَدًا، لا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾: يحفظهم عنها ﴿ولا نَصِيرًا﴾: يدفعها عنهم، ٦٦ ـ ٦٧ ـ ﴿يَومَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُم في النّارِ، يَقُولُونَ: يا﴾: للتنبيه ﴿لَيتَنا أطَعْنا اللهَ وأطَعْنا الرَّسُولَ. وقالُوا﴾ أي: الأتباعُ منهم: ﴿رَبَّنا، إنّا أطَعْنا سادتَنا﴾ ـ وفي قراءة: «ساداتِنا» جمعُ الجمع ـ ﴿وكُبَراءَنا، فأضَلُّونا السَّبِيلَ﴾: طريق الهُدى. ٦٨ ـ ﴿رَبَّنا، آتِهِم ضِعفَينِ مِنَ العَذابِ﴾ أي: مِثلَي عذابِنا، ﴿والعَنْهُم﴾: عذّبهم ﴿لَعنًا كَثِيرًا﴾ عددُه. وفي قراءة بالموحدة أي: عظيمًا.

قولُه: (ذَلِكَ) أي: سنّتَهُ، فهو مصدرٌ مؤكِّدٌ.

قولُه: (أي: أَهلُ مَكَّةَ) استهزاءً، أو اليهودُ امتحاناً.

قولُه: (بِهَا) أيُّ شيءٍ يُعلِمُكَ وقتَها.

قولُه: (تُوجَدُ) وتقعُ عن قريبٍ، فانتصابُهُ على الظَّرفِ، أو يكونُ شيئاً أو زماناً قريباً على أنَّهُ صفةُ محذُوفٍ، أو ﴿السَّاعَةَ﴾ بمعنى: اليومِ، وفيه تهديدٌ للمستعجلينَ وإسكاتٌ للمتعنِّتينَ.

قولُه: (شَدِيدَة) الإيقادِ.

قولُه تعالى: (﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾) أي: تُصرَّفُ من جهةٍ إلى جهةٍ، أو من حالٍ إلى حالٍ، أو تطرَحُ مقلوبينَ منكوسينَ، وعاملُهُ: ﴿يَقُولُونَ﴾.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للشَّاميِّ[1].

قولُه: (جَمْعُ الجَمْعِ) للدِّلالةِ على الكَثرةِ.

قولُه: (أي: مِثْلَيْ عذابِنَا) أي: مثلَي ما آتيْتَنا منهُ، أو من هذا العذابِ الَّذي عذَّبْتَهم به فإنَّهُم أحقَّاءُ لزيادةِ العذابِ؛ لأنَّهم ضَلُّوا وأضلُّوا.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لعاصمٍ[2].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٨٠).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

٦٩ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَكُونُوا﴾ مع نبيّكم ﴿كالَّذِينَ آذَوا مُوسَى﴾ بقولهم مثلاً: «ما يمنعه أن يغتسل معنا إلاّ أنه آدَرُ»، ﴿فبَرّأَهُ اللهُ مِمّا قالُوا﴾ بأن وضع ثوبه على حجر ليغتسل، ففرّ الحجر به حتّى وقف بين ملأٍ من بني إسرائيل، فأدركه موسى فأخذ ثوبه فاستتر به، فرأوه ولا أُدرة به ـ وهي نُفخة في الخُصية ـ ﴿وكانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا﴾: ذا جاه. وممّا أُوذِي به نبيّنا أنه قسم قَسمًا، فقال رجل: هذه قِسمة ما أُريدَ بها وجهُ الله تعالى. فغضب النبيّ من ذلك، وقال: «يَرحَمُ اللهُ مُوسَى. لَقَد أُوذِيَ بأكثَرَ مِن هذا، فصَبَرَ». رواه البخاريّ. ٧٠ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللهَ وقُولُوا قَولاً سَدِيدًا﴾: صوابًا، ٧١ ـ ﴿يُصلِحْ لَكُم أعمالَكُم﴾: يتقبّلْها، ﴿ويَغفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُم. ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ فقَد فازَ فَوزًا عَظِيمًا﴾: نال غاية مطلوبه.

٧٢ ـ ﴿إنّا عَرَضْنا الأمانَةَ﴾: الصلواتِ وغيرَها بما في فِعلِها من الثواب وتركِها من العِقاب ﴿علَى السَّماواتِ والأرضِ والجِبالِ﴾ بأن خَلقَ فيها فهمًا ونُطقًا، ﴿فأبَينَ أن يَحمِلْنَها وأشفَقْنَ﴾: خِفنَ ﴿مِنها، وحَمَلَها الإنسانُ﴾ آدمُ بعد عرضها عليه ـ ﴿إنَّهُ كانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه بما حمله، ﴿جَهُولاً﴾ به ـ........

قولُه: (أنْ يَغْتَسِلَ) وكانَ موسى عليهِ السَّلامُ حييًّا سِتِّيراً، ولعلَّهُ كانَ سَتْرُ العورةِ غيرَ واجبٍ.

قولُه: (آدَرُ) أو: به بَرَصٌ، وهو في البخاريِّ مرفوعاً[١]، وقيل: غيرُهُما[٢]، وظاهرُ القرآنِ أنَّ أذاهُ أعَمُّ.

قولُه: (بأنْ وَضَعَ) أي: أظهرَ اللهُ براءتَهُ من مضمونِ مقولِهِم.

قولُه: (بأكثَرَ مِنْ هَذَا) منها ما ذُكِرَ، ومنهَا قولُهُم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى﴾ [البقرة: ٥٥] و: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨] وقولُهُم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ﴾ [المائدة: ٢٤].

قولُه: (صَوَاباً) عَدْلاً.

قولُه: (يَتَقَبَّلْهَا) متعلِّقٌ بـ﴿يُصْلِحْ﴾[٣]، أو تفسيرٌ له.

قولُه: (غَايَةَ مَطْلُوبِهِ) يعيشُ في الدُّنيا حميداً وفي الآخرَةِ سعيداً.

قولُه: (بمَا حَمَلَهُ) أي: بتحمُّلِهِ ما يشُقُّ عليها.

قولُه: (بِهِ) أي: بثقلِ عاقبتِه ومآلِه، عن كثيرٍ منَ السَّلفِ: مَا كانَ بينَ قَبُولِهِ الأمانةَ وبينَ خطيئتِهِ إلَّا قَدْرَ ما بينَ العصْرِ إلى اللَّيلِ[٤]، وقيلَ: الظَّلوميَّةُ والجهوليَّةُ باعتبارِ الجنسِ.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كقولهم: إنه قتل أخاه، انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٣٣٢ ـ ٣٣٥).

(٣) في (ص): «متعلق بـقوله: ﴿يصلح﴾».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٨٠) بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

٧٣ ـ ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ﴾، اللام: مُتعلّقة بـ «عَرَضْنا» المُترتّبِ عليه حملُ آدم، ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ المُضيّعين الأمانةَ، ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ المُؤدِّين الأمانةَ. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ للمؤمنين ﴿رَحِيمًا﴾ بهم.

قولُه: (حَمْلُ آدَمَ) أو تعليلٌ للحَمْلِ من حيثُ إنَّه نتيجتُهُ كالتَّأديبِ للضَّربِ في: ضربتُه تأديباً.

قولُه: (المُؤَدِّينَ) وذِكْرُ التَّوبةِ في الوَعدِ إشعارٌ بأنَّ كونَهُم ﴿ظَلُوماً جهولاً﴾ في جِبِلَّتِهم لا يخلِّيهم عن فَرَطاتٍ.

قولُه: (للمُؤمِنِينَ) حيثُ تابَ على فرَطاتِهم.

قولُه: (بِهِم) حيثُ أثابَ بالفَوزِ على طاعاتِهم، واللهُ أعلمُ.

* * *

سورة الأحزاب

أخرج البيهقيُّ في «الدلائل» وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت سورةُ الأحزاب بالمدينة[1]. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثلَه[2].

وهي ثلاثٌ وسبعون آيةً؛ قال الطبرسيُّ: بالإجماع[3]. وقال الداني: هذا متفقٌ عليه[4]. وأخرج عبد الرزاق في «المصنف»، والطيالسيُّ، وسعيد بن منصور، وعبد الله بن أحمد في زوائد «المسند»، والنسائيُّ، والحاكم وصححه، والضياء في «المختارة»، وآخرون عن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب رضي الله عنه: كائن[5] تقرأ سورةَ الأحزاب، أو كائن تعدُّها؟ قلت: ثلاثاً وسبعين آية. فقال: أَقَطُّ[6]؟ لقد رأيتُها وإنها لتعادل سورةَ البقرة، ولقد قرأنا فيها: «الشيخُ والشيخةُ إذا زنيا فارجُموهما البتةَ نكالاً من الله واللهُ عزيزٌ حكيم» فرُفع فيما رُفع[7]. وأراد رضي الله عنه بذلك النسخ.

---

(١) دلائل النبوة ٧/ ١٤٣-١٤٤، وأخرجه أيضاً النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٢.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٧٩.

(٣) مجمع البيان ٢١/ ٩٢.

(٤) البيان في عدِّ آي القرآن للداني ص٢٠٨، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١٥٦.

(٥) جاء في حاشية (م): أي: كم. اهـ منه.

(٦) جاء في حاشية (م): أي: أَحَسْب. اهـ منه.

(٧) مصنف عبد الرزاق (٥٩٩٠) و(١٣٣٦٣)، ومسند الطيالسي (٥٤٠)، ومسند أحمد (٢١٢٠٧)، وسنن النسائي الكبرى (٧١١٢)، والمستدرك ٢/ ٤١٥ و٤/ ٣٥٩، والمختارة (١١٦٤)-(١١٦٦). وإسناده ضعيف، فقد تفرّد به عاصم بن بهدلة، وهو - وإن كان صدوقاً - له أوهام بسبب سوء حفظه، فلا يحتمل تفرده بهذا الإسناد. وقال الباقلّاني في الانتصار ١/ ٣٩٤: إن هذه الرواية عن أبيٍّ لو كانت صحيحة ثابتة لوجب أن تشتهر عن أبيٍّ الشهرة التي تلزم القلوب ثبوتها... فإذا لم يظهر ذلك عنه الظهورَ الذي يلزم الحجة =

وأمَّا كونُ الزيادة كانت في صحيفةٍ عند عائشةَ فأكلها الداجنُ[(١)] فمِن وَضْعِ الملاحدة وكذبِهم في أنَّ ذلك ضاع بأَكْلِ الدَّاجنِ من غيرِ نسخٍ، كذا في «الكشاف»[(٢)].

وأخرج أبو عبيد في «الفضائل» وابن الأنباريِّ وابن مردويه عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبيِّ ﷺ مئتي آيةٍ، فلما كَتب عثمانُ رضي الله عنه المصاحفَ لم يَقْدِرْ منها إلا على ما هو الآن[(٣)]. وهو ظاهرٌ في الضياع من القرآن. ومقتضَى ما سمعتَ أنه موضوعٌ، والحقُّ أنَّ كلَّ خبرٍ ظاهرُه ضياعُ شيءٍ من القرآن إما موضوعٌ أو مؤوَّلٌ.

ووجه اتصالها بما قبلها على ما قال الجلال السيوطي: تشابُهُ مطلع هذه ومقطع تلك، فإنَّ تلك خُتمت بأمر النبيِّ ﷺ بالإعراض عن الكافرين وانتظارِ عذابهم، وهذه بُدئت بأمره ﷺ بالتقوى وعدمِ طاعة الكافرين والمنافقين، واتِّباعِ ما أوحي إليه، والتوكُّلِ عليه عز وجل[(٤)]، حيث قال سبحانه وتعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ ناداه جلَّ وعلا بوَصْفِه ﷺ دون اسمه تعظيماً له وتفخيماً، قال في «الكشاف»: إنه تعالى جعل نداءه من بين الأنبياء عليهم السلام بالوصف

= بمثله، عُلم بطلان الخبر وأنه لا أصل له. . .، وينظر تتمة كلامه ثمة. وأما قوله: «الشيخ والشيخة. . .» فقد ورد في غير حديث، وينظر ماروي في ذلك في فتح الباري ١٢/ ١٤٣.

(١) جاء في حاشية (م): الداجن وكذا الراجن بالراء: ما يألف البيوت ويأنس من شاة وغيرها. اهـ منه.

(٢) ٣/ ٢٤٨، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٢: بل راويها ثقة غير متهم. . . وكأن المصنف (يعني الزمخشري) فَهِم أن ثبوت هذه الزيادة يقتضي ما تدعيه الروافض من أن القرآن ذهب منه أشياء، وليس ذلك بلازم، بل هذا مما نسخت تلاوته وبقي حكمه، وأَكْلُ الداجن لها وقع بعد النسخ. اهـ. والخبر أخرجه ابن ماجه (١٩٤٤).

(٣) فضائل القرآن ص١٩٠، وعزاه لابن الأنباري السيوطي في الدر ٥/ ١٨٠، وفي إسناده ابن لهيعة، وهو ضعيف.

(٤) تناسق الدرر ص٧٤.

كرامةً له عليه الصلاة والسلام وتشريفاً، وَرَبْئاً بمحلِّه، وتنويهاً بفضله، وأوقع اسمه في الأخبار في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩] ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤] لتعليم الناس بأنه رسول، وتلقيناً[١] لهم أن يسمُّوه بذلك ويَدْعوه به، فلا تفاوُتَ بين النداء والأخبار، ألا ترى إلى ما لم يُقْصَدْ به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره تعالى بنحو ما ذكره في النداء، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقان:٣٠] ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦] إلى غير ذلك[٢].

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّ أمر التعليم والتلقين في قوله تعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ) ظاهرٌ، أمَّا في قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) فلا، على أنَّ قوله تعالى: ﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد:٢] ينقضُ ما بناه، نعم النداء يناسب التعظيم، وربما يكون نداءُ سائر الأنبياء عليهم السلام في كتبهم أيضاً على نحوٍ منه، وحُكي في القرآن بأسمائهم دفعاً للإلباس، والأشبهُ أنه لمَّا قلَّ ذكرُه ﷺ باسمه دلَّ على أنه أعظمُ شأناً صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وفيه نظر.

واختار الطِّيبيُّ طيَّبَ الله تعالى ثراه أنَّ النداء المذكور هنا للاحتراس وجَبْرِ ما يوهمه الأمر والنهي، كقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣][٣].

وظاهرُ سياقِ ما بعدُ أنَّ المعنيَّ بالأمر بالتقوى هو النبيُّ ﷺ، لا أمتُه كما قيل في نظائره، والمقصودُ الدوامُ والثباتُ عليها، وقيل: الازديادُ منها فإنَّ لها باباً واسعاً، وعرضاً عريضاً لا يُنالُ مَدَاه.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: المجاهرين بالكفر ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ المضمِرينَ لذلك فيما يريدون من الباطل؛ أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنَّ أهل مكة، منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة، دعوا النبيَّ ﷺ أن يرجع عن

---

(١) في الأصل و(م): وتلقين

(٢) الكشاف ٣/٢٤٨.

(٣) بنحوه في حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وذكره بلفظ المصنف الشهاب في الحاشية ٧/١٥٦.

قوله على أن يعطوه شطر أموالهم[1]، وخوَّفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه، فنزلت[2].

وذكر الثعلبيُّ والواحديُّ بغير إسنادٍ أنَّ أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلميَّ[3] قَدِموا عليه عليه الصلاة والسلام في زمان الموادعة التي كانت بينه ﷺ وبينهم، وقام معهم عبد الله بن أبيٍّ ومعتِّبُ بن قشير والجد بن قيس فقالوا لرسول الله ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا، وقل: إنها تشفع وتنفع، ونَدَعُكَ وربَّك. فشَقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ والمؤمنين وهمُّوا بقتلهم، فنزلت[4].

وقيل: نزلت في ناسٍ من ثقيفٍ قدموا على رسول الله ﷺ فطلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يمتِّعهم باللات والعزى سنةً؛ قالوا: لتعلم قريش منزلتنا منك.

ولا يَبْعُدُ أن يكون المراد بالنهي الثباتَ على عدم الإطاعة، وذِكْرُه بعد الأمر بالتقوى المرادِ منه الثباتُ عليها ـ على ما قيل ـ من قبيل التخصيص بعد التعميم لاقتضاء المقام الاهتمام به، وقيل: من قبيل التأكيد.

وقيل: متعلّق كلٍّ من التقوى والإطاعة مغايرٌ للآخر على ما روى الواحديُّ والثعلبيُّ، والمعنى: اتق الله تعالى في نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا منك من رفض ذكر آلهتهم، وقولِك: إنها تشفع وتنفع، وكأنه إنما قدّم الأمر بتقوى الله تعالى في نقض العهد لِمَا أن المؤمنين قد همُّوا بما يقتضيه، بخلاف الإطاعة المنهيِّ عنها فإنها مما لم يهمَّ بما يقتضيها أحدٌ أصلاً، فكان الاهتمام بالأمر أتمَّ من الاهتمام بذلك النهي.

---

(١) في حاشية (م): وفي رواية: ويزوِّجه شيبة بنته. اهـ منه.

(٢) عزاه للطبري السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٨٠ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، ولم نقف عليه في تفسير الطبري.

(٣) في حاشية (م): اسمه عمرو بن أبي سفيان. اهـ منه. وذكر ذلك الشهاب في الحاشية ٧/ ١٥٦، والصواب: عمرو بن سفيان، وقد أسلم فيما بعد، إلا أنه اختلف في صحبته. ينظر التجريد للذهبي ص٤٠٩، والإصابة ٧/ ١١٤.

(٤) تفسير الثعلبي ٨/ ٥، وأسباب النزول للواحدي ص٣٦٩. وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٢: هكذا ذكره الثعلبي والواحدي دون سند.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ مبالغاً في العلم والحكمة، فيعلم الأشياء من المصالح والمفاسد، فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة، ولا ينهاك إلا عمَّا فيه مفسدةٌ، ولا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة. فالجملةُ تعليلٌ للأمر والنهي مؤكِّدٌ لوجوب الامتثال بها.

وقيل: المعنى: إنَّ الله كان عليماً بمن يتَّقي فيجازيه بما يليق به، حكيماً في هُدَى مَن شاء وإضلالِ مَن شاء، فالجملة تسلية له ﷺ. وليس بشيء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ عطف على ما تقدَّم من قبيل عطف العامِّ على الخاص، أي: اتَّبعْ في كلِّ ما تأتي وتَذَرُ من أمور الدِّين ما يوحى إليك من الآيات التي من جملتها هذه الآيةُ، الآمرةُ بتقوى الله تعالى، الناهيةُ عن إطاعة الكَفَرةِ والمنافقين. والتعرُّضُ لعنوان الربوبية لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ قيل: الخطاب للرسول ﷺ، والجمعُ للتعظيم. وقال أبو البقاء: إنما جاء بالجمع لأنه عنى بقوله تعالى: (وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ) إلخ: اتَّبع أنت وأصحابك[1]. وقيل: للغائبين من الكفرة والمنافقين بطريق الالتفات. ولا يخفَى بُعْدُه. نعم يجوز أن يكون للكلِّ على ضربٍ من التغليب.

وأيّاً ما كان فالجملةُ تعليلٌ للأمر وتأكيدٌ لموجبه، فكأنه قيل على الأول: إن الله تعالى يعلم بما تعمل فيرشدك إلى ما فيه الصلاح، فلا بد من اتِّباع الوحي والعملِ بمقتضاه حتماً، وعلى الثاني: إنَّ الله تعالى خبيرٌ بما يعمل الكفرةُ والمنافقون من الكيد والمكر فيأمرك سبحانه بما يدفعه، فلا بدَّ من اتِّباع ما يوحيه جل وعلا إليك. وعلى الثالث: إن الله تعالى خبير بما تعمل ويعمل الكفرة والمنافقون فيرشدك إلى ما فيه صلاحُ حالِكَ، ويطلعُك على كيدهم ومكرهم، ويأمرك جلَّ شأنُه بما يدفع ذلك ويردُّه، فلا بد من اتِّباع وحيه تعالى والعمل بموجبه.

وقرأ أبو عمرو: «يعملون» بياءِ الغيبة[2] على أنَّ الضمير للكفرة والمنافقين. وجوِّز كونُه عامّاً فلا تغفل.

---

(١) الإملاء ٤/٨٨.

(٢) التيسير ص١٧٧، والنشر ٢/٣٤٧.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فوِّضْ جميعَ أمورك إليه عزَّ وجل ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ③﴾ حافظاً موكولاً إليه كلُّ الأمور. والإظهارُ في مقام الإضمار للتعظيم، ولتستقلَّ الجملة استقلالَ المَثَل.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ أخرج أحمد، والترمذيُّ وحسَّنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، والضياء في «المختارة»، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام النبيُّ ﷺ يوماً يصلِّي، فخطر خطرةً، فقال المنافقون الذين يصلُّون معه: ألا ترى أنَّ له قلبين قلباً معكم وقلباً معهم؟ فنزلت[1].

وفي رواية عنه رضي الله عنه: صلَّى رسول الله ﷺ صلاةً فسها فيها، فخَطَرتْ منه كلمةٌ، فسمعها المنافقون فأكثروا فقالوا: إنَّ له قلبين، ألم تسمعوا إلى قوله وكلامه في الصلاة؟ إنَّ له قلباً معكم وقلباً مع أصحابه. فنزلت[2].

وقال مقاتل في تفسيره وإسماعيل بن أبي زياد الشاميُّ وغيرُهما: نزلت في أبي معمر الفهري، كان أهلُ مكة يقولون: له قلبان من قوة حفظه، وكانت العربُ تزعم أن كلَّ لبيبٍ أريبٍ له قلبان حقيقة، وأبو معمر هذا اشتهر بين أهل مكة بذي القلبين، وهو على ما في «الإصابة» جميل بن أُسَيْد مصغَّر الأسد[3].

وقيل: ابن أسد مكبَّراً[4]. وسماه ابن دريد[5]: عبد الله بن وهب.

وقيل: إنَّ ذا القلبين هو جميل بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة[6] بن

(١) مسند أحمد (٢٤١٠)، وسنن الترمذي (٣١٩٩)، وتفسير الطبري ١٩/ ٧، والمختارة ٩/ ٥٣٩-٥٤١، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٨٠. وتعقب الذهبي تصحيح الحاكم بقوله: قابوس ضعيف. اهـ. وقابوس هو ابن أبي ظبيان أحد رجال الإسناد.

(٢) أخرج هذه الرواية ابن خزيمة في صحيحه (٨٦٥) من طريق قابوس بن أبي ظبيان أيضاً.

(٣) الإصابة ٢/ ٩٦.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٤٩.

(٥) كما في الإصابة ٢/ ٩٧.

(٦) في حاشية (م): في البحر: حارثة، بدل: حذافة. اهـ منه. وينظر البحر ٧/ ٢١١.

جمح الجمحيُّ، وهو المعنيُّ بقوله: وكيف ثوائي. . ، البيت وقد تقدَّم في تفسير سورة لقمان(١). والمعوَّل على ما في «الإصابة».

وحكي أنه كان يقول: إن لي قلبين أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد ﷺ، فروي أنه انهزم يوم بدر فمرَّ بأبي سفيان وهو معلِّقٌ إحدى نعليه بيده والأخرى في رجله، فقال له أبو سفيان: ما فَعَل الناس؟ فقال: هم ما بين مقتولٍ وهارب. فقال له: ما بالُ إحدى نعليك في رجلك والأخرى في يدك؟ فقال: ما ظننتُ إلا أنهما في رجليَّ(٢). فأكذب الله تعالى قولَه وقولَهم.

وعن الحسن أنه كان جماعةٌ يقول الواحد منهم: نفسٌ تأمرني ونفسٌ تنهاني، فنزلت.

والجَعْلُ بمعنى الخَلْق، و«مِن» سيفُ خطيب، والمراد: ما خلق سبحانه لأحدٍ ـ أو لذي قلبٍ من الحيوان مطلقاً ـ قلبين، فخصوصُ الرجل ليس بمقصودٍ، وتخصيصُه بالذكر لكمالِ لزومِ الحياة فيه، فإذا لم يكن ذلك له فكيف بغيره من الإناث؟ وأمَّا الصبيان فمآلُهم إلى الرجولية.

وقوله سبحانه: ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾ للتأكيد والتصوير، كالقلوب في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وذُكر في بيانِ عدمِ جَعْلِهِ تعالى قلبين في جوفٍ بناءً على ما هو الظاهرُ من أنَّ المراد بالقلب المُضْغَةُ الصنوبرية: أنَّ النفس الناطقة وكذا الحيوانية لا بدَّ لها من متعلَّقٍ، ومتعلَّقُها هو الروحُ، وهو جسمٌ لطيفٌ بخاريٌّ يتكوَّن من ألطف أجزاء الأغذية؛ لأنَّ شدَّ الأعصاب يُبطل قوى الحسِّ والحركة عمَّا وراء موضع الشدِّ مما لا يلي جهة الدماغ، والشدُّ لا يمنع إلا نفوذَ الأجسام، والتجارب الطبية أيضاً

---

(١) ٢١/ ٧١، وتمامه:

وكيف ثَوائي بالمدينة بعدما قضى وطراً منها جميلُ بنُ معمر

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٣٦٩-٣٧٠، وتفسير البغوي ٣/ ٥٠٥-٥٠٦، وعزاه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٧٠-٣٧١ للسدي. وجاء في حاشية (م): وأسلم بعدُ، وعدَّه ابن حجر في الصحابة، وكذا جميل الجمحي. اهـ منه. وينظر الإصابة ٢/ ٩٦-٩٧، ترجمة جميل بن أسيد الفهري، وجميل بن معمر الجمحي.

شاهدةٌ بذلك، وحيث إنَّ النفس واحدةٌ فلا بدَّ من عضوٍ واحدٍ يكون تعلُّقُها به أوَّلاً، ثم بسائر الأعضاء بواسطته.

وقد ذكر غير واحدٍ أنَّ أول عضوٍ يخلق هو القلب، فإنه المجمَعُ للروح، فيجب أن يكون التعلُّقُ أولاً به، ثم بواسطته بالدماغ والكبد وبسائر الأعضاء، فمنبعُ القوى بأسرها منه، وذلك يمنعُ التعدُّدَ إذ لو تَعدَّدَ بأنْ كان هناك قلبان لزم أن يكون كلٌّ منهما أصلاً للقوى وغيرَ أصلٍ لها، أو تَوارُدُ علَّتين على معلولٍ واحد.

ولا يخفَى على مَن له قلبٌ أنَّ هذا مع ابتنائه على مقدِّماتٍ لا تكاد تَثْبتُ عند أكثر الإسلاميين من السَّلَف الصالح والخَلَفِ المتأخِّرين ولو بشقِّ الأنفس أمرٌ إقناعيٌّ لا برهانٌ قطعيٌّ، على أنَّ الفلسفيَّ أيضاً له فيه مقالٌ[١].

وقد يفسَّر القلب بالنفس بناءً على أنَّ سبب النزول ما روي عن الحسن، إطلاقاً للمتعلَّق على المتعلِّق، وقد بيَّنوا وحدةَ النفس وأنه لا يجوز أن تتعلَّق نفسان فأكثر ببدنٍ بما يطولُ ذكره، وللبحث فيه مجالٌ فليراجع.

ثم إنَّ هذا التفسير ـ بناءً على أنَّ سبب النزول ما ذكر ـ غيرُ متعيِّنٍ، بل يجوز تفسيرُ القلب عليه بما هو الظاهرُ المتبادر أيضاً، وحيث إنَّ القلب متعلَّق النفس يكون نفيُ جَعْلِ القلبين دالًّا على نفي جَعْلِ النَّفْسَين، فتدبَّر.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ إبطالٌ لِمَا كان في الجاهلية من إجراء[٢] أحكام الأمومة على المُظاهَر منها، والظهارُ لغةً مصدرُ ظاهَرَ، وهو مفاعَلةٌ من الظَّهْر، ويستعمل في معانٍ مختلفةٍ راجعةٍ إليه معنًى ولفظاً بحسب اختلاف الأغراض، فيقال: ظاهَرْتُه: إذا قابلْتَ ظَهْرَك بظهره حقيقةً، وكذا إذا غايَظْتَه باعتبارِ أن المغايظة تقتضي هذه المقابلة. وظاهَرْتُه: إذا نَصَرْتَه باعتبار أنه يقال: قوَّى ظَهْرَه، إذا نصره. وظاهرتُ بين ثوبين: إذا لبستَ أحدهما فوق الآخر، على اعتبارِ جَعْلِ ما يلي به كلٌّ منهما الآخر ظهراً للثوب. ويقال: ظاهَرَ من زوجته: إذا قال لها: أنت عليَّ كظَهْرِ أمِّي، نظير لبَّى إذا قال: لبيك، وأفَّف إذا قال: أُفّ.

---

(١) في (م): على أن للفلسفي أيضاً له فيه مقالاً.

(٢) في (م): إجزاء، وهو تصحيف.

وكونُ لَفْظِ الظَّهْرِ في بعض هذه التراكيب مجازاً لا يمنع الاشتقاقَ منه، ويكون المشتقُّ مجازاً أيضاً. والمرادُ منه هنا المعنى الأخير، وكان ذلك طلاقاً منهم، وإنَّما عدِّي بـ «من» مع أنه يتعدَّى بنفسه؛ لتضمُّنه معنى التباعُدِ ونحوِه مما فيه معنى المجانَبةِ ويتعدَّى بمن. والظهر في ذلك مجازٌ ـ على ما قيل ـ عن البطن؛ لأنه إنما يركبُ البطن، فقوله: كظهر أمي، بمعنى: كبطنها، بعلاقة المجاورة، ولأنه عموده، قال ابن الهمام[1]: لكن لا يظهر ما هو الصارف عن الحقيقة من النكات.

وقال الأزهريُّ ما معناه: خَصُّوا الظهر لأنه محلُّ الركوب، والمرأةُ تُركب إذا غُشيت[2]، فهو كنايةٌ تلويحيةٌ؛ انتقل من الظهر إلى المركوب ومنه إلى المغشيِّ، والمعنى: أنت محرَّمةٌ عليَّ لا تُركبين، كما لا يُركب ظهر الأم.

وقيل: خصَّ الظهر لأنَّ إتيان المرأة من ظهرها في قبلها كان حراماً عندهم، فإتيانُ أمِّه من ظهرها أحرمُ، فكثُر التغليظ.

وقيل: كَنَوا بالظهر عن البطن لأنهم يستقبحون ذكر الفَرْجِ وما يقرُبُ منه، سيما في الأم وما شُبِّه بها. وليس بذاك.

وهو في الشرع تشبيهُ الزوجة أو جزءٍ منها شائعٍ أو معبَّرٍ به عن الكلِّ بما لا يحلُّ النظر إليه من المحرَّمة على التأبيد ولو برضاعٍ أو صهريةٍ، وزاد في «النهاية»[3] قيدَ الاتِّفاق، ليخرج التشبيه بما لا يحلُّ النظر إليه ممن اختُلف في تحريمها كالبنت من الزنا، وتحقيقُ الحقِّ في ذلك في «فتح القدير».

وخصَّ باسم الظهار تغليباً للظهر؛ لأنه كان الأصلَ في استعمالهم، وشرطُه في المرأة كونُها زوجةً، وفي الرجل كونُه من أهل الكفَّارة. وركنُه: اللفظ المشتملُ على ذلك التشبيه. وحُكْمُه: حرمةُ الوطء ودواعيه إلى وجود الكفارة. وتمامُ الكلام فيه في كتب الفروع. وسيأتي إن شاء الله تعالى بعضُ ذلك في محله.

---

(١) في فتح القدير ٣/ ٢٢٤، وما قبله منه.
(٢) تهذيب اللغة ٦/ ٢٤٩.
(٣) النهاية شرح الهداية لحسام الدين حسين بن علي السِّغناقي المتوفى سنة (٧١٠هـ). كشف الظنون ٢/ ٢٠٣٢، ونقل المصنف كلامه بواسطة ابن الهمام في فتح القدير ٣/ ٢٢٥.

وقرأ قالون وقنبل هنا وفي «المجادلة» و«الطلاق»: «اللاء» بالهمز من غير ياء، وورشٌ بياءٍ مختلَسةِ الكسرة، والبزيُّ وأبو عمرو: «اللايْ» بياءٍ ساكنةٍ بدلاً من الهمزة(١)، وهو بدلٌ مسموعٌ لا مقيسٌ، وهي لغة قريش.

وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «تَظَاهرون» بفتح التاء وتخفيف الظاء، وأصلُه تتظاهرون فحذفت إحدى التاءين. وقرأ ابن عامر: «تَظَّاهرون» بفتح التاء وتشديد الظاء، وأصله كما تقدَّم إلا أنه أدغمت التاء الثانية في الظاء(٢).

وقرأ الحسن: «تُظَهِّرون» بضم التاء وفتح الظاء المخففة وشدِّ الهاء المكسورة(٣)، مضارع ظهَّر بتشديد الهاء بمعنى ظاهَرَ، كعقَّد بمعنى عاقَدَ.

وقرأ ابن وثاب فيما نقل ابن عطية: «تُظْهِرون» بضم التاء وسكون الظاء وكسر الهاء، مضارع أَظْهَرَ(٤).

وقرأ هارون عن أبي عمرو: «تَظْهَرون» بفتح التاء والهاء وسكون الظاء(٥)، مضارع ظَهَرَ بتخفيف الهاء.

وفي مصحف أبيٍّ: «تتظهَّرون» بتاءين(٦). ومعنى الكلِّ واحد.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ إبطالٌ لِمَا كان في الجاهلية أيضاً وصَدْرٍ من الإسلام من أنه إذا تبنَّى الرجل ولدَ غيره أُجْرِيَتْ أحكامُ البنوَّة عليه، وقد تَبَنَّى رسول الله ﷺ قبل البعثة زيد بن حارثة، والخطَّابُ عامر بنَ ربيعة، وأبو حذيفة مولاه سالماً، إلى غير ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة وابنُ جرير وابن المنذر عن

---

(١) التيسير ص١٧٧-١٧٨، والنشر ١/ ٤٠٤. وقرأ أبو جعفر مثل ورش، وقرأ يعقوب مثل قالون وقنبل.

(٢) التيسير ص١٧٨، والنشر ٢/ ٣٤٧. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب: «تَظَّهَّرون» بفتح التاء وتشديد الظاء والهاء من غير ألف. وقراءة عاصم هي: «تُظاهِرون» بضم التاء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٨، والبحر ٧/ ٢١١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٨، والبحر ٧/ ٢١١، وعنه نقل المصنف.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٨، والبحر ٧/ ٢١١.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٨، والبحر ٧/ ٢١١.

مجاهدٍ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ إلخ، نزلت في زيد بن حارثة رضي الله عنه(١).

و«أدعياء» جمع دَعِيٍّ، وهو الذي يُدْعَى ابناً، فهو فعيل بمعنى مفعول، وقياسُه أن يجمع على فَعْلَى كجريح وجَرْحَى، لا على أَفْعِلَاء فإن الجمع عليه قياسُ فعيلٍ المعتلِّ اللام بمعنى فاعِلٍ، كتقيٍّ وأتقياء، فكأنه شبِّه به في اللفظ فحُمل عليه وجُمع جمعَه، كما قالوا في أسير وقتيل: أُسَراء وقُتلاء.

وقيل: إنَّ هذا الجمعَ مقيسٌ في المعتلِّ مطلقاً. وفيه نظر.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ قيل: إشارةٌ إلى ما يفهم من الجمل الثلاث: من أنه قد يكون قلبان في جوفٍ، والظِّهارِ، والادِّعاءِ. وقيل: إلى ما يفهم من الأخيرتين. وقيل: إلى ما يفهم من الأخيرة.

﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ فقط من غير أن يكون له مصداقٌ وحقيقةٌ في الواقع ونفسِ الأمر، فإذن هو بمعزلٍ عن القبول أو استتباعِ الأحكام كما زعمتُم.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ الثابتَ المحقَّقَ في نفس الأمر ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ أي: سبيلَ الحقِّ، فدَعُوا قولَكم وخُذوا بقوله عزَّ وجل.

وقرأ قتادةُ على ما في «البحر»: «يُهَدِّي» بضم الياء وفتح الهاء وشدِّ الدال(٢)، وفي «الكشاف» أنه قرأ: «وهو الذي يهدي السبيل»(٣).

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي: انسبوهم إليهم وخُصُّوهم بهم؛ أخرج الشيخان والترمذيُّ والنسائيُّ وغيرهم عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنَّا ندعوه إلا زيد بنَ محمد، حتى نزل القرآن: (ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ) إلخ. فقال النبيُّ ﷺ: «أنت زيد بن حارثة بن شراحيل»(٤).

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ١٠، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٨١.

(٢) البحر ٧/ ٢١٢، وذكرها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٩.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٥٠.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٨٢)، وصحيح مسلم (٢٤٢٥)، وسنن الترمذي (٣٢٠٩) و(٣٨١٤)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٣٢) و(١١٣٣٣)، وأخرجه أحمد(٥٤٧٩)، وليس عندهم قول النبي ﷺ لزيد: «أنت زيد...». وذكره بهذه الزيادة السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٨١، =

وكان من أمره رضي الله عنه على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس[(١)]: أنه كان في أخواله بني معن من بني ثعل من طيِّئ فأصيب في نهبٍ[(٢)] من طيِّئ، فقُدِمَ به سوقَ عكاظ، وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ يتسوَّق بها، فأوصته عمتُه خديجة أن يبتاع لها غلاماً ظريفاً عربيّاً إن قدر عليه، فلمَّا قَدِمَ وجد زيداً يباع فيها، فأعجبه ظرفُه فابتاعه، فقدم به عليها وقال لها: إنِّي قد ابْتَعتُ لك غلاماً ظريفاً عربيًّا، فإن أعجبك فخذيه، وإلا فَدَعيه فإنه قد أعجبني. فلمَّا رأته خديجةُ أعجبها فأخذته، فتزوَّجها رسول الله ﷺ وهو عندها، فأعجب النبيَّ عليه الصلاة والسلام ظرفُه فاستوهبه منها[(٣)]. فقالت: أَهَبُه لك، فإن أردْتَ عتقه فالولاءُ لي. فأبى عليها عليه الصلاة والسلام، فأَوْهَبته[(٤)] له إن شاء أَعْتقَ وإن شاء أَمْسَكَ. قال: فشبَّ عند النبيِّ ﷺ، ثم إنه خرج في إبلٍ لأبي طالبٍ بأرض الشام، فمرَّ بأرضِ قومه فعرفه عمُّه، فقام إليه فقال: مَن أنت يا غلام؟ قال: غلامٌ من أهل مكة. قال: من أنفسهم؟ قال: لا. قال: فحرٌّ أنت أم مملوك؟ قال: بل مملوك. قال: لمن؟ قال: لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب. فقال له: أعرابيٌّ أنت أم عجمي؟ قال: عربي؟ قال: ممَّن أصلُك؟ قال: من كلب. قال: من أيِّ كلب؟ قال: من بني عبد ودٍّ. قال: ويحك ابنُ مَن أنت؟ قال: ابن حارثة بن شراحيل. قال: وأين أُصبت؟ قال: في أخوالي. قال: ومَن أخوالُك؟ قال: طيئ. قال: ما اسم أمِّك؟ قال: سعدى. فالتزمه وقال: ابن حارثة. ودعا أباه فقال: يا حارثة، هذا ابنُك. فأتاه حارثة فلمَّا نظر إليه عرفه قال: كيف صُنْعُ مولاك إليك؟ قال: يؤثرني على أهله وولده. فركب معه أبوه وعمُّه وأخوه حتى قدموا مكة، فلقوا رسول الله ﷺ، فقال له حارثة: يا محمد، أنتم أهلُ حرم الله تعالى وجيرانُه وعند بيته تفكُّون العاني وتُطْعِمون الأسير، ابني عندك فامنُن علينا وأَحْسِنْ إلينا في فدائه، فإنك ابنُ سيد قومه، وإنَّا

= وعنه نقل المصنف، وزاد السيوطي نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي وابن مردويه.

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٨١.

(٢) في الدر: غلمة، بدل: نهب.

(٣) في حاشية (م): يروى أنه كان ابن ثمان حين وهب. اهـ منه.

(٤) في الدر: فوهبته.

سنرفع إليك في الفداء ما أحببتَ. فقال له رسول الله ﷺ: «أعطيكم خيراً من ذلك» قالوا: وما هو؟ قال: «أخيِّره، فإن اختاركم فخذوه بغيرِ فداءٍ، وإن اختارني فكفُّوا عنه» فقال: جزاك الله تعالى خيراً فقد أحسنتَ. فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «يا زيد، أتعرف هؤلاء؟» قال: نعم، هذا أبي وعمِّي وأخي. فقال عليه الصلاة والسلام: «فَهُمْ مَن قد عرفتهم، فإن اخترْتَهم فاذهب معهم، وإن اخترتني فأنا مَن تعلم» قال له زيد: ما أنا بمختارٍ عليك أحداً أبداً، أنت معي بمكان الوالد والعمِّ. قال أبوه وعمه: أيا زيد، أتختار العبودية؟! قال: ما أنا بمفارقٍ هذا الرجل. فلما رأى رسول الله ﷺ حرصه عليه قال: «اشهدوا أنه حرٌّ وأنه ابني يرثني وأرثُه». فطابت نفسُ أبيه وعمه لِمَا رأوا من كرامته عليه عليه الصلاة والسلام، فلم يزل في الجاهلية يُدْعَى زيد بنَ محمد حتى نزل القرآن (ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ) فدُعي زيد بنَ حارثة.

وفي بعض الروايات: أنَّ أباه سمع أنه بمكة، فأتاه هو وعمُّه وأخوه فكان ما كان(١).

﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعليلٌ للأمر، والضمير لمصدرِ «ادعوا» كما في قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، و«أقسط» أَفْعَلُ تفضيلٍ قُصِدَ به الزيادةُ مطلقاً، من القسط بمعنى العدل، والمراد به: البالغُ في الصدق، فاندفع ما يتوهَّمُ من أنَّ المقام يقتضي ذكر الصدق لا العدل، أي: دعاؤكم إياهم لآبائهم بالغٌ في العدل والصدق وزائدٌ فيه في حُكْم الله تعالى وقضائه عزَّ وجل.

وجوِّز أن يكون أفعل على ما هو الشائع فيه، والمعنى: أَعْدَلُ مما قالوه، ويكون جَعْلُه ذا عدلٍ مع أنه زورٌ لا عدلَ فيه أصلاً على سبيل التهكُّم.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ أي: تعرفوا ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾ فتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم ﴿فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي: وأولياؤكم فيه، فادعوهم بالأخوَّة والمولوية بتأويلهما بالأخوَّة والولاية في الدين، وبهذا المعنى قيل لسالم بعد نزول الآية: مولى أبي حذيفة(٢)، وكان قد تبنَّاه قبلُ.

---

(١) ينظر طبقات ابن سعد ٣/ ٤٠-٤٢، والمستدرك ٣/ ٢١٣-٢١٤.

(٢) في الأصل و(م): مولى حذيفة، والصواب ما أثبتناه.

وقيل: «مواليكم» أي: بنو أعمامكم، وقيل: مُعْتَقوكم ومحرَّروكم، وكأن دعاءهم بذلك لتطييب قلوبهم، ولذا لم يؤمر بدعائهم بأسمائهم فقط.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي: فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل النهي ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: ولكن الجناح والإثم فيما تعمَّدتُموه بعد النهي، على أنَّ «ما» في محلِّ الجرِّ عطفاً على «ما» من «فيما أخطأتم».

وتعقِّب بأنَّ المعطوف المجرور لا يُفْصَل بينه وبين ما عُطف عليه، ولذا قال سيبويه[1] في قولهم: ما مثلُ عبدِ الله يقول ذلك ولا أخيه: إنه حُذِفَ المضافُ من جهة المعطوف وأُبقي المضاف إليه على إعرابه، والأصل: ولا مثلُ أخيه، ليكون العطف على المرفوع.

وأجيبَ بالفرق بين ما هنا والمثال، وأنْ لا فَصْلَ فيه لأنَّ المعطوف هو الموصول مع صلته - أعني «ما تعمَّدت» - على مثله أعني «ما أخطأتم».

أو: ولكنْ ما تعمَّدتُم فيه الجناحُ، على أنَّ «ما» في موضع رفعٍ على الابتداء، وخبرُه جملةٌ مقدَّرة.

ونسبة التعمُّد إلى القلوب على حدِّ النسبة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣]. وكون المراد في الأول: قبل النهي، وفي الثاني: بعده، أخرجه الفريابيُّ وابن أبي شيبة وابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد[2].

وقيل: كِلَا الأمرين بعد النهي، والخطأُ مقابلُ العمد، والمعنى: لا إثم عليكم إذا قلتم لولدِ غيرِكم: يا بنيَّ، على سبيل الخطأ وعدمِ التعمُّد، كأنْ سَهَوْتُم أو سَبَقَ لسانُكم، ولكن الإثم عليكم إذا قلتم ذلك متعمِّدين. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في الآية: لو دعوتَ رجلاً لغير أبيه وأنت ترى أنه

---

(١) في الكتاب ١/ ٦٦.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٨٢، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ١٤ بلفظ: «تعمدت قلوبكم» قال: فالعمد ما أتى بعد البيان والنهيِ في هذا وغيره.

أبوه لم يكن عليك بأس، ولكنْ ما تعمَّدْتَ وقَصَدْتَ دعاءه لغير أبيه(١).

وجوِّز أن يراد بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ إلخ العفوُ عن الخطأ دونَ العمد على طريق العموم؛ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي لستُ أخافُ عليكم الخطأ، ولكنْ أخافُ عليكم العَمْدَ»(٢). وحديث ابن عباس قال: قال عليه الصلاة والسلام: «وُضِعَ عن أمَّتي الخطأُ والنِّسيانُ وما أُكرهوا عليه»(٣)، ثم تناول لعمومه خطأ التبنِّي وعَمْدَه.

والجملة على تقديرَي الخصوصِ والعمومِ واردةٌ على سبيل الاعتراض التذييليِّ تأكيداً لامتثالِ ما نُدبوا إليه مع إدماج حُكمٍ مقصودٍ في نفسه.

وجَعَلها بعضهم عطفاً مؤوَّلاً بجملةٍ طلبية ـ على معنى: ادعوهم لآبائهم هو أقسطُ لكم، ولا تدعوهم لأنفسكم متعمِّدين فتأثموا ـ على تقدير الخصوص، وجملةٍ مستطردةٍ على تقدير العموم. وتعقِّبَ بأنه تكلُّفٌ عنه مندوحةٌ.

وظاهرُ الآية حرمةُ تعمُّدِ دعوة الإنسان لغير أبيه، ولعل ذلك فيما إذا كانت الدعوة على الوجه الذي كان في الجاهلية، وأما إذا لم تكن كذلك، كما يقول الكبير للصغير على سبيل التحنُّن والشفقة: يا ابني ـ وكثيراً ما يقع ذلك ـ فالظاهرُ عدم الحرمة.

وفي «حواشي» الخفاجي على «تفسير البيضاوي»: البنوَّةُ وإنْ صحَّ فيها التأويلُ كالأخوَّة لكن نُهي عنها بالتشبيه بالكفرة، والنهيُ للتنزيه(٤). انتهى.

ولعله لم يُرِدْ بهذا النهي ما تدلُّ عليه الآيةُ المذكورة، فإنَّ ما تدلُّ عليه نهيُ التحريم عن الدعوة على الوجه الذي كان في الجاهلية، والأَوْلَى أن يقال في تعليل

---

(١) تفسيرالطبري ١٩/ ١٣، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٨٢، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ١١١.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٠٠١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٥٠: فيه بقية وهو مدلس. اهـ. وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه أحمد (٨٠٧٤)، وابن حبان (٣٢٢٢).

(٣) أخرجه ابن حبان (٧٢١٩) بلفظ: «إن الله تجاوز عن أمتي. . .».

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ١٦٠.

النهي: سدًّا لباب التشبُّه بالكفرة بالكلِّية. وهذا الذي ذكره الخفاجيُّ من كراهةِ قول الشخص لولدِ غيره: يا ابني، حكاه لي مَن أرتضيه عن «فتاوى» ابن حجر الكبرى.

وحُكْمُ التبنِّي بقوله: هو ابني، إن كان عبداً للقائل، العتقُ على كلِّ حالٍ، ولا يثبتُ نَسَبُه منه إلا إذا كان مجهولَ النسب، وكان بحيث يولد مثلُه لمثلِه، ولم يُقِرَّ قبله بنسبٍ من غيره، وعند الشافعيِّ لا عبرةَ بالتبنِّي، فلا يفيد العتقَ ولا ثبوتَ النسب، وتحقيقُ ذلك في موضعه.

ثم الظاهر أنه لا فرقَ إذا لم يُعْرَفِ الأبُ بين أن يقال: يا أخي، وأن يقال: يا مولاي، في أنَّ كلًّا منهما مباحٌ مطلقاً حينئذٍ، لكن صرَّح بعضُهم بحرمةِ أن يقال للفاسق: يا مولاي، لخبرٍ في ذلك، وقيل: لِمَا أنَّ فيه تعظيمَه وهو حرام، ومقتضاه أنَّ قول: يا أخي، إذا كان فيه تعظيمٌ بأن كان من جليلِ الشأن حرامٌ أيضاً، فلعل الدعاء لغير معروف الأب بما ذكر مخصوصٌ بما إذا لم يكن فاسقاً، ودليلُ التخصيص هو دليلُ حُرْمةِ تعظيم الفاسق، فتدبَّر.

وكذا الظاهرُ أنه لا فرق في أمر الدعوة بين كون المدعوِّ ذكراً وكونِه أنثى، لكن لم نقف على وقوع التبنِّي للإناث في الجاهلية، والله تعالى أعلم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ فيغفرُ للعامد إذا تاب ﴿رَّحِيمًا ۝٥﴾ ولذا رَفَعَ سبحانه الجُناحَ عن المخطئ.

ويُعلم من الآية أنه لا يجوز انتسابُ الشخص إلى غير أبيه، وعدَّ ذلك بعضُهم من الكبائر؛ لِمَا أخرج الشيخان وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن ادَّعى إلى غير أبيه وهو يعلمُ أنه غيرُ أبيه فالجنةُ عليه حرامٌ»[1].

وأخرج الشيخان أيضاً: «مَن ادَّعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنةُ الله تعالى والملائكة والناس أجمعين، لا يقبلُ الله تعالى منه صرفاً ولا عدلاً»[2].

---

(١) صحيح البخاري (٦٧٦٦) و(٦٧٦٧)، وصحيح مسلم (٦٣)، وسنن أبي داود (٥١١٣)، وهو عند أحمد (١٤٥٤).

(٢) صحيح البخاري (٣١٧٢)، وصحيح مسلم (١٣٧٠)، وأخرجه أحمد (٦١٥)، وهو من

وأخرجا أيضاً: «ليس من رجلٍ ادَّعى لغير أبيه وهو يعلمُ إلا كفر»[1].

وأخرج الطبراني في «الصغير» من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه ـ وحديثه حسن ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَفَر مَن تبرَّأ من نسبٍ وإن دقَّ، أو ادَّعى نسباً لا يعرف»[2]. إلى غير ذلك من الأخبار.

هذا ومناسبةُ قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ إلخ لِمَا قبله أنه شروعٌ في ذكر شيءٍ من الوحي الذي أُمر ﷺ في اتِّباعه، كذا قيل.

وقيل: إنه تعالى لمَّا أَمر بالتقوى كان من حقِّها أن لا يكون في القلب تقوى غيرِ الله تعالى، فإنَّ المرء ليس له قلبان يتَّقي بأحدهما الله تعالى وبالآخَرِ غيرَه سبحانه إلا بصَرْفِ القلب عن جهة الله تعالى إلى غيره جلَّ وعلا، ولا يليق ذلك بمن يتَّقي الله تعالى حقَّ تُقاتِه.

وعن أبي مسلم أنه متَّصلٌ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ حيث جيء به للردِّ عليهم، والمعنى: ليس لأحدٍ قلبان يؤمِنُ بأحدهما ويكفرُ بالآخَرِ، وإنما هو قلبٌ واحد فإما أن يؤمن وإما أن يكفر.

وقيل: هو متصلٌ بـ «لا تطع» و«اتَّبع»، والمعنى أنه لا يمكن الجمع بين اتِّباعين متضادَّين: اتِّباع الوحي والقرآن، واتِّباع أهل الكفر والطغيان، فكَنَى عن ذلك بذكر القلبين؛ لأن الاتِّباع يصدر عن الاعتقاد وهو من أفعال القلوب، فكما لا يُجمع قلبان في جوفٍ واحدٍ لا يُجمع اعتقادان متضادَّان في قلبٍ واحد.

وقيل: هو متصلٌ بقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ من حيث إنه مُشْعِرٌ بوحدته عزَّ وجلَّ، فكأنه قيل: وتوكَّل على الله وكفى به تعالى وكيلاً فإنه سبحانه وتعالى وحده المدبِّر لأمور العالم، ثم أشار سبحانه وتعالى إلى أنَّ أمر الرجل الواحد لا ينتظمُ ومعه قلبان، فكيف تنتظم أمورُ العالم وله إلهان.

= حديث علي رضي الله عنه، وليس في رواية البخاري: من ادعى إلى غير أبيه.

(1) صحيح البخاري (٣٥٠٨)، وصحيح مسلم (٦١)، وأخرجه أحمد (٢١٤٦٥)، وهو من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(2) المعجم الصغير (١٠٧٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٠١٩)، وابن ماجه (٢٧٤٤).

وقيل: إنَّ ذاك مَسُوقٌ للتنفير عن إطاعة الكفرة والمنافقين بحكايةِ أباطيلهم.

وذُكر أنَّ قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ﴾ إلخ ضُرب مثلاً للظِّهار والتبنِّي، أي: كما لا يكون لرجلٍ قلبان لا تكون المظاهَرةُ أمًّا والمتبنَّى ابناً، وجعل المذكورات الثلاث بجملتها مثلاً فيما لا حقيقة له، وارتضى ذلك غير واحد، وقال الطيبيُّ[1]: إنَّ هذا أنسبُ لنظم القرآن لأنه تعالى نسق المنفيات الثلاث على[2] ترتيبٍ واحدٍ، وجَعَل سبحانه قوله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ فذلكةً لها، ثم حَكَم تعالى بأنَّ ذلك قولٌ لا حقيقة له، ثم ذيَّل سبحانه وتعالى الكلَّ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّ سبب النزول وقولَه سبحانه بعد التذييل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ الآية شاهدا صِدْقٍ بأنَّ الأول مضروبٌ للتبنِّي، ثم إنهم ما كانوا يجعلون الأزواج أمهاتٍ، بل كانوا يجعلون اللفظ طلاقاً، فإدخاله في قرنِ مسألةِ التبنِّي استطراداً هو الوجهُ، لا أنه قولٌ لا حقيقةَ له كالأول.

وانتصر الخفاجيُّ للجماعة فقال: لو كان مثلاً للتبنِّي فقط لم يفصل منه، وكونُ القلبين لرجلٍ وجَعْلُ المتبنَّى ابناً في جميع الأحكام مما لا حقيقةَ له في نفس الأمر ولا في شرعٍ ظاهر، وكذا جَعْلُ الأزواج كالأمهات في الحرمة المؤبَّدة مطلقاً من مخترعاتهم التي لم يستندوا فيها إلى مستَنَدٍ شرعيٍّ فلا حقيقةَ له أيضاً، فما ادَّعاه غيرُ واردٍ عليهم، لا سيما مع مخالفته لِمَا رُوي عنهم[3]. انتهى، ويدُ الله تعالى مع الجماعة.

وبيَّن الطيبيُّ نَظْمَ الآيات من مفتتح السورة إلى هاهنا فقال: إنَّ الاستهلال بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ دالٌّ على أنَّ الخطاب مشتملٌ على التنبيه[4] على أمرٍ معتنًى بشأنه، لائحٍ فيه معنى التهييج والإلهاب، ومن ثَمَّ عَطَفَ عليه «ولا تطع» كما يُعطَفُ الخاصُّ على العامِّ، وأَرْدَفَ النهي بالأمر، على نحو قولك: لا تُطِعْ مَن

---

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) في (م): عن، والمثبت من الأصل وحاشية الطيبي.

(٣) حاشية الشهاب ٧/١٥٨.

(٤) في (م): التبنية، وهو تصحيف.

يخذلك واتَّبِعْ ناصِرَك، ولا يَبْعُدُ أن يسمَّى بالطرد والعكس(١)، ثم أمر بالتوكُّل تشجيعاً على مخالفة أعداء الدين والالتجاءِ إلى حريم جلال الله تعالى ليكفيه شرورَهم، ثم عقَّب سبحانه كلًّا من تلك الأوامر على سبيل التتميم والتذييل بما يطابقه، وعلَّل قوله تعالى: (وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ) بقوله سبحانه وتعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) تتميماً للارتداع، أي: اتَّقِ الله فيما تأتي وتَذَر في سرِّك وعلانيتك لأنه تعالى عليمٌ بالأحوال كلِّها يجب أن يُحذَرَ من سخطه، حكيمٌ لا يحبُّ متابعةَ حبيبه أعداءَه. وعلَّل قوله تعالى: (وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) بقوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) تتميماً أيضاً، أي: اتَّبِع الحقَّ ولا تتَّبِعْ أهواءهم الباطلةَ وآراءَهم الزائغةَ؛ لأن الله تعالى يعلم عملك وعملهم، فيكافئُ كلًّا ما يستحقُّه، وذيَّل سبحانه وتعالى قوله تبارك وتعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ) بقوله تعالى: (وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا) تقريراً وتوكيداً، على منوالِ: فلانٌ ينطق بالحقِّ والحقُّ أبلجُ، يعني مِن حقِّ مَن يكون كافياً لكلِّ الأمور أن تفوِّض الأمورُ إليه وتَتَوكَّل(٢) عليه، وفَصَلَ قوله تعالى: (مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ) على سبيل الاستئناف تنبيهاً على بعضٍ من أباطيلهم وتمحُّلاتهم، وقولُه تعالى: (ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم) إلخ فذلكةٌ لتلك الأقوال آذَنَتْ بأنها جديرةٌ بأنْ يُحكم عليها بالبطلان، وحقيقٌ بأن يذمَّ قائلها فضلاً عن أن يطاع، ثم وصل تعالى (وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ) إلخ على هذه الفذلكة بجامع التَّضادِّ على منوالِ ما سبق في «ولا تطع» و«اتَّبع» وفصلَ قوله تعالى: (ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ) وقوله تعالى: (ٱلنَّبِىُّ) إلخ وهلمَّ جرًّا إلى آخر السورة تفصيلاً لقول الحقِّ والاهتداءِ إلى السبيل القويم. انتهى، فتأمَّل ولا تغفل.

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أحقُّ وأقربُ إليهم ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أو أشدُّ ولايةً ونصرةً لهم منها، فإنه عليه الصلاة والسلام لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلَّا بما فيه صلاحُهم ونجاحُهم، بخلاف النفس فإنها إمَّا أمَّارةٌ بالسوء وحالُها ظاهرٌ، أوْ لا فقد تجهلُ بعض المصالح وتَخْفَى عليها بعضُ المنافع، وأُطلقت الأولوية ليفيد الكلام أولويته عليه الصلاة والسلام في جميع الأمور.

---

(١) الطرد والعكس كما عرَّفه الطيبي نفسه: هو أن يؤتى بكلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني وبالعكس، كقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. الإتقان ٢/ ٨٧٠.

(٢) في الأصل و(م): وتوكل، والمثبت من حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

ويعلمُ من كونه ﷺ أولى بهم من أنفسهم كونُه عليه الصلاة والسلام أولى بهم من كلٍّ من الناس، وقد أخرج البخاريُّ وغيره عن أبي هريرة عنه ﷺ أنه قال: «ما مِن مؤمنٍ إلَّا وأنا أَوْلَى الناسِ به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إنْ شئتُم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيُّما مؤمنٍ تَرَكَ مالاً فليَرِثْه عصبتُه مَن كانوا، فإنْ ترك دَيناً أو ضياعاً[1] فليأتني فأنا مولاه»[2].

ولا يلزمُ عليه كونُ الأنفُس هنا مثلَها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ لأنَّ إفادةَ الآية المدَّعَى على الظاهر ظاهرةٌ أيضاً.

وإذا كان ﷺ بهذه المثابة في حقِّ المؤمنين يجب عليهم أن يكون أحبَّ إليهم من أنفسهم، وحُكْمُهُ عليه الصلاة والسلام عليهم أنفذَ من حُكْمِها، وحقُّه آثَرَ لديهم من حقوقها، وشفقتهُم عليه أَقْدَمَ من شفقتهم عليها.

وسببُ نزول الآية ـ على ما قيل ـ ما رُوي من أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوةَ تبوك، فأمر الناس بالخروج، فقال أناسٌ منهم: نستأذنُ آباءنا وأمهاتنا. فنزلت[3]. ووَجْهُ دلالتها على السبب أنه ﷺ إذا كان أَوْلَى من أنفسهم فهو أَوْلَى من الأبوين بالطريق الأَوْلَى، ولا حاجةَ إلى حَمْلِ «أنفسهم» عليه على خلاف المعنى المتبادر كما أشرنا إليه آنفاً.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: منزَّلاتٌ منزلةَ أمَّهاتهم في تحريم النكاح واستحقاقِ التعظيم، وأمَّا فيما عدا ذلك من النظر إليهنَّ والخلوةِ بهنَّ وإرثهنَّ ونحو ذلك فهنَّ كالأجنبيات.

وفرَّع على هذا القسطلانيُّ في «المواهب» أنه لا يقال لبناتهن أخواتُ المؤمنين في الأصح[4]. والطبرسيُّ ـ وهو شيعيٌّ ـ أنه لا يقال لإخوانهن أخوالُ المؤمنين[5].

---

(١) في هامش الأصل و(م): أي: عيالاً ضياعاً. اهـ منه. قال أبو العباس القرطبي في المفهم ٤/ ٥٧٥: الضَّياع ـ بفتح الضاد ـ مصدر ضاع، ثم جعل اسماً لكل ما هو بصدد أن يضيع من عيالٍ وبنين لا كافل لهم، ومالٍ لا قيِّم له.

(٢) صحيح البخاري (٢٣٩٩)، وصحيح مسلم (١٦١٩).

(٣) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٥، وقال: موضوع.

(٤) المواهب اللدنية مع شرحه للزرقاني ٣/ ٢١٦.

(٥) مجمع البيان ٢١/ ١٠١.

ولا يَخْفَى أنه يُسِرُّ حَسْواً بارتغاء(١).

وفي «المواهب»: أنَّ في جواز النظر إليهنَّ وجهين أشهرُهما المنع.

ولكون وَجْهِ الشَّبَهِ مجموعَ ما ذُكر قالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لها: يا أمَّه: أنا أمُّ رجالكم لا أمُّ نسائكم. أخرجه ابن سعد وابن المنذر والبيهقي في «سننه» عنها(٢)، ولا ينافي هذا استحقاقَ التعظيم منهنَّ أيضاً.

وأخرج ابن سعد عن أمِّ سلمةَ رضي الله عنها أنها قالت: أنا أمُّ الرجال منكم والنساء(٣). وعليه يكون ما ذُكر وجهَ الشَّبَهِ بالنسبة إلى الرجال، وأمَّا بالنسبة إلى النساء فهو استحقاقُ التعظيم.

والظاهر أنَّ المراد من أزواجه كلُّ مَن أُطْلِقَ عليها أنها زوجةٌ له ﷺ، مَن طلَّقها ومَن لم يطلِّقها، وروى ذلك ابنُ أبي حاتم عن مقاتل(٤)، فيثبتُ الحكمُ لكلِّهنَّ، وهو الذي نصَّ عليه الإمامُ الشافعيُّ، وصحَّحه في «الروضة»(٥).

وقيل: لا يثبتُ الحُكْمُ لمن فارقها عليه الصلاة والسلام في الحياة، كالمستعيذة والتي رأى بكشحها بياضاً.

وصحَّح إمام الحرمين والرافعيُّ في «الصغير»(٦) تحريمَ المدخول بها فقط؛ لِمَا

(١) مثل يضرب لمن يُظهر أمراً وهو يريد غيره. والارتغاء: شرب الرغوة. وأصله الرجل يؤتى باللبن فيُظهِرُ أنه يريد الرغوة خاصة ولا يريد غيرها، فيشربها وهو بذلك ينال من اللبن. المستقصى ٢/ ٤١٢، وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال للبكري ص٧٦. ويريد المصنف بهذا أن الطبرسي إنما قال ما قال ردًّا على قولهم: معاوية خال المؤمنين، وذلك لكون أخته أم حبيبة رضي الله عنها من أمهات المؤمنين. وينظر تفسير القرطبي ١٧/ ٦٧، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٥٩.

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٦٥ و٦٧، وسنن البيهقي ٧/ ٧٠، والدر ٥/ ١٨٣.

(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ١٧٩ و٢٠٠.

(٤) لم نقف عليه، وفي الدر المنثور ٥/ ١٨٣ عن ابن أبي حاتم أنه أخرج عن قتادة قوله: لا يحلُّ لمؤمن أن ينكح امرأة من نساء النبي ﷺ في حياته إن طلَّق ولا بعد موته، هي حرام على كلِّ مؤمن مثل حرمة أمه.

(٥) روضة الطالبين ٧/ ١١.

(٦) هو الشرح الصغير لكتاب الوجيز في الفروع لحجة الإسلام الغزالي، والرافعي هو عبد الكريم بن محمد القزويني الشافعي، وله أيضاً شرح كبير للوجيز سماه: فتح العزيز على كتاب الوجيز. كشف الظنون ٢/ ٢٠٠٢.

روي أنَّ الأشعث بن قيس نكح المستعيذةَ في زمن عمر رضي الله عنه، فهمَّ عمر برجمه، فأُخبر أنها لم تكن مدخولاً بها، فكفَّ[١].

وفي روايةٍ: أنه رضي الله عنه همَّ برجمها فقالت له: ولِمَ هذا؟ وما ضُرِبَ عليَّ حجابٌ، ولا سمِّيتُ للمسلمين أمًّا؟! فكفَّ عنها[٢].

وذَكر في «المواهب» أنَّ في حِلِّ من اختارت منهنَّ الدنيا للأزواج طريقين: أحدُهما طردُ الخلاف، والثاني القَطْعُ بالحِلِّ. واختار هذا الإمام والغزالي[٣].

وحكي القولُ بأنَّ المطلَّقة لا يثبت لها هذا الحكمُ عن الشيعة، وقد رأيتُ في بعض كتبهم نفيَ الأمومة عن عائشة رضي الله عنها؛ قالوا: لأنَّ النبيَّ ﷺ فوَّضَ إلى عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أن يُبقيَ مَن يشاء من أزواجه ويطلِّقَ من يشاء منهنَّ بعد وفاته وكالةً عنه عليه الصلاة والسلام، وقد طلَّق رضي الله عنه عائشةَ يوم الجمل، فخرجت عن الأزواج ولم يبق لها حُكْمُهنَّ.

وبعد أن كتبتُ هذا اتَّفق لي أن نظرتُ في كتابٍ ألَّفه سليمان بن عبد الله البحرانيُّ[٤] ـ عليه مِن الله تعالى ما يستحقُّ ـ في مثالبِ جَمْعٍ من الصحابة حاشاهم رضي الله عنهم، فرأيتُ ما نصُّه: رَوَى أبو منصور أحمدُ بن أبي طالب الطبرسيُّ في كتاب «الاحتجاج» عن سعد بن عبد الله[٥] أنه سأل القائم المنتظَرَ وهو طفلٌ في حياة أبيه، فقال له: يا مولانا وابنَ مولانا، رُوي لنا أنَّ رسول الله ﷺ جَعَل طلاقَ نسائه إلى أمير المؤمنين عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، حتى إنه بَعَثَ في يوم الجمل رسولاً إلى عائشة وقال: إنك أَدْخَلْتِ الهلاكَ على الإسلام وأهلِه بالغشِّ الذي حصل منك، وأَوْرَدْتِ أولادَكِ في موضع الهلاك بالجهالة، فإن امتنعتِ وإلَّا

---

(١) ذكره الغزالي في الوسيط ٥/ ٢١، والخبر بهذا السياق لا أصل له في كتب الحديث كما ذكر ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٣٩.

(٢) أخرجه ابن سعد ٨/ ١٤٦ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أن الذي تزوَّجها هو المهاجر بن أبي أمية. وينظر ما سيأتي ص٤٢٨ من هذا الجزء.

(٣) في الوسيط ٥/ ٢١.

(٤) فقيه إمامي من الخطباء الشعراء، من تصانيفه: البلغة في رجال الحديث عند الشيعة، والفوائد النجفية، وأزهار الرياض، وغيرها، توفي سنة (١١٢١هـ). الأعلام ٣/ ١٢٨.

(٥) الأشعري القمِّي، أبو القاسم، فقيه إمامي من أهل قمّ، من كتبه: مقالات الإمامية، ومناقب رواة الحديث، وفضل العرب، وغيرها، توفي سنة (٣٠٠هـ). الأعلام ٣/ ٨٦.

طلقتُك! فأَخْبِرْنا يا مولانا عن معنى الطلاق الذي فوَّضَ حُكْمَه رسولُ الله ﷺ إلى أمير المؤمنين. فقال: إنَّ الله تقدَّس اسمُه عظَّم شأن نساء النبيِّ ﷺ فخصَّهنَّ بشرف الأمهات، فقال عليه الصلاة والسلام: يا أبا الحسن إنَّ هذا الشرف باقٍ ما دمن[1] على طاعة الله تعالى، فأيَّتهنَّ عَصَتِ الله تعالى بعدي بالخروج عليك فطلِّقها من الأزواج، وأسقِطْها من شرف أمهات المؤمنين[2].

ثم قال: ورَوَى الطبرسيُّ أيضاً في «الاحتجاج» عن الباقر أنه قال: لمَّا كان يومُ الجمل وقد رُشِقَ هودجُ عائشةَ بالنَّبْلِ قال عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: واللهِ ما أراني إلَّا مطلِّقَها، فأَنْشُدُ الله تعالى رجلاً سمع رسول الله ﷺ يقول: يا عليّ أَمْرُ نسائي بيدك من بعدي، لمَّا قام فشهد. فقام ثلاثةَ عشر رجلاً فشهدوا بذلك، الحديث[3]. ورأيتُ في بعض الأخبار التي لا تحضرني الآن ما هو صريحٌ في وقوع الطلاق. اهـ ما قاله البحراني[4] عامَلَه الله تعالى بعَدْلِه.

وهذا لعمري من السفاهة والوقاحة والجسارة على الله تعالى ورسوله ﷺ بمكانٍ، وبطلانُه أظهرُ من أن يَخْفَى، وركاكةُ ألفاظه تنادي على كذبه بأعلى صوتٍ، ولا أظنُّه قولاً مَرْضيًّا عند مَن له أدنى عقلٍ منهم، فلعن الله تعالى مَن اختلقه، وكذا مَن يعتقدُه.

وأخرج الفريابيُّ والحاكم وابن مردويه والبيهقيُّ في «سننه» عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم وأزواجُه أمَّهاتُهم»[5].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قال: كان في الحرف الأول: «النبيُّ أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبوهم»[6].

---

(١) في (م): دمنا، وهو تصحيف.

(٢) الاحتجاج ٢/ ٤٦٢-٤٦٣ لأحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، من فقهاء الإمامية، وله أيضاً: تاريخ الأئمة، وفضائل فاطمة الزهراء، توفي نحو سنة (٥٦٠هـ). الأعلام ١/ ١٧٣.

(٣) الاحتجاج ١/ ١٦٤.

(٤) تحتها في الأصل: البحراني الكذاب.

(٥) المستدرك ٢/ ٤١٥، وسنن البيهقي ٧/ ٦٩، وعزاه للفريابي وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٨٣.

(٦) الدر المنثور ٥/ ١٨٣.

وفي مصحف أبيٍّ ﷺ كما روى عبد الرزاق وابن المنذر وغيرهما: «النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجُه أمهاتُهم وهو أبٌ لهم»[(١)].

وإطلاقُ الأبِ عليه ﷺ لأنه سببٌ للحياة الأبدية كما أن الأبَ سببٌ للحياة أيضاً، بل هو عليه الصلاة والسلام أحقُّ بالأبوَّة منه. وعن مجاهد: كلُّ نبيٍّ أبٌ لأمَّته. ومن هنا قيل في قول لوط: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾: إنه أراد المؤمنات، ووَجْهُه ما ذكر. ويلزم من هذه الأبوَّة ـ على ما قيل ـ أُخوَّةُ المؤمنين.

ويُعلم مما روي عن مجاهد أنَّ الأبوة ليست من خصوصياته عليه الصلاة والسلام، وهذا ليس كأمومة أزواجه فإنها ـ على ما في «المواهب» ـ من الخصوصيات، فلا يَحْرمُ نكاحُ أزواجِ مَن عَدَاه ﷺ من الأنبياء عليهم السلام من بعدهم على أحدٍ من أممهم.

﴿وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: ذوو القرابات الشاملون للعَصَبات لا ما يقابلهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في النفع بميراثٍ وغيره من النفع المالي، أو في التوارُثِ ويؤيِّده سببُ النزول الآتي ذِكْرُه.

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: فيما كتبه في اللوح، أو: فيما أنزله، وهي آيةُ المواريث، أو هذه الآية، أو: فيما كتبه سبحانه وفَرَضَه وقضاه.

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ صلةٌ لـ «أَوْلَى» فمدخولُ «مِن» هو المفضَّل عليه، وهي ابتدائيةٌ مثلُها في قولك: زيد أفضلُ من عمرو، أي: أولو الأرحام بحقِّ القرابة أَوْلَى في كلِّ نفعٍ ـ أو بالميراث ـ من المؤمنين بحقِّ الدِّين، ومن المهاجرين بحقِّ الهجرة.

وقال الزمخشريُّ: يجوز أن يكون بياناً لـ «أولو الأرحام» أي: الأقرباء من هؤلاء بعضُهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب[(٢)]. والأولُ هو الظاهر.

وكان في المدينة توارثٌ بالهجرة وبالموالاة في الدِّين، فنُسخ ذلك بآية آخرِ

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١١٢، وذكرها الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٣٥، والنحاس في معاني القرآن ٣/ ٣٦٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٥١.

«الأنفال» أو بهذه الآية، وقيل: بالإجماع، وأرادوا كَشْفَه عن الناسخ، وإلَّا فهو لا يكون ناسخاً كما لا يخفى.

ورَفْعُ «بعضهم» يجوز أن يكون على البدلية وأن يكون على الابتداء، و«في كتاب» متعلِّقٌ بـ «أَوْلَى»، ويجوز أن يكون حالاً والعاملُ فيه معنى «أَوْلَى»، ولا يجوز ـ على ما قال أبو البقاء ـ أن يكون حالاً من «أولو» للفصل بالخبر، ولأنه لا عاملَ إذاً[1].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ إما استثناءٌ متصلٌ من أعمِّ ما تقدَّر الأولوية فيه من النفع، كأنه قيل: القريبُ أولى من الأجنبيِّ من المؤمنين والمهاجرين في كلِّ نفعٍ من ميراث وصدقةٍ وهديةٍ ونحوِ ذلك، إلا في الوصية فإنها المرادةُ بالمعروف، فالأجنبيُّ أحقُّ بها من القريب الوارث، فإنها لا تصحُّ لوارثٍ.

وإما استثناءٌ منقطعٌ بناءً على أنَّ المراد بما فيه الأولوية هو التوارثُ، فيكون الاستثناءُ من خلاف الجنس المدلولِ عليه بفحوى الكلام، كأنه قيل: لا تورِّثوا غيرَ أولي الأرحام لكنْ فعلُكم إلى أوليائكم من المؤمنين والمهاجرين الأجانبِ معروفاً وهو أن توصوا لمن أحببتم منهم بشيء جائزٌ، فيكون ذلك له بالوصية لا بالميراث. ويجوز أن يكون المعروف عامًّا لِمَا عدا الميراث.

والمتبادرُ إلى الذهن انقطاعُ الاستثناء، واقتَصَر عليه أبو البقاء ومكي[2]، وكذا الطَّبْرَسيُّ، وجعَلَ المصدر مبتدأً محذوفَ الخبر[3] كما أشرنا إليه.

وتفسير الأولياء بمن كان من المؤمنين والمهاجرين هو الذي يقتضيه السياق، فهو مِن وَضْع الظاهر موضعَ الضمير بناءً على أنَّ «مِن» فيما تقدَّم للابتداء لا للبيان. وأخرج ابن جرير وغيرُه عن مجاهد تفسيره بالذين والىَ بينهم النبيُّ ﷺ من المهاجرين والأنصار[4].

---

(١) الإملاء ٤/ ١٨٨.
(٢) الإملاء ٤/ ١٨٩، ومشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٢/ ٥٧٣.
(٣) مجمع البيان ٢١/ ٩٩.
(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٢٠.

وأخرج ابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن الحنفية أنه قال: نزلت هذه الآية في جواز وصية المسلم لليهوديِّ والنصرانيِّ(١).

وأخرجوا عن قتادة أنه قال: الأولياء: القرابةُ من أهل الشرك، والمعروفُ الوصيةُ(٢).

وحَكَى في «البحر» عن جماعةٍ منهم الحسن وعطاء أن الأولياء يشملُ القريب والأجنبيَّ، المؤمنَ والكافرَ، وأنَّ المعروف أعمُّ من الوصية(٣). وقد أجازها للكافر القريب وكذا الأجنبي جماعةٌ من الفقهاء، والإماميةُ يجوِّزونها لبعض ذوي القرابة الكفار، وهم الوالدان والولد لا غير. والنهيُ عن اتخاذ الكفار أولياء لا يقتضي النهي عن الإحسان إليهم والبرِّ لهم.

وعدِّي «تفعلوا» بـ «إلى» لتضمُّنه معنى الإيصال والإسداء، كأنه قيل: إلا أن تفعلوا مُسْدِينَ إلى أوليائكم معروفاً.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر في الآيتين أعني (ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ) و(ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ). وجوِّز أن يكون إشارةً إلى ما سبق من أول السورة إلى هنا، أو إلى ما بعدَ قوله تعالى: (مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ)، أو إلى ما ذكر في الآية الأخيرة، وفيه بحث.

﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في اللوح، أو القرآن، وقيل: في التوراة ﴿مَسْطُورًا ۝٦﴾ أي: مثبتاً بالأسطار، وعن قتادة أنه قال: في بعض القراءات: «كان ذلك عند الله مكتوباً» أنْ لا يرثَ المشركُ المؤمنَ(٤). فلا تغفل.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ مقدَّرٌ باذكر على أنه مفعولٌ لا ظرفٌ؛ لفساد المعنى، وهو معطوفٌ على ما قبله عَطْفَ القصة على القصة، أو على مقدَّرٍ كـ: خذ هذا. وجوِّز أن يكون ذلك عطفاً على خبرِ «كان»، وهو بعيدٌ وإن كان قريباً.

---

(١) تفسير الطبري ١٩/١٩، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/١٨٣.
(٢) تفسير الطبري ١٩/١٩.
(٣) البحر ٧/٢١٣.
(٤) أخرجه الطبري ١٩/٢٢.

ولمَّا كان ما سبق متضمِّناً أحكاماً شرعها الله تعالى، وكان فيها أشياءُ مما كان في الجاهلية وأشياءُ مما كان في الإسلام أُبطلت ونُسخت، أَتْبعَه سبحانه بما فيه حثٌّ على التبليغ، فقال عزَّ وجلَّ: «وإذ» إلخ، أي: واذكر وقتَ أخذنا من النبيين كافةً عهودَهم بتبليغ الرسالة والشرائع، والدعاءِ إلى الدِّين الحقِّ، وذلك ـ على ما قال الزجَّاج وغيرُه ـ وقتَ استخراج البشر من صلب آدم عليه السلام كالذرِّ[١].

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة أنه سبحانه أخذ من النبيين عهودَهم بتصديق بعضِهم بعضاً واتِّباع بعضِهم بعضاً[٢]. وفي روايةٍ أخرى عنه[٣]: أنه أخذ الله تعالى ميثاقَهم بتصديق بعضِهم بعضاً، والإعلانِ بأنَّ محمداً رسولُ الله، وإعلانِ رسولِ الله ﷺ أنْ لا نبيَّ بعده.

﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ تخصيصُهم بالذكر مع اندراجهم في «النبيين» اندراجاً بيِّناً للإيذان بمزيدِ مزيَّتهم وفَضْلِهم، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع، واشتهر أنهم هم أولو العزم من الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، وأخرج البزار عن أبي هريرة أنهم خِيَارُ ولد آدم عليهم الصلاة السلام[٤].

وتقديمُ نبيِّنا ﷺ مع أنه آخِرُهم بعثةً للإيذان بمزيدِ خطره الجليل، أو لتقدُّمه في الخلق، فقد أخرج ابن أبي عاصم، والضياء في «المختارة» عن أبيِّ بنِ كعب مرفوعاً: «بُدِيءَ بي الخَلْقُ وكنتُ آخِرَهم في البعث»[٥]. وأخرج جماعةٌ عن الحسن عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «كنتُ أوَّلَ النبيين في الخلق وآخرَهم في البعث»[٦].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢١٦، والبحر ٧/ ٢١٣، والكلام منه.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٨٣، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٢٣.

(٣) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٢١٣، وعنه نقل المصنف.

(٤) كشف الأستار (٢٣٦٨)، وهو من طريق حمزة الزيات، عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: موقوف، وحمزة ضعيف.

(٥) لم نقف عليه من حديث أبيٍّ ﷺ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٣٠ من طريق قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً، بلفظ: «بدئ بي في الخير، وكنت آخرهم...». وينظر الدر المنثور ٥/ ١٨٤، وينظر كذلك التعليق الذي بعده.

(٦) أخرجه ابن عدي ٣/ ٩١٩ و١٢٠٩، وتمام في فوائده (١٣٩٩)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٣)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٥٩-٤٦٠، وهو من طريق قتادة عن الحسن به. وأخرجه =

وكذا في الاستنباء، فقد جاء في عدَّةِ رواياتٍ أنه عليه الصلاة والسلام قال: «كنتُ نبياً وآدمُ بين الروح والجسد»[(١)].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله، متى أُخذ ميثاقك؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[(٢)].

ولا يضرُّ فيما ذُكر تقديم نوحٍ عليه السلام في آية «الشورى» أعني قولَه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الآية [الشورى:١٣] إذ لكلٍّ مقامٍ مقالٌ، والمقامُ هناك وَصْفُ دين الإسلام بالأصالة، والمناسبُ فيه تقديمُ نوحٍ، فكأنه قيل: شَرَعَ لكم الدِّينَ الأصيل الذي بُعِثَ عليه نوحٌ في العهد القديم، وبُعث عليه محمدٌ عليه الصلاة والسلام خاتمُ الأنبياء في العهد الحديث، وبُعث عليه مَن توسَّط بينهما من الأنبياء والمشاهير.

وقال ابنُ المنير[(٣)]: السرُّ في تقديمه ﷺ أنه هو المخاطَب والمنزلُ عليه هذا المتلوُّ، فكان أحقَّ بالتقديم. وفيه بحثٌ.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ أي: عهداً عظيمَ الشأن، أو وثيقاً قويًّا، وهذا هو الميثاقُ الأول وأَخْذُه هو أَخْذُه، والعطفُ مبنيٌّ على تنزيل التغايُرِ العنوانيِّ منزلةَ التغايُرِ الذاتي كما في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ إثر قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [هود:٥٨] وفي ذلك من تفخيم الشأن ما فيه،

= ابن سعد ١/ ١٤٩ ـ وعنده: «كنت أول الناس...» ـ والطبري ١٩/ ٢٣ من طريق قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهو أشبه، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً. اهـ.

(١) أخرجه أحمد (٢٠٥٩٦) من حديث ميسرة الفجر، والترمذي (٣٦٠٩) من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح غريب.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٨٤، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (١٢٦٤٦) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به، وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس. وأخرجه البزار (٢٣٦٤ـ كشف)، والطبراني في الأوسط (٤١٧٥)، والكبير (١٢٥٧١) من طريق جابر الجعفي عن الشعبي عن ابن عباس قال: قيل: يا رسول الله، متى كُتبت نبيًّا؟ قال: «وآدم...» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٢٣: فيه جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف.

(٣) في الانتصاف ٣/ ٢٥٢.

ولهذا لم يقل عز وجل: وإذ أخذنا من النبيين ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ميثاقاً غليظاً، مثلاً، وقال سبحانه ما في النظم الكريم.

وقيل: الميثاق الغليظ: اليمينُ بالله تعالى، فيكون بعدما أخذ الله سبحانه من النبيين الميثاقَ بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الحقِّ أكَّد باليمين بالله تعالى على الوفاء بما حملوا، فالميثاقان متغايران بالذات.

وقوله عز وجل: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ﴾ قيل: متعلِّقٌ بمضمَرٍ مستأنفٍ مسوقٍ لبيان علَّة الأخذ المذكور وغايتِه، أي: فَعَلَ الله تعالى ذلك ليسأل.. إلخ.

وقيل: متعلِّقٌ بـ «أخذنا». وتعقِّب بأنَّ المقصود تذكيرُ نفسِ الميثاق ثم بيانُ علَّتِه وغايتِه بياناً قصديّاً كما ينبئ عنه تغييرُ الأسلوب بالالتفات إلى الغيبة.

والمراد بـ «الصادقين» النبيُّون الذين أخذ ميثاقهم، ووُضع موضعَ ضميرهم للإيذان من أول الأمر بأنهم صادقون[1] فيما سئلوا عنه وإنما السؤال لحكمة تقتضيه، أي: ليسأل الله تعالى يومَ القيامة النبيين الذين صَدَقوا عهودهم عن كلامهم الصادق الذي قالوه لأقوامهم، أو عن تصديق أقوامهم إياهم. وسؤالُهم عليهم السلام عن ذلك على الوجهين لتبكيت الكفرة المكذِّبين كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ﴾ [المائدة:١٠٩].

أو المراد بهم المصدِّقون بالنبيين، والمعنى: ليسأل المصدِّقين للنبيين عن تصديقهم إياهم، فيقال: هل صدقتُم؟ وقيل: يقال لهم: هل كان تصديقُكم لوجه الله تعالى؟ ووجهُ إرادة ذلك أنَّ مصدِّق الصادق صادقٌ، وتصديقُه صِدْقٌ.

وقيل: المعنى: ليسأل المؤمنين الذين صَدَقوا عَهْدَهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صِدْقِهم عهدَهم. وتعقِّب بأنه يأباه مقامُ تذكير ميثاق النبيين.

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾ قيل: عطفٌ على فعلٍ مضمَرٍ متعلِّقاً فيما قبلُ. وقيل: على مقدَّرٍ دلَّ عليه «ليسأل»، كأنه قيل: فأثاب المؤمنين وأعدَّ للكافرين.. إلخ. وقيل: على «أخذنا»، وهو عطفٌ معنويٌّ، كأنه قيل: أكَّد الله

(١) في الأصل و(م): صادقوا، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ٩٢، والكلام منه.

تعالى على النبيين الدعوةَ إلى دينه لأَجْلِ إثابةِ المؤمنين، وأعدَّ للكافرين. . إلخ.

وقيل: على «يسأل» بتأويله بالمضارع، ولابدَّ من ملاحظةِ مناسَبةٍ ليَحْسُنَ العطفُ.

وقيل: على مقدَّرٍ، وفي الكلام الاحتباك، والتقدير: ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعدَّ لهم ثواباً عظيماً، ويسألَ الكاذبين عن كذبهم وأعدَّ لهم عذاباً أليماً، فحُذف من كلٍّ منهما ما ثبت في الآخر.

وقيل: إن الجملة حالٌ من ضمير «يسأل» بتقديرِ «قد» أو بدونه. ولا يَخْفَى أقلُّها تكلُّفاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ شروعٌ في ذكر قصة الأحزاب، وهي وقعةُ الخندق، وكانت ـ على ما قال ابن إسحاق ـ في شوال سنة خمس[(١)]. وقال مالك: سنة أربع[(٢)].

والنعمة إن كانت مصدراً بمعنى الإنعام فالجارُّ متعلِّقٌ بها، وإلا فهو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً منها، أي: كائنةً عليكم.

وقولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ ظرفٌ لنفس النعمة أو لثبوتها لهم، وقيل: منصوبٌ بـ: اذكر على أنه بدلُ اشتمالٍ من «نعمة»، والمراد بالجنود الأحزاب، وهم قريشٌ يقودهم أبو سفيان، وبنو أسد يقودهم طليحة، وغطفان يقودُهم عيينة، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل، وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلميُّ، وبنو النضير رؤساؤهم حُيَيّ بنُ أخطب وابنا أبي الحقيق، وبنو قريظة سيِّدُهم كعب بن أسد، وكان بينه[(٣)] وبين رسول الله ﷺ عهدٌ فنبذه بسعي حُيَيّ. وكان مجموعُهم عشرة آلافٍ في قولٍ، وخمسةَ عَشَرَ ألفاً في آخر. وقيل: زهاءَ اثني عشر ألفاً.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٤.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٣٩٧، وقال: لا اختلاف بينهم في الحقيقة. . . فمن قال: سنة أربع، أراد بعد أربع سنين وقبل بلوغ الخمس، ومن قال: سنة خمس، أراد بعد الدخول في السنة الخامسة وقبل انقضائها.

(٣) في الأصل و(م): بينهم، وهو خطأ، والمثبت من البحر ٧/ ٢١٦، والكلام منه.

فلما سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم حفر خندقاً قريباً من المدينة محيطاً بها بإشارة سلمان الفارسيِّ، أعطى كلّ أربعين ذراعاً لعشرة، ثم خرج عليه الصلاة والسلام في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب معسكره والخندقُ بينه وبين القوم، وأمَر بالذراري والنساء فدُفعوا في الآطام.

واشتدَّ الخوفُ، وظنَّ المؤمنون كلَّ ظنٍّ، ونَجمَ[1] النفاقُ كما قصَّ الله تعالى، ومضى قريبٌ من شهر على الفريقين لا حربَ بينهم سوى الرمي بالنبل والحجارةِ من وراء الخندق، إلا أنَّ فوارسَ من قريش منهم عمرو بن عبد ودٍّ - وكان يعدُّ بألف فارس - وعكرمةُ بن أبي جهل وضرار بنُ الخطاب وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله قد ركبوا خيولهم وتيمَّموا من الخندق مكاناً ضيقاً، فضربوا بخيولهم فاقتحموا، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسَلْعٍ، فخرج علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه في نفرٍ من المسلمين ﷺ حتى أخذ عليهم الثغرة التي اقتحموا منها، فأقبلت الفرسان معهم، وقَتَلَ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه عَمْراً في قصةٍ مشهورةٍ، فانهزمت خيلُه حتى اقْتَحَمتْ من الخندق هاربةً، وقُتل مع عمرو منبه بن عثمان بن عبد الدار ونوفل بن عبد العزى. وقيل: وُجد نوفل في جوف الخندق فجعل المسلمون يرمونه بالحجارة، فقال لهم: قِتْلةٌ أجملَ من هذه، ينزلُ بعضكم أقاتله. فقتله الزبير بن العوام.

وذكر ابن إسحاق أنَّ علياً كرم الله تعالى وجهه طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقِّه، فمات في الخندق، وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «هو لكم، لا نأكلُ ثمنَ الموتى»[2].

ثم أنزل الله تعالى النصرَ، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ عطف على «جاءتكم» مسوقٌ لبيان النعمة إجمالاً، وسيأتي إن شاء الله تعالى بقيتُها في آخر القصة.

---

(١) أي: ظهر وطلع. القاموس (نجم).

(٢) ذكره عن ابن إسحاق البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٤٣٨، وذكر نحوه عن ابن إسحاق ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٢٥٣، ولم يذكر أن القاتل عليٌّ ﷺ. واسمه في المصدرين: نوفل بن عبد الله بن المغيرة.

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة عليهم السلام، وكانوا على ما قيل ألفاً، رُوي أنَّ الله تعالى بعث عليهم صَباً باردةً في ليلةٍ باردةٍ، فأخصرتهم وسَفتِ الترابَ في وجوههم، وأمر الملائكة عليهم السلام فقلَّعت الأوتاد، وقطَّعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدورَ، وماجت الخيلُ بعضُها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب، وكبَّرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أمَّا محمد فقد بدأكم بالسحر، فالنجاءَ النجاءَ. فانْهَزَموا.

وقال حذيفة ﷺ وقد ذهب ليأتي رسولَ الله ﷺ بخبر القوم: خرجتُ حتى إذا دنوتُ من عسكر القوم نظرتُ في ضوءِ نارٍ لهم توقَّدُ، وإذا رجلٌ أدهمُ ضخمٌ يقول بيده على النار ويمسحُ خاصرته، ويقول: الرحيلَ الرحيلَ، لا مقام لكم. وإذا الرجل في عسكرهم ما يجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمعُ صوتَ الحجارة في رحالهم وفُرُشِهم والريحُ تضربهم، ثم خرجتُ نحو النبي عليه الصلاة والسلام، فلمَّا صرتُ في نصف الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحوِ عشرين فارساً متعمِّمين فقالوا: أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم[1].

وقرأ الحسن: «وجَنوداً» بفتح الجيم[2]. وقرأ أبو عمرو في روايةٍ، وأبو بكر في رواية أيضاً: «لم يَروْها» بياء الغيبة[3].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن حَفْرِ الخندق وترتيبِ مبادي الحرب إعلاءً لكلمة الله تعالى، وقيل: من التجائكم إليه تعالى ورجائكم من فضله عز وجل.

وقرأ أبو عمرو: «يعملون» بياء الغيبة[4]، أي: بما يعمله الكفار من التحرُّز والمحارَبةِ، وإغراءِ بعضهم بعضاً عليها حرصاً على إبطال حقِّكم. وقيل: من الكفر والمعاصي.

﴿بَصِيرًا ۝٩﴾ ولذلك فَعَلَ ما فَعَلَ من نصركم عليهم، والجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لِمَا قبله.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٤٥٢ مطولاً، وفيه أن الرجل الضخم الأدهم هو أبو سفيان.
(٢) البحر ٧/ ٢١٦.
(٣) القراءات الشاذة ص١١٨، والبحر ٧/ ٢١٦، وعنه نقل المصنف.
(٤) التيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٧.

﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدلٌ من «إذ جاءتكم» بدلَ كلٍّ من كلٍّ. وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «تعملون» أو بـ «بصيراً».

﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ من أعلى الوادي من جهة المشرق، والإضافةُ إليهم لأدنى ملابسةٍ، والجائي من ذلك بنو غطفان ومَن تابعهم من أهل نجد، وبنو قريظةَ وبنو النضير.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب، والجائي من ذلك قريشٌ ومَن شايعهم من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة، وقيل: الجائي من فوق بنو قريظة، ومن أسفل قريش وأسد وغطفان وسليم. وقيل غيرُ ذلك.

ويحتمل أن يكون «من فوق» و«من أسفل» كنايةً عن الإحاطة من جميع الجوانب، كأنه قيل: إذ جاؤوكم محيطين بكم، كقوله تعالى: ﴿يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ عطفٌ على ما قبله داخلٌ معه في حكم التذكير، أي: حين مالت الأبصار عن سننها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرةً ودهشةً.

وقال الفرَّاء: أي: حين مالت عن كلِّ شيءٍ فلم تلتفت إلَّا إلى عدوِّها(١).

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي: خافت خوفاً شديداً وفزعت فزعاً عظيماً، لا أنها تحركت عن موضعها وتوجَّهت إلى الحناجر لتخرج؛ أخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة أنه قال في الآية: إنَّ القلوب لو تحرَّكتْ وزالتْ خرجتْ نَفْسُه، ولكن إنما هو الفزع(٢). فالكلام على المبالغة.

وقيل: القلبُ عند الغضب يندفع، وعند الخوف يجتمع فيتقلَّص فيلتصقُ بالحَنْجَرة، وقد يفضي إلى أن يسدَّ مخرج النَّفَس، فلا يقدِرُ المرء أن يتنفس ويموتُ خوفاً.

وقيل: إنَّ الرئة تنتفخُ من شدة الفزع والغضب والغمِّ الشديد، وإذا انتفخت

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٦.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧١.

رَبَتْ وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحَنْجرة، ومن ثم قيل للجبان: انْتفَخَ سَحْرُه[١].

وإلى حَمْلِ الكلام على الحقيقة ذهب قتادة؛ أخرج عنه عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم أنه قال في الآية: أي: شَخَصَتْ عن مكانها، فلولا أنه ضاق الحلقومُ عنها أن تخرج لخرجت[٢].

وفي «مسند الإمام أحمد» عن أبي سعيد الخدريِّ قال: قلنا: يا رسول الله، هل من شيءٍ نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: «نعم، اللهمَّ استُرْ عَوْراتِنا وآمِنْ رَوْعاتِنا» قال: فضرب الله تعالى وجوهَ أعدائه بالريح، فهزمهم الله تعالى بالريح[٣].

والخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾ لمن يُظْهِرُ الإيمانَ على الإطلاق، والظنونُ جمع الظنِّ، وهو مصدرٌ شاملٌ للقليل والكثير، وإنما جُمع للدلالة على تعدُّد أنواعه، وقد جاء كذلك في أشعارهم؛ أنشد أبو عمرو في كتاب «الألحان»:

إذا الجوزاءُ أردفت الثريَّا ... ظننتُ بآلِ فاطمةَ الظُّنونا[٤]

أي: تظنُّون بالله تعالى أنواعَ الظنون المختلفة، فيظنُّ المخلصون منكم الثابتون في ساحة الإيمان أن ينجِزَ سبحانه وعدَه في إعلاء دينه ونصرةِ نبيِّه ﷺ، ويُعْرِبُ عن ذلك ما سيُحْكَى عنهم من قولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية، أو أنْ يمتحنهم فيخافون أن تَزِلَّ أقدامهم، فلا يتحمَّلون ما نزل بهم، وهذا لا ينافي الإخلاص والثباتَ كما لا يخفى. ويظنُّ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما حُكي عنهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الآية.

---

(١) أي: رئته. وذكر هذا القول الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٦١، والزمخشري ٣/ ٢٥٣، والبغوي ٣/ ٥١٦.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١١٣، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٨٧، وعنه نقل المصنف.

(٣) مسند أحمد (١٠٩٩٦).

(٤) البيت لخزيمة بن نهد، كما في الأغاني ١٣/ ٧٨، وجمهرة الأمثال ١/ ١٢٣، ومجمع الأمثال ١/ ٧٥. وجاء في كتاب الأمثال لأبي عبيد ص٣٤٥: حزيمة بالحاء، وأشار لذلك =

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في الآية: ظنونٌ مختلفةٌ؛ ظنَّ المنافقون أنَّ محمداً ﷺ وأصحابَه يُستأصَلون، وأيقن المؤمنون أنَّ ما وَعَدَ اللهُ ورسولُهُ حقٌّ، وأنه سيَظْهَرُ على الدِّين كله[1].

وقد يُختار أنَّ الخطاب للمؤمنين ظاهراً وباطناً، واختلافُ ظنونهم بسبب أنهم يظنُّون تارةً أنَّ الله سبحانه سينصرُهم على الكفار من غير أن يكون لهم استيلاءٌ عليهم أولاً، وتارةً أنه عز وجل سينصر الكفار عليهم فيستولون على المدينة ثم ينصرهم عليهم بعدُ، وأخرى أنه سبحانه سينصر الكفار بحيث يستأصلونهم وتعودُ الجاهلية. أو بسبب أن بعضهم يظنُّ هذا وبعضهم يظنُّ ذاك وبعضهم يظنُّ ذلك. ويلتزم أنَّ الظنَّ الذي لا يليق بحالِ المؤمن كان من خواطر النفس التي أوجبها الخوفُ الطبيعيُّ ولم يمكن البشرَ دفعُها، ومثلُها عفوٌ.

أو يقال: ظنونُهم المختلفةُ هي ظنُّ النصر بدون نيل العدوِّ منهم شيئاً، وظنُّه بعد النيل، وظنُّ الامتحان، وعلى هذا لا يحتاج إلى الاعتذار.

وأيًّا ما كان فالجملةُ معطوفةٌ على «زاغت»، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة والدلالةِ على الاستمرار.

وكتب «الظنونا» وكذا أمثالُه من المنصوب المعرَّف بـ «أل» كـ (ٱلسَّبِيلَا۠) و(ٱلرَّسُولَا۠) في المصحف بألفٍ في آخره، فحذفها أبو عمرو وقفاً ووصلاً، وابنُ كثير والكسائيُّ وحفصٌ يحذفونها وصلاً خاصةً، ويثبتُها باقي السبعة في الحالين[2]. واختار أبو عبيد والحذَّاقُ أن يوقَفَ على نحو هذه الكلمة بالألف، ولا توصَلَ فتحذفَ أو تثبتَ؛ لأنَّ حَذْفَها مخالفٌ لِمَا اجتمعت عليه مصاحفُ الأمصار، ولأن إثباتها في الوصل معدومٌ في لسان العرب نَظْمِهم ونثرِهم، لا في اضطرارٍ ولا في غيره، أما إثباتها في الوقف ففيه اتِّباعُ الرسم وموافقةٌ لبعض مذاهب العرب؛ لأنهم

= الميداني فقال: ويروى: حزيمة، كذا روى أبو الندى في أمثاله. وفاطمة هي بنت يَذْكُر بن عَنَزَة، وكان خزيمة يهواها.

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٣٥-٣٦، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٨٧.

(٢) التيسير ص١٧٨، والنشر ٢/ ٣٤٧-٣٤٨. وقرأ حمزة ويعقوب مثل قراءة أبي عمرو، وقرأ خلف مثل قراءة ابن كثير والكسائي وحفص.

يثبتون هذه الألف في قوافي أشعارهم ومصاريعها، ومن ذلك قوله:

أقـلِّـي الـلـومَ عـاذلُ والـعـتـابـا[1]

والفواصلُ في الكلام كالمصاريع. وقال أبو عليٍّ: إنَّ رؤوس الآي تشبَّه بالقوافي، من حيث كانت مقاطعَ كما كانت القوافي مقاطع[2].

﴿هُنَالِكَ﴾ ظرفُ مكانٍ ويُستعمل للزمان، وقيل: إنه مجازٌ، وهو أنسبُ هنا. وأيًّا ما كان فهو ظرفٌ لِمَا بعده لا لـ «تظنون» كما قيل، أي: في ذلك الزمان الهائل، أو في ذلك المكان الدَّحض[3] ﴿ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: اختبرهم الله تعالى، والكلامُ من باب التمثيل، والمراد: عامَلَهم سبحانه وتعالى معاملةَ المختبِرِ، فظهر المخلصُ من المنافق، والراسخُ من المتزلزل.

وابتلاؤهم على ما روي عن الضحاك: بالجوع. وعلى ما روي عن مجاهد: بشدَّة الحصار. وعلى ما قيل: بالصبر على الإيمان.

﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ أي: اضطَرَبوا اضطراباً شديداً من شدة الفزع وكثرةِ الأعداء، وعن الضحاك أنهم زلزلوا عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضعُ الخندق. وقيل: أي: حرِّكوا إلى الفتنة فعُصِموا.

وقرأ أحمد بن موسى اللؤلؤيُّ عن أبي عمرو: «زلزلوا» بكسر الزاي، قاله ابن خالويه[4]. وقال الزمخشريُّ: وعن أبي عمرو إشمامُ زاي «زلزلوا»[5]. وكأنه عَنَى إشمامَها الكسرَ، ووجهُ الكسر أنه أَتْبَعَ حركةَ الزاي الأولى لحركةِ الثانية، ولم يعتدَّ بالساكن كما لم يَعتدَّ به مَن قال: مِنْتِن بكسر الميم إتباعاً لحركة التاء، وهو اسمُ فاعلٍ من أَنْتَنَ.

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): في رواية. اهـ منه. والبيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٨١٣، وعجزه: وقولي إن أصبتُ لقد أصابا، وسلف ١٦/ ١٧٦.

(٢) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٤٦٩.

(٣) في (م): المدحض، والمثبت من الأصل والدر المصون ٩/ ٩٩، وتفسير أبي السعود ٧/ ٩٤. وفي القاموس (دحض): مكان دَحْضٌ ـ ويحرك ـ ودحوض: زَلِق.

(٤) كما في البحر ٧/ ٢١٧، وعنه نقل المصنف.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٥٤، والبحر ٧/ ٢١٧.

وقرأ الجحدريُّ وعيسى: «زَلْزالاً» بفتح الزاي[1]، ومصدرُ فعلل من المضاعَفِ يجوز فيه الفتحُ والكسر، نحو: قلقل قَلْقالاً، وقد يرادُ بالمفتوح اسمُ الفاعل نحو صَلْصال بمعنى مُصَلْصِل، فإنْ كان من غير المضاعَف فما سُمع منه على فعلال مكسورُ الفاء، نحو: سرهفه[2] سِرهافاً.

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عطفٌ على «إذ زاغت» وصيغةُ المضارع لِمَا مرَّ من الدلالة على استمرار القول واستحضارِ صورته.

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ظاهرُ العطف أنهم قومٌ لم يكونوا منافقين؛ فقيل: هم قومٌ كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم. وقيل: قومٌ كانوا ضعفاءَ الاعتقاد لقرب عهدهم بالإسلام. وجوِّز أن يكون المراد بهم المنافقين أنفسَهم، والعطفُ لتغايُرِ الوصف، كقوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام[3]

﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من الظَّفَر وإعلاء الدِّين ﴿إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ أي: وَعْدَ غرورٍ، وقيل: أي: قولاً باطلاً. وفي «البحر»: أي: أمراً يغرُّنا ويُوْقِعُنا فيما لا طاقةَ لنا به[4].

روي أن الصحابة بينما يحفرون الخندق عَرَضَتْ لهم صخرةٌ بيضاءُ مدوَّرةٌ شديدةٌ جدًّا لا تدخل فيها المعاولُ، فشكَوْا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ المِعْول من سلمان رضي الله عنه فضربها ضربةً صدعها[5] وبرقت منها برقةٌ أضاء منها ما بين لابتي المدينة حتى لكأن مصباحاً في جوف ليلٍ مظلم، فكبَّر رسول الله ﷺ وكبَّر المسلمون، ثم ضربها الثانيةَ فصَدعها وبرقت منها برقةٌ أضاء منها ما بين لابتيها، فكبَّر عليه الصلاة والسلام وكبَّر المسلمون، ثم ضربها الثالثةَ فكسرها وبرقت برقة أضاء منها ما بين لابتيها، فكبَّر ﷺ وكبَّر المسلمون، فسئل عن ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: «أضاء لي في الأولى قصورُ الحيرة ومدائنُ كسرى كأنها أنيابُ

---

(١) القراءات الشاذة ص ١١٨، والبحر ٧/ ٢١٧.
(٢) أي: أَحْسَنَ غذاءَه ونعَّمه. القاموس (سرهف).
(٣) وعجزه: وليث الكتيبة في المزدحم، وسلف ٢/ ٣٥٠.
(٤) البحر ٧/ ٢١٧.
(٥) في (م): دعها، ولم تجود في الأصل، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

الكلاب، فأخبرني جبريل عليه السلام أنَّ أمتي ظاهرةٌ عليها، وأضاء لي في الثانية قصورُ الحُمْر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل عليه السلام أنَّ أمتي ظاهرةٌ عليها، وأضاء لي في الثالثة قصورُ صنعاء كأنها أنيابُ الكلاب، وأخبرني جبريل عليه السلام أنَّ أمتي ظاهرةٌ عليها، فأبشِروا بالنصر» فاستبشر المسلمون، وقال رجل من الأنصار يُدْعى معتِّب بن قشير وكان منافقاً: أيعدُنا محمدٌ ﷺ أن يفتح لنا مدائنَ اليمن وبيضَ المدائن وقصورَ الروم وأحدُنا لا يستطيع أن يقضي حاجته إلا قُتل؟! هذا والله الغرورُ. فأنزل الله تعالى في هذا: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلخ[1].

وفي رواية: قال المنافقون حين سمعوا ذلك: ألا تَعْجَبون! يحدِّثُكم ويعدُكم ويمنِّيكم الباطلَ، أنه يبصر من يثرب قصورَ الحيرة ومدائنَ كسرى، وأنها تفتحُ لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا. فأنزل الله تعالى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾[2]. ووجهُ الجمع على القول بأنَّ القائل واحدٌ أنَّ الباقين راضون بذلك قابِلوه منه.

والظاهر أن نسبة الوعد إلى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة من المنافقين الذين لا يعتقدون اتِّصافه ﷺ بالرسالة، ولا أنَّ الوعد وعدُ الله تعالى شأنُه، كانت من باب المماشاة أو الاستهزاء، وإن كانت قد وقعت من غيرهم فهي بالتبعية[3] لهم.

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩-٤٢، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٤١٨-٤٢٠ من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده. وكثير بن عبد الله متروك، وينظر التعليق الذي بعده.
وقصة تبشير النبي ﷺ للصحابة بمدائن كسرى وقيصر عند كسر الصخرة أخرجها أيضاً النسائي في المجتبى ٦/ ٤٣ من طريق أبي سكينة - رجلٍ من المحرَّرين - عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. وأخرجها أحمد (١٨٦٩٤)، والنسائي في الكبرى (٨٨٠٧) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) هذه قطعة من خبر كثير بن عبد الله السالف وردت في آخره بدل: وقال رجل من الأنصار يدعى معتِّب بن قشير... إلخ. والرواية التي فيها أن القائل هو معتب بن قشير ذكرها ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٣٥.

(٣) في (م): بالتبيعة.

ويجوز أن يكون وقوعُ ما ذكر في الحكاية لا في كلامهم، ويستأنس له بما وقع في بعض الآثار، وبعضُهم بحث عن إطلاق الرسول عليه - ﷺ - فقال: إنه في الحكاية لا في كلامهم كما يشهد بذلك ما رُوي عن معتِّبٍ، أو هو تَقِيَّةٌ لا استهزاءٌ لأنه لا يصحُّ بالنسبة لغير المنافقين، فتأمَّل ولا تغفل.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ قال السدي: هم عبد الله بن أبيّ ابنِ سلول وأصحابه. وقال مقاتل: هم بنو سلمة. وقال أوس بن رومان[1]: هم أوس بن قيظي وأصحابه بنو حارثة. وضمير «منهم» للمنافقين أو للجميع.

﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ هو اسمُ المدينة المنوَّرة، وقال أبو عبيدة: اسمُ بقعةٍ وقعت المدينة في ناحيةٍ منها. وقيل: اسم أرضها، وهو عليها ممنوعٌ من الصرف للعَلَمية ووزنِ الفعلِ أو التأنيث، ولا ينبغي تسميةُ المدينة بذلك؛ أخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سمَّى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى، هي طابة هي طابة»[2].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله عليه الصلاة والسلام: «لا تَدْعوها يثرب فإنها طَيْبَة - يعني المدينة - ومَن قال: يثرب، فليستغفر الله تعالى

---

(١) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٧/ ٢١٨، والصواب: يزيد بن رومان، كما في تفسير الطبري ١٩/ ٢٣، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٣٥، وتفسير القرطبي ١٧/ ٩٧.

(٢) مسند أحمد (١٨٥١٩) من طريق يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البراء به. قال الحافظ ابن حجر في القول المسدَّد في الذبِّ عن مسند الإمام أحمد ص٩٤:
أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات وأعله بيزيد بن أبي زياد، ولم يُصِبْ؛ فإن يزيد وإن ضعَّفه بعضهم من قِبَلِ حفظه، وبكونه كان يلقَّن فيتلقَّن في آخر عمره، فلا يلزم من شيء من ذلك أن يكون كل ما يحدث به موضوعاً... وشاهِدُه حديث أبي هريرة: «أمرتُ بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة...». اهـ.
وحديث أبي هريرة أخرجه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢)، وقوله: «يقولون: يثرب...» قال الحافظ في الفتح ٤/ ٨٧: أي أن بعض المنافقين يسمونها يثرب، واسمها الذي يليق بها: المدينة.
وقال السندي في شرحه لحديث البراء كما في حاشية المسند: قوله: يثرب، كره هذا الاسم لأن التثريب: التوبيخ، وجاء الفعل في هذا المعنى: ثرب مخفَّفاً ومشدَّداً، فهو ينبئ بمادته عن معنًى غير لائق، فلا ينبغي إطلاقه على بلدةٍ خصها الله تعالى نبيَّه ﷺ، وشرَّفها به.

ثلاث مرات، هي طيبة هي طيبة هي طيبة»[١].

وفي الحواشي الخفاجية: أن تسميتها به مكروهةٌ كراهةً تنزيهيةً، وذكر في وجه ذلك أن هذا الاسم يُشْعِرُ بالتريب، وهو اللومُ والتعيير[٢].

وقال الراغب: التثريبُ: التقريعُ بالذنب، والثَّرْبُ: شحمةٌ رقيقة، ويثرب يصحُّ أن يكون أصله من هذا الباب والياء تكون فيه زائدة[٣]. انتهى.

وقيل: يثرب اسمُ رجلٍ من العمالقة، وبه سمِّيت المدينة، وكان يقال لها: أثرب أيضاً، ونقل الطبرسيُّ عن الشريف المرتضى أنَّ للمدينة أسماءً، منها: يثرب، وطيبة، وطابة، والدار، والسكينة، وجائزة، والمحبورة، والمحبة، والمحبوبة، والعذراء، والمرحومة، والقاصمة، ويندد[٤]. انتهى.

وكأن القائلين اختاروا يثرب من بين الأسماء مخالفةً له ﷺ؛ لما علموا من كراهيته عليه الصلاة والسلام لهذا الاسم من بينها. ونداؤهم أهلَ المدينة بعنوان أهليتهم لها ترشيحٌ لِمَا بَعْدُ من الأمر بالرجوع إليها.

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: لا مكانَ إقامةٍ، أو: لا إقامةَ لكم، أي: لا ينبغي ـ أوْ لا يمكنُ ـ لكم الإقامةُ ها هنا.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ وأبو رجاء والحسنُ وقتادةُ والنخعيُّ وعبد الله بن مسلم وطلحةُ وأكثر السبعة: «لا مَقام» بفتح الميم[٥]، وهو يحتمل أيضاً المكان، أي: لا مكانَ قيامٍ. والمصدرَ، أي: لا قيامَ لكم، والمعنى على نحوِ ما تقدَّم.

---

(١) ذكره ابن حجر في القول المسدد ص٩٥ في تعليقه على حديث البراء السالف، فقال: وقد رواه ابن مردويه في تفسيره من طريق أبي يوسف القاضي، عن يزيد بن أبي زياد، فقال: عن ابن عباس، بدل البراء.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٦٢-١٦٣.

(٣) مفردات الراغب (ثرب).

(٤) مجمع البيان ٢١/ ١١٦، وخبر ذِكْر أسماء المدينة أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة المنورة ١/ ١٦٢ عن زيد بن أسلم مرفوعاً مع اختلاف في بعض أسمائها، وورد فيه وفي الروض المعطار ص٤٠١: جابرة، بدل: جائزة، المذكورة أعلاه.

(٥) ولم يقرأ بضم الميم من العشرة سوى حفص، كما في التيسير ص١٧٨، والنشر ٢/ ٣٤٨. والكلام من البحر ٧/ ٢١٨.

﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾ أي: إلى منازلكم بالمدينة ليكون ذلك أَسْلَمَ لكم من القتل، أو ليكون لكم عند هذه الأحزاب يدٌ؛ قيل: ومرادُهم أمرُهم بالفرار على ما يُشْعِرُ به ما بعدُ، لكنهم عبَّروا عنه بالرجوع ترويجاً لمقالتهم، وإيذاناً بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم.

وقيل: المعنى: لا مقام لكم في دين محمدٍ، فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك، أو: فارجعوا عمَّا بايعتموه عليه وأَسْلِموه إلى أعدائه عليه الصلاة والسلام.

أو: لا مقام لكم بعد اليوم في يثرب أو نواحيها لغلبةِ الأعداء، فارجعوا كفاراً ليتسنَّى لكم المقامُ فيها لارتفاعِ العداوة حينئذ.

وقيل: يجوزُ أن يكونوا خافوا من قتل النبيِّ ﷺ إياهم بعد غلبته عليه الصلاة والسلام حيث ظهر أنهم منافقون، فقالوا: «لا مقام لكم» على معنى: لا مقامَ لكم مع النبيِّ ﷺ لأنه إن غَلَبَ قَتَلَكم، فارجعوا عمَّا بايعتموه عليه، وأَسْلِموه عليه الصلاة والسلام. أو: فارجعوا عن الإسلام واتَّفقوا مع الأحزاب، أو: ليس لكم محلُّ إقامةٍ في الدنيا أصلاً إن بقيتُم على ما أنتم عليه، فارجعوا عمَّا بايعتُموه عليه عليه الصلاة والسلام.. إلى آخره.

والأول أظهرُ وأنسبُ بما بعدَه، وبعض هذه الأوجُهِ بعيدٌ جدًّا كما لا يخفى.

﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ عطفٌ على «قالت»، وصيغةُ المضارع لِمَا مرَّ من استحضار الصورة، والمستأذِنُ على ما روي عن ابن عباس وجابر بن عبد الله بنو حارثة بن الحارث[1]؛ قيل: أرسلوا أوس بن قيظيٍّ أحدَهم للاستئذان. وقال السديُّ: جاء هو ورجلٌ آخَرُ منهم يُدْعَى أبا عرابة بن أوس[2].

---

(١) أخرجه عن ابن عباس الطبري ١٩/ ٤٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٨٨، وفيه نظر، حيث إن أوس بن قيظي وأبو عرابة بن أوس واحدٌ كما يفهم كلام بعض العلماء، فقد ذكر ابن عبد البر في الدرر في اختصار المغازي والسير ص١٩٤، والسهيلي في التعريف والإعلام ص١٣٧ أن أوس بن قيظي هو والد عرابة بن أوس الذي يقول فيه الشماخ:

إذا ما رايةٌ رفعت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمين

وعرابة ترجم له الحافظ في الإصابة ٦/ ٤٠٩، فقال: عرابة ـ بفتح أوله، والراء الخفيفة ـ بن أوس بن قيظي، قال ابن حبان: له صحبة، وقال ابن إسحاق: استصغره النبي ﷺ هو

وقيل: المستأذِن بنو حارثة وبنو سلمة، استأذَنوه عليه الصلاة والسلام في الرجوع ممتثلين بأمر أولئك القائلين: «يا أهل يثرب».

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ بدلٌ من «يستأذن»، أو حالٌ من فاعله، أو استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال عن كيفية الاستئذان:

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: ذليلةُ الحيطان يُخاف عليها السُّرَّاق كما نُقل عن السدي، وقال الراغب: أي: متخرِّقةٌ مُمكِنةٌ لمن أرادها[١]. وقال الكلبيُّ: أي: خاليةٌ من الرجال ضائعةٌ. وقال قتادةُ: قاصيةٌ يُخشى عليها العدوُّ.

وأصلها ـ على ما قيل ـ مصدر بمعنى الخلل، ووُصف بها مبالغةً، وتكون صفةً للمؤنَّث والمذكَّر والمفرد وغيره كما هو شأنُ المصادر. وجوِّز أن تكون صفةً مشبَّهةً على أنها مخفَّفُ عَوِرة بكسر الواو كما قرأ بذلك هنا وفيما بعدُ ابن عباس وأبو يعمر وقتادة وأبو رجاء وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو طالوت وابن مقسم، وإسماعيل بن سليمان عن ابن كثير[٢]، من عَوِرَتِ الدار: إذا اختلَّتْ، قال ابن جنِّي: صحةُ الواو على هذا شاذَّةٌ، والقياس قَلْبُها ألفاً فيقال: عارة، كما يقال: كبشٌ صافٌ، ونعجةٌ صافةٌ، ويومٌ راحٌ، ورجلٌ مالٌ، والأصل: صَوِفٌ وصَوِفةٌ ورَوِحٌ ومَوِلٌ[٣].

وتعقِّب بأن القياس إنما يقتضي القَلْبَ إذا وقع القَلْبُ في الفعل، وعَوِرَ هنا قد صحَّتْ عينُه حملاً على اعورَّ المشدَّد[٤].

ورجِّح كونُها مصدراً وصف به للمبالغة بأنه الأنسب بمقام الاعتذار، كما يُفْصِحُ عنه تصديرُ مقالتهم بحرف التحقيق، لكنْ ينبغي أن يقال في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ إذا أجري فيه هذا اللفظ كما أجري فيما قبله: إن المراد المبالغةُ في النفي،

= والبراء بن عازب وغير واحد فردَّهم يوم أحد، وفيه يقول الشماخ: إذا ما راية...

(١) مفردات الراغب (عور).

(٢) المحتسب ٢/ ١٧٦، والبحر ٧/ ٢١٨.

(٣) المحتسب ٢/ ١٧٦. وكبشٌ صافٌ: كثير الصوف. ويومٌ راحٌ: شديد الريح. ورجلٌ مالٌ: كثير المال. التاج (صوف) و(روح) و(مول).

(٤) اعورَّت عينه: ذهب بصرها. معجم متن اللغة (عور).

على نحو ما قيل [في][1] قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصّلت:٤٦]. والواو فيه للحال، أي: يقولون ذلك والحالُ أنها ليست كذلك.

﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ أي: ما يريدون بالاستئذان ﴿إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾ أي: هرباً من القتال ونصرةِ المؤمنين؛ قاله جماعةٌ. وقيل: فراراً من الدِّين.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ أي: البيوت كما هو الظاهرُ ﴿عَلَيْهِم﴾ أي: على هؤلاء القائلين، وأُسنِدَ الدخولُ إلى بيوتهم وأُوْقِعَ عليهم لِمَا أنَّ المراد فرضُ دخولها وهم فيها، لا فرضُ دخولها مطلقاً كما هو المفهومُ لو لم يُذكر الجارُّ والمجرور، ولا فرضُ الدخول عليهم مطلقاً كما هو المفهوم لو أسند إلى الجارِّ والمجرور، وفاعلُ الدخول الداخلُ من أهل الفساد مَن كان، أي: لو دخل كلُّ مَن أراد الدخول من أهل الدعارة والفساد بيوتَهم وهم فيها.

﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ جمع: قُطْر، بمعنى الناحية والجانب، ويقال: قتر بالتاء لغة فيه، أي: من جميع جوانبها، وذلك بأن تكون مختلَّةً بالكلِّية، وهذا داخلٌ في المفروض فلا يخالفُ قولَه تعالى: (وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ).

﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ أي: طُلب منهم من جهة طائفةٍ أخرى عند تلك النازلة والرجفةِ الهائلة ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي: القتالَ كما قال الضحاك ﴿لَآتَوْهَا﴾ أي: لأعطوها أولئك السائلين، كأنه شبَّه الفتنة المطلوبَ اتِّباعُهم فيها بأمرٍ نفيسٍ يُطلب منهم بذلُه، ونزَّل إطاعتهم واتِّباعهم بمنزلةِ بَذْلِ ما سُئِلوه وإعطائه.

وقرأ نافعٌ وابن كثير: «لأتوها» بالقصر[2]، أي: لفعلوها.

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ أي: بالفتنة، والباء للتعدية، أي: ما لبثوها وما أخَّروها ﴿إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤﴾ أي: إلا تلبُّثاً يسيراً، أو: إلا زماناً يسيراً، وهو مقدارُ ما يأخذون فيه سلاحَهم على ما قيل. وقيل: مقدار ما يُجيبون السؤال فيه. وكلاهما عندي من باب التمثيل، والمراد أنهم لو سألهم غيرك القتال وهم في أشدِّ حالٍ وأعظمِ بلبالٍ لأسرعوا جدّاً، فضلاً عن التعلُّل باختلالِ البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) التيسير ص١٧٨، والنشر ٢/٣٤٨.

والحاصل أنَّ طلبهم الإذنَ في الرجوع ليس لاختلال بيوتهم بل لنفاقهم وكراهتهم نصرتك.

وقال ابن عطية[1]: المعنى: ولو دُخلت المدينةُ من أقطارها واشتدَّ الحرب[2] الحقيقيُّ ثم سئلوا الفتنةَ والحربَ لمحمدٍ ﷺ لطاروا إليها ولم يتلبَّثوا في بيوتهم لحِفْظِها إلا يسيراً، قيل: قَدْرَ ما يأخذون سلاحهم. انتهى، فضمير «دُخِلَتْ» عنده عائدٌ على المدينة، وباءُ «بها» للظرفية كما هو ظاهرُ كلامه. وجوَّز أن تكون سببيةً، والمعنى على تقدير مضافٍ، أي: ولم يتلبَّثوا بسبب حفظها. وقيل: يجوز أن تكون للملابَسةِ أيضاً. والضميرُ على كلٍّ تقديرٍ للبيوت، وفيه تفكيك الضمائر.

وعن الحسن ومجاهد وقتادة: «الفتنة»: الشرك. وفي معناه ما قيل: هي الرِّدَّةُ والرجوعُ إلى إظهار الكفر.

وجعل بعضهم ضميري «دُخلت» و«بها» للمدينة، وزَعَم أن المعنى: ولو دخلت المدينة عليهم من جميع جوانبها ثم سئلوا الرجوع إلى إظهار الكفر والشرك لفعلوا وما لبثوا بالمدينة بعد إظهار كفرهم إلا يسيراً، فإن الله تعالى يهلكهم أو يخرجهم بالمؤمنين.

وقيل: ضمير «دخلت» للبيوت أو للمدينة، وضمير «بها» للفتنة بمعنى الشرك، والباءُ للتعدية، والمعنى: ولو دُخلت عليهم ثم سُئلوا الشرك لأشركوا وما أخَّروه إلا يسيراً. وقريبٌ منه قولُ قتادةَ، أي: لو دخلت عليهم ثم سئلوا الشرك لأعطوه طيِّبةً به أنفسُهم وما تحبَّسوا به إلا يسيراً. وجوَّز أن تكون الباء لغير ذلك. وقيل: فاعلُ الدخول أولئك العساكرُ المتحزِّبة.

والوجوهُ المحتملةُ في الآية كثيرةٌ كما لا يخفَى على مَن له أدنى تأمُّلٍ، وما ذكرناه أوَّلاً هو الأظهر فيما أرى.

وقرأ الحسن: «سُوْلوا» بواوٍ ساكنة بعد السين المضمومة[3]؛ قالوا: وهي من

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٤، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٢١٨.

(٢) في المحرر: الخوف.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٨-١١٩، والمحتسب ٢/ ١٧٧، والبحر ٧/ ٢١٨-٢١٩.

سالَ يَسَالُ كخاف يخاف لغة في سأل المهموزِ العين، وحكى أبو زيد: هما يتساولان.

وقال أبو حيان: ويجوز أن يكون أصلُها الهمز؛ لأنه يجوز أن يكون «سولوا» على قولِ مَن يقول في ضُرِبَ مبنياً للمفعول: ضُرْبَ، ثم سهَّل الهمزة بإبدالها واواً على قولِ مَن قال في بؤس: بوس، بإبدال الهمزة واواً لضمِّ ما قبلها[1].

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو، والأعمشُ: «سِيلوا» بكسر السين من غير همزٍ نحو قيل. وقرأ مجاهد: «سُوْيِلوا» بواو ساكنةٍ بعد السين المضمومة، وياءٍ مكسورةٍ بدلاً من الهمزة[2].

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ هؤلاء هم الفريقُ المستأذنون، وهم بنو حارثة عند الأكثرين. وقيل: هم بنو سَلِمة، كانوا قد جَبُنوا يوم أحدٍ ثم تابوا وعاهدوا يومئذ قبل يوم الخندق أن لا يفرُّوا. وعن ابن عباس أنهم قومٌ عاهدوا بمكة ليلة العقبة أن يمنعوه ﷺ مما يمنعون منه أنفسهم[3].

وقيل: أناسٌ غابوا عن وقعة بدرٍ فحزنوا على ما فاتهم مما أعطي أهل بدر من الكرامة، فقالوا: لئن أشْهَدَنا الله تعالى قتالاً لنقاتلنَّ.

و«عاهد» أُجري مجرى اليمين ولذلك تُلقِّيَ بقوله تعالى: (لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ) وجاء بصيغة الغيبة على المعنى، ولو جاء كما لفظوا به لكان التركيب: لا نولِّي الأدبار. وتوليةُ الأدبار كنايةٌ عن الفرار والانهزام، فإن الفارَّ يولِّي دبره مَن فرَّ منه.

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ عن الوفاء به مجازًى عليه، وذلك يوم القيامة، والتعبير بالماضي على ما في «مجمع البيان» لتحقُّق الوقوع[4].

---

(١) البحر ٧/ ٢١٩.

(٢) القراءتان في القراءات الشاذة ص١١٨-١١٩، والبحر ٧/ ٢١٩، والكلام منه.

(٣) ذكره عن ابن عباس الزمخشري ٣/ ٢٥٤، وذكره البغوي ٣/ ٥١٧ عن الكلبي ومقاتل، ثم قال: وهذا القول ليس بمَرْضي لأن الذين بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة كانوا سبعين نفراً، لم يكن فيهم شاكٌّ ولا من يقول هذا القول، وإنما الآية في قوم عاهدوا الله أن يقاتلوا ولا يفرُّوا، فنقضوا العهد.

(٤) مجمع البيان ٢١/ ١١٩.

وقيل: أي: كان عند الله تعالى مسؤولاً عن الوفاء به، أو مسؤولاً مقتضًى حتى يوفَّى به.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: لن ينفعكم ذلك ويدفعَ عنكم ما أُبرم في الأزل عليكم من موت أحدكم حَتْفَ أنفه، أو قَتْلِه بسيفٍ ونحوِه، فإنَّ المقدَّر كائنٌ لا محالة.

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ أي: وإنْ نَفَعكم الفرارُ بأن دَفَعَ عنكم ما أُبرم عليكم فمتِّعتُم، لم يكن ذلك التمتيعُ إلا تمتيعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، وهذا من بابِ فرضِ المحال، ولم يقل: ولو نفعكم، إخراجاً للكلام مخرج المماشاة.

أو: إذا نَفَعكم الفرار فمتِّعتم بالتأخير ـ بأن كان ذلك معلَّقاً عند الله تعالى على الفرار مربوطاً به ـ لم يكن التمتيعُ إلا قليلاً؛ فإنَّ أيام الحياة وإن طالت قصيرةٌ، وعُمرٌ تأكله ذرَّاتُ الدقائق وإنْ كَثُر قليلٌ.

وقال بعض الأجلَّة: المعنى: لا ينفعُكم نفعاً دائماً أو تامًّا في دفع الأمرين المذكورين: الموت أو القتل[1] بالكلِّية، إذ لا بدَّ لكلِّ شخصٍ من موتٍ حَتْفَ أنفه، أو قَتْلٍ في وقتٍ معيَّنٍ، لا لأنه سَبَقَ به القضاء لأنه تابعٌ للمقضيِّ فلا يكون باعثاً عليه، بل لأنه مقتضَى ترتُّبِ الأسباب والمسبَّبات بحَسَبِ جَرْيِ العادة على مقتضَى الحكمةِ، فلا دلالةَ فيه على أنَّ الفرار لا يغني شيئاً حتى يُشْكِلَ بالنهي عن الإلقاء إلى التهلكة، وبالأمر بالفرار عن المضارِّ، وقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يدلُّ على أنَّ في الفرار نفعاً في الجملة، إذ المعنى: لا تمتَّعون على تقديرِ الفرار إلا متاعاً قليلاً. وفيه ما فيه، فتأمَّلْ.

وذكر الزمخشريُّ أنَّ بعض المروانية مرَّ على حائطٍ مائلٍ فأسرع، فتُليت له هذه الآية فقال: ذلك القليلَ نطلب[2]. وكأنه مال إلى الوجه الثاني، أو إلى ما ذكره البعضُ في الآية.

وجواب الشرط لـ «إنْ» محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، و«إذن» تقدَّمها هاهنا

---

(١) في الأصل: الموت والقتل.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٥٥.

حرفُ عطفٍ فيجوز فيها الإعمالُ والإهمال، لكنه لم يُقرأ هنا إلا بالإهمال، وقرئ بالإعمال في قوله تعالى في سورة الإسراء: «وإذاً لا يلبثوا خلافك»[١].

وقرئ: «لا يمتعون» بياء الغيبة[٢].

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ استفهامٌ في معنى النفي، أي: لا أحدَ يمنعكم من الله عزَّ وجلَّ وقَدَرِه جلَّ جلالُه إنْ خيراً وإن شرّاً، فجُعلت الرحمة قرينةَ السوء في العصمة مع أنه لا عصمةَ إلا من السوء؛ لما في العصمة من معنى المنع.

وجوِّز أن يكون في الكلام تقديرٌ، والأصل: قُلْ مَن ذا الذي يعصمُكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو يصيبُكم بسوءٍ إن أراد بكم رحمةً، فاختصر نظيرَ قوله:

ورأيتُ زوجَكِ في الوَغَى متقلِّداً سيفاً ورمحا[٣]

فإنه أراد: وحاملاً ـ أو: ومعتقلاً ـ رمحاً، ويجري نحو التوجيه السابق في الآية.

وجوَّز الطيبيُّ أن يكون المعنى: مَن الذي يعصمُكم من الله إن أراد بكم سوءاً، أو من الذي يمنع رحمةَ الله منكم إن أراد بكم رحمةً، وقرينةُ التقدير ما في «يعصمكم» من معنى المنع[٤]. واختير الأولُ لسلامته عن حذف جملةٍ بلا ضرورةٍ.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعُهم ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ يدفعُ الضررَ عنهم، والمرادُ: لا وليَّ[٥] فيجدوه.. إلخ، فهو كقوله:

ولا تَرى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ[٦]

---

(١) هي قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه، كما في القراءات الشاذة ص٧٧.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٤، والبحر ٧/ ٢١٩.
(٣) البيت لعبد الله بن الزبعرى، وهو في ديوانه ص٣٢ برواية: يا ليت زوجك قد غدا...، وذكر الروايتين الشهاب في الحاشية ٧/ ١٦٤، وسلف البيت ٧/ ٧١ و١٨/ ٥٣١.
(٤) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٥) في (م): الأولى، بدل: لاولي، وهو تصحيف.
(٦) سلف ٣/ ٢٣٧ و٥/ ٥٦، وغيرها.

وهو معطوفٌ على ما قبله بحسب المعنى، فكأنه قيل: لا عاصمَ لهم ولا وليَّ ولا نصير، أو الجملةُ حالية.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: المثبِّطين عن رسول الله ﷺ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: أقبِلوا إلينا، أو قرِّبوا أنفسكم إلينا، قال ابن السائب: الآيةُ في عبد الله بن أبيٍّ ومعتِّب بنِ قشير ومَن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة، كانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له: ويحك اجلس ولا تخرج، ويكتبون إلى إخوانهم في العسكر أن ائتونا فإنَّا ننتظركم.

وقال قتادة: هي في المنافقين؛ كانوا يقولون لإخوانهم من ساكني المدينة من أنصار رسول الله ﷺ: ما محمدٌ وأصحابه إلا أَكَلَةُ رأسٍ، ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، فخلُّوهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: انصرف رجلٌ من عند رسول الله ﷺ يومَ الأحزاب إلى شقيقه، فوجد عنده شواءً ونبيذاً، فقال له: أنت هاهنا ورسولُ الله عليه الصلاة والسلام بين الرماح والسيوف؟ فقال: هلمَّ إليَّ فقد أُحيطَ بك وبصاحبك، والذي يحلف به لا يستقبلُها محمدٌ أبداً. فقال: كذبتَ، والذي يُحلف به لأخبرنَّه بأمرك. فذهب ليخبره ﷺ فوجد جبريل عليه السلام قد نزل بهذه الآية[1].

وقيل: هؤلاء اليهود كانوا يقولون لأهل المدينة: تعالوا إلينا وكونوا معنا. وكأن المراد من أهل المدينة المنافقون منهم المعلومُ نفاقُهم عند اليهود.

و«قد» للتحقيق أو للتقليل، وهو باعتبار المتعلّق. و«منكم» بيانٌ لـ «المعوِّقين» لا صلتُه كما أُشيرَ إليه. والمراد بالأخوَّة: التشاركُ في الصفة، وهو النفاقُ على القول الأول، والكفر بالنبيِّ ﷺ على القول الأخير، والصحبةُ والجوارُ وسُكنى المدينة على القول الثاني، وكذا على القول الثالث، فإنَّ ذلك يجامعُ الأخوَّة في النسب.

---

(١) الدر المنثور ٥/١٨٨، وأخرجه أيضاً الطبري ١٩/٥١، وذكره القرطبي ١٧/١٠٣ عن الثعلبي، وفيه بدل: لا يستقبلها: لا يستقلُّ بها.

وظاهرُ صيغة الجمع يقتضي أن الآية لم تنزل في ذينك الشقيقين وحدهما، فلعلها نزلت فيهما وفي المنافقين القائلين ذلك والأنصارِ المخلصين المقولِ لهم، وجوازُ كونها نزلت في جماعة من الإخوان في النسب مجردُ احتمالٍ، وإن كان له مستندٌ سمعيٌّ فلتُحمَل الأخوَّةُ عليه على الأخوَّة في النسب ولا ضير.

والقول بجميع الأقوال الأربعة المذكورة، وحَمْلُ الأخوَّة على الأخوَّة في الدِّين، والأخوَّة في الصحبة والجوارِ، والأخوَّة في النسب، لا يخفى حاله.

و«هلمَّ» عند أهل الحجاز يسوَّى فيه بين الواحد والجماعة، وأما عند تميم فيقال: هلمَّ يا رجل، وهلمُّوا يا رجال، وهو عند بعض الأئمة صوتٌ سمي به الفعل، واشتهر أنه يكون متعدِّياً كـ ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ [الأنعام: ١٥٠] بمعنى: أَحضِروا أو قرِّبوا، أو لازماً كـ «هلمَّ إلينا» بناء على تفسيره بـ: أَقْبِلوا إلينا، وأما على تفسيره بقرِّبوا أنفسَكم إلينا فالظاهرُ أنه متعدٍّ حُذف مفعولُه، وجوِّز كونُه لازماً وهذا تفسيرٌ لحاصل المعنى.

وفي «البحر»[(١)]: أنَّ الذي عليه النحويون أنَّ «هلم» ليس صوتاً، وإنما هو مركَّبٌ اختُلف في أصل تركيبه؛ فقيل: مركَّبٌ من «ها» التي للتنبيه و«لُمَّ»[(٢)] بمعنى: اقْصِدْ وأَقْبِل، وهو مذهب البصريين. وقيل: من «هل» و«أُمَّ»[(٣)]. والكلام على المختار من ذلك مبسوطٌ في محلِّه.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ أي: الحربَ والقتالَ، وأصلُ معناه الشدة ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ أي: إتياناً أو زماناً قليلاً، فقد كانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بدًّا من إتيانه، فيأتون ليرى الناسُ وجوهَهم، فإذا غفلوا عنهم عادوا إلى بيوتهم.

ويجوز أن يكون صفةَ مفعولٍ مقدَّرٍ كما كان صفةَ المصدر أو الزمان، أي:

---

(١) ٧/ ٢٢٠.

(٢) في الأصل: والم، وفي (م): والمم، والمثبت من البحر، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٥٠) من سورة الأنعام. ولُمَّ هو فعل أمر من «لَمَّ»، وكذلك «الْمُمْ» فعل أمر منه، وكلاهما مذكوران في أصل «هلم». ينظر الدر المصون ٥/ ٢١٢، وحاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٣) وهو أمرٌ من الأَمِّ، وهو القصد. الدر المصون ٥/ ٢١٣.

إلا بأساً قليلاً، على أنهم يعتذرون في البأس الكثير ولا يخرجون إلا في القليل.

وإتيانُ البأس على هذه الأوجُهِ على ظاهره، ويجوز أن يكون كنايةً عن القتال، والمعنى: ولا يقاتلون إلا قتالاً قليلاً، كقوله تعالى: ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠] وقلَّتُه إمَّا لقِصَرِ زمانه وإمَّا لقلَّة غَنَائه.

وأيًّا ما كان فالجملةُ حالٌ من «القائلين»، وقيل: يجوز أيضاً أن تكون عطفَ بيانٍ على «قد يعلم»، وهو كما ترى.

وقيل: هي من مقول القول، وضميرُ الجمع لأصحاب النبيِّ ﷺ، أي: القائلين ذلك والقائلين لا يأتي أصحابُ محمد ﷺ حرب الأحزاب ولا يقاومونهم إلا قليلاً. وهذا القول خلافُ المتبادر، وكأنه ذهب إليه مَن قال: إنَّ الآية في اليهود.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة على ما روي عن مجاهد وقتادة. وقيل: بأنفسهم. وقيل: بالغنيمة عند القَسْم. وقيل: بكلٍّ ما فيه منفعةٌ لكم، وصوَّب هذا أبو حيان[(١)].

وذهب الزمخشريُّ إلى أنَّ المعنى: أضنَّاء بكم يترفرفون عليكم كما يفعل الرجل بالذابِّ عنه المناضلِ دونه عند الخوف[(٢)]، وذلك لأنهم يخافون على أنفسهم لو غلب النبيُّ ﷺ ومَن معه من المؤمنين، حيث لم يكن لهم مَن يمنعُ الأحزاب عنهم، ولا مَن يحمي حوزتَهم سواهم، وقيل: كانوا يفعلون ذلك رياء.

والأكثرون ذهبوا إلى ما سمعتَ قبلُ[(٣)]؛ وعدل إليه مختصرو كشافه أيضاً[(٤)]، وذلك ـ على ما قيل ـ لأنَّ ما ذهب إليه معنَى ما في التفريع بعدُ، فيُحتاجُ إلى جَعْلِه تفسيراً.

---

(١) في البحر ٧/ ٢٢٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٥٥. وقوله: يترفرفون عليكم، قال في الأساس (رفف): ومن المجاز: رفرف على ولده: إذا تحنَّى عليه. وقال الطيبي في حاشيته على الكشاف: قوله: يترفرفون، تفسير لقوله: أضناء بكم. اهـ. ولكلام الزمخشري تتمة سترد عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾.

(٣) من أن المعنى عدم إرادتهم نصرة المؤمنين ومعاونتهم في الحرب. حاشية الشهاب ٧/ ١٦٤.

(٤) ومنهم البيضاوي. ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٦٤.

ورجَّحه بعضُ الأجلَّة على ما ذهب إليه الأكثر، فقال: إنما اختاره ليطابقَ معنى ويقابلَ قولَه تعالى بعدُ: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ ولأنَّ الاستعمال يقتضيه، فإنَّ الشحَّ على الشيءِ هو أن يراد بقاؤه كما في «الصحاح»(١)، وأشار إليه بقوله: أضنَّاءُ بكم، وما ذكره غيرُه لا يساعدُه الاستعمال. انتهى. قال الخفاجيُّ: إن سلِّم ما ذكر من الاستعمال كان متعيِّناً، وإلا فلكلٍّ وجهةٌ كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام(٢).

و«أشحةً» جمع(٣) شحيح على غير القياس، إذ قياسُ فعيل الوصف المضعَّف عينُه ولامُه أن يُجمع على أَفْعِلَاء كضنين وأَضِنَّاء، وخليل وأخِلَّاء، فالقياس: أشِحَّاء، وهو مسموعٌ أيضاً.

ونَصْبُه عند الزجَّاج وأبي البقاء على الحال من فاعل «يأتون»(٤)، على معنى: تركوا الإتيان أشحةً. وقال الفرَّاء: على الذمِّ(٥).

وقيل: على الحال من ضمير «هلم إلينا»، أو من ضمير يعوِّقون مضمَراً، ونُقل أوَّلُهما عن الطبريِّ(٦)، وهو كما ترى.

وقيل: من «المعوِّقين» أو من «القائلين». ورُدَّا بأنَّ فيهما الفصلَ بين أبعاض الصلة. وتعقِّب بأن الفاصل من متعلّقات الصلة، وإنما يظهر الردُّ على كونه حالاً من «المعوِّقين» لأنه قد عطف على الموصول قبل تمام صلته.

وقرأ ابن أبي عبلة: «أشحةٌ» بالرفع على إضمار مبتدأ، أي: هم أشحةٌ(٧).

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ من العدوِّ، وتوقُّعُ أن يُستأصل أهلُ المدينة ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ أي: أحداقُهم(٨)، أو: بأحداقهم على أنَّ الباء للتعدية، فيكون

---

(١) مادة (شحح)، وفيه: فلان يشاحُّ على فلان، أي: يَضِنُّ به.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٦٤.
(٣) في (م): جميع.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢٠، والإملاء ٤/ ١٩١.
(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٨، والبحر ٧/ ٢٢٠.
(٦) تفسير الطبري ١٩/ ٥٢، والبحر ٧/ ٢٢٠ وعنه نقل المصنف.
(٧) البحر ٧/ ٢٢٠.
(٨) جمع حدقة، وهي سواد العين. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ١٦٥.

المعنى: تُدير أعينُهم أحداقَهم. والجملةُ في موضع الحال، أي: دائرةً أعينُهم من شدة الخوف.

﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ صفةٌ لمصدرِ «ينظرون» أو حالٌ من فاعله، أو لمصدرِ «تدور» أو حالٌ من «أعينهم»، أي: ينظرون نظراً كائناً كنظر المغشيِّ عليه من معالجةِ سكرات الموت حذراً وخوفاً ولواذاً بك، أو: ينظرون كائنين كالذي.. إلخ. أو: تدور أعينهم دوراناً كائناً كدوران عين الذي.. إلخ، أو: تدورُ أعينهم كائنةً كعين الذي.. إلخ.

وقيل: معنى الآية: إذا جاء الخوف من القتال وظهر المسلمون على أعدائهم رأيتهم ينظرون إليك تدورُ أعينهم في رؤيتهم وتَجُولُ وتضطربُ رجاءَ أن يَلُوحَ لهم مَضْرِبٌ؛ لأنهم يَحْضُرون على نيةِ شرٍّ لا على نيةِ خيرٍ. والقولُ الأول هو الظاهر.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: آذوكم بالكلام وخاصموكم بألسنةٍ سلطةٍ ذربةٍ؛ قاله الفرَّاء[1].

وعن قتادة: بسطوا ألسنتهم فيكم وقتَ قسمة الغنيمة، يقولون: أعطونا أعطونا فلستُم بأحقَّ بها منَّا.

وقال يزيد بن رومان: بسطوا ألسنتهم في أذاكم وسبِّكم وتنقيصِ ما أنتم عليه من الدين.

وقال بعض الأجلَّة: أصل السَّلق: بسطُ العضو ومدُّه للقهر، سواءٌ كان يداً أو لساناً، فسلقُ اللسان بإعلان الطعن والذمِّ، وفسِّر السَّلق هنا بالضرب مجازاً، كما قيل للذمِّ: طعن، والحاملُ عليه توصيفُ الألسنة بـ «حداد»، وجوِّز أن يشبَّه اللسان بالسيف ونحوِه على طريق الاستعارة المكنية، ويثْبت له السَّلقُ بمعنى الضرب تخييلاً.

وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس رضي الله عنه عن السلق في الآية، فقال: الطعنُ باللسان. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ فقال: نعم، أما سمعت قول الأعشى:

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٣٩.

فيهم الخصبُ والسماحةُ والنَّجْـ ـدةُ فيهم والخاطبُ المسلاقُ(١)

وفسَّره الزجَّاج بالمخاطبة الشديدة، قال: معنى «سلقوكم»: خاطبوكم أشدَّ مخاطبةٍ وأبلغَها في الغنيمة، يقال: خطيب مِسْلاقٌ وسلَّاق: إذا كان بليغاً في خطبته(٢).

واعتبر بعضهم في السلق رفعَ الصوت، وعلى ذلك جاء قولُه ﷺ: «ليس منَّا مَن سَلق أو حلق»(٣)، قال في «النهاية»: أي: رفَعَ صوته عند المصيبة، وقيل: أن تصكَّ المرأة وجهها وتَمرُشَه، والأولُ أصح(٤).

وزعم بعضهم أن المعنى في الآية: بَسَطوا ألسنتهم في مخادعتكم بما يرضيكم من القول على جهة المصانَعة والمجاملة. ولا يخفى ما فيه.

وقرأ ابن أبي عبلة: «صَلَقوكم» بالصاد(٥).

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: بخلاء حريصين على مال الغنائم، على ما روي عن قتادة. وقيل: على مالِهم الذي ينفقونه. وقال الجبائيُّ: أي: بخلاء بأن يتكلَّموا بكلامٍ فيه خيرٌ. وذهب أبو حيان إلى عموم الخير(٦).

ونُصِبَ «أشحةً» على الحال من فاعل «سلقوكم»، أو على الذمِّ، ويؤيِّده قراءة ابن أبي عبلة: «أشحةٌ» بالرفع(٧)؛ لأنه عليه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هم أشحةٌ، والجملة مستأنفةٌ لا حاليةٌ كما هو كذلك على الذم.

---

(١) أخرجه الطستي كما في الدر المنثور ٥/ ١٨٩، ومن طريقه السيوطي في الإتقان ١/ ٣٩٥. والبيت في ديوان الأعشى ص٢٦٥، برواية: المصلاق.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢١.
(٣) أخرجه أحمد (١٩٥٣٥)، ومسلم (١٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، ولفظ مسلم: «أنا بريءٌ ممن حلق...».
(٤) النهاية (سلق).
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٦، والبحر ٧/ ٢٢٠.
(٦) الذي في البحر ٧/ ٢٢٠: و«على الخير» يدل على عموم الشّح في قوله أولاً: «أشحة عليكم».
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٦، والبحر ٧/ ٢٢٠.

وغايَرَ بعضُهم بين الشحِّ هنا والشحِّ فيما مرَّ، بأنَّ ما هنا مقيَّدٌ بالخير المرادِ به مالُ الغنيمة، وما مرَّ مقيَّدٌ بمعاونة المؤمنين ونصرتهم، أو بالإنفاق في سبيل الله تعالى، فلا يتكرَّر هذا مع ما سبق، والزمخشريُّ لمَّا ذهب إلى ما ذهب هناك[١]، قال هنا: فإذا ذهب الخوفُ وحِيزَتِ الغنائمُ ووقعت القسمةُ نقلوا ذلك الشحَّ وتلك الضِّنَّةَ والرفرفةَ عليكم إلى الخير، وهو المال والغنيمة، ونَسُوا تلك الحالةَ الأولى، واجترؤوا عليكم وضربوكم بألسنتهم.. إلخ[٢]. وقد سمعتَ ما قال بعض الأجلَّة في ذلك.

ويمكن أن يقال في الفرق بين هذا وما سَبَقَ: إن المراد مما سبق ذمُّهم بالبخل بكلِّ ما فيه منفعةٌ ـ أو بنوعٍ منه ـ على المؤمنين، ومن هذا ذمُّهم بالحرص على المال أو ما فيه منفعةٌ مطلقاً من غير نظرٍ إلى كون ذلك على المؤمنين أو غيرِهم، وهو أبلغُ في ذمِّهم من الأول.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ بالإخلاص؛ فإنهم المنافقون الذين أظهروا الإيمانَ وأبطنوا في قلوبهم الكفر.

﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أَظْهَر بطلانَها؛ لأنها باطلةٌ منذ عُمِلَت، إذ صحتُها مشروطةٌ بالإيمان بالإخلاص، وهم مبطنون الكفرَ. وفي «البحر»: أي: لم يقبلها سبحانه، فكانت كالمحْبَطة[٣]. وعلى الوجهين المرادُ بالأعمال العباداتُ المأمورُ بها.

وجوِّز أن يكون المراد بها ما عملوه نفاقاً وتصنُّعاً وإن لم يكن عبادةً، والمعنى: فأبطل عزَّ وجل صُنْعَهم ونفاقَهم فلم يَبْقَ مستتبعاً لمنفعةٍ دنيويةٍ أصلاً.

وحمل بعضهم الأعمال على العبادات، والإحباطَ على ظاهره، بناءً على ما روي عن ابن زيد عن أبيه قال: نزلت الآية في رجلٍ بدريٍّ نافقَ بعد بدرٍ ووقع منه ما وقع، فأحبط الله تعالى عمله في بدر وغيرِها[٤].

---

(١) سلف كلامه عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٥٥.

(٣) البحر ٧/ ٢٢٠.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٥-٥٦ بنحوه، دون قوله: وغيرها.

وصيغةُ الجمع تُبْعِدُ ذلك، وكذا قوله تعالى: (لَمْ يُؤْمِنُوا)، فإنَّ هذا كما هو ظاهرُ هذه الرواية قد آمَنَ قبلُ. وأيضاً قولُه عليه الصلاة والسلام: «لعل الله اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»[1] يأبى ذلك، فالظاهِرُ والله تعالى أعلم أنَّ هذه الرواية غيرُ صحيحة.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٩﴾ أي: هيِّناً لا يبالي به ولا يخاف سبحانه اعتراضاً عليه. وقيل: أي: هيِّناً سهلاً عليه عزَّ وجل، وتخصيصُ يُسْرِه بالذكر مع أنَّ كلَّ شيءٍ عليه تعالى يسيرٌ لبيانِ أنَّ أعمالهم [حقيقةٌ][2] بالإحباط المذكور لكمال تعاضُدِ الحِكَمِ المقتضية له، وعدم مانعٍ عنه بالكلية.

وقيل: ذلك إشارةٌ إلى حالهم من الشحِّ ونحوه، والمعنى: كان ذلك الحالُ عليه عز وجل هيِّناً لا يبالي به، ولا يجعلُه سبحانه سبباً لخذلان المؤمنين. وليس بذاك. والمقصود مما ذكر التهديد والتخويف.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي: هم من الجزع والدهشة لمزيد جبنهم وخوفهم بحيث هزم الله تعالى الأحزاب فرحلوا وهم يظنُّون أنهم لم يرحلوا.

وقيل: المراد: هؤلاء لجبنهم يحسبون الأحزاب لم ينهزموا وقد انهزموا، فانصرفوا عن الخندق راجعين إلى المدينة لذلك. وهذا إن صحَّتْ فيه روايةٌ فذاك، وإلا فالظاهرُ أنه مأخوذٌ من قوله تعالى: (وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا) لدلالته ظاهراً على أنهم خارجون عن معسكر رسول الله ﷺ يحثُّون إخوانهم على اللّحاق بهم، وكونُ المراد: هلمُّوا إلى رأينا، أو إلى مكاننا الذي هو في طرفٍ لا يصل إليه السهم، خلافُ الظاهر. وكذا من قوله سبحانه: (وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم) على ما هو الظاهر أيضاً؛ إذ يَبعُدُ حملُه على اتِّحاد المكان ولو في الخندق.

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرَّةً ثانيةً ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ تمنَّوا أنهم خارجون إلى البدو وحاصلون مع الأعراب، وهم أهل العمود.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وسلف ١٠/ ٢٩ و١٨٩.

(٢) ما بين حاصرتين من الكشاف ٣/ ٢٥٥، وتفسير أبي السعود ٧/ ٩٦، والكلام فيهما بنحوه.

وقرأ عبد الله وابن عباس وابن يعمر وطلحة: «بُدًّى» جمع: بادٍ[1]، كغازٍ وغُزًّى، وليس بقياسٍ في معتلِّ اللام، وقياسُه فُعَلَة كقاضٍ وقُضاة. وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس: «بَدَوْا» فعلاً ماضياً، وفي روايةِ صاحب «الإقليد»: «بُدًى» بوزن عُدًى[2].

﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ أي: كلُّ قادم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ عمَّا جرى عليكم من الأحزاب، يتعرَّفون أحوالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة فَرَقاً وجبناً. واختيارُ البداوة ليكونوا سالمين من القتال، والجملة في موضع الحال من فاعل «بادون»، وحكى ابنُ عطية أنَّ أبا عمرو وعاصماً والأعمش قرؤوا: «يَسَلون» بغير همز، نحو قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[3] [البقرة: ٢١١]. ولم يُعرف ذلك عن أبي عمرو وعاصم، ولعل ذلك في شاذِّهما، ونقلها صاحبُ «اللوامح» عن الحسن والأعمش[4].

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما وقتادة والجحدريُّ والحسن ويعقوبُ بخلافٍ عنهما: «يسَّاءلون» بتشديد السين والمدِّ[5]، وأصله: يتساءلون، فأدغمت التاء في السين، أي: يسأل بعضهم بعضاً، أي: يقول بعضهم لبعض: ماذا سمعتَ وماذا بلغك؟ أو يتساءلون الأعرابَ، أي: يسألونهم، كما تقول: رأيتُ الهلال وتَراءيتُه، وأبصَرْتُ زيداً وتَباصَرْتُه.

﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم﴾ أي: في هذه الكرَّة المفروضة بقوله تعالى: (وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ) أو: لو كانوا فيكم في الكرَّة الأولى السابقةِ ولم يرجعوا إلى داخل المدينة، وكانت محاربةٌ بالسيوف ومبارزة الصفوف ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢٠﴾ رياءً وسمعةً وخوفاً من التعيير، قال مقاتل والجبائي[6] والبعلبكي: هو قليلٌ من حيث هو رياءٌ، ولو كان لله تعالى كان كثيراً.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٩، والمحتسب ٢/ ١٧٧، والبحر ٧/ ٢٢١.

(٢) البحر ٧/ ٢٢١. وبُدًّى هي أيضاً جمع «بادٍ»، والعُدَى جمع العدوّ. معجم متن اللغة (بدا) و(عدا).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٢٢١.

(٤) البحر ٧/ ٢٢١.

(٥) هي رواية رويس عن يعقوب كما في النشر ٢/ ٣٤٨، والكلام من البحر ٧/ ١٦٧.

(٦) في (م): الجياني، والمثبت من الأصل وهو الموافق لما في مجمع البيان ٢١/ ١٢١.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الظاهر أن الخطاب للمؤمنين الخلَّص المخاطَبين من قبلُ في قوله تعالى: ﴿عَنْ أَنبَآئِكُمْ﴾، وقولِه سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم﴾.

والإسوة بكسر الهمزة كما قرأ الجمهور وبضمِّها كما قرأ عاصم[1]: الخصلة، وقال الراغب: الحالة التي يكون عليها الإنسان[2]. وهي اسم «كان» و«لكم» الخبر، و«في رسول الله» متعلِّقٌ بما تعلَّق به «لكم» أو في موضع [الحال][3] من «أسوة» لأنه لو تأخَّر جاز أن يكون نعتاً لها، أو متعلِّق بـ «كان» على مذهب مَن أجاز فيها ناقصة وفي أخواتها أن تعمل في الظرف. وجوِّز أن يكون «في رسول الله» الخبر، و«لكم» تبيينٌ، أي: أعني لكم.

أي: واللهِ لقد كان لكم في رسول الله خصلةٌ حسنةٌ من حقِّها أن يؤتَسى ويُقْتَدَى بها، كالثبات في الحرب، ومقاساة الشدائد.

ويجوز أن يراد بالأسوة القدوةُ بمعنى المُقْتَدَى، على معنى: هو ﷺ في نفسه قدوةٌ يحسُنُ التأسِّي به، وفي الكلام صنعةُ التجريد وهو أن ينتزع من ذي صفةٍ آخَرُ مِثلُه فيها مبالغةً في الاتِّصاف، نحو: لقيتُ منه أسداً، وهو كما يكون بمعنى «من» يكون بمعنى «في» كقوله:

أراقتْ بنو مروان ظلماً دماءَنا ... وفي الله إن لم يعدلوا حَكَمٌ عدلُ[4]

وكقوله: في البيضة عشرون منًّا حديداً[5]، أي: هي في نفسها هذا القَدْرُ من الحديد.

---

(١) التيسير ص١٧٨، والنشر ٢/ ٣٤٨.

(٢) مفردات الراغب (أسا)، وفيه: هي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتِّباع غيره، إن حسناً وإن قبيحاً، وإن سارًّا وإن ضارًّا.

(٣) ما بين حاصرتين من البحر ٧/ ٢٢٢، والدر المصون ٩/ ١٠٨.

(٤) البيت في الخصائص ٢/ ٤٧٥ دون نسبة، وفيه: أفاءت بنو مروان...، وهو في حماسة البحتري ص١١١ منسوب لبشر بن صفوان الكلبي برواية: أقادت بنو مروان قيساً دماءنا، وبهذه الرواية عزاه ابن الشجري في الحماسة ١/ ٩، والبلاذري في أنساب الأشراف ٥/ ٣١٠ لأبي الخطار الكلبي حسام بن ضرار.

(٥) في (م): حديد، وقال الشهاب في الحاشية ٧/ ١٦٦: «حديداً» بدل من المنّ، والمَنُّ بتشديد

والآيةُ وإنْ سِيقتْ للاقتداء به عليه الصلاة والسلام في أمر الحرب من الثبات ونحوه، فهي عامةٌ في كلِّ أفعاله ﷺ إذا لم يُعلم أنها من خصوصياته كنكاحِ ما فوق أربع نسوة؛ أخرج ابن ماجه وابن أبي حاتم عن حفص بن عاصم قال: قلتُ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: رأيتُك في السفر لا تصلِّي قبل الصلاة ولا بعدها؟ فقال: يا ابن أخي، صَحِبْتُ رسول الله ﷺ كذا وكذا، فلم أره يصلِّي قبل الصلاة ولا بعدها، ويقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1].

وأخرج عبد الرزاق في «المصنف» عن قتادة قال: همَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ينهَى عن الحِبَرة، فقال رجل: أليس قد رأيتَ رسولَ الله ﷺ يلبسُها؟ قال عمر: بلى. قال الرجل: ألم يقل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؟ فترك ذلك عمر رضي الله عنه[2].

وأخرج الشيخان والنسائيُّ وابن ماجه وغيرهم عن ابن عمر أنه سُئل عن رجلٍ معتمرٍ طاف بالبيت، أيقعُ على امرأته قبل أن يطوف بين الصفا والمروة؟ فقال: قَدِمَ رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلَّى خلف المقام ركعتين وسعى بين الصفا والمروة. ثم قرأ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3].

وأخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس قال: إذا حَرَّم الرجل عليه امرأتَه فهو يمينٌ يكفِّرها، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[4]. إلى غير ذلك من الأخبار، وتمامُ الكلام في كتب الأصول.

= النون وزنٌ معروف، وفي نسخة (يعني من تفسير البيضاوي): «منا» بالقصر والتخفيف والإضافة، وهو لغة فيه بمعنى المنّ أيضاً. والمراد بالبيضة بيضة الحديد أو ما يوضع على الرأس وهو المغفر.

(١) سنن ابن ماجه (١٠٧١)، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/١٨٩، وعنه نقل المصنف، وأخرجه بنحوه البخاري (١١٠١) و(١١٠٢)، ومسلم (٦٨٩).

(٢) مصنف عبد الرزاق (١٤٩٣)، وهو من طريق قتادة عن عمر رضي الله عنه، وقتادة لم يسمع من عمر. ينظر جامع التحصيل للعلائي ص٣١٢. والحِبَرة كعِنبة ضرب من برود اليمن.

(٣) صحيح البخاري (٣٩٥)، وصحيح مسلم (١٢٣٤)، وسنن النسائي (المجتبى) ٥/٢٢٥ و٢٣٥، وسنن ابن ماجه (٢٩٥٩).

(٤) صحيح البخاري (٤٩١١)، وصحيح مسلم (١٤٧٣): (١٩) واللفظ له.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي: يؤمِّلُ اللهَ تعالى وثوابَه، كما يرمزُ إليه أثرٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما[١]، وعليه يكون قد وضع «اليوم الآخر» بمعنى يوم القيامة موضعَ الثواب؛ لأنَّ ثوابه تعالى يقع فيه، فهو على ما قال الطيبيُّ[٢] من إطلاق اسم المحلِّ على الحالِّ، والكلامُ نحوُ قولك: أرجو زيداً وكَرَمَه، مما يكون ذِكْرُ المعطوفِ عليه فيه توطئةً للمعطوف، وهو المقصود، وفيه من الحُسْنِ والبلاغة ما ليس في قولك: أرجو زيداً كَرَمَه، على البدلية.

وقال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يكون التقدير: يرجو رحمة الله ـ أو رضا الله ـ وثوابَ اليوم الآخر، ففي الكلام مضافان مقدَّران.

وعن مقاتل: أي: يخشى اللهَ تعالى ويخشى البعثَ الذي فيه جزاء الأعمال، على أنه وضع اليوم الآخر موضع البعث لأنه يكون فيه، والرجاء عليه بمعنى الخوف. ومتعلّق الرجاء بأيِّ معنًى كان أمرٌ من جنس المعاني لأنه لا يتعلَّق بالذوات.

وقدَّر بعضهم المضافَ إلى الاسم الجليل لفظَ «أيام» مراداً بها الوقائعُ، فإنَّ اليوم يُطلق على ما يقع فيه من الحروب والحوادث، واشتهر في هذا حتى صار بمنزلة الحقيقة، وجَعَلَ قرينةَ هذا التقديرِ المعطوفَ، وجَعَلَ العطفَ من عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ، والظاهر أنَّ الرجاء على هذا بمعنى الخوف. وجوَّز أن يكون الكلام عليه كقولك: أرجو زيداً وكَرَمَه، وأن يكون الرجاء فيه بمعنى الأمل إن أريدَ ما في اليوم من النصر والثواب، وأن يكون بمعنى الخوف والأمل معاً بناءً على جواز استعمال اللفظ في معنييه، أو في حقيقته ومجازِه وإرادةِ ما يقع فيه من الملائم والمنُافر. وعندي أنَّ تقدير «أيام» غيرُ متبادرٍ إلى الفهم.

وفسَّر بعضهم «اليوم الآخر» بيوم السياق، والمتبادرُ منه يوم القيامة.

و«من» ـ على ما قيل ـ بدل من ضمير الخطاب في «لكم»، وأُعيد العامل للتأكيد، وهو بدلُ كلٍّ من كلٍّ، والفائدة فيه الحثُّ على التأسِّي، وإبدالُ الاسم الظاهر من

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٦٤ بلفظ: يرجو ما عند الله من الثواب والنعيم.
(٢) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

ضمير المخاطب هذا الإبدالَ جائزٌ عند الكوفيين والأخفش، ويدل عليه قوله:

بِكُمْ قريشٍ كُفِينا كلَّ مُعْضِلةٍ وأَمَّ نهجَ الهدى مَن كان ضِلِّيلا[1]

ومَنَعَ ذلك جمهورُ البَصْريين، ومن هنا قال صاحب «التقريب»: هو بدلُ اشتمالٍ أو بدلُ بعضٍ من كلٍّ، ولا يتسنَّى إلا على القول بأنَّ الخطاب عامٌّ، وهو مخالفٌ للظاهر كما سمعت، ومع هذا يحتاج إلى تقدير: منكم.

وقال أبو البقاء[2]: يجوز أن يكون «لمن» متعلقاً بـ «حسنة» أو بمحذوفٍ وقع صفةً لها؛ لأنه وقع بعد نكرة.

وقيل: يجوز أن يكون صفةً لـ «أسوة». وتعقِّب بأن المصدر الموصوف لا يعمل فيما بعدَ وَصْفِه، وكذا تعدُّدُ الوصف بدون العطف لا يصحُّ، وقد صرَّح بمنع ذلك الإمامُ الواحديُّ، ولا يخفى أنَّ المسألة خلافيةٌ فلا تغفل.

﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ أي: ذِكْراً كثيراً، وقَرَنَ سبحانه بالرجاء كثرةَ الذكر لأنَّ المثابرة على كثرة ذكره عز وجل تؤدِّي إلى ملازمة الطاعة، وبها يتحقَّق الائتساء برسول الله ﷺ.

ومما ينبغي أن يُعلم أنه قد صرَّح بعض الأجلَّة كالنوويّ أنَّ ذكر الله تعالى المعتبَرَ شرعاً ما يكون في ضمن جملةٍ مفيدةٍ، كـ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله، ونحو ذلك، وما لا يكون[3] بمفردٍ لا يعدُّ شرعاً ذكراً، نحو: الله، أو: قادر، أو: سميع، أو: بصير، إذا لم يقدَّر هناك ما يصير به اللفظُ كلاماً، والناسُ عن هذا غافلون.

وأنهم أجمعوا على أنَّ الذكر المتعبَّد بمعناه لا يثابُ صاحبه ما لم يستحضر معناه، فالمتلفِّظُ بنحوِ: سبحان الله، ولا إله إلا الله، إذا كان غافلاً عن المعنى غيرَ ملاحظٍ له ومستحضرٍ إياه لا يثاب إجماعاً، والناس أيضاً عن هذا غافلون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) البحر ٧/ ٢٢٢، وشذور الذهب ص٥٧٤.

(٢) في الإملاء ٤/ ١٩٢.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: وما يكون.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ بيانٌ لِمَا صَدَرَ عن خُلَّص المؤمنين عند اشتباه الشؤون واختلاطِ الظُّنون بعد حكايةِ ما صدر عن غيرهم، أي: لمَّا شاهدوهم حَسْبَما وُصِفوا لهم.

﴿قَالُوا۟ هَٰذَا﴾ إشارة عند بعض المحقِّقين إلى ما شاهدوه من غير أن يخطر ببالهم لفظٌ يدلُّ عليه فضلاً عن تذكيره وتأنيثه، فإنهما من أحكام اللفظ، نعم يجوز التذكيرُ باعتبار الخبر الذي هو ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فإنَّ ذلك العنوانَ أولُ ما يخطر ببالهم عند المشاهَدة. وعند الأكثر إشارةٌ إلى الخطب والبلاء.

و«ما» موصولةٌ عائدها محذوفٌ، وهو المفعولُ الثاني لـ «وعد»، أي: الذي وَعَدَناه الله. وجوِّز أن تكون مصدريةً، أي: هذا وَعْدُ اللهِ تعالى ورسولِه إيانا.

وأرادوا بذلك ما تضمَّنه قولُه تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [الآية: ٢١٤] كما أخرج ذلك ابن جرير وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما[١]، وأخرجه جماعةٌ عن قتادة أيضاً. ونزلت آيةُ البقرة قبل الواقعة بحولٍ على ما أخرجه جويبر عن الضحاك عن الحبر رضي الله عنه[٢].

وفي «البحر» عن ابن عباس قال: قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «إنَّ الأحزاب سائرون إليكم تسعاً أو عشراً» أي: في آخر تسع ليالٍ أو عشرٍ، أي: من وقت الإخبار، أو من غرة الشهر، فلمَّا رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك[٣]، فمرادُهم بذلك ما وعد بهذا الخبر. وتعقَّبه ابن حجر[٤] بأنه لم يوجد في كتب الحديث.

وقرئ بإمالة الراء من «رأى» نحوَ الكسرة وفتح الهمزة[٥]، وعدم إمالتها،

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٦٠، ودلائل النبوة ٣/ ٤٣٣-٤٣٤، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٩٠.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٩٠.

(٣) البحر ٧/ ٢٢٢، وذكره قبله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٥٦.

(٤) في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١٦٧.

(٥) قوله: وفتح الهمزة، أراد به عدمَ إمالتها كما في حاشية الشهاب ٧/ ١٦٧، والكلام منه. وقد قرأ بإمالة الراء وفتح الهمزة حمزة وخلف وأبو بكر. النشر ٢/ ٤٦.

ورُوي إمالتُهما وإمالةُ الهمزة دون الراء على تفصيلٍ فيه في «النشر»[١]، فليراجع.

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الظاهر أنه داخلٌ في حيِّز القول، فجوِّز أن يكون عطفاً على جملة «هذا ما وعدنا».. إلخ، أو على صلة الموصول، وهو كما ترى، وأن يكون في موضع الحال بتقدير «قد» أو بدونه.

وأيًا ما كان فالمرادُ: ظَهر صدقُ خبرِ الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لأنَّ الصدق محقَّقٌ قبل ذلك، والمترتِّبُ على رؤية الأحزاب ظهورُه. وجوِّز أن يكون المعنى: وصَدَقَ الله تعالى ورسولُه عليه الصلاة والسلام في النصرة والثواب كما صدق الله تعالى ورسولُه في البلاء.

والإظهارُ مع سَبْقِ الذكر للتعظيم، ولأنه لو أُضْمِر وقيل: وصَدَقَا، جاء الجمع بين الله تعالى وغيره في ضميرٍ واحدٍ، والأوْلَى تركُه، أو قيل: وصَدَق هو ورسولُه، بقي الإظهار في مقام الإضمار فلا يندفعُ السؤال، كذا قيل، وحديثُ الجمع قد مرَّ ما فيه.

﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي: ما رَأَوا المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلخ، ورجوعُ الضمير إلى المصدر المفهوم من «رأى» يعكِّر عليه التذكير. وأَرْجَعَه بعضُهم إلى الشهود المفهوم من ذلك، وجوِّز رجوعُه إلى الوعد أو الخَطْب والبلاءِ المفهومين من السياق أو الإشارة.

وقرأ ابن أبي عبلة: «وما زادوهم» بضمير الجمع العائدِ على الأحزاب[٢].

﴿إِلَّآ إِيمَـٰنًا﴾ بالله تعالى وبمواعيده عز وجل ﴿وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ لأوامره جلَّ شأنه وأقداره سبحانه.

واستُدلَّ بالآية على جواز زيادة الإيمان ونَقْصِه، ومَن أنكر قال: إنَّ الزيادة فيما يؤمَنُ به لا في نفس الإيمان، والبحثُ في ذلك مشهورٌ، وفي كتب الكلام على أبسط وجهٍ مسطورٌ.

---

(١) ٢/٤٦-٤٨، والكلام من حاشية الشهاب ٧/١٦٧.
(٢) البحر ٧/٢٢٣.

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المؤمنين بالإخلاص مطلقاً، لا الذين حُكيت محاسنُهم خاصة ﴿رِجَالٌ﴾ أيُّ رجالٍ ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثبات مع الرسول ﷺ والمقاتلة للأعداء. وقيل: من الطاعات مطلقاً، ويدخل في ذلك ما ذكر دخولاً أوّليًا.

وسبب النزول ظاهرٌ في الأول؛ أخرج الإمام أحمد ومسلمٌ والترمذيُّ والنسائيُّ وجماعة عن أنس قال: غاب عمِّي أنس بن النضر عن بدرٍ، فشقَّ عليه وقال: أولُ مشهدٍ شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعدُ لَيَرَيَنَّ اللهُ تعالى ما أصنع. فشهد يوم أحدٍ، فاستقبله سعد بن معاذ ﷺ، فقال: يا أبا عمرو أين؟ قال: واهاً لريح الجنة أجدُها دون أحدٍ. فقاتَلَ حتى قُتل، فوُجِد في جسده بضعٌ وثمانون من ضربةٍ وطعنةٍ ورميةٍ، ونزلت هذه الآية: (مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ) وكانوا يرون أنها نزلت فيه وأصحابه[1].

وفي «الكشاف»: نذر رجالٌ من الصحابة أنهم إذا لَقُوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يُسْتَشْهَدوا، أي: نذروا الثباتَ التامَّ والقتالَ الذي يفضي بحسب العادة إلى نيل الشهادة، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وحمزة، ومصعب بن عمير، وغيرهم[2].

وعن الكلبي ومقاتل أنَّ هؤلاء الرجال هم أهلُ العقبة السبعون أهلُ البيعة.

وقال يزيد بن رومان: هم بنو حارثة.

والمعوَّلُ عليه عندي ما قدَّمتُه.

ومعنى «صدقوا»: أتوا بالصدق، من صَدَقني: إذا قال الصدق، ومحلُّ «ما عاهدوا» النصبُ إما على نزع الخافضِ وهو «في» وإيصالِ الفعل إليه، كما في

(١) مسند أحمد (١٣٠١٥)، وصحيح مسلم (١٩٠٣)، وسنن الترمذي (٣٢٠٠)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٣٨)، وهو عند البخاري (٢٨٠٥). قوله: يا أبا عمرو...، القائل هو أنس بن النضر ﷺ، وأبو عمرو هي كنية سعد بن معاذ ﷺ، ثم قال أنس: واهاً...، قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٩/ ٦١: لم ينتظر جوابه لغلبة اشتياقه إلى إيفاء ميثاقه وعهده لربِّه.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٥٦.

قولهم: صَدَقني سنَّ بَكْرِه[1]، على روايةِ النصب، أي: في سنِّ بَكْرِه، والمفعولُ محذوفٌ، والأصلُ: صدقوا اللهَ فيما عاهدوه، وإمَّا على أنه هو المفعولُ الصريح، وجَعْلِ «ما عاهدوا عليه» بمنزلةِ شخصٍ معاهَدٍ على طريق الاستعارة المكنية، وجَعْلُه مصدوقاً تخييلٌ أو على[2] الإسناد المجازيّ.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ تفصيلٌ لحالِ الصادقين، وتقسيمٌ لهم إلى قسمين، والنَّحْبُ على ما قال الراغب: النذرُ المحكومُ بوجوبه، يقال: قَضَى فلانٌ نَحْبَه، أي: وَفى بنَذْرِه[3].

وقال أبو حيان: [النحب] النذر والشيءُ[4] الذي يلتزمه الإنسان ويعتقد الوفاءَ به؛ قال الشاعر:

عشيةَ فرَّ الحارثيون بعد ما ... قضى نَحْبَه في ملتقى القوم هوبرُ[5]

وقال جرير:

بطَخْفةَ جالَدْنا الملوكَ وخيلُنا ... عشيةَ بسطامٍ جَرَيْنَ على نَحْبِ[6]

أي: على أمرٍ عظيمٍ التزم القيام به. وشاع: قضى فلانٌ نحبه، بمعنى مات، إمَّا

---

(١) البَكر: الفَتيُّ من الإبل، وهذا مثلٌ أصله أن رجلاً ساوم رجلاً ببعير وسأله عن سنِّه، فزعم أنه بازل، فبينما هما كذلك نفر فدعاه: هِدَعْ هِدَعْ، فسَكَن، وهذه كلمة تسكَّن بها صغارُ الإبل، فقال المشتري ذلك، يريد أنه صَدَق في سنِّه الآن لمَّا دعاه بتلك الكلمة، وقد كان كاذباً، ويقال أيضاً: صدقني سنُّ، بالرفع. المستقصى ٢/ ١٤٠، ومجمع الأمثال ١/ ٣٩٢.

(٢) في الأصل و(م): وعلى، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ١٦٧، والكلام منه.

(٣) مفردات الراغب (نحب).

(٤) في (م): الشيء، والمثبت من الأصل والبحر، وهو الصواب.

(٥) البحر ٧/ ٢٠٨، وما سلف بين حاصرتين منه. والبيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ٦٤٧، وذكره أيضاً القرطبي ١٧/ ١١٤، والسمين في الدر المصون ٩/ ١١١. قال شارح الديوان: يعني يزيد بن هوبر الحارثي، فقال: هوبر، للقافية.

(٦) ديوان جرير ٢/ ٦٣٢. قال السهيلي في الروض الأنف ٣/ ٢٧٣: طخفة موضع بطريق البصرة. وبسطام هو ابن قيس بن مسعود الشيباني، وقوله: على نحب، أي: على نذر كانت نذرت أن تقتله فقتلته. اهـ. وقوله: عشية بسطام، أي: العشية التي قتل فيها بسطام. الإملاء المختصر في شرح غريب السير لأبي ذر الخشني ٣/ ١١.

على أنَّ النحب مستعارٌ استعارةً تصريحيةً للموت لأنه كنذرٍ لازمٍ في رقبة كلِّ إنسان، والقرينةُ حاليةٌ والقضاءُ ترشيحٌ، وإمَّا على أنَّ قضاء النحب مستعارٌ له.

وجوَّز أن يراد بالنحب في الآية النذرُ، وأن يراد الموت. وقال بعض الأجلَّة[1]: يجوز أن يكون مستعاراً لالتزام الموت شهيداً إما بتنزيل التزام أسبابه التي هي أفعالٌ اختياريةٌ للناذر منزلةَ التزام نفسه، وإما بتنزيل نَفْسِه منزلةَ أسبابه وإيرادِ الالتزام عليه، وهو الأنسبُ بمقام المدح. وجَعْلُه استعارةً للموت لأنه كنذرٍ لازمٍ مسخٌ للاستعارة، وذهابٌ[2] برونقها، وإخراجٌ للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلِّية. انتهى، وفيه منعٌ ظاهر كما لا يخفى على المنصف.

والذي يقتضيه ظاهرُ بعض الأخبار أن النحب هنا بمعنى النذر، وقضاؤه أداؤه والوفاء به، فقد أخرج ابن أبي عاصم والترمذيُّ وحسَّنه وابنُ جريرٍ والطبرانيُّ وابن مردويه عن طلحة أنَّ أصحاب النبيِّ ﷺ قالوا لأعرابيٍّ جاهلٍ: سَلْه عمَّن قضى نحبه مَن هو؟ وكانوا لا يجترؤون على مسألته، يوقِّرونه ويهابونه، فسأله الأعرابيُّ، ثم إنِّي اطَّلعتُ من باب المسجد، فقال: «أين السَّائلُ عمَّن قَضَى نَحْبَه»؟ قال الأعرابيُّ: أنا. قال: «هذا ممن قضى نحبه»[3].

وأخرج ابن منده وابن عساكر عن أسماء بنت أبي بكر قالت: دخل طلحةُ بنُ عبيد الله على النبيِّ ﷺ، فقال: «يا طلحة، أنت ممن قضى نحبه»[4]. وأخرج الحاكم عن عائشةَ نحوه[5].

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٧/ ٩٨.

(٢) في الأصل و(م): وإذهاب، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٣) السنة لابن أبي عاصم إثر الحديث (١٣٩٩)، وسنن الترمذي (٣٢٠٣) و(٣٧٤٢)، وتفسير الطبري ١٩/ ٦٦، والمعجم الأوسط للطبراني (٥٠٠٠)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٩١.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٩١، وهو في تاريخ ابن عساكر ٢٥/ ٨٢ من طريق إسحاق بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله عن عمه موسى بن طلحة عن أسماء ﵄، وإسحاق بن يحيى ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب، وينظر التعليق الذي بعده.

(٥) المستدرك ٢/ ٤١٥ من طريق إسحاق بن يحيى بن طلحة عن موسى بن طلحة عن عائشة، وقد صححه الحاكم، وقال الذهبي: بل إسحاق متروك؛ قاله أحمد.

وأخرج الترمذيُّ وغيره عن معاوية أنه قال: سمعتُ رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: «طلحة ممن قضى نحبه»[١].

وكأنَّ عليّاً كرم الله تعالى وجهه عَنَى مدحَه بذلك في قوله ـ وقد قيل له: حدِّثنا عن طلحة ـ: ذاك امرؤٌ نزل فيه آيةٌ من كتاب الله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾. وقد أخرج ذلك عنه كرم الله تعالى وجهه أبو الشيخ وابن عساكر[٢]. وكان ﷺ قد ثبت يوم أحدٍ حتى أصيبت يدُه.

وإلى حَمْلِ النحب على حقيقته ذهب مجاهدٌ، فالمعنى: منهم مَن وفى بعهده وأدَّى نَذْرَه ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: وبعضهم ﴿مَّن يَنتَظِرُ﴾ يوماً فيه جهادٌ فيقضي نحبه ويؤدِّي نذره ويفي بعهده.

ومَن حَمَل «ما عاهدوا الله» على العموم وأبقَى النحبَ على حقيقته قال: المعنى: منهم مَن وفى بعهود الإسلام وما يلزمُ من الطاعات، ومنهم مَن ينتظر الحصولَ في أعلى مراتب الإيمان والصلاح.

واستشكل إبقاءُ النحب على حقيقته؛ لأن وفاء النذر عينُ صِدْقِ العهد، فيكون مآلُ المعنى: من المؤمنين رجال عاهدوا الله تعالى وصَدَقوا، أي: فعلوا ووفوا بما عاهدوا الله تعالى عليه، فمنهم مَن فعل ووفى بما عاهد، وفيه تقسيمُ الشيء إلى نفسه. ويُشْكِلُ على هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ لأنَّ المنتظِرَ غير وافٍ فكيف يجعلُ قسماً من الذين صدقوا، أي: وفوا.

وأجيب بأنَّ المراد بالصدق في الآية مطابقةُ النسبة الكلامية للنسبة الخارجة[٣]، وهذا الكلامُ المتضمِّن لهذه النسبة هو ما اقتضاه عهدُهم على الثبات من نحو قولهم: لئن أرانا الله مشهداً مع رسول الله ﷺ لَنَثْبتنَّ ولنقاتلنَّ. واتصافُ الخبر بالصدق وكذا المخبِر به لا يقتضي أكثر من مطابقة نسبته للواقع في أحد الأزمنة،

(١) سنن الترمذي (٣٢٠٢) من طريق إسحاق بن يحيى بن طلحة عن موسى بن طلحة عن معاوية. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإنما روي عن موسى بن طلحة عن أبيه.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٩١، وهو في تاريخ ابن عساكر ٢٥/ ٨٥.

(٣) في الأصل: الخارجية.

فنحو: يقوم زيد، صادقٌ، وكذا المخبِرُ به وقتَ الإخبار به، وإن كان وقوعُ القيام بعد ألف سنةٍ مثلاً، وكذا نحوُ: إن كانت الشمس طالعةً فالنهارُ موجودٌ، صادقٌ وإن كان التكلُّم به ليلاً، فهؤلاء الرجالُ لمَّا أخبروا عن أنفسهم أنهم إن أراهم الله تعالى مشهداً مع رسوله عليه الصلاة والسلام ثبتوا وقاتلوا، وعَلِمَ سبحانه أنَّ هذا مطابقٌ للواقع أخبر تعالى عنهم بأنهم صدقوا، ثم قسمهم عز وجل إلى قسمين: قِسْم أدَّى ما أخبر عن نفسه أنه يؤدِّيه، وقِسْم ينتظرُ وقتاً يؤدِّيه فيه، ولا يتَّصفُ هذا القِسْمُ بالكذب إلا إذا مات وقد أراه الله تعالى ذلك ولم يؤدِّ، ومَن أخبر الله تعالى عنهم بالصدق ما ماتوا حتى أدَّوا، فلا إشكال.

نعم الإشكالُ على تقدير أنْ يراد بالصدق فيما عاهدوا تحقيقُ العهد فيما أظهروه من أفعالهم كما فسَّره الراغب، ويراد من قضاء النحب وفاءُ النذر أو العهد كما لا يخفى.

وقيل: المراد بصدقهم المذكور مطابقةُ ما في ألسنتهم لما في قلوبهم، على خلاف المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. ولا إشكال في التقسيم حينئذ.

وقيل: الصدق بالمعنى المشهور بين الجمهور إلا أنَّ المراد بـ «صَدَقوا»: يَصْدُقون، وعبَّر عن المضارع بالماضي لتحقُّق الوقوع. وكِلَا القولين كما ترى.

وعن ابن عباس أنَّ نافع بن الأزرق سأله عن قوله تعالى: ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ فقال: أَجلَه الذي قدِّر له. فقال: وهل تعرفُ العرب ذلك؟ قال: نعم، أَمَا سمعتَ قول لبيد:

أَلَا تسألان المرء ماذا يحاولُ   أَنَحْبٌ فيقضَى أم ضلالٌ وباطلُ[1]

وأخرج جماعةٌ عنه أنه فسَّر ذلك بالموت[2]، ورُوي نحوُه عن ابن عمر رضي الله عنهما. وعليه لا مانع من أن يراد بـ «صدقوا ما عاهدوا الله عليه» كما ذُكر عن الراغب:

---

(١) أخرجه الطستي في مسائله كما في الدر المنثور ٥/ ١٩١، ومن طريق الطستي أخرجه السيوطي في الإتقان ١/ ٣٩٦، والبيت في ديوان لبيد ص١٣١.
(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٤.

حقَّقوا العهدَ فيما أظهروه من أفعالهم[١]. فيكون المعنى: من المؤمنين رجالٌ عاهدوا الله تعالى على الثبات والقتال إذا لَقُوا حرباً مع رسول الله ﷺ وحقَّقوا ذلك وثبتوا، فمنهم مَن مات ومنهم مَن ينتظر الموت. والذي يقتضيه السياق أنَّ المراد: قضى نحبه ثابتاً، بأن يكون قد استُشهِدَ كأنس بن النضر ومصعب بن عمير. ويحتمل أن يراد ما هو[٢] أعمُّ من ذلك، فيدخل مَن مات بعد الثبات حَتْفَ أنفه قبل نزول الآية إن كان هنالك مَن هو كذلك.

وعدُّوا ممن ينتظر عثمان وطلحة، وأوَّل ما ورد في طلحة من أنه ممن قضى نحبه بأنَّ المراد أنه في حكم مَن استُشْهِدَ، وأَوْجَبوا ذلك فيما أخرج سعيد بن منصور وأبو يعلى وابن المنذر وأبو نعيم وابن مردويه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «مَن سرَّه أن ينظر إلى رجلٍ يمشي على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة»[٣]. وأخرج ابن مردويه من حديث جابر بن عبد الله مثله[٤].

وفي «إرشاد العقل السليم» عن عائشة بلفظ: «مَن سرَّه أن ينظر إلى شهيدٍ يمشي في الأرض، وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة»[٥].

وفي «مجمع البيان» عن أبي إسحاق عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنه قال: نزلت فينا ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ الآية، وأنا والله المنتظِرُ[٦].

وفي وَصْفِهم بالانتظار المنبئ عن الرغبة في المنتظَر شهادةٌ حقَّةٌ بكمال اشتياقهم إلى الشهادة، وقيل: إلى الموت مطلقاً، حبّاً للقاء الله تعالى ورغبةً فيما عنده عز وجل.

---

(١) مفردات الراغب (صدق).

(٢) قوله: هو، ساقط من (م).

(٣) مسند أبي يعلى (٤٨٩٨)، والحلية ١/ ٨٨، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٩١. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٤٨: فيه صالح بن موسى، وهو متروك.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٩١.

(٥) تفسير أبي السعود ٧/ ٩٩، وفيه: على الأرض، بدل: في الأرض.

(٦) مجمع البيان ٢١/ ١٢٤ بزيادة: وما بدَّلتُ تبديلاً.

﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ عطفٌ على «صدقوا» وفاعلُه فاعلُه، أي: وما بدَّلوا عهدَهم وما غيَّروه تبديلاً ما، لا أصلاً ولا وصفاً، بل ثبتوا عليه راغبين فيه مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون، أما الذين قَضَوا فظاهرٌ، وأما الباقون فيشهد به انتظارُهم أصدقَ شهادة، وتعميمُ عدم التبديل للفريق الأول مع ظهور حالهم للإيذان بمساواة الفريق الثاني لهم في الحكم.

وجوِّز أن يكون ضمير «بدَّلوا» للمنتظِرين خاصةً بناءً على أنَّ المحتاج إلى البيان حالهم، وفي الكلام تعريضٌ بمن بدَّل من المنافقين، حيث ولَّوا الأدبار وكانوا عاهدوا لا يولُّون الأدبار، فكأنه قيل: وما بدَّلوا تبديلاً كما بدَّل المنافقون، فتأمَّل جميع ذاك والله تعالى يتولَّى هُدَاك.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: الذين صَدَقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بسبب صدقهم، وصرَّح بذلك مع أنه يقتضيه تعليقُ الحكم بالمشتقِّ اعتناءً بأمر الصدق، واكتفى[1] بما يقتضيه التعليق في قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ لأنه الأصل ولا داعي إلى خلافه، والمراد: ويعذِّب المنافقين بنفاقهم ﴿إِن شَآءَ﴾ أي: تعذيبهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فلا يعذِّبهم بل يرحمهم سبحانه إن شاء عز وجل، كذا قيل، وظاهره أن كلًّا من التعذيب والرحمة للمنافقين يوم القيامة ـ ولو ماتوا على النفاق ـ معلَّقٌ بمشيئته تعالى.

واستشكل بأن النفاق أقبحُ الكفر كما يؤذن به قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] وقد أخبر عز وجل أنه سبحانه يعذِّب الكفرة مطلقاً حتماً لا محالةَ، فكيف هذا التعليق؟

وأجيب بأنه لا إشكال، فإنَّ الله جل جلاله لا يجب عليه شيءٌ، والتعليق لذلك، فهو جلَّ شأنه إن شاء عذَّب المنافق وإن شاء رحمه، لكنَّ المتحقّق أنه تبارك وتعالى شاء تعذيبه ولم يشأ رحمته، فكأنه قيل: إن شاء يعذِّبُ المنافقين في الآخرة لكنه سبحانه شاء تعذيبهم فيها، أو يتوبُ عليهم إن شاء، لكنه جلَّ وعلا لم يشأ، ورفعُ مقدَّم الشرطية الثانية في مثل هذه القضية يُنتجُ رفعَ التالي.

---

(١) في (م): ويكتفي.

وإنما لم تقيَّد مجازاةُ الصادقين بالمشيئة كما قيِّد تعذيبُ المنافقين والتوبةُ عليهم بها ـ مع أنه تعالى إن شاء يجزي الصادقين وإن شاء لم يَجْزِهم؛ لمكانِ نفي وجوب شيءٍ عليه تعالى ـ لمجموع أمرين هما تحقُّقُ مشيئة المجازاة، وكونُ الرحمة مقصودةً بالذات بخلافِ العذاب، وكأنه سبحانه لهذا الأخير لم يقل: ليثيب، أو: لينعم، وقال سبحانه في المقابل: «ويعذِّب».

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ التوبة عليهم مشروطةٌ بتوبتهم، ومعنى توبته تعالى على العباد قبولُ توبتهم، فكأنه قيل: أو يقبل توبتَهم إن تابوا، وحذف الشرط لظهور استلزام المذكور له. ويجوز أن تفسَّر توبته تعالى عليهم بتوفيقه تعالى إياهم للتوبة إليه سبحانه.

وكِلَا هذين المعنيين لتوبته تعالى واردٌ كما في «القاموس»[1]، وأيّاً ما كان فالأمرُ معلَّقٌ بالمشيئة ضرورةَ أنه لا يجب عليه سبحانه قبولُ التوبة ولا التوفيقُ لها، والمراد من تعليق تعذيب المنافقين بالمشيئة أنه تعالى إن شاء عذَّبهم بإبقائهم منافقين، وإن شاء سبحانه لم يعذِّبهم بأنْ يسلبَ عنهم وصف النفاق بالتوفيق إلى الإخلاص في الإيمان.

وقال ابن عطية[2]: تعذيبُ المنافقين ثمرةُ إقامتهم على النفاق وموتِهم عليه، والتوبةُ موازِنةٌ[3] لتلك الإقامة، وثمرتُها تركُهم بلا عذاب، فهناك أمران: إقامةٌ على النفاق، وتوبةٌ منه، وعنهما ثمرتان: تعذيبٌ ورحمةٌ، فذكر تعالى على جهة الإيجاز واحدةً من هاتين وواحدةً من هاتين، ودلَّ ما ذُكر على ما تُرك ذِكْرُه، ويدلُّك على أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾: ليديم على النفاق، قولُه سبحانه: ﴿إِن شَآءَ﴾ ومعادلتُه بالتوبة وحرفِ «أو». انتهى.

وأراد بذلك حلَّ الإشكال، وكأنَّ ما ذكره يؤول إلى أنَّ التقدير: ليقيموا على النفاق فيموتوا عليه إن شاء فيعذِّبهم أو يتوب عليهم فيرحمهم، فحذف سبب التعذيب وأثبت المسبَّب وهو التعذيب، وأثبت سبب الرحمة والغفران وحذف

(١) مادة (تاب).

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٨.

(٣) في المحرر: موازية، ومثله في البحر ٧/ ٢٢٣ نقلاً عن المحرر.

المسبَّب وهو الرحمة والغفران، وذلك من قبيل الاحتباك[١]. قال في «البحر»: وهذا من الإيجاز الحسن[٢].

وقال السديُّ: المعنى: ويعذِّب المنافقين إن شاء أن يميتهم على نفاقهم، أو يتوب عليهم بنقلهم من النفاق إلى الإيمان. وكأنه جَعَل مفعول المشيئة الإماتةَ على النفاق دون التعذيب كما هو الظاهر؛ لِمَا سمعتَ من استشكال تعليقِ تعذيبهم بالمشيئة مع أنه متحتِّمٌ.

وقيل لذلك أيضاً: إن المراد: يعذبهم في الدنيا إن شاء أو يتوب عليهم فلا يعذِّبهم فيها، وحُكي هذا عن الجبائي، والكلامُ عليه في غاية الظهور.

وقد يقال: المراد بالمنافقين الجماعةُ المخصوصون القائلون «ما وعدنا الله ورسولُه إلا غروراً» على أنَّ ذلك كالاسم لهم، فلا يلاحَظُ فيه مبدأ الاشتقاق، ولا يُجعَلُ علَّةً للحكم، بل العلَّة له ما يفهم من سياق الكلام، فيكون المعلَّق بالمشيئة تعذيبَ أناسٍ مخصوصين، ويكون المعنى: يعذِّب فلاناً وفلاناً ـ مثلاً ـ إن شاء بأن يميتهم سبحانه مصرِّين على ما هم عليه مما يقتضي التعذيب، أو يتوبُ عليهم بأن يوفِّقهم للتوبة فيرحمهم، ويجوز أن يراد بالصادقين نحوُ هذا، وحينئذٍ يكون قوله سبحانه: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ تصريحاً بما يفهم من السياق.

ويُفهَم من كلام شيخ الإسلام أنَّ ذكر الصدق وحده من باب الاكتفاء[٣]، حيث قال في معنى الآية: ليجزي الله الصادقين بما صدر عنهم من الأقوال والوفاء قولاً وفعلاً، ويعذِّب المنافقين بما صدر عنهم من الأعمال والأقوال المحكية[٤]. قيل:

---

(١) هو أن يُحذف من الأول ما أُثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول. الإتقان ٢/ ٨٣١.

(٢) البحر ٧/ ٢٢٣.

(٣) هو أن يقتضي المقام شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفَى بأحدهما عن الآخر لنكتة، ويختص غالباً بالارتباط العَطْفي، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد، وخصَّص «الحر» بالذكر لأن الخطاب للعرب، وبلادهم حارَّةٌ، فالوقاية عندهم من الحر أهم. وقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] أي: والشر، وخصَّ الخير بالذكر لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم. الإتقان ٢/ ٨٣٠.

(٤) تفسير أبي السعود ٧/ ٩٩.

ولم يقل في جانب المنافقين: بنفاقهم؛ لقوله سبحانه: ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ إلخ فإنه يستدعي فعلاً خاصّاً بهم. فتأمل.

والظاهر أن اللام في «ليجزي» للتعليل، والكلامُ عند كثيرٍ تعليلٌ للمنطوق من نفي التبديل عن الذين صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه، والمعرَّضِ به من إثبات التعريض[١] لمن سواهم من المنافقين، فإن الكلام على ما سمعت في قوة: وما بدَّلوا تبديلاً كما بدَّل المنافقون، فقوله: «ليجزي» «ويعذِّب» متعلِّقٌ بالمنفيِّ والمثبَتِ على اللفِّ والنشر التقديريِّ، وجَعْلُ تبديل المنافقين علةً للتعذيب مبنيٌّ على تشبيه المنافقين بالقاصدين عاقبةَ السوء على نهج الاستعارة المكنية، والقرينةُ إثباتُ معنى التعليل.

وقيل: إنَّ اللام للعلة حقيقةً بالنظر إلى المنطوق، ومجازاً بالنظر إلى المعرَّض به، ويكون من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز، وقد جوَّزه مَن جوَّزه.

وقيل: لا يَبعُدُ جَعْلُ «ليجزي» إلخ تعليلاً للمنطوق المقيَّد بالمعرَّض به، فكأنه قيل: ما بدَّلوا كغيرهم ليجزيهم بصِدْقِهم ويعذِّبَ غيرهم إن لم يتب، وأنه يظهر بحسن صنيعهم قبحُ غيره، وبضدِّها تتبيَّن الأشياء.

وقيل: تعليلٌ لـ «صَدَقوا»، وحُكي ذلك عن الزجَّاج[٢].

وقيل: لِمَا يُفهَم من قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

وقيل: لِمَا يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ كأنه قيل: ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب «ليجزي» الآية، واختاره الطيبي[٣] قائلاً: إنه طريقٌ أسهلُ مأخذاً، وأبعدُ عن التعسُّف، وأقربُ إلى المقصود، من جَعْلِه تعليلاً للمنطوق والمعرَّضِ به.

واختار شيخ الإسلام كونَه متعلِّقاً بمحذوفٍ، والكلامُ مستأنفٌ مسوقٌ بطريق الفذلكة لبيانِ ما هو داعٍ إلى وقوع ما حُكي من الأقوال والأفعال على التفصيل

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب: التبديل، بدل: التعريض. وينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٦٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢٣.

(٣) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

وغايةٌ [له] كما في قوله تعالى: (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ)، كأنه قيل: وقع جميعُ ما وقع ليجزي الله.. إلخ(١). وهو عندي حسنٌ وإن كان فيه حذفٌ، فتأمَّل ذاك والله تعالى يتولَّى هُداك.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: لمن تاب، وهذا اعتراضٌ فيه بعثٌ إلى التوبة.

وقوله سبحانه: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ﴾ إلخ رجوعٌ إلى حكايةِ بقيةِ القصة، وتفصيلٌ لتتمة النعمة المشارِ إليها إجمالاً بقوله تعالى: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) وهو معطوف على «أرسلنا»، وقد وسِّط بينهما بيانُ كون ما نزل بهم واقعةً طامَّة تحيَّرت بها العقولُ والأفهام، وداهيةٌ تحاكّت فيها الركبُ وزلَّت الأقدام، وتفصيلُ ما صدر عن فريقي أهل الإيمان وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال، لإظهار عظم النعمة وإبانةِ خطرها الجليل ببيانِ وصولها إليهم عند غاية احتياجهم إليها، أي: فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وَرَدَدْنا بذلك ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة.

وجوَّز شيخ الإسلام(٢) ـ ولعل صنيعه يشير إلى أولويته حيث بدأ به ـ كونَه معطوفاً على المقدَّر قبل: «ليجزيَ الله»، كأنه قيل إثر حكاية الأمور المذكورة: وقع ما وقع من الحوادث وردَّ الله الذين كفروا.

وقيل: هو معطوفٌ من حيث المعنى على قوله تعالى: (لِّيَجْزِيَ) كأنه قيل: فكان عاقبة الذين صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه أن جزاهم الله تعالى بصدقهم وردَّ أعداءهم، وهذا الردُّ من جملة جزائهم على صدقهم. وهو كما ترى.

والمراد بـ «الذين كفروا»: الأحزابُ على ما روى غير واحدٍ عن مجاهد، والظاهرُ أنه عنى المشركين واليهود الذين تحزَّبوا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديِّ أنه فسَّر ذلك بأبي سفيان وأصحابه(٣)، ولعله الأَوْلى.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ٩٩، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في تفسيره ٧/ ٩٩، والكلام الذي قبله منه.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٩٢.

وعلى القولين المراد: ردَّ الله الذين كفروا من محلِّ اجتماعهم حول المدينة وتحزُّبهم إلى مساكنهم ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ حالٌ من الموصول لا من ضمير «كفروا» والباءُ للملابسة، أي: ملتبسين بغيظهم، وهو أشدُّ الغضب.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ حالٌ من ذاك أيضاً، أو من ضمير «بغيظهم» أي: غيرَ ظافرين بخيرٍ أصلاً. وفسَّر بعضهم الخير بالظَّفرِ بالنبيِّ ﷺ والمؤمنين، وإطلاقُ الخير عليه مبنيٌّ على زعمهم. وفسَّره بعضهم بالمال كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]. والأَوْلى أن يراد به كلُّ خير عندهم، فالنكرةُ في سياق النفي تعمُّ.

وجوِّز أن تكون الجملةُ مستأنفةً لبيانِ سببِ غيظهم، أو بدلاً.

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: وقاهم سبحانه ذلك، و«كفى» هذه تتعدَّى لاثنين.

وقيل: هي بمعنى أَغْنَى، وتتعدَّى إلى مفعولٍ واحد، والكلام هنا على الحذف والإيصال، والأصلُ: وكفى الله المؤمنين عن القتال، أي: أغناهم سبحانه عنه. ولا وجهَ له.

وهذه الكفايةُ كانت ـ كما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ـ بالريح والملائكة عليهم السلام(١).

وقيل: بقتلِ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه عمرو بنَ عبد ودٍّ. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ هذا الحرف: «وكفى الله المؤمنين القتال بعليِّ بن أبي طالب»(٢). وفي «مجمع البيان»: هو المرويُّ عن أبي عبد الله رضي الله عنه(٣). ولا يكاد يصحُّ ذلك.

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٦٩، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٩٢.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٩٢، وهو في تاريخ ابن عساكر ٤٢/ ٣٦٠، والميزان ٢/ ٣٨٠. وفي إسناده الفضل بن القاسم، قال الذهبي: لا أعرفه. ويرويه عنه عباد بن يعقوب، قال الذهبي: من غلاة الشيعة ورؤوس البدع، لكنه صادق الحديث، وقال ابن عدي: روى أحاديث في الفضائل أنكرت عليه.

(٣) لم نقف عليه في مجمع البيان، وليس فيه سوى الإشارة إلى القول المذكور، حيث قال ٢١/ ١٢٥: وقيل: بعلي بن أبي طالب.

والظاهر ما روي عن قتادة لمكانِ قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وكأنَّ المراد بالقتال الذي كفاهم الله تعالى إياه القتالُ على الوجه المعروف من تعبية الصفوف والرمي بالسهام والمقارعةِ بالسيوف، أو القتالُ الذي يقتضيه ذلك التحزُّب والاجتماع بحُكم العادة.

وفي «البحر»[1] ما هو ظاهرٌ في أنَّ المراد: كفى الله المؤمنين مداومةَ القتال وعودتَه، فإنَّ قريشاً هُزموا بقوة الله تعالى وعزَّته عز وجل، وما غزوا المسلمين بعد ذلك، وإلا فقد وقع قتالٌ في الجملة.

وقُتل من المشركين على ما روي عن ابن إسحاق ثلاثةُ نفرٍ: من بني عبد الدار بن قصيٍّ: منبه بنُ عثمان بن عبيد بن السبَّاق بن عبد الدار، أصابه سهم فمات منه بمكة. ومن بني مخزوم بن يَقَظة: نوفل بن عبد الله بن المغيرة اقتحم الخندق فتورَّط فيه فقتل. ومن بني عامر بن لؤيٍّ ثم من بني مالك بن حِسْل: عمرو بن عبد ودٍّ، نازله عليٌّ كرم الله تعالى وجهه كما علمتَ فقتله. وروي عن ابن شهاب أنه رضي الله عنه قَتل يومئذٍ ابنَه حِسْل أيضاً[2]. فيكون مَن قُتل من المشركين أربعةً.

واستُشهد من المؤمنين بسبب هذه الغزوة: سعد بنُ معاذٍ، وأنس بنُ أوس بنِ عتيك، وعبد الله بن سهل، وهم من بني عبد الأشهل، والطُّفيل بن النعمان وثعلبة بن عَنَمة، وهما من بني جشم بن الخزرج من بني سلمة، وكعب بن زيد، وهو من بني النجار ثم من بني دينار، أصابه سهم غرب[3] فقتله، قال ابن إسحاق: ولم يستشهد إلا هؤلاء الستة رضي الله عنهم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداث كلِّ ما يريد جلَّ شأنه ﴿عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ غالباً على كلِّ شيءٍ.

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ أي: عاونوا الأحزاب المردودة ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم بنو قريظة عند الجمهور. وعن الحسن أنهم بنو النضير، وعلى الأوَّلِ المعوَّل.

---

(١) ٧/ ٢٢٤.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٥٣. والراوي عن ابن شهاب هو ابن هشام.

(٣) قوله: سهم غرب، قال ابن هشام: سهمُ غربٍ وسهمٌ غربٌ، بإضافةٍ ومن غير إضافة: هو الذي لا يعرف من أين جاء، ولا مَن رمَى به.

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصونهم، جمع صِيْصِيَة، وهي كلُّ ما يمتنع به، وتقال لقَرْنِ الثور والظبي[١]، ولشوكة الديك التي في رجله كالقرن الصغير، وتطلق الصياصي على الشوك الذي للنساجين ويتَّخذ من حديدٍ، قاله أبو عبيدة، وأنشد لدريد بن الصمة الجشمي:

نظرتُ إليه والرماحُ تَنُوشُه   كوَقْعِ الصياصي في النسيج الممدَّدِ[٢]

وتطلق على الأصول أيضاً؛ قال أبو عبيدة: إنَّ العرب تقول: جذَّ الله تعالى صِئْصِئَه[٣]، أي: أصله.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: الخوف الشديد، بحيث أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأولادَهم للأسر، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦﴾ أي: من غير أن يكون من جهتهم حراكٌ، فضلاً عن المخالفة والاستعصاء.

وفي «البحر» أنَّ قذف الرعب سببٌ لإنزالهم، ولكن قدَّم المسبَّب لِمَا أن السرور بإنزالهم أكثر والإخبار به أهمّ[٤].

وقدَّم مفعول «تقتلون» لأنَّ القتل وقع على الرجال وكانوا مشهورين، وكان الاعتناء بحالهم أهمَّ، ولم يكن في المأسورين هذا الاعتناء، بل الاعتناءُ هناك بالأسر أشدّ، ولو قيل: وفريقاً تأسرون، لربما ظُنَّ قبل سماع «تأسرون» أنه يقال بعدُ: تهزمون، أو نحو ذلك.

وقيل: قدَّم المفعول في الجملة الأولى لأنَّ مساق الكلام لتفصيله، وأخَّر في الثانية لمراعاة الفواصل.

وقيل: التقديم لذلك، وأما التأخير فلئلَّا يَفصل بين القتل وأخيه وهو الأسرُ فاصلٌ.

---

(١) في (م): والظباء.

(٢) مجاز القرآن ٢/١٣٦، وهو في الديوان ص٤٨، وصدره في المجاز: فما راعني إلا الرماح تنوشه، وفي الديوان: فجئت إليه والرماح...

(٣) في مجاز القرآن: جذَّ الله صيصة فلان. وينظر اللسان والقاموس (صأصأ).

(٤) البحر ٧/ ٢٢٤.

وقيل: غُويِرَ بين الجملتين في النظم لتغايُر حال الفريقين في الواقع، فقد قدِّم أحدهما فقُتِلَ، وأُخِّرَ الآخر فأُسر.

وقرأ ابن عامر والكسائي: «الرعُب» بضم العين[(١)].

وقرأ أبو حيوة: «تأسُرون» بضم السين. وقرأ اليماني: «يأسرون» بياء الغيبة[(٢)]. وقرأ ابن أنس عن ابن ذكوان بها فيه وفي «يقتلون»[(٣)]، ولا يظهر لي وجهٌ وجيهٌ لتخصيص الاسم بصيغة الغيبة، فتأمل.

وتفصيل القصة على سبيل الاختصار[(٤)]: أنه لمَّا كانت صبيحةُ الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، أو ظُهْرُ يوم تلك الليلة على ما في بعض الروايات، وقد رجع رسول الله ﷺ والمسلمون إلى داخل المدينة، أتى جبريلُ عليه السلام ـ مُعْتَجِراً بعمامةِ إستبرق على بغلةٍ عليها رِحَالةٌ[(٥)]، عليها قطيفةٌ من ديباجٍ ـ رسولَ الله ﷺ وهو عند زينب بنت جحش تغسلُ رأسه الشريف وقد غسلت شقَّه، فقال: أوَ قد وضعتَ السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم». فقال: عفا الله تعالى عنك، ما وضعت الملائكةُ عليهم السلام السلاحَ بعدُ، وما رجعت إلَّا الآن[(٦)] من طلب القوم، وإنَّ الله تعالى يأمرك بالمسير إلى بني قريظةَ، وإنِّي عامدٌ إليهم فمزلزلٌ بهم حصونَهم.

فأمَر عليه الصلاة والسلام مؤذِّناً فأذَّن في الناس: مَن كان سامعاً مطيعاً فلا يصلِّينَّ العصر إلا ببني قريظةَ، واستعمل على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم، وقَدَّمَ عليَّ بنَ أبي طالب كرم الله تعالى وجهه برايته إليهم، وابتدرها الناس، فسار كرم الله تعالى وجهه حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالةً قبيحةً لرسول الله ﷺ، فرجع

---

(١) التيسير ص٩١، والنشر ٢/ ٢١٦، وهي قراءة يعقوب وأبي جعفر من العشرة.
(٢) القراءتان في القراءات الشاذة ص١١٩، والبحر ٧/ ٢٢٥.
(٣) البحر ٧/ ٢٢٥.
(٤) ينظر ما سيأتي من هذه القصة في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٣، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٨١، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٥، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص٢٠١، والاكتفاء للكلاعي ٢/ ١٧٦، وتفسير الطبري ١٩/ ٧٢، وتفسير البغوي ٣/ ٥٢١، وما سيأتي بين حاصرتين من هذه المصادر.
(٥) الرِّحالة: السرج. القاموس (رحل).
(٦) في المصادر: الآن إلا.

حتى لقيه عليه الصلاة والسلام، فقال: يا رسول الله، لا عليك أن [لا] تَدْنُوَ من هؤلاء الأخابث. قال: «لم؟ أظنُّك سمعتَ لي منهم[١] أذًى» قال: نعم يا رسول الله. قال: «لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً» فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: «يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله تعالى وأنزل بكم نقمته»؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنتَ جهولاً. وفي روايةٍ: فحَّاشاً.

وكان عليه الصلاة والسلام قد مرَّ بنفرٍ من أصحابه بالصَّوْرين[٢] قبل أن يصل إليهم فقال: «هل مرَّ بكم أحدٌ» قالوا: يا رسول الله، قد مرَّ بنا دحيةُ بن خليفة الكلبيُّ على بغلةٍ بيضاءَ عليها رحالةٌ، عليها قطيفةُ ديباجٍ. فقال عليه الصلاة والسلام: «ذلك جبريل عليه السلام بُعث إلى بني قريظة يزلزلُ بهم حصونَهم، ويقذف الرعب في قلوبهم».

ولمَّا أتاهم ﷺ نزل على بئرٍ من آبارها من ناحيةِ أموالهم يقال لها: بئر أنا[٣]، وتلاحَقَ الناس فأتى رجالٌ من بعد العشاء الآخِرة ولم يُصَلُّوا العصر لقول رسول الله ﷺ: «لا يصلِّينَّ أحدٌ العصرَ إلا ببني قريظة» وقد شغلهم ما لم يكن لهم منه بدٌّ في حربهم، فلما أتوا صلَّوها بعد العشاء فما عابهم الله تعالى بذلك في كتابه، ولا عنَّفهم رسوله عليه الصلاة والسلام[٤].

وحاصرهم ﷺ خمساً وعشرين ليلةً. وقيل: إحدى وعشرين. وقيل: خمسَ عَشْرةَ. وجهدهم الحصارُ وخافوا أشدَّ الخوف، وقد كان حيي بن أخطب دخل معهم في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاءً لكعب بن أسد بما عاهده عليه، فلمَّا أيقنوا بأنَّ رسول الله ﷺ غيرُ منصرفٍ عنهم حتى يناجزهم قال لهم كعب: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنِّي عارضٌ عليكم

---

(١) في السيرة وبعض المصادر: منهم لي.

(٢) موضع قرب المدينة. معجم البلدان ٣/ ٤٣٤.

(٣) كهُنَا، أو كحتَّى، أو بكسر النون المشدَّدة. القاموس (أنى).

(٤) أخرج البخاري (٤١١٩)، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلِّينَّ أحدٌ العصرَ إلا في بني قريظة» فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلِّي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلِّي، لم يُرِدْ منَّا ذلك. فذُكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنِّف واحداً منهم.

خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي؟ قال: نتابعُ هذا الرجل ونصدِّقُه، فوالله لقد تبيَّن لكم أنه نبيٌّ مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمَنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارقُ حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتُم عليَّ هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد ﷺ وأصحابِه رجالاً مُصْلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله تعالى بيننا وبينهم، فإنْ نَهْلكْ نهلكْ ولم نتركْ وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنتَّخِذنَّ النساء والأبناء. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خيرُ العيش بعدهم. قال: فإن أبيتُم عليَّ هذه فإنَّ الليلة ليلةُ السبت، وإنه عسى أن يكون محمدٌ ﷺ وأصحابُه قد أَمِنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيبُ منهم غرَّةً. قالوا: نفسدُ سبتنا ونُحْدثُ فيه ما لم يُحْدِثْ مَن كان قبلنا إلا مَن قد علمتَ، فأصابه ما لم يَخْفَ عليك من المسخ. قال: فما بات رجلٌ منكم منذ ولدته أمُّه ليلةً واحدةً من الدهر حازماً.

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف ـ وكانوا حلفاءَ الأوس ـ نستشيرُه في أمرنا. فأرسله عليه الصلاة والسلام إليهم، فلمَّا رأوه قام إليه الرجال وجَهَش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فَرَقَّ لهم وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد ﷺ. قال: نعم. وأشار بيده إلى حَلْقِه أنه الذبح، فعرف أنه قد خان الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، فلم يرجع إلى رسول الله ﷺ، وذهب إلى المدينة وربط نفسه بجذع في المسجد حتى نزلت توبتُه رضي الله عنه.

ثم إنه عليه الصلاة والسلام استنزلهم، فتواثب الأوس فقالوا: يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلتَ في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمتَ. وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة حاصَرَ بني قينقاع وقد كانوا حلفاءَ الخزرج، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بنُ أبيّ ابن سلول فوهبهم له، فلما كلَّمته الأوس قال عليه الصلاة والسلام: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يَحكُم فيهم رجل منكم»؟ قالوا: بلى. قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ» وكان رسول الله ﷺ قد جعله في خيمةٍ لامرأة من أسلم يقال لها: رُفَيْدة، في مسجده كانت تداوي الجرحى

وتحتسبُ بنفسها على خدمة مَن كانت به صنيعةٌ من المسلمين، وقد كان ﷺ قد أصيب يومَ الخندق، رماه رجلٌ من قريش - يقال له: ابن العَرِقَة[1] - بسهمٍ فأصاب أَكْحَله فقطعه، فدعا الله تعالى فقال: اللهم لا تُمِتْني حتى تقرَّ عيني من قريظة. وروي أن بني قريظةَ هم اختاروا النزول على حكم سعد ورضي رسول الله ﷺ بذلك، فأتاه قومه وهو في المسجد فحملوه على حمارٍ وقد وطَّؤوا له بوسادةٍ من أَدَم، وكان رجلاً جسيماً جميلاً، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو، أَحْسِنْ في مواليك فإنَّ رسول الله ﷺ إنما ولَّاك ذلك لتُحْسِنَ فيهم. فلمَّا أكثروا عليه قال: لقد آن لسعدٍ أن لا تأخذه في الله تعالى لومةُ لائمٍ، فرجع بعضُ مَن كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى إليهم رجالَ بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعدٌ عن كلمته التي سمع منه، فلمَّا انتهى سعد إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام والمسلمين قال ﷺ: «قوموا إلى سيِّدكم» فأما المهاجرون من قريش فقالوا: إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصارَ، وأما الأنصارُ فيقولون: قد عمَّ بها عليه الصلاة والسلام المسلمين. فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولَّاك أمرَ مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد: عليكم عهدُ الله تعالى وميثاقُه أنَّ الحكم فيهم لَمَا حكمتُ؟ قالوا: نعم. قال: وعلى مَن هاهنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرِّضٌ برسول الله عليه الصلاة والسلام[2]؟ فقال ﷺ: «نعم» قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجالُ وتقسَّم الأموالُ وتُسبى الذراري والنساء. فكبَّر النبيُّ ﷺ وقال: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[3].

---

(١) هو حبَّان بن العرقة، كما في صحيح البخاري (٤١٢٢)، وصحيح مسلم (١٧٦٩) من حديث عائشة، وقال ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٧: رماه كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة: حبان بن قيس بن العرقة أحد بني عامر بن لؤي... وحدثني مَن لا أتَّهم عن عبد الله بن كعب بن مالك أنه كان يقول: ما أصاب سعداً يومئذ إلا أبو أسامة الجُشَمي حليف بني مخزوم.

(٢) في المصادر: وهو معرِضٌ عن رسول الله ﷺ إجلالاً له.

(٣) أي: سماوات. المفهم ٣/ ٥٩٥، والحديث أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، ولفظ البخاري: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك».

فحبسهم رسول الله ﷺ في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج إلى سوق المدينة ـ التي هي سوقُها اليومَ[١] ـ فخَنْدَقَ بها خنادق ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يُخْرَجُ بهم إليها[٢] أرسالاً، وفيهم عدوُّ الله تعالى حييّ بنُ أخطب، وكعب بنُ أسد رأسُ القوم، وهم ستُّ مئة أو سبعُ مئة، والمستكثِرُ لهم يقول: كانوا بين الثمان مئة والتسع مئة. وقد قالوا لكعب وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كلِّ موطنٍ لا تعقلون، أما ترون الداعي لا ينزع، ومَن ذهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتلُ. فلم يزل ذلك الدأبُ حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ، وأتى بحييّ بن أخطب عدوِّ الله تعالى وعليه حلَّة تفاحية[٣] قد شقَّها عليه من كلِّ ناحيةٍ قَدْرَ أنملةٍ أنملةٍ لئلا يُسْلَبها، مجموعةً يداه إلى عنقه بحبلٍ، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أَمَا والله ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولكنه مَن يَخْذِلِ الله تعالى يُخْذَلْ. ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس إنه لا بأسَ بأمر الله تعالى، كتابٌ وقَدَرٌ وملحمةٌ كُتبت على بني إسرائيل. ثم جلس فضُربت عنقه، فقال فيه جَبَل بن جَوَّال[٤] الثعلبيّ:

لعمرُكَ ما لام ابنُ أخطبَ نفسَه ... ولكنه مَن يَخْذِلِ الله يُخْذَلِ
لجاهَدَ حتى أبلغ النفسَ عُذْرَها ... وقَلْقَلَ يبغي العزَّ كلَّ مُقَلْقَلِ[٥]

وروي أنَّ ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه استَوْهَبَ من رسول الله ﷺ الزَّبيرَ بنَ باطا القرظيَّ لأنه منَّ عليه في الجاهلية يوم بُعَاث، فقال ﷺ: «هو لك» فأتاه فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك، فهو لك. قال: شيخٌ كبيرٌ فما يصنعُ بالحياة

---

(١) أي: زمن ابن إسحاق كما ذكر القرطبي ١٧/ ٨٦.
(٢) في الأصل و(م): يخرج إليهم بها، والمثبت من المصادر.
(٣) جاء في هامش الأصل و(م): قال ابن هشام: تفاحية ضرب من الوشي. اهـ منه. والذي في السيرة وغيرها من المصادر: فُقَّاحية، وقال السهيلي في الروض الأنف ٣/ ٢٨٤: نُسبت إلى الفقَّاح، وهو الزهر إذا انشقَّت أكمتُه، وانْضَرجت براعيمه، وتفتَّقت أَخْفِيَتُه. وفي اللسان (فقح): فقاحية، أي على لون الورد حين همَّ أن يتفتح.
(٤) في (م): جدال، وهو تصحيف.
(٥) السيرة ٢/ ٢٤١، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٨٩، والاكتفاء ٢/ ١٨٣. وجبل بن جوَّال الشاعر الذبياني ثم الثعلبي، قال عنه الكلبي: كان يهودياً مع بني قريظة فأسلم، وقال الدارقطني في المؤتلف: له صحبة. الإصابة ٢/ ٥٩.

ولا أهلَ له ولا ولد؟ فأتى ثابتٌ رسولَ الله عليه الصلاة والسلام، فقال: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله امرأتَه وولدَه. قال: «هم لك» فأتاه فقال: قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك، فهم لك. قال: أهلُ بيتٍ بالحجاز لا مالَ لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى رسولَ الله عليه الصلاة والسلام فقال: مالَه. قال: «هو لك» فأتاه فقال: قد أعطاني رسول الله ﷺ مالَكَ، فهو لك. فقال: أيْ ثابت، ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية يتمرَّأ فيها عذارى الحي كعب بنُ أسد؟ قال: قُتل. قال: فما فعل مقدِّمتُنا إذا شَدَدْنا وحاميتُنا إذا فررنا عزال بن شموال[1]؟ قال: قتل. قال: فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة، قال: قتلوا. قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلَّا ألْحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خيرٍ، فما أنا بصابرٍ لله تعالى فتلة دَلْوِ ناضحٍ[2] حتى ألقى الأحبَّة. فقدَّمه ثابتٌ فضرب عنقه، فلما بلغ أبا بكر ﷺ قوله: ألقى الأحبة، قال: يلقاهم والله في جهنم خالدين فيها مخلَّدين.

واستوهبت سلمى بنتُ قيس أمُّ المنذر أختُ سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلَّت معه القبلتين، وبايعتْه مبايعةَ النساء، رفاعةَ بن سموأل القرظيَّ، وقالت: بأبي أنت وأمِّي يا نبيَّ الله، هَبْ لي رفاعةَ فإنه زعم أنه سيصلِّي ويأكلُ لحم الجمل. فوهبه عليه الصلاة والسلام لها فاستحيته[3].

وقتل منهم[4] كلَّ مَن أنبت من الذكور. وأما النساء فلم يقتل منهم إلا امرأة يقال لها: لبابة، زوجة الحكم القرظي، وكانت قد طرحت الرَّحى على خلَّاد بن

---

(١) في السيرة: سموأل، وفي تاريخ الطبري: شمويل، والمثبت من الأصل و(م) والاكتفاء.

(٢) في الأصل و(م): ذكر ناصح، والمثبت من المصادر. والناضح: الجمل الذي يُستخرج عليه الماء من البئر، والمعنى: مقدار ما يأخذ الرجل الدلو إذا خرجت فيصبّها في الحوض ثم يفتلها، أي: يردُّها إلى موضعها. وقال ابن هشام: هي قَبْلَة دلو، بالقاف والباء، أي: بمقدار ما يقبل الرجل الدلو فيصبها في الحوض ثم يصرفها، وهذا كله لا يكون إلا عن استعجال وسرعة، وذكر أبو عبيد غير ذلك، فقال: إفراغة دلو. الروض الأنف ٣/ ٢٨٤، والإملاء المختصر لأبي ذر الخشني ٣/ ١٠.

(٣) قال ابن عبد البر في الدرر ص٢٠٧: فأسلم رفاعة، وله صحبة ورواية.

(٤) في (م): منه.

سُوَيْدٍ فقتلته. أخرج ابن إسحاق عن عروة بن الزُّبير عن عائشة قالت: والله إنَّ هذه الامرأة لَعِنْدي تحدَّثُ معي وتضحك ظهراً وبطناً ورسولُ الله ﷺ يقتل رجالها بالسيوف، إذ هتف هاتفٌ باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قلت لها: ويلك ما لَكِ؟ قالت: أُقتل. قلت: ولم؟ قالت: لحدثٍ أحدثْتُه. فانطلق بها فضُرِبَتْ عنقُها، فكانت عائشة رضي الله عنها تقول: فواللهِ ما أنسى عجباً منها طِيْبَ نفسِها وكثرةَ ضحكِها وقد عَرَفتْ أنها تقتل(١).

ثم إنَّ رسول الله ﷺ قسم أموالهم ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأَعْلَمَ في ذلك اليوم سُهْمانَ الخيل وسُهْمان الرجال، وأخرج منها الخمس، وكان للفرس سهمان، وللفارس سهمٌ، وللراجل الذي ليس له فرسٌ سهمٌ، وكانت الخيل في تلك الغزوة ستةً وثلاثين فرساً، وهو أولُ فيءٍ وقعت فيه السُّهمان وأُخْرِجَ منه الخمسُ على ما ذكر ابنُ إسحاق(٢).

ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بنَ زيد الأنصاريَّ أخا بني عبد الأشهل بسبايا من سبايا القوم - وكانت السبايا كلُّها على ما قيل سبعَ مئةٍ وخمسين - إلى نجدٍ، فابتاع بها لهم خيلاً وسلاحاً، وكان عليه الصلاة والسلام قد اصطفى لنفسه الكريمة من نسائهم ريحانةَ بنت عمرو، وكانت في ملكه ﷺ حتى توفي، وقد كان عليه الصلاة والسلام عرض عليها أن يتزوَّجها ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله، بل تتركُني في ملكك فهو أخفُّ عليَّ وعليك. فتركها ﷺ، وكانت حين سباها قد أبت إلا اليهودية، فعزلها عليه الصلاة والسلام ووَجَد في نفسه لذلك، فبينما هو ﷺ مع أصحابه إذ سمع وَقْعَ نعلين خلفه، فقال: «إنَّ هذا لثَعْلَبة(٣) بن سَعْية، جاء

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٢، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٦٣٦٤)، وأبو داود (٢٦٧١).

(٢) السيرة النبوية ٢/ ٢٤٤. قال ابن عبد البر في الدرر ص١٨٢ (طبعة دار المعارف): وقد تقدم أن أول ذلك كان في بعث عبد الله بن جحش رضي الله عنه، وتهذيب ذلك أن تكون غنيمة قريظة أول غنيمة جرى فيها الخمس بعد نزول قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية [الأنفال: ٤١] وكان عبد الله بن جحش قد خمَّس قبل ذلك في بَعْثِه، ثم نزل القرآن بمثل ما فعله، وكان ذلك من فضائله رضي الله عنه.

(٣) في الأصل و(م): لنعلا، والمثبت من المصادر. ينظر السيرة ٢/ ٢٤٥، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٩٢، والاكتفاء ٢/ ١٨٦.

يبشرني بإسلام ريحانة» فجاءه فقال: يا رسول الله، قد أسلمت ريحانة. فسرَّه ذلك من أمرها.

وكان الفتحُ على ما في «البحر» في آخر ذي القعدة[1]، وهذه الغزوةُ وغزوةُ الخندق كانتا في سنةٍ واحدةٍ كما يدلُّ عليه ما ذكرناه أولَ القصة، وهو الصحيحُ خلافاً لمن قال: إنَّ كلًّا منهما في سنة.

ولمَّا انقضى شأنُ بني قريظة انفجر لسعدٍ ﷺ جرحُه فمات شهيداً، وقد استبشرت الملائكة عليهم السلام بروحه، واهتزَّ له العرش، وفي ذلك يقول رجلٌ من الأنصار:

وما اهتزَّ عرشُ الله من موتِ هالكٍ سمعنا به إلا لسعدٍ أبي عمرو[2]

واستُشهد يوم بني قريظةَ على ما روي عن ابن إسحاق من المسلمين من بني الحارثِ بن الخزرج خلَّاد بنُ سويد بن ثعلبة بن عمرو، طُرِحَتْ عليه رحًى فشدَخَتْه شَدْخاً شديداً، وذَكروا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ له لأَجْرَ شهيدين». ومات أبو سنان بن مِحْصَن بن حُرْثان أخو بني أسد بن خزيمة ورسولُ الله عليه الصلاة والسلام محاصرٌ بني قريظةَ، فدفن في مقبرتهم التي يدفنون فيها اليوم، وإليه دفنوا موتاهم في الإسلام[3]. وتمام الكلام فيما وقع في هذه الغزوة في كتب السِّيَر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ عطفٌ على قوله سبحانه وتعالى: (وَأَنزَلَ) إلخ، والمراد بأرضهم مزارعُهم، وقدِّمت لكثرة المنفعة بها من النخل والزروع.

وفي قوله عز وجل: (وَأَوْرَثَكُمْ) إشعارٌ بأنه انتقل إليهم ذلك بعد موت أولئك المقتولين، وأنَّ ملكهم إياه ملْكٌ قويٌّ ليس بعقدٍ يقبل الفسخَ أو الإقالة.

---

(١) البحر ٧/ ٢٢٥.

(٢) السيرة النبوية ٢/ ٢٥٢، وحديث اهتزاز العرش لموت سعد ﷺ أخرجه البخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦) عن جابر ﷺ.

(٣) السيرة النبوية ٢/ ٢٥٤.

﴿وَدِيَـٰرَهُمْ﴾ أي: حصونَهم ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ نقودَهم ومواشِيَهم وأثاثَهم التي اشتملت عليها أرضُهم وديارُهم. أخرج ابن أبي شيبة وابنُ جرير وابنُ المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة من خبرٍ طويل أنَّ سعداً رضي الله عنه حَكَمَ كما حَكَمَ بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم بأنَّ أعقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقال قومه: أتؤثِرُ المهاجرين بالأعقار علينا؟! فقال: إنكم ذوو أعقارٍ وإنَّ المهاجرين لا أعقارَ لهم. وأمضى رسول الله ﷺ حُكْمَه[1].

وفي «الكشاف»: روي أنَّ رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقالت الأنصار في ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنكم في منازلكم». وقال عمر رضي الله عنه: أمَا تخمِّسُ كما خمَّستَ يوم بدر؟ قال: «لا، إنما جُعلت هذه لي طعمةً دون الناس» قال: رضينا بما صنع الله تعالى ورسوله ﷺ[2].

وذكر الجلال السيوطيُّ أنَّ الخبر رواه الواقديُّ من روايةِ خارجةَ بن زيدٍ عن أمِّ العلاء قالت: لمَّا غَنِمَ رسول الله ﷺ بني النضير جعل. . . الحديثَ. ومن طريق المسور بن رفاعة قال: فقال عمر: يا رسول الله، ألا تخمِّس ما أصيب من بني النضير؟ الحديثَ[3]. اهـ، وعليه لا يَحْسنُ من الزمخشريِّ ذِكْرُه هاهنا مع أنَّ الآيات عنده في شأن بني قريظة. وسيأتي الكلام فيما وقع لبني النضير في تفسير سورة الحشر إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ قال مقاتل ويزيد بن رومان وابن زيد: هي خيبر فُتحت بعد بني قريظة. وقال قتادةُ: كان يُتحدَّث أنها مكة. وقال الحسن: هي أرض الروم وفارس. وقيل: اليمن.

وقال عكرمة: هي ما ظهر عليها المسلمون إلى يوم القيامة. واختاره في «البحر»[4]. وقال عروة: لا أحسبها إلا كلَّ أرضٍ فتحها الله تعالى على المسلمين، أو هو عزَّ وجل فاتحُها إلى يوم القيامة.

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٧٢، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٩٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٥٧-٢٥٨.

(٣) الخبران في مغازي الواقدي ١/ ٣٧٧-٣٧٩.

(٤) ٧/ ٢٢٥.

والظاهر أن العطف على «أرضهم». واستشكل بأنَّ الإرث ماضٍ حقيقةً بالنسبة إلى المعطوف عليه، ومَجازاً بالنسبة إلى هذا المعطوف.

وأجيب بأنه يُراد بـ «أورثكم»: أورثكم في علمه وتقديره، وذلك متحقِّقٌ فيما وقع من الإرث كإرث أرضهم[1] وديارهم وأموالهم، وفيما لم يقع بعدُ كإرْثِ ما لم يكن مفتوحاً وقتَ نزول الآية.

وقدَّر بعضهم أورثكم في جانب المعطوف مراداً به: يُوْرِثُكم، إلا أنه عبَّر بالماضي لتحقُّقِ الوقوع، والدليلُ المذكورُ[2]، واستُبعد دلالةُ المذكورِ عليه لتخالُفِهما حقيقةً ومجازاً. وقيل: الدليل ما بَعْدُ من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ إلخ.

ثم إذا جُعلت الأرض شاملةً لِمَا فُتح على أيدي الحاضرين ولِمَا فُتح على أيدي غيرهم ممن جاء بعدهم لا يَخُصُّ الخطاب الحاضرين كما لا يخفى.

ومن بِدَع التفاسير أنه أريدَ بهذه الأرض نساؤهم، وعليه لا يُتوهَّم إشكالٌ في العطف.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «لم تطُوها» بحذف الهمزة، أبدل همزةَ تطأ ألفاً[3]، على حدِّ قوله:

إنَّ السباع لتَهْدَا في مرابضها والناسُ لا يُهْتَدَى من شرِّهم أبداً[4]

فالتقت ساكنة مع الواو فحذفت كقولك: لم تَرَوْها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ فهو سبحانه قادرٌ على أن يملِّككم ما شاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: السعةَ والتنعُّمَ فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي: زخرفها، وهو تخصيصٌ بعد تعميمٍ ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أي: أَقبِلْنَ

---

(١) في (م): كأرضهم، بدل: كإرث أرضهم.

(٢) أي: الدليل على هذا التقدير هو المذكور من قوله: «وأورثكم أرضهم...».

(٣) البحر ٧/ ٢٢٥.

(٤) البيت لإبراهيم ابن هرمة، وهو في ديوانه ص٩٧، والبحر ٧/ ٢٢٥، والكلام منه، ورواية الديوان:

إن السباع لتهدا عن فرائسها والناسُ ليس بهادٍ شرُّهم أبداً

بإرادتِكُنَّ واختيارِكُنَّ لإحدى الخصلتين، كما يقال: أَقبلَ يخاصمني، وذهب يكلِّمني، وقام يهدِّدني.

وأصل «تعال» أمرٌ بالصعود لمكانٍ عالٍ، ثم غلب في الأمر بالمجيء مطلقاً والمراد به هاهنا ما سمعتَ.

وقال الراغب: قال بعضهم: إنَّ أصله من العلوِّ، وهو ارتفاعُ المنزلة، فكأنه دعاءٌ إلى ما فيه رفعةٌ، كقولك: افعل كذا غيرَ صاغرٍ، تشريفاً للمقول له[1]. وهذا المعنى غيرُ مرادٍ هنا كما لا يخفى.

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي: أُعطِكُنَّ متعةَ الطلاق. والمتعةُ للمطلَّقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها في العقد واجبةٌ عند الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وأصحابِه، ولسائر المطلَّقات مستحبَّةٌ.

وعن الزهريِّ: متعتان؛ إحداهما يقضي بها السلطان، ويُجبَر عليها مَن طلَّق قبل أن يفرض ويدخل بها، والثانيةُ حقٌّ على المتقين مَن طلَّق بعد ما فرض ودخل. وخاصمت امرأةٌ إلى شُريحٍ في المتعة فقال: متِّعها إن كنتَ من المتقين. ولم يجبره.

وعن سعيد بن جبير: المتعةُ حقٌّ مفروضٌ. وعن الحسن: لكلِّ مطلَّقةٍ متعةٌ إلا المختلعة والملاعنة.

والمتعةُ درعٌ وخمارٌ وملحفةٌ، على حَسَبِ السعة والإقتار، إلا أن يكون نصفُ مهرها أقلَّ من ذلك، فيجب لها الأقلُّ منهما، ولا ينقص من خمسة دراهم؛ لأنَّ أقلَّ المهر عشرةُ دراهم فلا ينقصُ من نصفها، كذا في «الكشاف»[2]، وتمامُ الكلام في الفروع.

والفعل مجزومٌ على أنه جوابُ الأمر، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾، وجوِّز أن يكون الجزمُ على أنه جوابُ الشرط، ويكون «فتعالين» اعتراضاً بين الشرط وجزائه، والجملةُ الاعتراضيةُ قد تقترنُ بالفاء كما في قوله:

---

(١) مفردات الراغب (علا).

(٢) ٣/ ٢٥٨.

واعلم فعلم المرء ينفعه أنْ سوف يأتي كلُّ ما قُدرا[1]

وقرأ حميد الخزاز: «أمتِّعُكن وأسرِّحُكن» بالرفع على الاستئناف[2]، وزيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «أُمْتِعْكُنَّ» بالتخفيف من أَمْتَعَ[3].

والتسريح في الأصل مطلَقُ الإرسال، ثم كُني به عن الطلاق، أي: وأطلِّقْكُنَّ.

﴿سَرَاحًا﴾ أي: طلاقاً ﴿جَمِيلًا ۝٢٨﴾ أي: ذا حُسْنٍ كثيرٍ، بأن يكون سنِّياً لا ضرارَ فيه كما في الطلاق البدْعيِّ المعروف عند الفقهاء. وفي «مجمع البيان» تفسير السراح الجميل بالطلاق الخالي عن الخصومة والمشاجرة[4].

وكان الظاهر تأخير التمتيع عن التسريح؛ لِمَا أنه مسبَّبٌ عنه، إلا أنه قدِّم عليه إيناساً لهنَّ وقطعاً لمعاذيرهنَّ من أول الأمر، وهو نظيرُ قوله تعالى: (عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ) من وجهٍ، ولأنه مناسبٌ لِمَا قبله من الدنيا.

وجوِّز أن يكون في محلِّه بناءً على أنَّ إرادة الدنيا بمنزلةِ الطلاق، والسراحُ الإخراج من البيوت، فكأنه قيل: إنْ أردتُنَّ الدنيا وطلقتنَّ فتعالين أُعْطِكنَّ المتعة وأُخرِجْكُنَّ من البيوت إخراجاً جميلاً بلا مشاجرةٍ ولا إيذاء. ولا يَخْفَى بُعْدُه.

وسبب نزول الآية على ما قيل: أنَّ أزواجه عليه الصلاة والسلام سألنه ثيابَ الزينة وزيادة النفقة؛ وأخرج أحمد ومسلم والنسائيُّ وابن مردويه من طريق أبي الزبير عن جابر قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه [يستأذن على رسول الله ﷺ] والناسُ ببابه جلوسٌ، والنبيُّ ﷺ جالسٌ فلم يؤذن له، ثم أُذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فدخلا والنبيُّ ﷺ جالسٌ وحوله نساؤه وهو ساكت، فقال عمر: لأكلِّمنَّ رسول الله ﷺ لعله يضحك. فقال: يا رسول الله، لو رأيتَ ابنةَ زيد - يعني امرأتَه رضي الله عنه - سألتني النفقة آنفاً فوَجَأْتُ عنقها. فضحك النبيُّ ﷺ حتى بدا ناجذُه وقال: «هنَّ حَوْلي يسألنني النفقة» فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام

---

(١) البحر ٧/ ٢٢٧، وسلف ١/ ٤٢٨ و٤/ ٨٣ و٩/ ٤٤٥، وغيرها.
(٢) القراءات الشاذة ص١١٩، والبحر ٧/ ٢٢٧.
(٣) البحر ٧/ ٢٢٧-٢٢٨.
(٤) مجمع البيان ٢١/ ١٣٢.

عمر رضي الله عنه إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبيَّ ﷺ ما ليس عنده؟ فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلنَ نساؤه: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده. وأنزل الله تعالى الخيار، فبدأ بعائشة فقال عليه الصلاة والسلام: «إني ذاكرٌ لك أمراً ما أحبُّ أنْ تَعْجَلي فيه حتى تستأمري أبويك» قالت: ما هو؟ فتلا عليها: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ) الآيةَ، قالت عائشة: أفيك أستامر أبويَّ؟ بل أختارُ الله تعالى ورسولَه ﷺ، وأسألُك أن لا تذكر لامرأةٍ من نسائك ما اخترتُ. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله تعالى لم يبعثني متعنِّتاً ولكنْ بعثني معلِّماً مبشِّراً، لا تسألُني امرأةٌ منهنَّ عما أخبرتِني إلَّا أخبرتُها»[(١)].

وفي خبرٍ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة والحسن: أنه لمَّا نزلت آيةُ التخيير كان تحته عليه الصلاة والسلام تسعُ نسوةٍ؛ خمسٌ من قريش: عائشةُ، وحفصةُ، وأمُّ حبيبة بنتُ أبي سفيان، وسودةُ بنتُ زَمْعةَ، وأمُّ سلمةَ بنتُ أبي أمية، وكان تحته صفيةُ بنتُ حيي الخيبريةُ، وميمونةُ بنتُ الحارث الهلالية، وزينبُ بنتُ جحش الأسدية، وجويريةُ بنتُ الحارث من بني المصطلق، وبدأ بعائشةَ فلمَّا اختارت الله تعالى ورسولَه ﷺ والدارَ الآخرة رُئِيَ الفرحُ في وجه رسول الله ﷺ، فتتابَعْنَ كلُّهنَّ على ذلك، فلمَّا خيَّرهنَّ واخْتَرْنَ الله عز وجل ورسولَه عليه الصلاة والسلام والدارَ الآخرة، شكرهنَّ الله جل شأنه على ذلك إذ قال سبحانه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٢] فقَصَره الله تعالى عليهنَّ، وهن التسعُ اللاتي اخْتَرْنَ الله عز وجل ورسولَه ﷺ[(٢)].

وأخرج ابن سعد عن عمرو بن شعيب[(٣)] عن أبيه عن جدِّه أنه ﷺ خيَّر نساءه فاخْتَرْنَ جميعاً اللهَ تعالى ورسولَه عليه الصلاة والسلام، غيرَ العامرية اختارت قومها

---

(١) مسند أحمد (١٤٥١٥)، وصحيح مسلم (١٤٧٨)، وسنن النسائي الكبرى(٩١٦٤)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٩٤، وما سلف بين حاصرتين من المصادر.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٨٦-٨٧، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٩٥، وعنه نقل المصنف.

(٣) في الأصل و(م) والدر المنثور ٥/ ١٩٥ (والكلام منه): سعيد، وهو تصحيف، والمثبت من طبقات ابن سعد، وهو الصواب.

فكانَت بعدُ تقول: أنا الشقيَّةُ، وكانت تلقط البعرَ وتبيعُه، وتستأذنُ على أزواج النبيِّ ﷺ فتقول: أنا الشقيَّة(١).

وأخرج أيضاً عن ابن منَّاح قال: اخْتَرْنَه جميعاً غيرَ العامرية، كانت ذاهبةَ العقل حتى ماتت(٢).

وجاء في بعض الروايات عن ابن جبير: غيرَ الحميرية(٣). وهي العامرية.

وكان هذا التخييرُ كما رُوي عن عائشةَ وأبي جعفر بعد أن هجرهنَّ عليه الصلاة والسلام شهراً تسعةً وعشرين يوماً(٤).

وفي «البحر»: أنه لمَّا نصر الله تعالى نبيَّه ﷺ، وردَّ عنه الأحزاب، وفتح عليه النضير وقريظةَ، ظنَّ أزواجُه عليه الصلاة والسلام أنه اختُصَّ بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعَدْنَ حوله وقلنَ: يا رسول الله، بناتُ كسرى وقيصر في الحليِّ والحلل، والإماء والخَوَل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلَمْنَ قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام بمطالبتهنَّ له بتَوْسِعةِ الحال، وأن يعاملهنَّ بما تعامِلُ به الملوك وأبناءُ الدنيا أزواجَهم، فأمره الله تعالى بأن يتلو عليهنَّ ما نزل في أمرهنَّ(٥). وما أحسن موقعَ هذه الآيات على هذا بعد انتهاء قصة الأحزاب وبني قريظة كما لا يخفى.

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ١٩١، وفي إسناده الواقدي، وهو متروك. وقد ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ٨٨-٨٩ أزواج النبي ﷺ، فذكر التسع اللواتي وردن في خبر قتادة والحسن مع خديجة وزينب بنت خزيمة بن الحارث، ثم قال: فهؤلاء أزواجه اللاتي لم يختلف فيهن، وهن إحدى عشرة امرأة، وأما اللواتي اختلف فيهن، ممن ابتنى بها وفارقها، أو عقد عليها ولم يدخل بها، أو خطبها ولم يتم له العقد منها، فقد اختلف فيهن وفي أسباب فراقهن اختلافاً كثيراً يوجب التوقف عن القطع بالصحة في واحدةٍ منهن.

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ١٩١، وفي إسناده أيضاً الواقدي. ووقع في الأصل و(م): جناح، بدل: مناح، والمثبت من الطبقات، وهو الصواب، واسمه: عمران بن منَّاح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٩٥.

(٤) أخرجه عن أبي جعفر ابن سعد في الطبقات ٨/ ١٩١، وعن عائشة أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ١٩٥.

(٥) البحر ٧/ ٢٢٧.

ويفهم من كلام الإمام أنها متعلِّقةٌ بأول السورة، وذلك أنَّ مكارم الأخلاق منحصرةٌ في شيئين: التعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خَلْقِه عز وجل، فبدأ سبحانه بإرشاد حبيبه عليه الصلاة والسلام إلى ما يتعلَّق بجانب التعظيم له تعالى، فقال سبحانه: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ) إلخ، ثم أرشده سبحانه إلى ما يتعلَّق بجانب الشفقة، وبدأ بالزوجات لأنهنَّ أولى الناسِ بذلك(١).

وقدَّم سبحانه الشرطيةَ المذكورة على قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلخ؛ لأنَّ سبب النزول ما سمعتَ.

وقال الإمام: إنَّ التقديم إشارةٌ إلى أنَّ النبيَّ ﷺ غيرُ ملتفتٍ إلى الدنيا ولذَّاتها غايةَ الالتفات، وذَكَر أنَّ في وصف السراح بالجميل إشارةً إلى ذلك أيضاً(٢).

ومعنى «إنْ كنتنَّ تُرِدْنَ الله ورسولَه»: إن كنتنَّ تُرِدْنَ رسول الله، وإنما ذكر الله عز وجل للإيذان بجلالة محلِّه عليه الصلاة والسلام عنده تعالى. ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: نعيمَها الباقي الذي لا قَدْرَ عنده للدنيا وما فيها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ﴾ أي: هيَّأ ويسَّر ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ بمقابلةِ إحسانهنَّ ﴿أَجْرًا﴾ لا تُحْصَى كثرتُه ﴿عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ لا تُسْتَقْصَى عظمتُه. و«من» للتبيين لأنَّ كلَّهنَّ كنَّ محسناتٍ. وقيل: ويجوز فيه التبعيض على أنَّ المحسنات: المختاراتُ لله ورسولِه ﷺ، واختيارُ الجميع لم يُعلم وقت النزول. وهو ـ على ما قال الخفاجيُّ عليه الرحمة ـ بعيد(٣).

وجوابُ «إنْ» في الظاهر ما قُرِنَ بالفاء، إلا أنه قيل: الماضي فيه بمعنى المضارع الدالِّ على الاستقبال، والتعبيرُ به دونه لتحقُّق الوقوع. وقيل: الجوابُ محذوفٌ، نحو: تُثَبْنَ، أو: تَنَلْنَ خيراً، وما ذكر دليلُه.

وتجريدُ الشرطية الأولى عن الوعيد للمبالغةِ في تحقيق معنى التخيير، والاحترازِ عن شائبة الإكراه. قيل: وهو السرُّ في تقديم التمتيع على التسريح، ووصفِ التسريح بالجميل.

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٠٥.
(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٠٦.
(٣) حاشية الشهاب ٧/ ١٦٩.

هذا واختُلف فيما وقع من التخيير: هل كان تفويضَ الطلاق إليهنَّ حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار، أو لا؟ فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم على ما في «إرشاد العقل السليم» ـ وهو الظاهر ـ إلى أنه لم يكن تفويضَ الطلاق، وإنما كان تخييراً لهنَّ بين الإرادتين، على أنهنَّ إن أردنَ الدنيا فارقهنَّ النبيُّ ﷺ، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾، وذهب آخرون إلى أنه كان تفويضاً للطلاق إليهنَّ، حتى لو أنهنَّ اخترنَ أنفسهنَّ كان ذلك طلاقاً[1].

وكذا اختلف في حكم التخيير، بأنْ يقول الرجل لزوجته: اختاري. فتقول: اخترتُ نفسي. أو: اختاري نفسك. فتقول: اخترتُ. فعن زيد بن ثابت أنه يقع الطلاقُ الثلاث، وبه أخذ مالكٌ في المدخول بها، وفي غيرها يُقبل من الزوج دعوى الواحدة. وعن عمر وابن عباس وابن مسعود أنه يقع واحدةً رجعيةً، وهو قولُ عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان، وبه أخذ الشافعيُّ وأحمد.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه يقع واحدةً بائنة، ورَوَى ذلك الترمذيُّ عن ابن مسعود، وأيضاً عن عمر رضي الله عنهما[2]، وبذلك أخذ أبو حنيفة عليه الرحمة. فإن اختارت زوجَها فعن زيد بن ثابت أنه تقع طلقة واحدة، وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه روايتان: إحداهما أنه تقع واحدةٌ رجعيةٌ، والأخرى: أنه لا يقع شيءٌ أصلاً، وعليه فقهاءُ الأمصار[3].

وذكر الطبرسيُّ أنَّ المرويَّ عن أئمَّة أهل البيت رضوان الله تعالى عليهم أجمعين اختصاصُ التخيير بالنبيِّ ﷺ، وأمَّا غيره عليه الصلاة والسلام فلا يصحُّ له ذلك[4].

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٠١.

(٢) سنن الترمذي إثر الحديث (١١٧٩).

(٣) أخرج الرواية الأولى عن علي رضي الله عنه عبد الرزاق (١١٩٧٤) و(١١٩٧٧)، وابن أبي شيبة ٥/ ٥٩، والبيهقي ٧/ ٣٤٥-٣٤٦. وينظر تفصيل هذه المسألة في الإشراف لابن المنذر ٤/ ١٧٨-١٧٩، ومعالم السنن للخطابي ٣/ ٢٤٦-٢٤٧، والاستذكار لابن عبد البر ١٧/ ١٦٤-١٦٦، والمفهم لأبي العباس القرطبي ٤/ ٢٥٧-٢٥٨، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ١٢٩-١٣١، وتفسير أبي السعود ٧/ ١٠١.

(٤) مجمع البيان ٢١/ ١٣٣.

واختلف في مدة ملك الزوجة الاختيار إذا قال لها الزوج ذلك، فقيل: تملكه ما دامت في المجلس. وروي هذا عن عمر وعثمان وابن مسعود رضي الله عنهم[١]، وبه قال جابر بن عبد الله، وجابر بن زيد، وعطاءٌ ومجاهدٌ والشعبيُّ والنخعيُّ ومالك وسفيان والأوزاعيُّ وأبو حنيفة والشافعيُّ وأبو ثور.

وقيل: تملكُه في المجلس وفي غيره. وهو قول الزهريِّ وقتادةَ وأبي عبيد[٢] وابن نصر[٣]، وحكاه صاحب «المغني» عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه[٤]. وفي بلاغات محمد بن الحسن أنه كرم الله تعالى وجهه قائلٌ بالاقتصار على المجلس كقول الجماعة رضي الله عنهم أجمعين.

وتمامُ الكلام في هذه المسألة وما لكلٍّ من هذه الأقوال وما عليه يُطلب من كتب الفروع، كشروح «الهداية» وما يتعلَّق بها، بَيْدَ أنِّي أقول: كونُ ما في الآية هو المسألة المذكورةُ في الفروع التي وقع الاختلاف فيها مما لا يكاد يتسنَّى، وتأوَّل الخفاجيُّ[٥] استدلالَ مَن استدلَّ بها في هذا المقام بما لا يخلو عن كلامٍ عند ذوي الأفهام.

هذا وذكر الإمام في الكلام على تفسير هذه الآية عدةَ مسائل:

الأولى: أنَّ التخيير منه ﷺ قولاً كان واجباً عليه عليه الصلاة والسلام بلا شكٍّ لأنه إبلاغ الرسالة، وأما معنًى فكذلك على القول بأنَّ الأمر للوجوب.

الثانية: أنه لو أَرَدْنَ كلُّهنَّ أو إحداهنَّ الدنيا فالظاهرُ نظراً إلى منصب النبيِّ ﷺ أنه يجب عليه التمتيعُ والتسريح؛ لأن الخُلْفَ في الوعد منه عليه الصلاة والسلام غيرُ جائزٍ.

---

(١) ذكرها عنهم ابن المنذر في الإشراف ٤/ ١٧٨ وقال: وفي أسانيدها مقال.

(٢) في (م): عبيدة، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في الإشراف ٤/ ١٧٨، والاستذكار ١٧/ ١٦٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ١٣٢.

(٣) محمد بن نصر المروزي، أبو عبد الله الحافظ، قال عنه الحاكم: إمام عصره بلا مدافعة في الحديث، وكان إماماً مجتهداً من أعلم أهل زمانه باختلاف الصحابة والتابعين، ويقال: كان أعلم الأئمة باختلاف العلماء، توفي سنة (٢٩٤هـ). السير ١٤/ ٣٣، وكلامه في كتابه اختلاف العلماء ص٢٠٠، والإشراف لابن المنذر ٤/ ١٧٨.

(٤) المغني لابن قدامة ١٠/ ٣٨١.

(٥) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٧/ ١٦٩.

الثالثة: أن الظاهر أنه لا تَحْرُمُ المختارةُ بعد البينونة على غيره عليه الصلاة والسلام، وإلا لا يكون التخيير ممكّناً من التمتُّع بزينة الدنيا.

الرابعة: أنَّ الظاهر أنَّ مَن اختارت الله تعالى ورسوله ﷺ يَحْرمُ على النبيِّ ﷺ نظراً إلى منصبه الشريف طلاقُها[١]. والله تعالى أعلم.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إليهنَّ لإظهار الاعتناء بنُصْحِهنَّ، ونداؤهن هاهنا وفيما بعدُ بالإضافة إليه عليه الصلاة والسلام لأنها التي يدور عليها ما يَرِدُ عليهنَّ من الأحكام، واعتبارُ كونهنَّ نساءً في الموضعين أبلغُ من اعتبار كونهنَّ أزواجاً كما لا يخفى على المتأمل.

﴿مَن يَأْتِ﴾ بالياء التحتية حملاً على لفظ «مَن»، وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما والجحدريُّ وعمرو بن فائد الأسواريُّ ويعقوب بالتاء الفوقية[٢] حملاً على معناها.

﴿مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ بكبيرةٍ ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ ظاهرةِ القبح، من بيَّن بمعنى تَبيَّن.

وقرأ ابن كثير وأبو بكر: «مبيَّنةٍ» بفتح الياء[٣]. والمراد بها على ما قيل: كلُّ ما يقترفُ من الكبائر.

وأخرج البيهقيُّ في «السنن» عن مقاتل بن سليمان أنها العصيان للنبيِّ ﷺ[٤]. وقيل: ذلك، وطلبُهنَّ ما يشقُّ عليه عليه الصلاة والسلام، أو ما يضيقُ به ذَرْعُه ويغتمُّ ﷺ لأجله.

ومَنَع في «البحر»[٥] أن يراد بها الزنى، قال: لأنَّ النبيَّ ﷺ معصومٌ من ارتكاب نسائه ذلك، ولأنه وصفت الفاحشة بالتبيُّن، والزنى مما يُتَستَّر به. ومقتضاه منعُ إرادةِ الأعمِّ. ثم قال: وينبغي أن تُحمل الفاحشة على عقوق الزوج وفسادِ عشرته. ولا يخلو كلامه عن بحثٍ.

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) المحتسب ٢/ ١٧٩، والبحر ٧/ ٢٢٧-٢٢٨، والمشهور عن يعقوب القراءة بالياء كقراءة الجمهور.

(٣) التيسير ص٩٥، والنشر ٢/ ٢٤٨.

(٤) السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٧٣.

(٥) ٧/ ٢٢٨.

والإمام فسَّرها به، وجَعَلَ الشرطية من قبيل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] من حيث إن ذلك ممكن الوقوع في أول النظر، ولا يقع جزماً فإنَّ الأنبياء صان الله تعالى زوجاتهم عن ذلك[١]. وقد تقدَّم بعض الكلام في هذه المسألة في سورة النور، وسيأتي إن شاء الله تعالى طرفٌ مما يتعلَّق بها أيضاً.

﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ يوم القيامة على ما روي عن مقاتل، أو: فيه وفي الدنيا على ما روي عن قتادة.

﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: يعذَّبن ضعفي عذاب غيرهنَّ، أي: مثلَيْه، فإنْ مَكَثَ غيرُهنَّ ممَّن أتى بفاحشةٍ مبينةٍ في النار يوماً - مَثَلاً- مَكَثْنَ هنَّ لو أتينَ بمثل ما أتى يومين، وإنْ وجب على غيرهنَّ حدٌّ لفاحشةٍ وجب عليهنَّ لو أتين بمثلها حدَّان.

وقال أبو عمرو وأبو عبيدة فيما حَكَى الطبريُّ[٢] عنهما: الضعفان أن يجعل الواحدة ثلاثةً، فيكون عليهنَّ ثلاثةُ حدودٍ أو ثلاثةُ أمثالِ عذابِ غيرهنَّ. وليس بذاك.

وسببُ تضعيف العذاب أنَّ الذنب منهنَّ أقبحُ، فإنَّ زيادة قبحه تابعةٌ لزيادة فضل المذنبِ والنعمةِ عليه، وتلك ظاهرةٌ فيهنَّ، ولذلك جُعل حدُّ الحرِّ ضِعْفَ حدِّ الرقيق، وعُوتب الأنبياء عليهم السلام بما لا يعاتَبُ به الأمم، وكذا حالُ العالِم بالنسبة إلى الجاهل فليس مَن يَعْلَمُ كَمَن لا يَعْلَم.

وروي عن زين العابدين ﷺ أنه قال له رجل: إنكم أهلَ بيت مغفورٌ لكم. فغضب وقال: نحن أحرى أن يَجري فينا ما أجْرَى الله تعالى في أزواج النبيِّ ﷺ من أن نكون كما تقول، إنَّا نرى لِمُحْسننا ضعفين من الأجر ولمسيئنا ضعفين من العذاب. وقرأ هذه الآية والتي تليها.

وقرأ الحسن وعيسى وأبو عمرو: «يضعَّف» بالياء التحتية مبنيّاً للمفعول بلا ألفٍ[٣]، والجحدريُّ وابن كثير وابن عامر: «نُضعِّف» بالنون مبنيّاً للفاعل

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٠٧.

(٢) في تفسيره ١٩/ ٩١، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٣٦-١٣٧.

(٣) القراءة عن أبي عمرو في التيسير ص١٧٩، والنشر ٢/ ٣٤٨، وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب من العشرة، وذكرها عن الحسن وعيسى أبو حيان في البحر ٧/ ٢٢٨، والكلام منه.

بلا ألفٍ أيضاً[١]. وزيد بن عليٍّ وابن محيصن وخارجةُ عن أبي عمرو: «نضاعِف» بالنون والألف والبناءِ للفاعل، وفرقةٌ: «يضاعِف» بالياء والألف والبناء للفاعل[٢]. وقرأ: «العذابُ» بالرفع مَن قرأ بالبناء للمفعول، وبالنصب مَن قرأ بالبناء للفاعل.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: تضعيفُ العذاب عليهنَّ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾ أي: سهلاً لا يمنعه جلَّ شأنه عنه كونُهنَّ نساءَ النبيِّ ﷺ، بل هو سببٌ له.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ أي: ومَن تَخْشَعْ وتَخْضَعْ ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ كصلاةٍ وصومٍ وحجٍّ وإيتاءِ زكاةٍ، وهذا العملُ غيرُ القنوت لله تعالى على ما سمعتَ من تفسيره، فلا تكرارَ.

وفسَّره بعضهم بالطاعة، ودَفَع التكرار بأنَّ المراد: ومَن يَقْنُتْ منكنَّ لرسول الله، وتَعْمَلْ صالحاً لله تعالى، وذكر الله إنما هو لتعظيم الرسول ﷺ بجعل طاعته غيرَ منفكَّةٍ عن طاعة الله عز وجل.

وبعضُهم بما ذكر أيضاً، إلا أنه دَفَعَ التكرار بأنَّ المراد بالعمل الصالح: الخدمةُ الحسنةُ والقيامُ بمصالح البيت لا نحوُ الصلاة والصيام، وبالطاعة المفسَّرِ بها القنوتُ: امتثالُ الأوامر واجتنابُ النواهي.

وفسَّره بعضهم بدوام الطاعة، فقيل في دفع التكرار نحوُ ما مرَّ، وقيل: المرادُ به الدوامُ على الطاعة السابقة، وبالعمل الصالح العباداتُ التي يكلَّفنَ بها بعدُ.

وقيل: القنوتُ: السكوت، كما قيل ذلك في قوله تعالى: (وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ) والمراد به هاهنا: السكوت عن طلب ما لم يأذن الله تعالى ورسولُه ﷺ لهنَّ به، من زيادةِ النفقة وثياب الزينة. وقيل غيرُ ذلك.

﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا﴾ الذي تستحقُّه على ذلك فضلاً وكرماً ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ فيكون أجرها مضاعفاً، وهذا في مقابلة «يضاعَفْ لها العذابُ ضعفين».

أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس أنه قال في حاصل معنى الآيتين: إنه

---

(١) التيسير ص١٧٩، والنشر ٣٤٨/٢ عن ابن كثير وابن عامر، والكلام من البحر.
(٢) البحر ٢٢٨/٧، والمشهور عن أبي عمرو ما ذُكر أولاً.

مَن عصى منكنَّ فإنه يكون العذابُ عليها الضعفَ منه على سائر نساء المؤمنين، ومَن عمل صالحاً فإنَّ الأجر لها الضعفُ على سائر نساء المسلمين[١]. ويستدعي هذا أنه إذا أُثيب نساءُ المسلمين على الحسنة بعشر أمثالها أُثِبْنَ هنَّ على الحسنة بعشرين مِثْلاً لها، وإن زِيدَ للنساء على العَشْر شيءٌ زِيدَ لهنَّ ضِعْفُه. وكأنه والله تعالى أعلم إنما قيل: «نؤتها أجرها مرتين» دون: يضاعَفْ لها الأجر، كما قيل في المقابل: «يضاعَفْ لها العذاب ضعفين»؛ لأن أصل تضعيف الأجر ليس من خواصِّهنَّ، بل كلُّ مَن عَمِلَ صالحاً من النساء والرجال من هذه الأمة يضاعَفُ أجره، فأُخرج الكلام مغايراً لِمَا تقتضيه المقابلةُ رمزاً إلى أنَّ تضعيف الأجر على طرزٍ مغايرٍ لطرزِ تضعيف العذاب، مع تضمُّن الكلام المذكورِ الإشارةَ إلى مزيد تكريمهنَّ، ووفورِ الاعتناء بهنَّ، فإنَّ الإحسان المكرَّر أحلى.

ومَن تأمَّل في الجملتين ظهر له تغليبُ جانب الرحمة على جانب الغضب، وكفى بالتصريح بفاعل إيتاء الأجر، وجَعْلِه ضمير العظمةِ، والتعبيرِ عمَّا يؤتَوْنَ من النعيم بالأجر مع إضافته إلى ضميرهنَّ، مع خلوِّ جملة تضعيف العذاب عن مثلِ ذلك، شهداءَ على ما ذُكر.

ثم إنَّ تضعيفَ أجرهنَّ لمزيد كرامتهنَّ رضي الله عنهنَّ على الله عزَّ وجلَّ ممَّا مَنَّ به عليهنَّ من النسبة إلى خير البرية عليه من الله تعالى أفضلُ الصلاة وأكملُ التحية. والظاهر أنَّ ذلك ليس بالنسبة إلى أعمالهنَّ الصالحة التي عَمِلْنَها في حياته ﷺ فقط، بل يضاعَفُ أجرهنَّ عليها وعلى الأعمال الصالحة التي يعملنها بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ هاتين المرَّتين إحداهما على الطاعة والأخرى على طلبهنَّ رضاء النبيِّ ﷺ بالقناعة وحُسْنِ المعاشرة. وجَعَلَ في «البحر» وغيره سببَ التضعيف هذا الطلبَ وتلك الطاعة[٢]. ولا يَخْفَى أنَّ ما ذكروه مُوهِمٌ لعدم التضعيف بالنسبة لِمَا فعلوه من العمل الصالح بعد وفاته ﷺ.

---

(١) الدر المنثور ٥/١٩٦.
(٢) البحر ٧/٢٢٨.

وقال بعض المدقِّقين: أراد مَن جَعَلَ سببَ مضاعفةِ أجورِهنَّ ما ذكر التطبيقَ على لفظ الآية، حيث جُعِلَ القنوتُ لله ولرسوله مع ما تلاه سبباً، ويدمج فيه أنَّ مضاعفة العذاب إنما نشأت من أنَّ النشوز مع الرسول ﷺ وطلبَ ما يشقُّ عليه ليس كالنشوز مع سائر الأزواج، ولذلك اقتضى مضاعفةَ العذاب، وكذلك طاعتُه وحُسْنُ التخلُّق معه والمعاشرةِ على عكس ذلك، فهذا يؤكِّد ما قالوا من أنَّ سبب تضعيف العذاب زيادةُ قبح الذنب منهنَّ، وفيه أنَّ العكس يوجبُ العكس، فتأمَّلْ.

وقال بعض المفسرين: العذاب الذي توعَّد به ضعفين هو عذابُ الدنيا ثم عذاب الآخرة، وكذلك الأجرُ، فالمرتان إحداهما في الدنيا وثانيتُهما في الأخرى. ولا يَخْفَى ضَعْفُه.

وقرأ الجحدريُّ والأسواري، ويعقوب في رواية، وكذا ابنُ عامر: «ومَن تَقْنُتْ» بتاء التأنيث حملاً على المعنى[1].

وقرأ السلميُّ وابن وثَّاب وحمزةُ والكسائيُّ بياءٍ من تحت في الأفعال الثلاثة، على أنَّ في «يؤتها» ضميرُ اسم الله تعالى[2].

وذكر أبو البقاء أنَّ بعضهم قرأ: «ومَن تَقْنُتْ» بالتاء من فوق حملاً على المعنى، و«يعمل» بالياء من تحت حملاً على اللفظ، [قال:] فقال بعض النحويين: هذا ضعيف لأنَّ التذكير أصلٌ فلا يُجعل تبعاً للتأنيث. وما علَّلوه به قد جاء مثلُه في القرآن، وهو قولُه تعالى: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾[3] [الأنعام:١٣٩]. انتهى، فتذكَّر.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا﴾ في الجنة زيادةً على أجرها المضاعَف ﴿رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ عظيم القَدْرِ رفيعَ الخطر مرضيّاً لصاحبه، وقيل: الرزق الكريم ما يَسْلَم من كلِّ آفة.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١١٩، والبحر ٧/٢٢٨.

(٢) التيسير ص ١٧٩، والنشر ٢/٣٤٨ عن حمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة، والكلام من البحر ٧/٢٢٨.

(٣) الإملاء ٤/١٩٣-١٩٤، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/٢٢٨، وما بين حاصرتين منه.

وجوَّز ابن عطية أن يكون في ذلك وعدٌ دنياوي، أي: إنَّ رِزْقَها في الدنيا على الله تعالى، وهو كريمٌ من حيث هو حلالٌ، وقُصِدَ برضًى من الله تعالى في نيله(١)، وهو كما ترى.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ذهب جمعٌ من الرجال إلى أنَّ المعنى: ليس كلُّ واحدةٍ منكنَّ كشخصٍ واحدٍ من النساء، أي: من نساء عَصْرِكنَّ، أي: إن كلَّ واحدةٍ منكنَّ أفضلُ من كلِّ واحدةٍ منهنَّ لـمَّا امتازت بشرف الزوجية لرسول الله ﷺ وأمومةِ المؤمنين، فـ «أحد» باقٍ على كونه وصفَ مذكَّر، إلا أنَّ موصوفه محذوفٌ، ولا بدَّ من اعتبار الحذف في جانب المشبَّه كما أشير إليه.

وقال الزمخشريُّ(٢): «أحد» في الأصل بمعنى وَحَد، وهو الواحد، ثم وضع في النفي العامِّ مستوياً فيه المذكَّرُ والمؤنَّث والواحدُ وما وراءه»، والمعنى: لستنَّ كجماعةٍ واحدةٍ من جماعات النساء، أي: إذا تقصَّيتْ أمةُ النساء جماعةً جماعةً لم يوجد منهنَّ جماعةٌ واحدةٌ تُساويكنَّ في الفضل والسابقة، وقد استعمل بمعنى المتعدِّد أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] لمكانِ «بَيْنَ» المقتضيةِ للدخول على متعدِّدٍ.

وحَمَلَ «أحد» على الجماعة ـ على ما في «الكشف» ـ ليطابق المشبَّه، والمعنى على تفضيل نساء النبيِّ ﷺ على نساءِ غيره، لا النظر إلى تفضيل واحدةٍ على واحدةٍ من آحاد النساء، فإنَّ ذلك ليس مقصوداً من هذا السياق، ولا يعطيه ظاهرُ اللفظ. وكونُ ذلك أبلغَ لما يلزم عليه تفضيلُ جماعتهنَّ على كلِّ جماعةٍ، ولا يلزمُ ذلك تفضيلَ كلِّ واحدةٍ على كلِّ واحدةٍ من آحاد النساء، لو سلِّم لكان إذا ساعده اللفظُ والمقام.

واعترضه أيضاً بعضهم بأنه يلزم عليه أن يكون كلُّ واحدةٍ من نساء النبيِّ ﷺ أفضلَ من فاطمةَ رضي الله عنها، مع أنه ليس كذلك.

وأجيبَ عن هذا بأنه لا مانع من التزامه، إلَّا أنه يُلتزم كونُ الأفضلية من حيث

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢، والبحر ٧/ ٢٢٨، وفيهما: وبرضًى، بالواو.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٥٩.

أمومةُ المؤمنين والزوجيةُ لرسول الله ﷺ، لا من سائر الحيثيات، فلا يضرُّ فيه كون فاطمةَ رضي الله عنها أفضلَ من كلٍّ واحدةٍ منهنَّ لبعض الحيثيات الأُخَر، بل هي من بعض الحيثيات كحيثية البضعية أفضلُ من كلٍّ من الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم أجمعين.

نعم أُورِدَ على ما في «الكشاف» أنَّ «أحد» الموضوع في النفي العامِّ همزتُه أصليةٌ غيرُ منقلبةٍ عن الواحد، وقد نصَّ على ذلك أبو عليٍّ، وخالف فيه الرضيُّ فنُقِلَ عنه أنَّ همزة «أحد» في كلِّ مكانٍ بدلٌ من الواو، والمشهور التفرقةُ بين الواقع في النفي العامِّ والواقع في الإثبات، بأنَّ همزة الأول أصليةٌ وهمزة الثاني منقلبةٌ عن الواو.

وفي «العقد المنظوم في ألفاظ العموم» للفاضل القَرَافي(١): قد أَشْكَلَ هذا على كثيرٍ من الفضلاء؛ لأنَّ اللفظين صورتُهما واحدة، ومعنى الوحدة يتناولُهما، والواو فيها أصلية، فيلزم قطعاً انقلابُ ألفِ «أحد» مطلقاً عنها، وجَعْلُ ألف أحدِهما منقلباً دون ألف الآخر تحكُّمٌ، وقد أطلعني الله تعالى على جوابه، وهو أنَّ «أحد» الذي لا يستعمل إلَّا في النفي معناه إنسان بإجماع أهل اللغة، و«أحد» الذي يُستعمل في الإثبات معناه الفرد من العدد، فإذا تغايَرَ مُسمَّاهما تغايَرَ اشتقاقُهما؛ لأنه لابدَّ فيه من المناسبة بين اللفظ والمعنى، ولا يكفي فيه أحدهما، فإذا كان المقصود به الإنسانُ فهو الذي لا يُستعمل إلا في النفي وهمزتُه أصلية، وإن قُصِدَ به العددُ ونصف الاثنين فهو الصالح للإثبات والنفي، وألفُه منقلبةٌ عن واوٍ. اهـ، ولا يَخْفَى أنه إذا سلِّم الفرقُ المذكور ينبغي أن تكون الهمزةُ هنا أصليةً.

وإلى أنَّ همزة الواقع في النفي أصليةٌ ذهب أبو حيان، فقال(٢): إنَّ ما ذكره الزمخشريُّ من قوله: ثم وضع في النفي العامِّ.. إلخ، غيرُ صحيح؛ لأن الذي يستعمل في النفي العامِّ مدلولُه غيرُ مدلولِ «واحد»؛ لأن واحداً ينطلق على كلِّ شيءٍ اتَّصف بالوحدة، و«أحد» المستعمل في النفي العامِّ مخصوصٌ بمن يعقل، وذكر

(١) شهاب الدين أحمد بن إدريس، من علماء المالكية، المتوفى سنة (٦٨٤هـ)، وعنوان كتابه كما في كشف الظنون ٢/ ١١٥٣: العقد المنظوم في الخصوص والعموم، في الأصول. ونقل كلامه أيضاً الشهاب في الحاشية ٧/ ١٧٠.

(٢) في البحر ٧/ ٢٢٩.

النحويون أنَّ مادته همزةٌ وحاءٌ ودالٌ، ومادة «أحد» بمعنى «واحد» أصلها[1] واوٌ وحاءٌ ودالٌ، فقد اختلفا مادةً ومدلولاً.

وذَكَر أنَّ ما في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] يحتمل أن يكون الذي للنفي العامِّ، ويحتمل أن يكون بمعنى واحد، ويكون قد حُذِفَ معطوفٌ، أي: بينَ واحدٍ وواحدٍ من رسله، كما قال الشاعر:

فما كان بين الخير لو جاء سالماً أبو حُجُرٍ إلا ليالٍ قلائلُ[2]

وقال الراغب[3]: «أحد» يُستعمل على ضربين:

في النفي لاستغراق جنس الناطقين، ويتناولُ القليلَ والكثيرَ على الاجتماع والانفراد، نحو: ما في الدار أحدٌ، أي: لا واحدٌ ولا اثنان فصاعداً، لا مجتمعين ولا مفترقين، وهذا المعنى لا يمكن في الإثبات؛ لأنَّ نفي المتضادَّين يصحُّ، ولا يصحُّ إثباتُهما، فلو قيل: في الدار أحدٌ، لكان [فيه] إثباتُ واحدٍ[4] منفردٍ مع إثبات ما فوق الواحد مجتمعين ومتفرِّقين، وهو بيِّنُ الإحالة، ولتناوُلِه ما فوق الواحد صحَّ نحوُ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

وفي الإثبات على ثلاثة أوجُهٍ: استعماله في الواحد المضموم إلى العشرات كأَحَدَ عَشَرَ وأَحَدٍ وعشرين، واستعماله مضافاً أو مضافاً إليه بمعنى الأول، نحو: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى﴾ [يوسف: ٤١] وقولهم: يوم الأحد، واستعماله وصفاً وهذا لا يصحُّ إلا في وصفه تعالى شأنه، أما أصله - أعني وحد - فقد يستعمل في غيره سبحانه كقول النابغة:

كأنَّ رحلي وقد زال النهارُ بنا بذي الجليل على مستأنسٍ وَحِدِ[5]

---

(١) في (م): أصله.

(٢) البحر ٧/ ٢٢٩، والبيت للنابغة، وهو في ديوانه ص٩٠، وسلف ٢/ ٢٣٣ و٢٠/ ١١.

(٣) في مفرداته (أحد)، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) في الأصل و(م): أحد، والمثبت من مفردات الراغب، ومثله في حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية نقلاً عن الراغب.

(٥) مفردات الراغب (أحد)، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص ٣١. وذو الجليل: واد قرب مكة. معجم البلدان ٢/ ١٥٨.

انتهى. وهو محتمِلٌ لدعوى انقلابِ همزته عن واوٍ مطلقاً، ولدعوى انقلابها عنها في الاستعمال الأخير.

ولا يخفَى على المنصف أنَّ كون المعنى في الآية ما ذكره الزمخشريُّ أظهرُ، وتفضيلُ كلِّ واحدةٍ من نسائه ﷺ على كلِّ واحدةٍ واحدةٍ من سائر النساء لا يلزمُ أن يكون لهذه الآية، بل هو لدليلٍ آخر إمَّا عقليّ أو نصّ مثل قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقيل: يجوز أن يكون ذلك لها، فإنها تفيدُ بحسب عُرْفِ الاستعمال تفضيلَ كلٍّ منهنَّ على سائر النساء؛ لأنَّ فضل الجماعة على الجماعة يكون غالباً لفضل كلٍّ منها.

﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ شرطٌ لنفي المثلية، وفَضْلِهنَّ على النساء، وجوابُه محذوفٌ دلَّ عليه المذكور، والاتِّقاءُ بمعناه المعروفِ في لسان الشرع، والمفعولُ محذوف، أي: إن اتقيتنَّ مخالفةَ حُكْم الله تعالى ورضا رسوله ﷺ، والمراد: إن دمتنَّ على اتِّقاء ذلك، ومثلُه شائعٌ، أو هو على ظاهره والمراد به التهييجُ بجَعْلِ طلب الدنيا والميلِ إلى ما تميل إليه النساء لبُعْدِه من مقامهنَّ بمنزلةِ الخروج من التقوى.

أو شرطٌ جوابه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ والاتقاء بمعناه الشرعيِّ أيضاً. وفي «البحر» أنه بمعنى الاستقبال، أي: إن استقبلتنَّ أحداً فلا تخضعن، وهو بهذا المعنى معروفٌ في اللغة؛ قال النابغة:

سقط النصيف ولم تُرِدْ إسقاطَه فتناولته واتَّقتنا باليد[1]

أي: استقبلتنا باليد، ويكون هذا المعنى أبلغَ في مَدْحِهنَّ؛ إذ لم يعلِّق فضلَهنَّ على التقوى، ولا علَّق نَهْيَهنَّ عن الخضوع بها؛ إذ هنَّ متَّقياتٌ لله تعالى في أنفسهن، والتعليقُ يقتضي ظاهرُه أنهنَّ لسنَ متحلِّياتٍ بالتقوى[2].

وفيه أنَّ اتَّقى بمعنى استقبل وإن كان صحيحاً لغةً، وقد ورد في القرآن كثيراً كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤] إلا أنه لا يتأتَّى هاهنا

(١) ديوان النابغة ص ٤٠. والنصيف: الخمار. القاموس (نصف).
(٢) البحر ٧/ ٢٢٩.

لأنه لا يستعمل في ذلك المعنى إلا مع المتعلّق الذي تحصل به الوقاية، كقوله سبحانه: (بِوَجْهِهِۦ) وقولِ النابغة: باليد، وما استَدَلَّ به أمره سهلٌ.

وظاهرُ عبارة «الكشاف» اختيارُ كون «إن اتقيتنَّ» شرطاً جوابه «فلا تخضعن»، وفسَّر «إن اتقيتن» بـ: إن أردتنَّ التقوى وإن كنتنَّ متَّقيات[1]، مشيراً بذلك إلى أنه لابدَّ من تجوُّزٍ في الكلام؛ لأنّ الواقع أنَّ المخاطَباتِ متقياتٌ، فإمَّا أن يكون المقصود الأوليُّ المبالغةَ في النهي، فيفسَّر بـ: إنْ أردتنَّ التقوى، وإما أن يكون المقصود التهييجَ والإلهاب، فيفسَّر بـ: إنْ كنتنَّ متقيات، فليس في ذلك جمعٌ بين الحقيقة والمجاز كما تُوهِّم، وقد قرَّر ذلك في «الكشف».

ومعنى «لا تخضعن بالقول»: لا تُجِبْنَ بقولكنَّ خاضعاً، أي: ليِّناً خَنِثاً على سَنَنِ كلام المريبات والمومسات، وحاصلُه: لا تُلِنَّ الكلام ولا ترقِّقْنَه، وهذا ـ على ما قيل ـ في غير مخاطبة الزوج ونحوه، كمخاطبة الأجانب وإن كنَّ محرَّماتٍ عليهم على التأبيد.

روي عن بعض أمهات المؤمنين أنها كانت تضع يدها على فمها إذا كلَّمت أجنبيّاً، تغيِّر صوتَها بذلك خوفاً من أن يُسمع رخيماً ليِّناً.

وعُدَّ إغلاظ القول لغير الزوج من جملة محاسن خصال النساء جاهليةً وإسلاماً، كما عُدَّ منها بخلهنَّ بالمال وجُبنهنَّ، وما وقع في الشعر من مدح العشيقة برخامة الصوت وحُسْنِ الحديث ولينِ الكلام فمن باب السَّفَه كما لا يخفى.

وعن الحسن أن المعنى: لا تكلَّمْنَ بالرَّفَث. وهو كما ترى.

﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: فجورٌ وزنًى، وبذلك فسَّره ابن عباس وأنشد قول الأعشى:

حافظٌ للفرج راضٍ بالتُّقى ... ليس ممن قلبُه فيه مرض[2]

والمراد: نيةُ أو شهوةُ فجورٍ وزنًى.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٦٠.

(٢) أخرجه الطستي كما في الدر المنثور ٥/ ١٩٦، ومن طريقه السيوطي في الإتقان ١/ ٣٨٩.

وعن قتادة تفسيره بالنفاق، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما، أنه قال: المرضُ مرضان، فمرضُ زنًى ومرضُ نفاقٍ[١].

ونصب «يطمع» في جواب النهي. وقرأ أبان بن عثمان وابن هرمز: «فيطمَعِ» بالجزم وكسر العين لالتقاء الساكنين[٢]، وهو عطفٌ على محلِّ فعل النهي على أنه نهيٌ لمريض القلب عن الطمع عقيبَ نهيهنَّ عن الخضوع بالقول، كأنه قيل: فلا تخضعْنَ بالقول فلا يطمع الذي في قلبه مرض.

وقال أبو عمرو الداني: قرأ الأعرج وعيسى: «فيَطْمِعَ» بفتح الياء وكسر الميم، ونقلها ابن خالويه عن أبي السَّمَّال، قال: وقد روي ذلك عن ابن محيصن، وذَكَر أنَّ الأعرج ـ وهو ابن هرمز ـ قرأ: «فيُطْمِعَ» بضم الياء وفتح العين وكسر الميم، أي: فيُطْمِعَ هو، أي: الخضوعُ بالقول، و«الذي» مفعولٌ، أو«الذي» فاعلٌ والمفعولُ محذوفٌ، أي: فيُطْمِعَ الذي في قلبه مرضٌ نَفْسَه[٣].

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ حسناً بعيداً عن الريبة، غيرَ مُطْمِعٍ لأحد. وقال الكلبيُّ: أي: صحيحاً بلا هُجْرٍ[٤] ولا تمريض. وقال الضحاك: عنيفاً، وقيل: أي: قولاً أُذِنَ لكم فيه. وقيل: ذكر الله[٥] تعالى وما يحتاجُ إليه من الكلام.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ من قرَّ يَقَرُّ، من باب عَلِمَ، أصله: اِقْرَرْنَ فحذفت الراء الأولى وأُلقيت فتحتُها على ما قبلها وحذفت الهمزة للاستغناء عنها بتحرُّكِ القاف.

وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب «التبيان»[٦] وجهاً آخر قال: قارَ يقار[٧] إذا اجتمع، ومنه القارَةُ لاجتماعها، ألا ترى إلى قول عَضَل والديش[٨]: اجتمِعوا فكونوا قارَةً. فالمعنى: واجمعن أنفسكن في البيوت.

(١) الدر المنثور ٥/ ١٩٦.
(٢) المحتسب ٢/ ١٨١، والبحر ٧/ ٢٣٠، والكلام منه.
(٣) البحر ٧/ ٢٣٠، وينظر القراءات الشاذة لابن خالويه ص ١١٩.
(٤) الهُجْر بالضم: الفحش في المنطق، والخنا، والقبيح من الكلام. التاج (هجر).
(٥) في الأصل: ذكراً لله.
(٦) كما في الكشاف ٣/ ٢٦٠، والبحر ٧/ ٢٣٠.
(٧) كخاف يخاف، الدر المصون ٩/ ١٢١.
(٨) عَضَل والديش حيان يقال لهما: القارَة، وهم من كنانة. اللسان (عضل).

وقرأ الأكثر: «وقِرْنَ» بكسر القاف، من وَقَرَ يَقِرُ وَقاراً: إذا سكن وثبت، وأصله: اِوْقِرْنَ، ففُعِلَ به ما فُعل بـ «عِدْنَ» من وعد، أو من قرَّ يَقِرُّ المضاعف، من باب ضرب، وأصله: اِقْرِرْنَ، حُذفت الراء الأولى وألقيت كسرتُها إلى القاف وحذفت الهمزة للاستغناء عنها. وقال مكي وأبو عليٍّ: أبدلت الراء التي هي عينُ الفعل ياءً كراهةَ التضعيف، ثم نُقلت حركتها إلى القاف، ثم حُذفت لسكونها وسكونِ الراء بعدها، وسقطت الهمزةُ لتحرُّك القاف[١]. وهذا غايةٌ في التمحُّل.

وفي «البحر»[٢] أنَّ قَرَرْتُ وقَرِرْتُ بالفتح والكسر كلاهما من القرار في المكان بمعنى الثبوت فيه، وقد حكى ذلك أبو عبيد[٣] والزجَّاجُ[٤] وغيرهما. وأنكر قومٌ منهم المازنيُّ مجيء قَرِرْتُ في المكان بالكسر أَقَرُّ بالفتح، وإنما جاء: قرَّتْ عينُه تَقَرُّ بالكسر في الماضي والفتح في المضارع. والمثبِتُ مقدَّمٌ على النافي.

وقرأ ابن أبي عبلة: «واقرِرْنَ» بألف الوصل وكسر الراء الأولى[٥].

والمراد على جميع القراءات أَمْرُهُنَّ رضي الله عنهنَّ بملازمة البيوت، وهو أمرٌ مطلوب من سائر النساء؛ أخرج الترمذيُّ والبزَّار عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ المرأة عورةٌ، فإذا خرجت من بيتها استَشْرفَها الشيطانُ، وأقربُ ما تكونُ من رحمة ربِّها وهي في قَعْر بيتها»[٦].

وأخرج البزَّار عن أنس قال: جئنَ النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فهل لنا عملٌ ندرك به فضلَ

---

(١) الحجة لأبي عليٍّ الفارسي ٥/ ٤٧٥، والكشف عن وجوه القراءات لمكي بن أبي طالب ٢/ ١٩٨.
(٢) ٧/ ٢٣٠.
(٣) في الأصل و(م): عبيدة، والمثبت هو الصواب. ينظر الغريب المصنف لأبي عبيد ٢/ ٤٨٩، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٣-٣١٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣، والبحر ٧/ ٢٣٠.
(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٢٥.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣، والبحر ٧/ ٢٣٠.
(٦) سنن الترمذي (١١٧٣)، ومسند البزار (٢٠٦١)، وأخرجه أيضاً ابن خزيمة (١٦٨٥)، وابن حبان (٥٥٩٩).

المجاهدين في سبيل الله تعالى؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «مَن قعدت منكنَّ في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى»[١].

وقد يَحْرُمُ عليهنَّ الخروج، بل قد يكون كبيرةً، كخروجهنَّ لزيارة القبور إذا عَظُمتْ مفسدتُه، وخروجهنَّ ولو إلى المسجد وقد استعطرن وتَزَيَّنَّ إذا تحقَّقت الفتنة، أما إذا ظُنَّتْ فهو حرامٌ غيرُ كبيرة.

وما يجوز من الخروج كالخروج للحجِّ، وزيارةِ الوالدين، وعيادة المرضى، وتعزيةِ الأموات من الأقارب، ونحوِ ذلك، فإنما يجوز بشروطٍ مذكورةٍ في محلِّها.

وظاهرُ إضافةِ البيوت إلى ضمير النساء المطهَّرات أنها كانت ملكهنَّ، وقد صرَّح بذلك الحافظ غلام محمد الأسلمي ـ نوَّر الله تعالى ضريحه ـ في «التحفة الاثني عشرية»[٢]، وذكر فيها أنه عليه الصلاة والسلام بنى كلَّ حجرةٍ لمن سكن فيها من الأزواج وكانت كلُّ واحدةٍ منهنَّ تتصرَّفُ بالحجرة الساكنة هي فيها تصرُّفَ المالك في ملكه بحضوره ﷺ، وقد ذكر الفقهاء أنَّ مَن بنى بيتاً لزوجته وأَقْبَضَه إياها كان كمن وهب زوجتَه بيتاً وسلَّمه إليها، فيكون البيت ملكاً لها.

ويشهد لدعوى أنَّ الحجرة التي كانت تسكنُها عائشةُ ﵂ كانت ملكاً لها غير الإضافة في «بيوتكن» الداخلِ فيه حجرتُها استئذانُ عمر ﵁ لدفنه فيها منها بمحضرِ من الصحابة[٣]، وعدمُ إنكارِ أحدٍ منهم حتى عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، واستئذانُ الحسن ﵁ منها لذلك أيضاً الثابتُ عند أهل السنة والشيعة[٤]، كما ذُكر في «الفصول المهمَّة في معرفة الأئمة»[٥] وغيرِه من كتبهم، فإنَّ تلك الحجرة لو كانت

---

(١) كشف الأستار (١٤٧٥).

(٢) أصله لعبد العزيز بن أحمد العمري الفاروقي الدهلوي الملقب سراج الهند، المتوفى سنة (١٢٣٩هـ)، وترجمه إلى العربية غلام محمد الأسلمي.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٢).

(٤) أخرجه ابن شبَّة في تاريخ المدينة ١/ ١١٠-١١١، وينظر سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٧٨.

(٥) الفصول المهمة في معرفة الأئمة وفضلهم ومعرفة أولادهم ونسلهم لنور الدين علي بن محمد المكي السفاقسي الأصل، المتوفى سنة (٨٥٥هـ). كشف الظنون ٢/ ١٢٧١، وهدية العارفين ١/ ٧٣٢.

لبيت المال لحديثِ: «نحن معاشرَ الأنبياءِ لا نُورَث»[١] لاستأذن ﷺ من الوزغ مروان، فإنه إذ ذاك كان حاكمَ المدينة المنوَّرة والمتصرِّفَ في بيت المال، ولو كانت للورثة بناءً على زَعْمِ الشيعة من أنه ﷺ يورَثُ كغيره، لزم الاستئذانُ من سائر الأزواج أيضاً لتعلُّق حقِّهنَّ فيها على زَعْمِهم، بل يلزمُ الاستئذانُ أيضاً من عَصَبتِه عليه الصلاة والسلام المستحقِّين لِمَا يبقى بعد النصف والثُّمن إذا قلنا بتوريثهم، فحيث لم يَستأذِنْ ﷺ إلا منها عُلم أنها ملكها وحدها.

والقولُ بأنه عَلِمَ رضا الجميع سواها ﷺ فاستأذنها لذلك، مما لا يقوم لهم عليه[٢] حجة.

ولهم في هذا الباب أكاذيبُ لا يعوَّل عليها، ولا يَلتفِتُ أريبٌ إليها، منها أنَّ عائشةَ ﷺ أذِنَتْ للحسن ﷺ حين استأذنها في الدفن في الحجرة المباركة، ثم ندمت بعد وفاته ﷺ، وركبت على بغلةٍ لها وأتت المسجدَ ومنعت الدفن، ورمت السهامَ على جنازته الشريفة الطاهرة، وادَّعت الميراث، وأنشأ ابن عباس ﷺ يقول:

تجمَّلْتِ تبغَّلْتِ ... وإنْ عِشْتِ تفيَّلْتِ[٣]
لكِ التسعُ من الثُّمن ... فكيف الكلَّ مُلِّكْتِ

وركاكةُ هذا الشعر تنادي بكذب نسبته إلى ذلك الحبر ﷺ، وليت شعري أيُّ حاجةٍ لها إلى الركوب ومسكنُها كان تلك الحجرةَ المباركة، فلو كانت بصدد المنع لأغلقت بابها، ثم إنها ﷺ كيف يُظَنُّ بها ولها من العقل الحظُّ الأوفر بالنسبة إلى سائر أخواتها أمَّهات المؤمنين تدَّعي الميراث وهي وأبوها ﷺ رَوَيا بمحضرِ الصحابه الذين لا تأخذهم في الله تعالى لومةُ لائم: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»[٤].

هذا، ويجوزُ أن تكون إضافةُ البيوت إلى ضمير النساء المطهَّرات باعتبارِ أنهنَّ

---

(١) سلف ٢/ ٢٨٧ و٥/ ٣٤٠.

(٢) قوله: عليه، ليس في (م).

(٣) تفيَّل فلانٌ: سَمِنَ، ورأيُه: أخطأ وضعف. القاموس (فيل).

(٤) ينظر حديث عائشة ﷺ عند البخاري (٣٧١١-٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٨) و(١٧٥٩).

ساكناتٌ فيها قائماتٌ بمصالحها قيِّماتٌ عليها، واستعمالُ الخاصة والعامة شائعٌ بإضافة البيوت إلى الأزواج بهذا الاعتبار، والاستئذانُ يجوز أن يكون لانتقال كلِّ بيتٍ إلى ملك الساكنة فيه بعد وفاته ﷺ من جهة الخليفة وليِّ بيت المال؛ لِمَا رأى من المصلحة في تخصيص كلٍّ منهنَّ بمسكنه وتركه لها على نحو الإقطاع من بيت المال.

وممَّا يُستأنس به لكون الإضافة إلى ضميرهنَّ بهذا الاعتبار لا لكون البيوت ملكهنَّ إضافةُ البيت إلى النبيِّ ﷺ في غيرِ ما أثرٍ، بل سيأتي إن شاء الله تعالى إضافةُ البيوت إليه عليه الصلاة والسلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٣] وهي أحقُّ بأن تكون للملك، فليُراجَعْ هذا المطلبُ وليُتأمَّلْ.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ التبرُّج على ما روي عن مجاهدٍ وقتادةَ وابنِ أبي نجيح: المشيُ بتبختُرٍ وتكسُّرٍ وتغنُّجٍ.

وعن مقاتل: أن تُلقي المرأةُ خمارها على رأسها، ولا تشدَّه فيواريَ قلائدَها وقرطَها وعنقها، ويبدو ذلك كلُّه منها.

وقال المبرِّد: أنْ تُبديَ من محاسنها ما يجب عليها سترُه؛ قال الليث: ويقال: تبرَّجت المرأةُ، إذا أبدت محاسنها من وجهها وجسدها، ويُرى مع ذلك من عينها حُسْنُ نظر.

وقال أبو عبيدة: هو[1] أن تُخرج من محاسنها ما تستدعي به شهوةً للرجال.

وأصله ـ على ما في «البحر»[2] ـ من البَرَج وهو سعة العين وحُسْنُها، ويقال: طعنة بَرْجاء، أي: واسعة. وفي أسنانه بَرَجٌ: إذا تفرَّق ما بينها.

وقيل: هو من[3] البُرْجُ بمعنى القصر، ومعنى تبرَّجت المرأة: ظهرت من بُرْجِها، أي: قصرها.

---

(١) قوله: هو، ليس في (م).
(٢) ٧/٢٠٨.
(٣) قوله: من، ليس في (م).

وجَعَلَ الراغب إطلاق البَرَج على سعة العين وحُسْنِها للتشبيه بالبُرْج في الأمرين[١]. ولا يَخْفَى أنه لو فسِّر التبرُّج هنا بالظهور من البرج تكونُ هذه الجملة كالتأكيد لِمَا قبلها، فالأَوْلَى أن لا يفسَّر به.

و«تَبرُّجَ» مصدرٌ تشبيهيٌّ مثل: له صوتٌ صوتَ حمارٍ، أي: لا تبرَّجْنَ مثل تبرُّج الجاهلية الأولى. وقيل: في الكلام إضمارُ مضافَيْنِ، أي: تبرُّجَ نساء أيام الجاهلية، وإضافةُ نساء على معنى «في».

والمراد بالجاهلية الأولى على ما أخرج ابنُ جَريرٍ وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس: الجاهلية ما بين نوح وإدريس عليهما السلام، وكانت ألفَ سنة، قال: وإنَّ بطنين من ولد آدم كان أحدُهما يسكن السهلَ والآخرُ يسكن الجبالَ، وكان رجالُ الجبال صباحاً وفي النساء دمامةٌ، وكان نساء السهل ورجالُه على العكس، فاتخذ أهل السهل عيداً يجتمعون إليه في السنة، فتبرَّج النساء للرجال والرجال لهنَّ، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم فرأى النساء وصَبَاحَتَهنَّ، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحوَّلوا إليهنَّ فنزلوا معهنَّ، فظهرت الفاحشة فيهنَّ[٢].

وفي رواية: أنَّ المرأة إذ ذاك تجمع[٣] بين زوج وعشيق.

وأخرج ابن جرير عن الحكم بن عيينة قال: كان بين آدم ونوح عليهما السلام ثمان مئة سنة، فكان نساؤهم من أقبح ما يكون من النساء ورجالُهم حسانٌ، وكانت المرأة تراود الرجل عن نفسه[٤]، وهي الجاهلية الأولى. ورُوي مثلُه عن عكرمة.

وقال الكلبي: هي ما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام.

---

(١) مفردات الراغب (برج).
(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٩٨، والمستدرك ٢/ ٥٤٨، والشعب (٥٤٥١)، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٩٧.
(٣) في (م): تجتمع.
(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٩٨.

وقال مقاتل: كانت زمن نمروذ، وكان فيه بغايا يلبسن أرقَّ الدروع ويمشين في الطرق. وروي عنه أيضاً أن الجاهلية الأولى زمن إبراهيم عليه السلام، والثانية زمن محمد ﷺ قبل أن يبعث.

وقال أبو العالية: كانت الأُولى زمنَ داود وسليمان عليهما السلام، وكان للمرأة قميصٌ من الدرِّ غيرُ مَخيطِ الجانبين يظهر منه الأعكانُ[1] والسوأتان.

وقال المبرِّد: كانت المرأة تجمع بين زوجها وخِدْنِها[2]، للزوج نصفُها الأسفل، وللخدن نصفُها الأعلى يتمتَّع به في التقبيل والترشُّف.

وقيل: ما بين موسى وعيسى عليهما السلام.

وقال الشعبي: ما بين عيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام. قال الزجَّاج[3]: وهو الأشبهُ؛ لأنهم هم الجاهليةُ المعروفة كانوا يتخذون البغايا، وإنما قيل: «الأولى» لأنه يقال لكلِّ متقدِّمٍ ومتقدِّمةٍ: أول وأُولى، وتأويلُه أنهم تقدَّموا على أمة محمد ﷺ.

وروي عن ابن عباس ما هو نصٌّ في أنَّ الأولى هنا مقابل الأخرى[4].

وقال الزمخشري: يجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهليةَ الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام، فكأن المعنى: ولا تُحْدِثْنَ بالتبرُّجِ جاهليةً في الإسلام، تتشبَّهْنَ بها بأهل جاهلية الكفر[5].

وقال ابن عطية: الذي يظهر عندي أنَّ الجاهلية الأولى إشارةٌ إلى الجاهلية التي

(١) جمع عُكْنَة، وهي الطيُّ الذي في البطن من السِّمن. الصحاح (عكن).

(٢) الخِدْن: الصاحب، وجاء في المصادر نقلاً عن المبرد: وخِلْمها، وهو بمعنى الصاحب أيضاً. ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٤، والنكت والعيون للماوردي ٤/ ٤٠٠، والبحر ٧/ ٢٣١.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٢٥، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٢٣١.

(٤) ذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٢٣١ بلفظ: وقال عمر لابن عباس: وهل كانت الجاهلية إلا واحدة؟ فقال ابن عباس: وهل كانت الأولى إلا ولها آخرة؟ فقال عمر: لله درك يا ابن عباس!

(٥) الكشاف ٣/ ٢٦٠.

تخصُّهنَّ، فأُمِرْنَ بالنُّقْلةِ عن سيرتهنَّ فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفر وقلَّة الغيرة ونحو ذلك[1].

وفي حديث أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذيُّ أنه ﷺ قال لأبي ذرٍّ، وكان قد عيَّر رجلاً أمُّه أعجميةٌ فشكاه إلى رسول الله ﷺ: «يا أبا ذرٍّ إنك امرؤٌ فيك جاهلية»[2]، وفسَّرها ابن الأثير بالحالة التي عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وشرائع الدين، والمفاخرةِ بالأنساب، والكِبْرِ والتجبُّرِ وغيرِ ذلك[3]، والله تعالى أعلم.

وتمسَّك الرافضة في طعن أمِّ المؤمنين عائشةَ ﵄ ـ وحاشاها من كلِّ طعنٍ ـ بخروجها من المدينة إلى مكة ومنها إلى البصرة، وهناك وقعت وقعةُ الجمل، بهذه الآية قالوا: إنَّ الله تعالى أمر نساء النبيِّ ﷺ وهي منهنَّ بالسكون في البيوت، ونهاهنَّ عن الخروج، وهي بذلك قد خالفت أمر الله تعالى ونَهْيَه عز وجل.

وأجيب بأنَّ الأمر بالاستقرار في البيوت والنهيَ عن الخروج ليس مطلقاً، وإلا لَمَا أخرجهنَّ ﷺ بعد نزول الآية للحجِّ والعمرة، ولما ذهب بهنَّ في الغزوات، ولما رخَّصهنَّ لزيارة الوالدين وعيادةِ المرضى وتعزيةِ الأقارب، وقد وقع كلُّ ذلك كما تشهد به الأخبار، وقد صحَّ أنَّهنَّ كلهنَّ كنَّ يحججنَ بعد وفاة رسول الله ﷺ إلا سودة بنت زمعة ـ وفي رواية عند[4] أحمد عن أبي هريرة: إلا زينب بنت جحش وسودةَ[5] ـ ولم ينكر عليهنَّ أحدٌ من الصحابة ﵃، الأميرُ كرم الله تعالى وجهه وغيرُه، وقد جاء في الحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال لهنَّ بعد نزول الآية: «أُذِنَ لكنَّ أن تخرجن لحاجتكنَّ»[6] فعُلم أنَّ المراد الأمرُ بالاستقرار الذي

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤، وفيه: لحقنها، بدل: تخصهن.
(٢) صحيح البخاري (٣٠)، وصحيح مسلم (١٦٦١)، وسنن أبي داود (٥١٥٧)، وهو عند أحمد (٢١٤٣٢).
(٣) النهاية (جهل).
(٤) في (م): عن.
(٥) مسند أحمد (٢٦٧٥١).
(٦) أخرجه البخاري (٤٧٩٥)، ومسلم (٢١٧٠) من حديث عائشة ﵂.

يحصل به وقارُهنَّ وامتيازُهن على سائر النساء، بأنْ يلازِمْنَ البيوت في أغلب أوقاتهنَّ، ولا يكنَّ خرَّاجاتٍ ولَّاجاتٍ طوَّافاتٍ في الطرق والأسواق وبيوتِ الناس، وهذا لا ينافي خروجهنَّ للحج أو لِمَا فيه مصلحةٌ دينيةٌ مع التستُّر وعدم الابتذال.

وعائشةُ ﵂ إنما خرجت من بيتها إلى مكة للحجِّ، وخرجت معها لذلك أيضاً أمُّ سلمة ﵂، وهي وكذا صفية مقبولةٌ عند الشيعة، لكنها لمَّا سمعت بقتل عثمان ﵁ وانحيازِ قَتَلَتِه إلى عليٍّ كرم الله تعالى وجهه حزنت حزناً شديداً، واستشعرت اختلال أمر المسلمين، وحصولَ الفساد والفتنة فيما بينهم، وبينما هي كذلك جاءها طلحةُ والزبير ونعمان بن بشير وكعب بن عجرة في آخرين من الصحابة ﵃، هاربين من المدينة، خائفين من قتلة عثمان ﵁ لما أنهم أظهروا المباهاة بفعلهم القبيح، وأعلنوا بسبِّ عثمان، فضاقت قلوبُ أولئك الكرام، وجعلوا يستقبحون ما وقع ويشنِّعون على أولئك السّفلة، ويلومونهم على ذلك الفعل الأشنع، فصح عندهم عزمُهم على إلحاقهم بعثمان ﵁، وعلموا أنْ لا قدرةَ لهم على منعهم إذا همُّوا بذلك، فخرجوا إلى مكة ولاذوا بأمِّ المؤمنين، وأخبروها الخبر فقالت لهم: أرى الصلاح أن لا ترجعوا إلى المدينة مادام أولئك السفلة فيها محيطين بمجلس الأمير عليٍّ كرم الله تعالى وجهه غيرَ قادرٍ على القصاص منهم أو طَرْدِهم، فأقيموا ببلدٍ تأمنون فيه، وانتظروا انتظامَ أمور أمير المؤمنين ﵁ وقوةَ شوكته، واسْعَوْا في تفرُّقهم عنه، وإعانتِهِ على الانتقام منهم ليكونوا عبرةً لمن بعدهم. فارتضوا ذلك واستحسنوه، فاختاروا البصرةَ لِمَا أنها كانت إذ ذاك مجمعاً لجنود المسلمين، ورجَّحوها على غيرها، وألحُّوا على أمِّهم ﵂ أن تكون معهم إلى أن ترتفع الفتنة ويحصلَ الأمن وتنتظمَ أمور الخلافة، وأرادوا بذلك زيادةَ احترامهم وقوةَ أمنيتهم؛ لما أنها أمُّ المؤمنين، والزوجُ المحترمةُ غايةَ الاحترام لرسول الله ﷺ، وأنها كانت أحبَّ أزواجه إليه، وأكثرَهنَّ قبولاً عنده، وبنتَ خليفته الأول ﵁، فسارت معهم بقَصْدِ الإصلاح وانتظامِ الأمور وحِفْظِ عدَّةِ نفوسٍ من كبار الصحابة ﵃، وكان معها ابنُ أختها عبد الله بن الزبير وغيرُه من أبناء أخواتها أمِّ كلثوم زوجِ طلحة، وأسماءَ زوجِ الزبير، بل كلُّ مَن معها بمنزلةِ الأبناء في المحرميَّة، وكانت في هودج من حديد.

فبلَّغ الأميرَ كرم الله تعالى وجهه خبرَ التوجُّه إلى البصرة أولئك القتلةُ السفلة على غير وجهه، وحملوه على أن يخرج إليهم ويعاقبهم، وأشار عليه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس ﷺ بعدم الخروج واللبثِ إلى أن يتَّضح الحال، فأبى ﷺ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فخرج كرم الله تعالى وجهه ومعه أولئك الأشرار أهلُ الفتنة، فلمَّا وصلوا قريباً من البصرة أرسلوا القعقاع إلى أمِّ المؤمنين وطلحةَ والزبيرِ ليتعرَّفَ مقاصدهم ويَعْرِضها على الأمير ﷺ وكرم الله وجهه، فجاء القعقاع إلى أمِّ المؤمنين فقال: يا أمَّاه ما أَشْخَصَكِ وأَقْدَمَكِ هذه البلدة؟ فقالت: أيْ بني، الإصلاحُ بين الناس. ثم بعثتْ إلى طلحة والزبير، فقال القعقاع: أخبراني بوجه الصلاح. قالا: إقامةُ الحدِّ على قتلة عثمان، وتطييبُ قلوب أوليائه، فيكون ذلك سبباً لأمننا وعبرةً لمن بعدهم. فقال القعقاع: هذا لا يكونُ إلا بعد اتِّفاق كلمة المسلمين وسكونِ الفتنة، فعليكما بالمسالمة في هذه الساعة. فقالا: أَصبْتَ وأحسنتَ. فرجع إلى الأمير كرم الله تعالى وجهه فأخبره بذلك، فسُرَّ به واستبشر، وأشرف القومُ على الرجوع، ولبثوا ثلاثةَ أيام لا يشكُّون في الصلح.

فلما غشيتهم ليلةُ اليوم الرابع، وقرَّرت الرسل والوسائط في البين أن يُظْهِروا المصالحة صبيحةَ هذه الليلة، ويلاقيَ الأمير كرم الله وجهه طلحةَ والزبيرَ ﷺ وأولئك القتلةُ ليسوا حاضرين معه، وتحقَّقوا ذلك، ثقل عليهم واضطربوا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فتشاوروا فيما بينهم أن يُغيْروا على مَن كان مع عائشة من المسلمين ليظنُّوا الغدر من الأمير كرم الله تعالى وجهه، فيهجموا على عسكره فيظنُّوا بهم أنهم هم الذين غدروا، فينشب القتال، ففعلوا ذلك، فهجم مَن كان مع عائشة على عسكر الأمير وصرخ أولئك القتلةُ بالغدر، فالتَحَم القتال وركب الأمير متعجِّباً، فرأى الوطيس قد حمي والرجالَ قد سبحت بالدماء، فلم يسعه ﷺ إلا الاشتغال بالحرب والطعن والضرب.

وقد نقل الواقعة كما سمعتَ الطبريُّ[1] وجماهير ثقات المؤرِّخين، ورَوَوْها كذلك من طرقٍ متعدِّدةٍ عن الحسن وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس، وما وراء ذلك مما رواه الشيعةُ عن أسلافهم قتلةِ عثمان مما لا يُلتفت له.

(١) في تاريخه ٤/٤٨٨ وما بعدها.

ويدلُّ على تغلُّب القَتَلة وقوَّةِ شوكتهم ما في «نهج البلاغة» المقبولِ عند الشيعة من أنه قال للأمير كرم الله تعالى وجهه بعضُ أصحابه: لو عاقبتَ قوماً أجلبوا على عثمان. فقال: يا إخوتاه، إنِّي لستُ أجهل ما تعلمون، ولكن كيف لي بهم والمجلبون على شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم؟ وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عُبْدانُكم والتفَّتْ إليهم أعرابُكم، وهم خلالَكُم يسومونكم ما شاؤوا.

فحيث كان الخروج أولاً للحج ومعها من محارمها مَن معها، ولم يكن الأمر بالاستقرار في البيوت يتضمَّنُ النهي عن مثله، لم يتوجَّه الطعنُ به أصلاً، وكذا المسير إلى البصرة لذلك[1] القصد فإنه ليس أَدْونَ من سفرِ حجِّ النفل، وما ترتَّب عليه لم يكن في حسابها، ولم يمرَّ ببالها ترتُّبه عليه، ولهذا لمَّا وقع ما وقع وترتَّب ما ترتَّب ندمت غاية الندم، فقد روي أنها كلَّما كانت تذكر يوم الجمل تبكي حتى يبتلَّ معجرها.

بل أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» وابن المنذر وابن أبي شيبة وابن سعد عن مسروق قال: كانت عائشة رضي الله عنها إذا قرأت: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) بكت حتى تبلَّ خمارها[2]. وما ذاك إلا لأنَّ قراءتها تذكِّرها الواقعةَ التي قُتل فيها كثيرٌ من المسلمين.

وهذا كما أنَّ الأمير كرم الله تعالى وجهه أحزنه ذلك، فقد صحَّ أنه رضي الله عنه لمَّا وقع الانهزامُ على مَن مع أمِّ المؤمنين، وقُتل مَن قُتل من الجمعين، طاف في مقتل القتلى فكان يضربُ على فخذيه ويقول: يا ليتني متُّ قبل هذا وكنتُ نسياً منسياً.

وليس بكاؤها عند قراءة الآية لعِلْمِها بأنها أخطأت في فَهْمِ معناها، أو أنها نسيتْها يوم خرجت كما توهَّم، وقال في ذلك مستهزئاً كاظم الأزدي[3] البغدادي من

---

(١) في الأصل: بذلك.
(٢) الدر المنثور ٥/ ١٩٦، وهو في الزهد لأحمد ص ٢٠٥ من طريق الأعمش عن أبي الضحى، وفي طبقات ابن سعد ٨/ ٨١ من طريق الأعمش عن عمار بن عمير، كلاهما قال: حدثني مَن سمع عائشة إذا قرأت هذه الآية: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بكت حتى... .
(٣) كذا في الأصل و(م)، والذي في الأعلام ٥/ ٣١٥: الأزري، وقال في ترجمته: كاظم بن محمد بن مراد بن مهدي الوائلي البغدادي الشهير بالأزري، يقال له: شاعر أهل البيت، توفي سنة (١٢١١هـ).

متأخِّري شعراء الرافضة من قصيدةٍ طويلةٍ كَفَر بعدَّة مواضعَ فيها:

حفظتْ أربعين ألفَ حديثٍ ومن الذكر آيةً تنساها

نعم قد ينضمُّ لِمَا ذكرناه في سبب البكاء أنَّ النبيَّ ﷺ قال يوماً لأزواجه المطهَّرات وفيهنَّ عائشة: «كأني بإحداكنَّ تنبحُها كلابُ الحوأب»(١). وفي بعض الروايات الغير المعتَبَرةِ عند أهل السنَّة بزيادة: «فإياكِ أن تكوني يا حميراء»(٢). ولم تكن سألت قبل المسير عن الحوأب: هل هو واقع في طريقها أم لا؟ حتى نبحتها في أثناء المسير كلابٌ عند ماءٍ، فقالت لمحمد بن طلحة: ما اسم هذا الماء؟ فقال: يقولون له: حوأب. فقالت: أرجعوني، وذكرت الحديثَ، وامتنعت عن المسير وقصدت الرجوعَ، فلم يوافقها أكثر مَن معها، ووقع التشاجُر حتى شهد مروان بن الحكم مع نحوٍ من ثمانين رجلاً من دهاقين تلك الناحية بأنَّ هذا الماء ماءٌ آخَرُ وليس هو حوأباً، فمضت لشأنها بسبب ذلك وتعذُّرِ الرجوع ووقوعِ الأمر، فكأنها رضي الله عنها رأت سكوتها عن السؤال وتحقيقِ الحال قبل المسير تقصيراً منها، وذنباً بالنسبة إلى مقامها، فبكت له ولِمَا تقدَّم.

وما زعمته الشيعة من أنها رضي الله عنها كانت هي التي تحرِّض الناس على قتل عثمان، وتقول: اقتلوا نعثلاً فقد فجر! تشبِّهه بيهوديٍّ يُدْعَى نعثلاً(٣)، حتى إذا قتل وبايع الناس عليّاً قالت: ما أبالي أن تقع السماء على الأرض، قُتل والله مظلوماً وأنا طالبةٌ بدمه. فذكَّرها عبيد(٤) بما كانت تقول، فقالت: قد واللهِ قلتُ وقال الناس، فأنشد:

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٥٤)، وابن حبان (٦٧٣٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظه: «كيف بإحداكن...».

(٢) أخرج هذه الرواية الحاكم ٣/ ١١٩ من حديث أم سلمة رضي الله عنها وصححها، ولفظها: ذكر النبي ﷺ خروج بعض أمهات المؤمنين، فضحكت عائشة، فقال لها: «انظري يا حميراء أن لا تكوني أنت». قال ابن كثير في البداية والنهاية ٩/ ١٨٩: هذا حديث غريب جداً. اهـ. وفي إسناده عمار الدهني، قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق يتشيع.

(٣) وفي غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٤٢٦ نقلاً عن الكلبي أن نعثلاً هذا رجل من أهل مصر طويل اللحية، فكان عثمان رضي الله عنه إذا نيل منه وعيب شبه بهذا الرجل لطول لحيته، لم يكونوا يجدون عيباً غير هذا.

(٤) هو ابن أمّ كلاب، واسمه عبيد بن أبي سلمة من أخوال عائشة من بني ليث. الكامل لابن الأثير ٣/ ٢٠٦.

فمنكِ البَداءُ ومنكِ الغِيَرْ ومنكِ الرياح ومنكِ المطر
وأنتِ أمرتِ بقتل الإمام وقلتِ لنا إنه قد فَجَر

كذبٌ لا أصل له، وهو من مفتريات ابن قتيبة وابن أعثم الكوفيِّ(١) والسمساطيّ، وكانوا مشهورين بالكذب والافتراء(٢).

ومثلُ ذلك في الكذب زَعْمُهم أنها رضي الله عنها ما خرجت وسارت إلى البصرة إلا لبغضِ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، فإنها لم تزل تروي مناقبه وفضائله؛ ومن ذلك ما رواه الديلميُّ أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «حبُّ عليٍّ عبادة»(٣).

وقالت بعد وقوع ما وقع: والله لم يكن بيني وبين عليٍّ إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها.

وقد أكرمها عليٌّ كرم الله وجهه وأحسن مثواها وبالغ في احترامها، وردَّها إلى المدينة ومعها جماعةٌ من نساء أعيان البصرة عزيزةٌ كريمة، وهذا مما يُردُّ به على الرافضة الزاعمين كفرَها ـ وحاشاها ـ بما فعلت.

وما روي عن الأحنف بن قيس من أنَّ عليّاً كرم الله وجهه لمَّا ظهر على أهل الجمل أرسل إلى عائشة: أن ارجعي إلى المدينة. فأبَتْ، فأعاد إليها الرسول وأمره أن يقول لها: والله لترجِعِنَّ أو لأبعثن إليك نسوةً من بكر بن وائل معهنَّ شفارٌ حدادٌ يأخُذْنَكِ بها. فلما رأت ذلك خرجت = لا يعوَّل عليه وإن قيل: إنه رواه أبو بكر بن أبي شيبة في «المصنف»(٤)؛ لمخالفته لِمَا رواه الأوثقُ حتى كاد يبلغ مبلغَ التواتُرِ.

---

(١) أحمد بن أعثم الكوفي الأخباري، أبو محمد المؤرخ الشيعي، قال ياقوت: هو عند أصحاب الحديث ضعيف، له كتاب المألوف وكتاب الفتوح ذكر فيه إلى أيام الرشيد. وله التاريخ إلى أيام المقتدر ابتدأه بأيام المأمون. معجم الأدباء ٢/ ٢٣٠، والوافي بالوفيات ٦/ ٢٥٦.

(٢) في الأصل: لعنهم الله تعالى.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٢٤٤ بلفظ: «ذكر عليٍّ عبادة». وذكره السيوطي في الجامع الصغير كما في فيض القدير ٣/ ٥٦٥، ورمز لضعفه، وقال المناوي: وفيه الحسن بن صابر، قال الذهبي: قال ابن حبان: منكر الحديث. اهـ. وذكره الحافظ ابن حجر في اللسان ١/ ٢٤٢ بلفظ: «النظر إلى عليٍّ عبادة»، وهو حديث باطل كما ذكر الحافظ.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/ ٢٨٤.

هذا ولا يعكِّر على القول بجواز الخروج للحجِّ ونحوه ما أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن سيرين قال: ثبتَ أنه قيل لسودة ﵂ زوجِ النبيِّ ﷺ: ما لَكِ لا تحجِّين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتُك؟ فقالت: قد حجَجْتُ واعتمرتُ، وأمرني الله تعالى أن أقرَّ في بيتي، فوالله لا أخرج من بيتي حتى أموت. قال: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها[1] = لأن ذلك مبنيٌّ على اجتهادها، كما أنَّ خروج الأخوات مبنيٌّ على اجتهادهنَّ.

نعم أخرج أحمد عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع: «هذه ثم لزومَ الحُصُر» قال: فكان كلُّهن يحجُجْنَ إلا زينب بنت جحش وسودة بنت زمعة، وكانتا تقولان: والله لا تحرِّكنا دابةٌ بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ[2]. والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام: «هذه» إلخ: إنكنَّ لا تَعُدْنَ تخرجْنَ بعد هذه الحجة من بيوتكن وتلزَمْنَ الحُصُر، وهو جمع حصير الذي يبسط في البيوت من القصب، وتُضم الصاد وتسكَّن تخفيفاً، وهو في معنى النهي عن الخروج للحجِّ، فلا يتمُّ ما ذكر أولاً، ويُشْكِلُ خروجُ سائر الأزواج لذلك.

وأجيب بأنَّ الخبر ليس نصّاً في النهي عن الخروج للحجِّ بعد تلك الحجة، وإلا لما خرج له سائرُ الأزواج الطاهرات من غير نكيرِ أحدٍ من الصحابة ﵃ عليهنَّ، بل جاء أنَّ عمر ﵁ أرسلهنَّ للحجِّ في عهده، وجَعَل معهنَّ عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وقال لهما: إنكما ولدان بارَّان لهنَّ، فليَكُنْ أحدُكما قدَّامَ مراكبهنَّ والآخرُ خلفها[3]. ولم ينكر أحدٌ، فكان إجماعاً سكوتيّاً على الجواز.

فكأنَّ زينب وسودةَ فَهِمتا من الخبر: قُضيت هذه الحجة أو أُبيحت، لكنْ هذه الحجة بخصوصها، ثم الواجبُ بعدها عليكنَّ لزومُ البيوت، فلم يحجَّا بعدُ لذلك. وغيرهما فهم منه: المناسبُ لَكُنَّ أو اللائقُ بكنَّ هذه الحجة، أي: جنسها، أو هذه الحالة من السفر للحجِّ، أو لأمرٍ دينيٍّ مهمٍّ، ثم بعد الفراغ المناسبُ أو اللائقُ لزومُ البيوت، فيكون مفادُه إباحةَ الخروج لذلك.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٩٦.

(٢) مسند أحمد (٢٦٧٥١)، وإسناده حسن، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٣) لم نقف عليه.

ومَن أنصف لا يكاد يقول بإفادة الخبر الأمرَ بلزوم البيوت، والنهيَ عن الخروج منها مطلقاً بعد تلك الحجة بخصوصها، فإنَّ النبيَّ ﷺ مرض في بيت عائشة ﵂، وبقي مريضاً فيه حتى تُوفِّي عليه الصلاة والسلام، ولا يكاد يَشكُّ أحدٌ في خروج سائرهنَّ لعيادته، أو يَتصوَّر استقرارَهنَّ في بيوتهنَّ غير بالِّين شوقهنَّ برؤية طَلْعتِه الشريفة حتى توفِّي ﷺ، فإنَّ مثل ذلك لا يفعله أقلُّ النساء حبّاً لأزواجهنَّ الذين لا قَدْرَ لهم، فكيف يفعله الأزواج الطاهرات مع رسول الله ﷺ وهو هو، وحبُّهنَّ له حبُّهنّ؟

ثم إنَّ الجواب المذكور إنما يُحتاج إليه بعد تسليم صحة الخبر، ويَحتاجُ الجزم بصحَّته إلى تنقيرٍ ومراجعة، فلينقِّر وليراجِعْ، والله تعالى أعلم.

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أُمِرْن بهما لإنافتهما على غيرهما، وكونهما أساس العبادات البدنية والمالية.

﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: في كلِّ ما تأتينَ وتَذَرْنَ، لاسيما فيما أُمِرْتُنَّ به ونُهيتُنَّ عنه.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مفيدٌ تعليلَ أَمْرِهنَّ ونَهيِهنَّ، والرجسُ في الأصل: الشيءُ القذر، وأُريدَ به هنا عند كثيرٍ الذنبُ مجازاً. وقال السدِّيُّ: الإثم. وقال الزجَّاج: الفسق[1]. وقال ابن زيد: الشيطان. وقال الحسن: الشرك. وقيل: الشك، وقيل: البخل والطمع. وقيل: الأهواء والبدع. وقيل: إنَّ الرجس يقع على الإثم، وعلى العذاب، وعلى النجاسة، وعلى النقائص، والمرادُ به هنا ما يعمُّ كلَّ ذلك.

ولا يَخفَى عليك ما في بعض هذه الأقوال من الضعف. و«أل» فيه للجنس أو للاستغراق، والمراد بالتطهير قيل: التحلية بالتقوى، والمعنى على ما قيل: إنما يريد الله ليذهبَ عنكم الذنوب والمعاصي فيما نهاكم، ويحلِّيَكم بالتقوى تحليةً بليغةً فيما أمركم.

(١) البحر ٧/ ٢٣١، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٢٦ هو: الرجس في اللغة كلُّ مستنكَرٍ مستقذَرٍ من مأكول أو عمل أو فاحشة.

وجوّز أن يراد به الصَّوْنُ، والمعنى: إنما يريد سبحانه ليذهب عنكم الرجسَ ويصونكم من المعاصي صوناً بليغاً فيما أمر ونهى جل شأنه.

واختلف في لام «ليذهب» فقيل: زائدة، وما بعدها في موضع المفعول به لـ «يريد»، فكأنه قيل: يريد الله إذهابَ الرجس عنكم وتطهيرَكم.

وقيل: للتعليل؛ ثم اختلف هؤلاء:

فقيل: المفعول محذوفٌ أي: إنما يريد الله أمرَكم ونَهْيَكم ليُذْهِبَ، أو: إنما يريد منكم ما يريدُ ليُذْهِبَ، أو نحو ذلك.

وقال الخليل وسيبويه ومَن تابعهما: الفعلُ في ذلك مقدَّرٌ بمصدرٍ مرفوعٍ بالابتداء، واللامُ وما بعدها خبرٌ، أي: إنما إرادةُ الله تعالى للإذهاب، على حدِّ ما قيل في: تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه(١)، فلا مفعولَ للفعل.

وقال الطبرسي: اللام متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديره: وإرادته ليذهب(٢). وهو كما ترى.

وهذا الذي ذكروه جارٍ في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦] ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٧١] وقول الشاعر:

أريدُ لأنسى ذكرَها فكأنما ... تمثَّلُ لي ليلى بكلِّ مكانِ(٣)

ونصب «أهل» على النداء، وجوّز أن يكون على المدح فيقدَّر: أمدحُ أو أعني، وأن يكون على الاختصاص وهو قليلٌ في المخاطب، ومنه: بك اللهَ نرجو الفضلَ، وأكثر ما يكون في المتكلِّم كقوله:

نحن بناتِ طارق ... نمشي على النمارق(٤)

---

(١) سلف ٥/ ٤٦٢ و٢٠/ ٤٣٧.

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ١٣٥.

(٣) البيت لكثير عزة، وهو في ديوانه ص ٢٧٦ برواية: ... بكلِّ سبيل، وسلف ٧/ ٨٢.

(٤) البيت لهند بنت عتبة، وهو في طبقات ابن سعد ٢/ ٤٠، والصحاح (طرق)، والمغني ص٥٠٧، وورد ضمن حديث للزبير ﷺ في مسند البزار (٩٧٩). وطارق هو النجم الذي يقال له: كوكب الصبح، أي: إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء. قاله الجوهري.

و«أل» في «البيت» للعهد. وقيل: عوضٌ عن المضاف إليه، أي: بيت النبيِّ ﷺ. والظاهر أن المراد به بيت الطين والخشب، لا بيتُ القرابة والنسب، وهو بيتُ السكنى لا المسجدُ النبويُّ كما قيل، وحينئذ فالمراد بأهله نساؤه ﷺ المطهَّرات؛ للقرائن الدالة على ذلك من الآيات السابقة واللاحقة، مع أنه عليه الصلاة والسلام ليس له بيت يسكنه سوى سكناهنَّ، ورُوي ذلك عن[1] غير واحد؛ أخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ إلخ في نساء النبيِّ ﷺ خاصةً[2]. وأخرج ابن مردويه من طريق ابن جبير عنه ذلك بدون لفظِ خاصة[3].

وقال عكرمة: مَن شاء باهلتُه، إنها نزلت في أزواج النبيِّ ﷺ.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عكرمة أنه قال في الآية: ليس بالذي تذهبون إليه، إنما هو نساءُ النبيِّ ﷺ[4].

ورَوَى ابن جرير أيضاً أنَّ عكرمة كان ينادي في السوق: إنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نزل في نساء النبي عليه الصلاة والسلام[5].

وأخرج ابن سعد عن عروة: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال: يعني أزواج النبيِّ ﷺ[6].

وتوحيدُ البيت لأنَّ بيوت الأزواج المطهَّرات باعتبار الإضافة إلى النبيِّ ﷺ بيتٌ واحدٌ، وجمعُه فيما سبق ولحق باعتبار الإضافة إلى الأزواج المطهَّرات اللاتي كنَّ متعدِّداتٍ، وجمعُه في قوله سبحانه الآتي إن شاء الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ دفعاً لتوهُّم إرادة بيتِ زينبَ لو أُفرد، من حيث إن سبب النزول أمرٌ وقع فيه كما ستطَّلع عليه إن شاء الله تعالى.

---

(١) قوله: عن، ليس في (م).

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٩٨، وهو في تاريخ ابن عساكر ٦٩/ ١٥٠.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٩٨.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٩٨، وسيأتي تخريجه من تفسير الطبري.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ١٠٧-١٠٨.

(٦) طبقات ابن سعد ٨/ ١٩٩.

وأورد ضميرُ جمع المذكر في «عنكم» و«يطهركم» رعايةً للفظ الأهل، والعرب كثيراً ما يستعملون صيغ المذكر في مثل ذلك رعايةً للّفظ، وهذا كقوله تعالى خطاباً لسارة امرأة الخليل عليهما السلام: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود:٧٣]، ومنه على ما قيل قوله سبحانه: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه:١٠] خطاباً من موسى عليه السلام لامرأته. ولعل اعتبار التذكير هنا أدخلُ في التعظيم.

وقيل: المراد هو ﷺ ونساؤه المطهَّرات رضي الله عنهنَّ، وضميرُ جمع المذكَّر لتغليبه عليه الصلاة والسلام عليهن.

وقيل: المراد بالبيت بيتُ النسب، ولذا أُفرد ولم يُجمع كما في السابق واللاحق، فقد أخرج الحكيم الترمذيُّ والطبرانيُّ وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقيُّ معاً في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى قَسَم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة:٢٧] ﴿وَأَصْحَٰبُ الشِّمَالِ﴾ [الواقعة:٤١] فأنا من أصحاب اليمين وأنا خيرُ أصحاب اليمين، ثم جَعَلَ القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَٰبُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ الْمَشْـَٔمَةِ مَا أَصْحَٰبُ الْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّٰبِقُونَ السَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة:٨-١٠] فأنا من السابقين وأنا خيرُ السابقين، ثم جَعَل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلةً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] وأنا أتقى ولدِ آدم وأكرمُهم على الله تعالى ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً، فذلك قوله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) فأنا وأهلُ بيتي مطهَّرون من الذنوب»(١)، فإنَّ المتبادر من «البيت» الذي هو قِسْمٌ من القبيلة البيتُ النَّسَبي.

واختلف في المراد بأهله؛ فذهب الثعلبيُّ إلى أنَّ المراد بهم جميعُ بني هاشم

(١) نوادر الأصول ص ٩٥، والمعجم الكبير (٢٦٧٤)، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٧٠، وعزاه لابن مردويه وأبي نعيم السيوطي في الدر ٥/ ١٩٩. قال أبو حاتم كما في العلل لابنه ٢/ ٣٩٥: هذا حديث باطل.

ذكورِهم وإناثهم[١]. والظاهر أنه أراد مؤمني بني هاشم، وهذا هو المراد بالآل عند الحنفية. وقال بعض الشافعية: المراد بهم آله ﷺ الذين هم مؤمنو بني هاشم والمطَّلب.

وذكر الراغب أنَّ أهل البيت تُعورف في أسرة النبيِّ ﷺ مطلقاً[٢]. وأسرةُ الرجل على ما في «القاموس»: رَهْطُه، أي: قومه وقبيلتُه الأَدْنَوْنَ[٣]، وقال في موضع آخر: صار أهل البيت متعارفاً في آله عليه الصلاة والسلام[٤].

وصحَّ عن زيد بن أرقم في حديث أخرجه مسلم أنه قيل له: مَن أهلُ بيته، نساؤه ﷺ؟ فقال: لا وايْمُ الله، إن المرأة تكون مع الرجل العَصْرَ من الدَّهر، ثم يطلِّقُها فترجعُ إلى أبيها وقومِها، أهلُ بيته أصلُه وعصبته الذين حُرِموا الصدقة بعده ﷺ[٥].

وفي آخَرَ أخرجه هو أيضاً مبيِّنٍ هؤلاء الذين حُرِموا الصدقة أنه قال: هم آلُ عليٍّ، وآلُ عقيلٍ، وآلُ جعفر، وآلُ عباس[٦].

وقال بعض الشيعة: «أهل البيت» سواءٌ أُريدَ به بيتُ المَدَر والخشب أم بيتُ القرابة والنسب عامٌّ، أما عمومُه على الثاني فظاهر، وأما على الأول فلأنه يشمل الإماء والخدم، فإنَّ البيت المَدَريَّ يسكنُه هؤلاء أيضاً.

وقد صحَّ ما يدلُّ على أنَّ العموم غيرُ مرادٍ؛ أخرج الترمذيُّ والحاكم وصححاه، وابنُ جرير وابنُ المنذر وابن مردويه، والبيهقيُّ في «سننه» من طرقٍ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ وفي البيت فاطمةُ وعليٌّ والحسن والحسين، فجلَّلهم رسول الله ﷺ بكساءٍ كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهِبْ عنهم الرجسَ وطهِّرهم تطهيراً»[٧].

---

(١) ينظر تفسير الثعلبي ٨/ ٤٤.
(٢) مفردات الراغب (أهل).
(٣) القاموس (أسر)، وفيه: الأُسرة من الرجل: الرهط الأدْنَون.
(٤) مفردات الراغب (بيت).
(٥) صحيح مسلم (٢٤٠٨): (٣٧).
(٦) صحيح مسلم (٢٤٠٨): (٣٦).
(٧) سنن الترمذي (٣٨٧١)، والمستدرك ٢/ ٤١٦، وتفسير الطبري ١٩/ ١٠٣-١٠٧، وسنن =

وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام أخرج يده من الكساء وأومأ بها إلى السماء وقال: «اللهم هؤلاء أهلُ بيتي وخاصَّتي، فأذْهِبْ عنهم الرجسَ وطهِّرهم تطهيراً» ثلاثَ مرَّات[1].

وفي بعضٍ آخَرَ أنه عليه الصلاة والسلام ألقى عليهم كساءً فدكيّاً ثم وضع يده عليهم ثم قال: «اللهمَّ إنَّ هؤلاء أهلُ بيتي - وفي لفظ: آل محمد - فاجْعَلْ صلواتِكَ وبركاتك على آلِ محمدٍ كما جعلتها على آلِ إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيدٌ»[2].

وجاء في رواية أخرجها الطبرانيُّ عن أمِّ سلمة أنها قالت: فرفعتُ الكساء لأدخل معهم فجذبه ﷺ من يدي وقال: «إنك على خير»[3].

وفي أخرى رواها ابن مردويه عنها أنها قالت: ألستُ من أهل البيت؟ فقال ﷺ: «إنك إلى خيرٍ، إنك من أزواج النبيِّ ﷺ»[4].

وفي أخرى[5] رواها الترمذيُّ وجماعةٌ عن عمر بن أبي سلمة ربيبِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام قال: قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبيَّ الله؟ قال: «أنتِ على مكانك وإنك على خير»[6].

وأخبارُ إدخاله ﷺ عليّاً وفاطمةَ وابنيهما رضي الله عنهم تحت الكساء، وقولِه عليه الصلاة والسلام: «اللهم هؤلاء أهلُ بيتي» ودعائه لهم، وعدم إدخال أمِّ سلمة أكثرُ من أن تُحصى، وهي مخصِّصةٌ لعموم أهل البيت بأيِّ معنًى كان البيتُ، فالمرادُ بهم مَن شملهم الكساءُ، ولا يدخل فيهم أزواجه ﷺ.

= البيهقي ٢/ ١٥٠، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٩٨. ووقع في مطبوع سنن الترمذي: هذا حديث حسن، وورد التصحيح عنه في تحفة الأشراف ١٣/ ١٢. وفي الباب من حديث عائشة عند مسلم (٢٤٢٤).

(١) أخرج هذه الرواية أحمد (٢٦٥٠٨) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) أخرج هذه الرواية أحمد (٢٦٧٤٦)، والطبراني (٢٦٦٤) و٢٣/ (٧٧٩).

(٣) قطعة من الرواية السابقة عند أحمد والطبراني.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٩٨.

(٥) في الأصل و(م): وفي آخرها.

(٦) سنن الترمذي (٣٢٠٥)، وفيه: «وأنت على خير».

وقد صرَّح بعدم دخولهنَّ من الشيعة عبد الله المشهديُّ، وقال: والمراد من البيت بيتُ النبوَّة، ولا شكَّ أن أهل البيت لغةً شاملٌ للأزواج، بل للخدَّام من الإماء اللائي يسكنَّ في البيت أيضاً، وليس المراد هذا المعنى اللغويَّ بهذه السعة بالاتِّفاق، فالمراد به آلُ العباء الذين خصَّصهم حديثُ الكساء.

وقال أيضاً: إنَّ كون البيوت جمعاً في «بيوتكنَّ» وإفراد «البيت» في «أهل البيت» يدلُّ على أنَّ بيوتهنَّ غيرُ بيت النبيِّ ﷺ. اهـ، وفيه ما ستعلمه إن شاء الله تعالى.

وقيل: المراد بالبيت بيتُ السكنى وبيتُ النسب، وأهلُ ذلك أهلُ كلٍّ من البيتين. وقد سمعتَ ما قيل فيه، وفيه الجمعُ بين الحقيقة والمجاز.

وقال بعض المحققين: المراد بالبيت بيتُ السُّكْنَى، وأهلُه ـ على ما يقتضيه سياقُ الآية وسباقُها، والأخبارُ التي لا تحصى كثرةً، ويشهد له العرفُ ـ مَن له مزيدُ اختصاصٍ به؛ إما بالسُّكْنَى فيه مع القيام بمصالحه، وتدبير شأنه، والاهتمامِ بأمره، وعدمِ كون الساكن في معرض التبدُّل والتحوُّلِ بحكم العادة الجارية من بيعٍ وهبةٍ كالأزواج، أو بالسكنى فيه كذلك بدون ملاحظة القيام بالمصالح كالأولاد، أو بقرابةٍ من صاحبه تقضي بحسب العادة بالتردُّد إليه والجلوس فيه من غير طلبٍ من صاحبه لذلك، أو بعدم المنع من ذلك كالأولاد[1] الذين لا يسكنونه، وكأولادهم وإن نزلوا، وكالأعمام وأولادِ الأعمام.

وعلى هذا يحصلُ الجمع بين الأخبار، وقد سمعتَ بعضَها كحديث الكساء، ولا دلالة فيه على الحصر، وكالحديث الحسن أنه ﷺ اشتمل على العباس وبَنِيْه بملاءةٍ ثم قال: «يا ربِّ، هذا عمِّي وصنوُ أبي، وهؤلاء أهلُ بيتي، فاسْتُرْهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه» فأمَّنت أُسْكُفَّةُ البابِ وحوائطُ البيت، فقالت: آمين، ثلاثاً[2].

---

(١) في (م): فالأولاد، وهو تصحيف.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٩/ (٥٨٤)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (١٨٥)، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٧١ من حديث أبي أسيد الساعدي ﷺ. قال البيهقي: تفرد به عبد الله بن عثمان الوقاصي، وهو ممن سأل عنه عثمانُ الدارمي يحيى بنَ معين فقال: لا أعرفه. اهـ. وفي إسناده أيضاً: مالك بن حمزة بن أبي أسيد الساعدي، ذكره البخاري في الضعفاء وذكر =

وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام ضمَّ إلى أهل الكساء عليٍّ وفاطمةَ والحسنين رضي الله عنهم بقيةَ بناته وأقاربه وأزواجه[1].

وصحَّ عن أمِّ سلمة في بعضٍ آخر أنها قالت: فقلتُ: يا رسول الله، أمَا أنا من أهل البيت؟ فقال: «بلى إن شاء الله تعالى»[2].

وفي بعضٍ آخَر أيضاً أنها قالت له ﷺ: ألستُ من أهلك؟ قال: «بلى»، وأنه عليه الصلاة والسلام أدخلها الكساء بعد ما قضى دعاءه لهم[3].

وقد تكرَّر كما أشار إليه المحبُّ الطبريُّ[4] منه ﷺ الجمعُ وقولُ: «هؤلاء أهلُ بيتي» والدعاءُ في بيت أمِّ سلمة وبيتِ فاطمة رضي الله عنها وغيرهما، وبه جمع بين اختلاف الروايات في هيئة الاجتماع، وما جلَّل ﷺ به المجتمعين، وما دعا به لهم، وما أجاب به أمَّ سلمة. وعدمُ إدخالها في بعض المرَّات تحت الكساء ليس لأنها ليست من أهل البيت أصلاً، بل لظهورِ أنها منهم، حيث كانت من الأزواج اللاتي يقتضي سياقُ الآية وسباقُها دخولهنَّ فيهم، بخلافِ مَن أُدخلوا تحته رضي الله عنهم، فإنه عليه الصلاة والسلام لو لم يُدْخِلْهم ويَقُلْ ما قال لتوهِّم عدمُ دخولهم في الآية لعدم اقتضاء سياقها وسباقها ذلك. وذكر ابن حجر على تقدير صحة بعض الروايات المختلفة الحملَ على أنَّ النزول كان مرَّتين.

وقد أدخل ﷺ بعضَ مَن لم يكن بينه وبينه قرابةٌ سببيةٌ ولا نسبيةٌ في أهل البيت توسُّعاً وتشبيهاً، كسلمان الفارسيِّ رضي الله عنه حيث قال عليه الصلاة والسلام: «سلمان منَّا أهلَ البيت»[5]، وجاء في روايةٍ صحيحة أنَّ واثلة قال: وأنا من أهلك

= له هذا الحديث، ثم قال: لا يتابع عليه. الميزان ٣/ ٤٢٥. اهـ. وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٧٠! وأسكفَّة الباب: عتبته العليا أو السفلى. المصباح (الإسكاف).

(١) لم نقف على هذه الرواية.

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (٣٩١٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٥٥٠) وفي إسناده شهر بن حوشب، وهو ضعيف.

(٤) في ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ص٢٢.

(٥) أخرجه ابن سعد ٤/ ٨٢-٨٣، و٧/٣١٨، والطبري ١٩/ ٣٩-٤٢، والطبراني في الكبير (٦٠٤٠)، والحاكم ٣/٥٩٨، والبيهقي في الدلائل ٣/٤١٨ من حديث عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه. وسكت عنه الحاكم، وقال الذهبي: سنده ضعيف.

يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «وأنت من أهلي» فكان واثلة يقول: إنها لَمِنْ أَرْجى ما أرجو[١].

والخبر الدالُّ بظاهره على أنَّ المراد بالبيت البيتُ النَّسَبيُّ، أعني خبر الحكيم الترمذيِّ ومَن معه عن ابن عباس، يجوزُ حملُ البيت فيه على بيت المدر، والحيوانُ ينقسم إلى روميٍّ وزنجيٍّ مثلاً كما ينقسم الإنسان إليهما، على أنَّ في رواته مَن وثَّقه ابن معينٍ وضعَّفه غيرُه، والجرحُ مقدَّمٌ على التعديل[٢].

وما روي عن زيد بن أرقم ﵁ من نفي كون أزواجه ﷺ أهلَ بيته، وكونِ أهلِ بيته أصلَه وعصبتَه الذين حُرموا الصدقة بعده عليه الصلاة والسلام، فالمرادُ بأهل البيت فيه أهلُ البيت الذين جعلهم رسول الله ﷺ ثاني الثقلين، لا أهلُ البيت بالمعنى الأعمِّ المراد في الآية، ويشهد لهذا ما في «صحيح» مسلم عن يزيد بن حَيَّان قال: انطلقتُ أنا وحُصينُ بنُ سَبْرَةَ وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلمَّا جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً، رأيتَ رسول الله ﷺ، وسمعتَ حديثه، وغزوتَ معه، وصلَّيتَ خلفه، لقد لقيتَ يا زيد خيراً كثيراً، حدِّثنا يا زيد بما سمعتَ من رسول الله ﷺ. قال: يا ابن أخي، والله لقد كَبِرَتْ سنِّي وقَدُمَ عهدي ونسيتُ بعضَ الذي كنتُ أعي من رسول الله ﷺ، فما حدَّثتُكم فاقْبَلوا، وما لا، لا تكلِّفونيه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماءٍ يُدْعَى خمّاً، بين مكة والمدينة، فحَمِدَ الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكَّر، ثم قال: «أما بعدُ، ألا يا أيها الناس فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسولُ ربِّي فأجيبَ، وإنِّي تاركٌ فيكم ثقلين: أوَّلُهما كتابُ الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «وأهلُ بيتي أذكِّركم اللهَ في أهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي» ثلاثاً. فقال له حصين: ومَن أهلُ بيته يا زيد، أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكنْ أهلُ بيته مَن حُرِمَ الصدقة بعده. قال: ومَن هم؟ قال: هم آلُ عليٍّ، وآلُ عَقيلٍ، وآلُ جعفر، وآلُ عباس،.. الحديث[٣]. فإنَّ الاستدراك

(١) أخرجه ابن حبان (٦٩٧٦).
(٢) سلف الحديث قريباً، وذكرنا ثمة قول أبي حاتم: هذا حديث باطل.
(٣) صحيح مسلم (٢٤٠٨): (٣٦)، وقد سلف تخريجه قريباً.

بعد جَعْلِه النساء من أهل بيته ﷺ ظاهرٌ في أنَّ الغرض بيانُ المراد بأهل البيت في الحديث الذي حدَّث به عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهم فيه ثاني الثقلين، فلأهل البيت إطلاقان يدخل في أحدهما النساء ولا يدخلنَ في الآخر، وبهذا يحصل الجمعُ بين هذا الخبر والخبرِ السابق المتضمِّن نفيَه رضي الله عنه كونَ النساء من أهل البيت.

وقال بعضهم: إنَّ ظاهر تعليله نفيَ كونِ النساء من[1] أهل البيت بقوله: وايم الله إنَّ المرأة تكونُ مع الرجل العَصْرَ من الدهر ثم يطلِّقها فترجع إلى أبيها وقومها. يقتضي أن لا يكنَّ من أهل البيت مطلقاً، فلعله أراد بقوله في الخبر السابق: نساؤه من أهل بيته: أَنِساؤُه.. إلخ؟ بهمزة الاستفهام الإنكاري، فيكون بمعنى: ليس نساؤه من أهل بيته، كما في معظم الروايات في غير «صحيح مسلم»[2]، ويكون رضي الله عنه ممن يرى أنَّ نساءه عليه الصلاة والسلام لَسْنَ من أهل البيت أصلاً، ولا يلزمُنا أنْ نَدِينَ اللهَ تعالى برأيه، لاسيما وظاهرُ الآية معنا، وكذا العرفُ، وحينئذٍ يجوز أن يكون أهلُ البيت الذين هم أحدُ الثقلين بالمعنى الشامل للأزواج وغيرهنَّ من أصله وعصبته ﷺ الذين حُرِموا الصدقة بعده، ولا يضرُّ في ذلك عدمُ استمرار بقاء الأزواج كما استمرَّ بقاءُ الآخرين مع الكتاب كما لا يخفى. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ ظاهر ما صحَّ من قوله ﷺ: «إني تاركٌ فيكم خليفتين - وفي رواية: ثقلين - كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوضَ»[3] يقتضي أنَّ النساء المطهَّرات غيرُ داخلاتٍ في أهل البيت الذين هم أحدُ الثقلين؛ لأنَّ عترة الرجل كما في «الصِّحاح» نسلُه ورَهْطُه الأدنَوْن[4]، و«أهل بيتي» في الحديث الظاهرُ أنه بيانٌ له أو بدلٌ منه

---

(١) قوله: من، ليس في (م).

(٢) ذكر ذلك النووي في شرح صحيح مسلم ١٥/ ١٨٠، قال: والمعروف في معظم الروايات في غير مسلم أنه قال: نساؤه لسن من أهل بيته. ولم نقف على رواية بهذا اللفظ، بل قد جاء في بعض الروايات ما يخالفها، وهو قوله: بلى إن نساءه...، كما في سنن النسائي الكبرى (٨١١٩)، ومسند عبد بن حميد (٢٦٥)، وصحيح ابن خزيمة (٢٣٨٥)، وسنن البيهقي ٢/ ١٤٨.

(٣) سلف ٤/ ٣٦٣ و٧/ ٣٢١.

(٤) الصحاح (عتر).

بدلَ كلٍّ من كلٍّ، وعلى التقديرين يكون متَّحداً معه، فحيث لم تدخل النساء في الأول لم تدخل في الثاني. وفي «النهاية»: أنَّ عترة النبيِّ ﷺ بنو عبد المطلب، وقيل: أهل بيته الأقربون، وهم أولادُه وعليٌّ وأولادُه رضي الله عنهم، وقيل: عترتُه الأقربون والأبعدون منهم[1]. اهـ.

والذي رجَّحه القرطبيُّ أنهم مَن حرمت عليهم الزكاةُ[2]. وفي كون الأزواج المطهَّرات كذلك خلافٌ؛ قال ابن حجر: والقول بتحريم الزكاة عليهنَّ ضعيفٌ وإن حَكَى ابن عبد البرِّ الإجماعَ عليه، فتأمل.

ولا يَرِدُ على حَمْلِ أهل البيت في الآية على المعنى الأعمِّ ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبرانيُّ عن أبي سعيد الخدريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيَّ، وفي عليٍّ وفاطمةَ وحسنٍ وحسينٍ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[3]، إذ لا دليلَ فيه على الحصر، والعددُ لا مفهومَ له، ولعل الاقتصارَ على مَن ذُكر صلوات الله تعالى وسلامه عليهم لأنهم أفضلُ مَن دخل في العموم، وهذا على تقدير صحة الحديث، والذي يغلب على ظنِّي أنه غيرُ صحيحٍ[4]؛ إذ لم أَعْهَدْ نحوَ هذا في الآيات منه ﷺ في شيء من الأحاديث الصحيحة التي وقفتُ عليها في أسباب النزول.

وبتفسير أهلِ البيت بمن له مزيدُ اختصاصٍ به على الوجه الذي سمعتَ يندفعُ ما ذكره المشهدي من شموله للخدَّام والإماء والعبيد الذين يسكنون البيت، فإنهم في معرض التبدُّل والتحوُّل بانتقالهم من ملكٍ إلى ملكٍ بنحو الهبة والبيع، وليس

(١) النهاية (عتر).

(٢) المفهم لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي ٣/ ١٢٥-١٢٦، ونقله المصنف عنه بواسطة المناوي في فيض القدير ٣/ ١٤.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٩٨، وينظر التعليق الذي بعده.

(٤) هو كما قال، وقد روي هذا الحديث مرفوعاً وموقوفاً، فالمرفوع أخرجه البزار (٢٦١١- كشف)، والطبري ١٩/ ١٠١-١٠٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٦٧: فيه بكر بن يحيى بن زبان، وهو ضعيف. اهـ. وفيه أيضاً مندل بن علي وعطية العوفي وهما ضعيفان. والموقوف أخرجه الطبراني في الكبير (٢٦٧٣)، وفي الأوسط (٣٤٥٦) من طريق عطية عن أبي سعيد قوله. وهو ضعيفٌ أيضاً لضعف عطية.

لهم قيامٌ بمصالحه واهتمامٌ بأمره وتدبيرٌ لشأنه إلا حيث يؤمرون بذلك. ونَظْمُهم في سلك الأزواج، ودعوى أنَّ نسبة الجميع إلى البيت على حدٍّ واحدٍ، مما لا يرتضيه منصفٌ، ولا يقولُ به إلا متعسِّفٌ.

وقال بعض المتأخِّرين: إنَّ دخولهم في العموم مما لا بأس به عند أهل السنَّة؛ لأنَّ الآية عندهم لا تدلُّ على العصمة، ولا حَجْرَ على رحمة الله عز وجل، ولأَجْل عينٍ ألفُ عينٍ تُكْرَمُ.

وأمَّا أمرُ الجمع والإفراد فقد سمعت ما يتعلَّق به، والظاهر على هذا القول أن التعبير بضمير جمع المذكَّر في «عنكم» للتغليب، وذُكر أنَّ في «عنكم» عليه تغليبين: أحدُهما تغليبُ المذكَّر على المؤنَّث، وثانيهما تغليبُ المخاطَب على الغائب؛ إذ غيرُ الأزواج المطهَّرات من أهل البيت لم يَجْرِ لهم ذكرٌ فيما قبلُ، ولم يخاطبوا بأمرٍ أو نهيٍ أو غيرهما فيه، وأمرُ التعليل عليه ظاهرٌ وإن لم يكن كظهوره على القول بأنَّ المراد بأهل البيت الأزواجُ المطهَّرات فقط.

واعتذر المشهديُّ عن وقوع جملة «إنما يريد الله» إلخ في البين بأنَّ مثله واقعٌ في القرآن الكريم، فقد قال تعالى شأنه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ النور: ٥٤]، ثم قال سبحانه بعد تمام الآية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النور: ٥٦] فعطف «أقيموا» على «أطيعوا» مع وقوع الفصل الكثير بينهما.

وفيه أنه وقع بعد «أقيموا الصلاة» إلخ «وأطيعوا الرسول»، فلو كان العطف على ما ذَكَر لزم عطفُ «أطيعوا» على «أطيعوا» وهو كما ترى. سلَّمنا أنْ لا فسادَ في ذلك، إلا أنَّ مثل هذا الفصل ليس في محلِّ النزاع؛ فإنه فصلٌ بين المعطوف والمعطوف عليه بالأجنبيِّ من حيث الإعراب، وهو لا ينافي البلاغةَ، وما نحن فيه على ما ذهبوا إليه فصلٌ بأجنبيٍّ باعتبار موارد الآيات اللاحقة والسابقة، وإنكارُ منافاته للبلاغةِ القرآنيةِ مكابرةٌ لا تَخْفَى.

ومما يَضْحكُ منه الصبيان أنه قال بعدُ: إنَّ بين الآيات مغايرةً إنشائيةً وخبريةً؛ لأنَّ آية التطهير جملةٌ ندائية وخبرية، وما قبلها وما بعدها من الأمر والنهي جُمَلٌ إنشائية، وعطفُ الإنشائية على الخبرية لا يجوز، ولعمري إنه أشبهُ كلامٍ من حيث

الغلط بقول بعض عوامِّ الأعجام: خسن وخسين دختران[1] مغاوية ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ثم إن الشيعة استدلُّوا بالآية ـ بعد قولهم بتخصيص أهل البيت فيها بمن سمعت، وجَعْلِ «ليذهب» مفعولاً به لـ «يريد»، وتفسيرِ «الرجس» بالذنوب ـ على العصمة، فذهبوا إلى أنَّ علياً وفاطمة والحسنين ﵃ معصومون من الذنوب عصمتَه ﷺ منها.

وتعقَّبه بعض أجلَّة المتأخِّرين بأنه لو فُرض تعيُّن كلِّ ما ذهبوا إليه لا تسلَّم دلالتها على العصمة، بل لها دلالةٌ على عدمها؛ إذ لا يقال في حقِّ مَن هو طاهرٌ: إنِّي أريد أن أطهِّره، ضرورةَ امتناعِ تحصيل الحاصل، وغايةُ ما في الباب أنَّ كون أولئك الأشخاص ﵃ محفوظين من الرجس والذنوب بعد تعلُّق الإرادة بإذهاب رِجْسِهم يَثْبُتُ بالآية، ولكنَّ هذا أيضاً على أصول أهل السنَّة لا على أصول الشيعة؛ لأنَّ وقوع مراده تعالى غيرُ لازمٍ عندهم لإرادته عز وجل مطلقاً. وبالجملة: لو كانت إفادة معنى العصمة مقصودةً لقيل هكذا: إنَّ الله أَذْهَبَ عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت وطهَّركم تطهيراً.

وأيضاً لو كانت مفيدةً للعصمة ينبغي أن يكون الصحابة لاسيما الحاضرين في غزوة بدرٍ قاطبةً معصومين؛ لقوله تعالى فيهم: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦] بل لعل هذا أفيدُ لِمَا فيه من قوله سبحانه: (وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ) فإنَّ وقوع هذا الإتمام لا يتصوَّر بدون الحفظ عن المعاصي وشرِّ الشيطان. اهـ.

وقرَّر الطبرسيُّ[2] وجهَ الاستدلال بها على العصمة بأنَّ «إنما» لفظةٌ محقِّقةٌ لِمَا أُثبِتَ بعدها نافيةٌ لِمَا لم يُثْبَتْ، فإذا قيل: إنما لك عندي درهم، أفاد أنه ليس للمخاطب عنده سوى درهم، فتفيد الآية تحقُّقَ الإرادة ونفيَ غيرها، والإرادة لا تخلو من أن تكون هي الإرادة المحضة أو الإرادة التي يَتْبَعُها التطهير وإذهابُ الرجس، ولا[3] يجوزُ أن تكون الإرادةَ المحضةَ لأنه سبحانه وتعالى قد أراد من كلِّ

---

(١) دُخْتَر بالفارسية تعني: الابنة أو الآنسة أو البكر. المعجم الذهبي ص٢٥٧.
(٢) في مجمع البيان ٢/ ١٣٩.
(٣) في الأصل و(م): لا، والمثبت من مجمع البيان.

مكلَّفٍ ذلك بالإرادة المحضة، فلا اختصاصَ لها بأهلِ البيت دون سائر المكلَّفين، ولأنَّ هذا القولَ يقتضي المدح والتعظيم لهم بلا ريبٍ، ولا مدحَ في الإرادة المجرَّدة، فتعيَّن إرادةُ الإرادة بالمعنى الثاني، وقد علم أنَّ مَن عدا أهل الكساء غيرُ مرادٍ فتختصُّ العصمة بهم. اهـ، وهو كما ترى.

على أنه قد ورد في كتب الشيعة ما يدلُّ على عدم عصمة الأمير كرم الله وجهه، وهو أفضلُ مَن ضمَّه الكساءُ بعد رسول الله ﷺ، ففي «نهج البلاغة» أنه كرم الله وجهه قال لأصحابه: لا تكفُّوا عن مقالةٍ بحقٍّ أو مشورةٍ بعدلٍ، فإنِّي لستُ بفوقَ أنْ أُخْطِئ، ولا آمَنُ من ذلك في فِعْلي، إلا أن يلقي الله تعالى في نفسي ما هو أملك به منِّي.

وفيه أيضاً: كان كرَّم الله تعالى وجهه يقول في دعائه: اللهم اغفر لي ما تقرَّبْتُ به إليك وخالفَه قلبي.

وقَصْدُ التعليم كما في بعض الأدعية النبوية بعيدٌ، كذا قيل فتدبَّر ولا تغفل.

وفسَّر بعض أهل السنَّة الإرادة هاهنا بالمحبة، قالوا: لأنه لو أريدَ بها الإرادةُ التي يتحقَّق عندها الفعل لكان كلٌّ من أهل البيت إلى يوم القيامة محفوظاً من كلِّ ذنبٍ، والمشاهَدُ خلافُه. والتخصيصُ بأهل الكساء وسائرِ الأئمة الاثني عشر كما ذهب إليه الإمامية المدَّعون عصمتَهم مما لا يقومُ عليه دليلٌ عندنا. والمدحُ جاء من جهة الاعتناء بشأنهم وإفادتهم محبةَ الله تعالى لهم هذا الأمرَ الجليلَ الشأنِ، ومخاطبته سبحانه إياهم بذلك، وجَعْله قرآناً يتلى إلى يوم القيامة.

وقد يستدلُّ على كون الإرادة هاهنا بالمعنى المذكور دون المعنى المشهور الذي يتحقَّقُ عنده الفعل بأنه ﷺ قال حين أَدخل علياً وفاطمة والحسنين ﷺ تحت الكساء: «اللهم هؤلاء أهلُ بيتي، فأذْهِبْ عنهم الرجسَ وطهِّرهم تطهيراً» فإنه أيُّ حاجةٍ للدعاء لو كان ذلك مراداً بالإرادة بالمعنى المشهور، وهل هو إلا دعاءٌ بحصولٍ واجبِ الحصول؟

واستدلَّ بهذا بعضهم على عدم نزول الآية في حقهم، وإنما أدخلهم ﷺ في أهل البيت المذكور في الآية بدعائه الشريف عليه الصلاة والسلام. ولا يخلو جميعُ ما ذكر عن بحث.

والذي يظهرُ لي أن المراد بأهل البيت مَن لهم مزيدُ علاقةٍ به ﷺ، ونسبة قوية قريبة إليه عليه الصلاة والسلام، بحيث لا يَقْبُحُ عُرْفاً اجتماعُهم وسكناهم معه ﷺ في بيتٍ واحد، ويدخل في ذلك أزواجُه والأربعةُ أهلُ الكساء، وعليٌّ كرم الله وجهه مع ما لَه من القرابة من رسول الله ﷺ قد نشأ في بيته وحِجْرِه عليه الصلاة والسلام فلم يفارقه، وعامله كولده صغيراً وصاهره وآخاه كبيراً، والإرادة على معناها الحقيقيِّ المستتبع للفعل.

والآيةُ لا تقومُ دليلاً على عصمة أهل بيته صلى الله تعالى عليه وعليهم وسلَّم الموجودين حين نزولها وغيرهم، ولا على حِفْظِهم من الذنوب على ما يقوله أهل السنَّة، لا لاحتمال أن يكون المرادُ توجيهَ الأمر والنهي أو نحوِه لإذهاب الرجس والتطهيرِ، بأن يُجعل المفعول به لـ «يريد» محذوفاً، ويُجعل «ليذهب» و«يطهِّر» في موضع المفعول له، وإن لم يكن فيه بأسٌ وذهب إليه مَن ذهب، بل لأنَّ المعنى حسبما ينساق إليه الذهنُ ويقتضيه وقوعُ الجملة موقع التعليل للنهي والأمر: نهاكم الله تعالى وأمركم لأنه عز وجل يريد بنَهْيِكم وأَمْرِكم إذهابَ الرجس عنكم وتطهيرَكم، وفي ذلك غايةُ المصلحة لكم، ولا يريد بذلك امتحانكم وتكليفَكم بلا منفعةٍ تعود إليكم. وهو على معنى الشرط، أي: يريد بنهيكم وأمركم ليذهب عنكم الرجسَ ويطهِّركم إن انتهيتم وائتمرتُم، ضرورةَ أنَّ أسلوب الآية نحوُ أسلوب قول القائل لجماعةٍ عَلِمَ أنهم إذا شربوا الماء أَذهب عنهم عطشهم لا محالةَ: يريد الله سبحانه بالماء ليُذْهِبَ عنكم العطش، فإنه على معنى: يريد سبحانه بالماء إذهابَ العطش عنكم إن شربتُموه، فيكون المراد إذهابَ العطش بشرط شرب المخاطبين الماء، لا الإذهابَ مطلقاً. فمفادُ التركيب في المثال تحقُّق إذهاب العطش بعد الشرب، وفيما نحن فيه إذهابُ الرجس والتطهيرُ بعد الانتهاء والائتمار؛ لأن المراد الإذهابُ المذكورُ بشرطهما، فهو متحقِّقُ الوقوع بعد تحقُّق الشرط، وتحقُّقه غيرُ معلومٍ إذ هو أمرٌ اختياريٌّ وليس متعلق الإرادة.

والمراد بالرجس الذنب، وبإذهابه إزالةُ مباديه بتهذيب النفس، وجَعْلِ قُواها ـ كالقوة الشَّهْوانية والقوةِ الغَضبية ـ بحيث لا ينشأ عنها ما ينشأ من الذنوب كالزنى وقتل النفس التي حرَّم الله تعالى وغيرهما، لا إزالةُ نفسِ الذنب بعد تحقُّقه

في الخارج وصدورِه من الشخص؛ إذ هو غيرُ معقولٍ إلا على معنى مَحْوِه من صحائف الأعمال وعدمِ المؤاخذةِ عليه، وإرادةُ ذلك كما ترى.

وكأنَّ مآل الإذهاب التخليةُ، ومآلَ التطهير التحليةُ بالحاء المهملة، والآيةُ متضمِّنةٌ الوعدَ منه عز وجل لأهل بيتِ نبيِّه ﷺ بأنهم إن ينتهوا عما يَنْهَى عنه ويأتمروا بما يأمرهم به يُذهب عنهم لا محالةَ مبادي ما يستهجن، ويحلِّيهم أجلَّ تحليةٍ بما يُستحسن، وفيه إيماءٌ إلى قبول أعمالهم وترتُّبِ الآثار الجميلة عليها قطعاً، ويكون هذا خصوصيةً لهم ومزيَّةً على مَن عَدَاهم، من حيث إن أولئك الأغيار إذا انتهوا وائتمروا لا يُقْطَع لهم بحصول ذلك.

ولذا نجد عبَّاد أهل البيت أتمَّ حالاً من سائر العبَّاد المشاركين لهم في العبادة الظاهرة، وأحسنَ أخلاقاً وأزكى نفساً، وإليهم تنتهي سلاسل الطرائق التي مبناها ـ كما لا يخفى على سالكيها ـ التخليةُ والتحليةُ اللتان هما جناحان للطيران إلى حظائر القدس والوقوفِ على أوكار الأنس، حتى ذهب قومٌ إلى أنَّ القطب في كلِّ عصرٍ لا يكون إلا منهم، خلافاً للأستاذ أبي العباس المُرْسِي حيث ذهب كما نقل عنه تلميذُه التاج بنُ عطاءِ الله إلى أنه قد يكون من غيرهم.

ورأيتُ في مكتوبات الإمام الفاروقيِّ الربانيِّ مجدِّدِ الألف الثاني قدِّس سرُّه ما حاصله: أنَّ القُطبية لم تكن على سبيل الأصالة إلا لأئمة أهل البيت المشهورين، ثم إنها صارت بعدهم لغيرهم على سبيل النيابة عنهم، حتى انتهت النوبةُ إلى السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني قدِّس سرُّه النورانيُّ، فنال مرتبةَ القطبية على سبيل الأصالة، فلما عُرج بروحه القدسية إلى أعلى علِّيين نال مَن نال بعده تلك الرتبة على سبيل النيابة عنه، فإذا جاء المهدي ينالُها أصالةً كما نالها غيرُه من الأئمة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين(١). اهـ.

وهذا ممَّا لا سبيلَ إلى معرفته والوقوفِ على حقِّيته إلَّا بالكشف، وأنَّى لي به.

والذي يغلبُ على ظنِّي أنَّ القطب قد يكون من غيرهم، لكنَّ قطب الأقطاب لا يكون إلا منهم؛ لأنهم أزكى الناسِ أصلاً وأوفرُهم فضلاً، وأنَّ مَن ينالُ هذه

---

(١) ينظر مكتوبات الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ٣/ ١٨٤-١٨٦.

الرتبة منهم لا ينالها إلَّا على سبيل الأصالة دون النيابة والوكالةِ، وأنا لا أعقلُ النيابة في ذلك المقام، وإن عقلتُ قلت: كلُّ قطبٍ في كلِّ عصرٍ نائبٌ عن نبيِّنا عليه من الله تعالى أفضلُ الصلاة وأكملُ السلام، ولا بِدْعَ في نيابة الأقطاب بعده عنه ﷺ كما نابت عنه الأنبياء قبله، فهو عليه الصلاة والسلام الكاملُ المكمِّل للخليقة، والواسطةُ في الإفاضة عليهم على الحقيقة، وكلُّ مَن تقدَّمه عصراً من الأنبياء وتأخَّر عنه من الأقطاب والأولياء نوَّابٌ عنه ومستمدُّون منه، وأقول: إنَّ السيد الشيخ عبد القادر قدِّس سرُّه وغَمَرَنا برُّه قد نال ما نال من القطبية بواسطة جدِّه عليه الصلاة والسلام على أتمِّ وجهٍ وأكملِ حالٍ، فقد كان ﷺ من أجلَّةِ أهل البيت، حَسَنيّاً من جهة الأب، حُسينيّاً من جهة الأم، لم يُصِبْه نقصُ لو أنَّ، وعَسى، وليت، ولا ينكِرُ ذلك إلا زنديقٌ، أو رافضيٌّ ينكر صحبةَ الصدِّيق، وأرى أنَّ قوله ﷺ:

أفلتْ شموسُ الأوَّلين وشمسُنا ... أبداً على فلكِ العُلا لا تَغْرُبُ

لا يدلُّ على أنَّ مَن ينالُ القطبيةَ بعده من أهل البيت الذين عنصرُهم وعنصرُه واحدٌ نائبٌ عنه ليس له فيضٌ إلا منه، بل غايةُ ما يدلُّ عليه ويومئُ إليه استمرارُ ظهور أمره وانتشارِ صيته وشهرةِ طريقته وعموم فيضه لمن استفاض ـ على الوجه المعروف عند أهله ـ منه، وذلك مما لا يكاد ينكَر، وأظهرُ من الشمس والقمر.

هذا ما عندي في الكلام على الآية الكريمة، المتضمِّنةِ لفضيلةٍ لأهل البيت عظيمة، ويُعلم منه وجهُ التعبير بـ «يريد» على صيغة المضارع، ووجهُ تقديم إذهاب الرجس على التطهير، ووجهُ دعائه ﷺ لأهل الكساء بإذهاب الرجس، من غير حاجةٍ إلى القول بأنَّ ذلك طلبٌ للدوام كما قيل في قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ) ونحوه، ولا يُورَدُ عليه كثيرٌ مما يُورَدُ على غيره، ومع هذا لمسلكِ الذهنِ اتساعٌ، ولا حَجْرَ على فضل الله عز وجل، فلا مانعَ مِن أن يوفِّق أحداً لِمَا هو أحسنُ من هذا وأجلُّ، فتدبَّر ذاك والله سبحانه يتولَّى هُداك.

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: اذكُرْنَ للناس بطريقِ العِظَةِ والتذكير. وقيل: أي: تذكَّرْنَ ولا تَنسَيْنَ ما يُتْلَى في بيوتِكُنَّ.

﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ هي السنَّة على ما أخرج ابن جرير وغيرُه عن قتادة[1]، وفسِّرت بنصائحه ﷺ.

وعن عطاءٍ عن ابن عباس أنه كان في المصحف بدل «الحكمة»: السنَّة؛ حكاه محمد بن عبد الكريم الشهرستاني[2] في أوائل تفسيره «مفاتيح الأسرار».

وقال جمع: المراد بالآيات والحكمة القرآن، وهو أوفقُ بقوله سبحانه: «يتلى»، أي: اذكرن ما يتلى من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله تعالى البيِّنةَ الدالَّةَ على صدق النبوَّة بأوجُهٍ شتَّى وكونِه حكمةً منطويةً على فنون العلوم والشرائع. وهذا تذكيرٌ بما أنعم عليهنَّ حيث جَعَلهنَّ أهلَ بيت النبوَّة ومَهْبِط الوحي، وما شاهدن من برحاء الوحي ممَّا يوجبُ قوَّةَ الإيمان والحرصَ على الطاعة، وفيه حثٌّ على الانتهاء والائتمار فيما كلِّفْنَه.

وقيل: هذا أمرٌ بتكميل الغير بعد الأمر بما فيه كمالهُنَّ، ويُعلم منه وجهُ توسيطِ «إنما يريد» إلخ في البَيْنِ.

والتعرُّضُ للتلاوة في البيوت دون النزول فيها ـ مع أنها الأنسبُ لكونها مهبط الوحي ـ لعمومها لجميع الآيات، ووقوعِها في كلِّ البيوت، وتكرُّرِها الموجبِ لتمكُّنهنَّ من الذكر والتذكير، بخلاف النزول.

وقيل: إنَّ ذلك لرعاية الحكمة بناءً على أنَّ المراد بها السنَّةُ، فإنها لم تنزل نزولَ القرآن. وتعقِّب بأنها لم تُتْلَ أيضاً تلاوتَه.

وعدمُ تعيين التالي لتعمَّ تلاوةَ جبريل وتلاوةَ النبيِّ عليهما الصلاة والسلام وتلاوتَهنَّ وتلاوةَ غيرهنَّ تعليماً وتعلُّماً.

---

(١) تفسير الطبري ١٩/١٠٨. وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/١١٦ بلفظ: القرآن والسنة، وهو كذلك في صحيح البخاري تعليقاً قبل الحديث (٤٧٨٦).

(٢) أبو الفتح شيخ أهل الكلام والحكمة، وصاحب التصانيف، ويلقَّب بالأفضل، وكان متهماً بالميل إلى أهل البدع، وقال تاج الدين السبكي: لم أقف في شيء من تصانيفه على ما نسب إليه. من مصنفاته: الملل والنحل، ومفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، ونهاية الإقدام في علم الكلام، وغيرها، توفي سنة (٥٤٩هـ). سير أعلام النبلاء ٢٠/٢٨٦، ولسان الميزان ٥/٢٦٣، والأعلام ٦/٢١٥.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «تُتْلَى» بتاء التأنيث[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤﴾ يعلم ويدبِّر ما يَصْلُح في الدين، ولذلك فَعَلَ ما فَعَلَ من الأمر والنهي، أو يعلم مَن يَصْلُح للنبوَّة ومَن يستأهل أن يكون من أهل بيته. وقيل: يعلم الحكمة، حيث أنزل كتابه جامعاً بين الوصفين.

وجوَّز بعضهم أن يكون اللطيف ناظراً للآيات لدقة إعجازها، والخبير للحكمة لمناسبتها للخبرة.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ أي: الداخلينَ في السلم المنقادين لحكم الله تعالى، أو المفوِّضين أمرَهم لله عزَّ وجل من الذكور والإناث.

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المصدِّقين بما يجب أن يصدَّق به من الفريقين.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ المداوِمينَ على الطاعات القائمين بها.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في أقوالهم التي يجب الصدقُ فيها، وقيل: في القول والعمل. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير أنه قال: أي: في إيمانهم[٢].

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على المكاره، وعلى العبادات، وعن المعاصي.

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعين لله تعالى بقلوبهم وجوارحهم. وقيل: الذين لا يعرفون مَن عن أيمانهم وشمائلهم إذا كانوا في الصلاة.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما يَحْسُنُ التصدُّقُ به من فرضٍ وغيره.

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصومَ المشروع فرضاً كان أو نفلاً. وعن عكرمة الاقتصارُ على صوم رمضان.

وقيل: مَن تصدَّق في كلِّ أسبوعٍ بدرهم فهو من المتصدِّقين، ومَن صام البيضَ من كلِّ شهرٍ فهو من الصائمين.

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عمَّا لا يَرْضَى به الله تعالى.

---

(١) البحر ٧/ ٢٣٢.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٠٠.

﴿وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ﴾ بالألسنة والقلوب، ومدارُ الكثرة العرفُ عند جمع.

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابنُ أبي حاتم عن مجاهدٍ قال: لا يُكتب الرجل من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله تعالى قائماً وقاعداً ومضطجعاً[١].

وأخرج أبو داود والنسائيُّ وابن ماجه وغيرهم عن أبي سعيد الخدريِّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا أيقظ الرجلُ امرأتَه من الليل فصلَّيا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[٢].

وقيل: المراد بذكر الله تعالى ذكرُ آلائه سبحانه ونعمِه، وروي ذلك عن عكرمة، ومآلُ هذا إلى الشكر، وهو خلافُ الظاهر.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم﴾ بسبب كَسْبِهم ما ذكر من الصفات ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لِمَا اقترفوا من الصغائر لأنهنَّ مكفِّراتٌ بالأعمال الصالحة كما ورد ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ على ما عملوا من الطاعات.

والآيةُ وعدٌ للأزواج المطهَّرات وغيرهنَّ ممن اتَّصَفَتْ بهذه الصفات؛ أخرج أحمد والنسائيُّ وغيرهما عن أمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: قلت للنبيِّ ﷺ: ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ فلم يَرُعْني منه ﷺ ذات يوم إلا نداءه على المنبر وهو يقول: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَٰتِ) إلى آخر الآية[٣].

وضمير «ما لنا» للنساء على العموم، ففي روايةٍ أخرى رواها النسائيُّ وجماعةٌ عنها أيضاً أنها قالت: قلتُ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: ما لي أسمعُ الرجالَ يُذكرون في القرآن والنساءَ لا يذكرن؟ فأنزل الله تعالى: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَٰتِ) الآية[٤].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٠٠، وهو في تفسير عبد الرزاق ٢/ ١١٧.

(٢) سنن أبي داود (١٣٠٩) و(١٤٥١)، وسنن النسائي الكبرى (١٣١٢) و(١١٣٤٢)، وسنن ابن ماجه (١٣٣٥). وهو من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٣) مسند أحمد (٢٦٥٧٥)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٤١).

(٤) سنن النسائي الكبرى (١١٣٤٠).

وفي بعض الآثار ما يدلُّ على أنَّ القائل غيرُها؛ أخرج الترمذيُّ وحسَّنه، والطبرانيُّ وعبد بن حميد وآخرون عن أمِّ عمارة الأنصارية أنها أتت النبيَّ ﷺ فقالت: ما أرى كلَّ شيءٍ إلا للرجال، وما أرى النساء يُذْكَرْنَ بشيءٍ؟ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إلخ[1].

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: دخل نساءٌ على نساء النبيِّ ﷺ فقلن: قد ذَكركنَّ الله تعالى في القرآن وما يذكرنا بشيءٍ، أما فينا ما يُذْكَر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الآية[2].

وفي روايةٍ أخرى عنه أنه قال: لمَّا ذُكر أزواج النبيِّ ﷺ قال النساء: لو كان فينا خيرٌ لذُكِرْنا. فأنزل الله تعالى الآية[3]. ولا مانع أن يكون كلُّ ذلك.

وعَطْفُ الإناث على الذكور كالمسلمات على المسلمين والمؤمنات على المؤمنين ضروريٌّ؛ لأنَّ تغايُر الذَّوات المشترِكة في الحكم يستلزمُ العطفَ ما لم يُقْصَد السَّردُ على طريق التعديد. وعطفُ الزوجين أعني مجموعَ كلِّ مذكَّرٍ ومؤنَّثٍ ـ كعَطْفِ مجموع المؤمنين والمؤمنات على مجموع المسلمين والمسلمات ـ غيرُ لازم، وإنما ارتُكب هاهنا للدلالة على أنَّ مدار إعدادِ ما أُعِدَّ لهم جَمْعُهم بين هذه النعوت الجميلة.

وذكر الفروج متعلّقاً للحفظ لكونها مركَبَ الشهوة الغالبة، وذكر الاسم الجليل متعلّقاً للذكر لأنه الاسم الأعظم المشعِرُ بجميع الصفات الجليلة، وحذف متعلّق كلٍّ من «الحافظات» و«الذاكرات» لدلالة ما تقدَّم عليه. وجعل الذكر آخر الصفات لعمومه وشرفه ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وتذكيرُ الضمير في «أعدَّ الله لهم» لتغليب الذكور على الإناث، وإلا فالظاهرُ: لهم ولهنَّ. ولله تعالى درُّ التنزيل؛ أشار في أول الآية وآخرها إلى أفضلية الذكور على الإناث.

---

(١) سنن الترمذي (٣٢١١)، والمعجم الكبير ٢٥/ (٥١)، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٢٠٠.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ١٠٩-١١٠.

(٣) أخرجه ابن سعد ٨/ ١٩٩-٢٠٠.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: ما صحَّ وما استقام لرجلٍ ولا امرأةٍ من المؤمنين ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي: قضى رسولُ الله ﷺ، وذكر الله تعالى لتعظيم أمره بالإشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام بمنزلةٍ من الله تعالى بحيث تعدُّ أوامره أوامرَ الله عز وجل، أو للإشعار بأنَّ ما يفعله ﷺ إنما يفعله بأمره لأنه لا ينطق عن الهوى، فالنظم إما من قبيل ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] أو من قبيل ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه عليه الصلاة والسلام، واختيارَهم تلواً لاختياره.

و«الخيرة» مصدرٌ من تخيَّر، كالطِّيَرة مصدر من تَطيَّر، ولم يَجِئ على ما قيل مصدرٌ بهذه الزنة غيرُهما. وقيل: هي صفةٌ مشبَّهةٌ، وفسِّرت بالمتخيَّر. و«من أمرهم» متعلِّقٌ بها أو بمحذوفٍ وقع حالاً منها.

وجمع الضمير في «لهم» رعايةً للمعنى؛ لوقوع «مؤمن» و«مؤمنة» في سياق النفي، والنكرةُ الواقعةُ في سياقه تعمُّ، وكان من حقِّه ـ على ما في «الكشاف» ـ توحيدُه، كما تقول: ما جاءني من امرأةٍ ولا رجلٍ إلا كان من شأنه كذا[١].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ هذا عطفٌ بالواو، والتوحيدُ في العطف بـ: أو، نحو: مَن جاءك مِن شريفٍ أو وضيعٍ أَكْرِمْه، فلا يجوزُ إفراد الضمير في ذاك إلا بتأويل الحذف[٢].

وجمعه في «أمرهم» مع أنه للرسول ﷺ، أوْ له ولله عز وجل، للتعظيم على ما قيل. وقال بعضُ الأجلَّة: لم يظهر عندي امتناعُ أن يكون عائداً على ما عاد عليه الأول، على أن يكون المعنى: ناشئة من أمرهم، أي: دواعيهم السائقة إلى اختيارِ خلافِ ما أمر الله ورسوله ﷺ، أو يكون المعنى: الاختيار في شيء من أمرهم، أي: أمورهم التي يعنُونها. ويرجَّح عوده على ما ذكر بعدم التفكيك.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٦٢.

(٢) أي أن مثل قوله: ما جاءني من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا، لا يجوز إلا على تأويل: ما جاءني من رجل إلا كان من شأنه كذا. البحر ٧/ ٢٣٤.

وردَّ بأنَّ ذاك قليلُ الجدوى، ضرورةَ أنَّ الخيرة ناشئةٌ من دواعيهم أو واقعةٌ في أمورهم، وهو بيِّنٌ مستغنٍ عن البيان، بخلافِ ما إذا كان المعنى: بدل أمره الذي قضاه عليه الصلاة والسلام، أو متجاوزين عن أمره، لتأكيده وتقريره للنفي، وهذا هو المانعُ من عوده إلى ما عاد عليه الأول.

والحقُّ أنه لا مانعَ من ذلك على أن يكون المعنى: ما كان للمؤمنين أن يكون لهم اختيارٌ في شيءٍ من أمورهم إذا قضى الله ورسوله لهم أمراً، ولا نسلِّم أنَّ ما عُدَّ مانعاً مانعٌ، فتدبر.

ولعل الفائدة في العدول عن الظاهر في الضمير الأول على ما قال الطيبي الإيذانُ بأنه كما لا يصحُّ لكلِّ فردٍ فردٍ من المؤمنين أن يكون لهم الخيرةُ، كذلك لا يصحُّ أن يجتمعوا ويتفقوا على كلمةٍ واحدةٍ؛ لأن تأثير الجماعة واتفاقهم أقوى من تأثير الواحد(١). ويستفاد منه فائدةُ الجمع في الضمير الثاني على تقدير عوده على ما عاد عليه الأول، وكذا وجهُ إفراد الأمر إذا أُمْعِنَ النظر.

وقرأ الحِرْمِيَّان والعربيان وأبو عمرو(٢) وأبو جعفر وشيبة والأعرج وعيسى: «تكون» بتاء التأنيث، والوجهُ ظاهرٌ. ووجهُ القراءة بالياء ـ وهي قراءةُ الكوفيين والحسن والأعمش والسلميِّ(٣) ـ أنَّ المرفوع بالفعل مفصولٌ مع كون تأنيثه غيرَ حقيقيٍّ.

وقرئ كما ذكر عيسى بن سليمان: «الخِيْرَةُ» بسكون الياء(٤).

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في أمرٍ من الأمور، ويعملْ فيه برأيه ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ طريقَ الحقِّ ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: بيِّن الانحراف عن سَنَن الصَّواب. والظاهرُ أنَّ هذا في الأمور المقضيَّة على ما يُشْعِرُ به السَّوق.

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) ذكر أبي عمرو في هذا الموضع وهمٌ من المصنف رحمه الله؛ لأن العربيان هما ابن عامر وأبو عمرو، وكذا لم يَرِدْ ذكره في البحر ٧/ ٢٣٣، وعنه نقل المصنف.

(٣) التيسير ص ١٧٩، والنشر ٢/ ٣٤٨ عن الكوفيين، وهم حمزة والكسائي وعاصم وخلف، وبها قرأ هشام أيضاً، والكلام من البحر ٧/ ٢٣٣-٢٣٤.

(٤) القراءات الشاذة ص ١١٩، والبحر ٧/ ٢٣٣.

والآيةُ على ما روي عن ابن عباس وقتادةَ ومجاهدٍ وغيرهم نزلت في زينب بنت جحش من عمته ﷺ أميمةَ بنتِ عبد المطلب وأخيها عبد الله، خطبها رسولُ الله ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، وقال: «إنِّي أريد أزوِّجَكِ زيد بنَ حارثة فإنِّي قد رضيتُه لك» فأبت وقالت: يا رسول الله، لكنِّي لا أرضاه لنفسي وأنا أيِّمُ قومي وبنتُ عمَّتك، فلم أكن لأفعل[1]. وفي رواية أنها قالت: أنا خيرٌ منه حَسَباً[2]. ووافقها أخوها عبدُ الله على ذلك، فلما نزلت الآية رضيا وسلَّما، فأنكحها رسول الله ﷺ زيداً بعد أن جعلت أمرها بيده، وساق إليها عشرةَ دنانير وستين درهماً مهراً، وخماراً وملحفةً ودرعاً وإزاراً، وخمسين مدّاً من طعامٍ، وثلاثين صاعاً من تمر[3].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد[4] أنه قال: نزلت في أمِّ كلثوم بنت عقبة بنِ أبي معيط، وكانت أولَ امرأةٍ هاجرت من النساء، فوهبت نفسها للنبيِّ ﷺ، فزوجها زيد بن حارثة، فسخطت[5] هي وأخوها وقالت: إنما أرَدْنا رسولَ الله ﷺ فزوَّجَنا عبده.

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ، أي: اذكر وقتَ قولك ﴿لِلَّذِىٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقك لحُسْنِ تربيته وعتقِه ومراعاته وتخصيصه بالتبنِّي ومزيدِ القُرْب.

﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ بالعمل بما وفَّقك الله تعالى له من فنون الإحسان، التي من جملتها تحريرُه، وهو زيد بن حارثة رضي الله عنه، وإيرادُه بالعنوان المذكور كما قال شيخ الإسلام[6]: لبيان منافاة حاله لِمَا صدر عنه عليه الصلاة والسلام من إظهارِ خلافِ

(١) أخرجه بهذا اللفظ عن ابن عباس ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٢٠١، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ١١٢-١١٣ عن ابن عباس وقتادة ومجاهد بنحوه.

(٢) أخرج هذه الرواية الطبري ١٩/ ١١٣ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٦١، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية عن مقاتل بن حيان، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٣٤: لم أقف عليه موصولاً.

(٤) كما في الدر المنثور ٥/ ٢٠١، وأخرجه أيضاً الطبري ١٩/ ١١٤، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٥) في الأصل و(م): فحطت، وهو تصحيف، والمثبت من المصادر.

(٦) هو أبو السعود في تفسيره ٧/ ١٠٦.

ما في ضميره الشريف؛ إذ هو إنما يقعُ عند الاستحياء أو الاحتشام[(١)]، وكلاهما مما لا يتصوَّر في حقِّ زيدٍ رضي الله عنه.

وجُوِّز أن يكون بياناً لحكمةِ إخفائه ﷺ ما أخفاه؛ لأنَّ مثل ذلك مع مثله مما يَطْعنُ به الناس، كما قيل:

وأظْلَمُ خَلْقِ الله مَن بات حاسداً لمن كان في نَعْمائه يتقلَّبُ[(٢)]

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: زينب بنت جحش، وذلك أنها كانت ذا حِدَّة، ولا زالت تَفْخَرُ على زيد بشرفها ويسمعُ منها ما يكره، فجاء رضي الله عنه يوماً إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ زينب قد اشتدَّ عليَّ لسانُها، وأنا أريد أن أطلِّقها. فقال له عليه الصلاة والسلام: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾[(٣)] في أمرها، ولا تطلِّقها ضراراً وتعلُّلاً بتكبُّرها واشتدادِ لسانها عليك. وتعديةُ «أمسك» بـ «على» لتضمينه معنى الحبس.

﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ عطفٌ على «تقول»، وجوِّزت الحاليةُ بتقديرِ: وأنت تُخْفي، أو بدونه، كما هو ظاهرُ كلام الزمخشريِّ في مواضعَ من «كشافه»[(٤)].

والمراد بالموصول على ما أخرج الحكيم الترمذيُّ وغيره عن عليِّ بن الحسين رضي الله عنهما ما أوحى الله تعالى به إليه، أنَّ زينب سيطلِّقها زيدٌ ويتزوَّجُها بعدُ عليه الصلاة والسلام[(٥)]. وإلى هذا ذهب أهلُ التحقيق من المفسِّرين كالزهري، وبكر بن العلاء القشيري[(٦)]، ....

---

(١) في الأصل و(م): والاحتشام، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٢) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ٣٠٩، وسلف ١/ ٤٣٦ و٥/ ٤٧٦.

(٣) أخرج نحوه البخاري (٧٤٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه، قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتَّقِ الله وأَمْسِكْ عليك زوجَكَ».

(٤) ينظر الكشاف ١/ ٦٣٩ و٣/ ٢٦٣.

(٥) نوادر الأصول ص ١٨٩، وأخرجه أيضاً الطبري ١٩/ ١١٦-١١٧، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٤٦٦.

(٦) في الأصل و(م) والبحر ٧/ ٢٣٤ (والكلام منه): والقشيري، والصواب ما أثبتناه، وهو الموافق لما في إكمال المعلم للقاضي عياض ١/ ٥٣٢، والمفهم لأبي العباس القرطبي ١٧/ ١٥٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ١٥٧. وهو بكر بن محمد بن العلاء، أبو الفضل البصري =

والقاضي أبي بكر بن العربي[١]، وغيرهم.

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: تخاف من اعتراضهم، وقيل: أي: تستحي من قولهم: إنَّ محمداً ﷺ تزوَّج زوجةَ ابنه. والمرادُ بالناس الجنسُ والمنافقون، وهذا عطفٌ على ما تقدَّم أو حالٌ.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ في موضع الحال لا غير، والمعنى: والله تعالى وحده أحقُّ أن تخشاه في كلِّ أمرٍ، فتفعل ما أباحه سبحانه لك وأذِنَ لك فيه، والعتابُ عند مَن سمعتَ على قوله عليه الصلاة والسلام: «أمسك»[٢] مع علمه بأنه سيطلِّقها ويتزوَّجُها هو ﷺ بعده، وهو عتابٌ على ترك الأَوْلَى، وكان الأَوْلَى في مثل ذلك أن يصمُتَ عليه الصلاة والسلام، أو يفوِّضَ الأمر إلى رأي زيد رضي الله عنه.

وأخرج جماعةٌ عن قتادة أنه ﷺ كان يخفي إرادة طلاقها، ويخشى قالةَ الناس إن أمره بطلاقها، وأنه عليه الصلاة والسلام قال له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» وهو يحبُّ طلاقها[٣]. والعتابُ عليه على إظهار ما ينافي الإضمار.

وقد ردَّ ذلك القاضي عياض في «الشفا» وقال: لا تَسْتَرِبْ في تنزيه النبيِّ ﷺ عن هذا الظاهر، وأنه يأمر زيداً بإمساكها وهو يحبُّ تطليقَه إياها كما ذكره جماعةٌ من المفسرين، إلى آخر ما قال[٤].

وذكر بعضهم أنَّ إرادته ﷺ طلاقَها وحبَّه إياه كان مجرَّدَ خطوره بباله الشريف بعد العلم بأنه يريد مفارقتها، وليس هناك حسدٌ منه عليه الصلاة والسلام - وحاشاه - له عليها، فلا محذورَ.

والأسلمُ ما ذكرناه عن زين العابدين رضي الله عنه والجمهور، وحاصلُ العتاب: لِمَ قلتَ: أمسك عليك زوجك، وقد أعلمتُك أنها ستكون من أزواجك، وهو مطابقٌ

= المالكي، صنف التصانيف في المذهب، وسكن مصر، توفي سنة (٣٤٤هـ). السير ١٥/ ٥٣٧. وذكر القاضي عياض أن قول علي بن الحسين هو أصحُّ ما ذُكر في تفسير الآية.

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٣١.

(٢) في (م): مع قوله عليه الصلاة والسلام ذلك مع أمسك.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٧.

(٤) الشفا ٢/ ٤٢٥.

للتلاوة؛ لأن الله تعالى أعلم أنه مبدي ما أخفاه عليه الصلاة والسلام، ولم يُظْهِرْ غيرَ تزويجها منه، فقال سبحانه: (زَوَّجْنَٰكَهَا) فلو كان المضمَرُ محبتَها وإرادةَ طلاقها ونحوَ ذلك لأظْهَره جلَّ وعلا.

وللقُصَّاص في هذه القصة كلامٌ لا ينبغي أن يُجعل في حيز القبول:

منه ما أخرجه ابن سعد والحاكم عن محمد بن يحيى بن حَبَّان أنه ﷺ جاء إلى بيت زيدٍ فلم يجده، وعَرَضَتْ زينب عليه دخولَ البيت، فأبى أن يدخل وانصرف راجعاً يتكلَّم بكلامٍ لم تفهم منه، سوى: «سبحان الله العظيم سبحان مصرِّف القلوب» فجاء زيد فأخبرته بما كان، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال له: بلغني يا رسول الله أنك جئتَ منزلي، فهلَّا دخلتَ يا رسول الله، لعل زينب أعجبتك فأفارقها. فقال عليه الصلاة والسلام: «أمسك عليك زوجك واتَّقِ الله» فما استطاع زيدٌ إليها سبيلاً بعدُ، ففارَقَها[1].

وفي تفسير علي بن إبراهيم أنه ﷺ أتى بيت زيد فرأى زينبَ جالسةً وَسْطَ حجرتها تسحقُ طِيباً بفهرٍ لها، فلمَّا نظر إليها قال: «سبحان خالق النور، تبارك الله أحسن الخالقين» فرجع، فجاء زيدٌ فأخبرته الخبر، فقال لها: لعلكِ وقعت في قلب رسول الله ﷺ، فهل لك أن أطلِّقك حتى يتزوَّجك رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ فقالت: أخشى أن تطلِّقني ولا يتزوَّجني. فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له: أريد أن أطلِّق زينب. فأجابه بما قَصَّ الله تعالى.

إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتتبِّع.

وفي «شرح المواقف» أنَّ هذه القصة مما يجب صيانةُ النبيِّ ﷺ عن مثله، فإن صحَّتْ فميلُ القلب غير مقدورٍ مع ما فيه من الابتلاء لهما[2].

والظاهرُ أنَّ الله تعالى لمَّا أراد نَسْخَ تحريم زوجة المتبنَّى أَوْحَى إليه عليه الصلاة والسلام أن يتزوَّج زينب إذا طلَّقها زيد، فلم يبادر له ﷺ مخافةَ طَعْنِ

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ١٠١، والمستدرك ٤/ ٢٣-٢٤، وهو مرسل، وفي إسناده الواقدي، وهو متروك.

(٢) شرح المواقف للشريف علي بن محمد الجرجاني ٨/ ٢٧٨، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١٧٣.

الأعداء، فعوتب عليه. وهو توجيهٌ وجيهٌ قاله الخفاجيُّ عليه الرحمةُ، ثم قال: إنَّ القصة شبيهةٌ بقصة داود عليه السلام، لاسيما وقد كان النزولُ عن الزوجة في صدر الهجرة جارياً بينهم من غير حرج فيه[(١)]. انتهى.

وأَبْعَدَ بعضُهم فزعم أنَّ «وتُخفي» إلخ خطابٌ كسابقه من الله عز وجل، أو من النبيِّ ﷺ لزيدٍ، فإنه أخفى الميلَ إليها وأظهر الرغبة عنها لمَّا وقع في قلبه أنَّ النبيَّ ﷺ يودُّ أن تكون من نسائه.

هذا وفي قوله تعالى: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) وصولُ الفعل الرافعِ الضميرَ المتصل إلى الضمير المجرور وهما لشخص واحد، فهو كقوله:

هــوِّن عــلــيــك. . . . .[(٢)]

و:

دَعْ عـنـك نـهـبـاً صِـيْـحَ فـي حـجـراتـه[(٣)]

وذكروا في مثل هذا التركيب أنَّ «على» و«عن» اسمان، ولا يجوز أن يكونا حرفين لامتناع: فكِّر فيك، وأعنِّي بك، بل هذا مما تكون فيه النفس، أي: فكِّر في نفسك، وأعنِّي[(٤)] بنفسك، والحقُّ عندي جوازُ ذلك التركيب مع حرفية «على» و«عن»[(٥)].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: طلَّقها كما روي عن قتادة[(٦)]، وهو كنايةٌ عن ذلك، مثل: لا حاجةَ لي فيك. ومعنى الوطر: الحاجة، وقيَّدها الراغب بالمهمَّة[(٧)].

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ١٧٣.

(٢) سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ [مريم: ٢٥] وتمامه:

هــون عــلــيــك فــإن الأمــور بــكــفّ الإلــه مــقــاديــرهــا

(٣) البيت لامرىء القيس، وهو في ديوانه ص ٩٤، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾، وعجزه: ولكن حديثاً ما حديث الرواحل. والحجرات: النواحي.

(٤) وقع في الأصل و(م) في هذا الموضع والذي قبله: وأعين، والمثبت من البحر ٧/ ٢٣٥، والكلام منه.

(٥) سلف تفصيل هذه المسألة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٧، والطبري ١٩/ ١١٨.

(٧) مفردات الراغب (وطر).

وقال أبو عبيدة[١]: هو كالأَرَب[٢]، وأنشد للربيع بن ضبع:

ودَّعَنا قبل أن نودِّعه لمَّا قضى من شبابنا وطراً[٣]

ويفسر الأرب بالحاجة الشديدة المقتضية للاحتيال في دفعها، ويستعمل تارة في الحاجة المفردة، وأخرى في الاحتيال وإن لم تكن حاجة.

وقال المبرِّد: هو الشهوةُ والمحبة؛ يقال: ما قضيتُ من لقائك وطراً، أي: ما استمتعتُ منك حتى تنتهي نفسي، وأنشد:

وكيف ثوائي بالمدينة بعدما قضى وطراً منها جميل بنُ معمر[٤]

وعن ابن عباس تفسير الوطر هنا بالجماع، والمراد: لم يبق له بها حاجةُ الجماع وطلَّقها، وفي «البحر»[٥] نقلاً عن بعضهم: أنه ﷺ [مذ تزوَّجها] لم يتمكَّن من الاستمتاع بها. ورَوَى أبو عصمة نوح بن أبي مريم بإسنادٍ رَفَعه إليها أنها قالت: ما كنتُ أمتنعُ منه، غير أن الله عز وجل منعني منه. وروي أنه كان يتورَّم ذلك منه حين يريد أن يقربَها فيمتنع[٦].

قيل: ولا يخفى أنه على هذا يَحْسُنُ جداً جَعْلُ قضاء الوطر كنايةً عن الطلاق. فتأمل.

وفي الكلام تقديرٌ، أي: فلمَّا قضى زيد منها وطراً وانقضت عِدَّتُها. وقيل: إن قضاء الوطر يُشْعِرُ بانقضاء العِدَّة لأنَّ القضاء الفراغُ من الشيء على التمام، فكأنه قيل: فلما قضى زيدٌ حاجته من نكاحها فطلَّقها وانقضت عِدَّتُها فلم يكن في قلبه

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ١٣٨، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) في الأصل و(م): كالأدب، وهو تصحيف، والمثبت من البحر ومجاز القرآن، وفيه: «وطراً» أي: أرَباً وحاجة.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٣٨، والبحر ٧/ ٢٠٩، وهو في نوادر أبي زيد ص ١٥٩ برواية:

فارقنا قبل أن نفارقه.

(٤) البحر ٧/ ٢٠٩، وسلف ص٢١ من هذا الجزء.

(٥) ٧/ ٢٣٥، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٦) نوادر الأصول ص ١٨٩، والبحر ٧/ ٢٣٥. ونوح بن أبي مريم قال عنه الحافظ في التقريب: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

ميلٌ إليها ولا وحشةٌ من فراقها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ أي: جعلناها زوجةً لك بلا واسطةِ عقدٍ أصالة أو وكالة، فقد صحَّ من حديث البخاريِّ والترمذيِّ أنها رضي الله عنها كانت تفخَرُ على أزواج النبيِّ ﷺ تقول: زوَّجكنَّ أهاليكنَّ وزوَّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات(١).

وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال: كانت تقولُ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: إنِّي لأَدِلُّ عليك بثلاثٍ ما من نسائك امرأةٌ تَدِلُّ بهنَّ: إنَّ جدِّي وجدَّك واحدٌ، وإنِّي أنْكَحَكَ الله إياي من السماء، وإنَّ السفير لجبريلُ عليه السلام(٢).

ولعلها أرادت سفارتَه عليه السلام بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ، وإلا فالسفيرُ بينه عليه الصلاة والسلام وبينها كان زيداً؛ أخرج أحمد ومسلم والنسائيُّ وغيرهم عن أنس قال: لمَّا انقضت عِدَّةُ زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «اذهب فاذكرها عليَّ» فانطلق قال: فلمَّا رأيتُها عظُمَتْ في صدري، فقلت: يا زينب أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أوامر ربِّي. فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ ودخل عليها بغير إذن(٣).

ومن حديثٍ أخرجه الطبرانيُّ، والبيهقيُّ في «سننه» وابنُ عساكر من طريق ابن زيد الأسديِّ عن مذكورٍ مولى زينب قالت: طلقني زيدٌ فَبَتَّ طلاقي، فلما انقضت عدَّتي لم أشعر إلا والنبيُّ عليه الصلاة والسلام قد دخل عليَّ وأنا مكشوفةُ الشعر، فقلت: هذا من السماء، دخلتَ يا رسول الله بلا خطبةٍ ولا شهادة. فقال: «الله تعالى المزوِّج، وجبريل الشاهد»(٤)، ولا يَخْفَى أنَّ هذا بظاهره يخالفُ ما تقدَّم من الحديث، والمعوَّل على ذاك.

وقيل: المراد بـ «زوَّجناكها»: أمرناك بتزوُّجها.

---

(١) صحيح البخاري (٧٤٢٠)، وسنن الترمذي (٣٢١٣).

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ١١٨-١١٩.

(٣) مسند أحمد (١٣٠٢٥)، وصحيح مسلم (١٤٢٨). قوله: فلما رأيتها عظمت...، قال النووي في شرح صحيح مسلم ٩/ ٣٢٨: معناه أنه هابها واستجلَّها من أجل إرادة النبي تزوُّجَها.

(٤) المعجم الكبير ٢٤/ ١٠٩، وسنن البيهقي ٧/ ١٣٦، وتاريخ ابن عساكر ١٩/ ٣٥٧ و٥٠/ ٢٣٠. وفي إسناده حفص بن سليمان، وهو متروك. والحسين بن أبي السَّري وهو ضعيف.

وقرأ عليٌّ وابناه ريحانتا رسول الله ﷺ الحسنُ والحسينُ، وابنُه محمد بن الحنفية وجعفر الصادق ﷺ أجمعين: «زوجتُكها» بتاء الضمير للمتكلِّم وحده[١].

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ أي: ضِيْقٌ، وقيل: إثم. وفسَّره بهما بعضُهم كالطبرسيِّ[٢] بناءً على جواز استعمال المشترك في معنييه مطلقاً كما ذهب إليه الشافعية، أو في النفي كما ذهب إليه العلَّامةُ ابن الهمام من الحنفية.

﴿فِيٓ أَزْوَٰجِ﴾ أي: في حقِّ تزوُّجِ أزواج ﴿أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ الذين تبنَّوهم ﴿إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ﴾ أي: إذا طلَّقهنَّ الأدعياء وانقضت عِدَّتُهنَّ، فإنَّ لهم في رسول الله أسوةً حسنةً.

واستُدلَّ بهذا على أنَّ ما ثبت له ﷺ من الأحكام فهو[٣] ثابتٌ لأمته، إلا ما عُلم أنه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام بدليل، وتمامُ الكلام في المسألة مذكور في الأصول. والمراد بالحكم ها هنا على ما سمعت أولاً مطلقُ تزوُّج زوجات الأدعياء، وهو ـ على ما قيل ـ ظاهرٌ.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما يريد تكوينَه من الأمور، أو مأمورُه الحاصلُ بـ «كُنْ» ﴿مَفْعُولًا ۝٣٧﴾ مكوَّناً لا محالة، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمَا قبله من تزويج زينب ﷺ.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما صحَّ وما استقام في الحكمة أن يكون له حرجٌ ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ﴾ أي: قَسَمَ له ﷺ وقدَّر، من قولهم: فَرَضَ له في الديوان كذا، ومنه فروض العساكر لِمَا يقطعه السلطان لهم ويرسم به.

وقال قتادة: أي: فيما أحلَّ له. وقال الحسن: فيما خصَّه به من صحة النكاح بلا صَداقٍ. وقال الضحاك: من الزيادة على الأربع.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: سنَّ الله تعالى ذلك سنةً، فهو مصدرٌ منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ من لفظه، والجملةُ مؤكِّدةٌ لِمَا قبلها من نفي الحرج. وذهب الزمخشريُّ إلى أنه اسمٌ

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٦٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧، والبحر ٧/ ٢٣٥.

(٢) في مجمع البيان ٢٢/ ١٤٧.

(٣) قوله: فهو، ليس في (م).

موضوعٌ موضعَ المصدر، كقولهم: ترباً وجندلاً، أي: رغماً وهواناً وخيبةً[١]. وكأنه لم تَثْبُتْ عنده مصدريتُه.

وقيل: منصوب بتقديرِ: الْزَمْ، ونحوِه. قال ابن عطية: ويجوز أن يكون نصباً على الإغراء، كأنه قيل: فعليه سنَّة الله[٢]. وتعقَّبه أبو حيان بأنه ليس بجيِّدٍ؛ لأن عامل الاسم في الإغراء لا يجوز حذفه، وأيضاً تقدير: فعليه سنَّة الله، بضمير الغائب لا يجوزُ إذ لا يُغْرَى غائبٌ، وقولهم: عليه رجلاً لَيْسَني، مؤوَّلٌ وهو مع ذلك نادر[٣].

واعتُرِض بأنَّ قوله: لأنَّ عامل الاسم في الإغراء لا يجوز حذفه، ممنوعٌ، وهو خلافُ ما يفهم من كتب النحو، وبأنَّ ما ذكره في أمر إغراء الغائب مسلَّمٌ، لكن يمكن توجيهه هاهنا كما لا يخفى.

ثم قيل: إنَّ ظاهر كلام ابن عطية يشعر بأنَّ النصب بتقدير: الزم، قَسيمٌ للنصب على الإغراء[٤]، وليس كذلك بل هو قِسْمٌ منه. اهـ فتدبَّر.

﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ أي: مضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث لم يُحرِّج جلَّ شأنه عليهم في الإقدام على ما أحلَّ لهم، ووسَّع عليهم في باب النكاح وغيره، وقد كانت تحتهم المهائر والسراري، وكانت لداود عليه السلام مئةُ امرأةٍ وثلاثُ مئة سُرِّيَّة، ولسليمان عليه السلام ثلاثُ مئة امرأةٍ وسبع مئة سرِّيَّة[٥].

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظيِّ أنه كان له عليه السلام ألف امرأة[٦]، والظاهر أنه عنى بالمرأة ما يقابل السُّرِّيَّة، ويحتمل أنه أراد بها الأعمَّ فيوافق ما قبله.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٦٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨.

(٣) البحر ٧/ ٢٣٦.

(٤) حيث قال: «سنَّة» نصب على إضمار فعل تقديره الزم أو نحوه، أو على الإغراء، كأنه قيل...

(٥) الكشاف ٣/ ٢٦٤، وليس في هذا نصٌّ صحيح يُرجَع إليه، وإنما هو من الإسرائيليات وأقوال أهل الكتاب.

(٦) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٠٢.

يُروى أنَّ اليهود قاتلهم الله تعالى عابوه ـ وحاشاه من العيب ﷺ ـ بكثرة النكاح وكثرة الأزواج، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله سبحانه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وقيل: إنه جلَّ وعلا أشار بذلك إلى ما وقع لداود عليه السلام من تزوُّجه امرأة أوريا. وأخرج ذلك ابن المنذر والطبرانيُّ عن ابن جُريج، واسم تلك الامرأة عنده اليسية[1]، وهذا مما لا يلتفت إليه، والقصةُ عند المحققين لا أصل لها.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ أي: عن قَدَرٍ، أو: ذا قَدَرٍ، ووصفُه بـ «مقدورٍ» نحوُ وصفِ الظلِّ بالظليل، والليل بالألْيَل، في قولهم: ظلٌّ ظليلٌ وليلٌ أَلْيَلُ، في قَصْدِ التأكيد.

والمراد بالقدر عند جمعٍ المعنى المشهورُ للقضاء، وهو: الإرادة الأزلية المتعلِّقة بالأشياء على ما هي عليه. وجوَّز كونُه بالمعنى المشهور له، وهو: إيجاد الأشياء على قدرٍ مخصوصٍ وكميةٍ معيَّنةٍ من وجوه المصلحة وغيرها. والمعنى الأولُ أظهر، والقضاء والقدر يُستعمل كلٌّ منهما بمعنى الآخر.

وفسَّر الأمرُ بنحوِ ما فسِّر به فيما سبق. وجوَّز أن يراد به الأمرُ الذي هو واحدُ الأوامر من غير تأويل، ويراد أن اتِّباع أمرِ الله تعالى المنزلِ على أنبيائه عليهم السلام والعملَ بموجبه لازمٌ مقضيٌّ في نفسه أو هو كالمقضيِّ في لزوم اتِّباعه، ولا يخفى تكلُّفه.

وظاهرُ كلامِ الإمام[2] اختيارُ أنَّ الأمر واحدُ الأمور، وفرَّق بين القضاء والقدر بما لم نقف عليه لغيره، فقال ما حاصله: القضاء ما يكون مقصوداً له تعالى في الأصل، والقَدَرُ ما يكون تابعاً، والخيرُ كلُّه بقضاء، وما في العالَم من الضرر بقَدَرٍ كالزنى والقتل.

ثم بنى على ذلك لطيفةً: وهو أنه لمَّا قال سبحانه: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ ذيَّله بـ: أمراً

---

(١) المعجم الكبير ٢٤/(١١٩)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/٢٠٣. واسمها عند الطبراني: اليسيع، وفي الدر: اليسعية.

(٢) هو الرازي في تفسيره ٢٥/٢١٣.

مفعولاً[1]، لكونه مقصوداً أصليّاً وخيراً مقضيّاً، ولمَّا قال جل شأنه: (سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡا۟) إشارة إلى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال سبحانه: (قَدَرࣰا مَّقۡدُورًا) لكون الافتتان شرّاً غير مقصودٍ أصليٍّ من خَلْقِ المكلَّف. وفيه ما فيه.

والجملة اعتراضٌ وسِّط بين الموصولين الجاريين مجرى الواحد للمسارعة إلى تقرير نفي الحرج وتحقيقِه.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ لـ «الذين خلوا»، أو هو في محلِّ رفعٍ أو نصبٍ، على إضمارِ«هم» أو على المدح.

وقرأ عبد الله: «بلَّغوا» فعلاً ماضياً. وقرأ أبيٌّ: «رسالة» على التوحيد[2]؛ لجعل الرسالات المتعدِّدةِ لاتِّفاقها في الأصول وكونِها من الله تعالى بمنزلةِ شيءٍ واحدٍ وإن اختلفت أحكامُها.

﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾ أي: يخافونه تعالى في كلِّ ما يأتون ويذرون، لاسيما في أمر تبليغ الرسالة.

﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في وَصْفِهم بقَصْرِهم الخشيةَ على الله تعالى تعريضٌ بما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الاحتراز عن لائمة الناس، من حيث إن إخوانه المرسلين لم تكن سيرتُهم التي ينبغي الاقتداءُ بها ذلك، وهذا كالتأكيد لِمَا تقدَّم من التصريح في قوله سبحانه: (وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ).

وتوهَّم بعضهم أنَّ منشأ التعريض توصيفُ الأنبياء بتبليغ الرسالات، وحَمَلَ الخشية على الخشية في أمر التبليغ لوقوعها في سياقه، وفيه ما لا يخفى.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: كافياً للمخاوف، أو محاسباً على الكبائر والصغائر من أفعال القلب والجوارح، فلا ينبغي أن يُخشَى غيرُه، والإظهار في مقام الإضمار لِمَا في هذا الاسم الجليل ما ليس في الضمير.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير الرازي: «وكان أمر الله مفعولاً»، وهو الموافق للفظ الآية.

(٢) القراءتان في البحر ٧/٢٣٦، والثانية في القراءات الشاذة ص ١١٩.

واستدلَّ بالآية على عدم جواز التقية على الأنبياء عليهم السلام مطلقاً، وخَصَّ ذلك بعضُ الشيعة في تبليغ الرسالة، وجعلوا ما وقع منه ﷺ في هذه القصة المشارَ إليه بقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ ـ بناءً على أنَّ الخشية فيه بمعنى الخوف، لا على أنَّ المراد الاستحياءُ من قول الناس: تَزوَّجَ زوجةَ ابنه كما قاله ابن فورك ـ من التَّقِيَّة الجائزة حيث لم تكن في تبليغ الرسالة، ولا فَرْقَ عندهم بين خوف المقالة القبيحة وإساءةِ الظنِّ، وبين خوف المضارِّ، في أنَّ كلًّا يبيح التقيَّةَ فيما لا يتعلَّق بالتبليغ، ولهم في التقية كلامٌ طويل، وهي لأغراضهم ظلٌّ ظليل.

والمتتبِّعُ لكتب الفِرَقِ يعرفُ أنْ قد وقع فيها إفراطٌ وتفريطٌ، وصوابٌ وتخليطٌ، وأنَّ أهل السنَّة والجماعة قد سلكوا فيها الطريق الوسط، وهو الطريقُ الأسلمُ الأمينُ سالكُه من الخطأ والغلط. أما الإفراط فللشيعة حيث جوَّزوا ـ بل أوجبوا على ما حكي عنهم ـ إظهارَ الكفر لأدنى مخافةٍ أو طمع، وأما التفريطُ فللخوارج والزيدية حيث لا يجوِّزون في مقابلةِ الدِّين مراعاةَ العِرْضِ وحِفْظِ النفس والمالِ أصلاً.

وللخوارج تشديداتٌ عجيبةٌ في هذا الباب، وقد سبُّوا وطعنوا بريدةَ الأسلميَّ أحدَ أصحاب رسول الله ﷺ بسبب أنه رضي الله عنه كان يحافظ فرسه في صلاته خوفاً من أن يهرب.

ومذهب أهل السنَّة أنَّ التقية: وهي محافظةُ النفس أو العرضِ أو المالِ من نحو الأعداء بإظهارِ محظورٍ دينيٍّ، مشروعةٌ في الجملة، وقسموا العدو إلى قسمين:

الأول: مَن كانت عداوتُه مبنيَّةً على اختلاف الدِّين كالمسلم والكافر، ويلحق به مَن كانت عداوتُه لاختلاف المذهب اختلافاً يجرُّ إلى تكفير أصحاب أحد المذهبين أصحابَ المذهب الآخر، كأهل السنَّة والشيعة.

والثاني: مَن كانت عداوتُه مبنيَّةً على أغراضٍ دنيويةٍ كالمال والمرأة.

وعلى هذا تكون التقية أيضاً قسمين:

أمَّا الأول: فالتقيةُ ممَّن كانت عداوته مبنيةً على اختلاف الدِّين حقيقةً أو

حكماً، وقد ذكروا في ذلك أنَّ مَن يدّعي الإيمان إذا وقع في محلٍّ لا يمكن أن يُظهِرَ دينه وما هو عليه لتعرُّض المخالفين، وجَبَ عليه أن يهاجر إلى محلٍّ يقدِرُ فيه على الإظهار، ولا يجوزُ له أن يسكن هنالك ويكتمَ دينه بعذرِ الاستضعاف فأرضُ الله واسعةٌ. نعم إن كان له عذرٌ غيرُ ذلك كالعمى والحبس، وتخويفِ المخالف له بقتله أو قتلِ ولده أو أبيه أو أمّه على أيِّ وجهٍ كان القتلُ تخويفاً يُظَنُّ معه وقوعُ ما خوِّف به، جاز له السكنى والموافقةُ بقَدْرِ الضرورة، ووجب عليه السعيُ في الحيلة للخروج. وإن لم يكن التخويفُ كذلك، كالتخويف بفواتِ المنفعة أو بلحوق المشقَّة التي يمكِنُه تحمُّلُها، كالحبس مع القوت، والضربِ القليل الغير المهلك، لا يجوز له الموافقةُ، وإن ترتَّب على ذلك موتُه كان شهيداً.

وأما الثاني: فالتقيةُ ممَّن كانت عداوتُه مبنيَّةً على أغراضٍ دنيوية، وقد اختلف العلماء في وجوب الهجرة وعدمِه فيه، فقال بعضهم: تجب الهجرة لوجوب حفظ المال والعِرْضِ.

وقال جمع: لا تجب، إذ الهجرةُ عن ذلك المقام مصلحةٌ من المصالح الدنيوية، ولا يعود بتركها نقصانٌ في الدين؛ إذ العدوُّ المؤمن كيفما كان لا يتعرض لعدوِّه الضعيف المؤمن مِثْلِه بالسوء من حيث هو مؤمن.

وقال بعض الأجلَّة على طريق المحاكمة: الحقُّ أنَّ الهجرة هاهنا قد تجب أيضاً، وذلك إذا خاف هلاكَ نفسه أو أقاربه، أو الإفراط في هتك حرمته. وقال: إنها مع وجوبها ليست عبادةً، إذ التحقيقُ أنه ليس كلُّ واجبٍ عبادةً يثاب عليها، فإنَّ الأكل عند شدة المجاعة، والاحترازَ عن المضرَّات المعلومة أو المظنونة في المرض، وعن تناول السمومات في حال الصحة، وما أشبه ذلك، أمورٌ واجبةٌ ولا يثاب فاعلُها عليها. اهـ، وفيه بحث.

وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من زُبُرِ العلماء الأعلام، ولعل لنا عودةً إن شاء الله تعالى لذكرِ شيءٍ من ذلك، واللهُ تعالى الهادي لسلوك أقوم المسالك.

بقي لنا فيما يتعلَّق بالآية شيءٌ، وهو ما قيل: إنه سبحانه وَصَفَ المرسَلين الخالينَ عليهم الصلاة والسلام بأنهم لا يَخشَوْنَ أحداً إلا الله، وقد أخبر عز وجل

عن موسى عليه السلام بأنه قال: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ [طه: ٤٥] وهل خوفُ ذلك إلا خشيةُ غيرِ الله تعالى، فما وجهُ الجمع؟

قلت: أجيب بأنَّ الخشية أخصُّ من الخوف؛ قال الراغب: الخشية خوفٌ يَشُوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكون ذلك عن علم بما يُخْشَى منه، وذكر في ذلك عدَّةَ آياتٍ منها هذه الآية[١]. ونفيُ الخاصِّ لا يستلزم نفيَ العامِّ، فقد يجتمعُ مع إثباته.

وهذا أولى ممَّا قيل في الجواب من أن الخشية أخصُّ من الخوف لأنها الخوفُ الشديد، والمنفيُّ في الآية هاهنا هو ذلك، لا مطلقُ الخوف المثبَتِ فيما حُكي عن موسى عليه السلام.

وأجاب آخر بأنَّ المراد بالخشية المنفية الخوفُ الذي يحدُثُ بعد الفكر والنظر، وليس من العوارض الطبيعية البشرية، والخوفُ المثبَتُ هو الخوفُ العارض بحسب البشرية بادي الرأي، وكم قد عَرَضَ مثلُه لموسى عليه السلام ولغيره من إخوانه، وهو ممَّا لا نَقْصَ فيه كما لا يَخْفَى على كامل. وهو جوابٌ حسن.

وقيل: إنَّ موسى عليه السلام إنما خاف أن يَعْجَلَ فرعونُ عليه بما يَحُولُ بينه وبين إتمام الدعوة وإظهارِ المعجزة، فلا يحصُلُ المقصودُ من البعثة، فهو خوفٌ لله عز وجل، والمراد بما نُفي عن المرسلين هو الخوفُ عنه سبحانه، بمعنى أن يخاف غيره جل وعلا فيخلَّ بطاعته أو يقدِمَ على معصيته، وأين هذا من ذاك؟ فتأمَّل تولَّى الله تعالى هُدَاك.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ ردٌّ لمنشأ خشيته ﷺ الناس المعاتَبِ عليها بقوله تعالى: (وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ) وهو قولُهم: إنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام تزوَّج زوجةَ ابنه زيدٍ، بنفي كون زيدٍ ابنَه الذي يَحْرُمُ نكاحُ زوجته ﷺ على أبلغ وجه كما ستعرفه قريباً إن شاء الله تعالى.

والرجال جمعُ رجل بضمِّ الجيم كما هو المشهورُ وسكونِه، وهو على ما في «القاموس»: الذَّكَر إذا احتلم وشبَّ، أو هو رجلٌ ساعةَ يولد[٢]. وفي بعض ظواهر

(١) مفردات الراغب (خشي).
(٢) القاموس (رجل).

الآيات والأخبار ما هو مؤيِّدٌ للثاني، نحو قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ [النساء: ١٢]، ونحو قوله عليه الصلاة والسلام: «فلأَوْلَى رجلٍ ذَكَرٍ»[1]. والبحث الذي ذكره بعضُ أجلَّة المتأخِّرين فيما ذُكر من الأمثلة لا يدفع كونَ الظاهر منها ذلك عند المنصِفِ.

وقد يُذكر لتأييد الأول قولُه تعالى: ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء: ٩٨] فإنَّ «الرجال» فيه للبالغين، وفيه بحثٌ، نعم ظاهرُ كلام الزمخشريِّ[2] ـ وهو إمامٌ له قدمٌ راسخةٌ في اللغة وغيرِها من العلوم العربية ـ يدلُّ على أنَّ الرجل هو الذَّكَرُ البالغ.

وأيَّاما كان فإضافةُ «رجال» إلى ضمير المخاطبين باعتبارِ الوِلَاد، فإنْ أُريدَ بالرجال الذكورُ البالغون، فالمعنى: ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من أبنائكم أيها الناس الذكورِ البالغين الذين ولدتُموهم، وإن أريد بهم الذكور مطلقاً فالمعنى: ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من أبنائكم الذين ولدتموهم مطلقاً كباراً كانوا أو صغاراً.

والأبُ حقيقةٌ لغويةٌ في الوالد على ما يُفهم من كلام كثيرٍ من اللُّغويين، والمرادُ بالأبوَّة المنفيةِ هنا الأبوَّةُ الحقيقيةُ الشرعيةُ التي يترتَّب عليها أحكامُ الأبوَّة الحقيقيةِ اللغوية من الإرث ووجوب النفقة، وحرمة المصاهرة سواءٌ كانت بالولادة أو بالرضاع أو بتبنِّي مَن يولَد مثلُه لمثله وهو مجهولُ النسب، فحيث نُفي كونُه ﷺ أبا أحدٍ من رجالهم بأيِّ طريقٍ كانت الأبوَّة ـ ومن المعلوم أن زيداً أحدٌ من رجالهم ـ تحقَّق نفيُ كونه عليه الصلاة والسلام أباً له مطلقاً:

أما كونه ﷺ ليس أباً له بالولادة فمما لا نزاع فيه، ولم يَتوهَّم أحدٌ خلافَه، ومثلُه كونُه عليه الصلاة والسلام ليس أباً له بالرضاع.

وأمَّا كونه ﷺ ليس أباً له بالتبنِّي مع تحقُّق تبنِّيه عليه الصلاة والسلام، فلأنَّ الأبوَّة بالتبنِّي التي نُفيت[3] إنما هي الأبوَّةُ الحقيقية الشرعية، وما كان من التبنِّي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥) من حديث ابن عباس ﭫ.
(٢) في الكشاف ٣/ ٢٦٤.
(٣) في الأصل: تعينت.

لا يستتبعها لتوقُّفها شرعاً على شرائط، منها كونُ المتبنَّى مجهولَ النسب، وذلك منتفٍ في زيدٍ، فقد كان معروفَ النسب فيما بينهم، وقد تقدَّم لك أنه ابن حارثة.

وتعميمُ نفي أبوَّته ﷺ لأحدٍ من رجالهم بحيث شمل نفي الأبوَّة بالولادة والأبوَّةِ بالرضاع والأبوَّةِ بالتبنِّي، مع أنه لا كلامَ في انتفاء الأوليين وإنما الكلام في انتفاء الأخيرة فقط، إذ هي التي يزعمها مَن يقول: تزوَّج محمدٌ عليه الصلاة والسلام زوجةَ ابنه = للمبالغة في نفي الأبوَّة بالتبنِّي التي زَعَموا ترتُّبَ أحكام الأبوَّة الحقيقية عليها بنَظْمِ ما خَفِيَ في سِلْكِ ما لا خَفاءَ فيه أصلاً.

ولعل هذا هو السرُّ في قوله سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ دون: ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من الرجال، أو: ما كان محمدٌ أبا أحدٍ منكم، ولعله لهذا أيضاً صرَّح بنفي أبوَّته ﷺ لأحدٍ من رجالهم، ليعلم منه نفيُ بنوَّةِ أحدٍ من رجالهم له عليه الصلاة والسلام، ولم يعكس الحالَ بأن يصرِّحَ بنفي بنوَّةِ أحدٍ من رجالهم له عليه الصلاة والسلام ليعلم نفي أبوَّته ﷺ لأحدٍ من رجالهم، ويؤتَى بما بعدُ على وجهٍ ينتظمُ مع ما قبل.

وبحَمْلِ الأبوَّة المنفيَّة على الأبوَّة الحقيقية الشرعية ينحلُّ إشكالٌ في الآية، وهو أنَّ سياقَها لنفي أبوَّته عليه الصلاة والسلام لزيدٍ ليردَّ به على مَن يعترض على النبيِّ ﷺ بتزوُّجه مطلَّقتَه، فإنْ أريدَ بالأبوَّة الأبوَّةُ الحقيقيةُ اللغويةُ ـ وهي ما يكون بالولادة ـ لم تلائم السياقَ، ولم يحصل بها الردُّ المذكور مع أنه هو المقصود؛ إذ لم يكن أحدٌ يزعم ويتوهَّم أنه ﷺ كان أبا زيدٍ بالولادة، وإنْ أريد بها الأبوَّةُ المجازيَّة التي تحقَّقُ بالتبنِّي ونحوه فنفيُها غيرُ صحيح؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان أباً لزيدٍ مجازاً لتبنِّيه إياه، ولم يزل زيدٌ يُدْعَى بابنِ محمدٍ ﷺ حتى نزل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ فدعَوْه حينئذٍ بابنِ حارثة.

ووجهُ انحلاله بما ذكرنا من أنَّ المراد بالأبوَّة الأبوَّةُ الحقيقيةُ الشرعيةُ: أنَّ هذه الأبوَّة تكون بالولادة وبالرضاع والتبنِّي بشَرْطِه، وهي بأنواعها غيرُ متحقِّقةٍ في زيد، أما عدمُ تحقُّقها بالنوعين الأوَّلين فظاهرٌ، وأمَّا عدمُ تحقُّقها بالنوع الأخير فلأنَّ التبنِّيَ وإنْ وقع إلَّا أنَّ شرطَه الذي به يستتبع الأبوَّة الحقيقيةَ الشرعيةَ مفقودٌ كما علمتَ.

وبجَعْل إضافة الرجال إلى ضمير المخاطبين باعتبار الولاد[١] يندفعُ استشكالُ النفي المذكور بأنه عليه الصلاة والسلام قد ولد له عدَّةُ ذكورٍ فكيف يصحُّ النفي؟ لأنَّ مَن ولد له عليه الصلاة والسلام ليس مضافاً للمخاطبين باعتبار الولادة، بل هو مضافٌ إليه ﷺ باعتباره.

ومَن خصَّ الرجال بالبالغين قال: لا ينتقضُ العمومُ بذلك؛ لأنَّ جميع مَن ولد له عليه الصلاة والسلام مات صغيراً ولم يبلغ مَبْلَغَ الرجال.

وقيل: لا إشكالَ في ذلك؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن له ابنٌ يومَ نزولِ الآية؛ لأنَّ السورة مدنيةٌ نزلت على ما نُقِلَ عن ابن الأثير في تاريخ «الكامل» السنة الخامسة من الهجرة[٢]، وفيها تزوَّج رسول الله ﷺ بزينب، ومَن ولد له ﷺ من الذكور ممن عَدَا إبراهيم فإنما ولد بمكة قبل الهجرة وتُوفِّي فيها، وإبراهيم وإن ولد بالمدينة لكنْ وُلد السنةَ الثامنة من الهجرة، فلم يكن مولوداً يومَ النزول بل بعدَه، وهو كما ترى.

وكما استشكل النفيُ بما ذكر استشكل بالحسن والحسين ﵄، فقد كان النبيُّ ﷺ أباً لهما حقيقةً شرعيةً، ولم يَرْتَضِ بعضُهم هنا الجوابَ بخروجهما بالإضافة لأنَّ لهما نسبةً إلى المخاطبين باعتبار الولادة لدخول عليٍّ كرم الله تعالى وجهه فيهم وهما ولداه، وارتضاه آخر، بناءً على أنَّ الإضافة للاختصاص باعتبار الولادة، ولا اختصاصَ للحسنين بعليٍّ ﵁ باعتبارها، لِمَا أنهما وَلَدا رسولِ الله ﷺ أيضاً لكن بالواسطة. فإنْ قُبِلَ هذا فذاك، وإلَّا فالجوابُ:

أمَّا ما قيل من أنَّ المراد بالرجال البالغون، ولم يكونا ﵄ يومَ النزول كذلك، فإنَّ الحسن ﵁ ولد السنة الثالثة من الهجرة، والحسين ﵁ السنةَ الرابعةَ منها لخمسٍ خَلَوْنَ من شعبان، وقد علقتْ به أمُّه عقبَ ولادة أخيه بخمسين ليلةً أو أقل، وكان النزولُ بعد ولادتهما على ما سمعتَ آنفاً.

---

(١) في (م): الولادة.
(٢) الكامل ٢/ ١٧٧.

وأمَّا ما قيل من أنَّ المراد بالأب في الآية الأبُ الصلب، ومعلومٌ أنه ﷺ لم يكن أباهما كذلك، فتدبَّر.

وقيل: ليس المراد من الآية سوى نفي أبوَّته ﷺ لأحدٍ من الرجال بالتبنِّي؛ لتنتفي أبوَّته عليه الصلاة والسلام لزيدٍ التي يزعمها المعترضُ كما يدلُّ عليه سوقُ الآية الكريمة، فكأنه قيل: ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم كما زعمتُم، حيث قلتُم: إنه أبو زيدٍ لتبنِّيه إياه. وهي ساكتةٌ عن نفي أبوَّته ﷺ لأحدٍ بالولادة أو بالرضاع، وعن إثباتها، فلا سؤال بمن ولد له ﷺ من الذكور، ولا بالحسنين رضي الله عنهما، ولا جواب. وإلى اختيار هذا يميلُ كلام أبي حيان[1]، والله تعالى أعلم.

واستَدلَّ بعض الشافعية بهذه الآية على أنه لا يجوز أن يقال للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: أبو المؤمنين، حكاه صاحب «الروضة» ثم قال: ونصَّ الشافعيُّ عليه الرحمةُ على أنه يجوز أن يقال له ﷺ: أبو المؤمنين، أي: في الحرمة ونحوِها[2].

وقال الراغب[3] بعد أن قال: الأب: الوالد، ما نصُّه: ويسمَّى كلُّ مَن كان سبباً في إيجاد شيءٍ أو إصلاحه أو ظهوره أباً، ولذلك سمِّي النبيُّ ﷺ أبا المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]. وفي بعض القراءات: «وهو أبٌ لهم»[4]. وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه: «أنا وأنتَ أبَوا هذه الأمَّة»[5]، وإلى هذا أشار ﷺ بقوله: «كلُّ سببٍ ونسبٍ منقطعٌ يومَ القيامة إلَّا سببي ونسبي»[6]. اهـ. فلا تغفل.

وعلى جواز الإطلاق قالوا: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ استدراكٌ من نفي كونه عليه الصلاة والسلام أبا أحدٍ من رجالهم على وجهٍ يقتضي حرمة المصاهرة ونحوها إلى إثباتِ كونه ﷺ أباً لكلِّ واحدٍ من الأمة فيما يَرْجِعُ إلى

---

(١) في البحر ٧/ ٢٣٦.
(٢) روضة الطالبين ٧/ ١٢.
(٣) في مفرداته (أبا).
(٤) سلفت عند تفسير الآية السادسة من هذه السورة.
(٥) لم نقف عليه مسنداً.
(٦) سلف ١٨/ ١٤٤.

وجوب التوقير والتعظيم له ﷺ، ووجوبِ الشفقةِ والنصيحة لهم عليه عليه الصلاة والسلام، فإنَّ كلَّ رسولٍ أبٌ لأمته فيما يرجعُ إلى ذلك، وحاصلُه أنه استدراك من نفي الأبوَّة الحقيقية الشرعية التي يترتَّب عليها حرمةُ المصاهرة ونحوها إلى إثبات الأبوَّة المجازيَّةِ اللغوية التي هي من شأن الرسول عليه الصلاة والسلام، وتقتضي التوقير من جانبهم والشفقةَ من جانبه ﷺ.

وقيل في توجيه الاستدراك أيضاً: إنه لمَّا نُفيتْ أبوَّتُه ﷺ لأحدٍ من رجالهم مع اشتهارِ أنَّ كلَّ رسولٍ أبٌ لأمته، ولذا قيل: إنَّ لوطاً عليه السلام عَنَى بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:٧٨] المؤمناتِ من أمَّته، يُتوهَّم نفيُ رسالته ﷺ بناءً على توهُّم التلازُم بين الأبوَّة والرسالة، فاستدرك بإثبات الرسالة تنبيهاً على أنَّ الأبوَّة المنفيَّةَ شيءٌ والمثبتةَ للرسول شيءٌ آخَرُ.

وأمَّا قوله سبحانه: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فقد قيل: إنه جيءَ به ليشير إلى كمال نُصْحِه وشفقته ﷺ، فيفيد أنَّ أبوَّته عليه الصلاة والسلام للأمة المشارَ إليها بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أبوَّةٌ كاملةٌ فوق أبوَّة سائر الرسل عليهم السلام لأممهم، وذلك لأنَّ الرسول الذي يكون بعده رسولٌ ربما لا يبلُغُ في الشفقة غايتَها وفي النصيحة نهايتها اتِّكالاً على مَن يأتي بعده، كالوالد الحقيقيِّ إذا علم أنَّ لولده بعده مَن يقومُ مقامه.

وقيل: إنه جيء به للإشارة إلى امتدادِ تلك الأبوَّةِ المشارِ إليها بما قبلُ إلى يوم القيامة، فكأنه قيل: ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكُم بحيث تَثْبُتُ بينه وبينه حرمةُ المصاهرة، ولكنْ كان أبا كلِّ واحدٍ منكم وأبا أبنائكم وأبناءِ أبنائكم وهكذا إلى يوم القيامة، بحيث يجب له عليكم وعلى مَن تناسَلَ منكم احترامُه وتوقيرُه، ويجبُ عليه لكم ولمن تناسَلَ منكم الشفقةُ والنصحُ الكامل.

وقيل: إنه جيءَ به لدفع ما يُتوهَّم من قوله تعالى: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ من أنه ﷺ يكون أبا أحدٍ من رجاله الذين ولدوا منه عليه الصلاة والسلام، بأنْ يولَدَ له ذكرٌ فيعيش حتى يبلغ مبلغ الرجال، وذلك لأنَّ كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين يدلُّ على أنه لا يعيش له ولدٌ ذكر حتى يبلغ؛ لأنه لو بلغ لكان منصبه أن يكون نبياً، فلا يكون هو ﷺ خاتَمَ النبيين، ويرادُ بالأبِ عليه الأبُ الصُّلبُ؛ لئلَّا يُعترض

بالحسنين ﷺ، ودليلُ الشرطية ما رواه إبراهيم السدِّي[1] عن أنس قال: كان إبراهيم ـ يعني ابنَ النبيِّ ﷺ ـ قد ملأ المهد، ولو بقي لكان نبياً، لكن لم يَبْقَ لأنَّ نبيَّكم آخِرُ الأنبياء عليهم السلام[2].

وجاء نحوُه في رواياتٍ أُخَرَ؛ أخرج البخاريُّ من طريق محمد بن بشر عن إسماعيل بن أبي خالد قال: قلتُ لعبد الله بن أبي أَوْفَى: رأيتَ إبراهيم ابنَ النبيِّ ﷺ؟ قال: مات صغيراً، ولو قُضي بعد محمد ﷺ نبيٌّ عاش ابنه إبراهيم، ولكن لا نبيَّ بعده[3].

وأخرج أحمد عن وكيعٍ عن إسماعيل: سمعتُ ابن أبي أَوْفَى يقول: لو كان بعد النبيِّ نبيٌّ ما مات ابنه [إبراهيم][4].

وأخرج ابن ماجه وغيره من حديث ابن عباس: لمَّا مات إبراهيم ابنُ النبيِّ ﷺ، صلَّى عليه وقال: «إنَّ له مرضعاً في الجنة، ولو عاش لكان صدِّيقاً نبيّاً، ولو عاش لأعتقت أخواله من القِبْطِ، وما استُرِقَّ قِبْطيٌّ»[5] وفي سنده: أبو شيبة إبراهيم بن عثمان الواسطي، وهو ـ على ما قال القسطلانيُّ ـ ضعيفٌ[6]. ومن طريقه أخرجه ابن منده في «المعرفة» وقال: إنه غريب[7].

وكأنَّ النوويَّ لم يقف على هذا الخبر المرفوع أو نحوِه، أو وقف عليه ولم يصحَّ عنده، فقال في «تهذيب الأسماء واللغات»: وأمَّا ما روي عن بعض

---

(١) كذا ذكر المصنف، وهو سبق قلم منه رحمه الله، والصواب: إسماعيل السدي.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب على هامش الإصابة ١/ ١١٦، وابن منده كما في فتح الباري ١٠/ ٥٧٩، وهو في مسند أحمد (١٢٣٥٨) بلفظ: لو عاش إبراهيم ابن النبي ﷺ لكان صدِّيقاً نبيًّا. وينظر الإصابة ١/ ١٥٢، والمقاصد الحسنة ص٣٤٥.

(٣) صحيح البخاري (٦١٩٤).

(٤) مسند أحمد (١٩١٠٩)، وما بين حاصرتين منه.

(٥) سنن ابن ماجه (١٥١١)، وإسناده ضعيف جدّاً ـ كما سيرد ـ دون قوله: «إن له مرضعاً في الجنة» فقد أخرجه البخاري (١٣٨٢) من حديث البراء ﷺ.

(٦) وقال ابن حجر في التقريب: إبراهيم بن عثمان العبسي أبو شيبة الكوفي قاضي واسط، مشهور بكنيته: متروك الحديث.

(٧) المقاصد الحسنة ص ٣٤٤.

المتقدِّمين: لو عاش إبراهيم لكان نبياً، فباطلٌ وجسارةٌ على الكلام على المغيَّبات، ومجازفةٌ وهجومٌ على عظيم [من الزلَّات](١).

ومثله ابنُ عبد البر فقد قال في «التمهيد»(٢): لا أدري ما هذا، فقد وَلَد نوحٌ عليه السلام غيرَ نبيٍّ، ولو لم يلد النبيُّ إلَّا نبياً لكان كلُّ أحدٍ نبيّاً؛ لأنهم من نوح عليه السلام.

وأنا أقول: لا يُظَنُّ بالصحابيِّ الهجوم على الإخبار عن مثل هذا الأمر بالظنِّ، فالظاهر أنه لم يُخبِر إلا عن توقيفٍ من رسول الله ﷺ، وإذا صحَّ حديثُ ابن عباس رضي الله عنهما المرفوعُ(٣) ارتفعَ الخصامُ، لكن الظاهر أنَّ هذا الأمر في إبراهيم خاصةً بأنْ يكون قد سَبَقَ في علم الله تعالى أنه لو عاش لجعله جلَّ وعلا نبيّاً، لا لكونه ابنَ النبيِّ ﷺ بل لأمرٍ هو جلَّ شأنُه به أعلم، والله أعلمُ حيث يجعل رسالتَه، وحينئذٍ يَرِدُ على الشرطية السابقة ـ أعني قوله: لأنه لو بلغ لكان منصبه أن يكون نبيًّا ـ منعٌ ظاهرٌ، والدليلُ الذي سيق فيما سبق لا يثبتُها؛ لمَا أنَّ ظاهره الخصوصُ، فيجوز أن يبلغ ولدٌ ذَكَرٌ له عليه الصلاة والسلام غيرَ إبراهيم ولا يكون نبيّاً؛ لعدم أهليته للنبوَّة في عِلْمِ الله تعالى لو عاش.

وقول بعض الأفاضل: ليس مَبْنَى تلك الشرطية على اللزوم العقليِّ والقياس المنطقيِّ، بل على مقتضَى الحكمة الإلهية، وهي أنَّ الله سبحانه أكرم بعض الرسل عليهم السلام بجعل أولادهم أنبياءَ كالخليل عليه السلام، ونبيُّنا ﷺ أكرمُهم عليه وأفضلُهم عنده، فلو عاش أولاده اقتضى تشريفُ الله تعالى له وأفضليتُه عنده ذلك = ليس بشيءٍ؛ لأنَّا نقول: لا يلزم من إكرام الله تعالى بعضَ رسله عليهم السلام بنبوَّةِ الأولاد، وكونِ نبيِّنا ﷺ أكرمَهم وأفضلَهم، اقتضاءُ التشريف والأفضليةِ

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١/١٠٣، وما بين حاصرتين منه، وذكره عن النووي أيضاً الحافظ ابن حجر في الإصابة ١/١٥٣، وفتح الباري ١٠/٥٧٩، والسخاوي في المقاصد الحسنة ص ٣٤٤.

(٢) كذا ذكر المصنف، ومثله في الإصابة ١/١٥٢، والمقاصد الحسنة ص ٣٤٤، ولم نقف عليه في التمهيد، وعزاه ابن حجر نفسه في الفتح ١٠/٥٧٩ للاستيعاب، وهو فيه (على هامش الإصابة) ١/١١٧.

(٣) ولم يصحَّ كما سلف قريباً.

نبوَّةَ أولاده لو عاشوا وبلغوا، ليقال: إن حكمة كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين لكونها أجلَّ وأعظم مَنعَتْ من أن يعيشوا فينبَّؤوا، ألا ترى أنَّ الله تعالى أكرم بعض الرسل بجعل بعض أقاربهم في حياتهم وبعد مماتهم أنبياءَ مُعِينين لهم ومؤيِّدين لشريعتهم، غيرَ مخالفين لها في أصلٍ أو فرعٍ، كموسى عليه السلام؟ ونبيُّنا عليه الصلاة والسلام أكرمُهم وأفضلُهم، ولم يُجعل له ذلك.

فإن قيل: إنه عوَّضَ ﷺ عنه بأن جَعَلَ جلَّ شأنُه له من أقاربه وأهلِ بيته علماءَ أجلَّاء كأنبياء بني إسرائيل، كعليٍّ كرم الله تعالى وجهه كما يرشد إليه قوله ﷺ له ﷺ: «أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبيَّ بعدي»(1).

قلنا: فلمَ لا يجوزُ أن يُبقيَ سبحانه له عليه الصلاة والسلام أولاداً ذكوراً بالغين ويعوِّضَه عن نبوَّتهم التي منعت عنها حكمةُ الخاتمية نحوَ ما عوَّضه عن نبوَّة بعض أقاربه التي منعت عنها تلك الحكمةُ، وذلك أقربُ لمقتضَى التشريف كما لا يخفى.

وقيل: الملازمةُ مستفادةٌ من الآية، لأنه لولاها لم يكن للاستدراك معنًى؛ إذ «لكنْ» تتوسَّط بين متقابلين، فلابدَّ من منافاة بنوَّتهم له عليه الصلاة والسلام لكونه خاتم النبيين، وهو إنما يكون باستلزام بنوَّتِهم نبوَّتَهم، ولا يقدحُ فيه قوله تعالى: ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ كما يُتوهَّم، لأنه لو سلِّم رسالتهم لكانت إما في عصره ﷺ وهي تُنافي رسالته، أو بعدَه وهي تُنافي خاتميته. اهـ.

وفيه أنَّ الملازمة في قوله: ولولا ذلك لم يكن للاستدراك معنًى، ممنوعةٌ، والدليلُ المذكور لم يثبِتْها؛ لجوازِ أن يكون معنى الاستدراك ما ذكرناه أولاً، على أنَّ فيما ذكره بعدُ ما لا يخفى.

وقيل في توجيه الاستدراك: إنه لمَّا كان عدم النسل من الذكور يُفهم منه أنه لا يبقى حُكْمُه ﷺ ولا يدومُ ذِكْرُه، استُدرِكَ بما ذُكر. وهو كما ترى.

وقال بعض المتأخِّرين: يجوز أن لا يكون الاستدراكُ بـ «لكن» هنا بمعنى رفعِ التوهُّم الناشىء من أول الكلام، كما في قولك: ما زيدٌ كريم لكنه شجاع، بل بمعنى أن يَثْبُتَ لِمَا بعدها حكمٌ مخالفٌ لِمَا قبلها، نحو: ما هذا ساكنٌ لكنه

(1) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

متحرِّكٌ، و: ما هذا أبيضُ لكنه أسودُ، وقد جاء كذلك في بعض آي الكتاب الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧] فإنَّ نفي السفاهة لا يوهِمُ انتفاءَ الرسالة ولا انتفاءَ ما يلزمُها من الهدى والتقوى حتى يُجعل استدراكاً بالمعنى الأول. اهـ فليتأمَّل.

ومن العجيب أنَّ ابن حجرٍ الهيتميَّ قال في «فتاواه الحديثية»: إنه لا بُعْدَ في إثبات النبوَّة لإبراهيم ابن النبيِّ ﷺ في صغره، وقد ثبت في الصغر لعيسى ويحيى عليهما السلام.

ثم نقل عن السبكيِّ كلاماً في حديثِ: «كنتُ نبيّاً وآدمُ بين الروح والجسد» حاصلُه: أن حقيقته عليه الصلاة والسلام قد تكون من قبلِ آدم آتاها الله تعالى النبوَّةَ بأنْ خَلَقَها مهيَّأةً لها، وأفاضها عليها من ذلك الوقت فصار نبيّاً. ثم قال: وبه يُعلم تحقيقُ نبوَّةِ سيدنا إبراهيم في حال صغره[(١)]. اهـ، وفيه بحث.

وخبرُ أنه عليه الصلاة والسلام أدخل يده في قبره بعد دفنه وقال: «أَمَا والله إنه لنبيٌّ ابنُ نبيٍّ» في سنده مَن ليس بالقويِّ[(٢)]، فلا يعوَّل عليه ليُتكلَّفَ لتأويله.

والخاتم اسم آلةٍ لِمَا يُخْتَمُ به، كالطابَع لِمَا يُطْبَعُ به، فمعنى «خاتَم النبيين»: الذي خُتم النبيُّون به، ومآلُه: آخر النبيين.

وقال المبرِّد: «خاتم» فعلٌ ماضٍ على فاعَلَ، وهو في معنى: خَتَم النبيين، فـ «النبيين» منصوبٌ على أنه مفعولٌ به. وليس بذاك.

وقرأ الجمهور: «وخاتِمَ» بكسر التاء[(٣)] على أنه اسمُ فاعلٍ، أي: الذي خَتَم النبيين، والمراد به آخرهم أيضاً. وفي حرف ابن مسعود: «ولكنْ نبيّاً خَتَمَ النبيين»[(٤)].

---

(١) الفتاوى الحديثية ص ١٧٦، وحديث: «كنت نبيّاً...» سلف ص٢٠٦ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه ابن عساكر ٣/ ١٤٤-١٤٥ من طريق عيسى بن عبد الله عن أبيه عن جده عن أبي جده عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ. قال ابن عساكر: عيسى هو ابن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ليس بالقوي. اهـ. وقال الدارقطني: متروك الحديث. وقال ابن حبان: يروي عن آبائه أشياء موضوعة. الميزان ٣/ ٣١٥.

(٣) التيسير ص ١٧٩، والنشر ٢/ ٣٤٨، وقرأ عاصم وحده بفتح التاء.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٠.

والمراد بالنبيِّ ما هو أعمُّ من الرسول، فيلزم من كونه ﷺ خاتمَ النبيين كونَه خاتم المرسلين، والمراد بكونه عليه الصلاة والسلام خاتمهم انقطاعُ حدوثِ وصفِ النبوَّة في أحدٍ من الثَّقَلين بعد تحلِّيه عليه الصلاة والسلام بها في هذه النشأة.

ولا يقدحُ في ذلك ما أجمعت الأمةُ عليه، واشتهرت فيه الأخبار ولعلها بلغت مبلغ التواتر المعنويِّ، ونَطَق به الكتاب على قولٍ، ووجب الإيمانُ به، وأُكْفِرَ منكِرُه كالفلاسفة، من نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان؛ لأنه كان نبيّاً قبل تحلِّي نبيِّنا ﷺ بالنبوَّة في هذه النشأة. ومثلُ هذا يقال في بقاء الخضر عليه السلام على القول بنبوَّته وبقائه.

ثم إنه عليه السلام حين ينزل باقٍ على نبوَّته السابقة لم يُعْزَل عنها بحالٍ، لكنه لا يُتعبَّد بها لنسخها في حقِّه وحقِّ غيره، وتكليفِه بأحكام هذه الشريعة أصلاً وفرعاً، فلا يكون إليه عليه السلام وحيٌ ولا نَصْبُ أحكام، بل يكون خليفةً لرسول الله ﷺ وحاكماً من حكَّام ملَّته بين أمته بما علِّمه في السماء قبل نزوله من شريعته عليه الصلاة والسلام كما في بعض الآثار، أو ينظر في الكتاب والسنَّة وهو عليه السلام لا يقصُر عن رتبة الاجتهاد المؤدِّي إلى استنباط ما يحتاج إليه أيامَ مكثه في الأرض من الأحكام.

وكَسْرُه الصليبَ وقَتْلُه الخنزيرَ ووَضْعُه الجزيةَ وعدم قبولها ممَّا عُلم من شريعتنا صوابيتُه في قوله ﷺ: «إنَّ عيسى ينزل حَكَماً عَدْلاً يكسِرُ الصليبَ ويقتلُ الخنزيرَ ويضعُ الجزية»[1] فنزوله عليه السلام غايةٌ لإقرار الكفار ببذل الجزية على تلك الأحوال ثم لا يقبل إلا الإسلام، لا نسخٌ لها؛ قاله شيخ الإسلام إبراهيم اللقاني في «هداية المريد لجوهرة التوحيد»[2].

وقوله: إنه عليه السلام حين ينزل باقٍ على نبوَّته السابقة لم يُعزل عنها بحالٍ لكنه لا يتعبَّد بها.. إلخ، أحسنُ من قول الخفاجيِّ: الظاهر أنَّ المراد من كونه على دين نبيِّنا ﷺ انسلاخُه عن وصف النبوَّة والرسالة بأنْ يبلِّغَ ما يبلِّغه عن الوحي،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) ينظر هداية المريد ص ١٩١-١٩٢.

وإنما يحكُم بما يتلقَّى عن نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، ولذا لم يتقدَّم لإمامة الصلاة مع المهدي[١].

ولا أظنُّه عنَى بالانسلاخ عن وصف النبوَّة والرسالة عَزْلَه عن ذلك بحيث لا يصحُّ إطلاق الرسول والنبيِّ عليه عليه السلام، فمعَاذَ الله أن يُعزَلَ رسولٌ أو نبيٌّ عن الرسالة أو النبوَّة، بل أكاد لا أتعقَّل ذلك، ولعله أراد أنه لا يبقَى له وصفُ تبليغ الأحكام عن وحيٍ كما كان له قبل الرفع، فهو عليه السلام نبيٌّ رسولٌ قبل الرفع وفي السماء وبعدَ النزول وبعدَ الموت أيضاً، وبقاءُ النبوَّة والرسالة بعد الموت في حقِّه وحقِّ غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام حقيقةٌ مما ذهب إليه غيرُ واحدٍ، فإنَّ المتَّصِفَ بهما وكذا بالإيمان هو الروحُ، وهي باقيةٌ لا تتغيَّر بموت البدن، نعم ذهب الأشعريُّ كما قال النسفيُّ إلى أنهما بعد الموت باقيان حكماً.

وما أفاده كلامُ اللقانيِّ من أنه عليه السلام يحكم بما علِّم في السماء قبل نزوله من الشريعة قد أفاده السفاريني في «البحور الزاخرة»[٢]، وهو الذي أميلُ له، وأمَّا أنه يجتهد ناظراً في الكتاب والسنَّة فبعيدٌ وإن كان عليه السلام قد أوتي فوق ما أوتي مجتهدُ الأممِ ـ مما يتوقَّف عليه الاجتهاد ـ بكثير، إذ قد ذهب معظم أهل العلم إلى أنه حين ينزِل يصلِّي وراء المهديِّ ﷺ صلاةَ الفجر، وذلك الوقتُ يضيق عن استنباط ما تضمَّنته تلك الصلاةُ من الأقوال والأفعال من الكتاب والسنَّة على الوجه المعروف.

نعم لا يبعُدُ أن يكون عليه السلام قد علِّم في السماء بعضاً ووُكِلَ إلى الاجتهاد والأخذ من الكتاب والسنَّة في بعضٍ آخر.

وقيل: إنه عليه السلام يأخذ الأحكام من نبيِّنا ﷺ شفاهاً بعد نزوله وهو في قبره الشريف عليه الصلاة والسلام، وأيِّد بحديث أبي يعلى: «والذي نفسي بيده لينزلنَّ عيسى ابنُ مريم، ثم لئن قام على قبري وقال: يا محمد، لأُجيبنَّه»[٣].

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ١٧٦.

(٢) البحور الزاخرة في علوم الآخرة، لشمس الدين أبي العون محمد بن أحمد بن سالم، الفقيه الحنبلي المتوفَّى سنة (١١٨٨هـ). هدية العارفين ٢/ ٣٤٠.

(٣) مسند أبي يعلى (٦٥٨٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وجُوِّز أن يكون ذلك بالاجتماع معه عليه الصلاة والسلام روحانيةً، ولا بِدْعَ في ذلك فقد وقعت رؤيتُه ﷺ بعد وفاته لغيرِ واحدٍ من الكاملين من هذه الأمة والأَخْذِ منه يقظةً، قال الشيخ سراج الدين بن الملقِّن في «طبقات الأولياء»: قال الشيخ عبد القادر الكيلاني قدِّس سره: رأيتُ رسول الله ﷺ قبل الظُّهر فقال لي: يا بنيَّ لِمَ لا تتكلَّم؟ قلت: يا أبتاه أنا رجلٌ أعجم، كيف أتكلَّم على فُصَحاءِ بغداد؟ فقال: افتح فاك. ففتحتُه فتفل فيه سبعاً، وقال: تكلَّم على الناس وادْعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة. فصلَّيتُ الظهر وجلستُ وحضرني خَلْقٌ كثير فأُرْتِجَ عليَّ، فرأيتُ عليّاً كرم الله وجهه قائماً بإزائي في المجلس فقال لي: يا بني، لِمَ لا تتكلَّم؟ قلت: يا أبتاه قد أُرْتِجَ عليَّ. فقال: افتح فاك. ففتحتُه فتفل فيه ستّاً، فقلت: لم لا تكملُها سبعاً؟! قال: أدباً مع رسول الله ﷺ. ثم توارى عنِّي فقلت: غوَّاصُ الفِكْرِ يغوصُ في بحر القلب على دُرَرِ المعارف، فيستخرجها إلى ساحل الصدر، فينادي عليها سمسارُ ترجمان اللسان فتُشْتَرى بنفائس أثمان حُسْنِ الطاعة في بيوتٍ أَذِنَ الله أن تُرفَعَ(١).

وقال أيضاً في ترجمة الشيخ خليفة بن موسى النهرملكي: كان كثيرَ الرؤية لرسول الله عليه الصلاة والسلام يقظةً ومناماً، فكان يقال: إنَّ أكثر أفعاله يتلقَّاه منه ﷺ يقظةً ومناماً، ورآه في ليلةٍ واحدةٍ سبعَ عَشْرةَ مرةً قال له في إحداهنَّ: يا خليفة لا تَضْجَر منِّي فكثيرٌ من الأولياء مات بحسرة رؤيتي(٢).

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في «لطائف المنن»: قال رجل للشيخ أبي العباس المرسي: يا سيدي صافحني بكفِّك هذه فإنك لقيتَ رجالاً وبلاداً.

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع من طبقات الأولياء لابن الملقن، وقد ذكر هو فيه ص ٢٤٧ أنه سيفرد ترجمته بالتأليف، وأشار محققه في الحاشية إلى أن لعبد القادر الكيلاني ترجمة وافية في ذيول الطبقات، صنعها المؤلف وسماها: درر الجواهر في ذكر شيء من مناقب سيدي عبد القادر، فلعل القصة وردت فيها. وقد نقلها المصنف بواسطة السيوطي في رسالته المسماة تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك، وهي في كتاب الحاوي للفتاوي ٢/ ٤٤٣-٤٤٤.

(٢) تنوير الحلك من الحاوي ٢/ ٤٤٤، ولم نقف عليه في المطبوع من طبقات الأولياء لابن الملقن.

فقال: والله ما صافحتُ بكفِّي هذه إلا رسول الله ﷺ. قال: وقال الشيخ: لو حُجِبَ عنِّي رسول الله ﷺ طرفةَ عينٍ ما عَدَدْتُ نفسي من المسلمين[١].

ومثلُ هذه النقول كثيرٌ من كتب القوم جدّاً، وفي «تنوير الحلك» لجلال الدين السيوطيِّ الذي ردَّ به على منكري رؤيته ﷺ بعد وفاته في اليقظة طرفٌ معتدٌّ به من ذلك، وبدأ في الاستدلال على ذلك بما أخرجه البخاريُّ ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثَّلُ الشيطان بي»[٢]. وأخرج الطبرانيُّ مثلَه من حديث مالك بن عبد الله الخثعميِّ[٣]، ومن حديث أبي بكرة[٤]. وأخرج الدارميُّ مثلَه من حديث أبي قتادة[٥].

وللمنكرين اختلافٌ في تأويله؛ فقيل: المراد: فسيراني في القيامة، فهناك اليقظةُ الكاملةُ كما يشير إليه: «الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا»[٦]، وتعقِّب بأنه لا فائدة في هذا التخصيص، لأنَّ كلَّ أمته يرونه يوم القيامة، مَن رآه منهم في المنام ومَن لم يره.

وقيل: المراد الرؤيةُ على وجهٍ خاصٍّ من القُرْبِ والحظوة منه ﷺ يومَ القيامة، أو حصولُ الشفاعة له، أو نحوُ ذلك، ولا يَرِدُ عليه ما ذكر.

---

(١) المصدر السابق. وأبو العباس المرسي هو أحمد بن عمر الأندلسي الأنصاري نزيل الإسكندرية، المتوفى سنة (٦٨٦هـ)، صحب الشاذلي، وهو شيخ تاج الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله الإسكندراني المتوفى سنة (٧٠٩هـ). طبقات الأولياء لابن الملقن ص٤١٨ و٤٢١.

(٢) صحيح البخاري (٦٩٩٣)، وصحيح مسلم (٢٢٦٦): (١١)، وسنن أبي داود (٥٠٢٣)، والكلام في تنوير الحلك من الحاوي ٢/ ٤٣٧.

(٣) المعجم الكبير ٢٢/ (٦٦٠).

(٤) كذا نقل المصنف عن السيوطي في تنوير الحلك ٢/ ٤٣٧، والصواب: أبي جحيفة، كما في المعجم الكبير ٢٢/ (٢٧٩) و(٢٨٠).

(٥) سنن الدارمي (٢١٤٠)، ولفظه: «من رآني في المنام فقد رأى الحقَّ»، وهو بهذا اللفظ من حديث أبي قتادة في صحيح البخاري (٦٩٩٦)، وصحيح مسلم (٢٢٦٧).

(٦) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (مع الإحياء) ٤/ ٢٣: لم أجده مرفوعاً، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب. اهـ. وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٥٢ من قول سفيان الثوري.

وقيل: المراد بـ «مَن»: مَن آمن به في حياته ولم يره لكونه حينئذ غائباً عنه، فيكون الخبر مبشِّراً له بأنه لابدَّ أن يراه في اليقظة [قبل موته.

وقال قوم: هو على ظاهره، فمن رآه في النوم فلابد أن يراه في اليقظة][1] يعني: بعيني رأسه. وقيل: بعينِ قلبه، حكاهما القاضي أبو بكر بن العربي.

وقال الإمام أبو محمد بن أبي جمرة[2] في تعليقه على الأحاديث التي انتقاها من «صحيح» البخاري: هذا الحديث يدلُّ على أنَّ مَن يراه ﷺ في النوم فسيراه في اليقظة، وهل هذا على عمومه في حياته وبعد مماته عليه الصلاة والسلام، أو هذا كان في حياته؟ وهل ذلك لكلِّ مَن رآه مطلقاً أو خاصٌّ بمن فيه الأهليةُ والاتِّباع لسنَّته عليه الصلاة والسلام؟ اللفظُ يعطي العمومَ، ومَن يدَّعي الخصوصَ فيه بغير مخصِّصٍ منه ﷺ فمتعسِّفٌ. وأطال الكلام في ذلك.

ثم قال: وقد ذُكر عن السَّلف والخلَفِ وهلمَّ جرّاً ممن كانوا رأوه ﷺ في النوم، وكانوا ممن يُصدِّقون بهذا الحديث، فرأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متشوِّشين، فأخبرهم بتفريجها ونصَّ لهم على الوجوه التي منها يكون فَرَجُها، فجاء الأمر كذلك بلا زيادةٍ ولا نقصٍ[3]. انتهى المراد منه.

ثم إنَّ رؤيته ﷺ يقظةً عند القائلين بها أكثر ما تقع بالقلب ثم يترقَّى الحال إلى أن يُرى بالبصر، واختلفوا في حقيقة المرئيِّ، فقال بعضهم: المرئيُّ ذاتُ المصطفى ﷺ بجسمه وروحه.

---

(١) ما بين حاصرتين من تنوير الحلك ٢/٤٣٨.

(٢) عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي المالكي، من العلماء بالحديث، من كتبه: جمع النهاية، اختصر به صحيح البخاري، ويعرف بمختصر ابن أبي جمرة، وبهجة النفوس، في شرح جمع النهاية، توفي بمصر سنة (٦٩٥هـ). الأعلام ٤/٨٩.

(٣) تنوير الحلك ٢/٤٣٩، وكلام ابن أبي جمرة ذكره أيضاً ابن حجر في الفتح ١٢/٣٨٥ وتعقبه بقوله: وهذا مشكل جدّاً، ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة، ولأمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة، ويعكر عليه أن جمعاً جمّاً رأوه في المنام، ثم لم يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة، وقد اشتد إنكار القرطبي على مَن قال: من رآه في المنام فقد رأى حقيقته، ثم يراه بعد ذلك في اليقظة. اهـ. وينظر ما قاله أبو العباس القرطبي في التشنيع على قائل ذلك في المفهم ٦/ ٢٢-٢٣.

وأكثر أرباب الأحوال على أنه مثالُه، وبه صرَّح الغزالي فقال: ليس المراد أنه يرى جسمَه وبدنَه بل مثالاً له، صار ذلك المثال آلةً يتأدَّى بها المعنى الذي في نفسه، قال: والآلةُ تارةً تكون حقيقية[1] وتارةً تكون خياليةً، والنفسُ غيرُ المثال المتخيَّل، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ﷺ ولا شخصه، بل هو مثالٌ له على التحقيق.

وفصَّل القاضي أبو بكر بن العربي فقال: رؤيةُ النبيِّ ﷺ بصفته المعلومة إدراكٌ على الحقيقة، ورؤيتُه على غير صفته إدراكٌ للمثال.

واستحسنه الجلال السيوطيُّ[2]. وقال بعد نَقْلِ أحاديثَ وآثارٍ ما نصُّه: فحصل من مجموع هذا الكلام ـ النقولِ والأحاديثِ ـ أنَّ النبيَّ ﷺ حيٌّ بجسده وروحه، وأنه يتصرَّفُ ويسير حيث شاء في أقطار الأرض وفي الملكوت وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدَّل منه شيءٌ، وأنه مغيَّبٌ عن الأبصار كما غُيِّبت الملائكةُ مع كونهم أحياءً بأجسادهم، فإذا أراد الله تعالى رَفْعَ الحجاب عمَّن أراد إكرامه برؤيته، رآه على هيئته التي هو عليه الصلاة والسلام عليها، لا مانعَ من ذلك ولا داعي إلى التخصيص برؤية المثال[3]. اهـ.

وذهب رحمه الله تعالى إلى نحو هذا في سائر الأنبياء عليهم السلام، فقال: إنهم أحياءٌ ردَّت إليهم أرواحُهم بعد ما قُبضوا، وأُذن لهم في الخروج من قبورهم والتصرُّفِ في الملكوت العلويِّ والسفليِّ[4].

وهذا الذي ذكره من الخروج من القبور ذَكَر أخباراً كثيرةً تشهدُ له؛ منها ما أخرجه ابن حبان في «تاريخه»، والطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم في «الحلية» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبيٍّ يموتُ فيقيم في قبره إلَّا أربعين صباحاً»[5].

---

(١) الأصل و(م): حقيقة، والمثبت من تنوير الحلك ٢/ ٤٥٠.
(٢) في تنوير الحلك ٢/ ٤٥٠.
(٣) تنوير الحلك ٢/ ٤٥٣.
(٤) تنوير الحلك ٢/ ٤٥٠.
(٥) تنوير الحلك ٢/ ٤٥٢، وهو في المجروحين لابن حبان ١/ ٢٣٥، ومسند الشاميين للطبراني =

ومنها ما رواه عبد الرزاق في «مصنفه» عن الثوري، عن أبي المقدام، عن سعيد بن المسيب قال: ما مكث نبيٌّ في الأرض أكثر من أربعين يوماً. وأبو المقدام هو ثابت بن هرمز شيخٌ صالح[١].

ومنها ما ذكره إمام الحرمين في «النهاية» ثم الرافعيُّ في «الشرح» أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أنا أكرمُ على ربِّي من أن يتركني في قبري بعد ثلاث» زاد إمام الحرمين: وروي: «أكثر من يومين»[٢].

والذي يغلبُ على الظنِّ أنَّ رؤيته ﷺ بعد وفاته بالبصر ليست كالرؤية المتعارَفة عند الناس من رؤية بعضهم لبعضٍ، وإنما هي جمعيةٌ حاليةٌ، وحالةٌ برزخية، وأمرٌ وجدانيٌّ لا يدرِكُ حقيقتَه إلَّا مَن باشره. ولشدَّة شبه تلك الرؤية بالرؤية البصرية المتعارفة يشتَبِه الأمر على كثيرٍ من الرائين، فيظنُّ أنه رآه ﷺ ببصره الرؤيةَ المتعارفة، وليس كذلك.

وربما يقال: إنها رؤيةٌ قلبية، ولقوَّتها تشتبهُ بالبَصَرية، والمرئيُّ إما روحُه عليه الصلاة والسلام التي هي أكمل الأرواحِ تجرُّداً وتقدُّساً، بأن تكون قد تطوَّرت وظهرت بصورةٍ مرئيةٍ بتلك الرؤية مع بقاءِ تعلُّقها بجسده الشريف الحيِّ في القبر السامي المنيف، على حدِّ ما قاله بعضهم من أنَّ جبريل عليه السلام مع ظهوره بين يدي النبيِّ عليه الصلاة والسلام في صورة دحيةَ الكلبيِّ أو غيره لم يفارق سدرةَ المنتهى.

وإمَّا جسدٌ مثاليٌّ تعلَّقت به روحه ﷺ المجرَّدَةُ القدسية، ولا مانع من أن يتعدَّد الجسد المثاليُّ إلى ما لا يُحصى من الأجساد مع تعلُّق روحه القدسية عليه من الله

= (٣٤١) و(١٦١٤)، والحلية ٨/ ٣٣٣، ولم نقف عليه في المعجم الكبير. وهو حديث باطل كما سيرد قريباً.

(١) تنوير الحلك ٢/ ٤٥٢، والخبر في مصنف عبد الرزاق (٦٧٢٥). وقال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ١٢٦: وهذا ضعيف، وقد روى عبد الرزاق عقبه حديث أنس مرفوعاً: «مررت بموسى ليلة أسري بي وهو قائم يصلي في قبره» وأراد بذلك ردَّ ما روي عن ابن المسيب. اهـ. وحديث أنس في المصنف (٦٧٢٧)، وهو حديث صحيح كما سنذكر قريباً.

(٢) تنوير الحلك ٢/ ٤٥٢، وهو في الشرح الكبير ٢/ ٤٤٥. قال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير في تخريج أحاديث الشرح الكبير ١/ ٢٦٧: غريب جداً. اهـ، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ١٢٥: لم أجده هكذا.

تعالى ألفُ ألفِ صلاةٍ وتحيةٍ بكلِّ جسدٍ منها، ويكون هذا التعلُّق من قبيل تعلُّق الروح الواحدة بأجزاء بدنٍ واحدٍ، ولا تحتاج في إدراكاتها وإحساساتها في ذلك التعلُّق إلى ما تحتاج إليه من الآلات في تعلُّقها بالبدن في الشاهد.

وعلى ما ذكر يظهر وجهُ ما نقله الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور(١) والشيخ عبد الغفار(٢) عن الشيخ أبي العباس الطنجيِّ من أنه رأى السماء والأرضَ والعرشَ والكرسيَّ مملوءةً من رسول الله ﷺ.

وينحلُّ به السؤالُ عن كيفية رؤية المتعدِّدين له عليه الصلاة والسلام في زمانٍ واحدٍ في أقطارٍ متباعدة، ولا يُحتاج معه إلى ما أشار إليه بعضهم وقد سئل عن ذلك فأنشد:

كالشمس في كبد السماء وضوءُها يغشَى البلاد مشارقاً ومغاربا(٣)

وهذه الرؤية إنما تقع في الأغلب للكاملين الذين لم يُخِلُّوا باتِّباع الشريعة قَدْرَ شعيرة، ومتى قَوِيَتِ المناسبةُ بين رسول الله ﷺ وبين أحدٍ من الأمة قويَ أمرُ رؤيته إياه عليه الصلاة والسلام، وقد تقع لبعض صُلَحاءِ الأمة عند الاحتضار لقوَّة الجمعية حينئذٍ.

والرؤيةُ التي تكون يقظةً لمن رآه ﷺ في المنام: إن كانت في الدنيا فهي على نحو رؤية بعض الكاملين إياه ﷺ، وهي أكملُ من الرؤيا وإن كان المرئيُّ فيهما هو رسول الله عليه الصلاة والسلام، وآخِرُ مظانٍّ تحقُّقها وقت الموت، ولعل الأغلب في حقِّ العامَّة تحقُّقُها فيه.

---

(١) أبو عبد الله الحسين بن الوزير أبي الحسن علي بن أبي المنصور الخزرجي، الصوفي المالكي، نزيل مصر، صاحب كتاب الرسالة، توفي سنة (٦٨٢هـ). ينظر طبقات الأولياء ص٥٤٠، والبحر ١/ ١٤٣، وإيضاح المكنون ٢/ ٢٩٩، والكلام من كتابه الرسالة كما ذكر السيوطي في تنوير الحلك ٢/ ٢٤٤.

(٢) ابن عبد المجيد القوصي، صاحب كتاب الوحيد في سلوك أهل التوحيد، المشتمل على حكايات وأخبار مَن صحبه ورآه، وما بلغه عن الأقطاب والأوتاد، ألفه سنة (٧٠٨هـ). كشف الظنون ٢/ ٢٠٠٥. والكلام من كتابه الوحيد كما ذكر السيوطي في تنوير الحلك ٢/ ٢٤٤-٢٤٥.

(٣) تنوير الحلك ٢/ ٤٥٤.

وإن كانت في الآخرة فالأمرُ فيها واضحٌ، ويرجِّح عندي كونَها في الآخرة على وجهٍ خاصٍّ من القُرْبِ والحظوةِ وما شاكل ذلك أنَّ البشارة في الخبر عليه أبلغ.

ثم إنَّ الخبر المذكورَ فيما مرَّ مذكورٌ في «صحيح مسلم» بالسند إلى أبي هريرة أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن رآني في المنام فسيراني في اليقظة - أو لكأنما رآني في اليقظة - لا يتمثَّلُ الشيطان بي»[1]، فلا قَطْعَ على هذه الرواية بأنه عليه الصلاة والسلام قال: «فسيراني»، فإنْ كان الواقع في نفس الأمر ذلك فالكلامُ فيه ما سمعتَ، وإن كان الواقع: لكأنما رآني، فهو كقوله ﷺ في خبرٍ آخَر: «فقد رآني»[2]. وفي آخَرَ أيضاً: «فقد رأى الحقَّ»[3]، والمعنى أنَّ رؤياه صحيحةٌ.

وما تقدَّم من أنَّ الأنبياء عليهم السلام يخرجون من قبورهم، أي: بأجسامهم وأرواحهم كما هو الظاهرُ، ويتصرَّفون في الملكوت العلويِّ والسفليِّ، فمما لا أقول به، والخبر السابق الذي أخرجه ابن حبان والطبراني وأبو نعيم عن أنس، وهو قوله ﷺ: «ما من نبيٍّ يموتُ فيقيم في قبره إلا أربعين صباحاً» قد أخرجوه عن الحسن بن سفيان، عن هشام بن خالد الأزرق، عن الحسن بن يحيى الخشني، عن سعيد بن عبد العزيز، عن يزيد بن أبي مالك، عن أنس رضي الله عنه. وقال فيه ابن حبان: هو باطلٌ، والخشنيُّ منكر الحديث جدّاً يروي عن الثقات ما لا أصلَ له[4].

وفي «الميزان» عن الدارقطني: الخشنيُّ متروك[5]. من ثَمَّ حكم ابن الجوزي بوضع الحديث[6].

وهو مع ذلك بعضُ حديثٍ، والحديث بتمامه عند الطبراني: «ما من نبيٍّ يموت فيقيم في قبره إلا أربعين صباحاً حتى تردَّ إليه روحُه، ومررتُ ليلةَ أُسري بي بموسى

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٦٦): (١١).

(٢) أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم (٢٢٦٦): (١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٩٦)، ومسلم (٢٢٦٧) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٦٩٩٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) المجروحين ١/ ٢٣٥-٢٣٦، ونقله المصنف عنه بواسطة المناوي في فيض القدير ٥/ ٥٠١.

(٥) الميزان ٢/ ٥٢٥، وفيض القدير ٥/ ٥٠١، والكلام منه.

(٦) فيض القدير ٥/ ٥٠١، وهو في الموضوعات لابن الجوزي (٣٣٩) و(١٦٨١).

وهو قائمٌ يصلِّي في قبره»[١]، وهو على هذا لا يدلُّ على أنه بعد الأربعين لا يقيم في قبره بل يخرج منه، وإنما يدلُّ على أنه لا يبقى في القبر ميتاً كسائر الأموات أكثر من أربعين صباحاً، بل تردُّ إليه روحه ويكون حيّاً، وأين هذا من دعوى الخروج من القبر بعد الأربعين؟

والحياةُ في القبر لا تستلزمُ الخروجَ، وأنا أقول بها في حقِّ الأنبياء عليهم السلام، وقد ألَّف البيهقيُّ جزءاً في حياتهم في قبورهم، وأورد فيه عدَّةَ أخبار[٢]، ولا يضرُّني بعد ظهور أنَّ الحديث السابق لا يدلُّ على الخروج المنازعةُ في وَصْفِه وبلوغِه بما لَه من الشواهد درجةَ الحسن.

والأخبارُ المذكورة بعدُ فيما سبق المرادُ منها كلِّها إثباتُ الحياة في القبر بضربٍ من التأويل، والمراد بتلك الحياة نوعٌ من الحياة غيرُ معقول لنا، وهي فوق حياة الشهداء بكثير، وحياةُ نبيِّنا ﷺ أكملُ وأتمُّ من حياة سائرهم عليهم السلام، وخبرُ: «ما من مُسْلِمٍ يسلِّمُ عليَّ إلَّا ردَّ الله تعالى عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلام»[٣] محمولٌ على إثباتِ إقبالٍ خاصٍّ والتفاتٍ روحانيٍّ يحصل من الحضرة الشريفة النبوية إلى عالَم الدنيا، وتنزل إلى عالم البشرية حتى يحصل عند ذلك ردُّ السلام، وفيه توجيهاتٌ أُخَرُ مذكورةٌ في محلِّها.

ثم إنَّ تلك الحياة في القبر وإن كانت يترتَّبُ عليها بعضُ ما يترتَّبُ على الحياة في الدنيا المعروفة لنا من الصلاة والأذان والإقامة وردِّ السلام المسموع ونحوِ ذلك، إلا أنها لا يترتَّب عليها كلُّ ما يمكن أن يترتَّب على تلك الحياة المعروفة، ولا يحسُّ بها ولا يدركُها كلُّ أحدٍ، فلو فُرِضَ انكشافُ قبر نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام لا يَرى الناس النبيَّ فيه إلا كما يرون سائر الأموات الذين لم تأكل الأرضُ أجسادهم، وربما يكشفُ الله تعالى على بعض عباده فيرى ما لا يرى الناس.

---

(١) سلف تخريج الحديث عند الطبراني وغيره، وقوله: «ومررت ليلة أسري بي...» أخرجه مسلم (٢٣٧٥) من حديث أنس ﷺ أيضاً.

(٢) منها حديث أنس ﷺ: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون». وقال البيهقي ص ٧٧ من الجزء المذكور: ولحياة الأنبياء بعد موتهم شواهد من الأحاديث الصحيحة. اهـ. فذكر منها حديث رؤية النبي ﷺ لموسى عليه السلام وهو في قبره يصلي.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٨١٥)، وأبو داود (٢٠٤١) عن أبي هريرة ﷺ.

ولولا هذا لأشْكَلَ الجمعُ بين الأخبار الناطقة بحياتهم في قبورهم، وخبرِ أبي يعلى وغيرِه بسندٍ صحيح ـ كما قال الهيثميُّ ـ مرفوعاً أن موسى نقل يوسفَ من قبره بمصر(١).

ثم إنِّي أقول بعد هذا كلِّه: إنَّ ما نُسِبَ إلى بعض الكاملين من أرباب الأحوال من رؤية النبيِّ ﷺ بعد وفاته وسؤالِه والأخْذِ عنه لم نعلم وقوعَ مثله في الصدر الأول، وقد وقع اختلافٌ بين الصحابة ﵃ من حين توفِّي عليه الصلاة والسلام إلى ما شاء الله تعالى في مسائلَ دينيةٍ وأمورٍ دنيويةٍ وفيهم أبو بكر وعليٌّ ﵄، وإليهما ينتهي أغلبُ سلاسل الصوفية الذين تُنسب إليهم تلك الرؤيةُ، ولم يبلُغنا أنَّ أحداً منهم ادَّعى أنه رأى في اليقظة رسولَ الله ﷺ وأخَذَ عنه ما أخَذَ.

وكذا لم يبلُغنا أنه ﷺ ظهر لمتحيِّرٍ في أمرٍ من أولئك الصحابة الكرام فأرشده وأزال تحيُّره، وقد صحَّ عن عمر ﵁ أنه قال في بعض الأمور: ليتني كنتُ سألتُ رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه(٢). ولم يصحَّ عندنا أنه توسَّل إلى السؤال منه ﷺ بعد الوفاة نظير ما يُحكَى عن بعض أرباب الأحوال.

وقد وقفتَ على اختلافهم في حكم الجدِّ مع الإخوة، فهل وقفتَ على أنَّ أحداً منهم ظهر له الرسول ﷺ فأرشده إلى ما هو الحقُّ فيه؟ وقد بلغك ما عرا فاطمة البتول ﵂ من الحزن العظيم بعد وفاته ﷺ، وما جرى لها في أمر فَدَك، فهل بلغك أنه عليه الصلاة والسلام ظهر لها كما يظهر للصوفية فبلَّ لوعتَها وهوَّنَ حزنها وبيَّن الحال لها؟ وقد سمعتَ بذهاب عائشة ﵂ إلى البصرة وما كان من وقعة الجمل، فهل سمعتَ تعرُّضَه ﷺ لها قبل الذهاب، وصدَّه إياها عن ذلك لئلا يقعَ، أو تقومَ الحجةُ عليها على أكمل وجه؟ إلى غير ذلك مما لا يكاد يُحْصَى كثرةً.

والحاصل: أنه لم يبلغنا ظهوره عليه الصلاة والسلام لأحدٍ من أصحابه وأهلِ بيته وهم هم مع احتياجهم الشديدِ لذلك، وظهورُه عند باب مسجد قباء كما يحكيه بعضُ الشيعة افتراءٌ محضٌ وبهتٌ بحتٌ.

---

(١) مسند أبي يعلى (٧٢٥٤)، وكلام الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٧١.
(٢) ينظر الحديث (١٣٣) في مسند أبي يعلى، وفيه أن قائل ذلك هو عثمان ﵁.

وبالجملة عدمُ ظهوره لأولئك الكرام، وظهورُه لمن بعدهم، مما يحتاج إلى توجيهٍ يقنعُ به ذوو الأفهام.

ولا يَحْسنُ منِّي أن أقول: كلُّ ما يُحكى عن الصوفية من ذلك كذبٌ لا أصلَ له؛ لكثرة حاكيه وجلالةِ مدَّعيه. وكذا لا يحسنُ منِّي أن أقول: إنهم إنما رأوا النبيَّ ﷺ مناماً فظنُّوا ذلك لخفَّة النوم وقلَّة وقته يقظةً، فقالوا: رأينا يقظة؛ لِمَا فيه من البعد، ولعل في كلامهم ما يأباه.

وغاية ما أقول: إنَّ تلك الرؤية من خوارق العادة كسائر كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء عليهم السلام، وكانت الخوارقُ في الصَّدر الأول لقرب العهد بشمس الرسالة قليلةً جدّاً، وأنَّى يُرى النجم تحت الشعاع، أو يظهرَ كوكبٌ وقد انتشر ضوء الشمس في البقاع، فيمكن أن يكون قد وقع ذلك لبعضهم على سبيل الندرة ولم تقتضِ المصلحةُ إفشاءه، ويمكن أن يقال: إنه لم يقع لحكمةِ الابتلاء، أو لخوف الفتنة، أو لأنَّ في القوم مَن هو كالمرآة له ﷺ، أو ليَهْرَعَ الناسُ إلى كتاب الله تعالى وسنَّته ﷺ فيما يهمُّهم، فيتَّسع بابُ الاجتهاد وتنتشر الشريعةُ وتَعْظُم الحجَّةُ التي يمكن أن يعقلها كلُّ أحدٍ، أو لنحو ذلك.

وربما يدَّعى أنه عليه الصلاة والسلام ظهر ولكن كان متستِّراً في ظهوره، كما روي أنَّ بعض الصحابة أحبَّ أن يرى رسول الله ﷺ، فجاء إلى ميمونة، فأخرجت له مرآته فنظر فيها فرأى صورة رسول الله عليه الصلاة والسلام ولم يَرَ صورةَ نفسه(١).

فهذا كالظهور الذي يدَّعيه الصوفيةُ إلا أنه بحجاب المرآة، وليس من باب التخيُّل الذي قَوِيَ بالنظر إلى مرآته عليه الصلاة والسلام، وملاحظةِ أنه كثيراً ما ظهرت فيها صورتُه، حسبما ظنَّه ابنُ خلدون(٢).

فإنْ قُبل قولي هذا وتوجيهي لذلك الأمر فبها ونِعْمَتْ، وإلا فالأمرُ مُشْكِلٌ فاطْلُبْ لك ما يحلُّه، والله سبحانه الموفِّق للصواب.

---

(١) ذكره أبو محمد بن أبي جمرة كما في فتح الباري ١٢/ ٣٨٥، وتنوير الحلك ٢/ ٤٣٨.
(٢) ينظر مقدمة ابن خلدون ١/ ١٤٨-١٤٩.

هذا وقيل: يجوز أن يكون عيسى عليه السلام قد تلقَّى من نبيِّنا عليه الصلاة والسلام أحكامَ شريعته المخالفة لِمَا كان عليه هو من الشريعة حالَ اجتماعه معه قبل وفاته في الأرض؛ لعِلْمِه أنه سينزلُ ويحتاجُ إلى ذلك.

واجتماعُه معه كذلك جاء في الأخبار؛ أخرج ابنُ عديٍّ عن أنس: بينا نحن مع رسول الله ﷺ إذ رأينا برداً ويداً، فقلنا: يا رسول الله، ما هذا البرد الذي رأينا واليد؟ قال: «قد رأيتموه»؟ قالوا: نعم. قال: «ذلك عيسى ابنُ مريم سلَّم عليَّ»[(١)].

وفي روايةِ ابن عساكر عنه: كنتُ أطوف مع النبيِّ ﷺ حولَ الكعبة إذ رأيتُه صافح شيئاً ولم أرَهُ، قلنا: يا رسول الله، صافحتَ شيئاً ولا نراه؟ قال: «ذلك أخي عيسى ابنُ مريم، انتظرتُه حتى قضى طوافه فسلَّمتُ عليه»[(٢)]. ومن هنا عُدَّ عليه السلام من الصحابة رضي الله عنهم.

وقيل: إنه عليه السلام بعد نزوله يتلقَّى أحكامَ شريعتنا من المَلَكِ بأنْ يعلِّمه إياها أو يُوْقِفَه عليها، لا على وجه الإيحاء بها عليه من جهته عز وجل وبعثَتِه بها ليكون في ذلك رسالةٌ جديدةٌ متضمِّنةٌ نبوَّةً جديدة، وقد دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ على انقطاعها، بل على نحوِ تعليم الشيخ ما عُلِّمَه من الشريعة تلميذَه، ومجرَّدُ الاجتماع بالملك والأخذِ عنه وتكليمِه لا يستدعي النبوَّةَ، ومَن توهَّم استدعاءه إياها فقد حاد ـ كما قال اللقانيُّ ـ عن الصواب، فقد كلَّمت الملائكةُ عليهم السلام مريمَ، وأمَّ موسى في قولٍ، ورجلاً خرج لزيارة أخٍ له في الله تعالى، وبلَّغته أنَّ الله عز وجل يحبُّه كحبِّه لأخيه فيه[(٣)].

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «الذكر» عن أنس قال: قال أبيّ بنُ كعب: لأدخلنَّ المسجد فلأصلِّينَّ ولأَحْمدنَّ الله تعالى بمحامدَ لم يحمدْه بها أحدٌ، فلمَّا

---

(١) الكامل لابن عدي ٥/ ١٦٨١ و٧/ ٢٥٧٨. قال ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٣١: ليس بصحيح، فيه هلال بن زيد أبو عقال. اهـ. وهلال بن زيد قال عنه أبو حاتم والنسائي: منكر الحديث. وقال البخاري: في حديثه مناكير. وقال ابن حبان: روى عن أنس أشياء موضوعة. الميزان ٤/ ٣١٣.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٤٧/ ٤٨٥. وهو أيضاً من طريق أبي عقال عن أنس، وقد سلف الكلام على أبي عقال، وفي إسناده أيضاً جابر الجعفي، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٣) ينظر ما سلف ٤/ ١٨٠.

صلَّى وجلس ليحمد الله تعالى ويثنيَ عليه، إذا هو بصوتٍ عالٍ من تخلفٍ يقول: اللهم لك الحمدُ كلُّه، ولك الملكُ كلُّه، وبيدك الخيرُ كلُّه، وإليك يرجعُ الأمرُ كلُّه علانيتُه وسرُّه، لك الحمدُ إنك على كلِّ شيءٍ قدير، اغفر لي ما مضى من ذنوبي، واعْصِمْني فيما بقي من عمري، وارزُقني أعمالاً زاكيةً ترضى بها عنِّي، وتُب عليَّ. فأتى رسولَ الله ﷺ فقصَّ عليه فقال: «ذاك جبريل عليه السلام»(١). والأخبارُ طافحةٌ برؤية الصحابة للمَلَك وسماعِهم كلامَه.

وكفى دليلاً لِمَا نحن فيه قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ الآية [فصلت: ٣٠] فإنَّ فيها نزولَ الملك على غير الأنبياء في الدنيا، وتكليمَه إياه، ولم يقل أحدٌ من الناس: إنَّ ذلك يستدعي النبوَّةَ، وكونُ ذلك لأنَّ النزول والتكليمَ قبيل الموت غيرُ مفيد كما لا يخفى.

وقد ذهب الصوفية إلى نحو ما ذكرناه؛ قال حجَّة الإسلام الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» أثناء الكلام على مدح أولئك السادة: ثم إنهم وهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواحَ الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائدَ، ثم يترقَّى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجاتٍ يضيق عنها نطاقُ النطق(٢).

وقال تلميذه القاضي أبو بكر بن العربي أحدُ أئمة المالكية في كتابه «قانون التأويل»(٣): ذهبت الصوفيةُ إلى أنه إذا حصل للإنسان طهارةُ النفس، وتزكيةُ القلب، وقَطْعُ العلائق، وحَسْمُ موادِّ أسباب الدنيا من الجاه والمال والخلطة بالجنس، والإقبالُ على الله تعالى بالكلِّية عِلْماً دائماً وعملاً مستمرّاً، كُشفت له القلوب، ورأى الملائكة وسمع كلامهم، واطَّلع على أرواح الأنبياء والملائكة [وسمع كلامهم. ثم قال ابن العربي من عنده: ورؤية الأنبياء والملائكة] وسماعُ كلامهم ممكنٌ للمؤمن كرامةً وللكافر عقوبةً. اهـ.

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٤٢٨، وقال: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الذكر ولم يذكر تابعيَّه.

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٤٥، ونقله المصنف بواسطة السيوطي في تنوير الحلك ٢/ ٤٤١.

(٣) كما في تنوير الحلك ٢/ ٤٤١-٤٤٢، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

ونُسب إلى بعض أئمة أهل البيت أنه قال: إنَّ الملائكة لتزاحِمُنا في بيوتنا بالرُّكَب.

والظاهر من كلامهم أنَّ الاجتماع بهم والأخْذَ عنهم لا يكون إلا للكاملين ذوي النفوس القُدسية، وأنَّ الإخلال بالسنَّة مانعٌ كبيرٌ عن ذلك، ويرشد إليه ما أخرجه مسلم في «صحيحه» عن مُطَرِّف قال: قال لي عمران بن حصين: قد كان مَلَكٌ يسلِّم عليَّ حتى اكتويتُ فترك، ثم تركتُ الكيَّ فعاد(١). ويعلم مما ذكرنا أنَّ مدَّعِيَه إذا كان مخالفاً لحكم الكتاب والسنَّة كاذبٌ لا ينبغي أن يُصْغَى إليه، ودعواه باطلةٌ مردودةٌ عليه، فأين الظُّلمة من النور، والنَّجَس من الطهور؟

ثم إنه لا طريق إلى معرفة كون المجتَمَع به مَلَكاً بعد خبر الصادق سوى العلمِ الضروري الذي يخلقه الله تعالى في العبد بذلك، ويقطع بعدم كونه ملكاً متى خالف ما ألقاه وأتى به الكتابُ أو السنَّةُ أو إجماعُ الأمة.

ومثلُه فيما أرى التكلُّمُ بما يشبه الهذيان ويضحكُ منه الصبيان، وينبغي لمن وقع له ذلك أنْ لا يُشِيعَه ويعلنَ به لما فيه من التعرُّضِ للفتنة، فقد أخرج مسلم عن مطرِّفٍ أيضاً من وجهٍ آخر قال: بعث إليَّ عمران بن حصين في مرضه الذي توفِّي فيه فقال: إنِّي محدِّثُك فإنْ عشتُ فاكتم عنِّي، وإن متُّ فحدِّث بها إن شئت، إنه قد سُلِّم عليَّ(٢).

وفي رواية الحاكم في «المستدرك»: اعلم يا مطرِّف أنه كان يسلِّم عليَّ الملائكةُ عند رأسي وعند البيت وعند باب الحجرة، فلمَّا اكتويتُ ذهب ذلك. قال: فلمَّا بَرِئَ كلَّمه، قال: اعلم يا مطرِّف أنه عاد إليَّ الذي كنتُ، اكتَم عليَّ حتى أموت(٣).

---

(١) صحيح مسلم (١٢٢٦): (١٦٧) بلفظ: وقد كان يُسَلَّم عليَّ حتى اكتَوَيْتُ، فتُرِكتُ، ثم تركت الكي فعاد.
قال النووي في شرح صحيح مسلم ٨/ ٢٠٦: معنى الحديث أن عمران ﷺ كانت به بواسير فكان يصبر على ألمها، وكانت الملائكة تسلم عليه، فاكتوى فانقطع سلامهم عليه، ثم ترك الكي فعاد سلامهم عليه.

(٢) صحيح مسلم (١٢٢٦): (١٦٨).

(٣) المستدرك ٣/ ٤٧٢.

وكذا ينبغي أن لا يقول لإلقاء الملك عليه: إيحاءٌ، لما فيه من الإيهام القبيح، وهو إيهامُ وحي النبوَّة الذي يكفَّر مدَّعيه بعد رسول الله ﷺ بلا خلافٍ بين المسلمين. وأطلق بعض الغلاة من الشيعة القولَ بالإيحاء إلى الأئمة الأطهار، وهم ﷺ بمعزلٍ عن قبول قول أولئك الأشرار.

فقد روي أن سديراً الصَّيْرفيَّ[1] سأل جعفراً الصادق رضي الله عنه فقال: جُعِلْتُ فداك، إنَّ شيعتكم اختلفتْ فيكم فأكثرت، حتى قال بعضهم: إنَّ الإمام يُنكت في أذنه، وقال آخرون: يوحَى إليه، وقال آخرون: يُقذف في قلبه، وقال آخرون: يَرى في منامه، وقال آخرون: إنما يفتي بكتب آبائه، فبأيِّ جوابهم آخُذُ، يجعلني الله تعالى فداك؟ قال: لا تأخذ بشيءٍ مما يقولون، يا سدير نحن حججُ الله تعالى وأُمَناؤه على خَلْقِه، حلالنا من كتاب الله تعالى وحرامُنا منه. حكاه محمد بن عبد الكريم الشهرستانيُّ في أول تفسيره «مفاتيح الأسرار».

وقد ظهر في هذا العصر[2] عصابةٌ من غلاة الشيعة لقَّبوا أنفسهم بالبابية لهم في هذا الباب فصولٌ يَحكم بكفر معتقِدِها كلُّ مَن انتظم في سلك ذوي العقول، وقد كاد يتمكَّن عرقهم في العراق لولا همَّةُ واليه النجيب الذي وقع على همَّته وديانته الاتفاق، حيث خذلهم نَصَره الله تعالى وشتَّت شملهم، وغضب عليهم رضي الله عنه وأفسد عملهم، فجزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً، ودفع عنه في الدارين ضيماً وضيراً.

وادَّعى بعضُهم الوحيَ إلى عيسى عليه السلام بعد نزوله، وقد سئل عن ذلك ابن حجر الهيتميُّ فقال: نعم يُوْحَى إليه عليه السلام وحيٌ حقيقيٌّ كما في حديث مسلم وغيره عن النوَّاس بن سمعان، وفي رواية صحيحة: «فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى: يا عيسى إنِّي أخرجتُ عباداً لي لا يَدَ لأحدٍ بقتالهم، فحوِّل عبادي إلى الطور»[3] وذلك الوحي على لسان جبريل عليه السلام؛ إذ هو السفير بين الله تعالى وأنبيائه لا يُعرف ذلك لغيره، وخبر: لا وَحْيَ بعدي، باطلٌ.

---

(١) هو سدير بن حكيم بن صهيب، أبو الفضل الصيرفي الكوفي، من رؤساء الشيعة بالكوفة، روى عنه سفيان الثوري، وابنه حنان بن سدير. الجرح والتعديل ٤/ ٣٢٣، واللسان ٣/ ٩.

(٢) جاء في حاشية (م): سنة (١٢٦١). اهـ منه.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٣٧) وفيه: «... لا يدان لأحد بقتالهم فحَرِّز عبادي...».

وما اشتهر أن جبريل عليه السلام لا ينزل إلى الأرض بعد موت النبيِّ ﷺ فهو لا أصل له، ويردُّه خبر الطبرانيِّ: «ما أحبُّ أن يرقد الجنُبُ حتى يتوضَّأ، فإنِّي أخاف أنْ يُتوفَّى وما يحضره جبريل عليه السلام»(١) فإنه يدل على أنَّ جبريل ينزل إلى الأرض ويحضر موتَ كلِّ مؤمنٍ توفَّاه الله تعالى وهو على طهارة(٢). اهـ، ولعل مَن نَفَى الوحي عنه عليه السلام بعد نزوله أراد وحي التشريع، وما ذكر وحيٌ لا تشريعَ فيه، فتأمل.

وكونُه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب وصَدَعتْ به السنَّةُ وأجمعت عليه الأمة، فيكفَّر مدَّعي خلافه، ويُقتل إن أصرَّ.

ومن السنَّة ما أخرج أحمد والبخاريُّ ومسلم والنسائيُّ وابن مردويه عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء من قبلي كمثل رجلٍ بنى داراً بناءً، فأَحْسَنَه وأجمله إلا موضعَ لَبِنةٍ من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون به ويتعجَّبون له ويقولون: هلَّا وُضِعَتْ هذه اللبنةُ، فأنا اللَّبِنةُ وأنا خاتمُ النبيين»(٣)، وصحَّ عن جابر مرفوعاً نحوُ هذا(٤)، وكذا عن أبيّ بن كعب وأبي سعيد الخدري ﵄.

وللشيخ محيي الدين بن عربي قدِّس سرُّه كلامٌ في حديث اللبنة قد انتقده عليه جماعةٌ من الأجلَّة(٥)، فعليك بالتمسُّك بالكتاب والسنَّة، واللهُ تعالى الحافظُ من الوقوع في المحنة.

ونصب «رسول» على إضمارِ «كان» لدلالةِ «كان» المتقدِّمة عليه، والواوُ عاطفةٌ للجملة الاستدراكية على ما قبلها، وكونُ «لكنْ» المخفَّفةِ عند الجمهور للعطف إنما هو عند عدم الواو وكونِ ما بعدها مفرداً، وجوِّز أن يكون النصب بالعطف على «أبا أحد».

---

(١) المعجم الكبير ٢٥/(٦٥)، وهو من حديث ميمونة بنت سعد ﵂.
(٢) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ١٨١.
(٣) مسند أحمد (٩١٦٧)، وصحيح البخاري (٣٥٣٥)، وصحيح مسلم (٢٢٨٦): (٢٢)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٥٨) وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٢٠٤.
(٤) مسند أحمد (١٤٨٨٨)، وصحيح البخاري (٣٥٣٤)، وصحيح مسلم (٢٢٨٧).
(٥) ينظر الفتوحات المكية ١/ ٣١٨.

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «لكنَّ» بالتشديد[1]، فنصب «رسول» على أنه اسم «لكن»، والخبر محذوفٌ تقديره: ولكنَّ رسولَ الله وخاتم النبيين هو، أي: محمدٌ ﷺ. وقال الزمخشريُّ: تقديره: ولكنَّ رسول الله مَن عرفتُموه، أي: لم يَعِشْ له ولدٌ ذَكَر[2].

وحَذْفُ خبر «لكنَّ» وأخواتِها جائز إذا دلَّ عليه الدليل، ومما جاء في «لكنَّ» قولُ الشاعر:

فلو كنتَ ضبِّيًّا عرفتَ قرابتي ... ولكنَّ زنجيّاً عظيمَ المشافرِ[3]

أي: ولكنَّ زنجياً عظيمَ المشافر أنت، وفيه بحثٌ لا يَخْفَى على ذي معرفة.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما وابنُ أبي عبلة بتخفيف «لكنْ» ورَفْعِ «رسول» و«خاتم»[4]، أي: ولكنْ هو رسولُ الله.. إلخ، كما قال الشاعر:

ولستُ الشاعرَ السَّفْسافَ فيهم ... ولكنْ مِدْرَهُ الحرب العَوَانِ[5]

أي: ولكنْ أنا مدرهُ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ أعم من أن يكون موجوداً أو معدوماً ﴿عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ فيعلم سبحانه الأحكام والحِكَمَ التي بيِّنت فيما سبق، والحكمةَ في كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بما هو جلَّ وعلا أهلُه من التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس ﴿ذِكۡرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ يعمُّ أغلب الأوقات والأحوال كما قال غير واحد.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٠، والبحر ٧/ ٢٣٦.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٦٤.

(٣) نُسب للفرزدق، وسلف ١٣/ ٤٧١، وهو في البحر ٧/ ٢٣٦، والدر المصون ٩/ ١٢٨، وقال السمين: وهذا البيت يروونه أيضاً: ولكنَّ زنجيٌّ، بالرفع شاهداً على حذف اسمها، أي: ولكنك زنجيٌّ.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٠، والبحر ٧/ ٢٣٦.

(٥) البحر ٧/ ٢٣٦، والدر المصون ٦/ ٢٠٣ و٩/ ١٢٨. المدره: المقدَّم عند القتال. والسفساف: الرديء والحقير. القاموس (دره) و(سفف).

وعن ابن عباس: الذكر الكثير أنْ لا يُنْسَى جل شأنه. وروي ذلك عن مجاهد أيضاً.

وقيل: أن يُذكر سبحانه بصفاته العُلَى وأسمائه الحسنى، وينزَّهَ عما لا يليق به.

وعن مقاتل: هو أن يقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر على كلِّ حال. وعن العترة الطاهرة ﷺ: مَن قال ذلك ثلاثين مرةً فقد ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً.

وفي «مجمع البيان» عن الواحدي بسنده إلى الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد، قل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم عَدَدَ ما علم وزِنةَ ما علم ومِلْءَ ما علم، فإنه مَنْ قالها كتب له بها ستُّ خصالٍ: كُتب من الذاكرين الله تعالى كثيراً، وكان أفضلَ مَن ذكره بالليل والنهار، وكنَّ له غرساً في الجنة، وتحاتَّتْ عنه خطاياه كما تَحَاتُّ ورقُ الشجرة اليابسة، وينظر الله تعالى إليه، ومَن نظر الله تعالى إليه لم يعذِّبه[1]. كذا رأيته في مدوَّنه فلا تغفل.

وقال بعضهم: مرجعُ الكثرة العُرْفُ.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ ونزِّهوه سبحانه عمَّا لا يليقُ به ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ أي: أولَ النهار وآخره. وتخصيصُهما بالذكر ليس لقَصْرِ التسبيح عليهما دون سائر الأوقات، بل لإنافة فضلهما على سائر الأوقات؛ لكونهما تحضُرهما ملائكةُ الليل والنهار وتلتقي فيهما، كإفراد التسبيح من بين الأذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة بينها.

وقيل: كِلَا الأمرين متوجِّهٌ إليهما، كقولك: صُمْ وصلِّ يومَ الجمعة. وبتفسير الذكر الكثير بما يعمُّ أغلب الأوقات لا تبقى حاجة إلى تعلُّقهما بالأول.

وعن ابن عباس أنَّ المراد بالتسبيح الصلاة، أي: بإطلاق الجزء على الكلِّ، والتسبيحُ بكرةً صلاةُ الفجر، والتسبيحُ أصيلاً صلاةُ العشاء. وعن قتادة نحوُ ما روي عن ابن عباس، إلَّا أنه قال: أشار بهذين الوقتين إلى صلاة الغداة وصلاة العصر. وهو أظهرُ ممَّا روي عن الحبر.

---

(١) مجمع البيان ٢٢/ ١٥٠، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

وتعقَّب ما روي عنهما بأنَّ فيه تجوُّزاً من غير ضرورةٍ. وقد يقال: إنَّ التسبيح على حقيقته، لكن التسبيح بكرةً بالصلاة فيها، والتسبيح أصيلاً بالصلاة فيه، فتأمل.

وجُوِّز أن يكون المراد بالذكر المأمور به تكثيرَ الطاعات والإقبالَ عليها، فإنَّ كلَّ طاعةٍ من جملة الذكر، ثم خصَّ من ذلك التسبيح بكرةً وأصيلاً، أي: الصلاة في جميع أوقاتها، أو صلاة الفجر والعصر، أو الفجر والعشاء، لفضل الصلاة على غيرها من الطاعات البدنية. ولا يخفى بعدُه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ إلخ استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله من الأمرين ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ عطفٌ على الضمير في «يصلِّي» لمكانِ الفصل المغني عن التأكيد بالمنفصل، لا على «هو».

والصلاةُ في المشهور ـ وروي ذلك عن ابن عباس ـ من الله تعالى رحمةٌ، ومن الملائكة استغفارٌ، ومن مؤمني الإنس والجنِّ دعاءٌ. ويَجُوز على رأي مَن يجوِّز استعمال اللفظ في معنيين أن يراد بالصلاة هنا المعنيان الأوَّلان، فيراد بها أولاً الرحمة، وثانياً الاستغفار.

ومَن لا يجوِّز كأصحابنا يقول بعموم المجازِ، بأنْ يراد بالصلاة معنًى مجازيٌّ عامٌّ يكون كِلَا المعنيين فرداً حقيقيًّا له، وهو إمَّا الاعتناء بما فيه خيرُ المخاطبين وصلاحُ أمرهم، فإنَّ كلًّا من الرحمة والاستغفار فردٌ حقيقيٌّ له، وهذا المجاز من الصلاة بمعنى الدعاء، وهو إما استعارةٌ لأنَّ الاعتناء يشبه الدعاء لمقارنةِ كلٍّ منهما لإرادةِ الخير والأمرِ المحبوب، أو مجازٌ مرسلٌ لأنَّ الدعاء مسبَّبٌ عن الاعتناء. وإما الترحُّمُ والانعطاف المعنويُّ المأخوذ من الصلاة المعروفة المشتملة على الانعطاف الصوريِّ الذي هو الركوعُ والسجود، ولا ريبَ في أنَّ استغفار الملائكة عليهم السلام ودعاءهم للمؤمنين ترحُّمٌ عليهم، وأمَّا أنَّ ذلك سببٌ للرحمة لكونهم مجابي الدعوة كما قيل ففيه بحثٌ، ورجِّح جَعْلُ المعنى العامِّ ما ذكر بأنه أقرب لِمَا بعدُ، فإنه نصَّ عليه فيه بقوله تعالى: (وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) فدلَّ على أن المراد بالصلاة الرحمة.

واعتُرض بأنَّ «رَحِمَ» متعدٍّ، و«صلَّى» قاصرٌ، فلا يحسنُ تفسيره به، وبأنه يستلزمُ جوازَ: رَحِمَ عليه، وبأنه تعالى غاير بينهما بقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧] للعطف الظاهر في المغايرة.

وأجيبَ بأنه ليس المراد بتفسير «صلَّى» بـ «رحم» إلا بيانَ أنَّ المعنى الموضوعَ له «صلَّى» هو الموضوعُ له «رَحِمَ» مع قَطْع النظر عن معنى التعدِّي واللزوم، فإنَّ الرديفين قد يختلفان في ذلك وهو غيرُ ضارٍّ، فزَعْمُ أنَّ ذلك لا يحسُنُ، وأنه يلزم جوازُ: رَحِمَ عليه، ليس في محلِّه. على أنه يحسُنُ تعديةُ «صلَّى» بـ «على» دون «رَحِمَ» لِمَا في الأول من ظهور معنى التحنُّن والتعطُّف. والعطفُ لأنَّ الصلاة رحمةٌ خاصةٌ، ويكفي هذا القَدْرُ من المغايرة.

وقيل: إنَّ تعدُّد الفاعل صيَّر الفعل كالمتعدِّد، فكأنَّ الرحمة مرادةٌ من لفظٍ، والاستغفارَ مرادٌ من آخر، فلا حاجة إلى القول بعموم المجاز، وليس هناك استعمالُ لفظٍ واحدٍ حقيقةً وحكماً في معنيين. وهو كما ترى.

ومثلُه كونُ «ملائكته» مبتدأً خبرُه محذوفٌ لدلالة ما قبلُ عليه، كأنه قيل: هو الذي يصلِّي عليكم وملائكتُه يصلُّون عليكم، فهناك لفظان حقيقةً، كلٌّ منهما بمعنًى. وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يزيدك علماً بأمر الصلاة.

وسبب نزول الآية ما أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر [عن مجاهد] قال: لمَّا نزلت: (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ) قال أبو بكر رضي الله عنه: ما أنزل الله تعالى عليك خيراً إلا أشْرَكَنا فيه. فنزلت: (هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ)(١).

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة.

وقال الطبرسي: من الجهل بالله تعالى إلى معرفته عز وجل(٢)، فإنَّ الجهل أشبهُ شيءٍ بالظلمة، والمعرفةَ أشبه شيء بالنور.

وقال ابن زيد: أي: من الضلالة إلى الهدى.

وقال مقاتل: من الكفر إلى الإيمان.

---

(١) الدر المنثور ٥/٢٠٦، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) مجمع البيان ٢٢/١٥٠.

وقيل: من النار إلى الجنة؛ حكاه الماوردي[(١)].

وقيل: من القبور إلى البعث؛ حكاه أبو حيان[(٢)]، وليس بشيء.

واللام متعلِّقةٌ بـ «يصلِّي»، أي: يعتني بكم هو سبحانه وملائكتُه ليخرجكم، أو يترحَّمُ هو عز وجل وملائكتُه ليخرجكم بذلك من الظلمات إلى النور.

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، أي: كان سبحانه بكافَّةِ المؤمنين الذين أنتم من زمرتهم كاملَ الرحمة، ولذا يَفْعَلُ بكم ما يَفْعَلُ بالذات وبالواسطة، أو: كان بكم رحيماً، على أنَّ المؤمنين مُظْهَرٌ وُضِعَ موضع المضْمَرِ مدحاً لهم وإشعاراً بعلَّةِ الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ بيانٌ للأحكام الآجلة لرحمته تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة من الإخراج المذكور. والتحيةُ أن يقال: حيَّاك الله، أي: جعل لك حياةً، وذلك إخبارٌ، ثم يُجعل دعاءً، ويقال: حيَّا فلانٌ فلاناً تحيةً: إذا قال له ذلك. وأصلُ هذا اللفظ من الحياة، ثم جُعل كلُّ دعاءٍ تحيةً لكون جميعِه غيرَ خارجٍ عن حصول الحياة، أو سَبَبَ حياةٍ إما لدنيا أو لآخرة.

وهو هنا مصدر مضافٌ إلى المفعول وقع مبتدأ، و«سلام» مراداً به لفظه خبره، والمراد: ما يحييهم الله تعالى به ويقوله لهم يومَ يلقونه سبحانه ويدخلون دار كرامته: «سلامٌ»، أي: هذا اللفظ.

روي أن الله تعالى يقول: سلامٌ عليكم عبادي، أنا عنكم راضٍ فهل أنتم عنِّي راضون. فيقولون بأجمعهم: يا ربَّنا إنَّا راضون كلَّ الرضا.

وورد أنَّ الله تعالى يقول: السلام عليكم مرحباً بعبادي المؤمنين الذين أَرْضَوْني في دار الدنيا باتِّباع أمري[(٣)].

وقيل: تحييهم الملائكة عليهم السلام بذلك إذا دخلوا الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٤١٠.

(٢) في البحر ٧/ ٢٣٧، وعنه نقل المصنف ما سلف من أقوال.

(٣) ذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٢٣٧ وعزاه للرقاشي.

وقيل: تحييهم عند الخروج من القبور، فيسلِّمون عليهم ويبشِّرونهم بالجنة.

وقيل: عند الموت؛ وروي عن ابن مسعود أنه قال: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال: ربُّك يُقْرِئُك السلام[١]. قيل: فعلى هذا الهاءُ في «يلقونه» كنايةٌ عن غيرِ مذكورٍ وهو ملكُ الموت. ولا ضرورةَ تدعو لذلك؛ إذ لا مانع من أن يكون الضمير لله تعالى عليه كما هو كذلك على الأقوال الأُخر جميعِها.

ولقاء الله تعالى على ما أشار إليه الإمامُ[٢] عبارةٌ عن الإقبال عليه تعالى بالكلِّية بحيث لا يَعْرِضُ للشخص ما يشغلُه ويُلهيه، أو يوجبُ غفلتَه عنه عز وجل، ويكون ذلك عند دخول الجنة، وفيها، وعند البعث، وعند الموت.

وقال الراغب: ملاقاةُ الله تعالى عبارةٌ عن القيامة وعن المصير إليه عز وجل[٣].

وقال الطبرسي: هي ملاقاة ثوابه تعالى[٤]. وهو غيرُ ظاهرٍ على جميع الأقوال السابقة، بل ظاهرٌ على بعضها كما لا يخفى.

وعن قتادة في الآية: أنهم يومَ دخولهم الجنة يحيِّي بعضهم بعضاً بالسلام، أي: سَلِمْنا وسَلِمْتَ من كلِّ مخوفٍ. والتحية عليه ـ على ما قال الخفاجي ـ مصدرٌ مضافٌ للفاعل[٥]. وفي «البحر»: هي عليه مصدرٌ مضاف للمحيِّي والمحيَّى لا على جهة العمل؛ لأنَّ الضمير الواحد لا يكون فاعلاً مفعولاً، ولكنه كقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] أي: للحكم الذي جرى بينهم، وكذا يقال هنا: التحية الجاريةُ بينهم هي سلام[٦].

وقول المحيِّي في ذلك اليوم: سلام، إخبارٌ لا دعاءٌ لأنه أبلغُ على ما قيل، فتدبر.

---

(١) أخرجه المروزي في الجنائز وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٠٦.
(٢) في تفسيره ٢٥/ ٢١٥.
(٣) مفردات الراغب (لقى).
(٤) مجمع البيان ٢٢/ ١٥١.
(٥) حاشية الشهاب ٧/ ١٧٧.
(٦) البحر ٧/ ٢٣٨.

وأحرى الأقوالِ بالقبول عندي أنَّ الله تعالى يسلِّم عليهم يوم يلقونه إكراماً لهم وتعظيماً.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ أي: وهيَّأ عز وجل لهم ثواباً حسناً، والظاهرُ أنَّ التهيئة واقعةٌ قبل دخول الجنة والتحية، ولذا لم تُخرج الجملة مخرج ما قبلها، بأن يقال: وأجْرُهم أجرٌ كريم، أي: ولهم أجرٌ كريم.

وقيل: هي بعد الدخول والتحيةِ، فالكلام بيانٌ لآثار رحمته تعالى الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيبَ بيانِ آثار رحمته الواصلة إليهم قبل ذلك.

ولعل إيثار الجملة الفعلية على الاسمية المناسبةِ لِمَا قبلها للمبالغة في الترغيب والتشويق إلى الموعود، ببيانِ أنَّ الأمر الذي هو المقصدُ الأقصى من بين سائر آثار الرحمة موجودٌ بالفعل مهيَّأٌ لهم مع ما فيه من مراعاة الفواصل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على مَن بُعثْتَ إليهم، تراقبُ أحوالَهم وتشاهد أعمالهم، وتتحمَّل عنهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائرِ ما هم عليه من الهدى والضلال، وتؤدِّيها يومَ القيامة أداءً مقبولاً فيما لهم وما عليهم.

وهو حالٌ مقدَّرةٌ وإن اعتبر الإرسال أمراً ممتدّاً؛ لاعتبار التحمُّل والأداء في الشهادة، والإرسالُ بذلك الاعتبارِ وإنْ قارَنَ التحمُّلَ إلَّا أنه غيرُ مقارنٍ للأداء وإن اعتُبر الامتداد.

وقيل: بإطلاق الشهادة على التحمُّل فقط تكون الحالُ مقارِنةً، والأحوالُ المذكورةُ بعدُ على اعتبارِ الامتداد مقارنةً. ولك أن لا تعتبره أصلاً، فتكون الأحوالُ كلُّها مقدَّرةً.

ثم إنَّ تحمُّل الشهادة على مَن عاصره ﷺ واطّلع على عمله أمرٌ ظاهر، وأما تحمُّلُها على مَن بعده بأعيانهم فإنْ كان مراداً أيضاً ففيه خفاءٌ؛ لأنَّ ظاهر الأخبار أنه عليه الصلاة والسلام لا يعرف أعمال مَن بعده بأعيانهم، روى أبو بكر وأنس وحذيفة وسمرة وأبو الدرداء عنه ﷺ: «ليَرِدنَّ عليَّ ناسٌ من أصحابي الحوضَ، حتى إذا رأيتُهم وعرفتُهم اختُلِجُوا دوني، فأقول: يا ربِّ أصيحابي

أصيحابي. فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[١].

نعم قد يقال: إنه عليه الصلاة والسلام يعلم بطاعاتٍ ومعاصٍ تقع بعده من أمته لكنْ لا يعلم أعيانَ الطائعين والعاصين، وبهذا يُجمع بين الحديث المذكور وحديثِ عَرْضِ الأعمال عليه ﷺ كلَّ أسبوعٍ أو أكثر أو أقل"[٢].

وقيل: يجمع بأنه عليه الصلاة والسلام يعلم الأعيان أيضاً، إلا أنه نسي فقال: «أصيحابي»، ولتعظيم قبح ما أحدثوا قيل له: «إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

وقيل: يُعْرَضُ ما عدا الكفر. وهو كما ترى.

وأما زَعْمُ أنَّ التحمُّل على مَن بعده إلى يوم القيامة لما أنه ﷺ حيٌّ بروحه وجسده يسير حيث شاء في أقطار الأرض والملكوت فمبنيٌّ على ما علمتَ حالَه، ولعل في هذين الخبرين ما يأباه كما لا يخفى على المتدبِّر.

وأشار بعض السادة الصوفية إلى أن الله تعالى قد أطلعه ﷺ على أعمال العباد فنظر إليها، ولذلك أُطلق عليه عليه الصلاة والسلام: شاهد؛ قال مولانا جلال الدين الرومي قدس سره العزيز في مَثْنَويهِ:

دَرْ نَظَرْ بودَشْ مقامات العباد　　　زانْ سَبَب نامَشْ خُدَا شاهِدْ نِهادْ[٣]

فتأمَّل ولا تغفل.

وقيل: المراد: شاهداً على جميع الأمم يوم القيامة بأنَّ أنبياءهم قد بلَّغوهم الرسالة ودَعَوهم إلى الله تعالى، وشهادتُه بذلك لِمَا علمه من كتابه المجيد.

---

(١) أخرجه من حديث أنس أحمد (١٣٩٩١)، والبخاري (٦٥٨٢)، ومسلم (٢٣٠٤). وأخرجه من حديث حذيفة مسلم (٢٢٩٧). وأخرجه البخاري (٦٥٨٥) و(٦٥٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٣٦٣٩)، والبخاري (٦٥٧٥)، ومسلم (٢٢٩٧) من حديث ابن مسعود ﷺ. وحديث الحوض من الأحاديث المتواترة، ينظر نظم المتواتر ص ١٥١، حيث ذكر الكتاني أنه روي من حديث (٥٧) صحابياً.

(٢) أخرجه البزار (١٩٢٥) من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «... تعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدتُ الله عليه، وما رأيت من شرٍّ استغفرت الله لكم». وأخرجه بهذا اللفظ ابن سعد ٢/ ١٩٤ عن بكر بن عبد الله المزني عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٣) ومعناه: قد صارت في نظره مقاماتُ العباد، ولهذا السبب جُعل شاهداً عليه الصلاة والسلام.

وقيل: المراد: شاهداً بأنْ لا إله إلا الله.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ تبشِّر الطائعين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ تنذر الكافرين والعاصين بالنار. ولعموم الإنذار وخصوصِ التبشير قيل: «مبشِّراً ونذيراً» على صيغة المبالغة، دون: ومنذراً، مع أنَّ ظاهر عطفه على «مبشراً» يقتضي ذلك.

وقدِّم التبشير لشرف المبشَّرين، ولأنه المقصود الأصليُّ إذ هو ﷺ رحمةٌ للعالمين، وكأنه لهذا جبر ما فاته من المبالغة بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى الإقرار به سبحانه وبوحدانيته، وبسائر ما يجب الإيمان به من صفاته وأفعاله عز وجل، ولعل هذا هو مراد ابن عباس وقتادة من قولهما: أي: شهادة أن لا إله إلا الله.

﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بتسهيله وتيسيره تعالى، وأُطلق الإذن على التسهيل مجازاً لما أنه من أسبابه، لاسيما الإذنُ من الله عز وجل، ولم يُحمل على حقيقته ـ وإنْ صح هنا أنْ يأذَنَ الله تعالى شأنه له عليه الصلاة والسلام حقيقةً في الدعوة ـ لأنه قد فُهم من قوله سبحانه: إنَّا أرسلناك داعياً، أنه ﷺ مأذونٌ له في الدعوة.

ومما ذُكر يعلم أنَّ «بإذنه» من متعلّقات «داعياً»، وقيِّدت الدعوة بذلك إيذاناً بأنها أمرٌ صعبُ المنال، وخطبٌ في غاية الإعضال، لا يتأتّى إلا بإمدادٍ من جناب قدسه، كيف لا وهو صرفٌ للوجوه عن القِبَلِ المعبودة، وإدخالٌ للأعناق في قلادةٍ غيرِ معهودة؟! وجوِّز رجوعُ القيد للجميع، والأولُ أظهر.

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ يستضيءُ به الضالُّون في ظلمات الجهل والغواية، ويُقتبسُ من نوره أنوارُ المهتدين إلى مناهج الرشد والهداية، وهو تشبيهٌ إما مركَّبٌ عقليٌّ أو تمثيل منتزَعٌ من عدة أمور أو مفرَّق. وبُولغ في الوصف بالإنارة لأنَّ من السُّرج ما لا يضيء إذا قلَّ سليطُه[1] ودقَّت فتيلتُه.

وقال الزجَّاج: هو معطوفٌ على «شاهداً» بتقدير مضافٍ، أي: ذا سراجٍ

---

(١) أي: زيته. القاموس (سلط).

منيرٍ[1]. وقال الفرَّاء: إن شئتَ كان نصباً، على معنى: وتالياً سراجاً منيراً[2]. وعليهما السراج المنير: القرآن.

وإذا فسِّر بذلك احتمل ـ على ما قيل ـ أن يعطف على كافِ «أرسلناك» على معنى: أرسلناك والقرآن، إما على سبيل التبعية، وإما من باب: متقلِّداً سيفاً ورمحاً.

وقيل: إنه على تقدير: تالياً سراجاً، يجوز هذا العطف، أي: إنَّا أرسلناك وتالياً سراجاً، كقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢] على أنه الجامع بين الأمرين على نحو: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ [الأنبياء: ٤٨] أي: أرسلنا بإرسالك تالياً. وجوِّز أن يراد: وجعلناك تالياً.

وقيل: يجوز أن يراد بذا سراج القرآن، وحينئذ يكون التقدير: إنَّا أرسلناك وأنزلنا عليك ذا سراج. وتعقِّب بأنَّ جعل القرآن ذا سراجٍ تعسُّفٌ. والحقُّ أنَّ كلَّ ما قيل كذلك.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ يقتضيه المقام ويستدعيه النظام، كأنه قيل: فراقبْ أحوالَ الناس وبشِّر المؤمنين. وجوِّز عطفُه على الخبر السابق عَطْفَ القصةِ على القصة. وقيل: هو معطوفٌ عليه، ويُجعل في معنى الأمر لأنه في معنى: ادعهم شاهداً ومبشِّراً ونذيراً.. إلخ وبشِّر المؤمنين منهم:

﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: عطاءً جزيلاً، وهو كما روي عن الحسن وقتادة: الجنة وما أوتوا فيها، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢].

وقيل: المعنى: فضلاً على سائر الأمم في الرتبة والشرف، أو زيادةً على أجور أعمالهم بطريق التفضُّل والإحسان. أخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن[3] قال:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٢٣٨.

(٢) نقله المصنف عن الفراء بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٢٣٨، وقاله أيضاً الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٣١.

(٣) في الأصل و(م): ابن جرير وابن عكرمة عن الحسن، والمثبت من تفسير الطبري ٢١/ ١٢١، والدر المنثور ٥/ ٢٠٧، وعنه نقل المصنف.

لما نزل: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]. قالوا: يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: (وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا).

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ نهيٌ عن مداراتهم في أمر الدعوة ولين الجانب في التبليغ والمسامحة في الإنذار، كَنَى عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغةً في النهي والتنفير عن المنهيِّ عنه بنَظْمِه[1] في سلكها وتصويره بصورتها.

وحَملَ غير واحدٍ النهي على التهييج والإلهاب، من حيث إنه ﷺ لم يُطِعْهُم حتى يُنْهَى، وجَعَلَه بعضهم من باب: إياكِ أعني واسمعي يا جاره، فلا تغفل.

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي: لا تُبالِ بإيذائهم إياك بسبب إنذارك إياهم، واصبر على ما ينالك منهم، قاله قتادة. فأذاهم مصدرٌ مضافٌ للفاعل.

وقال أبو حيان: الظاهر أنه مصدرٌ مضافٌ للمفعول، لمَّا نُهي ﷺ عن طاعتهم أُمر بترك إيذائهم وعقوبتِهم، ونُسخ منه ما يخصُّ الكافرين بآية السيف[2]. وروي نحوُه عن مجاهد والكلبي. والأوَّلُ أَوْلَى.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في كلِّ ما تأتي وتَذَرُ من الشؤون التي من جملتها هذا الشأنُ، فإنه عز وجل يكفيكهم[3].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ موكولاً إليه الأمورُ في كلِّ الأحوال، وإظهارُ الاسم الجليل في موقع الإضمار لتعليل الحكم، وتأكيدِ استقلال الاعتراض التذييليِّ.

ولمَّا وُصِفَ ﷺ بنعوتٍ خمسةٍ قُوبل كلُّ واحدٍ منها بخطابٍ يناسبه، خلا أنه لم يذكر ما قابل الشاهد صريحاً وهو الأمرُ بالمراقبة، ثقةً بظهور دلالة ما قابل[4]

---

(١) في الأصل و(م): بنظمها، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ١٠٨، والكلام منه.
(٢) البحر ٧/ ٢٣٨.
(٣) في الأصل و(م): ويكفيهم، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ١٠٨، والكلام منه.
(٤) قوله: ما قابل، ليس في (م)، وجاء بدلاً منها في تفسير أبي السعود: مقابل، وكلاهما صواب.

المبشَّرَ عليه، وهو الأمر بالتبشير حسبما ذكر آنفاً. وقوبل[١] النذير بالنهي عن مداراة الكافرين والمنافقين والمسامحة في إنذارهم، وقوبل الداعي بإذنه بالأمر بالتوكُّل عليه من حيث إنه عبارةٌ عن الاستمداد منه تعالى والاستعانةِ به عز وجل، وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى، فإنَّ مَن أيَّده الله تعالى بالقوة القدسية ورشَّحه للنبوَّة وجعله برهاناً نيِّراً يهدي الخلق من ظلمات الغيِّ إلى نور الرشاد حقيقٌ بأن يُكتفَى به تعالى عمَّن سواه.

وجعل الزمخشريُّ[٢] مقابل الشاهد «وبشر المؤمنين»، ومقابل الإعراض عن الكافرين والمنافقين المبشَّر ـ أعني المؤمنين[٣] ـ وتكلَّف في ذلك.

وقال الطيبي طيَّب الله تعالى ثراه[٤]: نظير هذه الآية ما روى البخاريُّ والإمامُ أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبِرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: والله إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً، وحِرْزاً للمؤمنين، أنتَ عبدي ورسولي، سمَّيتُك المتوكِّلَ، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ولا صخَّابٍ في الأسواق، ولا يَدْفَعُ بالسيئةِ السيئةَ ولكنْ يعفو ويصفحُ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يُقِيمَ به الملَّة العوجاء، ويفتحَ به أعيناً عُمْياً وآذاناً صُمّاً وقلوباً غُلْفاً[٥]. وروى الدارمي نحوه عن عبد الله بن سلام[٦].

فقوله: حرزاً للمؤمنين، مقابلٌ لقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ فإنَّ دعوته ﷺ إنما حَصَلتْ فائدتُها فيمَن وفَّقه الله تعالى بتيسيره وتسهيله، فلذلك أَمِنوا من مكاره الدنيا وشدائد الآخرة، فكان صلواتُ الله تعالى وسلامه عليه بهذا الاعتبار حرزاً لهم.

---

(١) في الأصل و(م): وقابل، والمثبت من تفسير أبي السعود.
(٢) في الكشاف ٣/ ٢٦٧.
(٣) قال الزمخشري: لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين، وهو مناسب للبشارة.
(٤) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٥) صحيح البخاري (٢١٢٥)، ومسند أحمد (٦٦٢٢)، وفيهما: وحرزاً للأمّيين. ويعني بالأميين العرب.
(٦) سنن الدارمي (٦).

وقوله: سميتك المتوكِّل.. إلخ، مقابلٌ لقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ فعُلم أنَّ قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ مناسبٌ لقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ فإنَّ السراج مضيءٌ في نفسه ومنوِّرٌ لغيره، فبكونه متوكِّلاً على الله تعالى يكون كاملاً في نفسه، فهو مناسبٌ لقوله: أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكِّل، إلى قوله: يعفو ويصفح. وكونُه منيراً بفيض(١) الله تعالى عليه يكونُ مكمِّلاً لغيره، وهو مناسبٌ لقوله: حتى يقيم به الملَّة العوجاء.. إلخ.

ثم قال: ويمكن أن ينزَّل المراتب على لسان أهل العرفان، فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ هو مقام الشريعة ودعوةِ الناس إلى الإيمان وترك الكفر، ونتيجته(٢) الإعراضُ عمَّا سوى اللهِ تعالى، والأخذُ في السير والسلوكِ والالتِجاءِ إلى حريم لطفه تعالى والتوكُّل عليه عز وجل. وقوله سبحانه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ هو مقامُ الحقيقة، ونتيجتُه فناء السالك وقيامُه بقيُّوميته تعالى. اهـ، ولا يَخْفَى تكلُّفُ ما قرَّره في الحديث، والله تعالى أعلمُ بمراده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ﴾ عودٌ إلى ذكر النساء، والنكاحُ هنا العقدُ بالاتِّفاق، واختلفوا في مفهومه لغةً؛ فقيل: هو مشتركٌ بين الوطء والعقد اشتراكاً لفظياً.

وقيل: حقيقةٌ في العقد مجازٌ في الوطء، وقيل بقَلْبِه، وقيل: هو مشتركٌ بينهما اشتراكاً معنويًّا، وهو من أفراد المشكك، وحقيقتُه الضمُّ والجمع كما في قوله:

ضممتُ إلى صدري معطَّر صدرها ... كما نكحت أمُّ الغلام صبيَّها(٣)

ونقل المبرِّدُ ذلك عن البصريين، وغلامُ ثعلب الشيخُ أبو عمر(٤) الزاهدُ عن الكوفيين.

---

(١) في الأصل و(م): يفيض، والمثبت من حاشية الطيبي.
(٢) في (م): ونتيجة، والمثبت من الأصل وحاشية الطيبي.
(٣) سلف ٤/ ٢٤٦.
(٤) في الأصل و(م): الشيخ عمرو، والصواب ما أثبتناه، وهو محمد بن عبد الواحد البغدادي المعروف بغلام ثعلب، لازم ثعلباً في العربية فأكثر عنه، من مصنفاته: =

ثم المتبادرُ من لفظ الضَّمِّ تعلُّقه بالأجسام لا الأقوال؛ لأنها أعراضٌ يتلاشى الأولُ منها قبل وجود الثاني فلا يصادفُ الثاني ما ينضمُّ إليه، وهذا يقتضي كونَه مجازاً في العقد. وإن اعتُبر الضم أعمّ من ضمِّ الجسم إلى الجسم والقولِ إلى القول، جاز أن يكون النكاح حقيقةً في كلٍّ من الوطء والعقد، وجاز أن يكون مجازاً على التفصيل المعروف في استعمال العامِّ في كلِّ فردٍ من أفراده.

واختار الراغب القول الثاني من الأقوال السابقة، وبالغ في عدم قبول الثالث، فقال: هو حقيقةٌ في العقد ثم استُعير للجماع، ومُحالٌ أن يكون في الأصل للجماع ثم استُعير للعقد؛ لأنَّ أسماء الجماع كلَّها كناياتٌ؛ لاستقباحهم ذِكْرَه كاستقباح تعاطيه، ومحالٌ أن يَستعير مَن لا يقصدُ فحشاً اسمَ ما يستفظعونه لِمَا يستحسنه(١).

واختار الزمخشريُّ الثالثَ فقال: النكاح الوطء، وتسميةُ العقد نكاحاً لملابسته له من حيث إنه طريقٌ له، ونظيره تسميةُ الخمر إثماً لأنها سببٌ في اقتراف الإثم، ولم يَرِدْ لفظُ النكاح في كتاب الله تعالى إلا في معنى العقد؛ لأنه في حقِّ الوطء من باب التصريح به، ومن آداب القرآن الكنايةُ عنه بلفظ الملامسة والمماسَّة والقربان والتغشِّي والإتيان(٢). وأراد ـ على ما قيل ـ أنه في العقد حقيقةٌ شرعيةٌ منسيٌّ فيه المعنى اللغوي.

وبُحث في قوله: لم يَرِدْ لفظ النكاح في كتاب الله تعالى إلا في معنى العقد، بأنه في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] بمعنى الوطء، وهذا ما عليه الجمهور، وخالف في ذلك ابن المسيب، وتمامُ الكلام في موضعه.

والمسُّ في الأصل معروفٌ، وكنى به هنا عن الجماع، والعِدَّةُ هي الشيءُ المعدود، وعِدَّة المرأة المرادُ بها الأيام التي بانقضائها يحلُّ لها التزوُّجُ، أي: يا أيها الذين آمنوا إذا عقدتُم على المؤمنات وتزوَّجتُموهنَّ ثم طلَّقتموهنَّ من قبل أن تجامعوهنَّ فما لكم عليهنَّ من عدَّةٍ بأيامٍ يتربَّصْنَ فيها بأنفسهنَّ تستوفون عددَها،

= الموضح، والساعات، ويوم وليلة، والشورى، وغيرها، توفي سنة (٣٤٥هـ). بغية الوعاة ١/ ١٦٤، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٥٠٨.

(١) مفردات الراغب (نكح)، وفيه: يستحسنونه، بدل: يستحسنه.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٦٧.

على أنَّ تعتدُّون مطاوعُ عدَّ، يقال: عدَّ الدراهم فاعتدَّها، أي: استَوْفى عددَها، نحو قولك: كِلْتُه فاكتَلْتُه، ووَزَنْتُه فاتَّزَنْتُه. أو تعدُّونها على أنَّ افتعل بمعنى فَعَلَ.

وإسناد الفعل إلى الرجال للدلالة على أنَّ العدَّة حقُّ الأزواج، كما أَشْعَرَ به قولُه تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾.

واعتُرض بأنَّ المذكور في كتب الفروع كـ «الهدايةِ» وغيرها أنها حقُّ الشرع، ولذا لا تسقط لو أسقطها الزوجُ، ولا يحلُّ لها الخروج ولو أَذِنَ لها، وتتداخل العدَّتان ولا تداخُلَ في حقِّ العبد، وحقُّ الولد أيضاً، ولذا قال ﷺ: «لا يحلُّ لامرئ مؤمنٍ بالله واليوم الآخر أنْ يسقي ماءَه زرعَ غيره»[(١)]، وفرَّعوا على ذلك أنهما لا يصدَّقان في إبطالها باتِّفاقهما على عدم الوطء.

وأجيب بأنه ليس المراد أنها صِرْفُ حقِّهم، بل أنَّ نفعها وفائدتَها عائدةٌ عليهم؛ لأنها لصيانة مياههم والأنسابِ الراجعة إليهم، فلا ينافي أن يكون للشرع والولد حقٌّ فيها يمنعُ إسقاطها، ولو فرض أنها صِرْفُ حقِّهم يجوز أن يقال: إنَّ عدم سقوطها بإسقاطهم لا ينافي ذلك إلا إذا ثبت أنَّ كلَّ حقٍّ للعبد إذا أسقطه العبدُ سقط، وليس كذلك فإنَّ بعض حقوق العبد لا تسقط بإسقاطه، كالإرث وحقِّ الرجوع بالهبةِ وخيارِ الرؤية، ثم إنَّ في الاستدلال بالحديث على أنها حقُّ الولد تأمُّلاً كما لا يخفى.

وتخصيصُ المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن شأنُه أن يتخيَّر لنطفته ولا ينكحَ إلا مؤمنةً، وحاصلُه أنه لبيان الأحرى والأليقِ بعد ما فصّل في «البقرة» نكاح الكتابيات.

وفائدة المجيء بـ «ثم» مع أنَّ الحكم ثابتٌ لمن تزوَّج امرأةً وطلَّقها على الفور كثبوتِه لمن تزوَّجها وطلَّقها بعد مدةٍ مديدةٍ إزاحةُ ما عسى يتوهَّم أنَّ تراخي الطلاق له دخلٌ في إيجاب العِدَّة لاحتمال الملاقاة والجماع سرّاً كما أن له دخلاً في النسب. ويمكن أن تكون الإشارة إلى التراخي الرُّتْبي، فإنَّ الطلاق وإن كان مباحاً

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٩٠)، وأبو داود (٢١٥٩)، والترمذي (١١٣١) من حديث رويفع بن ثابت ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن.

لا كراهة فيه ـ على ما قيل ـ لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٦] غيرُ محبوبٍ كالنكاح، من حيث إنه يؤدِّي إلى قطع الوصلة وحلِّ قيدِ العصمة المؤدِّي لقلَّة التناسُلِ الذي به تكثُر الأمة، ولهذا ورد كما أخرج أبو داود وابن ماجه والحاكم والطبرانيُّ وابن عديٍّ عن ابن عمر ﵄ مرفوعاً: «أبغضُ الحلال إلى الله الطلاق»[(١)]، ورواه البيهقيُّ مرسلاً بدون ابن عمر[(٢)].

بل قال العلَّامة ابن الهمام: الأصحُّ حَظْرُه وكراهتُه إلا لحاجةٍ؛ لمَا فيه من كفران نعمة النكاح، وللأخبار الدالَّة على ذلك، ويُحمل لفظ المباح في الخبر المذكور على ما أبيح في بعض الأوقات، أعني أوقات تحقُّق الحاجة المبيحة، وهو ظاهرٌ في روايةٍ لأبي داود: «ما أحلَّ الله شيئاً أبغضَ إليه من الطلاق»[(٣)]، والفعلُ لا عموم له في الأزمان، والحاجةُ المبيحة الكِبْرُ والريبةُ مثلاً، وعدُّوا من المبيح عدمَ اشتهائها بحيث يعجزُ أو يتضرَّر بإكراهه نفسَه على جماعها مع عدم رضاها بإقامتها في عصمته من غير وطءٍ أو قَسْمٍ[(٤)].

وأمَّا ما روي عن الحسن السبط ﵁، وكان قيل له في كثرة تزوُّجه وطلاقه، فقال: أحبُّ الغَناء فقد قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء:١٣٠] فهو رأيٌ منه إن كان على ظاهره، وكلُّ ما نُقل عن طلاق الصحابة ﵃ فمحملُه وجودُ الحاجة[(٥)].

وظاهرُ الآية يقتضي عدمَ وجوب العِدَّة بمجرَّدِ الخلوة؛ لأنه سبحانه نفى فيها

---

(١) سنن أبي داود (٢١٧٨)، وسنن ابن ماجه (٢٠١٨)، والكامل لابن عدي ٤/ ١٦٣٠ و٦/ ٢٤٥٣، والمستدرك ٢/ ١٩٦، وسلف ٣/ ٢٩٣.

(٢) سنن البيهقي الكبرى ٧/ ٣٢٢، وهو عند أبي داود (٢١٧٧)، وبه أُعِلَّ المرفوع كما ذكر الحافظ في الفتح ٩/ ٣٥٦، وقال في التلخيص الحبير ٣/ ٢٠٥: رجح أبو حاتم والدارقطني والبيهقي المرسل.

(٣) سنن أبي داود (٢١٧٧)، وهو بهذا اللفظ مرسل، وقد سلف الكلام عليه في التعليق السابق.

(٤) فتح القدير لابن الهمام ٣/ ٢٢. وقوله: مع عدم رضاها...، أي: إذا كان قادراً على طول غيرها ورضيت بإقامتها في عصمته بلا وطءٍ أو بلا قَسْمٍ فيُكره طلاقه لها، فإن لم ترضَ بذلك أبيح.

(٥) فتح القدير ٣/ ٢٢.

وجوبَ العدَّة إذا طلِّقت قبل الجماع، والخلوةُ ليست جماعاً، وهي عندنا إذا كانت صحيحةً على الوجه المبيَّن في كتب الفروع كالجماع في وجوب العدَّة فتجب فيه العدَّةُ احتياطاً لتوهُّم الشغل نظراً إلى التَّمكُّن الحقيقيِّ، بل قالوا: هو مثله في جميع أحكامه سوى عشرةٍ نظمها أفضلُ مَن عاصرناه من الفقهاء، الشيخ محمد الأمين الشامي الشهير بابن عابدين بقوله:

وخلوتُه كالوطء في غير عشرة ... مطالبةٌ بالوطء إحصان تحليلُ
وفيءٌ وإرثٌ رجعةٌ فَقْدُ عِنَّةٍ ... وتحريمُ بنتٍ عقدُ بكرٍ وتغسيلُ[1]

وظاهرُ قولهم بوجوب العدَّة فيها أنها واجبةٌ قضاءً وديانةً. وفي «الفتح»: قال العتابيُّ: تكلَّمَ مشايخنا في العدَّة الواجبة بالخلوة الصحيحة أنها واجبةٌ ظاهراً أو حقيقةً، فقيل: لو تزوَّجت وهي متيقِّنةٌ بعدم الدخول حلَّ لها ديانةً لا قضاء[2]. اهـ، ولم يتعقَّبه بشيء.

وذكره سعدي چلبي في «حواشي البيضاوي» وقال: ينبغي أن يكون التعويلُ على هذا القول.

وتعقَّب ذلك الشهاب الخفاجيُّ بأنه وإن نقله فقهاؤنا فقد صرَّحوا بأنه لا يعوَّل عليه[3]، ونحن لم نَرَ هذا التصريح فليتتبع.

ثم لا يخفى أنَّ عدم وجوب العدَّة في الطلاق بعد الخلوة مما يعدُّ منطوقاً صريحاً في الآية إذا فسِّر المسُّ بالجماع، وليس من باب المفهوم حتى يقال: إنَّا لا نقول به كما يتوهَّم، فلا بد لإثبات وجوب العدَّة في ذلك من دليل.

ومن الناس مَن حمل المسَّ فيها على الخلوة إطلاقاً لاسم المسبَّب على السبب؛ إذ المسُّ مسبَّبٌ عن الخلوة عادةً.

واعتُرض بأنه لم يشتهر المسُّ بمعنى الخلوة، ولا قرينةَ في الكلام على إرادته منه. وأيضاً يلزمُ عليه أنه لو طلَّقها وقد وطئها بحضرة الناس عدمُ وجوب العدَّة؛

---

(١) حاشية ابن عابدين ٣/ ١٢١.
(٢) فتح القدير لابن الهمام ٢/ ٤٤٧.
(٣) حاشية الشهاب ٧/ ١٧٨.

لأنه قد طلَّقها قبل الخلوة. وأجيبَ عن هذا بأنَّ وجوب العدَّة في ذلك بالإجماع، وبأنَّ العدَّة إذا وجبت في الطلاق بمجرَّد الخلوة كانت واجبةً فيه بالجماع من باب أولى، وكيف لا تجب به ووجوبُها بالخلوة لاحتمال وقوعه فيها لا لذاتها؟

وقيل: إنَّ المسَّ لمَّا لم يُرَدْ ظاهرُه ـ وإلا لَزِمَتِ العدَّةُ فيما لو طلَّقها بعد أن مسَّها بيده في غير خلوةٍ، مع أنها لا تلزمُ في ذلك بلا خلافٍ ـ عُلِمَ أنه كُنيَ به عن معنًى آخرَ من لوازم الاتصال، فهو الجماعُ وما في معناه من الخلوة الصحيحة.

وفيه نظرٌ؛ لأنَّ عدمَ صحةِ إرادة ظاهره لا يوجبُ إرادةَ ما يعمُّ الجماعَ والخلوة، لمَ لا يجوز إرادةُ الجماع، ويرجِّحها شهرة الكناية بذلك ونحوِه عن الجماع، وإطلاقُه عليه إمَّا من إطلاق اسم السبب على المسبَّب، أو من إطلاق اسم المطلَقِ على أخصَّ بخصوصه، وهو الأَوْجَهُ على ما ذكره العلَّامة ابن الهمام(١).

وبالجملة: القولُ بأنَّ ظاهر الآية يقتضي عدمَ وجوب العدَّة بمجرَّد الخلوة قولٌ متينٌ وحقٌّ مُبينٌ، فتأمل.

وفي «البحر» لأبي حيان: الظاهر أنَّ المطلَّقة إذا راجعها زوجُها قبل أن تنقضي عدَّتُها ثم فارقها قبل أن يمسَّها لا تُتمُّ عدَّتَها من الطلقة الأولى [ولا تستقبل عدَّةً] لأنها مطلَّقةٌ قبل الدخول بها، وبه قال داود. وقال عطاء وجماعة: تمضي في عدَّتها عن طلاقها الأول، وهو أحدُ قولي الشافعي. وقال مالك: لا تبني على العدَّة من الطلاق الأول وتستأنفُ العدَّة من يوم طلَّقها الطلاق الثاني، وهو قولُ جمهور فقهاء الأمصار.

والظاهر أيضاً أنها لو كانت بائناً غير مبتوتةٍ فتزوَّجها في العدَّة ثم طلَّقها قبل الدخول فكالرجعية في قول داود ليس عليها عدَّةٌ؛ لا بقيةُ عدَّةِ الطلاق الأول، ولا استئنافُ عدَّةٍ للثاني، ولها نصفُ المهر؛ وقال الحسن وعطاءٌ وعكرمةُ وابن شهابٍ ومالكٌ والشافعيُّ وعثمان البتيُّ وزُفَرُ: لها نصف الصَّداق وتتمُّ بقية العدَّة

---

(١) في فتح القدير ٢/ ٤٤٥.

الأولى. وقال الثوريُّ والأوزاعيُّ وأبو حنيفة وأبو يوسف: لها مهرٌ كاملٌ للنكاح الثاني وعدَّةٌ مستقبلةٌ، جعلوها في حكم المدخول بها لاعتدادها من مائه(١). اهـ.

وفيه أيضاً: الظاهر أنَّ الطلاق لا يكون إلا بعد العقد، فلا يصحُّ طلاقُ مَن لم يَعْقِدْ عليها، وهو قولُ الجمهور من الصحابة والتابعين. وقالت طائفةٌ كثيرةٌ منهم مالك: يصحُّ ذلك(٢).

وعَنَى بطلاقِ مَن لم يَعْقِدْ عليها قولَ الرجل: كلُّ امرأةٍ أتزوَّجُها فهي طالق. أو: إن تزوَّجتُ فلانةً فهي طالق. وقد أخرج جماعة عن ابن عباس ﵄ أنه سئل عن ذلك فقال: هو ليس بشيء. فقيل له: إن ابن مسعود كان يقول: إنْ طلَّق ما لم ينكح فهو جائز. فقال: أخطأ في هذا، وتلا الآية.

وفي بعض الروايات أنه قال: رَحِمَ الله تعالى أبا عبد الرحمن، لو كان كما قال لقال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا طلَّقتم المؤمنات ثم نكحتُموهن، ولكنْ إنما قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾(٣).

وفي «الدر المنثور» عدةُ أحاديثَ مرفوعةٍ ناطقةٍ بأنْ لا طلاقَ قبل نكاح(٤).

والمذكورُ في فروعنا أنَّ ذلك من باب التعليق، وشرطُه الملكُ أو الإضافةُ إليه، فإذا قال: إنْ نكحتُ امرأةً فهي طالقٌ. أو: إن نكحتُكِ فأنت طالق، وكلُّ امرأةٍ أنكحُها فهي طالق، يقع الطلاق إذا نكح؛ لأنَّ ذلك تعليقٌ، وفيه إضافةٌ إلى الملك، ويكفي معنى الشرط إلا في المعيَّنة باسمٍ ونسب، كما إذا قال: فلانة بنتُ فلانٍ التي أتزوَّجها فهي طالق، أو بإشارةٍ في الحاضرة، كما لو قال: هذ المرأة التي أتزوجها

(١) البحر ٧/ ٢٤٠، وما سلف بين حاصرتين منه، ومثله في الاستذكار لابن عبد البر ١٨/ ١٠٦، وتفسير القرطبي ١٧/ ١٧٦. وتحرف في مطبوع البحر: أبو يوسف، إلى: أبو يونس، والمثبت موافق لما في الاستذكار وتفسير القرطبي.

(٢) البحر ٧/ ٢٤٠، وينظر كلام مالك وغيره من الأئمة في الإشراف ٤/ ١٨٥، والاستذكار ١٨/ ١١٤.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١١٤٦٨)، والطبراني في الكبير (٩٦٣٥)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار ١١/ ١٧-١٨.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٠٨، وينظر تفصيل هذه المسألة في تفسير القرطبي ١٠/ ١١٠-١١١، و١٧/ ١٧٥-١٧٦.

طالقٌ، فإنها لا تطلقُ في الصورتين لتعريفها، فلغا الوصفُ بـ: التي أتزوَّجها، فصار كأنه قال: فلانة بنت فلان أو هذه المرأةُ طالقٌ، وهي أجنبيةٌ ولم توجد الإضافةُ إلى الملك، فلا يقع الطلاق إذا تزوَّجها، فتدبَّر.

وقرىء: «تماسُّوهن» بضم التاء وألفٍ بعد الميم(١).

وعن ابن كثير وغيره من أهل مكة: «تعتدُونها» بتخفيف الدال، ونقلها عن ابن كثير ابنُ خالويه(٢)، وأبو الفضل الرازي في «اللوامح»(٣) عنه وعن أهل مكة.

وقال ابن عطية: روى ابن أبي بزَّة عن ابن كثير أنه قرأ بتخفيف الدال من العدوان، كأنه قال: فما لكم عِدَّةٌ تُلزمونها عدواناً وظلماً لهنَّ، والقراءةُ الأولى أشهر عنه، وتخفيفُ الدال وهمٌ من ابن أبي بزَّةَ(٤). اهـ. وليس بوهمٍ إذ قد نقله عنه جماعةٌ غيره.

وخرَّج ذلك على أنَّ «تعتدُونها» من الاعتداء بمعنى الظلم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣١] والمراد: تعتدون فيها، كقوله:

ويوماً شهدناه سليماً وعامراً ... قليل سوى طعنِ الدراك نوافلُه(٥)

أي: شهدنا فيه، فحذف حرف الجرِّ ووصل الفعل بالضمير.

وقال أبو حيان: إن الاعتداء يتعدَّى بـ «على»، فالمراد: تعتدون عليهنَّ فيها، ونظيره في حذفِ «على» قولُه:

تحنُّ فتبدي ما بها من صبابةٍ ... وأُخفي الذي لولا الأُسى لقضاني(٦)

فإنه أراد: لقَضَى عليَّ.

---

(١) التيسير ص ٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨، وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف.
(٢) في القراءات الشاذة ص ١٢٠، والكلام من البحر ٧/ ٢٤٠.
(٣) كما في البحر ٧/ ٢٤٠.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٠.
(٥) البيت لرجل من بني عامر، وسلف ١/ ٢٨٤ و١١/ ٥٣١ وهذا التخريج للقراءة هو للزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٦٧.
(٦) البحر ٧/ ٢٤٠، والبيت عزاه المبرد في الكامل ١/ ٤٦ لأعرابي من بني كلاب، وقال البغدادي في شرح شواهد المغني ٣/ ٢٣٠: واعلم أن لعروة بن حزام العذري قصيدة غرامية =

وجوّز أن يكون ذلك على إبدال أحد الدالين بالتاء، وقيل عليه: إنه تخريجٌ غير صحيحٍ لأنَّ عدَّ يَعُدُّ من باب نصر كما في كتب اللغة، فلا وجهَ لفتح التاء لو كانت مبدلةً من الدال، فالظاهرُ حملُه على حذف إحدى الدالين تخفيفاً.

وقرأ الحسن بإسكان العين كغيره وتشديدِ الدال جمعاً بين الساكنين(١).

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: فأعطوهنَّ المتعةَ، وهي في المشهور درعٌ - أي: قميص - وخمارٌ وهو ما تغطّي به المرأة رأسها، ومِلْحَفةٌ وهي ما تلتحفُ به من قرنها إلى قدمها، ولعلها ما يقال له: إزارٌ، اليوم. وهذا على ما في «البدائع» أدنى ما تُكْسَى به المرأة وتتستَّر عند الخروج(٢).

ويفهم من كلام فخر الإسلام والفاضل البرجندي أنه يُعتبر عرفُ كلِّ بلدةٍ فيما تُكسى به المرأة عند الخروج. والمفتَى به الأشبهُ بالفقه قولُ الخصاف(٣): إنها تُعتبر بحالهما، فإن كانا غنيَّين فلها الأعلى من الثياب، أو فقيرين فالأدنى، أو مختلفين فالوسط.

وتجب لمطلَّقةٍ قبل الوطء والخلوة عند معتبرها لم يسمَّ لها في النكاح تسميةً صحيحةً من كلِّ وجهٍ مهرٌ، ولا تزيد على نصفِ مهرِ المثل، ولا تنقصُ عن خمسة دراهم، فإن ساوت النصف فهي الواجبة، وإن كان النصف أقلَّ منها فالواجبُ الأقلُّ إلَّا أن ينقص عن خمسة دراهم فيكمل لها الخمسة. وفي «البدائع»: لو دفع لها قيمة

= على هذا الوزن والروي، وقد زعم العيني أن البيت من هذه القصيدة، وتبعه السيوطي وغيره، وعندي ثلاث نسخ من ديوان عروة المذكور، وقد راجعت الثلاث فلم أجده في واحدة منهن. وقوله: الأُسى بضم الهمزة جمع أسوة، وهي التأسي والاقتداء بالغير، وما يتأسى به الحزين ويتعزَّى.

(١) البحر ٧/ ٢٤٠.

(٢) بدائع الصنائع ٣/ ٥٤٥.

(٣) أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني الفقيه الحنفي المحدث، له كتاب الحيل، وكتاب الشروط الكبير، وأدب القاضي، وغيرها، ويذكر عنه زهد وورع، وأنه كان يأكل من صنعته، توفي ببغداد سنة (٢٦١هـ). سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٢٣. وكلامه وكذا كلام فخر الإسلام والبرجندي في حاشية ابن عابدين ٣/ ١١٠-١١١.

المتعة أُجبرت على القبول[1]. فمعنى الآية على ما سمعتَ وكان الأمر للوجوب: فمتِّعوهن إن لم يكن مفروضاً لهنَّ في النكاح، وروي هذا عن ابن عباس.

وأما المفروضُ لها فيه إذا طلِّقت قبل المسِّ فالواجبُ لها نصفُ المفروض لا غير، وأما المتعة فهي على ما في «المبسوط» و«المحيط» وغيرهما من المعتبرات مستحبةٌ، وعلى ما في بعض نسخ القدوري ومشى عليه صاحب «الدرر» غير مستحبَّةٍ أيضاً، والأرجحُ أنها مستحبَّةٌ، وفي قول الشافعي القديم أنها واجبةٌ كما في صورة عدم الفرض[2].

وجوِّز أن تبقى الآيةُ على ظاهرها، ويكونَ المراد ذِكْرُ حكم المطلَّقة قبل المسِّ سواءٌ فرض لها في النكاح أم لم يفرض، ويراد بالمتعة العطاء مطلقاً فيعمُّ نصفَ المفروض والمتعةَ المعروفة في الفقه، ويكون الأمر للوجوب أيضاً، أو يراد بالمتعة معناها المعروفُ ويحمل الأمر على ما يشمل الوجوب والندب.

وادَّعى سعيد بن المسيب كما أخرج عبد بن حميد أنَّ الآية منسرحةٌ بآية «البقرة»: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [الآية:٢٣٧] قال: فصار لها نصفُ الصَّداق ولا متاع لها[3].

وأنكر الحسن وأبو العالية النسخَ وقالا: لها نصفُ الصَّداق ولها المتاع.

وجاء في رواية أخرى أخرجها عبد بن حميد عن الحسن أيضاً أنَّ لكلِّ مطلَّقةٍ متاعاً، دَخَلَ بها أم لم يدخل بها، فَرَضَ لها أو لم يَفْرِضْ[4]. وظاهرُه دعوى الوجوب في الكلِّ، وهو خلافُ ما عندنا، وقد علمتَ الحكم في صورتين، وهو في الصورتين الباقيتين الاستحباب، وأما دعوى النسخ فلا يَخْفَى ما فيها.

والظاهرُ أنَّ الفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها، وقيل: فصيحة، أي: إذا كان كما ذكر فمتِّعوهنَّ.

---

(١) بدائع الصنائع ٣/٥٤٦.

(٢) حاشية ابن عابدين ٣/١١١.

(٣) الدر المنثور ٥/٢٠٧، وأخرجه أيضاً الطبري ٤/٢٩٦-٢٩٧ و١٩/١٢٩.

(٤) الدر المنثور ٥/٢٠٧.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أي: أخرجوهنَّ من منازلكم إذ ليس لكم عليهنَّ عدَّةٌ.

وأصل التسريح أن ترعى الإبلُ السرح، وهو شجرٌ له ثمرةٌ، ثم جُعل لكلِّ إرسالٍ في الرعي، ثم لكلِّ إرسالٍ وإخراج.

﴿سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ مشتملاً على كلام طيِّبٍ، عارياً عن أذى ومنعِ واجبٍ. وقيل: السراح الجميل أن لا يطالبوهنَّ بما آتَوْهنَّ.

وقال الجبائي: هو الطلاق السنِّي. وليس بشيءٍ؛ لأن ذاك لعَطْفِه على التمتيع الواقع بعد الفاء مرتَّبٌ على الطلاق، فيلزم ترتُّبُ الطلاق السنيِّ على الطلاق، والضميرُ لغير المدخول بهنَّ، فلا يمكن أن يكون ذلك طلاقاً مرتَّباً على الطلاق الأول؛ لأنَّ غير المدخول بهنَّ لا يتصوَّر فيها لحوقُ طلاقٍ بعد طلاقٍ آخر مع أنها إذا طلِّقت بانت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مُهورَهنَّ كما قال مجاهد وغيره. وأُطلق الأجرُ على المهر لأنه أجرٌ على الاستمتاع بالبضع وغيره مما يجوزُ به الاستمتاع، وتقييدُ الإحلال له بإعطائها معجَّلةً كما يُفْهَمُ من معنى «آتيت» ظاهراً، ليس لتوقُّف الحلِّ عليه بل لإيثار الأفضل له ﷺ؛ فإنَّ في التعجيل براءةُ الذمة وطِيبُ النفس، ولذا كان سنَّةَ السَّلَفِ لا يُعرف منهم غيره.

وقال الإمام: من الناس من قال بأنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه إعطاءُ المهر أوَّلاً، وذلك لأنَّ المرأة لها الامتناعُ من تسليم نفسها إلى أن تأخذ المهر، والنبيُّ ﷺ ما كان يستوفي ما لا يجب له، والوطءُ قبل إيتاء الصَّدَاق غيرُ مستَحَقٍّ وإن كان حلالاً، وكيف والنبيُّ عليه الصلاة والسلام إذا طلب شيئاً حرم الامتناع، فلو طَلَبَ التمكينَ قبل إيتاء المهر لزم أن يجب وأن لا يجب وهو محالٌ، ولا كذلك أحدنا[١]. اهـ، وفيه بحثٌ لا يخفى.

وحَمْلُ الإيتاء على الإعطاء وما في حكمه كالتسمية في العقد، وجَعْلُ التقييد لإيثار الأفضل أيضاً فإنَّ التسمية أَوْلَى من تَرْكِها وإن جاز العقد بدونها ولزم مهرُ المثل = خلافُ الظاهر.

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٢٠.

واستدلَّ أبو الحسن الكرخيُّ من أصحابنا بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ على أنَّ النكاح ينعقدُ بلفظ الإجارة كما ينعقد بلفظ التزويج، ويكون لفظُ الإجارة مجازاً عنه؛ لأنَّ الثابت بكلٍّ منهما ملكُ منفعةٍ، فوجد المشترك.

ورُدَّ بأنه لا يلزم من تسمية المهر أجراً صحةُ النكاح بلفظ الإجارة، وما ذكر من التجوُّز ليس بشيءٍ؛ لأن الإجارة ليست سبباً لملك المنفعة حتى يتجوَّز بها عنه؛ قاله في «الهداية»[1].

وقال بعضهم: إنَّ الإجارة لا تنعقد إلا مؤقَّتةً، والنكاحُ يُشترَطُ فيه نفيُه، فيتضادَّان، فلا يُستعارُ أحدهما للآخر.

وتعقِّب بأنه إن كان المتضادَّان هما العَرَضين اللذين لا يجتمعان في محلٍّ واحدٍ لزمكم مثله في البيع من كونه لا يجامع النكاح مع جواز العقد به عند الأصحاب، على أنَّ التحقيق أن التوقيت ليس مفهومَ لفظ الإجارة ولا جزءاً منه بل شرط لاعتباره فيكون خارجاً عنه، فهو مجرَّدُ تمليك المنافع بعوضٍ، غير أنه إذا وقع مجرَّداً لا يعتبر شرعاً، على مثال الصلاة، فإنها الأقوالُ والأفعال المعروفة، ولو وجدت من غير طهارةٍ لا تعتبر، ولا يقال: إن الطهارة جزءُ مفهوم الصلاة[2].

هذا ومثلُ تقييدِ إحلالِ الأزواج بما ذكر ـ على ما قيل ـ تقييدُ إحلال المملوكة بكونها ممن باشر سباءها، وشاهِدُه في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ فإنَّ المشتراة لا يتحقَّقُ بدءُ أمرها وما جرى عليها؛ لجواز كون السبي ليس في محلِّه، ولذا نكح بعضُ المتورِّعين الجواري بعقدٍ بعد الشراء مع القول بعدم صحة العقد على الإماء.

واستشكل ذلك بمارية بنت شمعون القبطية ﵂، فإنها لم تكن مسبيَّةً بل أهداها له ﷺ أميرُ القِبْط جريج بن مينا صاحبُ الإسكندرية ومصر.

وأجيب بأنَّ هذا غير واردٍ؛ لأنَّ هدايا أهل الحرب للإمام لها حكمُ الفيء[3].

---

(١) الهداية مع فتح القدير ٣/ ٣٤٩.

(٢) فتح القدير ٣/ ٣٤٩.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ١٧٩.

وقد يقال: إنه يستشكل بسُرِّيَّةٍ له ﷺ أخرى، وهي جاريةٌ وهبتها له عليه الصلاة والسلام زينب بنتُ جحش رضي الله عنها، وكان هجرها عليه الصلاة والسلام في شأن صفية بنت حييٍّ ذا الحجة والمحرَّم وصفر، فلمَّا كان شهر ربيع الأول الذي قبض فيه رضي عنها ودخل عليها فقالت: ما أدري ما أجزيك. فوهبتها له. وقد عدُّوها من سراريه ﷺ، والجوابُ المذكورُ لا يتسنَّى فيها.

ولعل الجواب عن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام تسرَّاها بياناً للجواز، ولا يبعُدُ أنه كان متحقِّقاً بدءَ أمرها وما جرى عليها، بحيث كأنه باشر سَبْيَها وشاهَدَه، ويحتمل أنها كانت ممَّا أفاء الله تعالى عليه عليه الصلاة والسلام فملكتْها زينب ببعض أسباب الملك، ثم وهبتها له ﷺ.

ومع ذلك قد أُطلق له عليه الصلاة والسلام حِلُّ المملوكة بعدُ، ولم يقيَّد بحسب الظاهر بكونها ممَّا أفاء الله عليه، في قوله تعالى: (لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ).

ثم إنَّ هبة هذه الجارية كانت شَهْرَ وفاته ﷺ، والآيةُ نزلت قبلُ لأنها نزلت إما سَنَةَ الأحزاب وهي السنة الخامسة من الهجرة، وإما بُعيد الفتح وهو السنةُ الثامنة منها، وعلى هذا يكون ما وقع من أمر مارية متقدِّماً على نزول الآية لأنها أُهديت له ﷺ السنةَ السابعة من الهجرة، فإنه عليه الصلاة والسلام فيها أرسل رُسُلَه إلى الملوك ومنهم حاطب بن أبي بلتعة اللخمي أرسله إلى المقوقس أميرِ القبط المتقدِّم ذكرهُ، فقدِم منه بمارية وبأختها شيرين، وبأخٍ أو بابنِ عمٍّ لها خصيٍّ يقال له: مابور، وببغلةٍ تسمَّى دُلْدُلاً، وبحمارٍ يسمَّى يعفوراً أو عفيراً، وبألفِ مثقالٍ ذهباً، وبغير ذلك فتدبَّر.

ومثلُ ما ذكر ـ على ما قيل ـ تقييدُ القرائب بكونها مهاجراتٍ معه ﷺ في قوله سبحانه: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فهنَّ أفضلُ من غيرهنَّ، والمعيَّة للتشريك في الهجرة لا للمقارنة في الزمان كـ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [النمل: ٤٤]. قال أبو حيان: يقال: دخل فلان معي وخرج معي، أي: كان عملُه كعملي وإن لم يقترنا في الزمان، ولو قلت: خرجنا معاً

اقتضى المعنيين: الاشتراكَ في الفعل، والاقترانَ في الزمان[1]. وهو كلامٌ حسنٌ.

وحكى الماورديُّ[2] قولاً بأنَّ الهجرة شرطٌ في إحلال الأزواج على الإطلاق، وهو ضعيفٌ جدًّا. وقولاً آخر بأنها شرط في إحلال قراباته عليه الصلاة والسلام المذكورات، واستدلَّ له بما أخرجه ابن سعد، وعبد بن حميد، والترمذيُّ وحسنه، وابنُ جرير، وابن أبي حاتم، والطبرانيُّ، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، والبيهقيُّ، عن أمِّ هانىء فاختةَ بنتِ أبي طالب قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه فعذرني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحِلُّ له لأنّي لم أهاجر معه، كنتُ من الطلقاء[3].

وأجيب بأنَّ عدم الحِلِّ لفَقْدِ الهجرة إنما فُهم من قول أمِّ هانىء، فلعلها إنما قالت ذلك حَسبَ فهمها إياه من الآية، وهو لا ينتهضُ حجةً علينا إلا إذا جاءت به روايةٌ عن النبيِّ ﷺ.

لا يقال: إنه أخرج ابن سعد عن أبي صالح مولى أمِّ هانئ قال: خطب رسول الله ﷺ أمَّ هانىء بنتَ أبي طالب، فقالت: يا رسول الله إنّي مُؤْتِمَةٌ وبنيَّ صغار. فلمَّا أدرك بنُوها عرضت نفسها عليه عليه الصلاة والسلام فقال: «أمَّا الآن فلا، إنَّ الله تعالى أنزل عليَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلى ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾»[4]. ولم تكن من المهاجرات، وهو يدلُّ على أنه نفسَه ﷺ فهم الحرمة وإلا لتزوَّجها.

لأنَّا نقول بعد تسليم صحة الخبر: لا نسلِّم أنه ﷺ فهم الحرمة، وعدمُ التزوُّج يجوزُ أن يكون لكونه خلافَ الأفضل.

---

(١) البحر ٧/ ٢٤١.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٤١٤.

(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ١٥٣، وسنن الترمذي (٣٢١٤)، وتفسير الطبري ١٩/ ١٣٠-١٣١، والمعجم الكبير ٢٤/ (١٠٠٧)، والمستدرك ٢/ ٢٤٠، وسنن البيهقي ٧/ ٥٤، وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٢٠٨. قال ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٤١: وهو ضعيف جداً، ولم يأتِ هذا الحديث من طريق صحيح يحتج بها.

(٤) طبقات ابن سعد ٨/ ١٥٣. وأبو صالح مولى أم هانئ ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

ويدلُّ خبر أمِّ هانئ على أنَّ هذه الآية نزلت بعد الفتح، فلا تغفل.

وادَّعى بعضُهم أنَّ تحريم نكاح غير المهاجرة عليه ﷺ كان أولاً ثم نسخ. وعن قتادة أنَّ معنى «هاجَرْنَ معك»: أسلمن معك. قيل: وعلى هذا لا يحرُم عليه عليه الصلاة والسلام إلا الكافرات، وهو في غاية البُعْدِ كما لا يخفى.

والظاهر أنَّ المراد بأزواجك اللاتي آتيت مهورهنَّ نساؤه ﷺ اللاتي كنَّ في عصمته وقد آتاهنَّ مهورهنَّ، كعائشة وحفصة وسودة، وبما ملكت يمينُك ممَّا أفاء الله عليك نحوُ ريحانةَ بناءً على ما قاله محمد بن إسحاق أنه ﷺ لمَّا فتح قريظةَ اصطفاها لنفسه فكانت عنده حتى توفِّيتْ عنده وهي في ملكه(١).

ووافقه في ذلك غيره؛ أخرج الواقديُّ بسنده إلى أيوب بن بشير قال: إنه عليه الصلاة والسلام أرسل بها إلى بيت سلمى بنت قيس أمِّ المنذر، فكانت عندها حتى حاضت حيضةً، ثم طَهُرتْ من حيضها، فجاءت أمُّ المنذر فأخبرته ﷺ، فجاءها في منزل أمِّ المنذر فقال لها: «إن أحببتِ أن أُعتقكِ وأتزوَّجَكِ فعلتُ، وإن أحببت أن تكوني في ملكي أطؤك بالملك فعلتُ» فقالت: يا رسول الله، أحبُّ أن أخفَّ عليك، وأن أكون في ملكك. فكانت في ملك رسول الله ﷺ يطؤها حتى ماتت(٢).

وذهب بعضهم إلى أنه عليه الصلاة والسلام أعتقها وتزوَّجها، وأخرج ذلك الواقديُّ أيضاً عن ابن أبي ذئب عن الزهريِّ ثم قال: وهذا الحديث أثبتُ عندنا(٣).

وروي عنها أنها قالت: لمَّا سُبيتْ بنو قريظةَ عُرِضَ السبي على رسول الله ﷺ، فكنتُ فيمَن عُرِضَ عليه، فأمر بي فعُزِلتُ، وكان له صفيُّ كلِّ غنيمةٍ، فلمَّا عُزِلْتُ خَارَ الله تعالى لي فأرسل بي إلى منزل أمِّ المنذر بنت قيس أياماً حتى قتل الأسرى وفرَّق السبي، فدخل عليَّ ﷺ فتجنَّبتُ منه حياءً، فدعاني فأجلسني بين يديه فقال: «إن اخترتِ الله ورسوله اختارك رسولُ الله لنفسه» فقلت: إني أختار الله تعالى ورسوله. فلمَّا أسلمتُ أعتقني رسول الله ﷺ وتزوَّجني وأَصْدَقَني اثنتي عشرةَ أوقيةً

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٥.

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٥٢١.

(٣) المصدر السابق.

ذهباً كما كان يُصْدِقُ نساءه، وأعرس بي في بيت أمِّ المنذر، وكان يقسم لي كما يقسم لنسائه، وضرب عليَّ الحجاب[١].

ولم يذكر ابنُ الأثير غيرَ القول بإعتاقها وتزوُّجها[٢]. ومنهم مَن ذهب إلى أنها أسلمت فأعتقها عليه الصلاة والسلام فلحقت بأهلها وكانت تحتجبُ عندهم وتقول: لا يراني أحدٌ بعد رسول الله ﷺ، وحُكي لحوقُها بأهلها عن الزهريِّ[٣].

وادَّعى بعضهم بقاءها حيَّةً بعده عليه الصلاة والسلام، وأنها توفِّيت سنة ستَّ عَشْرةَ أيامَ خلافة عمر رضي الله عنه[٤].

وذكر ابن كمال في تفسيره لبيان الموصول صفية وجويرية. والمذكورُ في أكثر المعتبرات في أمرهما أنَّ صفية لمَّا جمع سبي خيبر أخذها دحيةُ وقد قال له ﷺ: «اذهب فخذ جاريةً» ثم أُخبر عليه الصلاة والسلام أنها لا تصلح إلا له لكونها بنتَ سيدِ قومه، فقال لدحية: «خذ غيرها»، وأخذها رسول الله ﷺ وأعتقها وتزوَّجها، وكان صَداقُها نَفْسَها[٥].

وأنَّ جويريةَ في غزوة بني المصطلق وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاريِّ، فكاتبته على نفسها ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنا جويريةُ بنت الحارث، وكان من أمري ما لا يخفَى عليك، ووقعتُ في سهم ثابت بن قيس، وإنِّي كاتبتُ نفسي فجئتُ أسألك في كتابتي. فقال عليه الصلاة والسلام: «فهل لك إلى ما هو خير»؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أؤدِّي عنك كتابتك وأتزوَّجُك» قالت: قد فعلتُ[٦].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ١٢٩.

(٢) كذا نقل المصنف عن القسطلاني في المواهب اللدنية، والذي في الكامل لابن الأثير أن رسول الله ﷺ حين أراد أن يتزوجها قالت: اتركني في ملكك فهو أخف عليَّ وعليك. ينظر شرح المواهب للزرقاني ٣/ ٢٧٣، والكامل لابن الأثير ٢/ ٣٠٩.

(٣) قطعة من الخبر الذي أخرجه الواقدي عن ابن أبي ذئب عن الزهري، وفيه: فأعتقها وتزوَّجها، وكانت تحتجب في أهلها وتقول: لا يراني...، وقد سلف تخريجه قريباً.

(٤) تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي ص ٢٣، والبداية والنهاية ٨/ ٢٣٢-٢٣٣..

(٥) أخرجه البخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦) أخرجه أحمد (٢٦٣٦٥)، وأبو داود (٣٩٣١) عن عائشة رضي الله عنها.

وقال ابن هشام: ويقال: اشتراها ﷺ من ثابتٍ وأعتقها وتزوَّجها وأَصْدَقَها أربعَ مئة درهم(١).

ولا يخفى عليك أنه إذا كان المراد إحلالَ ما ملكت يمينه ﷺ حين الملك من حيث إنه ملكٌ له وإن لم يحصل وطءٌ بالفعل، يدخل جميع ما ملكه عليه الصلاة والسلام من الجواري حين الملك، ولا يضرُّ الإعتاق والتزوُّجُ بعد ذلك، وحلُّ الوطء بسبب النكاح لا الملك، وإن كان المراد إحلالَ ذلك مع وقوع الوطء بالفعل ووَصْفُ الملك قائمٌ، لا يصحُّ بيانُ الموصول إلا بمملوكةٍ وطئها عليه الصلاة والسلام وهي ملكه، كريحانة في قولٍ، وجاريةٍ أصابها في بعض السبي وعدُّوها من سراريه ﷺ ولم يذكر المعظَمُ اسمها، وعدَّ الچلبي من سراريه عليه الصلاة والسلام جاريةً سماها: زليخة القرظية، فلعلها هي التي لم تُسمَّ، وكمارية القبطية، والجاريةِ التي وهبتها له عليه الصلاة والسلام زينب، وقد سمعتَ الكلام فيهما آنفاً.

والمراد ببنات عمِّه وبناتِ عمَّاته بناتُ القرشيين وبناتُ القرشيات، فإنه يقال للقرشيين قَرُبوا أو بَعُدوا أعمامه ﷺ، وللقرشيات قَرُبْنَ أو بَعُدْنَ عمَّاته عليه الصلاة والسلام، والمراد ببنات خاله وبنات خالاته بناتُ بني زهرة ذكورِهم وإناثهم، وإلى هذا ذهب الطبرسيُّ في «مجمع البيان» ولم يذكر غيرَه(٢).

وإطلاقُ الأعمام والعمات على أقارب الشخص من جهة أبيه ذكوراً وإناثاً قربوا أو بعدوا، والأخوال والخالات على أقاربه من جهة أمِّه كذلك، شائعٌ في العرف كثيرٌ في الاستعمال.

واللاتي نكحهنَّ ودخل بهنَّ ﷺ من القرشيات ستٌّ، وكان نكاحُه بعضَهنَّ قبل نزول الآية بيقينٍ، ونكاحُه بعضَهنَّ الآخَرَ محتمِلٌ للقَبْلية والبَعْدية كما لا يخفى على مَن راجع كتب السِّير، وسمع ما قيل في وقت نزول الآية.

ولم نقف على أنه عليه الصلاة والسلام نكح أحداً من الزهريات أصلاً، فالمراد بإحلال نكاح أولئك مجرَّدُ جوازه، وهو لا يستدعي الوقوع.

---

(١) ينظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٥-٢٩٦، ونقل المصنف كلام ابن هشام بواسطة القسطلاني في المواهب اللدنية كما في شرح المواهب للزرقاني ٣/ ٢٥٥.

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ١٥٤.

وإذا حمل العمُّ على أخي الأب، والعمةُ على أخته، والخالُ على أخي الأم، والخالةُ على أختها، اقتضى ظاهرُ الآية أن يكون له ﷺ عمٌّ وعمةٌ وخالٌ وخالةٌ كذلك، وأن يكون لهم بنات، وذلك مشهورٌ في شأن العمِّ والعمَّة وبناتهما، فقد ذكر معظمُ أهل السير عدَّة أعمام له ﷺ وعدَّةَ بناتٍ لهم: كالعباس ومن بناته أمُّ حبيبةَ[1] تزوَّجها أسود المخزوميُّ[2]، وكان قد خطبها رسول الله ﷺ على ما قيل فوجد أباها أخاه من الرضاعة، كان قد أرضعتهما ثويبةُ مولاةُ أبي لهب.

وكأبي طالب ومن بناته أمُّ هانئ وقد سمعتَ ما قيل في شأنها، وجمانةُ كانت إحدى المبايعات له ﷺ، وكانت تحت أبي سفيان بن الحارث عمِّها.

وكأبي لهب ومن بناته خالدةُ تزوَّجها عثمان بن أبي العاصي الثقفيُّ وولدت له، ودرَّةُ أسلمت وهاجرت وكانت تحت الحارث بن نوفل، ثم تحت دحية الكلبي، وعزةُ تزوَّجها أوفى بن أمية.

وكالزبير ومن بناته ضباعةُ زوجة المقداد بن الأسود، وأمُّ الحكم ويقال: إنها أختُه عليه الصلاة والسلام من الرضاعة، وكان يزورها بالمدينة.

وكحمزة ومن بناته أمامةُ، لمَّا قدم رسول الله ﷺ من عمرة القضاء أتى بها من مكة وزوَّجها سلمة بن أمِّ سلمة، ومقتضى قول القسطلاني: إنَّ حمزة أخوه ﷺ من الرضاعة أرضعتهما ثويبةُ بلبن ابنها مسروح[3]، أنها لا تحلُّ له عليه الصلاة والسلام، بل ذكر هو أيضاً أنها عُرضت عليه فقال: «هي ابنةُ أخي من الرضاعة»[4].

وكالحارث ومن بناته أروى زوجةُ أبي وداعة.

---

(١) أو: أم حبيب، وهو الأشهر، وأمها أم الفضل، فهي شقيقة الفضل وعبد الله. الإصابة ١٣/ ١٩١.

(٢) ابن سفيان بن عبد الأسد بن هلال، وهو ابن أخي أبي سلمة بن عبد الأسد زوج أم سلمة، وذكر الزبير أن أباه سفيان قتل يوم بدر كافراً، قتله حمزة رضي الله عنه. الإصابة ١/ ٦٩.

(٣) شرح المواهب للزرقاني ٣/ ٢٩٢.

(٤) شرح المواهب ٣/ ٢٧٠، والحديث أخرجه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه مسلم (١٤٤٦) من حديث علي رضي الله عنه، و(١٤٤٨) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

وكالمُقَوّم[١] ومن بناته مَن اسمها أروى أيضاً زوجة ابن عمها أبي سفيان بن الحارث.

وذكروا أيضاً له ﷺ عدَّة عمَّاتٍ وعدَّة بناتٍ لهنَّ:

منهن أميمةُ، ومن بناتها زينب أمُّ المؤمنين، وهي التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وأمُّ حبيبة وكانت زوجةَ عبد الرحمن بن عوف، وحَمْنَةُ وكانت عند مصعب بن عمير، ثم عند طلحةَ أحدِ العشرة.

ومنهنَّ البيضاء، ومن بناتها أروى أمُّ عثمان ﷺ وأمُّ طلحة بنتا كريز بن ربيعة.

ومنهنَّ عاتكة، ومن بناتها قريبةُ بنت زاد الراكب أبي أمية بن المغيرة.

ومنهنَّ صفيةُ، ومن بناتها صفيةُ بنت الحارث بن حارثة، وأمُّ حبيبة بنت العوامِّ بن خويلد.

وأما الخال والخالة فلم يَشْتَهِرْ ذكرُهما، نعم ذكر في «الإصابة» فريعة بنت وهب الزهرية، رفعها النبيُّ ﷺ وقال: «من أراد أن ينظر إلى خالة رسول الله ﷺ فلينظر إلى هذه»[٢].

وفيها أيضاً فاختة بنت عمرو الزهرية خالةُ النبيِّ ﷺ؛ أخرج الطبراني من طريق عبد الرحمن بن عثمان الوقاصيِّ، عن ابن المنكدر، عن جابر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «وهبتُ خالتي فاختةَ بنتَ عمرو غلاماً، وأمرتُها أن لا تجعله جازراً ولا صائغاً ولا حجَّاماً» والوقاصي ضعيف[٣].

وقال في صفية بنت عبد المطلب: هي شقيقة حمزةَ، أمُّهما هالةُ خالةُ رسول الله ﷺ[٤]. أي: هالة بنت وهب كما في «المواهب»[٥]، ولم نقف لهذه

---

(١) بضم الميم وفتح القاف وشدِّ الواو مفتوحة ومكسورة، ويكنى أبا بكر، وهو شقيق حمزة. شرح المواهب ٣/ ٢٧٥.

(٢) الإصابة ١٣/ ٩٠، وذكره ابن حبان في الثقات ٣/ ٣٣٧.

(٣) الإصابة ١٣/ ٦٥-٦٦، والحديث في المعجم الكبير ٢٤/ (١٠٧٣).

(٤) الإصابة ١٣/ ١٨ وفيه: صفية بنت عبد المطلب... وهي شقيقة حمزة أمها هالة بنت وهب. ولم يذكر فيه أن هالة هي خالة النبي ﷺ.

(٥) الذي في المواهب: هالة بنت وهيب، فذكر الزرقاني أن وهباً ووهيباً هما ابنا

الخالة على بنتٍ غيرِ صفية عمتِه عليه الصلاة والسلام، وكذا لم نقف على بناتٍ لمن ذكرنا قبلها.

ووقفنا على خالٍ واحدٍ له عليه الصلاة والسلام، وهو عبد يغوث بن وهب، ولم نقف على بنتٍ له، وإنما وقفنا على ابنين:

أحدُهما: الأرقم، وله ابنٌ يسمَّى عبد الله، وهو صحابيٌّ كَتَبَ لرسول الله ﷺ ولصاحبيه، وكان على بيت المال في خلافة عمر رضي الله عنه، وكان أثيراً عنده حتى إنَّ حفصة روت عنه أنه قال لها: لولا أن يُنْكِرَ عليَّ قومُك لاستخلفتُ عبد الله بنَ الأرقم[1]. وقيل: هو ابن عبد يغوث والأرقم هو عبد يغوث. والبخاريُّ على ما قلنا[2]، وقد أسلم يومَ الفتح، وقال بعضهم فيه: خال رسول الله ﷺ. ومن الناس من ذكر لعبد الله هذا أخاً سماه عبد الرحمن بن الأرقم وأثبت له الصحبة، وفي ذلك مقال.

وثانيهما: الأسود، وأطلق عليه النبيُّ عليه الصلاة والسلام اسم الخال، فقد روي أنه كان أحدَ المستهزئين به ﷺ فقصد جبريلُ عليه السلام إهلاكَه فقال ﷺ: «يا جبريل خالي» فقال: دعه عنك[3]. وله ابنٌ هو عبد الرحمن، وبنتٌ هي خالدة، وكانت من المهاجرات الصالحات، وقد أطلق عليها أيضاً اسم الخالة؛ أخرج المستغفري من طريق أبي عمير الجرميِّ، عن معمر، عن الزهريِّ، عن عبيد الله مرسلاً قال: دخل النبيُّ ﷺ منزله فرأى عند عائشة امرأةً فقال: «مَن هذه يا عائشة» قالت: هذه إحدى خالاتك. فقال: «إن خالاتي بهذه البلدة لغرائب» فقالت: هذه خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث. فقال: «سبحان الذي يُخرج الحيَّ من الميت» فرآها مُثْقلةً[4].

= عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فأمُّ حمزة وأمُّ النبي ﷺ كلٌّ منهما بنت عمِّ أمِّ الآخر. شرح المواهب ٣/ ٢٧٥.

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الصغير ١/ ٦٧، وهو في الإصابة ٦/ ٤.

(٢) التاريخ الكبير للبخاري ٥/ ٣٢، والإصابة ٦/ ٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة كما في الدر المنثور ٤/ ١٠٨.

(٤) الإصابة ١٢/ ٢١١. وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٥/ (٢٤٨)، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٢٦ و٤/ ١٣٥١، وابن بشكوال في غوامض الأسماء المبهمة ١/ ٢٢٦ من طريق معمر به. =

وأخرج [الواقدي عن] موسى بن [محمد بن] إبراهيم، عن أبيه، عن أبي سلمة، عن عائشة موصولاً نحوه(١).

وفي هذا الخبر وما قبله إطلاقُ الخال والخالة على قرابة الأمِّ وإن لم يكن الخالُ أخاها والخالةُ أختَها، وبذلك يتأيَّد ما ذكرناه سابقاً، فاحفظ ذاك والله تعالى يتولَّى هُداك، وإياك أن تظنَّ الأمر فرضيّاً، أو أنَّ الخطاب وإن كان خاصًّا في الظاهر عامٌّ في الحقيقة، فيكفي وجود بنات خالٍ وبناتِ خالاتٍ لغيره عليه الصلاة والسلام كما يظنُّ ذلك مَن يشهد العمُّ بجهله ويصدِّقُ الخال بقلَّةِ عقله.

هذا وقد كثر السؤال عن حكمة إفراد العمِّ والخال، وجمعِ العمَّة والخالة، حتى إنَّ السبكي ـ على ما قيل ـ صنَّف جزءاً فيه سماه: «الهمة في إفراد العمِّ وجمعِ العمة»(٢).

قال الخفاجي: وقد رأيتُ لهم فيه كلماتٍ ضعيفةً، كقول الرازي: إنَّ العمَّ والخال على زنة المصدر ولذا لم يجمعا، بخلاف العمة والخالة.

وقيل: لم يُجْمَعا ليعمَّا إذا أُضيفا، والعمَّةُ والخالةُ لا يعمَّان لتاء الوحدة، وهي إنْ لم تمنع العمومَ حقيقةً تأباه ظاهراً، ولا يأبى ذلك قولُه تعالى في سورة النور: ﴿بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ﴾ [الآية:٦١] لأنه على الأصل.

ثم قال: وأحسنُ منه ما قيل: إن أعمامه ﷺ العباسُ وحمزةُ رضي الله عنهما أخواه من الرضاع لا تحلُّ له بناتُهما، وأبو طالب ابنتُه أمُّ هانئ لم تكن مهاجرةً(٣). اهـ.

= وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ١١٧-١١٨ عن معمر عن الزهري أن النبي ﷺ دخل على بعض نسائه فإذا عندها امرأة. . .، وفي الإصابة ١٠/ ٢١١: هذا أصح طرقه. اهـ.
ووقع في (م): قرأها مثقلة، والمثبت من الأصل والإصابة، ولم نقف على هذه العبارة في باقي المصادر.
وعلى هذا الحديث تكون الخالة قد أطلقت على بنت ابن خال النبيِّ ﷺ، كما ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب ١٢/ ٢٦٨.

(١) الإصابة ١٢/ ٢١١، وما بين حاصرتين منه.
(٢) ذكره الشهاب في الحاشية ٧/ ١٧٩، وعنه نقل المصنف.
(٣) حاشية الشهاب ٧/ ١٧٩.

وما ادَّعى ضَعْفَه فهو كما قال، وما زَعَم أنه أحسنُ منه إن كان كما نقلناه بهذا المقدار خالياً عن إسقاط شيءٍ حسبما وجدناه في نسختنا فهو ممَّا لا حُسْنَ فيه فضلاً عن كونه أحسن، وإن كان له تتمةٌ فالنظر فيه بعد الاطّلاع عليها إليك، وأظنه على العلّات ليس بشيء.

وقال بعض الأجلَّة[1] المعاصرين من العلماء المحقِّقين، لازال سعيدَ زمانه، سابقاً بالفضل على أقرانه: يحتمل أن يكون إفرادُ العمِّ لأنه بمنزلة الأب، بل قد يطلق عليه الأبُ، ومنه في قولٍ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] والأب لا يكون إلا واحداً، فكان الإفراد أنسبَ بمن ينزل منزلته، ويكون جمع العمَّة على الأصل، وإفرادُ الخال ليكون على وفق العمِّ، وجمعُ الخالة وإن كانت بمنزلة الأمِّ لتكون على وفق العمَّات. ويحتمل أن يكون إفراد المذكَّر وجمعُ المؤنَّث لقلة الذكور وكثرة الإناث، وقد ورد في الآثار ما يدلُّ على أنَّ النساء أكثر من الرِّجال.

وقال آخرُ من أولئك الأجلَّة، لازالت مدارسُ العلم تزهو به وتشكر فضله: إنَّ ذلك لِمَا فيه من الحسن اللفظي، فإنَّ بين العمِّ والعمَّات والخالِ والخالات نوعاً من الجناس، ولأنَّ أعمامه عليه الصلاة والسلام كانوا على ما ذكره صاحب «ذخائر العقبى» اثني عشر عمّاً، وعمَّاته كنَّ ستاً[2]، فلو قيل: أعمامك، لتوهُّم أنهم أقلُّ من اثني عشر لأنه جمع قلَّة، وغايةُ ما يَصْدُقُ هو عليه تسعةٌ أو عشرة على قول، ولو قيل: عمتك، لم تتحقَّق الإشارة إلى قلَّتهنَّ، فلذا أفرد العمُّ وجُمعت العمَّة، وقيل: «خالك» و«خالاتك» ليوافق ما قبل.

وأنا أقول: الذي يغلب على ظنِّي في ذلك ما حكاه أبو حيان عن القاضي أبي بكر بن العربي من أنَّ ما ذكر عرفٌ لُغويٌّ[3]، على معنى أنه جرى عرفُ اللُّغويين في مثل ذلك على إفراد العمِّ والخال وجمعِ العمة والخالة، ونحن قد تتبَّعنا

---

(١) في الأصل: أجلة.

(٢) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى لمحب الدين الطبري ص ١٧١ و٢٥٠.

(٣) البحر ٧/ ٢٤١، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٤-١٥٤٥. وقوله: عرف، تحرف في مطبوع البحر إلى: حرف.

كثيراً من أشعار العرب فلم نَرَ العمَّ مضافاً إليه ابن أو بنت بالإفراد أو الجمع إلا مفرداً نحو قوله:

جاء شقيقٌ عارضاً رُمْحَه إنَّ بني عمِّك فيهم رماح(١)

وقوله:

فتًى ليس لابن العمِّ كالذئب إن رأى بصاحبه يوماً دماً فهو آكلُه(٢)

وقوله:

قالت بنات العمِّ يا سلمى وإن كان فقيراً معدماً قالت وإن(٣)

وقوله:

يا ابنةَ عمَّا لا تلومي واهجعي فليس يخلو عنكِ يوماً مضجعي(٤)

إلى ما لا يُحْصَى كثرةً.

وأما اطِّرادُ إفراد الخال وجمعِ العمَّة والخالة إذا أضيف إليها ما ذكر فلستُ على ثقةٍ من أمره، فإذا كان الأمر في المذكورات كالأمر في العمِّ فليس فوق هذا الجواب جوابٌ، والظنُّ بالقاضي أنه لم يحكم بما حكم إلا عن بينةٍ، مع أنِّي لا أطلِقُ القولَ بعدم قبول حكم القاضي بعلمه ولا أفتي به، نعم لهذا القاضي حكمٌ مشهورٌ في أمر الحسين ﷺ ولَعَنَ مَن رضي بقتله، لا يرتضيه إلا يزيدُ، زادَ الله عز وجل عليه عذابه الشديد.

---

(١) البيت لحَجْل بن نَضْلة كما في المؤتلف والمختلف للآمدي ص ١١٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٥٨٠. قال الآمدي: يعني شقيق بن جزء بن رياح أحد بني قتيبة بن معن.

(٢) البيت للعجير السلولي كما في أمالي القالي ١/ ٢٧٥، ومعجم البلدان ٥/ ١٠٥ قاله في ملح ابن عمٍّ له يقال له: جابر بن زيد. ونسبه البصري في الحماسة ١/ ٢٢٢ لزينب بنت الطثرية. وهو دون نسبة في جمهرة الأمثال ٢/ ٦٩، والمستقصى ١/ ٢٩٩، ومجمع الأمثال ٢/ ٤٩.

(٣) البيت لرؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص١٨٦، وسلف ١٤/ ١٥٨.

(٤) البيت لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص ١٣٤، والكتاب ٢/ ٢١٤، وأورده المبرد في المقتضب ٤/ ٢٥٢ برواية: يا ابنة عمِّي، وقال: وبعضهم ينشد: يا ابنة عما.

وعلى تقدير كون الأمر في العمِّ ومَن معه كما قال يحتمل أن يكون الداعي لإفراد العمِّ والخال الرجوعَ إلى أصلٍ واحدٍ مع ما بين الذكور من جهة العمومة والخؤولة في حقِّ الشخص المدلي بهما من التناصُر والتساعُد، فلذلك ترى الشخص يهرع لدفع بليَّته إلى ذكور عمومته وخؤولته، وذلك التعاضُدُ يَجعل المتعدِّد في حكم الواحد، ويقوِّي هذا الاعتبارَ هنالك إضافةُ الفرع كالبنين والبنات إلى ذلك.

ولعل في الإفراد مع جمع المضاف المذكور إشارةً إلى أنَّ البنينَ والبناتِ وإن كانوا بنينَ وبناتٍ لمتعدِّدينَ في نفس الأمر إلا أنهم في حكمِ البنينَ والبناتِ لواحدٍ، وأنَّ كلَّ واحدٍ من الأعمام والأخوال لمزيدِ شفقته على أبناءٍ وبناتٍ كلٍّ كأنه أبٌ لأبناء وبناتِ كلٍّ، وهذا الذي ذكرناه لا يوجد في العمَّات والخالات. ولا يَرِدُ عليه جمعُ العمِّ والخال في آية «النور»، كما لا يخفى على مَن له أدنى نورٍ يهتدي به إذا أشكلت الأمور.

ويمكن أن يقال في الحكمة هاهنا خاصةً: إنه لمَّا كان المفرد أصلاً والمجموعُ فرعَه، والمذكَّرُ أصلاً والمؤنَّث فرعَه، أتى بالعمِّ والخال المذكَّرين مفردين، وبالعمة والخالة المؤنَّثين مجموعين، فاجتمع في الأوَّلَيْنِ أصلان، وفي الأخيرين فرعان بحُكْمِ: شبيهُ الشيء منجذبٌ إليه، وإنَّ الطيور على أشباهها تقع، وما ألطف هذا الاجتماع في منصَّة مقام النكاح؛ لما فيه من الإشارة إلى الكفاءة، وأنَّ المناسب ضمُّ الجنس إلى جنسه كما يقتضيه بعض الآيات، وهو لعمري ألطفُ من جمع المذكَّر وإفرادِ المؤنَّث ليجتمع في كلٍّ أصلٍ وفرعٍ فيوافق ما في النكاح من اجتماعِ ذَكَرٍ هو أصلٌ وأنثى هي فرعٌ؛ لخلوِّه عن الإشارة إلى ذلك الضمِّ المناسب، المستحسَن عند كلِّ ذي رأي صائب، على أنَّ في جمع أصلين في العمِّ موافَقةً لِمَا في النكاح من جمع الزوجين اللذين هما أصلان لِمَا يتولَّد منهما، وإذا اعتُبر جمعهما في الخال الذي قرابتُه من جهة الأمّ التي لا تعتبر في النسب وافَقَ الجملة ما في النكاح من اجتماع أصلٍ وفرعٍ، فلا يفوتُ ذلك بالكلية على ما في النظم الجليل.

وأيضاً في الانتقال من الإفراد إلى الجمع في جانبي العمومة والخؤولة إشارةٌ إلى ما في النكاح من انتقالِ كلٍّ من الزوج والزوجة من حالِ الانفراد إلى حال الاجتماع، فلله تعالى درُّ التنزيل.

هذا ما عندي، وهو زهرةُ ربيع لا تتحمَّلُ الفَرْكَ، ومع هذا قِسْهُ إلى ما سمعتَ عن ساداتنا المعاصرين واختر لنفسك ما يحلو، والله تعالى أعلمُ بأسرار كتابه[1].

﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً﴾ بالنصب عطفاً على مفعول «أحللنا» عند جمعٍ، وليس معنى «أحللنا» إنشاءَ الإحلال[2] الناجز، ولا الإخبارَ عن إحلالٍ ماضٍ، بل إعلام بمطلق[3] الإحلال المنتظِم لِمَا سبق ولَحِقَ، فلا يعكِّر على ذلك الشرط، وهذا كما تقول: أَبَحْتُ لك أن تكلِّم فلاناً إن سلَّم عليك. ولِمَا فيه من البحث قال بعضهم: إنه نصبٌ بفعلٍ يفسِّره ما قبلُ، أي: ويُحلُّ لك امرأةً، أو: وأحللنا لك امرأةً، وهو مستقبلٌ لمكانِ الشرط.

وقرأ أبو حيوة بالرفع[4] على أنه مبتدأ والخبرُ محذوفٌ، أي: وامرأةٌ مؤمنةٌ أحللناها لك أيضاً.

﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أي: ملَّكَتْه المتعةَ بها بأيِّ عبارةٍ كانت بلا مهر.

وقرأ أُبيٌّ والحسنُ والشعبيُّ وعيسى وسلَّام: «أنْ وهبت» بفتح الهمزة[5]، أي: لأن وهبت. وقيل: أي: وقتَ أنْ وهبت، أو: مدَّةَ أن وهبت، فتكون «أن» وما بعدها في تأويل مصدرٍ منصوب على الظرفية، وأكثرُ النحاة لا يُجيزونه في غير المصدر الصريح كـ: آتيك خفوقَ النجم، وغيرِ «ما» المصدرية. وجوِّز أن يكون المصدر بدلاً من «امرأة».

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «إذ وهبت»[6]، و«إذ» ظرفٌ لِمَا مضى، وقيل: هي مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ أي: يتملَّكَ المتعةَ بها بأيِّ عبارةٍ كانت بلا مهرٍ،

---

(١) في الأصل: كلامه.
(٢) في (م): لإحلال، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ١٠٩.
(٣) في تفسير أبي السعود: مطلق.
(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٠، والبحر ٧/ ٢٤٢، والكلام منه.
(٥) القراءات الشاذة ص ١٢٠، والمحتسب ٢/ ١٨٢، والبحر ٧/ ٢٤٢.
(٦) البحر ٧/ ٢٤٢.

وهذا شرطٌ للشرط الأول في استيجاب الحِلّ، فهِبتُها نفسَها منه ﷺ لا يوجبُ له حِلَّها إلا بإرادته نكاحَها، وهذه الإرادةُ جاريةٌ مجرى قبولِ الهبة، وقال ابن كمال: الإرادةُ المذكورةُ عبارةٌ عن القبول، ولا وجهَ لحملها على الحقيقة؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿يَسْتَنكِحَهَا﴾ يغني عن الإرادة بمعناه الوضعي، وهو يشير إلى أنَّ السين للطلب، وكلامُ بعض الأجلَّة على هذا، حيث قال: إرادةُ طلب النكاح كنايةٌ عن القبول.

وقيل: استفعل هنا بمعنى فَعَلَ، فالاستنكاحُ بمعنى النكاح؛ لئلَّا يتوهَّم التكرارُ. وفيه نظر. واستظهر صاحبُ هذا القيلِ حَمْلَ الإرادة على الإرادة المتقدِّمة على الهبة، بناءً على أنَّ التركيب يقتضي تقدُّمَ هذا الشرط، فقد قالوا: إذا اجتمع شرطان فالثاني شرطٌ في الأوَّل متأخِّرٌ في اللفظ متقدِّمٌ في الوقوع، وهو بمنزلةِ الحال، ومن هنا قال الفقهاء: لو قال: إنْ ركبتِ إنْ أكلتِ فأنتِ طالق، لا تطلقُ ما لم يتقدَّم الأكلُ على الركوب ليتحقَّق تقييدُ الحالية.

واستشكل السمين[1] هذه القاعدة بما هنا بناء على أنهم جعلوا ذلك الشرط بمنزلة القبول لاقتضاء الواقع ذلك، ثم ذكر أنه عَرَضَه على علماء عصره فلم يجدوا مخلصاً منه إلَّا بأنَّ هذه القاعدة ليست بكلِّيةٍ، بل مخصوصة بما لم تقم قرينةٌ على تأخُّر الثاني، كما في نحوِ: إن تزوَّجْتُكِ إنْ طلَّقتكِ فعبدي حرٌّ، فإنَّ الطلاق لا يتقدَّم التزوُّج، وما نحن فيه من هذا القبيل، ثم قال[2]: فمن جَعَلَ الشرطَ الثاني هنا مقدَّماً لم يُصِبْ.

ورأيتُ في الفنِّ السابع من «الأشباه والنظائر» النحوية للجلال السيوطيِّ عليه الرحمة كلاماً لابن هشام ذكر فيه أنَّ جَعْلَ الآية كالمثال ونَظْمَهما في سلكِ مسألةِ اعتراضِ الشرطِ على الشرط هو ما ذهب إليه جماعةٌ منهم ابنُ مالك، وذهب هو إلى أنَّ المثال من مسألة الاعتراض المذكور دون الآية، واحتجَّ عليه بما احتجَّ، ثم ذكر الخلاف في صحة تركيب ما وقع فيه الاعتراض كالمثال، وأنَّ الجمهور على

---

(١) في الدر المصون ٩/ ١٣٤، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية.

(٢) لم نقف على هذا القول في الدر المصون، وذكره الشهاب في الحاشية، وعنه نقل المصنف.

جوازه وهو الصحيح، وأنَّ المجيزين اختلفوا في تحقيق ما يقع به مضمون الجواب الواقع بعد الشرطين على ثلاثة مذاهب:

أحدها: أنه إنما يقع بمجموع أمرين؛ أحدهما حصول كلٍّ من الشرطين، والآخر كون الشرط الثاني واقعاً قبل وقوع الأول، ففي المثال لا يقع الطلاق إلَّا بوقوع الركوب والأكل مع[1] تقدُّمِ وقوع الأكل على الركوب، وذكر أنَّ هذا مذهبُ الجمهور.

وثانيها: أنه يقع بحصول الشرطين مطلقاً، وذكر أنه حكاه له بعض العلماء عن إمام الحرمين، وأنه رآه محكيًّا عن غيره بعدُ.

وثالثها: أنه يقع بوقوع الشرطين على الترتيب، فإنما تطلق في المثال إذا ركبت أوَّلاً ثم أكلت.

وأَبْطلَ كلًّا من المذهبين الأخيرين، وذكر في توجيه التركيب على المذهب الأول مذهبين:

الأول مذهب الجمهور: أنَّ الجواب المذكور للشرط الأول، وجوابُ الثاني محذوفٌ لدلالة الأول وجوابِه عليه، ولإغناء ذلك عنه وقيامِه مقامَه لزم في وقوع المعلَّق على ذلك أن يكون الثاني واقعاً قبل الأول ضرورةَ أنَّ الجواب لا بدَّ من تأخُّره عن الشرط، فكذا الأمر في القائم مقام الشرط.

والثاني مذهب ابن مالك: أنَّ الجواب المذكور للأول، والثاني لا جوابَ له لا مذكور ولا مقدَّر، لأنه مقيِّدٌ للأول تقييده بحالٍ واقعةٍ موقعه، فالمعنى في المثال: إن ركبتِ آكلةً فأنتِ طالق. وفيه أنه خارجٌ عن القياس، وأنه لا يطَّرد في: إنْ قمتِ إن قعدتِ فأنت طالق، وأنَّ الشرط بعيدٌ عن مذهب الحال لمكان الاستقبال[2].

وبالجملة قد أطال الكلام في هذه المسألة وهي مسألةٌ شهيرةٌ ذكرها الأصوليون وغيرهم، وفيما ذكرنا فيها اكتفاءٌ بأقلِّ اللازم هاهنا فتأمل.

---

(١) في (م): من.
(٢) الأشباه والنظائر ٧/ ١٠٧-١١٩.

وأكثرُ العلماء على وقوعِ الهبة، واختلفوا في تعيين الواهبة؛ فعن ابن عباس وقتادةَ وعكرمةَ: هي ميمونةُ بنت الحارث الهلالية. وفي «المواهب» يقال: إنَّ ميمونة وهبت نفسها للنبيِّ ﷺ، وذلك أنَّ خطبته عليه الصلاة والسلام انتهت إليها وهي على بعيرها، فقالت: البعير وما عليه لله ولرسوله ﷺ. وكان ذلك سنةَ سبع بعد غزوة خيبر، وبنى عليها عليه الصلاة والسلام بسرف على عشرة أميال من مكة[1]، وعليه تكون إرادة النكاح سابقةً على الهبة، فيضعف به قولُ السمين.

وعن عليِّ بن الحسين ﵄ والضحاك ومقاتل: هي أمُّ شريك غُزَيَةُ بنت جابر بن حكيم الدوسية، قال في «الصفوة»: والأكثرون على أنها هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ فلم يقبلها، فلم تتزوَّج حتى ماتت[2]. وفي «الدر المنثور» عن منير بن عبد الله الدوسي أنه عليه الصلاة والسلام قَبِلَها[3].

وعن عروة والشعبي: هي زينبُ بنتُ خزيمةَ من الأنصار[4]، كانت تُدْعَى في الجاهلية أمَّ المساكين لإطعامها إياهم، وكان ذلك في سنة ثلاث ولم تلبث عنده ﷺ إلَّا قليلاً حتى توفِّيتْ ﵅.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقيُّ في «السنن» عن عائشة ﵂ قالت: التي وهبتْ نفسها للنبيِّ ﷺ خولةُ بنتُ حكيم[5]. وقد أرجأها عليه الصلاة والسلام فتزوَّجها عثمان بن مظعون بإذنه ﷺ.

وقال بعضهم: يجوز تعدُّد الواهبات؛ فقد أخرج الشيخان وغيرُهما عن عروة بن

---

(١) المواهب مع شرحه للزرقاني ٣/ ٢٥٣.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ٥٣.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٠٨، وقد عزاه السيوطي لابن سعد، وهو في طبقاته ٨/ ١٥٥ مطولاً، وفي إسناده الواقدي، وهو متروك.

(٤) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٧/ ٥٩ نسبتها إلى الأنصار، وقد سبق أبا حيان في ذلك الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤١٥، وتعقبه ابن كثير في البداية والنهاية ٨/ ٢٢٣ بقوله: وأما حكاية الماوردي عن الشعبي أن زينب بنت خزيمة أمَّ المساكين أنصارية فليس بجيد؛ فإنها هلالية بلا خلاف. اهـ. قلنا: وقد ذكره البغوي ٣/ ٥٣٧ عن الشعبي فقال: الهلالية.

(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٠٨، وهو في سنن البيهقي ٧/ ٥٥.

الزبير قال: كانت خولة بنتُ حكيم من اللاتي وهبنَ أنفسهنَّ للنبيِّ ﷺ، فقالت عائشة: أما تستحي المرأةُ أن تَهَبَ نفسَها للرجل. فلمَّا نزلت: (تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ) قالت عائشة: يا رسول الله ما أرى ربَّك إلَّا يسارع في هواك[1]. فقوله: من اللاتي وهبن أنفسهنَّ صريحٌ في تعدُّدِهنَّ.

وأنكر بعضُهم وقوع الهبة، وقيل: إنَّ قوله تعالى: (إن وَهَبَتْ) يشير إلى عدم وقوعها وأنَّها أمرٌ مفروضٌ، وكذا تنكير «امرأة» فالمراد الإعلام بالإحلال في هذه الصورة إن اتَّفقت.

وأنكر بعضهم القبول؛ أخرج ابن سعد عن ابن أبي عون أنَّ ليلى بنت الخطيم وهبت نفسها للنبيِّ ﷺ، ووَهَبْنَ نساءٌ أنفسهنَّ، فلم نسمع أنَّ النبيَّ ﷺ قَبِلَ منهنَّ أحداً[2].

وما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبرانيُّ وابن مردويه، والبيهقيُّ في «السنن» عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأةٌ وهبت نفسها له[3]. يحتمِلُ نَفْيَ القبول ويحتمل نَفْيَ الهبة.

وإيرادُه ﷺ في الموضعين بعنوان النبوَّة بطريق الالتفات للتكرمة والإيذانِ بأنها المناطُ لثبوت الحكم، فيختصُّ به عليه الصلاة والسلام حَسبَ اختصاصها به كما ينطق به قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويتضمن ذلك الإشارةَ إلى أنَّ هبة مَن تَهَبُ لم تكن حرصاً على الرجال وقضاءِ الوطر، بل على الفوزِ بشرف خدمته ﷺ والنزولِ في معدن الفضل.

---

(١) صحيح البخاري (٥١١٣)، قال ابن حجر في الفتح ٩/ ١٦٤: هذا مرسل لأن عروة لم يدرك زمن القصة، لكن السياق يشعر بأنه حمله عن عائشة، وقد ذكر المصنف (يعني البخاري) عقب هذه الطريق من صرَّح فيه بذكر عائشة تعليقاً. اهـ. وأخرجه موصولاً دون قول عروة البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤) من حديث عائشة رضي الله عنها. وجاء في (م): يسارع لك. . .، وهي رواية الحديث عند مسلم.

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ١٥٠.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٠٩، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ١٣٤، والمعجم الكبير (١١٧٨٧)، وسنن البيهقي ٧/ ٥٥.

وبذلك يُعلم أنَّ قول عائشة: ما في امرأة وهبت نفسها لرجلٍ خيرٌ، وكذا اعتراضها السابق، صادرٌ من شدَّة غيرتها رضي الله عنها على رسول الله ﷺ، ولا بِدْعَ فالمحبُّ غيورٌ وقد قال بعض المحبِّين:

أغارُ إذا آنسْتُ في الحيِّ أنَّةً   حِذاراً وخوفاً أن تكون لحبِّه[1]

ونُصِبَ «خالصةً» على أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ للجملة قبله، وفاعلة في المصادر على ما قال الزمخشريُّ غيرُ عزيزٍ كالعافية والكاذبة[2]، وادَّعى أبو حيان عزَّتها[3]. والكثيرُ على تعلُّق ذلك بإحلال الواهبة، أي: خلص لك إحلالُها خالصةً، أي: خلوصاً.

وقال الزجَّاج: هو حالٌ من «امرأة»[4] لتخصُّصها بالوصف، أي: أحللناها خالصةً لك لا تحلُّ لأحدٍ غيرك في الدنيا والآخرة.

وقال أبو البقاء: هو حالٌ من ضمير «وهبت»، أو صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: هبةً خالصةً[5].

وقرئ بالرفع[6] على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: ذاك خلوصٌ لك وخصوصٌ، أو: هي ـ أي: تلك المرأة أو الهبةُ ـ خالصةٌ لك لا تتجاوز المؤمنين.

واستدلَّ الشافعية رضي الله عنه به على أنَّ النكاح لا ينعقد بلفظ الهبة؛ لأنَّ اللفظ تابعٌ للمعنى وقد خُصَّ عليه الصلاة والسلام بالمعنى فيختصُّ باللفظ.

وقال بعض أجلَّة أصحابنا في ذلك: إنَّ المراد بالهبة في الآية تمليكُ المتعة بلا عوضٍ بأيِّ لفظٍ كان، لا تمليكُها بلفظ: وهبتُ نفسي، فحيث لم يكن ذلك نصًّا في التمليك بهذا اللفظ لم يصلح لأن يكون مناطاً للخلاف في انعقاد النكاح

(١) البيت لابن الخياط كما في الخزانة ١١/ ٣١٣.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٦٨.
(٣) البحر ٧/ ٢٤٢.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٣٣.
(٥) الإملاء ٤/ ١٩٧.
(٦) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٦٩، وأبو حيان في البحر ٧/ ٢٤٢.

بلفظ الهبة إيجاباً وسلباً. ومعنى خلوصِ الإحلال المذكور له ﷺ من دون المؤمنين كونُه متحقِّقاً في حقِّه غيرَ متحقِّقٍ في حقِّهم؛ إذ لابد في الإحلال لهم من مهر المثل.

وظاهر كلام العلَّامة ابن الهمام اعتبار لفظ الهبة حيث قال في «الفتح»: قد ورد النكاحُ بلفظ الهبة. وساق الآية ثم قال: والأصلُ عدم الخصوصية حتى يقوم دليلها، وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ يرجع إلى عدم المهر بقرينةِ إعقابه بالتعليل بنفي الحرج، فإنَّ الحرج ليس في ترك لفظٍ إلى غيره خصوصاً بالنسبة إلى أفصح العرب، بل في لزوم المال، وبقرينةِ وقوعه في مقابلة المؤتى أجورهنَّ، فصار الحاصل: أحللنا لك الأزواج المؤتَى مهورَهنَّ والتي وهبتْ نفسها لك فلم تأخذ مهراً خالصةً هذه الخصلةُ لك من دون المؤمنين، أمَّا هم فقد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم.. إلخ من المهر وغيره. وأبدى صدرُ الشريعة جوازَ كونه متعلِّقاً بـ «أحللنا» قيداً في إحلال أزواجه له ﷺ لإفادة عدم حلِّهنَّ لغيره ﷺ[(١)]. انتهى.

وجوَّز بعضُهم كونَه قيداً في إحلال الإماء أيضاً لإفادة عدم حلِّ إمائه كأزواجه لأحدٍ بعده عليه الصلاة والسلام، وبعضٌ آخَرُ كونَه قيداً لإحلال جميع ما تقدَّم على القيود المذكورة، أي: خَلُصَ إحلالُ ما أحللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة خلوصاً[(٢)] من دون المؤمنين، فإنَّ إحلال الجميع على القيود المذكورة غير متحقِّقٍ في حقِّهم، بل المتحقِّقُ فيه إحلالُ بعض المعدود على الوجه المعهود، واختاره الزمخشري[(٣)].

وأيًّا ما كان فقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ اعتراضٌ بين المتعلِّق والمتعلَّق، والأول على جميع الأوجه قوله سبحانه: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ والثاني على الوجه الأخير ـ وهو تعلُّق «خالصة» بجميع ما سلف من الإحلالات الأربع ـ قولُه تعالى: ﴿خَالِصَةً﴾ وهو مؤكِّدٌ معنى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بما اختصَّ به بأنَّ كلًّا من الاختصاص عن علم،

---

(١) فتح القدير ٢/ ٣٤٧.

(٢) في (م): خلوصها، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.

(٣) في الكشاف ٣/ ٢٦٨.

وأنَّ هذه الحظوة مما يليق بمنصب الرسالة فحسب، فالمعنى: إنَّ الله تعالى قد علم ما ينبغي ـ من حيث الحكمةُ ـ فَرْضُه على المؤمنين في حقِّ الأزواج والإماء، وعلى أيِّ حدٍّ وصِفَةٍ ينبغي أن يفرض عليهم، ففَرَضَه واختصَّك سبحانه بالتنزيه واختيار ما هو أولى وأفضلُ في دنياك، حيث أَحَلَّ جل شأنه لك أجناس المنكوحات، وزاد لك الواهبةَ نفسَها من غير عوضٍ لئلَّا يكون عليك ضِيقٌ في دينك.

وهو على الوجه الأول الذي ذكرناه ـ وهو تعلُّق «خالصةً» بالواهبة خاصةً ـ قولُه عز وجل: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا﴾ وهو الذي استظهره أبو حيان[1] وأَمْرُ الاعتراض عليه على[2] حاله.

وبعضُهم يجعل المتعلَّق «خالصةً» على سائر الأوجه، والتعلُّقُ به باعتبار ما فيه من معنى ثبوت الإحلال وحصولِه له ﷺ، لا باعتبارِ اختصاصه به عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّ مدار انتفاء الحرج هو الأولُ لا الثاني الذي هو عبارةٌ عن عدم ثبوته لغيره ﷺ.

وقال ابن عطية: إن «لكيلا» إلخ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: بيَّنَّا هذا البيانَ وشَرَحْنا هذا الشرحَ لئلَّا يكون عليك حرجٌ ويُظَنَّ بك أنك قد أثمتَ عند ربك عز وجل[3]. فلا اعتراضَ على هذا، ولا يخلو عن اعتراضٍ، فتدبر ولا تغفل.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ أي: كثير المغفرة، فيغفرُ ما يشاء ممَّا يَعْسُر التحرُّزُ عنه وغيرَه ﴿رَّحِيمًا ۝٥٠﴾ أي: وافر الرحمة، ومن رحمته سبحانه أن وسَّع الأمر في مواقع الحرج.

﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: تؤخِّر مَن تشاء من نسائك وتتركُ مضاجعتها ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ وتضمُّ إليك مَن تشاء منهنَّ وتضاجعها، وروي هذا عن قتادة.

وعن ابن عباس والحسن: أي: تطلِّق مَن تشاء منهنَّ وتمسِكُ من تشاء.

وقال بعضهم: الإرجاء والإيواء لإطلاقهما يتناولان ما في التفسيرين، وما ذكر فيهما فإنَّما هو من باب التمثيل. ولا يخلو عن حُسْنٍ.

---

(١) في البحر ٧/ ٢٤٢.

(٢) في (م): في.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٢.

وفي روايةٍ عن الحسن: أنَّ ضمير «منهنَّ» لنساء الأمة، والمعنى: تترك نكاحَ مَن تشاء من نساء أمتك فلا تنكحُ، وتنكحُ منهنَّ مَن تشاء. وقال: كان ﷺ إذا خطب امرأةً لم يكن لغيره أن يخطبها حتى يتركها.

وعن زيد بن أسلم والطبري أنه للواهبات أنفسَهنَّ، أي: تقبلُ مَن تشاء من المؤمنات اللاتي يَهَبْنَ أنفسهنَّ لك فتُؤويها إليك، وتترك مَن تشاء منهنَّ فلا تقبلها[١].

وعن الشعبي ما يقتضيه؛ فقد أخرج ابن سعد والبيهقيُّ في «السنن» وغيرُهما عنه قال: كنَّ نساءً وهبنَ أنفسهنَّ لرسول الله ﷺ، فدخل ببعضهنَّ وأرجأ بعضَهنَّ فلم يُقْرَبْنَ حتى توفِّي عليه الصلاة والسلام ولم يُنْكَحْنَ بعده، منهنَّ أمُّ شريكٍ، فذلك قولُه تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾[٢].

ويشهد لِمَا تقدَّم من رجوعه إلى النساء ما أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن أبي رزين قال: همَّ رسول الله ﷺ أن يطلِّق من نسائه فلمَّا رأينَ ذلك أتينه فقلنَ: لا تُخْلِ سبيلنا وأنت في حلٍّ فيما بيننا وبينك، افْرِضْ لنا من نفسك ومالِكَ ما شئتَ. فأنزل الله تعالى الآيةَ، فأرجأ منهنَّ نسوةً، وكان ممن أرجأ ميمونةُ وجويريةُ وأمُّ حبيبةَ وصفيةُ وسودةُ، وكان ممن آوى عائشةُ وحفصةُ وأمُّ سلمةَ وزينبُ رضي الله عنهنَّ أجمعين[٣].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر: «تُرْجِئُ» بالهمز[٤]، وهو عند الزجَّاج أجودُ[٥]، والمعنى واحد.

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ أي: طلبتَ ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أي: تجنَّبْتَ، وحُمِل هذا التجنُّبُ على ما كان بطلاقٍ. و«مَن» شرطيةٌ منصوبةٌ بما بعدها، وقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ

---

(١) تفسير الطبري ١٩/١٤٢-١٤٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ١٥٤-١٥٥ و٢٠١، وسنن البيهقي ٧/ ٥٥.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢١١، وهو في تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٢٠، وتفسير الطبري ١٩/ ١٣٩ و١٤٠ و١٤١.

(٤) التيسير ص١١٩، والنشر١/ ٤٠٦، وهي قراءة يعقوب من العشرة.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٣٣.

عَلَيْكَ﴾ جوابُها، أي: مَن طلبتها ممَّن طلَّقتَ فليس عليك إثمٌ في طلبها، أو موصولةٌ والجملةُ خبرها، أي: والتي طلبتها لا جُناحَ عليك في طلبها، والمراد نفي أن يكون عليه عليه الصلاة والسلام إثمٌ في إرجاع المطلَّقة.

وقيل: «مَن» موصولة معطوفةٌ على «مَن تشاء» الثاني، والمراد به غيرُ المطلَّقة.

ومعنى «فلا جناح عليك»: فلا إثم عليك في شيءٍ مما ذُكر من الإرجاء والإيواء والابتغاء، والمراد تفويضُ ذلك إلى مشيئته ﷺ.

وقال بعضُهم: المراد به ما كان بتركِ مضاجعةٍ بدون طلاق، والمقصود من الآية بيانُ أنَّ له ﷺ تركَ مضاجعةِ مَن شاء مِن نسائه، ومضاجعةَ مَن شاء منهنَّ، أي: ممن لم يكن أرجأها وتَرَكَ مضاجعتها، والرجوعَ إلى مضاجعة مَن تَرَكَ مضاجعتَها واعتزلها، فمن عزل هي المُرْجَأة.

وأفاد صاحب «الكشاف»[1] أنَّ الآية متضمِّنةٌ قسمةً جامعةً لِمَا هو الفرض؛ لأنه ﷺ إمَّا أن يطلِّق وإما أن يمسك، وإذا أمسك ضاجَعَ أو تَرَكَ وقَسَمَ أو لم يَقْسِم، وإذا طلَّق وعزل فإما أن يخلِّي المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها، وانفهامُ الطلاق والإمساك بأقسامه بواسطة إطلاق الإرجاء والإيواء في قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ﴾ وانفهامُ ابتغاء المعزولة من قوله سبحانه: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ إلخ، ومتى فُهم أنْ لا جناحَ في ابتغاء المعزولة بالطلاق وردِّها إلى النكاح فُهم منه أنَّ رَفْعَ النكاح في عدم ردِّها من طريق الأَوْلَى، ولقد أجاد فيما أفاد.

وجوَّز بعضهم أن يكون «مَن» مبتدأ، وفي الكلام معطوفٌ وخبرٌ محذوفان، أي: ومَن ابتغيت ممن عزلتَ ومَن لم تعزل سواء، وقوله سبحانه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَ﴾ تأكيدٌ لذلك. ولا يخفى بعدُه وتعسُّفُه.

وقال الحسن: معنى «ومَن ابتغيت» إلخ: مَن مات من نسائك اللواتي عندك أو خلَّيتَ سبيلها فلا جناح عليك في أن تستبدل عوضها من اللاتي أحللتُ لك فلا تزداد على عدَّةِ نسائك اللاتي عندك، كذا في «البحر»[2]. وكأنه جعل «مَن»

---

(١) ٣/ ٢٦٩.
(٢) ٧/ ٢٤٣.

للبدل كالتي في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] و«مَن عزلتَ» شاملاً لمن ماتت ومَن طلِّقت، وكلاهما بعيد، وثانيهما أبعدُ من أوَّلهما بكثيرٍ، ومثلُه اعتبارُ ما اعتبره من القيود، وبالجملة هو قولٌ تَبعُدُ نسبته إلى الحسن، وأبعدُ من ذلك نسبته إلى ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما كما في «الدر المنثور»[1].

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: تفويضُ الأمر إلى مشيئتك أقربُ إلى قرَّة عيونهنَّ وسرورِهنَّ ورضاهنَّ جميعاً؛ لأنه حُكْمُ كلِّهنَّ فيه سواء، ثم إن سوَّيتَ بينهنَّ وَجَدْنَ ذلك تفضُّلاً منك، وإن رجَّحت بعضهنَّ علمنَ أنه بحكم الله تعالى فتطمئنّ به نفوسهنَّ، وروي هذا عن قتادة، والمراد بـ«ما آتيتهن» عليه: ما صنعتَ معهنَّ، فيتناول تَرْكَ المضاجعة والقَسْم.

وعن ابن عباس ومجاهد أنَّ المعنى: إنهن إذا علمن أنَّ لك ردَّهنَّ إلى فراشك بعد ما اعتزلتهنَّ قَرَّتْ أعينهنَّ ولم يحزنَّ، ويرضينَ بما تفعلُه من التسوية والتفضيل، لأنهنَّ يعلمن أنك لم تطلِّقْهنَّ، وظاهره جَعْلُ المشار إليه العِلْمَ بأنَّ له ﷺ الإيواءَ.

وأظهر منه في ذلك قولُ الجبائي: ذلك العلمُ منهنَّ بأنك إذا عزلتَ واحدةً كان لك أن تُؤويها بعد ذلك أدنى لسرورهنَّ وقرةِ أعينهنَّ.

وقال بعض الأجلَّة: كونُ الإشارة إلى التفويض أنسبُ لفظاً لأن ذلك للبعيد، وكونُها إلى الإيواء أنسبُ معنًى لأن قرَّة عيونهنَّ بالذات إنما هي بالإيواء، فلا تغفل.

والأعيُنُ جمع قلَّةٍ، وأريدَ به هاهنا جمعُ الكثرة، وكأنَّ اختياره لأنه أوفقُ بكمية الأزواج.

وقرأ ابن محيصن: «تُقِرَّ» من أَقَرَّ، وفاعلُه ضميره ﷺ، و«أعينَهن» بالنصب على المفعولية[2]. وقرئ: «تُقَرَّ» مبنيًّا للمفعول، و«أعينُهن» بالرفع نائب الفاعل[3]. و«كلُّهن» بالرفع في جميع ذلك، وهو توكيدٌ لنون «يرضين».

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢١٠، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ١٤٤، وإسناده ضعيف جدًّا.
(٢) القراءات الشاذة ص١٢٠، والبحر ٧/ ٢٤٣.
(٣) البحر ٧/ ٢٤٣.

وقرأ أبو أناس[١] جُوَيَّة بن عائذ: «كلَّهن» بالنصب[٢] تأكيداً لضميره في «آتيتهن» قال ابن جنيٍّ: وهذه القراءةُ راجعةٌ إلى معنى قراءة العامة «كلُّهن» بضمِّ اللام، وذلك أنَّ رضاهنَّ كلِّهنَّ بما أُوتينَ على انفرادهنَّ واجتماعهنَّ، فالمعنيان إذن واحدٌ إلَّا أنَّ للرفع معنًى، وذلك أن فيه إصراحاً من اللفظ بأنْ يرضين كلُّهن، والإصراحُ في القراءة الشاذة إنما هو في إتيانهنَّ، وإن كان محصول الحال فيهما واحداً مع التأويل[٣]. انتهى.

وقال الطيبي: في توكيد الفاعل دون المفعول إظهارٌ لكمال الرضا منهنَّ وإن لم يكن الإيتاء كاملاً سويًّا، وفي توكيد المفعول إظهارُ أنهنَّ مع كمال الإيتاء غيرُ كاملاتٍ في الرضا، والأولُ أبلغُ في المدح لأنَّ فيه معنى التتميم، وذلك أن المؤكِّد يرفعُ إيهامَ التجوُّز عن المؤكَّد[٤]. انتهى فتأمل.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ خطابٌ له ﷺ ولأزواجه المطهَّرات على سبيل التغليب، والمراد بما في القلوب عامٌّ، ويدخل فيه ما يكون في قلوبهنَّ من الرضا بما دبَّر الله تعالى في حقِّهنَّ من تفويض الأمر إليه ﷺ ومقابل ذلك، وما في قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام من الميل إلى بعضهنَّ دون بعض، والكلامُ بعثٌ على الاجتهاد في تحسين ما في القلوب، ولعل اعتباره ﷺ في الخطاب لتطييب قلوبهنَّ.

وفي «الكشاف»: أنَّ هذا وَعيدٌ لمن لم يَرْضَ منهنَّ بما دبَّر الله تعالى من ذلك وفوَّضَ سبحانه إلى مشيئة رسوله عليه الصلاة والسلام، وبعثٌ على تواطُؤ قلوبهنَّ والتصافي بينهنَّ، والتوافُقِ على طلب رضا رسول الله ﷺ وطِيْبِ نفسِه الكريمة[٥].

---

(١) في الأصل و(م): إياس، والصواب ما أثبتناه بالنون وضم الهمزة كما في طبقات القراء لابن الجزري ١/ ١٩٩، وقال في ترجمته: جُوية بن عاتك، ويقال: ابن عائذ الأسدي الكوفي، روى القراءة عن عاصم، وذكر الداني أن له اختياراً في القراءة.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٠، والمحتسب ٢/ ١٨٢، والبحر ٧/ ٢٤٤.

(٣) المحتسب ٢/ ١٨٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الطيبي في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٤) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٦٩.

والظاهرُ أنه غيرُ قائلٍ بدخوله ﷺ في الخطاب، وحينئذٍ فإمَّا أن يقول: إنه عامٌّ لهنَّ ولسائر المؤمنين، وإمَّا أن يقول بأنه خاصٌّ بهنَّ، ولعله ظاهرُ كلامه، وعليه لا يظهر وجه[1] التذكير. وربَّما يقال على الأول: إنَّ المقام غيرُ ظاهرٍ في اقتضاء دخول سائر المؤمنين في الخطاب.

وقال ابن عطية: الإشارةُ بذلك هاهنا إلى ما في قلب رسول الله ﷺ من محبة شخصٍ دون شخصٍ، ويدخل في المعنى المؤمنون[2].

وربما يتخيَّل أنَّ الخطاب لجميع المكلَّفين، والكلامُ بعثٌ على تحسين ما في القلوب في شأن ما دبَّر الله تعالى لرسوله ﷺ في أمر أزواجه ونفي الخواطر الرديئة، بأن يُظنَّ أنَّ ذاك هو الذي تقتضيه الحكمةُ، وأنه دليلٌ على كمال المحبوبية، ولا يُتَوهَّمَ خلافُه، فإنَّ بعض الملحدين طعنوا كالنصارى في كثرة تزوُّجه عليه الصلاة والسلام، وكونِه في أمر النساء على حالٍ لم يُبَحْ لأمته، من حِلِّ جَمْعِ ما فوق الأربع وعدمِ التقيُّد بالقَسْم لهنَّ مثلاً، وزعموا أنَّ في ذلك دليلاً على غلبة القوة الشهوية فيه عليه الصلاة والسلام، وذلك مُنافٍ لتقدُّس النفس الذي هو من شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فجزموا والعياذُ بالله تعالى بنفي نبوَّته، وأنَّ ما فعله ﷺ لم يكن منه تعالى، بل ليس ذلك إلا منه عليه الصلاة والسلام.

ولا يخفى أن قائلي ذلك على كفرهم جَهَلَةٌ بمراتب الكمال، صمٌّ عن سماع آثاره عليه الصلاة والسلام، ومَن سَبَرَ الأخبار عَلِمَ أنه ﷺ أكملُ الأنبياء على الإطلاق؛ لغاية كمالٍ بَشَرِيَّتِه ومَلَكِيَّته، وآثارُ الكمال الأول تزوُّجُ ما فوق الأربع والطوافُ عليهنَّ كلِّهنَّ في الليلة الواحدة، وآثارُ الكمال الثاني أنه عليه الصلاة والسلام كثيراً ما كان يبيتُ ويصبحُ لا يأكل ولا يشرب، وهو على غايةٍ من القوة وعدمِ الاكتراث بترك ذلك، وليس لأحدٍ من الأنبياء عليهم السلام اجتماعُ هذين الكمالين حَسبَ اجتماعهما فيه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) في (م): وجهه، وهو تصحيف.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٣.

ولتكثيره[1] النساء حكمةٌ دينيةٌ جليلةٌ أيضاً، وهي نشرُ أحكامِ شرعيةٍ لا تكاد تُعلم إلا بواسطتهنَّ، مع تشييد أمر نبوَّته، فإنَّ النساء لا يكذْنَ يحفَظْنَ سرًّا، وهنَّ أعلم الناس بخفايا أزواجهن، فلو وقف نساؤه عليه الصلاة والسلام على أمرٍ خفيٍّ منه يخلُّ بمنصب النبوَّة لأظْهرنَه، وكيف يُتصوَّرُ إخفاؤه بينهنَّ مع كثرتهنَّ، وكلُّ سرٍّ جاوز الاثنين شاع.

وفي عدم إيجاب القَسْم عليه عليه الصلاة والسلام تأكيدٌ لذلك كما لا يخفى على المُنْصِف.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغاً في العلم، فيعلم كلَّ ما يُبْدَى ويُخْفَى ﴿حَلِيمًا ۝٥١﴾ مبالغاً في الحلم، فلا يعجل سبحانه بمقابلة مَن يفعل خلافَ ما يحبُّ حسبما يقتضيه فعلُه من عتابٍ أو عقاب، أو فيصفحُ عمَّا يغلب على القلب من الميول ونحوِها.

هذا وفي «البحر»[2]: اتفقت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام كان يعدل بين أزواجه المطهَّرات في القسمة حتى مات، ولم يستعمل شيئاً مما أُبيح له ضبطاً لنفسه وأَخْذاً بالأفضل، غيرَ ما جرى لسودة، فإنها وهبتْ ليلتها لعائشة وقالت: لا تطلِّقني حتى أحشر في زمرة نسائك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب أنه قال: لم يُعلم أنَّ رسول الله ﷺ أرجأ منهنَّ شيئاً ولا عَزَلَه بعد ما خيَّرنَ فاختَرْنه[3].

وأخرج الشيخان وأبو داود والنسائيُّ وغيرُهم عن عائشةَ: أنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يستأذنُ في يوم المرأة منَّا بعد أن أنزلت هذه الآية (تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ) فقيل لها: ما كنت تقولين؟ قالت: كنت أقول له: إن كان ذاك إليَّ فإنِّي لا أريد أن أُوْثِرَ عليك أحداً[4]. فتأمَّله مع حكاية الاتِّفاق السابق، والله تعالى الموفِّق.

---

(١) في (م): ولتكثره.

(٢) ٧/ ٢٤٤.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢١١.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٨٩)، وصحيح مسلم (١٤٧٦)، وسنن أبي داود (٢١٢٦)، وسنن النسائي الكبرى (٨٨٨٧).

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ بالياء لأنَّ تأنيث الجمع غير حقيقيٍّ، وقد وقع بفَصْلٍ[(١)] أيضاً، والمراد بالنساء الجنسُ الشامل للواحدة، ولم يؤتَ بمفردٍ لأنه لا مفردَ له من لفظه، والمرأةُ شاملةٌ للجارية وليست بمرادةٍ، واختصاصُ النساء بالحرائر بحكم العرف. وقرأ البصريان بالتاء الفوقية[(٢)]، وسَهَّلَ أبو حاتم[(٣)] يخيِّر فيهما، وأيًّا ما كان[(٤)] فالمراد: يَحْرُمُ عليك نكاحُ النساء.

﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ قيل: أي: من بعد التسع اللاتي في عصمتك اليوم؛ أخرج ابن سعد عن عكرمة قال: لمَّا خيَّر رسول الله ﷺ أزواجه اخْتَرْنه، فأنزل الله تعالى: (لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ) هؤلاء التسع اللاتي اخترنك، أي: لقد حَرُمَ عليك تزوُّجُ غيرهنَّ[(٥)].

وأخرج أبو داود في «ناسخه» وابن مردويه والبيهقي في «سننه» عن أنس قال: لمَّا خيَّرهنَّ فاخْتَرْنَ الله تعالى ورسوله ﷺ قَصَرَه عليهنَّ، فقال سبحانه: (لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ)[(٦)].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في الآية: حبسه الله تعالى عليهنَّ كما حبسهنَّ عليه عليه الصلاة والسلام[(٧)].

وقدَّر بعضهم المضاف إليه المحذوفَ اختياراً، أي: من بعد اختيارهنَّ الله تعالى ورسوله؛ وقال الإمام: هو أولى[(٨)]، وكأنَّ ذلك لكونه أدلَّ على أنَّ التحريم كان كرامةً لهنَّ وشكراً على حسن صنيعهنَّ.

---

(١) في الأصل: الفصل.
(٢) التيسير ص١٧٩، والنشر٢/ ٣٤٩.
(٣) في (م): وأبو حاتم، وهو تصحيف، وأبو حاتم هو سهل بن محمد بن عثمان السجستاني.
(٤) في (م): وأيا كان ما كان.
(٥) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٠٠-٢٠١، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٥/ ٢١٢، ووقع في الأصل و(م) والدر: تزويج غيرهن، والمثبت من الطبقات.
(٦) الدر المنثور ٥/ ٢١٢، وهو في سنن البيهقي الكبرى ٧/ ٥٣.
(٧) الدر المنثور ٥/ ٢١٢.
(٨) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٢٢.

وجوَّز آخر أن يكون التقدير: من بعد اليوم، ومآله تحريم مَن عدا اللاتي اخترنه عليه الصلاة والسلام.

وحكى في «البحر» عن ابن عباس وقتادة قالا: لَمَّا خُيِّرنَ فاخْتَرْنَ الله تعالى ورسوله ﷺ جازاهنَّ أنْ حَظَرَ عليه النساءَ غيرَهُنَّ وتبديلَهنَّ، ونسخ سبحانه بذلك ما أباحه له قبلُ من التوسعة في جميع النساء(١).

وحَكَى أيضاً عن مجاهد وابن جبير أنَّ المعنى: من بعد إباحة النساء على العموم(٢).

وقيل: التقدير: من بعد التسع، على معنى أنَّ هذا العدد ـ مع قَطْع النظر عن خصوصية المعدود ـ نصابُه ﷺ من الأزواج كما أنَّ الأربع نصابُ أمته منهنَّ، فالمعنى: لا يحل لك الزيادةُ على التسع ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ أصله: تتبدَّل، فخفِّف بحذف إحدى التاءين، أي: ولا يحلُّ لك أن تستبدل ﴿بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ بأن تطلِّق واحدةً منهنَّ وتنكحَ بدلها أخرى. ففي الآية حكمان: حرمةُ الزيادة، وحرمة الاستبدال. وظاهره أنه يحلُّ له عليه الصلاة والسلام نكاحُ امرأةٍ أخرى على تقديرِ أن تموت واحدة من التسع.

وإذا كان المراد من الآية تحريم مَن عدا اللَّاتي اخترنه عليه الصلاة والسلام أفادت الآيةُ أنه لو ماتت واحدةٌ منهنَّ لم يحلَّ له نكاحُ أخرى، وكلام ابن عباس السابق ظاهرٌ في ذلك جداً، وكأنَّ قوله تعالى: (وَلَآ أَن تَبَدَّلَ) إلخ عليه لدفع توهُّم أنَّ المحرَّم ليس إلا أن يَرْغبهنَّ ﷺ بواحدةٍ من الضرائر.

وفي روايةٍ أخرى عن عكرمةَ أنَّ المعنى: لا يحلُّ لك النساء من بعد هؤلاء

---

(١) البحر ٧/ ٢٤٤.

(٢) البحر ٧/ ٢٤٤، ولهذا الخبر تتمة لم يذكرها المصنف، وهي كما في البحر: ولا يحل لك النساء غير المسلمات من يهودية ولا نصرانية. وبنحوه أخرجه عن مجاهد سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وغيرهما كما في الدر المنثور ٥/ ٢١٢، ولفظه: «لا تحلُّ لك النساء من بعد» يهوديات ولا نصرانيات، لا ينبغي أن يكنَّ أمهات المؤمنين. وتعقبه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٩١ بقوله: وهذا القول يبعد؛ لأنه يقدِّره: من بعد المسلمات، ولم يجر للمسلمات ذكر.

اللاتي سمَّى الله تعالى لك في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ الآيةَ، فلا يحلُّ له ﷺ ما وراء الأجناس الأربعة كالأعرابياتِ والغرائب، ويحلُّ له منها ما شاء، وأخرج عبد بن حميد والترمذي وحسَّنه وغيرهما عن ابن عباس ما هو ظاهر في ذلك، حيث قال في الخبر: وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ وحرَّم ما سوى ذلك من أصناف النساء(١).

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد «المسند» وابن جرير وابن المنذر والضياء في «المختارة» وغيرُهم عن زياد قال: قلتُ لأبيِّ بن كعب رضي الله عنه: أرأيتَ لو أنَّ أزواج النبيِّ عليه الصلاة والسلام مِتْنَ، أما يحلُّ له أن يتزوَّج؟ قال: وما يمنعُه من ذلك؟ قلت: قولُه تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ فقال: إنما أحلَّ له ضرباً من النساء ووصف له صفةً فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ إلخ، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ من بعد هذه الصفة(٢).

وعلى هذا القول قال الطيبي: يكون قوله سبحانه: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ إلخ تأكيداً لما قبله من تحريم غيرِ ما نصَّ عليه من الأجناس الأربعة(٣)، وكأنَّ ضمير «بهن» عليه(٤) للأجناس المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ الآية، والمعنى: لا يحلُّ لك أن تترك هذه الأجناس وتعدل عنها إلى أجناسٍ غيرِها.

وقال شيخ الإسلام أبو السعود عليه الرحمة بعد ما حكى القولَ المذكور: يأباه قولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ إلخ فإنَّ معنى إحلالِ الأجناس المذكورة إحلالُ نكاحهنَّ، فيكون [معنى] التبدُّل بهنَّ إحلالَ نكاح غيرهنَّ بدلَ إحلال نكاحهنَّ،

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢١١، وهو في سنن الترمذي (٣٢١٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٩٢٢)، وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٢) مسند أحمد (٢١٢٠٨)، وتفسير الطبري ١٩/ ١٤٧-١٤٨، والأحاديث المختارة (١١٧١) و(١١٧٢)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٢١١، وعنه نقل المصنف.

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٤) قوله: عليه، ليس في (م).

وذلك إنما يتصوَّر بالنسخ الذي هو ليس من الوظائف البشرية[1]. انتهى فتأمل ولا تغفل.

وقيل: «ولا أنْ تبدَّلَ» من البدل الذي كان في الجاهلية، كان يقول الرجل للرجل: بادلني بامرأتك وأُبادلك بامرأتي، فينزل كلٌّ واحدٍ منهما عن امرأته للآخر، وروي نحوُه عن ابن زيد[2].

وأنكر هذا القول الطبريُّ[3] وغيره في معنى الآية، وقالوا[4]: ما فعلت العربُ ذاك قطُّ، وما روي من حديث عيينة بن حصن أنه قال لرسول الله ﷺ حين دخل عليه بغير استئذان وعنده عائشة: مَن هذه الحميراء؟ فقال: «عائشة» فقال عيينة: يا رسول الله إن شئت نزلتُ لك عن سيدة نساء العرب جمالاً ونسباً[5]. فليس بتبديلٍ ولا أراد ذلك، وإنما احتقر عائشة رضي الله عنها لأنها كانت إذ ذاك صبيةً.

و«مِن» مزيد لتأكيد الاستغراق، فيشمل النهيُ تبدُّلَ الكلِّ والبعض. وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ في موضع الحال من[6] فاعل «تبدل»، والتقدير: مفروضاً إعجابُك بهنَّ، وحاصله: ولا تبدَّل بهنَّ من أزواج على كلِّ حال.

وظاهرُ كلامِ بعضهم[7] أنه لا يجوز أن يكون حالاً من مفعوله، أعني أزواجاً، وعلَّل ذلك بتوغُّله في التنكير. وتعقَّب بأنه مخالفٌ لكلام النحاة، فإنهم جوَّزوا الحال من النكرة إذا وقعت منفيةً؛ لأنها تستغرقُ حينئذٍ فيزول إبهامُها كما صرح به الرضي.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١١١، ومابين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ١٥٢.

(٣) في تفسيره ١٩/ ١٥٣، وأنكره أيضاً النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٩٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٤.

(٤) القائل هو ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٤، والكلام من البحر ٧/ ٢٤٤.

(٥) أخرجه البزار (٢٢٥١- كشف)، والدارقطني (٣٥١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٢: فيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك.

(٦) قوله: من، ساقط من (م).

(٧) هو الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٧٠، وتبعه في ذلك البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٧/ ١٨١.

وقيل: إنَّ التنكير مانعٌ من الحالية هاهنا لأنَّ الحال تقاس بالصفة، والواوُ مانعةٌ من الوصفية فتَمْنَعُ من الحالية. ومُنع لزومُ القياس، مع أنَّ الزمخشريَّ وغيره جوَّزوا دخول الواو على الصفة لتأكيد لصوقها.

وقيل في عدم جواز ذلك: إنَّ ذا الحال إذا كان نكرةً يجب تقديمها، ولم تقدَّم هاهنا. وتعقِّب بأنَّ ذلك غير مسلَّم في الجملة المقرونة بالواو لكونه بصورة العاطف.

واستظهر صاحب «الكشف» الجواز، وذكر أنَّ المعنى في الحالين لا يتفاوتُ كثير تفاوتٍ؛ لأنه إذا تقيَّد الفعل لزم تقيُّد متعلّقاته، وإنما الاختلافُ في الأصالة والتبعية.

وضميرُ «حسنهنَّ» للأزواج، والمراد بهنَّ مَن يُفْرَضْنَ بدلاً من أزواجه اللاتي في عصمته عليه الصلاة والسلام، فتسميتهنَّ أزواجاً باعتبارِ ما يعرِضُ مآلاً، وهذا بناء على أنَّ باء البدل في «بهن» داخلةٌ على المتروك دون المأخوذ، فلو اعتُبرت داخلةً على المأخوذ كان الضمير للنساء لا للأزواج.

وممَّن أعجبه ﷺ حُسْنُهنَّ ـ على ما قيل ـ أسماء بنت عميس الخثعمية امرأةُ جعفر بن أبي طالب بعد وفاته رضي الله عنه[(١)].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ على ما نُقل عن ابن عطية[(٢)] دليلٌ على جواز أن ينظر الرجل إلى مَن يريد زواجها، وفي الأخبار أدلةٌ على ذلك[(٣)]، وتفصيلُ الأقوال فيه في كتب الفروع.

واختلف في أنَّ الآية الدالة على عدم حلِّ النساء له ﷺ هل هي محكمة أم لا؟ فعن أبيٍّ بن كعب وجماعةٍ منهم الحسن وابن سيرين واختاره الطبريُّ واستظهره أبو حيان أنها محكمة[(٤)].

---

(١) ذكره البغوي ٣/ ٥٣٩ عن ابن عباس، وضعفه ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥٨.
(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٤، ونقل ذلك عنه أبو حيان في البحر ٧/ ٢٤٤، وعنه نقل المصنف.
(٣) ينظر حديث أبي هريرة عند مسلم (١٤٢٤)، وحديث أنس عند أحمد (١٨١٣٧)، والترمذي (١٠٨٧)، وينظر كذلك تفصيل هذه المسألة في تفسير القرطبي ١٧/ ١٩٩.
(٤) تفسير الطبري ١٩/ ١٥٠، والبحر ٧/ ٢٤٤، والكلام منه.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وأمِّ سلمة رضي الله عنهم والضحاك عليه الرحمة أنها منسوخةٌ. وروي ذلك عن عائشة رضي الله عنها؛ أخرج أبو داود في «ناسخه» والترمذيُّ وصححه والنسائيُّ والحاكم وصححه أيضاً وابنُ المنذر وغيرُهم عنها قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلَّ الله تعالى له أن يتزوَّج من النساء ما شاء إلا ذات محرم لقوله سبحانه: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾[1]. وهذا ظاهرٌ في أنَّ الناسخ قولُه تعالى: ﴿تُرْجِى﴾ إلخ، وهو مبنيٌّ على أنَّ المعنى: تطلِّق مَن تشاء وتُمسك مَن تشاء، ووجهُ النسخ به على هذا التفسير أنه يدلُّ بعمومه على أنه أبيح له ﷺ الطلاقُ والإمساكُ لكلِّ مَن يريد، فيدلُّ على أنَّ له تطليقَ منكوحاته ونكاحَ مَن يريد من غيرهنَّ؛ إذ ليس المراد بالإمساك إمساكَ مَن سبق نكاحُه فقط؛ لعموم «مَن تشاء»، وقولُه سبحانه: ﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾ ليس مقيَّداً بـ «منهن»؛ كذا قال الخفاجي[2]، وفي القلب منه شيءٌ.

ولا بدَّ على القول بأنَّ النسخ بذلك من القول بتأخُّر نزوله عن نزول الآية المنسوخة؛ إذ لا يمكن النسخُ مع التقدُّم، وهو ظاهرٌ، ولا يعكِّر التقدُّم في المصحف لأنَّ ترتيبه ليس على حسب النزول.

وقال بعضهم: إن الناسخ السنَّة، ويغلبُ على الظنِّ أنها كانت فِعْلَه عليه الصلاة والسلام؛ أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن شداد أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ إلخ: ذلك لو طلقهنَّ لم

---

(١) سنن الترمذي (٣٢١٦)، وسنن النسائي (المجتبى) ٦/ ٥٦، والمستدرك ٢/ ٤٣٧، وهو عند أحمد (٢٤١٣٧)، والحميدي (٢٣٣)، وابن أبي شيبة ٤/ ٢٦٩-٢٧٠، والطبري ١٩/ ١٥٤، والطحاوي في شرح المشكل (٥٢١). وضعفه ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥٩. وقد نقله المصنف عن السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢١٢، وقوله: إلا ذات محرم لقوله...، ليس من حديث عائشة، وإنما ورد ذلك في حديث أم سلمة رضي الله عنها، ولعل ذكره في حديث عائشة وهم من السيوطي رحمه الله. وحديث أم سلمة أخرجه الطحاوي في شرح المشكل (٥٢٤)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٧، وإسناده ضعيف أيضاً. وقد استدلَّ بالحديث الأول ـ وهو حديث عائشة ـ على أن الآية منسوخة بالسنة، وبالثاني على أنها منسوخة بالقرآن. ينظر الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٨٥، وتفسير القرطبي ١٧/ ١٩٦.

(٢) في الحاشية ٧/ ١٨١-١٨٢.

يحلُّ له أن يستبدل، وقد كان ينكحُ بعد ما نزلت هذه الآيةُ ما شاء، ونزلت وتحته تسعُ نسوةٍ ثم تزوَّج بعدُ أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان وجويرية بنت الحارث رضي الله عنهما[(١)].

والظاهر على القول بأنَّ الآية نزلت كرامةً للمختارات، وتطييباً لخواطرهنَّ، وشكراً لحسن صنيعهنَّ، عدمُ النسخ، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثناءٌ من «النساء»، متصلٌ بناءً على أصل اللغة لتناوله عليه الحرائر والإماء، ومنقطعٌ بناءً على العرف لاختصاصه فيه بالحرائر، (وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ) كالصريح فيه.

وقال ابن عطية: إنَّ «ما» إنْ كانت موصولةً واقعةً على الجنس، فهو استثناءٌ من الجنس مختارٌ فيه الرفع على البدل من «النساء»، ويجوز النصبُ على الاستثناء، وإن كانت مصدرية فهي في موضع نصبٍ لأنه استثناءٌ من غير الجنس الأول[(٢)]. انتهى، وليس بجيِّد لأنه قال: والتقديرُ: إلا ملكَ اليمين، وملك بمعنى مملوك[(٣)]، فإذا كان بمعنى مملوك لم يصحَّ الجزم بأنه ليس من الجنس، وأيضاً لا يتحتَّم النصب وإن فرضنا أنه من غير الجنس حقيقةً، بل أهل الحجاز ينصبون وبنو تميم يُبْدِلون.

وأيًّا ما كان فالظاهرُ حِلُّ المملوكة له ﷺ سواءٌ كانت مما أفاء الله تعالى عليه أم لا.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ أي: راقباً، أو: مراقباً، والمراد: كان حافظاً ومطَّلعاً على كلِّ شيءٍ فاحذروا تجاوُزَ حدوده سبحانه، وتَخطِّيَ حلاله إلى حرامه عز وجل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ شروعٌ في بيان بعض الحقوق على الناس المتعلِّقة به ﷺ وهو عند نسائه، والحقوق المتعلِّقة بهنَّ رضي الله عنهنَّ، ومناسبةُ ذلك لِمَا تقدَّم ظاهرةٌ.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢١٢، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ٤/ ٢٧٠.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٤، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٢٤٥.
(٣) المصدر السابق، والكلام من البحر ٧/ ٢٤٥.

والآيةُ عند الأكثرين نزلت يوم تزوَّج عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش؛ أخرج الإمام أحمد وعبد بن حميد والبخاريُّ ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «سننه» من طرقٍ عن أنس قال: لمَّا تزوَّج رسول الله ﷺ زينب بنتَ جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدَّثون، وإذا هو كأنه يتهيَّأ للقيام فلم يقوموا، فلمَّا رأى ذلك قام، فلمَّا قام قام مَن قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبيُّ ﷺ ليدخل فإذا القومُ جلوسٌ، ثم إنهم قاموا فانطلقتُ فجئتُ فأخبرتُ النبيَّ ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبتُ أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ) الآية[١].

والنهيُ للتحريم، وقولُه سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ﴾ بتقديرِ باء المصاحبة استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، أي: لا تدخلوها في حالٍ من الأحوال إلا حالَ كونكم مصحوبين بالإذن.

وجوَّز أبو حيان كونَه بتقديرِ باء السببية[٢]، فيكون الاستثناء من أعمِّ الأسباب، أي: لا تدخلوها بسببٍ من الأسباب إلا بسبب الإذن.

وذهب الزمخشريُّ[٣] إلى أنه استثناءٌ من أعمِّ الأوقات، أي: لا تدخلوها في وقت من الأوقات إلا وقتَ أن يؤذن لكم. وأوْردَ عليه أبو حيان أنَّ الوقوع موقع الظرف مختصٌّ بالمصدر الصريح دون المؤوَّل، فلا يقال: أتيتُكَ أن يصيح الديكُ، وإنما يقال: أتيتك صياحَ الديك[٤]. ولا يخفى أنَّ القول بالاختصاص أحدُ قولين للنحاة في المسألة، نعم إنه الأشهر، والزمخشريُّ إمامٌ في العربية لا يعترض عليه بمثل هذه المخالفة.

---

(١) مسند أحمد (١٢٠٢٣)، وصحيح البخاري (٤٧٩١)، وصحيح مسلم (١٤٢٨)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٥٦)، وتفسير الطبري ١٩/ ١٦٢، وسنن البيهقي ٧/ ٨٧، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٥/ ٢١٣.

(٢) البحر ٧/ ٢٤٦.

(٣) في الكشاف ٣/ ٢٧٠.

(٤) البحر ٧/ ٢٤٦.

وزعم بعضهم أنَّ الوقت مقدَّرٌ في نظم الكلام، فيكون محذوفاً حَذْفَ حرف الجرِّ، وأنَّ هذا ليس من باب وقوع المصدر موقع الظرف.

وأجاز بعض الأجلَّة كون ذلك استثناءً من أعمِّ الأحوال بلا تقدير الباء، بل باعتبارِ أنَّ المصدر مؤوَّلٌ باسم المفعول، أي: لا تدخلوها إلا مأذوناً لكم، والمصدر المسبوك قد يؤوَّل بمعنى المفعول، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ [يونس:٣٧]: إنَّ المعنى: ما كان هذا القرآن مفترًى، فمن قال: كونُ المصدر بمعنى المفعول غيرُ معروفٍ في المؤوَّل، لم يُصِبْ.

وقيل: فيما ذكر مخالفةٌ لقول النحاة: المصدر المسبوكُ معرفةٌ دائماً كما صرَّح به في «المغني». وتعقَّبه الخفاجيُّ بأنَّ الحقَّ أنه سطحي، وأنه قد يكون نكرةً، وذكر قوله تعالى: (وَمَا كَانَ) إلخ[1].

وقوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ متعلِّقٌ بـ «يؤذَنَ»، وعدِّي بـ «إلى» مع أنه يتعدَّى بـ «في» فيقال: أُذن له في كذا، لتضمينه معنى الدعاء للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على طعامٍ بغير دعوةٍ وإن تحقَّق الإذنُ الصَّريح في دخول البيت، فإنَّ كلَّ إذنٍ ليس بدعوة.

وقيل: يجوز أن يكون قد تنازع فيه الفعلان «تدخلوا» و«يؤذن»، وهو مما لا بأس به.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: غير منتظرين نضجَه وبلوغه، تقول: أَنَى الطعامُ يَأْني إِنًى كقَلَى يَقْلي قِلًى: إذا نضج وبلغ؛ قاله الزجَّاج[2]. وقال مكي: «إناه» ظرفُ زمانٍ مقلوبُ «آن» التي بمعنى الحين، فقُلبت النون قبل الألف وغيِّرت الهمزة إلى الكسرة، أي: غير ناظرين آنه، أي: حينَه[3]، والمراد حين إدراكه ونضجه، أو حين أَكْلِه. حالٌ من فاعل «تدخلوا»، وهو حال مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال كما سمعتَ في «أن يؤذن لكم»، وإذا جُعل ذلك حالاً فهي حالٌ مترادفة، فكأنه

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ١٨٢، وينظر المغني لابن هشام ص٥٩٠.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٢٣٤.

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٢/ ٥٨٠.

قيل: لا تدخلوا في حالٍ من الأحوال إلا مصحوبين بالإذن غيرَ ناظرين. والظاهر أنها حالٌ مقدَّرةٌ، ويحتمل أن تكون مقارِنةً.

والزمخشري بعد أن جعل ما تقدَّم نصباً على الظرفية جعل هذا حالاً أيضاً، لكنه قال بعدُ: وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً، كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبيِّ إلا وقت الإذن ولا تدخلوها إلا غيرَ ناظرين(١).

وتعقَّبه أبو حيان(٢) بأنه لا يجوز على مذهب الجمهور من أنه لا يقع بعد «إلا» في الاستثناء إلا المستثنى أو المستثنى منه أو صفةُ المستثنى منه، ثم قال: وأجاز الأخفش والكسائي ذلك في الحال، أجازا(٣): ما ذهب القوم إلا يومَ الجمعة راحلين عنَّا، فيجوز ما قاله الزمخشريُّ عليه.

ولا يخفَى على المتأمِّل في كلام الزمخشريِّ أنه بعيدٌ بمراحل عن جَعْلِ الآية الكريمة كالمثال المذكور؛ لأنه على التأخير والتقديم، وكلامُه آبٍ عن اعتبار ذلك في الآية، نعم لو اقتصر على جعل «غير ناظرين» حالاً من ضمير «تدخلوا» لأمكن أن يقال: إن مراده: لا تدخلوا غير ناظرين إلا أن يؤذن لكم، ويكون المعنى أنَّ دخولهم غير ناظرين إناه مشروطٌ بالإذن، وأما دخولُهم ناظرين فممنوعٌ مطلقاً بطريق الأولى ثم قدّم المستثنى وأخّر الحال.

وتعقَّبه بعضهم بأنَّ فيه استثناءَ شيئين ـ وهما الظرف والحال ـ بأداةٍ واحدةٍ، وقد قال ابن مالك في «التسهيل»: لا يستثنَى بأداةٍ واحدةٍ دون عطفٍ شيئان(٤). وظاهره عدمُ جواز ذلك سواءٌ كان الاستثناء مفرَّغاً أم لا، وسواءٌ كان الشيئان ممَّا يَعمل فيهما العاملُ المتقدِّم أم لا، فلا يجوز: قام القوم إلَّا زيداً عَمْراً، ولا: ما قام القوم إلا زيداً عمراً، أو: إلا زيدٌ عمرو، ولا: ما قام إلا خالدٌ بكرٌ، ولا: ما أعطيتُ أحداً شيئاً إلا عَمْراً دانقاً، ولا: ما أعطيتُ إلا عمراً دانقاً، ولا: ما أخذ أحدٌ شيئاً إلا زيدٌ درهماً، ولا: ما أخذ أحدٌ إلا زيدٌ درهماً. والكلام في هذه

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٠.

(٢) في البحر ٧/ ٢٤٦.

(٣) في الأصل و(م): أجاز، والمثبت من البحر.

(٤) التسهيل ص١٠٣.

المسألة وما يصحُّ من هذه التراكيب وما لا يصحُّ، وإذا صحَّ فعلى أيِّ وجهٍ يصحُّ، طويلٌ عريضٌ.

والذي أميلُ إليه تقييدُ إطلاقهم: لا يستثنَى بأداةٍ واحدةٍ دون عطفٍ شيئان، بما إذا كان الشيئان لا يعمل فيهما العامل السابقُ قبل الاستثناء، فلا يجوز: ما قام إلا زيدٌ إلا بكرٌ مثلاً؛ إذ لا يكون للفعل فاعلان دون عطفٍ، ولا: ما ضربتُ إلَّا زيداً عَمْراً مثلاً؛ إذ لا يكون لـ: ضَرَب مفعولان دون عطفٍ أيضاً، وأرى جوازَ نحوِ: ما أعطيتُ أحداً شيئاً إلا عمراً دانقاً، ونحو: ما ضَرَبَ إلا زيدٌ عمراً، من غير حاجةٍ إلى التزامِ إبدالِ اسمين من اسمين نظير قوله:

ولمَّا قَرَعْنا النبع بالنبع بعضَه ببعضٍ أبتْ عيدانُه أن تَكَسَّرا(١)

في الأول، وإضمارِ فعلٍ ناصبٍ لعمرو دلَّ عليه المذكور في الثاني. وما ذكره ابن مالك في الاحتجاج على الشَّبَه بالعطف، حيث قال: كما لا يقدَّر بعد حرف العطف معطوفان كذلك لا يقدَّر بعد حرف الاستثناء مستثنيان، لا يتمُّ علينا، فإنَّا نقول في العطف بالجواز في مثل: ما ضرب زيدٌ عمراً وبكرٌ خالداً، قطعاً، فنحوُ: ما أعطيت أحداً شيئاً إلا زيداً دانقاً، كذلك.

وقوله: إنَّ الاستثناء في حكم جملةٍ مستأنفة؛ لأن معنى: جاء القوم إلا زيداً: جاء القومُ ما منهم زيدٌ، وهو - على ما قيل - يقتضي أنْ لا يعملَ ما قبلَ «إلا» فيما بعدها في مثل ما ذكر؛ لأنها بمثابة «ما»، وليس ذلك من الصور المستثناة = ليس بشيء كما لا يخفى.

وما في «أمالي الكافية» من أنه لا بدَّ في المستثنى المفرَّغ من تقدير عامٍّ، فلو استعمل بعد «إلا» شيئان، فإمَّا أن لا يقدَّر عامٌّ أصلاً وهو يخالف حكمَ الباب، أو يقدَّر عامَّان وهو يؤدِّي إلى أمرٍ خارجٍ عن القياس من غير ثبتٍ، ولو جاز في الاثنين جاز فيما فوقهما وهو ظاهرُ البطلان، أو يقدَّر لأحدهما دون الآخر، وهو يؤدِّي إلى

---

(١) البيت للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٧١. وعزاه العسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ٣٠٠ لزفر بن الحارث، وقال: النبع: شجر تُتَّخذ منه القِسِيُّ، ومن أمثالهم: النبع يقرع بعضه بعضاً، ويضرب مثلاً للرجل الشديد يلقى رجلاً مثله في الشدة.

اللبس فيما قُصِدَ = تعقَّبه الحديثي[1] بأنَّ لقائلٍ أن يختار الثالث، ويقولَ: العامُّ لا يقدَّر إلا للَّذي يلي «إلا» منهما؛ لأنه المستثنى المفرَّغُ ظاهراً، فلا يحصل اللبس أصلاً.

وأبو حيان قدَّر في الآية محذوفاً، وجَعَل «غير ناظرين» حالاً من الضمير فيه، والتقدير: ادخلوا غير ناظرين[2]، وهو الذي يقتضيه كلامُ ابن مالكٍ حيث أَوْجَبَ في نحو: ما ضرب إلا زيدٌ عمراً، جَعْلَ عمراً مفعولاً لمحذوفٍ دلَّ عليه المذكور، والجملةُ مستأنفةٌ استئنافاً بيانيًّا وقعت جواباً لسؤالٍ نشأ من الجملة الأولى، كأنه لما قيل: ما ضرب إلا زيدٌ، سأل سائل: مَن ضرب؟ فقيل: ضرب عمراً.

وذكر العلَّامة تقيُّ الدين السبكيُّ عليه الرحمة في رسالته المسماة بـ «الحلم والأناه في إعراب: غير ناظرين إناه» وفيها يقول الصلاح الصفدي:

يا طالب النحو في زمانٍ أطولَ ظلًّا من القناة
وما تحلَّى منه بعِقْدٍ عليك بالحلم والأناة[3]

أنَّ الظاهر أنَّ الزمخشريَّ ما قال ذلك إلا تفسيرَ معنًى، والمستثنى في الحقيقة هو المصدر المتعلِّق به الظرفُ والحالُ، فكأنه قيل: لا تدخلوا إلا دخولاً مصحوباً بكذا، ثم قال: ولستُ أقول بتقدير مصدرٍ هو عاملٌ فيهما، فإنَّ العمل للفعل المفرَّغ، وإنما أردتُ شرح المعنى. ومثل هذا الإعراب هو الذي نختاره في قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] أي: إلا اختلافاً من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، فـ «من بعد

---

(١) هو: الحسن بن محمد، ركن الدين، أبو محمد العلوي الحسيني الأستراباذي، عالم الموصل ومدرس الشافعية، من مصنفاته: شرح كافية ابن الحاجب، وشرح الحاوي الصغير للقزويني، وشرح الفصيح لثعلب، توفي سنة (٧١٥هـ). الوافي بالوفيات ١٢/ ٥٤، وهدية العارفين ١/ ٢٨٣، وكشف الظنون ٢/ ١٣٧٦.

(٢) البحر ٧/ ٢٤٦.

(٣) أعيان العصر وأعوان النصر لصلاح الدين الصفدي ٣/ ٤٣٠، وفيه: وما تحلَّى منها...، وتقي الدين السبكي هو علي بن عبد الكافي المحدث الفقيه المفسِّر الأصولي الأديب، قاضي القضاة، أبو الحسن الأنصاري الخزرجي الشافعي الأشعري، صاحب التصانيف، المتوفى سنة (٧٥٦هـ).

ما جاءهم» و«بغياً» ليسا مستثنيين، بل وقع عليهما المستثنى وهو الاختلافُ، كما تقول: ما قمتُ إلا يومَ الجمعة ضاحكاً أمام الأمير في داره، فكلُّها يعمل فيها الفعل المفرَّغُ من جهة الصناعة، وهي من جهة المعنى كالشيء الواحد لأنها بمجموعها بعضٌ من المصدر الذي تضمَّنه الفعل المنفي، وهذا أحسنُ من أن يقدَّر: اختلفوا بغياً بينهم؛ لأنه حينئذٍ لا يفيد الحصر، وعلى ما قلناه يفيد الحصر فيه كما أفاده في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، فهو حَصْرٌ في شيئين لكنْ بالطريق الذي قلناه، لا أنه استثناءُ شيئين بل استثناءُ شيءٍ صادقٍ على شيئين، ويمكن حملُ كلام الزمخشريِّ على ذلك، فقوله: وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً، صحيحٌ وأن المستثنى أعمّ؛ لأنَّ الأعمَّ يقع على الأخصِّ، والواقعُ على الواقع واقعٌ، فتخلّص عمَّا ورد عليه من قول النحاة: لا يستثنَى بأداةٍ واحدةٍ دون عطفٍ شيئان. انتهى فتدبَّرْه.

وجوَّز أن يكون «غير ناظرين» حالاً من المجرور في«لكم» ولم يذكره الزمخشري. وفي «الكشف»: لو جعل حالاً من ذلك لأفاد ما ذكره من حيث إنه نهيٌ عن الدخول في جميع الأوقات إلا وقت وجود الإذن المقيد.

وقال العلَّامة تقيُّ الدين: لم يجعل حالاً من ذلك وإن كان جائزاً من جهة الصناعة لأنه يصير حالاً مقدَّرةً، ولأنهم لا يَصيرون منهيِّين عن الانتظار، بل يكون ذلك قيداً في الإذن، وليس المعنى على ذلك بل على أنهم نُهوا أن يدخلوا إلا بإذنٍ، ونُهوا إذا دخلوا أن يكونوا غير ناظرين إناه. فلذلك امتنع من جهة المعنى أن يكون العامل فيه «يؤذن» وأن يكون حالاً من مفعوله. اهـ، ولعله أبعدُ نظراً مما في «الكشف».

وقرأ ابن أبي عبلة: «غيرِ» بالكسر(١) على أنه صفةٌ لـ «طعام» فيكون جارياً على غير مَن هو له، ومذهب البصريين في ذلك وجوبُ إبراز الضمير، بأن يقال هنا: غيرِ ناظرٍ أنتم، أو: غيرِ ناظرين أنتم، ولا بأس بحذفه عند الكوفيين إذا لم يقع لبسٌ كما هنا، والتخريج المذكور عليه.

(١) الكشاف ٣/ ٢٧١، والبحر ٧/ ٢٤٦.

وقد أمال حمزة والكسائي «إناه»(١) بناءً على أنه مصدرُ أَنَى الطعامُ: إذا أَدْرَكَ. وقرأ الأعمش: «إناءه» بمدَّةٍ بعد النون(٢).

﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ استدراكٌ من النهي عن الدخول بغير إذنٍ، وفيه دلالةٌ على أنَّ المراد بالإذن إلى الطعام الدعوةُ إليه.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ أي: فإذا أكلتم الطعام فتفرَّقوا ولا تلبثوا، والفاءُ للتعقيب بلا مهلةٍ للدلالة على أنه ينبغي أن يكون دخولهم بعد الإذن والدعوةِ على وجهٍ يعقبه الشروعُ في الأكل بلا فصلٍ.

والآيةُ على ما ذهب إليه الجلُّ من المفسرين خطابٌ لقوم كانوا يتحيَّنون طعام النبيِّ ﷺ، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه، مخصوصةٌ بهم وبأمثالهم ممن يفعل مثلَ فعلهم في المستقبل، فالنهيُ مخصوصٌ بمن دخل بغير دعوةٍ وجلس منتظراً للطعام من غير حاجةٍ، فلا تفيد النهي عن الدخول بإذنٍ لغير طعام، ولا عن الجلوس واللبث بعد الطعام لمهمٍّ آخر، ولو اعتُبر الخطاب عامًّا لكان الدخول واللبثُ المذكوران منهيًّا عنهما، ولا قائلَ به.

ويؤيِّد ما ذُكر ما أخرجه عبد بن حميد عن الربيع بن(٣) أنس رضي الله عنه قال: كانوا يتحيَّنون فيدخلون بيت النبيِّ ﷺ، فيجلسون فيتحدَّثون ليُدْرِكَ الطعامُ، فأنزل الله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) الآية.

وكذا ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سليمان بن أرقم قال: نزلت في الثقلاء(٤). ومن هنا قيل: إنها آية الثقلاء. وتقدَّم لك القولُ بجواز كون «إلى طعام» قد تنازع فيه الفعلان «تدخلوا» و«يؤذن» والأمرُ عليه ظاهر.

وقال العلَّامة ابن كمال: الظاهر أنَّ الخطاب عامٌّ لغير المحارم، وخصوصُ السبب لا يصلح مخصِّصاً على ما تقرَّر في الأصول، نعم يكون وجهاً لتقييد الإذن

---

(١) التيسير ص٤٩.
(٢) البحر ٧/ ٢٤٦.
(٣) في الأصل و(م): عن، والمثبت من الدر المنثور ٥/ ٢١٣، والكلام منه.
(٤) الدر المنثور ٥/ ٢١٤.

بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ فيندفع وهم اعتبارِ مفهومه. انتهى، وفيه بحثٌ فتأمل.

والمشهورُ في سبب النزول ما ذكرناه أولَ الكلام في الآية عن الإمام أحمد والشيخين وغيرِهم فلا تغفل.

﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: لحديثِ بعضكم بعضاً، أو لحديثِ أهل البيت بالتسمُّع له، فاللامُ تعليليةٌ، أو اللامُ المقوِّية، و«مستأنسين» مجرورٌ معطوفٌ على «ناظرين»، و«لا» زائدة، ويجوز أن يكون منصوباً معطوفاً على «غير» كقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. وجوِّز أن يكون حالاً مقدَّرةً أو مقارِنةً من فاعِلِ فِعْلٍ حُذف مع فاعله، وذلك معطوفٌ على المذكور، والتقدير: ولا تدخلوها أو لا تمكثوا مستأنسين لحديث.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: اللبثَ الدالَّ عليه الكلام، أو الاستئناسَ، أو المذكورَ من الاستئناس والنظر، أو الدخولَ على غير الوجه المذكور. والأول أقوى ملاءمةً للسياق والسباق.

﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ لأنه يكون مانعاً له عليه الصلاة والسلام عن قضاء بعضِ أوطاره، مع ما فيه من تضييق المَنزِلِ عليه ﷺ وعلى أهله.

﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ أي: من إخراجكم بأن يقول لكم: اخرجوا، أو من مَنْعِكم عما يؤذيه على ما قيل، فالكلامُ على تقديرِ المضاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فإنَّه يدلُّ على أنَّ المستَحْيَى منه معنًى من المعاني لا ذواتُهم، ليتوارد النفيُ والإثبات على شيءٍ واحد كما يقتضيه نظامُ الكلام، فلو كان المراد الاستحياءَ من ذواتهم لقال سبحانه: والله لا يستَحْيي منكم، فالمراد بالحقِّ إخراجُهم أو المنع عن ذلك، ووُضِعَ «الحقّ» موضعه لتعظيم جانبه، وحاصلُ الكلام أنه تعالى لم يترك الحقَّ وأمركم بالخروج، والتعبيرُ بعدم الاستحياء للمشاكلة، وجوِّز أن يكون الكلام على الاستعارة أو المجاز المرسل.

واعتبارُ تقدير المضاف مما ذهب إليه الزمخشريُّ(١) وكثيرٌ، وهو الذي ينبغي أن يعوَّل عليه. وفي «الكشف»: فإن قلت: الاستحياء من زيد للإخراج مثلاً هو

(١) في الكشاف ٣/ ٢٧١.

الحقيقةُ، والاستحياءُ من استخراجه توسُّعٌ بجَعْلِ ما نشأ منه الفعل كالصلة، وكلتا العبارتين صحيحةٌ يصحُّ إيقاع إحداهما موقعَ الأخرى.

قلت: أريدَ أنه لابدَّ من ملاحظة معنى الإخراج، فإما أن يقدَّر الإخراج ويوقَعَ عليه، فيكثرَ الإضمارُ ولا يطابق اللفظَ نفياً وإثباتاً، وإمَّا أن يقدَّر المضاف فيقلَّ ويطابقَ، ومع وجود المرجِّح وفَقْدِ المانع لا وجهَ للعدول، فلا بدَّ مما ذكر.

وقال العلَّامة ابن كمال: إنَّ قوله تعالى: (فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْۖ) تعليلٌ لمحذوفٍ دلَّ عليه السياق، أي: ولا يخرجكم فيستحيي منكم، ولذلك صدِّر بأداةِ التعليل، ولو كان المعنى: يستحيي من إخراجكم، لكان حقُّه أن يصدَّر بالواو. وفيه أنَّ الكلام بعد تسليم ما ذكر على تقدير المضاف.

وزعم بعضهم أنَّ الأصل: فيستحيي منكم من الحقِّ، والله لا يستحيي منكم من الحق، والمراد بالحق إخراجُهم، على أنَّ ذلك من الاحتباك، وكِلَا حرفي الجرِّ ليس بمعنًى واحدٍ، بل الأول للابتداء والثاني للتعليل، وقال: إنَّ الحمل على ذلك هو الأنسبُ للإعجاز التنزيليِّ والاختصارِ القرآني، ولا يخفى ما فيه.

وقرأت فرقة كما في «البحر»: «فيستحِي» بكسر الحاء مضارع اسْتَحَى، وهي لغةُ بني تميم، والمحذوفُ إما عينُ الكلمة فوزنه يَسْتَفِلُ، أو لامها فوزنُه يَسْتَفِعُ[1]. وفي «الكشاف»: قرئ: «لايستحي» بياءٍ واحدةٍ[2]، وأظنُّ أنَّ القراءة بياءٍ واحدة في الفعل في الموضعين.

هذا والظاهرُ حرمةُ اللبث على المدعوِّ إلى طعامٍ بعد أن يَطْعَمَ إذا كان في ذلك أذًى لربِّ البيت، وليس ما ذكر مختصًّا بما إذا كان اللَّبث في بيت النبيِّ عليه الصلاة والسلام، ومن هنا كان الثقيلُ مذموماً عند الناس، قبيحَ الفعل عند الأكياس.

وعن ابن عباس وعائشة[3] رضي الله عنهم: حَسْبُكَ في الثقلاء أنَّ الله عز وجل لم يحتملهم.

---

(١) البحر ٧/ ٢٤٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧١.

(٣) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٧/ ٢٤٧، وجاء في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٥: =

وعندي كالثقيل المذكورِ مَن يُدْعَى في وقتٍ معيَّنٍ مع جماعةٍ فيتأخَّرُ عن ذلك الوقت من غير عذرٍ[١] شرعيٍّ بل لمحضِ أن يُنتظر ويَظْهرَ بين الحاضرين مزيدُ جلالته، وأنَّ صاحب البيت لا يَسَعُه تقديمُ الطعام للحاضرين قبل حضوره مخافةً منه أو احتراماً له أو لنحو ذلك، فيتأذَّى لذلك الحاضرون أو صاحبُ البيت، وقد رأينا من هذا الصنف كثيراً، نسأل الله تعالى العافية إنَّ فضله سبحانه كان كبيراً.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء النبيِّ ﷺ المدلول عليهنَّ بذكر بيوته عليه الصلاة والسلام، أي: وإذا طلبتم منهنَّ ﴿مَتَٰعًا﴾ أي: شيئاً يُتمتَّع به من الماعون وغيره ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ فاطلبوا منهنَّ ذلك ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي: ستر.

أخرج البخاريُّ وابن جرير وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، يدخل عليك البرُّ والفاجر، فلو أمرتَ أمَّهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله تعالى آيةَ الحجاب[٢].

وكان رضي الله عنه حريصاً على حجابهنَّ، وما ذاك إلا حبًّا لرسول الله ﷺ، أخرج ابن جرير عن عائشة أنَّ أزواج النبيِّ عليه الصلاة والسلام كنَّ يخرجنَ بالليل إذا تبرَّزن[٣] إلى المناصع، وهو صعيدٌ أَفْيَحُ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول للنبيِّ ﷺ: احجبْ نساءك. فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودةُ بنتُ زمعةَ رضي الله عنها ليلةً من الليالي عشاءً، وكانت امرأةً طويلةً، فناداها عمر رضي الله عنه بصوته

= وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي: حسبك... إلخ، ولعل أبا حيان رحمه الله وهم فنقله: عن ابن عباس وعائشة.
والصواب أن الكلام لابن عائشة كما قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٦، وكما أخرجه الثعلبي في تفسيره ٨/ ٥٨-٥٩ من طريق الغلابي عن ابن عائشة، وابن عائشة هو عبيد الله بن محمد بن حفص القرشي التيمي، أبو عبد الرحمن البصري، من ولد عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، توفي سنة (٢٢٨هـ)، والغلابي هو محمد بن زكريا، وهو أحد الرواة عن ابن عائشة كما ذكر المزي في تهذيب الكمال ١٩/ ٤٩.

(١) بعدها في (م): كثير.

(٢) صحيح البخاري (٤٤٨٣)، وتفسير الطبري ١٩/ ١٦٧، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٢١٣، وعنه نقل المصنف.

(٣) في الأصل و(م): برزن، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

الأعلى: قد عرفناكِ يا سودةُ. حرصاً على أن ينزل الحجابُ، فأنزل الله تعالى الحجاب[١]. وذلك أحدُ موافقات عمر رضي الله عنه، وهي مشهورةٌ.

وعدَّ الشيعةُ ما وقع منه رضي الله عنه في خبر ابن جرير من المثالب؛ قالوا: لِمَا فيه من سوء الأدب وتخجيلِ سودةَ حرمِ رسول الله ﷺ وإيذائها بذلك.

وأجاب أهلُ السنَّة بعد تسليم صحة الخبر أنه رضي الله عنه رأى أنْ لا بأسَ بذلك؛ لِمَا غلب على ظنِّه من ترتُّب الخير العظيم عليه، ورسول الله ﷺ وإن كان أعلمَ منه وأغْيرَ لم يفعل ذلك انتظاراً للوحي، وهو اللائقُ بكمال شأنه مع ربِّه عز وجل.

وأخرج البخاريُّ في «الأدب» والنسائيُّ من حديث عائشة أنها كانت تأكل معه عليه الصلاة والسلام وكان يأكل معهما بعضُ أصحابه، فأصابت يدُ رجلٍ يدَها، فكره النبيُّ ﷺ ذلك فنزلت[٢].

ولا يبعُدُ أن يكون مجموعُ ما ذكر سبباً للنزول.

ونزل الحجابُ ـ على ما أخرج ابن سعد عن أنس ـ سنةَ خمس من الهجرة[٣]، وأخرج عن صالح بن كيسان أنَّ ذلك في ذي القعدة منها[٤].

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الظاهرُ أنه إشارةٌ إلى السؤال من وراء حجاب، وقيل: هو إشارة إلى ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن وعدمِ الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب.

﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: أكثرُ تطهُّراً من الخواطر الشيطانية التي تخطر للرجال في أمر النساء وللنساء في أمر الرجال، فإنَّ الرؤية سببُ التعلُّق والفتنة،

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ١٦٨، وهو عند البخاري (١٤٦)، ومسلم (٢١٧٠).

(٢) جاء في حاشية (م): وفي مجمع البيان أن مجاهداً روى عن عائشة أنها كانت تأكل مع رسول الله ﷺ حيساً في قعب، فمر عمر فدعاه عليه الصلاة والسلام فأكل، فأصابت أصبعه أصبع عائشة فقال: لو أُطاع فيكن ما رأتكن عين. اهـ منه، وهو في مجمع البيان ٢٢/ ١٦٢. وبهذا اللفظ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٥٥).

(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ١٧٤.

(٤) طبقات ابن سعد ٨/ ١٧٥.

وفي بعض الآثار: النظرُ سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس[(١)]. وقال الشاعر:

والمرءُ ما دام ذا عينٍ يقلِّبُها ... في أعْيُنِ العِيْنِ موقوفٌ على الخَطَرِ
يَسُرُّ مقلتَه ما ساء مهجتَه ... لا مرحباً بانتفاعٍ جاء بالضررِ[(٢)]

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي: وما صحَّ وما استقام لكم ﴿أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: تفعلوا في حياته فعلاً يكرهُه ويتأذَّى به، كاللبث والاستئناس بالحديث الذي كنتم تفعلونه وغيرِ ذلك. والتعبيرُ عنه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتقبيح ذلك الفعل، والإشارةِ إلى أنه بمراحل عمَّا يقتضيه شأنه ﷺ؛ إذ في الرسالة مِن نَفْعِهم المقتضي للمقابلة بالمِثْلِ دون الإيذاء ما فيها.

﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ من بعد وفاته أو فراقه، وهو كالتخصيص بعد التعميم، فإن نكاح زوجة الرجل بعد فراقه إياها من أعظم الأذى. ومِن الناس مَن تفرطُ غيرتُه على زوجته حتى يتمنَّى لها الموت لئلَّا تُنكح من بعده، وخصوصاً العرب فإنهم أشدُّ الناس غيرةً.

وحكى الزمخشريُّ أنَّ بعض الفتيان قتل جاريةً له يحبُّها مخافةَ أن تقع في يد غيره بعد موته[(٣)].

وظاهر النهي أنَّ العَقْدَ غير صحيح، وعمومُ الأزواج ظاهرٌ في أنه لا فرق في ذلك بين المدخول بها وغيرِها كالمستعيذة[(٤)]، والتي رأى بكَشْحها بياضاً، فقال لها عليه الصلاة والسلام قبل الدخول: «الحقي بأهلك»[(٥)]. وهو الذي نصَّ عليه

---

(١) أخرجه الحاكم ٤/ ٣١٣-٣١٤ من طريق إسحاق بن عبد الواحد القرشي، عن هشيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن صلة بن زفر، عن حذيفة ﷺ مرفوعاً، وصححه، وقال الذهبي: إسحاق بن عبد الواحد القرشي واهٍ، وعبد الرحمن هو الواسطي ضعَّفوه. اهـ. وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود ﷺ، وفي إسناده أيضاً عبد الرحمن الواسطي. فالحديث ضعيف ولكن معناه صحيح.

(٢) البيتان لعبد المحسن بن غالب الصوري كما في ذم الهوى لابن الجوزي ص١٠١.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٧٢.

(٤) قال ابن عبد البر في الاستيعاب ١٣/ ١٢٧: اختلف في المستعيذة من رسول الله ﷺ اختلافاً كثيراً، ولا يصح فيها شيء.

(٥) أخرجه أحمد (١٦٠٣٢)، والبخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٢٣، والطحاوي في شرح مشكل =

الإمامُ الشافعيُّ، وصححه في «الروضة». وصحَّح إمامُ الحرمين والرافعيُّ في «الصغير» أنَّ التحريم للمدخول بها فقط؛ لِمَا روي أنَّ الأشعث بن قيس الكنديَّ نكح المستعيذةَ في زمن عمر رضي الله عنه، فهمَّ عمر برجمه، فأُخبر أنها لم يكن مدخولاً بها، فكفَّ من غير نكير(١).

وروي أيضاً أنَّ قتيلةَ بنتَ قيس أختَ الأشعث المذكورِ تزوَّجها عكرمةُ بن أبي جهل بحضرموت، وكانت قد زوَّجها أخوها قبلُ من رسول الله ﷺ، فقَبْلَ أن يدخل بها حملها معه إلى حضرموت وتوفِّي عنها عليه الصلاة والسلام، فبلغ ذلك أبا بكر رضي الله عنه فقال: هممتُ أن أحرق عليها بيتها. فقال له عمر: ما هي من أمَّهات المؤمنين، ما دخل بها ﷺ ولا ضَرَبَ عليها الحجاب(٢).

وقيل: لم يحتجَّ عليه بذلك، بل احتجَّ بأنها ارتدَّتْ حين ارتدَّ أخوها فلم تكن من أمَّهات المؤمنين بارتدادها(٣).

وكذا هو ظاهرٌ في أنه لا فرقَ في ذلك بين المختارة منهنَّ الدنيا كفاطمة بنت الضحاك بن سفيان الكلابيِّ في روايةِ ابن إسحاق(٤)، والمختارةِ اللهَ ورسولَه ﷺ كنسائه عليه الصلاة والسلام التسع اللاتي توفِّي عنهنَّ.

= الآثار من حديث كعب بن زيد الأنصاري، وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند، وحاشية تفسير القرطبي ١٧/ ١٢٦، والتلخيص الحبير ٣/ ١٣٩، والكَشْح: ما بين الخاصرة إلى الضِّلَع الخَلْف. المختار (كشح)..

(١) ذكره الغزالي في الوسيط ٥/ ٢١، والماوردي وإمام الحرمين والقاضي حسين كما ذكر ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٣٩ وقال: ولا أصل له في كتب الحديث. وسلف ص٢٠٠ من هذا الجزء.

(٢) ذكره الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٨ عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، وذكره أيضاً ابن عبد البر في الاستيعاب ١٣/ ١٣٥.

(٣) أخرجه ابن سعد ٨/ ١٤٧-١٤٨ عن داود بن أبي هند، وأخرجه الطبري ١٩/ ١٧٠، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٥٤) من طريق داود عن الشعبي، وكذا أخرجه أبو نعيم في المعرفة كما ذكر الحافظ في التلخيص الحبير ٣/ ١٣٩ وقال: وأخرجه البزار من وجه آخر عن داود عن عكرمة عن ابن عباس موصولاً، وصححه ابن خزيمة والضياء من طريقه في المختارة.

(٤) ذكره عن ابن إسحاق ابن عبد البر في الاستيعاب ١٣/ ١٢٦، وقال: وهذا عندنا غير صحيح. وردَّه بما في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ حين خيَّر أزواجه بدأ بها فاختارت الله ورسوله، قالت: وتتابع أزواج النبي ﷺ كلهن على ذلك.

وللعلماء في حلِّ مختارة الدنيا للأزواج طريقان؛ أحدهما طرد الخلاف، والثاني القطعُ بالحلِّ، واختاره الإمام والغزاليُّ عليهما الرحمة[1].

وكأنَّ مَن قال بحلِّ غير المدخول بها وبحلِّ المختارة المذكورة حَمَلَ الأزواج على مَن كنَّ في عصمته يومَ نزول الآية، وعلى مَن يشبههنَّ ولَسْنَ إلا المدخولات بهن اللاتي اخترنه عليه الصلاة والسلام، وإذا حُمِلَ ذلك وأريدَ بقوله تعالى: (مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ): من بعد فراقه، يلزم حرمةُ نكاح مَن طلَّقها ﷺ من تلك الأزواج على المؤمنين، وهو كذلك.

ومن هنا اختلف القائلون بانحصار طلاقه ﷺ بالثلاث، فقال بعضهم: تحلُّ له عليه الصلاة والسلام مَن طلقها ثلاثاً من غير محلِّلٍ. وقال آخرون: لا تحلُّ له أبداً.

وظاهر التعبير بالأزواج عدمُ شمول الحكم لأَمَةٍ فارقها ﷺ بعد وطئها، وفي المسألة أوجهٌ، ثالثُها أنها تحرم إن فارقها بالموت كـ: مارية ﵂، ولا تحرم إن باعها أو وهبها في الحياة.

وحرمةُ نكاح أزواجه عليه الصلاة والسلام من بعده من خصوصياته ﷺ، وسمعتُ عن بعض جهلة المتصوِّفة أنهم يحرِّمون نكاحَ زوجة الشيخ مِن بعده على المريد، وهو جهلٌ ما عليه مزيد.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ إشارة إلى ما ذكر من إيذائه عليه الصلاة والسلام ونكاحِ أزواجه من بعده، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الشر والفساد.

﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه عز وجل ﴿عَظِيمًا ۝٥٣﴾ أي: أمراً عظيماً وخَطْباً هائلاً لا يقادَرُ قَدْرُه. وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ وإيجابِ حرمته حيًّا وميتاً ما لا يخفى.

ولذلك بالغ عزَّ وجلَّ في الوعيد حيث قال سبحانه: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا﴾ ممَّا لا خير فيه على ألسنتكم، كأنْ تتحدَّثوا بنكاحهنَّ ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ في صدوركم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

---

(١) سلف الكلام في هذه المسألة ص١٩٩-٢٠١ من هذا الجزء.

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ كاملَ العلم، فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصي الباديةِ والخافيةِ لا محالة، وهذا دليلُ الجواب، والأصل: إن تبدوا شيئاً أو تخفوه يُجازكم به، فإنَّ الله.. إلخ. وقيل: هو الجواب على معنى: فأخبركم أنَّ الله.. إلخ.

وفي تعميم «شيء» في الموضعين مع البرهان على المقصود من ثبوت علمه تعالى بما يتعلَّق بزوجاته ﷺ مزيدُ تهويلٍ وتشديدٍ ومبالغةٍ [في](١) الوعيد.

وسبب نزول الآية على ما قيل أنه لمَّا نزلت آية الحجاب قال رجل: أَنُنْهَى أن نكلِّم بناتِ عمِّنا إلا من وراء حجاب، لئن مات محمد ﷺ لنتزوَّجنَّ نساءه. وفي بعض الروايات: تزوَّجْتُ عائشةَ أو أمَّ سلمة.

وأخرج جويبر عن ابن عباس أن رجلاً أتى بعضَ أزواج النبيِّ ﷺ فكلَّمها، وهو ابن عمِّها، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «لا تقومنَّ هذا المقام بعد يومك هذا» فقال: يا رسول الله، إنها ابنةُ عمِّي، والله ما قلتُ لها منكراً ولا قالت لي. قال النبي ﷺ: «قد عرفتُ ذلك، إنه ليس أحدٌ أَغْيرَ من الله تعالى، وإنه ليس أحدٌ أغيرَ منِّي» فمضى ثم قال: عنَّفني من كلام ابنة عمِّي، لأتزوَّجنَّها من بعده. فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأعتق ذلك الرجلُ رقبةً، وحَملَ على عشرة أبعرةٍ في سبيل الله تعالى، وحجَّ ماشياً من كلمته(٢).

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة أنَّ طلحة بن عبيد الله قال: لو قبض النبيُّ ﷺ تزوَّجت عائشةَ. فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ الآية(٣).

قال ابن عطية: كون القائل طلحة رضي الله عنه لا يصحُّ(٤). وهو الذي يغلب على

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٧/ ١١٣، والكلام منه.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢١٤، وأسباب النزول للسيوطي ص٣٠٧، وتحرف جويبر في الدر إلى: ابن جرير.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢١٤، وهو في تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٢٢ بلفظ: أن رجلاً قال...، ولم يسمِّه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦. وقال أبو العباس القرطبي في المفهم ٤/ ١٤٩: وقد حكي هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة، وحاشاهم عن مثله، وإنما الكذب في نقله، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين والجهَّال.

ظنّي، ولا أكاد أسلِّم الصحة إلَّا إذا سلِّم ما تضمَّنه خبر ابن عباس مما يدلُّ على الندم العظيم.

وفي بعض الروايات أنَّ بعض المنافقين قال حين تزوَّج رسول الله ﷺ أمَّ سلمة بعد أبي سلمة، وحفصةَ بعد خنيس بن حذافة: ما بالُ محمدٍ ﷺ يتزوَّجُ نساءنا، والله لو قد مات لأَجَلْنا السهام على نسائه. فنزلت[1].

ولعمري إنَّ ذلك غيرُ بعيدٍ عن المنافقين، وهو أبعدُ من العيُّوق عن المؤمنين المخلصين، لا سيما مَن كان من المبشَّرين رضي الله عنهم أجمعين، ورأيتُ لبعض الأجلَّة أنَّ طلحة الذي قال ما قال ليس هو طلحةَ أحدَ العشرة، وإنما هو طلحةُ آخرُ لا يَبْعدُ منه القول المحكيُّ، وهذا من باب اشتباه الاسم فلا إشكال.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ استئنافٌ لبيان مَن لا يجبُ عليهنَّ الاحتجابُ عنه. روي أنه لمَّا نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: أَوَنحن يا رسول الله نكلِّمهنَّ أيضاً من وراء حجاب؟ فنزلت[2].

والظاهر أنَّ المعنى: لا إثم عليهنَّ في ترك الحجاب من آبائهنَّ.. إلخ، وروي ذلك عن قتادة.

وعن مجاهد أنَّ المراد: لا جناحَ عليهنَّ في وضع الجلباب وإبداء الزينة للمذكورين. وفي حُكْمِهم كلُّ ذي رحمٍ من نسبٍ أو رضاعٍ على ما روى ابن سعد عن الزهري[3]. وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود في «ناسخه» عن عكرمة قال: بلغ ابنَ عباس رضي الله عنهما أنَّ عائشة رضي الله عنها احتجبت من الحسن رضي الله عنه، فقال: إنَّ رؤيته لها لحِلٌّ[4].

ولم يذكر العمَّ والخال لأنهما بمنزلة الوالدين، أو لأنه اكْتُفَى عن ذكرهما بذكر

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٨٠، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٧٢.

(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ١٧٧.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢١٥.

أبناء الإخوة وأبناء الأخوات، فإنَّ مناط عدم لزوم الحجاب بينهنَّ وبين الفريقين عينُ ما بينهنَّ وبين العمِّ والخال من العمومة والخؤولة لِمَا أنهنَّ عمَّاتٌ لأبناء الإخوة، وخالاتٌ لأبناء الأخوات.

وقال الشعبي: لم يُذكرا وإن كانا من المحارم لئلَّا يصفاها لأبنائهما، وليسوا من المحارم. وقد أخرج نحوَ ذلك ابنُ جرير وابن المنذر عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه[١]. وقد كره الشعبيُّ وعكرمةُ أن تضع المرأة خمارها عند عمِّها أو خالها مخافةَ وَصْفِهِ إياها لابنه[٢]. وهذا القول عندي ضعيفٌ لجريان ذلك في النساء كلِّهنَّ ممن لم يكنَّ أمهات محارم، ولا أرى صحة الرواية عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه.

﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: النساء المؤمنات على ما روي عن ابن عباس وابن زيد ومجاهد. والإضافة إليهنَّ باعتبار أنهنَّ على دينهنَّ، فيحتجِبْنَ عن[٣] الكافرات ولو كتابيَّاتٍ.

وفي «البحر»: دخل في «نسائهن» الأمهاتُ والأخواتُ وسائرُ القرابات، ومَن يتَّصلُ بهنَّ من المتصرِّفات لهنَّ والقائمات بخدمتهنَّ[٤].

﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ظاهره من العبيد والإماء، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس[٥]. وإليه ذهب الإمام الشافعي. وقال الخفاجيُّ: مذهب أبي حنيفة أنه مخصوصٌ بالإماء[٦].

وعلى الظاهر استُثني المكاتَب؛ قال أبو حيان: إنه ﷺ أُمِرَ بضرب الحجاب دونه، وفعلته أمُّ سلمة مع مكاتَبِها نبهان[٧].

(١) كذا ذكر، والذي في الدر المنثور ٥/ ٢١٥ عن ابن جرير وابن المنذر أنهما أخرجاه عن عكرمة، وسيأتي تخريجه لاحقاً عن عكرمة، ولم نقف عليه عن علي ﷺ.
(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ١٧٣، وابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٣٠.
(٣) في (م): على.
(٤) البحر ٧/ ٢٤٨.
(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ٢١٥.
(٦) حاشية الشهاب ٧/ ١٨٣.
(٧) البحر ٧/ ٢٤٨.

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾ في كلِّ ما تأتينَ وتَذَرْنَ، لا سيما فيما أُمرتنَّ به وما نُهيتنَّ عنه. وفي «البحر»: في الكلام حذفٌ، والتقدير: اقتصِرْنَ على هذا واتَّقينَ الله تعالى فيه أن تتعدَّينه إلى غيره[(١)]. وفي نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب فضلُ تشديدٍ في طلب التقوى منهنَّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ لا تَخْفَى عليه خافيةٌ، ولا تتفاوتُ في علمه الأحوالُ، فيجازي سبحانه على الأعمال بحسبها.

هذا واختُلف في حرمة رؤية أشخاصهنَّ مستترات؛ فقال بعضهم بها، ونُسب ذلك إلى القاضي عياض، وعبارتُه: فَرْضُ الحجاب مما اختصصْنَ به، فهو فرضٌ عليهنَّ بلا خلافٍ في الوجه والكفَّين، فلا يجوز لهنَّ كشفُ ذلك في شهادةٍ ولا غيرها، ولا إظهارُ شخوصهنَّ وإنْ كنَّ مستترات إلا ما دعت إليه ضرورةٌ من براز. ثم استَدلَّ بما في «الموطأ» أنَّ حفصة لمَّا توفي عمر رضي الله عنه سترتها النساءُ عن أن يُرى شخصُها، وأنَّ زينب بنتَ جحش جُعلت لها القبَّة فوق نعشها لتستر شخصها[(٢)]. انتهى.

وتعقَّب ذلك الحافظ ابن حجر فقال: ليس فيما ذكره دليلٌ على ما ادَّعاه من فرض ذلك عليهنَّ، فقد كنَّ بعد النبيِّ ﷺ يحجُجْنَ ويَطُفْنَ، وكان الصحابة ومَن بعدهم يسمعون منهنَّ الحديث وهنَّ مستتراتُ الأبدان لا الأشخاص[(٣)]. اهـ.

وأنا أرى أفضلية ستر الأشخاص، فلا يبعُدُ القول بندبه لهنَّ وطَلَبِه منهنَّ أَزْيَدَ من غيرهنَّ. وفي «البحر»: ذهب عمر رضي الله عنه إلى أنه لا يشهد جنازة زينب إلا ذو محرمٍ منها مراعاةً للحجاب، فدلَّته أسماء بنت عميس على سترها في النعش بقبَّةٍ تُضْرَبُ عليه، وأعلمته أنها رأت ذلك في بلاد الحبشة، فصنعه عمر رضي الله عنه[(٤)]. وروي أنه صنع ذلك في جنازة فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ[(٥)].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم للقاضي عياض ٧/ ٥٧، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٣٠. وسيأتي تخريج خبر زينب رضي الله عنها.

(٣) فتح الباري ٨/ ٥٣٠.

(٤) البحر ٧/ ٢٤٧، والخبر أخرجه ابن سعد ٨/ ١١١.

(٥) البحر ٧/ ٢٤٧، والخبر أخرجه ابن سعد ٨/ ٢٨، والبيهقي ٤/ ٣٤.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ كالتعليل لِمَا أفاده الكلام السابق من التشريف العظيم الذي لم يُعهد له نظير، والتعبير بالجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار. وذُكر أنَّ الجملة تفيدُ الدوامَ نظراً إلى صدرها من حيث إنها جملةٌ اسمية، وتفيد التجدُّدَ نظراً إلى عَجُزها من حيث إنه جملةٌ فعلية، فيكون مفادُها استمرارَ الصلاة وتجدُّدَها وقتاً فوقتاً.

وتأكيدُها بـ «إنَّ» للاعتناء بشأن الخبر، وقيل: لوقوعها في جواب سؤالٍ مقدَّر هو: ما سبب هذا التشريف العظيم؟.

وعبّر بالنبيِّ دون اسمه ﷺ على خلاف الغالب في حكايته تعالى عن أنبيائه عليهم السلام إشعاراً بما اختصَّ به ﷺ من مزيد الفخامة والكرامة وعلوِّ القَدْر، وأكّد ذلك الإشعار بـ «أل» التي للغلبة إشارةً إلى أنه ﷺ المعروف الحقيقُ بهذا الوصف. وقال بعض الأجلَّة: إنَّ ذاك للإشعار بعلَّة الحكم.

ولم يعبّر بالرسول بدله ليوافق ما قبله من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ لأن الرسالة أفضل من النبوَّة على الصحيح الذي عليه الجمهور، خلافاً للعزِّ بن عبد السلام[1]، فتعليقُ الحكم بها لا يفيدُ قوةَ استحقاقه عليه الصلاة والسلام للصلاة بخلافِ تعليقه بما هو دونها مع وجودها فيه، وهو معنًى دقيقٌ، فلا تسارِعْ إلى الاعتراض عليه.

وإضافة الملائكة للاستغراق. وقيل: «ملائكته» ولم يقل: الملائكة، إشارةً إلى عظيم قَدْرِهم ومزيدِ شرفهم بإضافتهم إلى الله تعالى، وذلك مستلزمٌ لتعظيمه ﷺ بما يصل إليه منهم، من حيث إنَّ العظيم لا يصدر منه إلا عظيمٌ، ثم فيه التنبيهُ على كثرتهم، وأنَّ الصلاة من هذا الجمع الكثير الذي لا يحيط بمنتهاه غيرُ خالقه واصلةٌ إليه ﷺ على ممرِّ الأيام والدهور مع تجدُّدِها كلَّ وقتٍ وحين، وهذا أبلغُ تعظيمٍ وأنهاه، وأشملُه وأكملُه وأزكاه.

واختلفوا في معنى الصلاة من الله تعالى وملائكته عليهم السلام على نبيِّه ﷺ على أقوال؛ فقيل: هي منه ـ عزَّ وجلَّ ـ ثناؤه عليه عند ملائكته وتعظيمُه، ورواه

---

(١) في قواعد الأحكام ٢/١٩٩.

البخاريُّ عن أبي العالية(١)، وغيرُه عن الربيع بن أنس، وجرى عليه الحليميُّ في «شعب الإيمان»(٢)، وتعظيمُه تعالى إياه في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهارِ دينه وإبقاءِ العمل بشريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته وإجزال أجره ومثوبته وإبداء فضله للأوَّلين والآخِرين بالمقام المحمود وتقديمه على كافَّة المقرَّبين الشهود، وتفسيرها بذلك لا ينافي عطف غيره كالآل والأصحاب عليه لأن تعظيم كلٍّ أحد بحسب ما يليق به، وهي من الملائكة الدعاء له عليه الصلاة والسلام على ما رواه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن أبي العالية.

وقيل: هي منه تعالى رحمتُه عزَّ وجلَّ، ونقله الترمذيُّ عن الثوريِّ وغيرِ واحد من أهل العلمِ(٣)، ونُقل عن أبي العالية أيضاً وعن الضحاك، وجرى عليه المبرِّدُ وابنُ الأعرابي والإمامُ الماورديُّ، وقال: إنَّ ذلك أظهرُ الوجوه(٤).

واعتُرض بما مرَّ عند الكلام في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب:٤٣] والجوابُ هو الجواب. وبأنَّ الصحابة ﷺ سألوا كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى لمَّا نزلت عن كيفية الصلاة، فلو لم يكونوا فهموا المغايرةَ بينها وبين الرحمة ما سألوا عن كيفيتها مع كونهم علموا الدعاء بالرحمة في التشهُّد.

وأجيبَ بأنها رحمةٌ خاصةٌ، فسألوا عن الكيفية ليحيطوا علماً بذلك الخصوص.

وهي من الملائكة كما سمعتَ أوَّلاً(٥)، ويلزم على هذا وذلك استعمالُ اللفظ في معنيين، ولا يجوِّزه كثيرٌ كالحنفية، والقائلون بأحد القولين الذين لا يجوِّزون الاستعمال المذكور اختلفوا في التفصِّي(٦) عن ذلك في الآية؛ فقال بعضهم: في

---

(١) صحيح البخاري قبل الحديث (٤٧٩٧).
(٢) المنهاج في شعب الإيمان لأبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي ٢/ ١٣٤.
(٣) سنن الترمذي إثر الحديث (٤٨٥).
(٤) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٢١ هذا القول وغيره، ولم نقف فيه على قوله: ذلك أظهر الوجوه.
(٥) يعني عند تفسير الآية (٤٣) من هذه السورة.
(٦) أي: التخلص.

الآية حذفٌ، والأصل: إنَّ الله يصلِّي وملائكتُه يصلُّون، فيكون قد أُدِّيَ كلُّ معنًى بلفظٍ. وقال آخر: تعدُّد الفاعل صيَّر الفعل كالمتعدِّد.

وقال صدر الشريعة(١): يجوز أن يكون المعنى واحداً حقيقيًّا، وهو الدعاء، والمعنى والله تعالى أعلم أنه تعالى يدعو ذاته والملائكة بإيصال الخير، وذلك في حقِّه تعالى بالرحمة وفي حقِّ الملائكة بالاستغفار. وفيه دغدغةٌ لا تخفَى.

وقال جمعٌ من المحقِّقين: يُتَفَصَّى عن ذلك بعموم المجاز، فيرادُ معنًى مجازيٌّ عامٌّ يكون كلٌّ من المعاني فرداً حقيقيًّا له، وهو الاعتناء بما فيه خيره ﷺ وصلاحُ أمره وإظهارُ شرفه وتعظيمُ شأنه، أو الترحُّم والانعطاف المعنوي.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ معنى الصلاة يختلفُ باعتبار حال المصلِّي والمصلَّى له والمصلَّى عليه، والأَوْلَى أنها موضوعةٌ هنا للقَدْرِ المشترك، وهو الاعتناءُ بالمصلَّى عليه، أو إرادةُ وصول الخير.

وقال آخر: الصوابُ أنَّ الصلاة لغةً بمعنًى واحدٍ وهو العطفُ، ثم هو بالنسبة إليه تعالى الرحمةُ، وإلى الملائكة عليهم السلام الاستغفارُ، وإلى الآدميين الدعاء.

وتعقِّب بأنَّ العطف بمعناه الحقيقيِّ مستحيلٌ عليه تعالى، فيلزم من اعتباره مسنداً إليه تعالى وإلى الملائكة عليهم السلام ما يلزم.

وأجيب بأنَّا لا نسلِّم الاستحالةَ إلا إذا كان العطفُ في الغائب كالعطف في الشاهد لا يتحقَّق إلا بقلبٍ ونحوِه من صفات الأجسام المستحيلةِ عليه سبحانه، ونحن من وراء المنع، فكثيرٌ مما في الشاهد شيءٌ وهو في الله تعالى وراء ذلك، ويُسند إليه سبحانه على الحقيقة كالسمع والبصر وكذا الإرادة.

وقد ذهب السلف إلى عدم تأويل الرحمة فيه تعالى بأحد التأويلين المشهورين، مع أنها في الشاهد لا تتحقَّقُ إلا بما يستحيلُ عليه تعالى، ولو أوجب ذلك التأويل لم يبقَ بأيدينا غير محتاجٍ إليه إلا قليل، وقد تقدَّم ما يتعلَّق بهذا المطلب في غير موضعٍ من هذا الكتاب.

---

(١) هو عبيد الله بن مسعود، فقيه حنفي، توفي سنة (٧٤٧هـ). الفوائد البهية ص١٠٩-١١٠.

وقد يختار أنَّ الصلاة هنا تعظيمٌ لشأنه ﷺ يقارنه عطفٌ لائقٌ به تعالى وبملائكته؛ وإذا انسحبت عليه عليه الصلاة والسلام وعلى أحدٍ من المؤمنين تعلَّقتْ بكلٍّ حَسْبَمَا يليقُ به.

وجمعُ الله سبحانه والملائكةِ في ضميرٍ واحدٍ لا ينافي قولَه عليه الصلاة والسلام لمن قال: مَن يُطع الله ورسوله فقد رَشَد، ومَن يَعْصِهما فقد غوى: «بئسَ خطيبُ القوم أنت، قل: ومَن يَعْصِ الله ورسولَه»[1] لأن ذلك منه تعالى محضُ تشريفٍ للملائكة عليهم السلام لا يُتوَهَّم منه نقصٌ، ولذا قيل: إذا صدر مثلُه عن معصوم قُبل كما في قوله ﷺ: «لا يؤمنُ أحدكم حتى يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما»[2].

وقال بعضهم: لا بأس بذلك مطلقاً، وذمّ الخطيب لأنه وقف على: يعصهما، وسكت سكتةً. واستدلَّ بخبرٍ لأبي داود[3].

وقيل: يقبحُ إذا كان في جملتين كما في كلام الخطيب، ولا يقبحُ إذا كان في واحدةٍ كما في الآية وكلامِ الحبيب عليه الصلاة والسلام. وفيه بحث.

وقرأ ابن عباس وعبد الوارث عن أبي عمرو: «وملائكتُه» بالرفع[4]، فعند الكوفيين غيرَ الفرَّاء هو عطفٌ على محلِّ «إنَّ» واسمِها، والفرَّاء يشترطُ في العطف على ذلك خفاءَ إعراب اسم «إنَّ» كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩] وكما في قول الشاعر:

ومَن يكُ أمسَى في المدينة رَحْلُه ... فإنِّي وقيَّارٌ بها لغريبُ[5]

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٢٤٧)، ومسلم (٨٧٠) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٣١٥١) من حديث أنس رضي الله عنه، وهو عند البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) بلفظ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...».

(٣) سنن أبي داود (١٠٩٩) و(٤٩٨١) من حديث عدي بن حاتم: أن خطيباً خطب عند النبي ﷺ فقال: مَن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومَن يعصهما. فقال «قم» أو قال: «اذهب فبئس الخطيب أنت».

(٤) القراءات الشاذة ص١٢٠، والبحر ٧/ ٢٨٤

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٣١١، والبيت لضابئ بن الحارث البرجمي، وسلف ٧/ ١٨٣ و٣٣٦.

وهل خفاءُ الإعراب شاملٌ للاسم المقصور والمضافِ للياء، أو خاصٌّ بالمبنيِّ؟ فيه خلاف.

وعند البصريين والفرَّاء هو مبتدأ، وجملةُ «يصلُّون» خبرُه، وخبر «إنَّ» محذوفٌ ثقةً بدلالة ما بعدُ عليه، أي: إنَّ الله يصلّي وملائكتُه يصلُّون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أي: عظِّموا شأنَه عاطفين عليه فإنكم أَوْلَى بذلك. وظاهرُ سوق الآية أنه لإيجاب اقتدائنا به تعالى، فيناسبُ اتِّحادَ المعنى مع اتِّحاد اللفظ. وقراءةُ ابن مسعود: «صلُّوا عليه كما صلَّى عليه»[1] وكذا قراءةُ الحسن، فـ «صلُّوا عليه» أظهرُ فيما ذكر، فيبعد تفسير «صلُّوا عليه» بـ: قولوا: اللهمَّ صلِّ على النبيِّ، أو نحوِه. ومَن فسَّره بذلك أراد أنَّ المراد بالتعظيم المأمورِ به ما يكون بهذا اللفظ ونحوِه مما يدلُّ على طلب التعظيم لشأنه عليه الصلاة والسلام من الله عز وجل؛ لقصور وسع المؤمنين عن أداء حقِّه عليه الصلاة والسلام.

وما جاء في الأخبار إرشادٌ إلى كيفية ذلك وصِفَتِه، لا أنه تفسيرٌ لِلَفْظِ «صلوا»، وجاء ذلك على عدَّة أوجهٍ والجمعُ ظاهر.

أخرج عبد الرزاق وابنُ أبي شيبةَ والإمامُ أحمدُ وعبد بنُ حميد والبخاريُّ ومسلمٌ وأبو داودَ والترمذيُّ والنَّسائيُّ وابن ماجه وابن مردويه عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، أمَّا السلامُ عليك فقد علمناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قل: اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد كما صلَّيتَ على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ، اللهمَّ بارك على محمدٍ وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[2].

---

(١) أخرجها ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٢١٥، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨، وفيه: «صلوا عليه كما صلى الله عليه».

(٢) مصنف عبد الرزاق (٣١٠٥)، ومصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٥٠٧، ومسند أحمد (١٨١٠٤) و(١٨١٠٥) و(١٨١٣٣)، ومسند عبد بن حميد (٣٦٨)، وصحيح البخاري (٣٣٧٠) و(٤٧٩٧)، وصحيح مسلم (٤٠٦)، وسنن أبي داود (٩٧٦) و(٩٧٧)، وسنن الترمذي (٤٨٣)، وسنن النسائي (المجتبى) ٣/ ٤٧، وسنن ابن ماجه (٩٠٤)، وجاء في بعض الروايات: «كما صليت على إبراهيم... كما باركت على إبراهيم» دون: «آل». وجاء في

وأخرج الإمام مالكٌ والإمام أحمدُ والبخاريُّ ومسلمٌ وأبو داودَ والنسائيُّ وابنُ ماجه وغيرُهم عن أبي حميد الساعديِّ أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلِّي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وأزواجِه وذرِّيتِه كما صلَّيْتَ على آل إبراهيم، وبارِكْ على محمدٍ وأزواجِه وذرِّيته كما باركتَ على آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد»(١).

وأخرج الإمام أحمدُ والبخاريُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه وغيرهم عن أبي سعيد الخدريِّ: قلنا: يا رسول الله، هذا السلامُ عليك قد علمنا فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمدٍ عبدِكَ ورسولِكَ كما صلَّيْتَ على إبراهيم، وبارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على إبراهيم»(٢).

وأخرج النسائيُّ وغيرُه عن أبي هريرة أنهم سألوا رسول الله ﷺ: كيف نصلِّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، وبارِكْ على محمدٍ وعلى آل محمد، كما صلَّيتَ وبارَكْتَ على إبراهيم وآل إبراهيم، في العالمين إنك حميدٌ مجيدٌ، والسلامُ كما قد عَلِمْتُم»(٣).

وأخرج الإمام أحمد وعبد بن حميد وابن مردويه عن بريدة(٤) رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلِّم عليك فكيف نصلِّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهمَّ اجْعَلْ صَلواتِكَ ورَحْمتَكَ وبركاتِكَ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما جعلتها على إبراهيم إنك حميد مجيد»(٥).

= بعضها: «على إبراهيم وعلى آل إبراهيم». قال الحافظ في الفتح ١١/ ١٥٦: الحق أن ذكر محمد وإبراهيم، وذكر آل محمد وآل إبراهيم ثابت في أصل الخبر، وإنما حَفِظ بعض الرواة ما لم يحفظ الآخر.

(١) موطأ مالك ١/ ١٦٥، ومسند أحمد (٢٣٦٠٠)، وصحيح البخاري (٣٣٦٩)، وصحيح مسلم (٤٠٧)، وسنن أبي داود (٩٧٩)، وسنن النسائي ٣/ ٤٩، وسنن ابن ماجه (٩٠٥).

(٢) مسند أحمد (١١٤٣٣)، وصحيح البخاري (٤٧٩٨) و(٦٣٥٨)، وسنن النسائي ٣/ ٤٩، وسنن ابن ماجه (٩٠٣).

(٣) عمل اليوم والليلة للنسائي (٤٧)، وأخرجه أيضاً الطحاوي في شرح المشكل (٢٢٤٠).

(٤) في (م): عن ابن بريدة، وهو خطأ.

(٥) الدر المنثور ٥/ ٢١٨، وهو عند أحمد (٢٢٩٨٨)، وفيه أبو داود الأعمى نفيع بن الحارث، وهو متروك كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

إلى غير ذلك مما مُلئتْ منه كتبُ الحديث، إلَّا أنَّ في بعض الروايات المذكورة فيها مقالاً. والظاهرُ من السؤال أنه سؤالٌ عن الصفة كما أشرنا إليه قبلُ، وهو الذي رجَّحه الباجي وغيرُه، وجزم به القرطبي[1].

وقيل: إنه سؤالٌ عن معنى الصلاة، وبأيِّ لفظٍ تؤدَّى، والحاملُ لهم على السؤال على هذا أنَّ السلام لمَّا ورد في التشهُّد بلفظٍ مخصوصٍ فهموا أنَّ الصلاة أيضاً تقع بلفظٍ مخصوصٍ، ولم يفرُّوا إلى القياس لتيسُّر الوقوف على النصِّ، سيما والأذكارُ يراعَى فيها اللفظُ ما أمكن، فوقع الأمرُ كما فهموه؛ فإنه لم يقل عليه الصلاة والسلام: كالسلام، بل علَّمهم صفةً أخرى. كذا قيل.

ويقال على الأول: إنَّهم لمَّا سمعوا الأمر بالصلاة بعد سماع أنَّ الله عز وجل وملائكته عليهم السلام يصلُّون عليه ﷺ، وفهموا أنَّ الصلاة منه عز وجل ومن ملائكته عليه عليه الصلاة والسلام نوعٌ من تعظيمٍ لائقٍ بشأن ذلك النبيِّ الكريم عليه من الله تعالى أفضلُ الصلاة وأكملُ التسليم، لم يَدْروا ما اللائقُ منهم من كيفياتِ تعظيم ذلك الجناب وسيِّد ذوي الألباب، صلى الله عليه وسلم صلاةً وسلاماً يستغرقان الحساب، فسألوا عن كيفية ذلك التعظيم، فأرشدهم عليه الصلاة والسلام إلى ما علم أنه أولى أنواعه وهو بهم رؤوفٌ رحيم، فقال ﷺ: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمد» إلى آخر ما في بعض الروايات الصحيحة، وفيه إيماءٌ إلى أنكم عاجزون عن التعظيم اللائق بي فاطلبوه من الله عز وجل لي.

ومن هنا يُعلم أنَّ الآتيَ بما أُمر به من طلب الصلاة له ﷺ من الله[2] عزَّ وجلَّ آتٍ بأعظم أنواع التعظيم؛ لتضمُّنه الإقرارَ بالعجز عن التعظيم اللائق، وقد قيل ونُسب إلى الصدِّيق رضي الله عنه: العجزُ عن دَرْكِ الإدراك إدراكٌ.

ويقرُبُ في الجملة مما ذكرنا قولُ بعض الأجلَّة ونقله أبو اليمن بن عساكر[3]

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي، وكلامه في كتابه المفهم ٢/ ٤٠. والباجي هو أبو الوليد سليمان بن خلف الأندلسي، وكلامه في كتابه المنتقى شرح الموطأ ١/ ٢٩٥، ونقله المصنف عنهما بواسطة ابن حجر في الفتح ١١/ ١٥٥.

(٢) قوله: من الله، ساقط من (م).

(٣) عبد الصمد بن عبد الوهاب، أمين الدين الدمشقي الشافعي المحدث الزاهد نزيل الحرم، =

وحسَّنه: لمَّا أمرنا الله تعالى بالصلاة على نبيِّه ﷺ لم نبلغ معرفةَ فضلها، ولم ندرك حقيقة مراد الله تعالى فيه، فأحلنا ذلك إلى الله عز وجل، فقلنا: اللهمَّ صلِّ أنت على رسولك لأنك أعلمُ بما يليق به، وبما أردْتَه له ﷺ. انتهى، ولعل ما ذكرناه ألطفُ منه.

ومقتَضَى ظاهرِ إرشادِه ﷺ إياهم إلى طَلَبِ الصلاة عليه من الله تعالى شأنُه أنه لا يَحصُلُ امتثالُ الأمر إلَّا بما فيه طَلَبُ ذلك منه عز وجل، ويكفي: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ، لأنه الذي اتَّفقتْ عليه الرواياتُ في بيان الكيفية، وكأنَّ خصوصية الإنشاء لفظاً ومعنًى غيرُ لازمة، ولذا قال بعض مَن أوجبها في الصلاة وستعلمه إن شاء الله تعالى: إنه كما يكفي: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ، ولا يتعيَّن اللفظُ الوارد خلافاً لبعضهم، يكفي: صلَّى الله على محمدٍ، على الأصحِّ، بخلاف: الصلاة على رسول الله فإنه، لا يَجزي اتفاقاً؛ لأنه ليس فيه إسنادُ الصلاة إلى الله تعالى، فليس في معنى الوارد.

وفي «تحفة» ابن حجر: يكفي: الصلاةُ على محمد، إنْ نوى بها الدعاء فيما يظهر.

وقال النيسابوريُّ: لا يكفي: صلَّيْتُ على محمدٍ؛ لأنَّ مرتبةَ العبد تقصُرُ عن ذلك، بل يَسأل ربَّه سبحانه أن يصلِّيَ عليه عليه الصلاة والسلام وحينئذٍ فالمصلِّي عليه حقيقةً هو الله تعالى، وتسميةُ العبد مصلِّياً عليه مجازٌ عن سؤاله الصلاةَ من الله تعالى عليه ﷺ، فتأمَّلْه.

وذكروا أنَّ الإتيان بصيغة الطلب أفضلُ من الإتيان بصيغة الخبر، وأجيب عن إطباق المحدِّثين على الإتيان بها بأنه مما أُمِرْنا به من تحديث الناس بما يعرفون؛ إذ كُتُبُ الحديث يجتمع عند قراءتها أكثرُ العوامِّ، فخِيْفَ أن يفهموا من صيغة الطلب أنَّ الصلاة عليه ﷺ لم توجد من الله عز وجل بعدُ، وإلا لَمَا طلبنا حصولها له عليه صلاةُ الله تعالى وسلامُه، فأُتي بصيغة يتبادر إلى أفهامهم منها الحصولُ، وهي مع

= من آثاره: جزء في ذكر فضائل الصلاة على الرسول ﷺ، وفضائل أم المؤمنين خديجة، وأحاديث الفطر، وغيرها. توفي سنة (٦٨٧هـ). فوات الوفيات ٢/٣٢٨، ومعجم المؤلفين ٢/١٥٣.

إبعادها إياهم من هذه الورطة متضمِّنةٌ للطلب الذي أُمرنا به. انتهى، ولا يخفى ضَعْفُه.

فالأَوْلَى أن يقال: إنَّ ذلك لأنَّ تصليتهم في الأغلب في أثناء الكلام الخبري، نحو: قال النبي ﷺ كذا، وفَعلَ ﷺ كذا، فأحبُّوا أن لا يَكْثُر الفصل، وأن لا يكون الكلامُ على أسلوبين؛ لما في ذلك من الخروج عن الجادَّة المعروفة؛ إذ قلَّما تجد في الفصيح توسُّطَ جملةٍ دعائيةٍ إلا وهي خبريةٌ لفظاً، مع احتمال تشوُّشِ ذهن السامع وبطء فهمه، وحُسْنُ الإفهام مما تحصل مراعاتُه، فتدبَّر.

والظاهر أنه لا يحصل الامتثال بـ: اللهمَّ عظِّمْ محمداً التعظيمَ اللائقَ به[1]، ونحوِه مما ليس فيه مشتقٌّ من الصلاة كـ: صلِّ وصلَّى؛ فإنَّا لم نسمع أحداً عدَّ قائل ذلك مصلِّياً عليه ﷺ، وذلك في غاية الظهور إذا كان «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ» تفسيراً لقوله تعالى: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾.

﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ أي: وقولوا: السلام[2] عليك أيها النبيُّ، ونحوَه، وهذا ما عليه أكثر العلماء الأجلَّة. وفي معنى «السلام عليك» ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: السلامةُ من النقائص والآفات لك ومعك، أي: مصاحِبةً وملازِمةً، فيكون السلام مصدراً بمعنى السلامة، كاللَّذَاذ واللَّذَاذة[3]، والمَلَام والملامة، ولِمَا في السلام من الثناء عدِّي بـ «على» لا لاعتبارِ معنى القضاء، أي: قضى الله تعالى عليك السلام كما قيل؛ لأنَّ القضاء كالدعاء لا يتعدَّى بـ «على» للنفع، ولا لتضمُّنه معنى الولاية والاستيلاء لبعده في هذا الوجه.

ثانيها: السلامُ مداومٌ على حِفْظِكَ ورعايتك ومتولٍّ له وكفيلٌ به، ويكون السلام هنا اسمَ الله تعالى، ومعناه على ما اختاره ابن فُورك وغيرُه من عدَّة أقوال: ذو السلامةِ من كلِّ آفةٍ ونقيصةٍ ذاتاً وصفةً وفعلاً.

وقيل: إذا أريد بالسلام ما هو من أسمائه تعالى فالمراد: لا خَلَوْتَ من الخير

---

(١) قوله: به، ليس في (م).

(٢) في (م): والسلام.

(٣) هما مصدر لذَّه، أي: وجده لذيذاً.

والبركة وسَلِمْتَ من كلِّ مكروهٍ، لأنَّ اسم الله تعالى إذا ذُكر على شيءٍ أفاده ذلك.

وقيل: الكلامُ على هذا التقدير على حذف المضاف، أي: حِفْظُ الله تعالى عليك، والمراد الدعاء بالحفظ.

وثالثها: الانقياد عليك، على أنَّ السلام من المسالمة وعدمِ المخالفة، والمرادُ الدعاءُ بأن يصيِّر الله تعالى العباد منقادين مذعنين له عليه الصلاة والسلام ولشريعته، وتعديتُه بـ «على» قيل: لِمَا فيه من الإقبال؛ فإنَّ مَن انقاد لشخصٍ وأذْعنَ له فقد أقبل عليه. والأرجحُ عندي هو الوجه الأول.

وقيل: معنى «سلِّموا تسليماً»: انقادوا لأوامره ﷺ انقياداً، وهو غيرُ بعيدٍ، إلَّا أنَّ ظواهر الأخبار والآثار تقتضي المعنى السابقَ، وكأنه لذلك ذهب إليه الأكثرون.

والجملة صيغةُ خبرٍ معناها الدعاءُ بالسلامة، وطلبُها منه تعالى لنبيِّه ﷺ. واستشكل ذلك فيما إذا قال الله تعالى: السلامُ عليك أيُّها النبيُّ، أو نحوَه، بأنَّ الدعاء لا يتصوَّر منه عز وجل؛ لأنه طلبٌ، وهو يتضمَّنُ طالباً ومطلوباً ومطلوباً منه وهي أمور متغايرةٌ، فإنْ كان طلبه سبحانه السلامة لنبيِّه عليه الصلاة والسلام من غيره تعالى فمُحاليتُه من أجلى البديهيات، وإن كان من ذاته عزَّ وجلَّ لزم أن يغاير ذاته، والشيءُ لا يغاير ذاتَه ضرورةً. وهذا منشأ قول بعضهم: إنَّ في السلام منه تعالى إشكالاً له شأنٌ، فينبغي الاعتناءُ به وعدمُ إهمال أمره، فقلَّ مَن يُدْرِكُ سرَّه.

وأجيب بأنَّ الطلب من باب الإرادات، والمريدُ كما يريد من غيره أن يفعل شيئاً فكذلك يريد من نفسه أن يفعله هو، والطلبُ النفسيُّ وإن لم يكن الإرادةَ فهو أخصُّ منها وهي كالجنس له، فكما يُعقل أنَّ المريد يريد من نفسه، فكذلك يطلب منها؛ إذ لا فرق بين الطلب والإرادة. والحاصلُ أنَّ طلب الحقِّ جلَّ وعلا من ذاته أمرٌ معقولٌ يعلمه كلُّ واحدٍ من نفسه، بدليلِ أنه يأمرها وينهاها، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] والأمر والنهي قسمان من الطلب، وقد تصوَّرا من الإنسان لنفسه بالنصِّ، فكذا بقيةُ أقسام الطلب وأنواعِه. وأوضحُ من هذا أنَّ الطلب منه تعالى بمعنى الإرادة، وتعقُّلُ إرادةِ الشخص من ذاته شيئاً بناء على التغايُر الاعتباري ومثله يكفي في هذا المقام.

ومعنى: اللهمَّ سلِّم على النبيِّ: اللهمَّ قل: السلامُ على النبيِّ، على ما قيل. وقيل: معناه: اللهمَّ أَوْجِدْ أو حقِّق السلامةَ له. وقيل: اللهمَّ سلِّمه من النقائص والآفات.

وقال بعض المعاصرين: إنَّ «السلام عليك» ونحوَه من الله عز وجل لإنشاء السلامة وإيجادِها بهذا اللفظ نظير ما قالوه في صيغ العقود، واختار أنَّ معنى اللهمَّ سلِّم على النبيِّ: اللهمَّ أَوْجِدِ السلامةَ أو حقِّقها له، دون: قل: السلام على النبيِّ، تقليلاً للمسافة فتدبَّر.

وقد يكون السلام منه عزَّ وجل على أنبيائه عليهم السلام نحو قوله سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠] تنبيهاً على أنه جلَّ شأنه جعلهم بحيث يُدْعَى لهم ويُثْنَى عليهم.

ونصب «تسليماً» على أنه مصدرٌ مؤكِّد، وأكَّد سبحانه التسليمَ ولم يؤكِّد الصلاة، قيل: لأنها مؤكَّدةٌ بإعلامه تعالى أنه يصلِّي عليه وملائكته، ولا كذلك التسليم، فحَسُنَ تأكيدُه بالمصدر إذ ليس ثَمَّ ما يقوم مقامه.

وإلى هذا يَؤُولُ قولُ ابن القيم: التأكيد فيهما[1] وإن اختلفت جهتُه، فإنه تعالى أخبر في الأول بصلاته وصلاةِ ملائكته عليه مؤكِّداً له بـ «إنَّ»، وبالجمع المفيدِ للعموم في الملائكة، وفي هذا من تعظيمه ﷺ ما يوجبُ المبادرةَ إلى الصلاة عليه من غير توقُّفٍ على الأمر موافَقَةً لله تعالى وملائكته في ذلك، وبهذا استُغني عن تأكيد «يصلِّي» بمصدرٍ، ولمَّا خلا السلامُ عن هذا المعنى وجاء في حيِّز الأمر المجرَّد حَسُنَ تأكيدُه بالمصدر تحقيقاً للمعنى، وإقامةً لتأكيد الفعل مقام تقريره، وحينئذٍ حصل لك التكريرُ في الصلاة خبراً وطلباً، كذلك حصل لك التكرير في السلام فعلاً ومصدراً. وأيضاً هي مقدَّمةٌ عليه لفظاً، والتقديمُ يفيد الاهتمام، فحَسُنَ تأكيدُ السلام لئلَّا يُتوهَّمَ قلَّةُ الاهتمام به لتأخُّره.

---

(١) في حاشية (م): مبتدأ وخبر.

وقيل: إنَّ في الكلام الاحتباك[١]، والأصل: صلُّوا عليه تصليةً وسلِّموا عليه تسليماً، فحذف «عليه» من إحدى الجملتين والمصدر من الأخرى.

وأضيفت الصلاةُ إلى الله تعالى وملائكته دون السلام وأُمر المؤمنون بهما، قيل: لأنَّ للسلام معنيين: التحيةُ والانقيادُ، فأمرنا بهما لصحَّتهما هنا، ولم يُضَفْ لله سبحانه والملائكة لئلَّا يُتوهَّم أنه في الله تعالى والملائكة بمعنى الانقياد المستحيلِ في حقِّه تعالى وكذا في حقِّ الملائكة.

وقيل: الصلاة من الله سبحانه والملائكةِ متضمِّنةٌ للسلام بمعنى التحية الذي لا يتصوَّر غيرُه، فكان في إضافة الصلاة إليه تعالى وإلى الملائكة استلزامٌ لوجود السلام بهذا المعنى، وأمَّا الصلاةُ منَّا فهي وإن استلزمت التحيةَ أيضاً إلَّا أنَّا مخاطبون بالانقياد وهي لا تستلزمُه، فاحتيج إلى التصريح به فينا لأنَّ الصلاة لا تغني عن معنييه المتصوَّرين في حقِّنا المطلوبَيْنِ منَّا.

ثم قيل: وهذا أولى مما قبله؛ لأن ذلك يَرِدُ عليه قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات:١٠٩] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد:٢٣] ولا يَرِدُ هذان على هذا. اهـ، وفيه بحثٌ.

وقال الشهاب الخفاجيُّ عليه الرحمة: قد لاح لي في ترك تأكيد السلام وتخصيصه بالمؤمنين نكتةٌ سَرِيَّةٌ، وهي أنَّ السلام عليه عليه الصلاة والسلام تسليمُه عمَّا يؤذيه، فلمَّا جاءت هذه الآيةُ عقيب ذكر ما يؤذي النبيَّ ﷺ، والأذيةُ إنما هي من البشر وقد صدرت منهم، فناسب التخصيص بهم والتأكيد[٢].

وربما يقال على بُعدٍ في ذلك: يمكن أن يكون سلامُ الله تعالى وملائكتِه عليه عليه الصلاة والسلام معلوماً للمؤمنين قبل نزول الآية، فلم يُذكر: ويسلِّمون، فيها لذلك، وأنَّ كونهم مأمورين بأنْ يسلِّموا عليه ﷺ كان أيضاً معلوماً لهم ككيفية السلام، ويؤذِنُ بهذه المعلومية ما ورد في عدَّةِ أخبارٍ أنهم قالوا عند نزول الآية:

---

(١) هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول. الإتقان ٢/ ٨٣١.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٨٤.

يا رسولَ الله، قد علمنا كيف نسلِّم عليك[١]. وعَنَوا بذلك ـ على ما قيل ـ ما في التشهُّد من السلام، فلما أُخبروا بصلاة الله تعالى وملائكته عليه ﷺ في الآية مجرَّدةً عن ذكر السلام، وأُردف ذلك بالأمر بالصلاة، كان مَظِنَّةَ عدم الاعتناء بأمر السلام، أو أنه نسخ طلبه منهم، فأُمروا به مؤكَّداً دفعاً لتوهُّم ذلك، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

والأمرُ في الآية عند الأكثرين للوجوب، بل ذكر بعضهم إجماعَ الأئمة والعلماء عليه، ودعوى محمد بن جرير الطبريِّ[٢] أنه للندب بالإجماع مردودةٌ، أو مؤوَّلةٌ بالحمل على ما زاد على مرَّةٍ واحدةٍ في العمر، فقد قال القرطبي المفسِّر: لا خلافَ في وجوب الصلاة في العمر مرَّةً[٣].

وتفصيلُ الكلام في أمرها بعد إلغاء القول بنَدْبِها أنَّ العلماء اختلفوا فيها، فقيل: واجبةٌ مرةً في العمر ككلمةِ التوحيد؛ لأن الأمر مطلقٌ لا يقتضي تكراراً والماهيةُ تحصلُ بمرَّةٍ، وعليه جمهورُ الأمة؛ منهم أبو حنيفة ومالكٌ وغيرهما.

وقيل: واجبةٌ في التشهُّد مطلقاً.

وقيل: واجبةٌ في مطلق الصلاة. وتفرَّد بعضُ الحنابلة بتعيُّن دعاء الافتتاح بها.

وقيل: يجب الإكثارُ منها من غير تعيينٍ بعددٍ، وحُكي ذلك عن القاضي أبي بكر بن بكير[٤].

---

(١) سلف ص٤٣٩ من هذا الجزء من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) كما في الشفا للقاضي عياض ٢/ ١٤٠ والمواهب اللدنية مع شرح الزرقاني ٦/ ٣٣١، ولم نقف عليه في تفسيره.

(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٢١٥، وسبقه ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٧٢.

(٤) محمد بن أحمد بن عبد الله بن بكير التميمي البغدادي المالكي الفقيه الثقة، صاحب التآليف الجليلة التي منها أحكام القرآن، والرضاع، تفقه بإسماعيل القاضي، وتوفي سنة (٣٥٠هـ). وقيل: اسمه أحمد بن محمد بن بكير، وقيل: محمد بن بكير لا غير. نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض ٣/ ٤٤٥، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ٦/ ٣٢٩. وذكر كلامه القاضي عياض في الشفا ٢/ ١٤١، والقسطلاني في المواهب اللدنية مع شرح الزرقاني ٦/ ٣٢٩.

وقيل: تجبُ في كلِّ مجلسٍ مرةً وإن تكرَّر ذِكْرُه ﷺ مراراً.

وقيل: تجبُ في كلِّ دعاء.

وقيل: تجبُ كلَّما ذُكر عليه الصلاة والسلام، وبه قال جمعٌ من الحنفية منهم الطحاويُّ، وعبارته: تجبُ كلَّما سَمِعَ ذِكْرَه من غيره أو ذَكَرَه بنفسه. وجمعٌ من الشافعية منهم الإمام الحليميُّ(١)، والأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، والشيخُ أبو حامد الإسفراييني(٢). وجمعٌ من المالكية منهم الطُّرْطُوشي(٣) وابن العربي(٤) والفاكهاني(٥). وبعضُ الحنابلة.

قيل: وهو مبنيٌّ على القول الضعيف في الأصول أنَّ الأمر المطلق يفيد التكرار. وليس كذلك، بل له أدلةٌ أخرى كالأحاديث التي فيها الدعاءُ بالرَّغم والإبعاد والشقاء(٦)، والوصفُ بالبخل والجفاء، وغيرُ ذلك ممَّا يقتضي الوعيدَ، وهو عند الأكثر من علامات الوجوب.

---

(١) في المنهاج في شعب الإيمان ٢/ ١٤٣، ونقله المصنف عنه وعن الطحاوي بواسطة القسطلاني في المواهب اللدنية مع شرح الزرقاني ٦/ ٣٢٩.

(٢) أحمد بن أبي طاهر، شيخ الشافعية ببغداد، من تلامذته أبو الحسن الماوردي، والفقيه سليم الرازي، وأبو الحسن المحاملي، وغيرهم، وعدَّه بعضهم مجدِّد المئة الرابعة، توفي سنة (٤٠٦هـ). السير ١٧/ ١٩٣.

(٣) أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف الفهري الأندلسي، العلَّامة الزاهد، شيخ المالكية، وطُرْطُوشة هي آخر حدِّ المسلمين من شمالي الأندلس، لازم القاضي أبا الوليد الباجي بسَرَقَسْطة، وسمع ببغداد من أبي عبد الله الدامغاني وأبي عبد الله الحميدي وغيرهما، وتخرَّج به أئمة، توفي بالإسكندرية سنة (٥٢٠هـ). السير ١٩/ ٤٩٠.

(٤) ذكر عنه ابن حجر في الفتح ١١/ ١٥٣، والقسطلاني في المواهب مع شرح الزرقاني ٦/ ٣٢٩ قوله: إنه الأحوط. اهـ. وقال هو في أحكام القرآن ٣/ ١٥٧٢: الصلاة على النبي ﷺ فرض في العمر مرة بلا خلاف.

(٥) أبو حفص عمر بن أبي اليُمْنِ عليٍّ اللخمي الإسكندري، تاج الدين، عالم في الفقه والأصول والعربية، له: رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام في الحديث، وشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني في فقه المالكية، والفجر المنير في الصلاة على البشير النذير، توفي سنة (٧٣٤هـ). شجرة النور الزكية ١/ ٢٠٤، والأعلام ٥/ ٥٦.

(٦) ينظر ما ورد في ذلك من أحاديث في الشفا ٢/ ١٧٧-١٨١، والمواهب اللدنية مع شرح الزرقاني ٦/ ٣٢٩-٣٣٠.

واعتَرض هذا القول كثيرون بأنه مخالفٌ للإجماع المنعقِدِ قَبْلَ قائله؛ إذ لم يُعرف عن صحابيٍّ ولا تابعيٍّ، وبأنه يلزمُ على عمومه أنْ لا يتفرَّغ السامعُ لعبادةٍ أخرى، وأنها تجبُ على المؤذِّن وسامِعِه والقارئ المارِّ بذكره، والمتلفِّظِ بكلمتي الشهادة، وفيه من الحرج ما جاءت الشريعةُ السَّمْحَةُ بخلافه. وبأنَّ الثناء على الله تعالى كلما ذُكر أحقُّ بالوجوب، ولم يقولوا به. وبأنه لا يُحفظ عن صحابيٍّ أنه قال: يا رسول الله صلى الله عليك. وبأنَّ تلك الأحاديثَ المحتجَّ بها للوجوب خرَجَتْ مخرجَ المبالغة في تأكُّد ذلك وطلبِه، وفي حقِّ من اعتاد تَرْكَ الصلاة ديدناً.

ويمكن التفصِّي عن جميع ذلك:

أمَّا الأول: فلأنَّ القائلين بالوجوب من أئمة النقل، فكيف يسعُهم خَرْقُ الإجماع؟ على أنه لا يكفي في الردِّ عليهم كونُه لم يُحفظ عن صحابيٍّ أو تابعيٍّ، وإنما يتم الردُّ إنْ حُفِظَ إجماعٌ مصرِّحٌ بعدم الوجوب كذلك، وأنَّى به.

وأما الثاني: فممنوعٌ، بل يُمْكِنُ التفرُّغُ لعباداتٍ أُخَر.

وأما الثالث: فللقائلين بالوجوب التزامُه، وليس فيه حرج.

وأما الرابع: فلأنَّ جمعاً صرَّحوا بالوجوب في حقِّه تعالى أيضاً.

وأما الخامس: فلأنه ورد في عدَّة طرقٍ عن عدَّةٍ من الصحابة أنهم لمَّا قالوا: يا رسول الله، قالوا: صلَّى الله عليك[1].

وأما السادس: فلأنَّ حمل الأحاديث على ما ذُكر لا يكفي إلَّا مع بيانِ سنده، ولم يبيِّنوه.

ثم القائلون بالوجوب كما ذُكِرَ أكثرُهم على أنَّ ذلك فرضُ عينٍ على كلِّ فردٍ فردٍ، وبعضُهم على أنه فرضُ كفايةٍ. واختلفوا أيضاً: هل يتكرَّر الوجوبُ بتكرُّر ذكره ﷺ في المجلس الواحد؟ وفي بعض شروح «الهداية»: يكفي مرةً على الصحيح[2].

---

(١) ينظر حديث أم بُجيد عند أبي داود (١٦٦٧)، وحديث عامر الرام أخي الخُضْر (حي من محارب بن خصفة) عند أبي داود أيضاً (٣٠٨٩)، وحديث البهزي عند النسائي ٥/ ١٨٢.

(٢) فتح القدير لابن الهمام ١/ ٢٢٤، دون قوله: على الصحيح.

وقال صاحب «المجتبى»(١): يتكرَّر، وفي تكرُّرِ ذكر الله تعالى لا يتكرَّر. وفرَّق هو وغيرُه بينهما بما فيه نظر. ويمكنُ الفرقُ بأنَّ حقوق الله تعالى مبنيةٌ على المسامحة والتوسِعَةِ، وحقوق العباد مبنيةٌ على المشاحَّة والتضييق ما أمكن. والقولُ بأنها أيضاً حقُّ الله تعالى لأمره بها سبحانه ناشئٌ من عدم فهم المراد بحقِّه تعالى.

وقيل: إنها تجب في القعود آخر الصلاة بين التشهُّد وسلام التحلُّل، وهذا هو مذهبُ الشافعيِّ الذي صحَّ عنه. ونَقْلُ الإسنوي أنَّ له قولاً آخَرَ: أنها سنَّةٌ في الصلاة، لم يعتبره أجلَّةُ أصحابه. ووافقه على ذلك جماعةٌ من الصحابة والتابعين مِن بعدهم وفقهاء الأمصار:

فمن الصحابة ابنُ مسعود، فقد صحَّ عنه أنه قال: يتشهَّد الرجل في الصلاة، ثم يصلِّي على النبيِّ ﷺ، ثم يدعو لنفسه(٢). وأبو مسعود البدريُّ وابن عمر، فقد صحَّ عنهما أنه لا تكون صلاةٌ إلا بقراءةٍ وتشهُّدٍ وصلاةٍ على النبيِّ ﷺ(٣)، فإن نسيتَ من ذلك شيئاً فاسجد سجدتين بعد السلام.

ومن التابعين الشعبيُّ، فقد صحَّ عنه: كنَّا نعلَّم التشهُّد، فإذا قال: وأنَّ محمداً عبده ورسوله، يحمدُ ربَّه ويثني عليه، ثم يصلِّي على النبيِّ ﷺ، ثم يسأل حاجته(٤). وأخرج البيهقيُّ عنه: مَن لم يصلِّ على النبيِّ ﷺ في التشهُّدِ فليُعِدْ

---

(١) هو مختار بن محمود الزاهدي الغزميني، أبو الرجا، نجم الدين، المتوفى سنة (٦٥٨هـ)، وكتابه المجتبى شَرَح به مختصر القدوري في الفقه. الجواهر المضية ٣/ ٤٦٠، والأعلام ٧/ ١٩٣. وينظر كلامه في فتح القدير لابن الهمام ١/ ٢٢٤.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١/ ٢٩٧، والحاكم ١/ ٢٦٨ وصححه، وصححه أيضاً ابن حجر في الفتح ٢/ ٣٢١، وقال فيه أيضاً ١١/ ١٦٤: وهذا أقوى شيء يحتج به للشافعي.

(٣) خبر ابن عمر أخرجه عنه المَعْمَري (هو الحسن بن علي بن شبيب البغدادي) بسند جيد كما ذكر الحافظ في الفتح ١١/ ١٦٤. وخبر أبي مسعود أخرجه عنه الدارقطني في السنن (١٣٤٤) و(١٣٤٥) موقوفاً عليه، وأخرجه أيضاً (١٣٤٣) عنه مرفوعاً، والموقوف والمرفوع كلاهما من طريق جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر عن أبي مسعود، وجابر ضعيف كما ذكر الدارقطني إثر الحديث (١٣٤٣). وقال ابن الهمام في فتح القدير ١/ ٢٢٣: وهذا ضعَّف بجابر الجعفي مع أنه قد اختُلف عليه في رفعه ووقفه. اهـ. وسيأتي مزيد كلام عليه قريباً.

(٤) لم نقف عليه عن الشعبي، وأخرجه الطبري في تهذيب الآثار (الجزء المفقود) ص٢٦٠ عن

صلاتَه. أو قال: لا تُجزِئُ صلاتُه[1].

والإمام أبو جعفر محمد الباقر، فقد روى البيهقيُّ عنه نحوَ ما ذكر عن الشعبيِّ[2]، وصوَّبه الدارقطنيُّ[3].

ومحمد بن كعب القرظيُّ ومقاتلٌ، بل قال الحافظ ابن حجر: لم أر عن أحدٍ من الصحابة والتابعين التصريحَ بعدم الوجوب، إلا ما نُقل عن إبراهيم النخعي، وهذا يشعرُ بأنَّ غيره كان قائلاً بالوجوب[4].

ومن فقهاء الأمصار أحمد؛ فإنه جاء عنه روايتان، والظاهرُ أنَّ رواية الوجوب هي الأخيرة؛ فإنه قال: كنتُ أتهيَّبُ ذلك، ثم تبيَّنْتُ فإذا الصلاةُ على النبيِّ ﷺ واجبةٌ[5].

= مطرف بن عبد الله. قال الحافظ في الفتح ١١/ ١٦٤: أخرجه الطبري بسند صحيح عن مطرف بن عبد الله بن الشخير، وهو من كبار التابعين.

(١) أخرجه البيهقي في الخلافيات بسند قوي كما ذكر الحافظ في الفتح ١١/ ١٦٤، وهو في مختصر خلافيات البيهقي لأحمد بن فرح الإشبيلي ٢/ ٢١٩، وأورده البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣٧٩ دون إسناد.

(٢) السنن الكبرى ٢/ ٣٧٩، ومختصر خلافيات البيهقي ٢/ ٢١٩-٢٢٠، وقد أورده من طريق الحجاج بن أرطاة عن أبي جعفر، والحجاج قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق كثير الخطأ والتدليس.

(٣) أي: صوَّب كونه من كلام أبي جعفر، كما نقل القاضي عياض في الشفا ٢/ ١٤٧، حيث قال: وفي حديث أبي جعفر عن أبي مسعود عن النبي ﷺ: «مَن صلَّى صلاة لم يصلِّ فيها عليَّ وعلى أهل بيتي لم تقبل منه» قال الدارقطني: الصواب أنه من قول أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين. اهـ.
قلنا: ونقل أيضاً كلام القاضي عياض القرطبيُّ في تفسيره ١٧/ ٢٢١، والقسطلانيُّ في المواهب مع شرح الزرقاني٦/ ٣٣٤. والذي ذكره الدارقطني في العلل ٦/ ١٩٨ أن الصواب وقفه على أبي مسعود، وهو مع ذلك ضعيف؛ لأنه من رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر عنه. وجابر ضعيف، وقد سلف قريباً تخريجه والكلام على إسناده مرفوعاً وموقوفاً.

(٤) فتح الباري ١١/ ١٦٥.

(٥) ذكره عن أحمد أبو زرعة الدمشقي في مسائله كما في المغني لابن قدامة ٢/ ١٢٩، والقول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع لشمس الدين السخاوي ص٢٧. قال ابن قدامة: فظاهر هذا أنه رجع عن قوله الأول إلى هذا.

وإسحاق بن راهويه، فقد قال في آخر الروايتين عنه: إذا تركها عمداً بطلتْ صلاتُه، أو سهواً رجوتُ أن تُجْزِئَه[١].

وهو قولٌ عند المالكية اختاره ابن العربي[٢] منهم، ولعله لازمٌ للقائلين بوجوبها كلما ذُكر ﷺ لتقدُّم ذكره في التشهُّد، إلا أنَّ وجوبها بعد التشهُّد لذلك لا يستلزمُ كونها شرطاً لصحة الصلاة، إلا أنه يَرِدُ على القائلين بأنَّ الشافعي ﷺ شذَّ في قوله بالوجوب.

وأما دليله ﷺ على ذلك فمذكورٌ في «الأمّ»[٣]، وقد استَدَلَّ له أصحابه بعدَّة أحاديثَ منها الصحيحُ ومنها الضعيفُ، وألَّفوا الرسائل في الانتصار له والردِّ على مَن شنَّع عليه، كابن جرير وابن المنذر والخطابيِّ والطحاويِّ وغيرهم[٤]. وأنا أرى التشنيعَ على مثل هذا الإمام شنيعاً، والتعصُّبَ مع قلَّة التتبُّعِ أمراً فظيعاً[٥].

والكلام في السلام كالكلام في الصلاة، وقد صرَّح ابن فارسٍ اللغويُّ[٦] بأنهما سيَّان في الفرضية لأنَّ كلًّا منهما مأمورٌ به في الآية، والأمر للوجوب حقيقةً إلا إذا ورد ما يصرفه عنه.

وأفضل الكيفيات في الصلاة عليه ﷺ ما علَّمه رسول الله عليه الصلاة والسلام لأصحابه بعد سؤالهم إياه؛ لأنه لا يختار ﷺ لنفسه إلا الأشرف والأفضل، ومن

---

(١) القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ص٢٨.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٧٢.

(٣) ١/ ١٠١-١٠٢.

(٤) ينظر كلام هؤلاء الأئمة في مختصر اختلاف العلماء للجصاص ١/ ٢١٩، ومعالم السنن للخطابي ١/ ٢٢٧، والشفا ٢/ ١٤٢-١٤٥، وفتح الباري ١١/ ١٦٤، والمواهب اللدنية مع شرحه ٩/ ٣٣٢.

(٥) لايليق بالمصنف رحمه الله نسبة هؤلاء الأئمة الكبار إلى قلَّة التتبُّع أو إلى التعصب، خصوصاً وأن منهم من هو من أصحاب الشافعي كالخطابي رحمه الله، وقد نبَّه على ذلك القاضي عياض عند نقله لكلامه في الشفا ٢/ ١٤٥. وكذلك ابن المنذر كما ذكر السخاوي في القول البديع ص٢٩ حيث قال: وقال بعدم الوجوب ابن المنذر أيضاً، وهو معدود من الشافعية.

(٦) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا صاحب كتاب مجمل اللغة.

هنا قال النوويُّ في «الروضة»[١]: لو حلف ليصلِّينَّ على النبيِّ ﷺ أفضلَ الصلاة لم يبرَّ إلا بتلك الكيفية. ووجَّهه السبكي بأنَّ مَن أتى بها فقد صلَّى الصلاة المطلوبة بيقينٍ، وكان له الخير الوارد في أحاديث الصلاة كذلك.

ونقل الرافعيُّ عن المَرْوَزيِّ[٢] أنه يبرُّ بـ: اللهمَّ صلِّ على محمد وآلِ محمدٍ كلَّما ذكره الذاكرون وكلَّما سها عن ذكره الغافلون[٣].

وقال القاضي حسين: طريقُ البرِّ: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ كما هو أهلُه ومستحقُّه.

واختار البارزي أنَّ الأفضل: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ أفضلَ صلواتك وعَدَدَ معلوماتك.

وقال الكمال ابن الهمام[٤]: كلُّ ما ذكر من الكيفيات موجودٌ في: اللهمَّ صلِّ أبداً أفضلَ صلواتك على سيدنا عبدِك ونبيِّك ورسولك محمدٍ وآله، وسلِّم عليه تسليماً، وزده شرفاً وتكريماً، وأنزله المنزل المقرَّبَ عندك يوم القيامة. واختار ابن حجر الهيتميُّ غيرَ ذلك[٥].

ونقل ابنُ عرفة عن ابن عبد السلام[٦] أنه لا بدَّ في السلام عليه ﷺ أنْ يزيد

---

(١) كما في فتح الباري ١١/ ١٦٦، والمواهب اللدنية مع شرحه ٦/ ٣٤٤، وعنه نقل المصنف.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد صاحب أبي العباس بن سريج وأكبر تلامذته، اشتغل ببغداد فترة، وصنف التصانيف، وانتهت إليه رئاسة المذهب، ثم تحول إلى مصر وتوفي بها سنة (٣٤٠هـ). السير ١٥/ ٤٢٩، والكلام من فتح الباري ١١/ ١٦٧، والمواهب مع شرحه ٦/ ٣٤٤.

(٣) في الأصل و(م): كلما ذكرك الذاكرون، وكلما سها عنه الغافلون، والمثبت من روضة الطالبين ١١/ ٦٥، وفتح الباري ١١/ ١٦٧، والمواهب مع شرحه ٦/ ٣٤٤.

(٤) كما في الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص١٤، وعنه نقل المصنف.

(٥) لم نقف على هذا الاختيار لابن حجر.

(٦) هو محمد بن عبد السلام، أبو عبد الله الهواري التونسي قاضيها، الفقيه المالكي الحافظ المتبحر في العلوم العقلية والنقلية، له شرح على مختصر ابن الحاجب، وهو شيخ الإمام محمد بن عرفة، توفي سنة (٧٤٩هـ). شجرة النور الزكية ١/ ٢١٠، وشرح المواهب للزرقاني ٦/ ٣٣٤.

«تسليماً»، كأن يقول: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وسَلِّمْ تسليماً، أو صلى الله عليه وسلم تسليماً. وكأنه أخذ بظاهر ما في الآية، وليس أَخْذاً صحيحاً كما يظهر بأدنى تأمُّلٍ.

ونقل عن جمع من الصحابة ومَن بعدهم أنَّ كيفية الصلاة عليه ﷺ لا يوقَفُ فيها مع المنصوص، وأنَّ مَن رزقه الله تعالى بياناً فأبان عن المعاني بالألفاظ الفصيحة المباني، الصريحةِ المعاني، مما يُعْرِبُ عن كمال شرفه ﷺ وعظيمِ حرمته، فله ذلك.

واحتجَّ له بما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن ماجه وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا صلَّيتُم على النبيِّ ﷺ فأَحْسِنوا الصلاةَ عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يُعْرَضُ عليه. قالوا: فعلِّمنا؟ قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمدٍ عبدِك ورسولك إمامِ الخير وقائدِ الخير ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأوَّلون والآخِرون، اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ[1].

وفي قوله سبحانه: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا﴾ رمزٌ خفيٌّ فيما أرى إلى مطلوبية تحسين الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام، حيث أتى به كلاماً يصلح أن يكون شطراً من البحر الكامل فتدبَّرْه فإنِّي أظنُّ أنه نفيس.

واستدلَّ النوويُّ رحمه الله تعالى بالآية على كراهة إفراد الصلاة عن السلام وعَكْسِه، لورود الأمر بهما معاً فيها، ووافقه على ذلك بعضُهم.

واعتُرِضَ بأنَّ أحاديث التعليم تؤذِنُ بتقدُّم تعليم التسليم على تعليم الصلاة، فيكون قد أُفرِدَ التسليم مرةً قبل الصلاة في التشهُّد.

وردَّ بأنَّ الإفراد في ذلك الزمن لا حجة فيه لأنه لم يقع منه عليه الصلاة والسلام قصداً، كيف والآيةُ ناصَّةٌ عليهما؟ وإنما يحتمل أنه علَّمهم السلام وظَنَّ أنهم يعلمون الصلاة فسكت عن تعليمهم إياها، فلما سألوه أجابهم ﷺ لذلك، وهو كما ترى.

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٣١٠٩)، وسنن ابن ماجه (٩٠٦).

وذكر العلَّامةُ ابن حجر الهيتمي أنَّ الحق أنَّ المراد بالكراهة خلافُ الأَوْلَى؛ إذ لم يوجد مقتضيها من النهي المخصوص.

ونقل الحمويُّ[1] من أصحابنا عن «منية المفتي»[2] أنه لا يُكْرَه عندنا إفرادُ أحدهما عن الآخر، ثم قال نقلاً عن العلَّامة ميرك[3]: وهذا الخلافُ في حقِّ نبينا ﷺ، وأمَّا غيرُه من الأنبياء عليهم السلام فلا خلافَ في عدم كراهة الإفراد لأحدٍ من العلماء، ومَن ادَّعى ذلك فعليه أن يُوْرِدَ نقلاً صريحاً، ولا يجد إليه سبيلاً. انتهى.

وصرَّح بعضهم أنَّ الكراهة عند مَن يقول بها إنما هي في الإفراد لفظاً، وأمَّا الإفرادُ خطًّا كما وقع في «الأمِّ»[4] فلا كراهةَ فيه.

وعندي أنَّ الاستدلال بالآية على كراهة الإفراد حَسْبَما سمعت في غاية الضعف؛ إذ قصارى ما تدلُّ عليه أن كلًّا من الصلاة والتسليم مأمور به مطلقاً، ولا تدلُّ على الأمر بالإتيان بهما في زمانٍ واحد، كأنْ يؤتَى بهما مجموعَيْنِ معطوفاً أحدُهما على الآخر، فَمَنْ صلَّى بكرةً وسلَّم عشيًّا مثلاً فقد امتثل الأمر، فإنها نظير قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١١٠] و: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ﴾ [الأحزاب: ٤١ و٤٢] إلى غير ذلك من الأوامر المتعاطفة.

نعم دَرَجَ أكثر السلف على الجمع بينهما، فلا أَسْتَحْسِنُ العدولَ عنه، مع ما في ذكر السلام بعد الصلاة من السلامة من توهُّمٍ لا يكادُ يَعْرِضُ إلا للأذهان السقيمة كما لا يخفى.

---

(١) أحمد بن محمد مكي، أبو العباس شهاب الدين الحسيني الحنفي، المصري، الحموي الأصل، من مصنفاته: كشف الرمز عن خبايا الكنز، والدر النفيس في مناقب الشافعي، وإتحاف الأذكياء بتحقيق عصمة الأنبياء، وغيرها كثير، توفي سنة (١٠٩٨هـ). هدية العارفين ١/ ١٦٤، والأعلام ١/ ٢٣٩. وكلامه من كتاب غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر لابن نجيم ١/ ١٥.

(٢) في فروع الحنفية ليوسف بن أبي سعيد السجستاني. كشف الظنون ٢/ ١٨٨٧.

(٣) في شرحه على الشمائل كما ذكر الحموي.

(٤) ينظر الأم ٧/ ١٧٩-١٨٠.

وفي دخوله ﷺ في الخطاب بـ «يا أيها الذين آمنوا» هنا خلافٌ، فقال بعضهم بالدخول، وقد صرَّح بعضُ أجلَّة الشافعية بوجوب الصلاة عليه ﷺ في صلاته، وذكر أنه ﷺ كان يصلِّي على نفسه خارجها كما هو ظاهرُ أحاديثَ، كقوله ﷺ حين ضلَّت ناقتُه وتكلَّم منافقٌ فيها: «إنَّ رجلاً من المنافقين شمت أنْ ضلَّتْ ناقةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1]. وقولِه حين عَرَضَ على المسلمين ردَّ ما أخذه من أبي العاص زوجِ ابنته زينبَ قبل إسلامه: «وإنَّ زينب بنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتني» الحديث[2]، فذكر التصلية والتسليم على نفسه بعد ذِكْرِه، واحتمالُ أنَّ ذلك في الحديثين من الراوي بعيدٌ جدًّا. اهـ.

وتوقَّف بعضهم في دخوله من حيث إنَّ قرينة سياق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى هنا ظاهرةٌ في اختصاص هذا الحكم بالمؤمنين دونه ﷺ. ونُظر فيه بأنَّ ما قبل هذه الآية صريحٌ في اختصاصه بالمؤمنين، وأمَّا هي فلا قرينةَ فيها على الاختصاص.

وأنت تعلم أنَّ للأصوليين في دخوله ﷺ في نحو هذه الصيغة أقوالاً: عدمه مطلقاً، وهو شاذٌّ. ودخولُه مطلقاً، وهو الأصح على ما قال جمعٌ. والدخولُ إلا فيما صدِّر بأمره بالتبليغ، نحو: «قل يا أيها الذين آمنوا».

وأنا أعوِّل على الدخول إلَّا إذا وُجدتْ قرينةٌ على عدم الدخول سواءٌ كانت الأمرَ بالتبليغ أوْ لا، وهاهنا السباق والسياق قرينتان على عدم الدخول فيما يظهر.

وعبَّر بـ «الذين آمنوا» دون الناس الشامل للكفار؛ قيل: إشارةً إلى أنَّ الصلاة عليه ﷺ من أجلِّ الوسائل وأنفعِها، والكافرُ لا وسيلةَ له فلم يؤتَ بلفظٍ يشملُه، ومخاطبةُ الكفَّار بالفروع على القول بها بالنسبة لعقابهم عليها في الآخرة فحسب، على أنَّ محلَّ تكليفهم بها حيث أُجمع عليها، ومن ثَمَّ استُثني من مخاطبتهم بها

---

(١) أخرجه ضمن خبر طويل ابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٣٥٤ من طريق موسى بن عقبة عن الزهري. وأخرجه البيهقي في الدلائل ٤/ ٦٠ عن عروة وموسى بن عقبة. وليس في تاريخ المدينة: صلى الله عليه وسلم.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل ٤/ ١٧٤ عن موسى بن عقبة.

معاملتُهم الفاسدةُ ونحوُها. ولعل الأَوْلَى أنَّ التعبير بذلك لِمَا ذكر مع اقتضاء السياق له.

وفي نداء المؤمنين بهذا الأسلوب من حثِّهم على امتثال الأمر ما لا يخفى. والأمر بالصلاة والتسليم من خواصِّ هذه الأمة، فلم تؤمر أمةٌ غيرُها بالصلاة والتسليم على نبيِّها.

وكان ذلك على ما نُقل عن أبي ذرٍّ الهرويِّ[1] في السنة الثانية من الهجرة. وقيل: كان في ليلة الإسراء. وأنت تعلم أنَّ الآية مدنية.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهدٍ أنها لمَّا نزلت قال أبو بكر: ما أنزل الله عليك خيراً إلا أَشْرَكَنا فيه. فنزلت: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾[2] [الأحزاب: ٤٣]. وحكمةُ تغايُرِ أسلوبي الآيتين ظاهرةٌ على المتأمِّل.

والصلاة منَّا على الأنبياء ما عدا نبيِّنا عليه وعليهم الصلاة والسلام جائزةٌ بلا كراهةٍ، فقد جاء بسندٍ صحيح على ما قاله المجد اللغويُّ[3]: «إذا صلَّيتم على المرسلين فصلُّوا عليَّ معهم فإنِّي رسولٌ من المرسلين»[4]، وفي لفظٍ: «إذا سلَّمتم عليَّ فسلِّموا على المرسلين»[5]. وللأول طريقٌ أخرى إسنادُها حسنٌ جيِّدٌ لكنَّه مرسل[6].

وأخرج عبد الرزاق والقاضي إسماعيل وابنُ مردويه والبيهقيُّ في «شعب

---

(١) كما في فتح الباري ٨/ ٥٣٤.

(٢) سلف ص٤٣ من هذا الجزء.

(٣) هو الإمام اللغوي الشهير أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزآبادي، صاحب القاموس، وقد ذكر قوله السخاوي في القول البديع ص٦١.

(٤) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس، وأبو يعلى الصابوني في فوائده من حديث أنس. ينظر القول البديع ص٦١، وكنز العمال ١/ ٥٠٧. وورد في تاريخ ابن معين برواية الدوري ٢/ ١٧١ بلفظ: «إذا صلَّيتم عليَّ فصلُّوا على المرسلين»، وقال يحيى: إنما هو عن قتادة مرسل.

(٥) أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٩٢)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير في آخر تفسير سورة الصافات من طريق قتادة عن أنس. وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٦١ عن قتادة مرسلاً.

(٦) القول البديع ص٦١، وعزاه السخاوي لابن أبي عاصم عن قتادة.

الإيمان» عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «صلُّوا على أنبياء الله ورسله فإنَّ الله تعالى بعثهم كما بعثني»[1]، وهو وإنْ جاء من طرقٍ ضعيفةٍ يُعْمَلُ به في مثل هذا المطلب كما لا يخفى.

وأما ما حكي عن مالكٍ من أنه لا يُصلَّى على غير نبيِّنا ﷺ من الأنبياء[2]، فأوَّلَه أصحابُه بأنَّ معناه أنَّا لم نتعبَّدْ بالصلاة عليهم كما تُعبِّدْنا بالصلاة عليه ﷺ[3].

والصلاةُ على الملائكة قيل: لا يُعرف فيها نصٌّ، وإنما تؤخذ من حديث أبي هريرة المذكورِ آنفاً إذا ثبت أنَّ الله تعالى سمَّاهم رسلاً[4].

وأما الصلاةُ على غير الأنبياء والملائكةِ عليهم السلام فقد اضطربت فيها أقوالُ العلماء؛ فقيل: تجوزُ مطلقاً؛ قال القاضي عياض: وعليه عامَّةُ أهل العلم[5]. واستُدِلَّ له بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣] وبما صحَّ من قوله ﷺ: «اللهمَّ صلِّ على آل أبي أَوْفَى»[6].

وقولِه عليه الصلاة والسلام وقد رفع يديه: «اللهمَّ اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة»[7].

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٣١١٨)، وفضل الصلاة على النبي ﷺ للقاضي إسماعيل بن إسحاق (٤٥)، وشعب الإيمان (١٣١)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٢١٩. قال السخاوي في القول البديع ص٦١: في سنده موسى بن عبيدة، وهو وإن كان ضعيفاً فحديثه يستأنس به.

(٢) قال القاضي عياض في الشفا ٢/ ١٨٧: «وجدت بخط بعض شيوخي: مذهب مالك أنه لا يجوز أن يصلَّى على أحد من الأنبياء سوى محمدٍ ﷺ. وهذا غير معروف من مذهبه، وقد قال مالك في المبسوط ليحيى بن إسحاق: أكره الصلاة على غير الأنبياء، وما ينبغي لنا أن نتعدَّى ما أمرنا به».

(٣) القول البديع للسخاوي ص٦٣.

(٤) فتح الباري ١١/ ١٧٠، والقول البديع ص٦٣.

(٥) الشفا ٢/ ١٨٦، وشرح الشفا للخفاجي ٣/ ٥٠٤، وعبارة القاضي: عامة أهل العلم متفقون على جواز الصلاة على غير النبي ﷺ. اهـ. ولفظة «غير» ساقطة من مطبوع الشفا.

(٦) أخرجه أحمد (١٩١١١)، والبخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ.

(٧) أخرجه أحمد (١٥٤٧٦)، وأبو داود (٥١٨٥) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن =

وصحَّح ابن حبان خبرَ أنَّ امرأةً قالت للنبيِّ ﷺ: صلِّ عليَّ وعلى زوجي. ففعل[١].

وفي خبر مسلم: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: صلَّى الله عليك وعلى جسدك»[٢]، وبه يُردُّ على الخفاجي قولُه في «شرح الشفا»: صلاةُ الملائكة على الأمة لا تكونُ إلا بتبعيَّته ﷺ[٣].

وقيل: لا تجوزُ مطلقاً.

وقيل: لا تجوز استقلالاً وتجوز تبعاً فيما ورد فيه النصُّ كالآل، أو أُلحق به كالأصحاب. واختاره القرطبيُّ[٤] وغيره.

وقيل: تجوز تبعاً مطلقاً ولا تجوز استقلالاً، ونسب إلى أبي حنيفة وجمع. وفي «تنوير الأبصار»: ولا يصلَّى على غير الأنبياء والملائكة إلا بطريق التبع[٥]. وهو محتمِلٌ لكراهة الصلاة بدون تبعٍ تحريماً، ولكراهتها تنزيهاً، ولكونها خلافَ الأَوْلَى، لكن ذكر البيري[٦] من الحنفية: مَن صلَّى على غيرهم أثم وكُرِهَ، وهو الصحيح. وفي روايةٍ عن أحمد كراهةُ ذلك استقلالاً. ومذهبُ الشافعية أنه خلافُ الأَوْلَى.

وقال اللقاني: قال القاضي عياض: الذي ذهب إليه المحقِّقون وأميلُ إليه ما قاله مالكٌ وسفيان واختاره غيرُ واحدٍ من الفقهاء والمتكلِّمين: أنه يجب تخصيصُ النبيِّ ﷺ وسائرِ الأنبياء بالصلاة والتسليم كما يختصُّ الله سبحانه عند ذكره

= زرارة عن قيس بن سعد، عن النبي ﷺ. ومحمد بن عبد الرحمن لم يثبت له سماع من قيس بن عبادة.

(١) صحيح ابن حبان (٩١٦) من حديث جابر رضي الله عنه، وهو عند أحمد (١٤٢٤٥).

(٢) صحيح مسلم (٢٨٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض لشهاب الدين الخفاجي ٣/ ٤٤٣.

(٤) هو أبو العباس القرطبي في المفهم، كما ذكر الحافظ في الفتح ١١/ ١٧٠.

(٥) تنوير الأبصار للتمرتاشي مع شرحه الدر المختار للحصكفي ٢/ ٥٢١.

(٦) في خطبة شرح الأشباه كما في حاشية ابن عابدين ٦/ ٧٥٣، والبيري هو إبراهيم بن حسين بن أحمد بن محمد بن أحمد بن بيري مفتي مكة، له مؤلفات ورسائل كثيرة، منها: حاشية على الأشباه والنظائر سماها: عمدة ذوي الأبصار، توفي سنة (١٠٩٩هـ). خلاصة الأثر ١/ ١٩.

بالتقديس والتنزيه، ويُذكر مَن سواهم بالغفران والرضا، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] وأيضاً فهو أمرٌ لم يكن معروفاً في الصدر الأول، وإنما أحدثه الرافضةُ في بعض الأئمة، والتشبُّهُ بأهل البدع منهيٌّ عنه، فتجب مخالفتُهم[(١)]. انتهى. ولا يخفى أنَّ كراهة التشبُّهِ بأهل البدع مقرَّرةٌ عندنا أيضاً، لكن لا مطلقاً بل في المذموم وفيما قُصد به التشبُّه بهم، فلا تغفل.

وجاء عن عمر بن عبد العزيز بسندٍ حسنٍ أو صحيحٍ أنه كتب لعامله: إنَّ ناساً من القُصَّاص قد أَحْدَثوا في الصلاة على خلفائهم ومواليهم عدلَ صلاتهم على النبيِّ ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فَمُرْهُم أن تكون صلاتُهم على النبيين خاصةً، ودعاؤهم للمسلمين عامةً، ويَدَعوا ما سوى ذلك[(٢)].

وصحَّ عن ابن عباس أنه قال: لا تنبغي الصلاةُ من أحدٍ على أحدٍ إلَّا على النبيِّ ﷺ. وفي روايةٍ عنه: ما أَعْلَم الصلاةَ تنبغي على أحدٍ من أحدٍ إلا على النبيِّ ﷺ، ولكن يُدْعَى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار[(٣)]. وكلاهما يحتملُ الكراهةَ والحرمة.

واستَدلَّ المانعون بأنَّ لفظ الصلاة صار شعاراً لعظم الأنبياء وتوقيرهم، فلا تقال لغيرهم استقلالاً وإن صحَّ، كما لا يقال: محمدٌ عزَّ وجلَّ، وإن كان عليه الصلاة والسلام عزيزاً جليلاً؛ لأنَّ هذا الثناءَ صار شعاراً لله تعالى فلا يشارك فيه غيره.

وأجابوا عمَّا مرَّ بأنه صدر من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، ولهما أن يخصَّا مَن شاءا بما شاءا، وليس ذلك لغيرهما إلا بإذنهما، ولم يثبت عنهما إذنٌ في ذلك.

ومن ثَمَّ قال أبو اليمن بنُ عساكر: له ﷺ أنْ يصلِّي على غيره مطلقاً لأنه حقُّه

---

(١) الشفا للقاضي عياض ٢/ ١٩١-١٩٢، والكلام من حاشية ابن عابدين ٦/ ٧٥٣.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٦٨، والقاضي إسماعيل في فضل الصلاة على النبي (٧٦). وحسن إسناده الحافظ في الفتح ٨/ ٥٣٤.

(٣) تنظر الروايتان في مصنف عبد الرزاق (٣١١٩)، ومصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٥١٩، وفضل الصلاة على النبي (٧٥). وصحح إسناده الحافظ في الفتح ٨/ ٥٣٤.

ومنصبُه، فله التصرُّفُ فيه كيف شاء، بخلافِ أمته؛ إذ ليس لهم أن يُؤْثِروا غيره بما هو له. لكن نازع فيه صاحب «المعتمد» من الشافعية(١) بأنه لا دليلَ على الخصوصية.

وحمل البيهقيُّ القولَ بالمنع على ما إذا جُعل ذلك تعظيماً وتحيةً، وبالجواز على ما(٢) إذا كان دعاءً وتبرُّكاً(٣).

واختار بعض الحنابلة(٤) أنَّ الصلاة على الآل مشروعةٌ تبعاً وجائزةٌ استقلالاً، وعلى الملائكة وأهل الطاعة عموماً جائزةٌ أيضاً، وعلى معيَّنٍ شخصٍ أو جماعةٍ مكروهةٌ، ولو قيل بتحريمها لم يَبعدْ سيما إذا جُعل ذلك شعاراً له وحده دون مُساويه ومَن هو خيرٌ منه، كما تفعل الرافضة بعليٍّ كرم الله تعالى وجهه. ولا بأس بها أحياناً كما صلَّى عليه الصلاة والسلام على المرأة وزوجِها، وكما وَرَدَ عن عليٍّ من صلاته على عمر(٥) ﵄ لمَّا دخل عليه وهو مسجًّى(٦). ثم قال: وبهذا التفصيل

---

(١) المعتمد في فروع الشافعية لأبي بكر محمد بن أحمد الشاشي المتوفى سنة (٥٠٧هـ) وهو كالشرح لحلية العلماء المعروف بالمستظهري. كشف الظنون ٢/ ١٧٣٣، وكلام صاحب المعتمد في القول البديع ص٦٤.

(٢) في (م): عليها، بدل: على ما.

(٣) شعب الإيمان ٢/ ٢١٩، والقول البديع ص٦٤-٦٥.

(٤) هو ابن القيم في كتابه جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص٤٨١، وينظر القول البديع ص٦٥.

(٥) في الأصل و(م): وكما صلى عليه الصلاة والسلام على عليٍّ وعمر، والمثبت من القول البديع، وهو الصواب.

(٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٣٦٩-٣٧٠، وعمر بن شَبَّة في تاريخ المدينة ٣/ ٩٣٧-٩٣٨، والحاكم ٣/ ٩٣-٩٤، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٣٤٩) من طريق سفيان بن عيينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله أن عليًّا دخل على عمر وهو مُسَجًّى فقال: صلَّى الله عليك، ثم قال: ما من أحد أحبّ إليَّ أن ألقى الله بما في صحيفته من هذا المسجَّى. زاد الخطيب: قال سفيان: قيل لجعفر: أليس قيل: لا يصلَّى على أحد إلا على النبي ﷺ؟ قال: هكذا سمعت.
وأخرجه ابن سعد ٣/ ٣٧٠، وابن أبي شيبة ١٢/ ٣٧-٣٨ من طرق أخرى عن جعفر بن محمد عن أبيه مرسلاً، وليس فيه: صلى الله عليك.
قال الدارقطني في العلل ٣/ ٨٩: أغربَ ابن عيينة في هذا الحديث في إسناده ومتنه: فأما في إسناده فإنه وصله عن جابر عن علي. وأما في متنه فإنه قال: إن عليًّا دخل على عمر وهو =

تتفق الأدلَّة. وأنت تعلم اتفاقها بغير ما ذَكَر.

والسلام عند كثيرٍ [كالصلاة](١) فيما ذكر، وفي «شرح الجوهرة» للَّقاني(٢) نقلاً عن الإمام الجويني أنه في معنى الصلاة، فلا يُستعمل في الغائب، ولا يُفرد به غيرُ الأنبياء عليهم السلام، فلا يقال: عليٌّ عليه السلام، بل يقال: ﷺ، وسواءٌ في هذا الأحياء والأمواتُ، إلا في الحاضر فيقال: السلام، أو: سلامٌ عليك، أو: عليكم، وهذا مجمعٌ عليه. انتهى. وفي حكاية الإجماع على ذلك نظر.

وفي «الدر المنضود»(٣): السلامُ كالصلاة فيما ذكر إلا إذا كان لحاضرٍ أو تحيةً لحيٍّ غائب.

وفرَّق آخرون بأنه يُشْرَعُ في حقِّ كلِّ مؤمنٍ بخلافِ الصلاة، وهو فَرْقٌ بالمدَّعى فلا يقبل، ولا شاهد في: السلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ لأنه واردٌ في محلٍّ مخصوصٍ، وليس غيرُه في معناه، على أنَّ ما فيه وقع تبعاً لا استقلالاً.

وحقَّق بعضهم فقال ما حاصله مع زيادةٍ عليه: السلامُ الذي يعمُّ الحيَّ والميت هو الذي يُقْصَدُ به التحيةُ، كالسلام عند تلاقٍ أو زيارةِ قبرٍ، وهو مستدعٍ للردِّ وجوبَ كفايةٍ أو عينٍ، بنفسه في الحاضر، ورسولِه أو كتابِه في الغائب، وأمَّا السلام الذي يقصد به الدعاءُ منَّا بالتسليم من الله تعالى على المدعوِّ له سواءٌ كان

= مسجًّى فقال: صلى الله عليك. قال ابن عيينة: فقلت لجعفر: أليس يقال: لا يصلَّى إلا على النبي ﷺ؟ فقال: هكذا سمعنا، أو جاء في الحديث. ويشبه أن يكون جعفر ترك هذه الكلمة لما عارضه سفيان بما عارضه به، فإن سماع ابن عيينة من جعفر قديم... والمحفوظ المرسل، فإن كان ابن عيينة حفظه متصلاً فلعل جعفراً وصله مرة. اهـ.

قلت: وأخرجه ابن سعد عن الفضل بن دكين عن عبد الواحد بن أيمن عن أبي جعفر أن عليًّا دخل على عمر... فذكره، وفيه: يرحمك الله، بدل: صلى الله عليك. وهذا إسناد صحيح إلى أبي جعفر. وفي الباب من حديث ابن عمر ومن حديث أبي جحيفة عند ابن سعد ٣/ ٣٧٠، وأحمد (٨٦٦) و(٨٦٧)، وابن شبة ٣/ ٩٣٧-٩٣٨، وفيهما أيضاً بدل الصلاة: رحمة الله عليك.

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) كما في حاشية ابن عابدين ٦/ ٧٥٣، ولم نقف عليه في المطبوع من شرح الجوهرة.

(٣) الدر المنضود في فضائل الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود لابن حجر الهيتمي. ينظر الزواجر عن اقتراف الكبائر له ١/ ١٠٧.

بلفظِ غيبةٍ أو حضورٍ فهذا هو الذي اختصَّ به ﷺ عن الأمة، فلا يسلَّم على غيره منهم إلَّا تبعاً كما أشار إليه التقي السبكي في «شفاء الغرام»، وحينئذٍ فقد أَشْبَهَ قولُنا: عليه السلام، قولَنا: عليه الصلاة، من حيث إن المراد: عليه السلام من الله تعالى، ففيه إشعارٌ بالتعظيم الذي في الصلاة من حيث الطلبُ لأنْ يكون المسلَّمَ عليه اللهُ تعالى كما في الصلاة، وهذا النوعُ من السلام هو الذي ادَّعى الحليميُّ كونَ الصلاة بمعناه. انتهى.

واختُلف في جواز الدعاء له ﷺ بالرحمة، فذهب ابن عبد البرِّ إلى منع ذلك[1]. ورُدَّ بوروده في الأحاديث الصحيحة، منها ـ وهو أصحُّها ـ حديثُ التشهُّد: السلامُ عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته[2]. ومنها قولُ الأعرابيِّ: اللهمَّ ارحمني ومحمداً، وتقريرُه ﷺ لذلك[3]، وقوله ﷺ: «اللهمَّ إني أسألك رحمةً من عندك»[4]، «اللهم أرجو رحمتك»[5]، «يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث»[6]، وفي خطبة رسالة الشافعيِّ ما لفظه: صلى الله عليه وسلم ورَحِمَ وكرَّم[7]. نعم قضيةُ كلامه كحديث التشهُّد أنَّ محلَّ الجواز إن ضمَّ إليه لفظ الصلاة أو السلام، وإلا لم يجز، وقد أخذ به جمع منهم الجلال السيوطي[8]، بل نقله القاضي عياض في «الإكمال» عن الجمهور[9]، قال القرطبي: وهو الصحيح[10].

---

(١) الاستذكار لابن عبد البر ٦/ ٢٦٢.
(٢) أخرجه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه الترمذي (٣٤١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) أخرجه أحمد (٢٠٤٣٠)، وأبو داود (٥٠٩٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
(٦) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٧) لم نقف عليه في المطبوع من خطبة الرسالة، بل أشار الشيخ أحمد شاكر في خاتمة الكتاب إلى أنه وقع في خاتمة نسخة ابن جماعة ما نصه: «الحمد لله رب العالمين حقَّ حمده، صلواته على محمد خير خلقه، وعلى آله وصحبه وسلم وشرَّف وكرَّم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل».
(٨) في نكت الأذكار، كما ذكر الشهاب في الحاشية ٧/ ١٨٤.
(٩) ينظر إكمال المعلم ٢/ ٣٠٤.
(١٠) المفهم لأبي العباس القرطبي ٢/ ٤٢.

وجزم بعدم جوازه منفرداً الغزالي عليه الرحمة، فقال: لا يجوزُ: ترحَّمْ على النبيِّ. ويدلُّ له قولُه تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

والصلاة وإن كانت بمعنى الرحمة إلَّا أنَّ الأنبياء خُصُّوا بها تعظيماً لهم، وتمييزاً لمرتبتهم الرفيعة على غيرهم، على أنها في حقِّهم ليست بمعنى مطلقِ الرحمة، بل المرادُ بها ما هو أخصُّ من ذلك كما سمعتَ فيما تقدَّم.

نعم ظاهرُ قول الأعرابيِّ السابق وتقريرِه عليه الصلاة والسلام له الجوازُ ولو بدون انضمام صلاةٍ أو سلام؛ قال ابن حجر الهيتمي: وهو الذي يتَّجه، وتقريرُه المذكور خاصٌّ، فيقدَّم على العموم الذي اقتضته الآية. ثم قال: وينبغي حملُ قولِ مَن قال: لا يجوز ذلك، على أنَّ مرادهم نفيُ الجواز المستوي الطرفين، فيصدق بأن ذلك مكروهٌ أو خلافُ الأَوْلى.

وذكر زين الدين في «بحره» أنهم اتفقوا على أنه لا يقال ابتداءً: رحمه الله تعالى[1]. وأنا أقول: الذي ينبغي أن لا يقال ذلك ابتداء.

وقال الطحطاوي في حواشيه على «الدر المختار»: وينبغي أن لا يجوز: غفر الله تعالى له، أو: سامحه؛ لمَا فيه من إيهام النقص.

وهو الذي أميلُ إليه، وإن كان الدعاءُ بالمغفرة لا يستلزمُ وجوبَ ذنبٍ، بل قد يكون بزيادةِ درجاتٍ كما يشير إليه استغفارُه عليه الصلاة والسلام في اليوم والليلة مئة مرةٍ، وكذا الدعاء بها للميت الصغير في صلاة الجنازة.

ومثلُ ذلك فيما يظهر: عفا اللهُ تعالى عنه، وإنْ وقع في القرآن؛ فإنَّ الله تعالى له أن يخاطب عبده بما شاء.

وأرى حُكْمَ الترحُّم على الملائكة عليهم السلام كحكم الترحُّم عليه ﷺ.

ومَن اختُلف في نبوَّته ـ كـ : لقمان ـ يقال فيه: رضي الله عنه، أو: صلى الله تعالى على الأنبياء وعليه وسلَّم.

---

(١) البحر الرائق ١/٣٤٨.

هذا وقد بقيتْ في هذا المقام أبحاثٌ كثيرةٌ يطول الكلام بذكرها جدًّا فلتُطْلَبْ من مظانِّها، واللهُ تعالى وليُّ التوفيق، وبيده سبحانه أزمَّةُ التحقيق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أريدَ بالإيذاء إمَّا ارتكابُ ما لا يرضَيانِه من الكفر وكبائِر المعاصي مجازاً؛ لأنه سببٌ أو لازمٌ له وإن كان ذلك بالنظر إليه تعالى بالنسبة إلى غيره سبحانه فإنه كافٍ في العلاقة.

وقيل في إيذائه تعالى: هو قول اليهود والنصارى والمشركين: يد الله مغلولة، و: المسيح ابن الله، و: الملائكة بناتُ الله، و: الأصنام شركاؤه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً. وقيل: قول الذين يلحدون في آياته سبحانه. وقيل: تصوير التصاوير، وروي عن كعب ما يقتضيه.

وقيل في إيذاء الرسول ﷺ: هو قولهم: شاعرٌ، ساحرٌ، كاهنٌ، مجنون، وحاشاه عليه الصلاة والسلام. وقيل: هو كسرُ رباعيته وشجُّ وجهه الشريف، وكان ذلك في غزوة أحد. وقيل: طعنُهم في نكاح صفية بنت حييٍّ[1].

والحقُّ هو العموم فيهما.

وإما إيذاؤه[2] عليه الصلاة والسلام خاصةً بطريق الحقيقة، وذكر الله عز وجل لتعظيمه ﷺ ببيانِ قُرْبِه وكونِه حبيبه المختصَّ به، حتى كان ما يؤذيه يؤذيه سبحانه كما أنَّ مَن يطيعُه يطيعُ الله تعالى.

وجوِّز أن يكون الإيذاء على حقيقته والكلامُ على حذف مضاف، أي: يؤذون أولياء الله ورسوله، وليس بشيء.

وقيل: يجوز أن يراد منه المعنى المجازيُّ بالنسبة إليه تعالى، والمعنى الحقيقيُّ بالنسبة إلى رسوله عليه الصلاة والسلام، وتعدُّدُ المعمول بمنزلة تكرُّر لفظ العامل، فيخفُّ أمر الجمع بين المعنيين، حتى ادَّعى بعضُهم أنه ليس من الجمع الممنوع. وليس بشيءٍ.

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/١٧٨-١٧٩ عن ابن عباس وقتادة، وسيرد قريباً.

(٢) قوله: وإما إيذاؤه، معطوف على قوله: إما ارتكاب. . .

﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طَرَدَهم وأبعدَهم من رحمته ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئاً منها. وذلك في الآخرة ظاهرٌ، وأما في الدنيا فقيل: بمنعهم زيادةَ الهدى.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ يصيبهم في الآخرة خاصةً.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يفعلون بهم ما يتأذَّوْن به من قول أو فعل. وتقييدُه بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي: بغير جنايةٍ يستحقُّون بها الأذيةَ شرعاً، بعد إطلاقه فيما قبله؛ للإيذان بأنَّ أذى اللهِ تعالى ورسوله ﷺ لا يكون إلا في غير حقٍّ، وأمَّا أذى هؤلاء فمنه ومنه.

وروي أنَّ عمر رضي الله عنه قال يوماً لأبيٍّ: يا أبا المنذر، قرأتُ البارحة آيةً من كتاب الله تعالى فوقعتْ منِّي كلَّ موقع: (وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ) والله إنِّي لأعاقبهم وأضربهم. فقال: إنك لستَ منهم، إنَّما أنت معلِّمٌ ومقوِّمٌ[1].

وقوله تعالى: «الذين» مبتدأ، وقولُه سبحانه: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾ ـ أي: فعلاً شنيعاً، وقيل: ما هو كالبهتان، أي: الكذب الذي يبهتُ الشخصَ لفظاعته في الإثم. وقيل: احتمل بهتاناً، أي: كذباً فظيعاً إذا كان الإيذاء بالقول ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ أي: ظاهراً بيِّناً ـ خبرُه، ودخلت الفاء لتضمُّن الموصول معنى الشرط.

والآيةُ قيل: نزلت في منافقينَ كانوا يؤذون عليًّا كرم الله تعالى وجهه ويُسْمِعونه ما لا خيرَ فيه[2].

وأخرج جويبر[3] عن الضحاك عن ابن عباس قال: أنزلت في عبد الله بن أبيٍّ وناسٍ معه، قذفوا عائشة رضي الله عنها، فخطب النبيُّ ﷺ وقال: «مَن يعذرني من رجلٍ يؤذيني ويجمع في بيته مَن يؤذيني» فنزلت.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٠، وقتادة لم يدرك عمر ولا أبيًّا رضي الله عنهما.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٣٨٢ عن مقاتل.

(٣) في الأصل و(م): ابن جويبر، والمثبت من أسباب النزول للسيوطي ص٣٠٧.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أنها نزلت في الذين طعنوا على النبيِّ ﷺ في أخذ صفية بنت حييٍّ ﵂[١].

وعن الضحاك والسدِّي والكلبي أنها نزلت في زناةٍ كانوا يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهنَّ، وكانوا لا يتعرَّضون إلَّا للإماء ولكنْ ربما يقع منهم التعرُّضُ للحرائر جهلاً أو تجاهلاً؛ لاتِّحاد الكلِّ في الزيِّ واللباس[٢].

والظاهر عمومُ الآية لكلِّ ما ذُكر ولكلِّ ما سيأتي من أراجيف المرجفين، وفيها من الدلالة على حرمة المؤمنين والمؤمنات ما فيها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في هذه الآية قال: يُلْقَى الجَرَب على أهل النار، فيحكُّون حتى تبدوَ العظامُ، فيقولون: ربَّنا بماذا أصابنا هذا؟ فيقال: بأذاكم المسلمين[٣].

وأخرج غير واحد عن قتادة قال: إياكم وأذى المؤمن، فإنَّ الله تعالى يحوطُه ويغضب له.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيُّ الربا أربى عند الله»؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: «أَرْبَى الرِّبا عند الله استحلالُ عِرْضِ امرئٍ مسلمٍ» ثم قرأ ﷺ: (وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟) الآية[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ بعد ما بيَّن سبحانه سوءَ حال المؤذين زجراً لهم عن الإيذاء أَمَر

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٠، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ١٧٨-١٧٩، وأخرجه الطبري أيضاً عن قتادة.

(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ١١٥، وسيأتي نحوه في سبب نزول الآية التي بعدها.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٢٠، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ١٦١.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٢١، وهو في الشعب (٦٧١١). وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٤٨٨ وقال: رواه أبو يعلى، ورواته رواة الصحيح. اهـ. وهو في مسند أبي يعلى (٤٦٨٩)، ولكن فيه: أزنى الزنى، بدل: أربى الربا. وله شاهد من حديث سعيد بن زيد ﵁ عند أحمد (١٦٥١)، وأبي داود (٤٨٧٦) ولفظه: «مِن أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حقٍّ» وإسناده صحيح.

النبيَّ ﷺ بأنْ يأمر بعض المتأذِّين منهم بما يدفع إيذاءهم في الجملة، من التستُّر والتميُّز عن مواقع الإيذاء فقال عز وجل:

﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ روي عن غير واحدٍ أنه كانت الحرَّة والأمة تخرجان ليلاً لقضاء الحاجة في الغِيْطان وبين النخيل من غير امتيازٍ بين الحرائر والإماء، وكان في المدينة فسَّاقٌ يتعرَّضون للإماء، وربما تعرَّضوا للحرائر فإذا قيل لهم يقولون: حسبناهنَّ إماءً. فأمرت الحرائر أن يخالفن الإماء بالزيِّ والتستُّر ليحتشمنَ ويُهَبْنَ فلا يُطْمَع فيهنَّ[1].

والجلابيب جمعُ: جلباب، وهو على ما روي عن ابن عباس: الذي يستر من فوق إلى أسفل. وقال ابن جبير: المِقْنَعة. وقيل: المِلْحَفة[2]. وقيل: كلُّ ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها. وقيل: كلُّ ما تتستَّر به من كساءٍ أو غيره. وأنشدوا:

مجلببٌ من سواد الليل جلبابا[3]

وقيل: هو ثوبٌ أوسعُ من الخمار ودون الرداء.

والإدناء: التقريب؛ يقال: أدناني، أي: قرَّبني. وضمِّن معنى الإرخاء أو السَّدْلِ، ولذا عدِّي بـ «على» على ما يظهر لي، ولعل نكتة التضمين الإشارة إلى أن المطلوب تستُّرٌ يتأتَّى معه رؤيةُ الطريق إذا مشينَ، فتأمل.

ونقل أبو حيان عن الكسائيِّ أنه قال: أي: يتقنَّعْنَ بملاحفهنَّ منضمَّةً عليهنَّ. ثم قال: أراد بالانضمام معنى الإدناء[4]. وفي «الكشاف»: معنى «يدنينَ

(١) أخرجه ابن سعد ٨/ ١٧٦، وعبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٢٣ عن الحسن، وأخرجه الطبري ١٩/ ١٨٣ عن أبي صالح.

(٢) الملحفة: الملاءة تلتحف بها المرأة، والمقنعة: ما تغطي به المرأة رأسها. معجم متن اللغة (لحف) و(قنع).

(٣) وصدره: يعدو به سابحٌ نَهْدٌ مَراكلُه، والبيت للخنساء، وهو في ديوانها ص٧، والتعازي والمراثي للمبرد ص١٠٦، وعجزه في الكشاف ٣/ ٢٧٤ منسوباً لأبي زبيد. ووقع في الأصل و(م): تجلببت، والمثبت من المصادر.

(٤) البحر ٧/ ٢٥٠، ونقله أبو حيان عن الكشاف ٣/ ٢٧٤.

عليهنَّ﴾: يُرخين عليهنَّ؛ يقال إذا زلَّ الثوب عن وجه المرأة: أَدْني ثوبَكِ على وجهك[١].

وفسَّر ذلك سعيد بنُ جبير بـ : يُسْدِلْنَ عليهنَّ. وعندي أنَّ كلَّ ذلك بيانٌ لحاصل المعنى.

والظاهر أنَّ المراد بـ «عليهنَّ»: على جميع أجسادهنَّ. وقيل: على رؤوسهنَّ، أو: على وجوههنَّ؛ لأنَّ الذي كان يبدو منهنَّ في الجاهلية هو الوجه.

واختلف في كيفية هذا التستُّر؛ فأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن محمد بن سيرين قال: سألتُ عَبيدةَ السلمانيَّ عن هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ فرفع مِلْحَفةً كانت عليه فتقنَّع بها وغطَّى رأسه كلَّه حتى بلغ الحاجبين، وغطَّى وجهه وأخرج عينه اليسرى من شقِّ وجهه الأيسر[٢].

وقال السدِّيُّ: تغطِّي إحدى عينيها وجبهتَها والشقَّ الآخر إلا العين.

وقال ابن عباس وقتادة: تلوي الجلباب فوق الجبين وتشدُّه، ثم تعطفُه على الأنف وإن ظهرت عيناها، لكن تستُر الصدرَ ومعظمَ الوجه.

وفي روايةٍ أخرى عن الحبر رواها ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه: تغطِّي وجهها من فوق رأسها بالجلباب، وتبدي عيناً واحدة[٣].

وأخرج عبد الرزاق وجماعةٌ عن أمِّ سلمةَ قالت: لمَّا نزلت هذه الآية ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهنَّ الغربانُ من السكينة، وعليهنَّ أكسيةٌ سودٌ يلبسنها[٤].

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: رَحِمَ الله تعالى نساء الأنصار؛ لمَّا نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ الآية شَقَقْنَ مروطهنَّ فاعتجرنَ بها، فصلَّين خلف

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٤.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٢١، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ١٨١ بنحوه، وفيه: ... فغطَّى أنفه وعينه اليسرى، وأخرج عينه اليمنى.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٢١، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ١٨١.

(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٢٣.

رسول الله ﷺ كأنما على رؤوسهنَّ الغربان[١].

و«من» للتبعيض، ويحتمل ذلك على ما في «الكشاف»[٢] وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد بالبعض واحداً من الجلابيب، وإدناء ذلك عليهنَّ أنْ يَلْبَسْنَه على البدن كلِّه.

وثانيهما: أن يكون المراد بالبعض جزءاً منه، وإدناءُ ذلك عليهنَّ أن يتقنَّعْنَ فيسترن الرأسَ والوجه بجزء من الجلباب، مع إرخاء الباقي على بقية البدن.

والنساء مختصَّاتٌ بحكم العرف بالحرائر، وسببُ النزول يقتضيه، وما بعدُ ظاهرٌ فيه، فإماء المؤمنين غيرُ داخلاتٍ في حكم الآية.

وعن عمر رضي الله عنه أنَّ غير الحرَّة لا تتقنَّع؛ أخرج ابن أبي شيبة عن قلابة قال: كان عمر بن الخطاب لا يدعُ في خلافته أمةً تتقنَّع، ويقول: القناعُ للحرائر لكيلا يؤذَيْنَ[٣]. وأخرج هو وعبد بن حميد عن أنس رضي الله عنه قال: رأى عمر رضي الله عنه جاريةً مقنَّعةً، فضربها بدرَّته وقال: ألْقي القناع لا تتشبَّهي بالحرائر[٤]. وجاء في بعض الروايات أنه رضي الله عنه قال لأمَةٍ رآها مقنَّعةً: يا لَكْعاء، أتَشبَّهين بالحرائر[٥]؟

وقال أبو حيان: نساءُ المؤمنين يشمل الحرائر والإماء، والفتنةُ بالإماء أكثرُ لكثرة تصرُّفِهنَّ، بخلاف الحرائر، فيحتاجُ إخراجُهنَّ من عموم النساء إلى دليلٍ واضح[٦]. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ وجه الحرَّة عندنا ليس بعورةٍ، فلا يجب ستره، ويجوز النظر من الأجنبي إليه إنْ أمن الشهوة مطلقاً، وإلا فيحرُمُ، وقال القهستانيُّ: مُنِعَ النظر من الشابة في زماننا ولو بلا شهوة. وأمَّا حُكْمُ أمة الغير ولو مدبَّرةً أو أمَّ ولدٍ فكحُكم

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢١، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (٣١) من سورة النور.

(٢) ٣/ ٢٧٤ بنحوه.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٣١.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٢١، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٣١.

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد٣/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٦) البحر ٧/ ٢٥٠.

المَحْرَمِ، فيحلُّ النظر إلى رأسها ووجهها وساقها وصدرها وعضدها إن أمن شهوته وشهوتها. وظاهر الآية لا يساعد على ما ذكر في الحرائر، فلعلها محمولةٌ على طلبِ تسترٍ تمتاز به الحرائر عن الإماء، أو العفائفُ مطلقاً عن غيرهنَّ، فتأمل.

و﴿يُدْنِينَ﴾ يحتمل أن يكون مقولَ القول وهو خبرٌ بمعنى الأمر، وأن يكون جوابَ الأمر على حدِّ: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١].

وفي الآية ردٌّ على مَن زعم من الشيعة أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن له من البنات إلا فاطمةَ صلى الله على أبيها وعليها وسلم، وأما رقيةُ وأُمُّ كلثوم فربيبتاه عليه الصلاة والسلام.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من الإدناء والتستُّر ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أي: أقربُ ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي: يميَّزْنَ عن الإماء اللاتي هنَّ مَواقعُ تعرُّضهم وإيذائهم. ويجوز إبقاءُ المعرفة على معناها، أي: أدنى أن يُعرَفْنَ أنهنَّ حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرُّض لهنَّ بناءً عن أنهنَّ إماءٌ.

وقال أبو حيان: أي: ذلك أَوْلَى أنْ يُعرفْنَ لتَستُّرِهنَّ بالعفَّة، فلا يُتَعرَّض لهنَّ ولا يُلْقَيْنَ بما يَكْرَهْنَ؛ لأنَّ المرأة إذا كانت في غاية التستُّر والانضمام لم يُقْدَمْ عليها، بخلاف المتبرِّجة فإنها مطموعٌ فيها[1]. وهو تفسيرٌ مبنيٌّ على رأيه في النساء، وأيًّا ما كان فقد قال السبكي في «طبقاته»: إنَّ أحمد بن عيسى من فقهاء الشافعية استنبط من هذه الآية أنَّ ما يفعله العلماء والسادات من تغيير لباسهم وعمائمهم أمرٌ حسن وإن لم يفعله السلفُ؛ لأنَّ فيه تمييزاً لهم حتى يُعرفوا فيُعْمَلَ بأقوالهم[2]، وهو استنباطٌ لطيف.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ كثيرَ المغفرة، فيغفرُ سبحانه ما عسى يصدر من الإخلال بالتستُّر.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢٣، وأحمد بن عيسى هو أبو العباس كمال الدين شارح التنبيه، وله أيضاً: نهج الوصول في علم الأصول، والمقدمة الأحمدية في أصول العربية، وغيرها، توفي سنة (٦٨٩هـ).

وقيل: يغفر ما سلف منهنَّ من التفريط. وتعقِّب بأنه إن أريدَ التفريطُ في أمر التستُّر قبل نزول الآية فلا ذنبَ قبل الورود في الشرع، وإن أريد التفريطُ في غير ذلك ليكون: وكان الله كثير المغفرة فيغفر ما سلف من ذنوبهنَّ وارتكابهنَّ ما نهى عنه مطلقاً، فهو غير مناسبٍ للمقام.

وجوّز أن يراد التفريط في أمر التستُّر، والأمرُ به معلومٌ من آية الحجاب التزاماً، وهو كما ترى.

﴿رَّحِيمًا ۝٥٩﴾ كثير الرحمة، فيثيبُ مَن امتثل أمره منهنَّ بما هو سبحانه أهلُه.

وقيل: رحيماً بهنَّ بعد التوبة عن الإخلال بالتستُّر بعد نزول الآية.

وقيل: رحيماً بعباده حيث راعى سبحانه في مصالحهم أمثالَ هذه الجزئيات.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عمَّا هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للإيذاء ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ـ وهم قومٌ كان فيهم ضعفُ إيمانٍ وقلَّةُ ثباتٍ عليه ـ عمَّا هم عليه من التزلزل وما يستتبعه مما لا خير فيه ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ من اليهود المجاورين لها عمَّا هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين، وغير ذلك من الأراجيف الملفَّقة المستتبِعةِ للأذية.

وأصل الإرجاف: التحريك، من الرجفة التي هي الزلزلة، وُصفت به الأخبار الكاذبة لكونها في نفسها متزلزلةٌ غيرُ ثابتةٍ، أو لتَزَلْزُلِ قلوب المؤمنين واضطرابها منها.

والتغايرُ بين المتعاطفات ـ على ما ذكرنا ـ بالذات، وهو الذي يقتضيه ظاهرُ العطف.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن مالك بن دينار قال: سألتُ عكرمة عن الذين في قلوبهم مرض، فقال: هم أصحاب الفواحش[1]. وعن عطاء أنه فسَّرهم بذلك أيضاً. وفي رواية أخرى عنه أنه قال: هم قومٌ مؤمنون كان في أنفسهم أن يزنوا[2].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٢، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٢٣.
(٢) أخرجهما عن عطاء ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٢.

فالمرضُ حبُّ الزنى، وإذا فسِّر المرجفون على ذلك بما سمعتَ يكون التغايُر بين المتعاطفات بالذات أيضاً.

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب أنَّ الذين في قلوبهم مرضٌ هم المنافقون[1]، وهو المعروفُ في وصفهم.

وأخرج هو أيضاً عن عبيد بن حنين أنَّ الذين في قلوبهم مرضٌ والمرجفون جميعاً هم المنافقون[2]. فيكون العطف مع الاتِّحاد بالذات لتغايُرِ الصفات، على حدِّ:

هو الملك القَرْمُ وابنُ الهمام[3]

فكأنه قيل: لئن لم ينته الجامعون بين هذه الصفات القبيحة عن الاتِّصاف بها المفضي إلى الإيذاء ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لندعونَّك إلى قتالهم وإجلائهم، أو فِعْلِ ما يَضْطَرُّهم إلى الجلاء، ونحرِّضُكَ على ذلك؛ يقال: أغراه بكذا، إذا دعاه إلى تناوُله بالتحريض عليه. وقال الراغب: غَرِيَ بكذا، أي: لَهَجَ به ولَصِقَ، وأصلُ ذلك من الغِرَاء، وهو ما يُلصَقُ به، وقد أغريتُ فلاناً بكذا: أَلْهَجْتُ به[4].

وعن ابن عباس ﵄: أي: لنسلِّطنَّك عليهم.

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطفٌ على جواب القسم، و«ثم» للتفاوُتِ الرُّتبي، والدلالةِ على أنَّ الجلاء ومفارقةَ جوارِ الرسول ﷺ أعظمُ ما يصيبهم وأشدُّه عندهم ﴿فِيهَآ﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠﴾ أي: زماناً أو جواراً قليلاً ريثما يتبيَّن حالُهم من الانتهاء وعدمه، أو يتلقَّطون عيالاتهم وأنفسَهم.

وفي الآية عليه كما في «الانتصاف» إشارةٌ إلى أنَّ مَن توجَّهَ عليه إخلاءُ منزلٍ

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ١٧٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وعجزه: وليث الكتيبة في المزدحم، وسلف ٢/ ٣٥٠ و١٣/ ٩، وروايته في الموضعين: إلى الملك. . .

(٤) مفردات الراغب (غرا).

مملوكٍ للغير بوجهٍ شرعيٍّ يُمهَل ريثما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهةً من الزمان حتى يتيسَّر له منزلٌ آخر على حسب الاجتهاد[١].

ونصب «قليلاً» على ما أشرنا إليه على الظرفية أو المصدرية، وجوِّز أن يكون نصباً على الحال، أي: إلا قليلينَ أذلَّاءَ، ولا يخفى حالُه على ذي تمييز.

وقوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصبٌ على الذمِّ، أي: أَذُمُّ ملعونين، أو على الحال من فاعلِ (لَا يُجَاوِرُونَكَ) والاستثناءُ شاملٌ له عند مَن يرى جواز نحوِ ذلك، وقد تقدَّم الكلام عليه عند قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الآية: ٥٣]. وجعل ابن عطية المعنى على الحالية: ينتفون ملعونين[٢].

وجوِّز أن يكون حالاً من ضميرهم في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي: حُصروا وظُفِرَ بهم، وكأنه على معنى: أينما ثقفوا متَّصفين بما هم عليه ﴿أُخِذُواْ﴾ أي: أُسروا، ومنه: الأَخِيذُ، للأسير ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ أي: قتِّلوا أبلغَ قتل. وقرئ: «وقُتِلوا» بالتخفيف[٣]، فيكون (تَقْتِيلًا) مصدراً على غير الصدر.

واعتُرض على الحالية مما ذكر بأنَّ أداة الشرط لا يَعمل ما بعدها فيما قبلها مطلقاً وهذا أحدُ مذاهبَ للنحاة في المسألة، ثانيها الجوازُ مطلقاً، وثالثها جوازُ تقديم معمول الجواب دون معمول الشرط.

وجوِّز على تقديرِ كون «قليلاً» حالاً أن يكون «ملعونين» بدلاً منه. وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ البدل بالمشتقِّ قليلٌ، ثم قال: والصحيح أنَّ «ملعونين» صفةٌ لقليل، أي: إلا قليلين ملعونين، ويكون «قليلاً» مستثنًى من الواو في «لا يجاورونك»، والجملةُ الشرطية صفةٌ أيضاً، أي: مقهورين مغلوباً عليهم[٤]. اهـ، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ، أي: سنَّ الله تعالى ذلك في الأمم الماضية سنَّةً، وهي قتالُ الذين يسعَوْنَ بالفساد بين قومٍ،

---

(١) الانتصاف مع الكشاف ٣/ ٢٧٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٠، والبحر ٧/ ٢٥١.

(٤) البحر ٧/ ٢٥١.

وإجلاؤهم[١] عن أوطانهم، وقهرُهم أينما ثُقِفُوا متَّصفينَ بذلك.

﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أيُّها النبيُّ، أو: يا مَن يصحُّ منك الوجدانُ أبداً ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ لعادته عزَّ وجلَّ المستمرّةِ ﴿تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ لابتنائها على أساس الحكمة، فلا يُبْدِلُها هو جلَّ شأنُه، وهيهات هيهات أن يقدِرَ غيرُه سبحانه على تبديلها. ومَن سَبَرَ أخبارَ الماضين وقف على أمرٍ عظيم في سوء معاملتهم المفسدين فيما بينهم، وكأنَّ الطباع مجبولةٌ على سوء المعاملة معهم وقَهْرِهم.

وفي تفسير الفخر: (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا) أي: ليست هذه السنَّةُ مثلَ الحُكْم الذي يتبدَّل ويُنسَخُ، فإنَّ النسخ يكون في الأحكام أمَّا الأفعالُ والأخبار فلا تُنْسَخُ[٢].

وللسدِّيِّ كلامٌ غريبٌ في الآية لا أظنُّ أن أحداً قال به؛ أخرج ابن أبي حاتم عنه[٣] أنه قال فيها: كان النفاق على ثلاثة أوجهٍ: نفاقٌ مثلُ نفاق عبد الله ابن سلول ونظائِره، كانوا وجوهاً من وجوه الأنصار، فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنى يصونون بذلك أنفسهم، وهم المنافقون في الآية، ونفاقُ الذين في قلوبهم مرضٌ، وهم منافقون إن تيسَّر لهم الزنى عملوه، وإن لم يتيسَّر لم يبتغوه[٤] ويهتمُّوا بأمره، ونفاقُ المرجفين، وهم منافقون يكابرون النساء يقتصُّون أثرهنَّ، فيغلبوهنَّ على أنفسهنَّ فيفجرون بهنَّ، وهؤلاء الذين يكابرون النساء (لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ) يقول سبحانه: لنعلمنَّكَ بهم، ثم قال تعالى: (مَّلْعُونِينَ) ثم فصَّلت الآية[٥] (أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا) يعملون هذا العمل مكابرةَ النساء (أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا) ثم قال السدي: هذا حكمٌ في القرآن ليس يعمل به، لو أنَّ رجلاً وما فوقه اقتصُّوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها، كان الحكمُ فيهم غيرَ الجلد والرجم، وهو أن يؤخذوا فتضربَ أعناقهم سنَّةَ الله في الذين خلوا من قبلُ، كذلك كان يُفعل بمن مضى من الأمم، ولن تجد

(١) في الأصل و(م): وإجلائهم، والصواب ما أثبتناه.
(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٣١.
(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٢-٢٢٣.
(٤) في الأصل و(م): يتبعوه، والمثبت من الدر المنثور.
(٥) في الدر المنثور: ثم فصله في الآية.

لسنَّةِ الله تبديلاً، فَمَنْ كابر امرأةً على نفسها فغلبها فقُتل، فليس على قاتله ديةٌ لأنه يكابر[١]. انتهى.

والظاهر أنه قد وقع الانتهاء من المنافقين والذين في قلوبهم مرضٌ عمَّا هو المقصودُ بالنهي، وهو ما يستتبعُه حالُهم من الإيذاء، ولم يقع من المرجفين ـ أعني اليهود ـ فوقع القتال والإجلاء لهم.

وفي «البحر»: الظاهر أنَّ المنافقين ـ يعني جميعَ مَن ذكر في الآية ـ انتهوا عمَّا كانوا يؤذون به الرسولَ ﷺ والمؤمنين، وتستَّر جميعهم وكفُّوا خوفاً من أن يقع بهم ما وقع القَسَمُ عليه، وهو الإغراء والإجلاء والقتل[٢]. وحُكي ذلك عن الجبائي.

وعن أبي مسلم أنهم[٣] لم ينتهُوا، وحصل الإغراء بقوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]. وفيه أن الإجلاء والقتل لم يقعا للمنافقين، والجهاد في الآية قوليٌّ.

وقيل: إنهم لم يتركوا ما هم عليه ونُهوا عنه جملةً، ولا نفذ عليهم الوعيد كاملاً، ألا ترى إلى إخراجهم من المسجد، ونهيِه تعالى عن الصلاة عليهم، وما نزل في سورة براءة.

وزعم بعضهم أنه لم ينته أحدٌ من المذكورين أصلاً، ولم ينفذ الوعيدُ عليهم، ففيه دليلٌ على بطلان القول بوجوب نفاذ الوعيد في الآخرة، ويكون هذا الوعيد مشروطاً بالمشيئة. وفيه من البعد ما فيه.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: عن وقت قيامها ووقوعِها؛ كان المشركون يسألونه ﷺ عن ذلك استعجالاً بطريق الاستهزاء، والمنافقون تعنُّتاً، واليهودُ امتحاناً لِمَا أنهم يعلمون من التوراة أنها ممَّا أخفاه الله تعالى، فيسألونه عليه الصلاة والسلام ليمتحنوه هل يوافقها وحياً أوْ لا؟

---

(١) في الدر: مكابر.

(٢) البحر ٧/ ٢٥١.

(٣) قوله: أنهم، ليس في (م).

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يُطْلِعُ سبحانه عليه مَلَكاً مقرَّباً ولا نبيًّا مرسلاً.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ خطابٌ مستقلٌّ له ﷺ غيرُ داخلٍ تحت الأمر، مسوقٌ لبيان أنها مع كونها غيرَ معلومةٍ مرجوَّةُ المجيء عن قريب، و«ما» استفهامٌ في موضع الرفع بالابتداء، والجملةُ بعده خبر، أي: أيُّ شيء يُعْلِمُكَ بوقت قيامها، والمعنى على النفي، أي: لا يعلمنَّك به شيءٌ أصلاً.

﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ أي: لعلها توجد وتتحقَّق في وقتٍ قريبٍ، فـ «قريباً» منصوبٌ على الظرفية، واستعمالُه كذلك كثيرٌ. و«تكون» تامةٌ، ويجوز أن تكون ناقصةً.

وإذا كان «قريباً» الخبرَ، واعتُبر وصفاً لا ظرفاً، فالتذكيرُ لكونه في الأصل صفةً لخبرٍ مذكَّرٍ يُخْبَرُ به عن المؤنَّث وليس هو الخبر، أي: لعل الساعة تكون شيئاً قريباً. وجوَّز أن يكون ذلك رعايةً للمعنى من حيث إنَّ الساعة بمعنى اليوم أو الوقت.

وقال أبو حيان: يجوزُ أن يكون ذلك لأنَّ التقدير: لعل قيامَ الساعة، فلُوحِظَ الساعةُ في «تكون» فأنِّث، ولوحِظَ المضافُ المحذوف وهو قيام في «قريباً» فذكِّر[1]. ولا يخفَى بعدُه.

وقيل: إنَّ «قريباً» لكونه فعيلاً يستوي فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] وقد تقدَّم ما في ذلك.

وفي الكلام تهديدٌ للمستعجلين[2] المستهزئين، وتبكيتٌ للمتعنتين والممتحنين. والإظهار في موضع الإضمار للتهويل وزيادةِ التقرير وتأكيدِ استقلال الجملة كما أشير إليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ على الإطلاق، أي: طَرَدَهم وأبْعَدهم عن رحمته العاجلةِ والآجلةِ ﴿وَأَعَدَّ﴾ هيَّأ ﴿لَهُمْ﴾ مع ذلك في الآخرة ﴿سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ ناراً شديدةَ الاتِّقاد، كما يؤذِنُ بذلك صيغةُ المبالغة.

---

(١) البحر ٧/ ٢٥٢.

(٢) في (م): للمستعجبين.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ متولِّياً لأمرهم يحفظهم ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ ناصراً يخلِّصهم منها.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ ظرفٌ لعدم الوجدان، وقيل: لـ «خالدين». وقيل: لـ «نصيراً». وقيل: مفعولٌ لـ: اذْكُرْ.

أي: يومَ تُصرَّف وجوههم فيها من جهةٍ إلى جهةٍ، كاللحم يُشْوَى في النار أو يُطبخُ في القِدْرِ، فيدورُ به الغليان من جهةٍ إلى جهةٍ، أو: يومَ تتغيَّر وجوههم من حالٍ إلى حالٍ، فتتواردُ عليها الهيئات القبيحةُ من شدَّة الأهوال، أو: يومَ يُلْقَوْن في النار مقلوبين منكوسين.

وتخصيص الوجوه بالذكر لِمَا أنها أكرمُ الأعضاء، ففيه مزيدُ تفظيعٍ للأمر وتهويلٍ للخَطْب. ويجوز أن تكون عبارةً عن كلِّ الجسد.

وقرأ الحسن وعيسى وأبو جعفر الرؤاسي: «تَقَلَّبُ» بفتح التاء، والأصل: تتقلَّب، فحُذفت إحدى التاءين[١]. وقرأ ابن أبي عبلة بهما على الأصل[٢].

وحكى ابنُ خالويه عن أبي حيوة أنه قرأ: «نقلِّبُ وجوهَهم» بإسناد الفعل إلى ضمير العظمة ونَصْبِ «وجوههم» على المفعولية[٣].

وقرأ عيسى الكوفة: «تقلِّبُ وجوهَهم» بإسناد الفعل إلى ضمير السعير اتساعاً ونصبِ الوجوه[٤].

﴿يَقُولُونَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكايةِ حالهم الفظيعة، كأنه قيل: فماذا يصنعون عند ذلك؟ فقيل: يقولون متحسِّرين على ما فاتهم: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾﴾ فلا نُبتلَى بهذا العذاب. أو حالٌ من ضمير «وجوههم» أو مِن نَفْسِها. وجوِّز أن يكون هو الناصبَ لـ «يوم».

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٠، والبحر ٧/ ٢٥٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٠، والبحر ٧/ ٢٥٢.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٠، والبحر ٧/ ٢٥٢.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٤، والبحر ٧/ ٢٥٢.

﴿وَقَالُواْ﴾ عطفٌ على «يقولون»، والعدولُ إلى صيغة الماضي للإشعار بأنَّ قولهم هذا ليس مستمرًّا كقولهم السابق، بل هو ضربُ اعتذارٍ أرادوا به ضرباً من التشفِّي بمضاعفة عذاب الذين أوردوهم هذا الموردَ الوخيم، وألقَوْهم في ذلك العذاب الأليم، وإنْ علموا عدمَ قبوله في حقِّ خلاصهم مما[1] هم فيه:

﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ أي: ملوكنا وولاتنا الذين يتولَّوْن تدبيرَ السواد الأعظم منَّا ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ أي: رؤساءنا الذين أخذنا عنهم فنونَ الشرِّ، وكان هذا في مقابلةِ ما تمنَّوه من إطاعة الله تعالى وإطاعة الرسول، فالسادةُ والكبراء متغايران، والتعبيرُ عنهما بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار، وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة. وقدَّموا في ذلك إطاعة السادة لِمَا أنه كان لهم قوةُ البطش بهم لو لم يُطيعوهم، فكان ذلك أحقَّ بالتقديم في مقام الاعتذار وطلبِ التشفِّي.

وقيل باتِّحاد السادة والكبراء، والعطفُ على حدِّ العطف في قوله:

وألفى قولَها كذباً ومينا[2]

والمراد بهم: العلماءُ الذين لقَّنوهم الكفر وزيَّنوه لهم. وعن قتادة: رؤساؤهم في الشر والشِّرْك.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة والسلميُّ وابنُ عامر والعامَّةُ في الجامع بالبصرة: «ساداتنا» على جمع الجمع[3]، وهو شاذٌّ كـ: بيوتات، وفيه ـ على ما قيل ـ دلالةٌ على الكثرة.

ثم إنَّ كون سادة جمعاً هو المشهور، وقيل: اسم جمع، فإن كان جمعاً لسيِّد فهو شاذٌّ أيضاً، فقد نصُّوا على شذوذ فَعَلَة في جمع فَيْعِل[4]، وإن كان جمعاً لمفردٍ مقدَّرٍ وهو سائد كان كـ: كافر وكَفَرة، لكنه شاذٌّ أيضاً؛ لأنَّ فاعلاً لا يُجمع على فَعَلَةَ إلا في الصحيح.

---

(١) في (م): بما.
(٢) البيت لعدي بن زيد، وهو في ديوانه ص١٨٣، وسلف ٥/ ٣٩٧ و١٠/ ٢٣٧.
(٣) التيسير ص١٧٩، والنشر ٢/ ٣٤٩ عن ابن عامر ويعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٢٥٢.
(٤) في الأصل و(م): فعيل، وهو تصحيف، والمثبت من الدر المصون ٩/ ١٤٤.

﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧﴾ أي: جعلونا ضالِّين عن الطريق الحقِّ بما دَعَوْنا إليه وزيَّنوه لنا من الأباطيل، والألفُ للإطلاق كما في (وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠).

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: عذابين يضاعِفُ كلٌّ واحدٍ منهما الآخرَ؛ عذاباً على ضلالهم في أنفسهم، وعذاباً على إضلالهم لنا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾ أي: شديداً عظيماً، فإنَّ الكبر يُستعار للعظمة، مثل ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ [الكهف: ٥]، ويستفاد التعظيم من التنوين أيضاً. وقرأ الأكثر: «كثيراً» بالثاء المثلثة[١]، أي: كثير العدد. وتصديرُ الدعاء بالنداء مكرَّراً للمبالغة في الجؤار واستدعاءِ الإجابة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ قيل: نزلت فيما كان من أمر زينب بنت جحش ﵂ وتزوُّجِه ﷺ بها، وما سَمِعَ في ذلك من كلامٍ آذاه عليه الصلاة والسلام.

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ أي: من قولهم، أو: الذي قالوه، وأيًّا ما كان فالقولُ هنا بمعنى المقول، والمراد به مدلولُه الواقعُ في الخارج، وتبرئةُ[٢] الله تعالى إياه من ذلك إظهارُ براءته عليه السلام منه وكذبِهم فيما أسندوا إليه؛ لأنَّ المرتَّب على أذاهم ظهورُ براءته لا براءتُه، لأنها مقدَّمةٌ عليه، واستعمالُ الفعل مجازاً عن إظهاره والمقولِ بمعنى المضمون كثيرٌ شائع، فالمعنى: فأظهر الله تعالى براءته من الأمر المَعِيبِ الذي نسبوه إليه عليه السلام.

وقيل: لا حاجة إلى ما ذكر؛ فإنه تعالى لمَّا أظهر براءته عما افتروه عليه انقطعت كلماتُهم فيه فبرئ من قولهم، على أنَّ «برَّأه» بمعنى: خلَّصه من قولهم لقَطْعِه عنه. وتعقِّب بأنه مع تكلُّفه ـ لأنَّ قَطْعَ قولهم ليس مقصوداً بالذات بل المراد انقطاعُه لظهور خلافه ـ لا[٣] بدَّ من ملاحظة ما ذكر.

والمراد بالأمر الذي نسبوه إليه عليه السلام عيبٌ في بدنه؛ أخرج الإمام أحمدُ والبخاريُّ والترمذيُّ وجماعةٌ من طريق أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ

---

(١) التيسير ص١٧٩، والنشر ٢/ ٣٤٩، ولم يقرأ «كبيراً» بالباء من العشرة سوى عاصم.
(٢) في الأصل و(م): وبتبرئة، والصواب ما أثبتناه، وينظر حاشية الشهاب ٧/ ١٨٦.
(٣) في الأصل: فلا، وينظر حاشية الشهاب ٧/ ١٨٦.

موسى عليه السلام كان رجلاً حييًّا ستِّيراً لا يُرى من جِلْدِه شيءٌ استحياءً منه، فآذاه مَن آذاه من بني إسرائيل، وقالوا: مايستتر هذا السترَ إلا من عيبٍ بجِلْدِه، إمَّا برص وإما أُدْرَة وإما آفة، وإنَّ الله تعالى أراد أن يبرِّئه مما قالوا، وإنَّ موسى عليه السلام خلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على حجرٍ ثم اغتسل، فلمَّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر غدا بثوبه، فأخذ موسى عليه السلام عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَرُ ثوبي حَجَرُ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسنَ ما خلق الله تعالى، وبرَّأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبَه فلبسه وطَفِقَ بالحجر ضرباً بعصاه، فذلك قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ﴾(١).

وقيل: إنَّ ذلك ما نسبوه إليه عليه السلام من قتل هارون، أخرج ابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، والحاكم وصححه عن ابن عباس عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال في الآية: صعد موسى وهارون عليهما السلام الجبل فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته، كان أشدَّ حبًّا لنا منك وألْينَ. فآذوه من ذلك، فأمر الله تعالى الملائكة فحملوه فمرُّوا به على مجالس بني إسرائيل، وتكلَّمت الملائكة عليهم السلام بموته، فبرَّأه الله تعالى، فانطلقوا به فدفنوه ولم يَعرف قبرَه إلا الرَّخمُ، وإنَّ الله تعالى جعله أصمَّ أبكم(٢).

وفي رواية عن ابن عباس وأناسٍ من الصحابة أنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى: إنِّي متوفٌّ هارون فأْتِ جبل كذا. فانطلقا نحو الجبل، فإذا هم بشجرةٍ وبيتٍ فيه سريرٌ عليه فرشٌ وريحٌ طيبةٌ، فلمَّا نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيتِ وما فيه أعجبه، فقال: يا موسى إنِّي أحب أن أنام على هذا السرير. قال: نَمْ عليه. قال: نَمْ معي. فلما ناما أخذ هارونَ الموتُ، فلما قُبض رُفع ذلك البيتُ، وذهبت تلك الشجرة، ورُفع السرير إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: قتل هارونَ وحسده لحبِّ بني إسرائيل له. وكان هارونُ أكفَّ عنهم وألينَ لهم، وكان

---

(١) مسند أحمد (١٠٦٧٨)، وصحيح البخاري (٢٧٨) و(٣٤٠٤)، وسنن الترمذي (٣٢٢١)، وأخرجه أيضاً مسلم (٣٣٩).

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٢٣، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ١٩٤، والمستدرك ٢/ ٥٧٩.

في موسى بعضُ الغلظة عليهم، فلمَّا بلغه ذلك قال: ويحكم! إنه كان أخي، أفَتَروْني أقتلُه؟ فلما أكثروا عليه قام فصلَّى ركعتين ثم دعا الله تعالى، فنزل بالسرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدَّقوه[١].

وقيل: ما نسبوه إليه عليه السلام من الزنى وحاشاه؛ روي أنَّ قارون أغرى مومسةً على قذفه عليه السلام بنفسها ودفع إليها مالاً عظيماً، فأقرَّت بالمصانعة الجاريةِ بينها وبين قارون، وفُعِلَ به ما فُعِلَ كما فصِّل في سورة القصص، ويُبْعِدُ هذا القولَ تبعيداً مّا جَمْعُ الموصول.

وقيل: ما نَسبوا إليه من السحر والجنون.

وقيل: ما حُكي عنهم في القرآن من قولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] وقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] إلى غير ذلك.

ويمكن حملُ «ما قالوا» على جميع ما ذكر.

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾ أي: كان ذا جاهٍ ومنزلةٍ عنده عز وجل، وفي معناه قولُ قطرب: كان رفيع القَدْرِ. ونحوُه قول ابن زيد: كان مقبولاً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال: «وجيهاً»: مستجاب الدعوة[٢]. وزاد بعضهم: ما سأل شيئاً إلا أُعطي إلا الرؤيةَ في الدنيا. ولا يخفى أنَّ استجابة الدعوة من فروع رِفْعَةِ القَدْر.

وقيل: وجاهتُه عليه السلام أنَّ الله تعالى كلَّمه ولقِّب: كليم الله.

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٧٨-٥٧٩ من طريق السدي عن أبي مالك عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ. ووقع في مطبوع الحاكم: آلف عندهم، بدل: أكفَّ عنهم. وهذا الإسناد قال عنه ابن كثير عند تفسير الآية (٣٣) من سورة البقرة: هذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور من تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة، والحاكم يروي بهذا الإسناد بعينه أشياء ويقول: على شرط البخاري. اهـ. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٢٤.

وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة: «عبداً» من العبودة «لله» بلام الجرِّ(١)، فيكون «عبداً» خبر «كان»، و«وجيهاً» صفةً له، وهي قراءةٌ شاذةٌ، وفي صحة القراءة بالشواذِّ كلامٌ.

قال ابن خالويه: صلَّيتُ خلف ابن شَنَبوذ في شهر رمضان فسمعته يقرأ: «وكان عبداً لِلّه» على قراءة ابن مسعود(٢).

ولعل ابنَ شَنَبوذ ممن يرى صحة القراءة بها مطلقاً(٣)، ويحتَملُ مثلُ ذلك في ابن خالويه، وإلَّا فقد قال الطيبيُّ: قال صاحب «الروضة»: وتصحُّ بالقراءة الشاذَّة إن لم يكن فيها تغييرُ معنًى ولا زيادةُ حرفٍ ولا نقصان. وهاهنا بين المعنيين بونٌ كما يشير إليه كلام الزمخشريِّ، ونحوُه عن ابن جنِّي(٤).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في كلِّ ما تأتون وتَذَرون، لاسيما في ارتكابِ ما يكرهُه تعالى فضلاً عما يؤذي رسولَه وحبيبه ﷺ.

﴿وَقُولُوا۟﴾ في كلِّ شأنٍ من الشؤون ﴿قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ قاصداً ومتوجِّهاً إلى هدف الحقِّ، مِن سَدَّ يَسِدُّ بكسر السين سَدَاداً بفتحها؛ يقال: سدَّد سهمه، إذا وجَّهه للغرض المرميِّ ولم يَعْدِلْ به عن سَمْتِه.

والمراد على ما قيل: نهيُهم عن ضدِّ هذا القول، وهو القولُ الذي ليس بسديدٍ، ويدخل فيه ما صدر منهم في قصة زينب من القول الجائر عن العدل والقَصْدِ، وكذا كلُّ قولٍ يؤذيه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٠، والمحتسب ٢/ ١٨٥، والكشاف ٣/ ٢٧٦، والبحر ٧/ ٢٥٣. والدر المصون ٩/ ١٤٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٠.

(٣) قال السمين في الدر ٩/ ١٤٥: كان رحمه الله (يعني ابن شنبوذ) مولعاً بنقل الشاذ، وحكايته مع ابن مقلة الوزير وابن مجاهد في ذلك مشهورة. اهـ. وينظر ما ورد في ذلك في ترجمة ابن شنبوذ في معرفة القراء الكبار للذهبي ١/ ٢٧٦.

(٤) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية. وكلام الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٧٦: قراءة العامة أوجه؛ لأنها مُفْصِحةٌ عن وجاهته عند الله، كقوله تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وهذه ليست كذلك. ومثله كلام ابن جني في المحتسب٢/ ١٨٥.

وعن مقاتلٍ وقتادةَ أنَّ المعنى: وقولوا قولاً سديداً في شأن الرسول عليه الصلاة والسلام وزيدٍ وزينب.

وعن ابن عباسٍ وعكرمةَ تخصيصُ القول السديد بـ: لا إله إلا الله.

وقيل: هو ما يوافق ظاهرهُ باطنَه.

وقيل: ما فيه إصلاحٌ. ولعل ما أشرنا إليه هو الأوْلى.

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالقبول والإثابة عليها، على ما روي عن ابن عباس ومقاتل. وقيل: إصلاحُ الأعمال التوفيقُ في المجيء بها صالحةً مَرْضيَّةً.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويجعلها مكفَّرةً باستقامتكم في القول والعمل.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامر والنواهي التي من جملتها ما تضمَّنَتْه هذه الآيات ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ في الدارين ﴿فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ لا يقادَرُ قَدْرُه، ولا تُبْلَغُ غايتُه.

قال في «الكشاف»: وهذه الآية يعني «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله» إلى آخرها مقرِّرةٌ للَّتي قبلها، بُنيت تلك على النهي عمَّا يؤذي رسولَ الله ﷺ، وهذه على الأمر باتِّقاء الله تعالى في حفظ اللسان، ليترادف عليهم النهيُ والأمر، مع إتْباعِ النهي ما يتضمَّنُ الوعيدَ من قصة موسى عليه السلام؛ لأنَّ وصفه بوجاهته عند الله تعالى متضمِّنٌ أنه تعالى انتقم له ممن آذاه، وإتباعِ الأمر الوعدَ البليغَ، فيَقْوى الصارفُ عن الأذى والداعي إلى تركه[1]. انتهى فلا تغفل.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ لمَّا بيَّن جلَّ شأنُه عظمَ شأن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ببيانِ مآلِ الخارجين عنها من العذاب الأليم، ومَنَالِ المُراعين لها من الفوز العظيم، عقَّب ذلك عظمَ شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل، مع الإيذان بأنَّ ما صَدَرَ عنهم من الطاعة وتَرْكِها صَدَرَ عنهم بعد القبول والالتزام من غير جبرٍ هناك ولا إبرام، وعبَّر عنها بالأمانة ـ وهي في الأصل مصدرٌ كالأمن والأمان ـ تنبيهاً على أنها حقوقٌ مَرْعيةٌ أودعها الله تعالى المكلَّفين وائتمنهم عليها، وأوجب عليهم تلقِّيها

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٦.

بحسن الطاعة والانقياد، وأمرهم بمراعاتها والمحافظةِ عليها وأدائها من غير إخلال بشيء من حقوقها، وعبَّر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السماوات وغيرها من حيث الخصوصيات بالعرض عليهنَّ لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبةِ في قبولهنَّ لها، وعن عدم استعدادهنَّ لقبولها ومنافاتها لِمَا هنَّ عليه بالإباء والإشفاق منها لتهويلِ أمرها وتربية فخامتها، وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة، والمعنى أنَّ تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلِّفت هاتيك الأجرامُ العظام التي هي مَثَلٌ في القوة والشدَّة مراعاتَها، وكانت ذاتَ شعورٍ وإدراك، لأَبَيْنَ قبولَها وخِفْنَ منها، لكن صرف الكلام عن سَنَنه بتصوير المفروض بصورة المحقَّق لزيادةِ تحقيق المعنى المقصود وتوضيحه.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: هـذا الـجـنـسُ، نـحـو: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:٦] و: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق:٦] وحَمْلُه إياها إمَّا باعتبارها بالإضافة إلى استعداده، أو بتكليفه إياها يومَ الميثاق، أي: تكلُّفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة، وهو إما عبارةٌ عن قبولها بموجب استعداده الفطريِّ، أو عن القبول القوليِّ يوم الميثاق.

وتخصيص الإنسان بالذكر مع أنَّ الجنَّ مكلَّفون أيضاً، وكذا الملائكةُ عليهم السلام وإن لم يكن في ذلك كلفةٌ عليهم لِمَا أنه ليس فيه ما يخالفُ طباعهم، لأنَّ الكلام معه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ اعتراضٌ وسِّط بين الحمل وغايتِه؛ للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما تحمَّل، والتأكيد لمظِنَّةِ التردُّد، أي: إنه كان مُفْرِطاً في الظلم مبالغاً في الجهل، أي: بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو قبولِهم السابق، دون مَن عَدَاهم من الذين لم يبدِّلوا فطرةَ الله تعالى تبديلاً، ويكفي في صدق الحكم على الجنس بشيءٍ وجودُه في بعض أفراده، فضلاً عن وجوده في غالبها.

وإلى الفريق الأول أشير بقوله تعالى:

﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: حملها الإنسان ليعذِّبَ الله تعالى بعضَ أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة، على أنَّ اللام للعاقبة فإنَّ التعذيب وإن لم يكن غرضاً من الحمل لكنْ لمَّا ترتَّب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده تَرتُّبَ الأغراض على الأفعال المعلَّقة بها أُبرز في معرض الغرض، أي: كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذِّب الله تعالى هؤلاء من أفراده؛ لخيانتهم الأمانة وخروجِهم عن الطاعة بالكلِّية.

وإلى الفريق الثاني أُشيرَ بقوله سبحانه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراده، أي: يقبل توبتهم لعدم خَلْعِهم ربقةَ الطاعة عن رقابهم بالمرة، وتلافيهم لِمَا فرط منهم من فرطاتٍ قلَّما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلَّته، وتداركِهم لها بالتوبة والإنابة.

والالتفاتُ إلى الاسم الجليل أولاً لتهويل الخطب وتربيةِ المهابة، والإظهارُ في موضع الإضمار ثانياً لإبراز مزيدِ الاعتناء بأمر المؤمنين توفيةً لكلٍّ من مقامي الوعيد والوعد حقَّه، كذا قال بعضُ الأجلَّة[1] في تفسير الآية.

ووراء ذلك أقوال؛ فقيل: «الأمانة»: الطاعة لأنها لازمةُ الوجود كما أنَّ الأمانة لازمةُ الأداء، والكلامُ تقريرُ الوعد الكريم الذي ينبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ بجعل تعظيم شأن الطاعة ذريعةً إلى ذلك، بأنَّ مَن قام بحقوقِ مثلِ هذا الأمرِ العظيمِ الشأنِ وراعاه فهو جديرٌ بأنْ يفوز بخير الدارين.

وتعقِّب بأنَّ جعْلَ الأمانة التي شأنُها أن تكون من جهته تعالى عبارةً عن الطاعة التي هي من أفعال المكلَّفين التابعةِ للتكليف بمعزلٍ عن التقريب، وأنَّ حَمْلَ الكلام على التقرير بالوجه الذي قرِّر يأباه وصفُ الإنسان بالظلم والجهل أولاً، وتعليلُ الحمل بتعذيب فريقٍ والتوبةِ على فريق ثانياً.

وقد يقال: مراد ذلك القائل أنَّ الأمانة هي الطاعة من حيث أمرُه عز وجل بها، وأن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ إلخ على معنى: إنه كان كذلك إنْ لم يُراعِ حقَّها، فتأمل.

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٧/١١٨-١١٩.

وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس أنَّ الأمانة الفرائض[١]. ورَوَى نحوه عن سعيد بن جبير[٢]. وهو غيرُ ما ذكر أوَّلاً، بناءً على أنَّ التكليفات الشرعيةَ مرادٌ بها المعنى المصدريُّ دون اسم المفعول.

وقيل: الصلاة، فقد روي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه كان إذا دخل وقتُ الصلاة اصفرَّ وجهه الشريف وتغيَّر لونه، فسئل عن ذلك فقال: إنه دخل عليَّ وقتُ أمانةٍ عَرَضَها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال فأَبَيْنَ أن يَحمِلْنَها وأشفَقْنَ منها وقد حملتُها أنا مع ضعفي، فلا أدري كيف أؤديها[٣].

وحكى السفيري أنها الغسل من الجنابة[٤].

وقيل: الصلاةُ والصيامُ والغُسْلُ من الجنابة، فقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «الأمانةُ ثلاثٌ: الصلاةُ، والصيامُ، والغسل من الجنابة»[٥].

وفي روايةٍ عن السدِّي والضحاك: أنها أمانات الناس المعروفةُ، والوفاءُ بالعهود.

وقيل: هي أن لا تغشَّ مؤمناً ولا معاهَداً في شيءٍ قليلٍ ولا كثيرٍ.

وقيل: هي كلمةُ التوحيد؛ لأنها المدارُ الأعظم للتكليفات الشرعية.

وقيل: هي الأعضاء والقُوَى، فقد أخرج ابن أبي الدنيا في «الورع»، والحكيم الترمذيُّ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فَرْجَه ثم قال: هذه أمانتي عندك فلا تضعها إلا في حقِّها، فالفرجُ أمانةٌ والسمعُ أمانةٌ والبصر أمانة[٦].

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ١٩٧، وأخرجه أيضاً ابن الأنباري في الأضداد ص٣٨٩-٣٩٠.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ١٩٧.

(٣) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين ص٨٠، والغزالي في الإحياء ١/ ١٥١.

(٤) أخرجه أبو داود إثر الحديث (٤٢٩)، والطبري ١٩/ ٢٠٠ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قوله.

(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٢٥-٢٢٦، وهو في تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٢٥.

(٦) الدر المنثور ٥/ ٢٢٦، وهو في نوادر الأصول ص٢٩٦، ومكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (٢٧٥).

ولا يخفى أنَّ تفسير الأمانة في الآية بالأعضاء مما لا ينبغي أن يُلتفت إليه، والخبر المذكورُ إن صحَّ لا يدلُّ عليه. ومثلُه بل دونه بكثيرٍ أنها حروف التهجِّي، ولا يكاد يقول به إلا أطفال المكاتب.

وأقرب الأقوال المذكورة للقبول القولُ بأنها الفرائض، أي: مِن فعلٍ وتركٍ، وتخصيصُ شيء منها بالذكر في خبرٍ إنْ صحَّ لا يدلُّ على أنه الأمانة في الآية لا غيره، وكم يُخصُّ بعض أفراد العامِّ بالذكر لنكتةٍ.

وقال أبو حيان: الظاهرُ أنها كلُّ ما يؤتمنُ عليه مِن أمرٍ ونهيٍ وشأنِ دينٍ ودنيا[١]. ويعمُّ هذا المعنى جميعَ ما تقدَّم. وفيها أقوالٌ أُخر ستأتي إن شاء الله تعالى.

واختلفت كلمات الذاهبين إلى أنها الفرائض في تحقيق ما بعدُ؛ فقيل: الكلام على حذف مضافٍ، والتقدير: إنَّا عرضنا الأمانةَ على أهل السماوات.. إلخ. وحُكي ذلك عن الجبائيِّ، وليس بشيء.

وقيل: الكلام على ظاهره، وكذا العَرْضُ والإباء، وذلك أنه عز وجل خلق للسماوات والأرض والجبال فهماً وتمييزاً، فخيِّرت في الحمل فأبتْ، ورُوي ذلك عن ابن عباس.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن ابن جريج قال: بلغني أنَّ الله تعالى لمَّا خلق السماوات والأرضَ والجبالَ قال: إني فارضٌ فريضةً وخالقٌ جنةً وناراً، وثواباً لمن أطاعني، وعقاباً لمن عصاني. فقالت السماوات: خلقتني فسخَّرْتَ فيَّ الشمسَ والقمر والنجومَ والسحابَ والريحَ، فأنا مسخَّرةٌ على ما خلقتني لا أتحمَّلُ فريضةً، ولا أبغي ثواباً ولا عقاباً. ونحوَ ذلك قالت الأرضُ والجبال[٢].

ويُعلم مما ذُكر أنَّ الإباء لم يكن معصيةً؛ لأنه لم يكن هناك تكليفٌ بل تخييرٌ، وأما كونُها استحقرتْ أنفسها عن أن تكون محلَّ الأمانة فلا ينفي عنهنَّ العصيان بالإباء لو كان هناك تكليفٌ بالحمل.

---

(١) البحر ٧/ ٢٥٣، بزيادة: والشرع كله أمانة، وهو قول الجمهور.
(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٢٥، وهو في الأضداد لابن الأنباري ص٣٩٠.

وقيل: لا حذف، والكلام من باب التمثيل على ما سمعتَ أولاً.

وذهب كثيرٌ إلى أنَّ المراد بحملها التزامُ القيام بها، وبالإنسان آدمُ عليه السلام، واختُلف في حمله إياها: هل كان بعد عَرْضِها عليه أو بدونه؟

فقيل: كان بعد العرض؛ فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم [عن أبي حازم قال:] إنَّ الله تعالى عرض الأمانة على السماء الدنيا فأبت، ثم التي تليها فأبت، حتى فرغ منها، ثم الأرضين، ثم الجبال، ثم عَرَضَها على آدم عليه السلام، فقال: نعم بين أذني وعاتقي، الخبر(١).

وقيل: بدونه؛ قال ابن الجوزي: لمَّا خلق الله عز وجل آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح مثِّلت له الأمانة بصخرةٍ، ثم قال للسماوات: احملي هذه. فأبت وقالت: إلهي لا طاقة لي بها. وقال سبحانه للأرض: احمليها. فقالت: لا طاقة لي بها. وقال تعالى للجبال: احمليها. فقالت: لا طاقة لي بها. فأقبل آدم عليه السلام فحرَّكها بيده وقال: لو شئتَ لحملتُها. فحملها حتى بلغت حقويه، ثم وضعها على عاتقه، فلمَّا أهوى ليضعها نودي من جانب العزِّ: يا آدم مكانك لا تضعها فهذه الأمانة قد بقيت في عنقك وعنق أولادك إلى يوم القيامة، ولكم عليها ثوابٌ في حملها وعقابٌ في تركها(٢). وهذا ظاهرٌ في أنَّ الحمل على حقيقته، وفي أنَّ العرض على السماوات والأرض والجبال كان بمسمعٍ من آدم عليه السلام، وإلى هذا ذهب ابن الأنباري.

وفي بعض الآثار ما يدلُّ على أنَّ العرض عليهنَّ قبل خلقه عليه السلام؛ أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: لمَّا خلق الله تعالى السماوات والأرض عرض عليهنَّ الأمانة فلم يقبلنها، فلما خلق آدم عليه السلام عرضها عليه فقال: يا ربِّ وما هي؟ قال سبحانه: هي إن أحسنتَ أجرْتُكَ وإن أسأت عذَّبتك. قال: فقد

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٥، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٢٠٢، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) لم نقف عليه عند ابن الجوزي، وأخرجه النقاش كما في تفسير البغوي ٣/ ٥٤٧، والحكيم الترمذي كما في تفسير القرطبي ١٧/ ٢٤٩-٢٥٠ عن ابن مسعود ﷺ موقوفاً، وفي إسناده السري بن إسماعيل، وهو متروك كما ذكر الحافظ في التقريب.

تحمَّلت يا ربّ. فما كان بين أن تحمَّلها إلى أن أُخرج إلا قَدْرُ ما بين الظهر والعصر[١].

وكأني بك تختار من هذه الأقوال أنَّ العرض على تقديرِ كونه بعد إعطاء الفهم والتميز كان بمسمعٍ من آدم عليه السلام، وأنه بعد أن سمع الإباء حملته الغيرةُ على الحمل، وربما يفضي بك هذا إلى اختيار القول بأنه حمل الأمانة بدون عرضها عليه كما هو ظاهر الآية، وبه يتأكَّد وَصْفُه بما وُصِفَ، لكنِّي لا أظنك تقول بصحة حديثِ تمثُّلِ الأمانة بصخرةٍ وإن قلتَ بصحة تمثُّلِ المعاني بصور الأجسام كما ورد في حديث ذبح الموت وغيره.

وأنا لا أميلُ إلى القول بأنَّ المراد بالإنسان آدمُ عليه السلام وإن كان أولَ أفراد الجنس ومبدأ سلسلتها؛ لمكانِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾؛ فإنه يَبْعدُ غايةَ البعد وصف صفيِّ الله عز وجل بنصِّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٣٣] بمزيد الظلم والجهل. وكونُ المعنى: كان ظلوماً جهولاً بزعم الملائكة عليهم السلام، قولٌ بارد. وحَملُه على معنى: كان ظلوماً لنفسه حيث حَمَّلها على ضَعْفِه ما أبت الأجسامُ القوية حَمْلَه، جهولاً بقَدْرِ ما دخل فيه أو بعاقبةِ ما تحمَّل، لا يُزيل البعدَ.

ولا أستحسنُ كونَ المراد: كان من شأنه لو خُلِّي ونفسَه ذلك، كما قيل:

والظلمُ من شيم النفوس فإن تجد ذا عفَّةٍ فلعلَّةٍ لا يَظْلِمُ[٢]

إلَّا على القول بإرادة الجنس. وإخراجُ الكلام مخرج الاستخدام على نحوِ ما قالوا في: عندي درهم ونصفُه، بعيدٌ لفظاً ومعنًى.

وقيل: المراد بالأمانة مطلقُ الانقياد الشاملُ للطبيعيِّ والاختياري، وبعَرْضِها استدعاؤه الذي يعمُّ طلب الفعل من المختار وإرادةَ صدوره من غيره، وبحملها الخيانةُ فيها والامتناعُ عن أدائها، ومنه قولُهم: حامل الأمانة ومحتملُها، لمن لا يؤديها فتبرأ ذمَّتُه، وأنشدوا:

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٥، وأخرجه أيضاً الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٨٥، وروي نحوه عن ابن عباس، أخرجه الطبري ١٩/ ١٩٧، وابن الأنباري في الأضداد ص٣٨٨-٣٨٩.

(٢) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٤/ ٢٥٣، وسلف ١٢/ ١٧١.

إذا أنت لم تبرح تؤدّي أمانةً وتحملُ أخرى أخرجتك الودائعُ[(١)]

فيكون الإباء امتناعاً من الخيانة وإتياناً بالمراد، فالمعنى: إنَّ هذه الأجرامَ مع عظمها وقوَّتها أبيْنَ الخيانة لأمانتنا، وأتين بما أمرناهنَّ به لقوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وخانها الإنسان حيث لم يأت بما أمرناه به، إنه كان ظلوماً جهولاً. ولا يخفى بعدُه، ولم نَرَ في المأثور ما يؤيِّده.

نعم إنَّ العوامَّ يقولون: إنَّ الأرض لا تخونُ الأمانة، حتى إنهم جرت عادتُهم في بلادنا أنهم إذا أرادوا دَفْنَ ميتٍ في مكانٍ ولم يتيسَّر لهم وضعوه في قبرٍ وقالوا حين الوضع مخاطبين الأرض: هذا أمانةٌ عندك كذا شهراً، أو كذا سنةً، وحَثَوا التراب عليه وانصرفوا، فإذا نبشوا القبر قبل مضيِّ المدة وجدوه كما وضعوه لم يتغيَّر منه شيءٌ، فيخرجونه ويدفنونه حيث أرادوا، وإذا بقي حتى تمضي المدة التي عيَّنوها وجدوه متغيِّراً، وهذا أمرٌ تواتَرَ نقلُه لنا، وهو ممَّا يستبعده العقل، وإلى نحو هذا ذهب أبو إسحاق الزجَّاج[(٢)]، إلا أنه قال: عَرْضُ الأمانة: وَضْعُ شواهد الوحدانية في المصنوعات، ونقله عنه أبو حيان[(٣)]، وذكر البيت المارَّ آنفاً، لكنه تعقَّبه بأنَّ الحمل فيه ليس نصًّا في الخيانة[(٤)].

وقيل: المراد بالأمانة العقلُ أو التكليف، وبعرضها عليهنَّ اعتبارُها بالإضافة إلى استعدادهنَّ، وبإبائهنَّ الإباءُ الطبيعيُّ الذي هو عدمُ اللياقة والاستعداد لها،

---

(١) البيت لبيهس العذري كما في المؤتلف والمختلف للآمدي ص٨٦، واللسان (فرح)، ودون نسبة في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٠٢، والعين ٣/ ٢١٣، والأضداد لابن الأنباري ص١٩٧، والصحاح (فرح)، والبحر ٧/ ٢٥٤، واللسان (حمل)، وجاء في جميع هذه المصادر عدا البحر: أفرحتك، بدل: أخرجتك. ومعنى أفرحتك: أثقلتك. قال صاحب اللسان: أراد بقوله: تحمل أخرى، أي: تخونها ولا تؤديها، يدل على ذلك قوله: أفرحتك الودائع، أي: أثقلتك الأمانات التي تخونها.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٢٣٨، وفيه: كلُّ مَن خان الأمانة فقد احتملها، فالسماوات والأرض والجبال أبَيْنَ أن يحملن الأمانة وأدينها، وأداؤها طاعة الله فيما أمر به والعملُ به وتركُ المعصية.

(٣) كذا ذكر المصنف، والصواب أن أبا حيان في البحر ٧/ ٢٥٤ قد نقل ذلك عن ابن إسحاق، وليس عن أبي إسحاق.

(٤) البحر ٧/ ٢٥٤.

وبحمل الإنسان قابليتُه واستعدادُه لها، وكونه ظلوماً جهولاً لِمَا غلب عليه من القوَّة الغَضَبيةِ الداعيةِ للظلم، والشَّهْوِيَّةِ الداعيةِ للجهل بعواقب الأمور. قيل: وعليه ينتظمُ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ مع ما قبله على أنه علَّته باعتبارِ حمل العقل عليه بمعنى إيداعه فيه لأجل إصلاح ما فيه من القوَّتين المحتاجتين إلى سلطان العقل الحاكم عليهما، فكأنه قيل: حَمَّلناه ذلك لِمَا فيه من القوى المحتاجة لقَهْرِه وضبطه. وكذا إذا أريد التكليفُ؛ فإنَّ معظم المقصود منه تعديلُ تلك القوى، وكَسْرُ سَوْرَتها، ومن هنا قيل: إنه أقربُ للتحقيق.

وقيل: الأمانة تجلِّياتُه عزَّ وجلَّ بأسمائه الحسنى وصفاتِه تعالى العليا، وعرضُها عليهنَّ وإباؤهن وحملُ الإنسان كالمذكور آنفاً، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ تعليلٌ للحمل مشارٌ به إلى قوة استعداده، وقوله سبحانه: ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ تعليلٌ للعَرْضِ على معنى: عرضنا ذلك لتَظْهَر تجلِّياتُنا الجلاليةُ والجمالية.

ويشير إلى هذا قولُ العلَّامة الطيبيِّ عليه الرحمة: إنَّ الله تعالى خَلَقَ الخَلْقَ ليكون مظاهر أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فحاملُ معنى الكبرياءِ والعظمة السماواتُ والأرض والجبال من حيث كونُها عاجزةً عن حمل سائر الصفات لعدم استعدادها لقبولها، ولذلك أَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان لقوة استعداده واقتداره لكونه ظلوماً جهولاً، فاختُصَّ لذلك من بين سائر المخلوقات بقبول تجلِّي القهَّارية والتوابيَّة والمغفرة، وشاركها بقبول تجلِّي الرحمة وله النصيبُ الأوفر منها لقوة استعداده واقتداره[1]. وهو مشرب صوفي كما لا يخفى.

وأنا أختار كونَ الأمانة كلَّ ما يؤتَمنُ عليه ويُطْلَبُ حفظُه ورعايته، ولها أفرادٌ كثيرة متفاوتةٌ في جلالة القَدْرِ، وأنَّ عَرْضَها على تلك الأجرام كان على وجه التخيير لهنَّ في حملها لا الإلزام، وأنهنَّ خوطبن في ذلك وعَقَلْنَ الخطابَ، واللهُ عز وجل قادرٌ على أن يخلق في كلِّ ذرَّةٍ من ذرَّاتِ الكائنات الحياةَ والعلمَ كما خلقهما سبحانه في ذوي الألباب، بل ذهب الفلاسفةُ إلى القول بثبوت النفوس والحركة الإرادية للأفلاك، بل قال بعضهم نحوَ ذلك في الكواكب، وأثبت الحركة

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

الإرادية، ونفى القواسِرَ هناك، وأنَّ المراد بالإنسان الجنسُ، وأنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ في موضع التعليل للحمل.

ووصف الجنس بصيغتي المبالغة لكثرة الأفراد المتَّصفة بالظلم والجهل منه، وإن لم يكونا فيها على وجه المبالغة، بل لا يخلو فردٌ من الأفراد عن الاتِّصاف بظلم ما وجهلٍ ما، ولا يجب في وصف الجنس بصيغة المبالغة تحقُّقُ تلك الصفة في الأفراد كلًّا أو بعضاً على وجه المبالغة، نعم إنْ تحقَّقَ ذلك فهو زيادةُ خير، كما فيما نحن فيه؛ فإنَّ أكثر أفراد الإنسان في غاية الظلم ونهاية الجهل. ولعل المراد بظلوم جهول: من شأنه الظلمُ والجهلُ. وأنَّ قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ إلخ متعلِّقٌ بـ «عَرَضْنا» على أنه تعليلٌ له.

وفي الكلام التفاتٌ لا يخفى، وتقديمُ التعذيب لأنه أوفقُ بصفتي الظلم والجهل. وقيل: لأنَّ الأمانة من حُكْمِها اللازمِ أنَّ خائنها يضمَّنُ، وليس من حكمها أنَّ حافظها يؤجَرُ.

ومقابلةُ التعذيب بالتوبة دون الإثابةِ أو الرحمةِ للإشارة إلى أنَّ في المؤمنين والمؤمنات مَن يَصْدُر منه ما يصحُّ أن يعذَّبَ عليه ومع ذلك لا يعذَّب، وفيه إشعارٌ بأنه لا يعذِّب على كلِّ ظلمٍ وجهلٍ، وفي هذا من إدخال السرور على المؤمنين والكآبة على أضدادهم ما فيه. وأيضاً أن ذلك أوفقُ بظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

وقيل: لم يعبّر[1] بالإثابة لأنها عُلمت من قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فعبّر بما ذكر للتنبيه على أنَّ ذلك بمحض الفضل. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ ذاك لأنَّ التذييل متكفِّلٌ بإفادة رحمتهم وإثابتهم.

وقرأ الحسن كما ذكر صاحب «اللوامح»: «ويتوبُ» بالرفع على الاستئناف[2].

---

(١) في (م): يعتبر.

(٢) البحر ٧/ ٢٥٥، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١، وأبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٤ عن الأعمش.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: مبالغاً في المغفرة والرحمة، حيث تاب على المؤمنين والمؤمنات، وغفر لهم فرطاتهم، وأثابهم بالفوز العظيم على طاعاتهم، نسأل الله تعالى أن يتوب علينا ويغفرَ لنا ويثيبنا بالفوز العظيم، إنه جلَّ جلاله وعمَّ نوالُه غفورٌ رحيم.

❋ ❋ ❋

ومن باب الإشارة في آيات من هذه السورة الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى عظم شأن التقوى، وكذا شأنُ كلِّ أمرٍ ونهيٍ يتعلَّقان به عليه الصلاة والسلام، وفيه أيضاً إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي محبةُ أعداء الله عز وجل حيث نهى عن طاعتهم، وهما كالمتلازمين.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ لأنَّ موقعه في البدن موقعَ الرئيس في المملكة، والحكمةُ تقتضي وحدةَ الرئيس، وفي الخبر: «إذا بويع خليفتان فاقتلوا أحدهما»(١).

وقيل: إن ذاك لتُشْعِرَ وحدتُه في بدن الإنسان الذي هو العالَمُ الأصغر المنطوي فيه العالمُ الأكبر بوحدة الله سبحانه في الوجود، وينبغي أن يُعلم أن للقلب عندهم كما قال الصدر القونويُّ إطلاقين:

الأول: إطلاقُه على اللحم الصنوبريِّ الشكلِ المعروفِ عند الخاصَّة والعامة.

والثاني: إطلاقُه على الحقيقة الجامعة بين الأوصاف والشؤون الربانية، وبين الخصائص والأحوال الكونية، الروحانيةِ منها والطبيعيةِ، وهي تنشأ من بين الهيئة الاجتماعية الواقعة بين الصفات والحقائق الإلهية والكونية، وما يشتمل عليه هذان الأصلان من الأخلاق والصفات اللازمة، وما يتولَّد من بينهما بعد الارتياض والتزكية، وظهورُ ذلك مما ذكر ظهور السواد بين العَفْص والزاج والماء، وهذا هو القلبُ الذي أخبر عنه الحقُّ على لسان نبيِّه ﷺ بقوله سبحانه: «ما وسعني أرضي

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بلفظ: «... فاقتلوا الآخرَ منهما».

ولا سمائي ووسعني قلبُ عبدي المؤمن التقيّ النقيّ الوادع»(١)، وهو محلُّ نظر الحقِّ، ومنصَّةُ تجلِّيه، ومهبطُ أمره، ومنزلُ تدلِّيه. واللحمُ الصنوبريُّ أحقر من حيث صورتُه أن يكون محلَّ سرِّه جلَّ وعلا، فضلاً عن أن يسعه سبحانه ويكونَ مطمح نظره الأعلى ومستواه.

وادَّعَوا أنَّ تسمية ذلك الصنوبريِّ الشكل بالقلب على سبيل المجاز باعتبار تسمية الصفة والحامل باسم الموصوف والمحمول.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ﴾ فيه أنَّ الحقائق لا تنقلب، وأنَّ في القرابة النَّسَبية خواصُّ لا تكون في القرابة السببية، فأين الأزواج من الأمهات، والأدعياءُ من الأبناء؟ فالأمَّهات أصولٌ ولا كذلك الأزواج، والأبناءُ فروعٌ ولا كذلك الأدعياء، ومن هنا قيل: الولد سرُّ أبيه، وقد أورده الشمس الفناري في «مصباح الأنس»(٢) حديثاً بصيغة الجزم من غير عزوٍ ولا سندٍ، ولا يصحُّ ذلك عند المحدِّثين(٣). وهو إشارة إلى الأوصاف والأخلاق والكمالات التي يحصِّلها الولد بالسراية من والده لا بواسطة توجُّه القلب إلى حضرة الغيب الإلهي وعالَمِ المعاني، فإنه باعتبارِ ذلك قد تحصل للولد أوصافٌ وأخلاقٌ على خلاف حال والده، ومنه يظهر سرُّ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الروم: ١٩].

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ للدِّين نوعاً من الأبوَّة، ولهذا قد يقع به التوارُثُ.

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام يحبُّ لهم فوق ما يحبُّون لها، ويسلك بهم المسلك الذي يوصلهم إلى الحياة الأبدية.

---

(١) حديث موضوع كما قال ابن تيمية. المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للملا علي القاري ص١٦٤.

(٢) مصباح الأنس بين المعقول والمشهود في شرح مفتاح غيب الجمع والوجود، لشمس الدين محمد بن حمزة الفناري، المتوفَّى سنة (٨٣٤هـ)، شَرَح فيه مفتاح الغيب في التصوف لصدر الدين محمد بن إسحاق القونوي، المتوفى سنة (٦٧٣هـ). كشف الظنون ٢/ ١٧٦٨.

(٣) حديث: الولد سر أبيه، ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة ص٤٥٣ وقال: لا أصل له.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي: في الأزل إذ كانوا أعياناً ثابتةً، أو يوم الميثاق إذ صار لهم نوعُ تعيُّنٍ.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ سؤالَ تشريفٍ لا تعنيفٍ، والصدق على ما قالوا: أن لا يكون في أحوالك شوبٌ، ولا في أعمالك عيبٌ، ولا في اعتقادك رَيْبٌ. ومن أماراته وجود الإخلاص من غير ملاحظةِ المخلوق، وتصفيةُ الأحوال من غير مداخلةِ إعجابٍ، وسلامةُ القول من المعاريض، والتباعُدُ عن التلبيس فيما بين الناس، وإدامةُ التبرِّي من الحول والقوة، بل الخروجُ من الوجود المجازيِّ شوقاً إلى الوجود الحقيقيّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ إلخ طبَّق بعضُهم ما تضمَّنته الآيات من قصة الأحزاب على ما في الأنفس، ولا يخفى حالُه، ومن غريب ما رأيتُ أنَّ الشيخ محيي الدين قدَّس الله سره قسَّم الأولياء إلى أقسام، وجَعَلَ منهم قسماً يقال لهم: اليثربيون، وقال: هم قومٌ من الأولياء لا مقام لهم كما لسائر الأولياء، وجَعَلَ قول المنافقين: «يا أهل يثرب لا مقام لكم» إشارةً إلى ذلك، وكم قولٍ غريب لهذا الشيخ غفر الله تعالى له.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام أكملُ الخلق على الإطلاق، وأحظى الناسِ بإشراق أنوار أخلاقه عليه الذين[1] يرجون الله تعالى واليوم الآخر ويذكرونه عز وجل كثيراً لصقالة قلوبهم وقوةِ استعدادها لإشراق الأنوار وظهور الآثار.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ أي: رجال كاملون. وقولُ بعضهم: أي: متصرِّفون في الموجودات تصرُّفَ الذكور في الإناث. كلامٌ بشعٌ تنقبض منه ـ ككثيرٍ من كلام المتصوِّفة ـ قلوبُ المقتفين للسلف الصالح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى أنَّ حبَّ الدنيا وزينتها يكون سبباً لمفارقة

---

(١) قوله: الذين، هو خبر قوله: وأحظى...

رسول الله ﷺ والبعدِ عن حضرته الشريفة، وأنَّ محبته عليه الصلاة والسلام تكونُ سبباً للأجر العظيم.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى تفاوُتِ قبح المعاصي وحُسْنِ الطاعات باعتبارِ الأشخاص، ومثلُ ذلك تفاوتُها باعتبار الأماكن والأزمان.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ إشارةٌ إلى مقام التسليم وأنه اللائقُ بالمؤمنين، وهذا حكمٌ مستمرٌّ على الأمة إلى يوم القيامة، فلا ينبغي لأحدٍ بلغه شيءٌ عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ أن يختار لنفسه خلافَه؛ لإشعارِ ذلك باتِّهام الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

ولعل الإشارة في الآيات بعدُ ظاهرةٌ لمن له أدنى التفاتٍ، بيد أنهم أطالوا الكلام في الأمانة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ الآيةَ، فلنذكر بعضاً من ذلك فنقول:

قال الشيخ محيي الدين قدِّس سرُّه في «بُلْغة الغوَّاص»: إنَّ الأمانة التي عُرِضت على السماوات والأرض فأبيْنَ أن يحملنها هي السعةُ لمعرفة الله تعالى، فلم يوجد في السماوات والأرض قبولٌ لِمَا قَبِلَه الإنسان بهذا التأليف الصوريِّ، إذ هو ثمرةُ العالَم، فهو يرى نفسه في العالم ويرى ربَّه سبحانه بالعالم الذي هو نفسه من حيث هو كلُّ العالم، فلذلك اتَّسع لِمَا لم يَسَعْه العالَمُ، ولذلك خصَّه سبحانه بالسعة حيث أخبر جل شأنه أنه لم يَسَعْه سماواتُه ولا أرضه ووسعه قلبُ المؤمن من نوع الإنسان. انتهى.

وكأنه أراد بكونه وَسِعَ الحقَّ سبحانه كونَه مظهراً جامعاً للأسماء والصفات على وجهٍ لا ينافي تنزيهَ الحقِّ جل جلاله، وهذا قريبٌ مما ذكرناه في التفسير وقلنا: إنه مشربٌ صوفيٌّ كما لا يخفى.

وقال آخر: هي عبارةٌ عن الفيض الإلهيِّ بلا واسطةٍ، وحملُه خاصٌّ بالإنسان لأنَّ نسبته مع المخلوقات كنسبة القلب مع الشخص، فالعالَمُ شخصٌ وقلبُه الإنسان، فكما أنَّ القلب حاملٌ للروح بلا واسطةٍ، وتسري منه بواسطة العروق والشرايين ونحوِها إلى سائر البدن، كذلك الإنسانُ حاملٌ للفيض الإلهي

بلا واسطةٍ، ويسري منه إلى ظاهر الكون وباطنه بواسطة ظاهره وباطنه من أعمال البدن والروح، فظاهرُ العالَم وباطنُه معموران بظاهر الإنسان وباطنه، وهذا سرُّ الخلافة. ومعنى كونه ظلوماً أنه ظالمٌ لنفسه حيث استعدَّ لأنْ يحمل أمراً عظيماً، وكونُه جهولاً أنه جاهلٌ بها حيث لم يعرف حقيقتَها، ولم يدرك منها سوى الصورةِ الحيوانية المتصفةِ بالصفات البهيمية من الأكل والشرب والنكاح، وهاتان الصفتان في حقِّ حاملي الأمانة ومؤدِّي حقِّها من حيث إنهما صارتا سبباً لحمل الأمانة صفتا مدحٍ، وفي حقِّ الخائنين صفتا ذمٍّ، والشيءُ قد يكون ذمًّا في حقِّ شخصٍ ومدحاً في حقٍّ آخر، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل، ومنه الاستمدادُ في فهم كلامه العزيز الجليل.

انتهى بعون الله تعالى الجزء الحادي والعشرون من روح المعاني

ويليه إن شاء الله الجزء الثاني والعشرون ويبدأ

بسورة سبأ

(٣٤) سُورَةُ سَبَإٍ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ

سورةً سبأ من السور المكية التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية وتتناول أصول الدين من إثبات الوحدانية ، وإثبات النبوة ، وتقرير الإيمان باليوم الآخر ، والبعث والنشور كسائر السور المكية . سميت سورةَ سبأ لأن قصتها تضمنتْ آيةً عظيمة وفيها أعظم العِبَر على قدرة الله جل وعلا في الانتقام ممن جحد بآياته وكذَّب رسله بتبديل النعمة بالنقمة ، والسراء بالضراء ، فإنَّ « سبأ » وهم ملوك اليمن وأهلُها كانوا في نعمةٍ وغبطة ، وهناءٍ وسرور في بلادهم وعَيْشهم ، وما أغدق الله عليهم من النِّعم في الأرزاق والزروع والثمار ، فقد كانت مساكنهم حدائق وجناتٍ ، فيها من جميع أنواع الفواكه والثمار ، والخُضْرة والنُضْرة ما يزيد النفس بهجة ، والقلبَ سروراً وحبوراً ، فلما كذَّبوا الرسل أهلكهم الله بإرسال السيل المدمِّر ، حتى تفرقوا وتشتتوا في البلاد شَذَر مَذَر وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه ﴿ لقد كانَ لِسَبأٍ في مَسْكِنِهِمْ آيةٌ ، جنَّتانِ عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم ، وبَدَّلْناهم بجنَّتَيْهِمْ جنَّتينِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهلْ نُجازي إلاّ الكَفور ﴾ ؟

تبتدىء السورة الكريمة بتمجيد الله جلَّ وعلا الذي أحكم شئون العالم ودبَّره بحكمته ، فهو الخالق المالك المتصرف الذي لا يغيبُ عن علمه

مثقالُ ذرةٍ في السمواتِ والأرض ، وهذا من أعظم البراهينِ على وحدانيةِ رب العالمين ﴿ الحمدُ للهِ الذي له ما في السمواتِ وما في الأرضِ ، وله الحمدُ في الآخرة ، وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يَلِجُ في الأرضِ ، وما يَخْرُجُ منها ، وما يَنْزِلُ من السماءِ وما يَعْرُجُ فيها ، وهو الرحيم الغفور﴾ . ثم تنتقل السورة إلى قضيةٍ هامة وهي إنكار المشركين للآخرة وتكذيبُهم بالبعث بعد المَوْت ، وتأمر الرسول ﷺ أن يُقسم بربه العظيم على وقوع المعاد بعد فناء الأجساد ، وهي إحدى آياتٍ ثلاث أُمِرَ صلواتُ الله عليه أن يُقْسم بجلال الله وعظمته عليها تأكيداً للخبر ، مع أنه عليه السلام الصادق المصدوق ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ، قل بَلى وربّي لتأتينَّكُمْ ، عالمِ الغَيْبِ لا يَعْزُب عنه - أي لا يغيبُ عن علمه - مثقالُ ذرةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ ، ولا أصغرُ من ذلكَ ولا أكبرُ إلا في كتابٍ مبين﴾ وتأكيداً لموضوع عقيدة البعث يذكر القرآنُ الكريم شبهةَ المشركين ويردُّ عليها بالحجة الدامغةَ ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجلٍ ينبئكم إذا مُزِّقْتم كلَّ مُمَزَّق إنكم لفي خلقٍ جديد ؟ أفْترى على الله كذباً أم به جِنَّةٌ ؟ بلِ الذينَ لا يؤمنونَ بالآخرةِ في العذابِ والضلالِ البعيد . أفلم يَرَوْا إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهم من السماء والأرضِ ، إنْ نَشأْ نَخْسِفْ بهم الأرضَ أو نُسْقطْ عليهم كِسَفاً من السماء ، إنَّ في ذلكَ لآيةً لكل عبدٍ منيب﴾ .

وتنتقل السورة للحديث عن أنبياء بني إسرائيل وتخصُّ بالذكر « داودَ » وولدَه « سليمانَ » عليهما السلام وما سخَّر الله لهما من أنواع النعم الجليلة ، كتسخير الريح لسليمانَ وتسخير الجنِّ له ليقوموا بالأعمال الشاقة التي يعجز عنها البشر ، وتُركِّز على ناحية « الأمور الغيبية » التي كانَ الاعتقادُ السائد أنَ الجنَّ يعلمونَها فتبطل ذلك الاعتقاد الفاسد ،

وتبيّن أن الغيب خاصٌ بالله جل وعلا وحده ﴿ ولسليمانَ الريحَ غُدوُّها شهرٌ وَرَوَاحُها شهرٌ ، وأَسَلْنـا له عَيْنَ القِطْر ، ومن الجنِّ من يعملُ بينَ يديهِ بإذنِ ربه ، ومَنْ يَزِغْ منهم عن أمرنا نُذِقْه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجفَانٍ كالجواب ِ وقدورٍ راسيات ، إعملوا آلَ داود شكراً ، وقليلٌ من عباديَ الشكور . فلمَّا قَضَيْنا عليهِ الموتَ مادلَّهم على موتِه إلا دابَّةُ الأرضِ تأكل مِنْسَأَتَه – أي عصاه التي كان يتوكأ عليها – فلما خرَّ تبيَّنتِ الجنُّ أَنْ لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين﴾ .

وتتحدث السورة عن المشركين وتقيم الأدلة والبراهين على أن الله تعالى هو الخالق الرازق لا تلك الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تستجيب لداعيها ﴿قل من يرزقكم من السمواتِ والأرض ؟ قل اللهُ ، وإنَّا أَوْ وإيَّاكم لَعَلَى هدىً أو في ضلالٍ مبين . قل لا تُسألون عمَّا أجرمنا ولا نُسأل عمّا تعملون . قل يجمع بيننا ربُّنا ثم يَفتَحُ بيننا بالحقِّ ، وهو الفتَّاحُ العليم . قل أَروني الذينَ ألحقتمْ به شركاء ؟ كلاّ بل هو الله العزيز الحكيم﴾ . وتتحدث السورة عن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فتثبتُ أنه مرسلٌ من عند الله إلى جميع الخلق ، وتردُّ على استهزائهم بالحشر والنشر بأنه آتٍ لا محالة ، وله وقت محدود لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناسِ بشيراً ونذيراً ، ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلمون . ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين؟ قل لكم ميعادُ يومٍ لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون﴾ .

ولمّا كان تكذيبهم برسالة محمد عليه السلام يستلزم تكذيبهم للقرآن العظيم المُنَزّل عليه ، ذكر تعالى قول المشركين الصريح الواضح في عدم الإيمان بهذا القرآن ولا بما أخبر عنه من أمور الحساب والجزاء والبعث

والنشور ، وذكر حالهم المفزع المخزي يوم الدين ﴿وقالَ الذينَ كفروا لن نؤمنَ بهذا القرآنِ ولا بالذي بين يديه ، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يَرْجعُ بعضُهم إلى بعضٍ القول ، يقول الذين استُضْعِفُوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنَّا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استُضعِفُوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ وتسليةً لرسول الله ﷺ عمَّا يلقاه من المشركين تذكر السورة تكذيب الأمم لرسلهم ، فليس محمدٌ أولَ رسولٍ يَلْقى مثلَ هذا الاستهزاء والتكذيب ، وتذكر كذلك سبب الطغيان الذي دفعهم إلى عدم الإيمان ، وهو اغترارهم بما منحهم الله من المال والبنين ، ظناً منهم أن كثرة المال دليلٌ على رضى الله عنهم وأنهم على حقٍّ ونورٍ وبصيرة ﴿وما أرسلنا في قريةٍ من نذيرٍ إلا قال مُترفوها إنّا بما أُرْسِلتُم به كافرون . وقالوا نحنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذَّبين . قل إنَّ ربي يبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلمون . وما أموالكمْ ولا أولادُكم بالتي تُقرِّبكم عندنا زلْفى ، إلا مَنْ آمنَ وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاءُ الضِعْفِ بما عَمِلوا وهم في الغُرُفاتِ آمنون﴾ .

وتختم السورة الكريمة بدعوة المشركين إلى الإيمان بالله الواحد القهار ، وإخلاصِ العبادة والتوجهِ له وحده ، وأن يتفكروا في شأن هذا الرسول الذي بُعث منهم ، وهم يعرفون سيرته وحياته ، وصدقه وأمانته ، فليس هو بمتَّهم وليس به مسٌّ منَ الجُنون ﴿قل إنما أعِظكم بواحدةٍ أن تقُوموا للهِ مَثْنى وفُرادَى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنَّة ، إنْ هو إلا نذيرٌ لكم بينَ يَدَيْ عذابٍ شديد . قل ما سألتكُمْ من أَجرٍ فهو لكم ، إنْ أجريَ إلاّ على الله وهو على كل شيء شهيد ... إلى نهاية السورة الكريمة ﴿وحيلَ بينهم وتبينَ ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قَبْلُ ، إنهم كانوا في شك مريب﴾

سورة سبأ

[٧٦٠] أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال: حدثني فلان أن فروة بن مسيك الغطفاني قدم على رسول الله [ﷺ] فقال يا نبي الله إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عز وإني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام أفأقاتلهم فقال: «**ما أمرت فيهم بشيء بعد**» فأنزلت هذه الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾(١) الآيات.

[٧٦١] وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سفيان عن عاصم عن ابن رزين قال: كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الشام وبقي الآخر فلما بعث النبي [ﷺ] كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه وكان يقرأ بعض الكتب فأتى النبي [ﷺ] فقال: إلام تدعو؟ فقال: «**إلى كذا وكذا**» فقال أشهد أنك رسول الله فقال: «**وما علمك بذلك**» قال إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم فنزلت هذه الآية؟ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾(٢) فأرسل إليه النبي [ﷺ] أن الله قد أنزل تصديق ما قلت.

* * *

---

[٧٦٠] (١) سورة سبأ: الآية (١٥).

[٧٦١] (٢) سورة سبأ: الآية (٣٤).

سورة سبأ

مكية وقيل فيها آية مدنية وهي ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، وهي أربع وقيل خمس وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ①﴾

السور المفتتحة بالحمد خمس سور سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف وسورتان في الأخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فإن الله تعالى خلقنا أولاً برحمته وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فإنه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم فلنا حالتان الابتداء والإعادة وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء فقال في النصف الأول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] إشارة إلى الإيجاد الأول وقال في السورة الثانية وهي الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ① قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢] إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء، فإن الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولو وقعت المنازعات في المشتبهات وأدى إلى التقاتل والتفاني، ثم قال في هذه السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وقال في الملائكة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلاً إلى يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وقال تعالى عنهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] إشارة إلى النعمة العاجلة وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] إشارة إلى النعمة الآجلة قرئت في الافتتاح وفي الاختتام.

ثم في الآية مسائل:

المسألة الأولى: الحمد شكر والشكر على النعمة والله تعالى جعل ما في السموات وما في

الأرض لنفسه بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يبين أنه لنا حتى يجب الشكر نقول جوابًا عنه: الحمد يفارق الشكر في معنى وهو أن الحمد أعم فيحمد من فيه صفات حميدة وإن لم ينعم على الحامد أصلاً، فإن الإنسان يحسن منه أن يقول في حق عالم لم يجتمع به أصلاً أنه عالم عامل بارع كامل فيقال له إنه يحمد فلانًا ولا يقال إنه يشكره إلا إذا ذكر نعمه أو ذكره على نعمه فالله تعالى محمود في الأزل لاتصافه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ومشكور ولا يزال على ما أبدى من الكرم وأسدى من النعم فلا يلزم ذكر النعمة للحمد بل يكفي ذكر العظمة وفي كونه مالك ما في السموات وما في الأرض عظمة كاملة فله الحمد على أنا نقول قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يوجب شكرًا أتم مما يوجبه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩] وذلك لأن ما في السموات والأرض إذا كان لله ونحن المنتفعون به لا هو، يوجب ذلك شكرًا لا يوجبه كون ذلك لنا.

المسألة الثانية: قد ذكرتم أن الحمد ههنا إشارة إلى النعمة التي في الآخرة، فلم ذكر الله السموات والأرض؟ فنقول: نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهي ما في السموات وما في الأرض، ثم قال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ إشارة إلى أن خلق هذه الأشياء بالحكمة والخير، والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها فيمكن منه إيجاد أمثال هذه مرة أخرى في الآخرة.

المسألة الثالثة: الحكمة هي العلم الذي يتصل به الفعل فإن من يعلم أمرًا ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له حكيم، فالفاعل الذي فعله على وفق العلم هو الحكيم، والخبير هو الذي يعلم عواقب الأمور وبواطنها فقوله: (حَكِيمٌ) أي في الابتداء يخلق كما ينبغي وخبير أي بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق وما لا يصدر إلى ماذا يكون مصير كل أحد فهو حكيم في الابتداء خبير في الانتهاء.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

ما يلج في الأرض من الحبة والأموات ويخرج منها من السنابل والأحياء وما ينزل من السماء من أنواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن، وما يعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة لقوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء، لأن الحبة تبذر أولاً ثم تسقى ثانيًا.

المسألة الثانية: قال ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ولم يقل: يعرج إليها، إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لأن كلمة إلى للغاية، فلو قال وما يعرج إليها، لفهم الوقوف عند السموات فقال: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ولهذا قال في الكلم الطيب: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[فاطر: ١٠] لأن الله هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول إليه، وأما السماء فهي دنيا وفوقها المنتهى.

المسألة الثالثة: قال: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ رحيم بالإنزال حيث ينزل الرزق من السماء، غفور عندما تعرج إليه الأرواح والأعمال فرحم أولاً بالإنزال وغفر ثانيًا عند العروج.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

ثم بين أن هذه النعمة التي يستحق الله بها الحمد وهي نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ ثم رد عليهم وقال: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

أخبر بإتيانها وأكده باليمين، قال الزمخشري رحمه الله: لو قال قائل كيف يصح التأكيد باليمين مع أنهم يقولون: لا رب، وإن كانوا يقولون به، لكن المسألة الأصولية لا تثبت باليمين وأجاب عنه بأنه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله: ﴿لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وبيان كونه دليلاً هو أن المسيء قد يبقى في الدنيا مدة مديدة في اللذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد يدوم في دار الدنيا في الآلام الشديدة مدة ويموت فيها، فلولا دار تكون الأجزية فيها لكان الأمر على خلاف الحكمة، والذي أقوله أنا هو أن الدليل المذكور في قوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أظهر، وذلك لأنه إذا كان عالمًا بجميع الأشياء يعلم أجزاء الأحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام، وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه لطيفة وهي أن الإنسان له جسم وروح والأجسام أجزاؤها في الأرض والأرواح في السماء فقوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ إشارة إلى علمه بالأرواح وقوله: ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى علمه بالأجسام، وإذا علم الأرواح والأشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد في المعاد. وقوله: ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ﴾ إشارة إلى أن ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب، وعلى هذا فلو قال قائل: فأي حاجة إلى ذكر الأكبر، فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد من أن يعلم الأكبر؟ فنقول: لما كان الله

تعالى أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر، لكونها محل النسيان، أما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته، فقال الإثبات في الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر أيضًا مكتوب فيه، ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر أن جمع ذلك وإثباته للجزاء فقال: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ذكر فيهم أمرين الإيمان والعمل الصالح، وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم، فالمغفرة جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور له ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقوله عليه السلام فيما أخبرنا به تاج الدين عيسى بن أحمد بن الحاكم البندهي قال: أخبرني والدي عن جدي عن محيي السنة عن عبد الواحد المليجي عن أحمد بن عبد الله النعيمي عن محمد بن يوسف الفربري عن محمد بن إسماعيل البخاري: «يَخرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ» والرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب فإن من عمل لسيد كريم عملاً، فعند فراغه من العمل لا بد من أن ينعم عليه إنعامًا ويطعمه طعامًا، ووصف الرزق بالكريم قد ذكرنا أنه بمعنى ذي كرم أو مكرم، أو لأنه يأتي من غير طلب بخلاف رزق الدنيا، فإنه ما لم يطلب ويتسبب فيه لا يأتي.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون لهم ذلك جزاء فيوصله إليهم لقوله: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وثانيهما: أن يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشيء آخر لأن قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم﴾ جملة تامة اسمية، وقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ جملة فعلية مستقلة، وهذا أبلغ في البشارة من قول القائل: ليجزي الذين آمنوا رزقًا.

المسألة الثانية: اللام في ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ للتعليل، معناه الآخرة للجزاء، فإن قال قائل: فما وجه المناسبة؟ فنقول: الله تعالى أراد أن لا ينقطع ثوابه فجعل للمكلف دارًا باقية ليكون ثوابه واصلاً إليه دائمًا أبدًا، وجعل قبلها دارًا فيها الآلام والأسقام وفيها الموت ليعلم المكلف مقدار ما يكون فيه في الآخرة إذا نسبه إلى ما قبلها وإذا نظر إليه في نفسه.

المسألة الثالثة: ميز الرزق بالوصف بقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ ولم يصف المغفرة واحدة هي للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقوم والحميم، ومنه الفواكه والشراب الطهور، فميز الرزق لحصول الانقسام فيه، ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾

لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي بالإبطال، ويكون معناه الذين كذبوا بآياتنا وحينئذٍ يكون هذا في مقابلة ما تقدم لأن قوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ معناه صدقوا وهذا معناه كذبوا فإن قيل: من أين علم كون سعيهم في الإبطال مع أن

المذكور مطلق السعي؟ فنقول: فهم من قوله تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ وذلك لأنه حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز وبالسعي في التقرير والتبليغ لا يكون الساعي معاجزًا لأن القرآن وآيات الله معجزة في نفسها لا حاجة لها إلى أحد، وأما المكذب فهو آت بإخفاء آيات بينات فيحتاج إلى السعي العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به، وقيل بأن المراد من قوله: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي ظانين أنهم يفوتون الله، وعلى هذا يكون كون الساعي ساعيًا بالباطل في غاية الظهور، و﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ في مقابلة (لهم رزق)، وفي الآية لطائف الأولى: قال ههنا: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل: يجزيهم الله، وقد تقدم القول منا أن قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يحتمل أن يكون الله يجزيهم بشيء آخر، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ إخبار عن مستحقهم المعد لهم، وعلى الجملة فاحتمال الزيادة هناك قائم نظرًا إلى قوله: ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ وههنا لم يقل: ليجازيهم، فلم يوجد ذلك، الثانية: قال هناك: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ثم زادهم فقال: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وههنا لم يقل إلا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، والجواب تقدم في مثله، الثالثة: قال هناك: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ولم يقلله بمن التبعيضية فلم يقل: لهم نصيب من رزق، ولا رزق من جنس كريم، وقال ههنا: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ بلفظة صالحة للتبعيض وكل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة إليها والرجز قيل أسوأ العذاب، وعلى هذا (من) لبيان الجنس كقول القائل: خاتم من فضة، وفي الأليم قراءتان الجر والرفع فالرفع على أن الأليم وصف العذاب كأنه قال: عذاب أليم من أسوأ العذاب، والجر على أنه وصف للرجز والرفع أقرب نظرًا إلى المعنى، والجر نظرًا إلى اللفظ، فإن قيل فلم تنحصر الأقسام في المؤمن الصالح عمله والمكذب الساعي المعجز لجواز أن يكون أحد مؤمنًا ليس له عمل صالح أو كافر متوقف، فنقول: إذا علم حال الفريقين المذكورين يعلم أن المؤمن قريب الدرجة ممن تقدم أمره والكافر قريب الدرجة ممن سبق ذكره وللمؤمن مغفرة ورزق كريم، وإن لم يكن في الكرامة مثل رزق الذي عمل صالحًا وللكافر غير المعاند عذاب وإن لم يكن من أسوأ الأنواع التي للمكذبين المعاندين. ثم قال تعالى:

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

لما بين حال من يسعى في التكذيب في الآخرة بين حاله في الدنيا وهو أن سعيه باطل فإن من أوتي علمًا لا يغتر بتكذيبه ويعلم أن ما أنزل إلى محمد ﷺ حق وصدق، وقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾

يفيد الحصر أي ليس الحق إلا ذلك، وأما قول المكذب فباطل، بخلاف ما إذا تنازع خصمان، والنزاع لفظي فيكون قول كل واحد حقًّا في المعنى، وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يحتمل أن يكون بيانًا لكونه هو الحق فإنه هاد إلى هذا الصراط، ويحتمل أن يكون بيانًا لفائدة أخرى، وهي أنه مع كونه حقًّا هاديًا والحق واجب القبول فكيف إذا كان فيه فائدة في الاستقبال وهي الوصول إلى الله، وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يفيد رغبة ورهبة، فإنه إذا كان عزيزًا يكون ذا انتقام ينتقم من الذي يسعى في التكذيب، وإذا كان حميدًا يشكر سعي من يصدق ويعمل صالحًا، فإن قيل: كيف قدم الصفة التي للهيبة على الصفة التي للرحمة مع أنك أبدًا تسعى في بيان تقديم جانب الرحمة؟ نقول: كونه عزيزًا تام الهيبة شديد الانتقام يقوي جانب الرغبة لأن رضا الجبار العزيز أعز وأكرم من رضا من لا يكون كذلك، فالعزة كما تخوف ترجى أيضًا، وكما ترغب عن التكذيب ترغب في التصديق ليحصل القرب من العزيز.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾

وجه الترتيب: هو أن الله تعالى لما بين أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم بقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣] وبين ما يكون بعد إتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح وجزاء الساعي في تكذيب الآيات بالتعذيب على السيئات، بين حال المؤمن والكافر بعد قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣] فقال: المؤمن هو الذي يقول الذي أنزل إليك الحق وهو يهدي، وقال: الكافر هو الذي يقول هو باطل، ومن غاية اعتقادهم وعنادهم في إبطال ذلك قالوا على سبيل التعجب: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهذا كقول القائل في الاستبعاد، جاء رجل يقول: إن الشمس تطلع من المغرب إلى غير ذلك من المحالات.

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

هذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون تمام قول الذين كفروا أولاً أعني هو من كلام من قال: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ كأن السامع لما سمع قول القائل: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ قال له: أهو يفتري على الله كذبًا؟ إن كان يعتقد خلافه،

أم به جنة [أيْ] جنون؟ إن كان لا يعتقد خلافه (وفي هذا لطيفة) : وهي أن الكافر لا يرضى بأن يظهر كذبه، ولهذا قسم ولم يجزم بأنه مفتر، بل قال: مفتر أو مجنون، احترازًا من أن يقول قائل: كيف يقول بأنه مفتر، مع أنه جائز أن يظن أن الحق ذلك؟ فظن الصدق يمنع تسمية القائل مفتريًا وكاذبًا في بعض المواضع، ألا ترى أن من يقول: جاء زيد، فإذا تبين أنه لم يجئ وقيل له: كذبت، يقول: ما كذبت، وإنما سمعت من فلان أنه جاء، فظننت أنه صادق فيدفع الكذب عن نفسه بالظن، فهم احترزوا عن تبين كذبهم، فكل عاقل ينبغي أن يحترز عن ظهور كذبه عند الناس، ولا يكون العاقل أدنى درجة من الكافر، ثم إنه تعالى أجابهم مرة أخرى وقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وقوله: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ وكلاهما مناسب. أما العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق مؤذية، لأنه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه إلى الكذب. وأما الجنون فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه في الإيذاء، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب، ولكن ينسبه إلى عدم الهداية فبين أنهم هم الضالون، ثم وصف ضلالهم بالبعد، لأن من يسمي المهتدي ضالاً يكون هو الضال، فمن يسمي الهادي ضالاً يكون أضل، والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادي كل مهتد.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾.

لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه جازيًا على السيئات والحسنات ذكر دليلاً آخر وذكر فيه تهديدًا. أما الدليل فقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فإنهما يدلان على الوحدانية كما بيناه مرارًا، وكما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾[لقمان: ٢٥] ويدلان على الحشر لأنهما يدلان على كمال قدرته ومنها الإعادة، وقد ذكرناه مرارًا، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾[يس: ٨١] وأما التهديد فبقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني نجعل عين نافعهم ضارهم بالخسف والكسف.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

أي لكل من يرجع إلى الله ويترك التعصب ثم إن الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده، ذكر منهم من أناب وأصاب ومن جملتهم داود كما قال تعالى عنه: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿مِنَّا﴾ إشارة إلى بيان فضيلة داود عليه السلام، وتقريره هو أن قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ﴾ مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل: آتي الملك زيدًا خلعة،

فإذا قال القائل: آتاه منه خلعة، يفيد أنه كان من خاص ما يكون له، فكذلك إيتاء الله الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١] فإن رحمة الله واسعة تصل إلى كل أحد في الدنيا لكن رحمته في الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ [التوبة: ٢١].

المسألة الثانية: في قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ قال الزمخشري: ﴿يَٰجِبَالُ﴾ بدل من قوله: ﴿فَضْلًا﴾ معناه آتيناه فضلاً قولنا: يا جبال، أو من آتينا ومعناه قلنا: يا جبال.

المسألة الثالثة: قرئ (أَوِّبِي) بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبي من الأوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع، وقيل بأن معناه: سيري معه، وفي قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ [ص: ١٨] قالوا: هو من السباحة وهي الحركة المخصوصة.

المسألة الرابعة: قرئ (وَالطَّيْرَ) بالنصب حملاً على محل المنادى والطير بالرفع حملاً على لفظه.

المسألة الخامسة: لم يكن الموافق له في التأويب منحصرًا في الجبال والطير ولكن ذكر الجبال، لأن الصخور للجمود والطير للنفور تستبعد منهما الموافقة، فإذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى، ثم إن من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التي هي أشد قسوة من الحجارة.

المسألة السادسة: قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ عطف، والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر في قوله ﴿يَٰجِبَالُ﴾ تقديره قلنا: يا جِبَال أوبي وألنا، ويحتمل أن يكون عطفًا على (آتينا) تقديره: آتيناه فضلاً وألنا له.

المسألة السابعة: ألان الله له الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذي يكتب به، فأي عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله، قيل: إنه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال فألان له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهي الدروع، وإنما اختار الله له ذلك، لأنه وقاية للروح التي هي من أمره وسعى في حفظ الآدمي المكرم عند الله من القتل، فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قيل إن (أن) ههنا للتفسير فهي مفسرة، بمعنى أي اعمل سابغات وهو تفسير ﴿وَأَلَنَّا﴾

وتحقيقه لأن يعمل، يعني ألنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن أن يقال ألهمناه أن اعمل وأن مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون معناه: ألنا له الحديد وألهمناه عمل سابغات وهي الدروع الواسعة ذكر الصفة ويعلم منها الموصوف ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، قال المفسرون: أي لا تغلظ المسامير فيتسع الثقب ولا توسع الثقب فتقلقل المسامير فيها، ويحتمل أن يقال: السرد هو عمل الزرد، وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أي الزرد إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب إنما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقي الأيام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه، والكسب قدروا فيه، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وقد ذكرنا مرارًا أن من يعمل لملك شغلاً ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه، ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيبًا آخر وهو سليمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤].

وذكر ما استفاد هو بالإنابة فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ) بالرفع وبالنصب وجه الرفع ولسليمان الريح مسخرة أو سخرت لسليمان الريح ووجه النصب ولسليمان سخرنا الريح وللرفع وجه آخر وهو أن يقال معناه: ولسليمان الريحُ، كما يقال: لزيد الدارُ، وذلك لأن الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد.

المسألة الثانية: الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفًا لجملة اسمية على جملة فعلية وهو لا يجوز أو لا يحسن فكيف هذا؟ فنقول: لما بين حال داود كأنه تعالى قال ما ذكرنا لداود ولسليمان الريح، وأما على النصب فعلى قولنا: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ كأنه قال: وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح.

المسألة الثالثة: المسخر لسليمان كانت ريحًا مخصوصة لا هذه الرياح، فإنها المنافع عامة في أوقات الحاجات ويدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح.

المسألة الرابعة: قال بعض الناس: المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شيء ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح، ومن تسخير الريح أنه راض الخيل وهي كالريح وقوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ ثلاثون فرسخًا لأن من يخرج للتفرج في أكثر الأمر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك، وقوله في حق داود: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وقوله في حق سليمان: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أنهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أي أناسًا أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا

ضعف اعتقاده [و] عدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة .

المسألة الخامسة: أقول: قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١] لو قال قائل: ما الحكمة في أن الله تعالى قال في الأنبياء: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] وفي هذه السورة قال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: ١٠] وقال في الريح هناك وهاهنا: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾؟ نقول: الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضفها إلى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب، والريح لم يذكر فيها أنها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لي وهو أن على قولنا: ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: ١٠] سيري فالجبل في السير ليس أصلاً بل هو يتحرك معه تبعًا، والريح لا تتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها، فلم يقل: الريح مع سليمان، بل سليمان كان مع الريح ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي النحاس ﴿وَمِنَ الْجِنِّ﴾ أي سخرنا له من الجن، وهذا ينبئ عن أن جميعهم ما كانوا تحت أمره وهو الظاهر.

واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء في حق داود وثلاثة في حق سليمان عليهما الصلاة والسلام فالجبال المسخرة لداود من جنس تسخير الريح لسليمان، وذلك لأن الثقيل مع ما هو أخف منه إذا تحركا يسبق الخفيف الثقيل ويبقى الثقيل مكانه، لكن الجبال كانت أثقل من الآدمي والآدمي أثقل من الريح فقدر الله أن سار الثقيل مع الخفيف أي الجبال مع داود على ما قلنا: ﴿أَوِّبِي﴾ [سبأ: ١٠] أي سيري وسليمان وجنوده مع الريح الثقيل مع الخفيف أيضًا، والطير من جنس تسخير الجن لأنهما لا يجتمعان مع الإنسان؛ الطير لنفوره من الإنس والإنس لنفوره من الجن، فإن الإنسان يتقي مواضع الجن، والجن يطلب أبدًا اصطياد الإنسان والإنسان يطلب اصطياد الطير فقدر الله أن صار الطير لا ينفر من داود بل يستأنس به ويطلبه، وسليمان لا ينفر من الجن بل يسخره ويستخدمه، وأما القطر والحديد فتجاذبهما غير خفي (وهاهنا لطيفة): وهي أن الآدمي ينبغي أن يتقي الجن ويجتنبه والاجتماع به يفضي إلى المفسدة ولهذا قال تعالى: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم؟ فنقول: قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ إشارة إلى أن ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة ولطيفة أخرى: وهي أن الله تعالى قال هٰهنا: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بلفظ الرب وقال: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ ولم يقل: عن أمر ربه، وذلك لأن الرب لفظ ينبئ عن الرحمة، فعندما كانت الإشارة إلى حفظ سليمان عليه السلام قال: ﴿رَبِّهِ﴾ وعندما كانت الإشارة إلى تعذيبهم قال: ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف.

وقوله تعالى: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فيه وجهان أحدهما: أن الملائكة كانوا موكلين بهم وبأيديهم مقارع من نار فالإشارة إليه، وثانيهما: أن السعير هو ما يكون في الآخرة فأوعدهم بما في الآخرة من العذاب.

قوله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

المحاريب إشارة إلى الأبنية الرفيعة ولهذا قال تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] والتماثيل ما يكون فيها من النقوش، ثم لما ذكر البناء الذي هو المسكن بين ما يكون في المسكن من ماعون الأكل فقال: ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ جمع جابية وهي الحوض الكبير الذي يجبي الماء أي يجمعه وقيل: كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتات لا تنقل لكبرها، وإنما يغرف منها في تلك الجفان.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قدم المحاريب على التماثيل لأن النقوش تكون في الأبنية وقدم (الجفان) في الذكر على (القدور) مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل، فنقول: لما بين الأبنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذي يمد في تلك الدور، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيه، وأما القدور فلا تكون فيه، ولا تحضر هناك، ولهذا قال: ﴿ رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي غير منقولات، ثم لما بين حال الجفان العظيمة، كان يقع في النفس أن الطعام الذي يكون فيها في أي شيء يطبخ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان.

المسألة الثانية: ذكر في حق داود اشتغاله بآلة الحرب، وفي حق سليمان بحالة السلم وهي المساكن والمآكل وذلك لأن سليمان كان ولد داود، وداود قتل جالوت والملوك الجبابرة، واستوى داود على الملك، فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك وجمع له المال فهو يفرقه على جنوده، ولأن سليمان لم يقدر أحد عليه في ظنه فتركوا الحرب معه وإن حاربه أحد كان زمان الحرب يسيرًا لإدراكه إياه بالريح فكان في زمانه العظمة بالإطعام والإنعام.

المسألة الثالثة: لما قال عقيب قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ١١]، قال عقيب ما يعمله الجن: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ إشارة إلى ما ذكرنا أن هذه الأشياء حالية لا ينبغي أن يجعل الإنسان نفسه مستغرقة فيها وإنما الواجب الذي ينبغي أن يكثر منه هو العمل الصالح الذي يكون شكرًا، وفيه إشارة إلى عدم الالتفات إلى هذه الأشياء، وقلة الاشتغال بها كما في قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] أي اجعله بقدر الحاجة.

المسألة الرابعة: انتصاب شكرًا يحتمل ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون مفعولاً له كقول القائل جئتك طمعًا وعبدت الله رجاء غفرانه، وثانيها: أن يكون مصدرًا كقول القائل: شكرت الله شكرًا، ويكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل: جلست قعودًا، وذلك لأن العمل شكر فقوله: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟﴾ يقوم مقام قوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟﴾ وثالثها: أن يكون مفعولاً به كقولك: اضرب زيدًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ١١] لأن الشكر صالح.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ إشارة إلى أن الله خفف الأمر على عباده، وذلك لأنه لما قال: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ فهم منه أن الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغي لا يمكن، لأن الشكر بالتوفيق وهو نعمة تحتاج إلى شكر آخر وهو بتوفيق آخر، فدائمًا تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر، فقال تعالى: إن كنتم لا تقدرون على الشكر التام فليس عليكم في ذلك حرج، فإن عبادي قليل منهم الشكور ويقوي قولنا أنه تعالى أدخل الكل في قوله: ﴿عِبَادِيَ﴾ مع الإضافة إلى نفسه، وعبادي بلفظ الإضافة إلى نفس المتكلم لم ترد في القرآن إلا في حق الناجين، كقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]فإن قيل على ما ذكرتم شكر الله بتمامه لا يمكن وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ﴾ يدل على أن في عباده من هو شاكر لأنعمه، نقول: الشكر بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله، وأما الشكر الذي يناسب نعم الله فلا قدرة عليه، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، أو نقول: الشاكر التام ليس إلا من رضي الله عنه، وقال له: يا عبدي ما أتيت به من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك أنك شاكر لأنعمي بأسرها، وهذا القبول نعمة عظيمة لا أكلفك شكرها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

لما بين عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين أنه لم ينج من الموت، وأنه قضى عليه الموت، تنبيهًا للخلق على أن الموت لا بد منه، ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة منه.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كان سليمان عليه السلام يقف في عبادة الله ليلة كاملة ويومًا تامًّا وفي بعض الأوقات يزيد عليه، وكان له عصا يتكئ عليها واقفًا بين يدي ربه، ثم في بعض الأوقات كان واقفًا على عادته في عبادته إذ توفي، فظن جنوده أنه في العبادة وبقي كذلك أيامًا وتمادى شهورًا، ثم أراد الله إظهار الأمر لهم، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه فوقع وعلم حاله.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ كانت الجن تعلم ما لا يعلمه الإنسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك، بل الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلًا فهو أكثر الأشياء الحاضرة لا يعلمه، والجن لم تعلم إلا الأشياء الظاهرة وإن كانت خفية بالنسبة إلى الإنسان، وتبين لهم الأمر بأنهم لا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا

في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حي. وقوله: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير، لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه، بحكاية أهل سبأ، وفي سبأ قراءتان: بالفتح على أنه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على أنه اسم قبيلة وهو الأظهر، لأن الله جعل الآية لسبأ والفاهم هو العاقل لا المكان فلا يحتاج إلى إضمار الأهل وقوله: ﴿ءَايَةٌ﴾ أي من فضل ربهم، ثم بينها بذكر بدله بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ قال الزمخشري: أية آية في جنتين، مع أن بعض بلاد العراق فيها آلاف من الجنان؟ وأجاب بأن المراد لكل واحد جنتان أو عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات، ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة واحدة، قوله: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى تكميل النعم عليهم حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض، وقوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ بيان أيضًا لكمال النعمة، فإن الشكر لا يطلب إلا على النعمة المعتبرة، ثم لما بين حالهم في مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم بيان النعمة بأن بين أن لا غائلة عليه ولا تبعة في المآل في الدنيا، فقال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي طاهرة عن المؤذيات لا حية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم، وقال: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي لا عقاب عليه ولا عذاب في الآخرة، فعند هذا بان كمال النعمة حيث كانت لذة حالية خالية عن المفاسد المآلية. ثم إنه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

ثم إنه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

فبين كمال ظلمهم بالإعراض بعض إبانة الآية كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧] ثم بين كيفية الانتقام منهم كما قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢] وكيفيته أنه تعالى أرسل عليهم سيلاً غرق أموالهم وخرب دورهم، وفي العرم وجوه أحدها: أنه الجرذ الذي سبب خراب السكر، وذلك من حيث إن بلقيس كانت قد عمدت إلى

جبال بينها شعب فسدت الشعب حتى كانت مياه الأمطار والعيون تجتمع فيها وتصير كالبحر وجعلت لها أبوابًا ثلاثة مرتبة بعضها فوق بعض وكانت الأبواب يفتح بعضها بعد بعض. فنقب الجرذ السكر، وخرب السكر بسببه وانقلب البحر عليهم، وثانيها: أن العرم اسم السكر وهو جمع العرمة وهي الحجارة، ثالثها: اسم للوادي الذي خرج منه الماء، وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بين به دوام الخراب، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فإذا تركت سنين تصير كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الأشجار، والخمط كل شجرة لها شوك أو كل شجرة ثمرتها مرة، أو كل شجرة ثمرتها لا تؤكل، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات، يكون عليه شيء كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه، والسدر معروف وقال فيه ﴿قَلِيلٍ﴾ لأنه كان أحسن أشجارهم فقلله الله، ثم بين الله أن ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ أي لا نجازي بذلك الجزاء ﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ قال بعضهم: المجازاة تقال في النقمة والجزاء في النعمة، لكن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم﴾ يدل على أن الجزاء يستعمل في النقمة، ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهي في أكثر الأمر تكون بين اثنين، يؤخذ من كل واحد جزاء في حق الآخر. وفي النعمة لا تكون مجازاة لأن الله تعالى مبتدئ بالنعم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

أي بينهم وبين الشام فإنها هي البقعة المباركة. و﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي يظهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الأخرى، فإن قال قائل: هذا من النعم والله تعالى قد شرع في بيان تبديل نعمهم قوله: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ فكيف عاد مرة أخرى إلى بيان النعمة بعد النقمة؟ فنقول: ذكر حال نفس بلدهم وبين تبديل ذلك بالخمط والأثل، ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى، ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبيادئ والبراري بقوله: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وقد فعل ذلك، ويدل عليه قراءة من قرأ (رَبُّنَا بَعَّدَ) على المبتدأ والخبر، وقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ الأماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لا تتجاوز، فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار، وكانوا يغدون إلى قرية ويروحون إلى أخرى ما أمكن في العرف تجاوزها، فهو المراد بالتقدير والمفاوز لا يتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جادًّا حتى يقطعها، وقوله:

﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي كان بينهم ليال وأيام معلومة، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ إشارة إلى كثرة العمارة، فإن خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرقيق لا يكون في مثل هذه الأماكن، وقيل بأن معنى قوله: ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ تسيرون فيه إن شئتم ليالي وإن شئتم أيامًا لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فإن بعضها يسلك ليلاً، لئلا يعلم العدو بسيرهم، وبعضها يسلك نهارًا لئلا يقصدهم العدو، إذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين أحدهما: أن يسألوا بطرًا كما طلبت اليهود الثوم والبصل، ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر كما يقول القائل لغيره: اضربني، إشارة إلى أنه لا يقدر عليه. ويمكن أن يقال: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾ بلسان الحال، أي لما كفروا فقد طلبوا أن يبعد بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم، وقوله: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ يكون بيانًا لذلك، وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلاً، يقال: تفرقوا أيدي سبا، وقوله: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بيان لجعلهم أحاديث، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي فيما ذكرناه من حال الشاكرين ووبال الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. أي ظنه أنه يغويهم كما قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾[ص: ٨٢] وقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ بيان لذلك أي أغواهم، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال تعالى في حقهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[الحجر: ٤٢] ويمكن أن يقال: صدق عليهم ظنه في أنه خير منه كما قال تعالى عنه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف: ١٢] ويتحقق ذلك في قوله فاتبعوه، لأن المتبوع خير من التابع وإلا لا يتبعه العاقل والذي يدل على أن إبليس خير من الكافر، هو أن إبليس امتنع من عبادة غير الله لكن لما كان في امتناعه ترك عبادة الله عنادًا كفر، والمشرك يعبد غير الله فهو كفر بأمر أقرب إلى التوحيد، وهم كفروا بأمر هو الإشراك، ويؤيد هذا الذي اخترناه الاستثناء، وبيانه هو أنه وإن لم يظن أنه يغوي الكل، بدليل أنه تعالى قال عنه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[ص: ٨٣] فما ظن أنه يغوي المؤمنين فما ظنه صدقه ولا حاجة إلى الاستثناء، وأما في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف: ١٢] اعتقد الخيرية بالنسبة إلى جميع الناس بدليل تعليله بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢] وقد كذب في ظنه في حق المؤمنين، ويمكن الجواب عن هذا في الوجه الأول، وهو أنه وإن لم يظن إغواء الكل وعلم أن البعض ناج، لكن ظن في كل واحد أنه ليس هو ذلك الناجي، إلى أن تبين له فظن أنه يغويه فكذب في ظنه في حق البعض وصدق في البعض.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] أن علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو في كونه عالمًا لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه، فإن العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما في نفس الأمر فعلم الله في الأزل أن العالم سيوجد، فإذا وجد علمه موجودًا بذلك العلم، وإذا عدم يعلمه معدومًا بذلك، مثاله: أن المرآة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها، ثم إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته، والمرآة لم تتغير في ذاتها ولا تبدلت في صفاتها، إنما التغير في الخارجات فكذلك ههنا قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي ليقع في العلم صدور الكفر من الكافر والإيمان من المؤمن وكان قبله فيه أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ إشارة إلى أنه ليس بملجئ وإنما هو آية، وعلامة خلقها الله لتبيين ما هو في علمه السابق، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يحقق ذلك أي الله تعالى قادر على منع إبليس عنهم عالم بما سيقع، فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه حفظه ولا العاجز.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد إلى خطابهم وقال لرسوله ﷺ: قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم ثم بين أنهم لا يملكون شيئًا بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

واعلم أن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة أحدها: قول من يقول: الله تعالى خلق السماء والسماويات وجعل الأرض والأرضيات في حكمهم، ونحن من جملة الأرضيات فنعبد الكواكب والملائكة التي في السماء فهم آلهتنا والله إلههم، فقال الله تعالى في إبطال قولهم: إنهم لا يملكون في السموات شيئًا كما اعترفتم، قال: ولا في الأرض على خلاف ما زعمتم، وثانيها: قول من يقول: السموات من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فإن الله خلق العناصر والتركيبات التي فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا

لغير الله معه شركًا في الأرض والأولون جعلوا الأرض لغيره والسماء له، فقال في إبطال قولهم: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي الأرض كالسماء لله لا لغيره، ولا لغيره فيها نصيب، وثالثها: قول من قال: التركيبات والحوادث كلها من الله تعالى لكن فوض ذلك إلى الكواكب، وفعل المأذون ينسب إلى الآذن ويسلب عن المأذون فيه، مثاله إذا قال ملك لمملوكه: اضرب فلانًا، فضربه يقال في العرف الملك ضربه ويصح عرفًا قول القائل ما ضرب فلان فلانًا، وإنما الملك أمر بضربه فضرب، فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله فقال تعالى في إبطال قولهم: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ما فوض إلى شيء شيئًا، بل هو على كل شيء حفيظ ورقيب، ورابعها: قول من قال: إنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى في إبطال قولهم: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فلا فائدة لعبادتكم غير الله فإن الله لا يأذن في الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي أزيل الفزع عنهم، يقال: قرد البعير، إذا أخذ منه القراد ويقال لهذا تشديد السلب، وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ وجوه أحدها: الفزع الذي عند الوحي فإن الله عندما يوحي يفزع من في السموات، ثم يزيل الله عنهم الفزع فيقولون لجبريل عليه السلام ماذا قال الله؟ فيقول: قال الحق، أي الوحي، وثانيها: الفزع الذي من الساعة وذلك لأن الله تعالى لما أوحى إلى محمد عليه السلام فزع من في السموات من القيامة لأن إرسال محمد عليه السلام من أشراط الساعة، فلما زال عنهم ذلك الفزع قالوا: ماذا قال الله؟ قال جبريل: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي الوحي، وثالثها: هو أن الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت عن القلوب فيعترف كل أحد بأن ما قال الله تعالى هو الحق فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه، ثم يقبض روحه على الإيمان المتفق عليه بينه وبين الله تعالى، ويضر ذلك القول من سبق منه خلافه فيقبض روحه على الكفر المتفق بينه وبين الله تعالى إذا علمت هذا فنقول على القولين الأولين، قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية متعلقة بقوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ لأنه بينه بالوحي لأن قول القائل قل لفلان للإنذار حتى يسمع المخاطب ما يقوله، ثم يقول بعد هذا الكلام ما يجب قوله فلما قال: ﴿قُلِ﴾ فزع من في السموات، ثم أزيل عنه الفزع، وعلى الثالث متعلق بقوله تعالى: ﴿زَعَمْتُم﴾ أي زعمتم الكفر إلى غاية التفزيع، ثم تركتم ما زعمتم وقلتم قال الحق، وعلى القولين الأولين فاعل قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا﴾ هو الملائكة السائلون من جبريل، وعلى الثالث الكفار السائلون من الملائكة والفاعل في قوله: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ على القولين الأولين هم الملائكة، وعلى الثالث هم المشركون.

واعلم أن الحق هو الموجود ثم إن الله تعالى لما كان وجوده لا يرد عليه عدم كان حقًا مطلقًا لا يرتفع بالباطل الذي هو العدم والكلام الذي يكون صدقًا يسمى حقًّا، لأن الكلام له متعلق في الخارج بواسطة أنه متعلق بما في الذهن، والذي في الذهن متعلق بما في الخارج فإذا قال القائل جاء زيد يكون هذا اللفظ تعلقه بما في ذهن القائل وذهن القائل تعلقه بما في الخارج لكن

للصدق متعلق يكون في الخارج فيصير له وجود مستمر وللكذب متعلق لا يكون في الخارج، وحينئذ إما أن لا يكون له متعلق في الذهن فيكون كالمعدوم من الأول وهو الألفاظ التي تكون صادرة عن معاند كاذب، وإما أن يكون له متعلق في الذهن على خلاف ما في الخارج فيكون اعتقادًا باطلاً جهلاً أو ظنًّا لكن لما لم يكن لمتعلقه متعلق يزول ذلك الكلام ويبطل، وكلام الله لا بطلان له في أول الأمر كما يكون كلام الكاذب المعاند و﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [فصلت: ٤٢]كما يكون كلام الظان، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠]أن ﴿ٱلْحَقُّ﴾ إشارة إلى أنه كامل لا نقص فيه فيقبل نسبة العدم، وفوق الكاملين لأن كل كامل فوقه كامل فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ إشارة إلى أنه فوق الكاملين في ذاته وصفاته، وهذا يبطل القول بكونه جسمًا وفي حيز، لأن كل من كان في حيز فإن العقل يحكم بأنه مشار إليه وهو مقطع الإشارة لأن الإشارة لو لم تقع إليه لما كان المشار إليه هو، وإذا وقعت الإشارة إليه فقد تناهت الإشارة عنده، وفي كل موقع تقف الإشارة بقدر العقل على أن يفرض البعد أكثر من ذلك فيقول لو كان بين مأخذ الإشارة والمشار إليه أكثر من هذا البعد لكان هذا المشار إليه أعلى فيصير عليه بالإضافة لا مطلقًا وهو علي مطلقًا ولو كان جسمًا لكان له مقدار، وكل مقدار يمكن أن يفرض أكبر منه فيكون كبيرًا بالنسبة إلى غيره لا مطلقًا وهو كبير مطلقًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ قد ذكرنا مرارًا أن العامة يعبدون الله لا لكونه إلهًا، وإنما يطلبون به شيئًا، وذلك إما دفع ضرر أو جر نفع فنبه الله تعالى العامة بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ [سبأ: ٢٢] على أنه لا يدفع الضر أحد إلا هو كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٧] وقال بعد إتمام بيان ذلك ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ إشارة إلى أن جر النفع ليس إلا به ومنه، فإذًا إن كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضرًّا أو لم يدفع وسواء نفعكم بخير أو لم ينفع فإن لم تكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضر وجر النفع.

ثم قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ يعني إن لم يقولوا هم فقل أنت: الله يرزق، (وهاهنا لطيفة): وهي أن الله تعالى عند الضر ذكر أنهم يقولون: الله، ويعترفون بالحق حيث قال: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ﴾ وعند النفع لم يقل إنهم يقولون ذلك وذلك لأن لهم حالة يعترفون بأن كاشف الضر هو الله حيث يقعون في الضر كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] وأما عند الراحة فلا تنبه لهم لذلك فلذلك قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ أي هم في حالة الراحة غافلون عن الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا إرشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر: هذا الذي تقوله خطأ وأنت فيه مخطئ، يغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر وعند اختلاله لا مطمع في الفهم فيفوت الغرض، وأما إذا قال له بأن أحدنا لا يشك في أنه مخطئ والتمادي في الباطل قبيح والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز فإنه يجتهد ذلك الخصم في النظر ويترك التعصب وذلك لا يوجب نقصًا في المنزلة لأنه أوهم بأنه في قوله شاك ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ مع أنه لا يشك في أنه هو الهادي وهو المهتدي وهم الضالون والمضلون.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ذكر في الهدى كلمة على وفي الضلال كلمة في لأن المهتدي كأنه مرتفع متطلع فذكره بكلمة التعلي، والضال منغمس في الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة في.

المسألة الثالثة: وصف الضلال بالمبين ولم يصف الهدى لأن الهدى هو الصراط المستقيم الموصل إلى الحق والضلال خلافه لكن المستقيم واحد وما هو غيره كله ضلال وبعضه بين من بعض، فميز البعض عن البعض بالوصف.

المسألة الرابعة: قدم الهدى على الضلال لأنه كان وصف المؤمنين المذكورين بقوله: ﴿إِنَّا﴾ وهو مقدم في الذكر.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. أضاف الإجرام إلى النفس وقال في حقهم: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم وقوله: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ﴾ زيادة حث على النظر وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذًا بجرمه فإذا احترز نجا، ولو كان البريء يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

أكد ما يوجب النظر والتفكر، فإن مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب، فكيف إذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب وقوله: ﴿يَفْتَحُ﴾ قيل معناه يحكم، ويمكن أن يقال بأن الفتح ههنا مجاز وذلك لأن الباب المغلق والمنفذ المسدود يقال فيه فتحه على طريق الحقيقة. ثم إن الأمر إذا كان فيه انغلاق وعدم وصول إليه فإذا بينه أحد يكون قد فتحه وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى أن حكمه يكون مع العلم لا مثل حكم من يحكم بما يتفق له بمجرد هواه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. قد ذكرنا أن المعبود قد يعبده قوم لدفع الضرر وجمع لتوقع المنفعة وقليل من الأشراف الأعزة يعبدونه لأنه يستحق العبادة لذاته فلما بين أنه لا يعبد غير الله لدفع الضرر إذ لا دافع للضرر غيره بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سبا: ٢٢] وبين أنه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبا: ٢٤] بين ههنا أنه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله فقال: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي هو المعبود لذاته واتصافه بالعزة وهي القدرة الكاملة والحكمة وهي العلم التام الذي عمله موافق له.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

لما بين مسألة التوحيد شرع في الرسالة فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً﴾ وفيه وجهان أحدهما: كافة أي إرسالة كافة أي عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها والثاني: كافة أي أرسلناك كافة تكف الناس أنت من الكفر والهاء للمبالغة على هذا الوجه ﴿بَشِيرًا﴾ أي تحثهم بالوعد ﴿وَنَذِيرًا﴾ تزجرهم بالوعيد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لا لخفائه ولكن لغفلتهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ لما ذكر الرسالة بين الحشر.

وقال: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ قد ذكرنا في سورة الأعراف أن قوله: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ يوجب الإنذار، لأن معناه عدم المهلة عن الأجل ولكن الاستقدام ما وجهه؟ وذكرنا هناك وجهه ونذكر ههنا أنهم لما طلبوا الاستعجال بين أنه لا استعجال فيه كما لا إمهال، وهذا يفيد عظم الأمر وخطر الخطب، وذلك لأن الأمر الحقير إذا طالبه طالب من غيره لا يؤخره ولا يوقفه على وقت بخلاف الأمر الخطير وفي قوله تعالى: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ قراءات أحدها: رفعهما مع التنوين على وهذا يوم بدل، وثانيها: نصب (يوم) مع رفع (ميعاد) والتنوين فيهما ميعاد يومًا قال الزمخشري: ووجهه أنه منصوب بفعل محذوف كأنه قال: ميعاد أعني يومًا، وذلك يفيد التعظيم والتهويل، ويحتمل أن يقال: نصب على الظرف تقديره لكم ميعاد يومًا كما يقول القائل: أنا جائيك يومًا، وعلى هذا يكون العامل فيه العلم كأنه يقول: لكم ميعاد تعلمونه يومًا، وقوله معلوم يدل عليه كقول القائل إنه مقتول يومًا، الثالثة: الإضافة لكم ميعاد يوم كما في قول القائل: سحق ثوب للتبيين، وإسناد الفعل إليهم بقوله: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ﴾ بدلاً عن قوله: (لا يؤخر عنكم) زيادة تأكيد لوقوع اليوم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما بين الأمور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وذلك لأن القرآن مشتمل على الكل وقوله: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ المشهور أنه التوراة والإنجيل، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم المشركون المنكرون للنبوات والحشر، ويحتمل أن يقال: إن المعنى هو أنا لا نؤمن بالقرآن أنه من الله ولا بالذي بين يديه أي ولا بما فيه من الإخبارات والمسائل والآيات والدلائل، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم العموم، لأن أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن أنه من الله ولا بالذي فيه من الرسالة وتفاصيل الحشر، فإن قيل: أليس هم مؤمنون بالوحدانية والحشر؟ فنقول: إذا لم يصدق واحد ما في الكتاب من الأمور المختصة به يقال فيه إنه لم يؤمن بشيء منه وإن آمن ببعض ما فيه لكونه في غيره فيكون إيمانه لا بما فيه. مثاله: أن من يكذب رجلاً فيما يقوله فإذا أخبره بأن النار حارة لا يكذبه فيه ولكن لا يقال إنه صدقه لأنه إنما صدق نفسه، فإنه كان عالمًا به من قبل وعلى هذا فقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي الذي هو مشتمل عليه من حيث إنه وارد فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

لما وقع اليأس من إيمانهم في هذه الدار بقولهم لن نؤمن فإنه لتأييد النفي وعد نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه يراهم على أذل حال موقوفين للسؤال يرجع بعضهم إلى بعض القول كما يكون عليه حال جماعة أخطئوا في أمر يقول بعضهم: كان ذلك بسببك، ويرد عليه الآخر مثل ذلك، وجواب لو محذوف، تقديره: ولو ترى إذ الظالمون موقوفون لرأيت عجبًا، ثم بدأ بالأتباع لأن المضل أولى بالتوبيخ فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أن كفرهم كان لمانع لا لعدم المقتضى لأنهم لا يمكنهم أن يقولوا: ما جاءنا رسول، ولا أن يقولوا: قصر الرسول، وهذا إشارة إلى إتيان الرسول بما عليه لأن الرسول لو أهمل شيئًا لما كانوا يؤمنون ولولا المستكبرون لآمنوا.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾.

ردًّا لما قالوا: إن كفرنا، كان لمانع ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ يعني المانع ينبغي أن يكون راجحًا على المقتضى حتى يعمل عمله، والذي جاء به هو الهدى، والذي صدر من المستكبرين لم يكن شيئًا يوجب الامتناع من قبول ما جاء به فلم يصح تعليلكم بالمانع، ثم بين أن كفرهم كان إجرامًا من حيث إن المعذور لا يكون معذورًا إلا لعدم المقتضى أو لقيام المانع ولم يوجد شيء منهما.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾.

لما ذكر المستكبرون أنا ما صددناكم وما صدر منا ما يصلح مانعًا وصارفًا اعترف المستضعفون به وقالوا: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ منعنا، ثم قالوا: لهم إنكم وإن كنتم ما أتيتم بالصارف القطعي والمانع القوي ولكن انضم أمركم إيانا بالكفر إلى طول الأمد والامتداد في المدد فكفرنا فكان قولكم جزء السبب، ويحتمل وجهًا آخر وهو أن يكون المراد بل مكركم بالليل والنهار فحذف المضاف إليه. وقوله: ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ أي ننكره ﴿وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ هذا يبين أن المشرك بالله مع أنه في الصورة مثبت لكنه في الحقيقة منكر لوجود الله لأن من يساويه المخلوق المنحوت لا يكون إلهًا، وقوله في الأول: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ [سبأ: ٣١] يقول الذين استضعفوا بلفظ المستقبل، وقوله في الآيتين المتأخرتين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ بصيغة الماضي مع أن السؤال والتراجع في القول لم يقع إشارة إلى أن ذلك لا بد وأن يقع، فإن الأمر الواجب الوقوع يوجد كأنه وقع، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

معناه أنهم يتراجعون القول في الأول، ثم إذا جاءهم العذاب الشاغل يسرون ذلك التراجع الدال على الندامة، وقيل معنى الإسرار الإظهار أي أظهروا الندامة، ويحتمل أن يقال بأنهم لما تراجعوا في القول رجعوا إلى الله بقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] ثم أجيبوا وأخبروا بأن لا مرد لكم فأسروا ذلك القول، وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ إشارة إلى كيفية العذاب وإلى أن مجرد الرؤية ليس كافيًا بل لما رأوا العذاب قطعوا

بأنهم واقعون فيه فتركوا الندم ووقعوا فيه فجعل الأغلال في أعناقهم، وقوله: ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى أن ذلك حقهم عدلاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

تسلية لقلب النبي ﷺ وبيانًا لأن إيذاء الكفار الأنبياء الأخيار ليس بدعًا، بل ذلك عادة جرت من قبل وإنما نسب القول إلى المترفين مع أن غيرهم أيضًا قالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ لأن الأغنياء المترفين هم الأصل في ذلك القول، ألا ترى أن الله قال عن الذين استضعفوا إنهم قالوا للمستكبرين: لولا أنتم لكانوا مؤمنين، ثم استدلوا على كونهم مصيبين في ذلك بكثرة الأموال والأولاد فقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أي بسبب لزومنا لديننا، وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي في الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلاً خير من حالكم، وأما آجلاً فلا نعذب إما إنكارًا منهم للعذاب رأسًا أو اعتقادًا لحسن حالهم في الآخرة أيضًا قياسًا [على حسن حالهم في الدنيا]. ثم إن الله تعالى بين خطأهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يعني أن الرزق في الدنيا لا تدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل فكم من موسر شقي ومعسر تقي ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أن قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

ثم بين فساد استدلالهم بقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾.

يعني قولكم: نحن أكثر أموالاً فنحن أحسن عند الله حالاً، ليس استدلالاً صحيحًا، فإن المال لا يقرب إلى الله ولا اعتبار بالتعزز به، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان والذي يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح إقبال

على الله واشتغال بالله ومن توجه إلى الله وصل ومن طلب من الله شيئًا حصل، وقوله: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي الحسنة فإن الضعف لا يكون إلا في الحسنة وفي السيئة لا يكون إلا المثل.

ثم زاد وقال: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ إشارة إلى دوام النعيم وتأبيده، فإن من تنقطع عنه النعمة لا يكون آمنًا.

ثم بين حال المسيء بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وقد ذكرنا تفسيره، وقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ إشارة إلى الدوام أيضًا كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] وكما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٦].

ثم قال تعالى مرة أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافي نعمة الدنيا، بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم في العقبى بناءً على الوعد، قطعًا لقول من يقول: إذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد أولى، فقال هذا النقد غير مختص بكم فإن كثيرًا من الأشقياء مدقعون، وكثير من الأتقياء ممتعون.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر هذا المعنى مرتين: مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم، ومرة لبيان أنه غير مختص بهم كأنه قال: وجود الترف لا يدل على الشرف، ثم إن سلمنا أنه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك، فإن الله يملكهم دياركم وأموالكم، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى لم يذكر أولاً لمن يشاء من عباده، بل قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ [سبأ: ٣٦]، وثانيًا قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، والعباد المضافة يراد بها المؤمن، ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر، فإن الكافر دابره مقطوع، وماله إلى الزوال، ومآله إلى الوبال. وأما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله، ومخلف الله خير، فإن ما في يد الإنسان في معرض البوار والتلف وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١] وخيرية الرازق في أمور أحدها: أن لا يؤخر عن وقت الحاجة، والثاني: أن لا ينقص عن قدر الحاجة، والثالث: أن لا ينكده بالحساب، والرابع: أن لا يكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك.

أما الأول: فلأنه عالم وقادر، والثاني: فلأنه غني واسع، والثالث: فلأنه كريم، وقد ذكر ذلك بقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢] وما ذكرنا هو المراد، أي يرزقه حلالاً لا يحاسبه عليه والرابع: فلأنه علي كبير والثواب يطلبه الأدنى من الأعلى، ألا ترى أن هبة الأعلى من الأدنى لا تقتضي ثوابًا.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ وَمَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا،

وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»[١] وذلك لأن الله تعالى ملك علي وهو غني ملي، فإذا قال أنفق وعلى بدله فبحكم الوعد يلزمه، كما إذا قال قائل: ألق متاعك في البحر وعلى ضمانه، فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل، ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه منَ البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف، ثم إن من العجب أن التاجر إذا علم أن مالاً من أمواله في معرض الهلاك يبيعه نسيئة، وإن كان من الفقراء ويقول بأن ذلك أولى من الإمهال إلى الهلاك، فإن لم يبع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ، ثم إن حصل به كفيل مليء ولا يبيع ينسب إلى قلة العقل، فإن حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب إلى الجنون، ثم إن كل أحد يفعل هذا ولا يعلم أن ذلك قريب من الجنون، فإن أموالنا كلها في معرض الزوال المحقق، والإنفاق على الأهل والولد إقراض، وقد حصل الضامن المليء وهو الله العلي وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ثم رهن عند كل واحد إما أرضًا أو بستانًا أو طاحونة أو حمامًا أو منفعة، فإن الإنسان لا بد من أن يكون له صنعة أو جهة يحصل له منها مال وكل ذلك ملك الله وفي يد الإنسان بحكم العارية فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام، ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجورًا ولا مشكورًا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ينبئ عن كثرة في الرازقين ولا رازق إلا الله، فما الجواب عنه؟ فنقول: عنه جوابان أحدهما: أن يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك في قوله تعالى: وهو ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥] وثانيهما: هو أن الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة، مثال الأول العلم، فإن الله يعلم أنه واحد والعبد يعلم أنه واحد بطريق الحقيقة، وكذلك العلم بكون النار حارة، غاية ما في الباب أن علمه قديم وعلمنا حادث، مثال الثاني الرازق والخالق، فإن العبد إذا أعطى غيره شيئًا فإن الله هو المعطي، ولكن لأجل صورة العطاء منه سمي معطيًا، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وإنسان، مثال الثالث الأزلي والله وغيرهما، وقد يقال في أشياء في الإطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازًا كالاستواء والنزول والمعية ويد الله وجنب الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

لما بين أن حال النبي ﷺ كحال من تقدمه من الأنبياء، وحال قومه كحال من تقدم من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الزكاة)، باب: (قول الله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥]) (٢/ ٥٢٢)، حديث رقم (١٣٧٤)، ومسلم في (صحيحه) (٢/ ٧٠٠/ ١٠١٠)، كلاهما من طريق أبي الحباب عن أبي هريرة... به.

الكفار، وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم، بين ما يكون من عاقبة حالهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني المكذبين بك وبمن تقدمك، ثم نقول لمن يدعون أنهم يعبدونهم وهم الملائكة، فإن غاية ما ترتقي إليه منزلتهم أنهم يقولون: نحن نعبد الملائكة والكواكب، فيسأل الملائكة أهم كانوا يعبدونكم! إهانة لهم، فيقول كل منهم: سبحانك ننزهك عن أن يكون غيرك معبودًا وأنت معبودنا ومعبود كل خلق، وقولهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن مذاهب الناس مختلفة؛ بعضهم لا يسكن المواضع المعمورة التي يكون فيها سواد عظيم، لأنه لا يترأس هناك فيرضى الضياع والبلاد الصغيرة، وبعضهم لا يريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيها بالناس وقلة وصوله فيها إلى الأكياس، ثم إن الفريقين جميعًا إذا عرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الأرذال الذين لا التفات إليهم أصلاً يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لا يؤبه به، ولو أن رجلاً سكن جبلاً ووضع بين يديه شيئًا من القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان، وهو يقول: هؤلاء أتباعي وأشياعي، ولا أدخل المدينة مخافة أن أحتاج إلى خدمة السلطان العظيم والتردد إليه ينسب إلى الجنون، فكذلك من رضي بأن يترك خدمة الله وعبادته، ورضي باستتباع الهمج الذين هم أضل من البهائم وأقل من الهوام يكون مجنونًا، فقالوا: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ يعني كونك ولينا بالمعبودية أولى، وأحب إلينا من كونهم أولياءنا بالعبادة لنا وقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي كانوا ينقادون لأمر الجن، فهم في الحقيقة كانوا يعبدون الجن، ونحن كنا كالقبلة لهم، لأن العبادة هي الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ لو قال قائل: جميعهم كانوا تابعين للشياطين، فما وجه قوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ فإنه ينبئ أن بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم؟ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم فقالوا: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ لأن الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ويؤمنون بهم ولعل في الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار، الثاني: هو أن العبادة عمل ظاهر والإيمان عمل باطن فقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ لاطلاعهم على أعمالهم وقالوا: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما في القلوب فإن القلب لا اطلاع عليه إلا لله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم بين أن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم فقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الخطاب بقوله: ﴿بَعْضُكُمْ﴾ مع من؟ نقول: يحتمل أن يكون الملائكة لسبق قوله تعالى: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[سبا: ٤٠] وعلى هذا يكون ذلك تنكيلاً للكافرين حيث بين لهم أن معبودهم لا ينفع ولا يضر، ويصحح هذا قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[مريم: ٨٧] وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[الأنبياء: ٢٨] ولأنه قال بعده: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا﴾ فأفردهم ولو كان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا.

وعلى هذا يكون الكفار داخلين في الخطاب حتى يصح معنى قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي الملائكة للكفار، والحاضر الواحد يجوز أن يجعل من يشاركه في أمر مخاطبًا بسببه، كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك في كلام: أنتم قلتم، على معنى أنت قلت، وهم قالوا، ويحتمل أن يكون معهم الجن أي لا يملك بعضكم لبعض أيها الملائكة والجن، وإذا لم تملكوها لأنفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل أن يكون المخاطب هم الكفار لأن ذكر اليوم يدل على حضورهم، وعلى هذا فقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إنما ذكره تأكيدًا لبيان حالهم في الظلم، وسبب نكالهم من الإثم، ولو قال: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ لكان كافيًا لكنه، لا يحصل ما ذكرنا من الفائدة، فإنهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا عليه من الظلم والعناد والإثم والفساد يتحسرون ويندمون.

المسألة الثانية: قوله: ﴿نَّفْعًا﴾ مفيد للحسرة، وأما الضر فما الفائدة فيه مع أنهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك؟ فنقول: لما كانت العبادة تقع لدفع ضر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين أنهم ليس فيهم ذلك الوجه الذي يحسن لأجله عبادتهم.

المسألة الثالثة: قال هاهنا: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وقال في السجدة: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ﴾[السجدة: ٢٠] جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل، والفائدة فيها أن هناك لم يكن أول ما رأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[السجدة: ٢٠] أي العذاب المؤبد الذي أنكرتموه بقولكم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[البقرة: ٨٠] أي قلتم إن العذاب إن وقع فلا يدوم فذوقوا الدائم، وههنا أول ما رأوا النار لأنه مذكور عقيب الحشر والسؤال فقيل لهم: هذه ﴿النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

إظهارًا لفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين أن أعلى من يعبدونه وهم الملائكة لا يتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾[سبا: ٤١] أي لا أهلية لنا إلا لعبادتك من

دونهم أي لا أهلية لنا لأن نكون معبودين لهم ولا لنفع أو ضر كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [سبأ: ٤٢] ثم مع هذا كله إذا قال لهم النبي عليه السلام كلامًا من التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه، فإن لله في كل شيء آيات دالة على وحدانيته أنكروها وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يعني يعارضون البرهان بالتقليد ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ وهو يحتمل وجوهًا أحدها: أن يكون المراد أن القول بالوحدانية ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ ويدل عليه هو أن الموحد كان يقول في حق المشرك إنه يأفك كما قال تعالى في حقهم: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦] وكما قالوا هم للرسول: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] وثانيها: أن يكون المراد ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي القرآن إفك وعلى الأول يكون قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى القرآن وعلى الثاني يكون إشارة إلى ما أتى به من المعجزات، وعلى الوجهين فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بدلاً عن أن يقول: وقالوا للحق، هو أن إنكار التوحيد كان مختصًا بالمشركين، وأما إنكار القرآن والمعجزات [فقد] كان متفقًا عليه بين المشركين وأهل الكتاب [فقال] تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ على وجه العموم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ تأكيد لبيان تقليدهم يعني يقولون عندما تتلى عليهم الآيات البينات: هذا رجل كاذب، وقولهم: ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ من غير برهان ولا كتاب أنزل عليهم ولا رسول أرسل إليهم، فالآيات البينات لا تعارض إلا بالبراهين العقلية، ولم يأتوا بها أو بالتقلبات وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك، والنقل المعتبر آيات من كتاب الله أو خبر رسول الله، ثم بين أنهم كالذين من قبلهم كذبوا مثل عاد وثمود، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قال المفسرون: معناه: وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر، ثم إن الله أخذهم وما نفعتهم قوتهم، فكيف حال هؤلاء الضعفاء، وعندي [أنه] يحتمل ذلك وجهًا آخر وهو أن يقال: المراد: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان، وذلك لأن كتاب محمد عليه السلام أكمل من سائر الكتب وأوضح، ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح، وبرهانه أوفى، وبيانه أشفى، ثم إن المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل أنكر عليهم وكيف لا ينكر عليهم، وقد كذبوا بأفصح الرسل، وأوضح السبل،

يؤيد ما ذكرنا من المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ يعني غير القرآن ما آتيناهم كتابًا وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير، فلما كان المؤتى في الآية الأولى هو الكتاب، فحمل الإيتاء في الآية الثانية على إيتاء الكتاب أولى.

ثم قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾﴾.

ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعد ما سبق منه تقريرها بالدلائل فقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى التوحيد وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾ إشارة إلى الرسالة وقوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ يقتضي أن لا يكون إلا بالتوحيد، والإيمان لا يتم إلا بالاعتراف بالرسالة والحشر، فكيف يصح الحصر المذكور بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ فنقول: التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره ويرفع في الآخرة قدره فالنبي ﷺ أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهيئ لهم أسباب السعادات، وجواب آخر وهو أن النبي ﷺ ما قال: إني لا آمركم في جميع عمري إلا بشيء واحد، وإنما قال: أعظكم أولاً بالتوحيد ولا آمركم في أول الأمر بغيره لأنه سابق على الكل، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ فإن التفكر أيضًا صار مأمورًا به وموعوظًا.

المسألة الثانية: قوله: ﴿بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ قال المفسرون: أنثها على أنها صفة خصلة أي أعظكم بخصلة واحدة، ويحتمل أن يقال: المراد حسنة واحدة لأن التوحيد حسنة وإحسان وقد ذكرنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] أن العدل نفي الإلهية عن غير الله والإحسان إثبات الإلهية له، وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] أن المراد هل جزاء الإيمان إلا الجنان، وكذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ إشارة إلى جميع الأحوال فإن الإنسان إما أن يكون مع غيره أو يكون وحده، فإذا كان مع غيره دخل في قوله: ﴿مَثۡنَىٰ﴾ وإذا كان وحده دخل في قوله: ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ فكأنه يقول: تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ يعني اعترفوا بما هو الأصل والتوحيد ولا حاجة فيه إلى تفكر ونظر بعد ما بان وظهر، ثم تتفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر، فإنه يحتاج إلى تفكر، وكلمة (ثم) تفيد ما ذكرنا، فإنه قال: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبي عليه السلام فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ يفيد كونه رسولاً وإن كان لا يلزم في كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولاً، وذلك لأن النبي عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورة للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب إما الجن أو الملك، وإذا لم يكن الصادر من النبي ﷺ بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدرة الله تعالى من غير واسطة، وعلى التقديرين فهو رسول الله، وهذا من أحسن الطرق، وهو أن يثبت الصفة التي هي أشرف الصفات في البشر بنفي أخس الصفات، فإنه لو قال أولاً: هو رسول الله، كانوا يقولون فيه النزاع، فإذا قال: ما هو مجنون، لم يسعهم إنكار ذلك لعلمهم بعلو شأنه وحاله في قوة لسانه وبيانه فإذا ساعدوا على ذلك لزمتهم المسألة. ولهذا قال بعده: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ يعني إما هو به جنة أو هو رسول لكن تبين أنه ليس به جنة فهو نذير.

المسألة السادسة: قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى قرب العذاب كأنه قال: ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدي العذاب أي سوف يأتي العذاب بعده.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

لما ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبيًا ذكر وجهًا آخر يلزم منه أنه نبي إذا لم يكن مجنونًا لأن من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل إذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروي يكون مجنونًا، فالنبي عليه السلام بدعواه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلاً، فإن كل أحد يقصده ويعاديه ولا يطلب أجرًا في الدنيا فهو يفعله للآخرة، والكاذب في الآخرة معذب لا مثاب، فلو كان كاذبًا لكان مجنونًا لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب، فهو نبي صادق، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تقرير آخر للرسالة وذلك لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة، بأن يدعي شخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهي بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول في إفادة العلم بدليل أن من قال لقوم: إني مرسل من هذا الملك إليكم ألزمكم قبول قولي، والملك حاضر ناظر، ثم قال للملك: أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فقل لهم إني رسولك، فإذا قال إنه رسولي إليكم لا يبقى فيه شك، كذلك إذا قال: يا أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فألبسني قباءك، فلو ألبسه قباءه في عقب كلامه يجزم الناس بأنه رسوله، كذلك حال الرسول إذا قال الأنبياء لقومهم: نحن رسل الله، ثم قالوا: يا إلهنا إن كنا رسلك فأنطق هذه الحجارة أو انشر هذا الميت، ففعله حصل الجزم بأنه صدقه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾.

وفيه وجهان أحدهما: يقذف بالحق في قلوب المحقين، وعلى هذا الوجه للآية بما قبلها تعلق،

وذلك من حيث إن الله تعالى لما بين رسالة النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ وأكده بقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بإنزال الذكر عليه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] ذكر ما يصلح جوابًا لهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي في القلوب إشارة إلى أن الأمر بيده يفعل ما يريد ويعطي ما يشاء لمن يشاء.

ثم قال تعالى: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ إشارة إلى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو أن من يفعل شيئًا كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشيء لا يوجد في غيره لا يكون عالمًا وإنما فعل ذلك اتفاقًا، كما إذا أصاب السهم موضعًا دون غيره مع تسوية المواضع في المحاذاة فقال: ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ كيف يشاء وهو عالم بما يفعله وعالم بعواقب ما يفعله فهو يفعل ما يريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب إذ هو علام الغيوب، الوجه الثاني: أن المراد منه هو أنه يقذف بالحق على الباطل كما قال في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨] وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها أيضًا ظاهر وذلك من حيث إن براهين التوحيد لما ظهرت ودحضت شبههم قال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي على باطلكم، وقوله: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ على هذا الوجه له معنى لطيف وهو أن البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم إلا على التوحيد والرسالة، وأما الحشر فعلى وقوعه لا برهان غير إخبار الله تعالى عنه، وعن أحواله وأهواله، ولولا بيان الله بالقول لما بان لأحد بخلاف التوحيد والرسالة، فلما قال: ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي على الباطل، إشارة إلى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي ما يخبره عن الغيب وهو قيام الساعة وأحوالها فهو لا خلف فيه فإن الله علام الغيوب، والآية تحتمل تفسيرًا آخر وهو أن يقال: ﴿رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي ما يقذفه يقذفه بالحق لا بالباطل والباء على الوجهين الأولين متعلق بالمفعول به أي الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩] وفي قوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] والمعنى على هذا الوجه هو أن الله تعالى قذف ما قذف في قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم ما في قلوبهم وما في قلوبكم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

لما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال، ذكر أن ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه أحدها: أنه القرآن، الثاني: أنه بيان التوحيد والحشر وكل ما ظهر على لسان النبي ﷺ، الثالث: المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام، ويحتمل أن يكون المراد من ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ ظهر الحق لأن كل ما جاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق، وقد بينا أن الحق هو الموجود، ولما كان ما جاء به النبي ﷺ لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر، كان حقًا لا ينتفي، ولما كان ما يأتون به من الإشراك والتكذيب لا يمكن وجوده كان باطلًا لا يثبت، وهذا المعنى يفهم من قوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ أي الباطل لا يفيد شيئًا في الأولى ولا في الآخرة فلا

إمكان لوجوده أصلاً، والحق المأتي به لا عدم له أصلاً، وقيل: المراد لا يبدئ الشيطان ولا يعيد، وفيه معنى لطيف وهو أن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ لما كان فيه معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨] كان يقع لمتوهم أن الباطل كان فورد عليه الحق فأبطله ودمغه، فقال هاهنا: ليس للباطل تحقق أولاً وآخرًا، وإنما المراد من قوله: ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي فيظهر بطلانه الذي لم يزل كذلك وإليه الإشارة بقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] يعني ليس أمرًا متجددًا زهوق الباطل، فقوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ أي لا يثبت في الأول شيئًا خلاف الحق ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ أي لا يعيد في الآخرة شيئًا خلاف الحق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

هذا فيه تقرير الرسالة أيضًا وذلك لأن الله تعالى قال على سبيل العموم: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ [الزمر: ٤١] وقال في حق النبي ﷺ: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ يعني ضلالي على نفسي كضلالكم، وأما اهتدائي فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم، وإنما هو بالوحي المبين، وقوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي يسمع إذا ناديته واستعديت به عليكم قريب يأتيكم من غير تأخير، ليس يسمع عن بعد ولا يلحق الداعي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾.

لما قال: ﴿سَمِيعٌ﴾ قال: هو قريب فإن لم يعذب عاجلاً ولا يعين صاحب الحق في الحال فيوم الفزع آت لا فوت، وإنما يستعجل من يخاف الفوت. وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ جوابه محذوف أي ترى عجبًا ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ لا يهربون وإنما الأخذ قبل تمكنهم من الهرب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾.

أي بعد ظهور الأمر حيث لا ينفع إيمان، قالوا: آمنا ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ أي كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون إلا في الدنيا وهم في الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة، فإن قيل فكيف قال في كثير من المواضع: إن الآخرة من الدنيا قريبة، ولهذا سماها الله الساعة وقال: ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧] نقول: الماضي كالأمس الدابر بعدما يكون إذ لا وصول إليه، والمستقبل وإن كان بينه وبين الحاضر سنين فإنه آت، فيوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها وفي

الدنيا يوم القيامة قريب لإتيانه والتناوش هو التناول عن قرب. وقيل: عن بعد، ولما جعل الله الفعل مأخوذًا كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ والمراد ما مضى من الدنيا.

قوله تعالى ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم بين الله تعالى أن إيمانهم لا نفع فيه بسبب أنهم كفروا به من قبل، والإشارة في قوله: ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ إلى شيء واحد، إما محمد عليه الصلاة والسلام وإما القرآن وإما الحق الذي أتى به محمد عليه السلام وهو أقرب وأولى، وقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ضد يؤمنون بالغيب لأن الغيب ينزل من الله على لسان الرسول، فيقذفه الله في القلوب ويقبله المؤمن، وأما الكافر فهو يقذف بالغيب، أي يقول ما لا يعلمه، وقوله: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أن مأخذهم بعيد أخذوا الشريك من أنهم لا يقدرون على أعمال كثيرة إلا إذا كانوا أشخاصًا كثيرة، فكذلك المخلوقات الكثيرة، وأخذوا بعد الإعادة من حالهم وعجزهم عن الإحياء، فإن المريض يداوى فإذا مات لا يمكنهم إعادة الروح إليه، وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ، ويحتمل أن يقال: إنهم كانوا يقولون بأن الساعة إذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا، كقول قائلهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] فكانوا يقولون ذلك فإن كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن إحساس فإن ما لا يجب عقلًا لا يعلم إلا بالإحساس أو بقول الصادق، فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد، فإن قيل: قد ذكرت أن الآخرة قريب فكيف قال: ﴿من مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن ذلك قريب عند من آمن بمحمد ﷺ ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيدًا عنده، الثاني: أن الحكاية يوم القيامة، فكأنه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا، ويحتمل وجهًا آخر وهو أنهم في الآخرة يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾[السجدة: ١٢] وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من العود إلى الدنيا أو بين لذات الدنيا، فإن قيل: كيف يصح قولك: ما يشتهون، من العود مع أنه تعالى قال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ وما حيل بينهم وبين العود؟ قلنا: لم قلتم: إنه ما حيل بينهم، بل كل من جاءه الملك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور اليأس ولم يقبل، وقوله: ﴿مُّرِيبٍ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: ذي ريب، والثاني: موقف في الريب، وسنذكره في موضع آخر إن شاء الله تعالى، والله أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وأزواجه أجمعين.

سورة سبأ

مكّيَّةٌ في قولِ الجميع، إلّا آيةً واحدةً اختُلف فيها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ الآية [٦]، فقالت فرقةٌ: هي مكيَّةٌ، والمرادُ المؤمنون أصحابُ النبيِّ ﷺ؛ قاله ابن عباس. وقالت فرقة: هي مدنية، والمرادُ بالمؤمنين مَن أَسْلَمَ بالمدينة [من أهل الكتاب] كعبد الله بن سلَام وغيره(١)؛ قاله مقاتل. وقال قتادة: هم أمةُ محمدٍ ﷺ المؤمنون به؛ كائناً مَن كان(٢). وهي أربعٌ وخمسون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «الذي» في موضعِ خَفْضٍ على النعتِ أو البدل. ويجوزُ أن يكونَ في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأ، وأن يكون في موضع نصبٍ بمعنى: أعني. وحكى سيبويه: «الحمد للهِ أهل الحمد» بالرفع والنصب والخفض(٣). والحمدُ الكاملُ والثناءُ الشَّامِلُ كلُّه لِله؛ إذ النِّعَمُ كلُّها منه. وقد مضى الكلامُ فيه في أوّلِ «الفاتحة»(٤).

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٤ دون قوله: قاله ابن عباس، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول ابن عباس إن سورة سبأ مكية أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٩٤ .

(٢) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٦ . وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٢١٤ ، والنكت والعيون ٤/ ٤٣٣ ، والوسيط ٣/ ٤٨٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٤٩ بلفظ: هم أصحاب محمد ﷺ، وكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وسيذكره المصنف عند تفسير الآية عن ابن عباس.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣١ . وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٦٢ - ٦٣ .

(٤) ١/ ٢٠٢ .

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ قيل: هو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقيل: هو قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، فهو المحمودُ في الآخرةِ كما أنه المحمودُ في الدنيا، وهو المالكُ للآخرة كما أنّه المالكُ للأُولى(١). ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في فعله ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأَمْرِ خَلْقِه.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها من قَطْرٍ وغيره، كما قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، ومن الكنوزِ والدَّفائنِ والأمواتِ وما هي له كِفاتٌ(٢). ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نباتٍ وغيره ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق، والأرزاقِ والمقادير والبركات. وقرأ عليّ بن أبي طالب: «وما نُنزِّلُ» بالنون والتشديد(٣). ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمالِ العباد؛ قاله الحسن وغيره(٤). ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ قيل: المرادُ أهلُ مكة؛ قال مقاتل: قال أبو سفيان لكفار مكة: واللّاتِ والعزّى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نُبعث. فقال الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾. وروى هارونُ عن طَلْقٍ المعلِّم

---

(١) في (ظ): للدنيا.

(٢) مصدر كفت، ومعنى كَفَتَ الشيءَ، أي: ضمَّه إليه وقبضه. القاموس (كفت).

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢١، والكشاف ٣/ ٢٧٩.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٥٤٨، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٧٩ دون نسبة.

قال: سمعتُ أشياخَنا يقرؤون: «قل بلى وربِّي لَيأْتِيَنَّكُمْ» بياءٍ[١]، حَمَلوه على المعنى، كأنه قال: لَيأتينَّكم البعثُ، أو أَمْرُه، كما قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣].

فهؤلاء الكفارُ مُقِرُّونَ بالابتداء مُنْكِرون الإعادَةَ، وهو نقضٌ لِمَا اعترفوا به من القدرة[٢] على البعث، وقالوا: وإنْ قَدَرَ لا يفعل. فهذا تحكُّمٌ بعد أن أَخبر على ألسنةِ الرسل أنه يبعث الخلق، وإذا ورد الخبر بشيءٍ هو[٣] ممكنٌ في الفعل مقدورٌ، فتكذيبُ مَن وَجَبَ صِدْقُه مُحال.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ بالرفع قراءةُ نافع وابن عامر[٤] على الابتداء، وخبرُه: «لا يَعْزُبُ عنه». وقرأ عاصم وأبو عمرو: ﴿عَٰلِمِ﴾ بالخفض[٥]، أي: الحمدُ لِله عالِمِ، فعلى هذه القراءة لا يَحْسُنُ الوَقْفُ على قوله: «لَتَأْتِيَنَّكم». وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «علَّامِ الغيب» على المبالغة والنعت[٦].

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يغيبُ عنه، «ويَعْزِب» أيضاً. قال الفرَّاء[٧]: والكسرُ أحبُّ إليَّ. النحاس: وهي قراءةُ يحيى بن وثَّاب، وهي لغةٌ معروفة. يقال: عَزَبَ يَعْزُبُ ويَعْزِبُ. إذا بَعُد وغاب[٨].

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢١، والمحتسب ٢/ ١٨٦، والبحر ٧/ ٢٥٧، ووقع في المحتسب: طليق، بدل: طلق.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة، والمثبت من (ظ).

(٣) في (د) و(م): وهو.

(٤) في النسخ: ابن كثير، وهو خطأ.

(٥) وهي قراءة ابن كثير أيضاً.

(٦) السبعة ص ٥٢٦، والتسير ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٣٥١.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٩٣، وقرأ: «يَعزِبُ» بكسر الزاي الكسائي، والباقون بضمها. السبعة ص٥٢٦، والتيسير ص ١٢٢.

﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أي: قَدْرُ نَملةٍ صغيرة. ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ وفي قراءة الأعمش: «ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ» بالفتح فيهما[١] عطفاً على «ذَرَّةٍ». وقراءةُ العامَّةِ بالرفع عطفاً على «مِثْقَالُ».

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ فهو العالمُ بما خَلَقَ، ولا يَخْفَى عليه شيء. ﴿لِيَجْزِيَ﴾ منصوبٌ بلامِ كي، والتقدير: لَتأتينَّكُم لِيجزيَ[٢] ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بالثواب، والكافرين بالعقاب. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني المؤمنين ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ أي: في إبطالِ أدلَّتِنَا والتكذيبِ بآياتنا. ﴿مُعَاجِزِينَ﴾: مُسابِقين يحسبون أنهم يَفُوتوننا، وأنَّ الله لا يقدرُ على بعثهم في الآخرة، وظنُّوا أنَّا نُهمِلُهم، فهؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ يقال: عاجَزَه وأَعْجَزه: إذا غالبَه وسَبَقَه.

و«أَلِيم» قراءةُ نافعٍ بالكسر[٣] نعتاً للرِّجْز؛ فإنَّ الرِّجْز هو العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة:٥٩]. وقرأ ابن كَثِيرٍ وحفصٌ عن عاصم: ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفع «الميم» هنا وفي «الجاثية»[٤] نعتاً للعذاب. وقرأ ابن كثير وابن مُحيصِنٍ وحُميد بن قيس ومجاهد وأبو عمرو: «مُعَجِّزِينَ»[٥] أي: مثبِّطين، أي: ثبَّطوا الناسَ عن الإيمان بالمعجزات وآياتِ القرآن.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٢ .

(٣) وقرأ بها أيضاً من السبعة أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم. السبعة ص٥٢٦ ، والتيسير ص ١٨٠ .

(٤) في الآية (١١) منها . السبعة ص ٥٢٦ ، والتيسير ص ١٨٠ .

(٥) السبعة ص ٤٣٩ ، والتيسير ص ١٥٨ عن ابن كثير وأبي عمرو .

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾

لمَّا ذكر الذين سَعَوْا في إبطال النبوَّة؛ بيَّنَ أنَّ الذين أوتوا العلم يَرَوْنَ أنَّ القرآن حقٌّ. قال مقاتل: «الذين أُوتوا العلمَ» هم مؤمنو أهلِ الكتاب. وقال ابن عباس: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ[1]. وقيل: جميع المسلمين، وهو أصحُّ لعمومه.

والرؤيةُ بمعنى العلم، وهي في موضعِ نصبٍ عطفاً على «لِيَجْزِيَ»، أي: ليجزي وليرى؛ قاله الزجَّاج والفرَّاء[2]. وفيه نظر، لأنَّ قوله: «لِيجزيَ» متعلِّقٌ بقوله: «لَتأْتينَّكم الساعةُ»، ولا يقال: لتأتينَّكم الساعةُ ليَرى الذين أوتوا العلم أنَّ القرآن حقٌّ، فإنَّهم يَرَوْن القرآنَ حقًّا وإن لم تأتِهم الساعةُ. والصحيحُ أنه رفعٌ على الاستئناف؛ ذكره القشيريُّ.

قلت: وإذا كان «لِيَجْزِيَ» متعلِّقاً بمعنى: أثبت ذلك في كتابٍ مبين، فيحسُنُ عطفُ «ويَرَى» أي: وأثبت أيضاً ليرى[3] الذين أوتوا العلمَ أنَّ القرآن حقٌّ. ويجوز أن يكون مُسْتأنَفاً.

﴿ٱلَّذِىٓ﴾ في موضعِ نصبٍ على أنه مفعولٌ أول لـ «يَرى»، و﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ مفعولٌ ثانٍ. و«هو» فاصلةٌ، والكوفيون يقولون: عماد، ويجوز الرفعُ على أنه مبتدأ، و«الْحَقُّ» خبرُه، والجملةُ في موضع نصبٍ على المفعول الثاني. والنصبُ أكثرُ فيما كانت فيه الألفُ واللَّام عند جميع النحويين، وكذا ما كان نكرةً لا يَدْخلُه الألفُ واللام، فيشبِهُ المعرفة. فإن كان الخبر اسماً معروفاً نحو قولك: كان أخوكَ هو زيدٌ، فزعم الفراء أنَّ الاختيار فيه الرفعُ، وكذا: كان [أبو] محمد هو عمرو. وعلَّتُه في اختياره الرفعَ: أنه

---

(١) لم نقف عليه عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٩/ ٢١٤ عن قتادة، وينظر ما سلف ص ٢٥٨ من هذا الجزء.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٢، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤١.

(٣) في النسخ الخطية: رؤية، والمثبت من (م).

لمَّا لم تكن فيه الألفُ واللَّامُ أَشْبَهَ النكرةَ في قولك: كان زيد هو جالسٌ؛ لأنَّ هذا لا يجوز فيه إلَّا الرفعُ[١].

﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: يهدي القرآنُ إلى طريق الإسلام الذي هو دينُ الله. ودلَّ بقوله: «العزيز» على أنه لا يُغالَبُ. وبقوله: «الحميد» على أنه لا يَلِيقُ به صفةُ العجز.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ وإن شئتَ أَدْغمتَ اللامَ في النون لقُرْبِها منها[٢]. ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ هذا إخبارٌ عمَّن قال: «لا تأتينا الساعةُ» أي: هل نُرشدُكم إلى رجلٍ ينبئكم، أي: يقول لكم: إنكم تُبعَثون بعد البِلَى في القبور. وهذا صادرٌ عن فَرْطِ إنكارهم.

الزَّمخشَريُّ[٣]: فإن قلت: كان رسولُ الله ﷺ مشهوراً عَلَماً في قريش، وكان إنباؤُه بالبعث شائعاً عندهم، فما معنى قولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ فنكَّروه لهم، وعَرَضوا عليهم الدلالةَ عليه كما يُدَلُّ على مجهولٍ في أمرٍ مجهول.

قلت: كانوا يقصدون بذلك الطَّنْزَ[٤] والهُزْءَ والسُّخريةَ، فَأَخْرَجوه مخرجَ التَّحكِّي[٥] ببعض الأَحَاجيّ التي يُتَحاجَى بها للضَّحك والتَّلهِّي، مُتَجاهِلينَ به وبأمره.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣، وقول الفرَّاء في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٢. وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣، وأدغمها الكسائي.

(٣) في الكشاف ٣/ ٢٨١.

(٤) أي: السخرية. القاموس (طنز).

(٥) في (ظ): التحاكي، وفي الكشاف: التحلي.

و«إذا» في موضع نصبٍ، والعاملُ فيها: «مُزِّقْتُم»؛ قاله النحاس[١]، ولا يجوز أن يكون العاملُ فيها «يُنَبِّئُكم»؛ لأنه ليس يُخْبِرُهم ذلك الوقتَ. ولا يجوز أن يكون العاملُ فيها ما بعدَ «إنَّ»، لأنه لا يعملُ فيما قَبْلَه، و«إنَّ» لا يتقدَّم عليها ما بعدَها ولا معمولُها. وأجاز الزجَّاج[٢] أن يكون العاملُ فيها محذوفاً، التقدير: إذا مزِّقتُم كلَّ ممزَّقٍ بُعثتم، أو ينبئكم بأنكم تُبعَثون إذا مُزِّقتم.

المهدويُّ: ولا يعملُ فيه «مُزِّقتم»؛ لأنه مُضافٌ إليه، والمضافُ إليه لا يعملُ في المضاف. وأجازه بعضُهم على أن تُجعل «إذَا» للمجازاة، فيعملُ فيها حينئذٍ ما بعدَها لأنَّها غيرُ مُضافةٍ إليه. وأكثرُ ما تقع «إذا» للمجازاة في الشعر. ومعنى ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: فُرِّقتم كلَّ تَفريقٍ. والمَزْقُ: خرقُ الأشياء؛ يقال: ثوبٌ مَزِيقٌ وممزوقٌ ومتمزِّق وممزَّق.

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لمَّا دخلت ألفُ الاستفهام استغنيتَ عن ألفِ الوصل فحذَفْتَها، وكان فتحُ ألفِ الاستفهام فرقاً بينها وبين ألفِ الوصل[٣]. وقد مضى هذا في سورة مريم عند قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ [الآية:٧٨] مستوفًى.

﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ هذا مردودٌ على ما تقدَّم من قول المشركين، والمعنى: قال

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٣، وقاله أيضاً الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٤١. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٦: وهو خطأ وإفساد للمعنى. وتعقبه أبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٩ بأنه ليس بخطأ ولا إفساد للمعنى، وأن الصحيح أن إذا الشرطية يعمل فيها فعل الشرط كسائر أدوات الشرط. قال السمين في الدر المصون ٩/ ١٥٤: لكن الجمهور على خلافه.

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ٢٤٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٣، وما قبله منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣.

المشركون: أَفْتَرَى على الله كذباً ـ والافتراءُ: الاخْتِلاقُ ـ أَمْ به جِنَّةٌ، أي: جنونٌ، فهو يتكلَّم بما لا يدري. ثم رَدَّ عليهم فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمرُ كما قالوا، بل هو أصدقُ الصادقين، ومَن يُنْكِر البعثَ فهو غداً في العذاب، واليومَ في الضَّلال عن الصواب؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإله، ونسبةِ الافتراءِ إلى مَن أَيَّده بالمعجزات.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

أَعْلَمَ الله تعالى أنَّ الذي قَدَرَ على خَلْقِ السماواتِ والأرضِ وما فيهنَّ قادرٌ على البعث، وعلى تعجيلِ العقوبةِ لهم، فاستَدَلَّ بقدرته عليهم، وأنَّ السماواتِ والأرضَ مِلْكه، وأنَّهما محيطتان بهم من كلِّ جانب، فكيف يَأْمَنون الخَسْفَ والكَسْفَ كما فُعِلَ بقارونَ وأصحابِ الأيكة؟!.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿إنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بهمُ الأرضَ أو يُسْقِطْ﴾ بالياء في الثلاث، أي: إنْ يشأ اللهُ أَمَر الأرضَ فتنخسف بهم، أو السماءَ فتُسقط عليهم كِسَفاً. الباقون بالنون على التعظيم[1].

وقرأ السُّلَميُّ وحفصٌ: ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السين. الباقون بالإسكان. وقد تقدَّم بيانُه في «سبحان» وغيرها[2].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ أي: في هذا الذي ذَكَرْناه من قدرتنا «لآيةً» أي: دلالةً ظاهِرةً ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: تائبٍ رجَّاعٍ إلى الله بقلبه. وخصَّ المنيب بالذِّكر؛ لأنه المنتفِعُ بالفكرة في حُجج الله وآياته.

---

(١) السبعة ص ٥٢٧ ، والتيسير ص ١٨٠ .

(٢) ١٣/ ١٧٥ وعند تفسير الآية (١٨٧) من سورة النمل. وينظر السبعة ص٣٨٥ والتيسير ص١٦٦ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ﴾ بيَّن لمنكري نبوَّةِ محمدٍ ﷺ أنَّ إرسال الرسل ليس أمرًا بِدْعًا، بل أَرْسَلْنا الرسلَ وأيَّدناهم بالمعجزات، وأَحْلَلْنا بِمَن خالَفَهم العقاب. «آتَيْنَا»: أعطينا. ﴿فَضْلًا﴾ أي: أمراً فضَّلْناه به على غيره.

واختُلف في هذا الفضل على تسعة أقوال:

الأوّل: النبوَّة.

الثاني: الزَّبور.

الثالث: العلم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ [النمل: ١٥].

الرابع: القوّة؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ﴾ [ص: ١٧].

الخامس: تسخير الجبال والناس؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾.

السادس: التوبة؛ قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ﴾ [ص: ٢٥].

السابع: الحكم بالعدل؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [ص: ٢٦].

الثامن: إِلَانَةُ الحديد؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

التاسع: حُسن الصوت، وكان داودُ عليه السلام ذا صوتٍ حسن ووجهٍ حسن. وحُسْنُ الصوت هبةٌ من الله تعالى وتفضُّلٌ منه، وهو المرادُ بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [فاطر: ١] على ما يأتي إن شاء الله تعالى. وقال ﷺ لأبي موسى: «لقد أُوتيتَ مِزْماراً من مزامير آلِ داود»[١]. قال العلماء: المِزْمارُ والمَزْمُور: الصوتُ الحسن، وبه سمِّيت آلةُ الزَّمْرِ مِزْماراً[٢]. وقد استَحْسَنَ كثيرٌ من فقهاء

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣): (٢٣٦) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٢٩٦٩)، ومسلم (٧٩٣): (٢٣٥) من حديث بريدة الأسلمي ﷺ.

(٢) المفهم ٢/ ٤٢٣.

الأمصار القراءةَ بالتزيين والترجيع[١]، وقد مضى هذا في مقدِّمة الكتاب[٢]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أي: وقلنا: يا جبالُ أوِّبي معه، أي: سبِّحي معه؛ لأنه قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]. قال أبو ميسرة: هو التسبيحُ بلسان الحبشة[٣]، ومعنى تسبيحِ الجبال: هو أنَّ الله تعالى خَلَقَ فيها تسبيحاً كما خلق الكلامَ في الشجرة، فَيُسمَعُ منها ما يُسمَعُ من المسبِّح، معجزةً لداودَ عليه الصلاة والسلام[٤].

وقيل: المعنى: سِيري معه حيثُ شاء، من التأويب الذي هو سيرُ النهارِ أَجْمعَ وينزلُ الليلَ. قال ابن مُقْبِل:

لَحِقْنا بحيٍّ أَوَّبوا السَّيرَ بعد ما دَفَعْنا شُعاعَ الشَّمسِ والطَّرْفُ مُجنَحُ[٥]

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما: «أُوْبي مَعَهُ» أي: ارجعي معه[٦]، من آبَ يَؤُوبُ: إذا رجع، أَوْبًا وأَوْبة وإِيَاباً.

وقيل: المعنى: تصرَّفي معه على ما يَتَصرَّفُ عليه داودُ بالنهار، فكان إذا قرأ الزبورَ صَوَّتت الجبالُ معه، وأَصْغَتْ إليه الطيرُ، فكأنَّها فَعَلَتْ ما فَعَل.

وقال وهب بن منبِّه: المعنى: نُوحي معه، والطيرُ تساعده[٧] على ذلك، فكان إذا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٨٤، وفيه: بالألحان والترجيع.

(٢) ١/ ٢١.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٠، وأبو ميسرة هو عمرو بن شُرَحبيل الهَمْداني.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨١.

(٥) تفسير غريب القرآن ص ٣٥٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧، والبيت في ذيل ديوان تميم بن مقبل رقم (١٤). وذكره صاحب منتهى الطلب من أشعار العرب ٦/ ٤٦ عن الراعي النميري، وهو في ديوانه ص٣٩. ووقع في (م): يجنح، وهو موافق لما في تفسير الغريب.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧، قال ابن عطية: أي: في السير، أو في التسبيح.

(٧) في النسخ الخطية: تسعده، والمثبت من (م).

نادى بالنياحة أجابته الجبال بصَدَاها، وعكفت الطيرُ عليه مِن فوقه. فصَدَى الجبالِ الذي يسمعه الناس إنَّما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة[١]، فأُيِّد بمساعدة الجبال والطير لئلَّا يجد فَتْرةً، فإذا دخلت الفترةُ اهتاج، أي: ثار وتحرَّك، وقَوِيَ بمساعدةِ الجبالِ والطير. وكان قد أُعطيَ من الصوت ما تتزاحمُ الوحوشُ من الجبال على حُسْنِ صوته، وكان الماءُ الجاري يَنْقَطِعُ عن الجَرْي وقوفاً لصوته.

«وَالطَّيْرُ» بالرفع قراءةُ ابنِ أبي إسحاق، ونصرٍ عن عاصم، وابنِ هُرْمُز، ومَسْلمةَ ابنِ عبد الملك[٢]، عطفاً على لفظ الجبال، أو على المضمَر في «أَوِّبي»، وحسَّنه الفصلُ بمع. الباقون بالنصب عطفاً على موضع «يا جبالُ» أي: نادينا الجبالَ والطير؛ قاله سيبويه. وعند أبي عمرو بن العلاء بإضمارِ فعلٍ، على معنى: وسخَّرنا له الطير. وقال الكسائيُّ: هو معطوفٌ، أي: وآتيناه الطيرَ، حملاً على ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾. النحاس[٣]: ويجوز أن يكون مفعولاً معه، كما تقول: استوى الماء والخشبةَ. وسمعتُ الزجَّاج يُجيز: قمتُ وزيداً، فالمعنى: أوِّبي معه ومع الطير[٤].

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ قال ابن عباس: صار عنده كالشمع[٥]. وقال الحسن: كالعجين[٦]، فكان يعمله من غير نار. وقال السُّدي: كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجينِ والشمع، يُصَرِّفه كيف شاء، من غير إدخالِ نارٍ ولا ضربٍ بِمطْرَقةٍ[٧]. وقاله مقاتل. وكان يَفْرَغُ من الدِّرع في بعضِ اليومِ أو بعضِ الليل،

---

(١) هذا كلام يناقض سنة الله في كونه، والخبرُ من الإسرائيليات.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣ - ٣٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧ وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٤، وما قبله منه.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤٣.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٨٨.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٧.

(٧) في (ظ): مطرقة.

ثمنُها ألفُ درهم.

وقيل: أُعطيَ قوةً يَثْني بها الحديد، وسَبَبُ ذلك: أنَّ داود عليه السلام لمَّا مَلَكَ بني إسرائيلَ؛ لَقِيَ مَلَكاً وداودُ يَظُنُّه إنساناً، وداودُ مُتنكِّرٌ؛ خرج يسأل عن نفسه وسيرتِه في بني إسرائيلَ في خَفَاءٍ، فقال داودُ لذلك الشخصِ الذي تَمثَّلَ له: ما قولُك في هذا الملِك داودَ؟ فقال له المَلَكُ: نِعْمَ العبدُ لولا خَلَّةٌ فيه. قال داودُ: وما هي؟ قال: يَرتَزِقُ من بيت المال، ولو أَكَلَ مِن عَمَلِ يده لَتَمَّتْ فضائلُه. فرجع، فدعا الله في أنْ يعلِّمه صنعةً ويسهِّلَها عليه، فعلَّمه صنعةَ لَبوسٍ كما قال جلَّ وعزَّ في سورة الأنبياء، فألانَ له الحديدَ، فصنع الدُّروعَ، فكان يصنع الدِّرعَ فيما بين يومِه وليلتِه يساوي ألفَ درهمٍ، حتى ادَّخر منها كثيراً، وتوسَّعتْ معيشةُ منزله، وتَصَدَّق على الفقراء والمساكين، وكان يُنفقُ ثلثَ المالِ في مَصَالحِ المسلمين[1]. وهو أوّلُ مَن اتَّخذ الدروعَ وصَنَعها وكانت قبل ذلك صفائحَ. ويقال: إنه كان يبيع كلَّ درعٍ منها بأربعة آلاف[2]. والدِّرعُ مؤنثةٌ إذا كانت للحرب، ودرعُ المرأةِ مُذَكَّر[3].

مسألة: في هذه الآية دليلٌ على تعلُّم أهلِ الفضلِ الصَّنائعَ، وأنَّ التحرُّفَ بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادةٌ في فضلهم وفضائلهم؛ إذ يحصلُ لهم التواضعُ في أنفسهم والاستغناءُ عن غيرهم، وكَسْبُ الحلالِ الخليِّ عن الامتنان. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ خيرَ ما أَكَلَ المرءُ مِن عَمَلِ يَدِه، وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ مِن عَمَلِ يَدِه»[4]. وقد مضى هذا في «الأنبياء»[5] مُجَوَّداً، والحمد لله.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧ - ٤٠٨ ، وبنحوه في عرائس المجالس ص ٢٨١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥٠ .

(٢) عرائس المجالس ص ٢٨١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٤ .

(٤) صحيح البخاري (٢٠٧٢) من حديث المقدام ﷺ، و(٢٠٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ١٠/ ١٦١ .

(٥) ١٤/ ٢٥٤ .

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ أي: دروعاً سابغاتٍ، أي: كَوَامِلَ تامَّاتٍ واسعات؛ يقال: سَبَغ الدِّرْعُ والثوبُ وغيرُهما: إذا غطَّى كلَّ ما هو عليه وفَضَلَ منه. ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ قال قتادة: كانت الدُّروعُ قبلَه صَفائح، فكانت ثِقَالاً؛ فلذلك أُمِرَ هو بالتقدير فيما يجمع بين[1] الخِفَّةِ والحَصَانة. أي: قَدِّرْ ما تأخذُ من هذين المَعْنيَين بقِسْطِه، أي: لا تَقْصدِ الحصانةَ فتثقُلَ، ولا الخفةَ فتُزيلَ المَنَعةَ.

وقال ابن زيد: التقديرُ الذي أُمر به هو في قَدْرِ الحَلْقة، أي: لا تَعْمَلْها صغيرةً فتَضْعُفَ، فلا تَقْوى الدروعُ على الدفاع، ولا تَعْمَلْها كبيرةً فيُنالَ لابِسُها [من خلالها][2].

وقال ابن عباس: التقديرُ الذي أُمر به هو في المسمار، أي: لا تجعل مسمارَ الدرع رقيقاً فيَقْلَقَ، ولا غليظاً فَيَفْصِمَ الحَلَق[3]. روي «يَقْصِمُ» بالقاف، والفاءُ أيضاً رواية[4].

﴿فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ السَّرْدُ: نسجُ حَلَق الدروع، ومنه قيل لصانع الدروع: السَّرَّاد والزرَّاد، تُبدَلُ من السين الزايُ، كما قيل: سِرَاط وزِرَاط. والسَّرد: الخَرْز، يقال: سَرَدَ يَسْرُدُ: إذا خَرَز. والمِسْرَد: الإشْفَى[5]، ويقال: سِرَاد. قال الشَّمَّاخ:

---

(١) في النسخ عدا (ظ): من، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/٤٠٨، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٠٨، وما بين حاصرتين منه، وأخرج قول ابن زيد وقول قتادة الطبري ١٩/٢٢٣ - ٢٢٤.

(٣) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/١٢٧. وقوله: فيقلق، أي: لا يستقر ولا يثبت. اللسان (قلق). وعلقه البخاري كما في الفتح ٦/٤٥٣ عن مجاهد قال: لا ترقَّ المسامير فيسلس، ولا تعظم فينفصم. قال الحافظ: معناه: فيخرج من الثقب برفق، أو يصير متحركاً فيلين عند الخروج.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٤٠٨.

(٥) وهو مِثْقَب الإسكاف، جمعها: الأشافي. معجم متن اللغة (أشف).

فظلَّتْ تِبَاعاً خيلُنا في بيوتكم كما تابعتْ سَرْدَ العِنانِ الخوارزُ[١]

والسِّرَاد: السَّيرُ الذي يُخْرَزُ به؛ قال لَبِيد:

يَشُكُّ صِفَاحَهَا بالرَّوْقِ شَزْرًا كما خرج السِّرَادُ من النِّقَالِ[٢]

ويقال: قد سَرَدَ الحديثَ والصومَ، فالسَّرْدُ فيهما: أنْ يَجيءَ به وِلاءً في نسقٍ واحد، ومنه سرد الكلام. وفي[٣] حديث عائشة: لم يكن النبيُّ ﷺ يَسْرُدُ الحديثَ كَسَرْدِكُم، وكان يحدِّث الحديثَ لو أراد العادُّ أن يَعُدَّه لأَحْصَاه[٤]. قال سيبويه[٥]: ومنه: رجلٌ سَرَنْدَى، أي: جريء، قال: لأنه يمضي قُدُماً. وأصلُ ذلك في سَرْدِ الدِّرْع، وهو أن يُحْكِمَها ويجعل نظامَ حَلقَها وِلاءً غيرَ مختلفٍ. قال لبيد:

صَنَعَ الحديدَ مُضاعفاً أسرادُه لينال طولَ العيش غيرَ مَرُومِ[٦]

وقال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرُودَتانِ قضاهما داودُ أو صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ[٧]

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أي: عملاً صالحاً. وهذا خطابٌ لداودَ وأَهْلِه. كما قال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]. ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

---

(١) ديوان الشماخ ص١٩٤ برواية: شكَكْنَ بأحساءَ الذِّنابَ على هُدًى ـ كما تابعت . . . يصف أُتُناً وَرَدْنَ وحَسَسْنَ بالصائد فنَفَرْنَ على تتابُعٍ واستقامة. اللسان (عرق). وذكر ابن قتيبة عجزه في غريب القرآن ص٣٥٤ ، والكلام فيه بنحوه.

(٢) في النسخ الخطية: النعال، والمثبت من (م) وشرح ديوان لبيد ص ٧٩ . وقال الشارح: يشك: يطعن (وهو الثور) صفاحها: جُنوبها. والرَّوق: القَرْن. شَزْراً: جانباً. والنقال واحدها نَقْل: وهو النعل الخَلَق تُرقع فتُخرز.

(٣) في (ظ): ومنه.

(٤) أخرج أوله أحمد (٢٤٨٦٥)، ومسلم (٢٤٩٣)، وعلقه البخاري (٣٥٦٨). وأخرجه من قوله: وكان يحدث الحديث...، البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم في كتاب الزهد (٢٤٩٣): (٧١).

(٥) في الكتاب ٤/٣٢٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٥/٣٩٧ .

(٦) ديوان لبيد ص ١٠٩ برواية: صنع الحديد لحفظه أسرادَه...، قوله: غير مروم، قال شارح الديوان: أي: لينال طول العيش وهو لا يُرام.

(٧) سلف ٢/٣٣٦ .

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ قال الزجَّاج[١]: التقدير: وسخَّرنا لسليمانَ الريح. وقرأ عاصم في روايةِ أبي بكر عنه: «الرِّيحُ» بالرفع[٢] على الابتداء، والمعنى: له تسخيرُ الريح، أو بالاستقرار، أي: ولسليمان الريحُ ثابتةٌ، وفيه ذلك المعنى الأولُ. فإن قال قائل: إذا قلت: أعطيتُ زيداً درهماً ولعمرو دينارٌ، فرفعتَه لم يكن فيه معنى الأولِ، وجاز أن يكون لم تُعْطِه الدينارَ. قيل: الأمرُ كذا؛ ولكن الآية على خلافِ هذا من جهة المعنى؛ لأنَّه قد عُلم أنه لم يسخِّرها أحدٌ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ[٣].

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: مسيرةُ شهر. قال الحسن: كان يغدو من دمشقَ فيَقِيلُ بإِصْطَخْرَ، وبينهما مسيرةُ شهرٍ للمُسْرِع، ثم يروح من إِصْطَخر ويَبيتُ بكابُل، وبينهما شهرٌ للمُسْرِع[٤]. قال السُّدِّيُّ: كانت تسير به في اليوم مسيرةَ شهرين[٥].

وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كان سليمان إذا جلس نُصبت حَوالَيْه أربعُ مئةِ ألفِ كرسيٍّ، ثم جلس رؤساءُ الإنس ممَّا يليه، وجلس سِفْلةُ الإنس مما يليهم، وجلس رؤساءُ الجنِّ مما يلي سِفْلةَ الإنس، وجلس سفلةُ الجنِّ ممَّا يَليهم، ومُوكَّلٌ بكلِّ كرسيٍّ طائرٌ لعملٍ قد عَرَفه، ثم تُقِلُّهم الريحُ، والطيرُ تُظِلُّهم من الشمس، فيغدو من بيت المقدس إلى إصطخر [فيَقيلُ بها، ثم يَروحُ من إصطخر] فيبيت ببيت المقدس، ثم قرأ ابن عباس: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[٦].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٥.
(٢) السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٠.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٥.
(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٧، والطبري ١٩/ ٢٢٨. وإِصْطَخْر: مدينة بفارس. معجم البلدان ١/ ٢١١.
(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٧ عن قتادة، وأخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٧ عن مجاهد.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٥، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣٦، والطبري ١٨/ ٣٠.

وقال وهب بن منبِّهٍ: ذُكر لي أنَّ منزلاً بناحيةِ دِجْلةَ مكتوباً فيه - كَتبه بعضُ صَحابةِ سليمانَ؛ إمَّا من الجنِّ وإما من الإنس - : نحن نَزَلناهُ[1] وما بنيناه، ومَبْنيًّا وجدناه، غَدَوْنا من إصْطَخْرَ فَقِلْناه، ونحن رائحون منه إن شاء الله تعالى فبائتون في الشام[2].

وقال الحسن: شَغَلتْ سليمانَ الخيلُ حتى فاتته صلاةُ العصر، فعقر الخيلَ فأَبْدَلَه الله خيراً منها وأَسْرَعَ، أَبْدَلَه الريحَ تجري بأمره حيث شاء، غدوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شهر[3].

وقال ابن زيد: كان مستقرُّ سليمانَ بمدينةِ تَدْمُرَ، وكان أَمَر الشياطينَ قبل شُخوصِه من الشام إلى العراق، فبَنَوْها له بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ والرُّخامِ الأبيضِ والأصفر[4]، وفيه يقول النابغة:

إلَّا سليمانَ إذ قال الإله[5] له ... قُمْ في البريَّة فاحْدُدْها عن الفَنَدِ
وخَيِّسِ الجنَّ إنِّي قد أَذِنْتُ لهم ... يَبْنُونَ تَدْمرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ
فَمَن أطاعَكَ فانفَعْه بطاعَتِهِ ... كما أطاعَكَ وادْلُلْهُ على الرَّشَدِ
ومَن عصاكَ فعاقِبْه مُعاقَبَةً ... تَنْهَى الظَّلومَ ولا تَقْعُدْ على ضَمَدِ[6]

ووجدتُ هذه الأبياتَ منقورةً في صخرةٍ بأرضِ كَسْكَر[7]، أنشأهنَّ بعض

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: نزلنا.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٧ ، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٥٦ .

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٢٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠ ، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٣٠٤ ، والبغوي ٣/ ٢٥٥ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣١٤ لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) عرائس المجالس ص ٣٠٤ ، والصُّفَّاح: حجارة عِراض رِقَاق. القاموس (صفح).

(٥) في (ظ): المليك.

(٦) ديوان النابغة ص ٣٣ ، وذكر البغدادي في الخزانة ٣/ ٤٠٥ البيت الأول وقال: قوله: فاحْدُدْها، أي: امنع البرية، والحد: المنع. والفَنَد: خطأ الرأي والصنيع، وقال ابن الأعرابي: الفند: الظلم. اهـ. وقوله: خيِّس، أي: ذَلِّل. والضَّمَد: الحقد. القاموس (خيس) و(ضمد).

(٧) في (د) و(م): يشكر، والمثبت من باقي النسخ، وعرائس المجالس ص ٣٠٤ ، والكلام منه، وكسكر مكان بالعراق. ينظر معجم البلدان ٤/ ٤٦١ .

أصحابِ سليمان عليه الصلاة والسلام:

ونحن ولا حولٌ سوى حولِ ربِّنا ... نَروحُ إلى الأوطان من أرضِ تَدْمُرِ
إذا نحن رُحْنا كان رَيْثُ[١] رَوَاحِنا ... مسيرةَ شهرٍ والغُدُوُّ لآخَرِ
أُناسٌ شَرَوْا لله طَوْعًا نفوسَهم ... بنَصْرِ ابنِ داودَ النبيِّ المُطَهَّرِ
لهم في معالي الدِّين فضلٌ ورأفةٌ ... وإن نُسِبُوا يوماً فمِن خير مَعْشَرِ
متى يركبوا الريحَ المطيعةَ أسرعتْ ... مُبادِرةً عن شَهْرِها لم تُقَصِّرِ
تُظلُّهُمُ طيرٌ صفوفٌ عليهمُ ... متى رَفْرَفَتْ من فوقهم لم تُنَفَّرِ

قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ القِطْر: النحاس؛ عن ابن عباس وغيره[٢]. أُسِيلت له مسيرةَ ثلاثةِ أيام كما يسيلُ الماء، وكانت بأرض اليمن، ولم يُذَبِ النحاسُ فيما روي لأحدٍ قَبْلَه، وكان لا يذوب، ومن وقته ذاب، وإنَّما ينتفع الناس اليومَ بما أَخرج الله تعالى لسليمان. قال قتادة: أسال الله عيناً يستعملُها فيما يريد[٣]. وقيل لعكرمة: إلى أين سالت؟ فقال: لا أدري[٤]!.

وقال ابن عباس ومجاهدٌ والسُّدِّي: أُجريت له عينُ الصُّفْر ثلاثةَ أيام بلياليهن[٥]؛ قال القشيريُّ: وتخصيصُ الإسالة بثلاثةِ أيامٍ لا يُدْرَى ما حدُّه، ولعلَّه وَهْمٌ من الناقل؛ إذ في روايةٍ عن مجاهد: أنها سالت من صنعاءَ ثلاثَ ليالٍ مما يليها، وهذا يشير إلى بيانِ الموضع، لا إلى بيان المدَّة. والظاهرُ أنه جعل النحاس لسليمان في

---

(١) في عرائس المجالس: أمر، والرَّيْث: المقدار. القاموس (ريث).

(٢) تفسير الطبري ١٩/٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/٣٩٨ بلفظ: أسال الله له عيناً من نحاس، أي: سالت وظهرت، فكان يستعملها فيما يريد.

(٤) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٥/٢٢٨ .

(٥) أخرجه عن السدي ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/٢٢٨ ، ولم نقف عليه عن ابن عباس ومجاهد. والصُّفْر هو النحاس، أو النحاس الجيد. معجم متن اللغة (صفر).

معدنه عيناً تسيل كعيون المياه، دلالةً على نبوَّته.

قال الخليل: القِطْر: النحاسُ المُذاب(١).

قلت: دليلُه قراءةُ مَن قرأ: «مِن قِطرٍ آنٍ»(٢).

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: بأمره ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: في الآخرة؛ قاله أكثر المفسرين(٣).

وقيل: ذلك في الدنيا، وذلك أنَّ الله تعالى وكَّل بهم ـ فيما روي عن السُّدِّيِّ ـ مَلَكاً بيده سوطٌ من نار، فَمَن زاغ عن أمر سليمانَ ضَرَبه بذلك السوط ضربةً من حيث لا يراه، فأَحْرقته(٤).

و«مَن» في موضعِ نصبٍ بمعنى: وسخَّرْنا له مِن الجنِّ مَن يعمل. ويجوز أن يكون في موضعِ رفعٍ، كما تقدَّم في الريح(٥).

قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ المحرابُ في اللغة: كلُّ موضعٍ مُرتفعٍ. وقيل للَّذِي يصلَّى فيه: محراب؛ لأنه يجب أن يُرفع ويُعَظَّم(٦). وقال

(١) العين ٥/ ٩٥.

(٢) القراءات الشاذة ص ٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٦، وسلفت ١٢/ ١٧٢ عند تفسير الآية (٥٠) من سورة إبراهيم.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٨٩، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٣٨ عن الضحاك، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٥.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٦.

الضحاك: «مِنْ مَحَارِيبَ» أي: من مساجد. وكذا قال قتادة. وقال مجاهد: المحاريبُ دون القصور[1]. وقال أبو عبيدة: المحرابُ: أَشْرفُ بيوتِ الدار[2]، قال:

وماذا عليه أنْ ذكرتُ أَوَانِساً كغِزلان رَمْلٍ في محاريبِ أقيالِ[3]

وقال عَدِيّ بن زيد:

كدُمَى العاجِ في المحاريب أو كالـ ـبِيض في الرَّوْضِ زهرُه مُسْتَنيرُ[4]

وقيل: هو ما يُرقَى إليه بالدَّرَج كالغرفة الحسنة؛ كما قال: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١] وقوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ [مريم:١١] أي: أَشْرَفَ عليهم.

وفي الخبر: أنه أَمر أن يُعمل حولَ كرسيِّه ألفُ محرابٍ فيها ألفُ رجلٍ عليهم المسوحُ يَصْرخون إلى الله دائباً، وهو على الكرسيِّ في موكِبه والمحاريبُ حوله، ويقول لجنوده إذا ركب: سبِّحوا الله إلى ذلك العَلَم، فإذا بَلَغوه قال: هلِّلوه إلى ذلك العَلَم، فإذا بلغوه قال: كبِّروه إلى ذلك العَلَم الآخَر، فتَلِجُّ الجنودُ بالتسبيحِ والتهليلِ لَجَّةً واحدة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ جمع تمثال. وهو كلُّ ما صُوِّر على مثلِ صورةِ غيره من حيوانٍ أو غيرِ حيوان. وقيل: كانت من زجاجٍ ونحاسٍ ورخامٍ تماثيل أشياءَ ليست بحيوان.

وذُكر أنها صورُ الأنبياء والعلماء، وكانت تصوَّر في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادةً واجتهاداً؛ قال ﷺ: «إنَّ أولئك كان[5] إذا مات فيهم الرجلُ الصالح

---

(١) أخرج أقوالهم الطبري ١٩/ ٢٣٠ - ٢٣١.

(٢) بنحوه في النكت والعيون ٤/ ٤٣٨، وفي مجاز القرآن ٢/ ١٤٤ لأبي عبيدة: المحراب: مقدَّم كلِّ مسجد ومصلًّى وبيت.

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٣٤. قال شارحه: الأقيال: الملوك، وهم يتخذون الغزلان ويُربُّونها، ومعنى قوله: أن ذكرت أوانساً، أي: ما عليه في أنْ شبَّبْتُ بهنَّ وطَرِبْتُ إليهن!.

(٤) الكامل للمبرد ٢/ ٩٤٩، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٣٦٠، والبيان والتبيين ١/ ٤٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٤.

(٥) في (ظ): كانوا.

بنَوْا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصُّورَ»[١]. أي: ليتذكَّروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة.

وهذا يدلُّ على أنَّ التصوير كان مباحاً في ذلك الزمان، ونُسخ ذلك بشرع محمدٍ ﷺ. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة نوح إن شاء الله تعالى[٢].

وقيل: التماثيلُ طِلَّسْمات[٣] كان يعملُها، ويُحرِّمُ على كلِّ مصوِّرٍ[٤] أن يتجاوزها، فلا يتجاوزها، فيعمل تمثالاً للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبداً[٥] ما دام ذلك التمثالُ قائماً. وواحدُ التماثيل تمثالٌ بكَسْر التاء؛ قال:

ويا رُبَّ يومٍ قد لَهوْتُ وليلةٍ بآنِسَةٍ كأنَّها خطُّ تِمثالِ[٦]

وقيل: إنَّ هذه التماثيلَ رجالٌ اتَّخذهم من نحاس، وسأل ربَّه أن ينفخ فيها الروحَ ليقاتلوا في سبيل الله ولا يَحِيك فيهم السلاح، ويقال: إنَّ إسفنديارَ كان منهم[٧]، والله أعلم.

وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيِّه ونَسْرَيْن فوقه، فإذا أراد أن يصعد

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٥٢)، والبخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وتتمته: «... فأولئك شِرارُ الخَلْقِ عند اللهِ يومَ القيامة». وسلف ٢/ ٢٩٤ .

(٢) عند تفسير الآية (٢٣) منها.

(٣) هي نقوش تنقش على أجساد خاصة في ساعات مناسبة بكيفيات ملائمة لحوائج معلومة، واحدها: طِلَّسم. معجم متن اللغة (طلسم).

(٤) في (خ): مصر.

(٥) في (ظ): ويأمرهم ألا يتجاوزوه مرة واحدة أبداً.

(٦) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٢٩ . قال شارحه: قوله: بآنسة، أي: بامرأة ذات أُنْس. وقوله: خط تمثال، أي: نقش صورة، وإنما شبَّهها بالتمثال لأن الصانع له يتأنَّق في تحسينه.

(٧) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١١٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: فلا يحيك، أي: فلا يؤثِّر. القاموس (حاك). قال الآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ١١٩ : وهذا من العجب العجاب، ولا ينبغي لأحد اعتقادُ صحته، وما هو إلا حديثُ خرافة.

بَسَطَ الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أَطْلَقَ النَّسران أجنحتهما[١].

الثالثة: حكى مكّيّ في «الهداية» له: أنَّ فرقةً تجوِّز التصوير، وتحتجُّ بهذه الآية. قال ابن عطية[٢]: وذلك خطأ، وما أحفظُ عن أحدٍ من أئمة العلم مَن يُجوِّزُه.

قلت: ما حكاه مكّيٌّ ذكره النحَّاس قبله؛ قال النحاس[٣]: قال قومٌ: عملُ الصورِ جائزٌ لهذه الآية، ولِمَا أخبر الله عزَّ وجلَّ عن المسيح[٤]. وقال قومٌ: قد صحَّ النهيُ عن النبيِّ ﷺ عنها، والتوعُّدُ لمن عَمِلَهَا أو اتَّخذها، فنسخ الله عزَّ وجلَّ بهذا[٥] ما كان مباحاً قبله، وكانت الحكمةُ في ذلك لأنه بُعث عليه الصلاة والسلام والصورُ تُعبد، فكان الأصلحُ إزالتَها.

الرابعة: التمثالُ على قسمين: حيوانٌ ومَوَات. والمواتُ على قسمين: جمادٌ ونامٍ؛ وقد كانت الجنُّ تصنعُ لسليمان جميعَه؛ لعموم قوله: «وتماثيلَ». وفي الإسرائيليات: أنَّ التماثيل من الطير كانت على كرسيِّ سليمان.

فإن قيل: لا عمومَ لقوله: «وَتَمَاثيلَ» فإنَّه إثباتٌ في نكرة، والإثباتُ في النكرة لا عمومَ له، إنَّما العمومُ في النفي في النكرة.

قلنا: كذلك هو، بَيْدَ أنه قد اقترن بهذا الإثباتِ في النكرة ما يقتضي حملَه على العموم، وهو قوله: «ما يشاءُ» فاقترانُ المشيئةِ به يقتضي العمومَ له.

فإن قيل: كيف استجاز الصورَ المنهيَّ عنها؟[٦]

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٢ .

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٩ ، وما قبله منه. وكتاب مكي اسمه: الهداية إلى بلوغ النهاية. كشف الظنون ٢/ ٢٠٤١ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٦ .

(٤) يعني قوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: ٤٩].

(٥) في إعراب القرآن: فنسخ ﷺ.

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٨٨ (والكلام منه): كيف شاء عمل الصور المنهي عنها.

قلنا: كان ذلك جائزاً في شرعه، ونُسخ ذلك بشرعنا كما بيَّنَّا، والله أعلم. وعن أبي العالية: لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرَّماً(١).

الخامسة: مقتضى الأحاديث يدلُّ على أنَّ الصور ممنوعةٌ، ثم جاء: «إلَّا ما كان رَقْمًا في ثوب»(٢)، فخُصَّ من جملة الصور، ثم ثبتت الكراهيةُ فيه بقوله عليه الصلاة والسلام لعائشةَ في الثوب [المصوَّر]: «أَخِّريه عنِّي، فإنِّي كلَّما رأيتُه ذكرتُ الدنيا». ثم بِهَتْكِهِ الثوبَ المصوَّرَ على عائشةَ مَنَعَ منه، ثم بقَطْعِها له وسادتين حتى تغيَّرت الصورةُ وخرجت عن هيئتها، بان(٣) جواز ذلك إذا لم تكن الصورةُ فيه متَّصلةَ الهيئة، ولو كان متَّصلةَ الهيئةِ لم يَجز؛ لقولها في النُّمرُقة المصوَّرة: اشتريتُها لك لتقعد عليها وتَوَسَّدَها، فمنع منه، وتوعَّد عليه. وتبيَّن بحديث الصلاة إلى الصور أنَّ ذلك جائزٌ في الرَّقْم في الثوب ثم نَسَخَه المنعُ منه. فهكذا استقرَّ الأمر فيه، والله أعلم؛ قاله ابن العربيّ(٤).

السادسة: روى مسلم عن عائشةَ قالت: كان لنا سِترٌ فيه تمثالُ طائرٍ، وكان الداخِلُ إذا دخل استقبله، فقال رسول الله ﷺ: «حوِّلي هذا، فإنِّي كلَّما دخلتُ فرأيته ذكرتُ الدنيا». قالت: وكانت لنا قَطِيفةٌ كنَّا نقولُ: عَلَمُها حرير، فكنَّا نَلْبَسُها(٥).

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٢ .

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٦٣٤٥)، والبخاري (٣٢٢٦)، ومسلم (٢١٠٦) عن أبي طلحة الأنصاري ﷺ وأخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٦٦ ، وأحمد (١٥٩٧٩)، والترمذي (١٧٥٠)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٢١٢ عن سهل بن حنيف ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. والرَّقْم: النقش والوشي. النهاية (رقم). والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٠ .

(٣) في (د) و(م): فإن.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٠ ، وما بين حاصرتين منه. وقول عائشة رضي الله عنها في النُّمرقة المصورة: اشتريتها لك...، قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٦٠٩٠)، والبخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧): (٩٦) عن عائشة رضي الله عنها. والنُّمرقة: الوسادة، وهي بضم النون والراء وبكسرهما، جمعها: نمارق. النهاية (نمرق). وسيأتي تخريج ما ذكر من أحاديث في المسألة التالية.

(٥) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٨٨)، وهو عند أحمد (٢٤٢١٨).

وعنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا مستترةٌ[١] بِقِرامٍ فيه صورةٌ، فتلوَّنَ وجهُه، ثم تناول الستر فهتكه، ثم قال: «إنَّ من أشدِّ الناس عذاباً يومَ القيامة الذين يُشَبِّهونَ بخلقِ الله عزَّ وجلَّ»[٢].

وعنها: أنه كان لها ثوبٌ فيه تصاويرُ ممدودٌ إلى سَهْوةٍ، فكان النبيُّ ﷺ يصلِّي إليه فقال: «أخِّريه عني» قالت: فأخَّرتُه، فجعلتُه وسادتين[٣].

قال بعض العلماء: ويمكن أن يكون تهتيكُه عليه الصلاة والسلام الثوبَ وأَمْرُه بتأخيره وَرَعًا؛ لأنَّ محلَّ النبوَّةِ والرسالةِ الكمالُ. فتأمَّله.

السابعة: قال المزنيُّ عن الشافعيِّ: إنْ دُعي رجلٌ إلى عُرسٍ، فرأى صورةً ذاتَ رُوحٍ، أو صوراً ذات أرواح، لم يدخل إن كانت منصوبةً. وإن كانت تُوطَأُ فلا بأس، وإن كانت صورُ الشجر [فلا بأس]. ولم يختلفوا أنَّ التصاوير في الستور المعلَّقةِ مكروهةٌ غيرُ محرَّمةٍ. وكذلك عندهم ما كان خرطاً أو نقشاً في البناء[٤].

واستثنى بعضُهم ما كان رَقْماً في ثوبٍ؛ لحديث سهل بن حُنيف[٥].

قلت: لعن رسول الله ﷺ المصوِّرين ولم يستثنِ[٦]. وقولُه: «إنَّ أصحاب هذه الصور يعذَّبون يومَ القيامة، ويقال لهم: أَحيُوا ما خَلَقتُم»[٧] ولم يَسْتَثْنِ؛ وفي الترمذيِّ

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم ١٤/ ٨٨ : في معظم النسخ: متسترةٌ، وفي بعضها: مستترة، أي: متخذة ستراً.

(٢) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٩١)، وهو عند أحمد (٢٥٦٣١)، والبخاري (٥٩٥٤) و(٦١٠٩).
والقِرام: الستر الرقيق. النهاية (قرم).

(٣) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٩٣)، وهو عند أحمد (٢٥٣٩٢) وفيهما: فجعلته وسائد. والسهوة: بيت صغير يشبه المَخْدَع، وقيل: هي شِبْهُ الطَّاقِ يُجعل فيه الشيء، وقيل: شبه الخزانة الصغيرة. المفهم ٥/ ٤٢٦ .

(٤) التمهيد ١/ ٣٠٢ ، وما سلف بن حاصرتين منه.

(٥) سلف في بداية المسألة الخامسة.

(٦) سلف ص٢٢٣ من هذا الجزء.

(٧) أخرجه أحمد (٢٦٠٩٠)، والبخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧): (٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلفت قطعة منه في المسألة الخامسة.

عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عُنُقٌ من النار يومَ القيامة له عينان تُبصران، وأُذنان تسمعان، ولسانٌ ينطقُ يقول: إنِّي وُكِّلتُ بثلاثٍ: بكلِّ جبارٍ عنيد، وبكلِّ مَن دعا مع الله إلهاً آخرَ وبالمصوِّرين» قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح[1]؛ وفي البخاريِّ ومسلمٍ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون»[2]: يدلُّ على المنع من تصوير شيءٍ، أيّ شيءٍ كان. وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النحل: ٦٠] على ما تقدَّم بيانُه فاعْلَمْه.

الثامنة: وقد استُثْنيَ من هذا الباب لُعَبُ البنات، لِمَا ثبت عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ تزوَّجها وهي بنتُ سبعِ سنين، وزُفَّتْ إليه وهي بنتُ تسعٍ ولُعَبُها معها، ومات عنها وهي بنتُ ثمان عشرةَ سنةً. وعنها أيضاً قالت: كنتُ ألعبُ بالبنات عند النبيِّ ﷺ، وكان لي صواحبُ يلعبنَ معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمِعن منه، فيُسَرِّبُهنَّ إليَّ فيلعبن معي. خرَّجهما مسلم[3]. قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك، وحاجةِ البنات حتى يتدرَّبنَ على تربية أولادهنّ. ثم إنه لا بقاءَ لذلك، وكذلك ما يُصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاءَ له، فرُخِّص في ذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾[4] قال ابنُ عرفة: الجواب[5] جمعُ الجابية، وهي

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٧٤)، وهو عند أحمد (٨٤٣٠). قوله: عُنُق، أي: طائفة وجانب من النار. الترغيب والترهيب ٣/ ٦٢٨ .

(٢) صحيح البخاري (٥٩٥٠)، وصحيح مسلم (٢١٠٩)، وهو عند أحمد (٣٥٥٨).

(٣) في صحيحه (١٤٢٢): (٧١)، و(٢٤٤٠). والحديث الثاني عند أحمد (٢٤٢٩٨)، والبخاري (٦١٣٠). قولها: ينقمعن، أي: ينقبضن ويستَتِرْن حياءً من النبي ﷺ وهيبة له. وقولها: يُسَرِّبُهنّ، أي: يُرسلهن ويؤنسهنَّ حتى يزول عنهنَّ ما كان أصابهنَّ.

(٤) في (ظ): كالجوابي، وهي قراءة ابن كثير من السبعة وصلاً ووقفاً، وأثبت الياء في الوصل ورش وأبو عمرو. السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٢ .

(٥) في (م): الجوابي.

حُفيرةٌ كالحوض. وقال مجاهد: كحياض الإبل[١]. وقال ابن القاسم عن مالك: كالجَوْبَة من الأرض[٢]، والمعنى متقارب، وكان يقعد على الجَفْنَة الواحدة ألفُ رجل.

النّحّاس[٣]: «وجِفَانٍ كالجَوابي» الأَوْلَى أن تكون بالياء، ومَن حَذَفَ الياء قال: سبيلُ الألف واللامِ أن تدخل على النكرة فلا يغيِّرها عن حالها، فلمّا كان يقال: جوابٍ، ودخلت الألف واللام؛ أُقرَّ على حاله، فحذف[٤] الياء. وواحدُ الجوابي جابية، وهي القِدرُ العظيمة، والحوضُ العظيم الكبير الذي يُجْبَى فيه الشيءُ، أي: يجمع، ومنه: جَبَيْتُ الخَراجَ، وجَبَيتُ الجراد، أي: جعلت[٥] الكساءَ فجمعته فيه. إلّا أنَّ لَيْثًا روى عن مجاهد قال: الجَوابي جمعُ جَوبة. والجَوبةُ: الحفرةُ الكبيرة تكون في الجبل [يجتمع] فيها ماء المطر.

وقال الكسائيُّ: جَبَوْتُ الماءَ في الحوض وجَبَيْتُه، أي: جمعتُه، والجابية: الحوضُ الذي يُجبى فيه الماء للإبل، قال:

تَروحُ على آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ كجابيةِ الشيخِ العراقيِّ تَفْهَقُ[٦]

ويروى أيضاً:

نَفَى الذمَّ عن آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ كجابيةِ السَّيحِ ... ...

ذكره النَّحّاس[٧].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٣ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٠ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٦ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في إعراب القرآن: بحذف.

(٥) في (ظ): بسطت.

(٦) البيت للأعشى ميمون بن قيس، وسلف عجزه ٨/ ٤٥١ ، وذكره بهذه الرواية الطبري ١٩/ ٢٣٢ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٢ ، وهو في الديوان ص ٢٧٥ برواية: نفى الذم عن آل المحلق... ، وستأتي. قوله تفهقُ، أي: تمتلئ.

(٧) في معاني القرآن ٥/ ٣٩٩ . والسَّيح: الماء الجاري على وجه الأرض، أما رواية: الشيخ، فيقال: =

قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ قال سعيد بن جُبير: هي قدورُ النحاس تكون بفارس. وقال الضحَّاك: هي قدورٌ تُعمل من الجبال[1]. غيرُه: قد نُحِتَتْ من الجبال الصُّمِّ ممَّا عَمِلَتْ له الشياطين، أَثَافِيها[2] منها منحوتةٌ هكذا من الجبال.

ومعنى «رَاسِيَاتٍ»: ثوابت، لا تُحملُ ولا تحرَّك لعِظَمها. قال ابن العربي[3]: وكذلك كانت قدورُ عبد الله بنِ جُدعان، يُصعَدُ إليها في الجاهلية بسُلَّم، وعنها عبَّر طرفةُ بن العبد بقوله:

كالجَوَابي لاتَني مُتْرَعَةً ... لِقِرَى الأضْيافِ أو للمحتَضِرْ[4]

قال ابن العربيِّ: ورأيتُ برباطِ أبي سعيد قدورَ الصوفيةِ على نحوِ ذلك، فإنَّهم يطبخون جميعاً، ويأكلون جميعاً من غير استئثارِ واحدٍ منهم على أحد.

قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ قد مضى معنى الشكرِ في «البقرة»[5] وغيرها. وروي أنَّ النبيَّ ﷺ صعد المنبر فتلا هذه الآيةَ ثم قال: «ثلاثٌ مَن أُوتِيهنَّ فقد أوتيَ مثلَ ما أوتي آلُ داود» قال: فقلنا: ما هنّ؟ فقال: «العدلُ في الرضا والغضب، والقَصْدُ في الفقر والغنى، وخشيةُ اللهِ في السرِّ والعَلَانية». خرجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة[6].

وروي أنَّ داودَ عليه السلام قال: «يا ربِّ، كيف أُطيقُ شكركَ على نعمك،

= أراد كسرى، ويقال: أراد شيخاً من فلاحي سواد العراق غير معين. المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ ، وينظر ما سلف ٨/ ٤٥١ .

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٦ ، وفيه: ... تعمل من حجارة الجبال.

(٢) جمع أُثْفِيَّة، وهي الحجر يوضع عليه القدر. القاموس (ثفي).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٠ ، وما قبله منه.

(٤) ديوان طرفة ص ٥٦ ، والخزانة ٩/ ٣٧٩ ، وفيه: لاتني، أي: لا تفتر ولا تزال، والقِرى: القيام بالضيف، والمحتضر: النازل على الماء.

(٥) ٢/ ١٠٤ وما بعدها.

(٦) نوادر الأصول ص ١٣٠ .

وإلهامي وقدرتي على شكرك نعمةٌ لك» فقال: «يا داودُ، الآن عَرَفْتني»[١]. وقد مضى هذا المعنى في سورة إبراهيم[٢]، وأنَّ الشُّكرَ حقيقتُه: الاعترافُ بالنعمة للمنعِم، واستعمالُها في طاعته. والكُفْرانُ: استعمالُها في المعصية. وقليلٌ مَن يفعلُ ذلك؛ لأنَّ الخير أقلُّ من الشرّ، والطاعة أقلُّ من المعصية، بحسَبِ سابقِ التقدير[٣].

وقال مجاهد: لمَّا قال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ قال داودُ لسليمانَ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد ذكر الشكر فاكْفِني صلاةَ النهارِ أَكْفِكَ صلاةَ الليل، قال: لا أَقْدِرُ، قال: فاكفني؛ قال الفاريابيُّ: أراه قال: إلى صلاة الظهر. قال: نعم، فكفاه[٤].

وقال الزُّهريُّ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ أي: قولوا: الحمدُ لله[٥].

و«شُكْرًا» نصب على جهة المفعول، أي: اعملوا عملاً هو الشكر. وكأنَّ الصلاة والصيامَ والعباداتِ كلَّها هي في نفسها الشكرُ إذ سدَّت مَسَدَّه[٦]، ويبيِّنُ هذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ وهو المرادُ بقوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. وقد قال سفيان بن عُيَيْنَةَ في تأويل قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ [لقمان: ١٤]: أنَّ المرادَ بالشكر الصلواتُ الخمس[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ ، وأورده بنحوه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (١١).

(٢) ١٢/ ١٠٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩١ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠١ ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٨ وعزاه للفريابي وابن أبي حاتم.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ ، وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون نَصْبُه على الحال، أي: اعملوا بالطاعات في حال شكر منكم لله على هذه النعم.

(٧) سلف عند تفسير الآية (١٤) من سورة لقمان.

وفي «صحيح» مسلم[١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقومُ من الليل حتى تَفَطَّرَ قدماه، فقالت له عائشةُ رضي الله عنها: أتصنعُ هذا وقد غَفَرَ الله لك ما تقدَّم من ذَنْبِكَ وما تأخَّر؟ فقال: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا». انفرد بإخراجه مسلم[٢].

فظاهِرُ القرآنِ والسنَّةِ أنَّ الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصارِ على عمل اللسان، فالشكرُ بالأفعال عملُ الأركان، والشكر بالأقوال عملُ اللسان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ يَحتَمِلُ أن يكون مخاطبةً لآلِ داود، ويحتمل أن يكون مخاطبةً لمحمدٍ ﷺ[٣]؛ قال ابن عطية: وعلى كلِّ وجهٍ ففيه تنبيهٌ وتحريض. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلاً يقول: اللهمَّ اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردتُ قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾. فقال عمر ﷺ: كلُّ الناسِ أَعْلَمُ منك يا عمر[٤]!.

وروي أنَّ سليمانَ عليه السلام كان يأكل الشعير، ويُطْعِم أهلَه الخُشْكارَ، ويُطعم المساكين الدَّرْمَك[٥]. وقد قيل: إنه كان يأكل الرماد ويَتَوَسَّدُه، والأولُ أصحّ، إذ الرمادُ ليس بقُوت.

ورويَ أنه ما شبع قَطُّ، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف إنْ شبعتُ أن أَنسى الجياع[٦]. وهذا من الشكر ومن القليل، فتأمَّلْه، والله أعلم.

---

(١) برقم (٢٨٢٠).

(٢) كذا قال المصنف، وقد أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، وهو عند أحمد (٢٤٨٤٤).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ (والكلام منه): لآل محمد ﷺ.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٢٢ .

(٥) قطعة من رسالة مطولة للحسن البصري أرسلها إلى عمر بن عبد العزيز، وقد أخرجها الفسوي في المعرفة والتاريخ ٣/ ٣٣٨ - ٣٤٤ . والخُشْكار: الخبز الأسمر غير النقي. والدَّرْمَك: الدقيق الأبيض. المعجم الوسيط (خشكر) و(درمك).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ .

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فلمَّا حَكَمْنا على سليمانَ بالموت حتى صار كالأمرِ المفروغِ منه ووقع به الموتُ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ وذلك أنه كان متَّكِئًا على المِنْسأة ـ وهي العصا بلسان الحَبَشةِ في قول السُّدّي[1]. وقيل: هي بلغة اليمن؛ ذكره القشيريُّ ـ فمات كذلك وبقي خافيَ الحال إلى أن سقط ميتاً لانكسار العصا؛ لأكلِ الأَرَضَةِ إياها، فعُلم موتُه بذلك، فكانت الأَرَضَةُ دالَّةً على موته، أي: سبباً لظهورِ موته. وكان سأل الله تعالى ألَّا يعلموا بموته حتى تمضيَ عليه سنة.

واختلفوا في سبب سؤاله لذلك على قولين:

أحدهما: ما قاله قتادة وغيره، قال: كانت الجنُّ تدَّعي عِلْمَ الغيب، فلمَّا مات سليمان عليه السلام وخفي موتُه عليهم «تبينت الإنس أن الجن لو كانوا[2] يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين». ابن مسعود: أقام حولاً والجنُّ تعملُ بين يديه، حتى أكلت الأَرَضَةُ مِنْسَأتَهُ فسقط[3]. ويُروى أنه لمَّا سقط لم يُعلم منذ [كم] مات، فوُضِعت الْأَرَضةُ على العصا، فأكلت منها يوماً وليلةً، ثم حَسَبوا على ذلك، فوجدوه قد مات منذُ سنة[4].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٨ .

(٢) في (خ) و(د) و(م): تبينت الجن أن لو كانوا. والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٢٤٢ - ٢٤٣ ، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٠ وفيهما: ... فلما خر تبينت الجن، وفي بعض القراءة: فلما خرَّ تبينت الإنس أن الجن لو كانوا ...، وهي قراءة شاذة كما سيرد.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٣ .

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٢٤٢ ، وعرائس المجالس ص ٣٢٩ - ٣٣٠ ، وما سلف بين حاصرتين منهما.

وقيل: كان رؤساء الجنِّ سبعةً، وكانوا مُنْقادِينَ لسليمان عليه السلام، وكان داودُ عليه السلام أسَّس بيت المقدس، فلمَّا مات أوصى إلى سليمانَ في إتمامِ مسجدِ بيتِ المقدس، فأمر سليمانُ الجنَّ به، فلمَّا دنت وفاتُه قال لأهله: لا تُخبروهم بموتي حتى يُتموا بناءَ المسجد، وكان قد بقي لإتمامه سنة[(١)].

وفي الخبر: أنَّ ملَكَ الموت كان صديقه، فسأله عن آية موته فقال: أن تخرج من موضع سجودك شجرةٌ يقال لها: الخروب[(٢)]، فلم يكن يومٌ يصبح فيه إلَّا تَنبتُ في بيت المقدس شجرةٌ فيسألُها: ما اسمُك؟ فتقول الشجرةُ: اسمي كذا وكذا، فيقول: ولأيِّ شيءٍ أنت؟ فتقول: لكذا وكذا، فيأمر بها فتُقْطَع، ويَغرِسُها في بستان له، ويأمر بكَتْبِ منَافِعها ومَضَارِّها واسمِها وما تَصْلُحُ له في الطبِّ، فبينما هو يصلِّي ذاتَ يومٍ إذ رأى شجرةً نبتت بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروبة[(٣)]، قال: ولأيِّ شيء أنت؟ قالت: لخرابِ هذا المسجد، فقال سليمان: ما كانَ الله ليخربه وأنا حيٌّ، أنتِ التي على وَجْهِكِ هلاكي وهلاكُ بيتِ المقدس! فنزعها وغرسها في حائطه، ثم قال: اللهمَّ عَمِّ عن الجنِّ موتي حتى تعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيب. وكانت الجنُّ تُخبِرُ الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غدٍ. ثم لبس كَفَنَه وتحنَّط، ودخل المحرابَ وقام يصلِّي، واتكأ على عصاه على كرسيِّه، فمات ولم تعلم الجنُّ إلى أن مضت سنةٌ، وتمَّ بناءُ المسجد[(٤)].

---

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٤١، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٤.

(٢) في (م): الخرنوبة.

(٣) في (م): الخرنوبة.

(٤) أخرجه من قوله: فلم يكن يوم يصبح فيه ...، الطبري ١٩/ ٢٤١ عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تُلُقِّي من علماء أهل الكتاب وهي وقف لا يصدَّق منها إلا ما وافق الحق، ولا يكذَّب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

قال أبو جعفر النحَّاس: وهذا أحسنُ ما قيل في الآية[١]، ويدلُّ على صحته الحديثُ المرفوع؛ روى إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «كان نبيُّ اللّهِ سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلَّى رأى شجرةً نابتةً بين يديه، فيسألُها: ما اسمُك؟ فإن كانت لغرسٍ غُرست، وإن كانت لدواءٍ كُتبت، فبينما هو يصلِّي ذاتَ يومٍ إذا شجرةٌ نابِتةٌ بين يديه، فقال: ما اسمك؟ قالت: الخرنوب[٢]؛ فقال: لأيِّ شيءٍ أنتِ؟ فقالت: لخرابِ هذا البيت، فقال: اللَّهُمَّ عَمِّ عن الجنِّ موتي حتى تعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيب. فنَحَتَها عصاً، فتوكَّأ عليها حولاً وهم لا يعلمون، فسقطت، فعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيبَ، فنظروا مقدارَ ذلك فوجدوه سنة[٣]».

وفي قراءةِ ابن مسعود وابن عباس: «تَبَيَّنَت الإنْسُ أنْ لو كان الجنُّ يَعلمون الغَيبَ»[٤].

وقرأ يعقوبُ في رواية رُوَيْس: ﴿تُبُيِّنَتِ الجنُّ﴾ غير مسمَّى الفاعلِ[٥]. ونافع

---

(١) قال النحاس هذا الكلام في معاني القرآن ٥/ ٤٠٣ عقب قول قتادة: كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون الغيب، فلما مات سليمان ولم تعلم به الجن، تَبَيَّنَت الجنُّ للإنس أنهم لا يعلمون الغيب. وقد سلف قريباً.

(٢) في (ظ): الخروب، وفي (م): الخرنوبة.

(٣) أخرجه البزار (٢٣٥٥ - كشف)، والطبري ١٩/ ٢٤٠ من طريق إبراهيم بن طهمان به. وأخرجه البزار (٢٣٥٦) من طريق سفيان بن عيينة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه موقوفاً.
قال البزار: لا نعلم أسنده إلا إبراهيم، وقد رواه جماعة عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً.
قلنا: وأخرجه الحسين المروزي في زياداته على الزهد لابن المبارك (١٠٧٢) من طريق سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً أيضاً. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والأقرب أن يكون موقوفاً.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٥، وإعراب القرآن له ٣/ ٣٣٨. وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٨٨ بلفظ: «تبيَّنتِ الإنسُ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيب».

(٥) النشر ٢/ ٣٥٠.

وأبو عمرو: ﴿تأكلُ مِنْساتَه﴾ بألفٍ بين السين والتاء من غير همز. والباقون بهمزةٍ مفتوحةٍ موضعَ الألف، لغتان، إلَّا أنَّ ابن ذَكْوَان أَسْكَنَ الهمزةَ تخفيفاً(١).

قال الشاعر في ترك الهمزة:

إذا دَبَبْتَ على المِنْساةِ من كِبَرٍ فقد تَباعَدَ عنكَ اللَّهْوُ والغَزَلُ(٢)

وقال آخَر فهمَزَ وفتح:

ضربنا بمِنْسَأَةٍ وَجْهَهُ فصار بذاك مهيناً ذليلاً(٣)

وقال آخر:

أَمِنْ أَجْلِ حَبْلٍ لا أباكَ ضربتَه بمنسأَةٍ قد جَرَّ حبلُكَ أحْبُلَا(٤)

وقال آخر فسكَّن همزها:

وقائمٍ قد قام من تُكَأَتهْ كقومةِ الشيخِ إلى مِنْسَأْتهْ(٥)

وأصلُها: من نَسَأْتُ الغنمَ، أي: زَجَرتُها وسُقْتُها، فسمِّيت العصا بذلك لأنه يُزجر بها الشيءُ ويساق، وقال طَرفَة:

أمُونٍ كألواح الإران نَسَأْتُها على لاحِبٍ كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ(٦)

---

(١) السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٠. ولم يذكر ابن مجاهد ابن ذكوان. وقال الداني: وحمزة إذا وقف جعلها بين بين على أصله.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، وتفسير الطبري ١٩/ ٢٣٩، والمحتسب ٢/ ١٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١١.

(٣) ذكره الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٢١، وفيه: ضربت، بدل: ضربنا.

(٤) البيت لأبي طالب كما في المنمق لابن حبيب ص ١٤٢، والأوائل للعسكري ١/ ٥٤، والبيان والتبيين ٣/ ٣٠، وهو دون نسبة في مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، والمنصف لابن جني ٢/ ٥٩، ولفظ المصنف موافق لما في مجاز القرآن، وفي باقي المصادر اختلافٌ يسير.

(٥) ذكر أبو عمرو الداني في التيسير ص ١٨٠ برواية:

صريع خمر قام من وَكَأَتِهْ كقومة الشيخ ...

(٦) ديوان طرفة ص ٢٢. قوله: أمونٍ، أي: يُؤْمَن عِثارها، ويعني ناقته. والإران: تابوت يحمل فيه الميت، شبَّهها بألواح الإران لشدتها. نسأتها: ضربتها بالمنسأة، وهي العصا، ويروى: نَصَأْتُها، وهما واحد. =

فسكَّن هَمْزَها. قال النحاس[(١)]: واشتقاقُها يدلُّ على أنَّها مهموزةٌ؛ لأنَّها مشتقةٌ من نَسَأْتُه، أي: أخَّرته ودفعته، فقيل لها: مِنْسأة؛ لأنها يُدفع بها الشيءُ ويؤخَّر، وقال مجاهدٌ وعكرمةُ: هي العصا. فَمَن[(٢)] قرأ: «مِنْساتَه» أبدل من الهمزة ألفًا، فإن قيل: البدلُ من الهمزة قبيحٌ جدًّا، وإنَّما يجوز في الشعر على بُعْدٍ وشذوذ، وأبو عمرو ابن العلاء لا يغيبُ عنه مثلُ هذا لا سيما وأهلُ المدينة على هذه القراءة. فالجوابُ على هذا: أنَّ العربَ استعملتْ في هذه الكلمةِ البدلَ ونَطَقوا بها هكذا، كما يقع البدلُ في غير هذا ولا يقاسُ عليه، حتى قال أبو عمرو: ولستُ أدري ممن هو[(٣)]، إلَّا أنَّها غيرُ مهموزة؛ لأنَّ ما كان مهموزاً فقد يُتركُ همزُه، وما لم يكن مهموزاً لم يَجُزْ همزُه بوجه.

المهدويُّ: ومَن قرأ بهمزةٍ ساكنةٍ فهو شاذٌّ بعيد؛ لأنَّ هاءَ التأنيثِ لا يكونُ ما قَبْلَها إلَّا متحرِّكاً أو ألفاً، لكنَّه يجوزُ أن يكون مِمَّا سُكِّنَ من المفتوح اسْتِخْفافاً، ويجوز أن يكون لَمَّا أبدل الهمزةَ ألفاً على غير قياسٍ، قَلَبَ الألفَ همزةً كما قَلَبوها في قولهم: العَأْلَم والخأتم،

وروي عن سعيد بن جبير: «مِن» مفصولة «سَأَتِه» مهموزة مكسورة التاء[(٤)]؛ فقيل: إنَّه مِن سِئَةِ القوسِ في لغة مَن همزها، وقد روي همزُ سِيَةِ القوسِ عن رؤبة. قال

= واللاحب: الطريق الذي قد أُثِّر فيه، وهو بمعنى ملحوب، ويجوز أن يكون على بابه، كأنه يَلحب أخفاف الإبل، أي يؤثر فيها. والبرجد: كساء مخطط. شرح المعلقات للنحاس ١/ ٦٠ ، وللتبريزي ص٨١ .

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٧ .

(٢) في النسخ: ثم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٣) في إعراب القرآن: مم هي.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٦ ، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢١ دون نسبة. ويجوز فيها فتح السين وكسرها، مثل: الضَّعَة والضِّعة، ومعناها: من طرف عصاه. ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٧ . والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٢.

الجوهريُّ[(١)]: سِيَةُ القوس ما عُطِفَ من طرفيها، والجمع سِيَات، والهاءُ[في الواحد] عِوَضٌ من الواو، والنسبةُ إليها سِيَويّ، قال أبو عبيدة: كان رؤبةُ يهمزُ سِيَة القوس، وسائر العرب لا يهمزونها.

وفي دابة الأرض قولان: أحدهما: أنَّها الأَرَضَة؛ قاله ابن عباس ومجاهدٌ وغيرهما. وقد قرئ: «دابةُ الأَرَضِ» بفتح الراء، وهو واحدُ الأَرَضة؛ ذكره الماورديّ[(٢)]. الثاني: أنَّها دابةٌ تأكل العيدانَ.

قال الجوهريّ[(٣)]: والأَرَضَةُ ـ بالتحريك ـ: دُوَيبَّةٌ تأكلُ الخشب؛ يقال: أَرِضَت الخشبةُ تُؤرَضُ أَرْضاً ـ بالتسكين ـ فهي مأروضةٌ: إذا أكلتها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ قال الزجَّاج[(٤)]: أي: تبيَّنت الجنُّ موتَه. وقال غيره: المعنى: تبيَّن أمرُ الجنِّ، مثل: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]. وفي التفسير بالأسانيد الصِّحاح عن ابن عباس قال: أقام سليمانُ بن داودَ عليهما الصلاة والسلام حولاً لا يُعلم بموته وهو متكئٌ على عصاه، والجنُّ منصرفةٌ فيما كان أمَرَها به، ثم سقط بعد حول [وقرأ ابن عباس:] «فلمَّا خَرَّ تبيَّنت الإنسُ أنْ لو كان الجنُّ يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين» وهذه القراءةُ من ابن عباس على جهة التفسير[(٥)].

وفي الخبر: أنَّ الجنَّ شكرت ذلك للأَرَضَة، فأينما كانت يأتونها بالماء، قال

---

(١) في الصحاح: (سيا)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٤٤١ والقول الثاني بعده منه أيضاً. وقوله: وهو واحد الأرضة، خطأ. والصواب: وهو جمع الأرضة، كما ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤١١ . وقول ابن عباس ومجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٣) في الصحاح (أرض).

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٧ - ٣٣٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

السُّدِّيُّ: والطينِ، ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب، فإنَّه مما يأتيها به الشياطين شكراً، وقالت: لو كنتِ تأكلين الطعامَ والشرابَ لأتيناك بهما[١].

و«أنْ» في موضع رفعٍ على البدل من الجنِّ، والتقدير: تبيَّن أمرُ الجنِّ، فحذف المضاف، أي: تبيَّن وظَهَر للإنس وانكشف لهم أمرُ الجنِّ أنَّهم لا يعلمون الغيب. وهذا بدلُ الاشتمال. ويجوز أن تكون في موضع نصبٍ على تقدير حذف اللام[٢]. و«لَبِثُوا»: أقاموا. و«الْعَذَابِ الْمُهِينِ»: السُّخْرة والحمل والبنيان وغير ذلك.

وعمِّر سليمان ثلاثاً وخمسين سنةً، ومدَّةُ ملكِه أربعون سنة، فملك وهو ابنُ ثلاثَ عَشْرةَ سنةً، وابتدأ في بنيان بيتِ المقدس وهو ابنُ سَبْعَ عَشْرةَ سنة[٣]. وقال السُّدِّيّ وغيره: كان عُمر سليمان سبعاً وستِّين سنة، ومَلَكَ وهو ابنُ سبع عشرةَ سنة، وابتدأ في بنيان بيت المقدس وهو ابنُ عشرين سنةً، وكان ملكه خمسين سنة.

وحكيَ أنَّ سليمان عليه السلام ابتدأ بنيانَ بيتِ المَقْدِسِ في السنة الرابعة من ملكه، وقرَّب بعد فراغه منه اثني عَشَرَ ألفَ ثورٍ، ومئةً وعشرين ألفَ شاة، واتخذ اليومَ الذي فرغ فيه من بنائه عيداً، وقام على الصخرة رافعاً يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال: اللهمَّ أنت وهبتَ لي هذا السلطانَ وقوَّيتني على بناء هذا المسجد، اللهمَّ فأَوْزِعْنِي شُكْرَك على ما أنعمتَ عليَّ، وتوفَّني على مِلَّتك، ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتني، اللهمَّ إنِّي اسألك لمَن دخل هذا المسجد خمسَ خصال: لا يدخله مذنبٌ دخل للتوبة إلَّا غفرتَ له وتبتَ عليه، ولا خائفٌ إلا أَمَّنته، ولا سقيمٌ إلَّا شَفَيْتَه، ولا فقيرٌ إلا أغنيتَه. والخامس: ألَّا تصرفَ نظرك عمَّن دخله حتى يخرج منه، إلَّا مَن أراد إلحادًا أو ظلماً، يا ربَّ العالمين؛ ذكره الماورديّ[٤].

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٢٤٢ ، وعرائس المجالس ص ٣٣٠ ، والنكت والعيون ٤/ ٤٤١ . والنكارة في الخبر ظاهرة.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٥ .

(٣) عرائس المجالس ص ٣٣٠ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٤٤٢ .

قلت: وهذا أصحُّ ممَّا تقدَّم أنه لم يفرغ بناؤه إلَّا بعد موته بسنة، والدليلُ على صحة هذا ما خرَّجه النسائيُّ وغيره بإسنادٍ صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ سليمانَ بن داود لمَّا بنَى بيتَ المقدسِ سأل الله تعالى خِلَالاً ثلاثةً: حُكْمًا يصادفُ حكمه، فأُوتيَه، وسأل الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأُوتيَه، وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجدَ ألَّا يأتيه أحدٌ لا يَنْهَزُه إلَّا الصلاةُ فيه أن يخرج من خطيئته كيومَ وَلَدَتهُ أمُّه». وقد ذَكَرنا هذا الحديثَ في «آل عمران»[١] وذَكَرْنا بناءَه في «سبحان»[٢].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مساكنهم آية﴾ قرأ نافع وغيره بالصَّرْفِ والتنوين على أنه اسمُ حَيٍّ، وهو في الأصل اسمُ رجلٍ، جاء بذلك التوقيفُ عن النبيِّ ﷺ[٣].

روى الترمِذيُّ قال: حدَّثنا أبو كُريب وعبد بن حُميد قالا: حدَّثنا أبو أسامة، عن الحسن بن الحكم النَّخَعيِّ قال: حدَّثنا أبو سَبْرَةَ النَّخعيُّ، عن فَروةَ بن مُسيك المُرَاديِّ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: يا رسول الله، ألَا أقاتلُ مَن أَدْبَرَ من قومي بمن أَقْبَلَ منهم؟ فَأَذِنَ لي في قتالهم وأمَّرني، فلمَّا خرجتُ من عنده سأل عنِّي: «ما فَعَلَ الغُطَيفيُّ»؟ فأُخبِر أنِّي قد سِرتُ، قال: فأرسل في أثري فردَّني، فأتيتُه وهو في نَفَرٍ من أصحابه، فقال: «ادعُ القومَ، فَمَن أَسْلَمَ منهم فاقْبَلْ منه، ومَن لم يُسْلِم فلا تَعْجَل حتى أُحْدِثَ إليك». قال: وأُنزل في «سبأ» ما أُنزل، فقال رجل: يا رسول الله، وما

---

(١) ٥/ ٢٠٧ ، وهو في سنن النسائي (المجتبى) ٢/ ٣٤ . قوله: لا ينهزه، أي: لا يدفعه. وقوله: حكماً يصادف حكمه، أي: يوافق حكم الله تعالى، والمراد التوفيق للصواب في الاجتهاد. قاله السندي.

(٢) ١٣/ ١٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٨ ، وقرأ بالصرف والتنوين نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي. السبعة ص ٤٨٠ ، والتيسير ص ١٦٧ .

سبأُ؟ أرضٌ أو امرأةٌ؟ قال: «ليس بأرضٍ ولا بامرأةٍ، ولكنه رجلٌ ولَد عشرةً من العرب، فتَيامَنَ منهم ستةٌ وتَشاءَمَ منهم أربعةٌ، فأمَّا الذين تَشَاءموا فَلخْمٌ وجُذامٌ وغَسَّانُ وعاملةُ. وأمَّا الذين تَيامَنوا فالأَزْدُ والأَشْعرِيُّون وحِمْيرٌ وكِنْدةٌ ومَذْحِجٌ وأنمارٌ» فقال رجل: يا رسولَ الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خَثْعَمٌ وبَجِيلةٌ». ورويَ هذا عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريب[١].

وقرأ ابن كثير[٢] وأبو عمرو: «لِسَبَأَ» بغيرِ صَرْفٍ، جعله اسماً للقبيلة، وهو اختيارُ أبي عبيد، واستدلَّ على أنه اسمُ قبيلةٍ بأنَّ بعده: «في مساكنهم»؛ النحاس[٣]: ولو كان كما قال: لَكان: في مساكنها. وقد مضى في «النمل» زيادةُ بيانٍ لهذا المعنى[٤]. وقال الشاعر في الصَّرْف:

الـــواردون وتَـــيْـــمٌ فـــي ذُرى ســـبـــأٍ ... قد عضَّ أعناقَهَمْ جِلْدُ الجواميسِ[٥]

وقال آخر في غير الصرف:

مـــن سَـــبَـــأَ الـــحـــاضـــريـــن مـــأرِبَ إذ ... يَـبْـنُـون مـن دون سَـيْـلِـه الـعَـرِمـا[٦]

وقرأ قُنْبُل وأبو حَيْوَةَ والجَحْدَريُّ: «لِسَبَأْ»؛ بإسكان الهمزة[٧].

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٢٢)، وهو عند أحمد (٢٤٠٠٩/٨٩)، وأخرجه مختصراً أبو داود (٣٩٨٨).
قوله: فتيامن، أي: أخذوا ناحية اليمن وسكنوا بها. وقوله: تشاءم، أي: قصدوا جهة الشام. تحفة الأحوذي ٩/ ٨٩ . والغُطَيْفي نسبة إلى غطيف، وهو بطن من مُراد. الأنساب للسمعاني ٩/ ١٦٣ . وحديث ابن عباس أخرجه أحمد (٢٨٩٨).

(٢) في رواية البزي. السبعة ص ٤٨٠ ، والتيسير ص ١٦٧ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٨ ، وما قبله منه.

(٤) عند تفسير الآية (٢٢) منها.

(٥) البيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ١/ ١٣٠ برواية:

تـدعـوك تـيـم وتـيـم فـي قـرى سـبـأٍ ... قد عض أعناقهم جلد الجواميس

والبيت برواية المصنف في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٨ .

(٦) البيت للنابغة الجعدي أو أمية بن أبي الصلت، كما في سيرة ابن هشام ١/ ١٤ ، وطبقات الفحول ١/ ١٢٦ . وهو في ديوان النابغة الجعدي ص ١٣٤ برواية: أو سبأ ...

(٧) السبعة ص ٤٨٠ ، والتيسير ص ١٦٧ عن قنبل.

﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ قراءةُ العامَّةِ على الجمع[١]، وهي اختيارُ أبي عبيدٍ وأبي حاتم؛ لأنَّ لهم مساكنُ كثيرةٌ وليس بمسكنٍ واحد.

وقرأ إبراهيم وحمزةُ وحفصٌ: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ موحَّداً، إلَّا أنَّهم فتحوا الكاف[٢]. وقرأ يحيى والأعمشُ والكسائيُّ موحَّداً كذلك، إلَّا أنَّهم كَسَروا الكاف[٣].

قال النحاس[٤]: ومساكنُ في هذا أَبْيَنُ؛ لأنه يجمع اللفظَ والمعنى، فإذا قلت: «مسكنهم» كان فيه تقديران: أحدهما: أن يكون واحداً يؤدِّي عن الجمع. والآخر: أن يكون مصدراً لا يثنَّى ولا يُجمع، كما قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. فجاء بالسمع موحَّدًا. وكذا: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥]. و«مَسْكِن» مثل مسجد، خارجٌ عن القياس، ولا يوجد مثلُه إلَّا سماعاً.

﴿ءَايَةٌ﴾ اسمُ كان، أي: علامةٌ دالَّة على قدرة الله تعالى على أنَّ لهم خالقاً خَلَقَهم، وأنَّ كلَّ الخلائقِ لو اجتمعوا على أن يُخرجوا من الخشبة ثمرةً لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناسِ الثمار وألوانها وطُعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدلُّ على أنَّها لا تكون إلَّا من عالِمٍ قادِر.

﴿جَنَّتَانِ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من «آية»، ويجوز أن يكون خبرَ ابتداءٍ محذوفٍ، فيوقَفُ على هذا الوجه على «آية» وليس بتمام[٥]. قال الزجَّاج[٦]: أي: الآيةُ جَنَّتان،

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠.

(٢) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠ عن حمزة وحفص. وإبراهيم هو النخعي، وذكرها عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٩.

(٣) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠ عن الكسائي. وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩ عن يحيى (وهو ابن وثاب) والأعمش.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٩.

(٥) وهو وقف حسن كما ذكر الأشموني في منار الهدى في بيان الوقف والابتدا ص ٢٢٦.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٨.

فجنتان رفع لأنه خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ. وقال الفرَّاء: رُفع تفسيراً للآية[(١)]، ويجوز أن تنصب «آية» على أنَّها خبرُ كان، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضاً في غير القرآن[(٢)].

قال عبد الرحمن بن زيد: إنَّ الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنَّهم لم يَرَوا فيها بعوضةً قطُّ، ولا ذباباً ولا بُرغُوثاً ولا قملةً ولا عقرباً ولا حيةً، ولا غيرَها من الهوامّ، وإذا جاءهم الرَّكْبُ في ثيابهم القملُ والدوابُّ، فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب[(٣)].

وقيل: إنَّ الآية هي الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها مِكْتَلٌ، فيمتلئُ من أنواع الفواكه من غير أن تمسَّها بيدها؛ قاله قتادة[(٤)].

وروي أنَّ الجنتين كانتا بين جبلين باليمن. قال سفيان: وُجد فيهما قصران مكتوبٌ على أحدهما: نحن بنينا سَلْحِين[(٥)] في سبعين خريفاً دائبين، وعلى الآخَر مكتوبٌ: نحن بَنَينا صِرْواح، مَقِيل ومَراح، فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادي والأخرى عن شماله.

قال القشيريُّ: ولم يُرِدْ جنتين اثنتين، بل أراد من الجهتين يَمنةً ويَسرةً، أي:

---

(١) أي على البدل منها، كما ذكره عنه الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٢٥ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٨ .

(٣) أخرجه مطولاً الطبري ١٩/ ٢٤٧ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ ، والطبري ٩/ ٢٤٧ . والمِكْتل: الزَّبيل الكبير، قيل: إنه يسع خمسة عشر صاعاً، كأن فيه كتلاً من التمر. النهاية (كتل).

(٥) في (د): سايحين، وفي (خ) و(ظ): سالحين، وسقط هذا الموضع من (ز). ووقع في مطبوع النكت والعيون ٤/ ٤٤٣ (والكلام منه): سالمين. والمثبت من (م) وهو موافق لما ذكره ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٢٣٥ وقال: سلحين بفتح أوله وسكون ثانيه ثم حاء مهملة مكسورة ... ، حصن عظيم بأرض اليمن.

كانت بلادهم ذاتَ بساتين وأشجارٍ وثمار، تستتر الناس بظلالها.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: قيل لهم: كلوا، ولم يكن ثَمَّ أمرٌ، ولكنَّهم تمكَّنوا من تلك النعم. وقيل: أي قالت الرسل لهم: قد أباح الله تعالى لكم ذلك، أي: أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة. ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: من ثمار الجنتين ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ يعني على ما رزقكم.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ هذا كلامٌ مستأنَفٌ، أي: هذه بلدةٌ طيبةٌ، أي: كثيرةُ الثمار. وقيل: غيرُ سَبْخةٍ. وقيل: طيبةٌ ليس فيها هوامٌّ لطيبِ هوائها. قال مجاهد: هي صنعاء[1].

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: والمنعِمُ بها عليكم ربٌّ غفورٌ يَسْتُر ذنوبَكم، فجمع لهم بين مغفرةِ ذنوبهم وطيبِ بلدِهم، ولم يجمع ذلك لجميع خَلْقِه. وقيل: إنَّما ذكر المغفرة مشيراً إلى أنَّ الرزق قد يكون فيه حرام. وقد مضى القول في هذا في أوّل «البقرة»[2]. وقيل: إنَّما امتَنَّ عليهم بعَفْوِه عن عذابِ الاستئصالِ بتكذيب مَن كذَّبوه من سالِفِ الأنبياء، إلى أن استداموا الإصرارَ فاستؤصِلوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ يعني عن أمره واتِّباعِ رسله بعد أن كانوا مسلمين. قال السُّدِّيُّ ووهبٌ: بعث إلى أهل سبأ ثلاثةَ عَشَرَ نبيًّا فكذَّبوهم. قال القُشيرِيُّ: وكان لهم رئيس يلقَّب بالحمار، وكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم. وقيل: كان له ولدٌ فمات، فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر، ولهذا يقال: أَكْفَرُ مِن حِمار. وقال الجوهريّ[3]: وقولُهم: أَكْفَرُ من حِمار، هو رجلٌ من عادٍ؛

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٤٤ .

(٢) ١/ ٢٧٢ .

(٣) في الصحاح (حمر).

مات له أولادٌ، فكفر كفراً عظيماً، فلا يمرُّ بأرضه أحدٌ إلَّا دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلَّا قتله.

ثم لمَّا سال السيلُ بجنَّتيهم تفرَّقوا في البلاد، على ما يأتي بيانُه، ولهذا قيل في المثل: «تفرَّقوا أيادي سَبَا»(١). وقيل: الأَوْسُ والخزرجُ منهم. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ والعرِمُ فيما روي عن ابن عباس: السَّدُّ(٢)، فالتقدير: سَيلَ السَّدِّ العَرِم. وقال عطاء: العَرِمُ اسمُ الوادي(٣).

قتادة: العرمُ وادي سبأ؛ كانت تجتمع إليه مَسَايلُ من الأودية، قيل: من البحر وأوديةِ اليمن، فردَموا رَدْمًا بين جبلين، وجعلوا في ذلك الرَّدْمِ ثلاثةَ أبوابٍ؛ بعضُها فوقَ بعضٍ، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث على قَدْرِ حاجاتهم؛ فأَخْصَبوا وكَثُرت أموالُهم، فلمَّا كذَّبوا الرسل سلَّط الله عليهم الفأر فنقب الردم(٤).

قال وَهْب: كانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهانتهم أنه يخرِّبُ سدَّهم فأرةٌ، فلم يتركوا فُرجةً بين صخرتين إلَّا ربطوا إلى جانبها هرَّةً، فلمَّا جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فأرةٌ حمراءُ إلى بعض تلك الهِرَرِ فساوَرَتْها حتى استأخرتْ عن الصخرة، ثم وثبت ودخلت في الفرجة التي كانت عندها، ونقبت السَّدَّ حتى أَوْهَنته للسيل وهم لا يدرون، فلمَّا جاء السيل دخل تلك الخللَ حتى بلغ السدَّ، وفاض الماء على أموالهم، فغرَّقها ودفن بيوتَهم(٥).

وقال الزجَّاج(٦): العَرِمُ اسمُ الجُرَذ الذي نَقَبَ السِّكْرَ عليهم، وهو الذي يقال له:

---

(١) أي: تفرَّقوا تفرُّقاً لا اجتماع بعده. مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٧٥ . وسيأتي ص٣٠٢ من هذا الجزء.

(٢) لم نقف عليه عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٩/ ٢٥١ عن مجاهد.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٦ .

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٢٥١ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٩١ دون نسبة .

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٢ - ٢٥٣ . والخبر من الإسرائيليات.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٨ .

الخُلد ـ وقاله قتادةُ أيضًا[(١)] ـ فنُسب السيلُ إليه لأنه بسببه. وقد قال ابن الأعرابيِّ أيضاً: العَرِم من أسماء الفأر[(٢)].

وقال مجاهد وابن أبي نَجيح: العَرِمُ ماءٌ أحمرُ أرسله الله تعالى في السَّدِّ، فشقَّه وهدمه[(٣)].

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ العَرِمَ المطرُ الشديد. وقيل: العَرْم بسكون الراء. وعن الضحَّاك كانوا في الفترة بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام[(٤)].

وقال عمرو بن شُرَحْبيل: العَرِمُ المُسَنَّاة[(٥)]. وقاله الجوهريُّ[(٦)]؛ قال: ولا واحدَ لها من لفظها، ويقال: واحدُها عَرِمة.

وقال محمد بن يزيد: العَرِم كلُّ شيء حاجزٍ بين شيئين، وهو الذي يسمَّى: السِّكْر، وهو جَمعُ عَرِمة. النحَّاس[(٧)]: وما يجتمع من مطرٍ بين جبلين وفي وجهه مُسَنَّاةٌ فهو العَرِم، والمُسَنَّاةُ هي التي يسمِّيها أهلُ مصرَ الجسر[(٨)]، فكانوا يفتحونها إذا

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٣ .

(٢) تهذيب اللغة ٢/ ٣٩١ .

(٣) علقه البخاري كما في الفتح ٨/ ٥٣٥ عن مجاهد بأطول منه، ووصله الفريابي كما في تغليق التعليق ٤/ ٢٨٨ من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وتتمته: وحَفَرَ الوادي، فارتفعتا عن الجَنْبَتَيْنِ، وغاب عنهما الماء، فيبستا، ولم يكن الماء الأحمر من السدّ، ولكن كان عذاباً أرسله الله عليهم من حيث شاء. اهـ. وذكر الحافظ ابن حجر عن القاضي عياض أنه في رواية: فَبَثَقَهُ، بدل: فشقَّه؛ قال: وهو الوجه، تقول: بثقتُ النهر: إذا كسرتَه لتصرفه عن مجراه.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨٥ ؛ إلا أنه ذكر قول ابن عباس دون نسبة، وذكره دون نسبة كذلك النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٤ . وأخرج الطبري ١٩/ ٢٥٢ عن ابن عباس قال: سيل العرم: الشديد.

(٥) علقه البخاري أيضاً كما في الفتح ٨/ ٥٣٥ . قال الحافظ: قال ابن التين: المراد بالمسناة ما يبنى في عرض الوادي ليرتفع السيل ويفيض على الأرض.

(٦) في الصحاح (عرم).

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٨ ، وما قبله منه، وقول محمد بن يزيد بنحوه في الكامل ٣/ ١٢١٤ .

(٨) في (د) و(ظ): الحبس. والحِبس: حجارة أو خشب تبنى في مجرى الماء لتحبسه، كي يشرب القوم ويسقوا أموالهم. اللسان (حبس).

شاؤوا، فإذا رَوِيَتْ جنَّتاهم سدُّوها.

قال الهَرَويُّ: المُسَنَّاة: الضفيرة تُبنَى للسيل تردُّه، سمِّيت مسنَّاةً لأن فيها مفاتحَ الماء، ورُوي أنَّ العَرِمَ سدٌّ بَنَتْه بِلْقِيسُ صاحبةُ سليمانَ عليه الصلاة والسلام، وهو المسنَّاةُ بلغة حِمير، بَنَتْه بالصَّخْر والقارِ، وجعلت له أبواباً ثلاثةً بعضُها فوق بعض، وهو مشتقٌّ من العَرامة وهي الشدَّة، ومنه: رجلٌ عارم، أي: شديد. وعَرَمْتُ العظمَ أَعْرِمُه وأعرُمه عَرْماً: إذا عَرَقْتَه[1]، وكذلك عَرَمت الإبلُ الشجرَ، أي: نالت منه. والعُرام بالضم: العُرَاق من العَظْمِ والشجر. وتعرَّمتُ العَظْمَ: تَعرَّقته. وصبيٌّ عارِمٌ بَيِّنُ العُرام ـ بالضم ـ أي: شَرِس. وقد عَرَم يَعْرُم ويَعْرِم عَرَامةً ـ بالفتح ـ، والعَرِم: العارم؛ عن الجوهريّ[2].

قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ وقرأ أبو عمرو: ﴿أُكُلِ خَمْطٍ﴾ بغير تنوينٍ مضافاً[3]. قال أهلُ التفسير والخليلُ: الخَمْطُ: الأراك[4]. الجوهري[5]: الخَمْطُ ضَرْبٌ من الأراك له حَمْلٌ يؤكل. وقال أبو عبيدة[6]: هو كلُّ شجرٍ ذي شوكٍ فيه مرارةٌ. الزجاج[7]: كلُّ نبتٍ فيه مرارةٌ لا يمكنُ أكلُه.

المبرِّد: الخمطُ: كلُّ ما تغيَّر إلى ما لا يُشتَهَى، واللبنُ خَمْطٌ إذا حَمُض. والأَوْلى عنده في القراءة: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بالتنوين على أنه نعتٌ لـ «أُكُلٍ»، أو بَدَلٌ منه؛ لأنَّ الأُكُلَ هو الخمطُ بعينه عنده. فأمَّا الإضافةُ فبابُ جوازِها أن يكون تقديرُها:

---

(١) عرق العظم: أكل ما عليه من اللحم. القاموس (عرق).

(٢) في الصحاح (عرم).

(٣) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩.

(٥) في الصحاح (خمط).

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٤٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٨.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٩.

ذواتي أُكُلِ حموضةٍ، أو أُكُلِ مرارة(١). وقال الأخفش: والإضافةُ أحسنُ في كلام العرب، نحو قولهم: ثوبُ خَزٍّ(٢).

والخمط [من] اللبن: الحامض. وذكر أبو عبيد: أنَّ اللبن إذا ذهب عنه حلاوةُ الحلَبِ ولم يتغيَّر طعمُه فهو سامِط، وإن أخذ شيئاً من الريح فهو خامِطٌ وخَمِيط، فإن أخذ شيئاً من طعمٍ فهو مُمَحَّل، فإذا كان فيه طعمُ الحلاوة فهو قُوهة(٣).

وتَخمَّط الفحل: هَدَر. وتَخمَّط فلانٌ، أي: تغضَّب وتكبَّر. وتخمَّط البحر، أي: الْتَطَم. وخَمَطْتُ الشاةَ أَخْمِطُها خَمْطًا: إذا نزعتَ جلدَها وشويتَها، فهي [خَميطٌ، فإن نزعتَ شعرها وشويتَها فهي] سَميطٌ. والخَمْطة: الخمرُ التي قد أَخذتْ رِيح الإدراك كريحِ التُّفاح ولم تُدْرِك بعدُ. ويقال: هي الحامِضة؛ قاله الجوهريُّ(٤). وقال القُتَبيُّ في «أدب الكاتب»: يقال للحامضة: خَمْطة، ويقال: الخَمْطةُ التي قد أخذت شيئًا من الريح، وأنشد:

عُقَارٌ كماءِ النِّيْءِ ليستْ بخَمْطَةٍ ولا خَلَّةٍ يَكْوي الشُّروبَ شِهابُها(٥)

﴿وَأَثْلٍ﴾ قال الفرَّاء: هو شبيهٌ بالطَّرْفاء، إلَّا أنه أعظمُ منه طولاً(٦)، ومنه اتُّخذ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٠.

(٢) الحجة للفارسي ٦/ ١٥.

(٣) في النسخ عدا (ظ): فوهة، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في الغريب المصنف لأبي عبيد ١/ ٩٥، والصحاح (خمط)، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه. قال صاحب اللسان (قوه): ورواه الليث: فُوهة بالفاء، وهو تصحيف. اهـ. والقُوهة: اللبن إذا تغير طعمه قليلاً وفيه حلاوة الحلب. الصحاح (قوه).

(٤) في الصحاح (خمط)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) أدب الكاتب ص ١٦٧، والبيت لأبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ص ٧٢. يقول: هي في لون ماء اللحم النَّيء، وليست كالخمطة التي لم تدرك بعد، ولا كالخَلَّة التي جاوزت القِدر حتى كادت تصبح خلًّا. اللسان (خلل). وقال شارح الديوان: قوله: يكوي الشُّروب، يقول: لها مضٌّ شديد مثل النار. والشروب: النَّدامَى.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩.

مِنبَرُ النبيِّ ﷺ[١]. وللأَثْل أصولٌ غليظةٌ يتَّخذُ منه الأبواب، وورقُه كورق الطَّرْفاء، الواحدةُ: أَثْلَة، والجمع: أثلات.

وقال الحسن: الأَثْلُ: الخشب. قتادة: هو ضَرْبٌ من الخشب يشبه الطَّرْفاءَ رأيتُه بفَيْد[٢]. وقيل: هو السَّمُر[٣].

وقال أبو عبيدة: هو شجر النُّضَار[٤]. النُّضار: الذهب. والنُّضار: خشبٌ يعمل منه قِصَاعٌ، ومنه: قَدَحٌ نُضَار[٥].

﴿وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾ قال الفَرَّاء: هو السَّمُر؛ ذكره النحاس[٦]. وقال الأزهريُّ[٧]: السِّدْر من الشجر سِدران: بَرِّيٌّ لا يُنتفع به ولا يصلح وَرَقُه للغَسُول، وله ثمرٌ عَفِصٌ لا يؤكل، وهو الذي يسمَّى الضَّال. والثاني: سِدْرٌ ينبتُ على الماء وثمرُه النَّبْق، وورقُه غَسولٌ يشبه شجر العُنَّاب.

قال قتادة: بينما شجرُ القوم من خيرِ شجرٍ إذ صيَّره الله تعالى من شرِّ الشجر بأعمالهم[٨]. فأهلك أشجارهم المثمرةَ وأَنبتَ بدلها الأراك والطَّرْفاء والسِّدْر.

القُشَيْريُّ: وأشجارُ البوادي لا تسمَّى جنةً وبستاناً، ولكنْ لمَّا وقعت الثانيةُ في

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٠) مختصراً، والبخاري (٣٧٧)، ومسلم (٣٤٤) مطولاً من حديث سهل بن سعد ﷺ. ولفظه عنه أحمد: كان من أثل الغابة، يعني منبر النبيِّ ﷺ. ووقع عند مسلم: ... من طَرْفاءِ الغابة.

(٢) فيد: بليدةٌ في نصف طريق مكة من الكوفة. معجم البلدان ٤/ ٢٨٢ .

(٣) جمع سَمُرة بضم الميم: من شجر الطَّلْح. اللسان (سمر).

(٤) النُّضَار: أَثْلٌ وَرْسيُّ اللون بغور الحجاز. المعجم الوسيط (نضر) .

(٥) من قوله: النُّضار الذهب، إلى هذا الموضع ليس في (د) و(ظ). وقوله: قدح نُضار، قال الجوهري في الصحاح (نضر): يضاف ولا يضاف.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠ ، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩ .

(٧) في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٥٣ .

(٨) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٨ .

مُقابَلةِ الأولى أطلق لفظ الجنة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]. ويَحتمِلُ أن يرجع قولُه: «قَلِيلٍ» إلى جملةِ ما ذُكر من الخَمْط والأَثْل والسِّدْر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ أي: هذا التبديلُ جزاءُ كُفْرِهم. وموضعُ «ذلك» نصبٌ، أي: جزيناهم ذلك بكفرهم. ﴿وهل يُجَازَى إِلَّا الكَفُورُ﴾ قراءةُ العامة: «يُجازَى» بياءٍ مضمومة وزايٍ مفتوحة، «الكَفورُ» رفعًا على ما لم يُسمَّ فاعلُه. وقرأ يعقوبُ وحَفْصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: «نُجازِي» بالنون وكسرِ الزاي، «الكفورَ» بالنصب[(١)]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قالا: لأنَّ قبله: «جَزَيناهم» ولم يقل: جُوزُوا. النحاس[(٢)]: والأمرُ في هذا واسعٌ، والمعنى فيه بيِّن، ولو قال قائل: خَلَقَ الله تعالى آدمَ ﷺ من طين، وقال آخر: خُلق آدمُ من طين، لكان المعنى واحداً.

مسألة: في هذه الآيةِ سؤالٌ ليس في هذه السورة أشدُّ منه، وهو أن يقال: لم خصَّ الله تعالى المجازاةَ بالكَفور، ولم يذكر أصحابَ المعاصي؟ فتكلَّم العلماء في هذا؛ فقال قومٌ: ليس يُجازَى بهذا الجزاء الذي هو الاصطلامُ والإهلاكُ إلَّا مَن كفر[(٣)]. وقال مجاهد: يجازَى بمعنى: يعاقَب[(٤)]، وذلك أن المؤمن يكفِّر الله تعالى عنه سيئاته، والكافر يجازَى بكلِّ سوءٍ عَمِلَه؛ فالمؤمنُ يُجْزَى ولا يُجازَى لأنه يثاب. وقال طاوس: هو المناقشةُ في الحساب[(٥)]، وأمَّا المؤمنُ فلا يناقش الحساب.

وقال قُطْرُب خلافَ هذا، فجعلها في أهل المعاصي غير الكفار، وقال: المعنى:

---

(١) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٠، وقوله: الاصطلام، أي: الاستئصال. الصحاح (صلم).

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٩.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٩.

على مَن كَفَر بالنعم وعَمِلَ بالكبائر. النحاس[١]: وأوْلَى ما قيل في هذه الآيةِ وأَجَلُّ ما رُوِيَ فيها: أنَّ الحسن قال: مِثْلاً بِمِثْلٍ. وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن حُوسِبَ هَلَك» فقلتُ: يا نبيَّ الله، فأين قولُه جلّ وعزّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]؟ قال: «إنَّما ذلك العَرْضُ، ومَن نُوقِشَ الحسابَ هَلَكَ»[٢]. وهذا إسنادٌ صحيح، وشَرْحُه: أنَّ الكافر يُكافأ على أعماله ويحاسَبُ عليها ويحبط ما عَمِلَ من خير؛ ويبيِّن هذا قولُه تعالى في الأوّل: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ وفي الثاني: ﴿وهل يُجازَى إِلَّا الكَفُورُ﴾ ومعنى «يُجازَى»: يكافأ بكلِّ عَمَلٍ عَمِله، ومعنى «جَزَيْنَاهم»: وفَّيناهم، فهذا حقيقةُ اللغة، وإن كان «جازى» يقع بمعنى «جَزَى» مَجازاً[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ قال الحسن: يعني بين اليمن والشام[٤]. والقُرَى التي بورك فيها: الشامُ والأُرْدُنُّ وفِلَسْطين. والبركة: قيل: إنَّها كانت أربعةَ آلافٍ وسبعَ مئة قريةٍ؛ بورك فيها بالشجر والثمر والماء. ويَحتَمِلُ أن يكون: بارَكْنَا فيها بكثرة العدد[٥].

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ قال ابن عباس: يريد بين المدينة والشام[٦]. وقال قتادة: معنى «ظَاهِرَةً»: متَّصلةً على الطريق، يغدون فيَقِيلون في قرية، ويروحون فيبيتون في قرية[٧].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠ ، وما قبله منه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٢٠٠)، والبخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١ .

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤١٠ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٤٤ .

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٦٢ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ .

وقيل: كان على كلِّ مِيلٍ قريةٌ بسوق، وهو سببُ أَمْنِ الطريق.

قال الحسن: كانت المرأة تخرج ومعها مِغْزَلُها وعلى رأسها مِكْتَلُها، ثم تَلْتهي بمغزلها فلا تأتي بيتَها حتى يمتلئ مِكْتَلها من كلِّ الثمار، فكان ما بين الشام واليمن كذلك[١].

وقيل: «ظَاهِرَةً» أي: مرتفعةً؛ قاله المبرِّد[٢]. وقيل: إنما قيل لها: «ظَاهِرَةً» لظهورها، أي: إذا خرجْتَ عن هذه ظَهَرتْ لك الأخرى، فكانت قرًى ظاهِرةً، أي: معروفة، يقال: هذا أمرٌ ظاهِر، أي: معروف.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلنا السيرَ بين قُراهم وبين القرى التي باركنا فيها سَيْرًا مقدَّراً من منزلٍ إلى منزلٍ، ومن قريةٍ إلى قرية. الفراء[٣] أي: جعلنا بين كلِّ قريتين نصفَ يوم، حتى يكون المقيلُ في قرية والمبيتُ في قرية أخرى. وإنَّما يبالغ الإنسان في السير لعُدْمِ الزادِ والماء ولخوف الطريق، فإذا وجد الزادَ والأمنَ لم يحمل على نفسه المشقَّةَ ونزل أينما أراد.

﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ أي: وقلنا لهم: سيروا فيها، أي: في هذه المسافة، فهو أمرُ تمكين، أي: كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين، فهو أمرٌ بمعنى الخبر، وفيه إضمارُ القول.

﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ ظَرْفان ﴿ءَامِنِينَ﴾ نصب على الحال. وقال: «لياليَ وأيَّامًا» بلفظِ النكرة تنبيهاً على قِصَر أسفارهم، أي: كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه. قال قتادةُ: كانوا يسيرون غيرَ خائفين ولا جِيَاعٍ ولا ظِماءٍ[٤]. وكانوا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٣٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٦٢ ، دون قوله: فكان بين الشام واليمن كذلك.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢٥٩ . وقوله: الفراء، ليس في (د) و(م).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤١١ ، وأخرجه مطولاً عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ .

يسيرون مسيرةَ أربعةِ أشهرٍ في أمانٍ لا يحرِّكُ بعضُهم بعضاً، ولو لقي الرجلُ قاتِلَ أبيه لم يحرِّكه(١).

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ لمَّا بَطِروا وطغَوْا وسئموا الراحةَ ولم يصبروا على العافية، تَمنَّوْا طولَ الأسفارِ والكَدْحَ في المعيشة، كقول بني إسرائيل: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾ الآية [البقرة: ٦١]. وكالنضر بن الحارث حين قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فأجابه الله تبارك وتعالى، وقُتل يومَ بدرٍ بالسيف صَبْرًا. فكذلك هؤلاء تبدَّدوا في الدنيا ومُزِّقوا كلَّ مُمَزَّق، وجُعل بينهم وبين الشام فَلَواتٍ ومَفَاوِزَ يركبون فيها الرَّوَاحلَ ويتزوَّدون الأَزْوادَ.

وقراءةُ العامَّةِ: ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على أنه نداءٌ مضاف، وهو منصوبٌ لأنه مفعولٌ به؛ لأنَّ معناه: نادَيْتُ ودعَوْت(٢). ﴿بَٰعِدْ﴾ سألوا المباعَدةَ في أسفارهم. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ محيْصِنٍ وهشامٌ عن ابن عامر: ﴿رَبَّنَا﴾ كذلك على الدعاء ﴿بعِّد﴾ من التبعيد(٣). النحاس(٤): وباعِدْ وبعِّدْ واحدٌ في المعنى، كما تقول: قارِبْ وقَرِّبْ.

وقرأ أبو صالح ومحمد ابن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب، ويُروى عن ابن عباس: ﴿رَبُّنا﴾ رفعاً ﴿باعَدَ﴾ بفتح العين والدال على الخبر(٥)،

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٤٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٢.

(٣) السبعة ص ٥٢٩، والتيسير ص ١٨١ عن ابن كثير وأبي عمرو وهشام.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٢.

(٥) النشر ٢/ ٣٥٠ عن يعقوب، وهو من العشرة. والمحتسب ٢/ ١٨٩ عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية وأبي صالح ويعقوب وأبي رجاء وسلام والحسن - بخلاف - وابن أبي ليلى والكلبي.

تقديره: لقد باعَدَ ربُّنا بين أسفارِنا، كأنَّ الله تعالى يقول: قَرَّبْنا لهم أسفارَهم فقالوا أَشَرًا وَبَطَرًا: لقد بُوعِدَتْ علينا أسفارُنا. واختار هذه القراءةَ أبو حاتم قال: لأنَّهم ما طلبوا التبعيدَ إنَّما طلبوا أقربَ من ذلك القربِ بَطَرًا وعُجْبًا مع كفرهم.

وقرأ يحيى بن يَعْمر وعيسى بن عمر؛ وتُروى عن ابن عباس: «ربُّنا بَعَّدَ بينَ أسفارِنَا» بشدِّ العين من غير ألف، وفسَّرها ابن عباس قال: شَكَوْا أنَّ ربَّهم باعَدَ بين أسفارهم[1].

وقراءةُ سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصريِّ: «ربَّنا بَعُدَ بَيْنُ أسفارِنَا»، «رَبَّنَا» نداءٌ مضاف، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: «بَعُدْ بينُ أَسْفَارِنَا»، ورُفع «بينُ» بالفعل، أي: بعُدَ ما يتَّصلُ بأسفارنا[2].

وروى الفرَّاء وأبو إسحاقَ قراءةً سادسةً مثلَ التي قبلَها في ضمِّ العين إلَّا أنَّك تنصبُ «بينَ» على أنه ظرفٌ، وتقديره في العربية: بَعُدَ سيرُنا بينَ أسفارِنا. النحاس[3]: وهذه القراءاتُ إذا اختلفت معانيها لم يَجُزْ أن يقال: إحداها أجودُ من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكنْ خبَّر عنهم أنهم دَعَوْا ربَّهم أن يبعِّد بين أسفارهم بَطَرًا وَأَشَرًا، وخبَّر عنهم أنهم لمَّا فعل ذلك بهم خبَّروا به وشَكَوْا، كما قال ابن عباس.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: يُتحدَّث بأخبارهم، وتقديرُه في العربية: ذوي أحاديث. ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: لمَّا لَحِقَهم ما لَحِقَهُم تَفرَّقوا وتَمزَّقوا. قال الشعبيُّ: فلحقت الأنصارُ بيَثْرِبَ، وغسَّان بالشام، والأَسْدُ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٢، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٨٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٢، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٨٩.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٢ - ٣٤٣، وما قبله منه. والقراءة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩ - ٣٦٠، وللزجاج ٤/ ٢٥٠. (وهو أبو إسحاق).

بعُمَان، وخُزاعةُ بتِهامة(١)، وكانت العرب تضربُ بهم المثلَ فتقول: تفرَّقوا أيدي سبا، وأيادي سبا، أي: مذاهبَ سبأ وطرقَها(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصبَّار: الذي يصبرُ عن المعاصي، وهو تكثيرُ صابرٍ، تمدح بهذا الاسم. فإنْ أردتَ أنه صَبَر عن المعصية لم يُستعمل فيه إلَّا صبَّار عن كذا. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه؛ وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ فيه أربعُ قراءات: قرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر، ويروى عن مجاهد: ﴿ولقد صَدَقَ عليهم﴾ بالتخفيف ﴿إِبْلِيسُ﴾ بالرفع ﴿ظَنَّهُ﴾ بالنصب(٤)، أي: في ظنِّه. قال الزجَّاج: وهو على المصدر، أي: صَدَقَ عليهم ظنًّا ظنَّه إذ صَدَق في ظنِّه(٥). فنُصب على المصدر أو على الظَّرف.

وقال أبو عليٍّ: «ظنَّه» نصب لأنه مفعولٌ به، أي: صَدَق الظنَّ الذي ظنَّه؛ إذ قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] وقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢](٦). ويجوزُ تعديةُ الصدق إلى المفعول به؛ ويقال: صَدَقَ الحديثَ، أي: في الحديث.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ والطبري ١٩/ ٢٦٧ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤١٠ ، وسلف ٢٩٢ من هذا الجزء.

(٣) ٢/ ٦٥ و١٠٤ .

(٤) السبعة ص ٥٢٩ ، والتيسير ص ١٨١ ، والنشر ٢/ ٣٥٠ . والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥١ - ٢٥٢ ، وفيه: وصدق في ظنه، بدل: إذ صدق ... ، والمعنى على هذا التأويل : أنه ظن بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه، فوجدهم كذلك . حجة القراءات لابن زنجلة ص٥٨٩ .

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٢٠ .

وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثَّاب والأعمش وعاصم وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿صَدَّقَ﴾ بالتشديد ﴿ظَنَّهُۥ﴾ بالنصب(١) بوقوع الفعل عليه. قال مجاهد: ظنَّ ظنًّا، فكان كما ظنَّ، فصدَّق ظنَّه(٢).

وقرأ جعفر بن محمد وأبو الهجهاج: «صَدَقَ عليهم» بالتخفيف «إبليسَ» بالنصب «ظنُّه» بالرفع. قال أبو حاتم: لا وجهَ لهذه القراءةِ عندي، والله تعالى أعلم. وقد أجاز هذه القراءةَ الفرَّاءُ، وذكرها الزجاج، وجَعَلَ الظنَّ فاعلَ «صَدَق» و«إبليسَ» مفعولاً به، والمعنى: أنَّ إبليس سوَّل له ظنُّه فيهم شيئاً، فصدَق ظنُّه، فكأنه قال: ولقد صدَق عليهم ظنُّ إبليسَ(٣).

و«على» متعلِّقةٌ بـ «صدق»، كما تقول: صدقتُ عليك فيما ظَنَنْتُهُ بك، ولا تتعلَّق بالظنِّ لاستحالة تقدُّم شيءٍ من الصلة على الموصول(٤).

والقراءةُ الرابعة: «ولقد صَدَقَ عليهم إبليسُ ظنُّه» برفعِ إبليس والظنّ، مع التخفيف في «صَدَقَ» على أن يكون «ظنُّه» بدلاً من «إبليس»، وهو بدلُ الاشتمال(٥).

ثم قيل: هذا في أهل سبأ، أي: كَفَروا وغيَّروا وبدَّلوا بعد أن كانوا مسلمين، إلَّا قوماً منهم آمنوا برسلهم. وقيل: هذا عامٌّ، أي: صدق إبليسُ ظنَّه على الناس كلِّهم إلَّا مَن أطاع الله تعالى؛ قاله مجاهد(٦).

وقال الحسن: لمَّا أُهبط آدمُ عليه السلام من الجنة ومعه حوَّاءُ وهبط إبليس، قال

---

(١) السبعة ص ٥٢٩، والتيسير ص ١٨١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣، وأخرج الطبري ١٩/ ٢٧٠ قول مجاهد بلفظ: ظنَّ ظنًّا، فاتَّبعوا ظنَّه.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٠، وللزجاج ٤/ ٢٥٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٩١ عن أبي الهجهاج والزهري.

(٤) المحتسب ٢/ ١٩١.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٧، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٩.

(٦) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٥.

إبليس: أمَا إذ أَصَبْتُ من الأبوين ما أَصَبْتُ فالذرِّيةُ أضعفُ وأَضْعفُ! فكان ذلك ظنًّا من إبليس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾[1].

وقال ابن عباس: إنَّ إبليس قال: خُلقتُ من نارٍ، وخُلق آدمُ من طينٍ، والنارُ تُحرِقُ كلَّ شيءٍ ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] فصدَّق ظنَّه عليهم[2].

وقال زيد بن أسلَم: إنَّ إبليس قال: يا ربِّ، أرأيتَ هؤلاء الذين كرَّمتهم وشرَّفتهم وفضَّلتهم عليَّ، لا تَجدُ أكثرهم شاكرين، ظنًّا منه، فصدَّق عليه إبليس ظنَّه[3].

وقال الكلبيُّ: إنَّه ظنَّ أنَّه إنْ أغْواهُم أجابوه، وإن أضلَّهم أطاعوه، فصدق ظنه[4].

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ قال الحسن: ما ضَرَبَهم بسوطٍ ولا بِعصاً، وإنَّما ظنَّ ظنًّا، فكان كما ظنَّ بوسوسته[5].

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نصب على الاستثناء، وفيه قولان: أحدُهما: أنه يراد به بعضُ المؤمنين؛ لأنَّ كثيرًا من المؤمنينَ مَن يُذْنبُ وينقادُ لإبليسَ في بعض المعاصي، أي: ما سَلِمَ من المؤمنين أيضًا إلَّا فريقٌ، وهو المعنيُّ[6] بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]. فأمَّا ابنُ عباسٍ فعنه أنه قال: هم المؤمنون كلُّهم[7]، فـ «من» على هذا للتبيين لا للتبعيض.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧، وأخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧، وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٤.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٢٧٠.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٤، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠، والطبري ١٩/ ٢٧١.

(٦) في (ظ): وهم المعنيون.

(٧) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٤.

فإن قيل: كيف عَلِمَ إبليسُ صِدْقَ ظنِّه وهو لا يَعْلَمُ الغيبَ؟

قيل له: لمَّا نَفَذَ له في آدمَ ما نَفَذَ، غَلَبَ على ظنِّه أنه يَنْفُذُ له مثلُ ذلك في ذرِّيَّته، وقد وقع له تحقيقُ ما ظنّ.

وجوابٌ آخرُ: وهو ما[1] أجيبَ به من قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] فأُعطيَ القوةَ والاستطاعة، فظنَّ أنَّه يملكهم كلَّهم بذلك، فلمَّا رأى أنه تاب على آدمَ، وأنه سيكون له نسلٌ يتبعونه إلى الجنة، وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] علم[2] أنَّ له تَبَعًا ولآدمَ تبعًا، فظنَّ أنَّ تَبَعَه أكثرُ من تَبَع آدم؛ لمَا وُضع في يديه من سلطان الشهوات، ووضعت الشهواتُ في أجواف الآدميين، فخرج على ما ظنَّ حيث نفخ فيهم وزيَّن في أعينهم تلك الشهوات، ومدَّهم إليها بالأماني والخدائع، فصدق عليهم الظن الذي ظنَّه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾ أي: لم يَقْهَرْهم إبليسُ على الكفر، وإنَّما كان منه الدعاءُ والتزيين. والسلطان: القوة، وقيل: الحُجَّة، أي: لم تكن له حُجَّةٌ يَستَتْبِعُهُم بها، وإنَّما اتَّبعوه بشهوةٍ وتقليدٍ وهَوَى نَفْسٍ، لا عن حجةٍ ودليل.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يريد علمَ الشهادة الذي يقع به الثوابُ والعقاب، فأمَّا الغيبُ فقد عَلِمَه تبارك وتعالى. ومذهبُ الفرَّاء[3] أنْ يكون المعنى: إلَّا لنعلم ذلك عندكم، كما قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [فصلت: ٤٧] أي: على قولكم[4] وعندكم.

---

(١) قبلها في (د) و(ظ): أن.

(٢) في النسخ الخطية: فعلم، والمثبت من (م).

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٠ - ٣٦١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٤.

(٤) في (ظ): زعمكم.

وليس قولُه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ جوابَ ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ في ظاهره، إنَّما هو محمولٌ على المعنى، أي: وما جعلنا له عليهم سلطاناً إلَّا لنَعْلَمَ، فالاستثناء مُنْقَطِعٌ، أي: لا سلطانَ له عليهم ولكنَّا ابتليناهم بوسوسته لنَعْلَم، فـ «إلَّا» بمعنى لكنْ.

وقيل: هو متَّصلٌ، أي: ما كان له عليهم من سلطانٍ، غيرَ أنَّا سلَّطناه عليهم ليتمَّ الابتلاء.

وقيل: «كان» زائدة، أي: ومالَه عليهم من سلطان، كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: أنتم خيرُ أمَّة.

وقيل: لمَّا اتَّصل طرفٌ منه بقصةِ سبأ قال: وما كان لإبليسَ على أولئك الكفار من سلطان.

وقيل: وما كان له في قضائنا السابقِ سلطانٌ عليهم.

وقيل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: إلَّا لنُظْهِر[(١)]، وهو كما تقول: النارُ تُحرِقُ الحطبَ، فيقول آخَر: لا بل الحطبُ يُحرق النار. فيقول الأول: تعالَ حتى نجرِّب النارَ والحطب لنَعْلَم أيهما يُحرِقُ صاحبه، أي: لنُظهِر ذلك، وإن كان معلوماً لهم ذلك.

وقيل: إلَّا لتعلموا أنتم. وقيل[(٢)]: أي: ليعلم أولياؤنا والملائكةُ، كقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣] أي: يحاربون أولياءَ الله ورسوله.

وقيل: أي: لنميز، كقوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[(٣)] وغيرها.

وقرأ الزُّهريُّ: «إلَّا لِيُعْلَمَ»، على ما لم يسمَّ فاعلُه[(٤)].

---

(١) في (ظ): ليظهر (في الموضعين).

(٢) قبلها في (د): وقيل أي ليعلم على ما لم يسم فاعله. وهي قراءة كما سيرد.

(٣) ٢/ ٤٣٨.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٢١، والكشاف ٣/ ٢٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: إنه عالمٌ بكلِّ شيء. وقيل: يحفظ كلَّ شيء على العبد حتى يجازيَه عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي مضى ذِكْرُهُ من أمر داودَ وسليمانَ وقصةِ سبأ من آثارِ قُدْرَتي، فقُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين: هل عند شُرَكائِكم قدرةٌ على شيءٍ من ذلك. وهذا خطابُ توبيخٍ، وفيه إضمارٌ، أي: ادعوا الذين زعمتُم أنَّهم آلهةٌ لكم من دون الله لِتَنْفعَكم، أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم، فإنهم لا يملكون ذلك[1]، و﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: ما لله مِن هؤلاء مِن مُعينٍ على خَلْقِ شيء، بل الله المنفردُ بالإيجاد، فهو الذي يُعبَد، وعبادةُ غيرِه مُحال.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أي: شفاعةُ الملائكةِ وغيرِهم ﴿عِندَهُ﴾ أي: عندَ الله ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ قراءةُ العامة: ﴿أَذِنَ﴾ بفتح الهمزة؛ لذكر الله تعالى أولاً. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيّ: ﴿أُذِنَ﴾ بضمِّ الهمزةِ على ما لم يسمَّ فاعلُه[2]. والآذِنُ هو الله تعالى. و«مَن» يجوز أن ترجع إلى الشافِعِينَ، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: جُلِّي[3] عن قلوبهم الفزعُ. قُطْرُب:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٥.

(٢) السبعة ص ٥٢٩، والتيسير ص ١٨١.

(٣) في (د) و(م): خلي، ولفظة: الفزع (الآتية) ليست في (ظ).

أُخرجَ ما فيها من الخوف. مجاهد: كُشِفَ عن قلوبهم الغطاءُ يومَ القيامة[١]. أي: إنَّ الشفاعة لا تكون من أحدٍ من هؤلاء المعبودِينَ من دون الله، من الملائكة والأنبياء والأصنام، إلَّا أنَّ الله تعالى يأذنُ للأنبياء والملائكة في الشفاعة وهم على غايةِ الفزع من الله، كما قال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والمعنى: أنه إذا أَذِنَ لهم في الشفاعة ووَرَدَ عليهم كلامُ الله فَزِعوا؛ لِمَا يقترن بتلك الحالِ من الأمر الهائل والخوفِ أن يقع في تنفيذ ما أَذِنَ لهم فيه تقصيرٌ، فإذا سُرِّيَ عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يُوْرِدون عليهم الوحيَ بالإذن: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: ماذا أمر الله به؟ فيقولون لهم: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ وهو أنْ أَذِنَ لكم في الشفاعة للمؤمنين ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فله أن يحكُم في عباده بما يريد. ثم يجوز أن يكون هذا إذناً لهم في الدنيا في شفاعة أقوام، ويجوز أن يكون في الآخرة.

وفي الكلام إضمارٌ، أي: ولا تنفع الشفاعةُ عنده إلَّا لمن أَذِنَ له، ففَزِعَ لِمَا ورد عليه من الإذن تهيُّبًا لكلامِ الله تعالى، حتى إذا ذهب الفزعُ عن قلوبهم أجاب بالانقياد.

وقيل: هذا الفزعُ يكون اليومَ للملائكة في كلِّ أمرٍ يأمرُ به الربُّ تعالى، أي: لا تنفع الشفاعةُ إلَّا مِن الملائكة الذين هم اليومَ فَزِعون مُطيعون لِله تعالى، دون الجماداتِ والشياطين. وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا قضى الله في السماء أمرًا ضربت الملائكة بأجنحتها خَضَعانًا لقوله، كأنها[٢] سلسلةٌ على صَفْوانٍ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحقَّ وهو العليُّ الكبير، قال: والشياطينُ بعضُهم فوقَ بعض» قال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[٣].

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٤٨ ، وأخرج قول ابن عباس ومجاهد الطبري ١٩/ ٢٧٥ .

(٢) في (ظ): كأنه، وهو موافق لرواية البخاري على ما يأتي.

(٣) سنن الترمذي (٣٢٢٣)، وأخرجه البخاري (٤٨٠٠) مطولاً. قوله: خضعاناً بفتحتين، وفي رواية: =

وقال النوَّاس بن سمعان: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله إذا أراد أن يُوحيَ بالأمر تكلَّم بالوحي، أخذت السماوات منه رَجْفةٌ ـ أو [قال:] رِعْدةٌ ـ شديدةٌ خوفاً من الله تعالى، فإذا سمع أهلُ السماوات ذلك صَعِقوا، وخَرُّوا لله تعالى سُجَّدًا، فيكونُ أولَ مَن يَرْفَعُ رأسَه جبريل، فيكلِّمه الله تعالى ويقول له من وحْيه ما أراد، ثم يمرُّ جبريل بالملائكة، كلَّما مرَّ بسماءٍ سأله ملائكتُها: ماذا قال ربُّنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحقَّ وهو العليُّ الكبير، قال: فيقولُ كلُّهم كما قال جبريلُ فينتهي جبريلُ بالوحي حيث أَمَرَه الله تعالى»(١).

وذكر البيهقيُّ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال: كان لكلِّ قبيلٍ من الجنِّ مقعدٌ من السماء يستمعون منه الوحي، وكان إذا نزل الوحيُ سُمع له صوتٌ كإمرارِ السلسلةِ على الصَّفْوان، فلا ينزل على أهل سماءٍ إلَّا صَعِقوا، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العليُّ الكبير، ثم يقول: يكون العامَ كذا ويكون كذا. فتسمعه الجنُّ فيخبرون به الكهنة فتقول الكهنةُ للناس: يكون العامَ كذا وكذا، فيجدونه كذلك، فلمَّا بعث الله محمداً ﷺ دُحروا بالشُّهب، فقالت العرب حين لم تُخْبِرهم الجنُّ بذلك: هَلَكَ مَن في السماء، فجعل صاحب الإبل يَنحرُ كلَّ يومٍ بعيراً، وصاحبُ البقر ينحر كلَّ يومٍ بقرةً، وصاحبُ الغنم ينحر كلَّ يومٍ شاةً، حتى أسرعوا في أموالهم، فقالت ثَقيف وكانت أَعْقَلَ العرب: أيها الناس، أَمْسِكوا على أموالكم، فإنَّه لم يَمُتْ مَن في السماء، وإنَّ هذا ليس بانتثار، ألستُم تَرَوْنَ

= بضم أوله وسكون ثانيه، وهو مصدر بمعنى خاضعين. قوله: كأنه (وهي رواية البخاري)، أي: الصوت المسموع مثل جر السلسلة من الحديد، على الصفوان الذي هو الحجر الأملس. ينظر الفتح ٨/ ٥٣٨ ، وتحفة الأحوذي ٩/ ٩٠ .

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٥١٥)، وابن خزيمة في التوحيد ص ١٤٤ ، والطبري ١٩/ ٢٧٨ ، والآجري في الشريعة ص ٢٩٤ ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٣٥)، وما بين حاصرتين من المصادر. وفي إسناده نعيم بن حماد، قال الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ كثيراً. وذكر أبو زرعة الدمشقي في تاريخه ١/ ٦٢١ أنه عرض هذا الحديث على عبد الرحمن بن إبراهيم (وهو دحيم) فقال: لا أصل له.

مَعالِمَكم من النجوم كما هي، والشمسَ والقمرَ والليلَ والنهار؟! قال: فقال إبليس: لقد حدث اليومَ في الأرض حَدَث، فائْتوني مِن تربةِ كلِّ أرضٍ، فأَتَوْه بها فجعل يَشَمُّها، فلمَّا شَمَّ تربةَ مكةَ قال: مِن ها هنا جاء الحَدَث، فنصتوا فإذا رسولُ الله ﷺ قد بُعث[١]. وقد مضى هذا المعنى مرفوعاً مختصراً في سورة الحجر[٢]، ومضى القولُ أيضاً في رَمْيِهم بالشهب وإحراقِهم بها، ويأتي في سورة الجنِّ[٣] بيانُ ذلك إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنَّما يفزعون من قيام الساعة.

وقال الكلبيُّ وكعب: كان بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام فَتْرةٌ، خمسُ مئةٍ وخمسون سنةً لا يَجيءُ فيها الرسل، فلمَّا بعث الله تعالى محمداً ﷺ كلَّم الله تعالى جبريلَ بالرسالة، فلمَّا سمعت الملائكةُ الكلامَ ظنُّوا أنَّها الساعةُ قد قامت، فصَعِقوا ممَّا سمعوا، فلمَّا انحدر جبريلُ عليه السلام جعل يمرُّ بكلِّ سماءٍ فيكشفُ عنهم، فيرفعون رؤوسَهم ويقول بعضُهم لبعضٍ: ماذا قال ربكم؟ فلم يَدْروا ما قال، ولكنهم قالوا: قال الحقَّ وهو العليُّ الكبير، وذلك أنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام عند أهل السماوات من أشراط الساعة[٤].

وقال الضحاك: إنَّ الملائكةَ المعقِّباتِ الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم، يرسلهم الربُّ تبارك وتعالى، فإذا انحدروا سُمع لهم صوتٌ شديدٌ، فيحسبُ الذين هم أسفلُ من الملائكة أنه من أمر الساعة، فَيَخِرُّون سُجَّداً ويصعقون،

---

(١) لم نقف عليه عند البيهقي، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٥٢٦ - ٥٢٧ ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٣٦ وعزاه للبيهقي وابن أبي شيبة وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل. وهو من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعطاء بن السائب اختلط، وفي سماع حماد بن سلمة منه قبل الاختلاط أو بعده خلاف.

(٢) ١٢/ ١٩٠ .

(٣) عند تفسير الآية (٩) منها.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧ عن مقاتل والكلبي والسدي.

حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة[١].

وهذا تنبيهٌ من الله تعالى وإخبارٌ أنَّ الملائكة مع اصطفائهم ورِفْعَتِهِم لا يُمكِنُهم[٢] أنْ يَشْفَعوا لأحدٍ حتى يؤذنَ لهم، فإذا أُذن لهم وسَمعوا صَعِقوا وكانت هذه حالُهم، فكيف تشفع الأصنامُ، أو كيف تؤمِّلون أنتم الشفاعةَ ولا تعترفون بالقيامة.

وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كُشفَ الفزع عن قلوب المشركين عند[٣] نزول الموت، إقامةً للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحقَّ وهو العليُّ الكبير، فأَقرُّوا حين لا ينفعهم الإقرار[٤]، أي: قالوا: قال الحق.

وقراءةُ العامة: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾. وقرأ ابن عباس: ﴿فَزَّعَ عن قلوبهم﴾ مسمًّى الفاعل[٥]، وفاعلُه ضميرٌ يَرجِعُ إلى اسم الله تعالى. ومَن بناه للمفعول فالجارُّ والمجرورُ في موضعِ رفعٍ، والفعلُ في المعنى لله تبارك وتعالى. والمعنى في القراءتين: أُزيل الفزعُ عن قلوبِهِم، حَسْبَمَا تقدَّم بيانُه[٦]. ومثله: أَشْكَاه: إذا أَزالَ عنه ما يشكُوه.

وقرأ الحسن: «فُزِع» مثلَ قراءةِ العامة، إلَّا أنه خفَّفَ الزاي، والجارُّ والمجرورُ

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٨١ بنحوه من طريق الضحاك عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) في (م): لا يمكن.

(٣) قبلها في (د) و(ظ) و(م): قال الحسن ومجاهد وابن زيد في الآخرة، وسقط هذا الموضع من (خ) و(ز)، والمثبت من تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧، والكلام منه.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧ - ٥٥٨، إلا أنه لم يذكر مجاهداً، وأخرجه عن ابن زيد الطبري ١٩/ ٢٨١. ولم نقف عليه عن مجاهد.

(٥) قرأ: «فزَّع» بفتح الفاء والزاي ابن عامر من السبعة، والباقون بضم الفاء وكسر الزاي. السبعة ص٥٣٠، والتيسير ص ١٨١. وذكرها عن ابن عباس النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٥ وزاد نسبتها لابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد.

(٦) ص٣٠٧-٣٠٨ من هذا الجزء.

في موضع رفعٍ أيضاً، وهو كقولك: انْصُرِفَ عن كذا إلى كذا. وكذا معنى «فُرِغَ» بالراء والغَيْنِ المعجَمَةِ والتخفيفِ غير مسمَّى الفاعل، رُويت عن الحسن أيضاً وقتادة[١]. وعنهما أيضًا «فَرَغَ» بالراء والغين المعجمة مسمَّى الفاعل، والمعنى: فَرَغَ الله تعالى قلوبَهم، أي: كَشَفَ عنها، أي: فَرغَها من الفزع والخوف، وإلى ذلك يَرجعُ البناء للمفعول على هذه القراءة. وعن الحسن أيضاً «فرّغ» بالتشديد[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ لـمَّا ذَكر أنَّ آلهتهم لا يملكون مثقالَ ذرةٍ ممَّا يَقدِرُ عليه الربُّ، قرَّر ذلك فقال: قُلْ يا محمدُ للمشركين: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي: مَن يخلقُ لكم هذه الأرزاقَ الكائنةَ من السماوات، أي: عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع. «وَالْأَرْضِ» أي: الخارجة من الأرض، عن الماء والنبات. أي: لا يمكنُهم أن يقولوا: هذا فِعْلُ آلهتنا. فيقولون: لا ندري. فقل: إنَّ الله يفعل ذلك، الذي يعلم ما في نفوسكم. وإن قالوا: اللهُ يرزقنا، فقد تقرَّرت الحجة بأنه الذي ينبغي أن يُعبد.

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا على وجهِ الإنصاف في الحُجَّة، كما يقول القائل: أحدُنا كاذب، وهو يعلم أنه صادقٌ، وأنَّ صاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمرٍ واحد، بل على أمرين متَضادَّين، وأحدُ الفريقين مهتدٍ وهو نحن، والآخَرُ ضالٌّ وهو أنتم. فكذَّبهم بأَحْسَنَ من تصريح التكذيب، والمعنى: أنتم الضالُّون حين أشركْتُم بالذي يرزقكم من السماوات والأرض.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩١ - ١٩٢ .

(٢) يعني بضم الفاء وبفتحها، ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٥ - ٣٤٦ ، والمحتسب ٢/ ١٩١-١٩٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٩ ، والدر المصون ٩/ ١٨٢ .

«أو إياكم» معطوفٌ على اسم «إنَّ»، ولو عُطِفَ على الموضع لكان: «أو أنتم» ويكون «لَعلَى هُدًى» للأول لا غير. وإذا قلت: «أو إِيَّاكُمْ» كان للثاني أوْلى، وحَذَفْتَ من الأول، ويجوز أن يكون للأول، وهو اختيارُ المبرِّد. قال: ومعناه معنى قولِ المستَبْصِرِ لصاحبه على صحة الوعيدِ والاستظهارِ بالحجة الواضحة: أحدُنا كاذب، وقد عرف المعنى، كما تقول: أنا أَفْعَلُ كذا وتَفْعَلُ أنت كذا وأحدُنا مخطئ، وقد عرف أنه هو المخطئ، وهكذا: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

و«أو» عند البَصْريين على بابها وليست للشك، لكنَّها على ما تستعملُه العرب في مثل هذا إذا لم يُرِد المخبِرُ أنْ يبين وهو عالمٌ بالمعنى. وقال أبو عبيدةَ والفرَّاءُ: هي بمعنى الواو، وتقديره: وإنا على هدى وإياكم في ضلال مبين[2]، وقال جرير:

أثعلبةَ الفوارسَ أو رياحاً عدلْتَ بهم طُهَيَّةَ والرِّبابا[3]

يعني: أثعلبة ورياحاً. وقال آخر:

فلمَّا اشتدَّ أمرُ الحربِ فينا تأمَّلْنا رياحاً أو رِزاما[4]

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ أي: اكتَسَبْنا ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ﴾ نحن أيضاً

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٤٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٢، ونقله الفراء عن المفسرين وقال: وهو في المعنى كذلك، غير أن العربية على غير ذلك؛ لا تكون أو بمنزلة الواو. وكذلك قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٣، قال: وهذا في اللغة غير جائز، ولكنه في التفسير يؤول إلى هذا المعنى. قال الفراء: والمعنى في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾: إنا لضالون أو مهتدون، وإنكم لضالون أو مهتدون، وهو يعلم أن رسوله المهتدي، وأن غيره الضال. وهذا كما تقول للرجل: إن أحدنا لكاذب، فكذبته تكذيباً غير مكشوف.

(٣) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٨١٤، والكتاب ١/ ١٠٢ و٣/ ١٨٣، ومجاز القرآن ٢/ ١٤٨، والخزانة ١١/ ٦٩. ووقع فيها جميعاً: والخِشَابا، بدل: والربابا. قال البغدادي: أي: عدلتَ هاتين القبيلتين بهاتين القبيلتين!.

(٤) لم نقف عليه.

﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنَّما أقصدُ بما أدعوكم إليه الخيرَ لكم، لا أنَّه ينالُني ضررُ كُفرِكم، وهذا كما قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦] واللهُ مُجازي الجميع. فهذه آيةُ مُهادَنَةٍ ومُتارَكَةٍ، وهي منسوخةٌ بالسيف. وقيل: نزل هذا قبل آيةِ السيف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يريد يومَ القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقضي، فيثيبُ المهتدي ويعاقب الضالَّ ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ أي: القاضي بالحقِّ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال الخَلْق. وهذا كلُّه منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ يكون «أَرُوني» هنا من رؤية القلب، فيكون «شركاءَ» المفعولَ الثالث، أي: عرِّفوني هذه الأصنامَ والأوثانَ التي جعلتموها شركاءَ لِلهِ عز وجل، هل شارَكَتْ في خَلْقِ شيء، فبيِّنوا ما هو؟ وإلَّا فَلِمَ تَعبُدونها؟ ويجوز أن يكونَ من رؤية البصر، فيكونُ «شركاءَ» حالاً[1].

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم. وقيل: إنَّ «كلَّا» ردٌّ لجوابهم المحذوفِ، كأنه قال: أَرُوني الذين ألحقتُم به شركاء. قالوا: هي الأصنامُ. فقال: كلَّا، أي: ليس له شركاء ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: وما أرسلناك

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٧.

إِلَّا للناس كافةً، أي: عامَّةً، ففي الكلام تقديمٌ وتأخير. وقال الزجَّاج: أي: وما أرسلناك إِلَّا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ[١]. والكافةُ بمعنى الجامع.

وقيل: معناه: كافًّا للناس، تكفُّهم عمَّا هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام. والهاءُ للمبالغة. وقيل: أي: إِلَّا ذا كافَّةٍ، فحذف المضاف، أي: ذا منعٍ للناس من أن يَشِذُّوا عن تبليغك، أو ذا منعٍ لهم من الكفر، ومنه: كفَّ الثوبَ؛ لأنَّه ضمَّ طرفيه.

﴿بَشِيرًا﴾ أي: بالجنة لمَن أطاع. ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لِمَن كَفَر. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما عندَ الله، وهم المشركون، وكانوا في ذلك الوقتِ أكثرَ من المؤمنين عدداً.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يعني موعدكم لنا بقيام الساعة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. فقال الله تعالى: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ فلا يغرَّنَّكم تأخيرُه. والميعادُ: الميقات. ويعني بهذا الميعادِ وقتَ البعث. وقيل: وقتَ حضورِ الموت، أي: لكم قبلَ يومِ القيامة وقتٌ معيَّنٌ تموتون فيه، فتعلمون حقيقةَ قولي.

وقيل: أراد بهذا اليوم يومَ بدر؛ لأنَّ ذلك اليومَ كان ميعادَ عذابِهم في الدنيا في حُكْمِ الله تعالى.

وأجاز النحويون: «ميعادٌ يومٌ» على أن يكون «ميعادٌ» ابتداءً، و«يومٌ» بدلاً منه، والخبر: «لكم». وأجازوا «ميعادٌ يوماً» يكون ظرفاً، وتكون الهاء في «عنه» ترجع إلى «يوم». ولا يصح: «ميعادٌ يومَ لا تستأخرون» بغير تنوين وإضافة «يومَ» إلى ما بعده؛ إذا قدَّرتَ الهاء عائدةً على اليوم؛ لأنَّ ذلك يكون من إضافة الشيء إلى نفسه من أَجْلِ الهاء التي في الجملة. ويجوز ذلك على أن تكون الهاءُ للميعاد لا لليوم[٢].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٤، وتعقبه أبو حيان في البحر ٧/ ٢٨١ بأنَّ «كفَّ» ليس بمحفوظ أنَّ معناه: جمع. والمحفوظ في معناه: منع، والمعنى: إلا مانعاً لهم من الكفر. وينظر الدر المصون ٩/ ١٨٥.

(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٨، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٨، وقال السمين في الدر =

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يريد كفار قريش ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِۗ﴾ قال سعيدٌ عن قتادة: «ولا بالذي بين يديه» من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام[1]. وقيل: من [أمر] الآخرة. وقال ابن جُريج: قائلُ ذلك أبو جهل بن هشام[2].

وقيل: إنَّ أهلَ الكتاب قالوا للمشركين: صفةُ محمدٍ في كتابنا فَسَلُوه، فلمَّا سألوه فوافَقَ ما قال أهلُ الكتاب، قال المشركون: لن نؤمنَ بهذا القرآنِ ولا بالذي قبلَه من التوراة والإنجيل، بل نكفرُ بالجميع، وكانوا قبل ذلك يراجعون أهلَ الكتاب ويَحتجُّون بقولهم، فظَهَر بهذا تَنَاقضُهم وقلةُ عِلْمِهم.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم في مآلهم[3]، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمدُ ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: محبوسون في موقف الحساب، يتراجعون الكلامَ فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أَخِلَّاءَ متناصِرِين. وجوابُ «لو» محذوفٌ، أي: لرأيتَ أمراً هائلاً فظيعاً.

= المصون ٩/ ١٨٩ : نصُّوا على أن الظرف إذا أضيف إلى جملة لم يَعُد منها إليه ضمير إلا في ضرورة. وقد قرئ بجميع ما سلف من وجوه. ينظر الكشاف ٣/ ٢٩٠ ، والبحر ٧/ ٢٨٢ .

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥١ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في (د) و(م): فيما لهم.

ثم ذَكَر أيَّ شيءٍ يرجع من القول بينهم فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ في الدنيا من الكافرين ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ وهم القادةُ والرؤساء: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: أغْوَيْتُمونا وأضْلَلْتُمونا. واللغةُ الفصيحة: «لولا أنتم»، ومن العرب مَن يقول: «لولاكم» حكاها سيبويه؛ تكون «لولا» تَخْفضُ المضمَرَ، ويرتفع المُظْهَرُ بعدها بالابتداء ويُحذف خبره. ومحمد بن يزيد يقول: لا يجوزُ «لولاكم»؛ لأنَّ المضمَر عَقيبُ المُظْهَرِ، فلمَّا كان المظهرُ مرفوعاً بالإجماع، وجب أن يكون المضمَرُ أيضاً مرفوعاً(١).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ هو استفهامٌ بمعنى الإنكار، أي: ما رَدَدْناكم نحن عن الهدى، ولا أكرهناكم .﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين مصرِّين على الكفر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ المكرُ أصلُه في كلام العرب: الاحتيالُ والخديعة. وقد مَكَرَ به يَمكُرُ، فهو ماكر ومَكَّار. قال الأخفش(٢): هو على تقدير: هذا مَكْرُ الليل والنهار. قال النحاس(٣): والمعنى ـ والله أعلم ـ: بل مكرُكم في الليل والنهار، أي: مُسَارَّتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حَمَلَنا على هذا.

وقال سفيان الثوري: بل عملُكم في الليل والنهار. قتادة: بل مكرُكم بالليل والنهار صدَّنا(٤). فأُضيفَ المكر إليهما لوقوعه فيهما، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، فأضاف الأَجَلَ إلى نفسه، ثم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ [الأعراف: ٣٤] إذ كان الأجل لهم. وهذا من قَبِيلِ قولك: ليلُه قائمٌ ونهارُه صائم. قال المبرِّد: أي: بل مكرُكم الليل والنهار، كما تقول العرب: نهارُه

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٨ . وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٧٣ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٣ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٢ ، دون قوله: صدنا.

صائمٌ وليلُه قائمٌ، وأنشد لجرير:

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ونمتِ وما ليلُ المَطِيِّ بنائمِ[1]

وأنشد سيبويه:

فنام ليلي وتجلَّى همِّي[2]

أي: نمتُ فيه. ونظيره: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ [يونس: ٦٧].

وقرأ قتادة: «بل مَكْرٌ الليلَ والنهارَ» بتنوين «مكر» ونصبِ «الليلَ والنهار»، والتقدير: بل مكرٌ كائنٌ في الليل والنهار، فحذف[3].

وقرأ سعيد بن جبير: «بل مَكَرُّ» بفتح الكاف وشدِّ الراء بمعنى الكرور، وارتفاعُه بالابتداء والخبرُ محذوفٌ. ويجوز أن يرتفع بفعلٍ مُضْمَرٍ دلَّ عليه: «أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ»، كأنَّهم لمَّا قالوا لهم: أنحن صددناكم عن الهدى؟! قالوا: بل صدَّنا مَكَرُّ الليلِ والنهار[4].

وروي عن سعيد بن جبير: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قال: مرّ الليل والنهار عليهم فغفلوا[5]. وقيل: غرَّهم[6] طولُ السلامة فيهما كقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) ديوان جرير بشرح ابن حبيب ٢/ ٩٩٣، وسلف ١١/ ٢٠، وهو في الكتاب ١/ ١٦٠، والمقتضب ٤/ ٣٣١ وفيه قول المبرد بنحوه، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٩ وعنه نقل المصنف.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٩، ولم نقف عليه في الكتاب، والرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص١٤٢، والمقتضب ٤/ ٣٣١.

(٣) المحتسب ٢/ ١٩٣ - ١٩٤. قال ابن جني: وإن شئت علقتهما بنفس «مكر»، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤-١٥].

(٤) المحتسب ٢/ ١٩٣ - ١٩٤. قال ابن جني: المَكَرُّ والكرور: اختلاف الأوقات. وذكر القراءة أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٢، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩.

(٦) قوله: غرَّهم، من (ظ).

وقرأ راشد: «بل مَكَرَّ الليل والنهار» بالنصب، كما تقول: رأيته مَقْدَمَ الحاجِّ، وإنَّما يجوز هذا فيما يُعرفُ؛ ولو قلتَ: رأيتُه مَقْدَمَ زيد، لم يَجز؛ ذكره النحاس[١].

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: أشباهاً وأمثالاً ونُظراءَ. قال محمد بن يزيد: ندُّ فلانٍ فلان[٢]؟، أي: مثلُه. ويقال: نَدِيد، وأنشد:

أَتَيْماً تجعلون إليَّ نِدًّا ... وما تَيْمٌ لذي حَسَبٍ نَديدُ[٣]

وقد مضى هذا في «البقرة»[٤].

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي: أَظْهَرُوها، وهو من الأضداد؛ يكون بمعنى الإخفاءِ والإبداء؛ قال امرؤ القيس:

تجاوزتُ أَحْراساً وأهوالَ مَعْشرٍ ... عَليَّ حِرَاصٍ لو يُسِرُّون مَقْتَلِي[٥]

ويروى: «يُشِرُّون»[٦].

وقيل: «وأَسَرُّوا النَّدامَةَ» أي: تَبَيَّنت الندامةُ في أسرار وجوههم. وقيل: الندامةُ لا تظهر، وإنَّما تكون في القلب، وإنَّما يظهر ما يتولَّد عنها[٧]، حَسْبَمَا تقدَّم بيانُه في سورة يونس، وآل عمران[٨].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩ - ٣٥٠ ، وقراءة راشد في المحتسب ٢/ ١٩٣ - ١٩٤ ، والبحر ٧/ ٢٨٣ . قال أبو حيان: وراشد هذا من التابعين، ممن صحح المصاحف بأمر الحجاج. اهـ. وهو ابن نجيح الحِمَّانيُّ، أبو محمد البصري. التهذيب ١/ ٥٨٤ . وقد سلف ذكره ١/ ١٠٤ (حاشية).

(٢) في (م): فلان ند فلان.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣١ ، وسلف ١١/ ٣٣٦ .

(٤) ١/ ٣٤٧ .

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٣ ، وفيه: يُشِرُّون، بدل: يسرُّون، وهما روايتان كما سيرد. ووقع في (م): حراصاً، وهو موافق لما في شرح المعلقات للنحاس ١/ ١٧ وللتبريزي ص ٣٧ ، وهو فيهما برواية:

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً ... عليَّ حراصاً لو يُشِرُّون مقتلي

(٦) وهي رواية الديوان كما سلف، قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ١٧ : مَن روى: يُسرُّون، فيجوز أن يكون معناه عنده: يكتمون، ويجوز معناه: يظهرون. أما يُشِرُّون فمعناه يظهرون لا غير.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٠ .

(٨) سلف في سورة الأعراف ٩/ ٣٣٥ ، وسورة يونس ١١/ ٨ ، ولم نقف عليه في سورة آل عمران.

وقيل: إظهارُهم الندامةَ قولُهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢].

وقيل: أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها؛ كما قال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ [الأنبياء: ٣].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الأغلالُ جمعُ غُلٍّ، يقال: في رقبته غُلٌّ من حديد. ومنه قيل للمرأة السيئةِ الخُلُق: غُلٌّ قَمِلٌ، وأصلُه: أنَّ الغُلَّ كان يكون من قِدٍّ[١] وعليه شعرٌ فيَقْمَلُ. وغَلَلْتُ يده إلى عنقه، وقد غُلَّ فهو مغلول، يقال: ماله أُلَّ وغُلَّ[٢]. والغُلُّ أيضاً والغُلَّة: حرارةُ العطش، وكذلك الغليل؛ يقال منه: غُلَّ الرجلُ يُغَلُّ غَلَلًا فهو مغلول، على ما لم يسمَّ فاعله؛ عن الجوهريّ[٣].

أي: جُعلت الجوامعُ في أعناق التابعين والمتبوعين. قيل: مِن غيرِ هؤلاء الفريقين. وقيل: يرجع«الذين كَفَرُوا» إليهم.

وقيل: تم الكلامُ عند قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ﴾ بعد ذلك في أعناق سائر الكفار. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا؟

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ قال قتادة: أي:

(١) القِدُّ هو السَّيْرُ يُقَدُّ من جلدٍ غير مدبوغ، القاموس (قدد).

(٢) أُلَّ: دُفع في قفاه، وغُلَّ: وُضع الغُلُّ في يديه وعنقه، وهذا دعاء عليه. معجم متن اللغة (أل) و(غل).

(٣) في الصحاح: (غلل).

أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتُها وقادةُ الشرِّ للرسل: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[١].

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ أي: فُضِّلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربُّكم راضياً بما نحن عليه من الدِّين والفضل لم يخوِّلنا ذلك. ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأنَّ مَن أَحْسَنَ إليه فلا يُعذِّبُه. فردَّ الله عليهم قولَهم وما احتجُّوا به من الغِنَى فقال لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يوسِّعه ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ أي: يقتِّر، أي: إنّ الله هو الذي يُفاضِلُ بين عبادِه في الأرزاق امتحاناً لهم، فلا يدلُّ شيءٌ من ذلك على ما في العواقب، فَسَعَةُ الرزق في الدنيا لا تدلُّ على سعادة الآخرة، فلا تظنُّوا أموالَكم وأولادكم تُغني عنكم غدًا شيئًا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هذا؛ لأنَّهم لا يتأمَّلون.

ثم قال تأكيداً: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ قال مجاهد: أي: قُرْبَى. والزُّلْفَةُ: القُرْبة[٢].

وقال الأخفش[٣]: أي: إزلافاً، وهو اسمُ المصدر، فيكون موضعُ «قُرْبَى» نصبًا، كأنه قال: بالتي تقرِّبكم عندنا تقريباً.

وزعم الفراء أنَّ «التي» تكون للأموال والأولاد جميعاً. وله قولٌ آخرُ ـ وهو مذهبُ أبي إسحاقَ الزجَّاج ـ يكون المعنى: وما أموالُكم بالتي تقرِّبكم عندنا زُلْفَى، ولا أولادكم بالتي تقرِّبكم عندنا زُلْفَى، ثم حذفَ خبر الأولِ لدلالة الثاني عليه، وأنشد الفراء:

نحن بما عندنا وأنتَ بما عندك راضٍ والرأيُ مختلِفُ[٤]

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٥٢، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٧. وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٦.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥١ وعنه نقل المصنف قول الفراء والزجاج، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٥. وسلف البيت ١٠/ ١٨٨.

ويجوز في غير القرآن: باللَّتين وباللَّاتي وباللَّواتي وباللَّذَيْنِ، وبالَّذينَ للأولاد خاصة[١].

أي: لا تَزيدُكم الأموالُ عندنا رِفعةً ودرجةً، ولا تقرِّبكم تقريباً.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى: إلَّا من آمَنَ وعَمِلَ صالحاً فلن يَضُرَّه مالُه وولدُه في الدنيا[٢]. وروى ليثٌ عن طاوسٍ أنه كان يقول: اللهمَّ ارزقني الإيمانَ والعمل، وجنِّبني المالَ والولد، فإنِّي سمعتُ فيما أوْحيتَ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[٣].

قلت: قولُ طاوسٍ فيه نظر، والمعنى والله أعلم: وجنِّبني المالَ والولدَ المُطْغِيَيْن، أو اللَّذَينِ لا خيرَ فيهما، فأمَّا المالُ الصالح والولدُ الصالح للرجل الصالحِ فنِعْمَ هذا! وقد مضى هذا في «آل عمران، ومريم، والفرقان»[٤].

و«مَن» في موضعِ نصبٍ على الاستثناء المنقطع، أي: لكنْ مَن آمَنَ وعمل صالحاً فإيمانُه وعملُه يقرِّبانِه منِّي. وزعم الزجَّاج أنه في موضع نصبٍ بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التي في «تقرِّبكم». النحاس: وهذا القولُ غلطٌ؛ لأنَّ الكافَ والميمَ للمخاطَب، فلا يجوزُ البدلُ، ولو جاز هذا لجاز: رأيتُك زيداً. وقولُ أبي إسحاقَ هذا هو قولُ الفرَّاء، إلَّا أنَّ الفراء لا يقول: بدل، لأنَّه ليس من لفظِ الكوفيين، ولكنَّ قولَه يَؤولُ إلى ذلك، وزعم أنَّ مثله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٩] يكون منصوباً عنده بـ «ينفع». وأجاز الفرَّاء أن يكون «مَن» في موضع رفعٍ بمعنى: ما هو إلَّا مَن آمَنَ، كذا قال: ولستُ أُحصِّلُ معناه[٥].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٢، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٥.

(٢) أخرج نحوه الطبري ١٩/ ٢٩٧ عن ابن زيد، ولم نقف عليه عن سعيد بن جبير.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٣، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٨.

(٤) ٥/ ١١٠ و١٣/ ٤١٤ و١٥/ ٤٨٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٢، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٥، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٦٣.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ يعني قولَه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠] فالضِّعْفُ: الزيادة، أي: لهم جزاءُ التضعيف. وهو من باب إضافةِ المصدرِ إلى المفعول. وقيل: لهم جزاءُ الأضعاف، فالضِّعفُ في معنى الجمع. وإضافةُ الضعفِ إلى الجزاء كإضافة الشيء إلى نَفْسِه، نحو: حقّ اليقين، وصلاة الأُولى. أي: لهم الجزاءُ المضعَّف؛ للواحد عشرةٌ إلى ما يُريد اللهُ من الزِّيادة.

وبهذه الآية استدلَّ مَن فضَّل الغِنَى على الفقر. وقال محمد بن كعب: إنَّ المؤمن إذا كان غنيًّا تقيًّا آتاه الله أَجْرَه مرَّتين بهذه الآية[1]. ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

قراءةُ العامةِ: «جَزَاءُ الضِّعْفِ» بالإضافة. وقرأ الزُّهرِيُّ ويعقوبُ ونصر بن عاصم: «جزاءً» منوَّناً منصوباً «الضعفُ» رفعاً[2]، أي: فأولئك لهم الضِّعفُ جزاءً، على التقديم والتأخير. «وَجَزَاءٌ الضِّعْفَ» على أن يجازَوا الضعفَ. و«جزاءٌ الضِّعفُ» مرفوعان، الضِّعفُ بدل من جزاء[3].

وقَرأ الجمهور أيضاً: ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ على الجمع، وهو اختيارُ أبي عبيد؛ لقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت:٥٨]. الزمخشريُّ: وقرئ «في الغرفات» بضمِّ الراء وفَتْحِها وسكونها[4].

وقرأ الأعمش ويحيى بن وَثَّاب وحمزةُ وخلف: ﴿في الغرفة﴾ على التوحيد[5]؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان:٧٥]. والغرفةُ قد يُرادُ بها اسمُ

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٥٣.

(٢) النشر ٢/ ٣٥١. و«جزاءً» في هذه القراءة منصوب على الحال، كما ذكر أبو حيان في البحر ٧/ ٢٨٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٢. وقراءة: «جزاءُ الضعفُ» ـ برفعهما ـ ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢ عن قتادة. وقراءة: «جزاءٌ» بالرفع والتنوين «الضعفَ» بالنصب ذكرها الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٤٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٢، والقراءة بفتح الراء وسكونها في القراءات الشاذة ص ١٢٢.

(٥) السبعة ص ٥٣٠، والتيسير ص ١٨١ عن حمزة. وأما قراءة خلف المشهورة عنه فكقراءة الجمهور.

الجمعِ واسم الجنس. قال ابن عباس: هي غرفٌ من ياقوتٍ وزبرجد ودُرٍّ. وقد مضى بيانُ ذلك(١).

﴿ءَامِنُونَ﴾ أي: من العذاب والموت والأسقام والأحزان. ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ في إبطال أدلَّتِنا وحُجَجنا وكتابنا. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: معانِدين، يحسبون أنَّهم يفوتوننا بأنفسهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: في جهنَّم؛ تُحضِرُهم الزبانيةُ فيها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ كرَّر تأكيدًا. ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المغترِّين بالأموال والأولاد: إنَّ الله يوسِّع على مَن يشاء ويضيِّق على مَن يشاء، فلا تغترُّوا بالأموال والأولاد، بل أَنْفِقوها في طاعة الله، فإنَّ ما أنفقتُم في طاعة الله فهو يُخْلِفُه. وفيه إضمارٌ، أي: فهو يُخْلِفُه عليكم؛ يقال: أَخْلَفَ له وأَخْلَفَ عليه، أي: يعطيكم خَلَفَه وبَدَلَه، وذلك البَدَلُ إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن يوم يصبحُ العبادُ فيه إلَّا ومَلَكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، و[يقول الآخَر: اللهم] أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»(٢).

وفيه أيضاً عن أبي هريرةَ، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله قال لي: أَنفِقْ أُنْفِقْ عليك...» الحديث(٣). وهذه إشارةٌ إلى الخَلَف في الدنيا بِمثْلِ المنفَق فيها إذا كانت

---

(١) ينظر ١٠/٢٩٩ و١٥/٤٩١. وخبر ابن عباس سيأتي عند تفسير الآية (٢٠) من سورة الزمر.

(٢) صحيح مسلم (١٠١٠)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٨٠٥٤)، والبخاري (١٤٤٢).

(٣) صحيح مسلم (٩٩٣)، وهو عند أحمد (٧٢٩٨)، والبخاري (٤٦٨٤).

النفقةُ في طاعة الله. وقد لا يكون الخَلَفُ في الدنيا، فيكون كالدعاء ـ كما تقدَّم[١] ـ سواءً في الإجابة أو التكفير أو الادِّخار، والادِّخارُ ها هنا مثله في الأجر[٢].

مسألة: روى الدَّارقُطْنيُّ وأبو أحمد بنُ عَدِيٍّ عن عبد الحميد الهلاليِّ، عن محمد ابن المُنْكَدِر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ معروفٍ صدقةٌ، وما أَنْفقَ الرجلُ على نفسه وأهله كُتب له صدقة، وما وَقَى به الرجلُ عِرضَه فهو صدقةٌ، وما أَنْفَقَ الرجل من نفقةٍ فعَلَى الله خَلَفُها، إلَّا ما كان من نفقةٍ في بنيانٍ أو معصية». قال عبد الحميد: قلتُ لابن المنكدر: ما «وَقَى الرجلُ عِرضَه»؟ قال: يعطي الشاعرَ وذا اللسان[٣]. عبد الحميد وثَّقه ابن معين[٤].

قلت: أمَّا ما أنفق في معصيةٍ فلا خلافَ أنه غيرُ مثابٍ عليه ولا مخلوفٍ له. وأمَّا البنيانُ فما كان منه ضروريًّا يُكِنُّ الإنسانَ ويحفظُه، فذلك مخلوفٌ عليه ومأجورٌ ببنيانه، وذلك لِحِفْظِ[٥] بنيته وسترِ عورته؛ قال ﷺ: «ليس لابن آدمَ حقٌّ في سِوى هذه الخصالِ: بيتٍ يسكنُه، وثوبٍ يوارِي عورتَه، وجِلْفِ الخبز، والماء»[٦]. وقد مضى هذا المعنى في «الأعراف» مستوفًى[٧].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لمَّا كان يقال في الإنسان: إنَّه يَرْزُقُ عيالَه، والأمير جندَه، قال: «وهو خيرُ الرَّازِقِينَ» والرزاقُ من الخَلْقِ يَرزقُ، لكنَّ ذلك من

---

(١) ٣/ ١٨٠ .

(٢) في (ظ): الآخرة، وكذلك وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٩٢ ، والكلام فيه بنحوه.

(٣) سنن الدارقطني (٢٨٩٥)، والكامل ٥/ ١٩٥٩. وسلف ٩/ ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٤) الكامل ٥/ ١٩٥٨ ، وعبد الحميد هو ابن الحسن الهلالي، وقال فيه أبو حاتم: شيخ، وضعفه ابن المديني وأبو زرعة والدارقطني. ميزان الاعتدال ٢/ ٥٣٩ .

(٥) في (د) و(م): وكذلك كحفظ، وفي (خ): وذلك كحفظ.

(٦) أخرجه أحمد (٤٤٠)، والترمذي (٢٣٤١) من حديث عثمان ﷺ، وهو حديث لا يصح كما سلف الكلام ٥/ ٥٧ . قوله: جلف الخبز، أي: وحدَه ليس معه إدام، أو: الخبز الغليظ اليابس.

(٧) ٩/ ٢٦٧ - ٢٦٩ .

مالٍ يُملك عليهم ثم ينقطع، والله تعالى يَرزقُ من خزائنَ لا تفنَى ولا تتناهَى. ومَن أَخرجَ من العدم إلى الوجود فهو الرَّازقُ على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾

قوله تعالى: ﴿ويوم نَحشرهم جميعاً﴾ هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [الآية: ٣١] أي: لو تَراهم في هذه الحالةِ لرأيتَ أمراً فظيعاً. والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ هو وأمته. ثم قال: ولو تراهم أيضاً يومَ نَحْشرُهم جميعاً، العابِدِينَ والمعبودينَ، أي: نجمعهم للحساب ﴿ثُمَّ نَقُولُ[1] لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾. قال سعيد عن قتادة: هذا استفهامٌ، كقوله عزَّ وجلَّ لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] قال النحاس[2]: فالمعنى: أنَّ الملائكةَ صلواتُ الله عليهم إذا أكْذَبَتْهم؛ كان في ذلك تبكيتٌ لهم، فهو استفهامُ توبيخٍ للعابِدِين.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: أنت ربُّنا الذي نَتَولَّاه ونطيعُه ونعبُده ونُخْلِصُ في العبادة له. ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: يُطيعون إبليسَ وأعوانَه. وفي التفاسير[3]: أنَّ حَيًّا يقال لهم: بنو مُلَيح من خُزاعةَ؛ كانوا يعبدون الجنَّ، ويزعمون أنَّ الجنَّ تتراءى لهم، وأنَّهم ملائكةٌ، وأنَّهم بناتُ الله، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

---

(١) قرأ حفص: «يحشرهم» و«يقول» بالياء، والباقون بالنون، وهو ما وقع في النسخ. السبعة ص ٥٣٠، والتيسير ص١٠٧.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٤، وما قبله منه. وقول قتادة قبله أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٣) في (ظ): وفي التفسير.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا﴾ أي: شفاعةً ونَجاةً ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي: عذاباً وهَلاكاً. وقيل: أي: لا تملك الملائكةُ دفعَ ضرٍّ عن عابِدِيهم، فحذف المضاف. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يجوزُ أن يقول الله لهم أو الملائكة: ذوقوا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ يعني القرآن ﴿قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ يَعنون محمداً ﷺ ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي: أَسْلافُكم من الآلهة التي كانوا يعبدونها. ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ﴾ يعنون القرآن، أي: ما هو إلَّا كذبٌ مُخْتلَق. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فتارةً قالوا: سحرٌ، وتارةً قالوا: إفك. ويحتمل أن يكون منهم مَنْ قال: سحر، ومنهم مَن قال: إفك.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ﴾ أي: لم يقرؤوا في كتابٍ أُوتُوه بطلانَ ما جئتَ به، ولا سَمِعوه من رسولٍ بُعث إليهم، كما قال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١]. فليس لتكذيبهم وجهٌ يُتَشَبَّثُ به ولا شبهةٌ يُتَعَلَّقُ بها[1] كما يقول أهلُ الكتاب ـ وإنْ كانوا مُبْطِلينَ ـ : نحن أهلُ كتابٍ وشرائعَ

(١) في (ظ): وجه متشبث به ولا شبهة متعلقٌ بها، وفي الكشاف ٣/ ٢٩٣ (والكلام منه): وجه متشبث ولا شبهة متعلق.

ومُستَنِدون إلى رسلٍ من رسل الله.

ثم توعَّدَهم على تكذيبهم بقوله الحقّ: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كذَّب قبلَهم أقوامٌ كانوا أشدَّ من هؤلاء بطشًا، وأكثرَ أموالاً وأولاداً، وأوسعَ عيشاً، فأهْلَكْتُهم؛ كثمودَ وعادٍ. ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: ما بلغ أهلُ مكةَ مِعْشارَ ما آتينا تلك الأمم. والمِعْشارُ والعُشْر سواء، لغتان. وقيل: المِعْشارُ عُشْرُ العُشْرِ[1]. الجوهريّ[2]: ومِعْشارُ الشيءِ عُشْرُه، ولا يقولون هذا في شيءٍ سوى العُشْرِ.

وقيل: ما بلغ الذين مِن قَبْلِهم مِعْشارَ شُكْرِ ما أعطيناهم؛ حكاه النقَّاش. وقيل: ما أعطَى الله تعالى مَن قبلهم مِعْشارَ ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان. قال ابن عباس: فليس أمةٌ أعلمَ من أمته، ولا كتابٌ أبينَ من كتابه[3].

وقيل: المِعْشارُ هو عُشْرُ العشير، والعشيرُ هو عُشْرُ العُشْرِ، فيكون جزءًا من ألفِ جزء. الماورديُّ[4]: وهو الأَظْهَرُ؛ لأنَّ المراد به المبالغةُ في التقليل.

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِىۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: عقابي في الأمم، وفيه محذوفٌ وتقديرُه: فأهلكناهم فكيف كان نكيري.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ تَمَّمَ الحُجَّةَ على المشركين، أي: قُلْ لهم يا محمدُ: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ أي: أذكِّرُكم وأحذِّركم سوءَ عاقبةِ ما أنتم فيه. ﴿بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ أي: بكلمةٍ واحدة مشتملةٍ على جميع الكلام، تقتضي نَفْيَ الشِّرْكِ وإثبات

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ .

(٢) في الصحاح (عشر).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ ، وما قبله منه.

الإله. قال مجاهد: هي لا إله إلا الله[١]، وهذا قولُ ابن عباس والسُّدِّي[٢]. وعن مجاهد أيضاً: بطاعة الله[٣]. وقيل: بالقرآن؛ لأنه يجمع كلَّ المواعظ[٤].

وقيل: تقديرُهُ: بخصلةٍ واحدةٍ، ثم بيَّنها بقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ فتكون «أَنْ» في موضعِ خفضٍ على البَدَلِ من «وَاحِدَةٍ»، أو في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأ، أي: هي أنْ تقوموا. ومذهبُ الزجَّاج[٥] أنَّها في موضعِ نصبٍ بمعنى: لأنْ تقوموا.

وهذا القيامُ معناه: القيامُ إلى طلبِ الحقِّ، لا القيامُ الذي هو ضدُّ القعود، وهو كما يقال: قام فلانٌ بأمر كذا. أي: لوجه الله والتقرُّب إليه. وكما قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧].

﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: وُحدانًا ومُجتَمِعين؛ قاله السُّدِّيّ. وقيل: منفردًا برأيه ومُشاوِرًا لغيره، وهذا قولٌ مأثور. وقال القُتَبِيُّ: مناظِرًا مع غيره ومفكِّرا في نفسه[٦]، وكلُّه متقارب.

ويحتمل رابعاً: أنَّ المَثْنَى عملُ النهار، والفُرادى عملُ الليل؛ لأنه في النهار مُعَانٌ، وفي الليل وحيد؛ قاله الماوَرْديّ[٧].

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ ، وأخرجه الفريابي وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ عن السدي، وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠ ، ولم نقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٠٤ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٤ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٤٥٦ ، وقول ابن قتيبة بنحوه في تفسير غريب القرآن ص ٣٥٨ . ووقع في (ظ): ومتفكراً مع نفسه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ٤٥٦ .

وقيل: إنَّما قال: «مَثْنَى وَفُرَادَى» لأنَّ الذهنَ حجةُ اللهِ على العباد، وهو العقلُ، فأَوْفرُهم عقلاً أوفرُهم حظًّا من الله، فإذا كانوا فُرادى كانت فكرةً واحدة، وإذا كانوا مَثْنَى تَقابَلَ الذهنان، فتراءى من العلم لهما ما أُضْعِفَ على الانفراد، والله أعلم.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ الوقفُ عند أبي حاتم وابنِ الأنباريِّ على: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾[1].

وقيل: ليس هو بوقفٍ؛ لأنَّ المعنى: ثم تتفكَّروا: هل جرَّبتم على صاحبكم كذباً، أو رأيتم فيه جِنَّةً، أو في أحواله من فسادٍ، أو اخْتَلَفَ إلى أحدٍ ممَّن يدَّعي العلمَ بالسحر، أو تعلَّم الأقاصيصَ وقرأ الكتب، أو عَرَفتُموه بالطمع في أموالكم، أو تَقْدِرون على معارضته في سورةٍ واحدة؟ فإذا عرفتُم بهذا الفِكر صدقَه، فما بالُ هذه المعاندة؟!

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وفي «صحيح» مسلم عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت هذه الآية: «وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربِينَ. ورَهْطَكَ مِنهم المُخْلِصين» خرج رسول الله ﷺ حتى صعِد الصَّفا فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: مَن هذا الذي يَهْتِفُ؟! قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبدِ منافٍ، يا بني عبدِ المطَّلبِ» فاجتَمَعوا إليه فقال: «أرأيتُم لو أَخْبَرْتكم أنَّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتُم مُصَدِّقيَّ؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً. قال: «فإنِّي نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد». قال: فقال أبو لهب: تَبًّا لك! أمَا جمعتَنا إلَّا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقد تَبَّ﴾ كذا قرأ الأعمش إلى آخِرِ السورة[2].

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٤٧ ، وذكره عن أبي حاتم ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥ .

(٢) صحيح مسلم (٢٠٨)، وهو عند أحمد (٢٨٠١)، والبخاري (٤٩٧١). قوله: ورهطك منهم المخلصين، قال أبو العباس في المفهم ٧/ ٣٨٤ : ظاهر هذا أنه كان قرآناً يُتلى، وأنه نُسخ؛ إذ لم يثبت نَقْلُه في المصحف، ولا تواتَر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: جُعْلٍ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: ذلك الجُعْلُ لكم إنْ كنتُ سألتُكموه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: رقيبٌ وعالمٌ وحاضِرٌ لأعمالي وأعمالكم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ، فهو يجازي الجميع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يبيِّن الحجةَ ويُظْهِرُها. قال قتادة: بالحقِّ: بالوحي. وعنه: الحقُّ القرآن(١). وقال ابن عباس: أي: يقذفُ الباطلَ بالحقِّ علامُ الغيوبِ(٢).

وقرأ عيسى بن عمر: «عَلَّامَ الغيوب»(٣) على أنه بدلٌ، أي: قُلْ: إنَّ ربِّي علَّامَ الغيوبِ يقذفُ بالحقِّ. قال الزجاج(٤): والرفعُ من وجهين: على الموضع؛ لأنَّ الموضعَ موضعُ رفعٍ، أو على البدل ممَّا في «يقذف». قال النحَّاس: وفي الرفع وجهان آخَران: يكون خبراً بعد خبر، ويكون على إضمارِ مبتدأ. وزعم الفرَّاء أن الرفع في مثل هذا أكثرُ في كلام العرب إذا أتى بعد خبر «إنَّ»، ومثلُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤](٥).

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٠٧ بلفظ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالوحي ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ . قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن. وسيرد في الآية التي بعدها.

(٢) ذكره الرازي ٢٥/ ٢٧٠ دون نسبة، وربطه بقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨]

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٢ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٥٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٤ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٤ .

وقرئ: «الغيوبُ» بالحركات الثلاث، فالغُيوب كالبيوت، والغَيوب كالصَّيود[١]، وهو الأمرُ الذي غاب وخَفِيَ جدًّا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ قال سعيد عن قتادة: يريد القرآن. النحاس[٢]: والتقديرُ: جاء صاحبُ الحقِّ، أي: الكتاب الذي فيه البراهينُ والحُجج. ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ قال قتادة: الشيطان، أي: ما يخلقُ الشيطانُ أحداً[٣] ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾، فـ«ما» نَفْيٌ. ويجوز أن يكون استفهاماً بمعنى: أيّ شيء، أي: جاء الحقُّ؛ فأيُّ شيءٍ بقي للباطل حتى يُعيدَه ويُبْدِئَه، أي: فلم يَبْقَ منه شيءٌ، كقوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٨] أي: لا ترى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ﴾ وذلك أنَّ الكفار قالوا: تركتَ دينَ آبائِكَ فضَلَلْتَ. فقال له: قل يا محمد: إنْ ضللتُ ـ كما تزعمون ـ فإنَّما أَضِلُّ على نفسي. وقراءةُ العامَّة «ضَلَلْتُ» بفتح اللام. وقرأ يحيى بن وَثَّاب وغيره: «قُلْ إنْ ضَلِلتُ» بكسر اللام وفتح الضادِ من «أَضَلُّ»[٤]. والضلالُ والضلالةُ ضدُّ الرشاد، وقد

(١) في (ظ): فالغيوب بالرفع والخفض كالبُيوت والبِيوت والعُيون والعِيون وبالنصب كالصيود. اهـ. والصَّيود كقَبول: الصياد. القاموس (صاد). ووقع في (م): كالصبور، وهو موافق لما في مطبوع الكشاف ٣/ ٢٩٥ ، والكلام منه.

وقرأ بكسر الغين حيث وقع حمزةُ وأبو بكر، والباقون بضمها. السبعة ص١٧٨-١٧٩ ، والتيسير ص١٠١ ، والنشر ٢/ ٢٢٦ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٥ ، وما قبله منه، وأخرج الخبر عن قتادة الطبري ١٩/ ١٠٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ١٠٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦ .

ضَلَلْتُ ـ بفتح اللام ـ أضِلُّ بكسر الضاد؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فهذه لغةُ نجدٍ، وهي الفصيحة. وأهلُ العالية يقولون: «ضَلِلتُ» بالكسر «أَضِلُّ»[١]. أي: إثمُ ضلالتي على نفسي. ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ من الحكمة والبيان ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: سميعٌ ممَّن دعاه قريبُ الإجابة. وقيل: وجهُ النَّظْمِ: قُلْ إنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ويبيِّنُ الحُجَّةَ، وضلالُ مَن ضلَّ لا يُبْطِلُ الحُجَّة، ولو ضَلَلْتُ لأَضْرَرْتُ بنفسي، لا أنَّه يُبْطِلُ حجةَ الله، وإذا اهتديتُ فذلك فَضْلُ الله؛ إذ ثبَّتَني على الحُجَّة، إنَّه سمِيع قرِيب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ ذكر أحوالَ الكفار في وقت[٢] يُضْطَرُّون فيه إلى معرفة الحقِّ. والمعنى: لو ترى إذ فزعوا في الدنيا عند نزولِ الموت أو غيرِهِ من بأس الله تعالى بهم؛ روي معناه عن ابن عباس[٣].

الحسن: هو فَزَعُهم في القبور من الصيحة[٤]. وعنه: أنَّ ذلك الفزعَ إنَّما هو إذا خرجوا من قبورهم[٥]. وقاله قتادة[٦].

وقال ابن معقل: إذا عاينوا عقابَ اللهِ يومَ القيامة[٧].

---

(١) بالكسر أيضاً كما في مختار الصحاح (ضلل)، والكلام من الصحاح (ضلل).

(٢) بعدها في النسخ عدا (ظ): ما، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٠٩.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٥٨.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٣، والطبري ١٩/ ٣١٢. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦: وهذا أرجح الأقوال عندي.

(٦) كذا ذكر المصنف، والذي أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٣ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ أي: في الدنيا حين رأوا بأس الله. وأخرجه عنه الطبري ١٩/ ٣١٢ - ٣١٣، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠.

(٧) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣١٣.

السُّدِّيُّ: هو فَزَعُهم يومَ بدرٍ حين ضُربت أعناقُهم بسيوفِ الملائكة، فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة[١].

سعيد بن جُبير: هو الجيشُ الذي يُخسَفُ بهم في البيداء، فيبقى منهم رجلٌ، فيخبرُ الناس بما لقي أصحابه فيفزعون، فهذا هو فَزَعُهم[٢].

﴿فَلَا فَوْتَ﴾: فلا نجاةَ؛ قاله ابن عباس[٣]. مجاهد: فلا مَهْرَب[٤].

﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: من القبور. وقيل: من حيث كانوا، فهم من الله قريبٌ لا يَعْزُبون عنه ولا يفوتونه.

وقال ابن عباس: نزلت في ثمانين ألفاً يغزون في آخِرِ الزمان الكعبةَ لِيَخْرِبوها، فَلمّا يدخلون[٥] البيداءَ يُخْسفُ بهم، فهو الأخذُ من مكانٍ قريب.

قلت: وفي هذا المعنى خبرٌ مرفوعٌ عن حذيفةَ ـ وقد ذكرناه في كتاب «التذكِرة»[٦] ـ قال: قال رسول الله ﷺ؛ وذَكَر فتنةً تكون بين أهلِ المشرقِ والمغرب: «فبينما هم كذلك، إذ خرج عليهم السُّفيانيُّ من الوادي اليابس في فَوْرِه ذلك، حتى يَنْزِلَ دمشق، فيبعث جيشين؛ جيشاً إلى المشرق، وجيشاً إلى المدينة، فيسير الجيش نحو المَشْرِقِ حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعةِ الخبيثة ـ يعني مدينةَ بغداد ـ قال: فيقتلون أكثرَ من ثلاثةِ آلافٍ، ويفتضُّون أكثرَ من مئة امرأةٍ، ويقتلون بها ثلاثَ مئةِ كَبْشٍ من وَلَدِ العباس[٧]، ثم يخرجون متوجِّهين إلى الشام، فتخرج رايةُ هدًى من

---

(١) النكت والعيون ٤/٤٥٨ ، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/٤٥٨ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣١٠ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/٤٥٨ .

(٥) في (خ) و(م) وكما يدخلون. وفي (د): فلا يدخلون، والمثبت من (ظ). ووقع في الكشاف ٣/ ٢٩٦ (والخبر فيه بنحوه): فإذا دخلوا البيداء خسف بهم.

(٦) ص٦٠٩ .

(٧) في (ظ): بني إسماعيل، بدل: ولد العباس.

الكوفة، فتلحَقُ ذلك الجيشَ منها على ليلتين، فيقتلونهم لا يُفْلِتُ منهم مُخْبِرٌ ويَسْتَنقِذون ما في أيديهم من السَّبْي والغنائم، ويَحُلُّ جيشه الثاني بالمدينة، فينتبهونها ثلاثةَ أيامٍ ولياليها، ثم يخرجون متوجِّهين إلى مكةَ، حتى إذا كانوا بالبيداءِ بعث الله جبريل عليه السلام، فيقول: يا جبريلُ، اذهب فأَبِدْهم، فيضربها برجله ضربةً يَخسفُ الله بهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾. فلا يبقى منهم إلَّا رجلان؛ أحدُهما بشيرٌ والآخَرُ نذيرٌ، وهما من جُهَيْنة». ولذلك جاء القول: وعند جُهينةَ الخبرُ اليقين[١].

وقيل: «أُخِذُوا مِن مكانٍ قريبٍ» أي: قُبِضَتْ أرواحُهم في أماكنها، فلم يُمْكِنْهم الفرارُ من الموت، وهذا على قولِ مَن يقولُ: هذا الفزعُ عند النَّزْع.

ويحتمل[٢] أن يكون هذا من الفزع الذي هو بمعنى الإجابة؛ يقال: فَزِع الرجلُ، أي: أجاب الصَّارخَ الذي يستغيثُ به إذا نزل به خوفٌ. ومنه الخبرُ إذ قال للأنصار: «إنكم لتَقِلُّون عند الطَّمَعِ، وتَكْثُرون عند الفزع»[٣].

ومَن قال: أراد الخسفَ أو القتلَ في الدنيا كيومِ بدرٍ قال: أُخذوا في الدنيا قبل أن يؤخَذوا في الآخرة. ومَن قال: هو فزعُ يومِ القيامة قال: أُخذوا من بطن الأرض إلى ظَهْرِها. وقيل: «أُخِذُوا مِن مكانٍ قريبٍ»: من جهنَّم فأُلقوا فيها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن. وقال مجاهدٌ: بالله عزَّ وجلَّ. الحسن: بالبعث. قتادةُ: بالرسول ﷺ[٤]. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قال ابن

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٠ - ٣١١ . وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن هذا الحديث موضوع.

(٢) في (ظ): ويجوز.

(٣) سلف ٦/ ٤٠٩ .

(٤) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ ، وخبر مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٤ .

عباس والضحاك: التناوشُ: الرَّجعة، أي: يطلبون الرجعةَ إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات من ذلك[(١)]! ومنه قول الشاعر:

تــمــنّــى أن تــؤوبَ إلــيَّ مَــيٌّ ولـيـس إلـى تَـنـاوُشِـهـا سـبـيـلُ[(٢)]

وقال السُّدِّي: هي التوبة[(٣)]، أي: طلبوها وقد بَعُدت؛ لأنه إنَّما تُقْبَلُ التوبةُ في الدنيا. وقيل: التناوشُ: التناول؛ قال ابن السِّكِّيت: يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ولحيته: ناشَه يَنُوشُه نَوْشاً، وأنشد:

فهي تنوشُ الحوضَ نَوْشًا مِن عَلَا نَـوْشًـا بـه تَـقْـطَـعُ أَجْـوازَ الـفَـلا[(٤)]

أي: تتناول ماءَ الحوض من فوق، وتشرب شربًا كثيرًا، وتقطعُ بذلك الشُّرْبِ فَلَواتٍ، فلا تحتاج إلى ماءٍ آخَرَ. قال[(٥)]: ومنه المناوشةُ في القتال، وذلك إذا تَدَانى الفريقان. ورجلٌ نَوُوشٌ، أي: ذو بطش. والتناوشُ: التَّناولُ، والانتياشُ مثلُه. قال الراجز:

كـانـت تَـنـوشُ الـعَـنَـقَ انـتـيـاشـا[(٦)]

---

(١) أخرجه عنهما بنحوه الطبري ١٩/ ٣١٧ و٣١٩ . وذكره بهذا اللفظ عن ابن عباس الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧ . ووقع في (ظ): تؤوب إليه، وفي المحرر الوجيز: تؤوب إليك.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ .

(٤) إصلاح المنطق ص ٤٧٩ ، والصحاح (نوش)، والكلام منه. وهما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥ ، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥ - ٣١٦ ، والمنصف لابن جني ١/ ١٢٤ ، والاقتضاب ص ٤٢٧ ، والخزانة ٩/ ٤٣٧ ، وذكر سيبويه في الكتاب ٣/ ٤٥٣ البيت الأول. قال البطليوسي: لا أعلم لمن هذا الرجز. وقال البغدادي: وهذا من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعلم قائلها، وقال ابن بري: هذا الرجز لغيلان ابن حريث الرَّبَعي، ولم أقف على خبر لغيلان. اهـ. والضمير في قوله: فهي، للإبل. اللسان (نوش).

(٥) يعني ابن السكيت، وكلامه في إصلاح المنطق ص ٤٧٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (نوش)، وما قبله منه.

(٦) الصحاح واللسان (نوش)، وهو فيهما برواية: باتت تنوش ...، والعَنَق: ضَرْبٌ من سير الدابة والإبل. الصحاح (عنق).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يقول: أنّى لهم تَناولُ الإيمانِ في الآخرة وقد كفروا به في الدنيا[١].

وقرأ أبو عمرو والكِسائيُّ والأعمشُ وحمزة: ﴿وأنّى لهم التناؤش﴾ بالهمز[٢]. النحاس[٣]: وأبو عبيدةَ يستبعدُ هذه القراءة؛ لأنَّ «التناؤش» بالهمز: البُعْدُ، فكيف يكون: وأنَّى لهم البعدُ من مكان بعيد. قال أبو جعفر: والقراءةُ جائزةٌ حسنة، ولها وجهان في كلام العرب، ولا يُتَناوَلُ بها هذا المتناوَلُ[٤] البعيد. فأحدُ الوجهين أن يكون الأصلُ غيرَ مهموز، ثم هُمزت الواو لأنَّ الحركة فيها خَفِيَّة[٥]، وذلك كثيرٌ في كلام العرب. وفي المصحَفِ الذي نقلته الجماعةُ عن الجماعة: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: ١١]، والأصلُ: «وُقِّتت»؛ لأنه مشتقٌّ من الوقت. ويقال في جمع دار: أدْؤُر[٦].

والوجهُ الآخَر ذكره أبو إسحاق؛ قال: يكون مشتقًّا من النئيش، وهو الحركةُ في إبطاء، أي: من أين لهم الحركةُ فيما قد بَعُد[٧]. يقال: نَأَشْتُ الشيء: أخذته من بُعْدٍ، والنئيشُ: الشيءُ البطيء. قال الجوهريُّ[٨]: التناؤشُ - بالهمز - : التأخُّر والتباعُد. وقد نَأَشْتُ الأمر أَنَأَشُه نأشاً: أَخَّرته، فانْتَأَشَ. ويقال: فَعَلَه نئيشًا، أي: أخيراً. قال الشاعر:

---

(١) الصحاح (نوش).

(٢) وقرأ بها أيضاً عاصم في رواية أبي بكر السبعة ص٥٣٠ ، والتسير ص١٨١ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٦ .

(٤) في (م): ولا يتأول بها هذا المتأول، وفي (ظ): ولا يتناول بهذا هذا التأويل.

(٥) في (ظ): خفيفة.

(٦) قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٩ : وكلُّ واوٍ مضمومةٍ ضمتُها لازمة؛ إن شئت أبدلْتَ منها همزة، وإن شئت لم تُبْدِل.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٦ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٩ .

(٨) في الصحاح (نأش).

تـمـنَّـى نـئـيـشًـا أن يـكـون أطـاعـنـي   وقـد حَـدَثَـتْ بـعـدَ الأمـور أمـورُ(١)

وقال آخر:

قـعـدتَ زمـانـاً عـن طِـلابِـكَ لـلـعُـلا   وجئتَ نئيشًا بعدَ ما فاتَكَ الخبرْ(٢)

وقال الفرَّاء: الهمزُ وتَرْكُ الهمزِ في التناوُش مُتقارِبٌ، مثل: ذِمْتُ الرجلَ وذَأَمْته، أي: عبته.

﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: من الآخرة. وروى أبو إسحاق عن التميميِّ عن ابن عباس: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾ قال: الردّ، سألوه وليس بحينِ ردٍّ(٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالله عزَّ وجلَّ. وقيل: بمحمد ﷺ ﴿مِن قَبْلُ ۖ﴾ يعني في الدنيا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ العرب تقولُ لكلِّ مَن تكلَّم بما لا يَحُقُّه(٤): هو يقذفُ ويرجُمُ بالغيب. ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ على جهة التمثيل لمن يَرْجُم ولا يُصيب(٥)، أي: يرمون بالظنِّ فيقولون: لا بعثَ ولا نشورَ ولا جنةَ ولا نار، رَجْمًا منهم بالظنِّ؛ قاله قتادة(٦).

وقيل: «يقذفون» أي: يرمون في القرآن فيقولون: سحرٌ وشعرٌ وأساطيرُ الأولين. وقيل: في محمد، فيقولون: ساحرٌ شاعرٌ كاهنٌ مجنون. ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: إنَّ

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥، والصحاح (نأش)، ونسبه البصري في الحماسة ٢/ ٣٧، والزمخشري في المستقصى ١/ ٣٠٢، وصاحب اللسان (نأش) لنَهْشَل بن حَرِّيٍّ.

(٢) في (خ) و(د): الخير، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وتهذيب اللغة ١١/ ٤١٧، واللسان (نوش).

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٧، وسلف بنحوه عن ابن عباس والضحاك.

(٤) في (ظ): يحققه، وحقَّ الأمرَ يَحُقُّه وأَحقَّه: كان منه على يقين. اللسان (حقق).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٦.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٢٠.

الله بَعَّد لهم أنْ يعلموا صِدْقَ محمد ﷺ. وقيل: أراد البُعْدَ عن القلب، أي: من مكان بعيدٍ عن قلوبهم.

وقرأ مجاهد: «ويُقْذَفون بالغيب» غير مسمَّى الفاعل، أي: يُرمَون به[١]. وقيل: يَقْذِفُ به إليهم مَن يُغويهم ويُضِلُّهم.

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قيل: حِيل بينهم وبين النجاةِ من العذاب. وقيل: حِيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم. ومذهبُ قتادةَ أنَّ المعنى: أنهم كانوا يشتهون لمَّا رأوا العذاب أنْ يُقبَل منهم أن يُطيعوا الله جلَّ وعزَّ، وينتهوا إلى ما يأمرهم به الله، فحِيلَ بينهم وبين ذلك؛ لأنَّ ذلك إنَّما كان في الدنيا وقد زالت في ذلك الوقت. والأصلُ: «حُوِل»، فقُلبت حركةُ الواو على الحاء فانقلبت ياءً، ثم حُذفت حركتُها لثقلها[٢].

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ الأشياعُ جمع شِيَع، وشِيَع جمعُ شِيعَة. ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: بمَن مضى من القرون السالفة الكافرة. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ﴾ من أمر الرسل والبعث والجنة والنار. وقيل: في الدين والتوحيد، والمعنى الواحد.

﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: يُستَرابُ به، يقال: أرابَ الرجلُ، أي: صار ذا ريبة، فهو مُريب. ومَن قال: هو من الرَّيْب ـ الذي هو الشَّكُّ والتهمة ـ قال: يقال: شكٌّ مريب، كما يقال: عَجَبٌ عجيب، وشِعْرٌ شاعر، في التأكيد.

خُتمت السورة، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٧. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧: معناه: ويرجمهم الوحي بما يكرهون من السماء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٧، وقول قتادة أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٢٢.

سُورَةُ سَبَإٍ

مَكِّيَّةٌ، وقيل: إلا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ...﴾ الآيةَ، وآيُها خمسٌ وأربعونَ(١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا ونعمةً، فله الحَمدُ في الدُّنيا لكمالِ قُدرَتِه وعلى تمامِ نِعمَتِه ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنَّ ما في الآخرةِ أيضًا كذلك.

وليسَ هذا من عطفِ المقيَّدِ على المطلَقِ، فإنَّ الوصفَ بما يدلُّ على أنَّه المنعِمُ بالنِّعَمِ الدُّنيويَّةِ قيَّد الحمدَ بها(٢)، وتقديمُ الصِّلَةِ للاختصاصِ، فإنَّ النِّعَمَ

---

(١) كذا في نسخة الطبلاوي، وفي بقية النسخ: «وقال الذين أوتوا العلم»، وهو سهو، والصواب: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾، وقوله: «وآيها خمسٌ وأربعون» سهوٌ أيضًا، والصواب: أربعٌ وخمسون، انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٠٩)، وفيه: وهي خمسون وخمس آيات في الشّاميِّ، وأربع في عدد الباقين، اختلافها آية ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ عدها الشامي ولم يعدها الباقون. ونبه الخفاجي والقونوي على هذين الموضعين. انظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية القونوي» (١٥/ ٤٣٨).

(٢) قوله: قوله: «وليس هذا»؛ أي: قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ «من عطف المقيد»: وهو هنا (له الحمد في الآخرة) «على المطلق» وهو هنا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ «فإن الوصف»؛ أي: وهو ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «يدل على أنه المنعم بالنعم الدنيوية، فقيَّد الحمد بها» كما أشار إليه بقوله قبلُ: (فله الحمد في الدنيا)، فصار قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخره حمداً مقيَّداً بنعم الدنيا، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ حمداً مقيداً بنعم الآخرة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٩٣).

الدُّنيويَّـةَ قـد تكـونُ بوسـاطةِ مَن يَسـتحِقُّ الحمـدَ لأجلِهـا ولا كذلك نعـمُ الآخرةِ.

﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي أحكمَ أمورَ الدَّارينِ ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ ببواطنِ الأشياءِ.

(٢) ـ ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كالغيـثِ ينفُـذُ فـي موضـعٍ وينـبعُ فـي آخـرَ، وكالكنـوزِ والدَّفائـنِ والأمـواتِ ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ كالحيـوانِ والنَّبـاتِ والفِلِـزَّاتِ ومـاءِ العُيونِ.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالمَلائكةِ والكتبِ والمقاديرِ والأرزاقِ والأنداءِ والصَّواعقِ ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكةِ وأعمالِ العبادِ والأبخرَةِ والأدخِنَةِ.

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ للمُفرِّطينَ في شكرِ نِعمَتِه مع كثرتِها، أو: في الآخرةِ مع ما له مِن سَوابِقِ هذه النِّعَمِ الفائتةِ للحصرِ.

(٣) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ إنكارًا لِمَجيئِها، أو استبطاءً استهزاءً بالوَعدِ به.

﴿قُلۡ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامِهم وإثباتٌ لِمَا نَفَوْه ﴿وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ تكريرٌ لإيجابِه مؤكَّدًا بالقسَمِ مقرَّرًا بوصفِ المقسَمِ به بصفاتٍ تقرِّرُ إمكانَه وتنفي استبعادَهُ على ما مرَّ غيرَ مَرَّةٍ.

وقـرأَ حمزَةُ والكِسـائيُّ: ﴿عَلَّامِ الغَيْبِ﴾ للمبالغـةِ، ونافعٌ وابنُ عامـرٍ ورُوَيسٌ: ﴿عالِـمُ الغيـبِ﴾ بالرَّفعِ[1] على أنَّـه خبرُ مَحـذوفٍ، أو مبتدأٌ خبرُه:

﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وقرأَ الكِسائيُّ: ﴿لا يَعزِبُ﴾ بالكسرِ[2].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٢٢)، و«النشر» (٢/ ٣٤٩).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٢٢).

﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ جملةٌ مُؤكِّدَةٌ لنَفْيِ العُزوبِ، ورَفعُهُما بالابتداءِ، ويؤيِّدُه القراءةُ بالفتحِ على نفيِ الجنسِ(١)، ولا يجوزُ عَطْفُ المرفوعِ على ﴿مِثْقَالُ﴾ والمفتوحِ على ﴿ذَرَّةٍ﴾ بأنَّه فتحٌ في موضعِ الجرِّ لامتناعِ الصَّرفِ؛ لأنَّ الاستثناءَ يمنعُهُ، اللهمَّ إلَّا إذا جُعِلَ الضَّميرُ في ﴿عَنْهُ﴾ للغيبِ، وجُعِلَ المثبتُ في اللوحِ خارجًا عنه لظُهورِه على المطالعينَ له، فيكونُ المعنى: لا ينفصِلُ عن الغَيْبِ شيءٌ إلا مسطورًا في اللوحِ.

(٤) ـ ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عِلَّةٌ لقولِه: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وبيانٌ لِمَا يقتضي إتيانَها(٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تعبَ فيه ولا مَنَّ عليه.

(٥) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالإبطالِ وتزهيدِ النَّاسِ فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: مُسابقينَ كَيْ يَفوتُونَا.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو: ﴿مُعَجِّزِينَ﴾(٣)؛ أي: مُثبِّطينَ عن الإيمانِ مَن أرادَه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾: من سيِّئِ العذابِ ﴿أليم﴾: مؤلمٍ، ورفعَهُ ابنُ كثيرٍ ويَعقوبُ وحَفصٌ(٤).

---

(١) بالرفع قراءة الجمهور، وبالفتح نسبت للأعمش وقتادة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «إثباتها». قال الخفاجي: قولُه: (بيان لما يقتضي إتيانها) بالمُثنَّاةِ الفوقيَّة والنُّون؛ لأنَّ المُقتضى لمجيءِ السَّاعَة جزاء المُحسِن والمسيء، ووقعَ في بعضِ النُّسخِ: (إثباتها) بالمُثلَّثَةِ والمُوحَّدَةِ بعدها والمُثنَّاةِ الفوقيَّة، والمعنى: أنَّ الجزاء مُقتضٍ لإثباتِ الأشياء في علمِهِ أو في اللَّوحِ فيكونُ مُرتبطًا بجُملَةِ ما قبلَه، والأولى أولى. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٨٠)، و«النشر» (٢/ ٣٤٩).

(٦) ـ ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾: ويعلمَ أولو العلمِ مِن الصَّحابةِ ومَن شايَعَهُم من الأمَّةِ، أو مِن مُسلِمِي أهلِ الكتابِ ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾: القرآنَ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾.

ومَن رفعَ (الحقّ)[1] جعلَ ﴿هُوَ﴾ ضميرًا مُبتدأً و(الحقُّ) خبرَه، والجملَةَ ثانيَ مَفعولَيْ (يَرَى)، وهو مرفوعٌ مُستأنَفٌ للاستشهادِ بأولي العلمِ على الجَهَلةِ السَّاعينَ في الآياتِ.

وقيل: منصوبٌ مَعطوفٌ على ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾؛ أي: وليعلمَ أولو العلمِ عندَ مجيءِ السَّاعةِ أنَّه الحقُّ عيانًا كما عَلِمُوه الآنَ بُرهانًا.

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ الذي هو التَّوحيدُ والتَّدرُّعُ بلباسِ التَّقْوَى.

(٧) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ قال بَعضُهُم لبعضٍ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون: محمدًا عليه السَّلامُ ﴿يُنَبِّئُكُمْ ﴾: يحدِّثُكُم بأعجبِ الأعاجيبِ[2]:

﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾: إنَّكُم تُنشَؤونَ خلقًا جديدًا بعدَ أن تُمَزَّقَ أجسادُكُم كلَّ تَمزيقٍ وتفريقٍ بحيثُ تَصيرُ تُرابًا، وتقديمُ الظَّرفِ للدَّلالةِ على البعدِ والمبالغةِ فيه، وعامِلُهُ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما بعدَهُ، فإنَّ ما قبلَه لم يُقارِنْه وما بعدَه مُضافٌ إليه أو محجوبٌ بينَهُ وبينَه بـ(إنَّ).

و﴿مُمَزَّقٍ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مَكانًا بمعنى: إذا مُزِّقْتُم وذهبَتْ بكم السُّيولُ كلَّ مَذهبٍ وطُرِحْتُم[3] كلَّ مَطْرَحٍ.

---

(١) أي: (الحقُّ)، حكاها أبو معاذ، ونسبت لابن أبي عبلة، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«البحر» (١٧/ ٣٩٤).

(٢) في نسخة الخيالي: «العجائب».

(٣) في نسخة الفاروقي: «فطرحته». وفي نسخة التفتازاني والخيالي: «وطرحته»، والمثبت من نسخة الطبلاوي. قال الخفاجي: وقولُه: (طرحته) أي: المذهب، وفي نسخَةٍ: (طرحتكم) وهيَ أظهر. انظر: «حاشية الخفاجي».

و﴿جَدِيدٍ﴾ بمعنى فاعلٍ مِن جَدَّ؛ كحَدِيدٍ مِن حَدَّ، وقيل: بمعنى مفعولٍ مِن جَدَّ النَّسَّاجُ الثَّوبَ: إذا قطَعَه.

(٨) ـ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾: جنونٌ يوهمهُ ذلك ويُلقيهِ على لسانِه.

واستُدِلَّ بجَعلِهم إيَّاه قسيمَ الافتراءِ غيرَ مُعتقِدينَ صِدقَهُ على أنَّ بينَ الصِّدقِ والكَذبِ واسطةً، وهو: كلُّ خبرٍ لا يَكونُ عن بَصيرةٍ بالمخبَرِ عنه، وضعفُهُ بيِّنٌ؛ لأنَّ(١) الافتراءَ أخصُّ مِن الكَذبِ.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ رَدٌّ مِن اللهِ عليهم ترديدَهُم، وإثباتٌ لهم ما هو أفظَعُ مِن القِسْمَيْنِ، وهو الضَّلالُ البعيدُ عن الصَّوابِ بحيثُ لا يُرْجَى الخلاصُ منه، وما هو مُؤدَّاهُ من العذابِ، وجَعْلُه رسيلًا(٢) له في الوُقوعِ

---

(١) في نسخة الفاروقي: «من حيث إن»، وفي نسخة التفتازاني: «حيث إن».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «وسيلاً»، وكذا وقعت عند الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٤٩٧)، وعليه شرح ـ بما ليس بظاهر ـ مستدلًّا بعبارة «الكشاف» على أن اللفظ فيه بالواو، مع أن الذي في «الكشاف» (٧/ ١١٥): «رسيلاً» بالراء، ولم نقع في نسخه الخطية على غيره، وعليه شرح الطيبي عبارة «الكشاف» وشراح البيضاوي عبارة البيضاوي، ولم يذكروا فيه خلافاً ولا فرق نسخ.

فنقل الطيبي عن «أساس البلاغة» قوله: يقال: هو رَسيلُك في الغناء، أي: يُباريك في إرسالِك، ومن المجاز تقول: القَبيحُ سوءُ الذِّكرِ رَسيلُه، وسوءُ العاقبةِ زَميلُه.

وقال الشهاب: قوله: «وجعله رسيلاً له»؛ أي: قريناً له في الوقوع لأنَّ الاقتران في النظم يناسب الاقتران في الوقوع. ونحوه قال القونوي وغيره من الشراح.

قال شيخ زاده: أي: جعل العذاب تابعاً مقارناً للضلال حيث عطف أحدهما على الآخر بالواو المؤذنة بالاجتماع في الوقوع.

وقال ابن التمجيد: رسيل الرجل: الذي يراسله في نضال أو غيره، استعير للمقارن؛ أي: جعل العذاب مقترناً للضلال في الوقوع، والحال أن العذاب إنما هو في الآخرة والضلال في الدنيا؛ =

ومقدَّمًا عليهِ في اللفظِ للمبالغَةِ[1] في استحقاقِهم له، والبعدُ في الأصلِ صِفَةُ الضَّالِّ، ووصفُ الضَّلالِ به على الإسنادِ المجازيِّ.

(٩) ـ ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تذكيرٌ بما يعاينونَهُ ممَّا يدلُّ على كمالِ قُدرَةِ اللهِ وما يحتملُ فيه[2]؛ إزاحةً لاستحالَتِهم الإحياءَ حتى جَعلوهُ افتراءً وهزءًا، وتهديدًا عليها، والمعنى: أعَمُوا فلم ينظرُوا إلى ما أحاطَ بجَوانبِهم مِن السَّماءِ والأرضِ ولم يتفكَّرُوا: أهُمْ أشَدُّ خلقًا أم هي؟ وإنَّا إنْ نشَأْ نخسِفْ بهم أو نُسقِط عليهم كسفًا لتكذيبِهم بالآياتِ بعدَ ظُهورِ البيِّناتِ.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿يَشَأْ﴾، و﴿يَخْسِفْ﴾ و﴿يُسْقِطْ﴾ بالياءِ[3]؛ لقولِه: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وحفصٌ: ﴿كِسَفًا﴾ بالتَّحريكِ[4].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النَّظرِ والفِكْرِ فيهما وما يَدُلَّانِ عليه ﴿لَءَايَةً﴾: لدلالةً ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾: راجعٍ إلى ربِّهِ، فإنَّه يكونُ كثيرَ التَّأمُّلِ في أمرِه.

(١٠) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾؛ أي: على سائرِ الأنبياءِ، وهو ما ذُكرَ بعدُ، أو: على سائرِ النَّاسِ، فيندرجُ فيه النبوَّةُ والكتابُ والملكُ والصَّوتُ الحَسَنُ.

= إشعاراً بأن الضلال لما كان العذاب من لوازمه فكأنهما في الحقيقة مقترنان في الوجود في وقت واحد. انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٥١٠)، و«حاشية الخفاجي»، و«حاشية ابن التمجيد» و«حاشية القونوي» (١٥/ ٢٥٦)، و«حاشية شيخ زاده» (٦/ ٦٧٨).

(١) في نسخة الفاروقي: «مبالغة».

(٢) أي: في كمال قدرة الله تعالى. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٩٧).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

(٤) وقراءة الباقين بإسكان السين، انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٠).

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾: رجِّعِي معه التَّسبيحَ، أو النَّوحةَ على الذَّنبِ، وذلك: إمَّا بخَلْقِ صَوْتٍ مثلِ صوتِه فيها، أو بحملِها إيَّاه على التَّسبيحِ إذا تأمَّلَ ما فيها.

أو: سيري معه حيثُ سارَ.

وقرئ: (أُوْبِي)(١) من الأَوْبِ؛ أي: ارجِعِي في التَّسبيحِ كلَّما رَجَعَ فيه.

وهو بدلٌ مِن ﴿فَضْلًا﴾ أو مِن ﴿ءَاتَيْنَا﴾، بإضمارِ (قولَنَا) أو (قُلْنَا)(٢).

﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطفٌ على محلِّ الجبالِ، ويؤيِّدُه القراءةُ بالرَّفعِ(٣) عطفًا على لفظِها تشبيهًا للحركةِ البنائيَّةِ العارضةِ بحركةِ الإعرابِ(٤)، أو على ﴿فَضْلًا﴾، أو مفعولٌ معهُ لـ﴿أَوِّبِي﴾، وعلى هذا يجوزُ أن يكون الرَّفعُ بالعَطفِ على ضَميرِه، وكانَ الأَصلُ(٥): ولقَدْ آتينا داودَ مِنَّا فضلًا تأويبَ الجبالِ والطَّيرِ، فبدَّلَ به هذا النَّظمَ لِمَا فيه من الفَخامَةِ والدَّلالةِ على عظمةِ شأنِهِ وكبرياءِ سُلطانِه، حيثُ جعلَ الجبالَ والطُّيورَ كالعُقَلاءِ المُنقادينَ لأمرِهِ في نفاذِ مَشيئَتِه فيها.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾: جعلناهُ في يدِه كالشَّمعِ يُصرِّفُهُ كيفَ يَشاءُ مِن غيرِ إحماءٍ وطَرْقٍ، بإلانَتِه أو بقوَّتِه.

(١١) ـ ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾ أمرناهُ أنِ اعمَلْ، و﴿أَنِ﴾ مُفسِّرَةٌ أو مَصدريَّةٌ ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾: دروعًا واسعاتٍ، وقُرِئَ: (صابغاتٍ)(٦).

---

(١) نسبت لابن عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

(٢) أي: هو بدلٌ مِن ﴿فَضْلًا﴾ بإضمار: قولَنا؛ أي: ولقد آتينا دواد مِنّا قَوْلَنا: ﴿يَٰجِبَالُ﴾، أو مِن ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بإضمار: قلنا؛ أي: ولقد قُلنا: يا جبالُ. انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٥١٦).

(٣) وهي قراءة الأعرج وعبد الوارث عن أبي عمرو كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

(٤) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «بالحركة الإعرابية».

(٥) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «وكان أصل النظم».

(٦) دون نسبة في «الكشاف» (٧/ ١٢١)، و«البحر» (١٧/ ٤٠٤). وهي لغة: إبدال السين صاداً للغين =

وهو أوَّلُ مَن اتَّخذَها[١].

﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾: وقدِّرْ في نَسجِها بحيثُ يتناسَبُ حَلَقُها، أو قدِّرْ مَساميرَها فلا تَجْعَلْها دِقَاقًا فتَقْلَقَ[٢]، ولا غِلَاظاً فتَخْرِقَ.

ورُدَّ بأَنْ دُروعَهُ لم تكُن مُسمَّرةً، ويؤيِّدُه قولُه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ الضَّميرُ فيه لداودَ وأهلِه ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأُجازِيكُم عليه.

(١٢) - ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾؛ أي: وسَخَّرْنا له الرِّيحَ، وقرأ أبو بكرٍ: ﴿الرِّيحُ﴾ بالرَّفعِ[٣]؛ أي: ولسليمانَ الرِّيحُ مُسخَّرةً، وقرئ: ﴿الرِّيَاحُ﴾[٤].

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾: جَرْيُها بالغَداةِ مسيرةُ شَهرٍ وبالعَشِيِّ كذلك، وقُرِئَ: (غُدْوَتُها... ورَوْحَتُها)[٥].

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾: النُّحاسِ المُذاب، أسالَه لَهُ مِن معدنِه فنبعَ منه نبوعَ الماءِ مِن الينبوعِ، ولذلك سمَّاهُ عَينًا وكان ذلك باليمنِ.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾، و﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حالٌ متقدِّمَةٌ، أو جملةٌ مِن مُبتدأٍ وخبرٍ.

= بعدها. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٦٨)، عند قوله: (وأصبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة).

(١) وكانت قبل ذلك صفائح. رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٨٨٠)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٢٣)، عن قتادة.

(٢) في هامش نسخة الفاروقي: «فتقلق؛ أي: فتضطرب. سعدي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٠).

(٤) أي: بالرفع أيضاً، وهي قراءة أبي جعفر، انظر: «النشر» (٢/ ٢٢٣).

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٠٩)، و«البحر» (١٧/ ٤٠٦)، عن أبي حيوة.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾: بأمره ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا﴾: ومَن يعدِلْ منهم عمَّا أَمَرْناه مِن طاعةِ سُلَيْمانَ، وقُرِئَ: (يُزَغ)[1] من أزاغَه.

﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾: عذابِ الآخرةِ.

(١٣) ـ ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾: قصورًا حصينةً ومساكنَ شريفةً، سُمِّيَت به لأنَّها يذبُّ عنها ويُحاربُ عليها.

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾: وصورًا وتماثيلَ للمَلائكَةِ والأنبياءِ على ما اعتادوا مِن العباداتِ ليَراهَا النَّاسُ فيعبدُوا نحوَ عِبادَتِهم[2]،..

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢) عن بعضهم.

(٢) هذا القول ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية عن ابن عباس، ولم أقف عليه عن ابن عباس وحاشاه أن يذهب لمثل هذا، لكن ذكره أكثر المفسرين في تفاسيرهم دون عزو، منهم الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٥٦)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٨٩)، وتاج القراء الكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ٩٢٨)، والزمخشري في «الكشاف» (٧/ ١٢٤)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٩١).

وهو قول مردود لا دليل عليه من الشرع ولا خبر فيه يعتمد عليه، بل هو مخالف لشرعنا ولشرع مَن قبلنا، فكيف يرضى شرع نبي من أنبياء الله بصنع تماثيل للأنبياء والصالحين لأجل الاقتداء، مع أن هذا هو نفسه سبب ضلال كثير من الناس والأمم كما بين الله سبحانه لنا في سورة نوح، وكما روى البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت الأوثانُ التي كانت في قومِ نوحٍ في العرب بعدُ، أما وَدٌّ كانت لكَلْبٍ بدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وأما سُوَاعٌ كانت لهُذَيلٍ، وأما يغوثُ فكانت لمُرادٍ، ثُم لبني غُطَيْفٍ بالجَوف، عند سبإٍ، وأما يَعُوقُ فكانت لهَمْدانَ، وأمَّا نَسْرٌ فكانت لحِمْيَرَ لآل ذي الكَلاعِ، أسماءُ رجال صالحين من قوم نوح، فلما هَلَكوا أَوْحى الشيطانُ إلى قومهم أنِ انْصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبدْ، حتى إذا هَلَكَ أولئك وتَنَسَّخ العلمُ عُبدت.

فإن قال قائل: فما هو المقصود بالتماثيل إذاً؟ فنقول: قد قيل فيها أقوال أخر، منها أنها كانت =

وحرمَةُ التَّصاويرِ شرعٌ مُجدَّدٌ[(١)].

رُوِيَ أنَّهُم عَمِلُوا أَسدَيْنِ في أسفلِ كُرسيِّهِ ونَسْرَينِ فوقَه، فإذا أرادَ أن يصعدَ بسطَ الأسدانِ له ذِراعَيْهِما، وإذا قعدَ أظلَّهُ النَّسرانِ بأَجنِحَتِهِما.

﴿وَجِفَانٍ﴾: وصِحَافٍ ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: كالحياضِ الكبارِ، جمعُ جابِيَةٍ مِن الجبايةِ، وهي مِن الصِّفاتِ الغالبةِ كالدَّابَّةِ.

= لغير الحيوان، ومنها ما ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٩٢) عن الضحاك: أنها كانت كالطَّواويس والعِقْبان والنُّسور على كرسيِّه ودرجات سريره لكي يَهابَها من أراد الدُّنُوَّ منه.

وقد كان العلامة الشعراوي من القلة الذين أنكروا القول بما تقدم من تفسير التماثيل، وذكر فيها معنًى حسناً لعله لم يسبق إليه، فقال في «تفسيره» (١٥/ ٩٦١٤): أما التماثيل فهي معروفة، والموقف منها واضح منذ زمن إبراهيم عليه السلام حينما كسَّرها ونهى عن عبادتها، وهذا يردُّ قول مَنْ قال بأن التماثيل كانت حلالاً، ثم فُتِن الناس فيها فعبدوها من دون الله فَحرِّمت، إذن: كيف نخرج من هذا الموقف؟ وكيف يمتنُّ الله على نبيه سليمان أن سخر له من يعملون التماثيل وهي مُحرَّمة؟

نقول: كانوا يصنعون له التماثيل لا لغرض التعظيم والعبادة، إنما على هيئة الإهانة والتحقير، كأن يجعلوها على هيئة رجل جبار، أو أسد أضخم يحمل جزءاً من القصر أو شرفةً من شرفاته، أو يُصوِّرونها تحمل مائدة الطعام... إلخ؛ أي: أنها ليست على سبيل التقديس.

وقال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢٢/ ١٦٢): والتمثالُ هو الصورةُ المُمَثَّلَةُ، أي: المُجَسَّمةُ مِثْلَ شيءٍ من الأجسامِ فكان النَّحَّاتون يعملون لسليمانَ صورًا مختلفةً كصورٍ موهومةٍ للملائكة وللحيوان مثلَ الأسود، فقد كان كرسيُّ سليمان محفوفًا بتماثيل أسودٍ أربعةَ عشرَ كما وُصف في الإصحاح العاشر مِن سِفْرِ الملوك الأَولِ، وكان قد جعل جابيةً عظيمةً من نحاسٍ مصقولٍ مرفوعةً على اثنتي عشرةَ صورةَ ثور من نحاس.

(١) أي أنها لم تكن إذ ذاك اتخاذها محرماً، ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» عند هذه الآية، عن أبي العالية، وقال الإمام أبو منصور الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٤٣٣) في توجيه اتخاذ التماثيل: أو أن تكون تماثيل لا رأس لها، نحو: الأواني والكيزان ونحوها، اهـ.

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾: ثابتاتٍ على الأثافيِّ لا تنزلُ عنها لعِظَمِها.

﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكايةٌ لِمَا قيلَ لهم، و﴿شُكْرًا﴾ نصبٌ على العلَّةِ؛ أي: اعمَلُوا له واعبدوهُ شُكْرًا، أو المصدرِ لأنَّ العملَ له شكرٌ، أو الوصفِ له[1]، أو الحالِ، أو المفعولِ به.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾: المتوفِّرُ على أداءِ الشُّكرِ بقَلْبِه ولسانِه وجوارحِه أكثرَ أوقاتِه، ومع ذلك لا يوفِّي حقَّهُ لأنَّ توفيقَهُ للشُّكرِ نعمةٌ تَسْتَدعِي شُكْرًا آخرَ لا إلى نهايةٍ، ولذلك قيل: الشَّكورُ مَن يَرَى عَجْزَه عن الشُّكرِ[2].

(١٤) ـ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾؛ أي: على سليمانَ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾: ما دلَّ الجنَّ، وقيل: آلَهُ ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الأَرَضةُ، أُضيفَت إلى فعلِها.

وقُرِئَ بفَتحِ الرَّاءِ[3] وهو تأثُّرُ الخشبةِ مِن فعلِها؛ يقال: أَرَضَتِ الأَرَضَةُ الخَشبَةَ أَرْضًا، فأَرِضَتْ أَرَضًا، مثل: أَكَلَتِ القَوادِحُ الأسنانَ أَكْلًا فأَكِلَتْ أَكَلًا.

﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾: عصاهُ، مِن نَسَأْتُ البعيرَ: إذا طردتَه، لأنَّها يُطرَدُ بها.

وقُرِئَ بفتحِ الميمِ وتخفيفِ الهمزةِ قلبًا وحذفًا[4] على غيرِ قياسٍ، إذ القياسُ إخراجُها بينَ بينَ.

---

(١) قوله: «أو الوصف له»؛ أي: للمصدر؛ أي: اعملوا عملًا شكراً. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٠٠).

(٢) نسبه أبو حفص النسفي في «التيسير» عند هذه الآية لبسام بن عبد الله الصيرفي، أبي الحسن الكوفي من رجال «التهذيب».

(٣) أي: (الأَرَض)، وهي عند ابن خالويه جمع أَرَضة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، ونسبها للواقدي.

(٤) أي: بقلبها ألفاً، أو بحذفها بالكلية، كلاهما مع فتح الميم، ذكرهما في «البحر» (١٧/ ٤١٤)، والقراءة بفتح الميم وقلب الهمزة ألفاً ذكرها ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤١٢) عن حمزة. وهي خلاف المشهور عنه، وسيأتي اختلاف القراء السبعة فيها.

و: (مِنْسَاءَتَه) على مِفْعَالَةٍ[١] كمِيضَاءَةٍ في مِيضَأَةٍ.

و: (مِن سَأَتِه)[٢]؛ أي: طرفِ عصاهُ، مُشتَقًّا[٣] مِن سَأَةِ القوسِ، وفيه لغتانِ كمَا في قَحَةٍ وقِحَةٍ.

وقرأ نافعٌ وأبو عمرٍو: ﴿مِنساتَه﴾ بألفٍ ساكنةٍ بدلاً من الهمزة، وابنُ ذَكْوانَ بهمزةٍ ساكنةٍ، وحمزةُ إذا وَقَفَ جَعَلَها بينَ بينَ[٤].

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾: عَلِمَت الجنُّ بعدَ التباسِ الأمرِ عَلَيهِم ﴿أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾: أَنَّهُم لو كانوا يعلمونَ الغيبَ كمَا يزعمونَ لعَلِمُوا موتَه حيثما وقعَ، فلم يلبثوا بعدَهُ حولًا في تسخيرهِ إلى أَنْ خرَّ.

أو: ظهَرَتِ الجنُّ، و﴿أَن﴾ بما في حَيِّزِه بدلٌ منهُ[٥]؛ أي: ظهرَ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمونَ الغيب ما لَبِثُوا في العذابِ.

وذلك أن داودَ أَسَّسَ بيتَ المقدسِ في موضعِ فُسطاطِ مُوسى عليهِمَا السَّلامُ، فماتَ قبلَ تَمامِهِ، فوصَّى به إلى سليمانَ، فاستعملَ الجنَّ فيه، فلم يتمَّ بعدُ إذ دنا أجلُهُ، وأُعلِمَ به فأرادَ أَنْ يُعمِّيَ عليهم موتَه ليُتمُّوهُ، فدعاهم فبَنَوْا عليه صَرْحًا من قواريرَ ليسَ له بابٌ، فقامَ يُصَلِّي مُتَّكِئًا على عصاهُ فقبضَ روحَهُ وهو مُتَّكِئٌ عليها، فبقي كذلك حتى أكلَتْها الأرضَةُ فخرَّ، ثم فتحُوا عنه وأرادوا أن يعرفوا وقتَ موتِهِ

(١) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٢٩)، و«البحر» (١٧/ ٤١٤).

(٢) نسبت لعمرو بن ثابت عن سعيد بن جبير، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٨٦)، و«البحر» (١٧/ ٤١٤).

(٣) في نسخة الفاروقي: «مستعار».

(٤) والباقون بهمزة مفتوحة، وجميعهم اتفقوا على كسر الميم. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٠).

(٥) قوله: «و﴿أَن﴾ بما في حيزه بدل منه»؛ أي: من ﴿ٱلْجِنُّ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٠١).

فوضعُوا الأرضةَ على العصا فأكلَتْ يومًا وليلةً مقدارًا، فحَسَبُوا على ذلك فوجدوهُ قد ماتَ منذُ سنةٍ[١]، وكانَ عمرهُ ثلاثًا وخمسينَ سنةً، ومَلَكَ وهو ابنُ ثلاث عشرةَ سنةً، وابتدأَ عمارةَ بيتِ المقدسِ لأربعٍ مَضَيْنَ مِن مُلكِه[٢].

(١٥) ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾: لأولادِ سَبأ بنِ يَشْجبَ بنِ يَعْربَ بنِ قحطانَ، ومَنَعَ الصَّرفَ عنه ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو[٣] لأنَّه صارَ اسمَ القبيلَةِ، وعن ابنِ كثيرٍ قلبُ هَمزَتِه ألفًا، ولعلَّهُ أخرجَهُ بينَ بينَ فلَمْ يُؤَدِّهِ الرَّاوِي كما وجبَ[٤].

﴿في مسَاكنِهم﴾: في مواضعِ سُكناهُم وهي باليَمنِ يقالُ لها: مَأرِب، بينَها وبينَ صنعاءَ مسيرةُ ثلاثٍ[٥].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٤١) من طريق السُّدِّي في حديث ذكره عن أبي مالك عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، قال ابن كثير بعد ذكر هذا الخبر في «تفسيره» عند هذه الآية: وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تُلُقِّي من علماء أهل الكتاب، وهي وَقْفٌ لا يصدق منها إلا ما وافق الحق، ولا يُكذب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٢/ ٦٥)، ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٢٩٩) عن محمد بن إسحاق عن الزهري وغيره.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

(٤) قال الخفاجي في «حاشيته»: لم يذكر هذه القراءة في «النشر»، لكنه نقل عن عقيل تسكينها بنية الوقف، فإن صحت هذه الرواية فلا مانع من حملها على ظاهرها، فإن الهمزة إذا سكنت يطَّرد قلبها من جنس حركة ما قبلها، وهذا أحسن من توهيم الراوي، فإن مبنى الروايات ونقلها على التحقيق، وقد ذكر المعرب أنه رواية عن أبي عمرو، والمروي عن ابن كثير القصر والتنوين، وإنما حمله على ما ذكر لأنه القياس في الهمزة المتحركة.

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٢٤٢) عن قتادة.

وقرأ حمزةُ وحفصٌ بالإفرادِ والفتحِ، والكِسائيُّ بالكسرِ[١] حَمْلًا على ما شذَّ مِن القياسِ كالمَسجِدِ والمَطْلِعِ.

﴿ءَايَةٌ﴾: علامةٌ دالَّةٌ على وجودِ الصَّانعِ المختارِ، وأنَّه قادرٌ على ما يشاءُ مِن الأُمورِ العجيبةِ مُجازٍ للمُحسِنِ والمسيءِ، معاضِدةٌ للبُرهانِ السَّابقِ كما في قِصَّتَيْ داودَ وسُلَيمانَ عليهِمَا السَّلامُ.

﴿جَنَّتَانِ﴾ بدلٌ مِن ﴿ءَايَةٌ﴾ أو خبرُ مَحذوفٍ تقديرُه: الآيةُ جنَّتانِ، وقُرِئَ بالنَّصبِ[٢] على المدحِ.

والمرادُ: جماعتانِ مِن البَساتينِ.

﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾: جماعةٌ عن يمينِ بَلَدِهم وجماعةٌ عن شمالِه، كلُّ واحدَةٍ مِنْها في تَقارُبِها وتضايُقِها[٣] كأنَّه جنَّةٌ واحدةٌ، أو بُستانا كلِّ رَجُلٍ مِنْهُم عن يمينِ مَسكَنِه وعن شمالِه.

﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ حكايةٌ لِمَا قال لهم نبيُّهم أو لسانُ الحال، أو دلالةٌ بأنهم كانوا أحقَّاءَ بأن يقالَ لهم ذلك.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ استئنافٌ للدلالةِ على مُوجِبِ الشُّكرِ؛ أي: هذه البلدةُ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

(٢) نسبت لابن أبي عبلة، انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤١٣)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٤٢٠).

(٣) وقوله: «وتضايقها» بالقاف؛ أي: واتصالها، فإنه كما يُطلق التفسحُ على الانفصال كقوله: ﴿تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: ١١] يطلق الضيق على الاتصال لأنه لازم معناه. وضبط بالفاء وهو بمعنى القاف؛ أي: تنضم إليها وتتصل بها حتى تكون في حكم شيء واحد وإن تباينت حدودها وملاكها. انظر: «حاشية الخفاجي». وفي نسخة ذكرها الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٥٠٢): «تضامها»، والمعنى في الكل متقارب.

التي فيهَا رِزقُكُم بلدةٌ طَيِّبَةٌ، وربُّكُم الذي رزقكُمْ وطلبَ شُكرَكُم ربٌّ غفورٌ فرَطاتِ مَن يَشكُره، وقُرِئَ الكلُّ بالنَّصبِ(١) على المدحِ.

قيل: كانَت أخصبَ البلادِ وأطيبَهَا لم يَكُن فيها عاهَةٌ ولا هامَةٌ.

(١٦) ـ ﴿ فَأَعْرَضُواْ ﴾ عن الشُّكرِ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾: سيلَ الأمرِ العَرِمِ؛ أي: الصَّعبِ، مِن عَرِمَ الرَّجُلُ فهو عارِمٌ وعَرِمٌ: إذا شَرِسَ خُلُقُه وصَعُبَ.

أو: المطرِ الشَّديدِ(٢).

أو: الجُرَذِ، أضافَ إليه السيلَ لأنَّه نقَبَ عليهم سِكْرًا ضربَتْه لهم بلقيسُ فحقنَتْ به ماءَ الشِّحْرِ(٣)، وتركَتْ فيه ثُقْبًا على مقدارِ ما يحتاجونَ إليه.

أو: المسنَّاةِ التي عُقدَتْ سِكْرًا، على أنه جمعُ عَرِمَةٍ وهي الحجارةُ المَركومَةُ(٤).

وقيل: اسمُ وادٍ جاءَ السَّيلُ مِنْ قِبَلِه.

وكان ذلك بينَ عِيسى ومُحمَّدٍ عليهِمَا السَّلامُ.

---

(١) نسبت ليعقوب في غير المشهور عنه، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٢).

(٢) قوله: «أو المطر» بالجرّ عطف على «الأمر». انظر: «حاشية الخفاجي». وعنه سننقل ما سيأتي من شرح.

(٣) قوله: «أو الجُرذِ» بضم الجيم وفتح الراء المهملة والذال المعجمة: نوع من الفئران، قيل: إنه أعمى، ويسمى الخلد أيضاً، وقوله: «أضاف إليه..» إشارة إلى أنّ الإضافة لأدنى ملابسة، و«السكر» بفتح السين وكسرها وسكون الكاف: الجسر والسد على الماء، و«ضربته» بمعنى: صنعته وبنته، و«حقنت» بمعنى: حبست وجمعت، و«الشّحر» بكسر الشين المعجمة وقد تفتح وسكون الحاء المهملة: واد بين عُمان وعدن من أرض اليمن، وفيه مساكن سبأ، ويطلق على الوادي ومجرى الماء مطلقاً.

(٤) قوله: «أو المسناة التي عقدت سكراً» هذا تفسير آخر للعرم، قيل: هي ما يبنى ليردّ ماء السيل عن البساتين، و«المركومة» بمعنى الموضوع بعضها فوق بعض لتكون سداً.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾: ثمرٍ بَشِعٍ، فإنَّ الخَمْطَ كلُّ نبتٍ أَخَذَ طَعْمًا مِن مرارةٍ، وقيل: الأَراكُ، أو كلُّ شجرٍ لا شوكَ له، والتَّقديرُ: أُكلِ أُكلِ خَمْطٍ،

فحُذِفَ المضافُ وأقيمَ المضافُ إليه مُقامَهُ في كونِه بدلًا أو عطفَ بيانٍ.

﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفانِ على ﴿أُكُلٍ﴾ لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإنَّ الأثلَ هو الطرفاءُ[1]، ولا ثمرَ له.

وقُرِئا بالنَّصبِ[2] عطفًا على ﴿جَنَّتَيْنِ﴾.

ووصفُ السِّدرِ بالقلةِ فإنَّ جَناه وهو النَّبقُ ممَّا يَطِيبُ أَكْلُه، ولذلك يُغرسُ في البساتين.

وتسميةُ البدلِ جنتين للمُشاكلَةِ والتَّهكُّمِ.

وقرأ أبو عَمرٍو: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلِ﴾ بغيرِ تنوينِ اللامِ، وقرأ الحِرْمِيَّانِ بتَخفيفِ ﴿أُكْلٍ﴾[3].

(١٧) - ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾: بكُفرانِهم النِّعمةَ، أو: بكُفرِهم بالرُّسُلِ، إذ رُوِيَ أنَّه بُعِثَ إليهم ثلاثةَ عشرَ نَبِيًّا فكذَّبُوهُم، وتَقديمُ المفعولِ للتَّعظيمِ لا للتَّخصيصِ.

﴿وهل يُجازَى إلا الكَفورُ﴾: وهَلْ يُجازَى بمثلِ ما فَعَلْنَا بهم إلا البَليغُ في الكُفرانِ، أو الكُفرِ.

---

(١) الطرفاء بالمد: شجر لا ثمر له، وهو نوع من الأثل.

(٢) أي: (وأثلًا وشيئًا)، نسبت للفضل بن إبراهيم، انظر: «المختصر شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٠).

وقـرأ حمـزَةُ والكِسـائيُّ ويعقـوبُ وحَفـصٌ: ﴿نُجَٰزِيٓ﴾ بالنُّـونِ، و﴿ٱلۡكَفُورَ﴾ بالنَّصـبِ(١).

(١٨) ـ ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ بالتَّوسِـعَةِ على أهلِها، وهي قُـرَى الشَّـامِ ﴿قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾: مُتواصلـةً يظهَـرُ بعضُها لبَعـضٍ، أو: راكبةً متـنَ الطَّريقِ ظاهرةً لأبناءِ السَّـبيلِ.

﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَ﴾ بحيثُ يَقيلُ الغادي في قريةٍ ويبيتُ الرَّائحُ في قريةٍ إلى أَنْ يَبلُغَ الشَّامَ.

﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ على إرادةِ القولِ بلِسانِ الحالِ أو المقالِ ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾: مَـتى شِئتُم مِن ليلٍ أو نَهارٍ ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا يختلِفُ الأمنُ فيها باختلافِ الأوقاتِ.

أو: سيروا آمنينَ وإن طالَت مُدَّةُ سَفرِكُم فيها.

أو: سيروا فيها لياليَ أَعمارِكُم وأيامَها لا تَلقَوْنَ فيها إلا الأمنَ.

(١٩) ـ ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ أَشِرُوا النِّعمةَ ومَلُّوا العافيةَ كبني إسرائيلَ، فسَأَلُوا اللهَ أَنْ يجعلَ بينَهُم وبينَ الشَّامِ مَفاوِزَ ليَتطاوَلُوا فيها على الفُقَراءِ بركوبِ الرَّواحلِ وتَزوُّدِ الأزوادِ، فأَجابَهُم اللهُ تعالى بتَخريبِ القُرَى المُتوسِّطَةِ.

وقرأ ابنُ كَثيرٍ وأبو عمرٍو وهشام: ﴿بَعِّدْ﴾(٢)، ويعقوبُ: ﴿رَبُّنَا باعَدَ﴾(٣).

بلَفظِ الخبرِ على أنَّه شَكوى مِنْهم لبُعدِ سَفَرِهِم؛ إفراطًا في التَّرفُّهِ وعدمِ الاعتدادِ بما أَنعمَ اللهُ عليهِم فيه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٣) انظر: «المبسوط» لابن مهران (ص: ٣٦٢)، وهي رواية عنه.

ومثلُه قراءَةُ مَن قرأَ: (رَبَّنَا بَعُد) أو: (بُعِّد) على النِّداءِ وإسنادِ الفعلِ إلى (بينُ)[١].

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيثُ بَطِرُوا النِّعمةَ أو لم[٢] يَعتَدُّوا بها.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدَّثُ النَّاسُ بهم تعجُّبًا وضَرْبَ مَثَلٍ فيقولونَ: (تَفَرَّقُوا أَيدِي سَبَا)[٣] ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ففرَّقناهُم غايةَ التَّفريقِ حتَّى لَحِقَ غسَّانُ مِنْهُم بالشَّامِ، وأَنْمارُ بيثرِبَ، وجُذَامُ بتِهامَةَ، والأَزْدُ بعُمَانَ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: فيما ذكرَ ﴿لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصِي ﴿شَكُورٍ﴾ على النِّعَمِ.

(٢٠) ـ ﴿ولَقَد صَدَقَ علَيْهِم إبليسُ ظَنَّهُ﴾؛ أي: صَدَقَ في ظَنِّهِ، أو صَدَقَ بظَنٍّ ظنَّه، مثلَ: فعَلْتَه جهدَكَ، ويجوزُ أن يُعَدَّى الفعلُ إليه بنفسِه كما في (صَدَقَ وعدَهُ)

لأنَّه نوعٌ مِن القَوْلِ، وشدَّدَه الكوفِيُّونَ[٤] بمعنى: حقَّقَ ظنَّهُ، أو: وجدَهُ صادِقًا.

---

(١) أي: (ربَّنا بَعُد بَيْنُ أَسفارِنَا) و: (بُعِّد بينُ أَسفَارِنَا) على النداء وإسنادِ الفِعْل إلى (بَيْنُ) ورَفْعِه به. ذكرهما دون نسبة الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ١٤٠)، ونسبت الأولى لسعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري، وابن يعمر، ومحمد بن السميفع، وغيرهم، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٨٩).

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «ولم». قال الخفاجي: وقولُه: (أو لم يعتدوا بها) بالعطفِ بـ«أو» كما في أكثرِ النُّسخِ على وجوهِ الخبريَّة والقُرَّاءات الأخيرَة، وكذا على العطفِ بالواوِ على ما في بعضِها. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «مجمع الأمثال» (١/ ٢٧٥)، و«المستقصى» (٢/ ٨٨).

(٤) وهم عاصم وحمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

وقُرِئَ بنَصبِ (إبليسَ) ورفعِ الظَّنِّ مع التَّشديدِ[1] بمَعنى: وجدَهُ ظنَّه صادقًا، والتَّخفيفِ[2] بمعنى: قالَ له ظنُّهُ الصِّدقَ حين خيَّله إغواءَهُم[3].

وبرفعِهِما والتَّخفيفِ[4] على الإبدالِ.

وذلك إما ظنُّه بالسَّبأ حينَ رأَى انهِمَاكَهُم في الشَّهواتِ، أو ببَنِي آدمَ حينَ رَأَى أباهُم النَّبيَّ ضعيفَ العَزْمِ، أو ما ركِّبَ فيهم مِن الشَّهوَةِ والغضبِ، أو سمعَ مِن الملائكةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] فقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [الحجر: ٣٩].

﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: إلا فريقًا هم المؤمنونَ لم يتَّبعوهُ، وتقليلهُم بالإضافةِ إلى الكُفَّارِ، أو: إلَّا فريقًا من فرقِ المُؤمنينَ لم يتَّبعوهُ في العصيانِ وهم المخلِصونَ.

(٢١) ـ ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم﴾: على المتَّبِعين ﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾: تسلُّطٍ واستيلاءٍ بالوَسْوَسَةِ والاستغواءِ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٤١).

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩١) عن الزهري وأبي الهجهاج الأعرابي، ونسبها في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤١٧) لبلال بن أبي بردة.

(٣) قوله: «خيله إغواءهم» بنصب «إغواءهم» على الحذف والإيصال، وفاعله ضمير الظن؛ أي: خيل له إغواءهم. أو برفعه على الفاعلية. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٤١) دون نسبة، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢) عن عبد الوارث عن أبي عمرو. ولم يقيد ابن خالويه (صدق) بتشديد ولا تخفيف، لكن ذكر الآلوسي في «روح المعاني» (٢٢/ ٨٥) أن ظاهر قول الزمخشري بعدها: «ولو قرئ بالتَّشديد معَ رفعهِمَا» أنه لم يقرأ أحد بذلك.

﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ﴾: إلا ليتعلَّقَ عِلمُنا بذلك تعلُّقًا يترتَّبُ عليه الجزاءُ، أو ليتميَّزَ المؤمنُ مِن الشَّاكِّ، أو ليؤمنَ مَن قدَّرَ إيمانَه ويشكَّ مَن قدَّرَ ضلالَهُ.

والمرادُ مِن حُصولِ العلمِ: حصولُ مُتعلِّقِه مُبالغَةً، وفي نظمِ الصِّلَتينِ نكتةٌ لا تَخْفَى.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾: مُحافِظٌ، والزِّنَتانِ مُتَآخِيَتَانِ.

(٢٢) - ﴿قُلِ﴾ للمُشركينَ: ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾؛ أي: زَعَمْتُموهُم آلهةً، وهُمَا مَفعولَا (زَعَم) حُذِفَ الأوَّلُ لِطولِ الموصول بصِلَتِه، والثَّاني لقيامِ صِفَتِه - وهي ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ - مَقامَه، ولا يجوزُ أَنْ يكونَ هو مفعولَهُ الثَّانيَ لأَنَّه لا يلتَئِمُ مع الضَّميرِ كلامًا، ولا ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ لأَنَّهم لا يزعُمونَه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى: ادعوهُم فيما يُهِمُّكُم مِن جَلبِ نَفعٍ أو دفعِ ضرٍّ لعَلَّهُم يستجيبونَ لَكُم إن صحَّ دعواكم، ثمَّ أجابَ عنهم إشعارًا بتعيُّنِ الجوابِ وأنَّه لا يقبلُ المُكابرةَ فقال:

﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في أمرٍ مّا، وذكرُهُما للعُمومِ العُرْفِيِّ، أو لأنَّ آلهتَهُم بعضُها سَماوِيَّةٌ كالملائكةِ والكواكبِ، وبعضُهَا أَرضِيَّةٌ كالأصنامِ، أو لأنَّ الأسبابَ القَريبَةَ للشرِّ والخيرِ سماويَّةٌ وأرضيَّةٌ، والجملةُ استئنافٌ ببيانِ حالِهم.

﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾: مِن شركةٍ لا خَلْقًا ولا مُلْكًا ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ يُعِينُه على تَدبيرِ أمرِهِما.

(٢٣) - ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ فلا تَنفَعُهم شفاعةٌ أيضًا كما يزعمونَ؛ إذ لا تنفعُ الشَّفاعَةُ عندَ اللهِ ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾: أَذِنَ له أن يَشْفعَ، أو أَذِنَ أَنْ يُشْفَعَ لهُ لعلوِّ

شأنِه، ولم يثبُت ذلك، واللامُ على الأوَّلِ كاللامِ في قولِك: الكَرَمُ لزيدٍ، وعلى الثَّاني كاللامِ في: جئتُك لزيدٍ.

وقرأَ أبو عمرٍو وحمزةُ والكِسائيُّ بضمِّ الهمزَةِ[(١)].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ غايةٌ لِمَفهومِ الكلامِ مِن أَنَّ ثَمَّ توقُّفاً وانتظاراً للإذنِ؛ أي: يَتربَّصونَ فَزِعينَ حتَّى إذا كُشفَ الفزعُ عن قلوبِ الشَّافعينَ والمشفوعِ لهم بالإذنِ.

وقيل: الضَّميرُ للمَلائِكَةِ وقد تقدَّمَ ذِكرُهُم ضِمْنًا.

وقرأَ ابنُ عامرٍ ويَعقوبُ: ﴿فَزَّعَ﴾ على البناءِ للفاعلِ[(٢)]، وقُرِئَ: (فُرِّغَ)[(٣)]؛ أي: نُفِيَ الوجَلُ، مِن فَرَغَ الزَّادُ: إذا فَنِيَ.

﴿قَالُواْ﴾ قال بعضُهُم لبعضٍ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾ في الشَّفاعةِ؟

﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ قالوا: قالَ القولَ، وهو الإذنُ بالشَّفاعةِ لِمَن ارتضَى وهُم المؤمنونَ، وقُرِئَ بالرَّفعِ[(٤)]؛ أي: مقولُه الحَقُّ.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ذو العلُوِّ والكبرياءِ ليس لِملَكٍ أو نبيٍّ أن يتكلَّمَ ذلك اليومَ إلَّا بإذنه.

---

(١) في نسخة الفاروقي بدل «بضم الهمزة»: «أذن على البناء للمفعول»، انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٦١)، و«المحتسب» (٢/ ١٩٢) عن الحسن، و«البحر» (١٧/ ٤٤١) عنه وعن ابن عمر وقتادة وغيرهم.

(٤) نسبها الهذلي في «الكامل» (ص: ٦٢٣)، وأبو حيان في «البحر» (١٧/ ٤٤٣)، لابن أبي عبلة، وأجازها نحواً لا قراءة: الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٢) فقال: ولو قرئ: (الْحَقُّ) بالرفع ـ أي: هو الحق ـ كان صوابًا، وتابعه الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٥٣).

(٢٤) ـ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يريدُ بهِ تقريرَ قولِه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواهُ، وفيهِ إشعارٌ بأنَّهم إن سكتُوا أو تلعثَمُوا في الجوابِ مخافةَ الإلزامِ فهُمْ مُقِرُّونَ به بقُلوبِهم.

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: وإنَّ أحدُ الفريقَيْنِ مِن الموحِّدَينِ المتوحِّدَ بالرِّزقِ والقدرةِ الذَّاتيَّةِ بالعبادةِ والمشركينَ به الجمادَ النَّازلَ في أدنى المراتبِ الإمكانيَّةِ= لعَلى أحدِ الأمرينِ مِن الهُدَى والضَّلالِ المُبِيْنَينِ[1]، وهو بعدَما تقدَّمَ مِن التَّقريرِ البَليغِ الدَّالِّ على مَن هو على الهُدى ومَن هو في الضَّلالِ أبلَغُ من التَّصريحِ؛ لأنَّه في صورةِ الإنصافِ المُسكِتِ[2] للخصمِ المشاغبِ، ونظيرُهُ قولُ حَسَّان:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ[3]

وقيل: إنَّه على اللفِّ، وفيه نظرٌ.

واختلافُ الحرفينِ لأنَّ الهاديَ كمَنْ صَعِدَ مَنارًا ينظرُ الأشياءَ ويتطلَّعُ عليها، أو رَكِبَ جوادًا يركضُه حيثُ يشاءُ، والضَّالَّ كأنَّه مُنغَمِسٌ في ظلامٍ مُرتبِكٌ فيه لا يَرى شيئًا، أو محبوسٌ في مَطْمورَةٍ لا يستطيعُ أَنْ يَتفَصَّى مِنْها.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «والضلال الواضح».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «المبكت». قال الخفاجي: وقولُه: (أبلغ من التَّصريحِ) لأنَّهُ في صورَةِ الإنصات المسكت؛ أي: الَّذي يسكت الخصم لانقطاعِ حجته، وفي نسخَةٍ: (المبكت) وهوَ بمعناهُ والمشاغب بالغينِ المُعْجمَةِ من الشغب، وهوَ الخصام وتهييج الشرّ، وهذا فن من فنون البلاغَة يُسمَّى الكلام المنصف.

(٣) انظر: «ديوان حسان» (ص: ٩).

(٢٥) ـ ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا أدخَلُ في الإنصافِ وأبلغُ في الإخباتِ، حيثُ أسندَ الإجرامَ إلى أنفُسِهِم والعملَ إلى المُخاطبينَ.

(٢٦) ـ ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يومَ القيامَةِ ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾: يحكمُ ويفصِلُ بأن يُدخِلَ المحقِّينَ الجنَّةَ والمُبطلينَ النَّارَ.

﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾: الحاكمُ الفصلُ في القضايا المنغلِقَةِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يَنبَغي أن يُقضَى به.

(٢٧) ـ ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ لأَرى بأَيِّ صِفَةٍ أَلحَقْتُموهُم باللهِ في استحقاقِ العِبادةِ، وهو استِفسارٌ عن شُبهَتِهِم بعدَ إلزامِ الحُجَّةِ عليهم زيادةً في تَبكيتِهِم.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لَهُم عن المشاركَةِ بعدَ إبطالِ المُقايَسةِ ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: الموصوفُ بالغلبَةِ وكمالِ القُدرَةِ والحِكمَةِ، وهؤلاءِ الملحقونَ به مُتَّسمةٌ بالذِّلَّةِ متأبِّيَةٌ عن قَبولِ العلمِ والقُدرَةِ رأسًا، والضَّميرُ للهِ أو للشَّأنِ.

(٢٨) ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾: إلَّا إرسالةً عامَّةً لهم، مِن الكفِّ؛ فإنَّها إذا عَمَّتْهم فقَدْ كَفَّتْهُم أَنْ يخرجَ مِنْها أحدٌ مِنْهُم، أو: إلَّا جامعًا لهم في الإبلاغِ فهيَ حالٌ من الكافِ، والتَّاءُ للمُبالغَةِ، ولا يجوزُ جَعلُها حالًا من (النَّاسِ) على المُختارِ.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيَحمِلُهُم جهلُهم على مُخالفتِكَ.

(٢٩) ـ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن فَرْطِ جَهْلِهِم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يعنونَ: المبشرَ به والمنذرَ عنه، أو الموعودَ بقولِه: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يُخاطبونَ به رسولَ اللهِ والمؤمنينَ.

(٣٠) ـ ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾: وعـدُ يـوم أو: زمـانُ وعـدٍ، وإضافتُـه إلـى اليومِ للتَّبيينِ، ويؤيِّـدُه أنَّه قُـرِئَ على البَـدلِ(١)، وقُـرِئَ: (يومـاً)(٢) بإضمـارِ: أَعْنِي.

﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ إذا فاجَأَكُم، وهوَ جوابُ تهديدٍ جاءَ مُطابقًا لِمَا قصدُوهُ بسُؤالِهم مِن التَّعنُّتِ والإنكارِ.

(٣١) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾: ولا بما تقدَّمَه من الكتبِ الدَّالَّةِ على البعثِ.

وقيل: إنَّ كُفَّارَ مكَّةَ سألوا أهلَ الكتابِ عن الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ، فأخبروهُم أنَّهُم يجدونَ نعتَهُ في كتبِهِم، فغَضِبُوا وقالوا ذلك(٣).

وقيل: (الذي بينَ يديه): يومُ القيامَةِ.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾؛ أي: فـي مـوضـعِ المُـحـاسبَةِ ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾: يتحاورُونَ ويتراجعونَ القولَ.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ يقولُ الأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ للرُّؤساءِ: ﴿لَوْلَآ

---

(١) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٥١)، وأجازها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٢) نحواً فقال: ولو قرئت: «ميعادٌ يومٌ» لجاز.

(٢) أي: (ميعادٌ يوماً)، نسبها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣) لليزيدي، والهذلي في «الكامل» (ص: ٦٢٣) لابن أبي عبلة، وأبو حيان في «البحر» (١٧/ ٤٤٩) لهما.

(٣) ذكر الإمام أبو منصور في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٨٥) هذه القصة في تفسير قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وأبو الليث السمرقندي في «بحر العلوم» (٢/ ٦١١)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٦٦)، والواحدي في «الوجيز» (ص: ٨٢٠) عند قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾.

أَنتُمْ﴾: لـولا إِضلالُكُـم وصَدُّكُم إيَّانا عـن الإيمانِ ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتِّباعِ الرَّسـولِ عليهِ السَّـلامُ.

(٣٢) ـ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أنكـرُوا أنَّهُـم كانـوا صادِّينَ لهـم عن الإيمانِ، وأثبَتُـوا أنَّهُم هم الذيـن صَـدُّوا أنفُسَـهُم[١] حيـثُ أعرَضُوا عـن الهُـدَى وآثَـرُوا التَّقليدَ عليـه، ولذلك بَنَوا الإنـكارَ على الاسـمِ.

(٣٣) ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إضـرابٌ عـن إِضرابِهم؛ أي: لم يَكُن إجرامُنا هو الصادَّ، بل مَكرُكُم لنا دائبًا ليلًا ونهارًا حتى أَغَرْتُم علينا رأيَنا[٢].

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ والعاطفُ يَعْطِفُه على كلامِهِم الأوَّلِ، وإضافةُ المكرِ إلى الظَّرفِ على الاتِّساعِ.

وقُرِئَ: (مكرَ الليل) بالنَّصبِ على المصدرِ[٣].

و: (مكرٌ الليلَ) بالتَّنوينِ ونصبِ الظَّرفِ[٤]، و: (مكَرّ الليل) مِن الكرورِ[٥].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بأنفسهم».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «أغريتم علينا رأينا»، والمثبت من بقية النسخ، قال الخفاجي: «أغرتم علينا رأينا» كذا وقع في النسخ، والظاهر: غيرتم علينا رأينا، وكونُه من الإغارَة وهيَ الغارَة على العدوِّ لنهب وقتل أُريدَ بِهِ غلبتم علينا في رأينا علاج بعض المرض. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) لم أجدها. وقال الخفاجي: قولُه: (وقُرِئَ مكر اللَّيل... إلخ) نصبه على المصدرية بفعل مُقدَّر تقديره مكرتم ظاهر، إلَّا أنَّه قيلَ: إنَّه لم يُرَ النَّصبُ في شيءٍ مِن الكتبِ إلَّا مع التَّشديد، فكأنَّه سهو. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩٣) عن قتادة.

(٥) نسبت برفع (مكرُّ) لسعيد بن جبير وأبي رزين وجعفر بن محمد، وبنصبه لابن جبير أيضاً وطلحة =

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: وأَضْمَرَ الفَرِيقَانِ النَّدامةَ على الضَّلالِ والإضلالِ وأخفاها كلٌّ عن صاحبِه مخافةَ التَّعييرِ، أو: أظهَرُوها فإنَّه مِن الأَضدادِ، إذ الهمزةُ تَصْلحُ للإثباتِ والسَّلبِ كما في: أَشْكَيْتُه[1].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: في أعناقِهم، فجاءَ بالظَّاهرِ تنويهًا بذمِّهم وإشعارًا بموجِبِ أغلالِهم.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لا يُفعلُ بهم إلا ما يُفعلُ بالأُجَراءِ على أعمالِهم، وتعديَةُ (يجزي) إمَّا لتَضمينِ معنى: يَقضي، أو لنزعِ الخافضِ.

(٣٤) ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ تسليةٌ لرَسولِ اللهِ ﷺ ممَّا مُنيَ بهِ مِن قومِه، وتخصيصُ المُتنعِّمينَ بالتَّكذيبِ لأنَّ الدَّاعِيَ المُعظَمَ إلى التكبُّرِ والمفاخرةِ بزخارِفِ الدُّنيَا الانهماكُ[2] في الشَّهواتِ والاستهانةُ بمَنْ لم يحظَ مِنْها، ولذلك ضمُّوا التَّهكُّمَ والمفاخرةَ إلى التَّكذيبِ فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ على مقابلةِ الجمعِ بالجَمعِ.

= وراشد الذي نظر في مصاحف الحجاج. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٩٣)، و«البحر» (١٧/ ٤٥٣). قال أبو حيان: وراشد هذا من التابعين ممن صحح المصاحف بأمر الحجاج.

(١) قوله: «في أشكيته»؛ أي: كما تصلح الهمزة في (أشكيته) للإثبات والسلب، فتقول: أشكيتُه إذا أثبتَّ له الشكاية، أو أزلتَها عنه. انظر: «حاشية القونوي» (١٥/ ٥١٩)، و«حاشية شيخ زاده» (٦/ ٧٠٥).

(٢) في نسخة الفاروقي: «لأنَّ الدَّاعِيَ المعظَمَ إليه التكبُّر والمفاخرة بزخارِفِ الدُّنيَا والانهماك». قال الخفاجي: وقولُه: (الانهماك في الشَّهوات) خبر إنَّ؛ أي: المنهمك هوَ المتنعم فيلزمُهُ التكبر والمفاخرَة المؤدّيان إلى التَّكذيب، وفي بعضِ النُّسخ: (المفاخرةُ) بلا واو على أنَّهُ الخبر، (والانهماك) بالواوِ عطف عليها ومآله للأوَّلِ، وفي بعضِها: (لأنَّ الدَّاعيَ المعظم إليهِ التكبرُ والمفاخرة) على أنَّهُ الخبر (والانهماكُ) بالواوِ عطفًا عليه، وهي أظهر وأكثر. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣٥) ـ ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا﴾ فنحنُ أولى بما تَدَّعونَه إنْ أمكنَ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إمَّا لأنَّ العذابَ لا يكونُ، أو لأنَّه كرَّمنا بذلك فلا يهينُنا بالعذابِ.

(٣٦) ـ ﴿قُلْ﴾ رَدًّا[1] لحُسبانِهم: ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ولذلك يختلفُ فيه الأشخاصُ المتماثلةُ في الخصائصِ والصِّفاتِ، ولو كان ذلك لكرامةٍ وهوانٍ يُوْجِبانه لم يَكُن بمَشيئتِه.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنونَ أنَّ كثرةَ الأموالِ والأولادِ للشَّرفِ والكرامةِ، وكثيرًا ما يكونُ للاستدراجِ كما قال:

(٣٧) ـ ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾: قربةً، و(التي) إمَّا لأنَّ المرادَ: وما جماعةُ الأموالِ والأولادِ، أو لأنَّها صِفَةُ مَحذوفَةٍ كالتَّقوَى والخَصلَةِ.

وقُرِئَ: (بالذي)؛ أي: بالشَّيءِ الذي يُقرِّبُكُم[2].

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ استثناءٌ مِن مفعولِ ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾؛ أي: الأموالُ والأولادُ لا تُقرِّبُ أحدًا إلا المؤمنَ الصَّالحَ الذي يُنفِقُ مالَهُ في سبيلِ اللهِ، ويُعلِّمُ ولدَهُ الخيرَ، ويُربِّيهِ على الصَّلاحِ.

أو مِن ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم﴾ على حذفِ المُضافِ.

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾: أن يجازَوا الضِّعفَ إلى عشرٍ فما فوقَه، والإضافةُ إضافَةُ المصدرِ إلى المفعولِ، وقُرِئَ بالإعمالِ على الأصلِ[3].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «ردًّا»، قال الخفاجي: قولُه: «ردٌّ لحسبانهم»، وفي نسخَةٍ: «ردًّا» بالنَّصبِ على أنَّهُ مفعولٌ له؛ أي: ردا لما ظنُّوه من أنَّهم أولى بما يدعونه وأنَّهُم لا يعذبون لكثرَة أموالهم وأولادهم الدَّالَّة على كرامتهم عند اللهِ تعالى. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٥٦)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٤٥٧)، دون نسبة.

(٣) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٥٧) دون نسبة، وأجازها نحواً لا قراءة الفراء في «معاني القرآن» =

وعن يعقوبَ رَفعُهُما على إبدالِ (الضِّعْفُ)[١]، ونصبُ الجَزاءِ[٢] على التَّمييزِ، أو المصدرِ لفعلِه الذي دلَّ عليه ﴿لَهُمْ﴾.

﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ مِن المَكارِه.

وقُرِئَ بفَتحِ الرَّاءِ وسُكونِها، وقرأَ حمزَةُ: ﴿في الغُرْفَةِ﴾[٣] على إرادةِ الجنسِ.

(٣٨) - ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالرَّدِّ والطَّعنِ فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: سابقينَ لأَنبيَائِنَا[٤]، أو ظانِّين أنَّهُم يَفُوتونَنَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

(٣٩) - ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾: يوسِّعُ عليهِ تارَةً ويضيِّقُ عليه أخرى، فهذا في شَخصٍ واحدٍ باعتبارِ وَقتَيْنِ، وما سبقَ في شَخصينِ فلا تكريرَ.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ عِوَضًا إمَّا عاجلًا أو آجلًا ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنَّ غيرَهُ وسطٌ في إيصالِ رزقِه لا حقيقةَ لرازقيَّتِه.

= (٢/ ٣٦٤) فقال: لو نصبتَ بالتنوين الذي في الجزاء كان صوابًا، وتابعه الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٥٣) فقال: ويجوز: (فأُولَئِكَ لهم جزاءٌ الضِعْفَ) على نصب (الضعْف) المعنى: فأُولَئِكَ لهم أنْ نُجَازِيَهم الضعْفَ.

(١) أي: (جزاءٌ الضِّعْفُ)، و(الضِّعْفُ) بدَلٌ مِن (جَزاءٌ). نسبت لقتادة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٤٥٨).

(٢) أي: ﴿جزاءَ الضعفُ﴾ بنصب الجزاء ورفع الضعف، رواية رويس عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥١).

(٣) والباقون بالجمع وضم الراء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٨١). وبالجمع وسكون الراء قرأ الحسن والأعمش ومحمد بن كعب كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣). وبالجمع وفتح الراء ذكرها ابن خالويه عن بعضهم ولم يسمه.

(٤) في نسخة الفاروقي: «لآياتنا».

(٤٠) ـ ﴿ويومَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ المستكبرينَ والمُستضعفينَ ﴿ثمَّ نقولُ للملائكةِ أهؤلاءِ إيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدون﴾ تقريعًا للمُشركينَ وتبكيتًا لهم، وإقناطًا لهم عمَّا يتوقَّعونَ من شَفاعَتِهِم، وتخصيصُ المَلائكةِ لأَنَّهُم أشرفُ شُركائِهِم والصَّالحونَ للخطابِ مِنهم، ولأنَّ عبادَتَهم مبدأُ الشِّركِ وأصلُه. وقرأَ حَفْصٌ بالياءِ فيهِمَا[1].

(٤١) ـ ﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾: أنتَ الذي نُواليهِ مِن دونِهم لا مُوالاةَ بينَنا وبينَهُم، كأَنَّهُم بيَّنُوا بذلك براءتَهم مِن الرِّضَا بعِبادَتِهم، ثمَّ أضرَبُوا عن ذلك ونفَوا أَنَّهُم عَبَدُوهم على الحقيقةِ بقولهم: ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ﴾؛ أي: الشَّياطينَ حيثُ أَطاعوهُم في عبادةِ غيرِ اللهِ.

وقيل: كانوا يَتمثَّلونَ لهم ويخيِّلونَ إليهِم أَنَّهُم الملائكةُ فيعبدونَهُم.

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ الضَّميرُ الأَوَّلُ للإنسِ أو للمُشركينَ والأكثرُ بمعنى الكلِّ، والثَّاني للجنِّ.

(٤٢) ـ ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ إذِ الأمرُ فيه كلُّه له؛ لأنَّ الدَّارَ دارُ جزاءٍ وهو المُجازي وحدَه.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ مُبيِّنٌ للمقصودِ مِن تَمهيدِه.

(٤٣) ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ ﴾ يعنونَ: مُحمَّدًا عليه السَّلامُ.

﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيَستَتْبِعَكُمْ بما يَستبدعُه.

﴿وَقَالُواْ مَا هَـٰذَآ ﴾ يعني القُرآنَ ﴿إِلَّآ إِفْكٌ ﴾ لعدمِ مُطابقةِ ما فيه الواقعَ ﴿مُّفْتَرًى ﴾ بإضافَتِه إلى اللهِ سُبحانَه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾: لأمرِ النبوَّةِ، أو الإسلامِ، أو القرآنِ، والأوَّلُ باعتبارِ معناه وهذا باعتبارِ لَفظِهِ وإعجازِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: ظاهرٌ سحريَّتُه.

وفي تكريرِ الفعلِ، والتَّصريحِ بذكرِ الكفرَةِ، وما في اللامَينِ[1] مِن الإشارةِ إلى القائلِينَ والمقولِ فيه[2]، وما في ﴿لَمَّا﴾ مِن المُبادَهَةِ إلى البتِّ تمهيدًا للقولِ[3]= إنكارٌ عظيمٌ له وتعجيبٌ بليغٌ منه.

(٤٤) - ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ وفيها دليلٌ على صِحَّةِ الإشراكِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يَدعوهُم إليه وينذرُهُم على تركِهِ، وقد بانَ مِن قبلُ أَنْ لا وجهَ له فمِن أينَ وقعَ لَهُم هذه الشُّبهَةُ؟ وهذا في غايةِ التَّجهيلِ لَهُم والتَّسفيهِ لِرَأيِهِم، ثمَّ هَدَّدَهُم فقال:

(٤٥) - ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كذبُوا ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: وما بلغَ هؤلاء عُشرَ ما آتينا أولئكَ مِن القوَّةِ وطولِ العمرِ وكثرة المالِ، أو: ما بلغَ أولئكَ عُشرَ ما آتينا هؤلاءِ مِن البيناتِ والهُدى.

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فحينَ كذَّبُوا رسُلِي جاءَهُم إنكاري بالتَّدميرِ فكيفَ كان نكيرِي لهم؟ فليحذَرْ هؤلاءِ مِن مثلِه.

ولا تكريرَ في (كذَّب) لأنَّ الأوَّلَ للتَّكثيرِ والثَّاني للتَّكذيبِ، أو الأوَّلُ مُطلَقٌ والثَّاني مُقَيَّدٌ ولذلك عطفَ عليه بالفاءِ.

(٤٦) - ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾: أُرشدُكُم وأنصَحُ لَكُم بخَصلَةٍ واحدَةٍ هي ما دلَّ عليه: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ وهو القيامُ مِن مجلسِ رسولِ اللهِ ﷺ، أو الانتصابُ

(١) قوله: «وما في اللامين»؛ أي: لامي (الذين) و(الحق). انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥١٥).

(٢) في نسخة التفتازاني: «فيهم».

(٣) في نسخة الفاروقي: «إلى البت بهذا القول».

في الأمرِ خالصًا لوجهِ الله مُعرِضًا عن المراءِ والتَّقليدِ ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾: مُتفرِّقينَ اثنَيْنِ اثنَيْنِ وواحدًا واحدًا؛ فإنَّ الازدحامَ يشوِّشُ الخاطرَ ويخلطُ القولَ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمرِ مُحمَّدٍ وما جاءَ به لتَعْلَمُوا حقيقتَهُ.

ومَحلُّهُ الجرُّ على البدلِ أو البيانِ[1]، أو الرَّفعُ أو النَّصبُ، بإضمارِ (هو) أو (أَعْني).

﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ فتَعْلَمُوا: ما بِهِ جنونٌ يحملُه على ذلك، أو استئنافٌ[2] منبهٌ لهم على أنَّ ما عرَفُوا مِن رَجاحَةِ عقلِه كافٍ في تَرجُّحِ صدقِهِ، فإنَّه لا يَدَعُه أن يَتصدَّى لادِّعاءِ أمرٍ خطيرٍ وخَطْبٍ عظيمٍ مِن غيرِ تحقُّقٍ ووُثوقٍ ببُرهانٍ، فيُفْتَضَحُ على رُؤوسِ الأشهادِ ويُسْلِمُ[3] نفسَهُ إلى الهلاكِ، فكيفَ وقد انضمَّ إليه مُعجِزَاتٌ كثيرةٌ؟

وقيل: ﴿مَا﴾ استفهاميَّةٌ، والمعنى: ثمَّ تَتفكَّرُوا أيُّ شيءٍ به مِن آثارِ الجُنونِ؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: قُدَّامَه لأنَّه مَبعوثٌ في نَسَمِ السَّاعةِ[4].

---

(١) قوله: «ومحله»؛ أي: ﴿أَن تَقُومُواْ﴾ «الجر على البدل»؛ أي: من (واحدةٍ)، «أو البيان»؛ أي: أو عطف بيان لها، و﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾ عطف على ﴿تَقُومُواْ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥١٦).

(٢) قوله: «أو استئناف» عطفٌ من حيث المعنى على «فتعلموا»، والمعنى: ثم تتفكروا فتعلموا ما به جنون، أو استئناف تنبيهاً على أن ما عرفوا... إلى آخره، فالاستئناف واقع على ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥١٧).

ويؤيده قول الزمخشري: (فإن قلتَ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ بمَ يَتعلَّق؟ قلتُ: يجوز أن يكُونَ كلاماً مُستأنفاً تَنْبيهاً من اللهِ عزَّ وجلَّ على طريقَةِ النَّظر في أَمْر رسُول الله، ويجوز أن يكُونَ المَعنى: ثُمَّ تَتفكَّرُوا فتَعْلَمُوا ما بصَاحبكُم من جِنَّةٍ). قلت: وقد عكس المصنف ترتيب الزمخشري لهذين الوجهين.

(٣) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «ويلقي».

(٤) إشارة إلى حديث: «بُعِثتُ في نَسَم السَّاعةِ»، رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (١٧٧٣) من طريق أبي جبيرة بن الضحاك، عن أشياخ من الأنصار. =

(٤٧) ـ ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾: أيَّ شيءٍ سألتُكُم مِن أجرٍ على الرِّسالةِ ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾، والمرادُ نفيُ السُّؤالِ كأنَّه جعلَ التَّنبِّيَ مُستلزِمًا لأحدِ الأمرينِ: إمَّا الجنونُ، وإما توقُّعُ نفعٍ دُنيويٍّ عليه؛ لأنَّه: إمَّا أن يكونَ لغرضٍ أو لغيرِه، وأيًّا مّا كانَ يلزمُ أحدُهما، ثمَّ نفى كُلًّا منهُما.

وقيل: (ما) مَوصولةٌ مرادٌ بها ما سأَلَهُم بقولِه: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]، وبقوله: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] واتِّخاذُ السَّبيلِ يَنفَعُهُم وقُرباهُ قُرباهُم.

﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: مُطَّلِعٌ يَعلَمُ صِدقِي وخُلوصَ نِيَّتِي.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر بإسكانِ الياءِ(١).

(٤٨) ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾: يُلقيهِ ويُنزِلُه على مَن يَجتَبيهِ مِن عِبادِه، أو يرمي به الباطلَ فيَدمَغُه، أو يرمي بهِ إلى أقطارِ الآفاقِ فيكونُ وعدًا بإظهارِ الإسلامِ وإفشائِه.

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ صِفَةٌ مَحمولَةٌ على محلِّ ﴿إِنَّ﴾ واسمِها، أو بدلٌ مِن المستكنِّ في ﴿يَقْذِفُ﴾، أو خبرٌ ثانٍ، أو خبرُ مَحذوفٍ.

= ورواه البزار (٣٢١٥ ـ كشف)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦١) من طريق أبي جبيرة بن الضحاك، عن النبيِّ ﷺ، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١/ ٢٢٨): ورجاله رجال الصحيح غير شبل ـ أو شبيل ـ بن عوف، وهو ثقة.

وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٩): أخرجه البزار بسند حسن من حديث أبي جبيرة بن الضحاك الأنصاري.

قلت: وأبو جبيرة مختلف في صحبته. انظر: «الإصابة» (٧/ ٥٤).

قال ابن الأثير في «النهاية» (مادة: نسم): والنَّسَمُ جمع: نسمَة، وهي النَّفْسُ وَالروحُ؛ أي: بُعِثت فِي ذِي أَرْوَاحٍ خلقهم اللهُ تعالى قبل اقتراب السَّاعَةِ.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣١)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

وقُرِئَ بالنَّصبِ[١] صِفَةً لـ﴿رَبِّي﴾ أو مُقدَّرًا بـ(أعني).

وقرأَ حمزَةُ وأبو بكرٍ: ﴿الغِيوب﴾ بالكسرِ كالبِيُوتِ، وبالضَّمِّ كالعُشورِ[٢]، وقُرِئَ بالفَتحِ[٣] كالصَّيُودِ[٤] على أنَّه مُبالغَةُ غائبٍ.

(٤٩) ـ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الإسلامُ ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾: وزهقَ الباطلُ؛ أي: الشِّركُ بحيثُ لم يبقَ لَهُ أثرٌ، مَأخوذٌ مِن هَلاكِ الحيِّ فإنَّه إذا هلكَ لم يبقَ لهُ إبداءٌ ولا إعادةٌ، قال:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدُ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ[٥]

وقيل: الباطِلُ إبليسُ أو الصَّنمُ، والمعنى: لا يُنشِئُ خَلْقًا ولا يُعيدُه، أو لا يُبدِئُ خَيْرًا لأهلِه ولا يُعيدُ. وقيل: (ما) استفهاميَّةٌ مُنتصبةٌ بما بعدَه.

(٥٠) ـ ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحَقِّ ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾: فإنَّ وَبالَ ضَلالي علَيْهَا لأنَّه بسبَبِها؛ إذ هيَ الجاهِلَةُ بالذَّاتِ والأمَّارةُ بالسُّوءِ، وبهذا الاعتبارِ قابلَ الشَّرطيَّةَ بقولِه:

﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ ـ قرأَ نافعٌ وأبو عمرٍو بفتحِ اليَاءِ[٦] ـ فإنَّ الاهتِداءَ بهِدايَتِه وتَوفيقِه.

---

(١) نسبت لعيسى وابن أبي إسحاق، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣).

(٢) بالضم قرأ الباقون، انظر: «السبعة» (ص: ١٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٠١).

(٣) ذكرها أبو حيان في «البحر» (١٧/ ٤٧٣) دون نسبة، وهي قراءة شاذة.

(٤) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٦٦)، و«البحر» (١٧/ ٤٧٣)، دون نسبة، وقوله: «كالصَّيود»، كقَبُولٍ: الصَّيَّادُ، يقال: كلبٌ صَيُودٌ، وصَقْرٌ صَيُودٌ، وكذلك الأنثى، والجمع: صُيُدٌ. انظر: «التاج» (مادة: صيد). وهو على هذا ـ أي: الفتح ـ مفرد، ويراد به المبالغة كما سيذكر.

(٥) انظر: «ديوان عبيد بن الأبرص» (ص: ٤٥)، و«الأغاني» للأصفهاني (٢٢/ ٨٨).

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣١)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ يُدرِكُ قولَ كُلِّ ضَالٍّ ومُهتَدٍ وفعلَه وإن أخفاهُ.

(٥١) ـ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾ عندَ المَوتِ، أو البعثِ، أو يومَ بدرٍ، وجوابُ (لو) مَحذوفٌ مثل: لرأيتَ فظيعًا.

﴿فَلَا فَوۡتَ﴾: فلا يَفوتونَ اللهَ بهَرَبٍ أو تَحصُّنٍ[١].

﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾: مِن ظهرِ الأرضِ إلى بَطنِها، أو مِن الموقفِ إلى النَّارِ، أو مِن صَحراءِ بَدرٍ إلى القليبِ، والعطفُ على ﴿فَزِعُواْ﴾ أو (لا فوت)، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (وأَخْذٌ)[٢] عطفًا عَلى محلِّه؛ أي: فلا فوتَ هُناكَ وهناكَ أخذٌ.

(٥٢) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: بمُحمَّدٍ عليهِ السَّلامُ، وقد مرَّ ذِكرُهُ في قولِه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾: ومِن أينَ لَهُم أَنْ يَتَناوَلُوا الإيمانَ تَناوُلًا سَهْلًا ﴿مِن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ﴾ فإنَّه في حيِّزِ التَّكليفِ وقد بَعُدَ عَنْهُم، وهو تمثيلُ حالِهم في الاستخلاصِ بالإيمانِ بعدَما فاتَ عَنْهُم وبَعُدَ عَنْهُم أوانُه بحالِ مَن يُريدُ أَنْ يَتناولَ الشَّيءَ مِن غَلْوةٍ[٣] تَناوُلَه مِن ذراعٍ في الاستحالَةِ.

وقرأ أبو عمرٍو والكوفِيُّونَ غيرَ حَفصٍ بالهمزِ على قلبِ الواوِ لضَمَّتِها[٤]، أو أنَّه مِن نَأَشْتُ الشَّيءَ: إذا طلَبْتُه، قالَ رُؤبَةُ:

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بحصن».

(٢) نسبت لعبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه ولطلحة بن مصرف، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٩٦).

(٣) قوله: «مِن غَلْوة»، هي مِقدارُ رمية، وهو مثال للبعد، كما أن الذراع مثال للقرب، انظر: «حاشية الخفاجي»، وعبارة «الكشاف»: مُثِّلَتْ حَالُهم بحالِ مَن يُرِيْد أن يتَناوَل الشَّيءَ من غَلْوَةٍ كما يتَناوَله الآخرُ من قِيْسِ ذراعٍ تَناوُلاً سَهْلاً لا تعَبَ فيهِ.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

أَقْحَمَنِـي جَـارُ أَبِـي الخَامُوشِ إِلَيْـكَ نَـأْشَ القَـدَرِ النَّـؤُوشِ[١]

أو مِن نَأَشْتُ: إذا تَأَخَّرْتَ، ومنهُ قولُه:

تَمَنَّـى نَئِيشًـا أَنْ يَكُـونَ أَطَاعَنِي وَقَدْ حَدَثَتْ بَعْدَ الأُمُـورِ أُمُورُ[٢]

فيكونُ بمَعْنَى التَّنَاوُلِ مِن بُعْدٍ.

(٥٣) ـ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ﴾: بمُحمَّدٍ أو بالعَذابِ ﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قبلِ ذلك أوانَ التَّكليفِ.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾: ويرجمونَ بالظَّنِّ ويَتكلَّمُونَ بمَا لم يَظْهَرْ لَهُم في الرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ مِن المطاعنِ، أو في العذابِ مِن البتِّ على نَفيِهِ.

﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾: مِن جانبٍ بَعيدٍ من أمرِه، وهو الشُّبَه التي تَمحَّلُوها في أمرِ الرَّسولِ وحالِ الآخرَةِ كما حكاهُ مِن قبلُ، ولعلَّهُ تَمثيلٌ لحالِهم في ذلك بحالِ مَن يرمي شَيئًا لا يراهُ مِن مَكانٍ بعيدٍ لا مجالَ للظَّنِّ في لُحوقِه[٣].

وقرئ: (ويُقْذَفُونَ)[٤] على أنَّ الشَّيطانَ يُلقي إليهم ويُلقِّنُهم ذلك.

والعطفُ على ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ على حكايةِ الحالِ الماضيَةِ، أو على ﴿قالوا﴾ فيكونُ تَمثيلًا لحالِهم بحالِ القاذفِ في تَحصيلِ ما ضيَّعُوهُ مِن الإيمانِ في الدُّنيا.

---

(١) انظر: «ديوان رؤبة» (ص: ٧٧).

(٢) البيت لنهشل بن حريٍّ كما في «الألفاظ» لابن السكيت (ص: ٢٠٣)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦)، و«المستقصى» للمؤلف (١/ ٣٠٢). ودون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٦٥)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٨٩)، و«غريب الحديث» للحربي (٢/ ٨٨٣)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٣١٤).

(٣) في نسخة الفاروقي: «في وقوعه».

(٤) نسبت لمجاهد، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣)، و«المحتسب» (٢/ ١٩٧).

(٥٤) ـ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِن نَفعِ الإيمانِ والنَّجاةِ به مِن النَّارِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ والكِسائيُّ بإشمامِ الضَّمِّ للحاءِ[1].

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ بأشباهِهِم مِن كفرةِ الأُمَمِ الدَّارجةِ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مُوْقِعٍ في الرِّيبةِ، أو: ذي ريبةٍ، منقولٌ مِن المشكِّكِ أو الشَّاكِّ نُعِتَ به الشَّكُّ للمُبالغَةِ.

عن رسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرَأَ سُورةَ سبأٍ لم يبقَ رَسولٌ ولا نبيٌّ إلَّا كانَ لَه يوم القيامةِ رفيقًا ومُصافِحًا»[2].

* * *

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٨١).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٧) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٣٤) سورة سبأ مكية
وآياتها أربع وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره، كما قال تعالى: ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾، ثم قال تعالى: ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى، وقوله تعالى: ﴿وهو الحكيم﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ﴿الخبير﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء، وقال الزهري: خبير بخلقه حكيم بأمره، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾ أي يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته ﴿وما ينزل من السماء﴾ أي من قطر ورزق، ﴿وما يعرج فيها﴾ أي من الأعمال الصالحة وغير ذلك، ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة ﴿الغفور﴾ عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس، وهي قوله تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾، **والثانية هذه:** ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾، **والثالثة** في سورة التغابن وهي قوله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾، فقال تعالى: ﴿قل بلى وربي لتأتينكم﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ قال مجاهد وقتادة: ﴿لا يعزب عنه﴾ لا يغيب عنه، أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم. ثم بيَّن حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى: ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ۔ والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله ﴿أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾ أي لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾. وقال تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾؟ وقوله تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾، ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ العزيز هو المنيع الجناب الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله جلَّ وعلا.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

هذا إخبار من الله عزَّ وجلَّ عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك، ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق﴾ أي تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق، ﴿إنكم﴾ أي بعد هذا الحال ﴿لفي خلق جديد﴾ أي تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك؟ ﴿أفترى على الله كذباً أم به جنة﴾؟ قال الله عزَّ وجلَّ راداً عليهم: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿في العذاب﴾ أي الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى، ﴿والضلال

البعيد﴾ من الحق في الدنيا، ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض، ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾، أي حيثما توجهوا وذهبوا، فالسماء مطلة عليهم والأرض تحتهم، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ قال قتادة: إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك أو من بين يديك أو من خلفك رأيت السماء والأرض، وقوله تعالى: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا، ثم قال: ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾، قال قتادة: ﴿منيب﴾ تائب، وعنه: المنيب المقبل إلى الله تعالى، أي إن في النظر إلى خلق السماوات والأرض، لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجَّاع إلى الله، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد، لأن من قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها، وأطوالها وأعراضها إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى﴾، وقال تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد والعدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال ﷺ: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود». ومعنى قوله تعالى: ﴿أوبي﴾ أي سبحي[1]، والتأويب في اللغة الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها، وقوله تعالى: ﴿وألنا له الحديد﴾ قال الحسن البصري وقتادة: كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط، ولهذا قال تعالى: ﴿أن اعمل سابغات﴾ وهي الدروع، قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح، وقال ابن شوذب: كان داود عليه السلام يرفع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم، ألفين له ولأهله وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحواري[2]، ﴿وقدّر في السرد﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع، قال مجاهد ﴿وقدر في السرد﴾ لا تدق المسمار فيقلق في الحلقة، ولا تغلظه فيقصمها واجعله بقدر، وقال الحكم بن عيينة: لا تغلظه فيقصم ولا تدقه فيقلق، وقال ابن عباس: السرد حلق الحديد. وقال بعضهم: يقال درع مسرودة إذا كانت مسمورة الحلق، واستشهد بقول الشاعر

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن شوذب.

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر عن وهب بن منبه أن داود عليه السلام كان يخرج متنكراً، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته وعدله عليه السلام. قال وهب: حتى بعث الله تعالى ملَكاً في صورة رجل فلقيه داود عليه الصلاة والسلام، فسأله كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً، قال: ما هي؟ قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين يعني بيت المال، فعند ذلك نصب داود عليه السلام إلى ربه عزَّ وجلَّ في الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغني به ويغني به عياله فألان الله عزَّ وجلَّ له الحديد وعلمه صنعة الدروع فعمل الدروع وهو أول من عملها، فقال الله تعالى: ﴿أن اعمل سابغات وقدر في السرد﴾ يعني مسامير الحلق، قال: وكان يعمل الدرع فإذا ارتفع من عمله درع باعها فتصدق بثلثها واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها، وقال: إن الله تعالى أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت، إنه كان إذا قرأ الزبور تجتمع الوحوش إليه حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته عليه السلام، وكان شديد الاجتهاد، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في المزامير، وكان قد أعطي سبعين مزماراً في حلقه، وقوله تعالى: ﴿واعملوا صالحاً﴾ أي في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿إني بما تعملون بصير﴾ أي مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم لا يخفى عليّ من ذلك شيء.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به على (داود) عطف بذكر ما أعطى ابنه (سليمان) عليهما الصلاة والسلام، من تسخير الريح له تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر، قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدى بها، ويذهب رائحاً من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع، وقوله تعالى: ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد: القطر النحاس، قال قتادة: وكانت باليمن فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام، قال السدي: وإنما أسيلت له ثلاثة أيام، وقوله تعالى: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾ أي وسخرنا له الجن يعملون بين يديه ﴿بإذن ربه﴾ أي بقدره وتسخيره لهم بمشيئته، ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا﴾ أي ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نذقه من عذاب السعير﴾ وهو الحريق، وقوله تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل﴾ أما المحاريب فهي البناء الحسن وهو أشرف شيء في المسكن وصدره، وقال مجاهد: المحاريب بنيان دون القصور، وقال الضحاك: هي المساجد، وقال قتادة: هي القصور والمساجد، وقال ابن زيد: هي المساكن، وأما التماثيل، فقال الضحاك والسدي: التماثيل الصور، قال مجاهد:

وكانت من نحاس، وقال قتادة: من طين وزجاج. وقوله تعالى: ﴿وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾ الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء، قال الأعشى:

تروح على آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق

وقال ابن عباس ﴿كالجواب﴾ كالحياض[1]، والقدور الراسيات أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها، وقال عكرمة: أثافيها منها، وقوله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ أي وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا، قال السلمي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله عزَّ وجلَّ شكر، وأفضل الشكر الحمد[2]. وقال القرظي: الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً، قال ابن أبي حاتم عن ثابت البناني قال: كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فغمرتهم هذه الآية ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة دلود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى». وقد روي عن جابر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «قالت أم سليمان بن داود عليهم السلام لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة»[3]. وقال فضيل في قوله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ قال: داود يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال: «الآن شكرتني حين علمت أن النعمة مني»، وقوله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ إخبار عن الواقع.

* ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف عمّى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه وهي منسأته مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض وهي (الأرضة) ضعفت وسقط إلى الأرض وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك[4]. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال سليمان عليه السلام لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني، فأتاه فقال: يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير، وليس له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه، قال: فدخل عليه ملك الموت فقبض

(١) وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم.
(٢) رواه ابن جرير عن أبي عبد الرحمن السلمي.
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه.
(٤) ذكر عند تفسير هذه الآية أخبار غريبة من الإسرائيليات ضربنا صفحاً عنها.

روحه وهو متكيء على عصاه، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت، قال: والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي. قال: فبعث الله عزَّ وجلَّ دابة الأرض، قال: والدابة تأكل العيدان يقال لها: القادح، فدخلت فيها فأكلتها، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر ميتاً، فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته﴾ قال أصبغ: بلغني أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن يخر، وذكر غير واحد من السلف نحواً من هذا، والله أعلم.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر، كما سيأتي قريباً، روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن وعلة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: «بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير، وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان»[1]، قال علماء النسب: اسم سبأ (عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان) وإنما سمي سبأ، لأنه أول من سبأ في العرب، ومعنى قوله ﷺ: «كان رجلاً من العرب» يعني من سلالة الخليل عليه السلام، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ مر بنفر من أسلم ينتضلون فقال: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً»[2]، فأسلم قبيلة من (الأنصار) والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد حين بعث الله عزَّ وجلَّ عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم غسان بماء نزلوا عليه قريب من المشلل، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إما سألت فإنا معشر نجب ... الأزد نسبتنا والماء غسان

ومعنى قوله ﷺ: «ولد له عشرة» أي كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب، ومعنى قوله ﷺ: «فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة» أي بعد ما أرسل

(١) رواه الإمام أحمد وابن جرير والترمذي وقال: حسن غريب، قال ابن كثير: ورواه ابن عبد البر عن تميم الداري مرفوعاً فذكر مثله فقوي هذا الحديث وحسن.

(٢) أخرجه البخاري.

الله تعالى عليهم سيل العرم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقادم، فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً، حتى ارتفع الماء، وحكم على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف، أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل – وهو الذي تخترف فيه الثمار – فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه، من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف، لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب[1]. ويذكر أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج، وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية﴾ ثم فسرها بقوله عزَّ وجلَّ ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ أي من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك، ﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾ أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد، وقوله تعالى: ﴿فأعرضوا﴾ أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾ قال السدي: أرسل الله عزَّ وجلَّ إليهم اثني عشر ألف نبي والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾ المراد بالعرم المياه، وقيل: الوادي، وقيل: الماء الغزير. وذكر غير واحد منهم ابن عباس وقتادة والضحاك: أن الله عزَّ وجلَّ لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها الجرذ، نقبته، وانساب الماء في أسفل الوادي، وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو الأراك وأكلة البربر (وأثل) هو الطرفاء، وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء، وقيل: هو السمر والله أعلم، وقوله: ﴿وشيء من سدر قليل﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر، قال ﴿وشيء من سدر قليل﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾ أي عاقبناهم بكفرهم، قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور. وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور، وقال ابن أبي حاتم عن ابن خيرة وكان من أصحاب علي رضي الله عنه قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة، قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصه إياها[2]

(١) مأرب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ويعرف هذا السد بسد مأرب.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمراً، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها﴾ قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء، وقال مجاهد والحسن: هي قرى الشام، يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة، وقال ابن عباس: القرى التي باركنا فيها بيت المقدس، وعنه: هي قرى عربية بين المدينة والشام ﴿قرى ظاهرة﴾ أي بينة واضحة يعرفها المسافرون، يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى، ولهذا قال تعالى: ﴿وقدرنا فيها السير﴾ أي جعلنا بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، ﴿سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً، ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم﴾ وذلك أنهم بطروا هذه النعمة، وأحبوا مفاوز ومهامه، يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في المخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ﴿من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ مع أنهم كانوا في عيش رغيد، في مَنٍّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة، قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾، وقال تعالى في حق هؤلاء ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم﴾ أي بكفرهم، ﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس، وسمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد ههنا وههنا، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ، وتفرقوا شذر مذر، قال الشعبي: أما غسان فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق[1].

وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام، لعبرة لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم، روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، يؤجر المؤمن في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى امرأته»[2]، وهذا الحديث له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير عن الشعبي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه النسائي وهو حديث عزيز من رواية عمر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنهما.

رضي الله عنه: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»، قال قتادة ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ كان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال: ﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه﴾، قال ابن عباس: هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾، وقال ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ والآيات في هذا كثيرة، وقال الحسن البصري: لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما، وقال: إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف، وكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾، فقال عند ذلك إبليس: لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح، أعده وأمنيه وأخدعه، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة ما لم يغرغر بالموت، ولا يدعوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفرني إلا غفرت له[1]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما كان له عليهم من سلطان﴾ قال ابن عباس: أي من حجة، وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأماني، دعاهم إليها فأجابوه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ أي إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة والحساب والجزاء، فيحسن عبادة ربه عزَّ وجلَّ في الدنيا ممن هو منها في شك. وقوله تعالى: ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ أي ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

بيّن تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ أي من الآلهة التي عبدت من دونه، ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾، كما قال تعالى: ﴿والذين يدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾، وقوله تعالى: ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾ أي لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل

---

(١) رواه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري.

الشركة ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ أي وليس لله من هذه الأنداد من معين يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه، قال قتادة في قوله عزَّ وجلَّ ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ من عون يعينه بشيء، ثم قال تعالى: ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ أي لعظمته وجلاله وكبريائه، لا يجترىء أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء، إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾؟ وقال جلَّ وعلا: ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله تعالى، أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم، قال: «فأسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح عليَّ بمحامد لا أحصيها الآن. ثم يقال يا محمد ارفع رأسك، وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع» الحديث بتمامه. وقوله تعالى: ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق ﴾، وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة. وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، قال ابن مسعود ﴿ فزِّع عن قلوبهم ﴾ أي زال الفزع عنها، وقال ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق ﴾ يقول: خلي عن قلوبهم، فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿ قالوا الحق ﴾ أي أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وهو العلي الكبير ﴾.

وقال آخرون: بل معنى قوله تعالى: ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ يعني المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة، إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، قالوا: ماذا قال ربكم؟ فقيل لهم: الحق، وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا، قال مجاهد ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ كشف عنها الغطاء يوم القيامة، وقال الحسن ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ يعني مس فيها من الشك والتكذيب، وقال ابن أسلم ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ يعني ما فيها من الشك قال فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم ﴿ قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ قال: وهذا في بني آدم - هذا عند الموت - أقروا حين لا ينفعهم الإقرار، وقد اختار ابن جرير القول الأول أن الضمير عائد على (الملائكة) وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار، قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه عن سفيان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فيصدّق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[1]. وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال، قال رسول

(١) أخرجه البخاري ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

الله ﷺ: «إذا أراد الله تبارك وتعالى أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السماوات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة من خوف الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه (جبريل) عليه الصلاة والسلام، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل عليه الصلاة والسلام على الملائكة، كلما مر بسماء سماء يسأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل، فيقول عليه السلام: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض»[1]

* قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى مقرراً تفرده بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضاً، فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره، وقوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ أي واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى، ولهذا قال: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ قال قتادة قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين، والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إنَّ أحد الفريقين لمهتد. وقال عكرمة: معناها إنا نحن لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين، وقوله تعالى: ﴿قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ معناه التبري منهم أي لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا كما قال تعالى: ﴿فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾، وقوله تعالى: ﴿قل يجمع بيننا ربنا﴾ أي يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ﴿ثم يفتح بيننا بالحق﴾ أي يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وهو الفتاح العليم﴾ أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل أروني الذين ألحقتم به شركاء﴾ أي أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيرتموها له عدلاً، (كلا) أي ليس له نظير ولا نديد ولا شريك ولا عديل، ولهذا قال تعالى: ﴿بل هو الله﴾ أي الواحد الأحد الذي لا شريك له، ﴿العزيز الحكيم﴾ أي ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء، وغلبت كل شيء، (الحكيم) في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علواً كبيراً.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن خزيمة عن النواس بن سمعان مرفوعاً.

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ أي إلى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تبارك وتعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾، ﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾، قال محمد ابن كعب: يعني إلى الناس عامة، وقال قتادة: أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عزَّ وجلَّ، وقال ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء، قالوا: يا ابن عباس فيم فضله على الأنبياء؟ قال رضي الله عنه إن الله تعالى قال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ وقال للنبي ﷺ: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس، وهذا كما ثبت في الصحيحين، قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1]، وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت إلى الأسود والأحمر» قال مجاهد: يعني الجن والإنس، وقال غيره يعني العرب والعجم، والكل صحيح، ثم قال عزَّ وجلَّ مخبراً عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذه الآية، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ أي لكم ميعاد مؤجل، لا يزاد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، كما قال تعالى: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود * يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد﴾.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

(١) أخرجاه في الصحيحين عن جابر بن عبد الله مرفوعاً.

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم، وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم، وبما أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ قال الله عزَّ وجلَّ متهدداً لهم ومتوعداً ومخبراً عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم، ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا﴾ وهم الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم: ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ أي لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل، وآمنا بما جاءونا به، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾، أي نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بل كنتم مجرمين ۝ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار﴾ أي بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتغرّونا وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين، قال قتادة وابن زيد ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ يقول: بل مكركم بالليل والنهار، ﴿إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ أي نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شبهاً وأشياء تضلونا بها، ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه، ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم، ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي إنما نجازيكم بأعمالكم، كلٌّ بحسبه للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم، ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لهبها، ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب»[1]

۞ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ، وآمراً له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبراً له بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾، وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ۝ قال

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾، وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾، وقال جلَّ وعلا: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾، وقال جلَّ وعلا ههنا: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾ أي نبي أو رسول ﴿إلا قال مترفوها﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة، قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي لا نؤمن به ولا نتبعه، عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل، فكتب إليه إنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم، قال: فترك تجارته ثم أتى صاحبه، فقال: دلني عليه، وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب، قال: فأتى النبي ﷺ فقال: إلامَ تدعو؟ قال: «أدعو إلى كذا وكذا» قال: أشهد أنك رسول الله، قال ﷺ: «وما علمك بذلك؟» قال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم، قال: فنزلت هذه الآية؛ ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾[1]، وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها: وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم، فزعمت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل[2]. وقال تبارك وتعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات؟ بل لا يشعرون﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾، ولهذا قال عزَّ وجلَّ ها هنا: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، ثم قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾ أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمانُ والعمل الصالح ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا﴾ أي تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ أي في منازل الجنة العالية ﴿آمنون﴾ من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه.

عن علي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها» فقال أعرابي: لمن هي؟ قال ﷺ: «لمن طيّب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[3]. ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ أي يسعون في الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته، ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾ أي جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم، وقوله تعالى: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ أي بحسب ما له في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه الشيخان.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

كثيراً، ويضيّق على هذا ويقتر عليه رزقه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ أي كما هم متفاوتون في الدنيا هذا فقير مدقع وهذا غني موسع عليه، فكذلك هم في الآخرة، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات، وأطيب الناس في الدنيا، كما قال ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»[1]، وقوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فيا أمركم به، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبذل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: «يقول الله تعالى أنفقْ أنفقْ عليك»، وقال رسول الله ﷺ: «أنفقْ بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»، وعن حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض يعض الموسر على ما في يده حذار الإنفاق»، ثم تلا هذه الآية ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾[2]، وفي الحديث: «شرار الناس يبايعون كل مضطر، ألا إن بيع المضطرين حرام، ألا إن بيع المضطرين حرام، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، إن كان عندك معروف فعد به على أخيك، وإلا فلا تزده هلاكاً إلى هلاكه»[3]، وقال مجاهد: لا يتأولن أحدكم هذه الآية ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه يقرّع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾، وكما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلّهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾، وهكذا تقول الملائكة: ﴿سبحانك﴾ أي تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أنت ولينا من دونهم﴾ أي نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ يعنون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله﴾، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً﴾ أي لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم، من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ وهم المشركون ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الحافظ الموصلي وفي إسناده ضعف.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون العقوبة والأليم من العذاب، لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات، يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله ﷺ ﴿قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل، ﴿وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى﴾ يعنون القرآن، ﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾، قال الله تعالى: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير، أو أنزل علينا كتاب، لكنا أهدى من غيرنا، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه، ثم قال تعالى: ﴿وكذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم ﴿وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾، قال ابن عباس: أي من القوة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم أكثر منهم وأشد قوة﴾ أي وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله، ولهذا قال: ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي.

* ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿إنما أعظكم بواحدة﴾ أي إنما آمركم بواحدة، وهي ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ أي تقوموا قياماً خالصاً لله عزَّ وجلَّ من غير هوى ولا عصبية فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً، ﴿ثم تتفكروا﴾ أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾، قال البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش فقالوا: مالك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم

(١) هذا معنى ما ذكره مجاهد ومحمد بن كعب والسدي وقتادة وغيرهم، وتفسير الآية بالقيام في الصلاة في جماعة وفرادى بعيد كما ذكر ابن كثير.

أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني » قالوا: بلى؟ قال ﷺ: « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد »، فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾. وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات فقال: « أيها الناس تدرون ما مثلي ومثلكم؟ » قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم، قال ﷺ: « إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه: أيها الناس أوتيتم، أيها الناس أوتيتم » ثلاث مرات.

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿ما سألتكم من أجر فهو لكم﴾، أي لا أريد منكم جعلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله عزَّ وجلَّ إليكم، ونصحي إياكم وأمركم بعبادة الله ﴿إن أجري إلا على الله﴾، أي إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿وهو على كل شيء شهيد﴾ أي عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب﴾، كقوله تعالى: ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ أي يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد﴾ أي جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهب الباطل واضمحل، كقوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يطعن الصنم منها ويقرأ: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾، ﴿قل جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد﴾[1]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أي لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة، وزعم قتادة والسدي أن المراد بالباطل ها هنا إبليس أي أنه لا يخلق أحداً ولا يعيده ولا يقدر على ذلك، وهذا وإن كان حقاً، ولكن ليس هو المراد ههنا والله أعلم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي﴾ أي الخير كله من عند الله وفيما أنزل الله عزَّ وجلَّ، من الوحي والحق المبين، فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه، وقوله تعالى: ﴿إنه سميع قريب﴾ أي سميع لأقوال عباده ﴿قريب﴾ يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وقد روي في الصحيحين: « إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً ».

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تبارك وتعالى: ولو ترى يا محمد إذا فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿ فلا فوت ﴾ أي فلا مفر لهم ولا وزر لهم ولا ملجأ ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ أي لم يمكنوا أن يمعنوا في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة، قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم، وقال مجاهد وقتادة: من تحت أقدامهم، وعن ابن عباس والضحاك: يعني عذابهم في الدنيا، وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني قتلهم يوم بدر، والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكر متصلاً بذلك، ﴿ وقالوا آمنا به ﴾ أي يوم القيامة يقولون آمنا بالله ورسله كما قال تعالى: ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ أي وكيف لهم تعاطي الإيمان، وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي (دار الجزاء) لا دار الابتلاء؟ فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، قال مجاهد: ﴿ وأنى لهم التناوش ﴾ قال: التناول لذلك، وقال الزهري: التناوش تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا، وقال الحسن البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد، وقال ابن عباس: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة.

وقوله تعالى: ﴿وقد كفروا به من قبل﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل، ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ يعني بالظن، كما قال تعالى: ﴿ رجماً بالغيب ﴾ فتارة يقولون شاعر، وتارة يقولون كاهن، وتارة يقولون ساحر، وتارة يقولون مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد، ﴿ ويقولون إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ قال قتادة ومجاهد: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار، وقوله تعالى: ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما: يعني الإيمان، وقال السدي ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾: وهي التوبة، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله، وقال مجاهد: ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل[1]، والصحيح أنه لا منافاة بين القولين فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فمنعوا منه. وقوله تعالى: ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أي كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله، تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إنهم كانوا في شك مريب ﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وريبة فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب، قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

[آخر تفسير سورة سبأ والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب]

(١) وروي نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع بن أنس وهو قول البخاري وجماعة من العلماء.

تفسير سُورة سَبأ

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة : أن له الحمدَ المطلق فى الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم فى جميع ذلك ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى : الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، كما قال : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ ﴾ [الليل : ١٣] .

ثم قال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ ﴾ ، فهو المعبود [(١)] أبدا ، المحمود على طول المدى . وقال : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أى : فى أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره ، ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شىء .

وقال مالك عن الزهرى : خبير بخلقه ، حكيم بأمره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أى : يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض ، والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ، ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من قطر ورزق ، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ، ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أى : الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة ، الغفور [(٢)] عن ذنوب [عباده] [(٣)] التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) ﴾ .

---

(١) فى أ : « المحمود » . (٢) فى ت : « العفو » . (٣) زيادة من أ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن ، مما أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن في سورة يونس : ﴿ **وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ** ﴾ [يونس : ٥٣] ، والثانية هذه : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** ﴾ ، والثالثة في التغابن: ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [التغابن : ٧] ، فقوله : ﴿ **قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ**[1] ﴾ ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره : ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : ﴿ **لا يَعْزُبُ عَنْهُ** ﴾ : لا يغيب عنه ، أي : الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين[2] تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شيء عليم .

ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : ﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** ﴾ أي : سعوا في الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ، ﴿ **أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ** ﴾ أي : لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص : ٢٨] .

وقوله : ﴿ **وَيَرَى**[3] **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ : هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها ، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله في الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضًا : ﴿ **لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ويقال أيضا : ﴿ **هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** ﴾ [يس : ٥٢] ، ﴿ **لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ** ﴾ [الروم : ٥٦]، ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ . العزيز هو : المنيع الجناب[4] ، الذى لا يُغالب ولا يُمانع ، بل قد قهر كل شيء ، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وقدره ، وهو المحمود في ذلك كله .

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩)** ﴾ .

---

(١) في ت : « ليأتينكم » .
(٢) في أ : « وإن » .
(٣) في س : « وترى » .
(٤) في أ : « الجبار » .

هذا إخبار من اللّه عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ فى إخباره بذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أى : تفرقت[١] أجسادكم فى الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أى : بعد هذا الحال ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك ، وهو فى هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على اللّه أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لُبّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ ؟ قال اللّه تعالى رادًا عليهم: ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذى جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿ فِي الْعَذَابِ ﴾ أى : [فى] [٢] الكفر المفضى بهم إلى عذاب اللّه ، ﴿ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ من [٣] الحق فى الدنيا .

ثم قال منبهًا لهم على قدرته فى خلق السموات والأرض ، فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : حيثما [٤] توجهوا وذهبوا فالسماء مُظلّة مُظَلَّلة عليهم ، والأرض تحتهم ، كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧ ، ٤٨] .

قال [٥] عبد بن حميد : أخبرنا عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ ؟قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

وقوله : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ : قال مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ مُّنِيبٍ ﴾ : تائب .

وقال سفيان [٦] عن قتادة : المنيب : المقبل إلى [٧] اللّه عز وجل .

أى : إن فى النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجَّاع إلى اللّه ، على قدرة اللّه على بعث الأجساد ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها [٨] واتساعها ، وهذه الأرضين فى انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم [٩] بَلَىٰ ﴾ [يس : ٨١] ، وقال : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

---

(١) فى ت : « فرقت » . (٢) زيادة من ت ، أ . (٣) فى أ : « عن » .
(٤) فى ت ، س : « حيث » . (٥) فى ت : « روى » . (٦) فى أ : « شيبان » .
(٧) فى ت ، أ : « على » . (٨) فى ت ، س : « وارتفاعها » .
(٩) فى ت ، س ، أ : « على أن يحيى الموتى » ، والصواب ما أثبتناه .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود ، صلوات الله وسلامه عليه ، ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العَدَد والعُدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ،وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته [(١)] ، ثم قال « لقد أوتى هذا مِزْمَارًا من مزامير آل داود » .

وقال أبو عثمان النهدى : ما سمعت صوت صَنج ولا بَرْبَط ولا وَتَر أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه [(٢)] .

ومعنى قوله : ﴿ أَوِّبِي ﴾ أى : سبحى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد .

وزعم أبو [(٣)] ميسرة أنه بمعنى سَبِّحى بلسان الحبشة . وفى هذا نظر ، فإن التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى فى كتابه « الجُمل » فى باب النداء منه : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أى : سيرى معه بالنهار كله ، والتأويب : سير النهار كله ، والإسآد [(٤)] : سير الليل كله . وهذا لفظه ، وهو غريب جداً لم أجده [(٥)] لغيره ، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ فى اللغة، لكنه بعيد فى معنى الآية هاهنا . والصواب أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أى : رَجِّعى مُسَبِّحة معه ، كما تقدم ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ : قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يُدخلَه نارًا ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ وهى : الدروع . قال قتادة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح.

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا ابن سَمَاعة ، حدثنا ابن ضَمْرَة [(٦)] ، عن ابن شَوْذَب قال : كان داود ، عليه السلام ، يرفع فى كل يوم درعًا فيبيعها بستة آلاف درهم : ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بنى إسرائيل خبز الحُوّارى .

---

(١) فى ت : « فاستمع رسول الله لقراءته » .
(٢) سبق تخريج الحديث والأثر فى فضائل القرآن .
(٣) فى أ : « ابن » . (٤) فى أ : « والآباد » . (٥) فى أ : « لم أر » ، وفى ت : « لم أره » .
(٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : هذا إرشاد من الله لنبيه داود ، عليه السلام ، فى تعليمه صنعة الدروع.

قال مجاهد فى قوله : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : لا تُدِقّ المسمار فَيقلَق فى الحلقة ، ولا تُغَلّظه فيفصمها ، واجعله بقدر .

وقال الحكم بن عُتَيبة (١) : لا تُغَلظه فيفصم ، ولا تُدِقّه فيقلَق (٢) . وهكذا روى عن قتادة ، وغير واحد .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : السرد : حَلَق (٣) الحديد . وقال بعضهم : يقال : درع مسرودة : إذا كانت مسمورة الحلق ، واستشهد بقول الشاعر (٤) :

وَعَلَيهما مَسْرُودَتَان قَضَاهُما ‏ « دَاوُد » ، أو صنعَ السَّوابغ « تُبّعُ »

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود ، عليه السلام ، (٥) من طريق إسحاق بن بشر ـ وفيه كلام ـ عن أبى إلياس ، عن وهب بن مُنَبه ما مضمونه : أن داود ، عليه السلام ، كان يخرج متنكرًا، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته ، فلا يسأل أحدًا إلا أثنى عليه خيرًا فى عبادته وسيرته ومعدلته ، صلوات الله وسلامه عليه . قال وهب : حتى بعث الله ملكا فى صورة رجل ، فلقيه داود فسأله كما كان يسأل غيره ، فقال : هو خير الناس لنفسه ولأمته ، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملا قال : ما هى ؟ قال : يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين ، يعنى : بيت المال ، فعند ذلك نصب داود، عليه السلام ، إلى ربه فى الدعاء أن يعلمه عملا بيده يستغنى به ويغنى به عياله ، فألان له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع ، فعمل الدرع (٦) ، وهو أول من عملها ، فقال الله : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ يعنى : مسامير الحلق ، قال : وكان يعمل الدرع (٧) ، فإذا ارتفع من عمله درع باعها ، فتصدق بثلثها ، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يوما بيوم إلى أن يعمل غيرها . وقال : إن الله أعطى داود شيئًا لم يعطه غيره من حسن الصوت ، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش (٨) حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر ، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته . وكان شديد الاجتهاد ، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ فى المزامير ، وكأن (٩) قد أعطى سبعين مزمارًا فى حلقه .

وقوله : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ أى : فى الذى أعطاكم الله من النعم ، ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى: مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شىء .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ

---

(١) فى س ، أ : « عيينة » . ‏ (٢) فى ت ، أ : « فيفلق » . ‏ (٣) فى ت ، س : « هو » .
(٤) هو أبو ذؤيب الهذلى ، والبيت فى اللسان مادة (قضى) .
(٥) تاريخ دمشق (٥ / ٧٠٨ المخطوط) .
(٦ ، ٧) فى ت ، أ : « الدروع » . ‏ (٨) فى ت ، س ، أ : « تجتمع الوحوش إليه » . ‏ (٩) فى ت ، س : « وكان » .

مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى سليمان [(١)] ، من تسخير الريح له تحمل بساطه ، غدوها شهر ورواحها شهر .

قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدّى [(٢)] بها ، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع .

وقوله : ﴿ **وَأَسَلْنَا** [(٣)] **لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ** ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى ، ومالك عن زيد بن أسلم ، و [(٤)] عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد : القطر : النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ، عليه السلام .

قال السدى : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام .

وقوله : ﴿ **وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ** ﴾ أى : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله ، أى : بقدره [(٥)] ، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك . ﴿ **وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا** ﴾ أى : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ **نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ وهو الحريق .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديثا غريبا فقال : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن جبير بن نُفَير [(٦)] ، عن أبى ثعلبة الخُشَنىّ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « الجن على ثلاثة أصناف : صنف له أجنحة يطيرون فى الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون » . رفعه غريب جدًا [(٧)] .

وقال [(٨)] أيضا : حدثنا أبى ، حدثنا حَرْمَلة ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى بكر [(٩)] بن مُضَر ، عن محمد ، عن ابن أنعم أنه قال : الجن ثلاثة : صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب .

قال بكر بن مضر : ولا أعلم إلا أنه قال : حدثنى أن الإنس ثلاثة [(١٠)] : صنف يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة . وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وصنف فى صُوَر الناس على قلوب الشياطين.

---

(١) فى ت ، أ : « ما أعطى ابنه سليمان بن داود » وفى س : « ما أعطى ابنه سليمان » . (٢) فى ت : « فيتغذى » .
(٣) فى ت : « واسالنا » . (٤) فى ت : « بن » .
(٥) فى ت ، أ : « أى الإذن القدرى » وفى س : « أى القدرى » . (٦) فى ت : « وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثًا غريبًا بإسناده » .
(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢ / ٤٥٦) وصححه ، ووافقه الذهبى ، والطبرانى فى الكبير (٢٢ / ٢١٤) من طريق عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح به ، ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٠٠٧) من طريق ابن وهب عن معاوية بن صالح ، به .
(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « بكير » . (١٠) فى أ : « ثلاثة أصناف » .

وقال أيضا (١) : حدثنا أبى : حدثنا على بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة ـ يعنى: ابن الفضل ـ عن إسماعيل ، عن الحسن (٢) قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون ، وهم شركاؤهم فى الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان .

وقوله : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ : أما المحاريب فهى البناء الحسن ، وهو أشرف شىء فى المسكن وصدره .

وقال مجاهد : المحاريب بنيان دون القصور . وقال الضحاك : هى المساجد . وقال قتادة : هى المساجد والقصور ، وقال ابن زيد : هى المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفى ، والضحاك والسدى : التماثيل : الصور . قال مجاهد :وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ : الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء ، كما قال الأعشى ميمون بن قيس :

تَـرُوحُ عَلَى آل المَحَـلَّق جَفْـنَـةٌ كَجَابِيَة الشَّيخ العرَاقى تَفْهَق (٣) (٤)

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ أى : كالجَوبة من الأرض .

وقال العوفى ، عنه : كالحياض . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك وغيرهم .

والقدور الراسيات : أى الثابتات ، فى أماكنها (٥) لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما .

وقال عكرمة : أثافيها منها .

وقوله : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ أى : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم فى الدنيا والدين .

وشكرًا : مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية ، كما قال :

أَفَادَتْكُمُ النّعْمَاء منِّى (٦) ثَلاثةً : يدِى ، ولِسَانى ، وَالضَّمير المُحَجَّبَا

قال أبو عبد الرحمن الحُبلى (٧) : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير .

وروى هو وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القُرَظى قال : الشكر تقوى الله والعمل الصالح.

---

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم أيضا » . (٢) فى ت : « الحسين » . (٣) فى ت : « بقهق »
(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢ / ٤٩) .
(٥) فى ت ، س ، أ : « أماكنهم » . (٦) فى ت : « عندى » .
(٧) فى هـ، ت ، س ، أ : « السلمى » والتصويب من الطبرى ٢٢ / ٥٠ ، مستفادا من طبعة الشعب .

وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وقد كان آل داود ، عليه السلام ، كذلك قائمين بشكر الله قولا وعملا .

قال [١] ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى بكر ، حدثنا جعفر ــ يعنى : ابن سليمان ــ عن ثابت البُنَانى قال : كان داود ، عليه السلام ، قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتى عليهم [٢] ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى ، فغمرتهم هذه الآية: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما. ولا يَفر إذا لاقى » [٣] .

وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سُنَيْد بن داود ، حدثنا يوسف بن محمد بن المُنْكَدِر ، عن أبيه ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قالت أمّ سليمان بن داود لسليمان : يا بنى ، لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرًا يوم القيامة » [٤] .

وروى ابن أبى حاتم عن داود ، عليه السلام ، هاهنا أثرا غريبا مطولا جدا ، وقال أيضًا :

حدثنا أبى ، حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا أبو يزيد [٥] فيض بن إسحاق الرقى [٦] قال : قال فضيل فى قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ . فقال داود : يا رب ، كيف أشكرك ، والشكر نعمة منك ؟ قال : « الآن شكرتنى حين علمت [٧] أن النعمة [٨] منى » .

وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ : إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان ، عليه السلام ، وكيف عَمَّى الله موته على الجانّ المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئًا على عصاه ـ وهى مِنْسَأته ـ كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وغير واحد ـ مدة طويلة نحوا من سنَة ، فلما أكلتها [٩] دابةُ الأرض ، وهى الأرضة، ضعفت [١٠] وسقط [١١] إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ـ تبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

---

(١) فى ت : « روى » . (٢) فى ت : « لا يأتى عليهن » ، وفى أ : « لا يأتى عليهم » .
(٣) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) .
(٤) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٤٣٣) : « هذا إسناد ضعيف » .
(٥) فى هـ : « زيد » والمثبت من ت ، س ، أ ، والجرح والتعديل ٣ / ٢ / ٨٨ مستفادًا من طبعة الشعب .
(٦) فى أ : « المرى » . (٧) فى ت ، س : « قلت » .
(٨) فى أ : « النعم » . (٩) فى ت : « فلما أكلت العصا » .
(١٠) فى ت ، س ، أ : « فضعفت » . (١١) فى أ : « وسقطت » .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع غريب ، وفى صحته نظر ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة ، حدثنا إبراهيم بن طَهْمَان ، عن عطاء ، عن السائب ، عن سعيد بن جبير [١] عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « كان سليمان نبى اللّه ، عليه السلام ، إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا . فيقول : لأى شىء أنت ؟ فإن كانت لغرس غُرِسَتْ ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ . فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت . فقال سليمان : اللهم ، عَمِّ على الجن موتتى [٢] حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب . فنحتها عصًا ، فتوكأ عليها حولا ميتا ، والجن تعمل . فأكلتها الأرضة ، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا [حولا] [٣] فى العذاب المهين » .

قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال : « فشكرت الجن الأرضة [٤] ، فكانت تأتيها بالماء»[٥].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم ، من حديث إبراهيم بن طَهْمان ، به . وفى رفعه غرابة ونكارة ، والأقرب أن يكون موقوفًا ، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى له غرابات ، وفى بعض حديثه نكارة .

وقال السُّدِّى ، فى حديث ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ــ وعن مُرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول اللّه ﷺ ، قال : كان سليمان يتحرر فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه ، فأدخله فى المرة التى توفى فيها ، وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت المقدس شجرة ، فيأتيها فيسألها ، فيقول : ما اسمك ؟ فتقول : اسمى كذا وكذا . فإن كانت لغرس غرسها ، وإن كانت نبْتَ دواء قالت : نَبَتٌّ دواء لكذا وكذا . فيجعلها [٦] كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها : الخرّوبة ، فسألها : ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . قال : ولأى شىء نَبَتٍّ ؟ قالت : نبت لخراب هذا المسجد . قال سليمان : ما كان اللّه ليُخَرِّبه وأنا حى ؟ أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس . فنزعها وغرسها فى حائط له ، ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئا على عصاه ، فمات ولا تعلم [٧] به الشياطين ، وهم فى ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم. وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كُوى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول : ألست جلدا [٨] إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب ؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان فى المحراب إلا احترق . فمر ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ، ثم رجع فوقع فى البيت ولم يحترق . ونظر إلى سليمان، عليه السلام ، قد سقط ميتا . فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات . ففتحوا [٩] عنه

---

(١) فى ت : « رواه ابن جرير بإسناده » .
(٢) فى ت : « موتى » .
(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، والطبرى .
(٤) فى ت ، س ، أ : « للأرضة » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .
(٦) فى ت ، س : « فيجعل الشجرة » .
(٧) فى أ : « ولم يعلم » .
(٨) فى ت : « جليدا » .
(٩) فى هـ ، س : « فتنحوا » .

فأخرجوه . ووَجدوا منسأته ـ وهى : العصا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ؟ فوضعوا الأرضة على العصا ، فأكلت منها يوما وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو ، فوجدوه قد مات منذ سنة . وهى فى قراءة ابن مسعود : فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا [(١)] ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب ، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا فى العذاب يعملون له سنة ، وذلك قول الله [(٢)] عز وجل : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾ . يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكنا سننقل إليك الماء والطين ـ قال : فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ـ قال : ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب ؟ فهو ما تأتيها به الشياطين ، شكراً [(٣)] لها [(٤)] .

وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب ، وهى وَقْفٌ ، لا يصدق منها[(٥)] إلا ما وافق الحق ، ولا يُكذب منها إلا ما خالف الحق ، والباقى لا يصدق ولا يكذب [(٦)] .

وقال ابن وهب وأصبغ بن الفرج ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ** ﴾ قال : قال سليمان ، عليه السلام ، لملك الموت : إذا أمرتَ بى فأعلمنى . فأتاه فقال : يا سليمان ، قد أمرت بك ، قد بقيت لك سويعة . فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ، وليس له باب ، فقام يصلي فاتكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملك الموت ، فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن يعملون[(٧)] بين يديه وينظرون إليه ، يحسبون أنه حى . قال : فبعث الله ، عز وجل ، دابة الأرض . قال : والدابة تأكل العيدان ـ يقال لها : القادح ـ فدخلت فيها فأكلتْها ، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت ، وثقل عليها فخر ميتًا ، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ** ﴾ . قال أصبغ : بلغنى عن غيره أنها قامت [(٨)] سنة تأكل منها قبل أن يخر [(٩)] . وقد ذكر غير واحد من السلف نحواً من هذا ، والله أعلم .

﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧)** ﴾ .

---

(١) فى ت ، س ، أ : « حولا كاملا » . (٢) فى ت : « قوله » . (٣) فى ت ، س ، أ : « تشكرا » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .
(٥) فى س ، أ : « لا نصدق منه » . (٦) فى ت ، أ : « لا تصدق ولا تكذب » .
(٧) فى ت ، س ، أ : « تعمل » . (٨) فى ت : « أقامت » . (٩) فى أ : « تخر » .

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس ـ صاحبة سليمان ـ منهم [١] ، وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم ، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه [٢] بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد أيدى سبأ ، شذر مَذرَ ، كما يأتى تفصيله وبيانه قريبًا إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن عبد الله بن هُبَيْرة ، عن عبد الرحمن بن وَعْلة قال : سمعت ابن عباس يقول [٣] : إن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل [٤] أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ، ولد عَشَرة [٥] ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فَمَذْحِجُ ، وكِندَةُ ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار، وحمير . وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان .

ورواه عَبدُ ، عن الحسن بن موسى ، عن ابن لَهيعة ، به [٦] . وهذا إسناد [٧] حسن ، ولم يخرجوه ، [وقد روى من طرق متعددة] [٨] . وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى كتاب «القصد والأمَمْ ، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم » ، من حديث ابن لهيعة ، عن علقمة بن وعلة، عن ابن عباس فذكر نحوه . وقد روى نحوه من وجه آخر .

وقال الإمام [أحمد] [٩] أيضًا وعبد بن حميد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أبو جَنَاب يحيى ابن أبى حيَّة الكلبى ، عن يحيى بن هانئ بن عُرْوَة ، عن فروة بن مُسَيك قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أقاتل بمقبل قومى مدبرهم ؟ قال : « نعم ، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم » . فلما وليت دعانى فقال : « لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام » . فقلت : يا رسول الله ، أرأيت سبأ ؛ أواد هو ، أو رجل [١٠] ، أو ما هو ؟ قال : « [لا] [١١] ، بل رجل من العرب ، ولد له عشرة فَتَيَامَنَ ستة وتشاءم أربعة ، تيامن الأزد ، والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج ، وأنمار الذين يقال لهم : بجيلة وخثعم . وتشاءم لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسَّان » .

وهذا أيضًا إسناد جيد [١٢] وإن كان فيه أبو جَنَاب الكلبى ، وقد تكلموا فيه [١٣] . لكن رواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ، عن العَنْقَزى [١٤] ، عن أسباط بن نصر ، عن يحيى بن هانئ المرادى ، عن عمه أو عن أبيه ـ يشك أسباط ـ قال : قدم فروة بن مُسَيك على رسول الله ﷺ ، فذكره [١٥] .

طريق أخرى لهذا الحديث : قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب، حدثنى ابن لهيعة ، عن توبة بن نَمر [١٦] ، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال : كنا عند عبيدة[١٧]

---

(١) فى ت ، س ، أ : « من جملتهم » . (٢) فى أ : « ويشكروا له » .
(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس قال » . (٤) فى ت ، س : « أرجل » . (٥) فى أ : « ولد له عشرة » .
(٦) المسند (١ / ٣١٦) .
(٧) فى ت : « وإسناده » . (٨) زيادة من ت . (٩) زيادة من ت ، س ، أ .
(١٠) فى أ : « أم جبل » . (١١) زيادة من أ . (١٢) فى أ : « حسن » .
(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٥ / ١٧٨) وليس فى المطبوع من المسند .
(١٤) فى أ : « العبقرى » .
(١٥) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٣) .
(١٦) فى س ، أ : « نمير » . (١٧) فى أ : « عبدة » .

ابن عبد الرحمن بإفريقية فقال يومًا : ما أظن قوما بأرض إلا هم من أهلها . فقال على بن رباح : كلا ، قد حدثنى فلان أن فروة بن مُسَيك الغُطَيفى (١) قدم على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول (٢) الله ، إن سبأ قوم كان لهم عز فى الجاهلية ، وإنى أخشى أن يرتدّوا عن الإسلام ، أفأقاتلهم ؟ فقال: « ما أمرت فيهم بشىء بعد » . فأنزلت هذه الآية : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ ﴾ الآيات ، فقال له رجل : يا رسول الله ، ما سبأ ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذى قبله : أن رسول الله ﷺ سُئل عن سبأ: ما هو ؟ أبلد ، أم رجل ، أم امرأة ؟ قال : « بل رجل ، ولَد عَشَرَة فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة ، أما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير غير ما حلها . وأما الشام : فلخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة » .

فيه غرابة من حيث ذكر [نزول] (٣) الآية بالمدينة ، والسورة مكية كلها ، والله (٤) أعلم .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنى الحسن بن الحكم ، حدثنا أبو (٥) سَبْرَة النَّخَعِى ، عن فَرْوَة بن مُسَيْك الغُطَيْفى (٦) قال : قال رجل : يا رسول الله ، أخبرنى عن سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا : فكندة : والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ، وأنمار » . فقال رجل : ما أنمار؟ قال : « الذين منهم خثعم وبجيلة » .

ورواه الترمذى فى جامعه ، عن أبى كُرَيْب وعبد بن حميد قالا : حدثنا أبو أسامة ، فذكره أبسط من هذا ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (٧) .

وقال أبو عمر بن عبد البر : حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، حدثنا قاسم بن أصبغ ، حدثنا أحمد ابن زهير ، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطى ، حدثنا ابن كثير ـ هو عثمان بن كثير ـ عن الليث ابن سعد ، عن موسى بن على ، عن يزيد بن حصين ، عن تميم الدارى ؛ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ ، فذكر مثله ، فقوى هذا الحديث وحَسّن (٨) .

قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ فى العرب ، وكان يقال له : الرائش ؛ لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال : ريشا ورياشا . وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ فى زمانه (٩) المتقدم ، وقال فى ذلك شعرًا :

---

(١) فى أ: « القطيعى » . (٢) فى س ، أ : « يا نبى » (٣) زيادة من أ .
(٤) فى س : « فالله » . (٥) فى أ : « ابن » . (٦) فى أ : « القطيعى » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٢) .
(٨) القصد والأمم ص (٢٠) .
(٩) فى ت ، أ : « الزمان » .

سَيَمْلكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظيمًا نَبىٌّ لا يُرَخِّصُ فى الحَرَام
وَيَمْلك بَعْدَه منْهُم مُلُوك يدينون العبادَ بغَير ذام
ويَملك بَعدهم منا مُلُوك يَصير المُلك فينَا باقْتسَام
وَيَمْلك بَعْدَ قَحطَان نَبى تَقى خَبْتَة خير الأنام
وسُمىَ أحْمَدًا يَا لَيْتَ أنى أعَمرُ بَعْد مَبْعَثه بعَام
فأعضُده وأحبوه بنَصْرى بكُل مُدَجّج وبكُل رام
متى يَظْهَرْ فكُونُوا نَاصريه وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلغه سَلامى

ذكر ذلك الهمدانى فى كتاب « الإكليل » .

واختلفوا فى قحطان على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث(١) طرائق .

والثانى : أنه من سلالة عَابَر ، وهو هود ، عليه الصلاة والسلام ، واختلفوا فى كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا .

والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام ، واختلفوا فى كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضا . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النَّمرى ، رحمه اللّه ، فى كتابه [المسمى] (٢) : « الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة (٣) » .

ومعنى قوله عليه السلام : « كان رجلا من العرب » يعنى : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل، عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل ، عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم ، واللّه أعلم . وفى صحيح البخارى : أن رسول اللّه ﷺ مر بنفر من « أسلَمَ » ينتضلون ، فقال : « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا » (٤) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ فى البلاد ، حين بعث اللّه عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما (٥) قيل لهم : غَسَّان بماء نزلوا عليه قيلَ : باليمن . وقيل : إنه قريب من المُشَلَّل (٦) ، كما قال حسان بن ثابت :

إمَّا سَألت فَإنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ الأزدُ نسبَتُنا ، والماء غَسَّانُ (٧)

ومعنى قوله : « ولد له عشرة من العرب » أى : كان (٨) من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع

---

(١) فى أ : « ثلاثة » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى ت : « بالرواة » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٥٠٧) من حديث سلمة ، رضى الله عنه .
(٥) فى ت : « وإن » . (٦) فى ت : « المسلك » وفى أ : « المسكن » .
(٧) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .
(٨) فى ت : « كانوا » .

إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين فى مواضعه من (١) كتب النسب .

ومعنى قوله : « فتيامن منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة » أى : بعد ما أرسل اللّه عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها ، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدًا عظيما محكما حتى ارتفع الماء ، وحُكمَ على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذى تخترف (٢) فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطّاف ، لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شىء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شىء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية اللّه بهم ، ليوحدوه ويعبدوه ، كما قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ** ﴾ ، ثم فسرها بقوله : ﴿ **جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ** ﴾ أى : من ناحيتى الجبلين والبلدة بين (٣) ذلك ، ﴿ **كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** ﴾ أى : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

وقوله : ﴿ **فَأَعْرَضُوا** ﴾ أى : عن توحيد اللّه وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس ، كما قال هدهد سليمان : ﴿ **وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ** ﴾ [النمل : ٢٢ ـ ٢٤]

وقال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن مُنَبّه : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا .

وقال السُّدّى : أرسل اللّه إليهم اثنى عشر ألف نبى ، واللّه (٤) أعلم .

وقوله : ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ** ﴾ : قيل : المراد بالعرم المياه . وقيل : الوادى . وقيل : الجُرَذ . وقيل : الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته ، مثل : « مسجد الجامع » . و« سعيد كُرْز » حكى ذلك السهيلى (٥) .

وذكر غير واحد منهم ابن عباس ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، والضحاك ؛ أن اللّه ، عز وجل ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها : « الجُرَذ » نقبته ـ قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون فى كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير ، وولجت إلى السَّدّ فنقبته ، فانهار عليهم .

---

(١) فى ت : « فى » . (٢) فى ت : « يحترق » . (٣) فى أ : « من » .
(٤) فى ت ، س : « فالله » . (٥) الروض الأنف (١ / ١٥) .

وقال قتادة وغيره : الجُرَذ : هو الخَلْد ، نقبت أسافله حتى إذا ضَعف ووَهَى ، وجاءت أيام السيول ، صَدَمَ الماءُ البناءَ فسقط ، فانساب الماء فى أسفل [١] الوادى ، وخرّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التى فى الجبلين عن يمين وشمال ، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وعطاء الخُرَاسانى ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّى : وهو الأراك ، وأكلة البَرير .

﴿ وَأَثْلٍ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : هو الطَّرْفاء .

وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء . وقيل : هو السَّمُر . فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ : لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السِّدْر قال : ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ، فهذا الذى صار أمر تَيْنك [٢] الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسِّدْر ذى الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا [٣] وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ أى : عاقبناهم بكفرهم .

قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور .

وقال الحسن البصرى : صدق الله العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور .

وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملى ، حدثنا حجاج ابن محمد ، حدثنا أبو البيداء ، عن هشام بن صالح التغلبى [٤] ، عن ابن خيرة ـ وكان من أصحاب على ، رضى الله عنه ـ قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والتعسر فى اللذة . قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال [٥] إلا جاءه من يُنَغِّصه إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) ﴾ .

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة ، والعيش الهنى الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث

---

(١) فى ت : « أصل » . (٢) فى ت ، أ : « تلك » . (٣) فى ت : « بكفرهم » وهو خطأ .
(٤) فى ت : « وقال ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) فى ت : « حلالاً » .

إن مسافرهم لا يحتاج إلا حَمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، ويَقيل في قرية ويبيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، قال وهب بن منبه : هي قرى بصنعاء . وكذا قال أبو مالك .

وقال مجاهد : والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسُّدِّي ، وابن زيد وغيرهم [١] : يعني : قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : القرى التي باركنا فيها [٢] : بيت المقدس .

وقال العوفي ، عنه أيضا : هي قرى عربية بين المدينة والشام .

﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ أي : بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، يَقيلون في واحدة ، ويبيتون في أخرى؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، أي : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أي : الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ ،وقرأ آخرون: « بعد بين أسفارنا»،وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة ـ كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد ـ وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة ؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] . وقال في حق هؤلاء : ﴿وَظَلَمُوا [٣] أَنفُسَهُمْ ﴾ ، أي : بكفرهم ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي : جعلناهم حديثا للناس ، وسَمَرًا يتحدثون به من [٤] خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا ؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : « تفرقوا أيدي سبأ » « وأيادي سبأ » و « تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ [٥] » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، سمعت أبي يقول : سمعت [٦] عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ ، قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ [عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ] [٧] ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : وكانت فيهم

---

(١) في ت : « وخلق غيرهما » . (٢) في ت : « هي » . (٣) في ت ، س ، أ : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا » .
(٤) في ت : « في » . (٥) في ت : « ومدر »
(٦) في ت : « وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى عكرمة » . (٧) زيادة من ت ، س ، أ .

كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع ، فأخبروا الكهنة (١) بشيء من أخبار (٢) السماء ، فكان (٣) فيهم رجل كاهن شريف كثير المال ، وإنه خُبِّر أن زوال أمرهم قد دنا ، وأن العذاب قد أظلهم (٤) . فلم يدر كيف يصنع؛ لأنه كان له مال كثير من عقار ، فقال لرجل من بنيه ـ وهو أعزهم أخوالا ـ : إذا كان غدا وأمرتك بأمر فلا تفعل ، فإذا انتهرتك فانتهرني ، فإذا تناولتك فالطمني . فقال : يا أبت، لا تفعل ، إن هذا أمر عظيم ، وأمر شديد ، قال : يا بني ، قد حدث أمر لابد منه . فلم يزل به حتى وافاه على ذلك . فلما أصبحوا واجتمع الناس ، قال : يا بني ، افعل كذا وكذا . فأبى ، فانتهره أبوه، فأجابه ، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه ، فوثب على أبيه فلطمه ، فقال : ابني يلطمني؟ عَلَيّ بالشفرة . قالوا : وما تصنع بالشفرة ؟ قال : أذبحه . قالوا : تذبح ابنك . الطمه أو اصنع ما بدا لك. قال : فأبى ، قال : فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك ، فجاء أخواله فقالوا : خذ منا ما بدا لك . فأبى إلا أن يذبحه . قالوا : فلتموتن قبل أن تذبحه . قال : فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ولدي (٥) فيه ، اشتروا مني دوري ، اشتروا مني أرضي ، فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وعقاره ، فلما صار الثمن في يده وأحرزه ، قال : أي قوم، إن العذاب قد أظلكم ، وزوال أمركم قد دنا ، فمن أراد منكم دارا جديدا ، وجملا شديدا ، وسفرا بعيدا ، فليلحق بعمان . ومن أراد منكم الخَمْر والخَمير والعَصير ـ وكلمة ، قال (٦) إبراهيم : لم أحفظها ـ فليلحق (٧) ببصْرَى ، ومن أراد الراسخات في الوحل ، المطعمات في المحل ، المقيمات في الضحل ، فليلحق (٨) بيثرب ذات نخل . فأطاعه قومه (٩) ، فخرج أهل عمان إلى عمان . وخرجت غسان إلى بصرى . وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل . قال : فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح ، لا نبغي به بدلا . فأقاموا به ، فسموا لذلك خزاعة ، لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، وتوجه أهل عمان إلى عمان ، وتوجهت غسان إلى بصرى .

هذا أثر غريب عجيب ، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم(١٠) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن ، بسبب استشعاره بإرسال العَرِم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن ــ فيما حدثني أبو زيد الأنصاري ــ : أنه رأى جرذًا يَحفر (١١) في سد مأرب ، الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم . فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك ، فاعتزم على النُّقْلة عن اليمن فكاد (١٢) قومه ، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لَطَم وجهي فيها أصغر ولدي (١٣) . وعرض أمواله ، فقال

---

(١) في س : « فأخبروا به الكهنة » . (٢) في أ : « خبر » . (٣) في س : « وكان » .
(٤) في أ : « أضلهم » . (٥) في ت ، س : « ابني » . (٦) في ت : « قالها » .
(٧) في ت : « فيحق » . (٨) في ت : « فليحق » . (٩) في س : « قومنا » .
(١٠) في ت : « كهناتهم » . (١١) في س : « تحفر » .
(١٢) في ت ، س : « وكاد » . (١٣) في ت : « أولادي » .

أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غَضْبَةَ عمرو . فاشتروا منه أمواله ، وانتقل فى ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر . فباعوا أموالهم ، وخرجوا معه فساروا (١) حتى نزلوا بلاد « عك » مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك ، وكانت حربهم سجَالا . ففى ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى :

وَعَكّ بنُ عَدنَانَ الذينَ تَغَلّبُوا بَغَسَّانَ ، حتى طُرِّدُوا كُلّ مَطْرَد

وهذا البيت من (٢) قصيدة له .

قال : ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلاد ، فنزل آل جَفْنَة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مرًا . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمَان عُمان ، ثم أرسل الله على السد السيل فهدمَه ، وفى ذلك أنزل الله عز وجل هذه الآيات (٣) .

وقد ذكر السدى قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق ، إلا أنه قال : « فأمر ابن أخيه » ، مكان « ابنه » ، إلى قوله : « فباع ماله وارتحل بأهله ، فتفرقوا » . رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، أخبرنا [سلمة] (٤) ، عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو بن عامر ـ وهو عم القوم ـ كان كاهنًا ، فرأى فى كهانته أن قومه سيمَزّقون ويباعَدُ بين أسفارهم . فقال لهم : إنى قد علمت أنكم ستمزقون ، فمن كان منكم ذاهَمّ بعيد وجمل شديد ، ومَزَاد جَديد ـ فليلحق بكاس أو كرود . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا هَمّ مُدْن، وأمر دَعْن ، فليلحق بأرض شَنْ . فكانت عوف بن عمرو ، وهم الذين يقال لهم : بارق . ومن كان منكم يريد عيشا آنيا ، وحرما آمنا ، فليلحق بالأرزين . فكانت خزاعة . ومن كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل . فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيان من الأنصار . ومن كان منكم يريد خمرا وخَميرا ، وذهبا وحريرا ،وملكا وتأميرا ، فليلحق بكُوثى وبُصرى ، فكانت غسانَ بنو جَفنة (٥) ملوكُ الشام . ومن كان منهم بالعراق .

قال ابن إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفةُ امرأة عمرو ابن عامر ، وكانت كاهنة ، فرأت فى كهانتها ذلك ، فالله أعلم أىّ ذلك كان (٦) .

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن الشعبى : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعمان ، فمزقهم الله كل ممزق . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير .

ثم قال محمد بن إسحاق : حدثنى أبو عبيدة قال : قال الأعشى ـ أعشى بنى قيس بن ثعلبة ـ واسمه : ميمون بن قيس :

---

(١) فى ت : « فسار » .
(٢) فى ت ، س : « فى » .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .
(٤) زيادة من ت ، والطبرى .
(٥) فى ت : « بنو حنيفة » .
(٦) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٩) .

وَفِى ذَاكَ لِلمُؤتَسى [(١)] أسْوَةٌ ... ومَأربُ عَفّى عَلَيها العَرِمْ
رُخَام بَنَتْهُ لَهُمْ حِمْيرُ ... إذا جاءَ مَوَارُه لم يَرِمْ
فَأرْوَى الزُرُوعَ وأعنَابَها ... عَلَى سَعَة مَاؤهُمْ إذْ [(٢)] قُسِمْ
فَصَارُوا أيَادِى مَا يَقْدِرُو ... نَ مِنْه عَلَى شُرب طِفْل فُطِمِ [(٣)]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية ، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ـ لعبرةً وَدَلالةً لكل عبد صبار [(٤)] على المصائب ، شكور على النعم .

قال [(٥)] الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى ، قالا : أخبرنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن العَيْزَار بن حُرَيث عن عمر بن سعد ، عن أبيه ـ هو سعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « عجبت من قضاء الله للمؤمن ، إن أصابه خير حَمدَ رَبَّه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حَمِد ربه وصَبَر ، يؤجر المؤمن فى كل شىء ، حتى فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته» .

وقد رواه النسائى فى « اليوم والليلة » ، من حديث أبى إسحاق السَّبِيعى ، به [(٦)] ـ وهو حديث عزيز ـ من رواية عمر بن سعد ، عن أبيه . ولكن له شاهد فى الصحيحين من حديث أبى هريرة : «عجبًا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا [(٧)] ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» [(٨)] .

قال عبد : حدثنا يونس ، عن شيبان ، عن [(٩)] قتادة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال: كان مطرِّف يقول : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾ .

لما ذكر [الله] [(١٠)] تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى ، فقال : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ** ﴾ .

---

(١) فى ت : « وفى ذلك للمتوسى » . (٢) فى ت : « إذا » .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٤) .
(٤) فى ت : « صبار شكور على » . (٥) فى ت : « وروى » .
(٦) المسند (١ / ١٧٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠٦) .
(٧) فى ت ، س : « خيراً له » .
(٨) لم أجده من حديث أبى هريرة ، وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ، رضى الله عنه .
(٩) فى ت : « وعن » . (١٠) زيادة من ت .

قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢]، ثم قال [(١)] : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الحسن البصرى : لما أهبط اللّه آدم من الجنة ومعه حواء ، هبط [(٢)] إبليس فَرِحا بما أصاب منهما ، وقال : إذا أصبت من الأبوين ما أصبت ، فالذرية أضعف وأضعف . وكان ذلك ظنًا من إبليس ، فأنزل اللّه عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقال عند ذلك إبليس : « لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح ، أعِدُه [(٣)] وأُمَنِّيه وأخدعه » . فقال اللّه : «وعزتى لا أحجب عنه التوبة ما لم يُغَرغِر بالموت ، ولا يدعونى إلا أجبته ، ولا يسألنى إلا أعطيته ، ولا يستغفرنى إلا غفرت له » . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ : قال ابن عباس : أى من حجة .

وقال الحسن البصرى : واللّه ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أى : إنما سلطناه عليهم ليظهَر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيُحسِنَ عبادة ربه عز وجل فى الدنيا ، ممن هو منها فى شك .

وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى : ومع حفظه ضَلّ من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سَلِم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾ .

بَيَّن [(٤)] تعالى أنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الآلهة التى عبدت من دونه ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أى : لا يملكون شيئا استقلالا ولا على سبيل الشركة ، ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أى : وليس للّه من [(٥)] هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل

---

(١) فى ت ، س : « وقال » . (٢) فى أ : « أهبط » . (٣) فى ت ، س : « أغره » .
(٤) فى ت ، س ، أ : « يبين » . (٥) فى ت : « فى » .

الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه .

قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ ، من عون يعينه بشىء .

وقال (١) : ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أى : لعظمته [وجلاله] (٢) وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ [وَيَرْضَى] (٣) ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقال :﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

ولهذا ثبت فى الصحيحين (٤) ، من غير وجه عن رسول الله ﷺ ـ وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله ـ : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلّهم أن يأتى ربّهم لفصل القضاء ، قال : « فأسجد لله فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يُسمع (٥) ، وسل تُعطَه واشفع تشفع » الحديث بتمامه .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ . وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة . وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى ، سمع أهل السموات كلامه ، أرْعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ أى :زال الفزع عنها . قال ابن عباس ، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى ، وإبراهيم النَّخعىّ ، والضحاك والحسن ، وقتادة فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : جُلِّى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ـ وجاء مرفوعا ـ : « [حَتَّى] (٦) إذَا فرغ» بالغين (٧) المعجمة ، ويرجع إلى الأول .

فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ أى: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

وقال آخرون : بل معنى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا .

قال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة.

وقال الحسن : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : ما فيها من الشك والتكذيب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : ما فيها من الشك ،

---

(١) فى ت : « ثم قال » . (٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من ت ، أ .

(٤) تقدمت أحاديث الشفاعة عند تفسير الآية : ٧٩ من سورة الإسراء .

(٥) فى س ، أ : « تسمع » . (٦) زيادة من أ . (٧) فى ت : « بالعين » .

قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم ، ﴿ **قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾ قال : وهذا فى بنى آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار .

وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة [١] . هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار ، ولنذكر منها طرفا يدل على غيره :

قال البخارى عند تفسير هذه الآية الكريمة فى صحيحه : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، سمعت عكْرِمة ، سمعت أبا هُرَيرة [٢] يقول : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمرَ فى السماء ، ضربَت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوانَ ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير فيسمعها مُسْتَرق السمع ، ومسترق السمع ـ هكذا بعضه [٣] فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده ـ فَحَرَّفها وبَدّد [٤] بين أصابعه ـ فيَسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيَها على لسان الساحر[٥] أو الكاهن : فَربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذْبَة ، فيقال : أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا : كذا [٦] وكذا ؟ فيصدّق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء .

انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه . وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة ، به [٧] .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، أخبرنا الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ [جالسًا] [٨] فى نفر من أصحابه ــ قال عبد الرزاق : « من الأنصار » ــ فَرُمِىَ بنجم فاستنار ، [قال] [٩] : « ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا فى الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يُولَد عظيم ، أو يموت [١٠] عظيم ـ قلت للزهرى: أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غُلّظت حين بعث النبى ﷺ ـ قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ، تبارك وتعالى ، إذا قضى أمرا سبح حَمَلَةُ العرش [ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه [١١] الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يَلُونَ حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش] [١٢] : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ؛ حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون .

هكذا رواه الإمام أحمد [١٣] . وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، من حديث صالح بن كَيْسَان ،

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٤) .

(٢) فى ت : « قال البخارى عند تفسيره هذه الآية الكريمة فى صحيحه بإسناده عن أبى هريرة » .

(٣) فى أ : « بعضهم » .

(٤) فى أ : « وسدد » .

(٥) فى أ : « الآخر » .

(٦) فى أ : « وكذا ، يوم كذا » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٤) .

(٨ ، ٩) زيادة من ت ، س ، والمسند .

(١٠) فى ت ، س : « ويموت » .

(١١) فى ت ، س : « السماء » .

(١٢) زيادة من ت ، س ، والمسند .

(١٣) المسند (١ / ٢١٨) .

والأوزاعى ، ويونس ومَعْقِل بن عبيد الله [١] ، أربعتهم عن الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس عن رجل من الأنصار ، به [٢] . ورواه وقال يونس : عن رجال من الأنصار [٣] . وكذا رواه النسائى [٤] فى « التفسير » من حديث الزبيدى ، عن الزهرى ، به [٥] . ورواه الترمذى فيه عن الحُسَين بن حريث ؛ عن الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعى ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس ، عن رجل من الأنصار ، رضى الله عنه [٦] ، والله [٧] أعلم .

حديث آخر : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادى ـ والسياق لمحمد بن عوف ـ قالا : حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا الوليد ـ هو ابن مسلم ـ عن عبد الرحمن بن يزيد [٨] بن جابر ، عن عبد الله بن أبي زكرياء ، عن رجاء بن حيوة ، عن النواس بن سَمْعان [٩] قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فإذا تكلم أخذت السموات منه [١٠] رجفة ـ أو قال : رعدة ـ شديدة ؛ من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضى به جبريل على الملائكة ، كلما مرّ بسماء سماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول: قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله من السماء والأرض » .

وكذا رواه ابن جرير وابن خُزَيمة ، عن زكريا بن أبان المصرى ، عن نعيم بن حماد ، به [١١] .

قال ابن أبى حاتم : سمعت أبى يقول : ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم ، رحمه الله .

وقد روى ابن أبى حاتم من حديث العَوفى ، عن ابن عباس ــ وعن قتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل فى هذه الآية .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ

---

(١) فى س : « بن عبد الله » .
(٢ ، ٣) صحيح مسلم برقم (٢٢٢٩) .
(٤) فى ت : « وكذا رواه النسائى والترمذى » .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٤) .
(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٧٢) .
(٧) فى س : « فالله » . (٨) فى أ : « زيد » .
(٩) فى ت : « حديث آخر رواه ابن جرير بإسناده عن النواس بن سمعان » .
(١٠) فى أ : « منها » .
(١١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٣) والتوحيد لابن خزيمة ص (٩٥) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٥١٥) من طريق محمد بن عوف ، عن نعيم بن حماد ، به .

بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مقررًا تفردَه بالخلق والرزق [١] ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء [٢] والأرض ـ أى : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع ـ إلا اللّه ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره .

وقوله : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ : هذا من باب اللف والنشر ، أى : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك باللّه ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين : واللّه ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد .

وقال عِكْرِمة وزياد بن أبى مريم : معناه : إنا نحن لعلى هدى ، وإنكم لفى ضلال مبين .

وقوله : ﴿ **قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ : معناه : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى اللّه وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن بُرآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِن [٣] كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس : ٤١] ، وقال : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [سورة الكافرون] .

وقوله : ﴿ **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا** ﴾ أى : يوم القيامة ، يجمع [بين] [٤] الخلائق فى صعيد واحد ، ثم يفتح بيننا بالحق ، أى : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴾ [الروم : ١٤ ـ ١٦] ؛ ولهذا قال تعالى :﴿ **وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ** ﴾ أى : الحاكم [٥] العادل العالم بحقائق الأمور .

وقوله : ﴿ **قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ** ﴾ أى : أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها للّه أندادا وصيَّرتموها له عدْلا . ﴿ **كَلَّا** ﴾ أى : ليس له نظير ولا نَديد ، ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال : ﴿ **بَلْ هُوَ اللَّهُ** ﴾ : أى : الواحد الأحد الذى لا شريك له ﴿ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ أى : ذو العزة التى قد قهر

---

(١) فى ت : « بفرضه بالرزق والخلق » . (٢) فى ت ، أ : « السموات » .
(٣) فى هـ ، ت ، س ، أ : « فإن » والصواب ما أثبتناه . (٤) زيادة من ت . (٥) فى ت ، أ : « الحكام » .

بها كل شىء ، وغَلَبت كل شىء ، الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد،صلوات الله وسلامه عليه (١) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ(٢) ﴾ : أى : إلا إلى جميع الخلق من المكلفين ، كقوله (٣) تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١]. ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى تبشر (٤) من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، كقوله (٥) تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] .

قال محمد بن كعب فى قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ يعنى : إلى الناس عامة .

وقال قتادة فى هذه الآية : أرسل الله محمدا ﷺ إلى العرب والعجم ، فأكرمُهم على الله أطوعهم لله عز وجل .

وقال ابن أبى حاتم :حدثنا أبو عبد الله الظهرانى ،حدثنا حفص بن عمر العَدَنى ،حدثنا الحكم ـ يعنى : ابن أبان (٦) ـ عن عكْرِمة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن الله فضل محمدًا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس ، فيم فضله الله (٧) على الأنبياء ؟ قال : إن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ، وقال للنبى ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ ، فأرسله الله إلى الجن والإنس .

وهذا الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين رَفْعهُ عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة » (٨) .

وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر » (٩) . قال مجاهد : يعنى : الجن والإنس . وقال غيره : يعنى : العرب والعجم . والكل صحيح .

ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار فى استبعادهم قيام الساعة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

---

(١) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٢) فى ت : « للناس بشيراً » . (٣) فى ت ، س : « لقوله » . (٤) فى س : « يبشر » .
(٥) فى ت : « لقوله » . (٦) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٧) فى ت ، س : « فما فضله » .
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١) .
(٩) وهو قطعة من حديث جابر السابق عند مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) .

صادقين ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الآية [الشورى : ١٨] .

ثم قال : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أى : لكم ميعاد مؤجل معدود محرر ، لا يزداد ولا ينتقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ، وقال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٤ ، ١٠٥] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا ، ومخبرا عن مواقفهم الذليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجهم : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ منهم وهم الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم قادتهم وسادتهم : ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لولا أنتم تصدونا ، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به . فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ أى : نحن ما فعلنا بكم [(١)] أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير [(٢)] دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الأنبياء ، لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتَغُرّونا وتُمَنّونا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شىء ، فإذا جميع ذلك باطل وكَذِبٌ ومَيْن .

قال قتادة ، وابن زيد [(٣)] : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكرهم بالليل والنهار . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم : مكرهم بالليل والنهار .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أى نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شُبَهاً وأشياءَ من

(١) فى س ، أ : « بكم ذلك » . (٢) فى ت ، س ، أ : « بغير » . (٣) فى ت ، أ : « ابن زيد بن أسلم » .

المحال ، تضلونا بها ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى : الجميع من السادة والأتباع ، كلٌّ ندم على ما سَلَف منه .

﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم ، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١) ﴾ أى : إنما نجازيكم بأعمالكم (٢) ، كُلٌّ بحسبه ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء ، حدثنا محمد بن سليمان (٣) بن الأصبهانى ، عن أبى سنان ضرار بن صُرَد ، عن عبد الله بن أبى الهُذيل (٤) ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن جهنم لما سيق إليها أهلها تَلَقَّاهم لهبها ، ثم لَفَحَتْهُم لفحةً فلم يبق لحم (٥) إلا سقط على العرقوب » (٦) .

وحدثنا (٧) أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا الطيب أبو الحسن ، عن الحسن بن يحيى الخُشَنى قال : ما فى جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد ، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب . قال : فحدثتُه أبا سليمان ـ يعنى : الداراني ، رحمة الله عليه (٨) ـ فبكى ثم قال : ويحك . فكيف به لو جمع هذا كله عليه ، فجعل القيد فى رجليه ، والغُلّ فى يديه والسلسلة فى عنقه ، ثم أدخل الدار وأدخل المغار ؟ !

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾ .

يقول تعالى مسليا لنبيه ، وآمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه (٩) مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ، ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] ، وقال الكبراء من قوم صالح : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا

---

(١) فى ت ، س : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . (٢) فى أ : « نجازيهم بأعمالهم » . (٣) فى أ : « سليم » .
(٤) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) فى ت : « فلم يبق لهم لحم » .
(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٤٨) « مجمع البحرين » وأبو نعيم فى الحلية (٤ / ٣٦٣) من طرق عن محمد بن سليمان الأصبهانى ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٩) : « وفيه محمد بن سليمان الأصبهانى وهو ضعيف » .
(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى ت : « رحمه الله » . (٩) فى ت : « إلا كفر به » .

أُرسلَ به مؤْمنُونَ . قَالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بالَّذي آمَنتُم به كَافرُونَ ﴾ [الأعراف ٧٥ ، ٧٦] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم ببَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْننَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بالشَّاكرين ﴾ [الأنعام: ٥٣] ؟ وقال : ﴿ وَكَذَلكَ جَعَلْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابرَ مُجْرِميهَا ليَمْكُرُوا فيهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، وقال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفيهَا فَفَسَقُوا فيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ] [1] ﴾ [الإسراء : ١٦]. وقال هاهنا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا في قَرْيَةٍ مِّن نَّذيرٍ ﴾ أى : نبى أو رسول ﴿ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ ، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة .

قال قتادة : هم جَبَابرتهم وقادتهم ورؤوسهم فى الشر . ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُون ﴾ أى : لا نؤمن به ولا نتبعه .

قال [2] ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم ، عن أبى رَزِين قال : كان رجلان شريكان [3] خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر ، فلما بعث النبى ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله : ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنما [4] اتبعه أراذل [5] الناس ومساكينهم . قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلنى عليه ـ قال : وكان يقرأ الكتب ، أو بعض الكتب ـ قال : فأتى النبى ص فقال : إلام تدعو ؟ قال: « إلى كذا وكذا » . قال : أشهد أنك رسول اللّه . قال : « وما علمك بذلك ؟ » قال : إنه لم يبعث نبى إلا اتبعه رُذَالة الناس ومساكينهم . قال : فنزلت هذه الآية [6] : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُون ﴾[الآيات] [7] ، قال : فأرسل إليه النبى ﷺ « إن اللّه قد أنزل تصديق ما قلت » [8] .

وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل .

وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أى: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة اللّه لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال اللّه : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم به من مَّالٍ وَبَنينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَات بَل لا يَشْعُرُونَ ﴾[المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وقال : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم [9] بهَا في الْحَيَاة الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا . وَبَنينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتنَا عَنيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٧].

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت : « روى » . (٣) فى ت ، س : « شريكين » .
(٤) فى س : « إلا » . (٥) فى ت ، س : « رذالة » .
(٦) فى ت ، س : « الآيات » . (٧) زيادة من ت ، س .
(٨) ورواه ابن أبي شيبة وابن المنذر كما فى الدر المنثور (٦ / ٧٠٤) ووقع فى الدر : « ابن زيد » بدل : « أبو رزين » .
(٩) فى ت ، س : « أن يعذبهم » .

وقد أخبر اللّه عن صاحب تينك الجنتين : أنه كان ذا مال وولد وثمر ، ثم لم تُغنِ عنه شيئا ، بل سُلب ذلك كله فى الدنيا قبل الآخرة ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ أى : يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة الدامغة القاطعة ﴿ **وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ** ﴾ أى : ليست هذه دليلا على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم .

قال (١) الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا كَثير ، حدثنا جعفر ، حدثنا يزيد بن الأصم، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال سول اللّه ﷺ (٢) : « إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . [و] (٣) رواه مسلم وابن ماجة ، من حديث كثير بن هشام، عن جعفر ابن بُرْقَان ، به (٤) .

ولهذا قال : ﴿ **إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ أى : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ **فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا** ﴾ أى : تضاعف (٥) لهم الحسنة بعشرة (٦) أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ﴿ **وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** ﴾ أى : فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يُحذر منه .

قال (٧) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء الكندى ، حدثنا القاسم وعلى بن مُسْهِر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن على ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن فى الجنة لَغرفا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها » . فقال أعرابى : لمن هى ؟ قال : « لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، [وصلى بالليل والناس نيام] (٨) » (٩) .

﴿ **وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** ﴾ أى : يسعون فى الصد عن سبيل اللّه ، واتباع الرسل والتصديق بآياته ، ﴿ **أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴾ أى : جميعهم مَجْزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ** ﴾ أى : بحسب مَا لَه فى ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جدًا ، وله فى ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ **انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا** ﴾ [الإسراء : ٢١] أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى

(١) فى ت : « كما روى » . (٢) فى ت ، س : « أن رسول الله ﷺ قال » . (٣) زيادة من س .
(٤) المسند (٢ / ٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٤٣) .
(٥) فى س : « يضاعف » . (٦) فى ت ، س ، أ : « بعشر » .
(٧) فى ت : « وروى » . (٨) زيادة من ت ، أ .
(٩) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٨٤) من طريق على بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق بأطول منه ، وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، وقد تكلم أهل الحديث فى عبد الرحمن بن إسحاق هذا من قبل حفظه وهو كوفى » . قلت : وله شواهد من حديث عبد الله بن عمرو وأبى مالك الأشعرى وأبى معانق الأشعرى ، رضى الله عنهم .

مُوَسَّع عليه ، فكذلك هم فى الآخرة : هذا فى الغُرفات فى أعلى الدرجات ، وهذا فى الغَمرَات فى أسفل الدركات . وأطيب الناس فى الدنيا كما قال رسول اللّه ﷺ : « قد أفلح من أسلم ورُزق كَفَافا، وقَنَّعه اللّه بما آتاه » . رواه مسلم من حديث ابن عَمْرو [١] .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى : مهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت فى الحديث [٢] : « يقول الله تعالى : أنْفق [٣] أنْفق عليك » [٤] . وفى الحديث : أن ملكين يَصيحان كل يوم ، يقول أحدهما : « اللهم أعط مُمْسكا تَلَفًا»، ويقول الآخر : « اللهم أعط منفقا خَلَفًا » [٥] وقال رسول اللّه ﷺ « أنفق بلالا ، ولا تخشَ من ذى العرش إقلالا » [٦] .

وقال [٧] ابن أبى حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس ، حدثنا هُشَيْم عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغنى عن حذيفة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ألا إن بعدكم [٨] زمان عضوض ، يعض الموسر على ما فى يده [٩] حذار الإنفاق » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [١٠] .

وقال [١١] الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا روح بن حاتم ، حدثنا هُشَيم ، عن الكوثر بن حكيم، عن مكحول قال : بلغنى عن حذيفة أنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض ، يعض الموسر على ما فى يديه حذار الإنفاق » ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ، وَيَنْهَل شرار الخلق يبايعون كل مضطر ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، [ألا أن بيع المضطرين حرام] [١٢] المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، إن كان عندك معروف ، فَعُد به على أخيك ، وإلا فلا تَزده هلاكا إلى هلاكه » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده ضعف [١٣] .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى يونس الحسن بن يزيد قال : قال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٠٥٤) .

(٢) فى ت : « فى الصحيح » . (٣) فى أ : « ابن آدم أنفق » .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٦٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٩٩٣) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٤٤٢) ومسلم فى صحيحه برقم (١٠١٠) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٦) جاء عن جماعة من الصحابة ، فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٤٠) من طريق قيس بن الربيع عن أبى حصين ، عن يحيى ابن وثاب ، عن مسروق عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، وقيس بن الربيع ضعفوه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٤٢)، وأبو يعلى فى مسنده (١٠ / ٤٢٩) وأبو نعيم فى الحلية (٢ / ٢٨٠) عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة ، رضى الله عنه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٥٩) من طريق أبى إسحاق عن مسروق عن بلال ، رضى الله عنه ، وفيه ابن زبالة وهو ضعيف .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى س : « بعدكم هذا زمان » . (٩) فى ت ، س : « يديه » .

(١٠) ذكره السيوطى فى الدر (٦ / ٧٠٧) وقال : « أخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه بسند ضعيف فذكره » .

(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) زيادة من ت ، س .

(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية (١ / ٢٦١) وعزاه لأبى يعلى فى مسنده .

الآية : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ : إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التى هى على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ؟ أى : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ كما قال فى سورة الفرقان: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان : ١٧] ،وكما يقول لعيسى : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] . وهكذا تقول الملائكة : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى : تعاليتَ وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أى : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ، ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعنون: الشياطين ؛ لأنهم هم الذين [(١)] يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم [(٢)] ، ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ [(٣)] مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ [(٤)] إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧] . قال الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا ﴾ أى : لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التى ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُربكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا ، ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ـ وهم المشركون ـ ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ، تقريعا وتوبيخا .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا تتلى

---

(١) فى هـ : « الشياطين ثم الذين » والمثبت من ت ، س .

(٢) فى س : « ويضلوهم » .

(٣ ، ٤) فى س : « تدعون » .

عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّةً طرية من لسان رسوله [١] ﷺ ، ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ ، يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ـ عليهم وعلى آبائهم لعائن اللّه ـ ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يعنون : القرآن ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أى : ما أنزل اللّه على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبيًا قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب ، لكنا أهدى من غيرنا ، فلما مَنَّ اللّه عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه . ثم قال : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: من الأمم ، ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى من القوة في الدنيا . وكذلك [٢] قال قتادة ، والسدّى ، وابن زيد . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ [غافر : ٨٢] ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب اللّه ولا رده ، بل دمر اللّه عليهم لما كذبوا رسله ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : كيف كان نكالى وعقابى وانتصارى لرسلى [٣] ؟

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى : إنما آمركم بواحدة ، وهى : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أى : تقوموا قياما خالصًا للّه ، من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضا ، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أى : ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ .

هذا معنى ما ذكره مجاهد ، ومحمد بن كعب ، والسُّدِّىّ ، وقتادة ، وغيرهم ، وهذا هو المراد من الآية .

فأما الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن خالد ، حدثنا عثمان بن أبى العاتكة ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ؛ أن رسول اللّه ﷺ كان يقول : « أعطيت ثلاثا لم يعطهن مَن قبلى ولا فخر : أحلت لى الغنائم ، ولم تحل لمن قبلى ، كانوا قبلى يجمعون غنائمهم فيحرقونها . وبُعثت إلى كل أحمر وأسود ، وكان كل نبى يبعث

---

(١) فى ت : « رسول الله » . (٢) فى ت ، س : « وكذا » .
(٣) فى ت : « أى فكيف كان عقابى وانتصارى لرسلى » .

إلى قومه ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ، أتيمم بالصعيد ، وأصلي حيث أدركتني الصلاة ، قال الله : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ ، وأعنت بالرعب مسيرة شهر بين يدى » ـ فهو حديث ضعيف الإسناد ، وتفسير الآية بالقيام فى الصلاة فى جماعة وفرادى بعيد ، ولعله مقحم فى الحديث من بعض الرواة ، فإن أصله ثابت فى الصحاح وغيرها (١) ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ : قال (٢) البخارى عندها :

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا محمد بن خَازم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرَّة ، عن سعيد بن جُبَيْر (٣) ، عن ابن عباس قال : صَعَدَ النبى ﷺ الصفا ذات يوم ، فقال : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبِّحكم أو يُمَسِّيكم، أما كنتم تصدقونى ؟ » قالوا : بلى . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب: تبا لك ! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد] (٤) .

وقد تقدم عند قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنى عبد الله بن بريدة (٥) ، عن أبيه قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال : « أيها الناس ، تدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « إنما مثلى ومثلكم مثلُ قوم خافوا عدوا يأتيهم، فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس ، أوتيتم . أيها الناس ، أوتيتم ـ ثلاث مرات » .

وبهذا الإسناد (٦) قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة جميعًا ، إن كادت لتسبقنى » .

تفرد به الإمام أحمد فى مسنده (٧) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله أن يقول للمشركين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى : لا أريد منكم جُعلا ولا عَطاء على أداء رسالة الله إليكم ، ونصحى إياكم ، وأمركم بعبادة الله ، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخبارى عنه بإرساله إياى إليكم ، وما أنتم عليه .

---

(١) سبق تخريج حديث جابر ، رضى الله عنه ، فى الصحيحين عند تفسير الآية : ٢٨ من هذه السورة .
(٢) فى ت : « روى » . (٣) فى ت : « بإسناده » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٠١) .
(٥) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن زيد » . (٦) فى ت « وبإسناده » .
(٧) المسند (٥ / ٣٤٨) .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : ١٥] . أى : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض .

وقوله : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أى : جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل ، كقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ [فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ] (١) ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يَطعُن الصنم (٢) بسِيَة قَوْسه ، ويقرأ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وحده عند هذه الآية ، كلهم من حديث الثورى ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد ، عن أبى مَعْمَر عبد الله بن سَخبَرَة ، عن ابن مسعود ، به (٣) .

أى : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وزعم قتادة والسدى : أن المراد بالباطل هاهنا إبليس ، أى : إنه لا يخلق أحدا ولا يعيده ، ولا يقدر على ذلك . وهذا وإن كان حقًا ولكن ليس هو المراد هاهنا (٤) ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ أى : الخير كله من عند الله ، وفيما أنزله عز وجل من الوحى والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ، كما قال عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، لما سئل عن تلك المسألة فى المفوَضة : أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه (٥) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى هاهنا حديث أبي موسى الذى فى الصحيحين [أن رسول الله ﷺ قال] (٦) : «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا (٧) قريبا مجيبا » (٨) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣)

---

(١) زيادة من ت .
(٢) فى ت ، س ، أ : « الصنم منها » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٤٧٨ ، ٤٢٨٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٨١) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٨) .
(٤) فى ت : « الآية » .
(٥) انظر الأثر فى المسند (١ / ٤٧٧) .
(٦) زيادة من ت ، أ .
(٧) فى أ : « سميعا بصيرا » .
(٨) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٧) وصحيح البخارى برقم (٤٢٠٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤) .

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى : ولو ترى ـ يا محمد ـ إذا فَزَع هؤلاء المكذبون [١] يوم القيامة ، ﴿ فَلا فَوْتَ ﴾ أى: فلا مفر لهم ، ولا وزر ولا ملجأ ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى : لم يكونوا يُمنعون فى الهرب[٢] ، بل أخذوا من أول وهلة .

قال الحسن البصرى : حين خرجوا من قبورهم .

وقال مجاهد ، وعطية العوفى ، وقتادة : من تحت أقدامهم .

وعن ابن عباس والضحاك : يعنى : عذابهم فى الدنيا .

وقال عبد الرحمن بن زيد : يعنى : قتلهم يوم بدر .

والصحيح : أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك .

وحكى ابن جرير عن بعضهم قال : إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة فى أيام بنى العباس ، ثم أورد فى ذلك حديثا موضوعا بالكلية . ثم لم ينبه على ذلك ، وهذا أمر عجيب غريب منه .

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أى : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وبكتبه ورسله [٣] ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى : وكيف لهم تعاطى[٤] الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشىء لمن يتناوله من بعيد .

قال مجاهد : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ قال : التناول لذلك .

وقال الزهرى : التناوش : تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة ، وقد انقطعت عنهم الدنيا .

وقال الحسن البصرى : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد .

وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه ، وليس بحين [٥] رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ أى : كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة ، وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا بالرسل ؟

﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ : قال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ قال: بالظن .

---

(١) فى ت : « المكذبين » . (٢) فى ت : « لم يمكنوا أى يمنعوا عن الهرب » ، وفى س ، أ : « لم يمكنوا أن يمنعوا فى الهرب » .
(٣) فى ت ، أ : « وبرسله » . (٤) فى ت ، س ، أ : « تعاطى عن » . (٥) فى ت ، أ : « وليس هو حين » .

قلت : كما قال تعالى : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ [الكهف : ٢٢] ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب [١] والنشور والمعاد ، ويقولون : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢] .

قال قتادة : يرجمون بالظن ، لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ : قال الحسن البصرى ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى: الإيمان .

وقال السُّدِّى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ وهى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقال مجاهد : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من هذه الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى [ذلك] [٢] عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخارى وجماعة . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين ؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة ، فمنعوا منه .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا أثرًا غريبا [عجيباً] [٣]جدًا ، فلنذكره بطوله فإنه قال : حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا بشر بن حجر السامى [٤] ، حدثنا على بن منصور الأنبارى ، عن الشَرَقِىّ بن قُطَامى ، عن سعد بن طريف ، عن عكْرِمة ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ إلى آخر الآية ، قال : كان رجل من بنى إسرائيل فاتحًا ـ أى : فتح الله له مالا ـ فمات فورثه ابن له تافه ـ أى : فاسد ـ فكان يعمل فى مال الله بمعاصى الله . فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه ، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت ، ثم رحل فأتى عينا ثجاجَة فسرَح فيها ماله، وابتنى قصرًا . فبينما هو ذات يوم جالس إذ شمَلَت عليه [ريح] [٥] بامرأة من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجا ـ أى : ريحًا ـ فقالت : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا امرؤ من بنى إسرائيل. قالت : فلك هذا القصر ، وهذا المال ؟ قال : نعم . قالت : فهل لك من زوجة ؟ قال : لا . قالت: فكيف يَهْنيك العيش ولا زوجة لك ؟ قال : قد كان ذلك . فهل لك من بَعل ؟ قالت : لا . قال : فهل لك إلى أن أتزوجك ؟ قالت : إنى امرأة منك على مسيرة ميل ، فإذا كان غد فتزوّد زاد يوم وائتنى ، وإن رأيت فى طريقك هولا فلا يَهُولَنَّكَ . فلما كان من الغد تزود زاد يوم ، وانطلق فانتهى إلى قصر ، فقرع رتاجه ، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجًا ـ أى: ريحًا ـ فقال : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا الإسرائيلى . قال : فما حاجتك ؟ قال : دعتنى صاحبة هذا القصر إلى نفسها . قال : صدقت ، فهل رأيت فى طريقك [هولا ؟] [٦] قال : نعم ، ولولا أنها أخبرتنى أن لا بأس علىّ ، لهالنى الذى رأيت ؛ أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بكلبة فاتحة

---

(١) فى ت ، س ، أ : « بالبعث » . (٢) زيادة من ت . (٣) زيادة من س ، أ .
(٤) فى ت : « الشامى » . (٥ ، ٦) زيادة من ت ، س ، والدر المنثور .

فاها ، ففزعت ، فَوَثَبت فإذا أنا من ورائها ، وإذا جراؤها ينبحن فى بطنها . فقال له الشاب : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، يقاعد الغلام المشيخة فى مجلسهم ويَبُزّهم حديثهم .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بمائة عنز حُفَّل ، وإذا فيها جَدْى يمصّها ، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئًا ، فتح فاه يلتمس الزيادة . فقال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، ملك يجمع صامت الناس كلّهم ، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئًا فتح فاه يلتمس الزيادة.

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بشجر ، فأعجبنى غصن من شجرة منها ناضر ، فأردت قطعه ، فنادتنى شجرة أخرى : « يا عبد اللّه ، منى فخذ » . حتى نادانى الشجر أجمع : « يا عبد اللّه ، منا فخذ » . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، يقل الرجال ويكثر (١) النساء ، حتى إن الرجل ليخطب امرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا برجل قائم على عين ، يغرف لكل إنسان من الماء ، فإذا تَصَدعوا عنه صَبّ فى جَرّته فلم تَعلَق جَرته من الماء بشىء . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصى اللّه .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بعنز ، وإذا بقوم قد أخذوا بقوائمها ، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها ، وإذا رجل قد أخذ بذَنَبها ، وإذا رجل (٢) قد ركبها ، وإذا رجل يحلبها . فقال: أما العنز فهى الدنيا ، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذى قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقًا ، وأما الذى أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه ، وأما الذى ركبها (٣) فقد تركها. وأما الذى يحلبها فبَخٍ [بخ] (٤) ، ذهب ذلك (٥) بها .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، وإذا أنا برجل يمْتح على قَليب ، كلما أخرج (٦) دلوه صبّه فى الحوض ، فانساب الماء راجعًا إلى القليب . قال : هذا رجل ردّ اللّه [عليه] (٧) صالح عمله، فلم يقبله .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أن برجل يبذُر بذرًا فيستحصد ، فإذا حنطة طيبة. قال : هذا رجل قبل اللّه صالح عمله ، وأزكاه (٨) له .

قال : ثم أقبلت حتى [إذا] (٩) انفرج بى السبيل ، إذا أنا برجل مستلق على قفاه ، قال : يا عبد اللّه ، ادن منى فخذ بيدى وأقعدنى ، فواللّه ما قعدت منذ خلقنى اللّه فأخذت بيده ، فقام يسعى حتى ما أراه . فقال له الفتى : هذا عمْر الأبعد نَفَد ، أنا ملك الموت وأنا المرأة التى أتتك (١٠) . . . أمرنى اللّه بقبض روح الأبعد فى هذا المكان ، ثم أصيره إلى نار جهنم قال : ففيه نزلت هذه : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ الآية .

---

(١) فى ت : « وتكثر » . (٢) فى ت ، س ، أ : « راكب » . (٣) فى ت ، س ، أ : « الذى قد ركبها » .
(٤) زيادة من ت ، س ، أ ، والدر المنثور . (٥) فى ت ، س ، أ : « ذاك » . (٦) فى أ : « فلما أن خرج » .
(٧) زيادة من ت ، س ، أ . (٨) فى أ : « وزكاه » .
(٩) زيادة من ت ، س . (١٠) فى أ : « أتيتك » .

هذا أثر غريب [١] ، وفى صحته نظر ، وتنزيل [هذه] [٢] الآية عليه وفى حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا ، كما جرى لهذا المغرور المفتون ، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بغتة ، وحيل بينه وبين ما يشتهى .

وقوله : ﴿ **كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ** ﴾ أى : كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل ، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ، ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

وقوله : ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ** ﴾ أى : كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب .

قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

آخر تفسير سورة « سبأ » ، ولله الحمد والمنة

(١) الأثر ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦ / ٧١٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) زيادة من ت .

[٣٥٨ظ]

/ سورة سبأ[1]

مكّيّة، وقيل: إلّا قوله تعالى:
﴿وقال ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ الآيَةَ [سبأ، ٦/٣٤]،[2] وهي أربع وخمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١﴾

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: له تعالى خلقًا ومُلكًا وتصرّفًا، بالإيجاد والإعدام، والإحياءِ والإماتة؛ جميعُ ما وُجد فيهما داخلًا في حقيقتهما، أو خارجًا عنهما متمكّنًا فيهما، فكأنّه قيل: له جميع المخلوقات، كما مرّ في آية الكرسي.[3] ووصفُه تعالى بذلك لتقرير ما أفاده تعليقُ "الحمد" المعرَّف بـ"لام" الحقيقة بالاسم الجليل مِن اختصاص جميع أفراده به تعالى على ما بُيِّن في فاتحة الفاتحة ببيان تفرّدِه تعالى واستقلالِه بما يوجب ذلك، وكونِ كلِّ ما سواه مِن الموجودات التي مِن جملتها الإنسان تحت ملكوته تعالى ليس لها في حدّ ذاتها استحقاق الوجود فضلًا عمّا عداه مِن صفاتها؛ بل كلّ ذلك نِعم فائضة عليها مِن جهته عزّ وجلّ،[4] فما هذا شأنه فهو بمَعزِل مِن استحقاق الحمد الذي مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار، فظهر اختصاص جميع أفراده به تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بيان لاختصاص الحمد الأخروي به تعالى إثرَ بيان اختصاص الدنيوي به، على أنّ الجارّ متعلِّق إمّا بنفس الحمد،

---

[1] س: السبأ.

[2] ط س – وقيل: إلّا قوله تعالى: ﴿وقال ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ الآيَةَ [سبأ، ٦/٣٤].

[3] البقرة، ٢٥٥/٢.

[4] س: تعالى.

أو بما تعلّق به الخبر مِن الاستقرار. وإطلاقُه عن ذِكر ما يُشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذِكر كونه في الآخرة عن التعيين كما اكتفي فيما سبق بذِكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذِكر كون الحمد أيضًا فيها؛ بل ليعمّ النعم الأخرويّة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ[1] ٱلْجَنَّةِ﴾ [الزمر، ٧٤/٣٩]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآيةَ [فاطر، ٣٥/٣٥]، وما يكون ذريعةً إلى نَيلها مِن النعم الدنيويّة كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف، ٤٣/٧]، أي: لِما جزاؤه هذا مِن الإيمان والعمل الصالح. والفرق بين الحمدَين مع كون نعمتَي الدنيا والآخرة بطريق التفضّل أنّ الأوّل على نهج العبادة، والثاني على وجه التلذّذ والاغتباط. وقد ورد في الخبر: «أنّهم يُلهمون التسبيح كما يُلهمون النفَس».[2]

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكَم أمور الدين والدنيا ودبّرها حسبما يقتضيه الحكمة، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء / ومكنوناتها. [٣٥٩و]

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ تفصيل لبعض ما يُحيط به علمه مِن الأمور التي نِيطت بها[3] مصالحهم الدنيويّة والدينيّة، أي: يعلم ما يدخل فيها مِن الغَيث والكنوز والدفائن والأموات ونحوها، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها. وقُرئ: "وَمَا نُنَزِّلُ"[4] بالتشديد و"نون" العظَمة.[5] ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة وأعمال العباد والأبخِرة والأدخِنة. ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ للحامدين على ما ذُكر مِن نِعمه، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرّطين في ذلك بلطفه وكرمه.

---

١ م ط س - ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧١/١. وهو في صحيح مسلم، ٢١٨٠/٤ (٢٧٣٥)، بلفظ: "كما تُلهمون".

٣ س: به.

٤ ط: وما يُنزّل؛ س: وما تُنزّل.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلّم جنسَ البشر قاطبةً، لا أنفسَهم أو معاصريهم فقط، كما أرادوا بنفي إتيانها نفيَ وجودِها بالكلّيّة، لا عدمَ حضورها مع تحقّقها في نفس الأمر. وإنّما عبّروا عنه بذلك لأنّهم كانوا يوعَدُون بإتيانها، ولأنّ وجود الأمور الزمانيّة المستقبَلة -لا سيّما أجزاء الزمان- لا يكون إلّا بالإتيان والحضور.

وقيل: هو استبطاء لإتيانها الموعود بطريق الهُزء والسخريّة كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس، ٤٨/١٠].

﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم وإثباتٌ لِما نفَوه، على معنى: ليس الأمر إلّا إتيانَها. وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تأكيد له على أتمّ الوجوه وأكملِها. وقُرِئ: "لَيَأْتِيَنَّكُمْ"،[١] على تأويل ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ باليوم أو الوقت.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾... إلخ إمداد للتأكيد، وتسديدٌ له إثرَ تسديد، وكسرٌ لسَورة نكيرهم واستبعادِهم، فإنّ تعقيب القسَم بجلائل نعوت المُقسَم به على الإطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسَم عليه، وقوّةِ ثباته، وصحّته لِما أنّ ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر. ولا ريبَ في أنّ المستشهَد به كلّما كان أجلَّ وأعلى كانت الشهادة آكدَ وأقوى، والمستشهَدُ عليه أحقَّ بالثبوت وأولى، لا سيّما إذا خُصّ بالذِّكر مِن النُّعوت / ما له تعلّق خاصّ بالمقسَم عليه كما نحن [٣٥٩ظ]
فيه، فإنّ وصفه بـ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ الذي أشهر أفراده وأدخلُها في الخفاء هو المقسَم عليه تنبيهٌ لهم على علّة الحكم، وكونِه ممّا لا يحوم حوله شائبة ريبٍ ما.

وفائدة الأمر بهذه المرتبة مِن اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذر ما أصلًا، فإنّهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وَصمة الكذب فضلًا عن اليمين الفاجرة، وإنّما لم يصدّقوه مكابرةً.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

وقُرِئ: "عَلَّامِ الْغَيبِ"،[١] و"عَالِمُ الْغَيبِ"،[٢] و"عَالِمِ الْغُيُوبِ" بالرفع[٣] على المدح.

﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ﴾ أي: لا يبعُد. وقُرِئ بكسر "الزاء".[٤] ﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ مِقدارُ أصغر نملة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: كائنةٌ فيهما، ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن مِثقال ذرّة ﴿وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ أي: منه، ورفعُهما على الابتداء، والخبر قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ هو اللوح المحفوظ. والجملة مؤكِّدة لنفي العُزُوب.

وقُرِئ: "وَلَا أَصْغَرَ" "وَلَا أَكْبَرَ" بفتح "الراء"[٥] على نفي الجنس. ولا يجوز أن يعطف المرفوع على ﴿مِثۡقَالُ﴾، ولا المفتوحُ على ﴿ذَرَّةٖ﴾ بأنّه فتحٌ في حيّز الجرّ لامتناع الصرف، لِما أنّ الاستثناء يمنعه، إلّا أن يُجعل الضمير في ﴿عَنۡهُ﴾ للغيب، ويُجعل المثبَت في اللوح خارجًا عنه لبروزه للمطالعين له، فيكون المعنى: لا ينفصل عن الغيب شيء إلّا مسطورًا في اللوح.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ علّة لقوله تعالى: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾،[٦] وبيان لِما يقتضي إتيانها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول مِن حيث اتّصافُه بما في حيّز الصِّلة، وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل والشرف، أي: أولئك الموصوفون بالصفات الجليلة ﴿لَهُم﴾ بسبب ذلك ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ لِما فرَط منهم مِن بعض فرَطات / قلّما يخلو عنها البشر، ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لا تعبَ فيه ولا مَنَّ عليه. [٣٦٠و]

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ۝٥﴾

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالقَدْح فيها وصدِّ الناس عن التصديق بها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مسابقين كي يفوتونا. وقُرِئ: "مُعَجِّزِينَ"،[٧] أي: مثبِّطين عن الإيمان مَن أرادَه.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٨/٣.

٤ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٨٥/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وقتادة والحسين عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

٦ في الآية السابقة.

٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ آنفًا. و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن رِّجۡزٍ﴾ للبيان. قال قتادة رضي الله عنه: «"الرِّجز" سوء العذاب».[1]

وقوله تعالى: ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة ﴿عَذَابٌ﴾، أي: أولئك الساعون لهم عذابٌ مِن جِنس سوء العذابِ شديدُ الإيلام. وقُرئ: "أَلِيمٍ" بالجرّ[2] صفةً لـ﴿رِجۡزٍ﴾.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي: يعلم أولو[3] العلم مِن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومَن شايعهم مِن علماء الأمّة، أو مَن آمَن مِن علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابِهما رضي الله تعالى[4] عنهم ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآنَ ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ بالنصب على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿يَرَى﴾، والمفعول الأوّل هو الموصول الثاني، وهو ضمير الفصل. وقُرئ بالرفع[5] على الابتداء والخبر، والجملة هو المفعول الثاني لـ﴿يَرَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى﴾... إلخ مستأنَف مَسوق للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات. وقيل: منصوب عطفًا على ﴿يَجۡزِيَ﴾،[6] أي: ولِيعلمَ أولو[7] العلم عند مجيء الساعة معاينةً أنّه الحقّ حسبما علموه الآن برهانًا، ويحتجّوا به على المكذّبين. وقد جُوّز أن يراد بـ"أولي العلم" مَن لم يؤمن مِن الأحبار، أي: ليعلموا يومئذ / أنّه هو الحقّ، فيزدادوا حسرةً وغمًّا. [٣٦٠ظ]

﴿وَيَهۡدِيٓ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ عطفَ الفعل على الاسم؛ لأنّه في تأويله، كما في قوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَ﴾ [الملك، ١٩/٦٧]، أي: وقابضاتٍ، كأنّه قيل:

---

١ جامع البيان للطبري، ٢١٣/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٨/٣.
٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.
٣ م: أولوا.
٤ س – تعالى.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.
٦ سبأ، ٤/٣٤.
٧ م: أولوا.

ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك الحقَّ وهاديًا ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الذي هو التوحيد والتدرُّع بلباس التقوى.

وقيل: مستأنَف.[1] وقيل: حال مِن ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ﴾ على إضمار مبتدأ، أي: وهو يهدي، كما في قول مَن قال:

نجوتُ وَأَرْهَنُهم[2] مالِكًا[3]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم كفّار قريش، قالوا مخاطِبًا بعضُهم لبعضٍ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما قصدوا بالتنكير الطَّنْزَ[4] والسخرية، قاتلَهم الله تعالى.

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: يحدّثكم بعَجَبٍ عُجابٍ. وقُرئ: "يُنْبِئُكُم"[5] مِن "الإنباء". ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: إذا مُتُّم ومُزِّقَت أجسادكم كلَّ تمزيق، وفُرِّقَت كلَّ تفريق بحيث صِرتم ترابًا ورُفاتًا؛ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: مستقرّون فيه. عُدِل إليه عن الجملة الفعليّة الدالّة على الحدوث -مثل: تُبعَثون، أو تُخلقون خلقًا جديدًا- للإشباع في الاستبعاد والتعجيب، وكذلك تقديم الظرف، والعاملُ فيه ما دلَّ عليه المذكور لا نفسُه، لِما أنّ ما بعد "إنَّ" لا يعمل فيما قبلها. و﴿جَدِيدٍ﴾ "فَعيل" بمعنى "فاعل"، مِن "جَدَّ" فهو "جَديد"، و"قَلَّ" فهو "قَليل". وقيل: بمعنى "مفعول"، مِن "جَدَّ النَّسّاجُ الثوبَ" إذا قطَعَه، ثمّ شاع.

---

١ السياق: ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ عطفٌ... وقيل: مستأنَف...

٢ هو في م "وَأَرْهَنُهم" بضمّ "النون". وفي لسان العرب لابن منظور، «رهن»: «قال ثعلَب: الرواة كلّهم على "أَرهنتُهم" إلّا الأصمعي، فإنّه رواه "وَأرهَنُهم مالِكًا" على أنّه عطف بفعل مستقبَل على فعل ماض».

٣ صدره:

فلمّا خشيتُ أظافيرهم

لعبد الله بن همّام السّلولي في الصحاح للجوهري، «رهن». ولهمّام بن مرّة في لسان العرب لابن منظور، «رهن».

٤ الطَّنْزُ: السُّخرية. الصحاح للجوهري، «طنز».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما قاله ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه. والاستدلال بهذا الترديد على أنّ بين الصدق والكذب واسطةً هو ما لا يكون مِن الإخبار عن بصيرةٍ بيّنُ الفساد، لظهور كون الافتراء أخصَّ مِن الكذب.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ جواب مِن جهة الله تعالى عن ترديدهم الوارد على طريقة الاستفهام بالإضراب عن شِقَّيه، وإبطالِهما، وإثباتِ قسم ثالث كاشفٍ عن حقيقة الحال، ناعٍ عليهم سوءَ حالهم، وابتلاءِهم بما قالوا في حقّه عليه السلام، كأنّه قيل: ليس الأمر كما زعموا؛ بل هم في كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والإدراك الذي هو الجنون حقيقةً، وفيما يؤدّي إليه ذلك / مِن العذاب، ولذلك يقولون ما يقولون. [٣٦١و]

وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبِعه للمسارعة إلى بيان ما يَسوءهم ويَفُتُّ في أعضادهم، والإشعارِ بغاية سرعة ترتّبه عليه، كأنّه يُسابقه فيَسبقه. ووصفُ الضلال بالبُعد الذي هو وصف الضالّ للمبالغة. ووضعُ الموصول موضعَ ضميرهم للتنبيه بما في حيّز الصِّلة على أنّ علّةَ ما ارتكبوه واجترءوا عليه مِن الشناعة الفظيعة كفرُهم بالآخرة وما فيها مِن فنون العقاب، ولولاه لَما فعلوا ذلك خوفًا مِن غائلته.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئناف مَسوق لتهويل ما اجترءوا عليه مِن تكذيب آيات الله تعالى، واستعظامِ ما قالوا في حقّه عليه السلام، وأنّه مِن العظائم الموجِبة لنزول أشدّ العقاب، وحلولِ أفظع العذاب مِن غير رَيثٍ وتأخير. و"الفاء" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ﴾... إلخ بيان لِما ينبئ عنه ذِكر إحاطتهما بهم مِن المحذور المتوقَّع مِن جهتهما. وفيه تنبيه على أنّه لم يبقَ مِن أسباب وقوعه إلّا تعلّقُ المشيئة به، أي: أَفعلوا ما فعلوا مِن المنكَر الهائل المستتبع للعقوبة، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم مِن جميع جوانبهم بحيث لا مفرَّ لَهم عنه ولا محيصَ؟ إن نَشَأْ جَزيًا على موجَب جناياتهم ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفناها بقارون، ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ أي: قِطَعًا ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أسقطناها على أصحاب الأيكة، لاستيجابهم[١] ذلك بما ارتكبوه مِن الجرائم.

وقيل: هو تذكير بما يعاينون ممّا يدلّ على كمال قدرته وما يحتمل فيه إزاحةً لاستحالتهم البعثَ حتّى جعلوه افتراء وهزؤًا وتهديدًا عليها، والمعنى: أَعَمُوا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم مِن السماء والأرض، ولم يتفكّروا أهُم أشدّ خلقًا أم هي؟ وإن نشأ نَخسف بهم الأرض، أو نسقط عليهم كسفًا، لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البيّنات، فتأمّل، وكُن على الحقّ المُبين.

وقُرئ: "يَخْسِفْ"، و"يُسْقِطْ" بـ"الياء"،[٢] لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾،[٣] و"كِسْفًا" بسكون "السين".[٤]

[٣٦١ظ] / ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن السماء والأرض مِن حيث إحاطتهما بالناظر مِن جميع الجوانب، أو فيما تُلي مِن الوحي الناطق بما ذكر ﴿لَأٓيَةً﴾ واضحةً ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ شأنه الإنابةُ إلى ربّه، فإنّه إذا تأمّل فيهما أو في الوحي المذكور ينزَجر عن تعاطي القبائح، وينيب إليه تعالى.

وفيه حثّ بليغ على التوبة والإنابة، وقد أُكِّد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: آتيناه لِحُسن إنابته وصحّةِ توبته فضلًا على سائر الأنبياء عليهم السلام، أي: نوعًا مِن الفضل، وهو ما ذُكِر بَعدُ، فإنّه معجزة خاصّة به عليه السلام، أو على سائر الناس، فيندرج فيه النبوّة والكتاب والملك والصوت الحسن،

---

١ س: لاستيحابهم.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٣ في الآية السابقة.

٤ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

فتنكيره للتفخيم. و﴿مِنَّا﴾ لتأكيد فخامته الذاتيّة بفخامته الإضافيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ[1] مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف، ٦٥/١٨]. وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفس مترقِّبةً له، فإذا وردها يتمكّن عندها فضلَ تمكّن.

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ مِن "التأويب"، أي: رجّعي معه التسبيحَ، أو النَّوحةَ على الذنب، وذلك إمّا بأن يخلقَ الله تعالى فيها صوتًا مثلَ صوته، كما خلق الكلام في الشجرة، أو بأن يتمثّل له ذلك. وقُرئ: "أُوبِي"[2] مِن "الأَوْب"، أي: ارجِعي معه في التسبيح كلّما رجَع فيه.

وكان كلّما سبّح عليه السلام يُسمَع مِن الجبال ما يُسمَع مِن المسبِّح معجزةً له عليه السلام. وقيل: كان ينوح على ذنبه بتَرجيعٍ وتَحزين، وكانت الجبالُ تُسعِده على نَوحه بأصدائها، والطيرُ بأصواتها.

وهو بدل مِن ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بإضمار "قلنا"، أو مِن ﴿فَضْلًا﴾ بإضمار "قولَنا".

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿فَضْلًا﴾، / بمعنى: وسخّرنا له الطير؛ لأنّ إيتاءها إيّاه عليه السلام تسخيرُها له، فلا حاجةَ إلى إضماره، كما نُقل عن الكسائي، ولا إلى تقدير مضافٍ، أي: تسبيحَ الطير، كما نقل عنه في روايةٍ.[3] وقيل: عطفًا على محلّ "الجبال"،[4] وفيه مِن التكلّف لفظًا ومعنى ما لا يخفى. وقُرئ بالرفع[5] عطفًا على لفظها تشبيهًا للحركة البنائيّة العارضة بالحركة الإعرابيّة. وقد جُوِّز انتصابه على أنّه مفعول معه، والأوّل هو الوجه. [٣٦٢و]

وفي تنزيل الجبال والطير منزلةَ العقلاء المطيعين لأمره تعالى المذعنين لحكمه المشعرِ بأنّه ما مِن حيَوان وجماد وصامت وناطق إلّا وهو منقاد لمشيئته

---

[1] م ط س: وآتيناه.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة وابن أبي عبلة وكرداب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٨٩.

[3] انظر: **التبيان** لأبي البقاء، ١٠٦٤/٢.

[4] قاله الزمخشري في **الكشّاف**، ٥٨١/٣؛ والبيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٢٤٣/٤.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وابن أبي عبلة ويعقوب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٨٩.

غيرُ ممتنع على إرادته مِن الفخامة المُعرِبة عن غاية[١] عظَمة شأنه تعالى وكمالِ كبرياء سلطانه ما لا يخفى على أولي الألباب.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: جعلناه ليّنًا في نفسه -كالشمع- يصرّفه في يده كيف يشاء مِن غير إحماءٍ بنار، ولا ضربٍ بمِطرقة، أو جعلناه بالنسبة إلى قوّته التي آتيناها إيّاه ليّنًا -كالشمع- بالنسبة إلى سائر القوى البشريّة.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾

﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أمرناه أنِ اعمل، على أنّ ﴿أَنْ﴾ مصدريّة حُذف عنها "الباء"، وفي حملِها على المفسِّرة تكلّف لا يخفى. ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ واسعاتٍ. وقُرئ: "صَابِغَاتٍ"،[٢] وهي الدُّروع الواسعة الضافية، وهو عليه السلام أوّل مَن اتّخذها، وكانت قبلُ صفائحَ.

قالوا: كان عليه السلام حين مَلَك على بني إسرائيل يخرج متنكّرًا فيسألُ الناس: ما تقولون في داود؟ فيُثنُون عليه، فقيّض الله تعالى له مَلَكًا في صورة آدميّ، فسأله على عادته، فقال: نِعمَ الرجل لولا خَصلةٌ فيه، فَرِيعَ داودُ، فسأله عنها، فقال: لولا أنّه يُطعِم عيالَه مِن بيت المال، فعند ذلك سأل ربّه أن يُسَبِّب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلّمه تعالى صنعةَ الدُّروع. وقيل: كان يبيع الدِّرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدّق على الفقراء.

[٣٦٢ظ] / ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ "السَّرْد" نسجُ الدُّروع، أي: اقتصِد في نسجها بحيث تتناسَبُ حَلَقُها. وقيل: قدِّر مساميرَها، فلا تعملها دِقاقًا ولا غِلاظًا.[٣] ورُدّ بأنّ دُروعه عليه السلام لم تكن مسمَّرة كما ينبئ عنه إلانةُ الحديد.

وقيل: معنى ﴿قَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: لا تصرِف جميع أوقاتك إليه؛ بل مقدار ما يحصل به القوت، وأمّا الباقي فاصرِفه إلى العبادة. وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ عُمِّم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه السلام ولأهله. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب الامتثال به.

---

١ س: عاية.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٣ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٤٣/٤.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخّرنا له الريح. وقُرئ برفع ﴿ٱلرِّيحَ﴾،[١] أي: ولسليمان الريحُ مسخَّرة. وقُرئ: "الرِّيَاحَ".[٢]

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: جَرْيُها بالغداةِ مسيرةُ شهر، وجَرْيها بالعشيّ كذلك. والجملة إمّا مستأنَفة أو حال مِن ﴿ٱلرِّيحَ﴾. وقُرئ: "غُدْوَتُهَا" و"رَوْحَتُهَا".[٣] وعن الحسن رحمه الله تعالى:[٤] «كان يغدو -أي: مِن دمشق- فيَقيلُ بإصْطَخْرَ، ثمّ يروح، فيكون رَواحه بِكابُلَ».[٥] وقيل: كان يتغدّى بالرَّيّ، ويتعشّى بسَمرقند.

ويُحكَى أنّ بعضهم رأى مكتوبًا في منزل بناحية دجلة، كتبه بعض أصحاب سليمان عليه السلام: «نحن نزَلناه وما بنَيناه، ومبنيًّا وجدناه، غدَونا مِن إصْطَخْرَ فقِلْناه، ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله تعالى».[٦]

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: النُّحاس المذاب، أساله مِن معدِنه، كما ألانَ الحديد لداود عليهما السلام، فنبع منه نبوعَ الماء مِن الينبوع، ولذلك سمّي عينًا، وكان ذلك باليمن. وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيّام.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إمّا جملة مِن مبتدأ وخبر، أو ﴿مَن يَعْمَلُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾، و﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حال متقدّمة. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره تعالى، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومَن يَعدِلْ / منهم عمّا أمرناه به مِن طاعة سليمان. وقُرئ: "يُزَغْ"[٧] على البناء للمفعول، [٣٦٣و]
مِن "أزاغَه".

---

١ قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٢ قرأ بها أبو جعفر المدني. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٤ ط س - تعالى.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٧٣/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٢/٣.

٦ عن وهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ٢٢٧/١٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧٣/٨.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٢٨/٨.

﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: عذابِ النار في الآخرة. ورُوي[1] عن السدّي رحمه الله: «كان معه ملَك بيده سَوط مِن نار، كلّما استعصى عليه ضربه مِن حيث لا يراه الجنّي».[2]

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ تفصيل لِما ذُكر مِن عملهم. وقوله تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾... إلخ بيان لـ﴿مَا يَشَآءُ﴾، أي: مِن قصور حصينة، ومساكنَ شريفةٍ، سُمِّيت بذلك لأنّها يُذَبّ عنها ويُحارَب عليها. وقيل: هي المساجد.

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ وصورِ الملائكة والأنبياء عليهم السلام على ما اعتادوه، فإنّها كانت تُعملُ حينئذ في المساجد ليراها الناس، ويعبدوا مثلَ عباداتهم، وحُرمةُ التصاوير شرعٌ جديد. ورُوي أنّهم عملوا أسَدَين في أسفل كرسيّه، ونَسرَين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسَط الأسدان ذراعَيْهما، وإذا قعَدَ أظلّه النسران بأجنحتهما.

﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع "جَفْنة"، وهي الصَّحفة، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ كالحِياض الكِبار، جمع "جابِية"، مِن "الجِباية"، لاجتماع الماء فيها، وهي مِن الصفات الغالبة، كـ"الدابّة". وقُرئ بإثبات "الياء".[3] قيل: كان يقعد على الجَفنة ألف رجل.

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتاتٍ على الأثافي، لا تنزل عنها لعِظَمها.

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكاية لِما قيل لهم. و﴿شُكْرًا﴾ نصب على أنّه مفعول له، أو مصدر لـ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾؛ لأنّ العمل للمنعِم شكر له، أو لفعله المحذوف، أي: اشكروا شكرًا، أو حال، أي: شاكرين، أو مفعول به، أي: اعملوا شكرًا.

[٣٦٣ظ] ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي: المتوفِّر على أداء الشكر بقلبه / ولسانه وجوارحه أكثرَ أوقاته، ومع ذلك لا يوفّي حقّه؛ لأنّ التوفيق للشكر نعمة

---

١ ط س: روي.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٢٨/٨.

٣ أثبتَها أبو عمرو وورش عن نافع وصلًا، وابن كثير ويعقوب وصلًا ووقفًا. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

تستدعي شكرًا آخر لا إلى نهاية، ولذلك قيل: "الشَّكور" مَن يرى عجزَه عن الشكر. ورُوي أنّه عليه السلام جَزَّأَ سَاعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة مِن الساعات إلّا وإنسان مِن آل داود قائم يصلّي.[١]

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان عليه السلام ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي: الجنَّ أو آلَه ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأرَضةُ، أُضيفت إلى فِعلها. وقُرئ بفتح "الراء"،[٢] وهو تأثّر الخشبة مِن فعلها، يقال: "أرَضَتِ الأرَضةُ الخشبةَ أرْضًا، فأرِضَتْ أرَضًا"، مثل: "أكَلَت القَوادِحُ[٣] أسنانَه أكْلًا، فأكِلَتْ أكَلًا".

﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي: عصاه، مِن "نَسَأْتُ البعيرَ" إذا طردتَه؛ لأنّها يُطرَد بها ما يُطرَد. وقُرئ: "مِنْسَاتَهُ" بـ"ألِف" ساكنة بدلًا مِن "الهمزة"،[٤] وبـ"همزة" ساكنةٍ،[٥] وبإخراجها بينَ بينَ عند الوقف،[٦] و"مِنْسَاءَتَهُ" على "مِفْعَالةٍ"،[٧] كَـ"مِيضاءة" في "مِيضَأةٍ"، و"مِنْ سَأَتِهِ"،[٨] أي: مِن طرَف عصاه، مِنْ "سِأَةِ القَوسِ"، وفيه لغتان كما في "قِحَةٍ"[٩] بالكسر والفتح. وقُرئ: "أَكَلَتْ مِنْسَأَتَهُ".[١٠]

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ مِن "تبيّنتُ الشيءَ" إذا علمتَه بعد التباسه عليك، أي: علمَت الجنُّ علمًا بيّنًا بعد التباس الأمر عليهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٨٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٧٣.

٢ أي: "الأرَضِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والعبّاس بن الفضل. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٠.

٣ القوادح: جمع القادحة، وهي الدودة التي تأكل السنّ والشجر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «قدح».

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

٥ قرأ بها ابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٦ قرأ بها حمزة الزيّات. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٣٧.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٧٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٠.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٩ يقال: وَقُحَ الحافِر وقاحَةً ووُقوحةً وقِحةً وقَحةً، أي: صَلُبَ. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «وقح».

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢/١٨٨.

﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ أي: أنّهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لَعلموا موته عليه السلام حينما وقع، فلم يلبثوا بعده حَولًا في تسخيره إلى أن خَرّ.

أو مِن "تَبيَّنَ الشيءُ" إذا ظهَر وتجلّى، أي: ظهرت الجنّ، و﴿أَنْ﴾ مع ما في حيّزها بدل اشتمال مِن ﴿ٱلۡجِنُّ﴾، أي: ظهر أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون / الغيبَ... إلخ. [٣٦٤و]

وقُرئ: "تُبُيِّنَتِ الْجِنُّ"[١] على البناء للمفعول على أنّ المُتَبيَّنَ في الحقيقة هو ﴿أَن﴾ مع ما في صلتِها؛ لأنّه بدل. وقُرئ: "تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ"،[٢] والضمير في ﴿كَانُواْ﴾ لـ﴿ٱلۡجِنِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ﴾.[٣] وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنَّ الْجِنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ".[٤]

رُوي أنّ داود عليه السلام[٥] أسّس بنيان بيت المقدس في موضع فسطاط موسى، فتوفّي قبل تمامه، فوصّى به إلى سليمان عليهم السلام، فاستعمل فيه الجنّ والشياطين، فباشَروه حتّى إذا حانَ أجله وعلِم به سأل ربّه أن يُعمِّيَ عليهم موتَه حتّى يفرغوا منه، ولِتبطل دعواهم عِلمَ الغيب، فدعاهم فبنَوا عليه صرحًا مِن قوارير ليس له باب، فقام يصلّي متّكئًا على عصاه، فقُبِض روحُه وهو متّكئ عليها، فبقي كذلك وهم فيما أُمِرُوا به مِن الأعمال حتّى أكَلَت الأَرَضة عصاه فخرّ ميّتًا، وكانت الشياطينُ تجتمع حولَ مِحرابه أينما صلّى عليه السلام، فلم يكن ينظر إليه شيطان في صلاته إلّا احترق، فمرّ به يومًا شيطان فنظر، فإذا سليمان عليه السلام قد خرّ ميّتًا، ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلَتها الأَرَضة، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأَرَضة على العصا، فأكلت منها في يومٍ وليلة مقدارًا، فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنةٍ، وكان عمره عليه السلام ثلاثًا وخمسين سنةً، مَلَك وهو ابن ثلاث عشرةَ سنةً، وبقي في مُلكه أربعين سنةً، وابتدأ بناءَ بيت المَقدس لأربعٍ مَضين مِن مُلكه.[٦]

---

[١] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعلي بن الحسين والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

[٣] سبأ، ١٢/٣٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

[٥] م - عليه السلام.

[٦] الكشف والبيان للثعلبي، ٨١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٤/٣.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بيان لإخبار بعض الكافرين بنعم الله تعالى إثرَ بيان أحوال الشاكرين لها، أي: لأولاد سبأ بنِ يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان. وقُرئ بمنع الصرف[1] على أنّه اسم القبيلة. وقُرئ بقَلب "الهمزة" "ألِفًا"،[2] ولعلّه إخراج لها بينَ بينَ.

﴿فِى مَسْكَنِهِمْ﴾ وقُرئ بكسر "الكاف"،[3] كـ"المسجِد". وقُرئ بلفظ الجمع،[4] / أي: [٣٦٤ظ] مواضع سُكناهم، وهي باليمن، يقال لها:[5] مأرِب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليالٍ.

﴿ءَايَةٌ﴾ دالّة بملاحظة أحوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كلّ ما يشاء مِن الأمور البديعة، المُجازِي للمحسِن والمُسيء، معاضِدةً للبرهان السابق، كما في قصّتَي داود وسليمان عليهما السلام.

﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل مِن ﴿ءَايَةٌ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي جنّتان، وفيه معنى المدح، ويؤيّده قراءة النصب[6] على المدح. والمراد بهما جماعتان مِن البساتين.

﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ جماعة عن يمين بلدِهم، وجماعة عن شماله، كلُّ واحدة مِن تَينِكَ الجماعتين في تقاربهما وتضامِّهما كأنّهما جَنّة واحدة، أو بستان كلّ رجل منهم عن يمين مَسكنه وعن شماله.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ﴾ حكاية لِما قيل لهم على لسان نبيِّهم تكميلًا للنعمة، وتذكيرًا لِحُقوقها، أو لِما نطق به لسانُ الحال، أو بيانٌ لكونهم أحقّاءَ بأن يقال لهم ذلك.

---

١ أي: "لِسَبأَ". قرأ بها أبو عمرو والبزّي عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٧.

٢ أي: "لِسَبَا". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن حبيب عن اليزيدي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٢٦. وقرأ بذلك حمزة الزيّات عند الوقف. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٣٠.

٣ قرأ بها الكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٤ أي: "مَسَاكِنِهِمْ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٥ ط س: له.

٦ أي: "جَنَّتَينِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٥٣٤. وقال في توجيهها: «على أنّ ﴿ءَايَةٌ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾، و"جنتين" الخبر».

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ استئناف مبيّن لِما يوجب الشكرَ المأمور به، أي: بلدتكم بلدة طيّبة، وربّكم الذي رزقكم ما فيها مِن الطيّبات وطلَب منكم الشكرَ ربٌّ غفور لِفَرطات مَن يشكره. وقُرئ الكلّ بالنصب[١] على المدح.

قيل: كان أطيبَ البلاد هواءً وأخصبَها، وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المِكتل، فتعمل بيدَيها، وتسير فيما بين الأشجار، فيمتلئ المِكتل ممّا يتساقط فيه مِن الثمار، ولم يكن فيه مِن مؤذيات الهوامّ شيء.[٢]

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه. قيل: أرسل إليهم ثلاثة عشر نبيًا فدَعَوهم إلى الله تعالى، وذكّروهم بنِعَمِه، وأنذروهم عقابَه، فكذّبوهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: سيلَ الأمرِ العَرِم، أي: الصعب، مِن "عَرِمَ الرجلُ، فهو عارِم، وعَرِمٌ"، إذا شَرِسَ خُلُقه وصَعُب، أو المطرِ الشديدِ. وقيل: ﴿الْعَرِمِ﴾ جمع "عَرِمة"، وهي الحجارة المَركومة. وقيل: هو السِّكْر[٣] الذي يحبِس الماء. وقيل: هو اسم للبناء يُجعل سَدًّا.

[٣٦٥و] / وقيل: هو البناء الرَّصين الذي بَنَتْها الملِكة بِلقيسَ بين الجبلَين بالصخر والقار، وحقَنَت به ماء العيون والأمطار، وتركَت فيها خروقًا على ما يحتاجون إليه في سقيهم. وقيل: ﴿الْعَرِمِ﴾ الجُرَذ الذي نقَب عليهم ذلك السدّ، وهو الفأر الأعمى الذي يقال له: الخُلْد، سلّطه الله تعالى على سدّهم، فنَقَبه، فغرّق بلادهم. وقيل: ﴿الْعَرِمِ﴾ اسم الوادي.

وقرئ:[٤] "الْعَرْمِ" بسكون "الراء".[٥]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد بن وزير عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

٢ تفسير ابن أبي حاتم، ٣١٦٥/١٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٥/٣.

٣ السكر -بفتح "السين" وكسرها وسكون "الكاف" ثم "راء" مهملة-: الجسر والسدّ على الماء. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٩٦/٧.

٤ س: وقيل.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عروة بن الورد. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

قالوا: كان ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى والنبيّ صلّى الله عليهما وسلّم.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أي: أذهبنا جنتيهم وآتينا بدلَهما ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي: ثمرٍ بَشِعٍ، فإنّ "الخَمْط" كلّ نَبْتٍ أخذ طعمًا مِن مرارة حتّى لا يُمكن أكله. وقيل: هو الحامِض والمرُّ مِن كلّ شيء.

وقيل: هو ثمرةُ شجرةٍ يقال لها: "فَسْوةُ الضَّبُع" على صورة الخَشخاش، لا يُنتفَع بها. وقيل: هو الأراك، أو كلّ شجر ذي شوك. والتقدير: "أُكُلٍ أُكُلِ خَمْطٍ"، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه.

وقُرئ: "أُكُلِ خَمْطٍ" بالإضافة،[١] وبتخفيف ﴿أُكُلٍ﴾.[٢]

﴿وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفان على ﴿أُكُلٍ﴾، لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإنّ "الأَثْل" هو الطَّرْفاء. وقيل: شجر يُشبهه أعظَمُ منه لا ثمرَ له. وقُرئ: "وَأَثْلًا وَشَيْئًا"،[٣] عطفًا على ﴿جَنَّتَيْنِ﴾.

قيل: وصف "السِّدر" بالقِلّة لِما أنّ جَناه -وهو "النَّبِق"- ممّا يَطيب أكلُه، ولذلك يُغرس في البساتين. والصحيح أنّ "السِّدر" صنفان؛ صنف يُؤكل مِن ثمره، ويُنتفع بورَقه لغَسل اليد، وصنف له ثمرة عَفْصة لا تُؤكل أصلًا، ولا يُنتفع بورَقه، وهو "الضالّ"، والمراد ههنا هو الثاني حتمًا. وقال قَتادةُ: «كان شجرهم خيرَ الشجر، فصيّره الله تعالى مِن شرّ الشجر بأعمالهم».[٤] وتسميةُ البدل ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للمشاكلة والتهكّم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر قوله تعالى: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ أو إلى ما ذُكر مِن التبديل، وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بِبُعد رُتبته في الفظاعة. ومحلّه على الأوّل النصب

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

٢ أي: "أُكْلِ" بسكون "الكاف". قرأ بها نافع وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، حكاها الفضل بن إبراهيم. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

٤ جامع البيان للطبري، ٢٥٨/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨٤/٨.

على أنّه مصدر مؤكِّد للفعل المذكور، وعلى الثاني النصب على أنّه مفعول ثانٍ له، أي: ذلك الجزاءَ الفظيعَ جزيناهم / لا جزاءً آخر، أو ذلك التبديلَ جزيناهم لا غيرَه. [٣٦٥ظ]

﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ بسبب كُفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضِدَّها، أو بسبب كفرهم بالرسل.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي: وما نُجازي هذا الجزاءَ إلّا المبالِغ في الكفران أو الكفر. وقُرئ: "يُجَازِي"[١] على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجلّ. و"هَلْ يُجَازَى" على البناءِ للمفعول ورفعِ ﴿ٱلْكَفُورَ﴾،[٢] و"هَلْ يُجْزَى"[٣] على البناء للمفعول أيضًا.

وهذا بيانُ ما أوتوا مِن النِّعم الحاضرة في مساكنهم، وما فَعلوا بها مِن الكفران، وما فُعِل بهم مِن الجزاء.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ حكايةٌ لِما أوتوا مِن النِّعم البادية في مسائرهم ومتاجرهم، وما فَعلوا بها مِن الكُفران، وما حاق بهم بسبب ذلك، تكملةً لقصّتهم، وبيانًا لعاقبتهم، وإنّما لم يُذكر الكلّ معًا لِما في التثنية والتكرير مِن زيادة تنبيه وتذكيرٍ.

وهو عطفٌ على ﴿كَانَ لِسَبَإٍ﴾،[٤] لا على ما بعده مِن الجمل الناطقة بأفعالهم، أو بأجزيتها، أي: وجعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم مِن فنون النِّعم بينهم -أي: بين بلادهم- وبين القرى الشاميّة التي باركنا فيها للعالمين ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وابن وثّاب والنخعي. المحتسب لابن جنّي، ١٨٩/٢.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن مسلم بن جُندب. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

[٤] سبأ، ١٥/٣٤.

متواصلةً يُرى بعضُها مِن بعضٍ لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين أهلها، أو راكبةً متنَ الطريق ظاهرةً للسابلة غيرَ بعيدة عن مسالكهم حتّى تخفى عليهم.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معيّن يليق بحال أبناء السبيل. قيل: كان الغادي مِن قرية يَقيل في أخرى، والرائح منها يبيت في أخرى إلى أن يبلغ الشام. كلّ ذلك كان تكميلًا لِما أُوتوا مِن أنواع النعماء، وتوفيرًا لها في الحضر والسفر.

﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ على إرادة القول، أي: وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي: متى شئتم مِن الليالي والأيّام ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن كلّ ما تكرهونه، لا يختلف الأمنُ فيها باختلاف الأوقات، أو سيروا فيها آمنين وإن تَطاولت مدّةُ سفركم وامتدّت لياليَ وأيّامًا كثيرةً، أو سيروا فيها لياليَ / أعماركم [٣٦٦و]
وأيّامَها، لا تلقَون فيها إلّا الأمن، لكن لا على الحقيقة؛ بل على تنزيل تمكينهم مِن السير المذكور، وتسويةِ مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلةَ أمرِهم بذلك.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ١٩﴾

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وقُرئ: "يَا رَبَّنَا".[١] بطروا النعمةَ، وسئِمُوا أطيب العيش، وملّوا العافيةَ، فطلبوا الكدّ والتعب، كما طلب بنو[٢] إسرائيل الثومَ والبصل مكان المنّ والسلوى. وقالوا: لو كان جَنَا جِنّاتِنا أبعدَ لكان أجدرَ أن نشتهيَه، وسألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوِز وقِفارًا ليركبوا فيها الرواحل، ويتزوّدوا الأزواد، ويتطاولوا فيها على الفقراء، فعجّل الله تعالى لهم الإجابةَ بتخريب تلك القرى المتوسّطة، وجعلها بَلقعًا لا يُسمع فيه داعٍ ولا مجيب.

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٧٧.

[٢] م: بنوا.

وقُرئ: "بَعِّدْ"،[١] و"رَبَّنَا بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"،[٢] و"بُعِّدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"[٣] على النداء وإسنادِ الفعل إلى "بَيْنَ" ورفعِه به، كما يُقال: "سِيرَ فرسخان"، و"بُوعِدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا".[٤]

وقُرئ: "رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"،[٥] و"بَيْنَ سَفَرِنَا"،[٦] و"بَعَّدَ"[٧] برفع ﴿رَبَّنَا﴾ على الابتداء، والمعنى على خلاف الأوّل، وهو استبعاد مسائرهم مع قِصَرِها، ودنُوِّها وسهولة سلوكها، لفَرْط تنعّمهم، وغايةِ ترفُّههم، وعدمِ اعتدادهم بنِعم الله تعالى، كأنّهم يَتَشاجَون على الله تعالى ويتحازَنُون عليه.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ حيث عرّضوها للسخط والعذاب حين بَطِرُوا النِّعمةَ،[٨] أو غَمَطوها،[٩] ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ أي: جعلناهم بحيث يتحدّث الناس بهم متعجّبين مِن أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم، ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرّقناهم كلَّ تفريق على أنّ "المُمزَّق" مصدر، أو كلَّ مَطْرَح ومكانِ تفريقٍ، على أنّه اسم مكانٍ. وفي عبارة التمزيق الخاصِّ بتفريق المتّصل وخرقِه مِن تهويل الأمر والدلالة على شدّة التأثير والإيلام ما لا يخفى، أي: مزّقناهم تمزيقًا لا غايةَ وراءه بحيث يُضرَب به الأمثال / في كلّ فُرقة ليس بعدها وِصال، حتّى لحِق غسّان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأَزدُ بِعُمان. [٣٦٦ظ]

وأصل قصّتهم على ما رواه الكلبي عن أبي صالح أنّ عمرو بن عامرٍ مِن أولاد سبأ، وبينهما اثنا عشر أبًا، وهو الذي يقال له: مزيقيا بن ماء السماء، أخْبَرَته طُرِيفةُ الكاهنة بخراب سدّ مأرِبَ، وتفريقِ سيل العَرِم الجنّتين.[١٠]

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن أبي الحسن. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣٨/٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم الجحدري وأبي عمران الجوني. زاد المسير لابن الجوزي، ٤٩٦/٣.

[٥] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣٩/٨.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وابن الحنفية وعمرو بن فائد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣٨/٨.

[٨] وفي هامش م: على القراءتين الأوليين. «منه». | وهُما: " رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"، و"رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا".

[٩] وفي هامش م: على القراءات الأواخر. «منه». | وهي: "رَبُّنَا بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"، وما بعدها.

[١٠] انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٤٩٢/٣.

وعن أبي زيد الأنصاري[١] أنّ عَمرًا[٢] رأى جُرذًا يحفر السدّ، فعلم أنّه لا بقاءَ له بعدُ.[٣]

وقيل: إنّه كان كاهنًا وقد علِمه بكهانته، فباع أملاكه وسار بقومه وهم ألوف مِن بلد إلى بلد، حتّى انتهى إلى مكّة المعظّمة وأهلُها جُرْهُم، وكانوا قهروا الناس وحازوا ولايةَ البيت على بني إسماعيل عليه السلام وغيرِهم فأرسل إليهم ثعلبة بن عمرو بن[٤] عامر يسألُهم المُقامَ معهم إلى أن يرجع إليه رُوّادُه الذين أرسلهم إلى أصقاع البلاد يطلبون له موضعًا يَسَعُه ومَن معه مِن قومه، فأَبَوا، فاقتتلوا ثلاثة أيّام، فانهزمت جُرْهم، ولم يُفلِتْ منهم إلّا الشَّرِيد، وأقام ثعلبة بمكّة وما حولها في قومه وعساكره حَولًا، فأصابتهم الحمّى، فاضطرُّوا إلى الخروج وقد رجع إليه رُوّاده، فافترقوا فرقتين، فرقة توجّهت نحو عُمانَ، وهم الأَزْدُ[٥] وكِندة وحِميَر ومَن يتلوهم، وسار ثعلبة نحو الشام، فنزل الأَوْسُ والخزرجُ ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة، وهم الأنصار، ومضت غسّان فنزلوا بالشام، وانخزعت خزاعة بمكّة، فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر، وهو لُحَيٌّ، فولّي أمر مكّة وحِجابةَ الكعبة، ثمّ جاءهم أولادُ إسماعيل عليه السلام، فسألوهم السُّكنى معهم وحولَهم، فأذِنُوا لهم في ذلك.[٦]

---

١ هو سعيد بن أوس الأنصاري، البصري، أبو زيد (ت. ٢١٥هـ/٨٣٠م). الإمام، العلّامة، حجّة العرب، النحوي، حدّث عن سليمان التيمي، ورؤبة بن العجّاج، وأبي عمرو بن العلاء، وسعيد بن أبي عروبة، وعِدّة. وحدّث عنه خلف بن هشام البزّار، وتلا عليه، وأبو عبيد القاسم، وأبو حاتم السجستاني، وخلق كثير. مِن تصانيفه: النوادر في اللغة، والهمز، والمطر، وخلق الإنسان، ولغات القرآن، والشجر، وبيوتات العرب، والفرق، وغريب الأسماء. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٩٤/٩؛ والأعلام للزركلي، ٩٢/٣.

٢ م: عمروًا.

٣ انظر: سيرة ابن هشام، ١٣/١؛ وتفسير ابن كثير، ٥١٠/٦.

٤ س: ابن.

٥ الأَزْد: حيّ مِن كهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كَهلان. قال أبو عبيدة: «ويقال فيهم: "الأَسْد" بـ"السين" المهملة بدل "الزاي"». قال الجوهري: «وهو بـ"الزاي" أفصح». والأَزْد مِن أعظم الأحياء وأكثرها بطونًا، وأمدِّها فروعًا. نهاية الأرب للقلقشندي، ٩١/١.

٦ انظر: جامع الآثار للدمشقي، ٣٢٥/٢.

ورُوِي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ فَرْوَةَ بن مُسَيك الغطيفي[١] سأل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن سبأ، فقال له عليه السلام: / «هو رجل كان له [٣٦٧و] عشرة أولاد، ستّة منهم سكنوا اليمن، وهم مَذحِج[٢] وكِندة والأزْد والأشعريّون[٣] وحِمير وأنمار؛[٤] منهم بَجِيلة[٥] وخَثعم،[٦] وأربعة منهم سكنوا[٧] الشام، وهم لَخم وجدام[٨] وعاملة[٩] وغسّان».[١٠]

---

١ هو فَروة بن مُسَيك بن الحارث بن سلمة الغطيفي، المرادي، أبو عمر (ت. نحو ٣٠هـ/ ٦٥٠م). صحابي، أصله مِن اليمن. وفَد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة تسع أو عشر وأسلم. ونزل على سعد بن عبادة، وأجزاه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بمبلغ مِن المال، واستعمله على مراد ومذحج وزُبيد، وكتب له كتابًا فيه فرائض الصدقة، فعاد إلى بلاده. وقاتل أهل الردّة بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وبقي إلى خلافة عمر بن الخطّاب، وأقرّه عمر. سكن الكوفة في أواخر أعوامه. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٥/٢٨١؛ و**الأعلام** للزركلي، ٥/١٤٣.

٢ مَذْحِج: لغةٌ في "مَذحِج"، بالذال معجمة، وغير معجمة، قبيلة مِن اليمن مِن ولد مالك. وهو مَذحِج بن أُدَد بن زَيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كَهلان. **شمس العلوم** للحميري، ٤/٢٠٤٢.

٣ الأشعريّون: بطن مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو الأشعَر بن أُدَد بن زَيد يجشب بن عريب بن زيد بن كَهلان، قال أبو عبيدة: وسمّي "الأشعَر" لأنّ أمّه ولدته وهو أشعَر. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/١٦٨.

٤ بنو أنمار: حيّ مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو أنمار بن أراش بن عمرو بن غوث بن نبيت بن مالك بن زيد بن كَهلان. قال أبو عبيدة: وولد أنمار هذا خثعم، وأمّه هند بنت مالك بن العاص بن الشاهد بن علك، وعنفر والغوث وهنيّة وخُزيمة، وأمّهم بَجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة وبها يُعرفون. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٨٧.

٥ بنو بَجيلة: قبيلة مِن أنمار بن أراش مِن كَهلان مِن القحطانيّة. و"بَجيلة" أمّهم، غلب عليهم اسمها، وهي بَجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة. قال في العِبر: هم بنو بَجيلة بن أنمار بن أراش. قال: وكانت بلادهم مع إخوتهم خثعم في سَروات اليمن والحجاز إلى تبالة، ثمّ افترقوا أيّام الفتح الإسلامي في الآفاق، فلم يبقَ منهم في مواطنهم إلّا القليل. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/١٧١.

٦ بنو خَثعم: بطن مِن أنمار بن أراش مِن القحطانيّة، وكان لخثعم مِن الولد خلَف، وأمّه عاتكة بنت ربيعة بن نزار. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٢٤٣.

٧ م: سكنو.

٨ كذا في الأصول الخطّيّة بـ"الدال" المهملة، والصواب "جُذام" بـ"الذال" المعجمة. وبنو جُذام: بطن مِن كهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو جُذام بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. و"الجُذام" في أصل اللغة اسم للداء المعروف، فيحتمل أنّ اسم الرجل منقول عنه، ويحتمل أنّه مأخوذ مِن "الجَذم"، وهو القطع. انظر: **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٢٠٦.

٩ بنو عاملة: بطن مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو عاملة، واسمه الحارث بن عفيرة بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن زيد بن كهلان. وذكر أبو عبيد: أنّ بني عاملة هم بنو الحارث بن مالك بن وديعة بن عفير بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٣٣٣.

١٠ انظر: **مسند أحمد**، ٥/٧٥ (٢٨٩٨)؛ و**سنن الترمذي**، ٥/٣٦١ (٣٢٢٢).

لمّا هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرّقوا أيدي سبأ شَذَرَ مَذَرَ، فنزلت طوائف منهم بالحجاز، فمنهم خُزاعة نزلوا بظاهر مكّة، ونزلت الأوس والخزرج بيثرب، فكانوا أوّل مَن سكنها، ثمّ نزل عندهم ثلاث قبائل مِن اليهود؛ بنو[١] قينقاع وبنو[٢] قريظة والنضير، فَحالفوا[٣] الأوسَ والخزرجَ، وأقاموا عندهم، ونزلت طوائف أُخَرُ منهم بالشام، وهم الذين تنصّروا فيما بعدُ، وهم غسّان وعاملة ولَخم وجدام وتَنوخ[٤] وتَغلِب وغيرهم، وسبأ تجمع هذه القبائل كلَّها.

والجمهور على أنّ جميع العرب قسمان: قحطانيّة، وعدنانيّة، والقحطانيّة شِعبان: سبأٌ، وحضرموت، والعدنانيّة شِعبان: ربيعة، ومُضَر، وأمّا قضاعة فمختلف فيها، فبعضهم ينسبونها إلى قَحطان، وبعضهم إلى عدنان، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن قِصّتهم ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمةً ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: شأنُه الصبرُ عن الشهوات ودواعي الهوى، وعلى مشاقّ الطاعات، والشكر على النِّعم، وتخصيصُ هؤلاء بذلك لأنّهم المنتفِعون بها.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي: حقّق عليهم ظنّه، أو وجده صادقًا. وقُرئ بالتخفيف،[٥] أي: صدَق في ظنّه، أو صدَق بظَنٍّ ظنَّه. ويجوز تعدية الفعل إليه بنفسه؛ لأنّه نوع مِن القول. وقُرئ بنصب ﴿إِبْلِيسُ﴾ ورفعِ "الظَّنّ" مع التشديد،[٦]

---

١ م: بنوا.

٢ م: بنوا.

٣ س: فخالفوا.

٤ تَنُوخ: هم حيّ مِن اليمن، مِن القحطانيّة، وذكر المؤيّد صاحب حماة في تاريخه: أنّهم مِن قُضاعة، وقال أبو عبيد: هم ثلاثة أبطن؛ نزار، والأحلاف أسد وعفّان، سمّوا بذلك لأنّهم حلَفوا على المُقام بمكان الشام، والتّنُّخ المُقام. انظر: نهاية الأرب للقلقشندي، ١/١٨٩.

٥ أي: "صَدَقَ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٦ أي: "صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

بمعنى: وجده ظنَّهُ صادقًا، ومع التخفيف[1] بمعنى: قال له الصدقَ حين خيّله إغواءَهم، وبرفعهما والتخفيفِ[2] على الإبدال، وذلك إمّا ظنّه بسبَأ حين رأى انهماكهم في الشهوات، / أو ببني آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى إلى وسوسته قال: إنّ ذريّته أضعف منه عزمًا. وقيل: ظنّ ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنّه يجعل فيها مَن يفسد فيها ويسفك الدماء، وقال: لَأضِلّنّهم ولأُغوينّهم. [٣٦٧ظ]

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: أهل سبأ أو الناس ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلّا فريقًا هم المؤمنون لم يتّبعوه، على أنّ ﴿مِن﴾ بيانيّة، وتقليلُهم بالإضافة إلى الكفّار، أو إلّا فريقًا مِن فِرق المؤمنين لم يتّبعوه، وهم المخلصون.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: تسلّط واستيلاء بالوَسوسة والاستغواء. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ العِلل. و﴿مَن﴾ موصولة، أي: وما كان تسلّطه عليهم إلّا ليَتعلّق علمنا بمَن يؤمن بالآخرة متميّزًا ممّن هو في شكّ منها تعلّقًا حاليًا يترتّب عليه الجزاء، أو إلّا ليتميّز المؤمن مِن الشاكّ، أو إلّا ليؤمن مَن قُدّر إيمانه، ويَشكّ مَن قُدّر ضلاله، والمراد مِن حصول العلم حصول متعلَّقه مبالغةً.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: محافِظ عليه، فإنّ "فَعيلًا" و"مُفاعِلًا" صيغتان متآخِيتان.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

---

[1] أي: "صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي والزهري وجعفر بن محمّد وأبي الجهجاه الأعرابي وبلال بن أبي برزة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٤٠؛ وتفسير القرطبي، ١٤/٢٩٢.

[2] أي: "صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٤٠.

﴿قُلِ﴾ أي: للمشركين إظهارًا لبطلان ما هم عليه، وتَبكيتًا لهم: ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي: زعمتموهم آلهةً، وهما مفعولا "زَعَمَ"، ثمّ حُذف الأوّل تخفيفًا لطول الموصول بصِلته، والثاني لقيام صِفته -أعني: قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾- مَقامه، ولا سبيل إلى جعله مفعولًا ثانيًا؛ لأنّه لا يلتئِم مع الضمير كلامًا، وكذا ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾؛ لأنّهم لا يزعمونه، والمعنى: ادعوهم فيما يهمّكم مِن جلب نفع أو دفع ضرّ لعلّهم يستجيبون لكم إن صحّ دعواكم.

ثمّ أجاب عنهم إشعارًا بتعيّن الجواب، وأنّه لا يقبل المكابَرة، فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ مِن خير وشرّ، ونفع وضرّ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أمرٍ ما مِن الأمور. وذِكرُهما للتعميم عُرفًا، أو لأنّ آلهتهم بعضها سماويّة كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضيّة كالأصنام، أو لأنّ الأسبابَ القريبة للخير والشرّ سماويّة وأرضيّة. والجملة استئناف لبيان حالهم.

﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: لآلهتهم ﴿فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: شركةٍ، لا خَلقًا ولا ملكًا ولا تصرّفًا، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى ﴿مِنْهُم﴾ مِن آلهتهم ﴿مِن ظَهِيرٍ﴾ يعينه في تدبير أمرهما.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥ﴾ أي: لا توجد رأسًا، كما في قوله:

ولا ترى الضبَّ بها ينجحِر[١]

لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٥]، وإنّما عُلِّق النفي بنفعها لا بوقوعها تصريحًا بنفي ما هو غرضهم مِن وقوعها.

---

[١] صدره:

ولا يُفزِع الأرنبَ أهوالُها

البيت لعَمرو بن أحمر الباهلي. و"الإفزاع": الإخافة. و"الأرنبَ": مفعول مقدّم. و"أهوالُها": فاعل "يفزع"، والضميرُ للمفازة والفلاة. و"الانجِحار": الدخول في الجُحر؛ وهو ما حفَرَه الهوامّ والسِّباع لأنفسها. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ١٠/١٩٢.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا تقع الشفاعة في حال مِن الأحوال إلّا كائنةً لِمَن أَذِنَ له في الشفاعة مِن النبيّين والملائكة ونحوهم مِن المستأهِلين لمَقام الشفاعة، فتبيّن حِرمان الكفرة منها بالكلّيّة، أمّا مِن جِهة أصنامهم فلِظهور انتفاءِ الإذن لها ضرورةَ استحالة الإذن في الشفاعة لجمادٍ لا يعقل ولا ينطق، وأمّا مِن جهة مَن يعبدونه مِن الملائكة فلأنّ إذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقّين لها، لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ، ٣٨/٧٨]. ومِن البَيّن أنّ الشفاعة للكفرة بمَعزِل مِن الصواب.

أو لا تنفع الشفاعة مِن الشفعاء المستأهِلين لها في حال مِن الأحوال إلّا كائنةً لمَن أَذِن له، أي: لأجله وفي شأنه مِن المستحقّين للشفاعة، وأمّا مَن عَداهم مِن غير المستحقّين لها فلا تنفعهم أصلًا وإن فُرِض وقوعُها وصدورها عن الشفعاء؛ إذ لم يُؤذَن لهم في شفاعتهم، بل في شفاعة غيرهم، فعلى هذا يثبت حرمانهم عن شفاعة هؤلاء بعبارة النصّ، وعن شفاعة الأصنام / بدلالته؛ [٣٦٨ظ] إذ حين حُرِمُوها مِن جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين إليها فلَأَن يُحْرَمُوها[١] مِن جهة العجَزة عنها أولى. وقُرئ: "أُذِنَ لَهُ" مبنيًّا للمفعول.[٢]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوبِ الشفعاء والمشفوعِ لهم مِن المؤمنين، وأمّا الكفرة فهم مِن موقف الاستشفاع بمَعزِل، وعن التفزيع عن قلوبهم بألِف مَنزل. و"التفزيع" إزالةُ الفزَع، ثمّ تُرك ذكر الفزَع وأُسند الفعل إلى الجارّ والمجرور. و﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لِما ينبئ عنه ما قبلها مِن الإشعار بوقوع الإذن لمَن أَذِن له، فإنّه مسبوق بالاستئذان المستدعي للترقّب والانتظار للجواب، كأنّه سُئِل: كيف يُؤذن لهم؟ فقيل: يتربّصون في موقف الاستئذان والاستدعاء، ويتوقّفون على وجَلٍ وفزَعٍ مَلِيًّا، حتّى إذا أُزيلَ الفَزَع عن قلوبهم بعد اللُّتيّا والتي،[٣] وظهرت لهم تباشير الإجابة ﴿قَالُوا۟﴾ أي: المشفوعُ لهم؛

---

[١] س: يُحْرَموا.

[٢] قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

[٣] اللُّتيّا والَّتِي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

إذ هم المحتاجون إلى الإذن، والمهتمّون بأمره: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: في شأن الإذن؟ ﴿قَالُواْ﴾ أي: الشفعاء؛ لأنّهم المباشِرون للاستئذان بالذات، المتوسّطون بينهم وبينه عزّ وجلّ بالشفاعة: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: قال ربُّنا القولَ الحقَّ، وهو الإذنُ في الشفاعة للمستحقّين لها. وقُرئ: "الحَقُّ" مرفوعًا،[١] أي: ما قاله الحقُّ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ مِن تمام كلام الشفعاء، قالوه اعترافًا بغاية عَظَمة جَناب العزّة عزّ وجلّ، وقُصور شأن كلّ مَن سواه، أي: هو المتفرّد بالعلوّ والكبرياء، ليس لأحد مِن أشراف الخلائق أن يتكلّم إلّا بإذنه.

وقُرئ: "فُزِعَ" مخفّفًا[٢] بمعنى ﴿فُزِّعَ﴾. وقُرئ: "فَزَّعَ" على البناء للفاعل،[٣] وهو الله وحده. وقُرئ: "فُرِّغَ" بـ"الراء" المهملة و"الغين" المعجمة،[٤] أي: نُفِيَ الوجَل عنها وأُفْنِيَ، مِن "فَرَغَ الزادُ" إذا لم يبقَ منه شيء، وهو مِن الإسناد المجازي؛ لأنّ الفراغَ -وهو الخلوّ- حالُ ظرفه عند نفاده، فأُسندَ إليه، على عكس قولهم: "جَرى النهر". وعن الحسن تخفيف "الراء"،[٥] وأصله: فَرَغَ الوَجَلُ عنها، أي: انتفى عنها وفَنِي، ثمّ حُذف الفاعل وأُسندَ إلى الجارّ والمجرور، وبه يُعرف حالُ التفريغ. وقُرئ: "افْرُنْقِعَ عَن قُلُوبِهِمْ"[٦] بمعنَى: انكُشِفَ عنها.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم / مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أُمِرَ عليه السلام بتبكيت المشركين، [٣٦٩و] بحملهم على الإقرار بأنّ آلهتهم لا يملكون مثقالَ ذرّة فيهما، وأنّ الرازق

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٥/٨.

٣ قرأ بها ابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما والحسن وأيّوب السختياني وقتادة وأبي مجلز. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٥/٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

هو الله تعالى، فإنّهم لا يُنكرونه، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾... ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس، ٣١/١٠].

وحيث كانوا يتلعثمون أحيانًا في الجواب مخافةَ الإلزام قيل له عليه السلام: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواه عندهم أيضًا. ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وإنّ أحد الفريقين مِن الذين يوحِّدون المتوحِّدَ بالرزق والقدرةِ الذاتيّة، ويخصّونه بالعبادة، والذين يشركون به في العبادة الجمادَ النازلَ في أدنى المراتب الإمكانيّة، لَعَلَى أحد الأمرين مِن الهدى والضلال المبين، وهذا بعد ما سبَق مِن التقرير البليغ الناطق بتعيين مَن هو على الهدى ومَن هو في الضلال أبلغَ مِن التصريح بذلك، لجريانه على سَنن الإنصاف المُسكِت للخَصم الألدّ.

وقُرئ: "وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ إِمَّا عَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ".[١]

واختلاف الجارَّين للإيذان بأنّ الهادي كمَن استعلى مَنارًا ينظر الأشياء ويتطلّع عليها، والضالَّ كأنّه منغمِس في ظلامٍ لا يرى شيئًا، أو محبوسٌ في مَطمورة لا يستطيع الخروج عنها.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦﴾

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا أبلغ في الإنصاف، وأبعد مِن الجدل والاعتساف، حيث أُسندَ فيه الإجرامُ -وإن أُريدَ به الزلّةُ وتركُ الأَولى- إلى أنفسهم، ومطلقُ العمل إلى المخاطَبين، مع أنّ أعمالهم أكبر الكبائر.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة عند الحشر والحساب، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يَحكم بيننا ويَفصل بعد ظهور حال كلٍّ منّا ومنكم، بأن يُدخل المحقّين الجنّةَ، والمبطلين النارَ.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٥٨٢/٣.

﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ الحاكم الفيصل في القضايا المنغلقة، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يُقضى به.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

/ ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم﴾ أي: ألحقتموهم ﴿بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أريدَ بأمرهم بإراءةِ [٣٦٩ظ] الأصنام مع كونها بمَرأًى منه عليه السلام إظهارُ خطئهم العظيم، وإطْلاعُهم على بطلان رأيهم، أي: أرُونيها لأنظرَ بأيِّ صفة ألحقتموها بالله الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة. وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجّة عليهم.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايَسة؛ ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الموصوف بالغلبة القاهِرة والحكمة الباهِرة، فأين شركاؤكم التي هي أخسّ الأشياء وأذلّها مِن هذه الرتبة العالية؟ والضمير إمّا لله عزّ وعلا، أو للشأن، كما في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص، ١/١١٢].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: إلّا إرسالةً عامّةً لهم، فإنّها إذا عَمَّتْهم فقد كَفَّتْهم أن يخرج منها أحد منهم، أو إلّا جامعًا لهم في الإبلاغ، فهي حال مِن "الكاف"، و"التاءُ" للمبالغة، ولا سبيلَ إلى جعلها حالًا مِن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لاستحالة تقدّم الحال على صاحبها المجرور. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيحملهم جهلُهم على ما هم عليه مِن الغيّ والضلال.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن فَرْط جهلهم وغايةِ غيّهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بطريق الاستهزاء، يعنون به المبشَّرَ به والمنذَرَ عنه، أو الموعودَ بقوله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾.[١] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مخاطِبين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين به.

---

[١] سبأ، ٢٦/٣٤.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي: وعدُ يومٍ، أو زمانُ وعدٍ، والإضافة للتبيين. وقُرئ: "مِيعَادٌ يَوْمٌ" منوَّنَين[١] على البدل، و"يَوْمًا"[٢] بإضمار "أعني" للتعظيم. ﴿لَا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾[٣] عند مفاجأته ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ صفة لـ﴿مِيعَادُ﴾، وفي هذا الجواب مِن المبالغة في التهديد ما لا يخفى، حيث جُعِل الاستِئخار في الاستحالة كالاستِقدام الممتنع عقلًا، وقد مرّ بيانه مرارًا. ويجوز أن يكون نفي
[٣٧٠و] الاستئخار[٤] والاستقدام غيرَ مقيَّد بالمفاجأة، / فيكون وصفُ "الميعاد" بذلك لتحقيقه وتقريره.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مِن الكتب القديمة الدالّة على البعث. وقيل: إنّ كفّار مكّة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأخبروهم أنّهم يجدون نَعته في كتبهم، فغضِبوا، فقالوا ذلك.[٥] وقيل: ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ القيامة.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المنكرون للبعث ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في موقف المحاسبة، ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يتحاوَرون ويتراجعون القول، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ بدل مِن ﴿يَرْجِعُ﴾... إلخ، أي: يقول الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ في الدنيا واستتبعوهم في الغيّ والضلال: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ أي: لولا إضلالُكم وصدُّكم لنا عن الإيمان ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتّباع الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

٣ م س ط - ساعة.

٤ س: الاستنحار.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٨٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٤٨.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال الذين استكبروا في الجواب؟ فقيل: قالوا: ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ منكِرين لكونهم هم الصادّين لهم عن الإيمان، مثبتين أنّهم هم الصادّون بأنفسهم بسبب كونهم راسخين في الإجرام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ إضرابًا عن إضرابهم، وإبطالًا له: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل صَدُّنا مكرُكم بنا بالليل والنهار، فحُذف المضاف إليه، وأقيمَ مُقامه الظرفُ اتّساعًا، أو جُعل ليلُهم ونهارهم ماكرَين على الإسناد المجازي.

وقُرئ: "بَلْ مَكْرٌ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ" بالتنوين ونصبِ الظرفَين،[1] أي: بل صَدُّنا مكرُكم في الليل والنهار، على أنّ التنوين عوض عن المضاف إليه، أو مكرٌ عظيمٌ، على أنّه للتفخيم. وقُرئ: / "بَلْ مَكَرُّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ" بالرفع[2] والنصب،[3] [٣٧٠ظ]
أي: تَكُرُّون الإغواءَ مَكَرًّا دائبًا لا تَفتُرون عنه، فالرفع على الفاعليّة، أي: بل صَدَّنا مَكرُّكم الإغواءَ في الليل والنهار، على ما سبق مِن الاتّساع في الظرف بإقامته مُقام المضافِ إليه، والنصبُ على المصدريّة، أي: بل تكُرُّون الإغواءَ مكرَّ الليل والنهار، أي: مَكَرًّا دائمًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ﴾ ظرف للمَكْر، أي: بل مَكرُكم الدائم وقتَ أمركم لنا ﴿أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ على أنّ المرادَ بمَكرِهم إمّا نفسُ أمرِهم

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.
[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن راشد القارئ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

بما ذُكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة، ٥/٢٠]، فإنّ الجَعلين المذكورين نعمة مِن الله تعالى وأيُّ نعمة، وإمّا أمورٌ أُخَرُ مقارِنةٌ لأمرهم، داعيةٌ إلى الامتثال به، مِن الترغيب والترهيب وغير ذلك.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ أي: أضمَر الفريقان الندامةَ على ما فعلا مِن الضلال والإضلال، وأخفاها كلّ منهما عن الآخر مخافةَ التعيير، أو أظهروها، فإنّه مِن الأضداد، وهو المناسب لحالهم.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: في أعناقهم. والإظهار في موضع الإضمار للتنويه بذمّهم، والتنبيهِ على مُوجِب أغلالهم.

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا يُجزَون إلّا جزاءَ ما كانوا يعملونه، أو إلّا بما كانوا يعملونه، على نَزع الجارّ.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ﴾ مِن القرى ﴿مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تسليةً لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّا مُنِيَ به مِن قومه مِن التكذيب والكفرِ بما جاء به، والمنافسةِ بكثرة الأموال والأولاد، والمفاخَرةِ بحظوظ الدنيا وزخارفها، والتكبّرِ بذلك / على المؤمنين، والاستهانةِ بهم [٣٧١و]
مِن أجله، وقولِهم: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم، ١٩/٧٣]، بأنّه لم يُرسل قطّ إلى أهل قرية مِن نذير إلّا قال مترفوهم مثلَ ما قال مُترفوا أهلِ مكّة في حقّه عليه السلام، وكادوا به نحو ما كادوا به عليه السلام، وقاسوا أمور الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمور الدنيا، وزعموا أنّهم لو لم يَكرُموا على الله تعالى لَما رزقهم طيّباتِ الدنيا، ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه تعالى لَما حَرَمَهُموها، وعلى ذلك الرأي الركيك بنَوا أحكامهم.

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إمّا بناءً على انتفاء العذاب الأخروي رأسًا، أو على اعتقاد أنّه تعالى أكرمهم في الدنيا، فلا يُهينهم في الآخرة على تقدير وقوعها.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ ردًّا عليهم وحَسْمًا لمادّة طمَعهم الفارغ، وتحقيقًا للحقّ الذي عليه يدور أمر التكوين: ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه[١] له، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ على مَن يشاء أن يَقْدِره عليه مِن غير أن يكون لأحدٍ من الفريقين داعٍ إلى ما فُعِل به مِن البسط والقَدْر، فربّما يوسِّع على العاصي، ويضيِّق على المطيع، وربّما يعكِس الأمر، وربّما يوسِّع عليهما معًا، وقد يضيِّق عليهما، وقد يوسِّع على شخصٍ تارةً، ويضيِّق عليه أخرى، يفعل كلًّا مِن ذلك حسبَما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة، فلا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب اللذَين مَناطُهما الطاعةُ وعدمُها. وقُرئ: "وَيُقَدِّرُ" بالتشديد.[٢]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيزعمون أنّ مدار البسط هو الشرف والكرامة، ومدارَ القَدْر هو الهوان، ولا يدرون أنّ الأوّل كثيرًا ما يكون بطريق الاستدراج، / والثاني بطريق الابتلاء ورفع الدرجات. [٣٧١ظ]

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ كلام مستأنَف مِن جهته عزّ وعلا، خُوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغةً في تحقيق الحقّ وتقريرِ ما سبق، أي: وما جماعةُ أموالكم وأولادكم بالجماعة التي تقرّبكم عندنا قربةً، فإنّ الجمع المكسَّر عقلاؤه وغيرُ عقلائه سواء في حكم التأنيث، أو بالخَصلة التي تقرّبكم. وقُرئ: "بِالَّذِي"،[٣] أي: بالشيء الذي.

---

[١] س ط: يبسط.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[٣] وبالياء في: ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾. قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناء مِن مفعول ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾، أي: وما الأموال والأولاد تقرِّبُ أحدًا إلّا المؤمنَ الصالح الذي أنفق أموالَه في سبيل الله تعالى، وعلّمَ أولاده الخيرَ، وربّاهم على الصلاح، ورشّحَهم للطاعة. وقيل: مِن أموالكم وأولادكم، على حذف المضاف، أي: إلّا أموالُ مَن... إلخ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَنْ﴾، والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد[١] بالمشار إليه للإيذان بعلوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل، أي: فأولئك المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي: ثابت لهم ذلك، على أنّ الجارّ والمجرورَ خبرٌ لِما بعده، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وفيه تأكيد لتكرّر الإسناد، أو يَثبت لهم ذلك، على أنّ الجارّ والمجرور خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وما بعدَه مرتفع على الفاعليّة. وإضافة "الجَزاء" إلى ﴿ٱلضِّعْفِ﴾ مِن إضافة المصدر إلى المفعول، أصلُه: "فأولئك لهم أن يُجازَوا الضِّعفَ"، ثمّ "جَزاءٌ الضِّعفَ"، ثمّ ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾. ومعناه: أن يضاعَف لهم حسناتُهم، الواحدةُ عشرًا فما فوقها.

وقُرئ: "جَزَاءً الضِّعْفُ"،[٢] أي: فأولئك لهم الضِّعفُ جزاءً، و"جَزَاءً
[٣٧٢و] الضِّعْفَ"[٣] / على أن يُجازَوا الضِّعفَ، و"جَزَاءٌ الضِّعْفُ"[٤] بالرفع، على أنّ "الضِّعْفُ" بدل مِن "جَزَاءٌ".

﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ مِن الصالحات، ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي: غُرفاتِ الجنّة ﴿ءَامِنُونَ﴾ مِن جميع المَكارِه.

وقُرئ بفتح "الراء"[٥] وسكونها.[٦] وقُرئ: "فِي الْغُرْفَةِ"[٧] على إرادة الجنس.

---

[١] س - العهد.

[٢] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[٧] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ٣٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالردّ والطَّعن فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ سابقين لأنبيائنا، أو زاعمين أنّهم يفوتوننا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ لا يُجديهم ما عوّلوا عليه نفعًا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يوسّعه عليه تارةً، ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أي: يضيّقه عليه تارةً أخرى، فلا تخشَوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله، وتعرّضُوا لِنفحاته تعالى.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ عوضًا إمّا عاجلًا، وإمّا آجلًا. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنّ غيره واسطة في إيصال رِزقه، لا حقيقةَ لرازِقيّته.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٤٠﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون مِن دون الله. و﴿يَوْمَ﴾ ظرف لمُضمَر متأخّر سيأتي تقديره، أو مفعول لمُضمَر مقدَّم، نحو: "اذكر".

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ تقريعًا للمشركين، وتبكيتًا لهم على نهج قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي﴾... إلخ [المائدة، ٥/١١٦]، وإقناطًا لهم عمّا[1] علّقوا به أطماعَهم الفارغة مِن شفاعتهم. وتخصيصُ الملائكة لأنّهم أشرف شركائهم، والصالحون للخطاب منهم، ولأنّ عبادتهم مبدأ الشرك، فبظهور قُصورهم عن رتبة المعبوديّة وتنزّهِهم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الأولويّة. وقُرئَ الفعلان بـ"النون".[2]

---

١ س: ممّا.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٧.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية سؤال الملائكة، كأنّه قيل: فماذا يقول الملائكة حينئذ؟ فقيل: يقولون متنزِّهين عن ذلك: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على التحقّق، أي: أنت الذي نُواليه مِن دونهم، لا موالاةَ بيننا وبينهم، كأنّهم بيّنوا بذلك براءتهم مِن الرضا بعبادتهم، ثمّ أضربوا عن ذلك، ونفَوا أنّهم عبدوهم حقيقةً بقولهم: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ أي: الشياطينَ حيث أطاعوهم في عبادة غير الله سبحانه. وقيل: كانوا يتمثّلون لهم، ويُخيّلون لهم أنّهم الملائكة، فيعبدونهم. وقيل: يدخلون أجواف الأصنام إذا عُبِدَت، فيُعبَدون بعبادتها.

[٣٧٢ظ] ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ الضمير / الأوّل للإنس أو للمشركين، والأكثر بمعنى الكلّ، والثاني للجنّ.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢﴾

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ مِن جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزّه والتبرُّؤ عمّا نسب إليهم الكفرة، يخاطَبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهارًا لعجزهم وقصورهم عند عبَدتهم، وتنصيصًا على ما يوجب خَيبةَ رجائهم بالكلّيّة.

و"الفاء" ليست لترتيب ما بعدها مِن الحِكم على جواب الملائكة، فإنّه محقَّق، أجابوا بذلك أم لا؛ بل لترتيب الإخبار به عليه. ونسبة عدم النفع والضرّ إلى البعض المبهَم للمبالغة فيما هو المقصود الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبَدة بنَظمه في سِلك عدم نفع العبَدة لهم، كأنّ نفع الملائكة لعبَدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبَدة لهم. والتعرّض لعدم الضرّ مع أنّه لا بحثَ عنه أصلًا فإمّا لتعميم العجز، أو لحَمل عدم النفع على تقدير العبادة، وعدمِ الضرّ على تقدير تركها، أو لأنّ المراد دفع الضرّ على حذف المضاف. وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الإطلاق لانعقاد رجائهم على تحقّق النفع يومئذ.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطفٌ على "نَقُولُ[1] لِلْمَلَائِكَةِ"،[2] لا على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ كما قيل،[3] لأنّه ممّا يقال يوم القيامة خطابًا للملائكة مترتِّبًا على جوابهم المَحكي، وهذا حِكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لِما سيُقال للعبَدة يومئذ إثرَ حكاية ما سيُقال للملائكة، أي: يومَ نحشرهم جميعًا ثمّ نقول[4] للملائكة كذا وكذا، ويقولون كذا وكذا، ونقول للمشركين: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ بيان لبعض آخَر مِن كَفَراتِهم، أي: إذا تتلى عليهم بلسان الرسول صلّى الله عليه وسلّم / آياتُنا الناطقة بحقّيّة [٣٧٣و] التوحيد وبطلان الشرك ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيستتبِعكم بما يستبدِعه مِن غير أن يكون هناك دين إلهي. وإضافة "الآباء" إلى المخاطَبين -لا إلى أنفسهم- لتحريك عِرق العصبيّة منهم مبالغةً في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كلام مَصروف عن وجهه، لا مِصداقَ له في الواقع، ﴿مُّفْتَرًى﴾ بإسناده إلى الله تعالى.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ أي: لأمر النبوّة، أو الإسلامِ، أو القرآنِ، على أنّ العطف لاختلاف العنوان بأن يُراد بالأوّل معناه، وبالثاني نظمُه المعجِز. ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ مِن غير تدبّر ولا تأمّل فيه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر سِحريّته.

---

[1] كذا في الأصول الخطّيّة بـ"النون"، هو مبنيّ على القراءة بـ"النون"، وقد سبق بيانها في سبأ، ٣٤/٤٠.

[2] سبأ، ٣٤/٤٠.

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٨٨؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٥٠.

[4] كذلك هو مبنيّ على القراءة بـ"النون" في الفعلين.

وفي تكرير الفعل، والتصريحِ بذكر الكفرة، وما في "اللامَين"[١] مِن الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وما في ﴿لَمَّا﴾ مِن المسارعة إلى البتّ بهذا القول الباطل؛ إنكارٌ عظيم له، وتعجيبٌ بليغ منه.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ فيها دليل على صحّة الإشراك كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم، ٣٥/٣٠]، وقولِه تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف، ٢١/٤٣]. وقُرئ: "يُدَرِّسُونَهَا"،[٢] و"يَدَّرِسُونَهَا" بتشديد "الدال"،[٣] "يفتَعِلون" مِن "الدَّرْس".

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه، وينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، وقد بانَ مِن قبلُ أن لا وجهَ له بوجه مِن الوجوه، فمِن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ؟ وهذا غاية تجهيل لهم، وتسفيهٍ لرأيهم.

ثمّ هدّدهم بقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المتقدّمة والقرونِ الخالية كما كذّبوا، ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: ما بلغَ هؤلاء عُشرَ ما آتينا أولئك مِن القوّة وطول العمر وكثرة المال، أو ما بلغَ أولئك عُشرَ ما آتينا / هؤلاء مِن البيّنات والهدى، ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ عطفٌ على ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾... إلخ بطريق التفصيل والتفسير، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ[٤] قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾... إلخ [القمر، ٩/٥٤]. [٣٧٣ظ]

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري لهم بالتدمير، فليحذَر هؤلاء مِن مثل ذلك.

---

[١] أراد بهما الاسم الموصول المذكور في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ولام التعريف في قوله: ﴿لِلْحَقِّ﴾ على سبيل التغليب. انظر: حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ٧١٠/٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٩/٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٩/٨.

[٤] م س ط - قبلهم.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: ما أُرشدكم وأنصح لكم إلّا بخَصلة واحدة، هي ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ على أنّه بدل منها، أو بيان لها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي أن تَقُوموا مِن مجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو تنتصبوا للأمر خالصًا لوجه الله تعالى معرضًا عن المماراة والتقليد، ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: متفرّقين اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، فإنّ الازدحام يشوِّش الأفهام، ويخلط الأفكار بالأوهام. وفي تقديم ﴿مَثْنَىٰ﴾ إيذان بأنّه أوثَق وأقرب مِن الاطمئنان.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمره صلّى الله عليه وسلّم وما جاء به؛ لتعلموا حقيقتَه وحَقِّيتَه.

وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ استئناف مَسوق مِن جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمّل بأنّ مثل هذا الأمر العظيم الذي تحته[١] مُلك الدنيا والآخرة لا يتصدّى لادّعائه إلّا مَجنونٌ لا يُبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهورِ عَجزه، أو مؤيَّدٌ مِن عند الله مرشَّح للنبوّة، واثِقٌ بحجّته وبرهانه.

وإذ قد علمتم أنّه عليه السلام أرجحُ العالِمين عقلًا، وأصدقُهم قولًا، وأنزهُهم نفسًا، وأفضلُهم علمًا، وأحسنُهم عملًا، وأجمعُهم للكمالات البشريّة؛ وجَب أن تصدّقوه في دعواه، فكيف وقد انضمّ إلى ذلك معجزات تخِرّ لها صُمّ الجبال.

ويجوز أن يتعلّق بما قبله على معنى: ثم تتفكّروا فتعلَموا ما بصاحبكم مِن جِنّة. وقد جُوِّز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهاميّة على معنى: ثم تتفكّروا أيّ شيء به مِن آثار الجنون.

---

١ س: تحت.

[٣٧٤و] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ / هو عذاب الآخرة، فإنّه عليه السلام مبعوث في نَسَم الساعة.[1]

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٤٧﴾

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: أيَّ شيء سألتكم مِن أجرٍ على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي السؤال رأسًا، كقول مَن قال لمَن لم يعطِه شيئًا: "إن أعطيتني شيئًا فخذه". وقيل: ﴿مَا﴾ موصولة، أريدَ بها ما سألهم بقوله تعالى: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٥٧]، وقولِه تعالى: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى، ٤٢/٢٣]، واتّخاذُ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى، وقُرباه عليه السلام قُرباهم.

﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مُطّلِع، يعلم صِدقي وخلوصَ نيّتي. وقُرئ: "إنْ أَجْرِي" بسكون "الياء".[2]

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٤٨﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يُلقيه ويُنزله على مَن يجتبيه مِن عباده، أو يرمي به الباطِلَ فيدمغه، أو يرمي به في أقطار الآفاق، فيكون وعدًا بإظهار الإسلام، وإعلاءِ كلمة الحقّ.

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ صفة محمولة على محلّ ﴿إِنَّ﴾ واسمِها، أو بدل مِن المستكِنّ في ﴿يَقْذِفُ﴾، أو خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف. وقُرئ بالنصب[3] صفةً لـ﴿رَبِّى﴾، أو مقدَّرًا بـ"أعني". وقُرئ بكسر "الغين"،[4] وبالفتح[5] كـ"صَبور" مبالغةِ "غائِب".

---

[1] أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء، ٤/١٦١، عن أبي جَبيرة، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «بُعثت في نَسَم الساعة». وأخرجه البزّار في مسنده، ٨/٣٨٩ (٣٤٦٢)، بلفظ: «بُعثت في نَفَس الساعة». و"نَسَمُ الساعة" مِن "النسيم"، أوّلِ هبوب الريح الضعيفة، أي: بُعثت في أوّل أشراط الساعة وضَعف مجيئها. النهاية لابن الأثير، «نسم».

[2] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٣.

[4] قرأ بها حمزة وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٦.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٣.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلام والتوحيد، ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: زهَقَ الشرك بحيث لم يبقَ أثره أصلًا، مأخوذ مِن هلاك الحيّ، فإنّه إذا هلك لم يبقَ له إبداء ولا إعادة، فجُعل مثلًا في الهلاك بالمرّة، ومنه قول عُبيد:[1]

أقــفَــرَ مِــن أهــلــه عُــبـيـدُ فـلـيـس يُـبـدِي ولا يُـعـيـدُ[2]

وقيل: ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ إبليس، أو الصنم، والمعنى: لا ينشئ خَلقًا ولا يُعيد، أو لا يبدئ خيرًا لِأهله ولا يُعيد. وقيل: ﴿مَا﴾ استفهاميّة منصوبة بما بعدها.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الطريق الحقّ / ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فإنّ وبالَ [٣٧٤ظ]
ضلالي عليها؛ لأنّه بسببها؛ إذ هي الحاطّة بالذات، والأمّارة بالسوء، وبهذا الاعتبار قُوبل الشرطيّة بقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ لأنّ الاهتداء بهدايته وتوفيقه. وقُرئ: "رَبِّيَ" بفتح "الياء".[3]

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يعلم قولَ كلٍّ مِن المهتدي والضالّ وفعلَه، وإن بالغ في إخفائهما.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عند الموت، أو البعث، أو يومَ بدر. وعن ابن عبّاس

---

[1] هو عُبيد بن الأبرص بن عَوف بن جشم الأسدي، مِن مضر، أبو زياد (ت. نحو ٢٥ق هـ/٦٠٠م). شاعر مِن دُهاة الجاهليّة وحكمائها. وهو أحد أصحاب المُجمهَرات المعدودة طبقة ثانية عن المعلّقات. عاصَر أمرَأ القيس، وله معه مناظرات ومناقضات. وعمّر طويلًا حتى قتله النعمان بن المنذر، وقد وفَد عليه في يوم بؤسه. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٢٥٩/١؛ والأعلام للزركلي، ١٨٨/٤.

[2] لعُبيد بن الأبرص في لسان العرب لابن منظور، «قفر». وفيه: «يُقال: "أقفرَ فلان مِن أهله" إذا انفرَد عنهم وبقي وحدَه».

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

رضي الله عنهما: «أنّ ثمانين ألفًا يغزون الكعبة ليخرّبوها، فإذا دخلوا البيداء خُسف بهم».[١] وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي: لَرأيتَ أمرًا هائلًا.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون الله عزّ وجلّ بهرَبٍ أو تَحصُّنٍ.

﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مِن ظهر الأرض، أو مِن الموقف إلى النار، أو مِن صحراء بدر إلى قَليبها، أو مِن تحت أقدامهم إذا خُسِف بهم. والجملة معطوفة على ﴿فَزِعُواْ﴾. وقيل: على ﴿لَا فَوْتَ﴾، على معنى: إذ فزِعوا فلم يفوتوا وأُخِذوا، ويؤيّده أنّه قُرئ: "وَأَخْذٌ"[٢] بالعطف على محلّه، أي: فلا فوتَ هنا، وهناك أخذٌ.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، وقد مرّ ذكره في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾.[٣]

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ "التناوُش": التناول السَّهل، أي: ومِن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولًا سهلًا ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فإنّه في حيّز التكليف، وهم منه بمَعزِل بعيد، وهو تمثيل حالهم في الاستخلاص بالإيمان بعد ما فات عنهم وبَعُد بحالِ مَن يريد أن يتناول الشيء مِن غَلوةٍ تناولَه[٤] مِن ذراعٍ في الاستحالة.

وقُرئ بـ"الهمز"[٥] على قلب "الواو" لضمّها، وهو مِن "نَأَشْتُ الشيءَ" / إذا طلبتَه، [٣٧٥و]

وعن أبي عمرو: "التَّناؤُش" -بـ"الهمز"- التناول مِن بُعد، مِن قولهم: "نَأَشْتُ"

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٥٩٣/٣. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء مِن الأرض يُخسف بأوّلهم وآخِرهم»، قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأوّلهم وآخِرهم وفيهم أسواقهم، ومَن ليس منهم؟ قال: «يُخسف بأوّلهم وآخِرهم، ثمّ يبعثون على نيّاتهم». صحيح البخاري، ٦٥/٣ (٢١١٨)؛ صحيح مسلم، ٢٢١٠/٤ (٢٨٨٤).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٣.

[٣] سبأ، ٤٦/٣٤.

[٤] قوله: "غَلْوة" هي مقدار رَمية سَهم، وهو هنا مثال للبُعد، كما أنّ الذراع مثال للقُرب بدون قصد للتخصيص. و"تَناولَه" مصدر مضاف للمفعول أو للفاعل. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢١١/٧.

[٥] أي: "التَّنَاؤُش". قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

إذا أبطأتَ وتأخَّرتَ، ومنه قول مَن قال:

تمنّى نئيشًا أن يكون أطاعني   وقد حدثَت بعد الأمرِ أمورُ[١]

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، أو بالعذاب الشديد الذي أنذرهم إيّاه، ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ ذلك، في أوانِ التكليف.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ويَرجُمون بالظنّ، ويتكلّمون بما لم يظهر لهم في حقّ الرسول عليه السلام مِن المَطاعن، أو في العذاب المذكور مِن بَتِّ القول بنفيه، ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ مِن جهة بعيدة مِن حاله عليه السلام، حيث ينسبونه عليه السلام إلى الشِّعر والسِّحر والكذب، وأنّ أبعدَ شيء ممّا جاء به الشِّعرُ والسحرُ، وأبعدَ شيء مِن عادته المعروفة فيما بين الداني والقاصي الكذبُ، ولعلّه تمثيل لحالهم في ذلك بحال مَن يرمي شيئًا لا يراه مِن مكان بعيد لا مجال للوهم في لُحوقه.

وقُرئ: "وَيُقْذَفُونَ"[٢] على أنّ الشيطان يُلقي إليهم ويُلقّنهم ذلك، وهو معطوف على ﴿قَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ على حكاية الحال الماضية، أو على ﴿قَالُوٓاْ﴾،[٣] فيكون تمثيلًا لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيّعوه مِن الإيمان في الدنيا.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝٥٤﴾

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِن نفع الإيمان والنجاة مِن النار. وقُرئ بإشمام الضمّ للحاء.[٤] ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: بأشباههم مِن كفرة الأمم الدارجة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ أي: مُوقعٍ في الرِّيبة، أو ذي رِيبةٍ.

---

[١] لنَهشل بن حَرّي في لسان العرب لابن منظور، «نأش». وفيه: «أي: تمنّى في الأخير وبعدَ الفَوت أن لو أطاعني، وقد حدثت أمور لا يُستدرك بها ما فات، أي: أطاعني في وقت لا تنفعه فيه الطاعة».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وأبي حيوة ومحبوب عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] قرأ بها ابن عامر والكسائي ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

والأوّل منقول ممّن يصحّ أن يكون مُريبًا مِن الأعيان إلى المعنى، والثاني مِن صاحب الشكّ إلى الشكّ، كما يقال: "شِعرٌ شاعِر"، والله تعالى[1] أعلم.

[٣٧٥ظ] / عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ سبأ لم يبقَ رسول ولا نبيٌّ إلّا كان له يومَ القيامة رفيقًا ومصافحًا».[2]

---

[1] م - تعالى.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٦٩/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٨٦/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٣٤

سُورَةُ سَبَإٍ

مكية إلاّ «ويرى الذين أوتُوا العلم» الآيةَ فمدنية، وهي أربعٌ أو خمس وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الحَمدُ لِلهِ﴾ حَمْدُ تعالى نفسَه بذلك المُرادُ به الثناءُ بمضمونه من ثُبوتِ الحمد ـ وهو الوصف بالجميل ـ لِله ﴿الَّذِي لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ مُلكًا وخلقًا، ﴿ولَهُ الحَمدُ في الآخِرةِ﴾ كالدنيا، يحمده أولياؤه إذا دخلوا الجنّة، ﴿وهُوَ الحَكِيمُ﴾ في فِعله ﴿الخَبِيرُ﴾ بخلقه، ٢ ـ ﴿يَعلَمُ ما يَلِجُ﴾: يدخل ﴿في الأرضِ﴾ كماء وغيره، ﴿وما يَخرُجُ مِنها﴾ كنبات وغيره، ﴿وما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ﴾ من رِزق وغيره، ﴿وما يَعرُجُ﴾: يصعد ﴿فِيها﴾ من عمل وغيره، ﴿وهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه ﴿الغَفُورُ﴾ لهم.

سُورَةُ سَبَإٍ

قوله: (مِلْكاً) بالكسرِ، ويحتملُ الضَّمَّ.

قوله: (وخَلْقاً) ونِعمَةً، فله الحمْدُ في الدُّنيا لكمالِ قُدرَتِهِ وعلى تمامِ نعمتِهِ.

قوله: (كالدُّنيَا) لأنَّ ما في الآخرَةِ أيضاً كذلك، وتقديمُ الصِّلةِ لمزيدِ اختصَاصِ أمورِ الآخرةِ باللهِ.

قوله: (وغَيرِهِ) من الدَّفائنِ والبُذورِ والأمواتِ.

قوله: (وغَيرِهِ) مِن الحيواناتِ، والفِلِزَّاتِ، وماءِ العُيونِ.

قوله: (وغَيرِهِ) من الملائكَةِ، والكُتُبِ، والأنديَةِ، والصَّواعقِ.

قوله: (مِنْ عَمَلٍ) أي: صالحٍ.

قوله: (وغَيرِهِ) من الملائكَةِ، وأرواحِ المؤمنينَ، والأبخرَةِ، والأدخِنَةِ.

قوله: (لَهم) إن وقَعَ لهم تقصيرٌ في شُكرِ نعمِهِ.

٣ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: لا تأتِينا السّاعةُ﴾: القِيامة. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿بَلَى وربِّي لَتأتِيَنَّكُم، عالِمِ الغَيبِ﴾ ـ بالجرِّ: صفةٌ، والرفعِ: خبرَ مبتدأ. و«عَلاّمِ» بالجرّ ـ ﴿لا يَعزُبُ﴾: يغيب ﴿عَنهُ مِثقالُ﴾: وزنُ ﴿ذَرَّةٍ﴾: أصغرِ نملةٍ ﴿في السَّماواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغَرُ مِن ذلِكَ ولا أكبَرُ، إلاّ في كِتابٍ مُبِينٍ﴾: بيّنٍ هو اللوح المحفوظ، ٤ ـ ﴿لِيَجزِيَ﴾ فيها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ. أُولئِكَ لَهُم مَغفِرةٌ ورِزقٌ كَرِيمٌ﴾: حسن في الجنّة. ٥ ـ ﴿والَّذِينَ سَعَوا في﴾ إبطال ﴿آياتِنا﴾: القُرآنِ ﴿مُعَجِّزِينَ﴾، وفي قراءة هنا وفيما يأتي: «مُعاجِزِينَ» أي: مُقدّرين عجزَنا، أو مُسابقين لنا فيفوتونا لظنّهم أنْ لا بعث ولا عقاب،...

قولُه: (بالجَرِّ صِفَةً) ﴿ربِّي﴾ مكِّيٌّ وبصريٌّ[1].

قولُه: (والرَّفعِ) نافعٌ وشاميٌّ[2].

قولُه: (خَبرَ مُبتَدَإٍ) أو مبتدأً خبرُهُ: ﴿لا يعزب﴾، وبالكسرِ كسائيٌّ[3].

قولُه: (وَزْنُ) مِقدارُ.

قولُه: (أَصْغَرِ نَمْلَةٍ) أو ذرَّةِ الهباءِ.

قولُه: (بَيِّنٍ) ورفعُهُما بالابتداءِ، ويؤيِّدُه القراءةُ الشَّاذَّةُ بالفتحِ[4] على نَفْيِ الجنسِ.

قولُه: (فِيهَا) أي: في السَّاعةِ، عِلَّةُ ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وبيانٌ لما يَقتَضي إتيانَها.

قولُه: (حَسَنٌ) لا تَعَبَ فيه، ولا مِنَّةَ مخلوقٍ.

قولُه: (إِبْطَالِ ﴿آياتِنَا﴾) وتزهيدِ النَّاسِ فيها.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ مكِّيٍّ وبصريٍّ[5]، وهي أولى بأن تكونَ أَصْلاً به.

قولُه: (مُقَدِّرِينَ) أو: مُعَوِّقينَ عنِ الإيمانِ مَن أرادَهُ، على الأَوْلى.

قولُه: (فَيَفُوتُونَا) أي: كي يفُوتونا، أو مُفَوِّتينَ على زعمِهِم يحسَبونَ أنَّهُم يفوتونَنا.

---

(١) ومثلهم عاصم، وكذلك حمزة والكسائي إلا أنهما بلام قبل الألف مشددة، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٨١).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٨٢).

(٤) أي: (ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ)، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٢٢) ونسبت للأعمش وقتادة.

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٨٢).

﴿أُولَئِكَ لَهُم عَذابٌ مِن رِجزٍ﴾: سيئ العذاب ﴿أَلِيمٍ﴾: مُؤلم. بالجرِّ والرفعِ صِفةً لرجز أو عذاب.

٦ ـ ﴿وَيَرَى﴾: يعلمُ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ﴾: مؤمنو أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأصحابه ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ﴾ أي: القرآنَ ﴿هُوَ﴾ ـ فصلٌ ـ ﴿الحَقَّ، وَيَهدِي إِلَى صِراطِ﴾: طريقِ ﴿العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ أي: اللهِ ذي العِزّة المحمودة.

٧ ـ ٨ ـ ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قال بعضهم على جِهة التعجّب لبعض: ﴿هَل نَدُلُّكُم عَلَى رَجُلٍ﴾، هو مُحمّد، ﴿يُنَبِّئُكُم﴾: يُخبرُكم: ﴿إِذا مُزِّقتُم﴾: قُطِّعتم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بمعنى: تمزيقٍ ﴿إِنَّكُم لَفِي خَلقٍ جَدِيدٍ؟ أَفتَرَى﴾ ـ بفتح الهمزة للاستفهام واستُغني بها عن همزة الوصل ـ ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ في ذلك، ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾: جنون تَخيَّلَ به ذلك؟

قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ المُشتملةِ على البعث والعذاب ﴿فِي العَذابِ﴾ فيها

قولُه: (والرَّفعِ) مكِّيٌّ وحفصٌ[1].

قولُه: (مُؤمِنُو أَهلِ الكِتَابِ) أو: أولو العلمِ من الصَّحابةِ ومن تبعَهُم من الأمَّةِ.

قولُه: (فَصْلٌ) وما بعدَهُ ثاني مفعولَي: ﴿يرى﴾.

قولُه: (طَرِيْقِ) دينِ الإسلامِ، والهادي هو اللهُ، أو القرآنُ.

قولُه: (هُو مُحَمَّدٌ) يعنُونَ أصدَقَ الصَّادِقينَ.

قولُه: (يُخبِرُكُم) بأعجَبِ الأعاجيبِ.

قولُه: (بِمَعنَى: تَمزِيْقٍ) يعني: أنَّهُ مصدَرٌ ميميٌّ.

قولُه: (إِنَّكُم) نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ [المؤمنون: ٣٥].

قولُه: (للاستِفهَامِ) الأظهرُ الأخصَرُ: بهمزةِ الاستفهامِ.

قولُه: (واستُغنِيَ بِهَا) فحُذِفَت.

قولُه: (فِي ذَلِكَ) أي: في دعوَتِه[2]، والمعنى: اختلقَ عليه قاصِداً الكذبَ، أو اخترَعَ عليه كَذِباً.

قولُه: (تَخَيَّلَ) فيتفوَّهُ بما لا يعقلُهُ من المُحالِ.

قولُه: (فِيهَا) أي: كائِنونَ في العَذابِ في الآخرةِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٨٢).

(٢) في (ص): «قوله في ذلك الافتراء أي في قوله».

﴿والضَّلالِ البَعِيدِ﴾ من الحقّ في الدنيا. ٩ ـ ﴿أفلَم يَرَوا﴾: ينظروا ﴿إلَى ما بَينَ أيدِيهِم وما خَلفَهُم﴾: ما فوقهم وما تحتهم ﴿مِنَ السَّماءِ والأرضِ، إن نَشَأْ نَخسِفْ بِهِمِ الأرضَ أو نُسقِطْ علَيهِم كِسْفًا﴾، بسكون السين وفتحها: قِطعةً ﴿مِنَ السَّماءِ﴾. وفي قراءة في الأفعال الثلاثة بالياء. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المرئيّ ﴿لَآيةً لِكُلِّ عَبدٍ مُنِيبٍ﴾: راجعٍ إلى ربّه، تدل على قُدرة الله على البعث وما يشاء.

١٠ ـ ﴿ولَقَد آتينا داوُدَ مِنّا فَضلاً﴾: نُبوّة وكِتابًا، وقلنا: ﴿يا جِبالُ، أَوِّبِي﴾: رجِّعي ﴿مَعَهُ﴾ بالتسبيح، ﴿والطَّيرَ﴾ ـ بالنصب عطفًا على محلّ «الجبال» أي: ودعَوناها تسبّحُ معه. ﴿وأَلَنّا لَهُ الحَدِيدَ﴾ فكان في يده كالعجين، ١١ ـ وقلنا: ﴿أنِ اعمَلْ﴾ منه ﴿سابِغاتٍ﴾: دُروعًا كواملَ يجرّها لابسها على الأرض،

قولُه: (فِي الدُّنيَا) ولذا تردَّدوا في أنَّهُ مُفترٍ أو مجنونٌ، ولولا ذلك لعَلموا أنَّه أصدَقُ الخلقِ وأعقَلُهُم.

قولُه: (مَا فَوقَهُم) أو: ما أحاطَ بجوانِبِهِم، ولم يتفكَّروا أهُم أشَدُّ خَلقاً أم هي؟ وأنَّهُما تحتَ قُدرَتِنا وإرادَتِنا.

قولُه: (وفَتْحِهَا) حفصٌ[1].

قولُه: (قِطعَةً) يعني: مفردَهُما.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ، وبإدغامِ الفاءِ في الباءِ كسائيٌّ[2].

قولُه: (راجِعٍ إلى رَبِّهِ) فإنَّهُ يكونُ كثيرَ التَّأمُّلِ في أمرِهِ.

قولُه: (وكِتَاباً) ومِلْكاً، وصوتاً حَسَناً.

قولُه: (بالتَّسْبِيحِ) الباءُ زائدةٌ؛ أي: سَبِّحي معه إذا سبَّحَ.

قولُه: (بالنَّصبِ عَطفًا على مَحَلِّ الجِبَالِ) ويؤيِّدُهُ القراءةُ الشَّاذَّةُ بالرَّفعِ[3] عطفاً على لفظِها.

وقيلَ: إنَّهُ مفعولٌ معهُ لـ﴿أَوِّبِي﴾، وكانَ إذا سبَّحَ تُسبِّحُ معه الجبالُ والطَّيرُ، وتجاوبُهُ بأنواعِ اللُّغاتِ.

قولُه: (كالعَجِيْنِ) والشَّمْعِ.

قولُه: (وقُلْنَا ﴿أَنِ﴾) بعدَ القولِ لا يكونُ «أن»، فالصَّوابُ تقديرُ: أمَرناهُ؛ أي: بلسانِ المَلَكِ أو الوحي، و﴿أَنِ﴾ مفسِّرةٌ أو مصدريَّةٌ.

قولُه: (كَوَامِلَ) واسِعاتٍ، وقُرِئَ: (صابغات)[4] وهو أوَّلُ مَن اتَّخذَها.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٦٦).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٣) أي: (والطيرُ) انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٢٢)، ونسبت للأعرج وعبد الوارث عن أبي عمرو.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٨٩) ونسبت لزيد بن علي.

﴿وقَدِّرْ في السَّردِ﴾ أي: نسجِ الدُّروع ـ قيل لصانعها سَرّادٌ ـ أي: اجعله بحيثُ تتناسب حَلَقُه، ﴿واعمَلُوا﴾ أي: آلَ داودَ معه ﴿صالِحًا. إنّي بِما تَعمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأُجازيكم به.

١٢ ـ ﴿و﴾ سخَّرْنا ﴿لِسُلَيمانَ الرِّيحَ﴾ ـ وقراءة الرفع بتقدير: تسخيرُ ـ ﴿غُدُوُّها﴾: مسيرُها من الغُدوة بمعنى الصباح إلى الزوال ﴿شَهرٌ، ورَواحُها﴾: سيرُها من الزوال إلى الغروب ﴿شَهرٌ﴾ أي مسيرتُه، ﴿وأسَلْنا﴾: أذَبْنا..

قولُه: (تَتَنَاسَبُ) وأصلُ السَّردِ: التَّابعُ.

قولُه: (حلَقَهُ) الأظهرُ: حلَقها.

قولُه: (أي: آلَ دَاوُدَ) بالرَّفعِ: بيانُ الضَّميرِ، وبالنَّصبِ: تقديرُ نِداءٍ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةِ الرَّفعِ) لشعبةَ[1].

قولُه: (تَسْخِيرُ) الرِّيحِ، أو: ولسليمانَ الرِّيحُ مسخَّرةٌ.

قولُه: (إِلى الزَّوَالِ) في «القاموسِ»: الغُدْوَةُ: البُكرةُ، أو ما بينَ الصُّبحِ وطلُوعِ الشَّمسِ[2]، وقالَ في البُكرةِ: الغدوةُ[3].

قولُه: (مِنَ الزَّوَالِ) في «القاموسِ»: الرَّواحُ: العَشيُّ، أو من الزَّوالِ إلى اللَّيل[4]، وقالَ في العَشيِّ: آخرُ النَّهارِ[5].

قولُه: (أي: مَسِيرَتُهُ) محلُّهُ شهرُ الأوَّلِ.

قولُه: (أَذَبْنَا) فيه: أنَّ الإسالَةَ غيرُ الإذابةِ، مع أنَّها تستَدْعي سَبْقَ الجموديَّةِ، اللَّهمَّ إلَّا أن يُقالَ: خَلقناهُ مُذاباً، وعليه يحملُ قولُ البيضاويِّ: «النُّحاسِ المُذابِ»؛ أي: في أصلِ خِلقَتِهِ، ولذا قالَ: «أسالَهُ لَهُ مِنْ معدنِه، فنَبَعَ منهُ نبوعَ الماءِ مِن الينبُوعِ، ولذلك سمَّاهُ عيناً»[6].

وفي «المبهماتِ»: قال قتادةُ: وكانَ ذلك باليَمَنِ[7].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٧).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٣١٧).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٣٥٣).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٢٢١).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٣١١).

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤٣).

(٧) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٨٨). ورواه عن قتادة الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٦٣).

﴿لَهُ عَينَ القِطرِ﴾ أي: النُّحاسِ، فأُجريَتْ ثلاثة أيام بلياليهنّ كجري الماء ـ وعمَلُ الناس إلى اليوم ممّا أُعطي سُليمانُ ـ ﴿ومِنَ الجِنِّ مَن يَعمَلُ بَينَ يَدَيهِ بِإذنِ﴾: بأمرِ ﴿رَبِّهِ، ومَن يَزِغْ﴾: يعدِل ﴿مِنهُم عَن أمرِنا﴾ له بطاعته ﴿نُذِقْهُ مِن عَذابِ السَّعِيرِ﴾: النار في الآخرة ـ وقيل: في الدنيا بأن يضربه مَلَك بسوط منها ضربة تُحرقه ـ ١٣ ـ ﴿يَعمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ، مِن مَحارِيبَ﴾: أبنيةٍ مُرتفعة يُصعد إليها بدرَج، ﴿وتَماثِيلَ﴾: جمعُ تِمثال وهو كل شيء مثّلته بشيء، أي: صُورًا من نُحاس وزُجاج ورُخام ـ ولم يكن اتّخاذ الصور حرامًا في شريعته ـ ﴿وجِفانٍ﴾: جمع جَفنة ﴿كالجَوابِي﴾: جَمع جابية، وهي حوض كبير، يجتمع على الجفنة ألفُ رجل يأكلون منها، ﴿وقُدُورٍ راسِياتٍ﴾: ثابتات لها قوائمُ لا تتحرّك عن أماكنها، تُتّخذ من الجِبال باليمن يُصعد إليها بالسلاليم، وقلنا: ﴿اعمَلُوا﴾ ـ يا ﴿آلَ داوُدَ﴾ ـ بطاعة الله ﴿شُكرًا﴾ له على ما آتاكم، ﴿وقَلِيلٌ مِن عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾: العامل بطاعتي شكرًا لنعمتي.

قولُه: (وعَمَلُ النُّحَاسِ) وفي نسخةٍ: «وعَمَلُ النَّاسِ»[1].

قولُه: (لَهُ بِطَاعَتِهِ) أي: عمَّا أمَرْناهُ من طاعةِ سليمانَ.

قولُه: (مِنْهَا) أي: من النَّارِ، وقالَ السُّدِّيُّ ومجاهدٌ: تدركُهُ صاعقةٌ فتحرِقُهُ[2].

قولُه: (أَبنِيَةٍ) أو قُصورًا حصينَةً ومساكنَ[3] شريفةً، أو مساجِدَ عظيمةً، سُمِّيَت بها؛ لأنَّها يُدفَعُ عنها ويُحارَبُ عليها.

قولُه: (يُصْعَدُ) كأنَّه أخذَ من «القاموسِ»: المحرابُ: الغُرْفةُ، وهي العلِّيَةُ، ومن جملةِ معاني المحرابِ على ما ذُكِرَ في «القاموسِ»: الموضعُ ينفردُ به المَلِكُ[4]، وهو المناسِبُ للمقامِ.

قولُه: (ولمْ يَكُنِ) الظاهرُ: أو؛ يعني: تماثيلَ للملائكةِ والأنبياءِ على ما اعتادوا من العِباداتِ ليَراها النَّاسُ فيَعبُدوا نحو عبادَتِهم.

قولُه: (جَفْنَةٍ) قَصعَةٍ.

قولُه: (لَهُ) أي: للهِ، أو: للشُّكرِ؛ إشارةٌ إلى أنَّه علَّةٌ، وقيلَ: الشُّكرُ يكونُ بالقلبِ واللِّسانِ والجوارِحِ، فقالَ: ﴿اعمَلُوا﴾ لينبِّهَ على التزامِ الأنواعِ، ولذا قيلَ: نَصبُهُ على المصدرِ.

قولُه: (العَامِلُ) الأنسبُ: البالِغُ الباذِلُ وُسعَهُ في الشُّكرِ.

---

(١) وهكذا هي في النسخ المعتمدة في المتن.

(٢) ذكر القرطبي في «تفسيره» (١٤/ ٢٧١) نحوه عن السدي.

(٣) في (ص): «ومعالي».

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٧٣).

١٤ ـ ﴿فلَمّا قَضَينا علَيهِ﴾: على سُليمانَ ﴿المَوتَ﴾ أي: ماتَ، ومكَثَ قائمًا على عصاه حولاً ميتًا، والجِنُّ تعمل تلك الأعمال الشاقّة على عادتها لا تشعر بموته، حتّى أكلَتِ الأرَضةُ عصاه فخرَّ ميتًا، ﴿ما دَلَّهُم علَى مَوتِهِ إلاَّ دابَّةُ الأرْضِ﴾: مصدرُ: أُرِضَتِ الخشبةُ بالبناء للمفعول: أكلتْها الأرَضةُ، ﴿تأكُلُ مِنسَأتَهُ﴾ بالهمزِ، وتركِه بألِفٍ: عصاه لأنها يُنسأ: يُطرد ويُزجر بها. ﴿فلَمّا خَرَّ﴾ ميتًا ﴿تبيَّنَتِ الجِنُّ﴾: انكشفَ لهم ﴿أنْ﴾: مُخففةٌ أي: أنّهم ﴿لَو كَانُوا يَعلَمُونَ الغَيبَ﴾، ومنه ما غاب عنهم من موت سُليمان، ﴿ما لَبِثُوا في العَذابِ المُهِينِ﴾: العمل الشاقّ لهم لظنّهم حياتَه خِلاف ظنّهم علمَ الغيب. وعُلِمَ كونُه سَنةً بحساب ما أكلته الأرَضة من العصا بعد موته يومًا وليلة مثلاً.

قولُه: (الأَرَضَةُ) محرَّكةٌ: دُوَيبَّةٌ معروفةٌ، كذا في «القاموسِ»[(١)].

قولُهُ تعالى: (﴿مَا دَلَّهُمْ﴾) أي: الجنَّ، وقيلَ: آلَ داودَ.

قولُه: (مَصدَرٌ) يعني: أضيفَتْ إلى فِعلِها، فلا يلتبِسْ عليكَ بـ«دابَّة الأرض تكلِّمُهُم»، ولعلَّهُ وجهُ التَّأخيرِ لِمَا حقُّهُ التَّقديمُ على: ﴿تَأْكُلُ﴾.

قولُه: (الآرِضَةُ) بالمدِّ: الدَّابَّةُ، والجمعُ: أرَضَةٌ، كالكَفَرَةِ والفَجَرَةِ، كذا في «عجائبِ الكرمانيِّ»[(٢)]، قيلَ: فشكرَتِ الجنُّ للأرَضَةِ، فهم يأتونَها بالماءِ والطِّينِ في أيِّ موضِعٍ هي فيه.

قولُه: (بالهَمْزِ) المفتوحِ: للجمهورِ، وبالسَّاكنِ: لابنِ ذكوانَ[(٣)].

قولُه: (وتَرْكِهِ بأَلِفٍ) نافعٌ وبصريٌّ[(٤)]، وحقُّهُ تركُهُ.

قولُه: (عَصَاهُ) الأولى: عصاتُهُ، من نَسَأْتُ البعيرَ: إذا طردْتَهُ.

قولُه: (يُنْسَأُ) أي: يُؤَخَّرُ.

قولُه: (انْكَشَفَ لَهم) فـ(تبيَّنَ) لازمٌ بمعنى: ظَهَرَ، فتكونُ ﴿أَنْ﴾ مع صِلَتِها بدلَ اشتمالٍ من ﴿الْجِنُّ﴾ كما تقولُ: تبيَّنَ زَيدٌ جهلُهُ؛ أي: ظَهَرَ جهلُ الجِنِّ للإنسِ، أو متعدٍّ بمعنى: عَلِمَ؛ أي: علمَتِ الجنُّ بعد التِباسِ الأمرِ عليهم.

قولُه: (وَمِنْهُ مَا غَابَ) أي: لعلمُوا[(٥)] موتَهُ حيثُ ما وَقَعَ، فلم يلبثُوا بعدَهُ حولاً في تَسْخيرِهِ إلى أن سقطَ،

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٦٣٦).

(٢) انظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ٩٢٩).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٤) انظر المصدر السابق.

(٥) أي: «لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا...».

١٥ ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾، بالصرف وعدمه: قبيلةٍ سُمّيت باسم جدٍّ لهم من العرب، ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ باليمن، ﴿آيَةٌ﴾: دالّة على قُدرة الله ـ تعالى ـ ﴿جَنَّتَانِ﴾: بدلٌ ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾: عن يمين واديهم وشِماله،

رُوِيَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ[١]: أنَّهُ كانَ مِنْ عادَتِهِ أنْ يعتكفَ في مسجدِ بيتِ المقدِسِ سَنَةً وسنتَينِ، وأقلَّ وأكثرَ، فلمَّا عَلِمَ قُربَ أجلِهِ قالَ: اللَّهمَّ عَمِّ موتي على الجنِّ حتَّى يعلمَ الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمُونَ الغَيْبَ، ثمَّ دَخَلَ المِحْرَابَ واتَّكَأَ على عصاهُ، وقبضَهُ مَلَكُ الموتِ[٢]، وكانَ عمُرُه ثلاثاً وخمسينَ سنةً، ومُلِّكَ وهو ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً، وابتدأ عمارةَ بيتِ المقدسِ لأربعٍ مَضَينَ من ملكِهِ[٣].

قولُه: (وعَدَمِهِ) هذا معدومٌ غيرُ موجودٍ في القراءاتِ، فإنَّ البَزِّيَّ والبصريَّ: بهمزةٍ مفتوحةٍ من غيرِ تنوينٍ، وقُنْبُلاً: بهمزةٍ ساكنةٍ، والباقينَ: بهمزةٍ مكسورةٍ منوَّنةٍ[٤]، وقولُ البيضاويِّ: وعن ابنِ كثيرٍ قَلْبُ همزَتِهِ ألفاً، ولعلَّهُ أخرجَهُ بينَ بينَ فلمْ يؤدِّهِ الرَّاوي كما وجبَ[٥]. ظنُّ سوءٍ مع أنَّ إخراجَهُ بينَ بينَ غيرُ صحيحٍ على مُقتَضى مذهبِ المكِّيِّ وغيرِهِ، فالصَّوابُ أنَّ إسكانَهُ إجراءٌ للوَصلِ مُجرى الوقْفِ.

قولُه: (قَبِيْلَةٍ) أو حَيٍّ.

قولُه: (بِاليَمَنِ) وحفصٌ وحمزةُ بالإفرادِ والفتحِ والكسائيُّ بالكسرِ[٦]. أي: موضِعِ سُكْناهُم، أو مسكنِ كلِّ واحدٍ منهُم.

قولُه: (بَدَلٌ) مِنْ: ﴿آيَةٌ﴾.

قولُه: (عَن يَمِيْنِ وَادِيْهِم) أي: جماعةٌ عن يمينِ بَلَدِهِم، وأخرى عن شمالِهِ، كلُّ واحدةٍ منهُما في تقارُبِها وتضايُقِهَا[٧] كأنَّهُما جنَّةٌ واحدةٌ، أو: بُستانا كلِّ رجلٍ منهم عن يمينِ مسكنِهِ وعن شمالِهِ، والآيَةُ قِصَّتُهُما.

---

(١) لم أقف عليه مسنداً هكذا، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٧٢) مختصراً.

(٢) لم أقف عليه مسنداً هكذا، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٧٢) مختصراً.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٢/ ٦٥)، ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٢٩٩) عن محمد بن إسحاق عن الزهري وغيره.

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٦٧).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤٤).

(٦) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٧) قوله: «وتضايقها» بالقاف؛ أي: واتصالها، فإنه كما يُطلق التفسحُ على الانفصال كقوله: ﴿تفسحوا في المجالس﴾ [المجادلة: ١١] يطلق الضيق على الاتصال لأنه لازم معناه. وضبط بالفاء وهو بمعنى القاف؛ أي: تنضم إليها وتتصل بها حتى تكون في حكم شيء واحد وإن تباينت حدودها وملاكها. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ١٩٧). وفي نسخة ذكرها زكريا الأنصاري في «الحاشية على البيضاوي» (٤/ ٥٠٢): «تضامها»، والمعنى في الكل متقارب.

وقيل لهم: ﴿كُلُوا مِن رِزْقِ رَبِّكُمْ، واشكُرُوا لَهُ﴾ على ما رزقكم من النعمة. في أرض سبأ ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ ليس بها سِباخ ولا بعوضة ولا ذُبابة ولا بُرغوث ولا عقرب ولا حيّة، ويمرّ الغريب بها وفي ثيابه قملٌ، فيموت لطيب هوائها. ﴿و﴾ الله ﴿رَبٌّ غَفُورٌ﴾.

١٦ ـ ١٧ ـ ﴿فأعرَضُوا﴾ عن شُكره وكفروا، ﴿فأرسَلْنا عليهم سَيلَ العَرِمِ﴾: جمعُ عَرِمة، وهو ما يَمسِكُ الماءَ من بناء وغيره إلى وقت حاجته، أي: سيلَ واديهم الممسوك بما ذُكر، فأغرق جنّتيهم وأموالهم، ﴿وبَدَّلْناهُم بِجَنَّتَيهِم جَنَّتَينِ ذَواتَي﴾: تثنيةُ ذوات ـ مفرد على الأصل ـ ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾: مُرٍّ بشعٍ، ....

قولُه: (وَقِيلَ لَهُمْ) أي: قالَ لهم نَبيُّهم، أو لسانُ الحالِ.

قولُه: (أَرْضِ سَبَأ) استئنافٌ للدَّلالةِ على مُوجِبِ الشُّكرِ؛ أي: هذه البلدةُ الَّتي فيها رزقكُمْ ﴿بلدةٌ طيِّبةٌ﴾، وربُّكُمُ الَّذي رزقَكُم وطلبَ شُكرَكم ﴿ربٌّ غفورٌ﴾ فَرَطاتِ[1] من يشكُرُهُ.

قولُه: (سِبَاخٌ) جمعُ: سَبَخَةٍ ـ محرَّكةً ـ: أرضٌ ذاتُ نَزٍّ[2] ومِلْحٍ[3].

قولُه: (ولا حَيَّةٌ) ولا غيرُها من المؤذياتِ.

قولُه: (عَن شُكْرِهِ) إلى عبادةِ الشَّمسِ.

قولُه: (وكَفَرُوا) وكذَّبوا الأُمَناءَ[4]، عن وهبٍ: أرسلَ إليهم ثلاثةَ عشرَ نبيّاً[5].

قولُه: (سَيْلَ وَادِيهِم) فـ﴿العرم﴾ وصفٌ للوادي، وقيل: إنَّه اسمُ وادٍ جاءَ السَّيلُ من قِبَلِهِ، وكانَ ذلك بين عيسى ومحمَّدٍ عليهما السَّلامُ.

قولُه: (ثَمَرٍ) تفسيرٌ لـ﴿أُكُلٍ﴾، وفي نسخةٍ: «مُرٍّ»[6] إذ كلُّ نبتٍ مُرٍّ فهو خَمْطٌ.

قولُه: (بَشِعٍ) فإنَّ الخَمْطَ كُلُّ نبتٍ أخَذَ طَعْماً في مرارَةٍ[7]، وفسَّرهُ بـ«الأراكِ» جماعةٌ من السَّلفِ كابنِ عبَّاسٍ

---

(١) «فرطات» مفعول به لـ﴿غفور﴾؛ أي: غفورٌ ما فرط به في جنب الله من الذنوب.

(٢) في (ص): «تراب».

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٢٥٢).

(٤) في (ص): «الأنبياء».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٧٨).

(٦) وهكذا هي في نسخ المتن المعتمدة.

(٧) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٦٦٦).

بإضافةِ «أُكل» بمعنى مأكول وتركِها، ويُعطف عليه ﴿وأَثْلٍ وشَيءٍ مِن سِدرٍ قَلِيلٍ. ذلِكَ﴾ التبديلَ ﴿جَزَيناهُم بِما كَفَرُوا﴾: بكُفرهم. ﴿وهَل يُجازَى إلاّ الكَفُورُ﴾؟ بالياءِ، وبالنونِ مع كسر الزاي ونصب «الكفورَ»، أي: ما يُناقَش إلاّ هو.

١٨ ـ ﴿وجَعَلْنا بَينَهُم﴾ بين سبأ ـ وهم باليمن ـ ﴿وبَينَ القُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ بالماء والشجر ـ وهي قرى الشام التي يسيرون إليها للتجارة ـ ﴿قُرًى ظاهِرَةً﴾: مُتواصلة من اليمن إلى الشام،.........

والحسنِ وقتادةَ[1]، وقيلَ: كلُّ شَجَرٍ ذي شَوكٍ، فالتَّقديرُ: أُكلٍ [أُكلِ][2] خمطٍ، فحُذِفَ المضافِ، وأقيمَ المضافُ إليه مقامَهُ في كونِهِ بدلاً أو عطفَ بيانٍ.

قولُه: (بإِضَافَةِ ﴿أُكُلٍ﴾) للبصريِّ[3].

قولُه: (وتَرْكِهَا) لغَيرِهِ، وأسكنَ الحِرميَّانِ الكافَ[4].

قولُه: (عَلَيهِ) أي: على ﴿أُكُلٍ﴾ لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإنَّ الأَثْلَ هو الطَّرْفاءُ أو شجرٌ يشبهُهُ، ولا ثمرَ له[5]، ووُصفَ السِّدرُ بالقِلَّةِ فإنَّ جَناهُ وهو النَّبقُ ممَّا يطيبُ أُكُلُه، ولذلك يغرَسُ في البساتينِ، وفيه إشارةٌ إلى عدمِ انقطاعِ الرَّحمةِ عنهم بالكلِّيَّةِ معَ استحقاقِهِم كمالَ البليَّةِ، وإيماءٌ إلى قوَّتِهِم، وتسميةُ البدلِ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للمشاكلةِ والتَّهكُّمِ.

قولُه: (بالرُّسلِ)[6] أو بكفرانِهِم النِّعمةَ.

قولُه: (باليَاءِ) أي: المضمومةِ وفتحِ الزَّاي، ورفعُ (الكَفُورُ) لغيرِ حفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ[7].

قولُه: (ما يُنَاقَشُ) ويعاقَبُ إلَّا هو؛ أي: البليغُ في الكُفرِ أو الكُفرانِ.

قولُه: (بالمَاءِ والشَّجَرِ) أو التَّوسِعَةِ على أهلِها.

قولُه: (مُتَوَاصِلَةً) يظهَرُ بعضُها لبعضٍ فلا يحتاجونَ إلى دليلٍ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٢) عن ابن عباس والحسن.

ورواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢٤٠٧)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٣) عن قتادة.

(٢) من «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤٥).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٨)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٤) انظر المصدرين السابقين.

(٥) انظر: «الصحاح» (٤/ ١٦٢٠).

(٦) «بالرسل» ليس في المتن، ولعله عقب قول المتن: «بكفرهم»، أو عوض عنه.

(٧) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٨)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨١).

﴿وقَدَّرنا فيها السَّيرَ﴾ بحيثُ يَقيلون في واحدة ويبيتون في أُخرى إلى انتهاء سفرهم، ولا يحتاجون فيه إلى حمل زاد وماء، وقلنا: ﴿سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وأيامًا آمِنِينَ﴾: لا تخافون في ليل ولا نهار.

١٩ ـ ﴿فقالُوا: رَبَّنا، بَعِّدْ﴾ ـ وفي قراءة: «باعِدْ» ـ ﴿بَيْنَ أسفارِنا﴾ إلى الشام، اجعلْها مَفاوِزَ. ليتطاولوا على الفُقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد والماء، فبطِروا النعمةَ. ﴿وظَلَمُوا أنفُسَهُم﴾ بالكُفر، ﴿فجَعَلْناهُم أحادِيثَ﴾ لمَن بعدهم في ذلك، ﴿ومَزَّقْناهُم كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: فرّقناهم في البلاد كُلَّ التفريق. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لآياتٍ﴾: عِبَرًا ﴿لِكُلِّ صَبّارٍ﴾ عن المعاصي ﴿شَكُورٍ﴾ على النِّعم.

٢٠ ـ ﴿ولَقَد صَدَقَ﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿علَيهِم﴾ أي: الكُفّارِ منهم سبأٌ.............

قولُه: (قُلْنَا) بلسانِ القالِ، أو الحالِ لمَّا تمكَّنوا من السَّيرِ في رَغَدٍ وأمنٍ كأنَّهُم أُمِروا بذلك وأُذِنَ لهم.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للأكثرِ، وهم غيرُ مكِّيٍّ وبصريٍّ وهشامٍ[١].

قولُه: (لِيَتَطَاوَلُوا) أو: لئلَّا يتمكَّنَ الفقراءُ من تلكَ السَّفْرَةِ.

قولُه: (فَبَطِرُوا) الظَّاهرُ: لمَّا بَطِروا النِّعمةَ وملُّوا العافيةَ ـ كبني إسرائيلَ ـ سألوا اللهَ فأجابَهُم بتخريبِ القُرَى المتوسِّطةِ.

قولُه: (لِمَنْ بَعْدَهُم) يتحدَّثُ النَّاسُ بهم تعجُّباً وضَرْبَ مَثَلٍ، فيقولونَ: تفرَّقوا أيدي سَبَا[٢].

قولُه: (كُلَّ التَّفْرِيقِ) أي: غايتَهُ، حتَّى لحِقَ غسَّانُ منهم بالشَّامِ، وأنمارُ بيثربَ، وجذامُ بتهامةَ، والأزدُ بعمانَ.

قولُه: (على النِّعَمِ) وهو المؤمنُ، فإنَّه إذا أُعطيَ شكَرَ، وإذا ابتُلِيَ صبرَ.

قولُه: (بالتَّخفِيفِ) غيرُ كوفيٍّ[٣].

قولُه: (مِنهُم سَبَأٌ) أي: من جملةِ الكفَّارِ أهلُ سبأ، والظَّاهرُ أنَّ الظَّنَّ بأهلِ سبأ حينَ رأى انهماكَهُم في الشَّهواتِ، أو ببني آدمَ حينَ رأى ما رُكِّبَ فيهم من الشَّهوةِ والغضبِ، أو سمعَ من الملائكةِ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] فقالَ: ﴿لَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] وعليه السَّلفُ[٤].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٦٥).

(٢) أي: مذاهب سبأ وطرقها؛ أي: تفرقوا تفرقاً لا اجتماع بعده. وقال الأزهريُّ: العربُ لا تهمز «سَبَا» في هذا الموضع لأنه كَثُر في كلامهم فاستثقلوا فيه الهمزَ وإن كانت «سبأ» في الأصل مهموزة. انظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ٧٢)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٤١٠)، و«مجمع الأمثال» (٢/ ٢٧٥).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٦٥).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤٦).

﴿إبليسُ ظنَّهُ﴾ أنهم بإغوائه يتّبعونه، ﴿فاتَّبعُوهُ﴾ فصَدَقَ، بالتخفيف في ظنّه، أو صَدَّقَ، بالتشديد ظنّه أي: وجده صادقًا، ﴿إلاّ﴾ بمعنى: لكن ﴿فَرِيقًا مِنَ المُؤمِنِينَ﴾ من: للبيان، أي: هم المؤمنون لم يتّبعوه،
٢١ ـ ﴿وما كانَ لَهُ علَيهِم مِن سُلطانٍ﴾: تسليط منّا، ﴿إلاّ لِنَعلَمَ﴾ عِلمَ ظُهور ﴿مَن يُؤمِنُ بِالآخِرةِ، مِمَّن هُوَ مِنها في شَكٍّ﴾، فنُجازِيَ كُلًّا منهما. ﴿ورَبُّكَ علَى كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ﴾: رقيب.

٢٢ ـ ﴿قُلِ﴾ ـ يا مُحمّد ـ لكُفّار مكّة: ﴿ادعُوا الَّذِينَ زَعَمتُم﴾ أي: زعمتموهم آلهةً ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه، لينفعوكم بزعمكم. قال تعالى فيهم: ﴿لا يَملِكُونَ مِثقالَ﴾: وزنَ ﴿ذَرّةٍ﴾ من خير أو شرّ، ﴿في السَّماواتِ ولا في الأرضِ، ومالَهُم فِيهِما مِن شِرك﴾: شركة، ....

قولُه: (أي: وَجَدَهُ) أو: حَقَّقَ ظنَّهُ فيهم، ومحلُّهُ سَبَقَ(١).

قولُه: (بِمَعنَى: لكِن) هذا مبنيٌّ على تفسيرِهِ من أنَّ ضميرَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ للكفَّارِ، وأمَّا على كلامِ غيرِهِ فالاستثناءُ متَّصِلٌ؛ أي: إلا فَريقاً هم المؤمنونَ لم يتَّبِعوهُ، فـ﴿مِنَ﴾ بيانيَّةٌ، وتقليلُهُم بالإضافةِ إلى الكفَّارِ، أو: إلَّا فريقاً من فِرَقِ المؤمنينَ لم يتَّبِعوهُ في العصيانِ ـ وهم المخلصونَ ـ فـ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّةٌ، وتقليلُهُم بالنِّسبةِ إلى الفُجَّارِ.

قولُه: (تَسلِيطٍ مِنَّا) أو: تسلُّطٍ واستيلاءٍ منه على المتَّبِعينَ بوسوَسةٍ واستغواءٍ.

قولُه: (عِلْمَ ظُهُورٍ) ووقوعٍ، فإنَّه كانَ معلوماً بالغَيْبِ؛ أي: ليتعلَّقَ عِلْمُنا بذلك تعلُّقاً يترتَّبُ عليه الجزاءُ، أو: ليتميَّزَ المؤمنُ من الشَّاكِّ، أو: ليؤمنَ مَن قُدِّرَ إيمانُهُ ويشُكَّ مَن قُدِّرَ ضلالُهُ، والمرادُ من حصولِ العِلْمِ: حصولُ متعَلَّقِهِ مبالغةً.

قالَ القاضي: وفي نظمِ الصِّلَتينِ نكتةٌ لا تخفَى(٢)، قالَ الصَّفويُّ: لم يقلْ: مَن كَفَرَ، في مقابلةِ: ﴿مَنْ يؤمنُ﴾، ليُعلَمَ أنَّ أدنى شكٍّ في الآخرةِ كُفرٌ.

قولُه: (لِكُفَّارِ مَكَّةَ) الأَولى: للمشركينَ.

قولُه: (زَعَمْتُمُوهُم آلِهَةً) وهما مَفعولا «زعمَ» حُذِفَ الأوَّلُ لطولِ الموصولِ بصلتِهِ، والثاني لقيامِ صفتِهِ ـ وهي: ﴿مِنْ دونِ اللهِ﴾ ـ مقامَهُ.

قولُه: (لِيَنفَعُوكُم) بجلبِ نفعٍ من رِزقٍ وعافيةٍ ونَصْرٍ، وبدفعِ ضُرٍّ من بليَّةٍ ومَرَضٍ وفقرٍ.

قولُه: (قَالَ تَعَالَى) إشعاراً بأنَّه الجوابُ، ولا يقبلُ المكابرَةَ.

قولُه: (شِرْكَةٍ) لا خَلْقاً ولا مُلْكاً، وذَكَرَهُما للعمومِ العُرفيِّ، أو لأنَّ آلهتَهُم بعضُها سماويَّةٌ كالملائكةِ والكواكبِ، وبعضُها أرضيَّةٌ كالأصنامِ.

---

(١) الآية رقم: (١٧) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤٦).

﴿ومالَهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿مِنهُم﴾: من الآلهة ﴿مِن ظَهِيرٍ﴾: مُعينٍ، ٢٣ ـ ﴿ولا تَنفَعُ الشّفاعةُ عِندَهُ﴾ تعالى ـ ردًّا لقولهم: إنّ آلهتهم تشفع عنده ـ ﴿إلاّ لِمَن أذِنَ﴾، بفتح الهمزة وضمها، فيها ﴿لَهُ. حَتَّى إذا فُزِّعَ﴾ ـ بالبناء للفاعل والمفعول ـ ﴿عَن قُلُوبِهِم﴾: كَشَفَ عنها الفزعَ بالإذن فيها، ﴿قالُوا﴾ قال بعضهم لبعض استبشارًا: ﴿ماذا قالَ رَبُّكُم﴾ فيها؟ ﴿قالُوا﴾: القولَ ﴿الحَقَّ﴾ أي: قد أذِن فيها. ﴿وهُوَ العَلِيُّ﴾ فوق خلقه بالقهر ﴿الكَبِيرُ﴾: العظيم.

٢٤ ـ ﴿قُلْ: مَن يَرزُقُكُم مِنَ السَّماواتِ﴾ المطرَ ﴿والأرضِ﴾ النباتَ؟ ﴿قُلِ: اللهُ﴾ إن لم يقولوه، لا جوابَ غيره، ﴿وإنّا أو إيّاكُم﴾ أي: أحدَ الفريقين ﴿لَعَلَى هُدًى أو في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيِّن. في الإبهام تلطّفٌ بهم داعٍ إلى الإيمان إذا وُفِّقوا له. ٢٥ ـ ﴿قُلْ: لا تُسألُونَ عَمّا أجرَمْنا﴾: أذنبْنا، ﴿ولا نُسألُ عَمّا تَعمَلُونَ﴾ لأنّا بريؤون منكم. ٢٦ ـ ﴿قُلْ: يَجمَعُ بَينَنا رَبُّنا﴾ يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يَفتَحُ﴾: يحكم ﴿بَينَنا بِالحَقِّ﴾، فيُدخل المُحقّين الجنّةَ والمُبطلين النارَ. ﴿وهُوَ الفَتّاحُ﴾: الحاكم ﴿العَلِيمُ﴾ بما يحكم به.

قولُه: (عِندَهُ) أي: لا تنفعُ شفاعةُ شافِعٍ لمشفوعٍ.

قولُه: (وضَمِّهَا) بصريٌّ وحمزةُ وكسائيٌّ[1].

قولُه: (فِيهَا) أي: في الشَّفاعةِ؛ أي: في أن يُشَفَّعَ، أو أن يُشفَعَ له.

قولُه: (للفَاعِلِ) شاميٌّ[2]، غايةٌ لمفهومِ الكلامِ مِن أنَّ ثَمَّ توقُّفاً وانتظاراً للإذنِ؛ أي: يتربَّصونَ فزِعينَ.

قولُه: (كَشَفَ عَنْهَا) أي: عن قُلوبِ الشَّافِعينَ والمشفوعِ لهم، وقيلَ: الضَّميرُ للملائكةِ، وقد تقدَّمَ ذكرُهُم ضِمناً.

قولُه: (القَولَ) أي: ﴿قالُوا﴾: قالَ القولَ ﴿الحقَّ﴾، وهو الإذنُ بالشَّفاعَةِ لمنِ ارتَضى، وهُمُ المؤمنونَ، رُويَ: أنَّ أوَّلَ مَن يقولُ جبريلُ فيتَّبِعونَهُ[3].

قولُه: (أيْ: أَحَدَ) بالنَّصبِ بدلُ[4] الضَّميرينِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٦٥).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) روى أبو داود (٤٧٣٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٧) عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تكلم الله بالوحي، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم» قال: «فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق، الحق».

(٤) في (ص) زيادة: «من».

٢٧ ـ ﴿قُلْ: أَرُونِيَ﴾: أعلِموني ﴿الَّذِينَ أَلْحَقتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ في العِبادة. ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ لهم عن اعتقاد شريك له. ﴿بَلْ هُوَ اللهُ العَزِيزُ﴾: الغالب على أمره ﴿الحَكِيمُ﴾ في تدبيره لخلقه. فلا يكون له شريك في مُلكه.

٢٨ ـ ﴿وما أرسَلْنَاكَ إلاّ كافّةً﴾ ـ حالٌ من «الناس» قُدّم للاهتمام ـ ﴿لِلنّاسِ بَشِيرًا﴾: مُبشّرًا للمؤمنين بالجنّة ﴿ونَذِيرًا﴾: مُنذِرًا للكافرين بالعذاب، ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ أي: كُفّارِ مكّة ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ذلك، ٢٩ ـ ﴿ويَقُولُونَ: مَتى هذا الوَعدُ﴾ بالعذاب، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ فيه؟ ٣٠ ـ ﴿قُلْ: لَكُم مِيعادُ يَومٍ، لا تَستأخِرُونَ عَنهُ ساعةً ولا تَستَقدِمُونَ﴾ عليه. وهو يوم القيامة.

٣١ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة: ﴿لَن نُؤمِنَ بِهذا القُرآنِ، ولا بِالَّذِي بَينَ يَدَيهِ﴾ أي: تقدّمه كالتوراة والإنجيل الدالَّينِ على البعث،..

قولُه: (أعْلِمُوني) الإراءةُ البصَريَّةُ أظهَرُ؛ يعني: لأرى بأيِّ صفَةٍ ألحقتُموهُم باللهِ في استِحقاقِ العبادَةِ.

قولُه: (الغَالِبُ) والضَّميرُ للهِ، أو للشَّأنِ.

قولُه: (حَالٌ مِنَ «النَّاسِ») قالَ القاضي: لا يجوزُ على المختارِ[1]. وقالَ أبو البقاءِ: ضعيفٌ عندَ الأكثرينَ، فإنَّ صاحبَ الحالِ مجرورٌ[2].

والشَّيخُ تَبِعَ ابنَ مالكٍ[3] في الجوازِ، لكنْ لا كلُّ ما يجوزُ يَنزِلُ عليه القرآنُ ويُقتصرُ عليه، فالصَّحيحُ: أنَّهُ حالٌ منَ الكافِ، والتاءُ للمبالغةِ؛ أي: إلَّا جامعاً لهم في الإبلاغِ، أو كافًّا للنَّاسِ عن الكُفرِ والمعاصي، أو التَّقديرُ: إلَّا إرسالَةً عامَّةً لهم.

قولُه: (أي: كُفَّارِ مَكَّةَ) الصَّوابُ: إطلاقُ ﴿النَّاسِ﴾ن والمرادُ بالأكثرِ: الكفَّارُ؛ يعني: فيحملُهُم جهلُهُم على مخالَفَتِكَ، ولعلَّ وَضعَ الظَّاهرِ موضِعَ المضمَرِ لدَفْعِ إيهامِ تخصيصِ النَّاسِ بأهلِ زمَنِ الإرسالِ، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ الحالِ.

قولُه: (بالعَذَابِ) الموعودِ بقولِهِ: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾.

قولُه: (فِيهِ) أي: الوعدِ، والخطابُ له ﷺ وللمؤمنينَ.

قولُه: (كالتَّورَاةِ) وقيل: (الَّذي بين يدَيْهِ): يومُ القيامةِ.

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤٧).

(٢) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١٠٦٩).

(٣) انظر: «شرحه على التسهيل» (٢/ ٣٣٧).

لإنكارهم له. قال تعالى فيهم: ﴿ولو ترى﴾ ـ يا محمّد ـ ﴿إذ الظّالِمُونَ﴾: الكافرون ﴿مَوقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِم، يَرجِعُ بَعضُهُم إلَى بَعضٍ القَولَ، يَقُولُ الَّذِينَ استُضعِفُوا﴾ الأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ استَكبَرُوا﴾ للرؤساءِ: ﴿لَولا أنتُم﴾ صددتمونا عن الإيمان ﴿لَكُنّا مُؤمِنِينَ﴾ بالنبيّ.

٣٢ ـ ﴿قالَ الَّذِينَ استَكبَرُوا لِلَّذِينَ استُضعِفُوا: أنَحنُ صَدَدْناكُم عَنِ الهُدَى بَعدَ إذ جاءَكُم﴾؟ لا، ﴿بَل كُنتُم مُجرِمِينَ﴾ في أنفسكم. ٣٣ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ استُضعِفُوا لِلَّذِينَ استَكبَرُوا: بَل مَكرُ اللَّيلِ والنَّهارِ﴾ أي: مكرٌ فيهما منكم بنا، ﴿إذ تأمُرُونَنا أن نَكفُرَ بِاللهِ، ونَجعَلَ لَهُ أندادًا﴾: شُركاءَ. ﴿وأَسَرُّوا﴾ أي: الفريقانِ ﴿النَّدامةَ﴾ على ترك الإيمان به، ﴿لَمّا رأَوُا العَذابَ﴾، أي: أخفاها كُلّ عن رفيقه مخافةَ التعيير، ﴿وجَعَلْنا الأغلالَ في أعناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في النار، ﴿هَل﴾: ما ﴿يُجزَونَ إلاّ﴾ جزاءَ ﴿ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾ في الدنيا؟

٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ﴿وما أرسَلْنا في قَريةٍ مِن نَذِيرٍ إلاّ قالَ مُترَفُوها﴾: رُؤساؤها المُتنعِّمون: ﴿إنّا بِما أُرسِلتُم بِهِ كافِرُونَ. وقالُوا: نَحنُ أكثَرُ أموالاً وأولادًا﴾ ممّن آمن، ﴿وما نَحنُ بِمُعَذَّبِينَ. قُلْ: إنَّ رَبِّي يَبسُطُ الرِّزقَ﴾: يُوسّعه ﴿لِمَن يَشاءُ﴾ امتحانًا ﴿ويَقدِرُ﴾: يُضيّقه لمن يشاء ابتلاءً، ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ أي: كُفّارِ مكّة ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ذلك.

قولُه: (صَدَدْتُمُونَا) الظَّاهرُ: لولا صدُّكم إيَّانا.

قولُه: (بالنَّبيِّ) أو باتِّباعِهِ.

قولُه: (لا) يعني: استفهامُهُم للإنكارِ.

قولُه: (مِنكُم بِنَا) الظَّاهرُ: مكرٌ منكُم بنا فيهِما، والحاصلُ: أنَّه اتُّسِعَ في الظَّرفِ وأُضِيفَ المصدرُ إليه، وإلَّا فالأصلُ أنَّ المصدرَ لا يُضافُ إلَّا إلى الفاعلِ أو المفعولِ.

قولُه: (أي: أخفَوهَا) أو: أظهَروها، فإنَّهُ من الأضدادِ؛ إذِ الهمزَةُ تصلُحُ للإثباتِ والسَّلبِ.

قولُه: (فِي النَّارِ) يعني: لا في القيامَةِ، ولا في الدُّنيا؛ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ [يس: ٨] تمثيلٌ، كما سيأتي.

قولُه: (جَزَاءَ) أو عُدِّي لتضمُّنِه معنى: يَقْضي، أو لنَزعِ الخافِضِ.

قولُه: (ذلِكَ) ما ذُكِرَ من الامتحانِ، فيظنُّونَ أنَّ كثرَةَ الأموالِ والأولادِ للشَّرفِ والكرامةِ، وكثيراً ما يكونُ للاستدراجِ.

٣٧ ـ ﴿وما أمْوالُكُم ولا أولادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُم عِندَنا زُلفَى﴾: قُربَى، أي: تقريبًا. ﴿إلاّ﴾ لكن ﴿مَن آمَنَ وعَمِلَ صالِحًا فأُولئِكَ لَهُم جَزاءُ الضِّعفِ بِما عَمِلُوا﴾ أي: جزاءُ الحسنةِ مَثَلاً بعشر فأكثرَ، ﴿وهُم في الغُرُفاتِ﴾ من الجنّة ﴿آمِنُونَ﴾ من الموت وغيره ـ وفي قراءةٍ: «الغُرْفةِ» بمعنى الجمع ـ

٣٨ ـ ﴿والَّذِينَ يَسعَونَ في آياتِنا﴾: القُرآنِ بالإبطال ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ لنا: مقدّرين عجزَنا وأنهم يفوتوننا ﴿أُولئِكَ في العَذابِ مُحضَرُونَ﴾.

٣٩ ـ ﴿قُلْ: إنَّ رَبِّي يَبسُطُ الرِّزقَ﴾: يُوسّعه ﴿لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾ امتحانًا، ﴿ويَقدِرُ﴾: يُضيّقه ﴿لَهُ﴾ بعد البسط أو لمن يشاء ابتلاءً، ﴿وما أنفَقتُم مِن شَيءٍ﴾ في الخير ﴿فهُوَ يُخلِفُهُ، وهُوَ خَيرُ الرّازِقِينَ﴾. يقال: كُلّ إنسان يَرزُق عائلتَه، أي: من رزق الله.

٤٠ ـ ٤١ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿يَومَ نَحشُرُهُم جَمِيعًا﴾ أي: المُشركين،.........

قولُه: (لكِن) أو: إلا أموالُ وأولادُ ﴿مَنْ﴾.

قولُه: (وغَيْرِهِ) من المكارِهِ.

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) لحَمزةَ[1].

قولُه: (بِمَعنَى الجَمْعِ) لأنّهُ أُريدَ به الجنسُ.

قولُه: (بالإِبْطَالِ) أي: بالرَّدِّ والطَّعنِ فيها.

قولُه: (مُقَدِّرِينَ عَجْزَنَا) تفسيرٌ لقراءَةِ التَّشديدِ[2].

قولُه: (وأنَّهُم) مقدِّرينَ أو ظانِّينَ.

قولُه: (ابْتِلاءً) فهذا في شخصٍ واحدٍ باعتبارِ وقتَينِ، أو في المؤمنِ، وما سبقَ في شخصَينِ، أو في الكافرِ، فلا تَكريرَ، وقيل: إنَّه تأكيدٌ.

قولُه تعالى: (﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾) أي: عِوَضاً، إمَّا عاجلاً، أو آجلاً، ولا منعَ[3] مِن جَمعٍ.

قولُه: (أيْ: المُشرِكِينَ) و[غير][4] حفصٍ بالنُّونِ في الفِعلَينِ[5].

---

(١) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٦٥).

(٢) وهي قراءة مكي وبصري، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٨٢).

(٣) في (ص): «مانع».

(٤) أضفتها لكي تستقيم العبارة.

(٥) أي: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿يَقُولُ﴾، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٧).

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلمَلائكةِ: أهؤُلاءِ إيّاكُم﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وإبدالِ الأُولى ياء، وإسقاطِها ـ ﴿كانُوا يَعبُدُونَ؟ قالُوا: سُبحانَكَ﴾: تنزيهًا لك عن الشريك! ﴿أنتَ وَليُّنا مِن دُونِهِم﴾ أي: لا مُوالاة بيننا وبينهم من جِهتنا. ﴿بَل﴾: للانتقال ﴿كانُوا يَعبُدُونَ الجِنَّ﴾ أي: الشياطينَ، أي: يُطيعونهم في عِبادتهم إيانا، ﴿أكثَرُهُم بِهِم مُؤمِنُونَ﴾: مُصدّقون فيما يقولون لهم. ٤٢ ـ قال تعالى: ﴿فاليَومَ لا يَملِكُ بَعضُكُم لِبَعضٍ﴾ أي: بعضُ المعبودين لبعض العابدين ﴿نَفعًا﴾: شفاعة ﴿ولا ضَرًّا﴾: تعذيبًا، ﴿ونَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: كفروا: ﴿ذُوقُوا عَذابَ النّارِ الَّتِي كُنتُم بِها تُكَذِّبُونَ﴾.

٤٣ ـ ﴿وإذا تُتلَى علَيهِم آياتُنا﴾: القُرآنُ ﴿بَيِّناتٍ﴾: واضحاتٍ بلسان نبيّنا مُحمّد ﴿قالُوا: ما هذا إلاّ رَجُلٌ يُرِيدُ أن يَصُدَّكُم عَمّا كانَ يَعبُدُ آباؤُكُم﴾ من الأصنام. ﴿وقالُوا: ما هذا﴾ أي: القرآنُ ﴿إلاّ إفكٌ﴾: كذب ﴿مُفتَرًى﴾ على الله. ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلحَقِّ﴾: القُرآن ﴿لَمّا جاءَهُم: إنْ﴾: ما ﴿هذا إلاّ سِحرٌ مُبِينٌ﴾ بيِّن. قال تعالى: ٤٤ ـ ﴿وما آتيناهُم مِن كُتُبٍ يَدرُسُونَها، وما أرسَلْنا إلَيهِم قَبلَكَ مِن نَذِيرٍ﴾. فمِن أين كذّبوك؟

قولُه: (بتَحْقِيقِ الهَمْزَتَينِ) شاميٌّ وكوفيٌّ[1].

قولُه: (وإبدَالِ الأُولَى يَاءً) لم يقرَأ به أحدٌ، وإنَّما قرأ بتسهيلِها قالونُ والبَزّيُّ، وبإبدالِ الثَّانيةِ وتسهيلِها ورشٌ وقُنبُلٌ، وبإسقاطِ الأولى ـ وقيلَ: الثَّانية ـ: بصريٌّ[2].

قولُه: (للانْتِقَالِ) بل: للإبطالِ على وَجهِ الحقيقةِ.

قولُه: (لهُم) الضَّميرُ الأوَّلُ للإنسِ أو للمشركينَ، والأكثرُ بمعنى: الكلِّ، والثَّاني للجِنِّ.

قولُه: (شَفَاعَةً) فكيفَ نفعاً آخرَ؟

قولُه: (تَعْذِيباً) أي: مَضرَّةً؛ لأنَّ الدَّارَ دارُ ثوابٍ وعِقابٍ، والمُثيبُ والمعاقِبُ هو اللهُ لا إلهَ إلَّا هوَ.

قولُه: (مِنَ الأَصْنامِ) فيستتبعَكُم بما يستَدْعيه.

قولُه تعالى: (﴿مِنْ كُتُبٍ﴾) فيها دليلٌ على صِحَّةِ الإشراكِ، وقولُه: (﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾) يدعوهُم إلى الإشراكِ، وينذِرُهُم على تركِهِ، وقد بانَ من قَبْلُ أنَّه لا وجهَ له، فمِن أينَ وَقَعَ لهم هذه الشُّبهَةُ؟ وبهذا ظهرَ معنى قولِه: (فَمِنْ أينَ يُكَذِّبُونَ؟) وفي نسخةٍ: «كذَّبوكَ»[3]، يعني: في ذَمِّ الإشراكِ المنقولِ[4] عن اللهِ، ويمكنُ تخفيفُ

---

(١) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ١٧٨).

(٢) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٨٣).

(٣) وهي كذلك في نسخ المتن المعتمدة.

(٤) أي: الذم.

٤٥ ـ ﴿وكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم، وما بَلَغُوا﴾ أي: هؤلاء ﴿مِعشارَ ما آتيناهُم﴾ من القُوّة وطُول العمر وكثرة المال، ﴿فكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ إليهم، ﴿فكَيفَ كانَ نكِيرِ﴾: إنكاري عليهم بالعُقوبة والإهلاك؟ أي: هو واقعٌ موقعَه.

٤٦ ـ ﴿قُلْ: إنَّما أعِظُكُم بِواحِدَةٍ﴾، هي ﴿أن تَقُومُوا لِلهِ﴾ أي: لِأجله ﴿مَثنَى﴾ أي: اثنينِ اثنين ﴿وفُرادَى﴾: واحدًا واحدًا، ﴿ثُمَّ تَتَفكَّرُوا﴾ فتعلموا: ﴿ما بِصاحِبِكُم﴾ مُحمّدٍ ﴿مِن جِنَّةٍ﴾: جنون، ﴿إنْ﴾: ما ﴿هُوَ إلاّ نَذِيرٌ لكُم بَينَ يَدَي﴾ أي: قَبلَ ﴿عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخرة، إن عصيتموه. ٤٧ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿ما سألتُكُم﴾ على الإنذار والتبليغ ﴿مِن أجرٍ فهُوَ لكُم﴾ أي: لا أسألكم عليه أجرًا. ﴿إن أجرِيَ﴾: ما ثوابي ﴿إلاّ علَى اللهِ، وهُوَ علَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾: مطّلع يعلم صِدقي.

٤٨ ـ ﴿قُلْ: إنَّ رَبِّي يَقذِفُ بِالحَقِّ﴾: يُلقيه إلى أنبيائه، ﴿عَلاّمُ الغُيُوبِ﴾: ما غاب عن خلقه في السماوات والأرض........................

«يكذبُونَ»، والمعنى: كَذِبُهُم على اللهِ بالإشراكِ، ويؤيِّدُ الأوَّلَ ما بعدَهُ[١].

قولُه: (مِنَ القُوَّةِ) أو من الآياتِ، والمعشارُ بمعنى: العُشْرِ، كالمِرْباعِ، ولا ثالثَ[٢].

قولُه: (إلَيهِم) ولا تَكريرَ؛ لأنَّ الأوَّلَ مطلَقٌ ـ أي: فعَلوا التَّكذيبَ ـ والثَّانيَ مقيَّدٌ، أو الأوَّلُ مبهَمٌ والثَّاني مبيَّنٌ.

قولُه تعالى: ﴿بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: بخصلَةٍ واحِدةٍ.

قولُه: (أيْ: لِأَجْلِهِ) مُعْرِضاً عن التَّقليدِ والمِراءِ، والقِيامُ: الانتصابُ في الأمرِ.

قولُه: (جُنُونٍ) فـ﴿مَا﴾ نافيةٌ، وقيل: ﴿مَا﴾ استفهاميَّةٌ؛ أي: تتفكَّروا أيُّ شيءٍ به من آثارِ الجُنونِ؟!

قولُه: (قَبْلَ) أو: قُدَّامَ، وفي الحديثِ: «بُعِثْتُ في نَسَمِ السَّاعةِ»[٣] أي: أوَّلِها.

قولُه: (والتَّبلِيغِ) و﴿مَا﴾ شرطيَّةٌ؛ أي: أيَّ شيءٍ.

قولُه: (يُلقِيْهِ) أو يَرمي به الباطلَ فيدمَغُهُ.

---

(١) أي: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

(٢) أي: لا ثالثَ لهما من ألفاظٍ، لا يقال: مِسْداس ولا مِخْماس. انظر: «الدر المصون» (٩/ ١٩٨).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٥)، والبزار كما في «كشف الأستار» (٣٢١٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦١)، من حديث أبي جبيرة بن الضحاك رضي الله عنه. وحسن إسناده ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٩)، لكن أبا جبيرة مختلف في صحبته. انظر: «الإصابة» (٧/ ٥٤).

٤٩ ـ ﴿قُلْ: جاءَ الحَقُّ﴾: الإسلام، ﴿وما يُبدِئُ الباطِلُ﴾: الكُفر ﴿وما يُعِيدُ﴾، أي: لم يبق له أثر. ٥٠ ـ ﴿قُلْ: إن ضَلَلتُ﴾ عن الحق ﴿فإنَّما أضِلُّ على نَفسِي﴾ أي: إثمُ ضلالي عليها، ﴿وإنِ اهتَدَيتُ فبما يُوحِي إلَيَّ رَبِّيَ﴾، من القُرآنِ والحِكمة. ﴿إنَّهُ سَمِيعٌ﴾ للدُّعاء ﴿قَرِيبٌ﴾.

٥١ ـ ﴿ولَو تَرَى﴾، يا مُحمّد، ﴿إذْ فَزِعُوا﴾ عِند البعث لرأيت أمرًا عظيمًا ـ ﴿فلا فَوتَ﴾ لهم منّا أي: لا يفوتوننا ـ ﴿وأُخِذُوا مِن مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: القُبور، ٥٢ ـ ﴿وقالُوا: آمَنّا بِهِ﴾: بمُحمّد أو القُرآن. ﴿وأنّى لَهُمُ التَّناوُشُ﴾ ـ بالواو، وبالهمزة بدلها ـ أي: تناولُ الإيمان ﴿مِن مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ عن محلّه، إذ هم في الآخرة ومحلّه الدنيا؟ ٥٣ ـ ﴿وقَد كَفَرُوا بِهِ مِن قَبلُ﴾ في الدنيا،.........................

قولُه: (أي: لمْ يَبْقَ لَهُ) أي: للباطِلِ؛ أي: زَهَقَ مأخوذٌ من هلاكِ الحَيِّ، فإنَّهُ إذا هَلَكَ لم يبقَ له إبداءٌ ولا إعادةٌ.

قولُه: (والحِكْمَةِ) فإنَّها وَحيٌ خَفيٌّ.

قولُه: (للدُّعَاءِ) قريبٌ مجيبٌ لمن دعاهُ.

قولُه: (يا مُحَمَّدُ) الكفَّارَ.

قولُه: (البَعْثِ) أو الموتِ، أو يومَ بدْرٍ.

قولُه: (مِنَّا) بهَرَبٍ أو تحَصُّنٍ.

قولُه: (أي: القُبُورِ) إلى النُّشورِ، أو من الموقِفِ إلى النَّارِ[1]، أو مِن ظَهْرِ الأرضِ إلى بَطنِها، أو من صحراءِ بدْرٍ إلى القَليبِ.

قولُه: (بمُحَمَّدٍ) وقد مرَّ ذِكرُه في قولِهِ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

قولُه: (والقُرآنِ) الظَّاهرُ: «أو»[2] وهو أقربُ، أو: باللهِ، ويؤيِّدُه قولُه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [غافر: ٨٤].

قولُه: (وبالهَمْزةِ) بصريٌّ وكوفيٌّ غيرُ حفصٍ[3].

قولُه: (بَدَلَهَا) أي: عِوَضَها، أو على إبدالِ الواو لضمَّتِها اللَّازمةِ.

قولُه: (أي: تَنَاوُلُ) أي: من أينَ لهم أن يتناوَلوا الإيمانَ تناولاً سَهلاً؟

---

(١) في (م) و(د) زيادة: «أو الجنة».

(٢) وهي كذلك في نسخ المتن المعتمدة.

(٣) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٥٩١)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٨٤).

﴿ويَقذِفُونَ﴾: يرمون ﴿بِالغَيبِ مِن مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: بما غاب عِلمه عنهم غَيبةً بعيدة، حيثُ قالوا في النبيّ: ساحرٌ شاعر كاهن، وفي القُرآن: سِحرٌ شِعر كِهانة. ٥٤ ـ ﴿وحِيلَ بَينَهُم وبَينَ ما يَشتَهُونَ﴾ من الإيمان، أي: قَبولِه ﴿كَما فُعِلَ بِأشياعِهِم﴾: أشباههم في الكُفر ﴿مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِهم. ﴿إنَّهُم كانُوا في شَكٍّ مُرِيبٍ﴾: مُوقعِ الرِّيبةَ لهم فيما آمنوا به الآن، ولم يعتدّوا بدلائله في الدنيا.

قولُه: (غَيبَةً بَعِيدَةً) أو من جانبٍ بعيدٍ من أمرِهِ؛ لأنَّ أبعدَ شيءٍ ممَّا جاءَ به السِّحرُ والشِّعرُ.

قولُه: (أيْ: قَبُولِهِ) وفي نسخةٍ: «أو قَبُولِهِ» فـ«أو» للتَّنويعِ، وقيل: من الإيمانِ بالرَّدِّ إلى الدُّنيا، وقيل: من اللَّذَّاتِ النَّفسانيَّةِ والشَّهواتِ الجِسمانيَّةِ، أو من ماءِ الجنَّةِ ونَعيمِها، واللهُ تعالى أعلمُ.

* * *

سُورَةُ سَبَإٍ

مكِّيَّةٌ، كما رُوي عن ابن عباس وقتادة، وفي «التحرير»: هي مكِّيَّةٌ بإجماعهم، وقال ابنُ عطيَّة: مكِّيَّةٌ إلَّا قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [الآية: ٦][(١)].

ورَوى الترمذيُّ عن فروة بن مُسيكة المراديّ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلت: يا رسول الله، ألَا أقاتلُ من أدبرَ من قومي. الحديث. وفيه: وأُنْزِلَ في سبأ ما أنزل، فقال رجل: يا رسول الله، وما سبأ؟ الحديث[(٢)].

قال ابنُ الحصَّار[(٣)]: هذا يدلُّ على أنَّ هذه القصَّة مدنيَّةٌ؛ لأنَّ مُهاجَرةَ فروة بعد إسلام ثقيف سنةَ تسعٍ، ويحتملُ أنْ يكونَ قوله: «وأُنْزِلَ» حكايةً عمَّا تقدَّم نزولُه قبلَ هجرته، فلا يأبى كونها مكِّيَّةً.

وآياتُها خمسٌ وخمسون في الشاميّ، وأربع وخمسون في الباقين. وما قيل: خمسٌ وأربعون. سهوٌ من قلم الناسخ.

ووجهُ اتِّصالها بما قبلَها أنَّ الصفات التي أجريت على الله تعالى في مفتتحها

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٤. وذكر أنه اختلف فيها؛ فقالت فرقة: هي مكية، وقالت فرقة: هي مدنية.

(٢) سنن الترمذي (٣٢٢٢)، وهو عند أحمد (٢٤٠٠٩/٨٩)، وأخرجه أبو داود (٣٩٨٨) مختصراً. واسم الصحابي في هذه المصادر: فروة بن مسيك، وهو أشهر كما قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ٨/ ٩٥.

(٣) هو علي بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن موسى، أبو الحسن الأندلسي الأصل، الفاسي المنشأ، له كتابٌ في ناسخ القرآن ومنسوخه ـ سمعه منه الحافظ المنذري ـ وكتاب المدارك، وصل به مقطوع حديث مالك والموطأ، وغيرها، توفي سنة (٦١١هـ). التكملة لوفيات النقلة ٢/ ٣٠٩-٣١٠، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٣١٩، والأعلام ٤/ ٣٣٠-٣٣١.

ممَّا يناسبُ الحكم التي في مختتم ما قبلُ من قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣] إلخ. وأيضاً قد أُشير فيما تقدَّم إلى سؤال الكفَّار عن الساعة على جهة الاستهزاء، وها هنا قد حَكى عنهم إنكارَها صريحاً والطعنَ بمن يقول بالمعاد على أتمِّ وجهٍ، وذكر ممَّا يتعلَّق بذلك ما لم يذكر هناك.

وفي «البحر» أنَّ سبب نزولها أنَّ أبا سفيان قال لكفار مكَّة لما سمعوا: (لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ): كأنَّ محمداً يتوعَّدنا بالعذاب بعد أن نموت، ويتخوفنا[1] بالبعث، واللاتِ والعزَّى لا تأتينا الساعةُ أبداً ولا نبعث، فقال الله تعالى: قل يا محمد: بلى وربِّي لتبعثنّ، قاله مقاتل. وباقي السورة تهديدٌ لهم وتخويف، ومن هذا ظهرت المناسبةُ بين هذه السورة والتي قبلها[2]. انتهى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له عزَّ وجلَّ خلقاً ومُلْكاً وتصرُّفاً بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة، جميعُ ما وُجِد فيهما، داخلاً في حقيقتهما أو خارجاً عنهما، متمكِّناً فيهما، فكأنه قيل: له هذا العالم بالأسر، ووصفُه تعالى بذلك ـ على ما قاله أبو السعود[3] ـ لتقريرِ ما أفاده تعليقُ الحمد المعرَّف بلام الحقيقة ـ عند أرباب التحقيق ـ بالاسم الجليل من اختصاص جميع أفراد المخلوقات به عزَّ وجلَّ، ببيان تفرُّده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك، وكون كلِّ ما سواه سبحانه من الموجودات التي من جملتها الإنسان تحتَ ملكوته تعالى، ليس لها في حدِّ ذاتها استحقاقُ الوجود فضلاً عمَّا عداه من صفاتها، بل كلُّ ذلك نِعَمٌ فائضةٌ عليها من جهتِه عزَّ وجلَّ، فما هذا شأنُه فهو بمعزلٍ من استحقاق الحمد الذي مَدَارُه الجميلُ الصادر عن القادر بالاختيار، فظهر اختصاصُ جميع أفراده به تعالى.

---

(١) في البحر المحيط: ويخوفنا.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٧.

(٣) في تفسيره ٧/ ١٢٠.

وفي الوصف بما ذُكِرَ أيضاً إيذانٌ بأنَّه تعالى المحمودُ على نعم الدنيا، حيث عقَّب الحمدُ بما تضمَّن جميعَ النعم الدنيويَّة، فيكون الكلام نظير قولك: احْمَدْ أخاكَ الذي حملك وكساك. فإنَّكَ تريدُ به: احْمَدْهُ على حملانه وكسوته.

وفي عطف قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ على الصلة كما هو الظاهر إيذانٌ بأنَّه سبحانه المحمودُ على نعم الآخرة؛ ليتلاءم الكلام. وفي تقييد الحمد فيه بأنَّ محلَّه الآخرة إيذانٌ بأنَّ محلَّ الحمد الأوَّل الدنيا لذلك أيضاً، فتفيد الجملتان أنَّه عزَّ وجلَّ المحمودُ على نِعَمِ الدنيا فيها، وأنَّه تبارك وتعالى المحمودُ على نِعَمِ الآخرة فيها.

وجُوِّزَ أن يكون في الكلام صنعة الاحتباك، وأصله: الحمد لله.. إلخ في الدنيا، وله ما في الآخرة والحمد فيها، فأثبتَ في كلٍّ منهما ما حذف من الآخر.

وقال أبو السعود: إنَّ الجملة الثانية لاختصاص الحمد الأخرويِّ به تعالى، إثرَ بيان اختصاص الدنيويِّ به سبحانه، على أنَّ «في الآخرة» متعلِّقٌ بنفس الحمد، أو بما تعلَّق به «له» من الاستقرار، وإطلاقه عن ذكر ما يشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه في الآخرة عن التعيين، كما اكتفي فيما سبق بذكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذكر كون الحمد فيها أيضاً، بل ليعمَّ النِّعَمَ الأخرويَّة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الزمر:٧٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥] وما يكونُ ذريعةً إلى نيلها من النعم الدنيويَّة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف:٤٣] أي: لِمَا جزاؤه هذا النعيمُ من الإيمان والعمل الصالح(١).

وأنت تعلم أنَّ المتبادر إلى الذهن هو ما قُرِّرَ أوَّلاً.

والفرقُ بين الحمدين ـ مع كون نِعَمِ الدنيا ونِعَمِ الآخرة بطريق التفضُّل ـ أنَّ

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٢٠.

الأوَّل على نهج العبادة، والثاني على وجه التلذُّذ والاغتباط. وقد ورد في الخبر أنَّ أهلَ الجنة يُلْهَمون التسبيحَ كما يُلْهَمون النَّفَس(١).

وقولُ الزمخشريِّ(٢): إنَّ الأوَّل واجبٌ؛ لأنَّه على نعمةٍ متفضَّلٍ بها، والثاني ليس بواجب؛ لأنَّه على نعمةٍ واجبةِ الإيصال إلى مستحقِّها = مبنيٌّ على رأي المعتزلة. على أنَّ قوله: لأنَّه على نعمةٍ واجبة الإيصال. ليسَ على إطلاقه عندهم؛ لأنَّ ما يُعطي اللهُ تعالى العبادَ في الآخرة ليس مقصوراً على الجزاء عندهم، بل بعضُ ذلك تفضُّلٌ وبعضُه أجر.

وتقديم الخبر في الجملة الثانية؛ لتأكيد الحصر المستفادِ من اللام ـ على ما هو الشائع ـ اعتناءً بشأن نِعَم الآخرة. وقيل: للاختصاص؛ لأنَّ النِّعَم الدنيويَّة قد تكون بواسطة من يستحقُّ الحمدَ لأجلها، ولا كذلك نِعَمُ الآخرة. وكأنه أرادَ: لتأكيد الاختصاص، أو بَنى الأمر على أنَّ الاختصاص المستفادَ من اللام بمعنى الملابسة التامَّة لا الحصر، كما فصَّله الفاضلُ اليمنيّ، وأمَّا أنَّه أراد لاختصاص الاختصاص، فكما ترى، ويَرِدُ على قوله: ولا كذلك نِعَم الآخرة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] فتأمَّل.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمرَ الدارين ودبَّره حسبما تقتضيه الحكمة.

﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ العالمُ ببواطن الأشياء ومكنوناتها، ويلزم من ذلك علمُه تعالى بغيرها، وعمَّم بعضهم مِنْ أوَّلِ الأمر، وما ذكر مبنيٌّ على ما قاله بعضُ أهل اللغة من أنَّ الخبرة تختصُّ بالبواطن؛ لأنَّها من خَبِرَ الأرضَ: إذا شقَّها.

وفي هذه الفاصلة إيذانٌ بأنَّه تعالى كما يستحقُّ الحمدَ لأنَّه سبحانه منعِمٌ يستحقُّه لأنَّه ـ جلَّ شأنه ـ منعوتٌ بالكمال الاختياريِّ، وتكميلُ معنى كونه تعالى منعِماً أيضاً

---

(١) أخرج مسلم (٢٨٣٥): (١٩) من حديث جابر ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهلُ الجنة فيها ويشربون، ولا يتغوَّطون ولا يمتخطون ولا يبولون، ولكنْ طعامُهُم ذاك جُشَاءٌ كَرَشْحِ المسك، يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس».

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٧٨.

بأنَّه على وجه الحكمة والصواب، وعن علمٍ بموضع الاستحقاق والاستيجاب، لا كمن يطلَقُ عليه أنَّه منعمٌ مجازاً.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ استئنافٌ لتفصيل بعض ما يحيطُ به علمه تعالى من الأمور التي نيطت بها مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة.

وجُوِّز أن يكون تفسيراً لخبير، وأن يكون حالاً من ضميره تعالى في: «له ما في السماوات» فيكون: «له الحمد في الآخرة» اعتراضاً بين الحال وصاحبها.

أي: يعلمُ سبحانه ما يدخلُ في الأرض من المطر ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات، قاله السُّدِّيُّ.

وقال الكلبيُّ: ما يدخلُ فيها من الأموات، وما يخرج منها من جواهر المعادن.

والأولَى التعميمُ في الموصولين، فيشملان كلَّ ما يلجُ في الأرض، ولو بالوضع فيها، وكلَّ ما يخرجُ منها حتى الحيوان، فإنَّه كلَّه مخلوقٌ(١) من التراب.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: من الملائكة، قاله السُّدِّيُّ والكلبيُّ.

والأولَى التعميمُ، فيشمل «ما ينزل» المطرَ والثلجَ والبرَدَ والصاعقةَ والمقاديرَ ونحوها أيضاً، «وما يعرجُ» الأبخرةَ والأدخنةَ وأعمالَ العبادِ وأدعيتَهم ونحوها أيضاً، ويرادُ بـ «السماء» جهةُ العلوِّ مطلقاً.

ولعلَّ ترتيب المتعاطفات كما سمعت إفادةً للترقِّي في المدح، وضُمِّن العروجُ معنى السير أو الاستقرار ـ على ما قيل ـ فلذا عُدِّي بـ «في» دون «إلى». وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار التضمين، والمراد بـ «ما يعرجُ فيها»: ما يعرجُ في ثخن السماء، ويعلم من العلم بذلك العلمُ بما يعرجُ إليها من باب أولى. فتدبر.

---

(١) في الأصل: مخلوقين.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه والسلميُّ: «يُنَزِّل» بضمِّ الياء وفتح النون وشدِّ الزاي، أي: الله، كذا في «البحر»(١).

وفي «الكشاف» عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قرأ: «نُنَزِّل» بالتشديد ونون العظمة(٢).

﴿وَهُوَ﴾ مع كثرة نعمته وسبوغ فضله ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝﴾ للمفرِّطين في أداء مواجب شكرها، فهذا التذنيبُ ـ مع كونه مقرِّراً للخبرة ـ مفصِّلٌ لما أُجمِل في قوله سبحانه: «له ما في السماوات وما في الأرض» يُعْرَف منه كيف كان كلُّه نعمةً، وكالتبصُّر لأنواع النعم الكلِّيَّة، فكلٌّ منه ومن التذنيب السابق في موضعه الأحقِّ(٣)، فلا تتوهَّم أنَّ العكسَ أنسب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلِّم جنسَ البشر قاطبةً، لا أنفسهم أو معاصريهم فقط، وبنفي إتيانها نفيَ وجودها بالكلِّيَّة، لا عدمَ حضورها مع تحقُّقها(٤) في نفس الأمر، وإنما عبَّروا عنه بذلك لأنَّهم كانوا يُوعَدون بإتيانها. وقيل: لأنَّ وجودَ الأمور الزمانيَّة المستقبلة ـ لا سيما أجزاء الزمان ـ لا يكون إلَّا بالإتيان والحضور. وقيل: هو استبطاءٌ لإتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية، كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس:٤٨]. والأوَّل أولى.

والجملة ـ قيل ـ معطوفةٌ على ما قبلها عطفَ القصَّة على القصَّة، وجعلُها حاليَّةً غيرُ ظاهر.

﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم، وإثباتٌ لما نفوه، على معنى: ليس الأمر إلَّا إتيانها، وقولُه تعالى: ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تأكيدٌ له على أتمِّ الوجوه وأكملها.

---

(١) ٧/ ٢٥٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٩، وذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٥٣.

(٣) في (م): اللاحق. وهو تصحيف.

(٤) في (م): تحقيقها، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ١٢١، والكلام منه.

وجاء القَسَمُ بالربِّ للإشارة إلى أنَّ إتيانَها من شؤون الربوبيَّة، وأتى به مضافاً إلى ضميره ﷺ؛ ليدلَّ على شدَّة القسم. ورَوى هارون ـ كما قال ابن جنِّي[١] ـ عن طليق[٢] قال: سمعت أشياخنا يقرؤون: «ليأتينَّكم» بالياء التحتيَّة، وخُرِّجت على أنَّ الفاعل ضميرُ البعث؛ لأنَّ مقصودهم من نفي إتيان الساعة أنَّهم لا يبعثون. وقيل: الفاعل ضمير «الساعة» على تأويلها باليوم أو الوقت. وتعقَّبه أبو حيان[٣] بأنَّه بعيدٌ؛ إذْ لا يكون مثلُ هذا إلَّا في الشعر نحو:

ولا أرضَ أبـــقـــلَ إبـــقـــالَـــهـــا[٤]

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بدلٌ من المقسم به، على ما ذهب إليه الحوفيُّ وأبو البقاء، وجُوِّزَ أنْ يكون عطفَ بيان، وأجاز أبو البقاء أن يكون صفةً له[٥]. وتُعقِّبَ بأنَّه صفةٌ مشبَّهةٌ، وهي ـ كما ذكره سيبويه في «الكتاب» ـ لا تتعرَّفُ بالإضافة إلى معرفة[٦]، والجمهور على أنَّها تتعرَّفُ بها، ولذا ذهب جمعٌ من الأجلَّة إلى أنَّه صفةٌ.

ووصف سبحانه بإحاطة العلم إمداداً للتأكيد، وتشديداً له إثرَ تشديد، فإنَّ عظمةَ حال المقسَم به تؤذنُ بقوَّة حال المقسَم عليه، وشدَّة ثباته واستقامته؛ لأنَّه بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلَّما كان المستشهَدُ به أعلى كعباً، وأبينَ فضلاً، وأرفعَ منزلةً؛ كانت الشهادةُ أقوى وآكد، والمستشهد عليه أثبتَ وأرسخ. وخُصَّ هذا الوصف بالذكر من بين الأوصاف ـ مع أنَّ كلَّ وصفٍ يقتضي العظمةَ يتأتَّى به ذلك ـ لِمَا أنَّ له تعلُّقاً خاصّاً بالمقسَم عليه؛ فإنَّه أشهرُ أفراد الغيب في الخفاء، ففيه مع رعاية التأكيد حسنُ الإقسام على منوال:

---

(١) في المحتسب ٢/ ١٨٦.

(٢) كذا في المحتسب. ووقع في القراءات الشاذة ص١٢١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٥٤، والبحر المحيط ٧/ ٢٥٧: طلق. بدل: طليق.

(٣) في البحر المحيط ٧/ ٢٥٧.

(٤) عجز بيت لعامر بن جُوين الطائي، وسلف ٢/ ٢٣٩.

(٥) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٢٠٣.

(٦) انظر الكتاب ١/ ٤٢٥.

وثـــنـــايـــاكِ إنَّـــهـــا إغـــريـــضُ(١)

كأنَّه قيل: وربِّي العالمِ بوقت قيامها لتأتينَّكم. وفيه إدماجُ أن لا كلام في ثبوتها.

وقال صاحب «الفرائد»: جيء بالوصف المذكور؛ لأنَّ إنكارَهم البعثَ باعتبار أنَّ الأجزاءَ المتفرِّقة المنتشرةَ يمتنعُ اجتماعها كما كانت؛ يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ الآية [ق:٤]، فالوصف بهذه الأوصاف رَدٌّ لزعمهم الاستحالة، وهو أنَّ من كان علمهُ بهذه المثابة، كيف يمتنع منه ذلك؟ انتهى. واستحسنه الطيبيُّ.

وقال في «البحر»: أَتْبَعَ القَسَم بقوله تعالى: «عالم الغيب» وما بعده؛ ليعلم أنَّ إتيانها من الغيب الذي تفرَّدَ به عزَّ وجلَّ.

وما ذُكِرَ أوَّلاً أبعدُ مغزى.

وفائدة الأمر بهذه المرتبة من اليمين أنْ لا يَبقى للمعاندين عذرٌ ما أصلاً، فإنَّهم كانوا يعرفون أمانته ﷺ ونزاهته عن وصمة الكذب، فضلاً عن اليمين الفاجرة، وإنَّما لم يصدِّقوه عليه الصلاة والسلام مكابرةً.

وغَفَل صاحبُ «الفرائد» عن هذه الفائدة فقال: اقتضى المقامُ اليمينَ؛ لأنَّ من أنكر ما قيل له، فالذي وجبَ بعد ذلك إذا أُريد إعادةُ القول له أنْ يكون مقترناً باليمين، وإلَّا كان خطأً بالنظر إلى علم المعاني، وإن كان صحيحاً بالنظر إلى العربية والنحو. وقد يَغْفُلُ الأريب.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامر ورويس وسلام والجحدريُّ وقعنب: «عالمُ» بالرفع(٢)، على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو عالم. وجَوَّزَ الحوفيُّ أن يكون مبتدأً خبرُه

---

(١) صدر بيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ٢/ ٢٨٧، وعجزه:

ولآلٍ تُـــومٌ وبـــرقٌ ومـــيـــضُ

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٧. وقراءة نافع وابن عامر في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩، وفي الأخير قراءة رويس راوية يعقوب. وهي أيضاً قراءة أبي جعفر المدني من العشرة.

محذوف، أي: عالم الغيب هو. وجَوَّز هو وأبو البقاء[١] أنْ يكون مبتدأً والجملةُ بعده خبره.

وقرأ ابنُ وثَّاب والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ: «علَّامِ» بصيغة المبالغة، والخفض[٢].

وقُرئ: «عالم» بالرفع[٣] بلا مبالغة «الغيوب» بالجمع[٤].

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يَبعد، ومنه: روض عزيب: بعيدٌ من الناس. وقرأ الكسائيُّ بكسر الزاي[٥].

﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدارُ أصغر نملة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كائنةٍ فيهما ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: مثقالِ ذرَّة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ أي: منه، والكلامُ على حدِّ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف: ٤٩]. ورفعهما على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ هو اللوح المحفوظ عند الأكثرين. والجملة مؤكِّدةٌ لنفي العزوب.

وقرأ الأعمشُ وقتادة، وأبو عمرو ونافع في روايةٍ عنهما: «ولا أصغرَ ولا أكبرَ» بالنصب[٦]، على أنَّ «لا» لنفي الجنس عاملةٌ عمل «إنَّ»، وما بعدَها اسمها منصوبٌ بها؛ لأنَّه شبيهٌ بالمضاف، ولم ينوَّن للوصف ووزن الفعل، فليس ذلك نحو: «لا مانع لما أعطيت»[٧]، والخبر هو الخبر على قراءة الجمهور.

---

(١) في الإملاء ٢/٢٠٣.
(٢) البحر المحيط ٧/٢٥٨، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/٣٤٩.
(٣) بعدها في (م): يكون.
(٤) الكشاف ٣/٢٧٩.
(٥) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/٢٨٥.
(٦) المحرر الوجيز ٤/٤٠٥، والبحر المحيط ٧/٢٥٨، وقراءة الأعمش وقتادة في القراءات الشاذة ص١٢١. وقراءة نافع وأبي عمرو المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.
(٧) قطعة من حديث متفق عليه، سلف ١٢/٤٨٣، وسلف ثمة الكلام في هذه المسألة.

وقال أبو حيان: «لا» لنفي الجنس، وهي وما بني معها مبتدأ على مذهب سيبويه، والخبر «إلا في كتاب»[1].

وما ذكرناه في توجيه القراءتين هو الذي ذهب إليه كثيرٌ من الأجلَّة.

وقيل: إنَّ ذلك معطوفٌ في قراءة الرفع على «مثقال»، وفي القراءة الأخرى على «ذَرَّة»، والفتحة فيه نيابة عن الكسرة للوصف والوزن، وإليه ذهبَ أبو البقاء[2].

واستشكلَ بأنَّه يصير المعنى عليه إذا كان الاستثناء متَّصلاً كما هو الأصل: لا يعزبُ عن علمه مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلَّا في كتاب مبين، فإنَّه يعزبُ عنه فيه. وفساده ظاهرٌ.

والتزمَ السراجُ البلقيني على تقدير العطف المذكور أنْ يكونَ الاستثناءُ من محذوف، والتقدير: ولا شيء إلَّا في كتابٍ، ثم قال: ولا بدع في حذف ما قُدِّر لدلالة الكلام عليه، ويحصل من مجموع ذلك إثباتُ العلم لله تعالى بكلِّ معلومٍ، وأنَّ كلَّ شيءٍ مكتوبٌ في الكتاب.

وقيل: العطفُ على ما ذكر، والاستثناء منقطع، والمعنى: لا يعزبُ عنه تعالى شيءٌ من ذلك، لكن هو في كتاب.

وقيل: العطف على «ذلك»، والكلام نهج قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم ... بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائبِ[3]

فالمعنى: إن كان يعزبُ عنه شيءٌ، فهو الذي في كتابٍ مبين، لكن الذي في الكتاب لا يعزبُ عنه، فلا يعزبُ عنه شيءٌ. وفيه من البعد ما فيه.

وقيل: إنَّ المرادَ بقوله تعالى: «لا يعزب» إلخ أنَّه تعالى عالمٌ به، والمراد بقوله سبحانه: «إلَّا في كتاب» نحو ذلك؛ لأنَّ الكتاب هو عِلْمُ الله تعالى،

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٥٨، والكتاب ٢/ ٢٧٥.

(٢) الإملاء ٤/ ٢٠٣.

(٣) سلف ٥/ ٤٠٧.

والمعنى: وما يعزبُ عنه مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء إلَّا يعلمُه، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلَّا في علمه، فيكون نظيرَ قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. وفيه أنَّه أبعدُ ممَّا قبله.

وقيل: «يعزب» بمعنى يظهر ويذهب، والعطف على ما سمعت، والمعنى: لم يظهر شيءٌ عن الله تعالى بعدَ خلقه له إلَّا وهو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، وتلخيصه: كلُّ مخلوقٍ مكتوب. وفيه أنَّ هذا المعنى لـ «يعزب» غيرُ معروف، وإنَّما المعروف ما تقدَّم. نعم قال الصغانيُّ في «العباب» قال أبو سعيد الضرير: يقال: ليس لفلانٍ امرأة تُعزِبه، أي: تُذْهِب عزبتَه بالنكاح، مثل قولك: تُمْرِضُه، أي: تقوم عليه في مرضِه، ثم قال الصغانيُّ: والتركيب يدلُّ على تباعدٍ وتَنَحٍّ، فتفسيره بالظهور بعيدٌ، ولئن سلَّمنا قربَه، فلأيِّ شيء جمع بين الظهور والذهاب.

وقيل: «إلا» بمعنى الواو، و«هو» مقدَّر في الكلام، والكلام قد تمَّ عند «أكبر»، كأنه قيل: لا يعزبُ عنه ذلك، وهو في كتاب، ومجيءُ «إلَّا» بمعنى الواو ذهبَ إليه الأخفشُ من البصريين، والفرَّاء من الكوفيين(١). وخَرَّجَ عليه قومٌ: ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢]، و: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧].

وقد حكى هذا القولَ مكِّيٌّ في نظير الآية، ثم قال: وهو قولٌ حسن، لولا أنَّ جميعَ البصريين لا يعرفون «إلَّا» بمعنى الواو.

وكأنَّه لم يقف على قول الأخفش، وهو من رؤساء نحاة البصرة، أو لم يعتبره(٢)، فلذا قال: جميع البصريين، وقد كثر الكلام في هذا الوجه وارتضاه السراجُ البلقيني، وأنا لا أراهُ مَرْضياً، وإن أوقدَ له ألفُ سراج.

---

(١) انظر معاني القرآن للأخفش ١/ ٣٤٣، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٧-٢٨٨. وانظر ما سلف ١١/ ١٩٨-١٩٩.

(٢) في الأصل: يعتبروه.

وقيل: العطف على ما سمعت، وضمير «عنه» للغيب، فلا إشكال، إذ المعنى حينئذٍ: لا يبعدُ عن غيبه شيءٌ إلَّا ما كان في اللوح؛ لبروزه من الغيب إلى الشهادة واطِّلاع الملأ الأعلى عليه.

وتُعقِّب بأنَّ المعنى لا يساعدُه؛ لأنَّ الأمر الغيبيَّ إذا برز إلى الشهادة لم يعزب عنه، بل بقي في الغيب على ما كان عليه مع بروزه، ومعناه أنَّ كونَه في اللوح المحفوظ كنايةٌ عن كونه من جملة معلوماته تعالى، وهي إمَّا مغيبةٌ وإمَّا ظاهرةٌ، وكلُّ مغيَّبٍ سيظهر، وإلَّا كان معدوماً لا مغيَّباً، وظهورُه وقتَ ظهوره لا يرفعُ كونه مغيَّباً، فلا يكون الاستثناء متَّصلاً، ألا ترى أنَّك لو قلت: عِلْمُ الساعة مغيَّبٌ عن الناس إلَّا علمَهم بها حين تقوم ويشاهدونها، لم يكن هذا الاستثناءُ متَّصلاً، كذا قيل، فتأمَّل ولا تغفل.

وأنت تعلم أنَّ هذا الوجه على فرض عدم ورود ما ذُكر عليه ضعيفٌ؛ لأنَّ الظاهرَ الذي يقتضيه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [يونس: ٦١] رجوعُ الضمير إلى الله عزَّ وجلَّ.

والذي ذهب إليه أبو حيان[١] أنَّ الكتابَ ليس هو اللوح، وليس الكلامُ إلَّا كنايةً عن ضبط الشيء والتحفُّظ به.

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: «ولا أصغرِ من ذلك ولا أكبرِ» بكسر الراءين[٢]. وخُرِّجَ على أنَّه نويَ مضافٌ إليه، والتقدير: ولا أصغرِه ولا أكبرِه. و«من ذلك» ليس متعلِّقاً بأفعل، بل هو تبيينٌ؛ لأنَّه لما حذف المضاف إليه أُبهم لفظاً، فبُيِّن بقوله تعالى: «من ذلك»، أي: أعني من ذلك. ولا يخفى أنَّه توجيه شذوذ.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ متعلِّقٌ بقوله سبحانه: «لتأتينَّكم»،

---

(١) في البحر ٧/ ٢٥٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٨.

على أنَّه علةٌ له وبيانٌ لمقتضى إتيانها، فهو من تتمَّة المقسَم عليه، فحاصل الكلام أنَّ الحكمة تقتضي إثباتَها، والعلمُ البالغُ المحيط بالغيب وجميعِ الجزئيات جليِّها وخفيِّها حاصلٌ، والقدرةُ المقتضيةُ لإيجاد العالم وما فيه وجعله نعمةً على ما مرَّ، فقد تمَّ المقتضي، وارتفعَ المانعُ، فليس في الآية اكتفاءٌ في الردِّ بمجرَّد اليمين.

واستظهر في «البحر» تعلُّقه بـ «لا يعزب»، وذهب إليه أبو البقاء[1]. وتُعقِّبَ بأنَّ علمه تعالى ليس لأجل الجزاء.

وقيل: متعلِّق بمتعلَّق «في كتاب». وهو كما ترى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول من حيث اتِّصافه بما في حيِّز الصلة، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل والشرف، أي: أولئك الموصوفون بالإيمان وعمل الأعمال الصالحات ﴿لَهُم﴾ بسبب ذلك ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ لما فَرَطَ منهم من بعض فرطاتٍ قلَّما يخلو عنها البشر ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ حسنٌ لا تعب فيه ولا مَنَّ عليه.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالقدح فيها، وصدِّ الناس عن التصديق بها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مسابقين، يحسبون أنَّهم يفوتوننا، قاله قتادة. وقال عكرمة: مراغمين. وقال ابن زيد: مجاهدين في إبطالها.

وقرأ جمعٌ: «مُعْجِزين» مخفَّفاً[2]. وابنُ كثير وأبو عمرو والجحدريُّ وأبو السمَّال مثقَّلاً[3]؛ قال ابن الزبير: أي: مثبِّطين عن الإيمان من أراده، مدخِلين عليه العجزَ في نشاطه. وقيل: معجزين قدرةَ الله عزَّ وجلَّ في زعمهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر، وفيه إشارةٌ إلى بُعْدِ منزلتهم في الشرِّ

---

(١) في الإملاء ٤/ ٢٠٣.

(٢) ذكرها السمين في الدر المصون ٨/ ٢٩١ عن الجحدري وابن الزبير، وهي قراءة شاذة.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٥٨. وقراءة ابن كثير وأبي عمرو في التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧.

﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ أي: من سيِّئ العذاب وأشدِّه، و«من» للبيان ﴿أَلِيمٌ ۝٥﴾ بالرفع[1] صفة «عذاب».

وقرأ أكثر السبعة بالجرِّ، على أنَّه صفةٌ مؤكِّدةٌ لـ «رجز» بناءً على ما سمعت من معناه، وجعله بعضهم صفةً مؤسِّسةً له بناءً على أنَّ «الرجز» ـ كما روي عن قتادة ـ مطلقُ العذاب، وجُوِّزَ جعلهُ صفة «عذاب» أيضاً، والجرُّ للمجاورة.

والظاهر أنَّ الموصول مبتدأ، والخبر جملة «أولئك لهم عذاب»، وجُوِّز أنْ يكون في محلِّ نصبٍ عطفاً على الموصول قبله، أي: ويجزي الذين سعوا، وجملة «أولئك لهم» إلخ التي بعده مستأنفةٌ، والتي قبله معترضة.

وفي «البحر»: يحتمل ـ على تقدير العطف على الموصول ـ أنْ تكون الجملتان المصدَّرتان بـ «أولئك» هما نفس الثواب والعقاب، ويحتمل أن تكونا مستأنفتين، والثوابُ والعقابُ غير ما تضمنتا ممَّا هو أعظمُ، كـ : رضا الله تعالى عن المؤمن دائماً، وسخطه على الكافر دائماً[2].

وفيه أنَّه كيف يتأتَّى حملُ ذلك على رضا الله تعالى وضدِّه، وقد صرَّح أوَّلاً بالمغفرة والرزق الكريم، وفي مقابله بالعذاب الأليم، وجعل الأول جزاءً.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: ويعلمُ أولو العلم من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن يطأ أعقابَهم من أمَّته عليه الصلاة والسلام، أو مَن آمن من علماء أهل الكتاب، كما روي عن قتادة، كـ : عبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما رضي الله عنهم ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ بالنصب على أنَّه مفعول ثانٍ لـ «يرى»، والمفعول الأول هو الموصول الثاني، و«هو» ضمير الفصل.

وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع[3]، على جعل الضمير مبتدأ، وجعله خبراً، والجملة

---

(١) هي قراءة حفص وابن كثير من السبعة، ويعقوب من العشرة، وقرأ الباقون بالجر. التيسير ص١٨٠، والنشر٢/ ٣٤٩.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٩.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٥٩.

في موضع المفعول الثاني لـ «يرى»، وهي لغة تميم؛ يجعلون ما هو فصلٌ عند غيرهم مبتدأً.

وقوله تعالى: «ويرى» إلخ ابتداءُ كلامٍ غير معطوفٍ على ما قبله، مسوقٍ للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات.

وفي «الكشف»: هو عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ على معنى: وقال الجهلة: لا ساعة، وعلم أولو[1] العلم أنَّه الحقُّ الذي نطق به المنزل إليك الحقُّ.

وتُعقِّبَ بأنَّه تكلُّفٌ بعيدٌ؛ فإنَّ دلالة النظم الكريم على الاهتمام بشأن القرآن لا غير.

وقيل عليه: أنت خبيرٌ بأنَّ ما قبله من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ وقولِه سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ إلخ في شأن الساعة ومنكري الحشر، فكيف يكون ما ذُكر بعيداً بسلامة الأمير، فذكرُ حقِّيَّةِ القرآن بطريق الاستطراد، والمقصود بالذات حقِّيَّةُ ما نطق به من أمر الساعة.

وقال الطبريُّ والثعلبيُّ[2]: إنَّ «يَرى» منصوبٌ بفتحةٍ مقدَّرةٍ عطفاً على «يجزي»، أي: وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة معاينةً أنَّه الحقُّ حسبما علموه قبلُ برهاناً، ويحتجُّوا به على المكذِّبين، وعليه فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾ معطوفٌ على الموصول الأول، أو مبتدأ والجملةُ معترضةٌ، فلا يضرُّ الفصل كما توهِّم.

وجُوِّزَ أن يُرَاد بأولي العلم من لم يؤمن من الأحبار، أي: ليعلموا يومئذٍ أنَّه هو الحق، فيزدادوا حسرةً وغمّاً.

وتُعقِّبَ بأنَّ وصفَهم بأولي العلم يأباه؛ لأنها صفةٌ مادحةٌ، ولعلَّ المجوِّزَ لا يسلِّم هذا.

---

(١) في (م): أولي.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٢١٣، وتفسير الثعلبي ٨/ ٧٠.

نعم كون ذلك بعيداً لا ينكر، لا سيَّما وظاهرُ المقابلة بقوله تعالى: «وقال الذين كفروا» يقتضي الحملَ على المؤمنين.

﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي يَقهر ولا يُقهر ﴿ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ المحمود في جميع شؤونه عزَّ وجلَّ، والمراد بصراطه تعالى التوحيدُ والتقوى، وفاعل «يهدي» إمَّا ضمير «الذي أنزل»، أو ضمير الله تعالى، ففي «العزيز الحميد» التفاتٌ، والجملة على الأوَّل إمَّا مستأنفةٌ، أو في موضع الحال من «الذي» على إضمار مبتدأ، أي: وهو يهدي، كما في قوله:

نـجـوتُ وأَرْهَـنُـهُـم مـالـكـاً(١)

أو معطوفةٌ على «الحق» بتقدير: وأنَّه يهدي.

وجُوِّزَ أن يكون «يهدي» معطوفاً على «الحقّ» عطف الفعل على الاسم؛ لأنَّه في تأويله، كما في قوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك:١٩] أي: قابضات، وبعكسه قوله:

وألـفـيـتـه يـومـاً يـبـرُّ(٢) عـدوَّه ... وبحرَ عطاءٍ يستخفُّ(٣) المعابرا

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم كفار قريش، قالوا مخاطباً بعضهم لبعض على جهة التعجُّب والاستهزاء: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون به النبيَّ ﷺ، والتعبيرُ عنه عليه الصلاة والسلام بذلك من باب التجاهل، كأنَّهم لم يعرفوا منه ﷺ إلَّا أنَّه رجلٌ، وهو عليه الصلاة والسلام عندهم أظهرُ من الشمس:

ولـيـس قـولُـكَ مَـنْ هـذا بـضـائِـره ... العربُ تعرفُ من أنكرتَ والعجمُ(٤)

---

(١) أي: وأنا أرهنهم...، والبيت لعبد الله بن همام السلولي، كما في إصلاح المنطق ص٢٥٧، ودلائل الإعجاز ص٢٠٥، ومعاهد التنصيص ١/ ٢٨٥، وصدره:

فـلـمَّـا خـشـيـتُ أظـافِـيـرَهُـم

(٢) هكذا في الأصل بتشديد الراء، وفي (م) ومطبوع البحر ٧/ ٢٥٩: يبير. وفي مطبوع ديوان النابغة ص ٦٥ - والبيت له -: يبيد.

(٣) في (م) ومطبوع البحر المحيط: يستحق.

(٤) هو للفرزدق في مدح زين العابدين. ديوانه ٢/ ١٧٨.

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يحدِّثكم بأمرٍ مستغربٍ عجيب.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «ينبيكم» بإبدال الهمزة ياءً محضةً[(١)]، وحُكي عنه: «يُنْبِئْكم» بالهمز من أنبأ[(٢)].

﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ «إذا» شرطيَّةٌ، وجوابها محذوفٌ لدلالة ما بعده عليه، أي: تبعثون، أو: تحشرون، وهو العامل في «إذا» على قول الجمهور، والجملة الشرطية بتمامها معمولةٌ لـ «ينبئكم»؛ لأنَّه في معنى: يقول لكم: إذا مُزِّقتم كلَّ ممزَّقٍ تبعثون، ثم أكَّد ذلك بقوله تعالى: «إنَّكم لفي خلقٍ جديد».

وجُوِّز أن يكون «إنكم لفي خلقٍ جديد» معمولاً لـ «ينبئكم»، وهو معلَّقٌ، ولولا اللام في خبر «إنَّ» لكانت مفتوحة، والجملة سدَّت مسدَّ المفعولين، والشرطيَّةُ على هذا اعتراضٌ، وقد مَنَعَ قومٌ التعليقَ في باب أَعْلَمَ، والصحيح جوازُه، وعليه قوله:

حـذارِ فـقـد نُـبِّـئـت إنَّـك لَـلَّـذي ستُجْزَى بما تَسعى فتسعد أو تَشْقَى[(٣)]

وجُوِّزَ أنْ تكون «إذا» لمحضِ الظرفيَّة، فعاملها الذي دلَّ عليه ما بعدُ يقدَّرُ مقدَّماً، أي: تبعثون أو تحشرون إذا مُزِّقتُم، ولا يجوز أن يكون العامل «يدلُّكم» أو «ينبئكم»؛ لعدم المقارنة، ولا «مزِّقتم»؛ لأنَّ «إذا» مضافة إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا «خلقٍ» ولا «جديد»؛ لأنَّ «إنَّ» لها الصدر، فلا يعملُ ما بعدَها فيما قبلها.

وقال الزَّجَّاجُ: «إذا» في موضع النصب بـ «مُزِّقتم»، وهي بمنزلة «مَنْ» الشرطية، يعملُ فيها الذي يليها[(٤)].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٥٩.

(٢) حكاها أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٢٥٩ عن الزمخشري، وفي مطبوع الكشاف ٣/ ٢٨٠: وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه: ينبيكم!

(٣) أورده العيني في شرح الشواهد ٢/ ٤٤٧، وأبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٩، والسمين في الدر المصون ٩/ ١٥٥ دون نسبة.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤١، وفيه: «إن» بدل «من»، وينظر تفصيل هذه المسألة في مغني اللبيب ص١٣٠-١٣١.

وقال السجاوندي: العاملُ محذوف، وما بعدها إنَّما يعملُ فيها إذا كان مجزوماً بها، وهو مخصوصٌ بالضرورة، نحو:

وإذا تُصِبْكَ خصاصةٌ فتجمَّلِ[(١)]

فلا يُخَرَّج عليه القرآن، فإذا لم تَجْزم كانت مضافةً إلى ما بعدها، والمضاف إليه لا يعملُ في المضاف.

وقال أبو حيان: الصحيح أنَّ العامل فيها فعلُ الشرط كسائر أدوات الشرط[(٢)]. وتمام الكلام على ذلك في كتب النحو.

و«ممزَّق» مصدر جاء على زنة اسم المفعول، كمُسرَّح في قوله:

ألم تعلم مُسَرَّحيَ القوافي ... فلا عِيّاً بهنَّ ولا اجتلابَا[(٣)]

وتمزيقُ الشيء: تخريقه وجعله قِطَعاً قِطَعاً، ومنه قوله:

إذا كنتُ مأكولاً فكن خير آكل ... وإلَّا فأدركني ولمَّا أُمَزَّقِ[(٤)]

والمرادُ: إذا متُّم وفُرِّقت أجسادكم كلَّ تفريقٍ بحيث صرتم رفاتاً وتراباً.

ونصب «كل» على المصدريَّة، وجُوِّز أنْ يكون اسم مكان، فنصب «كل» على الظرفية؛ لأنَّ لها حكم ما تضاف إليه، أي: إذا فُرِّقَتْ أجسادُكم في كلِّ مكانٍ، من القبور وبطون الطير والسباع، وما ذهبت به السيول كلَّ مذهبٍ، وما نسفته الرياح فطرحتهُ كلَّ مُطَّرح.

و«جديد» فعيل بمعنى فاعل عند البصريين، مِنْ جَدَّ الشيءُ إذا صار جديداً،

---

(١) هو عجز بيت لعبد قيس بن خفاف كما في الأصمعيات ص٢٣٠، والمفضليات ص٣٨٥، وصدره:

واستغن ما أغناك ربُّك بالغنى

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٩.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٦٥١، والمقتضب ١/ ٧٥، و٢/ ١٢٥، والخصائص ١/ ٣٦٧ و٣/ ٢٩٤، والجمل في النحو للزجاجي ص١١٦، والكشاف ٣/ ٢٨٠، وصدره في الديوان: ألم تُخْبَر بمَسْرَحِيَ القوافي.

(٤) البيت للممزَّق العبديّ، كما في الأصمعيات ص١٦٦، والبيان والتبيين للجاحظ ١/ ٣٧٥.

وبمعنى مفعول عند الكوفيين، من جدَّه إذا قطعه، ثمَّ شاع في كلٍّ جديد وإن لم يكن مقطوعاً، كالبناء.

والسبب في الخلاف أنَّهم رأوا العرب لا يؤنثونه، ويقولون: ملحفةٌ جديد، لا: جديدة، فذهب الكوفيون إلى أنَّه بمعنى مفعول، والبصريون إلى خلافه، وقالوا: ترك التأنيث لتأويله بشيءٍ جديد، أو لحمله على فعيل بمعنى مفعول، كذا قيل.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يُنسَبُ إليه من أمر البعث ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه. واستدلَّ به أبو عمرٍو الجاحظ[١] على ما ذهب إليه من أنَّ صدقَ الخبر مطابقتُه للواقع مع الاعتقاد، وكذبه عدمُها معه، وغيرهما ليس بصدقٍ ولا كذب، وذلك أنَّ الكفارَ ـ وهم عقلاءُ من أهل اللسان عارفونَ باللغة ـ حصروا إخبارَ النبيِّ ﷺ بالبعث في الافتراء والإخبار حال الجِنة، على سبيل منع الخلو بالمعنى الأعم، ولا شكَّ أنَّ المراد بالثاني غيرُ الكذب؛ لأنَّه قسيمُه، وغيرُ الصدق؛ لأنَّهم اعتقدوا عدمه، وأيضاً لا دلالة لقولهم: «أم به جِنَّة» على معنى: أم صدق، بوجهٍ من الوجوه، فيجب أنْ يكون بعضُ الخبر ما ليسَ بصادقٍ ولا كاذب؛ ليكون ذلك منه بزعمهم، وإن كان صادقاً في نفس الأمر.

وتوضيحُه أنَّ ظاهر كلامهم هذا يدلُّ على طلب تعيين أحد حالَي النبيِّ ﷺ ـ المستويين في اعتقاد المتكلِّم ـ حين الإخبار بالبعث، وهو يستلزمُ تعيين أحدِ حالتي[٢] الخبر، والاستفهام هاهنا للتقرير، فيفيد ثبوتَ أحد الحالين للخبر، ولا شكَّ أنَّ ثبوت أحدهما لا يثبتُ الواسطة ما لم يعتبر تنافيهما[٣]، وكذا تنافيهما في الجمع لا يُثبتها، بل لا بدَّ من تنافيهما في الارتفاع، يعني أنَّ خبره عليه الصلاة والسلام بالبعث لا يخلو عن أحد الأمرين المتنافيين، فيكون المراد بالثاني

---

(١) الصواب أن الجاحظ: أبو عثمان، واسمه عمرو. وقد تبع المصنف في هذا الوهم الخفاجيَّ. انظر حاشيته ٧/ ١٩١.

(٢) في (م): حالي.

(٣) في الأصل: تنافيها.

ما هو منافٍ وقسيمٌ للأول، ومعلومٌ أنَّه غيرُ الصدق، فليس الصدقُ عبارةً عن مطابقة الواقع فقط، والكذب عن عدم المطابقة له، كما يقول الجمهور، أو عن مطابقة الاعتقاد له وعدم مطابقته له، كما يقول النظَّام، فيكونان عبارتين عن مطابقتهما وعدم مطابقتهما، وتَثبتُ الواسطة.

وأجيبَ بأنَّ معنى «أم به جِنَّةٌ»: أم لم يفتر، فعبَّر عن عدم الافتراء بالجِنَّة؛ لأنَّ المجنون يلزمُه أن لا افتراءَ له؛ لأنَّه ـ كما دل عليه نقل الأئمة واستعمال العرب ـ الكذبُ عن عمد، ولا عمدَ للمجنون، فالثاني ليس قسيماً للكذب، بل لما هو أخصُّ منه، أعني الافتراء، فيكون ذلك حصراً للخبر الكاذب بزعمهم في نوعيه: الكذب عن عمد، والكذب لا عن عمد، ولو سُلِّم أنَّ الافتراء بمعنى الكذب مطلقاً، فالمعنى: أَقَصَدَ الافتراءَ ـ أي: الكذب ـ أم لم يقصد، بل كذب بلا قصدٍ لما به من الجِنَّة.

وقيل: المعنى: أفترى أم لم يفتر، بل به جنونٌ، وكلام المجنون ليس بخبر؛ لأنَّه لا قصدَ له يُعتَدُّ به ولا شعور، فيكون مرادهم حصره في كونه خبراً كاذباً، أو ليس بخبر، فلا يثبتُ خبرٌ لا يكون صادقاً ولا كاذباً. ونوقش فيه كما لا يخفى على من راجع كتب المعاني.

بقي هاهنا بحثٌ، وهو أنَّ الطيبيَّ أشارَ إلى أنَّ مبنى الاستدلال كون «أم» متَّصلةً. واعترضه بأنَّ الظاهرَ كونُها منقطعةً؛ أمَّا لفظاً، فلاختلاف مدخول الهمزة و«أم»، وأمَّا معنًى: فلأنَّ الكفرة المعاندين لمَّا أَخرَجوا قولهم: «هل ندلُّكم على رجلٍ ينبئكم» مخرجَ الطنز[1] والسخرية، متجاهلين برسول الله ﷺ وبكلامه من إثبات الحشر والنشر، وعقَّبوه بقولهم: «أفترى على الله كذباً» = أَضْرَبُوا عنه إلى ما هو أبلغُ منه ترقِّياً من الأهون إلى الأغلظ، من نسبة الجنون إليه، وحاشاه ﷺ، فكأنَّهم قالوا: دعوا حديثَ الافتراء، فإن هاهنا ما هو أطمُّ منه؛ لأنَّ العاقلَ كيف يحدِّثُ بإنشاء خلقٍ جديد بعد الرفات[2] والتراب؟! ولمَّا كان التعويلُ على ما بعد

---

(١) أي: السخرية. القاموس (طنز).

(٢) في الأصل: الوفات!؟

الإضراب من إثبات الجنون، أوقعَ الإضراب الثاني في كلامه تعالى ردّاً لقولهم، ونفياً للجنون عنه، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وإثباتاً له فيهم، إلى آخر ما قال.

ولم يرتضِ ذلك صاحب «الكشف» فقال: في كلام «الكشاف» إشارةٌ إلى أنَّ «أم» متصلة، وفائدةُ العدول عن الفعل في جُنّ: إيماءٌ إلى أنَّ الثابتَ هو ذلك الشق، كأنَّه قيل: أَعَنِ افتراءٍ هذا الكذب العُجاب أم جنونٍ؟ والتقابل لأنَّ المجنونَ لا افتراء له، فالاستدلال على الانقطاع بتخالف العديلين ساقط؛ وأمَّا الترقِّي من الاتصال [فحاصل][1] أيضاً ـ على ما لوَّحَ إليه ـ بوجهٍ ألطف. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ ظاهر الاستدلال يقتضي الاتِّصال، لكن قال الخفاجيُّ: إنَّ كون الاستدلال مبنيًّا على الاتصال غيرُ مسلَّمٍ، فتأمَّل[2].

والظاهر: «أفترى على الله كذباً أم به جِنَّةٌ» من قول بعضهم لبعض.

وفي «البحر»[3]: يحتملُ أنْ يكون من كلام السامع المجيب لمن قال: «هل ندلُّكم» رَدَّدَ بين شيئين، ولم يجزم بأحدهما لما في كلٍّ من الفظاعة.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ۝٨﴾ إبطالٌ من جهته تعالى لما قالوا بقسيميه، وإثباتُ ما هو أشدُّ وأفظعُ لهم، ولذا وضع «الذين لا يؤمنون» موضعَ الضمير توبيخاً لهم، وايماءً إلى سبب الحكم بما بعده، كأنَّه قيل: ليس الأمر كما زعموا، بل هم في كمال اختلال العقل، وغاية الضَّلال عن الفهم والإدراك الذي هو الجنون حقيقةً، وفيما يؤدِّي إليه ذلك من العذاب؛ حيث أنكروا حكمةَ الله تعالى في خلق العالم، وكذَّبوه عزَّ وجلَّ في وعده ووعيده، وتعرَّضوا لسخطه سبحانه.

وتقديم العذاب على ما يوجبُه ويستتبعه؛ للمسارعة إلى بيان ما يسوءهم ويفتُّ في أعضادهم، والإشعارِ بغاية سرعة ترتُّبه عليه، كأنَّه يسابقه فيسبقه. ووصف

(١) زيادة يقتضيها السياق، وفي حاشية الشهاب: والترقي المذكور حاصلٌ مع الاتصال أيضاً.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٩٢.
(٣) ٧/ ٢٦٠.

الضلال بالبعيد الذي هو وصفُ الضالِّ للمبالغة؛ لأنَّ ضلالهم إذا كان بعيداً في نفسه، فكيف بهم أنفسِهم؟!

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: هو استئنافٌ مسوقٌ لتذكيرهم بما يعاينون ممَّا يدلُّ على كمال قدرته عزَّ وجلَّ، وتنبيههم على ما يحتمل أنْ يقعَ من الأمور الهائلة في ذلك؛ إزاحةً لاستحالتهم الإحياء، حتى قالوا ما قالوا فيمن أخبرهم به، وتهديداً على ما اجترؤوا عليه.

والمعنى: أَعَمُوا فلم ينظروا إلى ما أحاطَ بجوانبهم من السماء والأرض، ولم يتفكَّروا أنَّهم أشدُّ خلقاً أم هي؟ وأنَّا «إن نشأ نخسف بهم الأرض» كما خسفناها بقارون، «أو نسقط عليهم كسفاً» أي: قطعاً «من السماء» كما أسقطنا على أصحاب الأيكة؛ لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات.

وهو تفسيرٌ ملائمٌ للمقام، إلَّا أنَّ ربطَ قوله تعالى: «إن نشأ» إلخ بما قبله بالطريق الذي ذكره بعيدٌ.

وفي «البحر» أنَّه تعالى وَقَفهم في ذلك على قدرته الباهرة، وحَذَّرهم إحاطة السماء والأرض بهم، وكأنَّ ثَمَّ حالاً محذوفةً، أي: أفلا يرون إلى ما يحيطُ بهم من سماءٍ وأرضٍ مقهوراً[(١)] تحتَ قدرتنا، نتصرَّفُ فيه كما نريد؟ «إنْ نشأ نخسف بهم الأرض» إلخ. أو: أفلم[(٢)] ينظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم محيطاً بهم، وهم مقهورون فيما بينه؟ «إن نشأ» إلخ. ولا يخلو عن شيء.

وقال العلَّامة أبو السعود: إنَّ قوله تعالى: «أفلم يروا» إلخ استئنافٌ مسوقٌ لتهويل ما اجترؤوا عليه من تكذيبِ آيات الله تعالى، واستعظامِ ما قالوا في حقِّه عليه الصلاة والسلام، وأنَّه من العظائم الموجبة لنزول أشدِّ العقاب، وحلولِ أفظع العذاب من غير رَيْثٍ وتأخير. وقوله تعالى: «إن نشأ» إلخ بيانٌ لما ينبئ عنه ذكر

---

(١) في الأصل، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٠: مقهور. والمثبت من (م).

(٢) في الأصل و(م): فلم، والمثبت من البحر.

إحاطتهما بهم من المحذور المتوقَّع من جهتهما، وفيه تنبيهٌ على أنَّه لم يبقَ من أسباب وقوعه إلَّا تعلُّقُ المشيئة به، أي: فعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل المستتبع للعقوبة، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم، بحيثُ لا مفرَّ لهم عنه ولا محيص؟ «إنْ نشأ» جرياً على موجب جناياتهم «نخسف» إلخ[1].

ولا يخفى أنَّ فيه بُعْداً وضعفَ ربطٍ بالنسبة إلى ما سمعت أوَّلاً، مع أنَّ ما بَعْدُ ليس فيه كثيرُ ملاءَمةٍ لما قبلَه عليه. ويخطر لي أنَّ قوله تعالى: «أفلم يروا» مسوقٌ لتذكيرهم بأظهر شيءٍ لهم ـ بحيث إنهم يعاينونه أينما التفتوا، ولا يغيبُ عن أبصارهم حيثما ذهبوا ـ يدلُّ على كمال قدرته عزَّ وجلَّ؛ إزاحةً لمَا دعاهم إلى ذلك الاستهزاء والوقيعة بسيِّد الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، من زعمهم قصورَ قدرته تعالى عن البعث والإحياء؛ ضرورةَ أنَّ من قَدِرَ على خلق تلك الأجرام العظام لا يعجزُه إعادةُ أجسامٍ هي كَلَا شيءٍ بالنسبة إلى تلك الأجرام، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] وفيه من التنبيه على مزيد جهلهم المشارِ إليه بالضلال البعيد ما فيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر ممَّا بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴿لَءَايَةً﴾ أي: لدلالةً واضحةً على كمال قدرة الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا يعجزه البعث بعد الموت وتفرُّقِ الأجزاءِ المحاطة بهما. ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⁽٩⁾﴾ أي: راجعٍ إلى ربِّه تعالى، مطيعٍ له جلَّ شأنه؛ لأنَّ المنيبَ لا يخلو من النظر في آيات الله عزَّ وجلَّ والتفكُّر فيها = كالتعليل لِمَا يُشعر به قوله سبحانه: «أفلم يروا» إلخ من الحثِّ على الاستدلال بذلك على ما يزيحُ إنكارهم البعثَ. وفيه تعريضٌ بأنَّهم مُعْرِضون عن ربِّهم سبحانه، غيرُ مطيعين له جلَّ وعلا، وتَخلُّصٌ إلى ذكر المنيبين إليه تعالى على قول، وقوله تعالى: «إنْ نشأ» كالاعتراض جيء به لتأكيد تقصيرهم، والتنبيهِ على أنَّهم بلغوا فيه مبلغاً يستحقُّون به في الدنيا ـ فضلاً عن الأخرى ـ نزولَ أشدِّ العقاب، وحلولَ أفظع العذاب، وأنَّه لم يبق من أسباب ذلك إلَّا تعلُّق المشيئة به، إلَّا أنَّها لم تتعلَّق لحكمة.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٢٣.

وظَنِّي أنه حسن، وتحتملُ الآية غير ذلك، واللهُ تعالى أعلمُ بأسرار كتابه.

وقيل: إنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى مصدر «يروا»، وهو الرؤية، وذُكِّرَ لتأويله بالنظر، والمراد به الفكر.

وقيل: إشارةٌ إلى ما تُليَ من الوحي الناطق بما ذكر.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابن وثّاب وعيسى والأعمش وابنُ مصرِّف: «يشأ» و«يخسف» و«يسقط» بالياء فيهنَّ، وأدغمَ الكسائيُّ الفاء في الباء في: «يخسف بهم»[1].

قال أبو عليّ: ولا يجوزُ ذلك؛ لأنَّ الباء أضعف في الصوت من الفاء، فلا تدغم فيها، وإن كانت الباء تدغم في الفاء نحو: اضرب فلاناً، وهذا كما تدغم الباء في الميم، نحو: اضرب مالكاً، ولا تدغم الميم في الباء، نحو: اضمم بك[2]؛ لأنَّ الباء انحطَّت عن الميم بفقد الغنَّة التي فيها.

وقال الزمخشريُّ: قرأ الكسائيُّ: «يخسف بهم» بالإدغام، وليست بقوية[3].

وأنت تعلم أنَّ القراءةَ سنَّةٌ متَّبعة، ويوجد فيها الفصيحُ والأفصح، وذلك من تيسير اللهِ تعالى القرآنَ للذكر، وما أدغم الكسائيُّ إلَّا عن سماع، فلا التفاتَ إلى قول أبي عليٍّ ولا الزمخشريّ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: آتيناه لحسن إنابته وصحَّة توبته فضلاً، أي: نعمةً وإحساناً.

وقيل: فضلاً وزيادةً على سائر الأنبياء المتقدِّمين عليه، أو أنبياء بني إسرائيل، أو على من عدا نبينا ﷺ؛ لأنَّه ما من فضيلةٍ في أحدٍ من الأنبياء عليهم السلام إلا وقد أوتيَ عليه الصلاة والسلام مثلها بالفعل، أو تمكَّن منها فلم يختر إظهارَها.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٠. وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩. وهي قراءة خلف من العشرة.

(٢) في الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٩: اضمم بكراً.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٨١.

أو على الأنبياء مطلقاً، وقد يكون في المفضول ما ليس في غيره، وقد انفردَ عليه السلام بما ذُكر هاهنا.

وقيل: أو على سائر الناس، فيندرجُ فيه النبوَّة والكتاب والملك والصوتُ الحسن.

وتُعقِّبَ بأنَّه إن أريد أنَّ كلّاً منها فضلٌ لا يوجد في سائر الناس، فعدمُ مِثْلِ ملكِه وصوته محلُّ شبهةٍ، وإن أريد المجموع من حيث هو، ففيه أنَّه غيرُ موجودٍ في الأنبياء أيضاً، فلا وجهَ لتخصيصه بهذا الوجه.

وأنا أرى الفضلَ لتفسير الفضل بالإحسان. وتنكيرُه للتفخيم، و«منَّا» أي: بلا واسطةٍ، لتأكيد فخامته الذاتيَّة بفخامته الإضافيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وتقديمه على المفعول الصريح؛ للاهتمام بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر؛ ليتمكَّن في النفس عند وروده فضلَ تمكُّن.

وذكر شؤون داود وسليمان عليهما السلام هنا لمناسبة ذكر المنيب في قوله تعالى: (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) كما أشرنا إليه.

وقال أبو حيَّان: مناسبةُ قصَّتيهما عليهما السلام لما قبلها هي أنَّ أولئك الكفَّار أنكروا البعثَ لاستحالته في زعمهم، فأُخبروا بوقوع ما هو مستحيلٌ في العادة ممَّا لا يمكنهم إنكارُه، إذ طفحَت ببعضه أخبارهم وأشعارهم[(١)].

وقيل: ذكر سبحانه نعمتَه عليهما احتجاجاً على ما منحَ نبيَّنا ﷺ، كأنَّه قيل: لا تستبعدوا هذا، فقد تفضَّلنا على عبيدنا قديماً بكذا وكذا، فلمَّا فرغَ التمثيلُ له عليه الصلاة والسلام رجعَ التمثيلُ لهم بسبأ وما كان من هلاكهم بالكفر والعتوّ.

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: سبِّحي معه، قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد، وأخرجه ابنُ جرير عن أبي ميسرة، إلَّا أنه قال: معناه ذلك بلغة الحبشة[(٢)].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٢.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٢٢٠.

والظاهرُ أنَّه عربيٌّ من التأويب، والمراد: رَجِّعي معه التسبيح، وردِّديه.

وقال ابنُ عطية: إن أصلَ ماضيه: آب، وضُعِّفَ للمبالغة(١).

وتعقَّبه في «البحر» بقوله: ويظهر أنَّ التضعيفَ للتعدية؛ لأنَّ آبَ بمعنى رجع لازمٌ صلته اللام(٢)، فعُدِّيَ بالتضعيف، إذ شرحوه بقولهم: رجِّعي معه التسبيح(٣).

يُروى أنَّه عليه السلام كان إذا سَبَّح سبَّحت الجبالُ مثل تسبيحه بصوتٍ يُسمَع منها، ولا يعجزُ الله عزَّ وجلَّ أن يجعلَها بحيثُ تسبِّح بصوتٍ يُسمَع، وقد سبَّح الحصَى في كفِّ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وسُمِع تسبيحُه، وكذا في كفِّ أبي بكرٍ ﷺ(٤). ولا يبعدُ على هذا أن يقال: إنَّه تعالى خَلَق فيها الفهمَ أوَّلاً، فناداها كما يُنادَى أولو الفهم وأمَرَها.

وقال بعضهم: إنَّه سبحانه نَزَّلَ الجبالَ منزلةَ العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا؛ إشعاراً بأنَّه ما من حيوانٍ وجمادٍ إلَّا وهو منقادٌ لمشيئته تعالى، غيرُ ممتنعٍ على إرادته سبحانه، ودلالةً على عزَّة الربوبيَّة وكبرياء الألوهيَّة، حيث نادى الجبالَ وأمرَها.

وقيل: المراد بتأويبها حملُها إيَّاه على التسبيح إذا تأمَّل ما فيها. وفيه مع كونه خلاف المأثور أنَّ «معه» يأباه، وأيضاً لا اختصاص له عليه السلام بتأويب الجبال بهذا المعنى، حتى يُفَضَّل به، أو يكون معجزةً له.

وقيل: كان عليه السلام ينوحُ على ذَنْبِه بترجيعٍ وتحزين، وكانت الجبالُ تسعدُه بأصدائها. وفيه أنَّ الصدى ليس بصوتِ الجبالِ حقيقةً، وإنَّما هو من آثار

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧.

(٢) العبارة في البحر ٧/ ٢٦٢: وينظر أن التضعيف للتعدية، وليس للمبالغة؛ إذ اصله آبَ، وهو لازم بمعنى رجع اللازم. . ، ففي عبارة المصنف تحريف، ومما يدل على ذلك أن آب بمعنى رجع يتعدى بـ «إلى» وليس باللام. ينظر غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ١٢١، واللسان والتاج (أوب)، ومعجم الأفعال المتعدية بحرف ص١١.

(٣) سلف ٢/ ٢٥٤.

صوتِ المتكلِّم على ما قام عليه البرهان، والله تعالى نادى الجبال، وأمرها أن تُؤَوِّبَ معه، وأيضاً أيُّ اختصاصٍ له عليه السلام بذلك، ولصوت كلِّ أحدٍ صدًى عند الجبال؟

وعن الحسن أنَّ معنى «أوِّبي معه»: سيري معه أينَ سار. والتأويب سيرُ النهار، كأنَّ الإنسان يسيرُ الليل، ثم يُرَجِّعُ السيرَ بالنهار، أي: يردِّده. ومن ذلك قول تميم بن مقبل:

لحقنا بحيٍّ أوَّبوا السيرَ بعدما   دَفعنا شعاعَ الشمسِ والطَّرفُ يجنحُ(١)

وقول آخر:

يومان يومُ مقاماتٍ وأنديةٍ   ويومُ سيرٍ إلى الأعداء تأويبِ(٢)

وأورد عليه أنَّ الجبالَ أوتادُ الأرض، ولم ينقل سيرُها مع داود عليه السلام أو غيره.

وقيل: المعنى: تصرَّفي معه على ما يتصرَّف فيه، فكانت إذا سبَّح سبَّحت، وإذا ناح ناحت، وإذا قرأ الزبور قرأت.

وتُعقِّبَ بأنَّه لم يعرف التأويبُ بمعنى التصرُّف في لغة العرب.

وقيل: المعنى: ارجعي إلى مراده فيما يريد؛ من حفرٍ، واستنباطِ أعينٍ، واستخراج معدن، ووضع طريق.

والجملةُ معمولةٌ لقولٍ مضمرٍ، أي: قولنا: يا جبال، على أنَّه بدل من «فضلاً» بدلَ كلٍّ من كلٍّ، أو بدلَ اشتمال، أو: قلنا: يا جبال، على أنَّه بدلٌ من «آتينا». وجُوِّزَ كونُه بدلاً من «فضلاً» بناءً على أنَّه يجوز إبدال الجملة من المفرد، وجَوَّزَ

---

(١) هو في ذيل ديوان تميم بن أُبيّ بن مقبل رقم (١٤)، وغريب القرآن لابن قتيبة ص٣٥٣.

(٢) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص٩٤ والمفضليات ص١٢٠، وخزانة الأدب ٢٧/٤. قال البغدادي: المقامة بالفتح: المجلس، وروى أبو عمرو بالضم بمعنى الإقامة. والأندية: الأفنية، والندي والنادي: المجلس... وتأويب: صفة سير، وهو السرعة في السير والإمعان فيه.

أبو حيان الاستئناف[١]، وليس بذاك.

وقرأ ابنُ عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق: «أُوْبِي» بضمِّ الهمزة وسكون الواو[٢]، أمرٌ من الأَوْب، وهو الرجوع، وفرَّقَ بينهما الراغبُ بأنَّ الأَوْبَ لا يُقال إلَّا في الحيوان الذي له إرادة، والرجوع يقال فيه وفي غيره[٣].

والمعنى على هذه القراءة عند الجمهور: ارجعي معه في التسبيح، وأمرُ الجبال كأمر الواحدة المؤنثة؛ لأنَّ جمع ما لا يعقل يجوزُ فيه ذلك، ومنه: يا خيل الله اركبي، وكذا: ﴿مَآرِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه:١٨] وقد جاء ذلك في جمع من يعقل من المؤنَّث، قال الشاعر:

تركنا الخيلَ والنعمَ المفدَّى   وقلنا للنساء بها أقيمي[٤]

لكن هذا قليل.

﴿وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ بالنصب، وهو عند أبي عمرو بن العلاء بإضمار فعلٍ تقديره: وسخَّرنا له الطير، وحكى أبو عبيدة عنه أنَّ ذاك بالعطف على «فضلاً»[٥]، ولا حاجةَ إلى الإضمار؛ لأنَّ إيتاءها إيَّاه عليه السلام تسخيرُها له. وذكر الطيبيُّ أنَّ ذلك كقوله:

علفتُها تبناً وماءً باردا[٦]

وقال الكسائيُّ بالعطف أيضاً، إلَّا أنَّه قدَّر مضافاً، أي: وتسبيح الطير. ولا يُحتاج إليه.

وقال سيبويه: «الطير» معطوفٌ على محلِّ «جبال»[٧] نحو قوله:

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٢.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٣.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (أوب).

(٤) البيت لم يعرف قائله، وسلف ١٤/ ١٨٣.

(٥) مجاز القرآن ٢/ ١٤٣.

(٦) عجز بيت لا يعرف قائله، وسلف ٣/ ٣٦٠ و٥/ ٢٩١.

(٧) كذا قال، وسيبويه في الكتاب قد نقل هذا عن الخليل، ثم نقل عنه اختيار الرفع في مثل هذه المسألة. ينظر الكتاب ٢/ ١٨٦-١٨٧، والبحر ٧/ ٢٦٣.

ألا يـا زيـدُ والـضـحـاكَ سِـيـرًا[١]

بنصب الضَّحاك، ومنعه بعضُ النحويين؛ للزوم دخول «يا» على المنادى المعرَّف بـ «أل»، والمجيزُ يقول: رُبَّ شيءٍ يجوز تبعاً ولا يجوز استقلالاً.

وقال الزَّجَّاج: هو منصوبٌ على أنَّه مفعول معه[٢].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّه لا يجوز؛ لأن قبله «معه»، ولا يقتضي [الفعل] اثنين من المفعول معه إلَّا على البدل أو العطف، فكما لا يجوز: جاء زيدٌ مع عمرو مع زينب، إلَّا بالعطف، كذلك هذا[٣].

وقال الخفاجيُّ: لا يأباه «معه» سواءٌ تعلَّق بـ «أوِّبي» على أنَّه ظرفٌ لغوٌ، أو جُعِل حالاً؛ لأنهما معمولان متغايران، إذ الظرفُ والحال غيرُ المفعول معه، وكلٌّ منها بابٌ على حدة، وإنَّما الموهم لذلك لفظ المعيَّة، فما اعترض به أبو حيَّان غيرُ متوجِّه وإنْ ظُنَّ كذلك، وأقبحُ من الذنب الاعتذارُ؛ حيث أُجيبَ بأنَّه يجوزُ أن يُقال: حُذفت واوُ العطف من قوله تعالى: «والطير» استثقالاً لاجتماع الواوين، أو اعتبر تعلُّق الثاني بعد تعلُّق الأوَّل[٤].

وقرأ السلميُّ وابنُ هرمز وأبو يحيى وأبو نوفل ويعقوب وابنُ أبي عبلة وجماعةٌ من أهل المدينة وعاصم في رواية: «والطيرُ» بالرفع[٥]، وخُرِّجَ على أنَّه معطوفٌ

---

(١) أورده أبو بكر ابن الأنباريُّ في الأضداد ص٥٣، وابن فارس في مقاييس اللغة ٢/ ٢١٦، والهروي في الأزهية ص١٦٥، وابن السيد البطليوسي في الحلل ص١٩٦، وابن يعيش في شرح المفصل ١/ ١٢٩ دون نسبة. قال ابن يعيش: يروى برفع الضحاك ونصبه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤٣.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٦٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ١٩٣.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٦٣، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١ عن الأعرج وعبد الوارث عن أبي عمرو. وذكر القرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٦٢ أنها قراءة ابن أبي إسحاق، ونصر عن عاصم، وابن هرمز ومسلمة بن عبد الملك.

=

على «جبال» باعتبار لفظه، وحركتُه لعروضها تشبه حركة الإعراب، ويُغتفرُ في التابع ما لا يُغتفرُ في المتبوع.

وقيل: معطوف على الضمير المستتر في «أوِّبي»، وَسوَّغَ ذلك الفصلُ بالظرف.

وقيل: هو بتقدير: ولتؤوب الطيرُ، نظيرُ ما قيل في قوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]

وقيل: هو مرفوعٌ بالابتداء، والخبر محذوف، أي: والطير تؤوب.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠﴾ وجعلناه في يده كالشمع والعجين يصرِّفه كما يشاء من غير نارٍ ولا ضربِ مطرقة، قاله السُّدِّيُّ وغيره.

وقيل: جعلناه بالنسبة إلى قوته التي آتيناها إيَّاه ليِّناً كالشمع بالنسبة إلى قوى سائر البشر.

﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾«أن» مصدريَّة، وهي على إسقاط حرف الجرِّ، أي: ألنَّا له الحديد لعمل سابغات، أو: وأمرناه بعمل سابغاتٍ. والأوَّل أولى.

وأجاز الحوفيُّ وغيرُه أن تكون مفسِّرةً، ولمَّا كان شرطُ المفسِّرة أن يتقدَّمها معنى القول دون حروفه، و«ألنَّا» ليس فيه ذلك، قَدَّر بعضهم قبلها فعلاً محذوفاً فيه معنى القول؛ ليصحَّ كونها مفسِّرةً، أي: وأمرناه أن اعمل، أي: أي اعمل.

وأورد عليه أنَّ حذف المفسَّر لم يعهد.

والسابغات: الدروع، وأصله صفةٌ من السبوغ، وهو التمام والكمال، فغلب على الدروع كالأبطح، قال الشاعر:

= قال ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٤٩: انفرد ابن مهران عن هبة الله بن جعفر عن أصحابه عن روح [راوية يعقوب] برفع الراء من «والطير»، وهي رواية زيد عن يعقوب، ووردت عن عاصم وأبي عمرو. اهـ.

وقراءة عاصم وأبي عمرو المشهورة عنهما بالنصب كقراءة الجمهور.

لا سـابـغـاتٍ ولا جـأواءَ بـاسـلـةً   تقي المنونَ لَدَى استيفاءِ آجالِ[1]

ويقال: سوابغ أيضاً، كما في قوله:

عـلـيـهـا أسـودٌ ضـاريـاتٌ لَـبـوسُـهـم   سـوابـغُ بـيـضٌ لا تُـخَـرِّقُـهـا الـنَّـبـلُ[2]

فلا حاجةَ إلى تقدير موصوف، أي: دروعاً سابغات.

ولا يَرِدُ هذا نقضاً على ما قيل: إنَّ الصفة ما لم تكن مختصَّةً بالموصوف، كحائض، لا يحذفُ موصوفها.

وقرئ: «صابغات» بإبدال السين صاداً لأجل الغين[3].

﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ السرد[4] في الأصل ـ كما قال الراغب ـ: خَرْزُ ما يخشن ويغلظُ، قال الشماخ:

فظلَّت سراعاً خيلُنا في بيوتكم   كـمـا تـابـعـتْ سـردَ الـعِـنـان الـخـوارزُ

واستعير لنظم الحديد[5].

وفي «البحر»: هو إتباعُ الشيء بالشيء من جنسه، ويقال للدرع: مسرودة؛ لأنَّه توبع فيها الحَلَق بالحَلَق، قال الشاعر:

وعـلـيـهـمـا مـسـرودتـانِ قـضـاهُـمـا   داودُ أو صَـنَـعُ الـسـوابـغِ تُـبَّـعُ

ولصانعها: سَرَّاد، وزرَّاد بإبدال السين زاياً[6].

---

(١) هو في شرح قطر الندى لابن هشام ص٢٨١ بتحقيق محيي الدين عبد الحميد، وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك مع حاشية الصبان ٢/ ٨ دون نسبة. وجأواء: الجيش العظيم.

(٢) هو لزهير بن أبي سلمى كما في ديوانه ص١٠٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٨٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٣، وحاشية الشهاب ٧/ ١٩٣.

(٤) بعدها في (م): نسج.

(٥) مفردات الراغب (سرد) دون ذكر البيت، وهو في ديوان الشماخ ص١٩٤، وصدره فيه:

شـكـكـن بـأحـسـاء الـذِّنَـابِ عـلـى هُـدًى

وذكره بمثل رواية المصنف القرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٦٥، لكن فيه: تباعاً. بدل: سراعاً.

(٦) البحر ٧/ ٢٥٥، والبيت سلف ٧/ ١٦٩.

وفسَّره هنا غيرُ واحدٍ بالنسج، وقال: المعنى: اقتصد في نسج الدروع بحيثُ تتناسبُ حلقها. وابنُ عباس ـ فيما أخرجه عنه ابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرقٍ ـ بالحلق(١)، أي: اجعل حلقها على مقادير متناسبة.

وقال ابن زيد: لا تعملها صغيرةً فتضعف، فلا يقوى الدرع على الدفاع، ولا كبيرةً فيُنال صاحبُها من خلالها.

وجاء في روايةٍ أخرى عن ابن عباس تفسيرُها بالمسامير، وروي ذلك عن قتادة ومجاهد، أي: قَدِّر مساميرَها فلا تعملها دقاقاً ولا غلاظاً، أي: اجعلها على مقدارٍ معيَّنٍ دقَّةً وغيرها، مناسبة للثقب الذي هيِّئ لها في الحلقة، فإنَّها إن كانت دقيقةً اضطربت فيها فلم تمسك طرفيها، وإن كانت غليظةً خرقت طرف الحلقة الموضوعة فيه، فلا تمسك أيضاً.

ويبعِدُ هذا أنَّ إلانةَ الحديد له عليه السلام بحيث كان كالشمع والعجين يغني عن التسمير، فإنَّه بعد جمع الحَلَق وإدخال بعضِه في بعض يزال انفصال طرفي كلِّ حلقةٍ بمزج الطرفين، كما يمزج طرفَا حلقة من شمع أو عجين، والإحكامُ بذلك أتمُّ من الإحكام بالتسمير، بل لا يبقى معه حاجةٌ إلى التسمير أصلاً، فلعلَّه إنْ صحَّ مبنيٌّ على أنَّه عليه السلام كان يعملُ الحَلَقَ من غير مزجٍ لطرفي كلٍّ، فيسمِّر للإحكام بعد إدخال بعضه في بعض، ويظهر ذلك على التفسير الثاني لقوله تعالى: «ألنَّا له الحديد»، إذ غايةُ القوَّة كسرُ الحديد كما يريد من غير آلةٍ، دون وصل بعضه ببعض، ولا يعارضُ ذلك ما نُقِل عن البقاعيِّ أنَّه قال: أخبرنا بعضُ من رأى ما نسب إلى داود عليه السلام من الدروع أنَّه بغير مسامير(٢)، فإنَّه نقلٌ عن مجهولٍ، فلا يلتفتُ لمثلِه.

وقيل: معنى «قدِّر في السَّرْد»: لا تصرفْ جميعَ أوقاتك فيه، بل مقدار ما يحصل به القوت، وأمَّا الباقي فاصرفه إلى العبادة؛ قيل: وهو الأنسب بالأمر الآتي.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٧، وأخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٤.
(٢) نظم الدرر ١٥/ ٤٥٩.

وحكي أنَّه عليه السلام أوَّل من صنعَ الدرع حَلَقاً، وكانت قبلُ صفائح، وروي ذلك عن قتادة.

وعن مقاتل أنَّه عليه السلام حين ملك على بني إسرائيل يخرجُ متنكِّراً فيسألُ الناس عن حالِه، فعرضَ له مَلَكٌ في صورة إنسانٍ، فسأله، فقال: نِعْمَ العبدُ لولا خَلَّةٌ فيه، فقال: وما هي؟ قال: يُرزق من بيت المال، ولو أكلَ من عمل يده تمَّتْ فضائله، فدعا الله تعالى أن يعلِّمَه صنعةً، ويسهِّلها عليه، فعلَّمه صنعةَ الدروع، وألانَ له الحديد، فأثرى، وكان ينفقُ ثلثَ المال في مصالح المسلمين، وكان يَفرُغُ من الدرع في بعض يومٍ، أو في بعض ليل، وثمنها ألف درهم.

وأخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» وابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: كان داود عليه السلام يرفعُ في كلِّ يومٍ درعاً، فيبيعها بستَّة آلاف درهم؛ ألفان له ولأهله، وأربعة آلاف يطعمُ بها بني إسرائيل الخبز الحُوَّارَى[1].

وقيل: كان يبيعُ الدرع بأربعة آلاف، فينفقُ منها على نفسه وعياله، ويتصدَّق على الفقراء.

وفي «مجمع البيان» عن الصادق رضي الله عنه أنَّه عمل ثلاث مئة وستين درعاً فباعها بثلاث مئة وستين ألف درهم، فاستغنى عن بيت المال[2].

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ خطابٌ لداود وآله عليهم السلام، وهم وإنْ لم يَجْرِ لهم ذكرٌ، يفهمون ـ على ما قال الخفاجيُّ ـ التزاماً من ذكره[3]. وجُوِّزَ أنْ يكون خطاباً له عليه السلام خاصَّةً على سبيل التعظيم.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٧، وهو في نوادر الأصول ١/ ١١٢، والحُوَّارى بالضم وتشديد الواو وراءٍ مفتوحة: ما حوِّر من الطعام، أي: بيض. والخبز الحوَّارى للذي نخل مرة بعد مرة. الصحاح والنهاية (حور).

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ١٨٩.

(٣) حاشية الخفاجي ٧/ ١٩٣-١٩٤.

وأيّاً ما كان، فالظاهرُ أنه أمرٌ بالعمل الصالح مطلقاً، وليس هو على الوجه الثاني أمراً بعمل الدروع خاليةً من عيب.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ فأجازيكم به، وهو تعليلٌ للأمر، أو لوجوب الامتثال به على وجه الترغيب والترهيب.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخَّرنا له الريح، وقيل: «لسليمان» عطف على «له» في «ألنَّا له الحديد»، و«الريح» عطف على «الحديد»، وإلانةُ الريح عبارةٌ عن تسخيرها.

وقرأ أبو بكر: «الرِّيْحُ» بالرفع[1] على أنَّه مبتدأ، و«لسليمان» خبرُه، والكلام على تقدير مضاف، أي: ولسليمان تسخيرُ الريح. وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّه مبتدأ، ومتعلَّق الجارِّ كونٌ خاصٌّ، هو الخبر، وليس هناك مضافٌ مقدَّر، أي: ولسليمان الريحُ مسخَّرةٌ.

وعندي أنَّ الجملةَ على القراءتين معطوفةٌ على قوله تعالى: «ولقد آتينا داودَ منَّا فضلاً» إلخ عطف القصَّة على القصَّة.

وقال ابنُ الشيخ: العطفُ على القراءة الأولى على «ألنَّا له الحديد»، وكلتا الجملتين فعليَّةٌ، وعلى القراءة الثانية العطفُ على اسميَّة مقدَّرة دلَّت عليها تلك الجملة الفعليَّة، لا عليها؛ للتخالف، فكأنَّه قيل: ما ذكرنا لداود، ولسليمان الريح؛ فإنَّها كانت له كالمملوك المختصِّ بالمالك، يأمرُها بما يريد، ويسيرُ عليها حيثما يشاء. ثم قال: وإنَّما لم يقل: ومع سليمان الريح؛ لأنَّ حركتها ليست بحركة سليمان، بل هي تتحرك بنفسها، وتحركُ سليمان وجنوده بحركتها، وتسيرُ بهم حيث شاء، وهذا على خلاف تأويب الجبال، فإنَّه كان تبعاً لتأويب داود عليه السلام، فلذا جيء هناك بـ «معه».

وقرأ الحسنُ وأبو حيوة وخالد بن إلياس: «الرياحُ» بالرفع جمعاً[2].

---

(١) التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٦٤، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١ عن أبي حيوة فقط.

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: جريُها بالغداة مسيرة شهر، وجريُها بالعشيِّ كذلك، والجملة إمَّا مستأنفةٌ، أو حالٌ من «الريح»، ولا بدَّ من تقدير مضاف في الخبر؛ لأنَّ الغدوَّ والرواحَ ليسا[١] نفس الشهر، وإنَّما يكونان فيه، ولا حاجةَ إلى تقديرٍ في المبتدأ كما فعل مكِّيٌّ، حيث قال: أي: مسير غدوِّها مسيرة شهر، ومسير رواحها كذلك[٢]؛ لما لا يخفى.

وقال ابنُ الحاجب في «أماليه»: الفائدةُ في إعادة لفظ الشهر الإعلامُ بمقدار زمن الغدوِّ وزمن الرواح، والألفاظ التي تأتي مبيِّنةً للمقادير لا يحسنُ فيها الإضمار، ألا ترى أنَّك تقول: زنةُ هذا مثقال، وزنةُ هذا مثقال، فلا يحسن الإضمار، كما لا يحسنُ في التمييز، وأيضاً فإنَّه لو أضمر، فالضمير إنَّما يكونُ لما تقدَّم باعتبار خصوصيَّته، فإذا لم يكن له بذلك الاعتبار وجب العدول إلى الظاهر، ألا ترى أنَّك إذا أكرمتَ رجلاً وكسوتَ ذلك الرجل بخصوصه لكانت العبارة: أكرمتُ رجلاً وكسوتُه، ولو أكرمتَ رجلاً وكسوتَ رجلاً آخر لكانت العبارة: أكرمتُ رجلاً وكسوتُ رجلاً، فتبيَّن أنَّه ليس من وضع الظاهر موضع الضمير[٣]، كذا في «حواشي الطيبي» عليه الرحمة.

ولا يخفى أنَّ ما ذكره مبنيٌّ على ما هو الغالب، وإلَّا فقد قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فاطر:١١]، ولم يقتصر على الإعلام بزمن الغدوِّ ليقاس عليه زمن الرواح؛ لأنَّ الريح كثيراً ما تسكنُ أو تضعفُ حركتُها بالعشيِّ، فدُفِعَ بالتنصيص على بيان زمن الرواح توهُّمُ اختلاف الزمانين.

قال قتادة: كانت الريح تقطعُ به عليه السلام في الغدوِّ إلى الزوال مسيرةَ شهرٍ، وفي الرواح من بعد الزوال إلى الغروب مسيرة شهر.

وأخرجَ أحمد في «الزهد» عن الحسن أنَّه قال في الآية: كان سليمانُ عليه

---

(١) في (م): ليس.
(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٤.
(٣) أمالي ابن الحاجب ١/ ٢٧٢.

السلام يغدو من بيت المقدس، فيَقيلُ بإصطخر، ثم يروحُ من إصطخر، فيَقيلُ بقلعة خراسان[1].

وقد ذُكر حديثُ هذه الريح في بعض الأشعار القديمة، قال وهب ـ ونقلَه عنه في «البحر» ـ: وجدتُ أبياتاً منقورةً في صخرةٍ بأرض كَسْكَر[2] لبعضِ أصحاب سليمان عليه السلام وهي:

ونحن ولا حولٌ سوى حول ربِّنا ... نروحُ من الأوطان من أرضِ تدمرِ
إذا نحنُ رحنَا كان ريثُ رواحِنا ... مسيرةَ شهرٍ والغدوُّ لآخرِ
أناسٌ شَرَوا لله طَوعاً نفوسَهم ... بنصرِ ابن داودَ النبيِّ المطهَّرِ
لهم في معالي الدين فضلٌ ورفعةٌ ... وإن نُسِبوا يوماً فمن خير معشرِ
متى تُركبُ الريحُ المطيعةُ أسرعت ... مبادرةً عن شهرها لم تُقَصِّرِ
تظلُّهم طيرٌ صفوفٌ عليهم ... متى رَفرفتْ من فوقهم لم تُنَفَّرِ[3]

وذكر أيضاً ﷺ أنَّه عليه السلام كان مستقرُّه تدمر، وأنَّ الجنَّ قد بنتها له بالصُّفَّاح[4] والعمد والرخام الأبيض والأشقر، وقال: وفيه يقول النابغة:

إلَّا سليمانَ إذ قال الإلهُ له ... قم في البريَّة فاصددها[5] عن الفَنَدِ
وجيِّشِ الجنَّ إنِّي قد أذنتُ لهم ... يبنونَ تدمرَ بالصُّفَّاح والعَمَدِ[6]

انتهى.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٧. وإصطخر: مدينة بفارس. معجم البلدان ١/ ٢١١.

(٢) في مطبوع البحر المحيط ٧/ ٢٦٤: يشكر. وكسكر مكان بالعراق. انظر معجم البلدان ٤/ ٤٦١.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٦٤. وفي مطبوعه اختلاف يسير في الأبيات.

(٤) الصُّفَّاح بالضم والتشديد: الحجر العريض. الصحاح (صفح).

(٥) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر المحيط، ووقع في ديوان النابغة، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٦٧، وخزانة الأدب ٣/ ٤٠٥: فاحددها. وكذا وقع في تفسير الآلوسي أيضاً ١٢/ ٤٨٩، وذكر ثمة البيت الأول.

(٦) ديوان النابغة ص٣٣. وفيه وفي تفسير الثعلبي ٨/ ٧٤، والقرطبي ١٧/ ٢٦٧: وخيِّس. بدل: وجيِّش. ومعنى خيِّس: ذلل. القاموس (خيس). وقال عبد القادر البغدادي في

وما ذكره في تدمر هو المشهور عند العامة، وقد ذَكر ذلك الثعالبيُّ في «تفسيره» مع الأبيات المذكورة[١]، لكن في «القاموس»: تَدْمُر، كتَنْصُر: بنتُ حسان بن أُذَيْنَة، بها سمِّيت مدينتها[٢]. وهو ظاهرٌ في المخالفة، ولعلَّ التعويل على ما فيه إنْ لم يمكن الجمعُ، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وقرأ ابن أبي عبلة: «غَدوتها»، و«رَوحتها» على وزن فَعْلَة[٣]، وهي المرَّة الواحدة من غدا وراح.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: النحاس الذائب، من قَطر يقطُر قطراً وقَطراناً بسكون الطاء وفتحها[٤]. وقيل: الفِلِزَّات؛ النحاس والحديد وغيرهما. وعلى الأول جمهور اللغويين.

وأريد بـ «عين القِطر» مَعْدِنُ النحاس، ولكنَّه سبحانه أساله كما ألانَ الحديدَ لداود، فنبع كما ينبعُ الماءُ من العين، فلذلك سُمِّيَ عينَ القطر باسم ما آل إليه.

وذكر الجلبيُّ أنَّ نسبةَ الإسالة إلى العين مَجازيَّةٌ، كما في: جرى النهر.

وقال الخفاجيُّ[٥]: إن كانت العينُ هنا بمعنى الماء المَعين، أي: الجاري، وإضافتُها كما في لجين الماء، فلا تَجوُّزَ في النسبة، وإنَّما هو من مجازِ الأَوْل، على أن العينَ منبع الماء، ولا حاجة إليه. اهـ. فتأمَّل.

وقال بعضهم: القِطْر: النحاس، و«عين» بمعنى ذات، ومعنى «أسلنا»: أذبنا، فالمعنى: أذبنا له النحاس على نحو ما كان الحديد يلينُ لداودَ عليه السلام، فكانت الأعمالُ تتأتَّى منه وهو باردٌ دون نار، ولم يَلِنْ ولا ذَابَ لأحدٍ قبلَه.

= الخزانة ٣/ ٤٠٥: الفَنَد بفتح الفاء والنون: خطأ الرأي والصنيع، وقال ابن الأعرابي: الفند: الظلم. اهـ.

(١) تفسير أبي إسحاق الثعلبي ٨/ ٧٤.

(٢) القاموس (تدمر).

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٦٤.

(٤) وأما القطران المعروف فبكسرها. حاشية الشهاب ٧/ ١٩٤.

(٥) في حاشيته ٧/ ١٩٤.

والظاهر المؤيَّدُ بالآثار أنَّه تعالى جعلَه في مَعْدِنه عيناً تسيلُ كعيون الماء؛ أخرج ابن المنذر عن عكرمة أنَّه قال في الآية: أَسَالَ اللهُ تعالى له القطرَ ثلاثة أيَّامٍ، يسيلُ كما يسيل الماء، قيل: إلى أين؟ قال: لا أدري.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ قال: سُيِّلَتْ له عينٌ من نحاسٍ ثلاثةَ أيام[(١)].

وفي «البحر» عن ابن عباس والسُّدِّيِّ ومجاهد قالوا: أُجريت له عليه السلام ثلاثةَ أيامٍ بلياليهنَّ، وكانت بأرض اليمن. وفي روايةٍ عن مجاهد أنَّ النَّحاسَ سالَ من صنعاء[(٢)]. وقيل: كان يسيلُ في الشهر ثلاثة أيام.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ الجارُّ والمجرور متعلِّقاً بمحذوفٍ هو خبرٌ مقدَّم، و«مَنْ» في محلِّ رفع مبتدأ، ويحتملُ أن يكون متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالاً مقدَّماً من «مَنْ»، وهي في محلِّ نصبٍ، عطف على «الريح».

وجُوِّز أن يكون «من الجن» عطفاً على «الريح»، على أنَّ «مِنْ» للتبعيض، و«من يعمل» بدلٌ منه. وهو تكلُّف.

و«يعمل» إمَّا منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أو مفعوله مقدَّرٌ يفسِّره ما سيأتي إن شاء الله تعالى؛ ليكون تفصيلاً بعد الإجمال، وهو أوقعُ في النفس.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره عزَّ وجلَّ ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومن يعدل منهم عمَّا أمرناه به من طاعة سليمان عليه السلام.

وقرئ: «يُزِغ» بضمِّ الياء من أزاغ مبنيّاً للفاعل[(٣)]، ومفعوله محذوف، أي: من يُمل ويصرف نفسَه أو غيره. وقيل: مبنيّاً للمفعول فلا يحتاج إلى تقدير مفعول[(٤)].

---

(١) الأثران في الدر المنثور ٥/ ٢٢٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٦٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٥.

(٤) ينظر حاشية الشهاب ٧/ ١٩٤.

﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢﴾ أي: عذاب النار في الآخرة، كما قال أكثر المفسِّرين، وروي ذلك عن ابن عباس.

وقال بعضهم: المراد تعذيبه في الدنيا، ورُوي عن السُّدِّيِّ أنَّه عليه السلام كان معه مَلَكٌ بيده سَوطٌ من نار، كلَّما استعصَى عليه جنيٌّ ضربهَ من حيث لا يراه الجنيُّ. وفي بعض الروايات أنَّه كان يَحْرِقُ من يخالفُه.

واحتراقُ الجنِّيِّ مع أنَّه مخلوقٌ من النار غيرُ منكرٍ، فإنَّه عندنا ليس ناراً محضةً، وإنَّما النارُ أغلب العناصر فيه.

﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ جمع: محراب، وهو ـ كما قال عطية ـ القصر، وسمي باسم صاحبه؛ لأنه يحارب غيره في حمايته، فإنَّ المحراب في الأصل من صيغ المبالغة اسمٌ لمن يكثر الحرب، وليس منقولاً من اسم الآلة، وإن جَوَّزَهُ بعضهم، ولابن حَيُّوس[1]:

جمعَ الشجاعةَ والخشوعَ لربِّه ما أحسنَ المحراب في محرابه[2]

ويطلق على المكان المعروف الذي يقفُ بحذائه الإمام، وهو مما أُحدِث في المساجد، ولم يكن في الصدر الأوَّل، كما قال السيوطيُّ، وألَّف في ذلك رسالةً[3]، ولذا كَرِهَ الفقهاءُ الوقوفَ في داخله.

وقال ابن زيد: المحاريب: المساكن.

وقيل: ما يصعدُ إليه بالدرج، كالغرف.

وقال مجاهد: هي المساجد، سمِّيت باسم بعضها تجوُّزاً على ما قيل. وهو مبنيٌّ على أنَّ المحراب اسمٌ لحجرةٍ في المسجد يُعبَدُ الله تعالى فيها، أو لموقف الإمام.

---

(١) هو شاعر الشام، أبو الفتيان، محمد بن سلطان بن محمد بن حَيُّوس، الغنوي صاحب الديوان. مات بحلب سنة ثلاث وسبعين وأربع مئة. سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤١٣.

(٢) البيت في ديوانه ١/ ٩٩، وسلف ٤/ ١٤٧، وفيه: المحراب. بدل: محرابه.

(٣) سماها: إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب. وقد طبعت أكثر من مرة.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة تفسيرَها بالقصور والمساجد معاً[1].

وجملة «يعملون له ما يشاء» استئنافٌ لتفصيل ما ذُكر من عملهم، وجُوِّزَ كونُها حالاً. وهو كما ترى.

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ قال الضَّحَّاك: كانت صورَ حيوانات. وقال الزمخشريُّ: صور الملائكة والأنبياء والصلحاء، كانت تُعمَل في المساجد من نحاس وصُفْر وزجاج ورخام؛ ليراها الناس، فيعبدوا نحو عبادتهم[2]، وكان اتخاذُ الصُّور في ذلك الشرع جائزاً، كما قال الضحَّاك وأبو العالية.

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: اتَّخذ سليمانُ عليه السلام تماثيلَ من نحاس، فقال: يا ربِّ انفخ فيها الروح، فإنَّها أقوى على الخدمة. فنفخ[3] الله تعالى فيها الروح، فكانت تخدمُه، وإسفنديار من بقاياهم[4].

وهذا من العجب العجاب، ولا ينبغي اعتقادُ صحَّته، وما هو إلَّا حديثُ خرافة.

وأمَّا ما روي من أنَّهم عملوا له عليه السلام أسدين في أسفل كرسيه، ونَسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعدَ بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعدَ أظلَّه النسران بأجنحتهما؛ فأمرٌ غيرُ مستبعدٍ، فإنَّ ذلك يكونُ بآلاتٍ تتحرَّك عند الصعود وعند القعود، فتحرِّكُ الذراعين والأجنحة. وقد انتهت صنائعُ البشر إلى مثل ذلك في الغرابة.

وقيل: التماثيلُ طِلَّسمات[5]، فتعمل تمثالاً للتمساح أو للذباب أو للبعوض، فلا يتجاوزُه الممثَّل به ما دام في ذلك المكان، وقد اشتهر عملُ نحو ذلك عن

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٨٢.

(٣) في (م): فينفخ.

(٤) نوادر الأصول ص١١٢.

(٥) الطِّلَّسم: خطوط وأعداد يَزعُم كاتبها أنَّه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية؛ لجلب محبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكلِّ ما هو غامضٌ مبهمٌ، كالألغاز والأحاجي. المعجم الوسيط (طلسم).

الفلاسفة، وهو مما لا يتمُّ عندهم إلَّا بواسطة بعض الأوضاع الفلكيَّة، وعلى الباب الشهيرة بباب الطلسم من أبواب بغداد تمثالُ حيَّةٍ يزعمونَ أنَّه لمنع الحيَّات عن الإيذاء داخلَ بغداد، ونحن قد شاهدنا مراراً أناساً لسعتهم الحيَّات، فمنهم من لم يتأذَّ، ومنهم من تأذَّى يسيراً، ولم نشاهد موت أحدٍ من ذلك، وقلَّما يسلمُ مَن لَسَعَتْهُ خارجَ بغداد، لكن لا نعتقدُ أنَّ لذلك التمثال مدخلاً فيما ذُكر، ونظنُّ أنَّ ذاك لضعف الصنف الموجود في بغداد من الحيَّات، وقلَّة شرِّه بالطبيعة.

وقيل: كانت التماثيل صور شجرٍ، أو حيوانات محذوفة الرؤوس ممَّا جُوِّزَ في شرعنا.

ولا يُحتاج إلى التزام ذلك إلَّا إذا صحَّ فيه نقلٌ، فإنَّ الحقَّ أنَّ حرمةَ تصوير الحيوان كاملاً لم تكن في ذلك الشرع، وإنَّما هي في شرعنا، ولا فرقَ عندنا بين أنْ تكونَ الصورةُ ذات ظلٍّ وأن لا تكون كذلك، كصورة الفرس المنقوشة على كاغد أو جدارٍ مثلاً.

وحكى مكِّيٌّ في «الهداية»[1] أنَّ قوماً أجازوا التصوير، وحكاه النَّحاسُ[2] أيضاً، وكذا ابنُ الفرس[3]، واحتجُّوا بهذه الآية.

وأنت تعلمُ أنَّه وَرد في شرعنا من تشديد الوعيد على المصوِّرين ما ورد، فلا يلتفتُ إلى هذا القول ولا يصحُّ الاحتجاجُ بالآية. وكأنَّه إنَّما حرمت التماثيل؛ لأنَّه بمرورِ الزمان اتخذها الجهلةُ ممَّا يعبدُ، وظنُّوا وضعَها في المعابد لذلك، فشاعت عبادةُ الأصنام، أو سدًّا لباب التشبُّه بمتَّخذي الأصنام بالكُلِّيَّة.

﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع: جَفْنَة، وهي ما يوضع فيها الطعام مطلقاً، كما ذكره غيرُ واحدٍ.

---

(١) هو الهداية إلى بلوغ النهاية، وهو في سبعين جزءاً في معاني القرآن وأنواع علومه. انظر كشف الظنون ٢/ ٢٠٤١.

(٢) في إعراب القرآن له ٣/ ٣٣٦.

(٣) في أحكام القرآن له ٣/ ٤٤٥.

وقال بعض اللغويين: الجفنة أعظمُ القِصاع، ويليها القَصْعة، وهي ما تُشبع العَشَرة، ويليها الصَّحْفَة، وهي ما تشبعُ الخمسة، ويليها المئكلة، وهي ما تشبع الاثنين والثلاثة، ويليها الصحيفة، وهي ما تشبع الواحد، وعليه فالمراد هنا المطلق؛ لظاهر قوله تعالى ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ أي: كالحياض العظام، جمع: جَابية، من الجباية، أي: الجمع، فهي في الأصل مجازٌ في الطرف أو النسبة؛ لأنَّها يُجبَى إليها، لا جابية، ثم غلبت على الإناء المخصوص غلبةَ الدابَّة في ذوات الأربع.

وجاء تشبيهُ الجفنة بالجابية في كلامهم، من ذلك قولُ الأعشى:

نَفَى الذمَّ عن آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ ... كجابيةِ السَّيْحِ العراقيِّ تفهقُ[1]

وقول الأفوهِ الأوديِّ:

وقدورٍ كالرُّبى راسيةٍ ... وجفانٍ كالجَوابي مُتْرَعَهْ[2]

وذُكِر في سَعة جِفان سليمان عليه السلام أنَّها كان على الواحدة منها ألفُ رجل.

وقرئ: «كالجوابي» بياء[3]، وهو الأصل، وحَذْفُها للاجتزاء بالكسرة، وإجراءِ «أل» مجرى ما عاقبها، وهو التنوين، فكما يحذفُ مع التنوين يحذف مع ما عاقبه.

﴿وَقُدُورٍ﴾ جمع: قِدْر، وهو ما يُطْبَخ فيه من فخَّار أو غيره، وهو على شكلٍ مخصوص.

﴿رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ ثابتاتٍ على الأثافي، لا تنزلُ عنها لعظمها، قاله قتادة. وقيل: كانت عظيمةً كالجبال.

---

(١) ديوان الأعشى ص٢٧٥. السَّيح: الماء الذي يسيح على وجه الأرض، أي: يجري. والجابية: الحوض الذي يجبى فيه الماء، أي: يجمع. أمالي القالي ٢/ ٢٩٦. وقال الحريري في درة الغوَّاص ص١٨٠: عنى بالجابية دجلة، وأراد أن جفنة آل المحلَّق تُمَدُّ بالطعام بعد الطعام، كما يُمَدُّ دجلة بالماء بعد الماء. ويقال: فهق الغدير، إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد.

(٢) البيت ليس في ديوان الأفوه. وهو في البحر المحيط ٧/ ٢٥٥، والدر المصون ٩/ ١٦٢، واللباب لابن عادل ١٦/ ٢٨.

(٣) أثبت الياء وصلاً ووقفاً من السبعة ابنُ كثير، وأثبتها في الوصل ورش ـ راوية نافع ـ وأبو عمرو. انظر التيسير ص١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١.

وقُدِّمت المحاريبُ على التماثيل؛ لأنَّ الصورَ توضعُ في المحاريب، أو تنقشُ على جدرانها.

وقُدِّمت الجفانُ على القدور، مع أنَّ القدور آلةُ الطبخ، والجفان آلةُ الأكل، والطبخُ قبل الأكل؛ لأنَّه لـمَّا ذكرت الأبنيةُ الملكيَّة ناسبَ أنْ يشارَ إلى عظمة السِّماط[1] الذي يمدُّ فيها، فذكرت الجفان أوَّلاً لأنَّها تكونُ فيها، بخلاف القدور فإنَّها لا تُحْضَرُ هناك كما ينبئ عنه قولُه تعالى: «راسيات» على ما سمعت أوَّلاً، وكأنَّه لما بيَّن حال الجفان اشتاق الذِّهنُ إلى حال القدور، فذكرت للمناسبة.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ بتقدير القول على الاستئناف أو الحاليَّة من فاعل سخرنا المقدَّر، و«آل» منادى حذف منه حرف النداء.

و«شكراً» نصب على أنَّه مفعولٌ له، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العملَ حقُّه أنْ يكونَ للشكر، لا للرجاء والخوف. أو على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ لـ «اعملوا» لأنَّ الشكرَ نوعٌ من العمل، فهو كـ : قعدتُ القرفصاء، وقيل: لتضمين «اعملوا» معنى اشكروا. وقيل: لاشكروا، محذوفاً. أو على أنَّه حالٌ بتأويل اسم الفاعل، أي: اعملوا شاكرين؛ لأنَّ الشكر يعمُّ القلبَ والجوارح. أو على أنَّه صفةٌ لمصدرٍ محذوف، أي: اعملوا عملاً شكراً. أو على أنَّه مفعول به لـ «اعملوا»، فالكلام كقولك: عملت الطاعة. وقيل: إنَّ «اعملوا» أقيم مُقامَ اشكروا مشاكلةً لقوله سبحانه: «يعملون».

وقال ابنُ الحاجب[2]: إنَّه جُعِل مفعولاً به تجوُّزاً.

وأيًّا ما كان، فقد رَوى ابنُ أبي الدنيا، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود[3] قال: لـمَّا قيل لهم: «اعملوا آل داود شكراً» لم يأت ساعةٌ على القوم إلَّا ومنهم قائمٌ يصلِّي.

---

(١) السماط: ما يمدُّ ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها. المعجم الوسيط (سمط).

(٢) في أماليه ١/ ٢٧٣.

(٣) كذا في الدر المنثور ٥/ ٢٢٩ وعنه نقل المصنف. والذي في الشكر لابن أبي الدنيا (٧٣)، وشعب الإيمان للبيهقي (٤٥٢٤): عن مسعر.

وفي رواية: كان مصلَّى آل داود لم يخلُ من قائمٍ يصلِّي ليلاً ونهاراً، وكانوا يتناوبونَه، وكان سليمانُ عليه السلام يأكلُ خبز الشعير، ويطعم أهله خشارته[1]، والمساكينَ الدرمك؛ وهو الدقيق الحُوَّارى، وما شبع قطُّ، وقيل له في ذلك، فقال: أخافُ إذا شبعتُ أنْ أنسى الجياع.

وجَوَّزَ بعض الأفاضل دخولَ داود عليه السلام في الآل هنا؛ لأنَّ آل الرجل قد يعمُّه. ويؤيِّده ما أخرجَه أحمد في «الزهد» وابنُ المنذر والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن المغيرة بن عتيبة[2] قال: قال داود عليه السلام: يا ربّ، هل باتَ أحدٌ من خلقِك أطول ذِكْراً منِّي، فأوحى الله تعالى إليه: الضفدع، وأنزل سبحانه عليه عليه السلام: «اعملوا آل داود شكراً» فقال داودُ عليه السلام: كيف أطيقُ شكرك، وأنتَ الذي تنعمُ عليَّ، ثم ترزقني على النعمة الشكر، فالنعمةُ منك، والشكرُ منك، فكيف أُطيق شكرك؟ فقال جلَّ وعلا: يا داود، الآن عرفتني حقَّ معرفتي.

وجاء في رواية ابن أبي حاتم عن الفضيل أنَّه عليه السلام قال: يا ربّ، كيف أشكرك، والشكرُ نعمةٌ منك؟ قال سبحانه: الآن شكرتني حين علمتَ النعمَ منِّي[3].

وكذا ما أخرجه الفريابيُّ وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قال داود لسليمان عليهما السلام: قد ذَكر الله تعالى الشكر، فاكفني قيامَ النهار أكفك قيام الليل. قال: لا أستطيع. قال: فاكفني صلاة النهار، فكفاه[4].

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ قال ابن عباس: هو الذي يَشْكُرُ على أحواله كلِّها.

---

(١) في (م): خشادته. والخشارة من الشعير ما لا لبَّ له، وخشار المائدة ما يبقى عليها مما لا خير فيه. المعجم الوسيط (خشر).

(٢) في مطبوع الدر المنثور ٥/ ٢٢٩: عتبة، وفي مطبوع الزهد للإمام أحمد ص٨٨: عيينة، وفي مطبوع شعب الإيمان للبيهقي (٤٤١٣): عقبة. وانظر الجرح والتعديل ٨/ ٢٢٧، وتوضيح المشتبه ٦/ ١٧٠.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٢٩.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٢٨، وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠١.

وفي «الكشاف»: هو المتوفِّرُ على أداء الشكر، الباذلُ وسعه فيه، قد شغلَ به قلبه ولسانه وجوارحَه؛ اعترافاً واعتقاداً وكدحاً، وأكثر أوقاته[١].

وقال السُّدِّيُّ. هو من يشكرُ على الشكر.

وقيل: من يرى عجزَه عن الشكر؛ لأنَّ توفيقَه للشكر نعمةٌ يستدعي شكراً آخرَ لا إلى نهاية.

وقد نظم هذا بعضهم فقال:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً … عليَّ له في مثلها يجبُ الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلَّا بفضله … وإن طالتِ الأيَّام واتَّسع العمرُ
إذا مسَّ بالنعماء عمَّ سرورُها … وإنْ مسَّ بالضرَّاء أعقبها الأجر[٢]

وقد سمعتَ آنفاً ما روي عن داود عليه السلام.

وهذه الجملةُ يحتملُ أن تكون داخلةً في خطاب آل داود، وهو الظاهر، وأن تكونَ جملةً مستقلَّةً جيء بها إخباراً لنبينا ﷺ، وفيها تنبيهٌ وتحريضٌ على الشكر.

وقرأ حمزةُ: «عبادي» بسكون الياء، وفتَحها الباقون[٣].

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ قيل: أي: أَوْقَعْنا على سليمان الموتَ، حاكمين به عليه. وفي «مجمع البيان»: أي: حكمنا عليه بالموت[٤]. وقيل: أَوْجَبْناه عليه.

وفي «البحر»: أي: أنفذنا عليه ما قضينَا عليه في الأزل من الموت، وأخرجناه إلى حيِّز الوجود[٥]. وفيه تكلُّف.

وأيّاً ما كان، فليس المراد بالقضاء أخا القدر، فتدبَّر.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٣.

(٢) هي لمحمود الوراق كما في الفاضل في اللغة والأدب للمبرد ص٩٥، وبهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٣١٧.

(٣) التيسير ص١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١.

(٤) مجمع البيان ٢٢/ ١٩٣.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٦٦.

و«لمَّا» شَرطيَّة، ما بعدها شرطُها، وجوابها قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ واستدِلَّ بذلك على حرفيتها. وفيه نظر.

وضمير «دلَّهم» عائدٌ على الجنِّ الذين كانوا يعملون له عليه السلام. وقيل: عائدٌ على آل سليمان. ويأباه بحسب الظاهر قولُه تعالى بعد: «تبيَّنت الجنُّ».

والمراد بـ «دابَّة الأرض» الأرَضَة، بفتحات، وهي دُوَيبَّة تأكلُ الخشب ونحوه، وتسمى: سُرْفة، بضمِّ السين وإسكان الراء المهملة وبالفاء.

وفي «حياة الحيوان» عن ابن السكِّيت: أنَّها دُوَيبَّةٌ سوداءُ الرأس، وسائرُها أحمر، تتَّخذ لنفسها بيتاً مربَّعاً من دقاق العيدان، تضمُّ بعضَها إلى بعض بلُعابها، ثم تدخل فيه وتموت[(١)]. وفي المثل: أصنع من سُرْفة[(٢)].

وسمَّاها في «البحر»[(٣)] بِسُوسة الخشب.

و«الأرض» ـ على ما ذهب إليه أبو حاتم وجماعة ـ مصدرُ أَرَضَت الدابَّةُ الخشبَ تأرِضه: إذا أكلته، من باب ضرب يضربُ، فإضافةُ «دابَّة» إليه من إضافة الشيء إلى فعله. ويؤيِّدُ ذلك قراءةُ ابن عباس والعبّاس بن الفضل: «الأرَض» بفتح الراء[(٤)]؛ لأنَّه مصدر أَرِضَ من باب عَلِم المطاوع لأرَض من باب ضَرَبَ، يقال: أرَضت الدابَّة الخشبَ، بالفتح، فأرِض بالكسر، كما يقال: أكلت القوادحُ[(٥)] الأسنان أكْلاً فأكِلت أكَلاً، فالأرْض بالسكون: الأكل، والأرَض بالفتح: التأثُّر من ذلك الفعل. وقد يفسَّرُ الأولُ بالتأثُّر الذي هو الحاصل بالمصدر؛ لتتوافق القراءتان.

وقيل: «الأرَض»، بالفتح: جمع: أَرَضَة، وإضافة «دابَّة» إليه من إضافة العامِّ إلى الخاص.

---

(١) حياة الحيوان ٢/ ٢٠.
(٢) مجمع الأمثال ١/ ٤١١.
(٣) ٧/ ٢٦٦.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٦٦، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١ للواقدي.
(٥) جمع قادحة، وهي دودة تكون في الأسنان. حاشية الشهاب ٧/ ١٩٥.

وقيل: إنَّ «الأرْض» بالسكون بمعناها المعروف، وإضافة «دابَّة» إليها؛ قيل: لأنَّ فعلَها في الأكثر فيها.

وقيل: لأنَّها تؤثِّر في الخشب ونحوه، كما تؤثِّر الأرضُ فيه إذا دُفِن فيها.

وقيل غير ذلك، والأولى التفسيرُ الأوَّلُ، وإنْ لم تجئ الأرضُ في القرآن بذلك المعنى في غير هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ في موضع الحال من «دابَّة»، أي: آكلةً منسأته، والمنسأة: العصا، من نسأتُ البعيرَ: إذا طردتَه؛ لأنَّها يُطردُ بها، أو من نَسَأْتُه: إذا أخَّرته، ومنه: النسيءُ، ويظهر من هذا أنَّها العصا الكبيرة التي تكون مع الراعي وأضرابه.

وقرأ نافع وأبو عمرو(١) وجماعةٌ: «منساته» بألف، وأصله: منسأته، فأبدلت الهمزة ألفاً بدلاً غير قياسيٍّ، وقال أبو عمرو: أنا لا أهمزها؛ لأنِّي لا أعرفُ لها اشتقاقاً، فإنْ كانت ممَّا لا تهمز فقد احتطت، وإن كانت ممَّا تهمز فقد يجوز لي ترك الهمز فيما يهمز. ولعلَّه بيانٌ لوجه اختيار القراءة(٢) بدون همزة، وبالهمز جاءت في قول الشاعر:

ضربتُ بمنسأةٍ وجهَه ... فصارَ بذاك مهيناً ذليلا(٣)

وبدونه في قوله:

إذا دببتَ على المنساة من هرمٍ ... فقد تباعدَ منك اللهوُ والغزلُ(٤)

---

(١) في الأصل: وأبو عامر، وفي (م): وابن عامر. والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لما في البحر المحيط ٧/ ٢٦٧ ـ وعنه نقل المصنف ـ والتيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩ وهي قراءة أبي جعفر أيضاً من العشرة.

(٢) في الأصل: القرآن.

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٨٣. وذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٥ بلفظ: منساءة، بدل: منسأة. مستدلاً بها على مجيئها بالهمز والمد على وزن مفعالة.

(٤) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، والجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٣١، والطبري في =

وقرأ ابن ذكوان وبكّار والوليدُ بن أبي عتبة وابن مسلم وآخرون: «منسأْته» بهمزةٍ ساكنة[1]، وهو من تسكين المتحرك تخفيفاً. وليس بقياس، وضعَّف النحاة هذه القراءة؛ لأنَّه يلزمُ فيها أنْ يكون ما قبلَ تاء التأنيث ساكناً غير ألف.

وقيل: قياسها التخفيف بين بين، والراوي لم يضبط. وأنشد هارون بن موسى الأخفش الدمشقيُّ[2] شاهداً على السكون في هذه القراءة قول الراجز:

صريعُ خمرٍ قام من وَكَأَتِهْ كقومةِ الشيخِ إلى مِنْسَأْتِهْ[3]

وقُرِئ بفتح الميم وتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً، و«مِنْساءته» بالمدِّ على وزن مِفعالة[4]، كما يقال في الميضأة ـ وهي آلة التوضُّؤ، وتطلق على محلِّه أيضاً ـ ميضاءة.

وقرئ: «مِنْسَيَتِه» بإبدال الهمزة ياءً[5].

وقرأت فرقةٌ منهم عمرو بن ثابت عن ابن جبير: «من» مفصولةً حرف جرٍّ «سأتِهِ» بجرِّ التاء[6]، وهي طرف العصا، وأصلها ما انعطفَ من طرفي القوس، ويقال فيه: سِيَة أيضاً، استعيرت لما ذكر إمَّا استعارةً اصطلاحيَّةً؛ لأنَّها كانت خضراء فاعوجَّت بالاتِّكاء عليها، على ما ستسمعه إنْ شاء الله تعالى في القصَّة، أو لغويَّة باستعمال المقيَّد في المطلق. وبما ذُكر عُلِم ردُّ ما قاله البَطَلْيَوسيّ بعد ما نقل

= تفسيره ١٩/ ٢٣٩، وابن جني في المحتسب ٢/ ١٨٧، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٨٣، وأبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٥.

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٧، وقراءة ابن ذكوان ـ راوية ابن عامر ـ في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٢) مقرئ دمشق، قرأ على ابن ذكوان وهشام، وله تصانيف في القراءات والعربية، توفي سنة (٢٩٢هـ). السير ١٣/ ٥٦٦.

(٣) الرجز في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٧. وذكره القرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٨٣، والأول عنده: وقائم قد قام من تُكَأَتِهْ.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨٣، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٧.

(٥) المحتسب ٢/ ١٨٨.

(٦) المحتسب ٢/ ١٨٦، والبحر ٧/ ٢٦٧. ووقع في مطبوع البحر: عمر بن ثابت، بدل: عمرو.

هذه القراءة عن الفراء[١]: إنه تعجرفٌ لا يجوز أن يستعمل في كتاب الله عزَّ وجلَّ، ولم يأتِ به روايةٌ ولا سماع، ومع ذلك هو غيرُ موافقٍ لقصَّة سليمان عليه السلام؛ لأنَّه لم يكن معتمداً على قوس، وإنما كان معتمداً على عصا.

وقُرِئ: «أَكَلَتْ منسأته» بصيغة الماضي[٢]، فالجملة إمَّا حالٌ أيضاً بتقدير «قد»، أو بدونه، وإمَّا استئنافٌ بيانيٌّ.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أي: علمت بعد التباسِ أمر سليمان من حياته ومماته عليهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ أنَّهم لو كانوا يعلمون الغيبَ ـ كما يزعمون ـ لعلموا موتَه زمنَ وقوعه، فلم يلبثوا بعدَه حولاً في الأعمال الشاقَّة إلى أن خرَّ.

والمراد بالجنِّ الذين علموا ذلك ضعفاءُ الجنِّ، وبالذين نَفَى عنهم علمَ الغيب رؤساؤهم وكبارهم، على ما روي عن قتادة. وجُوِّز عليه أن يراد بالأمر الملتبس عليهم أمرُ علم الغيب، أو المراد بالجنِّ الجنس، بأن يسند للكلِّ ما للبعض، أو المراد كبارهم المدَّعونَ علمَ الغيب، أي: عَلِمَ المدَّعون علمَ الغيب منهم عجزَهم وأنَّهم لا يعلمون الغيب. وهم وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم لكن أريد التهكُّم بهم كما تقول للمبطل إذا دحضت حُجَّتَه: هل تَبيَّنتَ أنَّك مبطلٌ؟ وأنت تعلم أنَّه لم يزل كذلك متبيِّناً.

وجُوِّز أن يكون «تبين» بمعنى بان وظهر، فهو غيرُ متعدٍّ لمفعول، كما في الوجه الأول، فإنَّ مفعوله فيه «أن لو كانوا» إلخ، وهو في هذا الوجه بدلٌ من «الجن» بدل اشتمال، نحو: تبيَّنَ زيدٌ جهلُه، والظهور في الحقيقة مسندٌ إليه، أي: فلمَّا خرَّ بانَ للناس وظهر أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب.

---

(١) يعني قوله في معاني القرآن ٢/ ٣٥٧: ولو جاء في القراءة: «من سأتِه». إلا أن الفراء قال بعد توجيهها: ولم يقرأ بها أحدٌ علمناه. والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١٩٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٨٣ دون نسبة، وعزاها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤١١ لمصحف عبد الله.

ولا حاجة على ما قُرِّرَ إلى اعتبار مضافٍ مقدَّرٍ، هو فاعلُ «تبيَّن» في الحقيقة، إلَّا أنَّه بعد حذفه أقيمَ المضاف إليه مُقامَه، وأسند إليه الفعل، ثم جعل «أن لو كانوا» إلخ بدلاً منه بدل كلٍّ من كلّ، والأصل: تبيَّن أمر الجنِّ أنْ لو كانوا.. إلخ.

وجَعَل بعضهم في قوله تعالى: «أن لو كانوا يعلمون» إلخ قياساً طُويت كُبْراه، فكأنه قيل: لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، لكنَّهم لبثوا في العذاب المهين، فهم لا يعلمون الغيب.

ومجيء «تبيَّن» بمعنى بان وظهر لازماً، وبمعنى أدرك وعلم متعدِّياً = موجودٌ في كلام العرب، قال الشاعر:

تبيَّن لي أنَّ القماءةَ ذلَّةٌ ... وأنَّ أعزَّاءَ الرجال طيالها[١]

وقال الآخر:

أفاطم إنِّي ميِّتٌ فتبيَّني ... ولا تجزعي كلُّ الأنام تموتُ[٢]

وفي «البحر»[٣] نقلاً عن ابن عطيَّة قال: ذهب سيبويه[٤] إلى أنَّ «أنْ» لا موضعَ لها من الإعراب، وإنَّما هي منزَّلةٌ منزلةَ القسم من الفعل الذي معناه التحقيق واليقين[٥]، لأنَّ هذه الأفعال التي هي: تحقَّقتُ، وتيقَّنتُ، وعلمتُ، ونحوها،

---

(١) نسبه في الحماسة البصرية ١/ ٣٥ لأنيف بن زبَّان النهشلي، ونسبه عبد القادر البغدادي في الخزانة ٩/ ٤٨٨، وشرح أبيات المغني ٤/ ٦٧-٦٨ لأثال بن عبدة بن الطبيب. وهو في المحتسب ١/ ١٨٤، والمنصف ١/ ٣٤٢، وأمالي ابن الشجري ١/ ٨٦، وشرح المفصل ١٠/ ٨٨ دون نسبة. ونسبه المبرد في الكامل ١/ ١٢١، ٢/ ١٠٤٤ لرجل من بني سعد.

(٢) هو بهذا اللفظ في البحر المحيط ٧/ ٢٦٧، والدر المصون ٩/ ١٦٨.

وذكره أبو عبيد في الأمثال ص٣٣٥، والعسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ١٥٧، والميداني في مجمع الأمثال ٢/ ١٣٣، والصفدي في تصحيح التصحيف ص٥٥٥، برواية:

ولا تجزعي كل النساء يئيم.

وهو كذلك في المستقصى ٢/ ٢٢٦ ونسبه فيه لامرئ القيس. وليس في ديوانه.

(٣) ٧/ ٢٦٧-٢٦٨.

(٤) انظر الكتاب ٣/ ١٠٧-١٠٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٢.

تحلُّ محلَّ القسم، فـ «ما لبثوا» جواب القسم لا جواب «لو». اهـ. فتأمَّله فإنِّي لا أكاد أتعقَّله وجهاً يُلتفتُ إليه.

وفي «أمالي العزِّ بن عبد السلام» أنَّ «الجنّ» ليس فاعل «تبيَّنت»، بل هو مبتدأ، و«أنْ لو كانوا يعلمون» خبرُه، والجملة مفسِّرةٌ لضمير الشأن في «تبيَّنت» إذ لولا ذلك لكان معنى الكلام: لمَّا مات سليمان وخرَّ ظهرَ لهم أنَّهم لا يعلمون الغيب. وعلمُهم بعدم علمهم الغيب لا يتوقَّف على هذا، بل المعنى: تبيَّنت القصَّة ما هي، والقصَّة قوله تعالى: ﴿الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾. اهـ.

والعجبُ من صدور مِثْلِه عن مِثْلِه، وما جعلَه مانعاً عن فاعلية «الجن» مدفوعٌ بما سمعتَ في تفسير الآية كما لا يخفى.

وفي كتاب النحاس إشارةٌ إلى أنَّه قُرئ: «تبيَّنت الجنَّ» بالنصب، على أنَّ «تبيَّنت» بمعنى علمت، والفاعل ضمير «الإنس»، و«الجنَّ» مفعوله(١).

وقرأ ابنُ عباس ـ فيما ذكر ابن خالويه(٢) ـ ويعقوب بخلافٍ عنه: «تُبيِّنَت» مبنياً للمفعول(٣).

وقرأ أُبيٌّ: «تبيَّنت الإنس»، وعن الضَّحَّاك: «تباينت الإنس» بمعنى تعارفت وتعالمت، والضمير في «كانوا» للجنِّ المذكور فيما سبق. وقرأ ابن مسعود: «تبيَّنت الإنسُ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيب»(٤)، وهي قراءاتٌ مخالفةٌ لسواد المصحف مخالفةً كثيرة.

وفي القصة رواياتٌ، فروي أنَّه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المُدَدَ الطِّوال، فلمَّا دنا أجلُه لم يصبح إلَّا رأى في محرابه

---

(١) البحر المحيط ٧/٢٦٨، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٣٧-٣٣٨، ومعاني القرآن له ٥/٤٠٥.

(٢) في القراءات الشاذة ص١٢١.

(٣) هي قراءة رويس عن يعقوب. النشر ٢/ ٣٥٠.

(٤) ذكر هذه القراءات الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٣-٢٨٤، والأخيرة في المحتسب ٢/ ١٨٨.

شجرةً نابتةً قد أنطقَها الله تعالى، فيسألُها: لأيِّ شيءٍ أنت؟ فتقول: لكذا، حتى أصبحَ ذاتَ يومٍ، فرأى الخرنوبة[١]، فسألَها، فقالت: نبتُّ لخرابِ هذا المسجد، فقال: ما كان الله تعالى ليخربه وأنا حيٌّ، أنتِ التي على وجهِك هلاكي وخرابُ بيت المقدس. فنزعَها وغرسَها في حائطٍ له، واتخذَ منها عصا، وقال: اللهمَّ عَمِّ على الجنِّ موتي، حتى يُعْلَم أنَّهم لا يعلمون الغيب كما يموِّهون. وقال لملك الموت: إذا أُمِرتَ بي فأعلمني، فقال: أمرتُ بك، وقد بقيَ من عمرك ساعةٌ. فدعا الجنَّ فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له بابٌ، فقام يصلِّي متَّكئاً على عصاه، فقبض روحَه وهو متَّكِئٌ عليها، وكانت الجنُّ تجتمعُ حولَ محرابه أينما صلَّى، فلم يكن جنِّيٌّ ينظرُ إليه في صلاته إلَّا احترقَ، فمرَّ جنيٌّ فلم يسمع صوتَه، ثم رجع فلم يسمع، فنظر إذا سليمان قد خرَّ ميتاً، ففتحوا عنه، فإذا العصا قد أكلتها الأرضة، فأرادوا أنْ يعرفوا وقتَ موته، فوضعوا الأَرَضَة على العصا، فأكلت منها في يومٍ وليلة مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة، وكانوا يعملونَ بين يديه ويحسَبونه حيًّا، فتبيَّن أنَّهم لو كانوا يعلمون الغيب لما لبثوا في العذاب سنة[٢].

ولا يخفى أنَّ هذا من باب التخمين والاقتصارِ على الأقل، وإلَّا فيجوزُ أن تكونَ الأَرَضَةُ بدأت[٣] بالأكل بعد موته بزمانٍ كثير، وأنَّها كانت تأكلُ أحياناً وتتركُ أحياناً.

وأما كونُ بدئها في حياته فبعيد، وكونه بالوحي إلى نبيٍّ في ذلك الزمان ـ كما قيل ـ فواهٍ؛ لأنَّه لو كان كذلك لم يحتاجوا إلى وضع الأَرَضَة على العصا ليستعلموا المدَّةَ.

---

(١) في الأصل: الخربوبة، وفي الكشاف ٣/ ٢٨٤ـ والكلام منه ـ: الخروبة. اهـ. والخروبة والخرنوبة: شجر الينبوت، وقيل: الينبوت: الخشخاش. انظر تاج العروس (خرب).

(٢) قال الحافظ ابن كثير بعد ذكر نحو هذا الخبر: وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تُلقِّي من علماء أهل الكتاب، وهي وقف لا يصدَّق منها إلا ما وافق الحق، ولا يكذَّب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

(٣) في الأصل و(م): بدت، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ١٩٦.

وروي أنَّ داودَ عليه السلام أسَّسَ بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يُتِمَّه، فوصَّى به إلى سليمان، فأمرَ الجنَّ بإتمامه، فلمَّا بقي من عمره سنة سأل أنْ يُعمَّى عليهم موتُه حتى يفرغوا منه، ولتبطلَ دعواهم علم الغيب.

وهذا بظاهره مخالفٌ لما رويَ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام هو الذي أسَّس بيتَ المقدس بعد الكعبة بأربعين سنة[1]، ثم خرب، وأعاده داود، وماتَ قبل أن يتمَّه.

وأيضاً أنَّ موسى عليه السلام لم يدخل بيتَ المقدس، بل ماتَ في التِّيْهِ، وجاء في الحديث الصحيح[2] أنَّه عليه السلام سأل ربَّه عند وفاته أنْ يدنيه من الأرض المقدَّسة رميةً بحجر.

وأيضاً قد روي أنَّ سليمان قد فرغَ من بناء المسجد وتعبَّد فيه، وتجهَّز بعدَه للحجِّ شكراً لله تعالى على ذلك.

وأجيب عن الأوَّل بأنَّ المرادَ تجديد التأسيس، وعن الثاني بأنَّ المرادَ بفسطاط موسى فسطاطه المتوارث، وكانوا يضربونَه يتعبَّدون فيه تبرُّكاً، لا أنَّه كان يُضربُ هنالك في زمنه عليه السلام.

ويحتاجُ هذا إلى نقلٍ، فإنَّ مثلَه لا يُقَالُ بالرأي، فإنْ كان فأهلاً ومرحباً.

وقيل: المراد به مجمع العبادة على دين موسى، كما وقع في الحديث: «فسطاط إيمان»[3].

---

(١) أخرج البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠) من حديث أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي المساجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام» قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة...».

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) يشير إلى حديث ابن عمر الذي أخرجه أبو داود (٤٢٤٢)، وأحمد (٦١٦٨) وفيه: «حتى يصير الناس إلى فسطاطين؛ فسطاطِ إيمان لا نفاق فيه، وفسطاطِ نفاقٍ لا إيمان فيه...»، وذكره القرطبي في التذكرة ص٥٥٩-٥٦٠.

وقال القرطبيُّ في «التذكرة»: المرادُ به فرقةٌ منحازةٌ عن غيرها، مجتمعةٌ تشبيهاً بالخيمة[١].

ولا يخفى ما فيهما، وإن قيل: إنَّهما أظهرُ من الأول.

وعن الثالث بأنَّ المرادَ بالفراغ القربُ من الفراغ، وما قاربَ الشيءَ له حكمه. وفيه بعدٌ.

واختير أنَّ هذا رواية، وذاك رواية، والله تعالى أعلم بالصحيح منهما.

ورُوي أنَّه عليه السلام قد أمر ببناء صرحٍ له، فبنوه، فدخلَه مختلياً ليصفو له يومٌ في الدهر من الكدر، فدخل عليه شابٌّ، فقال له: كيف دخلت عليَّ بلا إذن؟ فقال: إنَّما دخلتُ بإذن. فقال: ومَنْ أَذِنَ لك؟ قال: ربُّ هذا الصرح. فعلم أنَّه مَلَكُ الموت أتى لقبض روحه. فقال: سبحان الله! هذا اليوم الذي طلبتُ فيه الصفا، فقال له: طلبتَ ما لم يُخلَق، فاستوثقَ من الاتِّكاء على عصاه، فقبض روحَه، وخفي على الجنِّ موتُه حتى سقط.

ورويَ أنَّ أفريدون جاء ليصعدَ كرسيَّه، فلما دنا ضرب الأَسَدَانِ ساقَه فكسراها[٢]، فلم يجسُر أحدٌ بعده أنْ يدنو منه، ولذا لم تَقربهُ الجنُّ وخفيَ أمرُ موته عليهم.

ونُظر فيه بأنَّ سليمان كان بعد موسى بمدَّةٍ مديدة، وأفريدون كان قبلَه؛ لأن منوجهر من أسباط أفريدون، وظهر موسى عليه السلام عليه في زمانه.

وعلى جميع الرويات الدالَّة على موته عليه السلام: خرورُه لمَّا كُسِرت العصا؛ لضعفِها بأكل الأَرَضة منها، ونسبة الدلالة في الآية إليها نسبةٌ إلى السبب البعيد.

ومن الغريب ما نُقِل عن ابن عباس أنَّه عليه السلام ماتَ في متعبَّده على فراشه

(١) التذكرة ص٥٦١.

(٢) في الأصل: فكسراهما. والمثبت من (م)، والكشاف ٣/ ٢٨٤.

وقد أغلقَ الباب على نفسه، فأكلت الأَرَضة المنسأة، أي: عتبة الباب، فلمَّا خرَّ، أي: البابُ، عُلِم موتُه، فإنَّ فيه جَعْلَ ضمير «خرَّ» للباب، وإليه ذهب بعضُهم.

وفيه أنَّه لم يُعهَد تسميةُ العتبة منسأة، وأيضاً كان اللازم عليه: خرَّت، بتاء التأنيث. ولا يجيء حذفُها في مثل ذلك إلَّا في ضرورة الشعر، وكونُ التذكير على معنى العود بعيدٌ، فالظاهر عدمُ صحَّة الرواية عن الحبر، والله تعالى أعلم.

وحَكى البغويُّ عنه أنَّ الجنَّ شكروا الأَرَضَة، فهم يأتونَها بالماء والطين في جوفِ الخشب[١].

وهذا شيءٌ لا أقول به ولا أعتقدُ صحَّة الرواية أيضاً.

وكان عمره عليه السلام ثلاثاً وخمسين سنة، ومَلَكَ بعد أبيه وعمره ثلاثَ عشرة سنة، وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربعِ سنين مضينَ من ملكه، ثمَّ مضى وانقضى، وسبحان من لا ينقضي ملكه ولا يزولُ[٢] سلطانُه.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ الغيبَ لا يختصُّ بالأمور المستقبلة، بل يشملُ الأمور الواقعة التي هي غائبةٌ عن الشخص أيضاً.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ لمَّا ذكر عزَّ وجلَّ حالَ الشاكرين لنعمه، المنيبين إليه تعالى، ذكرَ حال الكافرين بالنعمة، المعرضينَ عنه جلَّ شأنُه؛ موعظةً لقريش، وتحذيراً لمن كفرَ بالنِّعم وأعرضَ عن المنعِم.

وسبأ في الأصل اسمُ رجل، وهو سبأ بن يشجب ـ بالشين المعجمة والجيم، كينصر ـ بنِ يعرب بن قحطان، وفي بعض الأخبار عن فروة بن مسيك قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلت[٣]: يا رسول الله، أخبرني عن سبأ، أرجلٌ هو أم امرأة؟ فقال: «هو رجلٌ من العرب ولد عشرةً، تَيَامَنَ منهم ستَّة، وتشاءم منهم أربعة، فأمَّا الذين

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٥٥٢.

(٢) في الأصل: ولا يزال.

(٣) الذي في المصادر أن الراوي رجلٌ مبهم.

تيامنوا، فالأَزْدُ وكندةُ ومَذْحِجٌ والأشعريون وأنمارٌ، ومنهم بَجِيلة، وأمَّا الذين تشاءموا، فعاملةُ وغسَّانُ ولَخْمٌ وجُذامٌ»[1].

وفي «شرح قصيدة عبد المجيد بن عَبْدُون»[2] لعبد الملك بن عبد الله بن بَدْرُون الحضرميّ البستيّ[3] أنَّ سبأ بن يشجب أوَّلُ ملوك اليمن في قول، واسمه عبد شمس، وإنَّما سُمِّيَ سبأ؛ لأنَّه أولُ من سَبَى السبيَ من ولد قحطان، وكان ملكه أربعَ مئة وأربعاً وثمانين سنةً، ثمَّ سُمِّيَ به الحيُّ.

ومَنَعَ الصرفَ عنه ابنُ كثير[4] وأبو عمرو باعتبارِ جَعْلِه اسماً للقبيلة، ففيه العلميَّة والتأنيث، وقرأ قنبل بإسكان الهمزة على نيَّة الوقف[5].

وعن ابن كثير قلبُ همزته ألفاً[6]، ولعلَّه سكَّنها أوَّلاً بنيَّة الوقف كقنبل، ثمَّ قلبهَا ألفاً، والهمزةُ إذا سُكِّنت يطَّرد قلبُها من جنس حركة ما قبلها. وقيل: لعلَّه أخرجَها بينَ بين، فلم يؤدِّه الراوي كما وجب.

والمراد بسبأ هاهنا؛ إمَّا الحيُّ أو القبيلة، وإمَّا الرجلُ الذي سمعت، وعليه فالكلام على تقدير مضاف، أي: لقد كان في أولاد سبأ. وجُوِّزَ أنْ يرادَ به البلد، وقد شاعَ إطلاقُه عليه، وحينئذٍ فالضميرُ في قوله تعالى: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ لأهلها، أو لها مراداً بها الحيُّ على سبيل الاستخدام، والأمر فيه على ما تقدَّم ظاهر.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٢٢) وفيه: أرض أو امرأة. بدل: أرجل هو أم امرأة. وسلف بعضه ص٥ من هذا الجزء.

(٢) هو عبد المجيد بن عبدون الفهري اليابرتي، أبو محمد، ذو الوزارتين، أديب الأندلس في عصره، وكان كاتباً مترسلاً عالماً بالتاريخ والحديث، توفي سنة (٥٢٩هـ) وقيل غير ذلك. الأعلام ٤/ ١٤٩.

(٣) هو أبو القاسم، أديب أندلسي، اشتهر بشرحه لقصيدة ابن عبدون، وسماه: كمامة الزهر وفريدة الدهر. توفي (بعد ٦٠٨هـ). الأعلام ٤/ ١٦١.

(٤) في رواية البزي. انظر التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧.

(٥) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧.

(٦) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧٢، وليست في التيسير والنشر. وانظر حاشية الشهاب ٧/ ١٩٦.

والمسكن اسم مكان، أي: في محلِّ سكناهم، وهو كالدار يطلَقُ على المأوى للجميع، وإن كان قطراً واسعاً، كما تسمى الدنيا داراً.

وقال أبو حيَّان: ينبغي أن يحمل على المصدر، أي: في سكناهم؛ لأن كلَّ أحدٍ له مسكنٌ، وقد أُفرد في هذه القراءة، وجَعْلُ المفردِ بمعنى الجمع، كما في قوله:

كُلوا في بعض بطنكم تَعِفُّوا[1]

وقوله:

قد عضَّ أعناقَهم جلدُ الجواميسِ[2]

يختصُّ بالضرورة عند سيبويه[3]. انتهى[4].

وبما ذكرنا لا تبقى حاجة إليه كما لا يخفى.

واسم ذلك المكان مَأْرِب، كمنزل، وهي من بلاد اليمن، بينها وبين صنعاء مسيرةُ ثلاث.

وقرأ الكسائيُّ والأعمش وعلقمة: «مسكِنهم» بكسر الكاف[5] على خلاف القياس، كمسجِد ومَطْلِع، لأنَّ ما ضُمَّت عينُ مضارِعِهِ أو فتحت قياسُ المَفْعَل منه زماناً ومكاناً ومصدراً الفتحُ لا غير.

---

(١) عجزه:

فإنَّ زمانكم زمن خميص

وهو من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعلم قائلها. وسلف ١/ ٣٩٩.

(٢) صدره:

الواردون وتيمٌ في ذرا سبأٍ

وهو لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٠، وسلف ١٩/ ٤١١.

(٣) انظر الكتاب ١/ ٢١٠.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٦٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٣، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٩. وقراءة الكسائي في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠. وهي قراءة خلف من العشرة.

وقال أبو الحسن[1]: كسر الكاف لغة فاشيةٌ، وهي لغةُ الناس اليوم، والفتحُ لغةُ الحجاز، وهي اليوم قليلة. وقال الفراء[2]: هي لغةٌ يمانيةٌ فصيحة.

وقرأ الجمهور: «مساكنهم» جمعاً[3]، أي: في مواضع سكناهم.

﴿ءَايَةٌ﴾ أي: علامةٌ دالَّةٌ ـ بملاحظة أخواتها السابقة واللاحقة ـ على وجود الصانع المختار، وأنَّه سبحانه قادرٌ على ما يشاء من الأمور العجيبة، مُجَازٍ للمحسن والمسيء، وهي اسم «كان»، وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدلٌ منها، على ما أشار إليه الفرَّاء[4]، وصرَّح به مكِّي[5] وغيره.

وقال الزجَّاج: خبر مبتدأ محذوف، أي: هي جنَّتان[6].

ولا يشترط في البدل المطابقة إفراداً وغيره، وكذا الخبر إذا كان غيرَ مشتقٍّ، ولم يمنع المعنى من اتحاده مع المبتدأ، ولعلَّ وجه توحيد الآية هنا مثلُه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] ولا حاجةَ إلى اعتبار مضافٍ مفردٍ محذوفٍ هو البدل أو الخبر في الحقيقة، أي: قصة جنَّتين.

وذهب ابن عطية[7] ـ بعد أن ضعَّفَ وجه البدلية، ولم يذكر الجهة ـ إلى أنَّ «جنَّتان» مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾.

ولا يظهر، لأنَّه نكرةٌ لا مسوِّغَ للابتداء بها، إلَّا إن اعتقد أنَّ ثَمَّ صفةً

---

(١) هو الأخفش سعيد بن مسعدة، وذكر قوله الفارسي في الحجة ٦/ ١٤.
(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٧.
(٣) هي قراءة أبي بكر عن عاصم، ونافع، وابن عامر، وابن كثير، وأبي عمرو، وأبي جعفر، ويعقوب. انظر التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠.
(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٨.
(٥) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٥.
(٦) انظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤٨.
(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٣.

محذوفةً، أي: جنَّتان لهم، أو: جنَّتان عظيمتان، وعلى تقدير ذلك يبقى الكلام متفلِّتاً عما قبلَه.

وقرأ ابن أبي عبلة: «جنَّتين» بالنصب على المدح[1]. وقال أبو حيان: على أنَّ «آية» اسمُ «كان»، و«جنَّتين» الخبر[2].

وأيًّاما كان، فالمراد بالجنَّتين ـ على ما روي عن قتادة ـ جماعتان من البساتين؛ جماعةٌ عن يمين بلدهم، وجماعةٌ عن شماله، وإطلاقُ الجنَّة على كلِّ جماعةٍ؛ لأنَّها لتقارب أفرادها وتضامِّها كأنَّها جنَّةٌ واحدةٌ، كما تكون بلادُ الريف العامرة وبساتينُها.

وقيل: أريد بستانَا كلِّ رجلٍ منهم عن يمين مسكنه وشماله، كما قال سبحانه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: ٣٢]، قيل: ولم تجمع؛ لئلَّا يلزمَ أنَّ لكلِّ مسكنِ رجلٍ جنةً واحدةً لمقابلة الجمع بالجمع. ورُدَّ بأنَّ قوله تعالى: (عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ) يدفعُ ذلك؛ لأنَّه بالنظر إلى كلِّ مسكنٍ، إلَّا أنها لو جُمعت أوهم أنَّ لكلِّ مسكنٍ جناتٍ عن يمينٍ، وجناتٍ عن شمال، وهذا لا محذورَ فيه، إلَّا أنْ يُدَّعَى أنَّه مخالفٌ للواقع.

ثمَّ إنَّه قيل: إنَّ «في» فيما سبق بمعنى «عند»، فإنَّ المساكن محفوفةٌ بالجنَّتين لا ظرفٌ لهما.

وقيل: لا حاجةَ إلى هذا، فإنَّ القريبَ من الشيء قد يجعل فيه مبالغةً في شدَّة القرب.

ولكلٍّ وجهةٌ، لكن أنت تعلمُ أنَّه إذا أُريدَ بالمساكن أو المسكن ما يصلحُ أنْ يكونَ ظرفاً لبلدهم المحفوفة بالجنَّتين أو لمحلِّ كلٍّ منهم المحفوفة بهما = لم يحتج إلى التأويل أصلاً، فلا تَغفُل.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ بتقدير قولٍ، أي: قال لهم نبيُّهم: «كلوا» إلخ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٣، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٠.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٧٠.

وفي «مجمع البيان» قيل: إنَّ مساكنَهم كانت ثلاثة عشر قريةً، في كلِّ قريةٍ نبيٌّ يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، يقول: «كلوا من رزق ربكم» إلخ[١].

وقيل: ليس هناك قولٌ حقيقةً، وإنَّما هو قولٌ بلسان الحال.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥﴾ أي: هذه البلدةُ التي فيها رزقُكم بلدةٌ طيِّبَةٌ، وربُّكم الذي رزقكم وطلبَ شكركم ربٌّ غفورٌ فَرَطاتِ من يشكره، والجملةُ استئنافٌ للتصريح بموجب الشكر.

ومعنى «طيِّبةٌ»: زكيَّةٌ مستلذَّة. يروى أنَّها كانت لطيفةَ الهواء، حسنةَ التربة، لا تَحدث فيها عاهةٌ، ولا يكونُ فيها هامَّةٌ، حتى إنَّ الغريبَ إذا حلَّها وفي ثيابه قملٌ أو براغيثُ ماتت.

وقيل: المراد بطيبها صِحَّةُ هوائها، وعذوبةُ مائها، ووفورُ نزهتها، وأنَّه ليس فيها حَرٌّ يؤذي في الصيف، ولا بردٌ يؤذي في الشتاء.

وقرأ رويسٌ بنصب «بلدة» وجميع ما بعدها[٢]، وذلك على المدح والوصفية. وقال أحمد بن يحيى: بتقدير: اسكنوا بلدةً طيبة، واعبدوا ربًّا غفوراً.

ومن الاتفاقات النادرة أنَّ لفظ «بلدة طيبة» بحساب الجُمَّل، واعتبارِ هاء التأنيث بأربع مئة ـ كما ذهب إليه كثيرٌ من الأدباء ـ وقعَ تاريخاً لفتح القسطنطينية[٣]، وكانت نزهةَ بلاد الروم.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن الشكر كما يقتضيه المقام، ويدخل فيه الإعراضُ عن الإيمان؛ لأنَّه أعظم الكفر والكفران.

وقال أبو حيَّان: أعرضوا عمَّا جاء به إليهم أنبياؤهم الثلاثة عشر، حيث دعوهم إلى الله تعالى، وذكَّروهم نعمَه سبحانه، فكذَّبوهم وقالوا: ما نعرفُ لله نعمةً[٤].

---

(١) مجمع البيان ٢٢/ ١٩٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٤، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٠.

(٣) أي: سنة (٨٥٧هـ).

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٧٠.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: الصعب، من عَرمَ الرجل، مثلَّث الراء، فهو عارمٌ وعَرِم، إذا شَرِس خلقُه وصَعُبَ، وفي معناه ما جاء في روايةٍ عن ابن عباس من تفسيره بالشديد.

وإضافةُ السيل إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة، ومن أبَاها من النحاة قال: التقدير: سيلَ الأمرِ العَرِمِ.

وقيل: «العرم»: المطر الشديد، والإضافة على ظاهرها.

وقيل: هو اسمٌ للجُرَذ الذي نَقَبَ عليهم سدَّهم، فصار سبباً لتسلُّطِ السيل عليهم، وهو الفأر الأعمى الذي يقال له: الخُلْد، وإضافة السيل إليه لأدنى ملابسة.

وقال ابن جبير: العَرِم: المُسَنَّاة، بلسان الحبشة. وقال الأخفش: هو بهذا المعنى عربيّ.

وقال المغيرة بن حكيم وأبو ميسرة: العرم في لغة اليمن جمع عَرِمة، وهي كلُّ ما بُنِيَ أو سُنِّم ليُمسِكَ الماء، ويقال لذلك البناء بلغة الحجاز المسنَّاة، والإضافةُ كما في سابقه، والملابسة في هذا أقوى.

وعن ابن عباس وقتادة والضحاك ومقاتل: هو اسمُ الوادي الذي كان يأتي السيلُ منه وبُنِيَ السدُّ فيه، ووجه إضافة السيل إليه ظاهرٌ.

وقرأ عروة(١) بن الورد ـ فيما حكى ابن خالويه ـ: «العَرْم» بإسكان الراء تخفيفاً(٢)، كقولهم في الكَبِد: الكَبْد.

رويَ أنَّ بلقيس لمَّا ملكت اقتتلَ قومُها على ماء واديهم، فتركت ملكها وسكنت قصرها، وراودوها على أن ترجع، فأبت، فقالوا: لتَرْجِعِنَّ أو لنقتلنَّك، فقالت لهم: أنتم لا عقولَ لكم ولا تطيعوني، فقالوا: نطيعك، فرجعت إلى واديهم، وكانوا إذا مُطِروا أتاهم السيلُ من مسيرة ثلاثة أيام، فأمَرت فسدَّ ما بين الجبلين

---

(١) في الأصل و(م): عزرة، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٧١.

بمُسَنَّاةٍ، بالصخر والقار، وحبست الماء من وراء السَّدِّ، وجَعلت له أبواباً بعضُها فوق بعض، وبَنَتْ من دونه بركةً منها اثنا عشر مخرجاً على عدَةِ أنهارِهم، وكان الماء يخرجُ لهم بالسويَّة إلى أنْ كان من شأنها مع سليمان عليه السلام ما كان.

وقيل: الذي بنى لهم السدَّ هو حِمْيَر أبو القبائل اليمنيَّة.

وقيل: بناه لقمان الأكبر ابن عاد، ورصفَ أحجاره بالرصاص والحديد، وكان فرسخاً في فرسخ.

ولم يزالوا في أرغدِ عيشٍ، وأخصب أرض، حتى إنَّ المرأةَ تخرجُ وعلى رأسها المِكْتَلُ، فتعمل بيديها وتسير، فيمتلئ المكتلُ ممَّا يتساقط من أشجار بساتينهم، إلى أن أعرضوا عن الشكر، وكذَّبوا الأنبياءَ عليهم السلام، فسلَّط الله تعالى على سدِّهم الخُلْدَ، توالد[1] فيه فخرقه، فأرسلَ سبحانه سيلاً عظيماً، فحمل السدَّ وذهب بالجنان وكثيرٍ من الناس.

وقيل: إنَّه أذهب السدَّ، فاختلَّ أمرُ قسمة الماء ووصوله إلى جنانهم، فيبست وهلكت.

وكان ذلك السيلُ ـ على ما قيل ـ في ملك ذي الأذعار بن حسان في الفترة بين نبيِّنا ﷺ وعيسى عليه السلام.

وفيه بحثٌ على تقدير القول بأنَّ الإعراض كان عمَّا جاءهم به أنبياؤهم[2] الثلاثة عشر، كما ستعلمه إنْ شاء الله تعالى عن قريب.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أي: أذهبنا جنَّتيهم، وآتينا بدلها ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ أي: ثمرٍ ﴿خَمْطٍ﴾ أي: حامضٍ أو مرٍّ.

وعن ابن عباس: الخمط: الأراك. ويقال لثمره مطلقاً أو إذا اسودَّ وبلغ: البربر[3].

---

(١) في (م): فوالد.

(٢) في (م): جاءهم من أنبيائهم.

(٣) كذا في الأصل و(م). ولعل الصواب: البرير، وهو ثمر الأراك عامة. وقيل: البرير الأول، أي: أول ما يظهر من ثمر الأراك، وهو حلو. انظر تاج العروس (برر).

وقيل: شجر الغضا، ولا أعلم هل له ثمرٌ أم لا؟

وقال أبو عبيدة: كلُّ شجرةٍ مُرَّةٍ ذات شوك[١].

وقال ابن الأعرابيّ: هو ثمرُ شجرةٍ على صورة الخشخاش، لا يُنتفع به، وتسمَّى تلك الشجرة ـ على ما قيل ـ بـ: فَسْوة الضَّبُع.

وهو على الأول: صفةٌ لـ «أُكُل»، والأمر في ذلك ظاهر.

وعلى الأخير: عطفُ بيانٍ على مذهب الكوفيين المجوِّزين له في النكرات. وقيل: بدل.

وعلى ما بينهما: الكلام على حذف مضاف، أي: أكلِ أكلِ خمطٍ، وذلك المضاف بدلٌ من «أكلٍ»، أو عطف بيان عليه، ولمَّا حذف أقيم المضاف إليه مقامَه، وأعرب بإعرابه، كما في «البحر»[٢].

وقيل: هو بتقدير: أكل ذي خمط.

وقيل: هو بدل، من باب: يعجبني القمر فلكُه. وهو كما ترى.

ومُنع جَعْلُه وصفاً من غير ضربٍ من التأويل؛ لأنَّ الثمر لا يوصفُ بالشجر، لا لأنَّ الوصفَ بالأسماء الجامدة لا يطَّرد، وإن جاء منه شيء، نحو: مررتُ بقاعٍ عَرْفجٍ[٣]. فتأمَّل.

وقرأ أبو عمرو: «أكلِ خمط» بالإضافة[٤]، وهو من باب: ثوبِ خزٍّ. وقرأ ابن كثير: «أكْلٍ» بسكون الكاف والتنوين[٥].

---

(١) انظر مجاز القرآن ٢/ ١٤٧.

(٢) ٧/ ٢٧١.

(٣) القاع: أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام. والعرفج: نبات، وقول العرب: مررت بقاع عرفج كله، معناه: مررت بقاعٍ خشنٍ كلّه، وإنما قدّر بخشن لأن العرفج شاكٌّ، والشوك خشن المسّ. ينظر شرح المشكل من شعر المتنبي ص٤٦.

(٤) التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠، وهي قراءة يعقوب من العشرة.

(٥) وهي قراءة نافع أيضاً. انظر التيسير ص٨٣، ١٨٠، والنشر ٢/ ٢١٦.

﴿وَأَثْلٍ﴾ ضربٌ من الطَّرفاء، على ما قاله أبو حنيفة اللغويُّ في كتاب «النبات» له. وعن ابن عباس تفسيره بالطرفاء. ونقل الطبرسيُّ قولاً أنَّه السَّمُر[1].

وهو عطفٌ على «أكل»، ولم يجوّز الزمخشريُّ[2] عطفه على «خَمْطٍ» معلِّلاً بأنَّ الأثل لا ثمرَ له. والأطباء كداود الأنطاكيّ[3] وغيره يذْكرون له ثمراً كالحِمَّص، ينكسرُ عن حبٍّ صغار، ملتصق بعضه ببعض، ويفسِّرون الأثل بالعظيم من الطَّرفاء. ويقولون في الطَّرفاء: هو برِّيٌّ لا ثمر له، وبستانيٌّ له ثمر. لكن قال الخفاجيُّ[4]: لا يعتمد على الكتب الطبية في مثل ذلك. وفي القلب منه شيءٌ، ونحن قد حقَّقنا أنَّ للأثل ثمراً، وكذا لصنف من الطرفاء، إلَّا أنَّ ثمرهما لا يؤكل، ولعلَّ مراد النافي نفي ثمرةٍ تؤكَل، والأطباء يعدُّون ما تخرجه الشجر غيرَ الورق ونحوه ثمرةً، أُكلت أم لا.

ومثله في العطف على ذلك[5] قولُه تعالى: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾.

وحكى الفضيلُ[6] بن إبراهيم أنَّه قُرئ: «أثلاً وشيئاً» بالنصب عطفاً على «جنَّتين».

والسدر: شجر النَّبِق. وقال الأزهريُّ: السدر سدران؛ سدرٌ لا ينتفعُ به ولا يَصلحُ ورقهُ للغَسول، وله ثمرةٌ عفصةٌ لا تؤكل، وهو الذي يسمى الضَّال، وسدرٌ ينبتُ على الماء، وثمره النَّبِق، وورقه غَسولٌ يشبه شجر العنَّاب[7]. انتهى.

---

(١) السمرة، بضمِّ الميم: من شجر الطلح، والجمع سَمُرٌ وسَمُرات. اللسان (سمر).
(٢) في الكشاف ٣/ ٢٨٥.
(٣) في كتابه تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب ١/ ٣٧.
(٤) في حاشيته ٧/ ١٩٨.
(٥) بعدها في (م): في.
(٦) كذا في الأصل و(م). والذي في القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٧١ - وعنه نقل المصنف -: الفضل. ولعله الفضل بن إبراهيم النحوي الكوفي، روى القراءة عن الكسائي، وروى القراءة عنه عبيد الله بن محمد بن أحمد الأملي. غاية النهاية ٢/ ٨.
(٧) تهذيب اللغة ١٢/ ٣٥٣.

واختلف في المراد هنا، فقيل: الثاني، ووصف بـ «قليل» لفظاً ومعنى، أو معنى فقط، وذلك إذا كان نعتاً لـ «شيء» المبيَّن به؛ لأنَّ ثمره ممَّا يطيبُ أكله، فجُعل قليلاً فيما بُدِّلوا به؛ لأنَّه لو كثر كان نعمةً لا نقمة، وإنَّما أوتوه تذكيراً للنِّعم الزائلة؛ لتكون حسرةً عليهم.

وقيل: المراد به الأول حتماً؛ لأنَّه الأنسبُ بالمقام، ولم يذكر نكتة الوصف بالقليل عليه.

ويمكن أن يقال في الوصف به مطلقاً: إنَّ السدر له شأنٌ عند العرب، ولذا نصَّ الله تعالى على وجوده في الجنة، والبستانيُّ منه لا يخفى نفعه، والبريُّ يَستظِلُّ به أبناء السبيل، ويأنسون به، ولهم فيه منافع أخرى، ويُستَأنسُ لعلوِّ شأنه بما أخرجه أبو داود في «سننه»، والضياء في «المختارة»، عن عبد الله بن حُبْشِيٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع سِدْرَةً صوَّبَ اللهُ رأسَه في النار»[1]. وبما أخرجه البيهقيُّ عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه في مرض موته: «اخرج يا عليّ، فقل عن الله لا عن رسول الله: لعنَ الله من يقطعُ السدر»[2].

وفي معناهما عدَّةُ أخبار لها عدَّة طرق، والكلُّ فيما أرى محمولٌ على ما إذا كان القطعُ عبثاً، ولو كان السِّدر في ملكه.

وقيل في ذلك: مخصوصٌ بسدر المدينة، وإنَّما نهي عن قطعه ليكون أنساً وظلّاً لمن يهاجر إليها.

وقيل: بسدر الفلاة ليستظلَّ به أبناء السبيل والحيوان.

---

(١) سنن أبي داود (٥٢٣٩)، والمختارة للضياء ٩/ ٢٣٧، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٨٥٥٧).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ١٤٠-١٤١، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في المصنف (١٩٧٥٧). وهو حديث مرسل، وأبو جعفر هو الباقر محمد بن علي بن الحسين.

وقيل: بسدر مكَّة؛ لأنَّها حرمٌ[1].

وقيل: بما إذا كان في ملك الغير، وكان القطع بغير حقٍّ.

والكلُّ كما ترى، وأيّاً ما كان، ففي التنصيص عليه ما يشيرُ إلى أنَّ له شأناً، فلمَّا ذَكر سبحانه ما آل إليه حالُ أولئك المعرضين، وما بُدِّلوا بجنَّتيهم، أتى جلَّ وعلا بما يتضمَّن الإيذانَ بحقارة ما عُوِّضوا به، وهو ممَّا له شأنٌ عند العرب، أعني السدر وقلَّته، والإيذانُ بالقلَّة ظاهرٌ، وأما الإيذانُ بالحقارة فمن ذكر «شيءٍ»، والعدولِ عن أن يقال: وسدر قليل، مع أنَّه الأخصرُ الأوفق بما قبلَه، ففيه إشارةٌ إلى غاية انعكاس الحال، حيث أومأ الكلام إلى أنَّهم لم يؤتوا بعد إذهاب جنتيهم شيئاً ممَّا لجنسه شأنٌ عند العرب إلَّا السدر، وما أوتوه من هذا الجنس حقيرٌ قليل.

وتسمية البدل جنَّتين مع أنَّه ما سمعت؛ للمشاكلة والتهكُّم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من التبديل، وما فيه من معنى البعد للإشارة إلى بعد رتبته في الفظاعة، أو إلى مصدر قوله تعالى: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾، كما قيل في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] ومحلُّه على الأول النصبُ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ، وعلى الثاني النصبُ على أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ للفعل المذكور.

والتقديم للتعظيم والتهويل، وقيل: للتخصيص، أي: ذلك التبديل جزيناهم لا غيره، أو ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاءً آخر.

﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي: بسبب كفرانهم النعمة، حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضدَّها.

وقيل: بسبب كفرهم بالرسل الثلاثة عشر الذين بعثوا إليهم.

واستشكل هذا مع القول بأنَّ السيل العرم كان زمنَ الفترة؛ بأنَّ الجمهورَ قالوا:

---

(١) وجاء في حديث عبد الله بن حُبْشيّ السالف قريباً في رواية الطبراني في الأوسط (٢٤٤١) زيادة: «يعني من سدر الحرم».
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٨٤: ورجاله ثقات.

لا نبيَّ بين نبيِّنا وعيسى عليهما الصلاة والسلام، ومن الناس من قال: بينهما صلى الله تعالى عليهما وسلم أربعةُ أنبياء؛ ثلاثةٌ من بني إسرائيل، وواحدٌ من العرب، وهو خالد العبسيّ، وهو قد بُعِثَ لقومه، وبنو إسرائيل لم يبعثوا للعرب.

وأجيب بأنَّ ما كان زمنَ الفترة هو السيلُ العرم لا غير، والرسلُ الثلاثة عشر هم جملةُ من كان في قومهم من سبأ بن يشجب إلى أن أهلكهم الله تعالى أجمعين، فتأمَّل ولا تغفُل.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧﴾ أي: ما نجازي مثلَ هذا الجزاء الشديد المستأصِل إلَّا المبالغَ في الكفران، أو الكفر، فلا يتوجَّه على الحصر إشكالُ أنَّ المؤمنَ قد يعاقب في العاجل.

وفي «الكشف»: لا يَرِدُ[1] أنَّ المؤمنَ أيضاً يعاقبُ، فإنَّه ليس بعقابٍ على الحقيقة، بل تمحيصٌ، ولأنَّه أريدَ المعاقبة بجميع ما يفعله من السوء، ولا كذلك للمؤمن، ولا مانع من أن يكونَ الجزاءُ عامّاً في كلِّ مُكَافَأةٍ، وأريد به المعاقبةُ مطلقاً من غير تقييدٍ بما سبق لقرينة: «جزيناهم بما كفروا»؛ لتعيين المعاقبة فيه، بل قال الزمخشريُّ[2]: هو الوجهُ الصحيح، وذلك لعدم الإضمار، ولأنَّ التذييل هكذا آكدُ وأسدُّ موقعاً. ولا يتوجَّه الإشكالُ لما في «الكشف».

وقرأ الجمهورُ: «يُجَازَى» بضمِّ الياء وفتح الزاي مبنيّاً للمفعول، «الكفورُ» بالرفع على النيابة عن الفاعل[3].

وقرئ: «يُجازِي» بضمِّ الياء وكسر الزاي مبنيّاً للفاعل، وهو ضميرُه تعالى وحده، «الكفورَ» بالنصب على المفعوليَّة[4].

---

(١) في (م): لا يراد.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٨٥.

(٣) هي قراءة نافع، وشعبة عن عاصم، وابن عامر، وابن كثير، وأبي عمرو، وأبي جعفر. انظر التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٩ ونقل عن أبي حاتم نسبتها لقتادة وابن وثاب والنخعي.

وقرأ مسلم بن جندب: «يُجْزَى» مبنياً للمفعول، «الكفورُ» بالرفع على النيابة[١].

والمُجَازاة ـ على ما سمعتَ عن الزمخشريِّ ـ المكافأة، لكن قال الخفاجيُّ: لم تَرِد في القرآن إلَّا مع العقاب، بخلاف الجزاء، فإنَّه عامٌّ، وقد يخصُّ بالخير[٢].

وعن أبي إسحاق[٣]: تقول: جزيتُ الرجل في الخير، وجازيته في الشرِّ. وفي معناه قول مجاهد: يقال في العقوبة: يُجَازَى، وفي المثوبة: يُجْزَى.

وقال بعضُ الأجلَّة: ينبغي أن يكون أبو إسحاق قد أراد أنَّك اذا أرسلتَ الفعلين ولم تُعدِّهما إلى المفعول الثاني كانا كذلك، وأمَّا إذا ذكرته، فيستعملُ كلٌّ منهما في الخير والشر.

ويَرِدُ على ما ذكر «جزيناهم بما كفروا»، وكذا: «وهل يُجْزَى» في قراءة مسلم، إذ الجزاء في ذلك مستعملٌ في الشرِّ مع عدم ذكر المفعول الثاني، وقوله:

جَزى بنوه أبَا الغيلان عن كبرٍ وحسنِ فعلٍ كما يُجْزَى سِنِمَّارُ[٤]

وقال الراغب: يقال: جزيته وجازيته، ولم يجئ في القرآن إلَّا جزى دون جازى، وذلك لأنَّ المجازاةَ المكافأة، وهي مقابلةُ نعمةٍ بنعمة هي كفؤها، ونعمةُ الله عزَّ وجلَّ تتعالى عن ذلك، ولهذا لا يستعملُ لفظ المكافأة فيه سبحانه وتعالى[٥].

وفيه غفلةٌ عمَّا هنا، إلَّا أنْ يقال: أراد أنَّه لم يجئ في القرآن «جازى» فيما هو نعمةٌ مسنداً إليه تعالى، فإنَّه لم يخطر لي مجيءُ ذلك فيه، والله تعالى أعلم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢١، والمحتسب ٢/ ١٨٨، والبحر المحيط ٧/ ٢٧١.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٩٨.

(٣) هو الزجاج، وكلامه في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٥.

(٤) نسبه الأصفهاني في الأغاني ٢/ ١٤٥ لسليط بن سعد. وانظر خزانة الأدب ١/ ٢٩٣. وهو من شواهد ابن عقيل، الشاهد ١٥٣.

(٥) المفردات (جزى).

ويحسنُ عندي قول أبي حيان: أكثرُ ما يُستعمل الجزاء في الخير والمجازاةُ في الشرّ، لكن في تقييدهما قد يقع كلٌّ منهما موقعَ الآخر(١).

وفي قوله سبحانه: «جزيناهم بما كفروا» دون: جازيناهم بما كفروا، على الوجه الثاني في اسم الإشارة ما يحكي تمتُّعَ القوم بما يسرُّ، ووقوعَهم بعده فيما يسيء ويضرّ. ويمكن أن تكونَ نكتةُ التعبير بـ «جزى» الأكثر استعمالاً في الخير، ويجوز أنْ يكون التعبيرُ بذاك أولاً، وبـ «نجازي» ثانياً؛ ليكون كلٌّ أوفقَ بعلَّته، وهذا جارٍ على كلا الوجهين في الإشارة، فتدبَّر جدّاً.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾ إلى آخره، عطفٌ بمجموعه على مجموع ما قبله عطفَ القصَّة على القصَّة، وهو حكايةٌ لما أوتوا من النعم في مسايرهم ومتاجرهم، وما فعلُوا بها من الكفران، وما حاقَ بهم بسبب ذلك، وما قبلُ كان حكايةً لما أوتوا من النعم في مساكنهم ومحلِّ إقامتِهم، وما فَعلوا بها، وما فُعِلَ بهم.

والمراد بالقرى التي بورك فيها قرى الشام، وذلك بكثرة أشجارها وأثمارها، والتوسعة على أهلها.

وعن ابن عباس: هي قرى بيت المقدس.

وعن مجاهد: هي السَّراوية(٢).

وعن وهب: قرى صنعاء.

وقال ابن جبير: قرى مأرب.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٧١.

(٢) كذا في الأصل و(م). ووقع في مطبوع تفسير مجاهد ٢/ ٢٢٥: الشراة، وفي البحر المحيط ٧/ ٢٧١: السرواي، وفي تفسير الطبري ١٩/ ٢٦٢: السروات. ولعلها الصواب، فالطبري رحمه الله أوردها في سياق تفسيره «قرى ظاهرة» بـ: قرى عربية. والسراة كما في القاموس (سرى): أعلى كل شيء، وسراة مضافة إلى بَجيلة، وزهران، وعنز، والحجر.... مواضع معروفة.

والمعوَّل عليه الأول، حتى قال ابن عطية: إنَّ إجماعَ المفسِّرين عليه[1].

ومعنى «ظاهرة» على ما روي عن قتادة: متواصلة يقرب بعضها من بعض، بحيث يظهر لمن في بعضها ما في مقابلته من الأخرى، وهذا يقتضي القرب الشديد، لكن سيأتي قريباً إنْ شاء الله تعالى ما قيل في مقدار ما بين كلِّ قريتين.

وقال المبرِّد: «ظاهرة»: مرتفعة، أي: على الآكام والظِّراب، وهي أشرفُ القرى.

وقيل: «ظاهرة»: معروفة، يقال: هذا أمرٌ ظاهر، أي: معروف، وتعرف القرية لحسنها، ورعايةِ أهلها المارينَ عليها.

وقيل: «ظاهرة»: موضوعة على الطرق؛ ليسهل سيرُ السابلة فيها.

وقال ابن عطية: الذي يظهر لي أنَّ معنى «ظاهرة»: خارجة عن المدن، فهي عبارةٌ عن القرى الصغار التي في ظواهر المدن.

كأنَّه فصل بهذه الصفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي المدن.

وظواهر المدن ما خرج عنها في الفيافي، ومنه قولهم: نزلنا بظاهر البلد الفلاني، أي: خارجاً عنه، ومنه قول الشاعر:

فلو شهدتني من قريشٍ عصابةٌ قريشِ البطاح لا قريشِ الظواهِرِ[2]

يعني الخارجين[3] من بطحاء مكة.

ويقال للساكنين خارج البلد: أهل الضواحي، وأهل البوادي أيضاً.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلنا نسبةَ بعضها إلى بعضٍ على مقدارٍ معيَّنٍ من السير، قيل: مَنْ سار من قريةٍ صباحاً وصلَ إلى أخرى وقتَ الظهيرة والقيلولة،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٥.

(٢) هو لذكوان مولى عمر بن الخطاب كما في الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٧١، وتاريخ دمشق ٧/ ٣٢٢، والوافي بالوفيات ١٤/ ٤١.

(٣) في (م): يعني أن الخارجين، والمثبت من الأصل والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦.

ومَنْ سارَ بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب، فلا يحتاج لحمل زادٍ، ولا مبيتٍ في أرضٍ خاليةٍ، ولا يخافُ من عدوٍّ ونحوه.

وقيل: كان بين كلِّ قريتين ميل.

وقال الضحاك: مقادير المراحل، كانت القرى على مقاديرها، وهذا هو الأوفق بمعنى «ظاهرة» على ما سمعت عن قتادة، وكذا بقوله سبحانه: ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ فإنَّه مؤذِنٌ بشدَّة القرب، حتى كأنَّهم لم يخرجوا من نفس القرى.

والظاهر أن «سيروا» أمرٌ منه عزَّ وجلَّ على لسان نبيٍّ أو نحوه، وهو بتقدير القول، أي: قلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي: متى شئتم من ليل ونهار ﴿ءَامِنِينَ ۝١٨﴾ من كلِّ ما تكرهونَه لا يختلفُ الأمنُ فيها باختلاف الأوقات.

وقدَّم الليالي لأنها مظنَّةُ الخوف من مغتال، وإن قيل: الليل أخفى للويل[١]، أو لأنَّها سابقةٌ على الأيام.

أو قلنا: سيروا فيها آمنين، وإن تطاولت مدَّةُ سفركم وامتدَّت لياليَ وأياماً كثيرة؛ قال قتادة: كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان، ولو وَجَدَ الرجلُ قاتل أبيه لم يَهِجْهُ.

أو: سيروا فيها لياليكم وأيَّامكم، أي: مدَّة أعماركم، لا تلقونَ فيها إلَّا الأمن، وقُدِّمت الليالي لسبقها.

وأيَّاما كان، فقد علم فائدةُ ذكر الليالي والأيام، وإن كان السيرُ لا يخلو عنهما.

وجُوِّزَ أن لا يكون هناك قولٌ حقيقةً، وإنَّما نُزِّل تمكينُهم من السير المذكور وتسوية مباديه وأسبابه منزلةَ القول لهم وأمرِهم بذلك، والأمر على الوجهين للإباحة.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ لمَّا طالت بهم مدَّة النعمة بَطروا، وملُّوا، وآثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير، كما فعل بنو إسرائيل، وقالوا: لو كانت متاجرنا أبعدَ كان ما نجلبه منها أشهى وأغلى، فطلبوا تبديلَ اتصال العمران، وفصلَ

---

(١) مجمع الأمثال ٢/ ١٩٣.

المفاوز والقفار، وفي ضمن ذلك إظهارُ القادرين منهم على قطعها بركوب الرواحل وتزوُّد الأزواد الفخرَ والكِبْرَ على الفقراء العاجزين عن ذلك، فعجَّل الله تعالى لهم الإجابة بتخريب القرى المتوسِّطة، وجعلها بَلْقَعاً لا يُسمع فيها داعٍ ولا مجيب.

والظاهر أنَّهم قالوا ذلك بلسان القال، وجَوَّزَ الإمام أن يكونوا قالوا: «باعِد» بلسان الحال، أي: فلمَّا كفروا فقد طلبوا أن يبعد بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم(١).

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام: «بَعِّد» بتشديد العين فعل طلب(٢).

وابن عباس وابن الحنفيَّة وعمرو بن فائد(٣): «ربُّنا» رفعاً، «بَعَّدَ» بالتشديد فعلاً ماضياً(٤).

وابن عباس وابن الحنفيَّة أيضاً وأبو رجاء والحسن ويعقوب وزيد بن عليّ وأبو صالح وابن أبي ليلى والكلبيّ ومحمد بن عليّ وسلام وأبو حيوة: «ربُّنا» رفعاً، و«باعد» طلباً من المفاعلة(٥).

وابن الحنفية أيضاً وسعيد بن أبي الحسن ـ أخو الحسن ـ وسفيان بن حسين وابن السميفع: «ربَّنا» بالنصب «بَعُدَ» بضمِّ العين فعلاً ماضياً، «بينَ» بالنصب، إلَّا سعيداً منهم فإنَّه يضمُّ النون، ويجعلُ «بينُ» فاعلاً(٦)، ومَن نَصَبَ فالفاعل عنده ضميرٌ يعود على «السير».

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٣) في الأصل و(م): قائد، والمثبت هو الصواب.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٢. وزاد ابن جني وابن عطية نسبتها لابن يعمر.

(٥) كذا ذكر المصنف، والصواب أن «باعد» على هذه القراءة فعلٌ ماضٍ مفتوح العين. كما في النشر ٢/ ٣٥٠ عن يعقوب. ومثله في المحتسب ٢/ ١٨٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، والبحر ٧/ ٢٧٢-٢٧٣، كما أن المصنف نفسه سيذكر قريباً أن مَن رفع «ربنا» لا يكون الفعل عنده إلا ماضياً.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٣.

ومن نصبَ «ربَّنا» جعله منادى، فإنْ جاء بعده طلبٌ كان ذلك أشَراً وبَطَراً، وفاعِلْ بمعنى فَعِّلْ، وإن جاءَ فعلاً ماضياً كان ذلك شكوى من مسافة ما بين قراهم مع قصرها؛ لتجاوزهم في الترفُّه والتنعُّم، أو شكوى ممَّا حلَّ بهم من بُعْدِ الأسفار التي طلبوها بعدَ وقوعها، أو دعاءً بلفظ الخبر.

ومَن رفع «ربُّنا» فلا يكون الفعل عنده إلَّا ماضياً، والجملة خبريَّةٌ متضمِّنةٌ للشكوى، على ما قيل.

ونصبُ «بين» بعد كلِّ فعلٍ متعدٍّ في إحدى القراءات ماضياً كان أو طلباً ـ عند أبي حيان[١] ـ على أنَّه مفعولٌ به، وأيَّدَ ذلك بقراءة الرفع، أو على الظرفيَّة، والفعلُ منزَّل منزلةَ اللازم، أو متعدٍّ مفعولُه محذوف، أي: السير، وهو أسهلُ من إخراج الظرف الغيرِ المتصرِّف عن ظرفيته.

وقرئ: «بوعد» مبنيًّا للمفعول[٢]. وقرأ ابن يعمر: «سفرنا» بالإفراد[٣].

﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث عرَّضوها للسخط والعذاب، حين بطروا النعمة وغمطوها.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمع: أحدوثة، وهي ما يُتَحدَّث به على سبيل التلهِّي والاستغراب، لا جمع حديث على خلاف القياس.

وجعلهم نفسَ الأحاديث؛ إمَّا على المبالغة، أو تقدير المضاف، أي: جعلناهم بحيث[٤] يتحدَّثُ الناس بهم، متعجِّبين من أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم.

وقيل: المراد: لم يبق منهم إلَّا الحديثُ عنهم، ولو بقيَ منهم طائفةٌ لم يكونوا أحاديث.

---

(١) في البحر ٧/ ٢٧٣.
(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٨١ عن أبي معاذ.
(٣) القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٣.
(٤) في (م): بحديث.

﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرَّقناهم كلَّ تفريق، على أن الممزَّق مصدر، أو: كلَّ مطَّرح ومكان تفريق، على أنَّه اسم مكان.

وفي التعبير بالتمزيق الخاصِّ بتفريق المتَّصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالةِ على شدة التأثير والإيلام ما لا يخفى، أي: مزَّقناهم تمزيقاً لا غايةَ وراءه، بحيث يُضْرَب مثلاً في كلِّ فُرقةٍ ليس بعدها وصال.

وعن ابن سلام أنَّ المراد: جعلناهم تراباً تذروه الرياح. وهو أوفق بالتمزيق، إلَّا أنَّ جميعَ أجلَّة المفسرين على خلافه، وأنَّ المراد بتمزيقهم تفريقهم بالتباعد. وقد تقدَّم لك غيرَ بعيد حديثُ كيفية تفرُّقهم في جواب رسول الله ﷺ لفروة بن مسيك.

وفي «الكشاف»[1]: لحقَ غسان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان.

وفي «التحرير»: وقع منهم قضاعة بمكَّة، وأسد بالبحرين، وخزاعة بتهامة.

وظاهرُ الآية أنَّ ذلك كان بعد إرسال السيل العرم، وفي «البحر»: أنَّ في الحديث أنَّ سبأ أبو عشرة قبائل، فلمَّا جاء السيل على مأرب تيامن منها ستةُ قبائل، وتشاءمت أربعة[2].

وزعم بعضُهم أنَّ تفرُّقَهم كان قبيل مجيء السيل.

قال عبد الملك في «شرح قصيدة ابن عبدون»: إنَّ أرض سبأ من اليمن كانت العمارةُ فيها أزيد من مسيرة شهرين للراكبِ المُجِدِّ، وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعضٍ مسيرةَ أربعة أشهر، فمزِّقوا كلَّ ممزَّقٍ، وكان أول من خرج من اليمن في أول الأمر عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا[3]، وكان سبب خروجه أنَّه كانت له زوجةٌ كاهنةٌ يقال لها: طريفة الخير، وكانت رأت في منامها أنَّ سحابةً غشيت

(١) ٣/ ٢٨٦.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٧٣. وهو حديث فروة بن مسيك السالف.
(٣) ولقِّب عمرو بذلك لأنه كان يلبسُ كلَّ يوم حلتين ويمزقهما بالعشيِّ، يكره العود فيهما، ويأنف أن يلبسهما غيره. القاموس (مزق).

أرضَهم، فأرعدت وأبرقت، ثمَّ صَعَقت فأحرقت كلَّ ما وقعت عليه، ففزعت طريفةُ لذلك فزعاً شديداً، وأتت الملك عَمْراً وهي تقول: ما رأيت كاليوم أزال عني النوم، رأيتُ غيماً أرعدَ وأبرقَ، وزمجرَ وأصعقَ، فما وقع على شيءٍ إلَّا أحرقَ. فلما رأى ما داخَلَها من الفزع سكَّنها، ثمَّ إن عَمْراً دخل على حديقةٍ له ومعه جاريتان من جواريه، فبلغ ذلك طريفة، فخرجت إليه، وخرجَ معها وصيفٌ لها اسمه سنان، فلمَّا برزت من بيتها عرض لها ثلاث مَنَاجد منتصباتٍ على أرجلهنَّ، واضعاتٍ أيديهنَّ على أعينهنَّ - وهي دوابُّ تشبه اليرابيع - فقعدت إلى الأرض واضعةً يديها على عينيها، وقالت لوصيفها: إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرني، فلمَّا ذهبت أخبرها فانطلقت مسرعةً، فلمَّا عارضها الخليج الذي في حديقة عمرو وَثَبَتْ من الماء سلحفاةٌ فوقعت على الطريق على ظهرها، وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع، وتستعينُ بذنبها، فتحثو التراب على بطنها من جنباته، وتقذفُ بالبول على بطنها قذفاً، فلمَّا رأتها طريفة جلست إلى الأرض، فلمَّا عادت السلحفاة إلى الماء مضت طريفة إلى أن دخلت على عمرو، وذلك حين انتصف النهار، في ساعة شديدٍ حرُّها، فإذا الشجرُ يتكافأ[1] من غير ريح، فلمَّا رآها استحيى منها، وأمر الجاريتين بالانصراف إلى ناحية، ثم قال لها: يا طريفة، فكهنت وقالت: والنورِ والظلماءِ والأرضِ والسماءِ إنَّ الشجر لهالكٌ، وليعودنَّ الماء كما كان في الزمن السالك. قال عمرو: من أخبركِ بهذا؟ قالت: أخبرتني المناجد بسنين شدائد، يقطع فيها الولد الوالد. قال: ما تقولين؟ قالت: أقول قولَ الندمان لهيفاً، لقد رأيتُ سلحفاة تجرفُ الترابَ جرفاً، وتقذفُ بالبول قذفاً، فدخلْتُ الحديقةَ، فإذا الشجرُ من غير ريحٍ يتكفَّأ. قال: ما ترين في ذلك؟ قالت: هي داهيةٌ دهياء من أمورٍ جسيمةٍ ومصايب عظيمة. قال: وما هو، ويلك؟ قالت: أجل، وإنَّ فيه الويل، وما لك فيه من نيل، وإنَّ الويلَ فيما يجيء به السيل. فألقي عمرو عن فراشه وقال: ما هذا يا طريفة؟ قالت: خطبٌ جليلٌ، وحزنٌ طويلٌ، وخلف قليل. قال:

---

(١) كذا في الأصل و(م). وفي مروج الذهب ٣/ ٣٨٠: يتكفَّأ. ولعلها الصواب كما ستأتي قريباً.

وما علامةُ ما تذكرين؟ قالت: اذهب إلى السدِّ، فإذا رأيت جُرَذاً يُكثر بيديه في السدِّ الحفرَ، ويقلبُ برجليه من أَجَلِّ الصخر[1]، فاعلم أنَّ الغمر غمر، وأنَّه قد وقع الأمر. قال: وما الذي تذكرين؟ قالت: وعدٌ من الله تعالى نزل، وباطلٌ بطلَ، ونكالٌ بنا نكلَ، فبغيرك يا عمرو يكون الثَّكَل. فانطلق عمرو، فإذا الجُرَذ يقلبُ برجليه صخرةً ما يقلُّها خمسونَ رجلاً، فرجع وهو يقول:

أبصرتُ أمراً عادني منه أَلَمْ
وهاجَ لي من هوله بَرْحُ السَّقَمْ
من جُرَذٍ كفحل خنزير الأَجَمْ
أو كبش صرم من أفاويق الغَنَمْ
يسحبُ قطراً من جلاميد العَرَمْ
له مخاليبٌ وأنيابٌ قضمْ
ما فاته سحلاً من الصخر قَصَمْ

فقالت طريفة: وإنَّ من علامة ذلك الذي ذكرتُه لك أنْ تجلسَ فتأمر بزجاجةٍ، فتوضع بين يديك، فإنَّ الريحَ يملؤها من تراب البطحاء من سهل الوادي وحَزْنِه، وقد علمتَ أنَّ الجنان مظلَّلة لا يدخلها شمسٌ ولا ريح، فأمر عمرو بزجاجةٍ فوضعت بين يديه، ولم تمكث إلَّا قليلاً حتى امتلأت من التراب، فأخبرها بذلك، وقال لها: متى يكون ذلك الخراب الذي يحدث في السَّدِّ؟ قالت له: فيما بيني وبينك سبع سنين. قال: ففي أيِّها يكون؟ قالت: لا يعلم بذلك إلَّا الله تعالى، ولو علمه أحد لعلمتُه، وإنَّه لا تأتي عليَّ ليلةٌ فيما بيني وبين السبع سنين إلَّا ظننتُ هلاكه في غدها أو في مسائها.

ثم رأى عمرو في منامه سيلَ العرم. وقيل له: إنَّ آية ذلك أنْ ترى الحصباء قد ظهرت في سعف النخل، فنظر إليها فوجدَ الحصباء قد ظهرت فيها، فعلم أنَّه واقعٌ،

---

(١) في مروج الذهب ٣/ ٣٨٢: من الجبل الصخر.

وأنَّ بلادهم ستخرب، فكتم ذلك، وأجمع على بيع كلِّ شيءٍ له بأرض مأرب، وأن يخرج منها هو وولده، ثمَّ خشي أن تنكرَ الناسُ عليه ذلك، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه إليه أن يتأبَّى عليه، وأن يفعل ذلك به في الملأ من الناس، وإذا لطمه، يرفع هو يده ويلطمه، ثمَّ صنع عمرٌو طعاماً، وبعث إلى أهل مأرب أنَّ عَمْراً قد صنع طعاماً يوم مجد وذكر، فاحضُروا طعامه، فلمَّا جلس الناس للطعام، جلس عنده ابنُه الذي أمرَه بما قد أمره، فجعل يأمره فيتأبَّى عليه، فرفع عمرو يده فلطمَه، فلطمه ابنُه، وكان اسمه: مالكاً، فصاح عمرو: واذلَّاه، يوم فخر عمرو وبهجته صبيٌّ يضربُ وجهَه، وحلفَ ليقتلنَّه، فلم يزالوا يرغبون إليه حتى ترك، وقال: والله لا أقيم بموضعٍ صُنع فيه بي هذا، ولأبيعنَّ أموالي حتى لا يرثَ بعدي منها شيئاً، فقال الناس: بعضهم لبعض اغتنموا غيظَ عمرو واشتروا منه أموالَه قبل أنْ يرضى، فابتاعَ الناسُ منه كلَّ ماله بأرض مأرب، وفشا بعضُ حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم، فقام ناسٌ من الأزد، فباعوا أموالهم، فلما أكثروا البيعَ استنكر الناس ذلك، فأمسكوا عن الشراء، فلما اجتمعت إلى عمرو أموالهُ أخبرَ الناس بشأن السيل وخرج، فخرج لخروجه منها بشرٌ كثيرٌ، فنزلوا أرضَ عكٍّ، فحاربتهم عكٌّ، فارتحلوا عن بلادهم، ثم اصطلحوا، وبقوا بها حتى مات عمرو، وتفرقوا في البلاد، فمنهم من سار إلى الشام، وهم أولاد جفنة بن عمرو بن عامر، ومنهم من سار إلى يثرب، وهم أبناء قيلة الأوس والخزرج، وأبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، وسارت أزد السراة إلى السراة، وأزد عُمان إلى عُمان، وسار مالك بن فهم إلى العراق، ثم خرجت بعد عمرو بيسير من أرض اليمن طيِّئ، فنزلت أجأ وسلمى، ونزلت أبناء ربيعة بن حارثة بن عامر بن عمرو تهامة، وسُمُّوا خزاعة؛ لانخزاعهم من إخوانهم، ثم أرسل الله تعالى على السدِّ السيلَ فهدمه، وفي ذلك يقول ميمون بن قيس الأعشى[1]:

وفي ذاك للمؤتسي أسوةٌ ومأربُ عفَّا[2] عليها العرمْ

---

(١) ديوانه ص٩٣.

(٢) في الديوان: قفَّى.

رخامٌ بَنَتْهُ لهم حميرٌ إذا جاء موَّاره[١] لم يَرِمْ
فأروى الزروع وأعنابها على سَعَةٍ ماؤهم إذ قُسِمْ
فصاروا أيادي ما يقدرو ن منه على شرب طفل فُطِمْ[٢]

وذكر الميداني عن الكلبيِّ عن أبي صالح أنَّ طريفةَ الكاهنة قد رأت في كهانتها أنَّ سدَّ مأرب سيخرب، وأنَّه سيأتي سيلُ العرم فيخرب الجنتين، فباع عمرو بن عامر أموالَه، وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكَّة، فأقاموا بها وبما حولها، فأصابتهم الحُمَّى، وكانوا ببلدٍ لا يدرون فيه ما الحمَّى، فدعوا طريفة فشكوا إليها الذي أصابَهم، فقالت لهم: قد أصابني الذي تَشْكُون، وهو مفرِّقٌ بيننا. قالوا: فماذا تأمرين؟ قالت: من كان منكم ذا همٍّ بعيدٍ وجملٍ شديد ومزادٍ جديد، فليلحق بقصر عُمان المشيد. فكانت أزد عمان، ثم قالت: من كان منكم ذا جَلَدٍ وقسر، وصبر على أزمات الدهر، فعليه بالأراك من بطن مر، فكانت خزاعة. ثم قالت: من كان منكم يريدُ الراسيات في الوحل، المطعمات في المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل. فكانت الأوس والخزرج. ثم قالت: من كان منكم يريدُ الخمر والخمير، والملك والتأسير[٣]، ويلبس الديباج والحرير، فليلحق ببصرى وغوير. وهما من أرض الشام، فكان الذين سكنوها آل جفنة من غسان، ثم قالت: من كان منكم يريدُ الثياب الرقاق، والخيل العتاق، وكنوز الأرزاق، والدم المهراق، فليلحق بأرض العراق، فكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش، ومن كان بالحيرة، وآل محرق[٤].

والحقُّ أنَّ تمزيقَهم وتفريقَهم في البلاد كان بعد إرسال السيل، نعم لا يبعدُ خروجُ بعضهم قبيله حين استشعروا وقوعَه، وفي المثل: ذهبوا أيدي سبا، ويقال:

---

(١) في الديوان: جاءه ماؤهم.
(٢) الشطر الأول كما جاءت روايته في الديوان:
فطاروا سراعاً وما يقدرو
(٣) في مجمع الأمثال للميداني: والتأمير.
(٤) مجمع الأمثال ١/ ٢٧٦-٢٧٧.

تفرَّقوا أيدي سبا، ويروى: أيادي، وهو بمعنى الأولاد؛ لأنَّهم أعضاد الرجل لتَقَوِّيه بهم.

وفي «المفصَّل» أنَّ الأيديَ الأنفسُ كنايةً أو مجازاً. قال في «الكشف»: وهو حسنٌ، ونصبُه على الحاليَّة بتقدير: مثل؛ لاقتضاء المعنى إيَّاه، مع عدم تعرُّفه بالإضافة.

وقيل: إنَّه بمعنى البلاد أو الطرق من قولهم: خذ يد البحر، أي: طريقه وجانبه، أي: تفرَّقوا في طرقٍ شتى.

والظاهر أنَّه على هذا منصوبٌ على الظرفيَّة بدون تقدير «في» كما أشار إليه الفاضلُ اليمني، وربَّما يُظَنَّ أن الأيدي أو الأيادي بمعنى النعم، وليس كذلك، ويقال في الشخص إذا كان مشتَّت الهمِّ موزَّعَ الخاطرِ: كان أياديَ سبا، وعليه قول كُثَيِّر عزَّة:

أيادي سبا يا عزُّ ما كنت بعدكم ... فلم يَحْلُ بالعينين بعدك منظر[1]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من قصتهم ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: شأنه الصبر على الشهوات ودواعي الهوى وعلى مشاقِّ الطاعات، وقيل: شأنُه الصبر على النعم، بأن لا يبطرَ ولا يطغى. وليس بذاك.

﴿شَكُورٍ ۝١٩﴾ شأنه الشكر على النعم. وتخصيص هؤلاء بذلك؛ لأنهم المنتفعون بها.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي: حقَّق عليهم ظنَّه، أو وجد ظنَّه صادقاً.

والظاهر أن ضمير «عليهم» عائد على سبأ، ومنشأ ظنِّه رؤيةُ انهماكِهم في الشهوات.

وقيل: هو لبني آدم، ومنشأ ظنِّه أنَّه شاهدَ أباهم آدم عليه السلام، وهو قد أصغى إلى وسوسته، فقاس الفرع على الأصل، والولد على الوالد.

وقيل: إنَّه أدرك ما رُكِّب فيهم من الشهوة والغضب، وهما منشئان للشرور.

---

(١) ديوان كثير ص١٥٠.

وقيل: إنَّ ذاك كان ناشئاً من سماع قول الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ يوم قال سبحانه لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ويمكن أن يكون منشأ ذلك ما هو عليه من السوء كما قيل:

إذا ساء فعلُ المرء ساءتْ ظنونُه   وصدَّق ما يعتادُهُ من توهُّم[١]

وجُوِّز أن يكون كلُّ ما ذكر منشأً لظنِّه في سبأ.

والكلامُ على الوجه الأول في الضمير ـ على ما قال الطيبيُّ ـ تتمَّةٌ لسابقه، إمَّا حالاً أو عطفاً، وعلى الثاني هو كالتذييل تأكيداً له.

وقرأ البصريون[٢]: «صَدَق» بالتخفيف، فنصب «ظنَّه» على إسقاط حرف الجرِّ، والأصل: صدق في ظنِّه، أي: وجدَ ظنَّه مصيباً في الواقع، فصدق حينئذٍ بمعنى أصاب مجازاً.

وقيل: هو منصوبٌ على أنَّه مصدرٌ لفعل مقدَّر، أي: يظنُّ ظنَّه، كـ: فَعَلْتَه جهدَك، أي: تَجْهَدُ جهدَك، والجملة في موقع الحال، و«صدق» مفسَّرٌ بما مرَّ.

ويجوزُ أن يكون منصوباً على أنَّه مفعولٌ به، والفعلُ متعدٍّ إليه بنفسه؛ لأنَّ الصدقَ أصلُه في الأقوال، والقولُ ممَّا يتعدَّى إلى المفعول به بنفسه، والمعنى: حقَّق ظنَّه، كما في الحديث: «صَدَقَ وَعْدَه ونَصَرَ عَبْدَه»[٣]، وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقرأ زيد بن علي وجعفرُ بن محمد رضي الله عنهما، والزهريُّ، وأبو الجهجاه[٤] الأعرابيُّ من

---

(١) البيت للمتنبي وهو في ديوانه ٤/ ٢٦٤.

(٢) أبو عمرو ويعقوب. وقرأ بها أيضاً نافع وأبو جعفر المدنيان، وابن عامر الشامي، وابن كثير المكي. انظر التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٣) ورد هذا اللفظ في عدة أحاديث، منها حديث ابن عمر عند النسائي ٨/ ٤٢، وابن ماجه (٢٦٢٨). وحديث عبد الله بن عمرو عند أبي داود (٤٥٤٧).

(٤) كذا ذكر المصنف تبعاً لأبي حيان في البحر ٧/ ٢٧٣. ووقع في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٣، =

فصحاء العرب، وبلال بن أبي برزة بنصب «إبليس» ورفع «ظنه»، كذا في البحر[(١)].

والظاهر أنَّ ذلك مع قراءة «صدَّق» بالتشديد، أي: وجده ظنُّه صادقاً، لكن ذكر ابنُ جنّي[(٢)] أنَّ الزهريَّ كان يقرأ ذلك مع تخفيف «صدق» أي: قال له الصِّدقَ حين خَيَّلَ له إغواءَهم[(٣)].

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «إبليسُ ظنُّه» برفعهما[(٤)]، بجعل الثاني بدل اشتمال، وأبهم الزمخشريُّ القارئَ بذلك فقال: قُرئ بالتخفيف ورَفْعِهما، على معنى: صَدَق عليهم ظنُّ إبليس، ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في «صدق»، كقوله:

فدت نفسي وما ملكت يميني فوارسَ صدَّقت فيهم ظنوني[(٥)]

وهو ظاهرٌ في أنَّه لم يقرأ أحدٌ بذلك، والله تعالى أعلم.

وعلى جميع القراءات «عليهم» متعلِّقٌ بالفعل السابق، وليس متعلِّقاً بالظنِّ على شيء منها.

﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ أي: سبأ، وقيل: بنو آدم ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ أي: إلَّا فريقاً هم المؤمنون لم يتَّبعوه، على أن «مِن» بيانيَّة، وتقليلهم إمَّا لقلَّتهم في حدِّ ذاتهم، أو لقلَّتهم بالإضافة إلى الكفار، وهذا متعيِّنٌ على القول برجوع الضمير إلى بني آدم.

وكأنِّي بك تختارُ كون القلَّة في حدِّ ذاتهم على القول برجوع الضمير إلى سبأ؛ لعدم شيوع كثرة المؤمنين في حدِّ ذاتهم منهم.

= ومعاني القرآن ٥/ ٤١٣ ـ كلاهما للنحاس ـ والقراءات الشاذة ص١٢١، والمحتسب ٢/ ١٩١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٣: أبو الهجهاج.

(١) ٧/ ٢٧٣.

(٢) في المحتسب ٢/ ١٩١.

(٣) في الأصل: إغوائهم، وفي (م): إغواؤهم، والمثبت هو الصواب، وهو منصوب على المفعولية، وفاعل «خيَّل» ضمير يعود على الظن. حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٠.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٧٣.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٨٦، والبيت لأبي الغول الطُّهوي كما في حماسة أبي تمام ١/ ٣٨ (بشرح المرزوقي)، وكتاب الحيوان للجاحظ ٣/ ١٠٦، والأمالي ١/ ٢٦٠، وخزانة الأدب ٦/ ٤٣٤.

أو: إلَّا فريقاً من فرق المؤمنين لم يتَّبعوه، وهم المخلصون، ف «من» تبعيضيَّة، والمراد مطلقُ الاتِّباع الذي هو أعمُّ من الكفر.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: تسلُّطٍ واستيلاء بالوسوسة والاستغواء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ العلل، و«مَنْ» موصولة، وجَعْلُها استفهاميَّةً بعيدٌ. والعلمُ المستقبل المعلَّل ليس هو العلم الأزليَّ القائم بالذات المقدَّسة، بل تعلُّقه بالمعلوم في عالم الشهادة الذي يترتَّب عليه الجزاء بالثواب والعقاب، وهو مضمَّنٌ معنى التميُّز لمكان «من»، أي: ما كان له عليهم تسلُّطٌ لأمرٍ من الأمور، إلَّا لتعلُّقِ علمنا بـ «من يؤمنُ بالآخرة» متميِّزاً «ممَّن هو منها في شك» تعلُّقاً حاليًّا يترتَّبُ عليه الجزاء، وإلى هذا يشيرُ كلام كثير من أئمَّة التفسير.

وقيل: المعنى: لنجعل المؤمن متميِّزاً من غيره في الخارج، فيتميَّز عند الناس.

وقيل: المراد من وقوع العلم في المستقبل وقوعُ المعلوم؛ لأنَّه لازمُه، فكأنَّه قيل: ما كان ذلك لأمرٍ من الأمور إلَّا ليؤمنَ مَن قُدِّرَ إيمانُه، ويضلَّ مَن قُدِّرَ ضلاله، وعَدَل عنه إلى ما في النظم الجليل للمبالغة؛ لما فيه من جُعْلِ المعلوم عينَ العلم.

وقيل: المراد بالعلم الجزاء، فكأنَّه قيل: [لنجزيَ][1] على الإيمان وضدِّه.

وقيل: العلم على ظاهره، إلَّا أنَّ المستقبل بمعنى الماضي، وعِلْمُ الله تعالى الأزليُّ بأهل الشكِّ يستدعي تسلُّطَ الشيطان عليهم.

وقيل: المراد: لنعامِل معاملة من كأنَّه لا يعلم ذلك، وإنَّما يُعمل ليَعلم.

وقيل: المراد: ليعلم أولياؤنا وحزبنا ذلك.

ولا يخفى عليك ما في بعض هذه الأقوال.

وكان الظاهر: إلَّا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممَّن لا يؤمن بها، وعدل عنه إلى ما في النظم الجليل لنكتةٍ، وهي أنَّه قوبل الإيمانُ بالشكِّ؛ ليؤذنَ بأنَّ أدنى مراتب الكفر مهلكة، وأوردَ المضارعَ في الجملة الأولى إشارةً إلى أنَّ المعتبر في الإيمان

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٠، والكلام فيه بنحوه.

الخاتمة، ولأنَّه يحصلُ بنظرٍ تدريجيٍّ متجدِّدٍ، وأتى بالثانية اسميَّةً إشارةً إلى أنَّ المعتبرَ الدوامُ والثبات على الشكِّ إلى الموت. ونَوَّنَ شكّاً للتقليل، وأتى بـ «في» إشارةً إلى أنَّ قليلَه كأنَّه محيطٌ بصاحبه، وعدَّاه بـ «من» دون «في» وقدَّمه؛ لأنَّه إنَّما يضرُّ الشكُّ الناشئُ منها، وأنَّه يكفي شكٌّ مّا فيما يتعلَّقُ بها.

وقرأ الزهريُّ: «ليُعْلَم» بضمِّ الياء وفتح اللام مبنيّاً للمفعول(١).

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ أي: وكيلٌ قائمٌ على أحواله وشؤونه، وهو إمَّا مبالغةٌ في حافظ، وإمَّا بمعنى مُحافظ، كجليس ومجالس، وخليط ومخالط، ورضيع ومراضع، إلى غير ذلك.

﴿قُلِ﴾ يا محمد للمشركين الذين ضُرِب لهم المثلُ بقصَّة سبأ المعروفة عندهم بالنقل في أخبارهم وأشعارهم، تنبيهاً على بطلانِ ما هم عليه وتبكيتاً لهم: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي: زعمتموهم آلهةً، كذا قدَّره الجمهور، على أنَّ الضميرَ مفعولٌ أول، وآلهة مفعولٌ ثانٍ، وحذف الأول تخفيفاً؛ لأنَّ الصلةَ والموصول بمنزلة اسم واحد، فهناك طولٌ يُطْلَب تخفيفه، والثاني لأنَّ صفته ـ أعني قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ـ سدَّت مسدَّه، فلا يلزم إجحافٌ بحذفهما معاً.

ولا يجوزُ أنْ يكون «من دون الله» هو المفعول الثاني، إذ لا يتمُّ به مع الضمير الكلام، ولا يلتئم النظام، فأيُّ معنًى معتبرٍ لهم من دون الله، على أنَّ في جواز حذف أحد مفعولي هذا الباب اختصاراً خلافاً، ومن أجازه قال: هو قليلٌ في كلامهم.

وكذا لا يجوز أنْ يكون «لا يملكون»؛ لأنَّ ما زعموه ليس كونهم غير مالكين، بل خلافه، وليس ذلك أيضاً بزعمٍ بالمعنى الشائع ـ لو سُلِّم أنَّه صَدَر منهم ـ بل حقٌّ.

وقال ابنُ هشام: الأولَى أن يقدَّرَ: زعمتم أنهم آلهةٌ؛ لأنَّ الغالب على «زعم» أن لا يقع على المفعولين الصريحين، بل على ما يسدُّ مسدَّهما من «أنَّ»

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩١، والكشاف ٣/ ٢٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٦، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٤.

وصلتها[١]، ولم يقع في التنزيل إلَّا كذلك[٢]، أي: فالأنسبُ أن يوافق المقدَّرُ المصرَّحَ به في التنزيل.

ورُجِّحَ تقديرُ الجمهور بأنَّه أبعدُ عن لزوم الإجحاف.

والأمر للتوبيخ والتعجيز، أي: ادعوهم فيما يهمُّكم من دفع ضرٍّ أو جلب نفعٍ، لعلَّهم يستجيبون لكم، إن صحَّ دعواكم. روي أنَّ ذلك نزلَ عند الجوع الذي أصابَ قريشاً.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ كلامٌ مستأنفٌ في موقع الجواب، ولم يمهلهم ليجيبوا إشعاراً بتعيُّنه، فإنَّه لا يقبل المكابرة.

وجُوِّزَ تقديرُ: ثم أجب عنهم قائلاً: «لا يملكون» إلخ، وهو متضمِّنٌ بيان حال الآلهة في الواقع، وأنَّهم إذا لم يملكوا مقدار ذرَّةٍ، أي: من خيرٍ وشرٍّ، ونفعٍ وضرٍّ، كيف يكونون آلهةً تُعبد؟!

﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أمرٍ من الأمور، وذكر السماوات والأرض للتعميم عرفاً، فيراد بهما جميعُ الموجودات، وهذا كما يقال: المهاجرون والأنصار، ويراد جميع الصحابة رضي الله عنهم، فلا يتوهَّمُ أنَّهم يملكون في غيرهما.

ويجوز أن يقال: إنَّ ذِكْرَهما لأنَّ بعضَ آلهة المخاطَبين سماويَّةٌ كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضيَّةٌ كالأصنام، فالمراد نفي قدرة السماويِّ منهم على أمرٍ سماويّ، والأرضيّ على أمرٍ أرضيّ، ويُعْلَم نفيُ قدرته على غيره بالطريق الأولى، أو لأنَّ الأسباب القريبةَ للخير والشَّرِّ سماويَّةٌ وأرضيَّةٌ، فالمراد نفي قدرتهم بشيءٍ من الأسباب القريبة، فكيف بغيرها؟!

﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: لآلهتهم ﴿فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: شركة؛ لا خلقاً ولا ملكاً

(١) في (م): وصلتهما.

(٢) مغني اللبيب ص٧٧٤.

ولا تصرُّفاً. ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: لله عزَّ وجلَّ ﴿مِنْهُم﴾ أي: من آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ ٢٢﴾ أي: مُعِيْنٍ يعينُه سبحانه في تدبير أمرهما.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: لا توجدُ رأساً، كما في قوله:

علـى لاحـبٍ لا يُـهْـتَـدى بـمـنـاره[١]

لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإنَّما عُلِّقَ النفيُ بنفعها دون وقوعها تصريحاً بنفي ما هو غرضهم من وقوعها.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، على ما اختاره الزمخشريُّ[٢]. و«مَنْ» عبارةٌ عن الشافع، واللام الداخلة عليه للاختصاص، مثلها في: الكرم لزيد، ولام «له» صلةُ «أَذِنَ»، والمراد نفي شفاعة آلهتهم لهم، لكن ذكر ذلك على وجهٍ عامٍّ؛ ليكون طريقاً برهانيّاً، أي: لا تنفعُ الشفاعةُ في حالٍ من الأحوال، أو كائنةً لمن كانت إلَّا كائنةً لشافعٍ أُذِنَ له فيها من النبيين والملائكة ونحوِهم من المستأهلين لمقام الشفاعة.

ومن البيِّنِ أنَّهم لا يؤذنُ لهم في الشفاعة للكفار، فقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، والشفاعةُ لهم بمعزلٍ عن الصواب، وعدمُ الإذن للأصنام أبينُ وأبين، فتبيَّنَ حرمانُ هؤلاء الكفرة منها بالكليَّة.

أو «مَن» عبارةٌ عن المشفوع له، واللام الداخلة عليه للتعليل، ولام «له» صلةُ «أَذِنَ»، أي: لا تنفعُ الشفاعة إلَّا كائنةً لمشفوعٍ أذن له، أي: لشفيعه، على الإضمار؛ لأنَّ المشفوع لم يصدر عنه فعلٌ حتى يؤذَنَ له فيه أنْ يشفعه.

واختار الزمخشريُّ أنَّ لام «له» للتعليل، أي: إلَّا لمن وقع الإذنُ للشفيع لأجله، ووجههُ على ما في «الكشف» حصولُ الإشارة إلى الشافع والمشفوع؛ لأنَّ

---

(١) هو صدر بيت لامرئ القيس، كما في ديوانه ص٦٦، وعجزه:

إذا سافه العَوْدُ النباطيُّ جرجرا

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٨٧.

المأذونَ لأجله المشفوع، والمأذون الشافع، ولأنَّ الغرضَ بيانُ محلِّ النفع ـ وهو المشفوع ـ كان التصريحُ بذكره أهمّ.

ولا يخفى أنَّ الوجهَ السابق ظاهرُ التكلُّف، فيه الإضمارُ الذي لا يقتضيه المقام، وحاصل المعنى على هذا: لا تنفعُ الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها إلَّا كائنةً لمن وقعَ الإذنُ للشفيع لأجله وفي شأنه من المستحقِّين للشفاعة، وأمَّا من عداهم من غير المستحقِّين لها، فلا تنفعهم أصلاً، وإن فُرِضَ وقوعُها من الشفعاء، إذ لم يؤذن لهم في شفاعتهم، بل في شفاعة غيرهم، ويثبتُ من هذا حرمانُ هؤلاء الكفرة من شفاعة الشفعاء المستأهلين للشفاعة بعبارة النَّصِّ، وعن[1] شفاعة الأصنام بدلالته، إذ حين حُرِموها من جهة القادرين عليها في الجملة، فلأَنْ يحرمُوها من جهة العجزة عنها بالكلِّيَّة أولى.

وذهب أبو حيَّان[2] إلى أنَّ الاستثناء من أعمِّ الذوات، أي: لا تنفع الشفاعة لأحدٍ إلَّا لمن.. إلخ، واستَظْهَر احتمالَ أن تكون «مَن» عبارةً عن المشفوع له.

واللام ـ نظراً إلى الظاهر ـ متعلِّقةٌ بـ «الشفاعة»، وجَوَّزَ أبو البقاء[3] تعلُّقها بـ «تنفع». وتُعقِّبَ[4] بأنَّه لا يتعدَّى إلَّا بنفسه. وقال أبو حيان فيه: إنَّ المفعولَ متأخِّرٌ، فدخول اللام قليل[5].

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: «أُذِنَ» مبنيًّا للمفعول[6]، فـ «له» قائمٌ مقام فاعله.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ﴾ صيغة التفعيل للسلب، كما في: قرَّدت البعير، إذا أزلتَ قُرَاده، ومنه التمريض، فالتفزيعُ إزالةُ الفزع، وهو ـ على ما قال الراغب ـ انقباضٌ ونِفارٌ يعتري الإنسان من الشيء المخيف[7].

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٧/ ١٣١: ومن.

(٢) في البحر ٧/ ٢٧٦.

(٣) في الإملاء ٢/ ١٩٧.

(٤) في (م): وتعقبه.

(٥) البحر ٧/ ٢٧٦.

(٦) التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠. وهي قراءة خلف من العشرة.

(٧) المفردات (فزع).

و«حتى» للغاية، واختلفوا في المغيَّا، إذ لم يكن قبلها ما يصلحُ أن يكون مغيّاً بحسب الظاهر، واختلفوا لذلك في المراد بالآية اختلافاً كثيراً؛ فقيل: هو ما يفهم من حديث الشفاعة، ويشيرُ إليه، وذلك أنَّ قوله تعالى: (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ) يؤذنُ بشفعاء ومشفوعٍ لهم، وأنَّ هناك استئذاناً في الشفاعة، ضرورةَ أنَّ وقوعَ الإذن يستدعي سابقية ذلك، وهو مستدعٍ للترقُّب والانتظار للجواب، وحيث إنَّه كلامٌ صادرٌ عن مقام العظمة والكبرياء ـ كيف وقد تقدَّمه ما تقدَّمه ـ يدلُّ على كون الكلِّ في ذلك الموقف خلفَ سُرَادق العظمة، ملقًى عليهم رداءُ الهيبة، وما بعدَ حرفِ الغاية أيضاً شديدُ الدلالة على ذلك، فكأنَّه قيل: يقف[1] الشفعاء والمشفوع لهم في ذلك الموقف الذي يتشبَّثُ فيه المستشفعون بأذيال الرجاء من المستشفَع بهم، ويقوم فيه المستشفَع به على قدم الالتجاءِ إلى الله جلَّ جلاله، فيطرقُ باب الشفاعة بالاستئذان فيها، ويبقون جميعاً منتظرين وجِلين فزعين، لا يدرون ما يُوَقِّع لهم الملكُ الأعظم جلَّ وعلا على رقعة سؤالهم، وماذا يصحُّ لهم بعد عرض حالهم، حتى إذا أزيلَ الفزعُ عن قلوب الشفعاء والمشفوع لهم بظهور تباشير حسن التوقيع، وسطوعِ أنوار الإجابة والارتضاء من آفاق رحمة الملك الرفيع، قالوا ـ أي: قال بعضهم لبعض، والظاهر أنَّ البعضَ القائلَ المشفوعُ لهم، وإن شئت فأَعِدِ الضمير إليهم من أوَّل الأمر، إذ هم الأشدُّ احتياجاً إلى الإذن، والأعظمُ اهتماماً بأمره ـ: ماذا قال ربكم في شأن الإذن بالشفاعة، قالوا ـ أي: الشفعاء، فإنَّهم المباشرون للاستئذان بالذات، المتوسِّطون لأولئك السائلين بالشفاعة عنده عزَّ وجل ـ: قال ربُّنا القولَ الحقَّ، أي: الواقعَ بحسب ما تقتضيه الحكمة، وهو الإذنُ بالشفاعة لمن ارتضى.

والظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ من تتمَّة كلام الشفعاء، قالوه اعترافاً بعظمة جناب العزَّة جلَّ جلاله، وقصورِ شأن كلٍّ من سواه، أي: هو جلَّ شأنه المتفرِّدُ بالعلوِّ والكبرياء، لا يشاركُه في ذلك أحدٌ من خلقه، وليس لكلٍّ منهم ـ كائناً من كان ـ أن يتكلَّم إلَّا من بعد إذنه جلَّ وعلا.

---

(١) في (م): تقف.

وفيه من تواضعهم بعد ترفيع قَدْرِهم بالإذن لهم بالشفاعة ما فيه، وفيه أيضاً نوعٌ من الحمد، كما لا يخفى.

وهذه الجملة المغيَّاة بما ذُكر لا يبعد أن تكون جواباً لسؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه قيل: كيف يكونُ الإذن في ذلك الموقف للمستأذنين، وكيف الحالُ فيه للشافعين والمستشفعين؟ فقيل: يقفون منتظرين وَجِلِين فزعين، حتى إذا.. إلخ.

والآيات دالَّةٌ على أنَّ المشفوعَ لهم هم المؤمنون، وأمَّا الكفرةُ فهم عن موقف الاستشفاع بمعزلٍ، وعن التفزيع عن قلوبهم بألفِ ألفِ مَنْزِلٍ.

وجَعَلَ بعضُهم - على هذا الوجه من كون المغيَّا ما ذُكر - ضميرَ «قلوبهم» للملائكة، وخصَّ الشفعاء بهم، وضميرَ «قالوا» الأوَّل لهم أيضاً، وضميرَ «قالوا» الثاني للملائكة الذين فوقَهم، وهم الذين يبلِّغون ذلك إليهم، وقال: إنَّ فزعَهم إمَّا لما يُقْرَنُ به الإذنُ من الأمر الهائل، أو لغشيةٍ تصيبهم عند سماع كلام الله جلَّ شأنه، أو من ملاحظةِ وقوع التقصير في تعيين المشفوع لهم بناءً على ورود الإذن بالشفاعة إجمالاً. وهو كما ترى.

وقال الزجَّاج: تفسيرُ هذا أنَّ جبرائيلَ عليه السلام لمَّا نزل إلى النبيِّ ﷺ بالوحي ظنَّت الملائكةُ - عليهم السلام - أنَّه نزلَ بشيءٍ من أمر الساعة، ففزعت لذلك، فلما انكشفَ عنها الفزع، «قالوا: ماذا قال ربكم» سألَتْ: لأيِّ شيءٍ نزل جبريل عليه السلام، «قالوا: الحقَّ»[1]. اهـ. رويَ ذلك عن قتادة ومقاتل وابن السائب، بيد أنَّهم قالوا: إنَّ الملائكة صعقوا لذلك، فجعلَ جبريلُ عليه السلام يمرُّ بكلِّ سماء، ويكشفُ عنهم الفزعَ، ويخبرهم أنَّه الوحي.

ولم يبيِّن الزجَّاجُ وجهَ اتِّصال الآية بما قبلها، ولا بَحَث عن الغاية بشيء.

وقد ذكر نحوَ ذلك الإمام الرازيُّ[2]، ثم قال في ذلك: إنَّ «حتى» غايةٌ متعلِّقةٌ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٣.

(٢) في تفسيره ٢٥/ ٢٥٥.

بقوله تعالى: «قل»؛ لأنَّه تنْبيهٌ[١] بالوحي، فلمَّا قال سبحانه: «قل» فَزع مَن في السماوات. وهو لعمري من العجب العجاب.

وقال الفاضل الطيبيُّ بعد[٢] نقله ذلك التفسير: وعليه أكثرُ كلام المفسِّرين، ويعضدُه ما روينا عن البخاريِّ والترمذيِّ وابنِ ماجه عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا قَضَى الله تعالى الأمرَ في السماء ضربت الملائكةُ أجنحتَها خُضْعاناً لقوله تعالى، كأنَّه سلسلةٌ على صفوان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي[٣] قال الحق، وهو العليُّ الكبير»[٤].

وعن أبي داود: عن ابن مسعود قال: «إذا تكلَّم الله تعالى بالوحي سَمِعَ أهلُ السماء صلصلةً كجَرِّ السِّلسلة على الصَّفا، فيُصْعَقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيَهم جبريلُ، فإذا أتاهم جبريلُ عليه السلام، فُزِّعَ عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل! ماذا قال ربُّكم[٥]؟ فيقول: الحقَّ [فينادون: الحقَّ] الحقَّ»[٦].

ثم ذكر في أمر الغاية واتِّصال الآية بما قبلها على ذلك أنَّه يُستَخرج معنى المغيَّا من المفهوم، وذلك أنَّ المشركين لمَّا ادَّعوا شفاعةَ الآلهة والملائكة، وأجيبوا بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والملائكة، وسمَّيتموهم باسمه تعالى، والتجِئوا إليهم، فإنَّهم لا يملكونَ مثقال ذرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض، ولا تنفع الشفاعةُ من هؤلاء إلَّا للملائكة، لكن مع الإذنِ والفزعِ العظيم، وهم لا يشفعون إلَّا للمَرْضيِّين، فعبَّر عن الملائكة عليهم السلام بقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ الآية كنايةً، كأنَّه قيل: لا تنفعُ الشفاعةُ إلَّا لمن هذا شأنُه ودأبُه، وأنَّه لا يثبتُ عند صدمةٍ من صدمات هذا

---

(١) في (م): تبينه. وفي مطبوع تفسير الرازي: بينه.

(٢) بعدها في الأصل: أن. وهي مقحمة.

(٣) في صحيح البخاري ـ والحديث مسوق بلفظه ـ: للذي.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٠١) و(٤٨٠٠)، وسنن الترمذي (٣٢٢٣)، وسنن ابن ماجه (١٩٤).

(٥) كذا في الأصل و(م). وفي سنن أبي داود: ربك.

(٦) سنن أبي داود (٤٧٣٨)، وما بين حاصرتين منه.

الكتاب المبين، وعند سماع كلام الحقِّ، يعني الذين إذا نزل عليهم الوحيُ يفزعون ويصعقون، حتى إذا أتاهم جبريل عليه السلام فُزِّعَ عن قلوبهم، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيقول: الحقَّ. انتهى.

ولا يخفَى على من له أدنى تمييزٍ حالُه، وأنَّه ممَّا لا ينبغي أن يعوَّل عليه.

وقولُ ابن عطيَّة: إنَّ تأويل الآية بالملائكة إذا سمعت الوحيَ إلى جبريل، أو الأمر يأمر الله تعالى به، فتسمع كجرِّ سلسلة الحديد على الحديد(١)، فتفزع تعظيماً وهيبةً، وقيل: خوفَ قيام الساعة، هو الصحيحُ، وهو الذي تضافرت(٢) به الأحاديث = ناشئٌ من حرمان ابن(٣) عطيَّةِ سلامة الذوق، وتدقيق النظر.

والتفسيرُ الذي ذكرناه أوَّلاً بمراحل في الحسن عمَّا ذكر عن أكثر المفسرين، وما سمعتَ من الرواية لا ينافيه، إذ لا دلالة فيه على أنَّه عليه الصلاة والسلام ذكر ذلك في معرض تفسيرِ الآية، ولا تنافي بين التفزيعين، وكأنَّ الأكثر من المفسرين نظروا إلى ظاهر طباق اللفظ مع الحديث، فنزَّلوا الآيةَ على ذلك، فوقعوا فيما وقعوا فيه، وإن كثروا وجلُّوا. والقائلُ بما سبقَ نظر إلى طباق المقام، وحقَّق عدمَ المنافاة، وظهرَ له حالُ ما قالوه فعدلَ عنه.

وأخرج ابنُ جرير وابن أبي حاتم عن الضحَّاك أنَّه قال في الآية: زعمَ ابنُ مسعود أنَّ الملائكة المعقِّبات الذين يختلفونَ إلى أهل الارض يكتبونَ أعمالهم إذا أرسلهم الربُّ تبارك وتعالى فانحدروا، سُمِعَ لهم صوتٌ شديدٌ، فيحسب الذين أسفلَ منهم من الملائكة أنَّه من أمر الساعة، فيخرُّون سجَّداً، وهذا كلما مرُّوا عليهم، فيفعلون [ذلك] من خوف ربِّهم تبارك وتعالى(٤).

وابنُ مسعود عندي أجلُّ من أن يحملَ الآية على هذا، فالظاهر أنَّه لا يصحُّ

---

(١) في المحرر الوجيز لابن عطية: على صفوان.

(٢) في(م) والمحرر الوجيز ٤/٤١٨: تظاهرت.

(٣) قوله: ابن، ساقط من (م).

(٤) الدر المنثور ٥/٢٣٧. وأخرجه الطبري ١٩/٢٨١. وما بين حاصرتين منهما. والضحاك لم يدرك ابن مسعود.

عنه. ومثل هذا ما زعمَه بعضهم أنَّ ذاك فزعُ ملائكةِ أدنى السماوات عند نزول المدبِّرات إلى الأرض.

وقيل: إنَّ «حتى» غايةٌ متعلِّقةٌ بقوله تعالى: «زعمتم» أي: زعمتم الكفر إلى غاية التفزيع، ثمَّ تركتم ما زعمتم وقلتم: قال الحقَّ، وإليه يشيرُ ما أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنَّه قال في الآية: حتى اذا فَزَّعَ الشيطان عن قلوبهم، ففارقهم وأمانيَّهم وما كان يضلُّهم به، «قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا الحق وهو العليُّ الكبير»، ثمَّ قال: وهذا في بني آدم ـ أي: كفارهم ـ عند الموت، أقرُّوا حين لا ينفعُهم الإقرار(١).

والظاهر أنَّ في الكلام عليه التفاتاً من الخطاب في «زعمتم» إلى الغيبة في «قلوبهم»، وأنَّ ضمير «قالوا» الأول للملائكة الموكَّلين بقبض أرواحهم، والمراد بالتفزيع عن القلوب كشفُ الغطاء وموانعِ إدراك الحقِّ عنها.

وما نُقِل عن الحسن من أنَّه قال: إنما يقال للمشركين: ماذا قال ربُّكم، أي: على لسان الأنبياء عليهم السلام، فأقرُّوا حين لا ينفع = يحتملُ أن يكون كالقول المذكور في أنَّ ذلك عند الموت، ويحتمل أن يكون قولاً بأنَّ ذلك يوم القيامة، إلَّا أنَّ في جَعْلِ «حتى» غايةً للزعم عليه غيرُ ظاهر، إذ لا يستصحبهم ذلك إلى يوم القيامة حقيقةً كما لا يخفى.

وأبعدُ من هذا القول كونُ ذلك غايةً لقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾، وضمير «قلوبهم» لـ «مَن» باعتبار معناه، والتفزيعُ: كشفُ الغطاء وموانعِ إدراك الحقِّ. بل هو ممَّا لا ينبغي حملُ كلام الله تعالى عليه.

وزعم بعضُهم أنَّ المعنى: إذا دعاهم إسرافيل عليه السلام من قبورهم، قالوا مجيبين: «ماذا قال ربكم». حكاه في «البحر»، ثمَّ قال: والتفزيعُ من الفزع الذي هو الدعاء والاستصراخ، كما قال زهير:

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٣٧، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٨١ من قول ابن زيد.

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم طوالَ الرِّماح لاضعافٌ ولا عُزْلُ[١]

وأنت تعلمُ أنَّ التفزيعَ بالمعنى المذكور لا يتعدَّى بـ «عن»، وأمرُ الغاية عليه غيرُ ظاهر، وبالجملة ذلك الزعم ليس بشيء.

واختار أبو حيَّان أنَّ المغيَّا الاتِّباع في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وضميرُ «قلوبهم» عائدٌ إلى ما عاد إليه ضميرُ الرفع في «اتَّبعوه»، أعني: الكفار، وكذا ضمير «قالوا» الثاني، وضمير «قالوا» الأول للملائكة، وكذا ضمير «ربكم»، وجملةُ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾ إلخ اعتراضية بين الغاية والمغيَّا، والتفزيعُ حالَ مفارقة الحياة أو يومَ القيامة، ويجعل[٢] اتِّباعهم إبليسَ مُستَصْحباً لهم إلى ذلك اليوم مجازاً[٣]. ولا يخفى بُعْدُه، والوجه عندي ما ذُكِر أوَّلاً.

و«ماذا» تحتملُ أن تكون منصوبةً بـ «قال»، أي: أيُّ شيءٍ قال ربكم؟ وتحتملُ أن تكون في موضع رفع، على أنَّ «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«ذا» اسم موصول خبره، وجملة «قال» صلة الموصول، والعائد محذوف، أي: ما الذي قاله ربكم؟

وقرأ ابن عباس وابن مسعود وطلحة وأبو المتوكل الناجي وابن السميفع وابن عامر ويعقوب: «فَزَّع» بالتشديد والبناء للفاعل[٤]، والفاعل ضميرُ الله تعالى المستتر، أي: أزالَ اللهُ تعالى الفزعَ عن قلوبهم. وقال أبو حيان: هو ضميره تعالى إن كان ضمير «قلوبهم» للملائكة، وإنْ كان للكفار، فهو ضمير مغويهم[٥].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨-٢٧٩، والبيت في ديوان زهير ص١٠٢. وفيه: لا قصار. بدل: لا ضعاف.

(٢) في (م): ويجعل.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٧٧.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨، وقراءة ابن عامر ـ من السبعة ـ في التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥١، وفي الأخير قراءة يعقوب من العشرة.

(٥) البحر ٧/ ٢٧٨.

وقرأ الحسن: «فُزِعَ» بالتخفيف والبناء للمفعول[١]، ف «عن قلوبهم» نائب الفاعل كما في قراءة الجمهور.

وقرأ هو وأبو المتوكِّل أيضاً وقتادة ومجاهد: «فَرَّغ» بالفاء والراء المهملة والغين المعجمة مشدَّداً مبنيًّا للفاعل[٢]، بمعنى أزال.

وقرأ الحسن أيضاً كذلك إلَّا أنَّه خفَّف الراء[٣].

وقرأ عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ والحسن أيضاً وأيوب السختيانيُّ وقتادة أيضاً وأبو مجلز: «فُرِّغَ» كذلك أيضاً إلَّا أنهم بنوه للمفعول[٤].

وقرأ ابن مسعود ـ في رواية ـ وعيسى: «افرنقع» قيل: بمعنى: تفرَّق[٥]. وقال الزمخشريُّ: بمعنى: انكشف[٦]. والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين، كما ركِّب اقمطرَّ من حروف القمط مع زيادة الراء، وفيه إيهامُ أنَّ العين والراء من حروف الزيادة، وليس كذلك.

وقرأ ابن أبي عبلة: «الحقُّ» بالرفع[٧]، أي: مقولُه الحقُّ.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أُمِرَ ﷺ أنْ يقول ذلك تبكيتاً للمشركين بحملهم على الإقرار بأنَّ آلهتهم لا يملكون مثقالَ ذرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض، وأنَّ الرزاقَ هو الله عزَّ وجلَّ، فإنَّهم لا ينكرونَه، وحيث كانوا يتلعثمون أحياناً في الجواب مخافةَ الإلزام، قيل له عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواه عندهم أيضاً.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩١، والكشاف ٣/ ٢٨٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١١، والبحر ٧/ ٢٧٨.
(٢) المحتسب ٢/ ١٩١ـ دون ذكر مجاهد ـ والبحر المحيط ٧/ ٢٧٨، والدر المصون ٩/ ١٨٢.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨، وذكرها في المحتسب ٢/ ١٩٢ عن الحسن وقتادة بخلاف عنهما.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٩، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٨، وهي في القراءات الشاذة ص١٢٢ عن ابن مسعود، وفي المحتسب ٢/ ١٩٢ عن عيسى.
(٦) الكشاف ٣/ ٢٨٨.
(٧) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨.

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ أي: وإنَّ أحدَ الفريقين: منَّا معشرَ الموحِّدين المتوحدَ بالرِّزق والقدرة الذاتيَّة، العابديهِ وحده عزَّ وجلَّ، ومنكم فرقة المشركين به العاجزينَ[1] في أنفسهم عن دفع أدنى ضرٍّ، وجلب أحقر نفع، وفيهم[2] النازل إلى أسفل المراتب الإمكانية = المتصفون[3] بأحد الأمرين من الاستقرار على الهدى والانغماس في الضلال. وهذا من الكلام المنصف؛ الذي كلُّ مَن سمعه مِن مُوالٍ أو مُنافٍ قال لمن خوطب به: قد أنصفكَ صاحبك.

وفي دَرْجِه بعد تقدمة ما قدَّم من التقرير البليغ دلالةٌ ظاهرةٌ على مَن هو مِن الفريقين على هدى، ومن هو في ضلال، ولكن التعريضَ أبلغُ من التصريح، وأوصلُ بالمجادل إلى الغرض، وأهجمُ به على الغلبة، مع قلَّة شغب الخصم، وفَلِّ شوكته بالهوينا، ونحوُه قولُ الرجل لصاحبه: قد علم الله تعالى الصادقَ منِّي ومنك، وإن أحدنا لكاذب، ومنه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب، وكان قد هجا رسول الله ﷺ قبل أن يسلم:

أتهجوه ولستَ له بكفءٍ فشرُّكما لخيركما الفداءُ[4]

وقول أبي الأسود:

يقول الأرذلون بنو قشيرٍ طَوَال الدهر لا تنسى عليَّا
بنو عمِّ النبيِّ وأقربوه أَحَبُّ الناس كلِّهمُ إليَّا
فإن يكُ حبُّهمْ خيراً أُصِبْهُ ولستُ بمخطئٍ إنْ كان غيَّا[5]

وذهب أبو عبيدة[6] إلى أن «أو» بمعنى الواو، كما في قوله:

---

(١) قوله: العاجزين، مفعول به لقوله: المشركين.
(٢) أي: وفي العاجزين.
(٣) قوله: المتصفون، خبر قوله: وإن أحد الفريقين...
(٤) ديوان حسان ص٩، وسلف ١٨/ ٢٥٤، وفيه: أتشتمه. بدل: أتهجوه.
(٥) ديوان أبي الأسود، صنعة السكري ص ١٥٣-١٥٤، ورواية البيت الأخير فيه:
فإن يك حبهم رشداً أصبْه وفيهم أسوة إن كان غيَّا
(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٤٨.

سيَّانِ كسرُ رغيفه ... أو كسرُ عظمٍ من عظامه[1]

والكلامُ من باب اللفِّ والنشر المرتَّب، بأن يكون «على هدى» راجعاً لقوله تعالى: «إنَّا»، و«في ضلال» راجعاً لقوله سبحانه: «إيَّاكم»، فإنَّ العقلَ يحكمُ بذلك، كما في قول امرئ القيس:

كأنَّ قلوبَ الطير رَطباً ويابساً ... لَدَى وكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي[2]

ولا يخفى بُعْدُه.

وأيًّاما كان فليس هذا من باب التقيَّة في شيءٍ كما يزعمه بعضُ الجهلة.

والظاهر أنَّ «لعلى هدى» إلخ خبر «إنَّا أو إياكم» من غير تقدير حذف، إذ المعنى: إنَّ أحدنا لمتَّصفٌ بأحد الأمرين، كقولك: زيدٌ أو عمرو في السوق أو في البيت.

وقيل: هو خبر «إنَّا»، وخبر «إيَّاكم» محذوفٌ تقديره: لعلى هدى أو في ضلال مبين.

وقيل: هو خبر «إيَّاكم»، وخبر «إنَّا» محذوفٌ لدلالة ما ذُكر عليه، و«إيَّاكم» على تقدير «إنَّ»، ولكنَّها لمَّا حُذِفت انفصل الضمير.

وفي «البحر»[3]: لا حاجةَ إلى تقدير الحذف في مثل هذا، وإنَّما يُحتَاجُ إليه في نحو: زيد أو عمرو قائم. فتدبَّر.

والمتبادرُ أنَّ «مبين» صفة «ضلال»، ويجوز أن يكون وصفاً له ولـ «هدى»، والوصف وكذا الضمير يلزم إفراده بعد المعطوف بـ «أو».

وأدخل «على» على «الهدى» للدلالة على استعلاء صاحبه وتمكُّنه واطِّلاعه على ما يريد، كالواقف على مكانٍ عالٍ، أو الراكب على جوادٍ يركضه حيث شاء،

---

(١) هو لدعبل بن علي الخزاعي. شعر دعبل ص٤٢٤.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٣٨.

(٣) ٧/ ٢٨٠.

و«في» على «الضلال» للدلالة على انغماسِ صاحبه في ظلام، حتى كأنَّه في مهواةٍ مظلمةٍ، لا يدري أين يتوجَّه، ففي الكلام استعارةٌ مكنيَّةٌ أو تبعيَّة.

وفي قراءة أبيّ: «إنَّا أو إيَّاكم إمَّا على هدًى أو في ضلال مبين»[1].

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ هذا أبلغ في الإنصاف، حيث عبَّر عن الهفوات التي لا يخلو عنها مؤمنٌ بما يعبَّر به عن العظائم، وأسند إلى النفس، وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبَّر به عن الهفوات، وأسند للمخاطبين، وزيادةً على ذلك أنَّه ذكر الإجرامَ المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالَّة على التحقُّق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدلُّ على ذلك.

وذُكر أنَّ في الآية تعريضاً، وأنه لا يضرُّ بما ذكر، وزعم بعضُهم أنَّها من باب المتاركة، وأنَّها منسوخةٌ بآية السيف.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يومَ القيامة عند الحشر والحساب ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ يقضي سبحانه بيننا ويفصلُ بعد ظهور حال كلٍّ منَّا ومنكم بالعدل، بأنْ يُدخِل المحقِّين الجنَّة والمبطلين النار.

﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ القاضي في القضايا المنغلقة، فكيف بالواضحة كإبطال الشرك وإحقاق التوحيد، أو القاضي في كلِّ قضيَّةٍ خفيَّة كانت أو واضحة. والمبالغة على الأول في الكيف، وعلى الثاني في الكَمِّ، ولعلَّ الوجه الأوَّل أولى.

وفيه إشارةٌ إلى وجه تسمية فصل الخصومات فتحاً، وأنه في الأصل لتشبيه ما حكم فيه بأمرٍ منغلق، كما يشبَّه بأمرٍ منعقد في قولهم: حلَّال المشكلات.

وقرأ عيسى: «الفاتح»[2].

﴿الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ بما ينبغي أنْ يُقضَى به، أو بكلِّ شيء.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٩.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٠.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ استفسارٌ عن شبهتهم بعد إلزام الحجَّة عليهم زيادةً في تبكيتهم.

و«أرى» ـ على ما استظهره أبو حيان(١) ـ بمعنى أَعْلَمَ، فتتعدَّى إلى ثلاثة مفاعيل: ياء المتكلم، والموصول، و«شركاء»، وعائد الموصول محذوفٌ، أي: ألحقتموهم، والمراد: أعلموني بالحجَّة والدليل كيف وجهُ الشركة؟!

وجُوِّزَ كون «رأى» بصريَّةً تعدَّت بالنقل لاثنين: ياء المتكلم، والموصول. و«شركاء» حالٌ من ضمير الموصول المحذوف، أي: ألحقتموهم متوهَّماً شركتهم، أو مفعولٌ ثانٍ لـ «أَلْحَقَ»؛ لتضمينه معنى الجعل أو التسمية، والمراد: أرونيهم لأنظرَ بأيِّ صفةٍ ألحقتموهم بالله عزَّ وجلَّ الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة، أو ألحقتموهم به سبحانه جاعليهم أو مسمِّيهم شركاء، والغرضُ إظهارُ خطئهم العظيم.

وقال بعض الأجلَّة: لم يُرد من «أروني» حقيقته؛ لأنَّه ﷺ كان يراهم ويعلمهم، فهو مجازٌ وتمثيل، والمعنى: ما زعمتموه شريكاً إذا برزَ للعيون، وهو خشبٌ وحجر، تمَّت فضيحتُكم. وهذا كما تقولُ للرجل الخسيس الأصل: اذكر لي أباك الذي قايستَ به فلاناً الشريف، ولا تريدُ حقيقة الذكر، وإنَّما تريدُ تبكيته، وأنَّه إن ذكر أباه افتضح.

﴿كَلَّاۚ﴾ ردعٌ لهم عن زعم الشركة بعدما كسره بالإبطال، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [الأنبياء: ٦٧] بعدما حجَّ قومه.

﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الموصوفُ بالغلبة القاهرة المستدعية لوجوب الوجود ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ الموصوفُ بالحكمة الباهرة المستدعية للعلم المحيط بالأشياء. وهؤلاء الملحَقون عن الاتِّصاف بذلك في معزلٍ، وعن الحوم حول ما يقتضيه بألف ألف منزل.

والضميرُ إمَّا عائدٌ لما في الذهن، وما بعده ـ وهو «الله» الواقع خبراً له ـ يفسِّره، و«العزيز الحكيم» صفتان للاسم الجليل. أو عائدٌ لـ «ربنا» في قوله سبحانه: «يجمع

---

(١) في البحر ٧/ ٢٨٠.

بيننا ربنا»[١]، على ما قيل. أو هو ضمير الشأن، و«الله» مبتدأ، و«العزيز الحكيم» خبره، والجملة خبر ضمير الشأن؛ لأنَّ خبرَه لا يكون إلَّا جملةً على الصحيح.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ المتبادرُ أنَّ «كافَّة» حالٌ من الناس، قُدِّم مع «إلَّا» عليه للاهتمام، كما قال ابن عطية[٢]. وأصلُه من الكفِّ بمعنى المنع، وأريد به العموم؛ لما فيه من المنع من الخروج، واشتهر في ذلك حتى قطع النظر فيه عن معنى المنع بالكليَّة، فمعنى جاء الناس كافَّةً: جاؤوا جميعاً، ويشير إلى هذا الإعراب ما أخرج ابن أبي شيبة وابنُ المنذر عن مجاهد أنَّه قال في الآية: أي: إلى الناس جميعاً. وما أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب أنَّه قال: أي: للناس كافَّةً[٣].

وكذا ما أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة أنَّه قال في الآية: أرسلَ اللهُ تعالى محمَّداً ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمُهم على الله تعالى أطوعُهم له[٤]. وما نقل عن ابن عباس أنَّه قال: أي: إلى العرب والعجم وسائر الأمم.

وهو مبنيٌّ على جواز تقديم الحال على صاحبها المجرور بالحرف، وهو الذي ذهب إليه ـ خلافاً لكثير من النحاة ـ أبو عليّ وابنُ كيسان وابنُ بَرْهان والرضيّ وابنُ مالك، حيث قال:

وسَبْقَ حالٍ ما بحرفٍ جُرَّ قد … أَبَوْا ولا أمنعُهُ فقد ورد[٥]

وأبو حيان، حيث قال بعد أن نقل الجوازَ عمَّن عدا الرضي من المذكورين: وهو الصحيح، ومن أمثلة أبي عليٍّ: زيدٌ خيرَ ما يكون خيرٌ منك، وقال الشاعر:

إذا المرء أعيته المروءةُ ناشئاً … فمطلبُها كهلاً عليه شديد[٦]

(١) في الأصل و(م): يفتح بيننا ربنا، والصواب المثبت. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٣.
(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٠.
(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٣٧.
(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٣٧، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٨٨.
(٥) البيت من ألفيته المشهورة. انظر شرح ابن عقيل ١/ ٦٤٠.
(٦) نسب لأعرابي من بني قريع، كما في شرح الحماسة للتبريزي ٣/ ٨٨، والحماسة البصرية =

وقال آخر:

تسلَّيتُ طرّاً عنكم بعد بَيْنِكم   بذكراكمُ حتى كأنكُمُ عندي[(١)]

وقد جاء تقديمُ الحال على صاحبها المجرور وعلى ما يتعلَّق به، ومن ذلك قوله:

مشغوفةً بك قد شُغِفْتُ وإنَّما   حَتَمَ الفراقُ فما إليك سبيلُ[(٢)]

وقول آخر:

غافلاً تَعرِضُ المنيَّةُ للمَرْ   ءِ فيُدعى ولاتَ حينَ إباءُ[(٣)]

وإذا جاز تقديمها على المجرور والعامل فتقديمُها عليه دون العامل أجوز[(٤)]. انتهى.

وجعلوا هذا الوجه أحسن الأوجه في الآية، وقالوا: إنَّ ما عداه تكلُّف.

واعترِضَ بأنَّه يلزمُ عليه عملُ ما قبل «إلَّا» ـ وهو «أَرْسَلَ» ـ فيما بعدها وهو «للناس»، وليس بمستثنى ولا مستثنى منه ولا تابعٍ[(٥)] له، وقد منعوه.

وأجيب بأنَّ التقدير: وما أرسلناك للناس إلَّا كافَّةً، فهو مقدَّمٌ رتبةً، ومثله كافٍ في صحة العمل، مع أنهم يتوسَّعون في الظرف ما لا يتوسَّعون في غيره.

= ص٩٣٨ (تحقيق عادل جمال، مطبعة الخانجي)، وخزانة الأدب ٣/ ٢١٩-٢٢٠. ونسبه ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ٢٤٦-٢٤٧ للمعلوط. وهو في البيان والتبيين ١/ ٢٧٤ دون نسبة.

(١) هو في شرح الشواهد الكبرى للعيني ٣/ ١٦٠، والبحر المحيط ٧/ ٢٨١، والدر المصون ٩/ ١٨٧ دون نسبة.

(٢) هو في شرح الشواهد الكبرى للعيني ٣/ ١٦٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨١، والدر المصون ٩/ ١٨٧ دون نسبة.

(٣) هو في شرح الشواهد الكبرى ٣/ ١٦١، والبحر المحيط ٧/ ٢٨١، والدر المصون ٩/ ١٨٧ دون نسبة.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٨١.

(٥) في الأصل و(م): ولا تابعاً. والمثبت من حاشية الشهاب.

وقال الخفاجيُّ عليه الرحمة: الأحسن أن يجعل «للناس» مستثنًى، على أنَّ الاستثناء فيه مفرَّغ، وأصله: ما أرسلناك لشيءٍ من الأشياء إلَّا لتبليغ الناس كافَّةً، وأما تقديره بـ: ما أرسلناك للخلق مطلقاً إلَّا للناس كافَّةً، على أنَّه مستثنًى، فركيكٌ جدًّا[١]. اهـ.

ولا يخفى أنَّ في الآية ـ على ما استحسنَه ـ حذفَ المضاف، والفصلَ بين أداة الاستثناء والمستثنى، وتقديمَ الحال على صاحبها، والكلُّ خلافُ الأصل، وقلَّما يجتمعُ مثل ذلك في الكلام الفصيح.

واعترض عليه أيضاً بأنَّه يلزم حينئذٍ جعلُ اللام في «للناس» بمعنى «إلى». وليس بشيءٍ؛ لأنَّ «أرسل» يتعدَّى باللام و«إلى»، كما ذكره أبو حيان[٢] وغيره، فلا حاجةَ إلى جعلها بمعنى «إلى»، على أنَّه لو جعلت بمعناها لا يلزم خطأٌ أصلاً؛ لمجيء كلٍّ من اللام و«إلى» بمعنى الآخر، وكذا لا حاجةَ إلى جعلها تعليليَّةً، إلَّا على ما استحسنه الخفاجيُّ.

وقال غير واحد: إنَّ «كافةً» اسمُ فاعل من كَفَّ، والتاء فيه للمبالغة، كتاء راوية ونحوه، وهو حالٌ من مفعول «أرسلناك»، و«للناس» متعلِّقٌ به، وإليه ذهب أبو حيان[٣]، أي: ما أرسلناك إلَّا كافّاً ومانعاً للناس عن الكفر والمعاصي. وإلى الحاليّة من الكاف ذهب أبو عليٍّ أيضاً[٤]، إلَّا أنَّه قال: المعنى: إلَّا جامعاً للناس في الإبلاغ. وتعقَّبهُ أبو حيان بأنَّ اللغةَ لا تساعدُ على ذلك؛ لأنَّ كفَّ ليس بمحفوظٍ أنَّ معناه جمع.

وفيه منعٌ ظاهرٌ؛ لأنه يقال: كفَّ القميص إذا جمع حاشيته، وكفَّ الجرح إذا

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٤.

(٢) في البحر ٧/ ٢٨٢.

(٣) ينظر البحر ٧/ ٢٨١.

(٤) قوله: أبو علي، سبق قلم. والصواب: أبو إسحاق. وهو الزجاج. وكلامه في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٤، ونقله عنه أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٢٨١.

ربطَه بخرقة تحيطُ به، وقد قال ابن دريد: كلُّ شيءٍ جمعتَه فقد كففته[١]، مع أنَّه جُوِّزَ أنْ يكون مجازاً من المنع؛ لأن ما يُجمع يَمتنعُ تفرُّقه وانتشاره.

وقيل: إنه مصدرٌ، كالكاذبة والعاقبة والعافية، وهو أيضاً حالٌ من الكاف؛ إمَّا باقٍ على مصدريَّته بلا تقدير شيءٍ مبالغةً، وإمَّا بتأويل اسم الفاعل، أو بتقدير مضاف، أي: إلَّا ذا كافة، أي: ذا كفٍّ، أي: منعٍ للناس من الكفر. وقيل: ذا منعٍ من أن يشذُّوا عن تبليغك.

وذهب بعضهم إلى أنَّه مصدرٌ وقع مفعولاً له، ولم يشترط في نصبه اتحادُ الفاعل، كما ارتضاه الرضي.

وذهب العلامة الزمخشريُّ إلى أنَّه اسم فاعل من الكفِّ، صفة لمصدرٍ محذوفٍ، وتاؤه للتأنيث، أي: ما أرسلناك إلَّا إرسالةً كافَّةً، أي: عامَّةً لهم، محيطةً بهم؛ لأنَّها إذا شملتهم فقد كفتهم عن أن يخرج منها أحدٌ منهم[٢].

واعترِضَ عليه بأنَّ «كافة» لم ترد عن العرب إلَّا منصوبةً على الحال، مختصَّةً بالمتعدِّد من العقلاء، وأنَّ حذف الموصوف، وإقامةَ الصفة مقامه إنَّما يكون لما عُهِدَ وصفُه بها، بحيث لا تصلحُ لغيره.

وأجيب بأنَّ «كافة» ها هنا غيرُ ما التزم فيه الحالية، وإن رجعا إلى معنًى واحد، وما قيل من أنَّه لم تستعمله العربُ إلَّا كذلك ليس بشيءٍ، وإقامةُ الصفة مقامَ موصوفها منقاسٌ مطَّردٌ بدون شرط إذا قامت عليه قرينة، وذكرُ الفعل قبلَه دالٌّ على تقدير مصدره، كما في: قمت طويلاً وحسناً، أي: قياماً طويلاً وحسناً.

وفي «الحواشي الخفاجيَّة»: قد صحَّ أنَّ عمر رضي الله عنه قال في كتابه لآل بني كاكلة: قد جعلتُ لآل بني كاكلة على كافَّةِ بيت المسلمين لكلِّ عامٍ مئتي مثقالٍ ذهباً إبريزاً. وقاله عليٌّ كرم الله وجهه حين أمضاه[٣].

---

(١) جمهرة اللغة ١/ ١١٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٠.

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي ٧/ ٢٠٣، والخبر سلف ١٠/ ٣١٦.

فقد استعملَ هذان الإمامان «كافَّةً» في غير العقلاء، وغير منصوبٍ على الحاليَّة.

ولا يخفى أنَّ بعض ما اعترض به على هذا الوجه يُعترَضُ به على بعض الأوجه السابقة أيضاً، والجواب هو الجواب.

والذي أختاره في الآية ما هو المتبادر، ولا بأس بالتقدُّم، والاستعمال واردٌ عليه، ولا قياسَ يمنعُه، وأمرُ تخطِّي العامِل «إلا» إلى ما ليس مستثنى ولا مستثنى منه سهلٌ؛ لحديث التوسُّع في الظرف، والآيةُ عليه أظهرُ في الاستدلال على عموم رسالته ﷺ، وهي في ذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، ولو استدلَّ بها القاضي أبو سعيد لبهت اليهوديّ، وقد يستدلُّ عليه بما لا يكادُ يُنكِره من فعله ﷺ مع اليهود في عصره ودعوته عليه الصلاة والسلام إيَّاهم إلى الإسلام.

﴿بَشِيرًا﴾ لمن أسلم بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن لم يسلم بالعقاب، والوصفان حالان من مفعول «أرسلناك»، وقد يجعلان على بعض الأوجه السابقة بدلاً من «كافة» نحو بدل المفصَّلِ من المجمل، فتأمَّل.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ذلك، فيحملهم جهلُهم على الإصرار على ما هم عليه من الغيِّ والضلال.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: لجهلهم حقيقةً أو حكماً، ولذا لم يعطف بالفاء. وقيل: «يقولون» أي: من فرط تعنُّتهم، وعدم العطف بالفاء لذلك.

وقيل: الحاملُ فرط الجهل، وعدمُ العطف بالفاء لظهور تفرُّعِه على ما قبله، ومثلُه يُوكَلُ إلى ذهن السامع، وقيل: إنَّ ذاك لأنَّ فرطَ الجهل غير الجهل. وهو كما ترى، وقيل: لأنَّ هذا حالُ بعضٍ، وعدم العلم في قوله تعالى: «لا يعلمون» حالُ بعضٍ آخر.

والذي يظهر لي أنَّ القائلين بالفعل هم بعضُ المشركين المعاصرين له ﷺ لا أكثرُ الناس مطلقاً، وأنَّ المراد بصيغة المضارع الاستمرار التجدُّديّ.

وقيل: عبَّر بها استحضاراً للصورة الماضية لنوع غرابة، والأصل: وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بطريق الاستهزاء يعنون المبشَّر به والمنذرَ عنه، أو الموعود بقوله

تعالى: «يجمعُ بيننا ربنا ثمَّ يفتحُ بيننا» ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ مخاطبين رسول الله ﷺ والمؤمنين به.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أو وعدُ يومٍ، على أنَّ «ميعاد» مصدرٌ ميميٌّ، أو اسمٌ أقيم مُقام المصدر ـ على ما نقل عن أبي عبيدة(١) ـ وهو بمعنى الموعود. وقيل: الكلام على تقدير مضاف، أي: لكم وقوع وعد يوم، أو نجزُ وعدِ يومٍ. وتنوين «يوم» للتعظيم، أي: يومٍ عظيم.

وجُوِّزَ أن يكون الميعادُ اسم زمان، وإضافته إلى «يوم» للتبيين، أي: لبيان زمان الوعد بأنَّه يومٌ مخصوصٌ، نحو: سَحْقُ ثوب(٢)، وبعيرُ سانيةٍ(٣).

وأُيِّدَ الوجهُ الأول بوقوع الكلام جواباً لقولهم: «متى هذا الوعد». والوجه الثاني أنَّه قرئ: «ميعادٌ يومٌ» برفعهما وتنوينهما(٤)، فإنَّ «يوم» على هذه القراءة بدل، وذلك يقتضي أنَّ الميعادَ نفسُ اليوم، وكونُه بدلَ اشتمالٍ بعيد، وكذا ما قال أبو حيَّان(٥) من أنَّه على تقدير محذوف، أي: قل لكم ميعادٌ ميعادُ يومٍ، فلما حُذِف المضافُ أُعرِب ما قام مقامه بإعرابه.

وقرأ ابن أبي عبلة: «ميعادٌ» بالرفع والتنوين «يوماً» بالنصب والتنوين(٦)، قال الزمخشريُّ: وهو على التعظيم بإضمار فعل، تقديره: لكم ميعاد، أعني يوماً من صفته كيت وكيت، ويجوز الرفع على هذا أيضاً(٧).

وجُوِّزَ أن يكون على الظرفيَّة لـ «ميعاد» على أنَّه مصدر بمعنى الموعود لا اسم زمان.

---

(١) انظر مجاز القرآن ٢/ ١٤٩.

(٢) السَّحق: الثوب الخلق الذي انسحق وبلي، ويضاف للبيان، فيقال: سحق بُرْدٍ، وسحق عمامة، وسحق ثوب. ينظرالنهاية (سحق)، والمغرب ص٣٨٦.

(٣) السانية: البعير الذي يسقى عليه، ومن أمثالهم: أذل من بعير سانية. المستقصى ١/ ١٣٢.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٠، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٢.

(٥) في البحر ٧/ ٢٨٢.

(٦) البحر المحيط ٧/ ٢٨٢، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٢ لليزيدي.

(٧) الكشاف ٣/ ٢٩٠، وفيه: ويجوز أن يكون الرفع على هذا، أعني التعظيم.

وقال في «البحر»: يجوز أن يكون انتصابه على الظرف، والعامل فيه مضافٌ محذوف، أي: إنجازُ وعدٍ يوماً من صفته كيتَ وكيت.

وقرأ عيسى: «ميعادٌ» منوَّناً «يومَ» بالنصب من غير تنوين، مضافاً إلى الجملة[١]، ووجهُ النصب ما مرَّ آنفاً.

﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾ إذا فاجأكم ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾ أي: عنه ساعةً، والهاء ـ على ما قال أبو البقاء ـ يجوزُ أن تعود على «ميعاد»، وأن تعود على «يوم»، وعلى أيِّهما عادت كانت الجملةُ وصفاً له[٢]. وفي «الإرشاد»: هي صفةٌ لازمةٌ لـ«ميعاد»، وفي الجواب ـ على تقدير تقييد النفي بالمفاجأة ـ من المبالغة في التهديد ما لا يخفى[٣].

ويجوز أنْ يكون النفيُ غير مقيَّدٍ بذلك، فيكون وصفُ الميعاد بما ذكر لتحقيقه وتقريره[٤]، وقد تقدَّم الكلامُ في نظير هذه الجملة فتذكَّر.

ولمَّا كان سؤالهم عن الوقت على سبيل التعنُّت أجيبوا بالتهديد، وحاصله أنَّه لوحظ في الجواب المقصودُ من سؤالهم لا ما يعطيه ظاهر اللفظ، وليس هذا من الأسلوب الحكيم، فإنَّ البليغَ يلتفتُ لفت المعنى.

وقال الطيبيُّ: هو منه، سألوا عن وقت إرساء الساعة، وأجيبوا عن أحوالهم فيها، فكأنَّه قيل: دعوا السؤال عن وقت إرسائها، فإنَّ كينونَته لا بدَّ منه، بل سلوا عن أحوال أنفسكم حيث تكونون مبهوتين متحيِّرين فيها من هول ما تشاهدون، فهذا أليقُ بحالكم من أنْ تسألوا عنه. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّه متضمِّنٌ الجوابَ بأنَّ ذلك اليومَ لا يعلمه إلَّا الله عزَّ وجلَّ؛ لمكان تنكير «يوم». وهو تعسُّفٌ لا حاجةَ إليه.

واختلف في هذا اليوم، فقيل: يوم القيامة، وعليه كلام الطيبيّ. وقيل: يوم مجيء أَجَلِهم وحضور منيَّتهم. وقيل: يوم بدر.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٢.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٢١٣.

(٣) إرشاد العقل السليم ٧/ ١٣٣.

(٤) في (م): وتقديره.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم مشركو العرب ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب القديمة، كما روي عن قتادة والسديِّ وابن جريج. ومرادهم نفي الإيمان بجميع ما يدلُّ على البعث من الكتب السماويَّة المتضمِّنة لذلك، ويروى أنَّ كفارَ مكَّة سألوا أهل الكتاب عن الرسول ﷺ، فأخبروهم أنَّهم يجدونَ صفتَه عليه الصلاة والسلام في كتبهم، فأغضبَهم ذلك فقالوا ما قالوا. وضُعِّفَ بأنَّه ليس في السياق والسباق ما يدلُّ عليه.

وقيل: الذي بين يديه القيامة. وخطَّأ ابنُ عطيَّة قائلَه بأنَّ ما بين اليد في اللغة المتقدِّم[1]. وتُعقِّبَ بأنَّه قد يراد به ما مضى، وقد يراد به ما سيأتي.

نعم يضعِّفُ ذلك أنَّ ما بين يدي الشيء يكون من جنسه، لكن محصَّل كلامهم على هذا أنَّهم لم يؤمنوا بالقرآن ولا بما دلَّ عليه.

وأمَّا ادِّعاءُ أنَّ الأكثر كونُه لما مضى، فقد قيل أيضاً: إنَّه غير مسلَّم.

وحكى الطبرسيُّ أنَّ المراد بالذين كفروا اليهود[2]، وحينئذٍ يُرادُ بما بين يديه الإنجيل.

ولا يخفى أنَّ هذا القول ممَّا لا ينبغي أنْ يُلتَفت إليه، وليس في السباق والسياق ما يدلُّ عليه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، أو لكلِّ واقفٍ عليه. ومفعول «ترى»: «إذ»، أو محذوفٌ و«إذ» ظرفٌ له، أي: أي[3] حال الظالمين، و«لو» للتمنِّي مصروفاً إلى غيره تعالى، لا جوابَ لها، أو هو مقدَّرٌ، أي: لرأيتَ أمراً فظيعاً، أو نحوه، و«الظالمون» ظاهرٌ وُضِع موضعَ الضمير؛ للتسجيل وبيان علَّة استحقاقهم، والأصلُ: ولو ترى إذ هم موقوفون عند ربهم،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢١.

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ٢١٠.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعلَّ تكرار لفظة: أي. لا معنى له.

أي: في موقف المحاسبة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يتحاورون ويتراجعونَ القول، والجملةُ في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ استئنافٌ لبيان تلك المحاورة، أو بدلٌ من «يرجع» إلخ، أي: يقولُ الأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ في الدنيا واستتبعوهم في الغيِّ والضلال: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ صددتمونا عن الهدى ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ بما جاءَ به الرسول ﷺ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا قال الذين استكبروا لمَّا اعترَضَ عليهم الأتباعُ ووبَّخوهم؟ فقيل: قالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أنكروا أن يكونوا هم الذين صدُّوهم عن الإيمان، وأثبتوا أنَّهم هم الذين صدُّوا أنفسهم، أي: لسنا نحن الذين حلْنَا بينكم وبين الإيمان بعد إذ صَمَّمتم على الدخول فيه، بل أنتم منعتم أنفسَكم حظَّها بإجرامكم وإيثاركم الكفرَ على الإيمان.

ووقوع «إذ» مضافاً إليها الظرفُ شائعٌ في كلامهم، كوقوعها مضافة، وذلك من باب الاتِّساع في الظروف لا سيما الزمانية. وبهذا يُجَاب عمَّا قيل: إنَّ «إذ» من الظروف اللازمة للظرفيَّة، فكيف وقعت ها هنا مجرورةً مضافاً إليها؟

وقال صاحب «الفرائد»: إنَّ «إذ» هاهنا جُرِّدَت عن معنى الظرفية، وانسلخت عنه رأساً، وصيِّرت اسماً صرفاً؛ لأنَّ المرادَ من وقت مجيء الهدى هو الهدى، لا الوقتُ نفسه، فلذا أضيف إليها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ إضراباً عن إضرابهم، وإبطالاً له: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل صدَّنا مكرُكم بنا في الليل والنهار، فحُذِف المضاف إليه، وأقيم مقامه الظرفُ اتِّساعاً، أو جعل الليل والنهار ماكرين على الإسناد المجازيّ.

وقيل: لا حاجةَ إلى ذلك، فإنَّ الإضافة على معنى «في».

وتُعقِّبَ بأنَّها ـ مع أنَّ المحققين لم يقولوا بها ـ يَفُوتُ باعتبارها المبالغة.

ويُعلَم ممَّا أشرنا إليه أنَّ «مكر» فاعلٌ لفعلٍ محذوف، وجُوِّزَ أن يكون خبرَ مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، أي: سبب كفرنا مكرُ الليل والنهار، أو: مكر الليل والنهار سببُ كفرنا.

وقرأ قتادة ويحيى بن يعمر: «بل مكرٌ الليلَ والنهارَ» بالتنوين ونصب الظرفين[(١)]، أي: بل صدَّنا مكرُكم - أو: مكرٌ عظيم[(٢)] - في الليل والنهار.

وقرأ محمد بن جعفر[(٣)] وسعيد بن جبير وأبو رزين وابن يعمر أيضاً: «مَكَرُّ الليلِ والنهار» بفتح الميم والكاف وتشديد الراء والرفع مع الإضافة، أي: بل صَدَّنا كرور الليل والنهار واختلافهما، وأرادوا - على ما قيل - الإحالة على طول الأمل والاغترارِ بالأيام مع [أمر][(٤)] هؤلاء الرؤساء بالكفر بالله عزَّ وجلَّ.

وقرأ ابن جبير أيضاً وراشد القارئ وطلحة كذلك، إلَّا أنَّهم نصبوا: «مَكَرَّ» على الظرف[(٥)]، أي: بل صددتمونا مَكَرَّ الليل والنهار، أي: في مَكَرِّهما، أي: دائماً، وجُوِّزَ أنْ يكون مفعولاً مطلقاً، أي: تكرون الإغراءَ مَكَرّاً دائماً لا تفترون عنه. وجَوَّزَ صاحب «اللوامح» كونه ظرفاً لـ «تأمروننا» بعد، وتَعقَّبه أبو حيان[(٦)] بأنَّه وهمٌ؛ لأنَّ ما بعد «إذ» لا يعمل فيما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾ بدل من الليل والنهار، أو تعليلٌ للمكر، وجَعَله في

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٣. وهي عن قتادة في المحتسب ٢/ ١٩٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١٨.

(٢) قوله: مكرٌ عظيمٌ، على اعتبار أن التنوين للتفخيم، وقوله قبله: مكركم، على اعتبار أنه عوض عن المضاف إليه. ينظر تفسير أبي السعود ٧/ ١٣٤.

(٣) في القراءات الشاذة ص١٢٢: جعفر بن محمد. ووقع في مطبوع البحر المحيط ٧/ ٢٨٣: وقرأ سعيد بن جبير بن محمد وأبو رزين. وهي في المحتسب ٢/ ١٩٣ عن سعيد بن جبير وأبي رزين.

(٤) ما بين حاصرتين من المحرر الوجيز ٤/ ٤٢١، والبحر ٧/ ٢٨٣.

(٥) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٣، والبحر ٧/ ٢٨٣، وعنه نقل المصنف. قال أبو حيان: وراشد هذا من التابعين، ممن صحح المصاحف بأمرالحَجَّاج. اهـ. وهو ابن نجيح الحِمَّاني، أبو محمد البصري، من رجال التهذيب.

(٦) في البحر ٧/ ٢٨٣.

«الإرشاد» ظرفاً له، أي: بل مكركُم الدائمُ وقتَ أمركم لنا ﴿أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ على أنَّ مكرهم إمَّا نفسُ أمرهم بما ذُكر، وإمَّا أمورٌ آخر مقارِنةٌ لأمرهم، داعيةٌ إلى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك(١).

وجملة: «قال الذين استضعفوا» إلخ عطفٌ على جملة «يقول الذين استضعفوا» إلخ وإن تغايرتا مضيّاً واستقبالاً. ولمَّا كان هذا القول رجوعاً منهم إلى الكلام دون قول المستكبرين: «أنحن صددناكم» ـ فإنَّه ابتداءُ كلامٍ وقعَ جواباً للاعتراض عليهم ـ جيء بالعاطف هاهنا، ولم يجئ به هناك على ما اختاره بعضهم.

وقيل: إنَّ النكتة في ذلك أنَّه لمَّا حكى قول المستضعفين بعد قوله تعالى: «يرجع بعضهم إلى بعض القول» كان مظنَّة أن يقال: فماذا قال الذين استكبروا للذين استضعفوا، وهل كان بين الفريقين تراجع؟ فقيل: قال الذين استكبروا كذا، وقال الذين استضعفوا كذا، فأخرجَ مجموع القولين مخرجَ الجواب، وعطفَ بعض الجواب على بعض، فتدبَّر.

والأنداد جمع: نِدٌّ، هو شائع فيمن يَدَّعي أنَّه شريكٌ مطلقاً، لكن ذكر الشيخُ الأكبر قُدِّس سرُّه في تفسيره الجاري فيه على مسلك المفسِّرين «إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن» ـ وبخطِّه الشريف النورانيِّ رأيتُه ـ أنه مخصوصٌ بمن يدَّعي الألوهيَّة كفرعون وأضرابه؛ لأنَّه بذلك نَدَّ عن الله تعالى، وشردَ عن رحمته سبحانه. وقال الشيخ: لأنَّه شردَ عن العبودية له جلَّ شأنه.

﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ أي: أضمرَ الظالمون من الفريقين: المستكبرين والمستضعفين ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ على ما كان منهم في الدنيا من الضلال والإضلال نظراً للمستكبرين، ومن الضلال فقط نظراً للمستضعفين، والقول بحصول ندامتهم على الإضلال أيضاً ـ باعتبارِ قَبوله ـ تكلُّفٌ، ولم يظهروا ما يدلُّ عليها من المحاورة وغيرها.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٣٤.

﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لأنَّهم بُهِتوا لمَّا عاينوه، فلم يقدروا على النطق، واشتغلوا عن إظهارها بشغل شاغل.

وقيل: أخفاها كلٌّ عن صاحبه مخافةَ التعيير.

وتُعقِّب بأنَّه كيف يتأتَّى هذا مع قول المستضعفين لرؤسائهم: «لولا أنتم لكنَّا مؤمنين»، وأيُّ ندامةٍ أشد من هذا؟ وأيضاً مخافةُ التعيير في ذلك المقام بعيدةٌ. وقيل: «أسرُّوا الندامةَ» بمعنى أظهروها، فإنَّ أسرَّ من الأضداد، إذ الهمزةُ تصلحُ للإثبات وللسلب، فمعنى أسرَّه: جعله سرًّا، أو: أزالَ سرَّه، ونظيره: أَشْكَيْتُ؛ وأنشدَ الزمخشريُّ لنفسه:

شكوتُ إلى الأيام سوء صنيعها ... ومن عجب باكٍ تشكَّى[1] إلى المُبْكي

فما زادت الأيَّامُ إلَّا شكايةً ... وما زالت الأيامُ تُشْكِي ولا تُشْكِي

وتعقَّبَ ابنُ عطيَّة هذا القول بأنَّه لم يثبت قطُّ في لغةٍ أنَّ «أسرّ» من الأضداد[2].

وأنت تعلم أنَّ المثبِتَ مقدَّمٌ على النافي، فلا تغفل.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ﴾ أي: القيود ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم المستكبرون والمستضعفون، والأصل: في أعناقهم، إلَّا أنَّه أظهرَ في مقام الإضمار؛ للتنويه بذمِّهم، والتنبيه على موجب إغلالهم.

واستظهر أبو حيان عمومَ الموصول، فيدخل فيه الفريقان المذكوران وغيرهم؛ لأنَّ من الكفار من لا يكون له أتباعٌ تراجعه القولَ في الآخرة، ولا يكون هو تابعاً لرئيسٍ له، كالغلام الذي قتلَه الخضرُ عليه السلام[3].

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: لا يجزون إلَّا مثلَ الذي كانوا يعملونَه من الشرِّ، وحاصله: لا يجزونَ إلَّا شرّاً.

---

(١) في (م): فشكى.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢١.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٨٣.

و«جزى» قد يتعدَّى إلى مفعولين بنفسه، كما يشيرُ إليه قولُ الراغب، يقال: جزيتُه كذا وبكذا[١]. وجُوِّزَ كونُ «ما» في محلِّ النصبِ بنزع الخافض، وهو إمَّا الباء، أو «عن»، أو «على»، فإنَّه ورد تعديةُ «جزى» بها جميعاً. وقيل: إنَّ هذا التعدِّي لتضمينه معنى القضاء. ومتى صحَّ ما سمعت عن الراغب لم يحتَج إلى هذا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: نذيراً من النُّذر ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي: المتوسِّعون في النعم فيها، والجملة في موضع الحال: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ بزعمكم من التوحيد وغيره. والجارُّ الثاني متعلِّق بما عنده، والأول متعلِّق بقوله تعالى: ﴿كَٰفِرُونَ ٣٤﴾، وهو خبرُ «إنَّ».

وظاهر الآية أنَّ مترفي كلِّ قريةٍ قالوا لرسولهم ذلك، وعليه فالجمع في «أرسلتم» للتهكُّم. وقيل: لتغليب المخاطب على جنس الرسل، أو على أتباعه المؤمنين به.

وقال بعض الأجلَّة: الكلام من باب مقابلة الجمع بالجمع، فقيل: الجمعُ الأول الرسل المدلول عليه بقوله تعالى: «أرسلتم»، والثاني «كافرون»، فقد كفر كلٌّ برسوله، وخاطبه بمثله، فلا تغليبَ في الخطاب في «أرسلتم».

وقيل: الجمع الأول: «نذير»؛ لأنَّه يفيد العموم في الحكاية لا المحكيِّ؛ لوقوعه في سياق النفي. وليس كلُّ قومٍ مُنْكِراً لجميع الرسل، فحمل على المقابلة.

والكلام مسوقٌ لتسلية رسول الله ﷺ ممَّا ابتلي به من مخالفة مترفي قومه وعداوتهم له عليه الصلاة والسلام، وتخصيص المترفين بالتكذيب؛ لأنَّهم في الأغلب أوَّل المكذِّبين للرسل عليهم السلام؛ لِمَا شُغلوا به من زخرفة الدنيا، وما غَلَب على قلوبهم منها، فهم منهمكون في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها، بخلاف الفقراء، فإنَّ قلوبَهم لخلوِّها من ذلك أقبلُ للخير، ولذلك تراهم أكثرَ أتباع الأنبياء عليهم السلام، كما جاء في حديث هرقل[٢].

---

(١) المفردات (جزى).

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَقَالُواْ﴾ الضمير للمترفين الذين تقدَّم ذكرُهم. وقيل: لقريش. والظاهر المتبادر هو الأول، والمراد حكايةُ ما شجَّعهم على الكفر بما أُرسل به المنذِرون، أي: وقال المترفون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ أي: أموالنا وأولادنا كثيرةٌ جداً، فأفعل للزيادة المطلقة، وجُوِّزَ بقاؤه على ما هو الأكثرُ استعمالاً، والمفضَّل عليه محذوف، أي: نحن أكثرُ منكم أموالاً وأولاداً.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ بشيءٍ من أنواع العذاب الذي يكدِّرُ علينا لذَّة كثرة الأموال والأولاد، من خوف الملوك، وقهر الأعداء، وعدم نفوذ الكلمة، والكدِّ في تحصيل المقاصد، ونحو ذلك.

وإيلاء الضمير حرفَ النفي للإشارة إلى أنَّ المخاطبين أو المؤمنين ليسوا كذلك.

وحاصل قولهم: نحن في نعمةٍ لا يشوبُها نقمة، وهو دليلُ كرامتنا على الله عزَّ وجلَّ ورضاه عنَّا، فلو كان ما نحنُ عليه من الشرك وغيره ممَّا تدعونا إلى تركه مخالفاً لرضاه لما كنَّا فيما كنَّا فيه من النعمة.

ويجوز أن يكونوا قد قاسُوا أمورَ الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمور الدنيا، وزَعموا أن المنعَمَ عليه في الدنيا منعَمٌ عليه في الآخرة، وإلى هذا الوجه ذهب جمعٌ، وقالوا: نَفيُ كونهم معذَّبين؛ إمَّا بناءً على انتفاء العذاب الأخرويِّ رأساً، وإمَّا بناءً على اعتقاد أنَّه تعالى أكرمهم في الدنيا، فلا يهينهم في الآخرة، على تقدير وقوعها.

وقال الخفاجيُّ في وجه إيلاء الضمير حرفَ النفي: إنَّه اشارةٌ إلى أنَّ المؤمنين معذَّبون استهانةً بهم؛ لظنِّهم أنَّ المالَ والولد يدفعُ العذاب عنهم، كما قاله بعض المشركين[١].

وأنت تعلم أنَّ الأظهرَ عليه التفريع.

وذهب أبو حيَّان[٢] إلى أنَّ المرادَ بالعذاب المنفيِّ أعمُّ من العذاب الأخرويِّ

(١) حاشية الشهاب الخفاجي ٧/ ٢٠٦.

(٢) في البحر المحيط ٧/ ٢٨٥.

والعذاب الدنيوي الذي قد ينذِر به الأنبياءُ عليهم السلام ويتوعَّدون به قومهم إن لم يؤمنوا بهم.

ولعل ما ذكرناه أوّلاً أنسبُ بالمقام، فتأمَّل جدّاً.

﴿قُلْ﴾ ردّاً لما زعموه من أنَّ ذلك دليلُ الكرامة والرضى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطَه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ على من يشاء أنْ يقدرَه عليه، فربَّما يوسِّع سبحانه على العاصي، ويضيِّقُ على المطيع، وربَّما يعكس الأمرَ، وربَّما يوسِّع عليهما معاً، وقد يضيِّقُ عليهما معاً، وقد يوسِّعُ على شخصٍ مطيعٍ أو عاصٍ تارةً، ويضيِّقُ عليه أخرى، يفعل كلّاً من ذلك حسبما تقتضيه مشيئتُه عزَّ وجلَّ المَبْنيَّةُ على الحِكَم البالغة، فلو كان البسط دليل الإكرام والرضى لاختصَّ به المطيع، وكذا لو كان التضييق دليلَ الإهانة والسخط لاختصَّ به العاصي، وليس فليس.

والحاصل ـ كما قيل ـ منعُ كون ذلك دليلاً على ما زعموا؛ لاستواء المُعادي والمُوالي فيه.

وقال جمعٌ: أريد أنَّه تعالى يفعلُ ذلك حسب مشيئته المبنيَّة على الحكم، فلا ينقاس عليه أمرُ الثواب والعقاب اللذين مناطُهما الطاعة وعدمها.

وقال ناصر الدين: لو كان ذلك لكرامةٍ أو هوانٍ يوجبانه لم يكن بمشيئته تعالى[1]. وهو مبنيٌّ على أنَّ الإيجاب ينافي الاختيار والمشيئة، وقد قال به الخفاجيُّ[2] أخذاً من كلام مولانا جلال الدين، وردَّ به على من ردّ.

ولا يخفى أنَّ دعوى المترفين الإيجاب على الله تعالى فيما هم فيه من بسط الرزق، وكذا فيما فيه أعداؤهم من تضييقه، غيرُ ظاهرةٍ حتى يُرَدَّ عليهم بإثبات المشيئة التي لا تجامعُ الإيجاب.

وقرأ الأعمش: «ويقدِّر» مشدداً هنا وفيما بعد[3].

---

(١) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧٥.

(٢) في حاشيته ٧/ ٢٠٦.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٨٥، والدر المصون ٩/ ١٩٢.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٦﴾ ذلك، فمنهم من يزعم أنَّ مدار البسط الشرفُ والكرامة، ومدارَ التضييق الهوانُ والحقارة، ومنهم من تحيَّر واعترضَ على الله تعالى في البسط على أناسٍ والتضييق على آخرين، حتى قال قائلهم:

كم عالمٍ عالمٍ أعيت مذاهبُه   وجاهلٍ جاهلٍ تَلْقَاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأفهام حائرةً   وصيَّر العالِمَ النحريرَ زنديقا[١]

وعنَى هذا القائلُ بالعالم النحرير نفسَه، ولعمري إنه بوصف الجاهل البليد أحقُّ منه بهذا الوصف، فالعالم النحرير من يقول:

ومن الدليلِ على القضاء وحكمِه[٢]   بؤسُ اللبيب وطيبُ عيش الأحمقِ[٣]

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ كلامٌ مستأنفٌ من جهته عزَّ وجلَّ، خُوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغةً في تحقيق الحقِّ وتقرير ما سبق، كذا في «إرشاد العقل السليم»[٤].

وجُوِّزَ أن يكون ما تقدَّم لنفي أن يكون القرب والكرامة مداراً وعلَّةً لكثرة الرزق، وهذا لنفي أن تكون[٥] كثرة الرزق سبباً للقرب والكرامة، ويكونُ الخطابُ للكفرة.

و«التي» واقعٌ على الأموال والأولاد، وحيث إنَّ الجمع المكسَّر عقلاؤه وغيرُ عقلائه سواءٌ في حكم التأنيث، وكان المجموع بمعنى جماعة؛ صحَّ الإفراد

---

(١) نسبهما العباسي في معاهد التنصيص ١/ ١٤٧ لابن الراوندي، ونسبهما أبو إسحاق الوطواط في غرر الخصائص الواضحة ص١٣٦ للخبرارزي، ونُسبا في طبقات الشافعية ٤/ ٢٣٢ لأبي العلاء المعري.

(٢) جاء في هامش الأصل: وكونه. نسخة.

(٣) البيت للشافعي كما في الوافي بالوفيات ٢/ ١٧٨، وطبقات الشافعية ١/ ٣٠٥، ومعاهد التنصيص ١/ ١٥١، وحاشية الشهاب ٧/ ٢٠٦، وغيرها.

(٤) ٧/ ١٣٦.

(٥) في (م): وهذا النفي أن يكون.

والتأنيث، أي: وما جماعة أموالكم وأولادكم بالجماعة التي تقرِّبكم عندنا قُربة، ولا حاجةَ إلى تقدير مضاف في النظم الكريم، وما ذُكر تقديرُ معنًى لا إعراب.

وعن الزجاج أنَّ في الكلام حذفاً في أوله؛ لدلالة ما في آخره، والتقدير: وما أموالكم بالتي تقرِّبكم عندنا زلفى، ولا أولادكم بالتي.. إلخ[1].

وأنت تعلم أنَّه لا حاجةَ إليه أيضاً.

وجُوِّزَ أن تكون «التي» صفةً لموصوفٍ مفردٍ مؤنثٍ تقديره: بالتقوى، أو: بالخصلة التي.

وجَوَّزَ الزمخشريُّ أنْ تكون «التي» كنايةً عن التقوى؛ لأنَّ المقرِّب إلى الله تعالى ليس إلَّا تلك، أي: وما أموالكم ولا أولادكم بتلك الموضوعة للتقريب[2].

وقرأ الحسن: «باللاتي» جمعاً[3]. وهو راجعٌ للأموال والأولاد، كـ «التي» على ما سمعت أولاً.

وقرئ: «بالذي» أي: بالشيء الذي يقرِّبكم[4].

و «زلفى» مصدرٌ كالقربى، وانتصابُه على المصدريَّة من المعنى.

وقرأ الضحاك: «زُلَفاً» بفتح اللام وتنوين الفاء[5]، جمع: زُلْفَة، وهي القُربة.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناءٌ من مفعول «تُقَرِّبكم» على ما ذهب إليه جمع، وهو استثناءٌ متصلٌ إذا كان الخطاب عامّاً للمؤمنين والكفرة، ومنقطعٌ إذا كان خاصّاً بالكفرة، فالموصول في محلِّ نصبٍ، أو رفع على أنَّه مبتدأٌ ما بعده خبره، أو خبره مقدر، أي: لكنْ مَن آمن وعمل صالحاً فإيمانه وعملُه يقربانه.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٥.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٢.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٥.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٥.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٥.

واستظهر أبو حيان الانقطاع، وقال في «البحر»: إنَّ الزجَّاج[١] ذهب إلى بدليته من المفعول المذكور، وغلَّطه النحاس[٢] بأنَّ ضميرَ المخاطب لا يجوزُ الإبدال منه، فلا يقال: رأيتُكَ زيداً، ومذهبُ الأخفش والكوفيين أنَّه يجوز أنْ يبدل من ضميري المخاطب والمتكلم، لكن البدل في الآية لا يصحُّ، ألا ترى أنَّه لا يصحُّ تفريغُ الفعل الواقع صلة لما بعدَ «إلَّا»، فلو قلت: ما زيدٌ بالذي يضرب إلَّا خالداً. لم يصح[٣]. اهـ.

وذكر بعضُ الأجلَّة أن جعلَه استثناءً من المفعول لا يصحُّ على جعل «التي» كنايةً عن التقوى؛ لأنه يلزم أن تكون الأموال والأولاد تقوى في حقِّ غير من آمن وعمل صالحاً، لكنها غير مقرِّبة. وقيل: لا بأس بذلك، إذ يصحُّ أن يقال: وما أموالكم ولا أولادكم بتقوى إلَّا المؤمنين، وحاصله أنَّ المال والولد لا يكونان تقوى ومقرِّبَيْنِ لأحدٍ إلَّا للمؤمنين. واذا كان الاستثناءُ منقطعاً صحَّ واتَّضح ذلك.

وجُوِّز أنْ يكون استثناءً من «أموالكم وأولادكم» على حذف مضاف، أي: إلَّا أموال مَن آمن وعمل صالحاً وأولادهم. وفي هذا ـ إذا جعل «التي» كنايةً عن التقوى ـ مبالغةٌ من حيث إنَّه جعل مال المؤمن الصالح وولده نفس التقوى، ثمَّ إنَّ تقريبَ الأموال المؤمنَ الصالح بإنفاقها فيما يرضي الله تعالى، وتقريبَ الأولاد بتعليمهم الخير وتفقيههم في الدين وترشيحهم للصلاح والطاعة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى «من»، والجمع باعتبار معناها، كما أنَّ الإفراد فيما تقدَّم باعتبار لفظها. وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلوِّ رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل، أي: فأولئك المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾ أي: لهم أن يجازيَهم الله تعالى الضعف، أي: الثوابَ المضاعف، فيجازيهم على الحسنة بعشر أمثالها أو بأكثر إلى سبع مئة، فإضافة «جزاء» إلى «الضعف» من إضافة المصدر إلى مفعوله.

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٥.

(٢) في إعراب القرآن له ٣/ ٣٥٢.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٨٥-٢٨٦.

وقرأ قتادة: «جزاءٌ الضعفُ» برفعهما[١]، فـ«الضِّعفُ» بدل. وجَوَّز الزجاج كونَه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الضعف[٢].

ويعقوب ـ في رواية ـ بنصب «جزاءً»، ورفع «الضعفُ»[٣]، فـ«جزاء» تمييز، أو حال من فاعل «لهم» إنْ كان «الضعف» مبتدأ، أو منه إن كان فاعلاً، أو نصب على المصدر لفعله الذي دلَّ عليه «لهم»، أي: يجزون جزاء.

وقرئ: «جزاءٌ» بالرفع والتنوين، «الضعفَ» بالنصب على إعمال المصدر[٤].

﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الصالحات ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي: في غرفات الجنَّة ومنازلها العالية ﴿ءَامِنُونَ ۝٣٧﴾ من جميع المكاره الدنيويَّة والأخرويَّة.

وقرأ الحسن وعاصم ـ بخلافٍ عنه ـ والأعمش ومحمد بن كعب: «في الغُرْفات» بإسكان الراء[٥]. وقرأ بعض القرَّاء بفتحها[٦]. وابن وثاب والأعمش وطلحة وحمزة وخلف: «في الغُرْفة» بالتوحيد وإسكان الراء[٧]، وابن وثاب أيضاً بالتوحيد وضمِّ الراء[٨]. والتوحيد على إرادة الجنس؛ لأنَّ الكلَّ ليسوا في غرفةٍ واحدة، والمفردُ أخصرُ مع عدم اللبس فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالردِّ والطعن فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ ـ أي: بحسب زعمهم الباطلِ ـ اللهَ عزَّ وجلَّ، أو الأنبياءَ عليهم السلام، وحاصله: زاعمينَ سبقَهم، وعدمَ قدرة الله تعالى أو أنبيائه عليهم السلام عليهم. ومعنى المفاعلة غير مقصود هاهنا.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٦.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٦.
(٣) هي رواية رويس عنه. انظر النشر ٢/ ٣٥١.
(٤) أوردها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩٢، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٢٣.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٨٦، وهي في القراءات الشاذة ص١٢٢ عنهم دون ذكر عاصم. وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجمهور.
(٦) القراءات الشاذة ص١٢٢، والكشاف ٣/ ٢٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٦.
(٧) البحر المحيط ٧/ ٢٨٦ دون ذكر خلف، وذكرها عنه القرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٢٣.
(٨) الدر المصون ٩/ ١٩٦.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي بَعُدَتْ منزلتهم في الشر ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾ لا يجديهم ما عَوَّلوا عليه نفعاً. وفي ذكر العذاب دون موضعه ما لا يخفى من المبالغة.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾ أي: يوسِّعُه سبحانَه عليه تارةً، ويضيِّقه عليه أخرى، فلا تخشوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله تعالى، وتقرَّبوا لديه عزَّ وجلَّ بأموالكم، وتعرَّضوا لنفحاته جلَّ وعلا، فمساقُ الآية للوعظ والتزهيد في الدنيا، والحضِّ على التقرُّب إليه تعالى بالإنفاق، وهذا بخلاف مساقِ نظيرها المتقدِّم، فإنَّه للردِّ على الكفرة كما سمعت. وأيضاً ما سبق عامٌّ، وما هنا خاصٌّ في البسط والتضييق لشخصٍ واحد باعتبار وقتين، كما يشعر به قوله تعالى هنا: «له» وعدمُ قوله هناك، والضمير وإن كان في موضعٍ من المبهم، إلَّا أنَّ سبق النظير خالياً عن ذلك، وذكر هذا بعدُ مشتملاً عليه، كالقرينة على إرادة ما ذُكر، فلا تغفل.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ يحتمل أنْ تكون «ما» شرطيةً في موضع نصب بـ «أنفقتم»، وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ جواب الشرط. ويحتمل أنْ تكون بمعنى «الذي» في موضع رفع بالابتداء، والجملة بعدُ خبرُه، ودخلت الفاء لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط. و«من شيء» تبيين على الاحتمالين.

ومعنى «يخلفه»: يعطي بدلَه وما يقوم مقامه عوضاً عنه، وذلك إمَّا في الدنيا بالمال، كما هو الظاهر، أو بالقناعة التي هي كنزٌ لا يفنى، كما قيل، وإمَّا في الآخرة بالثواب الذي كلُّ خلفٍ دونَه.

وخصَّه بعضهم بالآخرة، أخرج الفريابيُّ وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: إذا كان لأحدكم شيءٌ فليقتصد، ولا يتأوَّل هذه الآية: (﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾)، فإنَّ الرزقَ مقسومٌ، ولعلَّ ما قُسِم له قليلٌ، وهو ينفقُ نفقة الموسع عليه.

وأخرج مَن عدا الفريابي من المذكورين عنه أنه قال في الآية: أي: ما كان من خلفٍ فهو منه تعالى، وربَّما أنفقَ الإنسان مالَه كلَّه في الخير ولم يُخْلَفْ حتى يموت[1].

(١) الأثران في الدر المنثور ٥/٢٣٨-٢٣٩.

ومثلها: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦] يقول: ما آتاها من رزقٍ فمنه تعالى، وربما لم يرزقها حتى تموت.

والأول أظهرُ؛ لأنَّ الآيةَ في الحثِّ على الإنفاق، وأنَّ البَسْطَ والقَدْرَ إذا كانا من عنده عزَّ وجلَّ فلا ينبغي لمن وُسِّع عليه أنْ يخاف الضيعةَ بالإنفاق، ولا لمن قُدِرَ عليه زيادتها، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ تذييلٌ يؤيِّد ذلك، كأنَّه قيل: فيرزقه من حيث لا يحتسب.

وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يومٍ يصبحُ العباد فيه إلَّا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهمَّ أَعْطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أَعْطِ ممسكاً تلفاً»(١).

وأخرج البيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «كلَّ ما أنفقَ العبدُ نفقةً، فعلى الله تعالى خلفها ضامناً، إلَّا نفقةً في بنيانٍ أو معصية»(٢).

وأخرج البخاريُّ وابن مردويه عن أبي هريرة أنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: أَنْفِقْ يا ابنَ آدم أُنْفِقْ عليك»(٣).

وأخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ المعونةَ تنزلُ من السماء على قَدْرِ المؤونة»(٤).

وفي حديثٍ طويل عن الزبير: «قال الله تبارك وتعالى: أَنفق أُنفقْ عليك، وأوسع أوسع عليك، ولا تضيِّق أضيق عليك، ولا تصرَّ فأصرَّ عليك، ولا تخزن فأخزن عليك، إنَّ بابَ الرزق مفتوحٌ من فوق سبع سماوات، متواصلٌ إلى العرش، لا يُغلَقُ ليلاً ولا نهاراً، يُنزِل الله تعالى منه الرزق على كلِّ امرئٍ بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته، فمن أكثر أُكْثِرَ له، ومن أقلَّ أُقِلَّ له، ومن أمسك أُمسِكَ عليه،

---

(١) صحيح البخاري (١٤٤٢)، وصحيح مسلم (١٠١٠). وسلف ٣/٤٥٨.

(٢) شعب الإيمان (١٠٧١٢).

(٣) صحيح البخاري (٧٤٩٦).

(٤) نوادر الأصول ص١١٣، الأصل الثالث والسبعون.

يا زبير فكل وأطعم، ولا تُوكِ فيوكَى عليك، ولا تحصي فيحصَى عليك، ولا تقتِّر فيقتَّر عليك، ولا تعسِّر فيعسَّر عليك». الحديث[1].

ومعنى «الرازقين»: الموصلين للرزق والموهبين له، فيطلق الرازقُ حقيقةً على الله عزَّ وجلَّ وعلى غيره، ويشعر بذلك: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨]. نعم لا يُقَال لغيره سبحانه: رزَّاقٌ[2]، فلا إشكال في قوله سبحانه: «وهو خير الرازقين». ووجه الأَخْيَرية في غاية الظهور.

وقيل: إطلاقُ الرازق على غيره تعالى مجازٌ باعتبار أنَّه واسطةٌ في إيصال رزقه تعالى، فهو رازقٌ صورةً، فاستشكل أمرُ التفضيل بأنَّه لا بدَّ من مشاركة المفضَّل للمفضَّل عليه في أصل الفعل حقيقةً لا صورة.

وأجاب الآمديُّ بأنَّ المعنى: خيرُ من تسمَّى بهذا الاسم وأطلق عليه حقيقةً أو مجازاً، وهو ضربٌ من عموم المجاز.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: المستكبرين والمستضعفين، أو الفريقين وما كانوا يعبدون من دون الله عزَّ وجلَّ. و«يوم» ظرفٌ لمضمرٍ متقدِّم، أي: واذكر يوم، أو متأخر، أي: ويوم نحشرهم جميعاً ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إلى آخره، يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيطُ به نطاق المقال.

وظاهرُ العطف بـ «ثم» يقتضي أنَّ القولَ للملائكة متراخٍ عن الحشر، وفي الآثار ما يشهدُ له، فقد روي أنَّ الخلقَ بعد أن يُحشَروا يبقون قياماً في الموقف سبع آلاف سنة لا يُكَلَّمون[3]، حتى يَشفع في فصل القضاء نبيُّنا ﷺ، فلعلَّه عند ذلك يقول سبحانه وتعالى للملائكة عليهم السلام: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ تقريعاً للمشركين وتبكيتاً وإقناطاً لهم عمَّا علَّقوا به أطماعَهم الفارغة من شفاعة الملائكة

(١) نوادر الأصول ص١٥١، الأصل السادس عشر والمئة، ومعنى: ولا توكِ فيوكى عليك. قال الفيومي في المصباح المنير(الوكاء): الوكاء: حبل يُشَدُّ به رأس القِرْبة. وأوكيتُ السِّقاء: شددت فمه بالوكاء.

(٢) في الأصل و(م): رازق. والتصويب من النسخة النعمانية.

(٣) لم نقف عليه.

عليهم السلام؛ لعلمه سبحانه بما تُجيب به على نهج قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة:١١٦]، وتخصيصُهم بالذكر لأنَّهم أشرفُ شركاء المشركين الذين لا كتاب لهم، والصالحون عادةً للخطاب. وعبادتهم مبدأ الشرك بناءً على ما نقل ابنُ الورديِّ في «تاريخه» من أنَّ سبب حدوث عبادة الأصنام في العرب أنَّ عمرو بن لحي مرَّ بقومٍ بالشام، فرآهم يعبدون الأصنام، فسألهم، فقالوا له: هذه أربابٌ نتخذها على شكل الهياكل العلويَّة، فنستنصر بها ونستسقي، فتبعَهم، وأتى بصنمٍ معه إلى الحجاز، وَسَّول للعرب فعبدوه، واستمرَّت عبادةُ الأصنام فيهم إلى أن جاءَ الإسلام، وحدثت عبادةُ عيسى عليه السلام بعد ذلك بزمانٍ كثير.

فبظهور قصورهم عن رتبة المعبوديَّة وتنزُّههم عن عبادتهم، يظهر حال سائر الشركاء بطريق الأولوية.

و«هؤلاء» مبتدأ، و«كانوا يعبدون» خبره، و«إياكم» مفعول «يعبدون» قُدِّم للفاصلة، مع أنَّه أهمُّ لأمر التقريع.

واستدلَّ بتقديمه على جواز تقديم خبر «كان» ـ إذا كان جملةً ـ عليها، كما ذهب إليه ابن السرَّاج، فإنَّ تقديمَ المعمول مؤذِنٌ بجواز تقديم العامل.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ هذه القاعدة ليست مطَّردة، ثم قال: والأولى منعُ ذلك، إلَّا أن يدلَّ على جوازه سماعٌ من العرب[١].

وقرأ جمهور القراء: «نحشرهم»، «ثم نقول» بالنون في الفعلين[٢].

﴿قَالُوا۟﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا تقول الملائكة حينئذ؟ فقيل: تقول منزِّهين[٣] عن ذلك: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على التحقُّق، أي: أنت الذي نواليه من دونهم، لا موالاة بيننا وبينهم، كأنَّهم بيَّنوا بذلك براءتهم من الرضى بعبادتهم، ثم أضربوا عن ذلك، ونفوا أنَّهم

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٧.

(٢) التيسير ص١٠٧، والنشر ٢/ ٢٥٧. وقرأ حفص ويعقوب بالياء.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وجاء في تفسير أبي السعود ٥/ ١٣٧ـ والكلام منه ـ: متنزهين.

عبدوهم حقيقةً بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، كما روي عن مجاهد، حيث كانوا يطيعونَهم فيما يسوِّلون(١) لهم من عبادة غير الله تعالى.

وقيل: صَوَّرت الشياطينُ لهم صور قومٍ من الجنِّ، وقالوا: هذه صورُ الملائكة فاعبدوها. فعبدوها.

وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عُبِدت فيُعْبَدون بعبادتها.

وقيل: أرادوا أنَّهم عبدوا شيئاً تخيَّلوه صادقاً على الجنِّ، لا صادقاً علينا، فهم يعبدونَ الجنَّ حقيقةً دوننا.

وقال ابن عطية: يجوزُ أن يكونَ في الأمم الكافرة مَن عَبَد الجنَّ، وفي القرآن آياتٌ يظهر منها أنَّ الجنَّ عُبِدت، في سورة الأنعام وغيرها(٢).

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ الضمير الثاني للجنِّ، والأول للمشركين، والأكثر على ظاهره؛ لأنَّ من المشركين من لم يؤمن بهم وعبدهم اتِّباعاً لقومه، كأبي طالب، أو الأكثر بمعنى الكلِّ، واختار في «البحر» الأولَ؛ لأنَّ كونه بمعنى الكلِّ ليس حقيقةً، وقال: إنَّهم لم يدَّعوا الإحاطة، إذ يكون في الكفار من لم يُطْلِع اللهُ تعالى الملائكةَ عليهم السلام عليهم، أو أنَّهم حكموا على الأكثر بإيمانهم بالجنِّ؛ لأنَّ الإيمان من أعمال القلب، فلم يذكروا الاطِّلاع على عمل جميع قلوبهم؛ لأنَّ ذلك لله عزَّ وجلَّ(٣).

وجُوِّزَ أن يكون الضمير الأول للإنس، فالأكثر على ظاهره، أي: غالبهم مصدِّقون أنَّهم آلهة، وقيل: مصدِّقون أنَّهم بنات الله ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] وقيل: مصدِّقون أنَّهم ملائكة.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ من جملة ما يقال للملائكة عليهم السلام عند جوابهم بالتبرُّؤ عمَّا نَسب إليهم المشركون؛ يخاطبون بذلك على رؤوس

---

(١) في الأصل: يسولوه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤، والمراد قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الآية: ١٠٠].

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٨٧.

الأشهاد؛ إظهاراً لعجزهم وقصورهم عن زاعمي عبادتهم، وتنصيصاً على ما يوجب خيبةَ رجائهم بالكلية. وقيل: للكفار، وليس بذاك.

والفاء لترتيب الإخبار بما بعدها على جواب الملائكة عليهم السلام، ونسبةُ عدم النفع والضرِّ إلى البعض المبهَم للمبالغة فيما هو المقصود، الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدَة بنظمه في سلك عدم نفع العبدَة لهم، كأنَّ نفعَ الملائكة لعبدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم.

والتعرُّضُ لعدم الضرِّ ـ مع أنه لا بحث عنه ـ لتعميم العجز، أو لحمل عدمِ النفع على تقدير العبادة، وعدم الضرِّ على تقدير تركها.

وقيل: لأنَّ المراد دفعُ الضرِّ، على حذف المضاف. وفيه بُعْدٌ.

والمراد بـ «اليوم» يوم القيامة، وتقييد الحكم به ـ مع ثبوته على الإطلاق ـ لانعقاد رجاء المشركين على تحقُّق النفع يومئذٍ.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ عطفٌ على «نقول للملائكة». وقيل: على «لا يملك».

وتُعقِّبَ بأنَّه ممَّا يقال يوم القيامة خطاباً للملائكة مترتِّباً على جوابهم المحكي، وهذا حكايةٌ لرسول الله ﷺ لمَا سيقال للعبدة يومئذٍ إثْرَ حكاية ما سيقال للملائكة عليهم السلام. وأجيب بأنَّ ذلك ليس بمانعٍ. فتدبر.

ووقع الموصول هنا وصفاً للمضاف إليه، وفي «السجدة» في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الآية: ٢٠] صفة للمضاف، فقال أبو حيان: لأنَّهم ثمت كانوا ملابسين للعذاب، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] فوصف لهم ثمت ما لابَسوه، وهنا لم يكونوا ملابسين له، بل ذلك أول ما رأوا النار عقب الحشر، فوصف لهم ما عاينوه[١].

وكون الموصول هنا نعتاً للمضاف على أنَّ تأنيثَه مكتسَبٌ لتتحد الآيتان = تكلُّفٌ سمج.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٧.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ بيانٌ لبعضٍ آخر من كفرهم، أي: إذا تتلى عليهم بلسان الرسول ﷺ آياتُنا الناطقةُ بحقِّيَّة التوحيد وبطلان الشرك ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون رسولَ الله ﷺ التالي للآيات، والإشارةُ للتحقير - قاتلَهم الله تعالى - ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيجعلَكم من أتباعه من غير أن يكون له دينٌ إلهيٌّ، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم؛ لتحريك عِرْق العصبيَّة منهم، مبالغةً في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد.

﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنونَ القرآن المتلوَّ، والإشارةُ كالإشارة السابقة ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كلامٌ مصروفٌ عن وجهه، لا مصداق له في الواقع ﴿مُّفْتَرًى﴾ بإسناده إلى الله عز وجل.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ أي: لأمر النبوَّة التي معها من خوارق العادة ما معها، أو للإسلام المفرِّق بين المرء وزوجه وولده، أو القرآن الذي تتأثَّر به النفوس، على أنَّ العطف لاختلاف العنوان، بأنْ يُرَاد بالأول معناه، وبالثاني نظمُه المعجز ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ من غير تدبُّرٍ ولا تأمُّل فيه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ ظاهرٌ سحريَّته.

وفي ذكر «قال» ثانياً، والتصريح بذكر الكفرة، وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه[1]، وما في «لمَّا» من المسارعة إلى البتِّ بهذا القول الباطل = إنكارٌ عظيمٌ له وتعجيب[2] بليغٌ منه.

وجُوِّزَ أن تكون كلُّ جملةٍ صدرت من قومٍ من الكفرة.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾ أي: أهل مكَّة ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ تقتضي صحَّة الإشراك ليعذروا فيه، فهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] وقوله سبحانه: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١] وإلى هذا ذهب ابن زيد.

---

(١) قوله: وما في اللامين...، يعني به مجيء القائلين والمقول فيه معرَّفين، الأول - وهو «الذين كفروا» - بالموصولية، والثاني - وهو «للحق» - بأل العهدية المساوية للموصولية في العهد، فلذا قال: في اللامين، تغليباً. حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٩.

(٢) في الأصل و(م): وتعجب، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٦، وتفسير أبي السعود ٧/ ١٣٨.

وقال السُّدِّيّ: المعنى: ما آتيناهم كتباً يدرسونها فيعلموا بدراستها بطلانَ ما جئتَ به. ويرجعُ إلى الأول، والمقصود نفي أن يكون لهم دليلٌ على صحَّة ما هم عليه من الشرك.

و«من» صلة، وجمع الكتب إشارة ـ على ما قيل ـ إلى أنَّه لشدَّة بطلانه واستحالة إثباته بدليلٍ سمعيٍّ أو عقليٍّ يحتاج إلى تكرُّر الأدلة وقوَّتها، فكيف يُدَّعى ما تواترت الأدلَّة النيِّرة على خلافه.

وقرأ أبو حيوة: «يَدَّرِسُونَها» بفتح الدال وشدِّها وكسر الراء[1]، مضارع ادَّرس افتعل من الدرس، ومعناه: يتدارسونها، وعنه أيضاً: «يُدَرِّسونها» من التدريس[2]، وهو تكرير الدرس، أو من دَرَسَ الكتاب مخففاً، ودَرَّس الكتب ـ مشدَّداً ـ التضعيفُ فيه باعتبار الجمع.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: وما أرسلنا إليهم قبلَك نذيراً يدعوهم إلى الشرك، وينذرهم بالعقاب على تركه، وقد بان من قبلُ أنْ لا وجهَ له بوجهٍ من الوجوه، فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ؟! وفيه من التهكُّم والتجهيل ما لا يخفى.

ويجوزُ أن يراد أنَّهم أمِّيُّون كانوا في فترةٍ، لا عذرَ لهم في الشرك، ولا في عدم الاستجابة لك، كأهلِ الكتاب الذين لهم كتبٌ ودينٌ يأبون تركَه ويحتجُّون على عدم المتابعة بأنَّ نبيَّهم حذَّرهم تركَ دينه، مع أنَّه بيِّنُ البطلان؛ لثبوت أمرِ من قبله باتِّباعه وتبشيرِ الكتب به.

وذكر ابنُ عطية أنَّ الأرضَ لم تخلُ من داعٍ إلى توحيد الله تعالى، فالمراد نفي إرسال نذيرٍ يختصُّ بهؤلاء ويشافههم، وقد كان عند العرب كثيرٌ من نذارة إسماعيلَ عليه السلام، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤] ولكن لم يتجرَّد للنذارة وقاتلَ عليها إلَّا محمَّدٌ ﷺ[3]. اهـ.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٩.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٨٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤.

ثمَّ إنَّه تعالى هدَّدهم بقوله سبحانه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأمم المتقدِّمة والقرون الخالية بما كذَّبوا ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾ أي: أهل مكَّة ﴿مِعۡشَارَ﴾ أي: عشر ﴿مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ وقال قومٌ: المعشار: عُشْرُ العشر، ولم يرتضه ابنُ عطيَّة[١]. وقال الماورديُّ[٢]: المراد المبالغة في التقليل، أي: ما بلغوا أقلَّ قليلٍ ممَّا آتينا أولئك المكذِّبين من طول الأعمار وقوة الأجسام وكثرة الأموال.

﴿فَكَذَّبُواْ﴾ أي: أولئك المكذِّبون ﴿رُسُلِيۖ﴾ الذين أرسلتُهم إليهم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٥﴾ أي: إنكاري لهم بالتدمير، فليحذر هؤلاء من مثل ذلك.

والفاء الأولى سببيَّة، و«كذب» الأول تَنزَّلَ[٣] منزلةَ اللازم، أي: فعل الذين من قبلهم التكذيبَ وأقدموا عليه، ونظيرُ ذلك أن يقول القائل: أَقْدَمَ فلانٌ على الكفر، فكفر بمحمدٍ ﷺ. ومن هنا قالوا: إنَّ «كذبوا رسلي» عطفٌ على «كذب الذين» عطفَ المقيَّد على المطلق، وهو تفسيرُ معنًى، و«ما بَلَغوا» اعتراض، والفاء الثانية فصيحةٌ، فيكون المعنى: فحين كذَّبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير، فكيف كان نكيري لهم. وجعل التدمير إنكاراً تنزيلاً للفعل منزلة القول، كما في قوله:

. ونَشْتمُ بالأفعال لا بالتكلُّمِ[٤]

أو على نحو:

تحيةُ بَيْنِهم ضربٌ وجيعُ[٥]

وجَوَّز بعضُهم أن تكون صيغة التفعيل في: «كذب الذين» للتكثير، وفي «كذبوا» للتعدية، والمكذِّب فيهما واحد، أي أنَّهم أكثروا الكذب وأَلِفُوه فصار سجيَّةً لهم، حتى اجترؤوا على تكذيب الرسل، وعلى الوجهين لا تكرار.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤.
(٢) في النكت والعيون ٤/ ٤٥٥.
(٣) لفظة: تنزل. من (م)، وليست في الأصل.
(٤) عجز بيت لمعبد بن علقمة، وسلف ٧/ ٢٧٦.
(٥) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٥/ ٦٤.

وجُوِّز أن يكون «كذَّبوا رسلي» منعطفاً على «ما بَلَغوا» من تتمَّة الاعتراض، والضمير لأهل مكَّة، يعني هؤلاء لم يبلغوا معشار ما آتينا أولئك المكذِّبين الأوَّلين، وفضَلوهم في التكذيب؛ لأنَّ تكذيبَهم لخاتَم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام تكذيبٌ لجميع الرسل عليهم السلام من وجهين، وعليه لا يُتَوَهَّم تكرارٌ كما لا يخفى.

وكون جملة «ما بَلَغوا» معترضةً هو الظاهر، وجعلُ «وكذب الذين من قبلهم» تمهيداً؛ لئلَّا تكون تلك الجملة كذلك، يدفعه: «فكيف كان نكير»؛ لأنَّ معناه للمكذِّبين الأولين ألبتة، فلا التئام دون القول بكونها معترضة.

وإرجاع ضمير «بَلَغوا» إلى أهل مكَّة، والضمير المنصوب في «آتيناهم» إلى «الذين من قبلهم»، وبيان الموصول بما سمعت، هو المرويُّ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد.

وقيل: الضمير الأول للذين من قبلهم، والضمير الثاني لأهل مكَّة، أي: وما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى.

وقيل: الضميران للذين من قبلهم، أي: كذبوا وما بلغوا في شكر النعمة ومقابلة المنَّة عشر ما آتيناهم من النعم والإحسان إليهم. واستظهر ذلك أبو حيان معلِّلاً له بتناسق الضمائر، حيث جعل ضمير «فكذبوا» للذين من قبلهم[1]، فلا تغفل.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: ما أرشدكم وأنصح لكم إلَّا بخصلةٍ واحدةٍ، وهي ـ على ما قال قتادة ـ ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ على أنَّه في تأويل مصدر بدلٌ منها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي قيامكم، أو مفعولٌ لفعلٍ محذوف، أي: أعني قيامكم.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٩-٢٩٠.

وجَوَّز الزمخشريُّ كونَه عطف بيان لـ «واحدة»[١]. واعترض بأن «أن تقوموا» معرفة؛ لتقديره بـ: قيامكم، وعطف البيان يشترطُ فيه عند البصريين أن يكون معرفةً من معرفة، وهو عند الكوفيين يتبعُ ما قبلَه في التعريف والتنكير، والتخالف ممَّا لم يذهب إليه ذاهب.

والظاهر أنَّ الزمخشريَّ ذاهبٌ إلى جواز التخالف، وقد صرَّح ابنُ مالك في «التسهيل» بنسبة ذلك إليه[٢]، وهو من مجتهدي علماء العربية، وجُوِّزَ أن يكون قد عبَّر بعطف البيان وأراد البدل لتآخيهما، وهذا إمام الصناعة سيبويه يسمِّي التوكيدَ صفةً، وعطفَ البيان صفةً[٣]، ثمَّ إنَّ كون المصدر المسبوك معرفةً أو مؤوَّلاً بها دائماً غيرُ مسلَّم.

والقيام مجازٌ عن الجدِّ والاجتهاد. وقيل: هو على حقيقته، والمراد القيام عن مجلس رسول الله ﷺ. وليس بذاك، وقد رُوي نفيُ إرادته عن ابن جريج.

أي: إن تجدُّوا وتجتهدوا في الأمر بإخلاصٍ لوجه الله تعالى ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: متفرِّقين اثنين اثنين وواحداً واحداً، فإنَّ في الازدحام على الأغلب تهويشَ الخاطر، والمنعَ من الفكر، وتخليطَ الكلام، وقلَّة الإنصاف[٤]، كما هو مشاهدٌ في الدروس التي يجتمعُ فيها الجماعة، فإنَّه لا يكاد يوقف فيها على تحقيق.

وفي تقديم «مثنى» إيذانٌ بأنَّه أوثق وأقرب إلى الاطمئنان. وفي «البحر»[٥]: قدَّم لأنَّ طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرةٍ واحدةٍ، فإذا انقدحَ الحقُّ بين الاثنين فكَّر كلٌّ واحدٍ منهما بعد ذلك، فيزيدُ بصيرةً، وشاع الفتح بين الاثنين.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٤.

(٢) التسهيل ص ١٧٥، وشرحه لابن مالك ٣/ ٣٢٦.

(٣) انظر الأول في الكتاب ٢/ ٣٥١، ٣٥٩، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٥، ٣٩١، والثاني فيه ٢/ ١٩٢.

(٤) في الأصل: الإنصات. والمثبت من (م) والبحر ٧/ ٢٩٠.

(٥) ٧/ ٢٩١.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمره ﷺ وما جاء به لتعلموا حقِّيَّته. والوقف عند أبي حاتم هنا، وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ استئنافٌ مسوقٌ من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمُّل؛ بأنَّ مثل هذا الأمر العظيم الذي تحتَه ملكُ الدنيا والآخرة لا يتصدَّى لادّعائه إلَّا مجنونٌ لا يبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان، وظهورِ عجزه، أو مؤيَّدٌ من عند الله تعالى، مرشَّحٌ للنبوَّة، واثقٌ بحجَّته وبرهانه، وإذ قد علمتم أنَّه عليه الصلاة والسلام أرجحُ الناس عقلاً، وأصدقُهم قولاً، وأزكاهم نفساً، وأفضلُهم علماً، وأحسنُهم عملاً، وأجمعُهم للكمالات البشرية = وجبَ أنْ تصدِّقوه في دعواه، فكيف وقد انضمَّ إلى ذلك معجزاتٌ تخرُّ لها صمُّ الجبال.

والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بـ «صاحبكم» للإيماء إلى أنَّ حاله ﷺ مشهورٌ بينهم؛ لأنَّه نشأ بين أظهرهم معروفاً بما ذكرنا.

وجُوِّزَ أن يكون متعلِّقاً بما قبله، والوقفُ على «جِنَّة» على أنَّه معمولٌ[(١)] لفعل: علم، مقدَّر لدلالة التفكُّر عليه؛ لكونه طريق العلم، أي: «ثم تتفكروا» فتعلموا «ما بصاحبكم من جِنَّة». أو معمولٌ لـ «تتفكَّروا» على أنَّ التفكُّر مجازٌ عن العلم، أو معمول له بدون ارتكاب تجوُّزٍ؛ بناءً على ما ذهب إليه ابنُ مالك في «التسهيل» من أنَّ «تفكَّر» يعلَّق حملاً على أفعال القلوب[(٢)].

وجُوِّزَ أن يكون هناك تضمينٌ، أي: ثمَّ تتفكروا عالمين ما بصاحبكم من جِنَّة.

وقال ابن عطية[(٣)]: هو عند سيبويه جوابُ ما ينزل منزلةَ القسم؛ لأنَّ «تفكَّر» من الأفعال التي تعطي التمييز[(٤)] كـ «تبيَّن»، وتكون الفكرة على هذا في آيات الله تعالى والإيمان به. اهـ. وهو كما ترى.

و«ما» مطلقاً نافية، والباء بمعنى «في»، و«من» صلة.

---

(١) في (م): مفعول.

(٢) شرح التسهيل لابن مالك ٢/ ٨٩.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥، وذكره عنه أيضاً أبو حيان في البحر ٧/ ٢٩١.

(٤) في المحرر الوجيز: التي تعطي التحقيق، والمذكور موافق لما في البحر.

وقيل: «ما» للاستفهام الإنكاريّ، و«من» بيانيَّة، وجُوِّزَ أنْ تكون صلةً أيضاً. وفيه تطويلُ المسافة، وطيُّها أولى.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ هو عذابُ الآخرة، فإنَّه ﷺ مبعوثٌ في نَسَمِ الساعة[1]، وجاء: «بعثتُ أنا والساعة كهاتين»، وضمَّ عليه الصلاة والسلام الوسطى والسبابة على المشهور[2].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: مهما سألتكم من نفعٍ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفيُ السؤال رأساً، كقولك لصاحبك: إن أعطيتني شيئاً فخذه. وأنت تعلمُ أنَّه لم يعطِك شيئاً. فـ «ما» شرطية مفعول «سألتكم»، وهو المرويُّ عن قتادة.

وقيل: هي موصولة، والعائد محذوف، و«من» للبيان، ودخلت الفاء في الخبر لتضمُّنها معنى الشرط، أي: الذي سألتكموه من الأجر فهو لكم وثمرته تعودُ إليكم، وهو - على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما - إشارةٌ إلى المودَّة في القربى في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وكونُ ذلك لهم على القول بأنَّ المراد بالقربى قرباهم ظاهر، وأما على القول بأنَّ المراد بها قرباه عليه الصلاة والسلام، فلأنَّ قرباه ﷺ قرباهم أيضاً، أو هو إشارةٌ إلى ذلك وإلى ما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧] وظاهرٌ أنَّ اتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتُهم الكبرى.

وجوز كون «ما» نافيةً، و«من» صلة، وقوله سبحانه: «فهو لكم» جواب شرط مقدَّر، أي: فإذا لم أسألكم فهو لكم. وهو خلافُ الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ يؤيِّدُ إرادةَ نفي السؤال رأساً.

---

(١) يشير إلى حديث أبي جبيرة رضي الله عنه مرفوعاً: «بعثتُ في نسم الساعة» قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٠٩: أخرجه البزار بإسناد حسن من حديث أبي جبيرة بن الضحاك الأنصاري، وأخرجه الحسن بن سفيان، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية [١٦١/٤]. ومعنى: نَسَم الساعة. هو من النسيم أول هبوب الريح الضعيفة، أي: بُعثت في أول أشراط الساعة. النهاية (نسم).

(٢) سلف عند تفسير الآية (١٨٧) من سورة الأعراف.

وقُرئ: «إن أجريْ» بسكون الياء[1].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٤٧﴾ أي: مُطَّلعٌ، فيعلم سبحانه صدقي وخلوصَ نيَّتي.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ قال السُّدِّيُّ وقتادة: بالوحي، وفي روايةٍ أخرى عن قتادة: بالقرآن، والمآلُ واحد.

وأصلُ القذف: الرميُ بدفعٍ شديدٍ، وهو هنا مجازٌ عن الإلقاء. والباء زائدة، أي: إنَّ ربي يلقي الوحي وينزلُه على قلب من يَجتبيه من عباده سبحانه.

وقيل: القذف مُضَمَّنٌ معنى الرمي، فالباء ليست زائدة.

وجُوِّز أن يراد بالحقِّ مقابل الباطل، والباء للملابسة، والمقذوف محذوف، والمعنى: إنَّ ربِّي يلقي ما يلقي إلى أنبيائه عليهم السلام من الوحي بالحقِّ لا بالباطل.

وعن ابن عباس: إنَّ المعنى يقذف الباطلَ بالحقِّ، أي: يورده عليه حتى يبطلَه عزَّ وجلَّ ويزيلَه، والحقُّ مقابل الباطل، والباء مثلها في قولك: قتلته بالضرب.

وفي الكلام استعارةٌ مصرّحةٌ تبعيَّة، والمستعار منه حسِّيٌّ، والمستعار له عقليّ. وجُوِّزَ أن تكون الاستعارة مكنيَّة.

وقيل: المعنى: يرمي بالحقِّ إلى أقطار الآفاق، على أنَّ ذلك مجازٌ عن إشاعته، فيكون الكلام وعداً بإظهار الإسلام وإفشائه. وفيه من الاستعارة ما فيه.

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝٤٨﴾ خبرٌ ثانٍ، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو سبحانه علَّامُ الغيوب، أو صفةٌ محمولةٌ على محلِّ «إنَّ» مع اسمها، كما جوَّزهُ الكثير من النحاة، وإنْ منعَه سيبويه، أو بدلٌ من ضمير «يقذف»، ولا يلزم خلوُّ جملة الخبر من العائد؛ لأنَّ المبدل منه ليس في نيَّة الطرح من كلِّ الوجوه. وقال الكسائيُّ: هو نعتٌ لذلك الضمير، ومذهبُه جوازُ نعت المضمر الغائب.

---

(١) هي قراءة شعبة عن عاصم، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، ويعقوب وخلف. انظر التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١.

وقرأ عيسى وزيدُ بن عليٍّ وابن أبي إسحاق وابن أبي عبلة وأبو حيوة وحرب عن طلحة: «عَلَّامَ» بالنصب[١]، فقال الزمخشريُّ: صفة لـ «ربِّي»[٢]. وقال أبو الفضل الرازي وابن عطية[٣]: بدل. وقال الحوفي: بدلٌ أو صفة. وقيل: نصب على المدح.

وقرأ ابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائيُّ: «الغِيوب» بالكسر كالبيوت، والباقون بالضم كالعشور، وهو فيهما جمع[٤].

وقرئ بالفتح كصبور على أنه مفرد للمبالغة[٥].

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلامُ والتوحيد، أو القرآن.

وقيل: السيف؛ لأنَّ ظهورَ الحقِّ به. وهو كما ترى.

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: الكفر والشرك ﴿وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: ذهبَ واضمحلَّ بحيثُ لم يبقَ له أثرٌ، مأخوذٌ من هلاك الحيِّ، فإنَّه إذا هلك لم يبق له إبداءٌ، أي: فعلُ أمرٍ ابتداءً، ولا إعادة، أي: فِعْلُه ثانياً، كما يقال: لا يأكل ولا يشرب، أي: ميت، فالكلام كنايةٌ عما ذكر، أو مجازٌ متفرِّعٌ على الكناية، وأنشدوا لعبيدِ بن الأبرص:

أقفرَ من أهله عبيدُ ... فاليوم لا يبدي ولا يعيدُ[٦]

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٩٢. وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥ عن عيسى وابن أبي إسحاق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٥.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥، والكلام من البحر ٧/ ٢٩٢.

(٤) قراءة أبي بكر وحمزة في التيسير ص ١٠١، والنشر ٢/ ٢٢٦. وقراءة الكسائي وابن ذكوان المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.

(٥) انظر الكشاف ٣/ ٢٩٥، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٩٢.

(٦) البيت في الأغاني ٢٢/ ٨٨ وفيه:

فليس يبدي ولا يعيد

وذكر محققه أن في بعض النسخ:

فاليوم لا يبدي ولا يعيد

=

وقال جماعةٌ: الباطل: إبليس، وإطلاقه عليه لأنه مبدؤه ومنشؤه، ولا كناية في الكلام عليه، والمعنى: لا ينشئ خلقاً ولا يعيد، أو: لا يُبْدِئُ خيراً لأهله ولا يعيد، أي: لا ينفعهم في الدنيا والآخرة.

وقيل: هو الصنم، والمعنى ما سمعت. وعن أبي سليمان أنَّ المعنى: إنَّ الصنمَ لا يبتدئ من عنده كلاماً فيجاب، ولا يردُّ ما جاء من الحقِّ بحجَّة.

و «ما» على جميع ذلك نافية، وقيل: هي على ما عدا القول الأوَّل للاستفهام الإنكاريّ، منتصبةٌ بما بعدها، أي: أيَّ شيءٍ يبدئ الباطل، وأيَّ شيء يعيد؟ ومآله النفي.

والكلام جُوِّزَ أن يكون تكميلاً لما تقدَّم، وأن يكون من باب العكس والطرد، وأن يكون تذييلاً مقرِّراً لذلك، فتأمل.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحقِّ ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي: عائداً ضررُ ذلك ووباله عليها، فإنَّها الكاسبةُ للشرور والأمَّارةُ بالسوء ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى الحقِّ ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فإنَّ الاهتداءَ بهدايته تعالى وتوفيقه عزَّ وجلَّ.

و «ما» موصولةٌ أو مصدريَّة، وكان الظاهر: وإن اهتديتُ فلها، كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦]، أو: إن ضللتُ فإنما أضلُّ بنفسي، ليظهر التقابل، لكنَّه عدلَ عن ذلك اكتفاءً بالتقابل بحسب المعنى؛ لأنَّ الكلام عليه أجمع، فإنَّ كلَّ ضررٍ فهو من النفس وبسببها، وعليها وبالُه.

وقد دلَّ لفظُ «على» في القرينة الأولى على معنى اللام في الثانية، والباء في الثانية على معنى السببيَّة في الأولى، فكأنَّه قيل: قل: إنْ ضللتُ فإنما أضلُّ بسبب نفسي على نفسي، وإن اهتديتُ فإنَّما اهتدي لنفسي بهداية الله تعالى وتوفيقه سبحانه. وعبَّر عن هذا بـ «ما يوحي إليَّ ربي» لأنه لازمه.

= ثم قال: والرواية التي معنا أصوب، لأن الأبيات من مخلع البسيط، أما المصراع الوارد في تلك النسخ فمن الرجز. اهـ.

وأورده البغدادي في الخزانة ١١٨/٢ بمثل رواية المصنف.

وجَعْلُ «على» للتعليل - وإن ظهر عليه التقابل - ارتكابٌ لخلاف الظاهر من غير نكتة.

وجُوِّزَ أن يكون معنى القرينة الأولى: قل إن ضللتُ فإنَّما أضلُّ عليَّ لا على غيري. ولا يظهرُ عليه أمر التقابل مطلقاً.

والحكم - على ما قال الزمخشريُّ[١] - عامٌّ، وإنما أمر ﷺ أنْ يسندَه إلى نفسه؛ لأنَّ الرسولَ إذا دخل تحته مع جلالة محلِّه وسداد طريقته، كان غيره أولى به.

وقال الإمام: أي: إن ضلال نفسي كضلالكم؛ لأنه صادرٌ من نفسي ووباله عليها، وأما اهتدائي فليس كاهتدائكم بالنظر والاستدلال، وإنَّما هو بالوحي المنير[٢]. فيكون مجموع الحكمين عنده مختصًّا به عليه الصلاة والسلام، وفيما ذكره دلالة - على ما قال الطيبي - على أنَّ دليل النقل أعلى وأفحم[٣] من دليل العقل. وفيه بحث.

وقرأ الحسن وابن وثَّاب وعبد الرحمن المقري: «ضَلِلت» بكسر اللام، و«أَضَلُّ» بفتح الضاد، وهي لغة تميم. وكسر عبد الرحمن همزة «إِضل»[٤].

وقُرِئ: «رَبِّيَ» بفتح الياء[٥].

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾ فلا يخفى عليه سبحانه قولُ كلٍّ من المهتدي والضالِّ وفعلُه، وإنْ بالغَ في إخفائهما، فيجازِي كلاًّ بما يليق به[٦].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ أي: اعتراهم انقباضٌ ونِفَارٌ من الأمر المهول المخيف. والخطاب في «ترى» للنبيِّ ﷺ، أو لكلِّ من تصحُّ منه الرؤية.

ومفعول «ترى» محذوفٌ، أي: الكفار، أو فزعَهم، أو هو «إذ» على التجوُّز،

---

(١) في الكشاف ٣/ ٢٩٦.
(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٧١.
(٣) في (م): وأفخم.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٩٢.
(٥) هي قراءة أبي عمرو ونافع وأبي جعفر. انظر التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١.
(٦) لفظة: به. ليست في (م).

إذ المراد برؤية الزمان رؤيةُ ما فيه، أو هو متروكٌ؛ لتنزيل الفعل منزلةَ اللازم، أي: لو تقع منك رؤية، وجواب «لو» محذوف، أي: لرأيتَ أمراً هائلاً.

وهذا الفزع ـ على ما أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ـ يومَ القيامة[1]، والظاهرُ عليه أنَّه فزعُ البعث، وهو مرويٌّ عن الحسن.

وأخرج ابنُ المنذر وغيره عن قتادة أنَّه في الدنيا عند الموت، حين عاينوا الملائكةَ عليهم السلام[2].

وأخرج عبد بن حميد عن الضحَّاك أنَّه يومُ بدر[3]. فقيل: هو فزع الحرب.

وعن السُّدِّيِّ وابن زيد: فزع ضرب أعناقهم ومعاينة العذاب.

وقيل: في آخر الزمان حين يظهر المهدي ويَبعث إلى السفيانيِّ جنداً فيهزمهم، ثم يسير السفيانيُّ إليه، حتى إذا كان ببيداء من الأرض خُسِف به وبمن معه، فلا ينجو منهم إلَّا المخبر عنهم، فالفزعُ فزع ما يصيبهم يومئذٍ.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون اللهَ عزَّ وجلَّ بهربٍ أو نحوه عمَّا يريد سبحانه بهم.

﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ من الموقف إلى النار، أو من ظهر الأرض إلى بطنها، أو من صحراء بدر إلى القليب، أو من تحت أقدامهم إذا خُسِف بهم. والمراد بذكر قرب المكان سرعةُ نزول العذاب بهم، والاستهانة بهم وبهلاكهم، وإلَّا فلا قرب ولا بُعْدَ بالنسبة إلى الله عزَّ وجلَّ.

والجملة عطفٌ على «فَزِعوا» على ما ذهب إليه جماعة، قال في «الكشف»: وكأنَّ فائدة التأخير أنْ يقدّر: فلا فوت، ثانياً؛ إمَّا تأكيداً، وإما أنَّ أحدهما غير الآخر تنبيهاً على أنَّ عدمَ الفوت سببٌ للأخذ، وأنَّ الأخذ سببٌ لتحقُّقه وجوداً. وفيه مبالغة حسنة.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٠.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٤٠، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم أيضاً. وهو في تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٣٣.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٤٠.

وقيل: على «لا فوت» على معنى: فلم يفوتوا وأخذوا، واختاره ابن جنِّي معترضاً على ما تقدَّمَ بأنَّه لا يراد: ولو ترى وقتَ فزعهم وأخذِهم، وإنما المراد: ولو ترى إذ فزعوا ولم يفوتوا وأخذوا[1]. وبما نُقل عن «الكشف» يتحصَّل الجواب عنه.

وجُوِّزَ كونها حالاً من فاعل «فَزعوا»، أو من خبر «لا» المقدَّر، وهو «لهم»، بتقدير «قد» أو بدونه.

والفاء في «فلا فوت» قيل: إنْ كانت سببيَّةً فهي داخلةٌ على المسبَّب؛ لأنَّ عدمَ فوتهم من فزعهم وتحيُّرهم، وإنْ كانت تعليليَّة فهي تدخل على السبب؛ لترتُّب ذكره على ذكر المسبَّب، وإذا عطف «أخذوا» عليه أو جعل حالاً من الخبر يكون هو المقصود بالتفريع.

وقرأ عبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه وطلحة: «فلا فوتٌ وأخذٌ» مصدرين منوَّنين[2]. وقرأ أبيّ: «فلا فوتَ» مبنياً، و«أخذٌ» مصدراً منوَّناً[3]. وإذا رفع «أخذ» كان خبرَ مبتدأ محذوف، أي: وحالهم أخذٌ، أو مبتدأٌ خبره محذوف، أي: وهناك أخذٌ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان[4]، وقال الزمخشريُّ: قرئ «وأخذٌ» بالرفع، على أنَّه معطوفٌ على محلِّ «لا فوت»، ومعناه: فلا فوت هناك وهناك أخذ[5].

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالله عزَّ وجلَّ، على ما أخرجه جمعٌ عن مجاهد[6].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٣، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٢ عن عبد الرحمن فقط.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٩٣.

(٤) في البحر ٧/ ٢٩٣.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٩٦.

(٦) الدر المنثور ٥/ ٢٤١ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣١٤.

وقالت فرقة: أي: بمحمد ﷺ، وقد مرَّ ذكره في قوله سبحانه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقيل: الضمير للعذاب. وقيل: للبعث. ورُجِّحَ رجوعه إلى محمدٍ عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّ الإيمان به ﷺ شاملٌ للإيمان بالله عزَّ وجلَّ وبما ذُكر من العذاب والبعث.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ التناوش: التناول، كما قال الراغب[(١)]، ورويَ عن مجاهد.

وقال الزمخشريُّ: هو تناولٌ سهلٌ لشيءٍ قريب، يقال: ناشَهُ يَنُوشُه، وتَنَاوشَه القومُ، وتناوشوا في الحرب: ناش بعضُهم بعضاً بالسلاح[(٢)]. وقال الراجز:

فهي تنوشُ الحوضَ نوشاً من عَلَا ... نوشاً به تَقْطَعُ أجوازَ الفلا[(٣)]

وإبقاؤه على عمومه أولى، أي: من أين لهم أن يتناولوا الإيمان ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ فإنَّه في حيِّز التكليف، وهم منه بمعزلٍ بعيد.

ونقل في «البحر»[(٤)] عن ابن عباس تفسير «التناوش» بالرجوع، أي: من أين لهم الرجوعُ إلى الدنيا، وأنشد ابن الأنباريّ:

---

(١) في المفردات (نوش).
(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٦.
(٣) هو في مجاز القرآن ٢/ ١٥٠ (البيت الأول منه)، ولسان العرب (نوش) منسوباً لغيلان بن حريث. ونسب في الصحاح ولسان العرب (علا) لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص٢١٠.
وورد دون نسبة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وإصلاح المنطق ص ٢٦٦، وأدب الكاتب ص ٥٠٣، والكامل ٣/ ١٤٣٣، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥-٣١٦، والمنصف لابن جني ١/ ١٢٤.
وقال البطليوسي في الاقتضاب ص ٤٢٧: لا أعلم لمن هذا الرجز.
وذكر سيبويه البيت الأول منه في الكتاب ٣/ ٤٥٣. قال البغدادي في خزانة الأدب ٩/ ٤٣٩: وهذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعلم قائلها.
(٤) ٧/ ٢٩٣.

تَــمَــنَّــى أنْ تَــؤوبَ إلــيَّ مَــيٌّ   ولَـيـس إلـى تـنـاوشـهـا سـبـيـلُ(١)

ولا يخفى أنَّه ليس بنصٍّ في ذلك. والمرادُ تمثيلُ حالهم في الاستخلاص بالإيمان بعدما فاتَ عنهم وبَعُدَ بحالِ مَن يريدُ أن يتناول الشيءَ بعد أنْ بَعُدَ عنه وفات في الاستحالة.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وأبو عمرو وأبو بكر: «التناؤش» بالهمز(٢)، وخُرِّج على قلب الواو همزةً.

قال الزجاج: كلُّ واوٍ مضمومةٍ ضمَّةً لازمةً، فأنت بالخيار فيها، إن شئت أبقيتَها، وإن شئتَ قلبتَها همزةً، فتقول: ثلاث أدْوُرٍ بلا همز، وثلاث أدؤر بالهمز(٣).

وتعقَّب ذلك أبو حيان فقال: إنَّه ليس على إطلاقه، بل لا يجوز ذلك في المتوسطة إذا كانت مدغماً فيها نحو: تعوُّد وتعوُّذ، مصدرين، وقد صَرَّحَ بذلك في «التسهيل»، ولا إذا صحَّت في الفعل نحو: تَرَهْوَكَ تَرَهْوُكاً، وتعاونَ تعاوُناً، وعلى هذا لا يصحُّ التخريج المذكور؛ لأنَّ التناوش كالتعاون في أنَّ واوه قد صحَّت في الفعل، إذ تقول: تناوش، فلا يهمز.

وقال الفراء(٤): هو من نَأَشْتُ، أي: تأخَّرتُ، وأنشد قولَ نهشل:

تـمـنَّـى نَـئِـيْـشـاً أنْ يـكـون أطـاعـنـي   وقـد حَـدَثـت بـعـد الأمـور أمـورُ(٥)

---

(١) الزاهر لابن الانباري ١/ ٢٤٤، وهو أيضاً في النكت والعيون ٤/ ٤٥٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٦، والبحر المحيط ٧/ ٢٩٣.
ووقع في الزاهر والمحرر: إليك. بدل: إلي.

(٢) التيسير ص ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥١، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٩.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٥.

(٥) نسبه الزمخشري في المستقصى ١/ ٣٠٢، والبصري في حماسته ٢/ ٣٧، وابن منظور في اللسان (نأش) لنهشل بن حَرِّي.

=

أي: تمنَّى أخيراً، والضميرُ للمولَى في قوله:

ومولًى عصاني واستبدَّ برأيه كما لم يُطَع فيما أشار[1] قصيرُ

فالهمزةُ فيه أصليَّةٌ، واللفظ وردَ من مادتين.

وقال بعضهم: هو من نأشت الشيءَ، إذا طلبتَه، قال رؤبة:

أقحمني جارُ أبي الخابوش إليك نأش القدر النؤوش[2]

فالهمزة أصليَّةٌ أيضاً.

قيل: والتناؤش على هذين القولين بمعنى التناول من بُعْدٍ؛ لأنَّ الأخير يقتضي ذلك، والطلب لا يكون للشيء القريب منك الحاضر عندك، فيكون «من مكان بعيد» تأكيداً، أو يجرَّد التناوش لمطلق التناول. وحمل البعد في قيده على البعد الزمانيِّ بحثَ فيه الشهاب بأنَّه غيرُ صحيح؛ لأنَّ المستعارَ منه هو في المكان، وما ذكر من أحوال المستعار له[3].

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ حالٌ أو معطوفٌ أو مستأنفٌ، والأول أقرب، والضمير المجرور لما عاد عليه الضميرُ السابق في «آمنا به». ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل ذلك في أوان التكليف.

= وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥، والزاهر ١/ ٢٤٤، والصحاح (نأش) دون نسبة.

(١) في (م): أشاء. وهي غير واضحة في الأصل. والمثبت من اللسان (نأش)، وحاشية الشهاب ٧/ ٢١٢. ورواية البيت في الحماسة البصرية: في البقتين. بدل: فيما أشار.

(٢) ديوان رؤبة ص٧٧-٧٨، وفيه: أبي الخاموش، وقد اضطربت المصادر فيه، فجاء في غريب الحديث لإبراهيم الحربي ٢/ ٨٨٤: أبي الحاشوش. وفي المخصص لابن سيده ١٣/ ٥١: أفحمني جار أبي الخاموش. وفي تفسير البيضاوي (ومعه حاشية الشهاب) ٧/ ٢١٢: أبي الخاموش، مثل رواية الديوان.
قال الشهاب الخفاجي في حاشيته: وأقحمني في بيت رؤبة بالقاف والحاء المهملة، بمعنى ألجأني، وأبو الخاموش بالخاء والشين المعجمتين عَلَم رجلٍ. وقيل: أفحم بالفاء، والجاموس بالجيم. ولست على ثقة منه. اهـ.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٢١٣.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: وكانوا يرجمون بالمظنون، ويتكلَّمون بما لم يظهر لهم ولم ينشأ عن تحقيق في شأن الله عزَّ وجلَّ، فينسبونَ إليه سبحانه الشريكَ، ويقولون: الملائكةُ بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، أو في شأن الرسول عليه الصلاة والسلام، فيقولون فيه ـ وحاشاه ـ: شاعر، وساحر، وكاهن، أو في شأن العذاب، أو البعث، فيبتُّون القولَ بنفيه.

﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ من جهةٍ بعيدة من أمر مَن تكلَّموا في شأنه، والجملة عطف على «وقد كفروا»، وكان الظاهر: وقَذَفوا، إلَّا أنه عدلَ إلى صيغة المضارع حكايةً للحال الماضية.

والكلام قيل: لعله تمثيلٌ لحالهم مِنَ التكلُّم بما يظهرُ لهم ولم ينشأ عن تحقيقٍ بحالِ من يرمي شيئاً لا يراه من مكانٍ بعيد. لا مجال للظنِّ في لحوقه.

وجَوَّز الزمخشريُّ كونَه عطفاً على «قالوا آمنا به» على أنَّهم مُثِّلوا في طلبهم تحصيلَ ما عطَّلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم: آمنا في الآخرة ـ وذلك مطلبٌ مستبعدٌ ـ بمن يقذفُ شيئاً من مكانٍ بعيدٍ لا مجال للظنِّ في لحوقه، حيث يريد أنْ يقع فيه لكونه غائباً عنه شاحطاً(١).

وقرأ مجاهد وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو: «يُقْذَفون» مبنيّاً للمفعول(٢). قال مجاهد: أي: ويَرجمهم الوحيُ بما يكرهون ممَّا غاب عنهم من السماء، وكأنَّ الجملةَ في موضع الحال من ضمير «كفروا»، كأنه قيل: وقد كفروا به من قبل، وهم يُقْذَفون بالحقِّ الذي غاب عنهم وخفيَ عليهم. والمراد تعظيم أمر كفرهم.

وجُوِّزَ أن يُرَاد بالغيب ما خفي من معايبهم، أي: وقد كفروا، وهم يقذفهم الوحيُ من السماء ويرميهم بما خفي من معايبهم.

وقال أبو الفضل الرازي: أي: ويُرمون بالغيب من حيث لا يعلمون، ومعناه:

---

(١) الكشاف ٣/٢٩٦-٢٩٧.

(٢) البحر المحيط ٧/٢٩٤، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٢، والمحتسب ٢/١٩٧ عن مجاهد فقط.

يجازَون بسوء أعمالهم، ولا علم لهم بمأتاه؛ إمَّا في حال تعذُّر التوبة عند معاينة الموت، وإمَّا في الآخرة. انتهى. وفي حالية الجملة عليه نوعُ خفاء.

وقال الزمخشريُّ: أي: وتَقذفهم الشياطينُ بالغيب ويلقِّنونهم إيَّاه[1]. وكأنَّ الجملة عطف على «قد كفروا».

وقيل: أي: يلقونَ في النار. وهو كما ترى.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال ابن عباس: هو الرجوع إلى الدنيا. وقال الحسن: هو الإيمان المقبول. وقال قتادة: طاعةُ الله تعالى. وقال السُّدِّيُّ: التوبة. وقال مجاهد: الأهلُ والمال والولد.

وقيل: أي: حيل بين الجيش والمؤمنين بالخسف بالجيش، أو بينهم وبين تخريب الكعبة، أو بينهم وبين النجاة من العذاب، أو بينهم وبين نعيم الدنيا ولذَّتِها، وروي ذلك عن مجاهد أيضاً.

و«حيل» مبنيٌّ للمجهول، ونائب الفاعل ـ كما قال أبو حيان ـ ضميرُ المصدر، أي: وحيل هو، أي: الحول، وحاصله: وقعت الحيلولة، ولإضماره لم يكن مصدراً مؤكِّداً، فناب مناب الفاعل، وعلى ذلك يخرَّجُ قوله:

وقالت متى يُبْخَل عليك ويُعْتَللْ ... يَسؤكَ وإن يُكْشفْ غرامُك تَدربِ[2]

أي: يعتلل هو، أي: الاعتلال.

وقال الحوفيُّ: قام الظرفُ مقام الفاعل. وتعقَّبه في «البحر»[3] بأنه لو كان كذلك لكان مرفوعاً، والإضافة إلى الضمير لا تسوِّغُ البناء، وإلا لساغ: جاء غلامَك، بالفتح، ولا يقوله أحد. نعم للبناء للإضافة إلى المبنيِّ مواضعُ أحكمت في النحو، وماذا يقول الحوفيُّ في قوله:

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٥. والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٤٢.

(٣) ٧/ ٢٩٤.

وقـد حيـل بيـن العيـر والنَّـزوان(١)

فإنَّه نصب «بينَ» مع إضافتها إلى معرب

وقرأ ابنُ عامر والكسائي بإشمام الضَّمِّ للحاء(٢).

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة. و«من قبل» متعلِّق بـ «أشياعهم»، على أنَّ المراد مَن اتَّصفَ بصفتهم «من قبل» أي: في الزمان الأول. ويرجِّحه أنَّ ما يفعل بجميعهم في الآخرة إنَّما هو في وقت واحدٍ. أو متعلِّقٌ بفعل إذا كانت الحيلولة في الدنيا.

وعن الضحاك أنَّ المرادَ بـ «أشياعهم» أصحاب الفيل، والظاهر أنَّه جعل الآية في السفيانيِّ ومن معه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي: مُوقعٍ في ريبة، على أنَّه من أَرَابه: أَوْقَعه في ريبة وتهمة، أو: ذي ريبة، من أرابَ الرجلُ: صارَ ذا ريبة، فإمَّا أن يكون قد شَبَّه الشكَّ بإنسانٍ يصحُّ أن يكون مريباً على وجه الاستعارة المكنيَّة التخييلية، أو يكون الإسنادُ مجازيًّا أسند فيه ما لصاحب الشكِّ للشكِّ مبالغةً، كما يقال: شعر شاعر، وكأنه من هنا قال ابن عطية: الشكُّ المريبُ أقوى ما يكونُ من الشَّكِّ(٣)، وضميرُ الجمع للإشباع، وقيل: لأولئك المحدَّث عنهم. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في بعض آيات السورة ما قيل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَالطَّيْرَ﴾ أشير بالجبال إلى عالم المُلك، وبالطير إلى عالم الملكوت، وقد ذكروا أنه إذا تمكن الذكر سرى في جميع أجزاء البدن، فيسمعُ الذاكرُ كلَّ جزءٍ منه ذاكراً، فإذا ترقَّى حالُه يسمعُ كلَّ ما في عالم الملك كذلك، فإذا ترقَّى يسمعُ كلَّ ما في الوجود كذلك ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) سلف ١/ ٢٣٣، وهو لصخر بن عمرو بن الشريد، وصدره:

أهـمُّ بـأمـر الـحـزم لا أسـتـطـيـعـه

(٢) التيسير ص ١٨١، والنشر ٢/ ٢٠٨، وهي قراءة رويس راوية يعقوب من العشرة أيضاً.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ القلب ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ وهي الحِكَمُ البالغة التي تظهر من القلب على اللسان ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: في سرد الحديث، بأن تتكلَّم بالحكمة على قَدْرِ ما يتحمَّله عقل مخاطبك، وقد ورد: كلِّموا الناس بما يعرفون، أتريدونَ أن يكذَّب الله تعالى ورسوله ﷺ[1].

ومن هنا يصعبُ الجوابُ عمَّن تكلم من المتصوفة بما ينكرُه أكثر من يسمعُه من العلماء، وبه ضلَّ كثيرٌ من الناس.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ ريح العناية ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ فكان يتصرَّف بالهمَّة وقذف الأنوار في قلوب متَّبعيه من مسافة شهر ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ إشارةٌ إلى قوة باطنه، حيث انقادَ له مَن جُبِلَ على المخالفة وفعل الشرور.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ وهو مَن شَكَره بالأحوال، أعني التخلُّقَ بأخلاق الله تعالى.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى أن الضعيفَ قد يفيد القويَّ علماً.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي مقامات أهل الباطن من العارفين ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ وهي مقامات أهل الظاهر من الناسكين ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ﴾ في ليالي البشرية ﴿وَأَيَّامًا﴾ في أيام الروحانية ﴿ءَامِنِينَ﴾ في خفارة الشريعة.

وقال بعض الفرقة الجديدة الكشفيَّة[2]: القرى المبارك فيها: الأئمَّة رضي الله عنهم، والقرى الظاهرة: الدعاة إليهم والسفراء بينهم وبين شيعتهم.

﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بميلهم إلى الدنيا وتركِ السير لسوء استعدادهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الهيبة تمنع الفهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي: ما أخرجناك من العدم إلى الوجود ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾

---

(١) هو من قول سيدنا علي، وسلف ١٣/ ٣٠٨.

(٢) سلف التعريف بهذه الطائفة ٢١/ ١٣٥.

الأولين والآخِرين ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وهذا حاله عليه الصلاة والسلام في عالم الأرواح وفي عالم الأجساد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذ لا نورَ لهم يهتدون به.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ هؤلاء قُطّاع الطريق على عباد الله تعالى، ومِثْلُهم المنكرون على أولياء الله تعالى، الذين يُنَفِّرون الناس عن الاعتقادِ بهم واتِّباعهم.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ من القرآن، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه نورٌ لا يبقى معه ديجور، أو مراتبُ الاهتداء به متفاوتةٌ حسب تفاوت الفهم الناشئ من تفاوت صفاء الباطن وطهارته، وقد ورد أنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً[1]، ولا يكاد يصلُ الشخص إلى باطنه إلَّا بتطهير باطنه، كما يرمز إليه قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩].

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لفهمِ ظاهره وباطنه إلى ما شاء من البطون، فإنَّه جلَّ وعلا القادر الذي يقول للشيء كن فيكون.

---

(١) ولم يصح في ذلك شيء، ومع ذلك فقد قالوا: إن الظاهر هو اللفظ، والباطن هو المعنى، وينظر ما سلف ١/١٠٩.

(٣٥) سورة فاطر مكية وآياتها خمس وأربعون

سورة فاطر من السور المكيَّة التي تُعنى بأصول العقيدة الإسلامية « الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، والملائكة ، والكتب ، والرسل » وسائر شئون الإيمان كما هو الحال في السور المكية ، وهي ختامُ السور المفتتحة بالحمد ، التي فصّلت فيها أصولُ النّعم على العبادِ من ربّ الأرباب ، وهي سورة « الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر » وهي خمسُ سور في القرآن ليس غير . سُميت بسورة فاطر لذكر هذا الاسم الجليل ، والنَّعْت الجميل في طليعتها ، ولما فيها من الوصف الدالّ على عظمة ذي الجلال ، وعجيب صنعه ، وباهر قدرته ، فقد خلق الملائكة خلقاً عظيماً ، وجعلَهم ذوي أجنحةٍ متنوعة في العدد ، يطيرون بها ليبلّغوا ما أُمروا به سريعاً ﴿ الحمدُ للهِ فَاطِرِ السمواتِ والأرضِ ، جاعلِ الملائكةِ رُسُلاً أُولي أَجْنحةٍ مَثْنَى ، وثُلاثَ ، ورُبَاعَ ، يزيدُ في الخَلْق ما يشاءُ ، إنَّ اللهَ على كلِ شيءٍ قدير ﴾ .

وتذكّرُ السورة بنعم الله على العباد ، فما مِنْ نعمةٍ إلاّ واللهُ مُسْدِيها ، ولا مِن فضلٍ وإحسانٍ إلاّ وهو من مِنَن الرحمن ، ولا من خلقٍ وتقدير إلاّ وهو من صنع العليّ القدير ﴿ ما يفتحِ اللهُ للناسِ من رحمةٍ فلا مُمْسك لها ، وما يُمْسك فلا مُرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . يا أيها الناسُ ذكروا نعمةَ الله عليكم ، هل من خالقٍ غيرُ الله يرزقُكم من السماء والأرض ؟ لا إلهَ إلاّ هو فأنّى يُؤفكون ؟ ﴾ .

وتحذِّر السورة من الاغترار بهذه الحياة العاجلة الفانية ، ومن العدوِّ الأكبر إبليس اللعين الذي قعد للناس بالمرصاد ليصدَّهم عن دين الله ويجعلهم من حزبه ﴿يا أيها الناسُ إنَّ وعد اللهِ حقٌّ فلا تغرنَّكم الحياةُ الدنيا ، ولا يُغرنَّكم باللهِ الغَرور . إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ فاتَّخِذوه عَدُوّاً ، إنما يدعو حزبَه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ .

وتقيم السورة الأدلة والبراهين على البعث والنشور في صفحاتِ هذا الكون المنظور بالأرض تحيا بعد موتها بنزول المطر ، وبخروج الزرع والثمر ، وهذا من أظهر الآيات وأوضحها على إمكان البعث بعد الموت ﴿واللهُ الذي أرسَل الرياحَ فتثير سحاباً ، فَسُقْناه إلى بلدٍ ميِّتٍ ، فأحيَيْنا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور﴾ .

ثم تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في خلق الإنسان في أطوار ، وعن المياه في الأنهار والبحار ، وعن إيلاج الليل في النهار ، وتسخير الشمس والقمر عبرةً لأولي النُّهى والأبصار ﴿والله خَلَقَكُمْ من تُرابٍ ، ثُمَّ من نُطْفةٍ ، ثم جعلكم أَزْواجاً ، وما تَحْمِلُ من أُنْثى ولا تَضَعُ إلا بعِلمِه ، وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُره إلاَّ في كتابٍ ، إنَّ ذلكَ على الله يسيرٌ . وما يستوي البحرانِ : هذا عذبٌ فُراتٌ سائغٌ شرابُه ، وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حليةً تَلْبسونها ، وترى الفُلْك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، وسخَّر الشمسَ والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مُسمًّى ، ذلكم اللهُ ربُّكم له المُلْكُ ، والذين تدعون من دونه ما يَمْلكون مِنْ قِطْمير﴾ ثم يبيّن لهم قيمة الآلهة المزعومة التي لا تسمع الدعاء ، ولا تستجيب النداء ﴿إنْ تَدْعُوهم لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، ولَوْ سَمِعُوا ما اسْتَجَابوا لكم ، ويومَ القيامةِ يَكْفُرون بِشرْكِكُمْ ، ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبير﴾ .

وتتحدث السورة عن الفارق الهائل بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، وتضرب الأمثال بالأعمى والبصير ، والظلام والنور ، والحيّ والميّت ليظهر لذي البصائر المؤمن الذي يسير على نورٍ من ربه ، والكافرُ الذي يتخبَّطُ في ظُلُماته ﴿وما يستوي الأعمى والبصيرُ . ولا الظلمات ولا النُّورُ . ولا الظِّلُ ولا الحَرُورُ . وما يستوي الأحياء ولا الأمواتُ ، إن الله يسمع من يشاء وما أنتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القبور . إنْ أنتَ إلا نذير﴾ .

ومن العِبَر والعِظَات إلى الدلائل الواضحات على وحدانية الله العليّ القدير ، تتحدث السورة عن أنواع الثمار المختلفة الألوان ، من أصفرَ ، وأحمرَ ، وأخضرَ ، وأبيض مع أختلاف الطعوم والروائح ، وكلُّها تُسقى بماءٍ واحد ، ثم الاختلاف الواضح بين طبقات الأرض ، وبين سائر المخلوقات من البشر والدوابِّ والأنعام ، المختلفة الأشكال والأجناس والصُّوَر ، وكلُّها شاهدةٌ بوجود الله ، ناطقةٌ بعظمته وجلاله ﴿ألم تَرَ أنَّ اللهَ أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها ، ومن الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلفٌ ألوانُها وغرابيبَ سُوْدٌ . ومن الناس والدوابِّ والأنعام مختلفٌ ألوانُه كذلك ، إنما يَخْشَي اللهَ من عبادِهِ العلماءُ ، إنَّ الله عزيزٌ غفورٌ﴾ .

وتتحدث السورة بعد ذلك عن ميراثِ الأمة المحمدية لأشرف الرسالات السماوية ، بإنزال هذا الكتاب المجيد الجامع لفضائلِ الكتب ، ثم انقسام الناس أمام هذه الوراثةِ الربانية إلى ثلاثة أنواع : المقصِّر ، والمحسن ، والسابق بالخيرات . وكلُّهم من هذه الأمة المحمدية التي ورَّثها الله أشرف الرسالاتِ السماوية ﴿ثم أورثنا الكتابَ الَّذينَ اصْطَفَينا من عبادنا ، فمنهم ظالمٌ لنفْسِهِ ، ومنهم مُقْتَصِدٌ ، ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذن الله ، ذلك هو الفضلُ الكبير . جناتُ عدنٍ يدخلونها يُحلَّون فيها من أساورَ من ذهبٍ ولُؤْلُؤاً ، ولباسُهم فيها حرير﴾ وفي مقابل هؤلاء

السعداء الأبرار يأتي الحديث عن الأشقياء الفُجّار ، للموازنة بين الفريقين أهل الجنة وأهل النار ﴿والذين كفروا لهم نارُ جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ، ولا يُخفَّفُ عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كلَّ كفور . وهم يصطرخون فيها ربَّنا أخرجنا نعملْ صالحاً غيرَ الذي كنّا نعمل ، أوَ لمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يتذكَّر فيه مَنْ تذكَّر ، وجاءكم النذيرُ فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ وتختم السورة الكريمة بفضل الله على العباد بإمهالهم حتى يتداركوا في هذه الحياة مافاتَ ، وهذا من نعم الله تعالى عليهم كما ذكَّرهم بنعمه الفائضة في أول السورة الكريمة ليتناسق البدء مع الختام ﴿ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بما كسبوا ما ترك على ظهرها ظهرها من دابة ولكنْ يؤخرهم إلى أجلٍ مُسمًّى ، فإذا جاء أجلُهم فإنَّ الله كان بعباده بصيراً﴾

سورة فاطر

سورة الملائكة

[٧٦٢] أخرج[١] جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[٢] الآية حيث قال النبي [ﷺ]: **«اللّهم أعز دينك بعمر ابن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام»** فهدى الله عمر وأضل أبا جهل ففيهما أنزلت.

[٧٦٣] وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي نزلت فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٣] الآية.

[٧٦٤] وأخرج البيهقي في البعث وابن أبي حاتم من طريق نفيع بن الحارث عن عبدالله بن أبي أوفى قال: قال رجل للنبي [ﷺ]: يا رسول الله أن النوم مما يقر الله به أعيننا في الدنيا فهل في الجنة من نوم قال: **«لا أن النوم شريك الموت وليس في الجنة موت»** قال فما راحتهم فأعظم ذلك رسول الله [ﷺ] وقال: **«ليس فيها لغوب كل أمرهم راحة»** فنزلت ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[٤].

[٧٦٥] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال أنه بلغه أن قريشاً كانت تقول لو أن الله بعث منا نبياً ما كانت أمه من الأمم طوع لخالقها ولا أسمع لنبيها ولا أشد تمسكاً بكتابها منا فأنزل الله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾[٥] ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾[٦] ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن

---

[٧٦٢] (١) كذا بالأصل والحديث رواه ابن ماجة في سننه (١٠٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٧٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٨٣)، والطبراني في الكبير (٢/ ٩٣)، وابن حبان (٢١٨٠ موارد الظمآن).

(٢) سورة فاطر: الآية (٨).

[٧٦٣] (٣) سورة فاطر: الآية (٢٩).

[٧٦٤] (٤) سورة فاطر: الآية (٣٥).

[٧٦٥] (٥) سورة الصافات: الآية (١٦٧ و١٦٨).

(٦) سورة الأنعام: الآية (١٥٧).

جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾[1] وكانت اليهود تستفتح به على النصارى فيقولون إنا نجد نبياً يخرج.

* * *

(١) سورة فاطر: الآية (٤٢).

سورة فاطر

اربعون وخمس آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة في أكثر الأمر، ونعم الله قسمان: عاجلة وآجلة، والعاجلة وجود وبقاء، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإيجاد، واستدللنا عليه بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ [الأنعام: ٢] وقوله في الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإبقاء، فإن البقاء والصلاح بالشرع والكتاب، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم، فكان يفضي ذلك إلى التقاتل والتفاني، فإنزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل، وفي قوله في سورة سبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سبأ: ١] إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بالحشر، واستدللنا عليه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الأجسام ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأرواح ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢] وقوله عن الكافرين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ [سبأ: ٣] وهاهنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي يجعلهم رسلاً يتلقون عباد الله، كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وعلى هذا فقوله تعالى ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يحتمل وجهين الأول: معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس، والثاني: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ فإن في ذلك اليوم تكون الملائكة رسلاً، وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأن قوله كما فعل بأشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله: آمنت. كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ [سبأ: ٥٢] فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بإرساله الملائكة إليهم مبشرين، وبيّن أنه يفتح لهم أبواب الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أقل ما يكون لذي الجناح أن يكون له جناحان وما

بعدهما زيادة، وقال قوم فيه: إن الجناح إشارة إلى الجهة، وبيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شيء، وكل شيء فهو تحت قدرته ونعمته، والملائكة لهم وجه إلى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما يأخذوه بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] وقال تعالى في حقهم: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] فهما جناحان، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة، وفيهم من يفعله لا بواسطة، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات، ومنهم من له أربع جهات وأكثر، والظاهر ما ذكرناه أولاً وهو الذي عليه إطباق المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ من المفسرين من خصصه وقال: المراد الوجه الحسن، ومنهم من قال: الصوت الحسن، ومنهم من قال: كل وصف محمود، والأولى أن يعمم، ويقال: الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقرر قوله: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾

لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الأمر، وقال ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ يعني إن رحم فلا مانع له، وإن لم يرحم فلا باعث له عليها، وفي الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه: أحدها التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة في الذكر، وهو وإن كان ضعيفًا لكنه وجه من وجوه الفضل، وثانيها: هو أن أنث الكناية في الأول فقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وجاز من حيث العربية أن يقال له ويكون عائدًا إلى ما، ولكن قال تعالى: ﴿لَهَا﴾ ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهي واصلة إلى من رحمته، وقال عند الإمساك ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة، بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذي لا يرسل هو غير الرحمة فإن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ فإنه مخصص مبين، وثالثها: قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد الله، فاستثنى ههنا وقال: لا مرسل له إلا الله، فنزل له مرسلاً. وعند الإمساك قال: لا ممسك لها، ولم يقل: غير الله، لأن الرحمة إذا جاءت لا ترتفع فإن من رحمه الله في الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره، ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الإيمان.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ

رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي كامل القدرة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي كامل العلم.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الإجمال فقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء.

فقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء.

وقال تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء.

ثم بين أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نظرًا إلى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شيء قدير نافذ الإرادة في كل شيء ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ونظرًا إلى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلا هو.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف تصرفون عن هذا الظاهر، فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت. ثم لما بين الأصل الأول: وهو التوحيد ذكر الأصل الثاني: وهو الرسالة فقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

ثم بين من حيث الإجمال أن المكذِّب في العذاب. والمكذَّب له الثواب بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ثم بين الأصل الثالث: وهو الحشر.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

أي الشيطان وقد ذكرنا ما فيه من المعنى اللطيف في تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول: المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأي فيغتر بأدنى شيء، وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به ولكن إذا جاءه غار وزين له ذلك الشيء وهون عليه مفاسده، وبين له منافع، يغتر لما فيها من اللذة مع ما ينضم إليه من دعاء ذلك الغار إليه، وقد يكون قوي الجأش غزير العقل فلا يغتر ولا يغر فقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى الدرجة الأولى، وقال: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ إشارة إلى الثانية ليكون واقعًا في الدرجة الثالثة وهي العليا فلا يغر ولا يغتر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾

[فاطر: ٥] ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار، وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ولا تسمعوا قوله، وقوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي اعملوا ما يسوءه وهو العمل الصالح.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن من يكون له عدو فله في أمره طريقان: أحدهما: أن يعاديه مجازاة له على معاداته، والثاني: أن يذهب عداوته بإرضائه، فلما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أمرهم بالعداوة وأشار إلى أن الطريق ليس إلا هذا، وأما الطريق الآخر وهو الإرضاء فلا فائدة فيه لأنكم إذا راضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤديكم إلا إلى السعير.

واعلم أن من علم أن له عدوًّا لا مهرب له منه وجزم بذلك فإنه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر، فكذلك الشيطان لا يقدر الإنسان أن يهرب منه فإنه معه، ولا يزال يتبعه إلا أن يقف له ويهزمه، فهزيمة الشيطان بعزيمة الإنسان، فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة.

ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فالمعادي للشيطان وإن كان في الحال في عذاب ظاهر وليس بشديد، والإنسان إذا كان عاقلاً يختار العذاب المنقطع اليسير دفعًا للعذاب الشديد المؤبد ألا ترى أن الإنسان إذ عرض في طريقه شوك ونار ولا يكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولا يدخل النار ونسبة النار التي في الدنيا إلى النار التي في الآخرة دون نسبة الشوك إلى النار العاجلة.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ قد ذكر تفسيره مرارًا، وبين فيه أن الإيمان في مقابلته المغفرة فلا يؤبد مؤمن في النار، والعمل الصالح في مقابلته الأجر الكبير.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾

يعني ليس من عمل سيئًا كالذي عمل صالحًا، كما قال بعد هذا بآيات ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠] وله تعلق بما قبله وذلك من حيث إنه تعالى لما بين حال المسيء الكافر والمحسن المؤمن، وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيئًا إلا قليل، فكان الكافر يقول: الذي له العذاب الشديد هو الذي يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها، والذي له الأجر العظيم نحن الذين دمنا على ما كان عليه آباؤنا، فقال الله تعالى لستم أنتم بذلك فإن المحسن غير، ومن زين له العمل السيئ فرآه حسنًا غير، بل الذين زين لهم السيئ دون من أساء وعلم أنه مسيء فإن الجاهل الذي يعلم جهله والمسيء الذي يعلم سوء عمله يرجع ويتوب والذي لا يعلم يصر على الذنوب، والمسيء العالم له صفة ذم بالإساءة وصفة مدح بالعلم. والمسيء الذي يرى الإساءة إحسانًا له صفتا ذم الإساءة والجهل، ثم بين أن الكل

بمشيئة الله، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ وذلك لأن الناس أشخاصهم متساوية في الحقيقة والإساءة والإحسان، والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فإذا عرفها البعض دون البعض لا يكون ذلك باستقلال منهم، فلا بد من الاستناد إلى إرادة الله. ثم سلى رسول الله ﷺ حيث حزن من إصرارهم بعد إتيانه بكل آية ظاهرة وحجة باهرة فقال: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ [الكهف: ٦]. ثم بين أن حزنه إن كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم وبما يصنعون لو أراد إيمانهم وإحسانهم لصدهم عن الضلال وردهم عن الإضلال، وإن كان لما به منهم من الإيذاء فالله عالم بفعلهم يجازيهم على ما يصنعون.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾

ثم عاد إلى البيان فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾.

هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لأن الهواء قد يسكن، وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى اليسار، وفي حركاته المختلفة قد ينشأ السحاب، وقد لا ينشأ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ﴾ بلفظ الماضي وقال: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ بصيغة المستقبل، وذلك لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى في العدم لا زمانًا ولا جزءًا من الزمان، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة والتقدير كالإرسال، ولما أسند فعل الإثارة إلى الريح وهو يؤلف في زمان فقال: ﴿فَتُثِيرُ﴾ أي على هيئتها.

المسألة الثانية: قال: ﴿أَرۡسَلَ﴾ إسنادًا للفعل إلى الغائب وقال: ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ بإسناد الفعل إلى المتكلم وكذلك في قوله: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا﴾ وذلك لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال، ثم لما عرف قال: أنا الذي عرفتني سقت السحاب، وأحييت الأرض فنفي الأول كان تعريفًا بالفعل العجيب، وفي الثاني كان تذكيرًا بالنعمة فإن كما (ل) نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء وقوله: (سقناه) و(أحيينا) بصيغة الماضي يؤيد ما ذكرناه من الفرق بين قوله: ﴿أَرۡسَلَ﴾ وبين قوله: (تثير).

المسألة الثالثة: ما وجه التشبيه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه وجوه: أحدها: أن الأرض الميتة

لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة، وثانيها: كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء، وثالثها: كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت.

المسألة الرابعة: ما الحكمة في اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل شيء آية تدل على أنه واحد؟ فنقول: لما ذكر الله أنه فاطر السموات والأرض، وذكر من الأمور السماوية والأرواح وإرسالها بقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[فاطر: ١] ذكر من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾

لما بين برهان الإيمان إشارة إلى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا في طاعة أحد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم، فكانوا ينحتون الأصنام وكانوا يقولون: إن هذه آلهتنا، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وأية عزة فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهي عدم التذلل للرسول وترك الأتباع له، فقال: إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة، فهي كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز، ومن يتعزز عليه فهو الذليل.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال في هذه الآية: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨] فقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يدل على أن لا عزة لغيره فنقول: قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ أي في الحقيقة وبالذات وقوله: ﴿وَلِرَسُولِهِۦ﴾[المنافقون: ٨] أي بواسطة القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول، وذلك لأن عزة المؤمنين بواسطة النبي ﷺ ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١].

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ تقرير لبيان العزة، وذلك لأن الكفار كانوا يقولون: نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده، لأن البعد من الملك ذلة، فقال تعالى: إن كنتم لا تصلون إليه، فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب فمن قبل كلامه وصعد إليه فهو عزيز ومن رد كلامه في وجهه فهو ذليل، وأما هذه الأصنام لا يتبين عندها الذليل من العزيز إذ لا علم لها فكل أحد يمسها وكذلك يرى عملكم فمن عمل صالحًا رفعه إليه، ومن عمل سيئًا رده عليه، فالعزيز من الذي عمله لوجهه والذليل من يدفع الذي عمله في وجهه، وأما هذه الأصنام فلا تعلم

شيئًا فلا عزيز يرفع عندها ولا ذليل، فلا عزة بها بل عليها ذلة، وذلك لأن ذلة السيد ذلة للعبد ومن كان معبوده وربه وإلهه حجارة أو خشبًا ماذا يكون هو؟!

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وجوه: أحدها: كلمة لا إله إلا الله هي الطيبة، وثانيها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر طيب، ثالثها: هذه الكلمات الأربع وخامسة وهي تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم، فهو إليه يصعد.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وفي الهاء وجهان أحدهما: هي عائدة إلى الكلم الطيب أي العمل الصالح هو الذي يرفعه الكلم الطيب ورد في الخبر «**لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ قَوْلاً بِلاَ عَمَلٍ**». وثانيهما: هي عائدة إلى العمل الصالح وعلى هذا في الفاعل الرافع وجهان: أحدهما: هو الكلم الطيب يرفع العمل الصالح، وهذا يؤيده قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧] وثانيهما: الرافع هو الله تعالى.

المسألة الخامسة: ما وجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثاني حيث يصعد الكلم بنفسه ويرفع العمل بغيره، فنقول الكلام شريف، فإن امتياز الإنسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] أي بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يمنع ومن دونه لا يجد الطريق إلا عند الطلب ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة إن كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة، وإن كان ظاهرًا أمن في نفسه ودمه وأهله وحرمه في الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النساء: ٥٧] ووجه آخر: القلب هو الأصل وقد تقدم ما يدل عليه، وقال النبي ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١) وما في القلب لا يظهر إلا باللسان وما في اللسان لا يتبين صدقه إلا بالفعل، فالقول أقرب إلى القلب من الفعل، ألا ترى أن الإنسان لا يتكلم بكلمة إلا عن قلب، وأما الفعل قد يكون لا عن قلب كالعبث باللحية ولأن النائم لا يخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو في أكثر الأمر لا يتكلم في نومه إلا نادرًا، لما ذكرنا أن الكلام بالقلب ولا كذلك العمل، فالقول أشرف.

المسألة السادسة: قال الزمخشري: المكر لا يتعدى فبم انتصاب السيئات؟ وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيئات فهو وصف مصدر محذوف، ويحتمل أن يقال استعمل المكر

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان)، باب: (فضل من استبرأ لدينه) (١/ ١٥٣)، حديث رقم (٥٢) من طريق أبي نعيم... به، ومسلم في كتاب (المساقاة)، باب: (أخذ الحلال وترك الشبهات) (٣/ ١٠٧/ ١٢١٩) من طريق محمد بن عبد الله بن شمير الهمداني... عن أبي، كلاهما (أبو نعيم، محمد بن عبد الله) عن زكريا عن عامر قال: سمعت النعمان بن بشير... فذكره.

استعمال العمل فعداه تعديته كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [العنكبوت: ٤]وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [العنكبوت: ٤]يحتمل ما ذكرناه أن يكون السيئات وصفًا لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيئات، وعلى هذا فيكون هذا في مقابلة قوله: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ إشارة إلى بقائه وارتقائه ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي العمل السيئ ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ إشارة إلى فنائه.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١﴾

قد ذكرنا مرارًا أن الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها في عدد محصور منحصرة في قسمين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: ٥٣]فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات وما يرسل منها من الملائكة والأرض وما يرسل فيها من الرياح شرع في دلائل الأنفس، وقد ذكرنا تفسيره مرارًا وذكرنا ما قيل من أن قوله: ﴿مِّن تُرَابٖ﴾ إشارة إلى خلق آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ إشارة إلى خلق أولاده، وبينا أن الكلام غير محتاج إلى هذا التأويل بل ﴿خَلَقَكُم﴾ خطاب مع الناس وهم أولاد آدم كلهم من تراب ومن نطفة لأن كلهم من نطفة والنطفة من غذاء، والغذاء بالآخرة ينتهي إلى الماء والتراب، فهو من تراب صار نطفة.

وقوله: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ إشارة إلى كمال العمل، فإن ما في الأرحام قبل الانخلاق بل بعده ما دام في البطن لا يعلم حاله أحد، كيف والأم الحاملة لا تعلم منه شيئًا، فلما ذكر بقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ كمال قدرته بين بقوله: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ كمال علمه ثم بين نفوذ إرادته بقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ فبين أنه هو القادر العالم المريد والأصنام لا قدرة لها ولا علم ولا إرادة، فكيف يستحق شيء منها العبادة، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أي الخلق من التراب ويحتمل أن يكون المراد التعمير والنقصان على الله يسير، ويحتمل أن يكون المراد أن العلم بما تحمله الأنثى يسير والكل على الله يسير والأول أشبه فإن اليسير استعماله في الفعل أليق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾

قال أكثر المفسرين: إن المراد من الآية ضرب المثل في حق الكفر والإيمان أو الكافر

والمؤمن، فالإيمان لا يشتبه بالكفر في الحسن والنفع كما لا يشتبه البحران العذب الفرات والملح الأجاج. ثم على هذا، فقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لبيان أن حال الكافر والمؤمن أو الكفر والإيمان دون حال البحرين لأن الأجاج يشارك الفرات في خير ونفع إذ اللحم الطري يوجد فيهما والحلية توجد منهما والفلك تجري فيهما، ولا نفع في الكفر والكافر، وهذا على نسق قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله: ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٧٤] والأظهر أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث إن البحرين يستويان في الصورة ويختلفان في الماء، فإن أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج، ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المستويان، ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة، فإن اللحم الطري يوجد فيهما، والحلية تؤخذ منهما، ومن يوجد في المتشابهين اختلافًا ومن المختلفين اشتباهًا لا يكون إلا قادرًا مختارًا. وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إشارة إلى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال أهل اللغة: لا يقال في ماء البحر إذا كان فيه ملوحة مالح، وإنما يقال له ملح، وقد يذكر في بعض كتب الفقه يصير بها ماء البحر مالحًا، ويؤاخذ قائله به. وهو أصح مما يذهب إليه القوم وذلك لأن الماء العذب إذا ألقى فيه ملح حتى ملح لا يقال له إلا مالح، وماء ملح يقال للماء الذي صار من أصل خلقته كذلك، لأن المالح شيء فيه ملح ظاهر في الذوق، والماء الملح ليس ماء وملحًا بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر في الذوق، بخلاف ما هو من أصل خلقته كذلك، فلما قال الفقيه الملح أجزاء أرضية سبخة يصير بها ماء البحر مالحًا راعى فيه الأصل فإنه جعله ماء جاوره ملح، وأهل اللغة حيث قالوا في البحر ماؤه ملح جعلوه كذلك من أصل الخلقة، والأجاج المر، وقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ من الطير والسمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي ماخرات تمخر البحر بالجريان أي تشق، وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يدل على ما ذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

استدلال آخر باختلاف الأزمنة وقد ذكرناه مرارًا، وذكرنا أن قوله تعالى بعده: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾ جواب لسؤال يذكره المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسي الواقعة فوق الأرض وتحتها، فإن في الصيف تمر الشمس على سمت الرءوس في بعض البلاد المائلة في الآفاق، وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت الأرض أقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الأرض فيقصر الليل وفي الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ يعني سبب الاختلاف وإن كان ما ذكرتم، لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته فهو الذي فعل ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾.

أي ذلك الذي فعل هذه الأشياء من فَطْرِ السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكًا والملك مخدوم بقدر ملكه، فإذا كان له الملك كله فله العبادة كلها، ثم بين ما ينافي صفة الإلهية، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾، وههنا لطيفة: وهي أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف أحدهما: أن الخلق بالقدرة والإرادة، والثاني: الملك، واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣] ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهًا أي معبودًا، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين أحدهما: أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التي الأصنام على صورتها وطوالعها فقال: لا ملك لهم ولا ملكهم الله شيئًا ولا ملكوا شيئًا، وثانيهما: أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئًا لملكه فإذا لم يملك قطميرًا ما خلق قليلاً ولا كثيرًا.

قوله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾

إبطالاً لما كانوا يقولون: إن في عبادة الأصنام عزة من حيث القرب منها والنظر إليها وعرض الحوائج عليها، والله لا يُرى ولا يصل إليه أحد فقال: هؤلاء لا يسمعون دعاءكم والله يصعد إليه الكلم الطيب، ليسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة، وقال: هب أنهم يسمعون كما يظنون فإنهم كانوا يقولون بأن الأصنام تسمع وتعلم ولكن ما كان يمكنهم أن يقولوا إنهم يجيبون لأن ذلك إنكار للمحس به وعدم سماعهم إنكار للمعقول والنزاع وإن كان يقع في المعقول فلا يمكن وقوعه في المحس به، ثم إنه تعالى قال: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ لما بين عدم النفع فيهم

في الدنيا بين عدم النفع منهم في الآخرة بل أشار إلى وجود الضرر منهم في الآخرة بقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي بإشراككم بالله شيئًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] أي الإشراك وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون ذلك خطابًا مع النبي ﷺ ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة، وهذا القول مع كون الخبر عنه أمرًا عجيبًا هو كما قال، لأن المخبر عنه خبير، وثانيهما: هو أن يكون ذلك خطابًا غير مختص بأحد، أي هذا الذي ذكر هو كما قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أيها السامع كائنًا من كنت ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾

لما كثر الدعاء من النبي ﷺ والإصرار من الكفار وقالوا: إن الله لعله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمرًا بالغًا ويهددنا على تركها مبالغًا، فقال تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: التعريف في الخبر قليل والأكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لأن المخبر لا يخبر في الأكثر إلا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أو في ظن المتكلم أن السامع لا علم له به، ثم أن يكون معلومًا عند السامع حتى يقول له: أيها السامع الأمر الذي تعرفه أنت فيه المعنى الفلاني، كقول القائل: زيد قائم أو قام أي زيد الذي تعرفه، ثبت له قيام لا علم عندك به، فإن كان الخبر معلومًا عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيهًا لا تفهيمًا يحسن تعريف الخبر غاية الحسن، كقول القائل: الله ربنا ومحمد نبينا، حيث عرف كون الله ربًا، وكون محمد نبيًا، وههنا لما كان كون الناس فقراء أمرًا ظاهرًا لا يخفى على أحد قال: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقرًا إليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وأنتم من احتياجكم لا تجيبونه ولا تدعونه فيجيبكم.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ لما زاد في الخبر الأول وهو قوله: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ زيادة وهو قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة لوجوب حصر العبادة في عبادته زاد في وصفه بالغني زيادة وهو كونه حميدًا إشارة إلى كونكم فقراء وفي مقابلته الله غني وفقركم إليه في مقابلة نعمه عليكم لكونه حميدًا واجب الشكر، فلستم أنتم فقراء والله مثلكم في الفقر بل هو غني على الإطلاق

ولستم أنتم لما افتقرتم إليه ترككم غير مقضي الحاجات بل قضى في الدنيا حوائجكم، وإن آمنتم يقضي في الآخرة حوائجكم فهو حميد.

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بيانًا لغناه وفيه بلاغة كاملة وبيانها أنه تعالى قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ليس إذهابكم موقوفًا إلا على مشيئته بخلاف الشيء المحتاج إليه، فإن المحتاج لا يقول فيه إن يشأ فلان هدم داره وأعدم عقاره، وإنما يقول لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها أو لولا الافتقار إلى العقار لتركتها، ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له كمال وعظمة فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقًا جديدًا أحسن من هذا وأجمل وأتم وأكمل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي الإذهاب والإتيان، وههنا مسألة: وهي أن لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة في القائم بنفسه حيث قال في حق نفسه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] وقال في هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] واستعمله في القائم بغيره حيث قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فهل هما بمعنى واحد أم بمعنيين؟ فنقول: العزيز هو الغالب في اللغة يقال من عزَّبزَّ أي من غلب سلب، فالله عزيز أي غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي لا يغلب الله ذلك الفعل بل هو هين على الله وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾. متعلق بما قبله، وذلك من حيث إنه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة ذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس ذنب نفس فالنبي ﷺ لو كان كاذبًا في دعائه لكان مذنبًا وهو معتقد بأن ذنبه لا تحملونه أنتم فهو يتوقى ويحترز، والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم فتفكروا واعلموا أنكم إن ضللتم فلا يحمل أحد عنكم وزركم وليس كما يقول أكابركم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَازِرَةٌ﴾ أي نفس وازرة ولم يقل: ولا تزر نفس وزر أخرى، ولا جمع بين الموصوف والصفة فلم يقل: ولا تزر نفس وازرة وزر أخرى، لفائدة أما الأول: فلأنه لو قال ولا تزر نفس وزر أخرى، لما علم أن كل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها متحيرة في أمرها ووجه آخر: وهو أن قول القائل ولا تزر نفس وزر أخرى، قد يجتمع معها أن لا تزر وزرًا أصلاً كالمعصوم لا يزر وزر غيره ومع ذلك لا يزر وزرًا رأسًا فقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ بين أنها تزر وزرها ولا تزر وزر الغير وأما ترك ذكر الموصوف فلظهور الصفة ولزومها للموصوف.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ إشارة إلى أن أحدًا لا يحمل عن أحد شيئًا مبتدئًا ولا بعد السؤال، فإن المحتاج قد يصبر وتقضى حاجته من غير سؤاله، فإذا انتهى الافتقار إلى حد الكمال يحوجه إلى السؤال.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ زيادة بيان لما تقدم من حيث إنه قال أولاً: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فيظن أن أحدًا لا يحمل عن أحد لكون ذلك الواحد قادرًا على حمله، كما أن القوي إذا أخذ بيده رمانة أو سفرجلة لا تحمل عنه، وأما إذا كان الحمل ثقيلاً قد يرحم الحامل فيحمل عنه فقال: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ يعني ليس عدم الوزر لعدم كونه محلاً للرحمة بالثقل بل لكون النفس مثقلة ولا يحمل منها شيء.

المسألة الثالثة: زاد في ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي المدعو لو كان ذا قربى لا يحمله وفي الأول كان يمكن أن يقال لا يحمله لعدم تعلقه به كالعدو الذي يرى عدوه تحت ثقل، أو الأجنبي الذي يرى أجنبيًا تحت حمل لا يحمل عنه فقال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي يحصل جميع المعاني الداعية إلى الحمل من كون النفس وازرة قوية تحتمل وكون الأخرى مثقلة لا يقال كونها قوية قادرة ليس عليها حمل وكونه سائلة داعية فإن السؤال مظنة الرحمة، لو كان المسؤول قريبًا فإذن لا يكون التخلف إلا لمانع وهو كون كل نفس تحت حمل ثقيل.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إشارة إلى أن لا إرشاد فوق ما أتيت به، ولم يفدهم، فلا تنذر إنذارًا مفيدًا إلا الذين تمتلئ قلوبهم خشية وتتحلى ظواهرهم بالعبادة كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [فاطر: ٧] إشارة إلى عمل القلب ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [فاطر: ٧] إشارة إلى عمل الظواهر فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في ذلك المعنى، ثم لما بين ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بين أن الحسنة تنفع المحسنين. فقال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي فتزكيته لنفسه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المتزكي إن لم تظهر فائدته عاجلاً فالمصير إلى الله يظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء، والوازر إن لم تظهر تبعة وزره في الدنيا فهي تظهر في الآخرة إذ المصير إلى الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾.

لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر، وهدى الله المؤمن ضرب لهم مثلاً بالبصير والأعمى، فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى.

وفي تفسير الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في تكثير الأمثلة ههنا حيث ذكر الأعمى والبصير، والظلمة والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات؟ فنقول: الأول مثل المؤمن والكافر فالمؤمن بصير والكافر أعمى، ثم إن البصير وإن كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيئًا إن لم يكن في ضوء فذكر للإيمان والكفر مثلاً، وقال الإيمان نور والمؤمن بصير والبصير لا يخفى عليه النور، والكفر ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد، ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلاً وهو الظل والحرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة والكافر بكفره في حر وتعب، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ مثلاً آخر في حق المؤمن والكافر كأنه قال تعالى: حال المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير، فإن الأعمى يشارك البصير في إدراك ما. والكافر غير مدرك إدراكًا نافعًا فهو كالميت، ويدل على ما ذكرنا أنه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولاً: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ وعطف الظلمات والنور والظل والحرور، ثم أعاد الفعل، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ كأنه جعل هذا مقابلاً لذلك.

المسألة الثانية: كرر كلمة النفي بين الظلمات والنور والظل والحرور والأحياء والأموات، ولم يكرر بين الأعمى والبصير، وذلك لأن التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور مضادة، فالظلمة تنافي النور وتضاده والعمى والبصر كذلك، أما الأعمى والبصير ليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيرًا وهو بعينه يصير أعمى، فالأعمى والبصير لا منافاة بينهما إلا من حيث الوصف، والظل والحرور والمنافاة بينهما ذاتية لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد فلما كانت المنافاة هناك أتم، أكد بالتكرار، وأما الأحياء والأموات، وإن كانوا كالأعمى والبصير من حيث إن الجسم الواحد يكون حيًّا محلاً للحياة فيصير ميتًا محلاً للموت ولكن المنافاة بين الحي والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير، كما بينا أن الأعمى والبصير يشتركان في إدراك أشياء، ولا كذلك الحي والميت، كيف والميت يخالف الحي في

الحقيقة لا في الوصف على ما تبين في الحكمة الإلهية.

المسألة الثالثة: قدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحرور، وأخره في مثلين وهو البصر والنور، وفي مثل هذا يقول المفسرون: إنه لتواخي أواخر الآي، وهو ضعيف لأن تواخي الأواخر راجع إلى السجع، ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملاً له على تغيير المعنى، وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى، فنقول: الكفار قبل النبي ﷺ كانوا في ضلالة فكانوا كالعمي وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبي ﷺ وبين الحق، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقتهم كالنور فقال: وما يستوي من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده إلى الإيمان، فلما كان الكفر قبل الإيمان في زمان محمد ﷺ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم، ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لقوله في الإلهيات: سبقت رحمتي غضبي، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات في عدم إدراك الحق من جميع الوجوه فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ﴾ أي المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله والأموات الذين تليت عليهم الآيات البينات، ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين، وقدم الأعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها.

المسألة الرابعة: فإن قلت قابل الأعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الأحياء بالأموات بلفظ الجمع، وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع في أحدهما والواحد في الآخر، فهل تعرف فيه حكمة؟ قلت: نعم بفضل الله وهدايته، أما في الأعمى والبصير والظل والحرور، فلأنه قابل الجنس بالجنس، ولم يذكر الأفراد لأن في العميان وأولي الأبصار قد يوجد فرد من أحد الجنسين يساوي فردًا من الجنس الآخر كالبصير الغريب في موضع والأعمى الذي هو تربية ذلك المكان، وقد يقدر الأعمى على الوصول إلى مقصد ولا يقدر البصير عليه، أو يكون الأعمى عنده من الذكاء ما يساوي به البليد البصير، فالتفاوت بينهما في الجنسين مقطوع به فإن جنس البصير خير من جنس الأعمى، وأما الأحياء والأموات فالتفاوت بينهما أكثر، إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حيًّا من الأحياء، فذكر أن الأحياء لا يساوون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد، وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الإشراك على ما بينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الأصنام التي هي على صورة الملائكة، وإلى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد بين، فقال الظلمات كلها إذا اعتبرتها لا تجد فيها ما يساوي النور، وقد ذكرنا في تفسير قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] السبب في توحيد النور وجمع الظلمات، ومن جملة ذلك أن النور لا يكون إلا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور

والمستنير. مثاله الشمس إذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذي يمسك الشعاع، فإن البيت الذي فيه كوة يدخل منها الشعاع إذا كان في مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتًا آخر ويبسط الشعاع على أرضه يرى البيت الثاني مضيئًا والأول مظلمًا، وإن لم يكن ثمة حائل كالبيت الذي لا كوة له فإنه لا يضيء، فإذا حصلت الأمور الثلاثة يستنير البيت وإلا فلا تتحقق الظلمة بفقد أي أمر كان من الأمور الثلاثة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ وفيه احتمال معنيين الأول: أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبي والوحي النازل عليه دون حال الموتى فإن الله يسمع الموتى والنبي لا يسمع من مات وقبر، فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبي، والثاني: أن يكون المراد تسلية النبي ﷺ فإنه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له: هؤلاء لا يسمعهم إلا الله، فإنه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء، وأما أنت فلا تسمع من في القبور، فما عليك من حسابهم من شيء.

قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ۝٢٤ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ۝٢٥﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ بيانًا للتسلية.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ﴾ لما قال: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ بين أنه ليس نذيرًا من تلقاء نفسه إنما هو نذير بإذن الله وإرساله.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ تقريرًا لأمرين أحدهما: لتسلية قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملاً لتأذي القوم، وثانيهما: إلزام القوم قبوله فإنه ليس بدعًا من الرسل وإنما هو مثل غيره يدعي ما ادعاه الرسل ويقرره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾.

يعني أنت جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك أيضًا أتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم ما فعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلاً إلا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمدًا ﷺ ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ والكل آتيناها محمدًا، فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام أجمعين، وهذا يكون تقريرًا مع أهل الكتاب، واعلم أنه تعالى ذكر أمورًا ثلاثة أولها البينات، وذلك لأن كل رسول فلا بد له من معجزة وهي أدنى الدرجات، ثم قد ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبيهات وإن لم يكن فيه نسخ وأحكام مشروعة شرعًا ناسخًا، ومن ينزل عليه مثله أعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه

ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه أحكام على وفق الحكمة الإلهية، ومن يكون كذلك فهو من أولي العزم فقال: الرسل تبين رسالتهم بالبينات وإن كانوا أعلى مرتبة فبالزبر، وإن كانوا أعلى فبالكتاب والنبي آتيناه الكل فهو رسول أشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾.

أي من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل أخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبي عليه السلام، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ سؤال للتقرير فإنهم علموا شدة إنكار الله عليهم وإتيانه بالأمر المنكر من الاستئصال.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ﴾.

وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفي تفسيرها مسائل:

المسألة الأولى: ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وذكر الدليل المتقدم على طريقة الإخبار وقال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩] وفيه وجهان الأول: أن إنزال الماء أقرب إلى النفع والمنفعة فيه أظهر فإنه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض فعظم دلالته بالاستفهام لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جدًّا كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جدًّا، فقال له غيره: أين هو؟ فإنه يقول له: في الموضع الفلاني، فإن لم يره، يقول له: الحق معك إنه خفي وأنت معذور، وإذا كان بارزًا يقول له: أما تراه هذا هو ظاهرًا، والثاني: وهو أنه ذكره بعدما قرر المسألة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات، فقال له: أنت صرت بصيرًا بما ذكرناه ولم يبق لك عذر، ألا ترى هذه الآية.

المسألة الثانية: المخاطب من هو؟ يحتمل وجهين أحدهما: النبي ﷺ وفيه حكمة وهي أن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم، كما أن السيد إذا نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الإرشاد، يقول لغيره: اسمع ولا تكن مثل هذا، ويكرر معه ما ذكره مع الأول ويكون فيه إشعار بأن الأول فيه نقيصة لا يستأهل للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة، والآخر: أن لا يخرج إلى كلام أجنبي عن الأول، بل يأتي بما يقاربه لئلا يسمع الأول كلامًا آخر فيترك التفكر فيما كان فيه من النصيحة.

المسألة الثالثة: هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ممرات مختلفة، وفيه لطائف الأولى: قال: (أنزل) وقال: (أخرجنا). وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ فإن كان جاهلاً يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له، فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه إنه بالطبع فهو بإرادة الله، فلما كان ذلك أظهر أسنده إلى المتكلم، ووجه آخر: هو أن الله تعالى لما قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ علم الله بدليل، وقرب المتفكر فيه إلى الله تعالى فصار من الحاضرين، فقال له: (أخرجنا) لقربه، ووجه ثالث: الإخراج أتم نعمة من الإنزال، لأن الإنزال لفائدة الإخراج فأسند الأتم إلى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب.

اللطيفة الثانية: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾.

كأن قائلاً قال: اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع. ألا ترى أن بعض النباتات لا تنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره، فقال تعالى: اختلاف البقاع ليس إلا بإرادة الله وإلا فلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض، والجدد جمع جدة وهي الخطة أو الطريقة، فإن قيل: الواو في: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ ما تقديرها؟ نقول: هي تحتمل وجهين أحدهما: أن تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الألوان، وفي الأشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة، رادة على من ينكر الإرادة في اختلاف ألوان الثمار، ثانيهما: أن تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال. قال الزمخشري: أراد ذو جدد.

واللطيفة الثالثة: ذكر الجبال ولم يذكر الأرض كما قال في موضع آخر: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤] مع أن هذا الدليل مثل ذلك، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر في الأول: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ كان نفس إخراج الثمار دليلاً على القدرة ثم زاد عليه بيانًا، وقال: (مختلفًا) كذلك في الجبال في نفسها دليل للقدرة والإرادة، لأن كون الجبال في بعض نواحي الأرض دون بعضها والاختلاف الذي في هيئة الجبل فإن بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع دليل القدرة والاختيار، ثم زاده بيانًا وقال ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ﴾، أي مع دلالتها بنفسها هي دالة باختلاف ألوانها، كما أن إخراج الثمرات في نفسها دلائل واختلاف ألوانها دلائل.

المسألة الرابعة: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾، الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون أي بيض مختلف ألوانها وحمر مختلف ألوانها، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص، وقد يكون على لون التراب الأبيض دون بياض الجص، وكذلك الأحمر، ولو كان المراد أن البيض والحمر مختلف الألوان لكان مجرد تأكيد والأول أولى، وعلى هذا فنقول: لم يذكر مختلف ألوانها بعد البيض والحمر والسود، بل ذكره بعد البيض والحمر وأخر السود الغرابيب، لأن الأسود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغًا غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف.

المسألة الخامسة: قيل بأن الغربيب مؤكد للأسود، يقال: أسود غربيب، والمؤكد لا يجيء إلا متأخرًا فكيف جاء غرابيب سود؟ نقول: قال الزمخشري: غرابيب مؤكد لذي لون مقدر في الكلام كأنه تعالى قال: سواد غرابيب، ثم أعاد السود مرة أخرى وفيه فائدة وهي زيادة التأكيد لأنه تعالى ذكره مضمرًا ومظهرًا، ومنهم من قال: هو على التقديم والتأخير، ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ استدلالاً آخر على قدرته وإرادته، وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق في العالم الذي نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين: حيوان وغير حيوان، وغير الحيوان إما نبات وإما معدن، والنبات أشرف، وأشار إليه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ ثم ذكر المعدن بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها وهو الإنسان فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم ذكر الدواب، لأن منافعها في حياتها والأنعام منفعتها في الأكل منها، أو لأن الدابة في العرف تطلق على الفرس وهو بعد الإنسان أشرف من غيره، وقوله: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ القول فيه كما أنها في أنفسها دلائل، كذلك في اختلافها دلائل. وأما قوله ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ فذكر لكون الإنسان من جملة المذكورين، وكون التذكير أعلى وأولى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

الخشية بقدر معرفة المخشي، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه. وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فبين أن الكرامة بقدر التقوى، والتقوى بقدر العلم. فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك في علمه، فإن من يراه يقول: لو علم لعمل. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ذكر ما يوجب الخوف والرجاء، فكونه عزيزًا ذا انتقام يوجب الخوف التام، وكونه غفورًا لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ. وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله، معناها إنما يعظم ويبجل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾.

لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه. وقوله: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى الذكر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إشارة إلى العمل البدني.

وقوله: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إشارة إلى العمل المالي، وفي الآيتين حكمة بالغة، فقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى عمل القلب، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ إشارة إلى عمل اللسان. وقوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إشارة إلى عمل الجوارح، ثم إن هذه الأشياء الثلاثة متعلقة

بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه، لأنا بينا أن من يعظم ملكًا إذا رأى عبدًا من عباده في حاجة يلزمه قضاء حاجته وإن تهاون فيه يخل بالتعظيم، وإلى هذا أشار بقوله: عبدي مرضت فما عدتني، فيقول العبد: كيف تمرض وأنت رب العالمين؟! فيقول الله: مرض عبدي فلان وما زرته ولو زرته لوجدتني عنده، يعني التعظيم متعلق بالشفقة فحيث لا شفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله.

وقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حث على الإنفاق كيفما يتهيأ، فإن تهيأ سرًّا فذاك ونعم وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء، فإن ترك الخير مخافة أن يقال فيه إنه مراء عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿سِرًّا﴾ أي صدقة ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ أي زكاة، فإن الإعلان بالزكاة كالإعلان بالفرض وهو مستحب.

وقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ إشارة إلى الإخلاص، أي ينفقون لا ليقال إنه كريم ولا لشيء من الأشياء غير وجه الله، فإن غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة.

قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي ما يتوقعونه ولو كان أمرًا بالغ الغاية ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل، ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر إليه كما جاء في تفسير الزيادة ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ عند إعطاء الأجور ﴿شَكُورٌ﴾ عند إعطاء الزيادة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

لما بين الأصل الأول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ [فاطر: ١١] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ [فاطر: ٢٧] ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة، فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ وأيضًا كأنه قد ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ تقريرًا لم بين من الأجر والثواب في تلاوة كتاب الله فإنه حق وصدق فتاليه محق ومحقق.

وفي تفسيرها مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يحتمل أن يكون لابتداء الغاية كما يقال أرسل إلى كتاب من الأمير أو الوالي وعلى هذا فالكتاب يمكن أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعني الذي أوحينا من اللوح المحفوظ إليك حق، ويمكن أن يكون المراد هو القرآن يعني الإرشاد والتبيين الذي أوحينا إليك من القرآن، ويحتمل أن يكون للبيان كما يقال: أرسل إلى فلان من الثياب والقماش جملة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ آكد من قول القائل: الذي أوحينا إليك حق، من وجهين أحدهما: أن تعريف الخبر يدل على أن الأمر في غاية الظهور لأن الخبر في الأكثر يكون نكرة، لأن الإخبار في الغالب يكون إعلامًا بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لأمر يعرفه السامع كقولنا: زيد قام، فإن السامع ينبغي أن يكون عارفًا بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به، فإذا كان الخبر أيضًا معلومًا فيكون الإخبار للتنبيه فيعرفان باللام كقولنا: زيد العالم في هذه المدينة، إذا كان علمه مشهورًا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حال مؤكدة لكونه حقًّا لأن الحق إذا كان لا خلاف بينه وبين كتب الله يكون خاليًا عن احتمال البطلان، وفي قوله ﴿مُصَدِّقًا﴾ تقرير لكونه وحيًا؛ لأن النبي ﷺ لما لم يكن قارئًا كاتبًا وأتى ببيان ما في كتب الله لا يكون ذلك إلا من الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهو أنهم كانوا يقولون بأن التوراة ورد فيها كذا والإنجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال: التوراة والإنجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ما ورد فيه إن كان في التوراة فهو حق وباق على ما نزل، وإن لم يكن فيه ويكون فيه خلاف فهو ليس من التوراة، فالقرآن مصدق للتوراة، وفيه وجه آخر: وهو أن يقال: إن هذا الوحي مصدق لما تقدم لأن الوحي لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام في إنزال التوراة والإنجيل فإذا وجد الوحي ونزل على محمد ﷺ علم جوازه وصدق به ما تقدم، وعلى هذا ففيه لطيفة: وهي أنه تعالى جعل القرآن مصدقًا لما مضى مع أن ما مضى أيضًا مصدق له لأن الوحي إذا نزل على واحد جاز أن ينزل على غيره وهو محمد ﷺ ولم يجعل ما تقدم مصدقًا للقرآن كونه معجزة يكفي في تصديقه بأنه وحي، وأما ما تقدم فلا بد معه من معجزة تصدقه.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ فيه وجهان: أحدهما أنه تقرير لكونه هو الحق لأنه وحي من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر، فلا يكون باطلاً في وحيه لا في الباطن ولا في الظاهر، وثانيهما: أن يكون جوابًا لما كانوا يقولونه إنه لِمَ لم ينزل على رجل عظيم؟ فيقال: إن الله بعباده لخبير يعلم بواطنهم وبصير يرى ظواهرهم فاختار محمدًا عليه السلام ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣] أخبر بدخولهم الجنة وكلمة ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ أيضًا تدل عليه لأن الإيراث

إذا كان بعد الإيحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والإيراث المراد منه الإعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى، ويحتمل أن يقال: المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥] والمعنى على هذا: إنا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الأنبياء ويدل عليه أن لفظ المصطفى على الأنبياء إطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم لأن قوله: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾ دل على أن العباد أكابر مكرمون بالإضافة إليه، ثم إن المصطفين منهم أشرف منهم ولا يليق بمن يكون أشرف من الشرفاء أن يكون ظالمًا مع أن لفظ الظالم أطلقه الله في كثير من المواضع على الكافر وسمي الشرك ظلمًا، وعلى الوجه الأول الظاهر بين معناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد وأخذوه منه وافترقوا ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٌ﴾ وهو المسيء ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٌ﴾ وهو الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وهو الذي أخلص العمل لله وجرده عن السيئات، فإن قال قائل: كيف قال في حق من ذكر في حقه أنه من عباده وأنه مصطفى إنه ظالم؟ مع أن الظالم يطلق على الكافر في كثير من المواضع؟ فنقول: المؤمن عند المعصية يضع نفسه في غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١) ويصحح هذا قول عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ظالمنا مغفور له»(٢) وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] وأما الكافر فيضع قلبه الذي به اعتبار الجسد في غير موضعه فهو ظالم على الإطلاق، وأما قلب المؤمن فمطمئن بالإيمان لا يضعه في غير التفكر في آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله، وفي المراتب الثلاث أقوال كثيرة: أحدها: الظالم هو الراجح السيئات والمقتصد هو الذي تساوت سيئاته وحسناته والسابق هو الذي ترجحت حسناته، ثانيها: الظالم هو الذي ظاهره خير من باطنه، والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه، والسابق من باطنه خير، ثالثها: الظالم هو الموحد بلسانه الذي تخالفه جوارحه، والمقتصد هو الموحد الذي يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف، والسابق هو الموحد الذي ينسيه التوحيد عن التوحيد،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأشربة)، باب: (قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ﴾ [المائدة: ٩٠]) (١٠/ ٣٣)، حديث رقم (٥٥٧٨)، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (بيان نقصان الإيمان بالمعاصي) (١/ ١٠٠/ ٧٦) من طريق الأعمش. . . به.

(٢) ضعيف: رواه الثعالبي في (الكشف والبيان) (١١/ ٢٥٦) من طريق عمرو بن الحصين عن الفضل بن عميرة عن ميمون الكردي عن أبي عثمان النهدي قال سمعت عمر بن الخطاب. . . فذكره، والبيهقي في (البعث والنشور) (١/ ٦٣)، حديث رقم (٥٩) من طريق عبيد الله بن موسى أنبأنا مسكين بن عبد العزيز حدثنا حفص بن خالد بن جابر حدثني ميمون بن سياه عن عمر. . . به، والعقيلي في (الضعفاء) (٧/ ١٧٨)، حديث رقم (١٦٤١) من طريق عمرو بن الحصين حدثنا الفضل بن عميرة القيسي عن ميمون بن سياه عن أبي عثمان النهدي سمعت عمر بن الخطاب. . . به، وأورده الألباني في (ضعيف الجامع) (٦٩٤٤)، وقال: رواه البيهقي في البعث عن ابن عمر.

ورابعها: الظالم صاحب الكبيرة، والمقتصد صاحب الصغيرة، والسابق المعصوم، خامسها: الظالم التالي للقرآن غير العالم به والعامل بموجبه، والمقتصد التالي العالم، والسابق التالي العالم العامل، سادسها: الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم، سابعها: الظالم أصحاب المشأمة، والمقتصد أصحاب الميمنة، والسابق السابقون المقربون، ثامنها: الظالم الذي يحاسب فيدخل النار، والمقتصد الذي يحاسب فيدخل الجنة، والسابق الذي يدخل الجنة من غير حساب، تاسعها: الظالم المصر على المعصية، والمقتصد هو النادم والتائب، والسابق هو المقبول التوبة، عاشرها: الظالم الذين أخذ القرآن ولم يعمل به، والمقتصد الذي عمل به، والسابق الذي أخذه وعمل به وبين للناس العمل به فعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل، والمقتصد كامل والظالم ناقص، والمختار هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فإنه واضع للشيء في غير موضعه، والمقتصد هو المجتهد في ترك المخالفة وإن لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه إثم فإنه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق هو الذي لم يخالف بتوفيق الله، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع في قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع في قلبه فترده النفس، والظالم تغلبه النفس، ونقول بعبارة أخرى: من غلبته النفس الأمارة وأمرته فأطاعها ظالم، ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقتصد، ومن قهر نفسه فهو السابق. وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يحتمل وجوهًا أحدها: التوفيق المدلول عليه بقوله: ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، ثانيها: السبق بالخيرات هو الفضل الكبير، ثالثها: الإيراث فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير، أما الوجه الآخر وهو أن يقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي جنس الكتاب، كما قال تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥] يرد عليه أسئلة أحدهما: ثم للتراخي وإيتاء الكتاب بعد الإيحاء إلى محمد ﷺ لم يكن فما المراد بكلمة ثم؟ نقول: معناه إن الله خبير بصير خبرهم وأبصرهم ثم أورثهم الكتاب كأنه تعالى قال: إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر فاصطفينا عبادًا ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾، ثانيها: كيف يكون من الأنبياء ظالم لنفسه؟ نقول: منهم غير راجع إلى الأنبياء المصطفين، بل المعنى إن الذي أوحينا إليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلاً وآتيناهم كتبًا، ومنهم أي من قومك ظالم كفر بك وبما أنزل إليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما أمرته به وسابق آمن وعمل صالحًا، وثالثها: قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣] الداخلون هم المذكورون وعلى ما ذكرتم لا يكون الظالم داخلاً، نقول: الداخلون هم السابقون، وأما المقتصد فأمره موقوف أو هو يدخل النار أولا ثم يدخل الجنة والبيان لأول الأمر لا لما بعده، ويدل عليه قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] وقوله: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

وفي الداخلين وجوه أحدها: الأقسام الثلاثة وهي على قولنا أن الظالم والمقتصد والسابق أقسام المؤمنين، والثاني: الذين يتلون كتاب الله، والثالث: هم السابقون وهو أقوى لقرب ذكرهم ولأنه ذكر إكرامهم بقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه أبحاث:

الأول: تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى إذا كان المفعول حقيقيًا كقولنا: ﴿ٱللَّهُ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [إبراهيم: ١٩]، وقول القائل: زيد بنى الجدار، فإن الله موجود قبل كل شيء، ثم له فعل هو الخلق، ثم حصل به المفعول وهو السموات، وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه، وإذا لم يكن المفعول حقيقيًا كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمرًا فإن الدار في الحقيقة ليس مفعولاً للداخل وإنما فعل من أفعال تحقق بالنسبة إلى الدار، وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمي مفعولاً لا يحصل هذا الترتيب، ولكن الأصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول: عمرًا ضربه زيد، فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة إليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم إلا لفائدة، فما الفائدة في تقديم الجنات على الفعل الذي هو الدخول وإعادة ذكرها بالهاء في (يدخلونها)؟ وما الفرق بين هذا وبين قول القائل: يدخلونها جنات عدن؟ نقول: السامع إذا علم أن له مدخلاً من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فإذا قيل له: أنت تدخل فإلى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه في أي المداخل يكون، فإذا قيل له: دار زيد تدخلها، فبذكر الدار يعلم مدخله وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولاً يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار، فإن بين المدخلين بونًا بعيدًا.

الثاني: قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ إشارة إلى سرعة الدخول فإن التحلية لو وقعت خارجًا لكان فيه تأخير الدخول فقال: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وفيها تقع تحليتهم.

الثالث: قوله: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ بجمع الجمع فإنه جمع أسورة وهي جمع سوار، وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ليس كذلك لأن الإكثار من اللباس يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والإكثار من الزينة لا يدل إلا على الغنى.

الرابع: ذكر الأساور من بين سائر الحلي في كثير من المواضع منها قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١] وذلك لأن التحلي بمعنيين أحدهما: إظهار كون المتحلي غير مبتذل في الأشغال لأن التحلي لا يكون حالة الطبخ والغسل وثانيهما: إظهار الاستغناء عن الأشياء وإظهار القدرة على الأشياء وذلك لأن التحلي إما باللآلئ والجواهر وإما بالذهب والفضة والتحلي بالجواهر واللآلئ يدل على أن المتحلي لا يعجز عن الوصول إلى الأشياء الكبيرة عند الحاجة

حيث يعجز عن الوصول إلى الأشياء القليلة الوجود لا لحاجة، والتحلي بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية وإلا لصرف الذهب والفضة إلى دفع الحاجة، إذا عرفت هذا فنقول الأساور محلها الأيدي وأكثر الأعمال باليد فإنها للبطش، فإذا حليت بالأساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ إشارة إلى النوعين اللذين منهما الحلي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

في الحزن أقوال كثيرة والأولى أن يقال المراد إذهاب كل حزن والألف واللام للجنس واستغراقه وإذهاب الحزن بحصول كل ما ينبغي وبقائه دائمًا فإن شيئًا منه لو لم يحصل لكان الحزن موجودًا بسببه وإن حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد زواله وخوف فواته، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ذكر الله عنهم أمورًا كلها تفيد الكرامة من الله الأول: الحمد فإن الحامد مثاب، الثاني: قولهم (رَبَّنَا) فإن الله لم يناد بهذا اللفظ إلا واستجاب لهم، اللهم إلا أن يكون المنادي قد ضيع الوقت الواجب أو طلب ما لا يجوز كالرد إلى الدنيا من الآخرة، الثالث: قولهم: (غَفُورٌ)، الرابع: قولهم: ﴿شَكُورٌ﴾ والغفور إشارة إلى ما غفر لهم في الآخرة بما وجد لهم من الحمد في الدنيا، والشكور إشارة إلى ما يعطيهم ويزيد لهم بسبب ما وجد لهم في الآخرة من الحمد.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي دار الإقامة، لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وإدخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها حيث قالوا: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي الإقامة والمفعول ربما يجيء للمصدر من كل باب يقال: ما له معقول، أي عقل، وقال تعالى: ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩] وكذلك مستخرج للاستخراج وذلك لأن المصدر هو المفعول في الحقيقة، فإنه هو الذي فعل فجاز إقامة المفعول مقامه وفي قوله: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور ومنها إلى منزلة العرصة التي فيها الجمع ومنها التفريق. وقد تكون النار لبعضهم منزلة أخرى والجنة دار المقامة، وكذلك النار لأهلها، وقولهم: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي بحكم وعده لا بإيجاب من عنده.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ اللغوب الإعياء والنصب هو السبب للإعياء فإن قال قائل إذا بين أنه لايمسهم فيها نصب علم أنه لا يمسهم فيها لغوب ولا ينفي المتكلم الحكيم السبب، ثم ينفي مسببه بحرف العطف فلا يقول القائل: لا أكلت ولا شبعت، أو: لا قمت ولا مشيت، والعكس كثير فإنه يقال: لا شبعت ولا أكلت، لما أن نفي الشبع لا يلزمه انتفاء الأكل وسياق ما تقرر أن يقال: لا يمسنا فيها إعياء ولا مشقة، فنقول ما قاله الله في

غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجمل، ووجهه هو أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فإن الدنيا أماكنها على قسمين: أحدهما: موضع نمس فيه المشاق والمتاعب كالبراري والصحاري والطرقات والأراضي، والآخر: موضع يظهر فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التي في الأسفار من الخانات فإن من يكون في مباشرة شغل لا يظهر عليه الإعياء إلا بعدما يستريح فقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي ليست الجنة كالمواضع التي في الدنيا مظان المتاعب بل هي أفضل من المواضع التي هي مواضع مرجع العي، فقال: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي، لا نخرج منها إلى مواضع نتعب ونرجع إليها فيمسنا فيها الإعياء وقرئ (لغوب) بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال: لا نتعب ولا يمسنا ما يصلح لذلك، وهذا لأن القوي السوي إذا قال: ما تعبت اليوم، لا يفهم من كلامه أنه ما عمل شيئًا لجواز أنه عمل عملاً لم يكن بالنسبة إليه متعبًا لوقته، فإذا قال: ما مسني ما يصلح أن يكون متعبًا يفهم أنه لم يعمل شيئًا لأن نفس العمل قد يصلح أن يكون متعبًا لضعيف أو متعبًا بسبب كثرته، واللغوب هو ما يغلب منه وقيل النصب التعب الممرض، وعلى هذا فحسن الترتيب ظاهر كأنه قال: لا يمسنا مرض ولا دون ذلك وهو الذي يعيا منه مباشرة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ عطف على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩] وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣] قد ذكرنا أنه على بعض الأقوال راجع إلى ﴿الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩].

ثم قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي لا يستريحون بالموت بل العذاب دائم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي النار وفيه لطائف: الأولى: أن العذاب في الدنيا إن دام كثيرًا يقتل فإن لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجًا فاسدًا متمكنًا لا يحس به المعذب، فقال: عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا، إما أن يفنى وإما أن يألفه البدن بل هو في كل زمان شديد والمعذب فيه دائم، الثانية: راعى الترتيب على أحسن وجه وذلك لأن الترتيب أن لا ينقطع العذاب، ولا يفتر فقال: لا ينقطع ولا بأقوى الأسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولا يجابون كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] أي بالموت، الثالثة: في المعذبين اكتفى بأنه لا ينقص عذابهم، ولم يقل: نزيدهم عذابًا. وفي المثابين ذكر الزيادة بقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣] ثم لما بين أن عذابهم لا يخفف.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي لا يخفف وإن اصطرخوا واضطربوا لا يخفف الله من عنده إنعامًا إلى أن يطلبوه بل يطلبون ولا يجدون والاصطراخ من الصراخ والصراخ صوت المعذب.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ أي صراخهم بهذا أي يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ لأن صراخهم كلام وفيه إشارة إلى أن إيلامهم تعذيب لا تأديب، وذلك لأن المؤدب إذا قال لمؤدبه: لا أرجع إلى ما فعلت وبئسما فعلت، يتركه، وأما المعذب فلا، وترتيبه حسن وذلك لأنه لما بين أنه لا يخفف عنهم بالكلية ولا يعفو عنهم بين أنه لا يقبل منهم وعدًا وهذا لأن المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال فإذا طال لبثه تطلب الإخراج من غير قطيعة على نفسه فإن لم يفده يقطع على نفسه قطيعة ويقول: أخرجني أفعل كذا وكذا.

واعلم أن الله تعالى قد بين أن من يكون في الدنيا ضالاً فهو في الآخرة ضال كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] ثم إنهم لم يعلموا أن العود إلى الدنيا بعيد محال بحكم الإخبار، وعلى هذا قالوا: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ جازمين من غير استعانة بالله ولا مثنوية فيه، ولم يقولوا: إن الأمر بيد الله، فقال الله لهم: إذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمرناكم مقدارًا يمكن التذكر فيه والإتيان بالإيمان والإقبال على الأعمال. وقولهم: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ إشارة إلى ظهور فساد عملهم لهم، وكأن الله تعالى كما لم يهدهم في الدنيا لم يهدهم في الآخرة، فما قالوا: ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لا بعلمهم ونحن أحوج إلى تخفيف العذاب منهم إلى تضعيف الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظرًا إلى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظرًا إلى عدلك وانظر إلى مغفرتك الهاطلة ولا تنظر إلى معذرتنا الباطلة، وكما هدى الله المؤمن في الدنيا هداه في العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الإجابة وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الإنابة فقالوا: الحمد لله، وقالوا: ربنا غفور، اعترافًا بتقصيرهم: (شكور) إقرارًا بوصول ما لم يخطر ببالهم إليهم وقالوا: ﴿أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥] أي لا عمل لنا بالنسبة إلى نعم الله وهم قالوا: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ إغماضًا في حق تعظيمه وإعراضًا عن الاعتراف بعجزهم عن الإتيان بما يناسب عظمته، ثم إنه تعالى بين أنه آتاهم ما يتعلق بقبول المحل من العمر الطويل وما يتعلق بالفاعل في المحل، فإن النبي ﷺ كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادات.

فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾.

فإن المانع إما أن يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله، وإما أن يكون في مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وقوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ إشارة إلى الدوام وهو أمر إهانة، فما للظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم في غير موضعها وأتوا بالمعذرة في غير وقتها من نصير في وقت الحاجة ينصرهم، قال بعض الحكماء: قوله: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلاً مركبًا، وهو الذي يعتقد الباطل حقًّا في الدنيا وما له من نصير أي من علم ينفعه في الآخرة، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى سمى البرهان سلطانًا، كما قال تعالى: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]والسلطان أقوى ناصر إذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم، لأن الله لا ينصره وليس غيره نصيرًا فما لهم من نصير أصلاً، ويمكن أن يقال: إن الله تعالى قال في آل عمران: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]وقال: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩]وقال هاهنا: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي هذا وقت كونهم واقعين في النار، فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق إلا توقعهم من الله فقال: (ما لكم من نصير) أصلاً، وهناك كان الأمر محكيًّا في الدنيا أو في أوائل الحشر، فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

تقريرًا لدوامهم في العذاب، وذلك من حيث إن الله تعالى لما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]ولا يزاد عليها، فلو قال قائل: الكافر ما كفر بالله إلا أيامًا معدودة، فكان ينبغي أن لا يعذب إلى مثل تلك الأيام، فقال تعالى: إن الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما في الصدور، وكان يعلم من الكافر أن في قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده.

وفي قوله تعالى: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ مسألة قد ذكرناها مرة ونعيدها أخرى، وهي أن لقائل أن يقول: الصدور هي ذات اعتقادات وظنون، فكيف سمى الله الاعتقادات بذات الصدور؟ ويقرر السؤال قولهم: أرض ذات أشجار وذات جنى، إذا كان فيها ذلك، فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد، فيقال له لما كان اعتبار الصدر بما فيه صار ما فيه كالساكن المالك حيث لا يقال: الدار ذات زيد، ويصح أن يقال: زيد ذو دار ومال، وإن كان هو فيها.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ

﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

تقريرًا لقطع حجتهم فإنهم لما قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧]وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ [فاطر: ٣٧]إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]أي آتيناكم عقولاً، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي نبهكم بمن مضى وحال من انقضى فإنكم لو لم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك لكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف، لكن أمهلتم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف في الأرض، أي خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ بعد هذا كله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ﴾ لأن الكافر السابق كان ممقوتًا كالعبد الذي لا يخدم سيده واللاحق الذي أنذره الرسول ولم ينتبه أمقت كالعبد الذي ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصح ولا يسعده والتالي لهم الذي رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه أمقت الكل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد إلا المقت، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يفيدهم إلا الخسارة، فإن العمر كالرأس مال من اشترى به رضا الله ربح، ومن اشترى به سخطه خسر.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

تقريرًا للتوحيد وإبطالاً للإشراك، وقوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ المراد منه أخبروني؛ لأن الاستفهام يستدعي جوابًا، يقول القائل: أرأيت ماذا فعل زيد؟ فيقول السامع باع أو اشترى، ولولا تضمنه معنى أخبرني وإلا لما كان الجواب إلا قوله لا أو نعم، وقوله: ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ إنما أضاف الشركاء إليهم من حيث إن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله، وإنما هم جعلوها شركاء، فقال: (شركاءكم)، أي الشركاء بجعلكم ويحتمل أن يقال: (شركاءكم)، أي شركاءكم في النار لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]وهو قريب، ويحتمل أن يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الأول، وقوله: ﴿أَرُونِى﴾ بدل عن ﴿أَرُونِى﴾ لأن كليهما يفيد معنى أخبروني، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ استفهام حقيقي و ﴿أَرُونِى﴾ أمر تعجيز للتبين، فلما

قال: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني أعلمتم هذه التي تدعونها كما هي وعلى ما هي عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة، فإن كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها؟ وإن كان وقع لكم أن لها قدرة فأروني قدرتها في أي شيء هي، أهي في الأرض؟ كما قال بعضهم: إن الله إله السماء وهؤلاء آلهة الأرض، وهم الذين قالوا: أمور الأرض من الكواكب والأصنام صورها، أم هي في السموات؟ كما قال بعضهم: إن السماء خلقت باستعانة الملائكة والملائكة شركاء في خلق السموات، وهذه الأصنام صورها، أم قدرتها في الشفاعة لكم؟ كما قال بعضهم: إن الملائكة ما خلقوا شيئًا ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها ليشفعوا لنا، فهل معهم كتاب من الله فيه إذنه لهم بالشفاعة؟ وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ في العائد إليه الضمير وجهان أحدهما: أنه عائد إلى الشركاء، أي هل أتينا الشركاء كتابًا؟ وثانيهما: أنه عائد إلى المشركين، أي هل آتينا المشركين كتابًا؟ وعلى الأول فمعناه ما ذكرنا، أي هل مع ما جعل شريكًا كتاب من الله فيه أن له شفاعة عند الله؟ فإن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه، وعلى الثاني معناه أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزءًا من الأجزاء ولا في السماء شيئًا من الأشياء، وإما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتابًا فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ولو أمرنا لجاز كما أمرنا بالسجود لآدم وإلى جهة الكعبة، فهذه العبادة لا عقلية ولا نقلية فوعد بعضهم بعضًا ليس إلا غرورًا غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الأصنام.

ثم لما بين أنه لا خلق للأصنام ولا قدرة لها ولا على جزء من الأجزاء بين أن الله قدير بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ويحتمل أن يقال: لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١] ويدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كان حليمًا ما ترك تعذيبهم إلا حلمًا منه وإلا كانوا يستحقون إسقاط السماء وانطباق الأرض عليهم وإنما أخر إزالة السموات إلى قيام الساعة حلمًا، وتحتمل الآية وجهًا ثالثًا: وهو أن يكون ذلك من باب التسليم وإثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضًا كأنه تعالى قال: شركاؤكم ما خلقوا من الأرض شيئًا ولا في السماء جزءًا ولا قدروا على الشفاعة، فلا عبادة لهم. وهب أنهم فعلوا شيئًا من الأشياء فهل يقدرون على إمساك السموات والأرض؟ ولا يمكنهم القول بأنهم يقدرون لأنهم ما كانوا يقولون به، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان: ٢٥] ويؤيد هذا قوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ فإذا تبين أن لا معبود إلا الله من حيث إن غيره لم يخلق من الأشياء وإن قال الكافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ما خلق فلا شريك له ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، حليمًا حيث لم يعجل في إهلاكهم بعد إصرارهم على إشراكهم وغفورًا يغفر لمن تاب ويرحمه وإن استحق العقاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ﴾.

لما بين إنكارهم للتوحيد ذكر تكذيبهم للرسول ومبالغتهم فيه حيث إنهم كانوا يقسمون على أنهم لا يكذبون الرسل إذا تبين لهم كونهم رسلاً وقالوا: إنما نكذب بمحمد ﷺ لكونه كاذبًا، ولو تبين لنا كونه رسولاً لآمنا كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٩] وهذا مبالغة منهم في التكذيب، كما أن من ينكر دين إنسان قد يقول: والله لو علمت أن له شيئًا علي لقضيته وزدت له، إظهارًا لكونه مطالبًا بالباطل، فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا أهدى الأمم فلما جاءهم نذير أي محمد ﷺ جاءهم أي صح مجيئه لهم بالبينة ما زادهم إلا نفورًا، فإنهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولأنهم قبل الرسالة ما كانوا معذبين كما صاروا بعد الرسالة، وقال بعض المفسرين: إن أهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على أنهم كذبوا برسلهم لما جاءوهم وقالو لو جاءنا رسول لأطعناه واتبعناه، وهذا فيه إشكال من حيث إن المشركين كانوا منكرين للرسالة والحشر مطلقًا، فكيف كانوا يعترفون بالرسل، فمن أين عرفوا أن اليهود كذبوا وما جاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من أين كان يعلم المشركون أنهم صدقوا شيئًا وكذبوا في شيء؟ بل المراد ما ذكرنا أنهم كانوا يقولون: نحن لو جاءنا رسول لا ننكره وإنما ننكر كون محمد رسولاً من حيث إنه كاذب ولو صح كونه رسولاً لآمنا، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي فلما صح لهم مجيئه بالمعجزة، وفي قوله: ﴿أَهْدَىٰ﴾ وجهان أحدهما: أن يكون المراد أهدى مما نحن عليه وعلى هذا فقوله: ﴿مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ للنبيين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون أهدى، وثانيهما: أن يكون المراد أن نكون أهدى من إحدى الأمم كما يقول القائل: زيد أولى من عمرو، وفي الأمم وجهان أحدهما: أن يكون المراد العموم أي أهدى من أي إحدى الأمم وفيه تعريض، وثانيهما: أن يكون المراد تعريف العهد أي أمة محمد وموسى وعيسى ومن كان في زمانهم.

ثم قال تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ونصبه يحتمل ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون حالاً أي

مستكبرين في الأرض، وثانيها: أن يكون مفعولاً له أي للاستكبار، وثالثها: أن يكون بدلاً عن النفور، وقوله: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ إضافة الجنس إلى نوعه كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة وتحقيقه أن يقال معناه ومكروا مكرًا سيئًا ثم عرف لظهور مكرهم، ثم ترك التعريف باللام وأضيف إلى السيئ لكون السوء فيه أبين الأمور، ويحتمل أن يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [فاطر: ١٠] أي يعملون السيئات، ومكرهم السيئ، وهو جميع ما كان يصدر منهم من القصد إلى الإيذاء ومنع الناس من الدخول في الإيمان وإظهار الإنكار، ثم قال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي لا يحيط إلا بفاعله وفي قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فوائد، أما في قوله: ﴿يَحِيقُ﴾ فهي أنها تنبئ عن الإحاطة التي هي فوق اللحوق وفيه من التحذير ما ليس في قوله: ولا يلحق أو ولا يصل، وأما في قوله: ﴿بِأَهْلِهِۦ﴾ ففيه ما ليس في قول القائل ولا يحيق المكر السيئ إلا بالماكر، كي لا يأمن المسيء فإن من أساء ومكره سيئ آخر قد يلحقه جزاء على سيئه، وأما إذا لم يكن سيئًا فلا يكون أهلاً فيأمن المكر السيئ، وأما في النفي والإثبات ففائدته الحصر بخلاف ما يقول القائل المكر السيئ يحيق بأهله، فلا ينبئ عن عدم الحيق بغير أهله، فإن قال قائل: كثيرًا ما نرى أن الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك، فنقول: الجواب عنه من وجوه أحدها: أن المكر المذكور في الآية هو المكر الذي مكروه مع النبي ﷺ من العزم على القتل والإخراج ولم يحق إلا بهم، حيث قتلوا يوم بدر وغيره، وثانيها: هو أن نقول المكر السيئ عام وهو الأصح فإن النبي عليه السلام نهى عن المكر وأخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ تَمْكُرُوا وَلاَ تُعِينُوا مَاكِرًا فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السيئ إِلاَّ بِأَهْلِهِ» وعلى هذا فذلك الرجل الممكور به (لاَ) يكون أهلاً فلا يرد نقضًا، وثالثها: أن الأمور بعواقبها، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر ففي الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا، ويبين هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني إذا كان لمكرهم في الحال رواج فالعاقبة للتقوى والأمور بخواتيمها، فيهلكون كما هلك الأولون.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ليس لهم بعد هذا إلا انتظار الإهلاك وهو سنة الأولين.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الإهلاك ليس سنة الأولين إنما هو سنة الله بالأولين، فنقول الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن المصدر الذي هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما إذا ضرب زيد عمرًا: عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ما له من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ما له من العلم والحكمة فكذلك

سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها سنة سنت بهم وأضافها إلى نفسه بعدها بقوله: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾ لأنها سنة من سنن الله، إذا علمت هذا فنقول أضافها في الأول إليهم حيث قال: ﴿ سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ لأن سنة الله الإهلاك بالإشراك والإكرام على الإسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيهما فإذا قال سنة الأولين تميزت وفي الثاني أضافها إلى الله، لأنها لما علمت فالإضافة إلى الله تعظمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع، وثانيهما: أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الإنكار واستكبارهم عن الإقرار، وسنة الله استئصالهم بإصرارهم فكأنه قال: أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها.

المسألة الثانية: التبديل تحويل فما الحكمة في التكرار؟ نقول: بقوله: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾ حصل العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره، وبقوله: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ حصل العلم بأن العذاب مع أنه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسيء.

المسألة الثالثة: المخاطب بقوله: ﴿ فَلَن تَجِدَ﴾ يحتمل وجهين وقد تقدم مرارًا: أحدهما: أن يكون عامًّا كأنه قال: فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلاً، والثاني: أن يكون مع محمد ﷺ وعلى هذا فكأنه قال: سنة الله أنه لا يهلك ما بقي في القوم من كتب الله إيمانه، فإذا آمن من في علم الله أنه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ﴾ [نوح: ٢٧]أي تمهل الأمر وجاء وقت سنتك.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾

لما ذكر أن للأولين سنة وهي الإهلاك نبههم بتذكير حال الأولين فإنهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم، أما الأول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم، وأما عملهم فلأنهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمدًا وأنتم يا أهل مكة كذبتم محمدًا ومن تقدمه، وقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ قد ذكرناه في سورة الروم، بقي فيه أبحاث:

الأول:قال هناك: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ﴾ [الروم: ٩]من غير واو، وقال ههنا بالواو فما الفرق؟ نقول: قول القائل: أما رأيت زيدًا كيف أكرمني وأعظم منك؟ يفيد أن القائل يخبره بأن زيدًا أعظم، وإذا قال: أما رأيته كيف أكرمني هو أعظم منك؟ يفيد أنه تقرر أن كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة تفيد كون الأمر الثاني في الظهور مثل الأول بحيث لا يحتاج إلى إعلام من المتكلم ولا إخبار، إذا علمت هذا فنقول: المذكور

ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير، ولعل ذلك كان ظاهرًا عندهم فقال بالواو أي نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم، وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة فإنه قال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] وفي موضع آخر قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢] ولعل علمهم لم يحصل بإثارتهم الأرض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلومًا عندهم فإن كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم أنهم أقوى منهم ولا نزاع فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون بيانًا لهم أي أن الأولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه فهم أولى بأن لا يعجزوه، والثاني: أن يكون قطعًا لأطماع الجهال فإن قائلاً لو قال: هب أن الأولين كانوا أشد قوة وأطول أعمارًا لكنا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين بأمور أرضية لها خواص أو كواكب سماوية لها آثار، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأفعالهم وأقوالهم: ﴿قَدِيرًا﴾ على إهلاكهم واستئصالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون: عجل لنا عذابنا، فقال الله: للعذاب أجل والله لا يؤاخذ الله الناس بنفس الظلم فإن الإنسان ظلوم جهول، وإنما يؤاخذ بالإصرار وحصول يأس الناس عن إيمانهم ووجود الإيمان ممن كتب الله إيمانه فإذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم إهلاك.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون؟ نقول: الجواب من وجوه أحدها: أن خلق الدواب نعمة فإذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لأن المفرد أولاً ثم المركب والمركب إما أن يكون معدنيًا وإما أن يكون ناميًا والنامي إما أن يكون حيوانًا وإما أن يكون نباتًا، والحيوان إما إنسان وإما غير إنسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للإنسان، الثاني: هو أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فإن بقاء الأشياء بالإنسان كما أن بقاء الإنسان بالأشياء وذلك لأن الإنسان يدبر الأشياء ويصلحها فتبقى

الأشياء ثم ينتفع بها الإنسان فيبقى الإنسان فإذا كان الهلاك عامًّا لا يبقى من الإنسان من يعمر فلا تبقى الأبنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الأهلية لأن بقاءها بحفظ الإنسان إياها عن التلف والهلاك بالسقي والعلف، الثالث: هو أن إنزال المطر هو إنعام من الله في حق العباد فإذا لم يستحقوا الإنعام قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض فتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الوجه الثالث: لأن بسبب انقطاع الأمطار تموت حيوانات البر، أما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ كناية عن الأرض وهي غير مذكورة فكيف علم؟ نقول: مما تقدم ومما تأخر، أما ما تقدم فقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤] فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء إليها، وأما ما تأخر فقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ لأن الدواب على ظهر الأرض، فإن قيل: كيف يقال لما عليه الخلق من الأرض وجه الأرض وظهر الأرض، مع أن الوجه مقابل الظهر كالمضاد؟ نقول: من حيث إن الأرض كالدابة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر يقال له ظهر الأرض، ومن حيث إن ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له وجهها، على أن الظهر في مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من باب، فوجه الأرض ظهر لأنه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن.

المسألة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وجوه أحدها: إلى يوم القيامة وهو مسمى مذكور في كثير من المواضع، ثانيها: يوم لا يوجد في الخلق من يؤمن على ما تقدم، ثالثها: لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد ﷺ أيام القتل والأسر كيوم بدر وغيره.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ تسلية للمؤمنين، وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ وقال: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] قال: فإذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير، إما أن ينجيهم أو يكون توفيهم تقريبًا من الله لا تعذيبًا، لا يقال: قد ذكرت أن الله لا يؤاخذ بمجرد الظلم، وإنما يؤاخذ حين يجتمع الناس على الضلال ونقول بأنه تعالى عند الإهلاك يهلك المؤمن فكيف هذا، نقول قد ذكرنا أن الإماتة والإفناء إن كان للتعذيب فهو مؤاخذة بالذنب وإهلاك، وإن كان لإيصال الثواب فليس بإهلاك ولا بمؤاخذة، والله لا يؤاخذ الناس إلا عند عموم الكفر، وقوله: ﴿بَصِيرًۢا﴾ اللفظ أتم في التسلية من العليم وغيره لأن البصير بالشيء الناظر إليه أولى بالإنجاء من العالم بحالة دون أن يراه والله أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة فاطر

مكيةٌ في قولِ الجميع، وهي خمسٌ وأربعون آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يجوز في «فاطر» ثلاثةُ أَوْجُهٍ: الخفضُ على النعت، والرفعُ على إضمارِ مبتدأ، والنصبُ على المدح. وحكى سيبويه: الحمدُ للهِ أهل الحمد [مثله]، وكذا «جاعِلِ الملائكةِ»[1]. والفاطِرُ: الخالق. وقد مضى في «يوسف»[2] وغيرِها. والفَطْر: الشَّقُّ عن الشيء؛ يقال: فَطَرتُه فانْفَطَر. ومنه: فَطَرَ نابُ البعير: طَلَعَ، فهو بعيرٌ فاطِرٌ. وتفطَّر الشيءُ: تَشَقَّق. وسيفٌ فُطار، أي: فيه تشقُّقٌ؛ قال عنترة:

وسيفي كالعقيقة فهو كِمْعِي ... سلاحي لا أَفَلَّ ولا فُطارا[3]

والفَطْرُ: الابتداءُ والاختراع؛ قال ابن عباس: كنتُ لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حتى أتاني أعرابيَّان يختصمان في بئر، فقال أحدُهما: أنا فَطَرتُها، أي: أنا ابتدأتُها. والفَطْر: حلبُ الناقة بالسبَّابة والإبهام[4]. والمرادُ بِذِكْرِ السماوات والأرض

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٩، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٦٢-٦٣.
(٢) ١١/ ٤٦٣.
(٣) ديوان عنترة ص٤٣، والمعاني الكبير ٢/ ١٠٨٢، والصحاح (فطر) والكلام منه. قال ابن قتيبة: العقيقة: لمعة البرق. كِمْعي: ضجيعي، يريد أنه إلى جانبي، أفلّ: به فُلول، والفُطار: الذي لم يصقل، فهو متشقِّق.
(٤) الصحاح (فطر)، وخبر ابن عباس أخرجه أبو عبيد في غريب القرآن ٤/ ٤٧٣، والطبري ٩/ ١٧٥، وأبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧١-٧٢، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٧٨.

العالمُ كلُّه، ونبَّه بهذا على أنَّ مَن قدر على الابتداء قادرٌ على الإعادة.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ لا يجوزُ فيه التنوين؛ لأنَّه لِمَا مَضَى. ﴿رُسُلًا﴾ مفعولٌ ثانٍ، ويقالُ: على إضمارِ فعلٍ؛ لأنَّ «فاعلاً» إذا كان لِمَا مضى لم يعمل[1] شيئاً، وإعمالُه على أنه مستقبلٌ حُذِفَ التنوينُ منه تخفيفاً. وقرأ الضحاك: «الحمدُ للهِ فَطَر السماواتِ والأرض» على الفعل الماضي[2].

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ الرسلُ منهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ ومَلَكُ الموت، صلى الله عليهم أجمعين. وقرأ الحسن: «جَاعِلُ الملائكة» بالرفع[3]. وقرأ خُلَيد بن نَشِيط: «جَعَلَ الملائكة»[4] وكلُّه ظاهر.

﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ نعتٌ، أي: أصحابَ أجنحةٍ. ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. قال قتادة: بعضُهم له جناحان، وبعضُهم ثلاثةٌ، وبعضُهم أربعةٌ[5]، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون من الأرض إلى السماء، وهي مسيرةُ كذا في وقتٍ واحد، أي: جَعَلَهم رسلاً. قال يحيى بن سلام: إلى الأنبياء. وقال السُّدِّيُّ: إلى العباد برحمةٍ أو نقمة[6].

وفي «صحيح» مسلم[7] عن ابن مسعود ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى جبريلَ عليه السلام له ستُّ مئة جَناح.

وعن الزُّهريِّ: أنَّ جبريل عليه السلام قال له: «يا محمد، لو رأيتَ إسرافيل، إنَّ

---

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): فيه، والمثبت من (ظ)، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٩ ، والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة: ص١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨ .

(٣) القراءات الشاذة: ص١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨ .

(٤) المحتسب ٢/ ١٩٨ .

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٢٦ .

(٦) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦١ . وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٤ .

(٧) برقم (١٧٤)، وهو عند أحمد (٣٧٨٠)، والبخاري (٣٢٣٢).

له لَاثْنَي عَشَرَ جناحاً[١]، منها جناحٌ بالمَشْرِقِ، وجناحٌ بالمغرب، وإنَّ العرش لَعَلَى كاهله، وإنه في الأحايين ليتضاءلُ لعظمةِ الله حتى يعود مثل الوَصَع ـ والوَصَعُ: العصفورُ الصغير ـ حتى ما يحمل عرشَ ربِّك إلاَّ عَظَمتُه»[٢].

و«أُولُو» اسمُ جمعٍ لـ«ذو»، كما أن هؤلاء اسم جمع لـ «ذا»، ونظيرُهما في المتمكِّنة: المخَاض والخَلِفة[٣]. وقد مضى الكلام في ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ في «النساء» وأنه غيرُ منصرِف[٤].

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أي: في خَلْقِ الملائكة، في قول أكثر المفسِّرين؛ ذكره المهدويُّ. وقال الحسن: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أي: في أجنحة الملائكة ما يشاء.

وقال الزُّهريُّ وابنُ جُريج: يعني حُسْنَ الصوت[٥]. وقد مضى القولُ فيه في مقدِّمة الكتاب[٦]. وقال الهيثم الفارسيُّ: رأيت النبيَّ ﷺ في منامي، فقال: أنت الهيثمُ الذي تُزيِّن القرآنَ بصوتك، جزاك الله خيراً[٧].

وقال قتادة: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ المَلاحَة في العينين، والحُسْن في الأنف، والحلاوة في الفم[٨].

---

(١) في النسخ: لاثني عشر ألف جناح، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) أخرجه مطولاً ابن المبارك في الزهد (٢٢١)، وذكره أبو الليث ٣/ ٨٠ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩٨ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٨. والمخاض اسم للنوق الحوامل، واحدتها خَلِفَة. النهاية (مخض).

(٤) ٦/ ٣٠ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٦٢ ، وقول الزهري أخرجه البيهقي في الشعب (١١٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٤٤ لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) ١/ ٢١ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ .

(٨) أخرجه ابن عدي ٣/ ٩١٧ ، والبيهقي في الشعب (٩١٦) مختصراً بذكر الملاحة في العينين. وكذا ورد في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ ، والكشاف ٣/ ٢٩٨ .

وقيل: الخطُّ الحَسَن. وقال مُهاجِر الكَلاعيُّ: قال النبيُّ ﷺ: «الخطُّ الحَسَنُ يَزيدُ الكلامَ وضوحاً»(١).

وقيل: الوجه الحسن. وقيل في الخبر في هذه الآية: هو الوجهُ الحسن، والصوتُ الحَسَن، والشَّعر الحسن(٢)؛ ذكره القُشَيريُّ.

النقَّاش: هو الشعرُ الجَعْد. وقيل: العقلُ والتمييز. وقيل: العلومُ والصنائع(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النقصان والزيادة.

الزمخشريُّ(٤): والآيةُ مُطْلَقةٌ تتناولُ كلَّ زيادةٍ في الخَلْقِ؛ من طولِ قامةٍ، واعتدالِ صورةٍ، وتَمامٍ في الأعضاء، وقوةٍ في البَطْش، وحَصَافةٍ في العقل، وجَزَالةٍ في الرأي، وجرأةٍ في القلب، وسَماحةٍ في النفس، وذَلاقةٍ في اللسان، ولَباقةٍ في التكلُّم، وحُسْنِ تأتٍّ في مُزَاولةِ الأمور؛ وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا لا يحيطُ به وَصْفٌ.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وأجاز النَّحْويون في غير القرآن: «فلا مُمْسِكَ له» على لَفْظِ «ما». و«لها» على المعنى. وأجازوا: «وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ لها» [على معنى «ما»]. وأجازوا: «ما يفتحُ الله للناس من رحمةٍ» ـ بالرفع ـ تكونُ «ما» بمعنى الذي(٥).

---

(١) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ٦٠ ، وقال عن مهاجر، ولست أعرف له صحبة. وذكر الخبر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ ، والذهبي في الميزان ٢/ ٣٥٨ وقال: هذا خبر منكر. ووقع في هذه المصادر: «... يزيد الحق وضوحاً».

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٦٢ .

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٩٨ .

(٥) وقال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٦٢: ولا أعلم أحداً قرأ به. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

أي: إنَّ الرسل بُعثوا رحمةً للناس، فلا يَقْدِرُ على إرسالهم غيرُ الله. وقيل: ما يأتيهم به اللهُ من مطرٍ أو رزقٍ فلا يقدرُ أحدٌ أن يمسكه، وما يُمسِك من ذلك فلا يقدرُ أحدٌ على أن يرسله.

وقيل: هو الدعاء؛ قاله الضحاك. ابن عباس: من توبة. وقيل: من توفيقٍ وهداية(١).

قلت: ولفظُ الرحمةِ يجمعُ ذلك؛ إذ هي منكَّرةٌ للإشاعة والإبهام، فهي مُتَناولةٌ لكلِّ رحمةٍ على البدل، فهو عامٌّ في جميع ما ذُكر. وفي «موطأ» مالك(٢): أنَّه بلغه أنَّ أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس: مُطِرْنا بنَوْءِ الفتح، ثم يتلو هذه الآية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم(٣).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ معنى هذا الذِّكرِ الشُّكْرُ. ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يجوز في «غير» الرفعُ والنَّصْبُ والخَفْض، فالرفعُ من وجهين: أحدُهما بمعنى: هل من خالقٍ إلاَّ اللهُ؛ بمعنى ما خالقٌ إلاَّ اللهُ. والوجه الثاني: أن يكون نعتاً على الموضع؛ لأنَّ المعنى: هل خالقٌ غيرُ اللهِ، و«مِن» زائدة. والنصبُ على الاستثناء. والخفضُ على اللفظ(٤).

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٦٢-٤٦٣ . وخبر ابن عباس أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٤ .

(٢) ١/ ١٩٢ .

(٣) ١/ ٤٢٩ و٢/ ٤٠٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠ . وقرأ بنصب «غير» الفضل بن إبراهيم النحوي كما في القراءات الشاذة ص١٢٣ ، وستأتي القراءة بالرفع والجر.

قال حُميد الطويل: قلت للحسن: مَن خَلَق الشرَّ؟ فقال: سبحان الله! هل مِن خالقٍ غيرُ الله جلَّ وعزَّ خَلَقَ الخيرَ والشرّ(١).

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿هل مِن خالقٍ غيرِ اللهِ﴾ بالخفض. الباقون بالرفع(٢).

﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: النبات. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ من الأَفْك ـ بالفتح ـ وهو الصَّرْف؛ يقال: ما أَفَكَكَ عن كذا؟ أي: ما صَرَفَكَ عنه. وقيل: من الإِفك ـ بالكسر ـ وهو الكذب، ويرجع هذا أيضاً إلى ما تقدَّم؛ لأنه قولٌ مصروفٌ عن الصِّدْقِ والصَّواب، أي: مِن أين يقعُ لكم التكذيبُ بتوحيد الله. والآيةُ حُجَّةٌ على القَدَرية لأنه نَفَى خالقاً غيرَ اللهِ، وهم يُثْبِتون معه خالِقينَ، على ما تقدَّم في غير موضع(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني كفارَ قريش ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعزِّي نبيَّه ويسلِّيه ﷺ، وليتأسَّى بمَن قبْلَه في الصَّبْر. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ قرأ الحسنُ والأعرجُ ويعقوبُ وابنُ عامرٍ وأبو حيوةَ وابن مُحَيْصِنٍ وحميدٌ والأعمشُ وحمزةُ ويحيى والكسائيُّ وخلفٌ بفتح التاء على أنه مسمَّى الفاعل(٤). واختاره أبو عبيد لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]. الباقون: ﴿تُرْجَعُ﴾ على الفعل المجهول.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا وعْظ للمُكَذِّبين للرسول بعد إيضاح

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠ .

(٢) السبعة ص٥٣٤ ، والتيسير ص١٨٢ .

(٣) ينظر ١/ ٢٣٠ و٢٨٥ .

(٤) السبعة ص١٨١ ، والتيسير ص٨٠ ، والنشر ٢/ ٢٠٨-٢٠٩ .

الدليل على صحةِ قوله: إنَّ البعثَ والثوابَ والعقابَ حقٌّ. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ قال سعيد بن جُبير: غرورُ الحياةِ الدنيا: أنْ يشتغل الإنسانُ بنعيمها ولذَّاتها عن عمل الآخرة، حتى يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤][١].

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قال ابن السكِّيت وأبو حاتم: «الغَرور»: الشيطان[٢]. وغُرورٌ: جمعُ غَرٍّ، وغَرٌّ مصدر. ويكون «الغُرور» مصدراً، وهو بعيدٌ عند أبي إسحاق[٣]؛ لأنَّ «غَرَرْته» متعدٍّ، والمصدر [من] المتعدِّي إنَّما هو على فَعْل؛ نحو: ضربتُه ضرباً، إلاَّ في أشياءَ يسيرةٍ لا يُقاسُ عليها؛ قالوا: لزمْته لُزوماً، ونَهَكه المرض نُهوكا. فأمَّا معنى الحرفِ فأحْسَنُ ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير؛ قال: الغرورُ بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنَّى على الله المغفرةَ.

وقراءة العامة: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بفتح الغين: وهو الشيطان، أي: لا يَغرَّنَّكم بوساوسه في أنَّه تعالى[٤] يتجاوزُ عنكم لفَضْلِكم. وقرأ أبو حَيْوةَ وأبو السَّمَّال العدويُّ ومحمد ابن السَّمَيْفَع: «الغُرور» برفع الغين[٥]، وهو الباطل، أي: لا يغرَّنَّكم الباطل. وقال ابن السِّكِّيت: والغُرور بالضم: ما اغتُرَّ به من متاعِ الدنيا[٦]. قال الزجَّاج[٧]: ويجوز أن يكون الغُرور جمعَ غارٍّ، مثل قاعد وقُعود. النحاس: أو جمع غَرٍّ، أو يُشبَّه بقولهم:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦١ . وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٥ .

(٢) قول ابن السكيت في إصلاح المنطق ص٣٦٧ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣٣١ عن ابن عباس.

(٣) في النسخ: عند غير أبي إسحاق، والتصويب من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦١ (والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه). وكلام أبي إسحاق (وهو الزجاج) في معانيه ٤/ ٢٦٣-٢٦٤ .

(٤) قوله: تعالى، من (ظ).

(٥) ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦١ عن سماك، ووقع في النسخ الخطية: وأبو سماك، بدل: وأبو السمال، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في البحر ٧/ ٣٠٠ ووقع في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ : سماك العبدي. وسلف ١٤/ ٨١ أن سماك بن حرب وأبا حيوة وابن السميفع قرؤوا: «الغُرور» بالضم في الآية (٣٣) من سورة لقمان.

(٦) إصلاح المنطق ص٣٦٧ ، والصحاح (غرر).

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٢٦٣ .

نَهَكَه المرضُ نُهوكاً، ولَزِمَه لُزوماً[١]. الزمخشريُّ[٢]: أو مصدرُ «غرَّه» كاللُّزوم والنُّهوك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: فَعَادُوه ولا تُطيعوه. ويدلُّكم على عَداوتِهِ إخراجُه أباكم من الجنة، وضمانُه إضلالَكم في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الآية [النساء:١١٩]. وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأعراف:١٦-١٧]. فأخبرنا جلَّ وعزَّ أنَّ الشيطان لنا عدوٌّ مبين، واقتصَّ علينا قصَّته، وما فَعلَ بأبينا آدمَ ﷺ، وكيف انْتَدَبَ لعداوتنا وغرورنا من قَبْلِ وجودنا وبعده، ونحن على[٣] ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا. وكان الفضيل ابن عِياض يقول: يا كذَّاب يا مُفْتَرِ، اتَّقِ الله ولا تَسُبَّ الشيطانَ في العَلانية وأنت صديقُه في السِّرّ. وقال ابن السَّمَّاك: يا عَجباً لمن عصَى المُحْسِنَ بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللَّعينَ بعد معرفته بعداوته! وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مجوَّداً[٤].

و﴿عَدُوٌّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يجوز أن يكون بمعنى: مُعَادٍ، فيثنَّى ويُجمع ويؤنَّث[٥]. ويكون بمعنى النَّسبِ، فيكون موحَّداً بكلِّ حال، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء:٧٧]. وفي المؤنَّث على هذا أيضاً: عدوّ. النحاس[٦]: فأمَّا

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٣٨ .

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٠٠ .

(٣) في (د): مع.

(٤) ٣/ ١٣ .

(٥) بعدها في (ظ)، ويذكر.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦١ ، وما قبله منه.

قولُ بعضِ النَّحويين: إنَّ الواوَ خفيةٌ[١]، فجاؤوا بالهاء، فخطأٌ، بل الواو حرفٌ جَلْدٌ.

﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ كفَّتْ «ما» «إنَّ» عن العمل فوقع بعدها الفعلُ. ﴿حِزْبَهُۥ﴾ أي: أشْياعَه. ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فهذه عداوتُه.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يكونُ «الَّذِينَ» بدلاً من «أصحابِ» فيكون في موضعِ خَفْضٍ، أو يكونُ بدلاً من «حِزْبَه» فيكون في موضع نصبٍ، أو يكون بدلاً من الواو، فيكون في موضعِ رفعٍ. وقولٌ رابعٌ وهو أحسنُها: يكونُ في موضعِ رفعٍ بالابتداء، ويكونُ خبرُهُ: «لَهم عذابٌ شديدٌ»[٢]، وكأنه سبحانه بَيَّنَ حالَ مُوافقتِه ومُخالفتِه، ويكون الكلامُ قد تَمَّ في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في موضعِ رفعٍ بالابتداء أيضاً، وخبرُه: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ «مَنْ» في موضعِ رفعٍ بالابتداء، وخبرُه محذوفٌ. قال الكسائيُّ: والذي يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ فالمعنى: أفَمَن زُينَ له سوءُ عمله فرآه حسناً ذهبتْ نفسُك عليهم حسرات! قال: وهذا كلامٌ عربيٌّ ظريفٌ[٣] لا يعرفُه إلاَّ قليل ـ وذكره الزمخشريُّ عن الزجاج[٤] ـ قال النحاس[٥]: والذي قاله الكسائيُّ أحسنُ ما قيل في الآية؛ لِمَا ذَكَره من الدلالةِ

---

(١) في (ظ): خفيفة، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٢.

(٣) في (خ) و (م): طريف، والمثبت من باقي النسخ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٢، والكلام منه.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٠١، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٦٤.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٢.

على المحذوف، والمعنى: أنَّ الله جلَّ وعزَّ نهى نبيَّه عن شدة الاغتمام بهم والحزنِ عليهم، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف:٦] قال أهل التفسير: قاتِلٌ. قال نصر بن عليٍّ: سألتُ الأصمعيَّ عن قول النبيِّ ﷺ في أهل اليمن: «هم أرقُّ قلوباً وأبْخَعُ طاعةً»[١] ما معنى أبْخَعُ؟ فقال: أنْصَحُ. فقلت له: إنَّ أهلَ التفسيرِ مجاهداً وغيرَه يقولون في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء:٣]: معناه: قاتِلٌ نفسَك. فقال: هو مِن ذاك بعَيْنه، كأنه من شدة النُّصْح لهم قاتِلٌ نفسَه.

وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخير، مَجازهُ: أفَمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حَسَناً، فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حسَراتٍ، فإنَّ الله يُضلُّ مَن يشاءُ ويهدي مَن يشاء[٢].

وقيل: الجوابُ محذوفٌ، المعنى: أفَمن زُيِّن له سوءُ عملِه كَمَن هُدي، ويكون يَدلُّ على هذا المحذوف: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٣].

وقرأ يزيد بن القَعْقاع: ﴿فلا تُذْهِبْ نفْسَك﴾[٤].

وفي ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أربعةُ أقوال:

أحدها: أنَّهم اليهودُ والنصارى والمجوس؛ قاله أبو قِلابة[٥]. ويكون «سُوءُ عَمَلِهِ»: معاندة الرسولِ عليه الصلاة والسلام.

الثاني: أنَّهم الخوارج؛ رواه عمرو[٦] بن القاسم. فيكونُ «سُوءُ عَمَلِهِ»: تحريف التأويل.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٦)، ووقع في مطبوعه: أنجع، وعليه شرح السندي - كما في حاشية المسند - فقال: أنجع طاعة، أي: الطاعة فيهم أكثر نفعاً لخلوص قلوبهم! والذي في الفائق ١/ ٨٢، والنهاية (بخع)، وغريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٥٨: أبخع - بالخاء - كما ذكره المصنف عن النحاس.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٥٦٥.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٨٣.

(٤) النشر ٢/ ٣٥١، والقراءة من العشرة.

(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٥، والكلام في النكت والعيون ٤/ ٤٦٣.

(٦) في النسخ عدا (ظ): عمر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

الثالث: الشيطان؛ قاله الحسن[(١)]. ويكون «سُوءُ عَمَلِهِ»: الإغواء.

الرابع: كفارُ قريشٍ؛ قاله الكلبيُّ. ويكون «سُوءُ عَمَلِهِ»: الشِّرْك. وقال: إنَّها نزلت في العاص بنِ وائل السَّهْمي والأسود بنِ المطَّلب. وقال غيره: نزلت في أبي جهل بنِ هشام. ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي: صواباً؛ قاله الكلبيُّ. وقيل: جميلاً[(٢)].

قلت: والقولُ بأنَّ المرادَ كفارُ قريشٍ أظْهَرُ الأقوالِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقولِه في هذه الآية: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾. وهذا ظاهِرٌ بيِّن، أي: لا ينفعُ تأسُّفُكَ على مُقامِهم على كفرهم، فإنَّ الله أضلَّهم. وهذه الآيةُ تَردُّ على القدرية قولَهم على ما تقدَّم[(٣)]، أي: أفَمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً تُريدُ أن تَهْدِيَه، وإنَّما ذلك إلى الله لا إليك، والذي إليك هو التبليغ.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ وابنُ مُحَيْصن: «فَلا تُذهِب» بضمِّ التاءِ وكَسْرِ الهاءِ، «نفسَك» نصباً على المفعول، والمعنيان مُتقارِبان[(٤)].

«حَسَرَاتٍ» منصوبٌ مفعولٌ من أجْله، أي: فلا تَذْهَبْ نَفسُكَ للحسرات. و«عليهم» صلةُ «تَذْهَبْ»، كما تقول: هَلَكَ عليه حُبًّا، ومات عليه حزناً. أو هو بيانٌ للمتحسَّر عليه[(٥)]. ولا يجوز أن يتعلَّق بالحسرات؛ لأنَّ المصدر لا يتقدَّمُ عليه صِلَتُه.

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٣٤ ، والكلام في النكت والعيون ٤/ ٤٦٣ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٦٣ .

(٣) ينظر ١/ ٢٣٠ و٢٨٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٣ عن أبي جعفر، وهو يزيد بن القعقاع، وهو من العشرة، وسلفت قريباً.

(٥) في النسخ: وهو بيان للمتحسَّر عليه، والمثبت من الكشاف ٣/ ٣٠١ ، والكلام منه، وكذا وقع في البحر ٧/ ٣٠١ ، وروح المعاني ٢٢/ ١٧٠ ، قال الألوسي: فيكون ظرفاً مستقرًّا، ومتعلَّقهُ مقدَّر، كأنه قيل: على مَن تذهب؟ فقيل: عليهم.

ويجوز أن يكون حالاً، كأنَّ كلَّها صارتْ حسراتٍ لفَرْطِ التَّحسُّرِ، كما قال جرير:

مَشَقَ الهواجِرُ لحمَهُنَّ مع السُّرَى   حتى ذَهَبْنَ كَلاكِلاً وصُدُورا[1]

يريد: رَجَعْنَ كَلاكِلاً وصدوراً، أي: لم يَبْقَ إلاَّ كَلالُها وصدورُها. ومنه قولُ الآخر:

فَعَلَى إثرِهم تَساقَطُ نَفْسِي   حَسَراتٍ وذِكْرُهم لي سَقامُ[2]

أو مَصْدراً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ مَيِّت ومَيْت واحد، وكذا مَيِّتَة ومَيْتة، هذا قولُ الحُذَّاق من النَّحْويين. وقال محمد بن يزيد: هذا قولُ البصريين، ولم يَسْتثنِ أحداً، واستدلَّ على ذلك بدلائلَ قاطعةٍ، وأنشد:

ليس مَن مات فاستراحَ بِمَيْتٍ   إنَّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ

إنَّما المَيْتُ مَن يعيشُ كئيباً   كاسِفاً بالُه قليلَ الرَّخاءِ[3]

قال: فهل تَرى بين مَيْتٍ ومَيِّتٍ فرقاً؟ وأنشد:

هَيْنونَ لَيْنونَ أيسارٌ بنو يَسَرٍ   سُوَّاسُ مَكْرُمةٍ أبناءُ أيْسارِ[4]

---

(١) ديوان جرير ١/ ٢٢٧، والكشاف ٣/ ٣٠١، والكلام منه، وهو في كتاب سيبويه ١/ ١٦٢، قوله: مَشَقَ، أي: أذهب لحومهن، والكلاكل: الصدور، كأنه أراد هنا أعلى الصدرِ فلذلك ذكر معه الصدر، وصف رواحلَ أهْزلها دُؤوبُ السير في الهواجر والليل. شرح الشواهد للشنتمري ص١٣٣.

(٢) البيت لأبي دؤاد الإيادي كما في الشعر والشعراء ١/ ٢٣٩، والأصمعيات ص١٨٨، والحماسة البصرية ١/ ٢٣٨.

(٣) البيتان لعديّ بن الرَّعلاء النسائي، وسلف البيت الأول ٣/ ٢٣، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٣. قال النحاس: ويروى: قليل الرجاء.

(٤) نُسب لعبيد بن العرندس الكلابي كما في الكامل للمبرد ١/ ١٠٦، والحماسة البصرية ١/ ١٥٠، =

قال: فقد أجمعوا على أنَّ هَيْنون وهيِّنون[١] واحدٌ، وكذا مَيْتٌ ومَيِّت، وسَيْدٌ وسَيِّد.

وقال: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ بعدَ أن قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وهو من بابِ تَلْوينِ الخطاب. وقال أبو عبيدةَ: سبيلُه «فَنَسُوقُه»[٢]، لأنَّه قال: «فَتُثِيرُ سَحَاباً».

الزَّمَخْشريّ[٣]: فإن قلتَ: لَمَ جاء «فتثير» على المُضَارَعةِ دونَ ما قَبْلَه وما بعدَه؟ قلت: لتَحْكيَ الحالَ التي تقعُ فيها إثارةُ الرياحِ السحابَ، وتَسْتَحْضِرَ تلك الصورةَ البديعةَ الدالَّةَ على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعلٍ فيه نوعُ تمييزٍ وخصوصيةٌ بحالٍ تُستغرب، أو تَهمُّ المخاطَبَ، أو غير ذلك؛ كما قال تأبَّط شرًّا:

بأني قد لقيتُ الغُولَ تَهْوي ... بسَهْبٍ كالصحيفةِ صَحْصَحانِ
فأضرِبُها بلا دَهَشٍ فخرَّتْ ... صريعاً لليدين ولِلجِرَانِ[٤]

لأنه قَصَدَ أنْ يصوِّر لقومه الحالةَ التي تَشَجَّع فيها بزَعْمِه على ضَرْبِ الغُول، كأنه يُبصِّرهم إياها، ويُطْلِعُهم على كُنْهِها مشاهدةً، للتعجب[٥] من جرأته على كلِّ هَوْلٍ، وثَباته عند كلِّ شدَّةٍ. وكذلك سَوقُ السحابِ إلى البلد الميِّت وإحياءُ الأرض بالمطر بعدَ موتها لمَّا كانا من الدلائلِ على القدرةِ الباهرةِ قيل: «فَسُقْنا» و«أحيينا» معدولاً

= ونسب للعرندس كما في أمالي القالي ١/ ٢٣٩، ومعجم الشعراء ص١٣٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٩٣، وقال المرزباني: وقيل: هو أبو العرندس. قوله: أيسار، قال المرزوقي: جمع يَسَر، وهم الذين يجتمعون في الميسر على الجزور عند الجدب والقحط، فيُجيلون القِدَاح عليها، ثم يفرقونه في الفقراء وأرباب الحاجة.

(١) في النسخ: هينون ولينون، والمثبت عن إعراب القرآن للنحاس.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٥٢، ووقع في (د) و(ز) و(م): فتسوقه. قال أبو عبيدة: والعرب قد تضع «فعلنا» في موضع «نفعل».

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٠١-٣٠٢، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) ديوان تأبّط شرًّا ص٢٢٤-٢٢٥، والأغاني ٢١/ ١٣٤. قوله: بسهب، السهب: الفلاة، والصحصحان: ما استوى من الأرض. قوله: وللجِران، جِران البعير: مقدَّم عنقه من مذبحه إلى منحره. القاموس (سهب) و(صحح) و(جرن).

(٥) في الكشاف: للتعجيب.

بهما عن لفظِ الغيبةِ إلى ما هو أدْخَلُ في الاختصاص وأدَلُّ عليه.

وقراءةُ العامَّةِ: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾. وقرأ ابن مُحَيْصِنٍ وابنُ كثير والأعمشُ ويحيى وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿الريحَ﴾ توحيداً(١). وقد مضى بيانُ هذه الآيةِ والكلامُ فيها مستوفىً(٢).

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: كذلك تحيَوْن بعد ما متُّم، مِن نَشَرَ الإنسانَ نشوراً. فالكافُ في محلِّ الرفع، أي: مثلُ إحياءِ المواتِ نَشْرُ الأمواتِ. وعن أبي رَزِينٍ العُقَيْليِّ قال: قلتُ: يا رسول الله، كيف يُحْيِي الله المَوْتَى، وما آيةُ ذلك في خَلْقِه؟ قال: «أمَا مَرَرْتَ بوادي أهلِكَ مُمْحِلاً، ثم مَرَرْتَ به يَهتزُّ خَضِراً؟» قلت: نعم يا رسولَ الله. قال: «فكذلك يُحيي الله الموتَى، وتلك آيتُه في خَلقِه»(٣) وقد ذكرنا هذا الخبرَ في «الأعراف» وغيرِها(٤).

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ التقديرُ عندَ الفرَّاء: مَن كان يريد عِلْمَ العزَّةِ. وكذا قال غيرُه من أهلِ العلم. أي: مَن كان يريدُ عِلْمَ العزَّةِ التي لا ذِلَّةَ معها؛ لأنَّ العزةَ إذا كانت تؤدِّي إلى ذلَّةٍ فإنَّما هي تَعَرُّضٌ للذلَّة، والعزةُ التي لا ذُلَّ معها للهِ عزَّ وجلَّ. ﴿جَمِيعًا﴾ منصوبٌ على الحال. وقدَّر الزجَّاج معناه: مَن كان يريد بعبادته اللهَ عزَّ وجلَّ العزَّةَ ـ والعزةُ له سبحانه ـ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعِزُّه في الآخرة والدنيا(٥).

---

(١) السبعة ص١٧٢-١٧٣، والتيسير ص٧٨ عن ابن كثير وحمزة والكسائي.

(٢) ٢/ ٤٩٨-٥٠٢ و٩/ ٢٥٣-٢٥٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٢.

(٤) ١/ ٢٩٦ و٩/ ٢٥٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٤، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٧، وقول الزجاج بنحوه في معاني القرآن له ٤/ ٢٦٤.

قلت: وهذا أحسنُ، وروي مرفوعاً على ما يأتي.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ ظاهِرُ هذا إيئاسُ السَّامِعينَ من عزَّته، وتعريفُهم أنَّ ما وجب له من ذلك لا مَطْمَعَ فيه لغيره، فتكون الألفُ واللامُ للعَهْدِ عند العالِمينَ به سبحانه، وبما وَجَبَ له من ذلك، وهو المفهومُ من قوله الحقِّ في سورة يونس: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ [الآية: ٦٥].

ويحتملُ أنْ يريدَ سبحانه أنَّ يُنبِّهَ ذوي الأقدارِ والهمم من أين تُنالُ العزةُ، ومن أين تُستحقُّ، فتكونُ الألفُ واللامُ للاستغراق، وهو المفهومُ من آيات هذه السورة. فَمَن طلب العزةَ من الله وصدقه في طلبها بافتقارٍ وذلٍّ وسكونٍ وخضوع، وجَدَها عنده ـ إن شاء الله ـ غيرَ ممنوعةٍ ولا محجوبةٍ عنه؛ قال ﷺ: «مَن تَواضعَ للهِ رَفَعَه الله»[1]. ومَن طَلَبها من غيرِه وكَله[2] إلى مَن طَلَبها عنده. وقد ذَكَر تعالى قوماً طلبوا العزةَ عندَ مَن سواه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. فأنبأك[3] صريحاً لا إشكالَ فيه أنَّ العزةَ له يُعِزُّ بها مَن يشاء ويُذِلُّ مَن يشاء. وقال ﷺ مفسِّراً لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾: «مَن أراد عزَّ الدَّارينِ فَلْيُطِعِ العزيز»[4]. وهذا معنى قولِ الزجَّاج، ولقد أحْسَنَ مَن قال:

وإذا تذلَّلتِ الرقابُ تواضُعاً ... منَّا إليك فعزُّها في ذلِّها[5]

فَمن كان يريد العزةَ لينال الفوزَ الأكبر، ويدخلَ دارَ العزَّةِ ـ ولله العزةُ ـ فلْيقصِدْ بالعزة[6] اللهَ سبحانه والاعتزازَ به؛ فإنَّه مَن اعتزَّ بالعبيد أذلَّه الله، ومَن اعتزَّ بالله

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٢٠٦)، ومسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) في (ظ): وكل.

(٣) في (ظ): فأبان.

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٨٠ و٨/ ١٧١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٧.

(٥) قائله أبو إسحاق الصابي كما في يتيمة الدهر ٢/ ٣٢٥، وسلف ١١/ ١٢٩.

(٦) في (خ) و(ظ): بالذلة.

أعزَّه الله.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وتمَّ الكلام. ثم تبتدئُ ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ على معنى: يرفعُه الله، أو يرفعُ صاحبَه. ويجوز أن يكون المعنى: والعملُ الصالح يرفعُ الكلمَ الطيِّبَ[1]؛ فيكون الكلامُ متَّصلاً على ما يأتي بيانه.

والصعود: هو الحركةُ إلى فوق، وهو العروجُ أيضاً. ولا يُتَصَوَّرُ ذلك في الكلام لأنَّه عَرَضٌ، لكنْ ضُرب صعودُه مثلاً لقبوله؛ لأنَّ موضعَ الثوابِ فوق، وموضعُ العذابِ أسفل[2].

وقال الزجَّاج: يقال: ارتفع الأمر إلى القاضي، أي: عَلِمَه، فهو بمعنى العلم[3]. وخصَّ الكلام الطيب[4] بالذكر لبيانِ الثوابِ عليه.

وقوله: «إليه» أي: إلى الله يصعد. وقيل: يصعد إلى سمائه والمحلِّ[5] الذي لا يجري فيه لأحدٍ غيرِه حُكْمٌ. وقيل: أي: يُحمل الكتاب الذي كُتب فيه طاعاتُ العبدِ إلى السماء.

و«الكَلِمُ الطيِّبُ» هو التوحيدُ الصادِرُ عن عقيدةٍ طيِّبةٍ. وقيل: هو التحميدُ والتمجيدُ، وذكرُ اللهِ ونحوُه. وأنشدوا:

لا تَرْضَ من رجلٍ حلاوةَ قولِهِ حتى يُزَيِّنَ ما يقولُ فَعالُ
فإذا وَزَنْتَ فَعالَه بِمَقالِهِ فتوازَنا فإخاءُ ذاك جَمالُ[6]

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٤٨، والوقف عند ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وقف حسن، كما ذكر أبو بكر الأنباري.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٣.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٠٢ دون نسبة، ولم نقف عليه في معاني القرآن للزجاج.

(٤) في (ظ): الكلم الطيب، وفي (م): الكلام والطيب.

(٥) في الوسيط للواحدي ٣/ ٥٠٢ (والكلام منه): وهو المحل، بدل: والمحل.

(٦) ذكرهما ابن عساكر في تاريخ دمشق ٨/ ١٦٢ عن إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي. قوله: فَعال، كسَحاب: هو اسم الفعل الحسن. القاموس (فعل).

وقال ابنُ المُقَفَّع: قولٌ بلا عملٍ، كَثَرِيدٍ بلا دَسَمٍ، وسَحابٍ بلا مَطَرٍ، وقَوْسٍ بلا وَتَرٍ[(١)]. وفيه قيل:

لا يكونُ المقالُ إلاَّ بفعلٍ ... كلُّ قولٍ بلا فِعالٍ هَبَاءُ

إنَّ قولاً بلا فِعالٍ جميلٍ ... ونِكاحاً بلا وَليٍّ سواءُ

وقرأ الضحاك: «يُصعَد» بضمِّ الياء[(٢)]. وقرأ جمهورُ الناسِ: «الكَلِمُ» جمع كلمة. وقرأ أبو عبد الرحمن: «الكلامُ»[(٣)].

قلت: فالكلامُ على هذا قد يُطْلَقُ بمعنى الكَلِمِ وبالعكس؛ وعليه يخرَّج قولُ أبي القاسم: أقسامُ الكلامِ ثلاثة[(٤)]؛ فوَضَعَ الكلامَ مَوْضعَ الكَلِمِ، والله أعلم.

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ قال ابن عباس ومجاهدٌ وغيرهما: المعنى: والعملُ الصالح يرفعُ الكَلِمَ الطيب[(٥)]. وفي الحديث «لا يَقْبلُ الله قولاً إلا بعملٍ، ولا يقبلُ قولاً وعملاً إلا بنيَّةٍ، ولا يقبلُ قولاً وعملاً ونيَّةً إلا بإصابةِ السَّنة»[(٦)]. قال ابن عباس: فإذا ذكر العبدُ الله وقال كلاماً طيِّباً وأدَّى فَرائضَه، ارتفع قولُه مع عمله، وإذا قال ولم يؤدِّ فرائضَه؛ رُدَّ قولُه على عمله. قال ابن عطية[(٧)]: وهذا قولٌ يَردُّه مُعتقَدُ أهلِ السُّنةِ،

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وقراءة: «الكلام» في القراءات الشاذة ص١٢٣.

(٤) الجمل في النحو لأبي القاسم الزَّجَّاجي ص١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٤، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٠.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٠٢، وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٦٩٢) من حديث أنس ﷺ، وفي إسناده أبان بن أبي عياش وهو متروك. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ١٥٠ من حديث ابن مسعود ﷺ، وفي إسناده أحمد بن الحسن المصري قال ابن حبان: كذاب. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٨٠، وابن عدي في الكامل ٣/ ٩١٤ من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده أبو يحيى زكريا بن يحيى الوَقَّار، قال ابن عدي: يضع الحديث، كذَّبه صالح جَزَرة. وينظر أيضاً الكامل لابن عدي ٣/ ١٠٧١، والميزان ١/ ٦٣٣ و٢/ ٧٧، وتخريج أحاديث الكشاف ص١٣٨-١٣٩.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وما قبله منه، وخبر ابن عباس أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٣٩.

ولا يصحُّ عن ابن عباس. والحقُّ أنَّ العاصيَ التارِكَ للفرائض إذا ذَكَر الله وقال كلاماً طيباً فإنَّه مكتوبٌ له مُتقَبَّلٌ منه، وله حسناتُه وعليه سيئاتُه، واللهُ تعالى يتقبَّلُ مِن كلِّ مَن اتَّقى الشِّرْك. وأيضاً فإنَّ الكلامَ[1] الطيبَ عملٌ صالح. وإنَّما يستقيمُ قولُ مَن يقول: إنَّ العملَ هو الرافعُ للكَلِم، بأنْ يُتأوَّلَ أنه يزيده[2] في رَفْعِه وحُسْنِ مَوْقِعِه إذا تعاضَدَ معه. كما أنَّ صاحب الأعمالِ من صلاةٍ وصيام وغير ذلك؛ إذا تخلَّل أعمالَه كَلِمٌ طَيِّبٌ وذِكْرُ اللهِ تعالى كانت الأعمالُ أشرفَ، فيكون قولُه: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ موعظةً وتَذْكرةً وحَضًّا على الأعمال. وأمَّا الأقوالُ التي هي أعمالٌ في نفوسها، كالتوحيد والتسبيح فمقبولةٌ.

قال ابن العربيِّ[3]: إنَّ كلامَ المرءِ بِذِكْرِ اللهِ إنْ لم يقترن به عملٌ صالح لم يَنْفَع، لأنَّ مَن خالَفَ قولَه فِعْلُه فهو وبالٌ عليه. وتحقيقُ هذا: أنَّ العملَ إذا وقع شرطاً في قبول القول أو مُرْتَبِطاً به، فإنه لا قبولَ له إلا به، وإن لم يكن شرطاً فيه [ولا مرتبطاً به] فإنَّ كَلِمَه الطيبَ يُكتبُ له. وعملُه السَّيِّئ يُكتبُ عليه، وتقعُ الموازنةُ بينهما، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران.

قلت: ما قاله ابنُ العربيِّ تحقيقٌ. والظاهِرُ أنَّ العمل الصالح شَرْطٌ في قَبولِ القولِ الطيِّب. وقد جاء في الآثار: «أنَّ العبدَ إذا قال: لا إلهَ إلاَّ الله بنيَّةٍ صادقةٍ، نَظَرت الملائكةُ إلى عمله، فإن كان العملُ مُوافقاً لقوله صَعِدَا[4] جميعاً، وإن كان عملُه مخالفاً وقفَ قولُه حتى يتوبَ من عمله»[5]. فعلى هذا: العملُ الصالح يَرفعُ الكَلِمَ

(١) في (ظ) والمحرر الوجيز: الكلم.

(٢) في المحرر الوجيز: يزيد.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (ظ): فإن كان العمل صالحاً صعدا.

(٥) أخرجه بنحوه الثعلبي وابن مردويه عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٨، وذكر نحوه أيضاً الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٠٢ عن الحسن قولَه، وهو الأشبه.

الطيِّبَ إلى الله، والكنايةُ في «يرفعُه» ترجعُ إلى الكَلِم الطيِّب. وهذا قولُ ابنِ عباسٍ وشَهْر بن حَوشَب وسعيد بن جُبير ومجاهدٍ وقتادةَ وأبي العاليةِ والضَّحاك[١].

وعلى أنَّ «الكَلِم الطيِّب» هو التوحيدُ، فهو الرافِعُ للعمل الصالح؛ لأنه لا يُقبَلُ العملُ الصالح إلاَّ مع الإيمانِ والتوحيد، أي: والعملُ الصالح يرفعُه الكَلِمُ الطيِّبُ، فالكناية تعودُ على العمل الصالح. ورُوي هذا القولُ عن شَهْر بن حَوْشَب قال: «الكَلِمُ الطيِّبُ» القرآن، «والعمل الصالحُ يرفعُه» القرآن[٢].

وقيل: تعودُ على الله جلَّ وعزَّ، أي: أنَّ العملَ الصالحَ يرفعُه اللهُ على الكَلِم الطيِّب؛ لأنَّ العمل تحقيقُ الكلِم، والعاملُ أكثرُ تعباً[٣] من القائل، وهذا هو حقيقةُ الكلام؛ لأنَّ الله هو الرافعُ الخافِضُ. والثاني والأولُ مَجازٌ، ولكنَّه سائغٌ جائز.

قال النحاس[٤]: القولُ الأوَّلُ أَوْلاها وأصحُّها لعلُوِّ مَن قال به، وأنَّه في العربية أَوْلى؛ لأنَّ القُرَّاءَ على رَفْعِ العمل، ولو كان المعنى: والعمل الصالح يرفعُه الله، أو العمل الصالح يرفعُه[٥] الكَلِمُ الطيِّب، لكان الاختيارُ نَصْبَ العمل. ولا نَعلمُ أحداً قرأه منصوباً إلاَّ شيئاً رُوي عن عيسى بن عمر أنه قال: قرأه أناس: «والعملَ الصالحَ يرفعُه الله»[٦].

وقيل: والعملُ الصالح يرفعُ صاحبَه، وهو الذي أراد العزَّةَ وعَلِمَ أنَّها تُطلب من الله تعالى؛ ذكره القُشيريُّ.

الثانية: ذكروا عند ابن عباس أنَّ الكلب يقطعُ الصلاةَ، فقرأ هذه الآية: ﴿إِلَيْهِ

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٣٣٩-٣٤٠ ، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤١ .

(٢) ذكر هذا القول عن شهر بن حوشب النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٤٢ .

(٣) في (ظ): نفعا.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٤٤٢ .

(٥) في النسخ: يرفع، والمثبت من معاني القرآن للنحاس.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٣ .

﴿يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾. وهذا استدلالٌ بعموم، على مذهب السَّلَفِ في القول بالعموم. وقد دخل [هذا] في الصلاة بشروطها، فلا يقطعُها عليه شيءٌ إلا بثبوتِ ما يُوجبُ ذلك، من مِثْلِ ما انعقدت به من قرآنٍ أو سُنَّةٍ أو إجماع[١]. وقد تعلَّق مَن رأى ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «يقطعُ الصلاةَ المرأةُ والحمارُ والكلبُ الأسود» فقلت: ما بالُ الكلب الأسودِ من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر؟ فقال: «إنَّ الأَسْوَدَ شيطانٌ» خرَّجه مسلم[٢]. وقد جاء ما يُعارِضُ هذا، وهو ما خرَّجه البخاريُّ عن ابن أخي ابنِ شهابٍ أنَّه سأل عمَّه عن الصلاة: يَقْطَعُها شيءٌ؟ فقال: لا يقطعُها شيء؛ أخبرني عروة بنُ الزبير أنَّ عائشةَ زوجَ النبيِّ ﷺ قالت: لقد كان رسولُ الله ﷺ يقوم فيُصلِّي من الليل، وإنِّي لَمعتَرِضةٌ بينه وبينَ القبلةِ على فراشِ أهله[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ذكر الطبريُّ في كتابِ «آداب النفوس»: حدثني يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا سفيانُ، عن لَيْث بنِ أبي سُليم، عن شَهْر ابن حَوْشَبٍ الأشعريِّ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ قال: هم أصحابُ الرِّياء[٤]. وهو قولُ ابن عباس ومجاهدٍ وقتادة[٥].

وقال أبو العالية: هم الذين مَكَروا بالنبيِّ ﷺ لمَّا اجتمعوا في دار النَّدْوة. وقال

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٤، وما سلف بين حاصرتين منه. وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه عبد الرزاق (٢٣٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٤٥٩.

(٢) في صحيحه (٥١٠)، وهو عند أحمد (٢١٣٢٣)، وهو من حديث أبي ذر ﷺ. والقائل: فقلت، هو عبد الله بن الصامت الرواي عن أبي ذرّ ﷺ.

(٣) صحيح البخاري (٥١٥)، وبنحوه عند أحمد (٢٤٠٨٨)، ومسلم (٥١٢).

(٤) وأخرجه الطبري أيضاً بهذا الإسناد في التفسير ١٩/ ٣٤١، وسلف الكلام على كتابه آداب النفوس ١/ ٣٥.

(٥) أخرجه عن مجاهد ابن المبارك في الزهد (٦١- زوائد نعيم)، والبيهقي في الشعب (٦٨٤٥)، ولم نقف عليه عن ابن عباس وقتادة.

الكلبيُّ: يعني الذين يعملون السيئاتِ في الدنيا. مقاتل: يعني الشرك[١]، فتكون «السَّيئات» مفعولةً[٢]. ويقال: بارَ يَبورُ: إذا هَلَكَ وبطل. وبارتْ السوقُ، أي: كَسدتْ، ومنه: نعوذُ بالله من بَوارِ الأيِّم. وقولُه: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] أي: هَلْكَى. والمَكْر: ما عُمل على سبيل احتيالٍ وخديعة. وقد مضى في «سبأ»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قال سعيدٌ عن قتادةَ: يعني آدمَ عليه السلام، والتقديرُ على هذا: خَلَقَ أصْلَكم من تراب. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قال: أي: التي أخرجَها من ظهورِ آبائِكم ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ قال: أي: زوَّجَ بعضَكم بعضاً[٤]. فالذَّكَرُ زوجُ الأنثى ليتمَّ البقاءُ في الدنيا إلى انقضاءِ مُدَّتِها. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: جَعَلَكم أزواجاً، فيتزوَّجُ الذكرُ بالأنثى فيتناسلان بعلم الله، فلا يكون حملٌ ولا وضعٌ إلا واللهُ عالمٌ به، فلا يخرجُ شيءٌ عن تدبيره.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ سمَّاه معمَّراً بما هو صائرٌ إليه. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ إلاَّ كُتِبَ عمرُه، كم هو سنةً، كم هو شهراً، كم هو يوماً، كم هو ساعةً، ثم يُكتبُ في كتابٍ آخرَ: نقصَ من عمره يومٌ، نقصَ شهرٌ، نقصَ سنةٌ، حتى يستوفيَ أجلَه[٥]. وقاله سعيد بن جبير أيضاً؛

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي ٣/ ٥٦٧ .

(٢) يعني على قول الكلبي ومقاتل، حيث ضُمِّن «يمكرون» معنى يكسبون، وعلى قول أبي العالية ينتصب «السيئات» على نعتِ مصدرٍ محذوف، أي: المكراتِ السيئات، وهي: إثباته أو قتله أو إخراجه. ينظر البحر ٧/ ٣٠٤ ، والدر المصون ٩/ ٢١٨ .

(٣) ص٣٠٢ من هذا الجزء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٥ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٤٢ .

(٥) بنحوه في تفسير الطبري ١٩/ ٣٤٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٥ ، ومعاني القرآن له ٥/ ٤٤٤ .

قال: فما مَضَى من أجَلِه فهو النقصانُ، وما يُستقبلُ فهو الذي يُعَمَّرُه[١]، فالهاءُ على هذا للمعمَّر.

وعن سعيد أيضاً: يكتبُ عمرُه كذا وكذا سنةً، ثم يكتب في أسفلِ ذلك: ذهب يومٌ، ذهب يومان، حتى يأتيَ على آخره. وعن قتادةَ: المعمَّرُ مَن بلغ ستِّينَ سنةً، والمَنْقوصُ من عمره مَن يَموتُ قبل ستِّين سنة[٢].

ومذهبُ الفرَّاءِ[٣] في معنى ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ما يكونُ من عمره ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ بمعنى معمَّرٍ آخرَ، أي: ولا يُنْقَصُ الآخرُ من عمره ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ فالكنايةُ في «عمره» تَرْجِعُ إلى آخرَ غيرِ الأوَلِ، وكَنَى عنه بالهاء كأنه الأوّلُ، ومثلُه قولُك: عندي درهمٌ ونصفُه، أي: نصفُ آخرَ.

وقيل: إنَّ الله كتب عمرَ الإنسان مئةَ سنةٍ إن أطاع، وتسعين إن عَصَى، فأيَّهما بلغ فهو في كتاب[٤]. وهذا مثلُ قوله عليه الصلاة والسلام: «مَن أحَبَّ أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسأ له في أَثَرِه، فَلْيَصِلْ رَحِمَه»[٥]. أي: إنَّه يُكتَبُ في اللَّوح المحفوظ: عمرُ فلانٍ كذا سنةً، فإنْ وَصَلَ رَحِمَه زِيْدَ في عمرِه كذا سنةً. فبيَّن ذلك في موضع آخَرَ من اللَّوحِ المحفوظ، أنَّه سَيَصِلُ رَحِمَه. فَمَن اطَّلع على الأوّل دونَ الثاني ظَنَّ أنَّه زيادةٌ أو نقصان. وقد مضى هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]. والكنايةُ على هذا ترجعُ إلى العمر.

وقيل: المعنى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: هَرِم ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ آخرُ [﴿مِنْ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٥ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٣ ، وأخرج الخبرين ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٧ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٨ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٦ .

(٥) أخرجه أحمد (١٣٥٨٥)، والبخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس ﷺ، وسلف ١٠/ ٢٠٢ و١٢/ ٨٩ .

عُمُرِهِۦٓ﴾] من عمرِ الهَرِمِ ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: بقضاءٍ من الله جلَّ وعزَّ. رُوي معناه عن الضحَّاك واختاره النحَّاس، قال: وهو أشبهها بظاهرِ التنزيل(١). ورُوي نحوُه عن ابن عباس(٢). فالهاءُ على هذا يَجوزُ أن تكون للمعمَّر، ويجوز أن تكون لغيرِ المعمَّر.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: كتابةُ الأعمالِ والآجالِ غيرُ مُتعذِّرٍ عليه. وقراءةُ العامَّةِ: ﴿يُنقَصُ﴾ بضمِّ الياء وفتحِ القاف. وقرأتْ فرقةٌ منهم يعقوبُ: ﴿يَنْقُص﴾ بفتح الياء وضمِّ القاف(٣)، أي: لا يَنْقُصُ من عمرِه شيءٌ. يقال: نَقَصَ الشيءُ بنفسه ونقَصَه غيرُه، وزاد بنفسه وزاده غيره، متعدٍّ ولازمٌ.

وقرأ الأعرجُ والزُّهريُّ: «مِن عُمْره» بتخفيفِ الميم(٤). وضمَّها الباقون. وهما لغتان مثل: السُّحْق والسُّحُق. و«يسيرٌ» أي: إحْصَاءُ طويلِ الأعمارِ وقصيرِها لا يتعذَّر عليه شيءٌ منها ولا يَعْزُب. والفعلُ منه: يَسُر. ولو سمَّيتَ به إنساناً انْصَرَفَ؛ لأنه فَعِيل(٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ **فيه أربعُ مسائلَ:**

الأولى: قال ابن عباس: «فُراتٌ» حُلْوٌ، و«أُجَاجٌ» مرٌّ. وقرأ طلحةُ: «هذا مَلِحٌ أُجاجٌ» بفتحِ الميم وكَسْرِ اللامِ بغير ألف. وأمَّا المالحُ فهو الذي يُجعلُ فيه الملح(٦).

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٣ .

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٣ .

(٣) النشر ٢/ ٣٥٢ .

(٤) ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٥٣٤ رواية عن أبي عمرو، وهي في القراءات الشاذة ص١٢٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٦ .

(٦) المصدر السابق.

وقرأ عيسى وابنُ أبي إسحاقَ: «سيِّغ شرابه» مثل: سيِّد وميِّت[1]. ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لا اختلافَ في أنه منهما جميعاً. وقد مضى في «النحل» الكلامُ فيه[2].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ مذهبُ أبي إسحاق أنَّ الحلية إنَّما تستخرجُ من الملح، فقيل: منهما؛ لأنَّهما مُخْتلِطان. وقال غيره: إنَّما تُسْتَخرجُ الأصدافُ التي فيها الحليةُ ـ من الدرِّ وغيرِه ـ من المواضع التي فيها العذبُ والمِلْحُ نحو العيون[3]، فهو مأخوذٌ منهما[4]؛ لأنَّ في البحر عيوناً عذبةً، وبينهما يخرج اللؤلؤُ عند التَّمازُجِ. وقيل: من مطر السماء.

وقال محمد بنُ يزيد قولاً رابعاً، قال: إنَّما تُستخرَجُ الحليةُ من المِلْح خاصةً؛ النحاس[5]: وهذا أحْسَنُها، وليس هذا عندَه لأنَّهما مُختلِطان، ولكنْ جُمِعا ثم أخبر عن أحدهما كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] وكما تقول: لو رأيتَ الحسنَ والحجَّاجَ لرأيتَ خيراً وشَرّاً. وكما تقول: لو رأيتَ الأصمعيَّ وسيبويه لملأتَ يدك لغةً ونَحْواً. فقد عرف معنى هذا، وهو كلامٌ فصيحٌ كثير، فكذا: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فاجتمعا في الأوَّلِ وانفردَ المِلْحُ بالثاني.

الثالثة: وفي قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ دليل على أنَّ لباسَ كلِّ شيءٍ بحَسَبِه؛ فالخاتمُ يُجعل في الإصبع، والسِّوارُ في الذِّراع، والقِلادَةُ في العنق، والخَلْخالُ في الرِّجْل.

---

(١) القراءات الشاذة ص٣٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٣ عن عيسى. وقرأ عيسى أيضاً: «سَيْغ» مخفَّفاً من المشدَّد، وكذا ضبطت في (ز)، وهي في المحتسب ٢/ ١٩٨، والبحر ٧/ ٣٠٥.

(٢) ١٢/ ٢٩٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٦، وقول أبي إسحاق الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٦٦.

(٤) في (ظ): منها، وليست في (د). والمثبت من باقي النسخ والنكت والعيون ٤/ ٤٦٧، والكلام منه.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٦، وما قبله منه.

وفي البخاريِّ والنسائيِّ عن ابن سِيرين قال: قلتُ لعَبيدةَ: افتراشُ الحرير كَلُبْسِه؟ قال: نعم[(١)]. وفي الصِّحاح عن أنس: فقمتُ على حَصيرٍ لنا قد اسْوَدَّ من طولِ ما لُبس. الحديث[(٢)].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ قال النحاس[(٣)]: أي: ماءِ الملحِ خاصةً، ولولا ذلك لقال: فيهما. وقد مَخَرت السفينةُ تَمْخُر: إذا شقَّت الماءَ. وقد مضى هذا في «النحل»[(٤)].

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قال مجاهد: التجارةُ في الفُلْكِ إلى البلدان البعيدةِ في مدَّةٍ قريبة[(٥)]، كما تقدَّم في «البقرة»[(٦)]. وقيل: ما يُستخرج من حِلْيتهِ ويُصادُ من حِيتَانه. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما آتاكم من فَضْلِه. وقيل: على ما أنْجاكم مِن هَوْله.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[(٧)] وغيرِها. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تقدَّم في «لقمان»

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً في: باب افتراش الحرير، فقال: وقال عبيدة: هو كَلُبْسه. ووصله الحارث بن أبي أسامة من طريق محمد بن سيرين بلفظ المصنف، كما في الفتح ١٠/ ٢٩٢، ولم يخرجه النسائي، ولكن أخرجه من طريقه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٦٥.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٠)، وصحيح مسلم (٦٥٨)، وهو عند أحمد (١٢٣٤٠).

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٧.

(٤) ١٢/ ٣٠٢.

(٥) ذكره مختصراً الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦٧.

(٦) ٢/ ٤٩٧.

(٧) ٥/ ٨٥ - ٨٧.

بيانُه(١). ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: هذا الذي مِن صُنْعِه ما تَقرَّرَ هو الخالقُ المدبِّر، والقادرُ المقتدرُ، فهو الذي يُعْبَد. ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني: الأصنامَ ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي: لا يقدرون عليه ولا على خَلْقِه. والقِطْميرُ: القِشْرةُ الرقيقةُ البيضاءُ التي بين التمرة والنواة؛ قاله أكثر المفسِّرين(٢). وقال ابن عباس: هو شَقُّ النَّواةِ(٣)، وهو اختيارُ المبرِّد، وقاله قتادةُ. وعن قتادةَ أيضاً: القِطْميرُ: القَمْعُ الذي على رأس النواة(٤). الجوهَرِيُّ(٥): ويقال: هي النكتةُ البيضاءُ التي في ظَهْرِ النواةِ، تَنْبُتُ منها النخلة.

قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ أي: إنْ تَستغيثوا بهم في النَّوائب لا يسمعوا دعاءَكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تُبصِرُ ولا تسمع. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ إذ ليس كلُّ سامعٍ ناطقاً. وقال قتادةُ: المعنى: لو سَمِعوا لم ينفعوكم(٦). وقيل: أي: لو جَعَلْنا لهم عقولاً وحياةً فسمعوا دعاءَكم لكانوا أطوعَ للهِ منكم، ولمَا استجابوا لكم على الكفر.

---

(١) عند تفسير الآية (٢٩) منها.

(٢) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفي والحسن وقتادة وغيرهم.

(٣) لم نقف عليه، وقد روي هذا القول عن ابن عباس في تفسير الفتيل، كما في معاني القرآن للنحاس ٤٤٨/٥ ، والدر المنثور ٢/ ١٧١ ، وعزاه السيوطي لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر، وروي عنه في معنى القطمير أنه القشر ـ وفي لفظ: الجلد ـ الذي يكون على ظهر النواة. تفسير الطبري ٣٤٩/١٩ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤٤٨/٥ ، والدر المنثور ٢/ ١٧١ و ٢٤٨/٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٥٠ من طريق جويبر عن بعض أصحابه، وأخرج عن قتادة أنه قال: القطمير: القشرة التي على رأس النواة.

(٥) في الصحاح (قطمر).

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ٣٥١/١٩ .

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يجحدون أنَّكم عَبَدْتُموهم، ويَتَبرَّؤون منكم. ثم يجوزُ أن يرجع هذا إلى المعبودينَ ممَّا يَعْقِلُ، كالملائكة والجنِّ والأنبياءِ والشَّياطين، أي: يجحدون أن يكون ما فعلتُموه حقًّا، وأنَّهم أمروكم بعبادتهم، كما أخبر عن عيسى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. ويجوزُ أن يندرج فيه الأصنامُ أيضاً، أي: يحُييها الله حتى تُخْبِرَ أنَّها ليست أهلاً للعبادة. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ هو اللهُ جلَّ وعزَّ، أي: لا أحدَ أخْبَرُ بخلقِ اللهِ من الله، فلا ينبِّئك مثلُه في عمله[1].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: المحتاجون إليه في بقائكم وكلِّ أحوالِكم. الزَّمخشريُّ: فإنْ قلتَ: لِمَ عرَّف «الفقراء؟» قلتُ: قَصَدَ بذلك أن يُريَهم أنَّهم لشدَّةِ افتقارِهم إليه هم جنسُ الفقراء، وإن كانت الخلائقُ كلُّهم مفتقرين إليه؛ من الناس وغيرِهم؛ لأنَّ الفقر ممَّا يَتبعُ الضَّعْفَ، وكلَّما كان الفقيرُ أضْعَفَ كان أفقرَ[2]؛ وقد شَهِدَ اللهُ سبحانه على الإنسان بالضَّعْفِ في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ولو نَكَّر لكان المعنى: أنتم بعضُ الفقراء.

فإن قلت: قد قُوبِلَ «الفقراء» بـ «الغنيّ» فما فائدةُ «الحميد»؟

قلتُ: لمَّا أثبتَ فَقْرَهم إليه وغِناهُ عنهم، وليس كلُّ غنيٍّ نافعاً بغناه إلاَّ إذا كان الغنيُّ جواداً مُنْعِماً، وإذا جاد وأنْعمَ حَمِدَه المنْعَمُ عليهم واستحقَّ عليهم الحمدَ، ذَكَر «الحميد» ليدلَّ به على أنَّه الغنيُّ النافِعُ بغناه خَلْقَه، الجوادُ المنعمُ عليهم، المستحِقُّ بإنعامه عليهم أن يَحْمَدوه[3].

---

(١) في (خ) و (ز): علمه.

(٢) في (خ): أحقر.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥.

وتخفيفُ الهمزةِ الثانيةِ أَجْوَدُ الوجوهِ عند الخليلِ، ويجوزُ تخفيفُ الأولى وحذَها[١]، وتخفيفُهما وتحقيقُهما جميعاً. ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تكون «هو» زائدةً، فلا يكون لها موضعٌ من الإعراب، وتكون مبتدأةً فيكون موضعُها رفعاً[٢].

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ فيه حذفٌ، المعنى: إنْ يشأْ [أن] يُذْهِبَكم يُذْهِبْكم[٣]، أي: يفنيكم. ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أطْوعَ منكم وأزْكى. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: ممتنعٍ عَسيرٍ مُتعذِّر. وقد مضى هذا في «إبراهيم»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

تقدَّم الكلامُ فيه[٥]، وهو مقطوعٌ ممَّا قَبْلَه. والأصلُ: «تَوْزِر» حُذفت الواوُ اتباعاً لِيَزِر. ﴿وَازِرَةٌ﴾ نعتٌ لمحذوفٍ، أي: نفسٌ وازِرةٌ. وكذا ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ قال الفرَّاء[٦]: أي: نفسٌ مُثْقَلةٌ، أو دابَّة. قال: وهذا يقع للمذكَّر والمؤنَّث. قال الأخفش[٧]: أي: وإنْ تَدْعُ مُثْقَلةٌ إنساناً إلى حِمْلِها، وهو ذنوبها. والحِمْلُ: ما كان

---

(١) في (د): وحذفها، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٨، وسهَّل الثانية كالياء وأبدلها واواً مكسورة: نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، وحققها الباقون وأما تخفيف الأولى؛ فهو لحمزة وهشام عند الوقف حسب أصولهما فيه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٧-٣٦٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٨، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) ١٢/ ١٢٥.

(٥) ٩/ ١٤٥.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٨.

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٦٦٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٨.

على الظَّهر، والحَمْل: حَمْلُ المرأةِ، وحَمْلُ النخلة؛ حكاهما الكسائيُّ بالفتح لا غير. وحَكَى ابن السِّكِّيت أنَّ حمل النخلة يُفتح ويُكسر.

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ التقدير على قول الأخفش: ولو كان الإنسانُ المدعوُّ ذا قُرْبَى. وأجاز الفرَّاء: ولو كان ذو قُرْبَى. وهذا جائزٌ عند سيبويه، ومثلُه: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فتكون «كان» بمعنى: وقع، أو يكون الخبرُ محذوفاً، أي: وإن كان فيمَن تطالبون ذو عسرة. وحكى سيبويه: الناسُ مَجْزِيُّونَ بأعمالهم إنْ خيرٌ فخيرٌ؛ على هذا، وخيراً فخيراً[(١)]؛ على الأوّل.

وروي عن عكرمةَ أنه قال: بلغني أنَّ اليهوديَّ والنَّصْرانيَّ يرى الرجلَ المسلمَ يومَ القيامةِ فيقولُ له: ألم أكن قد أَسْديتُ إليك يداً، ألم أكن قد أَحْسنتُ إليك؟ فيقول: بلى. فيقول: انفعني؛ فلا يزالُ المسلم يسأل الله تعالى حتى يُنْقِصَ من عذابه. وأنَّ الرجل ليَأتي إلى أبيه يومَ القيامةِ فيقول: ألم أَكُنْ بك بارّاً، وعليك مُشْفِقاً، وإليك مُحْسِناً؟ وأنت ترى ما أنا فيه، فهَبْ لي حسنةً من حسناتك، أو احْمِلْ عنِّي سيئةً، فيقول: إنَّ الذي سَأَلْتني يسيرٌ، ولكنِّي أخافُ مثلَ ما تَخاف. وأنَّ الأبَ ليقول لابنه مثلَ ذلك، فَيرُدُّ عليه نحواً من هذا. وأنَّ الرجل ليقول لزوجته: ألم أَكُنْ حَسَنَ[(٢)] العِشرة لكِ؟ فاحْمِلي عنِّي خطيئةً لَعَلِّي أنْجو، فتقول: إنَّ ذلك ليسيرٌ ولكنِّي أخاف ممَّا تخاف منه. ثم تلا عكرمة: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[(٣)].

---

(١) في (د) و (م): وخيراً فخيرٌ، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس، وكلا الوجهين صحيح، والتقدير: إن كان الذي عَمِلَ خيراً جُزي خيراً، أو: إن كان الذي عَمِلَ خيراً فالذي يُجزى به خيرٌ. وإذا رفع الاثنين فالتقدير: إن كان في عمله خير فالذي يجزى به خير. ينظر الكتاب ١/٢٥٨-٢٦٠. وقول الفراء في معاني القرآن ٢/٣٦٨. وقول الأخفش في معاني القرآن ٢/٦٦٥.

(٢) في (د) و (م): أحسن.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٩، وأخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٢٤٨.

وقال الفُضيل بنُ عِياض: هي المرأةُ تَلْقَى ولدَها فتقول: يا ولدي، ألم يكن بطني لك وعاءً؟ ألم يكن ثديي لك سِقَاءً؟ ألم يكن حِجْري لك وِطَاءً؟ فيقول: بلى يا أمَّاه! فتقول: يا بنيَّ، قد أثْقلتني ذنوبي فاحمِلْ عنِّي منها ذنباً واحداً، فيقول: إليكِ عنِّي يا أمَّاه، فإنِّي بذَنْبي عنكِ مشغول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: إنَّما يقبلُ إنذارَك مَن يخشى عقابَ الله تعالى، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: مَن اهتَدَى فإنَّما يَهْتدي لنفسه. وقُرِئ: «ومَنِ ازَّكَّى فإنَّما يَزَّكَّى لِنفسِه»(١). ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إليه مَرْجِعُ جميعِ الخَلْق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الكافرُ والمؤمنُ، والجاهلُ والعالم. مثل: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]. ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ قال الأخْفشُ سعيد(٢): «لا» زائدةٌ؛ والمعنى: ولا الظلماتُ والنور، ولا الظلُّ والحَرُور.

قال الأخفش: والحَرُورُ لا يكون إلا مع شمسِ النهار، والسَّمُوم يكون بالليل(٣)،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٦، والبحر ٧/ ٣٠٨ عن طلحة، وهي قراءة شاذة.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٩.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤١٩، وفيه: ... والسموم يكون بالليل والنهار، ولم نقف على هذا القول في معاني القرآن للأخفش.

وقيل بالعكس[١]. وقال رُؤْبةُ بنُ العجاج: الحَرُورُ يكونُ بالليل[٢] خاصةً، والسَّمُومُ يكون بالنهار[٣]خاصةً، حكاه المهدوِيُّ[٤]. وقال الفرَّاء: السَّمومُ لا يكونُ إلا بالنهار، والحرورُ يكونُ فيهما[٥]. النحاس[٦]: وهذا أصحُّ؛ لأنَّ الحَرُور فَعُولٌ من الحرِّ، وفيه معنى التكثير، أي: الحرّ المؤذي.

قلت: وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرةَ عن رسول الله ﷺ قال: «قالت النار: ربِّ أكلَ بَعْضِي بعضاً، فأْذَنْ لي أَتنفَّسْ، فأَذِنَ لها بنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ في الشِّتاءِ، ونَفَسٍ في الصيف، فما وجدتُم من بَرْدٍ أو زَمْهرَيرٍ فمِنْ نَفَسِ جهنَّمَ، وما وجدتُم من حرٍّ أو حَرُورٍ فمِنْ نَفَسِ جهنَّم»[٧].

ورُوي من حديث الزُّهريِّ، عن سعيدٍ، عن أبي هريرة: «فما تَجِدون من الحرِّ فَمِنْ سَمُومِها، وشدَّةُ ما تَجِدون من البرد فمِن زَمْهَريرِها»[٨] وهذا يجمعُ تلك الأقوالَ، وأنَّ السَّمومَ والحَرُورَ يكون بالليل والنهار، فتأمَّلْه.

وقيل: المرادُ بالظلِّ والحَرُورِ: الجنة والنار، فالجنةُ ذاتُ ظلٍّ دائمٍ، كما قال

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٩ فقال: وقيل: الحرور لا يكون إلا بالليل، والسموم يكون بالنهار.

(٢) في (د) و (م): بالنهار.

(٣) في النسخ: بالليل، والمثبت عن مجاز القرآن ٢/ ١٥٤ ، وتفسير الطبري ١٩/ ٣٥٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٥١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥ ، وزاد المسير ٦/ ٤٨٣ .

(٤) بعدها في (ظ): وقال السموم في الليل.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٣٠٨ ، والنكت والعيون ٤/ ٤٦٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٦ ، وزاد المسير ٦/ ٤٨٣ ، ولم نقف عليه في معاني القرآن له.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٩-٣٧٠ .

(٧) صحيح مسلم (٦١٧) : (١٨٧) ، وهو عند أحمد (٧٧٢٢) ، والبخاري (٥٣٧) و(٣٢٦٠) .

(٨) أخرجه بنحوه بهذا الإسناد مرفوعاً أحمد (٧٢٤٧)، والبخاري (٥٣٧). وأخرجه بلفظ المصنف ابن ماجه (٤٣١٩) وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ١٦-١٧ عن طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: ٣٥]، والنارُ ذات حَرُورٍ؛ قال معناه السُّدِّيُّ[١]. وقال ابن عباس: أي ظلُّ الليل، وحَرُّ السَّموم بالنهار. قُطرب: الحَرُورُ: الحرُّ، والظلُّ: البرد[٢].

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾ قال ابن قُتيبة[٣]: الأحياءُ: العُقَلاء، والأموات: الجهَّال. قال قتادة: هذه كلُّها أمثالٌ، أي: كما لا تستوي هذه الأشياءُ كذلك لا يستوي الكافرُ والمؤمن[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي: يُسمعُ أولياءَه الذين خلَقَهم لجنَّته، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: الكفارَ الذين أمات الكفرُ قلوبَهم، أي: كما لا تُسمع مَن مات، كذلك لا تُسمع من مات قلبُه.

وقرأ الحسنُ وعيسى الثَّقَفيُّ وعمرو بن ميمون: «بمسمعِ مَن في القبورِ» بحذفِ التنوينِ تخفيفاً، أي: هم بمنزلةِ [أهلِ] القبورِ في أنَّهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يَقْبَلونه[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

أي: رسولٌ منذِرٌ، فليس عليك إلا التبليغ، ليس لك من الهُدَى شيءٌ، إنَّما الهُدَى بيد الله تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ﴾ أي: بشيراً بالجنة أهلَ طاعَتِه،

---

(١) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦٩، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٩.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦٩ ، ولم نقف على خبر ابن عباس.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص٣٦١ .

(٤) الوسيط ٣/ ٥٠٤ ، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ١٣٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٠، وما سلف بين حاصرتين منه، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٢٣ عن علي ﷺ.

ونذيراً بالنار أهلَ معصيته. ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: سَلَفَ فيها نبيٌّ. قال ابن جُريج: إلا العرب(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني: كفارَ قريشٍ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءَهم، يُسلِّي رسولَه ﷺ. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزاتِ الظَّاهِراتِ والشرائعِ الواضحات. ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح. وكرَّر الزُّبرَ والكتابَ وهما واحدٌ لاختلافِ اللفظين. وقيل: تَرجعُ البيناتُ والزبرُ والكتابُ إلى معنىً واحدٍ، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: كيف كانت عقوبتي لهم. وأثبت وَرْشٌ عن نافعٍ وشيبة الياءَ في «نكيري» حيث وقعت في الوَصْلِ دون الوَقْف. وأثْبتَها يعقوب في الحالَيْن، وحَذَفَها الباقون في الحالين(٢). وقد مضى هذا كلُّه، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هذه الرؤيةُ رؤيةُ القَلْبِ والعلمِ، أي: ألَمْ ينتهِ علمُكَ ورأيتَ بقلبك أنَّ الله أنزل، فـ«أنَّ» واسمُها وخبرُها سَدَّت مَسَدَّ مفعولَيْ الرؤية.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠.

(٢) التيسير ص١٨٣، والنشر ٢/ ٣٥٢.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ هو من بابِ تلوينِ الخطاب. ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ نُصِبتْ «مُختَلِفاً» نعتاً لـ«ثَمَرَاتٍ»، «أَلْوَانُهَا» رفع بـ«مختلف». وصلح أن يكون نعتاً لـ«ثَمَرَات» لِمَا عاد عليه مِن ذِكْرِه. ويجوزُ في غيرِ القرآنِ رَفْعُه، ومثلُه: رأيتُ رجلاً خارجاً أبوه[1].

﴿بِهِۦ﴾ أي: بالماء وهو واحدٌ، والثمراتُ مختلفةٌ. ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ الجُدَدُ: جمعُ جُدَّة، وهي الطرائقُ المختلفةُ الألوان، وإنْ كان الجميعُ حجراً أو تراباً. قال الأخفش[2]: ولو كان جمعَ جديدٍ لقال: جُدُد ـ بضمِّ الجيمِ والدال ـ نحو: سَرير وسُرُر. وقال زهير:

كأنه أسفعُ الخدَّين ذو جُدَدٍ طاوٍ ويرتعُ بعد الصيفِ عُريانا[3]

وقيل: إنَّ الجُدَدَ: القِطَع، مأخوذٌ من جددتُ الشيء: إذا قطعتَه؛ حكاه ابن بحر[4].

قال الجوهريُّ[5]: والجُدَّة: الخُطَّة التي في ظهر الحمارِ تُخالفُ لونَه. والجُدَّة: الطَّريقة، والجمعُ جُدَد؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: طرائقُ تُخالفُ لونَ الجبل. ومنه قولُهم: رَكِبَ فلانٌ جُدَّةً من الأمر: إذا رأى فيه رأياً. وكساءٌ مجدَّد: فيه خطوطٌ مختلفة.

الزمخشريُّ[6]: وقرأ الزُّهريُّ: «جُدُد» بالضم جمع جَدِيدة، وهي الجُدَّة؛ يقال:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠، ولم نقف عليه في ديوان زهير. قوله: أسفع الخدين، قال ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٢٧٢: السفعة في الخد: كل لون يخالف سائر لونه.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠.

(٥) في الصحاح (جدد).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٠٧.

جديدة وجُدُد وجَدَائد، كسفينة وسُفُن وسَفَائن. وقد فسِّر بها قول أبي ذُؤيب:

جَـوْنُ الـسَّـرَاةِ لـه جَـدَائـدُ أربـعُ[١]

ورُوي عنه «جَدَد» بفتحتين، وهو الطريقُ الواضح المُسْفِر، وَضَعَه موضعَ الطرائقِ والخطوطِ الواضحةِ المنفصِلِ بعضُها من بعضٍ[٢].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ﴾ وقُرِئ: «والدوابِ» مخفَّفاً، ونظيرُ هذا التخفيفِ قراءةُ مَن قرأ: «وَلا الضَّأْلِين»؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما فرَّ من التقاءِ الساكنَيْنِ، فحرَّك ذاك أوَّلهما، وحَذفَ هذا آخِرَهما؛ قاله الزمخشريُّ[٣].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: فيهم الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ وغيرُ ذلك، وكلُّ ذلك دليلٌ على صانعٍ مُختارٍ، وقال: «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ» فذكَّر الضميرَ مُراعاةً لـ«من»؛ قاله المُؤرِّج. وقال أبو بكر بن عياش: إنَّما ذكَّر الكنايةَ لأَجْلِ أنَّها مردودةٌ إلى «ما» مُضْمَرةٍ، مَجازُه: ومِن الناس ومن الدوابِّ ومن الأنعام ما هو مختلفٌ ألوانه، أي: أبيضُ وأحمرُ وأسود.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ قال أبو عبيدة[٤]: الغِربيبُ: الشديدُ السَّوادِ، ففي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنى: ومن الجبال سودٌ غرابيبُ. والعربُ تقول للشديد السَّوادِ الذي لونُه كَلَوْنِ الغُراب: أسودُ غِربيبٌ.

---

(١) ديوان الهذليين ص٤، والخزانة ١/ ٤٢٠، وصدره: والدهر لا يبقى على حِدْثانه قال البغدادي: الحدثان بمعنى الحادثة، والسَّراة: أعلى الظهر. والجَوْن: الأسود المائل إلى الحمرة، أراد الحمار الوحشي. اهـ. والجدائد: الأُتُنُ التي لا ألبانَ لها، واحدها جَدود، بفتح الجيم. أو أنها الخطوط التي على ظهر الحمار ـ وهو المراد هنا ـ كما نقل المصنف عن الزمخشري أعلاه.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٧، والقراءتان في المحتسب ٢/ ١٩٩-٢٠٠، وقراءة «جَدَد» بفتح الجيم ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٣-١٢٤.

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٠٧، وقراءة: «والدوابِ» بالتخفيف في المحتسب ٢/ ٢٠٠ عن الزهري. وقراءة: «الضأْلين» بالهمز في القراءات الشاذة ص١، والمحتسب ١/ ٤٦ عن أيوب السختياني.

(٤) بنحوه في مجاز اللغة ٢/ ١٥٤.

قال الجوهريُّ[١]: وتقول: هذا أسودُ غِربيبٌ، أي: شديدُ السَّواد. وإذا قلتَ: غرابيبُ سودٌ، تَجعلُ السودَ بدلاً من غرابيبَ؛ لأنَّ تواكيدَ الألوانِ لا تَتقدَّم.

وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله يُبغِضُ الشيخَ الغِرْبيبَ» يعني الذي يَخْضِبُ بالسَّواد[٢]. قال امرؤ القيس:

العينُ طامحةٌ واليَدُ سابحةٌ   والرِّجْلُ لافحةٌ والوجهُ غِرْبيبُ[٣]

وقال آخرُ يَصِفُ كَرْماً:

ومن تَعَاجيبِ خَلْقِ اللهِ غاطِيَةٌ   يُعصَر منها مُلاَحِيٌّ وغِرْبيبُ[٤]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ هنا تمامُ الكلام[٥]، أي: كذلك تختلفُ أحوالُ العبادِ في الخشية، ثم اسْتَأنفَ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يعني بالعلماء: الذين يخافون قدرته، فَمَن عَلِم أنه عزَّ وجلَّ قديرٌ، أيْقنَ بمعاقبته على المعصية، كما رَوَى عليّ بن أبي طلحةَ عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال: الذين عَلِموا أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير[٦].

وقال الربيع بنُ أنس: مَن لم يَخْشَ الله تعالى فليس بعالِمٍ[٧].

---

(١) في الصحاح (غرب).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠ . والحديث أخرجه ابن عدي ٣/ ١٠١٦ ، وفي إسناده رشدين بن سعد، قال فيه الحافظ في التقريب: ضعيف.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧١ ، ورواية الديوان ص٢٢٦:

والعينُ قادِحةٌ واليدُ سابِحةٌ   والرجلُ طامحةٌ واللونُ غربيبُ

قال شارح الديوان: قادحة: غائرة، واليد سابحة: إذا مدَّت يديها فكأنها تسبح، يريد السرعة (والكلام عن فرسه)، وقوله: طامحة، أي: سريعة الدفع. وقوله: غربيب، يريد السواد، يعني أنها دهماء.

(٤) أدب الكاتب ص٣٧٨، وجمهرة اللغة ٢/ ١٩١، واللسان (غطي). قال ابن دريد: كل شجرة منبسطة على الأرض فهي غاطية، يعني الكرم، وعنب مُلاَحي: إذا كان أبيض.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٤٨٩ .

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٦٤ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٤٧١ .

وقال مجاهد: إنَّما العالِمُ مَن خَشِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ. وعن ابن مسعود: كَفَى بخشية الله تعالى عِلماً، وبالاغترار [به] جَهْلاً[١].

وقيل لسعد بن إبراهيم: مَن أفْقَهُ أهل المدينة؟ قال: أتقاهُم لربِّه عزَّ وجلَّ[٢]. وعن مجاهدٍ قال: إنَّما الفقيهُ مَن يَخافُ الله عزَّ وجلَّ[٣]. وعن عليٍّ ﷺ قال: إنَّ الفقيه حقَّ الفقيهِ مَن لم يُقنِّط الناسَ من رحمة الله، ولم يُرخِّص لهم في معاصي اللهِ تعالى، ولم يؤمِّنْهم من عذابِ الله، ولم يَدَعِ القرآنَ رغبةً عنه إلى غيره؛ إنَّه لا خيرَ في عبادةٍ لا علمَ فيها، ولا عِلْمٍ لا فِقْهَ فيه، ولا قراءةٍ لا تَدَبُّر فيها[٤].

وأسند الدارميُّ أبو محمد عن مكحولٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ فَضْلَ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلي على أدْناكُم». ثم تلا هذه الآيةَ: «﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ إنَّ الله وملائكتَه وأهلَ سماواتِه وأهلَ أرَضِيه والنونَ في البحر يُصلُّون على الذين يعلِّمون الناس الخير» الخبرُ مرسَل[٥].

قال الدارميُّ[٦]: وحدَّثني أبو النعمان، حدَّثنا حمَّاد بن زيد، عن يزيد بن حازم قال: حدثني عمِّي جرير بنُ زيد[٧] أنه سمع تُبَيْعاً يحدِّثُ عن كعبٍ قال: إنِّي لأَجِدُ نعتَ قومٍ يتعلَّمون لغيرِ العمل، ويَتَفقَّهون لغيرِ العبادة، ويطلبون الدنيا بعملِ الآخرَةِ،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧١ ، وما بين حاصرتين منه، وقول ابن مسعود ﷺ أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٦)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩١ . وسيرد تخريج قول مجاهد.

(٢) أخرجه الدارمي (٢٩٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٦٧ ، والدارمي (٢٩٦).

(٤) أخرجه الدارمي (٢٩٧) و(٢٩٨)، وابن الضريس في فضائل القرآن (٦٩)، والخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ١٦٠-١٦١ .

(٥) سنن الدارمي (٢٨٩)، وأخرجه الترمذي (٢٦٨٥) مرفوعاً من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ، وقال: هذا حديث غريب.

(٦) في سننه (٢٩٩).

(٧) في النسخ: يزيد، والمثبت من سنن الدارمي، وهو الصواب. وترجمته في تهذيب الكمال ٤/ ٥٣٢ .

ويَلْبَسون جلودَ الضَّأنِ، قلوبُهم أمَرُّ من الصَّبر؛ فبي يغترُّون، وإياي يُخادِعون، فبي حلفتُ لَأُتيحَنَّ لهم فتنةً تَذَرُ الحليمَ فيهم حَيْرانَ. خرَّجه الترمذيُّ مرفوعاً من حديث أبي الدرداء، وقد كتبناه في مقدِّمة الكتاب[1].

الزمخشريُّ[2]: فإن قلتَ: فما وجهُ قراءةِ مَن قرأ: «إنَّما يَخْشَى اللهُ» بالرفع «مِن عِبادِهِ العُلَمَاءَ» بالنصب، وهو عمر بنُ عبد العزيز، وتُحكى عن أبي حنيفة.

قلتُ: الخشيةُ في هذه القراءةِ استعارةٌ، والمعنى: إنَّما يُجِلُّهم ويُعظِّمُهم ـ كما يُجَلُّ المَهيبُ المخشِيُّ من الرجال بين الناسِ ـ من بين جميعِ عبادِه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوجوبِ الخشيةِ، لدلالته على عقوبةِ العُصَاةِ وقَهْرِهم، وإثابةِ أهلِ الطاعةِ والعفوِ عنهم. والمعاقِبُ والمُثيبُ حقُّه أن يُخْشَى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ هذه آيةُ القُرَّاءِ العامِلين العالِمينَ الذين يُقيمون الصَّلاةَ الفرضَ والنفلَ، وكذا في الإنفاق. وقد مضى في مقدِّمة الكتابِ ما ينبغي أن يتخلَّق به قارئُ القرآن[3].

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ قال أحمد بن يحيى: خبرُ «إنَّ»: «يرجون»[4].

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ قيل: الزيادةُ: الشفاعةُ في الآخرة. وهذا مِثلُ الآيةِ الأُخرى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾

(١) ١/ ٣٥ ، ولم يخرجه الترمذي، وينظر الكلام على الحديث ثمة.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٠٨ .

(٣) ١/ ٤٨ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧١ .

[النور: ٣٧]، وقوله في آخرِ «النساء»: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الآية: ١٧٣] وهناك بيَّنَّاه. ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ للذُّنوب. ﴿شَكُورٌ﴾ يَقْبلُ القليلَ من العمل الخالص، ويُثيب عليه الجزيلَ من الثواب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآنَ ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: هذه الآيةُ مُشْكِلةٌ؛ لأنَّه قال جلَّ وعزَّ: ﴿ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وقد تكلَّم العلماءُ فيها مِن الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم. قال النحاس(١): فَمِن أصحِّ ما رُوي في ذلك ما رُوي عن ابن عباس ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قال: الكافر؛ رواه ابنُ عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن دينار(٢)، عن ابن عباس. وعن

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧١.

(٢) بعدها في النسخ: عن عطاء، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وكذلك أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٥، والبيهقي في البعث والنشور (٧٤)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وليس فيه: عن عطاء.

ابن عباس أيضاً: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال: نَجَتْ فرقتان[(١)]، ويكون التقدير في العربية: «فمِنهم» أي: مِن عبادنا «ظالمٌ لنفسه» أي: كافر ـ وقال الحسن: أي: فاسق ـ ويكون الضميرُ الذي في «يَدْخُلُونَهَا» يعود على المقتصِدِ والسابقِ لا على الظالم.

وعن عكرمةَ وقتادةَ والضحَّاكِ والفرَّاءِ أنَّ المقتصدَ: المؤمنُ العاصي، والسابق: التَّقيُّ على الإطلاق. قالوا: وهذه الآيةُ نظيرُ قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ الآية [الواقعة:٧]. قالوا: وبَعيدٌ أن يكون ممَّن يُصطفَى ظالم[(٢)]. ورواه مجاهدٌ عن ابن عباس[(٣)]. قال مجاهد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِۦ﴾: أصحاب المَشْأَمة، ﴿وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ﴾: أصحاب المَيْمَنة، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾: السابقون من الناس كلِّهم[(٤)].

وقيل: الضميرُ في «يَدْخُلُونَهَا» يعود على الثلاثةِ الأصناف، على ألاَّ يكون الظالمُ هاهنا كافراً ولا فاسقاً. وممَّن روي عنه هذا القولُ عمرُ وعثمانُ وأبو الدَّرْداءِ، وابنُ مسعودٍ وعقبةُ بن عمرو وعائشةُ، والتقديرُ على هذا القولِ: أن يكون الظالمُ لنفسه: الذي عَمِلَ الصغائر. والمقتصِدُ، قال محمد بن يزيد: هو الذي يعطي الدنيا حقَّها والآخرةَ حقَّها، فيكون «جَنْاتُ عَدْنٍ يَدخُلُونَها» عائداً على الجميع على هذا الشرح والتَّبيين[(٥)]. وروي عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ[(٦)].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٧١ بنحوه، والكلام من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ ، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٦٩-٣٧٠ ، وأخرجه عن عكرمة وقتادة الطبري ١٩/ ٣٧١ ، ٣٧٢ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٧١ عن طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٧٢ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٢ ، وأخرجه عن عمر وعثمان رضي الله عنهما سعيد بن منصور (٢٣٠٨)، والبيهقي في البعث والنشور (٦٦)، وإسناده غير قوي كما ذكر في البيهقي، وخبر عمر ﷺ سيرد مرفوعاً من حديثه، وسيأتي الخبر عن أبي الدرداء وابن مسعود وعائشة ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (١١٧٤٥)، والترمذي (٣٢٢٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقال ابن كثير عند هذه الآية: وفي إسناده مَن لم يُسَمَّ.

وقال كعب الأحبار: استوَتْ مَنَاكِبُهم وربِّ الكعبة، وتفاضَلوا بأعمالهم. وقال أبو إسحاق السَّبيعيُّ: أمَّا الذي سمعت منذ ستين سنةً: فكلُّهم ناجٍ(١).

وروى أسامةُ بن زيد: أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «كلُّهم في الجنة»(٢).

وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآيةَ ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «سابِقُنا سابِقٌ، ومُقْتَصِدُنا ناجٍ، وظالمنا مغفورٌ له»(٣). فعلى هذا القولِ يقدَّر مفعولُ الاصطفاءِ من قوله: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ مضافاً حُذف كما حُذف المضافُ في ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: اصْطَفَيْنا دينَهم، فبقي: اصْطَفَيْناهم، فحذف العائدُ إلى الموصول كما حُذف في قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: ٣١] أي: تَزْدَريهم، فالاصطفاءُ إذاً موجَّهٌ إلى دِينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

قال النحاس(٤): وقولٌ ثالثٌ: يكون الظالمُ صاحبَ الكبائر، والمقتصدُ الذي لم يَستحِقَّ الجنةَ بزيادةِ حسناته على سيئاته، فيكون: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ للذين سَبَقوا بالخيرات لا غير. وهذا قولُ جماعةٍ من أهلِ النَّظَرِ؛ لأنَّ الضمير ـ في حقيقةِ النَّظَرِ ـ لِمَا يليه أوْلَى.

قلت: القولُ الوَسَطُ أوْلاها وأصحُّها إن شاء الله؛ لأنَّ الكافر والمنافقَ لم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ ، وأخرجهما الطبري ١٩/ ٣٧٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ ، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٤١٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٦ : فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو سيِّئ الحفظ.

(٣) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٥) عن طريق ميمون بن سياه عن عمر به، وهو منقطع كما ذكر البيهقي، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤٤٣ ، والبغوي ٣/ ٥٧١ من وجه آخر من طريق ميمون من سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر به، وفيه الفضل بن عميرة وهو ضعيف. ينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٣٩ . وذكر البغوي عن أبي قلابة قوله: فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٢ .

يُصْطفَوْا بحمد الله، ولا اصْطُفيَ دينُهم، وهذا قولُ ستةٍ من الصحابة، وحَسْبُك. وسَنَزِيدُه بياناً وإيضاحاً في باقي الآية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أَعْطَينا. والميراثُ عطاءٌ حقيقةً أو مَجازاً؛ فإنَّه يقال فيما صار للإنسان بعد موتِ آخَرَ. و«الكتابَ» هاهنا يريد به معانيَ الكتابِ وعِلْمَه وأحكامَه وعقائدَه، وكأنَّ الله تعالى لمَّا أعْطَى أمةَ محمدٍ ﷺ القرآنَ، وهو قد تضمَّنَ، معانيَ الكتبِ المنزلة، فكأنه وَرَّثَ أُمَّةَ محمدٍ عليه الصلاة والسلام الكتابَ الذي كان في الأمم قَبْلَها[١].

﴿ٱصْطَفَيْنَا﴾ أي: اختَرْنا. واشتقاقُه من الصَّفْو، وهو الخلوصُ من شوائب الكَدَر. وأصلُه: اصْتفَوْنا، فأُبْدِلَت التاءُ طاءً والواوُ ياءً.

﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ قيل: المرادُ أمةُ محمدٍ ﷺ؛ قاله ابنُ عباسٍ وغيرُه. وكأن اللَّفظَ يَحْتَمِلُ جميعَ المؤمنين من كلِّ أمةٍ، إلاَّ أنَّ عبارةَ توريثِ الكتابِ لم تكن إلاَّ لأمةِ محمدٍ ﷺ، والأُوَلُ لم يَرِثُوه[٢].

وقيل: المصطفَوْن الأنبياء، تَوَارَثوا الكتابَ، بمعنى: أنَّه انتقل عن[٣] بعضهم إلى آخر، قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦]، وقال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦]. فإذا جاز أن تكون النبوَّةُ موروثةً فكذلك الكتابُ، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ مَن وَقَعَ في صغيرةٍ. قال ابن عطية[٤]: وهذا قولٌ مردودٌ من غير ما وَجْهٍ.

قال الضحاك: معنى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: من ذرِّيَّتهم ظالمٌ لنفسه، وهو المُشْرِكُ. الحسن: من أُمَمِهم، على ما تقدَّم ذِكْرُه من الخلاف في الظالم. والآيةُ في أمَّةِ محمدٍ ﷺ.

---

(١) في النسخ عدا (ظ): قبلنا، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/٤٣٨، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٣٨، وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ١٩/٣٦٨، والبيهقي في البعث والنشور (٧٣).

(٣) في (ظ): من.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/٤٣٩.

وقد اختلفت عبارات أربابِ القلوبِ في الظالم والمُقْتَصِدِ والسَّابِق، فقال سهل ابن عبد الله: السابِقُ العالم، والمقتصِدُ المتعلِّم، والظالمُ الجاهل.

وقال: ذو النون المصريُّ: الظالم الذَّاكِرُ اللهَ بلسانه فقط، والمقتصدُ الذاكرُ بقلبه، والسابقُ الذي لا ينساه.

وقال الأنطاكيُّ: الظالمُ صاحبُ الأقوال، والمقتصدُ صاحبُ الأفعال، والسابقُ صاحبُ الأحوال(١).

وقال ابن عطاء: الظالمُ الذي يحبُّ اللهَ من أَجْلِ الدنيا، والمقتصدُ الذي يحبُّه من أجل العُقْبَى، والسابقُ الذي أسقط مُرادَه بمراد الحقِّ(٢).

وقيل: الظالم الذي يعبدُ اللهَ خوفاً من النار، والمقتصد الذي يعبدُ الله طمعاً في الجنة، والسابقُ الذي يعبدُ الله لوجهه لا لسبب.

وقيل: الظالم الزاهدُ في الدنيا؛ لأنَّه ظلم نَفْسَه فترك لها حظّاً وهي المعرفةُ والمحبة، والمقتصِدُ العارِفُ، والسابقُ المحِبُّ.

وقيل: الظالمُ الذي يَجزعُ عند البلاء، والمقتصدُ الصابرُ على البلاء، والسابقُ المتلذِّذُ بالبلاء.

وقيل: الظالم الذي يعبدُ الله على الغَفْلَةِ والعادة، والمقتصدُ الذي يعبدُه على الرَّغْبَةِ والرَّهْبة، والسابقُ الذي يعبدُه على الهَيْبَة.

وقيل: الظالمُ الذي أُعْطِيَ فمَنَعَ، والمقتصدُ الذي أُعْطِيَ فبذَل، والسابقُ الذي مُنع فشَكَر وآثَرَ.

ويروَى أنَّ عابِدَين التقيا، فقال: كيف حالُ إخوانِكم بالبَصرة؟ قال: بخير، إنْ أُعْطُوا شَكروا، وإن مُنعوا صبروا. فقال: هذه حالةُ الكلابِ عندنا ببَلْخٍ! عُبَّادُنا إنْ

---

(١) ذكر هذه الأقوال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ .

(٢) في (ظ): بمراد الله.

مُنِعوا شَكروا، وإن أُعطوا آثَروا[١].

وقيل: الظالمُ مَن استغنَى بماله، والمقتصدُ من استغنَى بدينه، والسابقُ مَن استغنَى بربِّه.

وقيل: الظالمُ التالي للقرآن ولا يعملُ به، والمقتصِدُ التالي للقرآن ويعملُ به، والسابقُ القارئُ للقرآن العاملُ به والعالِم به.

وقيل: السابقُ الذي يدخل المسجدَ قبل تأذين المؤذِّن، والمقتصدُ الذي يدخل المسجدَ وقد أذَّن، والظالم الذي يدخل المسجدَ وقد أُقيمت الصلاة؛ لأنه ظَلَم نفسَه الأجرَ فلم يحصِّل لها ما حصَّله غيرُه[٢].

وقال بعضُ أهلِ العلمِ في هذا: بل السابقُ الذي يدركُ الوقتَ والجماعةَ فيُدْرِكُ الفضيلتين، والمقتصد الذي إنْ فاتَتْه الجماعةُ لم يُفرِّط في الوقت، والظالمُ الغافِلُ عن الصلاة حتى يفوتَ الوقتُ والجماعةُ، فهو أَوْلَى بالظُّلم.

وقيل: الظالمُ الذي يحبُّ نفسَه، والمقتصدُ الذي يحبُّ دِينَه، والسابقُ الذي يحبُّ ربَّه.

وقيل: الظالمُ الذي ينتصِفُ ولا يُنصِفُ، والمقتصدُ الذي يَنتصِفُ ويُنصِفُ، والسابقُ الذي يُنصِفُ ولا ينتصِفُ.

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: السابقُ الذي أسْلَم قبلَ الهجرة، والمقتصدُ مَن أسْلَم بعدَ الهجرة، والظالمُ مَن لم يُسْلِم إلَّا بالسيف، وهم كلُّهم مغفورٌ لهم[٣].

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٧ عن إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي.

(٢) في (ظ): فلم يحصل له ما حصل لغيره.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ وعزاه للثعلبي، إلا أنه قال في آخره: والظالم نحن، بدل: والظالم من لم يسلم...، وأخرجه بنحوه الطيالسي (١٤٨٩)، والحاكم ٢/ ٤٢٦ وصححه، وتعقبه الذهبي بأن فيه الصلت بن دينار، قال النسائي: ليس بثقة، وقال أحمد: ليس بالقوي. وقولها رضي الله عنها: والظالم نحن، (كما في رواية ابن عطية، وبنحوه عند الطيالسي والحاكم) هو من باب التواضع =

قلت: ذكر هذه الأقوالَ وزيادةً عليها الثعلبيُّ في «تفسيره». وبالجملة فَهُمْ طَرَفانِ وواسِطَةٌ، وهو المقتصدُ الملازِمُ للقَصْدِ، وهو تَرْكُ الميل، ومنه قولُ جابر بن حُنَيٍّ التَّغْلبيِّ:

نُعاطي الملوكَ السِّلْمَ ما قَصَدُوا لنا وليس علينا قَتْلُهم بمحَرَّمِ[١]

أي: نُعاطيهم[٢] الصُّلْحَ ما ركبوا بنا القَصْدَ، أي: ما لم يجوروا، وليس قَتْلُهم بمحرَّمٍ علينا إنْ جاروا، فلذلك[٣] كان المقتصِدُ منزلةً بين المنزلتين، فهو فوقَ الظالمِ لنفسِه ودون السابقِ بالخيرات.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يعني إتيانَنا[٤] الكتابَ لهم. وقيل: ذلك الاصطفاءُ مع عِلْمِنا بعيوبهم هو الفضلُ الكبير. وقيل: وعْدُ الجنةِ لهؤلاء الثلاثةِ فضلٌ كبير.

الثالثة: وتكلَّم الناسُ في تقديم الظالمِ على المقتصِدِ والسابِقِ؛ فقيل: التقديمُ في الذِّكر لا يقتضي تشريفاً، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقيل: قدَّم الظالمَ لكثرةِ الفاسقين منهم وغَلَبتِهم، وأنَّ المقتصدين قليلٌ بالإضافة إليهم، والسابقون أقلُّ من القليل؛ ذَكَره الزَّمخشري[٥]، ولم يَذْكُرْه غيرُه.

وقيل: قدَّم الظالم لتأكيدِ الرجاءِ في حقِّه؛ إذ ليس له شيءٌ يتَّكِلُ عليه إلاَّ رحمةُ

= كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وقال: وهي من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

(١) المفضليات ص٢١١، ومنتهى الطلب ٤/ ٤٩.

(٢) في (ظ): نعطيهم.

(٣) في (ظ): فكذلك.

(٤) في (ظ): ايتاؤنا.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣٠٩.

ربِّه. واتَّكَلَ المقتصدُ على حُسْنِ ظنِّه، والسابقُ على طاعته.

وقيل: قدَّم الظالمَ لئلاَّ ييئسَ من رحمة الله، وأخَّر السابقَ لئلَّا يُعجب بعمله.

وقال جعفر بنُ محمد بن عليٍّ الصادقُ ﷺ: قدَّم الظالمَ ليُخْبِرَ أنه لا يُتَقرَّبُ إليه إلا بصِرْفِ رحمته وكرمه، وأنَّ الظلم لا يؤثِّر في الاصطفائيةِ إذا كانت ثَمَّ عنايةٌ، ثم ثنَّى بالمقتصدينَ لأنَّهم بين الخوفِ والرجاء، ثم خَتَم بالسابقين لئلَّا يَأمنَ أحدٌ مَكْرَ الله، وكلُّهم في الجنة بحُرْمةِ كلمةِ الإخلاص: لا إلهَ إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ[(١)].

وقال محمد بن عليٍّ الترمذيُّ: جَمَعَهم في الاصطفاءِ إزالةً للعللِ عن العطاء؛ لأنَّ الاصطفاءَ يوجبُ الإرْثَ، لا الإرث يوجبُ الاصطفاءَ، ولذلك قيل في الحكمة: صحِّح النِّسْبةَ ثم ادَّعِ في الميراث[(٢)].

وقيل: أخَّر السابقَ ليكون أقربَ إلى الجناتِ والثواب، كما قدَّم الصوامعَ والبيَعَ في سورة الحج على المساجد، لتكون الصوامعُ أقربَ إلى الهدمِ والخراب، وتكون المساجدُ أقربَ إلى ذكر الله.

وقيل: إنَّ الملوك إذا أرادوا الجمعَ بين الأشياءِ بالذِّكْر[(٣)] قدَّموا الأدْنى؛ كقوله تعالى: ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧]، وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

قلت: ولقد أَحْسَنَ مَن قال:

وغايةُ هذا الجودِ أنتَ وإنَّما يُوَافَى إلى الغاياتِ في آخِرِ الأمْرِ

الرابعة: قولُه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ جَمَعَهم في الدخول لأنَّه ميراثٌ، والعاقُّ

---

(١) ذكره بنحوه البغوي ٣/ ٥٧٢ .

(٢) في (ظ): ثم ادعى للميراث، وفي (خ) و (د) و (ز): ثم ادعى في الميراث، والمثبت من (م).

(٣) في (ظ): في الذكر.

والبارُّ في الميراثِ سواءٌ إذا كانوا مُعترِفينَ بالنَّسَب، فالعاصي والمطيعُ مُقِرُّون بالرَّبِّ.

وقرئ: «جَنَّةُ عَدْنٍ» على الإفراد، كأنَّها جنةٌ مُختصَّةٌ بالسابقين لقلَّتهم، على ما تقدَّم[١].

و«جَنَّاتِ عَدْنٍ» بالنصب على إضمارِ فعلٍ يفسِّرُه الظاهِرُ، أي: يَدخُلون جناتِ عَدْنٍ يَدْخُلونها[٢]. وهذا للجميع، وهو الصحيحُ إن شاء الله تعالى.

وقرأ أبو عمرو: ﴿يُدْخَلونها﴾ بضمِّ الياءِ وفتح الخاء[٣]. قال: لقوله: «يُحَلَّوْن». وقد مضى في «الحجّ» الكلامُ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قال أبو ثابت: دخل رجلٌ المسجدَ فقال: اللهمَّ ارْحَمْ غُرْبتي، وآنِسْ وَحْدتي، ويَسِّرْ لي جليساً صالحاً. فقال أبو الدَّرْداءِ: لئن كنتَ صادقاً فَلأنَا أسْعَدُ بذلك منكَ، سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال: فيجيءُ هذا السابِقُ فيدخل الجنةَ بغير حساب، وأمَّا المقتصدُ فيُحاسَبُ حساباً يسيراً، وأمَّا الظالمُ لنفسِه فيُحبَس في المقام ويُوَبَّخ ويقرَّعُ، ثم يدخل الجنة، فهم الذين قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٤].

وفي لَفْظٍ آخَر: «وأمَّا الذين ظلموا أنفسَهم فأولئك يُحبَسون في طولِ المَحْشَرِ،

---

(١) في المسألة السابقة، والقراءة في الكشاف ٣/ ٣٠٩، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠ لزر ابنِ حُبَيْش.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٩ . والقراءة في القراءات الشاذة ص١٢٣ عن الجحدري.

(٣) السبعة ص٥٣٤ ، والتيسير ص١٨٢ .

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٢١٦٩٧)، والطبري ١٩/ ٣٧٥ ، والبغوي ٣/ ٥٧١ ، من طريق الأعمش عن أبي ثابت. وأبو ثابت ـ أو ثابت كما وقع على الشك عند أحمد ـ غير منسوب، وفي إسناد الحديث اختلاف على الأعمش.

ثم هم الذين يَتَلافاهم[(١)] الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾»[(٢)].

وقيل: هو الذي يُؤخَذُ منه في مُقامه، يعني يُكفَّر عنه بما يُصيبُه من الهمِّ والحزن، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] يعني: في الدنيا. قال الثعلبيُّ: وهذا التأويلُ أشبهُ بالظاهر؛ لأنه قال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، ولقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، والكافرُ والمنافقُ لم يُصْطَفَوْا.

قلت: وهذا هو الصحيحُ، وقد قال ﷺ: «ومَثَلُ المنافقِ الذي يقرأ القرآنَ مَثَلُ الرَّيحانة، رِيحُها طيِّبٌ وطَعْمُها مرٌّ»[(٣)]. فأخبر أنَّ المنافق يقرؤه، وأخبر الحقُّ سبحانه وتعالى أنَّ المنافق في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار، وكثيرٌ من الكفارِ اليهودِ[(٤)] والنصارى يقرؤونه في زماننا هذا. وقال مالكٌ: قد يَقْرأُ القرآن مَن لا خيرَ فيه[(٥)]. والنَّصَب: التعب. واللُّغوب: الإعياء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ لمَّا ذَكَر أهلَ الجنةِ وأحوالَهم ومَقالتَهم، ذَكَر أهلَ النارِ وأحوالَهم ومقالتَهم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ﴾ مثل: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ مثل: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم

---

(١) في (م): يتلقاهم.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٢٧)، وفي إسناده انقطاع.

(٣) قطعة من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أخرجه البخاري (٥٠٥٩) ومسلم (٧٩٧)، وسلف ١/ ١٣.

(٤) في (م): وكثير من الكفار واليهود، وفي (ظ): وكثير من اليهود.

(٥) سلف ٢/ ١٦٦.

بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: كافرٍ باللهِ ورسوله.

وقرأ الحسن: «فيموتون» بالنون، ولا يكونُ للنفي حينئذٍ جوابٌ، ويكون «فيموتون» عطفاً على «يُقْضَى»، تقديرُه: لا يُقضَى عليهم ولا يموتون[١]، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] قال الكسائيُّ: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ بالنون في المصحف لأنَّه رأسُ آيةٍ، و﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ [بغير نون] لأنه ليس رأسَ آيةٍ. ويجوزُ في كلٍّ واحدٍ منهما ما جاز في صاحبه[٢].

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: يستغيثون في النار بالصوت العالي. والصُّراخُ: الصوتُ العالي، والصارخُ: المستغيثُ، والمُصْرِخُ: المُغِيثُ؛ قال:

كـنَّـا إذا مـا أتـانـا صـارخٌ فَـزِعٌ كـان الـصـراخُ لـه قـرعَ الـظَّـنـابـيـبِ[٣]

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ أي: يقولون: ربَّنا أخرِجْنا من جهنَّم، ورُدَّنا إلى الدنيا. ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قال ابن عباس: نَقُلْ: لا إله إلا الله[٤]. وهو معنى[٥] قولهم: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: من الشرك، أي: نؤمنُ بَدَلَ الكفر، ونطيعُ بدلَ المعصية، ونمتثلُ أمرَ الرُّسل.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ هذا جوابُ دعائِهم، أي: فيقالُ لهم، فالقولُ مضمَر. وترجم البخاريُّ: بابُ مَن بَلَغ ستِّين سنةً فقد أَعْذَرَ اللهُ إليه في العمر،

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٠٢، قال ابن جني: والمفعول محذوف، أي: لا يقضى عليهم الموت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص١٢٥، والصحاح (ظنب). قال الجوهري: الظُّنْبوب: العظم اليابس من قدم الساق، عنى به سرعة الإجابة، وجعل قرع السوط على ساق الخفِّ في زجر الفرس قرعاً للظُّنبوب. وقال الأصمعي في شرح الديوان: يقال: ضَرب لهذا الأمر ظنبوبه: إذا هو جَدَّ فيه.

(٤) الوسيط ٣/ ٥٠٦.

(٥) في (د) و (ظ): ومعنى، بدل: وهو معنى.

لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ يعني الشيب. حدَّثنا عبد السلام بن مُطَهَّر قال: حدَّثنا عمر بنُ علي قال: حدَّثنا مَعْن بنُ محمد الغِفاريُّ، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «أعْذَرَ اللهُ إلى امرئٍ أَخَّرَ أجَلَه حتى بلَّغه ستِّين سنةً»[١].

قال الخَطَّابيّ[٢]: أعْذَرَ إليه، أي: بلَغ به أقْصَى العُذْرِ، ومنه قولُهم: قد أعْذَرَ مَن أنْذَر، أي: أقام عُذْرَ نَفْسِه في تقديم نِذارتِه. والمعنى: أنَّ مَن عمَّره الله ستِّين سنةً لم يَبْقَ له عذرٌ؛ لأنَّ الستِّين قريبٌ من مُعتَركِ المنايا، وهو سنُّ الإنابةِ والخشوعِ، وترقُّبِ المنيَّة ولقاءِ الله تعالى، ففيه إعذارٌ بعد إعذار[٣]، الأوّلُ بالنبيِّ ﷺ، والمُوْتان[٤] في الأربعين والستين[٥]. قال عليٌّ وابن عباس وأبو هريرةَ في تأويلِ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾: إنَّه سِتُّون سنة[٦]. وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال في موعظته: «ولقد أبْلَغَ في الإعذارِ مَن تقدَّم في الإنذار، وإنه لينادي مُنادٍ من قِبَلِ الله تعالى أبناءَ الستين: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾»[٧].

---

(١) صحيح البخاري (٦٤١٩)، وهو عند أحمد (٧٧١٣)، وقوله: يعني الشيب، هو في بعض روايات البخاري دون بعض كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٢٣٩ .

(٢) بنحوه في غريب الحديث له ٢/ ٣٥٩ .

(٣) في (د): إنذار، وفي (ظ): إنذاره.

(٤) أي: الموت الكثير الوقوع. معجم متن اللغة (موت). ووقع في (ز) و(ظ): والمرتان، بدل: والموتان وينظر التعليق التالي.

(٥) سلف نحو هذا الكلام ٩/ ٣٢٢ ، وفيه: ففيه إعذار بعد إعذار، الأول بالنبي ﷺ، والثاني بالشيب، وذلك عند كمال الأربعين.

(٦) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما عبد الرزاق ٢/ ١٣٨ ، والطبري ١٩/ ٣٨٥ . وأخرجه عن علي ﷺ الطبري ١٩/ ٣٨٦ .أما أبو هريرة ﷺ فقد سلف الحديث عنه مرفوعاً: «أعذر الله إلى امرئ...» وقد أخرجه بنحوه الرامهرمزي في الأمثال ص٩٨ وزاد بعده: يريد: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾.

(٧) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وروي نحوه عن ابن عباس على ما يأتي.

وذكر الترمذيُّ الحكيم من حديثِ عطاء بنِ أبي رَباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامةِ نُودِيَ أبناءُ الستِّين، وهو العمرُ الذي قال الله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾»(١).

وعن ابن عباس أيضاً: أنه أربعون سنةً. وعن الحسن البصريِّ ومسروقٍ مثلُه(٢). ولهذا القولِ أيضاً وجهٌ، وهو صحيحٌ؛ والحجةُ له قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الآية [الأحقاف: ١٥]. ففي الأربعين تَنَاهي العقلِ، وما قبلَ ذلك وما بعدَه مُنْتقِصٌ عنه، والله أعلم.

وقال مالك: أدركتُ أهلَ العلمِ ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلمَ ويُخالِطون الناسَ، حتى يأتيَ لأحدهم أربعون سنةً، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناسَ واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيَهم الموتُ. وقد مضى هذا المعنى في سورة الأعراف(٣).

وخرَّج ابن ماجه عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أعمارُ أمَّتي ما بين الستِّين إلى السبعين، وأقلُّهم مَن يُجاوِزُ ذلك»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، وقرئ: «وجاءتكم النُّذُرُ»(٥) واختُلف فيه؛ فقيل: القرآن. وقيل: الرسول؛ قاله زيد بنُ عليٍّ وابن زيد(٦). وقال ابنُ عباس وعكرمةُ وسفيان ووكِيعٌ والحسين بن الفضل والفرَّاء والطبريُّ: هو الشيب(٧).

---

(١) نوادر الأصول ص١٧٧، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٥، والطبراني في الكبير (١١٤١٥)، وفي إسناده إبراهيم بن الفضل، قال الحافظ في التقريب: متروك.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٤ عن ابن عباس ومسروق. وذكره عن الحسن البغوي ٣/ ٥٧٣.

(٣) ٩/ ٣٢٢.

(٤) سنن ابن ماجه (٤٢٣٦)، وسلف ٥/ ٢١٨.

(٥) الكشاف ٣/ ٣١١.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٧ عن ابن زيد.

(٧) أخرجه عن ابن عباس البيهقي ٣/ ٣٧٠، وسلف ٩/ ٣٢٢، وذكره عن عكرمة وسفيان ووكيع البغويُّ =

وقيل: النذيرُ الحُمَّى. وقيل: موتُ الأهلِ والأقارب. وقيل: كمالُ العقلِ[(١)]. والنذير بمعنى الإنذار.

قلت: فالشيبُ والحُمَّى وموتُ الأهلِ كلُّه إنذارٌ بالموت؛ قال ﷺ: «الحُمَّى رائدُ الموت»[(٢)]. قال الأزهريُّ: معناه: أنَّ الحمَّى رسولُ الموت[(٣)]، أي: كأنَّها تُشعِرُ بقدومه وتُنْذرُ بمجيئه. والشيبُ نذيرٌ أيضاً؛ لأنه يأتي في سنِّ الاكتهال، وهو علامةٌ لمفارقةِ سنِّ الصِّبَا الذي هو سِنُّ اللَّهوِ واللَّعِب، قال:

رأيتُ الشيبَ من نُذُرِ المنايا ... لصاحبه وحَسْبُكَ مِن نذيرِ

وقال آخرُ:

فقلتُ لها المَشيبُ نذيرُ عمري ... ولستُ مُسَوِّداً وَجْهَ النَّذيرِ[(٤)]

وأمَّا موتُ الأهلِ والأقاربِ والأصحابِ والإخوانِ؛ فإنذارٌ بالرحيل في كلِّ وقتٍ وأوَان، وحينٍ وزمان، قال:

وأراكَ تحمِلُهم ولستَ تَردُّهم ... فكأنَّني بك قد حُمِلتَ فلم تُرَدّ

وقال آخرُ:

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشُر الكَفَنَا ... ونحن في غفلةٍ عمَّا يُرادُ بنا[(٥)]

= ٣/ ٥٧٣ . وذكره عن الفراء والطبري الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٤٧٦ ، وسلف في ترجمة عند البخاري قريباً.

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٦ .

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٢/ ١٦٤ ، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٥/ ٩٤-٩٥ من حديث عبد الرحمن بن المرقع ﷺ. قال الهيثمي: فيه المحبر بن هارون، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. ا هـ. وأخرجه البيهقي في الشعب (٩٨٧٠) عن الحسن مرسلاً.

(٣) تهذيب اللغة ١٤/ ١٦٣ .

(٤) نسبه المبرِّد في الكامل ٢/ ٧٠٣ للعُتْبي، وهو بلا نسبة في عيون الأخبار ٤/ ٥١ ، والعقد الفريد ٣/ ٥١ .

(٥) البيت لمحمد بن عبد الله بن عيسى المعروف بابن أبي زمنين، كما في جذوة المقتبس ص٥٧ ، والصلة لابن بشكوال ص ٤٨٤ .

وأمَّا كمالُ العقلِ فبِهِ تُعرفُ حقائقُ الأمور، ويُفْصَلُ بين الحسناتِ والسيئات، فالعاقلُ يَعملُ لآخِرته ويَرغَبُ فيما عندَ ربِّه، فهو نذير.

وأمَّا محمدٌ ﷺ فبعثَه الله بشيراً ونذيراً إلى عباده قَطْعاً لحججهم؛ قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ يريدُ عذابَ جهنَّم؛ لأنَّكم ما اعتبرتُم ولا اتَّعَظْتُم[١]. ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: مانعٍ من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾

تقدَّم معناه في غير موضع. والمعنى: عَلِمَ أنه لو ردَّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً، كما قال: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. و﴿عَٰلِمُ﴾ إذا كان بغيرِ تنوينٍ صلح أن يكون للماضي والمستقبل [والحال]، وإذا كان منوَّناً لم يَجُزْ أن يكون للماضي[٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قال قتادةُ: خَلَفاً بعد خَلَفٍ، وقَرْناً بعد قرن[٣]. والخَلَفُ هو التالي للمتقدِّم، ولذلك قيل لأبي بكر: يا خليفةَ الله، فقال: لستُ بخليفةِ الله، ولكنِّي خليفةُ رسولِ الله ﷺ، وأنا راضٍ بذلك[٤].

---

(١) في (ظ): ما آمنتم ولا أطعتم.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٥، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧٧، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٧، والطبري ١٩/ ٣٨٨-٣٨٩.

(٤) أخرجه أحمد (٥٩) من طريق ابن أبي مليكة قال: قيل: لأبي بكر...، وابن أبي مليكة لم يدرك أبا بكر ﷺ.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: جزاءُ كُفرِه، وهو العقابُ والعذاب. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: بغضاً وغضباً. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: هلاكاً وضلالاً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ «شركاءَكم» منصوبٌ بالرؤية، ولا يجوزُ رَفْعُه، وقد يجوز الرفعُ عند سيبويه في قولهم: قد علمتُ زيداً أبو مَن هو؟ لأنَّ زيداً في المعنى مُسْتَفهَمٌ عنه. ولو قلتَ: أرأيتَ زيداً أبو مَن هو؟ لم يَجُزِ الرفعُ. والفرقُ بينهما أنَّ معنى هذا: أخْبِرني عنه، وكذا معنى هذا: أخْبِروني عن شركائكم الذين تَدْعون من دون الله، أعَبَدْتُموهم لأنَّ لهم شَرِكةً في خَلْقِ السماوات، أم خَلَقوا من الأرض شيئاً؟! ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ أي: أم عندَهم كتابٌ أنزلناه إليهم بالشَّرِكَة. وكان في هذا رَدٌّ على مَن عَبَدَ غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم لا يجدون في كتابٍ من الكتب أنَّ الله عزَّ وجلَّ أَمر أن يُعْبَد غيرُه[١].

﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزةُ وحفصٌ عن عاصم: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ بالتوحيد، وجَمَعَ الباقون[٢]. والمَعْنَيان مُتقاربان إلَّا أنَّ قراءةَ الجمع أَوْلَى؛ لأنَّه لا يخلو مَن قرأه: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ من أن يكون خالَفَ السوادَ الأعظمَ، أو يكون جاء به على لغةِ مَن قال: جاءني طلحت[٣]، فوقف بالتاء، وهذه لغةٌ شاذَّةٌ قليلة؛

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٥-٣٧٦ .

(٢) السبعة ص٥٣٥، والتيسير ص١٨٢ .

(٣) في (د) و (ظ): طلحة. وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦ والكلام منه.

قاله النحاس[(١)].

وقال أبو حاتم وأبو عبيد: الجمعُ أَوْلَى لموافقته الخطَّ، لأنَّها في مصحفِ عثمانَ: «بيِّناتٍ» بالألف والتاء.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: أباطيلَ تَغرُّ، وهو قولُ السادةِ للسِّفْلة: إنَّ هذه الآلهةَ تَنْفعُكم وتقرِّبكم. وقيل: إنَّ الشيطان يَعِدُ المشركين ذلك. وقيل: وَعَدَهم بأنَّهم يُنصَرون عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ﴾ لمَّا بيَّنَ أنَّ آلهتَهم لا تَقْدِرُ على خَلْقِ شيءٍ من السماوات والأرض بيَّن أنَّ خالقَهما ومُمْسِكَهما هو الله، فلا يوجد حادثٌ إلَّا بإيجاده، ولا يبقى إلَّا ببقائه. و«أنَّ» في موضعِ نصبٍ بمعنى: كراهةَ أنْ تَزولا، أو لئلَّا تزولا، أو يُحملُ على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إنَّ الله يَمنعُ السماواتِ والأرضَ مِن[(٢)] أنْ تزولا، فلا حاجةَ على هذا إلى إضمارٍ، وهذا قولُ الزجَّاج[(٣)].

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ﴾ قال الفرَّاء[(٤)]: أي: ولو زالتا ما أمسكهما مِن أحدٍ، و«إنْ» بمعنى ما. قال: وهو مثلُ قوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١]. وقيل: المرادُ زوالُهما يومَ القيامة[(٥)].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٦.

(٢) قوله: من، من (ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦، والكلام منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٧٣.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٣-٢٧٤.

وعن إبراهيمَ قال: دخل رجلٌ من أصحاب ابنِ مسعودٍ إلى كعب الأحبارِ يتعلَّم منه العلمَ، فلمَّا رجع قال له ابن مسعود: ما الذي أصبتَ من كعب؟ قال: سمعتُ كعباً يقول: إنَّ السماء تدورُ على قُطْبٍ مثلِ قُطْبِ الرَّحَى، في عمودٍ على منكبِ مَلَكٍ، فقال له عبد الله: وددتُ أنك انقلبتَ براحلتك ورَحْلِها، كَذَبَ كعبٌ، ما ترك يهوديَّته! إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ إنَّ السماواتِ لا تدورُ، ولو كانت تدورُ لكانت قد زالت[1].

وعن ابن عباس نحوُه، وأنه قال لرجلٍ مُقْبِلٍ من الشام: مَن لَقِيتَ به؟ قال: كعباً. قال: وما سمعتَه يقول؟ قال: سمعتُه يقول: إنَّ السماوات على منكبِ مَلَكٍ. قال: كَذَبَ كعب، أمَا ترك يهوديَّته بعدُ! إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾[2].

والسماواتُ سبعٌ والأرضونَ سبعٌ، ولكنْ لمَّا ذكَّرهما أجراهما مجرى شيئين، فعادت الكنايةُ إليهما، وهو كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ثم ختم الآيةَ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لأنَّ المعنى فيما ذكره بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الله يمسكُ السماواتِ والأرضَ أنْ تزولا مِن كُفْرِ الكافرين، وقولِهم: اتَّخذ الله ولداً. قال الكلبيُّ: لمَّا قالت اليهودُ: عزيرٌ ابنُ اللهِ، وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله، كادت السماواتُ والأرضُ أنْ تزولا عن أمكنتهما، فمنعهما الله، وأنزل هذه الآية فيه، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا . تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ الآية [مريم: ٨٩-٩٠].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٩٢، وأخرجه أيضاً ١٩/ ٣٩١ من طريق أبي وائل عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٢.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ هم قريشٌ؛ أقسموا قبل أنْ يبعث الله رسولَه محمداً ﷺ، حين بَلَغهم أنَّ أهلَ الكتابِ كذَّبوا رسلَهم، فلَعنوا مَن كذَّب نبيَّه منهم، وأقسموا بالله جلَّ اسمُه: ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: نبيٌّ ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ يعني ممَّن كذَّب الرسلَ من أهلِ الكتاب(١).

وكانت العربُ تتمنَّى أن يكون منهم رسولٌ كما كانت الرسلُ من بني إسرائيلَ، فلمَّا جاءهم ما تَمنَّوْه ـ وهو النذيرُ من أنفسهم ـ نَفَروا عنه ولم يؤمنوا به.

﴿اسْتِكْبَارًا﴾ أي: عُتُوًّا عن الإيمان ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: مَكْرَ العملِ السيِّئ، وهو الكفرُ وخَدْعُ الضعفاء، وصدُّهم عن الإيمان ليكثُر أتباعُهم. وأنَّث «مِن إحدى الأمم» لتأنيثِ أُمَّة؛ قاله الأخفش(٢).

وقرأ حمزةُ والأعمش: ﴿ومكرَ السيِّءْ ولا يَحِيق المَكْرُ السيئُ﴾(٣) فحذف الإعرابَ من الأول وأثبته في الثاني. قال الزجَّاج: وهو لحن(٤)، وإنَّما صار لحناً لأنَّه حَذَفَ الإعراب منه. وزعم المبرِّدُ أنه لا يجوزُ في كلامٍ ولا في شعر؛ لأنَّ حركاتِ الإعرابِ لا يجوز حَذْفُها، لأنها دخلت للفرق بين المعاني. وقد أعْظَم بعضُ النحويين أن يكون الأعمشُ على جلالته ومحلِّه يقرأ بهذا، وقال: إنَّما كان يقف عليه، فغلط

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٧٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧ .

(٣) السبعة ص٥٣٥-٥٣٦ ، والتيسير ص١٨٢ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٥ ، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧ ، وما سيأتي هو من كلام النحاس.

مَن أدَّى[١] عنه، قال: والدليلُ على هذا أنه تمامُ الكلامِ، وأنَّ الثاني لمَّا لم يكن تمامَ الكلامِ أُعرِبَ باتِّفاق، والحركةُ في الثاني أَثْقَلُ منها في الأوّل لأنها ضمةٌ بين كسرتين.

وقد احتجَّ بعض النحويين لحمزةَ في هذا بقولِ سيبويه، وأنه أنشد هو وغيرُه:

إذا اعْوَجَجْنَ قلتُ صاحِبْ قَوِّمِ[٢]

وقال الآخر:

فاليومَ أشْرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ إثْماً مِن اللهِ ولا واغِلِ[٣]

وهذا لا حجةَ فيه؛ لأنَّ سيبويه لم يُجِزْه، وإنَّما حكاه عن بعض النحويين، والحديثُ إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجةٌ، فكيف وإنَّما جاء به على الشُّذوذِ ولضرورةِ الشعر. وقد خُولفَ فيه، وزعم الزجَّاج أنَّ أبا العباس أنشده:

إذا اعْوَجَجْنَ قلتُ صاحِ قَوِّمِ

وأنه أنشد:

فاليومَ فاشْرَبْ[٤] غيرَ مُسْتَحْقِبٍ

ذَكَر جميعَه النحاس[٥].

الزمخشريُّ: وقرأ حمزةُ: «ومكر السيِّئْ» بسكون الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات [مع الياء والهمزة]، ولعله اخْتَلَسَ فظُنَّ سكوناً، أو وَقَفَ وقفةً خفيفةً ثم

---

(١) في (د): ادعى.

(٢) الكتاب ٤/ ٢٠٣ ، وسلف ٢/ ١١٢ ، وعجزه: بالدَّوِّ أمثالَ السَّفينِ العُوَّمِ.

(٣) الكتاب ٤/ ٢٠٤ ، والبيت لامرئ القيس، وسلف ٢/ ١١٢ ، وجاء في رواية الأصمعي للديوان ص١٢٢ : فاليوم أسقى. وفي رواية الطوسي ص٢٥٨ : فاليوم فاشرب، وستأتي.

(٤) في النسخ: اشرب، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٨ والكلام منه، قال النحاس: فاليوم فاشرب بالفاء. اهـ. وهذا موافق لرواية الطوسي للديوان ص٢٥٨ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧-٣٧٨ ، ووقع في (د) و (م) قبل قوله ذكر جميعه النحاس: بوصل الألف على الأمر.

ابتدأ: «ولا يحِيق». وقرأ ابن مسعود: «ومَكْراً سيئاً»[١].

وقال المهدويُّ: ومَن سكَّن الهمزةَ من قوله: «ومكر السيِّئ» فهو على تقدير الوقفِ عليه، ثم أجرى الوصلَ مُجرى الوقفِ، أو على أنه أَسكن الهمزةَ لتَوالي الكَسْراتِ[٢] والياءات، كما قال:

فاليومَ أشربْ غيرَ مستحقبٍ

قال القُشَيريُّ: وقرأ حمزة: «ومكر السيِّئْ» بسكون الهمزة، وخطَّأه أقوامٌ. وقال قومٌ: لعله وقف عليه لأنه تمامُ الكلام، فغَلِطَ الراوي ورَوَى ذلك عنه في الإدراج.

وقد سبق الكلامُ في أمثالِ هذا، وقلنا: ما ثبت بالاستفاضةِ أو التواتُرِ أنَّ النبيَّ ﷺ قرأه فلابدَّ من جوازِه، ولا يجوزُ أن يقال: إنه لحنٌ[٣]. ولعلَّ مُرادَ مَن صار إلى التخطئةِ أنَّ غيره أفصحُ منه، وإنْ كان هو فصيحاً.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي: لا تَنْزلُ عاقبةُ الشركِ إلاَّ بمَن أَشْرَكَ. وقيل: هذا إشارةٌ إلى قتلهم ببدر.

وقال الشاعر:

وقد دفعوا المنيةَ فاستقلَّتْ ... ذراعاً بعد ما كانت تحيقُ[٤]

---

(١) الكشاف ٣/ ٣١٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وقراءة ابن مسعود في المحتسب ٢/ ٢٠٢ .

(٢) في (ظ): الحركات.

(٣) ينظر ص١٤٠ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ ، والبيتُ للمفضَّل النُّكْري كما في الأصمعيات ص٢٠٠ ، والمعاني الكبير ٢/ ٩٤٥ ، ومنتهى الطلب ٨/ ٢٣٩ ، ونسبه الأخفش في الاختيارين ص٢٤٥ لعامر بن معشر. وذكر السيوطي في شرح شواهد المغني ١/ ١٧١ أن المفضل هو عارم بن معشر، وإنما سمي مفضلاً لهذه القصيدة. ووقع في المصادر: وهم، بدل: وقد. ودراكاً: بدل: ذراعاً. وفي بعضها: رفعوا، بدل: دفعوا. وكادت، بدل: كانت. قال الأخفش: المنية: الحرب، ويروى: رفعوا، بالراء، أي: رفعوا الراية، وتحتها الموت. دراكاً، أي: مُدارَكة.

أي: تنزل، وهذا قولُ قُطْرُب. وقال الكلبيُّ: «يَحيق» بمعنى يُحيط[١]. والحَوْق: الإحاطة، يقال: حاق به كذا، أي: أحاط به.

وعن ابن عباس أنَّ كعباً قال له: إنِّي أَجِدُ في التوراة: مَن حَفَر لأخيه حُفرةً وقع فيها. فقال ابن عباس: فإنِّي أوجِدُكَ في القرآن ذلك. قال: وأين؟ قال: فاقرأ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٢]. وفي أمثالِ العرب: مَن حفَر لأخيه جُبًّا وقَعَ فيه مُنْكَبًّا[٣].

وروى الزُّهريُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَمْكُرْ ولا تُعِنْ ماكراً؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ولا تَبْغِ ولا تُعِنْ باغياً؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]»[٤]. وقال بعضُ الحكماء:

يا أيها الظالمُ في فِعْلِهِ ... والظُّلْمُ مَردودٌ على مَن ظَلَمْ
إلى متى أنت وحتَّى متى ... تُحصي المُصيباتِ وتَنسى النِّعمْ[٥]

وفي الحديث: «المكرُ والخديعةُ في النار»[٦]. فقولُه: «في النار» يعني: في

---

(١) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ .

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣١٢ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣ .

(٣) المستقصى ٢/ ٣٥٤ ، والكشاف ٣/ ٣١٢ .

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٢٥)، وفيه: ولا تَبْغِ ولا تُعِنْ باغياً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ولا تنكُث ولا تُعِنْ ناكثاً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾. وهو مرسل.

(٥) البيتان لمحمود الوراق كما في الشعب للبيهقي (٤٦٣٠)، والتدوين في أخبار قزوين ١/ ٥٠٠ ، ووقع في (م): المصائب، بدل: المصيبات. وفي المصادر: تشكو، بدل: تحصي.

(٦) أخرجه ابن حبان (٥٦٧) والطبراني في الكبير (١٠٢٣٤) من حديث ابن مسعود ﷺ. وأخرجه الحاكم ٤/ ٦٠٧ من حديث أنس ﷺ. وأخرجه ابن عدي ٤/ ٥٨٤ من حديث قيس بن سعد ﷺ. وأخرجه البزار (١٠٣ ـ كشف) وابن عدي ٤/ ١٦٣٤ من حديث أبي هريرة ﷺ وأخرجه أبو داود في المراسيل (١٦٥) عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً، وزاد: والخيانة.

الآخرة تُدخِلُ أصحابَها في النار؛ لأنَّها من أخلاق الكفَّار لا من أخلاقِ المؤمنين الأخيار؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في سياق هذا الحديث: «وليس من أخلاق المؤمنِ المكرُ والخديعةُ والخيانة»[1]. وفي هذا أُبلغ تحذيرٍ عن التخلُّقِ بهذه الأخلاقِ الذميمة، والخروجِ عن أخلاق الإيمان الكريمة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: إنَّما ينتظرون العذابَ الذي نزل بالكفَّار الأوَّلين. ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: أجْرى الله العذابَ على الكفار، وجعل[2] ذلك سُنةً فيهم، فهو يعذِّبُ بمثله مَن استحَقَّه، لا يقدر أحدٌ أن يبدِّل ذلك، ولا أنْ يحوِّل العذابَ عن نفسه إلى غيره.

والسُّنّة: الطريقة، والجمعُ سُنَن. وقد مضى في «آل عمران»[3]. وأضافَها إلى الله عزَّ وجلَّ، وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧] فأضافَ إلى القوم؛ لتعلُّق الأمر بالجانبين، وهو كالأجَل، تارةً يضافُ إلى الله، وتارةً إلى القوم؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [النحل: ٦١].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

بيَّن السُّنَّةَ التي ذَكَرها، أي: أوَلم يرَوْا إلى ما أنزلنا بعادٍ وثمودَ ومَدْين وأمثالِهم لمَّا كذَّبوا الرسلَ، فيتدبَّروا ذلك بنظرهم[4] إلى مساكنهم ودُورِهم، وبما سمعوا على

---

(١) أخرجه بهذه الزيادة ابن وهب في الجامع ص٧٦ من طريق مجاهد عن النبي ﷺ مرسلاً، ولم ترد هذه الزيادة في الأحاديث التي ذكرناها في التعليق السابق.

(٢) في النسخ عدا (ظ): ويجعل، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٨، والكلام منه.

(٣) ٥/ ٣٣٢.

(٤) في (د): فتدبروا ذلك بنظركم، وفي (خ) و (م): فتدبروا ذلك بنظرهم.

التواتُر بما حلَّ بهم، أفليس فيه عبرةٌ وبيانٌ لهم، ليسوا خيراً من أولئك ولا أقوى، بل كان أولئك أقوى، دليلُه قولُه: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: إذا أراد إنزالَ عذابٍ بقومٍ لم يُعجِزْه ذلك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ يعني من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ قال ابن مسعود: يريد جميعَ الحيوانِ ممَّا دَبَّ ودَرَج. قال قتادةُ: وقد فُعل ذلك زَمنَ نوحٍ عليه السلامُ. وقال الكلبيُّ: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ يريد الجنَّ والإنسَ دونَ غيرِهما؛ لأنَّهما مُكَلَّفان بالعقل[1].

وقال ابن جُريج[2] والأخفشُ والحسين بنُ الفضل: أراد بالدابَّة هنا الناسَ وحدَهم دونَ غيرِهم.

قلت: والأوّلُ أظْهَرُ، لأنَّه عن صحابيٍّ كبير. قال ابن مسعود: كاد الجُعَلُ أن يُعذَّب في جُحره بذنبِ ابنِ آدم[3]. وقال يحيى بنُ أبي كثير: أَمَر رجلٌ بالمعروف ونَهى عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك؛ فإنَّ الظالم لا يَضُرُّ إلا نَفْسَه. فقال أبو هريرة: كذبتَ؟ واللهِ الذي لا إلهَ إلاَّ هو، ثم قال: والذي نفسي بيده إنَّ الحُبَارَى

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٧ .

(٢) ذكره عن ابن جريج الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩، ووقع في (م) بدلاً منه: ابن جرير، وهو تصحيف.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠١ ، والحاكم ٢/ ٤٢٨ وصححه. والجُعَل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية. المعجم الوسيط (جعل).

لَتمَوتُ هَزْلاً في وَكْرِها بظلم الظالم(١).

وقال الثُّماليُّ ويحيى بنُ سلام في هذه الآية: يحبسُ الله المطرَ، فيهلك كلّ شيء(٢).

وقد مضى في «البقرة»(٣) نحوُ هذا عن عكرمةَ ومجاهدٍ في تفسير ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [الآية:١٥٩]: هم الحشراتُ والبهائم يصيبهم الجَدْبُ بذنوبِ علماءِ السوءِ الكاتمين فيلعنونهم. وذكرنا هناك حديثَ البَرَاء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ قال: «دوابُّ الأرضِ».

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ﴾ قال مقاتل: الأجلُ المسمَّى هو ما وَعَدَهم في اللَّوح المحفوظ. وقال يحيى: هو يومُ القيامة(٤). ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: بمَن يستحقُّ العقابَ منهم ﴿بَصِيرًۢا﴾.

ولا يجوزُ أن يكون العاملُ في «إذا» «بصيراً» كما لا يجوز: اليومَ إنَّ زيداً خارجٌ. ولكن العامل فيها «جاء»؛ لشَبَهها بحروفِ المُجازاة(٥)، والأسماءُ التي يُجازَى بها يَعملُ فيها ما بعدَها. وسيبويه لا يرى المجازاةَ بـ«إذا» إلَّا في الشعر، كما قال:

إذا قَصُرتْ أسيافُنا كان وَصْلُها ... خُطانا إلى أعدائنا فنُضارِبِ(٦)

ختمت سورة «فاطر» والحمد لله

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٢٦٠ ، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٦٩). والحبارى: طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة، الذكر والأنثى والجمع فيه سواء. المعجم الوسيط (حبر).

(٢) ذكره بنحوه عن يحيى بن سلام الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ . والثُّمالي: هو أبو حمزة ثابت ابن أبي صفية، وسلف ذكره ٥/ ٤٨ .

(٣) ٢/ ٤٨٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٨٠ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٩ .

(٦) البيت لقيس بن الخطيم، وهو في ديوانه ص٨٨ ، والكتاب ٣/ ٦٠ ، وسلف ١/ ٣٠٥ .

سُورَةُ المَلائِكَةِ(١)

مَكِّيَّةٌ وآيُها خمسٌ وأربعونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مُبدِعُهُما، مِن الفَطْرِ بمعنى الشَّقِّ، كأنَّه شَقَّ العَدَمَ بإخراجِهما منه، والإضافَةُ محضةٌ لأنَّه بمعنى الماضي.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾: وسائطَ بينَ اللهِ وبينَ أنبيائِه والصَّالحينَ مِن عبادِه يبلِّغونَ إليهِم رسالاتِه بالوَحْيِ والإلهامِ والرُّؤيا الصَّادقةِ، أو: بينَه وبين خلقِه يوصلونَ إليهم آثارَ صُنعِه.

﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: ذَوِي أجنِحَةٍ مُتعدِّدَةٍ مُتفاوِتَةٍ بتفاوُتِ ما لهم مِن المراتبِ ينزلونَ بها ويَعْرُجونَ، أو يسرعونَ بها نحو ما وكَّلَهُم اللهُ عليه فيتصرَّفُون فيه على ما أمرَهُم به، ولعلَّه لم يُرِدْ به خُصوصيَّةَ الأعدادِ ونفيَ ما زادَ عليها؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ رأى جبريلَ ليلةَ المعراجِ وله ستُّ مئةِ جَناحٍ(٢).

---

(١) في نسخة التفتازاني: «سورة فاطر».

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وليس فيه: (ليلة المعراج). ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٤٢٨) بلفظ: (رأيت جبريل عند سدرة المنتهى، وعليه ست مائة جناح ينثر من ريشه تهاويل الدر والياقوت).

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ استئنافٌ للدَّلالةِ على أنَّ تَفاوُتَهُم في ذلكَ مُقتَضى مَشيئتِه ومُؤدَّى حكمتِه لا أمرٌ تَستدعيهِ ذَواتُهُم؛ لأنَّ اختلافَ الأصنافِ والأنواعِ بالخواصِّ والفُصولِ إن كانَ لذَواتِهم المشتركةِ لزِمَ تنافي لوازمِ الأمورِ المتَّفِقَةِ وهو محالٌ، والآيةُ مُتناوِلَةٌ زياداتِ الصُّوَرِ والمعاني كمَلَاحةِ الوَجهِ وحُسنِ الصَّوتِ وحَصافةِ العَقلِ وسَماحةِ النَّفسِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وتخصيصُ بعضِ الأشياءِ بالتَّحصيلِ دونَ بَعضٍ إنَّما هو مِن جهَةِ الإرادةِ.

(٢) ـ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾: ما يُطْلِق لَهُم ويُرسِلْ، وهو مِن تجوُّزِ السَّببِ للمُسبَّبِ.

﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ كنعمَةٍ وأَمنٍ وصِحَّةٍ وعلمٍ ونبوَّةٍ ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ يحبِسُها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ يُطْلقُه، واختلافُ الضَّميرينِ لأنَّ الموصولَ الأوَّلَ مُفسَّرٌ بالرَّحمةِ والثَّاني مُطلَقٌ يتَناوُلها والغَضبَ، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ رحمتَهُ سَبقَتْ غَضبَه[1].

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعدِ إمساكِه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ على ما يشاءُ ليسَ لأحَدٍ أَنْ يُنازِعَهُ فيه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ إلا بعِلْمٍ وإتقانٍ.

ثمَّ لَمَّا بيَّنَ أنَّه الموجِدُ للمُلكِ والمَلكوتِ والمُتصرِّفُ فيهما على الإطلاقِ أمرَ النَّاسَ بشُكرِ إنعامِه فقال:

(٣) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: احفَظوها بمَعرفةِ حقِّها والاعترافِ بها وطاعةِ مُوليهَا، ثمَّ أنكرَ أَنْ يكونَ لغَيْرِه في ذلك مدخلٌ فيَستحقَّ أن يُشركَ بـه بقولِه:

---

(١) روى البخاري (٧٤٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «لما قضى الله الخلق، كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي».

﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ولذلك عقَّبه[١]: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾: فمِن أيِّ وَجهٍ تُصرَفونَ عن التَّوحيدِ إلى إشراكِ غيرِه به؟

ورفعُ ﴿غَيۡرُ﴾ للحَملِ على محلِّ ﴿مِنۡ خَٰلِقٍ﴾ بأنَّه وصفٌ أو بدلٌ فإنَّ الاستفهامَ بمعنى النَّفي، أو لأنَّه فاعلُ ﴿خَٰلِقٍ﴾[٢].

وجرَّهُ حمزَةُ والكِسائيُّ[٣] حملًا على لفظِه، وقد نُصِبَ[٤] على الاستثناءِ.

و﴿يَرۡزُقُكُم﴾ صِفَةٌ لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ أو استئنافٌ مُفسِّرٌ لـه، أو كلامٌ مُبتدأٌ، وعلى الأخيرِ يكونُ إطلاقُ ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾ مانعًا مِن إطلاقِه على غيرِ اللهِ.

(٤) ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾؛ أي: فتأسَّ بهم في الصَّبرِ على تكذيبِهم، فوضعَ ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ﴾ مَوضِعَه استغناءً بالسَّببِ عن المسبَّبِ، وتنكيرُ ﴿رُسُلٞ﴾ للتَّعظيمِ المُقتَضِي زيادةَ التَّسليَةِ والحثَّ على المُصابرةِ.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ فيُجازيكَ وإيَّاهُم على الصَّبرِ والتَّكذيبِ.

(٥) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالحشرِ والجَزاءِ ﴿حَقّٞۖ﴾ لا خُلْفَ فيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيذهلَكُم التمتُّعُ بها عن طلبِ الآخرةِ والسَّعيِ لها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾: الشَّيطانُ؛ بأَنْ يُمَنِّيَكُم المغفرةَ مع الإصرارِ على المعصيَةِ، فإنَّها وإن أمكنَت لكنَّ الذَّنبَ بهذا التَّوقُّعِ كتَناوُلِ السُّمِّ اعتمادًا على دفعِ الطَّبيعةِ.

---

(١) «ولذلك عقبه» من نسخة الفاروقي والطبلاوي.

(٢) قوله: «أو لأنه فاعل ﴿خَٰلِقٍ﴾» عطفٌ على «للحمل»؛ أي: رفعه على أنَّهُ فاعل لخالق، وهوَ حينئذٍ مبتدأ لا خبر له. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

(٤) نسبت القراءة بنصب الراء للفضل بن إبراهيم النحوي، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤).

وقُرِئَ بالضَّمِّ[1] وهو مصدرٌ، أو جمعٌ كقَعُودٍ.

(٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوةً عامَّةً قديمةً ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عَقائدِكُم وأفعالِكُم، وكونوا على حذرٍ منه في مَجامعِ أحوالِكُم.

﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تقريرٌ لعَداوَتِه، وبيانٌ لغرضِهِ في دَعوةِ شِيعَتِه إلى اتِّباعِ الهَوى والرُّكونِ إلى الدُّنيَا.

(٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعيدٌ لِمَن أجابَ دُعاءَه، ووعدٌ لِمَن خالفَهُ، وقطعٌ للأماني الفارغَةِ، وبناءٌ للأمرِ كلِّه على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، وقولُه:

(٨) ـ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ تقريرٌ لَه؛ أي: فمَنْ زُيِّنَ له سوءُ عملِه بأَنْ غلبَ وَهْمُه وهَواهُ على عقلِهِ حتَّى انتكسَ رأْيُهُ فرَأَى الباطلَ حقًّا والقَبِيحَ حَسناً كمَنْ لم يُزيَّنْ له بَلْ وُفِّقَ حتَّى عرفَ الحقَّ واستحسَنَ الأعمالَ واستَقْبَحَها على ما هي عليه، فحُذِفَ الجوابُ لدلالةِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

وقيل: تَقديرُهُ: أفمَنْ زُيِّنَ له سوءُ عَملِه ذهبَتْ نفسُكَ عليهِم حسرةً، فحُذِفَ الجَوابُ لدَلالةِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ عليهِ، ومعناهُ: فلا تُهْلِك نفسَكَ عليهِم للحسراتِ على غيِّهِم وإصرارِهِم على التَّكذيبِ.

والفاءاتُ الثَّلاثُ للسَّببيَّةِ، غيرَ أنَّ الأُولَيَيْنِ دَخَلتَا على السَّببِ والثَّالثةَ دخلَتْ على المُسبَّبِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٦٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٤٥)، و«تفسير الثعلبي» (٢٢/ ١٥٩)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦١٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٢٩)، عن أبي السمال وأبي حيوة حيث وقع كما قال الهذلي.

وجمعُ الحَسَراتِ للدَّلالةِ على تَضاعُفِ اغتمامِه على أحوالِهم، أو كثرةِ مَساوِئِ أَفعالِهم المُقتَضِيَةِ للتَّأسُّفِ، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ ليسَ صِلةً لها؛ لأنَّ صِلةَ المَصدرِ لا تتقدَّمُه، بل صِلَةُ ﴿تَذْهَبْ﴾ أو بيانٌ للمُتحسَّرِ عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيُجازيهِمْ عليه.

(٩) - ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿الرِّيحَ﴾[1].

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ استحضارًا لتلكَ الصُّورةِ البَديعَةِ الدَّالَّةِ على كمالِ الحكمَةِ، ولأنَّ المُرادَ بيانُ إحداثِها بهذه الخاصِّيَّةِ ولذلك أسندَهُ إليها، ويجوزُ أَنْ يكونَ اختلافُ الأفعال للدلالةِ على استمرارِ الأمرِ.

﴿فسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيْتٍ﴾ وقرأَ نافِعٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ بتَشديدِ اليَاءِ[2].

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾: بالمطرِ النَّازلِ منه، وذكرُ السَّحابِ كذكرِه، أو: بالسَّحابِ فإنَّه سببُ السَّببِ، أو الصَّائرُ[3] مَطَرًا ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: بعدَ يبسِهَا.

والعُدولُ فيهما مِن الغَيبَةِ إلى ما هو أَدْخَلُ في الاختصاصِ؛ لِمَا فيهِمَا مِن مَزيدِ الصُّنعِ.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾؛ أي: مثلُ إحياءِ المَواتِ نشورُ الأمواتِ في صِحَّةِ المقدوريَّةِ؛ إذ ليسَ بينَهُما إلا احتمالُ اختلافِ المادَّةِ في المَقيسِ عليه[4]، وذلك لا مدخلَ له فيها[5].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٧٢)، و«التيسير» (ص: ٧٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٣)، و«التيسير» (ص: ٨٧).

(٣) بالرفع عطف على «سببُ السبب». انظر: «حاشية شيخ زاده» (٧/ ١١).

(٤) في نسخة التفتازاني: «في المقيس والمقيس عليه».

(٥) في نسخة الخيالي: «ولا مدخل لذلك فيها». وفي نسخة الطبلاوي: «وذلك لا مدخل فيها».

وقيل: في كيفيَّةِ الإحياءِ، فإنَّه تعالى يرسلُ ماءً مِن تحتِ العرشِ يُنبتُ منه أجسادَ الخَلْقِ.

(١٠) ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾: الشَّرَفَ والمَنَعةَ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ أي: فليَطْلُبْهَا مِن عندِه فإنَّ له كلَّها(١)، فاستغْنَى بالدَّليلِ عن المدلولِ.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ بيانٌ لِمَا يُطلَبُ به العِزَّةُ، وهو التَّوحيدُ والعملُ الصَّالحُ، وصُعودُهُما إليه مَجازٌ عن قبولِه إيَّاهُما، أو صعودُ الكَتَبَةِ بصَحِيفَتِهما، والمستكنُّ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ للكَلِمِ، فإنَّ العملَ لا يُقبَلُ إلا بالتَّوحيدِ، ويؤيِّدُهُ أنَّه نُصِبَ (العَمل)(٢)، أو للعَملِ فإنَّه يحقِّقُ الإيمانَ ويقوِّيه، أو للهِ وتخصيصُ العملِ بهذا الشَّرَفِ لِمَا فيه مِن الكلفةِ.

وقُرِئَ: (يُصعَدُ) على البناءين(٣)، والمُصعِد هو اللهُ تعالى، أو المتكلمُ بِهِ، أو الملكُ.

وقيل: الكَلِمُ الطَّيِّبُ يتناوَلُ الذِّكرَ والدُّعاءَ وقراءةَ القُرآنِ.

وعنه عليه السَّلامُ: «هو سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ، إذا قالها العَبدُ عَرَجَ به الملكُ إلى السَّماءِ فحَيَّا بها وجهَ الرَّحمنِ، فإذا لم يَكُن عملٌ صالحٌ لَمْ يُقبَلْ»(٤).

---

(١) في نسخة الفاروقي: «فإن كلها له».

(٢) أي: ويؤيده قراءة: (والعملَ الصالحَ) بالنصب، نسبت لعيسى وابن أبي عبلة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣).

(٣) أي: بالفتح على البناء للمفعول، والكسر على البناء للفاعل، الأولى قراءة الضحاك كما في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣١)، والثانية نسبت لعلي بن أبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما والسلمي وإبراهيم، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤)، و«البحر» (١٨/ ٢٣).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٥٨٩) وصححه، ورواه أيضاً الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٣٨)، =

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: المَكَراتِ السَّيِّئاتِ، يعني: مَكَراتِ قريشٍ للنَّبيِّ عليهِ السَّلامُ في دارِ النَّدوَةِ، وتدارُؤَهُم[1] الرأيَ في إحدى ثلاثٍ: حبسِه وقَتلِه وإجلائِه.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يؤبَهُ دونَه بما يمكرونَ به ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾: يَفسدُ ولا يَنفذُ؛ لأنَّ الأمورَ مقدَّرةٌ لا تتغيَّرُ به كمَا دلَّ عليهِ بقولِه:

(١١) ـ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ بخلقِ آدمَ منه ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ بخلقِ ذُرِّيَّتِه مِنْها ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾: ذُكرانًا وإناثًا.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إلا معلومةً له.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾: وما يمدُّ في عمره مِن مَصيرِه إلى الكبرِ ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ مِن عمرِ المُعمَّرِ لغيرِه بأَن يُعطَى له عمرٌ ناقصٌ مِن عمرِه.

أو: لا ينقصُ مِن عمرِ المنقوصِ عمرُهُ بجعلِه ناقصًا، والضَّميرُ له وإن لم يُذكَر لدَلالةِ مُقابلِه عليه، أو للمُعمَّرِ على التَّسامُحِ فيه ثقةً بفَهمِ السَّامعِ كقولِهم: (لا يثيبُ اللهُ عبدًا ولا يعاقِبُه إلا بحقٍّ)[2].

= والطبراني في «المعجم الكبير» (٩١٤٤)، ومن طريق الحاكمِ البيهقيُّ في «الشعب» (٦٢٥)، عن ابن مسعود قال: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده، الحمد لله، لا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحيه ثم صعد بهن إلى السماء، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحيِّي بهن وجه الرحمن، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

(١) في نسخة الخيالي: «وتداورهم»، وعليها شرح الخفاجي والقونوي، قال الخفاجي: والتداور تفاعل بمعنى الإدارَة للرَّأيِ فيما بينهم والمحاورَة فيه. انظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية القونوي» (١٦/ ٢٩)، والمثبت أيضًا صحيح؛ لأن التدارؤ هو التدافع والتخاصم، ويكون دفعُ كلٍّ منهم رأي الآخر والافهم في ذلك تدارؤًا.

(٢) قوله: «لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحقٍّ» ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ١٥٩)، وتعقبه =

وقيل: الزِّيادَةُ والنُّقصانُ في عمرٍ واحدٍ باعتبارِ أسبابٍ مُختَلِفَةٍ أثبتَتْ في اللوحِ، مثل أَنْ يكونَ فيه: إن حجَّ عمرٌو فعمرُه ستُّونَ سنةً وإلا فأربعونَ(١).

وقيل: المرادُ بالنُّقصانِ ما يمرُّ من عمرِه وينتقِصُ، فإنَّه يكتبُ في صحيفةِ عمرِه يومًا فيومًا.

وعَن يَعقوبَ: ﴿وَلا يَنْقُصُ﴾ على بناءِ الفَاعِلِ(٢).

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ هو عِلْمُ اللهِ، أو اللوحُ، أو الصَّحيفةُ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إشارةٌ إلى الحفظِ أو الزِّيادَةِ والنَّقص.

(١٢) - ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ضَـرْبُ مثلٍ للمُؤمنِ والكافرِ.

والفراتُ: الذي يَكسرُ العطشَ.

والسَّائغُ: الذي يَسْهُلُ انحدارُهُ.

= الطيبي في «فتوح الغيب» (١٢/ ٦٢١) قال: فيه اعتزالٌ خفيٌّ، وذلك أنَّ مذهبهم أن استحقاق العقاب بالكبيرة يحبط استحقاق الثواب بالطاعة، فعلى هذا لا يجتمع الثواب والعقاب في شخص واحد، وأما أهل السّنة فلا يبعد ذلك لأن أهل النار من العاصين لا يخلدون فيها.

قلت: ومعنى الآية على هذا الوجه بغض النظر عن دسيسة الزمخشري: ولا يُطوَّلُ عُمُرُ أحدٍ ولا يُنقَصُ من عُمرِ أحدٍ آخر. وأولُ من وقفتُ عليه في ذكر هذا المعنى في الآية هو الفراء، قال في «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٨): قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ يقول: ما يُطَوَّلُ من عمرٍ ولا يُنْقَصُ من عمره، يريدُ آخَرَ غيرَ الأول، ثُمَّ كُني عنه بالهاء كأنه الأول، ومثله في الكلام: (عندي درهم ونصفه) يعني: ونصف آخر. فجازَ أن يكنى عنه بالهاء لأن لفظ الثاني قد يظهر كلفظ الأول، فكني عنه ككناية الأوّل.

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «فالأربعون».

(٢) انظر: «المبسوط في القراءات» لابن مهران (ص: ٣٦٦).

والأُجَاجُ: الذي يحرقُ بمُلوحَتِه.

وقُرِئَ: (سَيِّغٌ) بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ[١]، و: (مَلِحٌ) على فَعِلٍ[٢].

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ استطرادٌ في صفةِ البَحْرينِ وما فيهما مِن النِّعَمِ، أو تمامُ التَّمثيلِ، والمعنى: كما أَنَّهُما وإن اشتركَا في بعضِ الفَوائدِ لا يَتساوَيانِ مِن حيثُ إنَّهُما لا يَتساوَيانِ فيمَا هو المَقصودُ بالذَّاتِ مِن الماءِ، فإنَّه خالطَ أحدَهُما ما أفسدَهُ وغيَّرَه عن كَمالِ فِطرَتِه، لا يَتساوى المؤمنُ والكافرُ وإن اتَّفَق اشتِراكُهُما في بعضِ الصِّفَاتِ كالشَّجاعَةِ والسَّخاوَةِ؛ لاختلافِهِما فيما هو الخاصيَّةُ العُظمى وبقاءِ أحدِهِما على الفِطرةِ الأَصْليَّةِ دونَ الآخرِ.

أو تفضيلٌ[٣] للأجاجِ على الكافرِ بما يشاركُ فيه العذبَ من المنافعِ.

والمرادُ بالحِليَةِ: اللآلئُ واليَواقيتُ.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾؛ أي: في كلٍّ ﴿مَوَاخِرَ﴾ تشقُّ الماءَ بجَرْيِهَا.

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾: مِن فضلِ اللهِ بالنُّقْلةِ فيها، واللامُ مُتعلِّقَةٌ بـ﴿مَوَاخِرَ﴾، ويجوزُ أَنْ تَتعلَّقَ بما دلَّ عليه الأفعالُ المذكورةُ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ذلك، وحرفُ التَّرجِّي باعتبارِ ما يقتضيهِ ظاهرُ الحالِ.

(١٣) ـ ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هي مُدَّةُ دَورِه، أو مُنتهاهُ، أو يومُ القيامَةِ.

---

(١) قراءة التشديد عن عيسى، كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤)، و«المحتسب» (٢/ ١٩٩)، وقراءة التخفيف ذكرها في «المحتسب» (٢/ ١٩٨) عن عيسى أيضاً.

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩٩) عن طلحة بن مصرف.

(٣) عطف على «استطراد». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٢٨).

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ الإشارةُ إلى الفاعلِ لهذه الأشياءِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ فاعِلِيَّتَه لها موجبةٌ لثُبوتِ الأخبارِ المُترادِفَةِ.

ويحتملُ أن يكونَ ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ كلامًا مبتدأً في قِرانِ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ للدلالةِ على تفرُّدِه بالألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ، والقِطْميرُ: لفافةُ النَّواةِ.

(١٤) ـ ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ لأنَّهُم جَمادٌ ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾ على سبيلِ الفَرْضِ ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ لعدمِ قُدرَتِهم على الإنفاعِ، أو لتبرُّئِهم منكُمْ مما تَدَّعونَ لهم.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾: بإشراكِكُم لهم؛ يقرُّونَ ببُطلانِه، أو يقولون: ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾: ولا يخبرُكَ بالأمرِ مُخبِرٌ مثلُ خبيرٍ به أخبركَ، وهو اللهُ سُبحانَهُ، فإنَّه الخبيرُ به على الحقيقةِ دونَ سائرِ المُخبِرينَ، والمرادُ: تَحقيقُ ما أخبرَ به مِن حالِ آلهَتِهم، ونفيُ ما يدَّعونَ لَهُم.

(١٥) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ في أنفُسِكُم وما يَعِنُّ لَكُم، وتعريفُ ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ للمُبالغَةِ في فَقرِهم، كأنَّهُم لشدَّةِ افتقارِهم وكثرةِ احتياجِهم هم الفُقَراءُ، وأنَّ افتقارَ سائرِ الخَلائقِ بالإضافَةِ إلى فقرِهم غيرُ معتدٍّ به، ولذلك قال: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٨].

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾: المُستغني على الإطلاقِ، المنعِمُ على سائرِ الموجوداتِ حتى استحَقَّ عليه الحمد.

(١٦ ـ ١٧) ـ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: بقومٍ آخرينَ[1] أطوعَ منكم، أو بعالَمٍ آخرَ غيرِ ما تعرفونَه ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمُتعذِّرٍ أو مُتعسِّرٍ.

(١٨) ـ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: ولا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نفسٍ أُخرى، وأمَّا قولُه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] ففي الضَّالِّينَ المُضلِّينَ، فإنَّهُم يحملونَ أثقالَ إضلالِهم مع أثقالِ ضَلالِهم، وكلُّ ذلك أوزارُهم ليسَ فيها شيءٌ مِن أوزارِ غيرِهم.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾: نفسٌ أثقلَها الأوزارُ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ بحَمْلِ بعضِ أوزارِها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾: لم تُجَبْ بحَملِ شَيءٍ منه. نَفَى أن يُحمَلَ عنها ذنبُها كما نَفَى أن يُحْمَلَ عليها ذنبُ غيرِها.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كانَ المدعوُّ ذا قرابتِها، فأُضمرَ (المدعوُّ) لدلالةِ ﴿إِنْ تَدْعُ﴾ عليه.

وقُرِئَ: (ذو قُرْبى)[2] على حذفِ الخبرِ، وهو أَوْلَى مِن جعلِ (كانَ) التامَّةَ؛ فإنَّها لا تُلائمُ نظمَ الكَلامِ.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾: غائبينَ عن عذابِه، أو عن النَّاسِ في خَلَواتِهم، أو غائبًا عَنهُم عذابُه.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإنَّهُم المنتفِعونَ بالإنذارِ لا غير، واختلافُ الفعلينِ لِمَا مرَّ.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾: ومَن تَطهَّرَ عن دنسِ المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ إذ نفعُهُ لها، وقُرِئَ: (ومَن ازَّكى فإنَّما يزَّكَّى)[3].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «آخر»!.

(٢) دون نسبة في «الكشاف» (٧/ ٢٠٢)، و«البحر» (١٨/ ٣٤)، وأجازها نحواً لا قراءة: الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٨).

(٣) نسبت لطلحة بن مصرف في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣٥)، و«البحر» (١٨/ ٣٥)، وفي «المختصر =

وهو اعتراضٌ مؤكِّدٌ لخَشيَتِهم وإقامَتِهم الصَّلاةَ لأنَّهُما من جملةِ التَّزكِّي.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيُجاريهم على تَزكِّيهم.

(١٩) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: الكافرُ والمؤمنُ، وقيل: هما مَثَلانِ للصَّنَمِ وللهِ عزَّ وجلَّ.

(٢٠) ـ ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾: ولا الباطلُ ولا الحقُّ[1].

(٢١) ـ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾: ولا الثَّوابُ ولا العقابُ[2].

و(لا) لتأكيدِ نَفْيِ الاستواءِ، وتكريرُهَا على الشِّقَّيْنِ لمزيدِ التَّأكيدِ.

والحَرُورُ: فَعُولٌ مِن الحرِّ غلبَ على السَّمُومِ.

وقيل: السَّمُومُ ما يهبُّ نهارًا، والحَرُورُ ما يهبُّ لَيْلًا.

(٢٢) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تمثيلٌ آخرُ للمُؤمنينَ والكافرينَ أبلغُ مِن الأوَّلِ، ولذلك كرَّرَ الفعلَ، وقيل: للعُلماءِ والجُهلاءِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَهُ، فيوفِّقُه لفهمِ آياتِه والاتِّعاظِ بعظاتِه ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ترشيحٌ لتَمثيلِ المصرِّينِ على الكفرِ بالأمواتِ، ومُبالغةٌ في إقناطِه عَنْهُم.

(٢٣) ـ ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فما عليكَ إلَّا الإنذارُ، وأمَّا الإسماعُ فلا إليكَ، ولا حيلةَ لك إليه في المطبوعِ على قُلوبِهم.

(٢٤) ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: مُحقِّينَ، أو: مُحِقًّا، أو: إرسالًا مصحوبًا بالحقِّ، ويجوزُ أَنْ يكونَ صِلةً لقولِه: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: بشيرًا بالوعدِ الحقِّ ونذيرًا بالوعيدِ الحقِّ.

= في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤) عن أبي عمرو في رواية: «ومن يزكى فإنما يزكى».

(١) في نسخة الفاروقي: «ولا الباطل والحق».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «ولا الثواب والعقاب».

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾: أهلِ عَصْرٍ ﴿إِلَّا خَلَا﴾: مَضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ مِن نبيٍّ أو عالمٍ ينذِرُ عنه، والاكتفاءُ بذكرِه[1] للعلمِ بأنَّ النِّذارةَ قرينةُ البِشارةِ، سيَّمَا وقد قُرِنَ به من قبلُ، ولأنَّ الإنذارَ هو المقصودُ الأهم مِن البعثَةِ.

(٢٥) - ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمُعجزاتِ الشَّاهدَةِ على نبوَّتِهم ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: كصُحُفِ إبراهيمَ ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ كالتَّوراةِ والإنجيلِ على إرادةِ التَّفصيلِ دونَ الجمعِ، ويجوزُ أَنْ يرادَ بهما واحدٌ، والعطفُ لتغايُرِ الوَصْفَينِ.

(٢٦) - ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: إنكاري بالعُقوبَةِ.

(٢٧) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾: أجناسُها وأصنافُها على أنَّ كُلًّا مِنها ذو[2] أصنافٍ مُختَلِفَةٍ، أو: هيئاتُها مِن الصُّفرَةِ والخُضرةِ ونحوِهما.

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾؛ أي: ذو جُدَدٍ؛ أي: خُطَطٍ وطرائقَ، يقال: (جُدَّةُ الحمارِ) للخطَّةِ السَّوداءِ على ظهرِه.

وقُرِئَ: (جُدُدٌ) بالضمِّ[3] جمعُ جَديدَةٍ[4] بمعنى الجُدَد[5]، و: (جَدَدٌ) بفتحتينِ[6]، وهو الطَّريقُ الواضِحُ.

---

(١) أي: بذكر النذير وعدم اقترانه بالبشير.

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «لها».

(٣) وهي قراءة الزهري كما في «المحتسب» (٢/ ١٩٩).

(٤) في «المحتسب» (٢/ ٢٠٠): جمع جديد؛ أي: آثار جدد غير مخلقة، فهو أصح لها، وأوضح للونها.

(٥) قوله: «بمعنى الجُدَد»؛ أي: بضم ففتح، أشار به إلى أنها بمعنى الأولى، وتجمع على جدائد أيضاً. انظر: «حاشية الخفاجي». وفي نسخة الخيالي والفاروقي والطبلاوي: «بمعنى الجِدَّة».

(٦) وهي قراءة الزهري أيضاً فيما رواه سهل عن الوقاصي عنه كما في «المحتسب» (٢/ ١٩٩)، وقال أبو حاتم، وقطرب: لا قراءة فيه غير جُدَد.

﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشـدَّةِ والضَّـعـفِ ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ عطفٌ على ﴿بِيضٌ﴾ أو على ﴿جُدَدٌ﴾ كأنَّه قيل: ومِن الجبالِ ذو جددٍ مختلفةِ اللونِ ومنها غرابيبُ مُتَّحِدَةُ اللونِ، وهو تأكيدُ مُضمَرٍ يُفَسِّرُهُ ما بعده، فإنَّ الغِرْبيبَ تأكيدٌ للأَسْوَدِ ومِن حَقِّ التَّأكيدِ أن يَتْبعَ المؤكَّدَ، ونظيرُ ذلك في الصِّفَةِ قولُ النَّابغَةِ:

والمـؤمِـنِ العـائـذاتِ الطَّـيرَ........ ....[1]

وفي مثلِه مَزيدُ تأكيدٍ؛ لِمَا فيه مِن التَّكريرِ باعتبارِ الإضمارِ والإظهارِ.

(٢٨) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ كاختلافِ الثِّمارِ والجبالِ.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ إذ شرطُ الخَشيَةِ مَعـرِفَةُ المَخْشِيِّ والعِلمُ بصِفَاتِه وأَفعالِه، فمَن كانَ أَعْلَمَ به كانَ أَخْشَى منه، ولذلك قال عليهِ السَّلامُ: «إني أَخشاكُمْ للهِ وأَتْقَاكُم لَه»[2]، ولهذا أتبعَه ذكرَ أَفعالِه الدَّالَّةِ على كمالِ قُدرَتِه.

وتقديمُ المَفعولِ لأنَّ المقصودَ حَصْرُ الفاعليَّةِ، ولو أُخِّرَ انعكسَ الأمرُ.

وقُرِئَ برفعِ اسمِ اللهِ ونصبِ ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[3] على أنَّ الخشيةَ مُستعارَةٌ للتَّعظيمِ، فإنَّ المُعظَّمَ يكونُ مَهيبًا.

---

(١) انظر: «ديوان النابغة» (ص: ٣٦)، وتمامه:

.... تَمْسَـحُهَا رُكْبَانُ مَكَّـةَ بيـنَ الغَيْـلِ وَالسَّـعَدِ

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له»، ورواه مسلم (١١٠٨) من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما بلفظ: «أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له».

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ١٠٥)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٤). قال الثعلبي: والقراءة الصحيحة ما عليه العامة.

=

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوُجوبِ الخشيةِ لدلالتِه على أنَّه مُعاقِبٌ للمُصِرِّ على طُغيانِه غفورٌ للتَّائبِ عن عِصيانِه.

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾: يُداوِمُونَ قراءتَهُ أو متابعةَ ما فيهِ حتَّى صارَت سِمَةً لَهُم وعنوانًا، والمرادُ بـ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ القرآنُ، أو: جنسُ كُتُبِ اللهِ، فيكونُ ثناءً على المصدِّقينَ مِن الأُمَمِ بعدَ اقتِصاصِ حالِ المكذِّبينَ.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيفَ اتَّفَقَ مِن غيرِ قصدٍ إليهِمَا.

وقيل: السرُّ في المسنونَةِ، والعَلانيَةُ في المفروضَةِ.

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾: تحصيلَ ثَوابٍ بالطَّاعةِ ـ وهو خبرُ ﴿إِنَّ﴾ ـ ﴿لَّن تَبُورَ﴾: لن تكسدَ ولن تهلكَ بالخُسرانِ، صِفَةٌ للتِّجارَةِ، وقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ عِلَّةٌ لمدلولِه؛ أي: يَنتَفِي عنها الكسادُ وتَنْفُقُ عندَ اللهِ ليوفيَهُم بنَفَاقِها أجورَ أعمالِهم، أو لمدلولِ ما عدَّ مِن أفعالِهم نحو: فَعَلوا ذلك ليوفِّيَهُم، أو عاقبةٌ[1] لـ﴿يَرْجُونَ﴾.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ما يقابلُ أعمالَهُم ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ لفَرَطاتِهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتِهم؛ أي: مُجازيهِمْ عليها، وهو عِلَّةٌ للتَّوفِيَةِ والزِّيادَةِ، أو خبرُ ﴿إِنَّ﴾، و﴿يَرْجُونَ﴾ حالٌ مِن واوِ ﴿وَأَنفَقُواْ﴾.

= وقد طعن ابن الجزري في هذه القراءة في «النشر» (١/ ١٦) فقال ما معناه: ومثال ما نقله غير ثقة كثير مما في كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف، ومنه القراءة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة التي جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي، ومنها: (إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ) برفع الله ونصب العلماء، وقد راجَ ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه وتكَلَّف توجيهها، وإنَّ أبا حنيفةَ لبريءٌ منها، وقد كتب الدارقطني وجماعة بأن هذا الكتاب موضوع لا أصل له.

(١) قوله: «أو عاقبة» عطفٌ على «علة». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٣٤).

(٣١) ـ ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: القرآن، و﴿مِنَ﴾ للتَّبيينِ، أو الجنسِ و﴿مِنَ﴾ للتَّبعيضِ، ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَحُقُّهُ[1] مُصدِّقًا لِمَا تقدَّمَه مِن الكتبِ السَّماويَّةِ، حالٌ مُؤكِّدةٌ لأنَّ حقيَّتَهُ تستلزمُ مُوافقتَهُ إيَّاهُ في العَقائدِ وأُصولِ الأحكامِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ عالمٌ بالبَواطنِ والظَّواهرِ، فلو كان في أحوالِكَ ما يُنافي النُّبوَّةَ لم يُوحِ إليك مثلَ هذا الكتابِ المعجِزِ الذي هو عِيَارٌ على سائرِ الكتبِ، وتقديمُ (الخبير) للدَّلالةِ على أنَّ العُمدةَ في ذلك الأمورُ الروحانيَّةُ.

(٣٢) ـ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾: حَكَمْنا بتَوريثِه منك، أو: نُورثُه، فعبَّرَ عنه بالماضي لتَحقُّقِه، أو: ورَّثْناهُ مِن الأُمَمِ السَّالفَةِ، والعطفُ على ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ﴾، و﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ اعتراضٌ لبيانِ كيفيَّةِ التَّوريثِ.

﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني: علماءَ الأُمَّةِ مِن الصَّحابةِ ومَن بعدَهُم، أو الأمَّةَ بأسرِهِم فإنَّ اللهَ اصطفاهُم على سائرِ الأُمَمِ.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالتَّقصيرِ في العملِ به ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ يعمَلُ به في أغلبِ الأوقاتِ[2] ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بضمِّ[3] التَّعليمِ والإرشادِ إلى العملِ.

وقيل: الظَّالمُ: الجاهِلُ، والمُقتَصِدُ: المُتعَلِّمُ، والسَّابِقُ: العالِمُ[4].

---

(١) قوله: «أَحُقُّه»؛ أي: أُحقِّقه أو أجعله حقًّا، فالعامل فيه مقدر يفهم من مضمون الجملة. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «في أغلب الأمر».

(٣) في نسخة الفاروقي: «يضم».

(٤) رواه التستري في «تفسيره» (ص: ١٢٩) عن سهل.

وقيل: الظَّالِمُ: المُجْرِمُ، والمُقتَصِدُ: الذي خلطَ الصَّالحَ بالسَّيِّئِ، والسَّابقُ: الذي ترجَّحَتْ حَسناتُه بحيثُ صارَتْ سَيِّئاتُه مُكفَّرَةً[1]، وهو مَعنى قولِه عليهِ السَّلامُ: «أمَّا الذين سبقُوا فأولئكَ يَدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ، وأمَّا الذين اقتَصدُوا فأولئكَ يحاسَبونَ حِسابًا يسيرًا، وأمَّا الذينَ ظلمُوا أنفُسَهُم فأولئكَ يُحبسون في طولِ المحشرِ ثمَّ يَتلقَّاهُم اللهُ برَحمَتِه»[2].

وقيل: الظالمُ: الكافرُ، على أنَّ الضَّميرَ للعبادِ، وتقديمُهُ لكثرةِ الظَّالِمينَ، ولأنَّ الظُّلمَ بمعنى الجهلِ والرُّكونِ إلى الهوى مُقتضَى الجبلَّةِ، والاقتصادُ والسَّبقُ عارِضانِ.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إشارةٌ إلى التَّوريثِ، أو الاصطفاءِ، أو السَّبقِ.

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، والضَّميرُ للثَّلاثةِ، أو لـ﴿الَّذينَ﴾، أو للمُقتصدِ والسَّابقِ فإنَّ المرادَ بهما الجنسُ.

وقُرِئَ: (جَنَّةُ عَدْنٍ) و: (جَنَّاتِ) منصوبةً[3] بفعلٍ يُفسِّرُه الظَّاهرُ.

وقرأَ أبو عمرٍو: ﴿يُدْخَلُونَها﴾ على بناءِ المَفعولِ[4].

---

(١) ذكره التستري في «تفسيره» (ص: ١٢٩) عن الحسن البصري.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٧٢٧)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٧٥)، والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٩٢)، وعنه البيهقي في «البعث والنشور» (٥٨) عن أبي الدرداء رضي الله عنه. قال الحاكم وعنه البيهقي: وقد اختلفت الروايات في إسناد هذا الحديث... وإذا كثرت الروايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤) الأولى عن الزهري والثانية عن الجحدري.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مُقدرَةٌ. وقُرِئَ: (يَحْلَوْنَ)[١] مِن حَلِيَت المَرأَةُ فهيَ حالٍ[٢].

﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى للتَّبعيضِ والثَّانيةُ للتَّبيينِ.

﴿ولؤلؤٍ﴾ عطفٌ على ﴿ذَهَبٍ﴾؛ أي: مِن ذَهَبٍ مُرَصَّعٍ باللؤلؤِ، أو من ذهبٍ في صَفاءِ اللؤلؤِ، ونصبَهُ نافعٌ وعاصمٌ[٣] عطفًا على محلِّ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾: همَّهُم مِن خوفِ العاقبةِ، أو همَّهُم مِن أجلِ المعاشِ وآفاتِه، أو مِن وسوسةِ إبليسَ[٤] وغيرِها.

وقُرِئَ: (الحُزْنَ)[٥].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمُذنبينَ ﴿شَكُورٌ﴾ للمُطيعينَ.

(٣٥) - ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾: دارَ الإقامةِ ﴿مِن فَضْلِهِ﴾: مِن إنعامِه وتَفضُّلِه؛ إذ لا واجبَ عليه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾: تعبٌ، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾: كَلالٌ؛ إذ لا تكليفَ فيها ولا كَدَّ، أَتْبَعَ نفيَ النَّصَبِ نفيَ ما يَتبعُهُ مُبالغَةً.

(٣٦) - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾: لا يُحكَمُ عليهِم بموتٍ ثانٍ ﴿فَيَمُوتُوا﴾: فيستريحوا[٦]، ونصبُه بإضمارِ (أنْ).

---

(١) ذكرها ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٧٧) عن ابن عباس في الآية (٢٣) من سورة الحج.

(٢) كتب فوقها في نسخة الفاروقي: «كقاض».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤ ـ ٥٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

(٤) في نسخة التفتازاني: «الشيطان».

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤) عن جناح بن حبيش.

(٦) في نسخة الفاروقي: «ويستريحوا».

وقُرِئَ: (فيَمُوتـونَ)[١] عطفًا على ﴿يُقْضَىٰ﴾ كقولِه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦].

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلَّما خَبَتْ زِيدَ إسعارُهَا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الجزاءِ ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ مُبالِغٍ في الكُفْرِ أو الكُفْرانِ.

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿يُجْزَىٰ﴾[٢] على بناءِ المفعولِ وإسنادِه إلى ﴿كُلَّ﴾، وقُرِئَ: (يُجَازَى)[٣].

(٣٧) - ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾: يستغيثونَ، يَفْتَعِلُونَ مِن الصُّرَاخِ وهو الصِّيَاحُ، استعمِلَ في الاستغاثَةِ لجهدِ[٤] المُستغيثِ صوتَه.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمارِ القولِ وتقييدِ العملِ الصَّالحِ بالوصفِ المذكورِ للتَّحسُّرِ على ما عَمِلُوهُ مِن غيرِ الصَّالحِ، والاعترافِ به، والإشعارِ بأنَّ استخراجَهُم لتَلافيهِ، وأنَّهم كانوا يحسبونَ أنَّه صالحٌ والآنَ تحقَّقَ لَهُم خِلافُه.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ جوابٌ مِن اللهِ وتَوبيخٌ لهم، و﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ متناوِلٌ كلَّ عُمرٍ تمكَّنَ المكلَّفِ فيه من التَّفكُّرِ والتَّذكُّرِ.

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٠١) عن الحسن.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

(٣) ذكرها دون نسبة الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٤٩)، وعليها وعلى التي قبلها (كلُّ) بالرفع.

(٤) قوله: «يستعمل في الاستغاثة» فيقال: صريخ، للمستغيث لأنه يصيح غالباً، وقوله: «لجهد» بالدال المهملة لا بالراء كما في بعضها، أي: يجهد ويبالغ في مد صوته ويبذل جهده فيه. انظر: «حاشية الخفاجي». وفي نسخة الفاروقة: «لجهر»، وكتب فوقها كالمثبت نسخة.

وقيل: ما بين العشرينَ إلى السِّتِّينَ، وعنه عليه السَّلامُ: «العمرُ الذي أعذرَ اللهُ فيه إلى ابنِ آدمَ سِتُّونَ سَنةً»[1].

والعطفُ على مَعنى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ فإنَّه للتَّقريرِ؛ كأنَّه قيل: عمَّرْناكُم وجاءَكُم النَّذيرُ وهو النَّبيُّ أو الكتابُ، وقيل: العقلُ أو الشَّيبُ أو موتُ الأقاربِ.

﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفعُ العذابَ عنهُم.

(٣٨) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يَخفَى عليه خافيَةٌ فلا يخفَى عليهِ أحوالُهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليلٌ له، لأنَّه إذا علِمَ مُضمَراتِ الصُّدورِ وهي أخفَى ما يكونُ؛ كان أعلمَ بغَيْرِها.

(٣٩) - ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: مُلْقًى إليكُم مقاليدُ التَّصرُّفِ فيها، وقيل: خَلَفًا بعدَ خَلَفٍ، جمع خليفَةٍ، والخلفاءُ: جمعُ خَلِيفٍ.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾: جزاءُ كُفرِه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بيانٌ له، والتَّكريرُ[2] للدَّلالةِ على أنَّ اقتضاءَ الكُفرِ لكلِّ واحدٍ مِن الأمرينِ مستقلٌّ باقتضاءِ قُبحِهِ ووُجوبِ التَّجنُّبِ عنه، والمرادُ بالمَقتِ وهو أشدُّ البُغْضِ: مقتُ اللهِ، وبالخسارِ: خَسارُ الآخرةِ.

(٤٠) - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: آلهتَهُم، والإضافةُ إليهم لأنَّهُم جَعَلُوهُم شركاءَ للهِ، أو لأنفُسِهم فيما يَملِكُونَه.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٨٥٢١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأصله في البخاري (٦٤١٩) بلفظ: (أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة).

(٢) قوله: «والتكرير»؛ أي: تكرير ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ مِن ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ بدلَ الاشتمالِ؛ لأنَّه بمعنى: أَخبِرُوني، كأنَّه قال: أخبِرُوني عن هؤلاءِ الشُّركاءِ، أَرُوني أيَّ جزءٍ مِن الأرضِ استبَدُّوا بخَلْقِه ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أَمْ لهم شِرْكةٌ معَ اللهِ في خلقِ السَّماواتِ فاستحقُّوا بذلك شِركةً في الألوهيَّةِ ذاتيَّةً.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطقُ على أنَّا اتَّخذْناهم شُركاءَ ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾: على حُجَّةٍ من ذلك الكتابِ بأنَّ لَهُم شركةً جعليَّةً، ويجوزُ أَنْ يكونَ (هم) للمُشركينَ كقولِه: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الروم: ٣٥].

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ وأبو بكرٍ والكِسائيُّ: ﴿على بيِّناتٍ﴾[1] فيكونُ إيماءً إلى أنَّ الشِّركَ خَطيرٌ لا بدَّ فيهِ مِن تَعاضُدِ الدَّلائلِ.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لَمَّا نفى أنواعَ الحُجَجِ في ذلك أضربَ عنه بذكرِ ما حملَهُم عليه، وهو تَغريرُ الأسلافِ الأخلافَ[2]، أو الرُّؤساءِ الأتباعَ، بأنَّهُم شُفَعاءُ عندَ اللهِ يَشفَعُونَ لَهُم بالتَّقرُّبِ إليهِم.

(٤١) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ كراهَةَ أَنْ تَزُولَا، فإنَّ المُمْكِنَ حالَ بقائِه لا بُدَّ لَه مِن حافظٍ، أو: يمنعُهُما أن تَزُولَا لأنَّ الإمساكَ منعٌ.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾: ما أمسكَهُما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: مِن بَعدِ اللهِ، أو: مِن بَعدِ الزَّوالِ، والجملةُ سادَّةٌ مَسَدَّ الجَوابينِ و﴿مِنْ﴾ الأولى زائدةٌ والثَّانيةُ للابتداءِ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيثُ أمسَكَهُما وكانتَا جَدِيرتينِ بأن تُهَدَّا هَدًّا كما قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ [مريم: ٩٠].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٥)، «المبسوط» لابن مهران (ص: ٦٣٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

(٢) في نسخة الفاروقي: «الأخلاف» «الأجلاف» في كلمة واحدة وعليها (معا).

(٤٢) ـ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ وذلك أنَّ قُرَيْشًا لَمَّا بَلغَهُم أنَّ أهلَ الكتابِ كذَّبُوا رُسُلَهُم قالوا: لعنَ اللهُ اليَهودَ والنَّصارَى لو أتانا رَسولٌ لنكونَنَّ أهدى مِن إحدى الأُمَمِ؛ أي: مِن واحدةٍ مِن الأُمم: اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم، أو: مِن الأُمَّةِ التي يقالُ فيهَا: (هي إحدى الأممِ) تَفضيلًا لها على غيرِها في الهُدَى والاستقامةِ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني: مُحمَّدًا عليه السَّلامُ ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾؛ أي: النَّذيرُ، أو: مجيئه على التَّسبُّبِ ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾: تَباعُدًا عن الحقِّ.

(٤٣) ـ ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ مِن ﴿نُفُورًا﴾ أو مفعولٌ له ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أصلُه: وأنْ مَكَروا المكرَ السَّيِّئ، فحُذِفَ الموصوفُ استغناءً بوَصفِهِ، ثمَّ بدِّلَ (أنْ) مع الفعلِ بالمصدَرِ، ثمَّ أُضيفَ.

وقرأَ حمزةُ وحدَهُ بسكونِ الهمزةِ في الوَصلِ[1].

﴿وَلَا يَحِيقُ﴾: ولا يحيطُ ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهو الماكرُ، وقد حاقَ بهم يومَ بَدرٍ.

وقُرِئَ: (وَلَا يُحِيقُ المَكْرَ السَّيِّئَ)[2] أي: وَلَا يُحيقُ اللهُ.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾: ينتظرونَ ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: سُنَّةَ اللهِ فيهِمْ بتَعذيبِ[3] مُكَذِّبِيهِم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٥).

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ٢٢٩)، و«البحر» (١٨/ ٦٨) دون نسبة.

(٣) في نسخة الفاروقي: «بتكذيب»، وفي الهامش: «في نسخة: بتعذيب».

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ إذ لا يبدِّلُها بجعلِه غيرَ التَّعذيبِ تَعذيبًا[1]، ولا يحوِّلُها بأن ينقلَهُ من المكذِّبينَ إلى غيرِهم، وقوله:

(٤٤) ـ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهادٌ عليه بما يُشاهِدُونَه في مَسايرِهم إلى الشَّامِ واليمنِ والعراقِ مِن آثارِ الماضينَ.

﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ ليسبقَهُ ويَفوتَه ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياءِ كُلِّها ﴿قَدِيرًا﴾ عليها.

(٤٥) ـ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ مِن المَعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾: ظهرِ الأرضِ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: مِن نسمةٍ تَدِبُّ عليها بشؤمِ مَعاصيهِم.

وقيل: المرادُ بالدَّابَّةِ الإنسُ وحدَه، لقولِه: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يومُ القِيامَةِ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فيُجازيهم على أعمالِهم.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ الملائكَةِ دعَتْهُ ثمانيةُ أبوابِ الجنَّةِ: أنِ ادخُلْ مِن أيِّ بابٍ شِئتَ»[2].

* * *

---

(١) «تعذيباً» من نسخة الطبلاوي.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/١٤٦) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٣٥) سورة فاطر مكية
وآياتها خمس وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها أي بدأتها، وقال ابن عباس: ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾: أي بديع السماوات والأرض، وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض: فهو خالق السماوات والأرض، وقوله تعالى: ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ أي بينه وبين أنبيائه، ﴿ أولي أجنحة ﴾ أي يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام (ليلة الإسراء) وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب، ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء، وقال الزهري: ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ يعني حسن الصوت[1]

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، روي أن رسول الله ﷺ، كان يقول إذا انصرف من الصلاة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[2]، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «سمع الله لمن

(١) رواه البخاري في الأدب، وقرىء في الشاذ (يزيد في الحلق) بالحاء المهملة .

(٢) أخرجاه في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة .

حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ ولها نظائر كثيرة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده، في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا قال تعالى: ﴿لا إله إلا هو فأنَّى تؤفكون﴾ أي فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟ والله أعلم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: وإن يكذبوك يا محمد – هؤلاء المشركون بالله – ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة، فإنهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات، وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم، ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ أي المعاد كائن لا محالة، ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي العيشة الدنيئة، بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم، فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ وهو الشيطان، أي لا يفتننكم الشيطان ويصرفكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته، فإنه غرار كذاب أفاك، وهذه كالآية التي في آخر لقمان: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾، وقال زيد بن أسلم: هو الشيطان، كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة ﴿وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾ ثم بيَّن تعالى عداوة إبليس لابن آدم، فقال: ﴿إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوًّا﴾ أي هو مبارز لكم بالعداوة، فعادوه أنتم أشد العداوة وخالفوه، وكذبوه فيما يغركم به، ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ أي إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين، وهذه كقوله تعالى: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو؟ بئس للظالمين بدلا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ

سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ أي لما كان منهم من ذنب ﴿وأجر كبير﴾ على ما عملوه من خير، ثم قال تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ يعني كالكفار والفجار، يعملون أعمالاً سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أي فمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي بقدره كان ذلك، ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ أي لا تأسف على ذلك، فإن الله حكيم في قدره، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾[1]، روى ابن أبي حاتم عند هذه الآية عن عبد الله بن الديلمي قال: أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهو في حائط بالطائف يقال له الوهط، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على ما علم الله عزَّ وجلَّ».

وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١١﴾

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها، ﴿اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾، كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً، ونبتت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض، ولهذا جاء في الصحيح: «كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبَ الذنب، منه خلق ومنه يركب»، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك النشور﴾. وتقدم في الحج حديث أبي رزين، قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال ﷺ: «يا أبا رزين أما مررت بوادي

---

(١) في اللباب: أخرج جويبر: نزلت ﴿أفمن زين﴾ حين قال النبي ﷺ اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل فهدى الله عمر وأضل أبا جهل.

قومك ممحلاً ثم مررت به يهتز خضراً» قلت: بلى، قال ﷺ: «فكذلك يحيي الله الموتى»، وقوله تعالى: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ أي من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى فإنه يحصل له مقصوده، لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعاً، كما قال تعالى: ﴿أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ قال مجاهد: ﴿من كان يريد العزة﴾ بعبادة الأوثان ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾، وقال قتادة: ﴿من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً﴾ أي فليتعزز بطاعة الله عزَّ وجلَّ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء؛ روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر تبارك الله، أخذهن ملَك فجعلهن تحت جناحه، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن وجه الله عزَّ وجلَّ، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾. وقال كعب الأحبار: إن لسبحان الله، والحمد لله، ولا إلّه إلا الله، والله أكبر، لدوياً حول العرش كدوي النحل، يذكرن لصاحبهن، والعمل الصالح في الخزائن.

وقوله تعالى: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ قال ابن عباس: الكلم الطيب ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عزَّ وجل، والعمل الصالح أداء الفريضة، فمن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عزَّ وجلَّ، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به، وكذا قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب، وقال إياس بن معاوية: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام، وقال الحسن وقتادة: لا يقبل قول إلا بعمل، وقوله تعالى: ﴿والذين يمكرون السيئات﴾ قال مجاهد: هم المراؤون بأعمالهم، يعني يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله عزَّ وجلَّ يراؤون بأعمالهم ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾، وقال ابن أسلم: هم المشركون، والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال تعالى: ﴿لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ أي يفسد ويبطل، ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنُّهَى، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم بل ينكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة﴾ أي ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي ذكراً وأنثى لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل ﴿ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ أي ما يعطى بعض النطف من العمر

(١) رواه ابن جرير، وإسناده صحيح إلى كعب الأحبار.

الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول ﴿ وما ينقص من عمره﴾ الضمير عائد على الجنس، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس. قال ابن جرير: وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه، أي ونصف ثوب آخر.

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ الآية، يقول: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر، والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله تعالى: ﴿ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يقول: كل ذلك في كتاب عنده، وقال زيد بن أسلم ﴿ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ قال: ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام. وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخر يموت حين يولد فهذا هذا. وقال قتادة: والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة. وقال مجاهد ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ أي في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ، وقال بعضهم: بل معناه ﴿وما يعمر من معمر﴾ أي ما يكتب من الأجل ﴿ولا ينقص من عمره﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، وساعة بعد ساعة الجميع مكتوب عند الله تعالى في كتابه، نقله ابن جرير عن أبي مالك، واختار ابن جرير الأول، ويؤيده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»[1]، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر»، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي سهل عليه يسير لديه، فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها.

۞ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة، خلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مر وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زُعاقاً مرة، ولهذا قال: ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مر، ثم قال تعالى: ﴿ومن كل تأكلون لحماً طرياً﴾ يعني السمك ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها﴾، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾، وقوله جلَّ وعلا: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ أي تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره، وقال

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي واللفظ له.

مجاهد: تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام، وقوله جلَّ وعلا: ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، الجميع من فضله ورحمته

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ أي والنجوم السيارات، الجميع يسيرون بمقدار مبين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديراً من عزيز عليم، ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ أي إلى يوم القيامة، ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره، ﴿والذين تدعون من دونه﴾ أي من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، ﴿ما يملكون من قطمير﴾ قال ابن عباس: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة، أي لا يملكون من السماوات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير، ثم قال تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ يعني الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنها جماد لا أرواح فيها، ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ أي لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها، ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي يتبرأون منكم، كما قال تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه، مثل خبير بها، قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ أي هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا

قال عزَّ وجلَّ: ﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه، وقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ أي لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع، ولهذا قال تعالى: ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي يوم القيامة، ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ أي وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله، قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ الآية، قال: هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة، فيقول: يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دوني، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول له: يا مؤمن إن لي عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا، وقد احتجت إليك اليوم، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه، حتى يرده إلى منزل دون منزله، وهو في النار، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بني أي والد كنت لك فيثني خيراً، فيقول له يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى، فيقول له ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل ما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، ثم يتعلق بزوجته فيقول: يا فلانة أو يا هذه، أي زوج كنت لك فتثني خيراً، فيقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبين لي لعلي أنجو بها مما ترين، قال، فتقول: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً إني أتخوف مثل الذي تتخوف، يقول الله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ الآية. ويقول تبارك وتعالى: ﴿لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾، ويقول تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى، الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به، ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾ أي ومن عمل صالحاً فإنما يعود على نفسه، ﴿وإلى الله المصير﴾ أي وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب، وسيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير، لا يستويان بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات، وهذا

مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً﴾؟ فالمؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ﴿وظل من يحموم لا بارد ولا كريم﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الله يسمع من يشاء﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ أي كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم ﴿إن أنت إلا نذير﴾، أي إنما عليك البلاغ والإنذار والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾ أي بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ أي وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾، وكما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ وهي المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات، ﴿وبالزبر﴾ وهي الكتب، ﴿وبالكتاب المنير﴾ أي الواضح البين، ﴿ثم أخذت الذين كفروا﴾، أي ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به فأخذتهم أي بالعقاب والنكال، ﴿فكيف كان نكير﴾ أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً؟ والله أعلم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو الشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضاً، قال ابن عباس: الجدد الطرائق، ومنها غرابيب سود، قال عكرمة: الغرابيب الجبال الطوال السود، وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا: أسود غربيب، ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى: ﴿وغرابيب سود﴾ أي سود غرابيب، وفيما قاله نظر. وقوله تعالى: ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾ أي كذلك

الحيوانات من الأناسي (والدواب) وهو كل ما دب على القوائم (والأنعام) من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضاً، فالناس منهم بربر وحبوش في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك، وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون، وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين، وقد روى الحافظ البزار في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أيصبغ ربك؟ قال ﷺ: «نعم صبغاً لا ينفض أحمر وأصفر وأبيض»[1]، ولهذا قال تعالى بعد هذا ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير، وعنه قال: العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً، وأحل حلاله وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله، وقال سعيد بن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عزَّ وجلَّ، وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إنما يخشى من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية، وقال مالك: إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله في القلب، وقال سفيان الثوري: كان يقال: العلماء ثلاثة، عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود والفرائض، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله عزَّ وجلَّ.

* إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين، الذين يتلون كتابه ويؤمنون به، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله تعالى سراً وعلانية بأنهم ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ أي يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إنه غفور﴾ أي لذنوبهم، ﴿شكور﴾ للقليل من أعمالهم، قال قتادة: كان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القرآء.

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

---

(١) قال ابن كثير: روي مرسلاً وموقوفاً والله أعلم.

يقول تعالى: ﴿ والذي أوحينا إليك﴾ يا محمد من الكتاب وهو القرآن ﴿ هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت هي له بالتنويه وأنه منزل من رب العالمين ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير﴾ أي هو خبير بهم بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب ﴿ الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم هذه الأمة ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات، ﴿ومنهم مقتصد﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب، روى الطبراني عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ، وكذا روي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا من المصطفين الوارثين للكتاب. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فمنهم ظالم لنفسه﴾ قال: هو الكافر، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه﴾ قال: هم أصحاب المشأمة، وقال الحسن وقتادة: هو المنافق، ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها. والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير، كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً، ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ما تيسر

الحديث الأول: قال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: في هذه الآية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة»[1]، ومعنى قوله بمنزلة واحدة: أي في أنهم من هذه الأمة وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة. **الحديث الثاني:** قال الإمام أحمد عن أبي

(١) الحديث غريب من هذا الوجه وفي إسناده من لم يسم، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق أخرى يتقوى بها هذا الحديث.

الدرداء رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾». **الحديث الثالث**: قال الحافظ الطبراني عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ الآية، قال، قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة»، **الحديث الرابع**: قال ابن أبي حاتم عن عوف بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمتي ثلاثة أثلاث، فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يمحصون ويكشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون لا إلّه إلا الله وحده، يقول الله تعالى: صدقوا، لا إلّه إلا أنا أدخلوهم الجنة، بقولهم لا إلّه إلا الله وحده واحملوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾»(١)

(أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه)

قال ابن جرير عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله عزّ وجلّ ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى، فتقول الملائكة: هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئاً، فيقول الرب عزّ وجلّ: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي، وتلا عبدالله رضي الله عنه هذه الآية: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ الآية. **أثر آخر**: قال أبو داود الطيالسي، عن عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه﴾ الآية، فقالت لي: «يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثراً من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، قال: فجعلت نفسها رضي الله عنها معنا»، وهذا منها رضي الله عنها من باب الهضم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وقال عوف الأعرابي، عن كعب الأحبار رحمه الله قال: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة، والمقتصد، والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها - إلى قوله عزّ وجلّ - والذين كفروا لهم نار جهنم﴾ قال: فهؤلاء أهل النار(٢)، وعن محمد بن الحنفية رضي الله عنه قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وهو غريب جداً كما قال ابن كثير.

(٢) رواه ابن جرير من طرق عن عوف عن كعب الأحبار.

والمقتصد في الجنان عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله . فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام، وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة، والعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما روى الإمام أحمد رحمه الله عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي ؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث بـه عن رسول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجارة ؟ قال: لا، قال: أما قدمت لحاجة ؟ قال: لا. قال: أما قدمت الا في طلب هذا الحديث ؟ قال: نعم، قال رضي الله عنه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سلك طريقاً يطلب فيها علماً سلك الله تعالى بـه طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخـذ بـه أخذ بحظ وافر »[1]. وقد تقدم في أول (سورة طه) حديث ثعلبة بن الحكم عن رسول الله ﷺ قال: « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء إني لم أضع علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريـد أن أغفر لكم على ما كـان منكم ولا أبالي » .

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة، مأواهم جنات عدن، أي جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عزّ وجلّ ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » ﴿ ولباسهم فيهـا حرير ﴾ ، ولهـذا كان محظوراً عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » . وقال: « هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة » . وقال ابن أبي حاتم، عن أبي أمامة رضي الله عنه حدَّث أن رسول الله ﷺ ذكر حلي أهل الجنة فقال: « مسورون بالذهب والفضة، مكللة بالدر، وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة، وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب جرد مرد مكحولون » . ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ وهو الخوف من المحذور أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: « ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة في قبورهم ولا نشورهم، وكأني بأهل (لا إلّه إلا الله) ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن »[2] . وروى الطبراني، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: « ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة في الموت ولا في

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عمر مرفوعاً .

القبور ولا في النشور، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور »، قال ابن عباس: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله ومنّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « لن يدخل أحداً منكم عملُه الجنةَ » قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل » ﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء، والنصَب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم، فمن ذلك أنهم كانوا يدئبون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأشقياء، فقال: ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾، وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون »، وقال عزّ وجلّ: ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴾، وقال جلّ وعلا: ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾، ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ كذلك نجزي كل كفور ﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق، وقوله جلت عظمته: ﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾ أي ينادون فيها يجأرون إلى الله عزّ وجلّ بأصواتهم: ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ﴿ لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، ولذا قال ههنا: ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾؟ أي أو ما عشتم في الدنيا أعماراً، لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا، فروي أنه مقدار سبع عشرة سنة[1]، وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر، قد نزلت هذه الآية: ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة، وقال وهب بن منبه ﴿ أو لم

(١) هذا قول علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنهما.

نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ قال: عشرين سنة، وقال الحسن: أربعين سنة، وقال مسروق: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله عزّ وجلّ[1]. وروى ابن جرير عن مجاهد قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ أربعون سنة، وهذا هو اختيار ابن جرير، ثم روي عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ ستون سنة، فهذه الرواية أصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً، لما ثبت في ذلك من الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله تعالى إليه، لقد أعذر الله تعالى إليه»[2]. وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله عزّ وجلّ إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة»، وفي رواية: «من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله عزّ وجلّ إليه في العمر»[3]. وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم، كما قال الشاعر:

إذا بلغ الفتى ستين عاماً   فقد ذهب المسرة والفتاء

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك»[4]. وقوله تعالى: ﴿وجاءكم النذير﴾ روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة أنهم قالوا: يعني الشيب، وقال السدي وعبدالرحمن بن زيد: يعني به رسول الله ﷺ، وقرأ ابن زيد: ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ وهذا هو الصحيح عن قتادة أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل، وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر، لقوله تعالى ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ أي لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير * فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾، وقوله تعالى: ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ أي فذوقوا عذاب النار، جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه، من العذاب والنكال والأغلال».

* إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى

---

(١) وهذه رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الإمام أحمد وفي لفظ للنسائي «من عمّره الله تعالى ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم والإمام أحمد.

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض، وأنه يعلم ما تكنه السرائر، وما تنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله، ثم قال عزّ وجلّ ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ أي يخلف قوم لآخرين وجيل لجيل قبلهم، ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾ أي فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً﴾ أي كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة وزاد أجره، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾ أي من الأصنام والأنداد، ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات﴾ أي ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون من قطمير، وقوله: ﴿أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر، ليس الأمر كذلك ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة، التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ أي أن تضطربا عن أماكنهما كما قال عزّ وجلّ ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾، وقال تعالى: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾، ﴿ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ أي لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور، أي يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل، ويستر آخرين ويغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ

فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله ﴿ جهد أيمانهم ﴾ قبل إرسال الرسول إليهم ﴿ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ ، وكقوله تعالى: ﴿ وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين . فكفروا به فسوف يعلمون ﴾، قال الله تعالى : ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم وهو القرآن المبين ﴿ ما زادهم إلا نفوراً ﴾ أي ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم، ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿ استكباراً في الأرض ﴾ أي استكبروا عن اتباع آيات الله، ﴿ ومكر السيء ﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله، ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم، قال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به، من مكر، أو بغي، أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾، ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾، ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي لا تغير ولا تبدل بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ أي ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم ولا يتولهم عنهم أحد، والله أعلم.

۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين، بما جئتهم به من الرسالة، سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمر الله عليهم فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم، بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئاً ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لأنه تعالى لا يعجزه شيء في السماوات والأرض، ﴿ إنه كان عليماً قديراً ﴾ أي عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها، ثم قال تعالى: ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السماوات والأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق، قال سعيد بن جبير والسدي في قوله تعالى: ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ أي ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ فإذا جاء أجلهم، فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ .

[آخر تفسير سورة فاطر ، ولله الحمد والمنة]

تفسير سورة فاطر

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ .

قال سفيان الثورى ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما [لصاحبه] (١): أنا فطرتها ، أنا بدأتها . فقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ : بديع السموات والأرض (٢) .

وقال الضحاك : كل شىء فى القرآن فاطر السموات والأرض فهو: خالق السموات والأرض .

وقوله :﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا ﴾ أى : بينه وبين أنبيائه ، ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أى : يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة (٣)، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء فى الحديث : أن رسول اللّه ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ؛ ولهذا قال : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. قال السدى: يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء .

وقال الزهرى ، وابن جُرَيْج (٤) فى قوله : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى: حسن الصوت . رواه عن الزهرى البخارى فى الأدب ، وابن أبى حاتم فى تفسيره .

وقرئ فى الشاذ : « يَزِيد فى الحلق » ، بالحاء المهملة ، واللّه أعلم .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، حدثنا مغيرة ، أخبرنا عامر ، عن ورّاد ـ مولى المغيرة بن شعبة ـ قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة : اكتب إلى بما سمعتَ من رسول اللّه ﷺ. فدعانى المغيرة فكتبت إليه : إنى سمعت (٦) رسول اللّه ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لا

---

(١) زيادة من ت ، س ، أ .

(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١٦٨٢) من طريق يحيي بن سعيد عن سفيان به .

(٣) فى ت : « ثلاثة أجنحة » . (٤) فى ت : « جرير » . (٥) فى ت : « وروى » .

(٦) فى أ : « سمعت من » .

إله إلا اللّه ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ » ، وسمعته ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومَنْع وهَات .

وأخرجاه من طرق عن ورّاد ، به [١] .

وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع اللّه لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملْء السماء [٢] والأرض[٣] ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم ، أهلَ الثناء والمجد . أحقّ ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . اللهمّ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ » [٤] .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس : ١٠٧] . ولهذا [٥] نظائر كثيرة .

وقال الإمام مالك : كان أبو هريرة إذا مُطِروا يقول : مُطرنا بنَوْء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية :﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنۢ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾. ورواه ابن أبى حاتم ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عنه [٦] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ③ ﴾ .

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده فى إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فَليفرد بالعبادة [٧] ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ؛ ولهذا قال :﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُون [٨] ﴾ ، أي : فكيف تؤفكون [٩] بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ④ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ⑤ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑥ ﴾ .

يقول : وإن يكذبوك ـ يامحمد ـ هؤلاء المشركون باللّه ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد

---

(١) المسند (٤/ ٢٥٤) وصحيح البخارى برقم (٨٤٤) وصحيح مسلم برقم (٥٩٣) .
(٢) فى ت ، س ، أ : « السموات » .
(٣) فى ت ، س ، أ : « وملء الأرض » .
(٤) صحيح مسلم برقم (٤٧٧) .
(٥) فى ت : « ولهما » ، وفى س : « ولها » .
(٦) الموطأ (١/ ١٩٢) .
(٧) فى أ : « بالعبادة وحده » .
(٨، ٩) فى س ، أ : « يؤفكون » .

فكذبوهم وخالفوهم ، ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى : وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء .

ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : المعاد كائن لا محالة ، ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : العيشة الدنيئة (١) بالنسبة إلى ما أعد (٢) اللّه لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تَتَلَهّوا (٣) عن ذلك (٤) الباقى بهذه الزهرة الفانية ، ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ وهو الشيطان . قاله ابن عباس . أى : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل اللّه وتصديق كلماته فإنه غرّار كذاب أفاك . وهذه الآية كالآية التى فى آخر لقمان: ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣] .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال : يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا (٥) ﴾ أى : هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ، ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى : إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين . فنسأل اللّه القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان (٦) ، وأن يرزقنا اتباع كتابه ، والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير . وهذه كقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف : ٥٠] .

[وقال بعض العلماء : وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول : إنما عاديت إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم ، فكيف يحسن بكم أن توالوه ؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه] (٧) .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ .

لما ذكر [اللّه] (٨) تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى [عذاب] (٩) السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد (١٠) ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصَوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا باللّه

---

(١) فى أ : « المعيشة الدنية » . (٢) فى ت : « ما وعد » . (٣) فى أ : « فلا يلتهوا » .
(٤) فى س : « ذاك » . (٥) فى س بعدها : « إنما يدعو حزبه » .
(٦) فى ت : « للشياطين » (٧) زيادة من ت ، أ . (٨) زيادة من ت .
(٩) زيادة من ت ، أ . (١٠) فى ت : « للذين كفروا عذابا شديدا » .

ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أى: لما كان منهم من ذنب،﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير .

ثم قال : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعنى : كالكفار والفجار ، يعملون أعمالا سيئة ، وهم فى ذلك يعتقدون ويحسون [١] أنهم يحسنون صنعاً ، أى : أفمن كان هكذا قد أضله اللّه ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ،﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أى : بقدره كان ذلك،﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ أى : لا تأسف على ذلك فإن اللّه حكيم فى قدره ، إنما يضل من يضل[٢] ويهدى من يهدى [٣] ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التام ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ .

وقال [٤] ابن أبى حاتم عند هذه الآية : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عوف الحِمْصى ، حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى عمرو السَّيبانى ـ أو : ربيعة ـ عن عبد اللّه بن الديلمى قال : أتيت عبد اللّه بن عمرو ، وهو فى حائط بالطائف يقال له: الوهط ، قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن اللّه خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على ما علم اللّه عز وجل» [٥] .

ثم قال : حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى ، حدثنا حسان بن حسان البصرى ، حدثنا إبراهيم بن بشر [٦] ، حدثنا يحيى بن معين [٧] ، حدثنا إبراهيم القرشى ، عن سعد بن شرحبيل [٨] ، عن زيد ابن أبى أوفى قال : خرج علينا رسول اللّه ﷺ فقال : « الحمد للّه الذى يهدى من [٩] الضلالة، ويلبس الضلالة على من أحب » [١٠] .

وهذا أيضا حديث غريب جداً .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

---

(١) فى ت ، س ، أ : « يحسبون » . (٢، ٣) فى أ : « يشاء » .

(٤) فى ت : « وروى » .

(٥) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٨١٢) « موارد » والحاكم فى المستدرك (١/ ٣٠) من طريق الأوزاعى عن ربيعة بن يزيد، عن عبد اللّه الديلمى بنحوه ، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٤٢) من طريق إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبى عمرو السيبانى عن عبد اللّه الديلمى بنحوه ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » .

(٦) فى هـ ، ت ، س ، أ : « بشير » ، والصواب ما أثبتناه . (٧) فى هـ ، ت ، س ، أ : « معن » ،والصواب ما أثبتناه .

(٨) فى ت : « ثم روى بسنده » . (٩) فى ت ، أ : « يهدى من يشاء من » .

(١٠) ورواه البخارى فى التاريخ الأوسط (١/ ٢٥٠) : حدثنا حسان بن حسان عن إبراهيم بن بشر عن يحيى بن معين المدنى عن إبراهيم القرشى عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبى أوفى ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٢٢٠) من طريق عبد المؤمن بن عباد عن يزيد بن معن عن عبد اللّه بن شرحبيل عن رجل من قريش عن زيد بن أبى أوفى بأطول منه ، ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (١٢٦/٢) من طريق شعيب بن يونس عن موسى بن صهيب عن يحيى بن زكريا عن عبد اللّه بن شرحبيل عن رجل من قريش عن زيد بن أبى أوفى ، وقال البخارى بعدما أورده : « وهذا إسناد مجهول لا يتابع عليه ، ولا يعرف سماع بعضهم من بعض ، رواه بعضهم عن إسماعيل بن خالد عن عبد اللّه بن أبى أوفى ، عن النبى ﷺ ولا أصل له » .

كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) ﴾ .

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ـ كما فى [أول] (١) سورة الحج ـ ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها(٢) السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ، ﴿ **اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [الحج : ٥] ، كذلك الأجساد (٣) ، إذا أراد اللّه سبحانه بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطرا يعم (٤) الأرض جميعاً فتنبت الأجساد فى قبورها كما ينبت (٥) الحب فى الأرض ؛ ولهذا جاء فى الصحيح : « كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذنب ، منه خلق ومنه يركب » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ النُّشُورُ** ﴾ .

وتقدم فى « الحج » (٦) حديث أبى رَزِين : قلت : يا رسول اللّه ، كيف يحيى اللّه الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « يا أبا رزين ، أما مررت بوادى قومك محْلا (٧) ثم مررت به يهتز خَضِرا ؟ » قلت : بلى . قال : « فكذلك يحيى اللّه الموتى » .

وقوله : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** ﴾ أى : من كان يحب أن يكون عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة اللّه ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن اللّه مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها ، كما قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [النساء : ١٣٩] .

وقال تعالى ﴿ **وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [يونس : ٦٥] ، وقال : ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [المنافقون : ٨] .

قال مجاهد : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ** ﴾ بعبادة الأوثان ، ﴿ **فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ .

وقال قتادة : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** ﴾ أى : فليتعزز بطاعة اللّه عز وجل .

وقيل : من كان يريد علْم العزة ، لمن هى ، ﴿ **فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ ، حكاه ابن جرير .

وقوله : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ يعنى: الذكر والتلاوة والدعاء . قاله غير واحد من السلف.

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن إسماعيل الأحْمَسِىّ ، أخبرنى جعفر بن عَوْن ، عن عبد الرحمن بن عبد اللّه المسعودى ، عن عبد اللّه بن المخارق ، عن أبيه المخارق بن سليم (٨) قال :

---

(١) زيادة من ت ، س ، أ . (٢) فى ت : « عليها » . (٣) فى ت ، س : « الأجسام » .
(٤) فى أ : « فعم » . (٥) فى ت : « كما تنبت » .
(٦) عند الآيات : ١٢ ـ ١٦ .
(٧) فى ت ، س ، أ : « ممحلاً » . (٨) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن عبد اللّه بن أبى المخارق بن سليم » .

قال لنا عبد اللّه ـ هو ابن مسعود ـ إذا حدثناكم حديثا أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب اللّه : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان اللّه وبحمده ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، تبارك اللّه » ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صَعَد بهن إلى السماء فلا يمُرّ بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل ، ثم قرأ عبد اللّه : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، أخبرنا سعيد الجُرَيْرى [١] ، عن عبد اللّه بن شقيق قال[٢] : قال كعب الأحبار : إن لـ « سبحان اللّه، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر » لدويا حول العرش كدوىّ النحل ، يُذَكِّرْن بصاحبهن ، والعمل الصالح فى الخزائن [٣] .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار ، رحمه اللّه ، وقد روى مرفوعاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمَيْر ، حدثنا موسى ـ يعنى : ابن مسلم الطحان ـ عن عون بن عبد اللّه ، عن أبيه ـ أو : عن أخيه [٤] ـ عن النعمان بن بشير قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الذين يذكرون من جلال اللّه ، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل ، يذكرون بصحابهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند اللّه شيء يذكر به؟ » [٥] .

وهكذا رواه ابن ماجه عن أبى بشر بكر بن خلف ، عن يحيى بن سعيد [٦] القطان ، عن موسى ابن أبى [عيسى] [٧] الطحان ، عن عون بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود ،عن أبيه ـ أو : عن أخيه ـ عن النعمان بن بشير ، به [٨] .

وقوله :﴿ **وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر اللّه ، يصعد به إلى اللّه، عز وجل ، والعمل الصالح : أداء فرائضه . ومن ذكر اللّه ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به .

وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وإبراهيم النَّخَعى ، والضحاك ، والسُّدِّىّ ، والربيع بن أنس ، وشَهْر بن حَوْشَب ، وغير واحد [من السلف] [٩] .

وقال إياس بن معاوية القاضى : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام .

وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قولٌ إلا بعمل .

وقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ : قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن حوشب : هم المراؤون بأعمالهم ، يعنى : يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم فى طاعة اللّه ، وهم بُغَضاء إلى اللّه

(١) فى أ : « سعيد بن الجريرى » . (٢) فى ت : « وروى بإسناده » .
(٣) تفسير الطبرى (٢٢/ ٨٠) .
(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .
(٥) المسند (٤/٢٦٨) .
(٦) فى أ : « عيسى » .
(٧) زيادة من ت ، س ، وابن ماجه .
(٨) سنن ابن ماجة برقم (٣٨٠٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ١٩٣) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .
(٩) زيادة من ت .

عز وجل ، يراؤون بأعمالهم ، ﴿ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون .

والصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ ، أي : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى ، فإنه ما أسر عبد [١] سريرة إلا أبداها اللّه على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه اللّه رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالمرائى لا يروج أمره ويستمر إلا على غبى ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يُكْشَف [٢] لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية.

وقوله :﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أى : ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى : ذكرا وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجا من جنسكم ، لتسكنوا إليها .

وقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ أى : هو عالم بذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شىء ، بل﴿مَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ [وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ] [٣] الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد:٨، ٩].

وقوله :﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده فى الكتاب الأول ، ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ الضمير عائد على الجنس ، لا على العين؛ لأن العين الطويل للعمر فى الكتاب وفى علم اللّه لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس .

قال ابن جرير : وهذا كقولهم : « عندى ثوب ونصفه » أى : ونصف آخر .

ورُوى من طريق العَوْفَى ، عن ابن عباس فى قوله :﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : ليس أحد قضيت له طول عُمُر[٤] وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قَضَيتُ له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر ، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله : ﴿و لا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، يقول : كل ذلك فى كتاب عنده.

وهكذا قال الضحاك بن مزاحم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه:﴿وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ قال:ما لَفَظت الأرحام من الأولاد من غير تمام .

---

(١) فى أ : « أحد » .
(٢) فى ت ، س ، أ : « ينكشف » .
(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، وفى هـ : « إلى قوله ».
(٤) فى ت ، س : « العمر » .

وقال عبد الرحمن فى تفسيرها : ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا .

وقال قتادة : والذى ينقص من عمره : فالذى يموت قبل ستين سنة .

وقال مجاهد :﴿**وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ**﴾ أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه :﴿**وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ**﴾ أى : ما يكتب من الأجل ﴿**وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ**﴾، وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله فى كتاب .

نقله [١] ابن جرير عن أبى مالك . وإليه ذهب السدى ، وعطاء الخراسانى . واختار ابن جرير [القول] [٢] الأول ، وهو كما قال .

وقال النسائى عند تفسير هذه الآية الكريمة : حدثنا أحمد بن يحيى بن أبى زيد بن سليمان ، سمعت ابن وهب يقول : حدثنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يُبسَط له فى رزقه، ويُنْسَأ له فى أجله [٣] فلَيصِلْ رَحِمه » .

وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود ، من حديث يونس بن يزيد الأيْلى ، به [٤] .

وقال [٥] ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح ، حدثنا عثمان بن عطاء ، عن مسلمة [٦] بن عبد الله ، عن عمه أبى مَشْجَعَةَ بن ربعى ، عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إن الله لا يأخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد ، فيدعون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر » .

وقوله :﴿**إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ أى : سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شىء .

﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)** ﴾ .

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة فى خلقه الأشياء المختلفة : وخلق البحرين العذب الزلال،

---

(١) فى أ : « رواه » . (٢) زيادة من ت ، أ . (٣) فى ت ، س ، أ : « أثره » .

(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٩) وصحيح البخارى برقم (٢٠٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٥٧) وسنن أبى داود برقم(١٦٩٣) .

(٥) فى ت « وروى » . (٦) فى أ : « سلمة » .

وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار ، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ، ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زُعَاقاً مُرَّة ، ولهذا قال : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي : مر .

ثم قال :﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني : السمك ، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ، كما قال تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن : ٢٢، ٢٣] .

وقوله :﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ (١)﴾ أي : تمخره وتشقه بحيزومها ، وهو مقدمها المُسَنَّم الذي يشبه جؤجؤ الطير ـ وهو : صدره .

وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام .

وقوله ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ .

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا (٢) فيعتدلان . ثم يأخذ من هذا في هذا ، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ،﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى (٣)﴾ أي : إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي : الذي فعل هذا هو الرب العظيم ، الذي لا إله غيره ،﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي : من الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون (٤) من الملائكة المقربين ، ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ .

(١) في ت ، س : « وترى الفلك مواخر فيه » ولعلهما أرادا الآية : ١٤ من سورة النحل .
(٢) في ت ، أ : « فيزيد في قصر هذا » .
(٣) في ت ، س : « إلى أجل مسمى » .
(٤) في س : « يزعمون » .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم: القطمير : هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة ، أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال : ﴿ **إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُم** ﴾ يعنى : الآلهة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون(١) دعاءكم (٢) ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿**وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُم**﴾ أى : لا يقدرون(٣) على ما تطلبون منها ، ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ** ﴾ ،أى: يتبرؤون منكم ، كما قال تعالى:﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾ [الاحقاف : ٥، ٦] ، وقال : ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا**﴾ [مريم :٨١، ٨٢] .

وقوله : ﴿**وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾ أى : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه ، مثلُ خبير بها .

قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨)** ﴾.

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها بين يديه ، فقال :﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ**﴾ أى : هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ؛ ولهذا قال :﴿ **وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ أى : هو المنفرد (٤) بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقوله ، ويقدره ويشرعه .

وقوله :﴿**إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ أى : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**﴾.

وقوله : ﴿ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ أى : يوم القيامة ،﴿**وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا**﴾ ، أى : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُساعَدَ على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ، ﴿ **لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ**﴾ ، أى : ولو كان قريبا إليها ، حتى ولو كان أباها أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، [كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾] (٥) [عبس : ٣٤ ـ ٣٧] .

قال (٦) عكرمة فى قوله : ﴿**وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا**﴾ الآية ، قال : هو الجار يتعلق بجاره يوم

---

(١) فى ت ، أ : « يسمعوا » . (٢) فى أ : «دعاءهم» . (٣) فى ت:« يقيمون » .
(٤) فى ت ، س: «المتفرد» . (٥) زيادة من ت . (٦) فى ت : « كما قال » .

القيامة ، فيقول : يا رب ، سل هذا : لم كان يغلق بابه دونى . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له : يا مؤمن ، إن لى عندك يداً ، قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا ؟ وقد احتجت إليك اليوم . فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى [منزل دون] (١) منزله (٢) ، وهو فى النار . وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ،فيقول: يا بنى ، أىّ والد كنتُ لك ؟ فيثنى خيرا، فيقول له : يا بنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى .فيقول له ولده : يا أبت، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة ـ أو : يا هذه ـ أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا ، فيقول لها : إنى أطلب إليك حسنة واحدة تَهَبينَها لى ،لعلى أنجو بها مما ترين. قال :فتقول:ما أيسر ما طلبت.ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، يقول اللّه : ﴿ **وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ** [**إِلَىٰ حِمْلِهَا**] (٣) ﴾ الآية، ويقول اللّه : ﴿ **لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا** ﴾ [لقمان : ٣٣] ، ويقول تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ .

رواه ابن أبى حاتم ، رحمه اللّه ، عن أبى عبد اللّه الطهرانى (٤) ، عن حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عِكْرِمة ، به .

ثم قال :﴿ **إِنَّمَا تُنذِرُ** (٥) **الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ** ﴾ أى : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ، ﴿ **وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ** ﴾ أى : ومن عمل صالحا فإنما يعود نفعه على نفسه ،﴿ **وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴾ أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)** ﴾ .

يقول تعالى : كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات. وهذا مثل ضربه اللّه للمؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعالى :﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ**

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت : « فى منزلة دون منزلته » . (٣) زيادة من ت ، س ، أ .
(٤) فى أ : « الطبرانى » . (٥) فى س : « ينذر » .

مِّنْهَا﴾ [الأنعام : ١٢٢] ،وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [هود : ٢٤] فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى ، على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، لا خروج له منها ، بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ. لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة : ٤٣، ٤٤] .

وقوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أى : كما لا [يسمع و] (١) ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلةَ لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم .

﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ أى : إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أى : وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النّذر ، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى :﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد : ٧] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ الآية [النحل : ١٣٦]، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله تبارك وتعالى :﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهى : المعجزات الباهرات ، والأدلة القاطعات ، ﴿ وَبِالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب ، ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى : الواضح البين . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى : ومع هذا كله كَذّب أولئك رسلَهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم ، أى : بالعقاب والنكال ،﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى : فكيف رأيت(٢) إنكارى عليهم عظيما شديدا بليغا ؟

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى منبها على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشىء الواحد ، وهو الماء الذى ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى فى الآية الآخرى : ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ (٣) بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد : ٤] .

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت : « رأيت كان » . (٣) فى ت ، س : « تسقى » .

وقوله تبارك وتعالى :﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر ، وفى بعضها طرائق ـ وهى : الجُدَد ، جمع جُدّة ـ مختلفة الألوان أيضا .

قال ابن عباس ، رضى اللّه عنهما : الجُدَد : الطرائق . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة، والسدى [١] .

ومنها ﴿ غَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ، قال عكرمة : الغرابيب : الجبال الطوال السود . وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخراسانى وقتادة .

وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غربيب .

ولهذا قال بعض المفسرين فى هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر فى قوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أى : سود غرابيب .

وفيما قاله نظر .

وقوله تعالى :﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أى : [و] [٢] كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب ـ وهو : كل ما دب على قوائم ـ والأنعام ، من باب عطف الخاص على العام . كذلك هى مختلفة أيضا ، فالناس منهم بربر وحُبُوش وطُمَاطم فى غاية السواد ، وصقالبة وروم فى غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك ؛ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى :﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم : ٢٢] . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان ، حتى فى الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك اللّه أحسن الخالقين .

وقد قال [٣] الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا عبد اللّه بن عمر ابن أبان بن صالح ، حدثنا زياد بن عبد اللّه ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال :جاء رجل إلي النبى ﷺ فقال : أيصبغ ربك ؟ فقال : « نعم صبغا لا يُنفَض ، أحمر وأصفر وأبيض » [٤] . ورُوى مرسلا وموقوفا ، واللّه أعلم .

ولهذا قال تعالى بعد هذا :﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العَلِيم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ـ كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال:الذين يعلمون أن اللّه على كل شىء قدير .

وقال ابن لَهِيعَة،عن ابن أبى عمرة ، عن عِكْرِمة ،عن ابن عباس [٥] قال : العالم بالرحمن[٦] من لم يشرك به شيئا ،وأحل حلاله،وحرم حرامه،وحفظ وصيته،وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

---

(١) فى ت : « وكذلك قال غيره » . (٢) زيادة من ت ، س ، أ . (٣) فى ت : « وقد روى » .
(٤) مسند البزار برقم (٢٩٤٤) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٢٨/٥) : « وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط » .
(٥) فى ت : « وعنه » . (٦) فى أ : « بالرحمن من عباده » .

وقال سعيد بن جبير : الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية الله عز وجل .

وقال الحسن البصرى : الإيمان مَنْ خشى الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سَخط الله فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ .

وعن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن [١] كثرة الخشية .

وقال أحمد بن صالح المصرى ، عن ابن وهب ، عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله فى القلب .

قال أحمد بن صالح المصرى [٢] : معناه : أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وأما العلم الذى فرض [٣] الله ، عز وجل ، أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة ، رضى الله عنهم ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : « نور » يريد به فهم العلم، ومعرفة معانيه .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى حيان [التميمى] [٤] ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله : الذى يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذى يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض . والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله : الذى يعلم الحدود والفرائض ، ولا يخشى الله عز وجل .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)** ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم الله فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، ﴿ **يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ** ﴾، أى : يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله . كما قدمنا فى أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : « إن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿**لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ**﴾ أى : ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ، ﴿**إِنَّهُ غَفُورٌ**﴾ أى : لذنوبهم ، ﴿**شَكُورٌ**﴾ للقليل من أعمالهم.

قال قتادة : كان مُطَرِّف ، رحمه الله ، إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

---

(١) فى ت ، س : « من » .

(٢) فى ت : « المرى » .

(٣) فى ت ، س : « فرضه » .

(٤) زيادة من ت ، س ، أ .

قال (١) الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع دَرّاجا أبا السمح يحدث عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخُدْرِىّ ، رضى اللّه عنه ، أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « إن اللّه تعالى (٢) إذا رضى عن العبد أثنى عليه سَبْعةَ (٣) أصناف من الخير لم يعمله، وإذا سخط على العبد أثنى عليه سَبْعةَ (٤) أصناف من الشر لم يعمله (٥) ». غريب جدا .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد من الكتاب ، وهو القرآن﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى : من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت (٦) له بالتنويه (٧)، وأنه منزل من رب العالمين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أى : هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات اللّه عليهم أجمعين .

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ .

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع (٨) ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، وهو : المفرط فى فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو: المؤدى للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا [مِنْ عِبَادِنَا](٩)﴾ ، قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورَّثهم اللّه كل كتاب (١٠) أنزله ، فظالمهم يُغفَر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، وعبد الرحمن بن معاوية العُتْبىّ قالا : حدثنا أبو الطاهر بن السرح ، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعانى ، حدثنى ابن جُرَيْج ، عن عطاء ، عن (١١) ابن عباس ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال ذات يوم : « شفاعتى لأهل الكبائر من

---

(١) فى ت : « وروى » .   (٢) فى أ : « عز وجل » .   (٣، ٤) فى ت ، س ، أ : « بسبعة » .
(٥) المسند (٣/٣٨) ودراج له مناكير وروايته عن أبى الهيثم ضعيفة .
(٦) فى ت ، س ، أ : « شهدت هى » .
(٧) فى ت ، أ : « بالنبوة » .   (٨) فى ت : « أقسام » .   (٩) زيادة من ت ، س .
(١٠) فى ت : « ورثهم اللّه كتابا » .   (١١) فى ت : « وروى القاسم الطبرانى بسنده إلى » .

أمتى » .قال ابن عباس : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ (١) .

وهكذا (٢) رُوى عن غير واحد من السلف : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين ، على ما فيه من عوج وتقصير .

وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب .

قال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو(٣) ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما (٤) : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ قال : هو الكافر . وكذا رَوَى عنه عكرمة ، وبه قال عكرمة أيضا فيما رواه ابن جرير .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة .

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة : هو المنافق .

ثم قد قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة فى أول سورة « الواقعة » وآخرها .

والصحيح : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة . وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، من طرق يشد بعضها بعضا ، ونحن نورد منها ما تيسر :

الحديث الأول : قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الوليد بن العيزار ؛ أنه سمع رجلا من ثقيف يُحدّث عن رجل من كنانة ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ ، قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم فى الجنة » .

هذا (٦) حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده من لم يسمّ . وقد رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث شعبة ، به نحوه (٧) .

ومعنى قوله : « بمنزلة واحدة » أى : فى أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة .

الحديث الثانى : قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أنس بن عياض الليثى أبو ضَمْرة ، عن موسى بن عقبة ، عن [على] (٨) بن عبد الله الأزدى ، عن أبى الدرداء (٩) ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ ، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك (١٠) يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ١٨٩) وابن جرير مدلس وقد عنعن .
(٢) فى ت ، س : « وكذا » . (٣) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » . (٤) فى ت ، س : « عنه » .
(٥) فى ت : « رواه » . (٦) فى ت : « وهذا » .
(٧) المسند (٣/ ٧٨) وتفسير الطبرى (٢٢/ ٩٠) .
(٨) زيادة من س ، أ .
(٩) فى ت : « رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى الدرداء » . (١٠) فى أ : « فأولئك الذين».

الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم [(١)] برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ » [(٢)].

طريق أخرى [(٣)]: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين بن حفص، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ قال: « فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن، ثم يدخل الجنة ».

ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس إلى جنب أبي الدرداء، فقال: اللهم، آنس وحشتي، وارحم غربتي، ويسر لي جليسا صالحا. قال أبو الدرداء: لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه، ذكر هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، « فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن، وذلك قوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ » [(٤)].

الحديث الثالث: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس، حدثنا ابن مسعود، أخبرنا سهل بن عبد ربه [(٥)] الرازي، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى [(٦)]، عن أسامة بن زيد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ الآية، قال: قال رسول الله ﷺ: « كلهم من هذه الأمة » [(٧)].

الحديث الرابع: قال [(٨)] ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَزيز، حدثنا سلامة، عن عَقيل، عن ابن شهاب، عن عَوْف [(٩)] بن مالك، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « أمتي ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة، وثلث يُمَحَّصون ويكشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون: « لا إله إلا الله وحده ». يقول الله عز وجل: صدقوا، لا إله إلا أنا [(١٠)]، أدخلوهم الجنة بقولهم: « لا إله إلا الله وحده» واحملوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ [(١١)] أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، فجعلهم ثلاثة أنواع [(١٢)]، وهم أصناف كلهم، فمنهم ظالم

---

(١) في ت، س، أ: « تلافاهم الله ».
(٢) المسند (٥/١٩٨).
(٣) في ت: « وروى من طريق أخرى ».
(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ٩٠) ورواه الحاكم في المستدرك (٢/٤٢٦) ومن طريقه البيهقي في البعث برقم(٦٢)من طريق الأعمش، به.
(٥) في أ: « عبد الله ». (٦) في ت: « رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني بإسناده ».
(٧) المعجم الكبير (١/١٦٧) وقد وقع في إسناده سقط، ورواه البيهقي في البعث برقم (٦٤) من طريق محمد بن سعيد، عن عمرو ابن أبي قيس، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه عيسى، عن أبيه، عن أسامة بن زيد، به. ورواه أيضا برقم (٦٣) من طريق حصين بن نمير عن ابن أبي ليلى، عن أخيه، عن أبيه، عن أسامة بن زيد، بنحوه.
(٨) في ت: « رواه ». (٩) في أ: « أنس ».
(١٠) في س: « إلا الله ». (١١) في س: «ولتحملن ». (١٢) في ت، س: « أفواج ».

لنفسه، فهذا الذى يكشف ويمحص » . غريب جدا (١) .

أثر عن ابن مسعود : قال ابن جرير : حدثنى ابن حميد ، حدثنا الحكيم بن بشير ، عن عمرو ابن قيس ، عن عبد الله بن عيسى ، عن يزيد بن الحارث ، عن شَقيق أبى وائل ، عن عبد الله بن مسعود ؛ أنه قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول : ما هؤلاء ؟ ـ وهو أعلم تبارك وتعالى ـ فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى : وتلا عبد الله هذه الآية : ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا [فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ]** (٢)﴾ الآية .

أثر آخر : قال أبو داود الطيالسى ، عن الصلت بن دينار أبو شُعيب (٣) ، عن عقبة بن صُهْبَان الهُنَائى قال : سألت عائشة ، رضى الله عنها ، عن قول الله : ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**﴾ الآية ، فقالت لى : يا بنى ، هؤلاء فى الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم. قال : فجعلت نفسها معنا (٤) .

وهذا منها ، رضى الله عنها ، من باب الهَضْم والتواضع ، وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال عبد الله بن المبارك ، رحمه الله : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه : فى قوله تعالى :﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**﴾ قال : هى لأهل بدونا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وسابقنا أهل الجهاد . رواه ابن أبى حاتم .

وقال عَوْف الأعرابى : حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : حدثنا كعب الأحبار قال : إن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم فى الجنة ، ألم تر أن الله تعالى قال : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ**﴾ قال: فهؤلاء أهل النار .

[و] (٥) رواه ابن جرير من طرق ، عن عوف ، به . ثم قال :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، أخبرنا حميد ، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث ، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعبا (٦) عن قوله : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ إلى قوله : ﴿**بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ قال : تماسَّت مناكبهم ورَب كعب (٧)، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم.

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ٨٠) من طريق محمد بن عزيز ، به. وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٦) : « فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان ، وضعفه جماعة ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى هـ ، س : « دينار بن الأشعث » ، وفى أ : « عن الأشعث » ، والمثبت من مسند الطيالسى .

(٤) مسند الطيالسى برقم (١٤٨٩) .

(٥) زيادة من ت .

(٦) فى ت : « ثم روى عن ابن عباس أنه سأل كعبا » .

(٧) فى أ : « الكعبة » .

ثم قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن أبى إسحاق السَّبِيعى فى هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية ، قال أبو إسحاق: أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج.

ثم قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو ، عن (١) محمد بن الحنفية قال : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفور له ، والمقتصد فى الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات فى الدرجات عند الله .

ورواه الثورى ، عن إسماعيل بن سَمِيع ، عن رجل ، عن محمد بن الحنفية ، بنحوه .

وقال أبو الجارود : سألت محمد بن على ـ يعنى : الباقر ـ عن قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ فقال : هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا .

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما قال الإمام أحمد ، رحمه الله :

حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا عاصم بن رجاء بن حَيْوَة (٢) ، عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبى الدرداء ـ وهو بدمشق ـ فقال : ما أقدمك أىْ أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ . قال أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقا يطلب فيه (٣) علماً ، سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم (٤) ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » .

وأخرجه (٥) أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من حديث كثير بن قيس ــ ومنهم من يقول: قيس بن كثير ــ عن أبى الدرداء (٦) . وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه فى شرح « كتاب العلم » من « صحيح البخارى » ، ولله الحمد والمنة .

وقد تقدم فى أول « سورة طه » حديث ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إنى لم أضع علمى وحكمى فيكم إلا وأنا أريد [أن] (٧) أغفر لكم ، على ما كان منكم ، ولا أبالى » (٨) .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)

---

(١) فى ت : « وعن » .

(٢) فى ت : « كما روى الإمام أحمد رحمه الله بإسناده » . (٣) فى س : « فيها » .

(٤) فى أ : « العلم رضا بما يصنع » . (٥) فى ت : « رواه » .

(٦) المسند (٥/١٩٦) وسنن أبى داود برقم (٣٦٤١) وسنن الترمذى برقم (٢٦٨٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٣) .

(٧) زيادة من ت ، س ، أ .

(٨) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية (٢) من سورة طه .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

يخبر تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أى : جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على ربهم،عز وجل ، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ ، كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية [(١)] من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » [(٢)] .

﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، ولهذا كان محظوراً عليهم فى الدنيا ، فأباحه اللّه لهم فى الدار الآخرة، وثبت فى الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال : « من لبس الحرير فى الدنيا، لم يلبسه فى الآخرة ». وقال :« [لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة][(٣)]هى لهم فى الدنيا ولكم [(٤)] فى الآخرة» .

وقال [(٥)] ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن سواد السَّرْحىّ ، أخبرنا ابن وهب ، عن ابن لَهيعة ، عن عقيل بن خالد ، عن الحسن ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ؛ أن أبا أمامة حدث: أن رسول اللّه ﷺ حدثهم ، وذكر حلى أهل الجنة فقال : « مسورون بالذهب والفضة ، مُكَلَّلة بالدر ، وعليهم أكاليل من دُرّ وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب جُرْدٌ مُردٌ مكحّلُون » [(٦)] .

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا ، وأراحنا مما كنا نتخوفه ، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : «ليس على أهل « لا إله إلا اللّه » وحشة فى قبورهم ولا فى منشرهم ، وكأنى بأهل « لا إله إلا اللّه» ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ ». رواه ابن أبى حاتم من حديثه [(٧)] .

وقال [(٨)] الطبرانى : حدثنا جعفر بن محمد الفريابى ، حدثنا يحيى بن موسى [(٩)] المروزى ، حدثنا سليمان بن عبد اللّه بن وهب الكوفى ، عن عبد العزيز بن حكيم ، عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ليس على أهل « لا إله إلا اللّه » وحشة فى الموت ولا فى قبورهم ولا فى النشور[(١٠)] . وكأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب ، يقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ » [(١١)] .

---

(١) فى ت : « الحليلة » ،وفى أ : « الحلة » .
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٦) .
(٣) زيادة من ت ، أ . (٤) فى س : « ولنا » . (٥) فى ت : « وروى » .
(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٢٦٧) من طريق على بن الحسن عن عمرو بن سواد، به. والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة.
(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٥٣١) « مجمع البحرين » وابن عدى فى الكامل (٤/ ٢٧١) من طريق يحيى الحمانى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، به . وقال ابن عدى فى ترجمة عبد الرحمن بن زيد : « أحاديثه غير محفوظة » . وقال المنذرى فى الترغيب (٢/ ٤١٦) : « فى متنه نكارة » .
(٨) فى ت : « وروى » .
(٩) فى هـ ، ت ، س ، أ : « موسى بن يحيى » والصواب ما أثبتناه من الإكمال وتخريج الكشاف للزيلعى .
(١٠) فى س : « منشرهم » .
(١١) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٣٣) : « رواه الطبرانى وفيه جماعة لم أعرفهم » . ورواه ابن عدى فى الكامل (٢/ ٦٥) والبيهقى فى البعث برقم (٨٨) من طريق الحسن عن بهلول بن عبيد عن سلمة بن كهيل عن ابن عمر بنحوه، وقال البيهقى : «هذا مرسل عن سلمة بن كهيل وابن عمر ، وبهلول تفرد به وليس بالقوى » .

قال ابن عباس ، وغيره : غَفَر لهم الكثير [١] من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات .

﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾ : يقولون : الذى أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله وَمنّه [٢] ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك . كما ثبت فى الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال : «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » .قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يَتَغَمَّدَنى اللّه برحمة منه وفضل »[٣].

﴿ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أى : لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء .

والنصَب واللغوب : كل منهما يستعمل فى التعب . وكأن المراد ينفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم [٤] ،واللّه أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئبون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ،فسقط عنهم التكليف بدخولها ،وصاروا فى راحة دائمة مستمرة ،قال اللّه تعالى:﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، شرع فى بيان مآل الأشقياء ، فقال :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾، كما قال تعالى : ﴿ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ [طه : ٧٤] . وثبت فى صحيح مسلم : أن رسول اللّه ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون» [٥] . قال [اللّه] [٦] تعالى :﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف:٧٧] . فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال اللّه تعالى : ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤ ،٧٥] ، وقال :﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ [النبأ : ٣٠] .

ثم قال : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أى : هذا جزاء كل من كفر بربه ، وكذب بالحق .

وقوله :﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أى : ينادون فيها ، يجأرون إلى اللّه، عز وجل، بأصواتهم : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أى : يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم

---

(١) فى أ : « الكبير » . (٢) فى س : « ومنته » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٦٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٦) .
(٤) فى ت ، أ : « ولا على أرواحهم » .
(٥) صحيح مسلم برقم (١٨٥) .
(٦) زيادة من ت ، س .

الأول ، وقد علم الرب، جل جلاله ،أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ، لعادوا لما نهوا عنه ، **وإنهم** لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى قولهم: **﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ (١) مِّن سَبِيلٍ. ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾** [غافر : ١١، ١٢] ، أى : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم كنتم كذلك ، ولو رددتم لعدتّم إلى ما نهيتم عنه ؛ ولهذا قال هاهنا :**﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** أى : أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به فى مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد هاهنا ، فروى عن على بن الحسين زين العابدين أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة .

وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نُعَيَّر (٢) بطول العمر ، **قد نزلت هذه** الآية : **﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة . وكذا قال أبو غالب الشيبانى .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن مَعْمَر ، عن رجل ، عن وهب بن مُنَبِّه فى قوله :**﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** ، قال : عشرين (٣) سنة .

وقال هُشَيْم ، عن منصور ، عن زاذان ، عن الحسن فى قوله : **﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** قال : أربعين سنة .

وقال هشيم [أيضا] (٤) ، عن مجاهد ، عن الشعبى ، عن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل .

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم ، عن مجاهد قال : سمعت ابن عباس يقول : العمر الذى أعذر الله إلى ابن آدم : **﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** أربعون سنة .

هكذا رواه من هذا الوجه ، عن ابن عباس . وهذا القول هو اختيار ابن جرير . ثم رواه من طريق الثورى وعبد الله بن إدريس ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم (٥) ، عن مجاهد(٦)، عن ابن عباس قال : العمر الذى أعذر الله فيه لابن آدم فى قوله : **﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** ستون سنة .

فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت فى ذلك من الحديث ـ كما سنورده ـ لا كما زعمه ابن جرير ، من أن الحديث لم يصح ؛ لأن فى إسناده من يجب التثبت فى أمره .

وقد روى (٧) أصبغ بن نُباتة ، عن على ، رضى الله عنه ، أنه قال : العمر الذى عيَّرهم الله به فى قوله تعالى : **﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾** ستون سنة .

---

(١) فى ت ، س : « مرد » وهو خطأ . (٢) فى أ : « نغتر » . (٣) فى ت ، س ، أ : « عشرون » .
(٤) زيادة من س . (٥) فى أ : « خيثم » . (٦) فى ت: « وفى رواية أخرى » .
(٧) فى ت : « فروى » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى : حدثنا دُحَيْم ، حدثنا ابن أبى فُدَيْك ، حدثنى إبراهيم بن الفضل المخزومى ، عن ابن أبى حُسَين المكى ؛ أنه حدثه عن عَطاء ـ هو ابن أبى رباح ـ عن [١] ابن عباس ، رضى اللّه عنهما [٢] ، أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذى قال اللّه فيه : ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن على بن شعيب ، عن محمد بن إسماعيل [٣] بن أبى فُدَيك ، به . وكذا رواه الطبرانى من طريق ابن أبى فُدَيك ، به [٤] . وهذا الحديث فيه نظر ؛ لحال إبراهيم بن الفضل ، واللّه أعلم .

حديث آخر : قال [٥] الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن رَجُل من بنى غفَار، عن سعيد المَقْبُرِىّ ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لقد أعذر اللّه إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر اللّه إليه، لقد أعذر الله إليه » [٦] .

وهكذا رواه الإمام البخارى فى « كتاب الرقاق » من صحيحه : حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر ، عن عُمَر بن علىّ ، عن مَعْن بن محمد الغفَارى ، عن سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه،قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أعذر اللّه عز وجل إلى امرئ أخَّر عمره حتى بَلَّغَه ستين سنة » .

ثم قال البخارى : تابعه أبو حازم وابن عَجْلان ، عن سعيد المَقْبُرى [٧] .

فأما أبو حازم فقال ابن جرير : حدثنا أبو صالح الفَزَارىّ ، حدثنا محمد بن سَوَّار ، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القارىّ الإسكندرىّ ، حدثنا أبو حازم ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ « [من عَمَّره] [٨] اللّه ستين سنة ، فقد أعذر إليه فى العمر » .

وقد رواه الإمام أحمد والنسائى فى الرقاق جميعا عن قتيبة،عن يعقوب بن عبد الرحمن، به[٩] .

ورواه البزار قال : حدثنا هشام بن يونس ، حدثنا عبد العزيز بن أبى حازم ، عن أبيه ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « العمر الذى أعذر اللّه فيه إلى ابن آدم ستون سنة » .يعنى : ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾[١٠] .

وأما متابعة « ابن عجلان » فقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك ابن قرعة بسامراء ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرى ، حدثنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنى محمد بن

---

(١) فى ت : « فقال ابن أبى حاتم بإسناده إلى » . (٢) فى ت ، س : « عنه » .
(٣) فى جميع النسخ : « عن إسماعيل ، والمثبت من الطبرى » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) والمعجم الكبير للطبرانى (١١/ ١٧٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٧):«وفيه إبراهيم بن الفضل المخزومى وهو ضعيف » .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) المسند (٢/ ٢٧٥) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٤١٩) .
(٨) زيادة من ت ، والطبرى .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) والمسند (٢/ ٤١٧) والنسائى فى السنن الكبرى كما فى تحفة الأشراف للمزى (٩/ ٤٧٢) .
(١٠) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/ ١٥٥) من طريق سليمان بن حرب ، عن أبى حازم،عن سهل بن سعد ، وربما لم يقل : عن سهل ، فذكر نحوه دون الآية ، والمحفوظ عن أبى هريرة ،رضى اللّه عنه .

عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر اللّه، عز وجل، إليه فى العمر » . وكذا رواه الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن هو المقرئ [١] ، به [٢] . ورواه أحمد أيضا عن خلف عن أبى مَعْشَر ،عن سعيد المقْبُرِىّ.

طريق أخرى عن أبى هريرة : قال ابن جرير : حدثنى أحمد بن الفرج أبو عُتْبة [٣] الحمْصى، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد ، حدثنا المطرف بن مازن الكنانى ، حدثنى مَعْمَر بن راشد قال : سمعت محمد ابن عبد الرحمن الغفارى يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول اللّه ﷺ: «لقد أعذر اللّه عز وجل، إلى صاحب الستين سنة والسبعين » [٤] .

فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق ، فلو لم يكن [٥] إلا الطريق التى ارتضاها أبو عبد اللّه البخارى شيخ هذه الصناعة لكفت . وقول ابن جرير : (إن فى رجاله بعض من يجب التثبت فى أمره) ، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخارى ، واللّه أعلم .

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعى عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لايزال فى ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا فى النقص والهرم ، كما قال الشاعر :

إذَا بَلَغَ الفتى ستين عَاما ... فقد ذَهَبَ المَسَرّةُ والفَتَاءُ [٦]

ولما كان هذا هو العمر الذى يعذر اللّه إلى عباده به ، ويزيح به عنهم العلل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة ، كما ورد بذلك الحديث ، قال الحسن بن عرفة ، رحمه اللّه :

حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين،وأقلهم مَن يجوز ذلك».

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه جميعا فى كتاب الزهد ، عن الحسن بن عرفة ، به . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه [٧] .

وهذا عَجَب من الترمذى ، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا من وجه أخر وطريق أخرى ، عن أبى هريرة ، حيث قال :

حدثنا سليمان [٨] بن عمر ، عن محمد بن ربيعة ،عن كامل أبى العلاء،عن أبى صالح،عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ:«أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين،وأقلهم من يجوز ذلك » .

وقد رواه الترمذى فى « كتاب الزهد » أيضا ، عن إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، عن محمد بن ربيعة ، به [٩] . ثم قال : هذا حديث حسن غريب ، من حديث أبى صالح عن أبى هريرة ، وقد

---

(١) فى أ : « المقبرى » .
(٢) المسند (٢/ ٣٢٠) .
(٣) فى أ : « أبو عيينة » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) .
(٥) فى س : « لم تكن » .
(٦) البيت نسبه أبو عبيدة للربيع بن ضبع الفزارى مستفاداً من حاشية طبعة الشعب .
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٣٦) .
(٨) فى أ : « سليم » .
(٩) سنن الترمذى برقم (٢٣٣١) .

روى من غير وجه عنه . هذا نصه بحروفه فى الموضعين ، والله أعلم .

وقال (١) الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى الأنصارى ، حدثنا ابن أبى فُدَيك ،حدثنى إبراهيم ابن الفضل ـ مولى بنى مخزوم ـ عن المقبُرى ، عن أبى هريرة ، قال :قال رسول الله ﷺ : « مُعْتَرك المنايا ما بين الستين إلى السبعين » .

وبه قال : قال رسول الله ﷺ : « أقل أمتى أبناء سبعين » . إسناده ضعيف (٢) .

حديث آخر فى معنى ذلك : قال (٣) الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده :

حدثنا إبراهيم بن هانئ ، حدثنا إبراهيم بن مهدى ، حدثنا عثمان بن مطر ، عن أبى مالك ، عن رِبْعِى عن حذيفة أنه قال : يا رسول الله ، أنبئنا بأعمار أمتك . قال : « ما بين الخمسين إلى الستين » . قالوا : يارسول الله ، فأبناء السبعين ؟ قال : « قل من يبلغها من أمتى ، رحم الله أبناء السبعين ،ورحم الله أبناء الثمانين » .

ثم قال البزار : لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد ، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوى (٤) .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة . وقيل : ستين . وقيل : خمسا وستين سنة . والمشهور الأول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ** ﴾ : روى عن ابن عباس ، وعِكْرِمة ، وأبى جعفر الباقر ، وقتادة ، وسفيان بن عُيَينة أنهم قالوا : يعنى: الشيب .

وقال السُّدِّى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد : ﴿ **هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى** ﴾ [النجم : ٥٦] . وهذا هو الصحيح عن قتادة ، فيما رواه شيبان ، عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل .

وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ؛ لقوله تعالى :﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ . لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ [الزخرف :٧٧، ٧٨]،أى:لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل،فأبيتم وخالفتم،وقال تعالى:﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ [الإسراء: ١٥] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ** ﴾ [الملك : ٨، ٩] .

وقوله :﴿ **فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** ﴾ أى : فذوقوا عذابَ النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ

(١) فى ت : « وروى » .

(٢) مسند أبى يعلى (١١/ ٤٢٢، ٤٢٣) وفيه إبراهيم بن الفضل وهو متروك .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) مسند البزار برقم (٣٥٨٦) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٦) : « وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف » .

خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) ﴾ .

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ أى : يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ، كما قال : ﴿ **وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ** ﴾ [النمل : ٦٢] ﴿ **فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** ﴾ ، أى : فإنما يعود وبال ذلك (١) على نفسه (٢) دون غيره ، ﴿ **وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا** ﴾ ، أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله ، ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة ، وزاد أجره ، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين ، [فسبحان المقدر المدبر رب العالمين] (٣) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ **أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، ﴿ **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ** ﴾ أى : ليس لهم شىء من ذلك ، ما يملكون من قطمير .

وقوله : ﴿ **أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ** ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ، ﴿ **بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا** ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التى تمنوها لأنفسهم ، وهى غرور وباطل وزور .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا** ﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال : ﴿ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ** ﴾ [الروم : ٢٥] ﴿ **وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ** ﴾ ، أى : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور ، أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم (٤) فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يَعجَل، ويستر آخرين ويغفر ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾.

---

(١) فى ت ، س ، أ : « وبال كفره ذلك » .
(٢) فى ت : « وعليه » .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى ت ، أ : « يحلم عنهم » .

وقد أورد ابن أبى حاتم هاهنا حديثا غريبا بل منكراً ، فقال : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنى هشام بن يوسف ، عن أمية بن شبل ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن (١) أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى ، عليه السلام (٢) ، على المنبر قال : « وقع فى نفس موسى ، عليه السلام : هل ينام الله ،عز وجل ، فأرسل الله إليه ملكا ، فأرقه ثلاثا (٣) ، وأعطاه قارورتين ، فى كل يد قارورة،وأمره أن (٤) يحتفظ بهما. قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان،ثم يستيقظ فيحبس إحداهما (٥) عن الأخرى،حتى نام نومه، فاصطفقت يداه فتكسَّرَت القارورتان. قال: ضرب الله له مثلا: إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » (٦) .

والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع ، بل من الإسرائيليات المنكرة ؛ فإن موسى ، عليه السلام، أجَلّ من أن يُجَوّز على الله ،سبحانه وتعالى،النوم،وقد أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز بأنه: ﴿ **الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥]. وثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسْط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل،حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٧) .

وقد قال أبو جعفر بن جرير (٨) : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام . قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبا . قال: ما حدثك كعب ؟ قال : حدثنى أن السموات تدور على منْكَب مَلَك . قال : أفصدقته أو كذبته ؟ قال : ما صدقته ولا كذبته . قال : لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورَحْلها ، كَذَب كعب . إن الله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ (٩) .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود . ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد ، عن جرير، عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : ذهب جُنْدَب البَجَلى إلى كعب بالشام ، فذكر نحوه (١٠) . وقد رأيت فى مصنف الفقيه (١١) يحيى بن إبراهيم بن مُزَين الطليطلى ، سماه « سير الفقهاء » ، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطَّبَّاع ، عن وكيع ، عن الأعمش ، به . ثم قال : وأخبرنا زونان ـ يعنى : عبد الملك بن الحسن ـ عن ابن وهب ، عن مالك أنه قال : السماء لا تدور . واحتج بهذه الآية ، وبحديث : « إن بالمغرب بابا للتوبة لا يزال مفتوحا حتى تطلع الشمس منه » .

---

(١) فى ت : « بسنده إلى أبى هريرة» . (٢) فى ت : « ﷺ» . (٣) فى ت : « ثلثا » .
(٤) فى ت : « بأن » . (٥) فى س : « أحدهما » .
(٦) ورواه أبو يعلى فى مسنده (١٢/ ٢١) من طريق إسحاق بن إبراهيم ، به ، وسبق أيضا تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٧) صحيح مسلم برقم (١٧٩) وليس فى صحيح البخارى ، فإن الحافظ ذكره عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة فقال : « وفى الصحيح هكذا بالإفراد » .
(٨) فى ت : « وروى ابن جرير » .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٤) .
(١٠) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٥) .
(١١) فى س ، أ : « للفقيه » .

قلت : وهذا الحديث فى الصحيح (١) ، والله أعلم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، قبل إرسال الرسول إليهم : ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أى : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى :﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا (٢) لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام : ١٥٦ ، ١٥٧] ، وكقوله تعالى : ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ. لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ. فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات:١٦٧ـ١٧٠] .

قال الله تعالى :﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ ـ وهو : محمد ﷺ ـ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ،﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أى : ما ازدادوا (٣) إلا كفراً إلى كفرهم ، ثم بين ذلك بقوله: ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أى : استكبروا عن اتباع آيات الله ، ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أى : ومكروا بالناس فى صدّهم إياهم عن سبيل الله ،﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ، [أى : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم (٤) أنفسهم دون غيرهم .

قال (٥) ابن أبى حاتم : ذكر على بن الحسين ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى زكريا الكوفى عن رجل حدثه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إياك ومكر السيئ ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله] (٦) ، ولهم من الله طالب » (٧) ، وقد قال محمد بن كعب القُرَظى : ثلاث من فعلهن لم ينجُ حتى ينزل به من مكر أو بغى أو نكث ، وتصديقها فى كتاب الله : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ [يونس : ٢٣]، ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح : ١٠].

وقوله :﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعنى : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره (٨) ،﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى(٩): لا تغير ولا تبدل ، بل هى جارية كذلك فى كل

(١) لم أعثر على الحديث فى الصحيحين ، وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٥٣٦) وصحيح ابن خزيمة برقم (١٩٣) والمسند للإمام أحمد (٤/ ٢٤٠) ما يوافق ذلك من حديث صفوان بن عسال، رضى الله عنه ، ولفظه عند ابن خزيمة : « إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرته سبعون سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » نحوه .

(٢) فى ت : « أو يقولوا » . (٣) فى ت : « ما زادوهم » . (٤) فى ت : « على » .

(٥) فى ت : « روى » . (٦) زيادة من ت ، س ، أ .

(٧) وهذا مرسل ولم أجد من أخرجه غير ابن أبى حاتم ، وقد روى ابن المبارك فى الزهد برقم (٧٢٥) عن الزهرى مرسلاً نحوه .

(٨) فى ت : « على تكذيبهم أمره ومخالفتهم رسله » . (٩) فى ت : « يعنى » .

مكذب ،﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ أى : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد :١١]، ولا يكشف ذلك عنهم ، ويحوله عنهم أحد .

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ؟ كيف دمر اللّه عليهم وللكافرين أمثالها ، فَخُلِّيَتْ منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النِّعَم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والعُدَد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع (١) عنهم من عذاب اللّه من شىء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شىء ، إذا أراد كونه فى السموات والأرض ؟ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أى : عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أى : لو آخذهم (٢) بجميع ذنوبهم ، لأهلك جميع أهل الأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق .

قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد اللّه قال : كاد الجُعَلُ أن يعذب فى جُحْره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾.

وقال سعيد بن جبير ، والسُّدىّ فى قوله : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أى : لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب .

﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى : ولكن يُنْظرهُم إلى يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل عامل بعمله ، فيجازى بالثواب أهلَ الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

آخر تفسير سورة « فاطر » وللّه الحمد والمنة

---

(١) فى ت ، س : « ولا يدفع » .
(٢) فى ت ، أ : « يؤاخذهم ».
(٣) فى ت : « روى » .

[٣٧٦و]

/ سورة الملائكة[١]

مكيّة، وآيها[٢] خمس وأربعون.[٣]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ①﴾

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مبدِعِهما مِن غير مِثال يَحتذيه، ولا قانونٍ يَنتحيه. مِن "الفَطْر"؛ وهو الشَّق. وقيل: الشَّقُّ طُولًا. كأنّه شَقَّ العدم بإخراجهما منه. وإضافته محضة؛ لأنّه بمعنى الماضي، فهو نعت للاسم الجليل، ومَن جعلها غيرَ محضة جعله بدلًا منه، وهو قليل في المشتَقّ.

﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الكلام في إضافتِه وكونِه نعتًا أو بدلًا كما قبله. وقوله تعالى: ﴿رُسُلًا﴾ منصوب به على الوجه الثاني مِن الإضافة بالاتّفاق، وأمّا على الأوّل فكذلك عند الكسائي، وأمّا عند البصريّين فبمُضمَر يدلّ هو عليه؛ لأنّ اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل عندهم إلّا معرّفًا بـ"اللام". وقال أبو سعيد السيرافي: «اسم الفاعل المتعدّي إلى اثنين يعمل في الثاني؛ لأنّ بإضافته إلى الأوّل تعذّرت إضافته إلى الثاني، فتعيَّن نصبُه له».[٤] وعلَّل بعضُهم ذلك بأنّه بالإضافة أشبهَ المعرَّف بـ"اللام" فعمل عملَه.[٥]

وقُرئ: "جَاعِلُ" بالرفع[٦] على المدح. وقُرئ: "الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ".[٧]

---

١ وتسمّى سورة فاطر. **الإتقان** للسيوطي، ١/١٩٤.

٢ ط س: وهي.

٣ ط س + آية.

٤ انظر: **شرح كتاب سيبويه** للسيرافي، ١/٤٣٦.

٥ انظر: **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٥/٦١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٣.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٥٩٥؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/١٠.

أي: جاعِلهم وسائطَ بينه تعالى وبين أنبيائه والصالحين مِن عباده، يبلّغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة، أو بينَه تعالى وبين خلقه أيضًا حيث يوصّلون إليهم آثار قدرته وصنعه.

هذا على تقدير كون الجَعل تصييريًا، أمّا على تقدير كونه إبداعيًا فـ﴿رُسُلًا﴾ نصب على الحاليّة.

وقُرئ: "رُسْلًا" بسكون "السين".[١]

﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾ صفةٌ لـ﴿رُسُلًا﴾، و"أُولُو"[٢] اسمُ جمع لِـ"ذُو"، كما أنّ "أُولاء" اسم جمع لِـ"ذا"، ونظيرهما في الأسماء المتمكّنة "المَخاض"[٣] و"الخَلِفَة".[٤]

وقوله تعالى: ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ صفات لـ﴿أَجْنِحَةٖ﴾، أي: ذوي أجنحةٍ متعدّدةٍ متفاوتةٍ في العدد حسب تفاوت ما لهم مِن المراتب، ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها. والمعنى: أنّ مِن الملائكة خَلقًا لكلّ واحد منهم جناحان، وخَلقًا أجنحةُ كلٍّ منهم ثلاثة، وخَلقًا آخرَ لكلّ منهم أربعةُ أجنحة.

[٣٧٦ظ] ويُروى أنّ صِنفًا مِن الملائكة / لهم ستّة أجنحة، بجناحين منها يَلُفُّون أجسادَهم، وبآخرَين منها يطيرون فيما أُمِروا به مِن جهته تعالى، وجناحان منها مُرخَيان على وجوههم حياءً مِن الله عزّ وجلّ.[٥]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه رأى جبريل عليهما السلام ليلة المعراج وله ستّمائة جَناح.[٦]

ورُوي أنّه سأله عليهما السلام أن يتراءى له في صورته، فقال: «إنّك لن تطيق ذلك»، قال: «إنّي أحبّ أن تفعل»، فخرج عليه السلام في ليلة مُقمِرة، فأتاه جبريل صلوات الله عليهما[٧] في صورته، فغَشِي عليه عليه السلام،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وحميد بن قيس. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/١٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٤.

٢ م: وأولوا.

٣ وفي هامش م: اسم جمع.

٤ وفي هامش م: واحدتها.

٥ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٥٩٥.

٦ **صحيح البخاري**، ٤/١١٥ (٣٢٣٢)؛ **صحيح مسلم**، ١/١٥٧ (١٧٤)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٧ س: عليهما السلام.

ثمّ أفاق وجبريل مُسنده، وإحدى يديه على صدره، والأخرى بين كتفيه، فقال: «سبحان الله، ما كنتُ أرى أنّ شيئًا مِن الخَلق هكذا»، فقال جبريل عليه السلام: «فكيف لو رأيتَ إسرافيل؟ له اثنا عشر جناحًا، جناح منها بالمشرق، وجناح منها بالمغرب، وإنّ العرش على كاهِله، وإنّه لَيتضاءلُ الأحايينَ لعظَمة الله عزّ وجلّ حتّى يعود مثل الوَصَع»؛[1] وهو العصفور الصغير.

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن تفاوت أحوال الملائكة في عدد الأجنحة، ومؤذِنٌ بأنّ ذلك مِن أحكام مشيئته تعالى، لا لأمرٍ راجع إلى ذواتهم، ببيان حُكم كلّي ناطق بأنّه تعالى يزيد في أيّ خلقٍ كان كُلَّ ما يشاء أن يزيده بموجَب مشيئته ومقتضى حكمته مِن الأمور التي لا يحيط بها الوصف. وما رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن تخصيص بعض المعاني بالذِّكر مِن "الوجه الحسَن، والصوت الحسَن، والشَّعر الحسَن"[2] فبيانٌ لبعض الموادّ المعهودة بطريق التمثيل، لا بطريق الحصر فيها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل بطريق التحقيق للحُكم المذكور، فإنّ شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء ممّا يوجب قدرته تعالى على أن يزيد كلَّ ما يشاؤه إيجابًا بيّنًا.

﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾

﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ عُبّر عن إرسالها بالفتح إيذانًا بأنّها أَنْفَس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون، / وأعزُّها مَنالًا. وتنكيرها للإشاعة [٣٧٧و]
والإبهام، أي: أيّ شيء يفتح الله مِن خزائن رحمةٍ -أيّةَ رحمةٍ كانت- مِن نعمة

---

[1] الزهد لابن المبارك، ١/٧٤ (٢٢١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٩٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٩٦.

[2] ذكره الواحدي في التفسير البسيط، ١٨/٤٠٠؛ والزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٩٦. وقال القرطبي: «ذكره القشيري». تفسير القرطبي، ١٤/٣٢٠.

وصحّة وأمْن وعِلم وحكمة إلى غير ذلك ممّا لا يُحاط به ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: لا أحدَ يقدِر على إمساكها، ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ أي: أيَّ شيء يُمسك ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ أي: لا أحدَ يقدِر على إرساله. واختلاف الضميرين لِما أنّ مرجع الأوّل مفسَّر بالرحمة، ومرجعَ الثاني مطلَق يتناولُها وغيرَها، كائنًا ما كان. وفيه إشعار بأنّ رحمته سبقت غضبه. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد إمساكه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كلّ ما يشاء مِن الأمور التي مِن جملتها الفتح والإمساك، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعَل كُلَّ ما يفعل حسبما يقتضيه[1] الحِكمة والمصلحة. والجملة تذييل مقرِّر لِما قبلها ومُعرِب عن كون كلٍّ مِن الفتح والإمساك بموجَب الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين.

وبعدما بيَّن سبحانه أنّه الموجِد للمُلك والملكوت، والمتصرِّفُ فيهما بالقبض والبَسط مِن غير أن يكون لأحد في ذلك دخلٌ ما بوجه مِن الوجوه؛ أَمرَ الناس قاطبةً أو أهل مكّة خاصّةً بشُكر نِعَمه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنعامَه عليكم؛ إن جُعِلَت "النعمة" مصدرًا، أو كائنةً عليكم؛ إن جُعلَت اسمًا. أي: راعُوها واحفظوها بمعرفة حقّها، والاعترافِ بها، وتخصيصِ العبادة والطاعة بمُوليها.

ولمّا كانت نِعم الله تعالى مع تشعّب فُنونها منحصرةً في نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء نَفَى أن يكون في الوجود شيء غيرُه تعالى يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الإنكاري المنادي باستحالة أن يُجاب عنه بِـ"نَعَمْ"، فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: هل خالقٌ مغايرٌ له تعالى موجود؟ على أنّ ﴿خَٰلِقٍ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، زِيدت عليه كلمة ﴿مِنْ﴾ لتأكيد العموم، و﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ نعتٌ له باعتبار محلّه، كما أنّه نعتٌ له في قراءة الجرّ[2] باعتبار لفظه. وقُرئ بالنصب[3] على الاستثناء.

---

[1] س: تقتضيه.

[2] قرأ بجرّ "غير" حمزة والكسائي وخلف وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٤.

وقوله تعالى: / ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالمطر والنبات. كلام [٣٧٧ظ] مبتدأ على التقادير، لا محلَّ له مِن الإعراب، داخلٌ في حيّز النفي والإنكار. ولا مساغَ لِما قيل[١] مِن أنّه صفة أخرى لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ مرفوعةُ المحلّ، أو مجرورتُه؛ لأنّ معناه نفيُ وجود خالقٍ موصوف بوصفَي المغايَرة والرازقيّة معًا مِن غير تعرّض لنفي وجود ما اتّصف بالمغايَرة فقط، ولا لِما قيل[٢] مِن أنّه الخبرُ للمبتدأ، ولا لِما قيل[٣] مِن أنّه مفسِّر لمُضمَرٍ ارتفع به قوله تعالى: ﴿مِنْ خَٰلِقٍ﴾ على الفاعليّة، أي: هل يرزقكم مِن خالقٍ... إلخ، لِما أنّ معناهما نفي رازقيّة خالق مغايِر له تعالى مِن غير تعرّضٍ لنفي وجوده رأسًا مع أنّه المراد حتمًا، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؟ فإنّه استئناف مَسوق لتقرير النفي المستفادِ منه قصدًا، وجارٍ مَجرى الجواب عمّا يوهمه الاستفهام صورةً، فحيث كان هذا ناطقًا بنفي الوجود تعيّن أن يكون ذلك أيضًا كذلك قطعًا.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها، كأنّه قيل: وإذا تبيّن تفرّده تعالى بالألوهيّة والخالقيّة والرازقيّة فمِن أيّ وجه تُصرَفون عن التوحيد إلى الشرك؟

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تلوين للخِطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين خطابَي الناس مسارعةً إلى تسليته عليه السلام بعموم البليّة أوّلًا، والإشارةِ إلى الوعد والوعيد ثانيًا.

أي: وإن استمرّوا على أن يكذّبوك فيما بلّغت إليهم مِن الحقّ المبين بعد ما أقمتَ عليه الحجّةَ وألقمتَهم الحجَر فتأسَّ بأولئك الرسل في المصابَرة على ما أصابهم مِن قِبَل قومهم، فوُضع موضعَه ما ذُكر اكتفاءً بذِكر السبب عن ذكر المسبَّب.

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٩٧؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٥٤.
٢ قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ٩/١٣.
٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٩٧؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٥٤.

وتنكير "الرسل" للتفخيم الموجِب لمزيد التسلية، والتوجّهِ إلى المصابَرة،
[٣٧٨و] / أي: رسل أولو[١] شأن خطير، وذَوُو[٢] عددٍ كثير.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كلًّا منك ومنهم بما أنتم عليه مِن الأحوال التي مِن جملتها صبرك وتكذيبهم. وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع إبهام الجزاء ثوابًا وعقابًا مِن المبالغة في الوعد والوعيد ما لا يخفى.

وقُرئ: "تَرْجِعُ" بفتح "التاء"،[٣] مِن "الرجوع"، والأوّل أدخلُ في التهويل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ رجوع إلى خطابهم، وتكرير النداء لتأكيد العِظة والتذكير، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ المشارَ إليه بِرَجعِ الأمور إليه تعالى[٤] مِن البعث والجزاء، ﴿حَقٌّ﴾ ثابت لا محالةَ مِن غير خُلف، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بأن يُذهِلكم التمتُّع بمتاعها، ويلهيكم التلهّي بزخارفها عن تدارك ما يهمّكم يومَ حلول الميعاد. والمراد نهيُهم عن الاغترار بها وإن توجّه النهي صورةً إليها، كما في[٥] قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾ [هود، ٨٩/١١].[٦]

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ وعفوِه وكرمِه تعالى ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أي: المبالِغ في الغُرور، وهو الشيطان، بأن يمنّيكم المغفرةَ مع الإصرار على المعاصي قائلًا: "اعملوا ما شئتم، إنّ الله غفور يغفر الذنوب جميعًا"، فإنّ ذلك وإن أمكَن لكن تعاطي الذنوب بهذا التوقّع مِن قَبيل تناول السمّ تعويلًا على دفع الطبيعة. وتكرير فعل النهي للمبالغة فيه، ولاختلاف الغُرورَين في الكيفيّة. وقُرئ: "الْغُرُورُ" بالضمّ[٧] على أنّه مصدر، أو جمع "غارّ"، كـ"قُعُود" جمع "قاعِد".

---

١ م: أولوا.
٢ م: وذووا.
٣ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.
٤ في الآية السابقة.
٥ ط س + "لا أرينّك ههنا".
٦ ط س – قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾ [هود، ٨٩/١١].
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن سماك بن حرب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٤.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ عداوةً قديمةً لا تكاد تزول. وتقديم ﴿لَكُمۡ﴾ للاهتمام به. ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بمخالفتكم له في عقائدكم وأفعالكم، وكونِكم على حذَرٍ منه في مَجامع أحوالكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تقرير لعداوته، وتحذير مِن طاعته بالتنبيه على أنّ غرضَه في دعوةِ شيعته إلى اتّباع الهوى والركونِ إلى ملاذّ الدنيا ليس تحصيلَ مطالبهم ومنافعهم الدنيويّة كما هو مقصِد المتحابّين في / الدنيا عند سعي بعضهم في حاجة بعضٍ؛ بل هو توريطُهم [٣٧٨ظ] وإلقاؤُهم في العذاب المخلَّد مِن حيث لا يحتسبون.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ﴾ بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان واتّباعهم لخطواته ﴿عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ لا يقادَر قدرُه، مديدٌ لا يُبلَغ مَداه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم﴾ بسبب ما ذُكر مِن الإيمان والعمل الصالح الذي مِن جملته عداوة الشيطان ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ لا غايةَ لهما.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾ إمّا تقرير لِما سبق مِن التبايُن البَيّن بين عاقبتَي الفريقين ببيان تبايُن حالَيهما المؤدِّيَين إلى تَينِك العاقبتَين، و"الفاء" لإنكار ترتّب ما بعدها على ما قبلها،[١] أي: أبَعدَ كون حالهما كما ذُكر يكون مَن زُيِّنَ له الكفر مِن جهة الشيطان فانهمك فيه كمَن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان

---

[١] س – على ما قبلها.

والعمل الصالح حتّى لا يكون عاقبتاهما كما ذُكِر؟ فحُذف ما حُذف لدلالة ما سبق عليه. وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾... إلخ تقريرٌ له، وتحقيقٌ للحقّ ببيان أنّ الكلّ بمشيئته تعالى، أي: فإنّه تعالى يضلّ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يضلّه لاستحسانِه واستحبابِه الضلالَ وصرفِ اختياره إليه، فيردّه أسفلَ سافلين، ﴿وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه لصَرفِ اختياره إلى الهدى، فيرفعه إلى أعلى عِلّيّين.

وإمّا تمهيد لِما يعقُبه مِن نهيه عليه السلام عن التحسّر والتحزّن عليهم لعدم إسلامهم ببيان أنّهم ليسوا بأهلٍ لذلك؛ بل لِأن يُضرَبَ عنهم صفحًا، ولا يُبالَى بهم قطعًا، أي: أبَعدَ كون حالهم كما ذُكر تتحسّر عليهم؟ فحُذف لِما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ دلالةً بيّنةً.

وإمّا تمهيد[١] لصَرفه عليه السلام عمّا كان عليه مِن الحرص الشديد على إسلامهم، والمبالغةِ في دعوتهم إليه ببيان استحالة تحوّلهم عن الكفر، لكونه في غاية الحسن عندهم، أي: أبَعدَ ما ذُكر مَن زُيّن له الكفر مِن قِبل الشيطان فرآه حسنًا فانهمك فيه يقبل الهداية حتّى تطمع في إسلامه، وتُتعب نفسك في دعوته؟ / فحُذف ما حُذف لدلالة ما مرّ مِن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾... إلخ على أنّه مِمّن شاء الله تعالى أن يضلّه، فمَن يَهدي مَن أضلّ اللهُ، وما لهم مِن ناصرين. [٣٧٩و]

وقُرِئ: "فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ".[٢]

وقوله تعالى: ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ إمّا مفعول له، أي: فلا تَهلِك نفسُك للحسرات. والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه السلام على أحوالهم، أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجِبة للتأسّف والتحسّر. و﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ صلةُ ﴿تَذۡهَبۡ﴾، كما يقال: "هلكَ عليه حيًّا"، و"ماتَ عليه حزنًا"، أو هو بيان للمتحسَّر عليه. ولا يجوز أن يتعلّق بـ﴿حَسَرَٰتٍ﴾؛ لأنّ المصدر لا يتقدّم عليه صلته، وإمّا حال، كأنّ كلّها صارت حسرات.

---

[١] السياق: إمّا تقرير... وإمّا تمهيد... وإمّا تمهيد...

[٢] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ أي: مِن القبائح، تعليل لِما قبله على الوجوه الثلاثة،[١] مع ما فيه مِن الوعيد.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّها نزلت في أبي جهل ومشركي مكّة.[٢]

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ مبتدأ وخبر. وقُرِئ: "الرِّيح".[٣] وصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضارًا لتلك الصورة البديعة الدالّة على كمال القدرة والحكمة، ولأنّ المراد بيان إحداثها لتلك الخاصّيّة، ولذلك أُسند إليها، أو للدلالة على استمرار الإثارة.

﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ وقُرِئ بالتخفيف،[٤] ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: بالمطر النازل منه المدلولِ عليه بالسحاب، فإنّ بينهما تلازمًا في الذهن كما في الخارج، أو بالسحاب فإنّه سبَب السبَب، ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ أي: يُبْسِها.

وإيراد الفعلين على صيغة الماضي للدلالة على التحقّق. وإسنادهما إلى "نون" العظَمة المنبئُ عن اختصاصهما به تعالى لِما فيهما مِن مزيد الصنع، ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذي شبّه به بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ في كمال الاختصاص بالقدرة الربّانيّة. و"الكاف" في حيّز الرفع على الخبريّة، أي: مثلُ ذلك الإحياء الذي تشاهدونه إحياءُ الأموات في صحّة المقدوريّة وسهولةِ التأتّي مِن غير تفاوتٍ بينهما أصلًا، سوى الإلْفِ في الأوّل دون الثاني. وقيل: في كيفيّة الإحياء؛ يرسل الله تعالى / مِن تحت العرش ماءً فينبت منه أجساد الخلق.[٥] [٣٧٩ظ]

---

[١] وفي هامش م: فإنّ عِلمه تعالى بسوء صنيعهم موجِب لكلّ واحد ممّا ذُكر، مِن كونهم في العذاب الشديد، ونهيِه عليه السلام عن التحسّر، وصرفِه عليه السلام عن المبالغة في دعوتهم. «منه».

[٢] التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠١/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٠٥/١٦.

[٣] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.

[٤] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢.

[٥] من حديث طويل في المعجم الكبير للطبراني، ٣٥٤/٩ (٩٧٦١)؛ والمستدرك للحاكم، ٥٤١/٤ (٨٥١٩). ولفظه فيه: «فيُرسل الله ماءً مِن تحت العرش كمَنيّ الرجال، فتنبت لُحمانهم وجُثمانهم مِن ذلك الماء كما ينبت الأرض مِن الثرى».

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ هم المشركون الذين كانوا يتعزَّزون بعبادة الأصنام، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم، ٨١/١٩]، والذين كانوا يتعزَّزون بهم مِن الذين آمنوا بألسنتهم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ [النساء، ١٣٩/٤]. والجمع بين ﴿كَانَ﴾ و﴿يُرِيدُ﴾ للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: له تعالى وحدَه -لا لغيره- عِزّة الدنيا وعِزّة الآخرة، أي: فليطلبها منه، لا مِن غيره، فاستُغني عن ذِكره بذِكر دليله إيذانًا بأنّ اختصاص العزّة به تعالى موجِب لتخصيص طلبها به تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ بيان لِما يُطلب به العزّة، وهو التوحيد والعمل الصالح. وصعودهما إليه مجاز عن قَبوله تعالى إيّاهما، أو صعودِ الكَتَبة بصحيفتهما. وتقديم الجارّ والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به، كقوله تعالى: ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [التوبة، ١٠٤/٩].

أي: إليه يَصل الكَلِم الطيّب الذي به يُطلَب العزّة، لا إلى الملائكة الموكَّلين بأعمال العباد فقط، وهو يُعِزّ صاحِبَه، ويعطي طِلبَته بالذات. والمستكِنّ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ لـ﴿ٱلْكَلِمُ﴾، فإنّ مدار قبول العمل هو التوحيد، ويؤيّده القراءة بنصب ﴿ٱلْعَمَلُ﴾.[١] أو لـ﴿ٱلْعَمَلُ﴾، فإنّه يُحقِّق الإيمان ويقوّيه، ولا ينال الدرجات العالية إلّا به.

وقُرئ: "يُصْعِدُ"[٢] مِن "الإصعاد" على البناءَين، والمُصعِد هو الله سبحانه، أو المتكلِّم به، أو الملَك.

وقيل: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يتناول الذِّكرَ والدعاءَ والاستغفارَ وقراءةَ القرآن.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٩/٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن مسعود رضي الله عنهم والسلَمي وإبراهيم. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٨/٩.

وعنه عليه السلام «أنّه "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر"، إذا قاله العبد عرَج به الملَك إلى السماء، فحيّا بها وجهَ الرحمن، فإذا لم يكن عمل صالح لم يُقبل».[1]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «ما مِن عبد مسلم يقول خمس كلمات: "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر، وتبارك الله"، إلّا أخذَهنّ ملَك فجعلَهنّ[2] تحت جناحه، ثمّ صعِد بهنّ، فما يَمُرّ بهنّ على جمع مِن الملائكة إلّا استغفروا لِقائلهنّ، حتّى يحيّي بهنّ وجه ربّ[3] العالمين».[4] ومصداقه قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾... إلخ.[5]

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بيان لحال الكَلِم الخبيث والعمل السيّئ وأهلِهما بعد بيان حال الكَلِم الطيّب والعملِ الصالح. وانتصابُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على أنّها صفة للمصدر المحذوف، أي: يمكرون المَكرات السيّئات، وهي مَكرات قريش بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم / في دار الندوة، وتدارُؤُهم الرأي [٣٨٠و] في إحدى الثلاث التي هي الإثبات والقتل والإخراج. ﴿لَهُمۡ﴾ بسبب مَكراتهم ﴿عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ لا يُقادَر قدرُه، ولا يُؤبَهُ عنده لِما يمكرون.

﴿وَمَكۡرُ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميّزهم بما هم فيه مِن الشرّ والفساد عن سائر المفسدين واشتهارِهم بذلك. وما فيه مِن معنى البُعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان، وبُعد منزلتهم في العدوان، أي: ومكرُ أولئك المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا به عليه السلام ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ أي: هو يَهلِك ويَفسد خاصّةً، لا مَن مكروا به، ولقد أبارهم الله تعالى بعد إبارة مَكراتهم، حيث أخرجهم مِن مكّة، وقتّلهم وأثبتهم في قليب بدرٍ، فجمع عليهم مَكراتِهم الثلاثَ التي اكتفَوا في حقّه عليه السلام بواحدة منهنّ.

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ١٠١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/٣.

[2] س: فجعله.

[3] س: الرحمن.

[4] س – العالمين. | وهو في جامع البيان للطبري، ٣٣٨/١٩؛ والمستدرك للحاكم، ٤٦١/٢ (٣٥٨٩)، بلفظ: «وجه الرحمن».

[5] جامع البيان للطبري، ٣٣٨/١٩؛ المستدرك للحاكم، ٤٦١/٢ (٣٥٨٩).

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًاۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ دليل آخر على صحّة البعث والنشور، أي: خلقكم ابتداءً منه في ضِمن خَلق آدم عليه السلام خَلقًا إجماليًا، كما مرّ تحقيقه مِرارًا، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثمّ خلقكم منها خَلقًا تفصيليًا، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافًا، أو ذُكرانًا وإناثًا. وعن قتادة: «جعل بعضكم زوجًا لبعض».[١]

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي ملتبسةً بعلمه، تابعةً لمشيئته، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: مِن أحدٍ، وإنّما سُمِّي "مُعمَّرًا" باعتبار مصيره، أي: وما يُمَدُّ في عمُر أحدٍ، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: مِن عمُر أحدٍ، على طريقة قولهم: "لا يُثيب الله عبدًا ولا يعاقبه إلّا بحقّ"، لكن لا على معنى: لا يُنقَص عمُره بعد كونه زائدًا؛ بل على معنى: لا يُجعَلُ مِن الابتداء ناقصًا.

وقيل: الزيادة والنقص في عمُرٍ واحدٍ باعتبار أسباب مختلفة أُثبِتَت في اللوح، مثل أن يُكتَب فيه: "إن حجَّ فلان فعمره ستّون، وإلّا فأربعون"، وإليه أشار صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «الصدقة والصِّلة تَعمُران الديار، وتزيدان / في الأعمار».[٢] [٣٨٠ظ]

وقيل: المراد بالنقص ما يمرّ مِن عمره وينقص، فإنّه يُكتَب في الصحيفة: "عمُره كذا وكذا سنةً"، ثمّ يُكتب تحت ذلك: "ذهبَ يوم"، "ذهبَ يومان"، وهكذا حتّى يأتي على آخره.[٣]

وقُرئ: "وَلَا يَنْقُصُ"[٤] على البناء للفاعل، و"مِنْ عُمْرِهِ" بسكون "الميم".[٥]

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه اللوح.[٦] وقيل: علم الله عزّ وجلّ. وقيل: صحيفة كلّ إنسان.

---

١ **جامع البيان** للطبري، ٣٤٢/١٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٣/٣.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٤/٣. وأخرجه أحمد في مسنده، ١٥٣/٤٢ (٢٥٢٥٩)، بلفظ: «وصِلة الرحم وحُسن الخُلق وحُسن الجوار يَعمران الديار، ويزيدان في الأعمار».

٣ قاله سعيد بن جبير. **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٠٢/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٠٢/٣.

٤ قرأ بها يعقوب بخُلف عن رُويس. **النشر** لابن الجزري، ٣٥٢/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٥.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٤/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٠/٩.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الخَلق وما بعده مع كونه مَحارًا للعقول والأفهام ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه عن الأسباب، فكذلك البعث.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ مَثَل ضُرِب للمؤمن والكافر. و"الفُرات": الذي يكسِر العطش. و"السائغ": الذي يَسهُل انحدارُه لعُذوبته. و"الأُجاج": الذي يَحرِق بمُلوحته. وقُرئ: "سَيِّغ"[1] كـ"سيِّد"، و"سَيْغ" بالتخفيف.[2] و"مَلِح"[3] كـ"كَتِف".

وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي: مِن كلّ واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ أي: مِن المالح خاصّةً ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ إمّا استطراد في صفة "البحرين" وما فيهما مِن النِّعم والمنافع، وإمّا تكملةٌ للتمثيل، والمعنى: كما أنّهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان مِن حيث إنّهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات مِن الماء، لِما خالَط أحدَهما ما أفسده وغيَّره عن كمال فطرته؛ لا يساوي الكافرُ المؤمنَ وإن شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما، لتباينهما فيما هو الخاصّيّة العظمى، لبقاء أحدهما على فطرته الأصليّة، وحِيازته لكماله اللائق دون الآخر.

أو تفضيلٌ للأُجاج على الكافر مِن حيث إنّه يشارك العذبَ في منافعَ كثيرة، والكافرُ خِلْو مِن المنافع بالكلّيّة، على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢/٧٤].

/ والمراد بـ"الحِلية" اللؤلؤ والمرجان. [٣٨١و]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ أي: في كلّ منهما. وإفراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحِق لأنّ الخطاب لكلّ أحد تَتأتّى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط. ﴿مَوَاخِرَ﴾ شواقّ للماء بجَريها مُقبِلة ومُدبِرة بريح واحدة، ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ مِن فضل الله تعالى بالنُّقلة فيها. و"اللام" متعلّقة بـ﴿مَوَاخِرَ﴾، وقد جُوّز تعلّقها بما يدلّ عليه الأفعال المذكورة، أي: فعلَ ذلك لتبتغوا مِن فضله.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولتشكروا على ذلك. وحرف الترجّي للإيذان بكونه مَرضيًا عنده تعالى.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ بزيادة أحدهما ونقص الآخر، بإضافة بعض أجزاء كلّ منهما إلى الآخَر. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ عطفٌ على ﴿يُولِجُ﴾. واختلافهما صيغةً لِما أنّ إيلاج أحد المَلَوين في الآخر متَجدّد حينًا فحينًا، وأمّا تسخير النيّرين فأمرٌ لا تعدّدَ فيه، وإنّما المتعدّد والمتجدّد آثارُه، وقد أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾ أي: بحسب حركته الخاصّة وحركته القَسريّة على المدارات اليوميّة المتعدّدة حسب تعدّد أيّام السَّنة جريانًا مستمرًّا ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قدّره الله تعالى لجريانهما، وهو يوم القيامة، كما روي عن الحسَن رحمه الله تعالى.[1]

وقيل: "جريانهما" عبارة عن حركتَيهما الخاصّتَين بهما في فلكَيهما، و"الأجَل المسمّى" عن مُنتهى دورتَيهما، ومدّةُ الجريان للشمس سنة، وللقمر شهر، وقد مرّ تفصيله في سورة لقمان.[2]

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بغاية العظَمة. وهو مبتدأ، وما بعده أخبار مترادفة، أي: ذلكم العظيم الشأنِ

---

١ س - تعالى. | الكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٣ (لقمان، ٢٩/٣١).

٢ لقمان، ٢٩/٣١.

الذي أبدَعَ هذه الصنائع البديعة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ وفيه مِن الدلالة على أنّ إبداعه تعالى لتلك البدائع ممّا يوجب ثبوت تلك الأخبار له ما لا يخفى. ويجوز أن يكون الأخيرُ كلامًا مبتدأً في مقابلة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ للدلالة على تفرّده تعالى بالألوهيّة والربوبيّة.

وقُرئ: "يَدْعُونَ" بـ"الياء" التحتانيّة.[1] والقِطمير: لِفافة النواة، وهو مَثَل في القِلّة والحقارة.

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ⑭﴾

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، كاشفٌ عن جليّة حال ما يدعونه بأنّه جماد ليس مِن شأنه السماع، ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ لعجزهم عن الأفعال بالمرّة، لا لِما قيل[2] مِن أنّهم متبرّئون / منكم وممّا تدّعون لهم، فإنّ ذلك ممّا لا يتصوّر منهم في الدنيا. [٣٨١ظ]

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ أي: يجحدون بإشراككم لهم وعبادتِكم إيّاهم بقولهم: "ما كنتم إيّانا تعبدون".[3]

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ أي: لا يخبرك بالأمر مخبِر مثلُ خبير أخبرَك به، وهو الحقّ سبحانه، فإنّه الخبير بكُنه الأمور دون سائر المخبِرين. والمراد تحقيق ما أخبر به مِن حال آلهتهم، ونفيِ ما يدّعون لهم مِن الإلَهيّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ⑮﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في أنفسكم وفيما يعِنّ لكم مِن أمرٍ مُهمّ أو خَطب مُلِمّ. وتعريف ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ للمبالغة في فقرهم، كأنّهم لكثرة افتقارهم

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى وسلام ويعقوب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢١/٩.

[2] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٦٠٥/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٥٦/٤.

[3] قال تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ [يونس، ٢٨/١٠].

وشدّةِ احتياجهم هم الفقراء فحسب، وأنّ افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء، ٢٨/٤].

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المستغني على الإطلاق، المنعمُ على سائر الموجودات، المستوجبُ للحمد.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ليسوا على صفتكم؛ بل مستمرّون على الطاعة، أو بعالَم آخر غيرَ ما تعرفونه.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الإذهاب بهم والإتيانِ بآخرين ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذِّر ولا متعسِّر.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي: لا تحمِل نفسٌ آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إثمَ نفسٍ أخرى؛ بل إنّما تحمِل كلٌّ منهما وِزرَها. وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت، ١٣/٢٩] مِن حمل المضلِّين أثقالًا غيرَ أثقالهم؛ فهو حملُ أثقالِ إضلالهم مع أثقالِ ضلالهم، وكلاهما أوزارُهم ليس فيها مِن أوزار غيرهم شيء.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفسٌ أثقلَها الأوزار ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ ليُحمَل بعضَ أوزارها، ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾ لم تُجَبْ[١] بحمل شيء منه، ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي:[٢] المدعوُّ المفهوم مِن الدعوة ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ذا قرابة مِن الداعي. وقُرِئ: "ذُو قُرْبَى".[٣] وهذا نفي للحمل اختيارًا، والأوّل نفي له إجبارًا.

---

١ ط س: يُجَبْ.

٢ س – أي.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ استئناف مَسوق / لبيان مَن يتّعظ بما ذُكر، أي: إنّما تُنذر بهذه [٣٨٢و]
الإنذارات ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: يخشونه تعالى غائبين عن عذابه، أو عن الناس في خلَواتهم، أو يخشون عذابه، وهو غائب عنهم، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: راعَوها كما ينبغي، وجعلوها مَنارًا منصوبًا، وعلَمًا مرفوعًا، أي: إنّما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء مِن قومك دون مَن عداهم مِن أهل التمرّد والعناد.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهّر مِن أوضار الأوزار والمعاصي بالتأثّر مِن هذه الإنذارات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ﴾ لاقتصار نفعه عليها، كما أنّ مَن تدنّس بها لا يتدنّس إلّا عليها. وقُرئ: "مَنِ ازَّكّى فَإِنَّما يَزَّكّى"،[١] وهو اعتراض مقرِّر لخَشيتهم وإقامتهم الصلاة؛ لأنّهما مِن معظم مبادي التزكّي.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لا إلى أحد غيره استقلالًا أو اشتراكًا، فيجازيهم على تزكّيهم أحسنَ الجزاء.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ۝٢١﴾

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: الكافر والمؤمن.

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ أي: ولا الباطلُ ولا الحقُّ. وجمع ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ مع إفراد ﴿ٱلنُّورُ﴾ لتعدّد فنون الباطل واتّحادِ الحقّ.

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾ أي: ولا الثوابُ ولا العقابُ. وإدخال ﴿لَا﴾ على المتقابلَين لتذكير نفي الاستواء، وتوسيطُها بينهما للتأكيد. و﴿ٱلۡحَرُورُ﴾ "فَعُول" مِن الحَرّ، غلَب على "السَّموم". وقيل: "السَّموم" ما يهبّ نهارًا، و"الحَرور" ما يهبّ ليلًا.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٢٢﴾

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغُ مِن الأوّل، ولذلك كُرّر الفعل. وأوثرَ صيغةُ الجمع في الطرفين تحقيقًا للتباين بين أفراد الفريقين. وقيل: تمثيلٌ للعلماء والجهلة.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥/٩.

[٣٨٢ظ] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يُسمِعَه ويُوفِّقُه لفهم آياته / والاتّعاظِ بعِظاته. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ ترشيح لتمثيل المُصرّين على الكفر بالأموات، وإشباعٌ في إقناطه عليه السلام مِن إيمانهم.

﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾

﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ما عليك إلّا الإنذار، وأمّا الإسماع البتّة فليس مِن وظائفك، ولا حيلةَ لك إليه في المطبوع على قلوبهم.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: محِقّين، أو محِقًّا أنت، أو إرسالًا مصحوبًا بالحقّ. ويجوز أن يتعلّق بقوله: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي: بشيرًا بالوعد الحقّ، ونذيرًا بالوعيد الحقّ. ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ﴾ أي: ما مِن أمّة مِن الأمم الدارجة في الأزمنة الماضية ﴿إِلَّا خَلَا﴾ أي: مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٞ﴾ مِن نبيّ أو عالِمٍ يُنذرهم. والاكتفاء بذكره للعلم بأنّ النِّذارة قرينة البِشارة، لا سيّما وقد اقترَنا آنفًا، ولأنّ الإنذار هو الأنسب بالمقام.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: تَمُّوا على تكذيبك، فلا تبالِ بهم وبتكذيبهم، ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِنَ الأمم العاتية، ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزاتِ الظاهرة الدلالةِ على نبوّتهم، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم، ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ كالتوارة والإنجيل والزبور على إرادة التفصيل دون الجمع، ويجوز أن يُراد بهما واحد، والعطف لتغاير العنوانين.

﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم لذمّهم بما في حيّز الصلة، والإشعارِ بعلّةِ الأخذ، ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري بالعقوبة. وفيه مزيد تشديد وتهويل لها.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ استئناف مَسوق لتقرير ما قبله مِن اختلاف أحوال الناس ببيان

أنّ الاختلاف والتفاوت أمر مُطّرد في جميع المخلوقات مِن النبات والجماد والحيوان. والرؤية قلبيّة، أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء. والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل، لِما فيه مِن الصنع البدِيع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة.

﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: أجناسُها، أو أصنافُها، على أنّ كلًّا منها ذو أصناف مختلفة، أو هيئاتُها وأشكالُها، أو ألوانُها مِن الصُّفرة والخُضرة والحُمرة وغيرها، وهو الأوفق لِما في قوله تعالى: / ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أي: ذو جُدَد، [٣٨٣و] أي: خُطَطٍ وطرائقَ، ويقال: "جُدّةُ الحِمار" للخُطّة السوداء على ظهره. وقُرئ: "جُدُدٌ" بالضمّ،[١] جمع "جَديدة" بمعنى "الجُدّة"، و"جَدَدٌ" بفتحتين،[٢] وهو الطريق الواضح. ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدّة والضعف.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ عطفٌ على ﴿بِيضٌ﴾، أو على ﴿جُدَدٌ﴾، كأنّه قيل: ومِن الجبال مخطَّط ذو جُدَدٍ، ومنها ما هو على لون واحد غرابيبُ. وهو تأكيد لمُضمَر يفسّره ما بعده، فإنّ "الغِربيب" تأكيد للأَسود، كالفاقع للأصفر، والقاني للأحمر، ومِن حقّ التأكيد أن يتّبع المؤكَّد، ونظيره في الصفة قول النابغة:

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ يمسحُهَا[٣]

وفي مثله مزيدُ تأكيدٍ لِما فيه التكرار باعتبار الإضمار والإظهار.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ومنهم بعضٌ مختلف ألوانه، أو وبعضُهم مختلف ألوانه، على ما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢/٨].

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.

[٣] وفي هامش م: تمامه:
رُكبانُ مكّةَ بين الغَيلِ والسنَدِ
ديوان النابغة، ص ٢٠.

وإيراد الجملتين اسميّتَين مع مشاركتهما لِما قبلهما مِن الجملة الفعليّة في الاستشهاد بمضمونهما على تباين الناس في الأحوال الباطنة لِما أنّ اختلاف الجبال والناس والدوابّ والأنعام فيما ذُكر مِن الألوان أمر مستمرّ، فعُبِّر عنه بما يدلّ على الاستمرار، وأمّا إخراج الثمرات المختلفة فحيث كان أمرًا حادثًا عُبّر عنه بما يدلّ على الحدوث، ثمّ لمّا كان فيه نوع خفاء عُلّقِ به الرؤية بطريق الاستفهام التقريري المنبئِ عن الحمل عليها والترغيبِ فيها، بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما، فإنّها مشاهَدةٌ غنيّة عن التأمّل، فلذلك جُرّدت عن التعليق بالرؤية، فتدبّر.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مصدر تشبيهي لقوله تعالى: ﴿مُخۡتَلِفٌ﴾، أي: صفة لمصدره المؤكِّد، تقديره: مختلف اختلافًا كائنًا كذلك، أي: كاختلاف الثمار والجبال.

وقُرئ: "أَلْوَانُهَا".[١] وقُرئ: "وَالدَّوَابِ" بالتخفيف[٢] مبالغةً في الهرب مِن التقاء الساكنين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ تكملة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾[٣] بتعيين مَن يخشاه عزّ وجلّ مِن الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم، وتباينِ مراتبهم، أمّا في الأوصاف المعنويّة فبطريق التمثيل، وأمّا في الأوصاف الصوريّة فبطريق التصريح، توفيةً لكلّ واحدة منهما حقَّها اللائقَ بها مِن البيان، أي: إنّما يخشاه تعالى بالغيب العالِمون به عزّ وجلّ وبما[٤] يليق به مِن صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة، لِما أنّ مدارَ الخشية معرفةُ المَخشيّ والعلمُ بشئونه، فمَن كان أعلمَ به تعالى كان أخشى منه عزّ وجلّ، كما قال عليه السلام: «أنا أخشاكم لله، وأتقاكم له»،[٥] ولذلك عُقِّب بذكر أفعاله الدالّة على كمال قدرته. وحيث كان الكفرة بمَعزِل مِن هذه المعرفة امتنع إنذارهم بالكلّيّة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٠/٩.

٣ فاطر، ١٨/٣٥.

٤ س: وما.

٥ **صحيح البخاري**، ٢/٧ (٥٠٦٣)؛ **صحيح ابن حبّان**، ٢١/٢ (٣١٧).

وتقديم المفعول لأنّ المقصود حصرُ الفاعليّة، ولو أخِّر انعكس الأمر. وقُرئ برفع الاسم الجليل ونصبِ ﴿ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾،[١] على أنّ الخشية مستعارة للتعظيم، فإنّ المعظَّم يكون مَهيبًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية، لدلالته على أنّه معاقِب للمصرّ على طغيانه، غفورٌ للتائب عن عصيانه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يداوِمُون على قراءته أو متابعةِ ما فيه حتّى صارت سِمةً لهم وعنوانًا. والمراد بـ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ تعالى القرآنُ. / وقيل:[٢] [٣٨٣ظ] جنسُ كُتُب الله تعالى، فيكون ثناءً على المصدِّقين مِن الأمم بعد اقتصاص حال المكذِّبين منهم، وليس بذاك، فإنّ صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعيّة تلاوته والعمل بما فيه واستتباعِهما لِما سيأتي مِن توفية الأجور وزيادة الفضل. وحَملها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسّفًا ظاهرًا ممّا لا سبيل إليه، كيف لا والمقصود الترغيب في دين الإسلام والعملِ بالقرآن الناسخِ لِما بين يديه مِن الكتب؟ فالتعرّض لبيان حقّيّتها قبل انتساخها والإشباعُ في ذِكر استتباعها لِما ذُكر مِن الفوائد العظيمة ممّا يُورث الرغبة في تلاوتها، والإقبالَ على العمل بها.

وتخصيص التلاوة بما لم يُنسَخ منها باطل قطعًا، لِما أنّ الباقي مشروعًا ليس إلّا حكمَها، لكن لا مِن حيث إنّه حكمها؛ بل مِن حيث إنّه حكم القرآن، وأمّا تلاوتها فبمَعزِل مِن المشروعيّة واستتباعِ الأجر بالمرّة، فتدبّر.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيفما اتّفق مِن غير قصدِ إليهما. وقيل: "السرّ" في المسنونة، و"العلانية" في المفروضة. ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦. قال أبو حيّان: «ولعلّ ذلك لا يصحّ عنهما، وقد رأينا كُتبًا في الشواذّ، ولم يذكروا هذه القراءة». البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣١.

٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٥٧.

تحصيلَ ثوابٍ بالطاعة. وهو خبر ﴿إِنَّ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أي: لن تكسَد ولن تهلِك بالخسران أصلًا، صفةٌ للتجارة، جيء بها للدلالة على أنّها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخُسران؛ لأنّه اشتراءُ باقٍ بفانٍ. والإخبارُ برجائهم مِن أكرم الأكرمين عِدَةٌ قطعيّة بحصول مرجوّهم.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ متعلّق بـ﴿لَن تَبُورَ﴾،[1] على معنى أنّه ينتفي عنها الكساد، وتَنفُق عند الله تعالى، لِيوفّيَهم أجورَ أعمالهم، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ذلك مِن خزائن رحمته ما يشاء. وقيل: بمُضمَر دلّ عليه ما عُدَّ مِن أفعالهم المرضيّة، أي: فعلوا ذلك ليوفّيَهم... إلخ. وقيل: بـ﴿يَرْجُونَ﴾ على أنّ "اللام" للعاقبة.

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تعليل لِما قبله مِن التوفية والزيادة، أي: غفور لفرطاتهم، شكور لطاعاتهم، أي: مجازيهم عليها. وقيل: هو خبرُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، و﴿يَرْجُونَ﴾ حال مِن "واو" ﴿أَنفَقُوا۟﴾.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٣١﴾

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وهو القرآن، و﴿مِنَ﴾ للتبيين، أو الجنسُ، و﴿مِنَ﴾ للتبعيض. وقيل: اللوحُ، و﴿مِنَ﴾ للابتداء. ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: أحُقّه مصدِّقًا لِما تقدّمه مِن الكتب السماويّة. حال مؤكِّدة، لأنّ حقّيّته تستلزم موافقته إيّاه في العقائد وأصول الأحكام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ محيطٌ ببواطن أمورهم وظواهرها، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوّة لم يُوحِ إليك مثلَ هذا الحقّ المعجز الذي هو عِيارٌ على سائر الكتب. وتقديم "الخبير" للتنبيه على أنّ العمدة هي الأمور الروحانيّة.

---

[1] في الآية السابقة.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ / أي: قَضينا بتوريثه منك، أو نُورِثُه. والتعبير عنه بالماضي [٣٨٤و]
لتقرّره وتحقّقه. وقيل: أورثناه مِن الأمم السالفة، أي: أخّرناه عنهم، وأعطيناه ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم علماء الأمّة مِن الصحابة ومَن بعدهم ممّن يسير سيرتهم، أو الأمّةُ بأسرهم، فإنّ الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم، وجعَلهم أمّةً وسطًا ليكونوا شهداء على الناس، واختصّهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله عليهم الصلوات. وليس مِن ضرورة وِراثة الكتاب مراعاته حقَّ رعايته، لقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآيةَ [الأعراف، ١٦٩/٧].

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالتقصير في العمل به، وهو المُرْجِئُ لأمر الله، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يعمل به في أغلب الأوقات، ولا يخلو مِن خَلط السيّئ، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيل: هم السابقون الأوّلون مِن المهاجرين والأنصار. وقيل: هم المداوِمون على إقامة مواجبه علمًا وعملًا وتعليمًا، وفي قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ -أي: بتيسيره وتوفيقه- تنبيهٌ على عزّة مَنال هذه الرتبة، وصعوبةِ مأخذها.

وقيل: "الظالم" الجاهل، و"المقتصد" المتعلّم، و"السابق" العالم.

وقيل: "الظالم" المجرم، و"المقتصِد" الذي خلَط الصالح بالسيّئ، و"السابق" الذي ترجّحت حسناته، بحيث صارت سيّئاته مكفَّرة، وهو معنى قوله عليه السلام: «أمّا الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنّة يُرزَقون فيها بغير حساب، وأمّا المقتصِد فأولئك يحاسَبون حسابًا يسيرًا، وأمّا الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يُحبَسون في طول المحشر، ثم يتلقّاهم الله تعالى برحمته».[١] وقد رُوي أنّ عمر رضي الله عنه قال وهو على المنبر: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «سابِقُنا سابِق، ومقتصِدُنا ناجٍ، وظالمُنا مغفور له».[٢]

---

١ مسند أحمد، ٥٧/٣٦ (٢١٧٢٦)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٨/٨.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١١١/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٥/٣.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى "السبق بالخيرات"، وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلوّ رتبته، وبُعد منزلته في الشرف. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ مِن الله عزّ وعلا،[١] لا يُنال إلّا بتوفيقه تعالى.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إمّا بدل مِن ﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[٢] بتنزيل السبَب منزلةَ المسبَّب، أو مبتدأ خبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، وعلى الأوّل هو مستأنَف. وجمع الضمير / لأنّ المراد بـ"السابق" الجنس. [٣٨٤ظ]

وتخصيص حال السابقين ومآلِهم بالذكر والسكوتُ عن الفريقين الآخَرين وإن لم يدلّ على حِرمانهما مِن دخول الجنّة مطلقًا، لكنّ فيه تحذيرًا لهما مِن التقصير، وتحريضًا على السعي في إدراك شَأْوِ السابقين.

وقُرئ: "جَنَّاتِ عَدْنٍ"،[٣] و"جَنَّةَ عَدْنٍ"،[٤] على النصب بفعل يفسّره الظاهر. وقُرئ: "يُدْخَلُونَهَا" على البناء للمفعول.[٥]

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبر ثانٍ، أو حال مقدَّرة. وقُرئ: "يَحْلَونَ"[٦] مِن "حَلِيَتِ المرأةُ، فهي حالية". ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ هي جمع "أَسْوِرة" جمع "سِوار" ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى تبعيضيّة، والثانية بيانيّة، أي: يُحلّون بعضَ أساوِر مِن ذهب، كأنّه أفضل مِن سائر أفرادها. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب عطفًا على محلّ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾. وقُرئ بالجرّ[٧] عطفًا على ﴿ذَهَبٍ﴾، أي: مِن ذهَبٍ مرصَّع مِن لؤلؤ، أو مِن ذهَبٍ في صفاء اللؤلؤ.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وتغيير الأسلوب قد مرّ سِرّه في سورة الحجّ.[٨]

---

١ س: عزّ وجلّ.

٢ في الآية السابقة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زرّ بن حُبَيش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.

٥ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٢.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٤.

٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٦.

٨ الحج، ٢٢/٢٣.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: يقولون، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقّق: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ وهو ما أهمّهم مِن خوف سوء العاقبة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «حَزَنَ الأعراض والآفات».[١] وعنه: «حَزَنَ الموت».[٢] وعن الضحّاك: «حَزَنَ وسوسة إبليس».[٣] وقيل: هَمَّ المعاش. وقيل: حَزَنَ زوال النِّعم. والظاهر أنّه الجنس المنتظِم لجميع أحزان الدين والدنيا. وقُرِئ: "الْحُزْنَ".[٤]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ليس على أهل "لا إله إلّا الله" وَحشة في قبورهم ولا في مَحشَرهم، ولا في مَسيرهم، وكأنّي بأهل "لا إله إلّا الله" يخرجون مِن قبورهم، يَنفضون التراب عن وجوههم، ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾».[٥] ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ أي: للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي: دارَ الإقامة التي لا انتقال عنها / أبدًا. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ مِن إنعامه وتفضّله مِن غير أن يوجبه شيء مِن قِبَلنا، ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كَلال. والفرق بينهما أنّ "النَّصَب" نفس المشقّة والكُلفة، و"اللُّغوب" ما يحدث منه مِن الفتور. والتصريح بنفي الثاني مع استلزام نفي الأوّل له وتكريرُ الفعل المنفيّ للمبالغة في بيان انتفاء كلّ منهما. [٣٨٥و]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٣. وفي جامع البيان للطبري، ٣٧٧/١٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٨، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «حَزَن النار».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٣. وذكره البغوي في معالم التنزيل، ٤٢٣/٦، عن قتادة.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حبيش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤/٩؛ اللباب لابن عادل، ١٤٣/١٦.

٥ المعجم الأوسط للطبراني، ١٨١/٩ (٩٤٧٨)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٦/٣.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُحكم عليهم بموتٍ ثانٍ ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ ويستريحوا. ونصبه بإضمار "أن". وقُرئ: "فَيَمُوتُونَ"[1] عطفًا على ﴿يُقْضَىٰ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات، ٣٦/٧٧].

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلّما خَبَتْ زِيد إسعارها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ مبالِغ في الكفر أو الكفران، لا جزاءً أخفَّ وأدنى منه. وقُرئ: "يُجْزَى"[2] على البناء للمفعول، وإسناده إلى "الكُلّ". وقُرئ: "نُجَازِي".[3]

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ[4] أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون. و"الاصطِراخ" "افتِعال" مِن "الصُّراخ"، استعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صوتَه.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القول. وتقييدُ العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسّر على ما عملوه مِن غير الصالح والاعترافِ به، والإشعارِ بأنّ استخراجهم لتلافيه، وأنّهم كانوا يحسبونه صالحًا، والآن تبيّن خلافه.

وقوله تعالى:[4] ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ جواب مِن جهته تعالى، وتوبيخ لهم. و"الهمزة" للإنكار والنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام. و﴿مَا﴾ نكرة موصوفة، أي: أَلَم نُمهِلكم، أو أَلَم نؤخِّركم ولم نُعمِّركم عُمُرًا يتذكّر فيه مَن تذكّر، أي: يتمكّن فيه المتذكِّر مِن التذكّر / والتفكّرِ. قيل: [٣٨٥ظ]
هو أربعون سنةً. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[5] «ستّون سنةً»،[6] ورُوي ذلك

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.
[2] قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٣٥٢/٢.
[3] كذلك وقع ضبطها في الأصول الخطّيّة، ولم أجدها كذلك في المصادر، ولعلّ الصواب "يُجَازَى" بـ"الياء" وفتح "الزاي"؛ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.
[4] س - وقوله تعالى.
[5] م - رضي الله عنهما.
[6] جامع البيان للطبري، ٣٨٤/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٤/٨.

عن عليّ رضي الله تعالى عنهم،[١] وهو العمر الذي أعذَرَ الله فيه إلى ابن آدم، قال عليه السلام: «أعذَرَ الله إلى امرئ أخَّر أجَله حتّى بلغ ستّين سنةً».[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ عطفٌ على الجملة الاستفهاميّة؛ لأنّها في معنى: قد عمّرناكم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝ وَوَضَعۡنَا﴾... إلخ [الشرح، ٩٤/١-٢]؛ لأنّه في معنى: قد شرَحْنا... إلخ، والمراد بـ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو ما معه مِن القرآن. وقيل: العقل. وقيل: الشيب. وقيل: موت الأقارب. والاقتصار على ذكر "النذير"؛ لأنّه الذي يقتضيه المقام.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها مِن التعمير ومجيءِ النذير.[٣] وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ للتعليل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بالإضافة. وقُرئ بالتنوين ونصبِ "غَيْبَ"[٤] على المفعوليّة، أي: لا يخفى عليه خافية فيهما، فلا يخفى عليه أحوالهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قيل: إنّه تعليل لِما قبله؛ لأنّه إذا عَلِم مضمَرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلمَ بغيرها.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ۝٣٩﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يقال للمستخلَف: "خليفة"، و"خَليف"، والأوّلُ يُجمع "خَلائف"، والثاني "خُلفاء". والمعنى: أنّه تعالى جعلكم خلفاءَه في أرضه، وألقى إليكم مقاليد التصرّف فيها، وسلّطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها، أو جعلكم خلفاء ممّن قبلكم مِن الأمم، وأورَثكم ما بأيديهم مِن متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة.

---

١ س: عنه. | جامع البيان للطبري، ١٩/٣٨٦؛ واللباب لابن عادل، ١٦/١٤٨.

٢ مسند أحمد، ١٣/١٣٩ (٧٧١٣)؛ صحيح البخاري، ٨/٨٩ (٦٤١٩).

٣ س + النذير.

٤ أي: "عَالِمٌ غَيْبَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حبيش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٧.

﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم مثلَ هذه النعمة السنيّة وغَمِطَها ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبالَ كُفرِه، لا يتعدّاه إلى غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بيان لوَبال الكفر وغائلته، وهو مَقتُ الله تعالى إيّاهم، أي: بغضُه الشديد الذي ليس وراءَه خزي وصَغار، / وخَسارُ الآخرةِ الذي ما بعده شرّ وخَسار. والتكرير لزيادة التقرير، والتنبيهِ على أنّ اقتضاء الكفر لكلّ واحد مِن الأمرَين الهائلَين القبيحَين بطريق الاستقلال والأصالة. [٣٨٦و]

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: آلهتَكم، والإضافة إليهم لأنّهم جعلوهم شركاءَ لله تعالى مِن غير أن يكون له أصل ما أصلًا. وقيل: جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه،[١] ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه.

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، كأنّه قيل: أخبروني عن شركائكم، أرُوني أيَّ جزء خَلقوا مِن الأرض. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أم لهم شركة مع الله سبحانه في خَلق السماوات ليستحقّوا بذلك شركة في الألوهيّة ذاتيّة.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنّا اتّخذناهم شركاء، ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: حجّةٍ ظاهرةٍ مِن ذلك الكتاب بأنّ لهم شركةً جَعليّةً. ويجوز أن يكون ضمير ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ للمشركين، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾... إلخ [الروم، ٣٠/٣٥]. وقُرئ: "عَلَى بَيِّنَاتٍ"،[٢] وفيه إيماء إلى أنّ الشرك أمرٌ خطير لا بدَّ في إثباته مِن تعاضد الدلائل.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٦١.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر والكسائي ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٢.

﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لمّا نُفِي أنواعُ الحجج في ذلك أُضرِبَ عنه بذِكر ما حملهم عليه، وهو تغريرُ الأسلاف للأخلاف، وإضلالُ الرؤساء للأتباع، بأنّهم شفعاء عند الله، يشفعون لهم بالتقرّب إليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾ استئناف مَسوق لبيان غاية قُبح الشرك وهَوْلِه، أي: يُمسكهما كراهةَ زوالهما، أو يمنعهما أن تزولا؛ / لأنّ الإمساك منع. ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا﴾ أي: ما أمسكهما ﴿مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ مِن بعد إمساكه تعالى، أو مِن بعد الزوال. والجملة سادّة مسدَّ الجوابَين، و﴿مِنۡ﴾ الأولى مَزيدة لتأكيد العموم، والثانية للابتداء. [٣٨٦ظ]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ غيرَ معاجِل بالعقوبة التي تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتَين بأن تُهَدّا هدًّا حسبما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [مريم، ١٩/٩٠]. وقُرئ: "وَلَوْ زَالَتَا".[١]

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢﴾

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾ بلغ قريشًا قبلَ مَبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أَتَتهم الرسل فكذّبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكوننّ أهدى مِن إحدى الأمم اليهودِ والنصارى وغيرِهم، أو مِن الأمّة التي يقال لها: "إحدى الأمم"، تفضيلًا لها على غيرها في الهدى والاستقامة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ وأيُّ نذير؛ أشرفُ الرسل عليهم السلام ﴿مَّا زَادَهُمۡ﴾ أي: النذير أو مجيئُه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعدًا عن الحقّ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بدل مِن ﴿نُفُورًا﴾،[١] أي: مفعول له ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕ﴾ أصلُه: "وأن مكَروا السَّيّئَ"، أي: المكرَ السيّئَ، ثمّ "ومكرًا السيّئَ"، ثمّ ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕ﴾. وقُرئ بسكون "الهمزة" في الوصل،[٢] ولعلّه اختلاس ظُنَّ سكونًا، أو وقفةٌ خفيفة.[٣] وقُرئ: "مَكْرًا سَيِّئًا".[٤]

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: سنّة الله فيهم بتعذيب مكذّبيهم، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾
[٣٨٧و] بأن يضع موضعَ العذاب غيرَ العذاب، / ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ بأن ينقله مِن المكذّبين إلى غيرهم. و"الفاء" لتعليل ما يفيده الحكمُ بانتظارهم العذابَ مِن مجيئه. ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارةٌ عن نفي وجودها بالطريق البرهاني. وتخصيصُ كلّ منهما بنفيٍ مستقلٍّ لتأكيد انتفائهما.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ استشهاد على ما قبلَه مِن جرَيان سنّته تعالى على تعذيب المكذّبين بما يشاهدونه في مسائرهم إلى الشام واليمن والعراق مِن آثار دمار الأمم الماضية العاتية. و"الهمزة" للإنكار والنفي. و"الواو" للعطف على مقدَّر يليق بالمقام، أي: أَقَعَدوا في مساكنهم ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة مَن قبلهم؟

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٢.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٦١٩، ونقل القرطبي عن القشيري قوله: «وقرأ حمزة: "وَمَكْرَ السَّيِّئْ" بسكون "الهمزة"، وخطّأه أقوام، وقال قوم: لعلّه وقفَ عليه لأنّه تمام الكلام، فغلط الراوي... وقلنا: ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قرأه فلا بدّ مِن جوازه، ولا يجوز أن يُقال: إنّه لَحن، ولعلّ مراد مَن صار إلى التخطئة أنّ غيره أفصح منه، وإن كان هو فصيحًا». تفسير القرطبي، ١٤/٣٥٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.

﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ وأطولَ أعمارًا، فما نفعهم طولُ المدَى، وما أغنى عنهم شدّة القوى. ومحلّ الجملة النصب على الحاليّة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: ليسبقَه ويفوته ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اعتراض مقرِّر لِما يُفهم ممّا قبله مِن استئصال الأمم السالفة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ أي: مبالِغًا في العلم والقدرة، ولذلك عَلِم بجميع أعمالهم السيّئة، فعاقبَهم بموجَبها؛ تعليلٌ لذلك.

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ جميعًا ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ مِن السيّئات كما فُعل بأولئك ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ أي: على ظهر الأرض ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ مِن نَسَمة تدبّ عليها مِن بني آدم. وقيل: ومِن غيرهم أيضًا مِن شؤم معاصيهم. وهو المرويّ عن ابن مسعود وأنس رضي الله تعالى[1] عنهما.[2] ويعضد الأوّلَ قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ وهو يوم القيامة، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم، إن خيرًا فخَير، وإن شرًّا فشرّ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنّة؛ أنِ ادخل مِن أيّ باب شئت».[3]

---

١ س - تعالى.

٢ رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «كادَ الجُعل يُعذَّب في جُحره بذنب ابن آدم»، ثم قرأ هذه الآية. وروي عن أنس رضي الله عنه: «إنّ الضبّ ليموت هزلًا في جُحره بذَنب ابن آدم». **الكشف والبيان** للثعلبي، ١١٧/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٦١٩/٣.

٣ ط س + تم. | **الكشف والبيان** للثعلبي، ٩٧/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٠٠/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٣٥

سورة فاطر

مكية، وهي خمس أو ست وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿**الحَمدُ لِلهِ**﴾ ـ حَمِدَ الله ـ تعالى ـ نفسَه بذلك كما بُيِّن في أوّل سورة «سبأ» ـ ﴿**فاطِرِ السَّماواتِ والأرضِ**﴾: خالقِهما على غير مِثال سَبق، ﴿**جاعِلِ المَلائكةِ رُسُلاً**﴾ إلى الأنبياء ﴿**أُولِي أجنِحةٍ مَثنَى وثُلاثَ ورُباعَ، يَزِيدُ في الخَلقِ**﴾ في الملائكة وغيرها ﴿**ما يَشاءُ. إنَّ اللهَ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، ما يَفتَحِ اللهُ لِلنّاسِ مِن رَحْمةٍ**﴾ كرِزق ومطر ﴿**فلا مُمسِكَ لَها، وما يُمسِكْ**﴾ من ذلك ﴿**فلاَ مُرسِلَ لَهُ مِن بَعدِهِ**﴾ أي: بعدِ إمساكه، ﴿**وهُوَ العَزِيزُ**﴾: الغالب على أمره ﴿**الحَكِيمُ**﴾ في فِعله.

٣ ـ ﴿**يا أيُّها النّاسُ**﴾ أي أهلَ مكّة،..................................

سورة فاطر

قولُه: (إلى الأَنْبِيَاءِ) أو وسائِطَ بينَ اللهِ وبينَ أنبيائِهِ وأوليائِهِ بالوَحْيِ، والإلهامِ، والرُّؤيا الصَّادقةِ.

قولُه: (وغَيرِهَا) الأولى: وغيرِهِم، والآيةُ متناوِلَةٌ زياداتِ الصُّوَرِ والمعاني؛ كمَلاحَةِ الوجْهِ، وحُسنِ الصَّوتِ، وحصافَةِ العقلِ، وسماحةِ النَّفسِ، وعن ابنِ مسعودٍ بالحاءِ المهملةِ[١].

قولُه: (ومَطَرٍ) ونعمَةٍ، وأمنٍ، وصِحَّةٍ، وعِلمٍ، وعَمَلٍ، ونبوَّةٍ، وولايَةٍ.

قولُه: (مِنْ ذلِكَ) الظَّاهرُ: منها ومن غيرِها؛ إذِ اختلافُ الضَّميرَينِ في المجرورَينِ؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ الأوَّلَ: مفسَّرٌ بالرَّحمةِ، والثَّاني: مطلقٌ يتناولُها والغضب، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ رحمتَهُ سبقَت غضبَهُ.

قولُه: (أيْ: أهْلَ مكَّةَ) تقييدٌ عنِ المرادِ بعيدٌ، فإنَّهم ـ وإن كانوا أهلَ زمَنِ النُّزولِ ـ لا يختصُّ الحُكمُ بهم،

---

(١) أي: (يزيد في الحلق) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٩٤).

﴿اذكُروا نِعمَةَ اللهِ علَيكُم﴾ بإسكانكم الحرمَ ومنع الغارات عنكم. ﴿هَل مِن خالِقٍ﴾ ـ من: زائدةٌ، وخالقٍ: مبتدأ ـ ﴿غَيرُ اللهِ﴾، بالرفع والجرّ: نعتٌ لـ «خالق» لفظًا ومحلًّا، وخبر المُبتدإ: ﴿يَرزُقُكُم مِنَ السَّماءِ﴾ المطرَ ﴿و﴾ من ﴿الأرضِ﴾ النباتَ؟ والاستفهام للتقرير، أي: لا خالقَ رازقٌ غيرُه. ﴿لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ. فأنّى تُؤفَكُونَ﴾: من أين تُصرَفون عن توحيده مع إقراركم بأنه الخالق الرازق؟ ٤ ـ ﴿وإن يُكَذِّبُوكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ في مجيئك بالتوحيد والبعث والحِساب والعِقاب ﴿فقَد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبلِكَ﴾ في ذلك. فاصبر كما صبروا. ﴿وإلَى اللهِ تُرجَعُ الأُمُورُ﴾ في الآخرة، فيُجازي المُكذّبين، وينصر المُرسَلِينَ.

٥ ـ ﴿يا أيُّها النّاسُ، إنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بالبعث وغيره ﴿حَقٌّ. فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنيا﴾ عن الإيمان بذلك، ﴿ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ﴾ في حِلمه وإمهاله ﴿الغَرُورُ﴾: الشيطانُ. ٦ ـ ﴿إنَّ الشَّيطانَ لَكُم عَدُوٌّ. فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بطاعة الله ولا تُطيعوه. ﴿إنَّما يَدعُو حِزبَهُ﴾: أتباعه في الكُفر ﴿لِيَكُونُوا مِن أصحابِ السَّعِيرِ﴾: النار الشديدة. ٧ ـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم عَذابٌ شَدِيدٌ، والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُم مَغفِرةٌ وأجرٌ كَبِيرٌ﴾. هذا بيانُ ما لمُوافقِي الشيطان وما لمُخالفِيه.

ونزل في أبي جهل وغيره: ٨ ـ ﴿أفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ بالتمويه،........................

فإنَّ العبرَةَ بعمومِ اللَّفظِ وهم يدخُلونَ دخولاً أوّليًّا، وأمَّا ما قيلَ: من أنَّ كلَّ ما كانَ في القرآنِ من قولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهُم أهلُ مكَّةَ، ومن قولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهُم أهلُ المدينةِ، فليسَ مرادُهُ أنَّهُم المرادُ فقط، بل المرادُ أنَّ تلكَ الآيةَ مكّيَّةٌ، والأخرى مدنيَّةٌ.

قولُه: (بإسْكَانِكُم) قالَ تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

قولُه: (والجَرِّ) حمزةُ والكسائيُّ[١].

قولُه: (لَفظاً ومَحَلًّا) نَشرٌ مُشَوَّشٌ.

قولُه: (للتَّقريرِ) الظَّاهرُ: أنَّه للنَّفي.

قولُه: (ويَنصُرُ المُسلِمِينَ) الأَولى: ويثبِّتُ المصدِّقينَ.

قولُه: (عَنِ الإِيمَانِ) فيشغلُكُم بالتَّمتُّعِ بها والتَّنعُّمِ فيها عن طَلَبِ الآخرَةِ والسَّعي لها.

قولُه: (الشَّيطَانُ) بأن يمنِّيَكُمُ المغفرةَ مع الإصرارِ على المعصيَةِ، أو بأن يقولَ: لا ثوابَ ولا عِقابَ.

قولُه: (هَذا بَيَان) وقطعٌ للأماني الفارغَةِ، وبناءٌ للأمرِ كُلِّهِ على الإيمانِ والعمَلِ الصَّالِحِ.

قولُه: (بالتَّمْوِيهِ) بأن غَلَبَ وهمُهُ وهواهُ على عقلِهِ حتَّى انتكَسَ رأيُهُ، فرأى الباطِلَ حَقًّا والقَبيحَ حُسْناً.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٣٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٢).

﴿فرَآهُ حَسَنًا﴾ مَن: مبتدأ خبرُه: كمن هداه اللهُ؟ لا. دلّ عليه: ﴿فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ، ويَهدِي مَن يَشاءُ ـ فلا تَذهَبْ نَفسُكَ عليهِم﴾: على المُزيَّن لهم ﴿حَسَراتٍ﴾ باغتمامك أن لا يُؤمنون. ﴿إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصنَعُونَ﴾ فيُجازيهم عليه ـ ٩ ـ ﴿واللهُ الَّذِي أرسَلَ الرِّياحَ﴾ ـ وفي قراءة: «الرِّيحَ» ـ ﴿فتُثِيرُ سَحابًا﴾، المضارعُ لحكاية الحال الماضية، أي: تُزعِجه، ﴿فسُقْناهُ﴾ ـ فيه التفات عن الغَيبة ـ ﴿إلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾، بالتشديد والتخفيف: لا نباتَ بها، ﴿فأحيَينا بِهِ الأرضَ﴾ من البلد ﴿بَعدَ مَوتِها﴾: يُبسها، أي: أنبتْنا به الزرع والكلأ. ﴿كَذلِكَ النُّشُورُ﴾ أي: البعثُ والإحياء.

١٠ ـ ﴿مَن كانَ يُرِيدُ العِزّةَ فلِلّٰهِ العِزّةُ جَمِيعًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، فلا تُنال منه إلاّ بطاعته، فليُطِعْهُ. ﴿إلَيهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾: يعلمُه ـ وهو «لا إلٰـهَ إلاّ اللهُ»........................

قولُه: (باغتِمَامِكَ) أي: لا تُهلِكْ نفسَكَ عليهم للحَسَراتِ على غَيِّهِم.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لمكِّيٍّ وحمزةَ والكسائيِّ[(١)].

قولُه: (المَاضِيَةِ) استِحضاراً لتلك الصُّورةِ البديعَةِ الدَّالَّةِ على كمالِ القُدرَةِ والحِكمَةِ.

قولُه: (بالتَّشدِيدِ) نافعٌ وكوفيٌّ غيرُ شعبةَ[(٢)].

قولُـه تعالـى: (﴿فَأَحْيَيْنَـا بِـهِ﴾) أي: بالمَطَرِ النَّازلِ منـه، وذِكرُ السَّحابِ كذِكرِهِ، أو: بالسَّحابِ فإنَّه سببُ السَّببِ.

قولُه: (والإِحْيَاءُ) أي: مِثلُ إحياءِ المواتِ نشورُ الأمواتِ في صحَّةِ المقدوريَّةِ.

قولُه: (فلا تُنَالُ إلَّا مِنهُ بِطَاعَتِهِ) وفي نسخةٍ: «فلا تُنَالُ منهُ إلَّا بطاعتِهِ»[(٣)] والأُولى هي الأَولى.

قولُه: (يعلمُهُ) يعني: الصُّعودُ إليه مجازٌ عن علمِهِ، والمشهورُ عن المفسِّرينَ أنَّه مجازٌ عن القَبولِ، وفي «المدارِكِ»: إلى محَلِّ القَبولِ[(٤)].

قولُه: (وَهُو: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) اقتصَرَ عليه الجمهورُ من السَّلفِ[(٥)]، وفي «المدارِكِ»: ﴿الْكَلِمُ الْطَّيِّبُ﴾:

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٧٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٣)، و«حجة القراءات» (ص: ١٥٩).

(٣) وهكذا هي في نسخ المتن.

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٧٩).

(٥) جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿كلمة طيبة﴾ [إبراهيم: ٢٤].

رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠٦٥٨)، والطبراني في «الدعاء» (١٥٩٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ونحوُها ـ ﴿والعَمَلُ الصّالِحُ يَرفَعُهُ﴾: يقبله، ﴿والَّذِينَ يَمكُرُونَ﴾ المكَراتِ ﴿السَّيِّئاتِ﴾ بالنبيِّ في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجه كما ذُكر في «الأنفال» ﴿لَهُم عَذابٌ شَدِيدٌ، ومَكرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾: يَهلِك.

١١ ـ ﴿واللهُ خَلَقَكُم مِن تُرابٍ﴾ بخلق أبيكم آدم منه، ﴿ثُمَّ مِن نُطفَةٍ﴾ أي: مَنِيٍّ بخلق ذُرِّيّته منها، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُم أزواجًا﴾: ذُكورًا وإناثًا، ﴿وما تَحمِلُ مِن أُنثَى ولا تَضَعُ إلاّ بِعِلمِهِ﴾: حالٌ، أي: معلومةً له، ﴿وما يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ﴾ أي: ما يُزاد في عُمرِ طويلِ العُمر، ﴿ولا يُنقَصُ مِن عُمُرِهِ﴾ أي: ذلك المُعمَّرِ أو مُعمَّرٍ آخَرَ، ﴿إلاّ في كِتابٍ﴾، هو اللوح المحفوظ. ﴿إنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾: هيِّنٌ.

كلماتُ التَّوحيدِ؛ أي: لا إلهَ إلَّا الله[١]، فأشارَ إلى أنَّ الجمعَ باعتبارِ الذَّواتِ، ويحتمِلُ أن يكونَ باختلافِ الأوقاتِ.

قولُه: (ونَحْوُهَا) قالَ القاضي[٢]: وقيلَ: ﴿الكلم الطيب﴾ يتناولُ الذِّكرَ، والدُّعاءَ، وقراءةَ القرآنِ.

قولُه: (يَقْبَلُهُ) فالمُستكَنُّ للهِ، وعن ابنِ عبَّاسٍ وأكثرِ المفسِّرينَ: أنَّهُ لـ﴿الكلم﴾[٣]، فإنَّ العملَ لا يُقبَلُ إلَّا بالتَّوحيدِ، وقيل: للعملِ فإنَّه يحقِّقُ الإيمانَ ويقوِّيه.

قولُه: (يَهلِكُ) أي: يفسُدُ ولا ينفُذُ؛ لأنَّ المقدَّرَ لا يتغيَّرُ.

قولُه: (ذُكُوراً) أو أصنافاً من عرَبٍ وعَجَمٍ.

قولُه: (طَوِيلِ العُمُرِ) أي: مِن مصيرِهِ إلى الكِبَرِ.

قولُه: (أي: ذَلِكَ المُعَمَّرِ) يعني: الزِّيادةُ والنُّقصَانُ في عمُرٍ واحدٍ بأسبابٍ مختلفةٍ أُثبِتَتْ في اللَّوحِ، مِثلَ أن يكونَ فيه: إن حَجَّ زيدٌ فعمرُهُ ستُّونَ، وإلَّا فأربعونَ.

وقيل: المرادُ بالنُّقصانِ: ما يمرُّ من عُمُرِه وينتقصُ، فإنَّه يُكتَبُ في صحيفةِ عُمُرِه يوماً فيوماً، أو للمُعمَّرِ؛ أي: ذي عُمُرٍ، على التَّسامحِ فيه ثقةً بفهمِ السَّامعِ.

قولُه: (أو مُعَمَّرٍ آخَرَ) أي: مِن عُمُرِ المعمَّرِ لغيرِه، بأن يُعطى له عُمرٌ ناقصٌ من عمرِهِ، أو: لا يُنقَصُ من عُمُرِ المنقوصِ عمرُهُ بجعلِهِ ناقصاً، والضَّميرُ للمنقوصِ وإن لم يُذكَرْ؛ لدلالةِ مقابِلِه عليه.

قولُه: (هُوَ اللَّوحُ) أو الصَّحيفَةُ، أو عِلمُ اللهِ.

قولُه: (هَيِّنٌ) والإشارةُ إلى الحفظِ، أو الزِّيادةِ والنَّقصِ.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٧٩).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٥٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٤٥) عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة.

١٢ ـ ﴿وما يَستَوِي البَحرانِ، هذا عَذبٌ فُراتٌ﴾: شديد العُذوبة ﴿سائغٌ شَرابُهُ﴾: شُربه، ﴿وهذا مِلحٌ أُجاجٌ﴾: شديد المُلوحة، ﴿ومِن كُلٍّ﴾ منهما ﴿تأكُلُونَ لَحمًا طَرِيًّا﴾ هو السَّمك، ﴿وتَستَخرِجُونَ﴾ من المِلح، وقيل: منهما ﴿حِليَةً تَلبَسُونَها﴾ هي اللؤلؤ والمَرجان، ﴿وتَرَى﴾: تُبصِر ﴿الفُلكَ﴾: السُّفن ﴿فِيهِ﴾: في كُلّ منهما ﴿مَواخِرَ﴾: تمخر الماء، أي: تشقّه بجريها فيه مُقبِلة ومُدبرة بريح واحدة، ﴿لِتَبتَغُوا﴾: تطلبوا ﴿مِن فَضلِهِ﴾ ـ تعالى ـ بالتجارة، ﴿ولَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ اللهَ على ذلك.

١٣ ـ ﴿يُولِجُ﴾: يُدخِلُ اللهُ ﴿اللَّيلَ في النَّهارِ﴾ فيزيد، ﴿ويُولِجُ النَّهارَ﴾: يُدخِله ﴿في اللَّيلِ﴾ فيزيد، ﴿وسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ، كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجرِي﴾ في فَلكه ﴿لِأجَلٍ مُسَمًّى﴾: يومِ القيامة. ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم لَهُ المُلكُ، والَّذِينَ تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: غيرَه ـ وهم الأصنام ـ ﴿ما يَملِكُونَ مِن قِطمِيرٍ﴾: لِفافة النواة، ١٤ ـ ﴿إن تَدعُوهُم لا يَسمَعُوا دُعاءَكُم، ولَو سَمِعُوا﴾ ـ فَرَضًا ـ ﴿ما استَجابُوا لَكُم﴾: ما أجابوكم، ﴿ويَومَ القِيامةِ يَكفُرُونَ بِشِركِكُم﴾: بإشراككم إياهم مع الله، أي: يتبرّؤون منكم ومن عِبادتكم إياهم. ﴿ولا يُنَبِّئُكَ﴾ بأحوال الدارين ﴿مِثلُ خَبِيرٍ﴾: عالم، وهو الله تعالى.

١٥ ـ ﴿يا أيُّها النّاسُ، أنتُمُ الفُقَراءُ إلَى اللهِ﴾ بكُلّ حال، ﴿واللهُ هُوَ الغَنِيُّ﴾ عن خلقه ﴿الحَمِيدُ﴾ المحمود في صُنعه بهم، ١٦ ـ ﴿إن يَشَأ يُذهِبكُم ويأتِ بِخَلقٍ جَدِيدٍ﴾ بدلَكم، ١٧ ـ ﴿وما ذلِكَ علَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾: شديد.

قولُه: (شَدِيدُ العُذُوبَةِ) الَّذي يكسِرُ العطشَ.

قولُه: (شُرْبُهُ) أي: شُرْبُ شرابِهِ؛ إذِ السَّائغُ: الَّذي يسهُلُ انحدارُه.

قولُه: (شَدِيدُ المُلُوحَةِ) الَّذي يُحرِقُ لملوحتِهِ، مَثَلٌ للمؤمنِ والكافرِ.

قولُه: (مِنَ المِلْحِ) فيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ الحِليَةَ زينةُ الكفَّارِ غالباً.

قولُه: (وقِيلَ: مِنهُمَا) وهو الظَّاهرُ من ﴿كُلٍّ﴾.

قولُه: (برِيْحٍ وَاحِدَةٍ) أو برياحٍ مختلِفَةٍ.

قولُه: (بالتِّجَارَةِ) والنُّقلَةِ فيها.

قولُه: (يَوم القِيَامَةِ) أو مدَّةَ دورِ كُلٍّ، أو منتهاهُ.

قولُه: (مَا أَجَابُوكُم) لعَدَمِ قُدرَتِهم.

قولُه: (عَالِم) بها أخبرَكَ.

قولُه: (بَدَلَكُم) أي: بقومٍ آخرينَ أطوَعَ منكم، أو بعالَمٍ آخرَ غيرَ ما تعرفونَهُ.

قولُه: (شَدِيدٍ) أي: متعذِّرٍ أو متعسِّرٍ.

١٨ ـ ﴿ولا تَزِرُ﴾ نفسٌ ﴿وازِرةٌ﴾: آثمة، أي: لا تحمل ﴿وِزرَ﴾ نفسٍ ﴿أُخرَى، وإن تَدعُ﴾ نفسٌ ﴿مُثقَلةٌ﴾ بالوِزر ﴿إلَى حِملِها﴾ منه أحدًا ليحمل بعضَه ﴿لا يُحمَلْ مِنهُ شَيءٌ، ولَو كانَ﴾ المدعوُّ ﴿ذا قُربَى﴾: قرابةٍ كالأب والابن. وعدمُ الحمل في الشِّقّين حُكمٌ من الله. ﴿إنَّما تُنذِرُ الَّذِينَ يَخشَونَ رَبَّهُم بِالغَيبِ﴾ أي: يخافونه وما رأوه لأنهم المنتفعون بالإنذار، ﴿وأقامُوا الصَّلاةَ﴾: أداموها، ﴿ومَن تَزَكَّى﴾: تطهّرَ من الشِّرك وغيره ﴿فإنَّما يَتَزَكَّى لِنَفسِهِ﴾: فصلاحهُ مُختصّ به، ﴿وإلَى اللهِ المَصِيرُ﴾: المَرجِعُ فيَجزي بالعمل في الآخرة.

١٩ ـ ﴿وما يَستَوِي الأعمَى والبَصِيرُ﴾: الكافر والمؤمن، ٢٠ ـ ﴿ولا الظُّلُماتُ﴾: الكُفر ﴿ولا النُّورُ﴾: الإيمان، ٢١ ـ ﴿ولا الظِّلُّ ولا الحَرُورُ﴾: الجنّة والنار، ٢٢ ـ ﴿وما يَستَوِي الأحياءُ ولا الأمواتُ﴾: المؤمنون والكُفّار. وزيادة «لا» في الثلاثة تأكيد...

قولُه: (نَفْسٌ) أي: إِثْمَ نَفْسٍ(١).

قولُه: (مِنْهُ) أي: إلى أن تحمِلَ حِملَها.

قولُه: (المَدْعُوُّ) أو الدَّاعي، يدلُّ عليه: ﴿وإِنْ تَدْعُ﴾.

قولُه: (في الشِّقَّينِ) يعني: نَفى أن يحمِلَ عنها ذَنْبَها كما نفى أن يَحمِلَ عليها ذَنْبَ غيرِها.

قولُه: (ومَا رَأَوْهُ) أي: غائبينَ عن عذابِهِ، أو: غائِباً عنهم عذابُهُ.

وقيلَ: غائبينَ عن النَّاسِ في خَلَواتِهِم كما يخشَونَ في جَلَواتِهِم.

قولُه: (لأنَّهُم) تَعليلٌ للتَّخصيصِ المفهومِ من الحصْرِ.

قولُه: (فَصَلاحُهُ) أي: نفعُهُ.

قولُه: (الكَافِرُ) وقيلَ: مَثَلانِ للصَّنَمِ وله تَعالى.

قولُه: (الكُفرُ) أو الباطِلُ.

قولُه: (الإِيمَانُ) أو الحقُّ.

قولُه: (الجَنَّةُ) أو الثَّوابُ والعِقابُ.

قولُه: (في الثَّلاثَةِ) يعني: المواضِعَ الثَّلاثةَ مكرَّرةً في الأوَّلينِ وغيرَ مكرَّرةٍ في الأخيرِ، فشملَ التَّأكيدَ والزِّيادةَ اللَّذينِ أشارَ إليهما البيضاويُّ بقولِهِ: و﴿لا﴾ لتأكيدِ نفيِ الاستواءِ وتكريرُها على الشِّقَّينِ لزيادةِ

---

(١) أي: ولا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نفسٍ أُخرى.

﴿إنَّ اللهَ يُسمِعُ مَن يَشاءُ﴾ هِدايتَه فيُجيبه بالإيمان، ﴿وما أنتَ بِمُسمِعٍ مَن في القُبُورِ﴾ أي: الكُفّارَ. شبّههم بالموتى، فلا يجيبون. ٢٣ ـ ﴿إنْ﴾: ما ﴿أنتَ إلاّ نَذِيرٌ﴾: مُنذرٌ لهم.

٢٤ ـ ﴿إنّا أرسَلْناكَ بِالحَقِّ﴾: الهُدى ﴿بَشِيرًا﴾ مَن أجاب إليه، ﴿ونَذِيرًا﴾ مَن لم يُجب إليه، ﴿وإنْ﴾: ما ﴿مِن أُمّةٍ إلاّ خَلا﴾: سلفَ ﴿فِيها نَذِيرٌ﴾: نبيٌّ يُنذرها، ٢٥ ـ ﴿وإن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: أهلُ مكّة ﴿فقَد كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم، جاءَتْهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ﴾: المُعجزات ﴿وبِالزُّبُرِ﴾ كصُحف إبراهيم ﴿وبِالكِتابِ المُنِيرِ﴾ هو التوراة والإنجيل ـ فاصبر كما صبروا ـ ٢٦ ـ ﴿ثُمَّ أخَذتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتكذيبهم، ﴿فكَيفَ كانَ نَكِيرِ﴾: إنكاري عليهم بالعُقوبة والإهلاك؟ أي: هو واقعٌ موقعه.

٢٧ ـ ﴿ألَم تَرَ﴾: تعلمْ ﴿أنَّ اللهَ أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، فأخرَجْنا﴾ ـ فيه التفات عن الغَيبة ـ ﴿بِهِ ثَمَراتٍ مُختَلِفًا ألوانُها﴾ كأخضرَ وأحمرَ وأصفرَ وغيرِها، ﴿ومِنَ الجِبالِ جُدَدٌ﴾: جمع جُدّةٍ: طريقٍ في الجبل وغيرِه، ﴿بِيضٌ وحُمرٌ﴾ وصفر ﴿مُختَلِفٌ ألوانُها﴾ بالشِّدّة والضعف، ﴿وغَرابِيبُ سُودٌ﴾: عطف على «جدد» ....

التّأكيدِ[1]؛ لأنّ زيادةَ التّأكيدِ تأكيدٌ.

قولُه: (بالهُدَى) أي: بالدِّينِ الحقِّ، فهو مفعولٌ به، أو: مُحِقِّينَ، أو: مُحِقًّا، أو: إرسالاً مصحوباً بالحقِّ.

قولُه: (سَلَفَ) ومَضَى.

قولُه: (نَبِيٌّ يُنذِرُهَا) أو عالِمٌ ينذرُها نيابةً عنه، والاكتفاءُ بذكرِه[2]؛ للعِلمِ بالقرينةِ، ولأنَّ الإنذارَ هو المقصودُ الأهمُّ من البعْثَةِ، أو هو المقدَّمُ بمنزلَةِ الاحتماءِ والتَّخليَةِ.

قولُه: (المُعجِزَاتِ) الشَّاهدَةِ على نُبوَّتِهم.

قولُه: (كصُحُفِ إبْرَاهِيمَ) وزَبورِ داودَ.

قولُه: (وغَيْرِها) أو المرادُ بـ﴿ألوانُها﴾: أجناسُها، أو: أصنافُها على أنَّ كلًّا منها لها أصنافٌ.

قولُه: (جُدَّةٍ) بالضَّمِّ.

قولُه: (طَرِيقٍ) أي: خطٌّ.

قولُه: (وصُفرٌ) وخُضرٌ.

قولُه: (عَلَى ﴿جُدَدٌ﴾) والأقربُ: على ﴿بِيضٌ﴾.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٥٧).

(٢) أي: بذكر النذير وعدم اقترانه بالبشير.

أي: صخورٌ شديدة السواد ـ يقال كثيرًا: أسودُ غِربيبٌ، وقليلاً: غِربيبٌ أسودُ ـ ٢٨ ـ ﴿ومِنَ النّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ مُختَلِفٌ ألوانُهُ كَذلِكَ﴾: كاختلاف الثِّمار والجِبال؟ ﴿إنَّما يَخشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ﴾ بخِلاف الجُهّال ككُفّار مكّة. ﴿إنَّ اللهَ عَزيزٌ﴾ في مُلكه ﴿غَفُورٌ﴾ لذُنوب عِباده المؤمنين.

٢٩ ـ ﴿إنَّ الَّذينَ يَتلُونَ﴾: يقرؤون ﴿كِتابَ اللهِ، وأقامُوا الصَّلاةَ﴾: أداموها ﴿وأنفَقُوا مِمّا رَزَقْناهُم سِرًّا وعَلانِيَةً﴾ زكاةً وغيرها، ﴿يَرجُونَ تِجارةً لَن تَبُورَ﴾: تَهلِك، ٣٠ ـ ﴿لِيُوَفِّيَهُم أُجُورَهُم﴾: ثواب أعمالهم المذكورة، ....

قولُه: (أي: صُخُورٌ) كأنَّه قيل: ومن الجبالِ ذُو جُدَدٍ ومختلفُ اللَّونِ، ومنها غرابيبُ متَّحِدَةُ اللَّونِ.

قولُه: (أَسوَدُ غِرْبِيبٌ) فإنَّ حَقَّ التَّأكيدِ أن يَتْبَعَ المؤكَّدَ.

قولُه: (وقَلِيلاً) في «القاموسِ»: ﴿سود﴾: بدلٌ؛ لأنَّ توكيدَ الألوانِ لا يتقدَّمُ[1]. ولعلَّ العُدولَ عن الكثيرِ مراعاةٌ للفاصلةِ.

قولُه: (بخِلافِ الجُهَّالِ) إذ شرطُ الخشيَةِ معرِفَةُ المخشِيِّ، والعلمُ بصفاتِهِ وأفعالِهِ، فمَن كانَ أعلمَ به كانَ أخشى له، ولذا قالَ ﷺ: «إنِّي أعلَمُكم باللهِ وأخْشَاكُم لَهُ»[2]، ولذا أتبَعَهُ ذِكرَ أفعالِهِ الدَّالَّةِ على كمالِ قدرتِهِ، وتقديمُ المفعولِ لأنَّ المقصودَ حَصرُ الفاعليَّةِ، ولو أخَّرَ انعكسَ الأمرُ.

وقُرِئَ برفعِ اسمِ (اللهُ) ونصْبِ: (العلماءَ[3] على أنَّ الخشيةَ مستعارَةٌ للتَّعظيمِ، فإنَّ المعظَّمَ يكونُ مَهيباً، ولذا قيل: الخشيةُ خوفٌ معَ تعظيمٍ، فحيثُ استُعمِلَ في أحدِهما يكونُ تجريداً.

قولُه: (يَقرَؤُونَ) يداومونَ على قراءَتِهِ ـ أو متابَعَةِ ما فيهِ ـ حتَّى صارَ سَمْتاً لهم وعُنواناً.

قولُه: (زَكَاةً وغَيْرَهَا) أي: كيفَ اتَّفق مِن غيرِ قصدٍ إليهما.

وقيل: السِّرُّ في المسنونَةِ، والعلانيَةُ في المفروضَةِ.

قولُه: (تَهلِكَ) وتَكسدَ، والمرادُ بالتِّجارةِ: تحصيلُ الثَّوابِ بالطَّاعةِ.

قولُه: (ثَوَابَ أعْمَالِهِم) عِلَّةٌ لمدلولِ ما عُدَّ من أفعالِهم نحوَ: فعَلوا ذلك، أو عاقبةٌ لـ﴿يرجُونَ﴾[4].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٢٠).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٤٩١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها. ورواه البخاري (٢٠) من وجه آخر عنها، بلفظ: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا». ورواه مسلم (١١١٠) من وجه آخر أيضاً عنها بلفظ: «والله، إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي».

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٩٦) ونسبت لعمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة.

(٤) الكلام هنا عن قوله تعالى: ﴿ليوفيهم أجورهم﴾، فهو إما علة لمدلولِ ما عدَّ مِن أفعالِهم نحو: فَعَلوا ذلك ليوفِّيَهُم، أو عاقبةٌ =

﴿وَيَزِيدَهُم مِن فَضلِهِ. إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لذُنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعتهم.

٣١ ـ ﴿وَالَّذِي أَوحَينا إِلَيكَ مِنَ الكِتابِ﴾: القُرآنِ ﴿هُوَ الحَقُّ، مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيهِ﴾: تقدَّمَه من الكُتب ـ ﴿إِنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾: عالم بالبواطن والظواهر ـ ٣٢ ـ ﴿ثُمَّ أَورَثْنا﴾: أعطينا ﴿الكِتابَ﴾: القُرآنَ ﴿الَّذِينَ اصطَفَينا مِن عِبادِنا﴾ وهم أُمَّتك، ﴿فَمِنهُم ظالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالتقصير في العمل به، ﴿وَمِنهُم مُقتَصِدٌ﴾ يعمل به في أغلب الأوقات، ﴿وَمِنهُم سابِقٌ بِالخَيراتِ﴾ يضمّ إلى العمل به التعليمَ والإرشاد إلى العمل ﴿بِإِذنِ اللهِ﴾: بإرادته. ....

قولُه: (لذُنُوبِهِم) أي: فَرَطاتِهِم.

قولُه: (لطَاعَتِهِم) أي: مجازيهِم عليها، وقالَ سهلٌ[1]: غفورٌ لذنوبٍ كثيرةٍ، شَكورٌ لأعمالٍ يسيرةٍ.

قولُه: (أَعْطَيْنَا) أي: عطاءً بلا كَدٍّ وتعَبٍ كالإرْثِ.

قولُه: (وَهُم أُمَّتُكَ) يعني: ﴿الَّذينَ اصطفَيْنَا﴾، وعليه الجمهورُ، و﴿مِنْ﴾ للتَّبيينِ أو للتَّبعيضِ.

قولُه: (وَهُم أُمَّتُكَ) يعني: أُمَّةَ الإجابةِ، فإنَّ اللهَ اصطَفَاهُم على سائرِ الأمَمِ، أو المرادُ: عُلَماءُ الأُمَّةِ من الصَّحابَةِ ومن بعدَهُم.

قولُه: (يَضُمُّ) ظاهرُ التَّقسيمِ أن يقولَ: السَّابقُ: دائمُ العملِ، أو يقالَ: الظَّالمُ: الجاهلُ العاملُ، والمقتصدُ: العالِمُ العاملُ، والسَّابقُ: العالمُ العاملُ المعلِّمُ، وعن عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ: الظَّالمُ أنا والمقتصدُ أنا، والسَّابقُ أنا، فقيلَ له: كيفَ ذلك؟ قالَ: أنا الظَّالِمُ بمعصيَتي، ومقتصدٌ بتَوبَتي، وسابقٌ بمحبَّتي[2].

فأشارَ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ إلى وجْهٍ لطيفٍ وشريفٍ، وهو أنَّهُ قد تختَلِفُ الصِّفاتُ باختلافِ الحالاتِ والمقاماتِ.

وقيل: الظَّالِمُ يجزَعُ عندَ البلاءِ، والمقتصِدُ يصبِرُ، والسَّابقُ يتلذَّذُ.

وقيل: الظَّالمُ: الزَّاهدُ، والمقتصدُ: العارفُ، والسَّابقُ: المحِبُّ.

= لـ﴿يرجون﴾. هكذا ذكره البيضاوي لكنه قدم عليه قوله: «﴿لن تبور﴾: لن تكسدَ ولن تهلكَ بالخُسرانِ، صِفَةٌ للتِّجارَةِ، وقوله: ﴿ليوفيهم أجورهم﴾ عِلَّةٌ لمدلوله؛ أي: يَنتَفِي عنها الكسادُ وتَنفُقُ عندَ اللهِ ليوفيَهُم بنَفَاقِها أجورَ أعمالِهم، أو لمدلولِ ما عدَّ مِن أفعالِهم...» إلى باقي ما ذُكر.

(١) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١٢٩).

(٢) لم أقف عليه.

﴿ذلِكَ﴾ أي: إيراثهم الكِتابَ ﴿هُوَ الفَضلُ الكَبِيرُ﴾.

٣٣ ـ ٣٤ ـ ﴿جَنّاتُ عَدنٍ﴾ أي: إقامةٍ، ﴿يَدخُلُونَها﴾، أي: الثلاثةُ ـ بالبناء للفاعل وللمفعول:.....

وقيلَ: المرادُ بهم: الواعظُ بلسانِهِ وبعمَلِهِ[1] وبسرِّهِ، وقيلَ: الجاهلُ والمتعلِّمُ والعالِمُ، وقيلَ: صاحبُ الكبيرةِ والصَّغيرةِ والمجتَنِبُ عنهما.

وقيل: السَّابقُ: الَّذي اشتغلَ بمعادِهِ عن معاشِهِ، والمقتصدُ: الَّذي اشتغَلَ بمعاشِهِ ومعادِهِ، والظَّالمُ: الَّذي اشتغلَ بمعاشِهِ عن معادِهِ.

وقيل: الظَّالمُ: من أخذَ الدُّنيا حَلالاً كانَ أو حراماً، والمقتصدُ: من يجتهِدُ أن لا يأخُذَها إلَّا من حلالٍ، والسَّابقُ: من أعرَضَ عنها جملَةً.

وقيل: الظَّالِمُ: طالبُ الدُّنيا، والمقتَصِدُ: طالبُ العُقْبى، والسَّابقُ: طالبُ المولى.

وقالَ ابنُ عطاءٍ[2]: إنَّما قدَّمَ الظَّالِمُ لئلَّا ييأسَ من فضلِهِ، وقيل: لأنَّ أوَّلَ الأحوالِ معصيةٌ ثمَّ توبةٌ ثمَّ استقامةٌ، وقيل: للإيذانِ بكثرةِ الظَّالمينَ، وأنَّ المقتَصِدينَ قليلٌ بالإضافةِ إليهم، والسَّابقونَ أقلُّ من القَليلِ.

قولُه: (أي: إيرَاثُهُم) أو الاصطفاءُ، أو السَّبقُ.

قولُه: (أي: الثَّلاثَةُ) في الحديثِ المرفوعِ: «سَابِقُنَا سابِقٌ، ومُقتَصِدُنَا ناجٍ، وظالِمُنا مغفُورٌ لَهُ»[3]، وفي «الكشفِ»[4]: عن التِّرمذيِّ عن أبي سعيدٍ عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ في هذهِ الآيةِ: «هَؤُلاءِ كُلُّهُم بمنزلَةٍ واحدةٍ، وكلُّهُم في الجنَّةِ»[5]، أقولُ: «وكلُّهُم» عطفٌ تفسيريٌّ، انتهى.

قولُه: (والمَفعُولِ) بصريٌّ[6].

---

(١) في (د): «وبعلمه».

(٢) وانظر: «حقائق التفسير» (ص: ١٦٣).

(٣) رواه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/ ٤٤٣)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٢/ ٢٠٤) (٢٣٦٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦١)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٠٥) من حديث عمر رضي الله عنه.

وقال العقيلي: وهذا يروى من غير هذا الوجه بنحو هذا اللفظ بإسناد أصلح من هذا.

وقال البيهقي: فيه إرسال بين ميمون بن سياه وبين عمر رضي الله عنه. وروي من وجه آخر غير قوي، عن عمر موقوفاً عليه.

والموقوف رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٣٠٨)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٢).

(٤) هو «الكشف على الكشاف» للقزويني، وانظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٦٥٧).

(٥) رواه الترمذي (٣٢٢٥) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٣٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٢).

خبرُ «جنّاتُ» المبتدأِ ـ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾: خبرٌ ثانٍ ﴿فِيها مِن﴾: بعض ﴿أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤْلُؤٍ﴾ مُرصّعٍ في الذهب، ﴿ولِباسُهُم فِيها حَرِيرٌ، وقالُوا: الحَمدُ لِلهِ الَّذِي أذهَبَ عَنّا الحَزَنَ﴾ جميعَه ـ ﴿إنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ﴾ للذُّنوب ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعات ـ ٣٥ ـ ﴿الَّذِي أحَلَّنا دارَ المُقامةِ﴾ أي: الإقامة ﴿مِن فَضلِهِ، لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ﴾: تعب، ﴿ولا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾: إعياءٌ من التعب لعدم التكليف فيها. وذُكر الثاني التابعُ للأوّل للتصريح بنفيه.

٣٦ ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم نارُ جَهَنَّمَ، لا يُقضَى علَيهِم﴾ بالموت ﴿فيَمُوتُوا﴾ يستريحوا، ﴿ولا يُخَفَّفُ عَنهُم مِن عَذابِها﴾ طَرْفةَ عين ـ ﴿كَذلِكَ﴾ كما جزَيناهم ﴿يُجزَى كُلُّ كَفُورٍ﴾: كافر. بالياء، والنونِ المفتوحة مع كسر الزاي ونصب «كُلَّ» ـ..............................

قولُه: (خَبَرٌ ثَانٍ) أو حالٌ مقدَّرةٌ.

قولُه: (بَعضَ) و﴿مِنْ﴾ الثَّانيةُ بيانٌ.

قولُه: (مُرَصَّعٍ) أي: اللُّؤلؤُ؛ يعني: ﴿لؤلؤٍ﴾ بالجرِّ عطفٌ على ﴿ذَهَبٍ﴾؛ أي: ذهبٍ مُرَصَّعٍ باللُّؤلؤِ، أو مِن ذَهَبٍ في صفاءِ اللُّؤلؤِ، ونصبَهُ نافعٌ وعاصمٌ[1] عطفاً على محلِّ: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾.

قولُه: (جَمِيعَهُ) الشَّامِلَ لحَزَنِ الموتِ، وخوفِ العاقبةِ، وهَمِّ المعاشِ، ووسوسَةِ إبليسَ، وقيلَ: حَزَنِ القطيعةِ، وقيلَ: المحاسبة، وقد أكثَروا حتَّى قالَ بعضُهم: كِرَى الدَّارِ، وقيلَ: التَّحويل، ومعناهُ: أنَّه يعمُّ كلَّ حَزَنٍ من أحزانِ الدِّينِ والدُّنيا حتَّى هذا.

قولُه: (إِعيَاءٌ) وكَلالٌ.

قولُه: (لعَدَمِ التَّكلِيفِ) والكَدِّ.

قولُه: (للتَّصْرِيحِ بنَفيِهِ) مبالغةً.

قولُه: (ليَسْتَرِيحُوا) الظَّاهرُ: فيستَريحوا، ونَصْبُهُ بإضمارِ: أَنْ.

قولُه: (طَرْفَةَ عَيْنٍ) بل كُلَّما خَبَتْ زِيدَ إسعارُها.

قولُه: (كمَا جَزَيْنَاهُم) الصَّوابُ: مثلَ ذلك الجزاءِ.

قولُه: (كَافِرٍ) فيه إشارةٌ إلى الرَّدِّ على القاضي حيثُ قالَ: مبالِغٍ في الكُفْرِ[2].

قولُه: (باليَاءِ) المضمومةِ وفتحِ الزَّاي، ورفعِ (كُلُّ) بصريٌّ.

---

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٥٩٣)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٨٦).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦٠).

٣٧ ـ ﴿وهُم يَصطَرِخُونَ فِيها﴾: يستغيثون بشِدّة وعويل، يقولون: ﴿رَبَّنا، أخرِجْنا﴾ منها، ﴿نَعمَلْ صالِحًا غَيرَ الَّذِي كُنّا نَعمَلُ﴾. فيقال لهم: ﴿أوَلَم نُعَمِّرْكُم ما﴾: وقتًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ، وجاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ الرسول فما أجبتم؟ ﴿فذُوقُوا. فما لِلظّالِمِينَ﴾: الكافرين ﴿مِن نَصِيرٍ﴾: يدفع العذاب عنهم.

٣٨ ـ ﴿إنَّ اللهَ عالِمُ غَيبِ السَّماواتِ والأرضِ ـ إنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما في القُلوب. فعلمه بغيره أولى بالنظر إلى حال الناس ـ ٣٩ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُم خَلائفَ في الأرضِ﴾: جمع خليفة، أي: يخلف بعضكم بعضًا. ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم ﴿فعَلَيهِ كُفرُهُ﴾ أي: وبال كُفره، ﴿ولا يَزِيدُ الكافِرِينَ كُفرُهُم عِندَ رَبِّهِم إلاّ مَقتًا﴾: غضبًا، ﴿ولا يَزِيدُ الكافِرِينَ كُفرُهُم إلاّ خَسارًا﴾ لِلآخرة.

٤٠ ـ ﴿قُلْ: أرَأَيتُم شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ـ وهم الأصنام الذين زعمتم أنهم شركاءُ الله تعالى ـ ﴿أرُونِي﴾: أخبِروني ﴿ماذا خَلَقُوا مِنَ الأرضِ؟ أم لَهُم شِركٌ﴾: شَرِكة مع الله ﴿في﴾ خلق ﴿السَّماواتِ؟ أم آتيناهُم كِتابًا فهُم علَى بَيِّنَةٍ﴾:..........

قولُه: (عَوِيْلٍ) صِياحٍ.

قولُه: (وَقْتاً) فُسِّرَ في حديثٍ مرفوعٍ بالسِّتِّينَ[1]، وعنِ ابنِ عبَّاسٍ: أربعونَ[2]، كذا في «المبهماتِ»[3].

قولُه: (الرَّسُولُ) أو الكتابُ، وقيلَ: العقلُ، أو الشَّيبُ، أو موتُ الأقرانِ.

قولُه: (غَضَباً) أي: شديداً؛ لأنَّ المَقتَ أشَدُّ البُغضِ، والتَّكريرُ للدِّلالةِ على أنَّ اقتضاءَ الكُفرِ لكلِّ واحدٍ مِنَ الأمرينِ مستقِلٌّ باقتضاءِ قُبْحِهِ ووجوبِ التَّجنُّبِ عنه، ويمكنُ أن يكونَ الأوَّلُ للمعانِدينَ والمنافقينَ، والثَّاني لغيرِهِم.

قولُه: (أَخبِرُونِي) ظاهرُه أنَّه تأكيدٌ، وقالَ القاضي: بدلٌ من: ﴿أَرَأَيْتُم﴾ بدلَ الاشتمالِ؛ لأنَّه بمعنى: أخبروني، كأنَّه قالَ: أخبروني عن هؤلاءِ الشُّركاءِ، أروني أيَّ جُزْءٍ من الأرضِ استبدُّوا بخلقِهِ[4]؟!

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٩٢٥)، وفي «المعجم الكبير» (١١/ ١٧٧) (١١٤١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٧): فيه إبراهيم بن الفضل المخزومي وهو ضعيف.

وروى البخاري (٦٤١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أعذر الله إلى امرئ أخَّر أجله، حتى بلَّغه ستِّين سنة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٧٧).

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٨٩).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦١).

حُجّة ﴿مِنهُ﴾ بأنّ لهم معي شركة؟ لا شيء من ذلك. ﴿بَل إنْ﴾: ما ﴿يَعِدُ الظّالِمُونَ﴾: الكافرون ﴿بَعضُهُم بَعضًا إلاّ غُرُورًا﴾: باطلاً بقولهم: الأصنام تشفع لهم.

٤١ ـ ﴿إنَّ اللهَ يُمسِكُ السَّماواتِ والأرضَ أن تَزُولا﴾ أي: يمنعُهما من الزوال، ﴿ولَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿زالَتا إنْ﴾: ما ﴿أمسَكَهُما﴾: يُمسِكُهما ﴿مِن أحَدٍ مِن بَعدِهِ﴾ أي: سواه. ﴿إنَّهُ كانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ في تأخير عِقاب الكُفّار.

٤٢ ـ ﴿وأقسَمُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة ﴿باللهِ جَهدَ أيمانِهِم﴾ أي: غايةَ اجتهادهم فيها ـ ﴿لَئِن جاءَهُم نَذِيرٌ﴾: رسول ـ ﴿لَيَكُونُنَّ أهدَى مِن إحدَى الأُمَمِ﴾: اليهود والنصارى وغيرهما، أي: أيِّ واحدة منهما لِما رأَوا من تكذيب بعضهم بعضًا، إذ «قالَتِ اليَهُودُ: لَيسَتِ النَّصارَى علَى شَيءٍ. وقالَتِ النَّصارَى: لَيسَتِ اليَهُودُ علَى شَيءٍ»، ﴿فلَمّا جاءَهُم نَذِيرٌ﴾ مُحمّد ﷺ ﴿ما زادَهُم﴾ مجيئُه ﴿إلاّ نُفُورًا﴾: تباعُدًا عن الهُدى،

قولُه: (حُجَّةٍ) نافعٌ والشّاميُّ وشعبةُ والكسائيُّ بالجمعِ[١]، والضَّميرُ للمشركين؛ لقولِه: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ [الروم: ٣٥]، ويجوزُ أن يكون للآلهةِ.

قولُه: (لا شَيءَ مِنْ ذَلِكَ) إشارةٌ إلى أنَّ الاستفهامَ للإنكارِ.

قولُه: (الأَصنَامُ) أو: لا بَعثَ.

قولُه: (يَمنَعُهما) لأنَّ الإمساكَ مَنعٌ، أو: كراهةَ أن تَزولا، أو: لئلّا تزولا.

قولُه: (لامُ قَسَمٍ) موطِّئةٌ، وقوله: ﴿زَالَتَا﴾ أي: أرادَتا الزَّوالَ، أو: ﴿زالَتَا﴾ حقيقةً، والإمساكُ بمعنى: الإقامةِ.

قولُه: (سِوَاهُ) أو من بعدِ الزَّوالِ، والجملةُ سادَّةٌ مَسدَّ الجوابَينِ، و﴿مِنْ﴾ الأُولى زائدةٌ، والثّانيةُ للابتِداءِ.

قولُه: (في تَأخِيرِ) متعلِّقٌ بـ﴿حَلِيمًا﴾ يعني: حيثُ أمسكَهُما وكانَتا جَديرَتَينِ بأنْ تُهَدّا هَدًّا كما قالَ تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ [مريم: ٩٠]، وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿غَفُوراً﴾ أي: للمؤمنينَ، أو: لمن تابَ من الكافرينَ.

قولُه: (أي: أَيِّ وَاحِدَةٍ) إشارةٌ إلى عَدَمِ تَعيينِ الواحدةِ، بخلافِ عبارةِ البيضاويِّ: أي: من واحِدةٍ من الأُمَمِ[٢]. فإنَّها مُوهِمَةٌ.

قولُه: (مَجِيئُهُ) على التَّسبُّبِ، أو: النَّذيرُ، وهو الأظهرُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٣٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٤).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦١).

٤٣ ـ ﴿اسْتِكْبارًا في الأرضِ﴾ عن الإيمان: مفعولٌ له ﴿ومَكْرَ﴾ العملِ ﴿السَّيِّءِ﴾ من الشِّرك وغيره، ﴿ولا يَحِيقُ﴾: يُحيط ﴿المَكْرُ السَّيِّئُ إلاّ بأهلِهِ﴾ وهو الماكرُ. ووصفُ المكر بالسيّئ أصل، وإضافته إليه قبلُ استعمالٌ آخر قُدّر فيه مضافٌ حذرًا من الإضافة إلى الصفة.

﴿فهَل يَنظُرُونَ﴾: ينتظرون ﴿إلاّ سُنّةَ الأوّلينَ﴾: سُنّة اللهِ فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم رسلَهم؟ ﴿فلَن تَجِدَ لِسُنّةِ اللهِ تَبدِيلاً، ولَن تَجِدَ لِسُنّةِ اللهِ تَحوِيلاً﴾ أي: لا يُبدَّل بالعذاب غيرُه، ولا يُحوَّل إلى غير مُستحقّه. ٤٤ ـ ﴿أوَلَم يَسِيرُوا في الأرضِ، فيَنظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبةُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم، وكانُوا أشَدَّ مِنهُم قُوّةً﴾ فأهلكَهم الله بتكذيبهم رسلَهم؟ ﴿وما كانَ اللهُ لِيُعجِزَهُ مِن شَيءٍ﴾: يَسبِقَه ويفوته ﴿في السَّماواتِ ولا في الأرضِ. إنَّهُ كانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كُلّها ﴿قَدِيرًا﴾ عليها.

٤٥ ـ ﴿ولَو يُؤاخِذُ اللهُ النّاسَ بِما كَسَبُوا﴾ من المعاصي ﴿ما تَرَكَ علَى ظَهرِها﴾ أي: الأرضِ ﴿مِن دابّةٍ﴾: نسَمة..

قولُه: (مَفعُولٌ لَهُ) أو بدلٌ من: ﴿نُفوراً﴾.

قولُه: (حَذَراً) على مذهَبِ البصريينَ.

قولُه: (أي: لا يُبَدَّلُ) مجهولٌ نائبُهُ (غَيْرُهُ).

قولُه: (بالعَذَابِ غَيْرُهُ) فيه: أنَّ الحُكمَ بالعكسِ، وهو أنّه لا يبدَّلُ العذابُ بغيرِهِ، وكأنّه تَبعَ البيضاويَّ حيثُ قالَ: إذ لا يبدِّلُها بجعلِ غير التَّعذيبِ تعذيباً[1]. قالَ سعدي جلبي: فيه: أنَّ المعنى على العَكْسِ بأن يرحمَهُم مثلاً بَدَلَ التَّعذيبِ[2].

قولُه: (ولا يُحَوَّلُ) بأن ينقلَهُ من المكذِّبينَ إلى غيرِهِم، قالَ صاحبُ «المدارِكِ»: أي: لا يبدلُها في ذاتِها ولا يحوِّلُها عن أوقاتِها[3].

قولُه: (﴿دابّةٍ﴾ نَسَمَة) النَّسمةُ: الرُّوحُ نفسُهُ والإنسان، كذا في «القاموسِ»[4]، فـ«أنوار التنزيل»: الدَّابَّة:

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦١). قال الشهاب في «حاشيته على تفسير البيضاوي» (٧/ ٢٣٠): قوله: «إذ لا يبدلها الخ» إشارة إلى عدم التكرار، فتبديلها بجعل غير التعذيب ـ وهو الرحمة ـ مكان التعذيب، هذا مراده، وهو على ما في بعض النسخ من سقوط قوله: «تعذيباً» ظاهر وعليها فـ«غير التعذيب» مفعول ثان، و«تعذيباً» مفعول أوّل؛ أي: بجعل التعذيب غيره؛ أي: رحمة، فسقط ما قيل: إنّ المعنى على العكس بأن يرحمهم بدل تعذيبه.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٩٣).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١١٦٢).

تدِبّ عليها، ﴿ولكِنْ يُؤخِّرُهُم إلَى أجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: يومِ القيامة. ﴿فإذا جاءَ أجَلُهُم فإنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيرًا﴾ فيُجازيهم على أعمالهم بإثابة المؤمنين وعِقاب الكافرين.

بنسمةٍ[1]. غيرُ ظاهرٍ.

قولُه: (عَلَيهَا) بشؤمِ مَعاصيهِم.

وقيل: المرادُ بالدَّابَّةِ: الإنسُ وحدَهُ؛ لِمَا بعدَهُ، واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ.

* * *

(١) في (د): «فتفسير البيضاوي». وانظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦٢).

سورة فاطر

وتسمَّى: سورة الملائكة، وهي مكِّيَّةٌ كما رُوي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما. وفي «مجمع البيان»: قال الحسن: مكِّيَّةٌ إلَّا آيتين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الآية [٢٩]، ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآية [٣٢](١).

وآيُها ستٌّ وأربعون في المدنيّ الأخير والشامي، وخمس وأربعون في الباقين.

والمناسبة ـ على ما في «البحر» ـ أنَّه عزَّ وجل لمَّا ذكر في آخر السورة المتقدِّمة هلاكَ المشركين أعداءِ المؤمنين وإنزالَهم منازل العذاب، تعيَّن على المؤمنين حمدُه تعالى وشكره، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(٢) [الأنعام: ٤٥].

وينضمُّ إلى ذلك تواخي السورتين في الافتتاح بالحمد، وتَقَارُبِهما في المقدار وغير ذلك.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: موجِدهما من غير مثالٍ يحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه، فالفَطْرُ: الإبداع. وقال الراغب: هو إيجادُه تعالى الشيءَ وإبداعُه على هيئةٍ مترشِّحةٍ لفعلٍ من الأفعال(٣).

---

(١) مجمع البيان ٢٢/ ٢٢٤.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٧.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (فطر).

وأخرج عبد بن حميد، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» وغيرهما عن ابن عباس قال: كنتُ لا أدري ما «فاطر السماوات والأرض» حتى أتاني أعرابيَّان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها، يعني ابتدأتها[1].

وأصلُ الفَطْر: الشَّقُّ. وقال الراغب: الشَّقُّ طولاً[2]. ثم تُجوِّزَ فيه عمَّا تقدَّم، وشاع فيه حتى صار حقيقةً أيضاً. ووجه المناسبة أنَّ السماوات والأرض - والمراد بهما العالم بأسرِه - لكونهما ممكنين، والأصل في الممكن العدمُ كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[3]، وصرَّح بذلك فلاسفةُ الإسلام، قال رئيسُهم[4]: الممكنُ في نفسه ليس، وهو عن علَّته أيس = كأنَّ العدم كامنٌ فيهما، وبإيجادهما يُشَقَّان، ويخرجُ العدمُ منهما.

وقيل في ذلك: كأنَّه تعالى شقَّ العدم بإخراجهما منه.

وقيل: لا مانع من حمله على أصله هنا، ويكون إشارة إلى الأمطار والنبات، فكأنَّه قيل: الحمد لله فاطر السماوات بالأمطار، وفاطر الأرض بالنبات. وفيه نظرٌ ستأتي الإشارةُ إليه قريباً.

وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ على القولين يحتملُ أنْ يكون معناه: جاعل الملائكة عليهم السلام وسائطَ بينه وبين أنبيائه والصالحين من عباده، يبلِّغون إليهم رسالته سبحانه بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة. أو: جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه عزَّ وجلَّ؛ يوصلون إليهم آثارَ قدرته وصنعه، كالأمطار والرياح وغيرها[5]،

---

(١) شعب الإيمان (١٦٨٢)، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٠٦، والطبري ٩/ ١٧٥.

(٢) المفردات (فطر).

(٣) قطعة من حديث أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٩٧٥٦) عن بعض بنات النبيِّ ﷺ.

(٤) وهو الشيخ الرئيس ابن سينا، كما صرَّح بذلك المصنِّف عند تفسير الآية (٣) من سورة الحديد.

(٥) في (م): وغيرهما.

وهم الملائكة الموكلون بأمور العالم. وهذا أنسبُ بالقول الثاني، لكن يَرِدُ عليه أنَّه لا معنى لكون الأمطار شاقَّةً للسماوات.

وقال الإمام: إنَّ الحمد يكون على النعم، ونعمه تعالى عاجلةٌ وآجلةٌ، وهو في سورة «سبأ» إشارةٌ إلى نعمة الإيجاد والحشر، ودليله: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ [سبأ: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ [سبأ: ٣]، والحمدُ في هذه السورة إشارةٌ إلى نعمة البقاء في الآخرة، ودليله: «جاعل الملائكة رسلا» أي: يجعلهم سبحانه رسلاً يتلقَّون عبادَ الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فيجوز أنْ يكون المعنى: الحمد لله شاقِّ السماوات والأرض يومَ القيامة؛ لنزول الأرواح من السماء، وخروج الأجساد من الأرض، وجاعل الملائكة رسلاً في ذلك اليوم يتلقَّون عباده. وعليه فأوَّلُ هذه السورة متَّصلٌ بآخر ما مضى؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم﴾ [سبأ: ٥٤] بيانٌ لانقطاع رجاءِ مَن كان في شكٍّ مُريب، ولما ذكر سبحانه حالَهم ذكر حال المؤمنين وبشَّرهم بإرسال الملائكة إليهم، وأنَّه تعالى يفتحُ أبواب الرحمة لهم(١). انتهى. وفيه من البعد ما فيه.

و«فاطر» صفةٌ لـ «الله»، وإضافته محضة؛ قال أبو البقاء: لأنَّه للماضي لا غير(٢).

وقال غيره: هو معرَّف بالإضافة، إذ لم يجر على الفعل، بل أُريدَ به الاستمرار والثبات، كما يقال: زيدٌ مالك العبيد جاء، أي: زيد الذي من شأنه أن يملك العبيد جاء.

ومَن جعل الإضافة غيرَ محضةٍ جعلَه بدلاً، وهو قليلٌ في المشتقَّات، وكذا الكلام في «جاعل»، و«رسلاً» ـ على القول بأنَّ إضافته غيرُ محضة ـ منصوبٌ به بالاتِّفاق، وأمَّا على القول الآخر فكذلك عند الكسائيّ.

وذهبَ أبو عليٍّ إلى أنَّه منصوبٌ بمضمرٍ يدلُّ هو عليه؛ لأنَّ اسمَ الفاعل إذا كان

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/٢-٣.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٤/٢١٦.

بمعنى الماضي لا يعملُ عنده كسائر البصريين إلّا معرَّفاً باللام.

وقال أبو سعيد السيرافيُّ: اسمُ الفاعل المتعدِّي إلى اثنين يعملُ بالثاني؛ لأنَّه بإضافته إلى الأوَّل تعذَّرت إضافتُه إلى الثاني، فتعيَّنَ نصبُه له.

وعلَّلَ بعضُهم ذلك بأنَّه بالإضافة أشبهُ بالمعرَّف باللام، فعملَ عملَه. هذا على تقدير كون الجعل تصييريّاً، أمَّا على تقدير كونه إبداعيّاً ف «رسلاً» حالٌ مقدرة.

وقرأ الضَّحَّاك والزهريُّ: «فَطَر» جعله[1] فعلاً ماضياً، ونصبَ ما بعده. قال أبو الفضل الرازي: يحتملُ أنْ يكون ذلك على إضمار «الذي» نعتاً لـ «الله» تعالى، أو على تقدير «قد» فتكون الجملة حالاً.

وأنت تعلم أنَّ حذف الموصول الاسميّ لا يجوز عند جمهور البصريين، وذهب الكوفيون والأخفش إلى إجازته، وتبعَهم ابنُ مالك[2]، وشَرَطَ في بعض كتبه كونَه معطوفاً على موصولٍ آخر، ومن حُجَّتهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقول حسان:

أمَن يهجو رسولَ الله منكم ... وينصرُه ويمدحُهُ سواءُ[3]

وقول آخر:

ما الذي دأبُه احتياطٌ وحزمُ ... وهواهُ أطاعَ يستويانِ[4]

واختار أبو حيَّان كونَ الجملةِ خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هو فطر[5].

وقرأ الحسن: «جاعلُ» بالرفع على المدح، وجرِّ «الملائكة»[6].

---

(١) في الأصل و(م): جعل، والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٢٩٧، والكلام منه. والقراءة عن الضحاك في القراءات الشاذة ص ١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨.

(٢) انظر شرح التسهيل لابن مالك ١/ ٢٣٥.

(٣) ديوان حسان ص ٩، وفيه: فمن. بدل: أمن.

(٤) هو من شواهد المغني ص ٨١٦، ونسبه ابن مالك في شرح التسهيل ١/ ٢٣٥ لبعض الطائيين. وانظر شرح أبيات المغني للبغدادي ٧/ ٣٩.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٩٧.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨، والبحر المحيط ٧/ ٢٩٧.

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «جاعلُ» بالرفع بلا تنوين، ونصب «الملائكة»(١)، وخُرِّجَ حذفُ التنوين على أنَّه لالتقاء الساكنين، ونصبُ «الملائكة» إذا كان «جاعل» للمضيّ على مذهب الكسائيِّ وهشام في جواز إعمال الوصف الماضي النصب.

وقرأ ابن يعمر وخليد: «جَعَلَ» فعلاً ماضياً «الملائكةَ» بالنصب، وذلك بعد قراءته: «فاطر» كالجمهور(٢)، كقراءة من قرأ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾(٣) [الأنعام: ٩٦].

وفي «الكشاف»(٤): قرئ: «فطر» و«جعل» كلاهما بلفظ الفعل الماضي.

وقرأ الحسن وحميد بن قيس: «رُسْلاً» بسكون السين(٥)، وهي لغة تميم.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ صفةٌ لـ «رسلاً»، وأولو اسم جمع لـ «ذو»، كما أنَّ أولاء اسم جمع لـ «ذا»، ونظيرُ ذلك من الأسماء المتمكنة: المخاض، قال الجوهريُّ: هي الحوامل من النوق، واحدتها: خَلِفَة(٦).

و«أجنحة» جمع: جناح، صيغة جمع القلَّة، ومقتضى المقام أنَّ المراد به الكثرة. وفي «البحر»: قياسُ جمع الكثرة فيه: جُنُح، فإن كان لم يُسمع كان أجنحة مستعملاً في القليل والكثير(٧).

والظاهر أنَّ الجناحَ بالمعنى المعروف عند العرب، بيد أنَّا لا نعرفُ حقيقته وكيفيته، ولا نقولُ إنَّه من ريشٍ كريش الطائر.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٣. وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجمهور.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٧، وهي عن الأول في القراءات الشاذة ص ١٢٣، وعن الثاني في المحتسب ٢/ ١٩٨.
(٣) هي قراءة الكوفيين كما في التيسير ص ١٠٥، وانظر ما سلف عند تفسير الآية.
(٤) ٣/ ٢٩٧.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٩٧، وهي عن الحسن في القراءات الشاذة ص ١٢٣.
(٦) الصحاح (مخض).
(٧) البحر المحيط ٧/ ٢٩٨.

نعم أخرج ابنُ المنذر عن ابن جريج أنَّ أجنحةَ الملائكة عليهم السلام زغبة[١].

ورأيتُ في بعض كتب الإماميَّة أنَّ الملائكةَ تزدحمُ في مجالس الأئمَّة، فيقع من ريشها ما يقع، وأنَّهم يلتقطونه ويجعلونَ منه ثياباً لأولادهم.

وهذا عندي حديثُ خرافة، والكشفيَّة منهم يؤوِّلونه بما لا يُخرجه عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ الظاهرُ أنَّه صفةٌ لـ «أجنحة»، والمنعُ من الصرف على المشهور للصفة والعدل عن: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة.

وقال الزمخشريُّ: إنَّما لم تنصرف هذه الألفاظُ لتكرار العدل فيها، وذلك أنَّها عُدِلت عن ألفاظ الأعداد من صيغٍ إلى صيغٍ أُخَرَ، كما عُدِل عمر عن عامر، وحَذَام عن حاذمة[٢]، وعن تكريرٍ إلى غير تكرير، ففيها عدلان، وأمَّا الوصفيَّة فلا يفترقُ الحال فيها بين المعدولة والمعدول عنها، ألا تراك تقول: مررت بنسوةٍ أربعٍ، وبرجالٍ ثلاثةٍ، فلا يعرِّج عليها[٣].

وتعقَّبه أبو حيان[٤] بأنَّه قاسَ الصفة في هذا المعدول على الصفة في أربع وثلاثة، وليس بصحيح؛ لأنَّ مطلقَ الصفة لم يعدُّوه علَّة، بل اشترطوا أنْ تكون الوصفيَّةُ غيرَ عارضة، كما في أربع، وأن لا يقبل تاء التأنيث أو تكون[٥] فيه، كثلاث وثلاثة.

وقال صاحب «الكشف»: فيه أنَّ العدولَ عن التكرر لا يعتبر فيه للصيغة، واعتبر في تحقُّق العدل ذلك، ثم العدولُ عن الصيغة الأصليَّة لإفادة التكرر، فلا عدولين بوجه، وبعد تسليم أنَّ المعتبرَ في الوصف مقارنتُه لوضع المعدول،

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٤.

(٢) في (م): وحزام عن حازمة.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٨.

(٤) في البحر ٧/ ٢٩٨.

(٥) في الأصل: وتكون.

فلا يضرُّ عروضه في المعدول عنه، لا اتجاه للمنع ولا معوَّل على السند، وهو قول سيبويه، على ما نقَلَهُ الجوهريُّ[١]، وهو المنصورُ على ما نبَّهت إليه. انتهى.

وتعقَّبه أيضاً صاحبُ «الفرائد» وصاحب «التقريب» بعروض الوصفيَّة في المعدول عنه، وعدمِه في المعدول، لكن قال الطيبيُّ: وجدتُ لبعض المغاربة كلاماً يصلحُ أن يكون جواباً عنه؛ وهو أنَّ «ثُلاث» مثلاً لا يخلو من أن يكون موضوعاً للصفة من غير اعتبار العدد، أو لا يكون، فإن كان الأول لم يكن فيه العدد والمقدَّرُ خلافه، وإن كان الثاني كان الوصف عارضاً لثلاث، كما كان عارضاً لثلاثة، فيمكن أن يقال: إنَّ هذه الأعداد غير منصرفةٍ للعدل المكرَّر كالجمع وألفي التأنيث. انتهى.

وفيه ما لا يخفى.

وقال ابنُ عطية: إنَّ هذه الألفاظ عُدِلَتْ في حال التنكير، فتعرَّفت بالعدل، فهي لا تنصرفُ للعدل والتعريف[٢]. وهذا قولٌ غريب، ذكر في «البحر»[٣] أنه[٤] لبعض الكوفيين.

وفي «الكشاف»[٥]: هي نكراتٌ يعرَّفنَ بلام التعريف، تقول: فلانٌ ينكح المثنى والثلاث والرباع.

وقيل: «مثنى» إلخ حالٌ من محذوف، والعامل فيه محذوفٌ يدلُّ عليه «رسلاً»، أي: يرسَلُون مثنى وثلاث ورباع. والمعوَّل عليه ما تقدَّم، والمراد: ذوي أجنحةٍ متعددةٍ متفاوتةٍ في العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب، ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها حين يؤمرون.

---

(١) في الصحاح (ثلث). وانظر كلام سيبويه في الكتاب ٣/ ٢٢٥.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٨.
(٣) ٧/ ٢٩٨.
(٤) لفظة: أنه. ليست في (م).
(٥) ١/ ٤٩٦.

ويجوزُ أن تكون كلّاً أو بعضاً لأمور أخر، كالزينة فيما بينهم، وكالإرخاء على الوجه حياءً من الله تعالى، إلى غير ذلك، والمعنى أنَّ من الملائكة خلقاً لكلٍّ واحدٍ منهم جناحان، وخلقاً لكلٍّ منهم ثلاثةُ أجنحة، وخلقاً لكلٍّ منهم أربعة أجنحة. ولا دلالة في الآية على نفي الزائد، بل قال بعض المحققين: إنَّ ما ذُكر من العدد للدلالة على التكثير والتفاوت، لا للتعيين ولا لنفي النقصان عن اثنين.

وقد أخرج الشيخان والترمذيُّ عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]: رأى جبريل له ستُّ مئة جناح[١].

والترمذيُّ عن مسروق عن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ لم يَرَ جبريل في صورته إلَّا مرتين؛ مرَّةً عند سدرة المنتهى، ومرَّةً في جيادٍ له ستُّ مئة جناح قد سدَّ الأفق[٢].

وقال الزمخشريّ: مرَّ بي في بعض الكتب أنَّ صنفاً من الملائكة عليهم السلام لهم ستَّةُ أجنحة، فجناحان يلفُّون بهما أجسادهم، وجناحان يطيرون بهما في أمرٍ من أمور الله تعالى، وجناحان مرخيَّان على وجوههم حياءً من الله عزَّ وجلَّ[٣].

والبحث عن كيفية وضع الأجنحة ـ شفعاً كانت أو وتراً ـ فيما أرى ممَّا لا طائلَ تحته، ولم يصحَّ عندي في ذلك شيءٌ. ولقياس الغائب على الشاهد، قال بعضهم: إنَّ المعنى: إنَّ في كلِّ جانبٍ لبعض الملائكة عليهم السلام جناحين، ولبعضهم ثلاثة، ولبعضهم أربعة، وإلَّا فلو كانت ثلاثةً لواحد لما اعتدلت. وهو كما ترى.

وقال قوم: إنَّ الجناحَ إشارةٌ إلى الجهة، وبيانه أنَّ الله تعالى ليس فوقه شيء، وكلُّ شيءٍ سواه فهو تحت قدرته سبحانه وتعالى، والملائكة عليهم السلام لهم وجه إلى الله تعالى، يأخذون منه نعمه، ويعطون مَنْ دونَهم ممَّا أخذوه بإذنه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]،

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٢)، وصحيح مسلم (١٧٤)، وسنن الترمذي (٣٢٧٧).
(٢) سنن الترمذي (٣٢٧٨).
(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٨.

وهما جناحان، وفيهم مَنْ يفعلُ ما يفعل من الخير بواسطة، وفيهم من يفعلُه لا بواسطة، فالفاعلُ بواسطةٍ: منهم مَنْ له ثلاثُ جهات، ومنهم من له أربع جهات وأكثر.

وهذا خلاف الظاهر جدّاً، ولا يحتاج إليه السُّنِّيُّ القائل بأنَّ الملائكةَ عليهم السلام أجسامٌ لطيفة نوريَّة، يقدرون على التشكُّل بالصور المختلفة وعلى الأفعال الشاقَّة، وإنَّما يحتاجُ إليه أو إلى نحوه الفلاسفةُ وأتباعهم؛ فإنَّ الملائكةَ عندهم هي العقول المجرَّدة، ويسميها أهلُ الإشراق بالأنوار الظاهرة، وبعض المتصوفة بالسرادقات النوريَّة، وقد ذكر بعضُ متأخِّريهم أنَّ لها ذواتٍ حقيقيَّةً، وذواتٍ إضافيَّةً مضافة إلى ما دونها إضافةَ النفس إلى البدن، فأمَّا ذواتُها الحقيقيَّة فإنَّما هي أمريَّةٌ قضائيَّةٌ قوليَّةٌ، وأمَّا ذواتُها الإضافية فإنَّما هي خلقيَّة قدريَّة تنشأ منها الملائكة اللوحيَّة، وأعظمهم إسرافيل عليه السلام، وتطلق الملائكة عندهم على غير العقول، كالمدبِّرات العلويَّة والسفليَّة من النفوس والطبائع، وأطالوا الكلام في ذلك، وظواهرُ الآيات والأخبار تكذِّبهم، والله تعالى الموفق للصواب.

﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله من تفاوت الملائكة عليهم السلام في عدد الأجنحة، ومُؤْذِنٌ بأنَّ ذلك من إحكام مشيئته تعالى، لا لأمرٍ راجعٍ إلى ذواتهم، ببيان حكم كُلِّيٍّ ناطقٍ بأنَّه عزَّ وجلَّ يزيدُ في أيِّ خلقٍ كان كلَّ ما يشاء أن يزيدَه بموجب مشيئته سبحانه، ومقتضى حكمته من الأمور التي لا يحيطُ بها الوصف. وقال الفراء والزجاج: هذا في الأجنحة التي للملائكة(١)، أي: يزيدُ في خلق الأجنحة للملائكة ما يشاء، فيجعلُ لكلٍّ ستَّةَ أجنحة أو أكثر، وروي ذلك عن الحسن، وكأنَّ الجملةَ لدفع توهُّم عدم الزيادة على الأربعة.

وعن ابن عباس: يزيدُ في خلق الملائكة والأجنحة ما يشاء.

وقيل: «الخلق» خلق الإنسان، و«ما يشاء» الخلق الحسن، أو الصوت الحسن، أو الحظُّ الحسن، أو الملاحَةُ في العينين، أو في الأنف، أو في الوجه،

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٦، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٦١.

أو خفَّةُ الروح، أو جعودة الشعر وحسنه، أو العقل، أو العلم، أو الصنعة، أو العفَّة في الفقراء، أو حلاوة النطق. وذكروا في بعض ذلك أخباراً مرفوعةً، والحقُّ أنَّ ذلك من باب التمثيل لا الحصر، والآيةُ شاملةٌ لجميع ذلك، بل شاملةٌ لما يُستحسن ظاهراً، ولما لا يستحسن، وكلُّ شيء من الله عزَّ وجلَّ حسن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ①﴾ تعليلٌ بطريق التحقيق للحكم المذكور، فإنَّ شمولَ قدرته تعالى لجميع الأشياء ممَّا يوجبُ قدرتَه سبحانه على أن يزيدَ في كلِّ خلقٍ كلَّ ما يشاؤه تعالى إيجاباً بيِّناً.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ أي: ما يطلقها ويرسلها، فالفتح مجازٌ عن الإرسال بعلاقة السببيَّة، فإنَّ فتحَ المغلق سببٌ لإطلاق ما فيه وإرساله، ولذا قوبل بالإمساك والإطلاق كنايةً عن الإعطاء، كما قيل: أطلق السلطانُ للجند أرزاقَهم، فهو كنايةٌ متفرِّعةٌ على المجاز.

وفي اختيار لفظ الفتح رمزٌ إلى أنَّ الرحمةَ من أَنْفَس الخزائن وأعزِّها منالاً، وتنكيرُها للإشاعة والإبهام، أي: أيَّ شيءٍ يفتح الله تعالى من خزائن رحمته، أيِّ رحمةٍ كانت، من نعمةٍ وصحَّةٍ، وأمنٍ وعلمٍ وحكمةٍ، إلى غير ذلك ممَّا لا يحاط به، حتى إنَّ عروة كان يقول ـ كما أخرج ابنُ المنذر عن محمد بن جعفر بن الزبير عنه في ركوب المَحْمِل[1] ـ: هي والله رحمةٌ فُتِحت للناس، ثمَّ يقول: (مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ) إلخ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ: الرحمة: المطر. وعن ابن عباس: التوبة[2]. والمراد التمثيل،

والجارُّ والمجرور في موضع الحال، لا في موضع الصفة؛ لأنَّ اسم الشرط لا يوصف.

﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ أي: فلا أحد يقدرُ على إمساكها ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ﴾ أي: أيَّ شيء يمسك ﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ أي: فلا أحد يقدرُ على إرساله. واختلاف الضميرين لِمَا أنَّ

---

(١) المحمل: الهودج. المعجم الوسيط (حمل).

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٤٤.

مرجعَ الأول مبيَّنٌ بالرحمة، ومرجع الثاني مطلقٌ يتناولها وغيرها.

وفي ذلك ـ مع تقديم أمر فتح الرحمة ـ إشعارٌ بأنَّ رحمتَه تعالى سبقت غضبَه عزَّ وجلَّ، كما ورد في الحديث الصحيح(١).

وقيل: المراد: وما يمسك من رحمةٍ، إلَّا أنَّه حذف المبيّن لدلالة ما قبلُ عليه، والتذكيرُ باعتبار اللفظ، وعدمِ ما يقوِّي اعتبارَ المعنى في التلفُّظ.

وأُيِّد بأنَّه قُرِئ: «فلا مرسل لها» بتأنيث الضمير(٢).

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد إمساكه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كلٍّ ما يشاء من الأمور التي من جملتها الفتح والإمساك ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ الذي يفعلُ كلَّ ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لما قبلَها، ومعرِبٌ عن كون كلٍّ من الفتح والإمساك بموجب الحكمة التي يدورُ عليها أمر التكوين(٣).

وما أدعَى هذه الآية إلى الانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عمَّا سواه عزَّ وجلَّ، وإراحةِ البال عن التخيلات الموجبة للتهويش وسهر الليال.

وقد أخرج ابنُ المنذر عن عامر بن عبد قيس قال: أربع آياتٍ من كتاب الله تعالى إذا قرأتُهُنَّ فما أبالي ما أصبحُ عليه وأمسي: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧] و﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(٤) [هود: ٦].

وبعد ما بيَّن سبحانه أنه الموجدُ للملك والملكوت، والمتصرِّف فيهما على

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١)، وانظر ما سلف عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنعام.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٩.

(٣) في الأصل: التمكين. والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٧/ ١٤٢، والكلام منه.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٤٤.

الإطلاق، أَمَرَ الناس قاطبةً، أو أهل مكَّة ـ كما روي عن ابن عباس، واختاره الطيبيُّ ـ بشكر نعمه عزَّ وجلَّ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنعامه تبارك وتعالى عليكم، إنْ جُعلت النعمةُ مصدراً، أو: كائنةً عليكم، إن جُعلت اسماً، أي: راعوها واحفظوها بمعرفة حقِّها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها، فليس المرادُ مجرَّدَ الذكر باللسان، بل هو كنايةٌ عما ذكر.

وعن ابن عباس ـ وقد جعل الخطاب لمن سمعت ـ: اذكروا نعمةَ الله عليكم، حيث أسكَنَكم حرمه، ومنعكم من جميع العالم، والناسُ يتخطَّفون من حولكم. وعنه أيضاً: نعمة الله تعالى: العافية. والأَوْلى عدم التخصيص.

ولمَّا كانت نِعَمُ الله تعالى مع تشعُّب فنونها منحصرةً في نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، نَفَى سبحانَه أن يكون في الوجود شيءٌ غيره سبحانه يصدرُ عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الذي هو لإنكار التصديق وتكذيب الحكم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾، و«هل» تأتي لذلك، كما في «المطوَّل» وحواشيه. وقولُ الرضيِّ: إنَّ «هل» لا تستعملُ للإنكار: أرادَ به الإنكارَ على مُدَّعي الوقوع، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠] ويلزمه النفي، والإنكارَ على من أوقعَ الشيء، كما في قولك: أتضربُ زيداً وهو أخوك(١).

أي: هل خالقٌ مغايرٌ له تعالى موجودٌ لكم أو للعالم؟! على أنَّ «خالق» مبتدأ محذوفُ الخبر، زيدت عليه «من» لتأكيد العموم، و«غير الله» صفةٌ له باعتبار محلِّه، وصحَّت الوصفيَّةُ به مع إضافته إلى أعرف المعارف؛ لتوغُّله في التنكير، فلا يكتسب تعريفاً في مثل هذا التركيب.

وجُوِّزَ أنْ يكون بدلاً من «خالق» بذلك الاعتبار، ويعتبر الإنكار في حكم النفي؛ ليكون «غير الله» هو الخالق المنفيّ، ولأنَّ المعنى على الاستثناء، أي:

---

(١) وثالث قسمي الإنكار المذكورين أن «هل» لإنكار وقوع الشيء. قال الخفاجي في حاشيته ٧/ ٢١٥: ويستعمل «هل» في الأخير دون الأولين.

لا خالقَ إلَّا الله تعالى، والبدليَّةُ في الاستثناء بـ «غير» إنَّما تكون في الكلام المنفيِّ، وبهذا الاعتبار زيدت «من» عند الجمهور، وصحَّ الابتداء بالنكرة.

وكذا جُوِّزَ أن يكون فاعلاً بـ «خالق» لاعتماده على أداة الاستفهام، نحو: أقائمٌ زيد، في أحد وجهيه، وهو حينئذٍ سادٌّ مسدَّ الخبر.

وتعقَّبهُ أبو حيَّان بقوله: فيه نظر، وهو أنَّ اسمَ الفاعل أو ما يجري مجراه، إذا اعتمدَ على أداة الاستفهام وأجريَ مجرى الفعل، فرفع ما بعدَه، هل يجوزُ أن تدخل عليه «من» التي للاستغراق، فيقال: هل من قائم الزيدون، كما تقول: هل قائم الزيدون؟ والظاهرُ أنَّه لا يجوزُ، ألا ترى أنَّه إذا أجريَ مجرى الفعل لا يكون فيه عموم، بخلافه إذا دخلت عليه «من»، ولا أحفظُ مثله في لسان العرب، وينبغي أن لا يُقْدَمَ على إجازة مثل هذا إلَّا بسماعٍ من كلامهم[١].

وفيه أنَّ شرط الزيادة والإعمال موجودٌ، ولم يُبدِ مانعاً يُعَوَّل عليه، فالتوقُّفُ تعنُّتٌ من غير توقُّف.

وفي «الكشف»: لا مانعَ من أن يكون «غير» خبراً، ومنعه الشهاب بأنَّ المعنى ليس عليه[٢].

وقرأ ابن وثَّاب وشقيق وأبو جعفر وزيد بن عليٍّ وحمزةُ والكسائيُّ: «غيرِ» بالخفض[٣] صفةً لـ «خالق» على اللفظ، وهذا متعَيِّنٌ في هذه القراءة، ولأنَّ توافق القراءتين أولى من تخالفهما كان الأظهرُ في القراءة الأولى كونَه وصفاً لـ «خالق» أيضاً.

وقرأ أبو الفضل بن إبراهيم النحويُّ: «غيرَ» بالنصب على الاستثناء[٤].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٠.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٢١٥.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٠، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١، وفي الأخير قراءة أبي جعفر، وقرأ بها أيضاً من العشرة خلف.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٠.

وقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالمطر والنبات، كلامٌ مبتدأ لا محلَّ له من الإعراب، لا صفة «خالق» باعتبار لفظه أو محلِّه.

قال في «الكشف»: لأنَّ المعنى على التقريع والتذكير بما هم معترفون به، فكأنَّه قيل: هل من خالقٍ لتلك النعم التي أمرتم بذكرها، أو مطلقاً ـ وهو أولى، وتدخل دخولاً أوَّليّاً ـ غير الله، ثم تمَّم ذلك بأنَّه يرزُقكم من السماء والأرض، وذلك أيضاً يقتضي اختصاصَه تعالى بالعبادة، كما أنَّ الخالقيَّة تقتضي ذلك. وفيه أنَّ الخالقَ لا يكونُ إلَّا رازقاً، ولو قيل: هل من خالقٍ رازقٍ من السماء والأرض غيرُ الله؟ يخرج الكلام عن سَنَنه المقصود.

وجوزَ أن يكون «خالق» فاعلاً لفعلٍ مضمرٍ يفسِّره المذكور، والأصل: هل يرزقكم خالقٌ، و«من» زائدة في الفاعل.

وتُعقِّبَ بأنَّ ما في النظم الجليل إن كان من باب: هل رجلٌ عرف؟ فقد صرَّح السكاكيُّ[1] بقبح هذا التركيب؛ لأن «هل» إنما تدخلُ على الجملة الخبرية، فلا بدَّ من صحتها قبل دخول «هل»، و: رجل عرف، لا يصحُّ بدون اعتبار التقديم والتأخير؛ لعدم مصحِّح الابتدائية سواه، وإذا اعتبر التقديم والتأخير كان الكلامُ مفيداً لحصول التصديق بنفس الفعل، فلا يصحُّ دخول «هل» عليه؛ لأنَّها لطلب التصديق، وما حُصِّلَ لا يُطْلَب؛ لئلَّا يلزمَ تحصيلُ الحاصل، ولاحتمال أنْ يكون رجل فاعلَ فعلٍ محذوف؛ قال بالقبح دون الامتناع.

وإن كان من باب: هل زيد عرف؟ فقد صرَّح العلَّامة الثاني السعدُ التفتازانيُّ بأنَّه قبيحٌ باتِّفاق النحاة، وأنَّ ما ذكره صاحب «المفصَّل» من أنَّ نحو: هل زيد خرج؟ على تقدير الفعل: تصحيحٌ للوجه القبيح البعيد، لا أنَّه شائعٌ حسنٌ، غايةُ ما في الباب أنَّ سببَ قبحه ليس ما ذكر في قبح: هل زيد عرف؟ عند السكاكيِّ؛ لعدم تأتِّيه فيه، بل السبب أنَّ «هل» بمعنى «قد» في الأصل، وأصله: أَهَلْ، كقوله:

---

(١) في مفتاح العلوم ص ٣٠٨-٣٠٩.

أهــل عــرفــتَ الــدار بــالــغــرتــيــن[1]

وترك الهمزة قبلها لكثرة وقوعها في الاستفهام، فأقيمت هي مقام الهمزة وتطفَّلت عليها في الاستفهام، و«قد» من لوازم الأفعال، فكذا ما هي بمعناها، ولم يقبح دخولها على الجملة الاسمية التي طرفاها اسمان؛ لأنَّها إذا لم تر الفعل في حيِّزها تتسلَّى عنه ذاهلةً، وهذا بخلاف ما إذا رأته، فإنَّها حينئذٍ تتذكر عهوداً بالحمى، وتحنُّ إلى الإلف المألوف، وتطلبُ معانقته، ولم ترضَ بافتراق الاسم بينهما، ويعلمُ من هذا أنَّه لا فرقَ عند النحاة بين: هل رجل عرف؟ و: هل زيد عرف؟ في القبح، لذلك.

وأجابَ بعضُهم بأنَّ مُجوِّزَ هذا الوجه الزمخشريُّ ومتابعوه، وهو لا يسلِّم ما ذكر؛ لأنَّ حرفَ الشرط كان مثلاً ألزمَ للفعل من «هل»؛ لأنَّه لا يجوزُ دخولُه على الجملة الاسميَّة التي طرفاها اسمان كما دخلت عليها «هل»، وقد جازَ بلا قبحٍ عملُ الفعل بعده على شريطة التفسير، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦]، فيجوز في «هل» بالطريق الأَوْلَى.

وقيل: يجوز أن يكون «يرزقكم» إلخ مستأنفاً في جواب سؤالٍ مقدَّر، تقديره: أيُّ خالقٍ يسأل عنه؟ وأن يكون هو الخبر لـ «خالق».

ولا يخفى على متأمِّلٍ أنَّ ما نقل عن «الكشف» قاضٍ بمرجوحيَّة هذه الأوجه جميعها، فتأمَّل.

وفي الآية على ما هو الأَوْلَى في تفسيرها وإعرابها ردٌّ على المعتزلة في قولهم: العبدُ خالقٌ لأفعاله، ونصرةٌ لأهل السنة في قولهم: لا خالق إلا الله تعالى.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ للنفي المفهوم ممَّا تقدَّم قصداً، ولم يجوِّز

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وسيأتي ٢٥/١٨ بلفظ بالغَرِيَّيْن. وهو الصواب. والغريَّان: موضع بالكوفة نحو فرسخين منها، وهو مثنى الغَرِيّ، بفتح الغين المعجمة وكسر الراء المهملة وتشديد الياء. كذا قال عبد القادر البغدادي في الخزانة، وهو من قصيدة لخطام المجاشعي من البحر السريع. انظر الخزانة ١١/ ٢٦١-٢٦٩.

جارُ الله أنْ يجعل صفة لـ «خالق» كما جعل «يرزقكم» صفة له، حيث قال: ولو وصلت جملة «لا إله إلا هو» كما وصلت «يرزقكم» لم يساعد عليه المعنى؛ لأنَّ قولَك: هل من خالقٍ آخر سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق، غيرُ مستقيم؛ لأنَّ قولَك: هل من خالق سوى الله، إثباتٌ لله تعالى، فلو ذهبت تقول ذلك كنتَ مناقضاً بالنفي بعد الإثبات[1]. اهـ.

وبيَّن صاحبُ «الكشف» وجهَ المناقضة على تقدير أنْ يكون «غير الله» صفة، بأنَّ الكلامَ مسوقٌ لنفي المشاركة في الصفة المحقَّقة، أعني: الخَلْق، فقولك: هل من خالقٍ آخر سوى الله، إثباتٌ لله تعالى ونفي المشارك له فيها، ثم وصفُ الآخر بانحصار الإلهية فيه يكون لنفي خالقيته دون تفرُّدٍ بالإلهية، والتفرُّد بالإلهية مع مغايرته لله تعالى متناقضان؛ لأنَّ الأولَ ينفيه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، والثاني يثبتُه مع الغير، جلَّ عن كلِّ شريكٍ ونقص.

ثم قال: والتحقيقُ في هذا أنَّ «هل» لإنكار ما يليها، وما تلاهُ إنْ كان من تتمَّته ينسحبُ عليه حكم الإنكار بالتبعيَّة[2]، وإلَّا كان مُبْقًى على حاله نفياً وإثباتاً، ولمَّا كان الكلامُ في الخالقية على ما مرَّ، لم يكن الوصفان ـ أعني تفرُّد الآخر بالإلهيَّة ومغايرَته للقيوم الحقِّ ـ مصبّاً له، وهما متناقضان في أنفسهما على ما بُيِّن، فيلزم ما ذكره جارُ الله لزوماً بيِّناً. اهـ.

وقد دَفَع بتقريره ذلك كثيراً من القال والقيل، بيد أنَّه لا يخلو عن بحث، ويمكنُ تقرير المناقضة على تقدير الوصفيَّة بوجهٍ أظهر، لعلَّه لا يخفى على المتأمِّل، ويجوزُ أنْ يكونَ المانعُ من الوصفيَّة النظمَ المعجز، وحاكمه الذوق السليم، والكلام في ذلك طويلٌ فتأمَّل.

والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها، كأنَّه قيل: وإذا تبيَّن تفرُّده تعالى بالألوهيَّة والخالقيَّة والرازقيَّة، فمن أيِّ وجهٍ تُصرَفون عن التوحيد إلى الشرك؟!

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٠.

(٢) في (م): بالبقية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ إلخ تسليةٌ له عليه الصلاة والسلام بعموم البليَّة والوعدِ له ﷺ والوعيدِ لأعدائه، والمعنى: وإن استمرُّوا على أن يكذِّبوك فيما بلَّغتَ إليهم من الحقِّ المبين بعد ما أقمتَ عليهم الحجَّة وألقمتَهم الحَجَر، فتأسَّ بأولئك الرسل في الصبر، فقد كذَّبهم قومُهم وصبرُوا، فجملة: «قد كذبت رسل من قبلك» قائمةٌ مقام جواب الشرط، والجواب في الحقيقة: تأسَّ، وأقيمت تلك الجملةُ مقامَه اكتفاءً بذكر السبب عن ذكر المسبَّب، وجُوِّز أن تُجعَل هي الجواب من غير تقدير، ويكون المترتِّب على الشرط الإعلام والإخبار، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وتنكير «رسل» للتعظيم والتكثير الموجبَين لمزيد التسلية، والحثُّ على التأسِّي والصبر على ما أصابه عليه الصلاة والسلام من قومه، أي: رسلٌ أولو شأنٍ خطيرٍ وعددٍ كثير.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ④﴾ لا إلى غيره عزَّ وجلَّ، فيجازي سبحانه كلّاً منك ومنهم بما يليقُ به.

وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع به تعالى مع إبهام الجزاء ثواباً وعقاباً من المبالغة في الوعد والوعيد ما لا يخفى.

وقُرئ: «تَرجع» بفتح التاء[1]، من الرجوع، والأوَّل أدخلُ في التهويل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ المشار إليه بقوله سبحانه: «وإلى الله ترجع الأمور» من البعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ ثابتٌ لا محالةَ من غير خُلْفٍ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بأن يذهلكم التمتُّع بمتاعها ويلهيكم التلهِّي بزخارفها عن تداركِ ما ينفعكم يومَ حلول الميعاد. والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإنْ توجَّه النهيُ صورةً إليها نظيرَ قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ [هود: ٨٩]، وقولك: لا أرينك هنا.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾ حيث إنَّه جلَّ شأنه عفوٌّ كريمٌ رؤوفٌ رحيمٌ ﴿الْغَرُورُ ⑤﴾

---

(١) هي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. انظر التيسير ص ٨٠، والنشر ٢/٢٠٨-٢٠٩.

أي: المبالغ في الغرور، وهو ـ على ما رويَ عن ابن عباس والحسن ومجاهد ـ الشيطانُ، فالتعريف للعهد، ويجوز التعميم، أي: لا يغرَّنَّكم كلُّ من شأنُه المبالغةُ في الغرور، بأن يمنِّيكم المغفرةَ مع الإصرار على المعصية قائلاً: إنَّ الله يغفرُ الذنوب جميعاً، فإنَّ ذلك وإن أمكن، لكن تعاطي الذنوب بهذا التوقُّع من قبيل تناول السمِّ تعويلاً على دفع الطبيعة.

وتكرير فعل النهي؛ للمبالغة فيه، ولاختلاف الغرورين في الكيفية.

وقرأ أبو حيوة وأبو السمَّال: «الغُرُور» بالضمِّ[١] على أنَّه مصدر غرَّه يغرُّه، وإن قلَّ في المتعدِّي، أو جمع غَارّ، كقُعود وسُجود مصدرين وجمعين، وعلى المصدريَّة الإسنادُ مجازيّ.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوةً عامَّةً قديمةً لا تكاد تزول، ويُشعِرُ بذلك الجملةُ الاسميَّة و«لكم»، وتقديمُه للاهتمام ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بمخالفتكم إيَّاه في عقائدكم وأفعالكم، وكونوا على حذرٍ منه في مجامع أحوالكم.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ تقريرٌ لعداوته، وتحذيرٌ من طاعته، بالتنبيه على أنَّ غرضَه في دعوة شيعته إلى اتِّباع الهوى والركونِ إلى ملاذِّ الدنيا ليس إلَّا توريطَهم وإلقاءهم في العذاب المخلد من حيث لا يشعرون، فاللام ليست للعاقبة، وزعم ابن عطية أنَّها لها[٢].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم، وإجابتهم لدعوة الشيطان، واتِّباعهم لخطواته، ولعلَّ تنكير «عذاب» لتعظيمه بحسب المدَّة، فكأنَّه قيل: لهم عذاب دائم شديد.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمةٌ ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ لا غايةَ لهما بسبب ما ذُكر من الإيمان والعمل الصالح.

و«الذين كفروا» مبتدأ، خبره: «لهم عذاب»، وكذا «الذين آمنوا» و«لهم

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٠، وانظر تفسير القرطبي ١٧/ ٣٤٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٠.

مغفرة» إلخ. وجَوَّزَ بعضُهم كون «الذين كفروا» في موضع خفض بدلاً من «أصحاب السعير»، أو صفةً له، أو في موضع نصب بدلاً من «حزبه»، أو صفة له، أو في موضع رفع بدلاً من ضمير «ليكونوا»، والكلُّ مفوِّتٌ لجزالة التركيب كما لا يخفى على الأريب.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: حُسِّن له عمله السيِّئ ﴿فَرَءَاهُ﴾ فاعتقده بسبب التزيين ﴿حَسَنًا﴾ فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«من» موصولةٌ في موضع رفع على الابتداء، والجملةُ بعدها صلتُها، والخبر محذوف، والفاء للتفريع، والهمزة للإنكار، فإن كانت مقدَّمةً من تأخير ـ كما هو رأي سيبويه والجمهور في نظير ذلك ـ فالمراد تفريعُ إنكار ما بعدَها على ما قبلها من الحكمين السابقين، أي: إذا كانت عاقبةُ كلٍّ من الفريقين ما ذُكر، فليس الذي زُيِّن له الكفرُ من جهة عدوِّه الشيطان فاعتقدَه حسناً وانهمك فيه، كمن استقبحه واجتنبَه واختار الإيمان والعمل الصالح، وإن كانت في محلِّها الأصليِّ وكان العطفُ على مقدَّرٍ تكون هي داخلةً عليه(١) ـ كما ذهب إليه جمعٌ ـ فالمرادُ إنكارُ(٢) ما في حيِّزها، ويكون التقدير: أهما ـ أي: الذين كفروا والذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ متساويان، فالذي زُيِّنَ له الكفرُ من جهة عدوِّه الشيطان، فاعتقدَه حسناً وانهمك فيه، كمن استقبحَه واجتنبَه واختارَ الإيمان والعمل الصالح؟ أي: ما هما متساويان، ليكون الذي زُيِّنَ له الكفر كمن استقبحه، وحذف هذا الخبر لدلالة الكلام عليه، واقتضاء النظم الجليل إيَّاه.

وقد صرَّح بالجزأين في نظير الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤]، وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي التعبير عن الكافر بمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً إشارةٌ إلى غاية ضلاله،

---

(١) في (م): إليه.

(٢) لفظة: إنكار. ليست في (م).

حتى كأنَّه غلبَ على عقله، وسَلَبَ تمييزَه، فشأن المغلوب على عقله ذلك كما يشير إليه قول أبي نواس:

واسقني حتى تراني حسناً عندي القبيحُ[1]

وظاهرُ كلام الزجَّاج أنَّ «مَن» شرطية، حيث قال: الجوابُ على ضربين:

أحدهما: ما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ إلخ، ويكون المعنى: أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فأضلَّه اللهُ ذهبت نفسُك عليهم حسرة.

وثانيهما: ما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ إلخ، ويكون المعنى: أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله كمن هداهُ الله تعالى[2]. وإلى ذلك ذهب ابنُ مالكٍ أيضاً[3].

واعترض ابنُ هشام على التقدير الثاني بأنَّ الظرفَ لا يكون جواباً، وإن قلنا: إنَّه جملة[4]. ووجهُه أنَّ الرضيّ صرَّح بأنَّه لا يكون مستقرّاً في غير الخبر والصفة والصلة والحال، ولم يَذكر الجواب، لا أنَّ ذلك لعدم الفاء، وتقديرُها[5] داخلةً على مبتدأ يكون الظرف خبره، والجملةُ بتمامها جزاءً = غير جائز؛ لما فيه من التكلُّف، كما قيل.

وزعم بعضهم أنَّه يجوزُ أن يكون الزَّجّاجُ قد ذهب إلى أن «من» موصولة، وأطلق على خبرها الجواب لشَبَهه به في المعنى، ألا تراهم يدخلون الفاء في خبر الموصول الذي صلته جملةٌ فعليَّةٌ، كما يدخلونها في جواب الشرط، فيقولون: الذي يأتيني فله درهم.

وفيه أنَّه خلاف الظاهر، ولا قرينة على إرادته سوى عدم صحة الجزائية.

---

(١) ديوان أبي نواس ص ١٦٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٦٤.

(٣) في شرح الألفية، كما صرح بذلك الشهاب في حاشيته ٧/ ٢١٧. وانظر شرح ابن الناظم على الألفية ص ٢٧٥.

(٤) مغني اللبيب ص ٧٥٦-٧٥٧.

(٥) أي: الفاء. انظر حاشية الشهاب ٧/ ٢١٧.

وضُعِّفَ التقديرُ الأول بالفصل بين ما فيه الحذف ودليلِ المحذوف، مع خفاء ربط الجملة بما قبلها عليه.

ولا ينبغي أنْ تكون «من» شرطيَّةً جوابها: فرآه؛ لما في ذلك من الركاكة الصناعية، فإنَّ الماضيَ في الجواب لا يقترنُ بالفاء بدون «قد»، مع خفاء أمر إنكار رؤية سوءِ العمل حسناً بعد التزيين، وتفريعِه على ما قبله من الحكمين.

وكونُ الإنكار لما أنَّ المزيِّنَ هو الشيطان العدوُّ، والتفريعُ على قوله تعالى: (إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ) = لا يخفى حالُه.

فالوجهُ المعوَّلُ عليه ما تقدَّم، وجُعل عليه قوله تعالى[1]: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ تعليلاً لسببيَّة التزيين لرؤية القبيح حسناً، وفيه دفعُ استبعاد أن يَرى الشخصُ القبيحَ حسناً بتزيين العدوِّ إيَّاه، ببيان أنَّ ذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ التابعةِ للعلم المتعلِّق بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر، وإيذانٌ بأنَّ أولئك الكفرةَ الذين زُيِّنَ لهم سوءُ عملهم فرأوه حسناً ممَّن شاء الله تعالى ضَلالهم، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ تفريعٌ عليه، أي: إذا كان الأمر كذلك «فلا تذهب نفسك» إلخ.

وذكر المولى سعدي چلبي أنَّ الهمزةَ في «أفمن» على التقدير الأول من التقديرين اللذين نُقِلا عن الزَّجَّاج لإنكار ذهاب نفسه ﷺ عليهم حسرة، والفاء في قوله سبحانه: «فإن الله» إلخ تعليلٌ لما يُفهِمه النظمُ الجليل من أنَّه لا جدوى للتحسُّر.

وفي «الكشَّاف» أنَّه تعالى لمَّا ذكرَ الفريقين؛ الذين كفروا والذين آمنوا، قال سبحانه لنبيِّه ﷺ: «أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله فرآه حسناً»، يعني: أفمن زُيِّنَ له سوءُ عملِه من هذين الفريقين كمن لم يزيَّن له، فكأنَّ رسولَ الله عليه الصلاة والسلام قال: لا، فقال تعالى: «فإنَّ الله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات»[2].

(١) في (م): . . . ما تقدم جعل عليه، وقوله تعالى. . .
(٢) الكشاف ٣/ ٣٠١.

ويفهم من كلام الطيبيِّ أنَّ فاء «فلا تذهب» جزائية، وفاء «فإنَّ الله» للتعليل، وأن الجملة مقدَّمةٌ من تأخير، فقد قال: إنَّه ﷺ كان حريصاً على إيمان القوم، وأن يُسْلِكَ الضالِّين في زمرة المهتدي، فقيل له عليه الصلاة والسلام على سبيل الإنكار لذلك: «أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله» من هذين الفريقين كمن لم يزيَّن له، فلا بدَّ أن يُقِرَّ ﷺ بالنفي ويقول: لا، فحينئذٍ يقال له: فإذا كان كذلك «فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات» «فإنَّ الله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء»، فقدَّم وأخَّر. انتهى. وفيه نظر.

وفي الآيات على ما يقتضيه ظاهر كلام الزمخشريِّ لفٌّ ونشرٌ، وبذلك صرَّحَ الطيبيُّ، ثم قال: الأحسنُ أن تجعل الآيات من الجمع والتقسيم والتفريق، فقوله تعالى: «يا أيها الناس إن وعد الله حق» جَمَعَ الفريقين معاً في حكم نداء الناس، وجَمَعَ ما لهما من الثواب والعقاب في حكم الوعد، وحذرهما معاً عن الغرور بالدنيا والشيطان، وأمَّا التقسيمُ فهو قوله تعالى: «الذين كفروا لهم عذابٌ شديدٌ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ»، وأمَّا التفريق فقوله تعالى: «أفمن زُيِّن له سوء عمله»؛ لأنَّه فرَّقَ فيه، وبيَّنَ التفاوتَ بين الفريقين، كما قال الزمخشريُّ: أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله من هذين الفريقين كمن لم يزيَّن له[1]. وفُرِّعَ على ذلك ظهورُ أنَّ الفاء في «أفمن» للتعقيب، والهمزةُ الداخلةُ بين المعطوف والمعطوف عليه لإنكار المساواة، وتقريرِ البونِ بين الفريقين، وأنَّ المختارَ من أوجهٍ ذكرها السكاكيُّ في «المفتاح»[2] تقديرُ: كمن هداه الله تعالى، فحُذِفَ؛ لدلالة: «فإن الله يضلُّ من يشاء ويَهدي من يشاء».

ولهم في نظم الآيات الكريمة كلامٌ طويل غير ما ذكرناه، من أرادَه فليتتبَّع كتبَ التفاسير والعربية، ولعلَّ فيما ذكرناه مقنعاً لمن أوتي ذهناً سليماً وفهماً مستقيماً.

والحسرات جمعُ حسرة، وهي الغمُّ على ما فاته أو الندم[3] عليه، كأنَّه انحسَر عنه ما حملَه على ما ارتكبه، أو انحسر قواه من فرط غمٍّ، أو أدركه إعياءٌ عن

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠١.

(٢) ص ٢٧٩.

(٣) في (م): والندم.

تَدارك ما فَرَطَ منه. وانتصبت على أنَّها مفعولٌ من أجله، أي: فلا تُهلِك نفسَك للحسرات، والجمعُ ـ مع أنَّ الحسرة في الأصل مصدرٌ صادقٌ على القليل والكثير ـ للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه الصلاة والسلام على أحوالهم، أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسُّف والتحسُّر.

و«عليهم» صلةُ «تذهب»، كما يقال: هلك عليه حبّاً، و: مات عليه حزناً، أو هو بيانٌ للمتحسَّر عليه، فيكون ظرفاً مستقرّاً ومتعلَّقه مقدَّر، كأنَّه قيل: على من تذهب؟ فقيل: عليهم. وجُوِّزَ أن يتعلَّق بـ «حسرات» بناءً على أنَّه يُغتَفر تقديمُ معمول المصدرِ عليه إذا كان ظرفاً، وهو الذي أختارُه، والزمخشريُّ لا يجوِّزُ ذلك. وجَوَّزَ أنْ يكون «حسرات» حالاً من «نفسك» كأنَّ كلَّها صارت حسراتٍ لفرط التحسُّر، كما قال جرير:

مشقَ الهواجرُ لحمهنَّ مع السُّرَى حتى ذَهَبْنَ كَلَاكِلاً وصُدورا[(١)]

يريد: رجعنَ كلاكلاً وصدوراً، أي: لم يبق إلَّا كلاكلها وصدورُها[(٢)]. وهو الذي ذهب إليه سيبويه[(٣)] في البيت، وقال المبرِّد: كلاكلاً وصدوراً: تمييزٌ محوَّلٌ عن الفاعل، أي: حتى ذهب كلاكلها وصدورها، ومن هذا قوله:

فعلى إِثْرِهم تَساقَطُ نفسي حسراتٍ وذِكْرُهُم لي سَقامُ[(٤)]

وفيه مبالغاتٌ ثلاث.

وقرأ عبيد بن عمير: «زَيَّنَ» مبنيّاً للفاعل، ونصب «سوءَ». وعنه أيضاً: «أسوأَ» على وزن أفعل، وأريدَ بأسوأ عملِه الشركُ.

---

(١) ديوان جرير ١/ ٢٢٧، والكتاب ١/ ١٦٢. قوله: مشق، أي: أذهب لحومهنّ، والكلاكل: الصدور، كأنه أراد هنا أعلى الصدر، فلذلك ذكر معه الصدر، وَصَفَ رواحل أهزلها دُؤوب السير في الهواجر والليل. ينظر شرح الشواهد للشنتمري ص ١٣٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠١.

(٣) انظر الكتاب ١/ ١٦٢.

(٤) البيت لأبي دؤاد الإيادي كما في الشعر والشعراء ١/ ٢٣٩، والأصمعيات ص ١٨٨، والحماسة البصرية ١/ ٢٧٨، وخزانة الأدب ٩/ ٥٩١.

وقرأ طلحة: «أمن» بغير فاء[1]، قال صاحب «اللوامح»: فالهمزةُ للاستخبار والتقرير، ويجوز أن تكون للنداء، وحذف ما نودي لأجله، أي: تفكَّر وارجع إلى الله «فإنَّ الله» إلخ.

والظاهر أنها للإنكار، كما في قراءة الجمهور.

وقرأ أبو جعفر وقتادة وعيسى والأشهب وشيبة وأبو حيوة وحميد والأعمش وابن محيصن: «تُذْهِب» مِن أَذْهَبَ مسنداً إلى ضمير المخاطب «نفسَكَ» بالنصب على المفعولية، ورويت عن نافع[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾ في موضع التعليل لما قبله، وفيه وعيد للكفرة، أي: إنَّه تعالى عليمٌ بما يصنعونه من القبائح، فيجازيهم عليه.

والآيات من قوله تعالى: (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ) إلى هنا نزلت ـ على ما روي عن ابن عباس ـ في أبي جهل ومشركي مكة، وأخرج جويبر عن الضحاك[3] أنها نزلت في عمر رضي الله عنه وأبي جهل، حيث هدى الله تعالى عمر، وأضلَّ أبا جهل.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ مبتدأ وخبر، وقرأ حمزة والكسائيُّ وابن كثير: «الريحَ»[4]، وصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالَّة على كمال القدرة والحكمة، وكثيراً ما يفعلون ذلك بفعلٍ فيه نوعُ تميُّزٍ وخصوصية بحالٍ تستغرب أو تهمُّ المخاطَبَ أو غير ذلك، ومنه قول تأبَّط شرّاً:

ألا مَنْ مبلغٌ فتيانَ فَهْمٍ ... بما لاقيتُ عند رَحَى بِطَانِ
بأنِّي قد رأيتُ الغُولَ تهوي ... بسَهْبٍ كالصَّحيفة صَحْصَحَانِ

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠١.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠١، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٥١.

(٣) لباب النقول ص ١٨١، ووقع في مطبوع الدر المنثور ٥/ ٢٤٥: وأخرج الطبري من طريق جويبر عن الضحاك؟! والخبر ليس في تفسير الطبري.

(٤) التيسير ص ٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣. وهي قراءة خلف من العشرة.

فقلت لها كِلَانا نِضْوُ أرضٍ[١] أخو سفرٍ فخلِّي لي مكاني
فشدَّت شدَّةً نحوي فأهوَتْ لها كفِّي بمصقولٍ يماني
فأضربُها بلا دَهَشٍ فخرَّت صريعاً لليدين وللجِرانِ[٢]

ولأنَّ الإثارة خاصِّيَّةٌ للرياح وأثرٌ لا ينفكُّ ـ في الغالب ـ عنها، فلا يوجدُ إلَّا بعد إيجادها، فيكون مستقبلاً بالنسبة إلى الإرسال، وعلى هذا يكون استعمالُ المضارع على ظاهره وحقيقته من غير تأويل؛ لأنَّ المعتبرَ زمانُ الحكم لا زمان التكلُّم، والفاء دالَّةٌ على عدم تراخي ذلك، وهو شيءٌ آخر.

وجُوِّزَ أن يكون الإتيانُ بما يدلُّ على الماضي ثمَّ بما يدلُّ على المستقبل إشارةً إلى استمرار الأمر وأنَّه لا يختصُّ بزمانٍ دون زمان، إذ لا يصحُّ المضيُّ والاستقبال في شيءٍ واحد إلَّا إذا قصد ذلك.

وقال الإمام[٣]: اختلافُ الفعلين لأنَّه لمَّا أسندَ فعل الإرسال إلى الله تعالى، وما يفعلُ سبحانه يكون بقوله عزَّ وجلَّ: «كن»، فلا يُبقي في العدم زماناً ولا جزءَ زمان = جيء بلفظ الماضي دون المستقبل؛ لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنَّه كان، وكأنه[٤] تعالى فرغَ من كلِّ شيء، فهو سبحانه قَدَّرَ الإرسال في الأوقات المعلومة، وإلى المواضع المعينة، والتقدير كالإرسال، ولمَّا أسندَ فعل الإثارة إلى الرياح، وهي تؤلَّف في زمان قال سبحانه: «تثير» بلفظ المستقبل. اهـ.

وأُورد عليه قوله تعالى: في سورة الروم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الآية: ٤٨]، وفي سورة الأعراف ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الآية: ٥٧] حيث جيء في الإرسال فيهما بالمضارع، فتأمَّل.

﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قطعةٌ من الأرض لا نباتَ فيها.

---

(١) في الديوان: أين.
(٢) ديوان تأبط شرّاً ص ٢٢٢-٢٢٥، والأغاني ٢١/ ١٣٤. والجِران: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره. والسهب: الفلاة. والصحصحان: ما استوى من الأرض. القاموس (جرن) و(سهب) و(صحح).
(٣) في تفسيره ٢٦/ ٧.
(٤) في الأصل و(م): ولأنه، والمثبت من تفسير الرازي.

وقرئ «ميت» بالتخفيف[١]، وهما بمعنًى واحد في المشهور.

وفي «كلِّيَّات» أبي البقاء الكفوي: الميْت بالتخفيف هو الذي مات، والميِّت بالتشديد والمائت هو الذي لم يمت بعدُ، وأنشد:

ومن يكُ ذا روحٍ فذلك ميِّتٌ وما الميْتُ إلَّا من إلى القبرِ يُحمَلُ[٢]

والمعوَّل عليه هو المشهور.

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بالمطر النازل منه المدلولِ عليه بالسحاب، فإنَّ بينهما تلازماً في الذهن كما في الخارج، أو بالسحاب، فإنَّه سببُ السبب، وإحياءُ الأرض إنباتُ الشجر والكلأ فيها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يبسها وخلوِّها عن ذلك.

وإيراد الفعلين بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق، وإسنادُهما إلى نون العظمة المنبئ عن الاختصاص به تعالى؛ لما فيهما من مزيد الصنع، ولتكميل المماثلة بين إحياءِ الأرض وبين البعث الذي شُبِّه به بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ في كمال الاختصاص بالقدرة الربَّانيَّة.

وقال الإمام عليه الرحمة: أسند «أَرْسَل» إلى الغائب، و«ساق» و«أحيى» إلى المتكلِّم؛ لأنَّه في الأول عَرَّفَ سبحانه نفسَه بفعلٍ من الأفعال، وهو الإرسال، ثمَّ لمَّا عُرِفَ قال تعالى: أنا الذي عَرَفْتني سُقْتُ السحابَ، وأحييتُ الأرضَ، ففي الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب، وفي الثاني كان تذكيراً بالنعمة، فإنَّ كمالَ نعمتَيِ الرِّيَاحِ والسُّحُبِ بالسَّوق والإحياء[٣]. وهو كما ترى.

وقال سبحانه: «فأحيينا به الأرض» دون: فأحييناه ـ أي: البلد الميت ـ به؛ تعليقاً للإحياء بالجنس المعلوم عند كلِّ أحدٍ، وهو الأرض، ولأنَّ ذلك أوفقُ بأمر

---

(١) هي قراءة شعبة وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب. انظر التيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) الكليات ص ٨٥٨، وأورد البيت أيضاً صاحب تاج العروس (موت) وقال: قال الخليل: أنشدني أبو عمرو. وقبله:

أيا سائلي تفسير مَيْتٍ وميِّتٍ فدونك قد فسَّرتُ إن كنت تعقلُ

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٧.

البعث. وقال تعالى: «بعد موتها» مع أنَّ الإحياء مؤذِنٌ بذلك؛ لما فيه من الإشارة إلى أنَّ الموتَ للأرض الذي[1] تعلَّق بها الإحياء معلومٌ لهم، وبذلك يَقْوَى أمرُ التشبيه، فليتأمَّل.

و«النشور» على ما في «البحر» مصدرُ نَشَرَ الميتُ: إذا حيي، قال الأعشى:

حتى يقولَ الناس ممَّا رأوا ... يا عجباً للميِّت الناشر[2]

وفي «نهاية» ابن الأثير: يقال: نَشَر الميتُ يَنْشُر نشوراً، إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله تعالى: أحياه[3].

وقال الراغب: قيل: نشرَ الله تعالى الميت وأنشرَه بمعنى، والحقيقة أن نَشَر الله تعالى الميتَ مستعارٌ من نَشْرِ الثوب، أي: بَسْطِه، كما قال الشاعر:

طَوَتْكَ خطوبُ دهرِكَ بعد نشر ... كذاك خطوبُهُ طيّاً ونشرا[4]

والمراد بالنشور هنا إحياءُ الأموات في يوم الحساب، وهو مبتدأ، والجارُّ والمجرور قبلَه في موضع الخبر. وقيل: الكاف في حيِّز الرفع على الخبرية، أي: مِثْلُ ذلك الإحياءِ الذي تشاهدونَه إحياءُ الأموات يومَ القيامة، في صحَّة المقدوريَّة، وسهولة التأتِّي، من غير تفاوتٍ بينهما أصلاً، سوى الإلف في الأول دون الثاني.

وقال أبو حيان: وقع التشبيهُ بجهات؛ لمَّا قبلت الأرض الميتة الحياةَ اللائقة بها، كذلك الأعضاء تقبلُ الحياة، أو كما أنَّ الريحَ تجمعُ قِطَعَ السحاب، كذلك يجمعُ الله تعالى أجزاء الأعضاء وأبعاض الموتى، أو كما يسوق سبحانه السحابَ إلى البلد الميت يسوقُ عزَّ وجلَّ الروحَ والحياة إلى البدن[5].

وقال بعضهم: التشبيه باعتبار الكيفية. فقد أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب: التي.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠٢، والبيت في ديوان الأعشى ص١٩١.

(٣) النهاية (نشر).

(٤) المفردات (نشر)، والبيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص ٤٤٢، وفيه: نشراً وطيًّا.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٣٠٣.

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: يقومُ مَلَك بالصور بين السماء والأرض، فينفخُ فيه، فلا يبقى خلقٌ لله في السماوات والأرض إلَّا مَن شاء الله تعالى إلَّا ماتَ، ثم يرسل الله تعالى من تحت العرش ماءً كمنيِّ الرجال، فتنبتُ أجسامهم من ذلك الماء، وقرأ الآية، ثم يقوم مَلَكٌ فينفخ فيه، فتنطلقُ كلُّ نفسٍ إلى جسدها[(١)].

وفي حديث مسلم مرفوعاً: «يُنزلُ الله تعالى مطراً كأنَّه الطَّلُّ، فينبتُ أجساد الناس»[(٢)].

ونباتُ الأجساد من عَجْب الذنب، على ما ورد في الآثار، وقد جاء أنَّه لا يبلى، وهو العظم الذي في أسفل الصلب عند العجز[(٣)].

وقال أبو زيد الوقواقي[(٤)]: هو جوهرٌ فردٌ يبقى من هذه النشأة لا يتغيَّر. ولا حاجةَ إلى التزام أنَّه جوهرٌ فردٌ.

ووراء ذلك أقوالٌ عجيبة في هذا العجْب، فقيل: هو العقل الهيولانيّ، وقيل: بل الهيولى، وعن الغزالي: إنَّما هو النفس، وعليها تنشأ النشأة الآخرة. وعن الشيخ الأكبر[(٥)] أنَّه العين الثابت من الإنسان، وعن بعض المتكلِّمين أنَّه الأجزاءُ الأصلية.

وقال الملَّا صدرا الشيرازي في «أسفاره»: هو عندنا القوَّة الخياليَّة؛ لأنَّها آخر الأكوان الحاصلة في الإنسان، من القوى الطبيعية والحيوانية والنباتية المتعاقبة في الحدوث للمادة الإنسانيَّة في هذا العالم، وهي أول الأكوان الحاصلة في النشأة الآخرة. ثم بيَّن ذلك بما بيَّن، وإنَّه لأضعف من بيت العنكبوت وأوهن، والمعوَّلُ عليه ما يوافقُ فهمَ أهل اللسان، وأيُّ حاجةٍ إلى التأويل بعد التصديق بقدرة الملك الديَّان جلَّ شأنُه وعَظُم سلطانه.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٥، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم. وهو عند الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٣٦.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وفيه: «فتنبت منه أجساد الناس».

(٣) انظر ما سلف عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الإسراء.

(٤) كما في الفتوحات المكية ١/ ٣١٢، وفيه: الرقراقي. ولم أعرفه.

(٥) ينظر الفتوحات المكية ١/ ٣١٢.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ الشرفَ والمَنَعَةَ من قولهم: أرضٌ عَزَاز، أي: صُلبة، وتعريفُها للجنس، والآية في الكافرين؛ كانوا يتعزَّزون بالأصنام، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم؛ كانوا يتعزَّزون بالمشركين، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩].

و«من» اسم شرط، وما بعده فعل الشرط، والجمع بين «كان» و«يريد» للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها، وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ دليل الجواب، ولا يصحُّ جعله جواباً من حيث الصناعة؛ لخلوِّه عن ضميرٍ يعود على «مَنْ»، وقد قالوا: لا بدَّ أن يكون في جملة الجواب ضميرٌ يعود على اسم الشرط إذا لم يكن ظرفاً، والتقدير: من كان يريد العزَّةَ فليطلبها من الله تعالى، فلله وحدَه لا لغيره العزَّةُ، فهو سبحانه يتصرَّفُ فيها كما يريد، فوضع السببَ موضع المسبَّب؛ لأنَّ الطلبَ ممن هي[1] له وفي ملكه جميعها مسبَّبٌ عنه.

وتعريفُ «العزَّة» للاستغراق بقرينة «جميعاً»، وانتصابُه على الحال، والمراد عزَّةُ الدنيا والآخرة، وتقديمُ الخبر على المبتدأ للاختصاص كما أشرنا إليه.

ولا ينافي ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] لأنَّ ما لله تعالى وحدَه العزَّةُ بالذات، وما للرسول ﷺ العزَّةُ بواسطة قُرْبِه من الله تعالى، وما للمؤمنين العزَّةُ بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكأنَّه للإشارة إلى ذلك أعيد الجارُّ.

وقَدَّر بعضهم الجوابَ: فليطع الله تعالى، وأيَّدَ بما رواه أنس ـ كما في «مجمع البيان» ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ ربكم يقول كل يوم: أنا العزيزُ، فمن أراد عزَّ الدارين فليطع العزيز»[2].

---

(١) في الأصل: هو. والمثبت من (م) وحاشية الخفاجي ٧/ ٢١٨.

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ٢٣٠. والحديث أخرجه الخليلي في الإرشاد ٣/ ٩٢١، والخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٦٠، ٨/ ١٧١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٧، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٨٦.

=

ومن قَدَّر: فليطلبها من الله تعالى، قال: إنَّ الطلبَ منه تعالى إنَّما يكونُ بالطاعة والانقياد.

وعن الفرَّاء: المعنى: من كان يريدُ علم العزَّة ـ أي: القدرة على القهر ـ لمن هي؟ فلينسبها إلى الله تعالى، فهي له تعالى وحده(١).

وقيل: المعنى: من كان يريدُ العزَّةَ، أي: الغلبة، فهو مغلوبٌ؛ لأنَّ الغلبةَ لله تعالى وحدَه، ولا تتمُّ إلَّا به عزَّ وجلَّ، ونُسبَ هذا إلى مجاهد.

وقيل: تعريفُ «العزَّة» الأولى للاستغراق أيضاً أو للعهد، والمراد الفرد الكامل، والمعنى: من كان يريد العزَّةَ جميعها، أو الفردَ الكاملَ منها، وهي العزَّةُ التي لا يشوبُها ذلَّةٌ من وجهٍ، فهو لا ينالُها، فإنَّها لله تعالى وحده.

وهذا القول أحسنُ من القولين قبله، وأظهرُ الأقوال عندي الأول، وهو منسوبٌ إلى قتادة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ إلى آخره، كالبيان لطريق تحصيلِ العزَّة وسلوك السبيل إلى نيلها، وهو الطاعةُ القوليَّةُ والفعليَّة. وقيل: بيانٌ لكون العزَّة كلِّها لله تعالى وبيده سبحانه؛ لأنَّها بالطاعة، وهي لا يعتدُّ بها ما لم تقبل. وقيل: استئناف كلام، وعلى الأول المعوَّل.

و «الكلم» اسم جنسٍ جمعيٌّ عند جمع، واحدُه: كلمة، والمراد بـ «الكلم الطيب» على ما في «الكشاف» و«البحر» عن ابن عباس: لا إله إلا الله(٢). ومعنى كونه طيِّباً ـ على ما قيل ـ أنَّ العقلَ السليمَ يستطيبُه ويستلذُّه؛ لما فيه من الدلالة على التوحيد الذي هو مدار النجاة، والوسيلة إلى النعيم المقيم، أو يستلذُّه الشرع، أو الملائكةُ عليهم السلام.

وقيل: إنَّه حسنٌ يقبله العقلُ ولا يردُّه.

= قال الخليلي: ولا يعرف له إسنادٌ غيره.
وأورده الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٤/ ٨٤ في ترجمة سعيد بن هبيرة، من غرائبه.

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٣.

وإطلاقُ الكلم على ذلك إنْ كان واحدُه هنا[1] الكلمةَ بالمعنى الحقيقيِّ ظاهرٌ؛ لتضمُّنه عدَّةَ كلمات، لكن في وصفه بالطيِّب بالنظر إلى غير الاسم الجليل خفاءٌ، ولعلَّ ذلك باعتبار خصوصيَّة التركيب. وإن كان واحدُهُ هنا الكلمة بالمعنى المجازيِّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٥]، و: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وقوله عليه الصلاة والسلام: «أصدقُ كلمة قالها شاعر كلمةُ لبيد»[2]، وقولهم: «لا إله إلا الله» كلمةُ التوحيد، إلى ما لا يُحصى كثرةً، فإطلاقُ الكلم على ذلك؛ لتعدُّده بتعدُّد القائل، وكأنَّ القرينةَ على إرادة المعنى المجازيِّ للكلمة الصادقِ على الكلام الوصفُ بالطيب، بناءً على أنَّ ما يستطيب ويستلذُّ هو الكلام دون الكلمة العريَّة عن إفادة حكمٍ تنبسطُ منه النفس أو تنقبض.

أو يقال: إنَّ كثرةَ إطلاق الكلمة على الكلام وشيوعه فيما بينهم، حتى قال بعضهم ـ كما نقل الحمصيُّ في «حواشي التصريح» عن بعض شرَّاح الآجرومية ـ: إنَّه حقيقيةٌ لغويَّة = تغني عن القرينة.

وأخرجَ ابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن الحبر أنَّه فسَّر «الكلم الطيب» بذكر الله تعالى[3].

وقيل: هو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر. وهو ظاهرُ أثرٍ أخرجه ابن مردويه والديلميُّ عن أبي هريرة[4].

وقيل: هو: سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله. وهو ظاهرُ أثرٍ أخرجه جماعةٌ عن ابن مسعود[5].

---

(١) لفظة: هنا، ليست في (م).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦): (٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٣٣٩، والأسماء والصفات (٨٩٩).

(٤) هو في الدر المنثور ٥/ ٢٤٥-٢٤٦.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٣٨، والطبراني في الكبير (٩١٤٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٦٧)، والحاكم ٢/ ٤٢٥.

=

وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب أنَّه القرآن[١].

وقيل: هو الثناءُ بالخير على صالحي المؤمنين.

وقيل: هو الدعاءُ الذي لا ظلمَ فيه.

وقال الإمام ـ وبه أقتدي ـ: المختارُ أنَّه كلُّ كلامٍ هو ذكرُ الله تعالى، أو هو لله سبحانه كالنصيحة والعلم[٢].

وأمَّا ما أفاده كلام الملَّا صدرا في «أسفاره» من أنَّه النفوسُ الطاهرة الزكيَّة، فإنَّه تطلقُ الكلمة على النفس إذا كانت كذلك، كما قال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] = فلا ينبغي أن يعدَّ في عداد أقوال المفسرين كما لا يخفى.

وصعود الكلم إليه تعالى مجازٌ مرسلٌ عن قَبوله بعلاقة اللزوم، أو استعارةٌ بتشبيه القَبول بالصعود. وجُوِّزَ أنْ يُجعَلَ الكلمُ مجازاً عما كُتب فيه بعلاقة الحلول، أو يقدَّرَ مضافٌ، أي: إليه يصعدُ صحيفةُ الكلم الطيب، أو يُشبَّهَ وجودُه الخارجيُّ هنا ثم الكتابيُّ في السماء بالصعود، ثمَّ يطلقَ المشبَّه به على المشبَّه، ويُشتَقَّ منه الفعلُ على ما هو المعروف في الاستعارة التبعيَّة.

وقيل: لا مانعَ من اعتبار حقيقة الصعود للكلم، فلله تعالى تجسيدُ المعاني، وكونِ الصعود إليه عزَّ وجلَّ من المتشابه، والكلامُ فيه شهير، والكلامُ بعد ذلك كنايةٌ عن قَبوله والاعتناء بشأن صاحبه، وتقديم الجارِّ والمجرور لإفادة الحصر.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وابن مسعود رضي الله عنه والسلميُّ وإبراهيم: «يُصْعِدُ» من أَصعَد، «الكلامَ الطيِّبَ» بالنصب[٣].

= قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٩٠: رواه الطبراني، وفيه المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات.

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ٨.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والدر المصون ٩/ ٢١٧، وفيه: الكلم، بدل: الكلام.

وقال ابنُ عطية: وقرأ الضحاك: «يُصْعد» بضمِّ الياء[١]. ولم يَذْكُر مبنيًّا للفاعل ولا مبنيًّا للمفعول، ولا إعرابَ ما بعده. وفي «الكشاف»: وقُرِئ: «إليه يُصْعَد الكلمُ الطيب» على البناء للمفعول، و«إليه يُصعِدُ الكلمَ الطيِّبَ» من أصعدَ، والمُصْعِدُ هو الرجل، أي: يُصْعِدُ إلى الله عزَّ وجلَّ الكلمَ الطيِّبَ[٢].

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «إليه يَصْعَدُ» من صَعِد «الكلامُ» بالرفع[٣].

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ مبتدأ وخبرٌ على المشهور، واختلف في فاعل «يرفع» فقيل: ضميرٌ يعودُ على العمل الصالح، وضميرُ النصب يعودُ على «الكلم»، أي: والعمل الصالح يرفعُ الكلمَ الطيِّب، ورُوي ذلك عن ابن عباس والحسن وابن جبير ومجاهد والضحاك وشهر بن حوشب على ما أخرجه عنه[٤] سعيد بن منصور وغيره[٥].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس أنَّه فسَّر العملَ الصالح بأداء الفرائض، ثمَّ قال: فمن ذكرَ الله تعالى وأدَّى فرائضَه، حملَ عملُه ذكرَ الله تعالى فصعد به إلى الله تعالى، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤدِّ فرائضَه رُدَّ كلامُه على عمله وكان عملُه أولَى به[٦].

وتَعقَّب ذلك ابنُ عطية فقال: هذا قولٌ يردُّه[٧] معتقد أهل السنة، ولا يصحُّ عن ابن عباس، والحقُّ أنَّ العاصيَ بترك فرائضه إذا ذكرَ الله تعالى وقال كلاماً طيباً،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٢.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٣.
(٤) لفظة: عنه. ليست في الأصل.
(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٤٦، وزاد نسبته إلى ابن جرير وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب. وهو عند الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٣٩، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٤٧).
(٦) تفسير الطبري ١٩/ ٣٣٩، والأسماء والصفات للبيهقي (٨٩٩)، وسلف بعضه قريباً.
(٧) في الأصل و(م): يرد. والتصويب من المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٥٦، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٣.

كُتِبَ له ذلك، وتُقُبِّل منه، وعليه وزرُ ترك الفرائض، والله تعالى يتقبَّل من كلٍّ من اتَّقى الشرك. انتهى.

ولعلَّ المرادَ برفع العملِ الصالح الكلمَ الطيِّبَ رفعُ قَدْرِه، وجَعْلُه بحيث يترتَّبُ عليه من الثواب ما لم يترتَّب عليه إذا كان بلا عمل. وحديث: «لا يقبلُ الله قولاً إلَّا بعمل، ولا يقبلُ قولاً وعملاً إلَّا بنيَّة، ولا يقبلُ قولاً وعملاً ونيَّةً إلَّا بإصابة السُّنَّة»[١] المذكورُ في «الكشاف» لا أظنُّ صحَّته. وقيل: إنَّه لو سُلِّم صحَّتُه، فالمراد نفيُ القَبولِ التامِّ.

ويجوز أن يكون المراد برفعه إيَّاه تحقيقَه وتقويته، وذلك باعتبار أنَّ الكلم[٢] الطيب هو الإيمان، فإنَّه لا شكَّ أنَّ العملَ الصالحَ يُثَبِّتُ الإيمانَ ويحقِّقُه بإظهار آثاره، إذ به يعلم التصديقُ القلبيُّ.

وقيل: الفاعل ضميرٌ يعودُ على «الكلم الطيب»، وضمير النصب يعودُ على «العمل الصالح» أي: يرفع الكلمُ الطيِّب العملَ الصالحَ. ونسبَ أبو حيَّان[٣] هذا القولَ إلى أبي صالح وشهر بن حوشب، وأُيِّدَ بقراءة عيسى وابن أبي عبلة: «والعملَ الصالحَ» بالنصب على الاشتغال[٤]، وفيه بحثٌ لعدم تعيُّن ضمير «الكلم» للفاعليَّة عليها.

ومعنى رفع الكلمِ الطيِّب العملَ الصالحَ؛ قيل: أن يزيده بهجةً وحسناً.

ومن فسَّرَ الكلمَ الطيِّب بالتوحيد قال: معنى ذلك جعلُه مقبولاً، فإنَّ العملَ لا يقبل إلَّا بالتوحيد.

---

(١) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٦٩٢) من حديث أنس، وفيه أبان بن أبي عياش، وهو متروك. وانظر تتمة الكلام عنه في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٣٨.

(٢) في (م): الكلام.

(٣) في البحر ٧/ ٣٠٤.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٤.

وقيل: الفاعلُ ضميرُه تعالى، وضمير النصب يعودُ على العمل، وأخرج ذلك ابنُ المبارك عن قتادة، أي: والعملُ الصالح يرفعُه الله تعالى ويقبله[١].

قال ابن عطية: هذا أرجحُ الأقوال عندي[٢].

وقيل: ضميرُ الفاعل يعود على العمل، وكذا الضمير المنصوب، والكلام على حذف مضاف، أي: والعمل الصالح يرفعُ عاملَه ويشرِّفه، ونَسَبَ ذلك أبو حيَّان إلى ابن عباس، ثم قال: ويجوزُ عندي أنْ يكون «العمل» معطوفاً على «الكلم»، و«يرفعه» استئنافُ إخبار، أي: يرفعهما الله تعالى، ووحَّدَ الضميرَ لاشتراكهما في الصعود، والضمير قد يجري مجرى اسم الإشارة، فيكون لفظه مفرداً والمراد به التثنية، فكأنَّه قيل: ليس صعودهما من ذاتهما، بل ذلك برفع الله تعالى إيَّاهما[٣]. اهـ.

وهو خلاف الظاهر جدًّا، ومثلُه ما نسبَ[٤] إلى ابن عباس، وأنا لا أظنُّ صحَّة نسبته إليه، وعلى التسليم يحتملُ أنَّه ﷺ أرادَ بقوله: العملُ الصالحُ يرفعُ عاملَه ويشرِّفه = بيانَ ما تشير إليه الآيةُ في الجملة.

والذي يتبادرُ إلى ذهني من الآية ما روي عن قتادة، واختاره ابنُ عطية. وتخصيصُ العمل الصالح برفع الله تعالى إيَّاه على ذلك؛ قيل: لما فيه من الكُلْفة والمشقَّة؛ إذ هو الجهادُ الأكبر.

وظاهرُ هذا أنَّ العمل أشرفُ من الكلام، ولا كلام في ذلك إذا أريد بالعمل الصالح ما يشتملُ العملُ القلبيَّ كالتصديق، ولعلَّ الكلام عليه نظير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

وكلامُ الإمام صريحٌ في أنَّ «الكلم الطيب» المفسَّر بالذكر أشرفُ من العمل،

(١) الزهد لابن المبارك (٩١).
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٤.
(٤) في (م): نسبه.

حيث جَعَل صعودَ الكلم بنفسه دليلَ ترجيحه على العمل الذي يرفعُه غيره، وقال في وجه ذلك: الكلامُ شريف؛ فإنَّ امتياز الإنسان عن كلِّ حيوانٍ بالنطق، والعملُ حركةٌ وسكون، يشتركُ فيه الإنسان وغيره، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يُمْنَع، ومَن دونَه لا يجدُ الطريقَ إلَّا عند الطلب، ويدلُّ على هذا أنَّ الكافرَ إذا تكلَّم بكلمة الشهادة أمنَ من عذاب الدارين إن كان ذلك عن صدق، وأمنَ في نفسه ودمه وحرمه في الدنيا إن كان ظاهراً، ولا كذلك العملُ بالجوارح، وأيضاً إنَّ القلبَ هو الأصلُ، وما فيه لا يظهر إلَّا باللسان، وما في اللسان لا يبين صدقه إلَّا بالفعل، فالقولُ أقربُ إلى القلب من الفعل، فيكون أشرفَ منه[1]. اهـ. وفي القلب منه شيءٌ، فتدبر.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: المكرات السيئات، أو أصناف المكرات السيئات، على أنَّ «السيئات» صفةٌ لمحذوف، وليس مفعولاً به لـ «يمكرون»؛ لأنَّ «مَكَرَ» لازمٌ، وجُوِّزَ أنْ يكونَ مفعولاً على تضمين يقصدون أو يكسبون، وعلى الأوَّل فيه مبالغةٌ للوعيد الشديد على قصد المكر، أو هو إشارةٌ إلى عدم تأثير مكرهم.

والموصول مبتدأ، وجملة قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ خبره، أي: لهم بسبب مكرهم عذابٌ شديد لا يقادَر قدره، ولا يُعبأ بالنسبة إليه بما يمكرون.

والآية ـ على ما روي عن أبي العالية ـ في الذين مَكَروا برسول الله ﷺ في دار الندوة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] والمضارعُ لحكاية الحال الماضية.

ووَضعُ اسم الإشارة موضعَ ضميرهم في قوله سبحانه: ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ للإيذان بكمال تميُّزهم بما هم عليه من الشرِّ والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك، وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان، وبُعد منزلتهم في العدوان، أي: ومكرُ أولئك المفسدين المشهورين ﴿هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾ أي: يَفْسُدُ، وأصلُ البوار: فرطُ الكساد أو الهلاك، فاستعير هنا للفساد وعدم التأثير؛ لأنَّ فرط الكساد يؤدِّي إلى الفساد، كما قيل: كسد حتى فسد، أو لأنَّ الكاسد يكسدُ في الغالب لفساده، ولأنَّ الهالك فاسدٌ لا أثر له.

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/٨-٩.

و «مكر» مبتدأ، خبره جملة «هو يبور»، وتقديمُ الضمير للتقوِّي أو الاختصاص، أي: مكرهم هو يَفسدُ خاصَّةً لا مكرنا بهم.

وأجاز الحوفيُّ وأبو البقاء[(١)] كون الخبر جملة «يبور»، و«هو» ضمير فصل.

وتعقَّبه في «البحر» بأنَّ ضميرَ الفصل لا يكون ما بعده فعلاً، ولم يذهب إلى ذلك أحدٌ فيما علمنا إلَّا عبد القاهر الجرجانيّ في «شرح الإيضاح» له، فإنَّه أجازَ في: كان زيد هو يقوم، أن يكون «هو» فصلاً، ورُدَّ ذلك عليه[(٢)].

وجوَّز أبو البقاء أيضاً كون «هو» تأكيداً للمبتدأ[(٣)]. والظاهر ما قدمناه.

وقد أبار الله تعالى أولئك الماكرين بعد إبارة مكرهم، حيث أخرجهم من مكَّة وقتلَهم وأثبتَهم في قَليب بدر، فجمعَ عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقِّه عليه الصلاة والسلام بواحدةٍ منهنَّ، وحقَّق عزَّ وجلَّ فيهم قوله سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

ووجه ارتباط الآية بما قبلَها ـ على ما ذكره شيخ الإسلام ـ أنَّها بيانٌ لحال الكلم الخبيث والعمل السَّيِّئ وأهلهما، بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح[(٤)].

وقال في «الكشف»: كأنَّه لمَّا حصرَ سبحانه العزَّة وخصَّها به تعالى يعطيها من يشاء، وأرشد إلى نيل ما به يُنال ذلك المطلوب، ذكر على سبيل الاستطراد حالَ من أراد العزَّة من عند غيره عزَّ وجلَّ وأخذ في إهانة مَن أعزَّه الله تعالى فوق السماكين قَدْراً، وما رَجع إليهم من وبال ذلك كالاستشهاد لتلك الدعوى. وهو خلاصةُ ما ذكره الطيبيُّ في وجه الانتظام.

---

(١) في الإملاء ٤/٢١٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠٤.

(٣) الإملاء ٤/٢١٨.

(٤) تفسير أبي السعود ٧/ ١٤٦.

وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب أنَّ الآيةَ في أصحاب الرياء، وهي متَّصلةٌ بما عندها على ما روي عن شهر، حيث قال: «والذين يمكرون السيئات» أي: يراؤون «ومكر أولئك هو يبور» هم أصحاب الرياء، عملُهم لا يصعد.

وقال الطيبيُّ: إنَّ الجملة على هذه الرواية عطفٌ على جملة الشرط والجزاء، أعني قوله تعالى: «من كان يريد العزة» إلخ فيجب حينئذٍ مراعاةُ التطابق بين القرينتين والتقابل بين الفقرتين بحسب الإمكان، بأن يُقدَّرَ في كلٍّ منهما ما يحصلُ به التقابلُ بدلالة المذكور في الأولى على المتروك في الأخرى، وبالعكس. اهـ.

ولا يخفى بُعْدُه. وأيًّاما كان فالمضارعُ للاستمرار التجدديِّ.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ دليلٌ آخر على صحَّة البعث والنشور، أي: خلقكم ابتداءً منه في ضمن خلق آدم عليه السلام خلقاً إجمالياً ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثمَّ خلقَكم منها خلقاً تفصيلياً ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً ذكراناً وإناثاً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [الشورى: ٥٠] وأخرجَه ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ، وأخرج هو وغيره عن قتادة أنه قال: قدَّر بينكم الزوجيَّة، وزوَّج بعضَكم بعضاً(١).

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ حالٌ من الفاعل، و«من» زائدة، أي: إلَّا ملتبسةً بعلمه تعالى، ومعلومية الفاعل راجعةٌ إلى معلوميَّة أحواله مفصَّلةً، ومنها حالُ ما حملته الأنثى ووضعته، فجعلُه من ذلك أبلغُ معنًى وأحسنُ لفظاً مِنْ جعله من المفعول، أعني المحمول والموضوع؛ لأنَّ المفعولَ محذوفٌ متروك، كما صرَّح به الزمخشريُّ في «حم السجدة»(٢)، وجعلُه حالاً من الحمل والوضع أنفسهما خلافُ الظاهر.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٦، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٤٢.

(٢) ينظر كلامه عند تفسير الآية (٤٧) من سورة فصلت.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: من أحدٍ، أي: وما يمدُّ في عُمر أحدٍ، وسمِّيَ معمَّراً باعتبار الأوْل، نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٣٦]، و: «مَن قَتَلَ قتيلاً»[١]، على ما ذكر غيرُ واحدٍ، وهذا لئلَّا يلزمَ تحصيلُ الحاصل. وجُوِّزَ أن يقال: لأنَّ «يُعمَّر» مضارعٌ، فيقتضي أنْ لا يكون معمَّراً بعدُ، ولا ضرورةَ للحمل على الماضي.

﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ الضمير عائدٌ على مُعَمَّرٍ آخر، نظير ما قال ابنُ مالك في: عندي درهمٌ ونصفه، أي: نصفُ درهم آخر، ولا يضُرُّ في ذلك احتمالُ أنْ يكونَ المراد: مثل نصفه، لأنَّه مثال، وهو استخدامٌ أو شبيهٌ به، وإلى ذلك ذهب الفرَّاء[٢] وبعض النحويين، ولعله الأظهر، وفسَّروا المعمَّر بالمُزادِ عمرُه، بدليل ما يقابله من قوله تعالى: «ولا يُنْقَص» إلخ، وهو الذي دعاهم إلى إرجاع الضمير إلى نظير المذكور دون عينه؛ ضرورةَ أنَّه لا يكونُ المزيدُ في عمره منقوصاً من عمره.

وقيل عليه: هب أنَّ مرجعَ الضمير معمَّرٌ آخر، أليس قد نسب النقصَ في العمر إلى معمَّر، وقد قلتم إنَّه المزادُ عمره.

أجيبَ بأنَّ الأصلَ: وما يعمَّر من أحدٍ، فسمِّيَ معمَّراً باعتبار ما يَؤول إليه، وعاد الضمير باعتبار الأصل المحوَّل عنه، فمآل ذلك: ولا ينقص من عمر أحدٍ، أي: ولا يُجعلُ من ابتداء الأمر ناقصاً، فهو نظير قولهم: ضيِّق فمَ الرَّكيَّة[٣].

وقال آخرون: الضميرُ عائدٌ على المعمَّر الأول بعينه، والمعمَّر هو الذي جَعل الله تعالى له عمراً طال أو قصر، ولا مانع أن يكون المعمَّر ومن ينقصُ من عمره شخصاً واحداً، والمراد بنقص عمره ما يمرُّ منه وينقضي، مثلاً يكتب عمره مئة سنة، ثمَّ يكتب تحتَه: مضى يومٌ، مضى يومان، وهكذا حتى يأتي إلى آخره،

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٢٦٠٧)، والبخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) عن أبي قتادة ﷺ. ويذكر شاهداً على تنزيل المُقْبِلِ على الأمر المشارِفِ له منزلةَ الشارع فيه.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٨.

(٣) الركية: بئر تحفر. تهذيب اللغة ١٠/ ٣٥٠.

وروي هذا عن ابن عباس وابن جبير وأبي مالك وحسان بن عطية والسُّدِّيِّ، وقيل بمعناه:

حياتُك أنفاسٌ تُعَدُّ فكلَّما مضى نَفَسٌ منها انتقصت به جزءا[1]

وقيل: الزيادةُ والنقص في عمرٍ واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح، كما ورد في الخبر: «الصدقةُ تزيدُ في العمر»[2]، فيجوزُ أنْ يكونَ أحدٌ معمَّراً، أي: مزاداً في عمره إذا عمل عملاً، وينقص من عمره إذا لم يعمله، وهذا لا يلزم منه تغيير التقدير؛ لأنَّه في تقديره تعالى معلَّق أيضاً، وإن كان ما في علمه تعالى الأزليِّ وقضائه المبرم لا يعتريه محوٌ على ما عُرِفَ عن السلف، ولذا جاز الدعاءُ بطول العمر.

وقال كعب: لو أنَّ عمر ﷺ دعا الله تعالى، أخَّر أجله.

ويعلم من هذا أنَّ قولَ ابن عطية: هذا قولٌ ضعيفٌ مردودٌ يقتضي القولَ بالأجلين، كما ذهبت إليه المعتزلة[3] = ليس بشيء.

ومن العجيب قولُ ابن كمال: النظرُ الدقيق يحكمُ بصحَّة أن المعمَّر - أي: الذي قُدِّرَ له عمرٌ طويلٌ - يجوز أنْ يبلغَ ذلك العمر، وأن لا يبلغَ، فيزيد عمره على الأول، وينقص على الثاني، ومع ذلك لا يلزم التغيير في التقدير؛ لأنَّ المقدَّر في كلِّ شخصٍ هو الأنفاس المعدودة لا الأيام المحدودة والأعوام الممدودة، ثم قال: فافهم هذا السرَّ العجيب، وكتب في الهامش: حتى ينكشفَ لك سرُّ اختيار حبس النفس، ويتَّضح وجهُ صحة قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ

---

(١) البيت في الديوان المنسوب لعليٍّ ﷺ ص ١١، ونسبه ابن عبد البر في بهجة المجالس ٣/ ٣٣٩ لمحمود الوراق، وكذا ذُكرَ في ديوانه ص ٢٤٠ في الأبيات المنسوبة له.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٧/ (٣١) من حديث عمرو بن عوف ﷺ، وفيه كثير بن عبد الله المزني، وهو ضعيف. وجاء في معنى هذا الحديث ما أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس ﷺ: «مَن سرَّه أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسَأ له في أثره، فليصل رحمه». وينظر تفسير القرطبي ٧/ ٣٦١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٢.

الصدقةَ والصلةَ تعمران الديار، وتزيدان في الأعمار»[١]. اهـ. وتعقَّبه الشهابُ الخفاجيُّ[٢] بأنَّه مما لا يعوِّل عليه عاقلٌ، ولم يقل به أحدٌ غيرُ بعض جهلة الهنود، مع أنَّه مخالفٌ لما ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم والنسائيُّ وابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود من قول النبيِّ ﷺ لأمِّ حبيبة، وقد قالت: اللهم أمتعني بزوجي النبيِّ ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية: «سألتِ الله تعالى لآجالٍ مضروبة، وأيَّامٍ معدودة» الحديث[٣]، وأطال الجلبيُّ في ردِّه، وهو غنيٌّ عنه. اهـ.

وقال بعضهم: يجوزُ أنْ لا يبلغ من قُدِّرَ له عمرٌ طويل ما قُدِّرَ له، بأن يغيَّر ما قُدِّرَ أوَّلاً بتقديرٍ آخر، ولا حَجْر على الله تعالى. ويشيرُ إلى ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام في حديث التراويح: «خشيت أنْ تُفرضَ عليكم»[٤]، وقوله ﷺ في دعاء القنوت: «وقني شرَّ ما قضيت»[٥]، وخوفُه ـ عليه من الله تعالى آلافُ آلافِ صلاةٍ وسلام ـ من قيام الساعة إذا اشتدَّت الريح[٦]، مع إخباره بأنَّ بين يديها خروجَ

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٢٥٢٥٩) من طريق القاسم عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار».

(٢) في حاشيته ٧/ ٢٢٠.

(٣) صحيح مسلم (٢٦٦٣)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٠٢٢) و(١٠٠٢٣)، ومصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٧٣-٣٧٤.

(٤) سلف عند تفسير الآية (١٥) من سورة الأنعام.

(٥) قطعة من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه مرفوعاً، أخرجه أحمد (١٧١٨)، وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي ٣/ ٢٤٨، وابن ماجه (١١٨٧).

(٦) لم أقف على ذكر لخوف النبي ﷺ من قيام الساعة عند هبوب الريح.
وأخرج البخاري في صحيحه (١٠٣٤) من حديث أنس يقول: كانت الريح الشديدة إذا هبت عرف ذلك في وجه النبي ﷺ.
وأخرج مسلم في صحيحه (٨٩٩): (١٤) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم، عرف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سرَّ به، وذهب عنه ذلك. قالت عائشة: فسألته. فقال: «إني خشيت أن يكون عذاباً سلط على أمتي». ويقول إذا رأى المطر: «رحمة».

المهديِّ والدجَّال والدابَّة، وطلوعَ الشمس من مغربها، إلى غير ذلك ممَّا لم يَحدُث بَعْدُ، وغايةُ ما يلزم من ذلك تغيُّر المعلوم، ولا يلزمُ منه تغيُّر العلم، على ما بُيِّن في موضعه، وعلى هذا لا إشكال في خبر: «الصدقة تزيدُ في العمر»(١)، ويتَّضحُ أمرُ فائدة الدعاء، وما يحكى عن بعضهم من نفي القضاء المبرَم يرجعُ إليه.

وقد رأيتُ كُرَّاسةً لبعض الأفاضل أطال الكلام فيها لتشييد هذا القول وتثبيت أركانه، والحقُّ عندي أنَّ ما في العلم الأزليِّ المتعلِّقِ بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر لا يتغيَّر، ويجب أن يقعَ كما علم، وإلَّا يلزم الانقلاب، وما يتبادرُ منه خلافُ ذلك ـ إذا صحَّ ـ مؤولٌ، وخبرُ: «الصدقةُ تزيدُ في العمر»(٢) قيل: إنَّه خبرُ آحاد، فلا يعارضُ القطعيَّات.

وقيل: المراد أنَّ الصدقةَ وكذا غيرها من الطاعات، تزيدُ فيما هو المقصودُ الأهمُّ من العمر، وهو اكتساب الخير والكمال والبركة التي بها تُستَكْمَلُ النفوسُ الإنسانيَّة، فتفوز بالسعادة الأبديَّة، والدعاءُ حُكْمُه حُكْمُ سائر الأسباب من الأكل والشرب والتحفُّظ من شدَّة الحرِّ والبرد مثلاً، ففائدته كفائدتها.

وقيل: هو لمجرَّد إظهار الاحتياج والعبوديَّة، فليتدبر.

وقيل: الضمير للعمر، والنقص لغيره، أي: ولا ينقصُ من عمر المعمَّر لغيره، بأن يُعطَى له عمرُ ناقصٍ من عمره.

وقيل: الضميرُ للمنقوص من عمره، وهو ـ وإن لم يصرَّح به ـ في حُكم المذكور كما قيل:

وبـضـدِّهـا تـتـبـيَّـنُ الأشـيـاء(٣)

فيكون عائداً على ما عُلِم من السياق، أي: ولا يُنقص من عمر المنقوص من عمره بجعله ناقصاً.

---

(١) سلف قريباً.

(٢) سلف قريباً.

(٣) عجز بيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ١٤٩، وسلف ٧/ ٣٧١.

وقرأ الحسن وابن سيرين وعيسى: «ولا يَنْقُص» بالبناء للفاعل[١]، وفاعله ضميرُ المعمَّر، أو: «عمره»، و«من» زائدة في الفاعل، وإن كان متعدياً جازَ كونُه ضمير الله تعالى.

وقرأ الأعرجُ: «من عُمْرِه» بسكون الميم[٢].

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ عن ابن عباس: هو اللوح المحفوظ. وجُوِّزَ أنْ يرادَ به صحيفةُ الإنسان، فقد أخرجَ ابنُ المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفاريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخلُ الملكُ على النطفةِ بعدما تستقرُّ في الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلةً، فيقول: يا ربّ، أشقيٌّ أم سعيد؟ أذكرٌ أم أنثى؟ فيقول الله تعالى، ويكتب، ثم يكتب عملَه ورزقَه وأجلَه وأثرَه ومصيبَته، ثم تُطْوى الصحيفةُ، فلا يزاد فيها ولا ينقص منها»[٣].

وجُوِّزَ أيضاً أنْ يُراد به علمُ الله عزَّ وجلَّ. وذكر في ربط الآيات أنَّ قولَه تعالى: «والله خلقكم من تراب» إلخ مُسَاقٌ للدلالة على القدرة الكاملة، وقوله سبحانه: «ما تحمل من أنثى» إلخ للعلم الشامل، وقوله عز وجل: «وما يعمَّر من معمَّر» إلخ لإثبات القضاء والقدر، والمعنى: «وما يعمَّر» منكم، خطاباً لأفراد النوع الإنساني، وأيّد بذلك الوجهُ الأول من أوجه: «وما يعمر» إلخ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من الخَلْق وما بعده، مع كونه محاراً للعقول والأفهام ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ⑪﴾ لاستغنائه تعالى عن الأسباب، فكذلك البعث والنشور.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٣ عن الحسن وابن سيرين ويعقوب، ونسبها في البحر المحيط ٧/ ٣٠٤ ليعقوب وسلام، وعبد الوارث وهارون كلاهما عن أبي عمرو.
وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٥٢ من رواية روح، وبخلف عن رويس.

(٢) أوردها القرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٦٢ وزاد نسبتها للزهري. وهي في القراءات الشاذة ص١٢٣ عن أبي عمرو، وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٤٧، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٦٤٤)، وأحمد (١٦١٤٢).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ﴾ طيِّبٌ ﴿فُرَاتٌ﴾ كاسر العطش ومزيله. وقال الراغب: الفراتُ: الماء العذب، يقال للواحد والجمع(١). ولعلَّ الوصف على هذا على طرز: أسودُ حَالِكٌ، وأصفرُ فاقِعٌ.

﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ سهلٌ انحداره لخلوّه ممَّا تعافه النفس.

وقرأ عيسى: «سيِّغ» كميِّت بالتشديد، وجاء كذلك عن أبي عمرو وعاصم(٢). وقرأ عيسى أيضاً: «سَيْغ» كَميْت بالتخفيف(٣).

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ﴾ متغيِّرٌ طعمُه التغيُّر المعروف.

وقرأ أبو نهيك وطلحة: «مَلِح» بفتح الميم وكسر اللام(٤). قال أبو الفضل(٥) الرازي: وهي لغةٌ شاذَّةٌ. وجُوِّزَ أن يكون مقصوراً من مالح للتخفيف، وهو مبنيٌّ على ورود مالح، والحقُّ ورودُه بقلَّةٍ، وليس بلغةٍ رديئةٍ كما قيل.

وفرَّقَ الإمام بين الملح والمالح بأنَّ الملحَ الماءُ الذي فيه الطعم المعروف من أصل الخلقة، كماء البحر، والمالحُ الماء الذي وُضِع فيه ملحٌ فتغيَّر طعمُه، ولا يقال فيه إلَّا مالح(٦). ولم أره لغيره.

وقال بعضهم: لم يَرِدْ مالح أصلاً، وهو قولٌ ليس بالمليح.

﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة والحرارة، من قولهم: أجيجُ النار وأَجَّتُها، ومن هنا قيل: هو الذي يحرقُ بملوحته، وهذا مثلٌ ضُرِبَ للمؤمن والكافر.

---

(١) المفردات (فرت).

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠٥، والقراءة عن عيسى في القراءات الشاذة ص ١٢٣، وقراءة أبي عمرو وعاصم المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.

(٣) المحتسب ٢/ ١٩٨، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٥.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٣٠٥، وهي في المحتسب ٢/ ١٩٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٦٢ عن طلحة فقط.

(٥) في الأصل و(م): أبو الفتح، وهو خطأ، والتصويب من البحر ٧/ ٣٠٥، والكلام منه.

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ١١.

وقوله تعالى[1]: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي: من كلٍّ واحدٍ منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي: غضّاً جديداً، وهو السمكُ، على ما رُوِيَ عن السُّدِّيِّ. وقيل: الطير والسمك. واختار كثيرٌ الأول.

والتعبيرُ عن السمك باللحم مع كونه حيواناً، قيل: للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل، ووصفُه بالطراوة للإشعار بلطافته والتنبيهِ على المسارعة إلى أكله لئلَّا يتسارعَ إليه الفسادُ، كما ينبئ عنه جَعْلُ كلٍّ من البحرين مبدأَ أكلِه.

واستدلَّ مالكٌ والثوريُّ بالآية ـ حيث سَمَّى فيها السمكَ لحماً ـ على حِنْثِ من حَلَفَ: لا يأكلُ لحماً، فأكلَ سمكاً.

وقال غيرهما: لا يحنث؛ لأنَّ مبنى الأيمان على العرف، وهو فيه لا يسمَّى لحماً، ولذلك لا يحنَثُ من حلف لا يركبُ دابَّة فركب كافراً، مع أنَّ الله تعالى سمَّاه دابَّةً في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٥٥].

ولا يبعدُ عندي أنْ يُراد بـ «لحماً» لحم السمك، ودعوى التلويح بانحصار الانتفاع بالسمك في الأكل لا أظنُّها تامَّةً.

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ ظاهره: ومن كلٍّ تستخرجون ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والحليةُ التي تُستخرَجُ من البحر الملحِ اللؤلؤُ والمرجان، ويلبس ذلك الرجالُ والنساء، وإن اختلفت كيفيَّة اللبس، أو يقال: عبَّر عن لبس نسائهم بلبسِهم؛ لكونهنَّ منهم، أو لكون لبسهنَّ لأجلهم.

ولا نعلم حليةً تستخرجُ من البحر العذب، ولا يظهر هنا اعتبارُ إسناد ما للبعض إلى الكلِّ، كما اعتُبرَ ذلك في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وكون بعض الصخور التي في مجاري السيول قد تكسَّر فيوجد فيها ماس وهو حِلْيةٌ تلبسُ ـ إنْ صحَّ ـ لا ينفعُ اعتبارُه هنا، إذ ليس فيه استخراجُ الحِلْية من البحر العذب ظاهراً.

---

(١) جاء فوقها في الأصل: مبتدأ. اهـ. وسيأتي بيان خبره في الصفحة التالية.

وقيل: لا يَبعُدُ أنْ تكون الحلية المستخرجةُ من ذلك عظامَ السمك التي يصنعُ منها قبضاتٌ للسيوف والخناجر مثلاً، فتحملُ ويتحلَّى بها.

وفيه ما فيه، لا سيَّما إذا كانت الحلية كالحليّ: ما يتزيَّن به من مصنوع المعدنيات أو الحجارة.

وقال الخفاجيُّ: لا مانع من أن يخرج اللؤلؤ من المياه العذبة، وإن لم نَرَهُ[1]. ولا يخفى ما فيه من البعد.

وذهب بعض الأجلَّة للخلاص من القيل والقال أنَّ المرادَ: وتستخرجونَ من البحرِ الملح خاصَّةً حليةً تلبسونها. ويشعرُ به كلامُ السُّدِّيِّ.

يحتملُ[2] ثلاثة أوجه:

الأوَّلُ: أنَّه استطرادٌ في صفة البحرين، وما فيهما من النعم والمنافع.

والثاني: أنَّه تتميمٌ وتكميلٌ للتمثيل؛ لتفضيل المشبَّه به على المشبَّه، وليس من ترشيح الاستعارة ـ كما زعم الطيبيُّ ـ في شيء، بل إنَّما هو استدراكٌ لدعوى الاشتراك بين المشبَّه والمشبَّه به، يلزمُ منه أنْ يكونَ المشبَّهُ أقوى، وهذا الاستدراكُ مخصوصٌ بالملح، وإيضاحُه أنَّه شبَّه المؤمنَ والكافر بالبحرين، ثمَّ فضَّل الأُجَاج على الكافر بأنَّه قد شارك الفرات في منافع، والكافر خِلْوٌ من النفع، فهو على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤].

والثالث: أنَّه من تتمَّة التمثيل، على معنى أنَّ البحرين وإن اشتركا في بعض الفوائد تفاوتا فيما هو المقصودُ بالذات؛ لأنَّ أحدَهما خالطَه ما لم يبقِه على صفاء فطرته، كذلك المؤمنُ والكافر، وإن اتَّفق اتِّفاقهما في بعض المكارم، كالشجاعة

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٢١.
(٢) فوقها في الأصل: خبر قوله تعالى. اهـ منه.

والسخاوة، متفاوتان فيما هو الأصلُ؛ لبقاء أحدهما على الفطرة الأصلية دون الآخر، فجملة «ومن كلٍّ» إلخ حالية.

وعندي خيرُ الأوجهُ الثلاثة أوسطُها، وعلى كلٍّ يحصلُ الجواب عمَّا قيل: كيف يناسب ذكرُ منافع البحر الملحِ، وقد شبَّه به الكافر؟

وقال أبو حيان: إنَّ قوله تعالى: «وما يستوي البحران» إلخ لبيان ما يستدلُّ به كلُّ عاقلٍ على أنَّه ممَّا لا مدخل لصنمٍ فيه(١).

وقال الإمام: الأظهرُ أنه دليل لكمال قدرة الله عزَّ وجلَّ(٢).

وما ذكرنا أوَّلاً من أنَّه تمثيلٌ للمؤمن والكافر هو المشهور روايةً ودرايةً، وفيه من محاسن البلاغة ما فيه.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ السفن ﴿فِيهِ﴾ أي: في كلٍّ منهما، وانظر هل يحسنُ رجوعُ الضمير للبحر الملح، لانسياق الذهن إليه من قوله سبحانه: «وتستخرجون حليةً تلبسونها» بناءً على أنَّ المعروفَ استخراجُها منه خاصَّة؟ وأمرُ الفُلك فيه أعظم من أمرها في البحر العذب، ولذا اقتصر على رؤية الفلك فيه على الحالة التي ذكرها(٣) الله تعالى.

وأفردَ ضميرَ الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق؛ لأنَّ الخطاب لكلِّ أحدٍ تتأتَّى منه الرؤية، دون المنتفعين بالبحرين فقط.

﴿مَوَاخِرَ﴾ شواقُّ للماء، يجريها مقبلةً ومدبرةً بريحٍ واحدة، فالمخرُ: الشقُّ.

قال الراغب: يقال: مَخَرَتِ السفينةُ مَخْراً ومُخُوراً: إذا شقَّت الماء بجؤجُئِها(٤).

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٤. والعبارة فيه: يُستَدلُّ بها على كل عاقل أنه ممَّا. . .

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ١٠.

(٣) في (م): الحال التي ذكر.

(٤) المفردات (مخر)، وجؤجؤ الطائر والسفينة: صدرهما. مختار الصحاح (جأجأ).

وفي «الكشاف»[1]: يقال: مخرتِ السفينةُ الماء، ويقال للسحاب: بناتُ مَخْرٍ؛ لأنَّها تمخرُ الهواء، والسُّفْنُ الذي اشتُقَّت منه السفينة قريبٌ من المخر؛ لأنَّها تسفِنُ الماء كأنها تقشره كما تمخره.

وقيل: المخر: صوتُ جري الفُلْك.

وجاء في سورة النحل: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [الآية: ١٤] بتقديم «مواخر» وتأخير «فيه» وعَكَسَ هاهنا، فقيل في وجهه: لأنَّه علَّق «فيه» هنا بـ «ترى»، وثمت بـ «مواخر». ولا يحسم مادة السؤال.

والذي يظهر لي في ذلك أنَّ آية «النحل» سيقت لتعداد النعم، كما يؤذنُ بذاك سوابقُها ولواحقُها، وتعقيبُ الآيات بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فكان الأهمُّ هناك تقديمَ ما هو نعمةٌ، وهو مخرُ الفلك للماء، بخلاف ما هنا، فإنَّه إنما سيق استطراداً أو تتمَّةً للتمثيل كما علمت آنفاً، فقدم فيه «فيه» إيذاناً بأنَّه ليس المقصود بالذات ذلك، وكأنَّ الاهتمامَ بما هناك اقتضَى أنْ يقال في تلك الآية: (وَلِتَبْتَغُواْ) بالواو، ومخالفة ما هنا لذلك اقتضت تركَ الواو في قوله سبحانه: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: من فضل الله تعالى بالنقلة فيها. وهو سبحانه وإنْ لم يَجْرِ له ذكرٌ في الآية، فقد جرى له تعالى ذكرٌ فيما قبلها، ولو لم يَجْرِ لم يُشْكِلْ؛ لدلالة المعنى عليه عزَّ شأنُه.

واللام متعلِّقة بـ «مواخر»، وجُوِّزَ تعلُّقها بمحذوفٍ دلَّ عليه الأفعال المذكورة، كـ: سخَّر البحرين، وهيَّأهما، أو: فعل ذلك «لتبتغوا من فضله».

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ تعرفونَ حقوقَه تعالى، فتقومونَ بطاعته عزَّ وجلَّ وتوحيده سبحانه.

و«لعلَّ» للتعليل على ما عليه جمعٌ من الأجلَّة، وقد قدَّمنا ذلك.

وقال كثير: هي للترجِّي، ولمَّا كان محالاً عليه تعالى كان المرادُ اقتضاءَ ما ذُكر من النعم للشكر، حتَّى كأنَّ كلَّ أحدٍ يترجَّاه من المنعِم عليه بها، فهو تمثيلٌ يؤول إلى أمره تعالى بالشكر للمخاطَبين.

---

(١) ٣/ ٣٠٤.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ بزيادةِ أحدهما ونقص الآخر بإضافة بعض أجزاء كلٍّ منهما إلى الآخر.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ عطفٌ على «يولج» واختلافُهما صيغةً؛ لما أنَّ إيلاجَ أحد المَلَوين في الآخر متجدِّدٌ حيناً فحيناً، وأما تسخيرُ النيِّرَين فأمرٌ لا تعدُّد فيه، وإنَّما المتعدِّدُ والمتجدِّدُ آثارُه، وقد أشير إليه بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجۡرِي﴾ أي: بحسب حركته على المدارات اليوميَّة المتعدِّدة حسبَ تعدُّدِ أيَّام السنة، أو بحسب حركتيه ـ الخاصة وهي من المغرب إلى المشرق، والقسريَّة التي هي من المشرق إلى المغرب ـ جرياناً مستمرّاً.

﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ قدَّره الله تعالى لجريانهما، وهو يومُ القيامة، كما روي عن الحسن.

وقيل: جريانُهما عبارةٌ عن حركتيهما الخاصَّتين بهما، والأجلُ المسمَّى عبارةٌ عن مجموع مدَّةِ دورتيهما، أو منتهاها، وهي للشمس سنة، وللقمر شهر، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك مفصَّلاً.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارةٌ إلى فاعل الأفاعيل المذكورة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية العظمة.

وهو مبتدأ، وما بعدَه أخبارٌ مترادِفةٌ، أي: ذلكم العظيم الشأنِ الذي أبدع هذه الصنائع البديعة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ وفيه من الدلالة على أنَّ إبداعَه تعالى لتلك البدائع ممَّا يوجِبُ ثبوتَ تلك الأخبار له تعالى.

وفي «الكشاف»[1]: ويجوزُ في حكم الإعراب إيقاعُ اسم الله تعالى صفةً لاسم الإشارة، أو عطف بيان، و«ربكم» خبراً، لولا أنَّ المعنى يأباه. اهـ.

قال في «الكشف»: فيه نظر؛ لأنَّ الاسمَ الجليل جارٍ مجرى العَلَم، فلا يجوز أنْ يقعَ وصفاً لاسم الإشارة ألبتَّة، لا لفظاً ولا معنى، وكأنَّه فُرِض على تقدير عدم

---

(١) ٣/ ٣٠٤.

الغلبة، وأمَّا إباءُ المعنى على تقدير تجويز الوصف، فقد قيل: إنَّ المقصودَ أنَّه تعالى المنفردُ بالإلهية، لا أنَّ المنفرد بالإلهية هو ربُّكم؛ لأنَّ المشركين ما كانوا معترفين بالمنفرد على الإطلاق، وأمَّا عطفُ البيان، فقيل: لأنَّه يوهمُ تخييل الشركة، ألا ترى أنَّك إذا قُلت: ذلك الرجل سيِّدُك عندي، ففيه نوع شركة؛ لأن «ذا» اسم مبهم، وكأنَّه أرادَ أنَّ البيانَ حيث يذهبُ الوهم إلى غيره ويحتملُ الشركة مناسبٌ لا في مثل هذا المقام. وأفاد الطيبيُّ أنَّ «ذلك» يشارُ به إلى ما سبق؛ للدلالة على جدارة ما بعدَه بسبب الأوصاف السابقة، ولو كان وصفاً أو بياناً لكان المشارُ إليه ما بعده. وهذا في الأول حسنٌ دونَ الثاني، اللهم إلَّا أنْ يكون قولُه: أو عطف بيان، إشارةً إلى المذهب الذي يجعلُ الجنس الجاري على المبهم غير وصف، فيكون حكمُه حكمَ الوصف إذ ذاك، وبعدَ أن تبيَّنَ أنَّ المقام للإشارة إلى السابق، فاسمُ الإشارة قد يُجَاء به لأغراضٍ أخر. اهـ.

وأبو حيَّان منعَ صحَّة الوصفيَّة للعلمية، ثم قال: لا يظهرُ إباءُ المعنى ذلك(١).

ويجوز أنْ يكون قولُه تعالى: «له الملك» جملةً مبتدأةً واقعةً في مقابلة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ ويكون ذلك مقرِّراً لما قبله من التفرُّد بالإلهية والربوبيَّة، واستدلالاً عليه، إذ حاصلُه: جميعُ الملك والتصرُّف في المبدأ والمنتهَى له تعالى، وليس لغيره سبحانه منه شيءٌ، ولذا قيل: إنَّ فيه قياساً منطقيّاً مطويّاً.

وجُوِّزَ أن يكون مقرِّراً لقوله تعالى: «والله خلقكم» إلخ، وقولِه تعالى: «يولج» إلخ، فجملة «الذين تدعون» إلخ عليه؛ إمَّا استئنافيةٌ أيضاً، وهي معطوفةٌ على جملة «له الملك»، وإمَّا حالٌ من الضميرِ المستقرِّ في الظرف، أعني: له.

وعلى الوجه الأوَّل هي معطوفةٌ على جملة «ذلكم الله» إلخ، أو حالٌ أيضاً.

والقِطْمِير على ما أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد: لفافةُ النواة(٢)، وهي

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٥.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٣٥٠.

القشرُ الأبيضُ الرقيق الذي يكونُ بين التمر والنواة، وهو المعنى المشهور.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر[١]: أنَّه القمعُ الذي هو على رأس التمرة.

وأخرجَ عبد بن حميد عن قتادة: أنَّه القشرةُ على رأس النواة[٢]، وهو ما بين القمع والنواة.

وقال الراغب: إنَّه الأثرُ على ظهر النواة[٣].

وقيل: هو قشرُ الثوم.

وأيًّاما كان، فهو مَثَلٌ للشيء الدنيء الطفيف، قال الشاعر:

وأبوك يخصفُ نعلَه متورِّكاً ما يملكُ المسكين من قطميرِ[٤]

وقرأ عيسى وسلام ويعقوب: «يَدْعون» بالياء التحتانية[٥].

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله، كاشفٌ عن جليَّة حال ما يَدعونه بأنَّه جمادٌ ليس من شأنه السماع، هذا إذا كان الكلامُ مع عَبَدَةِ الأصنام، ويحتمل أنْ يكون مع عَبَدَتها وعَبَدَة الملائكة وعيسى وغيرهم من المقرَّبين، وعدمُ السماع حينئذٍ، إمَّا لأنَّ المعبودَ ليس من شأنه ذلك، كالأصنام، وإمَّا لأنَّه في شُغل شاغل، وبُعدٍ بعيد عن عابده، كعيسى عليه السلام، ورويَ هذا عن البلخيِّ، أو لأنَّ الله عزَّ وجلَّ حفظَ سمعَه من أن يصل إليه مثلُ هذا الدعاء؛ لغاية قبحه وثقله على سمع من هو في غاية العبوديَّة لله سبحانه، فلا يردُ أنَّ الملائكةَ عليهم السلام يسمعون وهم في السماء ـ كما ورد في بعض الآثار ـ دعاءَ المؤمنين ربَّهم سبحانه.

---

(١) عن الضحاك، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٨.

(٢) وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٥٠.

(٣) المفردات (قطمر).

(٤) هو في البحر المحيط ٧/ ٣٠٥، والدر المصون ٩/ ٢٢١ دون نسبة.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٢٣ و١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٥. وقراءة يعقوب هي من طريق المعدل عن روح كما في النشر ٢/ ٣٥٢، وهي خلاف المشهور عنه.

وفي نظم ذوي النفوس القدسيَّة في سلك الملائكة عليهم السلام من حيثيَّة السماع وهم في مقارِّ نعيمِهم = توقُّفٌ عندي، بل في سماع كلٍّ من الملائكة عليهم السلام وهم في السماء، وذوي النفوس القدسيَّة وهم في مقارِّ نعيمِهم، نداءَ من ناداهم غيرَ معتقدٍ فيهم الإلهية = توقُّفٌ عندي أيضاً، إذ لم أظفر بدليلٍ سمعيٍّ على ذلك، والعقلُ يجوِّزُه، ولكن لا يُكتفَى بمجرَّد تجويزه في القول به.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنَّهم لم يُرزَقوا قوَّة التكلُّم، والسماعُ لا يستلزمُ ذلك، فالمرادُ بالاستجابة الاستجابةُ بالقول، ويجوزُ أنْ يُرَاد بها الاستجابةُ بالفعل، أي: ولو سمعوا ما نفعوكم؛ لعجزهم عن الأفعال بالمرَّة، هذا إذا كان المدعوّون الأصنام، وأمَّا إذا كانوا الملائكة عليهم السلام أو نحوهم من المقرَّبين، فعدمُ الاستجابة القوليَّة لأنَّ دعاءهم من حيث زعم أنَّهم آلهةٌ، وهم بمعزلٍ عن الإلهية، فكيف يجيبون زاعم ذلك فيهم؟ وفيه من التهمة ما فيه. وعدم الاستجابة الفعليَّة يحتملُ أنْ يكونَ لهذا أيضاً، ويحتملُ أنْ يكون لأنَّ نفعَ من دَعاهم ليس من وظائفهم. وقيل: لأنَّهم يرونَ ذلك نقصاً في العبوديَّة والخضوعِ لله عزَّ وجلَّ. ويجوز أنْ يكون هذا تعليلاً للأول أيضاً، فتأمَّل.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ فضلاً عن أن يستجيبوا لكم إذا دعوتموهم، و«شرك» مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعل، أي: ويومَ القيامة يجحدونَ إشراكَكم إيَّاهم وعبادتكم إيَّاهم، وذلك بأنْ يُقدرَ اللهُ تعالى الأصنامَ على الكلام، فيقولون لهم: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] أو يظهرَ من حالها:

ظهورَ نارِ القِرى ليلاً على عَلَمِ(١)

ما يدلُّ على ذلك، ولسانُ الحال أفصحُ من لسان المقال، ومِنْ هذا القبيل قول ذي الرُّمَّة:

وقفتُ على ربعٍ لميَّةَ ناطقٍ   يخاطبُني آثارُه وأخاطبُه

(١) سلف عند تفسير الآية (٢) من سورة الأعراف.

وأسقيهِ حتى كادَ مما أبثُّه تكلِّمني أحجارُه وملاعبُه[١]

وإن كان المدعوون الملائكة ونحوهم، فأمرُ التكلُّم ظاهرٌ، وقد حكى الله تعالى قولَ الملائكة للمشركين في السورة السابقة بقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ أي: لا يخبرك بالأمر مخبرٌ مثل مخبرٍ خبير أخبرك به، يعني به تعالَى نفسَه، كما روي عن قتادة وغيره، فإنَّه سبحانه الخبيرُ بكُنْه الأمور، وهو خطابٌ للنبيِّ ﷺ، ويجوزُ أن يكونَ غيرَ مختصٍّ، أي: لا يخبركَ أيُّها السامعُ كائناً من كنتَ مخبرٌ هو مثلُ الخبير العالم الذي لا تَخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السماء، والمراد: تحقيقُ ما أخبر سبحانه به من حال آلهتهم، ونفيُ ما يَدَّعون لهم من الإلهيَّة.

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون ذلك من تمام ذكر الأصنام، كأنَّه قيل: ولا يخبرك مخبرٌ مثلُ مَن يخبرك عن نفسه، وهي قد أخبرت عن أنفسها بأنَّها ليست بآلهة[٢]. وفيه من البعد ما فيه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في أنفسكم، وفيما يعنُّ لكم من أمرٍ مهمٍّ أو خطبٍ ملمٍّ.

وتعريف «الفقراء» للجنس أو للاستغراق، إذ لا عهد، وعُرِّفَ كذلك للمبالغة في فقرهم، كأنَّهم لكثرة افتقارهم وشدَّة احتياجِهم هم الفقراء فحسب، وأنَّ افتقارَ سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

ولا يَرِدُ الجنُّ، إذ هم لا يحتاجون في المطعم والملبس وغيرهما كما يحتاجُ

---

(١) ديوان ذي الرمة ٢/ ٨٢١، وعجز البيت الأول فيه:

فما زلت أبكي عنده وأخاطبُه

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٤.

الإنسان، وضعفُهم ليس كضعفه، فلا حاجةَ إلى إدخالهم في الناس تغليباً، على أنَّه قيل: لا يضرُّ ذلك، إذ الكلامُ مع من يُظهِرُ القوَّة والعناد من الناس.

والقول إنَّ القصر إضافيٌّ بالنسبة إليه تعالى، لا يخفى ما فيه.

وقال صاحب «الفرائد»: الوجهُ أن يقال ـ والله تعالى أعلم ـ: المرادُ الناس وغيرهم، وهو على طريقة تغليبِ الحاضر على الغائب، وأولي العلمِ على غيرهم. وهو بعيدٌ جدًّا.

وقال العلَّامة الطيبيُّ: الذي يقتضيه النظم الجليل أنْ يُحمَل التعريفُ في «الناس» على العهد، وفي الفقراء على الجنس؛ لأنَّ المخاطبين هم الذي خوطبوا في قوله تعالى: (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ) الآية، أي: ذلكم المعبودُ هو الذي وُصِف بصفات الجلال، لا الذين تدعونَ من دونه، وأنتم أشدُّ الخلائق احتياجاً إليه عزَّ وجلَّ. ولا يخلو عن حسن.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن كلِّ شيءٍ لا غيره ﴿ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ المنعمُ على جميع الموجودات، المستحقُّ بإنعامه سبحانَه للحمد، وأصله المحمود، وأريد به ذلك على طريق الكناية؛ ليناسب ذكرَه بعد فقرهم، إذ الغنيُّ لا ينفع الفقير إلَّا إذا كان جواداً منعِماً، ومثلُه مستحقٌّ للحمد، وهذا كالتكميل لما قبلَه، كما في قول كعب الغنويّ:

حليمٌ إذا ما الحلمُ زيَّن أهلَه ... مع الحلم في عين العدوِّ مهيبُ(١)

ويدخلُ في عموم المستغنى عنه المخاطبونَ وعبادتُهم، وفي كلام الطيبيِّ رائحةُ التخصيص، حيث قال ما سمعتَ نقلَه(٢): وهو سبحانه غنيٌّ عنكم وعن عبادتكم؛ لأنَّه تعالى حميدٌ، له عبادٌ يحمدونَه وإن لم تحمدوه أنتم. والأولى التعميم.

---

(١) أمالي القالي ٢/ ١٤٩، وخزانة الأدب ١٠/ ٤٣٥، ونسبه في الأصمعيات ص١٠٠ لغُرَيقَة بن مسافع العبسي. وهو في البيان والتبيين ٣/ ٣٣٢ دون نسبة. قال عبد السلام هارون في تعليقه على البيان والتبيين: الأبيات من قصيدتين متشابهتين متداخلتين يخلط الرواة بين أبياتهما، إحداهما لكعب بن سعد الغنوي، والأخرى لعريقة (كذا) بن مسافع العبسي.

(٢) لعله يريد: إثر ما سمعت نقله.

وما روي في سبب النزول من أنَّه لمَّا كَثُرُ من النبيِّ ﷺ الدعاءُ، وكثرَ الإصرارُ من الكفار قالوا: لعلَّ الله تعالى محتاجٌ لعبادتنا، فنزلت = لا يقتضي شيئاً من التخصيص في الآية كما لا يخفى.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: إن يشأ سبحانه إذهابَكم أيُّها الناس والإتيان بخلقٍ جديدٍ يذهبكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ بعالَم غيرِ الناس لا تعرفونه، هذا إذا كان الخطابُ عامّاً، أو: إنْ يشأ يذهبكم أيُّها المشركون أو العرب ويأتِ بخلقٍ جديدٍ ليسوا على صفتكم، بل مستمرُّون على طاعته وتوحيده، وهذا إذا كان الخطابُ خاصًّا. وتفسيرُ الجديد بما سمعت مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأيّاً ما كان فالجملةُ تقريرٌ لاستغنائه عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ أي: ما ذكر من إذهابهم والإتيان بخلقٍ جديدٍ ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ أي: بصعبٍ، فإنَّ أمرَه تعالى إذا أراد شيئاً أنْ يقول له: كن، فيكون.

وإن كان في «الناس» تغليب الحاضر على الغائب، وأولي العلم على غيرهم، وكان الخطابُ هنا على ذلك الطرز، وقلنا: إنَّ الآية تشعرُ بأنَّ ما يأتي به سبحانه من العالم أبدعُ = أشكلَ بحسب الظاهر قول حجَّة الإسلام: ليس في الإمكان أبدعُ ممَّا كان[1].

وأُجيب بأنَّ ذلكَ على فرض وقوعِه داخلٌ في حيِّز ما كان، وهو مع هذا العالم كبعضِ أجزاء هذا العالم مع بعض، أو بأنَّ الأبدعيَّة المشعور بها بمعنًى، والأبدعيَّة في كلام حجَّة الإسلام بمعنى آخر، فتدبَّر.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي: لا تحملُ نفسٌ آثمةٌ ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: إثمَ نفسٍ أخرى، بل تحملُ كلُّ نفسٍ وزرَها.

ولا منافاة بين هذا، وقولِه تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [الآية: ١٣] فإنَّه في الضَّالين المضلِّين، وهم يَحملون إثمَ إضلالهم مع إثم ضلالِهم، وكلُّ ذلك آثامُهم، ليس فيها شيءٌ من آثام غيرهم، ولا ينافيه قوله

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٤/ ٢٥٨.

سبحانه: (مَعَ أَثْقَالِهِمْ) لأنَّ المرادَ بأثقالهم ما كان بمباشرتهم، وبما معها ما كان بسَوقِهم وتسبُّبهم، فهو للمضلِّين من وجهٍ، وللآخرين من آخر.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفسٌ أثقلتْها الأوزارُ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الذي أثقلَها، ووزرِها الذي بَهَضَها[1]؛ ليُحمَل شيءٌ منه ويخفَّف عنها. وقيل: أي: إلى حَمْل حملها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تُجَب بحملِ شيءٍ منه.

والظاهر أنَّ «ولا تزر» إلخ نفيٌ للحمل الاختياريِّ تكرُّماً من نفس الحامل ردّاً لقول المضلِّين: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] ويؤيِّدُه سببُ النزول، فقد رويَ أنَّ الوليدَ بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين: اكفروا بمحمدٍ (ﷺ) وعليَّ وزرُكم، فنزلت.

وهذا نفيٌ للحمل بعد الطلب من الوازرة أعمُّ من أن يكون اختياراً أو جبراً، وإذا لم يجبر أحدٌ على الحمل بعد الطلب والاستعانة، عُلِمَ عدمُ الجبر بدونه بالطريق الأولى، فيعمُّ النفيُ أقسامَ الحمل كلِّها، وكذا الحاملُ أعمُّ من أن يكون وازراً أم لا، وجاء العموم من عدم ذكر المدعوِّ ظاهراً، وقد يقال مع ذلك: إنَّ في الأولى نفيَ حمل جميع الوزر، بحيث يتعرَّى منه المحمول عنه، وفي الثاني نفيَ التخفيف، فلا اتِّحاد بين مضموني الجملتين كما لا يخفى.

وقيل في الفرق بينهما: إنَّ الأولَ نفيُ الحمل إجباراً، والثاني نفيٌ له اختياراً. وتعقِّبَ بأنَّ المناسب على هذا: ولا يوزر على وازرةٍ وزر أخرى، وإن تَدْعُ مثقلةٌ إلى حملها أحداً لا يحملْ منه شيئاً. وأيضاً حقُّ نفي الإجبار أنْ يُتعرَّض له بعد نفي الاختيار. وقيل: إنَّ الجملة الأولى كما دلَّت على أنَّ المثقلَ بالذنوب لا يحملُ أحدٌ من ذنوبه شيئاً دلَّت على عدله تعالى الكامل، والجملةُ الثانية دلَّت على أنَّه لا مستغاثَ من هول ذلك اليوم أيضاً، وهما المقصودان من الآيتين، فالفرقُ باعتبار ذلك. ولعلَّ ما ذكرناه أوَّلاً أولى.

وذكر بعض الأفاضل في الجملة الأولى ثلاثةَ أسئلة، قال في الأخيرين منها: لم أرَ من تفطَّن لهما، وقد أجابَ عن كلٍّ:

---

(١) أي: شقَّ عليها وفدحها. انظر القاموس واللسان (بهض).

الأول: أنَّ عدمَ حمل الغير على الغير عامٌّ في النفس الآثمة وغيرِ الآثمة، فلِمَ خصَّ بالآثمة مع أنَّ التصريح بالعموم أتمُّ في العدل، وأبلغُ في البشارة، وأخصرُ في اللفظ؟ وذلك بأنْ يقال: ولا تحمل نفسٌ حملَ أخرى.

وجوابه: أنَّ الكلامَ في أرباب الأوزار المعذَّبين لبيان أنَّ عذابَهم إنَّما هو بما اقترفوه من الأوزار، لا بما اقترفَه غيرهم.

الثاني: أنَّ معنى وَزَرَ: حَمل الوزرَ، لا مطلق الحمل، على ما في «النهاية» الأثيرية، حيث قال: يقال: وَزَرَ يَزِرُ فهو وَازِرٌ، إذا حَمل ما يُثْقِل ظهرَه من الأشياء المثقِلة ومن الذنوب[1]. فكيف صحَّ ذكر وزر مع يزر؟

وجوابه: أنه من باب التجريد.

الثالث: أن «وازرة» يفهمُ من «تَزِر»، كما يفهم ضارب من يضرب مثلاً، فأيُّ فائدةٍ في ذكره؟

وجوابه: أنَّه إذا قيل: ضربَ ضاربٌ زيداً، فالذي يُستفاد من ضرب إنَّما هو ذاتٌ قام بها ضربٌ حدث من تعلُّق هذا الفعل بتلك الذات، ولمَّا عبَّر عن شيءٍ بما فيه معنى الوصفيَّة، وعُلِّق به معنى مصدريٌّ في صيغة فَعَلَ أو غيرها، فُهِم منه في عرف اللغة أنَّ ذلك الشيءَ موصوفٌ بتلك الصفة حالَ تعلُّق ذلك المعنى به لا بسببه، كما حققه بعض أجلَّة شراح «الكشاف»، فيجبُ أنْ يكون معنى ضارب في المثال: متصفاً بضربٍ سابق على تعلُّق ضربَ به، وكذا يقال في «لا تزر وازرة»، وهذه فائدةٌ جليلةٌ، ويزيدها جلالةً استفادةُ العموم إذ[2] أوردَ اسم الفاعل نكرةً في حيِّز نفي، وبذلك يسقطُ قول العلَّامة التفتازانيّ: إنَّ ذكرَ فاعل الفعل بلفظ اسم فاعله نكرةً قليلُ الجدوى جدّاً. انتهى.

وأنت تعلم أنَّه من مجموع الجملتين يستفادُ ما ذَكره في السؤال الأوَّل من العموم، وفي خصوص هاتين الجملتين وذِكْرِهما معاً ما لا يخفى من الفائدة.

---

(١) النهاية (وزر).

(٢) في (م): إذا. وهي غير واضحة في الأصل. ولعلَّ المثبت هو الصواب.

وفي «القاموس»: وَزَرَهُ - كوعده - وِزْرًا، بالكسر: حَمَلَهُ[١]. وفي «الكشاف»: وزرَ الشيءَ إذا حمله. ونحوه في «البحر»[٢]. وعلى ذلك لا حاجةَ إلى التجريدِ فلا تغفل.

وأصلُ الحِمْل ما كان على الظهر من ثقيلٍ، فاستعير للمعاني من الذنوب والآثام.

وقرأ أبو السمَّال عن طلحة وإبراهيم عن الكسائيّ: «لا تَحمِل» بفتح التاء المثناة من فوق وكسر الميم[٣]، وتقتضي هذه القراءةُ نصبَ «شيء» على أنَّه مفعولٌ به لـ «تحمل»، وفاعله ضمير عائدٌ على مفعول «تَدْعُ»[٤] المحذوف، أي: وإن تَدْعُ مثقلةٌ نفساً إلى حملها، لم تَحمل منه شيئاً.

﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المدعوُّ، المفهوم من الدعوة ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ذا قرابةٍ من الدَّاعي. وقال ابن عطية[٥]: اسم «كان» ضمير الداعي، أي: ولو كان الداعي ذا قرابةٍ من المدعو. والأول أحسنُ؛ لأنَّ الداعيَ هو المثقلةُ بعينه، فيكونُ الظاهرُ عود الضمير عليه وتأنيثه.

وقول أبي حيَّان: ذَكَّرَ الضميرَ حملاً على المعنى؛ لأنَّ قوله تعالى: «مثقلة» لا يراد بها مؤنَّثُ المعنى فقط، بل كلُّ شخصٍ، فكأنَّه قيل: وإن يدعُ شخصٌ مثقلٌ[٦] = لا يخفى ما فيه.

وقرئ: «ولو كان ذو قربى» بالرفع[٧]. وخُرِّجَ على أنَّ «كان» ناقصةٌ أيضاً، و«ذو قربى» اسمها، والخبر محذوف، أي: ولو كان ذو قربى مدعوّاً.

---

(١) القاموس (وزر).
(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٥، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٧.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٧، وقراءة الكسائي المتواترة عنه كقراءة الجمهور.
(٤) في الأصل و(م): تدعو. والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٣٠٧ والكلام منه.
(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥.
(٦) البحر المحيط ٧/ ٣٠٨.
(٧) البحر المحيط ٧/ ٣٠٨.

وجُوِّزَ أنْ تكون تامَّةً، وتُعقِّبَ بأنَّه لا يلتئم معها النظمُ الجليل؛ لأنَّ الجملة الشرطيَّة كالتتميم والمبالغة في أنْ لا غياثَ أصلاً، فيقتضي أن يكونَ المعنى أنَّ المثقلةَ إنْ دَعَتْ أحداً إلى حملها لا يجيبُها إلى ما دعته إليه ولو كان ذو القربى مدعوّاً، ولو قلنا: إنَّ المثقلةَ إنْ دعت أحداً إلى حملها لا يَحْمِلُ مدعوُّها شيئاً ولو حضر ذو قربى، لم يحسُن ذلك الحُسْنَ، وملاحظةُ كونِ ذي القربى مدعوّاً بقرينة السياق، أو تقدير: فدعته ـ كما فعل أبو حيَّان(١) ـ خلافُ الظاهر، فيخفى عليه أمرُ الانتظام.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إلخ استئنافٌ مسوقٌ لبيان من يتَّعظ بما ذُكر، أي: إنَّما تنذرُ بهذه الإنذارات ونحوها ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يخشونه تعالى غائبين عن عذابه سبحانه، أو عن الناس في خلواتهم، أو يخشون عذابَ ربِّهم غائباً عنهم، فالجارُّ والمجرور في موضع الحال من الفاعل، أو من المفعول.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: راعوها كما ينبغي، وجعلوها مناراً منصوباً وعَلَماً مرفوعاً، أي: إنَّما ينفعُ إنذارك وتحذيرُك هؤلاء من قومك دونَ مَن عَدَاهم من أهل التمرُّد والعناد.

ونكتة اختلاف الفعلين تُعلَم ممَّا مرَّ في قوله تعالى: (وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا) فتذكَّر، ما في العهد من قدم.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ تَطَهَّرَ من أدناس الأوزار والمعاصي بالتأثُّر من هذه الإنذارات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ لاقتصار نفعه عليها، كما أنَّ من تدنَّس بها لا يتدنَّس إلَّا عليها، والتزكِّي شاملٌ للخشية وإقامة الصلاة، فهذا تقريرٌ وحثٌّ عليهما.

وقرأ العباس عن أبي عمرو: «ومن يزَّكَّى فإنَّما يزَّكَّى» بالياء من تحت، وشدِّ الزاي فيهما(٢)، وهما مضارعان أصلهما: ومن يتزكَّى فإنما يتزكَّى، فأدغمت التاءُ في الزاي، كما أدغمت في «يذَّكَّرون».

---

(١) في البحر ٧/٣٠٨.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والبحر المحيط ٧/٣٠٨.

وقرأ ابن مسعود وطلحة: «ومن ازَّكَّى» بإدغام التاء في الزاي، واجتلاب همزة الوصل في الابتداء، وطلحة أيضاً: «فإنَّما يزَّكَّى»[1] بإدغام التاء في الزاي.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ لا إلى أحدٍ غيره استقلالاً أو اشتراكاً، فيجازيهم على تزكِّيهم أحسنَ الجزاء.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ عطفٌ على قوله تعالى: «وما يستوي البحران»، والأعمى والبصيرُ مَثَلان للكافر والمؤمن، كما قال قتادة والسُّدِّيُّ وغيرهما. وقيل: هما مَثَلان للصنم ولله عزَّ وجلَّ، فهو من تتمَّة قوله تعالى: «ذلكم الله ربكم له الملك» والمعنى: لا يستوي اللهُ تعالى مع ما عبدتم.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ أي: ولا[2] الباطل ولا الحق.

﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ ولا الثواب ولا العقاب. وقيل: ولا الجنَّة ولا النار.

و«الحرور» فعولٌ من الحرِّ، وأطلق ـ كما حُكي عن الفرَّاء ـ على شدَّةِ الحرِّ ليلاً أو نهاراً. وقال أبو البقاء: هو شِدَّة حرِّ الشمس. وفي «الكشاف»: الحرور السموم، إلّا أنَّ السموم يكونُ بالنهار، والحرور بالليل والنهار. وقيل: بالليل[3].

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ تمثيلٌ آخر للمؤمنين الذين دخلوا في الدين بعدَ البعثة، والكافرين الذين أصرُّوا واستكبروا، فالتعريفُ ـ كما قال الطيبيُّ ـ للعهد.

وقيل: للعلماء والجهلاء. والثعالبيُّ جعلَ «الأعمى والبصير» مَثَلين لهما[4]، وليس بذاك.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أن[5] يسمعَه ويجعلَه مدركاً للأصوات. وقال

---

(١) في الأصل و(م): تزكى. والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٣٠٨، والدر المصون ٩/ ٢٢٣.
(٢) لفظة: ولا. ليست في الأصل.
(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٦.
(٤) أي: للجاهل والعالِم. تفسير أبي إسحاق الثعلبي ٨/ ١٠٤.
(٥) في (م): أي.

الخفاجيُّ[(١)] وغيره: ولعلَّ في الآية ما يقتضي أنَّ المرادَ: يسمعُ من يشاءُ سماعَ تدبُّرٍ وقَبولٍ لآياتِه تعالى.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ ترشيحٌ لتمثيل المصرِّين على الكفر بالأموات، وإشباعٌ في إقناطه عليه الصلاة والسلام من إيمانهم. والباء مزيدةٌ للتأكيد، أي: وما أنت مسمعٌ، والمراد بالسماع هنا ما أُريدَ به في سابقه، ولا يأبى إرادةَ السماعِ المعروف ما وردَ في حديث القَليب[(٢)]؛ لأنَّ المرادَ نفيُ الإسماع بطريق العادة، وما في الحديث من باب: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وإلى هذا ذهبَ البعض، وقد مرَّ الكلامُ في ذلك، فلا تغفل.

وما ألطفَ نظمَ هذه التمثيلات، فقد شبَّه المؤمنَ والكافرَ أوَّلاً بالبحرين، وفضَّل البحرَ الأُجَاج على الكافر؛ لخلوِّه من النفع، ثم بالأعمى والبصير مستتبعاً بالظلماتِ والنور والظلِّ والحرور، فلم يكتفِ بفقدان نورِ البصر، حتى ضمَّ إليه فقدان ما يمدُّه من النور الخارجيِّ، وقرنَ إليه نتيجةَ ذلك العمى والفقدان، فكان فيه ترقٍّ من التشبيه الأوَّل إليه، ثم بالأحياء والأموات تَرَقِّياً ثانياً، وأردفَ قوله سبحانه: «وما أنت بمسمع من في القبور».

وذكر الطيبيُّ أنَّ إخلاءَ الثاني من «لا» المؤكِّدة؛ لأنَّه كالتمهيد لقوله تعالى: «وما يستوي الأحياء ولا الأموات»، ولهذا كَرَّر: «وما يستوي»، وأمَّا ذكرُها في التمثيلين بعدَه، فلأنَّهما مقصودان في أنفسهما، إذ ما فيهما مَثَلان للحقِّ والباطل، وما يؤدِّيان إليه من الثواب والعقاب، دون المؤمن والكافر كما في غيرهما، وإنَّما حُمِلت على أنَّها زائدة للتأكيد، إذ ليس المرادُ أنَّ الظلمات في نفسها لا تستوي، بل تتفاوت، فمن ظلمة هي أشدُّ من أخرى مثلاً، وكذا يقال فيما بعد، بل المراد أنَّ الظلمات لا تساوي النور، والظلَّ لا يساوي الحرور، والأحياء لا تساوي الأموات.

وزعم ابن عطية أنَّ دخول «لا» على نيَّة التكرار، كأنه قيل: ولا الظلمات

(١) في حاشيته ٧/ ٢٢٣.

(٢) سلف ٢٠/ ٤٨٦.

والنور ولا النور والظلمات، وهكذا، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني، ودلَّ مذكورُ الكلام على متروكه[١].

والقولُ بأنَّها مزيدةٌ لتأكيد النفي يغني عن اعتبار هذا الحذف الذي لا فائدةَ فيه.

وقال الإمام: كُرِّرت «لا» فيما كررت؛ لتأكيد المنافاة، فالظلمات تنافي النور وتضادُّه، والظلُّ والحرور كذلك؛ لأنَّ المرادَ من الظلِّ عدمُ الحرِّ والبرد، بخلاف الأعمى والبصير، فإنَّ الشخصَ الواحدَ قد يكونُ بصيراً، ثمَّ يَعْرِضُ له العمى، فلا منافاةَ إلَّا من حيث الوصف، وأمَّا الأحياء والأموات فيهما؛ وإنْ كانا كالأعمى والبصير من حيث إنَّ الجسمَ الواحد قد يكون حيّاً، ثم يعرضُ له الموت، لكنَّ المنافاةَ بين الحيِّ والميت أتمُّ من المنافاة بين الأعمى والبصير، فإنَّهما قد يشتركان في إدراك أشياء، ولا كذلك الحيُّ والميت، كيف والميتُ مخالفُ الحيِّ في الحقيقة على ما تبيَّن في الحكمة الإلهية[٢].

وقيل: لم تكرَّر قبلُ وكرِّرت بَعْدُ؛ لأنَّ المخاطبَ في أوَّل الكلام لا يقصر في فهم المراد.

وقيل: كُرِّرَت فيما عدا الأخير؛ لأنَّه لو قيل: وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور مثلاً، لتوهِّم نفي الاستواء بين مجموع الأعمى والبصير، ومجموع الظلمات والنور، وفي الأخير للاعتناء، وإدخال «لا» على المتقابلين؛ لتذكير نفي الاستواء.

وقَدَّمَ الأعمى على البصير مع أنَّ البصيرَ أشرف؛ لأنَّه إشارةٌ إلى الكافر، وهو موجودٌ قبل البعثة والدعوة إلى الإيمان، ولنحو هذا قَدَّمَ الظلمات على النور، فإنَّ الباطلَ كان موجوداً، فدمغَه الحقُّ ببعثته عليه الصلاة والسلام، ولم يقدِّم الحرور على الظلِّ؛ ليكون على طرز ما سبقَ من تقديم غير الأشرف، بل قدَّمَ الظلَّ رعايةً لمناسبتِه للعمى والظلمة من وجه، أو لسبق الرحمة، مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥.
(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ١٦.

وقدَّم الأحياءَ على الأموات، ولم يعكس الأمرَ؛ ليوافق الأوَّلين في تقديم غير الأشرف؛ لأنَّ الأحياء إشارةٌ إلى المؤمنين بعد الدعوة، والأمواتَ إشارةٌ إلى المُصِرِّين على الكفر بعدها، ولذا قيل بعد: «إنَّ الله يُسمعُ من يشاء» إلخ، ووجودُ المصرِّين بوصف الإصرار بعد وجود المؤمنين.

وقيل: قدَّم ما قدَّم فيما عدا الأخير؛ لأنَّه عدم وله مرتبة السبق، وفي الأخير؛ لأنَّ المرادَ بالأموات فاقدو الحياة بعد الاتِّصاف بها، كما يشعرُ به إرداف ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾، فيكون للحياة مع أنَّها وجوديَّةٌ رتبةُ السبق أيضاً.

وقيل: إنَّ تقديم غير الأشرف ـ مع انفهام أنَّه غير أشرف ـ على الأشرف؛ للإشارة إلى أنَّ التقديمَ صورةً لا يخلُّ بشرف الأشرف:

فالنارُ يعلوها الدخان وربَّما يعلو الغبارُ عمائمَ الفرسان[1]

وجمعُ الظلمات مع إفراد النور؛ لتعدُّد فنون الباطل واتِّحاد الحق. وقيل: لأنَّ الظلمةَ قد تتعدَّدُ فتكون في محالَّ قد تخلَّل بينها[2] نورٌ، والنور في هذا العالم ـ وإن تعدَّد ـ إلَّا أنَّه يتَّحد وراءَ محلٍّ تعدُّده.

وجمعُ الأحياء والأموات على بابه؛ لتعدُّد المشبَّه بهما. ولم يجمع الأعمى والبصير لذلك؛ لأنَّ القصدَ إلى الجنس، والمفردُ أظهرُ فيه، مع أنَّ في: البصراء، تركَ رعاية الفاصلة، وهو على الذوق السليم دونَ: البصير، فتدبَّر جميعَ ذلك، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه وهو العليم الخبير.

وقرأ الأشهب والحسن: «بمُسْمِعِ مَن» بالإضافة[3].

---

(١) سلف ١٦/ ١١٧.

(٢) في (م): بينهما.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٩، ونسبها ابن خالويه ص ١٢٣ لعليٍّ رضي الله عنه، ونسبها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٠، وتبعه القرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٧١ للحسن وعيسى الثقفي وعمرو بن ميمون.

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣﴾ أي: ما عليك إلَّا أنْ تبلِّغ وتنذرَ، فإن كان المنذَر ممَّن أرادَ الله تعالى هدايته سمعَ واهتدى، وإنْ كان ممَّن أرادَ سبحانَه ضلالَهُ وطبعَ على قلبه فما عليك من تبعة.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: محقِّين، على أنَّه حالٌ من الفاعل، أو محقّاً، على أنَّه حالٌ من المفعول، أو إرسالاً مصحوباً بالحقِّ، على أنَّه صفةٌ لمصدرٍ محذوف.

وجَوَّزَ الزمخشريُّ تعلُّقه بقوله سبحانه: ﴿بَشِيرًا﴾، ومتعلّق قوله تعالى: ﴿وَنَذِيرًا﴾ محذوفٌ لدلالة المقابل على مقابله، أي: بشيراً بالوعد الحقِّ، ونذيراً بالوعيد الحقِّ[1].

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أي: ما من جماعةٍ كثيرةٍ أهل عصر وأمةٍ من الأمم الدارجة في الأزمنة الماضية ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ من نبيٍّ أو عالم ينذرُها، والاكتفاء بذكره للعِلْم بأنَّ النذارة قرينةُ[2] البشارة، لا سيَّما وقد اقترنا آنفاً، مع أنَّ الإنذارَ أنسبُ بالمقام.

وقيل: خُصَّ النذير بالذكر لأنَّ البشارةَ لا تكونُ إلَّا بالسمع، فهو من خصائص الأنبياء عليهم السلام، فالبشيرُ نبيٌّ أو ناقلٌ عنه، بخلاف النذارة، فإنَّها تكونُ سمعاً وعقلاً، فلذا وجّه النذير في كلِّ أمةٍ، وفيه بحث.

واستدلَّ بعضُ الناس بهذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] على أنَّ في البهائم وسائر الحيوانات أنبياء أو علماء ينذرون.

والاستدلالُ بذلك باطلٌ لا يكاد يخفى بطلانُه على أحدٍ حتى على البهائم، ولم نسمع القولَ بنبوَّة فردٍ من البهائم ونحوها إلَّا عن الشيخ محيي الدين ومن تابعه قدَّس الله سرَّه، ورأيتُ في بعضِ الكتب أنَّ القولَ بذلك كفرٌ، والعياذُ بالله تعالى.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٦.

(٢) في (م): قريبة، وهو تصحيف.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم العاتية، فلا تحزن من تكذيب هؤلاء إيَّاك.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ في موضع الحال على ما قال أبو البقاء[1]، إمَّا بدون تقدير «قد» أو بتقديرها، أي: كذَّب الذين من قبلهم وقد جاءتهم رسلهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة الدالَّة على صدقهم فيما يدَّعون ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصُحُف إبراهيم عليه السلام ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ كالتوراة والإنجيل على إرادة التفصيل، يعني أنَّ بعضَهم جاء بهذا، وبعضَهم جاء بهذا، لا على إرادةِ الجمع وأنَّ كلَّ رسولٍ جاء بجميع ما ذكر، حتى يلزم أنْ يكون لكلِّ رسولٍ كتاب، وعددُ الرسل أكثر بكثيرٍ من عدد الكتب كما هو معروف، ومآلُ هذا إلى منع الخلوِّ. ويجوز أن يراد بالزبر والكتاب واحدٌ، والعطفُ لتغاير العنوانين، لكن فيه بُعْدٌ.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وضع الظاهر موضع ضميرهم؛ لذمِّهم بما في حيِّز الصلة والإشعارِ بعلَّة الأخذ.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: إنكاري عليهم بالعقوبة، وفيه مزيدُ تشديدٍ وتهويلٍ، وقد تقدَّم الكلامُ في نظير هذا في «سبأ» فتَذَكَّر.

وفي الآية من تسليته ﷺ ما فيها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إلخ استئنافٌ مسوقٌ على ما يخطر بالبال لتقرير ما أشعرَ به قوله تعالى: (ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) من عظيم قدرته عزَّ وجلَّ.

وقال شيخ الإسلام: هو لتقرير ما قبله من اختلاف الناس ببيان أنَّ الاختلافَ والتفاوت أمرٌ مطَّردٌ في جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان[2].

---

(١) في الإملاء ٤/ ٢١٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٠.

وقال أبو حيان: تقريرٌ لوحدانيَّته تعالى بأدلّةٍ سماويَّةٍ وأرضيَّةٍ، إثرَ تقريرها بأمثالٍ ضربها جلَّ شأنه[١]. وهذا كما ترى.

والاستفهامُ للتقرير، والرؤية قلبيَّةٌ؛ لأنَّ إنزالَ المطر، وإن كان مدركاً بالبصر، لكنَّ إنزالَ الله تعالى إيَّاه ليس كذلك، والخطابُ عامٌّ، أي: ألم تعلم أنَّ الله تعالى أنزلَ من جهة العلوِّ ماء ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء، على أنَّه سببٌ عاديٌّ للإخراج، وقيل: أي: أخرجنا عنده.

والالتفاتُ لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة.

﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ﴾ أي: أنواعُها، من التفَّاح والرمَّان والعنب والتين وغيرها ممَّا لا يحصر، وهذا كما يقال: فلانٌ أتى بألوانٍ من الأحاديث، و: قدَّم كذا لوناً من الطعام، واختلافُ كلِّ نوع بتعدُّد أصنافه كما في التفَّاح، فإنَّ له أصنافاً متغايرةً لذَّةً وهيئة، وكذا في سائر الثمرات، ولا يكاد يوجدُ نوعٌ منها إلَّا وهو ذو أصنافٍ متغايرة.

ويجوز أنْ يُرَاد اختلافُ كلِّ نوعٍ باختلاف أفراده.

وأخرجَ عبدُ بن حميد وابن جرير عن قتادة أنَّه حملَ الألوانَ على معناها المعروف، واختلافها بالصفرة والحمرة والخضرة وغيرها[٢]، وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً، وهو الأوفقُ لما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ وهو إمَّا عطفٌ على ما قبله بحسب المعنى، أو حالٌ، وكونه استئنافاً مع ارتباطه بما قبله غيرُ ظاهر.

و«جدد» جمع: جُدَّةٍ بالضَّمِّ، وهي الطريقة، من جَدَّه: إذا قطعه.

وقال أبو الفضل: هي من الطرائق ما يخالف لونُه لونَ ما يليه، ومنه جُدَّة الحمار للخطِّ الذي في وسط ظهره يخالف لونه.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١١.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٤٩، وأخرجه الطبريُّ في تفسيره ١٩/ ٣٦٣.

وسأل ابنُ الأزرق ابنَ عباس ﷺ عن الجُدَد، فقال: طرائق؛ طريقةٌ بيضاء، وطريقةٌ خضراء، وأنشدَ قول الشاعر:

قد غادرَ السبعُ في صفحاتها جُدَداً كأنَّها طُرقٌ لاحت على أكمِ[1]

والكلامُ على تقدير مضاف إن لم تُقصد المبالغة؛ لأنَّ الجبالَ ليست نفس الطرائق، أي: ذو جدد.

وقرأ الزهريُّ: «جُدُد» بضمَّتين[2]، جمع: جَدِيدة، كسفينة وسفن، وهي بمعنى جُدَّة.

وقال صاحب «اللوامح»: هو جمعُ جديد بمعنى: آثارٌ جديدةٌ واضحةُ الألوان.

وقال أبو عبيدة: لا مدخلَ لمعنى الجديد[3] في هذه الآية.

ولعلَّ من يقول بتجدُّد حدوث الجبال وتكونُّها من مياهٍ تنبعُ من الأرض وتتحجَّر أولاً فأولاً، ثم تنبعُ من موضعٍ قريبٍ ممَّا تحجَّر، فتتحجَّرُ أيضاً، وهكذا حتى يحصل جبل = لا يأبى حملَ الآية على هذه القراءة على ما ذكر.

والظاهر من الآيات والأخبار أنَّ الجبالَ أحدثَها اللهُ تعالى بُعَيْدَ خلق الأرض؛ لئلَّا تميدَ بسكَّانها، والفلاسفةُ يزعمون أنَّها كانت طيناً في بحار انحسرت ثمَّ تحجَّرت، وقد أطال الإمام الكلامَ على ذلك في كتابه «المباحث المشرقية»، واستدلَّ على ذلك بوجود أشياء بحرية كالصدف بينَ أجزائها. وهذا عند تدقيق النظر هباءٌ، وأكثرُ الأدلَّة مثله، ومن أراد الاطِّلاعَ على ما قالوا فليرجع إلى كتبهم.

وروي عنه أيضاً أنه قرأ: «جَدَد» بفتحتين[4]، ولم يُجِز ذلك أبو حاتم، وقال: إنَّ هذه القراءة لا تصحُّ من حيث المعنى. وصحَّحها غيرُه وقال: الجَدَد: الطريقُ الواضح المبين، إلَّا أنَّه وضعَ المفرد موضعَ الجمع، ولذا وُصِف بالجمع.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٩، وعزاه للطستي.

(٢) المحتسب ٢/ ١٩٩، والكشاف ٣/ ٣٠٧، والبحر المحيط ٧/ ٣١١.

(٣) في الأصل و(م): الجديدة، والمثبت من البحر ٧/ ٣١١، وعنه نقل المصنف.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٣-١٢٤، والمحتسب ٢/ ١٩٩، والبحر المحيط ٧/ ٣١١.

وقيل: هو من باب: نطفةٌ أمشاج، وثوبٌ أخلاق؛ لاشتمال الطريق على قِطَعٍ. وتعقَّبَ بأنَّه غيرُ ظاهر ولا مناسبٍ لجمع الجبال.

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي: أصنافُها بالشدَّةِ والضعف؛ لأنَّها مقولةٌ بالتشكيك[1]، فـ «مختلف» صفة «بيضٌ وحمرٌ»، و«ألوانها» فاعلٌ له، وليس بمبتدأ و«مختلف» خبره؛ لوجوب مختلفة حينئذٍ، وجُوِّز أن يكون صفة «جدد».

﴿وَغَرَابِيبُ﴾ عطفٌ على «بيض»، فهو من تفاصيل الجدد والصفات القائمة بها، أي: ومن الجبال ذو جُدَدٍ بيض وحمر وغرابيب.

والغِرْبِيبُ هو الذي أَبْعَدَ في السواد وأَغْرَبَ فيه، ومنه الغراب، وكثر في كلامهم إتباعُه للأسود على أنَّه صفةٌ له أو تأكيدٌ لفظيّ، فقالوا: أسودٌ غربيبٌ، كما قالوا: أبيضُ يَقَقٌ، وأصفرُ فاقعٌ، وأحمرُ قانٍ.

وظاهر كلام الزمخشري[2] أنَّ «غرابيب» هنا تأكيدٌ لمحذوف، والأصل: وسودٌ غرابيب، أي: شديدة السواد.

وتُعقِّب بأنَّه لا يصحُّ إلَّا على مذهب من يُجوِّزُ حذفَ المؤكَّد، ومن النحاة من مَنع ذلك ـ وهو اختيارُ ابن مالك ـ لأنَّ التأكيدَ يقتضي الاعتناء والتقوية وقصدَ التطويل، والحذف يقتضي خلافَه. وردَّه الصفَّار كما في «شرح التسهيل» لأنَّ المحذوف لدليل كالمذكور فلا ينافي تأكيده، وفي بعض شروح «المفصَّل» أنه صفةٌ لذلك المحذوف أقيم مقامه بعد حذفه، وقوله تعالى: ﴿سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ بدلٌ منه أو عطفُ بيانٍ له، وهو مفسِّرٌ للمحذوف، ونظير ذلك قول النابغة:

والمؤمِنِ العائذاتِ الطيرَ يمسحُها ركبانُ مكَّةَ بين الغَيْلِ والسَّنَدِ[3]

وفيه التفسيرُ بعد الإبهام، ومزيدُ الاعتناء بوصف السواد، حيث دلَّ عليه من طريق الإضمار والإظهار.

---

(١) اللفظ المقول بالتشكيك: هو لفظ يدل على أمر عامٍّ مشتركٍ بين أفرادٍ لا على السَّواء، بل على التفاوت. المعجم الوسيط (شكك).

(٢) في الكشاف ٢/ ٣٠٧.

(٣) ديوان النابغة ص ٣٥، وفيه: والسَّعَد، بدل: والسَّند.

ويجوز أن يكون العطفُ على «جدد» على معنى: ومن الجبال ذو جددٍ مختلف اللون، ومنها غرابيب متحدةُ اللون، كما يؤذنُ به المقابلةُ وإخراجُ التركيبِ على الأسلوب الذي سمعته، وكأنَّه لمَّا اعتنى بأمرِ السواد بإفادة أنَّه في غاية الشدَّة، لم يذكر بعدَه الاختلاف بالشدَّة والضعف.

وقال الفرَّاء: الكلامُ على التقديم والتأخير، أي: سودٌ غرابيب.

وقيل: ليس هناك مؤكَّدٌ ولا موصوفٌ محذوف، وإنَّما «غرابيب» معطوفٌ على «جُدَد» أو على «بيض» من أوَّل الأمر و«سود» بدلٌ منه. قال في «البحر»: وهذا حسنٌ، ويحسِّنُه كونُ غربيب لم يلزم فيه أن يستعملَ تأكيداً، ومنه ما جاء في الحديث: «إنَّ الله تعالى يبغضُ الشيخَ الغربيب»(١) وهو الذي يخضبُ بالسواد - وفسَّره ابنُ الأثير بالذي لا يشيب(٢)، أي: لسفاهتِه أو لعدمِ اهتمامه بأمر آخرته، وحَكَى(٣) ما في «البحر» بصيغة قيل - وقولُ الشاعر:

العينُ طامحةٌ واليدُ شامخةٌ والرجلُ لائحةٌ والوجهُ غربيبُ(٤)

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ومنهم بعضٌ مختلفٌ ألوانُه، أو: وبعضُهم(٥) مختلفٌ ألوانُه على ما ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]. والجملةُ عطفٌ على الجملة التي قبلَها، وحكمُها حكمها.

وفي «إرشاد العقل السليم» أنَّ إيرادَ الجملتين اسميتين، مع مشاركتهما لمَا قبلهما من الجملة الفعليَّة في الاستشهاد بمضمونها على تباين الناس في الأحوال الباطنة؛ لمَا أنَّ اختلافَ الجبال والناس والدوابِّ والأنعامِ فيما ذكر من الألوان أمرٌ

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٠١٦. قال محمد بن طاهر المقدسي في ذخيرة الحفاظ ٢/ ٦٠٣: وهذا لا يرويه غير رشدين، وهو ضعيف جداً.

(٢) النهاية (غرب).

(٣) أي: ابن الأثير.

(٤) البحر ٧/ ٣١٢، وفيه: واليد سابحة، والبيت في ديوان امرئ القيس برواية:

والعين قادحة واليدُ سابحةٌ والرجلُ طامحةٌ واللونُ غربيبُ

(٥) في الأصل و(م): أو بعضهم، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ١٥١، والكلام منه.

مستمرٌّ، فعبَّر عنه بما يدلُّ على الاستمرار، وأمَّا إخراجُ الثمرات المختلفة، فحيث كان أمراً حادثاً، عبَّرَ عنه بما يدلُّ على الحدوث، ثمَّ لمَّا كان فيه نوعُ خفاءٍ، علّق به الرؤية بطريق الاستفهام التقريريِّ المنبئ عن الحمل عليها والترغيبِ فيها، بخلافِ أحوال الجبال والناس وغيرهما، فإنَّها مشاهَدةٌ غنيَّةٌ عن التأمُّل، فلذلك جُرِّدَت عن التعليق بالرؤية، فتدبَّر[١]. اهـ.

وما ذكرَه من أمر تعليقِ الرؤية مخالفٌ لما في «البحر»، حيث قال: وهذا استفهامُ تقريرٍ، ولا يكونُ إلَّا في الشيءِ الظاهرِ جدّاً[٢]. فتأمَّل.

وقرأ الزهريُّ: «والدوابِ» بتخفيف الباء[٣]، مبالغةً في الهرب من التقاء الساكنين، كما همز بعضهم: «ولا الضألِّين»[٤] لذلك.

وقرأ ابن السميفع: «ألوانُها»[٥].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محلٍّ نصبِ صفةٍ لمصدرِ «مختلف» المؤكِّد، والتقدير: مختلفٌ اختلافاً كائناً كذلك، أي: كاختلاف الثمرات والجبال، فهو من تمام الكلام قبلَه، والوقف عليه حسن بإجماعِ أهل الأداء. وقولُه سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ تكملةٌ لقوله تعالى: «إنَّما تنذرُ الذين يخشون ربَّهم بالغيب» بتعيين من يخشاه عزَّ وجلَّ من الناس بعد الإيماء إلى بيان[٦] شرف الخشية، ورداءة ضدِّها، وتوعُّد المتَّصفين به، وتقرير قدرته عزَّ وجلَّ المستدعي للخشية، على ما نقول. أو بعد بيان اختلاف طبقات الناس، وتباين مراتبهم؛ أمَّا في الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل، وأمَّا في الأوصاف الصوريَّة فبطريق التصريح؛ توفيةً لكلٍّ واحدةٍ منهما حقَّها اللائقَ بها من البيان.

وقيل: «كذلك» في موضع رفعِ خبرِ مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمر كذلك، أي:

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥١.

(٢) البحر ٧/ ٣١١.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٢.

(٤) هي قراءة أيوب السختياني كما في القراءات الشاذة ص ١، والمحتسب ١/ ٤٦.

(٥) المحتسب ٢/ ٢٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٢.

(٦) لفظة: بيان. ليست في الأصل.

كما بُيِّن ولُخِّص، ثم قيل: «إنَّما يخشَى الله» إلخ، وسلك به مسلكَ الكناية من باب: العرب لا تخفر الذمم[١]؛ دلالةً على أنَّ العلم يقتضي الخشية ويناسبُها، وهو تخلُّصٌ إلى ذكر أوليائه تعالى، مع إفادةِ أنَّهم الذين نفعَ فيهم الإنذار، وأنَّ لك بهم غنيةً عن هؤلاء المصرِّين.

قال صاحب «الكشف»: والرفعُ أظهر ليكون من فصل الخطاب.

وقال ابن عطية[٢]: يحتملُ أن يكون «كذلك» متعلِّقاً بما بعده، خارجاً مخرجَ السبب، أي: كذلك الاعتبارِ والنظر في مخلوقات الله تعالى واختلاف ألوانها يخشَى اللهَ العلماءُ.

وردَّه السمينُ بأنَّ «إنَّما» لا يعملُ ما بعدَها فيما قبلها، وبأنَّ الوقفَ على «كذلك» عند أهل الأداء جميعاً[٣]. وارتضاه الخفاجيُّ وقال: وبه ظهر ضعفُ ما قيل: إنَّ المعنى: الأمرُ كذلك، أي: كما بُيِّنَ ولُخِّص، على أنه تخلُّصٌ لذكر أولياء الله تعالى[٤].

وفيه أنَّه ليس في هذا المعنى عملُ ما بعدَ «إنَّما» فيما قبلها، وإجماعُ أهلِ الأداء على الوقف على «كذلك» ـ إن سُلِّم ـ لا يظهرُ به ضعفُ ذلك، وفي بعض التفاسير المأثورة عن السلف ما يُشعرُ بتعلُّق «كذلك» بما بعده؛ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال في الآية: كما اختلفت هذه الأنعام تختلفُ الناس في خشية الله تعالى كذلك[٥].

وهذا عندي ضعيفٌ، والأظهر ما عليه الجمهور، وما قيلَ أدقُّ وألطف.

والمراد بالعلماء: العالمون بالله عزَّ وجلَّ وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الحميدة وسائر شؤونه الجميلة، لا العارفون بالنحو والصرف مثلاً، فمدار

---

(١) ينظر شرح ذلك في الكشاف ٣/ ٤٦٢-٤٦٣.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٧.

(٣) أي: وقف تامٌّ. الدر المصون ٩/ ٢٣١.

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ٢٢٤-٢٢٥.

(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٤٩.

الخشية ذلك العلم لا هذه المعرفة، فكلٌّ من كان أعلم به تعالى كان أخشى.

روى الدارميُّ عن عطاء قال: قال موسى عليه السلام: يا ربّ، أيُّ عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكمُ للناس كما يحكم لنفسه. قال: يا ربّ، أيُّ عبادِك أغنى؟ قال: أرضاهم بما قسمتُ له. قال: يا ربّ، أيُّ عبادك أخشى؟ قال: أعلمهم بي[1].

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له»[2].

ولكونه المدار ذُكِرت الخشيةُ بعدَ ما يدلُّ على كمال القدرة، ولهذه المناسبة فسَّر ابن عباس ـ كما أخرج عنه ابن المنذر وابن جرير ـ «العلماء» في الآية بالذين يعلمون أنَّ الله تعالى على كلِّ شيءٍ قدير[3].

وتقديمُ المفعول؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ الخاشين، والإخبارُ بأنَّهم العلماءُ خاصَّةً دون غيرهم، ولو أخّرَ لكان المقصودُ بيانَ المخشيِّ، والإخبارَ بأنّه الله تعالى دونَ غيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] والمقامُ لا يقتضيه، بل يقتضي الأوّلَ؛ ليكونَ تعريضاً بالمنذَرين المصرِّين على الكفر والعناد، وأنهم جهلاءُ بالله تعالى وبصفاته، ولذلك لا يخشونَ الله تعالى ولا يخافون عقابَه.

وأنكر بعضهم إفادة «إنما» هنا للحصر. وليس بشيء.

وروي عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة رضي الله عنهما أنَّهما قرأا: «إنما يخشى اللهُ» بالرفع «العلماءَ» بالنصب[4]، وطعنَ صاحب «النشر» في هذه القراءة[5]، وقال أبو حيان: لعلها لا تصحُّ عنهما، وقد رأينا كتباً في الشواذِّ، ولم يذكروا هذه

---

(١) سنن الدارمي (٣٦٢).

(٢) أورده بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٣/ ٤٠٧، وأبو السعود في تفسيره ٧/ ١٥١. وأخرج البخاري في صحيحه (٢٠) من حديث عائشة قوله ﷺ: «إنَّ أتقاكم وأعلمَكم بالله أنا». وبرقم (٦١٠١) و(٧٣٠١) عن عائشة أيضاً بلفظ: «فوالله إنِّي لأعلمُهم بالله وأشدُّهم له خشية».
وأخرج مسلم في صحيحه (١١١٠) من حديث عائشة أيضاً: «والله إنِّي لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلم بما أتَّقي».

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٥٠، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٦٤.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٠٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٧٧، والبحر المحيط ٧/ ٣١٢.

(٥) النشر ١/ ١٦.

القراءة، وإنَّما ذكرها الزمخشريُّ، وذكرها عن أبي حيوة أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة[1] في كتابه «الكامل»[2].

وخُرِّجت على أنَّ الخشيةَ مجازٌ عن التعظيم بعلاقة اللزوم، فإنَّ المعظَّم يكون مهيباً.

وقيل: الخشيةُ تَرِد بمعنى الاختيار، كقوله:

خشيت بني عمِّي فلم أرَ مثلهم[3]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ تعليلٌ لوجوب الخشية؛ لأنَّ العزَّة دالَّةٌ على كمال القدرة على الانتقام، ولا يوصَفُ بالمغفرة والرحمة إلَّا القادرُ على العقوبة.

وقيل: ذكر «غفور» من باب التكميل نظير ما في بيت الغنوي المذكورِ آنفاً[4].

والآية ـ على ما في بعض الآثار ـ نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ، وقد ظهرت عليه الخشيةُ حتى عُرِفت فيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يداومون على قراءته، حتى صارت سمةً لهم وعنواناً، كما يُشعرُ به صيغةُ المضارع ووقوعُه صلةً واختلافُ الفعلين.

والمراد بـ «كتاب الله» القرآن، فقد قال مطرف بن عبد الله بن الشِّخير: هذه آية القُرَّاء. وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في «تفسيره» عن ابن عباس أنَّها نزلت في حصين بن الحارث بن عبد المطلب القرشيّ[5].

ثم إنَّ العبرةَ بعموم اللفظ، فلذا قال السُّدّيُّ في التَّالِين: هم أصحابُ رسول الله ﷺ. وقال عطاء: هم المؤمنون. أي: عامَّة، وهو الأرجح، ويدخلُ الأصحابُ دخولاً أوَّلِيّاً.

---

(١) في (م): جنادة. وهو خطأ. وهو الهذلي المتوفى سنة (٤٦٥ هـ). له ترجمة مطولة في غاية النهاية ٢/ ٣٩٧-٤٠١.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣١٢.

(٣) أورده الخفاجي في حاشيته ٧/ ٢٢٥ دون نسبة.

(٤) ص٢٠١ من هذا الجزء.

(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٥١، ولباب النقول ص ١٨١. والصواب كما في الإصابة ٢/ ٢٥٥، والاستيعاب ٣/ ٣٤ (بهامش الإصابة): حصين بن الحارث بن المطلب. والله أعلم.

وقيل: معنى «يتلون كتاب الله»: يتَّبعونَه، فيعملونَ بما فيه. وكأنَّه جعلَ «يتلو» من تلاه إذا تبِعَه، أو حملَ التلاوةَ المعروفة على العمل؛ لأنَّها ليس فيها كثيرُ نفعٍ دونه، وقد ورد: ربَّ قارئٍ للقرآن والقرآنُ يلعنه(١).

ويشعرُ كلامُ بعضهم باختيار المعنى المتبادر، حيث قال: إنَّه تعالى لمَّا ذكرَ الخشية، وهي عمل القلب، ذكرَ بعدها عملَ اللسان والجوارح والعبادةَ الماليَّة.

وجُوِّزَ أنْ يُرَاد بكتاب الله تعالى جنسُ كتبه عزَّ وجلَّ الصادقُ على التوراة والإنجيل وغيرهما، فيكونُ ثناءً على المصدِّقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذِّبين بقوله تعالى: «وإن يكذبوك» إلخ، والمضارعُ لحكاية الحال الماضية، والمقصودُ من الثناء عليهم وبيانِ ما لهم حثُّ هذه الأمة على اتِّباعهم، وأنْ يفعلُوا نحوَ ما فعلوا.

والوجهُ الأوَّل أَوْجَهُ كما لا يخفى، وعليه الجمهور.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: مسرِّين ومعلنين، أو: في سرٍّ وعلانية، والمراد: ينفقون كيفما اتفق، من غير قصدٍ إليهما.

وقيل: السرُّ في الإنفاق المَسْنُون، والعلانيةُ في الإنفاق المفروض.

وفي كون الإنفاق ممَّا رُزقوا إشارةٌ إلى أنَّهم لم يسرفوا، ولم يبسطوا أيديَهم كلَّ البسط، ومقامُ التمدُّح مشعرٌ بأنَّهم تحرَّوا الحلالَ الطيِّبَ. وقيل: جيء بـ «من» لذلك.

والمعتزلة يخصُّون الرزقَ بالحلال، وهو أنسبُ بإسناد الفعلِ إلى ضمير العظمة، ومن لا يخصُّه بالحلال يقول: هو للتعظيم والحثِّ على الإنفاق.

﴿يَرْجُونَ﴾ بما أتوا من الطاعات ﴿تِجَٰرَةً﴾ أي: معاملةً مع الله تعالى لنيل ربح الثواب، على أنَّ التجارةَ مجازٌ عمَّا ذُكر والقرينة حاليَّةٌ، كما قال بعض الأجلَّة.

---

(١) أورده الغزالي في الإحياء ١/ ٢٧٤ من قول أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لن تكسُد، وقيل: لن تهلِك بالخسران، صفةُ «تجارة»، وترشيحٌ للمجاز. وجملة «يرجون» إلخ ـ على ما قال الفراء وأبو البقاء ـ خبرُ «إنَّ»[(١)].

وفي إخباره تعالى عنهم بذلك إشارةٌ إلى أنَّهم لا يقطعون بنَفاق تجارتهم، بل يأتون ما أتوا من الطاعات وقلوبهم وجلةٌ أنْ لا يقبلَ منهم.

وجَعَل بعضُهم التجارة مجازاً عن تحصيل الثواب بالطاعة، وأمر الترشيح على حاله، وإليه ذهب أبو السعود، ثم قال: والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عِدَةٌ قطعيَّةٌ بحصولِ مرجوِّهم[(٢)].

وظاهر ما رُوي عن قتادة من تفسيره التجارةَ بالجنَّة: أنَّها مجازٌ عن الربح، وفَسَّر «لن تبور» بـ: لن تبيد، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ متعلِّقٌ عند بعضٍ بما دلَّ عليه «لن» تعلُّقَ «بنعمة ربك» في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] بما دلَّ عليه «ما»، لا بالحرف، إذ لا يتعلَّقُ الجارُّ به على المشهور، أي: ينتفي الكساد عنها، وتنفق عند الله تعالى؛ ليوفيهم أجورَ أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء، وعن أبي وائل: زيادتُه تعالى إيَّاهم بتشفيعهم فيمن أحسنَ إليهم. وقال الضحَّاك: بتفسيح القلوب. وفي الحديث: بتضعيفِ حسناتهم[(٣)]، وقيل: بالنظرِ إلى وجهه تعالى الكريم.

والظاهر أنَّ «من فضله» راجعٌ لما عنده، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ توفيته[(٤)] أجورَهم

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٩، وإملاء ما من به الرحمن ٢/ ٢٠١.

(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٢.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٣، وكذا ذكر ذلك الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٢، وقال: وهو مأثور. ولعلَّه يريد بذلك ما أخرجه الترمذي(٢٩١٠)، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، بل ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) في (م): توفية.

كالواجب؛ لكونه جزاءً لهم بوعده سبحانه، ويجوزُ أنْ يكون راجعاً إليهما.

أو متعلّقٌ بمقدَّرٍ يدلُّ عليه ما قبله، وهو ما عَدَّ من أفعالهم المرضيَّة، أي: فعلوا ذلك ليوفيهم أجورهم.. إلخ. وجُوِّزَ تعلُّقُه بما قبلَه على التنازع، وصنيعُ أبي البقاء[1] يشعرُ باختيار تعلُّقه بـ «يرجون»، وجَعَلَ اللام عليه لام الصيرورة.

وتُعُقِّبَ بأنَّه لا مانعَ من جعلها لام العلة، كما هو الشائع الكثير، ولا يظهرُ للعدول عنه وجه.

ووَجَّه ذلك الطيبيُّ بأنَّ غَرَضهُم فيما فعلوا لم يكن سوى تجارةٍ غيرِ كاسدة؛ لأنَّ صلة الموصول هنا علَّةٌ وإيذانٌ بتحقُّق الخبر، ولمَّا أدى ذلك إلى أنْ وفَّاهم الله تعالى أجورَهم أتى باللام، وإنَّما لم يذهب إليه بعضُ الأجلَّة، كالزمخشريِّ؛ لأنَّ هذه اللام لا توجدُ إلَّا فيما يترتَّب الثاني - الذي هو مدخولها - على الأول، ولا يكون مطلوباً، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ تعليلٌ لما قبلَه من التوفية والزيادة عند الكثير، أي: غفورٌ لفَرَطات المطيعين، شكورٌ لطاعاتهم، أي: مجازيهم عليها أكملَ الجزاء، فيوفِّي هؤلاءِ أجورَهم، ويزيدهم من فضله.

وجُوِّزَ أنْ يكون خبراً بعد خبر، والعائد محذوفٌ، أي: لهم.

وجُوِّزَ أن يكون هو الخبر بتقدير العائد، وجملة «يرجون» حالٌ من ضمير «أنفقوا» بناءً على أنَّ القيدَ المتعقِّب لأمورٍ متعددة يختصُّ بالأخير، كما هو مذهب أبي حنيفة ﷺ، أو على أنَّ رجاءَ التجارة النافقة أوفقُ بالإنفاق، أو من مقدَّرٍ، أي: فعلوا جميعَ ذلك راجين، واستظهره الطيبيُّ، والجملةُ عليه معترضةٌ، فلا يَرِدُ أنَّ فيه الفصلَ بين المبتدأ وخبره بأجنبيٍّ.

وجُوِّزَ أن يكون حالاً من ضمير «الذين» على سبيل التنازع، ولم يشتهر التنازعُ في الحال. وأنا لا أرى فيه بأساً.

---

(١) في الإملاء ٤/ ٢٢٠.

واستظهرَ بعض المعاصرين جعلَ الجملة المذكورة حالاً من ضمير «أنفقوا»؛ لقربه وشدَّة الملاءمة بين الإنفاق ورجاء تجارة لها نَفَاق، ولا يبعدُ أنْ يكون قد حذف فيما تقدَّم نظيرها لدلالتها عليه، وجَعَلَ «ليوفيهم» متنازعاً فيه للأفعال الثلاثة المتعاطفة، أو جعلَ الجملة حالاً من مقدَّرٍ كما سمعت آنفاً، و«ليوفيهم» متعلِّقاً بـ «يرجون»، وجملة «إنه غفور شكور» خبرُ المبتدأ، والرابطُ محذوف، وفي جملة «يرجون» إلخ احتمالُ الاستعارة التمثيلية، ولو على بُعْدٍ. ولم أرَ من أشارَ إليه، فتدبَّر.

﴿وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن، و«من» للتبيين، إذ القرآن أخصُّ من «الذي أوحينا» مفهوماً وإن اتحدَا ذاتاً. أو جنسُ الكتاب، و«من» للتبعيض، إذ المراد من «الذي أوحينا» هو القرآن، وهو بعض جنس الكتاب. وقيل: هو اللوح، و«من» للابتداء.

﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إذا كان المراد الحصر، فهو من قَصْرِ المسندِ إليه على المسند لا العكس؛ لعدم استقامة المعنى إلا أنْ يقصد المبالغة، قاله الخفاجيُّ(١).

والمتبادر الشائع في أمثاله قصرُ المسند على المسند إليه، وهو هاهنا ـ إن لم تقصد المبالغة ـ قصرٌ إضافيٌّ بالنسبة إلى ما يفتريه أهلُ الكتاب وينسبونَه إلى الله تعالى.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لِمَا تقدَّمه من الكتب السماويَّة، ونصب «مصدقاً» على الحالية، والعامل فيه مقدَّرٌ يُفهم من مضمون الجملة قبله، أي: أحقِّقُه مصدِّقاً، وهو حال مؤكِّدَةٌ؛ لأنَّ حقِّيَّته تستلزمُ موافقتَه للكتب الإلهيَّة المتقدِّمةِ عليه بالزمان في العقائد وأصول الأحكام، واللام للتقوية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ محيطٌ ببواطن أمورهم وظواهرها، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوَّة لم يوحِ إليك مثلَ هذا الحقِّ المعجز الذي هو عيار(٢)

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٢٦.

(٢) مصدر عايَرْتُ المكاييلَ والموازين: إذا قايَسْتَها بغيرها ليعلم صحتها، وهو مجاز مرسل يعلم =

على سائر الكتب. وتقديم «الخبير» للتنبيه على أنَّ العمدةَ هي الأمور الروحانيَّة، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «إنَّ الله لا ينظرُ إلى أعمالكم، وإنَّما ينظرُ إلى قلوبكم»(١).

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، كما عليه الجمهور، والعطف ـ قيل ـ على «الذي أوحينا»، وقيل: على «أوحينا» بإقامة الظاهر مقام الضمير العائد على الموصول، واستُظهِر ذلك بالقرب وتوافق الجملتين، أي: ثم أعطيناه من غير كدٍّ وتعبٍ في طلبه ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم ـ كما قال ابن عباس وغيره ـ أمَّةُ محمد ﷺ، فإنَّ الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أُمَّةً وسطاً؛ ليكونوا شهداءَ على الناس، وخصَّهم بالانتماء إلى أكرم رسله وأفضلهم عليهم الصلاة والسلام.

و«ثمَّ» للتراخي الرتبيّ، فإنَّ إيحاءَ الكتاب إليه ﷺ أشرفُ من الإيراث المذكور، فإنَّه(٢) كالعلَّة له، وبه تحقَّقت نبوَّته عليه الصلاة والسلام التي هي منبعُ كلِّ خيرٍ، وليست للتراخي الزمانيّ، إذ زمانُ إيحائه إليه عليه الصلاة والسلام هو زمانُ إيراثه، وإعطاؤه أمَّتَه بمعنى تخصيصه بهم، وجعلِه كتابَهم الذي إليه يرجعون، وبالعمل بما فيه ينتفعون.

وإذا أُريد بإيراثه إيَّاهم إيراثُه منه ﷺ، وجعلُهم منتفعين به، فاهمين ما فيه بالذات كالعلماء، أو بالواسطة كغيرهم بعدَه عليه الصلاة والسلام؛ فهي للتراخي الزمانيّ، والتعبيرُ عن ذلك بالماضي لتحقُّقه.

= به صحة غيره منها، فما وافقه فهو صحيح من عند الله، وما خالفه فليس منه، بل هو محرَّف مبدل. حاشية الشهاب ٧/ ٢٢٦.

(١) لم أقف عليه بهذا السياق. والذي أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٤): (٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».
وأخرجه مسلم أيضاً برقم (٢٥٦٤): (٣٤) بلفظ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

(٢) في (م): كأنه.

وجُوِّزَ أن يكون معنى «أَوْرَثْنا الكتاب»: حَكَمْنا بإيرائه وقدَّرناه، على أنَّه مجازٌ، من إطلاق السبب على المسبَّب، فتكون «ثمَّ» للتراخي الرُّتْبيّ، وإلَّا فزمانُ الحكم سابقٌ على زمان الإيحاء، ووجه التعبير بالماضي عليه ظاهر.

وفي «شرح الرضي» أنَّ «ثمَّ» قد تجيء في عطف الجمل خاصَّةً؛ لاستبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلَها وعدم مناسبته له، كما في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] فإنَّ بين توبة العباد وهي انقطاعُ العبد إليه تعالى بالكليَّة وبينَ طلب المغفرة بَوناً بعيداً، وهذا المعنى فرعُ التراخي ومجازه. اهـ.

وابن الشيخ جعل ما هنا كما في هذه الآية، وجَوَّزَ أنْ يكون «ثم أورثنا» إلخ متَّصلاً بما سبق من قوله تعالى: (إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) والمراد: ثمَّ أورثنا الكتاب من الأمم السالفة، وأعطيناه بعدهم الذين اصطفيناهم من الأمَّة المحمديَّة، و«الكتاب» القرآن، كما قيل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

وقيل: لا يحتاج إلى اعتبار ذلك، ويجعل المعنى: ثمَّ أخَّرنا القرآن عن الأمم السالفة، وأعطيناه هذه الأمَّة، ووجه النظم أنَّه تعالى قدَّم إرساله في كلِّ أمَّةٍ رسولاً، وعقَّبه بما ينبئ أنَّ تلك الأمم تفرَّقت حزبين، حزب كذَّبوا الرسل وما أُنزِلَ معهم، وهم المشارُ إليهم بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥] وحِزْبٌ صدَّقوهم، وتَلَوا كتابَ الله تعالى، وعملوا بمقتضاه، وهم المشارُ إليهم بقوله سبحانه: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ) إلخ، وبعد أنْ أثنى سبحانه على التَّالين لكتبه، العاملين بشرائعه من بين المكذِّبين بها من سائر الأمم، جاء بما يختصُّ برسوله ﷺ من قوله سبحانه: (وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ) إلخ استطراداً معترضاً، ثم أخبر سبحانه بإيرائه هذا الكتاب الكريم هذه الأمَّةَ بعد إعطاء تلك الأمم الزُّبُر والكتابَ المنير، وعلى هذا يكون المضيُّ[1] في «أورثنا» على ظاهره، و«ثمَّ» للتراخي في الإخبار، أو للتراخي

(١) في (م): المعنى. وهو تصحيف.

في الرتبة إيذاناً بفضل هذا الكتاب على سائر الكتب، وفضلِ هذه الأمة على سائر الأمم، وفي هذا الوجه حَمْلُ الكتاب في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ على الجنس، وجَعْلُ الآية ثناءً على الأمم المصدِّقين بعد اقتصاص حال المكذِّبين منهم، فإنْ دُفِع ما فيه فهو من الحسن بمكان.

وجُوِّزَ أن يكون عطفاً على ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، وإذا كان إيراثُ الكتاب سابقاً على تلاوته، فالمُضيُّ[1] على ظاهره، و«ثم» للتفاوت الرتبيِّ، أو للتراخي في الإخبار، و«الذي أوحينا» إلخ اعتراضٌ لبيان كيفيَّة الإيراث؛ لأنَّه إذا صدَّقها بمطابقته لها في العقائد والأصول كان كأنَّه هي، وكأنَّه انتقل إليهم ممن سلف، وهو كما ترى.

وجُوِّزَ على هذا وما قبله أنْ يُراد بالكتاب الجنس، ولا يخفى أنَّ إرادةَ القرآن هو الظاهر.

وقيل: المراد بالمصطفين علماءُ الأمَّة من الصحابة ومَنْ بعدهم ممَّن يسيرُ بسيرتهم، وإيراثُهم القرآن جعلُهم فاهمين معناه، واقفين على حقائقه ودقائقه، أمناءَ على أسراره.

وروى الإماميَّةُ عن الصادق والباقر ﷺ أنَّهما قالا: هي لنا خاصَّةً، وإيَّانا عنى، أرادا أنَّ أهلَ البيت أو الأئمة منهم هم المصطفون الذين أورثوا الكتاب، واختار هذا الطبرسيُّ الإماميُّ، قال في تفسيره «مجمع البيان»: وهذا أقرب الأقوال؛ لأنَّهم أحقُّ الناس بوصف الاصطفاء والاجتباء، وإيراث علم الأنبياء عليهم السلام[2].

وربما يستأنسُ له بقوله عليه الصلاة والسلام: «إني تاركٌ فيكم الثقلين؛ كتابَ الله تعالى، وعترتي، لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[3].

وحملُهم على علماء الأمة أولى من هذا التخصيص، ويدخلُ فيهم علماءُ أهل

---

(١) في (م): فالمعنى، وهو تصحيف.

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ٢٤٣.

(٣) سلف ٧/ ٣٢١ و٢١/ ٣٠٥.

البيت دخولاً أوّلياً، ففي بيتهم نزلَ الكتاب، ولن يفترقا حتى يردا الحوض يومَ الحساب. وإذا كانت الإضافة في «عبادنا» للتشريف، واختصَّ «العباد» بمؤمني هذه الأمَّة، وكانت «من» للتبعيض، كان حملُ المصطفين على العلماء كالمُتَعَيِّن.

وعن الجبَّائيِّ أنَّهم الأنبياءُ عليهم السلام، اختارهم الله تعالى وحَبَاهم برسالته وكتبه، وعليه يكونُ تعريفُ «الكتاب» للجنس، والعطف على قوله تعالى: (وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ) و«ثم» للتراخي في الإخبار؛ أخبرَ سبحانه أوَّلاً عمَّا أوتيَه نبيُّنا ﷺ، وهو متضمِّنٌ للإخبار بإيتائه عليه الصلاة والسلام الكتابَ على أكمل وجهٍ، ثمَّ أخبر سبحانه بتوريثِ إخوانه الأنبياء عليهم السلام وإيتائهم الكتب.

وممَّا يَرِدُ عليه أنَّ إيتاءَ الأنبياء عليهم السلام الكتبَ قد عُلِم قبلُ من قوله تعالى: (فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ).

وعن أبي مسلم أنَّهم المصطفونَ المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وهو دون ما قبله.

وأيّاً ما كان، فالموصول مفعولٌ أول لـ «أورثنا»، و«الكتاب» مفعولٌ ثانٍ له، قُدِّمَ لشرفه والاعتناء به وعدم اللبس، و«من» للبيان أو للتبعيض.

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ الفاء للتفصيل، لا للتعليل كما قيل، وضمير الجمع على ما سمعتَ أوَّلاً في تفسير الموصول للموصول. والظالم لنفسه من قَصَّر في العمل بالكتاب، وأسرفَ على نفسه، وهو صادقٌ على من ظَلَم غيرَه؛ لأنَّه بذلك ظالمٌ لنفسه، والمشهور مقابلته بالظالم لغيره، واللام للتقوية.

﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ يتردَّدُ بين العمل به ومخالفته، فيعمل تارةً، ويخالفُ أخرى، وأصلُ معنى الاقتصاد التوسُّط في الأمر.

﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ﴾ متقدِّمٌ إلى ثواب الله تعالى وجنَّته[1] ﴿بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: بسبب الخيرات، أي: الأعمال الصالحة. وقيل: سابقٌ على الظالم لنفسه والمقتصدِ في الدرجات بسبب الخيرات. وقيل: أي: محرزٌ الفضلَ بسببها.

(١) قوله: وجنته. ليس في الأصل.

﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بتيسيره تعالى وتوفيقه عزَّ وجلَّ، وفيه تنبيهٌ على عِزَّةِ منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها، وفُسِّر بمن غلبت طاعتُه معاصيَه، وكَثُر عملُه بكتاب الله تعالى.

وما ذُكر في تفسير الثلاثة ممَّا يشير إليه كلام الحسن، فقد رُوي عنه أنَّه قال: الظالمُ من خَفَّت حسناتُه، والمقتصدُ من استوت، والسابق من رجحت.

ووراء ذلك أقوالٌ كثيرةٌ، فقال معاذ: الظالمُ لنفسه الذي ماتَ على كبيرةٍ لم يَتُب منها، والمقتصدُ من مات على صغيرةٍ ولم يصب كبيرةً لم يتب منها، والسابق من مات تائباً من كبيرةٍ أو صغيرة، أو لم يصب ذلك.

وقيل: الظالمُ لنفسه العاصي المسرف، والمقتصدُ مُتَّقي الكبائر، والسابقُ المتَّقي على الإطلاق.

وقيل: الأوَّلُ المقصِّر في العمل، والثاني العاملُ بالكتاب في أغلب الأوقات، ولم يَخْلُ عن تخليط، والثالث السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار.

وقيل: الأوَّلان كما ذكر، والثالث المداومُ على إقامة مواجب الكتاب علماً وعملاً وتعليماً.

وقيل: الأول مَن أسلم بعد الفتح، والثاني من أسلم قبله، والثالث من أسلم قبل الهجرة.

وقيل: هم من لا يبالي من أين ينال، ومَن قُوْتُه من الحلال، ومَن يكتفي من الدنيا بالبلاغ.

وقيل: من همُّه الدنيا، ومن همُّه العقبى، ومن همُّه المولى.

وقيل: طالبُ النجاة، وطالبُ الدرجات، وطالب المناجاة.

وقيل: تاركُ الزَّلَّة، وتارك الغفلَة، وتارك العلاقة.

وقيل: من شغلَه معاشُه عن معاده، ومن شُغْلُه بهما، ومن شغلَه معادُه عن معاشه.

وقيل: من يأتي بالفرائض خوفاً من النار، ومن يأتي بها خوفاً منها ورضًى واحتساباً، ومن يأتي بها رضًى واحتساباً فقط.

وقيل: الغافلُ عن الوقت والجماعة، والمحافظ على الوقت دون الجماعة، والمحافظ عليهما.

وقيل: من غلبت شهوتُه عقلَه، ومن تساويا، ومن غلبَ عقلُه شهوته.

وقيل: من لا ينهى عن المنكر ويأتيه، ومن ينهى عن المنكر ويأتيه، ومن يأمر بالمعروف ويأتيه.

وقيل: ذو الجور، وذو العدل، وذو الفضل.

وقيل: ساكنُ البادية، والحاضرة، والمجاهد.

وقيل: من كان ظاهره خيراً من باطنه، ومن استوى باطنه وظاهره، ومن باطنُه خيرٌ من ظاهره.

وقيل: التالي للقرآن غير العالم به ولا العامل بموجبه، والتالي العالمُ غيرُ العامل، والتالي العالم العامل.

وقيل: الجاهل، والمتعلِّم، والعالم.

وقيل: من خالفَ الأوامر وارتكبَ المناهي، ومن اجتهدَ في أداء التكاليف وإن لم يوفَّق لذلك، ومن لم يخالِف تكاليفَ الله تعالى.

ورَوى بعضُ الإماميَّة عن ميسر بن عبد العزيز عن جعفر الصادق ﷺ: الظالمُ لنفسه منَّا مَنْ لا يعرفُ حقَّ الإمام، والمقتصدُ العارفُ بحقِّ الإمام، والسابق هو الإمام.

وعن زياد بن المنذر عن أبي جعفرٍ ﷺ: الظالمُ لنفسه منَّا من عملَ صالحاً وآخرَ سيِّئاً، والمقتصدُ المتعبِّدُ المجتهدُ، والسابقُ بالخيرات عليٌّ والحسن والحسين ﷺ، ومن قُتِل من آل محمد شهيداً.

وقيل: هم الموحِّدُ بلسانه الذي تخالفُه جوارحُه، والموحِّدُ الذي يمنعُ جوارحه بالتكليف، والموحِّدُ الذي ينسيه التوحيدُ غيرَ التوحيد.

وقيل: من يدخلُ الجنَّة بالشفاعة، ومن يدخلُها بفضل الله تعالى، ومن يدخلها بغير حساب.

وقيل: من أوتي كتابَه من وراء ظهره، ومن أوتيَ كتابه بشماله، ومن أوتي كتابه بيمينه.

وقيل: الكافر مطلقاً، والفاسقُ، والمؤمنُ التقيُّ. وفي معناه ما جاءَ في رواية عن ابن عباس وقتادة وعكرمة: الظالمُ لنفسه أصحابُ المشأمة، والمقتصدُ أصحاب الميمنة، والسابق بالخيرات السابقون المقربون.

والظاهر أن هؤلاء ومن قال نحوَ قولهم يجعلون ضمير «منهم» للعباد، لا للموصول، ولا شكَّ أنَّ منهم الكافر وغيره. وكون العباد المضاف إلى الله تعالى مخصوصاً بالمؤمنين ليس بمطَّرد، وإنَّما يكون كذلك إذا قصد بالإضافة التشريف. والقولُ برجوع الضمير للموصول، والتزامُ كون الاصطفاء بحسب الفطرة = تعسُّفٌ كما لا يخفى.

وقيل في تفسير الثلاثة غير ما ذكر، وذكرَ في «التحرير» ثلاثةً وأربعين قولاً في ذلك، ومن تتبَّع التفاسيرَ وجدها أكثرَ من ذلك، لكن لا يجدُ في أكثرها كثيرَ تفاوت، والذي يعضدُه معظمُ الروايات والآثار أنَّ الأصناف الثلاثة من أهل الجنة، فلا ينبغي أنْ يُلتفتَ إلى تفسير الظالم بالكافر إلَّا بتأويل كافرِ النعمة، وإرادة العاصي منه.

أخرج الإمام أحمد والطيالسيُّ وعبدُ بن حميد وابنُ جرير وابنُ المنذر وابن أبي حاتم وابنُ مردويه والبيهقيُّ والترمذيُّ وحسَّنه عن أبي سعيد الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى ﴿بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾: «هؤلاء كلُّهم بمنزلةٍ واحدةٍ، وكلُّهم في الجنَّة»[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «وكلهم» إلخ عطفٌ تفسيريٌّ.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٥١، وأحمد (١١٧٤٥)، والطيالسي (٢٣٥٠)، والطبري في تفسيره ١٩/ ٣٧٦، والبيهقي في البعث (٦١)، والترمذي في سننه (٣٢٢٥).

=

وأخرج الطبرانيُّ وابن مردويه[١] في «البعث» عن أسامة بن زيد أنَّه قال في الآية: قال رسول الله ﷺ: «كلُّهم من هذه الأمَّة، وكلُّهم في الجنة»[٢].

وأخرج ابنُ النجار عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سابقُنا سابق، ومقتصدنا ناجٍ، وظالمنا مغفورٌ له»[٣].

وأخرج العقيليُّ وابن مردويه والبيهقيُّ عن عمر بن الخطاب مرفوعاً نحوه[٤].

وأخرج الإمامُ أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ والحاكم وابنُ مردويه والبيهقيُّ عن أبي الدرداء قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فأمَّا الذين سبقوا فأولئك يدخلونَ الجنَّة بغير حساب، وأمَّا الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبونَ حساباً يسيراً، وأمَّا الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسونَ في طول المحشر، ثمَّ هم الذين يتلقَّاهم الله تعالى برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ

= قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. اهـ.
وفي إسناده مبهمان؛ رجلٌ من ثقيف عن رجل من كنانة، فهو ضعيف.

(١) كذا في الأصل و(م). والصواب ـ كما في الدر المنثور ٥/ ٢٥١، وعنه نقل المصنف ـ: البيهقي.

(٢) الطبراني في الكبير (٤١٠)، والبيهقي في البعث (٦٣) و(٦٤).

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٥٢.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٥٢، وهو عند العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤٤٣، والواحدي في الوسيط ٣/ ٥٠٥، والبغوي في تفسيره ٣/ ٥٧١ من طريق الفضل بن عميرة عن ميمون بن سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر مرفوعاً. والفضل بن عميرة ضعيف. قال البغوي بعد ذكره: قال أبو قلابة: فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجَّب منه. وأخرجه البيهقي في البعث (٦٥) من طريق ميمون بن سياه عن عمر ﵁ به. قال البيهقي: فيه إرسال بين ميمون بن سياه وبين عمر ﵁.
وأخرجه سعيد بن منصور (٢٣٠٨) عن عمر موقوفاً. وانظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٣٩.

إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾» الآية [فاطر: ٣٤]. قال البيهقيُّ: إذا كثرت الروايات في حديثٍ ظهر أنَّ للحديث أصلاً[(١)].

والأخبار في هذا الباب كثيرة، وفيما ذكر كفاية.

وقُدِّمَ الظالم لنفسه لكثرة الظالمين لأنفسهم، وعُقِّبَ بالمقتصد لقلَّة المقتصدين بالنسبة إليهم، وأُخِّر السابقُ؛ لأنَّ السابقين أقلُّ من القليل؛ قاله الزمخشريُّ[(٢)].

وحكى الطبرسيُّ أنَّ هذا الترتيبَ على مقامات الناس، فإنَّ أحوال العباد ثلاث: معصيةٌ، ثم توبةٌ، ثم قربةٌ، فإذا عصى العبد فهو ظالم، فإذا تاب فهو مقتصد، فإذا صحَّت توبتُه وكثرت مجاهدتُه فهو سابق[(٣)].

وقيل: قُدِّمَ الظالمُ لئلَّا ييأس من رحمة الله تعالى، وأخِّر السابق لئلَّا يعجب بعمله، فتعيَّنَ توسيطُ المقتصد.

وقال قطب الدين: النكتةُ في تقديم الظالم أنَّه أقربُ الثلاثة إلى بداية حال العبد قبل اصطفائه بإيراث الكتاب، فإذا باشره الاصطفاء فمن العباد من يتأثَّر قليلاً وهو الظالم لنفسه، ومنهم من يتأثَّر وسطاً وهو المقتصد، ومنهم من يتأثَّر تأثُّراً تامًّا وهو السابق.

وقريبٌ منه ما قيل: إنَّ الاصطفاء مشكَّكٌ تتفاوت مراتبه، وأوَّلها ما يكون للمؤمن الظالم لنفسه، وفوقه ما يكونُ للمقتصد، وفوق الفوق ما يكون للسابق بالخيرات، فجاء الترتيبُ كالترقِّي في المراتب.

وقيل: أخِّر السابقُ لتعدُّد ما يتعلَّق به، فلو قُدِّم أو وسِّطَ لبَعُد في الجملة ما بين الأقسام المتعاطفة، ولمَّا كان الاقتصادُ كالنسبة بين الظلم والسبق اقتضى ذلك تقديمَ الظالم وتأخير المقتصد؛ ليكون المقتصدُ بين الظالم والسابق لفظاً، كما هو بينهما معنى.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٥١، وأحمد (٢١٦٩٧) و(٢٧٥٠٥)، والطبري ١٩/ ٣٧٥، والحاكم ٢/ ٤٢٦، والبيهقي في البعث (٦٢). وهو ضعيف، وانظر تتمة الكلام عليه في مسند الإمام أحمد.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٠٩.

(٣) مجمع البيان ٢٢/ ٢٤٥.

وقد يقال: رتبت هذه الثلاثة هذا الترتيب ليوافق حالُهم في الذكر بالنسبة إلى ما وعدوا به من الجنات في قوله سبحانه: «جنات عدن» الآية حالَهم في الحشر عند تحقُّق الوعد، فأخّر السابق الداخل في الجنان أوّلاً ليتَّصل ذكره بذكر الجنات الموعودِ بها، وذكرَ قبلَه المقتصد، وجعل السابق فاصلاً بينه وبين الجنات؛ لأنَّه إنَّما يدخلُها بعدَه، فيكون فاصلاً بينه وبينها في الدخول، وذكرَ قبلهما الظالم لنفسه؛ لأنَّه إنما يدخلُها ويتَّصل بها بعدَ دخولهما، فتأخير السابق في المعنى تقديم، وتقديمُ الظالم في المعنى تأخير.

ويحتملُ ذلك أوجهاً أخرى تظهر بالتأمُّل، فتأمَّل.

وقرأ أبو عمران الجونيّ، وعمر بن أبي شجاع، ويعقوب في رواية، والقزَّاز عن أبي عمرو: «سبَّاق» بصيغة المبالغة[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما تقدَّم مِن الإيراث والاصطفاء ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ من الله عزَّ وجلَّ، لا دخل للكسب فيه.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ مبتدأ خبره قولُه تعالى: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ ويؤيِّده قراءة الجحدريِّ وهارون عن عاصم: «جناتِ» بالنصب على الاشتغال[2]، أي: يدخلون جنات عدن يدخلونَها، واحتمال جرِّه بدلاً من الخيرات بعيدٌ، وفيه الفصل بين البدل والمبدل منه بأجنبيٍّ، فلا يلتفتُ إليه.

وضمير الجمع للذين اصطفينا، أو للثلاثة.

وقال الزمخشريُّ[3]: «ذلك» إشارةٌ إلى السبق بالخيرات، و«جنات عدن» بدلٌ من «الفضل» الذي هو السبق، ولمَّا كان السبقُ بالخيرات سبباً لنيل الثواب جُعِلَ نفسَ الثواب؛ إقامةً للسبب مقام المسبَّب، ثمَّ أُبدِل منه. وضمير الجمع للسابق؛ لأنَّ القصدَ إلى الجنس.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٣، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٤ عن أبي عمران الجوني فقط.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣١٤، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٣ عن الجحدري فقط.
(٣) في الكشاف ٣/ ٣٠٩.

فخَصَّ الوعدَ بالقِسْمِ الأخير؛ مراعاةً لمذهب الاعتزال، وهو على ما سمعت للأقسام الثلاثة، وذلك هو الأظهرُ في النظم الجليل؛ ليطابقه قوله تعالى بَعْدُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، وليناسبَ حديث التعظيم والاختصاص المُدْمَج في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾، وإلَّا فأيُّ تعظيمٍ في ذلك الذكر بعد أن لُزَّ أكثر المصطفين في قَرن الكافرين، وليناسبَ ذكرُ الغفور بعدُ حالَ الظالم والمقتصد، والشكور حالَ السابق، ولتعسُّف ما ذَكره من الإعراب وبعدِه عن الذوق، وكيف لا يكون الأظهرَ وقد فسَّره كذلك أفضلُ الرسل ومن أنزل عليه هذا الكتاب المبين، على ما مرَّ آنفاً، وإليه ذهبَ الكثيرُ من أصحابه الفخام ونجوم الهداية بين الأنام رضي الله عنهم، وعَدَّ منهم في «البحر»: عمر وعثمان وابن مسعود وأبا الدرداء وأبا سعيد وعائشة رضي الله عنهم[1].

وقد أخرج سعيد بن منصور، والبيهقيُّ في «البعث» عن البراء بن عازب أنَّه قال بعدَ أن قرأ الآية: أشهدُ على الله تعالى أنَّه يدخلهم الجنَّة جميعاً[2].

وأخرج غيرُ واحدٍ عن كعب أنَّه قرأ الآيةَ إلى «لغوب»، فقال: دخلوها وربِّ الكعبة، وفي لفظ: كلهم في الجنَّة، ألا ترى على أثره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾[3].

نعم إن أُريد بالظالم لنفسه الكافر يتعذَّرُ رجوعُ الضمير إلى ما ذُكر، ويتعيَّن رجوعه إلى السابق، أو[4] إليه وإلى المقتصد؛ لأنَّ المرادَ بهما الجنس، لكن لا ينبغي أنْ يُرادَ بعد هاتيك الأخبار.

وقرأ زرُّ بن حُبَيش والزهريُّ: «جنةُ عدن» بالإفراد والرفع[5].

---

(١) البحر ٧/ ٣١٤.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٥٢، وأخرجه البيهقي في البعث (٦٧).

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٥٢، ونسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي. وأخرجه البيهقي في البعث (٧٠).

(٤) في (م): و.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٣١٤، والقراءة في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠ عن زر بن حبيش فقط.

وقرأ أبو عمرو: «يُدْخَلونها» بالبناء للمفعول، ورويت عن ابن كثير(١).

وقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبرٌ ثانٍ لـ «جنات»، أو حال مقدَّرة. وقيل: إنَّها لقرب الوقوع بعد الدخول تعدُّ مقارِنةً.

وقرئ: «يَحْلَون» بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف اللام(٢)، مِن حَلِيَت المرأةُ، فهي حالِيَة: إذا لبست الحَلْيَ، ويقال: جِيْدٌ حَالٍ، إذا كان عليه الحَلْيُ.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع: سوار، على ما في «الإرشاد»(٣)، وفي «القاموس»: السوار ككتاب وغراب: القُلْبُ، كالأُسوار بالضمِّ، جمعه: أَسْوِرةٌ وأساوِرُ وأساوِرةٌ وسورٌ وسُؤُور(٤). اهـ. وإطلاقُ الجمع على جمع الجمع كثيرٌ، فلا مخالفة، وسوارُ المرأة معرَّب، كما قال الراغب(٥)، وأصله: دسْتِواره.

و«من» للتبعيض، أي: يحلَّون بعضَ أساور، كأنَّه بعضٌ له امتياز وتفوُّقٌ على سائر الأبعاض.

وجُوِّزَ أن تكون للبيان؛ لما أنَّ ذِكر التحلية مما ينبئ عن الحَلْي المبهم.

وقيل: زائدةٌ، بناءً على ما يرى الأخفش من جواز زيادتها في الإثبات.

وقيل: نعتٌ لمفعولٍ محذوف لـ «يُحَلَّون»، وإنه بمعنى: يلبسون.

و«من» في قوله تعالى: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ بيانيَّةٌ.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفٌ على محلِّ «من أساور»، أي: ويحلَّون فيها لؤلؤاً.

أخرجَ الترمذيُّ والحاكم وصححه، والبيهقيُّ في «البعث» عن أبي سعيد

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٤. وقراءة أبي عمرو في التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٢٥٢. وقراءة ابن كثير المتواترة عنه كقراءة الجمهور.
(٢) الكشاف ٣/ ٣١٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٤.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٣.
(٤) القاموس (سور).
(٥) في المفردات (سور).

الخدريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ تلا الآية فقال: «إنَّ عليهم التيجان، إنَّ أدنى لؤلؤةٍ منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب»[(١)].

وقيل: عطف على المفعول المحذوف، أو منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ يدلُّ عليه «يُحلَّون» أي: ويؤتون لؤلؤاً.

وقرأ جمعٌ من السبعة: «ولؤلؤٍ» بالجرِّ عطفاً على «ذهبٍ»[(٢)]، أي: يُحَلَّون فيها بعضَ أساور من مجموع ذهبٍ ولؤلؤ، بأنْ تُنظَم حبَّاتُ ذهبٍ مع حبَّاتِ لؤلؤ، ويُتَّخَذَ من ذلك سوارٌ كما هو معهودٌ اليوم في بلادنا، أو بأن يرصَّعَ الذهبُ باللؤلؤ، كما يرصَّع ببعضِ الأحجار.

وقيل: أي: من ذهبٍ في صفاء اللؤلؤ. وفيه ما فيه من الكدر.

ولعلَّ من يقول بأنَّه لا اشتراكَ بين ذهب الدنيا ولؤلئها وذهب الآخرة ولؤلئها إلّا بالاسم لا يَلتزمُ النظمَ ولا الترصيع، كما لا يخفى.

وقُرِئ: «لولؤاً» بتخفيف الهمزة الأولى[(٣)].

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣﴾ أي: إبريسمٌ محضٌ، كما في «مجمع البيان»[(٤)].

وقال الراغب: ما رَقَّ من الثياب[(٥)].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٥٣، وسنن الترمذي (٢٥٦٢) ـ دون ذكر تلاوة الآية ـ من طريق رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين.
وأخرجه الحاكم ٢/ ٤٢٦-٤٢٧ من طريق عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث به، وأخرجه البيهقي في البعث (٣٣٠) من طريق الحاكم، وتعقب الذهبي الحاكم في تصحيحه بقوله: درَّاج صاحب عجائب.
وأخرجه الإمام أحمد (١١٧١٦) عن الحسن بن موسى الأشيب عن ابن لهيعة عن دراج به دون ذكر تلاوة الآية أيضاً. وضعف محققو المسند إسناده لضعف ابن لهيعة ودراج، وانظر تمام الكلام عليه ثمة.

(٢) هي قراءة ابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي من السبعة، وقرأ بها أيضاً يعقوب وخلف من العشرة. انظر التيسير ص ١٥٦، والنشر ٢/ ٣٢٦.

(٣) هي قراءة شعبة وأبي جعفر. انظر التيسير ص ١٥٦، والنشر ١/ ٣٩٠-٣٩١، ٣٩٤.

(٤) ٢٢/ ٢٤٥.

(٥) المفردات (حرر).

وتغيير الأسلوب، حيث لم يقل: ويلبسون فيها حريراً، قيل: للإيذان بأنَّ ثبوتَ اللباس لهم أمرٌ محقَّق غنيٌّ عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنَّما المحتاج إلى البيان أنَّ لباسَهم ماذا، بخلاف الأساور واللؤلؤ، فإنَّها ليست من اللوازم الضروريَّة، ولذا لا يلزم العدلُ بين الزوجات فيها، فجعل بيان تحليتهم مقصوداً[1] بالذات، ولعلَّ هذا هو الباعث على تقديم التحلية على بيان حال اللباس.

وقيل: إنَّ ذلك للدلالة على أنَّ الحرير ثيابُهم المعتادةُ مع المحافظة على هيئة الفواصل. وليس بذاك.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: ويقولون، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقُّق: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ حزن تقلُّب القلب، وخوف العاقبة، على ما رويَ عن القاسم بن محمد.

وقال أبو الدرداء: حزن أهوالِ القيامة، وما يصيبُ من ظَلَم نفسَه هنالك.

وأخرج الحاكم وصحَّحه وابن أبي حاتم وغيرهما عن ابن عباس: حزن النار[2].

وقال الضحاك: حزنَ الموت، يقولونَ ذلك إذا ذُبح الموت.

وقال مقاتل: حزن الانتقال، يقولون ذلك إذا استقرُّوا فيها.

وقال قتادة: حزن أنْ لا تُتَقَبَّلَ أعمالهم.

وقال الكلبيُّ: خوف الشيطان.

وقال سمرة بن جندب: حزن معيشة الدنيا، الخبز ونحوه.

وعن ابن عباس: حزن الآفات والأعراض.

وقيل: حزن كراء الدار.

---

(١) في (م): مقصوراً.

(٢) المستدرك ٢/ ٤٢٧، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٧٧.

والأولى أنْ يُرَاد جنسُ الحزن المنتظِم لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة، وكلُّ ما سمعتَ من باب التمثيل، وقد تقدَّم في الحديث: «إنَّ الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يقولون» أي: بعد أن يتلقَّاهم الله تعالى برحمته: «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» إلخ[1]. فلا تغفل.

وقرئ: «الحُزْن» بضمِّ الحاء وسكون الزاي، ذكره جناح بن حبيش[2].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمذنبين ﴿شَكُورٌ ۝٣٤﴾ للمطيعين.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس أنه قال في ذلك: غَفَرَ لنا العظيمَ من ذنوبنا، وشكر لنا القليلَ من أعمالنا[3].

وفي «الكشاف»: ذِكْرُ الشكور دليلٌ على أنَّ القومَ كثيرو الحسنات[4]. وكان عليه أن يقول: وذِكْرُ الغفور دليلٌ على أنهم كثيرو الفرطَات، فينطبقُ على الفرق، ولا ينفكُّ النظم، ولكن مَنَعَهُ المذهبُ.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: دار الإقامة التي لا انتقالَ عنها أبداً وهي الجنة ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ من إنعامه سبحانه وتفضُّله وكرمه، فإنَّ العملَ وإن كان سبباً لدخول الجنة في الجملة، لكن سببيَّته بفضل الله عزَّ وجلَّ أيضاً، إذ ليس هناك استحقاقٌ ذاتيٌّ، ومَن علم أنَّ العمل متناهٍ زائلٌ، وثوابَ الجنة دائمٌ لا يزول، لم يشكَّ في أنَّ الله تعالى ما أحلَّ من أحلَّ دارَ الإقامة إلَّا من محض فضله سبحانه.

وقال الزمخشريُّ: أي: من إعطائه[5] تعالى وإفضاله، من قولهم: لفلانٍ فضولٌ على قومه وفواضل، وليس من الفضل الذي هو التفضُّلُ؛ لأنَّ الثوابَ بمنزلة الأجر المُستحَقِّ، والتفضُّل كالتبرع. وفيه من الاعتزال ما فيه.

---

(١) سلف ص٢٣٢-٢٣٣ من هذا الجزء.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣١٤.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٥٣.

(٤) الكشاف ٣/ ٣١٠.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣١٠: عطائه.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعبٌ ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ كلالٌ وفتورٌ، وهو نتيجةُ النَّصَب، وضمُّه إليه وتكريرُ الفعل المنفيِّ للمبالغة في بيان انتفاء كلٍّ منهما، كذا قال جمعٌ من الأجلَّة.

وقال بعضهم: النَّصَبُ: التعبُ الجسمانيُّ، واللُّغوب: التعبُ النفسانيُّ.

وأخرج ابن جرير عن قتادة أنَّه فسَّر النَّصَبَ بالوجع(١)، والكلام من باب:

لا ترى الضبَّ بها ينجحر(٢)

والجملةُ حالٌ من أحد مفعولي «أحلَّ».

وقرأ عليٌّ ـ كرَّم الله تعالى وجهه ـ والسلميُّ: «لَغُوب» بفتح اللام(٣).

قال الفرَّاء: هو ما يُلْغَب(٤) به، كالفَطور والسَّحور(٥).

وجاز أن يكونَ صفةً لمصدرٍ محذوف، أي: لا يمسُّنا فيها لُغوبٌ لَغوبٌ، نحو: شعرٌ شاعرٌ، كأنَّه وصف اللُّغوب بأنه قد لَغِبَ، أي: أَعْيَى وتَعِبَ.

وقال صاحب «اللوامح»: يجوز أن يكون مصدراً كالقَبول، وإن شئتَ جعلتَه صفةً لمضمرٍ، أي: أمرٌ لَغوب.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا يُحكَم عليهم بموتٍ ثانٍ ﴿فَيَمُوتُوا﴾ ليستريحوا بذلك من عذابها بالكليَّة. وإنما فسَّر «لا يُقْضَى» بما ذُكر دون: لا يموتون؛ لئلَّا يلغو: «فيموتوا»، ويحتاجَ إلى تأويله بـ: يستريحوا.

ونصب «يموتوا» في جواب النفي بإضمار «أن»، والمراد انتفاءُ المسبَّب لانتفاء السبب، أي: ما يكون حكمٌ بالموت، فكيف يكون الموت؟!

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٣٨١.

(٢) سلف ٤/ ٨٨.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والمحتسب ٢/ ٢٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٥. وزاد ابن خالويه نسبتها لسعيد بن جبير.

(٤) في (م): يغب.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٠.

وقرأ عيسى والحسن: «فيموتون» بالنون[١] عطفاً - كما قال أبو عثمان المازنيّ - على «يُقضى» كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] أي: لا يُقضَى عليهم ولا يموتون.

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ المعهود لهم، بل كلَّما خَبَتْ زِيْدَ إسعارُها، والمراد دوامُ العذاب، فلا ينافي تعذيبَهم بالزمهرير ونحوه.

ونائب فاعل «يُخَفَّف»: «عنهم»، و«من عذابها» في موضع نصب، ويجوز العكس. وجُوِّز أن تكون «من» زائدة، فيتعيَّن رفعُ مجرورها على أنَّه النائب عن الفاعل، على ما قال أبو البقاء[٢].

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «ولا يُخفَّفْ» بإسكان الفاء، شبَّه المنفصل بالمتصل[٣]، كقوله:

فاليومَ أشربْ غيرَ مُستَحْقِبٍ[٤]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦﴾ مبالغٍ في الكفر أو الكفران، لا جزاء أخفّ وأدنى منه.

وقرأ أبو عمرو وأبو حاتم عن نافع: «يُجْزَى» بالياء مبنيّاً للمفعول، و«كلٌّ» بالرفع على النيابة عن الفاعل[٥].

وقرئ: «نُجازي» بنونٍ مضمومةٍ وألف بعد الجيم[٦].

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٠١، والبحر المحيط ٧/ ٣١٦.

(٢) في الإملاء ٢/ ٢٠٠.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣١٦.

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢٢، وسلف ١١/ ٤٢١.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٣١٦، وقراءة أبي عمرو في التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥٢.

(٦) لم أقف عليها. وذكر الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣١٠، والبيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٢٨، وأبو السعود في تفسيره ٧/ ١٥٤ أنه قرئ: يجازى.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ افتعالٌ من الصراخ، وهو شدَّة الصياح، والأصل: يصترخون، فأبدلت التاءُ طاءً، ويستعملُ كثيراً في الاستغاثة؛ لأنَّ المستغيثَ يصيح غالباً، وبه فسَّره هنا قتادة، فقال: يستغيثون فيها.

واستغاثتهم بالله عزَّ وجلَّ، بدليل ما بعده. وقيل: ببعضهم لحيرتهم. وليس بذاك.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القول، أي: ويقولون، بالعطف، أو: يقولون، بدونه على أنَّه تفسيرٌ لما قبله، أو: قائلين، على أنَّه حالٌ من ضميرهم.

وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسُّر على ما عملوه من غير الصالح، مع الاعتراف به، والإشعارِ بأنَّ استخراجهم لتلافيه، فهو وصفٌ مؤكِّد، ولأنَّهم كانوا يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً، فكأنَّهم قالوا: نعمل صالحاً غير الذي كنَّا نحسبُه صالحاً فنعمله، فالوصف مقيّد.

وذكر أبو البقاء أنَّ «صالحاً» و«غير الذي» يجوزُ أن يكونا صفتين لمصدرٍ محذوف، أو لمفعولٍ محذوف، وأن يكون «صالحاً» نعتاً لمصدر، و«غير الذي» مفعول «نعمل»[(١)].

وأيَّاما كان، فالمراد: أخرِجنا من النار، ورُدَّنا إلى الدنيا نعمل صالحاً، وكأنَّهم أرادوا بالعمل الصالح التوحيد، وامتثالَ أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، والانقيادَ له.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: «نعمل صالحاً»: نقل: لا إله إلا الله.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ جوابٌ من جهته تعالى وتوبيخٌ لهم في الآخرة حين يقولون: «ربنا» إلخ، فهو بتقدير: فنقول لهم، أو: فيقال لهم: «أَوَ لم نُعمِّرْكم» إلخ. وفي بعض الآثار أنَّهم يجابون بذلك بعد مقدار الدنيا.

---

(١) إملاء ما من به الرحمن ٤/٢٢١-٢٢٢.

والهمزةُ للإنكار، والواو للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، و«ما» موصولةٌ، أو موصوفةٌ، أي: ألم نمهلكم ونعمِّركم الذي ـ أي: العمرَ الذي ـ أو عمراً يتذكَّر فيه من تذكَّر، أي: يتمكَّنُ فيه من أراد التذكُّر وتحقَّقت منه تلك الإرادة من التذكُّر والتفكُّر.

وقال أبو حيان: «ما» مصدريَّةٌ ظرفيَّةٌ، أي: أَلَم نُعمِّرْكم في مدَّة تذكُّر[(١)].

وتُعقِّبَ بأنَّ ضمير «فيه» يأباه؛ لأنَّها لا يعود عليها ضميرٌ إلا على نظر الأخفش، فإنَّه يرى اسميَّتها، وهو ضعيف، ولعلَّه يجعلُ الضمير للعمر المفهوم من «نعمر»[(٢)]. وفيه بعد.

وجَعلُ «ما» نافيةً لا يصحُّ ـ كما قال ابن الحاجب ـ لفظاً ومعنى[(٣)].

وهذا العمر على ما رُوي عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه[(٤)]، وأخرجه جماعةٌ ـ وصحَّحه الحاكم ـ عن ابن عباس[(٥)] ستُّون سنةً.

وقد أخرج الإمام أحمد والبخاريُّ والنسائيُّ وغيرهم عن سهل بن سعد[(٦)] قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذرَ الله تعالى إلى امرئٍ أخَّر عمره حتى بلغ ستِّين سنة».

وقيل: هو خمسون سنة.

وفي روايةٍ عن ابن عباس أنَّه ستٌّ وأربعونَ سنة.

---

(١) البحر ٧/ ٣١٦.
(٢) في الأصل: يعمر.
(٣) أمالي ابن الحاجب ١/ ٢٠٧.
(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٦.
(٥) المستدرك ٢/ ٤٢٧، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٨٥.
(٦) كذا ذكر المصنف تبعاً للسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٥٤، ولعله سبق قلم، فالحديث مرويٌّ عن أبي هريرة ﷺ، وهو عند أحمد (٧٧١٣)، والبخاري (٦٤١٩)، والنسائي في الكبرى (١١٨٢٢).
أما حديث سهل بن سعد فأورده السيوطي في الدر المنثور إثر الحديث السابق، وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٩٣٣)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٢٨، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٢٣). وعند الحاكم: سبعين سنة. بدل: ستين.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن أنَّه أربعون سنة[١].

وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه سنُّ البلوغ.

وقيل: سبع عشرة سنة.

وعن قتادة: ثمان عشرة سنة.

وعن عمر بن عبد العزيز: عشرون سنة.

وعن مجاهد: ما بين العشرين إلى الستين.

وقرأ الأعمش: «ما يذَّكَّر فيه من اذَّكَّر» بالإدغام واجتلاب همزة الوصل ملفوظاً بها في الدرج[٢].

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ عطفٌ على معنى الجملة الاستفهامية، فكأنَّه قيل: عمَّرناكم وجاءكم النذير، فليس من عطف الخبر على الإنشاء، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ [الشرح: ١-٢] وجُوِّزَ أن يكون عطفاً على «نعمِّركم»، ودخول الهمزة عليهما، فلا تغفل.

والمراد بـ: «النذير» ـ على ما روي عن السُّدِّيِّ وابن زيد ـ رسولُ الله ﷺ.

وقيل: ما معه من القرآن.

وقال أبو حيان: المراد جنسُ النذير، وهم الأنبياء عليهم السلام، فكلُّ نبيٍّ نذيرُ أمَّته، ويؤيِّده أنَّه قرئ: «النذُر» جمعاً[٣].

وعن ابن عباس وعكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع والحسين بن الفضل والفرَّاء[٤] والطبريّ[٥]: هو الشيب.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤١، والبحر المحيط ٧/ ٣١٦.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٦، والقراءة أيضاً في الكشاف ٣/ ٣١١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٠.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣٧٠.

(٥) في تفسيره ١٩/ ٣٨٧.

وفي الأثر: ما من شعرةٍ تبيضُّ إلَّا قالت لأختها: استعدِّي فقد قرب الموت.

ومن هنا قيل:

رأيتُ الشيبَ من نُذُرِ المنايا ... لصاحبه وحسبُك من نذير[(١)]

وقائلةٍ تخضَّب يا حبيبي ... وسوِّد شعرَ شيبك بالعبير

فقلتُ لها المشيبُ نذيرُ عمري ... ولستُ مسوِّداً وجهَ النذير[(٢)]

وقيل: الحمَّى. وقيل: موت الأهل والأقارب. وقيل: كمالُ العقل.

والاقتصارُ على النذير؛ لأنَّه الذي يقتضيه المقام.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلَها من التعمير ومجيء النذير، وفي قوله سبحانه: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ للتعليل.

والمراد بالظلم هنا الكفر، قيل: كان الظاهر: فما لكم، لكن عَدَل إلى المُظْهَر لتقريعهم، والمراد استمرارُ نفي أن يكون لهم نصيرٌ يدفعُ عنهم العذاب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كل غيبٍ فيهما، أي: لا يخفى عليه سبحانه خافيةٌ فيهما، فلا تخفى عليه جلَّ شأنُه أحوالُهم التي اقتضت الحكمةُ أن يعاملوا بها هذه المعاملة، ولا يُخْرَجوا من النار.

وقرأ جناح بن حبيش: «عالمٌ» بالتنوين «غيبَ» بالنصب على المفعوليَّة لـ «عالم»[(٣)].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾ قيل: إنَّه تعليلٌ لما قبله؛ لأنَّه تعالى إذا علم مضمرات الصدور، وهي أخفى ما يكون، كان عزَّ وجلَّ أعلمَ بغيرها. وفيه نوع خفاء.

---

(١) أورده الدينوري في المجالسة ٤/ ٢١١، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٩١ دون نسبة.

(٢) ذكر هذين البيتين ابن قتيبة في عيون الأخبار ٤/ ٥١، والمبرد في الكامل ٢/ ٧٠٣، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٥١. ونسبه المبرد للعتبي. وفي رواية البيت الأول منهما اختلاف بين المصادر.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣١٦.

وقال الإمام: إنَّ قوله تعالى: «إنَّ الله» إلخ تقريرٌ لدوامهم في العذاب مع أنَّهم ما كفروا إلَّا أيَّاماً معدودةً، فكأنَّ سائلاً يسأل عن وجه ذلك، فقيل: إنَّ الله تعالى لا يخَفى عليه غيبُ السماوات والأرض، فلا يخفى عليه ما في الصدور، فكان يعلمُ سبحانه من الكافر أنَّ الكفرَ قد تمكَّن في قلبه بحيثُ لو دام إلى الأبد لما أطاع الله تعالى ولا عَبَدَه[1]. انتهى.

وظاهره أنَّ الجملةَ الأولى تعليلٌ للثانية على عكس ما قيل.

ويمكن أن يقال: إنَّ قوله تعالى: (فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) متضمِّنٌ نفيَ أنْ يكون لهم نصيرٌ على سبيل الاستمرار، ومستدعٍ خلودَهم في العذاب، فكان مظنَّةَ أن يقال: كيف ينفي ذلك على سبيل الاستمرار، والعادةُ في الشاهد قاضيةٌ بوجود نصيرٍ لمن تطولُ أيَّام عذابه؟ فأجيبَ بـ «إنَّ الله عالمُ غيب السماوات والأرض» على معنى أنَّه تعالى محيطٌ بالأشياء علماً، فلو كان لهم نصيرٌ في وقتٍ من الأوقات لعلِمَه، ولَمَا نفى ذلك على سبيل الاستمرار. وكذا مظنَّة أن يُقَال: كيف يخلدون في العذاب وهم قد ظَلموا في أيام معدودة؟ فأجيبَ بـ «إنه عليمٌ بذات الصدور» على معنى أنَّه تعالى يعلمُ ما انطوت عليه ضمائرُهم، فيعلم أنَّهم صمَّموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد، فكلٌّ من الجملتين مستأنفٌ استئنافاً بيانيّاً، فتأمل.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملقًى إليكم مقاليدُ التصرُّف والانتفاع بما فيها، أو: جعلَكم خلفاء ممَّن قبلَكم من الأمم، وأورثَكم ما بأيديهم[2] من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة، أو: جعلكم بدلَ من كان قبلكم من الأمم الذين كذَّبوا الرسل فهلكوا، فلم تتَّعظوا بحالهم وما حلَّ بهم من الهلاك.

والخطاب ـ قيل ـ عامٌّ، واستظهره في «البحر»[3]. وقيل: لأهل مكَّة.

والخلائف جمع: خليفة، وقد اطَّرد جمع فعيلة على فعائل، وأما الخلفاء

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ٣٠.
(٢) في (م): بأيديكم.
(٣) ٧/ ٣١٧.

فجمع خليف، ككريم وكرماء، وجَوَّزَ الواحديُّ كونه جمع خليفة أيضاً. وهو خلاف المشهور.

﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم مثلَ هذه النعمة السنيَّة وغمطَها، أو: فمن استمرَّ على الكفر وتركِ الإيمان، بعد أن لُطِف به وجُعِل له ما ينبِّهه على ما يترتَّب على ذلك ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبالُ كفره وجزاؤه، لا على غيره.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أشدّ الاحتقار والبغض والغضب. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝٣٩﴾ في الآخرة. وجملة «ولا يزيد» إلخ بيانٌ وتفسيرٌ لقوله تعالى: «فعليه كفره»، ولزيادة تفصيله نزِّلَ منزلةَ المغاير له، ولولا ذلك لفصل عنه، والتكرير لزيادة التقرير، والتنبيهِ على أنَّ اقتضاءَ الكفر لكلِّ واحدٍ واحد من الأمرين الأمرَّين المقتِ والخسارة مستقلٌّ باقتضاء قبحه ووجوبِ التجنُّب عنه، بمعنى أنَّه لو لم يكن الكفر مستوجباً لشيءٍ سوى مَقْتِ الله تعالى لكفى ذلك في قبحه، وكذا لو لم يستوجب شيئاً سوى الخسار لكفى.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: آلهتكم، والإضافةُ إليهم لأدنى ملابسة، حيث إنَّهم هم الذين جعلوهم شركاء لِلّه تعالى، واعتقدوهم كذلك، من غير أنْ يكون له أصلٌ ما أصلاً.

وقيل: الإضافةُ حقيقيَّةٌ من حيث إنَّهم جعلوهم شركاءَ لأنفسهم فيما يملكونه، أو جعلهم الله تعالى شركاء لهم في النار، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] والصفةُ عليهما مقيَّدةٌ لا مؤكِّدة، وسياقُ النظم الكريم وسباقه ظاهران فيما تقدَّم.

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدل اشتمال من «أرأيتم» لأنَّه بمعنى أخبروني، كأنَّه قيل: أخبروني عن شركائكم، أروني أيَّ جزءٍ خلقوا من الأرض حتى يستحقُّوا الإلهيَّة والشركة. وجُوِّزَ أنْ يكونَ بدلَ كلّ.

وقال أبو حيان: لا تجوز البدليَّة؛ لأنَّه إذا أُبدِل ممَّا دخلَ عليه الاستفهام، فلا بدَّ من دخول الأداة على البدل، وأيضاً إبدالُ الجملة لم يُعهَد في لسانهم، ثمَّ

البدلُ على نيَّة تكرار العامل، ولا يتأتَّى ذلك هاهنا؛ لأنَّه لا عامل لـ «أرأيتم». ثم قال: والذي أذهبُ إليه أنَّ «أرأيتم» بمعنى أخبروني، وهي تطلب مفعولين؛ أحدُهما منصوبٌ، والآخرُ مشتملٌ على الاستفهام، كقول العرب: أرأيتَ زيداً ما صنع، فالأول هنا «شركاءكم»، والثاني «ماذا خلقوا»، و«أروني» جملةٌ اعتراضيَّةٌ، فيها تأكيدٌ للكلام وتسديد، ويحتملُ أنْ يكون ذلك أيضاً من باب الإعمال؛ لأنَّه توارَدَ على «ماذا خلقوا»: «أرأيتم»، و«أروني»؛ لأن «أروني» قد تُعَلَّق عن مفعولها الثاني كما عُلِّقت رأى التي لم تدخل عليها همزة النقل عن مفعولها في قولهم: أمَا ترى أيُّ برقٍ هاهنا، ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند البصريين(١). انتهى.

وما ذكره احتمالٌ في الآية الكريمة، كما أنَّ ما ذُكر أوَّلاً احتمال، وما قاله في ردِّه ليس بشيءٍ؛ أمَّا الأوَّل فلأنَّ لزومَ دخول الأداة على البدل فيما إذا كان الاستفهامُ باقٍ على معناه، أمَّا إذا نُسخ عنه كما هنا فليس ذلك بلازم، وأمَّا الثاني فلأنَّ أهل العربية والمعاني نصُّوا على خلافه، وقد ورد في كلام العرب كقوله:

أقول له ارحل لا تقيمنَّ عندنا ... وإلَّا فكن في السرِّ والجهرِ مسلما(٢)

وأمَّا الثالث فلأنَّ كونَ البدل على نيَّة تكرار العامل إنَّما هو ـ كما نقل الخفاجيُّ عنهم(٣) ـ في بدل المفردات.

وليس لك أن تقول: العامل هنا موجودٌ، وهو «قل»؛ لأنَّ العبرةَ بالمقول، ولا عامل فيه إذ يقال، وهو ظاهر.

وجُوِّز أنْ لا يكون «أرأيتم» بمعنى أخبروني، بل المراد حقيقةُ الاستفهام عن الرؤية، و«أروني» أمر تعجيزٍ للتبيين، أي: أعَلِمْتُم هذه التي تَدْعونها ما هي، وعلى

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٧.

(٢) سلف الشطر الأول ١٠/ ٤٥٢.

(٣) في حاشيته ٧/ ٢٢٩.

ما هي عليه من العجز؟! أو تتوهمون فيها قدرةً؟! فإن كنتم تعلمونَها عاجزةً، فكيف تعبدونها؟ أو كنتم توهَّمتم فيها قدرةً، فأروني أثرَها؟! وما تقدَّم أظهر.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: بل ألهم شركةٌ مع الله عزَّ وجلَّ في خلق السماوات حتى يستحقُّوا ما زعمتم فيهم.

وقال بعضهم: الأَوْلى أن لا يقدَّر مضافٌ، على أنَّ المعنى: أم لهم شركةٌ معه سبحانه في السماوات خلقاً وإبقاءً وتصرُّفاً؛ لأنَّ المقصودَ نفي آيات الإلهية عن الشركاء، وليست محصورةً في الخلق. والتقديرُ أوفقُ بما قبله.

والكلام - قيل - من باب التدرُّج من الاستقلال إلى الشركة، ثمَّ منها إلى حُجَّةٍ وبيِّنةٍ مكتوبةٍ بالشركة، كأنَّه قيل: أخبروني عن الذين تَدعون من دون الله، هل استبدُّوا بخلق شيءٍ من الأرض حتى يكونوا معبودين مثلَ الله تعالى، بل ألهم شركةٌ معه سبحانه في خلق السماوات ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ أي: بل آتيناهم[1] كتاباً ينطقُ بأنَّا اتخذناهم شركاء ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: حُجَّةٍ ظاهرةٍ من ذلك الكتاب بأنَّ لهم شركةً معنا.

وقال في «الكشف»: الظاهرُ أنَّ الكلام مبنيٌّ على الترقِّي في إثبات الشركة؛ لأنَّ الاستبدادَ بخلق جزءٍ من الأرض شركةٌ ما معه عزَّ وجلَّ، والاشتراكُ معه سبحانه في خلق السماوات أدلُّ على إثباتها، ثم إيتاءُ كتابٍ منه تعالى على أنَّهم شركاؤه أدلُّ وأدل.

وقيل: «هم» في «آتيناهم» للمشركين، وكذا في «فهم»، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الروم: ٣٥] إلخ، ففي الكلام التفاتٌ من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة؛ إعراضاً عن المشركين، وتنزيلاً لهم منزلة الغُيَّب. والمعنى: إنَّ عبادة هؤلاء إمَّا بالعقل، ولا عقل يحكمُ بصحةِ عبادةِ مَن لا يخلق جزءاً ما من الأرض ولا له[2] شركٌ في السماء، وإمَّا بالنقل، ولم نؤتِ المشركينَ كتاباً فيه الأمرُ بعبادة هؤلاء. وفيه تفكيكٌ للضمائر.

---

(١) في (م): آتيناهم، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.

(٢) في (م): دلالة. وهو تصحيف، وانظر البحر المحيط ٧/٣١٨.

وقال بعضهم: ضمير «آتيناهم» للشركاء كالضمائر السابقة، وضمير «فهم على بينة» للمشركين، و«أم» منقطعةٌ للإضراب عن الكلام السابق، وزُعِم أنْ لا التفاتَ حينئذٍ ولا تفكيك، فتأمل.

وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر: «على بيِّناتٍ» بالجمع[1]، فيكون إيماءً إلى أنَّ الشركَ خطيرٌ لا بدَّ فيه من تعاضد الدلائل، وهو ضربٌ من التهكُّم.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ لمَّا نَفى سبحانه ما نَفى من الحُجج في ذلك، أضربَ عزَّ وجلَّ عنه بذكر ما حملَهم على الشرك، وهو تقريرُ الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للأتباع بأنَّهم شفعاءُ عند الله تعالى، يشفعون لهم بالتقرُّب إليهم.

والآية عند الكثير في عبدةِ الأصنام، وحكمها عامٌّ. وقيل: في عبدة غير الله عزَّ وجلَّ؛ صنماً كان أو مَلَكاً أو غيرهما.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لغاية قبح الشرك وهولِه، أي: إنَّ الله تعالى يحفظُ السماوات والأرضَ كراهة زوالهما، أو لئلَّا تزولا وتضمحلَّا، فإنَّ الممكن كما يحتاجُ إلى الواجب سبحانه حالَ إيجاده، يحتاج إليه حالَ بقائه.

وقال الزجاج: «يمسك» بمعنى: يمنع[2]، و«أن تزولا» مفعولُه على الحذف والإيصال؛ لأنَّه يتعدَّى بـ «من»، أي: يمنعهما من أن تزولا. وفي «البحر»: يجوزُ أنْ يكون «أن تزولا» بدلَ اشتمال من «السماوات والأرض»، أي: يمنع سبحانه زوالَ السماوات والأرض[3].

وفَسَّر بعضُهم الزوال بالانتقال عن المكان، أي: إنَّ الله تعالى يمنعُ السماوات من أن تنتقلَ عن مكانها فترتفع أو تنخفض، ويمنعُ الأرض أيضاً من أن تنتقلَ كذلك. وفي أثرٍ أخرجه عبد بن حميد وجماعةٌ عن ابن عباس ما يقتضيه[4].

---

(١) وهي قراءة الكسائي وأبي جعفر أيضاً. انظر التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥٢.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٣.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٨.
(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٥٥.

وقيل: زوالهُما دورانهُما، فهما ساكنتان، والدائرةُ بالنجوم أفلاكُها، وهي غير السماوات، فقد أخرج سعيدُ بن منصور وابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد عن شقيق قال: قيل لابن مسعود: إنَّ كعباً يقول: إنَّ السماءَ تدورُ في قطبة مثل قطبة الرَّحى في عمودٍ على منكب مَلَك، فقال: كذب كعب، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، وكفى بها زوالاً أنْ تدور[1].

والمنصورُ عند السلف أنَّ السماوات لا تدور، وأنَّها غيرُ الأفلاك، وكثيرٌ من الإسلاميين ذهبوا إلى أنَّها تدورُ، وأنَّها ليست غيرَ الأفلاك، وأمَّا الأرضُ فلا خلافَ بين المسلمين في سكونها، والفلاسفةُ مختلفون، والمعظم على السكون، ومنهم من ذهب إلى أنَّها متحرِّكةٌ، وأنَّ الطلوع والغروب بحركتِها، وردّ ذلك في موضعه.

والأولَى في تفسير الآية ما سمعتَ أوَّلاً، وكذا كونها مسوقة لما ذكرنا.

وقيل: إنَّه تعالى لمَّا بيَّن فسادَ أمر الشركاء، ووقف على الحجَّة في بطلانها، عقَّب بذكر عظمته عزَّ وجلَّ وقدرتِه سبحانه؛ ليتبيَّن الشيءُ بضدِّه، وتتأكَّدَ حقارةُ الأصنام بذكر عظمة الله تعالى.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أي: إن أشرفتَا على الزوال، على سبيل الفرض والتقدير، ويؤيِّده قراءةُ ابن أبي عبلة: «ولو زالتا»[2].

وقيل: إنَّ ذلك إشارةٌ إلى ما يقعُ يومَ القيامة من طيِّ السماوات ونسف الجبال.

﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي: ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: من بعدِ إمساكِه تعالى، أو من بعدِ الزوال. والجملة جوابُ القَسَم المقدَّر قبل لام التوطئة في «لئن»، وجوابُ الشرط محذوفٌ لدلالة جواب القَسَم عليه، و«أمسك» بمعنى يمسك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥] و«من» الأولى[3] مزيدةٌ لتأكيد العموم، والثانية للابتداء.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٥٥. وأخرجه الطبري ١٩/ ٣٩١.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣١٨.

(٣) في (م): الأول.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ فلذا حَلُم على المشركين، وغَفَر لمن تاب منهم، مع عظم جرمهم المقتضي لتعجيل العقوبة وعدم إمساك السماوات والأرض وتخريب العالم الذي هم فيه، فلا يتوهم أنَّ المقام يقتضي ذكر القدرة لا الحلم والمغفرة.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ الضمائر لقريش، وذلك أنَّهم بلغَهم قبلَ مبعثِ النبيِّ ﷺ أنَّ طائفةً من أهل الكتاب كذَّبوا رسلَهم، فقالوا: لعنَ الله تعالى اليهود والنصارى أتتهم الرسلُ فكذَّبُوهم، فوالله لئن جاءنا رسولٌ لنكوننَّ أهدى من إحدى الأمم، فكان منهم بعدُ ما كان، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

و«ولئن جاءهم» جاء على المعنى، وإلَّا فهم قالوا: «جاءنا»، وكذا «ليكونُنَّ».

و«إحدى» بمعنى: واحدة، والظاهر أنَّها عامَّةٌ وإن كانت نكرةً في الإثبات؛ لاقتضاء المقام العموم.

وتعريف «الأمم» للعهد، والمراد: الأمم الذين كذَّبوا رسلهم. أي: لئن جاءنا نذيرٌ لنكونَنَّ أهدى من كلِّ واحدةٍ من الأمم اليهود والنصارى وغيرهم، فنؤمن جميعاً، ولا يكذب أحدٌ منَّا. أو المعنى: لنكونَنَّ أهدى من أمَّةٍ يقال فيها: إحدى الأمم، تفضيلاً لها على غيرها من الأمم، كما يقال: هو واحدُ القوم، وواحدُ عصره، وكما قالوا: هو أحد الأحدين، وهي إحدى الإِحَد، يريدون التفضيلَ في الدهاء[2] والعقل، قال الشاعر:

حتى استثاروا[3] بيَ إحدى الإحَدِ ليثاً هِزَبْراً ذا سلاحٍ معتدِ[4]

وقد نصَّ ابنُ مالك في «التسهيل» على أنَّه قد يُقال لمَا يستعظم ممَّا لا نظير له هو إحدى الإِحَد[5]. لكن قال الدمامينيُّ في «شرحه»: إنَّما ثبت استعمالُه في إحدى

---

(١) أورده السيوطي في لباب النقول ص ١٨١، وعزاه لابن أبي حاتم.
(٢) في (م): الدعاء.
(٣) في (م): استشاروا.
(٤) هو للمرَّار بن سعيد، كما في الأغاني ١٠/ ٣١٧، والخزانة ٧/ ٣٥٢.
(٥) التسهيل ص ١١٨.

ونحوه المضافِ إلى جمعٍ مأخوذٍ من لفظه، كإحدى الإِحَد، وأَحَد الأَحَدين، أو المضاف إلى وصفٍ، كأحد العلماء وإحدى الكبر، أمَّا في المضاف إلى أسماء الأجناس كالأمم، فيحتاج إلى نقل.

وبُحِثَ فيه بأنَّه قد ثبتَ استعمال إحدى في الاستعظام من دون إضافةٍ أصلاً، فإنهم يقولون للداهية العظيمة: هي إحدى من سبع، أي: إحدى ليالي عادٍ في الشدَّة، وشاع: واحدُ قومه، وأوحدهم، وواحد[1] أمّه، ولم يظهر فارقٌ بين المضاف إلى الجمع المأخوذِ من اللفظ والمضاف إلى الوصف وبين المضاف إلى أسماء الأجناس، ولا أظنُّ أنَّ مثل ذلك يحتاجُ إلى نقلٍ، فليتدبر.

وقال صاحب «الكشف»: إنَّ دلالة «إحدى الأمم» على التفضيل ليست بواضحة، بخلاف: واحد القوم ونحوه، ثمَّ وجهها أنَّه على أسلوب:

أو يرتبط بعض النفوس حمامُها[2]

يعني أنَّ البعضَ المبهمَ قد يُقصَدُ به التعظيم كالتنكير، فإحدى مثلُه.

وفيه أنَّه متى ثبتَ استعمالُه للاستعظام كانت دلالته على التفضيل في غاية الوضوح.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وأيُّ نذيرٍ، وهو أشرفُ الرسل محمدٌ ﷺ، كما روي عن ابن عباس وقتادة، وهو الظاهر.

وعن مقاتل: هو انشقاق القمر، وهو أخفى من السُّها[3]، والمقام عنه يأبى.

﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي: النذير، أو مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ تباعُداً عن الحقِّ وهرباً منه. وإسنادُ الزيادة إلى ذلك مجازٌ؛ لأنَّه هو السببُ لها.

والجملةُ جوابُ «لمّا»، واستدلَّ بالآية على حرفيَّتها؛ لمكان النفي المانع عن عمل ما بعده فيها. وفيه بحث.

---

(١) في (م): وأوحد.

(٢) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص٣١٣، وسلف ٧/ ٢٣٩.

(٣) السها: كوكبٌ خفيٌّ يمتحن الناس به أبصارهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ من «نفوراً». وقال أبو حيان: الظاهر أنَّه مفعول من أجله، ونَقَلَ الأوَّلَ عن الأخفش[1].

وقيل: هو حال، أي: مستكبرين.

﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ هو الخداعُ الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيدُ له، وقال قتادة: هو الشرك. وروي ذلك عن ابن جريج. وهو عطف على «استكباراً»، وأصل التركيب: وأنْ مكروا السيِّئَ، على أن «السيِّئ» صفةٌ لموصوفٍ مقدَّرٍ، أي: المكر السيئ[2]، ثم أقيم المصدرُ مقام «أن» والفعل، وأضيف إلى ما كان صفةً.

وجُوِّزَ أنْ يكون عطفاً على «نفوراً».

وقرأ الأعمش وحمزة: «السيئْ» بإسكان الهمزة في الوصل[3]؛ إجراءً له مجرى الوقف، أو لتوالي الحركات وإجراء المنفصل مجرى المتصل.

وزعم الزجَّاج[4] أن هذه القراءة لحن؛ لما فيها من حذف الإعراب كما قال أبو جعفر[5].

وزعم محمد بن يزيد أنَّ هذا الحذفَ لا يجوز في نثرٍ ولا شعر؛ لأنَّ حركات الإعراب دخلت للفرق بين المعاني.

وقد أعظمَ بعض النحويين أنْ يكون الأعمشُ قرأ بها، وقال: إنَّما كان يقفُ على هذه الكلمة، فغلطَ من أدَّى عنه، والدليل على هذا أنَّها تمام الكلام، ولذا لم يقرأ في نظيرها كذلك مع أنَّ الحركة فيه أثقل؛ لأنَّها ضمَّةٌ بين كسرتين.

والحقُّ أنَّها ليست بلَحْن، وقد أكثر أبو عليٍّ في «الحجة»[6] من الاستشهاد

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٩.

(٢) في (م): المسيء.

(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٦، والبحر المحيط ٧/ ٣١٩، وقراءة حمزة في التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥٢.

(٤) في معاني القرآن له ٤/ ٢٧٥.

(٥) النحاس في معاني القرآن له ٣/ ٣٧٧.

(٦) ٦/ ٣١-٣٢.

والاحتجاج للإسكان من أجل توالي الحركات والوصل بنيَّة الوقف.

وقال ابن القشيريّ: ما ثبتَ بالاستفاضة أو التواتر أنَّه قُرِئ به فلا بدَّ من جوازه، ولا يجوز أن يقال: لَحْن، ولعمري إنَّ الإسكان هاهنا أحسنُ من الإسكان في ﴿بارئْكم﴾ [البقرة: ٥٤] كما في قراءة أبي عمرو[1].

وروي عن ابن كثير: «ومكر السَّأْيِ» بهمزة ساكنة بعد السين، وياءٍ بعدها مكسورة[2]، وهو مقلوبُ السَّيْءِ المخفَّفِ من السيِّئ، كما قال الشاعر:

ولا يَجْزونَ من حسنٍ بسَيْءٍ ... ولا يَجزونَ من غِلَظٍ بلينِ[3]

وقرأ ابن مسعود: «ومكراً سيِّئاً»[4] عَطَفَ نكرةً على نكرة.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ أي: لا يحيطُ ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وقال الراغب: أي: لا يصيبُ ولا ينزل[5]. وأيَّاما كان فهو إنَّما وردَ فيما يُكره.

وزعم بعضُهم أنَّ أصلَ حاق: حقَّ، فجيء بدل أحد المثلين بالألف نحو: ذمَّ وذام، وزلَّ وزال، وهذا من إرسال المَثَل، ومن أمثال العرب: مَن حفر لأخيه جبّاً وقع فيه منكبّاً.

وعن كعب أنَّه قال لابن عباس: قرأتُ في التوراة: مَن حفر مغواةً وقعَ فيها. قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله تعالى، فقرأ الآية.

وفي الخبر: «لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ

---

(١) التيسير ص ٧٣.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣٢٠.
(٣) البيت لأبي الغول الطهوي، وهو في الحماسة ١/ ١٦ (شرح التبريزي)، وكتاب الحيوان ٣/ ١٠٦، والشعر والشعراء ١/ ٤٢٩، والأمالي ١/ ٢٦٤، والخزانة ٨/ ٣١٤.
ووقع في كتاب الحيوان وفي الشعر والشعراء: من خير بشر، بدل: من حسن بسيء.
(٤) المحتسب ٢/ ٢٠٢، والكشاف ٣/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٨، والبحر المحيط ٧/ ٣٢٠.
(٥) المفردات (حاق).

﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً، فإنَّ الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]»[١].

وقد حاقَ مكرُ هؤلاء بهم يوم بدر. والآية عامَّة على الصحيح، والأمور بعواقبها، والله تعالى يُمهِلُ ولا يُهمِل، ووراءَ الدنيا الآخرة ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وبالجملة مَنْ مَكَرَ به غيرُه، ونفذَ فيه المكرُ عاجلاً في الظاهر، ففي الحقيقة هو الفائز، والماكرُ هو الهالك، أسألُ الله تعالى بحرمةِ حبيبه الأعظم ﷺ أن يدفعَ ويرفعَ عنا مكرَ الماكرين، وأنْ يعاملَهم في الدارين بعَدْله، إنَّه سبحانه القويُّ المتين.

وقُرِئ: «ولا يُحيق» بضمِّ الياء «المكرَ السيئ» بالنصب[٢]، على أنَّ يُحِيقُ من أحاقَ المتعدِّي، وفاعلُه ضميرٌ راجعٌ إليه تعالى، و«المكر» مفعوله.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون، وهو مجازٌ بجعل ما يُستقبَلُ بمنزلة ما يُنتظر ويُتوقَّع ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: إلَّا سنَّةَ الله تعالى فيهم بتعذيب مكذِّبيهم.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بأنْ يضعَ سبحانه موضع العذاب غير العذاب[٣] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ بأنْ ينقلَ عذابَه من المكذِّبين إلى غيرهم. والفاء لتعليل ما يفيدُه الحكم بانتظارهم العذابَ من مجيئه.

ونفيُ وجدانِ التبديل والتحويل عبارةٌ عن نفي وجودهما بالطريق البرهانيِّ، وتخصيصُ كلٍّ منهما بنفيٍ مستقلٍّ؛ لتأكيد انتفائهما، والخطاب عامٌّ، أو خاصٌّ به عليه الصلاة والسلام.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهادٌ على ما قبله من جريان سنَّة الله تعالى على تعذيب المكذِّبين بما يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلتِهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الأمم الماضية، وعلامات هلاكهم.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٢٥) من طريق الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٢٠.

(٣) قوله: غير العذاب. ساقط من (م).

والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّرٍ يليقُ بالمقام ـ على رأي ـ أي: أَقَعَدوا ولم يسيروا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ في موضع الحال بتقدير «قد»، أو بدونها.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ﴾ أي: ليس من شأنه عزَّ شأنه أن يسبقَه ويفوتَه ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ أي: شيءٌ، و«من» لاستغراق الأشياء ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هو نظيرُ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف: ٤٩] والواو حالية أو عاطفة.

وفي «الإرشاد»: الجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمَا يُفهم ممَّا قبلَه من استئصال الأمم السالفة[١]. وظاهره أنَّ الواو اعتراضية.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾﴾ مبالغاً في العلم والقدرة، والجملةُ تعليلٌ لنفي الإعجاز.

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ جميعاً ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ فعلوا من السيئات كما واخذ أولئك ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ أي: ظهر الأرض، وقد سبق ذكرها في قوله تعالى: (فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ) فليس من الإضمار قبل الذكر كما زعمه الرضيُّ.

وظهرُ الأرض مجاز عن ظاهرها، كما قال الراغب[٢] وغيره. وقيل: في الكلام استعارةٌ مكنيَّةٌ تخييليَّةٌ، والمراد: ما ترك عليها.

﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ أي: من حيوانٍ يدِبُّ على الأرض؛ لشؤم المعاصي، وقد قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥] وهو المرويُّ عن ابن مسعود.

وقيل: المراد بالدابَّة الإنس وحدَهم، وأيِّد بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ وهو يوم القيامة، فإنَّ الضميرَ للناس؛ لأنَّه ضميرُ العقلاء، ويومُ القيامة الأجلُ المضروب لبقاء نوعهم.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٧.

(٢) في المفردات (ظهر).

وقيل: هو لجميع من ذكر تغليباً، ويوم القيامة الأجلُ المضروب لبقاء جنس المخلوقات.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ فيجازي المكلَّفين منهم عندَ ذلك بأعمالهم، إنْ شرّاً فشرٌ، وإن خيراً فخير. وجملة: «فإنَّ الله» إلخ موضوعةٌ موضعَ الجزاء، والجزاءُ في الحقيقة: يُجازي[1]، كما أشرنا إليه[2].

هذا والله تعالى هو الموفِّق للخير ولا اعتماد إلَّا عليه.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى إيجاد عالَمي اللطافة والكثافة، وإلى أنَّ إيجادَ عالم اللطافة مقدَّمٌ على إيجاد عالم الكثافة، ويشيرُ إلى ذلك ما شاعَ: خَلَقَ الله تعالى الأرواحَ قبل الأبدان بأربعة آلاف سنة[3].

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ في إيصال أوامره إلى مَنْ يشاءُ من عباده، أو وسائطَ تَجْري إرادتُه سبحانه في مخلوقاته على أيديهم ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ إشارةٌ إلى اختلافهم في الاستعداد ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ عامٌّ في المَلَك وغيره، وفسِّرت الزيادة بهبة استعدادِ رؤيته عزَّ وجلَّ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ الزيادة المشار إليها وغيرها ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ رحمته سبحانه سبقت غضبه عزَّ وجلَّ.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسليةٌ لحبيبه ﷺ، وإرشادٌ لورثته إلى الصبر على إيذاء أعدائهم لهم، وتكذيبِهم إيَّاهم، وإنكارهم عليهم.

---

(١) في الأصل: مجازي. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) يعني في قوله: فيجازي المكلفين...، فهو إشارة إلى أن قوله: «فإن الله» إلخ ليس هو الجزاء، بل وضع موضعه لأنه مجاز عن الجزاء. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٢٣١.

(٣) سلف ١٣/ ٤٦١. وفيه: بألفي سنة.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ جرت سنَّته تعالى في إحياء الأرض بهذه الكيفيَّة، كذلك إذا أرادَ سبحانه إحياءَ أرض القلب، فيرسلُ أوَّلاً رياحَ الإرادة، فتثيرُ سحابَ المحبَّة، ثمَّ يأتي مطرُ الجود والعناية، فينبتُ في القلب رياحين الروح، وأزهار البسط، ونوَّار الأنوار، ويطيبُ العيش.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العزَّةَ الحقيقيَّةَ لا تحصلُ بدون الفناء، ولا تغفل عن حديث: «لا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل»[1] إلخ.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وهو أبعدُ المخلوقاتِ من الحضرة وأسفلُها وأكثفُها ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وفيها نوعٌ ما من اللطافة ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ إشارةٌ إلى ما حصل لهم من ازدواج الروح اللطيف العلويِّ والقالب الكثيف السفليِّ، وهو مبدأُ استعدادِ الوقوف على عوالم الغيب والشهادة.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ قيل: أي: بحرُ العلم الوهبيِّ، وبحرُ العلم الكسبيِّ ﴿هَٰذَا﴾ أي: بحرُ العلم الوهبيّ ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ لخلوِّه عن عوارضِ الشكوك والأوهام ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: بحرُ العلم الكسبيّ ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ لما فيه من مشقَّة الفكر، ومرارةِ الكسب، وعروض الشكوك والتردُّد والاضطراب ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ إشاراتٍ لطيفةً تتغذَّون بها، وتتقوَّون على الأعمال ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي الأخلاقُ الفاضلةُ، والآدابُ الجميلة، والأحوال المستحسنة التي تُكسبُ صاحبَها زينةً ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ سفن الشريعة والطريقة ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ جاريةً ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالوصول إلى حضرته عزَّ وجلَّ فعل ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في سائر شؤونكم، ومراتبُ الفقر متفاوتةٌ، وكلَّما ازداد الإنسان قرباً منه عزَّ وجلَّ ازدادَ فقره إليه؛ لازدياد المحبَّة حينئذٍ، وكلَّما زاد العشقُ زاد فقرُ العاشق إلى المعشوق حتى يفنى ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فيه من البشارة ما فيه.

---

(١) سلف ١/ ١٣٢.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ أي: العلماء به تعالى وبشؤونه، فهم كلَّما ازدادوا علماً ازدادوا خشيةً؛ لما يظهر لهم من عظمته عزَّ وجلَّ، وأنَّهم بالنسبة إليه تعالى شأنُه لا شيء.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيل: الظالمُ لنفسه السالكُ، والمقتصد السالكُ المجذوبُ، والسابق المجذوبُ السالك. والسالك هو المتقرِّب، والمجذوب هو المقرَّبُ، والمجذوب السالك هو المستهلك في كمالات القرب، الفاني عن نفسه، الباقي بربِّه عزَّ وجلَّ.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ حَزَنَ تخيُّل الهَجْر، فلا حزن للعاشق أعظمُ من حزن تخيُّل هجر معشوقه له وجفوته إياه ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فلا بِدعَ إذا أذهبَ عنَّا ذلك، وآمننا من القطيعة والهجران.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ هو نَصبُ الأبدان وتعبُها من أعمال الطاعة للتقرُّب إليه سبحانه ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ هو لغوبُ القلوب واضطرابُها من تخيُّل القطيعة والردِّ وهجر الحبيب.

وقيل: لا يمسُّنا فيها نصبُ السعي في تحصيل أيِّ أمرٍ أردناه، ولا يمسُّنا فيها لغوبُ تخيُّل ذهاب أيِّ مطلوبٍ حصَّلناه. وقد أشاروا إلى أنَّ كلَّ ذلك من فضلِ الله تعالى، والله عزَّ وجلَّ ذو الفضل العظيم.

هذا ونسألُ الله تعالى من فضلِه الحلو ما تنشقُّ منه مرارةُ الحسود، وينفطرُ به قلبُ كلِّ عدوٍّ، وينتعشُ فؤادُ كلِّ محبٍّ ودود.

(٣٦) سورة يس مكية
وآياتها ثلاث وثمانون

سورة يس من السور المكية التي نزلت في العهد المكي وعالجت موضوع العقيدة الإسلامية بشكل دقيق من إثبات الوحدانية ، وإثبات الرسالة ، وإثبات البعث والنشور ، وقد تناولت أموراً أساسية ثلاثة وهي : « الحديثُ عن كفار مكة المكذبين بالقرآن العظيم ، والحديثُ عن أهلِ القرية الذين كذبوا الرسل عليهم السلام ، والأدلةُ والبراهين على وجود الله ووحدانيته » وكلٌّ ذلك من المقاصد الأساسية لتثبيت العقيدة الإسلامية الصافية النقيَّة ، روى الإمام الترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنَّ لكل شيءٍ قلباً وقلبُ القرآن يسٓ » وفي رواية البزار « لودِدْتُ أنها في قلب كل إنسانٍ من أمتي » .

سُميت سورةَ « يسٓ » لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها ، وفي الافتتاحِ بها إشارةٌ إلى إعجاز القرآن الكريم .

تبتدىء السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صدق رسالة محمد عليه السلام ، فهو المبعوث من رب العزة جلَّ وعلا رحمةً للعباد ، ليرشدهم إلى طريق السعادةِ والرشاد ﴿ يسٓ والقرآنِ الحكيم . إنَّك لمن المرسلين . على صراطٍ مستقيم . تنزيلَ العزيزِ الرحيم . لتُنْذِر قوماً ما أُنذِرَ آباؤُهم فهم غافلون﴾ وتتحدث السورة عن كفار مكة الذين تمادوا في الغيِّ والضلال ، وكذَّبوا سيِّد الخلقِ محمدَ بن عبد الله فحقَّ عليهم عذاب الله وانتقامُه ﴿ لقد حقَّ القولُ على أكثرِهم فهم لا يُؤمنون .

إنَّا جَعَلنا في أعناقِهِم أغلالاً فهيَ إلى الأَذْقانِ فهمْ مُقْمَحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ، ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يُبصرون﴾ وتسوق السورة قصة أصحاب القرية وهي ﴿انطاكية﴾ الذين كذبوا الرسل لتحذِّر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ، على طريقة القرآن في استخدام القَصَص للعظة والاعتبار ، ليكون ذلك إنذاراً لكفار مكة ، ولقد همَّ أصحاب القرية بقتل رسلهم ، فجاءهم رجل ناصح أمين من أقصى المدينة ، يذكّرهم العاقبة الوخيمة في العُدوان على رسل الله فقتلوه . قال ابن عباس : هو « حبيب النجار » نصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة وأهلكَ قومه بالصيحة فلم يبق منهم عين تَطرْف ﴿واضربْ لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذْ أرسلنا إليهم اثنينِ فكَذَّبوهما فعزَّزنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ... إلى قوله تعالى ﴿قيل ادخلِ الجنة قال يا ليتَ قومي يعلمون بما غفرلي ربي وجعلني من المُكْرَمينَ . وما أنزلنا على قومه من بعده من جندٍ من السماء وما كنا منذرين . إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون﴾ وتتحدث السورة الكريمة عن دلائل القدرة والوحدانية ، منتزعةً من المشاهد الكونية المتنوعة : مشهد الأرضِ الميتة تدبُّ فيها الحياة ، ومشهدِ الليل ينسلخ منه النهار فإذا هو ظلام دامسٌ ، ومشهدِ الشمس تجري لمستقر لها ، ومشهدِ القمرِ يتدرّج في منازله ، ومشهدِ الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأقدمين ، ومشهدِ الأنعام المسخّرة تحمل الأثقال ، ومشهدِ النطفة يجعل الله منها بشراً سوياً .. كلٌّ ذلك تَعرضه الآياتُ للدلالة على وحدانية الله الواحد القهار ﴿وآيةٌ لهم الأرضُ الميتةُ أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جناتٍ من نخيلٍ وأعناب وفجَّرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثَمَرِه وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذي خلق الأزواجَ كلَّها ممّا تُنبتُ الأرضُ ومن

أنفسهم وممَّا لا يعلمون . وآيةٌ لهم الليلُ نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمسُ تجري لِمستَقَرٍّ لها ذلكَ تقديرُ العزيزِ العليم . والقمرَ قدرناه منازل حتى عاد كالعُرجون القديم . لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرك القمر ، ولا الليل سابقُ النهارِ وكلٌّ في فَلَكٍ يسبحون﴾ . وتتحدث السورة عن القيامة وأهوالها ، وما يكون بين يديْ الساعة من أهوالٍ وشدائد ، وعن نفخة الفزع والناسُ في أسواقهم يتشاجرون ويختصمون ، ثم عن نفخة الصَّعْق التي يموت بها جميع الأحياء ، ثم نفخة البعث والنشور التي يقوم الناس فيها من القبور للحساب والجزاء ﴿ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين . ما ينظرون إلا صيحةً واحدة تأخذهُمْ وهم يَخِصِّمُون . فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يَرْجعون . ونُفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم يَنْسلون . قالوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنا ؟ هذا ما وعدَ الرحمنُ وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحةً واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تُظلم نفسٌ شيئاً ، ولا تُجزونَ إلا ما كنتم تعملون﴾ .

وتتحدث السورة عن أهل الجنة وأهل النار ، وعن مآل كلٍ من الفريقين ، هؤلاء في النعيم وأولئك في الجحيم ، وتميّز بينهم يوم القيامة كما كانوا في الدنيا متميزين إلى مؤمنين ومجرمين ﴿إنَّ أصحاب الجنةِ اليومَ في شُغُلٍ فاكهون . هم وأزواجُهم في ظلالٍ على الأرائك متكئون . لهم فيهم فاكهة ولهم ما يدَّعون . سلامٌ قولاً من رب رحيم . وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهدْ إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين . وأنْ اعبدوني هذا صراط مستقيم ؟ ولقد أضل منكم جِبِلاًّ كثيراً – أي خلقاً كثيراً – أفلم تكونوا تعقلون ؟ هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ . وبعد أن تقطع السورة أشواطاً عديدة من تذكير العباد بنعم الله جلَّ وعلا عليهم ، ومن أجلِّها نعمةُ بعثةِ الهادي البشير ،

والسراج المنير رحمة للإنسانية جمعاء ، يأتي الحديث عن القضية التي يشتد عليها التركيز في هذه السورة ، وهي قضية « البعث والنشور » في صورة حوارٍ ، ردًّا على ذلك الكافر الذي جاء إلى رسول الله ﷺ بعظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء ويقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ، يأتي الجوابُ مفحِماً ، مسكتاً ، معجزاً ﴿ أو لم يـر الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ؟ وضرب لنا مثلاً ونسي خَلْقَه قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم .. إلى قوله تعالى ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوتُ كل شيء وإليهُ تُرجعون﴾

سورة يس

[٧٦٦] ك. . أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: كان رسول الله [ﷺ] يقرأ في السجدة فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا بهم عمى لا يبصرون فجاؤا إلى النبي [ﷺ] فقالوا ننشدك الله والرحم يا محمد. فدعا حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾(١) إلى قوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢) قال فلم يؤمن من ذلك النفر أحد.

[٧٦٧] ك. . وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال: قال أبو جهل لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن فأنزل الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾(٣) فكانوا يقولون هذا محمد فيقول: أين هو أين هو؟ ولا يبصره.

[٧٦٨] وأخرج الترمذي(٤) وحسّنه والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾(٥) فقال النبي [ﷺ]: «**إن آثاركم تكتب فلا تنتقلوا**».

وأخرج الطبراني عن ابن عباس مثله.

[٧٦٩] وأخرج الحاكم(٦) وصححه عن ابن عباس قال: جاء العاصي بن وائل إلى رسول الله [ﷺ] بعظم حائل ففته فقال: يا محمد أيبعث هذا بعدما أرم؟ قال: «**نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم**» فنزلت

---

[٧٦٦] (١) سورة يٓس: الآية (١و٢).
(٢) سورة يٓس: الآية (١٠).
[٧٦٧] (٣) سورة يٓس: الآية (٨و٩).
[٧٦٨] (٤) سنن الترمذي (٣٣٢٦).
(٥) سورة يٓس: الآية (١٢).
[٧٦٩] (٦) المستدرك (٢/ ٤٢٩).

الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾[1] إلى آخر السورة.

[٧٧٠] وأخرج ابن أبي حاتم من طرق عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي نحوه وسموا الإنسان أُبي بن خلف.

* * *

(١) سورة يس: الآية (٧٧).

سورة يس

ثمانون وثلاث آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝﴾

قد ذكرنا كلامًا كليًا في حروف التهجي في سورة العنكبوت وذكرنا أن في كل سورة بدأ الله فيها بحروف التهجي كان في أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن ولنذكر ههنا أبحاثًا:

البحث الأول: هو أن في ذكر هذه الحروف في أوائل السور أمورًا تدل على أنها غير خالية عن الحكمة ولكن علم الإنسان لا يصل إليها بعينها فنقول ما هو الكلي من الحكمة فيها، أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة فهو أن الله تعالى ذكر من الحروف نصفها وهي أربعة عشر حرفًا وهي نصف ثمانية وعشرين حرفًا، وهي جميع الحروف التي في لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة، ثم إنه تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الألف إلى الذال وتسعة أحرف أخر في آخر الحروف من الفاء إلى الياء وعشرة من الوسط من الراء إلى الغين، وذكر من القسم الأول حرفين هما الألف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الآخر حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة، ولم يترك من القسم الأول من حروف الحلق والصدر إلا واحدًا لم يذكره وهو الخاء، ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة إلا واحدًا لم يتركه وهو الميم، والعشر الأواسط ذكر منها حرفًا وترك حرفًا فذكر الراء وترك الزاي وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين، وليس هذا أمرًا يقع اتفاقًا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة، وأما أن عينها غير معلومة فظاهر وهب أن واحدًا يدعي فيها شيئًا فماذا يقول في كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ﴿نٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ وبعضها بحرفين كسورة ﴿حمٓ﴾ و﴿يسٓ﴾ و﴿طسٓ﴾ و﴿طه﴾ وبعضها بثلاثة أحرف كسورة ﴿الٓمٓ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ و﴿الٓر﴾ وبعضها بأربعة كسورتي ﴿الٓمٓر﴾ و﴿الٓمٓص﴾ وبعضها بخمسة أحرف كسورتي ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾ و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ وهب أن قائلًا يقول: إن هذا إشارة إلى أن الكلام، إما حرف، وإما فعل، وإما اسم، والحرف كثيرًا ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الإلصاق وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وأن للشرط وغيرها والاسم والفعل والحرف جاء على ثلاثة أحرف كإلى وعلى في الحرف وإلى وعلى في الاسم وألا يألو وعلا يعلو في الفعل، والاسم والفعل جاء على أربعة، والاسم خاصة جاء على ثلاثة وأربعة وخمسة كفجل وسجل وجردحل فما جاء في القرآن إشارة

إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه، فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم تمام السر إلا الله ومن أعلمه الله به، إذا علمت هذا فنقول اعلم أن العبادة منها قلبية، ومنها لسانية، ومنها جارحية، وكل واحدة منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم، أما القلبية مع أنها أبعد عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلاً، وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعًا كالصراط الذي [هُوَ] أرق من الشعرة وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن والموقن كالبرق الخاطف والميزان الذي توزن به الأعمال التي لا ثقل لها في نظر الناظر وكيفيات الجنة والنار فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي، وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول، وكذلك في العبادات الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات، وقد ذكرنا الحكمة فيه وهي أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة لا يكون إلا آتيًا بمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتي به للفائدة وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده انقل: هذه الحجارة من ههنا، ولم يعلمه بما في النقل فنقلها ولو قال: انقلها فإن تحتها كنزًا هو لك، ينقلها وإن لم يؤمن، إذا علم هذا فكذلك في العبادات اللسانية الذكرية وجب أن يكون منها ما لا يفهم معناه حتى إذا تكلم به العبد علم منه أنه لا يقصد غير الانقياد لأمر المعبود الآمر الناهي فإذا قال: (حم، يس، الم، طس) علم أنه لم يذكر ذلك لمعنى يفهَمه أو يفهِّمه فهو يتلفظ به إقامة لما أمر به.

البحث الثاني: قيل في خصوص يس إنه كلام هو نداء معناه يا إنسان، وتقريره هو أن تصغير إنسان إنيسين فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال: ﴿يسٓ﴾ أي أنيسين، وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد ﷺ ويدل عليه قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣].

البحث الثالث: قرئ يس إما بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف هو قوله هذه كأنه قال: هذه يس، وإما بالضم على نداء المفرد أو على أنه مبني كحيث، وقرئ يس إما بالنصب على معنى اتل يس وإما بالفتح كأين وكيف، وقرئ يس بالكسر كجير لإسكان الياء وكسرة ما قبلها ولا يجوز أن يقال بالجر لأن إضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف قسم ظاهر. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي ذي الحكمة كعيشة راضية أي ذات رضا أو على أنه ناطق بالحكمة فهو كالحي المتكلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾

مقسم عليه وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الكفار أنكروا كون محمد مرسلاً والمطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة في الإقسام؟ نقول: فيه وجوه الأول: هو أن العرب كانوا يتوقون الأيمان الفاجرة وكانوا

يقولون: إن اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبي ﷺ ذلك بقوله: «**الْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلَاقِعَ**»(١) ثم إنهم كانوا يقولون إن النبي ﷺ يصيبه من آلهتهم عذاب وهي الكواكب فكان النبي ﷺ يحلف بأمر الله وإنزال كلامه عليه وبأشياء مختلفة، وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنًا وأمنع مكانًا فكان ذلك يوجبْ اعتقاد أنه ليس بكاذب، الثاني: هو أن المتناظرين إذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المطلوب: إنك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير في نفسك بضعف مقالك وتعلم أن الأمر ليس كما تقول وإن أقمت عليه صورة دليل وعجزت أنا عن القدح فيه، وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتي هو بدليل آخر، لأن الساكت المنقطع يقول في الدليل الآخر ما قاله في الأول فلا يجد أمرًا إلا اليمين، فيقول: والله إني لست مكابرًا وإن الأمر على ما ذكرت ولو علمت خلافه لرجعت إليه، فههنا يتعين اليمين، فكذلك النبي ﷺ لما أقام البراهين وقالت الكفرة: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ . . . ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣] تعين التمسك بالأيمان لعدم فائدة الدليل، الثالث: هو أن هذا ليس مجرد الحلف، وإنما هو دليل خرج في صورة اليمين لأن القرآن معجزة ودليل كونه مرسلاً هو المعجزة والقرآن كذلك فإن قيل: فلم لم يذكر في صورة الدليل؟ وما الحكمة في ذكر الدليل في صورة اليمين؟ قلنا: الدليل أن ذكره في صورة اليمين قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فإذا ابتدئ به على صورة اليمين واليمين لا يقع لا سيما من العظيم الأعلى أمر عظيم والأمر العظيم تتوفر الدواعي على الإصغاء إليه فلصورة اليمين تشرئب إليه الأجسام، ولكونه دليلاً شافيًا يتشربه الفؤاد فيقع في السمع وينفع في القلب.

المسألة الثانية: كون القرآن حكيمًا عندهم لكون محمد رسولاً، فلهم أن يقولوا: إن هذا ليس بقسم، نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن كون القرآن معجزة بين إن أنكروه قيل لهم فأتوا بسورة من مثله، والثاني: أن العاقل لا يثق بيمين غيره إلا إذا حلف بما يعتقد عظمته،

---

(١) حسن: أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ١٧٦)، حديث رقم (٢٥٥) من طريق جعفر بن حميد حدثنا علي بن ظبيان عن أبي حنيفة عن ناجح بن عبد الله عن يحيى بن أبي بكر عن أبي سلمة عن أبي هريرة. . . به، ورواه الدولابي في (الكني والأسماء) (٦/ ٢١٠)، حديث رقم (١٥٧٥) من طريق أبي يحيى سليم بن عبد الحميد الحمصي قال حدثنا أبي عبد الحميد بن عبد العزيز قال حدثني عمرو بن قيس عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ. . . فذكره، وأبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٢٠/ ٢٠٨)، حديث رقم (٦٢٣٠) من طريق عبد الله بن المبارك عن معمر عن شيخ من بني تميم عن أبي أسود. . . بنحوه، والبيهقي في (سننه الكبرى) (١٠/ ٢٥)، حديث رقم (١٩٦٥٥) من طريق أبي حنيفة عن يحيى بن أبي كثير عن مجاهد وعكرمة عن أبي هريرة. . . به، ورواه ابن راهويه في (مسنده) (٥/ ٢٧١)، حديث رقم (٢٤٢٥)، قال أخبرنا جرير عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ. . . فذكره ثم قال: وفي إسناده انقطاع وإرسال؛ ورواه الطبراني في (مسند الشاميين) (٣/ ٣٩٧)، حديث رقم (٢٥٤٣) من طريق أبي عبد الحميد بن عبد العزيز حدثنا عمرو بن قيس عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ. . . به.

فالكافر إن حلف بمحمد لا نصدقه كما نصدقه لو حلف بالصليب والصنم، ولو حلف بديننا الحق لا يوثق بمثل ما يوثق به لو حلف بدينه الباطل وكان من المعلوم أن النبي ﷺ وأصحابه يعظمون القرآن فحلفه به هو الذي يوجب ثقتهم به.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾

خبر بعد خبر أي إنك على صراط مستقيم والمستقيم أقرب الطرق الموصلة إلى المقصد والدين كذلك فإنه توجه إلى الله تعالى وتولى عن غيره والمقصد هو الله والمتوجه إلى المقصد أقرب إليه من المولي عنه والمتحرف منه ولا يذهب فهم أحد إلى أن قوله: (إنك) منهم على صراط مستقيم مميز له عن غيره كما يقال إن محمدًا من الناس مجتبى لأن جميع المرسلين على صراط مستقيم، وإنما المقصود بيان كون النبي ﷺ على الصراط المستقيم الذي يكون عليه المرسلون وقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباحية الذين يقولون: المكلف يصير واصلاً إلى الحق فلا يبقى عليه تكليف، وذلك من حيث إن الله بين أن المرسلين ما داموا في الدنيا فهم سالكون سائحون مهتدون منتهجون إلى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قرئ بالجر على أنه بدل من القرآن كأنه قال: والقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر، وقرئ بالنصب وفيه وجهان أحدهما: أنه مصدر فعله منوي كأنه قال: نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويكون تقديره نزل القرآن أو الكتاب الحكيم، والثاني: أنه مفعول فعل منوي كأنه قال: والقرآن الحكيم أعني تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر، وهذا ما اختاره الزمخشري وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ منوي كأنه قال: هذا تنزيل العزيز الرحيم لتنذر، ويحتمل وجهًا آخر على هذه القراءة وهو أن يكون مبتدأ خبره لتنذر كأنه قال: تنزيل العزيز للإنذار، وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى أن الملك إذا أرسل رسولاً فالمرسل إليهم إما أن يخالفوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذٍ لا يقدر الملك على الانتقام منهم إلا إذا كان عزيزًا أو يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذٍ يرحمهم الملك، أو نقول: المرسل يكون معه في رسالته منع عن أشياء وإطلاق لأشياء فالمنع يؤكد العزة والإطلاق يدل على الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

قد تقدم تفسيره في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦] وقيل: المراد الإثبات وهو على وجهين أحدهما: لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم، فتكون ما مصدرية، الثاني: أن تكون موصولة معناه: لتنذر قومًا الذين أنذر آباؤهم فهم غافلون، فعلى قولنا ما نافية تفسيره ظاهر فإن من لم ينذر آباؤه وبعد الإنذار عنه فهو يكون غافلاً، وعلى قولنا هي للإثبات كذلك

لأن معناه لتنذرهم إنذار آبائهم فإنهم غافلون. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضي أن لا يكون آباؤهم منذرين والآخر يقتضي أن يكونوا منذرين وبينهما تضاد؟ نقول: على قولنا ما نافية معناه ما أنذر آباؤهم وإنذار آبائهم الأولين لا ينافي أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين والمتأخرون منهم غير منذرين.

المسألة الثانية: قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ يقتضي أن لا يكون النبي ﷺ مأمورًا بإنذار اليهود لأن آباءهم أنذروا، نقول: ليس كذلك، أما على قولنا ما للإثبات لا للنفي فظاهر، وأما على قولنا هي نافية فكذلك، وقد بينا ذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣] وقلنا إن المراد أن آباءهم قد أنذروا بعد ضلالهم وبعد إرسال من تقدم فإن الله إذا أرسل رسولاً فما دام في القوم من يبين دين ذلك النبي ويأمر به لا يرسل الرسول في أكثر الأمر، فإذا لم يبق فيهم من يبين ويضل الكل ويتباعد العهد ويفشو الكفر يبعث رسولاً آخر مقررًا لدين من كان قبله أو واضعًا لشرع آخر، فمعنى قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم واليهود والنصارى دخلوا فيه لأنهم لم تنذر آباؤهم الأدنون بعد ما ضلوا، فهذا دليل على كون النبي ﷺ مبعوثًا بالحق إلى الخلق كافة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ دليل على أن البعثة لا تكون إلا عند الغفلة، أما إن حصل لهم العلم بما أنزل الله بأن يكون منهم من يبلغهم شريعة ويخالفونه فحق عليهم الهلاك ولا يكون ذلك تعذيبًا من قبل أن يبعث الله رسولاً، وكذلك من خالف الأمور التي لا تفتقر إلى بيان الرسل يستحق الإهلاك من غير بعثة، وليس هذا قولاً بمذهب المعتزلة من التحسين والتقبيح العقلي بل معناه أن الله تعالى لو خلق في قوم علمًا بوجوب الأشياء وتركوه لا يكونون غافلين فلا يتوقف تعذيبهم على بعثة الرسل.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾

لما بين أن الإرسال أو الإنزال للإنذار، أشار إلى أن النبي ﷺ ليس عليه الهداية المستلزمة للاهتداء، وإنما عليه الإنذار وقد لا يؤمن من المنذرين كثير، وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وجوه الأول: وهو المشهور أن المراد من القول هو قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]الثاني: هو أن معناه لقد سبق في علمه أن هذا يؤمن وأن هذا لا يؤمن فقال في حق البعض أنه لا يؤمن، وقال في حق غيره أنه يؤمن فـ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي وجد وثبت بحيث لا يبدل بغيره، الثالث: هو أن يقال المراد منه لقد حق القول الذي قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره وبأن برهانه فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك لأن من يتوقف لاستماع الدليل في مهلة النظر يرجى منه الإيمان إذا بان له البرهان، فإذا تحقق وأكد بالإيمان ولم يؤمن

أكثرهم تبين أنهم لا يؤمنون لمضي وقت رجاء الإيمان ولأنهم لما لم يؤمنوا عندما حق القول واستمروا فإن كانوا يريدون شيئًا أوضح من البرهان فهو العيان وعند العيان لا يفيد الإيمان.

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ على هذا الوجه معناه أن من لم تبلغه الدعوة والبرهان قليلون فحق القول على أكثر من لم يوجد منه الإيمان وعلى الأول والثاني ظاهر فإن أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا، وفيه وجه رابع وهو أن يقال: لقد حقت كلمة العذاب العاجل على أكثرهم فهم لا يؤمنون وهو قريب من الأول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨﴾

لما بين أنهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾ وفيه وجوه أحدها: أن المراد إنا جعلناهم ممسكين لا ينفقون في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[الإسراء: ٢٩] والثاني: أن الآية نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل أنه يرضخ رأس محمد، فرآه ساجدًا فأخذ صخرة ورفعها ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده ويده بعنقه. والثالث: وهو الأقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو أن ذلك كناية عن منع الله إياهم عن الاهتداء.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هل للوجهين الأولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام؟ نقول: الوجه الأول له مناسبة وهي أن قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[يس: ٧] يدخل فيه أنهم لا يصلون كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾[البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بينا فكأنه قال: لا يصلون ولا يزكون، وأما على الوجه الثاني فمناسبة خفية وهي أنه لما قال: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾[يس: ٧] وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك: بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من إرسال الحجر وهو يضطر إلى الإيمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلاً، والتفسير هو الوجه الثالث.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَهِيَ﴾ راجعة إلى ماذا؟ نقول: فيها وجهان أحدهما: أنها راجعة إلى الأيدي وإن كانت غير مذكورة ولكنها معلومة لأن المغلول تكون يداه مجموعتين في الغل إلى عنقه، وثانيهما: وهو ما اختاره الزمخشري أنها راجعة إلى الأغلال، معناه إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ثقالاً غلاظًا بحيث تبلغ إلى الأذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه.

المسألة الثالثة: كيف يفهم من الغل في العنق المنع من الإيمان حتى يجعل كناية؟ فنقول: المغلول الذي بلغ الغل إلى ذقنه وبقي مقمحًا رافع الرأس لا يبصر الطريق الذي عند قدمه وذكر بعده أن بين يديه سدًا ومن خلفه سدًا فهو لا يقدر على انتهاج السبيل ورؤيته وقد ذكر من قبل أن

المرسل على صراط مستقيم فهذا الذي يهديه النبي إلى الصراط المستقيم العقلي جعل ممنوعًا كالمغلول الذي يجعل ممنوعًا من إبصار الطريق الحسي، ويحتمل وجهًا آخر وهو أن يقال: الأغلال في الأعناق عبارة عن عدم الانقياد فإن المنقاد يقال فيه إنه وضع رأسه على الخط وخضع عنقه والذي في رقبته الغل الثخين إلى الذقن لا يطأطئ رأسه ولا يحركه تحريك المصدق، ويصدق هذا قوله: ﴿مُّقْمَحُونَ﴾ فإن المقمح هو الرافع رأسه كالمتأبي يقال: بعير قامح إذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب، والإيمان كالماء الزلال الذي به الحياة وكأنه تعالى قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ لا يخضعون الرقاب لأمر الله.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

يكون متممًا لمعنى جعل الله إياهم مغلولين لأن قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ إشارة إلى أنهم لا ينتهجون سبيل الرشاد فكأنه قال: لا يبصرون الحق فينقادون له لمكان السد ولا ينقادون لك فيبصرون الحق فينقادون له لمكان الغل، والإيمان المورث للإيقان إما باتباع الرسول أولاً فتلوح له الحقائق ثانيًا وإما بظهور الأمور أولاً واتباع الرسول ثانيًا، ولا يتبعون الرسول أولاً لأنهم مغلولون فلا يظهر لهم الحق من الرسول ثانيًا، ولا يظهر لهم الحق أولاً لأنهم واقعون في السد فلا يتبعون الرسول ثانيًا، وفيه وجه آخر: وهو أن يقال المانع، إما أن يكون في النفس، وإما أن يكون خارجًا عنها، ولهم المانعان جميعًا من الإيمان، أما في النفس فالغل، وأما من الخارج فالسد، ولا يقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التي في أنفسهم كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] وذلك لأن المقمح لا يرى نفسه ولا يقع بصره على يديه، ولا يقع نظرهم على الآفاق لأن من بين السدين لا يبصرون الآفاق فلا تبين لهم الآيات التي في الآفاق وعلى هذا فقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [يس: ٨] ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في الأنفس والآفاق.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ **مسائل:**

المسألة الأولى: السد من بين الأيدي ذكره ظاهر الفائدة فإنهم في الدنيا سالكون وينبغي أن يسلكوا الطريقة المستقيمة و﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ فلا يقدرون على السلوك، وأما السد من خلفهم، فما الفائدة فيه؟ فنقول: الجواب عنه من وجوه الأول: هو أن الإنسان له هداية فطرية والكافر قد يتركها وهداية نظرية والكافر ما أدركها فكأنه تعالى يقول: جعلنا من بين أيديهم سدًّا فلا يسلكون طريقة الاهتداء التي هي نظرية وجعلنا من خلفهم سدًّا فلا يرجعون إلى الهداية الجبلية التي هي الفطرية، الثاني: هو أن الإنسان مبدؤه من الله ومصيره إليه فعمى الكافر لا

يبصر ما بين يديه من المصير إلى الله ولا ما خلفه من الدخول في الوجود بخلق الله، الثالث: هو أن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق فإن انسد الطريق الذي قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع وإذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذي هو فيه لا يكون موضع إقامة لأنه مهلك فقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ إشارة إلى إهلاكهم.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ بحرف الفاء يقتضي أن يكون للإغشاء بالسد تعلق ويكون الإغشاء مرتبًا على جعل السد فكيف ذلك؟ فنقول: ذلك من وجهين أحدهما: أن يكون ذلك بيانًا لأمور مترتبة يكون بعضها سببًا للبعض فكأنه تعالى قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ فلا يبصرون أنفسهم لإقماحهم ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ فلا يبصرون ما في الآفاق وحينئذٍ يمكن أن يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله: وجعلنا على أبصارهم غشاوة فلا يبصرون شيئًا أصلاً، وثانيهما: هو أن ذلك بيان لكون السد قريبًا منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم فإن من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقًا بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيئًا، أما غير السد فللحجاب، وأما عين السد فلكون شرط المرئي أن لا يكون قريبًا من العين جدًّا.

المسألة الثالثة: ذكر السدين من بين الأيدي ومن خلف ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه؟ فنقول: أما على قولنا إنه إشارة إلى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر، وأما على غير ذلك فنقول بما ذكر حصل العموم والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة، لأنهم إن قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء ومولين عن شيء فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك، فكيفما يتوجه الكافر يجعل الله بين يديه سدًّا، ووجه آخر أحسن مما ذكرنا: وهو أنا لما بينا أن جعل السد صار سببًا للإغشاء كان السد ملتزقًا به وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على الحركة يمنة ولا يسرة فلا حاجة إلى السد عن اليمين وعن الشمال وقوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يحتمل ما ذكرنا أنهم لا يبصرون شيئًا، ويحتمل أن يكون المراد هو أن الكافر مصدود وسبيل الحق عليه مسدود وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد، فيظن أنه على الطريقة المستقيمة، وغير ضال.

ثم إنه تعالى بين أن الإنذار لا ينفعهم مع ما فعل الله بهم من الغل والسد والإغشاء والإغماء، بقوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى الإيمان منهم إذ لا وجود له منهم على التقديرين، فإن قيل: إذا كان الإنذار وعدمه سواء فلماذا الإنذار؟ نقول: قد أجبنا في غير هذا الموضع أنه تعالى قال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ وما قال سواء عليك فالإنذار بالنسبة إلى النبي ﷺ ليس كعدم الإنذار لأن أحدهما مخرج له عن العهدة وسبب في زيادة سيادته عاجلاً وسعادته آجلاً، وأما بالنسبة إليهم على السواء فإنذار النبي ﷺ ليخرج عما عليه وينال ثواب الإنذار وإن لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار في دار القرار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾

والترتيب ظاهر وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: قال من قبل: ﴿لِتُنذِرَ﴾[يس: ٦] وذلك يقتضي الإنذار العام على ما بينا وقال [هنا]: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ وهو يقضي التخصيص فكيف الجمع بينهما؟ نقول: من وجوه: الأول: هو أن قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾[يس: ٦] أي كيفما كان سواء كان مفيدًا أو لم يكن وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي الإنذار المفيد لا يكون إلا بالنسبة إلى من يتبع الذكر ويخشى، الثاني: هو أن الله تعالى لما قال إن الإرسال والإنزال، وذكر أن الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى أهل العناد قال لنبيه: ليس إنذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم وإنما تنذر بذلك الإنذار العام من يتبع الذكر كأنه يقول: يا محمد إنك بإنذارك تهدي ولا تدري من تهدي فأنذر الأسود والأحمر ومقصودك من يتبع إنذارك وينتفع بذكراك، الثالث: هو أن نقول قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾[يس: ٦] أي أولاً فإذا أنذرت وبالغت وبلغت واستهزأ البعض وتولى واستكبر وولى، فأعرض بعد ذلك فإنما تنذر الذين اتبعوك، الرابع: وهو قريب من الثالث إنك تنذر الكل بالأصول، وإنما تنذر بالفروع من ترك الصلاة والزكاة ومن اتبع الذكر وآمن.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ يحتمل وجوهًا الأول: وهو المشهور من اتبع القرآن، الثاني: من اتبع ما في القرآن من الآيات ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾[ص: ١] فما جعل القرآن نفس الذكر، الثالث: من اتبع البرهان فإنه ذكر يكمل الفطرة وعلى كل وجه فمعناه: إنما تنذر العلماء الذين يخشون وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[فاطر: ٢٨] وكقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[البقرة: ٨٢] فقوله: ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي آمن، وقوله: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ أي عمل صالحًا وهذا الوجه يتأيد بقوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ لأنا ذكرنا مرارًا أن الغفران جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور والأجر الكريم جزاء العمل كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[سبأ: ٤] وتفسير الذكر بالقرآن يتأيد بتعريف الذكر بالألف واللام، وقد تقدم ذكر القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[يس: ٢] وقوله: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ فيه لطيفة وهي أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع أنه رحمن ورحيم فالعاقل لا ينبغي أن يترك الخشية فإن كل من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر فالخوف منه أتم مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة وتكملة اللطيفة: هي أن من أسماء الله اسمين يختصان به هما الله والرحمن كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾[الإسراء: ١١٠] حتى قال بعض الأئمة: هما علمان إذا عرفت هذا فالله اسم ينبئ عن الهيبة والرحمن ينبئ عن العاطفية فقال في موضع: ﴿يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾[الأحزاب: ٢١] وقال هاهنا:

﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ يعني مع كونه ذا هيبة لا تقطعوا عنه رجاءكم ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه، وقوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يعني بالدليل وإن لم ينته إلى درجة المرئي المشاهد فإن عند الانتهاء إلى تلك الدرجة لا يبقى للخشية فائدة، والمشهور أن المراد بالغيب ما غاب عنا وهو أحوال القيامة، وقيل: إن الوحدانية تدخل فيه، وقوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ فيه إشارة إلى الأمر الثاني من أمري الرسالة فإن النبي ﷺ بشير ونذير وقد ذكر أنه أرسل لينذر وذكر أن الإنذار النافع عند اتباع الذكر، فقال: بشر كما أنذرت ونفعت، وقوله: ﴿بِمَغۡفِرَةٖ﴾ على التنكير أي بمغفرة واسعة تستر من جميع الجوانب حتى لا يرى عليه أثر من آثار النفس ويظهر عليه أنوار الروح الزكية ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ أي ذي كرم، وقد ذكرنا ما في الكريم في قوله: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: ٤] وفي قوله: ﴿رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ۝١٢﴾

في الترتيب وجوه أحدها: أن الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الأصول الثلاثة التي يصير بها المكلف مؤمنًا مسلمًا ذكر أصلاً آخر وهو الحشر، وثانيها: وهو أن الله تعالى لما ذكر الإنذار والبشارة بقوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ﴾ [يس: ١١] ولم يظهر ذلك بكماله في الدنيا فقال: إن لم ير في الدنيا فالله يحيي الموتى ويجزي المنذرين ويجزي المبشرين، وثالثها: أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو إحياء الموتى. وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون مبتدأ وخبرًا كقول القائل:

أَنا أَبو النَّجم وَشِعري شِعري[١]

ومثل هذا يقال عند الشهرة العظيمة، وذلك لأن من لا يعرف يقال له: من أنت؟ فيقول: أنا ابن فلان، فيعرف ومن يكون مشهورًا إذا قيل له: من أنت؟ يقول: أنا، أي لا معرف لي أظهر من نفسي فقال: إنا نحن معروفون بأوصاف الكمال، وإذا عرفنا بأنفسنا فلا تنكر قدرتنا على إحياء الموتى، وثانيهما: أن يكون الخبر ﴿نُحۡيِ﴾ كأنه قال: إنا نحيي الموتى، و﴿نَحۡنُ﴾ يكون تأكيدًا والأول أولى.

المسألة الثانية: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ فيه إشارة إلى التوحيد لأن الاشتراك يوجب التمييز بغير النفس فإن زيدًا إذا شاركه غيره في الاسم، فلو قال: أنا زيد، لم يحصل التعريف التام، لأن للسامع أن يقول: أيما زيد؟ فيقول: ابن عمرو، ولو كان هناك زيد آخر أبوه عمرو لا يكفي قوله ابن عمرو، فلما قال الله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ أي ليس غيرنا أحد يشاركنا حتى نقول: إنا كذا فنمتاز، وحينئذٍ تصير الأصول الثلاثة مذكورة؛ الرسالة والتوحيد والحشر.

---

(١) هذا البيت لأبي النجم العجلي وقد تقدمت ترجمته.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ فيه وجوه أحدها: المراد ما قدموا وأخروا فاكتفى بذكر أحدهما كما في قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] والمراد والبرد أيضًا، وثانيها: المعنى ما أسلفوا من الأعمال صالحة كانت أو فاسدة وهو كما قال تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [البقرة: ٩٥] أي بما قدمت في الوجود على غيره وأوجدته، وثالثها: نكتب نياتهم فإنها قبل الأعمال وآثارهم أي أعمالهم على هذا الوجه.

المسألة الرابعة: وآثارهم فيه وجوه الأول: آثارهم أقدامهم فإن جماعة من أصحابه بعدت دورهم عن المساجد فأرادوا النقلة فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ خُطُوَاتِكُمْ وَيُثِيبُكُمْ عَلَيْهِ فَالْزَمُوا بُيُوتَكُمْ»(١) والثاني: هي السنن الحسنة، كالكتب المصنفة والقناطر المبنية، والحبائس الدارة، والسنن السيئة كالظلمات المستمرة التي وضعها ظالم والكتب المضلة، وآلات الملاهي وأدوات المناهي المعمولة الباقية، وهو في معنى قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ الْعَامِلِ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»(٢) فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم أفعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها، والثالث: ما ذكرنا أن الآثار الأعمال وما قدموا النيات فإن النية قبل العمل.

المسألة الخامسة: الكتابة قبل الإحياء فكيف أخر في الذكر حيث قال: (نحيي) و(نكتب) ولم يقل: نكتب ما قدموا ونحييهم؟ نقول: الكتابة معظمة لأمر الإحياء لأن الإحياء إن لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة في نفسها إن لم تكن إحياء وإعادة لا يبقى لها أثر أصلاً فالإحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره، فلهذا قدم الإحياء ولأنه تعالى لما قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ وذلك يفيد العظمة والجبروت، والإحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه فقرن بالتعريف الأمر العظيم وذكر ما يعظم ذلك العظيم وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ يحتمل وجوهًا أحدها: أن يكون ذلك بيانًا لكون ما قدموا وآثارهم أمرًا مكتوبًا عليهم لا يبدل، فإن القلم جف بما هو كائن فلما قال: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ بين أن قبل ذلك كتابة أخرى فإن الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم إذا فعلوه كتب عليهم أنهم فعلوه، وثانيها: أن يكون ذلك مؤكدًا لمعنى قوله: ﴿وَنَكۡتُبُ﴾ لأن من يكتب شيئًا في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال: نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين وهذا كقوله تعالى: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] وثالثها: أن يكون ذلك تعميمًا بعد التخصيص كأنه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه، بل كل شيء محصي في إمام مبين، وهذا يفيد أن شيئًا من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣] يعني ليس ما في الزبر منحصرًا فيما فعلوه بل كل شيء

---

(١) لم أجده.

(٢) تقدم تخريجه مرارًا.

فعلوه مكتوب، وقوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أبلغ من (كتبناه) لأن من كتب شيئًا مفرقًا يحتاج إلى جمع عدده فقال: هو محصي فيه، وسمي الكتاب إمامًا لأن الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق وإحياء وإماتة اتبعوه وقيل هو اللوح المحفوظ، وإمام جاء جمعًا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أي بأئمتهم وحينئذٍ فإمام إذا كان فردًا فهو ككتاب وحجاب وإذا كان جمعًا فهو كجبال وحبال والمبين هو المظهر للأمور لكونه مظهرًا للملائكة ما يفعلون وللناس ما يفعل بهم وهو الفارق يفرق بين أحوال الخلق فيجعل فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣﴾

وفيه وجهان، والترتيب ظاهر على الوجهين الوجه الأول: هو أن يكون المعنى واضرب لأجلهم مثلاً، والثاني: أن يكون المعنى واضرب لأجل نفسك أصحاب القرية لهم مثلاً أي مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية. وعلى الأول نقول: لما قال الله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣] وقال: ﴿لِتُنذِرَ﴾ [يس: ٦] قال: قل لهم: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] بل قبلي بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما أنذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الإقامة، وعلى الثاني نقول: لما قال الله تعالى إن الإنذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن قال للنبي عليه الصلاة والسلام فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلاً، أي مثل لهم عند نفسك مثلاً حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والإيذاء، وأنت جئتهم واحدًا وقومك أكثر من قوم الثلاثة فإنهم جاءوا قرية وأنت بعثت إلى العالم.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: ما معنى قول القائل ضرب مثلاً؟ وقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ مع أن الضرب في اللغة، إما إمساس جسم جسمًا بعنف، وإما السير إذا قرن به حرف في كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١] نقول: قوله ضرب مثلاً معناه مثل مثلاً، وذلك لأن الضرب اسم للنوع يقال هذه الأشياء من ضرب واحد أي اجعل هذا وذاك من ضرب واحد.

المسألة الثانية: أصحاب القرية، معناه واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية فترك المثل وأقيم الأصحاب مقامه في الإعراب كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] هذا قول الزمخشري في الكشاف، ويحتمل أن يقال: لا حاجة إلى الإضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلاً أو مثل أصحاب القرية بهم.

المسألة الثالثة: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، (إِذْ) منصوبة لأنها بدل من (أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ) كأنه قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ وقت مجيء المرسلين ومثل ذلك الوقت بوقت مجيئك، وهذا أيضًا قول الزمخشري وعلى قولنا إن هذا المثل مضروب لنفس محمد ﷺ تسلية فيحتمل أن يقال إذا ظرف

منصوب بقوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ أي اجعل الضرب، كأنه حين مجيئهم وواقع فيه، والقرية أنطاكية والمرسلون من قوم عيسى وهم أقرب مرسل أرسل إلى قوم إلى زمان محمد ﷺ وهم ثلاثة كما بين الله تعالى. وقوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون إذ أرسلنا بدلاً من إذ جاءها كأنه قال الضرب لهم مثلاً، إذ أرسلنا إلى أصحاب القرية اثنين، وثانيهما: وهو الأصح والأوضح أن يكون إذ ظرفًا والفعل الواقع فيه جاءها أي جاءها المرسلون حين أرسلناهم إليهم أي لم يكن مجيئهم من تلقاء أنفسهم وإنما جاءوهم حيث أمروا، وهذا فيه لطيفة: وهي أن في الحكاية أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم إلى أنطاكية فقال تعالى: إرسال عيسى عليه السلام هو إرسالنا ورسول رسول الله بإذن الله رسول الله فلا يقع لك يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وأنت رسول الله فإن تكذيبهم كتكذيبك، فتتم التسلية بقوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ وهذا يؤيد مسألة فقهية وهي أن وكيل الوكيل بإذن الموكل وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه وينعزل إذا عزله الموكل الأول، وهذا على قولنا: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾ ضرب المثل لأجل محمد ﷺ ظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ۝١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ۝١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ۝١٦﴾

وقوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ في بعثة الاثنين حكمة بالغة وهي أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى بإذن الله فكان عليهما إنهاء الأمر إلى عيسى والإتيان بما أمر الله، والله عالم بكل شيء لا يحتاج إلى شاهد يشهد عنده، وأما عيسى فهو بشر فأمره الله بإرسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى حجة تامة.

وقوله: ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ أي قوينا وقرئ (فعززنا بثالث) مخففًا، من عز إذا غلب فكأنه قال: فغلبنا نحن وقهرنا بثالث، والأول أظهر وأشهر وترك المفعول حيث لم يقل فعززناهما لمعنى لطيف وهو أن المقصود من بعثهما نصرة الحق لا نصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: النبي ﷺ بعث رسله إلى الأطراف واكتفى بواحد وعيسى عليه السلام بعث اثنين، نقول: النبي بعث لتقرير الفروع وهو دون الأصول فاكتفى بواحد فإن خبر الواحد في الفروع مقبول، وأما هما فبعثا بالأصول وجعل لهما معجزة تفيد اليقين وإلا لما كفى إرسال اثنين أيضًا ولا ثلاثة.

المسألة الثانية: قال الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ [القصص: ٣٥] فذكر

المفعول هناك ولم يذكره هاهنا مع أن المقصود هناك أيضًا نصرة الحق، نقول: موسى عليه السلام كان أفضل من هارون وهارون بعث معه بطلبه حيث قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾[القصص: ٣٤] فكان هارون مبعوثًا ليصدق موسى فيما يقول ويقوم بما يأمره، وأما هما فكل واحد مستقل ناطق بالحق، فكان هناك المقصود تقوية موسى وإرسال من يؤنس معه وهو هارون، وأما ههنا فالمقصود تقوية الحق فظهر الفرق.

ثم بين الله ما جرى منهم وعليهم مثل ما جرى من محمد ﷺ وعليه فقالوا: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾[يس: ١٤] كما قال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[يس: ٣] وبين ما قال القوم بقوله: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ جعلوا كونهم بشرًا مثلهم دليلاً على عدم الإرسال، وهذا عام من المشركين قالوا في حق محمد: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾[ص: ٨] وإنما ظنوه دليلاً بناءً على أنهم لم يعتقدوا في الله الاختيار، وإنما قالوا فيه: إنه موجب بالذات وقد استوينا في البشرية فلا يمكن الرجحان، والله تعالى رد عليهم قولهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤] وبقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾[الشورى: ١٣] إلى غير ذلك، وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون متممًا لما ذكروه فيكون الكل شبهة واحدة، ووجهه هو أنهم قالوا: أنتم بشر فما نزلتم من عند الله وما أنزل الله إليكم أحدًا، فكيف صرتم رسلاً لله؟ ثانيهما: أن يكون هذا شبهة أخرى مستقلة ووجهه هو أنهم لما قالوا: أنتم بشر مثلنا فلا يجوز رجحانكم علينا، ذكروا الشبهة من جهة النظر إلى المرسلين، ثم قالوا شبهة أخرى من جهة المرسل، وهو أنه تعالى ليس بمنزل شيئًا في هذا العالم، فإنه تصرفه في العالم العلوي وللعلويات التصرف في السفليات على مذهبهم، فالله تعالى لم ينزل شيئًا من الأشياء في الدنيا فكيف أنزل إليكم؟ وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إشارة إلى الرد عليهم، لأن الله لما كان رحمن الدنيا والإرسال رحمة، فكيف لا ينزل رحمته وهو رحمن، فقال إنهم قالوا: ما أنزل الرحمن شيئًا، وكيف لا ينزل الرحمن مع كونه رحمن شيئًا، هو الرحمة الكاملة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي ما أنتم إلا كاذبين.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا، بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين و﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وأكدوه باللام؛ لأن يعلم الله يجري مجرى القسم؛ لأن من يقول: يعلم الله، فيما لا يكون قد نسب الله إلى الجهل وهو سبب العقاب، كما أن الحنث سببه.

وفي قوله: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ إشارة إلى الرد عليهم حيث قالوا: أنتم بشر، وذلك لأن الله إذا كان يعلم أنهم لمرسلون، يكون كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤] يعني هو عالم بالأمور وقادر، فاختارنا بعلمه لرسالته.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾

ثم قال: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ تسلية لأنفسهم، أي نحن خرجنا عن عهدة ما علينا وحثًا لهم على النظر، فإنهم لما قالوا: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ كان ذلك يوجب تفكرهم في أمرهم حيث لم يطلبوا منهم أجرًا ولا قصدوا رياسة، وإنما كان شغلهم التبليغ والذكر، وذلك مما يحمل العاقل على النظر و ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ يحتمل أمورًا أحدها: البلاغ المبين للحق عن الباطل، أي الفارق بالمعجزة والبرهان، وثانيها: البلاغ المظهر لما أرسلنا للكل، أي لا يكفي أن نبلغ الرسالة إلى شخص أو شخصين، وثالثها: البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن، فإذا تم ذلك ولم يقبلوا يحق هنالك الهلاك.

ثم كان جوابهم بعد هذا أنهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ وذلك أنه لما ظهر من الرسل المبالغة في البلاغ ظهر منهم الغلو في التكذيب، فلما قال المرسلون: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٤] قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥] ولما أكد الرسل قولهم باليمين حيث قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ [يس: ١٦] أكدوا قولهم بالتطير بهم فكأنهم قالوا في الأول كنتم كاذبين، وفي الثاني صرتم مصرين على الكذب، حالفين مقسمين عليه، و«**الْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلَاقِعَ**» فتشاءمنا بكم ثانيًا، وفي الأول كما تركتم ففي الثاني لا نترككم لكون الشؤم مدركنا بسببكم فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقوله (لنرجمنكم) يحتمل وجهين أحدهما: لنشتمنكم من الرجم بالقول وعلى هذا فقوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ ترق كأنهم قالوا ولا يكتفي بالشتم، بل يؤدي ذلك إلى الضرب والإيلام الحسي، وثانيهما: أن يكون المراد الرجم بالحجارة، وحينئذٍ فقوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ بيان للرجم، يعني ولا يكون الرجم رجمًا قليلاً نرجمكم بحجر وحجرين، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت وهو عذاب أليم، ويكون المراد ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ بسبب الرجم عذاب منا أليم، وقد ذكرنا في الأليم أنه بمعنى المؤلم، والفعيل معنى مفعل قليل، ويحتمل أن يقال: هو من باب قوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي ذات رضا، فالعذاب الأليم هو ذو ألم، وحينئذٍ يكون فعيلاً بمعنى فاعل وهو كثير. ثم أجابهم المرسلون بقولهم: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي شؤمكم معكم وهو الكفر. ثم قالوا: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ يعني أتفعلون بنا ذلك، وإن ذكرتم أي بين لكم الأمر بالمعجز والبرهان ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ حيث تجعلون من يتبرك به كمن يتشاءم به وتقصدون إيلام من يجب في حقه الإكرام أو ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ حيث تكفرون، ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان، فإن الكافر مسيء فإذا تم عليه الدليل وأوضح له السبيل ويصر يكون مسرفًا، والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد

وهم كانوا كذلك في كثير من الأشياء، أما في التبرك والتشاؤم فقد علم وكذلك في الإيلام والإكرام، وأما في الكفر فلأن الواجب اتباع الدليل، فإن لم يوجد به فلا أقل من أن لا يجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الإيمان، فإن قيل: بل للإضراب فما الأمر المضرب عنه؟ نقول: يحتمل أن يقال قوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل إلى الكذب بقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥] فكأنهم قالوا: أنحن كاذبون وإن جئنا بالبرهان، لا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ويحتمل أن يقال: أنحن مشئومون، وإن جئنا ببيان صحة ما نحن عليه، لا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ويحتمل أن يقال: أنحن مستحقون للرجم والإيلام، وإن بينا صحة ما أتينا به، لا بل أنتم قوم مسرفون، وأما الحكاية فمشهورة، وهي أن عيسى عليه السلام بعث رجلين إلى أنطاكية فدعيا إلى التوحيد وأظهرا المعجزة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فحبسهما الملك، فأرسل بعدهما شمعون فأتى الملك ولم يدع الرسالة، وقرب نفسه إلى الملك بحسن التدبير، ثم قال له: إني أسمع أن في الحبس رجلين يدعيان أمرًا بديعًا، أفلا يحضران حتى نسمع كلامهما؟ قال الملك: بلى، فأحضرا وذكرا مقالتهما الحقة، فقال لهما شمعون: فهل لكما بينة؟ قالا: نعم، فأبرآ الأكمة والأبرص وأحييا الموتى، فقال شمعون: أيها الملك، إن شئت أن تغلبهم، فقل للآلهة التي تعبدونها تفعل شيئًا من ذلك، قال الملك: أنت لا يخفى عليك أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر ولا تعلم، فقال شمعون: فإذن ظهر الحق من جانبهم، فآمن الملك وقوم وكفر آخرون، وكانت الغلبة للمكذبين.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

وفي فائدته وتعلقه بما قبله وجهان أحدهما: أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعي، وعلى هذا فقوله: ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ فيه بلاغة باهرة، وذلك لأنه لما (جاء من أقصى المدينة رجل) وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة، وثانيهما: أن ضرب المثل لما كان لمحمد ﷺ تسلية لقلبه ذكر بعد الفراغ من ذكر الرسل سعى المؤمنين في تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا، ووصول الجزاء الأوفى إليهم ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد، كما أن ذكر المرسلين تسلية لقلب محمد ﷺ، وفي التفسير مسائل.

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ في تنكير الرجل -مع أنه كان معروفًا معلومًا عند الله- فائدتان الأولى: أن يكون تعظيمًا لشأنه أي رجل كامل في الرجولية، الثانية: أن يكون مفيدًا لظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال إنهم تواطئوا، والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الأصنام وقد آمن بمحمد ﷺ قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله، ورأى فيه نعت محمد ﷺ وبعثته.

المسألة الثانية: قوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ تبصرة للمؤمنين وهداية لهم، ليكونوا في النصح باذلين جهدهم، وقد ذكرنا فائدة قوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهي تبليغهم الرسالة بحيث انتهى إلى من في ﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ والمدينة هي أنطاكية، وهي كانت كبيرة شاسعة وهي الآن دون ذلك ومع هذا فهي كبيرة وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيه معان لطيفة الأول: في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ فإنه ينبئ عن إشفاق عليهم وشفقة فإن إضافتهم إلى نفسه بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيرًا، وهذا مثل قول مؤمن آل فرعون ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ [غافر: ٣٨]فإن قيل: قال هذا الرجل: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقال ذلك ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ [غافر: ٣٨]فما الفرق؟ نقول: هذا الرجل جاءهم وفي أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته، فقال: اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل، وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مرارًا فقال اتبعوني في الإيمان بموسى وهارون عليهما السلام، واعلموا أنه لو لم يكن خيرًا لما اخترته لنفسي وأنتم تعلمون أني اخترته، ولم يكن للرجل الذي جاء من أقصى المدينة أن يقول أنتم تعلمون اتباعي لهم، الثاني: جمع بين إظهار النصيحة وإظهار إيمانه فقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ نصيحة وقوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إظهار أنه آمن، الثالث: قدم إظهار النصيحة على إظهار الإيمان لأنه كان ساعيًا في النصح، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل وقوله: ﴿رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يدل على كونه مريدًا للنصح وما ذكر في حكايته أنه كان يقتل وهو يقول: «اللهم اهد قومي».

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وهذا في غاية الحسن وذلك من حيث إنه لما قال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال: لا شك أن الخلق في الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين، إما مغالاة الدليل في طلب الأجرة، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين، أليسوا بمهتدين، فاتبعوهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ لما قال: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد إلى عبادة الحي القويم، ومن عبادة ما لا ينفع إلى عبادة من منه كل نفع، وفيه لطائف: الأولى قوله: ﴿وَمَا لِىَ﴾ أي ما لي مانع من جانبي، إشارة إلى أن الأمر من جهة المعبود ظاهر لا خفاء فيه، فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ولا مانع من جانبي فلا جرم عبدته، وفي العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمة أخرى ولطيفة ثانية: وهي أنه

لو قال: ما لكم لا تعبدون الذي فطركم؟ لم يكن في البيان مثل قوله: ﴿وَمَا لِيَ﴾ لأنه لما قال: ﴿وَمَا لِيَ﴾ وأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل أحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لأنه أعلم بحال نفسه فهو يبين عدم المانع، وأما لو قال: (ما لكم) جاز أن يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه، فإن قيل: قال الله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] نقول: القائل هناك غير مدعو، وإنما هو داع وههنا الرجل مدعو إلى الإيمان فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ﴾ وقد طلب مني ذلك، الثانية: قوله: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ إشارة إلى وجود المقتضى فإن قوله: ﴿وَمَا لِيَ﴾ إشارة إلى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضى، فقوله: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ينبئ عن الاقتضاء، فإن الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك إكرامه وتعظيمه، ومنعم بالإيجاد والمنعم يجب على المنعم شكر نعمته، الثالثة: قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى مع أن المستحسن تقديم المقتضى حيث وجد المقتضى ولا مانع فيوجد لأن المقتضى لظهوره كان مستغنيًا عن البيان رأسًا فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان لوجود الحاجة إليه، الرابعة: اختار من الآيات فطرة نفسه لأنه لما قال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ﴾ بإسناد العبادة إلى نفسه اختار ما هو أقرب إلى إيجاب العبادة على نفسه، وبيان ذلك هو أن خالق عمرو يجب على زيد عبادته لأنه من خلق عمرًا لا يكون إلا كامل القدرة شامل العلم واجب الوجود وهو مستحق للعبادة بالنسبة إلى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر إيجابًا.

واعلم أن المشهور في قوله: ﴿فَطَرَنِي﴾ خلقني اختراعًا وابتداعًا، والغريب فيه أن يقال: ﴿فَطَرَنِي﴾ أي جعلني على الفطرة كما قال الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وعلى هذا فقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ﴾ أي لم يوجد في مانع فأنا باق على فطرة ربي الفطرة كافية في الشهادة والعبادة فإن قيل: فعلى هذا يختلف معنى الفطر في قوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾ [الأنعام: ١٤] فنقول: قد قيل بأن (فاطر السموات) من الفطر الذي هو الشق فالمحذور لازم، أو نقول: المعنى فيهما واحد كأنه قال: فطر المكلف على فطرته وفطر السموات على فطرتها والأول من التفسير أظهر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارة إلى الخوف والرجاء كما قال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] وذلك لأن من يكون إليه المرجع يخاف منه ويرجى وفيه أيضًا معنى لطيف وهو أن العابد على أقسام ثلاثة ذكرناها مرارًا فالأول: عابد يعبد الله، لكونه إلهًا مالكًا سواء أنعم بعد ذلك أو لم ينعم، كالعبد الذي يجب عليه خدمة سيده سواء أحسن إليه أو أساء، والثاني: عابد يعبد الله للنعمة الواصلة إليه، والثالث: عابد يعبد الله خوفًا مثال الأول مَن يخدم الجواد، ومثال الثاني من يخدم الغاشم فجعل القائل نفسه من القسم الأعلى وقال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي هو مالكي أعبده لأنظر إلى ما سيعطيني ولأنظر إلى أن لا يعذبني، وجعلهم دون ذلك فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي خوفكم منه ورجاؤكم فيه فكيف لا تعبدونه؟ ولهذا لم يقل:

وإليه أرجع، كما قال: فطرني، لأنه صار عابدًا من القسم الأول فرجوعه إلى الله لا يكن إلا للإكرام وليس سبب عبادته ذلك بل غيره.

قوله تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ ليتم التوحيد، فإن التوحيد بين التعطيل والإشراك، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ إشارة إلى وجود الإله وقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ﴾ إشارة إلى نفي غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله، وفي الآية أيضًا لطائف الأولى: ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر، وذلك أن من أخبر عن شيء فقال مثلاً: لا أتخذ، يصح من السامع أن يقول له: لم لا تتخذ؟ فيسأله عن السبب، فإذا قال: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذي يطالب به عند الإخبار، كأنه يقول: استشرتك فدلني، والمستشار يتفكر، فكأنه يقول تفكر في الأمر تفهم من غير إخبار مني، الثانية: قوله ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ وهي لطيفة عجيبة: وبيانها هو أنه لما بين أنه يعبد الله بقوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢] بين أن من دونه لا تجوز عبادته فإن عبد غير الله وجب عبادة كل شيء مشارك للمعبود الذي اتخذ غير الله، لأن الكل محتاج مفتقر حادث، فلو قال لا أتخذ آلهة لقيل له ذلك يختلف إن اتخذت إلهًا غير الذي فطرك، ويلزمك عقلاً أن تتخذ آلهة لا حصر لها، وإن كان إلهك ربك وخالقك فلا يجوز أن تتخذ آلهة، الثالثة: قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ إشارة إلى أن غيره ليس بإله لأن المتخذ لا يكون إلها، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾ [الجن: ٣] وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ [الإسراء: ١١١] لأنه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز، وإنما النصارى قالوا: تبنى الله عيسى وسماه ولدًا فقال: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ [الفرقان: ٢] ولا يقال قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩] في حق الله تعالى حيث قال: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩] نقول: ذلك أمر متجدد، وذلك لأن الإنسان في أول الأمر يكون قليل الصبر ضعيف القوة، فلا يجوز أن يترك أسباب الدنيا ويقول إني أتوكل فلا يحسن من الواحد منا أن لا يشتغل بأمر أصلاً ويترك أطفاله في ورطة الحاجة ولا يوصل إلى أهله نفقتهم ويجلس في مسجد وقلبه متعلق بعطاء زيد وعمرو، فإذا قوي بالعبادة قلبه ونسي نفسه فضلاً عن غيره وأقبل على عبادة ربه بجميع قلبه وترك الدنيا وأسبابها وفوض أمره إلى الله حينئذٍ يكون من الأبرار الأخيار، فقال الله لرسوله: أنت علمت أن الأمور كلها بيد الله وعرفت الله حق المعرفة وتيقنت أن المشرق والمغرب، وما فيهما وما يقع بينهما بأمر الله، ولا إله يطلب لقضاء الحوائج إلا هو فاتخذه وكيلاً، وفوض جميع أمورك إليه فقد ارتقيت عن درجة من يؤمر بالكسب الحلال وكنت من قبل تتجر في الحلال، ومعنى قوله: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩] أي في جميع أمورك وقوله تعالى: ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون

كالوصف كأنه قال: أأتخذ آلهة غير مغنية عند إرادة الرحمن بي ضرًّا؟ وثانيهما: أن يكون كلامًا مستأنفًا كأنه قال: لا أتخذ من دونه آلهة.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ ولم يقل: إن يرد الرحمن بي ضرًّا، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨] ولم يقل: إن أراد الله بي ضرًّا، نقول: الفعل إذا كان متعديًا إلى مفعول واحد تعدى إلى مفعولين بحرف كاللازم يتعدى بحرف في قولهم: ذهب به وخرج به، ثم إن المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ما هو أولى بوقوع الفعل عليه ويجعل الآخر مفعولاً بحرف فإذا قال القائل مثلاً: كيف حال فلان؟ يقول: اختصه الملك بالكرامة والنعمة، فإذا قال: كيف كرامة الملك؟ يقول: اختصها بزيد، فيجعل المسئول مفعولاً بغير حرف لأنه هو المقصود إذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء في البؤس والرخاء، وليس الضر بمقصود بيانه، كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناءً على إيمانه بحكم وعد الله؟ ويؤيد هذا قوله من قبل ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢] حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فكذلك جعلها مفعول الإرادة وذكر الضر وقع تبعًا وكذا القول في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الزمر: ٣٨] المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله وليس الضر بخصوصه مقصودًا بالذكر ويؤيده ما تقدم حيث قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] يعني هو تحت إرادته ويتأيد ما ذكرناه بالنظر في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ [الأحزاب: ١٧] حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرف السوء وهو كالضر والمفعول بحرف هو المكلف، وذلك لأن المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلاًّ له، وكيف لا وهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم فجعل الضر مقصودًا بالذكر لزجرهم، فإن قيل: فقد ذكر الله الرحمة أيضًا حيث قال: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧] نقول: المقصود ذلك، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧] وإنما ذكر الرحمة تتمة للأمر بالتقسيم الحاصر، وكذلك إذا تأملت في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ [الفتح: ١١] فإن الكلام أيضًا مع الكفار وذكر النفع وقع تبعًا لحصر الأمر بالتقسيم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١] فإنه للتخويف، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، والمقصود إني على هدى وأنتم في ضلال، ولو قال هكذا لمنع مانع فقال بالتقسيم، كذلك ههنا المقصود الضر واقع بكم ولأجل دفع المانع قال الضر والنفع.

المسألة الثانية: قال هاهنا: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وقال في الزمر: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] فما

الحكمة في اختيار صيغة الماضي هنالك واختيار صيغة المضارع ههنا وذكر المريد باسم الرحمن هنا وذكر المريد باسم الله هناك؟ نقول: أما الماضي والمستقبل فإن (إن) في الشرط تصير الماضي مستقبلاً وذلك لأن المذكور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال في قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ وقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ [يس: ٢٢] والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضي في قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾ [النجم: ١٩] وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرࣲّ﴾ [الأنعام: ١٧] لكون المتقدم عليه مذكورًا بصيغة المستقبل وهو قوله: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ١٦] وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ﴾ [الأنعام: ١٥] والحكمة فيه هو أن الكفار كانوا يخوفون النبي ﷺ بضر يصيبه من آلهتهم فكأنه قال صدر منكم التخويف، وهذا ما سبق منكم، وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير، والجواب ما كان يمكن صدوره منهم فافترق الأمران، وأما قوله هناك: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] فنقول: قد ذكرنا أن الاسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ [الإسراء: ١١٠] والله للهيبة والعظمة والرحمن للرأفة والرحمة، وهناك وصف الله بالعزة والانتقام في قوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزࣲ ذِي ٱنتِقَامࣲ﴾ [الزمر: ٣٧] وذكر ما يدل على العظمة ما يدل على العظمة بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [العنكبوت: ٦١] فذكر الاسم الدال على العظمة وقال ههنا ما يدل على الرحمة بقوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢] فإنه نعمة هي شرط سائر النعم فقال: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرࣲّ﴾ ثم قال تعالى: ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـࣰٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ على ترتيب ما يقع من العقلاء، وذلك لأن من يريد دفع الضر عن شخص أضر به شخص يدفع بالوجه الأحسن فيشفع أولاً فإن قبله وإلا يدفع فقال: ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ﴾ ولا يقدرون على إنقاذي بوجه من الوجوه، وفي هذه الآيات حصل بيان أن الله تعالى معبود من كل وجه إن كان نظرًا إلى جانبه فهو فاطر ورب مالك يستحق العبادة سواء أحسن بعد ذلك أو لم يحسن وإن كان نظرًا إلى إحسانه فهو رحمن، وإن كان نظرًا إلى الخوف فهو يدفع ضره، وحصل بيان أن غيره لا يصلح أن يعبد بوجه من الوجوه، فإن أدنى مراتبه أن يعد ذلك ليوم كريهة وغير الله لا يدفع شيئًا إلا إذا أراد الله وإن يرد فلا حاجة إلى دافع.

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ إِذࣰا لَّفِي ضَلَٰلࣲ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾

ثم قال تعالى ﴿إِنِّيٓ إِذࣰا لَّفِي ضَلَٰلࣲ مُّبِينٍ﴾ يعني إن فعلت فأنا ضال ضلالاً بينًا، والمبين مفعل بمعنى فعيل كما جاء عكسه فعيل بمعنى مفعل في قوله أليم أي مؤلم، ويمكن أن يقال ضلال مبين أي مظهور الأمر للناظر والأول هو الصحيح.

ثم قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ في المخاطب بقوله: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ وجوه أحدها: هم المرسلون، قال المفسرون: أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال: إني آمنت بربكم فاسمعوا قولي واشهدوا لي، وثانيها: هم الكفار كأنه لما نصحهم وما نفعهم قال:

فأنا آمنت فاسمعون، وثالثها: بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم، كما قلنا في قول الواعظ حيث يقول: يا مسكين ما أكثر أملك وما أنزل عملك، يريد به كل سامع يسمعه، وفي قوله: ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ فوائد أحدها: أنه كلام مترو متفكر حيث قال: ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ فإن المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعة سامعين يتفكر، وثانيها: أنه ينبه القوم ويقول إني أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك، وثالثها: أن يكون المراد السماع الذي بمعنى القبول، يقول القائل: نصحته فسمع قولي، أي قبله، فإن قلت: لم قال من قبل: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢]وقال هاهنا: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ ولم يقل آمنت بربي؟ نقول: قولنا الخطاب مع الرسل أمر ظاهر، لأنه لما قال: آمنت بربكم، ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذي دعوه إليه ولو قال بربي لعلهم كانوا يقولون كل كافر يقول لي رب وأنا مؤمن بربي، وأما على قولنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد، وذلك لأنه لما قال: ﴿أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢]ثم قال: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ فهم أنه يقول ربي وربكم واحد وهو الذي فطرني وهو بعينه ربكم، بخلاف ما لو قال آمنت بربي فيقول الكافر وأنا أيضًا آمنت بربي ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ [الشورى: ١٥].

قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ فيه وجهان أحدهما: أنه قتل ثم قيل له ادخل الجنة بعد القتل، وثانيهما: قيل ادخل الجنة عقيب قوله ﴿ءَامَنتُ﴾ [يس: ٢٥].

وعلى الأول. فقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ يكون بعد موته والله أخبر بقوله وعلى الثاني قال ذلك في حياته وكأنه سمع الرسل أنه من الداخلين الجنة وصدقهم وقطع به وعلمه، فقال: يا ليت قومي يعلمون كما علمت فيؤمنون كما آمنت وفي معنى قوله تعالى: ﴿قِيلَ﴾ وجهان كما أن في وقت ذلك وجهان أحدهما: قيل من القول، والثاني: ادخل الجنة، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [يس: ٨٢]ليس المراد القول في وجه بل هو الفعل أي يفعله في حينه من غير تأخير وتراخ وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي﴾ [هود: ٤٤]في وجه جعل الأرض بالعة ماءها.

وفي قوله تعالى: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ وجوه:

أحدها: أن ما استفهامية كأنه قال: يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي حتى يشتغلوا به، وهو ضعيف، وإلا لكان الأحسن أن تكون ما محذوفة الألف يقال بم وفيم وعم ولم.

وثانيها: خبرية كأنه قال: يا ليت قومي يعلمون بالذي غفر لي ربي، وثالثها: مصدرية، كأنه قال: يا ليت قومي يعلمون بمغفرة ربي لي، والوجهان الآخران هما المختاران.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ قد ذكرنا أن الإيمان والعمل الصالح يوجبان أمرين هما الغفران والإكرام كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبا: ٤] والرجل كان من المؤمنين الصلحاء، والمكرم على ضد المهان، والإهانة بالحاجة والإكرام بالاستغناء فيغني الله الصالح عن كل أحد ويدفع جميع حاجاته بنفسه.

ثم إنه تعالى لما بين حاله بين حال المتخلفين المخالفين له من قوله بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إشارة إلى هلاكهم بعده سريعًا على أسهل وجه فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال هاهنا: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ بإسناد الفعل إلى النفس، وقال في بيان حال المؤمن ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٦] بإسناد القول إلى غير مذكور، وذلك لأن العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم، وأما في: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فقال (قيل) ليكون هو كالمهنأ بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه: ادخل الجنة خالدًا فيها، وكثيرًا ما ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟﴾ [الزمر: ٧٢] إشارة إلى أن الدخول يكون دخولاً بإكرام كما يدخل العريس البيت المزين على رءوس الأشهاد يهنئه كل أحد.

المسألة الثانية: لم أضاف القوم إليه مع أن الرسل أولى بكون الجمع قومًا لهم فإن الواحد يكون له قوم هم آله وأصحابه والرسول لكونه مرسلاً يكون جميع الخلق وجميع من أرسل إليهم قومًا له؟ نقول: لوجهين أحدهما: ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة أكرم أحدهما غاية الإكرام بسبب الإيمان وأهين الآخر غاية الإهانة بسبب الكفر، وهذا من قوم أولئك في النسب، وثانيهما: أن العذاب كان مختصًا بأقارب ذلك، لأن غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصبهم العذاب.

المسألة الثانية: خصص عدم الإنزال بما بعده والله تعالى لم ينزل عليهم جندًا قبله أيضًا فما فائدة التخصيص؟ نقول: استحقاقهم العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الهلاك أنه لم يكن بجند.

المسألة الرابعة: قال: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل إليهم جندًا من الأرض فما فائدة التقييد؟ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن يكون المراد وما أنزلنا عليهم جندًا بأمر من السماء فيكون للعموم، وثانيهما: أن العذاب نزل عليهم من السماء فبين أن النازل لم يكن جندًا لهم عظمة وإنما كان ذلك بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم.

المسألة الخامسة: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أية فائدة فيه مع أن قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ يستلزم أنه لا يكون

من المنزلين؟ نقول: قوله: ﴿وَمَا كُنَّا﴾ أي ما كان ينبغي لنا أن ننزل لأن الأمر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين إلى إنزال، أو نقول: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ . . . ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ في مثل تلك الواقعة جندًا في غير تلك الواقعة، فإن قيل فكيف أنزل الله جنودًا في يوم بدر وفي غير ذلك حيث قال: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦]؟ نقول: ذلك تعظيمًا لمحمد ﷺ وإلا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافيًا في استئصالهم وما كان رسل عيسى عليه السلام في درجة محمد ﷺ.

ثم بين الله تعالى ما كان بقوله: ﴿إِن كَانَتْ﴾ الواقعة ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ وقال الزمخشري: أصله إن كان شيء إلا صيحة فكان الأصل أن يذكر، لكنه تعالى أنث لما بعده من المفسر وهو الصيحة.

وقوله تعالى: ﴿وَاحِدَةً﴾ تأكيد لكون الأمر هينًا عند الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك فإن خمودهم كان من الصيحة وفي وقتها لم يتأخر، ووصفهم بالخمود في غاية الحسن وذلك لأن الحي فيه الحرارة الغريزية وكلما كانت الحرارة أوفر كانت القوة الغضبية والشهوانية أتم وهم كانوا كذلك، أما الغضب فإنهم قتلوا مؤمنًا كان ينصحهم، وأما الشهوة فلأنهم احتملوا العذاب الدائم بسبب استيفاء اللذات الحالية فإذن كانوا كالنار الموقدة، ولأنهم كانوا جبارين مستكبرين كالنار ومن خلق منها فقال: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ وفيه وجه آخر: وهو أن العناصر الأربعة يخرج بعضها عن طبيعته التي خلقه الله عليها ويصير العنصر الآخر بإرادة الله فالأحجار تصير مياهًا، والمياه تصير أحجارًا وكذلك الماء يصير هواء عند الغليان والسخونة والهواء يصير ماء للبرد ولكن ذلك في العادة بزمان، وأما الهواء فيصير نارًا والنار تصير هواء بالاشتعال والخمود في أسرع زمان، فقال خامدين بسببها فخمود النار في السرعة كإطفاء سراج أو شعلة.

قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي هذا وقت الحسرة فاحضري يا حسرة والتنكير للتكثير.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الألف واللام في العباد يحتمل وجهين أحدهما: للمعهود وهم الذين أخذتهم الصيحة فيا حسرة على أولئك، وثانيهما: لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين.

المسألة الثانية: من المتحسر؟ نقول: فيه وجوه الأول: لا متحسر أصلاً في الحقيقة إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب.

وهاهنا بحث لغوي: وهو أن المفعول قد يرفض رأسًا إذا كان الغرض غير متعلق به يقال: إن

فلانًا يعطي ويمنع ولا يكون هناك شيء معطى إذ المقصود أن له المنع والإعطاء، ورفض المفعول كثير وما نحن فيه رفض الفاعل وهو قليل، والوجه فيه ما ذكرنا، أن ذكر المتحسر غير مقصود وإنما المقصود أن الحسرة متحققة في ذلك الوقت، الثاني: أن قائل يا حسرة هو الله على الاستعارة تعظيمًا للأمر وتهويلاً له وحينئذٍ يكون كالألفاظ التي وردت في حق الله كالضحك والنسيان والسخر والتعجب والتمني، أو نقول: ليس معنى قولنا يا حسرة ويا ندامة، أن القائل متحسر أو نادم بل المعنى أنه مخبر عن وقوع الندامة، ولا يحتاج إلى تجوز في بيان كونه تعالى قال: ﴿يَحَسْرَةً﴾ بل يخبر به على حقيقته إلا في النداء، فإن النداء مجاز والمراد الإخبار، الثالث: المتلهفون من المسلمين والملائكة ألا ترى إلى ما حكي عن حبيب أنه حين القتل كان يقول: اللهم اهد قومي، وبعد ما قتلوه وأدخل الجنة قال: يا ليت قومي يعلمون، فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر ويتندم له وعليه.

المسألة الثالثة: قرئ (ياحسرة) بالتنوين، و(يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ) بالإضافة من غير كلمة على، وقرئ (يا حسره على) بالهاء إجراء للوصل مجرى الوقف.

المسألة الرابعة: من المراد بالعباد؟ نقول: فيه وجوه أحدها: الرسل الثلاثة كأن الكافرين يقولون عند ظهور البأس: يا حسرة عليهم يا ليتهم كانوا حاضرين شأننا لنؤمن بهم، وثانيها: هم قوم حبيب، وثالثها: كل من كفر وأصر واستكبر وعلى الأول فإطلاق العباد على المؤمنين كما في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقوله: ﴿قُلْ يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ [الزمر: ٥٣] وعلى الثاني فإطلاق العباد على الكفار، وفرق بين العبد مطلقًا وبين المضاف إلى الله تعالى فإن الإضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفًا تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف ما لا يكون في قولك البيت، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] من قبيل قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ [الحجر: ٤٢] وكذلك ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ [الصافات: ٧٤]

ثم بين الله تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهذا سبب الندامة وذلك لأن من جاءه ملك من بادية، وأعرفه نفسه، وطلب منه أمرًا هينًا فكذبه ولم يجبه إلى ما دعاه، ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه أنه ذلك، يكون عنده من الندامة ما لا مزيد عليه، فكذلك الرسل هم ملوك وأعظم منهم بإعزاز الله إياهم وجعلهم نوابه كما قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وجاءوا وعرفوا أنفسهم ولم يكن لهم عظمة ظاهرة في الحس، ثم يوم القيامة أو عند ظهور البأس ظهرت عظمتهم عند الله لهم، وكان ما يدعون إليه أمرًا هينًا نفعه عائد إليهم من عبادة الله وما كانوا يسألون عليه أجرًا، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة، وكيف لا وهم يقتنعوا بالإعراض حتى آذوا واستهزءوا واستخفوا واستهانوا وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ الضمير يجوز أن يكون عائدًا إلى قوم حبيب، أي ما يأتيهم من رسول من الرسل الثلاثة ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ على قولنا الحسرة عليهم، ويجوز أن يكون

عائدًا إلى الكفار المصرين. ثم إن الله تعالى لما بين حال الأولين قال للحاضرين: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أي الباقون لا يرون ما جرى على من تقدمهم، ويحتمل أن يقال: إن الذين قيل في حقهم: ﴿يَا حَسْرَةً﴾ هم الذين قال في حقهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ومعناه أن كل مهلك تقدمه قوم كذبوا وأهلكوا إلى قوم نوح وقبله.

وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل في المعنى عن قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وذلك لأن معنى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ ألم يروا كثرة إهلاكنا، وفي معنى، ألم يروا المهلكين الكثيرين أنهم إليهم لا يرجعون، وحينئذٍ يكون كبدل الاشتمال، لأن قوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ حال من أحوال المهلكين، أي أهلكوا بحيث لا رجوع لهم إليهم فيصير كقولك: ألا ترى زيدًا أدبه، وعلى هذا فقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فيه وجهان أحدهما: أهلكوا إهلاكًا لا رجوع لهم إلى من في الدنيا، وثانيهما: هو أنهم لا يرجعون إليهم، أي الباقون لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة، يعني أهلكناهم وقطعنا نسلهم، ولا شك في أن الإهلاك الذي يكون مع قطع النسل أتم وأعم، والوجه الأول أشهر نقلاً، والثاني أظهر عقلاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

لما بين الإهلاك بين أنه ليس من أهلكه الله تركه، بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة، ونعم ما قال القائل:

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكْنَا ... لَكَانَ الْمَوْتُ رَاحَةَ كُلِّ حَيِّ[1]
وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا ... وَنُسْأَلُ بعده عن كل شي

وقوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا﴾ في إن وجهان أحدهما: أنها مخففة من الثقيلة واللام في لما فارقة بينها وبين النافية، وما زائدة مؤكدة في المعنى، والقراءة حينئذٍ بالتخفيف في لما، وثانيهما: أنها نافية ولما بمعنى إلا، قال سيبويه: يقال نشدتك بالله لما فعلت، بمعنى إلا فعلت، والقراءة حينئذٍ بالتشديد في لما، يؤيد هذا ما روي أن أبيًا قرأ (وما كل إلا جميع) وفي قول سيبويه: لما بمعنى إلا وارد معنى مناسب وهو أن لما كأنها حرفا نفي جُمِعا وهما لم وما فتأكد النفي، ولهذا يقال في جواب من قال قد فعل لما يفعل، وفي جواب من قال فعل لم يفعل، وإلا كأنها حرفا نفي إن ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر، قال الزمخشري: فإن قال قائل: كل وجميع بمعنى واحد، فكيف جعل جميعًا خبرًا لكل حيث دخلت اللام عليه، إذ التقدير وإن كل لجميع؟ نقول: معنى جميع مجموع، ومعنى كل كل فرد بحيث لا يخرج عن الحكم أحد، فصار المعنى كل فرد مجموع مع الآخر مضموم إليه، ويمكن أن يقال محضرون، يعني عما ذكره، وذلك لأنه لو قال: وإن جميع لجميع محضرون، لكان كلامًا صحيحًا ولم يوجد ما ذكره من الجواب، بل الصحيح

---

(١) هذا البيت منسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أن محضرون كالصفة للجميع، فكأنه قال جميع جميع محضرون، كما يقال الرجل رجل عالم، والنبي نبي مرسل، والواو في ﴿وَإِن كُلٌّ﴾ لعطف الحكاية على الحكاية، كأنه يقول بينت لك ما ذكرت، وأبين أن كلًّا لدينا محضرون.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾

كأنه يقول: وأقول أيضًا آية لهم الأرض الميتة.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما وجه تعلق هذا بما قبله؟ نقول: مناسب لما قبله من وجهين أحدهما: أنه لما قال: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ [يس: ٣٢] كان ذلك إشارة إلى الحشر، فذكر ما يدل على إمكانه قطعًا لإنكارهم واستبعادهم وإصرارهم وعنادهم، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ كذلك نحيي الموتى، وثانيهما: أنه لما ذكر حال المرسلين وإهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ذكر ما يدل عليه، وبدأ بالأرض لكونها مكانهم لا مفارقة لهم منها عند الحركة والسكون.

المسألة الثانية: الأرض آية مطلقًا فلم خصصها بهم حيث قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ نقول: الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشيء بأبلغ الوجوه، وأما من عرف الشيء بطريق الرؤية لا يذكر له دليل، فإن النبي ﷺ وعباد الله المخلصين عرفوا الله قبل الأرض والسماء، فليست الأرض معرفة لهم، وهذا كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] يعني أنت كفاك ربك معرفًا، به عرفت كل شيء فهو شهيد لك على كل شيء، وأما هؤلاء تبين لهم الحق بالآفاق والأنفس، وكذلك هاهنا آية لهم.

المسألة الثالثة: إن قلنا إن الآية مذكورة للاستدلال على جواز إحياء الموتى فيكفي قوله: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ ولا حاجة إلى قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ وغير ذلك، وإن قلنا إنها للاستدلال على وجود الإله ووحدته فلا فائدة في قوله: ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ لأن نفس الأرض دليل ظاهر وبرهان باهر، ثم هب أنها غير كافية فقوله: ﴿ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ كاف في التوحيد فما فائدة قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾؟ نقول: مذكورة للاستدلال عليها ولكل ما ذكره الله تعالى فائدة. أما قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ فله فائدة بالنسبة إلى بيان إحياء الموتى، وذلك لأنه لما أحيا الأرض وأخرج منها حبًا كان ذلك إحياءً تامًا لأن الأرض المخضرة التي لا تنبت الزرع ولا تخرج الحب دون ما تنبته في الحياة، فكأنه قال تعالى: الذي أحيا الأرض إحياءً كاملًا منبتًا للزرع يحيي الموتى إحياءً كاملًا بحيث تدرك الأمور، وأما بالنسبة إلى التوحيد فلأن فيه تعديد النعم كأنه يقول: آية لهم الأرض فإنها مكانهم ومهدهم الذي فيه تحريكهم وإسكانهم والأمر الضروري الذي عنده

وجودهم وإمكانهم وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهي مكان لهم لا بد لهم منها فهي نعمة، ثم إحياؤها بحيث تخضر نعمة ثانية فإنها تصير أحسن وأنزه، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة فإن قوتهم يصير في مكانهم، وكان يمكن أن يجعل الله رزقهم في السماء أو في الهواء فلا يحصل لهم الوثوق، ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لأن الأرض تنبت الحب في كل سنة، وأما الأشجار بحيث تؤخذ منها الثمار فتكون بعد الحب وجودًا، ثم فجرنا فيها العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ولو كان ماؤها من السماء لحصل ولكن لم يعلم أنها أين تغرس وأين يقع المطر وينزل القطر وبالنسبة إلى بيان إحياء الموتى كل ذلك مفيد وذلك لأن قوله: ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ كالإشارة إلى الأمر الضروري الذي لا بد منه، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾ كالأمر المحتاج إليه الذي إن لم يكن لا يغني الإنسان لكنه يبقى مختل الحال وقوله: ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ إشارة إلى الزينة التي إن لم تكن لا تعني الإنسان ولا يبقى في ورطة الحاجة، لكنه لا يكون على أحسن ما ينبغي، وكأن حال الإنسان بالحب كحال الفقير الذي له ما يسد خلته من بعض الوجوه ولا يدفع حاجته من كل الوجوه وبالثمار ويعتبر حاله كحال المكتفي بالعيون الجارية التي يعتمد عليها الإنسان ويقوى بها قلبه كالمستغني الغنى المدخر لقوت سنين، فيقول الله عز وجل: كما فعلنا في موات الأرض كذلك نفعل في الأموات في الأرض فنحييهم ونعطيهم ما لا بد لهم منه في بقائهم وتكوينهم من الأعضاء المحتاج إليها وقواها كالعين والقوة الباصرة والأذن والقوة السامعة وغيرهما ونزيد له ما هو زينة كالعقل الكامل والإدراك الشامل فيكون كأنه قال: نحيي الموتى إحياءً تامًّا كما أحيينا الأرض إحياءً تامًّا.

المسألة الرابعة: قال عند ذكر الحب ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ وفي الأشجار والثمار قال: ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ وذلك لأن الحب قوت لا بد منه فقال: ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي هم آكلوه، وأما الثمار ليست كذلك، فكأنه تعالى قال: إن كنا ما أخرجناها كانوا يبقون من غير أكل فأخرجناها ليأكلوها.

المسألة الخامسة: خصص النخيل والأعناب بالذكر من سائر الفواكه لأن ألذ المطعوم الحلاوة، وهي فيها أتم ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة، ولا كذلك غيرهما ولأنهما أعم نفعًا فإنها تحمل من البلاد إلى الأماكن البعيدة، فإن قيل: فقد ذكر الله الرمان والزيتون في الأنعام والقضب والزيتون والتين في مواضع، نقول: في الأنعام وغيرها المقصود ذكر الفواكه والثمار ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩٩]وإلى قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤]فاستوفى الأنواع بالذكر وههنا المقصود ذكر صفات الأرض فاختار منها الألذ الأنفع، وقد ذكرنا في سورة الأنعام ما يستفاد منه الفوائد ويعلم منه فائدة قوله تعالى: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨].

المسألة السادسة: في المواضع التي ذكر الله الفواكه لم يذكر التمر بلفظ شجرته وهي

ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والأعناب، ولم يذكر الكرم وذلك لأن العنب شجرته بالنسبة إلى ثمرته حقيرة قليلة الفائدة والنخل بالنسبة إلى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى، فإن كثيرًا من الظروف منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولها شبه بالحيوان فاختار منها ما هو الأعجب منها، وقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ آية عظيمة لأن الأرض أجزاؤها بحكم العادة لا تصعد ونحن نرى منابع الأنهار والعيون في المواضع المرتفعة وذلك دليل القدرة والاختيار، والقائلون بالطبائع قالوا: إن الجبال كالقباب المبنية والأبخرة ترتفع إليها كما ترتفع إلى سقوف الحمامات وتتكون هناك قطرات من الماء ثم تجتمع، فإن لم تكن قوية تحصل المياه الراكدة كالآبار وتجري في القنوات، إن كانت قوية تشق الأرض وتخرج أنهارًا جارية وتجتمع فتحصل الأنهار العظيمة وتمدها مياه الأمطار والثلوج، فنقول: اختصاص بعض الجبال بالعيون دليل ظاهر على الاختيار وما ذكروه تعسف، فالحق هو أن الله تعالى خلق الماء في المواضع المرتفعة وساقها في الأنهار والسواقي أو صعد الماء من المواضع المتسفلة إلى الأماكن المرتفعة بأمر الله وجرى في الأودية إلى البقاع التي أنعم الله على أهلها.

قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

والترتيب ظاهر ويظهر أيضًا في التفسير.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لِمَ أخر التنبيه على الانتفاع بقوله: ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ عن ذكر الثمار حتى قال: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ وقال في الحب: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ عقيب ذكر الحب، ولم يقل عقيب ذكر النخيل والأعناب: ليأكلوا؟ نقول: الحب قوت وهو يتم وجوده بمياه الأمطار، ولهذا يرى أكثر البلاد لا يكون بها شيء من الأشجار والزرع والحراثة لا تبطل هناك اعتمادًا على ماء السماء وهذا لطف من الله حيث جعل ما يحتاج إليه الإنسان أعم وجودًا، وأما الثمار فلا تتم إلا بالأنهار ولا تصير الأشجار حاملة للثمار إلا بعد وجود الأنهار فلهذا أخر.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ عائد إلى أي شيء؟ نقول: المشهور أنه عائد إلى الله أي ليأكلوا من ثمر الله، وفيه لطيفة: وهي أن الثمار بعد وجود الأشجار وجريان الأنهار لم توجد إلا بالله تعالى ولولا خلق الله ذلك لم توجد فالثمر بعد جميع ما يظن الظان أنه سبب وجوده ليس إلا بالله تعالى وإرادته فهي ثمره، ويحتمل أن يعود إلى النخيل وترك الأعناب لحصول العلم بأنها في حكم النخيل، ويحتمل أن يقال: هو راجع إلى المذكور أي من ثمر ما ذكرنا، وهذان الوجهان نقلهما الزمخشري، ويحتمل وجهًا آخر أغرب وأقرب وهو أن يقال: المراد من الثمر الفوائد يقال: ثمرة التجارة الربح، ويقال: ثمرة العبادة الثواب، وحينئذٍ يكون الضمير عائدًا إلى التفجير المدلول عليه بقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ تفجيرًا ليأكلوا من فوائد

ذلك التفجير وفوائده أكثر من الثمار بل يدخل فيه ما قال الله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ [عبس: ٢٥] إلى أن قال: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٧ -٣١] والتفجير أقرب في الذكر من النخيل، ولو كان عائدًا إلى الله لقال: من ثمرنا كما قال: (وَجَعَلْنَا) (وَفَجَّرْنَا).

المسألة الثالثة: ما في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ من أي الماءات هي؟ نقول: فيها وجوه أحدها: نافية كأنه قال: وما عملت التفجير أيديهم بل الله فجر، وثانيها: موصولة بمعنى الذي كأنه قال: والذي عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير يأكلون منه أيضًا ويأكلون من ثمر الله الذي أخرجه من غير سعي من الناس، فعطف الذي عملته الأيدي على ما خلقه الله من غير مدخل للإنسان فيها، وثالثها: هي مصدرية على قراءة من قرأ (وَمَا عَمِلَتْ) من غير ضمير عائد معناه ليأكلوا من ثمره وعمل أيديهم يعني يغرسون والله ينبتها ويخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل أيديهم وخلق الله، وهذا الوجه لا يمكن على قراءة من قرأ مع الضمير.

المسألة الرابعة: على قولنا ما موصولة، يحتمل أن يكون بمعنى وما عملته أي بالتجارة كأنه ذكر نوعي ما يأكل الإنسان بهما، وهما الزراعة والتجارة، ومن النبات ما يؤكل من غير عمل الأيدي كالعنب والتمر وغيرهما ومنه ما يعمل فيه عمل صنعة فيؤكل كالأشياء التي لا تؤكل إلا مطبوخة أو كالزيتون الذي لا يؤكل إلا بعد إصلاح، ثم لما عدد النعم أشار إلى الشكر بقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وذكر بصيغة الاستفهام لما بينا من فوائد الاستفهام فيما تقدم.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾

قد ذكرنا أن لفظة سبحان علم دال على التسبيح وتقديره سبح تسبيح الذي خلق الأزواج كلها، ومعنى سبح نزه، ووجه تعلق الآية بما قبلها هو أنه تعالى لما قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥] وشكر الله بالعبادة وهم تركوها ولم يقتنعوا بالترك بل عبدوا غيره وأتوا بالشرك فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ وغيره لم يخلق شيئًا فقال أو نقول: لما بين أنهم أنكروا الآيات ولم يشكروا بين ما ينبغي أن يكون عليه العاقل فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أو نقول: لما بين الآيات قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ما ذكره عن أن يكون له شريك أو يكون عاجزًا عن إحياء الموتى.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿كُلَّهَا﴾ يدل على أن أفعال العباد مخلوقة لله لأن الزوج هو الصنف وأفعال العباد أصناف ولها أشباه هي واقعة تحت أجناس الأعراض فتكون من الكل الذي قال الله فيها إنه خلق الأزواج كلها، لا يقال: مما تنبت الأرض، يخرج الكلام عن العموم لأن من قال.

أعطيت زيدًا كل ما كان لي، يكون للعموم إن اقتصر عليه، فإذا قال بعده: من الثياب، لا يبقى الكلام على عمومه لأنا نقول ذلك إذا كانت (من) لبيان التخصيص، أما إذا كانت لتأكيد العموم فلا، بدليل أن من قال: أعطيته كل شيء من الدواب والثياب والعبيد والجواري، يفهم منه أنه يعدد الأصناف لتأكيد العموم ويؤيد هذا قوله تعالى في حم: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢] من غير تقييد.

المسألة الثانية: ذكر الله تعالى أمورًا ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات فقوله: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ يدخل فيها ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار، وقوله: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يدخل فيها الدلائل النفسية، وقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ يدخل ما في أقطار السموات وتخوم الأرضين وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم كما ذكرنا في المثال.

المسألة الثالثة: قوله ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه معنى لطيف وهو أنه تعالى إنما ذكر كون الكل مخلوقًا لينزه الله عن الشريك فإن المخلوق لا يصلح شريكًا للخلق، لكن التوحيد الحقيقي لا يحصل إلا بالاعتراف بأن لا إله إلا الله، فقال تعالى: اعلموا أن المانع من التشريك فيما تعلمون وما لا تعلمون لأن الخلق عام والمانع من الشركة الخلق فلا تشركوا بالله شيئًا مما تعلمون فإنكم تعلمون أنه مخلوق ومما لا تعلمون فإنه عند الله كله مخلوق لكون كله ممكنًا.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧﴾

لما استدل الله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي فإن دلالة المكان والزمان مناسبة لأن المكان لا تستغني عنه الجواهر والزمان لا تستغني عنه الأعراض، لأن كل عرض فهو في زمان ومثله مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] ثم قال بعده: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩] حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضًا، لكن المقصود أولاً هناك إثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ﴾ [فصلت: ٣٧] ثم الحشر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩] وههنا المقصود أولاً إثبات الحشر لأن السورة فيها ذكر الحشر أكثر، يدل عليه النظر في السورة، وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى فيه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] إلى غيره وآخر السورتين يبين الأمر.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المكان يدفع عن أهل السنة شبه الفلاسفة، والزمان يدفع عنهم شُبَهَ المشبهة.

أما بيان الأول: فذلك لأن الفلسفي يقول: لو كان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل، وقبل وبعد لا يتحقق إلا بالزمان، فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه وهو محال، فنقول لهم: قد وافقتمونا على أن الأمكنة متناهية، لأن الأبعاد متناهية بالاتفاق، فإذن فوق السطح الأعلى من العالم يكون عدمًا وهو موصوف بالفوقية، وفوق وتحت لا يتحقق إلا بالمكان ففوق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه، فإن أجابوا بأن فوق السطح الأعلى لا خلا ولا ملا، نقول: قبل وجود العالم لا آن ولا زمان موجود.

أما بيان الثاني: فلأن المشبهي يقول: لا يمكن وجود موجود إلا في مكان، فالله في مكان، فنقول: فيلزمكم أن تقولوا الله في زمان لأن الوهم كما لا يمكنه أن يقول هو موجود ولا مكان لا يمكنه أن يقول هو كان موجودًا ولا زمان وكل زمان فهو حادث وقد أجمعنا على أن الله تعالى قديم.

المسألة الثانية: لو قال قائل: إذا كان المراد منه الاستدلال بالزمان فلِمَ اختار الليل حيث قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾؟ نقول: لما استدل بالمكان الذي هو المظلم وهو الأرض وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٣] استدل بالزمان الذي فيه الظلمة وهو الليل، ووجه آخر: وهو أن الليل فيه سكون الناس وهدوء الأصوات وفيه النوم وهو كالموت ويكون بعده طلوع الشمس كالنفخ في الصور فيتحرك الناس فذكر الموت كما قال في الأرض: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [يس: ٣٣] فذكر من الزمانين أشبههما بالموت كما ذكر من المكانين أشبههما بالموت.

المسألة الثالثة: ما معنى سلخ النهار من الليل؟ نقول معناه تمييزه منه يقال: انسلخ النهار من الليل إذا أتى آخر النهار ودخل أول الليل، وسلخه الله منه فانسلخ هو منه، وأما إذا استعمل بغير كلمة من فقيل سلخت النهار أو الشمس فمعناه دخلت في آخره، فإن قيل فالليل في نفسه آية فأية حاجة إلى قوله: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾؟ نقول: الشيء تتبين بضده منافعه ومحاسنه، ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية في موضع من المواضع إلا وذكر آية النهار معها، وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام، وإذا للمفاجأة أي ليس بيدهم بعد ذلك أمر ولا بد لهم من الدخول فيه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

يحتمل أن يكون الواو للعطف على الليل تقديره: وآية لهم الليل نسلخ والشمس تجري والقمر قدرناه، فهي كلها آية، وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾ إشارة إلى سبب سلخ النهار فإنها تجري لمستقر لها وهو وقت الغروب فينسلخ النهار، وفائدة ذكر السبب هو أن الله لما قال نسلخ منه النهار وكان غير بعيد من الجهال أن يقول قائل: منهم سلخ النهار ليس من الله إنما يسلخ النهار بغروب الشمس فقال تعالى: والشمس تجري لمستقر لها بأمر الله فمغرب الشمس سالخ

للنهار فبذكر السبب يتبين صحة الدعوى ويحتمل أن يقال بأن قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ إشارة إلى نعمة النهار بعد الليل كأنه تعالى لما قال: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧] ذكر أن الشمس تجري فتطلع عند انقضاء الليل فيعود النهار بمنافعه، وقوله: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ﴾ اللام يحتمل أن تكون للوقت كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾[الإسراء: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[الطلاق: ١] ووجه استعمال اللام للوقت هو أن اللام المكسورة في الأسماء لتحقيق معنى الإضافة لكن إضافة الفعل إلى سببه أحسن الإضافات لأن الإضافة لتعريف المضاف بالمضاف إليه كما في قوله: دار زيد لكن الفعل يعرف بسببه فيقال: اتجر للربح واشتر للأكل، وإذا علم أن اللام تستعمل للتعليل فنقول: وقت الشيء يشبه سبب الشيء لأن الوقت يأتي بالأمر الكائن فيه، والأمور متعلقة بأوقاتها فيقال: خرج لعشر من كذا ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾[الإسراء: ٧٨] لأن الوقت معرف كالسبب وعلى هذا فمعناه تجري الشمس وقت استقرارها أي كلما استقرت زمانًا أمرت بالجري فجرت، ويحتمل أن تكون بمعنى إلى أي إلى مستقر لها وتقريره هو أن اللام تذكر للوقت وللوقت طرفان ابتداء وانتهاء يقال: سرت من يوم الجمعة إلى يوم الخميس، فجاز استعمال ما يستعمل فيه في أحد طرفيه لما بينهما من الاتصال ويؤيد هذا قراءة من قرأ ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ وعلى هذا ففي ذلك المستقر وجوه الأول: يوم القيامة وعنده تستقر ولا يبقى لها حركة، الثاني: السنة، الثالث: الليل أي تجري إلى الليل، الرابع: أن ذلك المستقر ليس بالنسبة إلى الزمان بل هو للمكان وحينئذٍ ففيه وجوه الأول: هو غاية ارتفاعها في الصيف وغاية انخفاضها في الشتاء أي تجري إلى أن تبلغ ذلك الموضع فترجع، الثاني: هو غاية مشارقها فإن في كل يوم لها مشرق إلى ستة أشهر ثم تعود إلى تلك المقنطرات وهذا هو القول الذي تقدم في الارتفاع فإن اختلاف المشارق بسبب اختلاف الارتفاع، الثالث: هو وصولها إلى بيتها في الابتداء، الرابع: هو الدائرة التي عليها حركتها حيث لا تميل عن منطقة البروج على مرور الشمس وسنذكرها، ويحتمل أن يقال ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ أي تجري مجرى مستقرها؛ فإن أصحاب الهيئة قالوا: الشمس في فلك والفلك يدور فيدير الشمس فالشمس تجري مجرى مستقرها، وقالت الفلاسفة: تجري لمستقرها أي لأمر لو وجدها لاستقر وهو استخراج الأوضاع الممكنة وهو في غاية السقوط، وأجاب الله عنه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي ليس لإرادتها وإنما ذلك بإرادة الله وتقديره وتدبيره وتسخيره إياها، فإن قيل: عددت الوجوه الكثيرة وما ذكرت المختار، فما الوجه المختار عندك؟ نقول: المختار هو أن المراد من المستقر المكان أي تجري لبلوغ مستقرها وهو غاية الارتفاع والانخفاض فإن ذلك يشمل المشارق والمغارب والمجرى الذي لا يختلف والزمان وهو السنة والليل فهو أتم فائدة، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى جري الشمس أي ذلك الجري تقدير الله ويحتمل أن يكون إشارة إلى المستقر أي لمستقر لها وذلك المستقر تقدير الله،

و﴿ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب وهو بكمال القدرة يغلب، و﴿ ٱلْعَلِيمِ﴾ كامل العلم أي الذي قدر على إجرائها على الوجه الأنفع وعلم الأنفع فأجراها على ذلك، وبيانه من وجوه الأول: هو أن الشمس في ستة أشهر كل يوم تمر على مسامتة شيء لم تمر من أمسها على تلك المسامتة، ولو قدر الله مرورها على مسامتة واحدة لاحترقت الأرض التي هي مسامتة لممرها وبقي المجموع مستوليًا على الأماكن الأخر فقدر الله لها بعدًا لتجمع الرطوبات في باطن الأرض والأشجار في زمان الشتاء ثم قدر قربها بتدريج لتخريج النبات والثمار من الأرض والشجر وتنضج وتجفف، ثم تبعد لئلا يحترق وجه الأرض وأغصان الأشجار، الثاني: هو أن الله قدر لها في كل يوم طلوعًا وفي كل ليلة غروبًا لئلا تكون القوى والأبصار بالسهر والتعب ولا يخرب العالم بترك العمارة بسبب الظلمة الدائمة، الثالث: جعل سيرها أبطأ من سير القمر وأسرع من سير زحل لأنها كاملة النور فلو كانت بطيئة السير لدامت زمانًا كثيرًا في مسامتة شيء واحد فتحرقه، ولو كانت سريعة السير لما حصل لها لبث بقدر ما ينضج الثمار في بقعة واحدة.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾

قال الزمخشري: لا بد من تقدير لفظ يتم به معنى الكلام لأن القمر لم يجعل نفسه منازل فالمعنى أنا قدرنا سيره منازل وعلى ما ذكره يحتمل أن يقال المراد منه، والقمر قدرناه ذا منازل لأن ذا الشيء قريب من الشيء ولهذا جاز قول القائل عيشة راضية لأن ذا الشيء كالقائم به الشيء فأتوا بلفظ الوصف.

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي رجع في الدقة إلى حالته التي كان عليها من قبل. والعرجون من الانعراج يقال لعود العذق عرجون، والقديم المتقادم الزمان، قيل إن ما غبر عليه سنة فهو قديم، والصحيح أن هذه بعينها لا تشترط في جواز إطلاق القديم عليه وإنما تعتبر العادة، حتى لا يقال لمدينة بنيت من سنة وسنتين إنها بناء قديم أو هي قديمة ويقال لبعض الأشياء إنه قديم، وإن لم يكن له سنة، ولهذا جاز أن يقال بيت قديم وبناء قديم ولم يجز أن يقال في العالم إنه قديم، لأن القدم في البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد ومرور السنين عليه، وإطلاق القديم على العالم لا يعتاد إلا عند من يعتقد أنه لا أول له ولا سابق عليه.

قوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

إشارة إلى أن كل شيء من الأشياء المذكورة خلق على وفق الحكمة، فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر وإلا لكان في شهر واحد صيف وشتاء فلا تدرك الثمار، وقوله: ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ قيل في تفسيره: إن سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهي سلطان النهار، وقيل: معناه ولا الليل سابق النهار أي الليل لا يدخل وقت النهار، والثاني

بعيد لأن ذلك يقع إيضاحًا للواضح والأول صحيح إن أريد به ما بينته وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أن القمر إذا كان على أفق المشرق أيام الاستقبال تكون الشمس في مقابلته على أفق المغرب، ثم إن عند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر، كأن لها حركة واحدة مع أن الشمس تتأخر عن القمر في ليلة مقدارًا ظاهرًا في الحس، فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولا تدركه الشمس؛ وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولا تدرك القمر؛ لبقي القمر والشمس مدة مديدة في مكان واحد، لأن حركة الشمس كل يوم درجة فخلق الله تعالى في جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة، وهي الدورة اليومية وبهذه الدورة لا يسبق كوكب كوكبًا أصلاً، لأن كل كوكب من الكواكب إذا طلع غرب مقابله وكلما تقدم كوكب إلى الموضع الذي فيه الكوكب الآخر بالنسبة إلينا تقدم ذلك الكوكب، فبهذه الحركة لا يسبق الشمس، فتبين أن سلطان الليل لا يسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس فقوله: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ إشارة إلى حركتها البطيئة التي تتم الدورة في سنة وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ إشارة إلى حركتها اليومية التي بها تعود من المشرق إلى المشرق مرة أخرى في يوم وليلة، وعلى هذا. **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: ما الحكمة في إطلاق الليل وإرادة سلطانه وهو القمر؟ وماذا يكون لو قال: ولا القمر سابق الشمس؟ نقول: لو قال: ولا القمر سابق الشمس، ما كان يفهم أن الإشارة إلى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض، فإن الشمس إذا كانت لا تدرك القمر والقمر أسرع ظاهرًا، وإذا قال: ولا القمر سابق، يظن أن القمر لا يسبق فليس بأسرع، فقال الليل والنهار ليعلم أن الإشارة إلى الحركة التي بها تتم الدورة في مدة يوم وليلة، ويكون لجميع الكواكب أو عليها طلوع وغروب في الليل والنهار.

المسألة الثانية: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ﴾ بصيغة الفعل وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ بصيغة اسم الفاعل، ولم يقل ولا الليل يسبق ولا قال مدركة القمر؟ نقول: الحركة الأولية التي للشمس، ولا يدرك بها القمر مختصة بالشمس، فجعلها كالصادرة منها، وذكر بصيغة الفعل لأن صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل فلا يقال هو يخيط ولا يكون يصدر منه الخياطة. والحركة الثانية ليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشتركة بسبب حركة فلك ليس ذلك فلكًا لكوكب من الكواكب، فالحركة ليست كالصادرة منه فأطلق اسم الفاعل لأنه لا يستلزم صدور الفعل يقال فلان خياط وإن لم يكن خياطًا، فإن قيل قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾[الأعراف: ٥٤] يدل على خلاف ما ذكرتم، لأن النهار إذا كان يطلب الليل فالليل سابقه، وقلتم إن قوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ معناه ما ذكرتم فيكون الليل سابقًا ولا يكون سابقًا، نقول: قد ذكرنا أن المراد بالليل ههنا سلطان

الليل وهو القمر، وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة، والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان في عقيب الآخر فكأنه طالبه، فإن قيل فلم ذكر ههنا ﴿سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ وقد ذكر هناك يطلبه، ولم يقل طالبه؟ نقول: ذلك لما بينا من أن المراد في هذه السورة من الليل كواكب الليل، وهي في هذه الحركة كأنها لا حركة لها ولا تسبق، ولا من شأنها أنها سابقة، والمراد هناك نفس الليل والنهار وهما زمانان والزمان لا قرار له فهو يطلب حثيثًا لصدور التقصي منه، وقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ يحقق ما ذكرنا أي للكل طلوع وغروب في يوم وليلة لا يسبق بعضها بعضًا، بالنسبة إلى هذه الحركة وكل حركة في فلك تخصه. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: التنوين في قوله ﴿وَكُلٌّ﴾ عوض عن الإضافة معناه كل واحد وإسقاط التنوين للإضافة حتى لا يجتمع التعريف والتنكير في شيء واحد فلما سقط المضاف إليه لفظًا رد التنوين عليه لفظًا، وفي المعنى معرف بالإضافة، فإن قيل فهل يختلف الأمر عند الإضافة لفظًا وتركها؟ فنقول: نعم، وذلك لأن قول القائل كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم إلى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه، فإذا قال كل كذا يدخل في الفم عموم أكثر من العموم عند الإضافة، وهذا كما في قبل وبعد إذا قلت افعل قبل كذا فإذا حذفت المضاف وقلت افعل قبل أفاد فهم الفعل قبل كل شيء، فإن قيل فهل بين قولنا (كل منهم) وبين قولنا (كلهم) وبين (كل) فرق؟ نقول: نعم عند قولك كلهم تثبت الأمر للاقتصار عليهم، وعند قولك كل منهم تثبت الأمر أولاً للعموم، ثم استدركت بالتخصيص فقلت منهم، وعند قولك كل تثبت الأمر على العموم وتتركه عليه.

المسألة الثانية: إذا كان كل بمعنى كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾؟ نقول: الجواب عنه من وجوه أحدها: ما بينا أن قوله كل للعموم فكأنه أخبر عن كل كوكب في السماء سيار، ثانيها: أن لفظ كل يجوز أن يوحد نظرًا إلى كونه لفظًا موحدًا غير مثنى ولا مجموع، ويجوز أن يجمع لكون معناه جمعًا، وأما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى فعلى هذا يحسن أن يقول القائل زيد وعمرو كل جاء أو كل جاءوا ولا يقول كل جاءا بالتثنية، وثالثها: لما قال: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ والمراد ما في الليل من الكواكب قال: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾.

المسألة الثالثة: الفلك ماذا؟ نقول: الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لأن أهل اللغة اتفقوا على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة هي الخشبة المسطحة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهي صفحة مستديرة، فإن قيل فعلى هذا تكون السماء مستديرة. وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة ليس لها أطراف على جبال وهي كالسقف المستوي. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ [الطور: ٥] نقول: ليس في النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة، ودل الدليل الحسي على كونها مستديرة فوجب المصير إليه. أما الأول فظاهر لأن السقف المقبب لا

يخرج عن كونه سقفًا، وكذلك كونها على جبال، وأما الدليل الحسي فوجوه أحدها: أن من أمعن في السير في جانب الجنوب يظهر له كواكب مثل سهيل وغيره ظهورًا أبديًا حتى إن من يرصد يراه دائمًا ويخفى عليه بنات نعش وغيرها خفاءً أبديًا، ولو كان السماء مسطحًا مستويًا لبان الكل للكل بخلاف ما إذا كان مستديرًا فإن بعضه حينئذٍ يستتر بأطراف الأرض فلا يرى، الثاني: هو أن الشمس إذا كانت مقارنة للحمل [1] مثلاً فإذا غربت ظهر لنا كوكب في منطقة البروج من الحمل إلى الميزان ثم في قليل يستتر الكوكب الذي كان غروبه بعد غروب الشمس ويظهر الكوكب الذي كان طلوعه بعد طلوع الشمس وبالعكس وهو دليل ظاهر وإن بحث فيه يصير قطعيًا، الثالث: هو أن الشمس قبل طلوعها وبعد غروبها يظهر ضوءها ويستنير الجو بعض الاستنارة ثم يطلع ولولا أن بعض السماء مستتر بالأرض وهو محل الشمس فلا يرى جرمها وينتشر نورها لما كان كذا بل كان عند إعادتها إلى السماء يظهر لكل أحد جرمها ونورها معًا لكون السماء مستوية حينئذٍ مكشوفة كلها لكل أحد، الرابع: القمر إذا انكسف في ساعة من الليل في جانب الشرق، ثم سئل أهل الغرب عن وقت الكسوف أخبروا عن الخسوف في ساعة أخرى قبل تلك الساعة التي رأى أهل المشرق فيها الخسوف لكن الخسوف في وقت واحد في جميع نواحي العالم والليل مختلف فدل على أن الليل في جانب المشرق قبل الليل في جانب المغرب فالشمس غربت من عند أهل المشرق وهي بعد في السماء ظاهرة لأهل المغرب فعلم استتارها بالأرض ولو كانت مستوية لما كان كذلك، الخامس: لو كانت السماء مبسوطة لكان القمر عندما يكون فوق رءوسنا على المسامتة أقرب إلينا وعندما يكون على الأفق أبعد منا لأن العموم أصغر من القطر والوتد، وكذلك في الشمس والكواكب كان يجب أن يرى أكبر لأن القريب يرى أكبر وليس كذلك فإن قيل جاز أن يكون وهو على الأفق على سطح السماء وعندما يكون على مسامتة رءوسنا في بحر السماء غائرًا فيها لأن الخرق جائز على السماء، نقول لا تنازع في جواز الخرق لكن القمر حينئذٍ تكون حركته في دائرة لا على خط مستقيم وهو غرضنا ولأنا نقول لو كان كذلك لكان القمر عند أهل المشرق وهو في منتصف نهارهم أكبر مقدارًا لكونه قريبًا من رءوسهم ضرورة فرضه على سطح السماء الأدنى وعندنا في بحرالسماء، وبالجملة الدلائل كثيرة. والإكثار منها يليق بكتب الهيئة التي الغرض منها بيان ذلك العلم، وليس الغرض في التفسير بيان ذلك غير أن القدر الذي أوردناه يكفي في بيان كونه فلكًا مستديرًا.

المسألة الرابعة: هذا يدل على أن لكل كوكب فلكًا، فما قولك فيه؟ نقول: أما السبعة

---

(١) الحمل من بروج الشمس الاثنى عشر وقد نظمت في قول الشاعر:

حمل الثور جوزة السرطان ورعي الليث سبل الميزان

ورمي عقرب بقوس لجدي نزح الدلو بركة الحيتان

السيارة[١] فلكل فلك، وأما الكواكب الأخر فقيل للكل فلك واحد، ولنذكر كلامًا مختصرًا في هذا الباب من الهيئة حيث وجب الشروع بسبب تفسير الفلك فنقول: قيل إن للقمر فلكًا لأن حركته أسرع من حركة الستة الباقية، وكذلك لكل كوكب فلك لاختلاف سيرها بالسرعة والبطء والممر، فإن بعضها يمر في دائرة وبعضها في دائرة أخرى حتى في بعض الأوقات يمر بعضها ببعض ولا يكسفه وفي بعض الأوقات يكسفه فلكل كوكب فلك، ثم إن أهل الهيئة قالوا: فكل فلك هو جسم كرة وذلك غير لازم بل اللازم أن نقول لكل فلك هو كرة أو صفحة أو دائرة يفعلها الكوكب بحركته، والله تعالى قادر على أن يخلق الكوكب في كرة يكون وجوده فيها كوجود مسمار مغرق في ثخن كرة مجوفة ويدير الكرة فيدور الكوكب بدوران الكرة، وعلى مذهب أرباب الهيئة حركة الكواكب السيارة على هذا الوجه، وكذلك قادر على أن يخلق حلقة يحيط بها أربعة سطوح متوازية بها فإنها أربع دوائر متوازية كحجر الرحى إذا قورناه وأخرجنا من وسطه طاحونة من طواحين اليد ويبقى منه حلقة يحيط بها سطوح ودوائر كما ذكرنا وتكون الكواكب فيه وهو فلك فتدور تلك الحلقة وتدير الكوكب، والحركة على هذا الوجه وإن كانت مقدورة لكن لم يذهب إليه أحد بمن يعتبر وكذلك هو قادر على أن يجعل الكواكب بحيث تشق السماء فتجعل دائرة متوهمة كما لو فرضت سمكة في الماء على وجهه تنزل من جانب وتصعد إلى موضع من الجانب الآخر على استدارة وهذا هوالمفهوم من قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والظاهر أن حركة الكواكب على هذا الوجه، وأرباب الهيئة أنكروا ذلك وقالوا: لا تجوز الحركة على هذا الوجه لأن الكوكب له جرم فإذا شق السماء وتحرك فإما أن يكون موضع دورانه ينشق ويلتئم كالماء تحركه السمكة أو لا ينشق ولا يلتئم، بل هناك خلاء يدور الكوكب فيه، لكن الخلاء محال والسماء لا تقبل الشق والالتئام، هذا ما اعتمدوا عليه، ونحن نقول: كلاهما جائز؛ أما الخلاء فلا يحتاج إليه ههنا، لأن قوله تعالى: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يفهم منه أنه بشق والتئام، وأما امتناع الشق والالتئام فلا دليل لهم عليه وشبهتهم في المحدد للجهات وهي هناك ضعيفة، ثم إنهم قالوا على ما بينا تخرج الحركات وبه علمنا الكسوفات، ولو كان لها حركات مختلفة لما وجب الكسوف في الوقت الذي يحكم فيه بالكسوف والخسوف وذلك لأنا نقول للشمس فلكان أحدهما: مركزه مركز العالم ثانيهما: مركزه فوق مركز العالم وهو مثل بياض البيض بين صفرته وبين القيض، والشمس كرة في الفلك الخارج المركز تدور بدورانه في السنة دورة، فإذا جعلت في الجانب الأعلى تكون بعيدة عن الأرض فيقال إنها في الأوج، وإذا حصلت في الجانب

---

(١) نظم بعضهم السبعة السيارة في بيت وهو:

زحل شرى مريخه من شمسه ... فتزاهدت لعطارد الأقمار

والمراد من قوله شرى كوكب المشتري ولم يكن معروفًا غير هذه السبعة عند القدماء وقد اكتشف المحدثون كواكب أخرى جديدة منها نبتون وأورانوس.

الأسفل تكون قريبة من الأرض فتكون في الحضيض، وأما القمر فله فلك شامل لجميع أجزائه وأفلاكه وفلك آخر هو بعض من الفلك الأول محيط به كالقشرة الفوقانية من البصلة وفلك ثالث في الفلك التحتاني كما كان في الفلك الخارج المركز في فلك الشمس وفي الفلك الخارج المركز كرة مثل جرم الشمس وفي الكرة القمر مركوز كمسمار في كرة مغرق فيها ويسمى الفلك الفوقاني الجوزهر والخارج المركز الفلك الحامل والفلك التحتاني الذي فيه الفلك الحامل الفلك المائل والكرة التي في الحامل تسمى فلك التدوير، وكذلك قالوا في الكواكب الخمسة الباقية من السيارات غير أن الفوقاني الذي سموه فلك الجوزهر لم يثبتوه لها فأثبتوا أربعة وعشرين فلكًا، الفلك الأعلى وفلك البروج، ولزحل ثلاثة أفلاك الممثل والحامل وفلك التدوير، وللمشتري ثلاثة كما لزحل، وللمريخ كذلك ثلاثة، وللشمس فلكان الممثل والخارج المركز، وللزهرة ثلاثة أفلاك كما للعلويات، ولعطارد أربعة أفلاك الثلاثة التي ذكرناها في العلويات، وفلك آخر يسمونه المدير، وللقمر أربعة أفلاك والرابع يسمونه فلك الجوزهر والمدير ليس كالجوزهر لأن المدير غير محيط بأفلاك عطارد وفلك الجوزهر محيط، ومنهم من زاد في الخمسة في كل فلك فلكين آخرين وجعل تدويراتها مركبة من ثلاثة أفلاك، وقالوا إن بسبب هذه الأجرام تختلف حركات الكواكب ويكون لها عروض ورجوع واستقامة وبطء وسرعة. هذا كلامهم على سبيل الاقتناص والاقتصار، ونحن نقول: لا يبعد من قدرة الله خلق مثل ذلك، وأما على سبيل الوجوب فلا نسلم ورجوعها واستقامتها بإرادة الله وكذلك عرضها وطولها وبطؤها وسرعتها وقربها وبعدها هذا تمام الكلام.

المسألة الخامسة: قال المنجمون: الكواكب أحياء بدليل أنه تعالى قال: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ وذلك لا يطلق إلا على العاقل، نقول إن أردتم القدر الذي يصح به التسبيح فنقول به لأنه ما من شيء من هذه الأشياء إلا وهو يسبح بحمد الله وإن أردتم شيئًا آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما في قوله تعالى في حق الأصنام ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات: ٩٢]وقوله: ﴿مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝٤١﴾

ولها مناسبة مع ما تقدم من وجهين أحدهما: أنه تعالى لما مَنَّ بإحياء الأرض وهي مكان الحيوانات بين أنه لم يقتصر بل جعل للإنسان طريقًا يتخذ من البحر خيرًا ويتوسطه أو يسير فيه كما يسير في البر وهذا حينئذٍ كقوله: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الإسراء: ٧٠]ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢]إذا فسرناه بأن المراد الإبل فإنها كسفن البراري، وثانيهما: هو أنه تعالى لما بين سباحة الكواكب في الأفلاك وذكر ما هو مثله وهو سباحة الفلك في البحار، ولها وجه ثالث: وهي أن الأمور التي أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها

نافعة والأول للحاجة والثاني للزينة فخلق الأرض وإحياؤها من القبيل الأول فإنها المكان الذي لولاه لما وجد الإنسان ولولا إحياؤها لما عاش والليل والنهار في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ [يس: ٣٧] أيضًا من القبيل الأول، لأنه الزمان الذي لولاه لما حدث الإنسان، والشمس والقمر وحركتهما لو لم تكن لما عاش، ثم إنه تعالى لما ذكر من القبيل الأول آيتين ذكر من القبيل الثاني وهو الزينة آيتين إحداهما: الفلك التي تجري في البحر فيستخرج من البحر ما يتزين به كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢] وثانيتهما: الدواب التي هي في البر كالفلك في البحر في قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢] فإن الدواب زينة كما قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] فيكون استدلالاً عليهم بالضروري والنافع لا يقال بأن النافع ذكره في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ [يس: ٣٤] فإنها للزينة لأنا نقول ذلك حصل تبعًا للضروري، لأن الله تعالى لما خلق الأرض منبتة لدفع الضرورة وأنزل الماء عليها كذلك لزم أن يخرج من أي الجنة النخيل والأعناب بقدرة الله، وأما الفلك فمقصود لا تبع، ثم إذا علمت المناسبة ففي الآيات أبحاث لغوية ومعنوية:

أما اللغوية: فنذكرها في مسائل

المسألة الأولى: قال المفسرون: الذرية هم الآباء أي حملنا آباءكم في الفلك والألف واللام للتعريف أي فلك نوح وهو مذكور في قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٧] ومعلوم عند العرب فقال الفلك، هذا قول بعضهم، وأما الأكثرون فعلى أن الذرية لا تطلق إلا على الولد وعلى هذا فلا بد من بيان المعنى، فنقول: الفلك إما أن يكون المراد الفلك المعين الذي كان لنوح، وإما أن يكون المراد الجنس كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [العنكبوت: ٦٥] إلى غير ذلك من استعمال لام التعريف في الفلك لبيان الجنس، فإن كان المراد سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه الأول: أن المراد إنا حملنا أولادكم إلى يوم القيامة في ذلك الفلك، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بدل قوله: حملناهم، إشارة إلى كمال النعمة أي لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية إلى أعقابكم إلى يوم القيامة، هذا ما قاله الزمخشري، ويحتمل عندي أن يقال على هذا: إنه تعالى إنما خص الذرية بالذكر، لأن الموجودين كانوا كفارًا لا فائدة في وجودهم فقال: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي لم يكن الحمل حملاً لهم، وإنما كان حملاً لما في أصلابهم من المؤمنين كما أن من حمل صندوقًا لا قيمة له وفيه جواهر إذا قيل له: لِمَ تحمل هذا الصندوق وتتعب في حمله وهو لا يشترى بشيء؟ يقول: لا أحمل الصندوق وإنما أحمل ما فيه، الثاني: هو أن المراد بالذرية الجنس معناه حملنا أجناسهم وذلك لأن ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء،

نهى النبي ﷺ عَنْ قَتْلِ الذَّرَارِيِّ[1]، أي النساء وذلك لأن المرأة وإن كانت صنفًا غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذرارينا أي أمثالنا فقوله: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أمثالهم وآباؤهم حينئذٍ تدخل فيهم، الثالث: هو أن الضمير في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ عائد إلى العباد حيث قال: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾[يس: ٣٠] وقال بعد ذلك: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾[يس: ٣٣] وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾[يس: ٣٧] ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إذا علم هذا فكأنه تعالى قال: وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير في الموضعين أشخاصًا معينين كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[النساء: ٢٩] ويريد بعضكم بعضًا، وكذلك إذا تقاتل قوم ومات الكل في القتال، يقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم، فـ(هم) في الموضعين يكون عائدًا إلى القوم ولا يكون المراد أشخاصًا معينين، بل المراد أن بعضهم قتل بعضًا، فكذلك قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ أي آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم، أو ذرية بعض منهم. وأما إن قلنا إن المراد جنس الفلك فهو أظهر، لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها، فأما جنس الفلك فإنه ظاهر لكل أحد، وقوله تعالى في سفينة نوح: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[العنكبوت: ١٥] أي بوجود جنسها ومثلها، ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[لقمان: ٣١] فنقول قوله تعالى: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي ذريات العباد ولم يقل حملناهم، لأن سكون الأرض عام لكل أحد يسكنها فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ إلى أن قال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[يس: ٣٣] لأن الأكل عام، وأما الحمل في السفينة فمن الناس من لا يركبها في عمره ولا يحمل فيها، ولكن ذرية العباد لا بد لهم من ذلك فإن فيهم من يحتاج إليها فيحمل فيها.

المسألة الثانية: جعل الفلك تارة جمعًا حيث قال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾[فاطر: ١٢] جمع ماخرة وأخرى فردًا حيث قال: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ نقول: فيه تدقيق مليح من علم اللغة، وهو أن الكلمة قد تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة في الصورة، والحركتان مختلفتان في المعنى مثالها قولك: سجد يسجد سجودًا للمصدر وهم قوم سجود في جمع ساجد، تظن أنهما كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك، بل السجود عند كونه مصدرًا حركته أصلية إذا قلنا إن الفعل مشتق

---

(١) جاء في الصحيحين من رواية نافع عن ابن عمر أنه نهى عن قتل النساء والصبيان، متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد)، باب: (قتل النساء في الحرب) (٦/ ١٨١)، حديث رقم (٣٠١٥) من طريق عبيد الله... به، ومسلم في كتاب (الجهاد)، باب: (تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب) (٦/ ٢٩١)، حديث رقم (٢٥) نووي، جميعًا من طريق عبد الله... به. ثم جاء من طريق الحسن عن الأسود بن سريع بلفظ (ألا لا تقتلن ذرية) بإسناد صحيح، أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ٤٣٥)، (٤/ ٢٤)، والدارمي في كتاب (السير)، باب: (في النهي عن قتل النساء والصبيان) (٢/ ٨٦)، حديث رقم (٢٤٦٣)، والبيهقي في (السنن الكبرى) (٩/ ٧٧)، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٥/ ٣١٦) من حديث الأسود بن سريع وقال: رواه أحمد بأسانيد والطبراني في الكبير والأوسط كذلك ثم ساق الشطر الثاني وقال: بعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح.

من المصدر وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيرة من حيث إن الجمع يشتق من الواحد، وينبغي أن يلحق المشتق تغيير في حركة أو حرف أو في مجموعهما، فساجد لما أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه، وجئناه بلفظ السجود، فإذًا السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الألفاظ المشتركة التي وضعت بحركة واحدة لمعنيين، إذا عرفت هذا فنقول: الفلك عند كونه واحدًا مثل قفل وبرد، وعند كونها جمعًا مثل خشب ومرد وغيرهما، فإن قلت فإذا جعلته جمعًا ماذا يكون واحدها؟ نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء حيث لم يستعمل، وكذا القول في: ﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] وفي قوله: ﴿نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أي بأئمتهم عند قوله تعالى: ﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] إما كزمام وكتاب وعند قوله تعالى: ﴿كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] إمام كسهام وكرام وجعاب وهذا من دقيق التصريف.

وأما المعنوية: فنذكرها في مسائل:

المسألة الأولى: قال ههنا: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مَنَّ عليهم بحمل ذريتهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] مَنَّ هناك عليهم بحمل أنفسهم، نقول لأن من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير، ومن يدفع الضرر على المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير، بل يكون قد نفعه، مثاله من أحسن إلى ولد إنسان وفرحه فرح بفرحه أبوه، وإذا دفع واحد الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه ولا يكون في الحقيقة قد أزال الألم عن أبيه، فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال دفعت عنكم الضرر، ولو قال دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بيان دفع الضرر عنهم، وههنا أراد بيان المنافع فقال: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لأن النفع حاصل بنفع الذرية ويدلك على هذا أن ههنا قال: ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ فإن امتلاء الفلك من الأموال يحصل بذكره بيان المنفعة، وأما دفع المضرة فلا، لأن الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به أبطأ وهنالك السلامة، فاختار هنالك ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجري، وههنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن، فإن قيل قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠] ولم يقل: و﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مع أن المقصود في الموضعين بيان النعمة، لا دفع النقمة، نقول: لما قال: ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠] عم الخلق، لأن ما من أحد إلا وحمل في البر أو البحر، وأما الحمل في البحر فلم يعم، فقال: إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الأولاد والأقارب والإخوان والأصدقاء.

المسألة الثانية: قوله: ﴿الْمَشْحُونِ﴾ يفيد فائدة أخرى غير ما ذكرنا وهي أن الآدمي يرسب في الماء ويغرق، فحمله في الفلك واقع بقدرته، لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب في الماء، لأن الخفيف يطلب جهة فوق فقال: ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أثقل من الثقال التي ترسب، ومع هذا حمل الله الإنسان فيه مع ثقله، فإن قالوا ذلك لامتناع الخلاء نقول: قد ذكرنا الدلائل الدالة على جواز الخلاء في الكتب العقلية، فإذن ليس حفظ الثقيل فوق الماء إلا بإرادة الله.

المسألة الثالثة: قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٣] وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ [يس: ٣٧] ولم يقل: وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم، وذلك لأن حملهم في الفلك هو العجب. أما نفس الفلك فليس بعجب لأنه كبيت مبني من خشب. وأما نفس الأرض فعجب ونفس الليل عجب لا قدرة عليهما لأحد إلا الله.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: من حيث اللغة فقوله: ﴿لَهُم﴾ يحتمل أن يكون عائدًا إلى الذرية، أي حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين ما يركبون، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى العباد الذين عاد إليهم قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ [يس: ٤١] وهو الحق لأن الظاهر عود الضمائر إلى شيء واحد.

المسألة الثانية: ﴿مِّن﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون صلة تقديره وخلقنا لهم مثله، وهذا على رأي الأخفش، وسيبويه يقول: مِنْ لا يكون صلة إلا عند النفي، تقول: ما جاءني من أحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، وثانيهما: هي مبينة كما في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١] كأنه لما قال: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ والمخلوق كان أشياء قال من مثل الفلك للبيان.

المسألة الثالثة: الضمير في ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ على قول الأكثرين عائد إلى الفلك فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨] وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود في زمانهم ويؤيد هذا هو أنه تعالى قال: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ ولو كان المراد الإبل على ما قاله بعض المفسرين لكان قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ فاصلاً بين متصلين، ويحتمل أن يقال: الضمير عائد إلى معلوم غير مذكور تقديره أن يقال: وخلقنا لهم من مثل ما ذكرنا من المخلوقات في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٦] وهذا كما قالوا في قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ [يس: ٣٥] أن الهاء عائد إلى ما ذكرنا، أي من ثمر ما ذكرنا، وعلى هذا فقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ فيه لطيفة، وهي أن ما من أحد إلا وله ركوب مركوب من الدواب وليس كل أحد يركب الفلك فقال في الفلك حملنا ذريتهم وإن كان ما حملناهم، وأما الخلق فلهم عام وما يركبون فيه وجهان أحدهما: هو الفلك الذي مثل فلك نوح، ثانيهما: هو الإبل التي هي سفن البر، فإن قيل: إذا كان المراد سفينة نوح فما وجه مناسبة الكلام؟ نقول: ذكرهم بحال قوم نوح وأن المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم إن آمنوا يفوزوا وإن كذبوا يهلكوا.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ إشارة إلى فائدتين إحداهما: أن في حال النعمة ينبغي أن لا يأمنوا عذاب الله، وثانيتهما: هو أن ذلك جواب سؤال مقدر وهو أن الطبيعي يقول: السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة والمجوف لا يرسب، فقال: ليس كذلك بل لو شاء الله أغرقهم وليس ذلك بمقتضى الطبع ولو صح كلامه الفاسد لكان لقائل أن يقول: ألست توافق أن من السفن ما ينقلب وينكسر ومنها ما يثقبه ثاقب فيرسب وكل ذلك بمشيئة الله فإن شاء الله إغرقهم من غير شيء من هذه الأسباب كما هو مذهب أهل السنة أو بشيء من تلك الأسباب كما تسلم أنت.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي لا مغيث لهم يمنع عنهم الغرق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ إذا أدركهم الغرق وذلك لأن الخلاص من العذاب، إما أن يكون بدفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال: لا صريخ لهم يدفع ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾[يس: ٢٣] فقوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ فيه فائدة أخرى غير الحصر وهي أنه تعالى قال: (لا صريخ) لهم ولم يقل: ولا منقذ لهم، وذلك لأن من لا يكون من شأنه أن ينصر لا يشرع في النصرة مخافة أن يغلب ويذهب ماء وجهه، وإنما ينصر ويغيث من يكون من شأنه أن يغيث فقال لا صريخ لهم، وأما من لا يكون من شأنه أن ينقذ إذا رأى من يعز عليه في ضر يشرع في الإنقاذ، وإن لم يثق بنفسه في الإنقاذ ولا يغلب على ظنه. وإنما يبذل المجهود فقال: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ ولم يقل ولا منقد لهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ وهو يفيد أمرين: أحدهما: انقسام الإنقاذ إلى قسمين الرحمة والمتاع، أي فيمن علم الله منه أنه يؤمن فينقذه الله رحمة، وفيمن علم أنه لا يؤمن فليتمتع زمانًا ويزداد إثمًا، وثانيهما: أنه بيان لكون الإنقاذ غير مفيد للدوام بل الزوال في الدنيا لا بد منه فينقذه الله رحمة ويمتعه إلى حين، ثم يميته فالزوال لازم أن يقع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما عدد الآيات بقوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ﴾ . . . ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ﴾ . . . ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[يس: ٣٣، ٣٧، ٤١] وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تفدهم اليقين، قال فلا أقل من أن يحترزوا عن العذاب فإن من أخبر بوقوع عذاب يتقيه، وإن لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطًا فقال تعالى: إذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يتعرفون به وإذا قيل لهم اتقوا لا يتقون فهم في غاية الجهل ونهاية الغفلة، لا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان، ولا مثل العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط، ويدل على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بحرف التمني أي في ظنكم فإن من يخفى عليه وجه البرهان لا يترك

طريقة الاحتراز والاحتياط، وجواب قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا﴾ محذوف معناه وإذا قيل لهم ذلك لا يتقون أو يعرضون، وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٤]وفي قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ وجوه أحدها: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ الآخرة فإنهم مستقبلون لها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ الدنيا فإنهم تاركون لها، وثانيها: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق، وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ [يس: ٤٣]﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من الموت الطالب لكم إن نجوتم من هذه الأشياء فلا نجاة لكم منه يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٤٤]، وثالثها: ما بين أيديكم من أمر محمد ﷺ فإنه حاضر عندكم وما خلفكم من أمر الحشر فإنكم إذا اتقيتم تكذيب محمد ﷺ والتكذيب بالحشر رحمكم الله وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ مع أن الرحمة واجبة، فيه وجوه ذكرناها مرارًا ونزيد ههنا وجهًا آخر وهو أنه تعالى لما قال: ﴿اتَّقُوا﴾ بمعنى أنكم إن لم تقطعوا بناء على البراهين فاتقوا احتياطًا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني أرباب اليقين يرحمون جزمًا وأرباب الاحتياط يرجى أن يرحموا، والحق ما ذكرنا من وجهين أحدهما: اتقوا راجين الرحمة فإن الله لا يجب عليه شيء، وثانيهما: هو أن الاتقاء نظرًا إليه أمر يفيد الظن بالرحمة فإن كان يقطع به أحد لأمر من خارج فذلك لا يمنع الرجاء فإن الملك إذا كان في قلبه أن يعطي من يخدمه أكثر من أجرته أضعافًا مضاعفة لكن الخدمة لا تقتضي ذلك، يصح منه أن يقول افعل كذا ولا يبعد أن يصل إليك أجرتك أكثر مما تستحق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني إذا جاءتهم الرسل كذبوهم فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وما التفتوا إليها وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٣١ - ٤٥]كلام بين كلامين متصلين ويحتمل أن يقال هو متصل بما قبله من الآية وبيانه هو أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا﴾ [يس: ٤٥] وكان فيه تقدير أعرضوا قال: ليس إعراضهم مقتصرًا على ذلك بل هم على كل آية معرضون، أو يقال: إذا قيل لهم اتقوا، اقترحوا آيات مثل إنزال الملك وغيره فقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وعلى هذا (كانوا) في المعنى يكون زائدًا معناه: إلا يعرضون عنها أي لا ينفعهم الآيات من كذب بالبعض هان عليه التكذيب بالكل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

إشارة إلى أنهم يبخلون بجميع ما على المكلف، وذلك لأن المكلف عليه التعظيم

لجانب الله والشفقة على خلق الله وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم: ﴿اتَّقُوا﴾ فلم يتقوا وتركوا الشفقة على خلق الله حيث قيل لهم: ﴿أَنفِقُوا﴾ فلم ينفقوا وفيه لطائف الأولى: خوطبوا بأدنى الدرجات في التعظيم والشفقة فلم يأتوا بشيء منه وعباد الله المخلصون خوطبوا بالأدنى فأتوا بالأعلى إنما قلنا ذلك لأنهم في التقوى أمروا بأن يتقوا ما بين أيديهم من العذاب أو الآخرة وما خلفهم من الموت أو العذاب وهو أدنى ما يكون من الاتقاء، وأما الخاص فيتقي تغيير قلب الملك عليه وإن لم يعاقبه ومتقى العذاب لا يكون إلا للبعيد، فهم لم يتقوا معصية الله ولم يتقوا عذاب الله، والمخلصون اتقوا الله واجتنبوا مخالفته سواء كان يعقابهم عليه أو لا يعاقبهم، وأما في الشفقة فقيل لهم: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا﴾ أي بعض ما هو لله في أيديكم فلم ينفقوا، والمخلصون آثروا على أنفسهم وبذلوا كل ما في أيديهم، بل أنفسهم صرفوها إلى نفع عباد الله ودفع الضرر عنهم، الثانية: كما أن في جانب التعظيم ما كان فائدة التعظيم راجعة إلا إليهم فإن الله مستغن عن تعظيمهم كذلك في جانب الشفقة ما كان فائدة الشفقة راجعة إلا إليهم، فإن من لا يرزقه المتمول لا يموت إلا بأجله ولا بد من وصول رزقه إليه، لكن السعيد من قدر الله إيصال الرزق على يده إلى غيره، الثالثة: قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ إشارة إلى أمرين أحدهما: أن البخل به في غاية القبح فإن أبخل البخلاء من يخبل بمال الغير، وثانيهما: أنه لا ينبغي أن يمنعكم من ذلك مخافة الفقر فإن الله رزقكم فإذا أنفقتم فهو يخلفه لكم ثانيًا كما رزقكم أولاً.

وفيه مسائل أيضًا:

المسألة الأولى: عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾ حذف الجواب، وههنا أجاب وأتى بأكثر من الجواب وذلك لأنه تعالى لو قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾ قالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ لكان كافيًا، فما الفائدة في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾؟ نقول: الكفار كانوا يقولون بأن الإطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون به، وإنما أرادوا بذلك القول ردًّا على المؤمنين فقالوا: نحن نطعم الضيوف معتقدين بأن أفعالنا ثناء، ولولا إطعامنا لما اندفع حاجة الضيف وأنتم تقولون إن إلهكم يرزق من يشاء، فلم تقولون لنا أنفقوا؟ فلما كان غرضهم الرد على المؤمنين لا الامتناع من الإطعام. قال تعالى عنهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إشارة إلى الرد، وأما في قولهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾[يس: ٤٥] فلم يكن لهم رد على المؤمنين فأعرضوا وأعرض الله عن ذكر إعراضهم لحصول العلم به.

المسألة الثانية: ما الفائدة في تغيير اللفظ في جوابهم حيث لم يقولوا: أننفق على من لو يشاء الله رزقه، وذلك لأنهم أمروا بالإنفاق في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾ فكان جوابهم بأن يقولوا: أننفق، فلِمَ قالوا: ﴿أَنُطْعِمُ﴾؟ نقول: فيه بيان غاية مخالفتهم وذلك لأنهم إذا أمروا بالإنفاق والإنفاق يدخل فيه الإطعام وغيره لم يأتوا بالإنفاق ولا بأقل منه وهو الإطعام وقالوا: لا نطعم، وهذا كما يقول القائل لغيره: أعط زيدًا دينارًا، يقول: لا أعطيه درهمًا مع أن المطابق هو

أن يقول لا أعطيه دينارًا ولكن المبالغة في هذا الوجه أتم فكذلك هاهنا.

المسألة الثالثة: كان كلامهم حقًّا فإن الله لو شاء أطعمه فلماذا ذكره في معرض الذم؟ نقول: لأن مرادهم كان الإنكار لقدرة الله أو لعدم جواز الأمر بالاتفاق مع قدرة الله وكلاهما فاسد، بَيَّن الله ذلك في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ فإنه يدل على قدرته ويصحح أمره بالإعطاء لأن من كان له في يد الغير مال وله في خزائنه مال فهو مخير إن أراد أعطى مما في خزائنه وإن أراد أمر من عنده المال بالإعطاء ولا يجوز أن يقول من بيده ماله: في خزائنك أكثر مما في يدي أعطه منه، وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إشارة إلى اعتقادهم أنهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام وأن أمرهم بالإنفاق مع قولهم بقدرة الله ظاهر الفساد واعتقادهم هو الفاسد وفيه مباحث لغوية ومعنوية.

أما اللغوية: فنقول: (إنْ) وردت للنفي بمعنى (ما)، وكان الأصل في (إن) أن تكون للشرط والأصل في (ما) أن تكون للنفي لكنهما اشتركا من بعض الوجوه فتقارضا واستعمل (ما) في الشرط واستعمل (إن) في النفي، أما الوجه المشترك فهو أن كل واحد منهما حرف مركب من حرفين متقاربين فإن الهمزة تقرب من الألف والميم من النون ولا بد من أن يكون المعنى الذي يدخل عليه (ما) و(إن) لا يكون ثابتًا أما في (ما) فظاهر، وأما في (إن) فلأنك إذا قلت: إن جاءني زيد أكرمه، ينبغي أن لا يكون له في الحال مجيء فاستعمل (إن) مكان (ما)، وقيل: إن زيد قائم، أي ما زيد بقائم واستعمل (ما) في الشرط تقول: ما تصنع أصنع، والذي يدل على ما ذكرنا أن (ما) النافية تستعمل حيث لا تستعمل (إن) وذلك لأنك تقول: ما إن جلس زيد، فتجعل (إن) صلة ولا تقول: إن جلس زيد، بمعنى النفي وبمعنى الشرط تقول: إما ترين، فتجعل إن أصلاً وما صلة، فدلنا هذا على أن (إن) في الشرط أصل و(ما) دخيل و(ما) في النفي بالعكس.

البحث الثاني: قد ذكرنا أن قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا﴾ يفيد ما لا يفيد قوله: أنتم في ضلال؛ لأنه يوجب الحصر وأنه ليسوا في غير الضلال.

البحث الثالث: وصف الضلال بالمبين قد ذكرنا معناه أنه لظهوره يبين نفسه أنه ضلال أي في ضلال لا يخفى على أحد أنه ضلال.

البحث الرابع: قد ذكرنا أن قوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين، وقوله في مواضع ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنعام: ٥٧] و﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ [البقرة: ٥] إشارة إلى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه.

وأما المعنوية: فهي أنهم إنما وصفوا الذين آمنوا بكونهم في ضلال مبين لكونهم ظانين أن المؤمن كلامه متناقض ومن تناقض كلامه يكون في غاية الضلال، إنما قلنا ذلك لأنهم قالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ إشارة إلى أن الله إن شاء أن يطعمهم كان يطعمهم فلا تقدر على إطعامهم لأنه يكون تحصيلاً للحاصل، وإن لم يشأ الله إطعامهم لا يقدر أحد على إطعامهم لامتناع وقوع ما لم يشأ الله فلا قدرة لنا على الإطعام، فكيف تأمرونا بالإطعام؟ ووجه آخر:

وهو أنهم قالوا: أراد الله تجويعهم فلو أطعمناهم يكون ذلك سعيًا في إبطال فعل الله وأنه لا يجوز وأنتم تقولون أطعموهم فهو ضلال، ولم يكن في الضلال إلا هم حيث نظروا إلى المراد ولم ينظروا إلى الطلب والأمر، وذلك لأن العبد إذا أمره السيد بأمر لا ينبغي أن يكشف سبب الأمر والإطلاع على المقصود الذي أمر به لأجله. مثاله: الملك إذا أراد الركوب للهجوم على عدوه بحيث لا يطلع عليه أحد وقال لعبده: أحضر المركوب، فلو تطلع واستكشف المقصود الذي لأجله الركوب لنسب إلى أنه يريد أن يطلع عدوه على الحذر منه وكشف سره، فالأدب في الطاعة وهو اتباع الأمر لا تتبع المراد، فالله تعالى إذا قال: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ لا يجوز أن يقولوا: لِمَ لم يطعمهم الله مما في خزائنه.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. وهو إشارة إلى ما اعتقدوه وهو أن التقوى المأمور بها في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا﴾ [يس: ٤٥] والإنفاق المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾ [يس: ٤٧] لا فائدة فيه لأن الوعد لا حقيقة له وقوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أي متى يقع الموعود به.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: وهي أن (إن) للشرط وهي تستدعي جزاء و(متى) استفهام لا يصلح جزاء فما الجواب؟ نقول: هي في الصورة استفهام، وفي المعنى إنكار كأنهم قالوا: إن كنتم صادقين في وقوع الحشر فقولوا متى يكون.

المسألة الثانية: الخطاب مع من في قولهم: ﴿إِن كُنتُمْ﴾؟ نقول: الظاهر أنه مع الأنبياء لأنهم لما أنكروا الرسالة قالوا: إن كنتم يا أيها المدعوون للرسالة صادقين فأخبرونا متى يكون.

المسألة الثالثة: ليس في هذا الموضع وعد فالإشارة بقوله: ﴿هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ إلى أي وعد؟ نقول: هو ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ [يس: ٤٥] من قيام الساعة، أو نقول: هو معلوم وإن لم يكن مذكورًا لكون الأنبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب.

ثم قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي لا ينتظرون إلا الصيحة المعلومة والتنكير للتكثير، فإن قيل: هم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها، فنقول: الانتظار فعلي لأنهم كانوا يفعلون ما يستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حكم الله وقدرته

وعلمه فإنهم لا يقولون، أو نقول: لما لم يكن قوله متى استفهامًا حقيقيًا قال ينتظرون انتظارًا غير حقيقي، لأن القائل متى يفهم منه الانتظار نظر إلى قوله. وقد ذكروا ههنا في الصيحة أمورًا تدل على هولها وعظمها أحدها: التنكير يقال: لفلان مال أي كثير وله قلب أي جريء، وثانيها: واحدة أي لا يحتاج معها إلى ثانية، وثالثها: تأخذهم أي تعمهم بالأخذ وتصل إلى من في مشارق الأرض ومغاربها، ولا شك أن مثلها لا يكون إلا عظيمًا.

وقوله:﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾، مما يعظم به الأمر لأن الصيحة المعتادة إذا وردت على غافل يرجف فإن المقبل على مهم إذا صاح به صائح يرجف فؤاده بخلاف المنتظر للصيحة، فإذا كان حال الصيحة ما ذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذي هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والإيخاف أعظم، ويحتمل أن يقال: ﴿ يَخِصِّمُونَ﴾ في البعث ويقولون: لا يكون ذلك أصلاً فيكونون غافلين عنه بخلاف من يعتقد أنه يكون فيتهيأ له وينتظر وقوعه فإنه لا يرتجف وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ﴾ [الزمر: ٦٨]ممن اعتقد وقوعها فاستعد لها، وقد مثلنا ذلك فيمن شام برقًا وعلم أن سيكون رعد ومن لم يشمه ولم يعلم ثم رعد الرعد ترى الشائم العالم ثابتًا والغافل الذاهل مغشيًا عليه، ثم بين شدة الأخذ وهي بحيث لا تمهلهم إلى أن يوصوا. وفيه أمور مبينة للشدة أحدها: عدم الاستطاعة فإن قول القائل: فلان في هذا الحال لا يوصي، دون قوله: لا يستطيع التوصية؛ لأن من لا يوصي قد يستطيعها، الثاني: التوصية وهي بالقول والقول يوجد أسرع مما يوجد الفعل فقال: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ كلمة فكيف فعلاً يحتاج إلى زمان طويل من أداء بالواجبات ورد المظالم، الثالث: اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على أنه لا قدرة له على أهم الكلمات فإن وقت الموت الحاجة إلى التوصية أمس، الرابع: التنكير في التوصية للتعميم أي لا يقدر على توصية ما ولو كانت بكلمة يسيرة، ولأن التوصية قد تحصل بالإشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها، الخامس: قوله: ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ بيان لشدة الحاجة إلى التوصية لأن من يرجو الوصول إلى أهله قد يمسك عن الوصية لعدم الحاجة إليها، وأما من يقطع بأنه لا وصول له إلى أهله فلا بد له من التوصية، فإذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة.

وفي قوله:﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ وجهان:

أحدهما:ما ذكرنا أنهم يقطعون بأنهم لا يمهلون إلى أن يجتمعوا بأهاليهم وذلك يوجب الحاجة إلى التوصية.

وثانيهما:أنهم إلى أهلهم لا يرجعون، يعني يموتون ولا رجوع لهم إلى الدنيا، ومن يسافر سفرًا ويعلم أنه لا رجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى يأتي بالوصية.

ثم بين ما بعد الصيحة الأولى فقال: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي نفخ فيه [مَرَّةً] أخرى كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال تعالى في موضع آخر: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وقال هاهنا: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والقيام غير النسلان وقوله في الموضعين: ﴿فَإِذَا هُم﴾ يقتضي أن يكون معًا، نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن القيام لا ينافي المشي السريع لأن الماشي قائم ولا ينافي النظر، وثانيهما: أن السرعة مجيء الأمور كأن الكل في زمان واحد كقول القائل:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا [كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ](١)

المسألة الثانية: كيف صارت النفختان مؤثرتين في أمرين متضادين الإحياء والإماتة؟ نقول: لا مؤثر غير الله والنفخ علامة، ثم إن الصوت الهائل يزلزل الأجسام فعند الحياة كانت أجزاء الحي مجتمعة فزلزلها فحصل فيها تفريق، وحالة الموت كانت الأجزاء متفرقة فزلزلها فحصل فيها اجتماع، فالحاصل أن النفختين يؤثران تزلزلاً وانتقالاً للأجرام فعند الاجتماع تتفرق وعند الافتراق تجتمع.

المسألة الثالثة: ما التحقيق في إذا التي للمفاجأة؟ نقول: هي إذا التي للظرف معناه نفخ في الصور فإذا نفخ فيه هم ينسلون لكن الشيء قد يكون ظرفًا للشيء معلومًا كونه ظرفًا، فعند الكلام يعلم كونه ظرفًا وعند المشاهدة لا يتجدد علم كقول القائل: إذا طلعت الشمس أضاء الجو وغير ذلك، فإذا رأى إضاءة الجو عند الطلوع لم يتجدد علم زائد، وأما إذا قلت: خرجت فإذا أسد بالباب، كان ذلك الوقت ظرف كون الأسد بالباب، لكنه لم يكن معلومًا فإذا رآه علمه فحصل العلم بكونه ظرفًا له مفاجأة عند الإحساس فقيل إذا للمفاجأة.

المسألة الرابعة: أين يكون في ذلك الوقت أجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال؟ نقول: يجمع الله أجزاء كل واحد في الموضع الذي قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه.

المسألة الخامسة: الموضع موضع ذكر الهيبة وتقدم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على الرحمة فلو قال بدل الرب المضاف إليهم لفظًا دالاً على الهيبة هل يكون أليق أم لا؟ قلنا: هذا اللفظ أحسن ما يكون، لأن من أساء واضطر إلى التوجه من أحسن إليه يكون ذلك أشد ألمًا وأكثر ندمًا من غيره.

المسألة السادسة: المسيء إذا توجه إلى المحسن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، والنسلان هو سرعة المشي فكيف يوجد منهم ذلك؟ نقول: ﴿يَنسِلُونَ﴾ من غير اختيارهم، وقد ذكرنا في تفسير قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩] أنه أراد أن يبين كمال قدرته ونفوذ إرادته حيث ينفخ في الصور، فيكون في وقته جمع وتركيب وإحياء وقيام وعدو في زمان واحد، فقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ

---

(١) هذا البيت لأكثر من شاعر وهو لامرئ القيس وتقدمت ترجمته.

ﵟٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَﵞ يعني في زمان واحد ينتهون إلى هذه الدرجة وهي النسلان الذي لا يكون إلا بعد مراتب.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يعني لما بعثوا قالوا ذلك، لأن قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [يس: ٥١]يدل على أنهم بعثوا.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لو قال قائل: لو قال الله تعالى: فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون يقولون: يا ويلنا، كان أليق، نقول: معاذ الله، وذلك لأن قوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]على ما ذكرنا إشارة إلى أنه تعالى في أسرع زمان يجمع أجزاءهم ويؤلفها ويحييها ويحركها، بحيث يقع نسلانهم في وقت النفخ، مع أن ذلك لا بد له من الجمع والتأليف، فلو قال: يقولون، لكان ذلك مثل الحال لينسلون، أي ينسلون قائلين: يا ويلنا، وليس كذلك، فإن قولهم: يا ويلنا، قبل أن ينسلوا، وإنما ذكر النسلان لما ذكرنا من الفوائد.

المسألة الثانية: لو قال قائل: قد عرفنا معنى النداء في مثل يا حسرة ويا حسرتا ويا ويلنا، ولكن ما الفرق بين قولهم وقول الله حيث قال: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ [يس: ٣٠]من غير إضافة، وقالوا: يا حسرتا ويا حسرتنا ويا ويلنا؟ نقول: حيث كان القائل هو المكلف لم يكن لأحد علم إلا بحاله أو بحال من قرب منه، فكان كل واحد مشغولاً بنفسه، فكان كل واحد يقول: يا حسرتنا ويا ويلنا، فقوله: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا﴾ أي كل واحد قال: يا ويلي، وأما حيث قال الله قال على سبيل العموم لشمول علمه بحالهم.

المسألة الثالثة: ما وجه تعلق: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ بقولهم: ﴿ يَٰوَيۡلَنَا﴾؟ نقول: لما بعثوا تذكروا ما كانوا يسمعون من الرسل، فقالوا: ﴿ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا﴾ أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نيامًا فنبهنا؟ وهذا كما إذا كان إنسان موعودًا بأن يأتيه عدو لا يطيقه، ثم يرى رجلاً هائلاً يقبل عليه فيرتجف في نفسه ويقول: هذا ذلك أم لا؟ ويدل على ذكرنا قولهم: ﴿ مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ حيث جعلوا القبور موضع الرقاد إشارة إلى أنهم شكوا في أنهم كانوا نيامًا فنبهوا أو كانوا موتى وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الأمرين، فقالوا: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾ إشارة إلى ظنهم أنه بعثهم الموعود به، وقالوا: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ إشارة إلى توهمهم احتمال الانتباه.

المسألة الرابعة: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ماذا؟ نقول: فيه وجهان أحدهما: أنه إشارة إلى المرقد كأنهم قالوا: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا﴾ فيكون صفة للمرقد يقال: كلامي هذا صدق، وثانيهما: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى البعث، أي هذا البعث ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون.

المسألة الخامسة: إذا كان ﴿هَٰذَا﴾ صفة للمرقد فكيف يصح قوله تعالى: ﴿ مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ

﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؟ نقول: يكون ما وعد به الرحمن، مبتدأ خبره محذوف تقديره: ما وعد الرحمن حق، والمرسلون صدقوا، أو يقال: ما وعد الرحمن وصدق فيه المرسلون حق، والأول أظهر لقلة الإضمار، أو يقال (ما وعد الرحمن) خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ما وعد الرحمن من البعث ليس تنبيهًا من النوم، وصدق المرسلون فيما أخبروكم به.

المسألة السادسة: إن قلنا: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى المرقد أو إلى البعث، فجواب الاستفهام بقولهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾ أن يكون؟ نقول: لما كان غرضهم من قولهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾ حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه حصل الجواب بقوله: هذا بعث وعد الرحمن به ليس تنبيهًا، كما أن الخائف إذا قال لغيره: ماذا تقول أيقتلني فلان؟ فله أن يقول: لا تخف، ويسكت، لعلمه أن غرضه إزالة الرعب عنه وبه يحصل الجواب.

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

أي ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة، يدل على النفخة قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ [يس: ٥١] ويحتمل أن يقال: إن كانت الواقعة، وقرئت الصيحة مرفوعة على أن كان هي التامة، بمعنى ما وقعت إلا صيحة، وقال الزمخشري: لو كان كذلك لكان الأحسن أن يقال: إن كان، لأن المعنى حينئذٍ ما وقع شيء إلا صيحة، لكن التأنيث جائز إحالة على الظاهر، ويمكن أن يقول الذي قرأ بالرفع أن قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]تأنيث تهويل ومبالغة، يدل عليه قوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢]فإنها للمبالغة فكذلك هاهنا قال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً﴾ مؤنثة تأنيث تهويل، ولهذا جاءت أسماء يوم الحشر كلها مؤنثة كالقيامة والقارعة والحاقة والطامة والصاخة إلى غيرها، والزمخشري يقول كاذبة بمعنى ليس لوقعتها نفس كاذبة، وتأنيث أسماء الحشر لكون الحشر مسمى بالقيامة، وقوله: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ دل على أن كونهم ﴿يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]إجباري لا اختياري.

ثم بين ما يكون في ذلك اليوم بقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾.

فقوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ ليأمن المؤمن ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لييأس المجرم الكافر.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في الخطاب عند الإشارة إلى يأس المجرم بقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ وترك الخطاب في الإشارة إلى أمان المؤمن من العذاب بقوله: ﴿لَا تُظْلَمُ﴾ ولم يقل: ولا

تظلمون أيها المؤمنون؟ نقول: لأن قوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ يفيد العموم وهو كذلك فإنها لا تظلم أبدًا ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ مختص بالكافر، فإن الله يجزي المؤمن وإن لم يفعل فإن لله فضلاً مختصًا بالمؤمن وعدلاً عامًّا، وفيه بشارة.

المسألة الثانية: ما المقتضى لذكر فاء التعقيب؟ نقول: لما قال: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] مجموعون والجمع للفصل والحساب، فكأنه تعالى قال: إذا جمعوا لم يجمعوا إلا للفصل بالعدل، فلا ظلم عند الجمع للعدل، فصار عدم الظلم مترتبًا على الإحضار للعدل، ولهذا يقول القائل للوالي أو للقاضي: جلست للعدل فلا تظلم، أي ذلك يقتضي هذا ويستعقبه.

المسألة الثالثة: لا يجزون عين ما كانوا يعملون، بل يجزون بما كانوا أو على ما كانوا وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يدل على أن الجزاء بعين العمل، لا يقال جزى يتعدى بنفسه وبالباء، يقال جزيته خيرًا وجزيته بخير، لأن ذلك ليس من هذا لأنك إذا قلت: جزيته بخير، لا يكون الخير مفعولك، بل تكون الباء للمقابلة والسببية كأنك تقول: جزيته جزاء بسبب ما فعل، فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن يكون ذلك إشارة على وجه المبالغة إلى عدم الزيادة وذلك لأن الشيء لا يزيد على عينه، فنقول قوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في المساواة كأنه عين ما علموا يقال فلان يجاوبني حرفًا بحرف أي لا يترك شيئًا، وهذا يوجب اليأس العظيم، الثاني: هو أن (ما) غير راجع إلى الخصوص، وإنما هي للجنس تقديره ولا تجزون إلا جنس العمل أي إن كان حسنة فحسنة، وإن كانت سيئة فسيئة فتجزون ما تعملون من السيئة والحسنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧﴾

وقوله: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدهما: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب، فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب، وقوله: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ يكون متممًا لبيان سلامتهم فالله لو قال: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ جاز أن يقال هم في ﴿شُغُلٍ﴾ عظيم من التفكر في اليوم وأهواله، فإن من يصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره ويخبر بخسران وقع في ماله، يقول: أنا مشغول عن هذا بأهم منه، فقال: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أي شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور، وثانيها: أن يكون ذلك بيانًا لحالهم ولا يريد أنهم شغلوا عن شيء بل يكون معناه هم في عمل، ثم بين عملهم بأنه ليس بشاق، بل هو ملذ محبوب، وثالثها: في شغل عما توقعوه فإنهم تصوروا في الدنيا أمورًا وقالوا: نحن إذا دخلنا الجنة لا نطلب إلا كذا وكذا، فرأوا ما لم يخطر ببالهم فاشتغلوا به، وفيه وجوه غير هذه ضعيفة: أحدها: قيل افتضاض الأبكار وهذا ما ذكرناه في الوجه الثالث أن الإنسان قد يترجح في نظره الآن مداعبة الكواعب فيقول في الجنة

ألتذ بها، ثم إن الله ربما يأتيه ما يشغله عنها، وثانيها: قيل في ضرب الأوتار وهو من قبيل ما ذكرناه توهم، وثالثها: في التزاور، ورابعها: في ضيافة الله وهو قريب مما قلنا لأن ضيافة الله تكون بألذ ما يمكن وحينئذ تشغله تلك عما توهمه في دنياه وقوله: ﴿ فَٰكِهُونَ﴾ خبر إن، و﴿ شُغُلٍ﴾ بيان ما فكاهتهم فيه يقال زيد على عمله مقبل، وفي بيته جالس، فلا يكون الجار والمجرور خبرًا ولو نصبت جالسًا لكان الجار والمجرور خبرًا. وكذلك لو قال: في شغل فاكهين، لكان معناه أصحاب الجنة مشغولون فاكهين على الحال وقرئ بالنصب والفاكه الملتذ المتنعم به ومنه الفاكهة لأنها لا تكون في السعة إلا للذة فلا تؤكل لدفع ألم الجوع، وفيه معنى لطيف. وهو أنه أشار بقوله: ﴿ فِي شُغُلٍ﴾ عن عدمهم الألم فلا ألم عندهم، ثم بين بقوله: ﴿ فَٰكِهُونَ﴾ عن وجدانهم اللذة وعادم الألم قد لا يكون واجدًا للذة، فبين أنهم على أتم حال ثم بين الكمال بقوله: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ وذلك لأن من يكون في لذة قد تتنغص عليه بسبب تفكره في حال من يهمه أمره فقال: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ أيضًا فلا يبقى لهم تعلق قلب، وأما من في النار من أقاربهم وإخوانهم فيكونون هم عنهم في شغل، ولا يكون منهم عندهم ألم ولا يشتهون حضورهم، والأزواج يحتمل وجهين: أحدهما: أشكالهم في الإحسان وأمثالهم في الإيمان كما قال تعالى: ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨] وثانيهما: الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المعارج: ٣٠]وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]فإن المراد ليس هو الأشكال، وقوله: ﴿ فِي ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظل وظلل جمع ظلة والمراد به الوقاية عن مكان الألم، فإن الجالس تحت كن لا يخشى المطر ولا حر الشمس فيكون به مستعدًا لدفع الألم، فكذلك لهم من ظل الله ما يقيهم الأسواء، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥]وقال: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]إشارة إلى عدم الآلام وفيه لطيفة أيضًا وهي أن حال المكلف، إما أن يكون اختلالها بسبب ما فيه من الشغل، وإن كان في مكان عال كالقاعد في حر الشمس في البستان المتنزه أو يكون بسبب المكان، وإن كان الشغل مطلوبًا كملاعبة الكواعب في المكان المكشوف، وإما أن يكون بسبب المأكل كالمتفرج في البستان إذا أعوزه الطعام، وإما بسبب فقد الحبيب، وإلى هذا يشير أهل القلب في شرائط السماع بقولهم: الزمان والمكان والإخوان فقال تعالى: ﴿ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ إشارة إلى أنهم ليسوا في تعب وقال: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ إشارة إلى عدم الوحدة الموحشة وقال: ﴿ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ إشارة إلى المكان وقال: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ إشارة إلى دفع جميع حوائجهم وقوله: ﴿ مُتَّكِـُٔونَ﴾ إشارة إلى أدل وضع على القوة والفراغة فإن القائم قد يقوم لشغل والقاعد قد يقعد لهم، وأما المتكئ فلا يتكئ إلا عند الفراغ والقدرة لأن المريض لا يقدر على الاتكاء، وإنما يكون مضطجعًا أو مستلقيًا والأرائك جمع أريكة، وهي السرير الذي عليه الفرش وهو تحت الحجلات فيكون مرئيًا هو وما فوقه، وقوله: ﴿ لَهُمْ فِيهَا

﴿فَكِهَةٌ﴾ إشارة إلى أن لا جوع هناك، وليس الأكل لدفع ألم الجوع، وإنما مأكولهم فاكهة، ولو كان لحمًا طريًّا، لا يقال قوله تعالى: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١] يدل على التغاير وصدق الشهوة وهو الجوع لأنا نقول قوله: ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١] يؤكد معنى عدم الألم لأن أكل الشيء قد يكون للتداوي من غير شهوة فقال: ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ لأن لحم الطير في الدنيا يؤكل في حالتين إحداهما: حالة التنعم، والثانية: حالة ضعف المعدة وحينئذ لا يأكل لحم طير يشتهيه، وإنما يأكل ما يوافقه ويأمره به الطبيب، وأما أنه يدل على التغاير، فنقول: نسلم ذلك لأن الخاص يخالف العام، على أن ذلك لا يقدح في غرضنا، لأنا نقول: إنما اختار من أنواع المأكول الفاكهة في هذا الموضع لأنها أدل على التنعم والتلذذ وعدم الجوع والتنكير لبيان الكمال، وقد ذكرناه مرارًا وقوله: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ ولم يقل يأكلون، إشارة إلى كون زمام الاختيار بيدهم وكونهم مالكين وقادرين. وقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ فيه وجوه:

أحدها: لهم فيها ما يدعون لأنفسهم أي دعاؤهم مستجاب، وحينئذ يكون هذا افتعالاً بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحيل، وعلى هذا فليس معناه أنهم يدعون لأنفسهم دعاء فيستجاب دعاؤهم بعد الطلب بل معناه ولهم ما يدعون لأنفسهم أي ذلك لهم فلا حاجة لهم إلى الدعاء والطلب، كما أن الملك إذا طلب منه مملوكه شيئًا يقول: لك ذلك، فيفهم منه تارة أن طلبك مجاب وأن هذا أمر هين بأن تعطى ما طلبت، ويفهم تارة منه الرد وبيان أن ذلك لك حاصل فلم تطلبه فقال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ويطلبون فلا طلب لهم وتقريره هو أن يكون ما يدعون بمعنى ما يصح أن يطلب ويدعى يعني كل ما يصح أن يطلب فهوحاصل لهم قبل الطلب، أو نقول: المراد الطلب والإجابة وذلك لأن الطلب من الله أيضًا فيه لذة فلو قطع الله الأسباب بينهم وبينه لما كان يطيب لهم فأبقى أشياء يعطيهم إياها عند الطلب ليكون لهم عند الطلب لذة وعند العطاء، فإن كون المملوك بحيث يتمكن من أن يخاطب الملك في حوائجه منصب عظيم، والملك الجبار قد يدفع حوائج المماليك بأسرها قصدًا منه لئلا يخاطب، الثاني: ما يدعون ما يتداعون وحينئذ يكون افتعالا بمعنى التفاعل كالاقتتال بمعنى التقاتل، ومعناه ما ذكرناه أن كل ما يصح أن يدعو أحد صاحبه إليه أو يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم، الثالث: ما يتمنونه، الرابع: بمعنى الدعوى ومعناه حينئذ أنهم كانوا يدعون في الدنيا أن لهم الله وهو مولاهم وأن الكافرين لا مولى لهم، فقال لهم في الجنة ما يدعون به في الدنيا، فتكون الحكاية محكية في الدنيا، كأنه يقول في يومنا هذا: لكن أيها المؤمنون غدًا ما تدعون اليوم، لا يقال بأن قوله: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ﴾ يدل على أن القول يوم القيامة لأنا نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن قوله: ﴿هُمۡ﴾ مبتدأ ﴿وَأَزۡوَٰجُهُمۡ﴾ عطف عليهم فيحتمل أن يكون هذا الكلام في يومنا هذا يخبرنا أن المؤمن وأزواجه في ظلال غدًا وله ما يدعيه، والجواب الثاني: وهو أولى هو أن نقول: معناه لهم ما يدعون أي ما كانوا

يدعون. لا يقال بأنه إضمار حيث لا ضرورة وإنه غير جائز لأنا نقول على ما ذكرنا يبقى الادعاء مستعملا في معناه المشهور لأن الدعاء هو الإتيان بالدعوى وإنما قلنا إن هذا أولى لأن قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] هو في دار الآخرة وهو كالتفسير لقوله: ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ ولأن قوله: ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ مذكور بين جمل كلها في الآخرة فما يدعون أيضًا ينبغي أن يكون في الآخرة وفي الآخرة لا يبقى دعوى وبينة لظهور الأمور والفصل بين أهل الثبور والحبور.

قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

هو أكمل الأشياء وهو آخرها الذي لا شيء فوقه ولنبينه في مسائل:

المسألة الأولى: ما الرافع لقوله ﴿سَلَٰمٌ﴾؟ نقول: يحتمل ذلك وجوهًا أحدها: هو بدل مما يدعون كأنه تعالى لما قال: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧] بينه ببدله فقال لهم: ﴿سَلَٰمٌ﴾ فيكون في المعنى كالمبتدأ الذي خبره جار ومجرور، كما يقال: في الدار رجل ولزيد مال، وإن كان في النحو ليس كذلك بل هو بدل وبدل النكرة من المعرفة جائز فتكون ﴿مَا﴾ بمعنى الذي معرفة و﴿سَلَٰمٌ﴾ نكرة، ويحتمل على هذا أن يقال ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ لا موصوفة ولا موصولة بل هي نكرة تقديره لهم شيء يدعون ثم بين بذكر البدل فقال: ﴿سَلَٰمٌ﴾ والأول هو الصحيح، وثانيها ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر ﴿مَا﴾ ولهم لبيان الجهة تقديره ما يدعون سالم لهم أي خالص والسلام بمعنى السالم الخالص أو السليم يقال: عبد السلام، أي سليم من العيوب كما يقال: لزيد الشرف متوفر، والجار والمجرور يكون لبيان من له ذلك والشرف هو المبتدأ ومتوفر خبره، وثالثها قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ﴾ منقطع عما تقدم و﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ وخبره محذوف تقديره: سلام عليهم، فيكون ذلك إخبارًا من الله تعالى في يومنا هذا كأنه تعالى حكى لنا وقال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾ [يس: ٥٥] ثم لما بين كمال حالهم قال: سلام عليهم، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٩] ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١] فيكون الله تعالى أحسن إلى عباده المؤمنين كما أحسن إلى عباده المرسلين وهذا وجه مبتكر جيد ما يدل عليه منقول، أو نقول: تقديره سلام عليكم ويكون هذا نوعًا من الالتفات حيث قال لهم كذا وكذا، ثم قال: سلام عليكم.

المسألة الثانية: ﴿قَوْلًا﴾ منصوب بماذا؟ نقول: يحتمل وجوهًا أحدها: نصب على المصدر تقديره على قولنا المراد لهم سلام هو أن يقال لهم سلام يقوله الله قولاً أو تقوله الملائكة قولاً، وعلى قولنا ما يدعون سالم لهم تقديره قال الله ذلك قولاً ووعدهم بأن لهم ما يدعون سالم وعدًا، وعلى قولنا سلام عليهم تقديره أقوله قولاً، وقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ يكون لبيان أن السلام منه أي سلام عليهم من رب رحيم أقوله قولاً، ويحتمل أن يقال على هذا إنه تمييز لأن السلام قد يكون قولاً وقد يكون فعلاً فإن من يدخل على الملك فيطأطئ رأسه يقول: سلمت على الملك، وهو حينئذ كقول القائل: البيع موجود حكمًا لا حسًا وهذا ممنوع عنه قطعًا لا ظنًا.

المسألة الثالثة: قال في السلام ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ وقال في غيره من أنواع الإكرام ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٢]فهل بينهما فرق؟ نقول: نعم، أما هناك فلأن النزل ما يرزق النزيل أولاً، وذلك وإن كان يدل عليه ما بعده فإن النزيل إذا أكرم أولا يدل على أنه مكرم وإذا أخل بإكرامه في الأول يدل على أنه مهان دائمًا غير أن ذلك غير مقطوع به، لجواز أن يكون الملك واسع الرزق فيرزق نزيله أولاً ولا يمنع منه الطعام والشراب ويناقشه في غيره فقال: ﴿غَفُورٍ﴾ لما صدر من العبيد ليأمن العبد ولا يقول بأن الإطعام قد يوجد ممن يعاقب بعده والسلام يظهر مزية تعظيمه للمسلم عليه لا بمغفرة فقال: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبا: ١٥]لأن رب الشيء مالكه الذي إذا نظر إلى علو مرتبته لا يرجى منه الالتفات إليه بالتعظيم، فإذا سلم عليه يعجب منه وقيل انظر هو سيده ويسلم عليه.

قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وفيه وجوه منها تبيين وجه الترتيب أيضًا الأول: امتازوا في أنفسكم وتفرقوا كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]أي بعضه من بعض غير أن تميزهم من الحسرة والندامة ووجه الترتيب حينئذ أن المجرم يرى منزلة المؤمن ورفعته ونزول دركته وضعته فيتحسر فيقال لهم ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ﴾ إذ لا دواء لألمكم ولا شفاء لسقمكم، الثاني: امتازوا عن المؤمنين وذلك لأنهم يكونون مشاهدين لما يصل إلى المؤمن من الثواب والإكرام ثم يقال لهم تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار فلم يبق لكم اجتماع بهم أبدًا، الثالث: امتازوا بعضكم عن بعض على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان الذي أشار إليه بقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ [يس: ٥٦]فأهل النار يكون لهم العذاب الأليم وعذاب الفرقة أيضًا ولا عذاب فوق الفرقة، بل العقلاء قالوا بأن كل عذاب فهو بسبب تفرق اتصال، فإن من قطعت يده أو أحرق جسمه فإنما يتألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض، لكن التفرق الجسمي دون التفرق العقلي، الرابع: امتازوا عن شفعائكم وقرنائكم فما لكم اليوم حميم ولا شفيع، الخامس: امتازوا عما ترجون واعتزلوا عن كل خير، والمجرم هو الذي يأتي بالجريمة، ويحتمل أن يقال إن المراد منه أن الله تعالى يقول امتازوا فيظهر عليهم سيما يعرفون بها، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] وحينئذ يكون قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا﴾ أمر تكوين، كما أنه يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] كذلك يقول: ﴿وَامْتَازُوا﴾ فيتميزون بسيماهم ويظهر على جباههم أو في وجوههم سواء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾

لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والمجرمين كان لقائل أن يقول: إن الإنسان كان ظلومًا جهولاً، والجهل من الأعذار، فقال الله ذلك عند عدم الإنذار، وقد سبق إيضاح السبل بإيضاح الرسل، وعهدنا إليكم وتلونا عليكم ما ينبغي أن تفعلوه وما لا ينبغي.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في اللغات التي في ﴿أَعْهَدْ﴾ وهي كثيرة الأولى: كسر همزة إعهد وحروف الاستقبال كلها تكسر إلا الياء فلا يقال: يَعلم ويِعلم، الثانية: كسر الهاء من باب ضرب يضرب، الثالثة: قلب العين جيما ألم أجهد وذلك في كل عين بعدها هاء، الرابعة: إدغام الهاء في الحاء بعد القلب فيقال ألم أحد، وقد سمع قوم يقولون دحا محا، أي دعها معها.

المسألة الثانية: في معنى أعهد وجوه أقربها وأقواها ألم أوص إليكم.

المسألة الثالثة: في هذا العهد وجوه الأول: أنه هو العهد الذي كان مع أبينا آدم بقوله: ﴿عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: ١١٥]، الثاني: أنه هو الذي كان مع ذرية آدم بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فإن ذلك يقتضي أن لا نعبد غير الله، الثالث: هو الأقوى، أن ذلك كان مع كل قوم على لسان رسول، ولذلك اتفق العقلاء على أن الشيطان يأمر بالشر، وإن اختلفوا في حقيقته وكيفيته.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ معناه لا تطيعوه، بدليل أن المنهي عنه ليس هو السجود له فحسب، بل الانقياد لأمره والطاعة له فالطاعة عبادة، لا يقال فنكون نحن مأمورين بعبادة الأمراء حيث أمرنا بطاعتهم في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] لأنا نقول طاعتهم إذا كانت بأمر الله، لا تكون إلا عبادة لله وطاعة له، وكيف لا ونفس السجود والركوع للغير إذا كان بأمر الله لا يكون إلا عبادة لله، ألا ترى أن الملائكة سجدوا لآدم ولم يكن ذلك إلا عبادة لله، وإنما عبادة الأمراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه، فإن قيل: بماذا تعلم طاعة الشيطان من طاعة الرحمن، مع أنا لا نسمع من الشيطان خبرًا ولا نرى منه أثرًا؟ نقول: عبادة الشيطان في مخالفة أمر الله أو الإتيان بما أمر الله لا لأنه أمر به، ففي بعض الأوقات يكون الشيطان يأمرك وهو في غيرك، وفي بعض الأوقات يأمرك وهو فيك، فإذا جاءك شخص يأمرك بشيء، فانظر إن كان ذلك موافقًا لأمر الله أو ليس موافقًا، فإن لم يكن موافقًا فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به، فإن أطعته فقد عبدت الشيطان، وإن دعتك نفسك إلى فعل فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع أو ليس كذلك، فإن لم يكن مأذونًا فيه فنفسك هي الشيطان، أو معها الشيطان يدعوك، فإن اتبعته فقد عبدته، ثم إن الشيطان يأمر أولاً بمخالفة الله ظاهرًا، فمن أطاعه فقد عبده ومن لم يطعه فلا يرجع عنه، بل يقول له: اعبد الله كي لا تهان، وليرتفع عند الناس شأنك، وينتفع بك إخوانك وأعوانك، فإن أجاب إليه فقد عبده لكن عبادة الشيطان على تفاوت، وذلك لأن الأعمال منها ما يقع والعامل موافق فيه جنانه ولسانه وأركانه، ومنها ما يقع والجنان واللسان مخالف للجوارح أو للأركان، فمن الناس من يرتكب جريمة كارهًا بقلبه لما يقترف من ذنبه، مستغفرًا لربه، يعترف بسوء ما يقترف فهو عبادة الشيطان بالأعضاء الظاهرة، ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب، كما أنك تجد كثيرًا من الناس

يفرح بكونه مترددًا إلى أبواب الظلمة للسعاية، ويعد من المحاسن كونه ساريًا مع الملوك ويفتخر به بلسانه، وتجدهم يفرحون بكونهم آمرين الملك بالظلم والملك ينقاد لهم، أو يفرحون بكونه يأمرهم بالظلم فيظلمون، فرحين بما ورد عليهم من الأمر، إذا عرفت هذا فالطاعة التي بالأعضاء الظاهرة، والبواطن طاهرة مكفرة بالأسقام والآلام، كما ورد في الأخبار، ومن ذلك قوله ﷺ «**الْحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ**»(١) وقوله ﷺ: «**السَّيْفُ مَحَّاءٌ لِلذُّنُوبِ**»(٢) أي لمثل هذا الذنوب، ويدل عليه ما قال ﷺ في الحدود: «**إِنَّهَا كَفَّارَاتٌ**»(٣) وما يكون بالقلوب فلا خلاص عنه إلا بالتوبة والندم وإقبال القلب على الرب، وما يكون باللسان فهو من قبيل ما يكون بالقلب في الظاهر، والمثال يوضح الحال فنقول: إذا كان عند السلطان أمير وله غلمان هم من خواص الأمير وأتباع بعداء هم من عوام الناس، فإذا صدر من الأمير مخالة ومسارة مع عدو السلطان ومصادقة بينهما، لا يعفو الملك عن ذلك إلا إذا كان في غاية الصفح، أو يكون للأمير عنده يد سابقة أو توبة لاحقة، فإن صدر من خواص الأمير مخالفة وهو به عالم ولم يزجره، عدت المخالفة موجودة منه، وإن كان كارهًا وأظهر الإنكار حسنت معاتبته دون معاقبته، لأن إقدام خواصه على المخالفة دليل على سوء التربية، فإن كان الصادر من الحواشي الأباعد وبلغ الأمير ولم يزجره عوتب الأمير، وإن زجرهم استحق الأمير بذلك الزجر الإكرام، وحسن من الملك أن يسدي إلى

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الطب)، باب: (الحمى من فيح جهنم) (١٠/ ١٨٤)، حديث رقم (٥٧٢٦) من طريق أبي الأحوص... به، ومسلم في كتاب (السلام)، باب: (لكل داء دواء) (٤/ ٨٣/ ١٧٣٣) من طريق أبي الأحوص... به. كلاهما (أبو الأحوص، سفيان) عن سعيد بن مسروق... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ١٨٥/ ١٨٦) من طريق معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق الفزاري... به، والدارمي في كتاب (الجهاد)، باب: (في صفة القتلى في سبيل الله) (٢/ ٦٥)، حديث رقم (٢٤١١)، من طريق محمد بن المبارك عن معاوية بن يحيى... به. وأورده الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٩١).

وقال: رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال: وأدخل من أي أبواب الجنة شاء، ورجال أحمد رجال الصحيح خلا المثنى الأملوكي فهو ثقة.

وأخرجه أيضًا ابن حبان في (موارد الظمآن) (٥/ ١٩٧)، حديث رقم (١٦١٤) من طريق عبيد الله... به، جميعًا عن صفوان بن عمرو... به، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٩/ ١٦٤)، والطبراني في (الكبير) (١٧/ ١٢٥)، حديث رقم (١٢٩٩٨)، جميعًا من طريق صفوان بن عمرو السكسكي عن أبي المثنى المليكي عن عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه وكانت له صحبة... فذكره.

(٣) أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٨٨)، حديث رقم (٣٦٨٢) من طريق آدم بن أبي إياس حدثنا ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة... بلفظ (ولا أدري الحدود كفارة لأهلها أم لا).

وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في (السنن الكبرى) (٨/ ٣٢٩) حديث رقم (١٧٣٧٣) من طريق معمر عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة... به.

وقال: فهكذا رواه عبد الرزاق عن معمر ورواه هشام الصنعاني عن معمر عن ابن أبي ذئب عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلا قال البخاري: وهو أصح ولا يثبت هذا عن النبي ﷺ لأن النبي ﷺ قال: «الحدود كفارة» قال الشيخ رحمه الله: قد كتبناه من وجه آخر عن ابن أبي ذئب موصولاً، وضعفه الألباني في (ضعيف الجامع) (٦٣٠٩).

المزجور الإحسان والإنعام إن علم حصول انزجاره، إذا علمت هذا فالقلب أمير واللسان خاصته والأعضاء خدمه، فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب، فإن أقبل على محبة غير الله فهو الويل العظيم والضلال المبين المستعقب للعقاب الأليم والعذاب المهين، وما يصدر من اللسان فهو محسوب على القلب ولا يقبل قوله إن لم ينكر فعله وما يصدر من الأعضاء والقلب قد أظهر عليه الإنكار وحصل له الانزجار فهو الذنب الذي حكى النبي ﷺ عن ربه أنه قال: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَلَقْتُ أَقْوَامًا يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ فَأَغْفِرُ لَهُمْ» (١).

وههنا لطيفة: وهي أن الشيطان قد يرجع عن عبد من عباد الله فرحًا فيظن أنه قد حصل مقصوده من الإغواء حيث يرى ذلك العبد ارتكب الذنب ظاهرًا ويكون ذلك رافعًا لدرجة العبد، فإن بالذنب ينكسر قلب العبد فيتخلص من الإعجاب بنفسه وعبادته، ويصير أقرب من المقربين، لأن من يذنب مقرب عند الله كما قال تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤] والمذنب التائب النادم منكسر القلب والله عنده كما قال ﷺ حاكيًا عن ربه «أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ» (٢) وفرق بين من يكون عند الله، وبين من يكون عنده الله، ولعل ما يحكى من الذنوب الصادرة عن الأنبياء من هذا القبيل لتحصل لهم الفضيلة على الملائكة حيث تبجحوا بأنفسهم بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقد يرجع الشيطان عن آخر يكون قد أمره بشيء فلم يفعله والشخص يظن أنه غلب الشيطان ورده خائبًا فيتبجح في نفسه وهو لا يعلم أن الشيطان رجع عنه محصل المقصود مقبولاً غير مردود. ومن هذا يتبين أمر أصولي وهو أن الناس اختلفوا في أن المذنب هل يخرج من الإيمان أم لا؟ وسبب النزاع وقوع نظر الخصمين على أمرين متباينين فالذنب الذي بالجسد لا بالقلب لا يخرج بل قد يزيد في الإيمان والذي بالقلب يخاف منه الخروج عن ربقة الإيمان ولذلك اختلفوا في عصمة الأنبياء من الذنوب، والأشبه أن الجسدي جائز عليهم والقرآن دليل عليه، والقلبي لا يجوز عليهم، ثم إنه تعالى لما نهى عباده

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٠٥/ ٢٧٤٨)، والترمذي في (سننه) (٥/ ٥٤٨)، حديث رقم (٣٥٩٣)، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٤١٤)، حديث رقم (٢٣٥٦٢)، جميعًا من طريق ليث بن سعد عن محمد بن قيس عن أبي صرمة عن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ. . . فذكره.

(٢) **ضعيف**: أخرجه البيهقي في (الزهد الكبير) (١/ ٣٨٣)، حديث رقم (٣٧٩) من طريق أبي العباس الأصم حدثنا طاهر بن عمرو حدثنا أبي أخبرني السرى عن عبد الكريم بن رشيد أن داود عليه السلام قال: أي رب أين ألقاك؟ قال. . . فذكره. من طريق سيار حدثنا جعفر عن عمران القصير قال: قال موسى بن عمران: أي رب أين أبغيك؟ قال: أبغني . . . فذكره، وابن أبي الدنيا في (الهم والحزن) (١/ ٥٦)، حديث رقم (٦١) من طريق محمد بن سالم المدني حدثني السري بن يحيى عن عبد الله بن شوذب قال: قال داود النبي . . . فذكره. وذكره العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٢٠٣)، حديث رقم (٦١٤).

وقال: قال في المقاصد ذكره في البداية للغزالي، وقال القاري عقبه: ولا يخفى أن الكلام في هذا المقام لم يبلغ الغاية. قلت: وتمامه (وأنا عند المندرسة قلوبهم لأجلي)، ولا أصل لهما في المرفوع. انتهى.

عن عبادة الشيطان ذكر ما يحملهم على قبول ما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: من أين حصلت العداوة بين الشيطان والإنسان؟ فنقول: ابتداؤها من الشيطان وسببه تكريم الله بني آدم، لما رأى إبليس ربه كرم آدم وبنيه عاداهم فعاداه الله تعالى والأولى منه لؤم والثاني من الله كرم، أما الأول فلأن الملك إذا أكرم شخصًا ولم ينقص من الآخر شيئًا إذ لا ضيق في الخزانة، فعداوة من يعادي ذلك المكرم لا تكون إلا لؤمًا، وأما الثاني فلأن الملك إذا علم أن إكرامه ليس إلا منه وذلك لأن الضعيف ما كان يقدر أن يصل إلى بعض تلك المنزلة لولا إكرام الملك، يعلم أن من يبغضه ينكر فعل الملك أو ينسب إلى خزانته ضيقًا، وكلاهما يحسن التعذيب عليه فيعاديه إتمامًا للإكرام وإكمالاً للإفضال، ثم إن كثيرًا من الناس على مذهب إبليس إذا رأوا واحدًا عند ملك محترمًا بغضوه وسعوا فيه إقامة لسنة إبليس، فالملك إن لم يكن متخلقًا بأخلاق الله لا يبعد الساعي ويسمع كلامه ويترك إكرام ذلك الشخص واحترامه.

المسألة الثانية: من أين إبانة عداوة إبليس؟ نقول: لما أكرم الله آدم عاداه إبليس وظن أنه يبقى في منزلته وآدم في منزلته مثل متباغضين عند الملك والله كان عالمًا بالضمائر فأبعده وأظهر أمره فأظهر هو من نفسه ما كان يخفيه لزوال ما كان يحمله على الإخفاء فقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] وقال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٦٢].

المسألة الثالثة: إذا كان الشيطان للإنسان عدوًّا مبينًا فما بال الإنسان يميل إلى مراضيه من الشرب والزنى، ويكره مساخطه من المجاهدة والعبادة؟ نقول: سبب ذلك استعانة الشيطان بأعوان من عند الإنسان وترك استعانة الإنسان بالله، فيستعين بشهوته التي خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سببًا لفساد حاله ويدعوه بها إلى مسالك المهالك، وكذلك يستعين بغضبه الذي خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سببًا لوباله وفساد أحواله، وميل الإنسان إلى المعاصي كميل المريض إلى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال، فترى المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد في مرضه، ومن به فساد المعدة فلا يهضم القليل من الغذاء يميل إلى الأكل الكثير ولا يشبع بشيء وهو يزيد في معدته فسادًا، وصحيح المزاج لا يشتهي إلا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبيء لا يستغني الإنسان فيه عن استنشاق الهواء وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له غير إصلاح الهواء بالروائح الطيبة والأشياء الزكية والرش بالخل والماورد من جملة المصلحات، فكذلك الإنسان في الدنيا لا يستغني عن أمورها وهي المعينات للشيطان وطريقه ترك الهوى وتقليل التأمين وتحريف الهوى بالذكر الطيب والزهد، فإذا صح مزاج عقله لا يميل إلا إلى الحق ولا يبقى عليه في التكاليف كلفة ويحصل له مع الأمور الإلهية ألفة، وهنالك يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٦٤ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ . لما منع عبادة الشيطان حمل على عبادة الرحمن والشارع طبيب الأرواح كما أن الطبيب طبيب الأشباح، وكما أن الطبيب يقول للمريض لا تفعل كذا ولا تأكل من ذا وهي الحمية التي هي رأس الدواء لئلا يزيد مرضه، ثم يقول له تناول الدواء الفلاني تقوية لقوته المقاومة للمرض، كذلك الشارع منع من المفسد وهو اتباع الشيطان وحمل على المصالح وهو عبادة الرحمن.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: عند المنع من عبادة الشيطان قال: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٦٠] لأن العداوة أبلغ الموانع من الاتباع، وعند الأمر بعبادة الرحمن لم يقل إنه لكم حبيب لأن المحبة لا توجب متابعة المحبوب بل ربما يورث ذلك الاتكال على المحبة. فيقول: إنه يحبني، فلا حاجة إلى تحمل المشقة في تحصيل مراضيه، بل ذكر ما هو أبلغ الأشياء في الحمل على العبادة وذلك كونه طريقًا مستقيمًا، وذلك لأن الإنسان في دار الدنيا في منزل قفر مخوف وهو متوجه إلى دار إقامة فيها إخوانه، والنازل في بادية خالية يخاف على روحه وماله ولا يكون عنده شيء أحب من طريق قريب آمن، فلما قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ كان ذلك سببًا حاثًّا على السلوك، وفي ضمن قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ﴾ إشارة إلى أن الإنسان مجتاز لأنه لو كان في دار إقامة فقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ لا يكون له معنى لأن المقيم يقول: وماذا أفعل بالطريق وأنا من المقيمين؟

المسألة الثانية: ماذا يدل على كونه طريقًا مستقيمًا؟ نقول: الإنسان مسافر إما مسافرة راجع إلى وطنه، وإما مسافرة تاجر له متاع يتجر فيه، وعلى الوجهين فالله هو المقصد، وأما الوطن فلأنه لا يوطن في مأمن ولا أمن إلا بملك لا يزول ملكه لأن عند زوال ملك الملوك لا يبقى الأمن والراحة، والله سبحانه هو الذي ملكه دائم وكل ما عداه فهو فان، وأما التجارة فلأن التاجر لا يقصد إلا إلى موضع يسمع أو يعلم أن لمتاعه هناك رواجًا، والله تعالى يقول: إن العمل الصالح عنده مثاب عليه مقابل بأضعاف ما يستحق، والله هو المقصد، وعبادته توجه إليه، ولا شك أن القاصد لجهة إذا توجه إليها يكون على الطريق المستقيم.

المسألة الثالثة: العبادة تنبئ عن معنى التذلل، فلما قال: ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [يس: ٦٠] لزم أن يتكبر الإنسان على ما سوى الله ولما قال: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾ ينبغي أن لا يتكبر على الله لكن

التكبر على ما سوى الله ليس معناه أن يرى نفسه خيرًا من غيره، فإن نفسه من جملة ما سوى الله، فينبغي أن لا يلتفت إليها ولو كانت متجملة بعبادة الله، بل معنى التكبر على ما سوى الله أن لا ينقاد لشيء إلا بإذن الله وفي هذا التكبر غاية التواضع فإنه حينئذ لا ينقاد إلى نفسه وحظ نفسه في التفوق على غيره فلا يتفوق فيحصل التواضع التام ولا ينقاد لأمر الملوك إذا خالفوا أمر الله فيحصل التكبر التام فيرى نفسه بهذا التكبر دون الفقير وفوق الأمير.

ثم إن الله تعالى ذكر ما ينبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في الجبل ست لغات كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمهما مع التشديد وكسرهما مع التخفيف وضمهما معه وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضم الجيم ومع كسره.

المسألة الثانية: في معنى الجبل الجيم والباء واللام لا تخلو عن معنى الاجتماع والجبل فيه اجتماع الأجسام الكثيرة، وجبل الطين فيه اجتماع أجزاء الماء والتراب، وشاة لجباء إذا كانت مجتمعة اللبن الكثير، لا يقال البلجة نقض على ما ذكرتم فإنها تنبئ عن التفرق فإن الأبلج خلاف المقرون لأنا نقول هي لاجتماع الأماكن الخالية التي تسع المتمكنات، فإن البلجة والبلدة بمعنى والبلد سمي بلدًا للاجتماع لا للتفرق، فالجبل الجمع العظيم حتى قيل إن دون العشرة آلاف لا يكون جبلاً وإن لم يكن صحيحًا.

المسألة الثالثة: كيف الإضلال؟ نقول: على وجهين: أحدهما: أن الإضلال توليه عن المقصد وصد عنه فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله وبعبادة غيره فهو توليه فإن لم يقدر يأمره بعبادة الله لأمر غير الله من رياسة وجاه وغيرهما فهو صد، وهو يفضي إلى التولية لأن مقصوده لو حصل لترك الله وأقبل على ذلك الغير فتحصل التولية.

ثم بين مآل أهل الضلال بقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وحال الضال كحال شخص خرج من وطنه مخافة عدوه فوقع في مشقة ولو أقام في وطنه لعل ذلك العدو كان لا يظفر به أو يرحمه، كذلك حال من لم يتحرك لطاعة ولا عصيان كالمجانين وحال من استعمل عقله فأخطأ الطريق، فإن المجنون من أهل النجاة وإن لم يكن من أهل الدرجات، وقد قيل بأن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء، وذلك ظاهر في المحسوس فإن من لم يعرف الطريق إذا أقام بمكانه لا يبعد عن الطريق كثيرًا ومن سار إلى خلاف المقصد يبعد عنه كثيرًا.

ثم بين أنهم واصلون إليها حاصلون فيها بقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وفي هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه أحدها: قوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ فإنه أمر تنكيل وإهانة كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، والثاني: قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني العذاب حاضر ولذاتك قد مضت وأيامها قد انقضت وبقي اليوم العذاب،

الثالث: وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فإن الكفر والكفران ينبئ عن نعمة كانت يكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام، ولهذا كثيرًا ما يقول العبد المجرم: افعلوا بي ما يأمر به السيد ولا تحضروني بين يديه، وإلى هذا المعنى أشار القائل:

أَلَيْسَ بِكَافٍ لِذِي نِعْمَةٍ حَيَاءُ المُسِيءِ مِنَ المُحْسِنِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

في الترتيب وجوه الأول: أنهم حين يسمعون قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: ٦٤] يريدون (أَنْ) ينكروا كفرهم كما قال تعالى عنهم ما أشركنا وقالوا آمنا به فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الإنكار وينطق الله غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم، الثاني: لما قال الله تعالى لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ [يس: ٦٠] لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا وتكلمت أعضاؤهم غير اللسان، وفي الختم على الأفواه وجوه: أقواها، أن الله تعالى يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها وينطق جوارحهم فتشهد عليهم، وإنه في قدرة الله يسير، أما الإسكات فلا خفاء فيه، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على الممكنات والوجه الآخر أنهم لا يتكلمون بشيء لانقطاع أعذارهم وانتهاك أستارهم فيقفون ناكسي الرءوس وقوف القنوط اليئوس لا يجد عذرًا فيعتذر ولا مجال توبة فيستغفر، وتكلم الأيدي ظهور الأمور بحيث لا يسع معه الإنكار حتى تنطق به الأيدي والأبصار، كما يقول القائل: الحيطان تبكي على صاحب الدار، إشارة إلى ظهور الحزن، والأول الصحيح وفيه لطائف لفظية ومعنوية.

أما اللفظية فالأولى منها: هي أن الله تعالى أسند فعل الختم إلى نفسه وقال: ﴿نَخْتِمُ﴾ وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل، لأنه لو قال تعالى: ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وتنطق أيديهم يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبرًا وقهرًا والإقرار بالإجبار غير مقبول فقال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ أي باختيارها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم، الثانية: منها هي أن الله تعالى قال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ جعل الشهادة للأرجل والكلام للأيدي لأن الأفعال تسند إلى الأيدي قال تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٣٥] أي ما عملوه وقال: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥] أي ولا تلقوا بأنفسكم فإذا الأيدي كالعاملة، والشاهد على العامل ينبغي أن يكون غيره فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود لبعد إضافة الأفعال إليها.

وأما المعنوية فالأولى منها: أن يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة، وإن كان من الشهود العدول وغير الصديقين

من الكفار والفساق غير مقبول الشهادة فجعل الله الشاهد عليهم منهم، لا يقال الأيدي والأرجل أيضًا صدرت الذنوب منها فهي فسقة فينبغي أن لا تقبل شهادتها، لأنا نقول في رد شهادتها قبول شهادتها، لأنها إن كذبت في مثل ذلك اليوم فقد صدر الذنب منها في ذلك اليوم، والمذنب في ذلك اليوم مع ظهور الأمور، لا بد من أن يكون مذنبًا في الدنيا، وإن صدقت في ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب في الدنيا، وهذا كمن قال لفاسق: إن كذبت في نهار هذا اليوم فعبدي حر، فقال الفاسق: كذبت في نهار هذا اليوم، عتق العبد، لأنه إن صدق في قوله: كذبت في نهار هذا اليوم، فقد وجد الشرط ووجب الجزاء، وإن كذب في قوله: كذبت، فقد كذب في نهار ذلك اليوم، فوجد الشرط أيضًا بخلاف ما لو قال في اليوم الثاني: كذبت في نهار اليوم الذي علقت عتق عبدك على كذبي فيه.

المسألة الثانية: الختم لازم الكفار في الدنيا على قلوبهم وفي الآخرة على أفواههم، ففي الوقت الذي كان الختم على قلوبهم كان قولهم بأفواههم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[التوبة: ٣٠] فلما ختم على أفواههم أيضًا لزم أن يكون قولهم بأعضائهم، لأن الإنسان لا يملك غير القلب واللسان والأعضاء، فإذا لم يبق القلب والفم تعين الجوارح والأركان.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قد ذكرنا مرارًا أن الصراط المستقيم هو بين الجبر والقدر وهو الطريقة الوسطى، والله تعالى في كل موضع ذكر ما يتمسك به المجبرة ذكر عقيبه ما يتمسك به القدرية وبالعكس، وههنا كذلك لما قال الله تعالى: ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يس: ٦٥] وقال: ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[يس: ٦٤] وكان ذلك متمسك القدرية حيث أسند الله الكفر والكسب إليهم وأحال الخير والشر عليهم، ذكر عقيبه ما يدل على أن كفرهم وكسبهم بمشيئة الله، وذلك لأن الكفر يعمي البصيرة ويضعف القوة العقلية، وعمى البصيرة بإرادة الله ومشيئته، إذا شاء أعمى البصائر، كما أنه لو شاء لطمس على أعينهم المبصرة، وسلب القوة العقلية باختياره ومشيئته، كما أن سلب القوة الجسمية بمشيئته، حتى لو شاء لمسخ المكلف على مكانته وأقامه بحيث لا يتحرك يمنة ولا يسرة، ولا يقدر على المضي والرجوع، فإعماء البصائر عنده كإعماء الأبصار، وسلب القوة العقلية كسلب القوة الجسمية، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ إشارة إلى أنه لو شاء وأراد إعماء بصائرهم فضلوا، وأنه لو شاء طمس أعينهم لما اهتدوا إلى طريقتهم الظاهرة، وشاء واختار سلب قوة عقولهم فزلوا، وأنه لو شاء سلب قوة أجسامهم ومسخهم لما قدروا على تقدم ولا تأخر. وفي الآيتين أبحاث لفظية:

البحث الأول: في قوله: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ قال الزمخشري: فيه وجوه الأول: أنه يكون فيه

حذف حرف إلى واتصال الفعل من غير حرف وأصله فاستبقوا إلى الصراط، الثاني: أن يكون المراد من الاستباق الابتدار فأعمله إعمال الابتدار، الثالث: أن يجعل الصراط مستبقًا لا مستبقًا إليه، يقال: استبقنا فسبقتهم، وحينئذٍ يكون مبالغة في الاهتداء إلى الطريق، كأنه يقول: الصراط الذي هو معهم ليسوا طالبين له قاصدين إياه، وإنما هم عليه إذا طمس الله على أعينهم لا يبصرونه، فكيف إن لم يكونوا على الصراط.

البحث الثاني: قدم الطمس والإعماء على المسخ والإعجاز ليكون الكلام مدرجًا، كأنه قال: إن أعماهم لم يروا الطريق الذي هم عليه وحينئذ لا يهتدون إليه، فإن قال قائل: الأعمى قد يهتدي إلى الطريق بأمارات عقلية أو حسية غير حس البصر كالأصوات والمشي بحس اللمس، فارتقى وقال: فلو مسخهم وسلب قوتهم بالكلية لا يهتدون إلى الصراط بوجه من الوجوه.

البحث الثالث: قدم المضي على الرجوع، لأن الرجوع أهون من المضي، لأن المضي لا ينبئ عن سلوك الطريق من قبل، وأما الرجوع فينبئ عنه، ولا شك أن سلوك طريق قد رؤي مرة أهون من سلوك طريق لم ير فقال: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذي هو أهون من المضي.

قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

فقد ذكرنا أن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ [يس: ٦٠] قطع للأعذار بسبق الإنذار، ثم لما قرر ذلك وأتمه شرع في قطع عذر آخر، وهو أن الكافر يقول: لم يكن لبثنا في الدنيا إلا يسيرًا، ولو عمرتنا لما وجدت منا تقصيرًا، فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنكم كلما دخلتم في السن ضعفتم وقد عمرناكم مقدار ما تتمكنون من البحث والإدراك، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧] ثم إنكم علمتم أن الزمان كلما يعبر عليكم يزداد ضعفكم فضيعتم زمان الإمكان، فلو عمرناكم أكثر من ذلك لكان بعده زمان الإزمان، ومن لم يأت بالواجب زمان الإمكان ما كان يأتي به زمان الإزمان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾

في الترتيب وجهان، قد ذكرنا أن الله في كل موضع ذكر أصلين من الأصول الثلاثة، وهي الوحدانية والرسالة والحشر، ذكر الأصل الثالث منها، وههنا ذكر الأصلين الوحدانية والحشر، أما الوحدانية ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] وفي قوله: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١] وأما الحشر ففي قوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ [يس: ٦٤] وفي قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] إلى غير ذلك، فلما ذكرهما وبينهما ذكر الأصل الثالث وهو الرسالة فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ إشارة إلى أنه معلم من عند الله فعلمه ما أراد ولم يعلمه ما لم يرد،

وفي تفسير الآية مباحث:

البحث الأول: خص الشعر بنفي التعليم، مع أن الكفار كانوا ينسبون إلى النبي ﷺ أشياء من جملتها السحر، ولم يقل: وما علمناه السحر، وكذلك كانوا ينسبونه إلى الكهانة، ولم يقل: وما علمناه الكهانة، فنقول: أما الكهانة فكانوا ينسبون النبي ﷺ إليها عندما كان يخبر عن الغيوب ويكون كما يقول. وأما السحر: فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكلم الحصى والجذع وغير ذلك. وأما الشعر: فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يتلوا القرآن عليهم لكنه ﷺ ما كان يتحدى إلا بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] إلى غير ذلك، ولم يقل: إن كنتم في شك من رسالتي فأنطقوا الجذوع أو أشبعوا الخلق العظيم أو أخبروا بالغيوب، فلما كان تحديه ﷺ بالكلام وكانوا ينسبونه إلى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفي التعليم.

البحث الثاني: ما معنى قوله: ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾؟ قلنا: قال قوم: ما كان يتأتى له، وآخرون: ما يتسهل له حتى إنه إن تمثل بيت شعر سمع منه مزاحفًا، يروى أنه كان يقول ﷺ: «وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ بِالأَخْبَارِ»(١) . وفيه وجه أحسن من ذلك وهو أن يحمل (ما ينبغي له) على مفهومه الظاهر وهو أن الشعر ما كان يليق به ولا يصلح له، وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن، فالشارع يكون اللفظ منه تبعًا للمعنى، والشاعر: يكون المعنى منه تبعًا للفظ، لأنه يقصد لفظًا به يصح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج إلى التحيل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ، وعلى هذا نقول: الشعر هو الكلام الموزون الذي قصد إلى وزنه قصدًا أوليًا، وأما من يقصد المعنى فيصدر موزونًا مقفى فلا يكون شاعرًا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] ليس بشعر، والشاعر إذا صدر منه كلام فيه متحركات وساكنات بعدد ما في الآية تقطيعه بفاعلاتن فاعلاتن يكون شعرًا لأنه قصد الإتيان بألفاظ حروفها متحركة وساكنة كذلك والمعنى تبعه، والحكيم قصد المعنى فجاء على تلك الألفاظ، وعلى هذا يحصل الجواب عن قول من يقول: إن النبي ﷺ ذكر بيت شعر وهو قوله:

أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ(٢)

أو بيتين لأنا نقول ذلك ليس بشعر لعدم قصده إلى الوزن والقافية، وعلى هذا لو صدر من

---

(١) **صحيح**: أخرجه الطبري في (تهذيب الآثار) (٢/ ٤٥٨)، حديث رقم (٥٧٤) من طريق أبي أسامة... به، وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٢٠٩)، حديث رقم (٦١٤)، قال حدثني ابن أبي شيبة... به، وأبو الشيخ في (أمثال الحديث) (١/ ١٨)، حديث رقم (١١) من طريق أبي أسامة... به، ورواه أيضًا في (١/ ٢٠)، حديث رقم (١٠٣)، جميعًا من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس، وأورده الألباني في (صحيح الجامع) (٩٠٣٦)، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ٤٥). وقال: رواه البزار والطبراني في أثناء حديث ورجالهما رجال الصحيح.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد)، باب: (من قاد دابة غيره في الحرب) (٣/ ١٠٥١)، حديث رقم (٢٧٠٩)، ومسلم في (صحيحه) (٣/ ١٤٠٠/ ١٧٧٦)، كلاهما من طريق أبي إسحاق عن البراء... به.

النبي ﷺ كلام كثير موزون مقفى لا يكون شعرًا، لعدم قصده اللفظ قصدًا أوليًا، ويؤيد ما ذكرنا أنك إذا تتبعت كلام الناس في الأسواق تجد فيه ما يكون موزونًا واقعًا في بحر من بحور الشعر ولا يسمى المتكلم به شاعرًا ولا الكلام شعرًا لفقد القصد إلى اللفظ أولاً، ثم قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ يحقق ذلك المعنى أي هو ذكر وموعظة للقصد إلى المعنى، والشعر لفظ مزخرف بالقافية والوزن، وههنا لطيفة: وهي أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً» يعني: قد يقصد الشاعر اللفظ فيوافقه معنى حكمي كما أن الحكيم قد يقصد معنى فيوافقه وزن شعري، لكن الحكيم بسبب ذلك الوزن لا يصير شاعرًا والشاعر بسبب ذلك الذكر يصير حكيمًا حيث سمي النبي ﷺ شعره حكمة، ونفى الله كون النبي شاعرًا، وذلك لأن اللفظ قالب المعنى، والمعنى قلب اللفظ وروحه، فإذا وجد القلب لا نظر إلى القالب، فيكون الحكيم الموزون كلامه حكيمًا، ولا يخرجه عن الحكمة وزن كلامه، والشاعر الموعظ كلامه حكيمًا.

قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قرئ بالتاء والياء، بالتاء خطابًا مع النبي ﷺ وبالياء على وجهين أحدهما: أن يكون المنذر هو النبي ﷺ حيث سبق ذكره في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يس: ٦٩] وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]. وثانيهما: أن يكون المراد أن القرآن ينذر، والأول أقرب إلى المعنى والثاني أقرب إلى اللفظ، أما الأول: فلأن المنذر صفة للرسل أكثر ورودًا من المنذر صفة للكتب، وأما الثاني: فلأن القرآن أقرب المذكورين إلى قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ وقوله: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: من كان حي القلب، ويحتمل وجهين أحدهما: أن يكون المراد من كان حيًّا في علم الله فينذره به فيؤمن، الثاني: أن يكون المراد لينذر به من كان حيًّا في نفس الأمر، أي من آمن فينذره بما على المعاصي من العقاب وبما على الطاعة من الثواب ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أما قول العذاب وكلمته كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وقوله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٧١] وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فإذا جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب، وأما القول المقول في الوحدانية والرسالة والحشر وسائر المسائل الأصولية الدينية فإن القرآن فيه ذكر الدلائل التي بها تثبت المطالب. ثم إنه تعالى أعاد الوحدانية ودلائل دالة عليها فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ أي من جملة ما عملت أيدينا أي ما عملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وإرادتنا.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ إشارة إلى إتمام الإنعام في خلق الأنعام، فإنه تعالى لو خلقها ولم يملكها الإنسان ما كان ينتفع بها.

وقوله: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ زيادة إنعام فإن المملوك إذا كان آبيًا متمردًا لا ينفع، فلو كان الإنسان يملك الأنعام وهي نادة صادة لما تم الإنعام الذي في الركوب وإن كان يحصل الأكل كما في الحيوانات الوحشية، بل ما كان يكمل نعمة الأكل أيضًا إلا بالتعب الذي في الاصطياد، ولعل ذلك لا يتهيأ (إلاَّ) للبعض وفي البعض.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ بيان لمنفعة التذليل إذ لولا التذليل لما وجدت إحدى المنفعتين وكانت الأخرى قليلة الوجود.

ثم بين تعالى غير الركوب والأكل من الفوائد بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ وذلك لأن من الحيوانات ما لا يركب كالغنم فقال: منافع لتعمها والمشارب كذلك عامة، إن قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية فإن من الجلود ما يتخذ أواني للشرب والأدوات من القرب (وغيرها)، وإن قلنا: إن المراد المشروب وهو الألبان والأسمان فهي مختصة بالإناث ولكن بسبب الذكور فإن ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والإناث.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم التي توجب العبادة شكرًا، ولو شكرتم لزادكم من فضله، ولو كفرتم لسلبها منكم، فما قولكم، أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها؟.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾.

إشارة إلى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها، فإنهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكرًا لأنعمه، فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال عنهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨] وفي الحقيقة لا هي ناصرة ولا منصورة.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ إشارة إلى الحشر بعد تقرير التوحيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣] وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٨] وهو يحتمل معنيين أحدهما: أن يكون العابدون جندًا لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا، الثاني: أن يكون الأصنام جندًا للعابدين، وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جندًا لهم ومحضرين لنصرتهم فإن ذلك دال على

عدم الاستطاعة، فإن من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون في غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهبًا ولم يجمع أنصاره.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشارة إلى الرسالة لأن الخطاب معه بما يوجب تسلية قلبه دليل اجتبائه واختياره إياه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يحتمل وجوهًا أحدها: أن يكون ذلك تهديدًا للمنافقين والكافرين فقوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ من النفاق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الشرك، والثاني: ما يسرون من العلم بك وما يعلنون من الكفر بك، الثالث: ما يسرون من العقائد الفاسدة وما يعلنون من الأفعال القبيحة.

ثم إنه تعالى لما ذكر دليلاً من الآفاق على وجوب عبادته بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: ٧١] ذكر دليلاً من الأنفس.

فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قيل إن المراد بالإنسان أبيّ بن خلف فإن الآية وردت فيه حيث أخذ عظمًا باليًا وأتى النبي ﷺ وقال: إنك تقول إن إلهك يحيي هذه العظام فقال رسول الله ﷺ: ((نعم، ويدخلك جهنم))، وقد ثبت في أصول الفقه أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] نزلت في واحدة وأراد الكل في الحكم فكذلك كل إنسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه إذا علمت عمومها فنقول: فيها لطائف:

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١] معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة، أولم يروا خلق الأنعام لهم؟ وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ كلام أعم من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لأنه مع جنس الإنسان وهو مع جمع منهم، فنقول: سبب ذلك أن دليل الأنفس أشمل وأكمل وأتم وألزم، فإن الإنسان قد يغفل عن الأنعام وخلقها عند غيبتها ولكن (لا يغفل) هو مع نفسه متى ما يكون وأينما يكون، فقال: إن غاب عن الحيوان وخلقه فهو لا يغيب عن نفسه، فما باله أولم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة، فإن سائر النعم بعد وجوده، وقوله: ﴿مِن نُّطْفَـةٍ﴾ إشارة إلى وجه الدلالة، وذلك لأن خلقه لو كان من أشياء مختلفة الصور كان يمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو، وكذلك الحال في كل عضو، ولما كان خلقه عن نطفة متشابهة الأجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة إلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد: ٤].

وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ فيه لطيفة غريبة وهي أنه تعالى قال اختلاف صور أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهنالك ما هو أظهر وهو نطقه وفهمه، وذلك لأن النطفة جسم، فهب أن جاهلاً يقول: إنه استحال وتكون جسمًا آخر، لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيهما النطفة؟ فإبداع النطق والفهم أعجب وأغرب من إبداع الخلق والجسم

وهو إلى إدراك القدرة والاختيار منه أقرب فقوله: ﴿خَصِيمٌ﴾ أي ناطق وإنما ذكر الخصيم مكان النطق لأنه أعلى أحوال الناطق، فإن الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره، والمتكلم مع غيره إذا لم يكن خصمًا لا يبين ولا يجتهد مثل ما يجتهد إذا كان كلامه مع خصمه وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى قوة عقله، واختار الإبانة لأن العاقل عند الإفهام أعلى درجة منه عند عدمه، لأن المبين بأن عنده الشيء ثم أبانه فقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارة إلى أدنى ما كان عليه وقوله: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى أعلى ما حصل عليه وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فما تقدم من خلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظامًا إشارة إلى التغيرات في الجسم وقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] إشارة إلى ما أشار إليه بقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي ناطق عاقل.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

ثم قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ إشارة إلى بيان الحشر وفي هذه الآيات إلى آخر السورة غرائب وعجائب نذكرها بقدر الإمكان إن شاء الله تعالى، فنقول: المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلاً ولا شبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة وهم الأكثرون، ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم في كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠] ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦] ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات: ٥٢] ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣] إلى غير ذلك فكذلك ههنا قال: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ على طريق الاستبعاد فبدأ أولاً بإبطال استبعادهم بقوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي نسي أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الأجزاء، ثم جعلنا لهم من النواصي إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجرام وهو النطق والعقل الذين بهما استحقوا الإكرام فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة أصلاً، ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه، ثم إن استبعادهم كان من جهة ما في المعاد من التفتت والتفرق حيث قالوا: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ اختاروا العظم للذكر لأنه أبعد عن الحياة لعدم الإحساس فيه ووصفوه بما يقوي جانب الاستبعاد من البلى والتفتت، والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما في المعيد من القدرة والعلم فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أي جعل قدرتنا كقدرتهم ونسي خلقه العجيب وبدأه الغريب، ومنهم من ذكر شبهة وإن كانت في آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد وهي على وجهين:

أحدهما: أنه بعد العدم لم يبق شيئًا فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود؟ وأجاب عن هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني كما خلق الإنسان ولم يكن شيئًا مذكورًا كذلك يعيده وإن لم يبق شيئًا مذكورًا.

وثانيهما: أن من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه في أبدان السباع وبعضه في جدران الرباع كيف يجمع؟ وأبعد من هذا هو أن إنسانًا إذا أكل إنسانًا وصار أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فإن أعيد فأجزاء المأكول، إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه، وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء.

فقال تعالى في إبطال هذه الشبهة: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ووجهه هو أن في الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية، وفي المأكول كذلك، فإذا أكل إنسان إنسانًا صار الأصلي من أجزاء المأكول فضليًا من أجزاء الآكل والأجزاء الأصلية للآكل هي ما كان له قبل الأكل. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأصلي من الفضلي فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الأجزاء الأصلية للمأكول وينفخ فيها روحه، وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة في البقاع، المبددة في الأصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة.

ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وإبطال إنكارهم وعنادهم.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ ﴾

فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه، وهي كحرارة جارية فيه فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه، فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون حيث منه توقدون، وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فإن الله خلق السموات والأرض، فبان لطف قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ قدم ذكر النار في الشجر على ذكر الخلق الأكبر، لأن استبعادهم كان بالصريح واقعًا على الأحياء حيث قالوا: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ [يس: ٧٨] ولم يقولوا: من يجمعها ويؤلفها؟ والنار في الشجر تناسب الحياة.

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ إشارة إلى أنه في القدرة كامل.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى أن علمه شامل.

ثم أكد بيانه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وهذا إظهار فساد

تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم حيث ضربوا لله مثلاً وقالوا: لا يقدر أحد على مثل هذا، قياسًا للغائب على الشاهد فقال في الشاهد الخلق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع إلا في الأزمنة الممتدة والله يخلق بكن فيكون، فكيف تضربون المثل الأدنى وله المثل الأعلى من أن يدرك.

وفي الآية مباحث:

البحث الأول: قالت المعتزلة: هذه الآية دالة على أن المعدوم شيء لأنه يقول لما أراده: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فهو قبل القول له كن لا يكون وهو في تلك الحالة شيء حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ والجواب أن هذا بيان لعدم تخلف الشيء عن تعلق إرادته به، فقوله: ﴿إِذَآ﴾ مفهوم الحين والوقت والآية دالة على أن المراد شيء حين تعلق الإرادة به ولا دلالة فيها على أنه شيء قبل ما إذا أراد وحينئذٍ لا يرد ما ذكروه لأن الشيء حين تعلق الإرادة به شيء موجود لا يريده في زمان ويكون في زمان آخر بل يكون في زمان تعلق الإرادة، فإذًا الشيء هو الموجود لا المعدوم لا يقال: كيف يريد الموجود وهو موجود فيكون ذلك إيجادًا لموجود؟ نقول: هذا الإشكال من باب المعقولات ونجيب عنه في موضعه، وإنما غرضنا إبطال تمسكهم باللفظ، وقد ظهر أن المفهوم من هذا الكلام أنه يريد ما هو شيء إذا أراد، وليس في الآية أنه إذا أراد ما كان شيئًا قبل تعلق الإرادة.

البحث الثاني: قالت الكرامية: لله إرادة محدثة بدليل قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَرَادَ﴾ ووجه دلالته من أمرين أحدهما: من حيث إنه جعل للإرادة زمانًا، فإن إذا ظرف زمان وكل ما هو زماني فهو حادث، وثانيهما: هو أنه تعالى جعل إرادته متصلة بقوله: ﴿كُن﴾ وقوله: ﴿كُن﴾ متصل بكون الشيء ووقوعه لأنه تعالى قال: ﴿فَيَكُونُ﴾ بفاء التعقيب لكن الكون حادث، وما قبل الحادث متصل به حادث، والفلاسفة وافقوهم في هذا الإشكال من وجه آخر فقالوا: إرادته متصلة بأمره وأمره متصل بالكون ولكن إرادته قديمة فالكون قديم فمكونات الله قديمة، وجواب الضالين من التمسك باللفظ هو أن المفهوم من قوله: ﴿إِذَآ أَرَادَ﴾ من حيث اللغة إذا تعلقت إرادته بالشي لأن قوله: ﴿أَرَادَ﴾ فعل ماض، وإذا دخلت كلمة إذا على الماضي تجعله في معنى المستقبل، ونحن نقول بأن مفهوم قولنا أراد ويريد وعلم ويعلم يجوز أن يدخله الحدوث، وإنما نقول لله تعالى صفة قديمة هي الإرادة وتلك الصفة إذا تعلقت بشيء نقول أراد ويريد، وقبل التعلق لا نقول أراد وإنما نقول له إرادة وهو بها مريد، ولنضرب مثالاً للأفهام الضعيفة ليزول ما يقع في الأوهام السخيفة، فنقول: قولنا فلان خياط يراد به أن له صنعة الخياطة فلو لم يصح منا أن نقول إنه خاط ثوب زيد أو يخيط ثوب زيد لا يلزم منه نفي صحة قولنا إنه خياط بمعنى أن له صنعة بها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة في ثوب زيد في زمان ماض خاط ثوبه، وبها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة في ثوب زيد في زمان مستقبل يخيط ثوبه، ولله المثل الأعلى فافهم أن الإرادة أمر ثابت إن تعلقت بوجود شيء نقول أراد وجوده أي يريد وجوده، وإذا علمت هذا فهو

في المعنى من كلام أهل السنة تعلق الإرادة حادث وخرج بما ذكرنا جواب الفريقين.

البحث الثالث: قالت المعتزلة والكرامية: كلام الله حرف وصوت وحادث لأن قوله: ﴿كُن﴾ كلام (وكن) من حرفين، والحرف من الصوت، ويلزم من هذا أن كلامه من الحروف والأصوات، وأما أنه حادث فلما تقدم من الوجهين أحدهما: أنه زماني، والثاني: أنه متصل بالكون والكون حادث، والجواب يعلم مما ذكرنا، وذلك لأن الكلام صفة إذا تعلقت بشيء تقول قال ويقول فتعلق الخطاب حادث والكلام قديم فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فيه تعلق وإضافة لأن قوله تعالى: ﴿يَقُولَ لَهُۥ﴾ باللام للإضافة صريح في التعلق ونحن نقول إن قوله للشيء الحادث حادث لأنه مع التعلق، وإنما القديم قوله وكلامه لا مع التعلق وكل قديم وحادث إذا نظرت إلى مجموعهما لا تجدهما في الأزل وإنما تجدهما جميعًا فيما لا يزال فله معنى الحدوث ولكن الإطلاق موهم، فتفكر جدًّا ولا تقل: المجموع حادث، من غير بيان مرادك، فإن ذلك قد يفهم منه أن الجميع حادث، بل حقق الإشارة وجود العبارة وقل: أحد طرفي المجموع قديم والآخر حادث ولم يكن الآخر معه في الأزل، وأما قوله: ﴿كُن﴾ من الحروف، نقول الكلام يطلق على معنيين أحدهما: ما عند المتكلم، والثاني: ما عند السامع، ثم إن أحدهما يطلق عليه أنه هو الآخر ومن هذا يظهر فوائد. أما بيان ما ذكرناه، فلأن الإنسان إذا قال لغيره: عندي كلام أريد أن أقوله لك غدًا، ثم إن السامع أتاه غدًا وسأله عن الكلام الذي كان عنده أمس، فيقول له: إني أريد أن تحضر عندي اليوم، فهذا الكلام أطلق عليه المتكلم أنه كان عندك أمس ولم يكن عند السامع، ثم حصل عند السامع بحرف وصوت ويطلق عليه أن هذا الذي سمعت هو الذي كان عندي، ويعلم كل عاقل أن الصوت لم يكن عند المتكلم أمس ولا الحرف، لأن الكلام الذي عنده جاز أن يذكره بالعربي فيكون له حروف، وجاز أن يذكره بالفارسية فيكون له حروف أخر، والكلام الذي عنده ووعد به واحد والحروف مختلفة كثيرة، فإذًا معنى قوله: هذا ما كان عندي، هو أن هذا يؤدي إليك ما كان عندي، وهذا أيضًا مجاز، لأن الذي عنده ما انتقل إليه، وإنما علم ذلك وحصل عنده به علم مستفاد من السمع أو البصر في القراءة والكتابة أو الإشارة، إذا علمت هذا فالكلام الذي عند الله وصفة له ليس بحرف على ما بان، والذي يحصل عند السامع حرف وصوت وأحدهما الآخر لما ذكرنا من المعنى وتوسع الإطلاق، فإذا قال تعالى: ﴿يَقُولَ لَهُۥ﴾ حصل قائل وسامع. فاعتبرها من جانب السامع لكون وجود الفعل من السامع لذلك القول فعبر عنه بالكاف والنون الذي يحدث عند السامع ويحدث به المطلوب.

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾

لما تقررت الوحدانية والإعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة، قال تعالى وتنزه عن

الشريك: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكًا، وقالوا بأن الإعادة لا تكون، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ردًا عليهم في الأمرين، وقد ذكرنا ما يتعلق بالنحو في قوله: سبحان، أي سبحوا تسبيح الذي أو سبح من في السموات والأرض تسبيح الذي ﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ علم للتسبيح، والتسبيح هو التنزيه، والملكوت مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت، وهو فعلول أو فعلوت فيه كلام، ومن قال هو فعلول جعلوه ملحقًا به.

ثم إن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يس»(١) وقال الغزالي فيه: إن ذلك لأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر، والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه، فجعله قلب القرآن لذلك، واستحسنه فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام.

ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين فابتداؤها بيان الرسالة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣] ودليلها ما قدمه عليها بقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢] وما أخره عنها بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ [يس: ٦] وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارة إلى الحشر، وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائله وثوابه، ومن حصل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق الذي بالجنان. وأما وظيفة اللسان التي هي القول، فكما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠] وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ [فصلت: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ﴿وَأَلْزَمَهُمْ

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ١٦٢)، حديث رقم (٢٨٨٧).

وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن وبالبصرة لا يعرفون من حديث قتادة إلا من هذا الوجه وهارون أبو محمد شيخ مجهول حدثنا أبو موسى محمد بن المثنى حدثنا أحمد بن سعيد الدارمي حدثنا قتيبة عن حميد بن عبد الرحمن بهذا وفي الباب عن أبي بكر الصديق ولا يصح من قبل إسناده إسناده ضعيف. والقزويني في (التدوين) (٣/ ٢٤٣)، كلاهما من طريق حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي عن الحسن بن صالح عن هارون أبي محمد عن مقاتل بن حبان عن قتادة عن أنس. . . به، وذكره ابن أبي حاتم في (العلل) (٢/ ٥٥)، حديث رقم (١٦٥٢) من طريق حميد بن عبد الرحمن عن الحسن بن صالح عن هارون أبي محمد عن مقاتل عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ أن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يس ومن قرأكذا قال: قال أبي: مقاتل هذا هو مقاتل بن سليمان رأيت هذا الحديث في أول كتاب وضعه مقاتل بن سليمان وهو حديث باطل لا أصل، له قلت لأبي: مقاتل أدرك قتادة قال وأكبر من قتادة أبو الزبير.

وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٢٦٩)، حديث رقم (٧٠٩).

وقال: رواه الدارمي والترمذي عن أنس قال الترمذي: غريب قيل لأن فيه هارون بن محمد لا يعرف وأجيب بأن غايته أنه ضعيف وهو يعمل به في الفضائل، ورواه ابن الجزري في الحصن الحصين بلفظ «قلب القرآن يس لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له اقرءوها على موتاكم» قال شارحه القاري: وروي مرفوعًا أن من قرأها وهو خائف أمن أو جائع شبع أو عار كسي أو عاطش سقي في خلال كثيرة، وروى الحارث بن أبي أسامة في مسنده قيل: في سنده نظر لكن يشهد له أنه ﷺ في ليلة اجتماع قريش على قتله خرج وهو يقرأ أوائلها وذر عليهم التراب مع أن الحديث يعمل به في الفضائل انتهى. وقد يقال قراءة أولها لخاصية فيه دون باقيها فتدبر.

﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] إلى غير هذه مما في غير هذه السورة ووظيفة الأركان وهو العمل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١١٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ . . . ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ﴾ [الإسراء: ٣٢، ٣٣] وقوله: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وأيضًا مما في غير هذه السورة، فلما لم يكن فيها إلا أعمال القلب لا غير سماها قلبًا، ولهذا ورد في الأخبار أن النبي ﷺ ندب إلى تلقين يس لمن دنا منه الموت، وقراءتها عند رأسه، لأن في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة، والأعضاء الظاهرة ساقطة البنية، لكن القلب يكون قد أقبل على الله ورجع عن كل ما سواه، فيقرأ عند رأسه ما يزاد به قوة قلبه، ويشتد تصديقه بالأصول الثلاثة وهي شفاء له وأسرار كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ لا يعلمها إلا الله ورسوله، وما ذكرناه ظن لا نقطع به، ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين.

تم تفسير هذه السورة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يس

وهي مكِّيَّةٌ بإجماعٍ، وهي ثلاثٌ وثمانون آيةً، إلَّا أنَّ فرقةً قالت: إنَّ قولَه تعالى ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [الآية: ١٢] نزلت في بني سَلِمةَ من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارَهم، وينتقلوا إلى جوارِ مسجدِ الرسولِ ﷺ، على ما يأتي[١].

وفي كتابِ أبي داودَ عن مَعْقِل بنِ يَسَار قال: قال النبيُّ ﷺ: «اقرؤوا يَس على موتاكم»[٢].

وذكر الآجُرِّيُّ من حديثِ أمِّ الدَّرْداءِ عن النبيِّ ﷺ قال: «ما مِن ميِّتٍ يُقرَأُ عليه سورةُ يس إلَّا هوَّن اللهُ عليه»[٣].

وفي «مسند» الدَّارِميِّ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَرأَ سورةَ يس في ليلةٍ ابتغاءَ وَجْهِ اللهِ؛ غُفِرَ له في تلك اللَّيلة»[٤]. خرَّجه أبو نعيم الحافظُ أيضاً[٥].

---

(١) ص٤٢٠-٤٢١ من هذا الجزء، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٥.

(٢) سنن أبي داود (٣١٢١)، وسلف ٥/ ٤٤٩، وذكرنا ثَمة قول الدارقطني: هذا حديث ضعيف الإسناد، مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث. اهـ. وأورده ابن حبان في صحيحه (٣٠٠٢) وقال: قوله: «اقرؤوا على موتاكم يَس»: أراد به من حَضَرَتْه المنيَّة، لا أنَّ الميتَ يُقرأ عليه، وكذلك قوله ﷺ: «لَقِّنُوا موتاكم لا إله إلا الله». وأخرج أحمد في المسند (١٦٩٦٩) عن أبي المغيرة، عن صفوان قال: حدثتني المشيخة أنهم حضروا غُضيف بن الحارث الثُّمالي حين اشتدَّ سَوْقُه، فقال: هل منكم أحدٌ يقرأ ﴿يَس﴾؟ قال: فقرأها صالح بن شُريح السَّكوني، فلما بلغ أربعين منها قُبض. قال: وكان المشيخة يقولون: إذا قرئت عند الميّت خفف عنه بها. وحسَّن إسناد هذا الأثر الحافظ ابن حجر في الإصابة (ترجمة غضيف).

(٣) سلف ٥/ ٤٤٩، وينظر الكلام عليه هناك.

(٤) سنن الدارمي (٣٤١٧) وهو من طريق الحسن عن أبي هريرة به، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص٣٨. وأخرجه ابن حبان (٢٥٧٤) من طريق الحسن عن جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ. قال أبو حاتم كما في المراسيل ص٤٢: لم يصح للحسن سماع من جندب. اهـ. وسئل الدارقطني عن حديث الحسن عن أبي هريرة فقال: اختلف فيه على الحسن... وليس فيها شيء ثابت. العلل ١٠/ ٢٦٧ - ٢٦٩.

(٥) حلية الأولياء ٢/ ١٥٩.

وَرَوَى الترمذيُّ عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ قلباً، وقلبُ القرآنِ يَس، ومَن قَرأ يَس كَتَبَ اللهُ له بقراءتها قراءةَ القرآنِ عَشْرَ مرَّاتٍ» قال: هذا حديثٌ غريبٌ، وفي إسنادِه هارونُ أبو محمدٍ شيخٌ مجهولٌ، وفي البابِ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، ولا يصحُّ حديثُ أبي بكرٍ من قِبَلِ إسنادِه، وإسنادُه ضعيف[١].

وعن عائشة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ في القرآنِ لَسورةً تَشْفَعُ لقارئها ويُغفَرُ لمُستَمِعِها، أَلَا وهي سورةُ يَس، تُدْعَى في التوراة: المُعِمَّة» قيل: يا رسول الله، وما المُعِمَّةُ؟ قال: «تعمُّ صاحبَها بخيرِ الدُّنيا، وتَدفعُ عنه أهاويلَ الآخرة، وتدعى: الدافعةُ، والقاضية» قيل: يا رسولَ الله، وكيف ذلك؟ قال: «تَدْفَعُ عن صاحبها كلَّ سوءٍ، وتَقْضِي له كلَّ حاجةٍ، ومَن قرأها عَدَلَتْ له عشرين حَجَّةً، ومَن سمعها كانت له كألفِ دينارٍ تَصَدَّق بها في سبيل الله، ومَن كَتَبَها وشربها أدخلتْ جوفَه ألفَ دواءٍ، وألفَ نورٍ، وألف يقينٍ، وألفَ رحمةٍ، وألفَ رأفةٍ، وألفَ هدىً، ونُزِعَ عنه كلُّ داءٍ وغِلٍّ» ذكره الثعلبيُّ من حديثِ عائشةَ[٢]، والترمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول» من حديث أبي بكر الصدِّيقِ ﷺ مُسْنَداً[٣].

وفي «مسند» الدَّارِميِّ عن شَهر بنِ حَوْشَبٍ قال: قال ابن عباس: مَن قرأ «يس» حين يُصبِحُ؛ أُعطي يُسْرَ يومِه حتى يُمسي، ومَن قرأها في صَدْرِ ليلةٍ أُعطيَ يُسْرَ ليلتِه حتى يُصبح[٤].

وذكر النحاسُ عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لكلِّ شيءٍ قلبٌ وقلبُ القرآن

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٨٧). وسيأتي حديث أبي بكر ﷺ.

(٢) وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٥ عن عائشة رضي الله عنها منه إلى قوله: «... ألا وهي سورة يس».

(٣) نوادر الأصول ص٣٢٥ وليس في مطبوعه ذكر الإسناد، وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (٢٤٦٥)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣٥٦)، وأخرجه ابن الجوزي أيضاً (٣٥٥) من حديث أنس ﷺ وقال: هذا الحديث من جميع طرقه باطل لا أصل له.

(٤) سنن الدارمي (٣٤١٩). وشهر بن حوشب؛ قال الحافظ في التقريب: صدوق كثير الإرسال والأوهام.

«يس»، مَن قرأها نهاراً كُفيَ همَّه، ومَن قرأها ليلاً غُفِرَ ذنبُه. وقال شهر بن حَوْشَب: يقرأ أهلُ الجنةِ «طه» و«يس» فقط[١]. رفع هذه الأخبارَ الثلاثةَ الماوَرْديُّ، فقال: روى الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ قلباً وإنَّ قلبَ القرآن «يس»، ومَن قرأها في ليلةٍ أُعطيَ يُسْرَ تلك الليلةِ، ومَن قرأها في يومٍ أُعطيَ يُسْرَ ذلك اليومِ، وإنَّ أهلَ الجنةِ يُرفَعُ عنهم القرآنُ فلا يقرؤون شيئاً إلَّا «طه» و«يس»»[٢].

وقال يحيى بنُ أبي كثير: بلغني أنَّ مَن قرأ سورة يس ليلاً لم يَزَلْ في فرحٍ حتى يُصبِحَ، ومَن قرأها حين يُصبِحُ لم يَزَلْ في فرحٍ حتى يُمسي؛ وقد حدَّثني مَن جَرَّبها[٣]. ذكره الثعلبيُّ وابنُ عطيةَ، قال ابن عطية[٤]: ويُصَدِّقُ ذلك التجربة.

وذكر الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن عبد الأعلى قال: حدَّثنا محمد بن الصَّلت، عن عمرو بن ثابت، عن محمد بن مروان، عن أبي جعفر قال: مَن وَجَد في قلبه قساوةً فَلْيَكْتُبْ «يس» في جامٍ بزَعْفَران ثم يَشْرَبْه[٥].

حدَّثني أبي رحمه الله قال: حدَّثنا أَصْرَم بنُ حَوْشَب، عن بقيَّةَ بن الوليد، عن المعتمر بن أشرف، عن محمد بن عليٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآنُ أفضلُ من كلِّ شيءٍ دونَ اللهِ، وفضلُ القرآنِ على سائرِ الكلامِ كَفَضْلِ اللهِ على خَلْقِه، فَمَن وَقَّرَ القرآنَ فقد وقَّر اللهَ، ومَن لم يوقِّر القرآنَ لم يوقِّر اللهَ، وحرمةُ القرآنِ عند الله كحرمةِ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٥ ، ولم نقف عليه عن غيره، وسلف بعضه، وسلف كلام الدارقطني: لا يصح في هذا الباب حديث.

(٣) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٢١٨).

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٥ ، والخبر فيه دون قوله: ومَن قرأها حين يصبح...

(٥) نوادر الأصول ص٣٣٥ ، وهو مقطوع على أبي جعفر، وهو محمد بن علي. وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٤٦٨) من طريق الحسن بن الحسين العرني عن عمرو بن ثابت به. وعمرو بن ثابت قال فيه ابن معين: ليس بشيء، وقال مرة: ليس بثقة ولا مأمون. وقال النسائي: متروك. الميزان ٣/ ٢٤٩ .

الوالدِ على ولده. القرآنُ شافعٌ مشفَّع، وماحِلٌ[١] مصدَّق، فَمَن شَفَع له القرآنُ شُفِّع، ومَن مَحَل به القرآنُ صُدِّق، ومَن جَعَلَه أمامَه قاده إلى الجنة، ومَن جعله خَلْفَه ساقه إلى النار. وحَمَلةُ القرآن هم المحفوفون برحمة الله، الملبَسون نورَ الله، المعلَّمون كلامَ الله، مَن والاهم فقد والَى اللهَ، ومَن عاداهم فقد عادَى اللهَ، يقول الله تعالى: يا حَملةَ القرآنِ استجيبوا لربِّكم بتوقير كتابِه يَزِدْكم حبّاً ويحبِّبكم إلى عباده، يدفعُ عن مستمِعِ القرآن بَلْوَى الدنيا، و[يدفع عن تالي القرآنِ] بَلْوَى الآخرة، ومَن استمع آيةً من كتاب الله كان له أفضلَ ممَّا تحت العرشِ إلى التُّخوم، وإنَّ في كتابِ اللهِ لسورةً تُدْعَى العزيزة، ويُدْعَى صاحبُها الشريف، يومَ القيامةِ تَشْفَع لصاحبها في أكثرَ من ربيعةَ ومُضَرَ، وهي سورة يَس»[٢].

وذكر الثعلبيُّ عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن قرأ سورةَ يَس ليلةَ الجمعةِ أصبح مغفوراً له»[٣]. وعن أنسٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن دخل المقابرَ فقرأ سورةَ يَس خفَّف الله عنهم يومئذٍ، وكان له بعددِ حُروفِها حسناتٌ»[٤].

قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿يسٓ﴾ في «يس» أَوْجُهٌ من القراءات: قرأ أهلُ المدينة والكسائيُّ: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ بإدغام النونِ في الواو. وقرأ أبو عمرو والأعمشُ وحمزةُ:

---

(١) أي: خصم مجادِل. النهاية (محل).

(٢) نوادر الأصول ص٣٣٥ - ٣٣٦، وما سلف بين حاصرتين منه، وأصرم بن حوشب قال فيه يحيى: كذاب خبيث، وقال البخاري ومسلم والنسائي: متروك. الميزان ١/ ٢٧٢.

(٣) وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (٢٤٧٧) بلفظ: «من قرأ ليلة الجمعة «حم» الدخان و«يس» أصبح...» وقال: تفرد به هشام (وهو ابن زياد) وهو ضعيف. اهـ وقال النسائي: متروك، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات. الميزان ٤/ ٢٩٨.

(٤) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٨/ ١١٩، وفي إسناده ضعفاء ومجاهيل.

«يَس» بإظهارِ النون[١]. وقرأ عيسى بنُ عمر: «يَس» بنصبِ النون. وقرأ ابنُ عباس وابنُ أبي إسحاقَ ونصر بنُ عاصم: «يَس» بالكسر. وقرأ هارونُ الأعورُ ومحمد بنُ السَّمَيْفَع: «يَس» بضمِّ النون، فهذه خمسُ قراءاتٍ[٢].

القراءةُ الأولى بالإدغام على ما يجب في العربية؛ لأنَّ النونَ تُدغَم في الواو. ومَن بيَّن قال: سبيلُ حروفِ الهجاءِ أن يُوقَفَ عليها، وإنَّما يكونُ الإدغامُ في الإدراج.

وذَكَر سيبويه النصبَ وجعله من جِهَتَين: إحداهما: أنْ يكون مفعولاً، ولا يَصْرِفُه؛ لأنَّه عنده اسمٌ أَعجميٌّ بمنزلةِ هابيلَ، والتقدير: اذكُر يَس، وجعله سيبويه اسماً للسورة. وقولُه الآخَرُ: أنْ يكونَ مبنيّاً على الفتح، مثل: كيفَ وأينَ. وأمَّا الكَسْرُ فزَعَم الفرَّاءُ أنه مشبَّهٌ بقول العرب: جَيرِ لا أفعلُ[٣]، فعلى هذا يكون «يَس» قَسَماً. وقاله ابن عباس[٤].

وقيل: مشبَّهٌ بأمسِ وحَذَامِ وهؤلاءِ ورَقَاشِ. وأمَّا الضمُّ فمشبَّهٌ بمنذُ وحيثُ وقطُّ، وبالمنادى المُفْرَدِ إذا قلتَ: يا رجلُ، لِمَن يقف عليه. قال ابنُ السَّمَيْفَع وهارونُ: وقد جاء في تفسيرها: يا رجلُ، فالأَوْلَى بها الضمُّ.

قال ابن الأنباريِّ: «يس» وقفٌ حَسَنٌ لمَن قال: هو افتتاحٌ للسورة. ومَن قال: معنى «يس»: يا رجلُ، لم يقف عليه[٥].

ورُوِيَ عن ابن عباسٍ وابن مسعود وغيرِهما أنَّ معناه: يا إنسان[٦]، وقالوا في

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨١، وقد قرأ بإدغام النون ورش وأبو بكر وابن عامر والكسائي والباقون من السبعة بإظهارها. التيسير ص١٨٣، وينظر السبعة ص٥٣٨.

(٢) تنظر هذه القراءات في القراءات الشاذة ص١٢٤، والمحتسب ٢/ ٢٠٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨١ – ٣٨٢، وقول سيبويه في الكتاب ٣/ ٢٥٨، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٧١. وجَيرِ بكسر الراء، وقد ينوَّن، وكأيْنَ: يمين، أي: حقّاً. القاموس (جير).

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٨.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولم نقف عليه عن ابن مسعود. ووقع في (ظ): وروي عن ابن عباس وغيره أن...

قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] أي: على آلِ محمدٍ.

وقال سعيد بن جبير: هو اسمٌ من أسماءِ محمدٍ ﷺ، ودليلُه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قال السيدُ الحِمْيريُّ:

يا نفسُ لا تَمحَضي بالنُّصْحِ جاهدةً عَلَى المودَّةِ إلَّا آلَ ياسينَ[١]

وقال أبو بكرٍ الورَّاقُ: معناه: يا سيدَ البشر[٢].

وقيل: إنَّه اسمٌ من أسماء الله؛ قاله مالك. روى عنه أشهبُ قال: سألته هل ينبغي لأحدٍ أنْ يَتَسمَّى بـ«يس»؟ قال: ما أُراه ينبغي؛ لقول الله: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يقول: هذا اسمي «يس». قال ابن العربيِّ[٣]: هذا كلامٌ بديعٌ، وذلك أنَّ العبد يجوزُ له أنْ يَتَسمَّى باسمِ الربِّ إذا كان فيه معنىً منه، كقوله: عالم وقادر ومريد ومتكلِّم. وإنَّما مَنَع مالكٌ من التسمية بـ«يس»؛ لأنَّه اسمٌ من أسماء الله لا يُدْرَى معناه، فربَّما كان معناه ينفردُ به الربُّ فلا يجوزُ أن يُقْدِمَ عليه العبدُ. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] قلنا: ذلك مكتوبٌ بهجاءٍ فتجوزُ التسميةُ به، وهذا الذي ليس بمُتَهجًّى هو الذي تكلَّم مالكٌ عليه؛ لِمَا فيه من الإشكال، والله أعلم.

وقال بعضُ العلماء: افتتحَ الله هذه السورةَ بالياء والسِّينِ وفيهما مَجمعُ الخير، ودلَّ المُفْتَتَحُ على أنَّه قلبٌ، والقلبُ أميرٌ على الجسد، وكذلك «يس» أميرٌ على سائر السور، مُشتمِلٌ على جميع القرآن.

ثم اختلفوا فيه أيضاً[٤]؛ فقال سعيد بنُ جُبير وعكرمةُ: هو بلُغةِ الحبشة. وقال الشَّعبيُّ: هو بلُغةِ طيّئ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٥ . والسيد الحميري هو إسماعيل بن محمد بن يزيد، أبو هاشم، من فحول الشعراء، توفي سنة (١٧٣هـ) وقيل غير ذلك. السير ٨/ ٤٤ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٦ ، وما قبله منه.

(٤) قوله: اختلفوا، يعني به الذين قالوا: معناه: يا إنسان، وهو مروي عن الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير كما ذكر الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥ ، والكلام الذي سيأتي منه.

الحسن: بلُغةِ كَلْبٍ. الكلبيُّ: هو بالسريانيَّة، فتكلَّمتْ به العربُ، فصار من لغتهم. وقد مضى هذا المعنى في «طه»[١]، وفي مقدِّمة الكتاب مستوفىً[٢].

وقد سَرَدَ القاضي عياضٌ أقوالَ المفسِّرين في معنى «يس»، فحكى أبو محمدٍ مكِّي أنه رُويَ عن النبيِّ ﷺ قال: «لي عند ربِّي عشرةُ أسماءٍ» ذَكَر أنَّ منها: طه ويس اسمان له[٣].

قلت: وذَكَر الماورديُّ عن عليٍّ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى سمَّاني في القرآن سبعةَ أسماءٍ: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزَّمِّل، والمدثِّر، وعبد الله»[٤] قاله القاضي[٥]. وحَكَى أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ عن جعفر الصادقِ أنه أراد: يا سيد[٦]، مُخاطَبةً لنبيِّه ﷺ.

وعن ابن عباس: «يس»: يا إنسانُ، أراد محمداً ﷺ[٧]، وقال: هو قَسَمٌ، وهو من أسماء الله سبحانه[٨].

وقال الزجَّاج: قيل: معناه: يا محمدُ، وقيل: يا رجلُ، وقيل: يا إنسان[٩].

وعن ابن الحنفية: «يس»: يا محمد[١٠].

---

(١) ٨/١٤ وما بعدها.

(٢) ١/١٠٩ .

(٣) الشفا ١/٤٤٨ ، وقد سلف الكلام على هذا الحديث ٩/١٤ .

(٤) النكت والعيون ٥/٥ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/١٥٩٦ عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال: وهذا حديث لا يصح. قال النووي في تهذيب الأسماء ٤/ ٢٠٠ بعد أن ذكر الحديث عن الماوردي: قوله: سماني عبد الله، يعني في قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

(٥) في الشفا ١/ ٤٥٠ ، ووقع في (خ) و(ظ): قال القاضي.

(٦) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/٤٤٩ .

(٧) الوسيط ٣/ ٥٠٩ ، وأخرج الطبري ١٩/ ٣٩٨ عنه في قوله تعالى: «يس» قال: يا إنسان، بالحبشية.

(٨) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٨ .

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٧ .

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٥ .

وعن كعبٍ: «يس» قَسَم أقسم الله به قبل أن يخلق السماءَ والأرضَ بألفَيْ عام: يا محمد ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

ثم قال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فإنْ قدِّر أنه من أسمائه ﷺ، وصحَّ فيه أنه قَسَمٌ، كان فيه من التعظيم ما تقدَّم، ويؤكِّدُ فيه القَسَمَ عَطْفُ القَسَمِ الآخَرِ عليه. وإن كان بمعنى النداءِ؛ فقد جاء قَسَمٌ آخَرُ بعده لتحقيقِ رسالته والشهادةِ بهدايته. أَقْسَم الله تعالى باسمه وكتابِه إنه لَمِن المرسلين بوَحْيِه إلى عباده، وعلى صراطٍ مستقيم من إيمانه، أي: طريقٍ لا اعوجاجَ فيه، ولا عدولَ عن الحقّ.

قال النقَّاش: لم يُقْسِم الله تعالى لأحدٍ من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلَّا له، وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل مَن قال: إنه يا سيِّد، ما فيه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أنا سيدُ وَلَدِ آدمَ»[2]. انتهى كلامُه.

وحكى القُشيريُّ: قال ابن عباس: قالت كفَّارُ قريشٍ: لستَ مُرْسَلاً، وما أَرْسَلكَ الله إلينا، فأقسمَ الله بالقرآن المُحْكَم: إنَّ محمداً من المرسلين.

و«الحكيم»: المُحْكَم حتى لا يتعرَّض لبطلانٍ وتَناقُض، كما قال: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]. وكذلك أُحْكِمَ في نَظْمِه ومَعانيه، فلا يَلْحَقُه خَلَل. وقد يكونُ «الحكيم» في حقِّ الله بمعنى المُحْكِم بكَسْرِ الكافِ، كالأليم بمعنى المؤلم.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: دينٍ مستقيم وهو الإسلام. وقال الزجَّاج[3]: على طريق الأنبياءِ الذين تَقَدَّموك، وقال: «إنَّكَ لَمِن المُرْسَلينَ» خبرُ إنَّ، و«على صراطٍ مُسْتَقيمٍ» خبرٌ ثانٍ، أي: إنَّك لَمِنَ المرسلين، وإنك على صراطٍ مستقيم.

وقيل: المعنى: لَمِنَ المرسلين على استقامة، فيكونُ قولُه: «على صراطٍ مُسْتَقيم»

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٢٥٨ .

(٢) سلف ٤/ ٢٥٤ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٧٧ - ٢٧٨ .

من صِلَةِ المرسلين، أي: إنك لَمِنَ المرسلين الذين أُرْسِلوا على طريقةٍ مستقيمة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] أي: الصِّراطِ الذي أمر اللهُ به.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قرأ ابنُ عامرٍ وحفصٌ والأعمشُ ويحيى وحمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ: ﴿تَنزِيلَ﴾ بنَصْبِ اللامِ على المصدر[١]، أي: نزَّل الله ذلك تنزيلاً. وأضاف المصدرَ فصار معرفةً كقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] أي: فضَرْباً للرِّقاب. الباقون: ﴿تنزيلُ﴾ بالرفع على خبرِ ابتداءٍ محذوفٍ، أي: هو تنزيلُ، أو: الذي أُنزل إليك تنزيلُ العزيزِ الرحيم.

هذا وقُرئ: «تَنْزِيلِ» بالجرِّ على البَدَل من «القرآن»[٢].

والتنزيلُ يَرجعُ إلى القرآن. وقيل: إلى النبيِّ ﷺ، أي: إنَّك لَمِن المرسَلين، وإنَّك تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيم. فالتنزيلُ على هذا بمعنى الإرسال؛ قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَّسُولًا يَتْلُواْ﴾ [الطلاق: ١٠-١١] ويقال: أَرْسَلَ الله المطرَ وأنزله بمعنى. ومحمدٌ ﷺ رحمةُ الله أنزلها[٣] من السماء. ومَن نَصَبَ قال: إنَّك لَمِن المرسلين إرسالاً من العَزيز الرحيم.

و«العزِيز»: المنتقم ممَّن خالفه، «الرَّحِيم» بأهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ «ما» لا موضعَ لها من الإعراب عند

---

(١) السبعة ص٥٣٩، والتيسير ص١٨٣، والنشر ٢/ ٣٥٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٣، والكشاف ٣/ ٣١٤، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٤ لليزيدي.

(٣) في (خ): رحمة الله أرسلها. وفي (ظ): رحمة أنزلها الله.

أكثرِ أهلِ التفسير[١]، منهم قتادة[٢]؛ لأنَّها نفيٌ، والمعنى: لتُنْذِرَ قوماً ما أَتى آباءَهم قبلك نذير.

وقيل: هي بمعنى الذي، فالمعنى: لتنذرهم مثلَ ما أُنذر آباؤهم؛ قاله ابن عباس وعكرمةُ وقتادةُ أيضاً[٣]. وقيل: إنَّ «ما» والفعلَ مصدرٌ، أي: لتنذر قوماً إنذارَ آبائِهم.

ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتُرِ أخبارُ الأنبياء، فالمعنى: لم يُنْذَروا برسولٍ من أنفسهم. ويجوز أن يكون بَلَغهم الخبرُ ولكنْ غَفِلوا وأَعْرَضوا ونَسُوا.

ويجوز أن يكون هذا خطاباً لقوم لم يبلغهم خبرُ نبيٍّ، وقد قال الله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤] وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣] أي: لم يأتهم نبيٌّ. وعلى قولِ مَن قال: بلغهم خبرُ الأنبياء، فالمعنى: فهم مُعْرِضون الآن مُتَغافِلون عن ذلك، ويقال للمُعْرِضِ عن الشيء: إنه غافلٌ عنه. وقيل: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ عن عقاب الله.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: وَجَب العذابُ على أكثرهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بإنذارك. وهذا فيمَن سَبَقَ في علم الله أنه يموتُ على كفره.

ثم بيَّن سببَ تَرْكِهم الإيمانَ فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾. قيل: نزلت في أبي جهل بن هشام وصاحِبَيْه المخزوميَّيْنِ، وذلك أنَّ أبا جهلٍ حلف لئن رأى محمداً يُصلِّي لَيَرضَخنَّ رأسَه بحجر، فلمَّا رآه ذهب فرفع حجراً ليرميه، فلمَّا أَوْمأ إليه رَجَعتْ يدُه إلى عنقه، والتَصَقَ الحجر بيده؛ قاله ابن عباس وعكرمةُ وغيرُهما، فهو على هذا تمثيلٌ، أي: هو بمنزلةِ مَن غُلَّتْ يدُه إلى عنقه. فلمَّا عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى، فقال الرجل الثاني وهو الوليد بنُ المغيرة: أنا أَرْضَخُ رأسَه. فأتاه وهو يصلِّي

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٠١ - ٤٠٢.

(٣) أخرجه عن عكرمة الطبري ١٩/ ٤٠١، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٦، ولم نقف عليه عن ابن عباس وقتادة.

على حالته ليرميَه بالحجر، فأعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يَرَهُم حتى نادَوْه، فقال: واللهِ ما رأيتُه، ولقد سمعتُ صوتَه! فقال الثالث: واللهِ لأَشْدَخَنَّ أنا رأسَه. ثم أخذ الحجر وانطلق، فرجع القَهْقَرَى ينكُصُ على عَقِبَيْه حتى خَرَّ على قَفَاه مَغْشِيّاً عليه. فقيل له: ما شأنُك؟ قال: عظيم[1]! رأيتُ الرجلَ، فلمَّا دنوتُ منه، وإذا فَحْلٌ يَخطِرُ بذَنَبِه؛ ما رأيتُ فحلاً قطُّ أعظمَ منه؛ حالَ بيني وبينَه، فَوَاللَّاتِ والعُزَّى لو دنوتُ منه لَأَكَلَني! فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾[2].

وقرأ ابن عباس: «إنَّا جَعَلْنَا في أيمانِهِم». وقال الزجَّاج: وقُرِئَ: «إنَّا جَعَلْنا في أيديهِم». قال النحاس[3]: وهذه القراءةُ تفسيرٌ، ولا يُقرأ بما خالفَ المصحَفَ. وفي الكلام حذفٌ على قراءةِ الجماعة، التقدير: إنَّا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالاً فهي إلى الأذقان، فهي كنايةٌ عن الأيدي لا عن الأعناق، والعربُ تَحذفُ مثلَ هذا، ونظيره: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وتقديرُه: وسرابيل تقيكم البرد، فحذف؛ لأنَّ ما وَقَى من الحرِّ وَقَى من البرد؛ لأنَّ الغُلَّ إذا كان في العنق فلا بدَّ أن يكون في اليد، ولاسيَّما وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ فقد عُلم أنَّه يُراد به الأيدي[4] ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أي: رافِعو رؤوسِهِم لا يستطيعون الإطراقَ؛ لأنَّ مَن غُلَّتْ يدُه إلى ذَقْنِه ارتَفَعَ رأسُه. روى عبد الله بن يحيى: أنَّ علي بن أبي طالب عليه السلام أراهم الإقماحَ، فجعل يديهِ تحت لحيته وأَلْصَقَهما ورفع رأسه. قال النحاس[5]: وهذا أَجَلُّ ما رُوي فيه، وهو مأخوذٌ ممَّا حكاه الأصمعيُّ؛ قال: يقال:

---

(١) في (م): قال شأني عظيم.

(٢) بنحوه في سيرة ابن هشام ١/٢٩٨ - ٢٩٩ ، وتفسير الطبري ١٩/٤٠٦ - ٤٠٧ ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (١٥٢) و(١٥٣) و(١٥٦)، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٣ - ٣٨٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٦ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨٤ ، وما قبله منه، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٧٩ .

(٤) في إعراب القرآن: فقد أعلم الله عز وجل أنها يراد بها الأيدي.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨٤ ، وما قبله منه، وخبر علي ﷺ أخرجه مطولاً الطبراني في الأوسط (٣٩٤٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٣١ : فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف.

أَقْمَحْتُ[١] الدابةَ: إذا جَذَبْتَ لِجامَها لترفع رأسها. قال النحاس: والقافُ مُبْدَلةٌ من الكاف لقُرْبِها منها. كما يقال: قَهَرْتُه وكَهَرْتُه.

قال الأصمعِيُّ: يقال: أَكْمَحْتُ الدابَّةَ: إذا جَذَبْتَ عِنانَها حتى يَنْتَصِبَ رأسُها، ومنه قول الشاعر:

... والـرأسُ مُـكْـمَـحُ[٢]

ويقال: أَكْمحتُها وأَكْفَحْتُها وكَبَحْتُها، هذه وحدَها بلا ألفٍ عن الأصمعيِّ[٣]. وقَمَح البعيرُ قُمُوحاً: إذا رفع رأسَه عند الحوضِ وامتنع من الشُّرْب، فهو بعيرٌ قامِحٌ و[الجمع]: قُمَّح؛ يقال: شَرِب فتَقَمَّحَ وانْقَمَحَ بمعنىً: إذا رفع رأسَه وترك الشُّرب رِيّاً. وقد قامَحَتْ إبلُك: إذا وَرَدَتْ ولم تشرب، ورَفَعتْ رأسَها من داءٍ يكونُ بها أو بردٍ، وهي إبلٌ مُقامِحَةٌ، وبعيرٌ مُقامِحٌ، وناقةٌ مُقامحٌ أيضاً، والجمع قِمَاحٌ على غير قياس؛ قال بشرٌ يصفُ سفينةً:

ونـحـن عـلـى جَـوانـبـهـا قُـعُـودٌ نَـغُـضُّ الـطَّـرْفَ كـالإبـلِ الـقِـمَـاحِ[٤]

والإقماح: رفعُ الرأسِ وغضُّ البصر؛ يقال: أَقْمَحه الغُلُّ: إذا ترك رأسَه مرفوعاً مِن ضِيقِه. وشَهْرَا قماح[٥]: أشدُّ ما يكون من البرد، وهما الكانونان، سمِّيا بذلك لأنَّ

---

(١) في إعراب القرآن: أكمحت. وكذا نقله الجوهري في الصحاح (كمح) عن الأصمعي على ما يأتي.

(٢) البيت لذي الرُّمَّة، وهو في ديوانه ٢/ ١٢٢١، والكلام من الصحاح (كمح)، ورواية البيت في الديوان: تموجُ ذراعاها وترمي بجَوْزها حِذاراً من الإيعاد والرأسُ مُكْفَحُ

قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: جَوْزُها: وَسَطُها. وقوله: تموج ذراعاها، يقول: ليست بلازقتين بالجنب. ومُكْفَح: مرفوع. وفي اللسان(كمح): وأراد الشاعر بقوله: الإيعاد، ضربُه لها بالسوط، فهي تجتهد في عَدْوِها لخوفها من سوطه.

(٣) الصحاح (كبح). قوله: أكفحت، يقال: أكفحتُ الدابة: إذا تلقيتَ فاه باللجام تضربه به ليلتقمه. وكبحت الدابة: إذا جذبتَها إليك باللجام لكي تقف ولا تجري. الصحاح (كفح) و(كبح).

(٤) ديوان بشر بن أبي خازم ص٩١، والصحاح (قمح)، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) كِكتاب وغُراب. القاموس (قمح).

الإبلَ إذا وردت آذاها بردُ الماءِ فقامَحتْ رؤوسَها[١]، ومنه قَمِحْتُ السَّوِيق[٢].

وقيل: هو مَثَلٌ ضَرَبَه الله تعالى لهم في امتناعهم من الهدى كامتناعِ المغلولِ [من التصرُّف]؛ قاله يحيى بن سلام وأبو عبيدة[٣]. وكما يقال: فلانٌ حمار، أي: لا يُبْصِرُ الهُدَى. وكما قال:

لـهـم عـن الـرُّشْـدِ أغـلالٌ وأقـيـادُ[٤]

وفي الخبر: أنَّ أبا ذؤيبٍ كان يَهْوَى امرأةً في الجاهلية، فلمَّا أسلم راوَدَتْه، فأبى وأنشأ يقول:

فـلـيـس كـعـهـدِ الـدارِ يـا أُمَّ مَـالِـكٍ ولـكـن أحـاطـت بـالـرقـاب الـسَّـلاسِـلُ
وعـاد الـفـتـى كـالـكَـهْـلِ لـيـس بـقـائـلٍ سِوى العدلِ شيئاً فاستراحَ العَواذِلُ[٥]

أراد: مُنِعْنَا بموانعِ الإسلامِ عن تَعَاطي الزِّنى والفسق.

وقال الفراء أيضاً[٦]: هذا ضَرْبُ مَثَلٍ، أي: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله،

---

(١) الصحاح (قمح) دون قوله: رؤوسها.

(٢) قمح السَّوِيق (كسمع): رفع رأسه لسفِّه، والسَّوِيق: طعام يُتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سمي بذلك لانسياقه في الحلق. (المعجم الوسيط).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٧، وما سلف بين حاصرتين منه، ولم يذكر أبا عبيدة، ولم نقف على هذا القول في مجاز القرآن لأبي عبيدة.

(٤) البيت للأَفْوَه الأَوْديّ صلاءة بن عمرو بن الحارث، كما في الحماسة البصرية ٢/ ٦٩، وصدره: كيف الرشاد إذا ما كنت من نفر، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٥.

(٥) البيتان في ديوان الهذليين ٢/ ١٥٠، وشرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢٢٣ وسيرة ابن هشام ٢/ ٤٧٣، والكامل ٢/ ٥٦٥، والبيت الثاني في العمدة لابن رشيق ص٢٧٨، وقائلهما أبو خراش وليس أبا ذؤيب كما ذكر المصنف، وقد سلف الأول منهما ٦/ ١٩٩. قوله: فاستراح العواذل، أي: لأنهن لا يجدن ما يعذِلْنَ فيه سوى العدل، أي: سوى الحق. وقصة البيتين كما ذكر في المصادر السالفة أن جميل بن معمر الجمحي قتل قريباً لأبي خراش كان في ضمن الأسرى يوم حنين، فقال أبو خراش هذه الأبيات في رثائه، وهذا يخالف ما ذكره المصنف. وقوله: فليس كعهد الدار...، شرحوه أيضاً بخلاف ما سيشرحه فقال ابن رشيق: يقول: نحن من عهد الإسلام في مثل السلاسل، وإلا فكنا نقتل قاتله.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٣.

وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقاله الضحاك[١].

وقيل: إنَّ هؤلاء صاروا في الاستكبار عن الحقِّ كَمَن جُعل في يده غُلٌّ فجمعت إلى عنقه، فبقي رافعاً رأسَه لا يَخفضُه، وغاضّاً بصرَه لا يفتحُه. والمتكبِّرُ يوصف بانتصابِ العنق.

وقال الأزهريُّ[٢]: إنَّ أيديَهم لمَّا غُلَّت عند أعناقهم؛ رَفعت الأغلالُ أذقانَهم ورؤوسَهم صُعُداً؛ كالإبل ترفع رؤوسَها.

وهذا المنعُ بخَلْقِ الكُفرِ في قلوبِ الكفَّار. وعند قومٍ: بسَلْبِهم التوفيقَ عقوبةً لهم على كفرهم.

وقيل: الآيةُ إشارةٌ إلى ما يُفعَل بأقوامٍ غداً في النار من وضعِ الأغلالِ في أعناقهم والسلاسلِ، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [غافر: ٧١] وأَخْبرَ عنه بلَفْظِ الماضي.

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ تقدَّم تفسيرُه. وقال مجاهد: «مُقْمَحُونَ»: مُغلَّلون عن كلِّ خير[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مقاتل: لمَّا عاد أبو جهلٍ إلى أصحابه، ولم يَصِلْ إلى النبيِّ ﷺ، وسقط الحجر من يده، أخذ الحجرَ رجلٌ آخَرُ من بني مخزوم وقال: أنا أقتلُه بهذا الحجر. فلمَّا دنا من النبيِّ ﷺ؛ طَمَسَ الله على بصره فلم يَرَ النبيَّ ﷺ، فرجع إلى أصحابه فلم يُبْصِرهم حتى نادَوْه، فهذا

(١) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٣٦٢).

(٢) في تهذيب اللغة ٤/ ٨٢ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٩ ، والطبري ١٩/ ٤٠٤ عن قتادة، ولم نقف عليه عن مجاهد.

معنى الآية[١].

وقال محمد بن إسحاق في روايته: جلس عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ، وأبو جهلٍ وأميةُ ابن خَلَفٍ، يُراصِدون النبيَّ ﷺ ليبلُغوا مِن أذاه، فخرج عليهم عليه الصلاة والسلام وهو يقرأ «يس» وفي يده ترابٌ، فرماهم به وقرأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ فأطرقوا حتى مرَّ عليهم عليه الصلاة والسلام[٢]. وقد مضى هذا في سورة سبحان[٣]، ومضى في «الكهف» الكلامُ في «سَدّاً» بضم السين وفتحها[٤]، وهما لغتان.

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أي: غطَّينا أبصارهم، وقد مضى في أول «البقرة»[٥]. وقرأ ابن عباس وعكرمةُ ويحيى بن يعمر: «فأعشيناهم» بالعين غيرِ مُعْجمةٍ[٦] من العَشا في العين، وهو ضَعْفُ بصرِها حتى لا تُبْصِر بالليل، قال:

متى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ[٧]

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الزخرف:٣٦]، والمعنى متقارِبٌ.

والمعنى: أعميناهم، كما قال:

ومن الحوادثِ لا أَبالَكَ أنَّني ... ضُرِبَتْ عليَّ الأرضُ بالأَسْدَادِ

لا أهتدي فيها لموضعِ تَلْعَةٍ ... بين العُذَيْبِ وبينَ أرضِ مُرَادِ[٨]

---

(١) ذكره عن مقاتل أبو الليث في تفسيره ٣/ ٩٣ - ٩٤، وسلف مطولاً ص٤١٢-٤١٣ من هذا الجزء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٥، وبنحوه في سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٣.

(٣) ١٣/ ٩٢.

(٤) ١٣/ ٣٨٣.

(٥) ١/ ٢٩١.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٤، والمحتسب ٢/ ٢٠٤.

(٧) صدر بيت للحطيئة، وعجزه: تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوْقِدِ. وهو في ديوانه ص١٦١، وسلف ٤/ ٤٩١.

(٨) البيتان للأسود بن يَعْفُر النهشلي كما في المفضليات ص٢١٦، ومنتهى الطلب من أشعار العرب =

﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: الهُدَى؛ قاله قتادة[١]. وقيل: محمداً حين ائْتَمروا على قتله؛ قاله السُّدِّي[٢].

وقال الضحَّاك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ أي: الدنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي: الآخرة، أي: عَمُوا عن البعث، وعَمُوا عن قبولِ الشرائعِ في الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت:٢٥] أي: زيَّنوا لهم الدنيا، ودَعَوْهم إلى التكذيب بالآخرة، وقيل: على هذا «مِن بينِ أيديهم سدّاً»، أي: اغتروا[٣] بالدنيا، «ومِن خَلْفِهِم سدّاً» أي: كذبوا[٤] بالآخرة. وقيل: «ما بين أيديهم»: الآخرة، «وما خَلْفهم»[٥]: الدُّنيا.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تقدَّم في «البقرة»، والآيةُ ردٌّ على القَدَرية وغيرِهم[٦].

وعن ابن شهاب: أنَّ عمر بنَ عبد العزيز أَحْضَرَ غيلانَ القَدَريَّ فقال: يا غيلانُ، بَلَغني أنَّك تتكلَّم بالقَدَر، فقال: يكذبون عليَّ يا أميرَ المؤمنين. ثم قال: يا أميرَ المؤمنين، أرأيتَ قولَ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢-٣] فقال: اقرأ يا غيلانُ، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان:٢٩] فقال: اقرأ، فقرأ: ﴿وَمَاتَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ فقال: واللهِ يا أميرَ المؤمنين، إنْ شعرتُ أنَّ

= ١/ ٤١٥ ، والاختيارين ص٥٥٩ ، وفيه: التَّلْعة: المسيل من الرابية إلى الوادي، والجمع: تِلاع. وقد سلف البيت الأول ١٣/ ٢٢٠ .

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٠٦ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٨ . وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٥٩ .

(٣) في (م): اغترارا.

(٤) في (م): تكذيبا.

(٥) في (م): من بين أيديهم... ومن خلفهم.

(٦) ينظر ما سلف ١/ ٢٨١ و٢٨٥ .

هذا في كتابِ اللهِ قطُّ! فقال له: يا غيلان، اقرأ أوَّلَ سورةِ يس، فقرأ حتى بلغ: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فقال غيلان: والله يا أميرَ المؤمنين، لكأنِّي لم أقرأها قطُّ قَبْلَ اليوم! اشْهَدْ يا أمير المؤمنين أنِّي تائبٌ. فقال عمر: اللهمَّ إن كان صادقاً فتُبْ عليه وثَبِّته، وإن كان كاذباً فسَلِّطْ عليه مَن لا يرحمُه، واجْعَلْه آيةً للمؤمنين. فأخذه هشامٌ فقطع يديه ورجليه وصَلَبه. قال ابنُ عَوْن: فأنا رأيتُه مصلوباً على بابِ دمشقَ، فقلنا: ما شأنُك يا غيلان؟ فقال: أصابتني دعوةُ الرجلِ الصالحِ عمرَ بنِ عبد العزيز[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ يعني القرآنَ، وعَمِلَ به ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: ما غاب من عذابه ونارِه؛ قاله قتادة[٢]. وقيل: أي: يخشاه في مَغِيبِه عن أبصارِ الناسِ وانفرادِه بنفسه. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذَنْبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أَخْبَر تعالى بإحيائه الموتى ردّاً على الكَفَرة. وقال الضحَّاك والحسن: أي: نُحْييهم بالإيمان بعد الجهل[٣]. والأولُ أَظْهَر؛ أي: نُحْييهم بالبعث للجزاء.

---

(١) بنحوه في السنة لعبد الله بن أحمد ص١٤٥ - ١٤٦ ، والشريعة للآجري ص٢٢٨ - ٢٢٩ ، وشرح أصول الاعتقاد ٤/ ٧٨٨ ، وتاريخ مدينة دمشق ٤٨/ ٢٠٨ - ٢٠٩ . وقول ابن عون (وهو عبد الله بن عون) أخرجه أيضاً أحمد (٥٨٨١) مختصراً بذكر الصلب. وغيلان هو ابن أبي غيلان، أبو مروان، كان من بلغاء الكتَّاب، وكان الأوزاعي هو الذي ناظره وأفتى بقتله. لسان الميزان ٤/ ٤٢٤ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٩ عن الضحاك، وذكر الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣١٦ عن الحسن قوله: إحياؤهم أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان.

ثم توعَّدهم بذِكْرِه كَتْبَ الآثارِ ـ وهي :

الثانية ـ وإحصاءَ كلِّ شيءٍ وكلِّ ما يصنعُه الإنسان. قال قتادةُ: معناه: مِن عَمَلٍ. وقاله مجاهدٌ وابنُ زيد[(١)]. ونظيرُه قولُه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] وقولُه: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فآثارُ المرءِ التي تَبْقَى وتُذْكَرُ بعد الإنسانِ من خيرٍ أو شرٍّ يُجازَى عليها: من أثرٍ حَسَنٍ، كعِلْمٍ علَّموه، أو كتابٍ صنَّفوه، أو حبيسٍ احْتَبَسوه، أو بناءٍ بَنَوْه: من مسجدٍ أو رِباطٍ أو قَنْطَرةٍ أو نحوِ ذلك. أو سَيِّئٍ، كوظيفةٍ وظَّفها بعضُ الظُّلَّام على المسلمين، وسِكَّةٍ أَحْدَثَها فيها تَخْسيرُهُم، أو شيءٍ أَحْدَثَه فيه صدٌّ عن ذِكْرِ اللهِ من ألحانٍ ومَلَاهٍ. وكذلك كلُّ سُنَّةٍ حسنةٍ أو سيئةٍ يُسْتَنُّ بها.

وقيل: هي آثارُ المشَّائين إلى المساجد. وعلى هذا المعنى تَأوَّلَ الآيةَ عمرُ وابن عباس وسعيد بن جُبير[(٢)]. وعن ابن عباسٍ أيضاً أنَّ معنى: «وَآثَارَهُمْ»: خُطاهم إلى المساجد. قال النحاس[(٣)]: وهذا أَوْلَى ما قيل فيه؛ لأنه قال: إنَّ الآيةَ نزلت في ذلك؛ لأنَّ الأنصار كانت منازلُهم بعيدةً عن المسجد. وفي الحديث مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ قال: «يُكتبُ له بِرِجْلٍ حسنةٌ، وتُحطُّ عنه بِرِجْلٍ سيئةٌ، ذاهباً وراجعاً إذا خرج إلى المسجد»[(٤)].

قلت: وفي الترمذيِّ عن أبي سعيد الخُدْريِّ قال: كانت بنو سَلِمةَ في ناحيةِ المدينةِ، فأرادوا النُّقلَةَ إلى قُربِ المسجدِ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ آثارَكم تُكْتَبُ» فلم ينتقلوا. قال:

---

(١) أخرج قولهم الطبري ١٩/ ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٢) أخرجه عن ابن عباس ابن ماجه (٧٨٥) والطبري ١٩/ ٤٠٩ ، ولم نقف عليه عن عمر وسعيد بن جبير.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨٦ ، وما قبله منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٦ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٦٥٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وله شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ عند مسلم (٦٦٦) ، وسلف ١٥/ ٢٨٨ . وآخر من حديث أبي هريرة أيضاً عند البخاري (٦٤٧)، وثالث من حديث عقبة بن عامر عند أحمد (١٧٤٤٠)، والطبراني في الكبير ١٧/ (٨٣١).

هذا حديثٌ [حسنٌ] غريبٌ من حديث الثوريّ(١).

وفي «صحيح» مسلم عن جابر بن عبد الله قال: أراد بنو سَلِمةَ أن يتحوَّلوا إلى قُرْبِ المسجدِ، قال: والبِقاعُ خاليةٌ، قال: فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «يا بني سَلِمةَ، ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم، ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم» فقالوا: ما كان يَسرُّنا أنَّا كنَّا تَحوَّلْنا(٢).

وقال ثابت البُنَانيُّ: مَشَيتُ مع أنس بن مالكٍ إلى الصلاة فأسرعتُ، فَحبَسني، فلمَّا انقضت الصلاة [قال لي: مشيتُ مع زيد بن ثابت إلى الصلاة، فأسرعتُ في مشيي فحبَسني، فلمَّا انْقَضَت الصلاةُ] قال: مشيتُ مع النبيِّ ﷺ فأسرعتُ فحبسني، فلمَّا انقضت الصلاةُ قال: «أمَا علمتَ أنَّ الآثار تُكتَب» فهذا احتجاجٌ بالآية(٣).

وقال قتادةُ ومجاهدٌ أيضاً والحسن: الآثارُ في هذه الآية: الخُطَا. وحكى الثعلبيُّ عن أنس أنه قال: الآثارُ هي الخُطَا إلى الجمعة(٤). وواحدُ الآثارِ أثَر، ويقال: أَثْر.

الثالثة: في هذه الأحاديثِ المفسِّرةِ لمعنى الآيةِ دليلٌ على أنَّ البُعْدَ من المسجد أفضلُ، فلو كان بجوار مسجدٍ؛ فهل له أن يُجاوِزَه إلى الأَبْعَدِ؟ اختُلف فيه؛ فروي عن أنس أنه كان يُجاوزُ المُحدَثَ إلى القديم. وروي عن غيره: الأبعدُ فالأبعد من المسجد أعظمُ أَجْراً. وكره الحسن وغيرُه هذا، وقال: لا يَدَعُ مسجداً قُرْبَه ويأتي غيرَه. وهذا مذهبُ مالك، وفي تَخَطِّي مسجدِه إلى المسجد الأعظم قولان(٥).

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٢٦)، وما بين حاصرتين منه، وهو موافق لما في تحفة الأشراف ٣/ ٤٦٦ ، وتحفة الأحوذي ٩/ ٩٥ .

(٢) صحيح مسلم (٦٦٥): (٢٨١)، وهو عند أحمد بنحوه (١٤٥٦٦). وأخرج نحوه البخاري (٦٥٥) و(٦٥٦) من حديث أنس ﷺ.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه، والخبر أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٥٨)، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٢١٩ ، وفي إسناده الضحاك بن نبراس، قال فيه ابن معين فيما ذكر العقيلي: ليس بشيء. وأخرجه الطبراني في الكبير بإسناد آخر من طريق محمد بن ثابت البناني عن أبيه به، ومحمد بن ثابت قال فيه البخاري: فيه نظر، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال النسائي: ضعيف. الميزان ٣/ ٤٩٥ . وأخرجه الطبري ١٩/ ٤١٠ بإسناد آخر عن ثابت عن أنس عن زيد ﷺ موقوفاً.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٨ ، وأخرجه عن الحسن ومجاهد وقتادة الطبري ١٩/ ٤١١ . وعلقه البخاري عن مجاهد إثر الحديث (٦٥٥).

(٥) المفهم ٢/ ٢٩٢ .

وخرَّج ابن ماجه من حديثِ أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةُ الرجلِ في بيته بصلاةٍ، وصلاتُه في مسجدِ القبائلِ بخَمْسٍ وعشرينَ صلاةً، وصلاتُه في المسجد الذي يُجمَّع فيه بخمسٍ مئةِ صلاةٍ»(١).

الرابعة: «ديارَكم» منصوبٌ على الإغراء، أي: اِلْزَموا، و«تُكْتَبْ»جزمٌ على جوابِ ذلك الأمر(٢).

«وكُلَّ» نصبٌ بفعلٍ مضمَرٍ يدلُّ عليه «أحصيناه»، كأنه قال: وأحصينا كلَّ شيءٍ أحصيناه(٣). ويجوزُ رَفْعُه بالابتداء، إلَّا أنَّ نَصْبَه أَوْلَى؛ ليُعْطَفَ ما عَمِلَ فيه الفعلُ على ما عَملَ فيه الفعل. وهو قولُ الخليل وسيبويه(٤).

والإمام: الكتابُ المُقتَدَى به الذي هو حجة. وقال مجاهدٌ وقتادةُ وابن زيد: أراد اللوحَ المحفوظ. وقالت فرقةٌ: أراد صحائفَ الأعمال(٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هذه القريةُ هي

(١) سنن ابن ماجه (١٤١٣). وإسناده ضعيف كما ذكر البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٢٥٢ . قوله: يُجمَّع بالتشديد، أي: يصلَّى فيه الجمعة. النهاية (جمع).

(٢) المفهم ٢/ ٢٩٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/٤٤٨ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٧ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/٤٤٨ .

أَنْطاكِيَةُ في قولِ جميعِ المفسِّرين، فيما ذَكَر الماوَرْدِيُّ[١]. نُسِبَتْ إلى أهلِ أنطبيسَ، وهو اسمُ الذي بناها، ثم غُيِّر لمَّا عُرِّبَ؛ ذكره السُّهيليُّ[٢]. ويقال فيها: أنتاكِيَة؛ بالتاء بَدَلَ الطاء.

وكان بها فرعون يقال له: أنطيخس بن أنطيخس يعبد الأصنام؛ ذَكَره المَهْدَويُّ، وحكاه أبو جعفر النحاس[٣] عن كعبٍ ووَهْبٍ. فأرسل الله إليه ثلاثةً: وهم صادقٌ وصدوقٌ، وشلوم هو الثالث. هذا قولُ الطبريِّ[٤]. وقال غيرُه: شمعون ويوحنَّا. وحكى النقَّاش: سمعان ويحيى[٥]، ولم يذكرُوا صادقاً ولا صدوقاً.

ويجوز أن يكون «مَثَلاً» و«أصحابَ القريةِ» مفعولَيْنِ لـ «اضْرِبْ»، أو «أصحابَ القريةِ» بدلاً من «مَثَلاً» أي: اضْرِبْ لهم مثلاً مثلَ[٦] أصحابِ القريةِ، فحذف المضاف.

أُمر النبيُّ ﷺ بإنذارِ هؤلاءِ المشركين أنْ يَحِلَّ بهم ما حَلَّ بكفَّارِ أهلِ القريةِ المبعوثِ إليهم ثلاثةُ رسلٍ. قيل: رسلٌ من الله على الابتداء. وقيل: إنَّ عيسى بعثهم إلى أنطاكِيَةَ للدعاء إلى الله، وهو قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾، وأضاف الربُّ ذلك إلى نفسه؛ لأنَّ عيسى أرسلهما بأمر الربِّ، وكان ذلك حين رُفع عيسى إلى السماء. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ قيل: ضربوهما وسجنوهما. ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: فقوَّيْنا وشَددنا الرسالةَ بثالث.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٠ .

(٢) في التعريف والإعلام ص١٤٣ ، وفيه: أنطيقس، بدل: أنطبيس.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٤٨٣ .

(٤) في التفسير ١٩/ ٤١٤ .

(٥) قول النقاش والقول الذي قبله ذكرهما الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٠ .

(٦) في (م): اضرب لهم مثل، وفي (ظ): اضرب لهم مثلاً، والمثبت من باقي النسخ ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٠١ ، والكلام منه. وقال مكي: فالمثل الثاني بدل من الأول.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿فعَزَزْنا بثالثٍ﴾ بالتخفيف، وشدَّد الباقون[١]. قال الجوهريُّ[٢]: وقولُه تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يُخفَّفُ ويُشَدَّد، أي: قوَّينا وشدَّدنا. قال الأصمعيُّ: أنشدني فيه أبو عمرو بن العلاء للمتلمِّس:

أُجُدٌ إذا رُحِلَتْ تَعَزَّز لحمُها   وإذا تُشَدُّ بِنِسْعِها لا تَنْبِسُ[٣]

أي: لا تَرْغُو. فعَلَى هذا تكونُ القراءتان بمعنىً.

وقيل: التخفيفُ بمعنى: غَلَبنا وقَهَرْنا، ومنه: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾[٤] [ص:٢٣]. والتشديدُ بمعنى: قوَّينا وكثَّرنا.

وفي القصة: أنَّ عيسى أَرْسَلَ إليهم رسولَيْنِ، فلَقِيا شيخاً يَرْعَى غُنيماتٍ له، وهو حبيبٌ النجارُ صاحبُ «يس»، فدعَوْه إلى الله وقالا: نحن رسولا عيسى ندعوك إلى عبادة الله. فطالَبهما بالمعجزة، فقالا: نحن نَشْفي المرضَى، وكان له ابنٌ مجنون. وقيل: مريضٌ على الفراش، فمسحاه، فقام بإذن الله صحيحاً، فآمَنَ الرجلُ بالله ـ وقيل: هو الذي جاء من أَقْصَى المدينةِ يَسْعَى ـ ففشا أمرُهما، وشَفَيا كثيراً من المرضى، فأرسل الملكُ إليهما ـ وكان يعبدُ الأصنامَ ـ يَستَخْبِرُهُما، فقالا: نحن رسولا عيسى. فقال: وما آيتُكما؟ قالا: نُبْرِئُ الأَكْمهَ والأَبْرصَ ونُبرِئُ المريضَ بإذن الله، وندعوك إلى عبادة اللهِ وحدَه، فهَمَّ الملكُ بضَرْبِهما. وقال وهب: حَبَسهما

(١) السبعة ص٥٣٩، والتيسير ص١٨٣.

(٢) في الصحاح (عزز).

(٣) غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ٧٩، وجمهرة اللغة ١/ ٢٩٠، والصحاح (عزز)، والكلام منه، واللسان (عزز)، وهو في المصادر عدا الصحاح برواية: ضمرت، بدل: رحلت. قوله: أُجُدٌ، هي الناقة القوية المُوَثَّقة الخَلْق. القاموس (أجد). والنِّسْع: سَيْرٌ يُضْفَرُ على هيئة أعنَّة النعال تُشدُّ به الرِّحال. اللسان (نسع).

(٤) يعني: غلبني في القول. تفسير أبي الليث ٣/ ٩٥، والكلام فيه بنحوه. وقال مكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢١٤: ويكون المفعول محذوفاً، وهو المرسَلُ إليهم، تقديره: فَعَزَزناهم بثالث، أي: فغلبناهم بثالث.

الملكُ وجَلَدهما مئةَ جَلْدةٍ. فانتهى الخبرُ إلى عيسى فأرسل ثالثاً ـ قيل: شمعون الصَّفا رأسُ الحواريين ـ لنَصْرهما، فعاشَرَ حاشيةَ الملك حتى تمكَّن منهم واستأنَسوا به، ورفعوا حديثَه إلى الملك فأَنِسَ به. وأَظْهَر موافقتَه في دينه، فرضيَ الملك طريقتَه، ثم قال يوماً للملك: بَلَغني أنَّك حَبَسْتَ رجلين دَعَواكَ إلى الله، فلو سألتَ عنهما ما وراءَهما. فقال: إنَّ الغضب حال بيني وبين سُؤالِهما. قال: فلو أحْضَرْتَهما. فأمر بذلك، فقال لهما شمعون: ما بُرهانُكما على ما تدَّعيان؟ فقالا: نُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبرصَ. فجيءَ بغلامٍ ممسوحِ العينين؛ موضعُ عينيه كالجبهة، فدَعَوَا ربَّهما فانشقَّ موضعُ البصر، فأَخَذا بُنْدُقَتين طيناً، فوضعاهما في خدَّيه، فصارتا مُقْلَتين يُبْصِرُ بهما. فعجب الملك وقال: إنَّ هاهنا غلاماً مات منذ سبعةِ أيامٍ ولم أَدْفُنه حتى يَجيءَ أبوه، فهل يُحييه ربُّكما؟ فدَعَوَا اللهَ علانيةً، ودعاه شمعون سرّاً، فقام الميتُ حيّاً، فقال للناس: إنِّي متُّ منذ سبعةِ أيامٍ، فوُجِدتُ مشركاً، فأُدخِلْتُ في سبعةِ أوديةٍ من النار، فأحذِّركم ما أنتم فيه، فآمِنوا بالله، ثم فتحت أبوابُ السماء، فرأيتُ شاباً حَسَنَ الوجهِ يشفع لهؤلاء الثلاثةِ شمعون وصاحبيه، حتى أحياني الله، وأنا أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ عيسى روحُ اللهِ وكلمتُه، وأنَّ هؤلاء هم رسلُ الله. فقالوا له: وهذا شمعون أيضاً معهم؟ فقال: نعم، وهو أفضلُهم. فأَعْلَمهم شمعون أنه رسولُ المسيحِ إليهم، فأثَّر قولُه في الملك، فدعاه إلى الله، فآمن الملكُ في قومٍ كثير، وكَفَر آخرون[1]. وحكى القشيريُّ أنَّ الملك آمَنَ ولم يُؤمِنْ قومُه، وصاح جبريلُ صيحةً مات كلُّ مَن بقي منهم من الكفَّار.

ورُويَ أنَّ عيسى لمَّا أَمَرهم أنْ يذهبوا إلى تلك القريةِ قالوا: يا نبيَّ اللهِ، إنَّا لا نَعرِفُ أنْ نَتكلَّم بألسنتهم ولُغاتِهم. فدعا اللهَ لهم فناموا بمكانهم، فهبُّوا من نَوْمَتهم

---

(١) بنحوه في تفسير أبي الليث ٣/ ٩٥ ، وعرائس المجالس ص٤٠٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٧ - ٩ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٩: واللازم من الآية أن الله تعالى بعث إليها رسولين، فدَعَيا أهل القرية إلى عبادة الله وحده فكذَّبوهما، فشدَّد الله أمرهما بثالث، وقامت الحجة على أهل القرية.

وقد حملتهم الملائكةُ، فألْقتهم بأرضِ أنطاكِيَةَ، فكلَّم كلُّ واحدٍ منهم صاحبَه بلغةِ القوم، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٢٥٣] فقالوا جميعاً: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ . قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تأكلون الطعامَ وتمشون في الأسواق ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ يأمرُ به، ولا يَنْهَى عنه ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دَعْواكُم الرسالةَ، فقالت الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وإنْ كذَّبتُمونا، ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ في أنَّ اللهَ واحدٌ ﴿قَالُوٓاْ﴾ لهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تَشاءَمْنا بكم.

قال مقاتل: حُبِسَ عنهم المطرُ ثلاثَ سنين، فقالوا: هذا بشُؤْمِكم[1]. ويقال: إنَّهم أقاموا ينذرونهم عَشْرَ سنين.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عن إنذارنا ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قال الفراء[2]: لنقتلنكم. قال: وعامَّةُ ما في القرآن من الرَّجْم معناه القتلُ. وقال قتادةُ: هو على بابه من الرَّجْم بالحجارة[3]. وقيل: لَنَشْتِمنَّكم، وقد تقدَّم جميعه[4].

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل: هو القتل. وقيل: هو التعذيبُ المُؤلم. وقيل: هو التعذيبُ المؤلم قبلَ القتلِ، كالسَّلْخِ والقَطْعِ والصَّلْب.

فقالت الرسل: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: شُؤْمُكم معكم، أي: حظُّكم من الخير والشرِّ معكم ولازمٌ في أعناقكم، وليس هو من شؤمنا؛ قال معناه الضحَّاك[5]. وقال قتادةُ: أعمالُكم معكم[6]. ابن عباس: معناه: الأرزاقُ والأقدارُ تَتْبَعُكم[7]. الفرَّاء[8]:

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٤٩ . قال ابن عطية: والأظهرُ أنَّ تطيُّر هؤلاء إنما كان بسبب ما دخل قريتهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس، وهذا على نحو تطيُّرِ قريش بمحمد ﷺ.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/٤١٦ - ٤١٧ .

(٤) ١١/٢٠١ .

(٥) ذكره البغوي ٤/ ٩ .

(٦) أخرجه الطبري ١٩/٤١٧ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٨٥ .

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٤ .

«طائرُكم معكم»: رزقُكم وعملُكم، والمعنى واحد. وقرأ الحسن: «اطَّيُّرُكم» أي: تَطَيُّركم(١).

﴿أَبِن ذُكِّرْتُمْ﴾ قال قتادةُ: إن ذُكِّرتُم تَطيَّرتم(٢). وفيه تسعةُ أوجُهٍ من القراءات: قرأ أهلُ المدينةِ: «أَينْ ذُكِّرتُم» بتخفيفِ الهمزةِ الثانية. وقرأ أهلُ الكوفة: «أإِنْ» بتحقيق الهمزتين. والوجهُ الثالث: «أاإِنْ ذُكِّرْتُمْ» بهمزتين بينهما ألفٌ، أُدخلت الألفُ كراهةً للجمع بين الهمزتين. والوجهُ الرابع: «أاإِنْ» بهمزةٍ بعدها ألفٌ وبعدَ الألفِ همزةٌ مخفَّفة(٣).

والقراءةُ الخامسة: «أاأَنْ» بهمزتين مفتوحتين بينهما ألفٌ. والوجهُ السادس: «أَأَنْ» بهمزتين مُحقَّقتين مفتوحتين. وحكَى الفرَّاء: أنَّ هذه قراءةُ أبي رَزين(٤).

قلت: وحكاه الثعلبيُّ عن زِرّ بنِ حُبيش وابنِ السَّمَيْفَع.

وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصريُّ: «قالوا طائرُكم معكم أَيْنَ ذُكِّرْتُم» بمعنى حيث. وقرأ يزيد بن القعقَاع والحسنُ وطلحةُ: «ذُكِرْتُمْ» بالتخفيف؛ ذكر جميعَه النحاس(٥).

وذكر المهدويُّ عن طلحةَ بنِ مُصَرِّف وعيسى الهمدانيِّ: «آنْ ذُكِّرْتُم» بالمدِّ، على أنَّ همزةَ الاستفهام دخلت على همزةٍ مفتوحة. الماجشون: «أَنْ ذُكِّرْتُم» بهمزةٍ واحدةٍ

(١) الكشاف ٣/ ٣١٨ . قال السمين في الدرّ المصون ٩/ ٢٥٢: «اطَّيُّركم» مصدر «اطَّيَّر» الذي أصله «تَطَيَّر»، فلما أُريدَ إدغامه أُبدلت التاء طاءً وسُكِّنت واجتُلبت همزة الوصل فصار «اطَّيَّر»، فيكون مصدره «اطَّيُّراً». وذكر السمين أنه روي عن الحسن: «طَيْركم»، وقال: ويغلب على الظن أنها هذه، وإنما تصحفت على الرائي فحسبها مصدراً، وظن أن ألف «قالوا» همزة وصل.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٤١٨ - ٤١٩ .

(٣) قرأ بتسهيل الهمزة الثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو ورويس وأبو جعفر، وقالون وأبو عمرو يدخلان بينهما ألفاً، وكذلك أبو جعفر إلا أنه يفتح الثانية. وقرأ هشام بتحقيق الهمزتين مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال. ينظر التيسير ص٣٢ ، والنشر ١/ ٣٧٠ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٤ ، وهي في القراءات الشاذة ص١٢٥ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨٨ . وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٥ ، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٠٥ عن الأعمش أنه قرأ: «أَيْنَ ذُكِرتم». قال ابن جني: فكأنه قال: أين ذكرتم، أو أين وُجدتم وُجد شؤمكم معكم.

مفتوحة[١]. فهذه تسعُ قراءاتٍ.

وقرأ ابن هُرْمُز: «طَيْرُكم معكم»[٢]. «أَئِنْ ذُكِّرْتُم» أي: لَإِن وُعِظْتُم؛ وهو كلامٌ مستأنَفٌ، أي: إنْ وُعِظْتُم تطيَّرتُم. وقيل: إنَّما تطيَّروا لمَّا بلغهم أنَّ كلَّ نبيٍّ دعا قومَه فلم يُجيبوه كان عاقبة قومه الهلاك.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قال قتادةُ: مُسْرِفون في تَطَيُّركم. يحيى بن سلام: مُسرِفون في كفركم. وقال ابن بحر: السَّرَفُ هاهنا: الفساد، ومعناه: بل أنتم قومٌ مُفْسِدون[٣].

وقيل: مُسْرِفون: مشركون، والإسرافُ: مُجاوزةُ الحدِّ، والمشركُ يجاوِزُ[٤] الحدَّ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو حبيب بن مرى[٥]، وكان

---

(١) ذكر هذه القراءة عن الماجشون ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٠٥ . والماجشون هو يوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سلمة، توفي سنة (٢٨٤هـ). ينظر طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٤٠٥ ، وروح المعاني ٢٢/ ٢٢٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٠ عن ابن هرمز والحسن وعمرو بن عبيد، والقراءات الشاذة ص١٢٥ عن الحسن.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٢ .

(٤) في (خ): مجاوز، وفي (ظ): تجاوز.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٤١٩ عن أبي مجلز.

نجاراً. وقيل: إسكافاً. وقيل: قصَّاراً. وقال ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ ومقاتلٌ: هو حبيب بن إسرائيل النجار(١)، وكان يَنْحَت الأصنامَ، وهو ممن آمَنَ بالنبيِّ ﷺ وبينهما ستُّ مئةِ سنةٍ، كما آمن به تُبَّعٌ الأكبرُ وورقَةُ بنُ نوفل وغيرُهما. ولم يؤمن بنبيٍّ أحدٌ إلَّا بعد ظهوره(٢).

قال وَهْب: وكان حبيبٌ مجذوماً، ومنزلُه عند أقصى بابٍ من أبوابِ المدينة، وكان عكف على عبادةِ الأصنام سبعين سنةً يدعوهم لعلَّهم يرحمونه ويكشفون ضرَّه، فما استجابوا له، فلمَّا أَبْصَرَ الرسلَ دَعَوْه إلى عبادة الله، فقال: هل من آيةٍ؟ قالوا: نعم، ندعو ربَّنا القادِرَ فيفرِّج عنك ما بك. فقال: إنَّ هذا لَعَجَبٌ! أدعو هذه الآلهةَ سبعين سنةً تفرِّج عنِّي فلم تَسْتَطِع، يفرِّجُه ربُّكم في غداةٍ واحدة؟ قالوا: نعم، ربُّنا على ما يشاءُ قديرٌ، وهذه لا تنفعُ شيئاً ولا تضرّ. فآمَن، ودَعَوْا ربَّهم، فكشف الله ما به، كأنْ لم يكن به بأس، فحينئذٍ أَقْبَل على التكسُّب، فإذا أمسى تَصَدَّق بكَسْبِه، فأَطْعَم عيالَه نصفاً وتَصَدَّقَ بنصفٍ، فلمَّا همَّ قومُه بقَتْلِ الرسلِ جاءهم فـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الآية(٣).

وقال قتادةُ: كان يعبدُ الله في غارٍ، فلمَّا سمع بخبرِ المرسلين جاء يَسْعَى، فقال للمرسَلين: أتَطْلبون على ما جئتُم به أجراً؟ قالوا: لا، ما أَجْرُنا إلَّا على الله(٤). قال أبو العالية: فاعتَقَدَ صِدْقَهم وآمَنَ بهم(٥). وأَقْبَلَ على قومه فـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي: لو كانوا متَّهَمِينَ لطلبوا منكم المالَ. ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فاهتدُوا بهم(٦).

---

(١) عرائس المجالس ص٤٠٩ عن ابن عباس ومقاتل، وفي الكشاف ٣/ ٣١٨ دون نسبة.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٨. وتُبَّع الأكبر: هو أسعد أبو كرب، ملك اليمن، أراد غزو البيت الحرام، ثم شرّفه وعظَّمه وكساه. البداية والنهاية ٣/ ١٢٢ وسيذكره المصنف عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الدخان.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٤١٩ - ٤٢٠ مختصراً.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٤١، والطبري ١٩/ ٤٢١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٣.

(٦) قال الآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ٢٢٦: ولا جَزْمَ لي بإيمانه ولا عَدَمِه قبل إرسال الرسل، =

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ قال قتادة: قال له قومُه: أنتَ على دينهم. فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: خلَقني ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾. وهذا احتجاجٌ منه عليهم. وأضاف الفطرةَ إلى نفسه؛ لأنَّ ذلك نعمةٌ عليه تُوجِبُ الشكر، والبعثَ إليهم؛ لأنَّ ذلك وعيدٌ يقتضي الزَّجْرَ، فكان إضافةُ النعمةِ إلى نفسه أَظْهَرَ شكراً، وإضافةُ البعثِ إلى الكافر أبلغ أثراً.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يعني أصناماً ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾ يعني ما أصابه من السُّقْم ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾: يخلِّصوني ممَّا أنا فيه من البلاء ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ يعني: إن فعلتُ ذلك ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي: خُسرانٍ ظاهر ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ قال ابن مسعود: خاطَبَ الرسلَ بأنه مؤمنٌ بالله ربِّهم. ومعنى «فَاسْمَعُونِ» أي: فاشْهَدوا، أي: كونوا شُهودي بالإيمان[(١)]. وقال كعبٌ ووَهْبٌ: إنَّما قال ذلك لقومه: إنِّي آمنتُ بربّكم الذي كفرتُم به[(٢)].

وقيل: إنه لمَّا قال لقومه: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ . ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ رفعوه إلى الملك وقالوا: قد تَبِعْتَ عدوَّنا، فطوَّل معهم الكلامَ ليَشْغَلَهم بذلك عن قَتْلِ الرسل، إلى أنْ قال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ فوثبوا عليه فقتلوه. قال ابن مسعود: وَطِئوه بأَرْجُلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره[(٣)]. وأُلقي في بئرٍ، وهي الرَّسُّ، وهم أصحابُ الرَّسِّ. وفي رواية: أنهم قَتلوا الرسلَ الثلاثة.

وقال السُّدّيُّ: رَمَوْه بالحجارة وهو يقول: اللهمَّ اهْدِ قومي، حتى قتلوه[(٤)]. وقال الكلبيُّ: حفروا حفرةً وجعلوه فيها، ورَدَموا فوقَه الترابَ، فمات رَدْماً.

= وظواهر الأخبار في ذلك متعارضة، ومع ذلك لم يتحقق عندي صحة شيءٍ منها.

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٢٩ .

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٩/ ٤٢٣ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٢٤ . والقُصْب: المِعَى. القاموس (قصب).

(٤) عرائس المجالس ص٤٠٩ .

وقال الحسن: خرقوا خَرْقاً[١] [في حَلْقِه]، وعلَّقوه من سور المدينة، وقبرُه في سور أنطاكِيَة؛ حكاه الثعلبيُّ[٢].

وقال القشيريُّ: وقال الحسن: لمَّا أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة لا يموتُ إلَّا بفناءِ السماءِ وهلاكِ الجنة، فإذا أعاد الله الجنةَ أُدْخِلَها[٣].

وقيل: نَشَروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه، فَوَاللهِ ما خرجتْ روحُه إلَّا إلى الجنة فدخلها، فذلك قولُه: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فلمَّا شاهدها ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي: بغفرانِ ربِّي لي، فـ «ما» مع الفعلِ بمنزلة المصدر. وقيل: بمعنى الذي، والعائدُ من الصلة محذوفٌ. ويجوزُ أن تكون استفهاماً فيه معنى التعجُّبِ، كأنَّه قال: ليت قومي يعلمون بأيِّ شيءٍ غفر لي ربِّي[٤]؛ قاله الفرَّاء. واعترَضَه الكسائيُّ فقال: لو صحَّ هذا لقال: بِمَ، من غير ألف. وقال الفرَّاء: يجوز أن يقال بما بالألف وهو استفهامٌ، وأَنشد فيه أبياتاً[٥].

الزمخشريُّ[٦]: بِمَ غَفَرَ لي، بطرحِ الألف أَجْودُ، وإن كان إثباتُها جائزاً؛ يقال: قد علمتُ بما صنعتَ هذا، وبمَ صنعت.

المهدويُّ: وإثباتُ الإلفِ في الاستفهام قليلٌ. فيُوقَفُ على هذا على «يَعْلَمُونَ». وقال جماعةٌ: معنى ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾: وَجَبَتْ لك الجنةُ، فهو خبرٌ بأنه قد استَحقَّ دخولَ الجنة؛ لأنَّ دخولها يُستَحَقُّ بعد البعث.

---

(١) في (ظ) و(م): حرقوه حرقاً، وفي (ز): حفروا حرقاً.

(٢) في عرائس المجالس ص٤٠٩، وما سلف بين حاصرتين منه. وفيه: وقبره في سوق أنطاكية.

(٣) قال الألوسي في مجمع البيان ٢٢/ ٢٢٨: والجمهور على أنه قتل. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥١ أن الأحاديث والروايات تواترت بذلك.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٠١.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٤ - ٣٧٥.

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٢٠.

قلت: والظاهِرُ من الآية أنَّه لمَّا قُتل قيل له: ادخل الجنة.

قال قتادةُ: أدخله الله الجنةَ وهو فيها حيٌّ يُرزَقُ، أراد قولَه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩][١] على ما تقدَّم في «آل عمران» بيانُه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ مرتَّبٌ على تقدير سؤالِ سائلٍ عمَّا وَجَدَ من قوله عند ذلك الفوزِ العظيم الذي هو ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾. وقرئ: «مِن المُكَرَّمينَ»[٢].

وفي معنى تَمنِّيه قولان:

أحدُهما: أنه تمنَّى أن يَعْلَموا بحاله ليَعْلَموا حُسْنَ مَآلِه وحَمِيدَ عاقبته.

الثاني: تَمنَّى ذلك ليؤمنوا مثلَ إيمانِه فيَصيروا إلى مثلِ حاله. قال ابن عباس: نَصَح قومَه حيّاً وميتاً[٣]. رَفَعه القشيريُّ فقال: وفي الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال في هذه الآية: «إنَّه نَصَحَ لهم في حياتِه وبعدَ مَوْتِه»[٤].

وقال ابن أبي ليلى: سُبَّاقُ الأممِ ثلاثةٌ لم يكفروا بالله طَرْفَةَ عين: عليّ بنُ أبي طالب وهو أَفْضَلُهم، ومؤمنُ آلِ فرعون، وصاحبُ يس، فهم الصدِّيقون[٥]. ذكره الزمخشريُّ مرفوعاً عن رسول الله ﷺ[٦].

---

(١) الكشاف ٣/ ٣١٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٢٠، وهي قراءة شاذة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٤.

(٤) أخرجه مطولاً ابن مردويه ـ كما في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٤٠ ـ من حديث المغيرة ابن شعبة ﷺ.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٠ بنحوه.

(٦) الكشاف ٣/ ٣١٩، وأخرجه بنحوه أحمد في فضائل الصحابة (١٠٧٢) و(١١١٧) من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، عن النبي ﷺ، وفي إسناده عمرو بن جميع البصري، قال فيه الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٠: متروك. وأخرجه بنحوه أيضاً الطبراني في الكبير (١١١٥٢)، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: حديث منكر.

وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ عظيمٌ، ودلالةٌ على وجوبِ كَظْمِ الغيظ، والحِلْمِ عن أهلِ الجهل، والتَّرؤُّفِ على مَن أَدْخَلَ نفسَه في غمارِ الأشرار وأهلِ البغي، والتَّشمُّرِ في تخليصه، والتلطُّفِ في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاءِ عليه. ألَا ترى كيف تمنَّى الخيرَ لقَتَلَتِه والباغين له الغوائلَ، وهم كفرةٌ عَبَدةُ أصنام؟![1]

فلمَّا قُتل حبيبٌ غضبَ الله له، وعجَّل النقمةَ على قومه، فأمر جبريلَ فصاح بهم صيحةً فماتوا عن آخرهم؛ فذلك قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي: ما أنزلنا عليهم من رسالةٍ ولا نبيٍّ بعد قتله؛ قاله قتادةُ ومجاهدٌ والحسن[2]. قال الحسن: الجندُ: الملائكةُ النازلون بالوحي على الأنبياء[3].

وقيل: الجندُ: العساكر، أي: لم أَحْتَجْ في هلاكهم إلى إرسالِ جنودٍ ولا جيوشٍ ولا عساكرَ، بل أَهْلَكْتُهم[4] بصيحةٍ واحدةٍ. قال معناه ابن مسعود وغيرُه[5]. فقولُه: «وما كنَّا منْزِلين» تصغيرٌ لأمرهم، أي: أهلكناهم بصيحةٍ واحدة من بعد ذلك الرجل، أو من بعد رَفْعِه إلى السماء.

وقيل: المعنى: «وما كنَّا مُنزِلين» على مَن كان قَبْلَهم. الزَّمخشريُّ[6]: فإن قلتَ: فلِمَ أنزل الجنودَ من السماء يومَ بدرٍ والخندقِ؟ فقال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب:٩]، وقال: ﴿بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]، ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران:١٢٤]، ﴿بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥].

---

(١) الكشاف ٣/ ٣١٩ - ٣٢٠.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٤٢٦ - ٤٢٧ عن مجاهد وقتادة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٥.

(٤) في (د) و(ظ) و(م): بل أهلكهم.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٤٢٧.

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٢٠، وما سيرد بين حاصرتين منه.

قلت: إنَّما كان يكفي مَلَكٌ واحدٌ، فقد أُهلِكتْ مدائنُ قومِ لوطٍ بريشةٍ من جناحِ جبريل، وبلادُ ثمودَ وقومُ صالحٍ بصيحةٍ [منه]، ولكنَّ الله فضَّل محمداً ﷺ بكلِّ شيءٍ على كبار[١] الأنبياء وأُولي العَزْمِ من الرسل فضلاً عن حبيبِ النجارِ، وأَوْلَاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يُوْلِه أحداً، فَمِن ذلك أنه أَنزل له جنوداً من السماء، وكأنه أشار بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ .﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ إلى أنَّ إنزالَ الجنودِ من عظائم الأمور التي لا يؤهَّلُ لها إلَّا مثلُكَ، وما كنَّا نفعلُه لغيرك[٢].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قراءةُ العامَّةِ: ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ بالنصب على تقدير: ما كانت عقوبتُهم إلَّا صيحةً واحدةً.

وقرأ أبو جعفر بنُ القَعْقَاع وشيبةُ والأعرجُ: «صَيْحَةٌ» بالرفع هنا، وفي قوله « إِنْ كانت إلَّا صيحةٌ واحدةٌ فإذا هم جميعٌ» [الآية:٥٣][٣]، جعلوا الكَوْنَ بمعنى الوقوعِ والحدوثِ، فكأنَّه قال: ما وقعتْ عليهم إلَّا صيحةٌ واحدة. وأَنْكَر هذه القراءةَ أبو حاتمٍ وكثيرٌ من النَّحْويِّين بسبب التأنيثِ فهو ضعيف، كما تكون: ما قامت إلَّا هندٌ ضعيفاً، من حيث كان المعنى: ما قام أحدٌ إلَّا هندٌ. قال أبو حاتم: فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال: إنْ كان إلَّا صيحةٌ.

قال النحَّاس[٤]: لا يمتنع شيءٌ من هذا، يقال: ما جاءتني إلَّا جاريتُك، بمعنى: ما جاءتني امرأةٌ أو جاريةٌ إلَّا جاريتُك. والتقديرُ في القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحاق، قال: المعنى: إنْ كانت عليهم صيحةٌ إلَّا صيحةٌ واحدةٌ، وقدَّره غيره: ما وقعت عليهم إلَّا صيحةٌ واحدةٌ. وكان بمعنى وَقَعَ كثيرٌ في كلام العرب.

وقرأ عبد الرحمن بنُ الأسود ـ ويقال: إنه في حَرْفِ عبدِ الله كذلك ـ: «إنْ كانت

---

(١) في (خ) و(م): سائر، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف.

(٢) في (خ) و(ظ) والكشاف: بغيرك.

(٣) النشر ٢/ ٣٥٣ عن أبي جعفر، وهو من العشرة.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٠، وما قبله منه.

إلَّا زَقْيَةً واحدةً». وهذا مخالفٌ للمصحف. وأيضاً فإنَّ اللغةَ المعروفةَ: زَقَا يَزْقو: إذا صاح، ومنه المثلُ: أثقلُ من الزَّوَاقي، فكان يجب على هذا أن يكون: زَقْوةً. ذكره النحاس[١].

قلت: وقال الجوهريُّ[٢]: الزَّقْوُ والزَّقْيُ مصدر، وقد زَقَا الصَّدَى يزقو [ويَزْقي] زُقَاءً، أي: صاح، وكلُّ صائحٍ زاقٍ، والزَّقْيَةُ: الصَّيحة.

قلت: وعلى هذا يقال: زَقْوة وزَقْية لغتان[٣]، فالقراءةُ صحيحةٌ لا اعتراضَ عليها. والله أعلم.

﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ أي: ميّتون هامِدون؛ تشبيهاً بالرَّماد الخامِد. وقال قتادةُ: هَلْكَى[٤]. والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ منصوبٌ؛ لأنه نداء نكرة، ولا يجوزُ فيه غيرُ النصبِ عند البصريين[٥]. وفي حرفِ أُبَيٍّ: «يا حسرةَ العبَادِ» على الإضافة[٦]. وحقيقةُ الحسرةِ في اللغة: أن يَلْحَقَ الإنسانَ من النَّدم ما يَصيرُ به حسيراً[٧].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٠ - ٣٩١ ، دون ذكر المثل، وهو في جمهرة الأمثال ١/ ٢٩٣ ، ومجمع الأمثال ١/ ١٥٦ . قال العسكري: الزواقي: الديكة، وكان الفتيان يسمرون بالليل، فإذا زقت الديكة انصرف كلٌّ إلى رَحْلِه، فاستثقلوها لقطعها عليهم سَمَرَهم. وقراءة: «إن كانت إلا زقيةً» في القراءات الشاذة ص١٢٥ ، والمحتسب ٢/ ٢٠٦ .

(٢) في الصحاح (زقا)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٥ .

(٤) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٩١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩١ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٥ ، والمحتسب ٢/ ٢٠٦ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٨٩ .

وزعم الفرَّاء أنَّ الاختيارَ النصبُ، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصفة(١) كان صواباً. واستَشْهدَ بأشياءَ؛ منها أنه سُمع من العرب: يا مُهتَمُّ بأمرنا لا تَهتمّ، وأنشد:

يـا دارُ غَـيَّـرهـا الـبِـلَـى تَـغـيـيـرَا(٢)

قال النحاس: وفي هذا إبطالُ بابِ النداءِ أو أكثرِه؛ لأنه يرفعُ النَّكرةَ المَحْضةَ، ويرفع ما هو بمنزلةِ المضافِ في طوله، ويحذفُ التنوين متوسِّطاً، ويرفع ما هو في المعنى مفعولٌ بغيرِ علَّةٍ أَوْجبتْ ذلك. فأمَّا ما حكاه عن العرب فلا يُشْبِه ما أجازه؛ لأنَّ تقدير: يا مُهْتَمُّ بأمرنا لا تهتمَّ، على التقديم والتأخير، والمعنى: يا أيها المهتمُّ لا تَهتمَّ بأمرنا. وتقديرُ البيت: يا أيتها الدارُ، ثم حَوَّل المخاطبة، أي: يا هؤلاء غيَّر هذه الدارَ البِلَى، كما قال الله جل وعز: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢](٣). فـ «حسرةً» منصوبٌ على النداء، كما تقولُ: يا رجلاً أَقْبِلْ، ومعنى النداء: هذا موضعُ حُضورِ الحسرة.

الطبريُّ(٤): المعنى: يا حسرةً من العباد على أنفسهم، وتندُّماً وتلهُّفاً في استهزائهم برسل الله عليهم السلام.

---

(١) في النسخ: بالصلة، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩١ ، وعنه نقل المصنف.

(٢) البيت للأحوص كما في الكتاب ٢/ ٢٠١ ، ونسبه السيرافي في شرح أبيات سيبويه ١/ ٥٢٣ للحارث بن خالد المخزومي، وهو بلا نسبة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩١ ، وروايته في الكتاب:

يـا دارُ حَـسَّـرَهـا الـبِـلَـى تَـحْـسـيـرا وسَـفَـتْ عـلـيـهـا الـريـحُ بـعـدكَ مُـورا

قال السيرافي: حسَّرها: أزال ما كان فيها من الأطلال، والمور: الغبار.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩١ - ٣٩٢ . وشرح الكلام أنه لما قال: يا دار، نادى داراً بعينها فصارت معرفة ولذلك بناها على الضم، ثم إنه أتى بعدها بقوله: حسَّرها البلى ـ والفعل لا ينعت به إلا النكرة ـ فكأنه قال: يا دار ، ثم أقبل على إنسان فقال: حسَّرها البلى، فحسَّرها ليس بنعت للدار. ينظر الكتاب ٢/ ٢٠١ ، وشرح أبيات سيبويه للسيرافي ١/ ٥٢٣ .

(٤) في التفسير ١٩/ ٤٢٩ .

ابن عباس: «يا حسرةً على العبادِ» أي: يا ويلاً على العباد[١]. وعنه أيضاً: حلَّ هؤلاء محلَّ مَن يتحسَّر عليهم[٢].

وروى الربيع بن[٣] أنس عن أبي العاليةِ: أنَّ العبادَ هاهنا الرسلُ، وذلك أنَّ الكفار لمَّا رأَوا العذابَ قالوا: «يا حسرةً على العبادِ»، فتحسَّروا على قَتْلِهم وتَرْكِ الإيمان بهم، فتمنَّوا الإيمانَ حين لم ينفعهم الإيمان[٤]. وقاله مجاهد.

وقال الضحاك: إنها حسرةُ الملائكةِ على الكفار حين كذَّبوا الرسل[٥].

وقيل: «يا حسرةً على العبادِ» مِن قول الرجلِ الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، لمَّا وثب القومُ لقتله.

وقيل: إنَّ الرسلَ الثلاثةَ هم الذين قالوا لمَّا قَتَلَ القومُ ذلك الرجلَ الذي جاء من أَقْصَى المدينةِ يسعى، وحلَّ بالقوم العذابُ: يا حسرةً على هؤلاء، كأنهم تَمنَّوْا أن يكونوا قد آمنوا.

وقيل: هذا من قول القومِ؛ قالوا لمَّا قَتَلوا الرجلَ وفارقتهم الرسلُ، أو قتلوا الرجلَ مع الرسلِ الثلاثة، على اختلافِ الروايات: يا حسرةً على هؤلاء الرسل، وعلى هذا الرجل، ليتنا آمنَّا بهم في الوقت الذي ينفعُ الإيمان. وتمَّ الكلام على هذا، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾.

وقرأ ابن هُرْمُز ومسلم بنُ جُنْدب وعِكرمةُ: «يا حَسْرهْ على العبادِ» بسكون الهاء[٦]، للحرص على البيان وتقرير المعنى في النفس؛ إذ كان موضعَ وَعْظٍ وتنبيهٍ،

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٠ بلفظ: يا ويلاً للعباد.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٥ .

(٣) في النسخ. عن، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٢ .

(٤) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٥٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١ . قال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم﴾ الآية، يدفع هذا التأويل.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٥ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٥ ، والمحتسب ٢/ ٢٠٨ .

والعربُ تفعلُ ذلك في مِثْله وإن لم يكن موضعاً للوقف. ومِن ذلك ما روي عن النبيِّ ﷺ: أنه كان يُقَطِّعُ قراءتَه حرفاً حرفاً[1]؛ حِرْصاً على البيان والإفهام.

ويجوز أن يكون «عَلَى الْعِبَادِ» متعلِّقاً بالحسرة. ويجوز أن يكون متعلِّقاً بمحذوفٍ لا بالحسرة، فكأنه قدَّر الوقفَ على الحسرة فأَسْكَنَ الهاءَ، ثم قال: «على العباد»، أي: أَتحسَّرُ على العباد.

وعن ابن عباسٍ والضحاكِ وغيرِهما: «يا حسرةَ العبادِ» مضافٌ بحذفِ «على»[2]. وهو خلافُ المصحف. وجاز أن يكون من باب الإضافةِ إلى الفاعل، فيكونُ العبادُ فاعِلِينَ، كأنَّهم إذا شاهدوا العذابَ تحسَّروا، فهو كقولك: يا قيامَ زيدٍ. ويجوز أن تكونَ من بابِ الإضافةِ إلى المفعول، فيكون العبادُ مفعولِين، فكأنَّ العبادَ يتحسَّر عليهم مَن يُشْفِقُ لهم. وقراءةُ مَن قرأ: «يا حسرةً على العبادِ» مقوِّيةٌ لهذا المعنى[3].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال سيبويه: «أنَّ» بدلٌ من «كَم»، ومعنى «كَم» هاهنا الخبر؛ فلذلك جاز أن يُبدَلَ منها ما ليس باستفهام. والمعنى: ألم يَرَوْا أنَّ القرونَ الذين أهلكناهم أنَّهم إليهم لا يرجعون[4]. وقال الفرَّاء[5]: «كَم» في موضعِ نصبٍ من وجهين: أحدُهما بـ «يَرَوْا»، واستَشْهدَ على هذا بأنه في قراءةِ ابنِ مسعود: «أَلَم يَرَوْا مَن أَهْلَكنا». والوجهُ الآخَرُ أن يكون «كَم» في موضعِ نصبٍ بـ «أهلكنا».

قال النحاس[6]: القولُ الأولُ مُحالٌ؛ لأنَّ «كَم» لا يَعملُ فيها ما قَبْلَها؛ لأنَّها

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٢٦٥٨٣)، وأبو داود (٤٠٠١)، والترمذي (٢٩٢٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. ووقع عند أحمد وأبي داود: آية آية، بدل: حرفاً حرفاً.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٥، والمحتسب ٢/ ٢٠٨، وسلفت في بداية تفسير هذه الآية.

(٣) بنحوه في المحتسب ٢/ ٢١١.

(٤) بنحوه في الكتاب ٣/ ١٣٢.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٢.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣.

استفهامٌ، ومُحالٌ أن يَدخُلَ الاستفهامُ في خبرِ[١] ما قَبْلَه. وكذا حُكْمُها إذا كانت خبراً. وإنْ كان سيبويه قد أَوْمأ إلى بعضِ هذا فجعل «أنَّهم» بدلاً من «كم». وقد ردَّ ذلك محمد بن يزيد أشدَّ ردٍّ، وقال: «كَم» في موضعِ نصبٍ بـ «أَهْلَكنا»، و«أنَّهم» في موضعِ نصبٍ، والمعنى عنده: بأنهم، أي: ألم يَرَوْا كم أهلكنا قَبْلَهم مِن القرون بالاستئصال. قال: والدليلُ على هذا: أنَّها في قراءةِ عبد الله: «مَن أهلكنا قبلَهم مِن القرون أنَّهم إليهم لا يَرجِعون»[٢].

وقرأ الحسن: «إنَّهم إليهم لا يَرْجِعون» بكَسْرِ الهمزة على الاستئناف[٣]. وهذه الآيةُ ردٌّ على مَن زعم أنَّ مِن الخَلْقِ مَن يَرجعُ قبل القيامةِ بعد الموت.

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يريد يومَ القيامةِ للجزاء. وقرأ ابن عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا﴾ بتشديدِ «لمَّا»، وخفَّف الباقون[٤]. فـ «إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، وما بعدها مرفوعٌ بالابتداء، وما بعده الخبر. وبَطَلَ عملُها حين تغيَّر لفظُها. ولَزِمَت اللامُ في الخبر فَرْقاً بينَها وبين إنْ التي بمعنى ما. و«ما» عند أبي عبيدةَ زائدةٌ. والتقدير عنده: وإن كلٌّ لجميع[٥]. قال الفرَّاء[٦]: ومَن شدَّد جعل «لمَّا» بمعنى إلَّا و«إنْ» بمعنى ما، أي: ما كلٌّ إلَّا جميع[٧]، كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥]. وحكى [ذلك] سيبويه في قوله: سألتك بالله لمَّا فَعَلْتَ. وزعم الكسائيُّ أنه لا يعرف هذا[٨]. وقد مضى هذا المعنى في «هود»[٩]. وفي حرفِ أُبَيٍّ: «وإنْ منهم إلَّا جميعٌ

---

(١) في مطبوع إعراب القرآن: حيز.

(٢) من قوله: قال والدليل على هذا، إلى هذا الموضع ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٩٠ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٥ .

(٤) التيسير ص١٢٩ .

(٥) مجاز القرآن ٢/ ١٦٠ .

(٦) بنحوه في معاني القرآن ٢/ ٣٧٧ .

(٧) في النسخ عدا (ظ): لجميع، وهو خطأ.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٩) ١١/ ٢١٩ .

لدينا مُحْضَرُون»[١].

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ نبّههم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكَّرهم توحيدَه وكمالَ قدرته، وهي الأرضُ الميتةُ أحياها بالنبات وإخراجِ الحبِّ منها. ﴿فَمِنْهُ﴾ أي: من الحَبّ ﴿يَأْكُلُونَ﴾ وبه يتغذَّوْن. وشدَّد أهلُ المدينةِ «الميتةُ» وخفَّف الباقون[٢]، وقد تقدَّم[٣].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ وخصَّصهما بالذكر لأنهما أعلى الثمار. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي: في البساتين ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ الهاء في «ثمرِهِ» تعودُ على ماءِ العيون؛ لأنَّ الثمر منه انْدرَج؛ قاله الجُرْجانيُّ والمَهْدَويُّ وغيرهما. وقيل: أي: ليأكلوا من ثمر ما ذَكَرنا، كما قال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ [النحل: ٦٦].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «مِن ثُمُرِهِ» بضم الثاء والميم. وفَتَحهما الباقون[٤]. وعن الأعمش ضمُّ الثاءِ وإسكانُ الميم[٥]. وقد مضى الكلامُ فيه في «الأنعام»[٦].

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ «ما» في موضع خفضٍ على العطف على «مِن ثَمَرِهِ» أي:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٩٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٥٢ .

(٢) قراءة التشديد هي قراءة نافع، والباقون من السبعة بالتخفيف. السبعة ص٢٠٣ ، والتيسير ص١٠٦ .

(٣) ٣/ ٢٣ .

(٤) السبعة ص٢٦٤ ، والتيسير ص١٠٥ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٣ .

(٦) ٨/ ٤٧٤ .

وممَّا عملته أيديهم. وقرأ الكوفيون: «وما عَمِلَتْ»بغير هاءٍ[1]. الباقون: ﴿عَمِلَتْهُ﴾ على الأصل من غيرِ حذفٍ. وحذفُ الصلةِ أيضاً في الكلام كثيرٌ لطول الاسم.

ويجوز أن تكون «ما» نافيةً لا موضعَ لها، فلا تحتاجُ إلى صلةٍ ولا راجعٍ، أي: ولم تعمله أيديهم من الزرع الذي أنبته الله لهم. وهذا قولُ ابنِ عباس والضحَّاك ومقاتل[2].

وقال غيرهم: المعنى: ومِن الذي عَمِلَته أيديهم، أي: من الثمار، ومن أصنافِ الحَلاواتِ والأطعمة، وممَّا اتَّخذوا من الحبوب بعلاجٍ، كالخبز والدُّهْنِ المستَخْرَجِ من السِّمْسِم والزيتون. وقيل: يرجع ذلك إلى ما يغرسُه الناس. روي معناه عن ابن عباس أيضاً. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعَمَه؟!

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ نزَّه نفسَه سبحانه عن قول الكفار؛ إذ عَبَدوا غيرَه مع ما رَأَوْه من نِعَمِه وآثارِ قدرته. وفيه تقديرُ الأمرِ، أي: سبِّحوه ونزِّهوه عمَّا لا يَليقُ به. وقيل: فيه معنى التعجُّبِ، أي: عجباً لهؤلاء في كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات! ومَن تعجَّب مِن شيءٍ قال: سبحان الله!

والأزواجُ: الأنواعُ والأصناف، فكلُّ صِنْفٍ زَوْجٌ[3]؛ لأنه مختلفٌ في الألوان والطُّعوم والأشكال والصِّغَرِ والكِبَر، فاختلافُها هو ازدواجُها. وقال قتادة: يعني الذَّكر والأنثى. ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ يعني من النبات؛ لأنه أصناف. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني وخَلقَ منهم أولاداً أزواجاً، ذكوراً وإناثاً. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من أصنافِ خَلْقِه في البرِّ والبحر والسماء والأرض. ثم يجوزُ أن يكون ما يَخْلقُه لا يَعْلمُه البشر وتَعْلمُه

---

(١) قرأ بغير هاء أبو بكر وحمزة والكسائي، والباقون من السبعة بالهاء. السبعة ص٥٤٠ ، والتيسير ص١٨٤ .

(٢) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٩٢ ، وأخرجه عنه سعيد بن منصور وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٦٣ . وذكره عن الضحاك ومقاتل الواحدي في الوسيط ٣/ ٥١٣ ، والبغوي ٤/ ١٢ .

(٣) في (م): فكل زوج صنف.

الملائكة. ويجوزُ ألَّا يعلمَه مخلوق. ووجهُ الاستدلالِ في الآية: أنه إذا انفردَ بالخَلْقِ فلا ينبغي أن يُشْرَك به.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: وعلامةٌ دالَّةٌ على توحيدِ اللهِ وقدرته ووجوبِ إلاهِيَّته. والسَّلْخ: الكَشْطُ والنزع؛ يقال: سلخه الله من دينه، ثم تُستعمل بمعنى الإخراج. وقد جَعَلَ ذهابَ الضوءِ ومجيءَ الظلمةِ كالسَّلْخِ من الشيء وظهورِ المسلوخ، فهي استعارة.

و﴿مُّظْلِمُونَ﴾: داخِلون في الظلام؛ يقال: أَظْلَمْنا، أي: دخلنا في ظلام الليل، وأَظْهَرنا: دخلنا في وقتِ الظُّهر، وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا. وقيل: «منه» بمعنى: عنه، والمعنى: نسلخ عنه ضياءَ النهار. «فإذا هم مُظْلِمونَ» أي: في ظلمة؛ لأنَّ ضوءَ النهارِ يتداخلُ في الهواء فيُضيءُ، فإذا خرج منه أَظْلَم[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ يجوزُ أن يكون تقديره: وآيةٌ لهم الشمسُ. ويجوز أن يكون «الشمس» مرفوعاً بإضمارِ فعلٍ يفسِّره الثاني. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء[(٢)] ﴿تَجْرِى﴾ في موضعِ الخبر، أي: جاريةٌ.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي ذرٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ قال «مُسْتَقرُّها تحتَ العَرْشِ»[(٣)].

وفيه عن أبي ذرٍّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال يوماً: «أَتَدْرون أين تذهبُ هذه الشمسُ؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أَعْلَمُ. قال: «إنَّ هذه تَجْرِي حتى تَنْتَهِيَ إلى مُسْتَقرِّها تحت العرش، فتَخِرُّ

---

(١) النكت والعيون ١٥/١٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٤.

(٣) صحيح مسلم (١٥٩): (٢٥١)، وهو عند أحمد (٢١٤٠٦)، والبخاري (٤٨٠٣).

ساجدةً، فلا تَزالُ كذلك حتَّى يُقالَ لها: ارْتَفِعي، ارْجِعي من حيثُ جِئْتِ، فتَرْجِعُ، فتُصبِحُ طالِعةً من مَطْلِعِها، ثم تَجري حتَّى تنتهيَ إلى مستقرِّها تحتَ العرشِ، فتَخِرُّ ساجدةً، ولا تزالُ كذلك حتَّى يقالَ لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جِئْتِ، فترجع، فتُصبحُ طالِعةً من مَطْلِعها، ثم تَجري لا يَسْتَنكرُ الناسُ منها شيئاً حتى تنتهيَ إلى مستقرِّها ذاك تحتَ العرش، فيقال لها: ارتفعي، أَصْبِحي طالعةً من مَغرِبِكِ، فتُصبِحُ طالعةً من مَغرِبها» فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون متى ذلكم؟ ذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]»(١).

ولفظُ البخاريِّ: عن أبي ذرٍّ قال: قال النبيُّ ﷺ لأبي ذرٍّ حين غَرَبت الشمسُ: «تَدْري أين تَذهبُ؟» قلتُ: اللهُ ورسولُه أَعْلَمُ، قال: «فإنَّها تَذْهبُ حتى تَسْجُدَ تحت العرشِ، فتستأذنَ فيُؤْذَنُ لها، ويُوشِكُ أن تَسْجُدَ فلا يُقبلَ منها، وتستأذنَ فلا يؤذنَ لها، يقال لها: ارْجِعي من حيث جِئْتِ، فتَطْلعُ من مَغْرِبها فذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾»(٢).

ولفظُ الترمذيِّ: عن أبي ذرٍّ قال: دخلتُ المسجدَ حين غابت الشمسُ والنبيُّ ﷺ جالسٌ. فقال النبيُّ ﷺ: «يا أبا ذرّ، أتدري أين تذهبُ هذه؟» قال: قلتُ: اللهُ ورسولُه أَعْلَمُ؛ قال: «فإنَّها تذهبُ فتستأذنُ في السُّجودِ فيؤذنُ لها، وكأنَّها قد قيل لها: اطلُعي من حيث جِئْتِ، فتطلعُ من مَغرِبها» قال: ثم قرأ: «ذلك مُسْتَقَرٌّ لها» قال: وذلك قراءةُ عبدِ الله. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح(٣).

وقال عكرمةُ: إنَ الشمس إذا غَرَبت دخلت محراباً تحت العرش تسبِّحُ الله حتى تصبحَ، فإذا أصبحتْ استَعْفَتْ ربَّها من الخروج، فيقولُ لها الربُّ: ولمَ ذاك؟ قالت:

---

(١) صحيح مسلم (١٥٩): (٢٥٠)، وهو بنحوه عند أحمد (٢١٤٥٩).

(٢) صحيح البخاري (٣١٩٩).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٢٧)، وأخرجه البخاري (٧٤٢٤)، ومسلم (١٥٩): (٢٥٠)، وبنحوه عند أحمد (٢١٥٤١).

إنِّي إذا خرجتُ عُبِدْتُ من دونك. فيقول الربُّ تبارك وتعالى: اخرجي، فليس عليك من ذلك شيءٌ، سأبعثُ إليهم[(١)] جهنَّمَ مع سبعين ألفَ مَلَكٍ يقودونها حتى يُدخلوهم فيها.

وقال الكلبيُّ وغيره: المعنى: تجري إلى أبعدِ منازلها في الغروب، ثم ترجع إلى أدنَى منازلها[(٢)]، فمستقرُّها بلوغُها الموضعَ الذي لا تتجاوزُه بل ترجعُ منه، كالإنسان يقطعُ مسافةً حتى يبلغ أقصى مقصودِه فيقضي وَطَرَه، ثم يرجعُ إلى منزله الأوَّلِ الذي ابتدأ منه سَفَرَه. وعلى تبليغ الشمسِ أقصى منازِلها، وهو مستقرُّها إذا طلعت الهَنْعَة[(٣)]، وذلك اليومُ أطولُ الأيامِ في السَّنة، وتلك الليلةُ أقصرُ الليالي، فالنَّهارُ خمسَ عَشْرةَ ساعةً، والليلُ تسعُ ساعات. ثم يأخذُ في النقصان وترجعُ الشمس، فإذا طلعت الثريّا استوى الليلُ والنهار، وكلٌّ واحدٍ ثنتا عَشْرةَ ساعةً. ثم تبلغ أدنى منازلها وتَطْلعُ النَّعائم[(٤)]، وذلك اليومُ أقصرُ الأيام، والليلُ خَمْسَ عَشْرةَ ساعةً. حتى إذا طلع فَرْغُ الدَّلْوِ المؤخَّرُ[(٥)] استوى الليلُ والنهار، فيأخذ الليلُ من النهار كلَّ يومٍ عُشْرَ ثلثِ ساعة، وكلَّ عشرةِ أيامٍ ثلثَ ساعةٍ، وكلَّ شهرٍ ساعةً تامةً، حتى يستويا، ويأخذُ الليل حتى يبلغ خَمْسَ عَشْرَةَ ساعةً، ويأخذ النهارُ من الليل كذلك. وقال الحسن: إنَّ للشمس في السنة ثلاثَ مئةٍ وستِّين مطلعاً، تنزلُ في كلِّ يومٍ مطلعاً، ثم لا تنزلُه إلى

---

(١) في (خ): عليهم.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧ .

(٣) الهَنْعة: كوكبان بينهما قيد سوط، وهي منزل من منازل القمر، ينظر الأزمنة والأمكنة ١/ ١٧٦ و١٧٩. ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً على ما يأتي، وفي العمدة لابن رشيق ٢/ ٢٥٣: السنة ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً، وهو المقدار الذي تقطع فيه الشمس بروج الفلك الاثني عشر، لكل برج منزلتان وثلث منزلة. وينظر ما سيأتي ص٣١ من هذا الجزء.

(٤) منزل من منازل القمر، وهو ثمانية كواكب. ينظر الأزمنة والأمكنة ١/ ١٧٦ و١٨٤ .

(٥) من منازل القمر، وهما فرغان؛ فرغ الدلو المقدم، وفرغ الدلو المؤخَّر، وكلُّ واحد منهما كوكبان. الصحاح (فرغ)، وينظر الأزمنة والأمكنة ١/ ١٨٥ .

الحول، فهي تجري في تلك المنازلِ، وهي مستقرُّها[١]. وهو معنَى الذي قبله سواء.

وقال ابن عباس: إنَّها إذا غربتْ وانتهتْ إلى الموضع الذي لا تتجاوزُه استقرَّتْ تحت العرشِ إلى أن تطلع.

قلت: ما قاله ابنُ عباس يَجمعُ الأقوالَ فتأمَّلْه.

وقيل: إلى انتهاءِ أَمَدِها عند انقضاءِ الدنيا.

وقرأ ابن مسعود وابنُ عباس: «والشمسُ تَجري لا مُسْتَقَرَّ لها» أي: إنها تجري في الليل والنهار لا وقوفَ لها ولا قرار[٢]، إلى أنْ يُكوِّرها اللهُ يومَ القيامة. وقد احتجَّ مَن خالفَ المصحفَ فقال: أنا أقرأُ بقراءةِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عباس. قال أبو بكر الأنباريّ: وهذا باطلٌ مردودٌ على مَن نَقَلَه؛ لأنَّ أبا عمرٍو رَوَى عن مجاهدٍ عن ابن عباس، وابنُ كثير رَوَى عن مجاهدٍ عن ابن عباس: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ فهذان السَّنَدانِ عن ابن عباس ـ اللذان يَشهَدُ بصحَّتهما الإجماعُ ـ يُبْطِلان ما روي بالسند الضعيف ممَّا يخالفُ مذهبَ الجماعة وما اتفقتْ عليه الأمة.

قلت: والأحاديثُ الثابتةُ التي ذكرناها تردُّ قولَه، فما أَجْرأه على كتاب الله، قاتله الله.

وقولُه: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ أي: إلى مستقرِّها، والمستقرُّ: موضعُ القرار. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ﴾ أي: الذي ذُكر من أمرِ الليلِ والنهارِ والشمسِ تقديرُ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ٣٩﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿والقمرُ﴾ يكونُ تقديرُه: وآيةٌ لهم القمرُ. ويجوزُ أن يكون

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٣/ ٢٨٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولم نقف عليه من الحسن.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٧، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢١٢ .

«والقمرُ» مرفوعاً بالابتداء. وقرأ الكوفيون ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنصب على إضمارِ فعلٍ[١]، وهو اختيارُ أبي عبيد؛ قال: لأنَّ قبلَه فعلاً وبعدَه فعلاً؛ قبلَه: «نسلخُ»، وبعده «قدَّرْناه». النحاس[٢]: وأهلُ العربيةِ جميعاً فيما علمتُ على خلافِ ما قال، منهم الفراء[٣]؛ قال: الرفعُ أَعْجبُ إليّ. وإنَّما كان الرفعُ عندهم أَوْلَى؛ لأنه معطوفٌ على ما قبلَه، ومعناه: وآيةٌ لهم القمرُ. وقولُه: إنَّ قبله «نَسْلَخُ»، فقَبْلَه ما هو أقربُ [إليه] منه وهو «تَجْرِي» وقبلَه «والشمسُ» بالرفع. والذي ذَكَره بعده وهو «قدَّرناه» قد عَمل في الهاء. قال أبو حاتم: الرفعُ أَوْلَى؛ لأنك شَغَلْتَ الفعلَ عنه بالضمير، فرفعتَه بالابتداء.

ويقال: القمرُ ليس هو المنازِلَ، فكيف قال: ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾؟ ففي هذا جوابان: أحدهما: قدَّرناه ذا منازلَ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. والتقديرُ الآخَرُ: قدَّرنا له منازلَ، ثم حُذفت اللام، وكان حَذْفُها حسناً لتعدِّي الفعلِ إلى مفعولين، مثل: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

والمنازلُ ثمانيةٌ وعشرون منزلاً، ينزلُ القمرُ كلَّ ليلةٍ منها بمنزل، وهي: الشَّرَطان. البُطَيْن. الثُّريَّا. الدَّبَران. الهَقْعَة. الهَنْعة. الذِّراع. النَّثْرة. الطَّرْف. الجَبْهة. الخَرَاتانِ. الصَّرْفة. العَوَّاء. السِّمَاك. الغَفْر. الزُّبَانَيَان. الإِكْليل. القَلْب. الشَّوْلة. النَّعائم. البَلْدَة. سَعْدُ الذَّابحِ. سَعْدُ بُلَعَ. سَعْدُ السُّعود. سَعْدُ الأَخْبِية. الفَرْغُ المقدَّمُ. الفرغُ المؤخَّر. بطنُ الحوت[٤]. فإذا صار القمرُ في آخِرها عاد إلى أوَّلها، فيقطع الفَلَكَ في ثمانٍ وعشرين ليلةً. ثم يَسْتَسِرُّ، ثم يطلع هلالاً، فيعودُ في قطع الفَلَكِ على المنازل، وهي منقسمةٌ على البروج لكلِّ برجٍ منزلان وثلثٌ. فللحَمَلِ الشَّرَطانُ والبُطَينُ وثلث

(١) وهي قراءة عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي. السبعة ص٥٤٠، والتيسير ص١٨٤.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٤، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٨.

(٤) ذكرها المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ١/ ١٧٦ - ١٨٦، وابن رشيق في العمدة ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٧، وينظر شرحها فيهما.

الثريا، وللثور ثلثا الثريا والدَّبَران وثلثا الهَقْعة، ثم كذلك إلى سائرها. وقد مضى في «الحجر» تسميةُ البروج[1]، والحمد لله.

وقيل: إنَّ الله تعالى خَلَقَ الشمسَ والقمرَ من نارٍ، ثم كُسِيا النورَ عند الطلوع، فأمَّا نورُ الشمسِ فمِن نورِ العرش، وأمَّا نورُ القمرِ فمِن نورِ الكرسيِّ، فذلك أصلُ الخلقةِ وهذه الكِسوة. فأمَّا الشمسُ فتُرِكتْ كِسوتُها على حالها لتُشَعشِعَ وتُشْرِقَ، وأمَّا القمرُ فأمرَّ الروحُ الأمينُ جناحَه على وجهه فمحا ضوءَه بسلطانِ الجناح، وذلك أنَّه روحٌ، والروحُ سلطانُه غالِبٌ على الأشياء. فبقي ذلك المحوُ على ما يراه الخَلْقُ، ثم جُعِلَ في غلافٍ من ماء، ثم جُعِلَ له مَجْرىً، فكلّ ليلةٍ يبدو للخلق من ذلك الغلافِ قمراً بمقدارِ ما يُقْمِرُ لهم[2]، حتى ينتهيَ بدؤُه ويراه الخلقُ بكماله واستدارته. ثم لا يزال يعودُ إلى الغلاف كلَّ ليلةٍ شيءٌ منه، فينقصُ من الرؤية والإقمارِ بمقدارِ ما زاد في البدء. ويبتدئُ في النقصان من الناحية التي لا تراه الشمس، وهي ناحيةُ الغروب، حتى يعودَ كالعُرْجون القديم، وهو العِذقُ المتقوّسُ ليُبْسِه ودقَّتِه. وإنَّما قيل: القمر؛ لأنه يُقمِر، أي: يُبيِّضُ الجوَّ ببياضِه إلى أن يَسْتسِرَّ.

الثانية: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ قال الزجَّاج: هو عُودُ العِذْقِ الذي عليه الشَّمَاريخ، وهو فُعْلون من الانعراج، وهو الانعطافُ، أي: سار في مَنازِلِه، فإذا كان في آخِرها دقَّ واسْتَقْوسَ وضاق حتى صار كالعُرجون[3]. وعلى هذا فالنونُ زائدة.

وقال قتادة: هو العِذْقُ اليابسُ المُنْحني من النخلة[4].

ثعلب: «كالعُرْجونِ القديم» قال: العُرْجون: الذي يبقى من الكِباسة في النخلة إذا

(١) ١٢/ ١٨٦ .

(٢) كلام ظاهر البطلان.

(٣) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٨٧ ، والكشاف ٣/ ٣٢٣ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٤١ .

قُطِعتْ، و«القديم»: البالي[١].

الخليل ـ في بابِ الرباعيِّ ـ: العُرْجون أصلُ العِذْق، وهو أصفرُ عريضٌ يشبَّه به الهلالُ إذا انحنى[٢].

الجوهريُّ[٣]: العُرْجُون: أصلُ العِذْقِ الذي يَعْوَجُّ وتُقْطَعُ منه الشماريخُ، فيبقى على النخل يابساً، وعَرْجَنه: ضَرَبَه بالعُرْجون. فالنونُ على قولِ هؤلاء أصليةٌ، ومنه شعرُ أعشى بني قيس:

شَرَقَ المِسْكُ والعبيرُ بها فهي صفراءُ كعُرْجونِ القمر[٤]

فالعرجونُ إذا عَتقَ ويَبِس وتقوَّس شُبِّه القمرُ في دقَّته وصُفْرتِه به. ويقال له أيضاً: الإهان والكِباسةُ والقِنْو، وأهلُ مصر يسمُّونه الإسباطة.

وقرئ: «العِرْجَوْن» بوزن الفِرْجَون[٥]، وهما لغتان، كالبُزْيُون والبِزْيَوْن؛ ذكره الزمخشريُّ[٦] وقال: هو عودُ العِذْقِ ما بين شماريخِه إلى منبته من النخلة.

واعلم أن السَّنَة منقسمةٌ على أربعةِ فصولٍ، لكلِّ فصلٍ سبعةُ منازلَ: فأوَّلُها الربيعُ، وأولُه خمسةَ عشرَ يوماً من آذار، وعددُ أيامِه اثنان وتسعون يوماً، تقطعُ فيه

---

(١) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٤٢٢ . والكِباسة: العِذْق التام بشماريخه ورُطَبه. معجم متن اللغة (كبس).

(٢) بنحوه في العين ٢/ ٣٢٠ .

(٣) في الصحاح (عرجن).

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨ ، وليس هو في ديوان أعشى قيس، وهو في المفضليات ص٩٢ ، والعمدة لابن رشيق ٢/ ١١٨ منسوب للمرَّار بن منقذ، وبلا نسبة في العين ١/ ١٨٢ ، واللسان (عبق)، وروايته في هذه المصادر عدا النكت: عَبِقَ العنبرُ والمسكُ بها، وفي المفضليات والعمدة: ... كعرجون العمر.

(٥) الفِرجَوْن، كبِرْذَوْن: المِحَسَّة (آلة من حديد لها أسنان تنظف بها الدابة) القاموس والمعجم الوسيط (فرجن).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٢٣ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٢٥ . والبزيون؛ كجِرْدَحْل وعُصْفُور: السندس. القاموس (بزين).

الشمسُ ثلاثةَ بروجٍ: الحَمَل، والثور، والجَوْزاء، وسبعةَ منازِلَ: الشَّرَطان، والبُطَين، والثُّرَيَّا، والدَّبَران، والهَقْعة، والهَنْعة، والذِّراع. ثم يدخلُ فصلُ الصيف في خمسةَ عشر يوماً من حَزيران، وعددُ أيامِه اثنان وتسعون يوماً، تقطعُ الشمسُ فيه ثلاثةَ بروجٍ: السَّرَطان، والأسد، والسُّنْبلة، وسبعةَ منازِلَ؛ وهي: النَّثْرة، والطَّرْف، والجبهةُ، والخَرَاتان، والصَّرْفة، والعَوَّاء، والسِّمَاك. ثم يدخل فصلُ الخريفِ في خمسةَ عشرَ يوماً من أيلول، وعددُ أيامِه أحدٌ وتسعون يوماً، تقطعُ فيه الشمسُ ثلاثةَ بروج، وهي الميزان، والعقرب، والقوس، وسبعةَ منازِلَ: الغَفْر، والزُّبانان، والإكليل، والقلب، والشَّوْلة، والنعائم، والبلدة. ثم يدخل فصلُ الشتاء في خمسةَ عَشَر يوماً من كانون الأوّل، وعددُ أيامِه تسعون يوماً، وربَّما كان أحداً وتسعين يوماً، تقطعُ فيه الشمسُ ثلاثةَ بروجٍ؛ وهي: الجَدْي، والدَّلْو، والحوت، وسبعةَ منازِلَ: سعد الذَّابح، وسعد بُلَع، وسعد السُّعود، وسعد الأخبِية، والفَرْغ المقدَّم، والفرغ المؤخَّر، وبطن الحوت. وهذه قسمة السريانيين لشهورها: تشرين الأوّل، تشرين الثاني، كانون الأوّل، كانون الثاني، أشباط[1]، آذار، نيسان، أيار، حَزِيران، تَمُّوز، آب، أيلول، وكلُّها أحدٌ وثلاثون إلَّا تشرينَ الثاني ونيسانَ وحزِيرانَ وأيلول، فهي ثلاثون، وأشباط ثمانيةٌ وعشرون يوماً وربعُ يوم.

وإنَّما أردنا بهذا أن تنظر في قدرةِ الله تعالى، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾. فإذا كانت الشمسُ في منزلٍ أهلَّ الهلال بالمنزل الذي بعده، وكان الفجر بمنزلتين مِن قَبْلِه. فإذا كانت الشمسُ بالثريا في خمسةٍ وعشرين يوماً من نيسان، كان الفجرُ بالشَّرَطَيْن، وأهلَّ الهلالُ بالدَّبَران، ثم يكون له في كلِّ ليلةٍ منزلةٌ حتى يقطع في ثمانٍ وعشرين ليلةً ثمانياً وعشرين منزلةً، وقد قطعت الشمسُ منزلتين فيقطعُهما، ثم يَطْلعُ في المنزلةِ التي بعدَ منزلةِ الشمسِ ف ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2].

---

(١) وفي القاموس: شُباط، كغُراب.

(٢) من قوله: واعلم أن السنة منقسمة، إلى هذا الموضع وقع في (خ) و(ظ) قبل المسألة الثانية.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ قال الزمخشريُّ[١]: القديم: المُحْوِل[٢]، وإذا قَدُم؛ دَقَّ وانحنى واصفرَّ، فشُبِّه القمرُ به من ثلاثةِ أوجُهٍ. وقيل: أقلُّ عدَّةِ الموصوفِ بالقديم[٣] الحَوْلُ، فلو أنَّ رجلاً قال: كلُّ مملوكٍ لي قديمٍ فهو حرٌّ، أو كَتَبَ ذلك في وصيته، عتقَ مَن مَضَى له حولٌ أو أكثر.

قلت: قد مضى في «البقرة» ما يترتَّب على الأهِلَّة من الأحكام[٤]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ رُفعت «الشمس» بالابتداء، ولا يجوزُ أن تعمل «لا» في معرفة. وقد تكلَّم العلماءُ في معنى هذه الآية، فقال بعضهم: معناها أنَّ الشمس لا تُدْرِكُ القمرَ فتُبْطِل معناه[٥]، أي: لكلٍّ واحدٍ منهما سلطانٌ على حِياله، فلا يَدخُلُ أحدُهما على الآخَر فيُذهب سلطانه، إلى أن يُبْطِلَ الله ما دبَّر من ذلك، فتطلع الشمسُ من مَغْرِبها على ما تقدَّم في آخِر سورةِ الأنعام بيانُه[٦].

وقيل: إذا طلعت الشمسُ لم يكن للقمر ضوءٌ، وإذا طلع القمرُ لم يكن للشمس ضوءٌ. روي معناه عن ابن عباس والضحاك[٧].

وقال مجاهد: أي: لا يُشْبِه ضوءُ أحدِهما ضوءَ الآخَر[٨].

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٢٣.
(٢) من أحْوَلَ، يقال: أحْوَل بالمكان، أي: أقام به حَوْلاً. ينظر القاموس (حول).
(٣) في الكشاف: أقل مدة الموصوف بالقدم.
(٤) ٣/ ٢٢٨ وما بعدها.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٥.
(٦) ٩/ ١٢٧ وما بعدها.
(٧) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٤٠ عن الضحاك، ولم نقف عليه عن ابن عباس.
(٨) النكت والعيون ٥/ ١٨، وعلقه البخاري عنه قبل الحديث (٤٨٠٢) وفيه: لا يستر، بدل: لا يشبه، وكذا أخرجه الطبري ١٩/ ٤٣٩.

وقال قتادةُ: لكلٍّ حدٌّ وعَلَمٌ لا يَعْدُوه ولا يقصرُ دونه، إذا جاء سلطانُ هذا ذهب هذا[1].

وقال الحسن: إنَّهما لا يجتمعان في السماء ليلةَ الهلالِ خاصةً[2]. أي: لا تبقى الشمسُ حتى يَطْلُعَ القمر، ولكنْ إذا غَرَبت الشمسُ طلع القمر.

يحيى بن سلام: لا تُدْرِكُ الشمسُ القمرَ ليلةَ البدرِ خاصةً؛ لأنه يبادر بالمَغيبِ قبل طلوعها. وقيل: معناه: إذا اجتمعا في السماء كان أحدُهما بين يدي الآخَرِ في منازلَ لا يَشْتَرِكانِ فيها؛ قاله ابنُ عباس أيضاً[3].

وقيل: القمرُ في السماء الدنيا، والشمسُ في السماء الرابعة، فهي لا تُدركه؛ ذكره النحَّاس[4] والمَهْدَويُّ.

قال النحاس: وأَحْسَنُ ما قيل في معناها وأَبْيَنُه ممَّا لا يُدفَع: أنَّ سَيْرَ القمرِ سَيْرٌ سريع، والشمسُ[5] لا تُدْرِكُه في السَّيْر؛ ذكره المَهْدويُّ أيضاً.

فأمَّا قولُه سبحانه: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] فذلك حين حَبْسِ الشمسِ عن الطُّلوع، على ما تقدَّم بيانُه في آخِرِ «الأنعام»[6]، ويأتي في سورةِ القيامةِ أيضاً. وجَمْعُهما علامةٌ لانقضاءِ الدنيا وقيامِ الساعة.

﴿وَكُلٌّ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يَجْرون. وقيل: يَدُورون. ولم يَقُلْ: تَسْبَحُ؛ لأنه وَصَفَها بفِعْلِ مَن يَعْقِل.

وقال الحسن: الشمسُ والقمرُ والنجومُ في فَلَكٍ بين السماءِ والأرض غير

(١) في (م): ذهب سلطان هذا، والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٤٣٩ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٤٣ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٨ ، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٩/ ٤٤٠ بنحوه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٥ .

(٥) في إعراب القرآن: فالشمس.

(٦) ٩/ ١٢٩ .

مُلْصَقةٍ، ولو كانت مُلْصَقةً ما جَرَتْ؛ ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ[1].

واستدلَّ بعضُهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ على أنَّ النهار مخلوقٌ قبل الليل، وأنَّ الليل لم يَسْبِقْه بخَلْقٍ[2].

وقيل: كلُّ واحدٍ منهما يجيءُ وقتُه ولا يَسْبِقُ صاحبَه، إلى أنْ يُجمعَ بينَ الشمسِ والقمرِ يومَ القيامة، كما قال: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]، وإنَّما هذا التعاقُبُ الآنَ لتتمَّ مَصالحُ العِبَاد ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ﴾ [الإسراء: ١٢] ويكونَ الليلُ للإجمام والاستراحة، والنهارُ للتصرُّف، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩] أي: راحةً لأبدانِكم من عمل النهار. فقولُه: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: غالب النهار؛ يقال: سبق فلانٌ فلاناً، أي: غلبه.

وذكر المبرِّد قال: سمعت عمارةَ[3] يقرأ: «ولا الليلُ سابقُ النهارَ» فقلت: ما هذا؟ قال: أردتُ: سابقٌ النهارَ، فحذفتُ التنوين لأنه أَخفّ. قال النحاس[4]: يجوزُ أن يكون «النهار» منصوباً بغيرِ تنوينٍ، ويكون التنوينُ حُذِفَ لالتقاءِ الساكِنَيْن.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ يحتَمِلُ ثلاثةَ مَعَانٍ: أحدها: عِبرةٌ لهم؛ لأنَّ في الآياتِ اعتباراً. الثاني: نعمةٌ عليهم؛ لأنَّ في الآياتِ إنعاماً. الثالث: إنذارٌ لهم؛ لأنَّ

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٥ .

(٣) ابن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية اليربوعي، يكنى أبا عقيل، شاعر فصيح قدم من اليمامة فمدح المأمون، وبقي إلى أيام الواثق ومدحه. معجم الشعراء للمرزباني ص٧٨ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٥ - ٣٩٦ ، وما قبله منه.

في الآياتِ إنذاراً[1].

﴿أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّاتِهم[2] في الفُلْكِ المشحون﴾ مِن أَشْكَلِ ما في السورة؛ لأَنَّهم هم المحمولون[3]. فقيل: المعنى: وآيةٌ لأهلِ مكةَ أنَّا حملنا ذُرِّيَّةَ القرونِ الماضيةِ في الفُلْكِ المشحون، فالضميران مختلفان؛ ذكره المهدويُّ. وحكاه النحَّاس[4] عن عليّ ابن سليمان أنَّه سمعه يقولُه.

وقيل: الضَّميران جميعاً لأهلِ مكةَ، على أنْ يكون ذرِّياتهم أولادَهم وضعفاءَهم. فالفُلْكُ على القولِ الأولِ سفينةُ نوح. وعلى الثاني يكونُ اسماً للجنس؛ خبَّر جلَّ وعزَّ بلُطْفِه وامتنانه، وأنَّه خَلَق السفنَ يُحمَلُ فيها مَن يَصْعبُ عليه المشيُ والركوبُ من الذُّرِّيَّة والضعفاء، فيكونُ الضَّميران على هذا مُتَّفقَين.

وقيل: الذُّرِّيَّةُ: الآباءُ والأجداد، حَمَلَهم الله تعالى في سفينةِ نوحٍ عليه السلام. فالآباءُ ذُرِّيَّةٌ، والأبناءُ ذُرِّيَّةٌ، بدليلِ هذه الآيةِ؛ قاله أبو عثمان. وسمَّى الآباءَ ذُرِّيَّةً؛ لأنَّ منهم ذَرَأَ الأبناء[5].

وقولٌ رابعٌ: أنَّ الذُّرِّيَّةَ النُّطَفُ، حَمَلَها الله تعالى في بطون النساء تشبيهاً بالفُلْكِ المشحون؛ قاله عليّ بن أبي طالب ﷺ؛ ذكره الماورديُّ[6]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُ الذُّرِّيَّةِ والكلامُ فيها مُسْتَوفىً[7]. و«المَشْحُون»: المملوءُ المُوْقَر، و«الفُلْكُ» يكون واحداً وجمعاً. وقد تقدَّم في «يونس» القولُ فيه[8].

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩ .

(٢) بالجمع، قراءة نافع وابن عامر من السبعة، وقرأ الباقون: «ذريتهم» بالتوحيد. السبعة ص٥٤٠ ، والتيسير ص١٨٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٦ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩ ، وفيه: أبان بن عثمان، بدل: أبو عثمان.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ١٩ . وقال أبو حيان في البحر ٧/ ٣٣٨: وهذا لا يصح؛ لأنه نوعٌ من تفسير الباطنية وغلاة المتصوفة الذين يفسرون كتاب الله على شيءٍ لا يَدلُّ عليه اللفظ بجهة من جهات الدلالة، يحرِّفون الكلم عن مواضعه.

(٧) ٢/ ٣٦٨ .

(٨) ١٠/ ٤٧٤ ، وينظر في الكلام فيه أيضاً ٢/ ٤٩٤ .

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ والأصلُ: يركبونه، فحذفت الهاءُ لطولِ الاسم وأنَّه رأسُ آيةٍ. وفي معناه ثلاثةُ أقوالٍ:

مذهبُ مجاهدٍ وقتادةَ وجماعةٍ من أهل التفسير، وروي عن ابن عباس: أنَّ معنى «مِن مِثْلِه» للإبل[١]، خلَقها لهم للركوب في البرِّ مثل السفن المركوبةِ في البحر، والعرب تشبِّه الإبلَ بالسفن؛ قال طَرَفةُ:

كأنَّ حُدُوجَ المالكيَّةِ غُدوةً خلايا سَفِينٍ بالنَّواصِفِ مِن دَدِ[٢]

جمعُ خَلِيَّة، وهي السفينةُ العظيمة.

والقولُ الثاني أنه للإبل والدوابِّ وكلِّ ما يُرْكَب.

والقولُ الثالث: أنه للسفن؛ النحاس: وهو أصحُّها؛ لأنَّه متَّصلُ الإسنادِ عن ابن عباس؛ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال: خَلَق لهم سفناً أمثالَها يركبون فيها[٣].

وقال أبو مالك: إنَّها السفنُ الصغارُ خَلَقها مثلَ السفنِ الكبار. ورُوي عن ابن عباس أيضاً والحسن[٤]. وقال الضحاك وغيره: هي السفنُ المتَّخذةُ بعد سفينةِ نوحٍ[٥].

قال الماوَرْديُّ: ويَجيءُ على مقتضَى تأويلِ عليٍّ ﷺ في أنَّ الذّرّيّةَ في الفُلْكِ المشحونِ هي النُّطَفُ في بطونِ النساءِ قولٌ خامسٌ في قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أنْ يكون تأويلُه: النساءُ خُلِقْنَ لركوبِ الأزواجِ، لكنْ لمْ أَرَه مَحْكيًّا[٦]!

قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ أي: في البحر، فتَرجِعُ الكنايةُ إلى أصحاب

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٦ ، دون قوله: وروي عن ابن عباس. وأخرجه عن ابن عباس ومجاهد الطبري ١٩/٤٤٦ .

(٢) ديوان طرفة ص٢٠ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٠ ، والكلام منه. الحُدوج جمع حِدْج، وهو مَرْكَب من مراكب النساء. والمالكيَّة منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة. والنواصف جمع ناصفة، وهي الرحبة الواسعة تكون في الوادي. ودد: موضع. اللسان (ددا).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٦ . والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٤٤٤ .

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٤٤ عن أبي مالك والحسن.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/٤٤٥ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٠، وسلف الكلام على خبر علي ﷺ في تفسير الآية السابقة، وأنه من تحريف الكلم عن مواضعه.

الذُّرِّيَّةِ، أو إلى الجميع. وهذا يدلُّ على صحَّة قولِ ابن عباس ومَن قال: إنَّ المرادَ «مِن مِثْلِه» السفنُ لا الإبل.

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: لا مُغيثَ لهم، رواه سعيدٌ عن قتادةَ. ورَوَى شيبان عنه: فلا مَنَعةَ لهم(١). ومعناهما مُتقاربان. و«صَرِيخ» بمعنى مُصرِخ، فعيلٌ بمعنى فاعل.

ويجوزُ: «فلا صَريخٌ لهم»(٢)؛ لأنَّ بعدَه ما لا يَجوزُ فيه إلَّا الرفعُ؛ لأنَّه معرفةٌ وهو ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾، والنحويون يختارون: لا رجلٌ في الدارِ ولا زيدٌ. ومعنى: «يُنْقَذُونَ»: يُخلَّصون من الغَرَق. وقيل: من العذاب.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ قال الكسائيُّ: هو نصبٌ على الاستثناء. وقال الزجَّاج: نُصِبَ [لأنه] مفعولٌ من أجله، أي: للرحمة، ﴿وَمَتَٰعًا﴾ معطوفٌ عليه(٣).

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: إلى الموت؛ قاله قتادة. يحيى بن سلام: إلى القيامة(٤)، أي: إلَّا أنْ نَرْحَمَهم ونمتِّعهم إلى آجالهم، وأنَّ الله عجَّل عذابَ الأممِ السالفة، وأخَّر عذابَ أمَّةِ محمدٍ ﷺ ـ وإن كذَّبوه ـ إلى الموت والقيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال قتادةُ: يعني «اتَّقوا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠، وأخرج الأول عبد الرزاق ٢/ ١٤٤، والطبري ١٩/ ٤٤٧.

(٢) وقد قرئ بها كما ذكر العكبري في الإملاء ٤/ ٢٢٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٧، وما سلف بن حاصرتين منه، وقول الزجاج في معاني القرآن٤/ ٢٨٩.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٠، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٤٤٧.

ما بين أيديكم» أي: من الوقائع فيمَن كان قَبْلَكم من الأمم، «وما خَلْفَكم» من الآخرة[١].

ابن عباس وابن جُبير ومجاهد: «ما بين أيديكم»: ما مضى من الذُّنوب، «وما خَلْفَكم»: ما يأتي من الذُّنوب[٢].

الحسن: «ما بين أيديكم»: ما مضى من أجَلِكُمْ، «وما خَلْفَكم»: ما بقيَ منه.

وقيل: «ما بين أيديكم»: من الدنيا، «وما خَلْفَكم»: من عذاب الآخرة؛ قاله سفيان[٣]. وحَكَى عَكْسَ هذا القولِ الثعلبيُّ عن ابن عباس. قال: «ما بين أيديكم»: من أمر الآخرة فاعملوا لها[٤]، «وما خَلْفَكم»: من أمرِ الدنيا فاحذروها ولا تغترُّوا بها.

وقيل: «ما بين أيديكم»: ما ظَهَر لكم، «وَمَا خَلْفَكُمْ»: ما خفيَ عنكم.

والجوابُ محذوفٌ، والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أَعْرَضوا، دليلُه قولُه بعدُ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: تَصَدَّقوا على الفقراء. قال الحسن: يعني اليهودَ، أُمِروا بإطعامِ الفقراء[٥].

وقيل: هم المشركون قال لهم فقراءُ أصحابِ النبيِّ ﷺ: أَعْطُونا ما زعمتُم من أموالكم أنَّها لله، وذلك قولُه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]. فَحرَموهم وقالوا: لو شاء الله أَطْعَمَكم ـ استهزاءً ـ فلا نُطْعِمُكم حتى تَرْجِعوا إلى ديننا. قالوا: ﴿أَنُطْعِمُ﴾ أي: أنرزقُ ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾، كان بَلَغهم

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٤٤، والطبري ١٩/ ٤٤٨.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٤٨ عن مجاهد، ولم نقف عليه عن ابن عباس وابن جبير.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢١.

(٤) في النسخ: من أمر الآخرة وما عملوا لها، والمثبت من الوسيط ٣/ ٥١٥، وتفسير البغوي ٤/ ١٤.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢١.

من قولِ المسلمين: أنَّ الرازق هو الله. فقالوا هزءاً: أنرزقُ مَن لو يشاءُ الله أغناه؟![1]

وعن ابن عباس: كان بمكةَ زنادقةٌ، فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا واللهِ، أَيُفْقِرُه اللهُ ونُطْعمُه نحن! وكانوا يسمعون المؤمنين يعلِّقون أفعالَ اللهِ تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأَغْنَى فلاناً، ولو شاء اللهُ لأعزَّه[2]، ولو شاء اللهُ لكان كذا. فأَخْرَجوا هذا الجوابَ مُخرَجَ الاستهزاءِ بالمؤمنين، وبما كانوا يقولونه من تعليقِ الأمورِ بمشيئةِ اللهِ تعالى.

وقيل: قالوا هذا تعلُّقاً بقولِ المؤمنين لهم: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: فإذا كان الله رَزَقَنا فهو قادرٌ على أن يرزقكم، فَلِمَ تلتمسون الرزقَ منَّا؟. وكان هذا الاحتجاجُ باطلاً؛ لأنَّ الله تعالى إذا ملَّك عبداً مالاً ثم أَوْجَبَ عليه فيه حقّاً؛ فكأنه انتزع ذلك القَدْرَ منه، فلا معنى للاعتراض. وقد صَدَقوا في قولهم: لو شاء الله أطعمهم، ولكنْ كَذَبوا في الاحتجاج. ومثلُه قولُه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقولُه: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قيل: هو من قولِ الكفارِ للمؤمنين، أي: في سؤالِ المالِ وفي اتِّباعكم محمداً. قال معناه مقاتلٌ وغيره. وقيل: هو من قولِ أصحاب النبيِّ ﷺ لهم. وقيل: هو من قولِ اللهِ تعالى للكفار حين ردُّوا بهذا الجواب.

وقيل: إنَّ أبا بكر الصدِّيقَ ﵁ كان يطعم مساكينَ المسلمين، فلقيه أبو جهلٍ فقال: يا أبا بكر، أتزعمُ أنَّ الله قادرٌ على إطعامِ هؤلاء؟! قال: نعم. قال: فما بالُه لم يُطْعِمْهم؟ قال: ابتَلى قوماً بالفقر، وقوماً بالغنى، وأمر الفقراءَ بالصبر، وأمر

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٢٥ إلى قوله: لو شاء الله أطعمكم. وذكره بنحوه البغوي ٤/ ١٤، وابن الجوزي ٧/ ٢٤ وعزاه لمقاتل.

(٢) في النسخ: لأعزَّ، والمثبت من الكشاف ٣/ ٣٢٥، والكلام منه.

الأغنياءَ بالإعطاء. فقال: واللهِ يا أبا بكر ما أنتَ إلَّا في ضلال! أتزعُم أنَّ الله قادرٌ على إطعامِ هؤلاء وهو لا يطعمُهم، ثم تطعمهم أنت؟! فنزلت هذه الآية، ونزل قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ الآيات [الليل: ٥-٦][١]. وقيل: نزلت الآيةُ في قومٍ من الزنادقة، وقد كان فيهم أقوامٌ يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع، واستهزؤوا بالمسلمين بهذا القول؛ ذكره القُشيريُّ والماوَرْديّ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ لمَّا قيل لهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ وكان هذا استهزاءً منهم أيضاً، أي: لا تحقيقَ لهذا الوعيدِ، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظِرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي نفخةُ إسرافيلَ ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: يَخْتَصِمون في أمورِ دنياهم، فيموتون في مكانهم؛ وهذه نفخةُ الصَّعْق.

وفي «يَخِصِّمُون» خمسُ قراءاتٍ: قرأ أبو عمرو وابنُ كثير: ﴿وهم يَخَصِّمُونَ﴾ بفتحِ الياءِ والخاءِ وتشديدِ الصَّاد. وكذا رَوَى وَرْشٌ عن نافع[٣]. فأمَّا أصحابُ القراءاتِ وأصحابُ نافعٍ سوى ورشٍ فرَوَوْا عنه: «يَخْصِّمُونَ» بإسكان الخاء وتشديدِ الصاد على الجمع بين ساكنين.

وقرأ يحيى بن وثَّابٍ والأعمشُ وحمزةُ: ﴿وهم يَخْصِمُونَ﴾ بإسكان الخاءِ وتخفيفِ الصَّاد؛ من خَصَمَه.

وقرأ عاصمٌ والكسائيُّ: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بكَسْرِ الخاءِ وتشديدِ الصاد[٤]،

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢١ .

(٣) وهي قراءة هشام أيضاً. غير أن أبا عمرو كان يختلس فتحة الخاء. السبعة ص٥٤١ ، والتيسير ص١٨٤ . والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٧ .

(٤) وقرأ بها أيضاً من السبعة ابن عامر في رواية ابن ذكوان. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٧ .

ومعناه: يخصِمُ بعضُهم بعضاً. وقيل: تأخذُهم وهم عند أنفسِهم يَخْتَصِمون في الحجة أنَّهم لا يُبعثون.

وقد روى ابنُ جُبيرٍ عن أبي بكر عن عاصم، وحمادٌ عن عاصمٍ كَسْرَ الياءِ والخاءِ والتشديد(١).

قال النحاس: القراءةُ الأُولى أَبْيَنُها. والأصلُ فيها: يَخْتَصِمون، فأُدْغمت التاءُ في الصاد، فقُلبتْ حركتُها على الخاء(٢)، وفي حَرْفِ أُبيٍّ: «وهم يَخْتَصمون». وإسكانُ الخاءِ لا يجوزُ؛ لأنه جمعٌ بين ساكنين وليس أحدُهما حرف مدٍّ ولِيْن(٣). وقيل: أسْكَنوا الخاءَ على أصلها.

[فأمَّا مَن قرأ: «يَخْصِمون» فالتقدير:] يَخْصِم(٤) بعضُهم بعضاً، فحذف المضاف(٥)، وجاز أن يكون المعنى: يَخْصِمون مُجادِلَهم عند أنفُسِهم فحذف المفعول. قال الثعلبيُّ: وهي قراءةُ أبيّ بنِ كعب.

قال النحَّاس(٦): فأمَّا «يَخِصِّمُون» فالأصلُ فيه أيضاً: يختصمون، فأُدغمت التاءُ في الصاد، ثم كُسِرت الخاءُ لالتقاءِ الساكنين. وزعم الفرَّاء(٧) أنَّ هذه القراءةَ أَجْوَدُ وأكثر؛ فتَرَكَ ما هو أَوْلَى ـ من إلقاءِ حركةِ التاءِ على الخاء ـ واجْتَلَبَ لها حركةً

(١) جامع البيان للداني ٢/ ٣٦٦. والمشهور عن عاصم فتح الياء كما سلف. وابن جبير هو أحمد بن جبير ابن محمد، أبو جعفر الكوفي المقرئ.

(٢) في (م): فنقلت حركتها إلى الخاء.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٧ . وقراءة أبيٍّ ﷺ ذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٧٩ .

(٤) قبلها في النسخ: والمعنى، والمثبت من الحجة للفارسي ٦/ ٤٢ .

(٥) قال مكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢١٧ : حذفَ المضاف، وهو «بعض» الأول، وقام الضمير المخفوض مقام «بعض» في الإعراب، فصار ضميراً مرفوعاً، فاستتر في الفعل؛ لأن المضمر المرفوع لا ينفصل بعد الفعل، لا تقول: اختصم هم.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٨ .

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٣٧٩ .

أخرى، وجَمَع بين ياءٍ وكسرة، وزعم أنه أجودُ وأكثر. وكيف يكونُ أكثرَ وبالفتح قراءةُ الخَلْقِ من أهل مكةَ وأهلِ البصرةِ وأهلِ المدينة!

وما رُوي عن عاصمٍ من كسرِ الياءِ والخاءِ فللإتْباع. وقد مضى هذا في «البقرة» في ﴿يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الآية: ٢٠] وفي «يونس» في ﴿يَهِدِّيَ﴾ [الآية: ٣٥].

وقال عِكرمةُ في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قال: هي النفخةُ الأولى في الصُّور. وقال أبو هريرةَ: يُنفخُ في الصُّور والناسُ في أسواقهم؛ فمِن حالبٍ لَقْحةً، ومن ذارعٍ ثوباً، ومن مارٍّ في حاجة[١].

وروى نُعيمٌ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «تقومُ الساعةُ والرجلان قد نَشَرا ثوبهما يتبايعانِه، فلا يَطْوِيانِه حتى تقومَ الساعة، والرجلُ يَلِيطُ حوضَه لِيَسْقيَ ماشيته، فما يسقيها حتى تقومَ الساعةُ، والرجلُ يخفِضُ ميزانه فما يرفعُه حتى تقوم الساعة، والرجلُ يرفع أُكْلَته إلى فيه، فما يَبْتَلعها[٢] حتى تقومَ الساعة»[٣].

وفي حديث عبد الله بن عمرو: «وأولُ مَن يسمعُه رجلٌ يَلُوطُ حوضَ إبله ـ قال ـ فيَصْعَقُ ويَصْعَقُ الناس» الحديث[٤].

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: لا يستطيعُ بعضُهم أنْ يوصيَ بعضاً لِمَا في يده من حقٍّ[٥]. وقيل: لا يستطيعُ أن يوصيَ بعضُهم بعضاً بالتوبة والإقلاع، بل يموتون في أسواقهم ومَواضِعِهم.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٨ .

(٢) في(خ): يبلعها، وفي (م): يتبلعها.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٨٨٢٤)، والبخاري (٦٥٠٦)، ومسلم (٢٩٥٤) من طريق الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. وأخرجه بنحوه أيضاً الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٨٣) من طريق نعيم بن عبد الله عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. قوله: يليط حوضه ـ وفي رواية: يلوط ـ أي: يطينه ويصلحه. النهاية (لوط).

(٤) أخرجه أحمد (٦٥٥٥)، ومسلم (٢٩٤٠)، وسلف ٨/ ٤٣٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢ .

﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ إذا ماتوا. وقيل: إنَّ معنى «ولا إلى أهلهم يَرْجِعون»: لا يَرْجعون إليهم قولاً. وقال قتادة: «ولا إلى أهلهم يَرْجِعون» أي: إلى منازلهم؛ لأنَّهم قد أُعْجِلوا عن ذلك[١].

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هذه النفخةُ الثانيةُ للنَّشْأة. وقد بيَّنَّا في سورة النملِ أنَّهما نفختان لا ثلاثٌ[٢] وهذه الآيةُ دالَّةٌ على ذلك. وروى المباركُ بنُ فَضالة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «بين النَّفْخَتين أربعون سنةً: الأُولى يُميتُ الله بها كلَّ حيٍّ، والأُخرى يُحيي اللهُ بها كلَّ ميِّتٍ»[٣].

وقال قتادةُ: الصُّورُ جمعُ صُورَة، أي: نُفخ في الصُّوَر الأرواحُ[٤]. وصُورَةٌ وصُورٌ مثلُ سُورةِ البناءِ وسُوْر؛ قال العَجَّاج:

ورُبَّ ذي سُرَادِقٍ مَحْجُورِ سُرْتُ إليهِ في أعالي السُّورِ[٥]

وقد رُوي عن ابن هرمز أنه قرأ: «ونُفِخَ في الصُّوَرِ»؛ النحاس[٦]: والصحيحُ أنَّ

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٤٥٤ دون قوله: أي إلى منازلهم.

(٢) عند تفسير الآية (٨٧) منها.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣ ، وسلف عند تفسير الآية (٨٧) من سورة النمل.

(٤) في (م): والأرواح.

(٥) ديوان العجاج ص٢٢٩ - ٢٣٠، والكتاب ٤/ ٥١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٩ ، والكلام منه. قوله: سُرْت، أي: وثبت. شرح الشواهد للشنتمري ص٥٤٩ ،

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٩ ، وما قبله منه، ووقع في النسخ: أبي هريرة، بدل: ابن هرمز، وهو تصحيف، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٧ ، والبحر ٧/ ٣٤١ . والقراءة في المحتسب ٢/ ٢١٢ عن قتادة.

«الصُّوْر» بإسكان الواو: القَرْن، جاء بذلك التوقيفُ عن رسولِ الله ﷺ، وذلك معروفٌ في كلامِ العرب، أَنشد أهلُ اللغة:

نحنُ نَطَحْناهم غَداةَ الغُورَيْن بالضَّابِحاتِ في غُبَارِ النَّقْعَيْن
نَطْحاً شديداً لا كَنَطْحِ الصُّورَيْن

وقد مضى هذا في «الأنعام» مستوفىً[(١)].

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور. وقرئ بالفاء: «مِن الأَجْدافِ» ذكره الزمخشريُّ[(٢)]. يقال: جَدَثٌ وَجَدَفٌ. واللغةُ الفصيحةُ: جَدَثٌ؛ بالثاء، والجمعُ أَجْدُثٌ وأجداث؛ قال المتنخِّلُ الهُذَليُّ:

عَرفتُ بأَجْدُثٍ فَنِعَافِ عِرْقٍ عَلاماتٍ كتَحبِيرِ النِّمَاطِ[(٣)]

واجْتَدَثَ: أي: اتَّخذ جَدَثاً.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي: يخرجون؛ قاله ابنُ عباس وقتادة[(٤)]. ومنه قولُ امرئ القيس:

فَسُلِّي ثِيابي من ثيابِك تَنْسِلِ[(٥)]

ومنه قيل للولد: نَسْل؛ لأنَّه يخرج من بطنِ أمِّه.

---

(١) ٨/ ٤٣٠ وما بعدها، وسلف ثَمَّة البيت الأول والثالث، والأول برواية: الجمعين، بدل: الغورين، والأبيات الثلاثة في أمالي القالي ١/ ٣٦ . قوله: بالضابحات، من ضبحت الخيل: إذا عَدَت. اللسان (ضبح).

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٢٥ .

(٣) ديوان الهذليين ٢/ ١٨ ، والصحاح (جدث)، والكلام منه. قال شارح الديوان: أجدث ونِعاف عِرقٍ: هي مواضع، كتحبير: كتنقيش. والنماط جمع نمط. اهـ وفي القاموس (نمط): النمط: ضربٌ من البُسُط.

(٤) أخرج قولهما الطبري ١٩/ ٤٥٥ - ٤٥٦ .

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٣ ، وسلف ١٤/ ٢٨٧ . وصدره: وإن كنت قد ساءتك مني خليقة.

وقيل: يُسرعون. والنَّسَلان والعَسَلان: الإسراعُ في السَّيْر، ومنه مِشْيةُ الذئب؛ قال:

عَسَلانَ الذِّئبِ أَمْسَى قَارِباً بَرَدَ الليلُ عليه فَنَسَلْ[(١)]

يقال: عَسَل الذئبُ ونَسَل، يَعْسل ويَنْسِل، من باب ضَرَبَ يَضْرِب. ويقال: يَنسُل بالضم أيضاً. وهو الإسراع في المشي، فالمعنى: يخرجون مسرعين. وفي التنزيل: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨]، وقال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]، وفي «سَأَلَ سائلٌ»: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [الآية:٤٣] أي: يُسْرعون. وفي الخبر: شَكَوْنا إلى النبيِّ ﷺ الضعفَ فقال: «عليكم بالنَّسْل»[(٢)] أي: بالإسراع في المشي، فإنَّه ينشِّط.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا﴾ قال ابن الأنباريّ[(٣)]: «يا ويلنا» وقفٌ حسنٌ، ثم تَبتدئُ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾. وروي عن بعضِ القراء: «يا ويلنا مِن بَعْثِنا» بكسر مِن والثاء من البعث، رُوي ذلك عن عليٍّ ﷺ، فعلى هذا المذهبِ لا يَحْسُنُ الوقفُ على قوله: «يا ويلنا»، حتى يقول: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾، وفي قراءةِ أبيّ بنِ كعب: «مَنْ أَهَبَّنا»[(٤)] بالوصلِ[(٥)] «مِن مَرْقَدِنا»، فهذا دليلٌ على صحةِ مذهبِ العامَّة.

---

(١) البيت للبيد أو للنابغة الجعدي، وقد سلف ١٤/ ٢٨٧ . قوله: قارباً؛ القارب هو طالب الماء ليلاً. اللسان (قرب).

(٢) غريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ٤٠٥ ، والنهاية ٥/ ٥٠ ، وأخرجه بنحوه ابن قتيبة في غريب الحديث ١/ ٢٢١ من طريق ابن عيينة عن رجل: أن النبي ﷺ مر بأصحابه وهم يمشون، فشكوا إليه الإعياء، فأمرهم أن ينسلوا، وإسناده ضعيف.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٤ .

(٤) في (ظ): أبعثنا، وفي (م): هبنا، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إيضاح الوقف والابتداء، إلا أن ابن الأنباري نسبها لابن مسعود ﷺ. وذكر ابن جني في المحتسب ٢/ ٢١٤ عن أبيٍّ أنه قرأ: «هبَّنا»، وعن ابن مسعود أنه قرأ: «أهبَّنا».

(٥) قوله: بالوصل، ليس في (خ) و(ز) ولا في إيضاح الوقف والابتداء (والكلام منه). وسيذكر المصنف عن ابن الأنباري لاحقاً أنها بالوصل.

قال المهدويُّ: قرأ ابنُ أبي ليلى: «قالوا يا وَيْلَتَنا» بزيادةِ تاءٍ[١]، وهو تأنيثُ الويل، ومثلُه: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ [هود: ٧٢].

وقرأ عليٌّ ﷺ: « يا وَيْلَنا مِن بَعْثِنا» فـ«مِن» متعلِّقةٌ بالويل، أو حالٌ من «ويلنا» فتتعلَّق بمحذوف، كأنه قال: يا ويلنا كائناً مِن بَعْثِنا، وكما يجوزُ أن يكون خبراً عنه كذلك يجوزُ أن يكون حالاً منه. و«مِن» من قوله: «مِنْ مَرْقَدِنَا» متعلِّقةٌ بنفس البعث[٢].

ثم قيل: كيف قالوا هذا وَهُم من المعذَّبين في قبورهم؟ فالجوابُ: أنَّ أُبيّ بن كعب قال: ينامون نومة[٣]. وفي روايةٍ فيقولون: يا ويلنا من هَبَّنا[٤] من مرقدنا.

قال أبو بكر الأنباريُّ: لا يُحمَلُ هذا الحديثُ على أنَّ «هبَّنا» من لَفْظِ القرآن كما قاله مَن طَعَنَ في القرآن، ولكنه تفسيرُ «بَعَثَنا» أو مُعبِّرٌ عن بعضِ مَعَانيه.

قال أبو بكر: وكذا حَفِظْتهُ: «مَنْ هَبَّنا» بغيرِ ألفٍ في «هبَّنا» مع تَسْكينِ نونِ «مَن»، والصوابُ فيه على طريق اللغة: «مَنَ اهبَّنَا» بفتحِ النون على أنَّ فتحةَ همزةِ أهبَّ أُلقِيتْ على نونِ «مَن» وأُسقطت الهمزة، كما قالت العرب: مَنَ اخْبَرَكَ، مَنَ اعْلَمك؟ وهم يريدون: مَنْ أخبرك. ويقال: أهْببتُ النائم فهبَّ النائمُ. أنشدنا أحمد بن يحيى النحوي:

وعَاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومُني ... ولم يَغتمِزْني قبل ذاكَ عَذُولُ[٥]

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٥ . وذكر ابن جني عن ابن أبي ليلى: «يا ويلتا» بالتاء بعدها ألف. وذكر أبو حيان في البحر ٧/ ٣٤١ القراءتين عن ابن أبي ليلى، وقال في الثانية: ومعنى هذه القراءة أن كل واحد منهم يقول: يا ويلتا.

(٢) المحتسب ٢/ ٢١٣ . وقراءة علي ﷺ ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٥ وقد سلفت قريباً.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٠ . وأخرج قول أبيٍّ ﷺ الطبري ١٩/ ٤٥٦ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٨ : وهذا غير صحيح الإسناد.

(٤) في (د) و(م): أهبنا.

(٥) الأمالي للقالي ١/ ٣٨ ، وزهر الآداب للحصري القيرواني ١/ ٣٥٦ . وأحمد بن يحيى هو ثعلب. قال =

وقال أبو صالح: إذا نُفِخَ النفخةُ الأُولى رُفِعَ العذابُ عن أهل القبور وهجعوا هجعةً إلى النفخة الثانية، وبينهما أربعون سنةً؛ فذلك قولُهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۗ﴾(١). وقاله ابنُ عباس وقتادة(٢).

وقال أهلُ المعاني: إنَّ الكفار إذا عايَنوا جهنَّمَ وما فيها من أنواع العذابِ صار ما عُذِّبوا به في قبورهم إلى جنبِ عذابها كالنوم(٣).

قال مجاهد: فقال لهم المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. وقال قتادةُ: فقال لهم مَن هَدَى الله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وقال الفرَّاء: فقال لهم الملائكة: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. النحَّاس(٤): وهذه الأقوالُ متَّفِقةٌ؛ لأنَّ الملائكةَ من المؤمنين وممَّن هَدَى الله عزَّ وجلَّ. وعلى هذا يُتأوَّلُ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧] وكذا الحديث: «المؤمنُ عندَ اللهِ خيرٌ من كلِّ ما خلقَ»(٥). ويجوزُ أن يكون الملائكةُ صلى الله عليهم وغيرُهم من المؤمنين قالوا لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

وقيل: إنَّ الكفَّارَ لمَّا قال بعضُهم لبعضٍ: «مَن بَعَثَنا مِن مَرْقَدِنا» صدَّقوا الرسلَ لمَّا عاينوا ما أخبروهم به، ثم قالوا: «هذا ما وَعَدَ الرحمنُ وصَدَقَ المُرْسَلون» فكذَّبْنا به. أقرُّوا حين لم ينفعهم الإقرار.

= البكري في سمط اللآلي شرح أمالي القالي: هذا الشعر لبعض بني فزارة، والاغتماز: الاستضعاف.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٠ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٥ ، وأخرجه عن قتادة الطبري ١٩/ ٤٥٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٥ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٠ ، وما قبله منه، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٨٠ .

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ عند غير النحاس، وأخرج ابن ماجه (٣٩٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض ملائكته». قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٨٨ : هذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن سفيان.

وكان حفصٌ يقف على «مِن مَرْقَدِنا» ثم يبتدئُ فيقول: «هذا»[١]. قال أبو بكر بن الأنباريّ[٢]: «مَن بَعَثَنا مِن مَرْقَدِنا» وقفٌ حَسَنٌ، ثم تَبتدئُ: «هذا ما وَعَدَ الرحمنُ». ويجوزُ أن تقف على: «مرقدِنا هذا» فتخفضُ «هذا» على الإتْباعِ للمرقد، وتَبْتدئُ: «ما وَعَدَ الرحمنُ» على معنى: بَعْثُكم ما وعد الرحمن، أي: بَعْثُكم وعدُ الرحمن.

النحاس[٣]: التمامُ على «مِن مَرْقَدِنا»، و«هذا» في موضعِ رفعٍ بالابتداء وخبرُه «ما وَعَدَ الرحمنُ». ويجوزُ أن يكون في موضعِ خفضٍ على النعت لـ «مَرقَدِنا»، فيكونُ التمامُ «مِن مَرْقَدِنا هذا» [ويكون] «مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ» في موضعِ رفعٍ من ثلاثِ جهاتٍ، ذكر أبو إسحاقَ منها اثنتين قال: يكون بإضمارِ هذا. والجهةُ الثانية أن يكون بمعنى: حقّ ما وَعَد الرحمن[٤]. والجهةُ الثالثة أنْ يكون بمعنى: بَعْثُكم ما وعد الرحمن.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: إنَّ بعثهم وإحياءَهم كان بصيحةٍ واحدةٍ، وهي قولُ إسرافيلَ: أيتها العظام الباليةُ، والأوصالُ المتقطّعةُ، والعظام المتفرّقة، والشعورُ المتمزّقةُ، إنَّ الله يأمركنَّ أن تجتمعنَ لفَصْلِ القضاء[٥]. وهذا معنى قولِه الحقّ: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، وقال: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] على ما يأتي. وفي قراءةِ ابن مسعودٍ ـ إن صح عنه ـ: «إنْ كانت إلَّا زَقْيَةً واحدةً»، والزقيةُ: الصيحةُ، وقد تقدَّم هذا[٦].

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ «فإذَا هم جميع» مبتدأٌ وخبرُه، «جَمِيعٌ» نكرةٌ،

---

(١) ذكر الداني في التيسير ص١٤٢ عن حفص أنه كان يسكت مع مراد الوصل على الألف في قوله تعالى: «من مرقدنا»، ثم يقول: «هذا».

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٤.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٠، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) بعدها في النسخ: بعثكم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٩١.

(٥) أخرجه بنحوه الطبري ٢١/ ٤٧٥ عن كعب الأحبار.

(٦) ص٢١ من هذا الجزء.

و«مُحْضَرُون» من صفته(١). ومعنى «مُحْضَرُونَ»: مَجموعون أُحضروا موقفَ الحساب، وهو كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تُنْقَصُ من ثوابِ عَمَلٍ. ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «مَا» في محلِّ نَصْبٍ من وجهين: الأولُ انه مفعولٌ ثانٍ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه. والثاني بنَزْعِ حرفِ الصفة، تقديرُه: إلَّا بما كنتم تعملون، أي: تعملونه، فحذف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وقتادةُ ومجاهدٌ: شَغَلَهم افتِضاضُ العَذَارَى(٢). وذكر الترمذيُّ الحكيمُ في كتاب «مشكل القرآن» له: حدَّثنا محمد بن حميد الرَّازي حدَّثنا يعقوبُ القُمِّي، عن حفص ابن حميد، عن شمر بن عطية، عن شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ قال: شَغَلهم افْتِضاضُ العَذَارَى(٣). حدَّثنا محمد بن حميد، حدَّثنا هارون بن المغيرة، عن نهشل، عن الضحاك، عن ابن عباس بمثله(٤).

وقال أبو قِلَابَةَ: بينما الرجلُ من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له: تَحوَّلْ إلى أهلك، فيقول: أنا مع أهلي مشغولٌ! فيقال: تحوَّلْ أيضاً إلى أهلك. وقيل: أصحابُ الجنةِ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠١ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٤ ، وزاد المسير ٧/ ٢٧ .

(٣) أخرجه بهذا الإسناد الطبري ١٩/ ٤٦٠ .

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٦٠ من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

في شغلٍ بما هم فيه من اللَّذَّاتِ والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرِهم إلى النار، وما هم فيه من أليمِ العذاب، وإنْ كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم(١)؛ قاله سعيد ابن المسيِّب وغيرُه.

وقال وكيع: يعني في السماع. وقال ابن كيسان: «في شُغُلٍ» أي: في زيارةِ بعضِهم بعضاً. وقيل: في ضيافة الله تعالى(٢).

وروي: أنه إذا كان يومُ القيامة نادى مُنادٍ: أين عبادي الذين أطاعوني وحَفِظوا عهدي بالغيب؟ فيقومون كأنَّما وجوهُهم البدرُ والكوكبُ الدُّرِّيُّ، ركباناً على نُجُبٍ من نورٍ أَزِمَّتُها من الياقوت، تَطيرُ بهم على رؤوس الخلائقِ، حتى يقوموا بين يدي العرش، فيقولُ الله جلَّ وعزَّ لهم: السلامُ على عبادي الذين أطاعوني وحَفِظوا عهدي بالغيب، أنا اصْطَفيتُكم، وأنا اجْتَبيتُكم، وأنا اخْتَرتُكم، اذهبوا فادخلوا الجنةَ بغيرِ حسابٍ، فَ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. فيمرُّون على الصراط كالبرقِ الخاطِفِ، فتفتح لهم أبوابها. ثم إنَّ الخَلْقَ في المحشر موقوفون، فيقولُ بعضُهم لبعضٍ: يا قوم، أين فلانٌ وفلان!؟ وذلك حين يسألُ بعضُهم بعضاً، فينادي منادٍ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾(٣).

و«شُغُلٍ» و«شُغْلٍ» لغتان قُرئ بهما(٤)، مثل: الرُّعُبِ والرُّعْبِ؛ والسُّحُت والسُّحْت، وقد تقدَّم(٥).

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠١ .

(٢) ذكر هذه الأقوال البغوي ٤/ ١٦ . قال الألوسي في روح المعاني ٢٣/ ٣٤ : ليس مراد أهل هذه الأقوال بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط، بل بيان أنه من جملة أشغالهم.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «شُغْل» بإسكان الغين، والباقون بضمها. السبعة ص٥٤١ - ٥٤٢ ، والتيسير ص١٨٤ .

(٥) ٧/ ٤٨٧ - ٤٨٨ .

﴿فَكِهُونَ﴾ قال الحسن: مَسْرُورون. وقال ابن عباس: فَرِحُون. مجاهدٌ والضحاك: مُعْجَبون. السُّدِّيُّ: ناعِمون[1]. والمعنى متقارِبٌ. والفُكاهةُ: المزاحُ والكلامُ الطيِّبُ.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ والأعرجُ: «فَكِهُون» بغير ألفٍ[2]، وهما لغتان كالفارِه والفَرِه، والحاذِرِ والحَذِر؛ قاله الفرَّاء[3]. وقال الكسائيُّ وأبو عبيدةَ: الفاكِهُ: ذو الفاكِهَةِ، مثل: شاحِمٍ ولاحِمٍ وتامِرٍ ولابِنٍ، والفَكِه: المتفكِّه والمتنعِّم[4]. و«فَكِهُون» بغير ألفٍ في قولِ قتادةَ: مُعْجَبون[5]. وقال أبو زيد: يقال: رجلٌ فَكِهٌ: إذا كان طيِّبَ النفسِ ضَحوكاً[6].

وقرأ طلحَةُ بن مُصرِّف: «فاكِهين» نَصَبَه على الحال[7].

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ مبتدأٌ وخبرُه. ويجوزُ أن يكون «هم» توكيداً، «وأزواجُهم» عطفٌ على المُضْمَر، و«مُتَّكئون» نعتٌ لقوله: «فاكِهُونَ»[8].

وقراءةُ العامَّةِ: «في ظِلَالٍ» بكَسْرِ الظَّاءِ والألف. وقرأ ابنُ مسعود وعبيد بنُ عمير والأعمشُ ويحيى وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: «في ظُلَلٍ» بضمِّ الظاء من غير ألف[9].

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٤٦٣ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٦ ، وزاد المسير ٧/ ٢٨ .

(٢) النشر ٢/ ٣٥٤ عن أبي جعفر، وهو من العشرة.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٠ .

(٤) بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ١٦٣ - ١٦٤ .

(٥) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ٢٧ ، وأبو الليث ٣/ ١٠٣ ، وابن عزيز في تفسير الغريب ص٣٥٥ دون نسبة. قالوا: وفاكهون ناعمون.

(٦) تهذيب اللغة ٦/ ٢٦ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠١ .

(٨) المصدر السابق.

(٩) السبعة ص٥٤٢ ، والتيسير ص١٨٤ ، والنشر ٢/ ٣٥٥ عن حمزة والكسائي وخلف.

فالظِّلالُ جمعُ ظِلٍّ، وظُلَل جمع ظُلَّة. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ يعني السُّرُرَ في الحِجال[(١)]، واحدُها أريكة، مثل سفينةٍ وسفائن؛ قال الشاعر:

كـأنَّ احـمـرارَ الـوَرْدِ فـوقَ غُـصُـونِـه بوقتِ الضُّحى في رَوْضِهِ المُتضاحِكِ
خُدُودُ عَذارَى قد خَجِلنَ من الحَيَا تَـهَـادَيْـنَ بـالـرَّيْـحـانِ فـوقَ الأرائِـكِ

وفي الخبر عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أهلَ الجنةِ كلَّما جامَعوا نساءَهم عُدْنَ أبكاراً»[(٢)]. وقال ابن عباس: إنَّ الرجلَ من أهلِ الجنةِ لَيُعانِقُ الحَوْراءَ سبعين سنةً، لا يَمَلُّها ولا تَمَلُّه، كلَّما أتاها وَجَدَها بكراً، وكلَّما رجع إليها عادت إليه شهوتُه؛ فَيُجامِعُها بقوةِ سبعين رجلاً، لا يكونُ بينهما مَنِيٌّ؛ يأتي من غير منيٍّ منه ولا منها[(٣)].

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ابتداءٌ وخبر ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ الدَّالُ الثانيةُ مُبْدَلةٌ من تاء؛ لأنَّه يفتعلون مِن دعا[(٤)]، أي: مَن دعا بشيءٍ أُعطِيَه. قاله أبو عبيدة[(٥)]، فمعنى «يَدَّعُونَ»: يَتمنَّوْن، من الدعاء.

وقيل: المعنى: أنَّ مَن ادَّعى منهم شيئاً فهو له؛ لأنَّ الله تعالى قد طَبعَهم على ألَّا يدَّعيَ منهم أحدٌ إلَّا ما يَجمُلُ ويَحسُنُ أنْ يدَّعيَه.

---

(١) جمع حَجَلَة، وهو موضع مثل القبة يتخذ للعروس، يزيَّن بالثياب والستور والأسِرَّة. معجم متن اللغة (حجل).

(٢) أخرجه البزار (٣٥٢٧ ـ كشف)، و الطبراني في المعجم الصغير(٢٤٩)، وابن الجوزي في العلل ٢/ ٩٣٠ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٧: فيه عبد الرحمن بن معلى الواسطي، وهو كذاب. اهـ وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ عند ابن حبان (٧٤٠٢).

(٣) لم نقف عليه بهذا السياق، ولأجزائه شواهد وردت مرفوعة، ينظر حديث أنس ﷺ عند الترمذي (٢٥٣٦) وصححه ابن حبان (٧٤٠٠)، وحديث زيد بن أرقم عند أحمد (١٩٢٦٩)، وحديث أبي أمامة عند الطبراني في الكبير (٧٤٧٩)، وحديث أبي هريرة في المعحم الكبير، الأحاديث الطوال ٢٥/ (٣٧).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠١ .

(٥) بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ١٦٤ .

وقال يحيى بن سلام: «يَدَّعُونَ»: يَشْتَهون. ابن عباس: يَسألون[١]. والمعنى متقارب.

قال ابن الأنباريِّ[٢]: «ولهم ما يدَّعون» وقفٌ حَسنٌ، ثم تَبتدئُ: «سَلَامٌ»، على معنى: ذلك لهم سلامٌ. ويجوزُ أن يُرفَع السلامُ على معنى: ولهم ما يدَّعون مُسَلَّمٌ خالِصٌ. فعَلَى هذا المذهبِ لا يَحسُنُ الوقفُ على «ما يدَّعون».

وقال الزجَّاج[٣]: «سلامٌ» مرفوعٌ على البدل من «ما»، أي: ولهم أنْ يسلِّم اللهُ عليهم، وهذا مُنَى أهلِ الجنة. وروي من حديث جابر بن عبد الله[٤]: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بينا أهلُ الجنةِ في نعيمهم؛ إذ سَطَع لهم نورٌ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الربُّ تعالى قد اطَّلع عليهم من فوقهم، فقال: السلامُ عليكم يا أهلَ الجنةِ، فذلك قولُه: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾. فينظر إليهم وينظرونَ إليه، فلا يلتفتون إلى شيءٍ من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجبَ عنهم، فيبقَى نورُه وبركاتُه عليهم في ديارهم» ذَكَره الثعلبيُّ والقشيريُّ[٥]. ومعناه ثابتٌ في «صحيح» مسلم، وقد بيَّنَّاه في«يونس» عند قولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [الآية: ٢٦][٦].

ويجوزُ أن تكون «ما» نكرةً، و«سَلَامٌ» نعتاً لها، أي: ولهم ما يدَّعون مُسَلَّمٌ. ويجوزُ أن يكون «ما» رفع بالابتداء، و«سلامٌ» خبر عنها. وعلى هذه الوجوهِ لا يوقَفُ على «ولهم ما يدَّعون». وفي قراءةِ ابنِ مسعودٍ: «سلاماً» يكونُ مصدراً، وإنْ شئتَ في

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٦ ، وفيه: ابن زياد، بدل: ابن عباس.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٤ - ٨٥٥ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٩٢ .

(٤) في النسخ: جرير بن عبد الله البجلي، وهو خطأ وينظر التعليق بعده.

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، وابن عدي ٦/ ٢٠٣٩ ، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٢٧٤ ، وأخرجه من طريق الثعلبي الواحدي في الوسيط ٣/ ٥١٧ ، والبغوي ٤/ ١٦ جميعهم من حديث جابر ﷺ. قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٦٨ : هذا إسناد ضعيف لضعف الفضل بن عيسى الرقاشي.

(٦) ١٠/ ٤٨٣ ، والحديث عند مسلم (١٨١) عن صهيب ﷺ.

موضع الحال، أي: ولهم ما يدَّعون ذا سلامٍ أو سلامةٍ، أو: مسلَّماً[١]؛ فعلَى هذا المذهبِ لا يَحسُنُ الوقفُ على «يدَّعون»[٢].

وقرأ محمد بن كعب القُرَظيُّ: «سِلْمٌ» على الاستئناف، كأنَّه قال: ذلك سِلْمٌ لهم لا يتنازعون فيه، ويكون «ولهم ما يدَّعون» تامّاً. ويجوزُ أن يكون «سِلْم»[٣] بدلاً من قوله: «ولهم ما يدَّعون»، وخبر «ما يدَّعون»: لهم. ويجوز أن يكون «سِلْم» خبراً آخَرَ، ويكون معنى الكلام: أنَّه لهم خالصٌ من غير منازِعٍ فيه.

﴿قَوْلًا﴾ مصدرٌ على معنى: قال الله ذلك قولاً. أو يقوله قولاً، ودلَّ على الفعل المحذوفِ لفظُ مَصْدرِه[٤]. ويجوزُ أن يكون المعنى: ولهم ما يدَّعون قولاً، أي: عِدَةً من الله. فعَلَى هذا المذهبِ الثاني لا يَحسُنُ الوقفُ على «يدَّعون». وقال السِّجِسْتانيُّ: الوقفُ على قوله: «سلامٌ» تامٌّ. وهذا خطأٌ؛ لأنَّ القولَ خارجٌ ممَّا قَبْلَه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ويقال: تَميَّزوا وامَّازوا وامتازوا بمعنىً، ومِزْتُه فانْمَازَ وامْتاز، وميَّزته[٦] فتميَّز. أي: يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة، أي: اخْرُجوا من جملتهم. قال قتادة: عُزِلوا عن كلِّ خيرٍ[٧].

وقال الضحَّاك: يمتازُ المجرمون بعضُهم من بعض؛ فيمتازُ اليهودُ فرقةً،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٢ . وقراءة: «سلاماً» في المحتسب ٢/ ٢١٥ عن عيسى الثقفي.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٦ .

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): سلام، وكذا في الموضع الذي بعده، والمثبت من (د) و(ز)، وهو موافق لما في المحتسب ٢/ ٢١٥ .

(٤) المحتسب ٢/ ٢١٥ .

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٥ .

(٦) في (د) و(ز) و(ظ): ومزته، وهما بمعنى ينظر العين ٣٩٤ والصحاح (ميز)، واللسان (ميز).

(٧) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٦٩ .

والنصارى فرقةً والمجوس فرقةً، والصابئون فرقةً، وعبدةُ الأوثانِ فرقة[١]. وعنه أيضاً: إنَّ لكلِّ فرقةٍ في النار بيتاً تدخل فيه ويردُّ بابه، فتكون فيه أبداً لا تَرَى ولا تُرَى[٢].

وقال داود بن الجرَّاح: فيمتازُ المسلمون من المجرمين، إلَّا أصحابَ الأهواءِ، فيكونون مع المجرمين[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ العهدُ هنا بمعنى الوصية، أي: أَلَمْ أُوْصِكُم وأُبلِّغكم على ألسنةِ الرسل ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لا تُطيعوه في مَعْصِيتي. قال الكسائيُّ: لا للنَّهي ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ بكسر النون على الأصل، ومَن ضمَّ كَرِه كسرةً بعدَها ضمةٌ[٤]. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: عبادتي دينٌ قويم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾ أي: أَغْوَى ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي: خَلْقاً كثيراً؛ قاله مجاهد. قتادة: جموعاً كثيرة. الكلبيُّ: أُمماً كثيرةً[٥]، والمعنى واحد.

وقرأ أهل المدينة وعاصمٌ: «جِبِلّاً» بكسرِ الجيمِ والباء. وأبو عمرو وابنُ عامر: «جُبْلاً» بضمِّ الجيمِ وإسكانِ الباء. الباقون: «جُبُلاً» بضمِّ الجيم والباءِ وتخفيفِ اللام[٦]. وشدَّدها الحسنُ وابنُ أبي إسحاق وعيسى بنُ عمر وعبدُ الله بن عبيد والنَّضْرُ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٦ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٢ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٧ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٤٧١ .

(٦) وقرأ بها أيضاً من السبعة ابن كثير وحمزة والكسائي. السبعة ص٥٤٢ ، والتيسير ص١٨٤ .

ابن أنس[١]. وقرأ أبو يحيى والأشهبُ العقيليُّ: «جِبْلاً» بكسرِ الجيم وإسكانِ الباءِ وتخفيفِ اللّام[٢]. فهذه خمسُ قراءات. قال المهدويُّ والثعلبيُّ: وكلُّها لغاتٌ بمعنى الخَلْق.

النحّاس[٣]: أبينُها القراءةُ الأولى؛ والدليلُ على ذلك أنَّهم قد أجمعوا على أنْ قرؤوا: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤] فيكون «جِبِلّاً» جمعَ جِبِلَّةٍ، والاشتقاقُ فيه كلِّه واحدٌ. وإنَّما هو مِن: جَبَلَ الله عزَّ وجلَّ الخَلْقَ، أي: خَلَقَهم. وقد ذُكِرتْ قراءةٌ سادسةٌ وهي: «ولقد أَضَلَّ منكم جِيلاً كثيراً» بالياء.

وحكي عن الضحَّاك أنَّ الجِبِلَّ[٤] الواحدَ عشرةُ آلافٍ، والكثير ما لا يُحصيه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ذَكَره الماورديُّ[٥].

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ عداوتَه، وتَعْلَموا أنَّ الواجبَ طاعةُ الله.﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: تقولُ لهم خزنةُ جهنَّم: هذه جهنَّمُ التي وُعِدتُم فكذَّبتم بها. ورُوي عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامةِ جَمَعَ اللهُ الإنسَ والجنَّ والأَوَّلينَ والآخِرينَ في صعيدٍ واحدٍ، ثم أَشْرفَ عنقٌ من النار على الخلائق فأحاط بهم، ثم ينادي منادٍ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فحينئذٍ تَجثو الأممُ على رُكبِها، وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وتَذْهَل كلُّ مُرْضِعةٍ عمَّا أَرْضَعتْ، وتَرى الناسَ سُكَارَى وما هم بسُكَارَى ولكنَّ عذاب اللهِ شديدٌ»[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٢ ، والمحتسب ٢/ ٢١٦ وشدَّدها أيضاً يعقوب ـ وهو من العشرة ـ في رواية رَوْح. اهـ. وعبد الله بن عبيد هو أبو هاشم الليثي المكي، تابعي جليل، توفي سنة (١١٣هـ). طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٤٣٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٣ ، والمحتسب ٢/ ٢١٦ ، وهي قراءة شاذة.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٣ .

(٤) في (م): الجيل.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٢٧ .

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٤٧٠ ، من طريق إسماعيل بن رافع، عمن حدثه، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وإسناده ضعيف لضعف إسماعيل بن رافع، ولإبهام شيخه.

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ في «صحيح» مسلم[(١)] عن أنس بنِ مالكٍ قال: كنَّا عندَ رسولِ الله ﷺ، فضحك فقال: «هل تَدْرونَ مِمَّ أَضْحكُ؟» قلنا: اللهُ ورسولُه أَعْلمُ. قال: «من مُخاطبةِ العبدِ ربَّه، يقول: يا ربِّ، أَلَمْ تُجِرْني من الظُّلْم؟ قال: يقول: بلى، فيقول: فإنِّي لا أُجيزُ على نفسي إلَّا شاهداً منِّي. قال: فيقولُ: كَفَى بنَفْسِكَ اليومَ عليكَ شهيداً، وبالكرامِ الكاتِبِينَ شُهوداً، فقال: فيُخْتَمُ على فِيهِ، فيقال لأركانه: انْطِقي، قال: فتَنْطِقُ بأعماله، قال: ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسُحقاً، فعنكنَّ كنتُ أُناضِل».

خرَّجه أيضاً من حديث أبي هريرةَ. وفيه: «ثم يُقالُ له: الآنَ نَبْعثُ شاهدَنا عليك. ويَتَفكَّر[(٢)] في نفسه: مَن ذا الذي يَشْهدُ عليَّ، فيُخْتَم على فيه، ويقال لفَخِذِه [ولَحمِه وعظامه]: انْطِقي، فتَنْطِقُ فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله، وذلك ليُعْذِرَ مِن نَفْسِه، وذلك المنافقُ، وذلك الذي يَسْخَطُ الله عليه»[(٣)].

وخرَّج الترمذيُّ عن معاويةَ بن حَيْدَةَ عن النبيِّ ﷺ في حديثٍ ذَكَره قال: وأشار بيده إلى الشام فقال «ها هنا[(٤)] إلى ها هنا تُحشَرون ركباناً ومشاةً، وتُجرُّون على وجوهكم يومَ القيامةِ، على أفواهكم الفِدَامُ، تُوْفُون سبعينَ أمةً أنتم خيرُهم وأكرمُهم

---

(١) برقم (٢٩٦٩).

(٢) في النسخ الخطية: فيفكر، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في صحيح مسلم.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٨)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) في (د) و(م): من ها هنا.

على الله، وإنَّ أولَ ما يُعرِبُ عن أحدِكم فخذُه»[1] في روايةٍ أُخرى: «فخذُه وكفُّه»[2]

الفِدامُ مِصْفاةُ الكوزِ والإبريقِ؛ قاله الليث. قال أبو عبيد: يعني أنَّهم مُنعوا الكلامَ حتى تكلَّم أفخاذُهم، فشبَّه ذلك بالفِدَامِ الذي يُجعل على الإبريق[3].

ثم قيل في سببِ الختِم أربعةُ أَوْجُهٍ:

أحدُها: لأنَّهم قالوا﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فختم الله على أفواههم حتى نَطَقتْ جوارحُهم؛ قاله أبو موسى الأشعريُّ[4].

الثاني: ليَعْرِفَهم أهلُ الموقفِ فيتميَّزون منهم؛ قاله ابن زياد.

الثالث: لأنَّ إقرارَ غيرِ النَّاطقِ أبلغُ في الحجة من إقرارِ النَّاطقِ؛ لخروجه مخرجَ الإعجاز، وإنْ كان يوماً لا يحتاج إلى إعجاز.

الرابع: ليَعْلَم أنَّ أعضاءه التي كانت [له] أعواناً في حقِّ نفسِه صارت عليه شهوداً في حقِّ ربِّه.

فإن قيل: لمَ قال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ فجعل ما كان من اليد كلاماً، وما كان من الرِّجل شهادة؟

قيل: لأنَّ اليد مُباشِرةٌ لعملِه، والرجل حاضرةٌ، وقولُ الحاضِرِ على غيره شهادةٌ، وقولُ الفاعلِ على نفسِه إقرارٌ بما قال أو فَعَل؛ فلذلك عبَّر عمَّا صَدَر من الأيدي بالقول، وعمَّا صَدَر من الأَرْجُلِ بالشهادة. وقد رُوي عن عُقبة بن عامر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أولُ عظمٍ من الإنسان يتكلَّم يومَ يُخْتَمُ على الأفواهِ فَخِذُه من

---

(١) سنن الترمذي (٢٤٢٤) و(٣١٤٣)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٣١) و(٢٠٠٥٠)، والنسائي في الكبرى (١١٣٦٧) ولفظ المصنف أقرب إليه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٢٦).

(٣) تهذيب اللغة ١٤/ ١٤٧ ، وقول أبي عبيد في غريب الحديث ١/ ٤٩ بنحوه.

(٤) أخرجه مطولاً الطبري ١٩/ ٤٧٢ - ٤٧٣ ، والكلام من النكت والعيون ٥/ ٢٧ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

الرِّجل اليسرى» ذَكَره الماورديُّ[(١)] والمهدويُّ. وقال أبو موسى الأشعريُّ: إنِّي لأحسبُ أنّ أولَ ما ينطقُ منه فخذُه اليمنى[(٢)]؛ ذكره المهدويُّ أيضاً.

قال الماورديُّ[(٣)]: فاحتَمَل أن يكون تقدُّمُ الفخذِ بالكلام على سائر الأعضاء؛ لأنَّ لذةَ معاصيهِ يُدْرِكُها بحواسِّه التي هي في الشطر [الأعلى من جسده، وأقربُ أعضاءِ الشطرِ] الأسفلِ منها الفخذُ، فجاز لقُرْبِه منها أنْ يتقدَّم في الشهادة عليها. قال: وتقدَّمت اليُسرى؛ لأنَّ الشهوةَ في ميامِنِ الأعضاءِ أقوى منها في مَيَاسِرِها؛ فلذلك تقدَّمت اليسرى على اليمنى لقلَّة شهوتها.

قلت: أو بالعكس لغلبةِ الشهوة، أو كلاهُما معاً والكفُّ؛ فإنَّ بمجموع ذلك يكونُ تمامُ الشهوةِ واللذة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ حكى الكسائيُّ: طَمَسَ يَطمِسُ ويَطمُس[(٤)]. والمطموسُ والطَّمِيس عند أهلِ اللغةِ: الأَعمى الذي ليس في عينيه شقٌّ. قال ابنُ عباس: المعنى: لأَعميناهم عن الهدى، فلا يهتدون أبداً إلى طريقِ الحقّ[(٥)].

وقال الحسن والسُّدِّي: المعنى: لتركناهم عُمْياً يتردَّدون. فالمعنى: لأعميناهم فلا يُبصِرون طريقاً إلى تصرُّفهم في منازلهم ولا غيرِها. وهذا اختيارُ الطبريِّ[(٦)]. وقولُه: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: استَبَقوا الطريقَ ليَجُوزوا ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ أي: فمِنْ أين يُبصرون.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٢٨ ، وأخرجه أحمد (١٧٣٧٤) وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٢) قطعة من خبر طويل عن أبي موسى ﷺ أخرجه الطبري ١٩/ ٤٧٢ - ٤٧٣ ، وقد سلف بعضه.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٨ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٣ .

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٧٤ بنحوه.

(٦) في تفسيره ١٩/ ٤٧٥ ، وأخرجه عن الحسن. وذكره عن الحسن والسدي البغوي ٤/ ١٨ .

وقال عطاءٌ ومقاتلٌ وقتادةُ، وروي عن ابن عباس: ولو نشاء لفَقَأْنا أعينَ ضلالتِهم، وأعميناهم عن غَيِّهم، وحوَّلْنا أبصارَهم من الضلالة إلى الهدى؛ فاهتَدَوْا وأبْصرُوا رُشْدَهم، وتَبادَروا إلى طريقِ الآخرة. ثم قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ ولم نَفْعَلْ ذلك بهم[١]، أي: فكيف يهتدون وعينُ الهدَى مطموسةٌ، على الضلالِ باقيةٌ.

وقد روي عن عبد الله بن سلامٍ في تأويل هذه الآيةِ غيرُ ما تقدَّم، وتَأَوَّلها على أنَّها في يومِ القيامة. وقال: إذا كان يومُ القيامةِ ومُدَّ الصِّراطُ، نادى منادٍ: ليقُمْ محمدٌ ﷺ وأمتُه، فيقومون بَرُّهم وفاجِرُهم يَتبعونه ليَجُوزُوا الصِّراطَ، فإذا صاروا عليه طَمَسَ الله أعينَ فُجَّارِهم، فاستَبَقوا الصراطَ، فمِن أين يبصرونه حتى يُجاوِزُوه؟ ثم ينادي منادٍ: ليقُمْ عيسى ﷺ وأمتُه، فيقومُ فيتبعونه برُّهم وفاجرُهم، فيكون سبيلُهم تلك السبيلَ، وكذا سائرُ الأنبياءِ عليهم السلامُ. ذكره النحاس[٢]. وقد كتبناه في «التذكرة» بمعناه حَسْبَ ما ذكره ابنُ المبارك في «رقائقه»[٣].

وذكر[٤] القشيريُّ: وقال ابن عباسٍ ﷺ: أخذ الأسودُ بنُ عبد الأسودِ[٥] حجراً ومعه جماعةٌ من بني مخزومٍ ليطرحَه على النبيِّ ﷺ، فطَمَسَ الله على بَصَرِه، وأَلْصَقَ الحجرَ بيده، فما أبصره ولا اهتَدَى، ونزلت الآية فيه[٦]. والمطموسُ هو الذي لا يكونُ بين جَفْنَيه شَقٌّ، مأخوذٌ من: طَمَسَ الريحُ الأثَر؛ قاله الأخفشُ والقُتَبيّ[٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٤ .

(٣) برقم (٣٩٨ - زوائد نعيم)، وهو في التذكرة ص٣٣٨ .

(٤) في (ظ) و(م): وذكره.

(٥) في (م): الأسود بن الأسود. ولعل الصواب: الأسود بن عبد الأسد، وهو أخو أبي سلمة ﷺ، وكان الأسود من المستهزئين بالنبي ﷺ ومات كافراً، كما ذكر الحافظ في الإصابة ١/ ٢٠٠ .

(٦) لم نقف عليه بهذا السياق، وينظر ما سلف ص٤١٢-٤١٣ و٤١٦ من هذا الجزء.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٩ ، وقول ابن قتيبة في تفسير الغريب له ص٣٦٧ .

يَرْجِعُونَ﴾ المسخُ: تبديلُ الخِلْقَةِ وقَلْبُها حجراً أو جماداً أو بهيمةً. قال الحسن: أي: لأَقْعَدْناهم فلا يستطيعون أن يَمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم(١). وكذلك الجمادُ لا يتقدَّم ولا يتأخَّر. وقد يكون المسخُ تبديلَ صورةِ الإنسانِ بهيمةً، ثم تلك البهيمةُ لا تَعْقِلُ موضعاً تقصدُه، فتتحيَّر، فلا تُقبِلُ ولا تُدبِر.

ابن عباس ﷺ: المعنى: لو نشاءُ لأهلكناهم في مساكنهم(٢). وقيل: المعنى: لو نشاء لمسخناهم في المكان الذي اجترؤوا فيه على المعصية. ابن سلام: هذا كلُّه يومَ القيامةِ، يَطْمسُ الله تعالى أعينَهم على الصِّراط(٣).

وقرأ الحسن والسُّلَميُّ وزِرّ بن حُبَيش وعاصمٌ في روايةِ أبي بكر: «مَكَانَاتِهِمْ» على الجمع، الباقون بالتوحيد(٤). وقرأ أبو حَيْوَة: «فما استطاعوا مَضِيّاً»(٥) بفتح الميم. والمُضيُّ بضمِّ الميم مصدر مَضَى يَمْضي مُضِيًّا: إذا ذهب.

قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ قرأ عاصم وحمزةُ: «نُنَكِّسْه» بضمِّ النون الأُولى وتشديدِ الكافِ، من التنكيس. الباقون: «نَنْكُسْه» بفتح النونِ الأُولى وضمِّ الكاف(٦)، مِن نَكَسْتُ الشيءَ أَنْكُسُه نَكْساً: قلبته على رأسه فانْتَكَس.

قال قتادة: المعنى: أنَّه يَصيرُ إلى حالِ الهَرَمِ الذي يُشْبِه حالَ الصِّبا(٧).

وقال سفيان في قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾: إذا بلغ ثمانين سنةً تغيَّر جسمُه وضَعُفَتْ قوَّته(٨)، قال الشاعر:

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٧٧ مختصراً بلفظ: لو نشاء لأقعدناهم.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٧٧ - ٤٧٨ .

(٣) سلف قول عبد الله بن سلام بنحوه مطولاً في تفسير الآية السابقة.

(٤) السبعة ص٥٤٢ - ٥٤٣ ، والتيسير ص١٠٧ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦١ . وقال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٢٩: وقرئ «مضيّاً» بالحركات الثلاث.

(٦) السبعة ص٥٤٣ ، والتيسير ص١٨٥ .

(٧) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٤٧٨ .

(٨) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٩ .

مَـن عـاش أَخْـلَـقَـت الأيـامُ جِـدَّتَـهُ وخـانـه ثِـقَـتَـاه الـسَّـمْـعُ والـبـصـرُ[١]

فطولُ العمرِ يصيِّر الشباب هَرَماً، والقوةَ ضعفاً، والزيادةَ نقصاً، وهذا هو الغالبُ. وقد تَعوَّذَ ﷺ من أن يُردَّ إلى أَرْذَلِ العمرِ[٢]. وقد مضى في «النحل» بيانُه[٣].

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أنَّ مَن فَعَلَ هذا بكم قادرٌ على بَعْثِكم. وقرأ نافعٌ وابنُ ذكوان: «تَعقِلون» بالتاء. الباقون بالياء[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: أخبر تعالى عن حالِ نبيِّه ﷺ، وردَّ قولَ مَن قال مِن الكفار: إنَّه شاعر، وإنَّ القرآن شعرٌ، بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ وكذلك كان رسولُ الله ﷺ لا يقولُ الشعرَ ولا يَزِنُه، وكان إذا حاولَ إنشادَ بيتٍ قديمٍ متمثِّلاً كَسَر وَزْنَه، وإنَّما كان يُحرِزُ المعانيَ فقط ﷺ. مِن ذلك أنَّه أنْشَد يوماً قولَ طَرَفَةَ:

سَـتُـبدِي لـكَ الأيـامُ مـا كـنـتَ جـاهـلاً ويـأتـيـكَ مَـن لـم تُـزوِّدْه بـالأخـبـار[٥]

---

(١) البيت لابن أبي فنن، كما في عيون الأخبار ٢/ ٣٢٠ ، والعقد الفريد ٣/ ٥٧ .

(٢) صحيح البخاري (٢٨٢٢).

(٣) ١٢/ ٣٧٥ .

(٤) التيسير ص١٨٥ ، وذكرها ابن مجاهد في السبعة ص ١٤٣ عن نافع وحده.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦١ ، والبيت من معلقة طرفة، وهو في ديوانه ص٤١ ، وأصله: ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد. والخبر أخرجه مطولاً عبد الرزاق ٢/ ١٤٥ ، وبنحوه الطبري ١٩/ ٤٨٠ من طريق قتادة عن عائشة رضي الله عنها. وحديث قتادة عن عائشة مرسل كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص١٤٢ . وأخرجه أحمد (٢٤٠٢٣) و(٢٥٠٧١)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٩٢)، والترمذي (٢٨٤٨) من طرق عن عائشة رضي الله عنها، وفيه: ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد، على أصل رواية البيت. قال الترمذي: حسن صحيح. اهـ. وكذا أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأنشد يوماً وقد قيل له: مَن أَشْعرُ الناسِ؟ فقال: الذي يقول:

أَلَمْ تَرَيانِي كلَّما جئتُ طارِقاً وجدتُ بها وإن لم تطيَّبْ طِيبا[١]

وأنشد يوماً:

أَتَجعلُ نَهْبي وَنْهبَ العُبَـ ـيدِ بينَ الأقرعِ وعُيَيْنَة[٢]

وقد كان عليه الصلاة والسلام ربَّما أنشد البيتَ المستقيم في النادر؛ روي أنَّه أنشد بيتَ ابن رواحةَ:

يَبيتُ يُجافي جَنْبَهُ عن فراشهِ إذا استَثْقلَتْ بالمشركين المضاجِعُ[٣]

وقال الحسن بن أبي الحسن: أنشد النبيُّ عليه الصلاة والسلام:

كَفَى بالإسلام والشيبِ للمرء ناهيا

فقال أبو بكر ﷺ: يا رسولَ الله، إنَّما قال الشاعر:

هريرةَ ودِّعْ إن تَجهَّزْتَ غاديا كَفَى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيا

فقال أبو بكر أو عمرُ: أشهدُ أنك رسولُ الله، يقولُ الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[٤].

وعن الخليل بن أحمد: كان الشِّعرُ أَحبَّ إلى رسول الله ﷺ من كثيرٍ من الكلام،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦١ ، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٤١ ، وأصله: وجدت بها طيباً وإن لم تُطَيَّبِ.

(٢) طبقات ابن سعد ٤/ ٢٧٢ ، ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ١٨١ ، والبيت للعباس بن مرداس وأصل البيت: بين عُيينة والأقرعِ، وسلف ١٠/ ٢٦٣ . والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ٤٦١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦١ . وينظر حديث البراء بن عازب ﷺ الذي سلف ١٤/ ١٣٠ . وبيت عبد الله بن رواحة ﷺ سلف ٦/ ٣٤٦ .

(٤) أخرجه ابن سعد ١/ ٣٨٢ - ٣٨٣ ، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. والبيت لسحيم عبد بني الحسحاس كما في شرح المفصل ٨/ ٩٣ ، والخزانة ١/ ٢٦٧ ، وفيهما: عميرة، بدل هريرة. وعجزه في كتاب سيبويه ٢/ ٢٦ و٤/ ٢٢٥ .

ولكن [كان] لا يتأتَّى له[١].

الثانية: إصابتُه الوزنَ أحياناً لا يُوجِبُ أنه يعلَم الشعر، وكذلك ما يأتي أحياناً من نَثْرِ كلامِه ما يدخل في وزن، كقوله يومَ حُنين وغيره:

«هــل أنــتِ إلّا إصــبــعٌ دَمِــيــتِ   وفـي سـبـيـلِ الـلـهِ مـا لَـقِـيـتِ»[٢]

وقوله:

«أنـــا الـــنـــبـــيُّ لا كَـــذِبْ   أنـــا ابـــنُ عـــبـــدِ الـــمـــطّـــلـــبْ»[٣]

فقد يأتي مثلُ ذلك في آياتِ القرآن، وفي كلِّ كلام، وليس كلُّ ذلك شعراً ولا في معناه[٤]، كقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣] إلى غير ذلك من الآيات. وقد ذكر ابن العربيِّ[٥] منها آياتٍ وتكلَّم عليها وأخرجها عن الوزن، على أنَّ أبا الحسن الأخفشَ قال في قوله: «أنا النبيُّ لا كَذِبْ»: ليس بشعر. وقال الخليل في كتاب «العين»: إنَّ ما جاء من السَّجْعِ على جُزْءَين لا يكون شعراً. ورُوي عنه: أنه من مَنْهوكِ الرَّجَز[٦]. وقد قيل: لا يكونُ من منهوك الرَّجز إلّا بالوقف على الباء من قوله: «لا كذب»، ومِن قوله: «عبد المطلب». ولم يُعلم كيف قاله النبيُّ ﷺ. قال ابن العربيِّ[٧]: والأَظْهَرُ من حاله أنه قال: «لا كَذِبٌ» [بتنوين] الباء مرفوعةً، وبخفضِ الباء من عبد المطلب على الإضافة.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٩، وما بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٧٩٧)، والبخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦) من حديث جندب البَجَليِّ ﷺ.

(٣) سلف ١٠/ ١٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٢ دون ذكر البيت الأول.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٨ - ١٦٠١.

(٦) بنحوه في العين ٦/ ٦٤ - ٦٥. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠١.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٢، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

وقال النحاس[١]: قال بعضُهم: إنَّما الروايةُ بالإعراب، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعراً؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأوّلِ أو ضمَّها أو نوَّنها، وكَسَر الباء من البيت الثاني، خرج عن وزنِ الشعر. وقال بعضُهم: ليس هذا الوزنُ من الشعر. وهذا مكابرةُ العيانِ؛ لأنَّ أشعارَ العربِ على هذا قد رواها الخليلُ وغيرُه.

وأمَّا قولُه: «هل أنتِ إلَّا إصبعٌ دَمِيتِ» فقيل: إنَّه من بحر السريع، وذلك لا يكونُ إلَّا إذا كُسِرت التاء من «دميت»، فإنْ سُكِّن لا يكونُ شعراً بحال؛ لأنَّ هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعول[٢]، ولا مدخلَ لفعول في بحر السريع. ولعل النبيَّ ﷺ قالها ساكنةَ التاءِ، أو متحرِّكةَ التاءِ مِن غيرِ إشباعٍ. والمعوَّلُ عليه في الانفصال على تسليم أنَّ هذا شعر، ويسقط الاعتراض، ولا يلزمُ منه أن يكون النبيُّ ﷺ عالماً بالشعر ولا شاعراً. إنَّ التمثُّلَ بالبيت النذر وإصابةَ القافيتين من الرَّجزِ وغيرِه لا يوجبُ أن يكونَ قائلُها عالماً بالشعر، ولا يُسمَّى شاعراً باتِّفاقِ العلماء، كما أنَّ مَن خاطَ خيطاً لا يكونُ خيَّاطاً.

قال أبو إسحاق الزجَّاج[٣]: معنى «وما علَّمناه الشِّعرَ»: وما علَّمناه أن يشعُر، أي: ما جعلناه شاعراً، وهذا لا يمنعُ أن يُنْشِدَ شيئاً من الشعر. قال النحَّاس[٤]: وهذا من أحْسَنِ ما قيل في هذا. وقد قيل: إنَّما خبَّر الله عزَّ وجلَّ أنه ما علَّمه الله الشعر، ولم يُخبر أنه لا ينشدُ شعراً، وهذا ظاهِرُ الكلام. وقيل فيه قولٌ بيِّنٌ، زعم صاحبُه أنه إجماعٌ من أهل اللغة، وذلك أنهم قالوا: كلُّ مَن قال قولاً موزوناً لا يَقْصِدُ به إلى شعرٍ فليس بشعرٍ، وإنَّما وافَقَ الشعر. وهذا قولٌ بيِّن.

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٥ .

(٢) في النسخ الخطية: لا تكون فعولاً، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٢ ، والكلام منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٩٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٥ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٥ .

قالوا: وإنَّما الذي نفاه الله عن نبيِّه عليه الصلاة والسلام فهو العلمُ بالشعر وأصنافِه، وأَعاريضِه وقوافيه، والاتِّصافُ بقوله، ولم يكن موصوفاً بذلك بالاتفاق. ألا ترى أنَّ قريشاً تَراوَضَتْ فيما يقولون للعرب فيه إذا قَدِموا عليهم الموسمَ، فقال بعضهم: نقول إنَّه شاعرٌ. فقال أهل الفطنة منهم: واللهِ لتكذِّبنَّكم العربُ، فإنَّهم يعرفون أصنافَ الشعر، فواللهِ ما يُشْبِه شيئاً منها، وما قولُه بشعر. وقال أنيسٌ أخو أبي ذرٍّ: لقد وضعتُ قولَه على أقراءِ الشعرِ فلم يلتئم أنه شعرٌ. أخرجه مسلم[(١)]، وكان أنيسٌ من أَشْعَرِ العرب. وكذلك قال عتبة بنُ ربيعةَ لمَّا كلَّمه: واللهِ ما هو بشعرٍ ولا كهانةٍ ولا سحرٍ، على ما يأتي من خبره في سورة فصلت[(٢)]، إنْ شاء الله تعالى. وكذلك قال غيرُهما من فُصَحاء العربِ العَرْباء، واللُّسْنِ البُلَغاء.

ثم إنَّ ما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يُعَدُّ شعراً، وإنَّما يعدُّ منه ما يجري على وزن الشعر مع القَصْدِ إليه، فقد يقول القائل: حدَّثنا شيخٌ لنا، وينادي: يا صاحبَ الكسائي[(٣)]، ولا يُعدُّ هذا شعراً. وقد كان رجلٌ ينادي في مَرَضِه وهو من عُرض العامَّةِ العقلاء: اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكْتَوى.

الثالثة: روى ابنُ القاسم عن مالكٍ أنَّه سُئل عن إنشاد الشعرِ فقال: لا تُكْثِرنَّ منه، فَمِن عيبه أنَّ الله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ قال: ولقد بلغني أنَّ عمر بنَ الخطاب ﷺ كتب إلى أبي موسى الأشعريِّ: أنِ اجْمَع الشعراءَ قِبَلكَ وسَلْهم عن الشعر، وهل بقي معهم معرفةٌ، وأَحْضِرْ لَبِيداً ذلك، قال: فجمعهم فسألهم، فقالوا: إنَّا لَنَعْرِفُه ونقولُه، وسأل لبيداً فقال: ما قلتُ شعراً منذ سمعتُ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١-٢].

قال ابن العربيِّ[(٤)]: هذه الآيةُ ليستْ من عيب الشعر، كما لم يكن قولُه: ﴿وَمَا

---

(١) في صحيحه (٢٤٧٣)، وسلف ١/ ١١٦.

(٢) في أولها، وسلف ١/ ١١٦.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٣. والكلام منه: الكساء.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٣، وما قبله منه.

﴿كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨] من عيب الكتابة، فلمَّا لم تكن الأميةُ من عيب الخطِّ، كذلك لا يكونُ نَفْيُ النَّظْمِ عن النبيِّ ﷺ من عيب الشعر.

روي أنَّ المأمون قال لأبي عليٍّ المِنْقَريِّ: بَلَغني أنَّك أُميٌّ، وأنَّك لا تُقيمُ الشعر، وأنَّك تَلْحَنُ. فقال: يا أميرَ المؤمنين، أمَّا اللحنُ فربَّما سبق لساني منه بشيء، وأمَّا الأميةُ وكَسْرُ الشعرِ فقد كان رسول الله ﷺ لا يكتبُ ولا يُقيم الشعر. فقال له: سألتك عن ثلاثةِ عيوبٍ فيك فزِدْتَني رابعاً وهو الجهلُ! يا جاهلُ، إنَّ ذلك كان للنبيِّ ﷺ فضيلةً، وهو فيك وفي أمثالك نقيصةٌ. وإنَّما مُنع النبيُّ ﷺ ذلك لنفي الظِّنَّةِ عنه، لا لعيبٍ في الشعر والكتابة(١).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: وما ينبغي له أنْ يقولَه. وجعل الله جلَّ وعزَّ ذلك عَلَماً من أعلام نبيِّه عليه الصلاة والسلام؛ لئلَّا تدخلَ الشبهةُ على مَن أُرسِلَ إليه، فيظنّ أنه قَوِيَ على القرآن بما في طَبْعِه من القوَّة على الشعر. ولا اعتراضَ لِمُلْحِدٍ على هذا بما يتَّفقُ الوزنُ فيه من القرآنِ وكلامِ الرسول؛ لأنَّ ما وافَقَ وَزْنُه وَزْنَ الشعر، ولم يُقْصَدْ به إلى الشعرِ، ليس بشعر، ولو كان شعراً لكان كلُّ مَن نَطَقَ بموزونٍ من العامَّة الذين لا يعرفون الوزنَ شاعراً، على ما تقدَّم بيانُه.

وقال الزجَّاج(٢): معنى ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: ما يَتَسهَّلُ له قولُ الشعرِ، لا الإنشادُ(٣). ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: هذا الذي يتلوه عليكم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ مَن كان حيًّا﴾ أي: حيَّ القَلْبِ؛ قاله قتادةُ. الضحَّاك: عاقلاً(٤). وقيل: المعنى: لتُنذِرَ مَن كان مؤمناً في عِلْم الله. هذا على قراءةِ التاءِ خطاباً

---

(١) العقد الفريد ٢/ ٤٧٩ .

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٢٩٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٥ .

(٣) في (م): الإنشاء.

(٤) أخرج القولين الطبري ١٩/ ٤٨١ .

للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، وهي قراءةُ نافعٍ وابنِ عامر. وقرأ الباقون بالياء[١]، على معنى: ليُنذِرَ اللهُ عزَّ وجلَّ، أو لينذرَ محمدٌ ﷺ، أو لينذرَ القرآنُ. وروي عن ابن السَّمَيْفَع: «لِيَنْذَر» بفتحِ الياءِ والذَّال[٢]. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: وتَجِبَ الحجةُ بالقرآن على الكَفَرة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ هذه رؤيةُ القلب، أي: أَوَلَمْ ينظروا ويعتبروا ويتفكَّروا. ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: مما أَبْدَعْناه وعَمِلْناه من غيرِ واسطةٍ ولا وكالةٍ ولا شركةٍ. و«ما» بمعنى الذي، وحُذفت الهاءُ لطولِ الاسم. وإن جَعَلْتَ«ما» مصدريةً لم تَحْتَجْ إلى إضمارِ الهاء.

﴿أَنْعَٰمًا﴾ جمعُ نَعَم، والنَّعَمُ مذكَّر. ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾: ضابِطون قاهِرون. ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ أي: سخَّرناها لهم، حتى يقود الصبيُّ الجملَ العظيم ويضربه ويصرِّفه كيف شاء لا يخرجُ من طاعته.

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ قراءةُ العامَّةِ بفتح الراء، أي: مَرْكوبُهم، كما يقال: ناقةٌ حَلوبٌ، أي: محلوب. وقرأ الأعمش والحسن وابن السَّمَيْفَع: «فمِنها رُكوبُهم» بضمِّ الراءِ على المصدر[٣]. وروي عن عائشةَ أنَّها قرأت: «فمِنها رَكوبَتُهم»[٤] وكذا في مُصْحَفِها[٥].

(١) السبعة ص٥٤٤، والتيسير ص١٨٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٢، والبحر ٧/ ٣٤٦، قال أبو حيان: هو مضارع نَذِر بكسر الذال إذا علم بالشيء فاستعدَّ له. وفيهما عن ابن السميفع أيضاً أنه قرأ: «لِيُنْذَر» بضم الياء وفتح الذال.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٦، والمحتسب ٢/ ٢١٦.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨١، والقراءات الشاذة ص١٢٦، والمحتسب ٢/ ٢١٦، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٦.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٨٢ عن عروة بن الزبير.

والرَّكوبُ والرَّكوبة واحدٌ، مثل: الحَلوب والحَلوبة، والحَمولُ الحَمولة. وحكى النحويون الكوفيون أنَّ العرب تقول: امرأةٌ صبور وشَكور بغير هاء. ويقولون: شاةٌ حَلوبةٌ، وناقةٌ رَكوبةٌ؛ لأنَّهم أرادوا أن يفرِّقوا بين ما كان له الفعلُ، وبين ما كان الفعلُ واقعاً عليه، فحذفوا الهاء ممَّا كان فاعلاً وأثبتوها فيما كان مفعولاً، كما قال:

فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلُوبَةً سُوداً كخافيةِ الغرابِ الأسْحَمِ[1]

فيجب أن يكون على هذا: رَكوبتهم. فأمَّا البصريون فيقولون: حُذفت الهاء على النسب. والحجةُ للقول الأول ما رواه الجَرْميُّ عن أبي عبيدةَ قال: الرَّكوبةُ تكون للواحدِ والجماعة، والرَّكُوب لا يكون إلَّا للجماعة. فعَلَى هذا يكونُ لتذكير الجمع. وزعم أبو حاتمٍ أنَّه لا يجوز: «فمِنها رُكوبُهم» بضمِّ الراء لأنَّه مصدرٌ، والرَّكُوب ما يُركب. وأجاز الفرَّاء[2]: «فمِنها رُكوبُهم» بضمِّ الراءِ، كما تقول: فمِنها أُكُلُهم ومنها شُربهم.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ مِن لُحمانِها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغيرِ ذلك. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ يعني ألبانَها، ولم يَنْصرِفا لأنَّهما من الجموع التي لا نظيرَ لها في الواحد [ولا يُجْمع][3]. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على نِعَمِه.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أي: قد رَأَوْا هذه الآياتِ من قُدْرَتنا، ثم اتَّخَذوا من دوننا آلهةً لا قدرةَ لها على فِعْلٍ. ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لِمَا يرجون من

(١) البيت لعنترة، وهو في ديوانه ص١٧ ، وسلف ٥/ ١١٨ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٦ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٧ ، وما بين حاصرتين منه.

نُصْرَتها لهم إنْ نزلَ بهم عذابٌ. ومِن العرب مَن يقول: لعلَّه أن يفعل.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني الآلهة. وجُمعوا بالواو والنون؛ لأنَّه أخبر عنهم بخبرِ الآدميِّين. ﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أي: للآلهة، ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ قال الحسن: يمنعون منهم ويدفعون عنهم[1]. وقال قتادة: أي: يغضبون لهم في الدنيا[2]. وقيل: المعنى أنهم يعبدون الآلهة ويقومون بها؛ فهم لها بمنزلة الجند، وهي لا تستطيع أن تنصرهم. وهذه الأقوالُ الثلاثةُ متقاربةُ المعنى. وقيل: إن الآلهة جندٌ للعابدين محضَرون معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض.وقيل: معناه: وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جندُ الله عليهم في جهنم؛ لأنهم يلعنونهم ويَتَبرَّؤون من عبادتهم. وقيل: الآلهة جندٌ لهم محضَرون يومَ القيامة لإعانتهم في ظنونهم.

وفي الخبر: إنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله، فيتبعونه إلى النار؛ فهم لهم جند محضرون.

قلت: ومعنى هذا الخبرِ ما ثَبَتَ في «صحيح» مسلمٍ[3] من حديث أبي هريرةَ، وفي الترمذيِّ عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يَجمعُ اللهُ الناسَ يومَ القيامةِ في صَعيدٍ واحدٍ، ثم يَطَّلِع عليهم ربُّ العالمين فيقولُ: أَلَا لِيَتْبَعْ كلُّ إنسانٍ ما كان يَعبدُ، فيُمثَّلُ لصاحبِ الصليبِ صَليبُه، ولصاحب التصاوير تَصاويرُه، ولصاحب النار نارُه، فَيَتْبَعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون» وذَكَر الحديثَ بطوله[4].

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ هذه اللغةُ الفصيحةُ، ومِن العرب مَن يقول: يُحزِنك[5].

والمرادُ تسليةُ نبيِّه عليه الصلاة والسلام، أي: لا يَحزُنك قولُهم: شاعر، ساحر.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٧ ، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٦٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٨٥ .

(٣) برقم (١٨٢) مطولاً، وسلف ١٢/ ٤٠٨ .

(٤) سنن الترمذي (٢٥٥٧)، وقال: حسن صحيح. وسلف ١٢/ ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٧ .

وتمَّ الكلامُ، ثم استأنفَ فقال: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مِن القول والعملِ وما يُظْهِرون، فنُجازِيهم بذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ قال ابن عباس: الإنسانُ هو عبدُ الله بن أُبَيٍّ[١]. وقال سعيد بن جبير: هو العاصُ بنُ وائل السَّهميّ[٢]. وقال الحسن: هو أميةُ بن خلف[٣]. وقال مجاهدٌ وقتادةُ[٤]: هو أُبيّ بن خَلَف الجُمَحيّ[٥]. وقاله ابن إسحاق، ورواه ابن وهبٍ عن مالك[٦].

﴿أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ وهو اليسيرُ من الماء، نَطَف: إذا قَطَر. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ أي: مُجادِلٌ في الخصومة مُبينٌ للحجَّة. يريد بذلك أنه صار بعد أنْ لم يكن شيئاً مذكوراً خصيماً مبيناً. وذلك أنه أتى النبيَّ ﷺ بعظمٍ حائلٍ فقال: يا محمدُ، أترى أنَّ الله يُحيي هذا بعد ما رَمَّ! فقال النبيُّ ﷺ: «نعم، ويَبعثُك الله ويُدخِلُك النار» فنزلت هذه الآية[٧].

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٨٧ . قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا منكر؛ لأن السورة مكية، وعبد الله ابن أبي ابن سلول إنما كان بالمدينة. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٤: وهو وهم ممن نسبه لابن عباس؛ لأن السورة والآية مكية بإجماع، ولأن عبد الله بن أبيٍّ لم يجاهر قط هذه المجاهرة.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٨٧ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٣ ، ونسبه أيضاً لمجاهد وقتادة.

(٤) من قوله: هو أمية . . . إلى هذا الموضع، ليس في (م).

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٩/ ٤٨٦ ، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ١٤٦ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤١: وعليه المفسرون.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٤ . وقول ابن إسحاق ذكره ابن هشام في السيرة ١/ ٣٦١ - ٣٦٢ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٤٦ ، والطبري ١٩/ ٤٨٦ عن قتادة. وينظر الدر المنثور ٥/ ٢٧١ -٢٧٢ .

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي: ونسي أنَّا أنشأناه من نطفةٍ ميتةٍ، فركَّبْنا فيه الحياة. أي: جوابُه من نفسِه حاضرٌ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «نعم، يُحييك[1] الله ويدخلُك النار» ففي هذا دليلٌ على صحة القياس؛ لأنَّ الله جلَّ وعزَّ احتجَّ على مُنْكِري البعثِ بالنشأة الأولى.

﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ أي: بالية. رَمَّ العظمُ فهو رَميمٌ ورُمَام. وإنَّما قال: رميم، ولم يقل: رميمة؛ لأنَّها معدولةٌ عن فاعلة، وما كان معدولاً عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن إعرابه[2]، كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨] أَسْقَطَ الهاء؛ لأنَّها مصروفةٌ عن باغية.

وقيل: إنَّ هذا الكافرَ قال للنبيِّ ﷺ: أرأيتَ إن سحقتُها وأَذْرَيتُها في الريح، أَيُعيدُها الله! فنزلت: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: من غير شيء، فهو قادرٌ على إعادتها في النشأة الثانية من شيء، وهو عَجْم الذَّنْب. ويقال: عَجْبُ الذَّنَب بالباء. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي: كيف يُبدئُ ويُعيد.

الثانية: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ في العظام حياة، وأنَّها تَنْجَسُ بالموت. وهو قولُ أبي حنيفةَ وبعضِ أصحابِ الشافعيِّ. وقال الشافعيُّ ﷺ: لا حياةَ فيها.[3]. وقد تقدَّم هذا في «النحل»[4].

فإن قيل: أراد بقوله: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ أصحابَ العظام، وإقامةُ المضافِ مُقامَ

---

(١) في (م): ويبعثك.

(٢) في تفسير البغوي ٤/ ٢٠ (والكلام منه): أخواته، بدل: إعرابه.

(٣) بنحوه في أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٣٥٥ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٤ .

(٤) ١٢/ ٣٩٥ - ٣٩٧ ، ولكنه ذكر ثَمَّةَ عن أبي حنيفة قوله بطهارة القرن والسن والعظم، وأنها لا تنجس بموت الحيوان، وهذا يوافق ما ذكره الجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٣٧٦ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٣٢ .

المضافِ إليه كثيرٌ في اللغة، موجودٌ في الشريعة.

قلنا: إنَّما يكون [ذلك] إذا احتيج [إليه] لضرورة، وليس هاهنا ضرورةٌ تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتقرُ إلى هذا التقدير، إذ الباري سبحانه قد أخبر به وهو قادرٌ عليه، والحقيقةُ تشهدُ له؛ فإنَّ الإحساس الذي هو علامةُ الحياةِ موجودٌ فيه؛ قاله ابن العربيّ[1].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ نبَّه تعالى على وَحْدانيته، ودلَّ على كمال قدرته في إحياء المَوْتَى، بما يشاهدونه من إخراج المُحرِقِ اليابسِ من العود النديِّ الرَّطْب. وذلك أنَّ الكافر قال: النطفةُ حارةٌ رطبةٌ بطبعِ الحياة، فخرج منها الحياة، والعظمُ باردٌ يابسٌ بطبع الموت، فكيف تخرج منه الحياة! فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي: إنَّ الشجر الأخضر من الماء، والماءُ باردٌ رطبٌ ضدُّ النار، وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار، فهو القادرُ على إخراج الضدِّ من الضد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير. ويعني بالآية ما في المَرْخ والعَفَار، وهي زنادةُ العرب؛ ومنه قولُهم: في كلِّ شجرٍ نارٌ واسْتَمجَدَ المَرْخُ والعَفَار[2]؛ فالعَفَارُ الزَّنْد، وهو الأعلى، والمَرْخُ الزَّنْدةُ، وهي الأسفل؛ يؤخَذُ منهما غصنان مثلُ

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٤ وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) جمهرة الأمثال ٢/ ٩٢ ، ومجمع الأمثال ٢/ ٧٤ ، والمستقصى ٢/ ١٨٣ ، والكشاف ٣/ ٣٣٢ . قال العسكري: يضرب في تفضيل الرجال بعضهم على بعض، أي: لكل واحد من هؤلاء فضل، إلا أن فلاناً أفضل.

المسواكَيْن[1] يقطران ماءً، فيُحَكُّ بعضُهما إلى بعضٍ، فتخرجُ منهما النار.

وقال: «مِن الشَّجَرِ الأَخضرِ» ولم يقل: الخضراء، وهو جمع؛ لأنَّه ردَّه إلى اللَّفْظ. ومِن العرب مَن يقول: الشجرُ الخضراء؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥٢-٥٣][2].

ثم قال تعالى محتجّاً: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي: أمثالَ المُنْكِرين للبعث. وقرأ سلَّام أبو المنذر ويعقوبُ الحضرميُّ[3]: «يَقْدِرُ على أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهم» على أنه فِعْل. ﴿بَلَىٰ﴾ أي: إنَّ خَلْقَ السماواتِ والأرضِ أعظمُ من خَلْقِهم، فالذي خَلَق السماواتِ والأرضَ يقدرُ على أنْ يبعثهم. ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وقرأ الحسن باختلافٍ عنه: «الْخالِقُ»[4].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قرأ الكسائيُّ «فَيَكُونَ» بالنصب[5] عطفاً على «يقول»، أي: إذا أراد خَلْقَ شيءٍ، لا يحتاجُ إلى تعبٍ ومُعالَجةٍ. وقد مضى هذا في غير موضع.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نزَّه نفسَه تعالى عن العجز والشَّرّ. ومَلكوتُ وَمَلَكُوتَى في كلام العرب بمعنى مِلْك. والعربُ تقول: جَبَروتَى خيرٌ مِن رَحَموتَى. وقال سعيدٌ عن قتادة: «مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ»: مفاتحُ كلِّ شيءٍ[6].

وقرأ طلحةُ بن مصرِّفٍ وإبراهيم التَّيْميُّ والأعمشُ: «مَلَكَةُ»[7]، وهو بمعنى

---

(١) في (خ): السواكين.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٨ .
(٣) في رواية رويس عنه. النشر ٢/ ٣٥٥ .
(٤) القراءات الشاذة ص١٢٦ .
(٥) وقرأ بها ابن عامر أيضاً. التيسير ص١٣٧ .
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٨ .
(٧) المحتسب ٢/ ٢١٧ .

ملكوت؛ إلَّا أنه خلافُ المصحف .﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تُردُّون وتَصيرون بعد مَماتكم. وقراءةُ العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَميُّ وزِرّ بنُ حُبيشٍ وأصحابُ عبد الله: «يرْجعُونَ» بالياء على الخبر.

تم الجزء السابع عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الثامن عشر ويبدأ بسورة الصافات

سُورَةُ يسٓ

مَكِّيَّةٌ، وعنهُ عليهِ السَّلامُ: «يس تُدْعَى المُعِمَّةَ تعمُّ صاحِبَهَا خيرَ الدَّارَينِ، والدَّافِعَةُ والقاضيَةُ، تدفَعُ عنهُ كُلَّ سُوءٍ، وتَقْضِي لهُ كلَّ حاجةٍ»[1].

وآيُها ثلاثٌ وثَمانونَ[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يسٓ﴾ كـ﴿الٓمٓ﴾ في المعنى والإعرابِ، وقيل: مَعناهُ: (يا إنسانُ) بلُغَةِ طَيِّئٍ[3]، ....

(١) رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢١٦)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٢٥٨)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٤٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٢٣٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٣٧)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه. وضعفه العقيلي بسليمان بن مرقاع الجندعي، وقال: لا يتابع على حديثه والحديث منكر ولا يعرف إلا بـه. وقال البيهقي: تفرد به محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الجدعاني، عن سليمان بن مرقاع، وهو منكر.

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢١١)، وفيه: وهي ثمانون وثلاث آيات في الكوفي، وآيتان في عدد الباقين، اختلافها آية ﴿يسٓ﴾ عدها الكوفي ولم يعدها الباقون.

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ١١٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٢٤٦)، عن ابن عباس، وذكره في «المحتسب» (٢/ ٢٠٣) عن الكلبي.

وروى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٩٨) من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: (يا إنسان) بالحبشية.

علـى أنَّ أصلُـه: (يـا أُنَيْسِـين) فاقتُصِرَ على شـطرِهِ لكثـرةِ النِّـداءِ به؛ كمَا قيـل: (مُنُ اللهِ)[1] فـي (ايمُنُ اللهِ).

وقرئ: بالكسرِ كجَيْرِ[2]، وبالفَتحِ[3] على البناءِ كأَيْنَ، أو الإعرابِ على: اتلُ يس، أو بإضمارِ حرفِ القَسمِ والفتحةُ لمنعِ الصَّرفِ، وبالضمِّ[4] بناءً كحَيْثُ، أو إعرابًا على: هذهِ يس.

وأمالَ الياءَ حمزَةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ ورَوْحٌ[5].

وأدغمَ النُّونَ في واوِ (٢) ـ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ابنُ عامرٍ والكِسائيُّ وورشٌ وأبو بكرٍ ويَعقوبُ[6]، وهي واوُ القَسَمِ، أو العطفِ إنْ جُعِلَ ﴿يسٓ﴾ مُقسَمًا بهِ.

(٣ ـ ٤) ـ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: لَمِنَ الذينَ أُرسِلُوا على صراطٍ مُستَقيمٍ، وهو التَّوحيدُ والاستقامةُ في الأمورِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ خبرًا ثانيًا، أو حالًا من المستكنِّ في الجارِّ

---

(١) في نسخة الخيالي: «مُ الله»، والمثبت من باقي النسخ، وكلاهما صواب، قال الطيبي: (وايمن الله): اسم وضع للقسم هكذا بضم الميم والنون وألفه ألف وصل، وربما حذفوا منه النون فقالوا: (ايم الله)، وربما حذفوا الياء وقالوا: (امُ الله)، وربما أبقوا الميم وحدها مضمومة وقالوا: (مُ الله). وفي «المقدمة الجزولية» (ص: ١٣٨): وفيه لغات: أيمن الله، إيمن الله، وليمن الله، وايم الله، إيم الله، ليم الله، مِنِ الله، مُنُ الله، مُ الله، ما الله، مِ الله.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥) عن أبي السمال.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٠٣)، عن عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق.

(٤) انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٠٣) عن الكلبي.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٨)، و«النشر» (٢/ ٧٠).

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٨)، و«النشر» (٢/ ٧٠).

والمجرورِ، وفائدتُه: وصفُ الشَّرعِ بالاستقامةِ صريحًا وإن دلَّ عليهِ ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ التزامًا.

(٥) ـ ﴿تنزِيلُ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ خبرُ محذوفٍ، والمصدرُ بمعنى المفعولِ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ وحمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ بالنَّصبِ[1] على إضمارِ: أَعْني، أو فعلِه على أنَّه على أصلِه، وقُرِئَ بالجرِّ على البدلِ مِن (القُرآنِ)[2].

(٦) ـ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿تَنزِيلَ﴾ أو بمَعنى ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3].

﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾: غيرَ مُنذَرٍ آباؤُهُم، يعني: آباءَهُم الأقربينَ لتطاوُلِ مُدَّةِ الفترةِ، فيكونُ صفةً مبيِّنةً لشدَّةِ حاجَتِهِم إلى إرسالِه، أو: الذي أُنذرَ بهِ، أو: شيئًا أُنذرَ بهِ آباؤُهُم الأبعدونَ، فيكونُ مفعولًا ثانيًا لـ(تُنْذِرَ)، أو: إنذارَ آبائِهِم على المصدرِ.

﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ مُتعلِّقٌ بالنَّفيِ على الأوَّلِ؛ أي: لم يُنذَرُوا فبقُوا غافلينَ، وبقولِه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ على الوُجوهِ الأُخرِ؛ أي: أرسلتُكَ[4] إليهم لتُنذِرَهُم فإنَّهُم غافلونَ.

(٧) ـ ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني: قولَه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّهُم ممَّنْ عُلِمَ أنَّهم لا يؤمنونَ.

(٨) ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ تقريرٌ لتَصميمِهم على الكُفرِ والطبعِ على قُلوبِهِم بحيثُ لا تُغْني عَنْهُم الآياتُ والنُّذُرُ بتَمثيلِهِم بالذينَ غُلَّتْ أَعْناقُهُم ﴿فَهِىَ

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٨٣).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥) عن اليزيدي.

(٣) قوله: «أو بمعنى لمن المرسلين»؛ أي: بإضمار فعل يدل عليه هذا اللفظ؛ أي: أرسلناك لتنذر. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٤٢).

(٤) في نسخة التفتازاني: «أرسلناك».

﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾: فالأغلالُ واصِلَةٌ إلى أذقانِهم ملزوزةٌ إليها، فلا تخلِّيهم يُطَأْطِئُونَ رُؤوسَهُم له.

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾: رافعونَ رُؤوسَهُم غاضُّونَ أبصارَهُم في أَنَّهُم لا يلتفتونَ لفتَ الحقِّ، ولا يَعْطِفونَ أعناقَهُم نحوَه، ولا يُطأطِئونَ رؤوسَهُم له.

وإنَّما وَصَف الغُلَّ بإيصاله إلى الذَّقنِ لأن طَرَفه الذي في عنقِ المغلولِ يكون في مُلْتَقَى طَرَفيه تحت الذَّقَنِ حَلْقةٌ فيها رأسُ العمود بارزاً من الحلقةِ إلى الذَّقَنِ، فلا تخلِّيه يطأطئُ رأسه ولا يُوْطِئُ قَذَالَهُ[١]، ويقال: قَمَحَ البعيرُ فهو قامحٌ: إذا رَوِيَ فرفع رأسَه وغضَّ بصرَه، ومنه: (شهرا قِمَاحٍ)[٢]؛ لأن الإبلَ ترفعُ رأسها فيهما لبردِ الماء.

(٩) - ﴿وجَعَلْنا مِن بينِ أيديهِم سُدًّا ومِن خَلْفِهم سُدًّا فأغشيناهم فهم لا يُبصِرون﴾ وبِمَنْ أحاطَ بهم[٣] سدَّانِ فغَطَّى أبصارَهُم بحيثُ لا يبصرونَ قُدَّامَهُم ووراءَهُم في أَنَّهُم مَحبوسونَ في مطمورةِ الجَهالةِ ممنوعونَ عن النَّظرِ في الآياتِ والدَّلائلِ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ: ﴿سَدًّا﴾ بالفَتحِ[٤]، وهو لُغَةٌ فيه، وقيل: ما كانَ بفعلِ النَّاسِ فبالفَتحِ، وما كان بخلقِ اللهِ فبالضمِّ.

وقُرِئَ: (فَأَعْشَيْنَاهُم) مِن العَشَا[٥].

---

(١) قوله: «ويوطئ قذاله» القذال: جماعُ مؤخَّر الرأس. انظر: «الصحاح» (مادة: قذل).

(٢) قوله: «شهرا قماح» بوزن كتاب وغراب: أشد ما يكون البرد. انظر: «القاموس» (مادة: قمح). وفي «الصحاح»: سميا بذلك لأن الإبل إذا وردت فيهما آذاها برد الماء فقامحت، وقامحت إبلك: إذا وردت ولم تشرب ورفعت رأسها من داء يكون بها أو برد.

(٣) قوله: «وبمن أحاط بهم» عطف على «بالذين غُلَّت أعناقهم». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٤٣).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٨٣).

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٠٤)، عن ابن عباس وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والحسن وغيرهم.

وقيل: الآيتانِ في بني مخزومٍ، حلفَ أبو جَهْلٍ أن يرضخَ رأسَ النبيِّ عليهِ السَّلامُ، فأتاهُ وهوَ يُصَلِّي ومعَهُ حجَرٌ ليدمغَهُ، فلَمَّا رفعَ يدَهُ انْثَنَتْ إلى عنقِه، ولزقَ الحجرُ بيدِه حتى فكُّوهُ عنها بجهدٍ، فرجعَ إلى قومِهِ فأخبرَهُم، فقالَ مَخزوميٌّ آخرُ: أنا أقتلُهُ بهذا الحَجَرِ، فذهبَ فأعماهُ اللهُ تَعالى(١).

(١٠) ـ ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ سبقَ في البَقَرةِ تفسيرُه.

(١١) ـ ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ إنذارًا يترتَّبُ عليهِ البغيةُ المرومةُ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾؛ أي: القرآنَ بالتَّأمُّلِ فيه والعَملِ بهِ ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾: وخافَ عِقابَهُ قبلَ حُلولِه ومُعاينَـةِ أَهوالِـهِ، أو في سَـريرَتِه، ولا يغتـرُّ برَحمَتِهِ فإنَّـه كما هو رحمـنٌ مُنتقِمٌ قهَّارٌ ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾.

(١٢) ـ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾: الأمواتَ بالبعثِ، أو الجُهَّالَ بالهِدايةِ(٢).

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾: ما أسلَفوا مِن الأعمالِ الصَّالحةِ والطَّالحةِ.

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ الحسنةَ؛ كعلمٍ عَلَّموهُ وحبيسٍ وَقَفوهُ، والسَّيِّئَةَ كإشاعةِ باطلٍ وتأسيسِ ظُلمٍ.

---

(١) القصة ذكرها مع زيادة في آخرها: الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٢٤٨) دون سند، ورواها أبو نعيم في «دلائل النبوة» (١٥٢) من طريق المعتمر بن سليمان عن أبيه، ومختصرة: الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧) عن عكرمة، وهي في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩) دون ذكر النزول، وكذا رواها أبو نعيم في «دلائل النبوة» (١٥٦) من طريق محمد بن إسحاقَ، عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس.

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٩) عن الضحاك، وأبو حيان في «البحر» (١٨/ ٨٠) عن الحسن والضحاك واستبعده. ولعل سبب استبعاده أنه ارتكاب مجاز بلا ضرورة، والحمل على الحقيقة أولى.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: اللوحَ المَحفوظَ.

(١٣) ـ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾: ومثِّلْ لَهُم، مِن قولهم: هذهِ الأشياءُ على ضَرْبٍ واحدٍ؛ أي: مثالٍ واحدٍ، وهو يتعدَّى إلى مَفعولَيْنِ لتَضمُّنِهِ مَعنى الجعلِ وهما: ﴿مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ على حذفِ مُضافٍ؛ أي: اجعَلْ لهم مثلَ أصحابِ القَريَةِ مثلًا، ويجوزُ أن يُقتصَرَ على واحدٍ ويُجعلَ المقدَّرُ بدلًا من الملفوظِ أو بيانًا له، والقريةُ أنطاكيةُ.

﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بدلٌ مِن ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾، و﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: رسلُ عيسى عليه السَّلامُ إلى أهلِها[1]، وإضافَتُه[2] إلى نفسِه في قولِه:

(١٤) ـ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ لأنَّه فعلُ رسولِه وخَليفَتِه، وهما: يحيى وبَوْلَسُ[3]، وقيلَ: غيرُهما.

---

(١) القول بأن القرية هي أنطاكية وأن الرسل من عيسى عليه السلام ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٢٦١) عن وهب بن منبه، وهو متداول في أكثر كتب التفسير، لكن لم يرتضِ أيًّا منهما ابنُ كثير رحمه، فنظر في ذلك ـ في «تفسيره» عند هذه الآيات ـ من وجوه عدَّدها ثم قال: فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً، أو تكون أنطاكيةُ ـ إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة ـ مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «وإسناده». وأشار إلى النسختين الأنصاري في «حاشيته» (٤/ ٥٤٤).

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «ويونس»، والمثبت من نسخة الفاروقي والخيالي، وكتب تحته في نسخة الفاروقي: (بَولَس) بفتح الباء الموحدة وفتح اللام؛ شرح المفتاح للسيد) قال الخفاجي: وقولُه: (كيحيى ويونس) وقعَ في نسخَةٍ بدلَهُ: (يوحنا وبولص)، وهوَ الَّذي صحَّحَهُ الشَّريف في شرحِ «المفتاحِ» وبه يندفعُ السُّؤال الأوَّل وهذهِ النُّسخَة هيَ الَّتي عليها المعوّل؛ لأنْ يونس عليهِ =

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾: فقوَّينا، وقرأه أبو بكرٍ مخففًا[1] من عزَّهُ: إذا غلبَهُ، وحُذفَ المفعولُ لدلالةِ ما قبلَهُ عليه، ولأنَّ المقصودَ ذكرُ المُعَزِّ به ﴿بِثَالِثٍ﴾ هو شَمْعونُ.

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ وذلك أنَّهُم كانوا عبدَةَ أصنامٍ، فأرسلَ إِلَيْهِم عِيسَى اثنَيْنِ، فلَمَّا قَرُبَا مِن المدينَةِ رَأَيَا حَبِيبًا النَّجَّارَ يَرْعَى غنمًا فسَألَهُما فأخبراهُ، فقال: أمعَكُما آيةٌ؟ فقالا: نَشْفِي المريضَ ونُبْرِئُ الأكمَهَ والأبرَصَ، وكانَ لهُ وَلَدٌ مَريضٌ فمَسَحاهُ فبَرِئَ فآمنَ حَبيبٌ، وفشا الخبرُ فشُفِيَ على أيديهِمَا خلقٌ، وبلغَ حَديثُهُما إلى الملكِ وقال لهما: أَلَنَا إلهٌ سِوَى آلهتِنا، قالا: نعم، مَن أوجدَكَ وآلهتَك، قال: قُوما حتى أنظُرَ في أمرِكُما، فحَبَسَهُما، ثمَّ بعثَ عِيسَى شَمْعُونَ فدخلَ مُتنكِّرًا، وعاشرَ أصحابَ الملكِ حتَّى استَأْنَسُوا به، وأوصَلُوهُ إلى الملكِ فأَنِسَ به، فقالَ له يومًا: سمعْتُ أَنَّكَ حَبَسْتَ رَجُلَيْنِ فهَلْ سمعتَ ما يَقولانِه؟ قال: لا، فدعاهما، فقال شَمْعُونُ: مَن أرسلَكُمَا؟ قالا: اللهُ الذي خلقَ كلَّ شَيءٍ وليسَ لَهُ شَرِيكٌ، فقال: صِفَاهُ وأَوْجِزَا، قالا: يفعَلُ ما يَشاءُ ويَحْكُم ما يُريدُ، قال: وما آيَتُكُما؟ قالا: ما يَتمنَّى الملكُ، فدَعَا بغُلامٍ مَطمُوسِ العَيْنينِ فدَعَوَا اللهَ حتَّى انشَقَّ له بَصرٌ، وأَخَذَا بُندُقَتَينِ فوُضِعَا في حدقتَيْهِ فصارتَا مُقلَتَيْنِ ينظرُ بِهِمَا، فقال له شَمعونُ: أرأيتَ لَوْ سَأَلْتَ إلهكَ حتَّى يصنَعَ مثلَ هذا، حتى يكونَ لكَ وله الشَّرَفُ، قال: ليسَ لي عنكَ سِرٌّ، إنَّ إلهنا لا يَسمعُ ولا يُبصِرُ ولا يَضُرُّ ولا يَنفعُ[2]، ثم قال: إنْ قدرَ إلهُكما على إحياء

= الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يدرك زمن عيسى، وإن أدركه يحيى كما فُصِّلَ في التواريخ. انظر: «حاشية الخفاجي»، والقول بأنهما يحيى وبولس ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٢٦٤) والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٢) عن وهب.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٨٣).

(٢) في نسخة التفتازاني: «إن آلهتنا لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع».

ميتٍ آمنَّا به، فدَعَوْا بغُلَامٍ ماتَ منذُ سبعةِ أيَّامٍ، فدَعَوَا فقامَ وقال: إنِّي أُدخلتُ في سبعَةِ أَودِيَةٍ مِن النَّارِ، وأنا أُحَذِّرُكُم ما أنتُمْ فيه فآمِنُوا، وقال: فُتِحَت أبوابُ السَّماءِ فرَأَيتُ شَابًّا حَسنًا يشفَعُ لهؤلاءِ الثَّلاثةِ شَمْعُون وهَذانِ، فلَمَّا رأَى شمعونُ أنَّ قولَهُ قد أَثَّرَ فيه نَصَحَهُ فآمَنَ في جمعٍ، ومَنْ لَمْ يُؤمِنْ صَاحَ عَليهِمْ جِبريلُ فهَلَكُوا[1].

(١٥) ـ ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مَزِيَّةَ لَكُم عَلَينَا تقتَضِي اختِصاصَكُم بما تَدَّعونَ، ورفعُ ﴿بَشَرٌ﴾ لانتقاضِ النَّفيِ ـ المُقتَضِي إعمالَ ﴿مَآ﴾ ـ بـ﴿إِلَّا﴾.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾: مِن وحيٍ ورسالةٍ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دَعوى رسالتِه.

(١٦) ـ ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ استَشْهَدُوا بعلمِ اللهِ، وهو يجرِي مَجْرَى القسمِ، وزادُوا اللامَ المؤكِّدةَ لأنَّه جوابٌ عن إنكارِهِم.

(١٧) ـ ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾: الظَّاهرُ البيِّنُ بالآياتِ الشَّاهِدةِ بصِحَّتِه، وهو المحسِّنُ للاستشهادِ فإنَّه لا يَحْسُنُ إلا ببيِّنَةٍ.

(١٨) ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾: تشاءَمْنَا بِكُم، وذلك لاستغرابِهم ما ادَّعَوهُ واستقباحِهِم لهُ وتَنفُّرِهِم عنه ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عن مَقالَتِكُم هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) ذكره الثعلبيُّ في «تفسيره» (٢٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١١ ـ ١٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية، عن وهبٍ، وهو مما أخذه وهب من أهل الكتاب. وليس عند الثعلبي والبغوي: «ومَن لم يُؤْمِن صَاح عليهم جبريلُ فهَلَكُوا»، وذكرا بدلاً منه: وقال ابن إسحاق عن كعب ووهب: بل كفر الملك، وأجمع هو وقومه على قتل الرسل، فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة الأقصى، فجاء يسعى إليهم ويذكِّرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين، فذلك قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾.

(١٩) ـ ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ ﴾: سببُ شُؤمِكُم مَعكُم، وهو سوءُ عَقيدَتِكُم وأعمالِكُم.

وقُرِئَ: (طَيْرُكُم)[1].

﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾: وُعِظْتُم، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ مثل: تَطيَّرْتُم، أو: تَوعَّدْتُم بالرَّجمِ والتَّعذيبِ.

وقد قرئ بألفٍ بينَ الهمزتينِ[2].

وبفَتحِ (أَنْ)[3] بمَعنى: أَتَطَيَّرْتُم لِأَن ذُكِّرْتُم.

و: (أَنْ) و: (إِن) بغيرِ استفهامٍ[4].

و: (أَيْنَ ذُكِرْتُم)[5] بمعنى: طائِرُكُم معكُم حيثُ جَرى ذِكرُكُم، وهو أبلَغُ[6].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥)، و«تفسير الثعلبي» (٢٢/ ٢٦٥) عن الحسن والأعرج.

(٢) قرأ بها هشام. انظر: «التيسير» (ص: ٣٢).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٧٤) عن أبي رزين من أصحاب ابن مسعود، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥)، و«البحر (١٨/ ٨٥)، عن زر بن حبيش.

(٤) نسبت الأولى للماجشون يوسف بن يعقوب المدني، والثانية للحسن وخالد بن إياس. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٠٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٥٠).

(٥) أي: (أين) بهمزة مفتوحة وياء ساكنة وفتحِ النون ظرفُ مكان (ذكرتم) بتخفيف الكاف على أن (أين) ظرفٌ أداةُ شرط وجوابها محذوف لدلالة (طائركم) عليه، نسبت للحسن وقتادة والأعمش وغيرهم، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٠٥)، و«البحر» (١٨/ ٨٥).

(٦) عبارة الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ٢٤٩): (أي: شُؤمُكم مَعَكم حَيْثُ جَرى ذِكْرُكُم، وإذا شُئِّمَ المكانُ بذِكرهم كان بحُلُولِهم فيه أشأَمَ). وفيها بيان المراد بالأبلغية.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: قومٌ عادَتُكُم الإسرافُ في العِصْيانِ فمِن ثَمَّ جاءَكُم الشُّؤمُ.

أو: في الضَّلالِ، ولذلك تَوعَّدْتُم وتشاءَمْتُم بمَن يجبُ أن يُكرَمَ ويُتبرَّكَ به.

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو حبيبٌ النَّجَّارُ، وكانَ يَنحِتُ أصنامَهُم، وهو ممَّنْ آمَنَ بمُحمَّدٍ عليه السَّلامُ وبينَهُما ستُّ مئةِ سنةٍ.

وقيل: كانَ في غارٍ يعبدُ اللهَ فلمَّا بلغَهُ خبرُ الرُّسلِ أظهرَ دينَه[1].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ على النُّصحِ وتَبليغِ الرِّسالَةِ ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى خَيرِ الدَّارينِ.

(٢٢) ـ ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ـ على قراءةِ غيرِ حمزةَ، فإنَّه يسكنُ الياءَ في الوصلِ[2] ـ تلطَّفَ في الإرشادِ بإيرادِه[3] في مَعرِضِ المُناصحَةِ لنَفسِه، وإمحاضِ النُّصحِ حيثُ أرادَ لهم ما أرادَ لَها، والمرادُ: تَقريعُهُم على تَركِهِم عِبادَةَ خالِقِهِم إلى عبادةِ غيرِه، ولذلكَ قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغةً في التَّهديدِ، ثمَّ عادَ إلى المساقِ الأوَّلِ فقال:

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾: لا تَنفعُني شفاعَتُهُم ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ بالنَّصرِ والمُظاهرَةِ ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإنَّ إيثارَ ما لا ينفعُ ولا يدفعُ ضرًّا بوجهٍ مّا على الخالقِ المقتدِرِ على النَّفعِ والضرِّ وإشراكَهُ به ضلالٌ بَيِّنٌ لا يَخفى على عاقلٍ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٧٧).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٤).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «بإبرازه».

وقرأ نافِعٌ ويَعقوبُ وأبو عمرٍو بفَتحِ الياءِ[1].

(٢٥) ـ ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ الـذي خلقَكُـم، وقـرأ نافـعٌ وابـنُ كَثيـرٍ وأبو عمـرٍو بفتحِ اليَـاءِ[2].

﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾: فاسمَعوا إيماني.

وقيل: الخِطابُ للرُّسُلِ، فإنَّه لَمَّا نصحَ قومَهُ أَخَذوا يَرجمونَهُ، فأسرعَ نحوَهُم قبلَ أَنْ يَقتلُوه.

(٢٦ ـ ٢٧) ـ ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ قيلَ له ذلك لَمَّا قَتلُوه؛ بُشرى بأَنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ، أو إكرامًا وإذنًا في دُخولِها كسائرِ الشُّهداءِ، أو لَمَّا هَمُّوا بقَتلِهِ فرفعَهُ اللهُ إلى الجنَّةِ على ما قالَهُ الحَسَنُ[3]، وإنَّما لم يُقَل: (له) لأنَّ الغرضَ بيانُ المقولِ دونَ المقولِ لهُ فإنَّه مَعلومٌ.

والكلامُ استئنافٌ في حيِّزِ الجوابِ عـن السُّؤالِ عن حالِهِ عندَ لِقاءِ رَبِّهِ بعدَ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٥)، ولم أقف على قراءة يعقوب بالفتح، والذي في «النشر» (٢/ ١٦٧)، و«المبسوط» لابن مهران (ص: ٢٤٣): فتحها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر، وأسكنها الباقون.

وقال الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٥٤٧): وفي نسخة بإسقاط يعقوب، وهو الصواب، فإنه إنما يقرأ بسكونها.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٤).

(٣) ذكره عن الحسن: الكرمانيُّ في «لباب التفاسير» (٦/ ٣٧٣)، والقشيري في «التيسير في التفسير» (٦/ ١١٢) وعنه القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٩)، وتعقبه الآلوسي في «روح المعاني» (٢٢/ ٢٢٨) بقوله: «والجمهور على أنه قتل». وذكر ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٥١) أن الأحاديث والروايات تواترت بذلك.

تَصلُّبِه في نصرِ دينِه، وكذلك[١]: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ فإنَّه جوابٌ عن السُّؤالِ عن قولِه عندَ ذلك القولِ له.

وإنَّما تَمنَّى عِلمَ قومِه بحالِه ليحملَهُم على اكتسابِ مِثلِها بالتَّوبَةِ عن الكُفرِ والدُّخولِ في الإيمانِ والطَّاعةِ، على دأبِ الأولياءِ في كَظْمِ الغَيظِ والتَّرحُّمِ على الأعداءِ، أو لِيَعلَموا[٢] أنَّهُم كانوا على خطأٍ عَظيمٍ في أمرِه، وأنَّه كانَ عَلى حَقٍّ.

وقُرِئَ: (من المُكرَّمينَ)[٣].

و(ما) خبريَّةٌ أو مصدريَّةٌ والباءُ صِلَةُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، أو استفهاميَّةٌ جاءَتْ على الأصلِ والباءُ صِلَةُ ﴿غَفَرَ﴾؛ أي: بأيِّ شَيءٍ غفرَ لي، يريدُ به المهاجرةَ عن دينِهم والمصابرةَ على أَذِيَّتِهم.

(٢٨) ـ ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: مِن بَعدِ إهلاكِه أو رفعِه ﴿مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «ولذلك». قال الخفاجي: قولُه: (وكذلكَ... إلخ) بكافِ التَّشبيه؛ أي: هذهِ الجُملَة أيضًا مُستأنفَة استئنافًا بيانيًّا كالتي قبلها في جوابِ فما قالَ إذ قيلَ لهُ ذلكَ؟، ووقعَ في نسخَةٍ: (لذلكَ) باللَّام في نسخة؛ أي: للاستئنافِ هذا الكلام أيضًا، ولا يَخفى أنَّهُ تكلُّفٌ لحسنِ الظَّنِّ بالكاتبِ دون المُصنِّف. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الخيالي: «وليعلموا». وعليها شرح الخفاجي فقال: قولُه: (وليعلمُوا) بالعطفِ بالواوِ، وهوَ الظَّاهرُ، إذ لا مُنافاةَ بينهما، وما وقعَ من عطفه بـ«أو» في بعضِ النُّسخِ؛ لتباينِ الغرض فيهما. انظر: «حاشية الخفاجي».

وقال القونوي: قوله: (أو ليعلموا) أي لعلهم يرجعون عما كانوا عليهم، ولا مانع من جمع النكتتين فـ(أو) لمنع الخلو، ولما كان حصول العلم محالا لهم قال: ﴿يَٰلَيۡتَ﴾ ولم يقل لعل. انظر: «حاشية القونوي» (١٦/ ١١٨).

(٣) انظر: «الكشاف» (٧/ ٢٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٣٢)، و«البحر» (١٨/ ٩٣)، دون نسبة.

لإهلاكِهِم، كما أرسلنا يومَ بَدرٍ والخندقِ، بل كفينا أمرَهُم بصيحَةِ مَلَكٍ، وفيه استِحقارٌ لإهلاكِهِم وإيماءٌ بتَعظيمِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ.

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾: وما صَحَّ في حِكمتِنَا[1] أن ننزلَ جندًا لإهلاكِ قومِه، إذ قَدَّرْنَا لكلِّ شيءٍ سببًا، وجعَلْنَا ذلك سببًا لانتصارِكَ مِن قومِك.

وقيل: (ما) موصولةٌ مَعطوفةٌ على ﴿جُندٍ﴾؛ أي: وما كنَّا مُنزلينَ على مَن قبلَهُم مِن حجارةٍ وريحٍ وأمطارٍ شَديدَةٍ.

(٢٩) ـ ﴿إِن كَانَتْ﴾: ما كانَتِ الأخذَةُ أو العقوبةُ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاحَ بها جِبريلُ، وقُرِئَت بالرَّفعِ[2] على (كانَ) التامَّةِ.

﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾: ميِّتونَ، شُبِّهُوا بالنَّارِ رَمْزًا إلى أنَّ الحيَّ كالنَّارِ السَّاطعةِ والميتَ كرَمادِها، كما قالَ لَبيدٌ:

وَمَا المَرْءُ إِلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ[3]

(٣٠) ـ ﴿يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ تَعَالَيْ فهذهِ مِنَ الأَحْوَالِ التي مِنْ حَقِّهَا أَنْ تَحضُرِي فيها، وهي ما دلَّ عَليها: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فإنَّ المُستَهْزِئينَ بالنَّاصحينَ المُخلصينَ المَنوطِ بنُصحِهِم خيرُ الدَّارينِ أَحِقَّاءُ بأَنْ يَتحَسَّرُوا ويُتحَسَّرَ عليهم، وقَدْ تلهَّفَ على حالِهم الملائكةُ والمُؤمنونَ مِن الثَّقلينِ.

ونصبُها: لطُولِها بالجارِّ المُتعلِّقِ بها[4]، وقيل: بإضمارِ فِعلِهَا والمُنادَى محذوفٌ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «حكمنا».

(٢) وهي قراءة أبي جعفر المدني، انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٣).

(٣) انظر: «ديوان لبيد» (ص: ٥٦)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٢٧٠).

(٤) قوله: «ونصبها لطُولها بالجار المتعلق بها»: جواب ما يقال: ﴿يَاحَسْرَةً﴾ مفرد، فكيف نُصب؟ فأجاب بأنه مُطوَّل؛ أي: شبيه بالمضاف. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٤٩).

ويجوزُ أَنْ يكونَ تَحسُّرًا مِن اللهِ عَلَيهِم على سبيلِ الاستعارةِ لتَعظيمِ ما جَنَوْه على أنفُسِهِم، ويؤيِّدُه قراءة: (يا حَسْرَتَا)[١].

وقُرِئَ: (يا حَسْرَةَ العِبَادِ)[٢] بالإضافةِ إلى الفاعِلِ أو المفعولِ.

و: (يَا حَسْرَهْ على العِبادِ)[٣] بإجراءِ الوَصلِ مُجرَى الوَقفِ.

(٣١) ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾: ألم يَعلَمُوا، وهو مُعلَّقٌ عن قولِه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ لأنَّ (كم) لا يعمَلُ فيها ما قبلَها وإن كانَتْ خبريَّةً؛ لأنَّ أصلَها الاستفهامُ.

﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدلٌ مِن ﴿كَمْ﴾ على المَعنى لا على اللفظ[٤]؛ أي: أَلَمْ يَرَوْا كثرةَ إهلاكِنا مَن قبلَهُم كونَهُم غيرَ راجعينَ إليهِم. وقُرِئَ بالكَسْرِ على الاستئنافِ[٥].

(٣٢) ـ ﴿وإنْ كلٌّ لَمَا جميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرون﴾ يومَ القِيامَةِ للجَزاءِ، و(إنْ) مُخفَّفَةٌ مِن الثَّقيلةِ، واللامُ هي الفارقَةُ، و(ما) مَزيدةٌ للتَّأكيدِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصِمٌ وحمزَةُ: ﴿لَّمَّا﴾ بالتَّشديدِ[٦] بمعنى (إلا)، فتكونُ (إنْ) نافيةً.

---

(١) لأن المعنى: يا حسرتي. انظر: «الكشاف» (٧/ ٢٥٧)، و«البحر المحيط» (١٨/ ٩٧)، دون نسبة.

(٢) نسبت لابن عباس وأُبيٍّ والحسن وعلي بن الحسين وغيرهم، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٠٨)، و«البحر المحيط» (١٨/ ٩٦).

(٣) نسبت للأعرج ومسلم بن جندب وأبي الزناد عبد الله بن ذكوان المدني، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٠٨)، و«البحر المحيط» (١٨/ ٩٦).

(٤) في نسخة التفتازاني زيادة: «لا على اللفظ».

(٥) وهي قراءة الحسن، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥ ـ ١٢٦).

(٦) وقراءة باقي السبعة بالتخفيف. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٦).

و﴿جَمِيعٌ﴾ فَعِيلٌ بمعنى مَفعولٍ، و﴿لَّدَيْنَا﴾ ظرفٌ له أو لـ﴿مُحْضَرُونَ﴾.

(٣٣) ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ وقرأ نافعٌ بالتَّشديدِ[١].

﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ خبرٌ لـ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ والجُملَةُ خبرُ (آيةٌ)، أو صِفَةٌ لها ـ إذ لم يُرِدْ بها مُعيَّنَةً ـ وهي الخبرُ، أو المبتدأُ والآيةُ خبرُهَا، أو استئنافٌ[٢] لبَيانِ كونِها آيةً[٣].

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾: جنسَ الحَبِّ ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدَّمَ الصِّلَةَ للدلالةِ على أنَّ الحبَّ مُعظَمُ ما يؤكَلُ ويُعاشُ بهِ.

(٣٤) ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾: مِن أنواعِ النَّخلِ والعنبِ، ولذلك جمعَهُما دونَ الحَبِّ، فإنَّ الدَّالَّ على الجنسِ مُشعِرٌ بالاختلافِ ولا كذلك الدَّالُّ على الأنواعِ، وذكرُ النَّخيلِ دونَ التُّمورِ ليطابقَ الحبَّ والأعنابَ؛ لاختصاصِ شَجرِهَا بمزيدِ النَّفعِ وآثارِ الصُّنعِ.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[٤]، والفَجْرُ والتَّفجيرُ كالفَتْحِ والتَّفْتيحِ لفظًا ومعنًى.

﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾؛ أي: شيئًا مِن العُيونِ، فحُذِفَ الموصوفُ وأقيمَتِ الصِّفَةُ مُقامَه، أو: العيونَ، و(مِن) مزيدةٌ عندَ الأخفَشِ.

---

(١) وباقي السبعة بالتخفيف، انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

(٢) قوله: «والجملة»؛ أي: الجملة الكبرى «خبر (آية)، أو صفة لها»؛ أي: للأرض؛ «إذ لم يرد بها»؛ أي: بالأرض «وهي»؛ أي: الأرض «الخبر»؛ أي: لـ(آية)، «أو» هي «المبتدأ والآية خبرها» مقدَّم عليها، «أو استئناف» عطف على «خبر للأرض». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٥٠)

(٣) قوله: «لبيان كونها آية» كأن قائلًا قال: كيف تكون الأرض الميتة آية؟ فقال: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾. انظر: «فتوح الغيب» (١٣/ ٤١).

(٤) نسبت لجناح بن حبيش، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٦).

(٣٥) ـ ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ ﴾: ثمرِ ما ذُكِرَ وهو الجَنَّاتُ.

وقيل: الضَّميرُ للهِ على طريقَةِ الالتفاتِ، والإضافةُ إليه لأنَّ الثَّمرَ بخَلْقِه.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ بضَمَّتينِ[١]، وهو لغةٌ فيه أو جمعُ ثمارٍ، وقُرِئَ بضَمَّةٍ وسُكونٍ[٢].

﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ عطفٌ على الثَّمرِ، والمرادُ: ما يُتَّخَذُ منه كالعَصيرِ والدِّبسِ ونحوِهما.

وقيل: (ما) نافيةٌ، والمرادُ: أنَّ الثَّمرَ بخلقِ اللهِ لا بفِعْلِهِم، ويؤيِّدُ الأوَّلَ قراءةُ الكوفيِّينَ غيرَ حفصٍ بلا هاءٍ[٣]، فإن حذفَه مِن الصِّلَةِ أحسَنُ مِن غيرِها.

﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أمرٌ بالشُّكرِ مِن حيثُ إنَّه إنكارٌ لتَركِه.

(٣٦) ـ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾: الأنواعَ والأصنافَ ﴿ مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ مِن النَّباتِ والشَّجرِ ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ الذكرِ والأُنثى ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾: وأزواجًا ممَّا لم يُطْلِعْهم اللهُ عليه ولم يجعَلْ لَهُم طريقًا إلى مَعرِفَتِه.

(٣٧) ـ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾: نُزيلُه ونكشفُ عن مَكانِه، مُستعارٌ مِن سلخِ الجلدِ، والكلامِ في إعرابِه ما سبقَ ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾: داخلونَ في الظَّلامِ.

(٣٨) ـ ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾: لحدٍّ مُعيَّنٍ ينتَهِي إليه دورُها، فشُبِّهَ بمُستَقَرِّ المُسافرِ إذا قطعَ مسيرَهُ.

---

(١) والباقون بفتحتين، انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٥).

(٢) قرأ بها الأعمش كما في «تفسير الثعلبي» (٢٢/ ٢٧٣)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٥٤٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٥٣).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي وشعبة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٨٤).

أو: لكبدِ السَّماءِ، فإنَّ حركتَها فيه يُوجِدُ إبطاءً بحيثُ يُظنُّ أنَّ لها هناك وِقفةً، قال:

والشَّـمْسُ حَيْـرَى لَهَـا بِالجَـوِّ تَدْوِيمُ[1]

أو: لاستقرارٍ لها على نهجٍ مَخصوصٍ.

أو: لِمُنتهًى مُقدَّرٍ لكلِّ يومٍ مِن المشارقِ والمغاربِ، فإنَّ لها في دورِها ثلاثَ مئةٍ وستِّينَ مَشرِقًا ومَغرِبًا تطلعُ كلَّ يومٍ مِن مطلعٍ وتَغربُ مِن مَغربٍ، ثمَّ لا تعودُ إليهِمَا إلى العامِ القابلِ.

أو: لمنقطَعِ جَرْيِها عندَ خَرابِ العالمِ.

وقُرِئَ: (لا مُسْتَقَرَّ لَها)[2]؛ أي: لا سُكونَ فإنَّها مُتحرِّكَةٌ دائمًا.

---

(١) عجز بيت لذي الرمة وهو في «ديوانه» (ص: ٢٥٨)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٦١٠)، وصدره:

مُعْرَوريـاً رمـَضَ الرَّضْـراض يركضُـه

«معروريا»: ليس دونه شيءٌ يستره، يقول: الجندب قد اعرورى. رمَض الرضراض؛ أي: ركبه وعلاه ليس دونه شيء يستره. يقول: باشر الرمضاء، لا شيء بينه وبينها يستره. والرمض: شدة الحر والرمضاء. و«الرضراض»: الحصى الصغار. «يركضه»: ينزو ويضرب برجله. و«الشمس حيرى»، أي: متحيرة، كأنها لا تبرح من طول النهار وشدة الحر. وكأنها تحيرت لا تمضي من بطئها، وقوله: «تدويم»؛ أي: تدويرٌ. يقول: كأنها لا تمضي وهي تدور على رأسه ولا تبرح. عن الباهلي شارح الديوان. وفي نسخة الفاروقي: «في الجو»، وهي رواية بعض المصادر.

(٢) نسبت لابن مسعود وابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبي رباح وأبي جعفر محمد بن علي وأبي عبد الله جعفر بن محمد وعلي بن الحسين. انظر: «تفسير يحيى بن سلام» (٢/ ٨٠٨)، و«فضائل القرآن» لأبي عبيد (ص: ٣١٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٨٧)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٤٩٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢١٢)، و«تفسير الثعلبي» (٢٢/ ٢٧٦)، و«البحر المحيط» (١٨/ ١٠٨).

و: (لا مُسْتَقَرٌّ)[(١)] على أنَّ (لا) بمعنى (ليس).

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجريُ على هذا التَّقديرِ المُتضمِّنِ للحِكَمِ التي تَكِلُّ الفِطَنُ عن إحصائِها ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾: الغالبِ بقُدرَتِه على كلِّ مَقدورٍ ﴿الْعَلِيمِ﴾: المُحيطِ عِلْمُه بكُلِّ مَعلُومٍ.

(٣٩) - ﴿والقمرُ قَدَّرْناهُ﴾: قَدَّرْنَا مَسيرَهُ ﴿مَنَازِلَ﴾؛ أو: سيرَهُ في منازلَ وهيَ ثَمانِيَةٌ وعِشرونَ: الشَّرطَانُ، البُطَيْنُ، الثُّرَيَّا، الدَّبَرَانُ، الهَقْعَةُ، الهَنْعَةُ، الذِّرَاعُ، النَّثْرَةُ، الطَّرْفُ، الجَبْهَةُ، الزُّبْرَةُ، الصَّرْفَةُ، العَوَّاءُ، السِّمَاكُ، الغَفْرُ، الزُّبَانَى، الإِكْلِيلُ، القَلْبُ، الشَّوْلَةُ، النَّعَائِمُ، البَلْدَةُ، سَعْدُ الذَّابِحُ، سَعْدُ بُلَعَ، سَعْدُ السُّعُودِ، سَعْدُ الأَخْبِيَةِ، فَرْغُ الدَّلْوِ المُقَدَّمُ، فَرْغُ الدَّلْوِ المُؤَخَّرُ، الرِّشَاءُ، وهو بطنُ الحُوتِ.

ينزلُ كلَّ ليلةٍ في واحدٍ منها لا يَتخطَّاه ولا يَتقاصَرُ عنهُ، فإذا كانَ في آخرِ مَنازِلِه وهو الذي يكونُ فيهِ قبيلَ الاجتماعِ دقَّ واستَقْوَسَ.

وقرأ الكوفِيُّونَ وابنُ عامرٍ: ﴿وَالْقَمَرَ﴾ بنَصْبِ الرَّاءِ[(٢)].

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ﴾: كالشِّمْرَاخِ المعوجِّ، فُعْلُون مِن الانعراجِ وهو الاعوجَاجُ[(٣)]،

---

(١) انظر: «البحر» (١٨/ ١٠٨) عن ابن أبي عبلة، ودون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٧٧).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٨٤).

(٣) وهو قول الزجاج كما في «معاني القرآن» (٤/ ٢٨٨)، ووقع في مطبوعه: «فعلول»، وكذا نقله عنه المرزوقي في «الأزمنة والأمكنة» (ص: ٢٢)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٨٥).

وكون وزنه (فعلون) بالنون من الانعراج نقله عن الزجاج: ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٥٢٤)، والقرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٤٧)، وأبو حيان في «البحر» (١٨/ ٧١)، والسمين الحلبي في «الدر المصون» (٩/ ٢٧١)، والنيسابوري في «تفسيره» (٥/ ٥٣٣)، والآلوسي في «روح المعاني» (٢٢/ ٣٤٦)، وهو الصواب على أنه من (عرج) والنون زائدة كما ذكر الآلوسي. وقال في «النهاية»: (مادة: عرج): وهو فُعْلون من الانْعِرَاج: الانعطاف، والواوُ والنونُ زائدتان. =

وقُرِئَ: (كالعِرْجُونِ)[1]، وهما لُغتانِ كالبُزْيُونِ والبزيَونِ[2].

﴿ٱلْقَدِيمِ﴾: العتيقِ، وقيل: ما مرَّ عليه حولٌ فَصاعدًا.

(٤٠) - ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾: يَصِحُّ لها ويتسهَّلُ[3] ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ في سرعةِ سَيرِه؛ فإنَّ ذلك يُخلُّ بتكوُّنِ النَّباتِ وتَعيُّشِ الحيوانِ، أو: في آثارِه ومنافعِه، أو: مكانِه بالنُّزولِ إلى محلِّه أو سُلطانِه فتطمسَ نورَهُ، وإيلاءُ حرفِ النَّفيِ الشَّمسَ للدَّلالةِ على أنَّها مسخَّرةٌ لا يتيسَّرُ لها إلا ما أُريدَ بِها.

﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾: يسبقُه فيفوتُهُ، ولكن يُعاقِبُه.

وقيل: المرادُ بهما آيَتاهُما وهما النيِّرانِ، وبالسَّبْق: سبقُ القمر إلى سُلطان الشَّمسِ، فيكون عكسًا للأول، وتبديلُ الإدراك بالسَّبقِ لأنه الملائمُ لسُرعَةِ سيرِه.

﴿وَكُلٌّ﴾: وكلُّهُم، والتَّنوينُ عِوَضُ المضافِ إليه، والضَّميرُ للشُّموسِ والأقمارِ، فإنَّ اختلافَ الأحوالِ يوجِبُ تَعدُّدًا مَّا في، أو للكواكبِ فإنَّ ذِكرَهَما مُشعِرٌ بها.

﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: يسيرونَ فيه بانبساطٍ.

(٤١) - ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أولادَهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم، أو: صبيانَهم ونساءَهم الذين يَستصحِبونهم، فإن الذرِّيَةَ تقعُ عليهنَّ لأنهنَّ مزارعُها، وتخصيصُهم لأن استقرارهم في السفن أشقُّ وتماسُكَهم فيها أعجبُ.

= قلت: أما (فعلول) باللام فصحيح أيضاً على أن النون أصلية، بل اختاره قوم - كما ذكر الآلوسي - منهم الراغب والسمين وصاحب «القاموس» انظر: «الدر المصون» (٩/ ٢٧٠)، و«مفردات الراغب» و«القاموس» (ماد: عرجن)، وصرح المنتجب الهمذاني في «الدر الفريد» (٥/ ٣٥١) سبب الاختيار له فقال: واختلف في وزنه، فقيل: هو فُعْلُولٌ والنون أصل، وليس بفُعْلُون، لأن فُعْلُونًا ليس في كلامهم.

(١) نسبت لسليمان التيمي، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٦).

(٢) قوله: «كالبزيون»؛ بالضم: هو السندس. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٥٤).

(٣) في نسخة التفتازاني: «أو يتسهل لها».

وقرأ نافعٌ وابن عامر: ﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾[1].

﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: المملوءِ، وقيل: المرادُ: فُلْكُ نوحٍ وحمـلُ اللهِ ذُرِّيَّاتِهم فيها: أنَّه حملَ فيها آباءَهُم الأقدمينَ وفي أصلابِهم ذُرِّيَّاتُهم[2]، وتخصيصُ الذُّرِّيَّةِ لأنَّه أبلَغُ في الامتنانِ وأدخَلُ في التَّعجيبِ[3] مع الإيجازِ.

(٤٢) - ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ مِن مثلِ الفُلْكِ ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ مِن الإبلِ فإنَّها سفائنُ البرِّ، أو مِن السُّفنِ والزَّوارقِ.

(٤٣) - ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾: فلا مُغيثَ لهم يحرسُهُم عن الغرقِ، أو: فلا استغاثةَ، كقولِهم: أتاهُم الصَّريخُ.

﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾: يَنْجُونَ مِن الموتِ به.

(٤٤) - ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا﴾: إلا لرحمةٍ وتمتيعٍ بالحياةِ ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: زمانٍ قُدِّرَ لآجالهم.

(٤٥) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾: الوقائعَ التي خلَتْ والعذابَ المعدَّ في الآخرةِ.

أو: نوازلَ السَّماءِ ونَوائبَ الأرضِ؛ كقولِه: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩].

أو: عذابَ الدنيا وعذابَ الآخرة، أو عكسه.

أو: ما تقدَّمَ مِن الذُّنوبِ وما تأَخَّرَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٠).

(٢) في نسخة الفاروقي: «وفي أصلابهم هم وذرياتهم».

(٣) في نسخة الطبلاوي: «مع التعجب»، وأشار إلى النسختين الأنصاري في «حاشيته» (٤/ ٥٥٥).

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: لِتكونُوا راجينَ رحمةَ اللهِ.

وجوابُ (إذا) مَحذوفٌ دلَّ عليهِ قولُه: (٤٦) ـ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كأنَّه قال: وإذا قيلَ لهم اتَّقُوا العذابَ أعرَضُوا لأنَّهم اعتادوهُ وتمرَّنُوا عليه.

(٤٧) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ على مَحاويجِكُم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالصَّانعِ، يعني: مُعطِّلةً كانُوا بمَكَّةَ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ تَهكُّمًا بهم مِن إقرارِهِم به وتَعليقِهِم الأمورَ بمَشيئَتِه: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ على زَعمِكُم.

وقيل: قاله مُشرِكُو قريشٍ حين استَطْعَمَهُم فقراءُ المؤمنينَ[1] إيهامًا بأنَّ اللهَ لَمَّا كانَ قادرًا أن يطعمَهُم ولم يُطْعِمْهم فنحنُ أحقُّ بذلك، وهذا مِن فَرْطِ جَهالَتِهم، فإنَّ اللهَ يُطعِمُ بأسبابٍ مِنْها: حثُّ الأغنياءِ على إطعامِ الفُقراءِ وتَوفيقُهم له.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيثُ أَمَرْتُمونَا ما يخالفُ مَشيئةَ اللهِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ جوابًا مِن اللهِ لهم، أو حكايةً لجَوابِ المُؤمنينَ لهم.

(٤٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعنونَ: وعدَ البعث.

(٤٩) ـ ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخةُ الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾: يتخاصَمون في متاجِرِهم ومُعامَلاتهم لا يَخطُرُ ببالهم أمرُها؛ كقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧].

وأصله: يختصِمون، فسكِّنت التاءُ وأُدغمت، ثم كُسرت الخاءُ لالتقاءِ الساكنَين، وروى أبو بكرٍ بكسرِ الياءِ للإتْباع، وقرأ ابنُ كثيرٍ وورشٌ وهشامٌ بفتحِ الخاءِ على

(١) في نسخة الخيالي: «المسلمين».

إلقاءِ[1] حركةِ التاءِ إليه، وأبو عمرٍو به، وقالونُ مع الاختلاس، وعن نافعٍ الفتحُ فيه والإسكان[2]، وكأنه جَوَّز الجمعَ بين الساكنَين إذا كان الثاني مدغَمًا، وقرأ حمزةُ: ﴿يَخْصِمُونَ﴾ مِن خَصَمه: إذا جادلَه[3].

(٥٠) ـ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيءٍ مِن أمورِهم ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فيَرَوا حالَهم، بل يموتون حيث تَبْغَتُهم الصيحةُ.

(٥١) ـ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾؛ أي: مرةً ثانيةً، وقد سبقَ في سورةِ المؤمنينَ.

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: مِن القُبورِ، جمعُ جدثٍ، وقُرِئَ: بالفَاءِ[4].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «وقرأ ابن كثير وورش وهشام بفتح الخاء وإلقاء».

(٢) في نسخة الخيالي: «مع الإسكان» وفي نسخة التفتازاني بعدها: «والتشديد».

(٣) وتفصيل هذه القراءات: قرأ ورش وابن كثير وهشام: ﴿يَخَصِّمون﴾ بفتح الخاء وتشديد الصاد.
وابن ذكوان وعاصم والكسائي: ﴿يَخِصِّمون﴾ بكسر الخاء وتشديد الصاد.
وحمزة: ﴿يَخْصِمون﴾ بإسكان الخاء وتخفيف الصاد.
وقالون في أحد وجهيه: ﴿يَخْصِّمون﴾ بإسكان الخاء وتشديد الصاد.
وأبو عمرو وقالون في وجهه الآخر باختلاس فتحة الخاء وتشديد الصاد. والياء مفتوحة للجميع.
انظر: «السبعة» (ص: ٥٤١)، و«التيسير» (ص: ١٨٤)، و«النشر» (٢/ ٣٥٤)، و«البدور الزاهرة» (ص: ٢٦٦).
وقرأ: (يختصمون) أبيٌّ رضي الله عنه كما في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٧٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٥٧).
ونسب لعاصم في غير المشهور عنه: (يِخِصِّمون) بكسر الياء إتباعاً لكسرة الخاء وتشديد الصاد.
انظر: «السبعة» (ص: ٥٤١)، و«جامع البيان» للداني (٤/ ١٥١٩ ـ ١٥٢٠)، و«النشر» (٢/ ٣٥٤).
وهي التي استهل بها المصنف عن أبي بكر.

(٤) انظر: «الكشاف» (٧/ ٢٧١)، و«البحر المحيط» (١٨/ ١٢١)، دون نسبة.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾: يُسرِعُونَ، وقُرِئَ بالضَّمِّ[١].

(٥٢) ـ ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا﴾ وقُرِئَ: (وَيْلَتنا)[٢].

﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ وقُرِئَ: (مَن أَهَبَّنَا)[٣] مِن هَبَّ مِن نَومِه: إذا انتبَه.

و: (مَن هَبَّنَا)[٤] بمعنى: أَهبَّنَا، وفيه ترشيحٌ ورَمزٌ أو إشعارٌ بأَنَّهُم لاختِلاطِ عُقولِهم يَظُنُّونَ أَنَّهُم كانُوا نيامًا.

و: (مِنْ بَعْثِنَا)[٥] و: (مِنْ هَبِّنَا)[٦] على (مِن) الجارَّةِ والمَصدَرِ.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ مُبتدَأٌ وخبرٌ، و﴿مَا﴾ مَصدريَّةٌ، أو موصولةٌ محذوفةُ الرَّاجعِ.

أو ﴿هَٰذَا﴾ صِفَةٌ لِـ﴿مَّرْقَدِنَا﴾، و﴿مَا وَعَدَ﴾ خبرُ مَحذوفٍ، أو مُبتدأٌ خبرُه مَحذوفٌ؛ أي: ما وعدَ الرَّحمنُ وصدقَ المرسلونَ حقٌّ، وهو مِن كلامِهِم.

وقيل: جوابٌ للمَلائكَةِ أو المؤمنينَ عن سُؤالِهم معدولٌ عن سَنَنِه تَذكيرًا لكُفْرِهم وتقريعًا لَهُم عليه، وتنبيهًا بأَنَّ الذي يُهِمُّهُم هو السُّؤالُ عن البعثِ دُونَ

---

(١) قراءة ابن أبي إسحاق كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٦)، و«البحر» (١٨/ ١٢١)، وزاد أبو حيان نسبتها لأبي عمرو بخلف عنه.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٦)، و«البحر» (١٨/ ١٢١)، عن ابن أبي ليلى، وذكر في «المحتسب» (٢/ ٢١٣)، و«البحر» (١٨/ ١٢١)، عنه: (يا ويلتا).

(٣) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه، انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٥٠٤)، و«المحتسب» (٢/ ٢١٤).

(٤) نسبت لأبيٍّ، انظر: «المحتسب» (٢/ ٢١٤).

(٥) نسبت لعلي بن أبي طالب وأبي نهيك والضحاك. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٦)، و«المحتسب» (٢/ ٢١٣).

(٦) انظر: «الكشاف» (٧/ ٢٧٢).

الباعثِ، كأنَّهُم قالوا: بَعثَكُم الرَّحمنُ الذي وعدَكُم البَعثَ وأرسلَ إليكُم الرُّسُلَ فصَدَقوكُم، وليسَ الأمرُ كمَا تَظنُّونَهُ فإنَّه ليسَ بعثَ النَّائمِ فيُهمَّكُم السُّؤالُ عن الباعثِ، وإنَّما هو البعثُ الأكبرُ ذو الأَهوالِ.

(٥٣) ـ ﴿إِن كَانَتْ﴾: ما كانت الفعلةُ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النَّفخةُ الأخيرةُ، وقُرِئَت بالرَّفعِ(١) على (كان) التامَّةِ.

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بمجرَّدِ تلك الصَّيحةِ، وفي كلِّ ذلك تهوينُ أمرِ البَعثِ والحَشْرِ، واستِغناؤُهُما عن الأسبابِ التي يَنوطان بها فيما يُشاهدونَهُ.

(٥٤) ـ ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حكايةٌ لِمَا يقالُ لهم حينَئذٍ؛ تصويرًا للموعودِ، وتمكينًا له في النُّفوسِ، وكذا قولُه:

(٥٥) ـ ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾: مُتلذِّذونَ في النعمةِ، من الفَكاهةِ، وفي تَنكيرِ ﴿شُغُلٍ﴾ وإبهامِه تعظيمٌ لِمَا هُمْ فيه مِن البَهجَةِ والتَّلذُّذِ، وتنبيهٌ على أنَّه أعلى ما(٢) يحيطُ به الأفهامُ، ويُعْرِبَ عن كُنْهِهِ الكلامُ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو: ﴿في شُغْلٍ﴾ بالسُّكونِ(٣)، ويعقوبُ في روايةٍ: ﴿فَكِهُونَ﴾(٤) للمُبالغَةِ، وهما خَبرانِ لـ﴿إِنَّ﴾.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿فِي شُغُلٍ﴾ صِلَةً لـ﴿فَاكِهُونَ﴾.

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر، وباقي العشرة بالنصب، انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٣).

(٢) في نسخة الفاروقي: «أعلى من أن»، وفوقه كالمثبت نسخة.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤١)، و«التيسير» (ص: ١٨٤).

(٤) لم أقف على قراءة يعقوب، وذكر ابن مهران في «المبسوط» (ص: ٣٧١) أن أبا جعفر وحده قرأ ﴿فكهون﴾ بغير ألف في جميع القرآن.

وقرئ: (فكُهون) بالضمِّ[1] وهو لغةٌ كنُطُسٍ ونَطِسٍ.

و: (فاكِهينَ)[2]، و: (فَكِهِيْنَ)[3]، على الحالِ مِن المستكنِّ في الظَّرفِ.

و: (شَغلٍ) بفتحتينِ وفتحةٍ وسُكونٍ[4]، والكلُّ لُغاتٌ.

(٥٦) ـ ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾: جمعُ ظِلٍّ كشِعَابٍ، أو ظُلَّةٍ كقِبَابٍ، ويؤيدُه قراءةُ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿في ظُلَلٍ﴾[5].

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: على السُّرُرِ المزيَّنةِ ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾.

و﴿هُمْ﴾ مبتدأٌ خبرُه: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾، و﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جُملَةٌ مُستأنفَةٌ أو خبرٌ ثانٍ.

أو: ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، والجارَّان صِلَتانِ له. أو تأكيدٌ للضَّميرِ[6] في ﴿فِى شُغُلٍ﴾ أو في ﴿فَٰكِهُونَ﴾، و﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ خبرُ آخرُ لـ﴿إِنَّ﴾. و﴿أزواجهم﴾ عطفٌ على ﴿هُمْ﴾ للمُشاركةِ في الأحكامِ الثَّلاثةِ، و﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ حالٌ مِن المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ.

---

(١) دون نسبة في «الكشاف» (٧/ ٢٧٦)، و«البحر» (١٨/ ٢٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٠)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٧)، عن ابن مسعود، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٧١) عن طلحة بن مصرف، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٥٩) عن طلحة والأعمش.

(٣) انظر: «المصاحف» لابن أبي داود (ص: ١٨٣) عن ابن مسعود.

(٤) بفتحتين أبو هريرة وأبو السمال، وبفتحة فسكون يزيد النحوي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٦).

(٥) قراءة حمزة والكسائي، والباقون بالألف وكسر الظاء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٤).

(٦) قوله: «أو متكئون» عطف على (في ظلال)، «والجاران»: هما (في) و(على)، «صلتان له»؛ أي لـ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ «أو تأكيد» عطف على (مبتدأ). انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٥٨).

(٥٧) ـ ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾: ما يدَّعونَ به لأنفُسِهِم، يَفْتَعِلُونَ مِن الدُّعاءِ؛ كاشتَوَى واجتَمَلَ: إذا شَوَى وجملَ لنفسِهِ.

أو: ما يَتداعونَه؛ كقولِك: (ارتَمَوْهُ) بمعنى: تَرَامَوْهُ.

أو: يتمنَّوْنَ مِن قولِهم: (ادَّعِ عليَّ ما شئتَ) بمعنى: تمنَّهُ عليَّ.

أو: ما يدَّعونَه في الدُّنيا مِن الجنَّةِ ودَرجاتِها.

و(ما) موصولةٌ أو موصوفَةٌ مُرتفِعَةٌ بالابتداءِ، و﴿لهم﴾ خبرُها، وقوله:

(٥٨) ـ ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ بدلٌ منها، أو صفةٌ أخرى، ويجوز أن يكونَ خبرَها، أو خبرَ محذوف، أو مبتدأ محذوفَ الخبر؛ أي: ولهم سلام.

وقرئ بالنصب[١] على المصدر أو الحال؛ أي: لهم مرادُهم خالصًا.

﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾؛ أي: يقولُه اللهُ، أو يُقَالُ لهم قولًا كائنًا مِن جِهَتِه، والمعنى[٢]: أنَّ اللهَ يسلِّمُ عليهِم بواسطةِ الملائكةِ، أو بغيرِ واسطَةٍ تعظيمًا لهم، وذلك مَطلوبُهُم ومُتمنَّاهُم، ويُحتملُ نصبُه على الاختصاصِ.

قال الطيبي: قيل: ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ صفة ثانية لـ﴿مَا﴾ أو من الهاء المحذوفة، أي: ذا سلامةٍ، أو مسلَّمًا[٣].

(٥٩) ـ ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ وانفردُوا عن المؤمنينَ، وذلك حين يسارُ بهم إلى الجنَّةِ كقولِه: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم: ١٤].

---

(١) عن ابن مسعود رضي الله عنه، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٠)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٦)، «المحتسب» (٢/ ٢١٥).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «بمعنى». وأشار إلى النسختين الخفاجي في «حاشيته».

(٣) انظر: «فتوح الغيب» (١٣/ ٧١).

وقيل: اعتزِلُوا مِن كلِّ خيرٍ، أو تفرَّقُوا في النَّارِ؛ فإنَّ لكلِّ كافرٍ بيتًا ينفردُ به لا يَرى ولا يُرى.

(٦٠) ـ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ مِن جملةِ ما يُقالُ لهم تقريعًا وإلزامًا للحجةِ، وعهدُه إليهم: ما نصبَ لهم مِن الحججِ العقليَّةِ والسَّمعيةِ الآمرةِ بعِبادَتِه الزَّاجِرَةِ عن عبادةِ غيرِه، وجَعلُها عبادةً للشيطانِ لأنَّه الآمرُ بها والمزيِّنُ لها.

وقُرِئَ: (إِعْهَد) بكسرِ حرفِ المُضارعةِ[1] و: (أَحْهَد) بالحاء[2]، و: (أَحَّد) على لغةِ تَميمٍ[3].

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليلٌ للمَنْعِ عن عبادَتِه بالطَّاعةِ فيما يحملُهُم عليه.

(٦١) ـ ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ عطفٌ على ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟﴾ ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى ما عهدَ إليهم، أو إلى عِبادَتِه، فالجملَةُ استئنافٌ لبيانِ المُقتَضِي للعهدِ بشِقَّيْهِ أو بالشِّقِّ الآخرِ[4]، والتَّنكيرُ للمُبالغَةِ والتَّعظيمِ، أو للتَّبعيضِ؛ فإنَّ التَّوحيدَ سلوكُ بعضِ الطَّريقِ المُستقيمِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٦) عن يحيى بن وثاب.

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ٢٨٠).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٦)، وعزاها السمين في «الدر المصون» (٩/ ٢٨٠) لابن وثاب.

(٤) في نسخة الطبلاوي: «أو بشق الآخر»، وفي نسخة الفاروقي: «أو بالشق الأخير». والمثبت ما في نسخة التفتازاني والخيالي. وقوله: «للعهد بشقيه»؛ هما: الانتهاء عن متابعة الشيطان والإقبال على عبادة الرحمن، وكون الجملة لبيان ما يقتضي شقي العهد مبني على كون هذا إشارة إلى مجموع ما عهد إليهم، وكونه لبيان ما يقتضي شقه الآخر مبني على كونه إشارة إلى الشق الآخر منه. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٧/ ٩٢).

(٦٢) ـ ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ رجوعٌ إلى بيانِ مُعاداةِ الشَّيطانِ مَع ظُهورِ عداوَتِه ووضوحِ إضلالِه لِمَن لهُ أَدنى عقلٍ ورَأيٍ، والجِبِلُّ: الخَلْقُ.

وقرأ يعقوبُ بضَمَّتينِ[1]، وابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ بهما مع تخفيفِ اللامِ، وابنُ عامرٍ وأبو عمرٍو بضمَّةٍ وسكونٍ مع التَّخفيفِ[2]، والكُلُّ لُغاتٌ.

وقرئ: (جِبَلًا) جمع جِبلَةٍ كخِلْقَةٍ وخِلَقٍ[3]، و(جيلاً) واحدُ الأجيالِ[4].

(٦٣ ـ ٦٤) ـ ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾: ذوقوا حرَّهَا اليومَ بكُفرِكُم في الدُّنيا.

(٦٥) ـ ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾: نمنعُها من الكلامِ ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾: بظهورِ آثارِ المَعاصِي علَيْها ودلالتِها على أفعالِها، أو بإنطاقِ اللهِ إيَّاها، وفي الحديثِ: أَنَّهُم يَجْحَدونَ ويُخاصِمونَ، فيُختمُ على أفواهِهِم وتَكلَّمُ أيديهِمْ وأَرجلُهُم[5].

---

(١) هي قراءة روح عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٥).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٤).

(٣) انظر: «الكشاف» (٧/ ٢٨٢) دون نسبة، و«زاد المسير» (٣/ ٥٢٩) عن أبي العالية وابن يعمر.

(٤) نسبت لعلي رضي الله عنه في «تفسير الثعلبي» (٢٢/ ٢٩٤)، و«الكشاف» (٧/ ٢٨٢)، ولبعض الخراسانيين في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٦٠)، ولهما في «البحر» (١٨/ ١٣١).

(٥) رواه مسلم (٢٩٦٩) عن أنس رضي الله عنه، بلفظ: «من مخاطبة العبد ربه يقول: يا ربِّ ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعداً لكُنَّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل».

(٦٦) ـ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾: لَمَسحْنا أعيُنَهُم حتَّى تصيرَ مَمسوحَةً.

﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾: فاستبَقُوا إلى الطَّريقِ الذي اعتادوا سلوكَهُ، وانتصابُه بنَزعِ الخافضِ، أو بتضمينِ الاستباقِ مَعنى الابتدار، أو بجعلِ المسبوقِ إليه مسبوقًا على الاتِّساعِ، أو بالظَّرفِ.

﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الطَّريقَ وجهةَ السُّلوكِ فَضْلًا عن غيرِه.

(٦٧) ـ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ بتَغييرِ صُوَرِهم وإبطالِ قُواهُم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾: على مكانهم بحيثُ يجمدونَ[١] فيه.

وقرأَ أبو بكرٍ: ﴿مكانَاتِهم﴾[٢].

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾: ذَهابًا ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾: ولا رجوعًا، فوُضعَ الفعلُ مَوضِعَهُ للفواصلِ.

وقيل: ولا يرجعونَ عن تكذيبِهِم.

وقُرِئَ: (مِضِيًّا) بإتباعِ الميمِ الضَّادَ المكسورةَ لقلبِ الواوِ ياءً[٣]؛ كالعُتِيِّ والعِتِيِّ.

و: (مَضِيًّا)[٤] كصَئِيٍّ[٥].

---

(١) في نسخة الخيالي: «يخمدون»؛ هي تحريف كما نبه الخفاجي بقوله: «يجمدون» بالجيمِ والدَّال المُهملَة مبنيًّا للفاعلِ أو المفعول من الإفعالِ، والخاء المُعْجمَةِ تحريف، والمُرادُ: أنَّهم لا يقدرونَ على مفارقَةِ مكانهم. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٢ ـ ٥٤٣)، و«التيسير» (ص: ١٨٥).

(٣) ذكرها الهذلي في «الكامل» (ص: ٦٢٦) عن الثغري في قول الرّازي.

(٤) وهي قراءة أبي حيوة، انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٦١).

(٥) في نسخة الفاروقي والتفتازاني والخيالي: «كصبي»، ولم تعجم في نسخة الطبلاوي، والمثبت ما في حواشي الخفاجي والقونوي وشيخ زاده، قال الخفاجي: وقولُه: (كصئيٍّ) بفتحِ الصَّادِ =

والمعنى: أَنَّهُم بكُفرِهِم ونقضِهِم ما عُهِدَ إليهم أحقَّاءُ بأنْ يُفعلَ بهم ذلك، لكنَّا لم نفعَلْ لشُمولِ الرَّحمةِ لَهُم واقتضاءِ الحكمَةِ إمهالَهُم.

(٦٨) ـ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾: ومَن نُطِلْ عُمرَهُ ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ﴾ نَقلِبْهُ فيه، فلا يزالُ يتزايَدُ ضعفُهُ وانتقاصُ بِنيتِهِ وقواه عكسَ ما كانَ عليه بدءُ أمرِه.

وقرأ عاصمٌ وحمزَةُ: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾[1] مِن التَّنكيسِ وهو أبلَغُ، والنَّكْسُ أشهَرُ.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ مَن قَدَرَ على ذلك قَدَرَ على الطَّمسِ والمَسخِ، فإنَّه مُشتَمِلٌ عليهِما وزيادةٌ غيرَ أنَّه على تَدرُّجٍ.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ برواية ابن ذكوان ويعقوبُ بالتَّاءِ[2]؛ لجريِ الخطابِ قبلَه.

(٦٩) ـ ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ رَدٌّ لقولِهم: إنَّ مُحمَّدًا شاعرٌ؛ أي: ما علَّمْناهُ الشِّعرَ بتَعليمِ القُرآنِ فإنَّه لا يماثلُه لفظاً ولا معنًى لأنه غيرُ مُقَفًّى ولا مَوزونٍ، وليسَ معناه ما يَتوخَّاهُ الشُّعَراءُ مِن التَّخييلاتِ المُرغِّبَةِ والمُنَفِّرَةِ ونحوِها.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾: وما يَصِحُّ له الشِّعرُ ولا يَتأتَّى له إن أرادَ قرضَهُ على ما اختبَرْتُم طبعَه نحوًا مِن أَربعينَ سَنةً، وقولُه عليه السَّلامُ:

= المُهملَةِ بعدها همزَة مكسورَة ثمَّ ياء مُشدَّدَة: مصدر صأى الديك أو الفرخ؛ إذا صاح، فهوَ مثال لمجيءِ «فَعِيلٍ» مصدرًا للمُعتلِّ كما في كتبِ اللُّغَةِ و«الكشف»، فمَن قالَ: إنَّ المُرادَ أنَّه بوزنه؛ لأنَّهُ ليسَ بمصدرٍ فقد سها لظنهِ أنَّه بالباءِ المُوحَّدَةِ. انظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية القونوي» (١٦/ ١٨١)، و«حاشية شيخ زاده» (٧/ ٩٥).

(١) وقراءة الباقين بفتح النون الأولى وإسكان الثانية، وضم الكاف مخفّفة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٣)، و«التيسير» (ص: ١٨٥).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٦) عن نافع، و«التيسير» (ص: ١٨٥) عن نافع وابن ذكوان، وقراءة يعقوب في «النشر» (٢/ ٢٥٧)، وذكر ابن الجزري اختلافاً عن ابن عامر ينظر ثمة.

أَنَـــا النَّبِــــيُّ لَا كَــــذِبْ أَنَا ابْـــنُ عَبْـــدِ المُطَّلِبْ[(١)]

وقولُه:

هَـلْ أَنْـتِ إِلَّا إِصْبَـعٌ دَمِيتِ وَفِـي سَـبِيلِ اللهِ مَـا لَقِيتِ [(٢)]

= اتفاقيٌّ[(٣)] مِن غيرِ تَكلُّفٍ وقصدٍ منه إلى ذلك، وقد يقعُ مثلُه كثيرًا في تَضاعيفِ المنثوراتِ، على أنَّ الخليلَ ما عدَّ المشطورَ مِن الرَّجزِ شِعرًا[(٤)].

هذا وقَدْ رُوِيَ أنَّه عليه السلام حَرَّكَ الباءينِ وكسَرَ التَّاءَ الأولى بلا إشباعٍ وسَكَّنَ الثَّانيةَ[(٥)].

وقيل: الضَّميرُ للقُرآنِ؛ أي: وما يَصِحُّ للقُرآنِ أَنْ يكونَ شِعرًا.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ وإرشادٌ مِن اللهِ ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾: وكتابٌ سَماوِيٌّ يُتلى في المعابدِ ظاهرٌ أنَّه ليسَ كلامَ البشرِ؛ لِمَا فيهِ مِن الإعجازِ.

(٧٠) ـ ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ القرآنُ أو الرَّسولُ، ويؤيِّدُه قراءةُ نافعٍ وابنِ عامرٍ ويعقوبَ بالتَّاءِ[(٦)].

﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾: عاقـلاً فَهِمـاً، فـإنَّ الغافلَ كالميـتِ، أو: مؤمناً في علـمِ اللهِ فإنَّ الحيـاةَ الأبدية بالإيمـانِ، وتخصيصُ الإنـذارِ به لأنـه المنتفِع به.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٦١٤٦)، ومسلم (١٧٩٦) عن جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(٣) في نسخة الطبلاوي: «اتفاق».

(٤) انظر: «العين» (٦/ ٦٤ ـ ٦٥). والمشطورُ: هو الذي أُخِذَ شطره.

(٥) قوله: «حرك الباءين»؛ أي من قوله: «أنا النبي لا كذب.. إلخ»، و«كسر التاء الأولى بلا إشباع وسكن الثانية» أي من قوله: «هل أنت إلا إصبع... إلخ». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٦٣).

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٥)، و«النشر» (٢/ ٣٧٢)، و«المبسوط» لابن مهران (ص: ٣٧٢)، وهي قراءة أبي جعفر أيضاً.

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وتجبَ كلمةُ العذابِ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المُصِرِّينَ على الكفرِ، وجَعلُهُم في مقابلةِ ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ إشعارٌ بأنَّهُم لكفرِهِم ولسقوطِ حُجَّتِهِم وعدمِ تَأَمُّلِهِم أمواتٌ في الحقيقةِ.

(٧١) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾: ممَّا تولَّيْنا إحداثَهُ ولم يَقدِرْ على إحداثِه غَيرُنا، وذكرُ الأيدي وإسنادُ العملِ إليها استعارةٌ تفيدُ مُبالغَةً في الاختصاصِ والتَّفرُّدِ بالإحداثِ.

﴿أَنْعَٰمًا﴾ خصَّها بالذِّكرِ لِمَا فيها مِن بَدائعِ الفِطرةِ وكَثرةِ المنافعِ.

﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ متملِّكُونَ بتَمليكِنا إيَّاهُم، أو متمكِّنونَ مِن ضَبطِها والتَّصرُّفِ فيها بتَسخيرِنا إيَّاها لهم، قال:

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ وَلَا ... أَمْلِكُ رَأْسَ البَعِيرِ إِنْ نَفَرَا[١]

(٧٢) ـ ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾: وصَيَّرْناها مُنقادةً لهم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾: مَركوبُهم.

وقُرِئَ: (رَكُوبَتُهُم)[٢]، وهي بمعناهُ كالحَلُوبِ والحَلُوبَةِ، وقيل: جمعُه، و: (رُكُوبهم)[٣]؛ أي: ذو رُكوبِهم، أو فمِن مَنافعِها ركوبُهم.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾؛ أي: ما يأكلونَ لحمَهُ.

---

(١) البيت للربيع بن ضبع الفزاري كما في «الكتاب» (١/ ٨٩)، و«النوادر» لأبي زيد (ص: ٤٤٩)، و«الحماسة» للبحتري (ص: ٣٩٩)، و«أمالي القالي» (٢/ ١٨٥)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٢٣٧)، ودون نسبة في «الجمل» للخليل (ص: ١٣٣)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٨٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٩٥)، و«مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ١٧٩).

(٢) وهي قراءة عائشة وأبي بن كعب رضي الله عنهما، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٦)، و«المحتسب» (٢/ ٢١٦).

(٣) وهي قراءة الحسن والأعمش، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٦)، و«المحتسب» (٢/ ٢١٦).

(٧٣) ـ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ مِن الجلودِ والأَصوافِ والأوبارِ ﴿وَمَشَارِبُ﴾ مِن اللبنِ: جمعُ مشرَبٍ بمعنى الموضعِ أو المصدَرِ.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمَ اللهِ في ذلك؛ إذ لولا خلقُهُ لها وتذليلُه إيَّاها كيفَ أمكنَ التَّوسُّلُ إلى تحصيلِ هذه المنافعِ المهمَّةِ.

(٧٤ ـ ٧٥) ـ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أشرَكُوها به في العِبادةِ بعدَما رأَوْا منه تلك القُدرةَ الباهرةَ والنِّعمَ المتظاهرةَ وعَلِمُوا أنَّه المُتفرِّدُ بها.

﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾: رجاءَ أَنْ يَنصرُوهُم فيما حَزَبَهُم مِن الأُمورِ، والأمرُ بالعكسِ؛ لأنَّه ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ﴾: لآلهتِهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾: مُعَدُّونَ لحفظِهم والذبِّ عنهم، أو مُحضرونَ إثرَهُم في النَّارِ.

(٧٦) ـ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾: فلا يُهمنَّكَ، وقرئَ بضمِّ الياءِ[1]؛ مِن أحزَنَ.

﴿قَوْلُهُمْ﴾ في اللهِ بالإلحادِ والشِّركِ، أو: فيك بالتَّكذيبِ والتَّهجينِ.

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فنُجازيهِمْ عليه، وكفى ذلك أن يتسلَّى به، وهو تَعليلٌ للنَّهيِ على الاستئنافِ، ولذلك لو قُرِئَ: (أنَّا) بالفتحِ[2] على حذفِ لامِ التَّعليلِ جازَ.

(٧٧) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ تسليةٌ ثانيةٌ بتَهوينِ ما يقولونَه بالنسبةِ إلى إنكارِهم الحشرَ، وفيه تقبيحٌ بليغٌ لإنكارِه حيثُ عجَّبَ

---

(١) وهي قراءة نافع، انظر: «التيسير» (ص: ٩١).

(٢) يشير إلى ما في «الكشاف» (٧/ ٢٩١): ما تقول فيمن يقول: إن قرأ قارئ: (أنا نعلم) بالفتح انتقضت صلاته وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى كفر؟ فأجاب الزمخشري عنه من وجهين أحدهما ما ذكره المصنف، والثاني أن يكون بدلاً من ﴿قَوْلُهُمْ﴾ كأنه قيل: فلا يحزنك أنا نعلم ما يسرون وما يعلنون، وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول، اهـ.

منه وجعلَهُ إفراطًا في الخُصومةِ بيِّنًا، ومنافاةٌ لجحودِ[١] القدرةِ على ما هو أهوَنُ ممَّا عَلِمَهُ[٢] في بدءِ خلقِه، ومقابلةُ[٣] النِّعمةِ التي لا مزيدَ عليها ـ وهي خلقُهُ مِن أخسِّ شَيءٍ وأمهنِه شريفًا مُكرمًا ـ بالعقوقِ والتَّكذيبِ.

رُوِيَ أنَّ أبيَّ بنَ خَلَفٍ أتى النَّبيَّ ﷺ بعَظمٍ بالٍ يُفتِّته بيدِه، وقال: أترى اللهَ يُحيي هذا بعدَما رَمَّ؟ فقال عليه السَّلامُ: «نعم ويبعَثُكَ ويُدخِلُكَ النَّارَ» فنزلَت[٤].

وقيل: معنى ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: فإذا هو بعدَما كانَ ماءً مهينًا مميِّزٌ مِنْطيقٌ قادرٌ على الخِصامِ مُعْرِبٌ عمَّا في نفسِه.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «ومفاجأة بجحود»، وفي هامشها في نسخة: «منافاة»، وضبط فيها وفي نسخة الطبلاوي بالنصب. قال الخفاجي: قوله: «ومنافاة...» هو إمّا مرفوع معطوف على «تقبيح» كما ذهب إليه بعضهم، فالمعنى: في بيان ما ذكر منافاةُ كلام الكافر لأجل جحوده القدرة على أهون الأمرين، فإنّ تسليم القدرة الإلهية مناف للخصومة المذكورة، وإمّا منصوب بالعطف على إفراطاً كما قيل، فما بعده تعليل له أو للتعجيب والجعل، والأول أحسن لأنه تعالى لم يذكر تلك المنافاة لا صريحاً ولا ضمناً حتى يقال: جعله منافاة، وإن كان ما فيه بمنزلة الجعل. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الخيالي: «عمله». والمثبت من باقي النسخ، وهو أولى عند الخفاجي حيث قال: قوله: «مما علمه»؛ أي: الإنسان إشارة إلى أنّ (رأى) علمية، وفي نسخة: «عمله» بتقديم الميم، والأولى أولى. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) قوله: «ومقابلة النعمة» يجوز رفعه ونصبه كما في قوله «منافاة». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) رواه البيهقي في «البعث والنشور» (١٦)، وسعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٨٠٢) (٧/ ١٤٠) عن أبي مالك، ورواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢٤٩٨)، والطبري في «التفسير» (١٩/ ٤٨٦)، عن قتادة. وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٥٣٣): قاله مجاهد وقتادة والجمهور، وعليه المفسرون. وفي رواية سعيد بن جبير عند الطبري (١٩/ ٤٨٧) أنه العاص بن وائل السهمي، وكذا رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٠٦) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧٨) ـ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾: أمرًا عجيبًا، وهو نفيُ القُدرةِ على إحياءِ الموتى وتشبيهُهُ بخَلقِه بوَصفِهِ بالعجزِ عمَّا عَجَزوا عنه ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾: خَلْقَنا إيَّاه.

﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ مُنكِرًا إيَّاه مستبعدًا له، والرَّميمُ: ما بَلِيَ مِن العِظامِ، ولعلَّهُ فَعيلٌ بمعنى فاعلٍ مِن (رَمَّ الشَّيءُ) صارَ اسمًا بالغلبةِ، ولذلك لم يُؤَنَّث، أو بمَعنى مفعولٍ مِن (رَمَمْتُه)، وفيه دليلٌ على أنَّ العظمَ ذو حياةٍ فيؤثِّرُ فيه الموتُ كسائرِ الأعضاءِ.

(٧٩) ـ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنَّ قُدْرتَه كما كانَت؛ لامتناعِ التَّغيُّرِ فيه والمادةُ على حالها في القابليَّةِ اللازمةِ لذاتِها[1].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلَمُ تَفاصيلَ المخلوقاتِ بعلمِه[2]، وكيفيَّةَ خلقِها، فيعلَمُ أجزاءَ الأشخاصِ المُتفتِّتَةِ المُتبدِّدِ[3] أصولَها وفُصولَها ومواقِعَها، وطريقَ تَمييزِها وضَمِّ بَعضِها إلى بعضٍ على النَّمطِ السَّابقِ، وإعادةَ الأعراضِ والقوى التي كانَتْ فيها أو إحداثَ مِثلِها.

(٨٠) ـ ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ كالمَرْخِ والعَفَارِ ﴿نَارًا﴾ بأَنْ يُسحَقَ المَرْخُ على العَفَارِ ـ وهما خَضراوانِ يقطرُ مِنْهُما الماءُ ـ فتَنْقدُح النَّارُ ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ لا تشكُّونَ في أنَّها نارٌ تخرجُ[4] منه، فمَن قَدَرَ على إحداثِ

---

(١) قوله: «كما كانت..» خبر (إنَّ) و«لامتناع التغير» تعليلٌ لذلك، وما بعده جملة حالية. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٦٦).

(٢) «بعلمه»: ليس في نسخة الفاروقي والتفتازاني.

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «المتبددة»، وفي نسخة الخيالي: «المتبدل».

(٤) في نسخة الفاروقي: «خرجت»، وفي نسخة التفتازاني: «تخرج خرجت»؛ كأنه أراد الوجهين.

النَّـارِ مِن الشَّـجرِ الأخضـرِ(١) مع ما فيه مِـن المائيَّةِ المضـادَّةِ لها بكيفيَّتِـه = كانَ أقدرَ علـى إعـادةِ الغضاضةِ فيما كان غَضًّا فيبِـسَ وبَلِيَ.

وقُرِئَ: (مِن الشَّجرِ الخضراءِ)(٢) على المعنى كقولِه: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٦].

(٨١) - ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ مع كِبَرِ جِرْمِهما وعظمِ شَأنِهما ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُم﴾ في الصِّغَرِ والحقارةِ بالإضافةِ إليهما، أو مثلَهم فـي أصولِ الذَّاتِ(٣) وصِفاتِها؟ وهو المعادُ، وعَن يعقوبَ: ﴿يَقْدِرُ﴾(٤).

﴿بَلَىٰ﴾ جوابٌ مِن اللهِ لتَقريرِ ما بعدَ النَّفيِ مُشعِرٌ بأنَّه لا جوابَ سِواهُ ﴿وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾: كثيرُ المَخلوقاتِ والمَعلوماتِ.

(٨٢) - ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ﴾: إنَّمـا شـأنُه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾؛ أي: تكـوَّنْ ﴿فَيَكُونُ﴾ فهـو يكـون؛ أي: يحـدثُ، وهـو تمثيلٌ لتَأثيـرِ قُدرَتِـه في مـرادِه بأَمرِ المطـاعِ للمُطيـعِ فـي حصولِ المأمـورِ مِن غيـرِ امتناعٍ وتوقُّـفٍ وافتقارٍ إلـى مُزاولَةِ عمـلٍ واسـتعمالِ آلـةٍ؛ قطعًـا لمـادَّةِ الشُّـبهَةِ، وهـو(٥) قيـاسُ قُـدرَةِ اللهِ تَعالـى على قـدرةِ الخلقِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «من شجر خضراء».

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ٢٩٥)، و«البحر» (١٨/ ١٤٤)، وذكرها النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٧٥)، لغة عن بعض العرب.

(٣) في نسخة الفاروقي: «الذوات».

(٤) وهي قراءة رويس عن يعقوب، انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٥)، و«المبسوط» لابن مهران (ص: ٣٧٣).

(٥) في نسخة الخيالي: «وهي»، والمثبت من بقية النسخ، قال الخفاجي: وضمير (هو) للشبهة، وهو في الحقيقة مادتها وأصلها، وذكَّره رعايةً للخبر. انظر: «حاشية الخفاجي».

ونصَبَهُ ابنُ عامرٍ والكِسائيُّ[1] عطفًا على ﴿يَقُولَ﴾.

(٨٣) ـ ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تنزيهٌ له عمَّا ضَرَبُوا له، وتَعجيبٌ مما قالوا فيه مُعلَّلًا بكونِه مالكًا للمُلكِ كلِّهِ قادرًا على كلِّ شيءٍ.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وعدٌ ووعيدٌ للمُقرِّينَ والمنكرينَ.

وقرأ يعقوبُ بفتحِ التَّاءِ[2].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنه: كنتُ لا أعلَمُ ما رُوِيَ في فضلِ ﴿يسٓ﴾ كيفَ خُصَّتْ به فإذا إنَّه لهذهِ الآيةِ[3].

وعنه عليهِ السَّلامُ: «إنَّ لُكلِّ شيءٍ قلبًا، وقلبُ القرآنِ ﴿يسٓ﴾، مَن قرأَها يريدُ بها وجهَ الله غفرَ اللهُ له وأُعطِيَ مِن الأجرِ كأنَّما قرأَ القُرآنَ اثنتينِ وعشرينَ مَرَّةً، وأيُّما مُسلمٍ قُرِئَ عندَهُ إذا نزلَ به ملكُ الموتِ (يس) نزلَ بكلِّ حرفٍ منها عشرةُ أَملاكٍ يقومونَ بين يديهِ صُفوفًا يصلُّونَ عليه ويستغفرونَ له، ويشهَدونَ غَسْلَه، ويَتْبعونَ جنازَتَهُ، ويصلُّونَ عليه، ويشهدونَ دفنَهُ، وأيُّما مُسلمٍ قرأَ (يس) وهو في سَكراتِ الموتِ لم يَقبضْ ملكُ الموتِ روحَهُ حتى يجيئَه رضوانُ بشربةٍ مِن الجنَّةِ يشرَبُها وهو على فراشِهِ، فيقبضُ روحَهُ وهو ريَّانُ، ويمكثُ في قبرِهِ وهو ريَّانُ، ولا يحتاجُ إلى حوضٍ مِن حياضِ الأنبياءِ حتَّى يدخلَ الجنَّةَ وهو ريَّانُ»[4].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٣٧).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٢٠٨)، و«المبسوط» لابن مهران (ص: ٣١٥).

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ٢٩٨). وقال السيوطي في «حاشيته» (١٠/ ٤١٦): لم أقف عليه.

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٢٣٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٣٦)، وقال الولي =

= العراقي: رواهُ الثَّعلبيُّ وابنُ مردويه مِن حَديثِ أُبَيٍّ بنِ كَعبٍ، وهوَ مَوضوعٌ. انظر: «حاشية السيوطي» (١٠/ ٤١٦).

ورَوَى التِّرمذيّ (٢٨٨٧) الجملة الأولى منه عن هارون أبي محمد عن مقاتل بن حَيَّان عن قَتَادَة عن أنس، وقال: غريب، وهارون أبو محمد شيخ مجهول.

(٣٦) سورة يس مكية
وآياتها ثلاث وثمانون

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « **إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات** »[١]، وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له، ومن قرأ حم التي يذكر فيها الدخان أصبح مغفوراً له »[٢]. وقال ابن حيان في صحيحه عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله عزّ وجلّ غفر له ». وروى الإمام أحمد: عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « اقرأوها على موتاكم » يعني يس[٣]. ولهذا قال بعض العلماء: من خصائص هذه السورة أنها **لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى**، وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة، وليسهل عليه خروج الروح والله تعالى أعلم، قال الإمام أحمد رحمه الله: كان المشيخة يقولون: إذا قرئت - يعني يس - عند الميت خفف الله عنه بها، وروى البزار عن ابن عباس قال، قال النبي ﷺ: « **لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي** »[٤] **يعني يس**.

بسم الله الرحمن الرحيم

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب.

(٢) أخرجه الحافظ الموصلي وإسناده جيد كذا قال ابن كثير.

(٣) أخرجه أحمد ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

(٤) أخرجه الحافظ البزار.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة، وروي عن ابن عباس[1] أن ﴿يس﴾ بمعنى يا إنسان، وقال سعيد بن جبير: هو كذلك في لغة الحبشة، وقال زيد بن أسلم: هو اسم من أسماء الله تعالى، ﴿والقرآن الحكيم﴾ أي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿إنك﴾ أي يا محمد ﴿لمن المرسلين * على صراط مستقيم﴾ أي على منهج ودين قويم وشرع مستقيم، ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت بـه، تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾، وقوله تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾ يعني بهم العرب، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، وقوله تعالى ﴿لقد حق القول على أكثرهم﴾، قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم، بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون، ﴿فهم لا يؤمنون﴾ بالله ولا يصدقون رسله.

إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء، كمن جعل في عنقه غل، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه فصار مقمحاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فهم مقمحون﴾ والمقمح هو الرافع رأسه، كما قالت أم زرع في كلامها: وأشرب فأتقمح، أي أشرب فأروى وأرفع رأسي تهنيئاً وترويأ، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين، كما قال الشاعر:

فما أدري إذا يممت أرضاً أريد الخير أيهما يليني

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر، لما دل الكلام والسياق عليه، وهكذا هذا، لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق اكتفى بذكر العنق عن اليدين، قال ابن عباس: هو كقوله عزّ وجلّ: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ يعني بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها بخير، وقال مجاهد: ﴿فهم مقمحون﴾ قال: رافعي رؤوسهم وأيديهم موضوعة على أفواههم، فهم مغلولون عن كل خير، وقوله تعالى: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً﴾، قال مجاهد عن الحق: ﴿ومن خلفهم سداً﴾ عن الحق فهم يترددون، وقال قتادة: في الضلالات، وقوله تعالى: ﴿فأغشيناهم﴾ أي أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿فهم لا يبصرون﴾ أي لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه، قال عبدالرحمن بن زيد: جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، وقرأ: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب

(١) وهو قول عكرمة والضحاك والحسن وسفيان بن عيينة كذلك.

الأليم﴾، ثم قال: من منعه الله تعالى لا يستطيع، وقال عكرمة، قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن فأنزلت: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً - إلى قوله - فهم لا يبصرون﴾ قال: وكانوا يقولون هذا محمد، فيقول: أين هو أين هو ؟ لا يبصره[١] .

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب قال، قال أبو جهل وهم جلوس: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً فإذا متم بعثتم بعد موتكم، وكانت لكم جنان خير من جنان الأردن، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها، وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب، وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه، فجعل يذروها على رؤوسهم ويقرأ: ﴿يس * والقرآن الحكيم - حتى انتهى إلى قوله تعالى - وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار، فقال: ما لكم ؟ قالوا: ننتظر محمداً، قال: قد خرج عليكم، فما بقي منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب، قال: وقد بلغ النبي ﷺ قول أبي جهل فقال: «وأنا أقول ذلك إن لهم مني لذبحاً وإنه لآخذهم» . وقوله تبارك وتعالى: ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ أي قد ختم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به، ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ أي إنما ينتفع بانذارك المؤمنون الذين يتبعون ﴿الذِّكْر﴾ وهو القرآن العظيم، ﴿وخشي الرحمن بالغيب﴾ أي حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى، يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل، ﴿فبشره بمغفرة﴾ أي لذنوبه ﴿وأجر كريم﴾ أي كثير واسع حسن جميل كما قال تعالى: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾[١] .

ثم قال عزّ وجلّ: ﴿إنا نحن نحيي الموتى﴾ أي يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾، وقوله تعالى: ﴿ونكتب ما قدموا﴾ أي من الأعمال، وفي قوله تعالى: ﴿وآثارهم﴾ قولان: **أحدهما**: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، فنجزيهم على ذلك أيضاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كقوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»[٢] . وهكذا **الحديث الآخر**: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده»[٣] . وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ قال: ما أورثوا من الضلالة، وقال سعيد بن جبير: ﴿وآثارهم﴾ يعني ما أثروا، يقول: ما سنوا من سنة فعمل بها قوم من بعد

---

(١) أخرجه ابن جرير .

(٢) أخرجه مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي وهو طويل وفيه قصة مجتابي النمار المضريين .

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

موتهم، وهذا القول هو اختيار البغوي. **والقول الثاني**: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية، قال مجاهد: ﴿ما قدموا﴾ أعمالهم ﴿وآثارهم﴾ قال: خطاهم بأرجلهم[1]. وقال قتادة: لو كان الله عزّ وجلّ مغفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله، حتى أحصى هذا الأثر فيا هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل، وقد وردت في هذا المعنى أحاديث.

الحديث الأول: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد»، قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال ﷺ: «يا بني سلمة: دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم»[2]. **الحديث الثاني**: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد فنزلت: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ فقال لهم النبي ﷺ: «إن آثاركم تكتب» فلم ينتقلوا[3]. وروى الحافظ البزار، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن بني سلمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد فنزلت: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ فأقاموا في مكانهم. **الحديث الثالث**: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد فنزلت ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ فثبتوا في منازلهم[4]. **الحديث الرابع**: عن عبدالله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: توفي رجل بالمدينة فصلى عليه النبي ﷺ، وقال: «يا ليته مات في غير مولده» فقال رجل من الناس: ولم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا توفي في غير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة»[5]. وروى ابن جرير عن ثابت قال: مشيت مع أنَس رضي الله عنه فأسرعت المشي فأخذ بيدي فمشينا رويداً، فلما قضينا الصلاة قال أنَس: مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي، فقال: يا أنَس أما شعرت أن الآثار تكتب؟ وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأَوْلى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، ﴿والإمام المبين﴾ ههنا هو أم الكتاب، قاله مجاهد وقتادة وكذا في قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ أي بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر كما قال عزّ وجلّ: ﴿ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾، وقال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾.

(١) وهو قول الحسن وقتادة.
(٢) أخرجه أحمد والإمام مسلم.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم والترمذي وقال الترمذي: حسن غريب.
(٤) أخرجه الطبراني وهو حديث موقوف.
(٥) أخرجه الإمام أحمد والنسائي.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾

يقول تعالى واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿ مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾. قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار : إنهـا مدينة انطاكية، وكان بها ملك يقال له (انطيقس) كان يعبد الأصنام، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل وهم (صادق) و (صدوق) و (شلوم) فكذبهم .

وقوله تعالى: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما﴾ أي بادروهما بالتكذيب، ﴿فعززنا بثالث﴾ أي قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث[1] ، ﴿فقالوا﴾ أي لأهل تلك القرية ﴿إنا إليكم مرسلون﴾ أي من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له ، ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ أي فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ! فلم لا أوحي إلينا مثلكم ؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة ، وهـذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا﴾ ! أي استعجبوا من ذلك وأنكروه ، كما قال تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً﴾ ! ولهذا قال هؤلاء : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ۔ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون﴾ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار كقوله تعالى: ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾، ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت السعادة في الدنيا والأخرى، وإن لم تجيبوا فستعلمون غب ذلك ، والله أعلم .

قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية: ﴿ إنا تطيرنا بكم﴾ أي لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا، وقال قتادة : يقولون إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم، وقال مجاهد : يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم﴾، قال قتادة: بالحجارة، وقال مجاهد: بالشتم ﴿وليمسنكم منا عذاب أليم﴾ أي عقوبة شديدة، فقالت لهم رسلهم: ﴿ طائركم معكم﴾ أي مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: ﴿ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله﴾، وقال قوم صالح: ﴿ اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله﴾، وقال قتادة ووهب بن منبه : أي أعمالكم معكم ، وقوله تعالى : ﴿ أئن ذكّرتم بل أنتم قوم مسرفون﴾

---

(١) قال ابن جريج: كان اسم الرسولين (شمعون) و (يوحنا) واسم الثالث (بولص) والقرية انطاكية، وقال ابن كثير: وزعم قتادة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية .

أي من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا، ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾، وقال قتادة: أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم منا بل أنتم قوم مسرفون.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

قال وهب بن منبه: إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، قالوا: وهو (حبيب) وكان يعمل الحرير وهو الحباك، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة[1]، وقال ابن عباس: اسم صاحب يس (حبيب النجار) فقتله قومه، وقال السدي: كان قصاراً، وقال قتادة: كان يتعبد في غار هناك، ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾ أي على إبلاغ الرسالة ﴿وهم مهتدون﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني﴾ أي وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له، ﴿وإليه ترجعون﴾ أي يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ﴿أأتخذ من دونه آلهة﴾؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون﴾ أي هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه، لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء، ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾، وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه ﴿إني إذاً لفي ضلال مبين﴾ أي إن اتخذتها آلهة من دون الله، وقوله تعالى: ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ قال ابن إسحاق: يقول لقومه ﴿إني آمنت بربكم﴾ الذي كفرتم به ﴿فاسمعون﴾ أي فاسمعوا قولي. ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله ﴿إني آمنت بربكم﴾ أي الذي أرسلكم ﴿فاسمعون﴾ أي فاشهدوا لي بذلك عنده، وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إني آمنت بربكم واتبعتكم، وهذا القول أظهر في المعنى والله أعلم، قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس: فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه، وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به حتى أقعصوه، وهو يقول كذلك، فقتلوه رحمه الله.

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ

(١) ذكره ابن إسحاق عن كعب الأحبار ووهب بن منبه.

قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

قال ابن مسعود: إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصه من دبره وقال الله له: ﴿ادخل الجنة﴾ فدخلها، فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها، وقال مجاهد: قيل لحبيب النجار: ادخل الجنة، وذلك أنه قتل فوجبت له، فلما رأى الثواب ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾ قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً لا تلقاه غاشاً، لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى ﴿قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه، وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين﴾، وبعد مماته في قوله: ﴿يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾[1]، وقال سفيان الثوري عن أبي مجلز: ﴿بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ بإيماني بربي وتصديقي المرسلين، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصاً على هداية قومه. وقال محمد بن إسحاق، عن كعب الأحبار أنه ذكر له (حبيب بن زيد) الذي كان مسيلمة الكذاب قطعه باليمامة، حين جعل يسأله عن رسول الله ﷺ، فجعل يقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، ثم يقول: أتشهد أني رسول الله، فيقول: لا أسمع، فيقول له مسيلمة لعنه الله: أتسمع هذا ولا تسمع ذاك؟ فيقول: نعم، فجعل يقطعه عضواً عضواً كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه، فقال كعب حين قيل له اسمه حبيب: وكان والله صاحب يس اسمه حبيب. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين﴾ يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه، غضباً منه تبارك وتعالى عليهم، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه، ويذكر عزّ وجلّ أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك[2]، ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ فأهلك الله تعالى ذلك الملك، وأهلك أهل انطاكية فبادوا عن وجه الأرض، فلم يبق منهم باقية، وقيل: ﴿وما كنا منزلين﴾ أي وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم، بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم، وقيل: المعنى في قوله تعالى ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء﴾ أي من رسالة أخرى إليهم[3] قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ قال ابن جرير: والأول أصح لأن الرسالة لا تسمى جنداً.

قال المفسرون: بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم لم تبق بهم روح تتردد في جسد، وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي (أنطاكية) وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام كما نص عليه قتادة وغيره، وفي ذلك نظر من وجوه: **أحدها**: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عزّ وجلّ لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قاله ابن مسعود والمعنى ما كاثرناهم بالجموع، الأمر كان أيسر علينا من ذلك.

(٣) قاله مجاهد وقتادة وقول ابن مسعود أظهر والله أعلم.

إنا إليكم مرسلون﴾، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾. **الثاني**: أن أهل انطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانت أول مدينة آمنت بالمسيح ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربع اللاتي فيهن بتاركة، وهن (القدس) لأنها بلد المسيح و (انطاكية) لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، و (الاسكندرية) لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة، ثم (رومية) لانها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده، فإذا تقرر أن انطاكية أول مدينة آمنت، فأهل هـذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم، والله أعلم. **الثالث**: أن قصة انطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر غير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة، لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تبارك وتعالى ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾، فعلى هـذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أُخرى غير (انطاكية) كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً، أو تكون انطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أُخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هـذه لم يعرف أنهـا أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

قال ابن عباس ﴿يا حسرة على العباد﴾ أي يا ويل العباد، وقال قتادة: ﴿يا حسرة على العباد﴾ أي يا حسرة العباد على أنفسهم، على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله، والمعنى: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله وخالفوا أمر الله؟ فإنهم كانوا ﴿ما يأتيهم من رسول إلا كـانوا بـه يستهزئون﴾ أي يكذبونه ويستهزئون بـه ويجحدون ما أرسل بـه من الحق، ثم قال تعالى ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾ أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم يكن لهم إلى هـذه الدنيا كرة ولا رجعة، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وإن كل لمّا جميع لدينا محضرون﴾ أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية، ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جلّ وعلا، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها، ومعنى هذا كقوله جلّ وعلا ﴿وإنَّ كلاً لمّا ليوفينهم ربك أعمالهم﴾.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿وآية لهم﴾ أي دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿الأرض

الميتة ﴾ إي إذا كانت ميتة هـامدة لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله تعالى عليها المـاء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قـال تعالى: ﴿ أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ أي جعلنا رزقاً لهم ولأنعامهم، ﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴾ أي جعلنـا فيها أنهاراً سارحة في أمكنة يحتاجون إليها، ﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ لـمـا امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافهـا، وقوله جلّ وعلا: ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أي وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم، لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم[1]، ولهـذا قال تعالى: ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي فهلا يشكرونه على ما أنعم بـه عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، واختار ابن جرير[2] أن (ما) في قوله تعالى: ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ بمعنى (الذي) تقديره: ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم، أي غرسوه ونصبوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ﴿ ليأكلوا من ثمره ومـمـا عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ﴾ أي من زروع وثمار ونبات، ﴿ ومن أنفسهم ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أي من مخلوقات شتى لا يعرفونها كما قال جلت عظمته: ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾.

* وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى: ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة، خلق الليل والنهار، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وجعلهما يتعاقبان، يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قـال تعالى: ﴿ يغشي الليل النهـار يطلبه حثيثاً ﴾، ولهـذا قال عزّ وجلّ ههنا: ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ أي نصرمه منه فيذهب فيقبـل الليل، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ كما جـاء في الحديث: « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقـد أفطر الصائم » هذا هو الظاهر من الآية؛ وقوله جل جـلاله: ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ في معنى قوله: ﴿ لمستقر لها ﴾ قولان: **أحدهما**: أن المراد مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش، هي وجميع المخلوقات لأنه سقفها، فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع كما جـاءت بذلك الأحاديث، روى البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال ﷺ: « يا أبا ذر أتدري أين تغـرب الشمس »؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ »، وروى البخاري أيضاً عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تبارك وتعالى: ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ قال ﷺ: « مستقرهـا تحت

---

(١) قاله ابن عباس وقتادة فتكون (ما) في قوله: ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ للنفي.

(٢) قوله (واختار ابن جرير) بل جزم بأن (ما) اسم موصول بمعنى (الذي) ولم يحك غيره إلا احتمالاً.

العرش » ، وعنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين غربت الشمس، فقال ﷺ: « يا أبا ذر أتدري أين تذهب الشمس » ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: « فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها عزّ وجلّ، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت فترجع إلى مطلعها وذلك مستقرها – ثم قرأ – ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾ »[1]. **والقول الثاني**: أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكوّر وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني ، قال قتادة: ﴿لمستقر لها﴾ أي لوقتها ولأجلٍ لا تعدوه ، وقيل: المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها، ثم تنتقل في مطلع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها[2] ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم (والشمس تجري لا مستقر لها) اي لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً لا تفتر ولا تقف، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ أي لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة، ﴿وذلك تقدير العزيز﴾ أي الذي لا يخالف ولا يمانع ﴿العليم﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدَّر ذلك ووقَّته على منوال، لا اختلاف فيه ولا تعاكس، كما قال عزّ وجلّ: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾، ثم قال جلّ وعلا : ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ أي جعلناه يسير سيراً آخر ، يستدل به على مضي الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال عزّ وجلّ: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ .

وقال تعالى : ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ الآية ، وقال تبارك وتعالى : ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾، فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار فهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور ، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء وإن كان مقتبساً من الشمس ، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير ﴿كالعرجون القديم﴾ قال ابن عباس: وهو أصل العذق، وقال مجاهد ﴿العرجون القديم﴾ : أي العذق اليابس، يعني ابن عباس أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى ، ثم بعد هذا يبديه الله تعالى جديداً في أول الشهر الآخر . وقوله تبارك وتعالى: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا، وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ قال: ذلك ليلة الهلال، وقال الثوري: لا يدرك هذا ضوء هذا ولا هذا ضوء هذا، وقال عكرمة في قوله عزّ وجلّ : ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ يعني أن لكل منهما سلطاناً فلا ينبغي للشمس

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) هذه رواية عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

أن تطلع بالليل، وقوله تعالى: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ يقول: لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقال الضحّاك: لا يذهب الليل من ههنا حتى يجيء النهار من ههنا وأومأ بيده إلى المشرق، وقال مجاهد: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ المعنى أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ، لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ يعني الليل والنهار والشمس والقمر كلهم ﴿يسبحون﴾ أي يدورون في فلك السماء[1]، قال ابن عباس: في فلكة كفلكة المغزل، وقال مجاهد: الفلك كحديدة الرحى أو كفلكة المغزل، لا يدور المغزل إلا بها ولا تدور إلا به.

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

يقول تبارك وتعالى: ودلالة لهم أيضاً على قدرته تبارك وتعالى، تسخيره البحر ليحمل السفن، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين، ولهذا قال عزّ وجلّ ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم﴾ أي آباءهم ﴿في الفلك المشحون﴾ أي في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات، التي أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، قال ابن عباس ﴿المشحون﴾ الموقر، وقال الضحّاك وقتادة: هي سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، وقوله جلّ وعلا: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها؛ وقال السدي في رواية: هي الأنعام، وقال ابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتدرون ما قوله تعالى: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾؟ قلنا: لا، قال: هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح عليه الصلاة والسلام على مثلها، وكذا قال الضحّاك وقتادة: المراد بقوله تعالى: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ أي السفن، ويقوي هذا المذهب في المعنى قوله جلّ وعلا: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾، وقوله عزّ وجل: ﴿وإن نشأ نغرقهم﴾ يعني الذين في السفن، ﴿فلا صريخ لهم﴾ أي فلا مغيث لهم مما هم فيه، ﴿ولا هم ينقذون﴾ أي مما أصابهم، ﴿إلا رحمة منا﴾ وهذا استثناء منقطع تقديره: ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر ونسلمكم إلى أجل مسمى، ولهذا قال تعالى: ﴿ومتاعاً إلى حين﴾ أي إلى وقت معلوم عند الله عزّ وجلّ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

---

(١) قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة وعطاء الخراساني، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿في فلك يسبحون﴾ في فلك بين السماء والأرض.

يقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة: ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ قال مجاهد: من الذنوب، ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه، وتقدير الكلام أنهم لا يجيبون إلى ذلك بل يعرضون عنه، واكتفى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾: أي على التوحيد وصدق الرسل، ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ أي لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾ أي وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾ أي قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق، محاجين لهم فيما أمروهم به: ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ أي هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم ﴿إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ أي في أمركم لنا بذلك.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿متى هذا الوعد﴾، كما قال تعالى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه والله أعلم «نفخة الفزع» ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله عز وجل إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدّها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، وهي صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ أي على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك، ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾، وقد وردت ههنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر، ثم يكون بعد هذا «نفخة الصعق» لتي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك «نفخة البعث» والله أعلم.

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

هذه هي النفخة الثالثة وهي نفخة (البعث والنشور) للقيام من الأجداث والقبور، ولهذا قال تعالى: ﴿فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ والنسلان هو المشي السريع، كما قال تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً﴾ الآية، ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾؟ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾؟ وهذا لا ينفي

عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد، قال أبي بن كعب ومجاهد والحسن : ينامون نومة قبل البعث، قال قتادة: وذلك بين النفختين، فلذلك يقولون: ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون: ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ وقال الحسن: إنما يجيبهم بذلك الملائكة(١) ، وقال عبد الرحمن ابن زيد: الجميع من قول الكفار ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ نقله ابن جرير ، واختار الأول وهو أصح، وذلك كقوله تبارك وتعالى في الصافات: ﴿ وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين * هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾، وقال جلّت عظمته: ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾، وقال جل جلاله ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ أي إنما نأمرهم أمراً واحداً فإذا الجميع محضرون، ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي من عملها ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ .

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات، فنزلوا في روضات الجنات، أنهم في شغل عن غيرهم، بما هم فيه من النعيم المقيم، والفوز العظيم، قال الحسن البصري: في شغل عما فيه أهل النار من العذاب، وقال مجاهد: ﴿ في شغل فاكهون ﴾ أي في نعيم معجبون به، وقال ابن عباس: ﴿ فاكهون ﴾ أي فرحون، قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾ قالوا: شغلهم افتضاض الأبكار، وقال ابن عباس في رواية عنه: ﴿ في شغل فاكهون ﴾ أي بسماع الأوتار(٢) ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ هم وأزواجهم ﴾ قال مجاهد: وحلائلهم ﴿ في ظلال ﴾ أي في ظلال الأشجار ﴿ على الأرائك متكئون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ﴿ الأرائك ﴾ هي السرر تحت الحجال، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ أي من جميع أنواعها ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ. عن أسامة ابن زيد رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: « ألا هل مشمر إلى الجنة ! فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور كلها يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سلامة، وفاكهة خضرة، وخير ونعمة في محلة عالية بهية »، قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال ﷺ: « قولوا إن شاء الله »، فقال القوم: إن شاء الله »(٣) . وقوله تعالى: ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ قال ابن عباس: فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ تحيتهم يوم يلقونه

(١) قال ابن كثير : ولا منافاة بين القولين إذ الجمع ممكن والقول الأول قاله غير واحد من السلف والله أعلم .

(٢) قال أبو حاتم: لعله غلط من المستمع وإنما هو افتضاض الأبكار .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد من سننه .

سلام﴾، وقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾، قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم»[1].

* وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة، من أمره لهم (أن يمتازوا) بمعنى يتميزوا عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، وقال ﴿يومئذ يصّدعون﴾ أي يصيرون صدعين فرقتين، وقوله تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوّ مبين﴾ هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدوّ لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم، ولهذا قال تعالى ﴿وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ يقال: جبلا بكسر الجيم وتشديد اللام، والمراد بذلك الخلق الكثير، وقوله تعالى: ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أي أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به وعدولكم إلى اتباع الشيطان؟ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم يقول: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ فيتميز الناس ويجثون، وهي التي يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾»[2].

* هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة وقد برزت الجحيم لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ أي هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم، ﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾، كما قال تعالى: ﴿يوم يدّعون

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: وفي إسناده نظر، ورواه ابن ماجه في كتاب السنّة من سننه.

(٢) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة مرفوعاً.

إلى نار جهنم دعًّا هـذه النار التي كنتم بهـا تكذبون﴾، وقوله تعالى: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بمـا كانوا يكسبون﴾، هذا حـال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بمـا عملت، عن أَنَس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليَّ إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبـين الكلام، فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل»[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل قال فيه: «ثم يلقى الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك، وصمت وصلّيت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع - قال - فيقال له ألا نبعث عليك شاهدنا؟ - قال: فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليه، فيختم على فيه، ويقال: لفخذه انطقي - قال - فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بمـا كان يعمل، وذلك المنافق، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك الذي يسخط الله تعالى عليه»[2].

وروى ابن جرير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه فيعترف فيقول: نعم أي رب عملت عملت عملت، قال: فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها، قال: فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئاً، وتبدو حسناته فود النـاس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحد، ويقول: أي رب وعزتك، لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى، ثم تلا: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بمـا كانوا يكسبون﴾[3]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون﴾، قال ابن عباس في تفسيرها يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى فكيف يهتدون؟ وقال مرة: أعميناهم، وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم، فجعلهم عمياً يترددون، وقال السدي: ولو نشاء أعمينا أبصارهم، وقال مجاهد وقتادة والسدي: ﴿فاستبقوا الصراط﴾ يعني الطريق، وقال ابن زيد يعني بالصراط ههنا الحق فأنى يبصرون وقـد طمسنا على أعينهم؟ وقال ابن عباس ﴿فأنى يبصرون﴾ لا يبصرون الحق، وقوله عزّ وجل: ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾ قال ابن عباس: أهلكناهم، وقال السدي: يعني لغيرنا خلقهم، وقال أبو صالح: لجعلناهم حجارة، وقال الحسن البصري وقتادة: لأقعدهم على أرجلهم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فما استطاعوا مضياً﴾ أي إلى الأمام ﴿ولا يرجعون﴾ إلى وراء، بل يلزمون حالاً واحداً لا يتقدمون ولا يتأخرون.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه مسلم والنسائي بنحوه.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة بطوله.

(٣) أخرجه ابن جرير وهو حديث موقوف على أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره، ردّ إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط، كما قال تعالى ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾، والمراد من هذا – والله أعلم – الإخبار عن هذه الدار، بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ أفلا يعقلون ﴾ ؟ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة، ثم إلى الشيخوخة، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى، لا زوال لها ولا انتقال منها، ولا محيد عنها وهي الدار الآخرة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾، يقول عز وجل مخبراً عن نبيّه محمد ﷺ: أنه ما علمه الشعر ﴿ وما ينبغي له ﴾ أي ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته، ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أنشده زحفه أو لم يتمه، قال الشعبي: ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر، إلا رسول الله ﷺ[١]. وعن الحسن البصري قال: إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت: (كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً)، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا قال أبو بكر أو عمر رضي الله عنهما: أشهد أنك رسول الله، يقول تعالى: ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾[٢]. وروى الأموي في مغازيه أن رسول الله ﷺ جعل يمشي بين القتلى يوم بدر، وهو يقول: « نُفَلِّق هاما »، فيقول الصدّيق رضي الله عنه متمماً للبيت:

من رجـــال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخبر تمثل فيه ببيت طرفة:

« ويأتيك بالأخبار من لم تزود »[٣]

وهو في شعر (طرفة بن العبد) في معلقته المشهورة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً « ويأتيك بالأخبار من لم تزود »

وثبت في الصحيح أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبدالله بن رواحة رضي الله عنه، ولكن تبعاً لقول أصحابه رضي الله عنهم، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون:

لا هم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينــة علينــا وثبت الأقدام إن لاقينا

---

(١) ذكره ابن عساكر عن الشعبي.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم عن الحسن البصري.

(٣) أخرجه الإمام أحمد والنسائي والترمذي وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

إن أولاء قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع ﷺ صوته بقوله: أبينا، ويمدها، وقد روى هذا بزحاف في الصحيحين أيضاً، وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

لكن قالوا: هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه، وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غار، فنكبت إصبعه، فقال ﷺ:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً وما ينبغي له، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ﴿الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة ولا سحر يؤثر، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال، وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً. قال ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً»[1]. على أن الشعر فيه ما هو مشروع وهو هجاء المشركين، الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبدالله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم رضي الله عنهم أجمعين، ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم (أمية بن أبي الصلت) الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه»، وقد أنشد بعض الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ مائة بيت يقول ﷺ عقب كل بيت: «هيه»، يعني يستطعمه فيزيده من ذلك، وفي الحديث: «إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكماً»[2]، ولهذا قال تعالى: ﴿وما علمناه الشعر﴾ يعني محمداً ﷺ ما علمه الله الشعر، ﴿وما ينبغي له﴾ أي وما يصلح له ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ أي ما هذا الذي علمناه ﴿إلا ذكر وقرآن مبين﴾ أي بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره، ولهذا قال تعالى ﴿لينذر من كان حياً﴾ أي لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض، كقوله: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾، وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة، كما قال قتادة: حي القلب، حي البصر، وقال الضحاك: يعني عاقلاً، ﴿ويحق القول على الكافرين﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿فهم لها مالكون﴾ قال قتادة: مطيقون أي جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً، قال ابن كثير: وإسناده على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه أبو داود من حديث أبي بن كعب وابن عباس رضي الله عنهما.

وذاك ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير، وقوله تعالى: ﴿ فنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ أي منها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار، ﴿ ومنها يأكلون ﴾ إذا شاءوا نحروا واجتزروا، ﴿ ولهم فيها منافع ﴾ أي من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿ ومشارب ﴾ أي من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك، ﴿ أفلا يشكرون ﴾؟ أي أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ولا يشركون به غيره؟

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة، وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى، قال الله تعالى: ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ أي لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل، وأحقر وأدحر، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ولا الانتقام ممن أرادها بسوء، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾، قال مجاهد: يعني عند الحساب يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها، ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم، وقال قتادة: ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ يعني الآلهة، ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً إنما هي أصنام[1]، وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ أي تكذيبهم لك وكفرهم بالله، ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزيهم وصفهم، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً.

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾

قال مجاهد وعكرمة: جاء (أبي بن خلف) لعنه الله، إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يفته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم، يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار»، ونزلت هذه الآيات من آخر يس: ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ إلى آخرهن، وقال ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففته بيده ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، يميتك الله ثم

(١) وهكذا قال الحسن البصري وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

يحييك ثم يدخلك جهنم »، قال: ونزلت الآيات من آخر يس، وعلى كل تقدير سواء كانت هـذه الآيات قد نزلت في (أبي بن خلف) أو (العاص بن وائل) أو فيهما، فهي عـامة في كل من أنكر البعث، والألف واللام في قوله تعالى: ﴿أو لم ير الإنسان﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث، ﴿أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ أي أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾، وقال تعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ أي من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته؟ كما قال الإمام أحمد في مسنده عن بشر بن جحاش قال: إن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه، ثم قال رسول الله ﷺ: « قال الله تعالى: ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنّى أوان الصدقة؟ »[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿وضرب لنـا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾؟ أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة، للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود، فعلم من نفسـه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ أي يعلم العظـام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت.

قال الإمام أحمد، قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضي الله عنهما: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته ﷺ يقول: « إن رجلاً حضره الموت فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً، ثم أوقدوا فيه ناراً، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي، فامتحشت[2] فخذوها فدقوهـا فذروها في اليم، ففعلوا، فجمعه الله تعالى إليه، ثم قال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك، فغفر الله عزّ وجلّ له »، وفي الصحيحين بأنه أمر بنيه أن يحرقوه، ثم يسحقوه، ثم يذروا نصفه في البر ونصفه في البحر في يوم رائح، أي كثير الهواء، ففعلوا ذلك، فأمر الله تعالى البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال له: كن فإذا هو رجل قائم، فقال له: مـا حملك على ما صنعت؟ قال: مخافتك وأنت أعلم، فما تلافاه أن غفر له.

وقوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء، حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد لا يمنعه شيء، قال قتادة: يقول: هذا الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه، وقيل: المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قدح نار وليس معـه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار بينهما كالزناد سواء، وفي المثل: لكل شجر نار واستمجد المرخ والعفار. وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا العنّاب.

أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه ابن ماجه في سننه.

(٢) فامتحشت أي: فاحترقت.

﴿أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً منبهاً على قدرته العظيمة، في خلق السماوات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة كقوله تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ وقال عزّ وجلّ ههنا ﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟﴾ أي مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم، وهذه الآية الكريمة كقوله عزّ وجلّ: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير﴾، وقال تبارك وتعالى ههنا : ﴿بلى وهو الخلاق العليم ه إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ أي إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد كما قيل :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له ﴿كن﴾ قولةً ﴿فيكون﴾

عن أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى يقول يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، إني جوّاد ماجد واجد أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون»[1] ، وقوله تعالى: ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ أي تنزيه وتقديس للحي القيوم، الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وإليه ترجع العباد يوم المعاد فيجازي كل عامل بعمله، وهو العادل المنعم المتفضل، ومعنى قوله سبحانه : ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ كقوله عزّ وجلّ : ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت، ورهبة ورهبوت، ومن الناس من زعم أن ﴿الملك﴾ هو عالم الأجساد، و (الملكوت) هو عالم الأرواح، والصحيح الأول، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم. روى الإمام أحمد، عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه قال : قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال في ركعات، وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : «سمع الله لمن حمده، ثم قال: الحمد لله، ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة، وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاي»[2] . عن عوف ابن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام، فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة[3].

[آخر تفسير سورة (يس) ولله الحمد والمنة]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي ذر مرفوعاً . (٢) أخرجه أحمد ورواه أبو داود والترمذي والنسائي بنحوه .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، والترمذي في الشمائل والنسائي عن عوف بن مالك الأشجعي .

تفسير سورة يس

[وهى] [١] مكية .

قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا قتيبة وسفيان بن وَكيع ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرُّؤاسى ، عن الحسن بن صالح ، عن هارون أبى محمد ، عن مقاتل بن حيان ، عن قتادة [٢] ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس . ومن قرأ يس كَتَب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » .

ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حُميد بن عبد الرحمن . وهارون أبو محمد شيخ مجهول . وفى الباب عن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، ولا يصح لضعف إسناده ، وعن أبى هريرة منظور فيه [٣] .

أما حديث الصديق فرواه الحكيم الترمذى فى كتابه نوادر الأصول[٤] . وأما حديث أبى هريرة فقال[٥] أبو بكر البزار : حدثنا عبد الرحمن بن الفضل ،حدثنا زيد ـ هو ابن الحباب ـ حدثنا حُميد ـ هو المكى ، مولى آل علقمة ـ عن عطاء ـ هو ابن أبى رباح ـ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس » .

ثم قال : لا نعلم رواه إلا زيد ، عن حميد [٦] .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن هشام بن زياد ، عن الحسن قال : سمعت أبا هريرة يقول [٧] : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ يس فى ليلة أصبح مغفوراً له . ومن قرأ : « حم » التى فيها الدخان أصبح مغفوراً له » . إسناد [٨] جيد [٩] .

وقال [١٠] ابن حبان فى صحيحه : حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم ـ مولى ثقيف ـ حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكونى ، حدثنا أبى ، حدثنا زياد بن خَيْثَمة، حدثنا محمد بن جُحَادة ،

---

(١) زيادة من ت ، س ، أ . (٢) فى ت : « روى أبو عيسى الترمذى بإسناده » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٧) وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٢/ ٥٦) بعد ما ذكر الحديث : « قال أبى : مقاتل هذا هو مقاتل بن سليمان رأيت هذا الحديث فى أول كتاب وضعه مقاتل وهو حديث باطل لا أصل له . قلت لأبى : مقاتل أدرك قتادة ؟ قال : وأكبر من قتادة أبو الزبير » .

(٤) نوادر الأصول ص (٣٣٥) ورواه ابن الضريس فى فضائل القرآن برقم (٢١٧) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٢٤٦٥) وابن الجوزى فى الموضوعات (١/ ٢٤٧) من طرق عن إسماعيل بن أبى أويس عن محمد بن عبد الرحمن الجدعانى عن سليمان بن مرقاع عن هلال ابن الصلت عن أبى بكر ، رضى الله عنه . وقال ابن الجوزى : « هذا الحديث من جميع طرقه باطل لا أصل له » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) مسند البزار برقم (٢٣٠٤) « كشف الأستار » .

(٧) فى ت : « وروى الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة قال » . (٨) فى ت : « إسناده » .

(٩) مسند أبى يعلى (١١/ ٩٣) وفى إسناده هشام بن زياد ضعفه الأئمة ، وقال ابن حبان : « كان ممن يروى الموضوعات عن الثقات ، والمقلوبات عن الأثبات حتى يسبق إلى قلب المستمع أنه كان المعتمد لها ، لا يجوز الاحتجاج به » . والحسن لم يسمع من أبى هريرة ، وانظر التعليق على أبى يعلى عند قوله : « سمعت » .

(١٠) فى ت ، أ : « وروى » .

عن الحسن ، عن جُنْدَب بن [١] عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه اللّه ، غفر له » [٢] .

وقد قال [٣] الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا معتمر ، عن أبيه ، عن رجل ، عن أبيه ، عن معقل بن يَسَار ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « البقرة سنام القرآن وذِرْوَته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا، واستخرجت ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] من تحت العرش فوصلت بها ـ أو : فوصلت بسورة البقرة ـ ويس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد اللّه والدار الآخرة ، إلا غفر له ، واقرؤوها على موتاكم » .

وكذا رواه النسائى فى «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى ،عن معتمر بن سليمان ، به [٤].

ثم قال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا سليمان التيمى ، عن أبى عثمان ـ وليس بالنهدى ـ عن أبيه ، عن مَعْقِل بن يَسَار قال : قال رسول اللّه ﷺ :« اقرؤوها على موتاكم » ـ يعنى : يس .

ورواه أبو داود ، والنسائى فى « اليوم والليلة » وابن ماجه من حديث عبد اللّه بن المبارك ، به[٥] إلا أن فى رواية النسائى : عن أبى عثمان ، عن معقل بن يسار .

ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة : أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره اللّه . وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة ، وليسهل [٦] عليه خروج الروح ، واللّه أعلم .

قال الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت ـ يعنى يس ـ عند الميت خُفِّف عنه بها [٧] .

وقال [٨] البزار : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، عن أبيه ، عن عكْرِمة ، عن ابن عباس قال : قال النبى[٩] ﷺ : « لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » ـ يعنى: يس [١٠] .

---

(١) فى أ : « عن » .
(٢) صحيح ابن حبان برقم (٦٦٥) « موارد » والحسن لم يسمع من جندب ، قاله أبو حاتم .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) المسند (٥/٢٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩١٤) وقد أعله ابن القطان كما فى التلخيص لابن حجر (٢/١٠٤) بثلاث علل : الاضطراب فى الإسناد ، وبالوقف ، وبجهالة حال أبى عثمان وأبيه . ثم نقل عن الدارقطنى قوله : « هذا حديث ضعيف الإسناد ، مجهول المتن ، ولا يصح فى الباب حديث » .
(٥) المسند (٥/٢٦) وسنن أبى داود برقم (٣١٢١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩١٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٤٨) .
(٦) فى ت ، س : « ولتسهل » .
(٧) المسند (٤/١٠٥) .
(٨) فى ت : « وروى » .
(٩) فى ت : « رسول اللّه » .
(١٠) مسند البزار برقم (٢٣٠٥) « كشف الأستار » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول « سورة البقرة » : ورُوِى عن ابن عباس وعِكْرِمة ، والضحاك ، والحسن وسفيان بن عُيينة [١] أن « يس » بمعنى : يا إنسان .

وقال سعيد بن جبير : هو كذلك فى لغة الحبشة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو اسم من أسماء اللّه تعالى .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ أى : المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ﴿ إِنَّكَ ﴾ يامحمد ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى: على منهج ودين قويم ، وشرع مستقيم ، ﴿ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به مُنَزَّل من رب العزة ، الرحيم بعباده المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعنى بهم : العرب ؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله . وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم [كما زعمه بعض النصارى] [٢] ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفى العموم . وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة فى عموم بعثته ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ﴾ : قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن [اللّه قد][٣] حتم عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون، ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ باللّه، ولا يصدقون رسله.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ .

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جُعِل فى عنقه غُل،فجمَع يديه مع عنقه تحت ذقنه ،فارتفع رأسُه ،فصار مقمَحا ؛ ولهذا قال: ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ ،والمقمح : هو الرافع رأسه ، كما قالت أم زرع فى كلامها : « وأشرب فأتقمَّح » أى :

---

(١) فى ت : « وعكرمة وغيرهما » . (٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من ت ، س .

أشرب فأروى ، وأرفع رأسي تهنيئا وتَرَوّيا . واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين ، وإن كانتا مرادتين ، كما قال الشاعر [(١)] :

فَمَا أدْرى إذَا يَمَّمْتُ أرْضـا ... أريـد الخَيْـرَ أيّـهما يَـليـنى

أألْخَيرُ الـذى أنَـا أبْتَـغـيـه ... أم الشَّرّ الـذى لا يَـأتَـليـنى

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لَمَّا دل السياق والكلام عليه [(٢)] ، وكذا هذا ، لما كان الغُلّ إنما يعرف فيما جَمَعَ اليدين مع العنق ، اكتفى بذكر العنق عن اليدين .

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ قال : هو كقول الله [(٣)] تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء : ٢٩] يعنى بذلك : أن أيديهم موثقة [(٤)] إلى أعناقهم ، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير .

وقال مجاهد : ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ قال : رافعو[(٥)] رؤوسهم ، وأيديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل خير .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ : قال مجاهد : عن الحق ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ قال مجاهد : عن الحق ، فهم يترددون . وقال قتادة : الضلالات .

وقوله : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أى : أغشينا أبصارهم عن الحق ، ﴿ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ أى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه .

قال ابن جرير : وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « فأعشيناهم » بالعين المهملة ، من العشا وهو داء فى العين .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه ، وقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦، ٩٧] ثم قال : من منعه الله لا يستطيع .

وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن ، فأنزلت : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً ﴾ إلى قوله : ﴿ [فَهُمْ] [(٦)] لا يُبْصِرُونَ ﴾ ، قال : وكانوا يقولون : هذا محمد . فيقول: أين هو ؟ أين هو ؟ لا يبصره . رواه ابن جرير .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب قال : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه[(٧)] كنتم ملوكا ، فإذا متم [(٨)] بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جنانٌ خير من جنان الأرْدُنَ . وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تُعذّبون بها . وخرج [عليهم] [(٩)] رسول الله ﷺ عند ذلك، وفى يده حفنة من تراب، وقد أخذ الله على أعينهم دونه ، فجعل يذُرّها على رؤوسهم ، ويقرأ : ﴿ يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢/٩٨) .
(٢) فى ت : « لما دل عليه السياق » .
(٣) فى ت : « كقوله » .
(٤) فى ت : « موثوقة » .
(٥) فى ت ، س : « رافعى » .
(٦) زيادة من ت ، أ .
(٧) فى ت : « بايعتموه » .
(٨) فى ت : « أنتم » .
(٩) زيادة من أ .

حتى انتهى إلى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته ، وباتوا رُصَداء على بابه ، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال: ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً . قال : قد خرج عليكم ، فما بقى منكم من رجل إلا [قد] (١) وضع على رأسه ترابا ، ثم ذهب لحاجته . فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبىّ ﷺ قول أبى (٢) جهل فقال : « وأنا أقول ذلك : إن لهم منى لذبحا ، وإنه أحدهم » .

وقوله : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : قد ختم الله عليهم بالضلالة ، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به .

وقد تقدم نظيرها فى أول سورة البقرة (٣) ، وكما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ،وهو القرآن العظيم ، ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ ﴾ أى : حيث لا يراه أحد إلا الله ، يعلم أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يفعله ، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أى : لذنوبه ، ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : كبير واسع حسن جميل ، كما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] .

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ أى: يوم القيامة ،وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة ، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٧].

وقوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أى : من الأعمال .

وفى قوله : ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التى أثروها من بعدهم ، فنجزيهم على ذلك أيضاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله ﷺ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل (٤) بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة،كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده،من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً».

رواه مسلم ، من رواية شعبة ،عن عون بن أبى جُحَيفة ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه جرير بن عبد الله البجلى ، رضى الله عنه ، وفيه قصة مُجْتَابى النِّمار المُضَرِيِّين (٥) . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن يحيى بن سليمان الجعفى ، عن أبى المحياة يحيى بن يَعلَى ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جرير بن عبد الله ، فذكر الحديث بطوله ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ .

وقد رواه مسلم من رواية أبى عَوَانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه ، فذكره (٦) .

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى ت : « قول أبا » وهو خطأ .
(٣) عند تفسير الآية السادسة .
(٤) فى أ : « يعمل » .
(٥، ٦) صحيح مسلم برقم (١٠١٧) .

وهكذا الحديث الآخر الذى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث : من علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده » (١) .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى سعيد قال : سمعت مجاهداً يقول فى قوله (٢) : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ** ﴾ قال : ما أورثوا من الضلالة .

وقال ابن لَهيعة ، عن عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ** ﴾ يعنى : ما أثرُوا . يقول : ما سَنوا من سنة ، فعمل (٣) بها قوم من بعد موتهم ، فإن كان خيرا فله مثل أجورهم ، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً ، وإن كانت شراً فعليه مثل أوزارهم ، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً . ذكرهما ابن أبى حاتم .

وهذا القول هو اختيار البَغَوىّ (٤) .

والقول الثانى : أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية .

قال ابن أبى نَجيح وغيره ، عن مجاهد : ﴿ **مَا قَدَّمُوا** ﴾ : أعمالهم . ﴿ **وَآثَارَهُمْ** ﴾ قال : خطاهم بأرجلهم . وكذا قال الحسن وقتادة : ﴿ **وَآثَارَهُمْ** ﴾ يعنى : خطاهم . قال قتادة : لو كان الله تعالى (٥) مغفلاً شيئاً من شأنك يا بن آدم ، أغفل ما تعفى الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره فى طاعة الله ، فليفعل .

وقد ورَدت فى هذا المعنى أحاديث :

الحديث الأول : قال (٦) الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبى ، حدثنا الجُرَيرى ، عن أبى نَضْرة ، عن جابر بن عبد الله قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال لهم : « إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد». قالوا : نعم ، يا رسول الله ، قد أردنا ذلك . فقال : « يا بنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » .

وهكذا رواه مسلم ، من حديث سعيد الجريرى وكَهْمس بن الحسن ، كلاهما عن أبى نضرة ــ واسمه : المنذر بن مالك بن قطْعَة العَبْدى ــ عن جابر (٧) .

الحديث الثانى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن الوزير الواسطى ، حدثنا إسحاق الأزرق ، عن سفيان الثورى ، عن أبى سفيان ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى قال : كانت بنو سلَمة فى ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد، فنزلت: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ**

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٦٣١) .

(٢) فى ت : « وعن مجاهد فى قوله » .

(٣) فى أ : « يعمل » .

(٤) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٩) .

(٥) فى ت ، س ، أ : « عز وجل » .

(٦) فى ت : « رواه » .

(٧) المسند (٣/ ٣٣٢) وصحيح مسلم برقم (٦٦٥) .

مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم ﴾ فقال لهم النبى ﷺ : « إن آثاركم تكتبُ » . فلم ينتقلوا .

انفرد بإخراجه الترمذى [(١)] عند تفسير هذه الآية الكريمة ،عن محمد بن الوزير ، به [(٢)] . ثم قال: « حسن غريب من حديث الثورى » [(٣)] .

ورواه ابن جرير ، عن سليمان بن عمر بن خالد الرقى ، عن ابن المبارك ، عن سفيان الثورى ، عن طريف ـ وهو ابن شهاب أبو سفيان السعدى ـ عن أبى نضرة ، به [(٤)] .

وقد رُوِىَ من غير طريق الثورى ، فقال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا عباد بن زياد الساجى ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن سعيد الجُريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد قال : إن بنى سلَمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد ، فنزلت : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم ﴾ ، فأقاموا فى مكانهم .

وحدثنا ابن المثنى [(٥)] ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا الجَريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ ، بنحوه .

وفيه غرابة من حيثُ ذكْرُ نزول هذه الآية ، والسورة بكمالها مكية ، فالله أعلم .

الحديث الثالث : قال ابن جرير :

حدثنا نصر بن على الجَهْضَمى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا إسرائيل ، عن سماك ، عن عكْرمة ، عن [(٦)] ابن عباس قال : كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المَسجد ، فنزلت : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم ﴾ ، فقالوا : نثبت مكاننا . هكذا رواه وليس فيه شىء مرفوع [(٧)] .

ورواه الطبرانى عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم ، عن محمد بن يوسف الفريابى ، عن إسرائيل ، عن سمَاك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد ، فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد ، فنزلت : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم ﴾ ،فثبتوا فى منازلهم [(٨)] .

الحديث الرابع : قال [(٩)] الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنى حُيَىّ بن عبدالله ،عن أبى عبد الرحمن الحُبلى ، عن عبد الله بن عمرو قال : توفى رجل بالمدينة ، فصلى عليه النبى ﷺ وقال : « يا ليته مات فى غير مولده » . فقال رجل من الناس : ولم يا رسول الله ؟ فقال رسول الله [(١٠)] ﷺ : « إن الرجل إذا توفى فى غير مولده ، قيس له من مولده إلى منقطع أثره

---

(١) فى أ : « مسلم » .

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٦) .

(٣) فى ت : « أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن غريب » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ١٠٠) .

(٥) فى س ، أ : « وحدثناه محمد بن المثنى » .

(٦) فى ت : « رواه ابن جرير بإسناده إلى » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٢/ ١٠٠) .

(٨) المعجم الكبير (٨/١٢) وشيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم ضعيف .

(٩) فى ت : « رواه » .

(١٠) فى ت ، س : « النبى » .

فى الجنة » .

ورواه النسائى عن يونس بن عبد الأعلى ، وابن ماجه عن حرملة ، كلاهما عن ابن وهب ، عن حيى بن [(١)] عبد الله ، به [(٢)] .

وقال [(٣)] ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا أبو تُمَيْلَةَ ، حدثنا الحسين ، عن ثابت قال : مشيت مع أنس فأسرعت المشى ، فأخذ بيدى فمشينا رويداً ، فلما قضينا الصلاة قال أنس : مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشى ، فقال : يا أنس ، أما شَعَرتَ أن الآثار تكتب ؟ أما شَعَرتَ أن الآثار تكتب ؟ [(٤)] .

وهذا القول لا تنافى بينه وبين الأول ، بل فى هذا تنبيه ودلالة على ذلك [(٥)] بطريق الأولى والأحرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب ، فلأن تُكتَبَ تلك التى فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ أى : جميع الكائنات مكتوب فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب . قاله مجاهد ، وقتادة ، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ، وكذا فى قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** ﴾ [الإسراء : ٧١] أى : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر ، كما قال تعالى :﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ** ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ٤٩] .

﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧)** ﴾ .

يقول تعالى : واضرب ـ يا محمد ـ لقومك الذين كذبوك ﴿ **مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ** ﴾ .

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ـ : إنها مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له : انطيخس بن انطيخس بن انطيخس ، وكان يعبد الأصنام ، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل ، وهم : صادق وصدوق وشلوم [(٦)] ، فكذبهم .

(١) فى أ : « عن » .
(٢) المسند (٢/ ١٧٧) وسنن النسائى (٤/ ٧) وسنن ابن ماجة برقم (١٦١٤) .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ١٠٠) .
(٥) فى أ : « ذاك » .
(٦) فى ت : « وشكوم » .

وهكذا روى عن بُرَيدة بن الحُصَيب ، وعِكْرِمة ، وقتادة ، والزهرى : أنها أنطاكية .

وقد استشكل بعضُ الأئمة كونَها أنطاكية ، بما سنذكره بعد تمام القصة ، إن شاء اللّه تعالى .

وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أى : بادروهما بالتكذيب ، ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ ، أى: قويناهم [١] وشددنا أزرهما برسول ثالث .

قال ابن جُرَيْج ، عن وهب بن سليمان ، عن شعيب الجبائى قال : كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا ، واسم الثالث بولص ، والقرية أنطاكية .

﴿ فَقَالُوا ﴾ أى : لأهل تلك القرية : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ أى : من ربكم الذى خلقكم ، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له . قاله أبو العالية .

وزعم قتادة بن دعامة : أنهم كانوا رسل المسيح ، عليه السلام ، إلى أهل أنطاكية . ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أى : فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ، فلم لا أوحىَ إلينا مثلكم ؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة . وهذه شبه [٢] كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر اللّه تعالى عنهم فى قوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن :٦] ، فاستعجبوا [٣] من ذلك وأنكروه . وقوله : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم : ١٠] . وقوله حكاية عنهم فى قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣٤] ، ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ ؟ [الإسراء : ٩٤] . ولهذا قال هؤلاء : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ. قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ أى : أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : اللّه يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كَذَبَة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [٤] وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٢] .

﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ : يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم كانت لكم السعادة فى الدنيا والآخرة ، وإن لم تجيبوا فستعلمون غبّ ذلك ، واللّه أعلم .

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾ .

فعند ذلك قال لهم أهل القرية : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أى : لم نر على وجوهكم خيراً فى عيشنا .

وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم .

وقال مجاهد : يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها .

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ : قال قتادة : بالحجارة . وقال مجاهد : بالشتم .

---

(١) فى ت : « قويناهما بثالث » . (٢) فى ت ، س : « شبهة » . (٣) فى ت ، س : « أى استعجبوا » .

(٤) فى ت ، س ، أ ، هـ : « يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » والصواب ما أثبتناه .

﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى :عقوبة شديدة . فقالت لهم رسلهم : ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُم ﴾ أى: مردود عليكم ، كقوله تعالى فى قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، وقال قوم صالح (١) : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٤٧] . وقال قتادة ، ووهب بن منبه : أى أعمالكم معكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] .

وقوله : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أى : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له ، قابلتمونا بهذا الكلام ، وتوعدتمونا وتهددتمونا ؟ بل أنتم قوم مسرفون .

وقال قتادة : أى إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ، بل أنتم قوم مسرفون .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) ﴾ .

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ـ : إن أهل القرية هَمّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى ، أى : لينصرهم من قومه ـ قالوا : وهو حبيب ، وكان يعمل الجرير ـ وهو (٢) الحبال ـ وكان رجلا سقيما(٣) قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة ، يتصدق بنصف كسبه ، مستقيم النظرة (٤) .

وقال ابن إسحاق عن رجل سماه ، عن الحكم ، عن مِقْسَم ـ أو : عن مجاهد ـ عن ابن عباس قال: [كان] (٥) اسم صاحب يس حبيب ، وكان الجذام قد أسرع فيه .

وقال الثورى ، عن عاصم الأحول ، عن أبى مجْلَز : كان اسمه حبيب بن مرى .

وقال شبيب بن بشر (٦) ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس [أيضا](٧) قال : اسم صاحب يس حبيب النجار ، فقتله قومه .

وقال السدى : كان قَصَّارا . وقال عمر بن الحكم : كان إسكافا . وقال قتادة : كان يتعبد فى غار هناك .

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ : يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ،﴿ اتَّبِعُوا مَن لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أى : على إبلاغ الرسالة ، ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فيما يدعونكم إليه ، من عبادة الله وحده لا شريك له .

(١) فى ت ، س : « لوط » وفى أ : « شعيب » .
(٢) فى ت ، س ، أ : « يعنى » .
(٣) فى أ : « مستقيما » .
(٤) فى أ : « الفطرة » .
(٥) زيادة من ت ، س .
(٦) فى أ : « بشير » .
(٧) زيادة من ت .

﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أى : وما يمنعنى من إخلاص العبادة للذى خلقنى وحده لا شريك له ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم المعاد ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر.

﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ، ﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴾ أى : هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا ، فإن الله لو أرادنى بسوء ، ﴿ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ [يونس : ١٠٧] . وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ، ولا ينقذوننى مما أنا فيه ، ﴿ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : إن اتخذتها آلهة من دون الله.

وقوله : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ : قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب ـ يقول لقومه : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذى كفرتم به ، ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾ أى :فاسمعوا قولى .

ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله :﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أى :الذى أرسلكم ، ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾ أى : فاشهدوا لى بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم : اسمعوا قولى ، لتشهدوا لى بما أقول لكم عند ربى ، إنى [قد] (١) آمنت بربكم واتبعتكم (٢) .

وهذا [القول] (٣) الذى حكاه هؤلاء أظهر فى المعنى ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب ـ : فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه .

وقال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة ، وهو يقول : « اللهم ، اهد قومى ، فإنهم لا يعلمون». فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك ، فقتلوه ، رحمه الله .

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) ﴾ .

قال محمد بن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن ابن مسعود : إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره وقال الله له : ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ ، فدخلها فهو يرزق منها ، قد أذهب الله عنه سُقم الدنيا وحزنها ونَصَبها .

وقال مجاهد : قيل لحبيب النجار : ادخل الجنة . وذلك أنه قُتل فوجبت له (٤) ، فلما رأى الثواب ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا تلقاه غاشا ؛ لَمَّا عاين [ما عاين] (٥) من كرامة الله

---

(١) زيادة من ت .

(٢) تفسير الطبرى (٢٢/١٠٤).

(٣) زيادة من ت . (٤) فى ت ، س ، أ : « له الجنة » . (٥) زيادة من ت ، أ .

﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ . تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله [له] (١) ، وما هجم عليه .

وقال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس : ٢٠] ، وبعد مماته فى قوله: ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ . رواه ابن أبى حاتم .

وقال سفيان الثورى ، عن عاصم الأحول ، عن أبى مِجْلَز : ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ : بإيمانى بربى ، وتصديقى المرسلين .

ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

قال (٢) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا ابن جابر ـ وهو محمد ـ عن (٣) عبد الملك ـ يعنى : ابن عمير ـ قال : قال عروة بن مسعود الثقفى للنبى ﷺ : ابعثنى إلى قومى أدعوهم إلى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « إنى أخاف أن يقتلوك » . فقال : لو وجدونى نائما ما أيقظونى . فقال له رسول الله ﷺ : « انطلق » . فانطلق فمر على اللات والعزى ، فقال : لأصبحنَّك غدا بما يسوؤك . فغضبت ثقيف ، فقال : يا معشر ثقيف ، إن اللات لا لات ، وإن العُزى لا عُزى ، أسلموا تسلموا . يا معشر الأحلاف ، إن العزى لا عزى ، وإن اللات لا لات ، أسلموا تسلموا . قال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكْحَله فقتله ، فبلغ رسولَ الله ﷺ فقال :«هذا مثله كمثل صاحب يس ، ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ » (٤) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن مَعْمَر بن حَزم : أنه حدث عن كعب الأحبار : أنه ذكر له حبيب بن زيد بن عاصم ـ أخو بنى مازن بن النجار ـ الذى كان مسيلمة الكذاب قَطَّعه باليمامة ، حين جعل يسأله عن رسول الله ﷺ ، فجعل يقول : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ فيقول: نعم . ثم يقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فيقول له مسيلمة : أتسمع هذا ولا تسمع ذاك ؟ فيقول : نعم . فجعل يُقَطِّعه عضوا عضوا ، كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات فى يديه . فقال كعب حين قيل له : اسمه حبيب ، وكان والله صاحب يس اسمه حبيب (٥) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ : يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه ، غضباً منه تعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه . ويذكر تعالى : أنه ما أنزل عليهم ، وما احتاج فى إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قاله ابن مسعود ، فيما رواه ابن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عنه أنه قال فى قوله: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أى : ما كاثرناهم بالجموع الأمر

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى ت : « روى » . (٣) فى أ : « بن » .

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٦١٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٤٨/١٧) من طريق ابن لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة ابن الزبير ، بنحوه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٤٨/١٧) من طريق موسى بن عقبة ، عن الزهرى ، بنحوه . وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٨٦) : « وكلاهما مرسل ، وإسنادهما حسن » .

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٢/ ١٠٣) .

كان أيسر علينا من ذلك ، ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ ، قال : فأهلك الله ذلك الملك ، وأهلك أهل أنطاكية ، فبادوا عن وجه الأرض ، فلم يبق [1] منهم باقية .

وقيل : ﴿وما كنا منزلين﴾ أى : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم ، بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم .

وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾ أى : من رسالة أخرى إليهم . قاله مجاهد وقتادة . قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ، ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ .

قال ابن جرير : والأول أصح ؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً .

قال المفسرون : بعث الله إليهم جبريل ، عليه السلام ، فأخذ بعضادتى باب بلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم ، لم تبق بهم روح تتردد فى جسد .

وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح ، عليه السلام ، كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذى لم يذكر عن [2] واحد من متأخرى المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ، عز وجل ، لا من جهة المسيح ، كما قال تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ﴾ إلى أن قالوا: ﴿ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ [يس : ١٤ ـ ١٧] . ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ، عليه السلام ، والله أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ [يس : ١٥] .

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتى فيهن بتاركة ، وهن القدس لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية لأن فيها [3] اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة [4] والشمامسة والرهابين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطَّدَه. ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها ، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله [5] ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم [6] ، فالله أعلم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدرى وغير واحد من السلف : أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، ذكروه عند قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ [القصص : ٤٣] . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية

---

(١) فى س : « تبق » . (٢) فى أ : « غير » . (٣) فى ت ، س : « منها » .
(٤) فى ت ، س : « القساقسة » . (٥) فى ت : « رسلهم » . (٦) فى ت ، س : « أخذتهم » .

المذكورة فى القرآن [العظيم] [١] قرية أخرى غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا . أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا فى هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم .

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرى ، حدثنا الحسين بن أبى السرى العسقلانى ، حدثنا حُسَين الأشقر ، حدثنا ابن عيينة ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، عن [٢] ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « السُّبَّق ثلاثة : فالسابق إلى موسى يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى صاحب يس ، والسابق إلى محمد على بن أبى طالب » [٣] ، فإنه حديث منكر ، لا يعرف إلا من طريق [٤] حسين الأشقر ، وهو شيعى متروك ، [والله أعلم] [٥] .

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أى : يا ويل العباد .

وقال قتادة : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ : أى يا حسرة العباد على أنفسها ، على ما ضيعت من أمر الله ، فرطت فى جنب الله . قال : وفى بعض القراءة : « يا حسرة [٦] العباد على أنفسها » .

ومعنى هذا : يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ، كيف كذبوا رسل الله ، وخالفوا أمر الله ، فإنهم كانوا فى الدار الدنيا المكذبون منهم .

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى : يكذبونه ويستهزئون به ، ويجحدون ما أرسل به من الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل ، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفَجَرتهم من [٧] قولهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون : ٣٧] ، وهم القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، فرد الله تعالى عليهم باطلهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أى : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت : « رواه الحافظ الطبرانى بإسناده إلى » .

(٣) المعجم الكبير (١١/٩٣) ورواه ابن مردوية فى تفسيره ، والعقيلى فى الضعفاء كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/١٦٢) من طريق حسين الأشقر ، به ، وأعله العقيلى بحسين الأشعرى كما ذكر الحافظ ابن كثير هنا وقال : « إنه شيعى متروك ولا يعرف هذا إلا منجهته، وهو حديث منكر » .

(٤) فى أ : « حديث » . (٥) زيادة من ت ، س .

(٦) فى ت ، س ، أ : « حسرة على » . (٧) فى أ : « مثل » .

للحساب يوم القيامة بين يدى الله ، عز وجل ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، ومعنى هذه كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود : ١١١].

وقد اختلف القراء فى أداء هذا الحرف ؛ فمنهم من قرأ : « وَإِن كل لَمَا » بالتخفيف ، فعنده أن « إن » للإثبات ، ومنهم من شدد « لَمَّا » ، وجعل « إن » نافية ، و « لَمَّا » بمعنى « إلا » تقديره : وما كل إلا جميع لدينا محضرون ، ومعنى القراءتين واحد ، والله أعلم .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴾ أى: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾ أى : إذا كانت ميتة هامدة لا شىء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال : ﴿ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أى : جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أى : جعلنا فيها أنهاراً سارحة فى أمكنة ، يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره . لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عَطَف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها .

وقوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى:وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس وقتادة ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أى : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى ؟ واختار ابن جرير ـ بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا ـ أن « ما » فى قوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى : « الذى » ، تقديره : ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم ، أى : غرسوه ونصبوه ، قال : وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ ﴾ أى : من زروع وثمار ونبات . ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ، ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ .

يقول تعالى : ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلق الليل والنهار ، هذا بظلامه وهذا

بضيائه ، وجعلهما يتعاقبان ، يجىء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجىء هذا ، كما قال : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أى: نصرمه منه فيذهب ، فيقبل الليل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ ، كما جاء فى الحديث : « إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم » (١) .

هذا هو الظاهر من الآية ، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [الحج : ٦١] . وقد ضعف ابن جرير قولَ قتادة هاهنا ، وقال : إنما معنى الإيلاج : الأخذ من هذا فى هذا ، وليس هذا مراداً فى هذه الآية . وهذا الذى قاله ابن جرير حق .

وقوله: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾، فى معنى قوله: ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ قولان:

أحدهما : أن المراد : مستقرها المكانى ، وهو تحت العرش مما يلى الأرض من ذلك الجانب ، وهى أينما كانت فهى تحت العرش هى وجميع المخلوقات ؛ لأنه سقفها ، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلى رؤوس الناس ، فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت فى فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل ، صارت أبعد ما تكون من العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن فى الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث .

قال البخارى : حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم [التيمى] (٢) ، عن أبيه ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، أتدرى أين تَغربُ الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ » .

حدثنا عبد الله بن الزبير الحُميدىّ ، حدثنا وَكِيع عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبيه ، عن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾، قال : « مستقرها تحت العرش » (٣) .

كذا أورده هاهنا . وقد أخرجه فى أماكن متعددة (٤) ، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه ، من طرق ، عن الأعمش ، به (٥) .

وقال (٦) الإمام أحمد :حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه، عن أبى ذر قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، تدرى أين تذهب الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال :« فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٩٥٤) ومسلم فى صحيحه برقم (١١٠٠) من حديث عمر رضى الله عنه .

(٢) زيادة من ت ، س ، أ .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٢ ، ٤٨٠٣) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٣١٩٩ ، ٧٤٢٤ ، ٧٤٣٣) .

(٥) صحيح مسلم برقم (١٥٩) وسنن أبى داود برقم (٤٠٠٢) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٠) .

(٦) فى ت : « وروى » .

ربها عز وجل ، فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعى من حيث جئت . فترجع إلى مطلعها ، وذلك مستقرها ، ثم قرأ : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ »(١) .

وقال سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس : « أتدرى أين هذا ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، ويقال لها : ارجعى من حيث جئت . فتطلع من مغربها، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ »(٢) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن أبى إسحاق ، عن وهب بن جابر ، عن عبد الله بن عمرو قال فى قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ ، قال : إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بنى آدم ، حتى إذا غربت سلَّمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها ، حتى إذا كان يوم غربت فسلمت وسجدت ، واستأذنت فلا يؤذن لها ، فتقول : إن المسير بعيد وإنى إلا يؤذن لى لا أبلغ ، فتحبس ما شاء الله أن تحبس ، ثم يقال لها : « اطلعى من حيث غربت » . قال : « فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً »(٣) .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ : هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها فى السماء فى الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها فى الشتاء وهو الحضيض .

والقول الثانى : أن المراد بمستقرها هو : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور ، وينتهى هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزمانى .

قال قتادة : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ أى : لوقتها ولأجل لا تعدوه .

وقيل : المراد : أنها لا تزال تنتقل فى مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس : « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لا مُسْتَقر لَّهَا » أى : لا قرار لها ولا سكون ، بل هى سائرة ليلا ونهاراً ، لا تفتر ولا تقف . كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] أى : لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ أى : الذى لا يخالَف ولا يُمانَع ، ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقنَّنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس ، كما قال تعالى : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] . وهكذا ختم آية(٤) «حم السجدة » بقوله : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] .

ثم قال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ أى : جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضى الشهور، كما أن

---

(١) المسند (٥/١٥٢) .

(٢) رواية سفيان فى صحيح البخارى برقم (٣١٩٩) .

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/١١٥) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٦٢٨) من طريق عبد الرزاق .

(٤) فى ت : « ختم آخر آية » .

الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ [البقرة : ١٨٩] ، وقال : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ الآية [يونس :٥]، وقال : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ [الإسراء : ١٢]، فجعل الشمس لها ضوء يخصها ، والقمر [١] له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب فى آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل فى مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ،ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار ، فهى كوكب نهارى . وأما القمر ، فقدره منازل ، يطلع فى أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور، ثم يزداد نوراً فى الليلة الثانية ، ويرتفع [٢] منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء ، وإن كان مقتبساً من الشمس ، حتى يتكامل نوره [٣] فى الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع فى النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالعرجون القديم .

قال ابن عباس : وهو أصل العِذْق .

وقال مجاهد : العرجون القديم : أى العذق اليابس .

يعنى ابن عباس : أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى ، وكذا قال غيرهما . ثم بعد هذا يبديه اللّه جديداً فى أول الشهر الآخر ، والعرب تسمى كل ثلاث [٤] ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأول « غُرَر » واللواتى بعدها « نُفَل » ، واللواتى بعدها « تُسع » ؛ لأن أخراهن التاسعة ، واللواتى بعدها « عُشَر » ؛ لأن أولاهن العاشرة ، واللواتى بعدها « البيض» ؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتى بعدهن « دُرَع » جمع دَرْعاء ؛ لأن أولهن سُود [٥] ؛ لتأخر القمر فى أولهن ، ومنه الشاة الدرعاء وهى التى رأسها أسود . وبعدهن ثلاث « ظُلَم » ثم ثلاث «حَنَادس » ، وثلاث « دآدئ » [٦] ، وثلاث « محَاق » ؛ لانمحاق القمر أواخر الشهر فيهن . وكان أبو عبُيد [٧] ينكر التُسَع والعُشَر . كذا قال فى كتاب « غريب المصنف » .

وقوله : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ : قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يُقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن الحسن فى قوله : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ قال : ذلك ليلة الهلال .

وروى ابن أبى حاتم هاهنا عن عبد اللّه بن المبارك أنه قال : إن للريح جناحاً ، وإن القمر يأوى إلى غلاف من الماء .

وقال الثورى ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى [٨] صالح : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا [٩] .

---

(١) فى س : « وللقمر » . (٢) فى ت : « فترتفع » . (٣) فى أ : « ضوؤه » .
(٤) فى ت : « ثلاثة » وهو خطأ . (٥) فى ت ، أ : « أسود » . (٦) فى أ : « درارى » .
(٧) فى أ : « أبو عبيدة » . (٨) فى ت ، س : « أبو » .
(٩) فى س : « لا يدرك هذا ضر هذا ولا هذا ضر هذا » .

وقال عكرمة [فى قوله] (١) : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ : يعنى : أن لكل منهما سلطانا، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل .

وقوله : ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ : يقول : لا ينبغى إذا كان الليلُ أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل .

وقال الضحاك : لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجىء النهار من هاهنا . وأومأ بيده إلى المشرق .

وقال مجاهد : ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ : يَطَّلبان حثِيثين ، ينسلخ أحدهما من الآخر .

والمعنى فى هذا : أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً .

وقوله : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يعنى : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كلهم يسبحون ، أى : يدورون فى فلك السماء . قاله ابن عباس ، وعِكْرِمة ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وعطاء الخراسانى (٢) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : فى فلك بين السماء والأرض . رواه ابن أبى حاتم ، وهو غريب جداً ، بل منكر .

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : فى فَلْكةٍ كفَلْكَة المغْزَل .

وقال مجاهد : الفَلَك كحديدة الرَّحَى ، أو كفلكة المغزل، لا يدور المغزل إلا بها، ولا تدور إلا به.

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) ﴾ .

يقول تعالى : ودلالة لهم أيضا على قدرته تعالى : تسخيره البحر ليحمل (٣) السفن ، فمن ذلك ـ بل أوله ـ سفينة نوح ، عليه السلام ، التى أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أى : آباءهم ، ﴿ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أى : فى السفينة [الموقرة] (٤) المملوءة من الأمتعة والحيوانات ، التى أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

قال ابن عباس: المشحون : المُوقَر. وكذا قال سعيد بن جبير ، والشعبى ، وقتادة ، [والضحاك](٥)، والسدى .

وقال الضحاك ، وقتادة ، وابن زيد : وهى سفينة نوح ، عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : يعنى بذلك : الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ـ فى رواية ـ وعبد الله بن شَدَّاد ، وغيرهم (٦) .

وقال السدى ـ فى رواية ـ : هى الأنعام .

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى ت : « قاله ابن عباس وغيره » . (٣) فى أ : « ليحمل فيه » .
(٤) زيادة من ت ، أ . (٥) زيادة من أ . (٦) فى ت : « عكرمة وغيره » .

وقال ابن جرير : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عطاء ، عن سعيد بن جُبير[(١)] ، عن ابن عباس قال : تدرون ما ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ؟قلنا : لا. قال : هى السفن ، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها .

وكذا قال [غير واحد و][(٢)] أبو مالك ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو صالح ، والسدى أيضاً : [المراد بقوله] [(٣)]: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ : أى السفن .

ويُقَوى هذا المذهب فى المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] .

وقوله : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ يعنى : الذين فى السفن ، ﴿ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أى : فلا مغيث لهم مما هم فيه ، ﴿ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أى : مما أصابهم ، ﴿ إِلا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ .وهذا استثناء منقطع ، تقديره: لكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ، ونُسَلّمكم إلى أجل مسمى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى : إلى وقت معلوم عند الله .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٤٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن تمادى المشركين فى غيهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التى أسلفوها، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال مجاهد : من الذنوب . وقال غيره بالعكس ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى : لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه . وتقدير كلامه : أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه . واكتفى عن ذلك بقوله : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : على التوحيد وصدق الرسل ﴿ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى : لا يتأملونها ولا ينتفعون[(٤)] بها .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى: وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: عن الذين آمنوا من الفقراء ، أى: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ أى : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم ، ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : فى أمركم لنا بذلك .

قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المسلمين[(٥)]وردوا عليهم،فقال لهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [(٦)] ، وفى هذا نظر .

---

(١) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » . (٢) زيادة من ت . (٣) زيادة من أ .
(٤) فى أ : « ولا يشعرون » . (٥) فى أ : « المؤمنين » .
(٦) تفسير الطبرى (٢٣/ ٩) .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة فى قولهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ [إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ][1] ﴾؟ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى :١٨] ، قال اللّه تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى : ما ينتظرون [2] إلا صيحة واحدة ، وهذه ــ واللّه أعلم ــ نفخة الفزع ، ينفخ فى الصور نفخة الفزع ، والناس فى أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر اللّه تعالى إسرافيل فنفخ فى الصور نفخة يُطوّلها ويَمُدُّها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً ، ورفع ليتاً ـ وهى[3] صفحة العنق ـ يتسمع الصوت من قبل السماء . ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار ، تحيط بهم من جوانبهم ؛ ولهذا قال: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أى : على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ، ﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وقد وردت هاهنا آثار وأحاديث ذكرناها فى موضع آخر[4] ، ثم تكون [5] بعد هذا نفخة الصعق ، التى تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحى القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) ﴾ .

هذه هى النفخة الثالثة [6] ، وهى نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور ؛ ولهذا قال: ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ ، والنَّسلان هو : المشى السريع ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ؟ يعنون : [من] [7] قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوه فى محشرهم ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ، وهذا لا ينفى عذابهم فى قبورهم ؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده فى الشدة كالرقاد .

وقال أُبى بن كعب ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : ينامون نومة قبل البعث .

قال قتادة : وذلك بين النفختين .

فلذلك يقولون : ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ـ قاله غير واحد من

(١) زيادة من أ . (٢) فى أ : « ما ينظرون » . (٣) فى أ : « وهو » .
(٤) عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة الأنعام .
(٥) فى ت ، س ، أ : « ثم يكون » . (٦) فى ت : « الثانية » (٧) زيادة من ت .

السلف ـ : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾.

وقال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة .

ولا منافاة إذ الجمع ممكن ، والله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار : ﴿ يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

نقله ابن جرير ، واختار الأول ، وهو أصح [١] ، وذلك كقوله تعالى فى الصافات : ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات : ٢٠ ، ٢١] ، وقال [الله][٢] تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٥٥ ، ٥٦] .

وقوله : ﴿ إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ[٣] ﴾ [النحل : ٧٧] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٥٢] .

أى : إنما نأمرهم أمراً واحداً ، فإذا الجميع محضرون ، ﴿ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أى : من عملها ، ﴿ وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العَرَصات فنزلوا فى رَوْضات الجنات: أنهم ﴿ فِي شُغُلٍ [فَاكِهُونَ ﴾ أى : فى شغل][٤] عن غيرهم ، بما هم فيه من النعيم المقيم ، والفوز العظيم .

قال الحسن البصرى : وإسماعيل بن أبى خالد : ﴿ فِي شُغُلٍ ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب .

وقال مجاهد : ﴿ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ أى : فى نعيم معجبون ، أى : به . وكذا قال قتادة .

وقال ابن عباس : ﴿ فَاكِهُونَ ﴾ : أى فرحون .

وقال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والأعمش ، وسليمان التيمى ، والأوزاعى فى قوله : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ قالوا : شغلهم افتضاض الأبكار .

---

(١) فى أ : « وهو صحيح » .
(٢) زيادة من أ .
(٣) فى ت : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب » وهو خطأ .
(٤) زيادة من ت ، أ .

وقال ابن عباس ـ فى رواية عنه (١) ـ : ﴿ فِي شُغُلٍ فَاكِهُون ﴾ : أى بسماع الأوتار .

وقال أبو حاتم : لعله غلط من المستمع ، وإنما هو افتضاض الأبكار .

وقوله :﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ :قال مجاهد :وحلائلهم ﴿ فِي ظِلَال ﴾ أى : فى ظلال الأشجار ﴿عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّىّ ، وخُصَيْف (٢) :﴿ الأَرَائِك ﴾ :هى السرر تحت الحجال .

قلت : نظيره فى الدنيا هذه التخوت (٣) تحت البشاخين ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أى : من جميع أنوعها ، ﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ أى : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا محمد بن مهاجر ، عن الضحاك المَعَافرى ، عن سليمان (٤) بن موسى ، حدثنى كُرَيْب ؛ أنه سمع أسامة بن زيد يقول (٥) : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل مُشَمِّر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا خَطَر لها، هى ـ ورب الكعبة ـ نوركلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مَشيد ، ونهر مُطَّرِد ، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد ، فى دار سلامة ، وفاكهة خضرة وحَبْرَة ونعمة ، ومحلة عالية بَهِيَّة » . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها . قال : «قولوا: إن شاء الله » . قال القوم : إن شاء الله .

وكذا رواه ابن ماجه فى « كتاب الزهد » من سننه ، من حديث الوليد بن مسلم ، عن محمد بن مُهَاجر ، به (٦).

وقوله :﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ : قال ابن جريج: قال ابن عباس فى قوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ : فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة .

وهذا الذى قاله ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَام ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثا فى إسناده نظر ، فإنه قال : حدثنا موسى بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، حدثنا أبو عاصم العَبَّادانى ، حدثنا الفضل الرَّقَاشىّ ، عن محمد بن المُنْكَدِر ، عن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ » . قال : «فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم وفى ديارهم » .

---

(١) فى ت : « وفى رواية عن ابن عباس » . (٢) فى ت : « ومحمد بن كعب وغيرهم » .

(٣) فى أ : « النحوت » . (٤) فى أ : « سليم » . (٥) فى ت : « روى ابن أبى حاتم عن أسامة بن زيد قال » .

(٦) سنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٣٢٥) : « هذا إسناد فيه مقال ، الضحاك المعافرى ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الذهبى فى طبقات التهذيب : مجهول وسليمان الأموى مختلف فيه وباقى رجال الإسناد ثقات » .

ورواه ابن ماجه فى « كتاب السنة » من سننه [١] ، عن محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب[٢]، به .

وقال[٣] ابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنا حَرْمَلَة ، عن سليمان بن حُمَيد قال : سمعت محمد بن كعب القُرَظى يحدّث عن عمر بن عبد العزيز قال : إذا فرغ اللّه من أهل الجنة والنار ، أقبل فى ظُلَل من الغمام والملائكة ، قال : فيسلم على أهل الجنة ، فيردون عليه السلام ـ قال القرظى : وهذا فى كتاب اللّه ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ ـ فيقول : سلونى. فيقولون : ماذا نسألك أىْ ربّ ؟ قال : بلى سلونى . قالوا : نسألك ـ أىْ رب ـ رضاك . قال: رضائى أحلكم دار كرامتى . قالوا : يا رب ، فما الذى نسألك ، فوعزتك وجلالك وارتفاع مكانك ، لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم ، لا ينقصنا ذلك شيئاً . قال : إن لدىّ مزيداً . قال : فيفعل ذلك بهم فى درجهم ، حتى يستوى فى مجلسه . قال : ثم تأتيهم التحف من اللّه ، عز وجل ، تحملها إليهم الملائكة . ثم ذكر نحوه .

وهذا أثر غريب ، أورده ابن جرير من طرق [٤].

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا ، بمعنى [٥] : يتميزون عن المؤمنين فى موقفهم ، كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم :١٤] ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : ٤٣] أى : يصيرون صدْعَين فرقتين ، ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات:٢٢، ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ : هذا تقريع من اللّه للكفرة من بنى آدم ، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذى خلقهم ورزقهم ؛ولهذا قال: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى : قد أمرتكم فى دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتى ، وهذا هو الصراط المستقيم ، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ ، يقال : «جِبلا» بكسر الجيم ، وتشديد اللام. ويقـال : « جُبُلاً » بضم الجيم والباء ، وتخفيف اللام . ومنهم من يسكن الباء . والمـراد

---

(١) فى ت : « رواه ابن ماجة فى سننه » .

(٢) سنن ابن ماجة برقم (١٨٤) وقال البوصيرى فى الزوائد (٨٦/١) : « هذا إسناد ضعيف لضعف الفضل بن عيسى بن أبان القرشى ».

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) تفسير الطبرى (١٥/٢٣) .

(٥) فى ت : « يعنى » .

بذلك : الخلق الكثير ، قاله مجاهد ، والسُّدِّيّ ، وقتادة ، وسفيان بن عيينة .

وقوله : ﴿ **أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** ﴾ ؟ أي : أفما [١] كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته [٢] وحده لا شريك له ، وعُدُولكم إلى اتباع الشيطان ؟!

قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي ، عن إسماعيل بن رافع ، عمن حدثه عن محمد بن كعب القرظي [٣] ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة أمر الله جهنم فيخرج منها عنُق ساطع مظلم ، يقول [٤] : ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ . هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ امتازوا اليوم أيها المجرمون . فيتميز الناس ويجثون ، وهي التي يقول الله تعالى : ﴿ **وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ » [٥] [الجاثية : ٢٨] .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (٦٧) ﴾ .

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة ، وقد برزَت الجحيم لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ **هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ أي: هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم ، ﴿ **اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ. أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ** ﴾[الطور : ١٣ ـ ١٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ : هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبة ، حدثنا مِنْجاب بن الحارث التميمي ، حدثنا أبو عامر الأسدي ، حدثنا سفيان ، عن عبيد المُكتب ، عن الفُضَيل بن عمرو ، عن الشعبي [٦] ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبي ﷺ ، فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : «أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول: رب [٧] ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجيز على إلا شاهداً من نفسي .

---

(١) في ت ، س : « أما » .
(٢) في ت ، س : « عبادة الله » .
(٣) في ت : « وروى ابن جرير بإسناده » .
(٤) في ت ، س ، أ : « ثم يقول » .
(٥) تفسير الطبري (١٦/٢٣) .
(٦) في ت : « روى النسائي ومسلم » .
(٧) في ت ، س : « يا رب » .

فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حَسيباً ، وبالكرام الكاتبين [١] شهودا . فيختم على فيه ، ويُقال لأركانه : انطقى . فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لكن وسُحقاً ، فعنكنّ كنتُ أناضل» .

وقد رواه مسلم والنسائى ، كلاهما عن أبى بكر بن أبى النضر ، عن أبى النضر ، عن عُبيد اللّه ابن عبد الرحمن الأشجعى ، عن سفيان ـ هو الثورى ـ به [٢] . ثم قال النسائى : [لا أعلم [٣] أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعى ، وهو حديث غريب ، واللّه تعالى أعلم .

كذا قال،وقد تقدم من رواية أبى عامر عبد الملك بن عمرو الأسدى ـ وهو العَقَدِىّ ـ عن سفيان .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن بَهز[٤] بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى ﷺ قال : « إنكم تُدعَون مُفَدَّمة [٥] أفواهكم بالفدَام ، فأول ما يسأل عن أحدكم فخذه وكتفه » . رواه النسائى] [٦] عن محمد بن رافع ، عن عبد الرَزاق ، به [٧] .

وقال سفيان بن عيينة ، عن سُهَيل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّهﷺ فى حديث القيامة الطويل ، قال فيه : « ثم يلقى [٨] الثالث فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك ، آمنت بك وبنبيك وبكتابك ، وصمت وصليت وتصدقت ـ ويثنى بخير ما استطاع ـ قال : فيقال له : ألا نبعث عليك شاهدنا [٩] ؟ قال : فيفكر فى نفسه ، من الذى يشهد عليه ، فيختَم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقى . فتنطق [١٠] فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المنافق ، وذلك ليعذر من نفسه . وذلك الذى سخط اللّه عليه » .

ورواه مسلم وأبو داود ، من حديث سفيان بن عيينة ، به بطوله[١١] .

ثم قال ابن أبى حاتم ، رحمه اللّه : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة عن شُرَيْح بن عبيد[١٢] ، عن عقبة بن عامر ؛ أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول :«إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه ، فَخذُه من الرجل اليسرى [١٣]» .

ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف ، عن عبد اللّه بن المبارك ، عن إسماعيل بن عياش ، به مثله [١٤] .

وقد جَوَّد إسناده الإمام أحمد ، رحمه اللّه ، فقال : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش ، عن ضَمضَم بن زُرْعَةَ ، عن شُرَيح بن عُبَيد الحَضْرَمى ، عمن حَدَّثه عن عقبة بن عامر ؛ أنه

---

(١) فى ت : « الكاتبين عليك » .
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٥٣) .
(٣) فى س : « ما أعلم » . (٤) فى ت ، س : « يزيد » ، وفى أ : « زيد » . (٥) فى س : «مفدما » .
(٦) زيادة من ت ، س ، والسنن الكبرى .
(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٦٩) .
(٨) فى ت : « يأتى » . (٩) فى ت ، أ : « شاهداً » . (١٠) فى ت ، س : « قال فتنطق » .
(١١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٨) وسنن أبى داود برقم (٤٧٣٠) .
(١٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد » . (١٣) فى ت : « الشمال » .
(١٤) تفسير الطبرى (١٧/٢٣) .

سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه ، فَخذه من الرجل الشمال »[١] .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، حدثنا يونس بن عُبَيد ، عن حُميد ابن هلال قال : قال أبو بردة : قال أبو موسى [٢] ـ هو الأشعرى ، رضى الله عنه ـ : يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة ، فَيَعرضُ عليه[٣] رَبه عمله فيما بينه وبينه ، فيعترف [٤] فيقول : نعم أىْ رب ، عملتُ عملتُ عملت . قال :فيغفر الله له ذنوبه ، ويستره منها . قال:فما على الأرض خلَيقة ترى [٥] من تلك الذنوب شيئاً ، وتبدو حسناته ،فَوَدَّ أن الناس كلهم يرونها ،ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض ربه عليه عمله ، فيجحد فيقول : أى رب ، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل . فيقول له الملك : أما عملت كذا ، فى يوم كذا ، فى مكان كذا ؟ فيقول : لا ، وعزتك أىْ رب ما عملتُه . فإذا فعل ذلك ختُم على فيه . قال أبو موسى الأشعرى : فإنى أحسب أول ما ينطق منه الفخذ [٦] اليمنى ، ثم تلا : ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [٧] .

وقوله : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ** ﴾ : قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى تفسيرها : يقول : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟ وقال مرة[٨]: أعميناهم .

وقال الحسن البصرى : لو شاء الله لطمس على أعينهم ، فجعلهم عُمياً يترددون .

وقال السدى : لو شِئْنا أعمينا أبصارهم .

قال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى : ﴿ **فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ** ﴾ يعنى : الطريق .

وقال ابن زيد : يعنى بالصراط هاهنا : الحق ، ﴿ **فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ** ﴾ وقد طمسنا على أعينهم ؟

وقال العَوفى ، عن ابن عباس : ﴿ **فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ** ﴾ [يقول] [٩]: لا يبصرون الحق .

وقوله : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ** ﴾ : قال العوفى عن ابن عباس : أهلكناهم .

وقال السدى : يعنى : لغيرنا خَلْقهم .

وقال أبو صالح : لجعلناهم حجارة .

وقال الحسن البصرى ، وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا** ﴾ أى : إلى أمام ، ﴿ **وَلَا يَرْجِعُونَ** ﴾ أى : إلى وراء ، بل يلزمون حالا واحداً ، لا يتقدمون ولا يتأخرون .

---

(١) المسند (٤/١٥١) وقال الهيثمى فى المجمع (١/٣٥١) :« إسناده جيد » .

(٢) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن أبى موسى » .

(٣) فى ت ، أ : « على » .

(٤) فى ت : « فيعرف » .

(٥) فى ت : « يرى » .

(٦) فى ت ، س : « لفخذه » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٣/١٧) .

(٨) فى أ : « غيره » .

(٩) زيادة من أ .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن ابن (١) آدم أنه كلما طال عمره رُدّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] . وقال : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج : ٥] .

والمراد من هذا ـ والله أعلم ـ الإخبارُ عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلا يَعْقِلُونَ ﴾ أى : يتفكرون بعقولهم فى ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى [نفس](٢) الشَّبِيبَة ، ثم إلى الشيخوخة ؛ ليعلموا أنهم خُلقوا لدار أخرى ، لا زوال لها ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهى الدار الآخرة .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ : يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ (٣) : أنه ما علمه الشعر ، ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ أى : وما هو فى طبعه ، فلا يحسنه ولا يحبه ، ولا تقتضيه جبلَّته؛ ولهذا ورَدَ أنه ، عليه الصلاة والسلام، كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم ، بل إن أنشده زَحَّفه أَو لم يتمه .

وقال أبو زُرْعة الرازى : حُدِّثت عن إسماعيل بن مجالد ، عن أبيه ، عن الشعبى أنه قال : ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر ، إلا رسول الله ﷺ . ذكره ابن عساكر فى ترجمة «عتبة بن أبى لهب » الذى أكله السبُع بالزرقاء (٤) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن الحسن (٥) ـ هو البصرى ـ قال : إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت :

كَفَى بالإِسْلاَم والشيْب للمرْء نَاهياً

فقال أبو بكر : يا رسول الله :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

قال أبو بكر ،أو عمر :أشهد أنك رسول الله ، يقول الله:﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ (٦).

وهكذا روى البيهقى فى الدلائل : أن رسول الله ﷺ قال : للعباس بن مرداس السلمى : « أنت القائل : أتجعل نَهبى ونَهْب العُبَيد بينَ الأقرع وعيينة » .

فقال : إنما هو : « بين عيينة والأقرع » فقال : « الكل سواء » (٧) .

---

(١) فى أ : « بنى » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « صلوات الله وسلامه عليه » .

(٤) لم أجد ترجمته فيما بين يدى من تاريخ دمشق ، ولا فى المختصر لابن منظور .

(٥) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن الحسن » .

(٦) ورواه ابن سعد فى الطبقات (١ / ٣٨٢) من طريق عارم عن حماد بن زيد عن على بن زيد عن الحسن به مرسلاً .

(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٥/ ١٨١) .

يعنى : فى المعنى ، صلوات اللّه وسلامه عليه .

وقد ذكر السهيلى فى « الروض الأنف » لهذا التقديم والتأخير الذى وقع فى كلامه ، عليه السلام، فى هذا البيت مناسبة أغرب فيها ، حاصلها شَرَفُ الأقرع بن حابس على عُيَيْنَةَ بن بَدْر الفزارى؛ لأنه ارتد أيام الصديق ، بخلاف ذاك ، واللّه أعلم .

وهكذا روى الأموى فى مغازيه : أن رسول اللّه ﷺ جعل يمشى بين القتلى يوم بدر ، وهو يقول: « نُفلق هَاماً .... ».

فيقول الصديق ، رضى الله عنه ، متمماً للبيت :

...... مِنْ رجَال أعزَّةٍ عَلَينَا وهُمْ كَانُوا أعَقَّ وأظلما

وهذا لبعض شعراء العرب فى قصيدة له ، وهى فى الحماسة (١).

وقال الإمام أحمد : حدثنا هُشَيْم ، حدثنا مغيرة ، عن(٢) الشعبى ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها، قالت : كان رسول اللّه إذا استراث الخير ، تمثل فيه بيت طَرَفَةَ :

وَيَأتيك بالأخْبار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وهكذا رواه النسائى فى « اليوم والليلة » من طريق إبراهيم بن مهاجر ، عن الشعبى (٣) ، عنها . ورواه الترمذى والنسائى أيضاً من حديث المقدام بن شُرَيْح بن هانئ ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، كذلك . ثم قال (٤) الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أسامة ، عن زائدة ، عن سِمَاك ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس قال : كان رسول اللّهّ ﷺ يتمثل من الأشعار :

وَيَأتيكَ بالأخْبَار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

ثم قال :رواه (٦) غير زائدة ، عن سِمَاك ، عن عكرمة ، عن عائشة (٧) .

وهذا فى شعر طرفة بن العبد ،فى معلقته المشهورة ،وهذا المذكور [هو عجز بيت] (٨) منها،أوله:

سَتُبْدى لكَ الأيامُ مَا كُنْتَ جَاهلا وَيَأتـيك بالأخـْبَار مـنْ لَمْ تـُزَوِّدِ
وَيَأتيكَ بالأخـبَار مَنْ لَمْ تَبـع لـهُ بَتَاتا ولم تَضرب له وَقْت مَوْعد(٩)

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد اللّه الحافظ ، حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن

---

(١) الحماسة لأبى تمام (١/١٠٧) .

(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده إلى » .

(٣) المسند (٦/ ٣١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٨٣٤) .

(٤) فى ت : « وقال » .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٨٤٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٨٣٥) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٦) فى س : « ورواه » .

(٧) رواه ابن سعد فى الطبقات (١/ ٣٨٣) من طريق الوليد بن أبى ثور عن سماك عن عكرمة قال : سئلت عائشة فذكره نحوه .

(٨) زيادة من أ .

(٩) انظر ديوان طَرَفَةَ بن العبد ص (٦٦) .

نعيم ـ وكيل المتّقى ببغداد ـ حدثنا أبو محمد عبد اللّه بن هلال النحوى الضرير ، حدثنا على بن عمرو الأنصارى ، حدثنا سفيان بن عيينة (١) ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، قالت : ما جمع رسول اللّه ﷺ بيت شعر قط ، إلا بيتاً واحدا (٢) .

تَفَاءلْ بما تَهْوَى يكُنْ فَلَقَلّمَا　　　يُقَالُ لشىء كَانَ إلا تَحقّقَا (٣)

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزّى عن هذا الحديث ، فقال : هو منكر . ولم يعرف شيخ الحاكم ، ولا الضرير .

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة : قيل لعائشة : هل كان رسول اللّه ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟ قالت: كان أبغضَ الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخى بنى قيس ، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله . فقال أبو بكر ليس هكذا . فقال رسول اللّه ﷺ : « إنى واللّه ما أنا بشاعر ولا ينبغى لى » . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، وهذا لفظه (٤) .

وقال معمر عن قتادة : بلغنى أن عائشة سُئلت :هل كان رسول اللّه ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟ فقالت : لا ، إلا بيت طَرَفَةَ :

سَتُبْدى لكَ الأيامُ مَا كُنْتَ جَاهلا　　　ويَأتيكَ بالأخْبَار مَنْ لم تُزَوّدِ

فجعل يقول : « من لم تُزَوّد بالأخبار » . فقال أبو بكر : ليس هذا هكذا . فقال : « إنى لست بشاعر ، ولا ينبغى لى » (٥) .

وثبت فى الصحيحين أنه ، عليه الصلاة والسلام ، تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد اللّه بن رواحة ، ولكن تبعاً لقول أصحابه ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون :

لاهُمّ لوْلا أنت (٦) مَا اهْتَدينَا　　　ولاَ تَصَدّقْنَا ولاَ صَلّينَا

فأنْزلَنْ سكينَة علَيْنَا　　　وَثَبّت الأقْدَام إنْ لاقَينَا

إنّ الأُلى قَدْ بَغَوا علَينَا　　　إذا أرَادُوا فتْنَة أبَينَا

ويرفع صوته بقوله : « أبينا » ويمدها(٧) . وقد روى هذا بزحاف فى الصحيح أيضاً . وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب البغلة ، يُقدم بها فى نحور العدو :

أنا النبىّ لا كَذبْ　　　أنا ابنُ عَبْد المُطَّلبْ (٨)

لكن قالوا :هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه .

وكذلك ما ثبت فى الصحيحين عن جُنْدَب بن عبد اللّه قال : كنا مع رسول اللّه ﷺ فى غار

---

(١) فى س : « حاشية بخط جمال الدين المزى هذا موضوع على ابن عيينة » .　　(٢) فى أ : « واحدا فقال » .
(٣) السنن الكبرى للبيهقى (٧/٤٣) وقال : « لم أكتبه إلا بهذا الإسناد ، وفيهم من يجهل حاله » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/١٩) .
(٥) رواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/١١٧) عن معمر عن قتادة ، به .
(٦) فى ت : « لولا اللّه » .
(٧) صحيح البخارى برقم (٧٢٣٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٠٣) من حديث البراء بن عازب ، رضى اللّه عنه .
(٨) صحيح البخارى برقم (٢٨٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٧٦) .

فَنَكِبِت أصبعه ، فقال :

هَلْ أنْت إلا إصْبَع دَميت وفى سبَيل اللّه مَا لَقِيت[١]

وسيأتى عند قوله تعالى : ﴿ إلا اللَّمَمَ ﴾ [النجم : ٣٢] إنشاد[٢]

إنْ تَغفر اللّهُمَّ تَغفرْ جَماً وَأى عَبْد لكَ مَا ألَمَّا

وكل هذا لا ينافى كونه ﷺ ما عُلّم شعراً ولا ينبغى له ؛ فإن اللّه تعالى إنما علمه القرآن العظيم، ﴿الذى لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيد﴾ [فصلت : ٤٢] . وليس هو[٣] بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يُؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضُلاَّل[٤] وآراء الجُهَّال . وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً ، كما رواه أبو داود قال :

حدثنا عبيد اللّه بن عُمَر ، حدثنا عبد اللّه بن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنا شرحبيل ابن يزيد المَعَافرى ، عن عبد الرحمن[٥] بن رافع التَّنُوخى قال : سمعت عبد اللّه بن عمرو يقول[٦] : [سمعت رسول اللّه ﷺ يقول] [٧] : « ما أبالى ما أوتيت إن أنا شَربت ترياقا ، أو تعلقت تميمة ، أو قلت الشعر من قبل نفسى » . تفرد به أبو داود [٨] .

وقال [٩] الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن الأسود بن شيبان ، عن أبى نوفل قال : سألتُ عائشة : أكان رسول اللّه ﷺ يتسامع عنده الشعر ؟ فقالت : كان أبغض الحديث إليه . وقال عن عائشة : كان رسول اللّه ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء ، ويدع ما بين ذلك[١٠] .

وقال أبو داود : حدثنا أبو الوليد الطيالسى ، حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ، خير له من أن يمتلئ شعراً » . تفرد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه [١١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بريد ، حدثنا قَزَعَةُ بن سُوَيْد الباهلى ، عن عاصم بن مَخْلَد ، عن أبى الأشعث الصنعانى (ح) وحدثنا الأشيب فقال : عن ابن عاصم ، عن [أبى] [١٢] الأشعث[١٣] ، عن شَدّاد بن أوس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة ، لم تقبل له[١٤] صلاة تلك الليلة» [١٥] .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨٠٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٦) .
(٢) فى أ : « إنشاده » . (٣) فى أ : « هذا » . (٤) فى ت : « أقوال أهل الضلال ».
(٥) فى أ : « عبد اللّه » . (٦) فى ت : « كما رواه أبو داود عن عبد اللّه بن عمرو قال » .
(٧) زيادة من ت ، س ، وأبى داود .
(٨) سنن أبى داود برقم (٣٨٦٩) .
(٩) فى ت : « وروى » .
(١٠) المسند (١٤٨/٦) .
(١١) سنن أبى داود برقم (٥٠٠٩).
(١٢) زيادة من ت ، س ، والمسند . (١٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده ». (١٤) فى ت : « لم يقبل اللّه له».
(١٥) المسند (١٢٥/٤) .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة . والمراد بذلك نظمه لا إنشاده ، والله أعلم . على أن الشعر فيه ما هو مشروع ، وهو هجاء المشركين الذى كان يتعاطاه شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رَوَاحة ، وأمثالهم وأضرابهم ، رضى الله عنهم أجمعين . ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب ، كما يوجد فى شعر جماعة من الجاهلية ، ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى قال فيه النبى ﷺ : « آمن شعره وكفر قلبه»(١) . وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبى ﷺ مائة بيت ، يقول عقب كل بيت : « هيه » . يعنى يستطعمه ، فيزيده من ذلك (٢) .

وقد روى أبو داود من حديث أُبى بن كعب ، وبُريدة بن الحُصَيب(٣) ، وعبد الله بن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكما » (٤) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ما علمه الله شعراً ، ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أى : وما يصلح له ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : ما هذا الذى علمناه ، ﴿ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ أى: بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره . ولهذا قال : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أى: لينذر هذا القرآن البيّن كلّ حى على وجه الأرض ، كقوله : ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وإنما ينتفع بنذارته من هو حَىّ القلب ، مستنير البصيرة ، كما قال قتادة :حى القلب ، حى البصر . وقال الضحاك : يعنىّ : عاقلا ، ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى : هو رحمة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التى سخرها لهم ، ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ . قال قتادة : مطيقون (٥) أى : جعلهم يقهرونها (٦) وهى ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه . وكذا لو كان القطَارُ مائة بعير أو أكثر ، لسار الجميع بسير صغير .

وقوله : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أى : منها ما يركبون فى الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، إلى سائر الجهات والأقطار . ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ إذا شاؤوا نحروا واجتزروا ، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أى : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ، ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ أى : من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ، ونحو ذلك . ﴿ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أى : أفلا يُوحّدُون خالق ذلك ومسخره ، ولا يشركون به غيره ؟

(١) رواه ابن عبد البر فى التمهيد (٤/٧) من طريق أبى بكر الهذلى عن عكرمة عن ابن عباس ، رضى الله عنه .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٥٥) من حديث الشريد ، رضى الله عنه .
(٣) فى أ : « الخصيف » .
(٤) سنن أبى داود برقم (٥٠١٠ ـ ٥٠١٢) .
(٥) فى أ : « مطيعون » . (٦) فى أ : « يرونها » .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾ .

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله ، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى . قال الله تعالى : ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أى : لا تقدر الآلهة على نصر (١) عابديها ، بل هى أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدخر ، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ : قال مجاهد : يعنى : عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة ، محضرة عند حساب عابديها ؛ ليكون ذلك أبلغ فى خزيهم ، وأدل عليهم فى إقامة الحجة عليهم .

وقال قتادة : ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعنى : الآلهة ، ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ ، والمشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا وهى لا تسوق إليهم خيراً ، ولا تدفع عنهم سوءاً ، إنما هى أصنام .

وهكذا قال الحسن البصرى . وهذا القول حسن ، وهو اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أى : تكذيبهم لك (٢) وكفرهم بالله ، ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : نحن نعلم جميع ما هم عليه ، وسنجزيهم وصفهم ونعاملهم (٣) على ذلك ، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلا ولا حقيراً ، ولا صغيراً ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) ﴾ .

قال مجاهد ، وعكرمة ، وعروة بن الزبير ، والسُّدِّى . وقتادة : جاء أُبى بن خلف [لعنه الله](٤) إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم وهو يُفتِّتهُ ويذريه (٥) فى الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : « نعم ، يميتك الله ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار » . ونزلت هذه الآيات من آخر « يس » : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ، إلى آخرهن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا عثمان ابن سعيد الزيات ، عن هُشَيْم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبير (٦) ، عن ابن عباس ، أن العاصى(٧) بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتَّه بيده ، ثم قال لرسول الله ﷺ : أيحيى الله تعالى هذا بعد ما أرى ؟ (٨) فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، يميتك الله ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » . قال:

---

(١) فى أ : « نصرة » . (٢) فى أ : « ذلك » . (٣) فى أ : « ونقابلهم » .
(٤) زيادة من س ، أ . (٥) فى أ : « ويذروه » .
(٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » . (٧) فى ت ، س ، أ : « العاص » . (٨) فى أ : « أرم » .

ونزلت الآيات من آخر « يس » .

ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم ، عن هُشَيم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، فذكره ولم يذكر « ابن عباس » (١) .

وروى من طريق العَوفى ، عن ابن عباس قال : جاء عبد اللّه بن أُبى بعظم ففته وذكر نحو ما تقدم .

وهذا منكر ؛ لأن السورة مكية ، وعبد اللّه بن أبى بن سلول إنما كان بالمدينة . وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت فى أبى بن خلف ، أو [فى] (٢) العاص [بن وائل] (٣) ، أو فيهما ، فهى عامة فى كل من أنكر البعث . والألف واللام فى قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ ﴾ للجنس ، يعم كل (٤) منكر للبعث .

﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أى :أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن اللّه ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شىء حقير ضعيف مهين ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ .فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [المرسلات : ٢٠ـ ٢٢] ، وقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان : ٢] أى : من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ كما قال (٥) الإمام أحمد فى مسنده :

حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا حَرِيز ، حدثنى عبد الرحمن بن مَيْسَرة ، عن جُبَيْر بن نفير ، عن بُسْر ابن جَحَّاش ؛ أن رسول اللّه ﷺ بَصق يوماً فى كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : « قال اللّه تعالى : ابن آدم ، أنَّى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سَوَّيتك وعَدَلتك ، مشيت بين بردَيك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بَلَغَت التراقى قلت : أتصدق وأنَّى أوان الصدقة ؟ » .

ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يزيد بن هارون ، عن حَرِيز بن عثمان ، به (٦) .

ولهذا قال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ؟ أى : استبعد إعادة اللّه تعالى ـ ذى القدرة العظيمة التى خلقت (٧) السموات والأرض ـ للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن اللّه خلقه من العدم ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرقت وتمزقت .

قال (٨) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن رِبْعىّ قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة : ألا تحدثُنا ما سمعتَ من رسول اللّه ﷺ ؟ فقال : سمعته يقول : «إن رجلا حضره الموت ، فلما أيس من الحياة أوصى أهله : إذا أنا متّ فاجمعوا لى حَطَبا كثيراً

(١) تفسير الطبرى (٢٣/ ٢١) .
(٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من س . (٤) فى س : « لكل » . (٥) فى ت : « كما روى » .
(٦) المسند (٤/ ٢١٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٣٦٤) : « إسناد حديثه صحيح ورجاله ثقات » .
(٧) فى أ : « الذى خلق » . (٨) فى ت : « روى » .

جزلاً، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا [أكلت] (١) لحمي وخلصت إلى عظمي فامتُحشْتُ ، فخذوها فَذَرُوها في اليم . ففعلوا ، فجمعه الله إليه فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك . فغفر الله له » . فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته يقول ذلك ، وكان نبَّاشا (٢) .

وقد أخرجاه في الصحيحين ، من حديث عبد الملك بن عمير ، بألفاظ كثيرة (٣) ، منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ، ثم يذْرُوا نصفه في البر ونصفه في البحر ، في يوم رائح (٤) ، أي : كثير الهواء ــ ففعلوا ذلك . فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ،ثم قال له: كن . فإذا هو رجل قائم . فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه أن غفر له » .

وقوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُون ﴾ أي : الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خَضراً نَضراً ذا ثمر ويَنْع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً ،توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء .

قال قتادة فى قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُون ﴾ يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه .

وقيل : المراد بذلك سَرْح المرخ والعَفَار ، ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد قَدْح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح (٥) أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء . روى هذا عن ابن عباس ، رضى الله عنهما (٦) . وفى المثل (٧) : لكل شجر نار ، واستمجد المَرْخُ والعفَار (٨) . وقال الحكماء : فى كل شجر نار إلا الغاب (٩) .

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ .

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة فى خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال ، وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] . وقال هاهنا : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أى : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم . قاله ابن جرير (١٠) .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ

---

(١) زيادة من ت ، س ، والمسند .

(٢) المسند (٥/ ٣٩٥) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٤٨٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥٦) .

(٤) فى س ، أ : « راح » . (٥) فى أ : « فيحك » . (٦) فى ت ، س : « عنه » . (٧) فى أ : « الراجز » .

(٨) مجمع الأمثال للميدانى برقم (٢٧٥٢) .

(٩) فى أ : « العتاب » .

(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٢١) .

عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف :٣٣] ، وقال : ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى : يأمر بالشىء أمراً واحداً ، لا يحتاج إلى تكرار :

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لهُ « كُنْ » قَوْلَة فَيَكُونُ [١]

وقال [٢] الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمْير ، حدثنا موسى بن المسيَّب ، عن شَهْر ، عن عبد الرحمن بن غَنْم ، عن أبى ذَر ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن اللّه يقول : يا عبادى ، كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم . وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إنى جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » [٣] .

وقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحى القيوم ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر، وإليه نرجع العباد يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو العادل المتفضل .

ومعنى قوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ [٤] ﴾ [المؤمنون : ٨٨] ، وكقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك :١] ، فالملك والملكوت واحد فى المعنى ، كرحمة ورَحَمُوت ، ورَهْبة ورهبوت ، وجَبْر وجَبَروت . ومن الناس من زعم أن المُلْك هو عالم الأجساد [٥] ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والأول هو الصحيح ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

قال [٦] الإمام أحمد : حدثنا حماد ، عن عبد الملك بن عمير ، حدثنى ابن عم لحذيفة ، عن حذيفة ـ وهو ابن اليمان ـ رضى اللّه عنه ، قال : قمت مع رسول اللّه ﷺ ذات ليلة ، فقرأ السبع الطُّوَل [٧] فى سبع ركعات ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال : « سمع اللّه لمن حمده » . ثم قال: « الحمد لذى [٨] ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فأنصرف وقد كادت تنكسر رجلاى [٩] .

وقد روى أبو داود ، والترمذى فى الشمائل ، والنسائى ، من حديث شعبة ، عن عمرو بن مُرة، عن أبى حَمْزة ـ مولى الأنصار ـ عن رجل من بنى عَبْس ، عن حذيفة ؛ أنه رأى رسول اللّه ﷺ من الليل ، وكان يقول : « اللّه أكبر ـ ثلاثاً ـ ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » . ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركوعه نحوا من قيامه ، وكان يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » . ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحوا من [ركوعه ، يقول : « لربى الحمد » . ثم سجد ، فكان سجوده نحوا من] [١٠] قيامه ، وكان يقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى » . ثم رفع

(١) انظر البيت عند تفسير الآية : ٤٠ من سورة النحل .
(٢) فى ت : « وروى » .
(٣) المسند (١٧٧/٥).
(٤) فى ت : « قل من بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » وهو خطأ .
(٥) فى ت ، س : « الأجسام » .
(٦) فى ت : « وروى ».
(٧) فى ت : « الطوال » .
(٨) فى ت ، س : « للّه » .
(٩) المسند (٣٨٨/٥) .
(١٠) زيادة من ت ، وأبى داود .

رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحوا من سجوده ، وكان يقول : « رب ، اغفر لى، رب اغفر لى » . فصلى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ـ أو الأنعام[١]ـ شك شعبة ـ هذا لفظ أبى داود [٢] .

وقال النسائى : « أبو حمزة عندنا : طلحة بن يزيد ، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة » . كذا قال . والأشبه أن يكون ابن عم حذيفة ، كما تقدم فى رواية الإمام أحمد ، [والله أعلم] [٣] . فأما رواية صلة بن زفر ، عن حذيفة ، فإنها فى صحيح مسلم ، ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة .

وقال [٤] أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن عمرو بن قيس ، عن عاصم بن حُميد ، عن عوف بن مالك الأشجعى قال : قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ . قال : ثم ركع بقدر قيامه ، يقول فى ركوعه : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » . ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال فى سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة سورة .

ورواه الترمذى فى الشمائل ، والنسائى ، من حديث معاوية بن صالح ، به [٥] .

[ولله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً] [٦]

---

(١) فى ت : « والأنعام » .
(٢) سنن أبى داود برقم (٨٧٤) والشمائل للترمذى برقم (٢٦٠) وسنن النسائى (٢/١٩٩) .
(٣) زيادة من س .
(٤) فى ت : « وروى » .
(٥) سنن أبى داود برقم (٨٧٣) والشمائل للترمذى برقم (٢٩٦) وسنن النسائى (٢/١٩١) .
(٦) زيادة من س .

/ سورة يسٓ [٣٨٧ظ]

مكّيّة، وهي ثلاث وثمانون آيةً.

وعنه عليه السلام: «﴿يسٓ﴾ تُدعى المُعِمّة؛ تَعُمُّ صاحبَها خيرَ الدارَين، والدافعةَ، والقاضيةَ».[١]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ①﴾

﴿يسٓ﴾ إمّا مسرود على نمط التعديد، فلا حظَّ له مِن الإعراب، أو اسمٌ للسورة كما نصَّ عليه الخليل وسيبويه،[٢] وعليه الأكثر، فمحلّه الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أو النصبُ على أنّه مفعول لفعل مُضمَر، وعليهما مدارُ قراءة ياسين بالرفع[٣] والنصب،[٤] أي: هذه ياسين، أو اقرأ ياسين. ولا مساغَ للنصب بإضمار فعل القسَم؛ لأنّ ما بعده مُقسَم به، وقد أبَوا الجمع بين قسَمَين على شيء واحد قبل انقضاء الأوّل. ولا مجالَ للعطف، لاختلافهما إعرابًا.

وقيل: هو مجرور بإضمار "باء" القسَم، مفتوحٌ لكونه غير مُنصرِف، كما سلَف في فاتحة سورة البقرة مِن أنّ ما كانت مِن هذه الفواتح مفردةً، مثل: "صاد"[٥] و"قاف"[٦] و"نون"،[٧] أو كانت موازِنةً لمُفرد، نحو: طاسين[٨] وياسين وحاميم[٩]

---

١ ط س - وعنه عليه السلام: «﴿يسٓ﴾ تُدعى المُعِمّة؛ تَعُمُّ صاحبَها خيرَ الدارين، والدافعةَ، والقاضيةَ». | الكشف والبيان للثعلبي، ١١٨/٨؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٩٦/٤ (٢٢٣٧).

٢ ذكره الرازي في تفسيره، ٢٥٢/٢ (البقرة، ١/٢)؛ وابن عادل في اللباب، ٢٥٦/١ (البقرة، ١/٢).

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري والكلبي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٨

٥ ص، ١/٣٨.

٦ ق، ١/٥٠.

٧ القلم، ١/٦٨.

٨ النمل، ١/٢٧.

٩ غافر، ١/٤٠، وغيرها.

الموازِنةِ لِـ"قابيل" و"هابيل"، يتأتّى فيها الإعراب اللفظي، ذكَره سيبويه في باب "أسماء السور" مِن كتابه.[١]

وقيل: هما حركتا بناءٍ، كما في "حيثُ" و"أينَ"، حسبَما يشهد بذلك قراءة ياسين بالكسر،[٢] كَـ"جَيرِ".[٣]

وقيل: الفتح والكسر تحريكٌ للجِدّ في الهرَب مِن التقاء الساكنين.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ «معناه: "يا إنسان" في لغة طيّء».[٤] قالوا: المراد به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ولعلّ أصله: "يا أُنَيسِين"، فاقتُصِر على شَطره، كما قيل: "مُنُ اللهِ" في "ايمُنُ اللهِ".[٥]

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ بالجرّ على أنّه مُقسَم به ابتداءً. وقد جُوّز أن يكون عطفًا على ﴿يسٓ﴾ على تقدير كونه مجرورًا بإضمار "باء" القسَم.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: المتضمِّنِ للحكمة، أو الناطقِ بها بطريق الاستعارة، أو المتّصفِ بها على الإسناد المجازي. وقد جُوّز أن يكون الأصل "الحكيمِ قائلُه"، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، فبِانقلابه مرفوعًا بعد الجرّ استكَنّ في الصفة المشبَّهة كما مرّ في صدر سورة لقمان.[٦]

---

١ انظر: **الكتاب** لسيبويه، ٢٥٧/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وابن أبي إسحاق. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٨.

٣ "جَيْرِ" بكسر "الراء"، وقد يُنوَّن: يَمينٌ، أي: حَقًّا، أو بمعنى: "نَعَمْ" أو "أَجَلْ". **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «جير».

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٢٠/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٤. وهو في **جامع البيان** للطبري، ٣٩٨/١٩، بلفظ: «"يا إنسانُ" بالحَبشيّة».

٥ **الكشّاف** للزمخشري، ١٣/٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٦٣/٤. قال أبو حيّان: «والذي نُقِل عن العرب في تصغير "إنسان": "أُنَيْسِيان" بـ"ياءٍ" بعدها ألف، فدلّ على أنّ أصله "إنْسِيان"؛ لأنّ التصغير يَرُدّ الأشياءَ إلى أصولها، ولا نعلم أنّهم قالوا في تصغيره: "أُنَيْسِين"، وعلى تقدير أنه يُصَغَّر كذلك فلا يجوز ذلك إلّا أن يُبنَى على الضمّ؛ لأنّه منادى مُقْبَلٌ عليه، ومع ذلك فلا يجوز لأنه تحقير، ويمتنع ذلك في حَقّ النبوّة». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٨/٩.

٦ لقمان، ٢/٣١.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جواب للقسَم. والجملة لردّ إنكار الكفَرة بقولهم في حقّه عليه السلام: "لَستَ مُرسلًا"،[1] وهذه الشهادة منه عزّ وجلّ مِن جملة ما أشيرَ إليه بقوله تعالى في جوابهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد، ٤٣/١٣].

وفي تخصيص القرآن بالإقسام به / أوّلًا، وبوصفه بـ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ ثانيًا، تَنْوِيةٌ بشأنه، وتنبيهٌ على أنّه كما يشهد برسالته عليه السلام مِن حيث نظمُه المعجِز المنطوي على بدائع الحِكم يشهد بها مِن هذه الحيثيّة أيضًا، لِما أنّ الإقسام بالشيء استشهادٌ به على تحقّق مضمون الجملة القَسَميّة، وتَقوِيةٌ لثبوته، فيكون شاهدًا به، ودليلًا عليه قطعًا. [٣٨٨و]

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر آخر لـ"إنّ"، أو حال مِن المستكِنّ في الجارّ والمجرور، على أنّه عبارة عن الشريعة الشريفة بكمالها، لا عن التوحيد فقط. وفائدته بيانُ أنّ شريعته عليه السلام أقوم الشرائع وأعدلُها، كما يُعرِب عنه التنكير التفخيمي، والوصفُ إثرَ بيان أنّه عليه السلام مِن جملة المرسلين بالشرائع.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ نصب على المدح. وقُرئ بالرفع[2] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، وبالجرّ[3] على أنه بدل مِن القرآن. وأيًّا ما كان فهو مصدر بمعنى المفعول عُبّر به عن القرآن بيانًا لكمال عَراقته في كونه منزّلًا مِن عند الله عزّ وجلّ، كأنّه نفس التنزيل، وإظهارًا لِفخامته الإضافيّة بعد بيان فخامته الذاتيّة بوصفه بالحكمة.

---

[1] قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد، ٤٣/١٣].

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٥٣/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة واليزيدي والقورصي عن أبي جعفر وشيبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩/٩.

وفي تخصيص الاسمَين الكريمَين المعربَين عن الغلَبة التامّة والرأفة العامّة حثٌّ على الإيمان به ترهيبًا وترغيبًا، وإشعارٌ بأنّ تنزيله ناشئٌ عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧/٢١].

وقيل: النصب على أنّه مصدر مؤكِّد لفعله المُضمَر، أي: نُزِّلَ تنزيلَ العزيز الرحيم، على أنّه استئناف مَسوق لبيان ما ذُكر مِن فخامة شأن القرآن.

وعلى كلّ تقدير ففيه فضل تأكيدٍ لمَضمون الجملة القَسَميّة.

﴿لِتُنذِرَ﴾[١] متعلّق بـ﴿تَنزِيلَ﴾ على الوجوه الأُوَل، وبعامِله المضمَر على الوجه الأخير، أي: لِتنذر به، كما في صدر الأعراف.[٢]

وقيل: هو متعلّق بما يدلّ عليه ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾،[٣] أي: إنّك مرسَل لتنذر ﴿قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ / أي: لم يُنذَر آباؤهم الأقربون لِتطاوُل مدّة الفترة، على أنّ ﴿مَا﴾ نافيةٌ، فيكون صفةً مبيّنةً لغاية احتياجهم[٤] إلى الإنذار، أو الذي أُنْذِرَهُ، أو شيئًا أُنذِرَهُ آباؤهم الأبعدون، على أنّها موصولة أو موصوفة، فيكون مفعولًا ثانيًا لـ﴿تُنذِرَ﴾، أو إنذارَ آبائهم الأقدمين، على أنّها مصدريّة، فيكون نعتًا لمصدر مؤكِّد، أي: لتنذر إنذارًا كائنًا مثل إنذارهم. [٣٨٨ظ]

﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ على الوجه الأوّل متعلّق بنفي الإنذار، مترتّب عليه، والضمير للفريقين، أي: لم يُنذَر آباؤهم فهم جميعًا لأجله غافلون، وعلى الوجوه الباقية متعلِّق بقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾، أو بما يفيده ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾،[٥] واردٌ لتعليل إنذاره عليه السلام أو إرسالِه بغفلتهم المُحوِجة إليهما، على أنّ الضمير للقوم خاصّةً، فالمعنى: فهم غافلون عنه، أي: عمّا أُنذِر آباؤهم الأقدمون لامتداد المدّة.

﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧﴾

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ جواب القسم، أي:

---

[١] س + قومًا.

[٢] الأعراف، ٢/٧.

[٣] يس، ٣/٣٦.

[٤] س: اختياجهم.

[٥] يس، ٣/٣٦.

واللهِ لقد ثبتَ وتحقّق عليهم البتّة، لكن لا بطريق الجَبر مِن غير أن يكون مِن قِبَلهم ما يقتضيه؛ بل بسبب إصرارهم الاختياري على الكفر والإنكار، وعدمِ تأثّرهم مِن التذكير والإنذار، وغلوِّهم في العتوّ والطغيان، وتماديهم في اتّباع خطوات الشيطان بحيث لا يَلويهم صارِف، ولا يَثنيهم عاطف.

كيف لا والمراد بما حقّ مِن القول قولُه تعالى لإبليس عند قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٢/٣٨]: ﴿لَأَمْلَأَنَّ[١] جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود، ١١٩/١١] كما يلوّح به تقديم "الجِنّة" على "الناس"، فإنّه كما ترى قد أُوقِع فيه.الحكمُ بإدخال جهنّم على مَن تَبِع إبليس، وذلك تعليل له بتبعيّته قطعًا. وثبوتُ القول على هؤلاء الذين عُبّر عنهم بـ﴿أَكْثَرِهِمْ﴾ إنّما هو لكونهم مِن جملة أولئك المُصرّين على تبعيّة إبليس أبدًا.

وإذ قد تبيّن أنّ / مناط ثبوت القول وتحقّقِه عليهم إصرارُهم على الكفر [٣٨٩و]
إلى الموت ظهَرَ أنّ قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ متفرّع في الحقيقة على ذلك، لا على ثبوت القول.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ٨﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ تقرير لتصميمهم على الكفر، وعدمِ ارعِوائهم عنه، بتمثيل حالهم بحال الذين غُلّت أعناقهم، ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي: فالأغلال منتهية إلى أذقانهم، فلا تدَعهم يلتفتون إلى الحقّ، ولا يَعطفون أعناقَهم نحوه، ولا يُطَأطِئُون رءوسهم له، ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ رافعون رءوسهم غاضّون أبصارهم بحيث لا يكادون يرَون الحقّ، أو ينظرون إلى جهته.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩﴾

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إمّا تتمّة للتمثيل وتكميلٌ له أيُّ تكميل، أي: وجعلنا مع ما ذُكر مِن أمامهم سدًّا عظيمًا،

---

[١] وفي هامش م: مقول "قوله تعالى".

ومِن ورائهم سدًّا كذلك، فغطّينا بهما أبصارَهم، فهم بسبب ذلك لا يقدرون على إبصار شيء ما أصلًا.

وإمّا تمثيلٌ مستقِلّ، فإنّ ما ذُكر مِن جعلهم محصورين بين سدَّين هائلين قد غطّيا أبصارَهم بحيث لا يبصرون شيئًا قطعًا كافٍ في الكشف عن كمال فَظاعة حالهم، وكونِهم محبوسين في مَطمورة الغيّ والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلّة والآيات.

وقُرئ: "سُدًّا" بالضمّ،[1] وهي لغة فيه. وقيل: ما كان مِن عمل الناس فهو بالفتح، وما كان مِن خلق الله فبالضمّ. وقُرئ: "فَأَعْشَيْنَاهُمْ"[2] مِن "العَشَا".[3]

وقيل: الآيتان في بني مخزوم، وذلك أنّ أبا جهل حلَفَ: «لئن رأى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّي لَيَرضخَنّ رأسه»، فأتاه وهو عليه السلام يصلّي ومعه حجَر لِيَدمغه، فلمّا رفع يده انْثَنَتْ إلى عنقه، ولَزِق الحجَر بيده حتّى فَكُّوه

[٣٨٩ظ] عنها بجُهد، فرجع إلى قومه فأخبرهم بذلك، فقال / مخزومي آخَر: «أنا أقتله بهذا الحجَر»، فذهَب فأعمى الله تعالى بصره.[4]

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ۝١١﴾

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ بيان لشأنهم بطريق التصريح إثرَ بيانه بطريق التمثيل، أي: مستوٍ عندهم إنذارُك إيّاهم وعدمُه، حسبما مرّ تحقيقه في سورة البقرة.[5]

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ استئناف مؤكِّد لِما قبله مبيِّن لِما فيه مِن إجمال ما فيه الاستواء، أو حالٌ مؤكِّدة له، أو بدل منه.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٨

٣ "العَشا" مقصورٌ: مصدر "الأعشى"؛ وهو الذي لا يُبصر بالليل، ويُبصر بالنهار. الصحاح للجوهري، «عشا».

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤/٦؛ اللباب لابن عادل، ١٦/١٧٠. وانظر: دلائل النبوّة لأبي نعيم، ص ٢٠٥.

٥ البقرة، ٢/٦.

ولمّا بيّن كون الإنذار عندهم كعَدمه عُقِّب ببيان مَن يتأثّر منه، فقيل: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي: إنذارًا مستتبِعًا للأثر ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآنَ بالتأمّل فيه، أو الوعظَ، ولم يُصِرّ على اتّباع خطوات الشيطان، ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: خاف عقابه وهو غائب عنه، على أنّه حال مِن الفاعل أو المفعول، أو خافه في سريرته، ولم يغترّ برحمته، فإنّه منتقم قهّار، كما أنّه رحيم غفّار، كما نطق به قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر، ١٥/٤٩-٥٠].

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لا يُقادَر قدرُه. و"الفاء" لترتيب البِشارة أو الأمرِ بها على ما قبلها مِن اتّباع الذِّكر والخَشية.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بيان لشأنٍ عظيم ينطوي على الإنذار والتبشير انطواءً إجماليًّا، أي: نبعثهم بعد مَماتهم. وعن الحسن: «إحياؤهم: إخراجُهم مِن الشرك إلى الإيمان»،[1] فهو حينئذ عِدَة كريمة بتحقيق المبشَّر به.

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ أي: ما أسلفوا مِن الأعمال الصالحة وغيرِها، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ التي أبقَوها مِن الحسنات، كعِلمٍ عَلّموه، أو كتابٍ ألّفوه، أو حبيسٍ وَقَفوه، أو بناءٍ بنَوه مِن المساجد والرِّباطات والقناطر، وغيرِ ذلك مِن وجوه البِرّ، ومِن السيّئات، كتأسيس قوانين الظلم / والعدوان، وترتيبِ مبادي الشرّ والفساد فيما بين العباد، وغيرِ ذلك مِن فنون الشرور التي أحدَثوها وسنُّوها لمَن بعدهم مِن المفسدين. [٣٩٠و]

وقيل: هي آثار إلى المَشّائين إلى المساجد، ولعلّ المراد أنّها مِن جملة الآثار.

وقُرِئ: "وَيُكْتَبُ" على البناء للمفعول ورفعِ ﴿ءَاثَٰرَهُمْ﴾.[2]

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٤/٧؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٥٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن مَسروق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٨.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء كائنًا ما كان ﴿أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أصلٍ عظيمِ الشأن، مُظهرٍ لجميع الأشياء ممّا كان وما سيكون، وهو اللوح المحفوظ. وقُرئ: "كُلُّ شَيْءٍ" بالرفع.[١]

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ١٤﴾

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ضربُ المَثَل يُستعمل تارةً في تطبيق حالة غريبة بحالةٍ أخرى مثلِها، كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٖ وَٱمْرَأَتَ لُوطٖ﴾ [التحريم، ١٠/٦٦]، وأخرى في ذكر حالةٍ غريبة وبيانِها للناس مِن غير قصدٍ إلى تطبيقها بنظيرةٍ لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم، ٤٥/١٤] على أحد الوجهين، أي: بيّنا لكم أحوالًا بديعةً هي في الغرابة كالأمثال.

فالمعنى على **الأوّل**: اجعل أصحاب القرية مَثَلًا لهؤلاء في الغلوّ في الكفر، والإصرارِ على تكذيب الرسل، أي: طَبِّق حالَهم بحالهم، على أنّ ﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿ٱضْرِبْ﴾، و﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مفعوله الأوّل، أُخِّر عنه ليتّصل به ما هو شرحه وبيانه.

وعلى **الثاني**: اذكُر وبيّن لهم قصّةً هي في الغرابة كالمَثَل، وقولُه: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ بدل منه بتقدير المضاف، أو بيان له. و﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ أنطاكيّة.

﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾، وهم رسلُ عيسى عليه السلام إلى أهلها. ونسبة إرسالهم إليه تعالى في قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ بناءً على أنّه كان بأمره تعالى لتكميل التمثيل وتتميم التسلية. وهما يحيى وبولس، وقيل: غيرهما.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: فأتياهم فدعَواهم إلى الحقّ / فكذّبوهما في الرسالة، [٣٩٠ظ]
﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي: قوّينا، يقال: "عَزَّز المطرُ الأرضَ" إذا لبّدها. وقُرئ بالتخفيف[٢]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٨.

[٢] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٥٣/٢.

مِن "عَزّه" إذا غلَبه وقهَره. وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه، ولأنّ المقصد ذِكر المعزَّز به. ﴿بِثَالِثٍ﴾ هو شمعون، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي: جميعًا: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ مؤكِّدين كلامهم لسبق الإنكار، لِما أنّ تكذيبهما تكذيبٌ للثالث، لاتّحاد كلمتهم.

وذلك أنّهم كانوا عبَدة أصنام، فأرسَل إليهم[١] عيسى عليه السلام اثنين، فلمّا قرُبا مِن المدينة رأَيا شيخًا يرعى غُنَيمات له، وهو حبيب النجّار صاحب ياسين، فسألهما، فأخبراه، قال: «أمَعكما آية؟»، فقالا: «نشفي المريضَ، ونُبرئ الأكمه والأبرص»، وكان له ولد مريض منذ سنتين، فمَسحاه، فقام فآمن حبيب، وفشا الخبر، وشُفِي على أيديهما خَلق، وبلغ حديثهما إلى الملِك، وقال لهما: «ألَنا إله سوى آلهتنا؟»، قالا: «نعم، مَن أوجدَك وآلِهتَك»، فقال: «حتّى أنظر في أمركما»، فتبعهما الناس، وقيل: ضربوهما، وقيل: حُبِسا. ثمّ بَعث عيسى عليه السلام شمعون، فدخل متنكِّرًا، وعاشَرَ حاشيةَ الملِك حتّى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملِك، فأنِس به، فقال له يومًا: «بلغني أنّك حبست رجلين، فهل سمعت ما يقولانه؟» قال: «لا، حالَ الغضبُ بيني وبين ذلك»، فدعاهما، فقال شمعون: «مَن أرسلَكما؟»، قالا: «الله الذي خلق كلّ شيء، وليس له شريك»، فقال: «صِفَاه وأوجِزَا»، قالا: «يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد»، قال: «وما آيتكما؟» قالا: «ما يتمنّى الملِك»، فدعا بغلام مطموس العينين، فَدَعَوَا اللهَ تعالى حتّى انشقّ له بصر، فأخذا بندقتَين فوضعاهما في حدَقتيه، فصارتا مُقلتَين ينظر بهما، فقال له شمعون: «أرأيت لو سألتَ إلهك حتّى يصنع مثلَ هذا، فيكونَ لك وله الشرَف»، قال: «ليس لي عنك سرّ، / إنّ إلهنا لا يُبصر ولا يَسمع، ولا يضرّ [٣٩١و]
ولا ينفع». وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلّي ويتضرّع، ويحسبون أنّه منهم، ثمّ قال: «إن قدَر إلهُكما على إحياء ميّت آمنّا به»، فدعَوا بغلام مات مِن سبعة أيّام، فقام وقال: «إنّي أُدخِلتُ في سبعة أودية مِن النار، وأنا أحذِّركم ما أنتم فيه، فآمِنوا»، وقال: «فتحتُ أبوابَ السماء، فرأيت شابًّا حسَنَ الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة»، قال الملِك: «مَن هُم؟» قال: «شَمعون وهذان»، فتعجَّب الملِك،

---

[١] س: عليهم.

فلمّا رأى شمعون أنّ قوله قد أثّرَ فيه نصحه، فآمَن وآمَن قومٌ، ومَن لم يؤمن صاح عليهم جبريلُ عليه السلام فهلكوا.[١]

هكذا قالوا، ولكن لا يساعده سياق النظم الكريم، حيث اقتُصِرَ فيه على حكاية تماديهم في العناد واللَّجاج، وركوبهم متنَ المكابرة في الحِجاج، ولم يُذكَر فيه مِمّن يؤمن أحدٌ سوى حبيب، ولو أنّ الملِك وقومًا مِن حواشيه آمنوا لكان الظاهر أن يظاهروا الرسل ويساعدوهم، قُبِلوا في ذلك أو قُتِلوا، كدأب النجّار الشهيد، ولكان لهم فيه ذِكرٌ ما بوجه مِن الوجوه، اللّهمّ إلّا أن يكون إيمانُ الملِك بطريق الخُفية على خوفٍ مِن عُتاة مَلَئه، فيعتزلَ عنهم معتذِرًا بعذرٍ مِن الأعذار.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: أهل أنطاكيّة الذين لم يؤمنوا مخاطِبين للثلاثة: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ مِن غير مزيّة لكم علينا موجِبةٍ لاختصاصكم بما تدّعونه. ورفع ﴿بَشَرٞ﴾ لانتقاض النفي المقتضي لإعمال ﴿مَا﴾ بـ﴿إِلَّا﴾.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ ممّا تدّعونه مِن الوحي والرسالة، ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ في دعوى رسالته.

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ استشهَدوا بعلم الله تعالى، وهو يجري مَجرى القسَم، مع ما فيه مِن تحذيرهم معارضةَ علم الله تعالى. وزادوا "اللام" المؤكِّدة لِما شاهدوا منهم مِن شدّة الإنكار.

﴿وَمَا عَلَيۡنَآ﴾ أي: مِن جهة ربّنا ﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: إلّا تبليغُ رسالته تبليغًا ظاهِرًا بيّنًا[٢] بالآيات الشاهدة بالصحّة، وقد خرجنا عن عهدته، فلا مؤاخذةَ لنا بعد ذلك مِن جهة ربّنا، أو ما علينا شيء نطالَبُ به مِن جهتكم إلّا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور، وقد فعلناه، فأيُّ شيء تطلبون منّا حتّى تصدّقونا بذلك؟

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٢٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٨.

٢ س: بيًّا.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ لمّا ضاقت عليهم الحِيَل وعيّت بهم العِلل: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ تشاءَمنا بكم، / جَريًا على دَيدَن الجهلة، حيث كانوا يَتيَمَّنون بكلّ ما يوافق شهواتهم، وإن كان مستجلِبًا لكلّ شرّ ووَبال، ويتشاءَمون بما لا يوافقها، وإن كان مستتبِعًا لسعادة الدارَين، أو بناءً على أنّ الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه مِن إصابة ضررٍ متعلّق بأنفسهم وأهليهم وأموالهم إن لم يؤمنوا، فكانوا ينفرون عنه. وقد رُوي أنّه حُبس عنهم القَطْر فقالوه.[1] [٣٩١ظ]

﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ أي: عن مقالتكم هذه ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بالحجارة، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ لا يُقادَر قدرُه.

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم﴾ أي: سببُ شُؤمكم ﴿مَّعَكُمۡ﴾ لا مِن قِبَلنا، وهو سوء عقيدتكم، وقُبح أعمالكم. وقُرئ: "طَيْرُكُمْ".[2]

﴿أَئِن ذُكِّرۡتُم﴾ أي: وُعِظتم بما فيه سعادتكم. وجواب الشرط محذوف ثقةً بدلالة ما قبله عليه، أي: تطيّرتم وتوعّدتم بالرجم والتعذيب. وقُرئ بـ"ألف" بين همزتين،[3] وبفتح "أَنْ"[4] بمعنى: أتطيّرتم لِأَن ذُكِرتم، و"إِنْ ذُكِرْتُمْ"،[5] و"أَنْ ذُكِرْتُمْ"[6] بغير استفهام، و"أَيْنَ ذُكِرْتُمْ"[7] بمعنى: طائركم معكم حيث جرى ذِكرُكم، وهو أبلغ.

---

[1] التفسير الوسيط للواحدي، ٥١١/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٩/٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والحسن وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

[3] قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر وقالون عن نافع وهشام عن ابن عامر بخلف عنه، وهم في "الهمزة" الثانية على أصولهم، فقرأ أبو عمرو وأبو جعفر وقالون بالتسهيل، وقرأ هشام بالتحقيق، وسيأتي فتح "الهمزة" الثانية لأبي جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١؛ ٣٥٣/٢.

[4] قرأ بها أبو جعفر. وهو على أصله في تسهيل "الهمزة" الثانية، وإدخالِ "ألف" بين الهمزتين. وقرأ: "ذُكِرْتُمْ" بتخفيف "الكاف". انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١؛ ٣٥٣/٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن زرّ بن حُبيش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضراب عمّا يقتضيه الشرطيّة مِن كون التذكير سببًا للشؤم، أو مصحِّحًا للتوعّد، أي: ليس الأمر كذلك؛ بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في العصيان، فلذلك أتاكم الشؤم، أو في الظلم والعدوان، ولذلك توعّدتم وتشاءَمتم بمَن يجب إكرامه والتبرّك به.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠﴾

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو حبيب النجّار، وكان ينحِت أصنامهم، وهو ممّن آمَن برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبينهما ستُّمائة سنةٍ، كما آمَن به تُبَّعٌ الأكبر، وورَقةُ بن[١] نوفل وغيرهما، ولم يُؤمن بنبيّ غيرِه عليه السلام أحدٌ قبل مَبعثه. وقيل: كان في غارٍ يَعبد الله تعالى، فلمّا بلغه خبر الرسل
[٣٩٢و] عليهم السلام / أظهرَ دينه.

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية مَجيئه ساعيًا، كأنّه قيل: فماذا قال عند مَجيئه؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تعرَّضَ لعنوان رسالتهم حثًّا لهم على اتّباعهم، كما أنّ خطابهم بـ﴿يَٰقَوْمِ﴾ لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥﴾

وقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ تكرير للتأكيد وللتوسّل به إلى وصفهم بما يرغّبهم في اتّباعهم مِن التنزّه عن الغرض الدنيوي، والاهتداءِ إلى خير الدنيا والدين.

﴿وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ تلطّف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصَحة لنفسه، وإمحاضِ النصح، حيث أرَاهم أنّه اختار لهم ما يختار لنفسه.

---

[١] س: ابن.

والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره، كما يُنبئ عنه قوله تعالى:[١] ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ مبالغةً في التهديد، ثمّ عاد إلى المَساق الأوّل فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إنكار ونفي لاتّخاذ الآلهة على الإطلاق.

وقوله تعالى: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا تَنفعْني شيئًا مِن النفع، ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ مِن ذلك الضرّ بالنصرة والمظاهَرة؛ استئناف سِيق لِتعليل النفي المذكور. وجعلُه صفةً لـ﴿ءَالِهَةً﴾ كما ذهَب إليه بعضهم ربّما يوهم أنّ هناك آلهةً ليست كذلك.

وقُرئ: "إن يَرِدْنِ" بفتح "الياء"،[٢] على معنى: إن يُورِدْني ضُرًّا، أي: يجعَلْني مَوردًا للضرّ.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ أي: إذا اتّخذتُ مِن دونه آلهةً ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ فإنّ إشراك ما ليس مِن شأنه النفع ولا دَفعُ الضرّ بالخالق المقتدر الذي لا قادرَ غيرُه ولا خيرَ إلّا خيرُه ضلالٌ بيّن لا يخفى على أحد ممّن له تمييز في الجملة.

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ خطاب منه للرسل بطريق التلوين. قيل: لمّا نصح قومَه بما ذُكِر همّوا برَجمه، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتلوه، فقال ذلك. وإنّما أكّده لإظهار صدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط. وأضاف الربَّ إلى ضميرهم رَومًا / لزيادة التقرير، وإظهارًا للاختصاص والاقتداء بهم، كأنّه قال: [٣٩٢ظ]
بربّكم الذي أرسلكم، أو الذي تدعوننا إلى الإيمان به، ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ أي: اسمعوا إيماني، واشهدوا لي به عند الله عزّ وجلّ.[٣]

---

[١] م - تعالى.

[٢] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. **الكشّاف** للزمخشري، ١١/٤. وقال أبو حيّان: «وهذا -والله أعلم- رأى في كتب القراءات: "يردني بفتح الياء"، فتوهّم أنّها "ياء" المضارَعة، فجعل الفعلَ متعدّيًا بـ"الياء" المُعدّية كـ"الهمزة"، فلذلك أدخل عليه "همزة" التعدية، ونصبَ به اثنين. والذي في كتب القرّاء الشواذّ أنّها ياء الإضافة المحذوفة خَطًّا ونُطقًا لالتقاء الساكنين. قال في كتاب ابن خالَويه: "بفتح ياء الإضافة"». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٦/٩. والقراءة بإثبات ياء الإضافة مفتوحة في الوصل، ساكنة في الوقف؛ قرأ بها أبو جعفر. وقرأ يعقوب بإثباتها ساكنة في الوقف دون الوصل. انظر: **النشر** لابن الجزري، ١٨٨/٢، ٣٥٦.

[٣] س: تعالى.

وقيل: الخطاب للكفرة، شافَههم بذلك إظهارًا لِلتصلّب في الدين، وعدمِ المبالاة بالقتل. وإضافة الربّ إلى ضميرهم لتحقيق الحقّ على بطلان ما هم عليه مِن اتّخاذ الأصنام أربابًا. وقيل: للناس جميعًا.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ قيل له ذلك لمّا قتلوه إكرامًا له بدخولها حينئذ كسائر الشهداء. وقيل: لمّا همّوا بقتله رفعه الله تعالى إلى الجنّة، قاله الحسن.[1] وعن قتادة: «أدخله الله الجنّة، وهو فيها حيّ يُرزَق».[2]

وقيل: معناه البشرى بدخول الجنّة، وأنّه مِن أهلها، وإنّما لم يُقَل: "له" لأنّ الغرض بيان المَقول، لا القولِ له، لظهوره، وللمبالغة في المسارعة إلى بيانه.

والجملة استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية حاله ومقالِه، كأنّه قيل: كيف كان لقاءُ ربّه بعد ذلك التصلّب في دينه، والتسخّي بروحه لوجهه تعالى؟ فقيل: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ فإنّه جواب عن سؤال نشأ مِن حكاية حاله، كأنّه قيل: فماذا قال عند نَيله تلك الكرامةَ السنيّة؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾... إلخ.

وإنّما تمنّى عِلمَ قومِه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر، والدخولِ في الإيمان والطاعة جريًا على سَنن الأولياء في كَظم الغَيظ، والترحّمِ على الأعداء، أو ليعلموا أنّهم كانوا على خطأ عظيم في أمره، وأنّه كان على الحقّ، وأنّ عداوتهم لم تُكسبه إلّا سعادةً.

وقُرئ: "مِنَ المُكَرَّمِينَ".[3] و﴿مَا﴾ موصولة، أو مصدريّة، و"الباء" صلة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، أو استفهاميّة وردت على الأصل، / و"الباء" متعلّقة بـ﴿غَفَرَ﴾، أي: [٣٩٣و]

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٦/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٧/٩. وفي الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٦/٨: وقال الحسن: «خَرقوا خَرقًا في حَلْقة فعلّقوه مِن سور المدينة، وقبرُه في سور أنطاكية، فأوجب الله له الجنّة».

٢ الكشّاف للزمخشري، ١١/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٧/٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

بأيّ شيء غَفَر لي ربّي؟ يريد به تفخيمَ شأن المهاجَرة عن ملّتهم والمصابَرة على أذيتّهم.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨﴾

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ مِن بعد قتله أو رفعه ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإهلاكهم والانتقامِ منهم، كما فعلناه يومَ بدر والخندق؛ بل كفينا أمرهم بصيحة مَلَك. وفيه استحقار لهم ولإهلاكهم، وإيماءٌ إلى تفخيم شأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾[1] وما صحّ في حكمتنا أن نُنْزِل لإهلاك قومه جندًا مِن السماء، لِما أنّا قدّرنا لكلّ شيء سببًا، حيث أهلكنا بعضَ مَن أهلكنا مِن الأمم بالحاصب، وبعضَهم بالصيحة، وبعضَهم بالخَسف، وبعضَهم بالإغراق، وجعلنا إنزال الجند مِن خصائصك في الانتصار مِن قومك.

وقيل: ﴿مَا﴾ موصولة معطوفة على ﴿جُندٍ﴾، أي: وما كنّا منزلين على مَن قبلهم مِن حجارة وريحٍ وأمطارٍ شديدة وغيرِها.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾

﴿إِن كَانَتْ﴾ أي: ما كانت الأخذة أو العقوبة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاحَ بها جبريل عليه السلام. وقُرئ: "إِلَّا صَيْحَةٌ" بالرفع[2] على أنّ "كان" تامّة. وقُرئ: "إِلَّا زَقْيَةً وَاحِدَةً"،[3] مِن "زَقَا الطائرُ" إذا صاح.

﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ ميّتون. شُبّهوا بالنار الخامدة رمزًا إلى أنّ الحيّ كالنار الساطعة في الحركة والالتهاب، والميّت كالرماد، كما قال لَبيد:

وما المرءُ إلّا كالشهابِ وضوئِه   يَحورُ رمادًا بعد إذ هو ساطعُ[4]

---

[1] س + أي.
[2] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٣.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.
[4] ديوان لبيد بن ربيعة، ص ٥٦.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ تعالَي، فهذه مِن الأحوال التي حقّها أن تحضري فيها، وهي ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فإنّ المستهزئين بالناصحين الذين نِيطت بنصائحهم سعادةُ الدارين أحقّاءُ بأن يَتَحسّروا ويَتحسَّر عليهم المتحسِّرون، / أو قد تلهّف على حالهم الملائكة [٣٩٣ظ] والمؤمنون مِن الثقلَين.

وقد جُوّز أن يكون تحسُّرًا عليهم مِن جهة الله تعالى بطريق الاستعارة، لتعظيم ما جَنَوه على أنفسهم، ويؤيّده قراءة: "يَا حَسْرَتَا"؛[١] لأنّ المعنى: يا حسرتِي. ونصبُها لطولها بما تعلّق بها مِن الجارّ. وقيل: بإضمار فعلها، والمنادى محذوف.

وقرئ: "يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ"[٢] بالإضافة إلى الفاعل أو المفعول، و"يَا حَسْرَهْ عَلَى الْعِبَادِ"[٣] بإجراء الوصل مُجرى الوقف.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أي: أَلَم يَعلموا؟ وهو معلَّق عن العمل في قوله تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ لأنّ "كَم" لا يعمل فيها ما قبلها وإن كانت خبريّةً؛ لأنّ أصلها الاستفهام، خلا أنّ معناه نافذ في الجملة، كما نفَذَ في قولك: "أَلَم ترَ إنّ زيدًا لَمنطلق؟"، وإن لم يعمل في لفظه.

﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ بدل مِن ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ على المعنى، أي: أَلَم يروا كثرةَ إهلاكنا مَن قبلهم مِن المذكورين آنفًا ومِن غيرهم كونَهم غيرَ راجعين إليهم؟

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأُبيّ رضي الله عنهم ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج ومسلم بن جندب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

وقُرئ بالكسر[١] على الاستئناف. وقُرئ: "أَلَمْ يَرَوْا مَنْ أَهْلَكْنَا"،[٢] والبدل حينئذ بدلُ اشتمال.

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بيان لرجوع الكلّ إلى المَحشر بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا. و﴿إِن﴾ نافية، وتنوين ﴿كُلٌّ﴾ عوض مِن المضاف إليه، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى "إلّا"، و﴿جَمِيعٌ﴾ "فَعيل" بمعنى "مفعول"، و﴿لَّدَيْنَا﴾ ظرف له، أو لِما بعده. والمعنى: ما كلّهم إلّا مجموعون لَدينا مُحضرون للحساب والجزاء. وقيل: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ معذَّبون، فـ﴿كُلٌّ﴾ عبارة عن الكفرة.

وقُرئ: "لَمَا" بالتخفيف[٣] على أنّ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن الثقيلة، و"اللام" فارقة، و﴿مَا﴾ مزيدة للتأكيد. والمعنى: إنّ كلّهم مجموعون... إلخ.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣﴾

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ بالتخفيف، وقُرئ بالتشديد.[٤] قوله تعالى: ﴿ءَايَةٌ﴾ خبر مقدّم للاهتمام به، وتنكيرُها للتفخيم، و﴿لَّهُمُ﴾ إمّا متعلّقة بها لأنّها بمعنى العلامة، أو بمُضمَر هو صفة لها، و﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ صفتها.

وقوله تعالى: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ استئناف مبيِّن لكيفيّة كونها آية. وقيل: ﴿ءَايَةٌ﴾ مبتدأ، و﴿لَّهُمُ﴾ خبر، و﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ / مبتدأ موصوف، و﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ خبره، والجملة مفسِّرة [٣٩٤و] لآية. وقيل: ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مبتدأ، و﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ خبره، والجملة خبر لـ﴿ءَايَةٌ﴾. وقيل: الخبر لها هو ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، و﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ صفتها؛ لأنّ المراد بها الجنس، لا المعيّنة. والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ مَصبّ الفائدة هو كون الأرض آيةً لهم، لا كونُ الآية هي الأرض.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنسَ الحَبّ، ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ تقديم الصلة للدلالة على أنّ الحَبّ مُعظَم ما يؤكل ويعاش به.

---

١ أي: "إنّهم". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. جامع البيان للطبري، ١٩/٤٣٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/١٤.

٣ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي وخلف وابن وَردان عن أبي جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩١.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٤.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤﴾

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي: مِن أنواع النخل والعنب، ولذلك جُمِعا دون الحَبّ، فإنّ الدالّ على الجنس مُشعِر بالاختلاف، ولا كذلك الدالّ على الأنواع. وذِكر "النخيل" دون التمور ليطابق "الحَبّ" و"الأعناب"، لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثارِ الصنع.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ وقُرئ بالتخفيف،[١] و"الفَجْر" و"التَّفجير" كـ"الفتح" و"التفتيح" لفظًا ومعنًى. ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي: بعضًا مِن العيون. فحُذف الموصوف، وأقيمت الصفة مُقامه، أو العيونَ، و﴿مِن﴾ مزيدة على رأي الأخفش.[٢]

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ متعلّق بـ﴿جَعَلْنَا﴾،[٣] وتأخيره عن "تفجير العيون" لأنّه مِن مبادي الإثمار، أي: وجعلنا فيها جنّات مِن نخيل، ورتّبنا مبادي إثمارها، ليأكلوا مِن ثمر ما ذُكر مِن الجنّات والنخيل، بإجراء الضمير مُجرى اسم الإشارة. وقيل: الضمير لله تعالى بطريق الالتفات إلى الغيبة، والإضافةُ لأنّ الثمر بخلقه تعالى. وقُرئ بضمّتَين،[٤] وهي لغة فيه، أو جمع "ثِمار"، وبضمّة وسكون.[٥]

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿ثَمَرِهِۦ﴾، وهو ما يُتّخذ منه مِن العصير والدبس ونحوهما. وقيل: ﴿مَا﴾ نافية. والمعنى: أنّ الثمر بخلق الله تعالى لا بفعلهم. ومحلّ الجملة النصب على الحاليّة، ويؤكّد الأوّلَ قراءةُ: "عَمِلَتْ" بلا "هاء"،[٦] فإنّ حذف العائد مِن الصلة أحسن مِن الحذف مِن غيرها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٠.
٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٧/٤.
٣ في الآية السابقة.
٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٦٠/٢.
٥ أي: "ثُمْرِهِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٠.
٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم، وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك. النشر لابن الجزري، ٣٥٣/٢.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ إنكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أيَرَون هذه النِّعم؟ أو أيتنعّمون بها فلا يشكرونها؟

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

/ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ استئناف مَسوق لتنزيهه تعالى عمّا فعلوه [٣٩٤ظ] مِن ترك شُكره على آلائه المذكورة، واستعظامِ ما ذُكر في حيّز الصلة مِن بدائع آثار قدرته، وأسرارِ حكمته، وروائعِ نَعمائه المُوجِبة للشكر، وتخصيصِ العبادة به، والتعجيبِ مِن إخلالهم بذلك والحالةُ هذه.

و﴿سُبْحَانَ﴾ عَلَم للتسبيح الذي هو التبعيد عن السوء اعتقادًا وقولًا، أي: اعتقادُ البُعدِ عنه والحكمُ به، مِن "سَبَحَ في الأرض والماء" إذا أبعَدَ فيهما وأمعَنَ، ومنه "فرَسٌ سَبوح"، أي: واسع الجَري. وانتصابه على المصدريّة، ولا يكاد يُذكَر ناصبه، أي: أسبّح سبحانه، أي: أُنزِّهه عمّا لا يليق به عَقدًا وعملًا، تنزيهًا خاصًّا به، حقيقًا بشأنه.

وفيه مبالغة مِن جهة الاشتقاق مِن "السَبْحِ"، ومِن جهة النقل إلى "التفعيل"، ومِن جهة العدول عن المصدر الدالّ على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصّةً، لا سيّما العَلَمُ المشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن، ومِن جهة إقامته مُقام المصدر مع الفعل.

وقيل: هو مصدر كـ"غُفران"، أُريدَ به التنزّه التامّ، والتباعد الكلّي عن السوء، ففيه مبالغة مِن جهة إسناد التنزّه إلى الذات المقدّسة، فالمعنى: تنزَّهَ بذاته عن كلّ ما لا يليق به تنزّهًا خاصًّا به. فالجملة على هذا إخبارٌ مِن الله تعالى بتنزّهه وبراءته عن كلّ ما لا يليق به ممّا فعلوه وما تركوه، وعلى الأوّل حكمٌ منه عزّ وجلّ بذلك، وتلقينٌ للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونه، ولا يُخِلّوا به، ولا يَغفُلوا عنه.

والمراد بـ﴿الْأَزْوَاجَ﴾ الأصناف والأنواع. ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ بيان لها، والمراد به: كلّ ما يَنبت فيها مِن الأشياء المذكورة وغيرها. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: خَلَقَ الأزواج مِن أنفسهم، أي: الذكَرِ والأنثى.

[٣٩٥و] / ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: والأزواجَ ممّا لم يُطْلعهم الله تعالى على خصوصيّاته، لعدم قدرتهم على الإحاطة بها، ولِما لم يتعلّق بذلك شيء مِن مصالحهم الدينيّة والدنيويّة. وإنّما أَطْلَعهم على ذلك بطريق الإجمال على منهاج قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل، ٨/١٦]، لِما نِيط به وقوفهم على عِظَم قدرته تعالى، وسَعة مُلكه وسُلطانه.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ جملة مِن خبر مقدّم، ومبتدأ مؤخّر، كما مرّ. وقوله تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ جملة مبيّنة لكيفيّة كونه آيةً، أي: نُزيلُه ونكشف عن مكانه، مستعار مِن "السَّلْخ"؛ وهو إزالة ما بين الحيوان وجلدِه مِن الاتّصال. والأغلب في الاستعمال تعليقه بالجلد، يقال: "سَلَختُ الإهاب مِن الشاة"، وقد يُعكس، ومنه "الشاة المَسلوخة".

﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي: داخلون في الظلام مفاجأةً. وفيه رمز إلى أنّ الأصل هو الظلام، والنور عارض.

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ لحدٍّ معيَّن ينتهي إليه دورها، فشُبّه بمستقَرّ المسافر إذا قطع مسيره، أو لِكَبِدِ السماء، فإنّ حركتها فيه توجد أبطأ بحيث يُظَنّ أنّ لها هناك وقفةً، قال:

والشمسُ حَيرى لها في الجوّ تَدويمُ[1]

أو لا استقرارَ لها على نهجٍ مخصوص، أو لمُنتهًى مقدَّر لكلّ يوم مِن المَشارق والمَغارب، فإنّ لها في دورها ثلاثمائة وستّين مَشرقًا ومَغربًا،

---

[1] صدره:

مُعرَوريًا رَمَضَ الرَّضراضِ يركُضُه

وهو لذي الرمّة. وقوله: "معروريًا": أي: ليس دونه شيءٌ يستره. و"رمض الرضراض" أي: ركبه وعلاه، و"الرضراض": الحصى الصغار. و"الشمس حيرى"، أي: متحيّرة، كأنها لا تبرح مِن طول النهار وشدة الحرّ. وقوله: "تدويمُ"، أي: تدويرُ. يقول: كأنّها لا تمضي وهي تدور على رأسه ولا تبرح. ديوان ذي الرمّة بشرح الباهلي، ٤١٨/١.

تطلع كلّ يومٍ مِن مَطلَع، وتَغرب مِن مَغرب، ثمّ لا تعود إليهما إلى العام القابل، أو لِمُنقَطَع جَريها عند خراب العالَم.

وقُرئ: "إِلَى مُسْتَقَرٍّ لَهَا".[١] وقُرئ: "لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا"،[٢] أي: لا سكونَ لها، فإنّها متحرّكة دائمًا. وقُرئ: "لَا مُسْتَقَرٌّ لَهَا"،[٣] على أنّ "لا" بمعنى "ليس".

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جَريها. وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العَهد بالمشار إليه للإيذان بعلوّ رتبته، وبُعد منزلته، أي: ذلك الجري البديع المُنطوي / على الحِكَم الرائعة التي تَحار في فهمها العقول والأفهام ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالبِ بقدرته على كلّ مقدور، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ المحيطِ علمُه بكلّ معلوم. [٣٩٥ظ]

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ بالنصب بإضمار فعل يفسِّره الظاهر. وقُرئ بالرفع[٤] على الابتداء، أي: قدّرنا له ﴿مَنَازِلَ﴾. وقيل: قدّرنا مَسيره منازل. وقيل: قدّرناه ذا منازلَ.

وهي ثمانية وعشرون: الشَّرَطان، البُطَين، الثُّريّا، الدَّبَران، الهَقْعة، الهَنْعة، الذراع، النَّثْرة، الطَّرْف، الجَبْهة، الزُّبْرة، الصَّرْفة، العَوّاء، السِّماك، الغَفْر، الزُّباني، الإكليل، القَلب، الشَّولة،[٥] النَّعائم، البَلدة، سَعْد الذابح، سَعْد بُلَع، سَعْد السعود، سَعْد الأَخْبية، فَرْغ الدَّلو المقدَّم، فَرْغ الدَّلْو المؤخَّر، الرِّشاء، وهو بطن الحوت.[٦]

ينزل كلّ ليلة في واحد منها، لا يتخطّاها، ولا يتقاصر عنها، فإذا كان في آخر منازله وهو الذي يكون قُبيل الاجتماع دقّ واستقوَس، ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ﴾ كالشِّمراخ[٧] المِعوجّ، "فُعْلُون" مِن "الانعراج"، وهو الاعوِجاج.

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٤/١٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم ومحمّد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٠٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/٦٧.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ورَوح. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٥٣.

٥ ط س: الشوكة.

٦ انظر: **الأزمنة والأمكنة** للمرزوقي، ص ١٣٨.

٧ الشِّمراخُ، بالكسر: العِثكال عليه بُسْر أو عِنَب. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «شمرخ».

وقُرِئ: "كَالْعِرْجَوْنِ"،[١] وهما لغتان، كـ"البُزْيُونِ" و"البِزْيَوْنِ".[٢] ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ العتيق. وقيل: هو ما مرّ عليه حول فصاعدًا.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَا﴾ أي: يصحّ ويتسهّل لها ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ في سرعة السير، فإنّ ذلك يُخلّ بتكوّن النبات وتعيُّش الحيوان، أو في الآثار والمنافع، أو في المكان بأن تَنزل في منزله، أو في سلطانه فتطمِسَ نوره. وإيلاء حرفِ النفي الشمسَ للدلالة على أنّها مُسخّرة، لا يَتسنّى لها إلّا ما قُدِّر لها.

﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: يسبقه فيفوته، ولكن يعاقبه. وقيل: المراد بهما آيتاهما النيّران، وبالسبق سبقُ القمر إلى سلطان الشمس، فيكون عكسًا للأوّل. وإيراد السبق مكانَ الإدراك لأنّه الملائِم لسرعة سيره.

[٣٩٦و] ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: وكلُّهم، على أنّ التنوين عوض مِن المضاف إليه الذي / هو الضمير العائد إلى ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ و﴿ٱلْقَمَرَ﴾، والجمعُ باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مَطالعهما، فإنّ اختلاف الأحوال يوجب تعدّدًا ما في الذات، أو إلى الكواكب، فإنّ ذكرهما مُشعِر بها. ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون بانبساطٍ وسُهولة.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝٤١﴾

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أولادَهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم، أو صبيانَهم ونساءَهم الذين يستصحبونهم، فإنّ الذرّيّة تطلق عليهنّ، لا سيّما مع الاختلاط، وتخصيصُهم بالذِّكر لِما أنّ استقرارهم في السفن أشقّ، واستمساكَهم فيها أبدَع.

﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المَملوءِ. وقيل: هو فُلْك نوح عليه السلام، و"حملُ ذرّيّاتهم" فيها حَملُ آبائهم الأقدمين وفي أصلابهم هؤلاء وذرّيّاتُهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان التيمي وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٠.

[٢] وفي هامش م: هو السندس. «منه».

وتخصيص أعقابهم بالذِّكر دونهم لأنّه أبلغ في الامتنان، وأدخلُ في التعجيب الذي عليه يدور كونه آيةً.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ ممّا يماثل الفُلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ مِن الإبل، فإنّها سفائن البَرّ، أو ممّا يماثل ذلك الفُلك مِن السُّفُن والزوارق. وجَعلُها مخلوقةً لله تعالى مع كونها مِن مصنوعات العباد ليس لِمجرّد كون صُنعهم بأقدار الله تعالى وإلهامِه؛ بل لمزيد اختصاص أصلها بقدرته تعالى وحِكمته، حسبما يُعرِب عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود، ٣٧/١١].

والتعبير عن ملابستهم بهذه السفن بالركوب لأنّها باختيارهم، كما أنّ التعبير عن ملابسة ذرّيّتهم بفُلْك نوح عليه السلام بالحَمل لكونها بغير شعورٍ منهم واختيار.[1]

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾... إلخ مِن تمام الآية، فإنّهم معترفون بمضمونه، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان، ٣٢/٣١]. وقُرئ: "نُغَرِّقْهُمْ" بالتشديد.[2] وفي تعليق الإغراق بمحض المشيئة إشعار بأنّه قد تكامل ما يوجب إهلاكَهم مِن معاصيهم، ولم يبقَ إلّا تعلّقُ مشيئته تعالى به، أي: إن نشأ نُغرِقْهم في اليمّ مع ما حملناهم فيه مِن الفُلْك، فحديثُ خلق الإبل حينئذ كلام جيء به في خلال الآية بطريق الاستطراد لكمال التماثل بين الإبل والفُلْك، فكأنّها نوع منه، أو مع ما يركبون مِن السفُن والزوارِق.

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: فلا مغيثَ لهم يحرُسهم مِن الغرَق، ويدفعه عنهم قبل وقوعه. وقيل: فلا استغاثةَ لهم، مِن قولهم: "أتاهم الصَّريخ".

﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي: يُنجَّون منه بعد وقوعه.

---

[1] وفي هامش م: وأمّا على تقدير كون المراد بـ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ الجنس، وبـ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ الإبلَ؛ فوجه التعبير عن مُلابستهم بالأوّل بالحمل، وعن ملابستهم بالثاني بالركوب كما مرّ، فإنّ الركوب عبارة عن الاستعلاء على شيء متحرّك، ولا ريب في أنّ حركة الإبل إراديّة، وحركة الفلك قسريّة. «منه».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٤٤﴾

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ العلل الشاملة للباعث المتقدّم والغايةِ المتأخّرة، أي: لا يُغاثون ولا يُنقَذون لشيء مِن الأشياء إلّا لِرحمة عظيمة مِن قِبَلنا داعيةٍ إلى الإغاثة والإنقاذ، وتمتيعٍ بالحياة مترتّب عليهما. ويجوز أن يراد بالرحمة ما يقارِن التمتيع مِن الرحمة الدنيويّة، فيكون كلاهما غاية للإغاثة والإنقاذ، أي: لنوعٍ مِن الرحمة وتمتيعٍ ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى زمانٍ قُدِّر فيه آجالهم، كما قيل:

ولـم أسـلَـم لـكـي أبـقـى ولـكـن سـلِمتُ من الـحِمام إلى الـحِمامِ[١]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٥ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤٦﴾

[٣٩٦ظ] / ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ﴾ بيان لإعراضهم عن الآيات التنزيليّة بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقيّة التي كانوا يشاهدونها، وعدمِ تأمّلهم فيها، أي: إذا قيل لهم بطريق الإنذار بما نَزَل مِن الآيات أو بغيره: اتّقوا ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾ مِن الآفات والنوازل، فإنّها محيطة بكم، أو ما يصيبكم مِن المكاره مِن حيث تحتسبون، ومن حيث لا تحتسبون، أو مِن الوقائع النازلة على الأمم الخالية قبلكم، والعذابِ المُعَدِّ لكم في الآخرة، أو مِن نوازل السماء ونوائب الأرض، أو مِن عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، أو ما تقدّم مِن الذنوب وما تأخّر.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ إمّا حال مِن "واو" ﴿ٱتَّقُواْ﴾، أو غاية له، أي: راجين أن تُرحموا، أو كي تُرحموا فتَنجوا مِن ذلك، لِما عرفتم أنّ مناط النجاة ليس إلّا رحمةَ الله تعالى.

وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف ثقةً بانفهامه مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ انفهامًا بيّنًا. أمّا إذا كان الإنذار بالآية الكريمة فبعبارة النصّ، وأمّا إذا كان بغيرها فبدلالته؛ لأنّهم حين أعرضوا عن آيات ربّهم

---

[١] لأبي الطيّب المتنبي في ديوانه، ص ٣٩٥.

فلأن يُعرِضوا عن غيرها بطريق الأولويّة، كأنّه قيل: وإذا قيل لهم: اتّقوا العذاب أعرَضوا حسبما اعتادوه. و﴿ما﴾ نافية، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجدّدي و﴿مِنْ﴾ الأولى مزيدة لتأكيد العموم، والثانية تبعيضيّة واقعة مع مجرورها صفةً لـ﴿ءَايَةٍ﴾.

وإضافة الآيات إلى اسم الربّ المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه في حقّها. والمراد بها إمّا الآيات التنزيليّة، فإتيانها نزولُها، والمعنى: ما يُنزّل إليهم آية مِن الآيات القرآنيّة التي مِن جملتها هذه الآيات الناطقة بما فُصّل مِن بدائع صنع الله تعالى وسَوابغ آلائه الموجِبةِ للإقبال عليها / والإيمانِ بها إلّا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء. [٣٩٧و]

وإمّا ما يعمّها وغيرَها مِن الآيات التكوينيّة الشاملة للمعجزات وغيرِها مِن تعاجيب المصنوعات التي مِن جملتها الآيات الثلاث[١] المعدودةُ آنفًا، فالمراد بإتيانها ما يعمّ نزول الوحي، وظهورَ تلك الأمور لهم، والمعنى: ما يظهر لهم آيةٌ مِن الآيات التي مِن جملتها ما ذُكر مِن شئونه الشاهدة بوحدانيّته تعالى وتفرّده بالألوهيّة إلّا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدّي إلى الإيمان به تعالى.

وإيثاره على أن يقال: "إلّا أعرضوا عنها" كما وقع مثله في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر، ٢/٥٤]، للدلالة على استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان الآيات.

و﴿عَنْ﴾ متعلّقة بـ﴿مُعْرِضِينَ﴾، قُدّمت عليه مراعاةً للفواصل. والجملة في حيّز النصب على أنّها حال مِن مفعول ﴿تَأْتِي﴾، أو مِن فاعله المتخصّص بالوصف، لاشتمالها على ضمير كلّ منهما.

والاستثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: ما تأتيهم مِن آية مِن آيات ربّهم في حال مِن أحوالهم إلّا حالَ إعراضهم عنها، أو ما تأتيهم آية منها في حال مِن أحوالها إلّا حالَ إعراضهم عنها.

---

[١] وفي هامش م: وهنّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾... إلخ [يس، ٣٣/٣٦]، ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾... إلخ [يس، ٣٧/٣٦]، ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا﴾... إلخ [يس، ٤١/٣٦]. «منه».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أعطاكم بطريق التفضّل والإنعام مِن أنواع الأموال، عُبِّر عنها بذلك تحقيقًا للحقّ وترغيبًا في الإنفاق، على منهاج قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص، ٧٧/٢٨]، وتنبيهًا على عِظَم جنايتهم في ترك الامتثال بالأمر. وكذلك "مِن" التبعيضيّة، أي: إذا قيل لهم بطريق النصيحة أنفقوا بعضَ ما أعطاكم الله تعالى مِن فضله على المحتاجين، فإنّ ذلك ممّا يردّ البلاء ويدفع المكاره، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالصانع عزّ وجلّ
[٣٩٧ظ] وهم زنادقة كانوا بمكّة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ / تهكّمًا بهم وبما كانوا عليه مِن تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى: ﴿أَنُطْعِمُ﴾ حسبما تَعِظوننا به ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أي: على زعمكم.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كان بمكّة زنادقة إذا أُمِروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا واللهِ، أَيُفْقِره اللهُ ونُطعِمه نحن».[١]

وقيل: قاله مشركوا قريش حين استطعمهم فقراءُ المؤمنين مِن أموالهم التي زعموا أنّهم جعلوها لله تعالى مِن الحَرث والأنعام، يوهمون أنّه تعالى لمّا لم يَشأْ إطعامهم وهو قادر عليه، فنحن أحقّ بذلك، وما هو إلّا لفَرْط جهالتهم، فإنّ الله تعالى يُطعِم عباده بأسباب مِن جملتها حثّ الأغنياء على إطعام الفقراء، وتوفيقُهم لذلك.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث تأمروننا بما يُخالف مشيئة الله تعالى. وقد جُوِّز أن يكون جوابًا لهم مِن جهته تعالى، أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: فيما تَعِدُوننا به مِن قيام الساعة مخاطبين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين، لِما أنّهم أيضًا كانوا يَتلون عليهم آيات الوعيد بقيامها. ومعنى القُرب في ﴿هَٰذَا﴾ إمّا بطريق الاستهزاء، وإمّا باعتبار قُرب العهد بالوعد.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١٩/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٢/٩.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ جواب مِن جهته تعالى، أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخة الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ مفاجأةً ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم، لا يَخطُر ببالهم شيء مِن مَخائلها، كقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم[1] بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف، ٧/٩٥]، فلا يغترّوا بعدم ظهور علائمها، ولا يزعموا أنّها لا تأتيهم.

وأصل ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ "يَخْتَصِمون"، فسُكّنت "التاء"، وأُدغمت في "الصاد"، ثمّ كُسرت "الخاء" لالتقاء الساكنين. وقُرئ بكسر "الياء" للإتْباع،[2] وبفتح "الخاء"[3] على إلقاء حركة "التاء" عليه. وقُرئ / على الاختلاس،[4] وبالإسكان[5] على تجويز [٣٩٨و]
الجمع بين الساكنين إذا كان الثاني مدغمًا، وإن لم يكن الأوّل حرفَ مدّ. وقُرئ: "يَخْصِمُونَ"[6] مِن "خَصَمه" إذا جادله.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيء مِن أمورهم إن كانوا فيما بين أهليهم، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ إذا كانوا في خارج أبوابهم؛ بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية، بينها وبين الأولى أربعون سنةً، أي: يُنفخ فيه، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقّق وقوعها، ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور، جمع "جَدَث". وقُرئ بـ"الفاء".[7]

---

[1] م ط س: فأخذَتهم الساعة. | وفي سورة يوسف: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف، ١٢/١٠٧].

[2] قرأ بها شعبة عن عاصم بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٤.

[3] قرأ بها ابن كثير ونافع بخُلف عن قالون، وأبو عمرو وهشام بخُلف عنهما. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٤.

[4] قرأ بها أبو عمرو وقالون، وهو الوجه الثاني عنهما. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٤.

[5] قرأ بها أبو جعفر، وهو الوجه الثالث عن قالون. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٤.

[6] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٤.

[7] أي: "الأَجْدَافِ". قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٧٣.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مالكِ أمرهم على الإطلاق ﴿يَنسِلُونَ﴾ يُسرعون بطريق الإجبار دون الاختيار، لقوله تعالى: ﴿لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.[١] وقُرئ بضمّ "السين".[٢]

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ أي: في ابتداء بَعثهم مِن القبور: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ احضر فهذا أوانك. وقُرئ: "يَا وَيْلَتَنَا".[٣] ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ وقُرئ: "مَنْ أَهَبَّنَا"[٤] مِن "هَبَّ مِن نومه" إذا انتبه. وقُرئ: "مَنْ هَبَّنَا"[٥] بمعنى "أَهَبَّنَا". وقيل: أصله "هَبَّ بنا"، فحُذف الجارّ، وأُوصِل الفعل إلى الضمير. قيل: فيه ترشيح ورمز وإشعار بأنّهم لاختلاط عقولهم يظنّون أنّهم كانوا نِيَامًا.

وعن مجاهد: «أنّ للكفّار هجعةً يجدون فيها طعم النوم، فإذا صيح بأهل القبور يقولون ذلك».[٦]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما وأبيّ بن كعب وقتادة رحمهم الله: «أنّ الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختَين فيَرقدون، فإذا بُعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا مِن أهوال القيامة ما شاهدوا دعَوا بالويل، وقالوا ذلك».[٧]

وقيل: إذا عاينوا جهنّم وما فيها مِن ألوان العذاب يصير عذاب القبر في جنبها مثلَ النوم، فيقولون ذلك.

[٣٩٨ظ] وقُرئ: "مِنْ بَعْثِنَا"[٨] و"مِنْ هَبِّنَا"[٩] / بـ"مِن" الجَارّة والمصدر.

---

[١] يس، ٥٣/٣٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي ليلى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢١٤/٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢١٤/٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

[٦] الكشّاف للزمخشري، ٤٣٩/٣؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ٦٣/٧.

[٧] الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٠/٨؛ اللباب لابن عادل، ٢٤١/١٦.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

[٩] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

و"المَرقَد" إمّا مصدر، أي: مِن رُقادنا، أو اسم مكان أريدَ به الجنس، فينتظِم مراقدَ الكلّ.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، و﴿مَا﴾ موصولة محذوفةُ العائد، أو مصدريّة. وهو جواب مِن قِبَل الملائكة أو المؤمنين، عُدِلَ به عن سَنن سؤالهم تذكيرًا لكفرهم، وتقريعًا لهم عليه، وتنبيهًا على أنّ الذي يهمّهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو، دون الباعث، كأنّهم قالوا: بعثكم الرحمن الذي وَعدكم ذلك في كتبه، وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم فيه، وليس الأمر كما تتوهّمونه حتّى تَسألوا عن الباعث.

وقيل: هو مِن كلام الكافرين حيث يتذكّرون ما سمعوه مِن الرسل عليهم السلام، فيجيبون به أنفسَهم، أو بعضُهم بعضًا.

وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ صفة لـ﴿مَرْقَدِنَا﴾، و﴿مَا وَعَدَ﴾... إلخ خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأٌ خبره محذوف، أي: ما وعدَ الرحمن وصدقَ المرسلون حقٌّ.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿إِن كَانَتْ﴾ أي: ما كانت النفخة التي حُكيت آنفًا ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ حصلَت مِن نفخ إسرافيل عليه السلام في الصُّور، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي: مجموعٌ ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ مِن غير لَبثٍ ما طرفةَ عين. وفيه مِن تهوين أمر البعث والحشر والإيذانِ باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفى.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مِن النفوس بَرّةً كانت أو فاجرةً ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن الظلم، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلّا جزاءَ ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار مِن الكفر والمعاصي، على حذف المضاف، وإقامةِ المضاف إليه مُقامه، للتنبيه على قوّة التلازم والارتباط بينهما، كأنّهما شيء واحد، أو إلّا بما كنتم تعملونه، أي: بمقابلته، أو بسببه. وتعميم الخطاب للمؤمنين يردّه أنّه تعالى يوفّيهم أجورهم، ويزيدهم مِن فضله أضعافًا مضاعفةً. وهذه حكاية لِما سيُقال لهم حينَ يرون العذاب المُعَدّ لهم تحقيقًا للحقّ وتقريعًا لهم.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ مِن جملة ما سيُقال لهم يومئذ زيادةً لحسرتهم وندامتهم، فإنّ الإخبار بحسن حال أعدائهم إثرَ بيان سوء حالهم ممّا يزيدهم مَساءةً على مَساءة. وفي هذه الحكاية مَزجرة لهؤلاء الكفرة عمّا هم عليه، ومَدْعاة إلى الاقتداء بسيرة المؤمنين.

[٣٩٩و] / و"الشُغُل" هو الشأن الذي يصدّ المرء ويَشغله عمّا سواه مِن شئونه، لكونه أهمّ عنده مِن الكلّ، إمّا لإيجابه كمالَ المَسرّة والبهجة، أو كمالَ المَساءة والغمّ. والمراد ههنا هو الأوّل. وما فيه مِن التنكير والإبهام للإيذان بارتفاعه عن رتبة البيان. والمراد به ما هم فيه مِن فنون الملاذّ التي تُلهيهم عمّا عداها بالكلّيّة.

وأمّا أنّ المراد به افتضاضُ الأبكار،[١] أو السماعُ وضرب الأوتار،[٢] أو التزاوُرُ،[٣] أو ضيافةُ الله تعالى،[٤] أو شُغلُهم عمّا فيه أهل النار على الإطلاق،[٥] أو شُغلُهم عن أهاليهم في النار لا يهمّهم أمرهم، ولا يبالون بهم، كيلا يَدخل عليهم تنغيص في نعيمهم،[٦] كما رُوي كلُّ واحد منها مِن واحدٍ مِن أكابر السلف؛ فليس مرادهم[٧] بذلك حَصر شُغلهم فيما ذكروه فقط؛ بل بيان أنّه مِن جملة أشغالهم. وتخصيصُ كلّ منهم كلًّا مِن تلك الأمور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان إيّاه.[٨]

وهو مع جارّه خبر لِـ﴿إِنَّ﴾، و﴿فَٰكِهُونَ﴾ خبر آخَر لها، أي: إنّهم مستقِرّون في شُغل وأيِّ شُغل، في شُغل عظيم الشأن، متنعِّمون بنعيم مقيم، فائزون بمُلك كبير. والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسميّة قبل تحقّقها بتنزيل المترقَّب

---

١ مرويّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. **جامع البيان** للطبري، ١٩/٤٦٠؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/١٣١.

٢ مرويّ عن وكيع بن الجراح. **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/١٣١؛ **اللباب** لابن عادل، ١٦/٢٤٤.

٣ مرويّ عن ابن كَيسان. **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/١٣١؛ **اللباب** لابن عادل، ١٦/٢٤٤.

٤ انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/١٣١؛ **واللباب** لابن عادل، ١٦/٢٤٥.

٥ مرويّ عن الحسن. **جامع البيان** للطبري، ١٩/٤٦١؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣/٥١٦.

٦ مرويّ عن الكلبي. **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٢١؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/٧٥.

٧ السياق: وأمّا أنّ المراد... فليس مرادهم...

٨ س - إيّاه.

المتوقَّع منزلةَ الواقع للإيذان بغاية سرعة تحقّقها ووقوعها، ولزيادة مَساءة المخاطَبين بذلك.[١]

وقُرئ: "فِي شُغْلٍ" بسكون "الغين"،[٢] و"فِي شَغَلٍ" بفتحتين،[٣] وبفتحة وسكون،[٤] والكلّ لغات. وقُرئ: "فَكِهُونَ"[٥] للمبالغة، و"فَكُهُونَ" بضمّ "الكاف"،[٦] وهي لغة، كـ"نَطُسٍ"،[٧] و"فَاكِهِينَ"،[٨] و"فَكِهِينَ"[٩] على الحال مِن المستكِنّ في الظرف.

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾

وقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ استئناف مَسوق لبيان كيفيّة شُغلهم وتفكّههم وتكميلِهما / بما يزيدهم بهجةً وسرورًا مِن شركة أزواجهم لهم فيما هم فيه مِن الشغل والفَكاهة، على أنّ ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، و﴿أَزْوَٰجُهُمْ﴾ عطفٌ عليه، و﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ خبر، والجارّان صِلتان له قُدِّمتا عليه لمراعاة الفواصل، أو هو والجارّان بما تعلّقا به مِن الاستقرار أخبار مترتّبة. [٣٩٩ظ]

وقيل: الخبر هو الظرف الأوّل، والثاني مستأنَف على أنّه متعلّق بـ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، وهو خبر لمبتدأ محذوف. وقيل: على أنّه خبر مقدَّم، و﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ مبتدأ مؤخَّر.

وقُرئ: "مُتَّكِينَ"[١٠] بلا همز نصبًا على الحال مِن المستكِنّ في الظرفين أو أحدِهما.

وقيل: ﴿هُمْ﴾ تأكيد للمستكنّ في خبرِ ﴿إِنَّ﴾،[١١] و﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ خبر آخَر لها، و﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلّق به، وكذا ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾، أو هذا بمُضمَر هو حال مِن المعطوفِين.

---

١ وفي هامش م: أي: بالتعبير المذكور. «منه».

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

٤ أي: "فِي شَغْلٍ". قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي هريرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

٥ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٤.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٧٥.

٧ النَّطُسُ: المبالغة في التطهُّر. يقال منه: رجلٌ نَطُسٌ ونَطِسٌ. وقد نَطِسَ -بالكسر- نَطَسًا. الصحاح للجوهري، «نطس».

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

٩ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٧٥.

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٢.

١١ في الآية السابقة.

و"الظِّلال" جمع "ظِلّ"، كـ"شِعاب" جمع "شِعْب"، أو جمعُ "ظُلّة"، كـ"قِباب" جمع "قُبّة"، ويؤيّده قراءة "في ظُلَلٍ".[1] و"الأرائِك" جمع "أَرِيكة"، وهي السرير المزيَّن بالثياب والستور. قال ثعلب: «لا يكون أَرِيكة حتّى يكون عليها حَجَلة».[2]

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾... إلخ بيان لِما يتمتّعون به في الجنّة مِن المآكل والمَشارب ويتلذّذون به مِن الملاذّ الجسمانيّة والروحانيّة بعد بيان ما لهم فيها مِن مجالس الأُنس، ومحافل القُدس، تكميلًا لبيانِ كيفيّة ما هم فيه مِن الشُغل والبهجة، أي: لهم فيها فاكهة كثيرة مِن كلّ نوع مِن أنواع الفواكه.

و﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ موصولة، أو موصوفة، عُبّر بها عن مدعوٍّ عظيم الشأن معيّنٍ أو مبهمٍ، إيذانًا بأنّه الحقيق بالدعاء دون ما عداه، ثمّ صُرّح به رَومًا لزيادة التقرير بالتحقيق بعد التشويق كما ستعرفه، أو هي باقية على عمومها، قُصد بها التعميم بعد تخصيصٍ بعض الموادّ المعتادة بالذكر. وأيًّا ما كان فهو مبتدأ، و﴿لَهُم﴾ خبره، والجملة معطوفة على الجملة السابقة. وعدم الاكتفاء بعطف ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ لئلّا يُتوهّم كونُ ﴿مَا﴾ عبارةً عن توابع الفاكهة وتتمّاتها. والمعنى: ولهم ما يدّعون به لأنفسهم مِن مدعوّ عظيم الشأن، أو كلّ ما يدّعون به كائنًا ما كان مِن أسباب البهجة وموجِبات السرور. وأيًّا ما كان ففيه دلالة على أنّهم في أقصى غاية البهجة والغِبطة.

و﴿يَدَّعُونَ﴾ "يفتعلون" مِن "الدعاء" كما أشيرَ إليه، مثل: "اشتَوى" و"اجتَمل" إذا شوى وجَمَل[3] لنفسه. وقيل: بمعنى "يتداعَون"، كـ"الارتِماء" بمعنى "الترامي". / وقيل: بمعنى يتمنَّون، مِن قولهم: "ادَّعِ عليَّ ما شئتَ"[4] بمعنى "تَمَنَّهُ عليّ". وقال الزجّاج: «هو مِن "الدعاء"»،[5] أي: ما يدعو به أهل الجنّة يأتيهم، فيكون "الافتِعال" [٤٠٠و]

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٥.

[2] معالم التنزيل للبغوي، ٧/٢٢؛ اللباب لابن عادل، ١٦/٢٤٦.

[3] وفي هامش م: أذاب الشحم. «منه».

[4] س - بمعنى: يتمنَّون، مِن قولهم: "ادَّعِ عليَّ ما شئتَ".

[5] معاني القرآن للزجّاج، ٤/٢٩٢.

بمعنى "الفعل"، كـ"الاحتمال" بمعنى "الحمل"، و"الارتحال" بمعنى "الرحلة"، ويعضُده القراءة بالتخفيف كما ذكره الكواشي.[١]

وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ﴾ على التقدير الأوّل[٢] بدل مِن ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾،[٣] أو خبر لمبتدأ محذوف. و﴿قَوْلًا﴾ مصدر مؤكِّد لفعلٍ هو صفة لـ﴿سَلَٰمٌ﴾، وما بعده مِن الجارّ متعلّق بمُضمَر هو صفة له، كأنّه قيل: ولهم سلام،[٤] أو ما يدّعون سلام.[٥]

يُقال لهم قولًا كائنًا ﴿مِن﴾ جهة ﴿رَبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي: يُسَلِّمُ عليهم مِن جهته تعالى بواسطة الملَك، أو بدونها مبالغةً في تعظيمهم. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[٦] عنهما: «والملائكة يدخلون عليهم بالتحيّة مِن ربّ العالمين».[٧]

وأمّا على التقدير الثاني[٨] فقد قيل: إنّه خبر لـ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾،[٩] و﴿لَهُم﴾ لبيان الجهة، كما يقال: "لزيدٍ الشرفُ متوفّر"، على أنّ "الشرَف" مبتدأ، و"متوفّر" خبره، والجارّ والمجرور لبيان مَن له ذلك. أي: ما يدّعون سالم لهم خالص، لا شوبَ فيه.

و﴿قَوْلًا﴾ حينئذ مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة، أي: عِدَةً مِن ربّ رحيم. والأوجَه أن ينتصب على الاختصاص. وقيل: هو مبتدأ محذوف الخبر، أي: لهم سلام -أي: تسليم- قولًا مِن ربّ رحيم، أو سلامةٌ مِن الآفات، فيكون ﴿قَوْلًا﴾ مصدرًا مؤكِّدًا لمضمون الجملة كما سبق. وقيل: تقديره: سلام عليهم، فيكون حكايةً لِما سيُقال لهم مِن جهته تعالى يومئذ. وقيل: خبره الفعلُ المقدَّر ناصبًا لـ﴿قَوْلًا﴾. وقيل: خبره ﴿مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

---

١ قراءة شاذّة، ذكرَها الكواشي مِن غير نسبة. تفسير الكواشي، ٤٤٠ظ.

٢ وفي هامش م: أي: على تقدير كون ﴿مَا﴾ عبارة عن مدعوّ عظيم الشأن. «منه».

٣ في الآية السابقة.

٤ وفي هامش م: على تقدير كون ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدلًا. «منه».

٥ وفي هامش م: على تقدير كونه خبر مبتدأ محذوف. «منه».

٦ س - تعالى.

٧ الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٦/٩.

٨ وفي هامش م: على تقدير كون ﴿مَا﴾ باقية على عمومها. «منه».

٩ في الآية السابقة.

[٤٠٠ظ] / وقُرئ: "سَلَامًا"[١] بالنصب على الحاليّة، أي: لهم مُرادهم سالمًا خالصًا. وقُرئ: "سِلْمٌ"،[٢] وهو بمعنى السلام في المعنيَين.

﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ عطفٌ إمّا على الجملة السابقة المَسوقة لبيان أحوال الجنّة، لكن لا على أنّ المقصود عطفُ فعل الأمر بخصوصه حتّى يُتَمحَّل له مُشاكِل يصحّ عطفه عليه؛ بل على أنّه عطفُ قصّة سوء حال هؤلاء وكيفيّةِ عقابهم على قصّة حُسن حال أولئك ووصفِ ثوابهم، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيةَ [البقرة، ٢/٢٥]، وكأنّ تغيير السَّبْك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحالَيهما.

وإمّا على مُضمَر[٣] ينساق إليه حكاية حال أهل الجنّة، كأنّه قيل إثرَ بيان كونهم في شُغُلٍ عظيم الشأن، وفوزِهم بنعيم مقيم يَقصر عنه البيان: فَلْيَقِرّوا بذلك عينًا، وامتازوا عنهم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ إلى مصيركم. وعن قتادة: «اعتزلوا عن كلّ خير».[٤] وعن الضحّاك: «لكلّ كافر بيت مِن النار يكون فيه، لا يَرى ولا يُرى».[٥]

وأمّا ما قيل[٦] مِن أنّ المُضمَر "فلْيَمتازوا" فبمَعزِل مِن السَّداد، لِما أنّ المحكيّ عنهم ليس مصيرَهم إلى ما ذُكر مِن الحال المرضيّة حتّى يتسنّى ترتيبُ الأمر المذكور عليه؛ بل إنّما هو استقرارهم عليها بالفعل، وكونُ ذلك بطريق تنزيل المترقَّب منزلةَ الواقع لا يُجدي نفعًا؛ لأنّ مناط الإضمار انسياق الأفهام إليه، وانصبابُ نظم الكلام عليه، فبعد ما نُزّلت تلك الحال منزلةَ الواقع بالفعل لِما اقتضاه المقام مِن النكتة البارعة، والحكمة الرائعة، حسبما مرّ بيانه،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه والثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن كعب القرظي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

[٣] السياق: عطفٌ إمّا على الجملة السابقة... وإمّا على مُضمرٍ...

[٤] جامع البيان للطبري، ١٩/٤٦٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٣٣.

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٣٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٣.

[٦] انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٢/٣٤٦.

وأُسقِط كونُها مترقِّبةً عن درجة الاعتبار بالكلّيّة؛ يكون التصدّي لإضمار شيء يتعلّق به إخراجًا للنظم الكريم عن الجَزالة بالمَرّة.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ مِن جملة ما يقال لهم بطريق التقريع والإلزام والتبكيت بين الأمر بالامتياز وبين الأمرِ بدخول / جهنّم [٤٠١و] بقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾... إلخ.[1]

و"العهد" الوصيّة، والتقدّم بأمرٍ فيه خير ومنفعة. والمراد ههنا ما كلّفهم الله تعالى على ألسنة الرسل عليهم السلام مِن الأوامر والنواهي التي مِن جملتها قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآيةَ [الأعراف، ٢٧/٧]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة، ١٦٨/٢]، وغيرُهما مِن الآيات الكريمة الواردة في هذا المعنى.

وقيل: هو الميثاق المأخوذ عليهم حين أُخرِجوا مِن ظهور بني آدم، وأُشهِدوا على أنفسهم.

وقيل: هو ما نُصِب لهم مِن الحجج العقليّة والسمعيّة الآمِرة بعبادته تعالى، الزاجرة عن عبادة غيره.

والمراد بـ"عبادة الشيطان" طاعته فيما يوسوس به إليهم، ويزيّنه لهم، عُبّر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها، ولوقوعها في مقابَلة عبادته عزّ وجلّ.

وقُرِئ: "إِعْهَدْ" بكسر "الهمزة"،[2] و"أَعْهِدْ" بكسر "الهاء"،[3] و"أَحْهَدْ" بـ"الحاء" مكان "العين"،[4] و"أَحَّدْ" بالإدغام،[5] وهي لغة بني تميم.

---

١ يس، ٦٤/٣٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة وابن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن وثّاب. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧٧/٩؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٠٢.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٢٣/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن وثّاب. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧٧/٩.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ أي: ظاهر العداوة. وهو تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهيّ عنه. وقيل: تعليل للنهي.

﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾

﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾ عطفٌ على ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ﴾،[١] على أنّ ﴿أَنِ﴾ فيهما مفسِّرة للعهد الذي فيه معنى القول بالنهي والأمر، أو مصدريّة حُذف عنها الجارّ، أي: ألَم أَعْهد إليكم في ترك عبادة الشيطان وفي عبادتي؟

وتقديم النهي على الأمر لِما أنّ حقّ التخلية التقدّمُ على التحلية، كما في كلمة التوحيد، ولِيتّصل به قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ فإنّه إشارة إلى عبادته تعالى التي هي عبارة عن التوحيد والإسلام، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ [الحجر، ٤١/١٥]، والمقصودُ بقوله تعالى: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف، ١٦/٧]. والتنكير للتفخيم.

﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣﴾

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًا﴾ جواب قسم محذوف، والجملة استئناف مَسوق لتشديد التوبيخ وتأكيدِ التقريع ببيان أنّ جناياتهم ليست بنقض العهد فقط؛ بل به وبعدم الاتّعاظ بما شاهدوا مِن العقوبات النازلة على الأمم الخالية بسبب طاعتهم للشيطان، فالخطاب لمتأخّريهم الذين مِن جملتهم كفّار مكّة، خصّوا بزيادة التوبيخ والتقريع لِتَضاعف جناياتهم.

و"الجِبِلّ" -بكسر "الجيم" و"الباء" وتشديد "اللام"- الخَلقُ. وقُرئ بضمّتين وتشديد،[٢] وبضمّتين وتخفيف،[٣] وبضمّة وسكونٍ،[٤] / وبكسرتين وتخفيف،[٥] [٤٠١ظ]

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] أي: "جُبُلّا". قرأ بها رَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

[٣] أي: "جُبُلًا". قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

[٤] أي: "جُبْلًا". قرأ بها أبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

[٥] أي: "جِبِلًا". قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

وبكسرة وسكون.[١] والكلّ لغات. وقُرئ: "جِبَلًا"[٢] جمع "جِبْلَةٍ"، كـ"فِطَرٍ" و"خِلَق" في جمع "فِطْرة" و"خِلْقة". وقُرئ: "جِيلًا" بـ"الياء"؛[٣] وهو الصنف مِن الناس.

أي: وباللهِ لقد أضلّ منكم خلقًا كثيرًا أو صنفًا كثيرًا عن ذلك الصراط المستقيم الذي أمرتُكم بالثبات عليه، فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم مِن العقوبات الهائلة التي ملأ الآفاقَ أخبارها، وبقي مدى الدهر آثارُها.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أكنتُم تشاهدون آثارَ عقوباتهم، فلم تكونوا تعقلون أنّها لِضلالهم؟ أو فلم تكونوا تعقلون شيئًا أصلًا حتّى ترتدعوا عمّا كانوا عليه كَيلا يَحيق بكم العقاب؟

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ استئناف يُخاطَبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والإلزام والتبكيت عند إشرافهم على شفير جهنّم، أي: كنتم تُوعَدونها على ألسنة الرسل عليهم السلام بمقابلة عبادة الشيطان، مثل قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء، ٦٣/١٧]، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ[٤] لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف، ١٨/٧]، وغيرِ ذلك ممّا لا يُحصى.

﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أمرُ تنكيل وإهانة، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ﴾... إلخ [الدخان، ٤٩/٤٤]، أي: ادخلوها مِن فوق، وقاسوا فنونَ عذابها اليومَ بكفركم المستمرّ في الدنيا.

---

١ أي: "جِبْلًا". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٨/٩؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٨/٩؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

٤ س – منهم.

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: خَتمًا يمنعها عن الكلام، التفات إلى الغيبة للإيذان بأنّ ذكر أحوالهم القبيحة استدعى أن يُعرَض عنهم، ويُحكَى أحوالهم الفظيعة لغَيرهم، مع ما فيه مِن الإيماء إلى أنّ ذلك مِن مقتضيات
[٤٠٢و] الخَتم؛ / لأنّ الخطاب لتلقّي الجواب، وقد انقطع بالكلّية. وقُرئ: "تُخْتَمُ".[١]

﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يُروى أنّهم يَجحدون ويُخاصِمون، فيشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم، فيَحلفون: ما كانوا مشركين، فحينئذ يُختَم على أفواههم، وتُكلِّم أيديهم وأرجلُهم.

وفي الحديث: «يقول العبد يومَ القيامة: "إنّي لا أجيز عليّ شاهدًا إلّا مِن نفسي"، فيُختَم على فيه، ويقال لأركانه: "انطقي" فتَنطق بأعماله، ثمّ يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: "بُعدًا لكُنّ وسُحقًا، فعنكُنّ كنتُ أُناضِل"».[٢]

وقيل: تكليم الأركان وشهادتُها دلالتُها على أفعالها، وظهورُ آثار المعاصي عليها.

وقُرئ: "وَتَتَكَلَّمُ أَيْدِيهِمْ".[٣] وقُرئ: "وَلِتُكَلِّمَنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدَ"[٤] بـ"لام كي" والنصبِ على معنى: ولذلك نَختم على أفواههم. وقُرئ: "وَلْتُكَلِّمْنَا أَيْدِيهِمْ وَلْتَشْهَدْ"[٥] بـ"لام الأمر" والجزم.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۝٦٦﴾

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ "الطَّمس" تَعفيةُ شِقّ العين حتّى تعودَ مَمسوحةً. ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرّة التي هي وقوعها شرطًا،

---

١ كذا وقعت في الأصول الخطّيّة بـ"التاء"، ولم أجدها كذلك في المصادر، وإنّما الوارد فيها: "يُخْتَمُ" بـ"الياء"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

٢ جامع البيان للطبري، ٤٤٠٧/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩١/٨. وأخرجه مسلم في صحيحه، ٢٢٨٠/٤ (٢٩٦٩).

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٨/٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جدّه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

وكونُ مفعولها مضمون الجزاء، أي: لو نشاء أن نطمِس على أعينهم لَفعلناه. وإيثار صيغة الاستقبال -وإن كان المعنى على المضيّ- لإفادة أنّ عدم الطَّمْس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة، فإنّ المضارع المنفيَّ الواقعَ موقعَ الماضي ليس بنصّ في إفادة انتفاء استمرار الفعل؛ بل قد يفيد استمرار انتفائه بحسب المقام، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ [يونس، ١١/١٠].

﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: فأرادوا أن يستبِقوا إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكَه. على أنّ انتصابه بنزع الجارّ، أو هو بتضمين الاستباق / معنى الابتدار، [٤٠٢ظ] أو بالظرفيّة. ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ الطريقَ وجهةَ السلوك.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧﴾

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾ بتغيير صورهم وإبطالِ قواهم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ أي: مكانِهم، إلّا أنّ المكانة أخصّ، كـ"المَقامة" و"المَقام". وقُرئ: "عَلَى مَكَانَاتِهِمْ"،[١] أي: لَمَسخناهم مَسخًا يُجمِّدهم مكانَهم، لا يقدرون أن يَبرحوه بإقبالٍ ولا إدبارٍ ولا رجوع، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي: ولا رجوعًا، فوُضع مَوضعه الفعلُ لمراعاة الفاصلة.[٢]

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «قردةً وخنازير».[٣] وقيل: حجارةً. وعن قتادة: «لَأقعَدناهم على أرجلهم وأَزْمَنّاهم».[٤]

وقُرئ: "مِضِيًّا" بكسر "الميم"[٥] وفتحها.[٦]

وليس مساق الشرطيّتين لِمجرّد بيان قدرته تعالى على ما ذُكر مِن عقوبة الطَّمس والمسخ؛ بل لبيان أنّهم بما هم عليه مِن الكفر ونقضِ العهد وعدمِ

---

[١] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٦٣/٢.

[٢] س: الفاضلة.

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ٢٥/٤؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧٩/٩.

[٤] **جامع البيان** للطبري، ٤٧٧/١٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٥/٤.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧٩/٩.

[٦] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧٩/٩.

الاتّعاظ بما شاهدوا مِن آثار دَمارِ أمثالهم أحقّاءُ بأن يُفعل بهم في الدنيا تلك العقوبة، كما فُعِل بهم في الآخرة عقوبةُ الختم، وأنّ المانع مِن ذلك ليس إلّا عدمَ تعلّق المشيئة الإلهيّة به، كأنّه قيل: لو نشاء عقوبتَهم بما ذُكر مِن الطَّمس والمَسخ جريًا على موجَب جناياتهم المستدعية لها لَفعلناها، ولكنّا لم نَشأها جريًا على سَنن الرحمة والحكمة الداعيتَين إلى إمهالهم.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِۚ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۞﴾

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي: نُطِل عُمُرَه ﴿نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أي: نَقلِبْه فيه ونَخلُقْه على عكس ما خلقناه أوّلًا، فلا يزال يتزايد ضَعفُه، ويَتناقَص قوّته، وينتقض بنيته، ويتغيّر شكله وصورته، حتّى يعود إلى حالة شبيهة بحال الصبيّ في ضعف الجسدِ، وقِلّة العقل، والخلوّ عن الفهم والإدراك. وقُرئ: "نَنْكُسْهُ"[١] مِن الثلاثي، و"نُنْكِسْهُ"[٢] مِن "الإنكاس".

[٤٠٣و] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أيَرون ذلك فلا يعقلون أنّ مَن / قدَر على ذلك يقدِر على ما ذُكر مِن الطَّمس والمَسخ، وأنَّ عدمَ إيقاعهما لعدم تعلّق مشيئته تعالى بهما. وقُرئ: "تَعْقِلُونَ" بـ"التاء"[٣] لجَري الخطاب قبله.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۞﴾

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ ردّ وإبطال لِما كانوا يقولونه في حقّه عليه السلام مِن أنّه شاعر، وما يقوله شعر، أي: ما علّمناه الشعر بتعليم القرآن، على معنى أنّ القرآن ليس بشِعر، فإنّ الشعر كلام متكلَّف موضوع، ومَقال مزخرف مصنوع، منسوج على منوال الوزن والقافية، مبنيّ على خيالات وأوهام واهية، فأين ذلك مِن التنزيل الجليل الخَطَر المنزَّه عن مُماثَلة كلام البشر المَشحون بفنون الحِكَم

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن ذكوان ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٥٧/٢.

والأحكامِ الباهرة، الموصلةِ إلى سعادة الدنيا والآخرة، ومِن أين اشتبه عليهم الشئون، واختلط بهم الظنون، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ وما يصحّ له الشعر، ولا يتأتّى له لو طلبه، أي: جعلناه بحيث لو أراد قَرْضَ الشعر لم يَتأَتّ له كما جعلناه أمّيًا لا يتهدّى للخطّ، ليكون الحجّةُ أثبتَ، والشبهةُ أدحضَ. وأمّا قوله عليه السلام:

«أنـــا الـــنـــبـــيّ لا كـــذِب أنـــا ابـــن عـبـد الـمـطّـلـب»[1]

وقوله عليه السلام:

«هـــل أنـــتِ إلّا أصبـع دَمـيـتِ وفـــي سـبـيـل الله مـــا لـقـيـتِ»[2]

فمِن قبيل الاتّفاقات الواردة مِن غير قصدٍ إليها، وعزمٍ على ترتيبها.

وقيل: الضمير في ﴿لَهُۥٓ﴾ للقرآن، أي: وما ينبغي للقرآن أن يكون شِعرًا، ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: عِظَةٌ مِن الله عزّ وجلّ، وإرشادٌ للثقلَين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف، ١٠٤/١٢].

﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كتابٌ سماوي، بيّنٌ كونُه كذلك، أو فارِقٌ بين الحقّ والباطل، يُقرأ في المحاريب، ويُتلى في المعابد، ويُنال بتلاوته والعملِ بما فيه فوزُ الدارين، فكم بينَه وبين ما قالوا.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٠﴾

﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي: القرآن، أو الرسول عليه السلام، ويؤيّده القراءة بـ"التاء".[3] وقُرئ: "لِيَنْذَرَ"[4] مِن "نَذِرَ به"، أي: عَلِمه، و"لِيُنْذَرَ"[5] مبنيًا للمفعول مِن "الإنذار".

﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: عاقلًا متأمّلًا، فإنّ الغافل بمنزلة الميّت، / أو مؤمنًا في [٤٠٣ظ]
عِلم الله تعالى، فإنّ الحياة الأبديّة بالإيمان، وتخصيصُ الإنذارِ به لأنّه المنتفِع به.

---

[1] صحيح البخاري، ٣٠/٤ (٢٨٦٤)؛ صحيح مسلم، ١٤٠٠/٣ (١٧٧٦).

[2] صحيح البخاري، ١٨/٤ (٢٨٠٢)؛ صحيح مسلم، ١٤٢١/٣ (١٧٩٦).

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني والجحدري وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: تجبَ كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المُصرّين على الكفر. وفي إيرادهم بمقابَلة مَن كان حيًّا إشعارٌ بأنّهم لخُلُوّهم عن آثار الحياة وأحكامها التي هي المعرفة أمواتٌ في الحقيقة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ "الهمزة" للإنكار والتعجيب.[١] و"الواو" للعطف على جملة منفيّة مقدَّرة مستتبِعة للمعطوف، أي: أَلَم يتفكّروا؟ أو أَلَم يُلاحِظوا ولم يعلموا علمًا يقينيًا مُتاخِمًا للمعاينة؟

﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي: لأجلهم وانتفاعهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: ممّا تولّينا إحداثه بالذات. وذِكر "الأيدي" وإسناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص والتفرّد بالأحداث والاعتناءِ به.

﴿أَنْعَٰمًا﴾ مفعول ﴿خَلَقْنَا﴾. وتأخيره عن الجارَّين المتعلّقَين به مع أنّ حقّه التقدّم عليهما لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقّه التقديم إذا أُخِر تبقى النفس مترقّبة له، فيتمكّن عند وروده عليها فضلَ تمكّن لا سيّما عند كون المقدَّم منبِئًا عن كون المؤخَّر أمرًا نافعًا خطيرًا، كما في النظم الكريم، فإنّ الجارّ الأوّل المُعرِب عن كون المؤخَّر مِن منافعهم، والثانيَ المُفصح عن كونه مِن الأمور الخطيرة؛ يزيدان النفس شوقًا إليه ورغبةً فيه، ولأنّ في تأخيره جمعًا بينه وبين أحكامه المتفرّعة عليه بقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ الآياتِ،[٢] أي: فملّكناها إيّاهم. وإيثار الجملة الاسميّة على ذلك للدلالة على استقرار مالكيّتهم لها واستمرارها. و"اللام" متعلّقة بـ﴿مَٰلِكُونَ﴾ مقوّية لعمله، أي: فهم مالكون لها بتمليكنا إيّاها لهم متصرّفون فيها بالاستقلال، مختصّون بالانتفاع بها، لا يزاحمهم في ذلك غيرهم، أو قادرون على ضبطها، متمكّنون مِن التصرّف فيها بأقدارنا وتمكيننا

---

[١] س: والتعجّب.

[٢] وفي هامش م: الثلاث.

وتسخيرنا إيّاها لهم،[١] / كما في قول مَن قال: [٤٠٤و]

أصبحتُ لا أحملُ السلاحَ ولا أملك رأسَ البعير إن نفَرا[٢]

والأوّل هو الأظهر، ليكون قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ تأسيسًا لنعمةٍ على حيالها، لا تتمّةً لِما قبلها، أي: صيّرناها منقادةً لهم بحيث لا تستعصي عليهم في شيء ممّا يريدون بها حتّى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾... إلخ، فإنّ "الفاء" فيه لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها، أي: فبعضٌ منها رَكوبهم، أي: مَركوبهم، أي: معظم منافعها الركوب. وعدم التعرّض للحمل لكونه مِن تتمّات الركوب. وقُرئ: "رَكُوبَتُهُمْ"،[٣] وهي بمعناه، كـ"الحَلوب" و"الحَلوبة". وقيل: "الرَّكوبة" اسم جَمع. وقُرئ: "رُكُوبُهُمْ"،[٤] أي: ذُو رُكُوبِهم.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: وبعضٌ منها يأكلون لحمه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأنعام بكِلا قسمَيها ﴿مَنَٰفِعُ﴾ أُخَرُ غيرُ الركوب والأكل، كالجلود والأصواف والأوبار وغيرِها، وكالحراثة بالثيران، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ مِن اللبن، جمع "مَشْرَب"، وهذا مجمل ما فُصّل في سورة النحل.[٥]

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: أيشاهدون هذه النِّعم؟ أو أيتنعّمون بها فلا يشكرون المنعم بها؟

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: متجاوزين الله الذي شاهدوا تفرُّدَه بتلك القدرة الباهرة، وتفضُّلَه عليهم بهاتيك النعم المتظاهِرة، ﴿ءَالِهَةً﴾ مِن الأصنام،

---

[١] ط س: لكم.

[٢] للربيع بن ضَبُع الفَزاري في لسان العرب لابن منظور، «ضمن».

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عائشة وأبيّ رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

[٥] النحل، ٦٦/١٦.

وأشركوها به تعالى في العبادة، ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ رجاءَ أن يُنصَروا من جهتهم فيما حزبهم مِن الأمور، أو يشفعوا لهم في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾... إلخ استئناف سيق لِبيان بُطلان رأيهم، وخيبةِ رجائهم، وانعكاسِ تدبيرهم، أي: لا يقدر آلهتهم على نصرهم، ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون ﴿لَهُمْ﴾ أي: لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ يشيّعونهم / عند مساقهم إلى النار. [٤٠٤ظ]

وقيل: معَدُّون في الدنيا لحفظهم وخدمتهم، والذبِّ عنهم،[١] ولا يساعِده مساق النظم الكريم، فإنّ "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ لترتيب النهي على ما قبله، فلا بدّ أن يكون عبارة عن خُسرانهم وحرمانهم عمّا علّقوا به أطماعهم الفارغة، وانعكاسِ الأمر عليهم بترتّب الشرّ على ما رتّبوه لرجاء الخير، فإنّ ذلك مما يهوّن الخَطب ويورث السَّلوة. وأمّا كونهم مُعَدِّين لخدمتهم وحفظهم فبمَعزِل مِن ذلك.

والنهي وإن كان بحسب الظاهر متوجِّهًا إلى قولهم، لكنّه في الحقيقة متوجّه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ونهيٌ له عليه السلام عن التأثّر منه بطريق الكناية على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، فإنّ النهي عن أسباب الشيء ومباديه المؤدّية إليه نهي عنه بالطريق البرهاني، وإبطال للسببيّة، وقد يوجَّه النهي إلى المسبَّب ويراد النهي عن السبب، كما في قوله: "لا أَرَينّك ههنا"، يريد به نهي مخاطَبه عن الحضور لديه.

والمراد بـ﴿قَوْلُهُمْ﴾ ما ينبئ عنه ما ذُكر مِن اتّخاذهم الأصنام آلهة، فإنّ ذلك ممّا لا يخلو عن التفوّه بقولهم: "هؤلاء آلهتنا"، وأنّهم شركاء لله سبحانه في المعبوديّة، وغيرَ ذلك ممّا يورث الحُزن. وقُرئ: "يُحْزِنْكَ" بضمّ "الياء" وكسر "الزاء"،[٢] مِن "أَحْزَنَ" المنقول مِن "حَزِنَ" اللازم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تعليل صريح للنهي بطريق الاستئناف بعد تعليله بطريق الإشعار، فإنّ العلم بما ذُكر مستلزم للمُجازاة قطعًا،

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٢٨/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٧٤/٤.

[٢] قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

أي: إنّا نُجازيهم بجميع جناياتهم الخافية والبادية التي لا يعزُب عن علمنا شيء منها، وفيه فضل تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وتقديم السرّ على العلَن إمّا للمبالغة في بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات، كأنّ علمه تعالى بما يُسرّونه أقدمُ منه بما يعلنونه مع استوائهما في الحقيقة، فإنّ علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق / حصول صورها؛ بل وجودُ [٤٠٥و]
كلّ شيء في نفسه علمٌ بالنسبة إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة، وإمّا لأنّ[1] مرتبة السرّ متقدّمة على مرتبة العَلَن، إذ ما مِن شيء يُعلَن إلّا وهو أو مَباديه مُضمَر في القلب قبل ذلك، فتعلُّقُ علمه تعالى بحالته الأولى متقدّم على تعلّقه بحالته الثانية حقيقةً.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان بطلان إنكارهم البعثَ بعد ما شاهدوا في أنفسهم أوضحَ دلائله وأعدلَ شواهده، كما أنّ ما سبَق مَسوق لبيان بطلان إشراكهم بالله تعالى بعد ما عاينوا فيما بأيديهم ما يوجب التوحيد والإسلام.

وأمّا ما قيل[2] مِن أنّه تسلية ثانية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشرَ؛[3] فكلّا.

و"الهمزة" للإنكار والتعجيب، و"الواو" للعطف على جملة مقدَّرة هي مستتبِعة للمعطوف، كما مرّ في الجملة الإنكاريّة السابقة، أي: أَلَم يتفكّر الإنسان ولم يعلم عِلمًا يقينيًّا أنّا خلقناه مِن نطفة... إلخ، أو هي عينُ الجملة السابقة، أُعيدَت تأكيدًا للنكير السابق، وتمهيدًا لإنكار ما هو أحقّ منه بالإنكار والتعجيب، لِما أنّ المنكَر هناك عدمُ علمهم بما يتعلّق بخلق أسباب معايشهم، وههنا عدمُ علمهم بما يتعلّق بخَلق أنفسهم، ولا ريبَ في أنّ علم الإنسان بأحوال نفسه أهمّ،

---

[1] السياق: إمّا للمبالغة... وإمّا لأنّ...
[2] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٧٤.
[3] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٧٤.

وإحاطتَه بها أسهل وأكمل، فالإنكار والتعجيبُ مِن الإخلال بذلك أدخَلُ، كأنّه قيل: أَلَم يعلموا خَلقَه تعالى لأسباب معايشهم، ولم يعلموا خلقَه تعالى لأنفسهم أيضًا، مع كون العلم بذلك في غاية الظهور ونهايةِ الأهميّة؟ على معنى أنّ المنكَر الأوّلَ بعيد قبيح، والثانيَ أبعدُ وأقبحُ.

ويجوز أن يكون "الواو" لعطف[1] الجملة الإنكاريّة الثانية على الأولى، على أنّها متقدِّمة في الاعتبار، وأنّ تقدّم "الهمزة" عليها لاقتضائها الصدارة في الكلام كما هو رأي الجمهور.

[٤٠٥ظ] / وإيراد ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ موردَ الضمير لأنّ مدار الإنكار متعلّق بأحواله مِن حيث هو إنسان، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم، ١٩/٦٧].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ أي: شديدُ الخصومة والجدالِ بالباطل، عطفٌ على الجملة المنفيّة، داخلٌ في حيّز الإنكار والتعجيب، كأنّه قيل: أَوَلَم يرَ أنّا خلقناه مِن أخسّ الأشياء وأَمْهَنِها ففاجأَ خصومتَنا في أمر يشهد بصحّته وتحقّقه مبدأ فطرته شهادةً بيّنةً.

وإيرادُ الجملة الاسميّة للدلالة على استقراره في الخصومة واستمراره عليها.

رُوي أنّ جماعةً مِن كفّار قريش -منهم أبيّ بن خَلف الجُمَحي، وأبو جهل، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة- تكلّموا في ذلك، فقال لهم أبيّ بن خَلف: «ألا تَرون إلى ما يقول محمّد: "إنّ الله يبعث الأموات"»، ثمّ قال: «واللّاتِ والعزّى، لَأصيرنّ إليه، ولَأخصِمنّه»، وأخذ عظمًا باليًا، فجعَل يَفُتُّه بيده ويقول: «يا محمّد، أترى اللهَ يُحيي هذا بعد ما رَمَّ»، قال صلّى الله عليه وسلّم: «نعم، ويبعثُك ويُدخلك جهنّم»، فنزلت.[2]

وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾: فإذا هو بعد ما كان ماءً مَهينًا رجلٌ مميّز مِنطيق قادر على الخِصام مُبين مُعرِب عمّا في نفسه فصيح،

---

[1] س: للعطف.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٠/٤.

فهو حينئذ معطوف على ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾، غيرُ داخل تحت الإنكار والتعجيب؛ بل هو مِن متمّمات شواهد صحّة البعث.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾

فقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا﴾ معطوف حينئذ على الجملة المَنفيّة، داخلٌ[١] في حيّز الإنكار والتقبيح، وأمّا على التقدير الأوّل فهو عطفٌ على الجملة الفُجائيّة، والمعنى: ففاجَأَ خُصومتَنا وضرب لنا مَثَلًا، / أي: أَوردَ في شأننا قصّةً [٤٠٦و] عجيبةً في نفس الأمر هي في الغرابة والبعد عن العقول كالمَثَل، وهي إنكارُ إحيائنا العظامَ، أو قصّةً عجيبةً في زعمه، واستبعدها وعدّها مِن قَبيل المَثل، وأنكرها أشدَّ الإنكار، وهي إحياؤُنا إيّاها، أو جعلَ لنا مَثلًا ونظيرًا مِن الخَلق وقاسَ قدرتنا على قدرتهم، ونَفَى الكلَّ على العموم.

وقوله تعالى: ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥ﴾ أي: خَلقَنا إيّاه على الوجه المذكور الدالّ على بطلان ما ضَرَبه، إمّا عطفٌ على ﴿ضَرَبَ﴾، داخلٌ في حيّز الإنكار والتعجيب، أو حال مِن فاعله بإضمار "قد"، أو بدونه.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية ضَربه المثلَ، كأنّه قيل: أيَّ مَثلٍ ضرَب؟ أو ماذا قال؟ فقيل: قال: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾ منكِرًا له أشدَّ النكير، مؤكِّدًا له بقوله: ﴿وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ أي: باليةٌ أشدَّ البِلَى، بعيدةٌ مِن الحياة غايةَ البُعد.

فالمَثل على الأوّل هو إنكارُ إحيائه تعالى للعِظام، فإنّه أمر عجيب في نفس الأمر، حقيقٌ لغَرابته وبُعدِه مِن العقول بأن يُعدَّ مَثَلًا ضرورةَ جزم العقول ببطلان الإنكار، ووقوعِ المنكَر، لكونه كالإنشاء؛ بل أهونَ منه في قياس العقل.

وعلى الثاني هو إحياؤه تعالى لها، فإنّه أمر عجيب في زعمه، قد استبعده وعدّه مِن قَبيل المَثل، وأنكرَه أشدّ الإنكار مع أنّه في نفس الأمر أقربُ شيءٍ مِن الوقوع، لِما سبق مِن كونه مِثل الإنشاء، أو أهونَ منه.

---

١ ط س: داخلة.

وأمّا على الثالث فلا فرقَ بين أن يكون المَثل هو الإنكارَ أو المنكرَ.

وعدمُ تأنيث "الرميم" مع وقوعه خبرًا للمؤنّث لأنّه اسم لِما بَلِي مِن العظام، غيرُ صفة، كالرُّفات.

[٤٠٦ظ] وقد تمسّك / بظاهر الآية الكريمة مَن أثبت للعَظم حياةً، وبنى عليه الحُكمَ بنجاسة عظم الميتة، وأمّا أصحابنا فلا يقولون بحياته، كالشَّعر،[١] ويقولون: المراد بإحياء العظام ردُّها إلى ما كانت عليه مِن الغَضاضة والرطوبة في بدنِ حيّ حسّاس.[٢]

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ٨١﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا له بتذكير ما نَسِيَه مِن فطرته الدالّة على حقيقة الحال، وإرشادِه إلى طريقة الاستشهاد بها: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنّ قدرته كما هي لاستحالة التغيّر فيها، والمادّةُ على حالها.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بتفاصيل كيفيّات الخلق والإيجاد إنشاءً وإعادةً، محيطٌ بجميع الأجزاء المتفتّتة المتبدّدة لكلّ شخص مِن الأشخاص أصولِها وفروعِها وأوضاعِ بعضها مِن بعض مِن الاتّصال والانفصال، والاجتماعِ والافتراق، فيُعيد كلًّا مِن ذلك على النمط السابق مع القوى التي كانت قبلُ. والجملة إمّا اعتراض تذييلي مقرّر لمضمون الجواب، أو معطوفةٌ على الصلة.

والعدول إلى الجملة الاسميّة للتنبيه على أنّ علمه تعالى بما ذُكِر أمر مستمرّ، ليس كإنشائه للمُنشَآت.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ بدل مِن الموصول الأوّل. وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته للتأكيد، ولتفاوتهما في كيفيّة الدلالة، أي: خَلق لأجلكم ومنفعتكم منه نارًا، على أنّ الجَعل إبداعي،

---

١ انظر: **بدائع الصنائع** للكاساني، ١٤٢/٥.
٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٣١/٤.

والجارّان متعلِّقان به، قُدِّما على مفعوله الصريح مع تأخّرهما عنه رتبةً لِما مرّ مِن الاعتناء بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر.

ووصف ﴿ٱلشَّجَرِ﴾ بـ﴿ٱلْأَخْضَرِ﴾ نظرًا إلى اللفظ. وقد قُرئ: "الْخَضْرَاءِ"[١] بالنظر إلى المعنى. وهو المَرْخُ والعَفار،[٢] يقطع الرَّجل منهما عُصيَّتَين مثلَ السواكَين وهما خَضراوان يقطُر منهما الماء، فيسحق المَرْخ -وهو ذَكَر- على العَفار -وهو أنثى- فينقدح النار بإذن الله تعالى، / وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ فمَن قدر على إحداث النار مِن الشجر الأخضر مع ما فيه مِن المائيّة المضادّة لها بكيفيّته كان أقدَرَ على إعادة الغَضاضة إلى ما كان غَضًّا فطَرَأ عليه اليبوسة والبِلى. [٤٠٧و]

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾... إلخ استئناف مَسوق مِن جهته عزّ وجلّ لتحقيق مضمون الجواب الذي أُمِر عليه السلام بأن يخاطبهم بذلك، ويُلزمهم الحجّةَ.

و"الهمزة" للإنكار والنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَلَيس الذي أنشأها أوّلَ مرّة، وليس الذي جعل لهم مِن الشجر الأخضر نارًا، وليس الذي خلق السماوات والأرض مع كِبَر جِرمهما وعِظَم شأنهما ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصِغر والقَماءة بالنسبة إليهما؟ فإنّ بديهة العقل قاضية بأنّ مَن قدَر على خَلقهما فهو على خَلق الأناسي أقدَر، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر، ٥٧/٤٠]. وقُرئ: "يَقْدِرُ".[٣]

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ جواب مِن جهته تعالى، وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكاري مِن تقرير ما بعد النفي، وإيذانٌ بتعيّن الجواب، نطقوا به، أو تلعثموا فيه مخافة الإلزام.

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣١/٤؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨٥/٩.

٢ المَرْخُ: شجرٌ سريعُ الوَرْي، وفي المَثَل: "في كلِّ شجرٍ نار، واستمجد المَرْخُ والعَفار"، والعَفارُ: الزند، وهو الأعلى. **الصحاح** للجوهري، «مرخ».

٣ قرأ بها رُويس عن يعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ عطفٌ على ما يفيده الإيجاب، أي: بلى هو قادر على ذلك، وهو المبالغ في الخَلق والعلم كيفًا وكمًّا.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ أي: شأنه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ مِن الأشياء ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ أي: أنْ يُعلِّقَ به قدرتَه ﴿فَيَكُونُ﴾ فيَحدُث مِن غير توقّف على شيء آخَر أصلًا. وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المُطاعِ المأمورَ المطيعَ في سرعة حصول المأمور به مِن غير توقّف على شيء ما. وقُرئ: "فَيَكُونَ" بالنصب[١] عطفًا على ﴿يَقُولَ﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تنزيه له عزّ وعلا عمّا وصفوه تعالى به، وتعجيبٌ ممّا قالوا في شأنه تعالى، وقد مرّ تحقيق معنى "سُبحانَ".

[٤٠٧ظ] و"الفاء" للإشارة إلى أنّ ما فُصِّل مِن شئونه تعالى مُوجِبة / لتنزّهه وتنزيهه أكملَ إيجاب، كما أنّ وصفه تعالى بالمالكيّة الكلّيّة المطلقة للإشعار بأنّها مقتضية لذلك أتمّ اقتضاء. و"المَلكوت" مبالغة في "المُلك"، كـ"الرَّحَموت" و"الرَّهَبوت". وقُرئ: "مَلَكَةُ كُلِّ شَيْءٍ"،[٢] و"مَمْلَكَةُ كُلِّ شَيْءٍ"،[٣] و"مُلْكُ كُلِّ شَيْءٍ".[٤]

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره. وقُرئ: "تَرْجِعُونَ" بفتح "التاء"[٥] مِن "الرجوع". وفيه مِن الوعد والوعيد ما لا يخفى.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كنت لا أعلم ما رُوي في فضائل ﴿يسٓ﴾ وقراءتِها كيف خُصّت بذلك، فإذا إنّه لهذه الآية».[٦]

---

١ قرأ بها ابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعمش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٨٥.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٨٥.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٨٥.

٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٨.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢. قال المناوي: «لم أقف عليه». الفتح السماوي للمناوي، ٣/٩٥٣.

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ لكلّ شيء قَلبًا، وإنّ قلب القرآن ياسين،[١] مَن قرأها يريد بها وجهَ الله تعالى غفر الله تعالى له، وأعطي مِن الأجر كأنّما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرّةً. وأيّما مسلم قُرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورةُ يسٓ[٢] نزَل بكلّ حرف فيها عشرة أملاك، يقومون بين يديه صفوفًا، يصلّون عليه، ويستغفرون له، ويشهدون غَسله، ويتّبعون جنازته، ويُصلّون عليه، ويشهدون دفنَه. وأيّما مُسلم قرأ ياسين وهو في سَكَرات الموت لم يقبض ملك الموت روحَه حتّى يُحيِّيه رضوانُ خازنُ الجنّة بشِربةٍ مِن شراب الجنّة يشربها وهو على فراشه، فيقبض ملَك الموت روحَه وهو ريّان، ويمكث في قبره وهو ريّان، ولا يحتاج إلى حوض مِن حياض الأنبياء حتّى يدخل الجنّة وهو ريّان».[٣]

وقال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ في القرآن سورةً يُشَفَّعُ قارئُها ويُغفَر لمستمعها، ألا وهي سورة ياسين».[٤]

---

١ س: يس.

٢ ط س: ياسين.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٨/٨؛ مسند الشهاب للقضاعي، ١٣٠/٢.

٤ ط س + تمّ. | الكشف والبيان للثعلبي، ١١٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٢/٤.

٣٦

سورة يس

مكية، أو إلاّ قوله «وإذا قيل لهم انفقوا» الآيةَ، أو مدنية، ثنتان [أو ثلاثٌ] وثمانون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿يس﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿والقُرآنِ الحَكِيمِ﴾: المُحكَم بعجيب النظم وبديع المعاني، ٣ ـ ٤ ـ ﴿إنَّكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿لَمِنَ المُرسَلِينَ، علَى﴾: مُتعلّق بما قبله ﴿صِراطٍ مُستَقِيم﴾ أي: طريق الأنبياء قبلك التوحيدِ والهدى. والتأكيدُ بالقسم وغيره ردّ لقول الكُفّار له: «لَستَ مُرسَلاً». ٥ ـ ﴿تنزِيلُ العَزِيزِ﴾ في مُلكه ﴿الرَّحِيمِ﴾ بخلقه: خبرُ مبتدأ مُقدَّر، أي: القُرآنُ، ٦ ـ ﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قومًا﴾: مُتعلّق بـ «تنزيل»، ﴿ما أُنذِرَ آباؤُهُم﴾ أي: لم يُنذَروا في زمن الفترة، ﴿فهُم﴾ أي: القوم ﴿غافِلُونَ﴾ عن الإيمان والرُّشد.

سورة يس

قولُه: (اللهُ أَعلَمُ) قيلَ: يا إنسانُ، وقالَ الصَّادقُ: «يا سيِّد»، والواو: للقَسَمِ.

قولُه: (المُحكَمِ) أو: ذي الحِكْمةِ، أو: الحاكمِ، أو وصفَ بصفةِ المتكلِّمِ.

قولُه: (متَعَلِّق بِمَا قَبْلَهُ) أي: ﴿المرسَلِينَ﴾ الثَّابتينَ ﴿عَلَى﴾ الحقِّ.

قولُه: (والهُدَى) أي: الاستِقامَةِ في الأمورِ، أو ﴿عَلَى صِرَاطٍ﴾ خبرٌ ثانٍ.

قولُه: (وغَيْرِهِ) من: إنَّ واللَّامِ.

قولُه: (خَبَرُ مُبتَدَأ) والمصدرُ بمعنى المفعولِ، وقرأ شاميٌّ وكوفيٌّ غيرُ شعبةَ بالنَّصبِ[1] بإضمارِ: أعني.

قولُه: (أيْ: لَمْ يُنذَرُوا) فـ﴿مَا﴾ نافيةٌ، وقيلَ: موصولةٌ أو موصوفةٌ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٣٩).

٧ ـ ﴿لَقَد حَقَّ القَولُ﴾: وجبَ ﴿عَلَى أكثَرِهِم﴾ بالعذاب، ﴿فهُم لا يُؤمِنُونَ﴾ أي: الأكثرُ.
٨ ـ ﴿إنّا جَعَلْنا في أعناقِهِم أغلالاً﴾ بأن تُضمّ إليها الأيدي لأنّ الغُلّ يَجمع اليد إلى العُنق، ﴿فهِيَ﴾ أي: الأيدي مجموعة ﴿إلَى الأذقانِ﴾: جمع ذَقَن وهو مُجتمَع اللَّحْيَينِ، ﴿فهُم مُقمَحُونَ﴾: رافعون رُؤوسَهم لا يستطيعون خفضها ـ وهذا تمثيل، والمراد أنهم لا يُذعِنون للإيمان ولا يَخفضون رؤوسهم له ـ ٩ ـ ﴿وجَعَلْنا مِن بَينِ أيدِيهِم سَدًّا ومِن خَلفِهِم سَدًّا﴾، بفتح السين وضمّها في الموضعين، ﴿فأغشَيناهُم، فهُم لا يُبصِرُونَ﴾. تمثيلٌ أيضًا لسدّ طرق الإيمان عليهم.

١٠ ـ ١١ ـ ﴿وسَواءٌ علَيهِم أأنذَرْتَهُم﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين وإبدالِ الثانية ألفًا، وتسهيلِها وإدخالِ ألف بين المسهّلة والأُخرى، وتركِه ـ ﴿أم لَم تُنذِرْهُم لا يُؤمِنُونَ. إنَّما تُنذِرُ﴾: يَنفعُ إنذارُكَ ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكرَ﴾: القُرآن، ﴿وخَشِيَ الرَّحمنَ بِالغَيبِ﴾: خافه ولم يرَه. ﴿فبَشِّرْهُ بِمَغفِرةٍ وأجرٍ كَرِيمٍ﴾ هو الجنّة.
١٢ ـ ﴿إنّا نَحنُ نُحيِي المَوتَى﴾ للبعث،......................................

قولُه: (بالعَذَابِ) متعلِّقٌ بالقولِ، وهو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.

قولُه: (أي: الأَكثرُ) لأنَّهم ممَّن علِمَ أنَّهم لا يؤمنونَ.

قولُه: (تَمثِيلٌ) قيل: الظَّاهرُ أنَّها على الحقيقةِ، وأنَّه تعالى أخبرَ عن مآلِهِم.

قولُه: (لا يَخفِضُونَ) أي: لا يُطأطِئونَ؛ يعني: لا ينقادونَ.

قولُه: (بِفَتحِ السِّينِ) حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ[1].

قولُه: (تَمثِيلٌ) فعدمُ النَّظرِ في القُرونِ الخاليةِ مشبَّهٌ بالسَّدِّ مِن خَلفِهِم، وعدمُ النَّظرِ إلى العواقِبِ المستقبَلَةِ مشبَّهٌ بالسَّدِّ من قُدَّامِهم، أو تَحقيقٌ، كما مرَّ.

قولُه: (بِتَحْقِيقِ) تحقَّقَ في «البقرةِ»[2].

قولُه: (القُرآنَ) بالتَّأمُّلِ فيه والعملِ به.

قولُه: (خَافَهُ) ولم يغترَّ برحمتِهِ، فإنَّه كما هو رحمنٌ منتقمٌ قهَّارٌ.

قولُه: (ولَمْ يَرَهُ) أي: غائباً عنه الرَّحمنُ، أو عذابُهُ، وقيلَ: غائباً عن الخَلقِ بالخَلوةِ.

قولُه: (هُو الجَنَّةُ) و﴿كَرِيمٍ﴾ معناهُ: حَسَنٌ نفَّاعٌ.

قولُه: (بالبَعثِ) أو الهِدايَةِ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) في الآية رقم: (٦).

﴿ونكتُبُ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿ما قَدَّمُوا﴾ في حياتهم من خير وشرّ ليُجازَوا عليه، ﴿وآثارَهُم﴾: ما استُنَّ به بعدهم، ﴿وكُلَّ شَيءٍ﴾: نصبُه بفعل يفسّره ﴿أحصَيناهُ﴾: ضبطْناه ﴿في إمامٍ مُبِينٍ﴾: كتاب بيّن، هو اللوح المحفوظ.

١٣ ـ ﴿واضرِبْ﴾: اجعلْ ﴿لَهُم مَثَلاً﴾: مفعولٌ أوّل ﴿أصحابَ﴾: مفعولٌ ثان ﴿القَرْيَةِ﴾: أنطاكِيَةَ، ﴿إذ جاءَها﴾ إلى آخِره، بدلُ اشتمال من «أصحابَ القرية»، ﴿المُرسَلُونَ﴾ أي: رُسلُ عِيسَى، ١٤ ـ ١٥ ـ ﴿إذْ أرسَلْنا إلَيهِمِ اثنَينِ، فكَذَّبُوهُما﴾ إلى آخِره، بدلٌ من «إذ» الأُولى إلى آخِره، ﴿فعَزَزْنا﴾، بالتخفيف والتشديد: قوّينا الاِثنين ﴿بثالِثٍ، فقالُوا: إنّا إلَيكُم مُرسَلُونَ. قالُوا: ما أنتُم إلاّ بَشَرٌ مِثلُنا، وما أنزَلَ الرَّحمنُ مِن شَيءٍ. إنْ﴾: ما ﴿أنتُم إلاّ تَكذِبُونَ﴾.

١٦ ـ ١٧ ـ ﴿قالُوا: رَبُّنا يَعلَمُ﴾: جارٍ مَجرى القَسَم، وزيد التأكيد به وباللام على ما قبله لزيادة الإنكار.......................................

قولُه: (في اللَّوحِ) الظَّاهرُ: في صحائفِ الأعمالِ.

قولُه: (مَا اسْتُنَّ) أي: آثارَهُمُ الحسَنةَ كعِلمٍ ووقْفٍ، والسَّيِّئةَ: كإشاعةِ باطلٍ، وتأسيسِ ظُلْمٍ، أو المرادُ: آثارَ خُطاهُم إلى الطَّاعةِ والمعصيةِ.

قولُه: (يُفَسِّرُه) لأنّهُ مُشتَغِلٌ عنه بضميرِهِ.

قولُه: (ضَبَطْنَاهُ) ومنه ما فَعلوا وما يفعَلونَ.

قولُه: (مَفْعُولٌ ثَانٍ) الصَّوابُ أنّه مفعولٌ أوّل على حذفِ مضافٍ؛ أي: اجعَلْ لهم مَثَلَ أصحابِ القريةِ مَثَلاً، أو ﴿اضرِبْ﴾ بمعنى: بَيِّن، والمقدَّرُ بدلٌ من الملفوظِ أو بيانٌ له.

قولُه: (أَنْطَاكِيَةَ) بالفتحِ والكسرِ وسكونِ النُّونِ وكسرِ الكافِ وفتحِ الياءِ المخفَّفةِ، وهي ذاتُ أعيُنٍ وسورٍ عظيمٍ من صَخْرٍ داخلَهُ خمسةُ أجبُلٍ ودُورُها اثني عَشَرَ ميلاً[1].

قولُه: (رُسُلُ عِيسَى) بأمرِ اللهِ، أو رُسُلُ اللهِ، ويدلُّ عليه قولُهُم: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾[يس: ١٥].

قولُه: (بالتَّخفِيفِ) شعبةُ[2]؛ أي: غَلَبْنا.

قولُه: (الاثْنَينِ) حُذفَ المفعولُ لدلالةِ ما قبلَهُ عليه، ولأنَّ المقصودَ ذِكرُ المعزَّزِ به.

قولُه: (عَلى مَا قَبْلَهُ) متعلِّقٌ بـ«زِيدَ» يعني: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾.

---

(١) انظر: «معجم البلدان» (١/ ٢٦٦).

(٢) انظر: «البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة» (ص: ٢٦٥).

في ﴿إِنَّا إِلَيكُم لَمُرسَلُونَ، وما علَينا إلاّ البَلاغُ المُبِينُ﴾:

التبليغ البَيّن الظاهر بالأدلّة الواضحة. وهي إبراءُ الأكمه والأبرص والمريض وإحياءُ الميّت.
١٨ ـ ﴿قالُوا: إنّا تَطَيّرنا﴾: تشاءَمنا ﴿بِكُم﴾ لانقطاع المطر عنا بسببكم. ﴿لَئِن﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿لَم تَنتَهُوا لَنَرجُمَنَّكُم﴾ بالحِجارة ﴿ولَيَمَسَّنَّكُم مِنّا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾: مؤلم.

١٩ ـ ﴿قالُوا: طائرُكُم﴾: شؤمكم ﴿مَعَكُم﴾ بكُفركم. ﴿أَإن﴾: همزة استفهام دخلت على «إن» الشرطيّة ـ وفي همزتها التحقيقُ والتسهيلُ، وإدخالُ ألف بينها بوجهَيها وبين الأُخرى ـ ﴿ذُكِّرتُم﴾: وُعِظتم وخُوّفتم. وجواب الشرط محذوف، أي: تطيّرتم وكفرتم؟ وهو محلّ الاستفهام، والمراد به التوبيخ. ﴿بَل أنتُم قَومٌ مُسرِفُونَ﴾: مُتجاوزون الحدَّ بشِرككم.

٢٠ ـ ٢١ ـ ﴿وجاءَ مِن أقصَى المَدِينةِ رَجُلٌ﴾ هو حَبيبُ النجار، كان قد آمنَ بالرُّسل ومنزلُه بأقصى البلد، ﴿يَسعَى﴾: يشتدّ عدوًا لمّا سمع بتكذيب القوم الرُّسلَ. ﴿قالَ: يا قَومِ، اتَّبِعُوا المُرسَلِينَ، اتَّبِعُوا﴾: تأكيدٌ للأول ﴿مَن لا يَسألُكُم أجرًا﴾ على رسالته، ﴿وهُم مُهتَدُونَ﴾. فقيل له: أنت على دِينهم.
٢٢ ـ فقال: ﴿ومالِيَ لا أعبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾: ....

قولُه: (فِي) متعلِّقٌ باللّامِ.

قولُه: (تَشَأَّمْنَا) تفعَّلَ، أو تفاعَلَ.

قولُه: (بالحِجَارَةِ) أو الشَّتمِ.

قولُه: (شُؤْمُكم) أي: سببُهُ.

قولُه: (التَّحقِيقُ) لشاميٍّ وكوفيٍّ[١].

قولُه: (وإِدخَالُ) قالونُ وبصريٌّ وهشامٌ بخُلْفٍ عنهُ[٢].

قولُه: (بوَجْهَيْهَا) التَّسهيلِ والتَّحقيقِ.

قولُه: (أيْ: تَطَيَّرْتُم) بالمواعظِ، أو: توعَّدْتُم بالرَّجمِ والتَّعذيبِ.

قولُه: (وَهُو) أي: جوابُ الشَّرطِ.

قولُه: (عَلى رِسَالتِهِ) ونُصحِهِ.

---

(١) انظر «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٩٠).

(٢) انظر المصدر السابق.

خلقني، أي: لا مانع لي من عِبادته الموجودِ مُقتضيها، وأنتم كذلك ﴿وإلَيهِ تُرجَعُونَ﴾ بعد الموت، فيُجازيكم كغيركم؟ ٢٣ ـ ﴿أأتَّخِذُ﴾ ـ في الهمزتين منه ما تقدّم في «أأنذرتهم»، وهو استفهام بمعنى النفي ـ ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: غيرَه أصنامًا ﴿آلِهَةً، إن يُرِدْنِ الرَّحمنُ بِضُرٍّ لا تُغنِ عَنِّي شَفاعتُهُم﴾ التي زعمتموها ﴿شَيئًا! ولا يُنقِذُونِ﴾؟ صفةُ: آلهة. ٢٤ ـ ﴿إنِّيَ إذًا﴾، إن عبدتُ غيرَ اللهِ، ﴿لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيِّن. ٢٥ ـ ﴿إنِّيَ آمَنْتُ بِرَبِّكُم. فاسمَعُونِ﴾ أي: اسمعوا قولي. فرجَموه فمات.

٢٦ ـ ٢٧ ـ ﴿قِيلَ﴾ له عند موته: ﴿ادخُلِ الجَنَّةَ﴾. وقيل: دخلَها حيًّا. ﴿قالَ: يا﴾: حرفُ تنبيه ﴿لَيتَ قَومِي يَعلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي﴾: بغُفرانه، ﴿وجَعَلَنِي مِنَ المُكرَمِينَ﴾.

٢٨ ـ ﴿وما﴾: نافيةٌ ﴿أنزَلْنا علَى قَومِهِ﴾ أي: حبيبَ ﴿مِن بَعدِهِ﴾: بعدِ موته ﴿مِن جُندٍ مِنَ السَّماءِ﴾ أي: ملائكةٍ لإهلاكهم،..

قولُه: (كغَيْرِكُم) فاعبُدوهُ أنتم أيضاً، ووَحِّدوهُ، وصدِّقوهُم.

قولُه: (بِمَعنَى النَّفيِ) والإنكارِ.

قولُه: (الَّتي زَعَمْتُمُوهَا) أي: على الفَرْضِ.

قولُه: (صِفَةٌ) أي: جملةُ ﴿إنْ يُرِدْنِ﴾.

قولُه: (عِندَ مَوتِه) بُشرى بأنَّهُ من أهلِ الجنَّةِ، أو إكراماً وإذْناً في دُخولِها كسائرِ الشُّهداءِ.

قولُه: (وقِيلَ) قائلُهُ الحسنُ[1]؛ لمَّا هَمُّوا بقتلِهِ رفعَهُ اللهُ إلى الجنَّةِ.

قولُه: (بغُفْرَانِهِ) فـ﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ، وقيلَ: موصُولةٌ. قولُه[2] يعني: التَّوحيد والصَّبر على المذلَّةِ لإعْزَازِ الدِّينِ[3].

قولُه: (مَوتِهِ) أو رَفعِهِ.

قولُه: (لإهْلَاكِهِم) كما أرسَلنا يومَ بدرٍ والخندقِ، بل كفَينا أمرَهُم بصيحَةِ مَلَكٍ، وفيهِ استحقارٌ لإهلاكِهِم وإيماءٌ بتَعظيمِ رَسولِنا ﷺ.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٥/ ١٩).

(٢) كلمة: «قوله» كذا في النسخ، ولعلها مقحمة أو أن في الكلام سقطاً، وانظر التعليق الآتي.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦٦)، وفيه: و(ما) خبريَّةٌ أو مصدريَّةٌ والباءُ صِلَةُ ﴿يعلمون﴾، أو استفهاميَّةٌ جاءَتْ على الأصلِ والباءُ صِلَةُ ﴿غفر﴾؛ أي: بأيِّ شَيءٍ غفرَ لي، يريدُ به المهاجرةَ عَن دينِهِم والمصابرةَ على أَذيَّتِهِم.

﴿وما كُنّا مُنزِلِينَ﴾ ملائكةً لإهلاك أحد.

٢٩ ـ ﴿إنْ﴾: ما ﴿كانَتْ﴾ عُقوبتُهم ﴿إلاّ صَيحةً واحِدةً﴾ صاح بهم جِبريلُ، ﴿فإذا هُم خامِدُونَ﴾: ساكنون ميّتون. ٣٠ ـ ﴿يا حَسْرةً علَى العِبادِ﴾ هؤلاء ونحوِهم ممّن كذّبوا الرُّسلَ فأُهلكوا. وهي شِدّة التألّم ونداؤها مُجازٌ، أي: هذا أوانُكِ فاحضُري. ﴿ما يأتِيهم مِن رَسُولٍ إلاّ كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾. مسوقٌ لبيان سببها لاشتماله على استهزائهم المُؤدّي إلى إهلاكهم المُسبِّبِ عنه الحسرةُ.

٣١ ـ ﴿ألَم يَرَوا﴾ أي: أهلُ مكّة القائلون للنبيّ: «لَستَ مُرسَلاً» ـ والاستفهام للتقرير ـ أي: عَلِموا ﴿كَم﴾: خبريةٌ بمعنى: كثيرًا، معمولةٌ لِما بعدها مُعلِّقة لما قبلها عن العمل، والمعنى: أنّا ﴿أهلَكْنا قَبلَهُم﴾ كثيرًا ﴿مِنَ القُرُونِ﴾: الأمم! ﴿أنَّهُم﴾ أي: المُهلَكين ﴿إلَيهِم﴾ أي: المكّيّينَ ﴿لا يَرجِعُونَ﴾؟ أفلا يعتبرون بهم؟ و«أنهم» إلى آخره: بدلٌ ممّا قبله برعاية المعنى المذكور،..........

قولُه: (لإهْلَاكِ أَحَدٍ) قبلَكَ.

[قوله]: (ونداؤها مجازٌ) ونصبُها لطولِها بالجارِّ المتعلِّقِ بها[١].

قولُه: (أَوَانُكِ) وهو وقتُ استِهزائِهم بالرُّسُلِ.

قولُه: (سَبَبِها) أي: الحسْرَةِ.

قولُه: (لاشتِمَالِهِ) أي: المَسوقِ.

قولُه: (للتَّقرِيرِ) يعني: الاستفهامُ للإنكارِ، وإنكارُ النَّفي إثباتٌ.

قولُه: (لِمَا بَعْدَهَا) لأنَّ ﴿كَمْ﴾ لا يعملُ فيها ما قبْلَها وإن كانَتْ خبريَّةً؛ لأنَّ أصلها الاستفهامُ، وتكونُ الجملةُ مَعمولَ ﴿يَرَوا﴾ معنًى.

قولُه: (عنِ العَمَلِ) أي: لفظاً.

قولُه: (مِمَّا قَبْلَهُ) أي: من ﴿كَمْ﴾ على المعنى، فإنَّ عدمَ الرُّجوعِ والإهلاكِ واحدٌ، وهذا معنى قولِهِ: (برِعَايَةِ المَعنَى) أي: ألم يروا كثرَةَ إهلاكِنا مَن قَبلَهُم كونَهُم غيرَ راجعينَ إليهم.

---

(١) ما بين معكوفتين زيادة يقتضيها السياق، وكلمة «ونداؤها» في النسخ: «ونداؤه» وهو خلاف الجادة ومخالف للمتن، وقوله: «ونصبها لطُولها بالجار المتعلق بها» جواب ما يقال: ﴿يا حسرة﴾ مفرد، فكيف نُصب؟ فأجاب بأنه مُطوَّل؛ أي: شبيه بالمضاف. انظر: «حاشية زكريا الأنصاري على البيضاوي» (٤/ ٥٤٩).

وقول الأنصاري: «مفرد» لا يراد به مقابل الجمع، بل كونه ليس مضافا ولا شبيها بالمضاف، ولذلك قابله بقوله: «مطول» وشرحه بأنه الشبيه بالمضاف.

٣٢ـ ﴿وإنْ﴾: نافية أو مخففة ﴿كُلٌّ﴾ أي: كُلّ الخلائق: مبتدأ ﴿لَمّا﴾ بالتشديد بمعنى: إلاّ، وبالتخفيف فاللام: فارقة وما: مزيدة، ﴿جَمِيعٌ﴾: خبرُ المبتدأِ أي: مجموعون ﴿لَدَينا﴾: عِندنا في الموقف بعد بعثهم ﴿مُحضَرُونَ﴾ للحِساب: خبرٌ ثانٍ.

٣٣ ـ ٣٤ ـ ﴿وآيَةٌ لَهُمُ﴾ على البعث: خبرٌ مُقدّم ﴿الأرضُ المَيْتَةُ﴾، بالتخفيف والتشديد، ﴿أحيَيناها﴾ بالماء: مبتدأٌ، ﴿وأخرَجْنا مِنها حَبًّا﴾ كالحِنطة ـ ﴿فمِنهُ يأكُلُونَ ـ وجَعَلْنا فِيها جَنّاتٍ﴾: بساتينَ ﴿مِن نَخِيلٍ وأعنابٍ، وفَجَّرْنا فِيها مِنَ العُيُونِ﴾ أي: بعضَها،........

قولُه: (نَافِيَةٌ أو مُخَفَّفَةٌ) هذا لفٌّ.

قولُه: (أي: كُلُّ الخَلائِقِ) والنُّونُ عِوَضٌ عن المضافِ إليه.

قولُه: (بالتَّشدِيدِ) شاميٌّ وعاصمٌ وحمزةُ[١].

قولُه: (مَزِيدَةٌ) للتَّأكيدِ.

قولُه: (أي: مَجمُوعُونَ) فعيلٌ؛ بمعنى: مفعولٍ، و﴿لَدَيْنَا﴾ ظرفٌ له، أو لـ﴿مُحْضَرُونَ﴾ والأوَّلُ مختارُ الشَّيخِ، وجيءَ بـ﴿كُلٌّ﴾ و﴿جَمِيْعٌ﴾؛ لأنَّ كلًّا يفيدُ إحاطةَ الأفرادِ دونَ الجمْعِ، و﴿جَمِيْعٌ﴾؛ يفيدُ الاجتماعَ والتَّضامَّ.

قولُه: (والتَّشدِيدِ) نافعٌ[٢].

قولُه: (مُبتَدَأٌ) أي: ﴿الْأَرْضُ﴾ مبتدأٌ، و﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ صفةٌ لها إذ[٣] لم يُرِدْ بها معيَّنةً، فعومِلَت معاملةَ النَّكرَةِ في وصفِها بالفعلِ كقولِهِ:

ولقَــد أَمُــرُّ علــى اللئيــمِ يَسُــبُّني[٤]

قولُه: (كالحِنطَةِ) يعني: جنسَ الحَبِّ.

قولُه: (أي: بَعضَهَا) إشارةٌ إلى أنَّه مفعولٌ مقدَّرٌ، و﴿مِنْ﴾ للتَّبعِيضِ، أو التَّقديرُ: شيئاً من العُيونِ، فحُذِفَ الموصوفُ وأقيمَتِ الصِّفةُ مُقامَهُ، أو: العيونَ و﴿مِنْ﴾ مزيدةٌ عندَ الأخفشِ[٥].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٢٦).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٦).

(٣) في (ص): «إن».

(٤) البيت لرجل من سلول، كما في «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٢٤)، وعجزه:

فمضيــت ثُمَّــتَ قلــتُ لا يعنينــي

(٥) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٦٧).

٣٥ ـ ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ ـ بفتحتين وبضمّتين ـ أي: ثمر المذكور من النخيل والأعناب وغيرهما، ﴿وما عَمِلَتْهُ أيدِيهِم﴾ أي: لم تعملِ الثمرَ. ﴿أفلا يَشكُرُونَ﴾ أنعُمَه ـ تعالى ـ عليهم؟ ٣٦ ـ ﴿سُبحانَ الَّذِي خَلَقَ الأزواجَ﴾: الأصناف ﴿كُلَّها، مِمّا تُنبِتُ الأرضُ﴾ من الحُبوب وغيرها، ﴿ومِن أنفُسِهِم﴾ من الذُكور والإناث، ﴿ومِمّا لا يَعلَمُونَ﴾ من المخلوقات العجيبة الغريبة!

٣٧ ـ ﴿وآيةٌ لَهُمُ﴾ على القُدرةِ العظيمةِ ﴿اللَّيلُ، نَسلَخُ﴾: نفصِل ﴿مِنهُ النَّهارَ، فإذا هُم مُظلِمُونَ﴾: داخلون في الظلام، ٣٨ ـ ﴿والشَّمسُ تَجرِي﴾ إلى آخِره: من جملة الآية لهم، أو آيةٌ أُخرى، والقمرُ كذلك، ﴿لِمُستَقَرٍّ لَها﴾ أي: إليه لا تتجاوزه ـ........................

قولُه: (وبِضَمَّتَيْنِ) حمزةُ والكسائيُّ(١).

قولُه: (المَذكُورِ) أو اللهِ.

قولُه: (أي: لمْ تَعمَل) فـ﴿مَا﴾ نافيةٌ، أو ﴿مَا﴾ موصولةٌ عطفٌ على الثَّمرِ، والمرادُ: ما يُتَّخذُ منهُ كالعصيرِ والدِّبسِ، ويؤيِّدُ الثَّانيَ قراءةُ الكوفيين غيرِ حفصٍ بلا هاءٍ(٢)، فإنَّ حذفَهُ من الصِّلةِ أحسنُ من غيرِها، وفي قراءةِ ابنِ مسعودٍ(٣): (ومِمَّا عَمِلَتْه).

قولُه: (أَنعُمَهُ) أمَرَ بالشُّكرِ من حيثُ إنَّه إنكارٌ لتركِهِ.

قولُه: (وغَيْرِهَا) من الأشجارِ(٤) والأزهارِ.

قولُه: (نَفصِلُ) أو نُزِيلُ ونكشِفُ، مستَعارٌ مِن سلخِ الجِلْدَ.

قولُه: (مِنْ جُملَةِ الآيَةِ) فيعطَفُ على: ﴿اللَّيلُ﴾.

قولُه: (كَذلِكَ) يعني: بقراءةِ الرَّفعِ(٥).

قولُه: (إلَيهِ) لحدٌّ مُعيَّنٍ ينتَهي إليه دورُها من فَلَكِهِ في آخرِ السَّنَةِ، فشُبِّهَ بمستقَرِّ المسافرِ إذا قطعَ مسيرَهُ، فالمستقرُّ: اسمُ مكانٍ، أو لمنقطَعٍ(٦) جريِها عندَ خَرابِ العالَمِ، فالمستقرُّ: اسمُ زمانٍ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٥).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٤).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٥١٥).

(٤) في (ص): «الأثمار».

(٥) أي: القراءة بالرفع في قوله تعالى الآتي: ﴿والقمر﴾ وسيأتي تخريجها قريباً.

(٦) في النسخ: «والمنقطع» بدل: «أو لمنقطع» والتصويب من البيضاوي.

﴿ذلِكَ﴾ أي: جريها ﴿تَقدِيرُ العَزِيزِ﴾ في مُلكه ﴿العَلِيمِ﴾ بخلقه ـ ٣٩ ـ ﴿والقَمَرُ﴾، بالرفع والنصب وهو منصوب بفعل يُفسّره ما بعده، ﴿قَدَّرْناهُ﴾ من حيث سيرُه ﴿مَنازِلَ﴾ ثمانية وعشرين مَنزلاً في ثمان وعشرين ليلةً من كُلّ شهر، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يومًا، وليلةً إن كان تسعة وعشرين يومًا، ﴿حَتَّى عادَ﴾ في آخر منازله في رأيِ العين ﴿كالعُرجُونِ القَدِيمِ﴾ أي: كعُود الشَّماريخ،............

وفي حديثٍ أخرجَهُ الخمسَةُ عن أبي ذَرٍّ قالَ: سألْتُ النَّبيَّ ﷺ عن قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قالَ: «مستقرُّهَا تحتَ العرشِ»[1].

وفي روايةِ البخاريِّ: «تذهَبُ وتسجُدُ هناكَ»[2].

وإذا كانَ العرشُ كُرَةً محيطةً فتحتيَّتُها باعتبارِ مكانٍ خاصٍّ من العرْشِ، اللهُ ورسولُه أعلمُ.

وظاهرُ بعضِ الأحاديثِ دالٌّ على أنَّه قُبَّةٌ ذاتُ قوائمَ تحمِلُها الملائكةُ فوقَ هذا الجانبِ من الأرضِ، فحينئذٍ يكونُ وقتُ الظَّهيرَةِ أقربَ ما يكونُ إلى العرشِ، وفي نصفِ اللَّيلِ أبعدَ، فحينئذٍ تسجدُ وتستأذِنُ في الطُّلوعِ، والعَجَبُ من الشَّيخِ والقاضي معَ كثرةِ اطِّلاعِهِما لم يذكُرا هذا التَّفسيرَ المنسوبَ إلى مَن نزلَ عليه القرآنُ.

قولُه: (أي: جَرْيُهَا) الخاصُّ على هذا التَّقديرِ المتضمِّنِ للحِكَمِ الَّتي يعجَزُ الفَطِنُ عن إحصائها.

قولُه: (بالرَّفعِ) حِرْميٌّ وبصريٌّ[3].

قولُه: (مِنْ حَيْثُ سَيرُهُ) والأظهرُ: قدَّرْنا مسيرَهُ منازِلَ، أو: سَيْرَهُ في منازِلَ.

قولُه: (ويَستَتِرُ) وفي نسخةٍ: «يتسترُ» استفعالٌ مِن السَّترِ، ينزلُ كلَّ ليلةٍ في واحِدٍ منها لا يتخطَّاهُ ولا يتقاصَرُ عنه.

قولُه: (في آخِرِ مَنَازِلِهِ) وهو الَّذي يكونُ فيه قُبَيْلَ الاجتِماعِ.

قولُه: (في رَأْيِ العَينِ) وإلَّا ففي الحقيقةِ لا يَعْلَمُ بكُبْرِ الهلالِ إلَّا خالقُهُ.

قولُه: (كعُودِ الشَّمَارِيخِ) جمعُ الشِّمراخِ ـ بالكسرِ ـ: العثكالُ[4] عليه بُسْرٌ أو عنبٌ[5]، فقولُ القاضي: كالشِّمراخِ المعوجِّ[6]. فيه مسامَحَةٌ.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٣)، ومسلم (١٥٩)، وأبو داود (٤٠٠٢)، والترمذي (٢١٨٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٦٦).

(٢) رواه البخاري (٤٨٠٢).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٤٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٩).

(٤) هو العذق.

(٥) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٢٥٤).

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦٨).

إذا عتَق فإنه يَدِقُّ ويتقوّس ويصفرّ، ٤٠ ـ ﴿لا الشَّمسُ يَنبَغِي﴾: يسهُل ﴿لَها أن تُدرِكَ القَمَرَ﴾ فتجتمعَ معه في الليل، ﴿ولا اللَّيلُ سابِقُ النَّهارِ﴾ فلا يأتي قبل انقضائه، ﴿وكُلٌّ﴾ ـ تنوينه عِوَض من المضاف إليه، أي: الشمسِ والقمر والنجوم ـ ﴿في فَلَكٍ﴾: مُستدير ﴿يَسبَحُونَ﴾: يسيرون. نُزّلوا منزلةَ العُقلاء.

٤١ ـ ﴿وآيةٌ لَهُم﴾ على قُدرتنا ﴿أنّا حَمَلْنا ذُرِّيّتَهُم﴾ ـ وفي قراءة: «ذُرِّيّاتِهِم» ـ أي: آباءهم الأصول، ﴿في الفُلكِ﴾ أي: سفينة نُوح ﴿المَشحُونِ﴾: المملوء، ٤٢ ـ ﴿وخَلَقْنا لَهُم مِن مِثلِهِ﴾ أي: مِثلِ فُلك نُوح ـ وهو ما عملوه على شكله من السُّفن الصغار والكبار بتعليم الله ـ تعالى ـ ﴿ما يَركَبُونَ﴾ فيه، ٤٣ ـ ﴿وإن نَشَأْ نُغرِقْهُم﴾ مع إيجاد السُّفن، ﴿فلا صَرِيخَ﴾: مُغيثَ ﴿لَهُم، ولا هُم يُنقَذُونَ﴾: يُنجَون، ٤٤ ـ ﴿إلاّ رَحمةً مِنّا ومَتاعًا إلَى حِينٍ﴾ أي: لا نُنجيهم إلاّ لرحمتنا لهم وتمتيعنا إياهم بلذّاتهم إلى انقضاء آجالهم.

قولُه: (إذَا عَتَقَ) أي: يَبِسَ.

قولُه: (فتَجتَمِعَ) فتَطمِسَ نورَهُ.

قولُه: (والنُّجُومِ) فإنَّ ذكرَهُما مُشعِرٌ بها.

قولُه: (يَسِيرُونَ) سيراً سريعاً.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ[1].

قولُه: (آبَاءَهُمُ الأُصُولَ) يعني: وفي أصلابِهِم ذرِّيّتُهُم، وتخصيصُ الذُّرِّيّةِ لأنّه أبلغُ في الامتنانِ وأدخلَ في التَّعجيبِ مع الإيجازِ، أو: أولادَهُم الّذينَ يبعثونَهُم إلى تجاراتِهِم، فالمرادُ: السُّفُنُ مطلقاً.

قولُه: (فِيهِ) من الإبِلِ، فإنَّها سفائِنُ البَرِّ.

قولُه: (اتِّخَاذِ) وفي نسخةٍ: «إيجَادِ»[2].

قولُه: (مُغِيثَ) يحرسُهُم عن الغَرَقِ.

قولُه: (يُنجَونَ) من الموتِ.

قولُه: (أي: لا نُنجِيهِم) هذا حاصِلُ المعنى، والتَّقديرُ: أي: لا ينجونَ لجهةٍ إلَّا لرحمةٍ منّا وتَمتيعٍ بالحياةِ.

قولُه: (إلى انقِضَاءِ) أي: زمانٍ قُدِّرَ لآجالِهِم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٤٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٦٠٠).

(٢) وهكذا هي في نسخ المتن المعتمدة.

٤٥ ـ ﴿وإذا قِيلَ لَهُمُ: اتَّقُوا ما بَينَ أيدِيكُم﴾ من عذاب الدنيا كغيركم ﴿وما خَلفَكُم﴾ من عذاب الآخرة، ﴿لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ﴾. أعرضوا، ٤٦ ـ ٤٧ ـ ﴿وما تأتِيهِم مِن آيةٍ مِن آياتِ رَبِّهِم إلاّ كانُوا عَنها مُعرِضِينَ، وإذا قِيلَ﴾ أي: قال فُقراء الصحابة ﴿لَهُم: أنفِقُوا﴾ علينا ﴿مِمّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ من الأموال، ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ استهزاءً بهم: ﴿أنُطعِمُ مَن لَو يَشاءُ اللهُ أطعَمَهُ﴾ في مُعتقدكم؟ ﴿إنْ﴾: ما ﴿أنتُم﴾ في قولكم لنا ذلك مع مُعتقدكم هذا ﴿إلاّ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيِّنٍ. وللتصريح بكُفرهم موقعٌ عظيم.

٤٨ ـ ﴿ويَقُولُونَ: مَتَى هذا الوَعدُ﴾ بالبعث، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ فيه؟ ٤٩ ـ قال تعالى: ﴿ما يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إلاّ صَيحةً واحِدةً﴾، وهي نفخة إسرافيلَ الأُولى، ﴿تأخُذُهُم وهُم يَخَصِّمُونَ﴾ ـ بالتشديد أصله «يَختَصِمُونَ»، نُقلتْ حركة التاء إلى الخاء وأُدغمت في الصاد،........

قولُه: (كغَيْرِكُم) أي: من مِثْلِ الوقائعِ الَّتي ابتُلِيَتْ بها الأمَمُ المكذِّبَةُ بأنبيائِها، ونقلَ مُحيي السُّنَّةِ[1] عنِ ابنِ عبَّاسٍ: إنَّ ﴿ما بينَ أيديكُمْ﴾ الآخرةُ؛ يعني: اعمَلوا لها، ﴿ومَا خلفَكُم﴾ أي: الدُّنيا؛ يعني: احذَروها، ولا تغترُّوا بها.

قولُه: (أَعرَضُوا) أي: عنهُ، جوابُ ﴿إذا﴾ دَلَّ عليه ما بعدَهُ.

قولُه: (قَالَ فُقَرَاءُ الصَّحَابَةِ) أو: أُمِروا بالإنفاقِ على فقَراءِ الصَّحابةِ.

قولُه: (عَلَيْنا) أو: عليهِم، أو: على مَحاويجِكُم.

قولُه: (استِهْزَاءً بِهِم) أو إيماءً بأنَّ اللهَ لمَّا كانَ قادراً أن يطعمَهُم ولم يطعمْهُم فنحنُ أحَقُّ بذلك؛ أي: فمَن لم يرزقْهُ اللهُ مع قُدرَتِهِ لا نعطيهِ؛ لنوافِقَ مشيئةَ اللهِ، وهذا من فَرْطِ جهالَتِهِم، فإنَّ اللهَ يُطْعِمُ بأسبابٍ: منها حثُّ الأغنياءِ على إطعامِ الفقراءِ وتوفيقُهم له.

قولُه: (في مُعتَقَدِكُم) هذا يشيرُ إلى أنَّ الكفَّارَ معطِّلةٌ كانوا بمكَّةَ، وقولُهُم هذا تهكُّمٌ بهم من إقرارِهِم بالصَّانعِ وتعليقِهِمُ الأمرَ بمشيئتِهِ.

قولُه: (بيِّنٍ) حيثُ أمَرتُمونا بما يخالِفُ مشيئةَ اللهِ، أو بالإنفاقِ على مَن أرادَ اللهُ.

قولُه: (وللتَّصْريحِ) بوضعِ المُظهَرِ موضِعَ المضمَرِ في: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

قولُه: (إلى الخَاءِ) حرميٌّ وبصريٌّ وهشامٌ، لكن أخفى الحركةَ قالونُ والبصريُّ[2].

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٤/ ١٥).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٤).

أي: وهم في غفلة عنها بتخاصُم وتبايُع وأكل وشرب وغير ذلك. وفي قراءة: «يَخْصِمُون» كيَضْرِبُونَ، أي: يخصِم بعضُهم بعضًا ـ ٥٠ ـ ﴿فلا يَستَطِيعُونَ تَوصِيَةً﴾ أي: أن يُوصُوا، ﴿ولا إلَى أهلِهِم يَرجِعُونَ﴾ من أسواقهم وأشغالهم بل يموتون فيها.

٥١ ـ ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ﴾ ـ هو قرنٌ ـ النفخةَ الثانية للبعث، وبين النفختين أربعون سنة، ﴿فإذا هُم﴾ أي: المقبورون ﴿مِنَ الأجداثِ﴾: القُبور ﴿إلَى رَبِّهِم يَنسِلُونَ﴾: يخرجون بسرعة. ٥٢ ـ ﴿قالُوا﴾ أي: الكُفّار منهم: ﴿يا﴾ للتنبيه ﴿وَيلَنا﴾: هلاكَنا ـ وهو مصدر لا فِعل له من لفظه ـ ﴿مَن بَعَثَنا مِن مَرقَدِنا﴾؟ لأنهم كانوا بين النفختين نائمين، لم يُعذّبوا. ﴿هذا﴾ أي: البعث ﴿ما﴾ أي: الذي ﴿وَعَدَ﴾ به ﴿الرَّحمنُ، وصَدَقَ﴾ فيه ﴿المُرسَلُونَ﴾ ....

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ، والباقونَ بكسْرِ الخاءِ وتَشديدِ الصَّادِ بقَلبِ التَّاءِ صاداً وإدغامِها في مثلِها، ثمَّ كَسرِ الخاءِ لالتِقاءِ السَّاكنَينِ[1]، وقولُ القاضي: وروى أبو بكرٍ بكسرِ الياءِ للإتْباعِ[2]. محمولٌ على الشَّاذِّ[3].

قولُه: (أَنْ يُوْصُوا) في شيءٍ مِن أمورِهِم توصيةً، كذا في «المدارِكِ»[4]، ولعلَّ فيه إشارةً إلى أنَّ ما بعدَهُ عَطفٌ على المنفيِّ لا النَّفي؛ أي: ولا يتمَكَّنونَ من الرُّجوعِ إلى بيوتِهِم.

قولُه: (فِيهَا) أي: في زمانِ الصَّيحةِ ومكانِها.

قولُه: (النَّفخَةَ) منصوبٌ.

قولُه: (للتَّنْبِيهِ) الصَّحيحُ: للنِّداءِ؛ أي: يا وَيْلنا تعالَ فهذا أوانُكَ.

قولُه: (نَائِمِينَ) يحسَبونَ أنَّهم نِيامٌ.

قولُه: (لَمْ يُعَذَّبُوا) ولعلَّهُم يُغشى عليهم بالنَّفخَةِ الأولى الَّتي لموتِ العالَمِ، ثمَّ يحصلُ لهم الإفاقَةُ بالأخرى، فظنُّوا أنَّهم كانوا نائمينَ.

قولُه: (بِهِ) يعني: الرَّاجعُ إلى الموصولِ محذوفٌ، يقالُ: وعدَهُ ربه[5].

قولُه: (فيهِ) نحوَ: صَدَقُوا القتالَ والحديثَ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٧٠).

(٣) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٠٠).

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ١٠٧).

(٥) «وعده ربه» كذا في النسخ، ولعل الصواب: (وعده به).

أقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار، وقيل: يقال لهم ذلك. ٥٣ ـ ٥٤ ـ ﴿إن﴾: ما ﴿كانَت إلاّ صَيحةً واحِدةً، فإذا هُم جَمِيعٌ لَدَينا﴾: عِندنا ﴿مُحضَرُونَ. فاليَومَ لا تُظلَمُ نَفسٌ شَيئًا! ولا تُجزَونَ إلاّ﴾ جزاءَ ﴿ما كُنتُم تعمَلُونَ﴾.

٥٥ ـ ﴿إنّ أصحابَ الجَنّةِ اليَومَ في شُغُلٍ﴾ ـ بسكون الغين وضمّها ـ عمّا فيه أهل النار ممّا يتلذّذون به كافتضاض الأبكارِ، لا شُغلٍ يتعبون فيه لأنّ الجنّة لا نصبَ فيها، ﴿فاكِهُونَ﴾: ناعِمون، خبرٌ ثانٍ لـ«إنّ»، والأوّل: في شُغل، ٥٦ ـ ﴿هُم﴾: مبتدأ ﴿وأزواجُهُم في ظِلالٍ﴾: جمع ظُلّة أو ظِلّ، خبرٌ، أي: لا تُصيبُهم الشمس،

قولُه: (أَقَرُّوا) يعني: أنَّهُ من كَلامِهم، رَدًّا على أنفُسِهم وتحَسُّراً.

قولُه: (وقِيْلَ: يُقَالُ) أنَّهُ جوابُ الملائكةِ أو المؤمنينَ عن سُؤالِهم.

قولُه: (بسُكُونِ الغَينِ) حرميٌّ وبصريٌّ[١].

قولُه: (كافْتِضَاضِ) القِضَّةُ ـ بالكسْرِ ـ: عُذرَةُ المرأةِ: بَكارتُها[٢]، سُئِلَ بعضُهم عن قولِ النَّبيِّ ﷺ: «أكثرُ أهلِ الجنَّةِ البُلْهُ»[٣] فقال: مَن رَضِيَ مِن اللهِ بالجنَّةِ.

قولُه: (نَاعِمُونَ) متلذِّذونَ في النِّعمةِ من الفاكِهةِ[٤]، وقولُه: ﴿اليَومَ﴾ يومَ القيامةِ بعد دخولِ الجنَّةِ.

قولُه: (جَمْعُ: ظُلَّةٍ) كقِبابٍ، ويؤيِّدُه قراءَةُ حمزةَ والكسائيِّ: (في ظُلَلٍ)[٥].

قولُه: (أو ظِلٍّ) كشِعابٍ.

قولُه: (لا تُصِيْبُهُم) فيه: أن لا شمسَ في الجنَّةِ وإنَّما هي أنوارٌ، وقد يحمَلُ على هذا، أو يُقالُ: المرادُ: شمسُ الموقِفِ، فهم في ظلالٍ من أشجارِ الجنَّةِ وقُصورِها.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٤).

(٢) انظر: «المصباح المنير» (٢/ ٥٠٧).

(٣) رواه البزار في «مسنده» (٦٣٣٩)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٩٨٢)، والقضاعي في «مسنده» (٩٨٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٠٤)، من حديث أنس بن مالك رَضِي الله عنه. ورواه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٥٥٨) من حديث جابر، و(١٥٥٩) من حديث أنس، وقال: لا يصحان.

والبُلْهُ: جمعُ الأبلهِ، وهو الغافلُ عن الشرِّ المطبوعُ على الخيرِ، وقيل: هم الذين غلبت عليهم سلامةُ الصدور وحسنُ الظنِّ بالناسِ؛ لأنهم أغفلوا أمرَ دُنياهم فجهلوا حذق التصرُّف فيها وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفُسَهم بها؛ فاستحقُّوا أن يكونوا أكثرَ أهل الجنة؛ فأما الأبلهُ ـ وهو الذي لا عقلَ له ـ فغيرُ مرادٍ في الحديثِ. انظر: «النهاية» (مادة: بله).

(٤) كذا في النسخ، وعند البيضاوي: «الفكاهة»، وقال الشهاب في «الحاشيه على تفسير البيضاوي» (٧/ ٢٤٦): قوله [أي: البيضاوي]: «من الفكاهة» بالضم: وهي التمتع والتلذذ، مأخوذ من الفاكهة، وقد يكون بمعنى: التحدث بما يَسرُّ.

(٥) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٤).

﴿عَلَى الأرائكِ﴾: جمع أريكة ـ وهو السريرُ في الحَجَلة، أو الفرشُ فيها ـ ﴿مُتَّكِئُونَ﴾: خبرٌ ثانٍ مُتعلَّقُ «على»، ٥٧ ـ ﴿لَهُم فِيها فاكِهةٌ، ولَهُم﴾ فيها ﴿ما يَدَّعُونَ﴾: يتمنَّون، ٥٨ ـ ﴿سَلامٌ﴾: مبتدأٌ ﴿قَولاً﴾ أي: بالقول، خبرُه: ﴿مِن رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ بهم، أي: يقول لهم: سلام عليكم.

٥٩ ـ ﴿و﴾ يقول: ﴿امتازُوا اليَومَ، أيُّها المُجرِمُونَ﴾ أي: انفردوا عن المؤمنين. عِند اختلاطهم بهم. ٦٠ ـ ﴿أَلَم أعهَدْ إلَيكُم﴾: آمُرْكم ـ ﴿يا بَنِي آدَمَ﴾ ـ على لِسان رُسلي: ﴿أن لا تَعبُدُوا الشَّيطانَ﴾: لا تُطيعوه ـ ﴿إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: بيِّنُ العداوة ـ ٦١ ـ ٦٢ ـ ﴿وأنِ اعبُدُونِي﴾: وحِّدوني وأطيعوني. ﴿هذا صِراطٌ﴾: طريق ﴿مُستَقِيمٌ؟ ولَقَد أَضَلَّ مِنكُم جُبْلاً﴾: خَلقًا جمعُ جَبيل كقَديم ـ وفي قراءة بضمّ الباء ـ ﴿كَثِيرًا. أفلَم تَكُونُوا تَعقِلُونَ﴾ عداوتَه وإضلاله، أو ما حلّ بهم من العذاب، فتُؤمنون؟ ويقال لهم في الآخرة: ٦٣ ـ ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُم تُوعَدُونَ﴾ بها.........................

قولُه: (في الحَجَلَةِ) بالفتحِ والتَّحريكِ، واحدُ حِجالِ العرُوسِ: بيتٌ يزيَّنُ بالثِّيابِ[1].

قولُه: (مُتَعَلَّقُ) بالفتحِ والإضافةِ.

قولُه: (يَتَمَنَّونَ) قالَ الإمامُ: أي: لهم كلُّ ما يطلبُهُ أحدٌ لنفسِهِ، لا أنَّهُم يطلبونَ فإنَّه حاصلٌ، أو: لهم الطَّلبُ والإجابةُ؛ لأنَّ الغِبطَةَ بالإجابةِ توجِبُ اللَّذَّةَ بالطَّلبِ، فإنَّه مَرْتبَةٌ سنيَّةٌ[2]، كذا في «الكشفِ»، لكن ليسَ المرادُ أنَّه هنالكَ طَلبٌ وانتظارُ إجابةٍ، بل الطَّلبُ بلسانِ القالِ أو الحالِ مقرونٌ بحصولِ الأمانيِّ والآمالِ في الحالِ.

قولُه: (مُبتَدَأٌ) أو بدلٌ من ﴿ما﴾، أو صفةٌ أخرى، أو مبتدأٌ محذوفُ الخبَرِ؛ أي: ولهم سلامٌ.

قولُه: (أيْ: بالقَولِ) الظَّاهرُ: أنَّه منصوبٌ على المصدريَّةِ، و﴿مِنْ﴾ صفةٌ له؛ أي: يقولُ اللهُ، أو يقالُ لهم قولاً كائناً من جهتِهِ، والمعنى: أنَّ اللهَ يسلِّمُ عليهم بواسطَةِ الملائكةِ، أو بغيرِ واسطةٍ تعظيماً لهم، وذلك مطلوبُهُم ومتمنَّاهُم، بل غايةُ مُناهُم، ويحتملُ نصبهُ على الاختصاصِ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لمكيٍّ وحمزةَ والكسائيِّ[3].

قولُه: (بِضَمِّ البَاءِ) أي: معَ تخفيفِ اللَّامِ، وأمَّا نافعٌ وعاصمٌ فبكسرِ الجيمِ والباءِ وتشديدِ اللَّامِ[4]، والكلُّ لغاتٌ بمعنى: الطَّائفةِ والجماعةِ.

---

(١) انظر: «الصحاح» (٤/ ١٦٦٧).

(٢) بمعناه في «تفسير الرازي» (٢٦/ ٢٩٥).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٤٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٦٠٢).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٤٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٦٠١).

٦٤ ـ ٦٥ ـ ﴿اصلَوها اليَومَ بِما كُنتُم تكفُرُونَ. اليَومَ نَختِمُ علَى أفواهِهِم﴾ أي: الكُفّارِ، لقولهم: «واللهِ رَبِّنا ما كُنّا مُشرِكِينَ»، ﴿وتُكَلِّمُنا أيدِيهِم وتَشهَدُ أرجُلُهُم﴾ وغيرها ﴿بِما كانُوا يَكسِبُونَ﴾. فكُلّ عُضو ينطِق بما صدر منه.

٦٦ ـ ﴿ولَو نَشاءُ لَطَمَسْنا علَى أعيُنِهِم﴾: لأعمَيناهم طمْسًا، ﴿فاستَبَقُوا﴾: ابتدروا ﴿الصِّراطَ﴾: الطريق ذاهبين كعادتهم، ﴿فأنّى﴾: فكيف ﴿يُبصِرُونَ﴾ حينئذٍ؟ أي: لا يبصرون، ٦٧ ـ ﴿ولَو نَشاءُ لَمَسَخْناهُم﴾ قِردةً وخنازير أو حِجارة ﴿علَى مَكانَتِهِم﴾ ـ وفي قراءة: «مَكاناتِهِم» جمع مكانة بمعنى مكان ـ أي: في منازلهم، ﴿فما استَطاعُوا مُضِيًّا ولا يَرجِعُونَ﴾ أي: لم يقدروا على ذهاب ولا مجيء، ٦٨ ـ ﴿ومَن نُعَمِّرْهُ﴾ بإطالة أجله ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ ـ..........

قولُه: (أيْ: الكُفّارِ) بمَنعِها عنِ التَّكَلُّمِ.

قولُه: (يَنطِقُ) بإنطاقِ اللهِ إيّاها، أو بظُهورِ آثارِ المعاصي عليها ودلالتِها على أفعالِها.

قولُه: (﴿لطَمَسْنَا﴾) أي: لمسخْنا أعينَهم، بالمهملةِ.

قولُه: (ابْتَدَرُوا) إشارةٌ إلى أنَّ نصبَ ﴿الصِّرَاطَ﴾ بتَضمينِ الاستباقِ معنى الابتِدارِ، كذا في «الكشّافِ»[1] والبيضاويِّ[2]، وذكَرَ في «الأساسِ» في قِسْمِ الحقيقةِ: ﴿اسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ [٦٦] ابتَدَروها[3]، فلا تضمينَ، وقيلَ: بنَزعِ الخافِضِ؛ يعني: «إلى».

قولُه: (أيْ: لا يُبصِرُونَ) الطَّريقَ وجهَةَ السُّلُوكِ فضلاً عن غيرِهِ، و﴿أنّى﴾ بمعنى: كيفَ، إنكارٌ فيفيدُ النَّفيَ.

قولُه: (أو حِجَارَةً) أو: أزمَنّاهُم، أو: بتغييرِ صوَرِهِم وإبطالِ قواهُم.

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) لشعبةَ[4].

قولُه: (أيْ: لَمْ يَقدِرُوا) حلٌّ للمعنى، والتَّقديرُ: ما استَطاعوا ذَهاباً ولا رُجوعاً، فوُضِعَ الفعلُ موضعَهُ للفواصِلِ، والمعنى: أنَّهم بكُفرِهم ونقضِهِم ما عُهِدَ إليهم أحقّاءُ بأن نفعلَ بهم الطَّمْسَ والمَسْخَ، ونحن قادِرونَ، لكنَّا لم نفعَلْ لشُمولِ الرَّحمَةِ لهم، واقتضاءِ الحكمَةِ إمهالَهُم.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٤).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٧٢).

(٣) انظر: «أساس البلاغة» (١/ ٤٣٥).

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٥٤٢).

وفي قراءة: «نُنَكِّسْهُ» بالتشديد من التنكيس ـ ﴿في الخَلقِ﴾ أي: خلقِه، فيكون بعد قُوّته وشبابه ضعيفًا وهرِمًا. ﴿أفلا يَعقِلُونَ﴾ أنّ القادر على ذلك المعلومِ عِندهم قادر على البعث، فيُؤمنون؟ وفي قراءة بالتاء.

٦٩ ـ ﴿وما عَلَّمْناهُ﴾ أي: النبيَّ ﴿الشِّعرَ﴾، ردٌّ لقولهم: «إنّ ما أتى به من القُرآن شِعرٌ»، ﴿وما يَنبَغِي﴾ يَتسهّل ﴿لَهُ﴾ الشِّعرُ. ﴿إنْ هُوَ﴾: ليس الذي أتى به ﴿إلاّ ذِكرٌ﴾: عِظة، ﴿وقُرآنٌ مُبِينٌ﴾: مُظهِرٌ للأحكام وغيرها، ٧٠ ـ ﴿لِيُنذِرَ﴾ ـ بالياء والتاء ـ به ﴿مَن كانَ حَيًّا﴾ يعقِل ما يُخاطَب به وهم المؤمنون، ﴿ويَحِقَّ القَولُ﴾ بالعذاب ﴿علَى الكافِرِينَ﴾، وهم كالميتين لا يعقلون ما يُخاطَبون به.

٧١ ـ ﴿أوَلَم يَرَوا﴾: يعلموا ـ والاستفهام للتقرير والواو........................

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لعاصِمٍ وحمزةَ(١).

قولُه: (مِنَ التَّنْكِيسِ) وهو أبلغُ، والنَّكْسُ أشهَرُ.

قولُه: (على البَعْثِ) أو على الطَّمسِ والمَسخِ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وابنِ ذَكْوانَ(٢).

قولُه: (بالتَّاءِ) للخِطابِ.

قولُه: (﴿الشِّعْرَ﴾) أي: إن أرادَهُ وقصدَهُ، وما صَدَرَ عنه من الكلماتِ الموزونَةِ فإنَّها اتفاقيَّةٌ، وقيلَ: الضَّميرُ للقرآنِ؛ أي: وما يصِحُّ للقرآنِ أن يكونَ شِعْراً.

قولُه: (عِظَةٌ) وإرشادٌ من اللهِ.

قولُه: (مُظْهِرٌ) أو: ظاهرٌ أنَّه ليسَ من كَلامِ البَشرِ لما فيه من الإعجازِ.

قولُه: (باليَاءِ) أي: القرآنُ، أو الرَّسولُ ويؤيِّدُهُ قراءةُ نافعٍ وابنِ عامرٍ بالخطابِ(٣).

قولُه: (بِهِ) يتعيَّنُ في الخِطابِ، ويُحتَمَلُ في الغيبَةِ.

قولُه: (يَعقِلُ) فإنَّ الغافِلَ كالميِّتِ، أو: مؤمناً في عِلمِ اللهِ، فإنَّ الحياةَ الأبديَّةَ بالإيمانِ.

قولُه: (وهُمُ المُؤمِنونَ) لأنَّهم هم المنتَفِعونَ.

قولُه: (العَذَابُ) أي: تجِبَ كلمةُ العَذابِ.

قولُه: (عَلَيْهَا)(٤) أي: على الهمزةِ دُخولاً أوَّليًّا، فإنَّ في الأصلِ كان الواو مقدَّماً، ثمَّ لصدارَةِ الاستفهامِ تأخَّرَ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٥).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٤٣).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٥)، و«السبعة في القراءات» (ص: ٥٤٤).

(٤) قوله: «عليها» ليست في المتن، ولعل عبارة سقطت من نسخ المتن وثبتت في نسخ المؤلف منها الكلمة المذكورة، والمراد بها الكلام على اجتماع الاستفهام والعطف في ﴿أولم﴾ مع تقديم الاستفهام على العطف.

للعطف ـ ﴿أنَّا خَلَقْنا لَهُم﴾ في جُملة الناس، ﴿مِمّا عَمِلَتْ أيدِينا﴾ أي: عمِلْناه بلا شريك ولا مُعين، ﴿أنعامًا﴾ هي الإبل والبقر والغنم ـ ﴿فهُم لَها مالِكُونَ﴾: ضابطون ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ﴿وذَلَّلْناها﴾: سخّرناها ﴿لَهُم، فمِنها رَكُوبُهُم﴾: مركوبهم ﴿ومِنها يأكُلُونَ، ولَهُم فِيها مَنافِعُ﴾ كأصوافها وأوبارها وأشعارها ﴿ومَشارِبُ﴾ من لبنها: جمعُ مَشرَب بمعنى شُربٍ أو موضعِه؟ ﴿أفلا يَشكُرُونَ﴾ المُنعِم عليهم بها فيُؤمنون؟ أي: ما فعلوا ذلك.

٧٤ ـ ﴿واتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه أصنامًا ﴿آلِهةً﴾ يعبدونها، ﴿لَعَلَّهُم يُنصَرُونَ﴾: يُمنعون من عذاب الله بشفاعة آلهتهم بزعمهم. ٧٥ ـ ﴿لا يَستَطِيعُونَ﴾ أي: آلهتُهم ـ نُزّلوا منزلةَ العقلاء ـ ﴿نَصْرَهُم، وهُم﴾ أي: آلهتُهم من الأصنام ﴿لَهُم جُندٌ﴾ بزعمهم نصرَهم،........

وقولُه: (للعَطْفِ) أي: على الجُمَلِ السَّابقةِ.

أو المرادُ: على الجُملَةِ المنفيَّةِ بعد الاستفهامِ، وقولُه: (للعَطْفِ) يعني: على مُقَدَّرٍ، تقديرُهُ: ألم يتفكَّروا، ولم يعلموا.

قولُه: (هِيَ الإِبِلُ) خَصَّها بالذِّكرِ؛ لما فيها مِن بدائِعِ الفِطرَةِ، وكثْرَةِ المنافِعِ.

قولُه: (ضَابِطُونَ) أي: متمَكِّنونَ من ضَبطِها، قالَ[1]:

أصبَحْتُ لا أحْمِلُ السِّلاحَ ولا ... أمْلِكُ رأسَ البَعيرِ إنْ نفَرا

أي: لا أضبطُهُ.

وقيلَ: متملِّكونَ.

قولُه: (سَخَّرْنَاهَا) أي: صَيَّرناها منقادَةً.

قولُه: (مَركُوبُهُم ﴿وَمِنْها﴾) ما يأكلونَ لحمَهُ.

قولُه: (كأَصْوافِهَا) وجُلودِها.

قولُه: (شُرْبٍ) بالتَّثليثِ، مصدَرٌ.

قولُه: (أي: مَا فَعَلُوا) فالاستِفهامُ للإنكارِ، وهو يفيدُ النَّفيَ، وقدَّرَهُ ليعطفَ عليه: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾.

قولُه: (بزَعْمِهِم) والأمرُ بالعَكسِ.

قولُه: (بزَعْمِهِم) أي: الكفَّارِ.

---

(١) نسبه سيبويه في «الكتاب» (١/ ٨٩) للربيع بن ضبُع الفزاري.

﴿مُحضَرُونَ﴾ في النار معهم. ٧٦ ـ ﴿فلا يَحزُنْكَ قَولُهُم﴾ لك: «لَستَ مُرسَلاً» وغيرَ ذلك. ﴿إنّا نَعلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعلِنُونَ﴾ من ذلك وغيره فنُجازيهم عليه.

٧٧ ـ ﴿أوَلَم يَرَ الإنسانُ﴾ يعلمْ ـ وهو العاصِ بنُ وائل ـ ﴿أنّا خَلَقْناهُ مِن نُطفَةٍ﴾ مَنِيٍّ إلى أن صيَّرناه شديدًا قويًّا، ﴿فإذا هُوَ خَصِيمٌ﴾: شديد الخُصومة لنا ﴿مُبِينٌ﴾: بيِّنُها في نفي البعث؟ ٧٨ ـ ﴿وضَرَبَ لَنا مَثَلاً﴾ في ذلك، ﴿ونَسِيَ خَلْقَهُ﴾ من المَنِيِّ، وهو أغرب من مَثله، ﴿قالَ: مَن يُحيِي العِظامَ، وهْيَ رَمِيمٌ﴾ أي: بالية؟ ولم يقل بالتاء لأنه اسم لا صِفة. رُوي أنه أخذ عظمًا رميمًا ففتّته، وقال للنبيّ: أتَرَى يُحيي اللهُ هذا بعدَ ما بَلِيَ ورَمَّ؟ فقال ﷺ: «نَعَمْ ويُدخِلُكَ النّارَ».

٧٩ ـ ﴿قُلْ: يُحيِيها الَّذي أنشَأَها أوَّلَ مَرّةٍ، وهْوَ بِكُلِّ خَلقٍ﴾ أي: مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ مُجمَلاً ومُفصَّلاً قبل خلقه وبعد خلقه، ٨٠ ـ ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُم﴾ في جُملة الناس ﴿مِنَ الشَّجَرِ الأخضَرِ﴾: المَرْخ والعَفار

قولُه: (مَعَهُم): لعَذابِهم؛ لأنَّهم يُجعَلون وقودَ النَّارِ، هذا قولُ «الكشَّافِ»[1].

أو المعنى: أنَّ الكفَّارَ لآلهتِهم جنْدٌ محضَرونَ في الدُّنيا يَغضَبونَ للآلهةِ ويحفَظونَها، وهو قولُ أكثرِ السَّلفِ[2].

قولُه: (هُو العَاصِ) أو أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ.

قولُه: (فِي ذَلِكَ) أي: أمراً عجيباً، وهو نَفيُ القُدرَةِ على إحياءِ الموتى.

قولُه: (لأنَّهُ اسمٌ) بالغلبَةِ، وقيلَ: فعيلٌ بمعنى: مفعولٍ، من رممتُه.

قولُه: (رَمِيْماً) ظاهِرُه الوصفيَّةُ.

قولُه: (في جُملَةِ النَّاسِ) يعني: الخطابُ للعرَبِ، أو لأهلِ مكَّةَ.

قولُه: (المَرْخِ) بفتحِ الميمِ وسكونِ الرَّاءِ والخاءِ المعجمةِ، شجَرٌ سريعُ الوَرْيِ؛ أي: القَدْحِ.

قولُه: (والعَفَارِ) بفتحِ العينِ المهملةِ وفاءٍ، وراءٍ بعدَ ألفٍ: الزَّنْدُ وهو الأعلى، والمرخُ: الزَّندةُ وهي السُّفلى، قالَهُ الجوهريُّ[3]، لكن عكسَ الزَّمخشريُّ ذلك[4].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٩).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٥٥٢).

(٣) انظر: «الصحاح» (١/ ٤٣١).

(٤) في «الكشاف» (٤/ ٤٦٧): ويسمون الأعلى: الزند، والأسفل: الزندة.

أو كُلّ الشجر إلاّ العُنّاب ﴿نارًا، فإذا أنتُم مِنهُ تُوقِدُونَ﴾: تَقدحون. وهذا دالّ على القُدرة على البعث، فإنه جمع فيه بين الماء والنار والخشب، فلا الماءُ يُطفئ النار، ولا النارُ تُحرق الخشب.

٨١ ـ ﴿أوَلَيسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ﴾ مع عِظمهما ﴿بِقادِرٍ علَى أن يَخلُقَ مِثلَهُم﴾ أي: الأناسيِّ في الصِّغر؟ ﴿بَلَى﴾ أي: هو قادر على ذلك ـ أجاب نفسَه ـ ﴿وهُوَ الخَلاّقُ﴾: الكثير الخلق ﴿العَلِيمُ﴾ بكُلّ شيء. ٨٢ ـ ﴿إنَّما أمرُهُ﴾: شأنه، ﴿إذا أرادَ شَيئًا﴾ أي: خَلْقَ شيء، ﴿أن يَقُولَ لَهُ: كُنْ. فيَكُونُ﴾، أي: فهو يكون. وفي قراءة بالنصب عطفًا على «يقولَ». ٨٣ ـ ﴿فسُبحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ﴾: مُلكُ، زيدت الواو والتاء للمبالغة، أي: القُدرةُ على ﴿كُلِّ شَيءٍ، وإلَيهِ تُرجَعُونَ﴾: تُردُّون في الآخرة!

قولُه: (أو كُلِّ شَجَرٍ) والمرادُ: الزِّنادُ الَّتي توري بها الأعرابُ، وأكثرُها مِنْ شجرِ المَرْخِ والعَفارِ الخَضراوَينِ.

قولُه: (تَقْدَحُونَ) بأن يُسحقَ المَرْخُ على العَفارِ، وهما خَضراوانِ يقطرُ منهما الماءُ، فتنقدِحُ منهُ النَّارُ.

قولُه: (عِظَمِهِمَا) جِرْماً وشَأناً.

قولُه: (في الصِّغَرِ) والحقارَةِ بالإضافةِ إليهما، فإنَّ خَلْقَ الصَّغيرِ أسهلُ عندَكُم.

قولُه: (أجَابَ نَفْسَهُ) لتقريرِ ما بعدَ النَّفيِ، مُشْعِراً بأنَّهُ لا جوابَ سِواهُ.

قولُه: (﴿فَيَكُونُ﴾) أي: يَحدُثُ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) للشَّاميِّ والكسائيِّ[1].

قولُه: (على ﴿يَقُولَ﴾) ومعنى يقول كنْ: يُكوِّنُه، فهو تمثيلٌ لتأثيرِ قدرتِهِ تعالى في مرادِهِ بأمرِ المطاعِ للمُطيعِ في حصولِ المأمورِ من غَيرِ امتناعٍ وتوقُّفٍ وافتقارٍ إلى مزاولةِ عملٍ واستعمالِ آلةٍ قَطْعاً لمادَّةِ الشُّبهةِ، وهي قياسُ قُدْرةِ اللهِ على قُدْرةِ الحقِّ.

قولُه: (تُرَدُّونَ) وَعدٌ ووعيدٌ للمُقِرِّينَ والمنكِرينَ، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٤٤).

سورة يس

صحَّ من حديث الإمامِ أحمدَ وأبي داودَ والنَّسائيِّ وابنِ ماجه والطبرانيِّ وغيرِهم عن مَعقل بن يسارٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «يس قلبُ القرآن»[1] وعدَّ ذلك أحدَ أسمائها.

وبيَّن حجَّة الإسلامِ الغزاليُّ عليه الرحمةُ وجهَ إطلاق ذلك عليها بأنَّ المدارَ على الإيمان، وصحَّتُه بالاعتراف بالحشر والنَّشر، وهو مقرَّر فيها على أبلغِ وجهٍ وأحسنِه؛ ولذا شبِّهت بالقلب الذي به صحَّةُ البدنِ وقِوامُه. واستحسنه الإمامُ الرازي[2].

وأُورد على ظاهره أنَّ كلَّ ما يجب الإيمانُ به لا يصحُّ الإيمانُ بدونه، فلا وجهَ لاختصاص الحشرِ والنشرِ بذلك.

وأُجيب بأنَّ المرادَ بالصحَّة في كلام الحجَّةِ ما يقابل السقمَ والمرض، ولا شكَّ أنَّ مَن صحَّ إيمانُه بالحشر يخاف من النَّار، ويرغب في الجنة دارِ الأَبرار، فيرتدع عن المعاصي التي هي كأَسقام الإيمان؛ إذ بها يختلُّ ويضعف، ويشتغل بالطَّاعات التي هي كحفظ الصحَّة، ومَن لم يقوَ إيمانُه به كان حالُه على العكس، فشابه الاعتراف به بالقلب الذي بصلاحه يصلحُ البدنُ وبفساده يفسد.

وجوِّز أن يقال: وجهُ الشبهِ بالقلب أنَّ به صلاحَ البدنِ وفسادَه، وهو غيرُ مشاهدٍ في الحسّ، وهو محلٌّ لانكشاف الحقائقِ والأمورِ الخفيَّة، وكذا الحشرُ من المغيَّبات، وفيه يكون انكشافُ الامور، والوقوفُ على حقائق المقدور، وبملاحظته

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٣٠٠)، وإسناده ضعيف، وسلف ١/ ٣٢١.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ١١٣.

وإصلاح أسبابِه تكون السعادةُ الأبدية، وبالإعراض عنه وإفسادِ أسبابِه يُبتلَى بالشَّقاوة السَّرمدية.

وفي «الكشف»: لعلَّ الإشارةَ النبويَّة في تسمية هذه السورةِ قلباً ـ وقلبُ كلِّ شيءٍ: لبُّه وأصلُه، الذي ما سواه إمَّا من مقدِّماته وإمَّا من متمِّماته ـ إلى ما أسلفناه في تسمية «الفاتحةِ» بأمِّ القرآنِ من أنَّ المقصودَ من إرسال الرُّسل وإنزالِ الكتب إرشادُ العباد إلى غايتهم الكماليةِ في المعاد، وذلك بالتحقُّق والتخلُّقِ المذكورَين هنالك، وهو المعبَّر عنه بسلوك الصراطِ المستقيم، ومدارُ هذه السورةِ الكريمةِ على بيان ذلك أتمَّ بيان. اهـ.

ويُعلَم منه وجهُ اختصاصِ الحشرِ بما ذُكر في كلام الحجَّة، فلا وجهَ لقول البعضِ في الاعتراضِ عليه: فلا وجهَ.. إلخ. وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى آخرَ الكلامِ في تفسير السورةِ الإشارةُ إلى ما اشتملت عليه من أمَّهات علمِ الأصول، والمسائلِ المعتبَرةِ بين الفحول، وتقريرها بأبلغِ وجهٍ وأتمِّه، ولعلَّ هذا هو السرُّ في الأمر الواردِ في صحيح الأخبارِ بقراءتها على الموتى(١)، أي: المحتضَرين، وتسمَّى أيضاً العظيمةَ عند اللهِ تعالى.

أَخرج أَبو نصرٍ السِّجزيُّ في «الإبانة» وحسَّنه عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ في القرآن لَسورةً تدعَى العظيمةَ عند اللهِ تعالى، ويدعى صاحبُها الشريفَ عند اللهِ تعالى، يشفع صاحبُها يوم القيامةِ في أكثرَ من ربيعةَ ومُضَر، وهي سورةُ يس»(٢).

وذكر أنَّها تسمَّى أيضاً المُعِمَّة، والمدافعة القاضية، أَخرج سعيدُ بن منصورٍ والبيهقيُّ(٣) عن حسانَ بن عطيةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «سورةُ يس تدعَى في التوراة

---

(١) أخرج أبو داود (٣١٢١)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٤٦) و(١٠٨٤٧)، وابن ماجه (١٤٤٨) عن معقل بن يسار، عن رسول الله ﷺ: «اقرؤوها على موتاكم» يعني «يس».
وفي التلخيص الحبير ٢/ ١٠٤ عن الدارقطني: هذا حديث ضعيف الإسناد ومجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٥٧، وينظر كنز العمال (٢٣٦٢).

(٣) في شعب الإيمان ٢/ ٤٨١.

المعمَّة، تعمُّ صاحبَها بخير الدنيا والآخرة، وتكابدُ عنه بلوى الدنيا والآخرة، وتدفع عنه أهاويلَ الدنيا والآخرة، وتدعَى المدافعةَ القاضية، تدفع عن صاحبها كلَّ سوء، وتقضي له كلَّ حاجة. . . » الخبرَ[١]. وتعقَّبه البيهقيُّ فقال: تفرَّد به محمدُ بن عبدِ الرحمن بنِ أبي بكرٍ الجُدعانيِّ عن سليمانَ بنِ دفاع[٢]، وهو منكَر.

وهي ـ على ما أخرج ابن الضُّرَيس والنحَّاس وابنُ مردويه والبيهقيُّ عن ابن عباس ـ مكِّية[٣]. واستثنَى منها بعضُهم قولَه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ الآية مدَّعياً أنَّها نزلت بالمدينة لما أراد بنو سلمةَ النُّقلةَ إلى قُرب مسجدِ النبيِّ ﷺ وكانوا في ناحية المدينة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ آثارَكم تكتب» فلم ينتقلوا[٤]. وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى ما قيل في ذلك. وقولَه سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الآية لأنَّها نزلت في المنافقين، فتكون مدنيَّة. وتُعقِّب بأنه لا صحَّة له.

وآيها ثلاثٌ وثمانون آيةً في الكوفي، واثنتانِ وثمانون في غيره.

وجاء ممَّا يشهد بفضلها وعُلوِّ شأنِها عدَّةُ أخبارٍ وآثار، وقد مرَّ آنفاً بعضُ ذلك. وصحَّ من حديث معقلِ بن يسار[٥]: «لا يقرؤها عبدٌ يريد اللهَ تعالى والدارَ الآخرةَ إلَّا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه».

وأخرج التِّرمذي والدارميُّ من حديثِ أنس: «مَن قرأ «يس»، كتب اللهُ تعالى له بقراءتها قراءةَ القرآنِ عشرَ مرَّات»[٦] ولا يلزم من هذا تفضيلُ الشيءِ على نفسه؛ إذ المرادُ بقراءة القرآنِ قراءتُه دون «يس».

---

(١) جاء في هامش الأصل: وأخرج الخطيب عن أنس مثله. اهـ. منه.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: مرقاع. ينظر ميزان الاعتدال ٣/ ٣١٤.

(٣) فضائل القرآن لابن الضريس (١٧)، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٩٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٤٢-١٤٣.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٢٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٥) يعني به حديث قراءة سورة «يس» على الموتى، وقد سلف الكلام عليه قريباً.

(٦) جامع الترمذي (٢٨٨٧)، وسنن الدارمي (٣٤١٦). قال الترمذي: هذا حديث غريب، وفي إسناده هارون أبو محمد شيخ مجهول.

وقال الخفَاجي[١]: لا يلزم ذلك؛ إذ يكفي في صحَّة التفضيلِ المذكورِ التغايرُ الاعتباري، فإنَّ «يس» من حيث تلاوتُها فردةً غيرُ كونِها مقروءةً[٢] في جملته، كما إذا قلتَ: الحسناءُ في الحُلَّة الحمراءِ أحسنُ منها في البيضاء، وقد يكون للشيءِ مفرَداً ما ليس له مجموعاً مع غيره، كما يشاهَد في بعض الأدوية. ورَجَا أن يكونَ أقربَ ممَّا قدَّمنا، وأنا لا أَرجو ذلك.

والظاهرُ أنَّه يُكتب له الثوابُ المذكورُ مضاعفاً، أي: كلُّ حرفٍ بعشر حسنات، ولا بِدعَ في تفضيل العملِ القليلِ على الكثير؛ فلله تعالى أن يمنَّ بما شاءَ على مَن شاء، ألا ترى ما صحَّ أنَّ هذه الأمةَ أقصرُ الأممِ أعماراً وأكثرُها ثواباً، وإنكارُ الخصوصياتِ مكابرة، ولله تعالى دَرُّ مَن قال:

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنت منهم ... فإنَّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ[٣]

وذكر بعضُهم أنَّ مَن قرأها أُعطي من الأجر كمن قرأ القرآنَ اثنتين وعشرين مرَّة.

وأخرج البيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» عن أبي قِلابةَ - وهو من كبار التابعين - أنَّ مَن قرأها فكأنَّما قرأ القرآن إحدى عشرة مرَّة. وعن أبي سعيدٍ أنَّه قال: مَن قرأ «يس» مرَّة، فكأنَّما قرأ القرآنَ مرَّتين[٤].

وحديثُ العشرِ مرفوعٌ عن ابن عباسٍ ومعقلِ بن يسار وعقبةَ بن عامرٍ وأبي هريرةَ وأنسٍ ﷺ، فعليه المعوَّل[٥].

ووجهُ اتِّصالها بما قبلَها - على ما قاله الجلالُ السُّيوطيّ[٦] - أنَّه لما ذُكر في سورة فاطر قولُه سبحانه: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [الآية: ٣٧] وقولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ

(١) في حاشيته ٧/ ٢٥٧.
(٢) في حاشية الشهاب: مقرونة.
(٣) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٣/ ١٥١، وسلف ٢/ ٣٣٥.
(٤) شعب الإيمان ٢/ ٤٨١-٤٨٢.
(٥) وأورده عنهم السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٥٧.
(٦) في تناسق الدرر ص ٧٥.

جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [الآية: ٤٢] وأُريد به محمدٌ ﷺ وقد أعرضوا عنه وكذَّبوه = افتتح هذه السورةَ بالإقسام على صحَّة رسالتِه عليه الصلاة والسلام، وأنَّه على صراطٍ مستقيم لينذرَ قوماً ما أُنذر آباؤهم، وقال سبحانه في «فاطر»: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ﴾ [الآية: ١٣] وفي هذه السورة: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [الآية: ٣٨-٣٩] إلى غير ذلك. ولا يخفَى أنَّ أمرَ المناسبةِ يتمُّ على تفسير النذيرِ بغيره ﷺ أيضاً، فتأمَّل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ الكلامُ فيه كالكلام في ﴿الٓمٓ﴾ ونحوِه من الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور، إعراباً ومعنًى عند كثير. وأخرج ابنُ أبي شيبةَ وعبدُ بن حُمَيد وابن جَريرٍ وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتمٍ من طرقٍ عن ابن عباسٍ أنَّه قال: «يس»: يا إنسان(١). وفي روايةٍ أخرى عنه زيادة: بالحبشيَّة. وفي أخرى عنه أيضاً: في لغة طيِّئ.

قال الزمخشريّ(٢): إن صحَّ هذا، فوجهُه أن يكونَ أصلُه: يا أُنيسين، فكثر النداءُ به على أَلسنتهم حتى اقتصروا على شطره، كما قالوا في القَسَم: مُ الله، في: أيمُن الله.

وتعقَّبه أبو حيانَ(٣) بأنَّ المنقولَ عن العرب في تصغير إنسان: أُنَيْسِيان، بياءٍ قبل الألف، وهو دليلٌ على أنَّ الإنسانَ من النِّسيان، وأصله إنسيان، فلمَّا صُغِّر، ردَّه التصغيرُ إلى أصله، ولا نعلمهم قالوا في تصغيره: أُنَيْسين. وعلى تقدير أنَّه بقيةُ أنيسين، فلا يجوز ذلك إلَّا أن يبنَى على الضمِّ ولا يبقى موقوفاً؛ لأنَّه منادًى مقبَلٌ عليه، ومع ذلك لا يجوز التصغيرُ في أَسماء الأنبياءِ عليهم السلام، كما لا يجوز

(١) الدر المنثور ٥/٢٥٨، وتفسير الطبري ١٩/٣٩٨.
(٢) في الكشاف ٣/٣١٣-٣١٤.
(٣) في البحر ٧/٣٢٣.

في أسماء اللهِ عزَّ وجلّ. وما ذكره في «مُ» من أنَّه شطرُ أيمن قول، ومن النَّحويين مَن يقول «م» حرفُ قَسَمٍ وليس شطرَ أيمن. انتهى.

قال الخَفاجي[1]: لزومُ البناءِ على الضمِّ ممَّا لا كلامَ فيه، فلعلَّ مَن فسَّره بذلك يقرؤه بالضمِّ على الأوجَه فيه، وأمَّا الاعتراضان الآخَران فلا ورودَ لهما أصلاً، فأما الأوَّل؛ فلأنَّ مَن يقول: أُنيسيان على خلافِ القياس ـ وهو الأصحّ ـ لا يلزمه فيما غيِّر منه أن يقدِّرَه كذلك، وهو لم يلفظ به حتى يقالَ له: إنَّك نطقتَ بما لم تنطق به العرب، بل هو أمرٌ تقديري، فإذا قال: المقدَّر مفروضٌ عندي على القياس، هل يتوجَّه عليه السؤال؟ وأمَّا الأخير؛ فلأنَّ التصغيرَ في نحو ذلك إنَّما يمتنع منَّا، وأمَّا من الله تعالى، فله سبحانه أن يُطلقَ على نفسه عزَّ وجلَّ وعظماءِ خَلقه ما أراد، ويُحمل حينئذٍ على ما يَليق، كالتعظيم والتحبيبِ ونحوِه من معاني التصغير، كما قال ابنُ الفارض:

ما قلت حُبَيِّبي من التحقير   بل يَعذُب اسمُ الشيءِ بالتصغيرِ[2]

والذي قاله أبو حيَّان في توجيه ذلك أنَّهم يقولون: إيسان، بمعنى إنسان، ويجمعون على أياسين، فهذا منه. ولا يخفى أنَّه يحتاج إلى إثبات[3]، وبَعْدَه لا يخفى ما في التخريج عليه.

وقالت فِرقة: «يا» حرفُ نداء، والسينُ مُقامة مُقامَ إنسان، انتُزع منه حرفٌ فأُقيم مُقامَه، ونظيرُه ما جاء في الحديث: «كفَى بالسيفِ شا»[4] أي: شاهداً، وأيِّد بما ذهب إليه ابنُ عباسٍ في «حم عسق» [الشورى: ١] ونحوِه من أنَّها حروفٌ من جملة أسماءٍ له تعالى، وهي رحيمٌ وعليم وسميع وقدير، ونحوُ ذلك.

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٣٢.

(٢) الديوان ص ١٩٤.

(٣) كذا قال، وقد سبق أبا حيان في هذا التوجيه ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٥، كما أن قولهم: إيسان، في إنسان، وجمعه على أياسين، هي لغة طيء كما نقل ابن الأنباري في الزاهر ١/ ٣٨٣، والأزهري في تهذيب اللغة ١٣/ ٦٢ عن الفراء.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٧٩١٨) من طريق الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً.

وظاهرُ كلامِ بعضِهم ـ كابن جُبير ـ أنَّ «يس» بمجموعه اسمٌ من أسمائه عليه الصلاة والسلام، وهو ظاهرُ قولِ السيِّد الحِميَري[١]:

يا نفسُ لا تَمحضي بالوُدِّ جاهدةً ... على المودَّة إلَّا آلَ ياسينا

ولتسميته ﷺ بهذين الحرفَين الجليلَين سرٌّ جليلٌ عند الواقفين على أسرار الحروف، وقد تكلَّمتُ ـ ولله تعالى الحمدُ ـ فيما تعلَّق بهذه الكلمةِ الشريفةِ ثلاثةَ أيام، أَشرع كلَّ يومٍ منها بعد العصرِ وأَختم قُبيلَ المغرب، وذلك في مجلس وعظي في المسجد الجامعِ الداودي، واليومَ لا أستطيع أن أذكرَ من ذاك بِنتَ شَفَة، بل لا أتذكَّر منه إلَّا رسماً هبَّ عليه عاصفُ الزمانِ الغَشومِ فنَسَفَه، فحسبي اللهُ عمَّن سواه، فلا ربَّ غيرُه، ولا يرجَى إلَّا خيرُه.

وقُرئ بفتح الياء، وإمالتِها محضاً، وبينَ بين[٢]. وقرأ جمعٌ بسكون النونِ مدغمةً في الواو، وآخَرون بسكونها مظهَرة. والقراءتان سَبعيَّتان[٣]. وقرأ ابنُ أبي إسحاقَ وعيسى بفتح النُّون[٤].

قال أبو حاتم: قياسُ قولِ قتادة: إنَّه قَسَم، أن يكونَ على حدِّ: اللهَ لأَفعلنَّ، بالنصب.

ويجوز أن يكونَ مجروراً بإضمار باءِ القَسَم، وهو ممنوعٌ من الصرف.

وقال الزجَّاج[٥]: النصبُ على تقدير: أُتلُ «يس»، وهذا على قول سيبويه[٦] أنَّه اسمٌ للسورة.

---

(١) هو أبو هاشم إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة الحميري، رافضي من فحول الشعراء، له مدائح بديعة في أهل البيت. مات سنة (١٧٣ أو ١٧٨ هـ). السير ٨/ ٤٤. والبيت في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٥.

(٢) التيسير ص ١٨٣، والنشر ٢/ ٧٠، والبحر ٧/ ٣٢٣.

(٣) التيسير ص ١٨٣، والنشر ٢/ ١٧.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٠٣، والبحر ٧/ ٣٢٣.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٢٧٧.

(٦) انظر الكتاب ٣/ ٢٥٦-٢٥٨.

وقيل: هو مبنيّ، والتحريكُ للجِدِّ في الهرب من التقاءِ الساكنين، والفتحُ للخِفَّة، كما في «أينَ». وسببُ البناءِ غيرُ خفيٍّ عليك إذا أحطتَ خُبراً بما قرَّروا في «ألم» أوَّلَ سورةِ البقرة.

ولا تغفُلْ عمَّا قالوا في النصب بإضمار فعلِ القَسَم من أنَّه لا يسوغ؛ لمَا فيه من جمع قَسَمين على مُقسَمٍ عليه واحد، وهو مستكرَه، ولا سبيلَ إلى جعل الواو بعدُ للعطف لا للقَسَم؛ لمكان الاختلافِ إعراباً.

وقرأ الكلبيُّ بضمِّ النون[1]. وخرِّج على أنَّه منادًى مقصود، بناءً على أنَّه بمعنى إنسان، أو على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أو مبتدأٌ خبرُه محذوف، ويقدَّر «هذه» إذا كان اسماً للسُّورة، و«هذا» إنْ كان اسماً للقرآن، وهو يُطلَق على البعض كما يُطلَق على الكلِّ. وجَعلُه مبتدأ محذوفَ الخبرِ وهو قَسَم، أي: «يس» قسمي، نحو: أَمانةُ اللهِ لأفعلنَّ، بالرفع = لا يخفَى حالُه. وقيل: الضمَّة فيه ضمةُ بناءٍ كما في «حيثُ».

وقرأ أبو السمَّالِ وابنُ أبي إسحاقَ أيضاً بكسرها[2]، وخرِّج على أنَّه للجِدِّ في الهرب عن السَّاكنَين بما هو الأصل، فتأمَّل وتذكَّر.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ ابتداءُ قسم، وجوَّز أن يكونَ عطفاً على «يس» على تقدير كونِه مجروراً بإضمار باءِ القسم، لا أنَّه قسمٌ بعد قَسَم؛ لِمَا سمعتَ من كلامهم.

﴿ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ أي: ذي حِكمة، على أنَّه صيغةُ نسبة، كـ: لابِن وتامر، أي: متضمِّن إياها، أو الناطقُ بالحكمة كالحيّ، على أن يكونَ من الاستعارة المَكنيَّة، أو المتَّصف بالحكمة، على أنَّ الإسنادَ مجازيّ، وحقيقتُه الإسنادُ إلى الله تعالى المتكلِّم به. وفي «البحر»[3]: هو إمَّا فَعيلٌ بمعنى مُفْعَل، كـ: أعقدتُ العسلَ فهو عَقيد، أي: مُعقَد، وإمَّا للمبالغة من حاكم.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ جوابٌ للقسم، والجملة لردِّ إنكارِ الكفرةِ رسالتَه عليه

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٠٣، والبحر ٧/ ٣٢٣.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٠٣، ونسبها ابن خالويه ص ١٢٤ لأبي السمال فقط. وانظر البحر ٧/ ٣٢٣.

(٣) ٧/ ٣٢٣.

الصلاة والسلام، فقد قالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣] وتقدَّم ما يُشعر بأنَّهم على جانبِ عظيمٍ من الإنكار، أعني قولَه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۞ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ [فاطر: ٤٢-٤٣] وهذه الآيةُ من جملة ما أُشير إليه بقوله تعالى في جوابِهم عن إنكارهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣].

وتخصيصُ القرآنِ بالإقسام به أوَّلاً، وبوصفه بالحكيم ثانياً، تنويهٌ بشأنه على أكملِ وجه.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ»، واختاره الزجَّاج(١) قائلاً: إنَّه الأحسنُ في العربية. أو حالٌ من ضميره عليه الصلاة والسلام المستكِنِّ في الجارِّ والمجرور، أو الواقعِ اسمَ «إنَّ»، بناءً على رأي مَن يجوِّز الحالَ من المبتدأ. وجوِّز أن يكونَ متعلِّقاً بـ «المرسلين»، وليس المرادُ به الحالَ أو الاستقبال، أي: لَمِن الذين أُرسلوا على صراطٍ مستقيم، وأن يكونَ حالاً من عائد الموصولِ المستترِ في اسم الفاعل، أو حالاً من نفس «المرسلين». والزمخشريُّ(٢) لم يذكر من هذه الأَوجُهِ سوى كونِه خبراً، وكونِه صِلةً للمرسلين.

وأيَّاما كان، فالمرادُ بـ «الصِّراط المستقيمِ» ما يعمُّ العقائدَ والشرائعَ الحقَّة، وليس الغرضُ من الإخبار الإعلامَ بتمييز مَن أُرسلَ على صراطٍ مستقيم عن غيره ممَّن ليس على صفته ليقال: إنَّ ذلك حاصلٌ قبله؛ لما أنَّ كلَّ أحدٍ يعلم أنَّ المرسَلين لا يكونون إلَّا على صراطٍ مستقيم، بل الغرضُ الإعلام بأنَّه موصوفٌ بكذا، وأنَّ ما جاء به الموصوفُ بكذا؛ تفخيماً لشأنهما، فسُلكا في مسلكٍ سلوكاً لطريق الاختصار.

وأيضاً التنكيرُ في «صراط» للتفخيم، فهو دالٌّ على أنَّه أُرسل مِن بين الصُّرطِ المستقيمةِ على صراطٍ لا يُكتَنَه وصفُه، وهذا شيءٌ لم يُعلَم قبل.

ولا يَرِد أنَّ الطريقَ المستقيمَ واحدٌ ليس إلَّا، ألا ترى إلى قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؟ لأنَّ لكلِّ نبيٍّ شارعٍ منهاجاً هو مستقيم، وباعتبار

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٧٧-٢٧٨.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣١٤.

الرجوعِ إلى المرسِل تعالى شأنُه الكلُّ متَّحد، وباعتبار الاختصاصِ بالمرسَل والشرائعِ مختلِفٌ، فصحَّ أنه أُرسل من بين الصُّرطِ المستقيمة. . . إلخ. وأيضاً هو فرض، والفرضُ تعظيمُ هذا الصراطِ بأنَّه لا صراطَ أقومُ منه واقعاً أو مفروضاً، ولا نظرَ على أنَّ هنالك آخَرَ أو لا، وهذا قريبٌ من أسلوب: مِثلُك لا يفعل كذا[1]، فافهم ولا تغفُل.

وقولُه تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ نصبٌ على المدح، أو على المصدريَّة لفعلٍ محذوفٍ، أي: نزِّل تنزيلَ.

وقرأ جمعٌ من السبعة وأبو بكرٍ وأبو جعفرٍ وشيبةُ والحسنُ والأعرجُ والأعمشُ بالرفع[2] على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، والمصدرُ بمعنى المفعول، أي: هو تنزيل ـ أي: مُنزل ـ العزيزِ الرحيم، والضميرُ للقرآن، ويجوز إبقاؤه على أصله بجعله عينَ التنزيل، وجوِّز أن يكونَ خبرَ «يس» إنْ كان المرادُ بها السورة، والجملةُ القَسَمية معترِضة، والقَسَم لتأكيد المقسَمِ عليه والمقسَمِ به اهتماماً، فلا يقال: إنَّ الكفارَ يُنكرون القرآنَ فكيف يُقسَم به لإلزامهم؟

وقرأ أبو حَيوة، واليزيديّ، والقُورصيُّ عن أبي جعفر، وشيبةُ، بالخفض على البدليَّة من «القرآن» أو الوصفيةِ له[3].

وأيًّاما كان، ففيه إظهارٌ لفخامة القرآنِ الإضافية، بعد بيانِ فخامتِه الذاتية بوصفه بالحِكمة، وفي تخصيص الاسمينِ الكريمين المُعرِبَين عن الغلبة الكاملةِ والرحمةِ الفاضلة، حثٌّ على الإيمان به، ترهيباً وترغيباً، وإشعاراً بأنَّ تنزيلَه ناشئٌ عن غاية الرَّحمة، حسبَما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

---

(١) أي: أنت لا تفعله، ولكنهم قصدوا المبالغة في نفيه عنه، لأنهم إذا نفوه عمن يناسبه ويسدُّ مسدّه، فإن نفيه عنه أولى. ينظر تفسير البيضاوي ٥/ ٥١.

(٢) البحر ٧/ ٣٢٣. وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو. التيسير ص ١٨٣، والنشر ٢/ ٣٥٣.

(٣) البحر ٧/ ٣٢٣، وقراءة اليزيدي في القراءات الشاذة ص ١٢٤. والقورصي ورد في البحر بالصاد، وذكره ابن الأثير في طبقات القراء ١/ ١٨٥ بالسين، وقال: انفرد في قراءة أبي جعفر بغرائب.

﴿لِتُنذِرَ﴾ متعلِّق بـ «تنزيل»، أو بفعله المضمَرِ على الوجه الثاني في إعرابه، أي: نُزِّل تنزيلَ العزيزِ الرحيمِ لتنذرَ به، أو بما يدلُّ عليه «لمن المرسلين» أي: أُرسلتَ، أو: إنَّك مرسلٌ لتنذرَ ﴿قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: لم تُنذَر آباؤهم، على ما رُوي عن قتادة. فـ «ما» نافية، والجملةُ صفةُ «قوماً» مبيِّنة لغاية احتياجِهم إلى الإنذار.

والمرادُ بالإنذار الإعلامُ أو التخويفُ، ومفعولُه الثاني محذوف، أي: عذاباً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠].

والمرادُ بآبائهم آباؤهم الأدنَون، وإلَّا فالأَبعدون قد أَنذرهم إسماعيلُ عليه السلام، وبلَّغهم شريعةَ إبراهيمَ عليه السلام. وقد كان منهم مَن تمسَّك بشرعه على أتمِّ وجه، ثم تراخى الأمرُ وتطاول المُدَد، فلم يبقَ من شريعته عليه السلام إلَّا الاسم.

وفي «البحر»: الدعاءُ إلى الله تعالى لم ينقطعْ عن كلِّ أمة، إمَّا بمباشرة من أَنبيائهم، وإمَّا بنقلٍ إلى وقت بعثةِ نبيِّنا ﷺ، والآياتُ التي تدلُّ على أنَّ قريشاً ما جاءهم نذيرٌ معناها: لم يباشِرْهم ولا آباءَهم القريبين. وأمَّا أنَّ النذارةَ انقطعت فلا، ولمَّا شرعت آثارُها تَندرِس بُعث النبيُّ ﷺ، وما ذكره المتكلِّمون من حال أهلِ الفتراتِ فهو على حسب الفَرْض(١). اهـ.

وعليه، فالمعنى: ما أَنذر آباءَهم رسولٌ، أي: لم يباشرهم بالإنذار، لا أنَّه لم ينذرهم منذرٌ أصلاً، فيجوز أن يكونَ قد أَنذرهم مَن ليس بنبيٍّ، كزيد بن عَمرِو بنِ نفيل وقُسِّ بنِ ساعدة، فلا منافاةَ بين ما هنا وقولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وليس في ذلك إنكارُ الفترةِ المذكورةِ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩] لأنَّها فترةُ إرسالٍ وانقطاعها زماناً، لا فترةُ إنذارٍ مطلقاً.

وعن عكرمة: «ما» بمعنى «الذي»، وجوَّز أن تكونَ موصوفة، وهي على الوجهين مفعولٌ ثانٍ لـ «تُنذر»، أي: لتنذرَ قوماً الذي أَنذره ـ أو شيئاً أَنذره ـ الرُّسلُ آباءهم الأَبعدِين.

---

(١) البحر ٧/ ٣١٠، وجاء في مطبوعه: العرض، بدل: الفرض.

وقال ابنُ عطية[1]: يحتمل أن تكونَ «ما» مصدريَّة، فتكون نعتاً لمصدرٍ مؤكِّدٍ، أي: لتنذرَ قوماً إنذاراً مثلَ إنذارِ الرسلِ آباءهم الأبعدين.

وقيل: هي زائدة. وليس بشيء.

﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ هو على الوجه الأوَّل متفرِّع على نفي الإنذار ومتسبِّب عنه، والضميرُ للفريقين، أي: لم ينذَر آباؤهم فهم جميعاً لأجل ذلك غافلون، وعلى الأَوجُه الباقيةِ متعلِّق بقوله تعالى: «لتنذر» أو بما يفيده «إنك لمن المرسلين» واردٌ لتعليل إنذاره عليه الصلاة والسلام أو إرساله بغفلتهم المحوِجة إليه، نحو: اسقِه فإنَّه عطشان، على أنَّ الضميرَ للقوم خاصَّة، فالمعنى: فهم غافلونَ عنه، أي: عمَّا أُنذر آباؤهم.

وقال الخفاجي[2]: يجوز تعلُّقه بهذا على الأوَّل أيضاً، وتعلُّقه بقوله تعالى: «لتنذر» على الوجوه، وجَعْلُ الفاءِ تعليلية، والضميرُ لهم أو لآبائهم. اهـ. ولا يخفى عليك أنَّ المنساقَ إلى الذِّهن ما قرِّر أولاً.

﴿لَقَدْ حَقَّ﴾ جوابٌ لقَسَم محذوف، أي: واللهِ لقد ثبت ووجب ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ الذي قلتُه لإبليسَ يومَ قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ متعلِّق بـ «حقَّ»، والمراد: سبق في علمي دخولُ أكثرِهم فيمن أملأ منهم جهنَّم، وهم تَبَعة إبليسَ كما يشير إليه تقديمُ الجِنةِ على الناس، وصرَّح به قولُه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]. ولا مانعَ من أنْ يراد بالقول، لكن المشهورَ ما تقدَّم.

وظاهرُ كلامِ الراغبِ[3] أنَّ المرادَ بالقول علمُ اللهِ تعالى بهم، ولا حاجةَ إلى التزام ذلك.

وقيل: الجارُّ متعلِّق بالقول، ويقال: قال عليه، إذا تكلَّم فيه بالشرّ، والمراد:

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٦.

(٢) في حاشيته ٧/ ٢٣٣.

(٣) في المفردات (قول).

لقد ثبت في الأزلِ عذابي لهم. وفيه ما فيه. ويؤيِّد تعلُّقَه بـ «حقَّ» قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦] ونقل أبو حيَّانَ[١] أنَّ المعنى: حقَّ القولُ الذي قاله اللهُ تعالى على لسان الرُّسلِ عليهم السلام من التوحيد وغيرِه، وبَانَ برهانُه. وهو كما ترى.

﴿فَهُمۡ﴾ أي: الأكثر ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧﴾ بإنذارك إيَّاهم، والفاءُ تفريعيةٌ داخلةٌ على الحكم المسبَّب عمَّا قبله، فيفيد أنَّ ثبوتَ القولِ عليهم عِلَّة لتكذيبهم وكفرِهم، وهو عِلَّة له باعتبار سَبقِ العلمِ بسوءِ اختيارِهم وما هم عليه في نفس الأمر؛ فإنَّ علمَه تعالى لا يتعلَّق بالأشياءِ إلَّا على ما هي عليه في أَنفُسها، ومآلُه إلى أنَّ سوءَ اختيارِهم وما هم عليه في نفس الأمرِ عِلَّة لتكذيبهم وعدم إيمانهم بعد الإنذار، فليس هناك جبرٌ محض، ولا أنَّ المعلومَ تابعٌ للعلم.

وقال بعضُهم: الفاءُ إمَّا تفريعية، وكونُ ثبوتِ القولِ علَّةً لعدم إيمانهم مبنيٌّ على أنَّ المعلومَ تابعٌ للعلم، وإمَّا تعليلية مفيدةٌ أنَّ عدمَ الإيمانِ علَّة لثبوت القول، بناءً على أنَّ العلمَ تابعٌ للمعلوم. ولا يلزم الجبرُ على الوجهين، أمَّا على الثاني فظاهر، وأمَّا على الأوَّل؛ فلأنَّ العلمَ ليس عِلّةً مستقلَّة عند القائلِ بذلك، بل لاختيارهم وكسبِهم مدخلٌ فيه، فتأمَّل. والتفريعُ هو الذي أَميل إليه.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ جمع عُنق، بالضمِّ وبضمَّتين، وهو الجِيْد، ويقال: عَنِيق، كأمير، وعُنَق، كصُرَد ﴿أَغۡلَٰلٗا﴾ جمع غُلٍّ، بالضمِّ، وهو على ما قيل: ما يُشدُّ به اليدُ إلى العُنق للتعذيب والتشديد. وفي «البحر»[٢]: الغلُّ: ما أحاط بالعُنق على معنى التثقيفِ[٣] والتضييقِ والتعذيبِ والأَسر، ومع العُنق اليدانِ أو اليدُ الواحدة.

وذكر الراغبُ[٤] أنَّه ما يقيَّد به فتجعل الأعضاءُ وسَطَه، وأصلُه من الغَلَل: تدرُّعُ الشيءِ وتوسُّطُه، ومنه الغَلَلُ للماء الجاري بين الشَّجر، وقد يقال له: الغِيل. وكأنَّ

---

(١) في البحر ٧/ ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) ٧/ ٣٢٤.

(٣) كذا في الأصل و(م) والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٧، وفي البحر: التعنيف.

(٤) في المفردات (غلل).

في الكلام عليه قلباً، أي: جعلنا أعناقَهم في أغلال، كما تقول: جعلتُ الخاتمَ في إصبعي، أي: جعلتُ إصبعي في الخاتَم، وجوّز أن يكونَ على حدّ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] والتنوينُ للتعظيم والتهويل، أي: أغلالاً عظيمةً هائلة، وإسنادُ الفعلِ إلى ضمير العظمةِ مما يؤيِّد ذلك.

﴿فَهِىَ﴾ أي: الأغلال كما هو الظاهرُ ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ جمع: ذَقَن بالتحريك: مجتمعُ اللَّحيَين من أسفلهما، و«أل» للعهد، أو عوضٌ عن المضاف إليه، والظرفُ متعلِّق بكونٍ خاصٍّ خبر «هي»، أي: فهي واصلة أو منتهيةٌ إلى أذقانهم، والفاءُ للتفريع، وقيل: لمجرَّد التعقيب، بناءً على عدم حملِ التنوين على التعظيم والتهويل، وقولُه تعالى: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾ نتيجةُ «فهي إلى الأذقان» فالفاءُ تفريعيةٌ أيضاً.

والمقمَح على ما في «النِّهاية»(١): الذي يرفع رأسَه ويغضُّ بصرَه، وكأنَّه أراد المجهولَ بحيث يرفع... إلخ.

وقال أبو عُبيدة: يقال: قَمَحَ البعيرُ قموحاً، إذا رفع رأسَه عن الحوضِ ولم يشرب، والجمع: قِمَاح، ومنه قولُ بشرٍ يصف سفينةً أخذهم المَيدُ فيها:

ونحن على جوانبها قعودٌ ... نغضُّ الطَّرفَ كالإبل القماحِ(٢)

وقال الليث: هو رفعُ البعيرِ رأسَه إذا شرب الماءَ الكريه ثم يعود، ومنه قيل للكانونَين: شهرا قماح، بضمِّ القافِ وكسرِها؛ لأنَّ الإبلَ إذا وردت الماءَ ترفع رؤوسَها لشدَّة بردِه.

وقال الراغب(٣): القَمْح: رفعُ الرأسِ لسفِّ الشيءِ المتَّخذِ من القمح، أي: البُرِّ إذا جرى في السُّنبل مِن لدن الإنضاج إلى حينِ الاكتناز، ثم يقال لرفع الرأسِ كيفما كان: قَمْحٌ، وقَمَحَ البعير: رفعَ رأسَه، وأَقْمَحْتُ البعير: شدَدْتُ رأسَه إلى خلف. وقيل: المُقمَح الذي يجذب ذَقَنَه حتى يصيرَ في صدرِه ثم يرفع.

---

(١) مادة (قمح).

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ص ٩١، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٥٧.

(٣) في المفردات (قمح).

وقال مجاهدٌ: القامح: الرافعُ الرأسَ الواضعُ يدَه على فِيْهِ.

وقال الحسن: هو الطامحُ ببصره إلى موضع قدمِه. وظاهرُه يقتضي أن يكونَ هناك نكسٌ للرأس، والمعروفُ في القَمح الرفع.

ووجهُ التفريعِ أنَّ طوقَ الغُلِّ الذي في عُنق المغلولِ يكون في ملتقى طَرَفَيه تحت الذَّقَن حلقةٌ فيها رأسُ العمودِ نادراً[1] من الحلقة إلى الذَّقَن، فلا يُخليه يطأطئ ويوطئ قَذَاله، فلا يزالُ مقمَحاً، لا سيَّما إذا كان الغُلُّ عظيماً.

وقال ابنُ عطية[2]: إنَّ الأغلالَ عريضةٌ تبلغ بحروفها الأذقان، أي: فيحصل القَمح. وكلامُ ابنِ الأثيرِ يشعر أنَّ القمحَ لضيق الغُلّ. وإن أُريد: جعلنا في كلٍّ من أَعناقهم أغلالاً، كان أمرُ القمحِ أظهرَ وأظهر.

وقال البغويُّ والطبريُّ والزجَّاج والطبرسيُّ[3]: ضميرُ «هي» للأَيدي وإن لم يتقدَّم لها ذِكر؛ لوضوح مكانِها من المعنى، لأنَّ الغُلَّ يتضمَّن العنقَ واليد، ولذلك سمِّي جامعة، وما يكون في العُنق وحده أو في اليد وحدَها لا يسمَّى غُلًّا، فمتى ذُكر مع العنق، فاليدُ مرادةٌ أيضاً، ومتى ذُكر مع اليد، كما في قراءة ابنِ عباس: «في أَيديهم أغلالاً» وفي قراءة ابنِ مسعود: «في أَيْمانِهم أغلالاً»[4] فالعنق مرادٌ أيضاً. وهذا ضربٌ من الإيجاز والاختصار، ونظيرُ ذلك قولُ الشاعر[5]:

وما أدري إذا يمَّمتُ أرضاً أريد الخيرَ أيُّهما يليني
أألخيرُ الذي أنا أبتغيه أم الشرُّ الذي لا يأتليني

حيث ذكر الخيرَ وحده وقال: أيُّهما، أي: الخير والشرّ، وقد علم أنَّ الخيرَ والشرَّ يَعرضان للإنسان.

---

(١) أي: خارجاً. ينظر الكشاف ٣/ ٣١٥، وتفسير النسفي ٤/ ٢٣٥، والمعجم الوسيط (ندر).

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٧.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٦، والطبري ١٩/ ٤٠٣، ومعاني القرآن ٤/ ٢٧٩، ومجمع البيان ٢٢/ ٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٣١٦.

(٥) هو المثقب العبدي، والبيتان في ديوانه ص ٢١٢-٢١٣.

واختار الزمخشريُّ[1] ما تقدَّم، ثم قال: والدليلُ عليه قولُه تعالى: (فَهُم مُّقۡمَحُونَ) ألا ترى كيف جعل الإقماحَ نتيجةَ (فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ)، ولو كان الضميرُ للأيدي لم يكن معنى التسبُّب في الإقماح ظاهراً؟ على أنَّ هذا الإضمارَ فيه ضربٌ من التعسُّف، وتركُ الظاهرِ الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطنِ الذي يجفو عنه، تركٌ للحقِّ الأَبلَج إلى الباطل اللَّجْلَج. اهـ.

وصاحب «الانتصاف»[2] أراد الانتصارَ للجماعة، فقال: يحتمل أن تكونَ الفاءُ في «فهم مقمحون» للتعقيبِ كسابقه، أو للتسبُّب؛ فإنَّ ضغطَ اليدِ مع العُنق يوجب الإقماح، لأنَّ اليدَ تبقى ممسكةً بالغُلِّ تحت الذقَن رافعةً لها، ولأنَّ اليدَ إذا كانت مطلقةً كانت راحةً للمغلول، فربَّما يتحيَّل بها على فِكاك الغُلِّ، فيكون منبِّهاً على انسداد بابِ الحيلة. اهـ.

قال صاحبُ «الكشف»: والجوابُ أنَّه لا فخامةَ للتعقيب المجرَّد، ثم إنَّ ما ذكره الزمخشريّ ـ وقد أشرنا إليه نحن فيما سبق ـ مستقلٌّ في حصول الإقماح، فأين التعقيب؟ وبه خرَّج الجوابُ عن التسبُّب، وقولُه: ولأنَّ اليد.. إلخ، لا يستقلُّ جواباً دون الأوَّلَين. اهـ. وعلى العِلَّات رجوعُ الضميرِ إلى الأغلالِ هو الحريُّ بالاعتبار، وبلاغةُ الكتابِ الكريمِ تقتضيه ولا تكاد تلتفت إلى غيره.

﴿وَجَعَلۡنَا﴾ عطفٌ على «جعلنا» السابقِ ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ من قُدَّامهم ﴿سَدّٗا﴾ عظيماً، وقيل: نوعاً من السدّ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ مِن ورائهم ﴿سَدّٗا﴾ كذلك. والقدَّامُ والوراءُ كنايةٌ عن جميع الجهات ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾ فغطَّينا بما جعلناه من السدِّ أبصارَهم. وعن مجاهد: «فأغشيناهم» فألبسنا أبصارَهم غِشاوةً ﴿فَهُمۡ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يُبۡصِرُونَ ٩﴾ لا يَقدرون على إبصار شيءٍ ما أصلاً.

وقرأ جمعٌ من السبعة وغيرِهم: «سُدّاً» بضمِّ السين[3]، وهي لغةٌ فيه. وقيل:

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣١٦.

(٢) بهامش الكشاف ٣/ ٣١٥.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بفتح السين، والباقون بضمها. التيسير ص ١٨٣، والنشر ٢/ ٣١٥.

ما كان من عمل الناسِ فهو بالفتح، وما كان من خلقِ اللهِ تعالى فهو بالضّم. وقيل بالعكس.

وقرأ ابنُ عباس، وعمرُ بن عبدِ العزيز، وابنُ يَعمَر، وعِكرمة، والنَّخَعي، وابنُ سيرين، والحسن، وأبو رجاءٍ، وزيدُ بن عليٍّ، وأبو حنيفة، ويزيدُ البربري، ويزيدُ بن المهلَّب، وابن مِقسَم: «فأعشيناهم» بالعين[1]، من العَشَا، وهو ضَعفُ البصر.

ومجموعُ المتعاطفَين من قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ إلخ، تأكيدٌ وتقريرٌ لما دلَّ عليه قولُه سبحانه: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ إلخ، من سوء اختيارِهم وقُبحِ حالهم؛ فإنَّ جَعْلَ اللهِ تعالى إياهم بما أظهر فيهم من الإعجاب العظيمِ بأنفسهم مستكبرين عن اتِّباع الرسلِ عليهم السلام، شامخين برؤوسهم، غيرَ خاضعين لمَا جاؤوا به، وسدِّ أبوابِ النظرِ فيما ينفعهم عليهم بالكلِّية، ليس إلَّا لأنَّهم سيِّئو الاختيارِ وقبيحو الأحوال، قد عشقَتْ ذواتُهم ما هم عليه عشقاً ذاتيّاً، وطلبته طلباً استعداديّاً، فلم تكن لها قابليةٌ لغيره، ولم تلتفتْ إلى ما سواه، وإذا قايستَ بين ذواتِهم وما هم عليه وبين الجسمِ والحيِّز أو الثلاثةِ والفرديةِ مثلاً، لم تكد تجد فرقاً: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣] ففي الكلامِ تشبيهاتٌ متعدِّدة كما لوَّحنا إليه، وهذا الوجهُ هو الذي يقتضيه ما عليه كثيرٌ من الأجِلَّة وإنْ لم يذكروه في الآية.

وفي «الانتصاف»[2]: إذا فرِّق التشبيه، كان تصميمُهم على الكفر مشبَّهاً بالأغلال، وكان استكبارُهم عن قَبول الحقِّ والتواضعِ لاستماعه مشبَّهاً بالإقماح؛ لأنَّ المقمَح لا يطأطئ رأسَه، وقولُه تعالى: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ تتمَّة للزوم الإقماح لهم، وكان عدمُ النظرِ في أحوال الأمم الخاليةِ مشبَّهاً بسدٍّ مِن خلفهم، وعدمُ النظرِ في العواقب المستقبَلةِ مشبَّهاً بسدٍّ من قدَّامهم.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والمحتسب ٢/ ٢٠٤، والبحر ٧/ ٣٢٥.

(٢) بهامش الكشاف ٣/ ٣١٥.

وفي «التيسير»: جمعُ الأَيدي إلى الأذقانِ بالأغلال عبارةٌ عن منع التوفيقِ حتى استكبروا عن الحقِّ؛ لأنَّ المتكبِّر يوصَف برفع العُنق، والمتواضع بضدِّه، كما في قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] ولم يذكر المرادَ بجعل السدّ.

وذكر الإمامُ(١) أنَّ المانعَ عن النظر في الآيات قسمان: قسمٌ يمنع عن النظر في الأنفس، فشبَّه ذلك بالغُلِّ الذي يجعل صاحبَه مُقمَحاً لا يرى نفسَه، ولا يقع بصرُه على بدنه. وقسمٌ يمنع عن النظرِ في الآفاقِ، فشبَّه ذلك بالسدِّ المحيط، فإنَّ المحاطَ بالسدِّ لا يقع نظرُه على الآفاق، فلا يظهرُ له ما فيها من الآيات، فمن ابتُلي بهما حُرِم عن النظر بالكلِّيَّة.

واختار بعضُهم كونَ «إنا جعلنا» إلخ تمثيلاً مسوقاً لتقرير تصميمِهم على الكفر، وعدمِ ارعوائهم عنه، فيكون قد مثِّل حالُهم في ذلك بحال الذين غُلَّت أعناقُهم، وجوَّز في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا) إلخ أن يكونَ تتمَّةً لذلك وتكميلاً له، وأن يكونَ تمثيلاً مستقلًّا؛ فإنَّ جَعلَهم محصورين بين سدَّين هائلَين قد غطَّيا أبصارَهم بحيث لا يُبصرون شيئاً قطعاً، كافٍ في الكشف عن كمال فظاعةِ حالِهم، وكونِهم محبوسين في مطمورة الغَيِّ والجهالات.

وقال أبو حيَّان(٢): الظاهرُ أنَّ قولَه تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا) الآيةُ على حقيقتها، لمَّا أَخبر تعالى أنَّهم لا يؤمنون، أَخبر سبحانه عن شيءٍ من أحوالهم في الآخرة إذا دخلوا النَّار، والتعبيرُ بالماضي لتحقُّق الوقوع، ولا يُضعِف هذا ـ كما زعم ابنُ عطية(٣) ـ قولُه تعالى: (فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) لأنَّ بصرَ الكافرِ يومئذٍ حديدٌ يرى قُبحَ حاله، ألا ترى إلى قولِه سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ [الإسراء: ٩٧] وقولِه سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٥] فإمَّا أن يكونَ ذلك حالَين، وإمَّا أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] كنايةً عن إدراكه ما يؤول إليه حتى كأنَّه يُبصره.

---

(١) في التفسير الكبير ٢٦/ ٤٥.

(٢) في البحر ٧/ ٣٢٤.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٦.

واعترض بعضُهم عليه بأنَّه يلزم أن يكونَ الكلامُ أجنبيّاً في البَين، وتوجيهُه بأنَّه كالبيانِ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ قد دغدغ فيه، والإنصافُ أنَّه خلافُ الظاهر.

وقال الضحَّاك والفرَّاء[1]: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ استعارةٌ لمنعهم من النفقة في سبيلِ اللهِ تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]. ولعلَّه جعل الجملةَ الثانيةَ استعارةً لمنعهم عن رؤية الخيرِ والسعيِ فيه، ولا يخفَى أنَّ كونَ الكلامِ على هذا أجنبيّاً في البَين في غاية الظُّهور.

وأخرج ابنُ مردويه وأبو نُعَيمٍ في «الدَّلائل» عن ابن عباسٍ قال: كان النبيُّ ﷺ يقرأ في المسجد فيجهرُ بالقراءة، فتأذَّى به ناسٌ من قريش، حتى قاموا ليأخذوه، فإذا أيديهم مجموعةٌ إلى أعناقهم، وإذا هم لا يُبصرون، فجاؤوا إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: نَنشدك اللهَ تعالى والرَّحمَ يا محمد، قال: ولم يكن بطنٌ من بطون قريشٍ إلَّا وللنبيِّ ﷺ فيهم قرابة، فدعا النبيُّ عليه الصلاة والسلام حتى ذهب ذلك عنهم، فنزلت ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية: ١٠] فلم يؤمنْ من ذلك النَّفرِ أحد[2].

ورُوي أنَّ الآيتين نزلتا في بني مخزوم، وذلك أنَّ أبا جهلٍ حمل حجراً لينالَ بها ما يريد برسول اللهِ ﷺ وهو يصلي، فأُثبتت يدُه على عنقه، حتى عاد إلى أصحابِه والحجرُ قد لزقَ بيده، فما فكُّوه إلَّا بجهد، فأخذه مخزوميٌّ آخَر، فلمَّا دنا من الرَّسول ﷺ، طمس اللهُ تعالى بصرَه، فعاد إلى أصحابه، فلم يُبصرهم حتى نادَوه، فقام ثالثٌ فقال: لأَشدخَنَّ أنا رأسَه، ثم أخذ الحجرَ وانطلق، فرجع القهقرَى ينكص على عقبيه حتى خَرَّ على قفاه مغشيّاً عليه، فقيل له: ما شأنُك؟ قال: عظيم! رأيت الرجلَ، فلمَّا دنوتُ منه، فإذا فحلٌ ما رأيت فحلاً أعظمَ منه حال بيني وبينه، فواللاتِ والعزَّى لو دنوت منه لأكلني. فجَعلُ الغُلِّ يكون استعارةً

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٧٣.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٥٨.

عن منع من أراد أذاه عليه الصلاة والسلام، وجعل السدٌ استعارةً عن سلب قوَّةِ الإبصار كما قيل.

وقال السُّدِّي: السدُّ ظلمةٌ حالت فمنعت الرُّؤية.

وجاء في الآثار غيرُ ذلك ممَّا يقرب منه، والرابطُ عليها غيرُ ظاهر، ولعلَّه باعتبار إشارة الآيتين إلى ما هم عليه من التصميمِ على الكفر وشدَّة العناد. ومع هذا، الأَرجحُ في نظر البليغِ حَمْلُ الكلامِ على غير ما تقتضيه ظواهرُ الآثارِ ممَّا سمعتَ، وليس فيها ما ينافيه عندَ التحقيق، فتأمَّل.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ أي: مستوٍ عندهم إنذارُك إياهم وعدمُه، حسبَما مرَّ تحقيقُه في أوائل سورةِ البقرة. والظاهرُ أنَّ العطفَ على «إنا جعلنا» وكأنَّه جيءَ به للتَّصريح بما هم عليه في أنفسِهم بعد الإشارة إليه فيما تقدَّم، بناءً على أنَّه ممَّا يستتبع الجعلَ المذكور. وقريبٌ منه القولُ بأنَّ ما تقدَّم لبيان حالِهم المجعول، وهذا لبيان حالِهم من غيرِ ملاحظةِ جَعْلٍ، وفيه تمهيدٌ لقوله تعالى: (إِنَّمَا تُنذِرُ) إلخ.

وفي «إرشاد العقلِ السليم»: هو بيانٌ لشأنهم بطريق التصريحِ إثرَ بيانِه بطريق التمثيل[1]. وفي «الحواشي الخَفاجيَّة»: لم يُورد بالفاء مع ترتُّبه على ما قبلَه إمَّا تفويضاً لذهنِ السامع، أو لأنَّه غيرُ مقصودٍ هنا[2]. انتهى.

وانظر هل تجدُ مانعاً من العطف على «لا يبصرون» ليكونَ خبراً لهم أيضاً داخلاً في حيِّز الفاءِ والتفريعِ على ما تقدَّم، كأنَّه قيل: فهم سواءٌ عليهم.. إلخ؟ واختلافُ الجملتين بالاسمية والفعليةِ لا أراك تَعدُّه مانعاً.

وقولُه تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠﴾ استئنافٌ مؤكِّد لما قبلَه، مبيِّن لما فيه من إجمالِ ما فيه الاستواء، أو حالٌ مؤكِّدة له، أو بدلٌ منه.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٦٠.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٢٣٤.

ولمَّا بيَّن كونَ الإنذار عندَهم كعدمه، عقَّب ببيان مَن يتأثَّر منه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي: إنذاراً مستتبعاً للأثر ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآنَ ـ كما رُوي عن قتادة ـ بالتأمُّل فيه والعملِ به. وقيل: الوعظ. واتَّبع بمعنى يَتَّبع، والتعبيرُ بالماضي لتحقُّق الوقوع، أو المعنى: إنَّما ينفع إنذارُك المؤمنين الذين اتَّبعوا. ويكون المرادُ بـ «مَن اتَّبع» المؤمنين، وبالإنذار الإنذارَ عمَّا يفرط منهم بعد الاتِّباع، فلا يَلزم تحصيلُ الحاصل. وقيل: المرادُ: مَن اتَّبع في علم اللهِ تعالى، وهم الأقلُّون الذين لم يحقَّ القولُ عليهم.

﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي: عقابَه، ولم يغترَّ برحمته عزَّ وجلّ؛ فإنَّه سبحانه مع عِظَم رحمتِه أليمُ العذاب، كما نطق به قولُه تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠] ومما قُرِّر يُعلَم سرُّ ذِكرِ الرحمنِ مع الخشيةِ دون القهَّار ونحوِه.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ حالٌ من المضاف المقدَّرِ في نظم الكلامِ كما أشرنا إليه، أي: خشي عقابَ الرحمنِ حالَ كونِ العقابِ ملتبساً بالغيب، أي: غائباً عنه. وحاصلُه: خشي العقابَ قبل حلولِه ومعاينةِ أهواله. ويجوز أن يكونَ حالاً من فاعل «خشي» أي: خشي عقابَ الرحمنِ غائباً عن العقابِ غيرَ مشاهدٍ له، أو: خشي غائباً عن أَعيُن الناسِ غيرَ مُظهِرٍ الخشيةَ لهم؛ لأنَّها علانيةً قلَّما تسلم عن الرِّياء.

وبعضُهم فسَّر الغيبَ بالقلب، وجعل الجارَّ متعلِّقاً بـ «خشي»، أي: خشي في قلبه، ولم يكن مُظهِراً للخشية وليس بخاشٍ. قيل: ويجوز جعلُه حالاً من «الرحمن». ولا يخفَى حالُه. والكلامُ في «خشي» على طرز الكلامِ في «اتبع».

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمةٍ لِمَا سلف. وقيل: لما يَفرُط منه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ حسنٍ لا يقادَر قَدْرُه لِما أَسلف. والفاءُ لترتيب البِشارة أو الأمرِ بها على ما قبلَها من اتِّباع الذِّكر والخشية. وفي «البحر»: لمَّا أَجْدَتْ[1] فيه النِّذارة فبشِّره.. إلخ، فلا تغفُل.

---

(١) في مطبوع البحر ٧/ ٣٢٥: أحدث.

وعن قتادةَ تفسيرُ الأجرِ الكريمِ بالجنة، والمراد نعيمُها الشاملُ لما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلبِ بَشَر، وأجلُّ جميعِ ذلك رؤيةُ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وقولُه سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إلخ، تذييلٌ عامٌّ للفريقين المصمِّمَين على الكفر والمُشْفَعَين بالإنذار، ترهيباً وترغيباً، ووعيداً ووعداً. وتكريرُ الضميرِ لإفادة الحصر، أو للتقوية. وما ألطفَ هذا الضميرَ الذي عكسُه كطرده هاهنا.

وضميرُ العظمةِ للإشارة إلى جلالة الفعل، والتأكيدُ للاعتناءِ بأمر الخبر، أو لردِّ الإنكار؛ فإنَّ الكفرةَ كانوا يقولون: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧] أي: إنَّا نحن نحيي الأمواتَ جميعاً ببعثهم يومَ القيامةِ ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ ما أسلفوه من الأعمال الصالحةِ والطالحةِ ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ التي أبقَوها بعدَهم من الحسنات؛ كعلمٍ علَّموه، أو كتابٍ ألَّفوه، أو حبيسٍ وقفوه، أو بناءٍ في سبيل اللهِ تعالى بنَوه، وغيرِ ذلك من وجوه البرِّ، ومن السيِّئات؛ كتأسيس قوانينِ الظلمِ والعدوان، وترتيبِ مبادئ الشرِّ والفساد، فيما بين العباد، وغيرِ ذلك من فنون الشرورِ التي أَحدثوها وسنُّوها بعدَهم للمفسدين.

أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن جَرير بنِ عبد اللهِ البَجَليِّ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن سنَّ سُنَّةً حسنة، فلهُ أجرُها وأجرُ مَن عمل بها مِن بعده من غيرِ أن يَنقصَ من أجورهم شيئاً، ومن سنَّ سُنَّةً سيِّئة، كان عليه وِزرُها ووزرُ مَن عمل بها مِن بعده لا ينقص من أوزارهم شيئاً، ثم تلا: (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ)»[1].

وعن أنسٍ أنَّه قال في الآية: هذا في الخَطو يومَ الجمعة.

وفسَّر بعضُهم الآثارَ بالخُطا إلى المساجد مطلقاً؛ لِمَا أخرج عبدُ الرزاق، وابنُ جَرير، وابنُ المنذر، والترمذيُّ وحسَّنه، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: كان بنو سَلِمة في ناحيةٍ من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قُرب المسجد، فأنزل الله تعالى: (إِنَّا

---

(١) سلف أصله ١٠/ ٤٨٢.

﴿نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ فدعاهم رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «إنَّه يكتب آثاركم» ثم تلا عليهم الآيةَ، فتركوا[1].

وأخرج الإمام أحمدُ في «الزُّهد» وابنُ ماجه[2] وغيرُهما عن ابن عباسٍ قال: كانت الأنصارُ منازلُهم بعيدةً من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا قريباً من المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ فقالوا: بل نمكث مكانَنا.

وأنت تعلم أنَّه لا دلالةَ فيما ذُكر على أنَّ الآثارَ هي الخطا لا غير، وقُصارى ما يدلُّ عليه أنَّها من الآثار، فلتُحمَل الآثارُ على ما يعمُّها وغيرَها.

واستُدلَّ بهذين الخبرَين ونحوِهما على أنَّ الآيةَ مدنيَّة. وقال أبو حيَّان[3]: ليس ذلك زعماً صحيحاً. وشُنِّع عليه بما ورد ممَّا يدلُّ على ذلك، وانتصر له الخفاجيُّ[4] بأنَّ الحديثَ الدالَّ معارَضٌ بما في الصحيحين[5] أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ لهم هذه الآية، ولم يذكرْ أنَّها نزلت فيهم، وقراءتُه عليه الصلاة والسلام لا تنافي تقدُّمَ النزول، ومرادُ أبي حيانَ هذا، لا أنَّه أنكر أصلَ الحديث. ولا يخفى أنَّ الحديثين السابقين ظاهران في أنَّ الآيةَ نزلت يومَئذ، وليس في حديث الصَّحيحين ما يعارِض ذلك، والعجبُ من الخفاجيِّ كيف خفي عليه هذا.

وقيل: «ما قدَّموا» من النيَّات «وآثارهم» من الأعمال. والظاهرُ أنَّ المرادَ بالكتابة الكتابةُ في صحف الملائكةِ الكرامِ الكاتبين، ولكونها بأمره عزَّ وجلَّ أُسندت إليه سبحانه، وأُخِّرت في الذِّكر عن الإحياء مع أنَّها مقدَّمة عليه؛ لأنَّ أثرَها إنَّما يظهر بعده، وعلى هذا يَضعُفُ تفسيرُ «ما قدَّموا» بالنيات، بناءً على ما يدلُّ عليه بعضُ الأخبارِ من أنَّ النياتِ لا تَطَّلع عليها الملائكةُ عليهم السلامُ ولا يؤمرون بكتابتها.

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٩٨٢)، وسنن الترمذي (٣٢٢٦)، وتفسير الطبري ١٩/ ٤١٠.

(٢) في سننه (٧٨٥).

(٣) في البحر ٧/ ٣٢٢.

(٤) في حواشيه ٧/ ٢٣١.

(٥) صحيح البخاري (٦٥٥) و(٦٥٦) من حديث أنس ﷺ، وصحيح مسلم (٦٦٥) من حديث جابر ﷺ.

وفسَّر بعضُهم الكتابةَ بالحفظ، أي: نحفظ ذلك ونُثبته في علمنا، لا ننساه ولا نُهمله، كما يُثبَت المكتوبُ.

ولعلك تختار أنَّ كتابةَ ما قدَّموا وآثارَهم كنايةٌ عن مجازاتهم عليها، إن خيراً فخيرٌ وإن شرّاً فشرّ، وحينئذٍ فوجهُ ذِكرها بعد الإحياء ظاهر.

وعن الحسنِ والضحَّاك أنَّ إحياءَ اللهِ تعالى الموتى أن يُخرجَهم من الشِّرك إلى الإيمان، وجعلا الموتَ مجازاً عن الجهل.

وتعريفُ «الموتى» للعهد، والكلامُ عليه توكيدٌ للوعد المبشَّر به، كأنَّه قيل: إنَّما ينفع إنذارُك في هؤلاء لأنَّا نُحييهم ونكتب صالحَ أعمالِهم وآثارهم. ولا يخفَى ما في ذلك من البُعد.

وقرأ زِرٌّ ومسروق: «ويُكتَب» بالياءِ مبنيّاً للمفعول، و«آثارُهم» بالرَّفع[1].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء كائناً ما كان. والنصبُ على الاشتغال، أي: وأحصينا كلَّ شيءٍ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي: بيَّنَّاه وحفظناه. وأصلُ الإحصاءِ العدّ، ثم تجوّز به عمَّا ذُكر لأنَّ العدَّ لأجله.

﴿فِيٓ إِمَامٍ﴾ أي: أصلٍ عظيمِ الشأن، يؤتَمُّ ويقتدَى به، ويُتبَع ولا يخالَف ﴿مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ مُظهِرٍ لما كان وسيكون. وهو ـ على ما في «البحر»[2] حكايةً عن مجاهدٍ وقتادةَ وابنِ زيد ـ اللوحُ المحفوظ، وبيانُ كلِّ شيءٍ فيه إذا حُمِل العمومُ على حقيقته بحيث يشمل حوادثَ الجنةِ وما يتجدَّد لأَهلها من دون انقطاع، على نحو ما يُحكَى من بيان الحوادثِ الكونيَّةِ في الجفر الجامع، لكنَّه على طَرزٍ أعلى وأشرف، ونحوُ هذا ما قال غيرُ واحدٍ من اشتمال القرآنِ الكريمِ على كلِّ شيءٍ حتى أسماءِ الملوكِ ومُدَدِ ملكهم.

أو يقال: إنَّ بيانَ ذلك فيه ليس دَفعةً واحدة، بل دَفَعات، بأن يبيَّنَ فيه جملةٌ من الأشياء، كحوادث ألفِ سنةٍ مثلاً، ثم تمحَى عند تمامِ الألف، ويبيَّن فيه جملةٌ

---

(١) البحر ٧/ ٣٢٥، والقراءات الشاذة ص ١٢٤، وفيه: ابن مسروق.
(٢) ٧/ ٣٢٥.

أخرى، كحوادث ألفِ أخرى، وهكذا. والداعي لما ذُكر أنَّ اللوحَ عند المسلمين جسم، وكلُّ جسمٍ متناهي الأبعادِ كما تشهد به الأدلَّة، وبيانُ كلِّ شيءٍ فيه على الوجه المعروفِ لنا دفعةً مقتضٍ لكون المتناهي ظرفاً لغير المتناهي، وهو محالٌ بالبديهة.

وإذا أُريد بـ «كلّ شيءٍ» الأشياءُ التي في هذه النشأةِ وأفعالُ العبادِ وأحوالُهم فيها، فلا إشكالَ في البيان على الوجه المعروفِ دفعة.

والذي يترجَّح عندي أنَّ ما كُتب في اللَّوح ما كان وما يكون إلى يومِ القيامة، وهو متناهٍ، وبعضُ الآثارِ تشهد بذلك، والمطلقُ منها محمولٌ على المقيَّد، وحقيقةُ اللوحِ لم يَرِد فيها ما يفيد القطع؛ ولذا نُمسك عن تعيينها، وكونُ أحدِ وجهَيه ياقوتةً حمراءَ والثاني زمرُّدةً خضراءَ جاء في بعض الآثارِ، ولا جزم لنا بصحَّته، وكونُه أحدَ المجرَّدات وما من شيءٍ إلَّا وهو يعلمه بالفعل ممَّا لم يذهب إليه أحدٌ من المسلمين، وإنَّما هو من تخيُّلات الفلاسفةِ ومَن حذا حَذوَهم، فلا ينبغي أن يعوَّلَ عليه.

وفسَّر بعضُهم الإمامَ المبينَ بعلمه تعالى الأزليّ، كما فسِّر (أُمَّ ٱلْكِتَٰبِ) في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] به، وهو أصلٌ لا يكون في صفوف صنوفِ الممكناتِ ما يخالفه، كما يلوح به قولُ الشافعيِّ رحمه الله:

خلقتَ العبادَ على ما علمت ... ففي العلم يجري الفتى والمُسِنُّ[(١)]

ووصفُه بمُبين لأنَّه مُظهِر، فقد قالوا: العلمُ صفةٌ يتجلَّى بها المذكورُ لمن قامت به. أو لأنَّ إظهارَ الأشياءِ من خزائن العدمِ يكون بعد تعلُّقِه، فإنَّ القدرةَ إنَّما تتعلَّق بالشيء بعدَ العلم، فالشيءُ يُعلَم أولاً، ثم يراد، ثم تتعلَّق القدرةُ بإيجاده فيوجد. ولا يخفَى ما في هذا التفسيرِ من ارتكاب خلافِ الظاهر، وعليه فلا كلامَ في العموم، نَعَم في كيفية وجودِ الأشياءِ في علمه تعالى كلامٌ طويلٌ محلُّه كتبُ الكلام.

وعن الحسن أنَّه أُريد به صُحفُ الأعمال. وليس بذاك.

---

(١) الوافي بالوفيات ٢/ ١٧٩ وفيه: على ما أردت.

وحُكي لي عن بعض غُلاةِ الشيعةِ أنَّ المرادَ بالإمام المبينِ عليٌّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وإحصاءُ كلِّ شيءٍ فيه من باب:

لـيـس عـلـى اللهِ بـمـسـتـنـكَـرٍ   أن يـجـمـعَ الـعـالَـمَ فـي واحـدِ(١)

ومنهم مَن يزعم أنَّ ذلك على معنى جعلِه كرَّم اللهُ تعالى وجهَه خزانةً للمعلومات على نحو اللَّوحِ المحفوظ. ولا يخفَى ما في ذلك من عظيم الجهلِ بالكتاب الجليلِ، نسأل اللهَ تعالى العفوَ والعافية.

ويمكن أنْ يقال: إنَّهم أرادوا بذلك نحوَ ما أراده المتصوِّفة في إطلاقهم الكتابَ المبينَ على الإنسان الكاملِ اصطلاحاً منهم على ذلك، فيهون أمرُ الجهل، وكمالُ عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه لا يُنكره إلَّا ناقصُ العقلِ عديمُ الدِّين.

وقرأ أبو السمَّال: «وكلُّ» بالرَّفع على الابتداء(٢).

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إمَّا عطفٌ على ما قبله عطفَ القصةِ على القصَّة، وإمَّا عطفٌ على مقدَّر، أي: فأَنذرهم واضرِبْ لهم.. إلخ.

وضربُ المثلِ يستعمل تارةً في تطبيق حالةٍ غريبةٍ بأخرى مثلها، كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ الآية [التحريم: ١٠] وأخرى في ذِكر حالةٍ غريبةٍ وبيانِها للناس من غيرِ قصدٍ إلى تطبيقها بنظيرةٍ لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥] في وجه، أي: بينَّا لكم أحوالاً بديعةً هي في الغرابة كالأمثال.

فالمعنى على الأوَّل: اِجعل أصحابَ القريةِ مثلاً لهؤلاء في الغُلوِّ في الكفر والإصرارِ على التكذيب، أي: طبِّق حالَهم بحالهم، على أنَّ «مَثَلاً» مفعولٌ ثانٍ لـ «اِضرِبْ»، و«أَصحابَ القرية» مفعولُه الأوَّل أُخِّر عنه ليتَّصلَ به ما هو شرحُه وبيانُه. وعلى الثاني: اذكرْ وبيِّن لهم قصةً هي في الغرابةِ كالمثل.

---

(١) قائله أبو نواس، وهو في ديوانه ص ٢١٨.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر ٧/ ٣٢٥.

وقولُه سبحانه: (أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ) بتقديرِ مضاف، أي: مثلَ أصحابِ القرية، وهذا المضافُ بدلٌ من «مثلاً» بدلَ كلٍّ من كلّ، أو عطفُ بيان له على القولِ بجواز اختلافِهما تعريفاً وتنكيراً، وجوِّز أن يكونَ المقدَّر مفعولاً وهذا حالاً.

والقرية ـ كما رُوي عن ابن عباسٍ وبُريدةَ وعكرمة ـ أنطاكية، وفي «البحر»[(١)] أنَّها هي بلا خلاف.

﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ بدلُ اشتمالٍ من «أصحاب القرية»، أو ظرفٌ للمقدَّر. وجوِّز أن يكونَ بدلَ كلٍّ من «أصحاب» مراداً بهم قصَّتُهم، وبالظَّرف ما فيه، وهو تكلُّف لا داعيَ إليه.

وقيل: «إذ جاءها» دونَ: إذ جاءهم، إشارة إلى أنَّ المرسلين أَتَوهم في مقرِّهم.

والمرسَلون ـ عند قتادةَ وغيرِه من أجِلَّة المفسِّرين ـ رسلُ عيسى عليه السلام من الحواريِّين، بعثهم حين رُفع إلى السماء، ونِسبةُ إرسالهم إليه تعالى في قولِه سبحانه: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾ بناءً على أنَّه كان بأمره تعالى لتكميلِ التمثيلِ وتتميمِ التسلية.

وقال ابنُ عباس وكعب: هم رسلُ اللهِ تعالى. واختاره بعضُ الأَجِلَّة، وادَّعى أنَّ اللهَ تعالى أَرسلهم رِدءاً لعيسى عليه السلام مقرِّرين لشريعته، كهارونَ لموسى عليهما السلام، وأيِّد بظاهر «إذ أرسلنا إليهم اثنين» وقولِ المرسَل إليهم: «ما أنتم إلا بشر مثلنا» إذ البشريَّةُ تنافي ـ على زعمهم ـ الرسالةَ من اللهِ تعالى لا من غيره سبحانه. واستدلَّ البعضُ على ذلك بظهورِ المعجزة، كإبراء الأكمهِ وإحياء الميِّتِ على أيديهم، كما جاء في بعضِ الآثار، والمعجزةُ مختصَّة بالنبيِّ على ما قرِّر في الكلام.

ومَن ذهب إلى الأوَّل أَجاب عن الأوَّل بما سمعت، وعن الثاني بأنَّهم إمَّا أن يكونوا دَعَوهم على وجهٍ فهموا منه أنَّهم مبلِّغون عن الله تعالى دونَ واسطة، أو أنَّهم جعلوا الرسلَ بمنزلة مرسِلهم، فخاطبوهم بما يُبطل رسالتَه، ونزَّلوه منزلةَ الحاضرِ

---

(١) ٧/ ٣٢٦.

تغليباً، فقالوا ما قالوه. وعن الثالث بأنَّ ما ظهر على أيديهم - إن صحَّ الأثر - كان كرامةً لهم في معنى المعجزةِ لعيسى عليه السلام، ولا يتعيَّن كونُه معجزةً لهم إلاَّ إذا كانوا قد ادَّعوا الرسالةَ من الله تعالى بدون واسطة، وهو أوَّل المسألة.

و«إذ» بدلٌ من «إذ» الأولى، والاثنان قيل: يوحنّا وبولس، وقال مقاتل: تومان وبولس، وقال شعيبٌ الجبائي: شمعون ويوحنا، وقال وهبٌ وكعب: صادق وصدوق، وقيل: ناروص وماروص.

وقيل: «أرسلنا إليهم» دونَ: أرسلنا إليها؛ ليطابقَ «إذ جاءها»، لأنَّ الإرسالَ حقيقةً إنَّما يكون إليهم لا إليها، بخلاف المجيء، وأيضاً التعقيبُ بقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ عليه أظهر، وهو هنا نظيرُ التعقيبِ في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠] وسمِّيت الفاءَ الفصيحة؛ لأنَّها تُفصح عن فعلٍ محذوف، وكان أصحابُ القريةِ إذ ذاك عبَّادَ أصنام.

﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي: فقوَّيناهما وشددنا. قاله مجاهدٌ وابنُ قتيبة[1]، وقال: يقال: تعزَّز لحمُ الناقة، إذا صَلُب. وقال غيرُه: يقال: عزَّز المطرُ الأرض، إذا لبَّدها وشدَّها، ويقال للأرض الصُّلبة: العَزَاز، ومنه العِزُّ بمعناه المعروف.

ومفعولُ الفعلِ محذوف، أي: فعزَّزناهما ﴿بِثَالِثٍ﴾ لدَلالة ما قبلَه عليه؛ ولأنَّ المقصودَ ذِكرُ المعزَّز به. وهو - على ما رُوي عن ابن عباس - شمعون الصفا، ويقال: سمعان، أيضاً. وقال وهبٌ وكعب: شلوم. وعند شُعَيب الجبائي: بولص، بالصاد، وبعضُهم يحكيه بالسِّين.

وقرأ الحسنُ وأبو حَيوة وأبو بكرٍ والمفضَّل وأبان: «فعزَزْنا» بالتخفيف[2]، وهو والتشديدُ لغتان، ك: شدَّده[3] وشدَدَه، فالمعنى واحد. وقال أبو عليٍّ[4]: المخفَّف

---

(١) في غريب القرآن ص ٣٦٤.

(٢) البحر ٧/ ٣٢٦، وقراءة أبي بكر في التيسير ص ١٨٣، والنشر ٢/ ٣٥٣.

(٣) في الأصل و(م): شده، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٢٣٥، والكلام منه.

(٤) في الحجة ٦/ ٣٨.

مِن: عزَّه، إذا غلبه، ومنه قولُهم: مَن عزَّ بزّ، أي: مَن غلب سلب، والمعنى عليه: فغلبناهم بحجَّة ثالث.

وقرأ عبدُ الله: «بالثَّالث»[1].

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ عطفٌ على «فكذبوهما فعززنا» والفاءُ للتعقيب، أي: فقال الثلاثةُ بعدَ تكذيبِ الاثنين والتعزيزِ بثالث: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾ ولا يضرُّ في نسبة القولِ إلى الثلاثة سكوتُ البعض؛ إذ يكفي الاتِّفاق، بل قالوا: طريقةُ التكلُّمِ مع الغير كونُ المتكلِّمِ واحداً والغيرِ متَّفقاً معه.

﴿قَالُواْ﴾ أي: أصحابُ القريةِ مخاطِبين للثلاثة: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ من غير مزيَّةٍ لكم علينا موجبةٍ لاختصاصكم بما تدَّعونه. ورفعُ «بشر» لانتقاض النفي بـ «إلَّا»؛ فإنَّ «ما» عملت حملاً على «ليس»، فإذا انتقض نفيُها بدخول «إلَّا» على الخبر، ضَعُفَ الشَّبَهُ فيها، فبطل عملُها، خلافاً ليونس.

و«مثل» صفةُ «بشر» ولم يكتسب تعريفاً بالإضافة كما عُرِف في النحو.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ مما تدَّعون من الوحيِ على أحد. وظاهرُ هذا القولِ يقتضي إقرارَهم بالأُلوهية، لكنَّهم يُنكرون الرسالةَ ويتوسَّلون بالأَصنام، وكأنَّ تخصيصَ هذا الاسمِ الجليلِ من بين أسمائه عزَّ وجلَّ لزعمهم أنَّ الرحمةَ تأبى إنزالَ الوحي؛ لاستدعائه تكليفاً لا يعود منه نفعٌ له سبحانه، ولا يتوقَّف إيصالُه تعالى الثوابَ إلى العبد عليه.

وقيل: ذِكر الرحمنِ في الحكاية لا في المحكيِّ، وهم قالوا: لا إلهَ ولا رسالة؛ لما في بعض الآثارِ أنَّهم قالوا: ألنا إلهٌ سوى آلهتِنا؟ والتعبيرُ به لحلمه تعالى عليهم، ورحمتِه سبحانه إيَّاهم بعدم تعجيلِ العذابِ آنَ إنكارهم.

ولعلَّ ما تقدَّم أَوْلى وأظهر، ولا جزمَ بصحَّة ما ينافيه من الأَثر.

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥﴾ فيما تدَّعون. وهذا تصريحٌ بما قصدوه من الجملتين السابقتين، واختيارُ «تكذِبون» على: كاذبون، للدَّلالة على التجدُّد.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٤-١٢٥، والبحر المحيط ٧/٣٢٦-٣٢٧.

﴿قَالُوا﴾ أي: المرسَلون: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ استشهدوا بعلم اللهِ تعالى، وهو جارٍ مَجرى القَسَم في التأكيد والجوابِ بما يجاب به، وذُكر أنَّ مَن استشهد به كاذباً يكفر، ولا كذلك القَسَمُ على كذب، وفيه تحذيرُهم معارضةَ علمِ اللهِ تعالى.

وفي اختيار عنوانِ الرُّبوبية رمزٌ إلى حكمة الإرسال، كما رمز الكَفَرةُ إلى ما ينافيه بزعمهم. وإضافةُ ربٍّ إلى ضمير الرسلِ لا يأبى ذلك، ويجوز أن يكونَ اختيارُه لأنَّه أوفقُ بالحال التي هم فيها من إظهار المعجزِ على أيديهم، فكأنَّهم قالوا: ناصرُنا بالمعجزات يعلم إنَّا إليكم لَمرسَلون. وتقديمُ المسندِ إليه لتقويةِ الحكم، أو للحصر، أي: ربُّنا يعلم لا أنتم؛ لانتفاء النظرِ في الآيات عنكم.

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ إلَّا تبليغُ رسالتِه تعالى تبليغاً ظاهراً بيِّناً، بحيث لا يخفَى على سامعه، ولا يقبل التأويلَ والحملَ على خلاف المرادِ أصلاً، وقد خرجنا من عُهدته، فلا مؤاخذةَ علينا من جهة ربِّنا. كذا قيل.

والأولى أن يفسَّر التبليغُ المبينُ بما قُرن بالآيات الشاهدةِ على الصحَّة، وهم قد بلَّغوا كذلك، بناءً على ما رُوي من أنَّهم أبرؤوا الأكمهَ وأحيَوا الميِّت، أو أنَّهم فعلوا خارقاً غيرَ ما ذُكر ولم ينقَلْ لنا، ولم يُلتزَم في الكتاب الجليلِ ولا في الآثار ذِكرُ خارقِ كلِّ رسولٍ كما لا يخفى. ثم إنَّ ذلك إمَّا معجزةٌ لهم على القول بأنَّهم رسلُ اللهِ تعالى بدون واسطة، أو كرامةٌ لهم معجزةٌ لمرسِلهم عيسى عليه السلام على القول بأنَّهم رسلُه عليه السلام، والمعنى: ما علينا من جهة ربِّنا إلَّا التبليغُ البيِّن بالآيات، وقد فعلنا، فلا مؤاخذةَ علينا. أو: ما علينا شيءٌ نطالَب به من جهتكم إلَّا تبليغُ الرسالةِ على الوجه المذكور، وقد بلَّغنا كذلك، فأيَّ شيءٍ تطلبون منا حتى تصدِّقونا بدعوانا. ولكون تبليغِهم كان بيِّناً بهذا المعنى، حَسُنَ منهم الاستشهادُ بالعلم، فلا تغفُل.

وجاء كلامُ الرسلِ ثانياً في غاية التأكيدِ لمبالغة الكَفَرةِ في الإنكار جدًّا، حيث أَتَوا بثلاث جُمَل، وكلٌّ منها دالٌّ على شدَّة الإنكار، كما لا يخفى على مَن له أدنَى تأمُّل، وجاء أولاً مؤكَّداً بـ «إنّ» واسميةِ الجملة فقط؛ لأن إنكارهم دون ذلك[1].

---

(١) قوله: وجاء أولاً، إلى هذا الموضع ساقط من (م).

قال السكّاكي[1]: أكّدوا في المرّة الأولى؛ لأنَّ تكذيبَ الاثنين تكذيبٌ للثالث، لاتّحاد المقالة، فلمّا بالغوا في تكذيبهم، زادوا في التأكيد.

وقال الزمخشريّ[2]: إنَّ الكلامَ الأوّل ابتداءُ إخبار، والثاني جوابٌ عن إنكار.

ووجّه ذلك السّيدُ السندُ بأنَّ الأولَ ابتداءُ إخبارٍ بالنظر إلى أنَّ مجموعَ الثلاثةِ لم يسبق منهم إخبار، فلا تكذيبَ لهم في المرّة الأولى، فيحمل التأكيدُ فيها على الاعتناءِ والاهتمامِ منهم بشأنِ الخبر. انتهى. وفيه أنَّ الثلاثةَ كانوا عالمين بإنكارهم، والكلامُ المخرجُ مع المنكر لا يقال له: ابتداءُ إخبار.

وقال صاحبُ «الكشف»: أراد أنَّه غيرُ مسبوقٍ بإخبارٍ سابق، ولم يُرِد أنَّه كلامٌ مع خالي الذّهن، أو جَعَلَ الابتداءَ باعتبار قولِ الثالثِ أو المجموع.

وقال الجلبي: لعل مرادَه أنَّه بمنزلة ابتداءِ إخبارٍ بالنسبة إلى إنكارهم الثاني في عدم احتياجِه إلى مثل تلك المؤكّدات، فكأن إنكارهم الأوّل لا يعدُّ إنكاراً بالنّسبة إلى إنكارهم الثاني، لا أنَّه ابتداءُ إخبارٍ حقيقة. ولا يخفى ضَعفُ ذلك.

وقال الفاضلُ اليمني: إنّما أكّد القولُ الأوّل لتنزيلهم منزلةَ مَن أنكر إرسالَ الثلاثة؛ لأنَّه قد لاح ذلك من إنكار الاثنين، فعلى هذا يكون ابتداءَ إخبارٍ بالنظر إلى إخراج الكلامِ على مقتضَى الظاهر، وإنكاريّاً بالنظر إلى إخراج الكلامِ لا على مقتضَى الظاهر، فنظرُ الزمخشريِّ أدقُّ من نظر السكّاكيِّ وإنْ قال السيدُ السَّنَد بالعكس. ويُعلَم ما فيه مما تقدَّم بأدنَى نظر.

وقال أجلُّ المتأخّرين الفاضلُ عبد الحكيمِ السيالكوتيّ: عندي أنَّ ما ذكره السكّاكيُّ مبنيٌّ على عطف «فقالوا إنا إليكم مرسلون» على «فكذّبوهما فعزّزنا» والفاءُ للتعقيب، فيكون الكلامُ صادراً عن الثلاثة بعد تكذيبِ الاثنين والتعزيزِ بثالث، فكان كلاماً مع المنكرين، فجاء مؤكّداً، وقولُ الزمخشريِّ مبنيٌّ على أنَّه

---

(١) انظر مفتاح العلوم ص ١٧١.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣١٨.

عطفٌ على «إذ جاءها المرسلون» وأنَّه تفصيلٌ للقصَّة المذكورةِ إجمالاً بقوله سبحانه: (إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ) إلى قوله تعالى: (فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ) فالفاءُ للتفصيل، فقولُه تعالى: (فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) بيانٌ لقوله عزَّ وجلَّ: (إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ) فيكون ابتداءَ إخبارٍ صدر من الاثنين، [وجاء][1] «قالوا» بصيغة الجمعِ تقريراً لشأن الخبر، وقولُه تعالى: (قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا) إلخ بيانٌ لقوله تعالى: (فَكَذَّبُوهُمَا) وقولُه سبحانه: (رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) بيانٌ لقوله عزَّ شأنُه: (فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ) فإنَّ البلاغَ المبينَ هو إثباتُهم الرسالةَ بالمعجزات، وهو التعزيزُ والغلبة.

ثم قال: ولا يخفَى حُسنُ هذا التفسير؛ لموافقته للقصَّة المذكورةِ في التفاسير، وملاءمتِه لسَوق الآية، فإنَّها ذُكرت أوَّلاً إجمالاً بقوله تعالى: (وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ) ثم فصِّلت بعضَ التفصيلِ بقوله تعالى: (إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ) إلى قوله سبحانه: (فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ) ثم فصِّلت تفصيلاً تامًّا بقوله تعالى: (فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) إلى قوله تعالى: (خَٰمِدُونَ) وعدمِ احتياجِه إلى جعل الفاءِ في «فكذبوهما» فصيحةً بخلاف تفسيرِ السكَّاكي، فإنَّه يحتاج إلى تقدير: فدَعَوا إلى التوحيد. اهـ.

ولا يخفَى على المُنصف أنَّه تفسيرٌ في غاية البُعد، والكلامُ عليه واصلٌ إلى رتبة الإلغاز، ومع هذا فيه ما فيه. وأنا أقول: لا يَبعد أن يكونَ الزمخشريُّ أراد بكلامه أحدَ الاحتمالاتِ التي ذُكرت في توجيهه، إلَّا أنَّ ما ذهب إليه السكَّاكيُّ أبعدُ عن التكلُّف، وأسلمُ عن القيل والقال.

﴿قَالُوٓاْ﴾ لمَّا ضاقت عليهم الحيلُ، وعيَّت بهم العِلَل: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاءمنا بكم، جرياً على ديدن الجَهَلة، حيث يتيمَّنون بكلِّ ما يوافق شهواتِهم وإنْ كان مستجلباً لكلِّ شرّ، ويتشاءمون بما لا يوافقها وإنْ كان مستتبعاً لكلِّ خير. أو بناءً على أنَّ الدعوةَ لا تخلو عن الوعيدِ بما يكرهونه من إصابة ضُرٍّ إن لم يؤمنوا، فكانوا ينفرون عنه.

وقد قال مقاتل: إنَّه حُبس عنهم المطر. وقال آخَر: أسرع فيهم الجذامُ عند

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

تكذيبِهم الرسلَ عليهم السلام. وقال ابنُ عطية[١]: إنَّ تطيُّر هؤلاء كان بسبب ما دخل فيهم من اختلاف الكلمةِ وافتتانِ الناس.

وأصل التطيُّرِ: التفاؤلُ بالطير البارحِ والسانح، ثم عمَّ. وكان مناطُ التطيُّرِ بهم مقالتَهم، كما يُشعر به قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ أي: عن مقالتكم هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة. قاله قتادة. وذُكر فيه احتمالان: احتمالُ أن يكونَ الرجمُ للقتل، أي: لنَقتلنَّكم بالرَّجم بالحجارة، واحتمالُ أن يكونَ للأذى، أي: لَنؤذينَّكم بذلك.

وأَخرج عبد بنُ حُميَد عن مجاهدٍ أنَّه قال: أي: لَنشتمنَّكم. ثم قال: والرجمُ في القرآن كلِّه الشَّتم.

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ قال في «البحر»: وهو الحريق[٢]. وقيل: عذابٌ غيرُه تبقَى معه الحياة، والمراد: لَنقتلنَّكم بالحجارة، أو: لَنعذبنَّكم إذا لم نقتلكم عذاباً أليماً لا يقادَر قدرُه تتمنَّون معه القتل.

وقيل: أُريد بالعذاب الأليمِ العذابُ الرُّوحاني، وأُريد بالرَّجم بالحجارة النوعُ المخصوصُ من الأذى الجسمانيِّ، فكأنَّهم قد ردَّدوا الأمرَ بين إيذاءٍ جسمانيّ وإيذاءٍ روحاني.

وقيل: أُريد بالعذاب الأليمِ الجسمانيُّ، وبالرَّجم العذابُ والأذى الرُّوحاني، بناءً على أنَّ المرادَ به الشَّتم. وقيل غيرُ ذلك.

﴿قَالُوا﴾ أي: الرُّسل؛ ردّاً عليهم: ﴿طَائِرُكُمْ﴾ أي: سببُ شؤمِكم ﴿مَّعَكُمْ﴾ لا من قِبَلنا كما تزعمون، وهو سوءُ عقيدتِكم وقُبحُ أعمالِكم.

وأَخرج ابنُ المنذرِ عن ابن عباسٍ أنَّه فسَّر الطائرَ بنفس الشُّؤم، أي: شؤمُكم معكم، وهو الإقامةُ على الكفر، وأمَّا نحن فلا شؤمَ معنا؛ لأنَّا ندعوا إلى التوحيد وعبادةِ اللهِ تعالى، وفيه غايةُ اليُمنِ والخيرِ والبركة.

وعن أبي عبيدةَ[٣] والمبرِّد: «طائركم» أي: حظُّكم ونصيبُكم من الخير والشرِّ

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٩.

(٢) البحر ٧/ ٣٢٧.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٥٩.

معكم من أفعالكم، إنْ خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وقرأ الحسنُ وابنُ هُرمزٍ وعَمرو بن عبيدٍ وزِرُّ بن حُبَيش: «طَيْرُكم» بياءٍ ساكنةٍ بعد الطاء[1]. قال الزجَّاج[2]: الطائرُ والطيرُ بمعنى. وفي «القاموس»[3]: الطيرُ جمعُ: طائر، وقد يقع على الواحد.

وذُكر أنَّ الطيرَ لم يقع في القرآن الكريم إلَّا جمعاً، كقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [النور: ٤١] فإذا كان في هذه القراءةِ كذلك، ف «طائر» وإنْ كان مفرداً، لكنَّه بالإضافة شاملٌ لكلِّ ما يتطيَّر به، فهو في معنى الجمع، فالقراءتان متوافقتان.

وعن الحسن أنَّه قرأ: «اِطَّيُّرُكم»[4] مصدر: اِطَّيَّر الذي أصله تطيَّر، فأُدغمت التاءُ في الطاء، فاجتُلبت همزةُ الوصلِ في الماضي والمصدر.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ بهمزتين: الأولى همزةُ الاستفهام، والثانيةُ همزةُ «إنْ» الشرطية، حقَّقها الكوفيُّون وابنُ عامر، وسهَّلها باقي السبعة[5].

واختلف سيبويه ويونس[6] فيما إذا اجتمع استفهامٌ وشرطٌ أيُّهما يجاب، فذهب سيبويه إلى إجابة الاستفهام، أي: تقدير المستفهَم عنه، وكأنَّه يستغنَى به عن تقدير جوابِ الشَّرط، فالمعنى عليه: أئن ذكِّرتم ووُعظتم بما فيه سعادتُكم، تتطيَّرون، أو: تتوعَّدون، أو نحوُ ذلك، ويقدَّر مضارعٌ مرفوع، وإن شئتَ قدَّرت ماضياً، ك: تطيَّرتم.

وذهب يونس إلى إجابة الشرطِ، وكأنَّه يُستغنَى به عن إجابة الاستفهام وتقدير مصبٍّ له، فالتقدير: أئن ذُكِّرتم تتطيَّروا، أو نحوُه مما يدلُّ عليه ما قبل، ويقدَّر مضارعٌ مجزوم، وإن شئتَ قدَّرت ماضياً مجزومَ المحلّ.

وقرأ زِرٌّ بهمزتين مفتوحتين، وهي قراءةُ أبي جعفرٍ وطلحة، إلَّا أنَّهما ليَّنا الثانية

---

(١) البحر ٧/ ٣٢٧، ونسبها في القراءات الشاذة ص ١٢٥ للحسن.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٢٨٢.

(٣) مادة (طير).

(٤) البحر ٧/ ٣٢٧.

(٥) البحر ٧/ ٣٢٧، وانظر التيسير ص ٣١-٣٢، والنشر ١/ ٣٦٢-٣٦٤.

(٦) انظر الكتاب ٣/ ٨٢-٨٣.

بينَ بين[١]، وعلى تحقيقهما جاءَ قولُ الشاعر:

أأنْ كـنـتَ داودَ بـنَ أحـوى مـرجّـلاً فـلـست بـراعٍ لابـن عـمِّك مَـحـرما[٢]

فالهمزةُ الأولى للاستفهام، والثانيةُ همزةُ «أنْ» المصدرية، والكلامُ على تقدير حرفِ لامِ الجرّ، أي: أَلِأَن ذُكِّرتم تطيَّرتم.

وقرأ الماجشونُ يوسفُ بن يعقوبَ المدنيُّ بهمزةٍ واحدةٍ مفتوحة[٣]، فيحتمل تقدير همزةِ الاستفهام، فتتَّحد هذه القراءةُ والتي قبلها معنًى، ويحتمل عدم تقديرِها، فيكون الكلامُ على صورةِ الخبر، وهو ـ على ما قيل ـ مسوقٌ للتعجُّب والتوبيخ، وتقديرُ حرفِ الجرِّ على حاله، والجارُّ متعلِّق بمحذوفٍ على ما يُشعر به كلامُ «الكشاف»[٤] أي: تطيَّرتم لِأَنْ ذكِّرتم.

وقال ابن جِنيٍّ[٥]: «أن ذكِّرتم» على هذه القراءةِ معمولُ «طائركم معكم»، فإنَّهم لمَّا قالوا: «إنا تطيرنا بكم» أُجيبوا: بل طائرُكم معكم أنْ ذكِّرتم، أي: هو معكم لأَنْ ذكِّرتم فلم تذكروا ولم تنتهوا، فاكتفى بالسَّبب الذي هو التذكيرُ عن المسبَّب الذي هو الانتهاء، كما وضعوا الطائرَ موضعَ مسبَّبه وهو التشاؤمُ لما كانوا يألفونه من تكارههم نعيبَ الغرابِ أو بُروحَه.

وقرأ الحسنُ بهمزةٍ واحدةٍ مكسورةٍ[٦]، وفي ذلك احتمالان: تقديرُ الهمزة، فتتَّحد هذه القراءةُ وقراءةَ الجمهور، وعدم تقديرها، فيكون الكلامُ على صورة الخبر، والجوابُ محذوفٌ لدلالة ما قبلُ عليه، وتقديرُه كما تقدَّم.

وقرأ أبو عَمرٍو في رواية، وزِرٌّ أيضاً، بهمزتين مفتوحتَين بينهما مدَّة[٧]، كأنَّه استثقل اجتماعَهما، ففصل بينهما بألِف.

---

(١) البحر ٧/ ٣٢٧، وانظر التيسير ص ٣١-٣٢، والنشر ١/ ٣٦٢-٣٦٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٢٧ دون نسبة.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٠٥، والبحر ٧/ ٣٢٧.

(٤) ٣/ ٣١٨.

(٥) في المحتسب ٢/ ٢٠٦.

(٦) البحر ٧/ ٣٢٧.

(٧) المصدر السابق.

وقرأ أيضاً أبو جعفرٍ والحسن، وكذا قرأ قتادةُ والأعمشُ وغيرُهما: «أَيْنَ» بهمزة مفتوحةٍ وياءٍ ساكنةٍ وفتحِ النون «ذُكِرتم» بتخفيف الكاف[1]، على أنَّ «أين» ظرفٌ أداةُ شرط، وجوابُها محذوفٌ لدلالة «طائركم» عليه، على ما قيل، أي: أين ذُكِرتم صَحِبَكم طائرُكم، والمراد: شؤمُكم معكم حيث جرى ذِكرُكم. وفيه من المبالغةِ بشؤمهم ما لا يخفى.

وفي «البحر»[2]: مَن جوَّز تقديمَ الجزاءِ على الشرط ـ وهم الكوفيُّون وأبو زيدٍ والمبرِّد ـ يجوِّز أن يكونَ الجواب: «طائرُكم معكم»، وكان أصلُه: أين ذُكِرتم فطائرُكم معكم، فلما قدِّم حُذفت الفاء.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: عادتُكم الإسرافُ ومجاوزةُ الحدِّ في العصيان، مستمرُّون عليه، فمن ثَمَّ أتاكم الشؤمُ لا من قِبَل اللهِ تعالى وتذكيرِهم. فهو إضرابٌ عمَّا يقتضيه قولُه تعالى: (أَئِن ذُكِّرْتُمْ) من إنكار أن يكونَ ما هو سببُ السعاداتِ أجمعَ سببَ الشؤم؛ لأنه تنبيهٌ وتعريكٌ إلى البتِّ عليهم بلِزام الشُّؤم، وإثباتِ الإسرافِ الذي هو أَبلغ، وهو جالبُ الشؤم كلِّه.

أو: بل أنتم قوم مسرفون في ضلالِكم متمادون في غَيِّكم، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرُّكُ به من الهُداة لدين اللهِ تعالى. فهو إضرابٌ عن مجموعِ الكلام، أجابوهم بأنَّهم جعلوا أسباباً للسعادة، مدمجين فيه التنبيهَ على سوءِ صنيعهم في الحرمانِ عنها، ثم أَضربوا عنه إلى ما فعل القومُ من التعكيس لما يقتضيه النظرُ الصحيح، فتأمَّل.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ أي: من أَبعد مواضِعها ﴿رَجُلٌ﴾ أي: رجلٌ عند اللهِ تعالى، فتنوينُه للتعظيم. وجوِّز أن يكونَ التنكيرُ لإفادة أنَّ المرسَلين لا يعرفونه ليتواطؤوا معه. اسمُه ـ على ما رُوي عن ابن عباسٍ وأبي مِجلَزٍ وكعبِ الأحبار ومجاهدٍ ومقاتل ـ حبيب، وهو ابنُ إسرائيلَ على ما قيل، وقيل: ابن مرّى.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٠٥، والبحر ٧/ ٣٢٧.

(٢) ٧/ ٣٢٧-٣٢٨.

وكان ـ على المشهور ـ نجّاراً، وقيل: كان حرّاثاً، وقيل: قصّاراً، وقيل: إسكافاً، وقيل: نحّاتاً للأصنام. ويمكن أن يكونَ جامعاً لهذه الصِّفات.

وذكر بعضُهم أنَّه كان في غارٍ مؤمناً يعبد ربَّه عزَّ وجلّ، فلمَّا سمع أنَّ قومَه كذَّبوا الرُّسل، جاء ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يعدو ويُسرع في مَشيه حرصاً على نصحِ قومِه. وقيل: إنَّه سمع أنَّ قومَه عزموا على قتل الرُّسل، فقصد وجهَ اللهِ تعالى بالذَّبِّ عنهم، فسعى هنا مِثلُها في قوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩] وهو مجازٌ مشهور، وكونُه في غارٍ لا ينافي مجيئَه من أقصى المدينة؛ لجواز أن يكونَ في أقصاها غارٌ.

نعم هذا القولُ ظاهرٌ في أنَّه كان مؤمناً، وهو ينافي أنَّه كان نحّاتاً للأصنام. وأُجيب بأنَّ المرادَ ينحت التماثيلَ لا للعبادة، وكان في تلك الشريعةِ مباحاً.

وحُكي القولُ بإيمانه عن ابن أبي ليلى، ونقل في «البحر»(١) عنه أنَّه قال: سُبَّاقُ الأممِ ثلاثةٌ لم يكفروا قطُّ طرفةَ عين: عليُّ بن أبي طالب، وصاحبُ يس، ومؤمنُ آلِ فرعون. وذكر الزمخشريُّ وجماعةٌ هذا حديثاً عن رسول اللهِ ﷺ(٢)، وكذا ذكروا أنَّه ممَّن آمن برسول اللهِ ﷺ كما آمن به تُبَّع الأكبرُ وورقةُ بن نوفلٍ وغيرُهما. ولم يؤمن أحدٌ بنبيٍّ غيره عليه الصلاة والسلام قبلَ ظهوره.

وقيل: كان مجذوماً، وكان منزلُه أقصى بابٍ من أبواب المدينة، عبد الأصنامَ سبعين سنة، يدعوهم لكشف ضُرِّه، فلم يكشَف، فلمَّا دعاه الرسلُ إلى عبادة اللهِ تعالى قال: هل مِن آية؟ قالوا: نعم، ندعوا ربَّنا القادرَ يفرِّج عنك ما بك، فقال: إنَّ هذا لعَجب، لي سبعون سنةً أدعو هذه الآلهةَ فلم تستطع تفريجَه، فكيف يفرِّجه ربُّكم في غَداةٍ واحدة؟ قالوا: ربُّنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفعُ شيئاً ولا تضرّ،

---

(١) ٧/ ٣٢٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٩، والحديث أخرجه بنحوه أحمد في فضائل الصحابة (١٠٧٢) و(١١١٧) من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، عن النبي ﷺ، وفي إسناده عمرو بن جميع البصري، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٠: وهو متروك. وأخرجه الطبراني في الكبير (١١١٥٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال ابن كثير عن تفسير الآية (٢٦) من هذه السورة: هذا حديث منكر، لا يعرف إلا من طريق حسين الأشقر، وهو متروك.

فآمن، ودعَوا ربَّهم سبحانه، فكشف عزَّ وجلَّ ما به، كأن لم يكن به بأس، فأَقبل على التكسُّب، فإذا أمسى تصدَّق بنصف كسبِه وأَنفق النصفَ الآخَرَ على نفسه وعياله، فلما همَّ قومُه بقتل الرُّسل، جاءَ من أَقصى المدينةِ يسعى.

وعلى هذا نحتُه للأصنام غيرُ مشكل، ولا يحتاج إلى ذلك الجوابِ البعيد. نعم بين هذا وبين خبرِ: «سُبَّاقُ الأممِ ثلاثة» وأنَّه ممَّن آمن برسول اللهِ ﷺ كما آمن تُبَّع = منافاة، وكونُ إيمانِه به عليه الصلاة والسلام إنَّما كان على يد الرُّسل وإنْ كان خلافَ الظاهر، دافعٌ للمنافاة بينه وبين الأخير، فتبقى المنافاةُ بينه وبين الخبرِ الأوَّل، إلَّا أن يقال: المراد: سُبَّاقُ الأممِ إلى الإيمان بعد الدعوةِ ثلاثةٌ لم يكفروا بعدها قطُّ طرفةَ عين.

ومما يدلُّ بظاهره أنَّ الرجلَ لم يكن قبلُ مؤمناً ما حُكي أنَّ المرسلَين اللَّذين أُرسلا أوَّلاً لمَّا قَرُبا إلى المدينة، رأياه يرعى غنماً، فسألهما فأخبراه، فقال: أَمعكما آية؟ فقالا: نشفي المريضَ ونُبرئ الأكمهَ والأبرص، وكان له ولدٌ مريض، فمسحاه فبرئ، فآمن.

وحَملُ آمَنَ على: أظهر الإيمان، خلافُ الظاهر، والذي يترجَّح في نظري أنَّه كان مؤمناً بالمرسلين قبلَ مجيئه ونصحِه لقومه، ولا جزمَ لي بإيمانه ولا عدمِه قبل إرسالِ الرسل، وظواهرُ الأخبارِ في ذلك متعارضة، ومع هذا لم يتحقَّق عندي صحةُ شيءٍ منها، واللهُ تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

وجاء «من أقصى المدينة» هنا مقدَّماً على «رجل» عكس ما جاء في «القَصص» [الآية: ٢٠]، وجعله أبو حيَّان[(١)] من التفنُّن في البلاغة. وقال الخفاجيّ[(٢)]: قدَّم الجارُّ والمجرورُ على الفاعل الذي حقُّه التقديمُ؛ بياناً لفضله، إذ هداه اللهُ تعالى مع بُعده عنهم، وأن بُعدَه لم يمنعْه عن ذلك؛ ولذا عبَّر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية، إشارةً إلى السَّعة[(٣)]، وأنَّ اللهَ تعالى يَهدي مَن يشاء، سواءٌ قَرُب أو بَعُد.

---

(١) في البحر ٧/ ٣٢٨.

(٢) في حاشيته ٧/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) في حاشية الخفاجي: للسعد، بدل: إلى السعة.

وقيل: قدِّم للاهتمام، حيث تضمَّن الإشارةَ إلى أنَّ إنذارَهم قد بلغ أقصى المدينة، فيُشعر بأنَّهم أتَوا بالبلاغ المبين. وقيل: إنَّه لو أخِّر تُوهِّم تعلُّقه بـ «يسعى»، فلم يُفِد أنَّه من أهل المدينةِ مسكنُه في طرفها، وهو المقصود.

وجملةُ «يسعى» صفةُ «رجل» وجوِّز كونَها حالاً منه مَن جوَّز مجيءَ الحالِ من النكرة.

وقولُه تعالى: ﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيّ، كأنَّه قيل: فماذا قال عندَ مجيئه؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠﴾ وجوِّز كونُه بياناً للسعي، بمعنى قصد وجهِ الله عزَّ وجلَّ. ولا يخفَى ما فيه.

والتعرُّض لعنوان رسالتِهم لحثِّهم على اتِّباعهم، كما أنَّ خطابَهم بـ: «يا قومِ» لتأليف قلوبِهم واستمالتِها نحو قَبولِ نصيحته.

وقولُه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ تكريرٌ للتأكيد، وللتوسُّل به إلى وصفهم بما يتضمَّن نفيَ المانعِ عن اتِّباعهم بعد الإشارة إلى تحقُّق المقتضي.

وقولُه سبحانه: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١﴾ أي: ثابتون على الاهتداءِ بما هم عليه إلى خير الدُّنيا والآخرة. جملةٌ حاليةٌ فيها ما يؤكِّد كونَهم لا يَسألون الأجر، ولا ما يتْبعه من طلب جاهٍ وعُلُوّ؛ ولذا جُعلت إيغالاً حسناً، نحو قولِ الخنساء:

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ به   كأنَّه عَلَمٌ في رأسه نارُ[1]

والظاهرُ أنَّ الرجلَ لم يقل ذلك إلَّا بعد سبق إيمانه. ورُوي أنَّه لمَّا بلغته الدعوةُ جاء يسعى، فسمع كلامَهم وفهمه، ثم قال لهم: أتطلبون أجراً على دعوتكم هذه؟ قالوا: لا، فدعا عند ذلك قومَه إلى اتِّباعهم والإيمانِ بهم قائلاً: يا قومِ.. إلخ.

وللنحويِّين في مثل هذا التركيبِ وجهان: أحدُهما: أن تكونَ «مَن» بدلاً مِن «المرسلين» بإعادة العامل، كما أُعيد إذا كان حرفَ جرّ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ [الزخرف: ٣٣] وإليه ذهب بعضُهم. وثانيهما ـ وإليه ذهب

(١) البيت للخنساء، وهو في الديوان ص٤٩، وسلف ١٨/١٩. والإيغال: هو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها. الإتقان ٢/٨٦٩.

الجمهور ـ: أنَّه ليس ببدل؛ فإنَّه مخصوصٌ بما إذا كان العاملُ المعادُ حرفَ جرّ، أمَّا إذا كان رافعاً أو ناصباً، فيسمُّون ذلك بالتَّتبيع لا بالبدل.

واستُدلَّ بالآية على نقصِ مَن يأخذ أجرةً على شيءٍ من أفعال الشَّرع، والبحثُ مستوفًى في الفروع.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ تلطُّف في إرشاد قومِه بإيراده في معرض المناصحةِ لنفسه وإمحاضِ النُّصح، حيث أراهم أنَّه اختار لهم ما يختارُ لنفسه، والمرادُ تقريعُهم على ترك عبادةِ خالِقهم إلى عبادة غيرِه، كما ينبئُ عنه قولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ مبالغةً في تهديدِهم بتخويفهم بالرُّجوع إلى شديد العقاب، مواجهةً وصريحاً، ولو قال: وإليه أُرجع، كان فيه تهديدٌ بطريق التعريض.

وعُدَّ التعبيرُ بـ «إليه تُرجَعون» بعد التعبيرِ بـ «ماليَ لا أَعبد» من باب الالتفات؛ لمكان التعريضِ بالمخاطَبين في «ما لي لا أعبد» إلخ، فيكون المعبَّر عنه في الأسلوبين واحداً، بناءً على ما ذهب إليه الخطيبُ والسعدُ التفتازانيُّ من أنَّ التعريضَ إما مجازٌ أو كناية، وهو هاهنا مجاز؛ لامتناع إرادةِ الموضوعِ له، فيكون اللفظُ مستعملاً في غير ما وُضع له، فيتَّحد المعبَّر عنه.

وحقَّق السيدُ السندُ أنَّ المعنى التعريضيَّ من مستتبعات التركيب، واللفظُ ليس بمستعملٍ فيه، بل هو بالنِّسبة إلى المستعملِ فيه إمَّا حقيقة، أو مجازٌ، أو كناية، وعليه فضميرُ المتكلِّم في «ما لي» إلخ ليس مستعملاً في المخاطَبين، فلا يكون المعبَّر عنه في الأسلوبين واحداً، فلا التفات.

وجوَّز بعضُهم كونَ الآيةِ مِن الاحتباك، والأصلُ: وماليَ لا أَعبد الذي فطرني وإليه أُرجع، ومالكم لا تَعبدون الذي فطركم وإليه تُرجَعون. فحُذف من الأوَّل نظيرُ ما ذُكر في الثاني، وبالعكس. وهو مفوِّت لِمَا سمعت.

وظاهرُ كلامِ الواحديِّ[1] أنَّه لا تعريضَ في الآية، حيث قال: لمَّا قال الرجل: «يا قوم اتبعوا المرسلين» إلخ، رفعوه إلى المَلِك، فقال له الملك: أفأنت تَتْبعهم؟

(١) في الوسيط ٣/ ٥١٢.

فقال: «مالي لا أعبد الذي فطرني» أي: أيُّ شيءٍ لي إذا لم أعبدْ خالقي «وإليه ترجعون» تُردُّون عند البعث، فيَجزيكم بكفركم.

ورُدَّ عليه بأنَّه إذا رجع الإنكارُ إليه دون القوم، لم يكن لخطابهم بـ «تُرجعون» معنًى، وكان الظاهر: أُرجع.

وأُجيب بأنَّه يمكن أن يقال: إنَّ الرجلَ كان في غيظٍ شديدٍ من تكذيبهم الرُّسلَ وتوعُّدِهم إياهم، فانتهز الفرصة للانتقام، فلمَّا تمكَّن من تهديدهم، أوقع قولَه: «وإليه ترجعون» في البَين، أي: ماليَ لا أعبد الذي مَنَّ عليَّ بنعمة الإيجاد ونعمةِ الانتقام منكم والتشفِّي من غيظكم إذ تُرجَعون إليه، فيَجزيكم بكفركم وتكذيبِكم الرسلَ وعنادِكم.

وأنت تعلم أنَّ النظمَ الجليلَ لا يساعد على هذا، وهو ظاهرٌ فيما تقدَّم، وقد عاد إلى المساق الأوَّلِ من التلطُّف بالإرشاد فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إنكارٌ ونفيٌ لاتِّخاذ جنسِ الآلهة على الإطلاق، وفيه من تحميق مَن يعبد الأصنامَ ما فيه.

وقوله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ استئنافٌ سيق لتعليل النَّفي المذكور، وجَعلُه صفةً لآلهة ـ كما ذهب إليه البعض ـ ربَّما يوهم أنَّ هناك آلهةً ليست كذلك. ومعنى «لا تغني» إلخ: لا تنفعني شيئاً من النَّفع، وهو إمَّا على حدِّ:

لا ترى الضَّبَّ بها ينجحرْ[1]

أي: لا شفاعةَ لهم حتى تنفعَني، وإمَّا على فَرْض وقوعِ الشفاعة، أي: لا تُغني عني شفاعتُهم لو وقعت شيئاً ﴿وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ يُخلِّصونِ من ذلك الضُّرِّ بالنصر والمظاهرة، وهو ترقٍّ من الأدنَى إلى الأعلى، بدأ أوَّلاً بنفي الجاه، وذكر ثانياً انتفاءَ القدرة، وعبَّر عنه بانتفاء الإنقاذِ لأنَّه نتيجتُه.

وفتح ياءَ المتكلِّم في «يُردنيَ» طلحةُ السمَّان، على ما قال ابنُ عطية[2]، وقال ابنُ خالويه: طلحةُ بن مصرِّف وعيسى الهمدانيُّ وأبو جعفر. ورُويت عن نافعٍ

---

(١) سلف ٤/ ٨٨.
(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥١، ونسبها أيضاً لعيسى الهمداني.

وعاصمٍ وأبي عَمرو[١]. وقال الزمخشريّ[٢]: وقُرئ: «إنْ يَرِدني الرَّحمنُ بضُرٍّ» بمعنى: إنْ يُوردني ضَرّاً، أي: يجعلني مورداً للضُّرّ. اهـ.

قال أبو حيَّان[٣]: كأنَّه ـ واللهُ تعالى أعلم ـ رأى في كتب القراءاتِ «يردني» بفتح الياء، فتوهَّم أنها ياءُ المضارعة، فجعل الفعلَ متعدِّياً بالياء المعدِّية كالهمزة، فلذلك أَدخل عليه همزةَ التعدية، ونصب به اثنين، والذي في كتب الشواذِّ أنَّها ياءُ الإضافة المحذوفةِ خطّاً ونطقاً لالتقاءِ الساكنين، قال في كتاب ابنِ خالويه: بفتح الياءِ ياءِ الإضافة[٤]، وقال في «اللَّوامح»: «إنْ يُردنيَ الرَّحمنُ» بالفتح، وهو أصلُ الياءِ البَصَرية، أي: المثبتة بالخطِّ الذي يُرى بالبصر، لكن هذه محذوفة. انتهى كلامُه. وحسنُ الظنِّ بالزمخشريِّ يقتضي خلافَ ما ذكره.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ أي: إذا اتَّخذتُ من دونه آلهةً ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ فإنَّ إشراكَ ما يُصنع وليس من شأنه النفعُ ولا دفعُ الضرِّ بالخالق المقتدرِ الذي لا قادرَ غيرُه ولا خيرَ إلَّا خيرُه، ضلالٌ وخطأ بيِّن، لا يخفى على مَن له أدنَى تمييز.

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ الظاهرُ أنَّ الخطابَ لقومه، شافَهَهم بذلك وصدع بالحقِّ إظهاراً للتصلُّب في الدِّين وعدمِ المبالاةِ بما يصدر منهم. والجملةُ خبريةٌ لفظاً ومعنًى. والتأكيدُ قيل: لأنَّهم لم يعلموا من كلامه أنَّه آمن، بل تردَّدوا في ذلك لمَّا سمعوا منه ما سمعوا.

وإضافةُ الربِّ إلى ضميرهم لتحقيق الحقِّ، والتنبيهِ على بطلانِ ما هم عليه من اتِّخاذ الأصنامِ أرباباً، أي: إنِّي آمنت بربِّكم الذي خلقكم ﴿فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ أي: فاسمعوا قولي هذا، فإنِّي لا أُبالي بما يكون منكم على ذلك. وقيل: مرادُه دعوتُهم إلى الخيرِ الذي اختاره لنفسه.

---

(١) البحر ٧/ ٣٢٩. وهي منسوبة في المطبوع من كتاب ابن خالويه ص ١٢٥ لطلحة بن مصرف فقط.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣١٩.

(٣) في البحر ٧/ ٣٢٩.

(٤) كذا في البحر، وليس في المطبوع من كتاب ابن خالويه ص ٢١٥ قوله: ياء الإضافة.

وقيل: لم يُرِد بهذا الكلامِ إلَّا أن يُغضبَهم ويَشغلَهم عن الرُّسل بنفسه، لمَّا رآهم لا ينجع فيهم الوعظُ وقد عزموا على الإيقاع بهم. وليس بشيء.

وقدَّر بعضُهم المضافَ المحذوفَ عامّاً، وفسَّر السَّماعَ بالقبول، كما في: سَمِعَ اللهُ تعالى لمن حمده، أي: فاسمعوا جميعَ ما قلتُه واقبلوه. وهو ممَّا يُسمَع.

وجعلُ الخطابِ للقوم في الجملتين هو المرويُّ عن ابن عباسٍ وكعبٍ ووهب.

وأخرج الحاكمُ(١) عن ابن مسعودٍ أنَّه قال: لمَّا قال صاحبُ يس: «يا قوم اتبعوا المرسلين» خنقوه ليموت، فالتفت إلى الأنبياءِ فقال: «إني آمنت بربكم فاسمعون» أي: فاشهدوا. فالخطابُ فيهما للرُّسل بطريق التلوين، وأكَّد الخبرُ إظهاراً لصدوره عنه بكمال الرغبةِ والنشاط، وأضاف الربَّ إلى ضميرهم روماً لزيادة التقرير، وإظهاراً للاختصاص والاقتداءِ بهم، كأنَّه قال: بربِّكم الذي أَرسلكم، أو: الذي تدعوننا إلى الإيمان به، وطلب السَّماعَ منهم ليشهدوا له بالإيمان عند اللهِ عزَّ وجلّ، كما يُشير إليه كلامُ ابن مسعودٍ ﵁.

وقيل: الخطابُ الأوَّل لقومه، والثاني للرُّسل، خاطبهم على جهة الاستشهادِ بهم، والاستحفاظِ للأمر عندهم.

وقيل: الخطابانِ للناس جميعاً.

ورُوي عن عاصمٍ أنَّه قرأ: «فاسمعونَ» بفتح النُّون(٢). قال أبو حاتم: هذا خطأٌ لا يجوز؛ لأنَّه أمر، فإمَّا أن تُحذفَ كما حُذفت نونُ الإعراب ويقال: فاسمعوا، وإمَّا أن تبقى وتُكسَر. ومن الناس مَن وجَّهه بأنَّ الأصلَ: فاسمعونا، أي: فاسمعوا كلامَنا، أي: كلامي وكلامَهم لتشهدوا بما كان منِّي ومنهم.

---

(١) في المستدرك ٢/ ٤٢٩.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥١، والبحر ٧/ ٣٢٩.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ استئنافٌ لبيان ما وقع له بعد قولِه ذلك، والظاهرُ أنَّ الأمرَ إذنٌ له بدخول الجنةِ حقيقة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الرجلَ قد فارق الدُّنيا، فعن ابن مسعودٍ أنَّه بعد أنْ قال ما قال، قتلوه بوطء الأرجُل حتى خرج قُصْبُه من دُبُره، وأُلقي في بئرٍ وهي الرَّسّ. وقال السُّدِّي: رمَوه بالحجارةِ وهو يقول: اللهمَّ اهدِ قومي، حتى مات. وقال الكلبيّ: رمَوه في حفرةٍ وردُّوا الترابَ عليه فمات. وعن الحسن: حرقوه حتى مات، وعلَّقوه في بَرِّ المدينة، وقبرُه في سور أنطاكية. وقيل: نشروه بالمنشارِ حتى خرج من بين رجلَيه.

ودخوله الجنةَ بعد الموتِ دخولُ روحِه وطوافُها فيها، كدخول سائرِ الشهداء. وقيل: الأمرُ للتبشير لا للإذن بالدخولِ حقيقة، قالت له ملائكةُ الموتِ ذلك بشارةً له بأنَّه من أهلِ الجنَّة، يدخلها إذا دخلها المؤمنون بعدَ البعث. وحُكي نحوُ ذلك عن مجاهد؛ أخرج عبد بن حُميد وابن جَريرٍ وابنُ المنذر وابن أبي حاتمٍ عنه أنَّه قال في قوله تعالى: (قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ): وَجَبت له الجنّة[1].

وجاء في روايةٍ عن الحسن أنَّه قال: لمَّا أراد قومُه قتلَه، رفعه اللهُ تعالى إلى السماءِ حيّاً، كما رفع عيسى عليه السلام إلى السَّماء، فهو في الجنَّة لا يموت إلَّا بفَناء السماءِ وهلاكِ الجنة، فإذا أعاد اللهُ تعالى الجنة، أُعيد له دخولُها، فالأمر كما في الأوَّل.

والجمهورُ على أنه قُتل. وادَّعى ابنُ عطيةَ[2] أنَّه تواترت الأخبارُ والرِّوايات بذلك، وقولُ قتادةَ: أَدخله اللهُ تعالى الجنةَ وهو فيها حيٌّ يرزق، ليس نصّاً في نفي القتل. وفي «البحر»[3] أنَّه أراد بقوله: وهو فيها حيٌّ يرزق، قولَه تعالى: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقال بعضُهم: الجملةُ جوابُ سؤالٍ مقدَّر، كأنه قيل: ما حالُه عند لقاءِ ربِّه

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٦٢، وتفسير الطبري ١٩/ ٤٢٥-٤٢٦.
(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥١.
(٣) ٧/ ٣٢٩.

عزَّ وجلَّ بعد ذلك التصلُّبِ في دينه؟ فقيل: «قيل: ادخُل الجنة»، والتعبيرُ بالماضي لتحقُّق الوقوع. ولعل الأَوْلى ما أشرنا إليه أوَّلاً. وإنَّما لم يقل: قيل له؛ لأنَّ الغرضَ المهمَّ بيانُ المقول، لا القائلِ والمقولِ له.

وقولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾ استئنافٌ بيانيٌّ أيضاً، كأنَّه قيل بعد أن أخبر عنه بما أخبر: فماذا قال عند نيلِه تلك الكرامةَ السَّنية؟ فقيل: قال.. إلخ. وإنَّما تمنَّى علمَ قومِه بحاله؛ ليحملَهم ذلك على اكتساب مثلِه بالتَّوبة عن الكفرِ والدخولِ في الإيمان والطاعة، جرياً على سَنَن الأولياءِ في كظم الغيظِ والترحُّمِ على الأعداء، وفي الحديث: «نصح قومَه حيّاً وميِّتاً»[1].

وقيل: يجوز أن يكونَ تمنِّيه ذلك ليعلموا أنَّهم كانوا على خطأ عظيم في أمره، وأنَّه كان على صوابٍ ونصيحةٍ وشفقة، وأنَّ عداوتَهم لم تُكسبه إلَّا فوزاً، ولم تُعقبه إلَّا سعادة؛ لأنَّ في ذلك زيادةَ غِبطةٍ له، وتضاعفَ لذَّةٍ وسرور. والوجهُ الأوَّل أولى.

والظاهرُ أنَّ «ما» مصدرية، ويجوز أن تكونَ موصولة، والعائدُ مقدَّر، أي: يا ليت قومي يعلمون بالذي غفر لي به ـ أي: بسببه ـ ربِّي، أو بالذي غفره، أي: بالغفرانِ الذي غفره لي ربِّي، والمرادُ تعظيمُ مغفرتِه تعالى له، فتؤُول إلى المصدريَّة.

وقال الزمخشريّ[2]: أي: بالذي غفره لي ربِّي من الذُّنوب. وتعقِّب بأنَّه ليس بجيِّد؛ إذ يؤُول إلى تمنِّي علمِهم بذنوبه المغفورة، ولا يَحسُن ذلك. وكذا عطفُ «وجعلني من المكرمين» عليه لا ينتظم. وما قيل من أنَّ الغرضَ منه الإعلامُ بعظم مغفرةِ اللهِ تعالى ووفورِ كرمِه وسَعة رحمته، فلا يَبعد حينئذٍ إرادةُ معنى الاطِّلاعِ عليها لذلك، بل هو أوقعُ في النفس من ذِكر المغفرةِ مجرَّدةً عن ذِكر المغفور؛ لاحتمال حقارتِه = تكلُّف.

---

(١) أخرجه ابن مردويه ـ كما في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٠ ـ من حديث المغيرة بن شعبة مطولاً.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٢٠.

وأجاز الفرَّاءُ[١] أن تكونَ استفهامية، والجارُّ صلة «غفر» أي: بأيِّ شيءٍ غفر لي ربِّي، يريد به المهاجَرةَ عن دِينهم، والمصابرةَ على أذيَّتهم حتى قُتل.

وتعقَّبه الكسائيُّ بأنه لو صحَّ ذلك لقيل: بمَ، بغير ألف؛ فإنَّ اللغةَ الفصيحةَ حذفُها إذا جُرَّت «ما» الاستفهاميةُ[٢] بحرف جرّ، نحو: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١]، وقولِه:

عـلامَ أقـول الـرُّمـحُ أثـقـل عـاتـقـي إذا أنـا لـم أَطـعَـنْ إذا الـخـيـلُ كـرَّتِ[٣]

فرقاً بينها وبين الموصولة، وإثباتُها نادر، وقيل: مختصٌّ بالضرورة، نحو قولِه:

عـلـى مـا قـام يـشـتـمـنـي لـئـيـمٌ كـخـنـزيـرٍ تـمـرَّغ فـي رمـادِ[٤]

وقولِه:

إنَّـا قـتـلـنـا بـقـتـلانـا سَـرَاتَـكـمُ أهـلَ الـلـواءِ فـفـيـما يـكـثـر الـقِـيـلُ[٥]

وقراءةُ عكرمةَ وعيسى: «عما يتساءلون»[٦].

وقُرِئ: «من المُكَرَّمين» مشدَّدَ الراءِ مفتوحَها مفتوحَ الكاف[٧].

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي: قومِ الرجلِ الذي قيل له: ادخُل الجنةَ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد قتلِه. وقيل: من بعد رفعِه إلى السماء حيّاً ﴿مِن جُندٍ﴾ أي: جنداً، فـ «من» مزيدةٌ لتأكيد النفي، وقيل: يجوز أن تكونَ للتبعيض، وهو خلافُ الظاهر. والجندُ: العسكر؛ لِمَا فيه من الغِلظة، كأنَّه من الجَنَد، أي: الأرضِ الغليظةِ التي فيها حجارة.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) جاء في هامش الأصل: وخص الاستفهام لأنه اسم تام، فهي معه كاسم واحد. اهـ منه.

(٣) البيت لعمرو بن معد يكرب، وهو في الحماسة (شرح المرزوقي ١/ ١٥٩)، والخزانة ٢/ ٤٣٦.

(٤) البيت لحسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص ٧٩.

(٥) البيت لكعب بن مالك، وهو في ديوانه ص ٢٠٢. وجاء في الأصل و(م): القتل، بدل: القيل.

(٦) المحتسب ٢/ ٣٤٧.

(٧) البحر ٧/ ٣٣٠.

والظاهرُ أنَّ المرادَ بهذا الجندِ جندُ الملائكة، أي: ما أنزلنا لإهلاكهم ملائكةً ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨﴾ وما صحَّ في حكمتنا أن ننزلَ الجندَ لإهلاكهم؛ لِمَا أنَّا قدَّرنا لكلِّ شيءٍ سبباً، حيث أَهلكنا بعضَ مَن أهلكنا من الأُمم بالحاصب، وبعضَهم بالصَّيحة، وبعضَهم بالخسف، وبعضَهم بالإغراق، وجعلنا إنزالَ الجندِ من خصائصك في الانتصارِ لك من قومك، وكَفينا أمرَ هؤلاء بصيحةِ مَلَكٍ صاح بهم فهلكوا، كما قال سبحانه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾ وفي ذلك استحقارٌ لهم ولإهلاكهم، وإيماءٌ إلى تفخيم شأنِ النبيِّ ﷺ.

وفسَّر أبو حيَّان[١] الجندَ بما يعمُّ الملائكةَ فقال: كالحجارة والريحِ وغيرِ ذلك. والمتبادرُ ما تقدَّم.

وقيل: الجندُ: ملائكةُ الوحي الذين ينزلون على الأنبياءِ عليهم السلام، أي: قطعنا عنهم الرِّسالةَ حين فعلوا ما فعلوا، ولم نعبأْ بهم وأهلكناهم.

وعن الحسن ومجاهدٍ قالا: قطع اللهُ تعالى عنهم الرسالةَ حين قتلوا رسلَه. وهذا التفسيرُ بعيدٌ جدّاً. وقتلُ الرسلِ الثلاثةِ محكيٌّ في «البحر» بـ: قيل[٢]، وهو ظاهرُ هذا المرويّ، لكن المعروفَ أنَّهم لم يُقتَلوا، وإنَّما قُتل حبيبٌ فقط.

وذهبت فِرقةٌ إلى أنَّ «ما» في قوله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ) موصولةٌ معطوفةٌ على «جند»، والمراد: ما أنزلنا على قومِه من بعده جنداً من السَّماء، وما أنزلنا الذي كنَّا منزليه على الذين مِن قبلِهم من حجارةٍ وريحٍ وغيرِ ذلك.

وتعقَّبه أبو حيانَ[٣] بأنَّه يلزم عليه زيادةُ «مِن» في المعرفة، ومن هنا قيل: الأَولى جعلُها نكرةً موصوفة. وأُجيب بأنَّه يُغتفر في التابع ما لا يُغتفر في المتبوع. ولا يخفَى أنَّ هذا لا يَدفَع بُعدَه.

---

(١) في البحر ٧/ ٣٣١.

(٢) هذا وهم من المصنف رحمه الله تعالى؛ ففي البحر ٧/ ٣٣٢: وقيل: هو من قول الرسل الثلاثة، قالوا ذلك حين قتلوا [أي: القوم] ذلك الرجل وحل بهم العذاب. اهـ. فالمؤلِّف قطع العبارة عند: قتلوا، وجعلها مبنية للمجهول.

(٣) في البحر ٧/ ٣٣٢.

ومِن أبعدِ ما يكون قولُ أبي البقاءِ: يجوز أن تكونَ «ما» زائدة[1]، أي: وقد كنَّا منزلين على غيرهم جنداً من السماءِ، بل هو ليس بشيء.

و«إن» نافية، و«كان» ناقصة، واسمُها مضمَر، و«صيحة» خبرُها، أي: ما كانت هي ـ أي: الأَخذةُ أو العقوبة ـ إلَّا صيحةً واحدة. رُوي أنَّ الله تعالى بعث عليهم جبريلَ عليه السلام حتى أَخذ بعضادتَي بابِ المدينة، فصاح بهم صيحةً واحدة، فماتوا جميعاً.

و«إذا» فجائية، وفيها إشارةٌ إلى سرعة هلاكِهم بحيث كان مع الصَّيحة، وقد شُبِّهوا بالنار على سبيل الاستعارةِ المكنية، والخمودُ تخييل، وفي ذلك رمزٌ إلى أنَّ الحيَّ كشعلة النارِ والميِّتَ كالرَّماد، كما قال لبيد:

وما المرءُ إلَّا كالشِّهاب وضَوئه يحورُ رماداً بعدَ إذ هو ساطعُ[2]

ويجوز أن تكونَ الاستعارةُ تصريحيةً تبعيةً في الخمود بمعنى البرودةِ والسُّكون؛ لأنَّ الروحَ لفزعها عند الصيحةِ تندفع إلى الباطن دَفعةً واحدة، ثم تنحصر فتنطفىءُ الحرارةُ الغريزيةُ لانحصارها. ولعلَّ في العدولِ عن: هامدونَ، إلى: «خامدون»، رمزاً خفيًّا إلى البعثِ بعد الموت.

والظاهرُ أنَّه لم يؤمنْ منهم سوى حبيب، وأنَّهم هلكوا عن آخِرهم. وفي بعض الآثارِ أنَّه آمن الملكُ وآمن قومٌ من حواشيه، ومَن لم يؤمن هلك بالصَّيحة. وهذا بعيد؛ فإنَّه كان الظاهرُ أن يظاهرَ أولئك المؤمنون الرُّسلَ كما فعل حبيب، ولَكان لهم في القرآن الجليلِ ذِكرٌ ما بوجهٍ من الوجوه، اللهم إلَّا أن يقال: إنَّهم آمنوا خفيةً وكان لهم ما يُعذَرون به عن المظاهرة، ومع هذا لا يخلو بَعدُ عن بُعْدٍ.

وقرأ أبو جعفرٍ وشيبةُ ومعاذ بن الحارثِ القارىء: «صيحةٌ»[3] بالرفع على أنَّ

---

(١) قال في الإملاء ٤/ ٢٢٤: وقيل: هي زائدة.

(٢) ديوانه ص ١٦٩.

(٣) النشر ٢/ ٣٥٣ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٧/ ٣٣٢.

«كان» تامَّة، أي: ما حدثت ووقعت إلَّا صيحة. وينبغي ألَّا تَلحقَ الفعلَ تاءُ التأنيثِ في مثل هذا التركيب، فلا يقال: ما قامت إلَّا هند، بل: ما قام إلَّا هند؛ لأنَّ الكلامَ على معنى: ما قام أحدٌ إلَّا هند، والفاعلُ فيه مذكَّر، ولم يجوِّز كثيرٌ من النحويين الإلحاقَ إلَّا في الشِّعر، كقول ذي الرمَّة:

طوى النَّحزُ والأجرازُ ما في غُروضها   وما بقيت إلَّا الضلوعُ الجَراشعُ(١)

وقولِ الآخَر:

ما برئت من ريبةٍ وذَمّ   في حربنا إلَّا بناتُ العمّ(٢)

ومن هنا أَنكر الكثير ـ كما قال أبو حاتمٍ ـ هذه القراءة، ومنهم مَن أجاز ذلك في الكلام على قِلَّة، كما في قراءة الحسن، ومالكِ بن دينار، وأبي رجاءٍ، والجَحدري، وقتادة، وأبي حَيوَة، وابنِ أبي عبلة، وأبي بحرية: «لا تُرَى إلَّا مساكنُهم»(٣) [الأحقاف:٢٥] بالتاء الفوقية، ووجهُه مراعاةُ الفاعلِ المذكور، وكأني بك تميلُ إلى هذا القول.

وقرأ ابنُ مسعود: «إلَّا زَقيةً»(٤) مِن: زقى الطائرُ يَزقو ويَزقي، زَقْواً وزُقاء: إذا صاح، ومنه المثل: أثقلُ من الزَّواقي، وهي الدِّيَكة؛ لأنَّهم كانوا يَسمُرون إلى أنْ تزقوا، فإذا صاحت تفرَّقوا.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ الحسرةُ على ما قال الراغب(٥): الغمُّ على ما فات والندمُ عليه، كأنَّ المتحسِّر انحسر عنه قُواه من فَرْط ذلك، أو أَدركه إِعياءٌ عن تدارك

---

(١) الديوان ٢/ ١٢٩٦. والنحز: ضرب الأعقاب والاستحثاث في السير، والأجراز: الأمحال، والغروض جمع غَرْض: وهو حزام الرحل، والجراشع: جمع جُرشُع: وهو المنتفخ الجنبين.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٣٢، واللباب ١٦/ ٢٠٠ دون نسبة.

(٣) البحر ٧/ ٣٣٢.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٥، والمحتسب ٢/٢٠٦.

(٥) في المفردات (حسر).

ما فَرَط منه. وفي «البحر»[1]: هي أن يركبَ الإنسانَ من شدَّة الندمِ ما لا نهايةَ بعده حتى يبقى حسيراً.

والظاهرُ أنَّ «يا» للنِّداء، و«حسرة» هو المنادَى، ونداؤها مجازٌ بتنزيلها منزلةَ العقلاء، كأنَّه قيل: يا حسرة احضُري، فهذه الحالُ من الأحوال التي من حقِّها أن تحضُري فيها، وهي ما دلَّ عليها قولُه تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

والمرادُ بالعباد مكذِّبو الرُّسل، ويدخل فيهم المهلَكون المتقدِّمون دخولاً أوليّاً ـ وقيل: هم المرادُ. وليس بذاك ـ وبالحسرة المناداةِ حسرتُهم. والمستهزؤون بالنَّاصحين المخلِصين المنوطِ بنصحهم خيرُ الدارين أحِقَّاءُ بأن يتحسَّروا على أنفسهم، حيث فوَّتوا عليها السعادةَ الأبديةَ وعوَّضوها العذابَ المقيم.

ويؤيِّد هذا قراءةُ ابنِ عباس، وأُبَيّ، وعليِّ بن الحسين، والضحَّاك، ومجاهدٍ، والحسن: «يا حسرةَ العباد» بالإضافة[2]. وكونُ المرادِ حسرةَ غيرِهم عليهم والإضافة لأدنَى ملابسة، خلافُ الظاهر.

وأخرج ابن جَريرٍ[3] وغيرُه عن قتادةَ أنَّه قال: في بعض القراءات: «يا حسرةَ العبادِ على أنفُسها ما يأتيهم..» إلخ.

وجوَّز أن تكونَ حسرةَ الملائكة ـ عليهم السلام ـ والمؤمنين من الثَّقلين، وعن الضحَّاك تخصيصُها بحسرة الملائكةِ عليهم السلام، وزعم أنَّ المرادَ بالعباد الرسلُ الثلاثة. وأبو العاليةِ فسَّر «العباد» بهذا أيضاً، لكنَّه حمل الحسرةَ على حسرة الكفارِ المهلَكين، قال: تحسَّروا حين رأوا عذابَ اللهِ تعالى، وتلهَّفوا على ما فاتهم.

وقيل: المرادُ بالعباد المهلَكون، والمتحسِّر الرجلُ الذي جاءَ من أقصى المدينة، تحسَّر لمَّا وثب القومُ لقتله.

---

(١) ٧/ ٣٣٢ نقلاً عن الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٨٥.

(٢) البحر ٧/ ٣٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٠٨ ولم يذكر الحسن، ونسبها للحسن فقط ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٥.

(٣) في تفسيره ١٩/ ٤٢٩.

وقيل: المرادُ بالعباد أولئك، والمتحسِّر الرسلُ حين قتلوا ذلك الرجلَ وحلَّ بهم العذابُ ولم يؤمنوا.

ولا يخفَى حالُ هذه الأقوال. وكأنَّ مرادَ مَن قال: المتحسِّر الرجل، ومَن قال: المتحسِّر الرسل، عنَى أنَّ القولَ المذكورَ قولُ الرجلِ أو قولُ الرُّسل، وفي كلام أبي حيَّان[(١)] ما هو ظاهرٌ في ذلك، ومع هذا لا ينبغي أن يعوَّلَ على شيءٍ ممَّا ذكر.

وجوِّز أن يكونَ التحسُّر منه سبحانه وتعالى مجازاً عن استعظام ما جَنَوه على أنفسهم، وأُيِّد بأنه قُرئ: «يا حسرَتَا على العباد»[(٢)] فإنَّ الأصلَ عليها: يا حسرتي، فقُلبت الياءُ ألفاً. ونحوُها قراءةُ ابنِ عباس ـ كما قال ابنُ خالويه[(٣)] ـ: «يا حسرةَ على العباد» بغير تنوين، فإنَّ الأصلَ أيضاً: يا حسرتي، فقُلبت الياءُ ألفاً، ثم حُذفت الألفُ واكتُفي عنها بالفتحة.

وقرأ أبو الزِّناد وابنُ هُرمُزٍ وابنُ جُندب: «يا حسرَهْ على العباد» بالهاءِ الساكنة[(٤)]. قال في «المنتقى»: وَقَفَ على «حسره» وقفاً طويلاً تعظيماً للأمر، ثم قيل: «على العباد». وفي «اللَّوامح»: وقفوا على الهاءِ مبالغةً في التحسُّر؛ لما في الهاءِ من التأَهُّه، كالتأوُّه، ثم وصلوه على تلك الحال.

وقال الطِّيبي: إنَّ العربَ إذا أَخبرت عن الشيءِ غيرِ معتدٍّ به، أَسرعت فيه ولم تأتِ على اللفظ المعبَّرِ عنه، نحو:

قلتُ لها قفي قالت لنا قاف[(٥)]

أي: وقفتُ، فاقتَصَرَت من جملة الكلمةِ على حرفٍ منها تهاوناً بالحال، وتثاقلاً عن الإجابة. ولا يخفى أنَّ هذا لا يناسب المقام.

---

(١) في البحر ٧/ ٣٣٣.

(٢) البحر ٧/ ٣٣٢.

(٣) في القراءات الشاذة ص ١٢٥.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٠٨، والبحر ٧/ ٣٣٢. ونسبها ابن خالويه ص ١٢٥ لابن هرمز.

(٥) الرجز للوليد بن عقبة بن أبي معيط، وسلف ١٦/ ٢١٣.

وينبغي على هذه القراءةِ ألَّا يكونَ «على العباد» متعلِّقاً بـ «حسرة» أو صفةً له؛ إذ لا يَحسُن الوقفُ حينئذ، بل يُجعل متعلِّقاً بمضمَرٍ يدلُّ عليه «حسرة» نحو: يتحسَّر، أو: أتحسَّر على العباد - وتقديرُ: انظروا، ليس بذاك[1] - أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ لبيان المتحسَّر عليه، أي: الحسرةُ على العباد، وتخريجُ قراءةِ: «يا حسرتا» بالألف على هذا الطرز بأن يقال: قدِّر الوقفُ على المنصوب المنوَّن، فإنَّه يوقف عليه بالألف، كـ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧] وضرب زيدٌ عَمراً، ليس بشيء، ولو سَلِم أنَّه شيء، لا ينافي التأييد.

وقيل: «يا» للنِّداء، والمنادَى محذوف، و«حسرة» مفعولٌ مطلقٌ لفعل مضمَر، و«على العباد» متعلِّق بذلك الفعل، أي: يا هؤلاء تحسَّروا حسرةً على العباد.

ولعل الأوفقَ للمقام المتبادرَ إلى الأفهام أنَّ المرادَ نداءُ حسرةِ كلِّ مَن يتأتَّى منه التحسُّر، ففيه من المبالغة ما فيه.

وقولُه تعالى: (مَا يَأْتِيهِم) إلخ استئنافٌ لبيان ما يتحسَّر منه، و«به» متعلِّق بـ «يستهزؤون»، وقدِّم عليه للحصر الادِّعائي، وجوِّز أن يكونَ لمراعاة الفواصل.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ الضميرُ لأهل مكَّة، والاستفهامُ للتقرير، و«كم» خبريةٌ في موضع نصبٍ بـ «أهلكنا»، و«من القرون» بيانٌ لـ «كم»، وجوَّز بعضُ المتأخِّرين كونَ «كم» مبتداً، والجملة بعدَه خبره، وهو كلامُ مَن لا خبرَ عنده. والجملةُ معمولةٌ لـ «يروا» نافذٌ معناها فيها، و«كم» معلِّقة لها عن العمل في اللفظ؛ لأنَّها وإنْ كانت خبرية لها صدرُ الكلامِ كالاستفهامية، فلا يعمل فيها عاملٌ متقدِّم على اللغةِ الفصيحة، إلَّا إذا كان حرفَ جرٍّ أو اسماً مضافاً، نحو: على كم فقيرٍ تصدَّقتُ أرجو الثواب، و: ابنَ كم رئيسٍ صحبتُه.

---

(١) قوله: وتقدير: انظروا، ليس بذاك. لم يتضح لنا مراد المصنف من ذكره في هذا الموضع، ولعل موضعه فيما سيأتي من القول بأن المنادى محذوف في قوله: «يا حسرة»، والتقدير: يا هؤلاء تحسروا حسرة، ويؤيد ذلك أن الشهاب قال في الحاشية ٧/ ٢٣٩ بعد ذكر هذا القول: ويجوز تقدير انظروا أو اسمعوا. وقد أجاز المصنف تقدير انظروا ولكن في قوله: «يا ويلنا مَن بعثنا...» كما سيرد.

وحكى الأخفشُ - على ما في «البحر»[1] - جوازَ تقدُّم عاملٍ عليها غيرِ ذلك عن بعضهم، نحو: ملكتُ كم غلام، أي: ملكتُ كثيراً من الغِلمان، عاملوها معاملةَ كثير.

والرؤيةُ علميَّةٌ لا بَصَريَّة، خلافاً لابن عطية[2]؛ لأنَّها لا تعلَّق على المشهور، ولأنَّ أهلَ مكةَ لم يحضروا إهلاكَ مَن قبلَهم حتى يروه، بل عَلِموه بالأخبار ومشاهدةِ الآثار.

والقرونُ جمعُ: قَرن، وهم القومُ المقترنون في زمنٍ واحد، كعادٍ وثمودَ وغيرِهم.

﴿أَنَّهُمْ﴾ الضميرُ عائدٌ على معنى «كم» وهي القرون، أي: أنَّ القرونَ المهلَكين ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى أهل مكَّة ﴿لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ و«أنَّ» وما بعدها في تأويل المفردِ بدل من جملة «كم أهلكنا» على المعنى، كما نُقل عن سيبويه وتَبِعه الزجَّاج[3]، أي: ألم يرَوا كثرةَ إهلاكنا مَن قبلَهم وكونَهم غيرَ راجعين إليهم.

وقيل: على المعنى؛ لأنَّ الكثرةَ المذكورةَ وعدمَ الرجوعِ ليس بينهما اتِّحادٌ بجزئية، ولا كلِّيَّة، ولا ملابسة، كما هو مقتضَى البدليَّة، لكن لمَّا كان ذلك في معنى: الذين أَهلكناهم، و«أنَّهم لا يرجعون» بمعنى: غير راجعين، اتَّضح فيه البدليَّة، على أنَّه بدلُ اشتمالٍ، أو بدلُ كلٍّ من كلّ. قاله الخفاجيّ[4].

وأفاد صاحبُ «الكشف» على أنَّه من بدل الكلِّ بجعل كونِهم غيرَ راجعين كثرةَ إهلاكٍ تجوُّزاً.

وعندي أنَّ هذا الوجهَ وإنْ لم يكن فيه إبدالُ مفردٍ من جملةٍ وتحقَّق فيه مصحِّحُ البدليةِ على ما سمعتَ، لا يخلو[5] عن تكلُّف، وسيبويه ليس بنبيِّ النحوِ ليجبَ اتِّباعُه.

وقال السِّيرافي: يجوز أن يُجعلَ «أنهم..» إلخ صلةَ «أهلكناهم»، أي: أَهلكناهم بأنَّهم لا يرجعون، أي: بهذا الضربِ من الهلاك.

---

(١) ٧/ ٣٣٣.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٢.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٨٥.

(٤) في حاشيته ٧/ ٢٣٩.

(٥) في (م): ولا يخلو. ولا يصح به المعنى.

وجوَّز ابنُ هشامٍ في «المغني»[(١)] أن يكونَ «أنَّ» وصلتُها معمولَ «يروا»، وجملةُ «كم أهلكنا» معترضة بينهما، وأن يكون معلَّقاً عن «كم أهلكنا» و«أنهم إليهم لا يرجعون» مفعولاً لأجله؛ قال الشُّمُنِّي: لـ «يَروا»، والمعنى أنَّهم علموا لأجل أنَّهم لا يرجعون إهلاكَهم[(٢)].

ورُدَّ بأنه لا فائدةَ يعتدُّ بها فيما ذكر من المعنى.

وتعقَّبه الخَفاجيُّ[(٣)] بقوله: لا يخفى أنَّ ما ذكر واردٌ على البدليَّة أيضاً، والظاهرُ أنَّ المقصودَ من ذِكره إمَّا التهكُّم بهم وتحميقُهم، وإمَّا إفادةُ ما يفيد تقديم «إليهم» من الحصر، أي: أنَّهم لا يَرجعون إليهم بل إلينا، فيكون ما بعده مؤكِّداً له. اهـ، وهو كما ترى.

وقال الجلبي: لعلَّ الحقَّ أن يجعلَ أولُ الضميرَين لمعنى «كم» وثانيهما للرُّسل، و«أنَّ» وصِلَتُها مفعولاً لأجله لأَهلكناهم، والمعنى: أَهلكناهم لاستمرارهم على عدم الرُّجوعِ عن عقائدهم الفاسدةِ إلى الرُّسل وما دعَوهم إليه، فاختيارُ «لا يرجعون» على: لم يرجعوا؛ للدَّلالة على استمرار النفيِ مع مراعاةِ الفاصلة. انتهى.

وهو على بُعده ركيكٌ معنًى، وأركُّ منه ما قيل: الضميران على ما يتبادرُ فيهما من رجوع الأوَّل لمعنى «كم» والثاني لمن نُسبت إليه الرُّؤية، و«أنَّ» وصلتُها علَّة لـ «أَهلكنا»، والمعنى: أنَّهم لا يَرجعون إليهم فيُخبروهم بما حلَّ بهم من العذاب وجزاءِ الاستهزاءِ حتى[(٤)] ينزجرَ هؤلاء؛ فلذا أَهلكناهم.

ونُقل عن الفرَّاء[(٥)] أنَّه يعمل «يروا» في «كم أهلكنا» وفي «أنهم..» إلخ من غير إبدال، ولم يبيِّن كيفيةَ ذلك.

---

(١) ص ٢٤٤.

(٢) حاشية الشمني على المغني ٢/ ١٦.

(٣) في حاشيته ٧/ ٢٣٩.

(٤) في (م): حق.

(٥) معاني القرآن ٢/ ٣٧٦.

وزعم ابنُ عطية[١] أنَّ «أنَّ» وصلتَها بدلٌ من «كم»، ولا يخفى أنَّه إذا جعلها معمولَ «أهلكنا» كما هو المعروفُ، لا يسوغ ذلك؛ لأنَّ البدلَ على نيَّة تكرارِ العامل، ولا معنى لقولك: أَهلكنا أنَّهم لا يَرجعون، ولعلَّه تسامح في ذلك، والمرادُ: بدلٌ من «كم أهلكنا» على المعنى، كما حُكي عن سيبويه. وأمَّا جعلُ «كم» معمولةً لـ «يروا»، والإبدالُ منها نفسها إذ ذاك، فلا يخفى حالُه.

وقال أبو حيَّان[٢]: الذي تقتضيه صناعةُ العربيةِ أنَّ «أنهم..» إلخ معمولٌ لمحذوفٍ دلَّ عليه المعنى، وتقديرُه: قضينا، أو: حكمنا أنَّهم إليهم لا يَرجعون، والجملةُ حالٌ من فاعل «أهلكنا» على ما قال الخَفاجي[٣]. وأراه أبعدَ عن القيلِ والقال، بيدَ أنَّ في الدَّلالة على المحذوف خفاءً؛ فإنْ لم يلصق بقلبك لذلك، فالأقوالُ بين يديك، ولا حَجْرَ عليك.

وكأنِّي بك تختار ما نُقل عن السّيرافي، ولا بأسَ به.

وجوِّز على بعض الأقوالِ أن يكونَ الضميرُ في «أنهم» عائداً على مَن أُسند إليه «يروا»، وفي «إليهم» عائداً على المهلَكين، والمعنى أنَّ الباقين لا يَرجعون إلى المهلكين بنسبٍ ولا ولادة، أي: أَهلكناهم وقطعنا نسلَهم، والإهلاكُ مع قطع النسلِ أتمُّ وأعمّ. ويَحسُن هذا على الوجه المحكيِّ عن السيرافي.

وقرأ ابنُ عباسٍ والحسن: «إنَّهم»[٤] بكسر الهمزةِ على الاستئناف، وقطعِ الجملةِ عمَّا قبلها من جهة الإعراب.

وقرأ عبدُ الله: «ألم يَرَوا مَن أَهلكنا» إلخ[٥]، فـ «أنَّهم» على قراءة الفتحِ بدلُ اشتمال.

ورُدَّ بالآية على القائلين بالرَّجعة كما ذهب إليه الشِّيعة.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٢.

(٢) في البحر ٧/ ٣٣٤.

(٣) في حاشيته ٧/ ٢٣٩.

(٤) البحر ٧/ ٣٣٤، ونسبها ابن خالويه ص ١٢٥ للحسن.

(٥) البحر ٧/ ٣٣٤.

وأخرج عبد بن حُميد وابنُ المنذر عن أبي إسحاقَ قال: قيل لابن عبَّاس: إنَّ ناساً يزعمون أنَّ علياً كرَّم اللهُ تعالى وجهَه مبعوثٌ قبلَ يوم القيامة؟ فسكت ساعةً ثم قال: بئس القومُ نحن إنْ نكحنا نساءه واقتسمنا ميراثَه، أَمَا تقرؤون: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ)(١).

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ بيانٌ لرجوع الكلِّ إلى المحشر بعد بيانِ عدمِ الرُّجوع إلى الدنيا، و«إن» نافية، و«كل» مبتدأ، وتنوينُه عوضٌ عن المضاف إليه، و«لما» بمعنى «إلَّا»، ومجيئُها بهذا المعنى ثابتٌ في لسان العربِ بنقل الثِّقات، فلا يُلتفت إلى زعم الكسائيِّ أنَّه لا يُعرف ذلك.

وقال أبو عبد اللهِ الرازيّ(٢): في كونها بهذا المعنى معنًى مناسب، وهو أنَّها كأنها حرفا نفيٍ أكِّد أولُهما بثانيهما، وهما: «لم» و«ما»، وكذلك «إلَّا»، كأنَّها حرفا نفي، وهما «إن» النافيةُ و«لا»، فاستُعمل أحدُهما مكانَ الآخر. وهو عندي ضربٌ من الوساوس.

و«جميع» خبرُ المبتدأ، وهو فعيلٌ بمعنى مفعول، فيفيد ما لا تفيده «كل» لأنَّها تفيد إحاطةَ الأفراد، وهذا يفيد اجتماعَها وانضمامَ بعضِها إلى بعض، و«لدينا» ظرفٌ له، أو لـ «محضَرون»، و«محضرون» خبرٌ ثانٍ، أو نعتٌ، وجُمِع على المعنى، والمعنى: ما كلُّهم إلَّا مجموعون لدينا محضَرون للحساب والجزاءِ.

وقال ابن سلام: «محضَرون» أي: معذَّبون، فـ «كلٌّ» عبارةٌ عن الكَفَرة. ويجوز أن يرادَ به هذا المعنى على الأوَّل. وفي الآية تنبيهٌ على أنَّ المهلَكَ لا يترك.

وقرأ جمعٌ من السَّبعة: «لَمَا» بالتخفيف، على أنَّ «إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، واللامُ فارقة، و«ما» مزيدة للتأكيد، والمعنى: إنَّ الشأنَ كلُّهم مجموعون.. إلخ. وهذا مذهبُ البصريين، وذهب الكوفيُّون إلى أنَّ «إنْ» نافية، واللامُ بمعنى «إلَّا»، و«ما» مزيدة، والمعنى كما في قراءةِ التشديد(٣).

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٦٣.

(٢) في التفسير الكبير ٢٦/ ٦٤-٦٥.

(٣) قرأ عاصم وابن عامر وحمزة وأبو جعفر بالتشديد، والباقون بالتخفيف. التيسير ص ١٢٦، والنشر ٢/ ٢٩١.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ بالتخفيف. وقرأ نافعٌ بالتشديد[(١)]. و«آية» خبرٌ مقدَّم للاهتمام به، وتنكيرُها للتفخيم، و«لهم» إمَّا متعلِّق بها؛ لأنَّها بمعنى العَلَامة، أو متعلِّق بمضمَر هو صفةٌ لها، وضميرُ الجمعِ لكفَّار أهلِ مكةَ ومَن يَجري مَجراهم في إنكار الحشر. و«الأرض» مبتدأ، و«الميتة» صفتُها.

وقولُه تعالى: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ استئنافٌ مبيِّن لكيفية كونِها آية. وقيل: في موضعِ الحال، والعاملُ فيها آية؛ لمَا فيها من معنى الإعلام. وهو تكلُّف ركيك.

وقيل: «آية» مبتدأٌ أوَّل، و«لهم» صفتُها، أو متعلِّق بها، وكلٌّ من الأمرين مسوِّغٌ للابتداء بالنَّكرة، و«الأرض الميتة» مبتدأٌ ثانٍ وصفة، وجملةُ «أحييناها» خبرُ المبتدأ الثاني، وجملةُ المبتدأ الثاني وخبرُه خبرُ المبتدأ الأوَّل؛ ولكونها عينَ المبتدأ ـ كخبر ضميرِ الشأن ـ لم تحتجْ لرابط. قال الخفاجيّ[(٢)]: وهذا حسنٌ جداً، إلَّا أنَّ النُّحاة لم يصرِّحوا به في غير ضميرِ الشأن. وقيل: إنَّها مؤوَّلة بمدلول هذا القول؛ فلذا لم يُحتجْ لذلك. ولا يخفى بُعده.

وقيل: «آية» مبتدأ، و«الأرض» خبرُه، وجملة «أحييناها» صفةُ الأرض؛ لأنَّها لم يُرَد بها أرضٌ معيَّنة بل الجنس، فلا يلزم توصيفُ المعرفةِ بالجملة التي هي في حكم النَّكرة، ونظيرُ ذلك قولُه:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبُّني　　　فمضيت ثُمتَّ قلت لا يعنيني[(٣)]

وأنكر جوازَ ذلك أبو حيَّانَ[(٤)] مخالفاً للزمخشريّ وابنِ مالكٍ في «التسهيل»[(٥)] وجَعَلَ جملةَ: يسبُّني، حالاً من اللئيم، وأنت تعلم أنَّ المعنى على استمرار مرورِه على مَن يسبُّه وإغماضِه عنه؛ ولهذا قال: أَمرُّ، وعطف عليه: فمضيتُ، والتقييدُ بالحال لا يؤدِّي هذا المؤدَّى. ثم إنَّ مدارَ الخبريةِ إرادةُ الجنس، فليس هناك إخبارٌ

---

(١) التيسير ص ١٠٦، والنشر ٢/ ٢٢٤.

(٢) في حاشيته ٧/ ٢٣٩.

(٣) البيت لرجل من بني سلول، وسلف ٦/ ٢٢٥.

(٤) في البحر ٧/ ٣٣٤.

(٥) الكشاف ٣/ ٣٢١، والتسهيل ص ١٦٧.

بالمعرفة عن النَّكرة ليكونَ مخالفاً للقواعد كما قيل، نعم أَرجحُ الأوجهِ ما قرِّر أولاً، وقد مرَّ المرادُ بموت الأرضِ وإحيائها، فتذكَّر.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أي: جنسَ الحَبّ، من الحنطة والشعيرِ والأَرزِّ وغيرِها، والنكرةُ قد تعمّ، كما إذا كانت في سياق الامتنانِ أو نحوهِ. وفي ذِكر الإخراج ـ وكذا الجعلُ الآتي ـ تنبيهٌ على كمال الإحياء.

﴿فَمِنْهُ﴾ أي: من الحَبِّ بعد إخراجنا إياه. والفاءُ داخلةٌ على المسبَّب، و«مِن» ابتدائيةٌ أو تبعيضية، والجارُّ والمجرورُ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ والتقديم للدَّلالة على أنَّ الحبَّ معظمُ ما يؤكل ويعاش به؛ لِمَا في ذلك من إيهام الحصرِ للاهتمام به، حتى كأنَّه لا مأكولَ غيرُه.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ﴾ جمعُ: نخل، كعَبيد جمع: عبد، كما ذهب إليه أكثرُ الأئمَّة، وصرَّح به في «القاموس»[(١)]. وقيل: اسمُ جمع، وقال الجوهريُّ[(٢)]: النخلُ والنخيلُ بمعنًى واحد. وعلى الأوَّل المعوَّل.

﴿وَأَعْنَٰبٍ﴾ جمع: عِنَب، ويقال على الكرْم نفسِه، وعلى ثمرتِه، كما قال الراغب[(٣)]، ولعلَّه مشتركٌ فيهما. وقيل: حقيقةٌ في الثمرة، مجازٌ في الشجرة. وأيًّاما كان فالمرادُ الأول، بقرينة العطفِ على النخيل.

وجُمعا دون الحبّ، قيل: لتدلَّ الجمعيَّةُ على تعدُّد الأنواع، أي: من أنواع النخل وأنواعِ العنب، وذلك لأنَّ النخلَ والعنبَ اسمان لنوعين، فكلٌّ منهما مقولٌ على أفرادِ حقيقةٍ واحدة، فلا يدلَّان على اختلاف ما تحتَهما وتعدُّدِ أنواعه إلَّا إذا عبِّر عنهما بلفظ الجمع، بخلاف الحبّ، فإنَّه اسمُ جنس، وهو يُشعر باختلاف ما تحته؛ لأنَّه المقولُ على كثرةٍ مختلفة الحقائقِ قولاً ذاتياً، فلا يُحتاج في الدَّلالة على الاختلاف إلى الجمعيَّة، وقولُهم: جُمِعَ العالَم في قوله تعالى: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

---

(١) مادة (نخل).

(٢) في الصحاح (نخل).

(٣) في المفردات (عنب).

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ـ وهو اسمُ جنسٍ ـ ليشملَ ما تحته من الأَجناس، لا ينافي ذلك كما قيل؛ لأنَّ المرادَ: ليشملَ شمولاً ظاهراً متعيِّناً وإن حصل الإِشعارُ بدونه.

وقيل: جُمعا للدَّلالة على مزيد النِّعمة، وأمَّا الحبُّ، ففيه قِوامُ البدن، وهو حاصلٌ بالجنس.

وامتنَّ عزَّ وجلَّ في معرض الاستدلالِ على أمر الحشرِ بجعل الجنَّاتِ من النخيل والأعنابِ المرادِ بها الأشجار، ولم يمتنَّ سبحانه وتعالى بجعل ثمراتِ تلك الأشجارِ من التَّمر والعنبِ كما امتنَّ جلَّ جلالُه بإخراج الحبِّ؛ إعظاماً للمنَّة، لتضمُّن ذلك الامتنانَ بالثِّمار وغيرِها من منافع تلك الأشجارِ أنفسِها بسائر أجزائها للإنسان نفسِه بلا واسطة، لاسيَّما النخيل.

ولا دلالةَ في الكلام على حصر ثمرةِ الجَعل بأكل الثَّمرة، وثمرةُ التنصيصِ على ذلك من بين المنافعِ ظاهرة، وهذا بخلاف أشجارِ الحبوب، فإنَّها ليست بهذه المثابة؛ ولذا غيَّر الأسلوبُ ولم يعامَل ثمرُ ذلك معاملةَ الحبوب.

وكلامُ البيضاويِّ[1] عليه الرحمةُ ظاهرٌ في أنَّ المرادَ بالأعناب الثمارُ المعروفةُ لا الكروم، وعلَّل ذِكرَ النخيلِ دون ثمارِها ـ مع أنَّه الأوفقُ بما قبل وما بعد ـ باختصاصها بمزيد النفعِ وآثارِ الصنع. وتفسيرُ الأعنابِ بالثِّمار دون الكرومِ بعيدٌ عندي؛ لمكان العطف، مع أنَّ الجارَّ والمجرورَ في موضع الصفةِ لـ «جنَّات»، والمعروفُ كونُها من أشجارٍ لا من ثمار؛ قال الراغب[2]: الجنةُ: كلُّ بستانٍ ذي شجرٍ يستر بأَشجاره الأرض، وقد تسمَّى الأشجارُ الساترةُ جنَّة، وعلى ذلك حُمِل قولُه:

مِنَ النَّواضحِ تَسقي جنَّةً سُحُقا[3]

على أنَّ في الآية بَعْدُ ما يؤيِّد إرادةَ الثمار، فتدبَّر.

---

(١) في تفسيره ٤/٧.

(٢) في المفردات (جنن).

(٣) قائله زهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص ٣٧، وصدره: كأن عينَيَّ في غربَي مقتَّلةٍ.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي: شققنا في الأرض. وقرأ جناحُ بن حبيش: «فَجَرْنا» بالتخفيف[١]، والمعنى واحدٌ، بيد أنَّ المشدَّد دالٌّ على المبالغة والتكثير.

﴿مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ أي: شيئاً من العيون، على أنَّ الجارَّ والمجرورَ في موضع الصفةِ لمحذوف، و«مِن» بيانيَّة، وجوِّز كونُها تبعيضيَّة، وليس بذاك.

وقيل: المفعولُ محذوف، و«من العيون» متعلِّق بفَجَّرَ، و«مِن» ابتدائيَّةٌ، على معنى: فجَّرنا من المنابع ما يُنتفع به من الماء.

وذهب الأخفشُ إلى زيادة «مِن» وجَعلِ «العيونِ» مفعولَ «فجَّرنا»؛ لأنَّه يرى جوازَ زيادتِها في الإثبات مع تعريف مجرورِها.

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ متعلِّق بـ «جعلنا»، وتأخيرُه عن تفجير العيونِ؛ لأنَّه من مبادي الثمر، أي: وجعلنا فيها جناتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ، ورتَّبنا مبادي ثمرِها ليأكلوا.

وضميرُ «ثمره» عائدٌ على المجعول، وهو الجنَّات؛ ولذا أُفرد وذكِّر، ولم يقل: من ثمرها، أي: الجنَّات، أو: مِن ثمرهما، أي: النخيلِ والأعناب. ومثلُه ما قيل: عائدٌ على المذكور، والضميرُ قد يجري مَجرى اسمِ الإشارة، كما في قول رؤبة:

فيها خطوطٌ من سَوادٍ وبَلَقْ ... كأنَّه في الجلد توليعُ البَهَقْ[٢]

فإنَّه أراد ـ كما قال لأبي عبيدةَ وقد سأله ـ: كأن ذاك[٣].

وقيل: عائدٌ على الماء؛ لدَلالة العيونِ عليه، أو لكون الكلامِ على حذف مضاف، أي: ماءِ العيون.

وقيل: على النَّخيل، واكتُفي به للعلم باشتراك الأعنابِ معه في ذلك.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٥، والبحر ٧/ ٣٣٥.

(٢) سلف ٥/ ٢٩٨، وهو في ديوان رؤبة بن العجاج ص ١٠٤. وجاء في هامش الأصل و(م): ظهور النقط البيض على الشيء. اهـ منه.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٢٣.

وقيل: على التفجير المفهومِ من «فجَّرنا» والمرادُ بـ «ثمره» فوائدُه، كما تقول: ثمرةُ التجارةِ الرِّبح. أو هو على ظاهره، والإضافةُ لأدنَى ملابسة. والكلُّ كما ترى.

وجوِّز أن يكونَ الضميرُ له عزَّ وجلَّ، وإضافةُ الثمرِ إليه تعالى لأنَّه سبحانه خالقُه، فكأنَّه قيل: ليأكلوا ممَّا خلقه اللهُ تعالى من الثَّمر. وكان الظاهر: مِن ثمرنا، لضمير العَظَمة، على قياس ما تقدَّم، إلَّا أنَّه التفت من التكلُّم إلى الغَيبة لأنَّ الأكلَ والتعيُّش ممَّا يَشغل عن الله تعالى، فيناسب الغَيبة، فالالتفاتُ في موقعه.

وزعم بعضُهم أنَّ هذا ليس من مظانِّه؛ لأنَّه أَوْلى بضمير الواحدِ المطاع، لأنَّه المقصودُ بالإحياء والجعلِ والتفجير، وقد أُسندت إليه. ورُدَّ بأنَّ ما سبق أَفخم؛ لأنَّها أفعالٌ عامَّة النفعِ ظاهرةٌ في كمال القدرة، والثمرُ أحطُّ مرتبةً من الحَبِّ؛ ولذا لم يورَدْ على سبيل الاختصاص، فلا يستحقُّ ذلك التفخيم، كيف وقد جعل بعضُهم الثمرَ خلقَ اللهِ تعالى، وكمالَه بفعل الآدميّ، وبما تقدَّم يستغنَى عمَّا ذكر.

وقرأ طلحةُ وابن وثَّاب وحمزةُ والكِسائي: «مِن ثُمُرِه» بضمَّتين، وهي لغةٌ فيه، أو هو جمعُ: ثمار. وقرأ الأعمش: «من ثُمْره» بضمٍّ فسكون(١).

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۚ﴾ «ما» موصولةٌ في محلِّ جرٍّ عطف على «ثمره». وجَعلُه في محلِّ نصبٍ عطفاً على محلِّ «من ثمره» خلافُ الظاهر، أي: وليأكلوا من الذي عملوه أو صنعوه بقُواهم. والمرادُ به ما يتَّخذ من الثَّمر، كالعصير والدِّبسِ وغيرِهما. وقال الزمخشريّ(٢): أي: من الذي عملته أيديهم بالغرس والسَّقي والآبار. وليس بذاك.

وجوِّز أن تكونَ «ما» نكرةً موصوفة، أي: ومن شيءٍ عملته أيديهم. والأوَّل أَظهر.

---

(١) البحر ٧/ ٣٣٥، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص ١٠٥، والنشر ٢/ ٢٦٠.
(٢) في الكشاف ٣/ ٣٢٢.

وقيل: «ما» نافية، وضميرُ «عملته» راجعٌ إلى الثمر، والجملةُ في موضع الحال، والمرادُ من نفي عملِ أيديهم إيَّاه أنَّه بخَلْق اللهِ تعالى لا بفعلهم، ولا تقول المشايخُ بالتوليد.

ورُوي القولُ بأنَّها نافيةٌ عن ابن عباسٍ والضحَّاك. وظاهرُ كلامِ الحَبر أنَّ الضميرَ راجعٌ إلى: شيئاً، الموصوفِ المحذوف، والجملةُ حالٌ منه، فقد روى سعيدُ بن منصورٍ وابنُ المنذرِ عنه أنَّه قال: وجدوه معمولاً لم تعملْه أيديهم، يعني الفراتَ ودِجلةَ ونهرَ بلخٍ وأشباهَها. وفيه بُعد.

وأُيِّد القولُ بالموصولية بقراءة طلحةَ وعيسى وحمزةَ والكسائيِّ وأبي بكر: «وما عَمِلَت» بلا هاء[1]. ووجهُ التأييدِ أنَّ الموصولَ مع الصِّلة كاسمٍ واحد، فيحسُن معه [الحذف][2] لاستطالته، ولاقتضائه إيَّاه ودَلالتِه عليه يكون كالمذكور. وتقديرُ اسمٍ ظاهرٍ غيرُ ظاهر.

وقال الطِّيبي: جَعلُها نافيةً أَولى مِن جعلها موصولة؛ لئلَّا يوهمَ استقلالَهم بالعمل؛ لأنَّ ذِكرَ الأيدي للتأكيد في هذا المقام، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: ٧١] لأنَّ التركيبَ من باب: أَخذتُه بيدي، ورأيتُه بعيني، وحينئذٍ لا يناسب أن يكونَ قولُه تعالى: (أَحْيَيْنَـٰهَا) إلخ تفسيراً لكون الأرضِ الميتةِ آية.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه ليس بشيءٍ؛ لأنَّ العملَ من العبادِ بمعنى الكسب، وقد جاء: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] و: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] فهذا التأكيدُ دافعٌ للإيهام. انتهى، فلا تغفُل.

وجوِّز على هذه القراءةِ كونُ «ما» مصدرية، أي: وعَمَلِ أيديهم، ويراد بالمصدر اسمُ المفعول، أي: معمولِ أيديهم، فيعودُ إلى معنى الموصولة. ولا يخفَى ما فيه.

---

(١) البحر ٧/ ٣٣٥، وقراءة حمزة والكسائي وأبي بكر في التيسير ص ١٨٤، والنشر ٢/ ٣٥٣.
(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٢٤١، والكلام فيه بنحوه.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾ إنكارٌ واستقباحٌ لعدم شكرِهم للمنعِم بالنِّعم المعدودةِ بالتوحيد والعبادة، والفاءُ للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أيرون هذه النِّعم ـ أو: أيتنعَّمون بها ـ فلا يشكرون المنعِمَ بها؟!

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتنزيهه تعالى عمَّا فعلوه من ترك شكرِه عزَّ وجلَّ، واستعظامِ ما ذُكر في حيِّز الصلةِ من بدائع آثارِ قدرتِه وأسرارِ حكمته، وروائعِ نَعمائه الموجبةِ لشكره تعالى، وتخصيصِ العبادةِ به سبحانه، والتعجيبِ من إخلالهم بذلك والحالُ هذه.

وقد تقدَّم الكلامُ في «سبحان». وفي «الإرشاد»[1] هنا أنَّه عَلَم للتسبيح الذي هو التبعيدُ عن السُّوء، اعتقاداً وقولاً، أي: اعتقادُ البعدِ عنه والحكمُ به، من: سبَّح في الأرض والماء: إذا أبعد[2] فيهما وأمعن، وانتصابُه على المصدرية، أي: أُسبِّح سبحانَه، أي: أنزِّهه عمَّا لا يَليق به عقداً وعملاً، تنزيهاً خاصّاً به حقيقاً بشأنه عزَّ شأنُه. وفيه مبالغةٌ من جهة الاشتقاق، وجهةِ العدولِ إلى التفعيل، وجهةِ العدولِ عن المصدر الدالِّ عن الجِنس إلى الاسم الموضوعِ له خاصَّة، لاسيَّما العلم، وجهةِ إقامته مُقامَ المصدرِ مع الفعل. وقيل: هو مصدرٌ كغفران، أُريد به التنزُّه التامُّ والتباعدُ الكلِّيُّ عن السُّوء، ففيه مبالغةٌ من جهة إسناد التنزُّه إلى الذات المقدَّس، فالمعنى: تنزَّه بذاته عن كلِّ ما لا يَليق به تعالى تنزُّهاً خاصّاً به سبحانه. فالجملةُ على هذا إخبارٌ منه تعالى بتنزُّهه وبراءتِه عن كلِّ ما لا يليق به ممَّا فعلوه وما تركوه. وعلى الأوَّل حكمٌ منه عزَّ وجلَّ بذلك، وتلقينٌ للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونَه، ولا يُخِلُّوا به ولا يغفُلوا عنه.

وقدَّر بعضُهم الفعلَ الناصبَ أمراً، أي: سبِّحوا سبحانَ.

والمرادُ بالأزواج: الأنواعُ والأصناف، وقال الرَّاغب[3]: الأزواجُ: جمعُ زوج، ويقال لكلِّ واحدٍ من القرينين، ولكلِّ ما يقترن بآخَرَ مماثلاً له، أو مضاداً،

---

(١) إرشاد العقل السليم ٧/ ١٦٧.

(٢) في الأصل و(م): بعد. والمثبت من إرشاد العقل السليم.

(٣) في المفردات (زوج).

وكلُّ ما في العالَمِ زوجٌ من حيث إنَّ له ضدّاً ما أو مِثْلاً ما أو تركيباً ما، بل لا ينفكُّ بوجهٍ من تركيبِ صورةٍ ومادة، وجوهرٍ وعَرَض.

﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ بيانٌ للأزواج، والمرادُ به كلُّ ما ينبت فيها من الأشياء المذكورةِ وغيرِها ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: وخلق الأزواجَ من أنفسهم، أي: الذكرِ والأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ أي: والأزواجَ ممَّا لم يُطلعهم اللهُ تعالى، ولم يجعلْ لهم طريقاً إلى معرفته بخصوصيَّاته، وإنَّما أطلعهم سبحانه على ذلك بطريق الإجمال، على منهاج: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٨] لِمَا نِيطَ به وقوفُهم على عِظَم قدرتِه، وسَعةِ ملكه، وجلالةِ سلطانه عزَّ وجلَّ. ولعلَّه لمَّا كان العلمُ من أخصِّ صفاتِ الرُّبوبيَّة، لم يَثبت على وجه الكمالِ والإحاطةِ لأحدٍ سواه سبحانه ولو كان بطريق الفيضِ منه تبارك وتعالى، على أنَّ ظرفَ الممكِنِ يضيق عن الإحاطة، فما يجهله كلُّ أحدٍ أكثرُ ممَّا يعلمه بكثير.

وقد يقال على بعضِ الاعتبارات: إنَّ ما يعلمه كلُّ أحدٍ متناهٍ وما يجهله غيرُ متناهٍ، ولا نسبةَ بين المتناهي وغيرِ المتناهي أصلاً، فلا نسبةَ بين معلومِ كلِّ أحدٍ ومجهولِه. وتأمَّل في هذا مع دعوى بعضِ الأكابر الوقوفَ على الأعيان الثابتةِ والاطِّلاع عليها، وقل ربِّ زدني علماً.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ﴾ بيانٌ لقدرته تعالى الباهرةِ في الزمان، بعدما بيَّنها سبحانه في المكان. و«آية» خبرٌ مقدَّم، و«الليل» مبتدأٌ مؤخَّر، وقوله تعالى: ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ استئنافٌ لبيان كونِه آية، وفي التركيب احتمالاتٌ أُخَرُ تُعلم مما مرّ، إلَّا أنَّ الأرجحَ ما ذُكر، أي: نَكشف ونُزيل الضوءَ من مكان الليلِ وموضعِ إلقاءِ ظلِّه وظُلمتِه، وهو الهواء. فالنهارُ عبارةٌ عن الضوء، إمَّا على التجوُّز، أو على حذف المضاف.

وقوله تعالى: «منه» على حذف مضاف، وذلك لأنَّ النهارَ والليلَ عبارتان عن زمان كونِ الشمسِ فوق الأفقِ وتحته، ولا معنى لكشف أَحدِهما عن الآخَر.

وأصلُ السَّلخِ: كَشْطُ الجِلدِ عن نحو الشاة، فاستُعير لكشف الضوءِ عن مكان الليلِ ومُلقى ظُلمته وظلِّه، استعارةً تبعيةً مصرَّحة، والجامعُ ما يُعقل من ترتُّب أمرٍ

على آخَر، فإنَّه يترتَّب ظهورُ اللحمِ على كَشطِ الجلد، وظهورُ الظلمةِ على كشف الضوءِ عن مكان الليل.

وجوِّز أن يكونَ في «النهار» استعارةٌ مكنيَّة، وفي السَّلخ استعارةٌ تخييليَّة، والجمهورُ على ما ذكرنا.

و«مِن» ابتدائية، وقيل: تبعيضية. وجَعلُها سببيةً ليس بشيء. وهذا التفسيرُ محكيٌّ عن الفرَّاء[1]. ونحوُه تفسيرُ السلخِ بالنَّزع.

واستعمالُ الفاءِ ـ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: داخلون في الظَّلام كما يُفيده همزةُ الإفعال ـ عليه ظاهر.

ووقع في عبارة الشيخِ عبدِ القاهر والإمام السكَّاكيِّ[2] أنَّ المستعارَ له في الآية ظهورُ النهارِ من ظلمة الليل، والمستعارُ منه ظهورُ المسلوخِ من جلده، وذلك ـ على ما قال العلَّامة الطيبيُّ والفاضلُ اليمني ـ مأخوذٌ من قول الزجَّاج[3]: معنى «نسلخُ منه النهار»: نُخرج منه النهارَ إخراجاً لا يبقَى معه شيءٌ من ضوئه، فالظهورُ في عبارتهما بمعنى الخروج، وهو يتعدَّى بـ «مِن»، فلا حاجةَ إلى جعلها بمعنى «عن».

وقد جاءَ بهذا المعنى، كما في قول عمرَ لأبي عبيدةَ رضي الله عنهما: اِظهر بمَن معك من المسلمين إليها، أي: الأرض، يعني: اخرج إلى ظاهرها. وفي حديث عائشة[4] رضي الله عنها: كان ﷺ يصلِّي العصرَ ولم يظهر الفيءُ بعدُ من الحجرة، أي: لم يخرجْ إلى ظاهرها. فسقط ما أُورد عليه من أنَّه لو أُريد الظهورُ لَقيل: فإذا هم مُبصِرون، ولم يقل: «فإذا هم مظلمون» لأنَّ الواقعَ عقيب ظهورِ النهارِ من ظلمة الليلِ إنَّما هو الإبصارُ لا الإظلام، من غير حاجةٍ إلى حمل العبارةِ على القلب، أي: ظهور ظلمةِ الليلِ من النهار.

---

(١) انظر معاني القرآن ٢/ ٣٧٨.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٥٢١، ومفتاح العلوم ص ٣٨٩.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٧.

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٢) و(٥٤٤) و(٥٤٦)، ومسلم (٦١١).

وبعضُهم[١] رفع هذا الإيرادَ بأنَّ النهارَ عبارةٌ عن مجموع المدَّة من طلوع الفجرِ ـ أو الشمسِ ـ إلى الغروب، لا عن بعضها، فالواقعُ عقيبَ هذه المدةِ كلِّها الدخولُ في الظلام. وتعقَّبه السيالكوتيُّ بأنَّ الدخولَ في الظلام مترتِّبٌ على السَّلخ، لا على انقضاءِ مدةِ النهار.

ولعلَّ مرادَ البعضِ أنَّ السلخَ بمعنى ظهورِ النهارِ لا يتحقَّق إلَّا بظهور كلِّ أجزائه، ومتى ظهرت أجزاءُ النهارِ كلُّها انقضت مدَّته.

وذكر العلَّامة القطبُ أنَّ السلخَ قد يكون بمعنى النَّزع، نحو: سلخت الإِهابَ عن الشاة، وقد يكون بمعنى الإخراج، نحو: سلخت الشاةَ عن الإهاب، والشاةُ مسلوخة، فذهب الشيخُ عبد القاهرِ والسكَّاكيُّ إلى الثاني، وغيرُهما إلى الأوَّل، فاستعمالُ الفاءِ في: «فإذا هم» ظاهرٌ على قول الغير، وأمَّا على قولهما، فإنَّما يصحُّ من جهة أنَّها موضوعةٌ لما يعدُّ في العادة مرتَّباً غيرَ متراخٍ، وهذا يختلف باختلاف الأمورِ والعادات، فقد يطول الزمانُ والعادةُ في مثله تقتضي عدمَ اعتبارِ المهلة، وقد يكون بالعكس، كما في هذه الآية، فإنَّ زمانَ النهارِ وإن توسَّط بين إخراج النهارِ من الليل وبين دخولِ الظلام، لكن لعِظَم دخولِ الظلام بعد إضاءة النهارِ وكونِه مما ينبغي ألَّا يحصلَ إلَّا في أضعاف ذلك الزمان، عُدَّ الزمانُ قريباً، وجُعِل الليلُ كأنَّه يفاجئهم عقيبَ إخراج النهارِ من الليل بلا مُهلة.

ثم لا يخفى أنَّ «إذا» المفاجَأة إنَّما تصحُّ إذا جُعِل السلخُ بمعنى الإخراج، كما يقال: أَخرج النهارَ من الليل ففاجأه دخولُ الليل، فإنَّه مستقيم، بخلاف ما إذا جُعِل بمعنى النَّزع، فإنَّه لا يستقيمُ أن يقال: نزع ضوءَ الشمس عن الهواءِ ففاجأه الظَّلام، كما لا يستقيم أن يقال: كسرت الكوزَ ففاجأه الانكسار؛ لأنَّ دخولَهم في الظلام عينُ حصولِ الظلام، فيكون نسبةُ دخولِهم في الظلام إلى نزع ضوءِ النهارِ كنسبة الانكسارِ إلى الكسر؛ فلهذا جعلا السلخَ بمعنى الإخراج دون النَّزع. اهـ كلامُه. وقوَّاه العلَّامة الثاني بأنَّه لا شكَّ أنَّ الشيءَ إنَّما يكون آيةً إذا اشتمل على

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): شيخ الإسلام في حواشيه على المطول. اهـ منه.

نوع استغرابٍ واستعجاب، بحيث يفتقر إلى نوعِ اقتدار، وذلك إنَّما هو مفاجأةُ الظلامِ عقيبَ ظهورِ النهار، لا عقيبَ زوالِ ضوءِ النهار.

وقال السيالكوتيّ: إنَّ عدمَ استقامةِ المفاجأةِ فيما ذكر؛ لأنَّها إنَّما تُتصوَّر فيما لا يكون مترقَّباً، بل يحصل بغتةً، وحينئذٍ يمكن أن يقالَ في الجواب: إنَّ نزعَ الضوءِ عن الليلِ لكون ظهورِه في غاية الكمالِ كان المترقَّبُ فيه أن يكونَ في مدَّة مديدة، فحصولُ الظلامِ بعده في مدَّةٍ قصيرةٍ أمرٌ غيرُ مترقَّب. ثم قال: وبهذا ظهر الجوابُ عن التقوية.

وقيل: إنَّ الظلمةَ لكونها ممَّا تنفر عنها الطِّباعُ وتكرهها النفوس، يكون حصولُها كأنه غيرُ مترقَّب، ويكفي نفسُ السلخِ في الدَّلالة على الاقتدار. والذي يقتضيه ما سبق عن الطِّيبي واليمنيّ أنَّ الشيخَ والسكَّاكيَّ أرادا إخراجَ النهارِ من الليل إخراجاً لا يبقى معه شيءٌ من ضوئه، كما قال الزجَّاج، ومآلُه إزالةُ ضوءِ النهارِ من مكان الليلِ وموضعِ ظُلمته، كما قال الفرَّاء، وجاءَ في كلامهم الظهورُ بمعنى الزَّوال، كما في قول أبي ذؤيب:

وعيَّرها الواشون أنِّي أحبُّها ... وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[1]

وحكى الجوهريّ[2]: يقال: هذا أمرٌ ظاهرٌ عنك عارُه، أي: زائل. وقال المرزوقيُّ في قول الحماسيّ:

وذلك عارٌ يا ابن ريطةَ ظاهرُ[3]

أيضاً كذلك. فلا مانعَ من أن يكونَ في كلام الشَّيخين بهذا المعنى ويُراد بالظهور الإظهار، والتعبيرُ به مساهلة؛ لظهور أنَّ «نسلخ» متعدٍّ، فيرجع الأمرُ إلى الإزالة، فيتَّحد كلامُهما بما قاله الفرَّاء، وكذا ـ على ما قيل ـ المرادُ بالظهور

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٧٠، وسلف ١٣/ ١٦٥.

(٢) في الصحاح (ظهر).

(٣) شرح ديوان الحماسة ١/ ٢٣٨، وصدر البيت: أعيَّرتنا ألبانَها ولحومَها. وهو لسَبْرة بن عمرو الفقعسي.

الخروجُ على وجهِ المفارقة؛ لظهور الزوالِ فيه حينئذ، وأمرُ المساهلةِ على حاله. وعلى القول بالاتِّحاد يجيءُ اعتراضُ العلَّامة، والجوابُ هو الجواب، فتأمَّل والله تعالى الهادي إلى الصَّواب.

وفي الآية ـ على ما قال غيرُ واحد ـ دلالةٌ على أنَّ الأصلَ الظلمة، والنور طارئٌ عليها يسترها بضوئه، وفي الحديث ما يُشعر بذلك أيضاً، روى الإمام أحمدُ والترمذيُّ[1] عن عبد اللهِ بن عَمرو بنِ العاص قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ تعالى خلق الخلقَ في ظُلمة، ثم أَلقى عليهم من نورِه، فمَن أَصابه من نورِه اهتدى، ومَن أَخطأه ضلّ».

﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾ عطفٌ على «الليل» أي: وآيةٌ لهم الشمس. وقولُه تعالى: ﴿تَجۡرِي﴾ إلخ استئنافٌ لبيان كونِها آية. وقيل: «الشمس» مبتدأ، وما بعدَه خبر، والجملةُ عطفٌ على «الليل نسلخ». وقيل غيرُ ذلك، فلا تغفُل.

والجري: المرُّ السريع، وأصله لمرِّ الماءِ ولما يَجري بجريه، والمعنى: تسير سريعاً ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ لحدٍّ معيَّن تنتهي إليه من فَلَكها في آخر السَّنة، شبِّه بمستقرِّ المسافرِ إذا قطع مسيرَه، من حيث إنَّ في كلٍّ انتهاءً إلى محلٍّ معيَّن وإنْ كان للمسافر قرارٌ دونها. ورُوي هذا عن الكلبيِّ واختاره ابنُ قتيبة[2]. والمستقَرُّ ـ عليه ـ اسمُ مكان، واللامُ بمعنى «إلى»، وقُرىء بها بدلَ اللام[3]. وجُوِّز أن تكونَ تعليلية.

أو: لمنتهًى لها من المشارق اليوميةِ والمغارب؛ لأنَّها تتقصَّاها مشرقاً مشرقاً، ومغرباً مغرباً، حتى تبلغَ أَقصاها، ثم ترجع، فذلك حدُّها ومستقرُّها؛ لأنَّها لا تعدوه.

ورُوي هذا عن الحسن، وهو متَّفِق في أنَّ المستقرَّ اسمُ مكانٍ واللام على ما سمعت، ومختلفٌ باعتبار أنَّ الأوَّل من استقرار المسافرِ تشبيهاً لانتهاء الدورةِ

---

(١) مسند أحمد (٦٦٤٤)، وجامع الترمذي (٢٦٤٢) وحسَّنه.

(٢) في غريب القرآن ص ٣٦٥.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٣٦.

بانتهاء السَّفرة، وهذا باعتبار مقنطراتِ الارتفاعِ وبلوغِ أقصاها، ومقنطراتُ الانخفاضِ كذلك، والاستقرارُ باعتبار عدمِ التجاوزِ عن الأوَّل في استقصاءِ المشارق، وعن الثاني في استقصاءِ المغارب، أو لحدٍّ لها من مسيرها كلَّ يومٍ في رأي عيونِنا، وهو المغرب، والمستقرُّ ـ عليه ـ اسمُ مكانٍ أيضاً، واللامُ كما سمعت، أو لكبد السماءِ ودائرةِ نصفِ النهار، فالمستقرُّ واللامُ على نظير ما تقدَّم.

وكونُ ذلك محلَّ قرارِها إمَّا مجازٌ عن الحركة البطيئة، أو هو باعتبار ما يتراءى، قال ذو الرمَّة يصف فرسَه وجريَه في الظهيرة وشدَّةَ الحرّ:

مُعْرَوْرِياً رَمَضَ الرَّضراضِ يَركُضُه والشمسُ حَيرَى لها بالجوِّ تدويمُ[١]

أو: لاستقرارٍ لها، ومكثٍ في كلِّ برجٍ من البروج الاثني عشرَ على نهجٍ مخصوص، فالمستقرُّ مصدرٌ ميميّ، واللامُ داخلةٌ على الغاية أو الحامل.

وقيل: تجري لبيتها، وهو برجُ الأسد، واستقرارُها عبارةٌ عن حُسن حالِها فيه. وهذا غيرُ مقبولٍ إلَّا عند أهل الأحكام، ولا يخفَى حكمُهم على محقِّقي الإسلام.

وقال قتادةُ ومقاتل: المعنى: تجري إلى وقتٍ لها لا تتعدَّاه.

قال الواحديّ[٢]: وعلى هذا مستقرُّها انتهاءُ سيرِها عند انقضاءِ الدنيا. وهذا اختيارُ الزجَّاج كما قال النوويُّ في «شرح صحيحِ مسلم»[٣]. ومستقرٌّ ـ عليه ـ اسمُ زمان. وفي غيرِ واحدٍ من الصِّحاح[٤] عن أبي ذرٍّ قال: كنت مع النبيِّ ﷺ في المسجد عند غروبِ الشمس، فقال: «يا أبا ذرّ، أتدري أين تذهب هذه الشمسُ؟» قلت: اللهُ تعالى ورسولُه أعلم. قال: «تذهب لتسجد[٥]، فتستأذنُ فيؤذَن لها،

(١) الديوان ١/ ٤١٨. معروريا: ليس دونه شيء يستره، والرمض: شدة الحر، والرضراض: الحصى الصغار، وتدويم: تدوير.

(٢) ينظر الوسيط ٣/ ٥١٤.

(٣) ٢/ ١٩٦.

(٤) صحيح البخاري (٣١٩٩)، وصحيح مسلم (١٥٩).

(٥) جاء في هامش الأصل: أي في الرجوع، كما جاء مصرحاً به في حديث آخر رواه أحمد والترمذي وغيرهما فلا تغفل. اهـ منه.

ويوشكُ أن تسجدَ فلا يُقبلَ منها، وتستأذنَ فلا يؤذَنَ لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئتِ، فتطلعُ من مغربها، فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾».

وفي رواية[1]: «أتدرون أين تذهبُ هذه الشمس؟» قالوا: اللهُ تعالى ورسولُه أعلم، قال: «إنَّ هذه تجري حتى تنتهيَ إلى مستقرِّها تحتَ العرشِ، فتخرُّ ساجدة..» الحديثَ. وفي ذلك عدَّةُ روايات، وقد رُوي مختصراً جدّاً.

وأخرج أحمد، والبخاريّ، ومسلم، وأبو داود، والتِّرمذي، والنَّسائي، وابنُ أبي حاتم، وأبو الشَّيخ، وابنُ مردويه، والبيهقيّ[2]، عن أبي ذرٍّ قال: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن قوله تعالى: «والشمس تجري لمستقر لها» قال: «مستقرُّها تحتَ العرش».

فالمستقرُّ اسمُ مكان، والظاهرُ أنَّ للشمس فيه قراراً حقيقةً، قال النوويّ[3]: قال جماعةٌ بظاهر الحديث، قال الواحديّ: وعلى هذا القولِ إذا غربت الشمسُ كلَّ يوم، استقرَّت تحت العرشِ إلى أنْ تطلع. ثم قال النوويّ: وسجودُها بتمييزٍ وإدراكٍ يخلقه اللهُ تعالى فيها.

وذكر ابنُ حجرٍ الهيتميُّ في «فتاويه الحديثيَّة»[4] أنَّ سجودَها تحت العرشِ إنَّما هو عند غروبِها، وحكى فيها عن بعضهم أنَّها تطلعُ من سماءٍ إلى سماءٍ حتى تسجدَ تحت العرشِ، وتقول: يا ربِّ، إنَّ قوماً يعصونك، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتنزل من سماءٍ إلى سماءٍ حتى تطلعَ من المشرق، وبنزولها إلى سماءِ الدُّنيا يطلع الفجر.

---

(١) هي رواية مسلم.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٦٣، ومسند أحمد (٢١٤٠٦)، وصحيح البخاري (٧٤٣٣)، ومسلم (١٥٩): (٢٥١)، والعظمة لأبي الشيخ (٦٦٣)، والأسماء والصفات (٨٣٧). ولم نقف عليه في باقي المصادر.

(٣) في شرح صحيح مسلم ٢/ ١٩٥-١٩٦.

(٤) ص ١٨٦.

وفيها أيضاً[1]: أَخرج أبو الشَّيخِ عن عكرمةَ أنَّها إذا غربت دخلت نهراً تحتَ العرش، فتسبِّح ربَّها، حتى إذا أصبحت، استعفت ربَّها عن الخروج، فيقول سبحانه: لِمَ؟ فتقول: إنِّي إذا خرجتُ عُبدتُ من دونِك.

والسجودُ تحت العرشِ قد جاء أيضاً من روايات الإمامية، ولهم في ذلك أخبارٌ عجيبة، منها أنَّ الشمسَ عليها سبعونَ ألفَ كُلَّاب، وكلُّ كلَّابٍ يجرُّه سبعون ألفَ مَلَك، من مشرقها إلى مغربها، ثم يَنزعون عنها النُّور، فتخرُّ ساجدةً تحتَ العرش، ثم يسألون ربَّهم: هل نُلبسها لباسَ النُّور أم لا؟ فيُجابون بما يريده سبحانه، ثم يسألونه عزَّ وجلَّ: هل نُطلعها من مشرقها أو مغربِها؟ فيأتيهم النداءُ بما يريد جلَّ شأنُه، ثم يسألون عن مقدار الضوءِ، فيأتيهم النداءُ بما يحتاج إليه الخلقُ من قِصَر النهارِ وطولِه.

وفي «الهيئة السَّنيَّة» للجلال السيوطيِّ أخبارٌ من هذا القبيل، والصحيحُ من الأَخبار قليل، وليس لي على صحَّة أخبار الإماميةِ وأكثرِ ما في «الهيئة السنيةِ» تعويل، نعم ما تقدَّم عن أبي ذرٍّ مما لا كلامَ في صحَّته، وماذا يقال في أبي ذرٍّ وصدقِ لهجتِه، والأمرُ في ذلك مشكلٌ إذا كان السجودُ والاستقرارُ كلَّ ليلةٍ تحتَ العرش، سواءٌ قيل: إنَّها تطلع من سماءٍ إلى سماءٍ حتى تصلَ إليه فتسجد، أم قيل: إنَّها تستقرُّ وتسجد تحتَه من غيرِ طلوع، فقد صرَّح إمامُ الحرمين وغيرُه بأنَّه لا خلافَ في أنَّها تغرب عند قومٍ وتطلع على آخَرين، والليلُ يطول عند قومٍ ويقصُرُ عند آخرين، وبين الليلِ والنهارِ اختلافٌ ما في الطُّول والقصرِ عند خطِّ الاستواء، وفي بلاد بلغار قد يطلع الفجرُ قبل أن يغيبَ شفقُ الغروب، وفي عرض تسعين لا تزال طالعةً مادامت في البروج الشَّمالية، وغاربةً مادامت في البروج الجنوبية، فالسَّنة نصفُها ليلٌ ونصفُها نهارٌ على ما فصِّل في موضعه. والأدلَّة قائمةٌ على أنَّها لا تسكن عند غروبِها، وإلَّا لكانت ساكنةً عند طلوعِها، بناءً على أنَّ غروبَها في أفقٍ طلوعٌ في غيره، وأيضاً هي قائمةٌ على أنَّها لا تفارق فَلَكَها، فكيف تطلع من سماءٍ إلى

(١) ص ١٨٦

سماءٍ حتى تصلَ إلى العرش؟ بل كونُ الأمرِ ليس كذلك أظهرُ من الشمس، لا يحتاج إلى بيانٍ أصلاً، وكذا كونُها تحت العرشِ دائماً بمعنى احتوائه عليها، وكونُها في جوفِه كسائر الأفلاكِ التي فوق فلكِها والتي تحته.

وقد سألتُ كثيراً من أجلَّة المعاصرين عن التوفيق بين ما سمعتَ من الأخبار الصحيحةِ وبين ما يقتضي خلافَها من العِيان والبرهان، فلم أوفَّق لأن أفوزَ منهم بما يَروي الغليلَ ويَشفي العليل.

والذي يخطر بالبال في حلِّ ذلك الإشكال، واللهُ تعالى أعلمُ بحقيقة الحال، أنَّ الشمس ـ وكذا سائرُ الكواكب ـ مدرِكةٌ عاقلة، كما ينبىءُ عن ذلك قولُه تعالى الآتي: (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) حيث جيءَ بالفعل مسنداً إلى ضمير جمعِ العقلاء، وقولُه تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] لنحو ما ذكر، ويدلُّ عليه ظاهرُ ما رُوي عن أبي ذرٍّ من أنَّها تسجد وتستأذن، فإنَّ المتبادرَ من الاستئذان ما يكون بلسان القالِ دون لسانِ الحال.

وخَلْقُ اللهِ تعالى الإدراكَ والتمييزَ فيها حالَ السجودِ والاستئذانِ ثم سلبُه عنها، ممَّا لا حاجةَ إلى التزامه، بل هو بعيدٌ غايةَ البعد، والشواهدُ من الكتابِ والسُّنة وكلامِ العِترة على كونها ذاتَ إدراكٍ وتمييزٍ مما لا تكاد تحصَى كثرةً، وبعضٌ يدلُّ على ثبوتِ ذلك لها بالخصوص، وبعضُها يدلُّ على ثبوته لها باعتبار دخولِها في العموم، أو بالمقايسة، إذ لا قائلَ بالفرق، ومتى كانت كذلك، فلا يَبعد أن يكونَ لها نفْسٌ ناطقةٌ كنفس الإنسان، بل صرَّح بعضُ الصوفيةِ بكونها ذاتَ نفسٍ ناطقةٍ كاملةٍ جدّاً، والحكماءُ أثبتوا النفسَ للفلك، وصرَّح بعضُهم بإثباتها للكواكب أيضاً، وقالوا: كلُّ ما في العالم العُلويِّ من الكواكب والأفلاكِ الكليةِ والجزئيةِ والتداوير حيٌّ ناطق.

والأنفسُ الناطقةُ الإنسانيةُ إذا كانت قدسيةً قد تنسلخ عن الأبدان، وتذهب متمثِّلةً ظاهرةً بصور أبدانها، أو بصورٍ أخرى ـ كما يتمثَّل جبريلُ عليه السلام ويظهر بصورةِ دحية، أو بصورة بعضِ الأعراب[1]، كما جاء في صحيح الأخبار ـ حيث

(١) سلف ١٤/ ١٢٥.

يشاء اللهُ عزَّ وجلَّ، مع بقاء نوعِ تعلُّقٍ لها بالأبدان الأصليةِ يتأتَّى معه صدورُ الأفعالِ منها، كما يُحكى عن بعض الأولياءِ قدِّست أسرارُهم أنهم يُرَوْنَ في وقتٍ واحدٍ في عدَّة مواضع، وما ذاك إلَّا لقوَّة تجرُّد أنفسِهم وغايةِ تقدُّسها، فتُمثَّلُ وتظهر في موضعٍ وبدنُها الأصليُّ في موضعٍ آخَر:

لا تقل دارُها بشرقيِّ نجدٍ كلُّ نجدٍ للعامريَّة دارُ[1]

وهذا أمرٌ مقرَّر عند السادةِ الصوفيةِ مشهورٌ فيما بينهم، وهو غيرُ طيِّ المسافة، وإنكارُ مَن ينكر كلًّا منهما عليهم مكابرةٌ لا تصدر إلَّا من جاهلٍ أو معاند، وقد عجب العلَّامة التفتازانيُّ[2] من بعض فقهاءِ أهلِ السُّنة ـ أي: كابْنِ مقاتل ـ حيث حكم بالكفر على معتقد ما رُوي عن إبراهيمَ بنِ أدهمَ قدِّس سرُّه أنَّهم رأوه بالبصرة يوم الترويةِ ورُئي ذلك اليوم بمكَّة، ومبناه زعمُ أنَّ ذلك من جنس المعجزاتِ الكبار، وهو ممَّا لا يثبت كرامةً لوليّ، وأنت تعلم أنَّ المعتمدَ عندنا جوازُ ثبوتِ الكرامةِ للوليِّ مطلقاً، إلَّا فيما يثبت بالدليل عدمُ إمكانه، كالإتيان بسورةٍ مثلِ إحدى سورِ القرآن.

وقد أثبت غيرُ واحدٍ تمثُّلَ النفسِ وتطوُّرَها لنبيِّنا ﷺ بعدَ الوفاة، وادَّعى أنَّه عليه الصلاة والسلام قد يُرى في عدَّة مواضعَ في وقتٍ واحدٍ مع كونه في قبره الشريفِ يصلِّي، وقد تقدَّم الكلامُ مستوفًى في ذلك.

وصحَّ أنَّه ﷺ رأى موسى عليه السلام يصلِّي في قبره عند الكثيبِ الأحمر، ورآه في السماءِ وجرى بينهما ما جرى في أمر الصلواتِ المفروضة[3]، وكونُه عليه السلام عُرج إلى السماءِ بجسده الذي كان في القبر بعد أن رآه النبيُّ ﷺ ممَّا لم يقله أحدٌ جزماً، والقولُ به احتمالاً بعيدٌ.

وقد رأى ﷺ ليلةَ أُسري به جماعةً من الأنبياءِ غير موسى عليه السلام في السماوات مع أنَّ قبورَهم في الأرض، ولم يقل أحدٌ: إنَّهم نُقلوا منها إليها، على قياس ما سمعتَ

(١) نسبه في الكشكول ١/ ٨٠ لمجنون ليلى.

(٢) في شرح المقاصد ٥/ ٧٥.

(٣) انظر ١٥/ ١٦٢، ٣٢٧.

آنفاً، وليس ذلك ممَّا ادَّعى الحكميون استحالتَه مِن شغلِ النفسِ الواحدةِ أكثرَ من بدنٍ واحد، بل هو أمرٌ وراءه كما لا يخفَى على مَن نوَّر اللهُ تعالى بصيرتَه.

فيمكن أن يقال: إنَّ للشمس نَفْساً مثلَ تلك الأنفسِ القُدسية، وإنَّها تنسلخ عن الجِرم المشاهَدِ المعروفِ مع بقاءِ نوعٍ من التعلُّق لها به، فتعرجُ إلى العرش، فتسجد تحتَه بلا واسطةٍ، وتستقرُّ هناك وتستأذن، ولا ينافي ذلك سيرُ هذا الجِرم المعروفِ وعدمُ سكونِه حَسبما يدَّعيه أهلُ الهيئةِ وغيرُهم، ويكون ذلك إذا غربت وجاوزت الأُفقَ الحقيقي، وانقطعت رؤيةُ سكانِ المعمورِ من الأرض إياها، ولا يضرُّ فيه طلوعُها إذ ذاك في عرض تسعين ونحوِه؛ لأنَّ ما ذكرنا من كون السجودِ والسكونِ باعتبار النفسِ المنسلخةِ المتمثِّلة بما شاء اللهُ تعالى لا ينافي سيرَ الجِرم المعروف، بل لو كانا نصفَ النهارِ في خطِّ الاستواء، لم يضرَّ أيضاً.

ويجوز أنْ يقال: سجودُها بعد غروبِها عن أفقِ المدينة، ولا يضرُّ فيه كونُها طالعةً إذ ذاك في أفقٍ آخَر؛ لِمَا سمعت، إلَّا أنَّ الذي يغلب على الظنِّ ما ذكر أوَّلاً. وعلى هذا الطرزِ يخرَّج ما يُحكَى أنَّ الكعبةَ كانت تزور واحداً من الأولياء، بأن يقال: إنَّ للكعبة حقيقةً غيرَ ما يعرفه العامَّة، وهي باعتبار تلك الحقيقةِ تزور، والناسُ يشاهدونها في مكانها أحجاراً مبنيَّة.

وقد ذكر الشيخُ الأكبر قدِّس سرُّه في «الفتوحات»[1] كلاماً طويلاً ظاهراً في أنَّ لها حقيقةً غيرَ ما يعرفه العامَّة، وفيه أنَّه كان بينه وبينها زمانَ مجاورتِه مراسلاتٌ وتوسُّلات ومعاتبةٌ دائمة، وأنَّه دوَّن بعضَ ذلك في جزءٍ سمَّاه: «تاج الوسائلِ ومنهاج الرَّسائل».

وقد سئل نجمُ الدِّين عمرُ النسفيُّ[2] مفتي الإنسِ والجنِّ عمَّا يحكَى أنَّ الكعبةَ كانت تزور.. إلخ: هل يجوز القولُ به؟ فقال: نقضُ العادةِ على سبيل الكرامةِ لأهل الولايةِ جائزٌ عند أهلِ السُّنة. وارتضاه العلَّامة السعدُ[3] وغيرُه، لكن لم أرَ مَن خرَّج

(١) ١/ ٧٠٠-٧٠١.

(٢) أبو حفص، من فقهاء الحنفية، توفي سنة (٥٣٧هـ). السير ٢٠/ ١٢٦.

(٣) في شرح المقاصد ٥/ ٧٥.

زيارتَها على هذا الطرز، وظاهرُ كلامِ بعضِهم أنَّ ذلك بذهاب الجسمِ المشاهدِ منها إلى المَزُور وانتقالِه من مكانه، ففي «عُدَّة الفتاوى» و«الولوالجية» وغيرهما: لو ذهبت الكعبةُ لزيارة بعض الأولياء، فالصلاةُ إلى هوائها. ويمكن أن يكونَ أُريد به غيرُ ما يحكَى؛ فإنَّه ـ واللهُ تعالى أعلم ـ لم يكن بانتقال الجسمِ المشاهَد.

ثم الجمعُ بين الحديثِ في الشمس وبين ما يقتضيه الحسُّ وكلامُ أهلِ الهيئةِ بهذا الوجهِ لم أره لأحد، بيدَ أنِّي رأيت في بعض مؤلَّفاتِ عصريِّنا الرشتيِّ رئيسِ الطائفةِ الإماميةِ الكشفيةِ أنَّ سجدةَ الشمسِ عند غروبِها تحت العرشِ عبارةٌ عن رفع الإنِّيَّة، ونزعِ جلبابِ الماهيَّة. وهو عندي نوعٌ من الرَّطانة، لا يفهمه من لا خبرةَ له باصطلاحاته ولو كان ذا فَطانة.

وقال في موضعٍ آخَرَ بعد أن ذكر حديثَ الكلاليبِ السابق: إنَّ ذلك لا ينافي كلامَ أهلِ الهيئةِ ولا بقَدْر سَمِّ الخِياط. ولم يبيِّن وجهَ عدمِ المنافاة، مع أنَّها أظهرُ من الشمس، معتذراً بأنَّ الكلامَ فيه طويل. ولا أظنُّه لو كان آتياً به إلَّا من ذلك القبيل. وهذا ما عندي فليتأمَّل، واللهُ تعالى الهادي إلى سواءِ السبيل.

وقرأ عبدُ الله، وابنُ عباس، وزينُ العابدين، وابنُه الباقر، وعِكرمة، وعطاءُ بن أبي رباح: «لا مُستقرَّ لها»(١) بـ «لا» النافيةِ للجنس، وبناء «مستقرَّ» على الفتح، فتقتضي انتفاءَ كلِّ مستقَرٍّ حقيقيٍّ لجِرمها المشاهَد، وذلك في الدنيا، أي: هي تجري في الدُّنيا دائماً لا تستقرّ.

وقرأ ابنُ أبي عبلةَ بـ «لا» أيضاً، إلَّا أنَّه رفع «مستقرّ» ونوَّنه(٢) على إعمالها إعمالَ «ليس»، كما في قوله:

تعزَّ فلا شيءٌ على الأرض باقيا ... ولا وَزَرٌ ممَّا قضى اللهُ واقيا(٣)

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الجري المفهومِ من «تجري» أي: ذلك الجريُ البديعُ

---

(١) المحتسب ٢/ ٢١٢، والبحر ٧/ ٣٣٦.

(٢) البحر ٧/ ٣٣٦.

(٣) شرح الألفية لابن عقيل ١/ ٣١٣، والبحر ٧/ ٣٣٦ دون نسبة.

الشأن، المنطوي على الحكم الرائقةِ التي تحار في فهمها العقولُ والأذهان ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالبِ بقدرته على كلِّ مقدور ﴿ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ المحيطِ علمُه بكلِّ معلوم.

وذكر بعضُهم في حكمة جريها حتى تسجدَ كلَّ ليلةٍ تحت العرش ـ على ما يقتضيه الخبرُ السابق ـ تجدُّدَ اكتسابِ النورِ من العرش، ويترتَّب عليه في عالم الطبيعةِ والعناصرِ ما يترتَّب، وباكتسابها النورَ من العرش صرَّح غيرُ واحد.

ومن العجيب ما ذكره الرشتيُّ أنها تستمدُّ النورَ من ظاهر العرشِ وتَمدُّ فلكَ القمر، ومن باطن العرشِ وتمدُّ فلكَ زُحَل، وتستمدُّ من ظاهر الكرسيِّ وتَمدُّ فلكَ عُطارِد، ومن باطنه وتمدُّ فلك المشتري، وتستمدُّ من ظاهر تقاطعِ نقطتي المنطقتين وتمدُّ فلكَ الزُّهَرة، ومن باطنه وتمدُّ فلك المِرِّيخ. وليت شِعري من أين استمدَّ فقال ما قال، وذلك ممَّا لم نجد فيه نقلاً ولا نظنُّ أنه مرَّ بخَيال!

وقال الشيخُ الأكبر قدِّس سرُّه: إنَّ نورَ الشمسِ ما هو من حيث عينُها، بل هو من تجلٍّ دائمٍ لها من اسمه تعالى النُّور، ونورُ سائرِ السيَّارات من نورها، وهو في الحقيقة من تَجلِّي اسمِه سبحانه النُّور، فما ثَمَّ إلَّا نورُه عزَّ وجلَّ.

وادَّعى كثيرٌ من أجلَّة المحقِّقين أنَّ نورَ جميعِ الكواكب ـ ثوابتِها وسيَّاراتِها ـ مستفادٌ من ضوءِ الشمس، وهو مفاضٌ عليها من الفيَّاض المطلقِ جلَّ جلالُه وعمَّ نوالُه.

وفي الآية ردٌّ على القائلين بأنَّ الشمسَ ساكنةٌ وهي مركزُ العالم، والكواكبُ والأرضُ كراتٌ دائرةٌ عليها.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ أي: صيَّرنا مسيرَه، أي: محلَّه الذي يسير فيه ﴿مَنَازِلَ﴾ فـ: قدَّر بمعنى صيَّر الناصبِ لمفعولَين، والكلامُ على حذف مضاف، والمضافُ المحذوفُ مفعولُه الأوَّل، و«منازل» مفعولُه الثاني.

واختار أبو حيَّان[1] تقديرَ مصدرٍ مضاف، و«قدَّر» متعدٍّ إلى واحد، و«منازل»

---

(١) في البحر ٣٣٦/٧.

منصوبٌ على الظرفية، أي: قدَّرنا سيرَه في منازل.

وقدَّر بعضُهم: نوراً، أي: قدَّرنا نورَه في منازل، فيزيد مقدارُ النورِ كلَّ يومٍ في المنازل الاجتماعية، وينقص في المنازلِ الاستقبالية؛ لمَا أنَّ نورَه مستفادٌ من ضوءِ الشمس، لاختلاف تشكُّلاتِه بالقرب والبُعدِ منها، مع خسوفِه بحيلولة الأرضِ بينه وبينها، وبهذا يتمُّ الاستدلال.

والحقُّ أنَّه لا قطعَ بذلك، وليس هناك إلَّا غلبةُ الظنِّ. ويجوز أن يكونَ «قدَّر» متعدِّياً لاثنين، و«منازل» بتقدير: ذا منازل، وأن يكونَ متعدِّياً لواحد، وهو «منازل» والأصلُ: قدَّرنا له منازل، على الحذف والإيصال، واختاره أبو السعود[1]. ونصب «القمر» بفعلٍ يفسِّره المذكور، أي: وقدَّرنا القمرَ قدَّرناه، وفي ذلك من الاعتناءِ بأمر التقديرِ ما فيه، وكأنَّه لِمَا أنَّ شهرَهم باعتباره، ويُعلم منه سرُّ تغييرِ الأسلوب.

وقرأ الحِرْمِيَّان، وأبو عَمرو، وأبو جعفر، وابنُ محيصن، والحسنُ بخلافٍ عنه: «والقمرُ» بالرفع[2]، قال غيرُ واحد: على الابتداء، وجملةُ «قدرناه» خبرُه.

ويجوز فيما أرى أن يَجريَ في التركيب ما جرى في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ من الإعراب، فتدبَّر.

والمنازلُ جمعُ: منزل، والمرادُ به المسافةُ التي يقطعها القمرُ في يومٍ وليلة، وهي عند أهلِ الهندِ سبعةٌ وعشرون؛ لأنَّ القمرَ يقطع فلكَ البروجِ في سبعةٍ وعشرين يوماً وثُلُث، فحذفوا الثُّلث لأنَّه ناقصٌ عن النِّصف كما هو مصطلحُ أهلِ التنجيم.

وعند العربِ وساكني البدوِ ثمانيةٌ وعشرون، لا لأنَّهم تمَّموا الثلثَ واحداً كما قال بعضُهم، بل لأنَّه لمَّا كانت سِنُوهم باعتبار الأهِلَّة مختلفةَ الأوائل؛ لوقوعها في وسط الصيفِ تارةً وفي وسط الشتاءِ أخرى، وكذا أوقاتُ تجارتِهم وزمانُ

---

(١) في إرشاد العقل السليم ٧/ ١٦٨.

(٢) التيسير ص ١٨٤، والنشر ٢/ ٣٥٣، عن الحرميين وأبي عمرو، وهي رواية روح عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٧/ ٣٣٦.

أَعيادهم، احتاجوا إلى ضبط سَنَة الشمسِ لمعرفة فصولِ السنة، حتى يشتغلوا في استقبال كلِّ فصلٍ بما يهمُّهم في ذلك الفصل، من الانتقال إلى المراعي وغيرِها، فاحتالوا في ضبطها، فنظروا أوَّلاً إلى القمر، فوجدوه يعودُ إلى وضعٍ له من الشمس في قريبٍ من ثلاثين يوماً، ويختفي آخرَ الشهرِ لليلتين أو أقلَّ أو أكثر، فأسقطوا يومَين من زمان الشهرِ فبقي ثمانيةٌ وعشرون، وهو زمانُ ما بين أولِ ظهورِه بالعشيَّات مستهلًّا أولَ الشهر، وآخرِ رؤيته بالغَدَوات مستتراً آخرَه، فقسموا دورَ الفلكِ عليه، فكان كلُّ قسمٍ اثنتي عشرةَ درجةً وإحدى وخمسين دقيقةً تقريباً، وهو ستةُ أسباعِ درجة، فنصيبُ كلِّ برجٍ منه منزلان وثُلُث، ثم لمَّا انضبط الدورُ بهذه القسمة، احتالوا في ضبط سَنَة الشمسِ بكيفية قطعِها لهذه المنازل، فوجدوها تستَر دائماً ثلاثةَ منازل، ما هي فيه بشعاعها، وما قبلها بضياءِ الفجر، وما بعدَها بضياءِ الشمس، ورصدوا ظهورَ المستترِ بضياء الفجرِ ثم بشعاعها ثم بضياءِ الشَّفَق، فوجدوا الزمانَ بين كلِّ ظهورَي منزلتين ثلاثةَ عشرَ يوماً تقريباً، فأيامُ جميعِ المنازلِ تكون ثلاثَ مئةٍ وأربعةً وسِتِّين، لكن الشمسَ تقطع جميعَها في ثلاث مئةٍ وخمسٍ وستين، فزادوا يوماً في أيام منزلِ غَفْر[1]، وزادوه هاهنا اصطلاحاً منهم، أو لشرفه على ما تسمعه إن شاءَ اللهُ تعالى، وقد يحتاج إلى زيادة يومين ليكونَ انقضاءُ الثمانيةِ والعشرين مع انقضاء السَّنة، ويرجع الأمرُ إلى النَّجم الأوَّل.

واعلم أنَّ العربَ جعلت علاماتِ الأقسامِ الثمانيةِ والعشرين من الكواكب الظاهرةِ القريبةِ من المنطقة ممَّا يقارب طريقةَ القمرِ في ممرِّه أو يحاذيه، فيُرى القمرُ كلَّ ليلةٍ نازلاً بقرب أحدِها، وأحوالُ كواكبِ المنازلِ مع المنازل كأحوال كواكبِ البروجِ مع البروج عند أهلِ الهيئة، من أنَّها مسامتةٌ للمنازل وهي في فلك الأفلاك، وإذا أَسرع القمرُ في سيره فقد يُخلي منزلاً في الوسط، وإنْ أبطأ فقد يبقَى ليلتَين في منزل، أوَّلُ الليلتين في أوَّله وآخرُهما في آخره، وقد يُرى في بعض الليالي بين منزلتَين.

وما يقال في الشُّهور: إنَّ الظاهرَ من المنازل في كلِّ ليلةٍ يكون أربعةَ عشرَ وكذا الخفيّ، وأنَّه إذا طلع منزلٌ غاب رقيبُه، وهو الخامسَ عشرَ من الطالع، سمِّي به

---

(١) منزل للقمر، ثلاثة أنجم صغار. القاموس (غفر).

تشبيهاً له برقيبٍ يرصده ليسقطَ في المغربِ إذا ظهر ذلك في المشرق = ظاهرُ الفساد؛ لأنَّها ليست على نفس المنطقة، ولا أبعادُ ما بينها متساوية، ولهذا قد يكون الظاهرُ ستةَ عشرَ وسبعةَ عشر، وقد يكون الخفيُّ ثلاثةَ عشر.

وهذه الكواكبُ المسمَّاة بالمنازل المسامتةُ للمنازل الحقيقية ـ على ما رُوي عن ابن عباسٍ وغيرِه ـ أوَّلُها الشَّرَطان، بفتح الشِّين والراء، مثنَّى شَرَطٍ، بفتحتين، وهي العلامة، وهما كوكبان نيِّران من القدر الثالثِ على قرنَي الحَمَل، معترضان بين الشَّمالِ والجنوب، بينهما ثلاثةُ أشبار، وبقرب الجنوبيِّ منهما كوكبٌ صغير، سمَّت العربُ الكلَّ أشراطاً؛ لأنَّها بسقوطها علاماتُ المطرِ والرِّيح، والقمرُ يحاذيهما، وبقرب الشماليِّ منهما كوكبٌ نيِّر، هو الشَّرَطان عند بعض، ويقال للشَّرَطين الناطحُ أيضاً.

ثم البُطَين: تصغيرُ: البطن، وهو ثلاثةُ كواكبَ خفية من القدر الخامسِ على شكلِ مثلَّثٍ حادِّ الزوايا على فخذَي الحَمَل، بينه وبين الشَّرطين قِيدُ رُمح، والقمرُ يجتاز بها أحياناً.

ثم الثُّريا[1]: تصغيرُ: ثَرْوَى، من الثَّراء، وهو الكثرة، ويسمَّى بالنَّجم، وهي ـ على المشهور عند المنجِّمين ـ ستةُ كواكبَ مجتمعةٌ كشكل مِروحة، مقبضُها نحو المشرقِ وفيه انحناءٌ في جانب الشَّمال، وقيل: هي شبيهةٌ بعُنقود عِنَب، وعليه قولُ أحيحةَ بنِ الجُلاحِ أو قيسِ[2] بن الأسلت:

وقد لاح في الصبح الثُّريا كما ترى ... كعُنقودِ مُلَّاحيةٍ حين نوَّرا[3]

(١) جاء في هامش الأصل: رأيت منها بواسطة بعض الآلات ما يزيد على ثلاثين كوكباً. اهـ منه.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: أبو قيس، ونسب البيت له صاحب الأغاني ١٧/ ١٣٠، ومعاهد التنصيص ٢/ ١٧، والخزانة ٣/ ٤١٣. ونسبه الجرجاني في أسرار البلاغة ص ٧٥ لقيس بن الخطيم، وقال الشيخ محيي الدين عبد الحميد في تعليقاته على معاهد التنصيص: وليس بشيء.

(٣) الملاحية: عنب أبيض طويل، ونوَّر: أدرك وتفتَّح نَورُه.

والمرصودُ منها أربعة، كلُّها من القدر الخامس، وموضعُها سَنامُ الثَّور. وفي «الكشف»: هي أَليةُ الحَمَل، وربَّما يكسفها القمر.

ثم الدَّبَران: بفتحتين، سمِّي به؛ لأنَّه دَبْرَ الثُّريا وخلفَها، وهو كوكبٌ أحمرُ نيِّر من القدر الأوَّل على طرفِ صورة السبعةِ من رقوم الهند، ويسمى: المِجْدح، وموقعُه عينُ الثور، والذي على طرفه الآخَرِ من القدر الثالثِ على عينه الأخرى، والثلاثةُ الباقية ـ وهي من الثالث أيضاً ـ على وجهه، وزاويةُ هذا الرقمِ على خَطم الثَّور، وبعضُهم يسمِّي الدَّبَران بقلب الثَّور، وقد يكسفه القمر.

ثم الهَقْعَة: بفتح الهاء وسكونِ القافِ وفتح العينِ المهملة، وهي ثلاثةُ كواكبَ خفيَّة مجتمعةٌ شبيهةٌ بنُقَط الثاءِ، كأنَّها لَطخةٌ سحابيَّة، شبِّهت بالدائرة التي تكون في عرض زَور الفرس، أو بحيث تصيب رِجلَ الفارس، أو بلمعة بياضٍ تكون في جنب الفرسِ الأَيسر، تسمَّى بذلك، وتسمَّى الأَثافي أيضاً، وهي على رأس الجبَّارِ المسمَّى بالجوزاء، والقمرُ يحاذيها ولا يقاربها.

ثم الهَنْعة: بوزن الهَقْعة، وثانيه نون، وهي كوكبان من القدر الرابع والثالث، شبِّهت بسِمَةٍ في منخفضِ عُنُق الفرس، وهما على رِجلَي التوأمين(١) مما يلي الشَّمال. وفي «الكشف»: هي منكبُ الجوزاءِ الأيسر والقمرُ يمرُّ بهما.

ثم الذِّراع: وهما كوكبان أزهران من القدر الثاني على رأسَي التوأَمَين، يعنون بهما ذراعَ الأسدِ المبسوطة؛ إذ المقبوضةُ هي الشِّعرى الشاميةُ مع مِرْزَمها، والقمرُ يقارب المبسوطة.

ثم النَّثْرة: وهي الفُرْجةُ بين الشاربَين حيالَ وَتَرةِ الأنف، وهو أنفُ الأسد، وهما كوكبان خفيَّان من الرابع، بينهما قِيدُ ذراعٍ ولطخةٌ سحابيَّة، وهي على وسط السَّرطان، ويقربها كوكبان يسمَّيان بالحمارَين، واللطخةُ التي بينهما بالمعلف، تشبيهاً لها بالتِّبن وبمَمخطة(٢) الأسد، أي: موضعِ استتارِه، ويكسف القمرُ كلًّا منهما.

---

(١) في هامش الأصل: الجوزاء. اهـ منه.

(٢) في (م): وبممحظة. وهي غير مقروءة في الأصل الخطي، ولعلَّ المثبت هو الصواب، والممخطة: مكان خروج المخاط من أنف الأسد.

ثم الطَّرْف: وهما كوكبان صغيرانِ من الرابع، أحدُهما على رأس الأسدِ قُدَّامَ عينيه، والآخرُ قدَّامَ يدِه المقدَّمة، والقمرُ يحاذي أشملَهما ويَكسف أجنبَهما، ويعنون بالطَّرْف عينَ الأسدِ.

ثم الجبهة: ويعنون بها جبهةَ الأسد، وهي أربعةُ كواكبَ على سطرٍ فيه تعويجٌ آخذٌ من الشَّمال إلى الجنوب، أعظمُها على طرف السطرِ ممَّا يلي الجنوب، يسمَّى قلبَ الأسدِ لكونه في موضعه، ويسمَّى الملكيَّ أيضاً، وهو من القدر الأوَّل، والقمرُ يمرُّ به وبالذي يليه.

ثم الزُّبْرة: بضمِّ الزاي وسكونِ الباء، وهما كوكبان نيِّران على أَثر الجبهة، بينهما أرجحُ من ذراع، وهما على زُبْرة الأسد، أي: كاهلِه، عند العرب، وعند المنجِّمين عند مؤخَّره، فزُبرةُ الأسدِ شعرُه الذي يزبُر عند الغضبِ في قفاه، أجنبُهما من الثالث وأشملُهما من الثاني، وتسمَّى: ظهرَ الأسد، والقمرُ يحاذيهما من جهة الجنوب.

ثم الصَّرْفة: وهو كوكبٌ واحدٌ على طرف ذنبِ الأسد، ويسمَّى: ذنبَ الأسد، والقمرُ يحاذيه من جهة الجنوب، وسمِّي بذلك لأنَّ البردَ ينصرف عند سقوطِه.

ثم العَوَّاء: يمدُّ ويقصَر، والقصرُ أَجود، وهي خمسةُ كواكبَ من الثالث على هيئة لامٍ في الخطِّ العربي، ثلاثةٌ منها آخذةٌ من منكب العذراءِ الأيسرِ إلى تحت ثديها الأيسر، وهي على سطرٍ جنوبيٍّ من الصَّرفة، ثم ينعطف اثنان على سطرٍ يحيط مع الأوَّل بزاويةٍ منفرجة، زعمت العربُ أنَّها كلابٌ تَعوي خلفَ الأسد؛ ولذلك سمِّيت العَوَّاء. وقيل في ذلك: كأنَّها تَعوي في أثر البرد؛ ولهذا سمِّيت طاردةَ البرد. وقيل: هي مِن: عوى الشيءَ: عَطَفَه، فلِمَا فيها من الانعطاف سمِّيت بذلك. وفي «الكشف»: العَوَّاء: سافلةُ الإنسان، ويقال: إنها وَرِكُ الأسد، والقمرُ يخرقها.

ثم السِّماك الأعزل: وهو كوكبٌ نيِّر من الأوَّل، على كَتِف العذراءِ اليسرى قريبٌ من المنطقة، والقمرُ يمرُّ به ويَكسفه. ويقابل السماكَ الأعزلَ السِّماكُ الرامح،

وليس من المنازل، وسمِّي رامحاً لكوكبٍ يَقدُمه كأنَّه رمحُه، وسمي سِماكاً لأنَّه سَمَكَ، أي: ارتفع.

ثم الغَفْر: وهي ثلاثةُ كواكبَ من الرابع، على ذيل العذراءِ ورِجلها المؤخَّرة، على سطرٍ معوج حدبته إلى الشَّمال. وقيل: كوكبان، والقمرُ يمرُّ بجنوبيِّهما، وقد يحاذي الشماليّ، وهو منزلُ خيرٍ بَعُدَ عن شرَّين: مقدَّمِ الأسدِ ومؤخَّر العقرب. ويقال: إنَّه طالعُ الأنبياءِ والصالحين، وسمِّيت غَفراً لسترها ونقصانِ نورِها. وذكر بعضُهم أنَّها من كواكب الميزان.

ثم الزُّبانَى: بالضمِّ وآخرُه أَلِف، وهما كوكبان نيِّران من الثاني، متباعدان في الشَّمال والجنوب، بينهما قِيدُ رمحٍ على كِفَّتي الميزان. وقال غيرُ واحد: هما قَرنا العقرب، والقمرُ قد يَكسف جنوبيَّهما.

ثم الإِكليل: وهي ثلاثةُ كواكبَ خفيَّةٌ معترضةٌ من الشَّمال إلى الجنوب، على سطرٍ مقوَّس يشبه شكلُها شكلَ الغَفْر، الأوسطُ منها متقدِّم والاثنان تاليان، وهي من الرابع، والقمرُ يمرُّ بجميعها. وقيل: هي أربعةُ كواكبَ برأس العقرب؛ ولذا سمِّيت به، وأصلُ معناه التاج.

ثم القلب: وهو قلبُ العقرب، كوكبٌ أحمرُ نيِّرٌ أوسط الثلاثةِ التي على بدن العقرب، على استقامةٍ من المغرب إلى المشرق، وهو من الثاني، واللذان قبلَه وبعدَه ـ ويسمَّيان نياطَين ـ من الثالث، والقمرُ يمرُّ به ويَكسفه؛ لقُربه من المنطقة.

ثم الشَّوْلَة: بفتح الشينِ المعجَمة واللام، وتسمَّى: إبرةَ العقربِ عند الحجازيين، كوكبان من الثاني أزهران متقاربان، على طرف ذنبِ العقربِ في موضع الحُمَة، والقمرُ يحاذيهما.

ثم النعائم: أربعةُ كواكبَ من الثالث على منحرفٍ تابعٍ للشَّولة، وتسمَّى: النعائمَ الواردة، أي: إلى المجرَّة، والقمرُ يمرُّ باثنين منها ويحاذي الباقية، ويقرب منها أربعةٌ أخرى من الثالثِ على منحرف، هي النعائمُ الصادرة، أي: من المجرَّة، وكلُّها من صورة الرامي، وسمِّيت نعائمَ؛ تشبيهاً بالخشبات التي تكون على البئر.

ثم البَلْدَة: وهي قطعةٌ من السماءِ خاليةٌ من الكواكب مستديرة، شبِّهت ببلدة الثعلب، وهي ما يَكنسه بذنبه، وتسمَّى أيضاً بالمفازة والفُرجة. وقيل: سمِّيت بذلك تشبيهاً بالفُرجة التي تكون بين الحاجبَين، وموضعُها خلفَ الكواكبِ التي تسمَّى بالقِلادة، وهي عِصابة الرامي.

ثم سَعْدُ الذابحُ: كوكبان على قرنَي الجَدي، بينهما قَدْرُ باعٍ، جنوبيُّهما من الثالث، والقمرُ يقاربه ولا يَكسفه، ويقرب الشماليَّ كوكبٌ صغيرٌ يكاد يلتصق به، يقال: إنَّه شاتُه التي يريد أن يذبَحها. وقيل: إنَّه في مذبحه؛ ولهذا يسمَّى بالذابح.

ثم سعدُ بُلَعَ(١): كوكبان على كفِّ ساكبِ الماءِ اليسرى فوقَ ظهرِ الجدي، بينهما قدرُ باع، غربيُّهما من الثالث وشرقيُّهما من الرابع، ويقرب متقدِّمَهما كوكبٌ صغيرٌ كأنَّه ابتلعه؛ فلهذا سمِّي به.

وفي «القاموس»(٢): سعدُ بُلَعَ، كزُفَرَ، مَعْرِفةً: منزلٌ للقمر طَلَعَ لمَّا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ [هود: ٤٤] وهو نجمان مستويانِ في المجرى، أحدُهما خفيّ، والآخرَ مضيءٌ يسمَّى: بالعاً، كأنَّه بلع الآخرَ. وقيل: لأنَّه ليس له ما لسعدِ الذابحِ، فكأنَّه بلع شاتَه، والقمرُ يقارب أجنبَهما ولا يَكسفه.

ثم سعدُ السعود: كوكبان ـ وقيل: ثلاثة ـ على خطٍّ مقوَّس بين الشِّمال والجنوب، حَدَبته إلى المغرب أجنبُهما، والقمرُ يقرب منه، من الخامس على طرف ذنبِ الجدي، وأشملُهما من الثالث، وهو مع الآخَر في القول الآخَر من كواكب القوس، والقمرُ يقارب أجنبَهما؛ وسمِّي بذلك لأنَّه في وقت طلوعِه ابتداءُ ما به يعيشون وتعيشُ مواشيهم.

ثم سعدُ الأخبية: أربعةُ كواكبَ من الثالث، ومن كواكبِ الرامي على يد ساكبِ الماءِ اليمنى، ثلاثةٌ منها على شكل مثلَّثٍ حادِّ الزوايا، والرابعُ وسْطَه، وهو

---

(١) في هامش الأصل: طلوعه لليلة تبقى من كانون الآخر وسقوطه لليلة تمضي من آب. اهـ قاموس. اهـ منه.

(٢) مادة (بلع).

السعد، والثلاثُ خباؤه؛ ولذا سمِّي بذلك. وقيل: لأنَّه يطلع قبل الدِّفء، فيخرج من الهوامِّ ما كان مختبئاً، والقمرُ يقاربها من ناحية الجنوب.

ثم الفَرْغُ المقدَّم: ويقال: الأعلى، كوكبان نيِّران من الثاني، بينهما قِيدُ رمح، أجنبُهما على متن الفرسِ الأكبر المجنَّح(١)، وأشملُهما على مَنكِبه، والقمرُ يمرُّ بالبُعد منهما.

ثم الفَرْغُ المؤخَّر: كوكبان نيِّران من الثاني، بينهما قِيدُ رمحٍ أيضاً، أجنبُهما على جناح الفرس، وأشملُهما مشتركٌ بين سُرَّته ورأسِ المسلسلة، شبَّهت العربُ الأربعةَ بفَرْغ الدَّلو، وهو بفتح الفاءِ وسكونِ الراءِ المهمَلة وغينٍ معجَمة، مصبُّ الماءِ منها؛ لكثرة الأمطارِ في وقتها.

ثم بطنُ الحوت: ويقال له: الرِّشاء، بكسر الراءِ، أي: رِشاءُ الدلو، وقلبُ الحوتِ أيضاً كوكبٌ نيِّر من الثالث على جنب المرأةِ المسلسلة، يحاذيه القمرُ ولا يقاربه، وإنَّما سمِّي به لوقوعه في بطن سمكةٍ عظيمةٍ تحت نحرِ الناقة، تصوَّرها العربُ من سطرين عليهما كواكبُ خفية، بعضُها من المسلسلة وبعضُها من إحدى سمكتَي الحوت.

هذا واعلمْ أنَّ هذه المنازلَ الثمانيةَ والعشرين تسمِّي العربُ الأربعةَ عشرَ الشماليةَ منها ـ التي أولُها الشَّرَطانُ وآخرُها السِّماك ـ شامية، والباقيةَ منها ـ التي أولُها الغَفْرُ وآخرُها بطنُ الحوت ـ يمانية، وأنَّها تسمِّي خروجَ المنزلِ من ضياء الفجرِ طلوعَه، وغروبَ رقيبِهِ وقتَ الصبحِ سقوطَه، والمنازلَ التي يكون طلوعُها في مواسم المطرِ الأنواء، ورقباءَها إذا طلعت في غير مواسمِ المطرِ البوارح، قاله القطب.

وقال الجوهريّ(٢): النَّوء: سقوطُ نجمٍ من المنازل في المغربِ مع الفجر، وطلوعُ رقيبِهِ من المشرق، يقابله من ساعته في كلِّ ليلةٍ إلى مُضيِّ ثلاثةَ عشرَ يوماً، ما خلا الجبهةَ فإنَّ لها أربعةَ عشرَ يوماً.

---

(١) في هامش الأصل: أي: ذي الجناحين. اهـ منه.
(٢) في الصحاح (نوأ).

قال أبو عُبيد: ولم يُسمَع في النَّوء أنه السقوطُ إلَّا في هذا الموضع، والعربُ تضيف الأمطارَ والرياحَ والحرَّ والبردَ إلى الساقط منها، وقال الأصمعيّ: إلى الطالع في سلطانه، فتقول: مُطرنا بنوءِ الثُّريا مثلاً، والجمع: أنواءٌ ونُوْآن، مثل: عَبد وعُبدان.

وذكر الطيبيُّ عن المرزوقيِّ أنَّ نوءَ الشَّرَطين ثلاثةُ أيام، ونوءَ البُطَين ثلاثُ ليال، ونوء الثُّريا خمسُ ليال، ونوء الدَّبَران ثلاث ليال، ونوءَ الهَقْعة سِتُّ ليال، ولا يذكرون نوأها إلَّا بنوءِ الجوزاء، ونوء الهَنْعة لا يذكر أيضاً، وإنَّما يكون في أنواءِ الجوزاء، والذِّراع لا نوءَ له، ونوءَ النَّثْرة سبع ليال، ونوءَ الطَّرف ثلاثُ ليال، ونوءَ الجبهةِ سبع، والزُّبْرة أربع، والصرفة ثلاث، والعَوَّاء ليلة، والسِّماك أربع، والغَفْر ثلاث، وقيل: ليلة، والزُّبَانَى ثلاث، والإكليل أربع، والقلب ثلاث، والشَّولة كذلك، والنَّعائم ليلة، والبلدة ثلاث، وقيل: ليلة، وسعد الذابح ليلة، وبُلَعَ وسعد السعودِ وسعد الأخبية والفَرْغ المقدَّم ثلاث، والمؤخَّر أربع، ولم يَذكُر في نسختي للرِّشاء نوءاً.

ثم إنَّ قولَ الإنسان: مُطرنا بنوءِ كذا، إن أراد به أن النَّوءَ نزل بالماء، فهو كفر، والقائلُ كافرٌ حلالٌ دمُه إن لم يتب، كما نصَّ عليه الشافعيُّ وغيرُه.

وفي «الرَّوضة»: من اعتقد أنَّ النوءَ يُمطِر حقيقة، كفر وصار مرتدًّا، وإنْ أراد به أنَّ النوءَ سببٌ يُنزل اللهُ تعالى به الماءَ حَسبما عَلِمَ وقدَّر، فهو ليس بكفر، بل مباح، لكن قال ابنُ عبد البرّ[1]: هو وإن كان مباحاً كفرٌ بنعمة اللهِ تعالى، وجهلٌ بلطيف حكمته.

وفي الصَّحيحين: عن زيد بنِ خالد الجُهَنيِّ أن النبيَّ ﷺ قال إثرَ سماء: «هل تدرون ما قال ربُّكم؟» قالوا: اللهُ تعالى ورسولُه أعلم. قال: «قال: أصبح مِن عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأمَّا مَن قال: مُطِرنا بفضل اللهِ تعالى ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأمَّا مَن قال: مُطِرنا بنوءِ كذا، فهو كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب»[2]

---

(١) في التمهيد ١٦/٢٨٦.

(٢) البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١)، وسلف ٥/٢١٤.

وظاهرُه أنَّ الكفرَ مقابلُ الإيمان، فيُحمَل على ما إذا أراد القائلُ ما سمعتَ أولاً. واللهُ تعالى الحافظُ من كلِّ سوء، لا ربَّ غيرُه، ولا يُرجَى إلَّا خيرُه.

والقمرُ في العرف العامِّ: هو الكوكبُ المعروفُ في جميع ليالي الشهر، والمشهورُ عند اللغويين أنَّه بعد الاجتماعِ مع الشمسِ ومفارقِته إياها لا يسمَّى قمراً إلَّا من ثلاث ليالٍ إلى ستٍّ وعشرين ليلة، وفيما عدا ذلك يسمَّى هلالاً.

ولعلَّ الأظهرَ في الآية حملُه على المعنى الأوَّل، وهو الشائعُ إذا ذُكر مع الشمس، أي: قدَّرنا هذا الجِرمَ المعروفَ منازلَ ومسافاتٍ مخصوصة، فسار فيها ونزلها منزلةً منزلةً ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ أي: صار في أواخر سيرِه وقربِه من الشمس في رأي العينِ ﴿كَٱلْعُرْجُونِ﴾ هو عودُ عِذقِ النَّخلةِ من بين الشِّمراخ إلى منبته منها. ورُوي ذلك عن الحسنِ وقتادة. وعن ابن عباسٍ أنَّه أصلُ العِذق. وقيل: الشمراخ، وهو ما عليه البُسرُ من عيدان العِذق والكِباسة. والمشهورُ الأوَّل.

ونونُه ـ على ما حُكي عن الزجَّاج ـ زائدة، فوزنُه: فُعلون[1]، من الانعراج، وهو الاعوجاجُ والانعطاف. وذهب قومٌ ـ واختاره الراغبُ والسَّمين وصاحبُ «القاموس» ـ إلى أنَّها أصلية[2]، فوزنُه: فُعلول.

وقرأ سليمانُ التيمي: «كالعِرْجَون» بكسر العينِ وسكون الراءِ وفتح الجيم[3]، وهي لغةٌ فيه، كالبُزيُون والبِزيَون، وهو بساطٌ روميّ، أو السُّندس.

﴿ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ أي: العتيقِ الذي مرَّ عليه زمانٌ يَبِس فيه. ووجهُ الشبهِ الاصفرارُ والدِّقَّةُ والاعوجاج. وقيل: أقلُّ مُدَّة القِدَمِ حَوْل، فلو قال رجل: كلُّ مملوكٍ لي

(١) في المطبوع من معاني القرآن ٤/ ٢٨٨ أن وزنه: فعلول. ولعلَّها تصحفت عن: فُعلُون، لأن الزمخشري في الكشاف٣/ ٣٢٣، والقرطبي في التفسير١٧/ ٤٤٧ نقلا كلامه وذكرا أن وزنه: فعلون. وهو الصواب.

(٢) الدر المصون ٩/ ٢٧٠، وذكره الراغب وصاحب القاموس في مادة (عرجن)، ولعل هذا هو المقصود من نسبة الاختيار إليهما.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٥، والبحر ٧/ ٣٣٧.

قديمٍ فهو حرٌّ، عَتَقَ منهم مَن مضى له حَولٌ وأكثر. وقيل: ستةُ أشهر، وحكاه بعضُ الإماميةِ عن أبي الحسن الرِّضا رضي الله عنه[1].

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾ أي: يتسخَّر ويتسهَّل، كما في قولك: النارُ ينبغي أن تحرقَ الثوب. أو: يَحسُن ويَليق، أي: حكمةً، كما في قولك: المَلِكُ ينبغي أن يُكرمَ العالِم. واختار غيرُ واحدٍ المعنى الأوَّل.

وأصلُ «ينبغي» مطاوعُ: بَغَى، بمعنى طَلَبَ، وما طاوَعَ وقَبِل الفعلَ فقد تسخَّر وتسهَّل، والنفيُ راجعٌ في الحقيقة إلى «ينبغي» فكأنَّه قيل: لا يتسهَّل للشمس ولا يتسخَّر ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ أي: في سلطانه، بأن تجتمعَ معه في الوقت الذي حدَّه اللهُ تعالى له وجعله مظهراً لسلطانه؛ فإنَّه عزَّ وجلَّ جعل لتدبير هذا العالَمِ بمقتضَى الحكمةِ لكلٍّ من النيِّرين الشمسِ والقمرِ حدّاً محدوداً ووقتاً معيَّناً يظهر فيه سلطانُه، فلا يدخل أحدُهما في سلطان الآخَر، بل يتعاقبان إلى أن يأتيَ أمرُ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وهذه الجملةُ لنفي أن تدركَ الشمسُ القمرَ فيما جُعل له، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ لنفي أن يدركَ القمرُ الشمسَ فيما جُعل لها، أي: ولا آيةُ الليلِ سابقةٌ آيةَ النهارِ وظاهرٌ سلطانُها في وقت ظهورِ سلطانِها. وإلى هذا المعنى يشير كلامُ قتادةَ والضحَّاكِ وعكرمةَ وأبي صالح، واختاره الزمخشريّ[2]؛ ليناسبَ قولَه تعالى: (لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ) ولأنَّ الكلامَ في الآيتين دلَّ عليه قولُه تعالى: (وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى) الآيتان، وآخِراً: (وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ).

وعبَّر بالإدراك أوَّلاً وبالسبق ثانياً ـ على ما في «الكشَّاف»[3] ـ لمناسبة حالِ الشمس من بُطْءِ السَّير وحالِ القمرِ من سرعته. ولم يقل: ولا القمرُ سابقُ الشمس؛

---

(١) ونقله عنه الطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ٢٤-٢٥.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٢٣.

(٣) ٣/ ٣٢٤.

ليؤذنَ ـ على ما قال الطِّيبي ـ بالتعاقب بين الليلِ والنهار، وبنصوصيةِ التدبيرِ على المعاقبة؛ فإنَّه مستفادٌ من الحركة اليوميةِ التي مدارُ تصرُّفِ كلٍّ منهما عليها.

وفي «الكشف»: التحقيقُ أنَّ المقصودَ بيانُ معاقبةِ كلٍّ من الشمس والقمرِ في ترتُّب الإضاءةِ وسلطانِه على الاستقلال، وكذلك اختلافُ الليلِ والنهار، فقيل: «ولا الليل سابق النهار» كنايةً عن سبق آيتِه آيتَه، فحصل الدلالةُ على الاختلاف أيضاً إدماجاً؛ لأنَّها لا تنافي إرادةَ الحقيقة، وجاءَ من ضرورة التقابلِ هذا المعنى في النهار أيضاً من قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ ولمَّا ذُكر مع الشمس الإدراكُ المؤذنُ بأنَّها طالبةٌ للَّحاق، قيل: «لا ينبغي» رعايةً للمناسبة، وجيءَ بالفعل المؤذِن بالتجدُّد، ولمَّا نُفي السبقُ في المقابل، أكِّد ذلك بأنْ جيءَ بالجملة الاسميةِ المحضةِ من دون الابتغاء؛ لأنَّه مطلوبُ اللُّحوق. اهـ.

ولم يُذكر السرُّ في إدخال حرفِ النفي على الشمس دون الفعلِ المؤذِن بصفتها، ويوشك أن يكونَ أخفَى من السُّها[1]، وكأنَّ ذلك ليُستشعرَ منه في المقام الخطابيِّ أنَّ الشمسَ إذا خُلِّيت وذاتَها تكون معدومة، كما هو شأنُ سائرِ الممكنات، وإنَّما يحصل لها ما يحصلُ من عِلَّته التي هي عبارةٌ عن تعلُّق قدرتِه تعالى به على وَفق إرادتِه سبحانه الكاملة، التي لا يأبى عنها شيءٌ من أشياء عالَم الإمكان، ويفيد ذلك في غاية كونِها مسخَّرةً في قبضة تصرُّفِه عزَّ وجلَّ، لا شيءَ فوق تلك المسخَّرية، وفيه تأكيدٌ لما يفيده قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ وردٌّ بليغٌ لمن إليها يُسند التأثير.

وجوِّز أن يكونَ ذلك لإفادة كونِها مسخَّرةً لا يتسهَّل لها إلَّا ما أُريد بها، من حيث إنَّ تقديمَ المسنَدِ إليه على الفعل وجعلَه بعد حرفِ النفي، نحو: ما أنا قلت هذا، و: ما زيدٌ سعى في حاجتك، يُفيد التخصيص، أي: ما أنا قلت هذا بل غيري، و: ما زيدٌ سعى في حاجتك بل غيرُه، على ما حقَّقه علماءُ البلاغة، والمقصودُ من نفي تسهُّل إدراكِ القمرِ في سلطانه عن الشمس، نفيُ أن يتسهَّلَ لها

---

(١) السُّهَا: كوكب خفيٌّ من بنات نعش الصغرى. القاموس (سها).

أن تطمسَ نورَه وتُذهب سلطانَه، ويرجع ذلك إلى نفي قدرتِها على الطمس وإذهابِ السلطان، فيكون المعنى بناءً على قاعدة التقديمِ أنَّ الشمسَ لا تقدر على ذلك، بل غيرُها يقدر عليه، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، وهذا ـ بعد إثباتِ الجَرَيانِ لها بتقدير العزيزِ العليمِ ـ مشعرٌ بكونها مسخَّرةً لا يتسهَّل لها إلَّا ما أُريد بها.

وقال بعضُ الفضلاءِ فيما كتبه على هامش تفسيرِ البيضاويِّ عند قولِه: وإيلاءُ حرفِ النفي الشمسَ للدَّلالة على أنَّها مسخَّرة لا يتيسَّر لها إلَّا ما أُريد بها[1]: وجهُ الدلالةِ أنَّ الإيلاءَ المذكورَ يفيد التخصيص والانبغاء[2] بمعنى الصحةِ والتسهيلِ المساوقَين للاقتدار، فيفيد الكلامُ أنَّ الشمسَ ليس لها قدرةٌ على إدراك القمرِ وسرعةِ المسيرِ التي هي ضدٌّ لحركتها الخاصَّة، بل القدرةُ عليهما لله سبحانه، فهو فاعلٌ لحركتها حقيقة، ولها مجرَّد المحلِّيَّةِ للحركة، فصحَّت الدلالةُ المذكورة.

ثم قال: وتفصيلُ الكلام: أنَّ اللهَ سبحانه ذكر أولاً أنَّ الشمسَ تجري لمستقرٍّ لها إشارةً إلى حركتها الخاصَّة، ثم ذكر سبحانه أنَّه قدَّر القمرَ أيضاً في منازل الشمسِ حتى عاد كالعُرجون القديم، أي: رجع إلى الشَّكل الهلاليّ، وذلك إنَّما يكون عند قُربه إلى الشَّمس ورجوعِه إليها. ولمَّا كان للوهم سبيلٌ إلى أن يتوهَّمَ أنَّ جَريَ الشمسِ وسيرَها وتقديرَ أنوارِ القمرِ وجِرمه المرئي، ممَّا يستند إلى إرادتهما على سبيل إرادتنا التي تتعلَّق تارةً بالشيءِ وأخرى بضدِّه، فيصحُّ ويتيسَّر للنَّيِّرين الأمران كما يصحَّان لنا، وأن يتوهَّمَ أنَّ إسناد أمرِ الشمس والقمرِ إلى التقدير الإلهيِّ من قبيل إسناد أفعالِنا إليه، من حيث إنَّ الإقدارَ والتمكينَ منه تعالى، وأنَّه سبحانه المبدأُ والمنتهَى، إلى غير ذلك من الاعتبارات = نبَّه جلَّ شأنه بالتخصيص المذكورِ على دفع هذا التوهُّم على سبيل التنبيهِ على كون الشيءِ مسخَّراً مضطرّاً في أمره، بسلب اقتدارِه على ضدِّه وإنْ لم يذكر جميعَ أضدادِه، فأشار سبحانه إلى أنَّ الحركةَ السريعةَ المفضيةَ إلى إدراك القمرِ التي هي ضدُّ الحركةِ الخاصَّة للشمس، لا يصحُّ استنادُها إليها، والقدرةُ عليها مختصَّة بغيرها «وهو

---

(١) تفسير البيضاوي ٤/ ١٨٨.

(٢) في (م): الابتغاء.

العزيز العليم» حتى يظهرَ أنَّ وجودَ الحركةِ الخاصةِ لها مستنِدٌ إلى تقديره تعالى وتدبيرِه جلَّ شأنُه، من غير مشاركةٍ للشمس معه سبحانه. ثم أَردف ذلك بحكم القمر، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ فإنَّ الأقربَ كونُ المعنى فيه: ليس لآية الليلِ القدرةُ على أن تسبقَ آيَةَ النهارِ بحيث تفوتها ولا تكونُ لها مراجعةٌ إليها ولحوقٌ بها تنبيهاً على أنَّ تقديرَ القمرِ في المنازل على الوجه المرصودِ الذي يعود به إلى الشَّكل الهلاليِّ الشبيهِ بالعُرجون ويُفضي إلى مقاربةِ الشمس، مستندٌ أيضاً إلى تقديره تعالى وتدبيرِه سبحانه من غير مشاركةٍ للقمر فيه، فالجملتان في قوَّة التأكيدِ للآيتَين السابقتين؛ ولهذا فُصِلتا. اهـ. وفيه دغدغةٌ لا تَخْفَى على ذكيٍّ، فتأمَّل.

وما أَشار إليه من أنَّ معنى «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر» أنَّ الشمسَ لا قدرةَ لها على أن تدركَ القمرَ في سيره لبطءِ حركتِها الخاصَّة وسرعةِ حركته، كذلك قاله غيرُ واحد. وادَّعى النحَّاس[1] أنَّه أظهرُ ما قيل في معناه، وبينه وبين ما تقدَّم من المعنى قربٌ ما، بل قال بعضُهم: الفرقُ بين الوجهَين بالاعتبار. وقال بعضُ مَن ذهب إليه في «ولا الليل سابق النهار»: إنَّ المرادَ أنَّ القمرَ لا يسبق الشمسَ بالحركة اليوميَّة، وهي ما تكون له ـ وكذا لسائر الكواكب ـ بواسطة فلكِ الأَفلاك؛ فإنَّ هذه الحركةَ لا يقع بسببها تقدُّمٌ ولا تأخُّر.

وقيل: المرادُ بقوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ أنَّه لا ينبغي لها أن تُدركَه في آثاره ومنافِعه؛ فإنَّه سبحانه خصَّ كلًّا منهما بآثارٍ ومنافع، كالتلوينِ بالنسبة للقمر، والنُّضجِ بالنسبة للشمس.

وعن الحسن أنَّ المرادَ أنَّهما لا يجتمعان فيما يشاهَد من السماء ليلةَ الهلالِ خاصَّة، أي: لا تبقى الشمسُ طالعةً إلى أن يطلعَ القمر، ولكن إذا غربت طَلَع.

وقال يحيى بنُ سلام: المراد: لا تُدركه ليلةَ البدرِ خاصَّة؛ لأنَّه يبادر المغيبَ قبل طلوعِها.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٥.

وكلا القولَين لا يعوَّل عليهما، ولا ينبغي أن يُلتفتَ إليهما. وقيل في معنى الجملةِ الثانية: إنَّ الليلَ لا يسبق النهارَ ويتقدَّمُ على وقته فيدخلُ قبل مُضِيِّه.

وفي «الدُّر المنثور»(١) عن بعض الأَجِلَّة: أي: لا ينبغي إذا كان ليلٌ أن يكونَ ليلٌ آخَرُ حتى يكونَ النهار. وعليك بما تقدَّم، فهو لَعمري أَقوم.

واستُدلَّ بالآية أنَّ النهارَ سابقٌ على الليل في الخَلْق، روى العيَّاشيُّ في تفسيره بالإسناد عن الأشعث بنِ حاتمٍ قال: كنت بخراسانَ حيث اجتمع الرِّضا ﵁ والمأمونُ والفضلُ بن سهلٍ في الإِيوان بمَرو، فوُضعت المائدة، فقال الرِّضا: إنَّ رجلاً من بني إسرائيلَ سألني بالمدينة فقال: النهارُ خُلِق قبلُ أم الليل؟ فما عندَكم؟ فأرادوا الكلام، فلم يكن عندهم شيء، فقال الفضلُ للرِّضا: أَخبِرنا بها أَصلحك الله تعالى، قال: نَعَم، من القرآنِ أم من الحساب؟ قال له الفضلُ: من جهة الحساب، فقال ﵁: قد علمتَ يا فضلُ أنَّ طالعَ الدنيا السَّرطان، والكواكب في مواضع شرفِها، فزُحَل في الميزان، والمشتري في السَّرطان، والمِرِّيخ في الجدي، والشمسُ في الحَمَل، والزُّهَرة في الحوت، وعُطارِد في السُّنبلة، والقمر في الثَّور، فتكون الشمسُ في العاشر وسْطَ السماءِ، فالنهارُ قبلَ الليل، ومن القرآن قولُه تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: الليلُ قد سبقه النهار(٢). اهـ.

وفي الاستدلال بالآية بحثٌ ظاهر، وأمَّا بالحساب فله وجهٌ في الجملة، ورأيُ المنجِّمين أنَّ ابتداءَ الدورةِ دائرةُ نصفِ النهار، وله موافقةٌ لما ذكر. والذي يغلب على الظنِّ عدمُ صحَّة الخبرِ من مبتدئه، فالرِّضا أجلُّ من أن يستدلَّ بالآية على ما سمعتَ من دعواه.

وفَهِمَ الإمامُ(٣) من قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أنَّ الليلَ مسبوقٌ لا سابق، ومِن قوله سبحانه: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤]

---

(١) ٥/ ٢٦٤.
(٢) ونقله المصنف عن مجمع البيان ٢٣/ ٢٥.
(٣) في التفسير الكبير ٢٦/ ٧٣-٧٤.

أنَّ الليلَ سابق؛ لأنَّ النهارَ يطلبه. وأَجاب عمَّا يلزم عليه من كون الليلِ سابقاً مسبوقاً، بأنَّ المرادَ من الليل هنا آيتُه، وهو القمر، وهو لا يسبق الشمسَ بالحركة اليومية، والمرادَ من الليل هناك نفسُ الليل، وكلٌّ واحدٍ لمَّا كان في عَقِب الآخَر كان طالبَه.

وتعقَّبه أبو حيانَ[1] بأنَّ فيه جعلَ الضميرِ الفاعلِ في «يطلبه» عائداً على النَّهار، وضميرَ المفعولِ عائداً على «الليل»، والظاهرُ أنَّ ضميرَ الفاعلِ عائدٌ على ما هو الفاعلُ في المعنى، وهو الليل؛ لأنَّه كان قبلَ دخولِ همزةِ النقل: يَغشَى الليلُ النهارَ، وضميرَ المفعولِ عائدٌ على «النهار» لأنَّه المفعولُ قبل النقلِ وبعدَه، وحينئذٍ كلتا الآيتين تُفيد أنَّ النهارَ سابق، فلا سؤال. انتهى. فتأمَّل ولا تغفُل.

وقرأ عمَّارُ[2] بن عقيل: «سابقُ» بغير تنوين «النهارَ» بالنصب، قال المبرِّد[3]: سمعتُه يقرأ، فقلت: ما هذا؟ قال: أَردت: سابقٌ النهارَ، بالتنوين، فحذفت لأنَّه أخفّ. وفي «البحر»[4]: حَذَفَ التنوينَ لالتقاءِ الساكنين.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحدٍ من الشمس والقمر؛ إذ هما المذكوران صريحاً، والتنوينُ عِوضٌ عن المضاف إليه، وقدَّره بعضُهم ضميرَ جمعِ العقلاء؛ ليوافقَ ما بعد، أي: كلُّهم. وقدَّره آخَرُ اسمَ إشارة، أي: كلُّ ذلك، أي: المذكورِ: الشمسِ والقمر ﴿فِي فَلَكٍ﴾ هو كما قال الراغبُ مَجرى الكوكب، سمِّي به لاستدارته كفَلْكة المِغزَل، وهي الخشبةُ المستديرة في وسَطه، وفَلْكةِ الخيمة، وهي الخشبةُ المستديرةُ التي توضع على رأس العمودِ لئلَّا تتمزَّقَ الخيمة.

﴿يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: يسيرون فيه بانبساط، وكلُّ مَن بسط في شيءٍ فهو يسبح

---

(١) في البحر ٧/ ٣٣٧-٣٣٨.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: عمارة، وهو عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية الخطفي اليربوعي، يكنى أبا عقيل، شاعر فصيح، واسع العلم. مات سنة (٣٠٠هـ). معجم الشعراء للمرزباني ص ٧٨، وتاريخ بغداد ١٢/ ٢٨٢.

(٣) في الكامل ١/ ٣٢٨. والقراءة في القراءات الشاذة ص ١٢٥، والبحر ٧/ ٣٣٨.

(٤) ٧/ ٣٣٨.

فيه، ومنه السِّباحةُ في الماء، وهذا المجرَى في السماء. ولا مانعَ عندنا أن يجريَ الكوكبُ بنفسه في جوف السماءِ وهي ساكنةٌ لا تدور أصلاً، وذلك بأن يكونَ فيها تجويفٌ مملوءٌ هواء، أو جسماً آخَرَ لطيفاً مثلَه، يجري الكوكبُ فيه جَرَيانَ السمكةِ في الماء، أو البندقةِ في الأنبوب المستديرِ مثلاً، أو تجويفٌ خالٍ من سائر ما يَشغله من الأجسام، يجري الكوكبُ فيه، أو بأن تكونَ السماءُ بأسرها لطيفة، أو ما هو مجرَى الكوكبِ منها لطيفاً، فيشقُّ الكوكبُ ما يحاذيه ويجري كما تجري السمكةُ في البحر، أو في ساقيةٍ منه وقد انجمد سائرُه.

وانقطاعُ كرةِ الهواءِ عند كرةِ النارِ المماسَّة لمقعَّر فلكِ القمرِ عند الفلاسفة، وانحصارُ الأجسامِ اللطيفةِ بالعناصر الثلاثة، وصلابةُ جِرم السماءِ وتساوي أجزائها، واستحالةُ الخَرقِ والالتئامِ عليها، واستحالةُ وجودِ الخَلاء = لم يتمَّ دليلٌ على شيءٍ منه، وأقوى ما يُذكر في ذلك شبهاتٌ أوهنُ من بيت العنكبوت، وإنَّه - وربِّ السماء - لأوهنُ البيوت.

ويجوز أن يكونَ الفلكُ عبارةً عن جسمٍ مستدير، ويكونَ الكوكبُ فيه يجري بجريانه في ثِخَن السماءِ من غير دورانٍ للسماء، ولا مانعَ من أن يعتبرَ هذا الفلكُ لبعض الكواكبِ الفلكَ الكلِّي، ويكونَ فيه نحوُ ما يُثبته أهلُ الهيئةِ لضبط الحركاتِ المختلفةِ من الأفلاك الجزئية، لكن لا يضطرُّ إلى ذلك بناءً على القواعد الإسلاميةِ كما لا يخفَى، إلَّا أنَّ في نسبة السَّبحِ إلى الكوكب نوعَ إباءٍ بظاهره عن هذا الاحتمال.

وفي كلام الأئمَّة من الصَّحابة وغيرِهم إيماءٌ إلى بعضِ ما ذكرنا، أخرج ابن جَرير[(١)]، وابنُ أبي حاتم، وأبو الشَّيخ في «العَظَمة»[(٢)] عن ابن عباسٍ أنَّه قال في الآية: «كل في فلك»: فَلكة كفلكة المِغزل، «يَسْبَحون» يدورون في أبواب السماءِ كما تدور الفلكةُ في المِغزَل. وأخرج الأخيران عن مجاهدٍ أنَّه قال: لا يدور

---

(١) في تفسيره ١٩/ ٤٤٠-٤٤١.

(٢) برقم (٦٥٤).

المغزلُ إلَّا بالفَلكة، ولا تدور الفَلكةُ إلَّا بالمغزل، والنجومُ في فَلكةٍ كفلكة المِغزل، فلا يَدُرن إلَّا بها، ولا تدور إلَّا بهنّ(١).

وفي «الفتوحات المكِّية»(٢) للشيخ الأكبرِ قدِّس سرُّه: جعل اللهُ تعالى السماواتِ ساكنة، وخلق فيها سبحانه نجوماً، وجعل لها في عالَم سيرِها وسباحتِها في هذه السماواتِ حركاتٍ مقدَّرةً لا تزيد ولا تنقص، وجعلها عاقلةً سامعةً مطيعة، وأوحى في كلِّ سماءٍ أمرَها، ثم إنَّه عزَّ وجلَّ لمَّا جعل السباحةَ للنُّجوم في هذه السماوات، حَدَثت لسيرها طرق، لكلِّ كوكبٍ طريق، وهو قولُه تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات:٧] فسمِّيت تلك الطرقُ أفلاكاً، فالأفلاكُ تحدث بحدوث سيرِ الكواكب، وهي سريعةُ السيرِ في جِرم السماءِ الذي هو مساحتُها، فتخرق الهواءَ المماسَّ لها، فيحدث لسيرها أصواتٌ ونغماتٌ مطرِبة؛ لكون سيرِها على وزنٍ معلوم، فتلك نغماتُ الأفلاكِ الحادثة من قَطْعِ الكواكبِ المسافاتِ السَّماوية، فهي تجري في هذه الطرقِ بعادةٍ مستمرَّة، قد عُلِم بالرصد مقاديرُ ودخولُ بعضِها على بعضٍ في السَّير، وجُعِل سيرُها للناظرين بين بطءٍ وسرعة، وجعل سبحانه لها تقدُّماً وتأخُّراً في أماكنَ معلومةٍ من السماء، تعيِّنها أجرامُ الكواكبِ لإضاءتها دونَها. إلى آخر ما قال.

وقال الإمام(٣): إنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على أن يجعلَ الكوكبَ بحيث يشقُّ السماءَ فيجعل دائرةً متوهَّمة، كما لو جرت سمكةٌ في الماء على الاستدارة، وهذا هو المفهومُ من قوله تعالى: (فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) والظاهرُ أنَّ حركةَ الكوكبِ على هذا الوجه. وأربابُ الهيئةِ أَنكروا ذلك؛ للزوم الخرقِ والالتئامِ إن انشقَّ موضعُ الجري والْتَأَم، أو الخلاءِ إن انشقَّ ولم يلتئم، والكلُّ محالٌ عندهم، وعندنا لا محاليةَ في ذلك، وما يلزم هنا الخرقُ والالتئام؛ لأنَّه المفهومُ من «يَسبحون»، ولا دليلَ لهم على الاستحالةِ فيما عدا المحدد، وهو هناك شبهةٌ ضعيفةٌ لا دليل.

---

(١) العظمة (٦٨٥) بنحوه.

(٢) ٣/٤١٦.

(٣) في التفسير الكبير ٢٦/٧٦.

وظاهرُ الآيةِ أنَّ كلَّ واحدٍ من النَّيِّرين في فلك، أي: في مجرًى خاصٍّ به، وهذا ممَّا يشهد به الحِسّ، وذهب إلى نحوه فلاسفةُ الإسلامِ كغيرهم من الفلاسفة، بيدَ أنَّهم يقولون باتِّحاد الفلكِ والسماء، ولمَّا سمعوا عمَّن قبلهم أنَّ كلًّا من السَّبع السيَّارةِ في فلك، وكلَّ الكواكبِ الثوابتِ في فلك، وفوقَ كلٍّ ذلك فلكٌ يحرِّك الجميعَ من المشرق إلى المغرب، ويسمَّى: فلكَ الأفلاك؛ لتحريكه إيَّاها، و: الفلكَ الأعظم؛ لإحاطته بها، و: الفلكَ الأطلس؛ لأنَّه كاسمه غيرُ مكوكب، وسمعوا عن الشَّارع ذِكرَ السماواتِ السبعِ والكرسيِّ والعرش = أَرادوا أن يطبِّقوا بين الأمرين، فقالوا: السماواتُ السبعُ في كلام الشارعِ هي الأفلاكُ السبعةُ في كلام الفلاسفة، فلكلٍّ من السيَّارات سماءٌ من السماوات، والكرسيُّ هو فلكُ الثوابت، والعرشُ هو الفلكُ المحرِّك للجميع المسمَّى بـ: فلك الأفلاك.

وقد أخطؤوا في ذلك، وخالفوا سلفَ الأمةِ فيه، فالفلكُ غيرُ السماء، وقولُه تعالى مع ما هنا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥-١٦] لا يدلُّ على الاتِّحاد؛ لمَا قلنا من أنَّ الكوكبَ في الفلك، والفلكَ في السماء، فيكون الكوكبُ فيها بلا شبهة، فلا يحوج الجمعُ إلى القولِ بالعينية.

ولم يقم دليلٌ على كُرية العرش، بل ظاهرُ ما ورد في الأخبار من أنَّ له قوائمَ يدلُّ على عدم الكرية، نعم وَرَدَ ما يدلُّ بظاهره أنَّه مقبَّب، وهذا شيءٌ غيرُ ما يزعمونه فيه.

وكذا الكرسيّ، لم يدلَّ دليلٌ على كريَّته كما يزعمون، ومع هذا ليس عندهم دليلٌ تامٌّ على كون الثوابتِ كلِّها في فلك، فيجوز أن تكونَ في أفلاك، كممثَّلاتٍ كلها فوق زُحَل، أو بعضُها فوقه وبعضُها بين أفلاكِ العلوية، وهي لا تَكسِف الثوابتَ التي عروضُها أكثرُ من عروضها، ولا لها اختلافُ منظرٍ ليعرفَ بأحد الوجهين كونُ الجميعِ فوق العلويةِ أو كتداوير، ولا يلزم اختلافُ أبعادٍ بعضِها من بعض؛ لجواز تساوي أَجرامِ التداويرِ وحركاتها، ولا اختلافُ حركاتِها بالسرعة والبطءِ للبُعد والقُرب، وموافقةِ الممثَّل ومخالفتِه؛ لأنَّا لا نسلِّم أنَّ حركاتِها لا تختلف بذلك المقدار، ولا اختلافُ أبعادِها من الأرض؛ لأنَّها غيرُ محقَّقة.

ويجوز أيضاً أن تكونَ كلُّها مركوزةً في محدَّب ممثَّل زُحَل، على أنَّه يتحرَّك الحركةَ البطيئةَ والمعدَّل الحركة السريعة. وأيضاً يجوز أن يكونَ فيما سمَّوه الفلكَ الأطلسَ كواكبُ لا تُرى لصغرها جدّاً، أو تُرى وهي سريعةُ الحركة، ولم يُرصَد كلُّ كوكبٍ ليتحقَّقَ بطءُ حركةِ الجميع، وأيضاً يجوز أن تكونَ السياراتُ أكثرَ من سبع، فيحتاج إلى أزيدَ من سبع سماوات، ويقرِّب هذا ظَفَرُ أهلِ الأرصاد الجديدةِ بكوكبٍ سيَّارٍ غيرِ السبع سمَّوه باسم مَن ظَفِرَ به وأدركه، وهو: هرشل[1].

وبالجملة، لا قاطعَ فيما قالوه، وللشَّيخ الأكبرِ قدِّس سرُّه في هذا البابِ كلامٌ آخَرُ مبناه الكشف، وهو أنَّ العرشَ الذي استوى الرحمنُ سبحانه عليه سريرٌ ذو أركانٍ أربعة، ووجوهٍ أربعةٍ هي قوائمُه الأصلية، وهي على الماء الجامد، وفي جوفه الكرسيّ، وهو على شكله في التربيع لا في القوائم، ومقرُّه على الماء الجامدِ أيضاً، وبين مقعَّر العرشِ وبينه فضاءٌ واسع وهواءٌ مخترق، وفي جوف الكرسيِّ خلق اللهُ تعالى الفلكَ الأطلس، جسماً شفَّافاً مستديراً مقسَّماً إلى اثني عشرَ قسماً، هي البروجُ المعروفة، وفي جوفه الفلكُ المكوكب، وما بينهما الجنَّات، وبعد أن خلق اللهُ تعالى الأرَضين واكتسى الهواءُ صورةَ الدخان، خلق اللهُ سبحانه السماواتِ السَّبع، وجعل في كلٍّ منها كوكباً، وهي الجواري[2].

وزعم الخفاجيُّ[3] أنَّ المرادَ بالفلك في الآية الفلكُ الأعظم؛ لأنَّ الشمسَ والقمر ـ وكذا سائرُ الكواكب ـ تتحرَّك بحركته، فالسباحةُ عنده عبارةٌ عن الحركة القَسْرية. وفي القلب من ذلك شيء.

ثم ـ على ما هو الظاهرُ من أنَّ لكلٍّ واحدٍ فلكاً يخصُّه ـ ذهبوا إلى أنَّ فلكَ الشمسِ فوق فلكِ القمر؛ لمَا أنَّه يكسفها، والمكسوفُ فوق الكاسفِ

---

(١) وليم هرشل (١٧٣٨-١٨٢٢م) فلكي إنكليزي من أصل ألماني. ينظر المنجد في الأعلام ص٧٢٧.

(٢) الفتوحات المكية ٣/ ٤٣١-٤٣٣.

(٣) في حاشيته ٧/ ٢٤٤.

ضرورةً، وذكر معظمُ أهلِ الهيئةِ أنَّ الفلكَ الأدنَى فلكُ القمر، وفوقه فلكُ عطارد، وفوقه فلكُ الزُّهَرة، وفوقه فلكُ الشمس، وفوقه فلكُ المِرِّيخ، وفوقه فلكُ المشتري، وفوقه فلكُ زُحَل. واستدلُّوا على بعضِ ذلك بالكسف، وعلى بعضه الآخَر بأنَّ فيه حُسنَ الترتيبِ وجَودةَ النظام. ولا مانعَ فيما أرى من القول بذلك، لكن لا على الوجهِ الذي قال به أهلُ الهيئةِ من كون السماوات هي الأفلاكَ الدائرة، بل على وجهٍ يتأتَّى معه القولُ بسكون السماواتِ ودورانِ الكواكبِ في أَفلاكها ومجاريها بعضِها فوقَ بعض، وقد مرَّ لك ما ينفعك في هذا المقامِ فراجعْه.

وجوِّز كونُ ضميرِ «يسبحون» عائداً على الكواكب، ويُشعر بها ذِكرُ الشمسِ والقمرِ والليلِ والنهار، ورجِّح على الأوَّل بأنَّ الإتيانَ بضمير الجمعِ عليه ظاهرٌ لا يحتاج إلى تكلُّف، بخلافه على الأوَّل، فإنَّه مُحوِجٌ إلى أن يقال: اختلافُ أحوالِ الشمسِ والقمرِ في المطالع وغيرِها نزِّل منزلةَ تعدُّد أفرادِهما، فكان المرجعُ شموساً وأقماراً.

وظنِّي أنَّه لا يحتاج إلى ذلك، بناءً على أنَّه قد يُعتبر الاثنان جمعاً، أو بناءً على ما قال الإمامُ[1] من أنَّ لفظَ «كلّ» يجوز أن يوحَّدَ نظراً إلى لفظه، وأن يُجمعَ نظراً إلى كونِه بمعنى الجميع، وأمَّا التثنيةُ فلا يدلُّ عليها اللفظُ ولا المعنى، قال: فعلى هذا يَحسُن أن يقال: زيدٌ وعَمرٌو كلٌّ جاء، و: كلٌّ جاؤوا، ولا يَحسُن: كلٌّ جاءا، بالتثنية.

واستُدلَّ بالإتيان بضمير جمعِ العقلاءِ على أنَّ الشمسَ والقمرَ من ذوي العقول. وأُجيب بأنَّ ذاك لِمَا أنَّ المسنَدَ إليهما فعلُ ذوي العقول، كما في قوله تعالى في حقِّ الأصنام: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات: ٩٢] وقولِه سبحانه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩١]. والظواهرُ غيرَ ما ذُكر مع المستدلِّين.

واستَدلَّ بالآية بعضُ فلاسفةِ الإسلامِ القائلين باتِّحاد السماءِ والفلكِ على

---

(١) في التفسير الكبير ٢٦/ ٧٥.

استدارةِ السماءِ، وجعلوا من اللطائفِ فيها أنَّ «كلٌّ في فلك» لا يستحيل بالانعكاس، نحو: كلامُك كمالُك، و: سِرْ فلا كبا بكَ الفرس، وقالوا: لا يعكِّر على ذلك أنَّه سبحانه سمَّاها سقفاً في قوله عزَّ قائلاً: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ [الطور: ٥] لأنَّ السقفَ المقبَّبَ لا يخرج عن كونِه سقفاً بالتقبيب.

وأنت تعلم أنَّ السماواتِ غيرُ الأفلاك، ومع هذا أقول باستدارة السماواتِ كما ذهب إليه بعضُ السلف، وبعضُ ظواهرِ الأخبار يقتضي أنَّها أنصافُ كرات، كلُّ سماءٍ نصفُ كرة، كالقبَّة على أرضٍ من الأَرَضين السبع، وإليه ذهب الشيخُ الأكبر(١)، وقال بالاستدارة لفلك المنازلِ دون السماواتِ السَّبع، وادَّعى أنَّ تحت الأَرَضينَ السبعِ التي على كلٍّ منها سماءٌ ماءً، وتحته هواءٌ، وتحته ظُلمة، وعليه فليُتأمَّل في كيفية سيرِ الكوكبِ بعد غروبِه حتى يطلع.

ثم إنَّ الفلاسفةَ الذاهبين إلى استدارة السماءِ تمسَّكوا في ذلك بأدلَّة، أقربُها - على ما قيل - دليلان:

الأوَّل: أنَّا متى قصدنا عدةَ مساكنَ على خطٍّ واحدٍ من عرض الأرض، وحصَّلنا الكواكبَ المارَّةَ على سَمت رأسٍ في كلٍّ واحدةٍ منها، ثم اعتبرنا أَبعادَ ممرَّات تلك الكواكبِ في دائرة نصفِ النهارِ بعضِها من بعض، وجدناها على نِسَب المسافاتِ الأرضيةِ بين تلك المساكن، وكذلك وجدنا ارتفاعَ القطبِ فيها متفاضلاً بمثل تلك النِّسب، فتحدُّب السماءِ في العرض مشابهٌ لتحدُّب الأرضِ فيه، لكنَّ هذا التشابهَ موجودٌ في كلِّ خطٍّ من خطوط العرض، وكذا في كلِّ خطٍّ من خطوط الطول، فسطحُ السماءِ بأسْره موازٍ لسطح الظاهرِ من الأرض بأسره، وهذا السطحُ مستديرٌ حسّاً، فكذا سطحُ السماءِ الموازي له.

والثاني: أنَّ أصحابَ الأرصادِ دوَّنوا في كتبهم مقاديرَ أجرامِ الكواكب، وأبعاد ما بينها في الأماكن المختلفةِ في وقتٍ واحد كما في أَنصاف نهارِ تلك

---

(١) انظر الفتوحات المكية ٣/ ٤٣٩.

الأماكنِ مثلاً متساوية، وهذا يدلُّ على تساوي أبعادِ مراكزِ الكواكبِ عن مناظر الإبصار المستلزمِ لتساوي أبعادِها عن مركز العالم؛ لاستدارة الأرضِ المستلزمِ لكون جِرم السماءِ كُرَيّاً.

ونوقش في هذا بأنَّه إنَّما يصحُّ أنْ لو كان الفلكُ ساكناً والكوكبُ متحرِّكاً، إذ لو كان الفلكُ متحرِّكاً، جاز أن يكونَ مربَّعاً، وتكون مساواةُ أبعادِ مراكز الكواكبِ عن مناظر الإبصارِ وتساوي مقادير الأجرامِ للكواكب حاصلة.

وفي الأوَّل بأنَّه إنَّما يصحُّ لو كان الاعتبارُ المذكورُ موجوداً في كلِّ خطٍّ من خطوط الطولِ والعرض. ولا يخفَى جَرَيانُ كلٍّ من المناقشتين في كلٍّ من الدليلين، ولهم غيرُ ذلك من الأدلَّة مذكورةٌ ـ بما لها وعليها ـ في مطوَّلات كتبِهم.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: أولادَهم. قال الراغب[1]: الذرِّيةُ أصلُها الصِّغار من الأولاد، ويقع في التعارفِ على الصِّغار والكبار معاً، ويُستعمل للواحد والجمع، وأصلُه للجمع، وفيه ثلاثةُ أقوال: فقيل: هو مِن: ذرأَ اللهُ الخَلْق، فتُرك همزتُه، نحو: بَرِيَّة ورَوِيَّة. وقيل: أصله: ذُرْوِيَّة. وقيل: هو فُعْلِيّة من الذرّ، نحو: قُمْرِيَّة[2].

واستظهر حملَه على الأولاد مطلقاً أبو حيَّان[3]، وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يُحملَ على الكبار؛ لأنَّهم المبعوثون للتجارة، أي: حملناهم حين يبعثونهم للتِّجارة ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السفينة، سمِّيت بذلك ـ على ما في «مَجمَع البيان»[4] ـ لأنَّها تدور في الماء ﴿ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ أي: المملوء.

وقيل: هو مستعملٌ على أصله، وهم الأولادُ الصِّغار الذين يستصحبونهم.

---

(١) في المفردات (ذرو).

(٢) هو ضرب من الحمام. القاموس (قمر).

(٣) في البحر المحيط ٧/ ٣٣٨.

(٤) ٢٣/ ٢٧.

وقيل: المرادُ به النساء؛ فإنَّه يُطلَق عليهنّ. وفي الحديث أنَّه عليه الصلاة والسلام نهى عن قتل الذَّراري، وفسِّر بالنساء[1].

وفي «الفائق»: قال حنظلةُ الكاتب: كنَّا في غَزاةٍ عند رسولِ الله ﷺ، فرأى امرأةً مقتولة، فقال: «هاه، ما كانت هذه تقاتِل، اِلحقْ خالداً وقل: لا تقتلنَّ ذُرِّيةً ولا عسيفاً» وهي نسلُ الرجل، وأُوقعت على النساءِ كقولهم للمطر: سماء[2]. ويراد بالنِّساء: اللاتي يستصحبونهنّ.

وتخصيصُ الذريةِ على هذين القولَين بالذِّكر؛ لأنَّ استقرارَهم وتماسكَهم في الفُلك أعجب.

وقيل: تُطلق الذريةُ على الآباءِ وعلى الأَبناء، قاله أبوعثمان. وتعقَّبه ابنُ عطيةَ[3] بأنَّه تخليطٌ لا يُعرف في اللغة.

وقيل: الذرِّية: النُّطَف، والفُلكُ المشحونُ: بطونُ النساء. ذكره الماوردي، ونسب إلى عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه[4]. والظاهرُ أنَّه لم يصحَّ ذلك عنه ﷺ، وفي الآية ما يُبعده، وهو أشبهُ شيءٍ بتأويلات الباطنية.

والمرادُ بالفُلك جنسُه، والوصفُ بالمشحون أقوَى في الامتنانِ بسلامتهم فيه، وقيل: لأنَّه أبعدُ من الخطر. وإرادةُ الجنس مرويةٌ عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ والسُّدِّي.

وفسِّر ما في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ عليه بالإبل؛ فإنَّها سفائنُ البرِّ، لكثرة ما تحمل وقِلَّةِ كَلالِها في المسير، وإطلاقُ السفائنِ عليها شائع، كما قيل:

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٤، وينظر التعليق الآتي.

(٢) الفائق ٢/ ٧، والحديث أخرجه النسائي في الكبرى (٨٥٧٣)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، وأحمد (١٧٦١٠) من حديث حنظلة الكاتب ﷺ. وأخرجه النسائي (٨٥٧١) و(٨٥٧٢)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، وأحمد (١٥٩٩٢) من حديث رباح بن الربيع ﷺ.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٥، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٣٣٨.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ١٩.

سـفـائـن بَـرٍّ والـسـرابُ بـحـارُهـا[١]

ورُوي ذلك عن الحسن وعبدِ الله بنِ شدَّاد.

وفسَّره مجاهدٌ بالأنعام، الإبلِ وغيرِها.

وعن أبي مالكٍ وأبي صالحٍ وغيرِهما ـ وهي روايةٌ عن ابن عباس أيضاً ـ أنَّ المرادَ بالفُلك سفينةُ نوحٍ عليه السلام، على أنَّ التعريفَ للعهد، فـ «ما» عبارةٌ عما سمعتَ أيضاً عن بعض، وعند آخَرين هي السفنُ والزوارقُ التي كانت بعد تلك السفينة.

واستُشكل حملُ ذريَّتهم في سفينة نوحٍ عليه السلام. وأُجيب بأنَّ ذلك بحمل آبائهم الأقدمين وفي أصلابهم هؤلاء وذريَّتُهم، وتخصيصُ الذريةِ مع أنَّهم محمولون بالتبع؛ لأنَّه أبلغُ في الامتنان حيث تضمَّن بقاءَ عقبِهم، وأدخلُ في التعجُّب ظاهراً، حيث تضمَّن حملَ ما لا يكاد يُحصى كثرةً في سفينةٍ واحدةٍ مع الإيجاز؛ لأنَّه كان الظاهرُ أن يقال: حملناهم ومَن معهم ليبقى نسلُهم، فذِكرُ الذرِّية يدلُّ على بقاءِ النسل، وهو يستلزم سلامةَ أصولِهم، فدلَّ بلفظ قليلٍ على معنًى كثير.

وقال الإمام[٢]: يحتمل عندي أنَّ التخصيصَ لأنَّ الموجودين كانوا كفَّاراً لا فائدةَ في وجودهم، أي: لم يكن الحملُ حملاً لهم، وإنَّما كان حملاً لما في أَصلابهم من المؤمنين.

وقيل: الكلامُ على حذفِ مضاف، أي: حملنا ذرياتِ جنسِهم. وهو كما ترى.

وقيل: ضميرُ «لهم» لأهل مكَّة، وضميرُ «ذريتهم» للقرون الماضيةِ الذين هم منهم، وحُكي ذلك عن عليِّ بن سليمان، وليس بشيءٍ.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٤٤.

(٢) في التفسير الكبير ٢٦/ ٧٩.

وجوَّز الإمام كونَ الضميرَين للعباد في قوله تعالى: (يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ) ولا يكون المرادُ في كلٍّ أشخاصاً معيَّنين، بل ذلك على نحو: هؤلاء القومُ هم قتلوا أنفسَهم، على معنى: قتل بعضُهم بعضاً، فالمعنى: آيةٌ لكلٍّ بعضٍ منهم أنَّا حملنا ذريةَ كلٍّ بعضٍ منهم، أو: ذرِّيَّةَ بعضٍ منهم. وفيه من البُعد ما فيه.

ورجِّح تفسيرُ «ما» بالإبل ونحوِها من الأنعام دون السُّفنِ بأنَّ المتبادرَ من الخلق الإنشاءُ والاختراع، فيبعد أن يتعلَّقَ بما هو مصنوعُ العباد. وتُعقِّب بأنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ لله تعالى عند أهلِ الحقّ، وتبادُرُ الإنشاءِ ممنوع، وعليه يكون في الآية ردٌّ على المعتزلة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] على تقدير كونِ «ما» موصولة.

و«من» تحتمل أن تكونَ للبيان، وأن تكونَ للتبعيض. وجوِّز زيادتُها على نظر الأخفشِ ورأيه. والظاهرُ أنَّ ضميرَ «لهم» الثانيَ عائدٌ على ما عاد عليه ضميرُ الأوَّل، وجوِّز عودُه على الذرِّية، وجوِّز أيضاً عودُ ضميرِ «مثله» على معلومٍ غيرِ مذكور، تقديرُه: مِن مثل ما ذكرنا من الملخوقاتِ في قوله سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [يس:٣٦] وهو أبعدُ من العَيُّوق[1].

وأيّاً ما كان، فلا يخفَى مناسبةُ هذه الآيةِ لقوله تعالى: (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ) وإنَّما لم يؤتَ بها على أُسلوب أخواتها بأن يقال: وآيةٌ لهم الفلكُ حملنا ذريَّتَهم فيه، كما قال سبحانه: (وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا)، (وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ) لأنَّه ليس الفلكُ نفسُه عجباً، وإنَّما حملُهم فيه هو العجب.

وقرأ نافعٌ، وابنُ عامر، والأعمش، وزيدُ بن عليّ، وأبانُ بن عثمان: «ذُرِّيَّاتِهم» بالجمع، وكَسَرَ زيدٌ وأبانُ الذالَ[2].

---

(١) نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن. القاموس (عوق).

(٢) البحر ٧/٣٣٨، وقراءة نافع وابن عامر في التيسير ص ١٨٤، والنشر ٢/٢٧٣، وقراءة أبان في القراءات الشاذة ص ١٢٥.

﴿وَإِن نَّشَأْ﴾ إغراقَهم ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ في الماءِ مع ما حملناهم فيه من الفُلكِ وما يركبون من السُّفن والزَّوارق. فالكلامُ من تمام ما تقدَّم، فإنْ كان المرادُ بما هناك السفنَ والزوارق، فالأمرُ ظاهر، وإنْ كان المرادُ بها الإبلَ ونحوَها، كان الكلامُ من تمام صدرِ الآية، أي: نُغرقهم مع ما حملناهم فيه من الفُلك، وكان حديثُ خلقِ الإبل ونحوِها في البين استطراداً للتماثل، ولِمَا في ذلك من نوعِ بُعدٍ قيل: إنَّ قولَه سبحانه: (وَإِن نَّشَأْ) إلخ يرجِّح حملَ «الفلك» على الجنس، و«ما» على السفن والزوارقِ الموجودةِ بين بني آدمَ إلى يومِ القيامة.

وفي تعليق الإغراق بمحض المشيئةِ إشعارٌ بأنَّه قد تكامل ما يستدعي إهلاكَهم من معاصيهم، ولم يبقَ إلَّا تعلُّق مشيئتِه تعالى به. وقيل: إنَّ في ذلك إشارةً إلى الردِّ على مَن يتوهَّم أنَّ حملَ الفلكِ الذريةَ من غير أن يغرقَ أمرٌ تقتضيه الطبيعة، ويستدعيه امتناعُ الخلاء.

وقرأ الحسن: «نُغرِّقهم» بالتشديد(١).

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: فلا مغيثَ لهم يحفظُهم من الغرق. وتفسيرُ الصريخِ بالمغيث مرويٌّ عن مجاهدٍ وقتادة، ويكون بمعنى الصَّارخ، وهو المستغيثُ، ولا يراد هنا، ويكونُ مصدراً كالصُّراخ، ويتجوَّز به عن الإغاثة؛ لأنَّ المستغيثَ ينادي مَن يستغيث به، فيصرخ له ويقول: جاءك العونُ والنصر، قال المبرِّد في أوَّل «الكامل»: قال سلَامةُ بن جَندَل:

كنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ   كان الصُّراخُ له فزْعَ المطانيبِ(٢)

يقول: إذا أتانا مستغيثٌ كانت إغاثتُه الجدَّ في نُصرته. وجوِّز إرادتُه هنا، أي: فلا إغاثةَ لهم.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٥، والبحر ٧/ ٣٣٩.

(٢) الكامل ١/ ٣، والديوان ص ١٢٥ وفيهما: قرع الظنابيب. وجاء في هامش الأصل عند كلمة المطانيب: لعله جمع مطناب: الجيش العظيم. اهـ منه.
قال المبرد: يقال: قرع لذلك الأمر ظنبوبه: إذا جدَّ فيه ولم يفتر، والظنبوب: مقدم عظم الساق.

﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: ينجون من الموت به بعدَ وقوعِه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا﴾ استثناءٌ مفرَّغ من أعمِّ العللِ الشاملةِ للباعث المتقدِّم والغايةِ المتأخِّرة، أي: لا يغاثون ولا يُنقذون لشيءٍ من الأشياء، إلَّا لرحمة عظيمةٍ من قِبَلنا داعيةٍ إلى الإغاثة والإنقاذ، وتمتيعٍ بالحياة مترتِّبٍ عليهما. ويجوز أن يرادَ بالرحمة ما يقارن التمتيعَ بالحياة الدُّنيوية، فيكون كلاهما غايةً للإغاثة والإنقاذ، أي: لنوعٍ من الرَّحمة وتمتيع، وإلى كونه استثناءً مفرَّغاً ممَّا يكون مفعولاً لأجله ذهبَ الزجَّاجُ(١) والكِسائي.

والاستثناءُ على ما يقتضيه الظاهرُ متصل. وقيل: الاستثناءُ منقطعٌ، على معنى: ولكن رحمةٌ منَّا ومتاعٌ يكونان سبباً لنجاتهم. وليس بذاك.

وجوِّز أن يكونَ النصبُ بتقدير الباء، أي: إلَّا برحمةٍ ومتاع، والجارُّ متعلِّق بـ: «يُنقَذُون»، ولمَّا حُذف انتصب مجرورُه بنزع الخافض.

وقيل: هو على المصدرية لفعلٍ محذوف، أي: إلَّا أن نرحمَهم رحمةً ونمتِّعَهم تمتيعاً. ولا يخفَى حالُه، وكذا حالُ ما قبلَه.

﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: إلى زمانٍ قدِّر فيه ـ حسبما تقتضيه الحِكمة ـ آجالُهم، ومن هنا أخذ أبو الطيِّب قولَه:

ولـم أَسـلَـمْ لـكـي أبـقَـى ولـكـن   سَلِمتُ من الحِمَام إلى الحِمَامِ(٢)

والظاهرُ أنَّ المحدَّث عنه مَن يشاء اللهُ تعالى إغراقَهم. وقال ابنُ عطية(٣): إنَّ «فلا صريخ لهم» إلخ استئنافُ إخبار عن المسافرين في البحر، ناجين كانوا أو مُغرَقين، أي: لا نجاةَ لهم إلَّا برحمة اللهِ تعالى، وليس مربوطاً بالمغرَقين، وقد يصحُّ ربطُه به، والأوَّل أحسن، فتأمَّله. اهـ. وقد تأمَّلناه فوجدناه لا حُسنَ فيه، فضلاً عن أن يكونَ أحسن. والفاءُ ظاهرةٌ في تعلُّق ما بعدَها بما قبلها.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٨٩.

(٢) الديوان ٤/ ٢٧٩. وصدره فيه: وإن أسلم فما أبقى ولكن.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٥.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ إلخ بيانٌ لإعراضهم عن الآياتِ التنزيلية، بعد بيانِ إعراضهم عن الآيات الآفاقيةِ التي كانوا يشاهدونها وعدمِ تأمُّلهم فيها، أي: إذا قيل لأهل مكةَ بطريق الإنذار بما نزل من الآياتِ أو بغيره: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ قال قتادةُ ومقاتل: أي: عذابَ الأممِ التي قبلكم. والمرادُ: اتقوا مثلَ عذابِهم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: عذابَ الآخرة.

وقال مجاهدٌ ـ في رواية ـ عكسَ ذلك. وجاء عنه في روايةٍ أخرى: «ما بين أيديهم»: ما تقدَّم من ذنوبهم، و«ما خلفَهم»: ما يأتي منها. وعن الحسن مِثلُه.

وقيل: «ما بين أيديهم»: نوازلُ السماء، و«ما خلفهم» نوائبُ الأرض.

وقيل: «ما بين أيديهم»: المكارهُ من حيث يحتسبون، و«ما خلفهم»: المكارهُ من حيث لا يحتسبون.

وحاصلُ الأمرِ على ما قيل: اتَّقوا العذاب، أو: اتَّقوا ما يترتَّب العذابُ عليه.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ حالٌ من واو «اتَّقوا»، أو غايةٌ له، أي: راجين أن تُرحَموا، أو: كي تُرحموا. وفسِّرت الرحمةُ بالإنجاءِ من العذاب.

وجواب «إذا» محذوف، ثقةً بانفهامه من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ انفهاماً بيِّناً، أمَّا إذا كان الإنذارُ بالآية الكريمة، فبعبارة النصّ، وأمَّا إذا كان بغيرها، فبدَلالته؛ لأنَّهم حين أعرضوا عن آيات ربِّهم، فلأَن يُعرضوا عن غيرها بطريق الأولى، كأنه قيل: وإذا قيل لهم: اتَّقوا العذابَ، أو: اتَّقوا ما يوجبه، أَعرضوا؛ لأنَّهم اعتادوه وتمرَّنوا عليه. و«ما» نافية، وصيغةُ المضارعِ للدَّلالة على الاستمرار التجدُّدي، و«مِن» الأُولى مزيدةٌ لتأكيد العموم، والثانيةُ تبعيضيةٌ متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «آية».

وإضافةُ الآياتِ إلى اسم الربِّ المضافِ إلى ضميرهم لتفخيم شأنِها، المستتبعِ لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقِّها. والمرادُ بها إمَّا هذه الآياتُ الناطقةُ بما فصِّل من بدائع صنعِ اللهِ تعالى وسوابغِ آلائه تعالى، الموجبةِ للإقبال عليها والإيمان، وإيتاؤها نزولُ الوحي بها، أي: ما نزل الوحيُ بآيةٍ من الآيات الناطقةِ بذلك إلَّا كانوا عنها مُعرِضين على وجه التكذيبِ والاستهزاء.

وإمَّا ما يعمُّها والآياتِ التكوينيةَ الشاملةَ للمعجزات وتعاجيبِ المصنوعات، التي من جُملتها الآياتُ الثلاثُ المعدودةُ آنفاً، وإيتاؤها ظهورُها لهم، أي: ما ظهرت لهم آيةٌ من الآيات التي من جُملتها ما ذُكر من شؤونه تعالى الشاهدةِ بوحدانيته سبحانه، وتفرُّدِه تعالى بالأُلوهية «إلَّا كانوا عنها معرضين» تاركين للنَّظر الصحيحِ فيها المؤدِّي إلى الإيمان به عزَّ وجلَّ.

وفي الكلام إشارةٌ إلى استمرارهم على الإعراض حسَبَ استمرارِ إتيانِ الآيات. و«عن» متعلِّقة بـ «معرضين»، قدِّمت عليه للحصر الادِّعائي، مبالغةً في تقبيح حالِهم. وقيل: للحصر الإضافي، أي: معرضين عنها، لا عمَّا هم عليه من الكفر. وقيل: لرعاية الفواصل.

والجملةُ في حيِّز النصبِ على أنَّها حالٌ من مفعول «تأتي»، أو من فاعله المتخصِّصِ بالوصف؛ لاشتمالها على ضمير كلٍّ منهما. والاستثناءُ مفرَّغ من أعمِّ الأحوال، أي: ما تأتيهم آيةٌ من آيات ربِّهم في حالٍ من أَحوالهم إلَّا حالَ إعراضهم عنها، أو: ما تأتيهم آيةٌ منها في حالٍ من أحوالها إلَّا حالَ إعراضِهم عنها.

وجملة «وما تأتيهم» إلخ - على ما يُشعر به كلامُ «الكشَّاف»[1] - تذييلٌ يؤكِّد ما سبق من حديث الإعراض، وإلى كونه تذييلاً ذهب الخَفاجيّ[2]، ثم قال: فتكون معترضة، أو حالاً مسوقةً لتأكيد ما قبلها؛ لشمولها لما تضمَّنه مع زيادة إفادةِ التعليلِ الدالِّ على الجواب المقدَّر المعلَّل به، فليس من حقِّها الفصلُ؛ لأنَّها مستأنفةٌ كما توهِّم، فتأمَّل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أعطاكم سبحانه بطريق التفضُّل والإنعام من أنواع الأموال. وعبَّر بذلك تحقيقاً للحقِّ وترغيباً في الإنفاق، على منهاج قولِه تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧] وتنبيهاً على عِظَم جنايتِهم في ترك الامتثالِ بالأمر، وكذلك الإتيانُ بـ «من» التبعيضية.

(١) ٣/ ٣٢٥.
(٢) في حاشيته ٧/ ٢٤٥.

والكلامُ ـ على ما قيل ـ لذمِّهم على ترك الشفقةِ على خلق اللهِ تعالى إثْرَ ذمِّهم على ترك تعظيمِه عزَّ وجلَّ بترك التقوى، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم أخلُّوا بجميع التكاليف؛ لأنَّها كلَّها ترجع إلى أمرين: التعظيمِ لله تعالى، والشفقةِ على خلقه سبحانه.

وقيل: هو للإشارة إلى عدم مبالاتِهم بنصح الناصحِ وإرشاده إيَّاهم إلى ما يدفع البلاءَ عنهم، نظير قولِه تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟) إلخ. والمعنى عليه: إذا قيل لهم بطريق النصيحةِ والإرشاد إلى ما فيه نفعُهم: أنفقوا بعضَ ما آتاكم اللهُ من فضلِه على المحتاجين، فإنَّ ذلك ممَّا يردُّ البلاءَ ويدفع المكاره، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ والأوَّلُ أظهر.

والظاهرُ أنَّ «الذين كفروا» هم الذين قيل لهم: أنفِقوا، وعدل عن ضميرهم إلى الظَّاهر إيماءً إلى علَّة القولِ المذكور.

وفي كون القولِ للذين آمنوا إيماءٌ إلى أنَّهم القائلون، قيل: لمَّا أسلم حواشي الكفارِ من أقربائهم ومواليهم من المستضعفين، قطعوا عنهم ما كانوا يواسونهم به، وكان ذلك بمكَّةَ قبل نزول آياتِ القتال، فندبهم المؤمنون إلى صِلَة حواشيهم، فقالوا: «أنطعم..» إلخ.

وقيل: شحَّت قريشٌ بسبب أزمةٍ على المساكين من مؤمنٍ وغيرِه، فندبهم النبيُّ ﷺ إلى النفقةِ عليهم، فقالوا هذا القول.

وقيل: قال فقراءُ المؤمنين: أَعطونا ما زعمتم من أموالِكم أنَّها لله تعالى. فحَرَموا وقالوا ذلك. ورُوي هذا عن مقاتل.

وقال ابنُ عباس: كان بمكةَ زنادقةٌ إذا أُمروا بالصَّدقة قالوا: لا والله، أَيُفقره اللهُ تعالى ونُطعمه نحن؟ وكانوا يسمعون المؤمنين يعلِّقون الأفعالَ بمشيئة اللهِ تعالى، يقولون: لو شاء اللهُ تعالى لأغنى فلاناً، ولو شاء لأعزَّه، ولو شاء سبحانه لَكان كذا، فأَخرجوا هذا الجوابَ مُخرجَ الاستهزاءِ بالمؤمنين وبما كانوا يقولون.

وقال القشيريُّ أيضاً: إنَّ الآيةَ نزلت في قومٍ من الزَّنادقة لا يؤمنون بالصَّانع، وأنكروا وجودَه، فقولُهم: «لو يشاءُ الله»، من باب الاستهزاءِ بالمسلمين. وجوَّز أن

يكونَ مبنيّاً على اعتقاد المخاطَبين، ويُفهم من هذا أنَّ الزِّنديقَ مَن ينكر الصانع. وقد حقَّق الأمرَ فيه على الوجه الأكملِ ابنُ الكمالِ في رسالةٍ مستقلَّة، فارجع إليها إن أردتَ ذلك.

وعن الحسن وأبي خالدٍ أنَّ الآيةَ نزلت في اليهود، أُمروا بالإنفاق على الفقراءِ فقالوا ذلك.

وظاهرُ ما تقدَّم يقتضي أنَّها في كفَّار مكَّة، أُمروا بالإنفاق ممَّا رزقهم الله تعالى، وهو عامٌّ في الإطعام وغيرِه، فأجابوا بنفي الإطعامِ الذي لم يزالوا يفتخرون به، دلالةً على نفي غيرِه بالطريق الأولى؛ ولذا لم يقل: أَنُنفق.

وقيل: لم يقل ذلك؛ لأنَّ الإطعام هو المرادُ من الإنفاق، أو لأنَّ «نطعم» بمعنى نُعطي. وليس بذاك.

و«أَطْعَمَه» جوابُ «لو» وورودُ الموجَب جواباً بغير لامٍ فصيحٌ، ومنه: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ [الأعراف: ١٠٠]، ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] نعم الأكثرُ مجيئُه باللام.

والظاهرُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ من تتمَّة قولِ الذين كفروا للذين آمنوا، أي: ما أنتم إلَّا في ضلالٍ ظاهرٍ حيث طلبتم منَّا ما يخالف مشيئةَ اللهِ عزَّ وجلَّ. ولَعمري إنَّ الإناءَ ينضح بما فيه، فإنَّ جوابَهم يدلُّ على غاية ضلالِهم وفَرطِ جهلِهم، حيث لم يعلموا أنَّه تعالى يُطعم بأسباب، منها حثُّ الأغنياءِ على إطعام الفقراءِ وتوفيقُهم سبحانه له.

ويجوز أن يكونَ جواباً من جهته تعالى، زَجَر به الكفرةَ وجهلَهم به، أو حكايةً لجواب المؤمنين لهم، فيكون على الوجهين استئنافاً بيانيّاً، جواباً لِمَا عسى أن يقال: ما قال اللهُ تعالى؟ أو: ما قال المؤمنون في جوابهم؟

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطفٌ على الشرطية السابقة، مفيدٌ لإنكارهم البعثَ الذي هو مبدأُ كلِّ قبيح، والنبيُّ ﷺ لم يزل يَعِدهم بذلك، وممَّا يستحضر في

أذهانهم ما تقدَّم من الأوامر؛ فلذا أَتَوا بالإشارة إلى القريب في قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يعنون وعدَ البعث.

وجوِّز أن يكونَ ذلك من باب الاستهزاءِ، وأرادوا: متى يكونُ ذلك ويتحقَّق في الخارج ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ فيما تقولون وتَعِدون، فأَخبِرونا بذلك.

والخطابُ لرسول اللهِ ﷺ والمؤمنين؛ لِمَا أنَّهم أيضاً كانوا يتلون عليهم الآياتِ الدالَّةَ عليه والآمرةَ بالإيمان به، وكأنَّه لم يعتبر كونه شرّاً لهم؛ ولذا عبَّروا بالوعد دونَ الوعيد. وقيل: إنَّ ذاك لأنَّهم زعموا أنَّ لهم الحسنى عند اللهِ تعالى إن تحقَّق البعث، بناءً على أنَّ الآيةَ في غير المعطِّلة.

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ جوابٌ من جهته تعالى، أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ عظيمةً ﴿وَٰحِدَةً﴾ وهي النفخةُ الأولى في الصُّور التي يموت بها أهلُ الأرض. وعبَّر بالانتظار نظراً إلى ظاهر قولِهم: «متى هذا الوعد» أو لأنَّ الصيحة لمَّا كانت لا بدَّ من وقوعها، جُعلوا كأنَّهم منتظروها.

﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ تَقهرُهم وتستولي عليهم، فيهلكون ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: يتخاصمون ويتنازعونَ في معاملاتهم ومتاجرِهم، لا يخطر ببالهم شيءٌ من مخايلها، كقوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] [يوسف:١٠٧] فلا يغترُّوا بعدم ظهورِ علائمها حسبما يريدون، ولا يزعمون أنَّها لا تأتي.

وأخرج ابن جَريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عمرَ[2] قال: لَيُنفخنَّ في الصُّور والناسُ في طُرُقهم وأسواقِهم ومجالِسهم، حتى إنَّ الثوبَ ليكونُ بين الرَّجلين يتساومان، فما يرسله أحدُهما من يده حتى ينفخَ في الصُّور، فيصعق به، وهي التي قال اللهُ تعالى: (مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً) إلخ.

وأخرج الشيخانِ[3] وغيرُهما عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لَتقومنَّ

(١) في الأصل و(م): فأخذتهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون. ولا توجد آية بهذا اللفظ.
(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: ابن عمرو، كما في تفسير ابن جرير ١٩/٤٥١.
(٣) صحيح البخاري (٦٥٠٦)، وصحيح مسلم (٢٩٥٤) بنحوه.

الساعةُ وقد نشر الرجلان ثوبَهما بينهما، فلا يتبايعانهِ ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعةُ والرجلُ يَليط حوضَه، فلا يَسْقي منه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بلبن نعجتِه، فلا يَطْعَمُه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أُكْلَتَه إلى فمه، فلا يَطْعَمُها».

وأصلُ «يَخِصِّمون»: يختصمون، وبه قرأ أُبيّ[١]، فسكِّنت التاءُ وأُدغمت في الصاد بعد قلبِها صاداً، ثم كُسرت الخاءُ لالتقاء الساكنَين، وجوِّز أن يكونَ الكسرُ لإتباع حركةِ الصادِ الثانية، والساكنُ لا يضرُّ حاجزاً.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عَمرٍو والأعرجُ وشبلٌ وابنُ قسطنطين[٢] بإدغام التاءِ في الصاد ونقلِ حركتِها - وهي الفتحة - إلى الخاء. وأبو عَمرٍو - أيضاً - وقالون - بخُلف - باختلاس حركةِ الخاءِ وتشديدِ الصاد. وعنهما إسكانُ الخاءِ وتخفيفُ الصاد، من: خَصَمه: إذا جادله، والمفعولُ - عليها - محذوف، أي: يَخصم بعضُهم بعضاً، وقيل: يخصمون مجادلتَهم عن أنفسهم. وبعضُهم يكسر ياءَ المضارعةِ إتباعاً لكسرة الخاءِ وشدِّ الصاد[٣]. وكسرُ ياءِ المضارعةِ لغةٌ حكاها سيبويه عن الخليلِ في مواضع[٤].

وعن نافعٍ أنَّه قرأ بفتح الياءِ وسكونِ الخاءِ وتشديدِ الصَّاد المكسورة[٥]، وفيها الجمعُ بين الساكنَين على حدِّه المعروف، وكأنَّه يجوز الجمع بينهما إذا كان الثاني مدغماً، كان الأوَّلُ حرفَ مدٍّ أيضاً أم لا. وهذا ما اخترناه في نقل القراءاتِ تبعاً لبعض الأجِلَّة، والرواةُ في ذلك مختلفون.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيءٍ من أمورهم إذا كانوا فيما بين أهليهم. ونصب «توصية» على أنَّه مفعولٌ به لـ «يستطيعون»، وجوِّز أن يكونَ مفعولاً مطلقاً لمقدَّر.

---

(١) البحر ٧/ ٣٤٠.

(٢) هو الإمام أبو إسحاق إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين المخزومي المكي، شيخ القراء بمكة في زمانه، وآخر من قرأ على ابن كثير وفاة. مات سنة (١٧٠، أو ١٩٠هـ). معرفة القراء الكبار ١/ ٢٩٠.

(٣) البحر ٧/ ٣٤٠-٣٤١. وانظر التيسير ص ١٨٤، والنشر ٢/ ٣٥٤.

(٤) انظر الكتاب ٤/ ١١٠-١١٣.

(٥) التيسير ص١٨٤، والنشر ٢/ ٣٥٤.

﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٥٠﴾ إذا كانوا في خارج أبوابِهم، بل تَبغتهم الصيحةُ فيموتون حيثما كانوا، ويرجعون إلى الله عزَّ وجلَّ لا إلى غيرِه سبحانه.

وقرأ ابنُ محيصن: «يُرْجَعون» بالبناءِ للمفعول[١]، والضمائرُ للقائلين: «متى هذا الوعد» لا من حيث أعيانُهم، أعني أهلَ مكَّة الذين كانوا وقتَ النزول، بل لمنكري البعثِ مطلقاً.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخةُ الثانية، بينها وبين الأُولى أربعون، أي: ينفخ فيه، وصيغةُ الماضي للدَّلالة على تحقُّق الوقوع.

وقرأ الأَعرج: «الصُّوَر» بفتح الواو[٢]، وقد مرَّ الكلامُ في ذلك.

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ أي: القبور، جمعُ: جدث، بفتحتين. وقُرِئ بالفاء بدلَ الثاء[٣]، والمعنى واحد.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ مالكِ أمرِهم ﴿يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ يُسرِعون بطريق الإِجبار؛ لقوله تعالى: «لدينا محضرون» قيل: وذِكرُ الربِّ للإشارة إلى إسراعهم بعد الإِساءةِ إلى مَن أحسن إليهم حين اضطرُّوا إليه. ولا منافاةَ بين هذه الآيةِ وقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] لجواز اجتماعِ القيامِ والنظرِ والمشي، أو لتقارب زمانِ القيامِ ناظرين، وزمانِ الإِسراع في المشي.

وقرأ ابنُ أبي إسحاقَ وأبو عَمرٍو ـ بخلافٍ عنه ـ بضمِّ السين[٤].

﴿قَالُواْ﴾ أي: في ابتداء بعثِهم من القبور ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ أي: هلاكَنا، احضُر فهذا أَوانُك. وقيل: أي: يا قومَنا انظروا ويلَنا وتعجَّبوا منه، وعلى حذف المنادى قيل: «وَي» كلمةُ تعجُّب، و«لنا» بيان. ونُسب للكوفيين، وليس بشيءٍ.

---

(١) البحر ٧/ ٣٤١.

(٢) البحر ٧/ ٣٤١.

(٣) البحر ٧/ ٣٤١.

(٤) البحر ٧/ ٣٤١، ونسبها في القراءات الشاذة ص ١٢٥ لابن أبي إسحاق.

وقرأ ابنُ أبي ليلى: «يا وَيلتَنا» بتاءِ التأنيث[١]. وعنه أيضاً: «يا وَيلتَى» بتاءٍ بعدها ألفٌ بدلٌ من ياء الإضافة[٢]، والمرادُ أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يقول: يا ويلتَى.

﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ أي: رُقادِنا، على أنَّه مصدرٌ ميميّ، أو: محلِّ رقادِنا، على أنَّه اسمُ مكان، ويراد بالمفرَد الجمع، أي: مراقِدنا. وفيه تشبيهُ الموتِ بالرُّقاد من حيث عدمُ ظهورِ الفعل، والاستراحةُ من الأفعال الاختيارية.

ويجوز أن يكونَ المرقدُ على حقيقته، والقومُ لاختلاط عقولِهم ظنُّوا أنَّهم كانوا نياماً، ولم يكن لهم إدراكٌ لعذاب القبرِ لذلك، فاستفهموا عن مُوقِظهم.

وقيل: سمَّوا ذلك مرقداً مع علمِهم بما كانوا يقاسون فيه من العذاب؛ لعِظَم ما شاهدوه، فكأنَّ ذلك مرقدٌ بالنِّسبة إليه، فقد رُوي أنَّهم إذا عاينوا جهنَّمَ وما فيها من ألوان العذاب، يَرَون ما كانوا فيه مثلَ النومِ في جنبها، فيقولون ذلك.

وأخرج الفريابيّ، وعبد بن حُمَيد، وابن جَرير، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتمٍ عن أُبَيِّ بن كعب أنَّه قال: ينامون قبل البعثِ نومة[٣].

وأخرج هؤلاء ما عدا ابنَ جَريرٍ عن مجاهدٍ قال: للكفَّار هجعةٌ يجدون فيها طعمَ النومِ قبل يومِ القيامة، فإذا صيحَ بأهل القبورِ يقولون: «يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا»[٤].

ورُوي عن ابن عباسٍ أنَّ اللهَ تعالى يرفع عنهم العذابَ بين النفختين، فيَرقدون، فإذا بُعثوا بالنفخة الثانيةِ وشاهدوا الأهوال، قالوا ذلك.

وفي «البحر»[٥] أنَّ هذا غيرُ صحيحِ الإسناد، واختار أنَّ المرقدَ استعارةٌ عن مضجع الموت.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٥، والبحر ٧/ ٣٤١.
(٢) البحر ٧/ ٣٤١.
(٣) الدر المنثور٥/ ٢٦٦، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٤٥٦.
(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٦٦.
(٥) ٧/ ٣٤١.

وقرأ أميرُ المؤمنين عليٌّ وابنُ عباسٍ والضحَّاك وأبو نَهِيك: «مِن بَعْثِنا» بـ «مِن» الجارَّة والمصدرِ المجرور(١)، وهو متعلِّق بويل، أو بمحذوفٍ وقع حالاً منه. ونحوُه في الخبر:

ويلي عليكَ وويلي منك يا رَجُلُ(٢)

و«مِن» الثانيةُ متعلِّقة ببعث.

وعن ابن مسعودٍ أنَّه قرأ: «مَن أهبَّنا» بـ «مَن» الاستفهامية، وأَهبَّ بالهمز، مِن هبَّ من نومه: إذا انتبه، وأَهببتُه أنا، أي: أنبهتُه.

وعن أُبَيٍّ أنه قرأ: «هبَّنا» بلا همز.

قال ابن جِنِّي(٣): وقراءةُ ابنِ مسعودٍ أَقْيَسُ، فهبَّني بمعنى: أيقظني، لم أرَ لها أصلاً، ولا مرَّ بنا في اللغة مهبوبٌ بمعنى موقَظ(٤)، اللهم إلَّا أن يكونَ حرفُ الجرِّ محذوفاً، أي: هبَّ بنا، أي: أيقظنا، ثم حُذف وأُوصل الفعل، وليس المعنى على: مَن هبَّ فهببنا معه، وإنَّما معناه: من أيقظنا.

وقال البيضاوي(٥): «هبَّنا» بدون الهمزِ بمعنى «أَهبَّنا» بالهمز.

وقُرىء: «مِن هَبِّنا» بـ «مِن» الجارَّةِ والمصدرِ(٦)، من: هَبَّ يَهُبُّ.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ جملةٌ من مبتدأ وخبر ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ عطفٌ على ما في حيِّز «ما». وعطفُه على الجملةِ الاسمية، أو جعلُه حالاً بتقدير قد أو بدونه، خلافُ الظاهر. و«ما» موصولةٌ محذوفةُ العائد، أي: هذا الذي وعده الرحمنُ

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٥، والمحتسب ٢/ ٢١٣، والبحر ٧/ ٣٤١، والكلام منه.

(٢) قائله الأعشى الكبير وهو في ديوانه ص ١٠٧، وصدره: قالت هريرة لما جئت زائرها.

(٣) في المحتسب ٢/ ٢١٤، والقراءتان فيه.

(٤) بعدها في المحتسب: وهي ـ مع حسن الظن بأُبي ـ مقبولة، وقد أثبتها أبو حاتم أيضاً، اللهم إلا....

(٥) في تفسيره ٤/ ١٨٩.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٢٦.

والذي صَدَقَه المرسَلون، أي: صَدَقَ فيه، من قولهم: صَدَقْتُ زيداً الحديثَ، أي: صَدَقْتُه فيه، ومنه قولُهم: صَدَقني سِنُّ بَكرِه[1]. أو مصدرية، أي: هذا وعدُ الرحمنِ وصِدقُ المرسلين، على تسمية الموعودِ والمصدوقِ فيه بالوعد والصِّدق.

وهو ـ على ما قيل ـ جوابٌ من جهته عزَّ وجلَّ، وعلى ما قال الفرَّاءُ[2]: من قِبَل الملائكة، وعلى ما قال قتادةُ ومجاهدٌ: من قِبَل المؤمنين.

وكان الظاهرُ أن يجابوا بالفاعل؛ لأنَّه الذي سألوا عنه، بأن يقال: الرحمن، أو: اللهُ بعثكم، لكن عدل عنه إلى ما ذكر؛ تذكيراً لكفرهم، وتقريعاً لهم عليه، مع تضمُّنه الإشارةَ إلى الفاعل.

وذكر غيرُ واحدٍ أنَّه من الأُسلوب الحكيم، على أنَّ المعنى: لا تسألوا عن الباعث؛ فإنَّ هذا البعثَ ليس كبعثِ النائم، وإنَّ ذلك ليس ممَّا يُهمُّكم الآن، وإنَّما الذي يهمُّكم أن تسألوا: ما هذا البعثُ ذو الأهوالِ والأفزاع؟ وفيه مِن تقريعهم ما فيه.

وزعم الطيبيُّ أنَّ ذِكرَ الفاعلِ ليس بكافٍ في الجواب؛ لأنَّ قولَهم: «من بعثنا من مرقدنا» حكايةٌ عن قولهم ذلك عند البعثِ بعد ما سبق من قولهم: «متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» فلا بدَّ في الجواب من قولٍ مضمَّن معنيين، فكان مقتضَى الظاهرِ أن يقال: بَعَثَكم الرحمنُ الذي وعدكم البعثَ وأنبأكم به الرُّسل، لكن عدل إلى ما يُشعر بتكذيبهم ليكونَ أَهْوَلَ، وفي التقريع أَدْخَلَ. وهو واردٌ على الأُسلوب الحكيم، وفي دعوى عدمِ كفايةِ ذكر الفاعلِ في الجواب نظر.

وفي إيثار اسم «الرحمن»، قيل: إشارةٌ إلى زيادة التقريع، من حيث إنَّ الوعدَ بالبعث من آثار الرَّحمة، وهم لم يُلقوا له بالاً ولم يلتفتوا إليه، وكذَّبوا به ولم يستعدُّوا لِمَا يقتضيه.

---

(١) يضرب مثلاً للرجل يكذب في الأمر يدل بعض أحواله على الصدق فيه. وأصله أن رجلاً ساوم رجلاً ببعير وسأل عن سنِّه، فأخبره أنه بَكر، فَفَرَّ عنه، فوجده هرماً، فقال: صَدَقني سِنُّ بَكْرِه، وكَذَبني هو. جمهرة الأمثال ١/ ٥٧٥.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٠.

وقيل: آثره المجيبون من المؤمنين لِمَا أنَّ الرحمةَ قد غمرتهم، فهي نصب أعينهم، واختصاصُ رحمةِ الرحمنِ بما يكون في الدنيا ورحمةِ الرحيمِ بما يكون في الأُخرى ممنوع؛ فقد ورد: «يا رحمنَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما»[(١)].

وقال ابنُ زيد: هذا الجوابُ من قِبَل الكفار، على أنَّهم أَجابوا أنفسَهم حيث تذكَّروا ما سمعوه من المرسَلين عليهم السلام، أو أجاب بعضُهم بعضاً، وآثروا اسمَ الرحمنِ طمعاً في أن يرحمَهم، وهيهاتَ هيهات، ليس لكافرٍ نصيبٌ يومئذٍ من رحمته عزَّ وجلَّ.

وجوَّز الزجَّاجُ[(٢)] كونَ «هذا» صفةً لـ «مرقدنا»؛ لتأويله بمشتقّ، فيصحُّ الوقفُ عليه ـ وقد رُوي عن حفصٍ أنَّه وقف عليه وسكت سكتةً خفيفة[(٣)]، فحكايةُ إجماع القرَّاءِ على الوقف على «مرقدنا» غيرُ تامة ـ و«ما» مبتدأ محذوفُ الخبر، أي: حقٌّ، أو: مبتدأٌ خبرُه محذوف[(٤)]، أي: هو، أو: هذا ما وعد. وفيه ـ كما قيل ـ من البديع صنعةُ التجاذب، وهو أن تكونَ كلمةٌ مُحتمِلةٌ أن تكونَ من السابق وأن تكونَ من اللاحق، ومثلُه ـ كما قال الشيخُ الأكبر قدِّس سرُّه في تفسيره المسمَّى بـ «إيجاز البيانِ في الترجمة عن القرآن»[(٥)]، ومن خطِّه الشريفِ نقلت ـ (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ) الآيةَ، بعد قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥] وقولُه تعالى: ﴿فِيهِ هُدٗى﴾ بعد ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾ [البقرة: ٢] فليُحفَظ.

﴿إِن كَانَتۡ﴾ أي: ما كانت الفِعلةُ أو النفخةُ التي حُكيت آنفاً ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ حصلت من نفخ إسرافيلَ عليه السلام في الصُّور. وقيل: هي قولُ

(١) سلف ١/ ٢٣٣.
(٢) في معاني القرآن ٤/ ٢٩١.
(٣) التيسير ص ١٤٢، والنشر ١/ ٢٤٣.
(٤) كذا في الأصل و(م)، ولعله سهو، والصواب: خبر مبتدأ محذوف. انظر البحر ٧/ ٣٤١.
(٥) في هامش الأصل: وهو على أسلوب أهل الظاهر من المفسرين. اهـ منه.

إسرافيل[1] عليه السلام: أيتها العظامُ النَّخِرة، والأوصالُ المتقطعة، والشعورُ المتمزِّقة، إنَّ الله يأمركنَّ أن تجتمعنَ لفصل القضاءِ.

وقُرئ برفع «صيحة»[2]، ومرَّ توجيهُها.

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ مجموعٌ ﴿لَّدَيْنَا﴾ عندنا، وفي محلِّ حكمِنا، وانقطاعِ التصرُّف الظاهريِّ من غيرنا ﴿مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ لفصل الحساب، من غير لبثٍ مّا طرفةَ عين، وفيه من تهوين أمرِ البعثِ والحشر، والإيذانِ باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفَى.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ الحاضر، أو المعهود، وهو يومُ القيامةِ الدالُّ نفخُ الصورِ عليه. وانتصب على الظَّرف، والعاملُ فيه قولُه تعالى: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس، برَّةً كانت أو فاجرةً ﴿شَيْئًا﴾ من الظُّلم، فهو نصبٌ على المصدرية، أو شيئاً من الأشياء، على أنَّه مفعولٌ به على الحذف والإيصال.

﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: إلَّا جزاءَ ما كنتم تعملونه في الدُّنيا على الاستمرارِ من الكفر والمعاصي، فالكلامُ على حذف المضافِ وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه؛ للتنبيه على قوَّة التلازمِ والارتباطِ بينهما، كأنَّهما شيءٌ واحد، أو: إلَّا بما كنتم تعملونه، أي: بمقابلته، أو بسببه.

وقيل: لا تُجزون إلَّا نفسَ ما كنتم تعملونه، بأن يظهرَ بصورة العذاب. وهذا حكايةٌ عمَّا يقال للكافرين حين يرون العذابَ المعدَّ لهم، تحقيقاً للحقِّ وتقريعاً لهم.

واستظهر أبو حيَّانَ[3] أنَّ الخطابَ يعمُّ المؤمنين، بأن يكونَ الكلامُ إخباراً من الله تعالى عمَّا لأهل المحشرِ على العموم، كما يُشير إليه تنكيرُ «نفس». واختاره السكَّاكي[4].

---

(١) في (م): إسرائيل.
(٢) هي قراءة أبي جعفر كما في النشر ٢/ ٣٥٣.
(٣) في البحر ٧/ ٣٤١.
(٤) مفتاح العلوم ص ٢٥٩.

وقيل عليه: يأباه الحصر؛ لأنَّه تعالى يوفي المؤمنين أجورَهم ويَزيدُهم من فضله أضعافاً مضاعفة. ورُدَّ بأنَّ المعنى أنَّ الصالحَ لا يُنقَص ثوابُه، والطالحَ لا يزاد عقابُه؛ لأنَّ الحكمةَ تأبى ما هو على صورة الظُّلم، أمَّا زيادةُ الثوابِ ونقصُ العقابِ فليس كذلك. أو المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: إنَّكم لا تُجزون إلَّا من جنس عملِكم، إنْ خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ - على تقدير كونِ الخطابِ السابق خاصّاً بالكفرة - من جُملة ما سيقال لهم يومَئذ، زيادةً لحسرتهم وندامتِهم، فإنَّ الإخبارَ بحسن حالِ أعدائهم إثرَ بيانِ سوءِ حالهم ممَّا يَزيدهم مساءةً على مساءة، وفي حكاية ذلك مزجرةٌ لهؤلاء الكفرةِ عمَّا هم عليه، ومدعاةٌ إلى الاقتداءِ بسيرة المؤمنين. وعلى تقدير كونِه عامّاً، ابتداءُ كلامٍ وإخبارٌ لنا بما يكون في يوم القيامة، إذا صار كلٌّ إلى ما أعدَّ لهم من الثَّواب والعقاب.

والشُّغُل: هو الشأنُ الذي يصدُّ المرءَ ويَشغله عمَّا سواه من شؤونه؛ لكونه أهمَّ عنده من الكلّ، إمَّا لإيجابه كمالَ المسرَّة، أو كمالَ المساءة، والمرادُ هاهنا هو الأوَّل، وتنكيرُه للتعظيم، كأنَّه شُغُلٌ لا يُدرَك كُنهُه.

والمرادُ به ما هم فيه من النعيمِ الذي شغلهم عن كلِّ ما يخطر بالبال. وعن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ وقتادة: هو افتضاضُ الأبكار. وهو المرويُّ عن جعفرٍ الصادقِ رضي الله عنه. وفي روايةٍ أُخرى عن ابن عباس: ضربُ الأوتار.

وقيل: السَّماع، ورُوي عن وكيع. وعن ابن كَيسان: التزاور. وقيل: ضيافةُ اللهِ تعالى، وهي يومَ الجمعةِ في الفردوس الأعلى عند كثيب المِسك، وهناك يتجلَّى سبحانه لهم، فيرونه جلَّ شأنُه جميعاً. وعن الحسن: نعيمُ شغلِهم عمَّا فيه أهلُ النارِ من العذاب. وعن الكلبيّ: شغلُهم عن أهاليهم من أهل النَّار، لا يذكرونهم لئلَّا يتنغَّصوا. ولعل التعميمَ أولى.

وليس مرادُ أهلِ هذه الأقوالِ بذلك حصرَ شغلِهم فيما ذكروه فقط، بل بيانَ أنَّه من جملة أشغالهم، وتخصيصُ كلٍّ منهم كلًّا من تلك الأمورِ بالذِّكر محمولٌ على اقتضاء مقامِ البيان إيَّاه. وأُفرد الشغلُ باعتبار أنَّه نعيم، وهو واحدٌ بهذا الاعتبار.

والجارُّ مع مجرورِه متعلِّق بمحذوفٍ وقع خبراً لـ «إنَّ»، و«فاكهون» خبرٌ ثانٍ لها، وجوِّز أن يكونَ هو الخبر، و«في شغل» متعلِّق به، أو حالٌ من ضميره.

والمرادُ بـ «فاكهون» ـ على ما أخرج ابن جَريرٍ[١] وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عبَّاس ـ فَرِحون.

وأخرجوا عن مجاهدٍ أنَّ المعنى: يتعجَّبون بما هم فيه[٢].

وقال أبو زيد: الفاكه: الطيِّب النفسِ الضَّحوك، ولم يُسمع له فعلٌ من الثلاثيّ.

وقال أبو مسلم: إنَّه مأخوذٌ من الفُكاهة، بالضمِّ، وهي التحدُّث بما يَسُرُّ.

وقيل: التمتُّع والتلذُّذ.

وقيل: «فاكهون» ذوو فاكهة، نحو: لابنٌ وتامر. وظاهرُ صنيعِ أبي حيَّان اختيارُه[٣].

والتعبيرُ عن حالهم هذه بالجملة الاسميةِ قبل تحقُّقها؛ لتنزيل المترقَّبِ المتوقَّعِ منزلةَ الواقع؛ للإيذان بغاية سرعةِ تحقُّقها ووقوعِها، وفيه على تقدير خصوصِ الخطابِ زيادةٌ لمساءة المخاطَبين.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عَمرٍو: «شُغْل» بضمِّ الشينِ وسكونِ الغين[٤]، وهي لغةٌ في شُغُل ـ بضمَّتين ـ للحجازيين كما قال الفرَّاء[٥].

وقرأ مجاهدٌ وأبو السمَّال وابن هُبَيرة ـ فيما نقل عنه ابنُ خالويه ـ بفتحتين[٦]. ويزيدُ النحويُّ وابن هُبيرةَ أيضاً ـ فيما نقل عنه أبو الفضلِ الرازيّ ـ بفتح الشينِ وإسكان الغين. وهما لغتان أيضاً فيه.

---

(١) في تفسيره ١٩/ ٤٦٣.
(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٤٦٣، وينظر الدر المنثور٥/ ٢٦٦.
(٣) في البحر ٧/ ٣٤٢.
(٤) التيسير ص ١٨٤، والنشر ٢/ ٢١٦.
(٥) انظر معاني القرآن ٢/ ٣٨٠.
(٦) القراءات الشاذة ص١٢٥، والبحر ٧/ ٣٤٢، والكلام منه، وتحرف هبيرة في المطبوع من كتاب ابن خالويه إلى: هريرة.

وقرأ الحسن، وأبو جعفرٍ، وقتادة، وأبو حَيوَة، ومجاهد، وشَيبة، وأبو رجاءٍ، ويحيى بنُ صبيح، ونافعٌ في رواية: «فَكِهُون»[1] جمع: فَكِه، كحَذِر وحَذِرون، وهو صفةٌ مشبَّهة تدلُّ على المبالغة والثُّبوت.

وقرأ طلحةُ والأعمش: «فاكِهين» بالألف وبالياء نصباً على الحال[2]، و«في شغل» هو الخبر. وقُرِئ: «فَكِهين» بغير ألفٍ وبالياء كذلك.

وقُرِئ: «فَكُهون» بفتح الفاءِ وضمِّ الكاف[3]. وفَعُل - بضمِّ العين - من أوزان الصفةِ المشبَّهة، كـ «نَطُسٍ»، وهو الحاذقُ الدقيقُ النظرِ الصادقُ الفراسة.

وقولُه تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان كيفيةِ شُغلِهم وتفكُّههم، وتكميلِها بما يزيدهم بهجةً وسروراً من شركة أَزواجهم، فـ «هم» مبتدأ، و«أزواجهم» عطفٌ عليه، و«متكئون» خبر، والجارَّانِ صِلة له، قيل: قدِّما عليه لمراعاة الفواصل، أو هو والجاران بما تعلَّقا به من الاستقرار أخبارٌ مترتِّبة.

وجوِّز أن يكونَ الخبرُ هو الظرف الأوَّل، والظرفُ الثاني متعلِّق بـ «متكئون»، وهو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هم متَّكئون على الأرائك، أو الظرفُ متعلِّق بمحذوفِ خبرٍ مقدَّم، و«متكئون» مبتدأ مؤخَّر، والجملةُ على الوجهين استئنافٌ بيانيّ.

وقيل: «هم» تأكيدٌ للمستكِنِّ في خبر «إنَّ»، أعني: «فاكهون»، أو: «في شُغُل» - ومنعه بعضُهم زعماً منه أنَّ فيه الفصلَ بين المؤكِّد والمؤكَّد بأجنبي - و«متكئون» خبرٌ آخَرُ لها، و«على الأرائك» متعلِّق به، وكذا «في ظلال» أو هو متعلِّق بمحذوفٍ هو حالٌ من المعطوف والمعطوفِ عليه، ومَن جوَّز مجيءَ الحالِ من المبتدأ جوَّز هذا الاحتمالَ على تقدير أن يكونَ «هم» مبتدأً أيضاً.

والظِّلال جمعُ: ظِلّ، وجمعُ فِعلٍ على فِعال كثير، كشِعب وشِعاب، وذئب

---

(١) النشر ٢/ ٣٥٤ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٧/ ٣٤٢.

(٢) جاء في هامش الأصل: أي: من المستكن في الظرف. اهـ منه.

(٣) ذكر هذه القراءات صاحب البحر ٧/ ٣٤٢.

وذئاب. ويحتمل أن يكونَ جمعَ: ظُلَّة، بالضَّمِّ، كقُبَّة وقِباب، وبُرمة وبِرام، وأُيِّد بقراءة عبدِ الله والسُّلميِّ وطلحةَ وحمزةَ والكِسائي: «في ظُلَلٍ» بضمٍّ ففتح[1]، فإنَّه جمعُ ظُلَّة لا ظِلّ، والأصلُ توافقُ القراءات. ومنذرُ بن سعيدٍ يقول: جمعُ: ظِلَّة، بالكسر، وهي لغةٌ في ظُلَّة بالضمّ، فيكون كلِقْحة ولِقاح، وهو قليل.

وفسَّر الإمامُ[2] الظِّلَّ بالوقاية عن مظانِّ الألم، ولأهل الجنةِ من ظلِّ اللهِ تعالى ما يقيهم الأسواء، والجمعُ باعتبار ما لكلِّ واحدٍ منهم من ذلك، أو هو متعدِّد للشخص الواحدِ باعتبار تعدُّدِ ما منه الوقاية. ويحتمل أنَّه جمع باعتبار كونِه عظيمَ الشأنِ جليلَ القدر، كجمع اليدِ بمعنى القدرة ـ على قولٍ ـ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وفسَّر أبو حيان[3] الظلالَ ـ جمع: ظُلَّة ـ بالملابس ونحوِها من الأشياء التي تُظِلّ، كالسُّتور.

وأقول: قال ابنُ الأثير[4]: الظِّلّ: الفيءُ الحاصلُ من الحاجز بينك وبين الشَّمس، أيَّ شيءٍ كان. وقيل: هو مخصوصٌ بما كان منه إلى زوال الشَّمس، وما كان بعده فهو الفيءُ.

وأنت تعلم أنَّ الظلَّ بالمعنى الذي تُعتبر فيه الشمسُ لا يتصوَّر في الجنة؛ إذ لا شمسَ فيها، ومن هنا قال الراغب[5]: الظلُّ ضدُّ الضِّحّ، وهو أعمُّ من الفيء؛ فإنَّه يقال: ظلُّ الليلِ وظلُّ الجنة.

وجاء في ظلِّها ما يدلُّ على أنَّه كالظلِّ الذي يكون في الدنيا قبلَ طلوعِ الشمس، فقد روى ابنُ القيِّم في «حادي الأرواح»[6] عن ابن عباسٍ أنَّه سئل:

(١) البحر ٧/ ٣٤٢، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص ١٨٤، والنشر ٢/ ٣٥٥.
(٢) في التفسير الكبير ٢٦/ ٩٢.
(٣) في البحر ٧/ ٣٤٢.
(٤) في النهاية (ظلل).
(٥) في المفردات (ظلل).
(٦) ص ١٨٩.

ما أرضُ الجنة ؟ قال: مرمرةٌ بيضاءُ من فضَّة، كأنَّها مرآة، قيل: ما نورُها؟ قال: ما رأيتَ الساعةَ التي قبل طلوعِ الشمس فذلك نورُها، إلَّا أنَّها ليس فيها شمسٌ ولا زمهرير. وذكر ابنُ عطيةَ نحوَ هذا، لكن لم يعزُه[١].

وتعقَّبه أبو حيانَ[٢] بأنَّه يحتاج إلى نقلٍ صحيح، وكيف يكون ذلك وفي الحديثِ ما يدلُّ على أنَّ حوراءَ من حُور الجنةِ لو ظهرت لأَضاءت منها الدُّنيا، أو نحوٌ من هذا[٣].

ويمكن الجوابُ بأنَّ المرادَ تقريبُ الأمرِ لفهم السائلِ وإيضاحُ الحالِ بما يفهمه، أو بيانُ نورِها في نفسها، لا الأعمِّ منه وممَّا يحصل فيها من أنوار سكَّانِها الحورِ العينِ وغيرِهم.

نَعَم نورُها في نفسها أتمُّ من نور الدنيا قبل طلوعِ الشمس، كما يومىءُ إليه ما أخرجه ابنُ ماجه[٤] عن أسامةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا هل مشمِّرٌ للجنة، فإنَّ الجنةَ لا خطرَ لها ـ أي: لا عِدلَ ولا مِثل ـ وهي وربِّ الكعبةِ نورٌ يتلألأ. . » الحديثَ.

ويجوز حملُ الظلالِ جمعِ ظلٍّ ـ هنا ـ على هذا المعنى، وجمعُه للتعدُّد الاعتباري. ويجوز حملُ الظلِّ على العزَّة والمناعة، فإنَّه قد يعبَّر به عن ذلك، وبهذا فسَّر الراغبُ[٥] قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١] وهو غيرُ معنى الوقايةِ عن مظانِّ الألمِ الذي ذكره الإمام.

ويجوز حملُه على أنَّه جمعُ ظُلَّة على الستورِ التي تكون فوقَ الرأس، من سقفٍ وشجرٍ ونحوِهما، ووجودُ ذلك في الجنة ممَّا لا شبهةَ فيه؛ فقد جاء في الكتاب

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٩.
(٢) في البحر ٧/ ٣٤٢.
(٣) أخرج البخاري (٢٧٩٦) عن أنس بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ: «...ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحاً، ولَنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها».
(٤) في سننه (٤٣٣٢).
(٥) في المفردات (ظلل).

وصحَّ في السنة أنَّ فيها غرفاً[١]، وهي ظاهرةٌ فيما كان ذا سقف، بل صرَّح في بعض الأخبارِ بالسقف[٢]، وجاء فيها أيضاً ما هو ظاهرٌ في أنَّ فيها شجراً مرتفعاً يُظلُّ مَن تحته، وقد صحَّ من رواية الشيخينِ[٣] أنَّه ﷺ قال: «إنَّ في الجنة شجرةً يسير الراكبُ في ظلِّها مئةَ عامٍ لا يقطعها، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]».

وأخرج ابنُ أبي الدُّنيا عن ابن عباسٍ أنَّه قال: الظلُّ الممدود: شجرةٌ في الجنة على ساق، قَدْرُ ما يسير الراكبُ المجدُّ في ظلِّها مئةَ عامٍ في كلِّ نواحيها، يخرج إليها أهلُ الجنةِ ـ أهلُ الغرفِ وغيرُهم ـ فيتحدَّثون في ظلِّها.. الخبرَ. وابنُ الأثيرِ[٤] يقول: معنى «في ظلِّها»: في ذَرَاها وناحيتها. وكأنَّ هذا لدفع أنَّها تظلُّ من الشمس أو نحوِها.

و«الأرائك» جمعُ: أَريكة، وهو السريرُ في قول، وقيل: الوِسادة، حكاه الطَّبرسي[٥]. وقال الزُّهري: كلُّ ما اتُّكئ عليه فهو أَريكة. وقال ابنُ عباس: لا تكون أريكة حتى يكون السريرُ في الحَجَلة[٦]، فإن كان سريرٌ بغير حَجَلةٍ لا تكون أريكة، وإن كانت حَجَلةٌ بغير سريرٍ لم تكن أريكة، فالسريرُ والحَجَلةُ أريكة.

وفي «حادي الأرواح»[٧]: لا تكون أريكةٌ إلَّا أن يكونَ السريرُ في الحَجَلة، وأن يكونَ على السرير فِراش.

وفي «الصِّحاح»[٨]: الأريكة: سريرٌ منجَّد مزيَّن في قُبَّة أو بيت.

---

(١) أخرج الترمذي (١٩٨٤) عن علي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن في الجنة غرفاً ترى ظهورها من بطونها وبطونُها من ظهورها...».
(٢) سلف ٢٠/ ٨٥.
(٣) صحيح البخاري (٣٢٥٢)، وصحيح مسلم (٢٨٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) في النهاية (ظلل).
(٥) في مجمع البيان ٢٣/ ٣٣.
(٦) الحجلة: ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس. المعجم الوسيط (حجل).
(٧) ص ٢٧٨.
(٨) مادة (أرك).

وقال الراغب[1]: الأريكة: حجلةٌ على سرير، والجمع: أرائك، وتسميتُها بذلك إمَّا لكونها في الأرض متَّخذةً من أراك، وهو شجرٌ معروف، أو لكونها مكاناً للإقامة، مِن قولهم: أَرَكَ بالمكان أُروكاً. وأصلُ الأوركِ الإقامةُ على رعي الأَراك، ثم تجوِّز به في غيره من الإقامات.

وبالجملة إنَّ كلامَ الأكثرين يدلُّ على أنَّ السريرَ وحده لا يسمَّى أَريكة، نعم يقال للمتَّكئ على أريكة: متَّكئ على سرير، فلا منافاةَ بين ما هنا وقولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠] لجواز أن تكونَ السُّررُ في الحِجال، فتكون أرائك. ويجوز أن يقال: إنَّ أهلَ الجنةِ تارةً يتَّكئون على الأَرائك، وأخرى يتَّكئون على السُّرر التي ليست بأَرائك.

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما ورد في وصف سُرُرِهم، رزقنا اللهُ تعالى وإياكم الجلوسَ على هاتيكَ السُّرر، والاتكاءَ مع الأزواج على الأَرائك.

والظاهرُ أنَّ المرادَ بالأزواج أزواجُهم المؤمناتُ اللاتي كنَّ لهم في الدنيا. وقيل: أزواجُهم اللاتي زوَّجهم اللهُ تعالى إياهنَّ من الحور العين. ويجوز فيما يظهر أنَّ يراد الأعمُّ من الصِّنفين ومن المؤمنات اللاتي مُتنَ ولم يتزوَّجن في الدنيا فزوَّجهن اللهُ تعالى في الجنة مَن شاءَ من عباده، بل الأعمُّ من ذلك كلِّه ومن المؤمنات اللاتي تزوَّجن في الدنيا بأزواجٍ ماتوا كفاراً فأُدخلوا النارَ مخلَّدين فيها وأُدخلنَ الجنة، كامرأة فِرعون، فقد جاء في الأخبار أنَّها تكون زوجةَ نبيِّنا ﷺ[2].

وجوِّز أن يكونَ المرادُ بأزواجهم أشكالَهم في الإحسان، وأمثالَهم في الإيمان، كما قال سبحانه: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨] وقريبٌ منه ما قيل: المرادُ به أخلَّاؤهم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

---

(١) في المفردات (أرك).

(٢) أخرج ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٦٣٧، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٤٥٩ عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة علمت أن الله زوَّجني في الجنَّة مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى، وآسية امرأة فرعون». قلت: هنيئاً لك يا رسول الله. وفي إسناده: يونس بن شعيب، قال عنه البخاري: منكر الحديث. ميزان الاعتدال ٤/ ٤٨١.

وقيل: يجوز أن يرادَ به ما يعمُّ الأشكال والأخِلَّاءَ ومَن سمعتَ أولاً. وأنت تعلم بُعدَ إرادةِ ذلك، وكذا إرادةُ الأشكالِ أو الأخِلَّاء بالخصوص.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ بيانٌ لما يتمتَّعون به في الجنَّة من المآكلِ والمشارب، وما يتلذَّذون به من الملاذِّ الجسمانيةِ والرُّوحانية، بعد بيانِ ما لهم فيها من مجالس الأُنس، ومحافلِ القدس، تكميلاً لبيان كيفيةِ ما هم فيه من الشُّغل والبهجة. كذا قيل.

ويجوز أن يكونَ استئنافاً بيانيّاً وقع جوابَ سؤال نشأ مما يدلُّ عليه الكلامُ السابقُ من اشتغالهم بالأُنس، واتِّكائهم على الأرائك، وعدمِ تعاطيهم أسبابَ المأكلِ والمشرب، فكأنَّه قيل: إذا كان حالُهم ما ذكر، فكيف يصنعون في أمر مأكلِهم؟ فأُجيب بقوله سبحانه: (لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ) وهو مشيرٌ إلى أنَّ لهم من المآكل ما لهم على أتمِّ وجه. وأُفيد أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّه لا جوعَ هناك، وليس الأكلُ لدفع ألمِ الجوع، وإنَّما مأكولُهم فاكهةٌ ولو كان لحماً.

والتنوينُ للتفخيم، أي: فاكهةٌ جليلةُ الشأن، وفي قوله سبحانه: (لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ) دون: يأكلون فيها فاكهة، إشارةٌ إلى كون زمامِ الاختيارِ بأيديهم، وكونِهم مالكين قادرين، فإن شاؤوا أكلوا، وإن شاؤوا أمسكوا.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧﴾ أي: ما يدَّعون به لأنفسهم، أي: لهم كلُّ ما يطلبه أحدٌ لنفسه، لا أنَّهم يطلبون، فإنَّه حاصل، كما إذا سألك أحدٌ فقلت: لكَ ذلك، تعني: فلمَ تطلب؟ أو: لهم ما يطلبون بالفعل، على أنَّ هناك طلباً وإجابة؛ لأنَّ الغِبطة بالإجابة توجب اللذَّةَ بالطلب، فإنَّه مرتبةٌ سَنِيَّة، لاسيَّما والمطلوبُ منه والمجيبُ هو اللهُ تعالى، الملكُ الجليلُ جلَّ جلالُه وعمَّ نوالُه، فـ «يدعون» من الدُّعاءِ بمعنى الطلب.

وأصلُه: يَدْتَعِيُون، على وزن: يَفْتَعِلُون، سكِّنت الياءُ بعد أن أُلقيت حركتُها على ما قبلها، وحُذفت لسكونها وسكونِ الواوِ بعدها. وقيل: بل ضُمَّت العينُ لأجل واو الجمعِ ولم يُلقَ حركةُ الياءِ عليها، وإنَّما حُذفت استثقالاً، ثم حُذفت

الياءُ لالتقاءِ الساكنين، فصار: يدتَعُون، فقُلبت التاءُ دالاً وأُدغمت، وافْتَعَلَ بمعنى فَعَلَ الثلاثيِّ كثير، ومنه: اشتوَى بمعنى شوى، واجتمل بمعنى: جَمَلَ، أي: أذاب الشَّحم، قال لبيد:

فاشتوى ليلةَ ريحٍ واجتملْ[1]

و«لهم» خبرٌ مقدَّم، و«ما» مبتدأٌ مؤخَّر، وهي موصولة، والجملةُ بعدها صِلَة، والعائدُ محذوف، وهو إمَّا ضميرٌ مجرور، أو ضميرٌ منصوبٌ على الحذف والإيصال. وجوِّز أن تكونَ «ما» نكرةً موصوفة، وأن تكونَ مصدرية، فالمصدرُ حينئذٍ مبتدأ، وهو خلافُ الظاهر، والجملةُ عطفٌ على الجملة قبلَها، وعدمُ الاكتفاءِ بعطف «ما» على «فاكهة» لئلَّا يتوهَّمَ كونُها عبارةً عن توابع الفاكهةِ ومتمِّماتها.

وجُوِّز أن يكونَ «يدَّعون» من الافتعال بمعنى التفاعُل، ك: ارتموه بمعنى ترامَوه، أي: لهم ما يتداعَون، والمعنى: كلُّ ما يصحُّ أن يطلبَه أحدٌ من صاحبه فهو حاصلٌ لهم، أو: ما يطلبه بعضُهم من بعضٍ بالفعل؛ لمَا في ذلك من التحابِّ.

وأن يكونَ من الافتعال على ما سمعتَ أوَّلاً، إلَّا أنَّ الادِّعاءَ بمعنى التمنِّي، قال أبو عبيدة[2]: العربُ تقول: ادَّعِ عليَّ ما شئت، بمعنى: تمنَّ عليّ، وتقول: فلانٌ في خيرٍ ما ادَّعى، أي: تمنَّى، أي: لهم ما يتمنَّون. قال الزجَّاج[3]: وهو مأخوذٌ من الدُّعاء، أي: كلُّ ما يدَّعونه أهلُ الجنةِ يأتيهم.

وقيل: افتعل بمعنى فَعَلَ، ف «يدَّعون» بمعنى يَدْعُون، من الدُّعاءِ بمعناه المشهور، أي: لهم ما كان يدعون به الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا من الجنَّة ودرجاتِها.

---

(١) الديوان ص ١٧٨، وصدره: أو نَهَتْه فأتاه رزقُه. وقبله:

وغلامٍ أرسلَتْه أمُّه بألوكٍ فبذَلْنا ما سأَلْ

والألوك: الرسالة.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٦٤.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٩٢.

وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ﴾ جوِّز أن يكونَ بدلاً من «ما» بدلَ بعضٍ من كلّ، ولزومُ الضميرِ غيرُ مسلَّم، وقولُه تعالى: ﴿قَوْلًا﴾ مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوف، والجملةُ صفةُ «سلاماً»[1]، وقولُه تعالى: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ صفة «قولاً» أي: سلامٌ يقال لهم قولاً من جهة ربٍّ رحيم، أي: يسلّم عليهم من جهته تعالى بلا واسطة، تعظيماً لهم؛ فقد أخرج ابنُ ماجه[2] وجماعةٌ عن جابرٍ قال: قال النبيُّ ﷺ: «بينا أهلُ الجنةِ في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسَهم، فإذا الربُّ قد أَشرف عليهم مِن فوقِهم، فقال: السلامُ عليكم يا أهلَ الجنة، وذلك قولُ اللهِ تعالى: (سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيءٍ من النعيمِ ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجبَ عنهم، ويبقى نورُه وبركتُه عليهم في ديارهم».

وقيل: بواسطة الملائكةِ عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣] ورُوي ذلك عن ابن عبَّاس. وعلى الأوَّل الأكثرون.

وأمَّا ما قيل: إنَّ ذلك سلامُ الملائكةِ على المؤمنين عند الموت، فليس بشيء.

والبدليةُ المذكورةُ مبنيَّة على أنَّ «ما» عامَّة. وجُوِّز أن يكونَ بدلَ كلٍّ من كلّ، على تقدير أن يرادَ بها خاصّ، أو على ادِّعاء الاتِّحادِ تعظيماً. ولابأسَ في إبدال هذه النكرةِ منها على تقدير موصوليَّتِها؛ لأنَّها نكرةٌ موصوفةٌ بالجملة بعدها، على أنَّه يجوز أن يلتزمَ جوازُ إبدالِ النكرةِ من المعرفة مطلقاً من غيرِ قُبح.

ويجوز أن يكونَ «سلام» خبرَ مبتدأ محذوف، والجملةُ بعده صفتُه، أي: هو - أو: ذلك - سلامٌ يقال قولاً من ربٍّ رحيم، والضميرُ لـ «ما»، وكذا الإشارة.

وجُوِّز أن يكونَ صفةً لـ «مَا»، أي: لهم ما يدَّعون سالم، أو ذو سلامةٍ مما يُكره، و«قولاً» مصدرٌ مؤكِّد لقوله تعالى: «لهم ما يدعون سلام» أي: عِدَةً من

---

(١) كذا في الأصل و(م). وهي: سلام، كما في الآية.

(٢) في سننه (١٨٤)، وفي إسناده الفضل بن عيسى الرقاشي، وهو منكر الحديث.

ربٌّ رحيم. وهذه الوصفيةُ على تقدير كونِ «ما» نكرةً موصوفة، ولا يصحُّ على تقدير كونِها موصولة؛ للتَّخالف تعريفاً وتنكيراً.

وأن يكونَ خبراً لـ «ما»، و«لهم» متعلِّق به لبيان الجهة، كما يقال: لزيدٍ الشرفُ متوفِّر، أي: ما يدَّعون سالمٌ لهم خالصٌ لا شوبَ فيه، ونصب «قولاً» على ما سمعتَ آنفاً، وفي «الكشَّاف»: الأَوجَه أن ينتصبَ على الاختصاص، وهو من محازِّه[1]. فيكون الكلامُ جملةً مفصولةً عمَّا سبق، ولا ضيرَ في نصب النكرةِ على ذلك.

وجُوِّز أن يكونَ مبتدأً خبرُه محذوف، أي: ولهم سلامٌ يقال قولاً من ربٍّ رحيم. وقدِّر الخبرُ مقدَّماً لتكونَ الجملةُ على أُسلوب أخواتِها، لا ليسوغَ الابتداءُ بالنكرة، فإنَّ النكرةَ موصوفةٌ بالجملة بعدَها. وظاهرُ كلامِهم تقديرُ العاطفِ أيضاً، ويمكن ألّا يقدَّر. وفصلُ الجملة ـ على ما قيل ـ لأنَّها كالتعليل لِمَا تضمَّنته الآيُ قبلها؛ فإنَّ سلامَ الربِّ الرحيمِ منشأُ كلِّ تعظيمٍ وتكريم.

وجُوِّز على تقدير كونِه مبتدأً تقديرُ الخبرِ المحذوف: عليهم. قال الإمام[2]: فيكون ذلك إخباراً من الله تعالى في الدُّنيا، كأنَّه سبحانه حكى لنا وقال جلَّ شأنُه: «إن أصحاب الجنة في شغل» ثم لمَّا كمَّل بيانَ حالِهم، قال: سلامٌ عليهم، وهذا كما قال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١] فيكون جلَّ وعلا قد أَحسن إلى عباده المؤمنين كما أَحسن إلى عباده المرسَلين، ثم قال: وهذا وجهٌ مبتكرٌ جيِّد ما يدلُّ عليه منقول، أو نقول: تقديرُه: سلامٌ عليكم، ويكون هذا نوعاً من الالتفات، حيث قال تعالى لهم كذا وكذا، ثم قال سبحانه: «سلام عليكم». اهـ.

ووجهُ الابتداءِ بـ «سلام» في مثل هذا التركيبِ ـ موصوفاً كان أم لا ـ معروفٌ عند أَصاغر الطَّلبة.

---

(١) الكشاف٣/ ٣٢٧، وفيه: من مجازه، بدل: من محازه.

(٢) في التفسير الكبير ٢٦/ ٩٤.

وقرأ محمدُ بن كعبٍ القُرَظي: «سِلْمٌ» بكسر السينِ وسكونِ اللام[١]. ومعناه: سلام. وقال أبو الفضلِ الرازي: مسالمٌ لهم، أي: ذلك مسالم. وليس بذاك.

وقرأ أُبيٌّ وعبدُ الله وعيسى والغَنَوي: «سلاماً»[٢] بالنَّصب على المصدر، أي: يسلِّم عليهم سلاماً، أو على الحال من ضميرِ «ما» في الخبر، أو منها على القول بجواز مجيءِ الحالِ من المبتدأ، أي: ولهم مرادُهم خالصاً.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: انفردوا عن المؤمنين إلى مصيركم من النَّار. وأخرج عبد بنُ حُميدٍ وغيرُه عن قتادة: أي: اعتزلوا عن كلِّ خير. وعن الضحَّاك: لكلِّ كافرٍ بيتٌ من النار يكون فيه، لا يَرى ولا يُرى، أي: على خلافِ ما للمؤمنين من الاجتماع مع مَن يحبُّون. ولعلَّ هذا بعد زمانٍ من أوَّل دخولِهم، فلا ينافي عتابَ بعضِهم بعضاً الواردَ في آياتٍ أُخَر، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤٧] ويحتمل أنَّه أَراد: لكلِّ صنفٍ كافر، كاليهود والنَّصارى.

وجوَّز الإمامُ[٣] كونَ الأمرِ أمرَ تكوين، كما في ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧] على معنى أنَّ اللهَ تعالى يقول لهم ذلك، فتظهرُ عليهم سيماءُ يُعرَفون بها، كما قال سبحانه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن:٤١] ولا يخفى بُعدُه.

والجملة عطفٌ إمَّا على الجملة السابقةِ المسوقةِ لبيان أحوالِ أصحابِ الجنة، من عطف القصةِ على القصَّة، فلا يضرُّ التخالفُ إنشائيةً وخبرية، وكأنَّ تغييرَ السبكِ لتخييل كمالِ التبايُن بين الفريقين وحالَيهما.

وإمَّا على مضمَرٍ ينساق إليه حكايةُ حالِ أصحابِ الجنة، كأنَّه قيل إثرَ بيانِ كونِهم في شُغلٍ عظيم الشأن وفوزِهم بنعيمٍ مقيم يقصُر عنه البيان: فليَقَرُّوا بذلك عيناً، وامتازوا عنهم أيُّها المجرمون. قاله أبو السُّعود[٤].

---

(١) المحتسب ٢/ ٢١٤، والبحر ٧/ ٣٤٣.

(٢) البحر ٧/ ٣٤٣، ونسبها ابن خالويه ص ١٢٦ لأُبي وعبد الله، وابن جني ٢/ ٢١٥ لعيسى.

(٣) في التفسير الكبير ٢٦/ ٩٥.

(٤) في إرشاد العقل السليم ٧/ ١٧٤.

وقال الخَفاجي(١): يجوز أن يكونَ بتقدير: ويقال: «امتازوا» على أنَّه معطوفٌ على يقال المقدَّرِ العاملِ في «قولاً»، وهو أقربُ وأقلُّ تكلُّفاً؛ لأنَّ حذفَ القولِ وقيامَ معمولِه مَقامَه كثير، حتى قيل فيه: هو البحرُ حَدِّثْ عنه ولا حرج. وفيه بحثٌ يظهر بأدنى تأمُّل.

وقيل: إنَّ المذكور من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ إلى هنا تفصيلٌ للمجمَل السابق، أعني قولَه تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وبُني عليه أنَّ المعطوفَ عليه متضمِّن لمعنى الطلب، على معنى: فلْيَمْتَز المؤمنون عنكم يا أهلَ المحشرِ إلى الجنة، وامتازوا عنهم إلى النَّار.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه ليس بظاهر؛ إذ بأحد الأمرَين غُنيةٌ عن الآخَر، ثم قال: والوجهُ أنَّ المقصودَ عطفُ جملةِ قصَّة أصحابِ النار على جملة قصةِ أصحابِ الجنة، وأُوثر هاهنا الطلبُ زيادةً للتهويل والتعنيف، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ وإنْ كان لابدَّ من التضمين، فالمعطوفُ أولى بأن يجعلَ في معنى الخبر، على معنى: وإنَّ المجرمين(٢) ممتازون منفردون. وفائدةُ العدولِ ما في الخطاب والطلبِ من النُّكتة. اهـ.

وما ذكره من حديث إغناء أَحدِ الأمرين عن الآخَر سهل؛ لكون الأمرِ تقديريّاً، مع أنَّ الامتيازَ الأوَّل على وجه الإكرام وتحقيقِ الوعد، والآخرَ على وجه الإهانة وتعجيلِ الوعيد، فيفيد كلٌّ منهما ما لا يُفيده الآخَر. نعم قال العلَّامة أبو السُّعود في ذلك(٣): إنَّ اعتبار: فليمتز المؤمنون، وإضمارَه بمعزلٍ عن السَّداد؛ لما أنَّ المحكيَّ عنهم ليس مصيرَهم إلى ما ذُكر من الحال المَرْضِيَّةِ حتى يتسنَّى ترتيبُ الأمر المذكورِ عليه، بل إنَّما هو استقرارُهم عليها بالفعل، وكونُ ذلك تنزيلَ المترقَّب منزلةَ الواقعِ لا يُجدي نفعاً؛ لأنَّ مناطَ الاعتبارِ والإضمارِ انسياقُ الأفهامِ إليه، وانصبابُ نظمِ الكلامِ عليه، فبعد التنزيلِ المذكورِ وإسقاطِ الترقُّب عن درجة

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٤٨.

(٢) في الأصل و(م): المجرمون. والمثبت من حاشية الشهاب٧/ ٢٤٨.

(٣) في إرشاد العقل السليم ٧/ ١٧٤.

الاعتبارِ يكون التصدِّي لإضمار شيءٍ يتعلَّق به إخراجاً للنظم الكريمِ عن الجزالة بالمرَّة، والظاهرُ أنَّه لا فرقَ في هذا بين التضمينِ والإضمار، والذي يغلب على الظنِّ أنَّ ما ذُكر لا يفيد أكثرَ من أولويَّة تقديرِ: فليَقرُّوا عيناً، على تقدير: فليمتازوا، فلْيُفهم.

وقال بعضُ الأذكياء: يجوز أن يكونَ «امتازوا» فعلاً ماضياً، والضميرُ للمؤمنين، أي: انفرد المؤمنون عنكم بالفوزِ بالجنة ونعيمِها أيُّها المجرمون، ففيه تحسيرٌ لهم، والعطفُ حينئذٍ من عطف الفعليةِ الخبريةِ على الاسمية الخبرية، ولا منعَ منه.

وتعقِّب بأنَّه ـ مع ما فيه من المخالفة للأسلوب المعروفِ من وقوعِ النِّداءِ مع الأمرِ نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف:٢٩] ـ قليلُ الجدوى، وما ذكره من التحسيرِ يكفي فيه ما قبلُ من ذِكر ما هم عليه من التنعُّم، وأيضاً المأثورُ يأبى عنه غايةَ الإباء، وهو كالنَّصِّ في أنَّ «امتازوا» فعلُ أمر، ولا يكاد يخطر لقارئٍ ذلك.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ من جُملة ما يقال لهم بطريق التقريعِ والإلزام والتبكيتِ بين الأمرِ بالامتياز والأمرِ بمقاساة حرِّ جهنَّم.

والعهد: الوصيةُ والتقدُّم بأمرٍ فيه خيرٌ ومنفعة. والمراد به هاهنا ما كان منه تعالى على ألسنة الرُّسل عليهم السلام من الأوامر والنواهي، التي من جملتها قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية [الأعراف:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨] وغيرُهما من الآيات الواردةِ في هذا المعنى.

وقيل: هو الميثاقُ المأخوذُ عليهم في عالَم الذَّرّ، إذ قال سبحانه لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وقيل: هو ما نُصب لهم من الحُجَج العقليةِ والسَّمْعية الآمرةِ بعبادة اللهِ تعالى الزاجرةِ عن عبادة غيرِه عزَّ وجلَّ، فكأنَّه استعارةٌ لإقامة البراهين، والمرادُ بعبادة

الشيطانِ طاعتُه فيما يوسوس به إليهم ويزيِّنه لهم، عبَّر عنها بالعبادة لزيادة التحذيرِ والتنفيرِ عنها، ولوقوعها في مقابلة عبادتِه عزَّ وجلَّ. وجوِّز أن يرادَ بها عبادةُ غيرِ اللهِ تعالى من الآلهة الباطلة، وإضافتُها إلى الشيطان لأنَّه الآمرُ بها والمزيِّن لها، فالتجوُّز في النسبة.

وقرأ طلحةُ والهذيلُ بن شرحبيل الكوفيّ: «إِعهَدْ» بكسر الهمزة(١). قاله صاحبُ «اللوامح»، وقال: هي لغةُ تميم. وهذا الكسرُ في النون والتاءِ أكثرُ من بين أحرفِ المضارعة.

وقال ابن عطية(٢): قرأ الهذيلُ وابن وثّاب: «أَلمِ إِعهَد» بكسر الميم والهمزةِ وفتحِ الهاء، وهي مِن كَسْرِ حرفِ المضارعةِ سوى الياء. ورُوي عن ابن وثَّاب: «أَلم أَعهِد» بكسر الهاء، ويقال: عهِد وعهَد. اهـ.

ولعله أراد أنَّ كسرَ الميمِ يدلُّ على كسر الهمزة؛ لأنَّ حركةَ الميم هي الحركةُ التي نُقلت إليها من الهمزة، وحُذفت الهمزةُ بعد نقلِ حركتها، لا أنَّ الميمَ مكسورةٌ والهمزةَ بعدها مكسورةٌ أيضاً متلفَّظ بها.

وقال الزمخشري(٣): قُرئ: «إِعهَد» بكسر الهمزة، وباب فَعِل كلُّه يجوز في حروف مضارعتِه الكسرُ، إلَّا في الياء، و«أَعهِد» بكسر الهاء، وقد جوَّز الزجَّاج(٤) أن يكونَ من باب: نَعِمَ ينعَم، وضَرَبَ يضرِب، و«أَحْهَد» بإبدال العينِ وحدها حاءً مهملة، و«أَحَّد» بإبدالها مع إبدال الهاءِ وإدغامها، وهي لغةُ تميم، ومنه قولُهم: دحَّا محَّا، أي: دَعْها معها.

وما ذكره مِن قوله: إلَّا في الياء، مبنيٌّ على بعض اللُّغات، وعن بعض كلبٍ أنَّهم يكسرون الياءَ أيضاً، فيقولون: يِعلَم، مثلاً، وقولُه في «أَحْهَد» و«أَحَّد»: لغةُ بني تميم. هو المشهور، وقيل: «أَحْهَد» لغةُ هُذيل، و«أَحَّد» لغةُ بني تميم،

---

(١) البحر ٧/ ٣٤٣، ونسبها ابن خالويه ص ١٢٥ ليحيى بن وثاب.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٩.

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٢٧.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٩٢.

وقولُهم: دحّا محّا. إمَّا يريدوا[1] به: دَعْ هذه القِربَةَ مع هذه المرأة، أو: دَعْ هذه المرأةَ مع هذه القِربة.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ أي: ظاهرُ العداوة، وهو تعليلٌ لوجوب الانتهاء. وقيل: تعليلٌ للنهي، وعداوةُ اللعينِ جاءت من قِبَل عداوتِه لآدمَ عليه السلام، والنداءُ بوصف البنوَّة[2] لآدمَ كالتمهيد لهذا التعليل، والتأكيدِ لعدم جريهم على مقتضَى العلم، فهم والمنكِرون سواء.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ عطفٌ على «أن لا تعبدوا الشيطان» على أنَّ «أنْ» فيها مفسِّرة للعهد الذي فيه معنى القولِ دون حروفِه، أو مصدريةٌ حُذف عنها الجارّ، أي: ألَم أعهد إليكم في ترك عبادةِ الشيطانِ وفي عبادتي. وتقديمُ النهيِ على الأمر لِمَا أنَّ حقَّ التخليةِ التقدُّمُ على التحلية. قيل: وليتَّصلَ به قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ بناءً على أنَّ الإشارةَ إلى عبادته تعالى؛ لأنَّه المعروفُ في الصِّراط المستقيم.

وجعل بعضُهم الإشارةَ إلى ما عُهد إليهم من ترك عبادةِ الشيطانِ وفعلِ عبادة اللهِ عزَّ وجلَّ، ورجّح بأنَّ عبادته تعالى إذا لم تنفردْ عن عبادة غيرِه سبحانه لا تسمَّى صراطاً مستقيماً، فتأمَّل.

والجملةُ استئنافية؛ جيءَ بها لبيان المقتضي للعهد بعبادته تعالى، أو للعهد بشقَّيه، والتنكيرُ للمبالغة والتعظيم، أي: هذا صراطٌ بليغٌ في استقامته، جامعٌ لكلِّ ما يجب أن يكونَ عليه، واصلٌ لمرتبةٍ يقصُر عنها التوصيفُ والتعريف؛ ولذا لم يقل: هذا الصِّراطُ المستقيم، أو: هذا هو الصراطُ المستقيم، وإنْ كان مفيداً للحصر.

وجُوِّز أن يكونَ التنكيرُ للتبعيض، على معنى: هذا بعضُ الصُّرطِ المستقيمة، وهو للهضم من حقِّه على الكلامِ المنصف، وفيه إدماجُ التوبيخ، على معنى أنَّه لو كان بعضُ الصُّرطِ الموصوفةِ بالاستقامة لَكفى ذلك في انتهاجه، كيف وهو الأصلُ والعمدة؟ كما قيل:

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والوجه: أن يريدوا.

(٢) في (م): النبوة، وهو تصحيف.

وأقولُ بعضُ الناسِ عنك كنايةً خوفَ الوُشاةِ وأنت كلُّ الناسِ[١]

وفيه أنَّ المطلوبَ الاستقامة، والأمر دائرٌ معها، وقليلُها كثير.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتشديد التوبيخِ وتأكيدِ التقريع ببيان عدمِ اتِّعاظهم بغيرهم، إثرَ بيانِ نقضِهم العهد، فالخطابُ لمتأخِّريهم، الذين من جملتهم كفارٌ خصُّوا بزيادة التوبيخِ والتقريعِ لتضاعف جناياتِهم. وإسنادُ الإضلالِ إلى ضمير الشيطانِ لأنَّه المباشرُ للإغواء.

والجِبِلُّ، قال الراغب[٢]: الجماعةُ العظيمة، أُطلق عليهم تشبيهاً بالجبل في العِظَم. وعن الضحَّاك: أقلُّ الجِبِلّ - وهي الأمةُ العظيمة - عشرةُ آلاف. وفسَّره بعضُهم بالجماعة، وبعضٌ بالأمَّة بدون الوصف.

وقيل: هو الطبعُ المخلوقُ عليه الذي لا ينتقل كأنَّه جَبَل. وهو هنا خلافُ الظاهر.

وقرأ العربيان والهذيل: «جُبْلاً» بضمِّ الجيم وإسكان الباء[٣]. وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ بضمَّتين مع تخفيف اللام[٤]. والحسن، وابنُ أبي إسحاق، والزهريُّ، وابن هُرمُز، وعبدُ الله بن عُبيد بن عمير، وحفصُ بن حميد بضمَّتين وتشديدِ اللام[٥]. والأشهبُ العقيلي، واليماني، وحمادُ بن سلمةَ عن عاصمٍ بكسر الجيمِ وسكونِ الباء[٦]. والأعمشُ بكسرتين وتخفيفِ اللام[٧]. وقُرىء: «جِبَلاً» بكسر الجيمِ وفتحِ الباءِ وتخفيفِ اللام، جمع: جِبْلَة، نحوه: فِطرة وفِطَر. وقرأ

---

(١) قائله بهاء الدين زهير، وهو في ديوانه ص ١٨١.

(٢) انظر المفردات (جبل).

(٣) التيسير ص١٨٤، والنشر ٢/ ٣٥٥ عن العربيين - وهما نافع وأبو عمرو - والكلام من البحر ٧/ ٣٤٤.

(٤) التيسير ص ١٨٤، والنشر ٢/ ٣٥٥. وقرأ بها أيضاً خلف، ورويس راوية يعقوب.

(٥) المحتسب ٢/ ٢١٦، والبحر ٧/ ٣٤٤.

(٦) البحر ٧/ ٣٤٤، ونسبه ابن جني ٢/ ٢١٦ للأشهب، وابن خالويه ص ١٢٥ لحماد بن سلمة عن عاصم.

(٧) البحر ٧/ ٣٤٤، وانظر القراءات الشاذة ص ١٢٥.

أميرُ المؤمنين عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه وبعضُ الخراسانيين: «جِيلاً» بكسر الجيمِ بعدَها ياءٌ آخرُ الحروف[1]، واحدُ: الأجيال، وهو الصِّنف من الناس، كالعرب والرُّوم.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ عطفٌ على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أكنتم تشاهدون آثارَ عقوباتِهم فلم تكونوا تعقلون أنَّها لضلالهم، أو: فلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً حتى ترتدعوا عمَّا كانوا عليه كيلا يحيقَ بكم العذابُ الأليم.

وقرأ طلحةُ، وعيسى، وعاصمٌ في رواية عبدِ بن حُميد عنه بياءِ الغَيبة، فالضميرُ للجِبِلّ[2].

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ استئنافٌ يخاطَبون به بعد تمامِ التوبيخِ والتقريع، والإلزامِ والتبكيت، عند إشرافهم على شفير جهنَّم، أي: هذه التي ترونها جهنمُ التي لم تزالوا توعَدون بدخولها على ألسنة الرسلِ عليهم السلام والمبلِّغين عنهم بمقابلة عبادةِ الشيطان.

﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ أمرُ تحقيرٍ وإهانة، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ﴾ إلخ [الدخان: ٤٩]. أي: قاسُوا حرَّها في هذا اليومِ الذي لم تستعدُّوا له. وقال أبو مسلم: أي: صيروا صَلَاها، أي: وَقودَها. وقال الطبرسي[3]: اِلزموا العذابَ بها. وأصل الصَّلاء: اللزوم، ومنه المصلِّي الذي يجيء في أثَر السابق؛ للزومه أثَرَه.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ بسبب كفرِكم المستمرِّ في الدنيا، فالباءُ للسببية، و«ما» مصدرية، واحتمالُ كونِها موصولةً بعيد.

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ كنايةٌ عن منعهم من التكلُّم، ولا مانعَ من أن يكونَ هناك ختمٌ على أفواههم حقيقة.

---

(١) البحر ٧/ ٣٤٤.

(٢) البحر ٧/ ٣٤٤، وليس فيه رواية عبد بن حميد عن عاصم.

(٣) في مجمع البيان ٢٣/ ٣٥.

وجُوِّز أن يكونَ الختمُ مستعاراً لمعنى المنع، بأن يشبَّه إحداث حالةٍ في أفواههم مانعةٍ من التكلُّم بالختم الحقيقيّ، ثم يستعار له الختمُ ويشتقّ منه نختم، فالاستعارةُ تبعية، أي: اليومَ نمنع أفواهَهم من الكلام منعاً شبيهاً بالختم. والأوّل أَوْلى في نظري.

﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ أي: بالذي استمرُّوا على كسبه في الدُّنيا. وكأنَّ الجارَّ والمجرورَ قد تنازع فيه «تُكلِّم» و«تَشهد»، ولعلَّ المعنى والله تعالى أعلم: تكلِّمنا أيديهم بالذي استمرُّوا على عملِه ولم يتوبوا عنه، وتُخبرنا به وتقول: إنَّهم فعلوا بنا وبواسطتنا كذا وكذا، وتَشهد عليهم أَرجلُهم بذلك.

ونسبةُ التكليم إلى الأيدي دون الشهادةِ لمزيد اختصاصِها بمباشرة الأَعمال، حتى إنَّها كَثُرَ نسبةُ العملِ إليها بطريق الفاعلية، كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] وقولِه سبحانه: ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [يس: ٣٥] وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] وقولِه جلَّ وعلا: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] إلى غير ذلك، ولا كذلك الأَرجل، فكانت الشهادةُ أنسبَ بها؛ لِمَا أنَّها لم تُضَف إليها الأعمال، فكانت كالأجنبية، وكان التكليمُ أنسب بالأيدي؛ لكثرة مباشرتِها الأعمالَ وإضافتِها إليها، فكأنَّها هي العاملة، هذا مع ما في جمع التكليمِ مع الختمِ على الأفواه المرادِ منه المنعُ من التكلُّم مِن الحُسن.

وكأنَّه سبحانه لمَّا صدَّر آيةَ النُّور ـ وهي قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾ [الآية: ٢٤] ـ بالشَّهادة، وذكر جلَّ وعلا الأعضاءَ من الأعالي إلى الأسافل، أَسندها إلى الجميع ولم يخصَّ سبحانه الأيديَ بالتكليم؛ لوقوعها بين الشُّهود، مع أنَّ ما يصدر منها شهادةٌ أيضاً في الحقيقة؛ فإنَّ كونَها عاملةً ليس على الحقيقة، بل هي آلة، والعاملُ هو الإنسانُ حقيقة، وكان اعتبارُ الشهادةِ من المصدر هناك أَوفقَ بالمقام؛ لسبق قصَّةِ الإفكِ وما يتعلَّق بها، ولذا نصَّ فيها على الألسنة ولم ينصَّ هاهنا عليها، بل الآيةُ ساكتةٌ عن الإفصاح بأمرها من الشَّهادة وعدمِها،

والختمُ على الأفواه ليس بعدم شهادتِها؛ إذ المرادُ منه منعُ المحدَّث عنهم عن التكلُّم بألسنتهم، وهو أمرٌ وراءَ تكلُّم الألسنةِ أنفسِها وشهادتِها، بأن يُجعلَ فيها علمٌ وإرادةٌ وقدرة على التكلُّم، فتتكلَّم هي وتشهد بما تشهد، وأصحابُها مختومٌ على أفواههم لا يتكلَّمون.

ومنه يُعلم أنَّ آيَةَ «النورِ» ليس فيها ما هو نصٌّ في عدم الختمِ على الأفواه. نعم الظاهرُ هناك أن لا ختمَ، وهنا أن لا شهادةَ من الألسنة. وعلى هذا الظاهرِ يجوز أن يكونَ المحدَّث عنه في الآيتين واحداً، بأن يختمَ على أفواههم وتنطقَ أيديهم وأرجلُهم أولاً، ثم يرفع الختمُ وتشهد ألسنتُهم، إمَّا مع تجدُّد ما يكون من الأيدي والأرجل، أو مع عدمِه والاكتفاءِ بما كان قبلُ منهما، وذلك إمَّا في مقامٍ واحدٍ من مقامات يومِ القيامة، أو في مقامين.

وليس في كلٍّ من الآيتين ما يدلُّ على الحصر ونفي شهادةِ غيرِ ما ذكر من الأعضاء، فلا منافاةَ بينهما وبين قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠] فيجوز أن يكونَ هناك شهادةُ السمعِ والأبصارِ والألسنةِ والأيدي والأرجل وسائرِ الأعضاء، كما يُشعر بهذا ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَجُلُودُهُمۡ﴾[1] في آية «السَّجدة»، لكن لم يُذكَر بعضٌ من ذلك في بعضٍ من الآيات، اكتفاءً بذِكره في البعض الآخرِ منها، أو دلالتِه عليه بوجه.

ويجوز أن يكونَ المحدَّثُ عنه في كلٍّ طائفةً من الناس، وقد جعل بعضُهم المحدَّثَ عنه في آية «السجدةِ» قومَ ثمود، وحمل أعداء اللهِ عليهم بقوله تعالى بعدُ: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ [فصلت: ٢٥] ولا يَبعد أن يكونَ المحدَّث عنه في آية النورِ أصحابَ الإفكِ من المنافقين والذين يرمون المحصَنات.

ثم إنَّ آيَةَ «السجدةِ» ظاهرةٌ في أنَّ الشهادةَ عند المجيءِ إلى النار، وآيةُ «النورِ» ليس فيها ما يدلُّ على ذلك. وأمَّا هذه الآيةُ، فيُشعر كلامُ البعضِ بأنَّ الختمَ

---

(١) في الأصل و(م): «والجلود»، والصواب ما أثبتناه.

والشهادةَ فيها بعد خطابِ المحدَّث عنهم بقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فيكون ذلك عند المجيءِ إلى النار أيضاً.

قال في «إرشاد العقلِ السليم»: إنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ﴾ إلخ التفاتٌ إلى الغَيبة؛ للإيذان بأنَّ ذِكرَ أحوالِهم القبيحةِ استدعى أن يُعرَضَ عنهم وتُحكَى أحوالُهم الفظيعةُ لغيرهم، مع ما فيه من الإيماء إلى أنَّ ذلك من مقتضيات الختم؛ لأنَّ الخطابَ لتلقِّي الجواب، وقد انقطع بالكلِّية[(١)].

لكن قال في موضعٍ آخَر: إنَّ الشهادةَ تتحقَّق في موقف الحساب، لا بعد تمامِ السؤالِ والجوابِ وسَوقِهم إلى النار[(٢)]. والأخبارُ ظاهرةٌ في ذلك:

أخرج ابن جَريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ عن أبي موسى الأشعريِّ من حديثٍ: يُدعَى الكافرُ والمنافقُ للحساب، فيَعرِضُ ربُّه عليه عملَه، فيجحدُ ويقول: أي ربِّ، وعزَّتِك لقد كتب عليَّ هذا المَلَكُ ما لم أعمل، فيقول له المَلَك: أما عملتَ كذا في يومِ كذا في مكانِ كذا؟ فيقول: لا وعزَّتِك أي ربِّ ما عملته. فإذا فعل ذلك، خُتِم على فيه. فإنِّي أَحسَبُ أوَّل ما تنطق منه فخذُه اليمنى، ثم تلا: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآيةَ[(٣)].

وفي حديثٍ أخرجه مسلمٌ والترمذيُّ والبيهقيُّ عن أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ مرفوعاً: «إنَّه يلقى العبدُ ربَّه، فيقول اللهُ تعالى له: أي فُلْ، ألم أُكرِمْك...» إلى أن قال ﷺ: «فيقول: آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك، وصلَّيت وصُمت وتصدَّقت، ويُثني بخيرِ ما استطاع، فيقول: ألا نبعث شاهدَنا عليك؟ فيفكِّر في نفسه: مَن الذي يشهد عليَّ، فيُختم على فِيْهِ، ويقال لفخذه: انطقي، فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله...»[(٤)].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٧/ ١٧٦.

(٢) إشاد العقل السليم ٨/ ٩.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٦٧، وتفسير الطبري ١٩/ ٤٧٢-٤٧٣.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٦٧، وهو في صحيح مسلم (٢٩٦٨)، وشعب الإيمان ١/ ٢٥٠ من حديث أبي هريرة ﷺ. ولم نقف عليه من حديث أبي سعيد بهذا اللفظ. وقوله: «أي فُل» بضم الفاء وإسكان اللام، معناه: يا فلان. شرح النووي لصحيح مسلم ١٨/ ١٠٣.

وفي بعض الأخبارِ ما يدلُّ على أنَّ العبدَ يطلب شاهداً منه، فيُختم على فيه؛ أَخرج أحمد، ومسلم، وابنُ أبي الدنيا ـ واللفظُ له ـ عن أنسٍ في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ قال: كنَّا عند النبيِّ ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذُه، قال: «أتدرون مِمَّ ضحكت؟» قلنا: لا، يا رسولَ الله. قال: «من مخاطبة العبدِ ربَّه، يقول: يا ربِّ، ألم تُجرْني من الظُّلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إنِّي لا أُجيز عليَّ إلَّا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً. فيُختم على فيه، ويقال لأَركانه: انطقي، فتنطق بأَعماله، ثم يخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسحقاً، فعنكنَّ كنت أُناضل»[١].

والجمعُ بالتزام القولِ بالتعدُّد ـ فتارةً يكون ذلك عند الحساب، وأُخرى عند النَّار ـ والقولُ باختلاف أحوالِ الناسِ فيما ذكر، وما تقدَّم في حديثِ أبي موسى من أنَّ الفخذَ اليمنى أوَّلُ ما تنطق على ما يَحْسَبُ = جزم به الحَسَن.

وأَخرج أحمدُ[٢] وجماعةٌ عن عقبةَ بنِ عامرٍ أنَّه سمع رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ أولَ عظمٍ من الإنسان يتكلَّم يوم يُختَم على الأفواه فَخِذُه من الرِّجل الشِّمال».

ثم الظاهرُ أنَّ التكلُّم والشهادةَ بنطقٍ حقيقة، وذلك بعد إعطاء اللهِ تعالى الأعضاءَ حياةً وعلماً وقدرة، فيُردُّ بذلك على مَن زعم أنَّ البِنْيَةَ المخصوصةَ شرطٌ فيما ذكر.

وإسنادُ الختمِ إليه تعالى دونَ ما بعد، قيل: لئلَّا يحتملَ الجبرَ على الشهادةِ والكلام، فدلَّ على أنَّ ذلك باختيار الأعضاءِ المذكورةِ بعد إقدار اللهِ تعالى، فإنَّه أدلُّ على تفضيح المحدَّث عنهم.

وهل يشهد كلُّ عضوٍ بما فعل به أو يشهدُ بذلك وبما فعل بغيره؟ فيه خلاف، والثاني أَبلغُ في التفظيع[٣].

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٦٩)، ولم نقف عليه عند الإمام أحمد، وهو عند النسائي في السنن الكبرى (١١٥٨٩).

(٢) في مسنده (١٧٣٧٤).

(٣) في الأصل: التفضيح.

والعلمُ بالمشهود به يحتمل أن يكونَ حصولُه بخلق اللهِ تعالى إيَّاه في ذلك الوقتِ ولا يكون حاصلاً في الدنيا، ويحتمل أن يكونَ حصولُه في الدُّنيا، بأن تكونَ الأعضاءُ قد خلق اللهُ تعالى فيها الإِدراك، فهي تدرك الأفعالَ كما يدركها الفاعل، فإذا كان يومُ القيامة، ردَّ اللهُ تعالى لها ما كان، وجعلها مستحضرةً لِمَا عملته أولاً، وأنطقها نطقاً يفقهه المشهودُ عليه. وهذا نحوُ ما قالوا من تسبيح جميعِ الأشياءِ بلسان القال، والله تعالى على كلِّ شيءٍ قدير، والعقلُ لا يُحيل ذلك، وليس هو بأبعدَ من خلق اللهِ تعالى فيها العلمَ والإرادة والقدرةَ حتى تنطقَ يومَ القيامة، فمَن يؤمن بهذا فلْيؤمن بذلك.

والتشبُّث بذيل الاستبعادِ يجرُّ إلى إنكار الحشرِ بالكلِّية والعياذُ بالله تعالى، أو تأويلِه بما أوَّله به الباطنية، الذين قتلُ واحدٍ منهم ـ كما قال حجَّةُ الإسلام الغزاليّ ـ أفضلُ من قتل مئةِ كافر، وعلى هذا تكون الآيةُ من مؤيِّدات القولِ بالتسبيح القاليِّ للجمادات ونحوِها.

وعلى الاحتمال الأوَّلِ يؤيِّد القولُ بجواز شهادةِ الشاهدِ إذا حصل عنده العلمُ الذي يقطع به بأيِّ وجهٍ حصل، وإنْ لم يشهد ذلك ولا حضره.

وقد أفاد الشيخُ الأكبر قدَّس سرُّه في تفسيره المسمَّى بـ «إيجاز البيانِ في ترجمة القرآن» أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣] يفيد جوازَ ذلك. وذكر فيه أنَّ الشاهدَ يأثم إنْ لم يشهد بعلمه. ولا يخفَى عليك ما للفقهاءِ في المسألة من الكلام.

وكأنَّ الشهادةَ على الاحتمال الثاني بعدَ الاستشهاد، بأن يقالَ للأركان: ألم يَفعل كذا؟ فتقول: بلى فَعَلَ. ويمكن أن تكونَ بعد أن تؤمرَ الأركانُ بالشَّهادة، بأن يقالَ لها: اشهدي بما فعلوا، فتشهد معدِّدةً أفعالَهم. وهذا إمَّا بأن تذكرَ جميعَ أفعالِهم من المعاصي وغيرِها غيرَ مميِّزةٍ المعصيةَ عن غيرها، وكونُ ذلك شهادةً عليهم باعتبار الواقعِ لتضمُّنها ضررَهم بذِكر ما هو معصيةٌ في نفس الأمر. وإمَّا بأن تذكرَ المعاصي فقط، وهذا يحتاج إلى التزام القولِ بأنَّ الأركانَ تميِّز في الدُّنيا ما كان

معصيةً من الأفعال ممَّا لم يكن كذلك، ولا أظنُّك تقول به، ولم أَسمع أنَّ أحداً يدَّعيه.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ تكليمَ الأركانِ وشهادتَها دلالتُها على أفعالها وظهورُ آثارِ المعاصي عليها، بأن يبدلَ اللهُ تعالى هيئاتِها بأخرى يفهم منها أهلُ الحشر ويستدلُّون بها على ما صدر منهم، فجُعلت الدَّلالةُ الحاليةُ بمنزلة المقاليةِ مجازاً.

وفيه أنَّه لا يُصار إلى المجاز مع إمكان الحقيقة، لا سيَّما وما يأتي في سورة «حم» السجدة من قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] ظاهرٌ جدّاً في النُّطق القالي، والأخبارُ أظهرُ وأظهر. نعم يهون على هذا القولِ أمرُ الاستبعاد، ولا يكاد يَترك لأجله الظواهرَ العلماءُ الأمجاد.

هذا والآيةُ كالظَّاهرة في تكليف الكفارِ بالفروع؛ إذ لو لم يكونوا مكلَّفين بها لا فائدةَ في شهادة الأعضاءِ بما كسبوا، وإتمامُ الحجَّةِ عليهم بها وتخصيصُ ما كسبوا بالكفر ممَّا لا يكاد يُلتفت إليه، ولا أظنُّ أنَّ أحداً يقول به، بل ربَّما يُدَّعى تخصيصُه بما سوى الكفر، بناءً على أنَّه من أفعال القلبِ دون الأعضاءِ التي تشهد، لكنَّ الذي يترجَّح في نظري العموم.

وشهادتُها به إمَّا بشهادتها بما يدلُّ عليه من الأفعال البدنيةِ والأقوالِ اللِّسانية، أو بالعلم الضروريِّ الذي يخلقه اللهُ تعالى لها ذلك اليوم، أو بالعلم الحاصلِ لها بخلق اللهِ تعالى في الدنيا، فتعلمه بواسطة الأفعالِ والأقوالِ الدالَّة عليه، أو بطريقٍ آخَرَ يعلمه اللهُ تعالى.

وهي ظاهرةٌ في أنَّ الحشرَ يكون بأجزاءِ البدنِ الأصلية، لا ببدنٍ آخَرَ ليس فيه الأجزاءُ الأصليةُ للبدن الذي كان في الدنيا؛ إذ أركانُ ذلك البدنِ لم تكن الأعمالُ السيئةُ معمولةً بها، فلا يَحسُن الشهادةُ بها منها، فلْيُحفَظ.

وقُرِىء: «يُختَم» مبنيّاً للمفعول، و«تتكلَّم أيديهم» بتاءين. وقُرئ: «ولْتكلِّمْنا أيديهم ولْتَشهدْ أَرجُلُهم» بلام الأمر، على أنَّ اللهَ تعالى يأمر الأعضاءَ بالكلام

والشَّهادة. وروى عبدُ الرحمن بن محمدِ بنِ طلحةَ عن أبيه عن جدِّه طلحةَ أنَّه قرأ: «ولِتُكلِّمَنا أَيديهم ولِتشهدَ» بلام كي والنَّصب، على معنى: لتكليم الأيدي إيَّانا ولشهادة الأَرجُلِ نختم على أفواههم(١).

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ بيان أنَّهم اليومَ في قبضة القدرةِ ومستحقُّون للعذاب، إلَّا أنه عزَّ وجلَّ لم يشأ ذلك لحكمته جلَّ وعلا الباهرة. والطمسُ: إزالةُ الأثرِ بالمحو، والمعنى: لو نشاء الطمسَ على أعينهم وإزالةَ ضوئها وصورتِها بالكلِّية بحيث تعود ممسوحةً، لَطمسنا عليها وأذهبنا أثرَها.

وجوِّز أن يرادَ بالطمس إذهابُ الضوءِ من غير إذهاب العضوِ وأثرِه، أي: ولو نشاء لأعميناهم. وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ وإنْ كان المعنى على المُضيِّ؛ لإفادة أنَّ عدمَ الطمسِ على أعينهم لاستمرار عدمِ المشيئة، فإنَّ المضارعَ المنفيَّ الواقعَ موقعَ المضيِّ ليس بنصٍّ في إفادة انتفاءِ استمرارِ الفعل، بل قد يُفيد استمرارَ انتفائه.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ عطفٌ على «لطمسنا» على الفرْض. و«الصراط» منصوبٌ بنزع الخافض، أي: فأَرادوا الاستباقَ إلى الطريق الواضحِ المألوفِ لهم ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: فكيف يُبصرون ذلك الطريقَ وجهةَ السلوك. والمقصودُ إنكارُ إبصارِهم.

وحاصلُه: لو نشاءُ لأذهبنا أحداقَهم وأبصارَهم، فلو أَرادوا الاستباقَ وسلوكَ الطريقِ الذي اعتادوا سلوكَه لا يَقدرون عليه ولا يُبصرونه. وتأويلُ «استبقوا» بـ: أَرادوا الاستباقَ، ممَّا ذهب إليه البعض. وقيل: لا حاجةَ لتأويله؛ فإنَّ الأعمى يجوز شروعُه في السِّباق.

ونُصبَ «الصراط» بنزع الخافض، ولم يُنصَب على الظرفية لأنَّه كالطريق مكانٌ مختصّ، ومثلُه لا ينتصبُ على الظرفية. وجوِّز كونُه مفعولاً به؛ لتضمين «استبَقوا» معنى ابتدَروا. ونقل عن «الأساس» في قسم الحقيقة: «استبقوا الصراط»: ابتدروه. قال في «الكشف»: فعليه لا تضمين. وادَّعى بعضُهم توهُّمَ دعوى أنَّ ذلك معنًى

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٨، والبحر ٧/ ٣٤٤، وقراءة طلحة في المحتسب ٢/ ٢١٦.

حقيقيّ، وصاحبُ «الأساس» إنَّما ذكره في آخر قسمِ المجاز[1]، والمعنى: لو شئنا لَفعلنا ما فعلنا في أَعيُنهم، فلو أَرادوا الاستباقَ مبتدرين الطريق، لا يُبصرون.

وقيل: يجوز كونُه مفعولاً به، على أنَّ «استبَقوا» بمعنى سبقوا، ويُجعل الطريقُ مسبوقاً على التجوُّز في النِّسبة، أو الاستعارةِ المكنيّة، أو على أنَّه بمعنى: جاوَزوا.

قال في «القاموس»[2]: استبق الصِّراط: جاوَزه. وظاهرُه أنَّه حقيقةٌ في ذلك. وقال غيرُ واحد: هو مجاز، والعلاقةُ اللزوم، والمعنى: ولو نشاءُ لَفعلنا ما فعلنا في أَعيُنهم، فلو طلبوا أن يخلفوا الصِّراطَ الذي اعتادوا المشيَ فيه، لَعجزوا ولم يعرفوا طريقاً، يعني أنَّهم لا يقدرون إلَّا على سلوك الطريقِ المعتاد، دونَ ما وراءه من سائر الطُّرقِ والمسالك، كما ترى العميانَ يهتدون فيما أَلِفوا وضربوا به من المقاصدِ دونَ غيرِها.

وذهب ابن الطَّراوة إلى أنَّ الصراطَ والطريقَ وما أَشبههما من الظُّروف المكانيةِ ليست مختصَّة، فيجوز انتصابها على الظرفية، وهذا خلافُ ما صرَّح به سيبويه، وجعل انتصابَها على الظرفية من الشُّذوذ، وأَنشد:

لَدْنٌ بهزِّ الكفِّ يَعسِلُ متنُه ... فيه كما عسل الطريقَ الثعلبُ[3]

والمعنى في الآيةِ لو انتصب على الظرفيَّة: لو نشاءُ لَفعلنا ما فعلنا في أَعيُنهم، فلو أَرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوفِ كما كان ذلك هِجِّيراهم، لم يستطيعوا.

وحملُ الأعينِ على ما هو الظاهرُ منها، أعني الأعضاءَ المعروفة، والصِّراطِ على الطريق المحسوس، هو المرويُّ عن الحسنِ وقتادة. وعن ابن عباسٍ حملُ الأَعينِ على البصائر، والصِّراطِ على الطريق المعقول. أخرج ابن جَريرٍ[4] وجماعةٌ

(١) مادة (سبق).

(٢) مادة (سبق).

(٣) الكتاب ١/ ٣٥-٣٦. وسلف البيت عند تفسير الآية (١٦) من سورة الأعراف.

(٤) في تفسيره ١٩/ ٤٧٤.

عنه أنَّه قال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أعميناهم وأضللناهم عن الهُدى، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ فكيف يهتدون. وهو خلافُ الظاهر.

وقرأ عيسى: «فاستَبِقوا» على الأمر(١)، وهو على إضمار القول، أي: فيقال لهم: استبِقوا، وهو أمرُ تعجيز؛ إذ لا يُمكنهم الاستباقُ مع طمس الأعين.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ أي: لحوَّلنا صورَهم إلى صورٍ أخرى قبيحة. عن ابن عبَّاس: أي: لَمسخناهم قِردةً وخنازير. وقيل: لَمسخناهم حجارة. ورُوي ذلك عن أبي صالح. ويُعلم من هذا الخلافِ أنَّ في مسخ الحيَوانِ المخصوصِ لا يُشترط بقاءُ الصورةِ الحيوانية. وسمَّى بعضُهم قلبَ الحيوانِ جماداً رَسخاً، وقلبَه نباتاً فسخاً، وخصَّ المسخَ بقلبه حيواناً آخَر.

ومفعولُ المشيئةِ على قياس السَّابق، أي: ولو نشاءُ مسخَهم على مكانتهم لَمسخناهم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: مكانِهم، كالمَقامة والمَقام.

وأخرج ابن جَريرٍ(٢) وابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباسٍ أنَّه قال في معنى الآية: لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم.

وقال الحسنُ وقتادةُ وجماعة: المعنى: لو نشاء لأقعدناهم وأزمنَّاهم، وجعلناهم كُسْحاً لا يقومون.

وقرأ الحسنُ وأبو بكر: «مَكَاناتِهِمْ» بالجمع؛ لتعدُّدهم(٣).

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ لذلك ﴿مُضِيًّا﴾ أي: ذهاباً إلى مقاصدهم ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ قيل: هو عطفٌ على «مُضيًّا» المفعولِ بهِ لـ «استطاعوا»، وهو من باب: تسمعُ بالمُعيديِّ خيرٌ من أن تراه. فيكون التقدير: فما استطاعوا مُضيّاً ولا رجوعاً، وإلَّا فمفعولُ «استطاعوا» لا يكون جملة. والتعبيرُ بذلك دون الاسمِ الصَّريح، قيل:

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٦، والبحر ٧/ ٣٤٤.

(٢) في تفسيره ١٩/ ٤٧٧-٤٧٨.

(٣) قراءة أبي بكر في التيسير ص ١٠٧، والنشر ٢/ ٢٦٣.

للفواصل، مع الإيماء إلى مغايرة الرجوعِ للمُضِي، بناءً على ما قال الإمام[1] من أنَّه أهونُ من المُضي؛ لأنَّه ينبىءُ عن سلوك الطريقِ من قبل، والمضيُّ لا ينبىءُ عنه.

وقيل: لذلك مع الإيماءِ إلى استمرارِ النفي، نظراً إلى ظاهرِ اللفظ، ويكون هناك ترقٍّ من جهتين إذا لوحظ ما أومأ إليه الإمام.

وقيل: له مع الإيماء إلى أنَّ الرجوعَ المنفيَّ ما كان عن إرادةٍ واختيار، فإنَّ اعتبارَهما في الفعل المسندِ إلى الفاعل أقربُ إلى التبادُر من اعتبارهما في المصدر.

واقتصر بعضُهم في النُّكتة على رعاية الفواصل. والإمامُ يَعدُّ الاقتصارَ على رعاية الفواصلِ في بيان نكتةِ العدولِ عن الظاهر تقصيراً.

وقيل: هو عطفٌ على جملة: «ما استطاعوا»، والمراد: ولا يَرجعون عن تكذيبهم؛ لمَا أنَّه قد طُبع على قلوبهم. وقيل: هو عطفٌ على ما ذُكر، إلَّا أنَّ المعنى: ولا يرجعون إلى ما كانوا عليه قبلَ المسخ. وليس بالبعيد.

وعلى القولَين المرادُ بالمضيِّ الذهابُ عن المكان، ونفيُ استطاعتِه مُغنٍ عن نفي استطاعةِ الرُّجوع.

وأيًّاما كان، فالظاهرُ أنَّ هذا وكذا ما قبلَه لو كان لكان في الدُّنيا. وقال ابنُ سلام: هذا التوعُّد كلُّه يومَ القيامة. وهو خلافُ الظاهر، ولا يكاد يصحُّ على بعض الأقوال.

وأصلُ «مُضيًّا»: مُضُوْي، اجتمعت الواوُ ساكنةً مع الياءِ فقُلبت ياءً، كما هو القاعدة، وأُدغمت الياءُ في الياء، وقُلبت ضمةُ الضادِ كسرةً لتخفَّ وتناسبَ الياء.

وقرأ أبو حَيوَة، وأحمدُ بن جُبير الأنطاكيُّ عن الكِسائي: «مِضِيّاً» بكسر الميم[2]؛ إتباعاً لحركة الضاد، كالعُتِيّ، بضمِّ العين، والعِتيّ، بكسرها.

وقُرئ: «مَضِيّاً» بفتح الميم[3]، فيكون من المصادرِ التي جاءت على فَعيل،

(١) في التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٣.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٤-٣٤٥.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٤٤-٣٤٥.

كالرَّسيم والوَجيف والصَّئِيّ، بفتح الصادِ المهملةِ بعدها همزةٌ مكسورةٌ ثم ياءٌ مشدَّدة، مصدر: صأى الدِّيكُ أو الفرخ: إذا صاح.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي: نُطِلْ عُمرَه ﴿نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ نقلِّبه فيه، فلايزال يتزايد ضعفُه وانتقاصُ بنيتِه وقواه، عكس ما كان عليه بدء[1] أمرِه. وفيه تشبيهُ التنكيسِ المعنويِّ بالتنكيس الحسيِّ، واستعارةُ الحسِّيِّ له.

وعن سفيانَ أنَّ التنكيسَ في سِنِّ ثمانين سَنَة. والحقُّ أنَّ زمانَ ابتداءِ الضَّعف وانتقاصِ البنيةِ مختلف؛ لاختلاف الأمزجةِ والعوارضِ كما لا يخفى.

والكلامُ عطفٌ على قوله تعالى: (وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا) إلخ عطفَ العلَّةِ على المعلول؛ لأنَّه كالشاهد لذلك.

وقرأ جمعٌ من السبعة: «نَنْكُسه» مخفَّفاً، من الإنكاس[2].

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: أيرون ذلك فلا يعقلون أنَّ مَن قَدَرَ على ذلك يقدر على ما ذُكر من الطَّمس والمسخ، وأنَّ عدمَ إيقاعهما لعدم تعلُّق مشيئتِه تعالى بهما.

وقرأ نافع، وابنُ ذَكوان، وأبو عَمرٍو في رواية عيَّاش: «تعقلون» بتاءِ الخطاب[3]؛ لجري الخطابِ قبله.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ بتعليم الكتابِ المشتملِ على هذا البيانِ والتلخيصِ في أمر المبدأ والمعاد ﴿ٱلشِّعْرَ﴾ إذ لا يخفى على مَن به أدنى مُسكةٍ أنَّ هذا الكتابَ الحكيمَ المتضمِّن لجميع المنافعِ الدينيةِ والدنيويةِ على أسلوبٍ أفحمَ كل مِنطيقٍ يباين الشِّعرَ ولا مِثلَ الثُّريا للثَّرى، أمَّا لفظاً فلعدم وزنِه وتَقْفِيَتِه، وأما معنًى فلأنَّ الشعرَ تخيُّلات مرغِّبة أو منفِّرة أو نحوُ ذلك، وهو مقرُّ الأكاذيب، ولذا قيل: أعذبُه أكذبُه، والقرآنُ حِكَم وعقائدُ وشرائع.

والمرادُ من نفي تعليمِه ﷺ بتعليم الكتابِ الشِّعرَ نفيُ أن يكونَ القرآنُ شِعراً على

(١) قوله: بدء، مرفوع بكان، أومنصوب على الظرفية. حاشية الشهاب ٧/ ٢٥٠.
(٢) التيسير ص ١٨٥، والنشر ٢/ ٣٥٥. وقرأ عاصم وحمزة بالتشديد.
(٣) التيسير ص ١٨٥، والنشر ٢/ ٢٥٧، عن نافع وابن ذكوان، والكلام من البحر ٧/ ٣٤٥.

سبيل الكناية؛ لأنَّ ما علَّمه الله تعالى هو القرآن، وإذا لم يكن المعلَّم شعراً، لم يكن القرآنُ شعراً ألبتَّة.

وفيه أنَّه عليه الصلاة والسلام ليس بشاعرٍ إدماجاً، وليس هناك كنايةٌ تلويحيةٌ كما قيل، وهذا ردٌّ لمَا كانوا يقولونه من أنَّ القرآنَ شعرٌ والنبيَّ ﷺ شاعر، وغرضُهم من ذلك أنَّ ما جاء به عليه الصلاة والسلام من القرآن افتراءٌ وتخيُّل، وحاشاه ثمَّ حاشاه من ذلك.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ اعتراضٌ لتقرير ما أُدمج، أي: لا يليقُ ولا يصلح له ﷺ الشِّعر؛ لأنَّه يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظِ والوزن، ولأنَّ أحسنَه المبالغةُ والمجازفة، والإغراقُ في الوصف، وأكثرُه تحسينُ ما ليس بحسنٍ وتقبيحُ ما ليس بقبيح، وكلُّ ذلك يستدعي الكذب، أو يحاكيه الكذبُ، وجَلَّ جنابُ الشارعِ عن ذلك، كذا قيل.

وقال ابنُ الحاجب: أي: لا يستقيم عقلاً أن يقولَ ﷺ الشِّعر؛ لأنَّه لو كان ممَّن يقوله، لَتطرَّقت التُّهَمة عند كثيرٍ من الناس في أنَّ ما جاء به من قِبَل نفسِه، وأنَّه من تلك القوَّة الشِّعرية؛ ولذا عقَّب هذا بقوله تعالى: (وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ) لأنَّه إذا انتفت الرِّيبة، لم يبقَ إلَّا المعاندة، فيحقُّ القولُ عليهم.

وتعقِّب بأنَّ الإعجازَ[1] يرفع التُّهَمة، وإلَّا فكونُه عليه الصلاة والسلام في المرتبة العُليا من الفصاحة والبلاغةِ في النَّثر ليس بأضعفَ من قول الشِّعر في كونه مَظِنَّةَ تطرُّق التُّهَمة، بل ربَّما يتخيَّل أنَّه أعظمُ من قول الشِّعر في ذلك، فلو كانت عِلَّةُ منعِه عليه الصلاة والسلام من الشِّعر ما ذكر، لَزِمَ أن يمنعَ من الكلام الفصيحِ البليغ سدّاً لباب الرِّيبة، ودحضاً للشُّبهة، وإعظاماً للحجَّة، فحيث لم يكن اكتفاء بالإعجاز، وأنَّ التهمةَ والرَّيب معه ممَّا لا ينبغي أن يصدرَ من عاقل؛ ولذا نفى الرَّيبَ مع أنَّه وقع = عُلِم أنَّ العلَّةَ في أنَّه عليه الصلاة والسلام لا ينبغي له الشِّعرُ شيءٌ آخر.

---

(١) في (م): الإيجاز.

واختار هذا ابنُ عطية(١)، وجعل العِلَّةَ ما في قول الشِّعر من التخييل والتزويقِ للقول. وهو قريبٌ مما سمعتَ أولاً، وهو الذي ينبغي أن يعوَّلَ عليه، وفي الآية ـ عليه ـ دلالةٌ على غَضاضة الشِّعر، وهي ظاهرةٌ في أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يُعطَ طبيعةً شِعرية، اعتناءً بشأنه، ورفعاً لقَدْرِه، وتبعيداً له ﷺ من أن يكونَ فيه مبدأٌ لما يُخِلُّ بمنصبه في الجملة.

وإنما لم يُعطَ ﷺ القدرةَ على الشِّعر مع حفظه عن إنشائه؛ لأنَّ ذلك سلبُ القدرةِ عليه في الإبعاد عمَّا يُخِلُّ بمنصبه الجليلِ ﷺ، ونظيرُ ما ذكرنا العِصمةُ والحفظ.

ويُفهَم من كلام «المواهب اللَّدُنِّيَّة» أنَّ من الناس مَن ذهب إلى أنَّه عليه الصلاة والسلام كان له قدرةٌ على الشِّعر، إلَّا أنه يَحرُم عليه أن يَشعر. وليس بذاك. نعم القولُ بحرمة إنشاء الشعرِ مقبول، ومعناه ـ على القول السابقِ على ما قيل ـ حرمةُ التوصُّل إليه. وقد يقال: لا حاجةَ إلى التأويل، وحرمةُ الشيءِ تجامع عدمَ القدرةِ عليه.

وهل عدمُ الشعرِ خاصٌّ به عليه الصلاة والسلام أو عامٌّ لنوع الأنبياء؟ قال بعضُهم: هو عامّ؛ لهذه الآية، إذ لا يظهرُ للخصوص نُكتة. وقيل: يجوز أن يكونَ خاصّاً، والنكتةُ زيادةُ التكريم؛ لمَا أنَّ مقامَه ﷺ فوقَ مقامِ الأنبياءِ عليهم السلام، ويكون الثابتُ لهم الحفظَ عن الإنشاء مع ثبوت القدرةِ عليه، وإن صحَّ خبرُ إنشاءِ آدمَ عليه السلام يومَ قتلِ ولدِه:

تغيَّرت البلادُ ومَن عليها ... ووجهُ الأرضِ مغبَرٌّ قبيحُ
تغيَّر كلُّ ذي طعمٍ ولونٍ ... وقلَّ بَشاشةُ الوجهِ الصَّبيحِ(٢)

اتَّضح أمرُ الخصوص، وعُلِم أنْ لا حفظَ من الإنشاء أيضاً. ولعلَّ الحفظَ حينئذٍ ممَّا فيه ما يَشين ويُخلُّ بمنصب النبوَّة مطلقاً.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٢.

(٢) ذكرهما الزمخشري في الكشاف ١/ ٦٠٨، وقال: هذا كذب بحت، وما الشعر إلا منحول ملحون، وقد صح أن الأنبياء معصومون من الشعر. اهـ.

والنُّكتةُ في الخصوص ظاهرةٌ على ما نُقل عن ابن الحاجب؛ لأنَّ أعظمَ معجزاتِه عليه الصلاة والسلام القرآن، فربَّما تحصل التُّهمَةُ فيه لو قال ﷺ الشِّعر، ولا كذلك(١) معجزاتُ الأنبياءِ عليهم السلام، فتأمَّل.

وأيَّاما كان، لا يَرِدَ أنَّه عليه الصلاة والسلام قال يومَ حُنين وهو على بغلته البيضاءِ، وأبو سفيانَ بنُ الحارث آخذٌ بزِمامها، ولم يبقَ معه عليه الصلاة والسلام من الناس إلَّا قليل(٢): «أنا النبيُّ لا كَذِبْ(٣) أنا ابنُ عبد المطلِّبْ» لأنَّا لا نسلِّم أنه شِعر، فقد عرَّفوه بأنَّه الكلامُ المقفَّى الموزونُ على سبيل القصد، وهذا ممَّا اتَّفق له عليه الصلاة والسلام من غير قَصْدٍ لوزنه، ومثلُه يقع كثيراً في الكلام المنثور، ولا يسمَّى شِعراً، ولا قائلُه شاعراً.

ولا يُتوهَّم من انتسابه ﷺ فيه إلى جدِّه دون أبيه دليلُ القصد؛ لأنَّ النسبةَ إلى الجدِّ شائعة، ولأنَّه هو الذي قام بتربيته، حيث توفِّي أبوه عليه الصلاة والسلام وهو حَمْل، فحين وُلد قام بأمره فوقَ ما يقوم الوالدُ بأمر الولد، ولأنَّه كان مشهوراً بينهم بالصِّدق والشرفِ والعزَّة؛ فلذا خصَّه بالذِّكر ليكونَ كالدليل على ما قبل، أو كمانعٍ آخَرَ من الانهزام، ولأنَّ كثيراً من الناس كانوا يَدْعونه عليه الصلاة والسلام بابن عبدِ المطلب، ومنه حديثُ ضِمامِ بن ثَعلبة(٤): أيُّكم ابنُ عبدِ المطلب؟

على أنَّ منهم مَن لم يعدَّ الرَّجَزَ مطلقاً ـ وأصلُه ما كان على: مستفعلن، ستَّ مراتٍ ـ شعراً؛ ولذا يسمَّى قائلُه راجزاً لا شاعراً. وعن الخليل(٥) أنَّ المشطورَ منه، وهو ما حُذف نصفُه فبقي وزنُه: مستفعلن، ثلاثَ مرَّات، والمنهوكَ ـ وهو ما حُذف

(١) في (م): وكذلك.

(٢) في هامش الأصل: نحو مئة أو اثني عشر أو عشرة. اهـ منه. والخبر سلف ١٠/ ٢٧٦.

(٣) جاء في هامش الأصل: فيه إشارة إلى استحالة الكذب على النبي عليه الصلاة والسلام، فكأنه قال: أنا النبي والنبي لا يكذب، فلست بكاذب فيما أقول حتى أنهزم، وأنا متيقن أن الذي وعدني الله تعالى من النصر حق، فلا يجوز علي الفرار، ثم أشار عليه الصلاة والسلام إلى أنه لا يليق به من حيث نسبه الجليل الفرار أيضاً، تدبر. اهـ منه.

(٤) أخرجه مسلم (١٢)، وسلف ٦/ ١٠٩.

(٥) في كتاب العين ٦/ ٦٤.

ثُلثاه فبقي وزنُه: مستفعلن، مرَّتين ـ ليسا بشِعرٍ. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّ المجزوءَ ـ وهو ما حُذف من كلِّ مصراعٍ منه جزءٌ فبقي وزنُه: مستفعلن، أربعَ مرَّات ـ كذلك، فقولُه ﷺ: «أنا النبيُّ لا كَذِب»، إن كان نصفَ بيت، فهو مجزوء، فليس بشعرٍ على هذه الرِّواية، وإنْ فُرِض أنَّ هناك قصداً وإن كان بيتاً تامّاً، فهو منهوك، فليس بشعرٍ أيضاً على الرِّواية الأولى، وكونُه ليس بشعر ـ على قول مَن لا يرى الرَّجزَ مطلقاً شعراً ـ ظاهر.

وجاء في بعض الرِّوايات أنَّه عليه الصلاة والسلام حرَّك الباءَ من: كَذِب والمطَّلب[1]، فلا يكون ذلك موزوناً، فكونُه ليس بشعرٍ أظهرُ وأظهر.

والقولُ بأنَّ ضميرَ «له» للقرآن المعلومِ من السِّياق، أي: وما يصحُّ للقرآن أن يكونَ شعراً، فيجوز صدورُ الشعرِ عنه ﷺ ولا يُحتاج إلى توجيه، ليس بشيء؛ فإنَّه يكفي في نفي الشِّعر عنه عليه الصلاة والسلام قولُه سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ مع أنَّ الظاهرَ عودُ الضميرِ عليه عليه الصلاة والسلام.

وأَوْلى التوجيهاتِ إخراجُ ذلك من الشِّعر بانتفاءِ القصد، وبذلك يخرج ما وقع في القرآن من نظائرِه منه. وقد ذكرنا لك فيما مرَّ كثيراً منها.

وليس في الآية ما يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ لا ينبغي له التكلُّم بشعرٍ قاله بعضُ الشعراء والتمثُّلُ به، وفي الأخبار ما يدلُّ على وقوع التكلُّمِ بالبيت متَّزناً نادراً، كما رُوي أنه عليه الصلاة والسلام أنشد بيتَ ابنِ رواحة:

يَبيت يُجافي جنبَه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

وإنشادُه إيَّاه كذلك مذكورٌ في «البحر»[2].

ورُوي أنَّه ﷺ أصاب إصبعَه الشريفةَ حجرٌ في بعض غزواتِه، فدَمِيت، فتمثَّل بقول الوليدِ بن المغيرةِ ـ على ما قاله ابنُ هشامٍ في «السيرة»[3] ـ أو ابنِ رواحةَ على

---

(١) ينظر ما قيل في ذلك في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٥.

(٢) ٧/ ٣٤٥.

(٣) ١/ ٤٧٦، ونسبه فيه للوليد بن الوليد بن المغيرة.

ما صحَّحه ابنُ الجوزي[١]:

مـا أنـتِ إلَّا إصبـعٌ دَمِـيـتِ   وفـي سـبـيـل اللهِ مـا لـقـيـتِ

وقيل: هو له عليه الصلاةُ والسلام، والكلامُ فيه كالكلام في قوله ﷺ: «أنا النبيّ» إلخ، إلَّا أنَّ هذا يحتمل أن يكونَ مشطوراً إذا كان كلٌّ من شطرَيه بيتاً.

وعلى[٢] وقوع التكلُّم بالبيت غيرَ متَّزنٍ مع إحراز المعنى كثيراً، كما رُوي أنَّه عليه الصلاة والسلام أنشد:

ستُبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلاً   ويـأتـيـك مـن لـم تـزوِّد بـالأخـبـار

فقال أبو بكر رضي الله عنه: ليس هكذا يا رسولَ الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنِّي واللهِ ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي»[٣].

وفي خبرٍ أَخرجه أحمدُ وابنُ أبي شيبةَ عن عائشةَ قالت: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا استراث الخبرَ تمثَّل ببيت طَرَفة:

ويـأتـيـكَ مَـن لـم تـزوِّد بـالأخـبـار[٤]

وأخرج ابنُ سعدٍ وابنُ أبي حاتمٍ عن الحسن أنَّه ﷺ كان يتمثَّل بهذا البيت:

كـفـى بـالإسـلام والـشـيـبِ لـلـمـرءِ نـاهـيـا

فقال أبو بكر: أَشهد أنَّك رسولُ الله، ما علَّمك الشِّعرَ وما ينبغي لك[٥].

---

(١) في المنتظم ٣/ ٣٢٠. والحديث في صحيح البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦) من حديث جُندب البَجَلي رضي الله عنه، دون نسبة للبيت.

(٢) عطف على قوله: على وقوع التكلم بالبيت متزناً...

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٤٥-١٤٦، والطبري ١٩/ ٤٨٠ من حديث عائشة رضي الله عنها. والبيت لطرفة، وهو في ديوانه ص ٤١.

(٤) مسند أحمد (٢٤٠٢٣)، ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٧١٢، والرواية فيهما: ويأتيك بالأخبار من لم تزود. أي: على الجادة. ومعنى: استراث: استبطأ.

(٥) طبقات ابن سعد ١/ ٣٨٢-٣٨٣. وصدر البيت: عُميرةَ ودِّعْ إن تجهَّزت غاديا. وهو لسحيم عبد بني الحسحاس كما في شرح المفصل ٨/ ٩٣، والخزانة ١/ ٢٦٧.

وأَخرج ابنُ سعد(١) عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد أنَّ النبيَّ ﷺ قال للعباس بن مِرداس: أرأيتَ قولَك:

أَتـجـعـل نـهـبـي ونـهـبَ الـعُـبَـيـ ـدِ بـيـن الأقـرعِ وعُـيـيـنـة

فقال له أبو بكر ﷺ: بأبي أنت وأمِّي يا رسولَ الله، ما أنتَ بشاعرٍ ولا راوية، ولا ينبغي لك، إنَّما قال: بين عُيينةَ والأَقرعِ.

ورُوي أنَّه قيل له عليه الصلاة والسلام: مَن أَشعرُ الناس؟ فقال: الذي يقول:

ألـم تَـرَيـانـي كـلَّـمـا جـئـتُ طـارقـاً وجـدتُ بـهـا وإن لـم تـطـيَّـب طِـيـبـا(٢)

وأَخرج البيهقيُّ في «سننه» بسندٍ فيه مجهولٌ عن عائشةَ قالت: ما جمع رسولُ اللهِ ﷺ بيتَ شعرٍ قطّ، إلَّا بيتاً واحداً:

تـفـاءلْ بـمـا تـهـوى يَـكُـنْ فَـلَـقَـلَّـمـا يـقـال لـشـيءٍ كـان إلَّا تـحـقَّـق

قالت عائشة: ولم يقل: تحقَّقا؛ لئلَّا يُعربَه فيصيرَ شعراً(٣).

ثم إنَّه عليه الصلاة والسلام مع هذا لم يكن يحبُّ الشِّعر، ففي مسند أحمدَ بن حنبلٍ عن عائشةَ قالت: كان أبغض الحديثِ إليه ﷺ الشِّعر(٤). وفي الصَّحيحين وغيرِهما عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لأن يمتلىءَ جوفُ أحدِكم قيحاً خيرٌ له من أن يمتلىءَ شِعراً»(٥). وهذا ظاهرٌ في ذمِّ الإكثار منه، وما رُوي عن الخليل أنَّه قال: كان الشِّعرُ أحبَّ إلى رسول اللهِ ﷺ من كثيرٍ من الكلام(٦)، منافٍ لما سمعتَ عن المسند، ولعلَّ الجمعَ بالتفصيل بين شِعرٍ وشِعر.

---

(١) في الطبقات ٤/ ٢٧٢. وفي (م): ابن سعيد، وهو خطأ.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦١، والبيت لامرىء القيس، وهو في ديوانه ص٤١. وأصله:

وجـدت بـهـا طـيـبـاً وإن لـم تـطـيـب

(٣) سنن البيهقي ٧/ ٤٣.

(٤) هو بعض الحديث السالف عند عبد الرزاق ٢/ ١٤٥، والطبري ١٩/ ٤٨٠.

(٥) سلف ١٩/ ٣٣١.

(٦) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٢٩ وزاد: ولكن كان لا يتأتى له.

وقد تقدَّم الكلامُ في الشِّعر مفصَّلاً في سورة الشعراء، فتذكَّر.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما القرآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: عِظةٌ من الله عزَّ وجلَّ وإرشادٌ للثقلين، كما قال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧] ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ أي: كتابٌ سماويٌّ ظاهرٌ أنَّه ليس من كلام البشر؛ لمَا فيه من الإعجاز الذي ألقم مَن تصدَّى للمعارضة الحَجَرَ.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي: القرآنُ، أو الرسولُ عليه الصلاة والسلام، ويؤيِّده قراءةُ نافعٍ وابنِ عامر: «لِتُنذرَ» بتاء الخطاب[1]. وقرأ اليمانيُّ: «لِيُنْذَرَ» مبنيّاً للمفعول[2]، ونقلها ابنُ خالويه[3] عن الجحدريّ، وقال عن أبي السمَّال واليمانيِّ أنَّهما قرأا: «لِيَنذَرَ» بفتح الياءِ والذال، مضارع: نَذِرَ بالشيء، بكسر الذال: إذا عَلِمَ به.

﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: عاقلاً، كما أخرج ذلك ابنُ جَرير والبيهقيُّ في «شُعب الإيمان» عن الضحَّاك[4]. وفيه استعارةٌ مصرِّحةٌ بتشبيه العقلِ بالحياة.

أو مؤمناً، بقرينة مقابلتِه بالكافرين. وفيه أيضاً استعارةٌ مصرِّحة؛ لتشبيه الإيمانِ بالحياة. ويجوز كونُه مجازاً مرسلاً؛ لأنَّه سببٌ للحياة الحقيقيةِ الأبدية.

والمضيُّ في «كان» باعتبار ما في علمه عزَّ وجلَّ؛ لتحقُّقه. وقيل: «كان» بمعنى «يكون». وقيل: في الكلام مجازُ المشارفة، ونزِّلت منزلَة المضيّ. وهو كما ترى. وتخصيصُ الإنذار به لأنَّه المنتفِعُ بذلك.

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: تجب كلمةُ العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ الموسومين بهذا الوسم، المصرِّين على الكفر. وفي إيرادهم بمقابلة «مَن كان حيّاً» إشعارٌ بأنَّهم لخلوِّهم عن آثار الحياةِ وأحكامِها ـ كالمعرفة ـ أمواتٌ في الحقيقة. وجوِّز أن يكونَ في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ قرينتُها استعارةٌ أخرى.

---

(١) التيسير ص ١٨٥، والنشر ٢/ ٣٥٥.

(٢) البحر ٧/ ٣٤٦.

(٣) في القراءات الشاذة ص ١٢٦.

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٤٨١، والشعب ٤/ ١٥٩.

وكأنَّه جيءَ بقوله سبحانه: «لينذر...» إلخ رجوعاً إلى ما بُدئ به السورةُ من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ ولو نظرتَ إلى هذا التخلُّصِ من حديث المعادِ إلى حديث القرآنِ والإنذار، لَقضيتَ العجبَ من حُسن موقعِه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزةُ للإنكار والتعجيب، والواوُ للعطف على جملةٍ مَنفيَّةٍ مقدَّرة مستتبعةٍ للمعطوف، أي: ألم يتفكَّروا؟ أو: ألم يلاحظوا؟ أو: ألم يعلموا علماً يقينياً مشابهاً للمعاينة؟

وزعم بعضُهم أنَّ هذا عطفٌ على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ إلخ، والأوَّل للحثِّ على التوحيد بالتحذير من النِّقم، وهذا بالتذكير بالنِّعم المشارِ إليها بقوله تعالى: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي: لأَجلهم وانتفاعِهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: مما تولَّينا إحداثَه بالذَّات من غير مدخلٍ لغيرنا فيه، لا خلقاً ولا كسباً.

والكلامُ استعارةٌ تمثيليةٌ فيما ذُكر. وجوِّز أن يكونَ قد كنى عن الإِيجاد بعمل الأيدي فيمن له ذلك، ثم بعد الشُّيوع أُريد به ما أُريد مجازاً متفرِّعاً على الكناية.

وقال بعضُهم: المرادُ بالعمل الإحداث، وبالأيدي القدرةُ، مجازاً، وأُوثرت صيغةُ التعظيمِ والأيدي مجموعة؛ تعظيماً لشأن الأثر، وأنَّه أمرٌ عجيب، وصنعٌ غريب. وليس بذاك.

وقيل: الأيدي مجازٌ عن الملائكة المأمورين بمباشرة الأعمالِ حَسبما يريده عزَّ وجلَّ في عالَم الكونِ والفساد، كملائكة التَّصوير، وملائكةِ نفخ الأَرواحِ في الأبدان بعد إِكمال تصويرِها، ونحوِهم. ولا يخفى ما فيه.

ونحوُه ما قيل: الأيدي مجازٌ عن الأسماء، فإنَّ كلَّ أثرٍ في العالَم بواسطة اسمٍ خاصٍّ من أسمائه عزَّ وجلَّ.

وأنت تعلم أنَّ الآيةَ من المتشابه عند السَّلف، وهم لا يجعلون اليدَ مضافةً إليه تعالى بمعنى القدرة، أُفردت، ك: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] أو ثنِّيت، ك: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] أو جُمعت، كما هنا، بل يُثبتون اليدَ له عزَّ وجلَّ كما أثبتها

لنفسه مع التنزيهِ الناطقِ به قولُه سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] وارتضاه كثيرٌ ممَّن وفَّقه اللهُ تعالى من الخلق، ولا أرى الطاعنين عليهم إلَّا جَهَلة.

﴿أَنْعَـٰمًا﴾ مفعولُ «خلقنا»، وأخَّر عن الجارَّين المتعلِّقَين به اعتناءً بالمقدَّم، وتشويقاً إلى المؤخَّر، وجمعاً بينه وبين ما يتعلَّق به من أحكامه المتفرِّعةِ عليه. والمرادُ بالأنعام الأزواجُ الثمانية، وخصَّها بالذِّكر لِمَا فيها من بدائع الفطرةِ وكثرةِ المنافع، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧].

﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي: متملِّكون لها بتمليكنا إيّاها لهم. والفاءُ قيل: للتفريع على مقدَّر، أي: خلقنا لهم أنعاماً وملَّكناها لهم، فهم بسبب ذلك مالكون لها. وقيل: للتفريع على خَلْقِها لهم. وفيه خفاء.

وجوِّز أن يكونَ الملكُ بمعنى القدرةِ والقهر، من: مَلَكتُ العجينَ: إذا أَجدتَ عَجْنَه، ومنه قولُ الربيعِ بن منيع الفزاريِّ وقد سئل عن حالِه بعد إذ كبر:

أَصبحتُ لا أحملُ السلاحَ ولا أَملك رأسَ البعيرِ إنْ نفرا[1]

والأوَّل أظهر؛ ليكونَ ما بعدُ تأسيساً لا تأكيداً. وأيَّاما كان، فلها متعلِّق بـ «مالِكون»، واللامُ مقوِّية للعمل، وقدِّم لرعاية الفواصلِ مع الاهتمام. وإيثارُ الجملةِ الاسميةِ للدَّلالة على استقرار مالكيَّتِهم لها واستمرارِها.

﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ أي: وصيَّرناها سهلةً غيرَ مستعصيةٍ عليهم في شيءٍ ممَّا يريدون بها، حتى الذبحُ حسبما ينطق به قولُه تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ فإنَّ الفاءَ فيه لتفريع أحكامِ التذليلِ عليه وتفصيلِها، أي: فبعضٌ منها مركوبُهم. فرَكوب: فَعول بمعنى مفعول، كحَصور وحَلوب وقَذوع[2]، وهو ممَّا لا ينقاس.

وقرأ أُبيٌّ وعائشة: «رَكوبتُهم» بالتاء[3]، وهي فَعولةٌ بمعنى مفعولة، كحَلوبة،

---

(١) سلف عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الكهف.

(٢) في(م): وقزوع، والمثبت من الأصل، وهو موافق لِمَا في البحر٧/ ٣٤٧، والكلام منه.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٦، والمحتسب ٢/ ٢١٦، والبحر ٧/ ٣٤٧. ولم يذكر ابن خالويه أُبيّاً.

وقيل: جمعُ: رَكوب. وتعقِّب بأنَّه لم يُسمع فَعولة ـ بفتح الفاءِ ـ في الجموع، ولا في أسمائها.

وقرأ الحسنُ والأعمشُ وأبو البرهسم: «رُكوبُهم» بضمِّ الراءِ وبغير تاء[1]، وهو مصدر، كالقُعود والدُّخول، فإمَّا أن يؤوَّل بالمفعول، أو يقدَّرَ مضافٌ في الكلام، إمَّا في جانب المسندِ إليه، أي: ذو رُكوبهم، أو في جانب المسند، أي: فمن منافعها رُكوبهم.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝﴾ أي: وبعضٌ منها يأكلون لحمَه. والتبعيضُ هنا باعتبار الأجزاء، وفيما قبلُ باعتبار الجزئيَّات، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها. وغيِّر الأسلوب؛ لأنَّ الأكلَ عامٌّ في الأنعام جميعِها، وكثيرٌ مستمرّ، بخلاف الرُّكوب. كذا قيل.

وقيل: الفعلُ موضوعٌ موضعَ المصدرِ ـ وهو بمعنى المفعولِ ـ للفاصلة.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأنعام بكِلَا قِسمَيها ﴿مَنَٰفِعُ﴾ غير الرُّكوب والأكل، كالجلود والأصوافِ والأوبارِ وغيرِها، وكالحراثة بالثِّيران ﴿وَمَشَارِبُ﴾ جمعُ: مَشرب، مصدرٌ بمعنى المفعول. والمرادُ به اللبن، وخصَّ مع دخولِه في المنافع لشرفه واعتناءِ العربِ به، وجُمع باعتبار أصنافِه، ولاريبَ في تعدُّدها. وتعميمُ المشاربِ للزُّبد والسَّمن والجبنِ والأقِط لا يصحُّ إلَّا بالتغليب أو التجوُّز؛ لأنها غيرُ مشروبة، ولا حاجةَ إليه مع دخولِها في المنافع.

وجوّز أن تكونَ المشاربُ جمعَ: مشربٍ، موضعِ الشُّرب، قال الإمام[2]: وهو الآنية، فإنَّ من الجلود يتَّخذ أواني الشُّرب من القِرَب ونحوِها.

وقال الخَفاجي[3]: إذا كان موضعاً، فالمشاربُ هي نفسُها؛ لقوله سبحانه: «فيها» فإنَّها مقرُّه. ولعلَّه أَظهرُ من قول الإمام.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٦، والمحتسب ٢/ ٢١٦، والبحر ٧/ ٣٤٧، ولم يذكر أبا البرهسم إلا أبو حيان.

(٢) في التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٦.

(٣) في حاشيته ٧/ ٢٥٢.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ أي: أيُشاهدون[1] هذه النِّعمَ فلا يشكرون المنعِمَ بها ويخصُّونه سبحانه بالعبادة.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: متجاوزين اللهَ تعالى الذي رأوا منه تلك القدرةَ الباهرة، والنِّعمَ الظاهرة، وعلموا أنَّه سبحانه المتفرِّدُ بها ﴿ءَالِهَةً﴾ من الأصنام، وأَشركوها به عزَّ وجلَّ في العبادة ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤﴾ رجاءَ أن يُنصَروا، أو: لأجل أن يُنصَروا من جهتهم فيما نزل بهم وأَصابهم من الشَّدائد، أو يَشفعوا لهم في الآخرة.

وقولُه تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ إلخ استئنافٌ سيقَ لبيان بطلانِ رأيهم، وخيبةِ رجائهم، وانعكاسِ تدبيرهم، أي: لا تقدر آلهتُهم على نصرهم. وقولُ ابنِ عطية[2]: يحتمل أن يكونَ ضميرُ «يستطيعون» للمشركين، وضميرُ «نصرهم» للأصنام، ليس بشيءٍ أصلاً.

﴿وَهُمْ﴾ أي: أولئك المتَّخِذون المشركون ﴿لَهُمْ﴾ أي: لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥﴾ أي: معدُّون لحفظهم والذبِّ عنهم في الدنيا. أخرجه ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ المنذر عن الحسنِ وقتادة.

وقيل: المعنى: أنَّ المشركين جندٌ لآلهتهم في الدنيا محضَرون للنَّار في الآخرة. وجاءَ ذلك في روايةٍ أخرجها ابنُ أبي حاتمٍ عن الحسن.

واختار بعضُ الأَجِلَّة أنَّ المعنى: والمشركون لآلهتهم جندٌ محضرون يومَ القيامة إِثرَهم في النار، وجعلهم جنداً من باب التهكُّم والاستهزاء. وكذلك لامُ «لهم» الدالَّة على النفع.

وقيل: «هم» للآلهة، وضميرُ «لهم» للمشركين، أي: وإنَّ الآلهةَ معدُّون محضَرون لعذاب أولئك المشركين يومَ القيامة؛ لأنَّهم يُجعلون وَقودَ النار، أو: محضَرون عند حسابِ الكَفَرة؛ إظهاراً لعجزهم، وإقناطاً للمشركين عن شفاعتهم.

---

(١) في (م): يشاهدون، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٣.

وجعلُهم جنداً والتعبيرُ باللام في الوجهَين على ما مرَّ آنفاً، واختلافُ مراجعِ الضمائرِ في الآية ليس من التفكيكِ المحظور.

والواوُ في قوله سبحانه: «وهم..» إلخ ـ على جميع ما مرَّ ـ إمَّا عاطفة، أو حاليّة، إلَّا أنَّ الحالَ مقدَّرة في بعض الأوجُه كما لا يخفى.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ فصيحة، أي: إذا كان هذا حالَهم مع ربِّهم عزَّ وجلَّ، فلا تحزنْ بسبب قولِهم عليك: هو شاعر، أو: إذا كان حالُهم يومَ القيامةِ ما سمعت، فلا تحزنْ بسبب قولِهم على الله سبحانه: إنَّ له شركاء، تعالى اللهُ عن ذلك علوّاً كبيراً، أو عليك: هو شاعر، أو على اللهِ تعالى وعليك ما لا يَليق بشأنه عزَّ وجلَّ وشأنِك.

والاقتصارُ في بيان قولِهم عليه ﷺ بأنَّه ـ وحاشاه ـ شاعر؛ لأنَّه الأوفقُ بما تقدَّم من قوله تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ) وقد يعمُّ فيشمل جميعَ ما لا يَليق بشأنه عليه الصلاة والسلام من الأقوال.

وتفسيرُ الشرطِ الذي أفصحت عنه الفاءُ بما ذكرنا أوَّلاً هو المناسبُ لمَا رُوي عن الحسن وقتادةَ في معنى قولِه تعالى: (وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ) وبما ذكرنا ثانياً هو المناسبُ لمَا ذكر بعدُ في معنى ذلك. وقيل: التقديرُ على الأوَّل: إذا كانوا في هذه المرتبةِ من سَخافة العقول، حيث اتَّخذوا رجاءَ النصرِ آلهةً من دون اللهِ عزَّ وجلَّ لا يَقدرون على نصرهم والذَّبِّ عنهم، بل هم يذبُّون عن تلك الآلهة، فلا تَحزَن بسبب قولِهم عليك ما قالوا. ولعل الأوَّلَ أَوْلى.

وأيّاً ما كان، فالنهيُ وإنْ كان بحسب الظاهرِ متوجِّهاً إلى قولهم، لكنَّه في الحقيقة كما أَشرنا إليه متوجِّه إلى رسول اللهِ ﷺ، والمرادُ نهيُه عليه الصلاة والسلام عن التأثُّر من الحزن بطريق الكنايةِ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه كما لا يخفَى.

وقرأ نافع: «فلا يُحْزِنكَ» بضمِّ الياءِ وكسرِ الزاي[1]، من: أَحزن المنقولِ من حَزَنَ اللازم، وجاء: حَزَنَه وأَحزنه.

(١) التيسير ص ٩١-٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٤.

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ تعليلٌ صريحٌ للنَّهي بطريق الاستئنافِ بعد تعليلِه بطريق الإشعار، بناءً على التقدير الثاني في الشرط، فإنَّ العلم بما ذُكر مجازٌ عن مجازاتهم عليه، أو كنايةٌ عنها للزومها إيَّاه؛ إذ عِلمُ الملكِ القادرِ الحكيمِ بما جرى من عدوِّه الذي تقتضي الحكمةُ الانتقامَ منه مقتضٍ لمجازاته والانتقامِ منه. وهو على التقدير الأوَّل قيل: استئنافٌ بيانيٌّ وقع جوابَ سؤالٍ مقدَّر، كأنَّه قيل: يا ربِّ، فإذا كان حالُهم معك ومع نبيِّك ذلك، فماذا تصنعُ بهم؟ فقيل: «إنا نعلم...» إلخ، أي: نجازيهم بجميع جناياتِهم.

وقيل: هو تعليلٌ لترتيب النَّهي على الشَّرط. فتأمَّل.

و«ما» موصولة، والعائدُ محذوف، أي: نعلم الذي يُسرُّونه من العقائد الزائغةِ والعداوةِ لك ونحوِ ذلك، والذي يُعلنونه من كلمات الإشراك والتكذيبِ ونحوِها. وجُوِّز أن تكونَ مصدرية، أي: نعلم إسرارَهم وإعلانهم، والمفعولُ محذوف، أو الفعلان منزَّلان منزلةَ اللازم، والمتبادرُ الأوَّل، وهو الأَوْلى.

وتقديمُ السرِّ على العلن لبيان إحاطة علمِه سبحانه، بحيث إنَّ عِلْمَ السرِّ عنده تعالى كأنَّه أقدمُ من علم العَلَن.

وقيل: لأنَّ مرتبةَ السرِّ متقدِّمة على مرتبة العلن؛ إذ ما من شيءٍ يُعْلَنُ إلَّا وهو أو مَبَاديه مضمَرٌ في القلب قبل ذلك، فتعلُّق علمِه تعالى بحالته الأولى متقدِّم على تعلُّقه بحالته الثانيةِ حقيقة.

وقيل: للإشارة إلى الاهتمام بإصلاح الباطن، فإنَّه مِلاكُ الأمر، ولأنه محلُّ الاشتباهِ المحتاجِ للبيان.

وشاع أنَّ الوقفَ على «قولهم» متعيِّن، وقيل: ليس به؛ لأنَّه جوِّز في «إنا نعلم...» إلخ كونُه مقولَ القول، على أنَّ ذلك من باب الإلهاب والتعريض، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] أو على أنَّ المراد: فلا يَحزُنك قولُهم على سبيل السُّخريةِ والاستهزاء: إنَّا نعلم... إلخ.

ومنه يُعلم أنَّه لو قرأ قارئٌ: أنَّا نعلم، بالفتح، وجعل ذلك بدلاً من «قولهم» لا تنتقضُ صلاتُه، ولا يكفر لو اعتقد ما يُعطيه من المعنى، كما لو جعله تعليلاً

على حذف حرفِ التعليل. والحقُّ أنَّ مثلَ هذا التوجيهِ لابأسَ بقَبوله في دَرءِ الكفر، وأمَّا أمرُ الوقف، فالذي ينبغي أن يقالَ فيه: إنَّه على «قولهم» كالمتعيّن.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان بطلانِ إنكارهم البعثَ بعد ما شاهدوا في أنفسهم ما يوجب التصديقَ به، كما أنَّ ما سبق مسوقٌ لبيان بطلانِ إشراكهم بالله عزَّ وجلَّ بعد ما عاينوا فيما بأيديهم ما يوجب التوحيدَ والإسلام.

وقيل: إنَّه تسليةٌ له عليه الصلاة والسلام، كقوله تعالى: (فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ) وذلك بتهوين ما يقولونه بالنِّسبة إلى إنكارهم الحشر. وليس بشيء.

والهمزةُ للإنكار والتعجيب[(١)]، والواوُ للعطف على جملةٍ مقدَّرة هي مستتبعةٌ للمعطوف، كما مرَّ في قوله تعالى: «أو لم يروا...» إلخ، أي: ألم يتفكَّر الإنسانُ ولم يعلمْ أنَّا خلقناه من نطفة؟ أو هي عينُ تلك الجملة، أُعيدت تأكيداً للنَّكير السابق، وتمهيداً لإنكار ما هو أحقُّ منه بالإنكار؛ لمَا أنَّ المنكر [هاهنا] عدمُ[(٢)] علمِهم بما يتعلَّق بخلق أنفسِهم. ولا ريبَ في أنَّ علمَ الإنسانِ بأحوال نفسِه أهمّ، وإحاطتَه بها أسهل وأتمّ، فالإنكار والتعجيبُ من الإخلال بذلك [أدْخلُ]، كأنَّه قيل: ألم يعلموا خلقَه تعالى لأسباب معايشِهم ولم يعلموا خلقَه تعالى لأنفسهم أيضاً، مع كون العلمِ بذلك في غاية الظهورِ ونهايةِ الأهمية.

ويشير كلامُ بعضِ الأجِلَّةِ إلى أنَّ العطفَ على «أو لم يروا» السابق، والجامعُ ابتناءُ كلٍّ منهما على التعكيس، فإنَّه تعالى خلق للإنسان ما خلق ليشكر، فكفر وجحد المنعِمَ والنِّعم، وخَلَقه سبحانه من نطفةٍ قذرةٍ ليكونَ منقاداً متذلِّلاً، فطغى وتكبَّر وخاصم. وإيرادُ «الإنسانِ» موردَ الضمير؛ لأنَّ مدارَ الإنكارِ متعلِّق بأحواله من حيث هو إنسان.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي: مبالغٌ في الخصومة والجدالِ الباطل ﴿مُّبِينٌ ۝٧٧﴾ ظاهرٌ متجاهرٌ في ذلك، عطفٌ على الجملة المنفيةِ داخلٌ في حيِّز

(١) في الأصل و(م): والتعجب، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ١٨٠، والكلام منه.
(٢) في الأصل و(م): عين، والمثبت من تفسير أبي السعود، وما بين حاصرتين منه.

الإنكارِ والتعجيب، كأنَّه قيل: أَولم يرَ أنَّا خلقناه من أخسِّ الأشياءِ وأمهنِها ففاجأ خصومتَنا في أمرٍ يشهد بصحَّته مبدأ فطرتِه شهادةً بيِّنة؟ وإيرادُ الجملةِ اسميةً للدَّلالة على استقراره في الخصومة واستمرارِه عليها.

وفي «الحواشي الخَفاجيةِ»[1] أنَّ تعقيبَ الإنكارِ بالفاء و«إذا» الفجائيةِ على ما يقتضي خلافَه مقوٍّ للتعجيب.

والمرادُ بالإنسان الجنس. والخصيمُ إنَّما هو الكافرُ المنكِر للبعث مطلقاً. نعم نزلت الآيةُ في كافرٍ مخصوص، أخرج جماعةٌ منهم الضياءُ في «المختارة» عن ابن عباسٍ قال: جاء العاص بنُ وائلٍ إلى رسول اللهِ ﷺ بعظمٍ حائل، ففتَّه بيده، فقال: يا محمد، أيُحيي اللهُ تعالى هذا بعد ما أَرَمّ؟ قال: «نعم يبعث اللهُ تعالى هذا، ثم يُميتك ثم يحييك ثم يُدخلك نارَ جهنّم» فنزلت الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ إلى آخر السُّورة[2].

وفي رواية ابنِ مردويه عنه أنَّ الجائيَ القائلَ ذلك أُبيُّ بن خلف، وهو الذي قتله رسولُ اللهِ ﷺ يومَ أُحدٍ بالحربة. ورُوي ذلك عن أبي مالكٍ ومجاهدٍ وقتادةَ والسُّديِّ وعكرمةَ وغيرِهم، كما في «الدرِّ المنثور»[3].

وفي روايةٍ أخرى عن الحَبر أنَّه أبو جهل بنُ هشام.

وفي أُخرى عنه أيضاً أنَّه عبدُ اللهِ بن أُبيّ[4].

وتعقَّب ذلك أبو حيَّان[5] بأنَّ نسبةَ ذلك إلى ابن عباسٍ ﵄ وهم؛ لأنَّ السورةَ والآيةَ مكِّية بإجماع، ولأنَّ عبدَ الله بنَ أُبيٍّ لم يجاهر قطُّ هذه المجاهرة. وحَكَى

(١) ٧/ ٢٥٣.
(٢) الدر المنثور٥/ ٢٦٩، وأخرجه الحاكم ٢/ ٤٢٩، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وهو من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﵄، وأخرجه ابن جرير ١٩/ ٤٨٧ عن سعيد بن جبير.
(٣) ٥/ ٢٦٩-٢٧٠.
(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٨٧، وإسناده ضعيف، وفي متنه نكارة كما سيرد.
(٥) في البحر ٧/ ٣٤٨.

عن مجاهدٍ وقتادةَ أنَّه أميةُ بن خلف، والذي اختاره وادَّعى أنَّه أصحُّ الأقوالِ أنَّه أُبيُّ بن خلف، ثم قال: ويحتمل أنَّ كلًّا من هؤلاء الكفرةِ وقع منه ذلك.

وقيل: معنى قولِه تعالى: (فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) فإذا هو بعد ما كان ماءً مهيناً رجلٌ مميِّز مِنطيق، قادرٌ على الخصام، مُبينٌ مُعرِبٌ عمَّا في ضميره فصيحٌ، فهو حينئذٍ معطوفٌ على «خلقناه»، والتعقيبُ والمفاجأةُ ناظران إلى خَلْقِه، و«مبين» متعدٍّ، والكلامُ من متمِّمات شواهدِ صحَّة البعث، فقولُه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ معطوفٌ حينئذٍ على الجملة المنفيةِ داخلٌ في حيِّز الإنكار، وأمَّا على الأوَّل، فهو عطفٌ على الجملة الفُجائية، والمعنى: ففاجأ خصومتَنا وضرب لنا مثلاً، أي: أَورد في شأننا قصةً عجيبةً في نفس الأمرِ هي في الغرابة كالمثل، وهي إنكار إحيائنا العظام، أو قصَّةً عجيبةً في زعمه، واستبعدها وعدَّها من قبيل المثل، وأنكرها أشدَّ الإنكار، وهي إحياؤنا إياها، أو جَعَلَ لنا مثلاً ونظيراً من الخلق، وقاس قدرتَنا على قدرتهم، ونفى الكلَّ على العموم.

وقولُه تعالى: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي: خلقَنا إياه على الوجه المذكورِ الدالِّ على بُطلان ما ضربه، إمَّا عطفٌ على «ضرب» داخلٌ في حيِّز الإنكارِ والتعجيب، أو حالٌ من فاعله بإضمار «قد»، أو بدونه.

ونسيانُ خلقه إما حقيقةٌ بأن لم يتذكَّره على ما قيل، وفيه دغدغة، أو تَرْكَ تذكُّرَه؛ لكفره وعنادِه، أو هو كالناسي؛ لعدم جريِه على مقتضَى التذكُّر.

وقولُه سبحانه: ﴿قَالَ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤالٍ نشأ من حكاية ضربِه المثل، كأنَّه قيل: أيَّ مثلٍ ضرب؟ أو: ماذا قال؟ فقيل: قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ منكِراً ذلك، ذاكراً من أَحوال العظامِ ما تَبعد معه من الحياة غايةَ البُعد، وهو كونُها رميماً، أي: باليةً أشدَّ البِلى.

والظاهرُ أنَّ «رميم» صفةٌ لا اسمٌ جامد، فإنْ كان من رمَّ اللازمِ بمعنى بلي، فهو فعيلٌ بمعنى فاعل، وإنما لم يؤنَّث لأنَّه غلب استعمالُه غيرَ جارٍ على موصوف، فأُلحق بالأسماءِ الجامدة، أو حُمِل على فعيلٍ بمعنى مفعول، وهو يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث.

وقال محيي السنة(١): لم يقل: رميمة؛ لأنَّه معدولٌ من فاعلة، فكلُّ ما كان معدولاً عن وجهه ووزنِه، كان مصروفاً عن أخواته، ومثلُه «بَغِيًّا» في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨] أسقط الهاءَ منها؛ لأنَّها كانت مصروفةً عن باغية.

وقال الأزهريّ(٢): إنَّ عظاماً لكونه بوزن المفرَد، ككِتاب وقِراب، عومل معاملتَه، فقيل: «رميم»، دونَ: رميمة. وذَكَرَ له شواهد، وهو غريب.

وإنْ كان من رمَّ المتعدِّي بمعنى أبلى، يقال: رمَّه، أي: أبلاه. وأصلُ معناه: الأكلُ، كما ذكره الأزهري(٣)، من: رمَّت الإبلُ الحشيش، فكأنَّ ما بلي أكلته الأرض، فهو فعيلٌ بمعنى مفعول. وتذكيرُه على هذا ظاهر؛ للإجماع على أنَّ فعيلاً بمعنى مفعولٍ يستوي فيه المذكَّرُ والمؤنَّث.

وفي «المطلع»: الرميمُ اسمٌ غيرُ صفة، كالرِّمَّة والرُّفات، لا فعيل بمعنى فاعلٍ أو مفعول، ولأجل أنَّه اسمٌ لا صفةٌ لا يقال: لِمَ لم يؤنَّث وقد وقع خبراً لمؤنَّث؟

ولا يخفى أنَّ له فعلاً، وهو رمَّ، كما ذكره أهلُ اللغة، وهو وزنٌ من أوزان الصِّفة، فكونُه جامداً غيرُ ظاهر.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً له بتذكير ما نَسِيه من فطرته الدالَّةِ على حقيقة الحالِ وإرشاده إلى طريقة الاستشهادِ بها: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا﴾ أي: أوجدها وربَّاها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في أوَّل مرَّةٍ إذ لم يسبق لها إيجاد، ولا شكَّ أنَّ الإحياءَ بعدُ أهونُ من الإنشاء قبل، فمن قَدَرَ على الإنشاء، كان على الإحياء أقدرَ وأقدر. ولا احتمالَ لعروض العجز؛ فإنَّ قدرته عزَّ وجلَّ ذاتيةٌ أزلية، لا تقبل الزوالَ ولا التغيُّر بوجهٍ من الوجوه.

---

(١) أي: البغوي في تفسيره معالم التنزيل ٤/ ٢٠.

(٢) في تهذيب اللغة ٢/ ٣٠٣.

(٣) ينظر تهذيب اللغة ٢/ ٣٠٣، و١٥/ ١٩١.

وفي «الحواشي الخَفاجية»[1]: كان الفارابيُّ يقول: وددتُ لو أنَّ أرسطو وقف على القياس الجليِّ في قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا﴾ إلخ، وهو: اللهُ تعالى أنشأ العظامَ وأحياها أولَ مرَّة، وكلُّ مَن أنشأ شيئاً أوَّلاً قادرٌ على إنشائه وإحيائه ثانياً، فيلزم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قادرٌ على إنشائها وإحيائها بقُواها ثانياً.

والآيةُ ظاهرةٌ فيما ذهب إليه الإمام الشافعيُّ ـ قيل: ومالكٌ وأحمد ـ من أنَّ العظمَ تَحلُّه الحياة، فيؤثِّر فيه الموتُ كسائر الأعضاء، وبنَوا على ذلك الحكمَ بنجاسة عظمِ الميتة.

ومسألةُ حلولِ الحياة في العظم وعدمِه ممَّا اختلف فيه الفقهاءُ والحكماء، واستدلَّ مَن قال منهما بعدم حلولِها فيه بأنَّ الحياةَ تستلزم الحِسَّ، والعظمُ لا إحساسَ له، فإنَّه لا يتألَّم بقطعه كما يُشاهَد في القرن، وما قد يحصل في قطع العظمِ من التألُّم إنَّما هو لما يجاوره.

وقال ابن زُهْرٍ في كتاب «التيسير»[2]: اضطرب كلامُ جالينوس في العظام، هل لها إحساسٌ أم لا؟ والذي ظهر لي أنَّ لها حسّاً بطيئاً، وليت شعري ما يمنعها من التعفُّن والتفتُّتِ في الحياة غيرُ حلولِ الرُّوح الحيوانيِّ فيها. انتهى.

وبعضُ مَن ذهب من الفقهاءِ إلى أنَّ العظامَ لا حياةَ فيها بنى عليه الحكمَ بطهارتها من الميتة؛ إذ الموتُ زوالُ الحياة، فحيث لم تحلَّها الحياة، لم يحلَّها الموت، فلم تكن نجسة. وأورد عليهم هذه الآية، فقيل: المرادُ بالعظام فيها صاحبُها، بتقدير أو تجوُّز، أو المرادُ بإحيائها ردُّها لما كانت عليه غضَّةً رطبةً في بدن حيٍّ حسَّاس. ورجِّح هذا على إرادة صاحبِها بأنَّ سببَ النزولِ لابدَّ من دخوله، وعلى تلك الإرادةِ لا يدخل، ويدخل على تأويلِ إحيائها بإعادتها لما كانت عليه. ولا يخفَى أنَّ حملَ الآيةِ على ذلك خلافُ الظاهر، والظاهرُ مع الشافعية.

---

(١) ٧/ ٢٥٥.

(٢) في المداواة والتدبير، لأبي مروان عبد الملك بن زهر الإشبيلي. شيخ الأطباء، له مصنفات في الطب أقبل الأطباء على حفظها. مات سنة (٥٥٧هـ). الوافي بالوفيات ١٩/ ١٦٢، وكشف الظنون ١/ ٥٢٠، والأعلام ٤/ ١٥٨. والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٢٥٤.

ومن الفقهاءِ القائلين بعدم نجاسةِ عظامِ الميتةِ مَن رأى قوَّةَ الاستدلالِ بالآية على أنَّ العظامَ تحلُّها الحياة، فعلَّل الطهارةَ بغير ما سمعت، فقال: إنَّ نجاسةَ الميتةِ ليست لعينها، بل لِمَا فيها من الرُّطوبة والدمِ السائل، والعظمُ ليس فيه ذلك؛ فلذا لم يكن نجساً. ومنع الشافعيةُ كونَ النجاسةِ للرُّطوبة، وتمامُ الكلامِ في الفروع.

﴿وَهُوَ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أي: مخلوقٍ ﴿عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ مبالغٌ في العلم، فيعلم جلَّ وعلا بجميع الأجزاءِ المتفتِّتة المتبدِّدةِ لكلِّ شخصٍ من الأشخاص، أصولِها وفروعِها، وأوضاعِ بعضِها من بعض، من الاتِّصال والانفصال، والاجتماعِ والافتراق، فيعيد كلًّا من ذلك على النَّمط السابقِ مع القُوى التي كانت قبل.

والجملةُ إمَّا اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لمضمون ما تقدَّم، أو معطوفةٌ على الصِّلة. والعدولُ إلى الاسمية للتنبيه على أنَّ علمَه تعالى بما ذُكر أمرٌ مستمرٌّ ليس كإنشائه للمنشآت.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ بدلٌ من الموصول الأوَّل، وعدمُ الاكتفاءِ بعطف صلتِه على صِلته؛ للتأكيد، ولتفاوتهما في كيفية الدَّلالة. والظرفان متعلِّقان بـ «جعل»، قدِّما على «ناراً» مفعولِه الصَّريح؛ للاعتناءِ بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

و«الأخضر» صفةُ «الشجر»، وقُرئ: «الخضراءِ»[1] وأهلُ الحجازِ يؤنِّثون الجنسَ المميَّز واحدُه بالتاء، مثلُ الشجر، إذ يقال في واحده: شجرة، وأهلُ نجدٍ يذكِّرونه، إلَّا ألفاظاً استُثنيت في كتب النَّحو، وذكر بعضُهم أنَّ التذكيرَ لرعاية اللفظِ والتأنيثَ لرعاية المعنى؛ لأنَّه في معنى الأشجار، والجمعُ تؤنَّث صفتُه. وقيل: لأنَّه في معنى الشَّجرة، وكما يؤنَّث صفتُه يؤنَّث ضميرُه، كما في قوله تعالى: ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥٢-٥٣].

---

(١) البحر ٧/٣٤٨.

والمشهورُ أنَّ المرادَ بهذا الشجرِ المَرخُ والعَفَار، يتَّخذ من المرخ ـ وهو ذَكَر ـ الزَّند الأعلى، ومن العَفَار ـ بفتح العينِ وهو أُنثى ـ الزَّندةُ السفلى، ويُسحق الأولُ على الثاني، وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فتنقدح النارُ بإذن اللهِ تعالى. وكونُ المرخ بمنزلة الذَّكرِ والعَفارِ بمنزله الأُنثى هو ما ذكره الزَّمخشريُّ[1] وغيره، واللفظُ كالشاهد له، وعكس الجوهريّ[2].

وعن ابن عباسٍ والكلبيّ: في كلِّ شجرٍ نارٌ إلَّا العُنَّاب. قيل: ولذا يُتَّخذ منه مِدَقُّ القصَّارين، وأنشد الخفاجيُّ لنفسه[3]:

أيـا شـجـرَ الـعـنَّـاب نـاركِ أوقـدتْ ... بقلبي وما العنَّابُ من شجر النارِ

واشتهر العمومُ وعدمُ الاستثناء، ففي المَثَل: في كلِّ شجرٍ نار، واستمجد المَرْخُ والعَفار، أي: استكثرا من النار، من: مجَدت الإبلُ: إذا وقعت في مرعًى واسعٍ كثير، ومنه: رجلٌ ماجد، أي: مِفضال.

واختار بعضُهم حملَ الشجرِ الأخضرِ على الجنس، وما يُذكر من المرخ والعَفارِ من باب التمثيل، وخُصَّا لكونهما أسرعَ وَرْياً وأكثرَ ناراً، كما يُرشد إليه المثل، ومن إرسال المثل: المرخُ والعَفارُ لا يلدان غيرَ النار.

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ كالتأكيد لِمَا قبله والتحقيقِ له، أي: فإذا أنتم من ذلك الشجرِ الأخضرِ توقدون النار، لا تشكُّون في أنَّها نارٌ حقيقةٌ تخرج منه وليست كنار الحُبَاحب[4]، وأشار سبحانه بقوله تعالى: «الذي...» إلخ إلى أنَّ مَن قَدَرَ على إحداث النارِ من الشجر الأخضرِ مع ما فيه من المائية المضادَّةِ لها بكيفيته، فإنَّ الماءَ باردٌ رطبٌ والنارَ حارَّة يابسة، كان جلَّ وعلا أقدرَ على إعادة الغَضاضةِ إلى ما كان غضّاً فيبس وبَلِي.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٣٢.

(٢) في الصحاح (مرخ).

(٣) في حاشيته ٧/ ٢٥٥.

(٤) رجل بخيل كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة مخافة الضيفان. ينظر ما سيأتي عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾.

ثم إنَّ هذه النارَ يخلقها اللهُ تعالى عند سحق إحدى الشَّجرتين على الأخرى، لا أنَّ هناك ناراً كامنةً تخرج بالسَّحق، و«من الشجر» لا يصلح دليلاً لذلك، و: في كلِّ شجرٍ نارٌ، من مسامحات العرب، فلا تغفُل، وإياكَ واعتقادَ الكُمون.

وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلخ استئنافٌ مسوقٌ من جهته تعالى لتحقيق مضمونِ الجوابِ الذي أمر ﷺ أن يخاطبَهم به ويُلزمَهم الحجَّة. والهمزةُ للإنكار والنفي، والواوُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: أليس الذي أنشأها أوَّلَ مرة، وليس الذي جعل لكم من الشَّجر الأخضرِ ناراً، وليس الذي خلق السماواتِ والأرضَ مع كبر جِرمهما وعِظَم شأنِهما ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصّغر والحقارةِ بالنِّسبة إليهما؟ على أنَّ المرادَ بـ «مثلهم»: هم وأمثالُهم، أو على أنَّ المرادَ به هم أنفسُهم بطريق الكناية، كما في: مِثلُك يفعل كذا. وقال بعضُهم: مِثلَهم في أصول الذاتِ وصفاتِها، وهو المعاد. وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى تفصيلُ الكلامِ في هذا المقام.

وزعم جماعةٌ من المفسِّرين عودَ ضميرِ «مثلهم» للسَّماوات والأرض؛ لشمولهما لمَن فيهما من العقلاء، فلذا كان ضميرُ العقلاءِ تغليباً، والمقصودُ بالكلام دفعُ توهُّمِ قدَمِ العالَم المقتضي لعدم إمكان إعادته، وهو تكلُّف ومخالفٌ للظاهر، والمشركون لا يقولون بقِدَم العالَم فيما يظهر.

وتعقِّب أيضاً بأنَّ قدمَ العالمِ لو فُرض مع قدم النوعِ الإنسانيِّ وعدمِ تناهي أفرادِه في جانب المبدأ لا يأبى الحشرَ الجسماني؛ إذ هو بالنِّسبة إلى المكلَّفين، وهم متناهون. وزعمُ أنَّ ما ثبت قِدَمُه استحال عدمُه، غيرُ تامٍّ كما قرِّر في محلِّه، فلا تغفُل.

وقرأ الجحدريّ، وابنُ أبي إسحاق، والأعرج، وسلام، ويعقوبُ في رواية[1]: «يَقْدِرُ» بفتح الياءِ وسكونِ القاف، فعلاً مضارعاً.

﴿بَلَىٰ﴾ جوابٌ من جهته تعالى، وتصريحٌ بما أفاده الاستفهامُ الإنكاريُّ من

---

(١) هي رواية رويس كما في النشر ٢/ ٣٥٥. والكلام من البحر ٧/ ٣٤٨.

تقرير ما بعد النفي من القدرةِ على الخلق، وإيذانٌ بتعيُّنه للجواب، نطقوا به أو تلعثموا فيه مخافةَ الالتزام.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّٰقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ عطفٌ على ما يفيده الإيجاب، أي: بلى هو سبحانه قادرٌ على ذلك، وهو جلَّ وعلا المبالغُ في الخلق والعلمِ كيفاً وكمّاً.

وقرأ الحسنُ والجحدريُّ وزيدُ بن عليٍّ ومالكُ بن دينار: «الخالقُ» بزِنَة الفاعل[١].

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ أي: شأنُه ـ تعالى شأنُه ـ في الإيجاد. وجوَّز فيه أن يرادَ الأمرُ القولي، فيوافق قولَه تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ﴾ [النحل:٤٠] ويراد به القولُ النافذ.

﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أي: إيجادَ شيءٍ من الأشياء ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ أي: اوجَد ﴿فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ أي: فهو يكون ويوجَد.

والظاهرُ أنَّ هناك قولاً لفظيّاً هو لفظُ «كن»، وإليه ذهب معظمُ السَّلف، وشؤونُ اللهِ تعالى وراءَ ما تصل إليه الأفهام، فدعْ عنك الكلامَ والخِصام.

وقيل: ليس هناك قولٌ لفظيّ؛ لئلَّا يلزمَ التسلسل، ويجوز أن يكونَ هناك قولٌ نفسيّ، وقولُه للشيءِ تعلُّقه به. وفيه ما يأباه السلفُ غايةَ الإباء.

وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّه لا قول أصلاً، وإنَّما المرادُ تمثيلٌ لتأثير قدرتِه تعالى في مراده بأمر الآمِر المطاعِ للمأمور المطيعِ في سرعة حصولِ المأمورِ به من غير امتناعٍ وتوقُّفٍ على شيء.

وقرأ ابن عامرٍ والكِسائي: «فيكونَ» بالنَّصب[٢] عطفاً على «يقولَ»، وجوَّز كونُه منصوباً في جواب الأمر، وأباه بعضُهم؛ لعدم كونِه أمراً حقيقةً، وفيه بحث.

---

(١) البحر ٧/ ٣٤٩، والقراءات الشاذة ص ١٢٦ ولم يذكر زيد بن علي.

(٢) التيسير ص ١٣٧، والنشر ٢/ ٢٢٠.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تنزيهٌ له عزَّ وجلَّ ممَّا وصفوه به تعالى، وتعجيبٌ عمَّا قالوا في شأنه عزَّ شأنُه. والفاءُ جزائية، أي: إذا عُلِم ذلك فسبحان. أو سببية؛ لأنَّ ما قبلُ سببٌ لتنزيهه سبحانه.

والملكوتُ مبالغةٌ في الملك، كالرَّحَموت والرَّهَبوت، فهو الملكُ التامّ. وفي تعليق «سبحان» بما في حيِّزه إيماءٌ إلى أنَّ كونَه تعالى مالكاً للملك كلِّه قادراً على كلِّ شيءٍ مقتضٍ للتسبيح.

وفسِّر الملكوتُ أيضاً بعالَم الأمرِ والغيب، فتخصيصُه بالذِّكر قيل: لاختصاص التصرُّفِ فيه به تعالى من غيرِ واسطة، بخلاف عالَم الشَّهادة.

وقرأ طلحةُ والأعمش: «مَلَكَةُ» على وزن شَجَرة[1]، أي: بيده ضبطُ كلِّ شيء. وقُرِئ: «مَمْلَكَةُ» على وزن مَفْعَلة. وقُرِئ: «مِلْكُ»[2].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ لا إلى غيره تعالى. وهذا وعدٌ للمقرِّين ووعيدٌ للمنكرين، فالخطابُ عامٌّ للمؤمنين والمشركين. وقيل: هو وعيدٌ فقط، على أنَّ الخطابَ للمشركين لا غير، توبيخاً لهم؛ ولذا عُدل عن مقتضَى الظاهر، وهو: وإليه يَرجع الأمرُ كلُّه، ففيه دلالةٌ على أنَّهم استحقُّوا غضباً عظيماً.

وقرأ زيدُ بن عليّ: «تَرجِعون» مبنيّاً للفاعل[3].

هذا ما لُخِّص من كلامهم في هذه الآياتِ الكريمة، وفيها دلالةٌ واضحةٌ على المعاد الجسماني، وإيماءٌ إلى دفع بعضِ الشُّبه عنه، وهذه المسألةُ من مهمَّات مسائل الدِّين، وحيث إنَّ هذه السورةَ الكريمةَ قد تضمَّنت من أمره ما لَه[4] كانت عند أَجِلَّة العلماءِ الصدورِ قلبَ القرآن، لابأسَ بأن يُذكرَ في إتمام الكلامِ فيها ما للعلماء في تحقيق أمرِ ذلك، فأقول طالباً من الله عزَّ وجلَّ التوفيقَ إلى القول المقبول:

---

(١) المحتسب ٢/٢١٧، والبحر ٧/٣٤٩، وانظر القراءات الشاذة ص ١٢٦.
(٢) البحر ٧/٣٤٩.
(٣) البحر ٧/٣٤٩.
(٤) أي: ما لأَجْلِه.

إعلم أوَّلاً أنَّ المسلمين اختلفوا في أنَّ الإنسانَ ما هو، فقيل: هو هذا الهيكلُ المحسوسُ مع أجزاءٍ ساريةٍ فيه سريانَ ماءِ الوردِ في الورد، والنارِ في الفحم، وهي جسمٌ لطيفٌ نورانيٌّ مخالفٌ بالحقيقة والماهية للأجسام التي منها ائتلف هذا الهيكلُ وإنْ كان ـ لسَريانه فيه ـ يُشبهه صورةً، ولا نعلم حقيقةَ هذا الجسم، وهو الروحُ المشارُ إليها بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] عند معظم السلفِ الصالح، وبينه وبين البدنِ علاقةٌ يعبَّر عنها بالرُّوح الحَيواني، وهو بخارٌ لطيفٌ إذا فسد وخرج عن الصَّلاحية لأن يكونَ علاقة، تخرج الروحُ عن البدن خروجاً اضطرارياً وتزول الحياة، ومادام باقياً على الوجه الذي يصلُح به لأن يكون علاقة، تبقى الروحُ والحياة. وهذا الجسمُ المعبَّر عنه بالرُّوح ـ على ما قال الإمامُ القرطبيُّ في «التذكرة»[١] ـ ممَّا له أولٌ وليس له آخِر، بمعنى أنَّه لا يفنَى وإنْ فارق البدنَ المحسوس. وذَكَرَ فيها أنَّ مَن قال: إنَّه يفنى، فهو ملحد.

وقيل: هو هذا الهيكلُ المحسوسُ مع النفس الناطقةِ التي هي جوهرٌ مجرَّد، بل هو الإنسانُ حقيقةً على ما صرَّح به بعضُهم. وإلى إثبات هذا الجوهرِ ذهب الحليميّ، والغزالي[٢]، والرَّاغب[٣]، وأبو زيدٍ الدَّبوسي، ومَعمرٌ من قدماءِ المعتزلة، وجمهورُ متأخِّري الإمامية، وكثيرٌ من الصوفية. وهو الروحُ الأمرية، وليست داخلةَ البدنِ ولا خارجةً عنه، فنسبتُها إليه نسبةَ اللهِ سبحانه وتعالى إلى العالَم، وهي بعد حدوثِها الزمانيِّ عندهم لا تفنَى أيضاً. وردَّ هذا المذهبَ ابنُ القيِّم في كتاب «الرُّوح» بما لا مزيدَ عليه[٤].

وكما اختلفوا في ذلك اختلفوا في أنَّ البدنَ هل يتفرَّق بعد الموتِ فقط أم يتفرَّق وتعدم ذاتُه؟ بكلٍّ قال بعض. ولعلَّ مَن قال بالثاني استثنى عَجْبَ الذَّنَب؛ لصحَّة خبرِ استثنائه من البِلى[٥].

---

(١) ص ١٢٤.

(٢) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ص ٢٠٠.

(٣) انظر المفردات (روح).

(٤) انظر ص٢٠٨ فما بعد.

(٥) سلف عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأعراف.

وكلُّ هؤلاء المختلفين اتَّفقوا على القولِ بالحشر الجِسماني، إلَّا أنَّ منهم مَن قال بالحشر الجسمانيِّ فقط، بمعنى أنَّه لا يُحشر إلَّا جسم، إذ ليس وراءَ الجسمِ عندهم جوهرٌ مجرَّد يسمَّى بالنفس النَّاطقة. ومنهم مَن قال بالحشر الجسمانيِّ والحشر الرُّوحاني معاً، بمعنى أنَّه يحشر الجسمُ متعلِّقاً به أمرٌ ليس بجسمٍ هو النفسُ الناطقة.

وكلٌّ من أصحاب هذين القولَين منهم مَن يقول بأنَّ البدنَ إذا تفرَّق تُجمَّع أجزاؤه يومَ القيامةِ للحشر، وتقوم فيها الرُّوح أو تتعلَّق كما في الدنيا، بل القيامُ أو التعلُّق هناك أتمّ؛ إذ لا انقطاعَ له أصلاً بعد تحقُّقه، فالحشرُ عند هؤلاء بجمع الأجزاءِ المتفرِّقة وعودِ قيامِ الرُّوح أو تعلُّقِها إليها، والمرادُ بالأجزاء الأجزاءُ الأصلية، وهي أجزاءُ البدنِ حالَ نفخِ الرُّوح فيه في الدنيا، لا الذرَّة التي أُخذ عليها العهدُ يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] كما قيل، واللهُ تعالى قادرٌ على حفظها من التحلُّل والتبدُّل، وكذا على حفظها من أن تكونَ أجزاءَ بدن آخر وإن تفرَّقت في أقطار الأرضِ واختلطت بالعناصر.

وقيل: يجوز أن تكونَ الأجزاءُ الأصليةُ يقبضها المَلَكُ بإذن اللهِ تعالى عند حضورِ الموت، فلا يتعلَّق بها الأكل، ولا تختلط بالتُّراب، ولا يحصل منها نماءُ نباتٍ أو حَيَوان. وهو مجرَّد احتمالٍ لا دليلَ عليه، بل مخالفٌ لقوله سبحانه: (قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ المحشورَ أجزاءٌ رميمةٌ مخلوطةٌ بالتراب.

ويجوز أن تكونَ الأجزاءُ الأصليةُ هي الأجزاءَ الترابيةَ التي يَنثرها المَلَكُ في الرَّحم على المَنِيِّ كما ورد في الحديث الصَّحيح(١)، وهو لا ينثر تراباً واحداً مرَّتين.

ويُحشر البدنُ بعد الجمع على أكمل حالاتِه، كما يُشير إليه قولُه عليه الصلاة

---

(١) أخرج ابن جرير في تفسيره ٥/ ١٨٦-١٨٧ عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ: «. . .فيأتي الملك بتراب بين إصبعيه فيخلطه في المضغة. . .». وأورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٧١ باللفظ المذكور أعلاه. وقول المصنف: في الحديث الصحيح. فيه نظر.

والسلام: «يُحشر الناسُ حفاةً عراةً غُرْلاً»[١] ثم يزاد في أجساد أهلِ الجنة، فيكون أحدُهم كآدمَ عليه السلام طولاً وعرضاً. وكذا يزاد في أجساد أهلِ النار ـ خلافاً للمعتزلة ـ حتى إنَّ سِنَّ أحدِهم لتَكون كجبلِ أُحد. وجاء كلٌّ من الزِّيادتين في الحديث[٢]. فالمقطوعُ أو المجذوعُ مثلاً لا يُحشر إلَّا كاملاً كما كان قبل القطعِ أو الجذع، ومن خُلق في الدنيا بأربع أيدٍ مثلاً، يُحشر على ما هو المعتادُ المعروفُ في بني نوعِه، وكذا مَن خُلق بلا يدٍ أو رجلٍ مثلاً. والقولُ بأنَّه يلزم تعذيبُ جسدٍ لم يعصِ وتَركُ تعذيبِ جسدٍ عَصَى ناشىءٌ عن غفلةٍ عظيمة؛ إذ المعذَّب إنَّما هو الروح، وهو الذي عصى، ولا يُعقل العصيانُ والتعذيبُ لنفس الجسد، وحَرقُه بالنار ليس تعذيباً له نفسه، وإلَّا لَكان حرقُ الخشبِ تعذيباً له، بل هو وسيلةٌ إلى تعذيب الرُّوح، وهذا كما لو جُعل شخصٌ في صُندوق حديدٍ مثلاً ووُضع في النار، أو لُفَّ في ثوبٍ وضُرب بالسِّياط حتى تخرَّق الثوب، فالرُّوح بمنزلة هذا الشخص، والجسدُ بمنزلة الصُّندوقِ أو الثَّوب.

وعلى القول بأنَّ لكلِّ شيءٍ حياةً لائقةً به، لا يلزم التعذيبُ أيضاً؛ إذ ليس كلُّ حيٍّ تؤلمه النار، واعتُبر ذلك بالسَّمَند[٣] وبالنَّعامة، وكذا بخَزَنة جهنمَ وحيَّاتِها وعقاربِها، والعياذُ بالله عزَّ وجلَّ.

ومنهم مَن يقول: إنَّ البدنَ يعدم، لا أنَّه تتفرَّق أجزاؤه فقط ثم يُعاد للحشر بعينه.

ومنهم مَن يقول: يُعدم ثم يُخلق يومَ القيامةِ مثلُه، فتقوم فيه الرُّوحُ أو تتعلَّق به.

واستُدلَّ للقول الأوَّلِ بقوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ العظامَ لا تعدم ذواتُها في الخارج، ولا يكاد

(١) سلف عند تفسير الآية (٩٤) من سورة الأنعام.

(٢) سلف ٦/ ٨٨.

(٣) السمند أو السمندل: طائر يأكل البيش ـ وهو نبت بأرض الصين يؤكل وهو أخضر ـ ومن عجيب أمره استلذاذه بالنار ومكثه فيها. حياة الحيوان للدميري٢/ ٣٣.

يُفهَم من الرَّميم أكثرُ من تفرُّق الأجزاء، وكأنَّ المنكرين استبعدوا جمعَها، فأُشير إلى دفع استبعادِهم بأنَّ الإنشاء أبعدُ وقد وقع، ثم دُفع ما عسى يتوهَّم من أنَّ اختلاطَ الأجزاءِ بعد تفرُّقها وعودِها إلى عناصرها يوجب عدمَ تميُّزها فلا يتيسَّر جمعُها، بقوله سبحانه: (وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) ثم أُشير إلى دفع ما يتوهَّم من أنَّ الإنشاءَ كان تدريجياً نُقلت فيه الأجزاءُ من حالةٍ إلى حالةٍ حتى حصل استعدادُها للحياة ومناسبتُها للرُّوح، ولا كذلك ما يكون يومَ القيامة، فلا مناسبةَ بين الأجزاءِ التي تُجمع وبين الرُّوح والحياةِ، فلا يَلزمُ من صحَّة الإنشاءِ صحَّةُ الحشر، بقوله تعالى: (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا) وحيث كان هذا معروفاً بينهم يشاهده الكبيرُ والصغيرُ منهم، أَشار سبحانه إلى الدَّفع به، وإلَّا فإنشاؤه تعالى لما يكون بالتولُّد من الحيَوان كالفأرِ والذُّباب دافعٌ لذلك.

ومن الناس مَن زعم أنَّ ما يكون قُبيل الساعةِ من الزَّلازل وإنزال مطرٍ كمنيِّ الرِّجال ونحوِ ذلك لتحصيل استعدادٍ للرُّوح في تلك الأجزاء. وهو ممَّا لا يُحتاج إلى التزامه. وكذا استدلَّ لذلك القولِ بما أَرشد إليه إبراهيمُ عليه السلام حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠] وبقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة:٣-٤] إلى غير ذلك من الآيات، وفي الأخبار ما يقتضيه أيضاً.

واستُدلَّ لدعوى أنَّ البدنَ يعدم ذاتاً في القول الثاني بقوله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] وقولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦] ورُدَّ بأنَّه يجوز أن يكونَ التفرقُ هلاكاً، بل قال بعضُ المحقِّقين: إنَّ معنى الآية: كلُّ شيءٍ ليس بموجودٍ في الحال في حدِّ نفسِه إلَّا ذاتَ الواجبِ تعالى، بناءً على أنَّ وجودَ الممكنِ مستفادٌ من الغير، فلا وجودَ فيه مع قطع النظرِ عن الغير، بخلاف وجودِ الواجبِ تعالى، فإنَّه من ذاته سبحانه، بل عينُ ذاتِه. ويقال نظيرُ ذلك في الآية الثانيةِ لو سُلِّم دخولُ البدنِ في عمومِ «مَن».

واستُدلَّ لدعوى أنَّه يُخلق يومَ القيامةِ مثلُه في القول الثالثِ بقوله تعالى: (أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ) وأُجيب بأنَّ المرادَ مِثلُهم

في الصِّغَر والقَمْأةِ على ما سمعتَ فيما تقدَّم، ولا يراد أنَّه تعالى قادرٌ على أن يخلقَ يومَ القيامةِ مثلَ أبدانِهم التي كانت في الدنيا ويُعيدَ أرواحَهم إليها؛ إذ لا يكاد يُفهَم هذا من الآية.

ولا داعيَ لالتزام القولِ بأنَّ الحشرَ بخلق مثلِ البدنِ السابقِ وإنْ قيل بأنَّ ذلك البدنَ تعدم ذاتُه في الخارج. ومن الناس مَن توهَّم وجوبَ التزامِه إنْ قيل بذلك؛ لاستحالة إِعادةِ المعدوم.

واستدلَّ على الاستحالة بأنَّه لو أُعيد، لزم تخلُّلُ العدمِ بين الشيءِ ونفسِه، وهو محال.

ورُدَّ بناءً على أنَّ الوقتَ ليس من المشخَّصات المعتبرةِ في الوجود بأنَّا لا نسلِّم أنَّ التخلُّل ها هنا محال؛ لأنَّ معناه أنَّه كان موجوداً زماناً ثم زال عنه الوجودُ في زمانٍ آخَر، ثم اتَّصف بالوجود في الزمان الثالث، وهو في الحقيقة تخلُّل العدمِ وقطعُ الاتصالِ بين زمانَي الوجود، ولا استحالةَ فيه؛ لوجود الطَّرفين المتغايرين بالذَّات، إنَّما المحالُ تخلُّلُ العدمِ بين ذات الشيءِ ونفسِه بمعنى قطعِ الاتِّصال بين الشيءِ ونفسِه، بأن يكونَ الشيءُ موجوداً ولم يكن نفسُه موجوداً ثم يوجد نفسُه، وها هنا ليس كذلك، فإنَّ الشيءَ وجد مع نفسه في الزمان الأوَّل، ثم اتَّصف مع نفسه بالعدم في الزمان الآخَر، ثم اتَّصف بالوجود مع نفسِه في الزمانِ الثالث، فلم يتحقَّق قطعُ الاتصالِ بين الشيءِ ونفسِه في زمانٍ من الأزمنة، وهل هذا إلَّا كلُبس شخصٍ ثوباً معيَّناً ثم خلعِه ثم لُبسِه؟!

واستدلَّ أيضاً بأنَّه لو جاز إِعادةُ المعدومِ بعينه، لَجاز إِعادته مع مثلِه من كلِّ وجه، واللازمُ باطل؛ لأنَّ المتماثلين إمَّا أن يكونَ أحدُهما معاداً دون الآخَر، وذلك باطلٌ مستلزمٌ للتحكُّم والترجيح بلا مرجِّح، وإمَّا أن يكونا معادين، وهو أيضاً باطلٌ مستلزمٌ لاتِّحاد الاثنين، وإمَّا ألَّا يكونَ شيءٌ منهما معاداً، وهو أيضاً باطلٌ مستلزمٌ خلافَ المفروض، إذ قد فُرض كونُ أحدِهما معاداً، وفيه أنَّه لا يتمُّ إلَّا بإثبات فقدان الذاتِ وبطلانِ الهُويةِ فيما بين الوجودَين السابقِ واللاحق؛ فإنَّه مدارُ لزومِ التحكُّم.

ويجوز أن يقال: الشيءُ إذا عدم في الخارج، بقي في نفس الأمرِ بحسب وجودِه الذِّهني، فيحفظ وحدتَه الشخصيةَ بحسَب ذلك الوجود، كما لو كان متميِّزاً ثابتاً في العدم ثبوتاً منفكّاً عن الوجود الخارجيّ، كما ذهب إليه المعتزلةُ وموافقوهم، وزعم أنَّ وحدتَه الشخصيةَ غيرُ محفوظةٍ في الذِّهن؛ إذ لا وحدة بدون الوجود، ولا وجودَ بدون التشخُّص، سواءٌ كان وجوداً خارجيّاً أو ذهنيّاً، والهويةُ الذهنيةُ إنَّما تكون موجودةً في الذِّهن بمشخَّصاتها الذِّهنية، وهي بتلك المشخَّصات ليست هويةً خارجية، وإلَّا لزم اتِّصافُ الهويةِ الخارجيةِ بالعوارض المختصَّةِ بالوجود الذهنيّ، وهو ضروريُّ البطلان، بل بشرط تجريدِها عنها، وقولُهم باتِّحادها معها بمعنى أنَّها بعد التجريدِ عينُها فليست إيَّاها مطلقاً بالفعل = يتَّجه عليه أنَّه ليس معنى تجريدِ الهويَّة عن مشخَّصاتها جعلَها خاليةً عنها في الواقع، بل معناه قطعُ النظرِ عنها وعدمُ اعتبارها، ولا يلزم من عدم اعتبارِها اعتبارُ عدمِها، فضلاً عن عدمها في الواقع، وقطعُ النظرِ لا يمنع من الاتِّحاد في الواقع.

والقولُ بأنَّ قولنا: هذا معاد، وهذا مبدأ قضيةٍ شخصيةٍ خارجيةٍ يتوقَّف صدقُها على وجود الموضوعِ في الخارج، لا ذهنيةٌ يكفي في صدقها وجودُ الموضوعِ في الذِّهن فقط، فلا بدَّ من انحفاظ الوحدةِ في الخارج ولا يكفي انحفاظُها في الذِّهن = يتَّجه عليه أنَّ صدقَ الحكمِ الذهنيِّ كافٍ في اندفاع التحكُّم، فتدبَّر.

وقيل: كما أنَّ المعدومَ موجودٌ في الذِّهن، كذلك المبتدأُ المفروضُ موجودٌ فيه أيضاً، فليست نسبةُ الموجودِ الثاني إلى المعدوم السابقِ أولى من نسبته إلى المبتدأ المفروض.

وتعقِّب بأنَّ فيه بحثاً، أمَّا على مذهب الفلاسفة؛ فلأنَّ صورةَ المعدومِ السابقِ مرتسمةٌ في القُوى المنطبعةِ للأفلاك عندهم، بناءً على أنَّ صورَ جميعِ الحوادثِ الجسمانيةِ منطبعةٌ فيها بزعمهم، فله صورةٌ خياليةٌ جزئيةٌ محفوظةُ الوحدةِ الشخصيةِ بعد عدمِه، بخلاف المستأنف، فإنَّه ليس له تلك الصورةُ قبل وجودِه بصورته الجزئيَّة، فإذا وجد بتلك الصورةِ الجزئيةِ كان معاداً، وإذا وجد بالصُّورة الكلِّيةِ كان مستأنفاً.

وأمَّا على مذهب الأشاعرةِ من المتكلِّمين؛ فلأنَّ للمعدوم أيضاً صورةً جزئيةً حاصلةً بتعلُّق صفةِ البصرِ من الموجد تعالى شأنُه، وليس تلك الصورةُ للمستأنف وجودُه؛ فإنَّها وإن كانت جزئيةً حقيقيةً أيضاً، إلَّا أنَّها لم تترتَّب على تعلُّق صفةِ البصر، ولاشكَّ أنَّ المترتِّب على تعلُّق صفةِ البصر أكملُ من غير المترتِّب عليه، فبين الصُّورتين تمايزٌ واضح، وإذا انحفظ وحدةُ الموجودِ الخارجيِّ بالصورة الجزئيةِ الخياليةِ لنا، فانحفاظُها بالصُّورة الجزئيةِ الحاصلةِ له سبحانه بواسطة تعلُّقِ البصرِ بالطريق الأولى. والقولُ بأنَّ نسبةَ الصورةِ الخياليةِ وما هو بمنزلتها إلى كلٍّ من المعاد والمستأنفِ سواءٌ أيضاً، فتكون الوحدةُ المحفوظةُ نوعيةً لا شخصية = يلزم عليه ألَّا تكونَ الصورةُ الخياليةُ جزئية، بل كلِّيَّة، وهو خلافُ ما صرَّحوا.

واستدلَّ أيضاً بأنَّه لو جاز إعادةُ المعدومِ بعينه، لمَا حصل القطعُ بحدوث شيء؛ إذ يجوز أن يكونَ لكلِّ ما نعتقده حادثاً وجودٌ سابقٌ يعدم تارةً ويعاد أخرى، واللازمُ باطلٌ باتِّفاق العقلاء.

وتعقِّب بأنَّ التجويزَ العقليَّ لا يُنكَر، إلَّا أنَّ الأصلَ عدمُ الوجودِ السابق، وبه يحصل نوعٌ من العلم، ولعلَّ ذلك من قَبيل عِلمِنا بأنَّ جبلَ أُحدٍ لا ينقلب ذهباً مع تجويز العقلِ انقلابَه، وبالجملة أدلَّةُ استحالةِ إعادةِ المعدومِ غيرُ سليمةٍ من القوادح، كما لا يخفى على مَن راجع المطوَّلاتِ من كتب الكلام، وقد أُشير فيما تقدَّم من الآيات إلى دفع شبهةِ عدمِ انحفاظ الوحدةِ الشخصيةِ بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

والذي يترجَّح من هذه المذاهبِ أنَّ الحشرَ بجمع الأجزاءِ الأصليةِ الباقيةِ من أوَّل العُمرِ إلى آخره، وهي إما أجزاءٌ عنصريةٌ أكثرُها ترجع إلى التُّراب وتختلط به كما تختلط سائرُ الأجزاءِ بعناصرها، أو أجزاءٌ ترابيةٌ فقط على ما سمعتَ فيما تقدَّم غيرَ بعيد، وهذا هو الذي ينبغي أن يعوَّلَ عليه؛ إذ حديثُ العناصرِ الأربعةِ وتركُّبُ البدنِ منها ـ لاسيَّما حديثُ عنصرِ النارِ ـ لم يصحَّ فيه شيءٌ من الشارع ﷺ، ولم يُذكَر في كتب السَّلف، بل هو شيءٌ ولع فيه الفلاسفة، على أنَّ أصحابَ الفلسفةِ الجديدةِ نسمعهم ينكرون كرةَ النارِ التي قال بها المتقدِّمون، فالأجزاءُ الأصليةُ بعد

أن تتفرَّقَ وتصيرَ تراباً يجمعها اللهُ تعالى حيث كانت، وهو سبحانه بها عليم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وهذا إن ضُمَّ إليه القولُ بإعادة الصورة، التي هي جزءٌ جوهريٌّ من الجسم عند القائلين بتركُّبه منها ومن الهَيُولى، أو العوارضِ المختصَّةِ بالأنواع، التي هي جزءٌ من أفراد النَّوع، كالصُّورة النوعيةِ الجوهريَّة، كما هو مذهبُ النافين لتركُّب الجسمِ من الهَيُولى والصورةِ من المتكلِّمين = يتوقَّف القولُ به على جواز إعادةِ المعدوم.

وإذا لم يضمَّ إليه ذلك، بل اكتُفي بالقول بجمع الأجزاءِ الأصليةِ العنصرية، وتشكيلها بشكلٍ مثل الشكلِ الأول، وتحليتِها بعوارضَ مشابهةٍ للعوارض السابقة = لم يتوقَّف القولُ به على ذلك أصلاً، والمغايرةُ في الشكل وعدمُ اتِّحاد العوارضِ بالذات مما لا يضرُّ في كون المحشورِ هو المبدأ شرعاً وعرفاً، ولا يَلزم على ذلك التناسخُ المصطلحُ كما لا يخفى.

وفي «أبكار الأفكار»(١) للآمديِّ بعد التفصيلِ المشبَع بذكر الآياتِ والأحاديثِ الدالَّة على وقوع المعادِ الجسمانيّ: والأدلَّةُ السمعيةُ في ذلك لا يحويها كتاب، ولا يَحصرها خطاب، وكلُّها ظاهرةٌ في الدَّلالة على حشر الأجسادِ ونشرها، مع إمكان ذلك في نفسه، فلا يجوز تركُها من غير دليل، لكن هل الإعادةُ للأجسام بإيجادها بعد عدمِها، أو بتأليف أجزائها بعد تفرُّقها؟ فقد اختلف فيه، والحقُّ إمكانُ كلٍّ واحدٍ من الأمرين، والسمعُ موجبٌ لأحدهما من غير تعيين.

وبتقدير أن تكونَ الإعادةُ للأجسام بتأليف أجزائها بعد تفرُّقها، فهل تجب إعادةُ عينِ ما تقضَّى ومضى من التأليفات في الدنيا، أو أنَّ اللهَ تعالى يجوز أن يؤلِّفَها بتأليفٍ آخَر؟ فذهب أبو هاشمٍ إلى المنع من إعادتها بتأليفٍ آخَر، مصيراً منه إلى أنَّ جواهرَ الأشخاصِ متماثلة، وإنما يتميَّز كلُّ واحدٍ من الأجزاءِ بتعيينه وتأليفِه الخاصّ، فإذا لم يَعُد ذلك التأليفُ الخاصُّ به، فذلك الشخصُ لا يكون هو العائدَ بل غيرَه، وهو مخالفٌ حينئذٍ لما ورد به السمعُ من حشر أجسادِ الناسِ على

(١) ٤/ ٢٦٧.

صورهم، ومذهبُ مَن عداه من أهل الحقِّ أنَّ كلَّ واحدٍ من الأمرين جائزٌ عقلاً، ولا دليلَ على التعيين من سمعٍ وغيرِه، وما قيل من أنَّ تعيُّن كلِّ شخصٍ إنَّما هو بخصوص تأليفِه غيرُ مسلَّم، بل جاز أن يكونَ بلونه أو بعضٍ آخَرَ مع التأليف. ومذهبُ أبي هاشمٍ أنَّه لا تجب إعادةُ غيرِ التأليف من الأعراض، فما هو جوابُه عن غير التأليفِ فهو جوابٌ لنا في التأليف، وما ورد من حشر الناسِ على صورهم ليس فيه ما يدلُّ على إعادة عينِ ما تقضَّى من التأليف، ولا مانعَ أن تكونَ الإعادةُ بمثل ذلك التأليفِ لا عينِه. اهـ.

وزعم الإمامُ إجماعَ المسلمين على المعاد بجمع الأجزاءِ بعد افتراقِها، وليس بذاك؛ لمَا سمعتَ من الخلاف في كيفيَّته، وهو مذكورٌ في «المواقف»(١) وغيرِه.

ومسألةُ إعادةِ الأعراضِ أكثرُ خلافاً من مسألة إعادة الجواهر، فذهب معظمُ أهلِ الحقِّ إلى جواز إعادتها مطلقاً، حتى إنَّ منهم مَن جوَّز إعادتَها في غير محالِّها. والمعتزلةُ اتفقوا على جواز إعادة ما كان منها ـ على أُصولهم ـ باقياً غيرَ متولِّد، واختلفوا في جواز إعادة ما لا بقاءَ له، كالحرارة والأصواتِ والإرادات، فذهب الأكثرون منهم إلى المنع من إعادتها، وجوَّزها الأقلُّون كالبلخيِّ وغيرِه.

وذهب إلى عدم جواز إعادة المعدومِ مطلقاً من المسلمين أبو الحسن البصريُّ وبعضُ الكرَّامية. ومن الناس مَن خصَّ المنعَ فيما عدم ذاتاً ووجوداً، وجوَّز فيما عدم وجوداً.

وإلى القول بالمعاد الجسمانيِّ ذهب اليهودُ والنصارى، على ما نصَّ عليه الدَّوانيُّ، لكن ذكر الإمامُ في «المحصَّل»(٢) أنَّ سائرَ الأنبياءِ سوى نبيِّنا ﷺ لم يقولوا إلَّا بالمعاد الرُّوحاني.

وقال المحقِّق الطوسيُّ في تلخيصه: أما الأنبياءُ المتقدِّمون على نبيِّنا ﷺ، فالظاهرُ من كلام أممِهم أنَّ موسى عليه السلام لم يذكر المعادَ البدنيَّ، ولا أُنزل

(١) ٨/ ٢٨٩ (شرح المواقف لعلي بن محمد الجرجاني).
(٢) واسمه: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين. كشف الظنون ٢/ ١٦١٤.

عليه في التوراة، لكن جاء ذلك في كتب الأنبياءِ الذين جاؤوا بعدَه، كحزقيل وشعيا عليهما السلام؛ ولذا أقرَّ اليهودُ به.

وأمَّا الإنجيل، فالأظهرُ أنَّ المذكورَ فيه المعادُ الرُّوحاني، وهو مخالفٌ لما سمعتَ عن الإمام، ويخالفهما ما قاله حجَّةُ الإسلام الغزاليُّ في كتابه الموسومِ بـ «المضنون به على غيرِ أهلِه»(١) من أنَّ في التوراة أنَّ أهل الجنةِ يمكثون في النعيم خمسةَ عشرَ ألفَ سنةٍ ثم يصيرون ملائكة، وأنَّ أهلَ النارِ يمكثون بها كذا وأزيدَ ثم يصيرون شياطين، فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ موسى عليه السلام ذكر المعادَ الجسمانيَّ ونزل عليه في التَّوراة.

والحقُّ أنَّ الأناجيلَ مملوءةٌ مما يدلُّ ظاهراً على أنَّ الإنسانَ يُحشَر نفساً وجسماً، وأمَّا التوراة، فليس ما ذُكر فيها على سبيل التَّصريح، على ما نقل لي بعضُ المطَّلعين من مسلمي أهلِ الكتابِ على ذلك.

وأنكره الفلاسفةُ الإلهيُّون، وقالوا بالمعاد الروحانيِّ فقط. وهذا الإنكارُ مبنيٌّ إمَّا على زعم استحالةِ إعادةِ المعدوم، وفيه ما فيه، أو على استحالة عدمِ تناهي الأبعاد، فإنَّ منهم مَن قال: الإنسانُ قديمٌ بالنوع، والنفوسُ الناطقةُ غيرُ متناهيةٍ كالأبدان، فلو قيل بالحشر الجسمانيّ، يلزم اجتماعُ الأبدانِ الغير المتناهيةِ في الوجود؛ إذ لا بدَّ لكلِّ نفسٍ من بدنٍ مستقلّ، فيلزم بُعدٌ غيرُ متناهٍ لتجتمعَ فيه تلك الأبدانُ الغيرُ المتناهية. وقال بعضُهم: إنَّ الإنسانَ أفرادُه غيرُ متناهية، والعناصرُ متناهية، فأجزاؤها لا تفي بتلك الأبدان، فكيف تُحشَر؟ وتعقَّب بأنَّ القِدَم النوعيَّ للإنسان وعدمَ التناهي لأفراده مما لا يتمُّ لهم عليه برهان.

وقال ابنُ الكمال: بناءُ استحالةِ الحشرِ الجسمانيِّ على استحالة عدمِ تناهي الأبعادِ وهمٌ سبق إليه وهمُ بعضِ أجِلَّة الناظرين، وليس الأمرُ كما توهّم، فإنَّ حشرَ الأجسادِ اللازمَ على تقدير وقوعِ المعادِ الجسمانيِّ هو حشرُ المكلَّفين من المطيع المستحقِّ للثواب والعاصي المستحقِّ للعقاب، لا حشرُ جميعِ أفرادِ البشرِ مكلَّفاً

---

(١) ص ١٠٨ (مجموعة رسائله ج٤).

كان أو غيرَه، فإنَّه ليس من ضروريَّات الدِّين؛ لأنَّ الأخبارَ فيه لم تصل إلى حدِّ التواتر، ولم ينعقدْ عليه الإجماع، وقد نبَّه عليه المحقِّق الطوسيُّ في «التجريد» حيث قال: والسمعُ دلَّ عليه، ويتأوَّل في المكلَّف بالتفريق.

وقال الشارح: يعني لا إشكالَ في غير المكلَّفين، فإنَّه يجوز أن ينعدمَ بالكلِّية ولا يعاد، وأمَّا بالنسبة إلى المكلَّفين، فإنَّه يتأوَّل العدم بتفريق الأجزاء.

وفي «تلخيص المحصَّل» أيضاً حيث قال[1]: وقال القائلون بإمكان إعادةِ المعدومِ: إنَّ الله تعالى يُعدم المكلَّفين ثم يُعيدهم.

ونبَّه على ذلك أيضاً الآمديُّ في «أبكار الأفكار»[2] حيث قرَّر الخلافَ في إعادة المكلَّف، ولا خفاءَ في أنَّ عدمَ تناهي جميعِ أفرادِ البشر لا يستلزم عدمَ تناهي المكلَّفين منهم ليحتاجَ أمرُ حشرِهم إلى الأبعاد الغيرِ المتناهية. اهـ.

والحقُّ الطعنُ في قولهم بالقِدَم النوعيِّ وعدمِ تناهي أفرادِ الإنسان، وبرهانُ التطبيقِ متكفِّل عندنا بإبطال الغيرِ المتناهي، اجتمعت أجزاؤه في الوجود أم لم تجتمع، ترتَّبت أم لم تترتَّب. وأما قصرُ الحشرِ على المكلَّفين دون غيرِهم من المجانينِ والصِّغار والذين لم تبلغْهم الدعوةُ ونحوِهم، فليس بشيءٍ، والأخبارُ في ذلك كثيرة، ولعلها من قبيل المتواترِ المعنويّ، على أنَّها لو لم تكن كذلك، لاداعيَ إلى عدم اعتبارِها والقولِ بخلاف ما تدُّل عليه كما لا يخفى.

وذهب القدماءُ من الفلاسفة الطبيعيين إلى عدم ثبوتِ شيءٍ من الحشر الجسمانيِّ والحشرِ الرُّوحاني، ويُحكَى ذلك عن التناسخيةِ ماعدا اليهود، والتناسخُ عندهم غيرُ مستمرّ، بل يقع للنفس الواحدةِ ثلاثَ مراتٍ على ما قيل.

وحُكي عن جالينوس التوقُّفُ في أمر الحشر، فإنَّه قال: لم يتبيَّن لي أنَّ النفسَ هل هي المزاجُ الذي ينعدم عند الموتِ فيستحيل إعادتُها، أو هي جوهرٌ باقٍ بعد فسادِ البنيةِ فيُمكن المعاد؟

---

(١) يعني الطوسي، والمحصل للرازي كما سلف قريباً.

(٢) انظر ٤/ ٢٦٧.

والمشركون في شكٍّ منه مريب؛ ولذا ترى كلامَهم مضطرباً فيه، والمسلمون مُجمِعون على وقوعه، إلَّا أنَّهم مختلفون كما سمعتَ في كيفيَّته، وكذا هم مختلفون في وجوبه سمعاً أو عقلاً، فأهلُ السنَّةِ على وجوبه سمعاً مطلقاً، والمعتزلةُ على أنَّه للمكلَّفين واجبٌ عقلاً؛ لوجوب الثوابِ على الطاعة والعقابِ على المعصيةِ عندهم، وكلٌّ من الأمرين يتوقَّف على الحشر. وفيه نظر، واللهُ تعالى أعلم.

وقد اشتملت هذه السورةُ الكريمةُ على تقرير مطالبَ عَليَّة، وتضمَّنت أدلةً جليلةً جلية، ألا ترى أنَّه تعالى أقسم على كونه ﷺ أكملَ الرُّسل، وأنَّ طريقَه أوضحُ السُّبل، وأشار سبحانه إلى أنَّ المقصودَ ما ذُكر بقوله تعالى: «لتنذر...» إلخ، ثم بيَّنه إجمالاً أنَّه اتِّباعُ الذِّكر وخشيةُ الرحمنِ بالغيب، وتمَّمه بضرب المثل، مدمجاً فيه التحريضَ على التمسُّك بحبل الكتابِ والمنزلِ عليه، وتفضيلَهما على الكتب والرُّسل، والتنبيهَ عليه ثانياً بأنَّه عبادةُ مَن إليه الرُّجعى وحده.

ثم أخذ في بيان المقدِّمات بذكرِ الآيات، وأُوثر منها الواضحات، الدالَّةُ على العلم والقدرةِ والحكمةِ والرحمة، وضمَّن فيه أنَّ العبادةَ شكرُ المنعم، وتلقِّي النعمةِ بالصَّرف في رضاه، والحذرِ من الرُّكون إلى مَن سواه، ثم في بيان المتمِّم بذكر الوعدِ والوعيدِ بما يُنال في المعاد، وأُدرج فيه حديثُ مَن سلك ومَن ترك، وذكر غايتهما، ولخَّص فيه أنَّ الصراطَ المستقيمَ هو عبادةُ اللهِ تعالى بالإخلاص عن شائبتَي الهوى والرِّياء، حيث قدَّم على الأمر بعبادته تعالى التجنُّب عن عبادةِ الشيطان، وضمَّن فيه أنَّ أساسَها التوحيد، وكما أنَّه ذكر الآيات لئلَّا يكونَ الكلامُ خطابيّاً في المقدِّمات، ختم بالبرهان على الإعادة؛ ليكونَ على منواله في المتمِّمات.

وجَعَلَ سبحانه ختامَ الخاتمةِ أنَّه عزَّ وجلَّ لا يتعاظمه شيءٌ، ولا ينقص خزائنَه عطاء، وأنَّه لا يخرج عن مَلَكته مَن قرَّبه قبولٌ أو بعَّده إباء، تحقيقاً لكلِّ ما سلف على الوجه الأتمّ. ولمَّا كان كلاماً صادراً عن مقام العظمةِ والجلال، وجب أن يُراعَى فيه نكتةُ الالتفاتِ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ليكونَ إجمالاً لتوضيح

التفصيل. كذا قرَّره صاحبُ «الكشف»، واللهُ تعالى يقول الحقَّ وهو يَهدي السَّبيل.

* * *

ومن باب الإشارة، قيل: إنَّ قولَه سبحانه: ﴿يسٓ﴾ إشارةٌ إلى سيادته عليه الصلاة والسلام على جميع المخلوقات، فالسيِّد: المتولِّي للسَّواد، أي: الجماعةِ الكثيرة، وهي ها هنا جميعُ الخلق، فكأنَّه قيل: يا سيِّدَ الخلق. وتوليتُه عليه الصلاة والسلام عليهم لأنَّه الواسطةُ العظمَى في الإفاضة والإمداد، وفي الخبر: «اللهُ تعالى المعطي وأنا القاسم»[1]، فمنزلتُه ﷺ من العالَم بأسره بمنزلة القلبِ من البدن، فما ألطفَ افتتاحَ قلبِ القرآنِ بقلب الأكوان.

وفي السِّين بيِّناتها وزبرها أسرارٌ لا تُحصى، وكذا في مجموعِ ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ﴾ قد يكون إشارةً إليه ﷺ، فقد ذكر الصوفيةُ أنَّه يشار به إلى الإنسان الكامل، وكذا الكتابُ المبين، وعلى ذلك جاءَ قولُ الشيخِ الأكبرِ قدِّس سرُّه:

أنا القرآنُ والسبعُ المثاني وروحُ الروحِ لا روحُ الأواني

ولا أحدَ أكملُ من النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

وطبَّق بعضُهم قصةَ أهلِ أنطاكيةَ على ما في الأنفس بجعل القريةِ إشارةً إلى القلب، وأصحابِها إشارةً إلى النفس وصفاتِها، والاثنين إشارةً إلى الخاطر الرحمانيِّ والإلهام الربَّاني، والثالثِ المعزَّز به إشارةً إلى الجذبة، والرجلِ الجائي من أقصى المدينةِ إشارةً إلى الرُّوح. وطبَّق كثيراً من آيات هذه السورةِ على هذا الطرز.

وقيل في قولِه سبحانه: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾: إنَّه إشارةٌ إلى استعدادهم السيِّئِ الذي طار بهم عنقاءُ مُغْرِبة إلى حيث ألقت رحلَها أمُّ قَشعمِ[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧) (١٠٠)، وسلف ١٧/ ٢٢٠.

(٢) شطر بيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٢٢، وسلف ١٣/ ٥٢٠.

وقيل في ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾: إنَّه إشارةٌ إلى طائفةٍ من المؤمنين كان الغالبُ عليهم في الدنيا طلبَ الجنةِ ولذا أُضيفوا إليها، وهم دون أهلِ اللهِ تعالى وخاصَّته الذين لم يلتفتوا إلى شيءٍ سواه عزَّ وجلَّ، فأولئك مشغولون بلذائذِ ما طلبوه، وهؤلاء جلساءُ الحضرة، المشغولون بمولاهم جلَّ شأنُه، المتنعِّمون بوِصاله ومشاهدةِ جماله، وفرقٌ بين الحالين، وشتَّانَ ما بين الفريقين؛ ولذا قيل: أكثرُ أهلِ الجنَّة البُله، فافهم الإشارة.

والشيطانُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ إشارةٌ إلى كلِّ ما يطاع ويذلُّ له غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ كائناً ما كان، وعداوتِه؛ لمَا أنَّه سببُ الحجاب عن ربِّ الأرباب.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا ينبغي الاكتراثُ بأذى الأعداءِ والالتفاتُ إليه؛ فإنَّ اللهَ تعالى سيجازيهم عليه إذا أوقفهم بين يديه.

هذا، ونسألُ اللهَ تعالى أن يحفظَنا من شرِّ الأشرار، وأن ينوِّرَ قلوبَنا بمعرفته كما نوَّر قلوبَ عبادِه الأبرار، ونصلِّي ونسلِّم على حبيبه قلبِ جسدِ الأعيان، وعلى آله وصحبه مادامت سورةُ يس قلبَ القرآن.

انتهى بعون الله تعالى الجزء الثاني والعشرون من روح المعاني

ويليه إن شاء الله الجزء الثالث والعشرون ويبدأ

بسورة الصافات